التفسير الكبير

تفسير القرآن العظيم

للإمام الطبراني

تحقيق
هشام البدراني

دار الكتاب الثقافي
الأردن

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإمَامِ الْحَافِظِ العَلاّمَةِ أبي الْقَاسِمِ
سُلَيمَانِ بْنِ أحْمَدَ بنِ أيُّوبَ الطَّبَرَانِيِّ
(٢٦٠-٣٦٠) مِن الهجْرَةِ

ضَبَطَهُ عَلَى أصْلِهِ وَخَرَّجَ أحَادِيثَهُ وعَلَّقَ عَلَيهِ
هِشَامُ بْنُ عَبدِالكَرِيمِ البَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

المجلد الأول

دار الكتاب الثقافي
الأردن - إربد

بسم الله الرحمن الرحيم

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٨/١/٩٢)

٢٢٢
الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (٢٦٠-٣٦٠هـ)
التفسير الكبير: تفسير القرآن العظيم/ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)؛ تحقيق هشام عبدالكريم البدراني الموصلي.- إربد : دار الكتاب الثقافي ، ٢٠٠٨.
صدر على شكل ستة أجزاء
(...) ص.
ر.أ (٩٢ / ١ / ٢٠٠٨).
الواصفات:/ التفاسير//القرآن//القرآن الكريم/

• تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

ردمك ISBN 978-9957-492-02-1

دار الكتاب

دار الكتاب الثقافي
للطباعة والنشر والتوزيع
الأردن / إربد
شارع إيدون إشارة الإسكان
تلفون
(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٦١٦١٦)
فاكس
(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٥٠٣٤٧)
ص.ب (٦٢٠٣٤٧-٢١١)

Dar- AlKitab
PUBLISHERS
Irbid - Jordan
Tel:
(00962-2-7261616)
Fax:
(00962-2-7250347)
P. O. Box: (211-620347)
E-mail:
Dar_ Alkitab1@hotmail.Com

دار المتنبي

دار المتنبي للنشر والتوزيع
الأردن – إربد – تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اسْتِهْلاَلٌ

إن الْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِيْنَ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِيْنُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ. وَأشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ، وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

وبعدُ: فإنه لا يخفَى أنَّ علمَ التفسيرِ من أجلِّ العلومِ وأسمَى المعارفِ، فهو أحدُ العلوم الشرعيَّة الثلاثة التي أوجبَها الشارعُ الحكيم على جماعةِ المسلمين، وجعلَ تعلُّمها من فروضِ الكفاية، والسَّعيَ لها من السُّنن المندوباتِ حين تتوفرُ الأهلية في الجماعةِ.

ولقد قطعتِ الأمةُ الإسلامية شَوطاً بعيداً في إنجاز هذه المهمَّات على مَدَار الأزمان وتغيُّرِ الأحوال، فوُجد من العُلماءِ الأجِلاَّء مَن قام بهذه المهمَّة على امتدادِ العقود من القُرون الماضيةِ، في مجال الحديث والفقه والتفسير، فأدى المهمة، ونفع الأمة بمعالجة مختلف الأحوال والمشكلات. ومنهم إمامُنا الطبرانيُّ الكبيرُ في مجال الحديثِ والتفسيرِ.

وإذ نقدمُ هذا التحقيقَ للتفسيرِ الكبير للإمام الطبرانيِّ (تفسيرُ القرآن العظيم) فإننا نقدمُ مثالاً لِجُهدِ عالِم في حُقبة من تاريخِ الأمة؛ لِيُنتَفعَ من علمهِ، ويُفَادَ من ممارستهِ، وتنضجَ الخبرةُ في جيلنا وتزدادُ الهِمَّةُ من تلك الخبرةِ والعَزيمَةُ. فلكلِّ زمانٍ رجالٌ يتواصلون مع مَن سبَقهم؛ لينضِجُوا خبراتِهم إلى مَن يلحقُ بهم.

نسألُ اللهَ عزَّوجَلَّ أن ينفعَ بجهدِ عالِمنا الكبيرِ الإمام الطبرانيِّ رَحِمَهُ اللهُ، وأنْ ينفعَ بما قدَّمناهُ في التحقيقِ والتدقيق والتعليقِ، وما حاولناهُ بالضَّبطِ والتنسيقِ؛ لإخراج هذا الكتابِ على أتَمِّ وجْهٍ وأبهَى صورةٍ.

فقُمنا بكتابةِ مقدِّمة له (مُقَدِّمَةٌ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ) أعددناها مِن قراءَاتنا؛ وجمعناها من جهودِ عُلمائِنا، ونسَّقناها بالصُّورة التي ستَقرَؤُها أيها الفاضلُ طالبُ العلمِ العاملُ به إنْ شاءَ اللهُ.

ثم أتبَعنا ذلك بتحقيقِ نسبة الكتابِ إلى مؤلِّفه، ومن ثَمَّ ترجمةٌ موجزة للمصنفِ رَحِمَهُ اللهُ. ثم أعقَبنا ذلك بإيجاز منهج عمَلِنا في التحقيقِ. ثم كتَبنا ترجمةً للمحقِّق، ونسألُ اللهَ عزَّ وجَلَّ الإنصافَ لأهلِ العلم وطلبتهِ. فما كان فيه من إصابةٍ فهو من اللهِ، وما كان فيه من قُصورٍ أو تقصيرٍ، فذاكَ من نفسِي، ونسألُكَ أخِي المسلم الدعاءَ.

وصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِينَ.

الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إلَى رَبِّهِ الْغَنِيُّ بهِ:

هِشَامُ بنُ عَبْدِالكَرِيمِ بنِ صَالِحِ البَدْرَانِيُّ

الحُسَيْنِيُّ المَوْصِلِيُّ

١ / مُحرم / ١٤٢٧ من الهجرة

٣١/كانون الثاني/٢٠٠٦ ميلادية

مُقَدِّمَةٌ

فِي

عِلْمِ أُصُولِ التَّفْسِيرِ

إعْدَادُ الْمُحَقِّقِ

هِشَامُ الْبَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

مُقَدِّمَةٌ فِي عِلْمِ أُصُولِ التَّفْسِيرِ

مَفْهُومُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

القُرْآنُ في الأَصْلِ مَصْدَرُ قَرَأَ؛ يَقْرَأُ؛ وقُرْآناً؛ وَقَرَأَ: جَمَعَ، وقِرَاءَةً: ضَمُّ الْحُرُوفِ وَالكَلِمَاتِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ فِي التَّرْتِيلِ؛ وَلَيْسَ يُقَالُ ذَلِكَ لِكُلِّ جَمْعٍ، فَلاَ يُقَالُ قَرَأْتُ القَوْمَ إِذَا جَمَعْتُهُمْ، وَلَقَدْ خصَّ القُرْآنُ بالكِتَابِ المُنَزَّلِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَصَارَ كَالعَلَمِ بالنِسبَةِ لَهُ. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إِذَا جَمَعْنَاهُ وَأَثْبَتْنَاهُ فِي صَدْرِكَ فَاعْمَلْ بِهِ.

والقرآنُ الكريمُ: هُوَ الكِتَابُ المُنَزَّلُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَبيِّ الرَّسُول ﷺ وَحْياً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِلِسَانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ، وَالَّذِي نَقَلَهُ إِلَيْنَا بَيْنَ دَفَّتَي المُصْحَفِ خَلَفٌ عَنْ سَلَفٍ عُدُولٌ ثِقَاتٌ يَمْنَعُ جَمْعُهُمْ وَكَثْرَتُهُمْ وَحَالُهُمْ تَوَاطُأَهُمْ عَلَى كَذِبٍ أو اخْتِلاَفٍ، فقَدْ نُقِلَ نَقْلاً مُتَوَاتِراً بالتِلاَوَةِ وَالكِتَابَةِ، بالشِّفَاهِ وَالأَقْلاَمِ، مَحْفُوظاً بالسُّطُور وَالصُّدُور، بالسَّمَاعِ وَالرَّسْمِ المَخْطُوطِ المَوْقُوفِ؛ فَأَخَذَتْهُ الآذَانُ سَمَاعاً وروايَةً، وَتَلَقَّتْهُ الأَذْهَانُ وَعْياً وَحِفْظاً وَنَطَقَتْ بِهِ الأَلْسُنُ تِلاَوَةً وَإِسْمَاعاً.

نزلَ القرآنُ على النبيِّ مُحمَّدٍ ﷺ مفرَّقاً في مدة ثلاث وعشرين سَنة. وكان نزولهُ على أنحاءٍ شتَّى، تارة بتتابُع، وتارة بتراخي. وإنما نزلَ منجَّماً ولم ينزل دفعةً واحدةً لحكمة ذكرَها الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ (١) أي كذلك انزل مفرَّقاً لنقوِّي بتفريقه فؤادكَ حتى تَعِيَهُ وتحفظَهُ. وقال تعالى ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (٢) أي قُرآناً جعلنا نزوله مفرَّقاً منجَّماً على مَكْثٍ، أي على مَهْلٍ

---

(١) الفرقان / ٣٢.

(٢) الإسراء / ١٠٦.

وتُؤُدَّةٍ وتثبُّت، نزلناه تَنْزيلاً حسبَ الحوادثِ. فمن أجلِ تثبيتِ فُؤاد الرسول، ومن أجلِ قراءته على الناس على مَكْثٍ وتُؤُدَّةٍ، ومن أجلِ أن ينْزِل حسبَ الحوادث وجواباتِ السائلين نزل منجَّماً مفرَّقاً في ثلاثٍ وعشرين سنةً.

وكان القرآنُ ينْزل على رسول الله ﷺ فيأمرُ بحفظه في الصُّدور، وكتابتهِ في الرِّقَاعِ، من جلدٍ أو ورق أو كَاغَدٍ، وفي الأكتافِ والعُسُب واللِّخَافِ، أي على العظمِ العريض وعُسُب النَّخلِ والحجارة الرقيقة، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه؛ لَمَّا أمَّرهُ أبو بكر الصديق رضي الله عنه في جمع المصحف، قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: فتتبَّعتُ القرآنَ أجمعه من العُسُب واللِّخَافِ وصُدور الرجال[1].

وكان إذا نزلت الآياتُ أمرَ بوضعِها موضعها من السُّورة فيقول ألحِقُوا هذه الآيةَ في سورة كذا بعد آيةِ كذا، فيضعونها موضعها من السورة. قال ابن حجر العسقلاني: وأوضح من ذلك ما أخرجه أصحاب السنن الثلاثة وصححه الحاكم وغيره حديث ابن عباس عن عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جميعاً قال: كان النبي ﷺ ينْزل عليه الآيات فيقول: [ضَعُوهَا فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا][2] وهكذا حتى نزلَ القرآنُ كله والتحقَ الرسولُ ﷺ بالرفيقِ الأعلى بعد أن كملَ نزولُ القرآن. ولذلك كان ترتيبُ آيات كلِّ سورة على ما هي عليه الآنَ في المصحف توقيفاً من النبيِّ ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله تعالى فهو ترتيبٌ توقيفي من الله تعالى.

وعلى ذلك وكما قُرأ بين يدي رسول الله ﷺ نقلتْهُ الأمةُ ولا خلافَ في ذلك مطلقاً. وهذا الترتيبُ للآيات في سُوَرها على الشكلِ الذي نراهُ الآن، هو نفسهُ الذي أمر به رسول الله ﷺ ، وهو نفسه الذي كان مكتوباً بالرِّقاع والأكتاف والعسُب واللِّخَافِ ومحفوظاً في الصُّدور. وعليه فإن ترتيبَ الآيات في سُوَرها قطعيٌّ أنه توقيفي عن رسول الله ﷺ، عن جبريل عليه السلام ، عن الله سبحانه تعالى .

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب فضائل القرآن: باب جمع القرآن: الحديث (٤٩٨٦) وكتاب التفسير: باب لقد جاءكم رسول: الحديث (٤٦٧٩). والترمذي في الجامع الصحيح: أبواب تفسير القرآن: الحديث (٣١٠٣). والامام أحمد في المسند: ج ١ ص١٠ و ج ٥ ص١٨٨.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج٩ ص١٠: شرح الحديث (٤٩٨٣).

وأما ترتيب السُّوَر بالنسبة لبعضها فإنه كان باجتهادٍ من الصحابة رضوان الله عليهم، فقد جاء من حديث ابن عبَّاس قالوا [قُلْتُ لِعُثْمَانَ مَا حَمَلَكُمْ عَلى أنْ عَمَدْتُم إلى الأنْفَال وَهِيَ مِنْ المَثاني وإلى بَراءَةَ وَهِيَ مِنَ الْمِئَيْن فَقَرَنْتُم بهمَا وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُما سَطْرَ بسْمِ اللهِ الرَّحْمن الرَّحِيم وَوَضَعْتُمُوها في السَّبْعِ الطُّوال؟ فقالَ عُثْمانُ رضي الله عنه كَانَ رَسُولُ الله ﷺكثيراً ما تنْزل عليه السُّورَةُ ذات العَدَدِ، فَإذا نَزَلَ عَلَيْهِ شَيء - يعني منها - دَعَا بَعْضَ مَنْ كانَ يَكْتُب فيقول [ضَعُوا هَؤُلاءِ الآياتِ في السّورَةِ الّتي يُذكَرُ فيها كَذا، وكانَتِ الأنْفَالُ مِن أوائلِ مَا نَزَلَ بالمدينةِ، وَبَراءَةُ مِنْ آخِرِ القرآن وَكانَتْ قِصَّتُها شَبيهةً بها فَظَنَنْتُ أنَّها مِنْهَا. فَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَم يُبَيِّن لَنا أنَّهاَ مِنْهَا][1]. وعن سعيد بن جبير عن ابن عبَّاس قال [كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لاَ يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى يَنْزِلَ عَلَيْهِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ][2] وعن ابن عباس قال: [كَانَ الْمُسْلِمُونَ لاَ يَعْلَمُونَ انْقِضَاءَ السُّورَةِ حَتَّى تَنْزِلَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَإذَا نَزَلَتْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، عَلِمُوا أَنَّ السُّورَةَ قَدِ انْقَضَتْ][3].

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند :ج١ ص٥٧ و٦٩؛ عن يزيد الفارسي عن ابن عباس قال: قلت لعثمان . . . الحديث. وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب من جهر بها: الحديث (٧٨٦). والترمذي في الجامع الصحيح: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة: الحديث (٣٠٨٦)؛ وقال: هذا حديث حسنٌ صحيح؛ لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس؛ ويزيد الفارسي قد روى عن ابن عباس غيرَ حديثٍ، ويُقال هو يزيد بنُ هُرمز؛ ويزيد الرَّقاشي هو يزيد بن أبَانَ الرَّقاشيُّ ولم يدرك ابن عباس، وإنما روى عن أنس بن مالك، وكلاهما من أهل البصرة، ويزيد الفارسي أقدم من يزيد الرَّقاشيّ. إنتهى. والنسائي في السنن الكبرى: كتاب فضائل القرآن: باب [السورة التي يذكر فيها كذا وكذا]: الحديث (٨٠٠٧/ ١). والحاكم في المستدرك على الصحيحين: كتاب التفسير: ج ٢ ص٢٢١ وتفسير سورة التوبة: ج٢ ص٣٣٠؛ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ وعقّب الذهبي وقال: إنه صحيح . وابن حبان في الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان: كتاب الوحي : باب ذكر ما كان يأمر النبي ﷺ بكتبة القرآن : الحديث (٤٣) : ج ١ ص١٢٥ .

(٢) رواه أبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب من جهر بها: الحديث (٧٨٨). والطبراني في المعجم الكبير: الحديث (١٢٥٤٤ و ١٢٥٤٥ و١٢٥٤٦) بالفاظ؛ قال:[مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِفُ خَاتِمَةَ السُّورَةِ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْهِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]. وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ٢ ص١٠٩ وج ٦ ص٣١٠؛ قال الهيثمي: رواه البزار بإسناد رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٣) ينظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم: ج ١ ص٢٣٢، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(فهذا يدلُّ على أن ترتيبَ الآيات في كلِّ سورة كان توقيفياً. ولَمَّا لم يُفصِحِ النبيُّ ﷺ بأمرِ براءةَ أضافها عثمانُ إلى الأنفال اجتهاداً منه ﷺ. ونقل صاحبُ الإقناع أن البسملةَ لبراءة ثابتةٌ في مصحف ابن مسعود)(١)، وروى أن الصحابةَ كانوا يحتفظون بمصاحف على ترتيبٍ في السور مختلف مع عدم الاختلاف في ترتيب الآيات، فمصحفُ ابن مسعود على غير تأليفِ العثماني من حيث ترتيبُ السور، وكان أوَّله الفاتحة ثم البقرةُ، ثم النساء ثم آل عمران، بعكس العثماني فترتيبه الفاتحةُ ثم البقرة ثم آل عمران ثم النساء. ولم يكن أيٌّ منهما على ترتيب النُّزول. ويقال إنَّ مصحف عليٍّ كان على ترتيب النُّزول أولهُ ﴿إقرأ﴾ ثم ﴿المدثر﴾ ثم ﴿ن والقلم﴾ ثم ﴿المزمل﴾ ثم ﴿تبت﴾ ثم ﴿التكوير﴾ ثم ﴿سبح﴾، وهكذا إلى آخر المكّي ثم المدنِيِّ.

وهذا كله يدلُّ على أن ترتيبَ السُّوَر بالنسبة لبعضها كان باجتهادٍ من الصحابة(٢). ولذلك كان ترتيب السُّور في القراءة ليس بواجبٍ في التلاوة ولا في الصلاةِ ولا في الدرس ولا في التعليم، بدليل أنَّ النبي ﷺ قرأ في صلاته في الليلِ بسورة النساء قبلَ آل عمران، عن صِلة بن زفر عن حُذَيْفَةَ ﷺ قال: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ؛ فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى؛ فَقُلْتُ: يُصَلِّي بهَا فِي رَكْعَةٍ؛ فَمَضَى. فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بهَا؛ ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَ ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً، إذَا مَرَّ بآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإذَا مَرَّ بسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإذَا مَرَّ بتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: [سُبْحَانَ رَبيَ الْعَظِيْمِ] فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْواً مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ:

---

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج ٩ ص٥١؛ شرح الحديث (٤٩٩٤) من كتاب فضائل القرآن، وفيه: (قال: ولا يؤخذ بها).

(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج ٩ ص٥٠. قال الزركشي في البرهان في علوم القرآن: ج ٢ ص٢٦٢: وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيات: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة من أحسن الترتيب؛ وهو ترتيب المصحف العثماني، وإن كان مصحف عبدالله بن مسعود قدِّمت فيه سورة النساء على آل عمران؛ وترتيب بعضها بعد بعض ليس هو أمراً أوجبه الله، بل أمر راجع إلى اجتهادهم واختيارهم؛ ولهذا كان لكل مصحف ترتيب، ولكن ترتيب المصحف العثماني أكمل.

[سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ]. ثُمَّ قَامَ طَوِيْلاً قَرِيْباً مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ؛ فَقَالَ:[سُبْحَانَ رَبِيَ الأَعْلَى] فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيْباً مِنْ قِيَامِهِ(١).

وأما ما وردَ من النهي عن قراءةِ القرآن منكوساً فإن المرادَ قراءةُ الآيات في السورة الواحدةِ منكوسةً لا قراءة السُّور منكوسة. قال موفقُ الدين بن قدامة: وقد رويَ عن ابن مسعود أنه سُئل عمَّن يقرأ القرآن منكوساً قال: ذلك منكوس القلب. وفسَّره أبو عبيدة: بأن يقرأ سورة ثم يقرأ بعدها أخرى هي قبلَها في النَّظم(٢). وقال النوويُّ في شرح الحديث السابق لحذيفة ﷺ من صحيح مسلم: قال أبو بكر الباقلاني....: ولا خلافَ أنه يجوزُ للمصلي أن يقرأ في الركعة الثانية سورة قبلَ التي قرأها في الأولى، وإنما يكرهُ ذلك في ركعة ولمن يتلو في غير صلاة، قال: وقد أباحه بعضُهم وتأوَّل نهي السلف عن قراءةِ القرآن منكوساً على مَن يقرأ من آخر السورةِ إلى أولها(٣).

ومتأوِّلُ قول السلف على ما يبدو هو ابنُ بطَّال، قال ابن حجر: قال ابنُ بطال: لا نعلمُ أحداً قال بوجوب ترتيب السُّور في القراءةِ لا داخلَ الصلاة ولا خارجَها، بل يجوزُ يقرأ الكهفَ قبل البقرةِ والحجَّ قبل الكهفِ مثلاً، وأما ما جاء عن السَّلف من النهي عن قراءةِ القرآن منكوساً، فالمرادُ به أن يقرأ من آخرِ السورة إلى أولها، وكان جماعةٌ يصنعون ذلك في القصيدةِ من الشعر مبالغةً في حفظها وتذليلاً للسانه في سردِها، فمنعَ السلفُ ذلك في القرآن فهو حرامٌ فيه(٤).

وهذا الرأيُ نقله ابن كثير في فضائل القرآن: بتصرُّف؛ قال أي ابن بطَّال: وأما ما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنَّهما كَرِهَا أن يقرأ القرآنُ منكوساً، وقالا: إنما

---

(١) رواه مسلم في الصحيح: كتاب صلاة المسافرين: باب استحباب تطويل القراءة: الحديث (٢٠٣/ ٧٧٢).

(٢) ينظر: المغني: مسألة: قال: ثم يقرأ في سورة في ابتدائها بسم الله الرحمن الرحيم: الفصل الأخير منها: ج ١ ص٥٣٧.

(٣) المنهاج: شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ج ٥-٦ ص٣٠٨.

(٤) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج ٩ ص٤٨.

ذلك منكوسُ القلب؛ فإنما عَنَيا بذلك من يقرأ السورةَ منكوسة فيبتدئ بآخرها إلى أولها، فإن ذلك حرامٌ محظور(١).

وقد كان جبريلُ يقرأ جميعَ ما نزلَ من القرآن على الرسول ﷺ مرَّة في كلِّ سَنَة. وفي السَّنة التي توفِّي فيها رسولُ الله ﷺ قرأ جبريلُ القرآنَ كله على الرسول مرَّتين. عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن فاطمة عليها السلام [أَسَرَّ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ جِبرِيلَ يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ كُلَّ سَنَةٍ وَأَنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ وَلاَ أَرَاهُ حَضَرَ إِلاَّ أَجَلِي](٢) وعن أبي هريرة قال: [كَانَ يُعْرَضُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْقُرْآنُ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً فَعُرِضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ](٣).

فَعَرْضُ جبريلَ القرآنَ على الرسول ﷺ كلَّ عام مرَّة معناه عرضُ ترتيب آياته بالنسبة لبعضِها، وترتيب آياته في سُوَرِها، لأن عرضَ الكتاب معناه عرضَ جُمَلِهِ وكلماته وترتيبِهِ، وعرضه مرَّتين في العامِ الذي توفِّي فيه الرسولُ ﷺ، معناه كذلك عرض ترتيب آياته بالنسبة لبعضها. وترتيبُ آياته في سوَرها ويمكن أن يفهم كذلك من الحديثِ عرض ترتيب سُوَره بالنسبة لبعضها.

---

(١) فضائل القرآن: ص٤٢ / دار الأندلس / الطبعة الرابعة.

(٢) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: أقبلت فاطمةُ تمشي كأنَّ مشيَتها مشيُ النبيِّ ﷺ، فقال النبي ﷺ: [مَرْحَباً يَا ابْنَتِي] ثم أجلسَها عن يمينه ثُمَّ أسرَّ إليها حديثاً، فبَكَتْ ! فقلت لها: لِمَ تبكين؟ ثُمَّ أسرَّ إليها حديثاً فضَحِكَتْ، فقلت: ما رأيتُ اليوم فرحاً أقربَ من حُزن، فسألتها عمّا قال. فقالت:[مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ]، حتَّى قُبِضَ النبيُّ ﷺ. فسألتُها. فقالت:[أَسَرَّ إِلَيَّ أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلاَ أَرَاهُ إِلاَّ حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقاً بِي] فَبَكَيْتُ. فَقَالَ: [أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ! أَوْ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ !] فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ . رواه البخاري في الصحيح: كتاب المناقب: الحديث (٣٦٢٣ و٣٦٢٤). وفي الحديث (٦٢٨٥ و٦٢٨٦) فيه تفصيل.

(٣) عن أبي حصين عن ذكوان عن أبي هريرة قال: كَانَ يُعْرَضُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْقُرْآنُ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فعُرِضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيْهِ، وَكَانَ يَعْتَكِفُ فِي كُلِّ عَامٍ عَشْراً، فَاعْتَكَفَ عِشْرِينَ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيْهِ. رواه البخاري في الصحيح: كتاب فضائل القرآن: باب كان جبريل يعرض القرآن: الحديث (٤٩٩٨) .

إلا أنه وردت أحاديثُ صحيحة أخرى صريحة في ترتيب الآيات، فإنَّـها تنـصُّ على ترتيب الآيات بالنسبة لبعضها وترتيب الآيات في سُوَرِها [ضَعُوا هَذِهِ الآيَاتِ فِي سُورَةِ كَذَا بَعْدَ آيَةِ كَذَا] [وَضَعُوا هَؤُلاَءِ الآيَاتِ فِي السُّوَرِ الَّتِي ذُكِرَ فِيهَا كَذَا]. وكانت السورة تُختم ويبدأ بسورةٍ غيرها بتوقيفٍ من الله بواسطة جبريل. عن ابن عبَّاس قال: [كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لاَ يَعْلَمُ خَتْمَ السُّورَةِ حَتَّى يَنْزِلَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] وفي رواية [فَإِذَا أُنْزِلَتْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَلِمُوا أَنَّ السُّورَةَ قَدِ انْقَضَتْ].

فهذا كله يدلُّ قطعاً على أنَّ ترتيب الآيات في سُوَرِها وشكل السُّور بعدد آياتِها ووضعها، كل ذلك توقيفي من الله تعالى. وعلى ذلك نقلتْهُ الأمةُ عن نبيِّها ﷺ وثبتَ ذلك تواتُراً.

أما ترتيبُ السُّوَر بالنسبة لبعضها فإنه وإنْ كان يمكن أن يُفهم من أحاديث عرضِ القرآن، ولكن يمكن أن يفهمَ غيره من حديث آخر. عن عائشة أمِّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إذْ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ فَقَالَ: أيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ وَمَا يَضُرُّكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَرِينِي مُصْحَفَكِ. قَالَتْ: لِمَ؟ قال: لَعَلِّي أُوَلِّفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ.

قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ، إِنَّمَا نَزَلَ أول ما نزلَ منه سورةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فيها ذِكْرُ الجنَّةِ والنَّار حتى إذا ثابَ الناسُ إلى الإسلام نَزَلَ الحلالُ والحرامُ، ولو نَزلَ أولَ شيءٍ لا تشربوا الخَمْرَ لَقالُوا لا نَدَعُ الخمرَ أبداً، وَلَو نَزَلَ لا تزنُوا لقالوا لا نَدَعُ الزِّنا أبداً، لقد نَزَلَ بمكَّةَ على مُحَمَّد ﷺ وإنِّي لجاريةٌ ألعبُ ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[1]. وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إلاَّ وَأَنَا عِنْدَهُ. قَالَ فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَفَ فَأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّوَرِ][2].

---

(١) القمر / ٤٦.

(٢) رواه البخاري في الصحيح: كتاب فضائل القرآن: باب تأليف القرآن: الحديث (٤٩٩٣).

فهذا الحديثُ يدل على أن القرآنَ لم يكن مجموعاً فإذا أُضيف إلى ذلك اختلافُ ترتيب مصاحف الصحابة، دلَّ على أن ترتيبَ السُّور بالنسبة لبعضها كان باتفاقٍ من الصحابةِ.

جَمْعُ القُرآن:

لقد ثبتَ بالدليل اليقينيِّ الجازم أن النبيَّ ﷺ حين التحقَ بالرفيق الأعلى كان القرآنُ كله مكتوباً في الرِّقاع والأكتافِ والعُسُب واللِّخافِ، وكان كله محفوظاً في صُدور الصحابة رضوان الله عليهم. فقد كانت تَنْزِلُ الآيةِ أو الآيات فيأمرُ حالاً بكتابتها بين يديه، وكان لا يمنعُ المسلمين من كتابةِ القرآن غيرَ ما كان يُمليه على كُتَّاب الوحي.

عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: [لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي، مَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ، وَحَدِّثُوا عَنِّي وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ][1].

وكان ما يكتبه كُتَّابُ الوحي مجموعاً في صُحُفٍ قال تعالى: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ [2] أي يقرأ قراطيسَ مُطَهَّرَةً من الباطل فيها مكتوباتٌ مستقيمة قاطعة بالحقِّ والعدل، وقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ [3] أي إنَّ هذه التذكرةَ مثبتةٌ في صُحف مكرَّمة عند الله مرفوعة المقدار منزَّهة عن أيدي الشياطين، قد كُتبت بأيدي كَتَبَةٍ أتقياء.

---

(١) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الزهد: باب التثبت في الحديث وحكم كتاب العلم: الحديث (٧٢/ ٣٠٠٤). والإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٥٦ وبلفظ [سِوَى الْقُرْآنِ]: ج ٣ ص٢١ و٣٩. والدارمي في السنن: باب من لم ير كتابة الحديث من المقدمة: الحديث(٤٥٠) بلفظ [إلاَّ الْقُرْآن].

(٢) البيّنة / ٢.

(٣) عبس / ١١-١٥.

وقد ترك ﷺ جميعَ ما بين دفَّتي المصحفِ مكتوباً قد كتب بين يديه، عن عبدِالعزيز بن رفيع قال: دخلتُ أنا وشدَّاد بن معقل على ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فقال له شدَّاد بن معقل: أترَكَ النبيُّ ﷺ من شيءٍ؟ قال: ما تركَ إلا ما بين الدفَّتين. قال: ودخلتُ على محمَّد بن الحنفية فسألناهُ فقال: [مَا تَرَكَ إلاَّ مَا بَيْنَ الدَفَّتَيْنِ][1] فالإجماعُ منعقدٌ على أن جميعَ آيات القرآن في سُوَرها قد كُتبت بين يدي الرسول ﷺ حين كان ينْزل بها الوحيُ مباشرة، وأنَّها كُتبت في صُحُفٍ. وتوفِّي الرسول الأعظمُ وهو قريرُ العينِ على القرآن معجزته الكبرى التي قامت حجَّة على العرب وعلى العالَم. ولم يكن يخشَى على آيات القرآن الضياعَ لأن الله حَفِظَ القرآنَ بنصٍّ صريح ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[2] ولأنه كان قد ثبَّتَ هذه الآيات كتابةً بين يديه وحفظاً في صُدور الصحابة وأذِنَ للمسلمين أن يكتبوا القرآنَ.

ولذلك لم يشعر الصحابةُ بعد وفاةِ الرسول أنَّهم في حاجةٍ لجمع القرآن في كتابٍ واحد أو في حاجة إلى كتابته، حتى كَثُرَ القتلُ في الْحُفَّاظِ في حُروب الرِّدَّةِ، فخَشِيَ عمرُ من ذلك على ضياعِ بعض الصُّحف وموت القرَّاء، فتضيع بعض الآيات، ففكَّر في جمعِ الصُّحف المكتوبة، وعرضَ الفكرة على أبي بكرٍ وحصل جمعُ القرآن. عن عبيد بن السباق أن زيدَ بن ثابتٍ ﷺ قال: [أرْسَلَ إلَيَّ أبو بَكْرٍ مَقْتَلَ أهْلِ اليَمامَةِ، فإذا عَمَرُ بْنُ الْخَطّاب عِنْدَهُ. قالَ أبو بكر ﷺ إنَّ عُمَرَ أتَانِي فَقَالَ: إنَّ القَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَ يَومَ اليَمامَةِ بقُرّاءِ القُرْآن وإنّي أخْشَى أنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بالقُرّاءِ بالْمواطِنَ فَيَذْهَبُ كَثيرٌ مِنَ القُرْآنِ وَإنّي أرَى أنْ تَأمُرَ بجَمْعِ القرآن. قُلْتُ لِعُمَرَ:كَيْفَ أفْعَل شيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ الله ﷺ؟ قالَ عُمَرُ: هوَ وَالله خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرَ يُراجِعُني حَتّى شَرَحَ اللهُ صَدْري لِذَلِكَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الذي رَأى عُمَرُ. قَالَ زَيْدُ: قَالَ أبو بَكر: إنَّكَ رَجل شَابٌ عاقِلٌ لا نَتَّهِمُكَ، وكُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَتَبَّعَ القُرْآنَ

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب فضائل القرآن: باب من قال: لم يترك النبي إلا ما بين الدفتين: الحديث (٥٠١٩). والإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٢٠ بلفظ: [إلاَّ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ اللَّوْحَيْنِ] وإسناده صحيح.

(٢) الحجر / ٩.

فَاجْمَعْهُ. فَوَاللهِ لَوْ كَانُوا كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ ما كَانَ أثْقَلُ عَلَيَّ مِمّا أمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرآن. قُلْتُ:كَيْفَ تَفْعَلونَ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قالَ أبو بكر: هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ أبو بَكرٍ يُراجِعُني حَتّى شَرَحَ اللهُ صَدْري لِلَّذي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُما. فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أجْمَعُهُ مِنَ العُسُبِ واللِّخافِ وَصُدُور الرِّجَال حَتّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوبَةِ مَعَ أبي خُزَيْمَةَ الأنْصَاري وَلَمْ أجِدْهَا مَعَ أحَدٍ غَيْرِهِ. ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ حتى خاتمة براءة. فَكانَتِ الصُحُفُ عِنْدَ أبي بَكْرٍ حَتّى تَوَفّاهُ اللهُ ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَياتهِ ثُمَّ عَنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا](١).

ولم يكن جمعُ زيدٍ للقرآن كتابةً له من الحفَّاظ، وإنما كان جمعه له جمعاً لِمَا كُتب بين يدي رسول الله ﷺ، وكان لا يضعُ صحيفةً مع صحيفة أخرى ليجمعَها إلا بعد أن يشهدَ لهذه الصحيفة التي تُعرض عليه شاهدان يشهدان أن هذه الصحيفة كُتبت بين يدي رسول الله ﷺ.

وكان فوق ذلك لا يأخذُ الصحيفةَ إلاّ إذا توفَّر فيها أمران:

أَحَدُهُمَا: أن توجدَ مكتوبةً مع أحدٍ من الصحابة.

وَالثَّانِي: أن تكون محفوظةً من قِبَلِ أحدِ الصحابة، فإذا طابقَ المكتوبُ والمحفوظ للصحيفة التي يُراد جَمْعَها أخذها وإلاّ فلا. ولذلك توقَّف عن أخذ آخرِ سورة براءةَ حتى وجدَها مكتوبةً عند أبي خُزيمة فأخذها؛ لأن شهادة ابن خزيمة بشهادة رجلين، مع أن زيداً كان يستحضِرُها هو ومن ذُكر معه.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب تفسير القرآن: سورة (٩) التوبة: باب ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أنفُسِكُمْ﴾: الحديث (٤٦٧٩). وكتاب فضائل القرآن: باب جمع القرآن: الحديث (٤٩٨٦). وباب كان النبي ﷺ: الحديث (٤٩٨٩) وكتاب الأحكام: باب يستحب للكاتب أن يكون أميناً عاقلاً: الحديث (٧١٩١). والترمذي في الجامع: كتاب تفسير القرآن: باب تفسير سورة التوبة: الحديث (٣١٠٢). والنسائي في السنن الكبرى: كتاب التفسير: الحديث (٧٩٩٥) والإمام أحمد في المسند: ج ١ ص١٠.

روي من طريق يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب قال: قَامَ عُمَرُ فَقَالَ: مَنْ كَانَ تَلَقَّى مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئاً مِنَ الْقُرْآنِ فَلْيَأْتِ بِهِ، وَكَانُوا يَكْتُبُونَ ذَلِكَ فِي الصُّحُفِ وَالأَلْوَاحِ وَالْعُسُبِ، قَالَ: وَكَانَ لاَ يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئاً حَتَّى يُشْهِدَ شَاهِدَانِ(١).

قال ابن حجر: (هذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفي بمجرَّد وجدانه مكتوباً حتى يشهدَ من تلقَّاهُ سماعاً مع كون زيد كان يحفظهُ وكان يفعل ذلك مبالغةً بالأحتياط)(٢).

فالجمع لم يكن إلاّ جمعَ الصُّحف التي كُتبت بين يدي رسول الله ﷺ في كتابٍ واحد بين دفَّتين، فقد كان القرآنُ مكتوباً في الصُّحف، لكن كانت مَفرَّقةً فجمعَها أبو بكرٍ في مكان واحد. وعلى ذلك لم يكن أمرُ أبي بكر في جمع القرآن أمراً بكتابتهِ في مُصحف واحد بلِ أمراً بجمعِ الصُّحف التي كُتبت بين يدَي الرسول ﷺ مع بعضها في مكانٍ واحد والتأكُّد من أنَّها هي بذاتُها بتأييدها بشهادةِ شاهدَين على أنَّها كُتبت بين يدي رسول الله ﷺ وأن تكون مكتوبةً مع الصحابة ومحفوظةً من قِبَلِهم. وظلَّت هذه الصُّحف محفوظةً عند أبي بكرٍ حياته، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصةَ بنت عمر أمِّ المؤمنين حسبَ وصيَّة عمر.

ومن هذا يتبين أن جمعَ أبي بكر للقرآن إنما كان جمعاً للصُّحف التي كُتبت بين يدي رسول الله ﷺ وليس جمعاً للقرآن وإنَّ الحفظَ إنَّما كان لهذه الصُّحف أي للرِّقاع التي كُتبت بين يدي رسول الله ﷺ وليس حفظاً للقرآن. ولم يكن جمعُ الرِّقاع والمحافظةُ عليها إلاّ من قبيلِ الاحتياط والمبالغة في تحرِّي الحفظِ لعين ما نُقل عن رسول الله ﷺ. أما القرآنُ نفسه فإنه كان محفوظاً في صُدور الصحابة ومجموعاً في حفظهم، والاعتمادُ في الحفظ كان على جمهرتِهم لأن الذين كانوا يحفظونه كليّاً وجزئياً كثيرون.

هذا بالنسبة لجمعِ أبي بكر، أما بالنسبةِ لجمع عُثمان فإنه في السَّنة الثالثة أو الثانية من خلافةِ عثمان، أي في سنة خمسٍ وعشرين للهجرة قَدِمَ حذيفةُ ابن اليَمانِ

(١) أخرجه ابن أبي داود السجستاني في كتاب المصاحف: ص١٧.

(٢) قاله ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج ٩ ص١٧.

على عثمان في المدينةِ وكان يُغازي أهلَ الشام في فتحِ أرمينيَّة وأذربيجان مع أهلِ العراق، فأفزعَ حذيفةَ اختلافُهم في قراءةِ القرآن.

فإنه رأى أهلَ الشامِ يقرأون بقراءة أُبَيٍّ بن كعبٍ فيأتون بما لم يسمَعْ أهلُ العراق، ورأى أهلَ العراق يقرأون بقراءةِ عبدالله بن مسعود فيأتون بما لم يسمَعْ أهلُ الشام، فيكفِّرُ بعضهم بعضاً. وأن اثنين اختلفَا في آيةٍ من سُورة البقرة، قرأ هذا: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾ ، وقرأ هذا: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلْبَيْتِ﴾ فغضِبَ حذيفةُ واحمرَّت عيناهُ، وروي عن حذيفة قال: يقولُ أهل الكوفة قراءةُ ابن مسعود ويقول أهلُ البصرة قراءة أبي موسى، والله لئِنْ قدِمْتُ علىأميرِ المؤمنين لآمُرَنَّهُ أن يجعلَها قراءةً واحدة، فركِبَ إلى عُثمان[(١)].

وقد حدَّث ابن شهاب أن أنسَ بن مالك حَدَّثَهُ [أنَّ حُذَيْفَةَ بنَ اليَمان قَدِمَ عَلى عُثْمانَ وَكانَ يُغَازي أهْلَ الشَّامِ في فَتْحِ ارمينيَةَ وأذْربيجان مَعَ أهْلِ العِراق فَأفْزَعَ حُذَيْفَةَ اختِلافُهُم في القِراءَةِ فَقالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمانَ: يَا أميرَ الْمُؤْمِنين أدْركْ هَذِهِ الأمة قَبْلَ أنْ يَخْتَلِفُوا في الكِتَاب اختلافِ اليَهود والنَّصارى. فأرْسَلَ عُثْمانُ إلى حَفْصَةَ أنْ أرْسِلِي إلَيْنا الصُّحُفَ نَنْسَخُها فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّها إليكِ فَأرْسَلَتْ بِها حَفْصَةُ إلى عُثْمانَ فَأمَرَ زَيْدَ بن ثابت وَعَبْدَاللهِ بنَ الزُّبَيْر وَسَعيدَ بنَ العاص وَعَبْدَالرحمنِ بنَ الحارثِ ابن هِشام فَنَسَخُوها فِي الْمَصاحِفِ، وقال عُثْمانُ للرَّهْطِ القُرَشِيِّين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيدٌ بن ثابت في شيء ما من القرآن فاكتبوهُ بلِسان قُريشٍ فَإنَّما نَزَلَ بلِسانِهم فَفَعَلُوا. حتى إذا نسخوا الصحُفَ في المصَاحِف رَدَّ عُثْمانُ الصُحُفَ إلى حفصةَ، وَأرسَلَ إلى كُل أفق بمُصْحَفٍ مما نَسَخُوا، وأمَرَ بما سِواهُ مِنَ القُرآن في كُلِّ صَحيفَةٍ أو مُصْحَف أنْ يُحْرَقَ][(٢)] وقد كان عدد النُّسخ التي نُسخت سبع نُسَخ، فقد

---

(١) أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف: اتفاق الناس مع عثمان على جمع المصاحف: ص١٨ ونقله ابن حجرالعسقلاني في الفتح عن ابن أبي داود من كتاب (المصاحف). ينظر: فتح الباري: ج٩ ص٢١-٢٢/ الطبعة الأولى لدار الكتب العلمية.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب فضائل القرآن: باب جمع القرآن: الحديث (٤٩٨٧) والسنن الكبرى للنسائي: كتاب فضائل القرآن: الحديث (٧٩٨٨).

كُتبت سبعة مصاحفَ إلى مكَّة وإلى الشام وإلى اليمنِ وإلى البحرين وإلى البصرةِ وإلى الكوفة وحُبس بالمدينة واحد.

قال ابنُ حجر: (واختلفوا في عدَّة المصاحف التي أرسلَ بها عثمانُ إلى الآفاق؛ فالمشهورُ أنَّها خمسةٌ؛ وأخرج ابن أبي داود في (كتاب المصاحف) من طريقِ حمزة الزيات قال: أرسلَ عثمان أربعةَ مصاحف وبعث منها إلى الكوفة بمصحف فوقعَ عند رجُل من مُراد، فبقِيَ حتى كتبتُ مصحفي عليه.

قال ابنُ أبي داود: سمعت أبا حاتم السجستاني يقول: كُتبت سبعة مصاحف إلى مكة وإلى الشام وإلى اليمن وإلى البحرين وإلى البصرة وإلى الكوفة، وحُبس بالمدينة واحداً. وأخرجَ بإسنادٍ صحيح إلى إبراهيم النخعي قال: قال لي رجلٌ من أهلِ الشام مصحفُنا ومصحف أهلِ البصرة اضبطُ من مصحفِ أهل الكوفة؛ قلتُ: لِمَ ؟ قال: لأنَّ عثمان بعثَ إلى الكوفة لِما بلغَهُ من اختلافهم بمصحف قبل أن يعرضَ، وبقي مصحفنا ومصحفُ أهل البصرة حتى عرض)[1].

وفي فضائلِ القرآن لابن كثير القرشي الدمشقي: قال: (وأما المصاحفُ العثمانية الأئمة، فأشهرها اليومَ الذي بجامع دمشق عند الرُّكن، شرقي المقصورة بذكر الله، ولقد كان قديماً بمدينةِ طبرية، ثم نُقل منها إلى دمشق في حدود ثماني عشرةَ وخمسمائة، ولقد رأيتهُ كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخطٍّ حسَن مبين قوي بحبر مُحكم، في رقٍّ أظنهُ من جلود الإبلِ، والله أعلم؛ زاده الله تشريفاً وتعظيماً وتكريماً)[2].

وعلَى هذا لم يكن عملُ عثمان جَمعاً للقرآن وإنما هو نَسْخٌ وَنَقْلٌ لِعَيْنِ ما نُقل عن رسول الله ﷺ كما هو. فإنه لم يصنع شيئاً سِوَى نسخ سبع نُسخ عن النسخة المحفوظة عند حفصة أمِّ المؤمنين، وجمعَ الناس على هذا الخطِّ وحده ومنعَ أيَّ خط أو إملاءِ غيرها. واستقرَّ الأمر على هذه النسخة خطاً وإملاءً، وهي عينُ الخط والإملاء الذي كُتبت به الصُّحف التي كتبت بين يدي رسول الله ﷺ حين نزل الوحي بها،

(١) فتح الباري: ج ٩ ص٢٤.

(٢) ينظر منه ص٢٦/ طبعة دار الأندلس / الطبعة الرابعة.

وهي عينُها النسخة التي كان جمعَها أبو بكر. ثـم أخـذَ المسـلمون يَنْسَـخُونَ عـن هـذه النُّسخ ليس غير، ولم يبقَ إلاّ مصحفُ عثمان برسمه. ولَمَّا وُجدت المطابع صارَ يُطبع المصحفُ عن هذه النسخة بنفس الْخَطّ وَالإِمْلاَءِ.

والفرقُ بين جمع أبي بكرٍ وبين جمع عثمـان أن جمـعَ أبـي بكـر كـان لخشـيةِ أن يذهبَ من القرآن شيءٌ بذهابِ حَمَلَتِه، لأنه وإنْ كان مكتوباً في صُحف ولكنه لم يكـن مجموعاً في موضعٍ واحد ككتابٍ واحد، فجمعه في صحائف. وجمعُ عثمـان كـان لَمَّا كَثُرَ الاختلافُ في وجوهِ القرآن حين قراهُ بلغاتِهم علـى اتِّسـاع اللُّغـات فـأدَّى ذلـك بعضـهم إلى تخطئـةِ بعـضٍ، فخشـي مـن تفـاقُمِ الأمـر فنَسَـخَ تلـك الصُّحــف في مصحف واحد.

فالمصحفُ الذي بين أيدينا هو عينهُ الذي نزلَ على رسول الله ﷺ وهــو عينـهُ الذي كان مكتوباً في الصُّحف التي كُتبت بين يدي رسول الله ﷺ، وهــو عينـه الـذي جمَعهُ أبو بكر حين جمعَ الصُّحف في مكانٍ واحد، وهو عينه الـذي نَسَـخَ عنـه عثمـان النُّسَخَ السبعةَ وأمر أن يُحرق ما عداها، وهــو عينـهُ القـرآن الكريـم في ترتيـب آياتـهِ بالنسبة لبعضها وترتيبها في سُوَرها وفي رسمــه وإملائـه. وأمـا النسـخة الـتي أملاَهـا رسولُ الله ﷺ عن الوحي وجُمعت صحُفها وجرى النسخُ عنها، فإنَّها ظلَّت محفوظةً عند حفصة أمِّ المؤمنين إلى أن كان مروان والياً على المدينة فمزَّقَها، إذ لم يعد لها لـزومٌ على حدِّ تقديرهِ بعد أن انتشرت نُسَخُ المصاحفِ في كلِّ مكان. عن ابنِ شـهاب قـال: أخبرني سالِم بن عبدالله بن عمر قال: [كانَ مَروانُ يُرْسِلُ إلى حَفْصَةَ- يَعْنِي حِينَ كانَ أميرَ المدينةِ مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ - يَسْألُها الصُّحُفَ الَّتي كُتِبَ مِنْها القُرآنُ فَتَأبَى أنْ تُعْطِيَهُ، قالَ سَالِمَ فَلَمَّا تُوفِّيَتْ حَفْصَةُ وَرَجَعْنَا مِنْ دَفْنِها أرْسَلَ مَرْوَانُ بالعَزِيمَةِ إلى عَبْدِ اللهِ بـن عُمَرَ لَيُرْسِلَنَّ إليهِ تِلْكَ الصُّحُفَ فَأرْسَلَ بها إليهِ عَبْدُ اللهِ بـنِ عُمَـر فـأمَر بـها مَـرْوانُ فَشُقِّقَتْ، وقال: إنَّما فَعَلْتُ هَذا لأنِّي خَشِيْتُ إنْ طَالَ بالنَّاسِ زَمانٌ أنْ يَرْتابَ في شَأنِ هَذهِ الصُّحُفِ مُرْتَابٌ][(١)] .

(١) أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف: ص٣٢. ينظر: فتح الباري شـرح صحيـح البخـاري: ج ٩ ص٢٤: شرح الحديثين (٤٩٨٧ و٤٩٨٨) وقد سبق ابنُ كثير في فضـائل القـرآن ص ٢٤ فقال: رواه أبو بكر بن أبي داود - أي في كتاب المصاحف - وقال: (إسناده صحيح).

رَسْمُ المُصْحَفِ:

ورسمُ المصحف توقيفيٌّ لا تجوزُ مخالفته. والدليل على ذلك أن النبيَّ ﷺ كان له كُتَّابٌ يكتبون الوحيَ. وقد كتبوا القرآنَ فعلاً بهذا الرَّسم وأقرَّهم الرسولُ على كتابتهم.

وأول من كتبَ الوحي للرسول ﷺ بمكة من قريش هو عبدُالله بن سعد بن أبي سرح، ثم ارتدَّ ثم عادَ إلى الإسلام يوم الفتحِ؛ وممن كتبَ له في الجملة الخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام، وخالد وأبَانُ ابنا سعيد بن العاص بن أمية، وحنظلة بن الرَّبيع الأسدي، ومُعيقِيب بن أبي فاطمة وعبدالله بن الأرقم الأزهري وشرحبيل بن حَسنة وعبدالله بن رواحة. وكان ألزمَ الصحابة لكتابة الوحي زيدُ بن ثابت الأنصاري، وقبله أُبَي بن كعب وهو أولُ من كتب لرسول الله ﷺ الوحيَ بالمدينة، ولكن زيد لكثرة تعاطيه الكتابة أطلق عليه (الكاتبُ) بلام العهدِ؛ ولكنه ربما غابَ فكتب غيره. وكان لكتَّاب الوحي منْزلةٌ وشرف، لهذا أرادَ أبو سفيان أن ينالَ من هذا الشرف لابنه معاوية، فطلبَ من الرسول سيدنا مُحَمَّد ﷺ أن يجعلَ ابنه معاوية كاتباً للوحي وكان رسولُ الله ﷺ لاَ يَرُدُّ مَن طلبَ حاجةً منه؛ فأجابه. حتى كان للنبيِّ ﷺ كُتَّاب متخصِّصون، ومنقطعون للكتابةِ له، بلغوا أكثرَ من أربعين كاتباً[(١)].

ومضى عهدهُ ﷺ والقرآنُ على هذه الكتبة لم يحدُثْ فيه تغييرٌ ولا تبديل، مع أن الصحابةَ قد كتبوا القرآن، ولم يُروَ عن أحدٍ أنه خالفَ هذه الكِتْبَةَ، إلى أن جاءَ عثمان في خلافته فاستنسخَ الصحف المحفوظة عند حفصة أمِّ المؤمنين في مصاحف على تلك الكِتْبَةِ، وأمرَ أن يحرقَ ما عداها من المصاحفِ.

وأيضاً فإنما وردَ في رسم القرآنِ من رسمَ غير رسمِ الكتابة العربية التي لغيره والعدول عن تلك الكتبة لا تظهرُ فيها أيَّةُ علَّة لهذا العدول سوى أن كتابتَها توقيفية وليست اصطلاحاً. ولذلك لا يقال لماذا كُتبت كلمة [الربا] في القرآن بالواو والألف [الربوا] ولم تُكتب بالياء أو الألف. ولا يقال ما هو سببُ زيادة الألف في [مائة]

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج ٩ ص٢٧: شرح الحديث (٤٩٩١).

دون [فئة] وزيادة الياء في [بـأييديكم] و [بـأييكم] وزيـادةِ الألـف في [سـعوا] بالحجِّ ونقصانِها من [سعو] بسبأ، وزيادتِها في [عتـوا] حيـث كـان ونقصانِـها مـن [عتو] في الفرقان وزيادتِـها في [أمنـوا] وإسـقاطها مـن [بـاءو] [جـاءو] [فـاءو] بالبقرة، وزيادتِها في [يعفوا الذي] ونقصانِها من [يعفو عنهم] في النسـاء. ولا يقـال كذلك ما هو وجهُ حذف بعضِ أحرف مـن كلمـات متشـابهة دون بعـض. كحـذفِ الألف من [قرءنا] بيوسف والزخرف وإثباتِها في سائر المواضع. وإثبات الألـف بعـد واو [سموات] في فُصِّلـت وحذفـها مـن غيرهـا. وإثبـات الألـف في الميعـاد مطلقـاً وحذفها من الموضـع الـذي في الأنفـال. وإثبـات الألـف في [سـراجا] حيثمـا وقـعَ وحذفها من موضع الفرقان. فهذا الاختـلافُ في كتابـة الكلمـة الواحـدة بـين سُـورة وسورة من حيث الرسمُ مع عدم اختلاف المعنى واللفظ دليلٌ على أنه فعـلٌ مَـرَدُّهُ إلى السَّماع لا إلى الاجتهاد والفهمِ، وكلُّ ما كان مردهُ إلى السَّماع فهو توقيفيٌّ.

وأيضاً فإنه قد نُقل الاختلاف في ترتيب السُّوَر ولكنه لم يُنقل خـلافٌ في رَسْـمِ المصحف على هذه الكِتْبَةِ التي كُتبت بين يدي الرسول، كما لم يُنقل خلافٌ في ترتيـب الآيات، مما يدلُّ على أن الرسمَ توقيفيٌّ. فإقرارُ الرسـول علـى هـذه الكِتْبَـةِ، وإجمـاعُ الصحابة عليها، وواقعُ الاختلاف في رسمِ الكلمة الواحدة بين سورة وسورة مع اتحادِ اللفظ والمعنى، كلُّ ذلك دليلٌ واضح على أن هذا الرسمَ الـذي عليـه المصحـفُ هـو رسمٌ توقيفي يجب أن يُلْتَزَمَ وَحْدَهُ، ويحرمُ أن يكتبَ المصحف علـى رسـمٍ غـير هـذا الرسم، فلا يجوزُ العدولُ عنه مطلقاً.

ولا يقال إن الرسولَ كان أمّياً فلا يعتبر تقريرهُ لها، فإنَّ له كُتَّاباً يعرفون الخطوطَ فكانوا يصفونَها له، وذهب بعضهم إلى أنه كان يعرفُ أشـكالَ الحـروف كمـا وردَ في بعض الأحاديث. وفي هذا القول نظرٌ، بل هو غير مستساغ.

على أن كتابة كُتَّابهِ للكتب التي كان يرسِلُها للملوكِ والرؤساء كانت على رسمِ الكتابة العاديَّة، وعلى غيرِ الرسم الذي كانوا يكتبون به الصُّحـف الـتي يكتبـون فيـها القرآن حين نزوله، مع أنَّ الْمُمْلِي واحدٌ والكتَّاب هُـمْ هُـمْ. علـى أن الـتزامَ الرسـمِ العثماني للقرآن، إنما هو خاصٌّ بكتابة المصحفِ كله، أما كتابةُ القـرآن استشـهاداً، أو

كتابته على اللوحِ للتعليم أو غير ذلك مما يُكتب في غـير المصاحف، فهو جائزٌ لأن الإقرارَ من الرسول والإجماعَ من الصحابة حصلَ في المصحف وحده دون غـيرهِ، ولا يقاسُ عليه لأنه أمرٌ توقيفي لغير علَّة، فلا يدخله القياسُ.

فَصْلٌ مِنْهُ: أنَّ الرَّسُولَ مُحَمَّداً ﷺ لمْ يَكُنْ يَكْتُبُ:

الجزم أو التأكيد بأن الرسول سيدنا مُحَمَّداً ﷺ كان يعرفُ أشكال الحـروف لا يستساغُ، لأن الأحـاديث الـتي جـاءت في البـاب ضعيفـةٌ لا تُقـوّي لمـدَّعٍ حجـةً، ثـم لاختلاف العلماء في تأويلِ الأحاديث التي جاءت في كتابة الرسول ﷺ، وفهمها على وجه أنه لم يكتب أقوى وأكثر حجَّة. ثم لورود الخبرِ بأنه لا يحسنُ الكتابةَ؛ والأمر مثارُ جدل لمن يريد، والأخذ مع مراد دلالات الخطاب الشرعي في الباب أولى وأسلم .

قال القاضي عيـاض: وردت آثـار تـدلُّ علـى معرفـة حـروفِ الخـط وحسـن تصويرها كقوله لكاتبه: [ضَعِ الْقَلَمَ عَلَى أُذُنِكَ فَإِنَّهُ أَذْكَرُ لَكَ] وقوله لمعاوية: [أَلْـقِ الدَّوَاةَ وَحَرِّفِ الْقَلَمَ وأَقِمِ اليَاءَ وَفَرِّقِ السِّينَ وَلاَ تُعَوِرِ الْمِيمَ] وقولـه [لا تَمُـدَّ بسْـمِ اللهِ]. وهذا وإن لم يثبت أنه كتبَ فلا يبعد أن يرزقَ علم وضـع الكتابـة، فإنـه أُوتـي علمَ كل شيء. وأجابَ الجمهور بضعف هذه الأحاديث[١]. ونقلَ القرطبيُّ؛ قال: قال القاضي عياض: وهذا وإن لم تصحَّ الروايةُ أنــه ﷺ كتـبَ فـلا يبعـد أن يـرزق علـمَ هذا، ويمنعَ من القراءة والكتابة[٢]. قلتُ: وفي هــذا تفصيـلٌ والتفـاتُ نباهـةٍ للعلمـاء رحمهم الله.

١. حديث زيد بن ثابت قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ وبين يديه كاتبٌ فســمعتهُ يقول: [ضَعِ القَلَمَ عَلَى أُذُنِكَ فَإِنَّهُ أَذْكَرُ لِلْمُمْلِي] قال أبو عيسـى: هـذا حديـث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهو إسناد ضعيف، وعَنْبَسَةُ بـن عبدِالرحمـن ومحمد بن زاذان يُضَعَّفَانِ في الحديث[٣].

(١) فتح الباري: ج ٧ ص٦٤١: شرح الحديث ٤٢٥٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٥٣.
(٣) الجامع الصحيح للترمذي: كتاب الاستئذان: باب (٢١): الحديث (٢٧١٤).

٢. أما حديث معاوية، أنه كان يكتب بين يدي النبي ﷺ فقال لـه:[يَـا مُعَاوِيَـةَ أَلْـقِ الدَّوَاةَ وَحَرِّفِ الْقَلَمَ وَانْصُبِ الْبَاءِ وَفَرِّقِ السِّينَ وَلاَ تُغَوِّرِ الْمِيْمَ وحَسِّنِ اللهَ ومُـدَّ الرَّحْمَنَ وَجَوِّدِ الرَّحِيمَ، وَضَعْ قَلَمَكَ عَلَى اُذْنِكَ الْيُسْرَى فَإِنَّهُ اُذْكَرُ لَكَ][١].

٣. لعل توجيه القاضي عياض لهذه الأحاديث، حين يغضُّ النظرَ عـن سـندها، هـو الأصحُّ في المسألة، بقوله: (وهذا وإن لم تصحَّ الرواية أنه ﷺ كتبَ، فلا يبعـد أن يُرزق علمَ هذا، ويُمنعَ القراءةَ والكتابة)[٢].

بمعنى أن وصفَ الرسول سيدنا مُحَمَّد ﷺ بجري القلـم علـى يـدِ الكـاتب في رسمِ الحروف، وخطِّ شكلها، مأمورٌ به من الله، فيأتي به الوحيُ ليعلِّم الكاتبَ رسـمَ الحرف وخط شكله، وهذا يتفقُ وأن رسمَ حـرف القـرآن توقيـفٌ مـن الله، وتفسـير لسبب تغايُرِ خطِّ القرآن عن خط رسائلِ المصطفـى عَلَيْـهِ الصَّـلاَةُ وَالسَّـلاَمُ للملـوك والرؤساء، مع أن الكتَّاب أنفسهم من كَتَبَة الوحي بين يديه ﷺ ستة وعشـرون كاتبـاً أو أكثر .

تمسَّك الفقيه الأندلسي أبـو الوليـد البـاجي، بظـاهرِ حديـث مسـلم في صُلـح الحديبية، فادعى أن النبيَّ ﷺ كتبَ بيده بعـد أن لم يكـن يحسـن الكتابـة. فشَـنَّعَ عليـه علماءُ الأندلس في زمانه ورموهُ بالزندقة، وأن الـذي قالـه يخـالف القـرآنَ. فجمعـهم الأميرُ فاستظهرَ الباجي عليهم بما لديه من المعرفة وقال للأمير: هذا لا ينـافي القـرآنَ، بل يؤخذ من مفهوم القرآن لأنه قيَّد النفي قبل ورود القرآن فقال:﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾[٣]. وبعد أن تحقَّقت اُمِّيتهُ وتقررت بذلـك معجزته وأمِنَ الارتياب في ذلك لا مانعَ من أن يعرف الكتابة بعد ذلك من غيرِ تعليم فتكون معجزةً أخرى.

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: الرقم (٨٥٣٣). قال في الفتح: وأجاب الجمـهور بضعف هذه الأحاديث.
(٢) حكاه القرطبي في الجامع: ج ٣ ص٣٥٣.
(٣) العنكبوت/ ٤٨.

وذكر ابن دحية أن جماعةً من العلماء وافقوا الباجي في ذلك. ومنهم شيخهُ أبو ذرٍّ الهروي وأبو الفتح النيسابوري وآخرون من علماء أفريقية وغيرها، واحتجَّ بعضُهم بما أخرجه ابن أبي شيبة وعمر بن شيبة من طريق مجاهد عن عوف بن عبدالله قال: [مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى كَتَبَ وَقَرَأَ] قال مجاهد: ذكرتهُ للشعبي فقال: صدقَ قد سمعتُ من يذكر ذلك ومن طريق يونس بن ميسرة عن أبي كَبْشَةَ السَّلُولي عن سهل ابن الحنظلية: أن النبيَّ ﷺأمرَ معاوية أن يكتب للأقرعِ وعُيينة، فقال عيينة: أتراني أذهبُ بصحيفة المتلمِّس؟ فأخذَ رسولُ الله ﷺ الصحيفةَ فنظرَ فيها فقال: [قَدْ كَتَبَ لَكَ بِمَا أُمِرَ لَكَ] قال يونس: فترى رسولَ الله ﷺ كتبَ بعدما أُنزل عليه.

قلتُ: وهذا فيه نظرٌ:

١. إن أحاديث عوف بن عبدالله والشعبي وسهل بن الحنظلية؛ لا تصحُّ، قال القرطبي: قال ابن عطية: وهذا كله ضعيفٌ، وقول الباجي منه[١].

٢. أما حديث مسلم فهو بما وقعَ في الصحيح من حديث البراء أن النبي ﷺ قال لعلي: [اُكْتُبِ الشَّرْطَ الَّذِي بَيْنَنَا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ] فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ تَابَعْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ. فَأَمَرَ عَلِيّاً أَنْ يَمْحَاهَا! فَقَالَ عَلِيٌّ: لاَ واللهِ لاَ أَمْحَاهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أَرِنِي مَكَانَهَا فَأَرَاهُ مَكَانَهَا فَمَحَاهَا وَكَتَبَ ابْنَ عَبْدِاللهِ][٢]. فأخذ بعض العلماء بظاهر النص، وأوّلوا الآية من سورة ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[٣]، وفهموا نصّاً عند البخاري فيه؛ [فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ الْكِتَابَ فَكَتَبَ، وَلَيْسَ يُحْسِنُ يَكْتُبُ][٤]. وليس كما تأوّلوا أو فهموا؛ من وجوه:

الأوّلُ: قول الراوي [فَكَتَبَ] حكاية عن أمرهِ للكاتب أن يكتبَ، أي فيه حذفٌ

---

(١) ينظر: مجمع الزوائد للهيثمي: ج ٨ ص٢٧١.

(٢) كتاب الجهاد والسير: باب صلح الحديبية: الحديث (٩٢/ ١٧٨٣).

(٣) العنكبوت / ٤٨.

(٤) ينظر: صحيح البخاري:كتاب المغازي: باب عمرة القضاء: الحديث (٤٢٥١).

تقديره فمحَاها وأعادها لعليٍّ فكتبَ، أي أمرَهُ بالكتابة، وهو كثيرٌ كقوله: كتبَ إلى قيصر، وكتبَ إلى كسرى، فلا يلزمُ أنه هو الذي يكتب، بل يُملي على كاتبهِ، فعدَّ إملاؤه كتابة.

الثاني: جاء في نصِّ الحديث سؤالُ الرسول سيدنا مُحَمَّد ﷺ لكاتبه أن يريه مكانها، فقال: [أرنِي مَكَانَهَا] فلو كان يعرفُ شكلَ الحرفِ أو الكتابة أو القراءة لَمَا احتاج السؤالَ ولو كانت من ضُروب المعجزة والأمرِ الخارق للعادة ما احتاجَ السؤال أيضاً. لهذا لا يصحُّ مثل هذا الفهمِ، فهو بعيدٌ جداً.

الثالث: أنه جاء في الحديث الصحيح أن رسولَ الله ﷺ احتاجَ تعلُّم لغةِ قوم أعداءٍ، فطلبَ من كُتَّابه فعلَ ذلك وكفايته أمرهم، عن زيدِ بن ثابت قال: أمَرَني رسولُ الله ﷺ أن أتعلمَ له كتابةَ يهود، قال: [إنِّي وَاللهِ لاَ آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ]، قال زيدٌ: فما مرَّ بي نصفُ شهر حتى تعلَّمتُهُ له. قال: فلمَّا تعلَّمتُهُ كَانَ إذَا كَتَبَ إلى يَهُود كَتَبْتُ إليهم، وَإذا كَتَبُوا إليه قَرَأتُ لَهُ كِتَابَهُمْ][(١)].

الرابع: إن الكتابةَ من الأمور الإدارية والتراتيب الفنية التي لا يحتاجُها الأمير لنفسه، وله أن يوكِّل من ينوبُ بها عنه ويقرُّ شأنها وينفذه بعد أن يطلعَ عليه؛ فهي تراتيبٌ إدارية ومدنية. وليس مطلبَ المعجزة فيها بمكان متميِّز بل غير مطلوب، لهذا من هذا الوجهِ يستبعدُ التأويل بأن الرسول سيدنا مُحَمَّداً ﷺ كان يعرفُ الكتابةَ أو شكل الحروف. قال القرطبي: قلتُ: وقال بعض المتأخِّرين من قال هي آيةٌ خارقة، فيقال له: كانت تكون آيةً لا تُنكر لولا أنَّها مناقضة لآية أخرى وهي كونه أمياً لا يكتبُ، وبكونه أمياً في أمَّة أمِّيَّة قامت الحجَّة؛ وأفحم الجاحدون، وانحسمت الشبهةُ فكيف يطلق الله يده فيكتب وتكون آيةً. وإنما الآيةُ ألاّ يكتبَ، والمعجزات يستحيل أن يدفعَ

---

(١) الجامع الصحيح للترمذي:كتاب الاستئذان، باب ما جاء في علم السريانية: الحديث (٢٧١٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

بعضُها بعضاً. وإنما معنى كَتَبَ وأخذَ القلمَ، أي أمرَ مَن يكتبُ به من كُتَّابهِ، وكان من كتبةِ الوحي بين يديه ﷺ ستَّة وعشرون كاتباً[١].

٣. الصحيح في الباب أن الرسول ﷺ ما كتبَ ولا حرفاً واحداً، ولا قرأ. وإنما أمر أن يُكتب الكِتَابَ، وهذا مقتضى فهم النصوص على السجية من غير تكلُّف، قال القرطبي: هذا هو الصحيحُ في الباب أنه ﷺ ما كتبَ ولا حرفاً واحداً، وإنما أمرَ مَن يكتبُ وكذلك ما قرأ ولا تهجَّى.

فإن قيل: فقد تهجَّى النبي ﷺ حين ذكرَ الدجَّال، فقال:[مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كافر][٢] وقلتم إنَّ المعجزةَ قائمةٌ في كونه أميّاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ الآية وقال - أي النبي ﷺ -: [إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسِبُ][٣] فكيف هذا؟ فالجواب ما نصَّ عليه ﷺ في حديثِ حذيفة، والحديثُ

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٥٣.

(٢) عن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَي الدَّجَالِ كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ]. مسند الإمام أحمد: ج ٣ ص٣٢٧. وعن عمر بن ثابت الأنصاري أنه أخبره بعض أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال يوم حذر الناس الدجال: [إِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ مَنْ كَرِهَ عَمَلَهُ أَوْ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ] صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة: الحديث (٩٥/ ١٦٩) من أحاديث الدجال. ولفظ التهجي جاء عند أنس بن مالك [مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر أيْ كَافِرٌ] وفي لفظ [مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ ثُمَّ تَهَجَّاهَا كافر يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُسْلِم] ولربما كان المتهجِّي هو أنسُ بن مالك وليس رسولَ الله ﷺ. لأن الحديث في طُرقه عن جابر بن عبدالله وعمر بن ثابت الأنصاري وعبدالله بن عمر عن أبيه ليس فيه ذِكرُ التهجي والله أعلم. ينظر: مسند الإمام أحمد: ج ٥ ص٤٣٣ وفي ج ٦ ص١٣٩ عن أم المؤمنين عائشة بلفظ [مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ] من حديث طويل تفرد به الإمام أحمد. وعن حذيفة أخرجه مسلم والطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٣٠١٨): ج ٣ ص١٦٧ .

(٣) صحيح البخاري: كتاب الصوم: باب قول النبي ﷺ لا نكتب ولا نحسب: الحديث (١٨١٣) وصحيح مسلم: كتاب الصيام: الحديث (١٥/ ١٠٨٠) وسنن أبي داود: الحديث (٢٣١٩) وسنن النسائي: كتاب الصوم: ج ٢ ص١٣٩-١٤٠.

كالقرآن يفسِّر بعضه بعضاً. ففي حديث حذيفة [يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٌ وَغَيْرُ كَاتِبٍ](١)؛ فقد نصَّ في ذلك على غير الكتَّاب ممن يكون أمِّيّاً. وهذا من أوضح ما يكون.

ثم قلتُ: من المقطوع به أمِّيَّةُ النبي الرسول سيدنا مُحَمَّد ﷺ بما وصفه به ربُّ العالمين فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ (٢) وتقرير الله عَزَّ وَجَلَّ لمحاججة أهل الكتاب ووصفهم المسلمين بالأمِّيين قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ (٣) وقوله عَزَّوَجَلَّ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (٤)، فعموم الأمِّية في الأمة التي بُعث فيها الرسول خصوص لتقرير أمِّيته ﷺ. ولقد نُهينا عن تكلُّف ما لم يكلِّفنا به الله. ولهذا كله لا يستساغ التسليم أو الجزم بأن الرسول ﷺ كان يعرف أشكالَ الحروف.

إِعْجَازُ القُرْآن:

القرآنُ هو اللَّفظ المنَزَّل على سيِّدنا مُحَمَّد ﷺ بما يدلُّ عليه من معانيه، فالقرآنُ هو اللفظ والمعنى معاً. فالمعنى وحدَهُ لا يسمَّى قرآناً، واللفظ وحدَهُ لا يتأتَّى أن يكون دون معنى مطلقاً، لأن أصلَ الوضعِ في اللفظ إنما هو للدلالةِ على معنى معيَّن. ولذلك وصف القرآن بوصفِ لفظه، فقال الله عنه إنه عربيٌّ حيث قال﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ (٥) وقال ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ (٦) وقال ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ (٧) ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ (٨) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ (٩).

---

(١) مسند الإمام أحمد: ج ٥ ص٣٨٦ وصحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة: باب ذكر الدجال: الحديث (١٠٥/ ٢٩٣٤). ولفظه: [مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيهِ كَافِرٌ؛ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ].

(٢) الأعراف / ١٥٨. (٣) آل عمران / ٧٥. (٤) الجمعة / ٢.

(٥) يوسف / ٢. (٦) فصلت / ٣. (٧) الزمر / ٢٨.

(٨) الشورى / ٧. (٩) الزخرف / ٣.

والعربية وصفٌ للفظِ القرآن لا لمعانيه لأن معانيه معاني إنسانيَّة وليست معاني عربيَّة، وهي لبني الإنسان وليست للعرب. وأما قولهُ تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ (١) فإن معناها حكمةٌ مترجمة بلسان العرب، وليس معناه حكمةً عربية. فالعربيةُ وصفٌ للفظه ليس غير. ولفظهُ لا يوصف إلاّ بالعربية فحسب، وهو لا اسمَ له على مسمَّاهُ غيرَ العربية لا حقيقةً ولا مجازاً ولذلك لا يصحُ أن يقال عن كتابةِ بعض معانيه بغيرِ اللغة العربية إنَّها قرآنٌ. فعربية القرآن حتميَّة وهي عربية لفظهِ فحسب.

والقرآنُ هو معجزةُ للنبي مُحَمَّدٍ ﷺ. وإنه وإنْ كانت هنالك معجزاتٌ أخرى للنبي ﷺ. قد جرَتْ على يدهِ غير القرآن، كما وردَ ذلك في القرآن نفسه وفي صِحَاح السُّنة، فإن النبيَّ ﷺ لم يتحدَّ بها، بل كان التحدِّي بالقرآن وحده. ولذا نقول إنَّ القرآن هو معجزةُ النبي مُحَمَّد ﷺ التي بها ثَبَتَتْ رسالتهُ منذ نزول القرآن عليه إلى يومِ القيامة. وقد أعجزَ القرآنُ العربَ عن أن يأتوا بمثله وتحدَّاهم أن يأتوا بمثله، فقال تعالى في تحدِّيه لهم: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٢) وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٣) وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٤) وقد بلغَ من تحديه لهم أنه قال لهم لا تستطيعون أن تأتوا بمثلهِ، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٥). فعجزَ الذين خُوطبوا بالقرآن عن أن يأتوا بمثله، وعجزُهم هذا ثابتٌ بطريق التواترِ ولم يعرف التاريخ ولا روَى أحدٌ أنَّهم أتوا بمثله.

---

(١) الرعد / ٣٧.
(٢) البقرة / ٢٣.
(٣) يونس / ٣٨.
(٤) هود / ١٣.
(٥) الإسراء / ٨٨.

وهذا التحدي ليس خاصاً بالذين خُوطِبُوا بل هو تحدٍّ عام إلى يومِ القيامة. لأن العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوصِ السبب. فالقرآن مُتَحَدٍّ البشرَ كلهم منذ نزوله إلى يوم القيامةِ أن يأتوا بمثله. ولذلك ليس القرآنُ معجزاً للعرب الذين كانوا في أيَّام الرسول فقط، ولا للعرب وحدَهم في كلِّ مكان وزمان، بل هو معجزٌ للناس أجمعين، لا فرقَ في ذلك بين قبيلٍ وقبيل، لأن الخطابَ به للناسِ أجمعين. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾(١) ولأن آياتَ التحدي عامَّة تقول: ﴿ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وهو يشملُ الناس جميعاً، ولأن القرآنَ أخبر عن عجز الإنس والجنّ قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ ﴾ .

وعجزُ العرب عن أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن، وعجزُ الناسِ جميعاً عن أن يأتوا بمثله، إنما هو لأمرٍ ذاتي في القرآن نفسه. فإن العربَ كانوا إذا سمعوا القرآنَ أقبلوا عليه مأخوذين بقوةِ بلاغتهِ، حتى أن الوليدَ بن المغيرة ليقول للناس: وقد سمعَ النبيَّ ﷺ يقرأ القرآن [وَاللهِ مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ أعْرَفُ بالأشْعَار مِنِّي وَلاَ أعْلَمُ برَجْزِهِ وَقَصِيْدِهِ مِنِّي، وَاللهِ مَا يُشْبهُ الَّذِي يَقُولُهُ شَيْئاً مِنْ هَذَا، وَاللهِ إنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُهُ لَحَلاَوَةً وإنَّ عَلَيْهِ لَطَلاَوَةً، وَإنَّهُ لَمُورقٌ أعْلاَهُ مُغْدِقٌ أسْفَلَهُ، وَإنَّهُ لَيَعْلُو وَلاَ يُعْلَى عَلَيْهِ](٢) مع أن الوليدَ هذا لم يؤمن وأصَرَّ على كُفره. فالإعجازُ آتٍ من ذات القرآن، لأن الذين سمعوه والذين يسمعونهُ إلى يوم القيامة يشدَهُون ويتحيَّرون من قوَّة تأثيرهِ وقوَّة بلاغته، بمجرَّد

---

(١) سبأ / ٢٨.

(٢) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص٢٨٩ وفيه تفصيل قصة (تحيّر الوليد بن المغيرة فيما يصف فيه القرآن). والمستدرك على الصحيحين للحاكم: كتاب التفسير: باب مدح كلام الله من لسان الكافر: ج ٢ ص٥٠٧ عن أبي سعيد الخدري: وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي في التلخيص. ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة للبيهقي: باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله من الإعجاز وانه لا يشبه شيئاً من لغتهم: ج ٢ ص١٩٨. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ١٩ ص٧٤. وأسباب النُّزول للواحدي: ص٢٩٥. والبرهان في علوم القرآن للزركشي: ج ٢ ص١٧. ولباب النقول في أسباب النُّزول: ص٢٢٣ .

سماعهم له ولو جملةً واحدة ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ﴾ (١) ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (٢) ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ (٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (٤).

وهكذا تُتلى آيةٌ من القرآن أو آيات، فإن ألفاظَها وأسلوبَها ومراميها تستغرقُ أحاسيسَ الإنسان وتستولي عليه.

وإعجازُ القرآن أظهرُ ما يظهر في فصاحتهِ وبلاغته وارتفاعه إلى درجةٍ مدهشة. ويتجلّى ذلك في أسلوب القرآن المعجز، فإنَّ ما في أسلوبه من الوضوح والقوة والجمال ما يعجزُ البشرَ عن أن يَصِلُوا إليه.

والأسلوبُ هو معاني مرتَّبة في ألفاظٍ منسقة. أو هو كيفيَّة التعبير لتصوير المعاني بالعبارات اللغوية، ووضوح الأسلوب يكون ببروز المعاني المرادِ أداؤُها في التعبير الذي أدِّيَتْ به ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٥). وقوةُ الأسلوب تكون باختيار الألفاظ التي تؤدِّي المعنى بما يتلاءَمُ مع المعنى. فالمعنى الرقيقُ يؤدَّى باللفظِ الرقيق، والمعنى الْجَزلُ يؤدى باللفظ الجزل، والمعنى المستنكرُ يؤدى باللفظ المستنكر وهكذا... ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ (٦) ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ (٧) ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ (٨) ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (٩).

أما جمالُ الأسلوب فيكون باختيار أصفى العبارات وأليَقِها بالمعنى الذي أدَّته، وبالألفاظ والمعاني التي معها في الجملة والجُمل ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ

---

(١) غافر / ١٦. (٢) الزمر/ ٦٧. (٣) الأنفال/ ٥٨.
(٤) الحج/ ١-٢. (٥) فصلت/ ٢٦. (٦) الإنسان/ ١٧-١٨.
(٧) النبأ / ٢١-٢٣. (٨) النجم / ٢٢. (٩) لقمان / ١٩.

كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾(١).

والمتتبع للقرآن يجدُ الارتفاعَ الشامخَ الذي يتَّصف بـه أسلوبه وضوحاً وقـوَّةً وجمالاً. إسمع هذا الوضوحَ والقوة والجمالَ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(٢) ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾(٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾(٤).

والقرآن طرازٌ خاص من التعبير، ونَظْمُـهُ ليس علـى منـهاجِ الشـعر المـوزون المقفَّى، ولا هو على منهاجِ النثر المرسَل، ولا هو على منهاج النـثر المـزدوَج أو النـثرِ المسجوع، وإنما هو منهاجٌ قائم بذاته لم يكن للعرب عهدٌ به ولا معرفة من قبل.

وكان العرب لفرطِ تأثُّرهم بـالقرآن لا يـدرون مـن أيِّ ناحيـة وصـلَ إلى هـذا الإعجاز. فصاروا يقولون ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(٥) ويقولون إنه قولُ شاعر وإنـه قول كاهن. ولذلك ردَّ عليهم اللهُ فقال: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾(٦).

وكونُ القرآن طرازٌ خاص ونسيجٌ منفرد واضح فيه كل الوضوح. فبينمـا تجـده يقـــول: ﴿ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾(٧) ويقـــــول:

---

(١) الحجر/ ٢-٣.
(٢) الحج/ ٨.
(٣) الحج / ١٩-٢٢.
(٤) الحج / ٧٣.
(٥) يونس/ ٧٦.
(٦) الحاقة / ٤١-٤٢.
(٧) التوبة/ ١٤.

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (١) مما هو نثرٌ قريب من الشعر، إذ لو نُظمت الآيتان لكانتا بَيتين من الشعرِ هكذا:

وَيُخْزِهِـــمْ وَيَنْصُرْكُـــمْ عَلَيْـــهِمْ وَيَشْـــفِ صُـــدُورَ قَـــوْمٍ مُّؤْمِنِـــينَ (*)
لَـــنْ تَنَـــالُواْ الْـــبِرَّ حَتَّـــى تُنْفِقُـــواْ مِمَّـــا تُحِبُّـــونَ (**)

ولكنهما ليسا شعراً وإنما هو نوعٌ من النثر فريد. وفي الوقت الذي تجدُ القرآن يقول هذا النوع من النثر تجده يقول: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ (٢) مما هو نثرٌ بعيد عن الشعر كلَّ البعد. وبينما تجده يقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (٣) ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (٤) فيُطيل الفقرة والنَّفَسَ في النثر، وتجده يقول: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ ﴾ (٥) فيقصر الفقرة والنَّفَسَ في النثرِ. مع أن كُلاً منهما نثرٌ في فقرات فقرات. وبينما تجده يبدعُ في النثر المرسل فيرسل في القول فيقول: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى

(١) آل عمران / ٩٢.

(*) التوبة / ١٤: ﴿ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾.

(**) آل عمران / ٩٢: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾.

(٢) الطارق / ١-٧. (٣) النساء / ٦٤.

(٤) النساء / ٦٥. (٥) الشمس / ١-٤.

ﭐلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١) تجده يبدعُ في النثر المسجَّع ويسجع فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ (٢).

وتجده يتسامى في الازدواج ويزدوج فيقول: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ (٣) وتجده يطيلُ الازدواجَ فيقول: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ (٤) وبينما يسيرُ في سجعةٍ معينة إذا هو يعدلُ عنها إلى سجعةٍ أخرى، فبينما يكون سائراً بالسَّجع هكذا ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ إذا هو يعدلُ في الآية التي بعدها مباشرة فيقول: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ ثم يعدل عن هذه السَّجعة إلى غيرها في الآية التي بعدها مباشرةً فيقول: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ (٥).

وهكذا تتبع جميع القرآن لا تجدهُ ملتزماً شيئاً مما في أسلوب العرب من شعرٍ أو نثر على مُختلَفِ أنواعهما ولا يشبهُ أيَّ قولٍ من أقوالِ العرب، ولا يشبههُ أيُّ قول من أقوالِ البشر.

ثم إنك تجدُ أسلوبَهُ واضحاً قويّاً جميلاً يؤدّي المعاني بكيفيَّة من التعبير تصوِّرُ المعاني أدَّقَ تصوير. فتجدهُ حين يكون المعنى رقيقاً يقول: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١

---

(١) المائدة / ٤١. (٢) المدثر / ١-٧. (٣) التكاثر / ١-٦.

(٤) عبس / ١٧-٣١. (٥) المدثر / ٨-١٠.

﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾(١) من الألفاظِ الرقيقة والْجُمل السَّلِسَةِ. وحين يكون المعنى جزلاً يقول: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا﴾ من الألفاظ الفخْمَة والْجُمل الجزلة. وحين يكون المعنى محبَّباً يأتي باللفظ المحبَّب فيقول: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾(٢).

وحين يكون المعنى مستنكرًا يأتي باللفظ المناسب لهذا المعنى فيقول: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾(٣) فيقول: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾(٤). وقد صاحبَ تأدية المعاني بهذه الكيفية من التعبيرِ التي تصوِّر المعاني مراعاةُ للألفاظ ذات الْجَرْسِ الذي يحرِّك النفسَ عند تصوُّرها لهذه المعاني وإدراكها لها. ولذلك كانت تبعثُ في السامعِ المدرك لعمقِ هذه المعاني وبلاغة التعبير خشُوعاً عظيماً حتى كادَ بعضُ المفكِّرين العرب من البُلغاء أن يسجدوا لها مع كُفرِهم وعنادِهم.

ثم إن المدقِّقَ في ألفاظِ القرآن وجُمله يجد أنه يراعي عند وضعِ الحروف مع بعضها، الأصواتَ التي تحدثُ منها عند خروجها من مخارجها فيجعل الحروفَ المتقاربة المخارجِ متقاربةَ الوضع في الكلمة أو الجملة. وإذا حصل تباعدٌ بين مخارجها فصلَ بينها بحرفٍ يزيلُ وحشةَ الانتقال. وفي نفسِ الوقت يجعل حرفاً محبَّباً من مخرجٍ خفيف على الأذن يتكرَّر كاللازمة في الموسيقى، فلا يقولُ [كالبَاعِق المتدفق] وإنما يقول: ﴿كَصَيِّبٍ﴾(٥) ولا يقول [الْهُعْخُعْ] وإنما يقول ﴿سُندُسٍ خُضْرٌ﴾(٦) وإذا

---

(١) النبأ / ٢١-٢٦. (٢) يوسف / ١٠٠.
(٣) النجم / ٢١-٢٢. (٤) لقمان / ١٩.

(٥) البقرة/ ١٩. الباعق من ب ع ق: البُعاقُ: شِدَّةُ الصَّوتِ. ومن المطر: الذي يُفاجئ بوابل. والسَّيْلُ الدَّفَّاعُ، ويثلَّثُ فيهما، كالباعق. وفي الكلام الانصباب فيه بشدة، ورويَّ: [أنَّ الله تعالى يَكْرَهُ الانبعاق في الكلام فَرَحِمَ الله عبداً أوجزَ في كلامه]. ينظر مختار الصحاح للرازي، والقاموس المحيط للفيروزآبادي: مادة :(ب ع ق).
(٦) الإنسان / ٢١.

لزمَ أن يستعملَ الحروف المتباعدة وضعَها في المعنى الذي يليق بـها ولا يـؤدِّي المعنـى غيرُها مثل كلمة ﴿ ضِيزَىٰٓ ﴾ [1] فإنه لا ينفعُ مكانَها كلمة ظالمةٍ ولا جـائرة مـع أنَّ المعنى واحد. ومع هذه الدقة في الاستعمال، فإن الحرفَ الـذي يجعلـه لازمـةً يَـردُ في الآيات واضحاً في التردُّد، فآية الكرسي مثلاً تردَّدت اللامُ فيـها ثلاثـاً وعشـرين مـرة بشكل محبَّب يؤثِّر على الأذنِ حتى ترهف للسَّماع وللاستزادة من هذا السَّماع.

وهكذا تجدُ القرآنَ طرازاً خاصاً، وتجده ينْزِلُ كلَّ معنـى مـن المعـاني في اللفـظ الذي يليقُ به، والألفاظ التي حوله، والمعاني التي معه، ولا تجد ذلك يتخلَّف في أيَّة آية من آياته. فكان إعجازهُ واضحاً في أسلوبه من حيث كونهُ طرازاً خاصاً من القـولِ لا يشبهُ كلامَ البشر ولا يشبههُ كلامُ البشر. ومن حيث إنزالُ المعاني في الألفاظ والجمـل اللائقة بها، ومن حيث وقعُ ألفاظه على أسماعِ من يدرك بلاغتَها ويتعمق في معانيـها فيخشعُ حتى يكاد يسجدُ لها، وعلى أسماعِ مَن لا يـدركُ ذلـك فيأسـرهُ جَـرَسُ هـذه الألفاظِ في نسق معجزٍ يخشعُ له السامع قَسْراً ولو لم يدرك معانيه. ولذلك كان معجزةً وسيظلُّ معجزةً حتى قيامِ السَّاعة.

التفْسِيرُ وَالتَّأوِيـلُ:

التَّفْسِيْرُ تَفْعِيْلٌ مِنَ الْفَسْرِ وَهُوَ الْبَيَانُ، تَقُولُ فَسَـرْتُ الشَّـيْءَ بـالتخفيف أفَسِّـرُهُ فَسْراً، وفَسَّرْتُهُ بالتشديد أفَسِّرُهُ تَفْسِـيْراً إذا بَيَّنْتَـهُ. والفـرقُ بـين التفسـيرِ والتـأويل أن التفسيرَ هو بيانُ المراد باللفظِ، والتأويلُ هو بيان المراد بـالمعنى. وقـد اختصَّـت كلمـة التفسيرِ عند الإطلاق ببيان آياتِ القـرآن، وكلمـة التـأويل بتوجيـه الفـهم إلى العمـل وأداءه في الفعلِ على الوجه المقصود شَرعاً.

قـال تعـالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [2] والتفسيرُ هو التفصيل بالمثال وما يقرِّب المعنى إلى الأذهان؛ بإظهار المعنى المعقول على قصدِ مُراد الشَّارع بما يزيلُ الإيهامَ الذي ربما عَلِقَ في أذهانِهم عندما سمعوا الخطـاب؛

---

(١) النجم / ٢٢.

(٢) الفرقان / ٣٣.

فيرتبطُ التفسير بتكوين المعنى في الذهن بما يخدمُ في فهم النصِّ ووعيه له. والتأويلُ هو ردُّ الشيء إلى الغايةِ المرادة منه علماً كان أو عملاً؛ أي إرجاعهُ إلى أصلهِ؛ فالتأويلُ عملاً بالطاعة لله ورسولهِ، والتأويلُ علماً بإرجاع محلِّ التنازُع والاختلاف إلى مظانِّه من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١).

والتأويلُ على ضَربين: الأولُ: تأويلٌ شرعي للنصِّ، والآخر: تأويلٌ عقلي. وإذا عُلم أن المرادَ بالتأويلِ- على وجه العموم- ما يفيدُ في توجيهِ المعنى في دلالةِ الخطاب إلى طريقة القيامِ بالعمل وإنفاذه على وجهه الشرعيِّ؛ أو بما يخدمُ فكرةَ الموجِّه للدلالة إلى مقاصدهِ وغاياته. والأولُ منهما؛ وهو التأويلُ الشرعي للنصِّ؛ وهو المطلوبُ من المكلَّفين لفهمِ خطاب الشارع على قصدِ مُراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ويثمرُ للمكلَّفِ عند الله الأجرَ والثواب وتتحقَّقَ العبادةِ في إنجازه. والثاني: هو التأويلُ العقلي؛ فهو تحكُّم في توجيهِ دلالة النصِّ إلى ما يفيدُ غرضَ المكلَّف وبما يخدمُ غاياته وأهدافهِ على قصد مرادهِ البشري أو الشخصي أو المذهبيِّ أو الطائفي؛ وهذا ليس مراداً في عُرف الشارع كما سيظهرُ إن شاء الله. وعلى ما يبدُو أن هذا النوعَ من التأويل وقعَ به غالبُ المتكلِّمين، ولإظهار المعنى بما يبني فكرةَ التأويل ومفهومه في عقليَّة المسلمِ نقولُ:

خاطبَ اللهُ الناسَ، بكلامهِ في القرآن الكريم، وبما أمَرَ به رسولَهُ سيِّدنا مُحَمَّد ﷺ أن يبيِّن لهم ما أجمل في الكتاب أو عمَّ أو أطلق. وجاء الخطابُ بلسان عربيٍّ مبين، فصيحٍ يحملُ في دلالاته معاني تُفهم منه من سياق النصِّ مباشرةً، أو من مفرداتِ ألفاظ النصِّ، أي تُفهم المعاني المرادة بإدراكِ دلالة اللفظ باللُّغة العربية، أو بإدراك دلالةِ السِّياق بمعهود العرب وعُرْف لسانِهم وخطابهم، أو تُدرَكُ المعاني من معرفةِ أسباب نُزول النصِّ وأسباب ورود البيان السُّنِّي للكتاب. فيدركُ المرء دلالةَ النص من تفسيرِ ألفاظه ومرامي معانيه على الواقعِ، أو تأويله إلى ما يفيدُ العملَ الفكري الذي

(١) النساء/ ٥٩.

يجري في ذهنِ المكلف لتوجيه الرَّأي والايمانِ والمعتقدات والأحكام؛ أو إلى ما يفيدُ مباشرةَ العمل بإنفاذه على جوارحِ المرء وبأهليَّته الفردية أو الجماعية المجتمعية. لهذا لا يوجدُ في القرآنِ الكريم ما لا يَعْقِلُ المكلفُ ألفَاظَهُ أو لا يفهمُ معانيه. فعقلُ الألفاظ وما يحتاجه هذا التعقُّل الشرعي من مطلوبٍ خبَري على مستوى اللغة والأثر والحديثِ هو **التَّفْسِيْرُ**؛ وهو بَيَانُ مَعَانِي أَلْفَاظِ القُرآنِ وَفَهْمُ مَعَانِيهِ واستخراج أحكامه وحِكَمِهِ؛ باستمداد ذلك من علمِ اللغة بما تدلُّ عليه الألفاظُ منها إلى معانيها؛ وبمعرفة علمِ النَّحو والتصريفِ وعلم البيانِ الذي يلزمُ المرءَ الباحثَ بأساليب العرب في المخاطبة والتعلُّم والإفهام، وعلمِ القراءات وما تحملهُ من دلالات السِّياق في التعبير عن المرادِ، وما إلى ذلك مما يعرفُ بالعلوم الشرعية وما يخدِمُها من علومِ الآلة والعربيَّة.

أمَّا **التَّأْوِيْلُ**؛ فهو معرفةُ دلالةِ الخطاب علىالواقعِ باعتباره نصّاً مسموعاً يخبرُ عن قصد مرادِ الشارع من المكلَّف، وبوصفه كُلاً متماسكاً ووحدةً واحدة غيرَ مجزَّأةٍ تفيد المستمعَ بإنشاء الفكرِ عن الواقع وتكوين معنى يعبرُ به عنه وتبعثُ فيه إلى طلب ما يُلْزِمُهُ الْعَمَلَ.

ولم يكن عند سَلَفِ الأمة تفريقٌ بين التفسيرِ والتأويل في القصد المراد، لأنَّ كليهما يلزمُ الآخرَ، ولم يكن عندهم تفريقٌ بين الفكرِ والعمل من حيث أن الفكرَ للعملِ وليس بينهما مفاصلةٌ إلا الصِّدقُ في المباشرةِ. وليس الحالُ كما فرَّق المتأخرون. فالتأويلُ عند السلف هو إفادةُ المستمعِ أو مَن في حكمه بإنشاءِ الفكر في ذهنه وتقصُّد العمل به؛ فالتفسيرُ بيانُ المعنى في الخطاب، والتأويلُ بيانُ العملِ وتوجيه دلالة الخطاب إليه؛ وأحدُهما يقتضي الآخرَ.

لهذا كان التفسيرُ هو بيان المعنى بحسب مقتضَى اللغة ودلالةِ اللسان بمعهود العرب حين إدراكِهم للخطاب ووعيهم به، أي بما تدركهُ العرب وتفهمه على عهدِ رسول الله ﷺ. والتأويلُ؛ هو بيانُ هذا المعنى على وجهٍ يفيدُ العملَ بمقتضَى هذا المعهودِ من لسان العرب ومعهودِهم وبمقتضى ما جاءَ من السُّنَّة المطهرة في بيانه. لهذا

قال سفيان بن عُيَينة:(السُّنَّة هِيَ تَأْوِيْلُ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ)(١)، ولقد جاءَ الأمرُ والنهي في القرآنِ الكريم، وجاءت السُّنَّة لتبيِّن للناسِ طريقةَ العمل بهما، فالتأويل هنا؛ توجيهُ المعنى المراد في دلالة النصِّ إلى معهودِ العرب للعمل بها وفقَ النسق المخصوص للمكلَّف حين مباشرته في الواقع. وعلى هذا يكون التفسيرُ هو النظام المعرفي في إيجادِ الفكر وتكوينه في ذهنِ المكلَّف، والتأويلُ هو الأثر الوظيفيُّ للتفسير؛ وكلاهما في حقيقتِهِ المعرفية لا ينفصلُ عن الآخر، فهو لازمٌ له.

فالتأويل عند السَّلف رضوان الله عليهم، بمعنى التفسيرِ العمليِّ للنص بترجمته في سلوك المكلَّف وحركته حين ممارسةِ الحياة؛ فهو إدراكُ قصدِ مراد الشارع ووعيهُ له فكراً وعملاً، تفكيراً وتطبيقاً لهذا تصف عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِعْلَ رسولِ الله ﷺ في ركوعِهِ، بأنه يتأوَّلُ القرآنَ، فتقول: [كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ وَرُكُوعِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ. يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ](٢) أي يفعلُ ما أمر به في القرآنِ الكريم من السُّجود والركوع والذِّكر فيهما على ما أمر به. ويقول جابرٌ رضي الله عنه في خبرِ حَجَّة الوداع:[وَرَسُولُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِنَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَهُوَ يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ، فَمَا عَمِلَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ عَمِلْنَا بِهِ](٣) أي تأويلُ الرسول ﷺ بيانٌ لطريقةِ العمل بالكتاب؛ وهذا التأويلُ هو السُّنَّة والطريقة والتفسيرُ هو العلمُ الذي تعبر عنه السُّنَّة وتُتَرْجِمُهُ بالفعلِ، ولهذا يقول أبو عبيدة وغيره: (الْفُقَهَاءُ أَعْلَمُ بِالتَّأْوِيْلِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ)؛ قلتُ: لأن الفقهَ هو

---

(١) ينظر: الرسالة التدمرية لابن تيمية: ص٦٠؛ طبع المكتب الإسلامي. والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطِّلة لابن قيم الجوزية: الفصل الرابع: ج١ ص٢٠٦-٢٠٧.

(٢) عن مسروق عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قالت: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي. يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ). رواه البخاري في الصحيح: كتاب الأذان: باب التسبيح: الحديث (٨١٧). قال ابن حجر في الفتح: قوله (يتأوَّلُ القرآن) أي يفعل ما أمر به فيه. ومسلم في الصحيح: كتاب الصلاة: باب ما يقال في الركوع: الحديث (٢١٧/ ٤٨٤) .

(٣) رواه مسلم في الصحيح:كتاب الحج: باب حجة النبي ﷺ: الحديث (١٤٧/ ١٢١٨) وهو شطر حديث طويل .

العلمُ بالأحكام الشرعية العمليَّة المستنبطة من أدلَّتها التفصيلية(١). وبهذا يظهر الفرق بين دلالتي التفسير والتأويل. وحقيقة المفسر هو الذي يهتم بدلالة الألفاظ على الواقع فكرياً، ولا يغفل الناحية العملية، أي التأويل للنص في مجال القول والعمل.

تَاريخُ نُشُوءِ التَّفْسِيرِ وَأَسْبَابُهُ:

نزلَ القرآنُ باللغة العربيةِ، فألفاظه عربية، حتى الألفاظُ التي أصلها أعجميَّة مثل اسْتَبْرَق، فإنَّها عُرِّبت على أصول العربية، وأصبحت من الألفاظِ العربية. وأساليبهُ هي أساليبُ العرب في كلامهم، قال تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ (٢) وقد كان العربُ يقرأونهُ ويدركون قوَّةَ بلاغتهِ ويفهمون معانيه، إلا أنَّ القرآن لم يكن جميعهُ في متناول العرب جميعاً يستطيعون أن يفهموهُ إجمالاً وتفصيلاً بمجرَّد أن يسمعوهُ، لأن نزولَ القرآن بلُغة العرب لا يقتضي أن العربَ كلَّهم يفهمونهُ من مفرداتهِ وتراكيبه. إذ ليس كلُّ كتابٍ مؤلَّفٌ بلُغة يستطيع أهلُ تلك اللغة أن يفهموه. لأن فهمَ الكتاب لا يتطلَّبُ اللغةَ وحدها، وإنما يتطلبُ درجةً عقليةً من الفهمِ والإدراك تتفقُ ودرجةَ الكتاب في رُقيِّهِ، أي أن يكون القارئ بمستوى فهم النص علماً. وواقع العرب حين نزلَ القرآن أنَّهم لم يكونوا كلُّهم يفهمونه كُلَّهُ إجمالاً وتفصيلاً، وإنما كانوا يختلفونَ في فهمهِ حسب رُقِيِّهم العقلي. ومن أجلِ ذلك تفاوتت مقدرةُ الصحابةِ في تفسير القرآن وفهمهِ، لتفاوت معرفتِهم باللغة العربية، وتفاوُتِ ذكائِهم وإدراكهم أي بحسب تفاوت قدراتهم العلمية التي يحتاجها الفهم الدقيق للنص الشرعي.

على أن ألفاظَ القرآن نفسها لم يكن العربُ كلهم يفهمون معناها. فقد رُوي عن أنس قال: قرأ عمرُ بن الخطاب ﷺ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ فلما أتى على هذه الآية ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قال: قد عرَفنا ما الفاكهةَ! فما الأبُّ؟ فقال: لعمرُكَ يا ابنَ

---

(١) ينظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية: ج ١ ص١٧٥-٢٠٦، والرسالة التدمرية مجمل اعتقاد السلف: ص ٦٠. والبرهان في علوم القرآن للزركشي: ج ١ ص١٣ وما بعدها.

(٢) يوسف / ٢، وطه / ١١٣، والزمر / ٢٨، وفصلت / ٣، والشورى / ٧، والزخرف / ٣.

الخطاب، إن هذا لهو التكلُّف[١] وروي عن عمر أيضاً أنَّهُ كَانَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَرَأَ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ ثُمَّ سَأَلَ عَنْ مَعْنَى التَّخَوُّفِ؟ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ: التَّخَوُّفُ عِنْدَنَا التَّنَقُّصُ[٢].

وفوقَ ذلك ففي القرآنِ آياتٌ كثيرة لا يكفي في تفهُّمِها معرفةُ ألفاظ اللغة وأساليبها، وإنما تحتاجُ إلى معلوماتٍ عن بعضِ ألفاظها، لأنَّ هذه الألفاظ تشيرُ إلى مدلولاتٍ معيَّنة مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴾[٣] ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴾[٤] ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾[٥] ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴾[٦] إلى غير ذلك من الآيات التي تشيرُ إلى معاني معهودة. وهناك آياتٌ يحتاج فهمُها إلى معرفةِ أسباب النُّزول.

وفي القرآنِ آياتٌ مُحْكَمَةٌ واضحةُ المعنى، وهي الآياتُ التي تتعلق بأصُول الدِّين من العقائدِ وخاصَّةً الآيات المكية غالباً، والآيات التي تتعلَّقُ بأصول الأحكام

---

(١) الآية ٣١ من سورة عبس. رواه ابن جرير في التفسير: الرقم (٢٨١٨٧)، قال ابن كثير: إسناده صحيح. ولفظه عند السيوطي في الدر المنثور: قال: مِه نُهينا عن التكلُّف، أو ما كُلِّفنا هذا أو ما أُمرنا بهذا. وقال: أخرجه عبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف، وابن مردويه. ينظر: الدر المنثور في التفسير المأثور: ج ٨ ص٤٢٢. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ١٩ ص٢٢٣ .

(٢) الآية ٤٧ من سورة النحل. والأثر وصله الطبري من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد: الرقم (١٦٣٣٤)، أو أنه عن عمر ﷺ، فإنه روي عنه بإسناد مجهول: جامع البيان للطبري: الرقم(١٦٣٣١)،وروي من طريق سعيد بن المسيب: بينما عمر بن الخطاب ﷺ على المنبر، قال: يا أيُّها الناسُ، ما تقولون في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ فسكتَ الناسُ؛ فقال شيخٌ من بني هُذَيْل: هي لُغتنا يا أمير المؤمنين؛ التخوُّفُ التنقُّصُ. فخرجَ فقال: يا فلان ما فعلَ دَيْنُك؟ قال: تخوَّفْتهُ؛ أي تنقَّصته؛ فرجعَ فأخبر عمر فقال عمرُ: أتعرفُ العربُ ذلك في أشعارهم، فأنشد الشعرَ. فقال عمر: يا أيُّها الناس عليكم بديوان شعرِ الجاهلية. فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامِكم. ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج١٠ ص١١٠-١١١. وفتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر:ج٨ ص٤٩٢: شرح الباب (١٦) من سورة النحل.

(٣) الذاريات / ١. (٤) العاديات / ١. (٥) القدر / ١. (٦) الفجر / ١-٢.

وهي الآيات المدنيَّة غالباً، وخاصَّةً ما يتعلقُ منها بالمعاملات والعقوباتِ والبيِّنات.كما أنَّ في القرآن آيات متشابهة تشتبهُ معانيها على كثيرٍ من الناس، وخاصَّة الآيات التي تحتملُ عدَّة معاني، أو يتحتَّم صرفُها عن المعنى الظاهرِ لها إلى معنى آخر لتناقُضهِ مع العقيدة التَّنْزِيْهيَّةِ، أي فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته أو مسائل القدر.

ومع أنَّ الصحابةَ رضوان الله عليهم هُم أقدرُ الناس على فهمِ القرآن لأنَّهم من أعلمِ الناس بالعربية، ولأنَّهم شاهدوا الظروفَ والوقائعَ التي نزل فيها القرآنُ، إلا أنَّهم اختلفوا في الفهمِ وتفاوَتُوا في القدرةِ على تفسير القرآن حسبَ تفاوُتِهم في درجةِ اطِّلاعهم على العربيةِ، وحسبَ تفاوُتِهم في مُلازمةِ الرسول ﷺ. وكان من أشهرِ المفسِّرين من الصحابةِ رضي الله عنهم جميعاً **عَلِيٌّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَعَبْدِاللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَعَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وأُبَيٌّ بْنِ كَعْبٍ**، وهؤلاء الأربعة أكثر من غذى التفسير في الأمصار الإسلامية المختلفة. والذي مكَّن هؤلاء من التبحُّر في التفسيرِ قوَّتُهم في اللغةِ العربية وإحاطتُهم بمناحيها وأساليبها ومخالطتهم للنبيِّ ﷺ وملازمتُهم له ملازمةً مكَّنتهم من معرفةِ الحوادث التي نزلت فيها آياتُ القرآن وقوَّة عقلهم وذكائهم قوةً مكَّنتهم من ربطِ المعاني ببعضها أحسنَ ربطٍ، والخروج بالنتائج الصائبة. ولذلك لم يتحرَّجوا عن الاجتهادِ في فهم القرآن حسبَ ما يقتضيه عقلُهم، بل اجتهدوا في التفسيرِ، وقالوا فيه برأيهم، وقرَّروا ما أدَّاهم إليه فهمُهم واجتهادهم. ولذلك يعتبرُ تفسير هؤلاء من أعلَى أنواعِ التفسير. إلا أنه قد كُذِبَ عليهم كثيراً، وأدخلت على تفسيرِهم أقوالٌ لم يقولوها، ولذلك تجد في تفسيرِهم الكثير من الموضوعِ، **وَمَا صَحَّ عَنْ هَؤُلَاءِ مِنَ التَّفَاسِيْرِ بِرِوَايَةِ الثِّقَاتِ هُوَ مِنْ أَقْوَى التَّفَاسِيْرِ**. أما ما عداهُ من الموضوعات فلا يجوزُ أن يؤخذَ إذا لم يثبُت أنَّهم قالوه. إلا أنه ليس معنى التحذير من أخذِ تفسير هؤلاء الأربعة الموضوع هو التحذير من قراءةِ تفاسيرهم، بل هو تحذيرٌ من أخذها والعملِ بها باعتبار أنَّ هذه الموضوعات لهم. أما قراءتُها وتحكيمُ الفهمِ الصحيح لغةً وشرعاً وعقلاً بما جاء بها فهو أمرٌ مفيد، لأن في هذه الروايات الموضوعةِ تفاسير قيِّمة من حيث الفهمُ، وإن كانت ضعيفةَ السَّند من حيث نسبته إلى الصحابةِ.

وقد جاءَ بعد الصحابة التابعون، واشتهرَ بعضُهم في الروايةِ عن الصحابة، عن الأربعةِ المذكورين وعن غيرهم، ومن أشهرِ هؤلاء التابعين **مُجَاهِدٍ، وَعَطَاءِ بْنِ أبي رَبَاحٍ، وَعِكْرِمَةَ مولى ابنِ عبَّاس، وَسَعِيْدِ بن جبير**.

وقد اختلفَ العلماءُ في مقدار الثقة بهؤلاء المفسِّرين من التابعين. فمجاهد أوثقُهم وإنْ كان أقلَّهم روايةً، ويعتمد على تفسيره بعضُ الأئمة والمحدِّثين، كالشافعيِّ والبخاري. إلا أن بعضَهم كان يرى أن مجاهداً يسألُ أهلَ الكتاب، ومن هذه الناحية يتريَّثون في أخذِ أقواله، وإن كانوا متَّفقين على صدقهِ. وكان كلٌّ من عطاء وسعيد ثقةً صادقاً لم يطعن أحدٌ على أيٍّ منهما. أما عكرمةُ فإن أكثرَ العلماء يوثِّقه ويصدِّقه، والبخاري يروي له، ويرى آخرون أنه جَرُؤَ على التفسير ويزعمُ أنه يعلم كلَّ شيء في القرآن، وذلك لكثرةِ ما يرويه من التفسيرِ للقرآن عن الصحابة.

وكان هؤلاء الأربعة أكثرُ من يروي عن ابنِ عبَّاس، وهناك من يروي عن بقيةِ الصحابة كمسروق بن الأجدع تلميذِ عبدالله بن مسعود، وكان يروي عنه التفسيرَ.

واشتهر كذلك في التفسيرِ من التابعين قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ السَّدُوْس الأَكْمَهَ[1]، وكان واسعَ الإطلاع في اللغةِ العربية ضَليعاً في الشِّعر العربي وأيامِ العرب وأنسابهم.

وبعد أن انتهَى عصرُ التابعين أخذَ العلماء يؤلِّفون كتبَ التفسير على طريقةٍ خاصَّة هي ذِكْرُ الآية ونقلُ ما روي في تفسيرها عن الصحابةِ والتابعين بالسند. وأشهرُ من قام بذلك سُفيان بن عُيَينة ووكيع بن الجراح وعبدالرزاق وغيرهم، إلا أن تفاسيرَ هؤلاء العلماء لم تَصِلْ إلينا كاملةً، وإنما وصلَ منها أقوالٌ وردت في بعضِ كتب التفسير كتفسير الطبريِّ. ثم جاء بعدهم الفرَّاء ثم جاء الطبري، ثم تتابعَ علماءُ التفسير في كل عصرٍ حتى عصرنا هذا.

---

(١) قَتَادَةُ بْنُ دَعَامَةَ بْنِ قَتَادَةَ بْنِ عَزِيْزِ بْنِ عَمْرِو بْنِ رَبِيْعَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ بْنِ سَدُوْس. أَبُو الْخَطَّاب السَّدُوْسِيُّ الْبَصْرِيُّ وَلِدَ أَكْمَهَ. ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٥٧٠٦).

أُسْلُوبُ الْمُفَسِّرِينَ فِي التفْسِيرِ:

فَسَّرَ الصحابةُ آياتٍ من القرآن الكريم إما اجتهاداً منهم في التفسيرِ أو سماعاً من رسولِ الله ﷺ، وشرحوا في كثيرٍ من الأحيان أسبابَ نزول الآية، وفيمَن نزلت. وكانوا يقتصرون في تفسيرِ الآية على توضيحِ المعنى اللغوي الذي فهموهُ من الآية بأخصرِ لفظٍ، مثل قولهم ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ أي غير متعرِّضٍ لمعصية[1]. ومثل قولهم في قولِهِ تعالى: ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾: كان أهلُ الجاهلية إذا أرادَ أحدهم خروجاً أخذَ قَدَحاً فقال[2]: هذا يأمرُ بالخروجِ فإن خرجَ فهو مصيبٌ في سفرهِ خيراً، ويأخذ قدحاً آخرَ فيقولُ هذا يأمرُ بالْمُكُوثِ فليس يصيبُ في سفرهِ خيراً، والْمَنِيحُ بينَهما[3]. فنهَى اللهُ عن ذلك.

فإن زادوا عن ذلك شيئاً فما روي عن سبب نزول الآية وفيمَن نزلت. مثل ذلك ما روي عن ابنِ عبَّاس في قوله تعالى: ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال: إلى مكَّة[4]. وعن أبي هريرة في قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ قال نزلت في رسولِ الله

---

(١) المائدة / ٣. الْجَنَفُ: الْمَيْلُ؛ والإثمُ والمعصيةُ والحرام، ومعناه عند اضطرارهِ في الْمَخْمَصَةِ لا يبعدُ عن سدِّ الرَّمَق، فلا يميلُ لحرامٍ متلذّذاً به متجاوزاً حدَّ الرخصة، قال القرطبي؛ (أي غيرَ مائلٍ لحرام، ومنه قول عمر: ما تَجَانَفْنَا فيه لإثم) وذلك كان قد أفطرَ الناسُ في رمضان ثم ظهرت الشمسُ فقال: نقضيه ما تَجانفنا فيه لإثم، أيْ ما مِلْنا وَلا تعمَّدنا ونحن نعلمهُ، وكلُّ مائلٍ مُتَجَانِفٌ وَجِنِفٌ. انتهى بتصرف وقال النسفيُّ: غير مائلٍ لإثم أي غيرُ متجاوز لسدِّ الرمق. وقال البيضاوي: غير مائل له ومنحرفٍ إليه بأن يأكلَها متلذّذاً أو مجاوزاً حدَّ الرخصة. إنتهى. ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ٦ ص٦٤، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي: ج١ ص٢٥٤، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي: ج ١ ص ٢٧٠.

(٢) المائدة / ٣. ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ج ١ ص٢٥٤. ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: ج ١ ص٢٧٠. والجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٥٨ وما بعدها.

(٣) الْمَنِيحُ في اللغة من التّناوح: أي التَّقَابُل ومنه سمِّيت النوائح لِتَقَابُلِهنَّ. وكل أمر وسط لأن شأنه وقع بين اثنين فتعادلا به، ومنه كل اسم على ثلاثة أحرف أوسطه ساكن كـ (لُوْطٍ)، لأن خِفَّتَهُ عَادَلَتْ أحَدَ الثُّقَلَيْن. ينظر: مختار الصحاح للرازي: ص٦٨٤.

(٤) القصص/ ٨٥. والتفسير رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٧٧٣).

ﷺ حيث يراودُ عمَّهُ أبا طالبٍ على الإسلام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعمِّهِ عند الموت: [قُلْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ، أشْهَدُ لَكَ بهَا يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ؟] فـأبى فـأنزل الله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ {القصص: ٥٦}[1].

ثم جاء بعد الصحابةِ التابعون فرَوَوا كلَّ ما ذكره الصحابــةُ مـن هـذا القبيـل، وكان من التابعين أنفسهم من فسَّر بعضَ آيات القرآن الكريم أو ذكر سبباً لنُزولها، إما اجتهاداً منهم في التفسيرِ أو سماعاً. ثم جـاء مـن بعـد التـابعين العلمـاءُ فتوسَّـعوا في التفسير ونقلوا أخبارَ اليـهودِ والنصـارى، ثـم تتـابعَ المفسِّـرون في كـلِّ عصـرٍ وجيـل يفسرون القرآن ويتوسَّعون في كلِّ عصر عما قبله. وأخذَ المفسِّرون يتعرضون للآيـات ليستنبطوا منها الأحكامَ ويتعرضون للآيات يفسِّرون بها مذهبَهم من الجبرِ والاختيار، ويفسِّرون الآيات يثبتون بها آراءَهم حسب ما يَميلون إليه، من تشريعٍ أو علـم كـلام أو بلاغةٍ أو صرف ونحو أو ما شاكل ذلك.

والذي يبدو من تتبُّع التفاسيرِ في مختلف العصــور منـذ عصـرِ الصحابـة حتـى عصرنا هذا، أن تفسيرَ القرآن كان في كلِّ عصرٍ من العصــور متـأثِّراً بالحركـة العلميـة فيه، وصورةً منعكسة لما في العصرِ من آراء ونظريَّات ومذاهب، وقلَّما يخلوا تفسيرٌ من التأثُّر بما كان يسودُ عصره من آراء وأفكارٍ وأحكام .

إلا أن هذه التفاسير كلها لَمْ تُؤَلَّفْ فِي كُتُبٍ من أوَّل يومٍ صار فيــه مفسِّـرون، أي من عصرِ الصحابة، بل انتقلت من حالٍ إلى حال في مختلـف العصـور. فقـد كـان التفسيرُ في أوَّل أمرِهِ جزءاً من الحديثِ وبابـاً مـن أبوابـه، وكـان الحديـثُ هـو المـادة الواسعة التي تشملُ جميعَ المعارف الإسلامية، فراوي الحديث كمـا يـروي حديثـاً فيـه حُكم فقهي، يروي حديثاً فيه تفسيرٌ لآية من القرآن.

---

(١) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب على صحـة إسـلام مـن حضـره المـوت: الحديـث (٢٥/٤٢). والترمذي في الجـامع: كتـاب التفسـير: (٣١٨٨). والإمـام أحمـد في المسـند: ج ٢ ص٤٣٤و٤٤١ .

ثم أخذ المؤلِّفون في أوائلِ العصـر العباسيِّ وأواخـر العصـرِ الأمـوي، أي في أوائلِ القرن الثاني للهجرة يجمعون الأحـاديثَ المتشـابهة المتعلِّقـة في موضـوعٍ واحـد ويفْصِلونها عن غيرها. ففُصِلَت المعارفُ التي يتضمَّنُها الحديث مـن تفسـيرٍ وفقـه عـن بعضها، ونشأ من العلوم ما نشـأ مـن حديـثٍ وسـيرة، وفقـه، وتفسـير، فكـان علـمُ التفسير، وأصبحَ علماً مستقلاً يُدرس وحده.

إلاّ أن التفاسيرَ في أوَّل أمرها لم تتَّخذ شَكلاً منظَّماً بأن تذكرَ آيات القرآن مرتَّبة كترتيب المصحف ثم تتبع بتفسيرها، بل كانت التفاسـيرُ تـروَى منشورةً هنـا وهنـاك، تفسيراً لآياتٍ متفرِّقة كما هو الشأنُ في الحديث، وظلَّ الحال كذلك إلى أن تم انفصـالُ التفسيرِ عن الحديث وصار عِلماً قائماً بنفسه، ووُضِع التفسير لكلِّ آيةٍ مـن القـرآن أو جزءٍ من آية مرتَّبة هذه الآيات حسبَ ترتيب المصحف.

وأوَّلُ من تعرَّضَ لتفسـير القـرآن آيـةً آيـة وفسَّـرها علـى التتـابُعِ هـو الفـرَّاء المتوفىسنة ٢٠٧ هجرية. فقد روى ابنُ النديم في كتابِهِ الفهرست قال (إن عمر بن بكير كتبَ إلى الفرَّاء أن الحسنَ بن سهل ربما سألَني عن الشيءِ بعد الشيء من القُـرآن فـلا يحضُرني فيه جوابٌ، فإن رأيتَ أن تجمع لي أصُولاً، أو تجعلَ في ذلك كتاباً أرجعُ إليـه فعلت، فقال الفرَّاء لأصحابِهِ اجتمعوا حتى أمِلَّ عليكم كتاباً في القرآن، وجعـل لَـهم يوماً، فلما حضَرُوا خرجَ إليهم، وكان في المسجد رجلٌ يؤذِّن ويقرأ بالناس في الصلاة، فالتفتَ إليه الفرَّاء فقال له: إقرأ بفاتحةِ الكتاب نفسِّرْها ثم نُوَفِّـي الكتـابَ كلَّـهُ، فقـرأ الرجلُ وفسَّر الفراءُ فقال أبو العباس: لَم يعمَلْ أحدٌ قبله مثله ولا أحسـبُ أن أحـداً يزيدُ عليه).

ثم جاء بعده ابـنُ جريـر الطـبري المتوفـى سـنة ٣١٠ هجريـة فكتـبَ تفسـيره المشهور. وقد اشتهرَ قبل تفسيرِ ابن جرير جملة من التفاسير، منها تفسيرُ ابـن جُريـج. وكان شأنهُ شأن المحدِّثين الأولينَ يجمعون ما وصَلُوا إليه من غيرِ فـرق بـين الصحيـح وغيرِ الصحيح، وقد ذكروا (أن ابن جُريج لم يقصد الصحَّة وإنما روى ما ذكر في كـلِّ آية من الصحيحِ والسقيم). ومنها تفسير السُّـدِّيِّ المتوفـى سـنة ١٢٧ هجريـة، ومنـها تفسير مقاتل المتوفى سنة ١٥٠ هجرية، وقد قال عبدُالله بن المبارك عن تفسيرِ مقـاتل

هذا (ما أحسنَ تفسيره لو كان ثقةً). ومنها تفسير محمَّد بن اسحق، وقد كان ينقلُ عن اليهودية والنصرانية ويذكر في تفسيرهِ أقوالاً لوهَب بن مُنَبهٍ وكعب الأحبار وغيرهما ممن يَرْوُونَ عن التوراةِ والإنجيل وشروحهما، وهذه التفاسيرُ لم تصل إلينا. إلا أن ابنَ جرير الطبري جمعَ أكثرَها وأدخلها في كتابهِ. ثم تتابعَ المفسرون يفسِّرون القرآنَ كاملاً مرتَّباً في كُتب كاملة مرتبة.

إلا أن الناظرَ في التفاسيرِ التي دوِّنت يجدُ أن المفسرين سَلَكُوا في التفسيرِ وجُوهاً شتَّى. منهم من عُنِيَ بالنظرِ في أساليب الكتاب ومعانيه وما اشتملَ عليه من أنواع البلاغةِ ليعرفَ به عُلُوَّ الكلامِ وامتيازه عن غيره من القولِ فغلبت على تفاسيرهم الناحيةُ البلاغية، ومن هؤلاء محمَّد بن عمر الزمخشري في تفسيرهِ المسمى بالكشَّاف. ومنهم من نظرَ في أصُولِ العقائد ومقارعةِ الزائفين ومحاجَّة المخالفين مثل فخرِ الدين الرازي في تفسيرهِ المشهور بالتفسير الكبير. ومنهم من نظرَ في الأحكامِ الشرعية واعتنى في استنباطِها من الآيات فوجَّه عنايته لآياتِ الأحكام وذلك مثل أبو بكر الرازي المعروف بالجصَّاص في تفسيره المشهور أحكامُ القرآن. ومنهم من تتبَّع القصصَ وزاد في قصصِ القرآن ما شاءَ من كُتب التاريخ والإسرائيليات، وأخذَ يجمعُ جميعَ ما يسمعه من غثٍّ وسمين من غيرِ تنقيح لما يخالفُ الشرعَ ولا يطابق العقلَ ويتنافى مع الآياتِ القطعية الدلالة ومن هؤلاء علاء الدين علي بن محمَّد البغدادي الصوفي المعروف بالخازن في تفسيرهِ باب التأويل في معاني التَّنْزيل. ومنهم من عُني في تأييدِ مذهبه وتفسير الآيات حسبَ ما يؤيِّد فرقته مثل تفسير البيان للشيخ الطبرسي، وتفسيرِ التبيان للشيخ الطوسي، فإنَّهما يؤيِّدان آراءَ الشيعة ومذهبَهم في العقائد والأحكامِ. ومنهم من عُني بالتفسير لشرحِ معاني القرآن وأحكامه من غير نظرٍ إلى ناحية من النواحي، وهؤلاء هم المفسِّرون الذين تعتبرُ تفاسيرُهم من أمَّهاتِ كُتب التفسيرِ، ويعتبرون من الأئمَّة في التفسيرِ وغيره، وذلك مثل تفسير ابن جرير الطبري، وتفسير أبي عبدالله محمد القرطبي، وتفسير النَّسفي وغيرهم. ومنهم أيضاً تفسير الإمام الطبراني الذي بين يدينا اليوم نخرجه مطبوعاً والحمد لله رب العالمين.

مَصَادِرُ التفْسِـير:

لا يقصدُ من كلمة مصادر التفسير ما اعتمدَ عليه المفسِّرون في تفسير كلٍّ منـهم للقرآن حسبَ الفكرة التي يحمِلُها كالتوحيد والفقهِ والبلاغة والتاريخ وما شاكل ذلك، فهَذِهِ لَيْسَتْ مَصَادِرَ التَّفْسِيْرِ، بل هي الأمورُ التي أثّرت على المفسِّر فنَحَا نحواً معيَّناً في التفسير. وإنما المقصودُ من مصادر التفسيرِ المراجعُ التي نقلَ عنها المفسرون، ووضعـوا ما نقلوهُ عنها في تفسيرهم، بغضِّ النظر عن الاتجاه الـذي اتجـهوهُ في تفسـيرِهم. وإذا تتبَّعنا مصادرَ التفسير نجدها تنحصرُ في ثلاثةِ مصادر هي:

أولاً- تفسير نُقل عن رسول الله ﷺ: مثل الذي رُوي أن الرسولَ ﷺ قال: [الصَّـلاَةُ الْوُسْطَى صَلاَةُ الْعَصْرِ][1]. ومثل ما رُوي عن علي ﷺ قال: سَأَلْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ عَنْ يَوْمِ الْحَجِّ الأَكْبَرِ فَقَالَ: [يَوْمُ النَّحْرِ][2] ومـا روي أيُّ الأَجَلَيْـنِ قَضَـى

---

(١) رواه الترمذي في الجامع: كتاب الصلاة: باب ما جاء في الصلاة الوسطى أنّها العصـر: الحديث (١٨١) عن عبدالله بن مسعود، وقال: هذا حديـث حسـنٌ صحيـح . والحديـث (١٨٢) عـن سَمُرَة بن جُنْدُبَ، وقال: وفي الباب عن عليّ وزيد بن ثـابت وعائشـة وحفصـة وأبـي هريـرة وأبي هشام بن عتبة. وقال: حديث الحسن عن سَمُرَة حديث صحيح؛ لأن الحسـن سمـع مـن سمرة، قال: حديث سمـرة حسـن. وهـو قـول أكـثر العلمـاء مـن أصحـاب رسـول الله ﷺ وغيرهم. وينظر لحديث علي ﷺ: الرقم(٢٩٨٤). والمصنف لابـن أبـي شـيبة: بـاب في قولـه تعالى: ﴿حَـافِظُوا عَلَـى الصَّلَـوَاتِ وَالصَّـلاَةِ الْوُسْـطَى﴾: الرقـم(٨٦٠٨): ج ٢ ص٢٤٥. وفي الباب عن أم سلمة وأبيّ بن كعب. وحديـث عبـدالله بـن مسـعود رواه مسـلم في الصحيـح: كتاب المساجد: باب مواضع الصلاة؛ وابن ماجة في السنن: كتاب الصلاة: باب المحافظـة علـى صلاة العصر. والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب الصلاة: باب من قال هي صلاة العصر: مـن الرقم (٢١٩٨-٢٢٠٧) .

(٢) رواه الترمذي في الجامع:كتاب تفسير القـرآن: الحديـث (٣٠٨٨) مرفوعـاً؛ والحديـث (٣٠٨٩) موقوفاً على عليّ ﷺ، وهو الأصح؛ جاء من غير وجه. والطـبري في جامـع البيـان في تفسـير القرآن: ج ١٠ ص٩٠: الحديث (١٢٧٤٤) وإسناده صحيح. وعن عبدالله بن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقـال: [هَـذَا يَـوْمُ الْحَـجِّ الأَكْـبَرِ] : الحديث (١٢٧٦٨) عن ابن عمر؛ وذكره البخاري في الصحيح معلقاً: الحديث (١٧٤٢) .

مُوسَى قَالَ: [أَوْفَاهُمَا وَأَبَرُّهُمَا][1]. إلا أن هذا النوعَ لا يجوزُ الاعتماد عليه كمصدرٍ للنقل إلاَّ ما وردَ منه في الكُتب الصحاحِ، لأن القُصَّاص والوُضَّاعَ زادوا فيه كثيراً. ولذلك يتحرَّى في هذا النوعِ من مصادر النقلِ لكثرة الكذب فيه على رسول الله ﷺ. وقد بلغَ من تحري السَّلف في هذا النوع من التفسير حدّاً أنكره كثيرٌ منهم إنكاراً كليّاً... وقالوا لم يُروَ عن رسول الله تفسيرٌ. وقد روي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال (ثَلاَثَةٌ لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ: التَّفْسِيرُ وَالْمَلاَحِمُ وَالْمَغَازِي). ولذلك نجدُ أن المفسِّرين لعدمِ ثقتهم بما وردَ، لم يقفوا عند حدِّ ما وردَ، بل اتَّبعوا ذلك بما أدَّاهم إليه اجتهادُهم. ولم يقِفُوا عند حدودِ النصِّ. وقد أضيفَ إلى ما وردَ عن رسولِ الله، ما وردَ عن الصحابةِ من تفسيرٍ، وصار من التفسيرِ المنقول، وكذلك ما وردَ عن التابعين من تفسيرٍ. وقد تضخَّمَ هذا النوعُ من التفسيرِ المنقول وصار يشملُ ما نقل عن رسولِ الله وما نُقل عن الصحابةِ، وما نقل عن التابعين، وصار وحده كافياً لأن يكونَ وحدَهُ تفسيراً. وتكادُ كتب التفسيرِ المؤلَّفة في العصور الأولى تكون مقصورةً على هذا النحوِ من التفسير.

ثانياً- من مصادرِ التفسير الرَّأيُ، وهو ما يطلقُ عليه الاجتهاد في التفسيرِ. ذلك أن المفسِّرَ يعرفُ كلام العرب ومناحيهم في القولِ، ويعرفُ الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما وردَ مثله في الشعرِ الجاهلي والنثر ونحوهما، ويقفُ على ما صحَّ عنده من أسباب نزولِ الآية مستعيناً بهذه الأدوات، ويفسِّرُ الآيات القرآنية حسب ما أداهُ إليه فهمه واجتهاده.

وَلَمْ يَكُنِ التفسيرُ بالرأي يعني أن يقولَ في الآية ما يشاءُ وما تتطلبه رغبته، وإنما كان الرأيُ الذي يجري التفسيرُ بحسبِهِ يعتمد علىالأدب الجاهليِّ من شعرٍ ونثر وعادات العرب ومحاوراتِها، ويعتمدُ في نفس الوقت على الأحداثِ التي حصلت في أيامِ الرسول ﷺ، وما لَقِيَ النبيُّ من عداءٍ ومنازعات وهجرةٍ وحُروب وفتن، وما حدثَ في أثناء ذلك مما استدعى أحكاماً واستوجبَ نزول القرآن.

(١) عن مجاهد: أن النبي ﷺ سأل جبريل: [أيَّ الأَجَلَين قَضَى مُوسى؟] فقال: [أَبَرَّهُمَا وأَوْفَاهُمَا]. رواه الطبري في جامع البيان: تفسير سورة القصص/ الآية ٢٩: الحديث (٢٠٨٧٦).

وإذن فالمرادُ من التفسيرِ بالرأي هو فهمُ الجمل بواسطة فهمِ مدلولاتِها التي تدلُّ عليها المعلوماتُ الموجودة عند المفسِّر من لغةٍ وحادثة. وأما ما اشتهر على الألسنة عن سيدنا عليِّ بن أبي طالب ﷺ من قوله: [الْقُرْآنُ حَمَّالُ أَوْجُهٍ][1] فليس المرادُ منه أن القرآنَ يحمل أيَّ وجهٍ تريدُ تفسيرَهُ منه، بل المراد أنَّ اللفظةَ الواحدة أو الجملةَ الواحدة تحتملُ عدَّة أوجهٍ من التفسير، ولكن الأوجهَ محصورةٌ بالمعاني التي تحتمِلُها اللفظة أو الجملةُ فقط ولا يخرج عن ذلك. ومن هنا كان التفسيرُ بالرأي عبارة عن فهمٍ للجملة في حدود ما تحتملهُ ألفاظها من معاني. ولذلك أطلقوا عليه أنه تفسيرٌ بالاجتهادِ.

وقد كان جمهرةُ المفسِّرين من الصحابةِ يفسرون بالرأي ويعتمدون بالدرجة الأولى عليه في التفسير، وكانوا يختلفون في التفسيرِ حتى في تفسير الكلمةِ الواحدة، مما يدلُّ على اعتمادهم على فهمِهم الخاصِّ مثل كثير مما وردَ عن ابنِ عباس وابن مسعود ومجاهد وغيرهم.

فمثلاً يفسِّر المفسرون الطُّورَ في قولهِ تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ بتفسيراتٍ مختلفة. فمجاهد يفسِّر الطُّور بالجبلِ، وابنُ عباس يفسر الطورَ بجبلٍ بعينه، وآخر يقول إن الطورَ ما انبثَّ من الجبال. فأما ما لم ينبث فليس بطُور. فهذا الاختلافُ في التفسير نتيجةٌ للاختلافِ في الرأي، لا نتيجة للاختلاف في المنقولِ، مع أن اللفظةَ لغوية، فما بالُكَ حين يكون الرأيُ لمدلول الجملةِ لا لمعنى لفظة، ولذلك اختلفوا أيضاً في معاني الآيات خلافَهم في معاني الألفاظ.

والظاهرُ من تتبُّع تفسيرِ الصحابة لا سيما المفسِّرين المشهورين، أنَّهم في جُملتهم يعتمدون على الرأيِ في التفسير. وأما ما نُقل عن بعضهم من التحرُّج عن التفسيرِ بالرأي والاقتصار على التفسيرِ بالمنقول، فإنه يُحمل على رأيِ مَن لم يستكمل أدوات التفسيرِ وهي العلمُ باللفظة العربية المراد تفسيرها، وبالحوادثِ

(١) عن ابن عبَّاس: (القرآنُ ذُو وُجُوهٍ، فَاحْمِلُوهُ عَلَى أَحْسَنِ وُجُوهِهِ). الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي: الرقم (٤٦٧٢).

التي نزلت في شأنِها الآياتُ. ولا يُحمل على التحرُّج من فهمِ القرآن لأنه أنزل ليفهمَهُ الناس لا ليقتصروا على حدٍّ ما نُقل من تفسير.

وبالرجوعِ إلى النصوص التي وردت في ذلك يتبيَّن منها سببُ هذا التحرج. فقد رُوي عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سُئل عن شيءٍ من القرآن يقولُ: أَنَا لاَ أَقُولُ فِي الْقُرْآنِ شَيْئاً. فهو ينفي عن نفسه القولَ بالقرآن، ولا ينفِي القولَ بالقرآن بالرأي. وقال ابنُ سيرين: سَأَلْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَالَ:(اتَّقِ اللهَ وَعَلَيْكَ بِالسَّدَادِ، فَقَدْ ذَهَبَ الَّذِيْنَ يَعْلَمُونَ فِيْمَ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ)[١].

ومعلوم أن أبا عُبيدة من كبار الصحابة وهو يطلبُ لزومَ السدادِ ومعرفة فيمَ أنزل القرآن. فهذا التورُّع والتحرُّج من القول بالقرآن قد بيَّن أبو عبيدة سَبَبَهُ بقولِهِ (وَعَلَيْكَ بِالسَّدَادِ فَقَدْ ذَهَبَ الَّذِيْنَ يَعْلَمُونَ فِيْمَ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ)[٢]. فإذا وُجِد من يتحرَّى السدادَ ومَن يعلم فيم أنزل القرآنُ فلا شكَّ أنه أهلٌ لأنْ يقولَ فيه برأيه واجتهادِهِ؛ لأنه منضبط بأصول علم التفسير وقواعده.

وعلى ذلك لا نستطيعُ أن نقولَ إن الصحابة كانوا منقسمين إلى قِسمين، قسمٌ يتورَّع عن أن يقولَ بالقرآن برأيه، وقسمٌ يقول بالقرآن برأيه. وإنما كانوا يقولون بالقرآن برأيهم. وكانوا يتورَّعون أن يقولَ أحدٌ بالقرآن برَأيِهِ عن غيرِ علم متأكّد منه في اللفظةِ التي تفسَّرُ والجملة التي تُبيَّن من آياتِ القرآن، وكان كذلك التابعون. إلا أنه جاءَ من بعدهم من اطَّلعوا على هذه الأقوالِ وفهموها أنَّها تحذيرٌ من القولِ بالقرآن بالرأي فتورَّعوا أن يقولوا فيه. وجاء مَن اطَّلعوا على تفسيرِ الصحابة بالرأي فقالوا بالتفسيرِ بالرأي.

---

(١) الموفقات في أصول الشريعة للشاطبي: ج ٣ ص٣٥٠: لا بد في علم القرآن من معرفة أسباب التَّنْزِيْلِ. أخرجه سعيد بن منصور في سننه: ج ١ ص١٨٥ الرقم (٤٤). وابن أبي شيبة في المصنف: ج ١٠ ص٥١١، وأبو عبيد في فضائل القرآن: الرقم (٨٣٠)، وابن جرير في التفسير: الرقم(٩٧): ج ١ ص٨٦. والبيهقي في شُعب الإيمان: الرقم (٢٠٨٥). والتوحيدي في أسباب النزول: ص٥٠٤. والسيوطي في الإتقان: ج ١ ص٤١، وبعض أسانيده صحيحة.

(٢) مصنف عبدالرزاق : ج ١ ص٥١١. والطبري: ج ١ ص٨٩.

ولذلك انقسمَ العلماءُ فيما بعدُ في التفسيرِ إلى قسمين: قسمٌ يتحرَّج عن القولِ بالرأي ويقتصرُ على المنقول، وقسمٌ يقول فيه بالرأي. أما الصحابةُ والتابعون فلم يكونوا قِسمين بل كانوا يقولون بالقرآن بما يعلمون من رأيٍ ومنقول، ويتحرَّجون عما لا يعلمون ويحذِّرون من القولِ في القرآن بالرأي من غيرِ اعتماد على علم.

ثالثاً- الإسرائيليَّات: ذلك أنه دخلَ في الإسلام بعضُ اليهود والنصارى، وكان بين هؤلاءِ علماءٌ في التوراة والإنجيل، وكان اليهودُ منهم، أكثر ما دخلوا غيرَ صادقين، لأن اليهودَ أكثرُ حقداً وبُغضاً للمسلمين من النَّصارى. فتسرَّب من هؤلاءِ العُلماء إلى المسلمين كثيرٌ من الأخبار الإسرائيلية، دخلت في تفسيرِ القرآن ليستكملوا بها شرحَ الآيات. ذلك أن شَغَفَ العقول وميلَها للاستقصاءِ دعاها عند سماعِ كثيرٍ من آيات القرآن أن تتساءَل عما حولها، فإذا سَمعوا قصَّة كلب أصحاب الكهف قالوا ما كان لونـهُ؟[(١)] وإذا سمعوا ﴿ فَقُلْنَا اَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ ﴾ تساءَلوا ما ذلك البعضُ الذي ضربوا به؟[(٢)] وإذا قرأوا ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ تساءلوا مَن هذا العبدُ الصالح الذي لَقِيَهُ موسى وطلبَ منه أن يُعلِّمه؟[(٣)] ومن هنا تأتِي قصَّة الخضر. وهكذا كانت تتواردُ عليهم قصصٌ وأخبار فيسألون عنها. وتجدُهم يسألون عن الغلامِ الذي قتلَهُ العبدُ الصالح، وعن السفينةِ التي خرقَها، وعن القريةِ التي لم تضيِّفه. وتساءلوا عن قصَّة موسى وشُعيب وعن مقدار سفينة نوح إلى غير ذلك. وكان الذي يجيبُهم على هذه الأسئلةِ ويسدُّ طمعَهم في هذه المعلومات هي

---

(١) وفيها يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف / ٢٢]. والقليل الذين يعلمون ذلك من مثل ابن مسعود وابن عبَّاس ﷺ فهما يقولان: [أنا مِنَ القَلِيل]. والمسألةُ لا يبتنى عليها عمل، والانشغال بالأسماءِ والعدد يصرفُ المرءَ عن العبرة في الذِّكرِ من القصة. والله أعلم. ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج١٠ ص٣٨٤ والدر المنثور للسيوطي: ج ٥ ص٣٧٥ وما بعدها .

(٢) البقرة / ٧٣.

(٣) الكهف / ٦٥.

التوراةُ وما عُلِّقَ عليها من حواشٍ وشُروح، وما أدخل عليها من أساطير، ينقلُها إليهم اليهودُ الذين دخلوا في الإسلام عن حُسن نيَّة، أو عن سوءِ نيَّة سواء. وكان قد أدخلَ بعضُ النصارى ممن أسلموا بعض القصصِ والأخبار عن الإنجيل، إلا أن ذلك قليلٌ بالنسبة لما أدخله اليهودُ. وهكذا تضخَّمَ الشيءُ الكثير من القصصِ والأخبار تضخُّماً كبيراً حتى زادَ عما رويَ من التفسيرِ المنقول، وحتى شُحنت كثير من كتب التفسيرِ بهذا المقدار الضخم من الإسرائيليَّات والقصصِ والأخبار الأخرى. وكان من أكثر مَن أدخلَ هذه الإسرائيليات وأشهرهم **كَعْبُ الأَحْبَار، وَوَهَبُ بْنُ مُنَبِّه، وَعَبْدُاللهِ ابْن سَلاَم**، وهناك غيرهم كثيرٌ، وبهذا صارت هذه الإسرائيلياتُ والقصص والأخبار الأخرى مصدراً من مصادر التفسير عند قسم من المفسِّرين.

حَاجَةُ الأُمَّةِ الْيَوْمَ إِلَى مُفَسِّرِينَ:

علمُ التفسير باعتبار كونهِ معرفةً من المعارف الشرعية الهامَّة هو من أجَلِّ العلوم الشرعية فهو أحد العلوم الشرعية الثلاثة المعتبرة. ولذلك لا بدَّ من العنايةِ به في كلِّ عصر وفي كلِّ جيلٍ. والأمةُ اليوم في حاجة إلى مفسِّرين، لأنه جدَّت أشياءُ لم تكن، فلا بدَّ من معرفتها إذا كانت تندرجُ تحت كليَّات عامَّة ذُكرت في القرآن، أو يمكن انطباقُ أحكامٍ جزئية عليها.

على أن أسلوبَ التفاسير القديمة باعتباره جمعاً للتفسير، **هُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ التَّأْلِيفِ مِنْ حَيْثُ الشَّكْلِ وَالْعَرْضِ، وَهُوَ كَأُسْلُوبِ الْمُؤَلَّفَاتِ الْقَدِيمَةِ لاَ يَجِدُ أَبْنَاءُ هَذَا الْجِيلِ رَغْبَةً وَشَغَفاً بِقِرَاءَةِ التَّفَاسِيرِ إِلاَّ لِمَنْ تَعَوَّدَ عَلَى قِرَاءَةِ الْمُؤَلَّفَاتِ الْقَدِيمَةِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ. وَلِهَذَا كَانَ لاَ بُدَّ مِنْ أُسْلُوبٍ يَبْعَثُ الرَّغْبَةَ وَالشَّغَفَ فِي الْمُسْلِمِينَ فَضْلاً عَنْ غَيْرِهِمْ، لِقِرَاءَةِ التَّفَاسِيرِ كَكِتَابٍ فِكْرِيٍّ عَمِيقِ الْفِكْرِ مُسْتَنِيرِهِ.**

وفوقَ ذلك فإن ما سارَ عليه المفسِّرون في العصرِ الذي جاء بعد وجودِ ترجمة الكُتب الفلسفية والتأثُّر بها، وفي العصرِ الهابط الذي جاء بعد الحروب الصليبيَّة، قد أدَّى إلى وجُود تفاسير صَرفت جُهداً كبيراً نحو العنايةِ بأشياء ليست من التفسيرِ ولا علاقةَ لآيات القرآن بها، فضلاً عما تراكَمَ فيها من الإسرائيليَّات، حتى أصبحت عندَ

المفسِّرين مصدراً ثالثاً من مصادر التفسير. فَكَانَ لاَ بُدَّ مِنْ تَفْسِيرٍ لِلْقُرْآنِ يَجْرِي عَلَى سُنَنِ تَفْسِيرِ الصَّحَابَةِ مِنْ حَيْثُ الاجْتِهَادُ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ وَالاِسْتِعَانَةُ بِمَا نُقِلَ مِنْ تَفْسِيرٍ عَنِ الصَّحَابَةِ.

أما ما نُقل من تفسيرٍ عن الرسول ﷺ فإنه إن صحَّ يعدُّ جزءاً من الحديث، ولا يعدُّ تفسيراً، إذ يكون حينئذٍ نصّاً تشريعياً كالقرآنِ فلا يدخلُ في عِدَادِ التفسيرِ.

أما الأسلوبُ الذي ينبغي أن يسيرَ عليه المفسِّرُ فذلك راجعٌ لإبداعه هو، لأنه شكلٌ من الأشكالِ، وهو من نوعِ التأليف يختارُ كلٌّ واحد حسب ما يرَى من وسيلةٍ لأداء هذا التفسيرِ من حيث الترتيبُ والتبويب والعرضُ، ولذلك لا يصحُّ أن يبيَّن أسلوبُ التأليف في التفسيرِ.

أما **طَرِيقَةُ التَّفْسِيرِ** فهي التي تحتاجُ إلى بيانٍ. وقد وجدنا بعد الدراسةِ والبحث والفكرِ طريقةً للتفسير نعرضُها هنا ليجري تفسيرُ القرآن على منهجِها[1]، وهي الطريقةُ التي يقتضيها واقعُ القرآن. وإنما قُلنا طريقةً أي أمْراً مقرَّراً دائمياً ولم نقل أسلوباً، لأنَّها كطريقة الاجتهادِ التي فُهمت من واقع النصوص ومن الأدلة التي أرشدَ إليها القرآن الكريم، وكذلك التفسيرُ سواءً بسواءٍ. فهي طريقةٌ من حيث الإلتزامُ بها لا من حيث كونُها حُكماً شرعياً. لأنَّها ليست من قبيلِ الأحكام، **أمَّا هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي نَرَى السَّيْرَ عَلَيْهَا فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَتَتَلَخَّصُ فِيمَا يَلِي** :

تفسيرُ القرآن هو **بَيَانُ** معاني مفرداتهِ في تراكيبها، ومعاني تراكيبهِ من حيث هي تراكيبُ. وحتى تُعرف طريقة تفسيرهِ لا بد **أولاً**: من **عَرْضِ وَاقِعِ القرآن أوَّلاً وَدِرَاسَتِهِ دِرَاسَةً إجْمَالِيَّةً تبرزُ حقيقةَ هذا الواقعِ، ثم يُدْرَسُ مَا يَنْطَبِقُ عليه هذا الواقعُ من حيث ألفاظهُ ومعانيه، ثانيا: ثُمَّ يُفْهَمُ مَا هُوَ الْمَوْضُوعُ الذي جاءَ به**. وبهذه المعرفة للواقعِ وما ينطبقُ عليه، ولموضوعِ البحث الذي جاءَ به القرآنُ يتبيَّن المرءُ الطريقةَ التي تُسلَكُ في تفسيرِ القرآن، فيهتدِي إلى السبيلِ القويم الذي يجبُ أن يجري التفسير على نهجه.

---

(١) اقتبسنا غالب هذه المقدمة من كتاب الشخصية الإسلامية للشيخ الإمام مُحمَّد تقي الدين النبهاني رحمه الله. مع التصرف حسب مقتضى موضوعنا في التقديم.

أوَّلاً- عَرْضُ وَاقِعِ القُرآن:

أمَّا وَاقِعُ الْقُرْآنِ فهو كلامٌ عربي فيجب أن يُفهم واقعه باعتبارهِ كلاماً عربياً. إذ يجبُ أن تدركَ مفرداته من حيث كونُها مفردات عربيَّة، وأن تدركَ تراكيبهُ من حيث كونُها تراكيبَ عربيَّة تحتوي ألفاظاً عربية، وأن يدركَ واقعُ التصرُّف في المفرداتِ في تراكيبها، وواقعُ التصرف في التراكيب بوصفها تراكيب فحسب، من حيث كونهُ تصرُّفاً عربياً في مفرداتٍ عربية في تراكيب عربية أو تصرُّفاً عربياً في تراكيب عربية من حيثُ التركيبُ جُمْلَةً. وأن يدركَ فوق ذلك الذوقُ العالي في أدب الخطاب، وأدب الحديث في القرآن من حيث النهجُ العربي في الذوقِ العالي في أدب الخطاب وأدب الحديث في كلامِ العرب.

فإذا أدركَ ذلك كله، أي إذا أدرك واقعُ القرآنِ على هذا الأساسِ العربي إدراكاً تفصيليّاً أمكنَ تفسيرهُ وإلا فلاَ. لأن القرآنَ كله يمضِي في ألفاظه وعباراتهِ على ألفاظ العرب وعباراتِهم ومعهودهم في كلامهم، ولا يخرجُ عن ذلك قيدَ شعرة، فلا يمكنُ تفسيره إلا بهذا الإدراك وعلى هذا الواقعِ. وما لم يتوفرْ ذلك فإنه لا يمكنُ تفسيره تفسيراً حقيقيّاً بحالٍ من الأحوال. وعليه فإنه يتوقفُ تفسيرُ القرآن بوصفهِ كلاماً عربياً ونصّاً من النصوصِ العربية على إدراك واقعهِ العربي من حيث اللغةُ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [(١)] ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [(٢)]. هذا من حيث واقعهُ، وما ينطبق عليه الواقعُ من حيث ألفاظه ومعانيه، أي من حيث اللغةُ.

ثانياً- مَوْضُوعُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

أمَّا مِنْ حَيْثُ الْمَوْضُوعِ الذي جاءَ به فإن موضوعَهُ رسالةٌ من الله لبني الإنسان يبلّغُها رسولٌ من الله. ففيه كلُّ ما يتعلق بالرسالةِ من العقائد والأحكامِ والبشارة والإنذار والقصص، للعظةِ والذكرى، والوصفِ لمشاهد يوم القيامةِ والجنَّة والنار، للزجرِ وإثارة الشَّوق، والقضايا العقليَّة، للإدراكِ، والأمور الحسية والأمور الغيبية المبنيَّة على أصلٍ عقلي، للإيمان والعملِ، وغير ذلك مما تقتضيه الرسالةُ العامة لبني

---

(١) طـه / ١١٣. (٢) الرعد / ٣٧.

الإنسان. فالوقوفُ على هذا الموضوعِ وقُوفاً صحيحاً لا يمكنُ أن يكون إلا عن طريق الرسولَ الذي جاءَ به، لا سيما وقد بيَّن اللهُ تعالى أن القرآن أنزل على الرسول لِيُبَيِّنَهُ للناس، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[1]. وطريقُ الرسول هي سُنَّتهُ، أي ما رُوي عنه رواية صحيحةً من أقوالٍ وأفعال وتقارير.

ومن هنا كان من المحتَّم أن يجريَ الإطلاعُ على سُنَّة الرسول قبلَ البدء بتفسيرِ القرآن وعند تفسيره، إذ لا يمكنُ فهم موضوعِ القرآن إلا بالإطلاع على سُنَّة الرسول ﷺ. **إلاَّ أنَّ هَذَا الإِطّلاَعَ يَجِبُ أنْ يَكُونَ إطِّلاَعَ وَعْيٍ لِمَتْنِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، أيْ يَجِبُ أنْ يَكُونَ إطِّلاَعَ تَدَبُّرٍ لأَفْكَارِهَا بِاعْتِبَارِهَا مَفَاهِيمَ، لاَ إِطِّلاَعَ حِفْظٍ لألْفَاظِهَا**، اي لا يضيرُ المفسِّرَ أن لا يهتمَّ بحفظ الألفاظِ أو معرفة السَّند والرواة ما دامَ واثقاً من صحَّة الحديث من مجرَّد تخريج الحديث، بل **الْمُحَتَّمُ** عليه إدراكُ مدلولات الحديثِ. لأن التفسيرَ متعلِّق بمدلولات السُنة لا بألفاظِها وسندها ورواتِها. وعليه يجبُ توفر الْوَعْيِ على السُّنة حتى يتأتَّى تفسيرُ القرآن.

ومن هنا يتبيَّن أنه لا بد لتفسيرِ القرآن <u>**أوَّلاً**</u> وقبل كل شيء من (**دِرَاسَةِ وَاقِعِ الْقُرْآنِ تَفْصِيلِيّاً، وَدِرَاسَةِ مَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ هَذَا الْوَاقِعُ مِنْ حَيْثُ الأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي**)، **ثُمَّ** <u>**ثانياً**</u>: **إِدْرَاكِ مَوْضُوعِ بَحْثِهِ**. ويجب أن يُعْلَمَ أنه لا يكفِي الإدراكُ الإجمالي بل لا بد من الإدراك التفصيليِّ للكليات والجزئيات ولو بشكلٍ إجمالي. ولأجلِ تصوُّر هذا الإدراك التفصيليِّ نعرضُ لَمْحَةً أو إشارةً عن كيفية هذا الإدراكِ التفصيلي لواقع القرآن من حيث مفرداتهُ وتراكيبه وتصرفه في المفرداتِ والتراكيب، ومن حيث الأدبُ العالي في الخطاب والحديث من الناحية العربية، من حيث لغةُ العرب ومعهودهم في كلامهم.

أما واقعُ القرآن من حيث **مفرداتهُ** فإنا نشاهد فيه مُفْرَدَاتٍ ينطبق عليها المعنى اللغويُّ حقيقةً، والمعنى اللغوي مجازاً. وقد يبقى استعمالُ المعنى اللغويِّ والمجازي معاً، ويعرفُ المعنى المراد بالقرينةِ في كلِّ تركيبٍ. وقد يُتناسَى المعنى اللغوي ويبقى المعنى المجازي، فيصبحُ هو المقصود، لا المعنى اللغوي. ونشاهدُ فيه مفردات ينطبق عليها المعنى

---

(١) النحل/ ٤٤.

اللغويِّ فقط، ولم تُستعمل في المعنى المجازي، لعدمِ وجود أيِّ قرينة تصرِفُها عن المعنى اللغوي. وتوجد فيه مُفْرَدَاتٍ ينطبقُ عليها المعنى اللغوي وينطبق عليها معنى شرعي جديدٍ غير المعنى اللغوي حقيقة، وغيرِ المعنى اللغوي مجازاً وتستعملُ في المعنى اللغويِّ والمعنى الشرعي في آياتٍ مختلفة، والذي يعيِّنُ أيَّ معنى يرادُ منهما هو تركيبُ الآية. أو ينطبقُ عليها المعنى الشرعي فحسب، ولا تُستعمل في المعنى اللُّغوي.

فمثلاً كلمة قرية استعملت بمعناها اللغوي فقط، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ﴾ [1] ﴿ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ﴾ [2]. واستُعملت بمعناها المجازي، وقال تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ [3] والقرية لا تُسأل بل المراد أهلُ القرية، وهذا المعنى مجازيٌّ. قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا ﴾ [4] والمراد أهلُ القرية.

ومثل قوله تعالى ﴿ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ ﴾ [5]. فالغائطُ هو المكان المنخفِضُ، استُعملت في قضاءِ الحاجة مَجازاً، لأن الذي كان يقضِي الحاجة يذهبُ إلى مكانٍ منخفض، فغلبَ استعمالُ المعنى المجازي وتُنوسِيَ المعنى الحقيقي. ومثل قوله تعالَى: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ [6] وقوله ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ [7] فإن المرادَ معناها اللغوي ولم يردْ لها معنى آخر.

ومثل قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴾ [8] فإن المرادَ معناها اللغوي، وهو تطهيرُ الثِّياب من النَّجاسة، لأن طَهُرْ في اللغة طَهَارَةً ضدَّ نجس، وطَهَّرَ الشيءَ بالماء غَسَلَهُ، وتَطَهَّرَ واطَّهَّرَ تَنَزَّهَ عَنِ الأَدْنَاسِ. وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ ﴾ [9] ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ [10] فالمعنى اللغوي هنا وهو إزالةُ النَّجاسة غيرُ ممكن لأن المؤمنَ لا ينجسُ، فلم يبقَ إلا معنى آخر وهو إزالةُ الحدثِ. فاطَّهَّرُوا: أزيلُوا

(١) الكهف / ٧٧.
(٢) النساء / ٧٥.
(٣) الطلاق / ٨.
(٤) يوسف / ٨٢.
(٥) النساء / ٤٣، والمائدة / ٦.
(٦) المائدة / ٤٢.
(٧) الرحمن / ٩.
(٨) المدثر / ٤ .
(٩) المائدة / ٦.
(١٠) الواقعة / ٧٩.

الْحَدَثَ. والْمُطَهَّرُونَ: الْمُتَنَزِّهُونَ عَنِ الْحَـدَثِ، لأن إزالـةَ الحـدثِ الأكـبر والحـدث الأصغر يقال له شرعاً طَهَارَةٌ، قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: [لاَ يَقْبَلُ اللهُ صَـلاَةً بغَـيْرِ طُهُورٍ][1] أي إزالة الحدث.

ومثـل قولـه تعـالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ [2] فـإنَّ المـراد معناها الشرعيّ. وقوله تعالى: ﴿ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ [3] المرادُ المعنـى اللغـوي وهُـوَ الدُّعَاءُ. ومثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ [4] وقولـه تعـالى: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [5]. وجميـعُ الآيـات الـتي ذُكـرت فيـها الصـلاة لم تسـتعمل إلا بمعناهـا الشرعيِّ.

هذا من حيث **المفرداتُ**. أما واقعُ القرآن من حيث **التَّرَاكِيْبُ** فإن اللغةَ العربيـة من حيث هي، ألفاظٌ دالة على معانٍ، وإذا تقصَّينا هذه الألفاظ من حيث وجودُها في تراكيب، سواءٌ أكانت من حيث معناها الإفـرادي في الـتركيب، أم مـن حيـث معنـى التركيب جملةً، فإنَّها لا تخرجُ عن نظرتَين اثنتين:

إِحْدَاهُمَا أن يُنظر إليها من جهة كونِها ألفاظاً وعباراتٍ مطلقةً دالة على معـاني مطلقة، وهي الدلالةُ الأصلية.

وَالثَّانِي من جهة كونِـها ألفاظـاً وعبـارات دالَّـة علـى معـانٍ خادمـة للألفـاظِ والعبارات المطلقة، وهي الدلالةُ التابعة.

أمَّا بِالنِّسْبَةِ **لِلْقِسْمِ الأَوَّلِ** وهو كون التراكيب ألفاظاً وعبارات مطلقةً دالَّة علـى معاني مطلقة، فإن في اللغة من حيث المفرداتُ ألفاظٌ مشتركة مثل كلمة العَيْنِ وكلمـة القَدَر وكلمة الرُّوحِ وما شاكل ذلك، وفيها ألفــاظٌ مترادفـةٌ مثـل كلمـة جَـاءَ وأتـى، وكلمة أسَدٍ وقَسْوَرَةٍ وكلمة ظَنَّ وزَعَمَ، إلى غيرِ ذلك. وفيه ألفاظاً مضادة مثــل كلمـة

(١) رواه النسائي في السنن: كتاب الطهارة: باب فرض الوضـوء: ج ١ ص٨٧-٨٨. والطبراني في المعجم الكبير: ج ١٨ ص١٧٢: الرقم (٥٠٩) ورجاله رجال الصحيح.

(٢) العلق/ ٩-١٠.

(٣) الأحزاب/ ٥٦.

(٤) الجمعة/ ١٠.

(٥) لقمان/ ١٧.

قُرْؤٍ للحيض، والطُّهر، وكلمة عزر للإعانة والنصرة؛ وكذلك للوم والتنكيلِ وما شابه ذلك. ويحتاج فهمُ المعنى المراد من الكلمة فهم التركيب، ولا يمكن أن يفهمَ معناها بمجرَّد مراجعة قواميسِ اللغة، بل لا بد من معرفة التركيب الذي وردت فيه هذه الكلمةُ، لأن التركيبَ هو الذي يعيِّنُ المعنى المراد منها. وكما نقولُ ذلك في المفرداتِ بالنسبة للتراكيب نقولهُ بالنسبة للتراكيب نفسها، فإنَّها من حيث هي ألفاظٌ وعبارات مطلقة دالة على معانٍ مطلقة، وهذه هي دلالتُها الأصلية، وما لم ترِد قرينةٌ دالةٌ على غير ذلك، فإن معناها المطلق هو المراد، وهذا كثيرٌ في القرآن لا يحتاج إلى تمثيل لأنه الأصلُ.

وأمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْقِسْمِ الثَّانِي وهو كون التراكيب ألفاظاً وعبارات دالَّةً على معاني خادمةٍ للألفاظ والعبارات المطلقة، فإن كلَّ خبرٍ يقالُ في الجملة يقتضي بيانَ ما يقصدُ في الجملة بالنسبةِ لذلك الخبر. فتوضَعُ الجملة على وضعٍ يؤدِّي ذلك القصدِ بحسب المخبر، والمخبَر عنه، ونفسِ الإخبار، في الحال التي وُجد عليها، وفي المسَاق الذي سِيقت به الجملَةُ، وفي نوعِ الأسلوب من الإيضاحِ والإخفاء والإيجاز والاطناب وغير ذلك. فإنك تقولُ في ابتداء الإخبار: قَامَ زَيْدٌ، إن لم تكن عنايةٌ بالمخبَر عنه بل بالخبر. فإن كانت العنايةُ بالمخبَر عنه قلتَ: زَيْدٌ قَامَ. وفي جواب السؤال أو هو منَزَّل منْزلة السؤال قلتَ: إنَّ زَيْداً قَامَ. وفي جواب المنكرِ: وَاللهِ إنَّ زَيْداً قَامَ، وفي إخبار مَن يتوقع قيامَ زيد: قَدْ قَامَ زَيْدٌ، إلى غيرِ ذلك من الأمور التي يجبُ أن تلاحظَ في النصوصِ العربية.

وقد جاء القرآنُ مستوفياً هاتين النظرَتين، فجاءت الألفاظُ والعبارات المطلقة الدالَّة على معانٍ مطلقة، وجاءت فيه الألفاظُ والعبارات المقيَّدة الدالة على معان خادمةٍ للمعاني المطلقة، في وجُوهٍ متعددة من البلاغة. ومن أروعَ ما رُوعي فيه وجود المعاني الخادمةِ، التي هي الدلالةُ التابعة، الآيات وأجزاء الآيات التي تتكرَّر في القرآن في السُّورة الواحدة والسور المختلفة، وكذلك القصصُ والْجُمل التي تتكرر في القرآن، وما جاء فيه من تقديمِ المحمول على الموضوع، ومن التأكيدِ بأنواع التأكيد أو بنوعٍ واحد حسبَ مساق الجملة، ومن الاستفهاماتِ الإنكارية وغير ذلك، مما يتضمَّنُ أعلَى أنواعِ الدلالة التابعة. فإنك تجدُ الآيةَ أو جزء الآية أو الجملة أو القصةَ، تأتي في مَسَاقٍ على وجهٍ في بعض السور، وتأتي على وجهٍ آخر في سورة أخرى، وتأتي على

وجهٍ ثالث في موضع آخر وهكذا... ولا تجد تعبيراً حُوِّل عن وضعهِ الأصلي كتقديمِ الخبر على المبتدأ، وكتأكيد الخبر، وكالإكتفاء بذكر البعض عن البعض الآخر مما يذكر عادة، وغير ذلك، إلا وجدت لهذا نكتةً بلاغية كانت لإيجاد معنى يخدمُ المعاني المطلقة التي تتضمَّنُها الألفاظُ والعبارات في الآية.

هذا من حيث **أسسُ الْكَلاَمِ** في اللغة العربية من حيث هي ألفاظٌ دالة على معانٍ، ومن حيث **أسسُ الْكَلاَمِ فِي الْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ هِيَ أَلْفَاظٌ دَالَّةٌ عَلَى مَعَانٍ**، سواء أكانت من حيث النظرةُ إلى المفردات في تراكيبها، أو من حيث التراكيبُ جملةً.

أَمَّا مِنْ حَيْثُ التَّصَرُّفُ فِي الْمُفْرَدَاتِ وهي في تراكيبها، أو التصرف في التراكيب، فإن القرآنَ سائرٌ فيها على معهودِ العرب الذين نزلَ القرآن بلسانِهم. ومع إعجاز القرآن للعرب، فإنه لم يحصل فيه العدولُ عن العُرف المستمر لهم في التصرُّفِ بالقول، وواقعه من هذه الجهة هو عينهُ واقع معهودِ العرب في ذلك. وبالرجوع إلى واقعِ معهود العرب نجدُ أن العربَ لا ترى الألفاظَ حتميَّة الالتزام حين يكون المقصودُ المحافظة على معنى التراكيب، وإن كانت تُراعيها. وكذلك لا ترى جوازَ العدولِ عن الألفاظ بحالٍ من الأحوال بل تلتزمُها حين يكون المقصود أداء المعاني التي تقتضي الدقَّة في أدائها التزام اللفظ الذي يكون أداؤُها به أكملَ وأدقَّ، فليس أحدُ الأمرين عندهم بملتزم، بل قد تُبنى المعاني على التركيب وحده مع عدمِ الالتزام بالألفاظِ، وقد تُبنى المعاني على الألفاظِ. في التركيب. فمن شأنِ العرب الاستغناءُ ببعض الألفاظ عما يرادفُها أو يقاربُها إذا كان المعنى المقصود على استقامتهِ، فقد حَكى ابن جني عن عيسى بن عمر قال: سمعتُ ذا الرُّمَّةَ ينشدُ:

وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابسِ الشَّخْتِ وَاسْتَعِنْ

عَلَيْهَا الصَبَا وَاجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا(١)

---

(١) الخصائص لابن جني: باب في إيراد المعنى المراد بغير اللفظ المعتاد: ج ٢ ص٤٦٧.

فقلت: أنشدئني (مِنْ بَائِسٍ) فقال يابسٌ وبائس واحد. وعن أحمد بن يحيى قال: أنشدَني ابنُ الأعرابي، قال :

وَمَوْضِعُ زَبْنٍ لا أُرِيدُ مَبِيْتَهُ كَأَنِّي بِهِ مِنْ شِدَّةِ الرَّوْعِ آنِسُ

فقال له شيخ من أصحابه: ليس هكذا أنشدتنا، وإنما أنشدتنا: وموضع ضيق. فقال: سبحان الله؛ تصحَبُنا منذ كذا وكذا ولا تعلم أن الزَبْنَ والضيق واحد[(١)].

وقد حصلَ ذلك في القرآن في الاستغناءِ ببعض الألفاظ عما يرادفُها أو يقاربُها مثل القراءات في القرآن ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[(٢)] ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ﴾ ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ﴾[(٣)] ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنْ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ ﴿لَنُثْوِيَنَّهُمْ مِنْ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾[(٤)] وغير ذلك من الآيات بحسب القراءات.

ومن شأن العرب الالتزامُ بالألفاظ بعينها حين يكون هنالك قصدٌ من التعبير بها. فإنه يروى أن أحدَ الرواة حين أنشدَ:

لَعَمْرُكَ مَا دَهْرِي بِتَأْبِيْنِ مَالِكٍ وَلاَ جَزَعٌ مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا

فوضع كلمةَ هالكٍ بدل مالك فقال (لَعَمْرُكَ مَا دَهْرِي بِتَأْبِيْنِ هَالِكٍ) غضبَ وقال: الروايةُ مالك وليس بهالك والمرثِيُّ هو مالك لا مطلق شخصٍ هالك.

---

(١) الخصائص: ج ٢ ص٤٦٧.

(٢) الفاتحة/ ١. القراءتان مرويتان عن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وأم سلمة ذكرها الترمذي في الجامع الصحيح. أما قراءة ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ﴾ فعن أم سلمة، وقال الترمذي هذا حديث غريب وليس بمتصل: الحديث(٢٩٢٧). أما قراءة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: الحديث (٢٩٢٨) عن أنس. ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج١ ص١٤٠ .

(٣) البقرة / ٩. قرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر ﴿يَخْدَعُونَ﴾ وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿يُخَادِعُونَ﴾. الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص١٩٦.

(٤) العنكبوت / ٥٨. في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ١٣ ص٣٥٩؛ قال القرطبي: وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي ﴿لَنُثْوِيَنَّهُمْ﴾ بالثاء مكان الباء من الثوى وهو الإقامة؛ أي لنعطينهم غرفاً يثوون فيها.

والقرآنُ الكريم وردت فيه ألفاظٌ ملتزمة لا يمكن أن يؤدَّى المعنى بدونها، فقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [(١)] فإن كلمة ضيزى هنا لا يمكن أن تؤدِّي معناها أيَّة كلمة مرادفةٍ أو مقاربة، لا قسمةً ظالمة، ولا جائرة، ولا غير ذلك مما هو في معناها.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [(٢)] فإن كلمة الحمير لا يمكنُ أداء المعنى بغيرها، ومن أجلِ ذلك رُوعي لفظها في التركيب محافظةً على المعنى. هذا من حيث المحافظةُ على التعبيرِ بنفس اللفظ أو عدمِ المحافظة. أما من حيث المحافظةُ على المعنى الإفرادي بتبيانهِ أو عدم المحافظة، فإن من معهودِ العرب أن يكون الاعتناءُ بالمعاني المبثوثةِ في الخطاب هو المقصودُ الأعظم، بناءً على أن العرب إنما كانت عنايتُها بالمعاني، وإنما أصطلحت الألفاظُ من أجلها. إلا أنه إذا كان مقصودُ الجملة المعنى الإفرادي فيجب أن توجَّه العناية إلى معنى المفرداتِ مع معاني الجملة، وإذا كان مقصودُ الجملة المعنى التركيبي، فإنه يكتفَى بالمعنى الإفرادي لئلا يفسد على القارئ فهمُ المعنى التركيبي للجملة. وقد جاءَ القرآن الكريم على هذا المعهودِ، وسارَ عليه في مختلفِ الآيات. ولذلك قال عمرُ بن الخطاب حين سُئل عن معنى قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ نُهينا عَنِ التَّكَلُّفِ وَالتَّعمُّقِ، عن أنس قال: كنا عند عمر فقال: [نُـهِيْنَا عَنِ التَّكَلُّفِ][(٣)]، أي في المعنى الإفرادي في مثلِ هذه الجملة المراد منها المعنى التركيبي. إلا أنه إذا كان المعنى الإفرادي يتوقفُ عليه المعنى التركيبي فيجب بذلُ العناية للمعنى الإفرادي.

ولهذا نجد عمرَ بن الخطاب نفسه سألَ وهو على المنبرِ عن المعنى الإفرادي لكلمة التخوُّف حين قرأ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ فقال له رجلٌ من هُذيل التخوُّف عندنا التنقُّص وأنشده:

تَخَـوَّفَ الرَّحْـلُ مِنْـهَا تَامِكـاً قَـرِداً ... كَمَـا تَخَـوَّفَ عُـودَ النَّبْعَـةِ السَّـفَنُ

---

(١) النجم / ٢٢. (٢) لقمان / ١٩.

(٣) عبس / ٣١، أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: الحديث (٧٢٩٣).

(وَالسَّفَنُ: الحديدةُ التي يُبْرَدُ بها خشبُ القوسِ، والقَرِدُ: الكثيرُ القِردان، والتَّامِكُ: العظيمُ السَّنام: أي أن الرحلَ تنقص الناقة وتبرد ظهرَها كما تنقص الحديدةُ خشب القسي).

وحين أنشدَ الهذيلي بيت الشعر وفسَّر لعمر التخوُّف قال عمر (أَيُّهَا النَّاسُ تَمَسَّكُوا بدِيوَانِ شِعْرِكُمْ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ فَإِنَّ فِيهِ تَفْسِيرَ كِتَابِكُمْ)(١).

وفوق ذلك فإن القرآنَ يراعي عند الكلامِ تعبيرات يقصدُ منها مراعاةَ الأدب العالي، فإنه أتى بالنداء من اللهِ تعالى للعباد، ومن العبادِ لله تعالى، إما حكايةً وإما تعليماً. فحين أتى بالنداء من قِبَلِ الله للعباد جاء بحرفِ النداء المقتضي للبُعد ثابتاً غير محذوفٍ ليشعرَ العبدَ ببُعده كقوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾(٢) ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾(٣) ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾(٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾(٥). هذا بالنسبة لنداءِ الله للعباد. أما بالنسبة لنداءِ العباد لله فقد أتى بالنداء مجرَّداً من الياء كقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ ﴾(٦) ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ ﴾(٧) ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا ﴾(٨) ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾(٩) فهذه كلُّها مجردة من الياءِ المشعرة بالبُعد ليشعر العبدُ أن اللهَ قريبٌ منه ولأن الياء تفيدُ التنبيهَ فالعبد في حاجةٍ

(١) النحل / ٤٧؛ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص١١٠-١١١ وجامع البيان في تفسير القرآن: ج٨ ص١٥٠: النص (١٦٣٣٠و١٦٣٣١). التامك (تَمَكَ) السنامَ يَتْمُكُ وَيَتْمِكُ تَمْكاً وَتُمُوكاً؛ أي طال وارتفع. والقرد: المتراكم بعضه فوق بعض من السمن. والنبعة: شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسيّ. والسَّفَنُ كما قال: ما يُنْجَرُ به من الخشب. وللشاهد من الشعر ألفاظ مكان (الرَّحْلُ) عند القرطبي (الرَّجُلُ) وعند الطبري (السَّيْرُ).

(٢) العنكبوت / ٥٦. (٣) الزمر / ٥٣. (٤) الأعراف / ١٥٨.

(٥) النساء / ٢٩ وفي غيرها كثير.

(٦) البقرة / ٢٨٦. (٧) آل عمران / ١٩٣. (٨) آل عمران / ٨ .

(٩) المائدة / ١١٤.

بالبُعد ليشعر العبدُ أن اللهَ قريبٌ منه ولأن الياء تفيدُ التنبيهَ فالعبد في حاجةٍ للتنبيه عند النداء، والله تعالى ليس كذلك.

وأيضاً فإن مراعاته التعبيرات التي يقصدُ منها مراعاةُ الأدب العالي قد سارَ فيها القرآن بالإتيان بالكنايةِ عن التصريح في الأمور التي يُستحَى من ذكرهِ والتصريح به، كما كنَّى عن الجماع باللِّباس والمباشرة قال تعالى ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (١) ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ (٩) وكنَّى عن قضاءِ الحاجة بقوله ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ (٢).

ومن ذلك أيضاً قد أتى القرآنُ بالالتفات الذي يُنْبِئُ في القرآن عن أدب الإقبال من الغيبةِ إلى الحضور بالنسبة إلى العبدِ إذا كان مقتضى الحال يستدعيه كقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (٣) ثم عدلَ عن الغيبة إلى الخطاب فقال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وكقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (٤) فعدلَ عن الخطاب إلى الغيبة وقوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ (٥) فجرى العتابُ على حال تقتضيه الغيبةُ مع أن الآية نزلت عليه وهو المخاطَبُ بها، ثم توجَّه الخطاب له فقال تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ (٦).

فهذا العدولُ من الخطاب إلى الغيبةِ ومن الغيبة إلى الخطاب إنما هو لمراعاةِ الأدب العالي، لما في الخطاب بعد الغيبة من تقويةٍ للمعنى الثاني، أو تخفيف للمعنى الأول على النفسِ حين إلقائها إليه. ألا ترَى في الشُّكر لله والثناء عليه، كان الأدبُ يقتضي الغيبةَ، وحين العبادةِ وإظهار الضَّعف كان الخطابُ ألْيَق بأدب الخطاب؟ ولعل العتاب أخفُّ على المعائب بلفظ الغيبةِ والاستفهامُ أليق به أن يكون من مخاطبٍ.

---

(١) البقرة/ ١٨٧. (٢) المائدة/ ٧٥.
(٣) الفاتحة / ١-٣. (٤) يونس / ٢٢.
(٥) عبس / ١-٢. (٦) عبس / ٣.

ومن ذلك أيضاً ما علَّمنا الله تعالى في تركِ التنصيص على نسبة الشرِّ إلى الله تعالى وإن كان هو الخالقُ لكل شيء كما قال تعالى: ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ [1] واكتفى بذلك واستغنى بها عن ذكر الشرِّ فلم يقل (وبيدك الشر)، وذلك بعد قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . مع أن السياقَ أن يقول وبيدك الشرَّ. لأن ما نصَّ على فعلِ الله له خير وشرٌّ باعتبار إطلاق الإنسان، فأتيانُ الْمُلْكِ وعزَّة الشخصِ هي خيرٌ بالنسبة للإنسان، ونزعُ الْمُلْكِ وذلَّة الشخص هي شرٌّ بالنسبة للإنسان، وقد نسبَها الله لنفسه بأنه هو الذي فعلَها، وقال في ختامِ الآية ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهو أيضاً يشملُ الشرَّ كما يشمل الخير. ومع ذلك قال بيدكَ الخير واكتفى بذلك عن ذكرِ الشر ولم يقل وبيدك الشر، تعليماً لنا بأنْ نتأدَّبَ بأدب الخطاب.

وهذا كله، وهو التعبيرُ بتعبيراتٍ يقصد منها مراعاةَ الأدب العالي، هو من معهودِ العرب في كلامهم، وردَ في الشعرِ وفي الْخُطب. وهكذا يمضِي القرآنُ في ألفاظه وعباراتِه على ألفاظ العرب وعباراتِهم ومعهودهم في كلامهم لا يَخرجُ عن ذلك شعرةً، ويحيطُ بكل ما هو في أعلَى مرتبةٍ من بليغ القول مما ساروا عليه. فواقعهُ أنه عربي محضٌ، لا مدخلَ للألسُن الأعجمية به، فكان حتماً على من أرادَ تفهُّمَ القرآن أن يأتيَهُ من جهةِ اللسان العربي، ولا سبيلَ إلى تطلُّب فهمهِ من غير هذه الجهة.

ولذلك كان من المحتَّم أن يفسَّر القرآنُ من حيث ألفاظه وعباراتهُ، ومن حيث مدلولات هذه الألفاظ والعباراتِ، مفردات وتراكيب، في اللغة العربية فحسب. فما ترشدُ إليه اللغة العربية وما يقتضيه معهودها يفسَّرُ به القرآن، ولا يجوز أن يفسَّرَ من هذه الناحيةِ إلا حسب ما تقتضيه اللغةُ العربية ليس غير. وطريق ذلك النقلُ الموثوق به من طريقِ الرواية التي يرويها الثقةُ الضابط لما يقول عن فُصحاء العرب الخالصة عربيَّتُهم.

---

(١) آل عمران / ٢٦.

وعلى هذا فتفسيرُ المفردات والتراكيب ألفاظاً وعبارات محصورٌ في اللغةِ العربية وحدها وممنوعٌ أن يفسَّرَ بغيرها مطلقاً. هذا ما يقتضيه واقعهُ من هذه الجهة.

أما واقعهُ من حيث المعاني الشرعيَّة كالصلاةِ والصيام، والأحكامِ الشرعية كتحريم الرِّبا، وحِلِّ البيع، والأفكار التي لها واقعٌ شرعي كالملائكة والشياطين، فإن الثابتَ أن القرآن جاءَ في كثير من آياته مُجْمَلاً، وجاءَ الرسولُ وفصَّله، وعامّاً وجاء الرسولُ وخصَّصه. ومطلقاً وجاء الرسول وقيَّده. وبيَّن الله فيه أن الرسولَ هو الذي يبيِّنهُ، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [1] فالقرآنُ من هذه الجهةِ يحتاج فهمهُ إلى الإطِّلاع على ما بَيَّنَهُ الرسولُ من معاني مفردات القرآن وتراكيبه، سواءٌ أكان هذا البيانُ تخصيصاً، أو تقييداً أو تفصيلاً، أو غير ذلك. ولهذا كان لا بدَّ لفهمِ القرآن من الاطلاعِ على السُّنة المتعلقة بالقرآن، أي على السُّنَّة مطلقاً، لأنَّها بيانٌ للقرآن، حتى يعرف من هذه السُّنة ما في القرآن من معانٍ وأحكامٍ وأفكار. ولهذا كان الاقتصارُ على فهمِ القرآن من حيث هو فهماً كاملاً لا يكفي فيه الاقتصارُ على اللغةِ العربية، بل لا بد أن يكون مع معرفةِ اللغة العربية معرفة السُّنة، وإن كانت اللغةُ العربية وحدها هي التي يرجعُ إليها لفهمِ مدلولات المفردات والتراكيب، من حيث ألفاظُها وعباراتُها. ولكن لفهمِ القرآن كله لا بد من جعلِ السُّنة واللغة العربية أمرَين حتميَّين، وحتميٌّ أن يسيرَا معاً لفهمِ القرآن، وأن يتوفرا لمن يريدُ أن يفسِّرَ القرآن. وأن يُجعلا الواسطةَ لفهمهِ وتفسيره.

أما القصصُ الواردة فيه عن الأنبياءِ والرُّسل والحوادث التي قصَّها عن الأممِ الغابرة، فإنه إن وردَ فيها حديثٌ صحيح أخذ، وإلا فيقتصرُ عند ما وردَ عنها في القرآن في مجموع الآياتِ، ولا يصحُّ أن تعرفَ عن غيرِ هاتين الطريقين. لأنَّها من ناحية المفرداتِ والتراكيب لا سبيلَ إلى التوراة والإنجيلِ لفهم المفردات والتراكيب التي رَوَت القصصَ، ولا علاقةَ للتوراة والإنجيل في فهمِ هذه المفردات والتراكيب.

---

(١) النحل / ٤٤.

وأما من ناحيةِ المعاني فإن الذي يبيِّنـها هـو الرسـولُ بصريـح القـرآن، وليـس التوراة والإنجيلُ. ولذلك لا سبيلَ إلى التوراةِ والإنجيل في فهمِ معاني القـرآن، لأن الله أمَرَنا بالرجوعِ إلى الرسول، وبيَّن لنا أن الرسولَ بَيَّنَ القـرآنَ، ولم يأمرنـا بـالرجوع إلى التوراةِ والإنجيل. فلا يجوز أن نرجعَ إلى التوراةِ والإنجيل لفهم قصصِ القرآن وأخبـار الأمم الماضية.

وكذلك لا سبيلَ إلى غـيرِ التـوراة والإنجيـل مـن كُتـب التـاريخ وغيرهـا، لأن الموضوعَ ليس شرح قصَّة يقال إن هذا مصدرٌ أوسع على فرض صدقهِ، وإنما الموضوع هو شرحُ نصوصٍ معيَّنة نعتقد أنَّها كلامُ رب العالمين. فيجب الوقوفُ عند مدلـولاتِ هذه النصوص من حيث اللغةُ التي جاءت بها وما تقتضيـه هـذه اللغـة، ومـن حيـث الاصطلاحُ الشرعي من صاحب الاصطلاح، وهو الرسولُ الذي قـال الله إنَّ القـرآن أنزل عليه ليبيِّنَهُ هو للناسِ. ومن هنا يجب أن يُنفى من التفســيرِ كـلُّ قـولٍ جـاءَ مـن التوراة أو الإنجيل أو كُتبِ التاريخ وغيرها. ويكون من الافتراءِ على الله أنْ نزعـمَ أن هذه هي معاني كلامِ الله ولا توجدُ شبهة دليلٍ أن لها علاقة بمعاني كلام رب العالمين.

وأما ما يزعمهُ الكثير من الناسِ قديمـاً وحديثـاً مـن أنَّ القـرآن يحـوي العلـومَ والصناعات والاختراعات وأمثالها، فيُضِيفُونَ إلى القرآن كـلَّ علـمٍ يُذكـر للمتقدمـين والمتأخرين، من علومِ الطبيعيات والكيمياء، والمنطق، وغير ذلك، فإنــه لا أصـلَ لـه، وواقعُ القرآن يُكَذِّبُهُمْ. فإن القرآنَ لم يقصد فيه تقريرٌ لشيء مما زَعموا. وكلُّ آياته إنمـا هي أفكارٌ للدلالة على عظَمة الله، وأحكامٌ لمعالجة أعمالِ العباد.

وأما ما حدثَ من العلومِ فإنه لم تردْ فيه لا آية، ولا جزء آية، فضلاً عـن آيـات فيها أدنى دلالةٍ على أيِّ علمٍ من العلوم. وما وردَ فيه مما يمكنُ أن يطبقَ على نظريات أو حقائق علمية، كآية: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا ﴾ (١) الآية فإنمـا جـاءَ للدلالة على قُــدرة الله، لا لإثبـاتِ النواحـي العلميـة. وأمـا قولـه تعـالى: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ (٢) فالمرادُ منه لكلِّ شيء من التكـاليفِ والتعبُّـد

---

(١) الروم / ٤٨. (٢) النحل / ٨٩.

وما يتعلق بذلك، بدليل نصِّ الآية. فإنَّها متعلقةٌ في موضوع التكاليفِ التي بلَّغَها الرُّسُلُ للناسِ ونص الآية هو ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ فكون الله جاءَ بالرسول شهيداً على أمَّته معناها شهيداً عليها بما بلَّغها، وكونه نزَّل القرآن ليبيِّن كلَّ شيء، ويكون هُدى ويكون رحمةً ويكون بشرى للمسلمين، يحتِّم أن الشيءَ ليس علمَ الطبيعة ولا المنطق ولا الجغرافيا ولا غير ذلك، بل هو شيءٌ يتعلَّق بالرسالة، فهو أي الكتاب تبيانٌ للأحكامِ والتعبُّد والعقائد، وهُدى يهدي الناس، ورحمةٌ لهم ينقذهم من الضَّلال، وبُشرى للمسلمين بالجنةِ ورضوان الله، ولا علاقةَ لغير الدِّين وتكاليفهِ بشيء من ذلك. فتعيَّن أن يكون معنى تبياناً لكل شيء: أي من أمور الإسلام.

وأما قوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (١) فالمرادُ بالكتاب اللَّوح المحفوظ وهو كنايةٌ عن علمِ الله تعالى. وكلمة كتابٍ من الألفاظ المشتركة يفسِّرُها التركيبُ الذي وردت فيه. فحين يقول الله: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٢) يراد منها القرآنُ. وحين يقول: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ ﴾ (٣) أي ما الكتابةُ. ولكن حين يقول: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (٤) ويقول: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (٥) ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ ﴾ (٦) ﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ (٧) ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨) ﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٩) ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ (١٠) فالمرادُ منها جميعاً علمُ الله. فقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (١١) أي اللَّوح المحفوظ كناية عن علمهِ، وقوله: ﴿ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (١٢) أي اللوح المحفوظ كناية عن علمه، وقوله: ﴿ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (١٣) أي اللوح المحفوظ كناية عن علمه، وقوله: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (١) جاءت صريحة بأنَّها علمُ الله، إذ الآية

---

(١) الأنعام / ٣٨. (٢) البقرة / ٢. (٣) الشورى / ٥٢.
(٤) الرعد / ٣٩. (٥) الإسراء / ٥٨. (٦) الأنعام / ٣٨.
(٧) الأنفال / ٦٨. (٨) الأنعام / ٥٩ ويونس / ٦١ والنمل / ٧٥.
(٩) هود / ٦. (١٠) فاطر / ١١. (١١) الرعد / ٤٣.
(١٢) الإسراء / ٨٥ . (١٣) الإسراء / ٥٨.

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ (١) جاءت صريحة بأنها علمُ الله، إذ الآية كلها تقول: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ على غِرار قوله : ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ (٢) بدليل الآية الثانية التي جاءت في نفسِ السورة -بسورة الأنعام- وهي ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ فقد جاءت الآية ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣).

فهذا كلُّه يدل على أنه ليس المرادُ في هذه الآية من كلمة الكتاب القرآن، بل المرادُ اللوح المحفوظ وهو كناية عن علم الله. وإذن لا دلالةَ في الآية على أنَّ القرآنَ يحوي العُلوم وأمثالها. فيكون القرآن خالياً من بحث العلوم، لأن مفرداته وتراكيبه لا تدلُّ عليها، ولأن الرسولَ لم يبيِّنها، فلا علاقةَ لها به. هذا هو واقعُ القرآن، وهو يدلُّ دلالةً صريحة واضحة أنه نصوصٌ عربية جاء بها رسولٌ من عند الله، لا تفسَّرُ بغير اللغة العربيةِ وسُنَّة رسول الله.

ولما كان الصحابةُ أقربَ الناس جميعاً إلى الصواب في تفسير القرآن لعُلُوِّ كعبهم في اللغة العربية، ولملازمتِهم للذي أنزل عليه القرآنُ، كانوا فيما اتَّفقوا على سلوكِه، من جعل العربيةِ كالشعر الجاهليِّ، والخطب الجاهلية وغيرها الأداةَ الوحيدة لفهم مفردات القرآن وتراكيبه، ومن وقوفِهم عند حدِّ ما وردَ عن الرسول، ومن إطلاقِ عقلهم في فهمِ القرآن على ضوءِ هاتين الأداتين، خيرُ طريقة تُسلَكُ لفهمِ القرآن.

ولذلك فإنا نرَى أن **طَرِيْقَةَ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ** أن تُتخذ اللغة العربية ومعهود العرب في الخطاب، والسُّنة النبوية، الأداةَ الوحيدة لفهمِ القرآن وتفسيره من حيث مفرداتهُ وتراكيبه، ومن حيث المعاني الشرعية، والأحكام الشرعية، والأفكار التي لها واقعٌ شرعي، وأن يطلقَ للعقلِ أن يفهمَ النصوص بقدر ما يدلُّ عليه كلامُ العرب ومعهود تصرفهم في القول، وما تدلُّ عليه الألفاظُ من المعاني الشرعية الواردة بنصٍّ شرعي من قُرآن أو سُنَّة، غير مقيَّدة بما فَهِمَ الأوَّلون السابقون، لا العلماءُ، ولا التابعون، حتى

(١) الأنعام / ٣٨. (٢) الكهف / ٤٩. (٣) الأنعام / ٥٩.

ولا الصحابة، فإنَّها كلّها اجتهاداتٌ قد تُخطئ وتصيب، وربما أرشدَ العقل إلى فهمِ آية برزَ واقعُها للمفسِّر من خلال كثرةِ مطالعاته للعربية والشريعة، أو برزَ من خلال تجدُّد الأشياء، وتقدُّم الأشكال المدنيَّة، والوقائع، والحوادثِ، فبـإطلاق العقـلِ في الإبـداع، **بِالْفَهْمِ لاَ بِالْوَضْعِ**، يحصلُ الإبداع في التفسيرِ في حدود ما تقتضيه كلمــة تفسـير، **مَعَ الْحِمَايَةِ مِنْ ضَلاَلِ الْوَضْعِ** لِمَعَانٍ لا تَمُتُّ إلى النصِّ المفسر بصِلة من الصِّلات.

وهذا الانطلاقُ في الفهمِ وإطلاق العَنَان للعقل بأقصى مـا يفهمـه مـن النـصِّ دون التقيُّد بفهم أيِّ إنسان ما عدا مَن أنزل عليه القرآنُ، يحتِّم أن ينفي الإسـرائيليَّات كلها مقتصراً في القصصِ على ما وردَ به القرآن عنها، وأن ينفي ما يزعمون من عُلوم تضمَّنها القرآن، واقفاً عند حدِّ ما تعنيهِ تراكيبُ القرآن من الآيات الباحثةِ في الكـون، وما قُصد منها من بيانِ عظمة الله. هذه هي طريقةُ تفسيرِ القرآن التي يجب أن يلتزمَـها المفسِّرُ، وأن يقومَ بأعبائها من يريدُ تفسيرَ القرآن.

مقدمة التحقيق

لمخطوط

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإِمَامِ الْحَافِظِ الْعَلاَّمَةِ أبي الْقَاسِمِ
سُلَيمَانِ بْنِ أحْمَدَ بنِ أيُّوبَ الطَّبَرَانِيِّ
(٢٦٠-٣٦٠) مِنَ الهجْرَةِ

تَرْجَمَةُ الْمُصَنِّف

اسْمُ الْمُصَنِّفِ وَمَوْلِدُهُ وَنَسَبُهُ:

الإمامُ، العلاَّمة، الحافظ الثَّبْتُ، العلَمُ الكبير، مُسنِدُ العصرِ، أبو القاسم سُليمان ابنُ أحمدَ بنِ أيُّوب بن مُطَير اللَّخَمِيُّ، الشَّامي، الطبرانيُّ، صاحبُ المعاجمِ الثلاثة، العالِم المعمَّرُ، صاحبُ التصانيف العديدة.

وُلد أبو القاسم الطبراني بمدينة عكَّا في شهرِ صفر سنة (٢٦٠) من الهجرة، وكانت أمُّهُ عكَّاوية، والراجحُ أنه وُلد بطبريَّة، وإليها نسبتهُ. ولعل من أرَّخَ لمولده بعكا باعتبار أنَّ أمَّهُ عكاوية؛ ولا يضرُّ الاختلاف في مكان مولدهِ، فقد اتفقَ الغالبُ على أنه وُلد بطبرية.

شُيُوخُهُ وَتَلامِيذُهُ:

كان والدُ الإمامِ الطبراني صاحبَ حديثٍ، حَرَصَ على إعدادِ ولَده سليمان في طلبِ العلم، فرحَلَ به مُنذ حداثةِ سنِّهِ بعد أن أخذَ عن عُلماء طبريَّة وسمع منهم، قال ابنُ الدمياطيِّ: (سَمِعَ بالشام ومصرَ والحجاز واليمن والعراقِ فأكثرَ، وسكنَ أصبهان إلى حين وفاتهِ. سمع بدمشق أبَا زُرعة عبدالرحمن بن عمرو، وأحمدَ بن المعلَّى، وأحمدَ ابن أنس بن مالك. وببيت المقدسِ أحمدَ بن مسعود الخياط، وبمصر يحيَى بن أيوب العلاَّف، وأحمد بن رَشدين، وأحمد بن إسحق بن نُبَيطٍ بن شُرَيط الأشجعيِّ. وببُرقة أحمدَ بن عبدالله بن عبدالرحيم البرقي. وباليمنِ اسحقَ بن إبراهيم الدَّبَري، والحسنَ ابن عبدالأعلى البُوسِي. وبالعراق أبا مُسلم الكَجي، وأبا خليفةَ الْجُمَحِيِّ، والحسنَ ابن سهلٍ المحوز. وببغدادَ بشْرَ بن موسى الأزدي في آخرين؛ وحدَّث كثيراً)[1].

(١) المستفاد من ذيل تاريخ بغداد للحافظ ابن النجار البغدادي، انتقاء الحافظ أحمد بن أيبك المعروف بابن الدمياطي: ج ٢١ ص٩١.

ولقد حدَّث الطبراني عن أكثرِ من ألف شيخٍ، سمعَ منهم وروى عنهم، مُنفرداً أو مع آخرين، هذا فضلاً عن مشائخهِ الذين درَسَ عليهم وعُرف بهم. ولا غرابــةَ في ذلك لبدئهِ في طلب العلم وعمرهُ ثلاثَ عشرة سنة؛ ثم لطول عُمرٍ حيث عــاشَ أكـثر من مائة سنة، فعُمْرٌ مباركٌ بداَهُ بطلب العلمِ من السُّنة، وختمَهُ بتفسير القرآن الكريــم على ما يترجَّح عندنا، حيث النضوجُ في التعامُلِ مع النص، والخبرة المستفادة، وسَــعَة الاطلاع.

قال ابنُ الدمياطي: (قال أبو بكر محمدُ بن أحمـد بـنِ عبدالرحمـن: سُـليمان بـن أحمد الطبرانيُّ أشهرُ مَن أنْ يُدَلَّ على فضلهِ وعلمه، حدَّث بأصبهان ستين سنة. فسمعَ منه الآباءُ ثم الأبناء ثم الأسبَاطُ حتى لَحِقُــوا بـالأجدادِ؛ وكـان واسـعَ العلـم، كثـيرَ التصانيف. وقيل: ذهبَتْ عيناهُ في آخرِ أيامه، فكان يقول: الزنادقةُ سحَرُوني)[1].

وسمع منه خلقٌ كثير، وحدَّث عنه بعضُ شيوخه، منهم أبو خليفةُ وهو الفضلُ ابن الحبَّاب الْجُمَحِي، قال الذهبيُّ: (مُسنِدُ عصرهِ بالبصرة، وكان ثقةً عالِماً. مات سنة (٣٠٥) من الهجرة)[2]. ومنهم أيضاً ابن عُقدَة وهو أبو العبَّــاس أحمـدُ بـن محمـد بـن سعيدٍ الكوفيِّ، حافظُ العصر، والمحدِّث البحر.

كما حدَّث عنه من تلامذتهِ الكثير، منهم الحافظُ أبو بكر بن مَرْدَوَيْه، وأبو نُعيم الحافظ الكبير، صاحبُ الحلية، وأبو الفضلِ أحمدُ بن محمد الجارودي، وأبو الحسين بن فادشاه المعتزليّ.

وأبو بكر محمدُ بن عبدالله الأصبهاني التاجرُ بــن رَيْـذَةَ مُسـنِد أصبـهان، وهــو راويةُ أبي القاسم الطبراني، وآخِر من روى عنه وأخذ الإجـازة منـه، قـال يحيـى بـن مِنْدَه: (ثقةٌ أمين، كان أحدَ وجُوهِ الناس، مُكرِماً لأهـلِ العلـم، حسَـنَ الخـط، يعـرفُ طرَفاً من النحوِ واللغة، توفي في شهر رمضان (٤٤٠) من الهجرةِ).

---

(١) الذيل: ج ١١ ص٩١.

(٢) ميزان الاعتدال: ج ٣ ص٣٥٠. وتذكرة الحفاظ: ج ٢ ص٦٧٠.

سَعَةُ عِلْمِ الْمُصَنِّفِ وَأَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فِيهِ:

قال الذهبي: (الطبرانيُّ مُسنِدُ الدُّنيا) وقال السيوطي: (مُسنِدُ الدنيا وأحدُ فرسان هذا الشأن). وقال ابنُ عساكر: (أحدُ الحفَّاظ المكثِرين والرحَّالين). وقال ابن عبدالهادي الحنبليُّ: (الإمامُ العلاَّمة الحافظ الكبيرُ الثَّبْتُ، مُسنِدُ الدنيا ... من فرسان هذا الشأن مع الصِّدق والأمانة). وقال ابن مَنْدَه: (أحدُ الحفَّاظ المذكورين).

وقال الحافظ أحمدُ بن منصور الشيرازي:(وكتبتُ عن الطبراني في ثلاثمائة ألفِ حديث، وهو ثقةٌ، إلا أنه كتبَ عن شيخٍ وكان له أخٌ فسماه باسمهِ غلَطاً). وأجابَ عليه الحافظُ ابن حجر قال: (ذلك أنه وَهِمَ وحدَّث بالمغازي عن أحمدَ بنِ عبدالله بن عبدالرحيم البرقي، وإنما أرادَ عبدالرحيم أخاه، فتوهَّمَ أنَّ شيخه عبدَالرحيم اسمهُ أحمد، واستمرَّ على هذا يروي عنه ويسميه أحمد. وقد ماتَ أحمدُ قبل دخولِ الطبراني مصر بعشر سنين أو أكثر)[1].

قال الذهبيُّ: (وكان ثقةً صَدُوقاً، واسعَ الحفظ، بصيراً بالعللِ والرجال والأبواب، كثير التصانيف). وقال ابنُ العميد: (ما كنتُ أظنُّ أن في الدنيا حلاوةً ألذَّ من الرياسة، والوزارة التي أنا فيها. حتى شهدتُ مذاكرةَ سليمان ابن أحمد الطبراني وأبي بكرٍ الْجَعَابيِّ بحضرتي، فكان الطبرانيُّ يغلب الجعابيَّ بكثرة حفظه، وكان الجعابيُّ يغلبُ الطبرانيَّ بفطنته وذكاءِ أهل بغداد حتى ارتفعت أصواتُهما ولا يكاد أحدهما يغلبُ صاحبَهُ، فقال الجعابيُّ: عندي حديثٌ ليس في الدنيا إلاَّ عندي، فقال الطبرانيُّ: هَاتِهِ. فقال: حدَّثنا أبو خليفةَ حدثنا سليمان بن أيُّوب، وحدَّث بالحديث. فقال الطبرانيُّ: أنا سليمانُ بن أيوب، ومتى سمِعَ أبو خليفة فاسمع منِّي حتى يعلُو إسنادُكَ، فإنك تروي عن أبي خليفةَ عني. فخَجِلَ الجعابي وغلبَهُ الطبراني.

قال ابنُ العميدِ: فوددت في مكاني أن الوزارةَ والرئاسة ليتها لم تكن لي، وكنتُ الطبرانيَّ، وفرِحتُ مثل الفرحِ الذي فرحَهُ الطبراني لأجلِ الحديث)[2].

---

(١) لسان الميزان: ج ٣ ص٧٣.

(٢) المعجم الكبير: ج ٢٥ ص٣١٢. تحقيق حمدي السّلفي.

ومن خصائص الطبرانيِّ رحمه الله وفضائلـهِ: تـرك الكِـبْرِ في طلـبِ العلـم مـع جلالِ قدره، ووُفور علمهِ، وتوقير مشائخهِ له، وبتبجيلهم إياه واحترامهم لــه في كـلِّ المحافلِ والمجالس[1].

وَفَاتُــهُ:

توفِّـيَ الإمـامُ الطـبراني رحمـه الله لليلتـين بقِيَتـا مـن ذِي القعـدة سـنةَ سـتين وثلاثمائة، وله مائةُ سنةٍ وعشرة أشهر، فهو من المعمِّرين، دُفن إلى جنبِ قبر الصحابيِّ الشهيد حَمَمَة ابن أبي حَمَمَة الدوسي بباب المدينة من أصبهان، وحضرَ الحـافظُ أبـو نعيم الأصبهاني الصلاةَ عليه[2].

مؤلفاتــه:

للطبرانيِّ أكثرُ من مائةِ كتاب في الحديث والتفسير، وأشهرُها المعـاجم الثلاثـة، ودلائلُ النبوة، وحديث الشاميِّين، والدعاءُ، وقد ذكرَها المحقق السّلفي في نهايـة كتابـه المعجم الكبير: (ومنها تفسيرُ القرآن العظيم)[3].

وقال السيوطي: (وأشياءُ كثيرةٌ جداً — أي مِن مؤلفاته — وقد ذكـرَ ابـن مِنْـدَه أشياءَ أخرى). وقال الذهبي: (وأشياءُ لم نَقِفْ عليها).

فرَحِمَ اللهُ إمامَنا الطبرانيَّ.

(١) قاله يحيى بن عبدالوهاب بن منده في منـاقب الإمـام الطـبراني في ذيـل المعجـم الكبـير: ج ٢٥ ص٣١٢.

(٢) أخبار أصبهان: ج ١ ص٧١.

(٣) ينظر: المعجم الكبير: ج ٢٥ ص٣٢٥، التسلسل (١٢).

مُقَدِّمَـةُ التَّحْقِيـقِ

تَوْصِيفُ الْمَخْطُوطِ وَنِسْبَتُهُ إلَى مُؤَلِّفِهِ:

اتفقَ كلُّ مَن ترجمَ للإمامِ الطبرانيِّ أنَّ له كتاباً في التفسيرِ[1]. ووُجد هذا الكتابُ مخطوطاً في المكتبةِ الوطنية والجامعيَّة في (ستراسبورغ) في فرنسا، تحت الرقم (٤١٧٤). وعلى صفحتهِ الأُولى كتبَ الناسخُ: (هذا كتابُ تفسيرِ فريدِ دهرهِ وحكيم عصرهِ شيخِ الإسلام الإمَامِ الْهُمامِ الشيخِ الطبرانيِّ الكبيرِ عن تفسيرِ القرآن العظيم).

تتألفُ المخطوطة من (٥٣٠) ورقةً موزعةً على (١٠٦٠) صفحةٍ بحجم (٣١ × ٢١,٥) سم. ومتوسطُ عددِ السطور (٣٥) سطراً. كتبَها الناسخُ بخطٍّ قريب من خطِ النَّسْخِ. ورسَمَ آياتِ القرآن باللون الأحمر، وسائر التفسير باللون الأسودِ، وأرَّخَ لانتهاءِ عمله أنه فرغَ منهُ يوم الثلاثاءِ قُبيلَ العصر بافتتاح شهرِ رجب الفردِ سنة (٩٦٤) من الهجرةِ. ولم يكتبِ اسمَهُ، وإنما أشارَ إلى أنه نُسِخَ لقاضِي القضاة، ويحتملُ أنه عبدُ الصَّمد، هكذا وردَ اسمهُ في هامشِ المخطوط في صفحاتٍ متفرقة.

واستثنى الناسخُ الورقةَ الأولى من التسلسلِ المذكور، حيث جعلَها فهرساً لمحتوياتِ التفسير، يذكرُ اسمَ السُّورة ومبتدأها في الصفحةِ رقماً مذكوراً، فمثلاً: جعلَ (سورة الفاتحة/ ١) أي في الورقةِ (١) و(سورة البقرة / ٣) أي في الورقة (٣) ... وهكذا ضبطَ تسلسل السُّور بأرقام الورقاتِ، لا بأرقام الصفحاتِ.

قُسِّم الكتاب على أربعةِ أجزاء، يبدأ الجزء الأولُ بسورة الفاتحةِ، وينتهي بآخر تفسيرِ سورة المائدةِ الورقة (١٦٨)، ليبدأ الجزءُ الثاني الورقة (١٦٩) وكتبَ في أوَّلهِ: (هذا الجزءُ الثاني من تفسيرِ القرآن العظيم إلى فريدِ دهره ووحيد عصرهِ شيخِ الإسلامِ الشيخ الطبرانيِّ الكبير).

---

(١) أنظر: معجم مصنفات الحنابلة : ج١، ص ٣٥٦، تأليف أ.د. عبدالله الطريقي الطبعة الأولى.

وينتهي الجزءُ الثاني بآخرِ تفسير سورة الإسراء الورقة (٢٩١) ويبدأ الجزءُ الثالث بأوَّلِ سورة الكهف الورقة (٢٩٢). ويؤكدُ الناسخ نسبةَ الكتابِ لمؤلِّفه الإمامِ الطبرانيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

وينتهي الجزءُ الثالث بآخر تفسيرِ سورة القصص الورقة (٣٧٠) ويبدأ الجزءُ الرابع بأوَّل تفسير سورة العنكبوتِ الورقة (٣٧١). وينتهي الجزءُ الرابع بآخرِ تفسير سورة الناس الورقة (٥٣٠).

نِسْبَةُ المَخْطُوطِ إلَى مُؤَلِّفِهِ:

للإمام الطبراني أكثر من تأليف في التفسير، فله (تفسير الحسن) ذكره له الذهبي في تذكرة الحفاظ، وقال: (جزءان)، والسيوطي في طبقات الحفاظ[١]. وله أيضاً (كتاب مسانيد تفسير بكر بن سهل) ذكره له يحيى بن مندة في جزء الطبراني[٢]. قال الذهبي: (وغير ذلك، وقد سماها الحافظ يحيى بن مندة، وأكثرها أسانيد حفاظ وأعيان، ولم نرها)[٣].

أما التفسير الكبير، فذكره له يحيى بن مندة في جزء الطبراني، والذهبي في سير أعلام النبلاء، وقال: (كتاب التفسير كبير جداً)[٤]. وذكره له أيضاً ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة والسيوطي في طبقات الحفاظ، والداودي في طبقات المفسرين، وغيرهم[٥].

وعلى الرغم من البحث المتواصل عن نسخة أخرى للتفسير الكبير للإمام الطبراني غير النسخة التي أشار إليها الأستاذ الدكتور عبدالله الطريقي في كتابه معجم مصنفات الحنابلة، لم نجد ضالتنا هذه. وكنت بعد أن انتهيت من تحقيق الكتاب على ما

(١) أنظر: معجم مصنفات الحنابلة: ج ١ ص٣٦٣.
(٢) أنظر: المعجم الكبير: ج ٢٥ ص٣٦٠. ومعجم مصنفات الحنابلة: ج ١ ص٣٧٢.
(٣) سير أعلام النبلاء: ج ١٠ ص٦٩، مكتبة الصفا، تحقيق محمد بن عيادي.
(٤) أنظر: المعجم الكبير: ج ٢٥ ص٣٦٠. وسير أعلام النبلاء: ج ١٠ ص٦٩.
(٥) أنظر: معجم مصنفات الحنابلة: ج ١ ص٣٥٦.

استطعت، بلغني أن البعض يشكك في نسبة المخطوط لمؤلفه؛ ثم اطلعتُ على ما كتبه الأستاذ (إبراهيم باجس عبدالمجيد) كتب مقالاً في المجلد الثاني: العدد الأول: مجلة عالم المخطوطات والنوادر: لشهر محرم (١٤١٨) من الهجرة عنوانه: (تفسير الطبراني أم تفسير الغزنوي) مشككاً في نسبة التفسير إلى مؤلفه الإمام الطبراني. وعلى الرغم من محاولتي في البحث عن نسخة ثانية للمخطوط زيادة في التوثيق، إلا أنني لم أجد، فاقتضى الحال مني أن أجاوب على ما كُتِبَ بطريقة التحليل والتقرير، ومن الله التوفيق.

فأقول: أسَّس الأستاذ إبراهيم في مقالته، أن التفسير ليس للإمام الطبراني، ونسبه للقاضي عبدالصمد بن محمود بن يونس الغزنوي الحنفي. وأقام رأيه هذا على ملاحظات لفتت نظره وكوَّنت الرأي عنده إلى صحة هذه النسبة حسب مفهومه، فاقتضى الجواب وكما يأتي:

١. إن الباحث لم يكن موضوع بحثه نسبة التفسير إلى مؤلفه على وجه الخصوص؛ وإنما كان مدار بحثه دقة فهرسة المكتبات نسبة المخطوطات أو دقة المعلومات المدونة حول المخطوطة المراد الحصول عليها. وأتى للمثال على موضوعه وضرورة الاهتمام بما قال عنه: (ومن أمثلة ذلك: التفسير المنسوب للإمام أبي القاسم الطبراني). وهو المخطوط الذي اعتمدناه في تحقيقنا، وعدَّ الخطأ في النسبة من المسلمات على حد ظنه.

٢. كوَّن الباحث رأيه في نسبة الكتاب قال: (**حينما نلقي نظرة فاحصة على الصفحة الأولى من الكتاب، أو على أية صفحة منه ندرك أنه ليس هو الكتاب المعني، فالعارف بأسلوب الطبراني ومنهجه في التأليف يجد أنه مغاير تماماً لمنهج الكتاب الذي بين أيدينا، فالإمام الطبراني يعتمد منهج الحديث**...).

والجواب من وجوه عديدة:

الوجه الأول: من حيثية المنهج الذي اعتمده المفسر:

أولاً: للباحث أن يتصور منهج الطبراني في التفسير قياساً على غيره من المفسرين،

وأن يقارب إلى صفة الإمام الطبراني بوصفه محدِّثاً، ولكن هذا لا يمنع أن ينحى الإمام الطبراني منهجاً في التفسير مغايراً لمنهج المحدثين، سيما أنه كتب على أسلوب المحدِّثين أكثر من تفسير كما تقدم ذكره، فلا ضير أن يسلك منهج علماء التفسير مؤسساً تفسيره الكبير على أصول منهجهم، وسيما أن الباحث أشار إلى ذلك فقال: (**وإن كان المصنف يعتمد منهج التفسير بالمأثور**). وعلى هذا فليس هذا الملحظ بحجَّة في التشكيك في نسبة المخطوط للإمام الطبراني.

ثانياً: ربما مما يُدْخَلُ به على ملاحظته أن أسقط الناسخ أو غيره الأسانيد للأحاديث والآثار، اختصاراً أو تخفيفاً من الناسخ أو ممن أراد الكتاب على هذا الوجه وطلبَهُ من الناسخ، هذا إذا أراد الباحث بمنهج المحدثين ذكر السند، وسيما أن الناسخ يشير إلى أن هذه المخطوطة نُسخت بناء على طلب أحدهم، حيث جعل نسخته ((للشيخ الفاضل قاضي القضاة)) ولم يسمِّه. ولهذا السبب أو ذاك يدرك أنه لا تكفي هذه الملاحظة لتوجيه نسبة المخطوط إلى غير الإمام الطبراني.

ثالثاً: يلاحظ أنَّ منهجَ العلوم الشرعية بحسبِ أصولها ثلاثة: منهجُ الفقهاء، ومنهج المحدثين، ومنهج المفسرين، وقد يحصل تأثر للفقيه أو المفسِّر أو المحدِّث، ويتداخل عند البحث الفقهي ويتواصل مع الحديث أو التفسير، ولكن هذا لا يعني عدم إمكان الفقيه بالاستقلال في منهج النظر في الموضوع بحسب أصوله في العلم الشرعي تفسيراً أو حديثاً أو فقهاً. فمثلاً: نجد الإمام ابن حجر في شرح صحيح البخاري يسلك منهجاً فكرياً فقهياً على غير منهجه في كتبه الأخرى الحديثية والتراجم. فإمكان إفراد المؤلف في كتبه بمنهج يتفق والعلم الشرعي في الموضوع المعين حسب أصوله وارد وممكن، والوقوف على محاولة إلزام كل إمام أو شيخ بمنهج واحد في تقديرنا نوع من التمحك يضيق واسعاً.

الوجه الثاني: من حيثية ذكر الناسخ لأسماء بعض العلماء:

أشار الباحث إلى أن في الكتاب نقولات عن علماء بعد زمن الإمام الطبراني، فقال: (**كما أن في هذا الكتاب نقولاً عن علماء مفسرين كانوا بعد عصر الطبراني: مثل أبي إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧هـ**).

والجواب عليه من وجوه عديدة أيضاً:

أولاً: يلاحظ أن هذه النقولات التي أشار إليها الباحث ليست بنقولات، وإنما هي ذكر عبارة واضحة تخالف منهج المفسر، فيدرجها الناسخ بقوله: (كذا في تفسير الثعلبي) أو (كذا قال عبدالصمد) أو (كذا في الصحيحين). فهي في تقديرنا إدراج من الناسخ وليس من المؤلف. هذا أولاً.

ثانياً: ثم إن هذا الإستدراك من الناسخ يأتي دائماً في نهاية عبارة المصنف وبعد إتمام فكرته وانتهائه منها. ثم يذكر العبارة على سبيل الحكاية، لا على سبيل الرواية أو الإسناد، والإدراج فيها واضح. وحقيقة في البدء اضطرب عندي الأمر وأنا أنظر في هذه العبارة المقحمة، ثم وجدت بعد أن اعتدتُ على أسلوبِ المصنف رحمه الله، أن هذه العبارات مقحمة من الناسخ، وهذا يردُ عند النسَّاخ فعله وهو لا يخفى بعد التأمل.

ثالثاً: بل ربما لا يخفى على الناظر، أن الإمام أبي إسحق الثعلبي أنه ينقل من تفسير الإمام الطبراني، أو من تفسير مَن نقل عنه، حتى أنه يكاد يأتي بالعبارة نفسها، أو بالآثار ونصوص الأحاديث ذاكراً الإسناد، وكل من أتى بعد الثعلبي كان يشير إلى تفسير الثعلبي حين ينقل عنه بقولهم: (قال الثعلبي) كما هو معروف في كتب التفسير كالجامع لأحكام القرآن وغيره على سبيل الرواية والإسناد إليه، لا على سبيل الحكاية والمثال أنه كذا في تفسير الثعلبي أو غيره من كتب التفسير، وهذا مما ينبغي ملاحظته عند المحقق أو التحقيق.

رابعاً: ويلاحظ في هامش التفسير تعليقات القاضي عبد الصمد وهي كثيرة تكاد تكون في غالب صفحات المخطوط، وعلى ما يبدو لي أن الناسخ أو دارس المخطوط قد نقل من تفسير عبدالصمد ونسب القول إليه، كما في سائر نقولاته على هامش المخطوط، إذ أنه يحيل النص في الهامش ويعزوه إلى قائله، وهذا هو الراجح، حيث أنه أشار إلى نقولات من تفسير الكشاف والبيضاوي والقرطبي وعبدالصمد. كل ذلك في الهامش مما يدل على أنه ينقل عنهم ويراجع فيهم وينظر، وهو ما يؤكد أن التفسير ليس كما قال الأستاذ باجس من أنه تفسير

لعبدالصمد الغزنوي، وإلا ما احتاج أن ينقل منه في الهامش ويشير إليه في إحالاته.

وعلى هذا يرجح خطأ نسبة المخطوط إلى القاضي عبد الصمد والراجح أن الناسخ أو مالك المخطوط نقل عنه وعن غيره في الهامش وهو يدرس الكتاب أو يدرِّسهُ، وهذا راجح كثيراً مما يؤكد خطأ استنتاج الأستاذ باجس وربما تعجله في هذه الملحوظة.

الوجه الثالث: مقارنة الكتاب بالنسخ الأخرى:

أشار الباحث إلى نسخ أخرى لتفسير الإمام الغزنوي، وحاولنا الحصول عليها ولم يتسن لنا حتى الآن الحصول عليها، ونحن نراسل الجهات المعنية لأجل ذلك[1].

والملاحظ هنا وحتى لا نتأخر في نشر الكتاب ما يأتي:

أولاً: إن الباحث أشار إلى عدة نسخ مجتزءات، وأشار إلى نسخة كاملة من التفسير يتكون المجلد الأول من (٤٩٤) ورقة والمجلد الثاني والثالث كل منهما من (٤٠٠) ورقة، وكتب الأول والثاني سنة (٩٣٥ هـ) والثالث سنة (٩٣٦) هـ ومجموع ورقات المخطوط (١٢٩٤) ورقة، وهو سفر ضخم يكاد يكون حجمه

(١) تم بحمد الله تعالى وتوفيقه الحصول على مخطوطة (**تفسير الفقهاء وتكذيب السفهاء**) للإمام أبي الفتح عبد الصّمد بن محمود بن يونس الغزنويّ والموجودة في مكتبة المصغرات الفيلمية في قسم المخطوطات في عمادة شؤون المكتبات في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة. ورقمها في القسم [٤٤٨٧/ ٢] ورقم الحاسب (٤٠٤/ ٢١) والمكتوبة بخط مغربي وعدد الأوراق (٢٥٩) وعدد الأسطر(١٧) ومصدرها المغرب -فاس- مكتبة القرويّين. وقد قمنا بمقارنة تفسير الطبراني بتفسير الغزنوي فوجدناهما مختلفين اختلافاً كلياً، شكلاً ومضموناً، وثبت لدينا بالقطع أن هذا غير ذاك.

ولقد كنا قبل حصولنا على تفسير الغزنوي قد أكدنا على نسبة الكتاب الذي بين أيدينا إلى مصنفة الإمام الحافظ أبي القاسم سليمان الطبراني وذلك من خلال توثيق الناسخ لهذه النسبة من جهة، ومن جهة أخرى إثبات مذهب الإمام الطبراني وعقيدته، ومن جهة ثالثة فلقد أكدنا مراراً أن محتوى التفسير الذي بين أيدينا والمنسوب إلى الإمام الطبراني لا يدل ولا يتفق مع اسم تفسير الغزنوي والذي يطلق عليه اسم "**تفسير الفقهاء وتكذيب السفهاء**" ومعلوم أن الاسم يدل على المسمى. والآن وقد وفقنا الله تعالى وأرشدنا إلى تفسير الغزنوي وأصبح بين أيدينا كلا التفسيرين، نكون بذلك أنهينا الجدل وقطعنا الشك باليقين حول نسبة كتاب "**التفسير الكبير**" لصاحبه الإمام الحفاظ أبي القاسم سليمان الطبراني والحمد لله كثيراً على هذا التوفيق (الناشر).

ثلاث مرات حجم المخطوط الذي بين أيدينا، ومهما كان حجم الورقة، وإن أغفله الباحث، ولكن المقدر أنه نفس الحجم المعروف (٣١ × ٢١) سم الذي لمثله يلجأ النسَّاخ، وهذا مما يشكك الناظر في توافق المخطوطتين على أنهما تحملان محتوىً واحداً.

ثانياً: وعلى هذا فإن الراجح نسبة الكتاب إلى الإمام الطبراني كما هو في أصل المخطوط، حيث إن الآثار تدل على ذاتها، وتنسب الى صفتها، وهذا المخطوط يعزو نفسه الى الإمام الطبراني كما هو مدون عليه، فالأصل أن تبقى هذه النسبة وتعزز بهذا الأثر ما لم يأت دليل مقنع يدحظها، استصحاباً للحال المذكور، فيبقى الأصل على ما وثق، والله المستعان. وجزى الله خيراً جميع الباحثين لخدمة هذا الدين في جميع المجالات، وجزى الله خيراً الباحث إبراهيم باجس على ما أثاره من جدل موضوعي حول هذه المخطوطة، ورأينا صواب يحتمل الخطأ، والأمور تقوم بشواهدها، والأخبار تصدق بشهودها، وما نقل إلينا من هذه المخطوطة عن طريق واحد، تدل على نسبة الكتاب للإمام الطبراني.

وعلى هذا يتبينُ أن نسبةَ الكتابِ إلى الإمام الطبرانيِّ من خلال توثيق الناسخِ في المخطوطة. ونسألُ اللهَ عزَّ وجَلَّ أن يُعِينَنا على إثباتِ نسبته أكثرَ في طبعاتٍ قادمةٍ[1].

مَذْهَبُ الإمَامِ الطَّبَرَانِيِّ وَعَقِيدَتُهُ:

ربما يقع البعض في الخطأ عندما يقيسون الأمور قياساً عاماً، وينظرون إلى كل محدِّث على أنه حنبلي المذهب، ومن ذلك نظرتهم لمذهب الإمام الطبراني رحمه الله، حيث نجد أن البعض يدرجه في تراجم الحنابلة وطبقاتهم، فنقف عند هذا الملحظ لنصحح الرأي فيه، مع أن الأمر سيان، حيث إنه لا يؤثر مذهب الفقيه أو المفسر أو المحدِّث في التعامل مع فكره في الرأي والفقه، ولكن للضرورة العلمية ومن خلال دراستنا لكتابه التفسير الكبير، نجد أن الإمام الطبراني حنفي المذهب، متوازن الرأي

(١) لقد أعاننا الله سبحانه وتعالى ووفقنا وأرشدنا إلى ما يدل على صحة نسبة هذا الكتاب لصاحبه وذلك بالحصول على تفسير الغزنوي كما بيَّنا سابقاً.

منصف للآخر، بل إن الإمام الطبراني فضلاً عن وضوح آرائه في الاتجاه الحنفي، فإنه من الناحية التاريخية لم يكن حنبلياً أيضاً كما تشير الدراسات إلى ذلك وكما يأتي:

١. أن الإمام الطبراني قضى أكثر من نصف حياته المباركة في أصفهان بلد العلم والعرفان. ومدينة أصفهان (كانت من القرون الأولى الإسلامية مهاجرة العلماء لطلب الحديث، ومحط رحالهم، حتى كانت تضاهي بغداد في العلو والكثرة كما قال السخاوي)[(١)]. ويقول السيد مصلح الدين مهدوي: (إن أصبهان كانت من القرون الأولى الإسلامية مركز العلم والعرفان، ونبغ فيها جماعة من العلماء والعرفاء والحكماء والشعراء والمحدّثين والخطباء والوعاظ، وكانوا يرحلون لأخذ العلم وطلب الحديث من بلد الى بلد، ويحضرون مجلس العلماء والمحدّثين)[(٢)]. وعلى هذا، فإن ذاك الزمان لم يكن الأمر فيه تقصد النسبة للمذهب، والظاهر آنذاك السعي لطلب العلم من غير تحيز.

٢. أن مذهب أهل أصفهان بين الشافعية والحنفية، فبعد فتحها سنة (٢١) للهجرة وانتشار الإسلام في أهلها، استقام أمرهم على السُّنة، وقوي واشتد على ذلك الى أن لجأ إليها الخوارج في عهد بني أمية؛ (ولكن عتاب بن ورقاء واليها من قبل مصعب بن الزبير أخرجهم منها، فلجأوا إلى الأهواز وعادت القوة فيها لأهل السُّنة، ويغلب عليهم المذهب الشافعي والحنفي، ويتولى زعامة الشافعية فيها أسرة الخجنديين، وزعامة الأحناف أسرة الصاعديين، واستمر الأمر على هذا، سوى ما كان من ظهور الشيعة والزيدية بين الفينة والفينة)[(٣)]. وعلى هذا فإن الرأي العام في أصفهان مستقر بتفاهم الشافعية والأحناف ما لم يكدر عليهم أحد كما حصل

---

(١) أنظر: طبقات المحدثين بأصبهان والواردين إليها: لأبي محمد عبدالله بن محمد بن جعفر المعروف بأبي الشيخ:ج١ ص١٥: دراسة وتحقيق عبدالغفور البلوشي؛ مؤسسة الرسالة. و الإعلان التوبيخ: ص١٤٣.

(٢) أنظر: تذكرة القبور، مترجم عن الفارسية. نقله البلوشي في مقدمته لكتاب طبقات المحدثين بأصبهان: ج ١ ص٤١.

(٣) أنظر: اقتصاد شهر أصفهان: ص٢٠٠. نقلاً عن مقدمة البلوشي لطبقات المحدثين بأصبهان: ج ١ ص٥٧.

في فتنة المغول حين استغلوا الخلاف بين المذهبين وأضعفوهما[١].

٣. لم يغير أهل أصفهان مذهبهم حتى زمن الشاه إسماعيل، يقول المؤرخ ميرزا حسن الأنصاري: (إن مذهب أهل السنة والجماعة كان هو المذهب الرسمي السائد في أصفهان إلى بدية القرن العاشر الهجري سنة(٩١٠)، وإن كان البويهيون قد ادعوا مذهب التشيع... ثم قال: في سنة (٩٠٦) هجرية فتح الشاه إسماعيل الصفوي العراق وجعل أهل السنة شيعة علناً، وارتفع خلاف الشافعية والحنفية منذ ذلك التاريخ، ولكن حل محله اختلاف الفرقة الحيدرية والنعمتية)[٢]. وعلى هذا كان الإمام الطبراني يعيش أجواء طلب العلم والانفتاح على الرأي الآخر من مذاهب أهل السنة، ويدور فقهياً كغيره في دائرة الشافعية أو الأحناف، ولولا موقفه في التفسير بنسبة الرأي الذي يتبناه إلى الأحناف لَما علم مذهبه.

٤. انسجم الإمام الطبراني مع مناخ أصفهان الفكري والفقهي، فنجد عامل أصفهان أبو علي بن أحمد بن محمد بن رستم الذي شغفه حب العلماء يستقبل الطبراني عند قدومه المرة الثانية سنة (٣١٠) هجرية (ويسهل له البقاء بأصبهان، فيكرمه بتعيين معونة معلومة يقبضها من دار الخراج، وتستمر حتى حين وفاته بها)[٣].

٥. لم يصرح الإمام الطبراني بمذهبه الفقهي كغيره من علماء زمانه، إلا للضرورة البحثية كما في التفسير، فمذهب أصفهان السائد في ذاك الوقت بل في إيران مذهب الشافعية والأحناف من أهل السنة[٤]، فتبنى مذهب الأحناف على ما يترجح عنده بالدليل، حيث لا نجده يتعصب لرأي، بل يسلك منهج العلماء في

(١) قاله علي كلباسي في اقتصاد شهر أصفهان: ص٢٠١، ونقله البلوشي في مقدمته: ج ١ ص٥٧.
(٢) كتاب تاريخ أصفهان: ج ١ ص٣٨. وأصل العبارة بالفارسية ترجم ألفاظها البلوشي كما في مقدمته: ج١ ص٥٨.
(٣) سير أعلام النبلاء: ج ١٠ ص٦٦.
(٤) أنظر: معجم البلدان: ج ١ ص٦٠٩ لياقوت. وكتاب اقتصاد شهر أصفهان: ص٢١٠ للدكتور علي كلباسي. وطبقات المحدثين بأصبهان: ج ١ ص٢.

تبنيه المذهب والجواب على مسائل الشافعية، وهو ما نجده واضحاً في تفسيره عند التعامل مع الرأي الآخر بهدوء وموضوعية.

٦. يعد الإمام الطبراني من كبار علماء أصفهان، وإليه ينتهي العلم في الحديث، وأنه يسير على منهج أهل زمانه فقهاً وعلماً ولا يبتدع. ذكر الذهبي في ترجمة محمد بن أحمد القاضي العسال أن أبا جعفر أحمد بن محمد الزاهد قال أبياتاً منها[1]:

لَقَدْ مَاتَ مَنْ يَرْعَى الأَنَامَ بِعِلْمِهِ ... وَكَانَ لَهُ ذِكْرٌ وَصِيتٌ فَيَنْفَعُ
وَقَدْ مَاتَ حُفَّاظُ الْحَدِيثِ وَأَهْلُهُ ... وَمِمَّنْ رَأَيْنَا وَهُوَ فِي النَّاسِ مُقْنِعُ
أَبُو أَحْمَدَ الْقَاضِي وَقَدْ كَانَ حَافِظاً ... وَلَمْ يَكُ مِنْ أَهْلِ الضَّلاَلَةِ يَتْبَعُ
وَكَانَ أَبُو إِسْحَقَ مِمَّنْ شُهْرَتُهُ ... يُدَرِّسُ أَخْبَارَ الرَّسُولِ وَيُوسِعُ
وَثَالِثُهُمْ قُطْبُ الزَّمَانِ وَعَصْرُهُ ... أَبُو الْقَاسِمِ اللَّخْمِيُّ قَدْ كَانَ يُبْدِعُ
وَرَابِعُهُمْ كَانَ ابْنَ حَبَّانَ آخِراً ... وَمَاتَ فَكَيْفَ الآنَ فِي الْعِلْمِ يُطْمَعُ

وعلى هذا فإن الإمام الطبراني حنفي المذهب من أهل السنة والجماعة محدِّث بارع ومفسر، بارك الله له في عمره وجعل خاتمة أعماله على ما يبدو لنا هذا السفر الكبير في تفسير القرآن العظيم.

مَنْهَجُ الإمَامِ الطَّبَرَانِيِّ فِي التَّفْسِيرِ:

ربما يفاجأُ القارئ المطَّلع ويتعجب متسائلاً عن سببِ تأخير ظهور هذا التفسير، وبخاصة أن الإمامَ الطبراني يسلكُ فيه منهج المفسِّرين ويسيرُ بطرائقهم وفقَ قواعد علمِ التفسير وأصوله، وهو العالِم المحدِّث الحافظ ليراهُ على غيرِ المعهود الذهنيِّ الذي يرسمه النابهُ للمحدِّث؛ حيث صورته في التعامل مع النصِّ القرآني، ليس كما هو معروفٌ من أسلوبِ المحدِّثين حين النظرِ في موضوع الآيات وإسناد أسبابِ النزول أو ما يتعلق بدلالةِ الآيةِ في المجال الحديثيِّ.

(١) سير أعلام النبلاء: ج ١٠ ص٦، وقال الذهبي: (أبو أسحق هو إبراهيم بن محمد الحافظ، توفي سنة ثلاثة وخمسين وثلاثمائة. واللخمي هو سليمان بن أحمد الطبراني الحافظ مات سنة ستين وثلاثمائة. وابن حبان هو الحافظ أبو الشيخ، توفي سنة تسع وستين وثلاثمائة عن بضع وتسعين سنة).

نجدُ الإمامَ الطبرانيَّ في منهجه يسيرُ على أصولِ علم التفسير منضبطاً بقواعده مُتعاملاً مع النصِّ بالبيان من السُّنة، والتعريفِ بدلالة ألفاظ النص على معهودِ لسان العرب أو مفردات لُغتهم بأسلوبِ المفكِّر المفسِّر غيرِ المتأثِّر بأساليب أهل الحديث من الوقوف عند ظاهر النص، أو أساليب أهل الكلام من التعامل الجدلي مع الرأي الآخر.

ومن ذلك أنه كان للشواهدِ الشِّعرية أثرٌ واضح في أسلوبِ الإمام الطبراني، حيث أفادَ إفادةً واضحة منه في تقرير الوجهة النحويَّة أو البلاغية أو الدلالية التي تُعطِي المعنى المراد على وجهه المقصود، وبما يؤدِّي إلى الفهم المراد فيه. فسيجدهُ القارئ أنه كثيرُ الاحتجاج بأشعار العرب بقصد توضيح معاني الألفاظ القرآنيَّة، وأنه حين يتناولُ الإعراب يأتي بالشَّاهد الشعريِّ حسب المناسبةِ، وكذلك يفعلِ حين يتناول معنى غريب الألفاظ، فيوضِّح لُغَتها، وييسِّرُ معناها.

ويلاحظُ بشكل جليٍّ أن الإمامَ الطبرانيَّ يسيرُ على خُطَى أسلوبِ المحدِّثين، حيث ينسبُ العلمَ لأهلِهِ، وكأنه يؤسِّسُ لذلك في غير مجال الحديث على نهج المحدِّثين مُختَصِراً الإسنادَ، ومن بركةِ العلم أن يُنسب لأهله. فغالباً يشير إلى معتمَدِه في الفهم الذي يتبنَّاهُ من أقوال السلف، فيذكُر من يرجعُ إليه في ذلك، فكان غالبُ رجوعهِ إلى الفرَّاء وابن النحَّاس والزَّجَّاج والأخفَش، وغيرهم من أهل المعاني والعربيَّة، وغالباً ما يُجمِلُ القولَ، فيقول: (قال المفسِّرون) أو (قال بعضُ المفسرين) أو (قال أهلُ التفسير) هذا إذا لم يذكُرِ العالِم الذي أخذ عنه أو رجعَ إليه.

وكان عُمدة الإمامِ الطبراني في تفسيره أن يأتي بالشواهدِ البيانيَّة من السُّنة النبوية أيضاً، فيأتي بالأحاديث في موضوعِ الآية ويذكُرها من غير إسنادٍ، حيث يكتفي بذكر الراوي من الصَّحابة رضوان الله عليهم غالباً، أو بذكر التابعي، أو من نقل عنه الأثرَ، فيفيدُ من الحديثِ أو الأثر أو المأثور من أقوال السَّلف في بيان معنى الآية ودلالتِها على المراد المقصود.

وعِمَادُهُ أيضاً في هذا المجال أن يذكُرَ أسبابَ النزول، أو يبيِّن متعلَّق الآية في الحدثِ حسب الزمان والمكان معتَمداً على أخبار السِّيرة النبوية، وتحديداً سيرة ابنِ إسحق. فيأتي بالشواهد من السِّيرة النبوية بما يُجْلِي الصورةَ الذهنية، ويوضح المرادَ على أتمِّ وجه يراه من غير إملالٍ أو إطناب.

وقد يُذكر ها هنا أنه مما يُؤَاخَذُ عليه رحمه الله في هذا التفسير، أنه أدرجَ فيه بعضَ القصص التوراتية والأخبار من الاسرائيليات التي كان يُغنِيه عنها الأخبارُ الصحيحة. وقد أشرنا إلى ذلك حسبَ مناسبة إيراده في هوامش التحقيق والتعليق.

ومن الجدير بالذكر، أن للقراءات أثراً بالغاً في تفسيرِ الإمامِ الطبراني ونهجهِ في إدراك المراد في دلالة الآية، فكان يأتي بالقراءات ويتعاملُ معها بوصفها أفهاماً وأوجُهَ تفسيرٍ، لا المراد منها التلاوة كما يفهمُ البعض أو ظنَّ ذلك. وعِمَادهُ في ذلك - فضلاً عن كتب المعاني - ما جاءَ في كتاب الحجَّة للقراءات السبعة لأبي عليٍّ الفارسي، وذكَرَهُ في مناسباتٍ من هذا التفسير. كما أنه ذكرَ الإمامَ محمد بن جريرٍ الطبري في مجال تفسيرهِ للآية (١٣) من سورة الأنعام؛ وغالباً ما كان ينقلُ عنه الآثار أو القراءات وأوجُهَ فهمِها عند القرَّاء لها.

كما أنه ذكرَ تفسيرَ النقَّاش في سورةِ الحاقة تفسير الآية (١٢) منها. وذكر أبا حاتم الرازي الجصَّاص، وكأنه كان ينقلُ عنه مسائلَ آياتِ الأحكام، ويناقشُ الخلافَ فيها. ومع أنه حنفيُّ المذهبِ، ولكني وجدتهُ يتعامل مع الأدلة وأوجهِ الاستدلال بعقلية المجتهد لا المقلِّد، فيبيِّن فيها وجهَ الاستدلال الذي ينتصرُ به لمذهبه إذا ترجَّح عنده ذلك، أو أنه يبيِّن وجهَ ما تبناهُ في المسألة.

ولا يخفى على القارئ أن الإمامَ الطبراني أفادَ كثيراً من سابقيه ومعاصريه، وجَمَعَ جُهودَهم في تفسيرهِ من غير تقليد أو اجترار أو تكرار، وإنما بذلَ جُهداً في تأليفِ ذلك بتسلسلٍ فكريٍّ، وانتباهٍ يَقِظٍ يؤدي إلى إحساسٍ فكري عند المتلقِّي القارئ بعُمقٍ لتفسيره. فهو يتعاملُ مع النصِّ القرآنيِّ بوصفه مفسِّراً جَمَعَ فائدةَ الحديثِ في البيان، وفائدةَ اللُّغة واللسان لفهم المراد، وبما يوصِلهُ إلى الفكرِ والفقه فيه. على أن منهجَ الإمام الطبراني يفعِّلُ لسانَ العربِ وأصول التفسيرِ في إدراك النصِّ القرآني مبيِّناً المراد بالسُّنة والحديث الشريف، ومعضِّداً بالشواهدِ من الشِّعر، وآثار السلف وأقوالهم، ومن تبعهم من أهل العلم.

وعلى قدر ما أعلمُ، أجِدُني وأنا أراجعُ كتبَ التفسير: أن الجميعَ بعده عيالٌ عليه، وإنْ لم يَذْكُرْهُ أحدٌ منهم، أو ينسبُ قولاً إليه، بل إني وجدتُ الإمامَ الثعلبي في

تفسيره الكشف والبيان، ينقلُ عباراتِ تفسير الإمامِ الطبراني بنصِّها من غير نسبةٍ، بل لا أغالي إن قلتُ إنَّ تفسيرَ الكشف والبيان للثعلبي فيه إيجازٌ لتفسير الطبرانيِّ، أو إسنادٌ لما لم يسنده الطبرانيُّ، أو اختصار لعبارته، أو نقلٌ حَرْفِيٌّ لها من غير أن يعزُوَ ذلك إلى تفسير الإمام الطبرانيِّ. وهكذا وجدتُ الأمرَ بالنسبة للإمام البغويِّ في معالم التنزيل. أو ربما نقَلُوا عمن نقلَ عنه الإمامُ الطبراني في تفسيرهِ.

وعلى ما يبدو لي أن هذا التفسيرَ بحقٍّ بَنَى كيانه على عطاءِ سابقيه وأفادَ منهم، وأنضجَ أفكارهم، وأسَّسَ لمن يأتي بعده لينهلَ منه فكراً وفقهاً ومنهجاً، فيمثل بحقٍّ نقلةً منهجيةً في مجال علمِ التفسير على قدر ما أعلَمُ.

وأخيراً، فإنه على قدر ما أنا مسرورٌ بإخراج هذا الكتاب إلى نور أذهان القراء، وشعاعِ أبصارهم، وإحساس فكرهم، كم أنا متألِّمٌ لتأخُّر هذا الكتاب عن متناوَل أهل الإنصاف، أو التمكين لإخراجهِ إلى أبصار طلاَّب العلم وقراءاتهم ودراساتهم، ففيه من مجالاتِ البحث الكثير: في اللغةِ، والقراءات، والأفكار، والأحكام. فالحقُّ يقال: إن هذا الإمامَ قد سبَقَ، وباركَ اللهُ له في عُمره، فعُرف محدثاً، وأستطيع أن أقول: إنه اليوم يُعرف مفسِّراً من الْمَنْزِلَةِ الأولى من منازل المفسِّرين، وإن تأخر في طبقاتهم.

ورَحِمَ الله الإمامَ أبي القاسم الطبرانيَّ وأثابه على ما قدَّم، فالخير كلُّ الخير فيمن طالَ عُمره وحسُن عمله. اللَّهُمَّ لا تحرِمنَا أجرَهُ وبارك يا أكرمَ الأكرمين.

مَنْهَجُ تَحْقِيقِ التَّفْسِيرِ وَالْعَمَلُ فِيهِ

اعتمدنا في تحقيق التفسير الكبير (تفسيرُ القرآنِ العظيم للإمام الطبراني) على نسخةٍ واحدة، تامَّة، بخطٍّ واضح غالباً؛ اكتنفَهُ بعضُ اضطرابٍ قليل جداً، يكاد لا يذكر، وللأمانةِ العلميَّة أنوِّهُ لذِكرِهِ.

وتَمَّ ضبطُ بعض الكلماتِ غير المقروءة بشكلٍ واضح على ما جاء في كتُبِ التفسير أو الحديث، وقد نوَّهنا إلى ذلك في مظانِّه، وأكادُ لم أدع منه شيئاً إلا نوَّهْتُ له، وبيَّنتُ ذلك في الهامشِ.

ومن الملاحَظِ أن الناسخَ قد أدرجَ بعض النقولات في مـتنِ التفسـير، بأسـلوبٍ واضح فيه الإدراج، ظاهرٌ لا يخفى على النَّابه من غير أهـل الاختصـاص؛ لاختـلاف أسلوبِ الْمُدْرَجِ عن أسلوبِ المصنِّف في تأليفه، مع أن الناسخَ يشير لإدراجـه بعبـارة متميِّزة تخالِفُ معهودَ المصنف، كأن يقول: (كَذا فِي ....) ويذكرهُ غالباً في نهايةِ كـلام المصنف، مما يُنَبِّهُ إلى أن العبارةَ ليست من المتن. وقد نوَّهتُ إلى ذلك في مظانِّهِ أيضاً.

أما باقي الجهد لإخراجِ الكتاب على أتَمِّ صورةٍ حسَـنة أقـدرُ عليـها، فـهو مـا سيُلاحظِهُ القارئُ في تعليقنا على التحقيـق، وتدقيقِنـا لأصولـه، ولا نريـد أن نَصِـفَ جُهدنا حتى لا نطيلَ، فهو معروفٌ واضح لأهلِ الإنصاف، ونقرِّرُ هنا، أنه مهما بذَلنا من جُهد فلسنا أكثرَ من خَدَمَةٍ لأهلِ العلم وطلابه، ورَحِمَ اللهُ علماء هذه الأمة علـى ما قدَّموا، وأعاننا الله أن نشارك العاملين لتقديم هذا التراثَ الفكـريَّ بـالصورة الـتي تليقُ به، وتنهضَ بعزمِ الأمة إلى علُوِّ الهمة التي أورثها هؤلاء العلماء، وتركوها للأمـة لترفع بأبنائها من جديدٍ إلى الحياة الأمثلِ، والله الموفقُ لكلِّ خيرٍ.

السِّيْرَةُ الذَّاتِيَّةُ وَالْعِلْمِيَّةُ لِلْمُحَقِّقِ

الاسم والكنية والإجازة العلمية:

- هِشَامُ بْنُ عَبْدِالْكَرِيْمِ بْنِ صَالِحِ بْنِ عَبْدِالْقَادِر الْبَدْرَانِيُّ الْحُسَيْنِيُّ الْمَوْصِلِيُّ.
- كناه الشيخ عبدالقادر الدبوني (الشيخ الُمجِيز) في الإجازة العلمية بـ (عزُّ الدين).
- مواليد الموصلِ ٢٣/ ٣/ ١٩٥٨ ميلادية.
- درسَ في المدارس الرسمية في مدينة الموصل، وتخرَّج من معهدِ المعلمين المهنيِّين سنة ١٩٧٨ ميلادية.
- درسَ العلومَ الشرعية بين يدَي الشيخِ صادق بن مُحَمَّد سَليم الْمَـزُوريّ، والشـيخ ذنون البدرانِيّ، والشيخِ عبدالقادر الدبونِيٌّ. ابتداءً من سنة ١٩٨٥؛ وأجازهُ الشـيخ عبدالقادر بن فائقِ بن صالح الدبونِي إجازةً علميَّة عامة بعلوم الشـريعة الإسـلامية

في٢٢/ جُمادى الأولى/ ١٤١٧ من الهجرة، الموافق ٤/ تشرين الأول/ ١٩٩٦ ميلادية.

- عضو مجلس شورى هيئة علماء المسلمين في العراق.

- إمامٌ للصلاة ومدرِّس في مسجدِ العبادلة في الموصل.

المؤلفات والتحقيقات:

فِي مَجَال التَّأْلِيْفِ:

١. رؤيةٌ إسلامية في مفهومِ العقل، (١٩٩٠م – العراق).

٢. العقليةُ الإسلامية – بناؤها وتكوينُها (١٩٩٠م – العراق).

٣. خطابٌ هادئ إلى الشبابِ (١٩٩٤م – العراق).

٤. الحضارةُ والمدنيَّة في الفكرِ الإسلامي (١٩٩٤م – العراق).

٥. مدخلٌ إلى الفهمِ الإسلامي (١٩٩٤م – العراق).

٦. مناهجُ الأدلة في بَحث أسماءِ الله وصفاته (١٩٩٨م- دار البيارق)، (٢٠٠٢م- دار الكتاب).

٧. منهاجُ الإيْمَانِ في الإسلامِ (١٩٩٨م - دار البيارق)، (٢٠٠٢م - دار الكتاب).

٨. عجالةُ المتفقِّهِ إلى معرفةِ أصُول الفقه (١٩٩٨م - دار البيارق)، (٢٠٠٢م - دار الكتاب).

٩. مدخلٌ إلى دراسةِ العلوم الشرعيَّة (٢٠٠١م - دار الكتاب).

١٠. مسائلُ فكريَّة وفقهية (١٩٩٨م - دار البيارق).

١١. الحكمُ الشرعيُّ في الألعاب الرياضيةِ (١٩٩٨م - دار البيارق).

١٢. الحكمُ الشرعي في تصنيعِ الخمر لأغراض التداوي(١٩٩٨م - دار البيارق).

١٣. الأمةُ الإسلامية – حقيقةُ الفكرةِ وواقع الممارسة (١٩٩٨م - دار البيارق).

١٤. مفاهيمُ علماءِ النَّفس – دراسةٌ وتحليل (١٩٩٨م - دار البيارق).

١٥. استدراكاتٌ وإيضاحات (١٩٩٨م - دار البيارق).

١٦. الْمُحَلَّى على شرح الْمَحَلِّي لورقات الْجِوِينيّ في علمِ أصُول الفقهِ (٢٠٠٣م- دار الكتاب).

١٧. الأنوارُ اللاَّمعة، شرحُ المقصدِ الأول من المقاصدِ النافعة للإمام النوويِّ (٢٠٠٣م – العراق).

١٨. النظام السياسي بعد هدم دولة الخلافة، دراسة شرعية (٢٠٠٤م – العراق).

فِي مَجَال التَّحْقِيْق:

١٩. عجالةُ الْمُحتاجِ إلى توجيه المنهاجِ لابن الملقِّن (فقهٌ شافعي) شرحُ منهاج الطالبين للإمام النووي في أربع مجلدات، (٢٠٠١م - دار الكتاب).

٢٠. توضيحُ المشكلاتِ شرحُ كتاب الورقات في علمِ أصُول الفقهِ – وهو المشهورُ بشرح الْمَحَلِّي على ورقاتِ الجويني في علم أصُول الفقهِ، طُبِعَ في القسمِ الأول من كتاب الْمُحَلَّى على شرح الْمَحَلِّي – قسمُ التحقيق– حيث حُقِّقَ على ثلاث نُسخ مخطوطة، وأكثر من خمسة نسخ مطبوعة.

٢١. حبلُ الاعتصامِ في وجوب الخلافة في دينِ الإسلام للشيخ مُحَمَّد حبيب العبيدي الموصلي، (دار الكتاب – ٢٠٠٤م).

٢٢. جناياتُ الإنكليزِ على البشر عامَّة وعلى المسلمين خاصَّة للشيخ مُحَمَّد حبيب العبيدي الموصلي، (دار الكتاب – ٢٠٠٤م).

٢٣. كَنْزُ الراغبين شرحُ منهاجِ الطالبين للإمام الْمَحَلِّي (فقه شافعيٌّ) شرحُ منهاج الطالبين للإمام النووي، يقع في أربع مجلدات.

٢٤. إيقاظُ الفِكَرِ. وهو تحقيق لكتاب الفكر الإسلامي للشيخ الأستاذ مُحَمَّد مُحَمَّد إسماعيل.

٢٥. التفسير الكبير، تفسير القرآن العظيم، للإمام الطبراني.

٢٦. نظام الشورى – نمط التفكير الجماعي.

شُكْرٌ وتَقْدِيرٌ

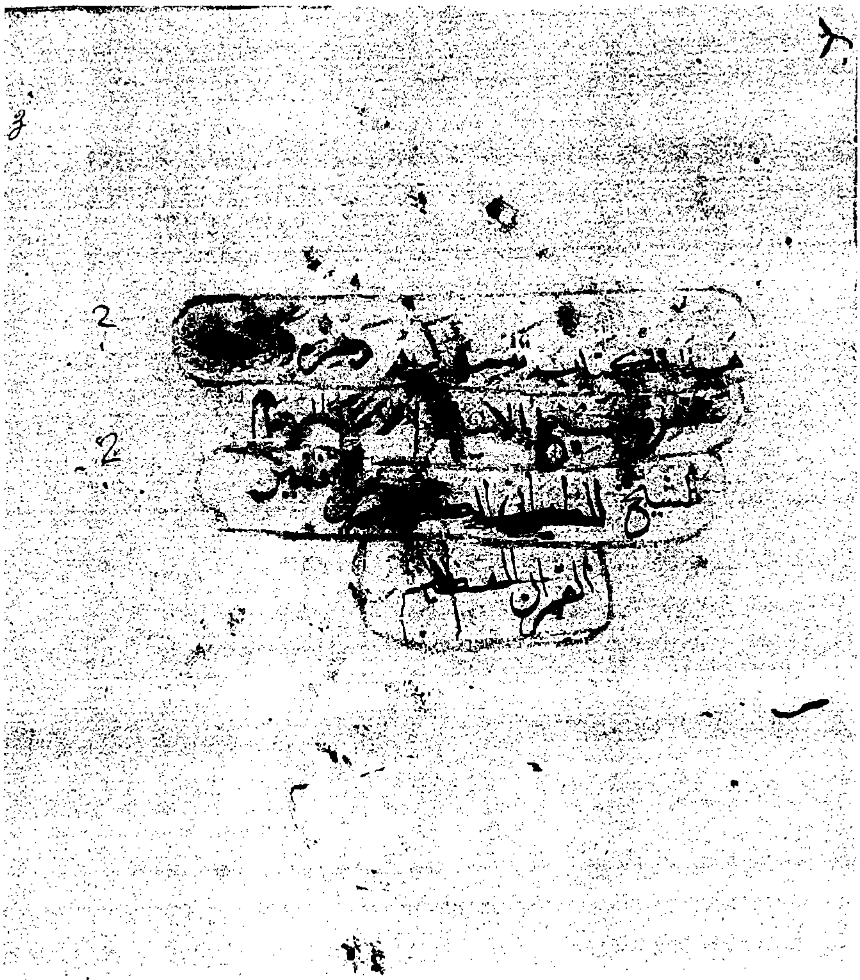
ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أقدِّم الشكر الجزيل إلى كل مَن ساهم في إنجاز هذا العمل وعاونني عليه، فالمرءُ كثير بأخيه، وفي هذا المقام أخصُّ بالذكر دار الكتاب الثقافي للنشر والتوزيع، وبخاصة مديرها الأستاذ بلال إبراهيم الشلول على ما بذله من حرص شديد لإخراج هذا الكتاب بأتم وجه، فهو بذل جهداً في جلب المخطوط ثم إيصاله إلينا للعمل على إخراجه بعد التحقيق والتعليق عليه، وقد تابع كثيراً ما كُتب عنه ونقله إلينا، ورافق هذا العمل في كل مراحله وعمل على تذليل كل الصعوبات ومعالجة كل المعوّقات لإخراج ونشر هذا العمل الفريد في هذه الصورة الحسنة فجزاه الله خيراً. ثم أذكر الأخَ الفاضل الدكتور (جعفر الكنج الدندشي) الذي كانت له يدُ العون في الحصولِ على صورة المخطوط. والأخَ المنسق الفني (عدي أنور الثقفي) على ما بذله من جهدٍ في صفٍّ حروف الكتاب وتنسيق سطوره بأحسنِ صورة؛ وجزَى الله خيراً جميعَ الأحباب الذين قدَّموا يدَ العون بالفعلِ أو الدعاء. والله الموفقُ لكلِّ خير وسدادٍ.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين وصلَّى اللهُ على سيدنا مُحَمَّدٍ الأمين نبيِّنا ورسُولِنا المصطفَى المبين وعلى آلهِ الطيبين الطاهرين وأصحابه الذين حَمَوا هذا الدينَ بدمائهم الزكيَّة، وعلى سائرِ العلماء العاملين الذين خطُّوا بمِداد أقلامهم ماهية العلمِ الشريف وبيانهِ من الشَّرع الكريم. آمين آمين.

المحقق

هشام بن عبد الكريم البدراني

سورة الفاتحة ١	سورة البقرة ٢	سورة آل عمران ٨٣	سورة النساء ١١٧	سورة المائدة ١٤٤
سورة الانعام ١٦٩	سورة الاعراف ١٨٨	سورة الانفال ٢١٢	سورة براءة ٢٢٢	سورة يونس ٢٣٧
سورة هود ٢٤٤	سورة يوسف ٢٥٥	سورة الرعد ٢٦٤	سورة ابراهيم ٢٦٨	سورة الحجر ٢٧١
سورة النحل ٢٧٤	سورة بني اسرائيل ٢٨٠	سورة الكهف ٢٩١	سورة مريم ٣٠١	سورة طه ٣٠٧
سورة الانبياء ٣١٤	سورة الحج ٣٢٢	سورة المؤمنين ٣٢٩	سورة النور ٣٣٤	سورة الفرقان ٣٤٥
سورة الشعراء ٣٤٩	سورة النمل ٣٥٥	سورة القصص ٣٦٣	سورة العنكبوت ٣٧٠	سورة الروم ٣٧٤
سورة لقمان ٣٧٨	سورة السجدة ٣٨١	سورة الاحزاب ٣٨٣	سورة سبأ ٣٩٠	سورة فاطر ٤٠١
سورة يس ٤٠٤	سورة الصافات ٤٠٧	سورة ص ٤١٢	سورة الزمر ٤١٧	سورة المؤمن ٤٢٢
سورة حم السجدة ٤٢٥	سورة حم عسق (سورة الشورى) ٤٢٩	سورة الزخرف ٤٣٣	سورة الدخان ٤٣٧	سورة الجاثية ٤٣٩



هذا الجزء الاول من تفسير القرآن العظيم
تأليف فريد عصره الامام الهمام شيخ
الاسلام الشيخ الطبراني الكبير نفع الله به النفع العميم

الحمد لله الذي اكرمنا بالنور المبين وهدانا الحق اليقين كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد والصلاة والسلام على نبي الرحمة وامام الحكمة المنتخب من طينة الكرم
وسلالة المجد الاقدم سيد المرسلين وخاتم النبيين وعلى اله الطيبين الطاهرين قوله عز وجل [illegible]
بسم الله الرحمن الرحيم تعليم منه سبحانه ليذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها تبركا به ومعناه ابدا
بسم الله لان حرف الباء مع سائر حروف الجر لا يستغني عن فعل مضمر او مظهر فكان ضمير الباء في هذه الاية
الامر واختلف الناس في معنى اشتقاق الاسم واكثر اهل اللغة على انه مشتق من السمو وهو الرفعة ومعنى
الاسم التنبيه على المسمى والدلالة عليه وقال بعضهم مشتق من السمة وهي العلامة فكان الاسم علامة للمسمى
واما الله فقال بعضهم هو اسم لا اشتقاق له مثل قولك فرس ورجل وجمل ومعناه عند اهل اللسان المستحق
للعبادة ولذلك سمت العرب اصنامهم الهة لاعتقادهم استحقاقها للعبادة وقال بعضهم هو من قولهم
اله الرجل الى فلان يأله الها اذا فزع اليه من امر نزل به كالهه اي اجاره وامنه ويقال للاله لوه اليه الها
كما قالوا للمؤتم به اماما فمعناه ان الخلائق يألهون ويتضرعون اليه في الحوائج والنوائب واختلفوا في
بسم الله الرحمن الرحيم هل هي اية من الفاتحة فقال قراء الكوفة هي اية منها وابى ذلك اهل المدينة والبصرة واما
قوله الرحمن الرحيم فهما اسمان مأخوذان من الرحمة ووزنهما من الفعل نديم ونيمان من المنادمة وفعلان
ابلغ من الفعيل وهو من ابنية المبالغة ولا يكون الا في الصفات كقولك شبعان وغضبان ولهذا [illegible]
اسم الرحمن مختصا بالله لا يوصف به غيره واما اسم الرحيم فمشترك وعن عثمان رضي الله عنه عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم انه قال الرحمن العاطف على جميع خلقه بادرار الرزق عليهم فالرحمة من الله في الانعام
على المحتاج ومن الادميين رقة القلب وانما جمع بين الرحمن والرحيم للنهاية في الرحمة والاحسان بعد
الامتنان وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال هما اسمان رقيقان احدهما ارق من الاخر ولو قال
لطيفان لكان احسن وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكتب في اوائل الكتب في اول الاسلام باسمك اللهم
حتى نزل بسم الله مجراها فكتب بسم الله ثم نزل قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن فكتب بسم الله الرحمن
فنزل بسم الله الرحمن الرحيم في سورة النمل فكتب حينئذ بسم الله الرحمن الرحيم فان قيل لم قدم
اسم الله على الرحمن قيل لانه اسم لا ينبغي الا لله عز وجل وقيل في تفسير قوله تعالى هل تعلم له سميا اي هل
تعرف في السهل والجبل والبر والبحر والمشرق والمغرب احدا اسمه الله غير الله وقيل هو اسمه
الاعظم وقدم الرحمن على الرحيم لان الرحمن اسم خاص به الله والرحيم مشترك يقال رجل رحيم ولا يقال
رجل رحمن وقيل الرحمن امدح والرحيم ارق وانما اسقطت الالف من اسم الله واصله باسم الله
لانها كثرت على السنة العرب عند الاكل والشرب والقيام والقعود فحذفت اختصارا من الخط وان
ذكرت اسما غيره من اسماء الله لم تحذف الالف لقلة الاستعمال كقولك باسم الرب وباسم العزيز
وان اثبت حرفا سوى الباء لم تحذف الالف ايضا كقولك لاسم الله حلاوة في القلوب وليس اسم
كاسم الله وكذلك باسم الرحمن واسم الجليل واقرأ باسم ربك [illegible]
كلمة وماية وثلاثات [illegible] سبع ايات وخمس وعشرون
[illegible] عن ابن عباس وسعيد بن جبير عن مجاهد وقتادة واسماعيل
[illegible] الشكر نظير ان الاول لحمد من حيث ان فيه معنى المدح


سورة الأنعام
هذا الجزء الثاني من تفسير القرآن العظيم
بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي خلق السموات والأرض

[illegible] امرأة [illegible] فقال يا محمد [illegible] على الحي الذي لا يموت والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل [illegible]
[illegible] في الفرج [illegible] اسماعيل بن ابي [illegible] مرسلا ابن [illegible]

الجزء الثالث من تفسير المطيم فقد تم هذا

الي مولفه الفاضل الهمام شيخ الاسلام الشيخ الطبراني [illegible] نفع الله به جميع العالمين

لا بل بكر زدني صوتك وقال لعمر انقص من صوتك وعن ابن عباس ان معنى الاية لا تصلي مرائيا
الناس ولا تدعها مخافة الناس وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن احسن الناس قراءة فقال
الذي اذا سمعت قراءته رايت انه يخشى الله تع قوله تع وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في
الملك او يسر به او ينتفع به وهذا تكذيب لليهود والنصارى ومن هم من اهل الشرك قوله تع ولم يكن له
شريك في الملك يعاونه عليه ولم يكن له ولي من الذل اي من اهل الذل وهم اليهود والنصارى يعدون
احبارهم ورهبانهم ويقولون نحن ابناء الله واحباؤه وقال مجاهد معناه ولم يخالف ولم يبتغ نصر احد
والمعنى انه عز وجل لا يحتاج الى موالاة احد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولي والنصير قوله تع وكبره
تكبيرا اي عظمه عظمة تامة عن ان يكون له شريك او ولي وصفه بانه اكبر من كل شيء وانه القادر
الذي لا يعجزه شيء العالم الذي لا يخفى عليه شيء الغني عن كل شيء معتقدا لذلك بقلبك كاملا
على امره فيما امرك وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا افصح الولد من بني عبد المطلب
علمه هذه الاية وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا الاية وروي ان رجلا جاء الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ابي كثير الهم فقال اقرا اخر سورة بني اسرائيل قل ادعوا الله
او ادعوا الرحمن الى اخر السورة ثم قل توكلت على الذي لا يموت ثلاث مرات وعن ابن عباس انه
قال من قرا سورة بني اسرائيل في سفر او حضر ايمانا واحتسابا ضرب الله عليه سورا من حديد يمنعه من
الغرق والحرق والسرق ومن عبر الحيوان قال من قرا اخر بني اسرائيل كتب الله له من الاجر مثل البر
السبع والارضين السبع وعدد الجبال سورة الكهف مكية غير ايتين منها واصبر نفسك
الى اخرهما وعدد حروفها ستة الاف وثلثمائة وستون حرفا وكلماتها الف وخمسمائة وسبع وسبعون
كلمة واياتها مائة وعشر ايات عند الكوفيين واحد عشر عند البصريين بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب اي الذي انزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم القران ولم يجعل له
عوجا اي لم يجعله ملتبسا لا يفهم ومعوجا لا يستقيم قوله تع قيما اي مستقيما عدلا اي مستويا قيما على
الكتب كلها ناسخا لشرايعها قوله تع لينذر باسا شديدا من لدنه اي لينذر العبد الذي انزل عليه
الكتاب باسا شديدا اي لينذر الكفار عذابا شديدا من عند الله تع قوله تع ويبشر المؤمنين الذين
يعملون الصالحات ان لهم اجرا حسنا اي ثوابا حسنا في الجنة ماكثين فيه ابدا اي مقيمين في ذلك
الاجر خالدين فيه قوله تع وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا وهم قريش واليهود والنصارى فان
قريشا قالوا الملائكة بنات الله واليهود قالوا عزير ابن الله والنصارى قالوا المسيح ابن الله قوله تع
ما لهم به من علم ولا لابائهم اي هم واباؤهم كلهم مقلد ليس لهم على ذلك بيان ولا حجة بل قالوا جهلا
قوله تع كبرت كلمة تخرج من افواههم [illegible] كبرت مقالتهم تلك كلمة تخرج من افواههم ما يقولون الا كذبا
وكلمة نصب على التمييز وانما كبرت هذه الكلمة لان صاحبها يستحق بها العقوبة ومن ذلك سميت
الكبيرة كبيرة لان عقابها يزيد على استطاعة صاحبها قوله تع فلعلك باخع نفسك على اثارهم [illegible]
نبه تع للنبي صلى الله عليه وسلم من اهلاك نفسه حزنا عليهم بسبب اعراضهم عن الايمان لشدة
شفقته عليهم وحقيقة الاسف الحزن على من فات ومعنى الاية فلعلك قاتل نفسك يقال بخع
الرجل نفسه اذا قتلها غيظا من شدة حزنه على الشيء او وجده بالشيء وقوله تع على اثارهم
اي من بعدهم يعني من بعد توليهم واعراضهم عنك ان لم يؤمنوا بهذا الحديث يعني القران
وقوله تع اسفا اي حزنا قوله تع انا جعلنا ما على الارض زينة لها اي جعلنا جميع ما على الارض من
الاشجار والثمار والنبات والمياه والذهب والفضة والدواب منها زينة للارض وجعلناها

محفوظة

الحال قال عمار اهل النار والمراد بالتكبر ان يكون التكبر لا يرجع الى الدنيا فاما يكون من ذلك لازالة
المنكر واقامة حق من حقوق الله فلا يكون ذلك من التكبر في شي وانما هو تمسك بالدين ه
قوله تع من جا بالحسنة فله خير منها قد تقدم تفسيره ومن جا بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا
السيات الا ما كانوا يعملون اي ومن جا بالسيئة فلا يزاد في عقوبته اكثر مما يستحقه والمعنى ان
الذين اشركوا يجزون بما كانوا يعملون من الشرك وجزاؤهم النار قوله تع ان الذي فرض عليك القران
لرادك الى معاد معناه ان الذي فرض عليك العمل بالقران لرادك الى بلدك يعني مكة فان م
معاد الرجل بلده وقيل معناه ان الذي فرض عليك القران اي انزل عليك القران وقال الزجاج فرض
عليك العمل بما يوجبه القران تقدير الكلام فرض عليك احكام القران او فرض عليك القران لرادك الى
لرادك الى معاد يعني مكة قال مقاتل خرج النبي صلى الله عليه وسلم الى الغار ليلا ثم هاجر من وجهه ذلك الى المدينة
فسار في غير طريق مخافة الطلب فلما امن رجع الى الطريق فنزل بالجحفة بين مكة والمدينة
وعرف الطريق الى مكة فاشتاق اليها وذكر مولده ومولد ابائه فاتاه جبريل فقال اتشتاق
له اتشتاق الى بلدك ومولدك قال نعم قال جبريل فان الله تع يقول ان الذي فرض عليك
القران لرادك الى معاد يعني الى مكة ظاهرا عليها فنزلت هذه الاية بالجحفة ليست
بمكية ولا مدنية قوله تع قل ربي اعلم من جا بالهدى ومن هو في ضلال مبين هذا
جواب كفار مكة لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم انك في ضلال مبين فقال الله تعالى ربي اعلم
من جا بالهدى يعني النبي صلى الله عليه وسلم ومن هو في ضلال مبين يعني المشركين والمعنى
ان الله قد علم اني جيت بالهدى وانكم في ضلال مبين قوله تعالى وما كنت ترجوا
ان يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك معناه ما كنت يا محمد ترجوا ان يوحى اليك هذا
القران وانك تكون نبيا تتلو على اهل مكة قصص الاولين الا ان ربك رحمك واراد
بك الخير فاوحى اليك الكتاب واكرمك بالنبوة نعمة منه عليك فلا تكونن ظهيرا
اي عونا للكافرين على دينهم وذلك حين دعوه الى دين ابائه فذكره الله النعمة
ونهاه عن مظاهرتهم على ما كانوا عليه وامره بالتحرز منهم قوله تعالى ولا يصدنك عن
ايات الله بعد اذ انزلت اليك اي لا يصرفنك عن العمل بايات الله بعد اذ انزلت
اليك وادع الى ربك اي الى طاعته ولا تكونن من المشركين قال ابن عباس الخطاب للنبي
صلى الله عليه وسلم والمراد به اهل دينه اي لا تظاهروا الكفار ولا توافقوهم قوله تعالى ولا تدع
مع الله الها اخر اي لا تعبد احدا سوى الله ولا تدع الخلق الى احد دون الله
وقوله تع لا اله الا هو لا معبود سواه قوله تعالى كل شي هالك الا وجهه
اي الا هو وانتصب قوله وجهه على الاستثنا كانه قال الا اياه وقال عطا معناه
كل شي هالك الا ما اريد به وجهه وكل عمل لغيره فهو هالك الا ما كان له وقوله
تعالى له الحكم اي الفصل بين الخلائق دون غيره واليه ترجعون
في الاخرة فيجزيكم باعمالكم والله اعلم بالصواب

واليه المرجع والماب تم هذا الجزء لمؤلفه
الامام الهمام شيخ الاسلام شيخ الطير الى الكبير

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم
وشرف وعظم على اشرف الانبيا
والمرسلين وجميع الخلق اجمعين
سيدنا ونبينا وحبيبنا وشفيعنا
محمد وعلى اله واصحابه وازواجه وذرياته
واهل بيته وجميع المسلمين اجمعين
وعلم انها الواقف على هذا التفسير العظيم
الذي قل ان يوجد له نظير بين العالمين
حيث ان مولفه الفاضل الهمام الامام لشيخ
الاسلام الشيخ الطبراني الكبير
شاعلي طريق الحق القويم في تفسيره
هذا القران العظيم جعله الله
خالصا لوجهه الكريم ونفع الله به
النفع العظيم بمنه وكرمه انه على
ما يشاء قدير وبالاجابة جدير
وهذا اول الجزء الرابع من الحسب الثاني
سورة العنكبوت

سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم وهو

الم احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا امنا وهم لا يفتنون قد تقدم تفسير الم فمن جعل هذه
الحروف التي في اوايل السورة قسما احتمل ان يكون جواب القسم في قوله ولقد فتنا الذين من قبلهم واحتمل ان
يكون فليعلمن وقوله تعالى احسب الناس لفظة استخبار ومعناه التوبيخ والتقريع كانه قال اظنوا ان نقنع
منهم بان يقولوا امنا فقط ولا يمتحنون بالاوامر والنواهي والتكليف ، ولا يختبرون بما يعلم انه صدق ايمانهم
قال الحسن رضي الله عنه سبب نزول هذه الاية انه لما اصيب المسلمون يوم احد وكانت الكرة عليهم عيرهم
اليهود والنصارى بذلك فشق ذلك على المسلمين فانزل الله هذه الاية قال السدي وقتادة ومجاهد معناه
احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا امنا وهم لا يفتنون في اموالهم وانفسهم بالقتل والتعذيب وقال
مقاتل نزلت هذه الاية في مهجع ابن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان اول قتيل من المسلمين
يوم بدر رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله فقال النبي صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو اول
من يدعا الى باب الجنة من هذه الامة فجزع عليه ابواه وامراته فانزل الله فيهم هذه الاية واخبرانه لا بد
لهم من البلاء والمشقة في ذات الله قوله ولقد فتنا الذين من قبلهم فيه تسلية للمؤمنين معناه
ولقد امتحنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الصادق بوقوع صدق منه بالصبر على ما يوذيه والكاذب
بوقوع كذب منه والجزع والمخالفة في القتال الذي يوذي به فالله تعالى قد علم الصادق من الكاذب
قبل ان خلقهما ولكن القصد من الاية تعقيد وقوع العلم بما يجازى عليه لان علم الشهادة هو الذي يجب به
الجزاء اما علم الغيب قبل وقوعه فلا يجب به الجزاء وقال ابن عباس رضي الله عنه ولقد فتنا الذين من
قبلهم منهم ابراهيم الخليل عليه السلام ابتلي بالنمرود ومنهم قوم بعده نشروا بالمناشير على دين الله فلم
يرجعوا عنه وقال بعضهم يعني بني اسرايل ابتلوا بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب قوله ام حسب
الذين يعملون السيات ان يسبقونا ساء ما يحكمون معناه اظنوا الذين يعملون السيات يعني الشرك
قال ابن عباس يعني الوليد بن المغيرة وابا جهل والاسود والعاص بن هشام وغيرهم ان يسبقونا اي ان
يفوتونا ويعجزونا ساء ما يحكمون اي بيس ما حكموا لانفسهم حين ظنوا ذلك وقيل ان هذه الاية نزلت في عتبة
ابن ربيعة واخيه شيبة وفي الوليد بن عتبة وهم الذين بارزوا عليا وحمزة وعبيدة بن الحرث يوم
بدر فقتلوا على ايديهم يوميذ قوله تعالى من كان يرجو لقا الله اي من كان يطمع في الثواب ويخشى
العقاب ويخاف الحساب فليبادر الى طاعة الله قبل الموت فان اجل الموت لات لمن يرجو ولمن لا يرجو وان ثواب
العمل الصالح لقريب وهو السميع لمقالة الكفار والمومنين العليم بما يستحقه كل واحد منهم وقيل ان النبي
صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الاية قال يا علي يا فاطمه ان الله قد انزل من كان يرجو لقا الله فان اجل الله
لات وان حقيقة رجا لقا الله ان يستعد الانسان لاجل الله اذ كان اتيا باتباع طاعته واجتناب معاصيه
قوله تعالى ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه اي من يعمل الخير فانما يعمل لنفسه ان الله لغني عن العالمين
اي عن اعمالهم وعباداتهم والذين امنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سياتهم بالايمان والتوبة ومعنى
لنكفرن عنهم سياتهم اي لنبطلنها حتى كانها لم تعمل ولنجزينهم احسن الذي كانوا يعملون اي نجزيهم باحسن اعمالهم
وهي الطاعة ولا نجزيهم بمساوي اعمالهم قوله تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا نزلت هذه الاية
في سعد بن ابي وقاص كان بارا بامه فلما اسلم قالت له امه حمنة بنت ابي سفيان ابن امية يا سعد بلغني
انك قد صبات فوالله لا يظلني سقف بيت وان الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فانزل
هذه الاية فابى سعد عليها وبقيت امه لا تاكل ولا تشرب ولا تستظل بشي فمكثت يوما وليلة لا تاكل فاصبحت قد
جهدت ثم مكثت يوما وليلة اخرى لا تاكل وقالت يا سعد لتدعن دينك هذا او لا اكل ولا اشرب حتى اموت

فنجزي

وتنظيم الكواكب والطعمة شيئا من الادوية الضارة والسموم القاتلة بالاحتيال
ثم يزعمن اذا ظهر المضر عليه ان ذلك من رقاهن واذا اردن نفع انسان نفثن عليه
واحتلن ان يسقينه شيئا من الادوية النافعة ثم اذا اتفق للعليل خفة الوجع او همن
العقد اللواتي يعقدنه من النفع والرقى والنفث هو ان يلقي الانسان بعض ريقه في من
بعوده يقال نفث ينفث ونفل ينفل بمعنى واحد قوله تعالى ومن شر حاسد اذا حسد
معناه ان الحاسد يستعظم نعمة صاحبه ويريد زوالها فيحمله ذلك على الظلم والبغي والاحتيال
بكل ما يقدر عليه لازالة تلك النعمة عنه والحسد في اللغة بمعنى زوال النعمة عن صاحبها
لما يدخل في النفس من المشقة بها ويقال معناه التلهف على جود الله تعالى وهذا هو الحسد
المذموم واما اذا اعتنى لنفسه نعمة من الله تعالى مثل نعمة صاحبه من غير ان يتمنى زوالها
عنه فذلك يكون غبطة ولا يكون حسدا وذهب بعض المفسرون الى ان المراد بهذه
الاية استعاذة من شر عين الحاسد واستدل في ذلك بما روي ان النبي صلى الله عليه وسلم
امر عايشة ان تسترقي من العين ويستحب للعاين عند الحاجة بما يراه ان يقول ما شا الله
لا قوة الا بالله كما روي انس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من راى شيا يعجبه
فقال الله الله ما شا الله لا قوة الا بالله لم يضره شي وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال
العين حق فلو كان شي يسبق القدر لسبقته العين واذا استغسلتم فاغسلوا وانما ختمت
السورة بالحسد ليعلم انه اخس من الاشيا التي قبله وهو اخس الطبايع ۝

سورة الناس مكية وهي ست ايات وعشرون كلمة وتسعة وسبعون حرفا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عقبة الا اخبرك بافضل ما يتعوذ به قلت بلى قال
المعوذتين وقال صلى الله عليه وسلم من قرا سورة الفلق وسورة الناس اعطاه الله من الاجر
كانما قرا جميع الكتب التي انزلها الله تعالى على الانبيا ومحمد صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

قل اعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس من شر الوسواس الخناس

اي قل يا محمد امتنع واعتصم بخالق الخلق المقتدر عليهم المالك لنفعهم وضرهم
وحياتهم وموتهم المستحق للعبادة الذي اليه مفزعهم وملجاهم من شر الشيطان
ذي الوسواس المستتر المختفي عن اعين الناس الذي يصل بوسوسته الى الصدور
الناس كما جاء في الحديث ان الشيطان يجري من ابن ادم مجرى الدم فتعوذوا
بالله منه قال قتادة ان للخناس له خرطوم كخرطوم الكلب صورة الانسان
جاثم في قلب ابن ادم اذا اغفل العبد عن ذكر الله وسوس واذا ذكر الله خنس
وروي ان عيسى عليه السلام دعا ربه ان يريه موضع الشيطان من ابن ادم
فتجلا له فاذا راسه راس الحية واضع راسه على ثمرة القلب فاذا ذكر العبد ربه
خنس وان لم يذكر ربه وضع راسه على ثمرة قلبه وحدثه قوله تعالى
الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس يريد الله ما يحدثه الوسواس كانه قال شر الوسواس الذي هو من الجنة
والوسواس الذي هو من الناس ويقال معناه من شر كل مارد من الجن والانس وقيل
ان قوله تعالى من الجنة والناس عايد في لفظ الناس المذكور في قوله تعالى

في صدور الناس لان اسم الناس يصلح للانس والجن كما قال تعالى وانه
كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فجعلهم رجالا
والشيطان يوسوس في صدور الجن كما يوسوس في صدور
الانس ودليل هذا قوله تعالى في اول السورة قل اعوذ
برب الناس اراد به رب الانس والجن جميعا
وبالله التوفيق تم الجزء المبارك بمعونة
الله تعالى وحسن توفيقه والحمد لله وحده
وصلى الله تعالى على سيدنا محمد
خاتم النبيين والمرسلين
وعلى اله الطيبين
وانصاره
وصحابته
وعلى
ازواجه
وسلم

وكان الفراغ من تعليقه [redacted]
يوم الثلاثا المبارك [redacted]
تعالى الفقير الملتجي [redacted]
الشافعي لمثيل العصر بالمفتاح ... رجب ... اربعه وستين
ومن ما به ومستحقه الشيخ الفاضل قاضي القضاة شيخ الاسلام العالم
العلامة الحبر ... مولانا ... ولا زال علم علمه مرفوعا
ابوابه مجده منتصبا محفوظا من العدا ولا زالت اقلامه لا فعال
الشك جازمة ... السعد على ... منفرد ... لازمه
لا زال الباب مولانا للعز والسلم وحال ... متصل لا منفصل
بمنه وكرمه انه على ما يشا قدير وبالاجابة جدير امين

written in year 964. Hegriyya -

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإِمَامِ الْحَافِظِ العَلاَّمَةِ أبي الْقَاسِمِ
سُلَيمَانِ بْنِ أَحْمَدَ بنِ أَيُّوبَ الطَّبَرَانِيِّ
(٢٦٠-٣٦٠) مِن الهِجْرَةِ

ضَبَطَهُ عَلَى أَصْلِهِ وَخرَّجَ أَحَادِيثَهُ وعَلَّقَ عَلَيهِ
هِشَامُ بْنُ عَبدِالكَرِيمِ البَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

هَذَا الْجُزْءُ الأَوَّلُ مِنْ تَفْسِيْرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيْمِ تَأْلِيْفُ فَرِيْدِ عَصْرِهِ الإِمَامِ الْهُمَامِ شَيْخِ الإِسْلاَمِ الشَّيْخِ الطَّبَرَانِيِّ الْكَبِيْرِ نَفَعَ اللهُ بِهِ النَّفْعَ الْعَمِيْمَ.

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَكْرَمَنَا بِالنُّورِ الْمُبِيْنِ؛ وَهَدَانَا لِلْحَقِّ الْيَقِيْنِ؛ كِتَابِ اللهِ الْعَزِيْزِ الَّذِي لاَ يَأْتِيْهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ؛ تَنْزِيْلٌ مِنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ. وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَإِمَامِ الْحِكْمَةِ الْمُنْتَخَبِ مِنْ طِيْنَةِ الْكَرَمِ؛ وَسُلاَلَةِ الْمَجْدِ الأَقْدَمِ؛ سَيِّدِ الْمُرْسَلِيْنَ؛ وَخَاتَمِ النَّبِيِّيْنَ؛ وَعَلَى آلِهِ التَّائِبِيْنَ الطَّاهِرِيْنَ.

تَفْسِيرُ الْبَسْمَلَةِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ ﴾

قوله عَزَّوَجَلَّ: **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.** تعليمٌ منه سُبْحَانَهُ؛ ليذكُروا اسْمَهُ عند افتتاحِ القراءة وغيرِها؛ تبرُّكاً به. ومعناهُ أبداً: (بسْمِ اللهِ) ؛ لأنَّ حرف الباءِ مع سائرِ حروف الجرِّ لا يستغني عن فعلٍ مُضْمَرٍ أو مُظْهَرٍ؛ فكان ضميرُ الباء في هذه الآية: الأَمْرُ.

واختلفَ الناسُ في معنى اشتقاق الاسم؛ وأكثرُ أهلِ اللُّغَةِ على أنهُ مشتقٌّ من السُّمُوِّ؛ وهو الرِّفعةُ. ومعنى الاسمِ التنبيهُ على المسمَّى والدلالةُ عليه. وقال بعضُهم: مشتقٌّ من السِّمَةِ؛ وهي العلامةُ؛ فكان الاسمُ علامة للمسمَّى.

وأمَّا (اللهِ) فقال بعضُهم: هو اسمٌ لا اشتقاقَ له؛ مثل قولِكَ: فرسٌ؛ ورجلٌ؛ وجبلٌ؛ ومعناه عند أهل اللِّسان: المستحِقُّ للعبادةِ؛ ولذلك سَمَّتِ العربُ أصنامَهم:

آلِهَةً؛ لاعتقادهم استحقاقَها للعبادةِ. وقال بعضُهم: هـو مـن قولـهم: ألـهَ الرجـلُ إلى فلان يَألَهُ إلاَهَةً؛ إذا فَزِعَ إليه مِنْ أمرٍ نَزَلَ به؛ فَآلَهَهُ أي أجَارَهُ وأمَّنَـهُ. ويقـال للمَـألُوهِ إلَيْهِ: إلَهاً. كما قالوا للمُؤتَمِّ به: إمَاماً؛ فمعناه أن الخلائقَ يَألَهُونَ ويتضرَّعـون إليـه في الحوائجِ والشدائد.

واختلفُوا في (بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) هل هي آيةٌ مـن الفاتحـةِ؟ فقـال قُـرَّاءُ الكوفة: هي آيةٌ منها؛ وأبَى ذلك أهلُ المدينة والبصرة. وأما قولهُ (الرَّحْمَـنِ الرَّحِيـمِ) فهما اسْمان مأخوذان من الرَّحمةِ؛ وزنُهما من الفعلِ نَدِيْمٌ ونَدْمَانٌ من المنادمةِ، وفَعْلاَنٌ أبلغُ من فعيلٍ، وهو من أبْنِيَةِ المبالغـةِ. ولا يكـونُ إلا في الصفـات؛ كقولـكَ: شـبعانٌ وغضبان؛ ولِهذا كان اسمُ (الرَّحْمَنِ) مختصّـاً بـاللهِ لا يوصَـفُ بـه غـيره. وأمَّـا اسـم (الرَّحِيْمِ) فمشتركٌ.

وعن عثمانَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [الرَّحْمَنُ الْعَاطِفُ عَلَى جَمِيْـعِ خَلْقِهِ بِإدْرَارِ الرِّزْقِ عَلَيْهِمْ][1] فالرحمةُ مـن الله تعـالى الإنعـامُ علـى الْمُحتـاج؛ ومـن الآدميِّين رقَّة القلبَ؛ وإنَّما جمعَ بين الرَّحْمَنِ والرَّحِيْمِ للنهايةِ في الرَّحمة والإحسان بعد الاحتِنَانِ. وعنِ ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنهُ قال: [هُمَـا اسْـمَانِ رَقِيْقَـانِ أحَدُهُمَـا أرَقُّ مِنَ الآخَرِ] ولو قال: لَطِيْفَانِ لكان أحسنَ[2].

---

(١) الحديث عن عثمان بن عفان؛ حكاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص١٠٧ على أنـه ضعيف؛ وبلفظ قريب منه، قال: روي عن عثمان بن عفان أنه سـأل رسـول الله ﷺ عـن تفسـير بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؟ فقال: [أمَّا الْبَاءُ: فَبَلاَءُ اللهِ وَرَوحهُ وَنَضْرَتُهُ وَبَهَاؤُهُ. وَأمَّا السِّينُ: فَسَنَاءُ اللهِ. وَأمَّا الْمِيمُ فَمُلْكُ اللهِ. وَأمَّا اللهُ: فَلاَ إلَهَ غَيْرُهُ. وَأمَّا الرَّحْمَنُ: فَالْعَـاطِفُ عَلَـى الْـبرِّ وَالْفَـاجِرِ مِنْ خَلْقِهِ. وَأمَّا الرَّحِيمُ: فَالرَّفِيقُ بِـالْمُؤْمِنِينَ خَاصَّـةً]. أخرجـه البيـهقي في الأسمـاء والصفـات: ص٥١: جماع أبواب ذكر الأسماء التي تتبع إثبات التدبـير لـه دون مـا سـواه: بإسـناده عـن ابـن عباس وبلفظ قريب وقال: إسناده لا يصح.

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات: ص٥١ بإسنادين أحدهما ضعيف والآخر مقطوع. وحكـاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص١٠٦ معلقاً. أما قوله: (لطيفان لكـان أحسـن) فلمـا جاء تفسيره كما نقله البيهقي والقرطبي عن أبي سليمان الخطابي قال: ((وهذا مشكل، لأن الرقـة لا مدخل لها في شيء من صفات الله تعالى)). وقال البيهقي: ((ومعنى الرقيق ها هنـا اللطيـف،=

وكانَ النبيُّ ﷺ يكتبُ في أوائل الكتب في أوَّل الإسلام: [بسْمِكَ اللَّهُمَّ] حتى نزلَ ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا﴾[١] فكتبَ [بسْمِ اللهِ]. ثم نـزَلَ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾[٢] فَكَتَبَ: [بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ]. فنَزَلَ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[٣] في سورةِ النَّمل؛ فكتبَ حينئذٍ: [بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ][٤].

فإن قيلَ: لِمَ قُدِّمَ اسمُ اللهِ على الرَّحمن؟ قيل: لأنهُ اسم لا ينبغي إلا للهِ عَزَّوَجَلَّ. وقيل في تفسيرِ قولهِ تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[٥] أي هل تعرفُ في السهلِ والجبل والبَرِّ والبحرِ والمشرق والمغرب أحداً اسْمُهُ اللهُ غيرَ اللهِ؟ وقيل: هو اسْمُهُ الأعظمُ. وقُدِّمَ الرَّحْمَنَ علَى الرَّحِيْمِ؛ لأن الرحمنَ اسم خُصَّ به اللهُ؛ والرحيمُ مشتركٌ؛ يقال: رجلٌ رحيمٌ، ولا يقال: رجل رحمنٌ. وقيل: الرَّحْمَنُ أمدحُ؛ والرحيمُ أرأفُ.

=يقال: أحدهما ألطف من الآخر)). ثم أسند البيهقي قال: ((سمعت أبا القاسم الحسن بن مُحَمَّد المفسر يحكي عن الحسين بن الفضل البجلي أنه قال: (وهذا وهم من الراوي؛ لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى في شيء، وإنما هما اسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر، والرفق من صفات الله تعالى) عن عمرة بنت عبدالرحمن عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: إن رسول الله ﷺ قال لي: [يَا عَائِشَةَ إنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَالاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ])). ينظر الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص١٠٦، والأسماء والصفات: ص٥١-٥٢. والحديث رواه مسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب فضل الرفق: الرقم (٧٧/ ٢٥٩٣).

والحسين بن الفضل بن عمير البجلي (١٧٨-٢٨٢هـ) كان رأساً في معاني القرآن، أصله من الكوفة وانتقل إلى نيسابور وأقام فيها يعلم الناس (٦٥) سنة. ينظر ترجمته في لسان الميزان: ج ٢ ص٣٠٧. والأعلام: ج ٢ ص٢٥١.

(١) هود / ٤١.
(٢) الإسراء / ١١٠.
(٣) النمل / ٣٠.
(٤) في الدر المنثور في التفسير المأثور: ج ١ ص٣٥٤ قال السيوطي: ((وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي: وذكره. وقال: وأخرج أبو عبيد في فضائله عن الحرث العكلي قال: قال لي الشعبي: وذكره)). رواه ابن أبي شيبة في المصنف: كتاب الأوائل: النص (٣٥٨٧٩).
(٥) مريم / ٦٥.

وإنَّما أسقطت الألف من اسمِ الله وأصلهُ باسم الله؛ لأنَّها كثرت على ألسنةِ العرب عند الأكلِ والشُّرب والقيام والقعود؛ فحذفت اختصاراً من الخطِّ وإن ذُكرت اسماً غيرهُ من أسماءِ الله لَم تحذفِ الألفُ لقلَّة الاستعمال؛ نحو قولِكَ: باسم الرب، وباسمِ العزيز؛ وإن أتيتَ بحرفٍ سوى الباء لَمْ تحذفِ الألفَ أيضاً؛ نحو قولِكَ: لاسمِ الله حلاوةٌ في القلوب؛ وليس اسمٌ كاسمِ الله. وكذلك باسمِ الرَّحمنِ؛ واسمِ الجليلِ؛ و﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبكَ﴾.

سُـــورَةُ الْفَاتِحَـــة

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ سَبْعُ آيَاتٍ؛ وَخَمْسٌ وَعُشْرُونَ كَلِمَةٍ؛ وَمِائَةٌ وَثَلاَثٌ وَعُشْرُونَ حَرْفاً. وَهِيَ مَكِّيَّةٌ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ وَمَدَنِيَّةٌ عِنْدَ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ، وَاللهُ أعْلَمُ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ اَلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، الحمدُ والشكر نظيران؛ إلا أن الحمدَ أعمُّ من حيث إن فيه معنى المدح من المنعَم عليه؛ وغيرِ المنعَم عليه؛ ولا يكون الشُّكْرُ إلا من الْمُنْعَمِ عليه. والشكر أعمُّ من الحمدِ من حيثُ إنهُ يكون من اللسان والقلب والجوارحِ؛ والحمدُ لا يكون إلا باللسان؛ ويتبيَّن الفرقُ بينهما بنقيضهما. فنقيضُ الحمد الذمُّ؛ ونقيضُ الشكر الكفرانُ.

وقولهُ: ﴿ رَبِّ اَلْعَٰلَمِينَ ﴾ . الربُّ في اللغة: اسمٌ لِمن يربي الشيءَ ويصلحهُ؛ يقال لسيد العبد: ربٌّ؛ ولزوج المرأة: ربٌّ؛ وللمالك: ربٌّ. ولا يقال: الربُّ معرفاً بالألف واللام إلا لله عَزَّوَجَلَّ. والله تعالى هو المربي والْمُحَوِّلُ من حال إلى حال؛ من نُطْفَةٍ إلى عَلَقَةٍ إلى مُضْغَةٍ إلى غيرِ ذلك إلى أجل مسمًّى.

وقوله (رَب الْعَالَمِينَ) العالَمُ: جمعٌ لا واحدَ له من لفظهِ؛ كالنَّفَر والرَّهْطِ؛ وهو اسمٌ لِمن يعقلُ مثل الإنس والجنِّ والملائكة؛ لأنكَ لا تقولُ: رأيتُ عالَماً من الإبلِ والبقرِ والغنم؛ إلا أنهُ حُمِلَ اسمُ العالَم في هذه السُّورة على كلِّ ذي رُوحٍ دَبَّ ودَرَجَ لتغليب العُقلاءِ على غيرهم عند الاجتماعِ. وربَّما قِيْلَ للسَّموات وما دونها مما أحاطَتْ به: عالَمٌ؛ كما روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: [إنَّ للهِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ عَالَمٍ؛ وَإنَّ دُنْيَاكُمْ مِنْهَا عَالَمٌ][(١)].

---

(١) أخرج الإمام الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن: الرقم (١٣٧) عن أبي العالية في قوله تعالى: (رَب الْعَالَمِينَ) قال: ((الإنس عالَم والجن عالَم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم — وهو يشك — من الملائكة على الأرض، وللأرض أربعة زوايا، وفي كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمئة عالم خلقهم الله لعبادته)). وفي الدر المنثور في التفسير المأثور: ج ١ ص٣٤ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية)). =

وقولهُ: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ . قد تقدَّمَ تفسيرهُ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ . أي يومِ الحِسَابِ؛ فإن قِيْلَ: لِمَ خصَّ يومَ الدِّين؛ وهو مَلِكُ الدُّنيا والآخرةِ ؟ قِيْلَ: لأن اللهَ تعالى لا ينازعهُ أحدٌ في مُلكِهِ ذلك اليومِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[١].

قرأ عاصمُ[٢] والكسائي[٣]: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) بالألف[٤]؛ والباقونَ بغيرِ ألف. قال أهلُ النَّحو: (مَلِكِ) أمدحُ من (مَالِكِ) لأن الْمَالِكَ قد يكون غيرَ مَلِكٍ ولا يكون الْمَلِكُ إلا مَالِكاً[٥]. ورويَ أنَّ أبا هريرةَ ﷺ كان يقرأ: (مَالِكَ يَوْمِ الدِّينِ) على النِّداءِ

=وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ج ٤ ص٧٠ بإسناده عن وهب بن منبِّه قال: ((إن لله تعالى ثمانية عشر ألف عالَم، الدنيا منها عالَم واحد، وما العمارة في الخراب إلا كفسطاط في الصحراء)).

وأبو العالية هو البراء البصري مولى قريش، واسمه زياد بن فيروز، روى عن ابن عباس وغيره. قال العجيلي: ((بصري، تابعي، ثقة)). ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٨٤٧٩).

وأما وهب بن منبه أبو عبدالله الأنباويُّ، روى عن أبي هريرة وابن عباس وغيرهما كثير، قال العجيلي: ((تابعي ثقة)). ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٧٧٦٧).

(١) غافر : ١٦.

(٢) عاصمُ بن بَهْدَلَةَ: هو ابن أبي النجود الأسدي، مولاهم الكوفي؛ أبو بكر المقرئ. توفي سنة ثمان وعشرين ومائة. قال العجلي: ((كان صاحب سُنة وقراءة، وكان ثقة، رأساً في القراءات)). قال ابن حجر: ((أخرج له الشيخان مقروناً بغيره)). وترجمته في تهذيب التهذيب: الرقم (٣١٣٧).

(٣) علي بن حمزة بن عبدالله الأسدي، مولاهم الكوفي الكسائي. مات سنة ثمانين ومائة. قال ابن حجر: ((أحد أئمة القراءة والتجويد في بغداد، أخذ القراءة عن حمزة الزيات، وقرأ عليه القرآن أربع مرات، وأخذها أيضاً عن مُحَمَّد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى وغيرهما)). وقال أيضاً: ((قال خلف بن هشام: كنت أحضر قراءته والناس ينقِّطون مصاحفهم على قراءته، وله من الكتب معاني القرآن، وكتاب في النحو، وكتاب النوادر الكبير، وغير ذلك. وأثنى عليه الشافعي في النحو)). ترجم له في تهذيب التهذيب: الرقم (٤٨٦٧).

(٤) وكذا قرأ يعقوب وخلف بالألف مداً. ينظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري: ج ١ ص٢١٣.

(٥) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص١٤٠ قال القرطبي: ((فقيل: مَلِكِ أعمُّ وأبلغ من مالك، إذ=

المضاف[1]؛ أي يا مالِكَ يومِ الدِّين. وقرأ أنسُ بن مالكٍ: (مَلَكَ يَوْمَ الدِّيْنِ) جعلَـهُ فِعـلاً ماضِياً[2].

قولـه عَزَّوَجَـلَّ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾. لا يُحسـن إدخال (إيَّاكَ) في غيرِ الْمُضْمَرَاتِ. وحُكي عن الخليلِ: (إذَا بَلَغَ الرَّجُلُ السِّتِّيْنَ فَإِيَّـاهُ؛ وَإِيَّا الشَّوَّاب). فأضافَهُ إلَى ظاهرٍ؛ وهو قبيحٌ مع جوازهِ ولا يكونُ إلاَّ إذا تقـدَّم، فـإنْ تأخَّرَ؛ قُلْتَ: نَعْبُدُ؛ ولا يجوز: نَعْبُدُ إياكَ. فإنْ قِيْلَ: لِمَ قدَّم (إيَّـاكَ نَعْبُـدُ) وهـلاَّ قـالَ: نعبدُكَ؟ قيل: إنَّ العربَ إذا ذكرَتْ شيئين قدَّمت الأهَمَّ فالأهَمَّ؛ ذِكْرُ المعبـودِ في هـذه الآية أهمُّ من ذكرِ العبادة فقدَّمَهُ عليها.

والكافُ من (إيَّاكَ) في موضعِ خفض بمنْزلة عَصَاكَ؛ وأجازَ الفرَّاء: أن تكون في موضعِ نصبٍ؛ فكأنه جعلَ (إيَّاكَ) بكمالهِ ضميرَ المنصوب. فإن قيلَ: لِمَ عـدلَ عـن المغايبةِ إلى المخاطبة؟ قُلْنَا: مِثْلُهُ كثيرٌ في القُرْآن؛ قَالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿حَتَّـى إذَا كُنْتُـمْ فِـي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بهِمْ بريحٍ﴾[3].

=كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكاً، ولأن أمر الْمَلِكِ نـافذ علـى المـالك في ملكـه حتـى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك، قاله أبو عبيد والمبرد)). ثم قال: ((وَقِيْلَ: مـالك أبلـغ، لأنـه يكـون مالكاً للناس وغيرهم، فالمالك أبلغ تصرفاً وأعظم، إذ إليه إجراء قوانين الشرع، ثـم عنـده زيـادة التملك)). ينظر: الحجة للقراءات السبعة: ج ١ ص٣٣ قول أحمد بن يحيى المعروف بثعلب.

(١) رواه داود في كتاب المصاحف: ص١٠٤-١٠٥، طبعة دار الكتب العلمية. وأخرجـه الحـاكم في المستدرك على الصحيحين: كتاب التفسير: الحديث (٢٩١١/ ٤٠) وقال: ((إسناد صحيـح علـى شرطهما)). وانتبه أن في المطبوع تصحيفـاً يحتـاج إلى الضبـط، والْحَـظْ قـولَ السيوطي في الـدر المنثور: ج ١ ص٣٦ قال: ((وذهب الإمام الطبري إلى منعها، قال: (فقراءة: مَالِكَ يَـوْمِ الدِّيـنِ، محظورة غير جائزة، لإجماع جميع الحجة من القراء وعلماء الأمة علـى رفـض القـراءة بـها)..)). ينظر: جامع البيان: ج ١ ص١٠١.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج١ ص١٣٩-١٤٠؛ قال القرطبي: ((قرأ مُحَمَّد بن السَّمَيْقَع بنصـب (مَالِكَ)؛ وفيه أربع لغات: مالكَ؛ ومَلِكَ؛ ومَلْكَ -مخففة من مَلِكِ- ومليكٍ)).

(٣) يونس : ٢٢.

قولهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ ؛ أي أرشِدنا الطريقَ القائمَ الذي ترضاهُ؛ وهو الإسلامُ[١]. وهذا دعاءٌ؛ ومِثْلُهُ بلفظِ الأمرِ؛ لأن الأمرَ لِمن دونكَ؛ والمسألةَ لِمن فوقِكَ.

فإن قِيْلَ: ما معنى قولِكم: إهْدِنَا ! وأنتم مهتَدُونَ؟ قِيْلَ: هذا سؤالٌ في مستقبلِ الزَّمان عند دعوةِ الشَّيطان. وَقِيْلَ: معناهُ: ثبِّتْنَا على الطَّريق المستقيم؛ لا تُقلِّبْ قلُوبَنا بمعصيَتِنا. ونظيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى في قصَّة إبراهيمَ عليه السلام: ﴿إذ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَب الْعَالَمِينَ﴾[٢] أي اُثْبُتْ على الإسْلامِ[٣].

وفي (الصِّرَاطَ) أربعُ لغاتٍ: صِراط بالصَّاد؛ وسِراط بالسِّين، وبالزاي الخالصَةِ، وبإشْمَام الصَّاد والزَّاي، وكلٌّ ذلك قد قُرِئَ به؛ فبالسِّين قراءة قُنْبُلٍ[٤]، وبإشْمَامِ الزَّاي قراءةُ خَلَفٍ[٥]؛ وقرأ الباقون بالصاد الصَّافيةِ[٦].

---

(١) عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: (إهدنا الصراط المستقيم) قال: ((الإسلام وهو أوسعُ ما بين السماء والأرض)). رواه الطبري في جامع البيان: النص (١٤٩) وما بعده. وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين: كتاب التفسير: سورة الفاتحة: النص (٣٠٢٤/ ١٥٣)، وقال: ((هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه))، وقال الذهبي في التلخيص: ((صحيح)). قال الحاكم في المستدرك: ((ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند)).

(٢) البقرة : ١٣١.

(٣) أسند الطبري عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وعن ابن مسعود رضي الله عنه وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ: أن الصراط المستقيم قالوا: ((هو الإسلام)). وأسند عن ابن الحنفية قال: ((هو دين الله الذي لا يقبلُ من العباد غيرَهُ)). ينظر: جامع البيان: النص (١٥١و١٥٣و١٥٢).

(٤) هو مُحَمَّد بن عبدالرحمن بن مُحَمَّد بن درجة المكي المخزومي، ويكنى أبا عمرو؛ ويلقب قُنْبُلاً، يقال: هم أهل بيت بمكة يعرفون بالقَنَابِلَةِ، توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين وله ستة وتسعون سنة، وكان قد قطع الإقراء قبل أن يموت بعشر سنين. ترجم له الإمام أبي جعفر الأنصاري في الإقناع في القراءات السبع: ص٤٢.

(٥) خلف هو أبو مُحَمَّد خلف بن هشام بن طالب البزار الصِّلْحِيُّ من أهل (فَمِ الصِّلْحِ) قرب واسط. إمام في القراءة، ثَبْتٌ عند أهل الحديث، ولد سنة خمسين ومائة واشتهر في بغداد، وتوفي سنة تسع وعشرين ومائتين في خلافة الواثق بالله. ترجم له الأنصاري في الإقناع: ص٧٦-٧٧.

(٦) قال القرطبي: ((وقرئ (السراط) بالسين من الاستراطة بمعنى الابتلاع، كأن الطريق يَسْتَرِطُ=

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ؛ همُ الأنبياءُ وأهلُ طاعةِ الله تعالى. واختلافُ القراءة في (صِرَاطَ) كاختلافِهم في (الصِّرَاطَ).

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ المغضوب عليهم) هم اليهودُ؛ و(الضالين) هم النصارى[(١)].

وأما (آمِيْن) فليس من السُّورةِ؛ ولكن رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقولهُ ويأمر به. وقال: [لَقَّنِّي جِبْرِيْلُ عليه السلام بَعْدَ فَرَاغِي مِنْ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ: آمِيْن، وقال: إنَّهُ كَالطَّابَعِ عَلَى الْكِتَاب][(٢)]. وَقِيْلَ: معنى آمين: اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ. وَقِيْلَ: معناهُ: يا آمِينَ؛

=من يسلكهُ، وقرئ بين الزاي والصاد، وقرئ بزاي خالصة، والسين الأصل... وعن الفراء قال: (الزِّرَاطِ) بإخلاص الزاي لغة لعُذْرَةٍ وكلب وبني القَيْنِ)). الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص١٤٨.

قال أبو علي الفارسي: ((الحجة لمن قرأ بالصاد أن القراءة بالسين مضارَعة – من المشابهة والمقاربة – والمضارعة للشيء: أي يضرعه كأنه مثله أو شبَّهه – لما أجمعوا على رفضه من كلامهم)). الحجة للقراءات السبع: ج ١ ص٥٤. وينظر: الإقناع في القراءات السبع: فرش الحروف: سورة الفاتحة: ص٣٧٠-٣٧١.

(١) عن عدي بن حاتم ﷺ قال: عن النبي ﷺ قال: [إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى]. أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٣٧٨، ٣٧٩. والترمذي في الجامع الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٢٩٥٣) بلفظ: [فإن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضلال]. وقال: ((هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث سِمَاكِ بن حرب)).

وهو كما قال: الحديث حسن لغيره، فيه عبَّاد بن حُبيش الكوفي، في تهذيب التهذيب: الترجمة (٣٢١٠) قال ابن حجر: ((ذكره ابن حبان في الثقات، قلتُ: جهَّله ابن القطان)). ولم يروه عنه غير سِماك ابن حرب، وهو من رجال مسلم، وباقي رجال إسناده ثقات رجال الشيخين.

في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: كتاب التاريخ: باب بدء الخلق: ذكر البيان بأن أهل الكتاب هم الذين ضلوا: الحديث (٦٢٤٦). قال القرطبي: ((إن الضَّلال في لغة العرب هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق، ومنه ضل اللبن في الماء إذا غاب)). الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص١٥٠.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الكتاب المصنف: كتاب الصلوات: باب ما ذكروا في (آمين) ومن كان يقولها: الحديث (٧٩٦١). وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب التأمين وراء الإمام: الحديث (٩٣٨). في الدر المنثور في التفسير المأثور: ج ١ ص٤٣؛ قال السيوطي: ((إسناده حسن)). =

أي يَا اللهُ. فآمِينَ اسمٌ مِن أسماءِ الله. وَقِيْلَ: معناهُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي. وفي آمين لُغتان: الْمَدُّ والقصرُ؛ قال الشاعرُ في القصر:

تَبَاعَدَ مِنِّى فَطْحُلٌ إذْ رَأَيْتُهُ أمِينَ فَزَادَ اللهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدَا

وقال آخرُ في المدِّ:

صَلَّى الإلَهُ عَلَى لُوطٍ وَشِيْعَتِهِ أبَا عُبَيْدَةَ قُلْ بِاللهِ آمِيْنَ

وقال آخرُ في الْمَدِّ أيضاً:

يَا رَبِّ لاَ تَسْلُبَنِى حُبَّهَا أبَداً وَيَرْحَمُ اللهُ عَبْداً قَالَ آمِيْنَا

قال ﷺ: [فَاتِحَةُ الْكِتَاب رُقْيَةٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إلاَّ السَّأْمَ][(1)] وهو الموتُ. وروي

=في الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص١٢٨ حكاه القرطبي معلقاً. والخبر أصل من حديث أبي ميسرة:

[أنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أقْرَأ النَّبِيَّ ﷺ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿ وَلَا الضَّآلِّينَ ﴾ قَالَ: قُلْ: آمِينَ، فَقَالَ: آمِينَ]. كما في المصنف لابن أبي شيبة.

وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل الهمداني الكوفي، روى عن عمر وعلي وابن مسعود وحذيفة وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً. قال ابن معين: ((ثقة)) وذكره ابن حبان في الثقات، مات سنة ثلاث وستين من الهجرة في ولاية ابن زياد، ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٥٢١٥).

ثم له أصل في قوله: [إنَّهُ كَالطَّابِعِ عَلَى الْكِتَابِ] من حديث أبي مُصَبِّحٍ الْمَقْرَائِيِّ قال: ((كنا نجلس إلى أبي زهير النمري، وكان من الصحابة، فيتحدث أحسن الحديث، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال: [اخْتِمْهُ بِـ (آمِينَ) فَإنَّ آمِينَ مِثْلُ الطَّابِعِ عَلَى الصَّحِيفَةِ] قال أبو زهير: أخبركم عن ذلك؟ خرجنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة...)) الحديث كما رواه أبو داود في السنن بإسناد حسن.

(١) أخرجه الدارمي في السنن: كتاب فضائل القرآن: باب فضل فاتحة الكتاب: الحديث (٣٣٧٠) عن عبدالملك بن عمير قال: قال رسول الله ﷺ: [فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ]. وفي شعب الإيمان: باب في تعظيم القرآن: الحديث (٢٣٧٠) قال البيهقي: ((وهذا منقطعٌ، وهو شاهد لحديث أبي سعيد الخدري: أن رسولَ الله ﷺ قال: [فَاتِحَةُ الْكِتَابِ شِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ] وفي حديث جابر قال: [فَاتِحَةُ الْكِتَابِ فِيهَا شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ])). أخرجهما البيهقي في شعب الإيمان: الحديث (٢٣٦٨ و٢٣٦٧). =

أن جبريلَ قال للنبيِّ ﷺ: [كُنْتُ أَخْشَى الْعَـذَابَ عَلَـى أُمَّتِـكَ فَلَمَّـا نَزَلَـتِ الْفَاتِحَـةُ أَمِنْتُ؛ لأَنَّهَا سَبْعُ آيَاتٍ؛ وَجَهَنَّمُ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، فَمَنْ قَرَأَهَا صَـارَتْ كُـلُّ آيَـةٍ طَبَقـاً عَلَى بَابٍ].

آخر تفسير سورة (الفاتحة) والحمد لله رب العالمين

=أما عبدالملك بن عمير، فهو أبو عمر القرشـي الكـوفي المعـروف بـالقبطي، تـابعي اختلـف القول فيه من جهة الحفظ، وثقه ابن معين وغيره، ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقـم (٤٣٢٤).

سُورَةُ الْبَقَـرَة

سُورَةُ الْبَقَرَةِ خَمْسَةٌ وَعُشْرُونَ أَلفَ حَرْفٍ وَخَمْسُمِائَةُ حَرْفٍ، وَسِتَّةُ آلاَفِ كَلِمَةٍ وَمِائَةٌ وَإِحْدَى وَعُشْرُونَ كَلِمَةً؛ وَمِئتَانِ وَسِتَّةٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَاماً؛ وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ نَهَاراً لَمْ يَدْخُلْ بَيْتَهُ شَيْطَانٌ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ لَيْلاً لَمْ يَدْخُلْ بَيْتَهُ شَيْطَانٌ ثَلاَثَ لَيَالٍ][1]. وقالَ ﷺ: [تَعَلَّمُوا الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْـرَانَ، فَإِنَّـهُمَا يَجِيئَـانِ يَوْمَ ((الْقِيَامَةِ)) كَالْغَمَامَتَيْنِ أَوْ كَفِرْقَيْنِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍّ يُحَاجَّـانِ عَـنْ صَاحِبِـهِمَا][2].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٦ ص١٦٣: الحديث (٥٨٦٤): ترجمة سعيد بن خالد المدني عن سهل بن سعد. في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: كتاب التفسير: ج٦ ص٣١١-٣١٢؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني وفيه سعيد بن خالد الخزاعي المدني، وهو ضعيف)).

في لسان الميزان: ج ٢ ص٣٧٦: الترجمة (١٥٥٩)؛ قال ابن حجر: ((خالد بن سعيد المدني، عن أبي حازم: قال العقيلي: (لا يتابع على حديثه) ثم ساق له هذا الحديث، وقال: (وذكره ابن حبان في الثقات، وهو خالد بن سعيد بن أبي مريم التيمي الذي أخرج له (دق).)).

في رواية الطبراني: تحرف خالد بن سعيد المدني إلى سعيد بن خالد، والأخير مجهول كما نقل ابن حجر في تهذيب التهذيب: الترجمة (١٦٩٩). والحديث أخرجه ابن حبان من طريق خالد بن سعيد المدني عن أبي حازم عن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: الحديث... كما في الإحسان ترتيب صحيح ابن حبان: كتاب الرقائق: الحديث (٧٨٠).

وله شاهد من حديث أبي هريرة مختصراً، أخرجه عبدالرزاق في المصنف: كتاب فضائل القرآن: الحديث (٦٠١٩). والحاكم في المستدرك: كتاب فضائل القرآن: الحديث (٢٠٥٨/ ٣٩ و٢٠٥٩/ ٤٠)، وفي كتاب التفسير: الحديث (٣٠٢٧/ ١٥٦). وقال: ((حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه)).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط: ج ٩ ص٣٧٩: الحديث (٨٨١٨) بإسناده عن أبي هريرة ﷺ وبلفظ قريب. وأخرجه الحاكم في المستدرك عن طريق عبدالله بن بريدة عن أبيه: في كتاب فضائل القرآن: الحديث (٢٠٥٧/ ٣٨)، وقال: ((هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه)).

وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٥١ عن أبي أمامة، وفي ج ٥ ص٣٥٢ و٣٦١ عن عبدالله ابن بريدة عن أبيه. وحديث أبي أمامة أخرجه مسلم في الصحيح. وفي مجمع الزوائد =

وقال ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ جَعَلَ اللهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَنَاحَيْنِ يَطِيْرُ بِهِمَا عَلَى الصِّرَاطِ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ][1]. وقال ﷺ: [تَعَلُّمُهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهُمَا حَسْرَةٌ، وَلاَ تَسْتَطِيْعُهُما الْبَطَلَةُ][2] يعني السَّحَرة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ الٓمٓ ۝ ﴾؛ اختلَفُوا في تفسيرِ (ألم) وسائرِ حروف التهجِّي، ورويَ عن عمرَ وعثمانَ وابنِ مسعودٍ: (أنَّ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ مِنَ الْمَكْتُومِ الَّذِي لاَ يُفَسَّرُ). ووافقَهم في ذلك الشعبيُّ[3]؛ وقال: (إنَّ للهِ تَعَالَى سِرّاً فِي كُتُبِهِ؛ وَإنَّ سِرَّهُ فِي الْقُرْآنِ الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ) وقال بعضُهم: إنَّها من المتشابهاتِ التي استأثرَ اللهُ بعلمِها فنحن نؤمنُ بتنْزيلها ونكِلُ إلى الله تأويلَها. وقال عليٌّ رضي الله عنه: (لِكُلِّ شَيْءٍ صَفْوَةٌ؛ وَصَفْوَةُ هَذَا الْكِتَابِ حُرُوفُ التَّهَجِّي).

=ومنبع الفوائد: كتاب التفسير: باب في فضل القرآن: ج ٧ ص١٥٩؛ قال: ((رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح)).

أما في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ٦ ص٣١٣، فإنه قال: ((عن ابن عباس... رواه الطبراني، وفيه عاصم بن هلال البارقي، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه ابن معين وغيره، وعبدالرحمن بن خِلال وعمرو بن مخلد الليثي لم أعرفهما. وقد روى الطبراني في الأوسط عن أنس نحوه، وفيه مبارك بن سُحيم، وهو متروك)). وليس كما قال فإسناد الحديث عند الطبراني في الأوسط قال: ((حدثنا المقدام قال: حدثنا أسد بن موسى، قال: حدثنا الضحاك عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ)) وليس في الإسناد من ذكر، ولعله نقله من موضع آخر، والله أعلم. أما حديث أنس فسيأتي إن شاء الله.

(١) في الدر المنثور في التفسير المأثور: ج ١ ص٥٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد والحاكم في الكُنى عن عائشة عن النبي ﷺ)).

(٢) هو شطر من الحديث السابق قبل الأخير.

(٣) الشعبي: هو عامر بن شراحيل الحميري الشعبي، أبو عمرو الكوفي، الإمام العلم، ولد لست سنين خلت من خلافة عمر رضي الله عنه، روى عن جمع من الصحابة، منهم علي وابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ولم يسمع منهما، وروى عن أبي هريرة وعائشة وجرير وابن عباس وخلق كثير، قال: ((أدركت خمسمائة من الصحابة)). توفي سنة ثلاث ومائة من الهجرة. قال ابن عيينة: ((كانت الناس تقول: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه)). ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٣١٧٥): ج ٤ ص١٥٦.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أنَّ مَعْنَى (الم): أنَا اللهُ أعْلَمُ وَأرَى، و(المص): أنَا اللهُ أعْلَمُ وَأفْصِلُ، و(كهيعص): الْكَافُ مِنْ كَافٍ، وَالْهَاءُ مِنْ هَادٍ، وَالْيَاءُ مِنْ حَكِيْمٍ، وَالْعَيْنُ مِنْ عَلِيْمٍ، وَالصَّادُ مِنْ صَادِقٍ). ويقالُ: الألفُ: مفتاحُ اسمهِ الله؛ واللام: لطيفٌ، والميم: مجيدٌ، ومعناه اللطيفُ المجيدُ أنزلَ الكتابَ. ويقال: الألف: اللهُ، واللام: جبريلُ، والميم: مُحَمَّدٌ، معناهُ: اللهُ أنزلَ جبريلَ على محمدٍ بهذا القرآن. وقيل: هذا قسمٌ أقسمَ الله به أنَّ هذا الكتابَ الذي أنزل على مُحَمَّدٍ هو الكتابُ الذي عندَ الله، وجوابهُ: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾. وقال محمَّدُ بن كعبٍ: (الألِفُ آلاَءُ اللهِ، وَاللاَّمُ لُطْفُهُ، وَالْمِيْمُ مُلْكُهُ). وقال أهلُ الإشارة: الألِفُ أنَا، واللاَّم لِي، وَالْمِيْمُ مِنِّي.

فَصْلٌ: وهذه الحروفُ موقوفةٌ؛ لأنَّها حرفُ هجاء، وحروف الهجاءِ لا تُعْرَبُ كالعدد في قوله: واحد اثنان. ولِغَايَةٍ أدخَلُوا الواوَ وحرَّكوهُ؛ لأنه صارَ في حدِّ الأسماء، فيقالُ: ألفٌ ولام كالعددِ. وكذلك قال الأخفشُ: (هِيَ سَاكِنَةٌ لاَ تُعْرَبُ).

وقولهُ: (الم) رُفع بالابتداء؛ و(ذَلِكَ) خبرهُ؛ و(الْكِتَابُ) صلةٌ لذلك. ويحتمل أن يكونَ (الم) خبراً مقدَّماً تقديرهُ: ذلكَ الكتابُ الذي وعدتُ أن أوحيَهُ إليك (الم). ومن أبطلَ مَحَلَّ الحروف جعل (ذَلِكَ) ابتداء و(الِكَتَابُ) خبره. و (الم) صلةٌ؛ فيكون لذلك معنيان؛ أحدُهما: أن (ذَلِكَ) بمعنى، وقد يستعملُ (ذَلِكَ) بمعنى (هذا). قال خِفَافُ[(١)]:

أقُولُ لَهُ وَالرُّمْحُ يَأْطِرُ مَتْنَهُ تَأَمَّلْ خُفَافاً إنَّنِى أنَا ذلِكَا

أي إنَّني هذا أطراً لعودِ عطفه.

والثاني: على الإضمار؛ كأنه قال: هذا القرآنُ (ذَلِكَ الْكِتَابُ) الذي وعدتُ في

---

(١) خفاف بن ندبة السلمي، نقل الطبري الشاهد من شعره في جامع البيان: مج ١ ج ١ ص١٤٣.

فَإنْ تَكُ خَيْلِي قَدْ أُصِيبَ صَمِيمُهَا فَعَمْداً عَلَى عَيْنٍ تَيَمَّمْتُ مَالِكَا

والخيل: أي فرسان الغارة، والصميم: الخالص من كل شيء، ومالِكُ: هو مالك بن حمار الشمخي الفزاري. والضمير في (له) لمالك. ويأطر متنه: من قولهم: أطَرَ الشَّيءَ يَأطِرهُ أطْراً. أن تقبض على أحد طرفي الشيء ثم تعوجه وتعطفه وتثنيه.

وفيه أن خفافاً أظهر اسمه على وجه الخبر عن الغائب وهو يخبر عن نفسه، فكذلك أظهر (ذلك) بمعنى الخبر عن الغائب؛ والمعنى فيه: الإشارة إلى الحاضر المشاهَد.

التوراة والإنجيل أن أوحيَهُ إليكَ. وقيل: (الم) ابتداءٌ؛ و (ذلِكَ) ابتداءٌ آخرُ؛ و(الكِتَابُ) خبرهُ، والجملةُ خبرُ الأول.

وقال بعضُ المفسرين: اختُلِفَ في (ذَلِكَ الْكِتَابُ)، فقال الحسنُ وابن عباسٍ وقتادةُ ومجاهد: (هُوَ الْقُرْآنُ). فعلى هذا يكون (ذَلِكَ) بمعنى (هَذَا) كقولهِ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾(١) أي هذه حُجَّتنا(٢). وَقِيْلَ: معناهُ: (ذَلِكَ الْكِتَابُ) الذي ذكرتُهُ في التوراةِ والإنجيل.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ؛ أي لا شَكَّ فيه. ونصب (رَيْبَ) لتعميمِ النفي؛ ألا ترى أنكَ تقولُ: لا رجلَ في الدار؛ بالنصب، فيكون نفياً عامّاً. وإذا قلتَ: لا رجلٌ في الدار؛ بالرفع، جازَ أن يكون في الدار رجلان أو ثلاثةٌ(٣).

---

(١) الأنعام: ٨٣.

(٢) فائدة: أن (ذلك) و(هذا) حرفا إشارة، وأصلهما (ذا) لأنه حرف الإشارة، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ومعنى (ها) تنبيهٌ، فإذا قرُبَ الشيء أشير إليه، فقيل: (هذا) أي تَنَبَّهْ أيها المخاطَب لما أشرتُ إليه، فإنه حاضر معك بحيث تراه. وقد تدخل (اللام) و(الكاف) على (ذا) للمخاطَبة ولتأكيد معنى الإشارة، فقيل: (ذلك) فكأن المتكلم بالغ في التنبيه؛ للفت انتباه المخاطَب إلى المشار إليهلتأخره عنه. مما يدل على أن لفظة (ذلك) لا تفيد البعد في أصل الوضع، بل اختص في العرف بالإشارة إلى البعيد للقرينة التي ذكرناها. فصارت كالدابة فإنها مختصة في العرف بالفرس وإن كانت في أصل الوضع متناولة لكل ما يدب على الأرض. وإذا ثبت هذا فنقول: إن مقتضى الحال في السياق لـ(ذلك) يحمل على أصل الوضع اللغوي، لا علىمقتضى الاستعمال العرفي، وحينئذ لا يفيد البعد المكاني، وإنما يفيد البعد الذهني لانشغاله عن المطلوب، فتطلَّب لفت النظر للفكر بحرف الإشارة للبعيد، وموضوعه هنا القريب بقصد المبالغة في التأكيد. ولأجل هذه المقارنة قام كل واحد من اللفظين مقام الآخر نظير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] والله أعلم.

(٣) الريب: قريب من الشك، وليس بشك؛ في الكليات: ص٤٦٤: فصل الراء: قال الكفوي: ((كل ما في القرآن من ريب فهو شك، إلا ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠] فإن المراد حوادث الدهر)). وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين. والريب في اللغة: صرف الدهر؛ أي الحوادث؛ والحاجة؛ والظنة؛ والتهمة؛ كالرِّيبة بالكسر. يقال: رابني كذا، وأرابني، فهو أن تتوهم بالشيء أمراً ما، فينكشف عما تتوهمه، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ [الحج : ٥] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] تنبيهاً على أنه لا ريب فيه. =

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾ ؛ نُصب على الحال؛ إما من (ذَلِكَ الْكِتَابُ)؛ كأنه قالَ: ذلك الكتابُ هادياً. وإما مِن ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ كأنه قال ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ في حال هدايته. ويجوزُ أن يكون موضعهُ رفعاً على إضمار (هو)، أو (فيه).

فإن قِيْلَ: لِمَ خَصَّ المتقين؛ وهو هدًى لهم ولغيرهم؟ قيلَ: تخصيصُ الشيء بالذكر لا يدلُّ على نفي ما عداهُ، وفائدةُ التخصيص تشريفُ المتقين، ومثلهُ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾[1] ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ؛ أي بالبعثِ والحساب والجنَّة والنار. وقيل: (الغَيْب) هو اللهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ ﴾ ، أي الصَّلَواتِ الخمسِ بشرائطها في مواقيتِها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) ﴾ ؛ يعني الزكاةَ؛ وهو الأظهرُ؛ لأن اللهَ تعالى قَرَنَ بين الصلاةِ والزكاة في مواضعَ كثيرةٍ، وإقامةُ الصلاة طهارةُ الأبدان؛ وإعطاءُ الزكاة طهارةُ الأموال. وبالأموالِ قِوَامُ الأبدانِ، وقد قيلَ: هو نفقةُ الرجُلِ على أهلهِ.

=ويقال: أراب الأمرُ؛ أي صار ذا ريب، واستراب به؛ أي رأى منه ما يريبه من ظنه السوء، وأمر ريَّابٌ؛ أي مفزعٌ، وارتاب: شكَّ، وارتاب به: اتَّهمه. قال جميل بثينة:

بُثَيْنَةُ؛ قَالَتْ: يَا جَمِيلُ أَرَبْتَنِي ... فَقُلْتُ: كِلاَنَا يَا بُثَيْنُ مُرِيبُ

والريب قريب من الشك وفيه زيادة؛ كأنه ظن السُّوء؛ تقول: رابني أمر فلان إذا ظننتَ به سوء وتوهَّمته حتى ينكشف، فهو قلة يقين كما في قوله تعالى: ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١١٠]. لهذا كان الريب قريباً من الشكِّ؛ لأنه كما قال الجويني: ((الشك ما استوى فيه اعتقادان أو لم يستويا، ولكن لم ينته أحدهما إلى درجة الظهور الذي يبني عليه العاقل الأمور المعتبرة)) والريب ما لم يبلغ درجة اليقين وإن ظهر نوع ظهور، فالشك يسبق الريب؛ لأنه سبب الريب، فهو مبدأ له كما أن العلم مبدأ اليقين.

قال الكفوي وغيره: ((والريب قد يجيء بمعنى القلق والاضطراب، والحديث [دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَالْكَذِبَ رِيبَةٌ])).

ينظر: مفردات غريب القرآن للراغب: ص٣٦٨، تحقيق صفوان عدنان. والكليات للكفوي:ص٥٢٨. وكتاب الغريبين للهروي:ج٣ ص٨٠٢. والقاموس المحيط للفيروزآبادي.

(١) يس: ١١.

(٢) النازعات: ٤٥.

قيل: لَمَّا نزلَ قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ الآيةُ، قالتِ اليهودُ: نحنُ نؤمنُ بالغيب ونقيمُ الصلاة وننفقُ مما رزقَنَا اللهُ؛ فأنزلَ الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ ، والذي أنزل إليه القرآنُ والذي أنزل مِن قبله التوراة والإنجيلُ وسائر الكتب المنَزَّلة؛ فنَفَرُوا من ذلك. فإنْ قيلَ: لِمَ قالَ: ﴿ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ، ولَم يَقُلْ يؤمنونَ؟ قِيْلَ: لأنَّ الإيقانَ توكيدُ الإيْمان؛ واليقينُ بالآخرةِ يقينُ خبرٍ ودلالةٍ، ومعنى الآية: وبالدار الآخرة هم يعلمونَ ويستيقنون أنَّها كائنةٌ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ . أي أهلُ هذه الصفةِ على رشدٍ وثباتٍ وصواب من ربهم. والمفلحونَ: الناجونَ الفائزون بالجنةِ، ونَجَوا من النار. وَقِيْلَ: هُمُ الباقونَ بالثواب والنعيمِ المقيمِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ، يعني مشركي العرب. وقال الضحَّاك: (نَزَلَتْ فِي أبي جَهْلٍ وَخَمْسَةٍ مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ). وقال الكلبيُّ[٢]: (يَعْنِي الْيَهُودَ) وقيل: الْمُنَافِقِيْنَ. والكفرُ: هو الجحودُ والإنكارُ[٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أأنْذَرْتَهُمْ) الإنذارُ: التحذيرُ والتخويفُ. (أمْ لَمْ

---

(١) اليقينُ: هو العلم بالشيء بعد أن كان صاحبه شاكّاً فيه؛ فلذلك لا تقول: تيقَّنتُ وجودَ نفسي، وتيقَّنتُ أن السماءَ فوقي، ويقال ذلك في العلم الحادث، سواء أكان ذلك العلم ضرورياً أم استدلالياً. فالإيقان واليقين علم من استدلال ونظر؛ لهذا قد يُعبر باليقين عن الظن؛ ومنه قول قسم من الفقهاء في اليمين اللغو: ((هو أن يحلفَ باللهِ على أمرٍ يوقنهُ ثم يتبيَّنُ له أنه خلافُ ذلك، فلا شيءَ عليه)). الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص١٨١. واللباب في علوم الكتاب للحنبلي: ج ١ ص٣٠١.

(٢) هو مُحَمَّد بن السائب الكلبي، أحد المفسرين الذين يرجع تفسيرهم إلى تفسير ابن عباس، وترجع شهرته أيضاً إلى كونه مؤرخاً ونسَّابة وجغرافياً، كان له ميل إلى التشيع بالمفهوم القديم. أما روايته فكثيراً ما توصف بأنَّها ضعيفة، عاش قبل سنة (٦٦) من الهجرة إلى (١٤٦) من الهجرة، وله كتاب في التفسير.

(٣) الكفرُ في اللغة: سترُ الشيءِ، وفي الشريعة عدمُ الإيمان عما من شأنه يجب الإيمان به. ووصفَ الليلُ بالكافرِ لسترهِ الأشخاص؛ لأن أصله في كلام العرب السترُ والتغطية. والكافر أيضاً البحرُ والنهر العظيم. والكافر: الزَّارعُ. والجمع الكفارُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الْكُفَّارَ=

تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) وهذه الآيةُ خاصَّةٌ فيمن حقَّت عليه كلمةُ العذاب والشقاوةِ في سابق علمِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ . أي طبعَ على قلوبهم؛ والختمُ والطبعُ بمعنى واحدٍ؛ وهو التغطيةُ للشيء. والمعنى طبعَ الله على قلوبهم؛ أي

=نَبَاتُهُ﴾ يعني الزرّاع لأنهم يغطون الحبّ. والكافر من الأرض: ما بعُد عن الناس لا يكاد ينْزله ولا يمر به أحد، من حلّ بتلك المواضع فهم أهل الكفور.

واستعمل لفظ الكفر في القرآن على أربعة أضرب: الأول: أعظمها وهو جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، وهو أن إقرار الفطرة بالمعرفة الواضحة الضرورية يستره الكافر بالجحود؛ أي بجحود الوحدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

الثاني: إنكار المعرفة، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى:﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إلا مَنْ أُكْرِهَ﴾ [النحل/ ١٠٦].

الثالث: الكفر بمعنى ضد الشكر، والفرق بين الكفر ضد الإيمان والكفر ضد الشكر أن الأول يتعدى بالباء نحو قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ومثال الثاني: يتعدى بنفسه قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل/ ٤٠]. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم / ٧].

الرابع: استعمل لفظ الكفر للدلالة على البراءة من الكفار، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤] أي تبرأنا منكم، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُبَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وخلاصة القول: إن الكفرَ أربعة أنواع: الأول: كفر الإنكار، وهو أن يكفر بقلبه ولسانه، وأن لا يعترف بما يذكر له من التوحيد. والثاني: كفرُ الجحود، وهو أن يعرفَ بعقله ويطمئن قلبه ولا يقر بلسانه. والثالث: كفر عناد، وهو أن يعرف بعقله ويطمئن قلبه ويقر بلسانه ولا يدين به ككفر أبي جهل. والرابع: كفر نفاق، وهو أن يقر بلسانه ولا يعتقد بقلبه. والجميع سواء؛ لأن الله لا يصلح عمل المفسدين.

وفي الكليات: ص٧٦٥؛ قال الكفوي: ((والكافرُ اسمٌ لمن لا إيمانَ له، فإن أظهرَ الإيمانَ فهو المنافقُ، وإن طرأ كفرهُ بعد الإيمان فهو المرتدُّ، وإن قال بالإلهَين أو أكثر فهو المشركُ، وإن كان متديِّناً ببعضِ الأديان والكتب المنسوخةِ فهو الكتابيُّ، وإن قال بقِدَم الدهر وإسناد الحوادثِ إليه فهو الدهريُّ، وإنْ كان لا يثبتُ الباري فهو المعطِّل، وإن كان مع اعترافهِ بنبوَّة النبيِّ يُبطِنُ عقائدَ هي كفرٌ بالاتفاقِ فهو الزنديقُ)).

أغلقَها وأقفلَها؛ فليست تفقهُ خيراً ولا تفهمهُ. (وَعَلَى سَمْعِهِمْ) فلا يسمعون الحقَّ ولا ينتفعون به؛ وإنَّما وحَّدهُ وقد تخللَّ بين جمعين؛ لأنه مصدرٌ؛ والمصدرُ لا يُثنى ولا يُجمع. وقيل: أراد سَمْعَ كلِّ واحدٍ منهم كما يقالُ: أتانِي برأسِ كَبشَين؛ أرادَ برأس كلِّ واحد منهما. وقال سيبويه:(تَوْحِيْدُ السَّمْعِ يَدُلُّ عَلَى الْجَمْعِ؛ لأَنَّهُ تَوَسَّطَ جَمْعَيْنِ)كقولهِ تعالى: ﴿يُخرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[1] وقولهِ تعالى: ﴿عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾[2] يعني الأنوارُ والإيْمانُ؛ وقرأ ابنُ عَبْلَةَ: (وَعَلَى أَسْمَاعِهِمْ).

وتَمَّ الكلام عند قولهِ: (وَعَلَى سَمْعِهِمْ) ثُم قالَ: ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴾ . أي غطاءٌ وحجابٌ فلا يَرَوْنَ الحقَّ. وقرأ المفضَّلُ بن محمَّدٍ:(غِشَاوَةً) بالنصب؛ كأنه أضمرَ فعلاً أو جملةً على الختم؛ أي خَتَمَ على أبصارهم غِشاوةً، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾[3]. وقرأ (غُشَاوَةٌ) بضمِّ الغَين. وقرأ الْجُحْدَرِيُّ: (غَشَاوَةٌ) بفتح الغَين. وقرأ أصحابُ عبدِالله: (غَشْوَةٌ) بفتح الغين بغيرِ ألِفٍ. ومن رفعَ (غِشَاوَةٌ) فعلَى الابتداءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧ ﴾ ، يعني القتلَ والأسرُ. وقال الخليلُ: (العَذَابُ مَا يَمْنَعُ الإنْسَانَ مِنْ مُرَادِهِ). وقيل: هو إيصالُ الألَمِ إلى الحيِّ مع الْهَوَانِ بهِ؛ ولِهذا لا يُسمَّى ما يفعلُ اللهُ بالبهائم والأطفالِ عذاباً؛ لأنه ليسَ على سبيل الْهَوانِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ ﴾ ، نزلَتْ هذه الآيةُ في المنافِقِين: عبدِالله بنِ أبَي بن أبي سَلُولٍ؛

---

(١) البقرة / ٢٥٧.

(٢) المعارج / ١٧.

(٣) الجاثية / ٢٣.

ومُعَتِّب بْنِ قُشَيْرٍ[١]؛ وَجِدِّ بْنِ قَيْسٍ[٢] ومَـن تابَعَهم، كانوا يقولون للصَّحابة: آمَنَّا بالذي آمَنْتُمْ به ونشهَدُ أنَّ صاحبَكم صادقٌ؛ وليس هم كذلك في الباطن إذا خَلَوا، وكانوا يقولونَ فيما بينَهم: هذه خِلَّةٌ نَسْلَمُ بها عن مُحَمَّدٍ وأصحابِهِ ونكونُ مع ذلكَ

---

(١) مُعَتِّبُ بْنُ قُشَيْرِ بْنِ مُلَيْلٍ العَطَّافُ، وهو ممن شهد بدراً مع رسول الله ﷺ، قال ابن هشام: ((معتِّب بن قشير، وثعلبة والحارث ابنا حاطب، وهم من بني أمية بن زيد من أهل بدر، ليسوا من المنافقين فيما ذكر لي من أثق به من أهل العلم)) وقال: ((وأخبرني من أثق به من أهل العلم أن معتِّب بن قشير لم يكن من المنافقين، واحتج بأنه كان من أهل بدر)). السيرة النبوية: ج ٢ ص١٦٩ و١٧٢ و٣٤٤، وج٣ ص٢٣٣.

وفيه نظر؛ لأنه كان أحد الذين بنوا المسجد ﴿الظَّالِمُ أَهْلُهُ﴾ مسجد الضرار، قال ابن هشام: ((وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً)) منهم قال: ((معتب بن قشير)). السيرة النبوية: ج ٤ ص١٧٤.

وفي السيرة البنوية: من اجتمع إلى يهود من منافقي الأنصار: ج ٢ ص١٦٩؛ قال ابن هشام: ((وكان ممن بنى مسجد الضرار ثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، وهما اللذان عاهدا الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين إلى آخر القصة، ومعتب الذي قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا، فأنزل الله تعالى في ذلك قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾... إلى آخر القصة. وهو الذي قال يوم الأحزاب: كان مُحَمَّدٌ يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط! فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ... غُرُوراً﴾. وفي ج ٢ ص١٧٢-١٧٣؛ ذكر ابن هشام قصة تحاكمه إلى الكهان حكام الجاهلية. قلتُ: ولعل هذا كله قبل توبته، والله أعلم.

(٢) الجد بن قيس من بني سلمة، وكان أول ذكراهُ حين سألَ رسولُ الله ﷺ [مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟] قالوا: الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ؛ عَلَى بُخْلِهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [وَأَيُّ دَاءٍ أَكْبَرُ مِنَ الْبُخْلِ! سَيِّدُ بَنِي سَلَمَةَ الأَبْيَضُ الْجَعْدُ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ]. السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص١٠٤. وذكر في مواطن النفاق إذ يقول: يا مُحَمَّد ائذن لي ولا تفتنِّي، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] إلى آخر القصة. السيرة النبوية: ج ٢ ص١٧٣. وتخلف عن بيعة الرضوان، يقول ابن اسحق: ((عن جابر ﷺ يقول: [إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يُبَايِعْنَا عَلَى الْمَوْتِ، وَلَكِنْ بَايَعَنَا عَلَى أنْ لاَ نفِرَّ] فبايعَ رسولَ الله ﷺ الناسُ ولم يتخلَّف عنه أحدٌ من المسلمين حضرها إلا الجدُّ بن قيس أخو بني سلمةَ، فكان جابرُ بن عبدالله يقول: (والله لكأني أنظرُ إليه لاصقاً بإبطِ ناقته قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس)..)). السيرة النبوية: ج ٣ ص٣٣٠. وعليه مواقف تشهد له بالنفاق، والله أعلم.

متمسِّكين بدِيننا؛ فقالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: : (وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) وإنَّما وحَّدَ في أوَّل الآيةِ وجمعَ الضميرَ في آخرِها؛ لأنَّ لفظَ (مَنْ) للوحْدَان، ومعناهُ يصلحُ للمذكَّر والمؤنَّث؛ والاثنين والجماعة؛ فعدلَ تارةً إلى اللَّفظِ وتارةً للمعنى؛ ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ﴾ الآيةُ[(١)]، ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ﴾[(٢)] الآيةُ.

قولُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ؛ أي يخالِفُون اللهَ ويَكْذِبُونَهُ وَيَكْذِبُونَ المؤمنين. ويخالفونهم في ضمائرهم وهم المنافقونَ. وأصلُ الْخَدَعِ في اللغة الاختفاءُ؛ ومنهُ قِيْلَ للبيتِ الذي يُخَبَّأُ فيه الْمَتَاعُ: مَخْدَعٌ؛ فالْمُخَادِعُ يُظهِرُ خلافَ ما يُضمِرُ. وقال بعضُهم: أصل الْخَدَاعِ في اللغة: الفسادُ. وقال الشاعرُ[(٣)]:

أَبْيَضُ اللَّوْنِ لَذِيْذٌ طَعْمُهُ طَيِّبُ الرِّيْقِ إذَا الرِّيْقُ خَدَعْ

أي فَسَدَ، فيكون المعنى: مُفْسِدُونَ ما أظهَروا بألسنتهم مِما أضمَرُوا في قلوبهم. وقيلَ: معناهُ: يخادعونَ رسولَ الله ﷺ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[(٤)] أي آسَفُوا نَبِيَّنَا. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[(٥)] أي أولياءَ الله؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يؤذَى ولا يُخادَع. وقد يكون المفاعلةُ من واحد كالمسافَرَة.

فإن قِيْلَ: ما وجهُ مخادعتِهم اللهَ؛ وهو لا يَخفى عليه شيء؟ وما وجهُ مخادعةِ المؤمنين ومخادعةِ أنفسهم؟ قيل: المخادعةُ الإخفاءُ، يقال: انخدعَتِ الضَّبيةُ في جُحرها. واللهُ تعالى لا يخادَع في الحقيقةِ، ولكن أطلقَ عليه اسمُ المخادعةِ لَمَّا فعلُوا فعلَ المخادِعين. ولو كان يصحُّ لَهم خِداعُهم لقالَ: يَخْدَعُونَ اللهَ. وَقِيْلَ: معناهُ: يخادعونَ رسولَ اللهِ.

وأما مخادعةُ المؤمنينَ؛ فإظهارُهم لَهم الإسلامَ تُقْيَةً؛ وَقِيْلَ: إظهارُ الإسلامِ لَهم ليكرِمُوهم ويبجِّلوهم. وَقِيْلَ: أظهَروا لَهم ذلك لِيُفْشُوا إليهم سرَّهُم فينقلوهُ إلى

(١) البقرة: ١١٢: ﴿.. وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.
(٢) الأحزاب : ٣١.
(٣) البيت لسويد بن أبي كاهل في ديوانه: ص٢٤، يصف ثَغْرَ امرأة، وفيه معنى خدع: فسدَ وتغيَّر.
(٤) الزخرف : ٥٥. (٥) الأحزاب : ٥٨.

أعدائِهم. وأمَّا مخادعةُ أنفسِهم فضررُ ذلك عليهم. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ ؛ لأنَّ وبالَ الخداعِ عائدٌ إلى أنفسهم فكأنَّهم في الحقيقة إنَّما يخدعون أنفسهم(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ ؛ أي وما يعلمون أنهُ كذلك. والشعرُ: هو العلمُ الدقيقُ الذي يكون حادِثاً من الفطنةِ؛ وهو من شِعَار القلبِ؛ ومنه سُمي الشاعرُ شاعراً لفطنتهِ لما يدقُّ من المعنى والوزن، ومنه الشعرُ لدقَّتهِ. ويقال: ما شَعَرْتُ به؛ أي ما عَلِمْتُ بهِ. وليتَ شِعْرِي ما صنعَ فلانٌ؛ أي ليتَ عِلْمِي.

واختلفَ القرَّاءُ في قولهِ تعالى: (وَمَا يَخْدَعُونَ) فقرأ نافعُ؛ وابن كثير؛ وأبو عمرٍو: (يُخَادِعُونَ) بالألفِ. وقرأ الباقون: (يَخْدَعُونَ) بغير ألِف على أشهرِ اللغتين وأفصحِهما؛ واختارهُ أبو عُبيدٍ. ولا خلافَ في الأول أنه بالألفِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ؛ أي شكٌّ ونفاق، وسمي النفاق مرضاً لأنه يهلكُ صاحبه؛ ولأنه يضطربُ في الدِّين يوالِي المؤمنينَ باللسان؛ والكفارَ بالقلب؛ فحاله كحالِ المريض الذي هو مضطربٌ بين الحياة والموت. وقيل: إنَّ الشكَّ؛ أي بالقول: ألَمُ القلبِ ، والمرضَ: ألَمُ البدن. فسُمِّيَ الشكُّ مرضاً لِما فيه من الْهَمِّ والحزنِ. وقيل: سُمي النفاقُ مرضاً؛ لأنه يضعفُ الدِّين واليقينَ كالمرض الذي يضعفُ البدنَ وينقص قواهُ؛ ولأنه يؤدِّي إلى الهلاكِ بالعذاب كما أن المرضَ في البَدَنِ يؤدِّي إلى الهلاكِ بالموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ ؛ أي شكّاً ونِفَاقاً وعذاباً وهَلاَكاً. والفاءُ في (فَزَادَهُمُ اللهُ) بمعنى الْمُجَازَاةِ. وَقِيْلَ: على وجهِ الدُّعاءِ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ؛ أي موجعٌ يخلصُ وَجَعُهُ إلى قُلُوبهم؛ وهو بمعنى مؤلِم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ ؛ قال بعضُهم: الباءُ في (بِمَا) صلةٌ؛ أي لَهم عذابٌ أليمٌ بكذبهم وتكذيبهم اللهَ ورسولَهُ في السرِّ؛ فيكون (مَا) مصدريةٌ؛ والأَولَى إعمالُ الحروف. و(مَا) وُجد لَها مُساغ؛ أي بالشَّيء الذي يكذِّبون.

---

(١) النفسُ هنا: ذات الشيءُ وحقيقته، ولا تختصُّ بالأجسام لقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

وفي قولهِ: (يَكْذِبُونَ) خلافٌ بين القرَّاء، فقرأ أهلُ الكوفةِ بفتحِ اليـاء وتخفيفِ الذَّال؛ أي بكذبهم إذْ قالوا: آمَنَّا، وهم غيرُ مؤمنين(١).

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ قـرأ الكسـائيُّ؛ ويعقوبُ؛ وهشام: ﴿قِيْلَ﴾ و﴿حِيْلَ﴾(٢)، و﴿سِيْقَ﴾(٣)، و﴿جِيْءَ﴾، ﴿وَسِيْءَ﴾(٤) بإشْمام الضمَّة(٥). ومعنى الآيةِ: وإذا قِيْلَ للمنافقين وقيلَ لليهود؛ أي إذا قال لَهمُ المؤمنونَ: لا تُفسِدُوا في الأرض بالكُفْر والمعصيةِ والمداهنةِ وتعويقِ النَّاس عن الإيْمان بمُحَمَّـدٍ ﷺ والقُـرْآنِ، ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛أي عـامِلُون بالطَّاعـةِ ومُصلِحُون بالمداهنةِ؛ لأنَّهم كـانوا يقولـون: لا نُعـادي المؤمنـينَ ولا الكفـارَ؛ نُـداري هؤلاءِ وهؤلاء؛ حتى إذا غلبَ أحدُ الفريقين لا يأتينا من دائرتِهم شيءٌ(٦).

يقـولُ اللهُ تعـالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ، (ألا) كلمـةُ تَنْبِيْـهٍ، والمعنى: ألا إنَّهم همُ المفسدونَ بالمداهنةِ والعاملونَ بالمعصيـةِ، وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: (هُـمْ) عمادٌ وتأكيدٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي لا يعلَمُون مـا أعـدَّ اللهُ لَهم من العذاب. وَقِيْلَ: لا يعلمون أنَّهم كذلكَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ ؛أي إذا قِيْـلَ للمنافقينَ: صَدِّقُوا كمـا صَـدَّقَ أصحـابُ رسـول الله ﷺ، ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ؛ أي أنُصدِّقُ كمـا صَـدَّقَ الْجُـهَّالُ، يَقـولُ اللهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ

---

(١) وقرأ أهل المدينة: (يُكَذِّبُونَ) بضم الياء وتشديد الـذال، والإجمـاع منعقـد علـى القـراءة الأولى، فضلاً عن أن القراءة الثانية لا تتفق والقراءة من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَـافِقُونَ قَـالُوا نَشْـهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ. اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّـةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١-٢] فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى قـرر كذبَهم، ليس لأجَل تكذيبهم النبي ﷺ، فهم يكذبون بدعواهم الإيمان وإظهارهم ذلك خداعاً.

(٢) سبأ / ٥٤. (٣) الزمر / ٧١. (٤) هود / ٧٧.

(٥) سيأتي معنى الإشمام في تفسير قوله تعالى: ﴿لاَ تَأْمَنَّا﴾ [يوسف: ١١] إن شاء الله.

(٦) الفساد خروجُ الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج أو كثيرا، ويضـادُّه الإصـلاح، وحقيقتـه العدول عن الاستقامةِ إلىضدِّها. ويستعمل ذلـك في النفـس، والبـدن، والأشياء الخارجـة عـن الاستقامة. والإفسادُ هو جعل الشيء خَارجاً عما ينبغي أن يكون عليه، وعن كونه منتفعاً بـه. وفي الحقيقة هو إخراج الشيء عن حالة محمودة لا لغرض صحيح.

﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ ؛ أي هــمُ الْجُــهَّالُ بتركِــهم التصديــقَ في الســرِّ؛ ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ ؛ أنَّهم جُهَّالٌ. وَقِيْلَ: قالُوا: أنُصَدِّقُ (كَمَا) صدَّق الجـهالُ بقـولِ اللهِ تعالى، (ألاَ إنَّهُمْ). وَقِيْلَ: معناهُ: آمِنوا كما آمَنَ عبدُالله ابن سَلام وغـيرُه مـن مؤمنِـي أهلِ الكتاب.

والسُّفَهَاءُ: جمعُ سفيهٍ، وهو البهَّاتُ الكذَّابُ المتعمـدُ بخـلاف مـا يعلـمُ. وقـال قُطْرُبُ: (السَّفِيْهُ: الْعَجُولُ الظَّلُومُ الْقَائِلُ خِلاَفَ الْحَقِّ)[1].

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ ؛ قـال جُويـبرُ عـن الضحَّاك عن ابنِ عبَّاس: (كَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبَيٍّ بْنِ سَلُول الْخَزْرَجِيّ عَظِيْـمَ الْمُنَـافِقِيْنَ مِنْ رَهْطِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، وَكَانَ إذَا لَقِيَ سَعْداً قَالَ: نِعْمَ الدِّيْنُ دِيْنُ مُحَمَّدٍ، وَكَانَ إذَا رَجَعَ إلَى رُؤَسَاءِ قَوْمِهِ مِنْ أهْلِ الْكُفْرِ قَالَ: شُدُّوا أيْدِيكُمْ بدِيْنِ آبَائِكُمْ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

وقال الكلبيُّ عن أبي صالح عن ابنِ عبَّاس؛ قال: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَبْـدِاللهِ ابْنِ أبَيٍّ وَأصْحَابهِ، وَذلِكَ أنَّهُمْ خَرَجُوا ذاتَ يَوْمٍ فَاسْتَقْبَلَهُمْ نَفَرٌ مِنْ أصْحَاب رَسُـول اللهِ ﷺ. فَقَالَ عَبْدُاللهِ لأَصْحَابهِ: أنْظُرُوا كَيْـفَ أرُدُّ هَـؤُلاَءِ السُّـفَهَاءَ عَنْكُـمْ؟ فَذهَـبَ فَأخَذ بيَدِ أبي بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: مَرْحَباً بالصِّدِّيْقِ وَسَيِّدِ بَنِي تَمِيْم وَشَيْخِ الإسْلاَمِ وَثَـانِي رَسُول اللهِ فِي الْغَار الْبَاذِلِ نَفْسَهُ وَمَالَهُ لِرَسُول اللهِ ﷺ. ثُمَّ أخَذ بيَدِ عُمَرَ ﷺ، وَقَالَ: مَرْحَباً بسَيِّدِ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ كَعْبِ الصَّادِقُ الْقَوِيُّ فِي دِيْنِ اللهِ عَـزَّ وَجَـلَّ الْبَـاذِلُ نَفْسَـهُ وَمَالَهُ لِرَسُول اللهِ ﷺ. ثُمَّ أخَذ بيَدِ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَـهُ؛ فَقَـالَ: مَرْحَبـاً يَـا ابْـنَ عَـمِّ رَسُول اللهِ ﷺ وَخَتَنَهُ وَسَيِّدَ بَنِي هَاشِـمٍ مَـا خَـلاَ رَسُـولَ اللهِ ﷺ. فَقَـالَ عَلِـيٌّ ﷺ: اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُنَافِقْ؛ فَإنَّ الْمُنَافِقِيْنَ شَرُّ خَلِيْقَةِ اللهِ. فَقَالَ: مَهْلاً يَا أبَـا الْحَسَـنِ، وَاللهِ إنَّ إيْمَانَنَا كَإيْمَانِكُمْ وَتَصْدِيْقَنَا كَتَصْدِيْقِكُمْ. وَفِي رِوَايَةٍ: وَاللهِ إنِّي مُؤْمِنٌ باللهِ وَرَسُولِهِ. ثُمَّ افْتَرَقُوا، فَقَالَ عَبْدُاللهِ لأَصْحَابهِ: كَيْفَ رَأيْتُمُونِي فَعَلْتُ، فَإذَا رَأيْتُمُوهُـمْ فَـافْعَلُوا كَمَـا

---

(١) وأصل السَّفَهِ من كلام العرب: الرقَّةُ والخفَّةُ، يقال: ثوبُ سفيه إذا كان رديءَ النسـج خفيفَـهُ أو كان بَالياً رقيقاً. وتسفَّهت الريحُ الشجرَ: مالَتْ به، وتسفَّهتُ الشـيءَ: اسـتحقرتُه. والسَّـفَهُ ضـد الحلمِ، والسفيهُ هنا: هو من أعرضَ عن الدليل، ثم نُسِبَ التمسُّـك بـه إلى السَّفاهة. وقـد يـأتي على معنى من باعَ آخرته بدنيا غيرِهِ فهو السَّفِيهُ، أو من عادَى الإسلامَ. وعلى وجه العموم فـإن السفيهَ الجاهلُ لضعف الرأي، القليل المعرفة بمواضع المنافع والمصالح.

فَعَلْتُ. فَأَثْنَوا عَلَيْهِ؛ وَقَالُوا: لاَ نَزَالُ بِخَيْرٍ مَا عِشْتَ. فَرَجَعَ الْمُسْلِمُونَ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ بذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). ومعناها: وإذا لَقُوا الذين آمنوا، أبا بكرٍ وأصحابَهُ؛ قالوا: آمَنَّا كإيْمانِكم.

وقرأ محمدُ بن السُّمَيقِعِ: (وإذا لاَقُوا) وهما بمعنى واحد، وأصلُ (لَقُوا): لَقِيُوا؛ فاستُثقِلَتِ الضمَّةُ على الياء فنُقلت إلى القافِ وسُكِّنت الواوُ والياء، فحذفتِ الياء لالتقاءِ السَّاكِنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ ﴾ ؛ أي مع شياطينِهم؛ وهم رؤسَاؤُهم في الضَّلالةِ. قال الأخفشُ: (كُلُّ عَاقٍّ مُتَمَرِّدٍ فَهُوَ شَيْطَانٌ). ومعنى (خَلَوا) أي جمعوا. ويجوزُ أن يكون من الْخُلْوَةِ؛ يقال: خَلَوْتُ بهِ وَخَلَوْتُ مَعَهُ وَخَلَوْتُ إلَيْهِ؛ كلُّها بمعنى واحدٍ. قال ابنُ عبَّاس: ((شَيَاطِينِهِمْ) رُؤُسَاؤُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ وَكَهَنَتُهُمْ وَهُمْ خَمْسَةُ نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ). ولا يكون كاهنٌ إلاَّ ومعه شيطانٌ، منهم كعبُ بن الأشرفِ بالمدينةِ؛ وأبو بُرْدَةَ في بني أسْلَمَ؛ وعبدُ الدار في جُهينة؛ وعوفُ بن عامرٍ في بني أسَدٍ؛ وعبدُالله بن السَّوداءِ في الشامِ. والشيطانُ المتمرِّدُ العاتِي من كلِّ شيءٍ؛ ومنهُ قِيْلَ للحيَّة النَّضْنَاضِ: شيطانٌ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[1] أي الحيَّاتِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ ﴾ ؛ أي على دِينِكم وأنصاركم، قولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي بمُحَمَّدٍ وأصحابهِ بإظهار قولِ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي يجازيهم على استهزائهم فسمَّى الجزاءَ باسمِ الابتداءِ؛ إذ كان مثلَهُ في الصورة؛ كقولهِ تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[2] فسمَّى جزاءَ السيئةِ سيئةً. وقالَ تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾[3] والثاني ليس باعتداءٍ.

---

(١) الصافات / ٦٥. (٢) الشورى / ٤٠. (٣) البقرة / ١٩٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيَمُدُّهُمْ فِي) أي يُمْهِلُهُمْ ويتركهم في ضلالتِهم يتحيَّرون؛ يقال: مدَّ في الشَّرِّ؛ ويَمُدُّ في الخيرِ؛ وقال يونسُ: (الْمَدُّ التَّرْكُ؛ وَالإمْدَادُ فِي مَعْنَى الإعْطَاءِ). وقيل: مَدَّهُ وأمدَّه بمعنى واحد. وقال الأخفشُ: ((وَيَمُدُّهُمْ) أي يَمُدُّ لَهُمْ؛ فَحَذَفَ اللاَّمَ). والطغيانُ: مجاوزة الحدِّ؛ يقال: طَغَى الماءُ إذا جاوزَ حدَّهُ؛ وقيل لفرعونَ: ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾[١] أي أسرفَ في الدعوى حيثُ قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى﴾[٢].

وقرأ ابنُ محيصن: (وَيُمِدُّهُمْ) بضم الياءِ وكسرِ الميم؛ وهما لُغتان. إلا أن الْمَدَّ أكثرُ ما يجيئ في الشرِّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾[٣]، والإمدادُ في الخيرِ قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾[٤]، وقالَ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾[٥]. وَقِيْلَ: معنى (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) أي يوبِّخهم ويغَبيهم ويُجهِّلُهم. وَقِيْلَ: معناه: الله يُظهِرُ المؤمنين على نفاقهم.

وقال ابنُ عبَّاس: (هُوَ أنْ يُطْلِعَ اللهُ الْمُؤْمِنِيْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ فِي الْجَنَّةِ عَلَى الْمُنَافِقِيْنَ وَهُمْ فِي النَّار، فَيَقُولُونَ لَهُمْ: أتُحِبُّونَ أنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ بَابٌ إلَى الْجَنَّةِ وَيُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا، فَيَأْتُونَ يَتَقَلَّبُونَ فِي النَّارِ، فَإذَا انْتَهَوا إلَى الْبَاب سُدَّ عَلَيْهِمْ وَرُدُّوا إلَى النَّارِ؛ وَيَضْحَكُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ. وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انقَلَبُوا فَكِهِينَ. وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ. وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ. فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾)[٦].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [يُؤْمَرُ بنَاسٍ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ إلَى الْجَنَّةِ حَتَّى إذَا دَنَوا مِنْهَا وَوَجَدُوا رَائِحَتَهَا وَنَظَرُوا إلَى مَا أعَدَّ اللهُ لأَهْلِهَا مِنَ الْكَرَامَةِ، نُودُوا أن اصْرِفُوهُمْ عَنْهَا؛ فَيَرْجِعُونَ بحَسْرَةٍ وَنَدَامَةٍ لَمْ تَرْجِعِ الْخَلاَئِقُ بمِثْلِهَا؛ فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا لَوْ أدْخَلْتَنَا النَّارَ قَبْلَ أنْ تُرِيَنَا مَا أرَيْتَنَا كَانَ أهْوَنَ عَلَيْنَا؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: هَذَا الَّذِي أرَدْتُ بكُمْ؛ هِبْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تَهَابُونِي؛ أجْلَلْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تُجِلُّونِي؛ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ

---

(١) طه / ٢٤. (٢) النازعات / ٢٤.

(٣) مريم / ٧٩. (٤) نوح / ١٢.

(٥) المؤمنون / ٥٥. (٦) المطففين / ٢٩-٣٤.

النَّاسَ بأَعْمَالِكُمْ خِلاَفَ مَا كُنْتُمْ تُرُونِي مِنْ قُلُوبكُمْ، فَالْيَوْمَ أذِيْقُكُمْ مِنْ عَذَابي مَا حَرَمْتُكُمْ مِنْ ثَوَابي][(١)].

فإن قِيْلَ: لِمَ أمرَ اللهُ تعالى بقتال الكفار المعلنين الكفرَ ولم يأمُرْ بقتال المنافقين وهم في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار؛ وخالَفَ بين أحكامهم وأحكامِ الكفار الْمُظْهرِيْنَ الكفرَ وأجراهم مُجْرَى المسلمين في التوارث والأنْكِحَةِ وغيرها؟ قيل: عقوباتُ الدنيا ليست على قدر الإجرام؛ وإنَّما هي على ما يعلمُ الله من المصالح؛ ولِهذا أوجبَ رجمَ الزانِي الْمُحْصَنِ ولَم يُزِل عنهُ الرجمَ بالتوبةِ؛ والكفرُ أعظم من الزنا ولو تابَ منه قُبلت توبتهُ. وكذلك أوجبَ الله على القاذفِ بالزنا الجلدَ ولَم يوجبه على القاذفِ بالكفرِ؛ وأوجبَ على شارب الخمر الحدَّ ولَم يوجبه على شارب الدمِ.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ ؛ أي أخذُوا الضَّلالةَ وتَركُوا الْهُدَى؛ واختارُوا الكفرَ على الإيْمان. وإنَّما أخرجهُ بلفظ الشراءِ والتجارة توسُّعاً؛ لأن الشراءَ والتجارة راجعان إلى الاستبدال والاختيار؛ لأنَّ كل واحدٍ من المتبايعَين يختارُ ما بيد صاحبهِ على ما في يدهِ. قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ ﴾ ؛ أي فمَا ربحُوا في تجارتِهم؛ تقولُ العرب: ربحَ بيعُك وخَسِرَتْ صفقتُك؛ ونامَ ليلُك؛ تَوَسُّعاً. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾[(٢)]. وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ: (فَمَا رَبحَتْ تِجَارَاتُهُمْ) على الجمعِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي من الضَّلالةِ؛ وَقِيْلَ: معناهُ وما كانُوا مُصِيبينَ في تِجارتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ ؛ أي مَثَلُ المنافقينَ في إظهارهم الإسلامَ وحَقْنِهم دماءَهم وأموالَهم كمثل رجلٍ في مَفَازَةٍ في ليلة مظلمةٍ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٧ ص٨٠: الحديث(١٩٩ و٢٠٠). وفي المعجم الأوسط: الحديث (٥٤٧٤) عن عدي بن حاتم. وأبو نعيم في الحلية: ج ٤ ص١٢٤-١٢٥. وقال: ((غريب من حديث الأعمش، لم نكتبه إلا من حديث أبي جنادة. وفيه [يُؤْمَرُ بِنَاسٍ مِنَ النَّاسِ...])). وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ١٠ ص٢٢٠؛ قال الهيثمي: ((وفيه أبو جنادة، وهو ضعيف)).

(٢) محمد : ٢١.

يخافُ السِّباع على نفسهِ، فيوقدُ ناراً لِيَأْمَنَ بـها السباعَ، ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ ﴾ ، النـارُ، ﴿ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ المستوقد؛ طُفِئَتْ. فبقي في الظلمةِ؛ كذلك المنافقُ يخاف على نفسه مـن قِبَلِ النبيِّ ﷺ وأصحابه فيسلم دماء الناس فيحقنُ دمه، ويناكحُ المسـلمين فيكـون لـه نورٌ بمنْزلة نور نار المستوقِدْ؛ فإذا بلغَ آخرتَهُ لَم يكن لإيْمانهِ أصلٌ في قلبـه، ولا حقيقـةٌ في عمله، سُلِبَ نورُ الإيْمان عند الموت فيبقى في ظلمةِ الكفـر، نَسْـتَعِيْذُ بـاللهِ. وَقَوْلُـهُ تَعَالَى: (اسْتَوْقَدَ) يعني أوقدَ، قال الشاعر[1]:

وَدَاعٍ دَعَـا يَـا مَـنْ يُجِيْـبُ إلَـى النَـدَى فَلَـمْ يَسْـتَجِبْهُ عِنْـدَ ذَاكَ مُجِيْـبُ

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (كَمَثَلِ الَّذِي) بمعنى (الذينَ) دليلـهُ سياقُ الآيـة؛ ونظيرهُ قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بالصِّدْق وَصَدَّقَ بِهِ اُوْلَئِكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ﴾[2]. فـإِنْ قُلْـتَ: كيـفَ يجوزُ تشبيهُ الجماعة بالواحد؟ قُلْتُ: لأن (الَّذِي) اسمٌ ناقصٌ، فيتناولُ الواحدَ والاثنين كـ (مَنْ) و(مَا)، وفي الآيةِ ما يدلُّ على أن معناهُ الجمعَ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتَرَكَـهُمْ). وقد يجوزُ تشبيهُ فعلِ الجماعةِ بفعل الواحدِ مثلُ قولهِ تعـالى: ﴿تَـدُورُ اَعْيُنُـهُمْ كَـالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ﴾[3]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (أضَاءَتْ) يقال: ضَاءَ القمرُ يَضُوءُ ضَـوْءاً، وَأضَـاءَ يُضِـيْءُ إضَـاءَةً؛ وَإضَـاءَةُ غـيرُه يكـون لازمـاً ومتعدِّيـاً. وقـرأ مُحمَّـدُ بـن السُّمَيْقِعِ:(ضَاءَتْ) بغيرِ ألفٍ؛ و (حَوْلَهُ) نُصب على الظرفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ؛ أي أذهـبَ الله نورَهـم. وإنَّمـا قـال: (بِنُورِهِمْ) والمذكورُ في أوَّل الآية النارُ؛ لأنَّ النارَ فيها شيئان: النُّورُ والحـرارةُ؛ فذهـبَ نورُهم؛ وبقِيَ الحرارة عليهم، ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

وفِي بعضِ التفاسيرِ: قال ابنُ عبَّاس؛ وقتادةُ؛ والضحَّاك: (مَعْنَى الآيَةِ: مَثَلُـهُمْ فِي الْكُفْرِ وَنِفَاقُهُمْ كَمَنْ أوْقَدَ نَاراً فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ فِـي مَفَـازَةٍ فَاسْتَضَاءَ بـهِ، وَاسْتَدْفَأَ وَرَأى مَا حَوْلَهُ، فَاتَّقَى مَا يَحْذَرُ وَنَجَا مِمَّا يَخَافُ وَأمِنَ؛ فَبَيْنَمَا هُـوَ كَذَلِـكَ إذْ طُفِئَـتْ نَـارُهُ؛ فَبَقِـيَ مُظْلِمـاً خَائِفـاً مُتَحَـيِّراً؛ فَكَذَلِـكَ الْمُنَـافِقُونَ إذَا أظْـهَرُواْ كَلِمَـةَ الإيْمَـانِ

(١) هو كعب بن سعد الغَنَوِيُّ، يرثي أخاه أبا المغـوار، والبيـت أورده الأخفـش في معـاني القـرآن: ج ١ ص٤٩ و٢٠٨: الشاهد (٢٧)؛ وقال: ((أي فلم يُجِبْهُ)).

(٢) الزمر : ٣٣.

(٣) الأحزاب : ١٩.

وَاسْتَنَارُواْ بنُورهَا وَاعْتَزُّواْ بعِزِّهَا، فَنَاكَحُواْ الْمُسْلِمِيْنَ وَوَارَثُوهُـمْ وَقَاسَـمُوهُمُ الْغَنَـائِمَ وَأَمِنُوا عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلاَدِهِمْ؛ فَإِذَا مَاتُوا عَـادُوا فِـي الظُّلْمَـةِ وَالْخَـوْفِ وَبَقَـواْ فِـي الْعَذَاب وَالنِّقْمَةِ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ ؛ أي هـم صُمٌّ عـن الْـهَدْيِ لا يسـمعونَ الحقَّ، بُكْمٌ لا يتكلمونَ بخير؛ عُمْيٌ لا يبصـرون الهـديَ؛ أي بقلوبـهم كمـا قَـالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾[1]. وَقِيْلَ: معناه صُمٌّ يَتَصَامُّونَ عـن الحقِّ؛ بُكْمٌ يَتَبَاكَمُونَ عن قول الحقِّ؛ عُمْيٌ يَتَعَامَوْنَ عَنِ النَّظَرِ إلى الحقِّ؛ يعني الاعتبارَ. وقرأ عبدالله: (صُمّاً بُكماً عُمْياً) بالنصب على معنـى وتركَـهم كذلـك. وَقِيْـلَ: علـى الذَّمِّ، وَقِيْـلَ: علـى الحـالِ. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي مِـن الضَّلالةِ والكفرِ إلى الْهُدَى والإيْمانِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ ؛ هـذا مثلٌ آخر ضَرَبَهُ اللهُ تعالى لَهم أيضاً؛ معطوفٌ على المثلِ الأول؛ أي مَثَلُهُمْ كمثلِ الذي استوقدَ نـاراً ومَثَلُـهُمْ أيضـاً كَصَيِّـبٍ. قـال أهـلُ المعـانِي: (أو) بمعنـى الـواو؛ يريـدُ (وكَصَيِّبٍ) كقولهِ: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾[2] وأنشدَ الفرَّاءُ[3]:

وَقَـدْ عَلِمَـتْ سَـلْمَى بـأَنِّي فَـاجِرٌ ... لِنَفْسِـي تُقَاهَـا أَوْ عَلَيْـهَا فُجُورُهَـا

أيْ: وعليها فجُورها.

ومعنى الآيةِ: مَثَلُ المنافقين مع النبيِّ ﷺ والقرآن (كَصَيِّبٍ) أي كمَطرٍ نزلَ (مِنَ السَّمَاءِ) ليلاً على قوم في مَفَازَةٍ (فِيْهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ) كذلكَ القُرْآنُ نُزِّلَ من اللهِ، (فِيْهِ ظُلُمَاتٌ) أي بيانُ الفِتَنِ وابتلاءُ المؤمنينَ بالشَّـدائدِ في الدُّنيـا، (ورَعْـدٌ) أي زجـرٌ وتخويفٌ، (وَبَرْقٌ) أي تِبْيَانٌ وتَبْصِرَةٌ. فجَعل أصحابُ المطـر أصابعَـهم في آذانِـهم مـن الصَّواعقِ مَخافةَ الهلاكِ، كذلك المنافقونَ كانوا يجعلون أصابعــهم في آذانِـهم مـن بيـانِ

---

(١) الأعراف / ١٩٨. (٢) الصافات / ١٤٧.

(٣) في لسان العرب لابن منظور: ((وقد زعمت ليلى...)) والبيت لتوبة بن الحميِّر، ونقلـه الطـبري في التفسير.

القُرْآن ووعدهِ ووعيدهِ وما فيه من الدُّعاءِ إلى الجِهَادِ مخافةَ أن يُقْتَلُوا في الجهادِ. ويقال: مخافةَ أن تَميل قلوبُهم إلى ما في القُرْآن.

وعن الحسن أنه قالَ: (فِي الآيَةِ تَشْبِيْهُ الإِسْلاَمِ بالصَّيِّب؛ لأَنَّ الصَّيِّبَ يُحْيِي الأَرْضَ، وَالإِسْلاَمُ يُحْيِي الْكُفَّارَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾)[١]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (كَصَيِّبٍ) أي كأصحاب الصَّيِّب؛ لاستحالةِ تشبيهِ الحيوان بالصيب تمثيل العاقلِ بغير العاقلِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ الصَّوَاعِقِ) جمعُ صَاعِقَةٍ: وهي صَوْتٌ وبَرْقٌ فيه قطعةٌ من النار لا تأتِي على شيءٍ إلا أحرقتْهُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ السَّمَاءِ) كل مَا عَلاكَ فهو سَماءٌ؛ والسماءُ تكونُ واحداً وجمعاً، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾[٢]. وَقِيْلَ: هو جمعٌ وَاحِدُهُ: سَمَاوَةٌ؛ والسَّموات جمعُ الجمعِ، مثل جَرَادَةٍ وَجَرَادٍ وَجَرَادَاتٍ. والسَّماءُ تذكَّر وتؤنَّث، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾[٣] و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطَرَتْ﴾[٤].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فِيهِ ظُلُمَاتٌ) أي في الصيِّب؛ وقيل في الليلِ: كنايةٌ عن غير مذكورٍ. وظلماتٌ: جمع ظُلْمَةٍ؛ وضمُّه اللام على الاتباعِ لضمةِ الظاء. وقرأ الأعمشُ: (ظُلْمَاتٌ) بسكون اللام على أصلِ الكلام؛ لأنَّها ساكنةٌ في التوحيدِ. وقرأ أشهبُ العقيلي: (ظُلَمَاتٌ) بفتحِ اللام؛ لأنه لَمَّا أرادَ تحريكَ اللام حرَّكها إلى أخفِّ الحركات؛ كقولِ الشاعرِ:

فَلَمَّا رَأَوْنَا بَادِياً رُكْبَانُنَا عَلَى مَوْطِنٍ لاَ تَخْلِطَ الْجَدَّ بالْهَزَلِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَرَعْدٌ) الرعدُ: هو الصوتُ الذي يخرج من السحاب، (وَبَرْقٌ) وهي النارُ التي تخرج منه. قال مجاهدُ: (الرَّعْدُ: مَلَكٌ يُسَبحُ بحَمْدِهِ؛ وَيُقَالُ لِذَلِكَ الْمَلَكِ: رَعْدٌ، وَلِصَوْتِهِ أَيْضاً رَعْدٌ). وقال عِكْرِمَةُ: (الرَّعْدُ: مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بالسَّحَاب

---

(١) الأنعام / ١٢٢. (٢) البقرة / ٢٩.
(٣) المزمل / ١٨. (٤) الانفطار / ١.

يَسُوقُهَا كَمَا يَسُوقُ الرَّاعِي الإبـلَ)[١]. وقـال شَـهْرُ بْـنُ حَوْشَـبَ: (هُـوَ مَلَـكٌ يَزْجُـرُ السَّحَابَ كَمَا يَزْجُرُ الرَّاعِي الإبلَ). والصواعقُ أيضاً الْمَـهَالِكُ؛ وهـي جمـع صَاعِقَـةٍ؛ والصاعقةُ والصَّامِعَةُ[٢] وَالْمَصْعَمَةُ[٣]: كالهلاكُ. ومنه قيل: صُعِـقَ الإنسـانُ إذا غشـيَ عليه؛ وصُعِقَ إذا ماتَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ ﴾ ؛ أي مخافةَ الموتِ. وهو نُصِبَ على المصدر. وقيـل: بـنَزعِ الخـافضِ. وقـرأ قتـادةُ: (حَذِيْـرَ الْمَوْتِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بهم؛ يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًـا﴾[٤]. وقيـل: معنـاهُ: والله مهلِكُـهم وجامِعُهم في النار؛ دليلهُ ﴿أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾[٥] أي تُهلكوا جميعاً.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْۖ ﴾ ؛ أي يختلِسُ أبصارَ المسافرين من شدَّة ضوئِهِ؛ كذلكَ البيانُ من القُرْآن يكادُ يذهبُ بأبصار المنـافقين؛ فيـأخذُهم إلى اللهِ لَمَّا قَلَبُوا الدينَ. ومعنى (يَكَادُ) أي يقربُ من ذلك ولَم يفعل[٦]. وقـرأ ابـن أبـي

---

(١) بلفظ قريب منه أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٦٤).

(٢) الصَّامِعَةُ: الأصمعُ: الصغير الأُذن، والسيف القـاطعُ، والمـترقي أشـرفَ المواضـع. ولـه معـاني أخرى، جمعها صُمْعَانٌ. والأصمع: القلب الذكي المتيقظ، فيقال: قلب أصمعُ: ذكي متوقدٌ فطِـنٌ، وهو كذلك الرأي الحازم. والأصمعان: القلب الذكي والـرأي العـازم. والصومعـة مـن البنـاء: سميت صومعةً لتلطيف أعلاهـا. والصومعـة أيضـاً: منـار الراهـب، وصومعَـها: دقّـقَ رأسَـها، والشيءَ جَمَعَهُ. لسان العرب (صمع). وترتيب القاموس المحيط.

(٣) الْمَصْعَمَةُ: مـن مَصَـعَ الـبرقُ أي أومَـضَ، ومصَـعَ فلانـاً ضربَـهُ بالسـيف، والمصْـعُ التحريـكُ والضرب. وَقِيْلَ: معناه: عدوٌّ شديد. ومرٌّ يصمَعُ؛ أي يسرعُ. وسئل أعرابـي عـن الـبرق فقـال: مَصْعَةُ مَلَكٍ؛ أي يضربُ السحابَ ضربة فترى النيران. والماصِعُ: البرَّاق، وَقِيْلَ: المتغيِّر. ومصَعَـهُ بالسُّوط: أي ضربه، قال الطبري: ((ويكون إزجـاءُ الملَـك السـحابَ مَصْعَـهُ إيـاه بـها، وذاك أن الْمِصَاعَ عند العرب أصله المجالدةُ بالسيوف، ثم تستعمله في كل شيء جُولِدَ بـه في حـربٍ وغـير حرب)).

(٤) الطلاق / ١٢. (٥) يوسف / ٦٦.

(٦) يكادُ: مضارع (كادَ) وهي لمقاربة الفعلِ، تعمل عمل (كان) إلا أن خبرها لا يكون إلا مضارعاً، وشذَّ غيره. والأكثر في خبرها تجرُّده من (أنْ) عكس (عسى) لأنُّها لمقاربـة الفعـل، وإذا كـانت=

إسحقَ: (يَخَطِّفُ) بنصب الخاء وتشديدِ الطاء؛ أي يَخْتَطِفُ؛ فأُدْغِمَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ ﴾ ؛ أي كلَّما أضاءَ البرقُ للمسافرين مَشَوا في ضوئِهِ، ﴿ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾ ، بَقَوا في ظلمةِ القبرِ. وفي مصحف عبدِالله: (مَضَوا فِيْهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ . أي لذهبَ بسَمعِ المسافرين بالرعدِ وأبصارهم بالبرقِ؛ كذلك لو شاءَ الله لذهبَ بسمعِ المنافقين وأبصارهم بزجرِ القُرْآن ووعدِهِ ووعيدهِ والبيانِ الذي فيه وجعلَهم صُمّاً وعُمياً في الحقيقةِ عقوبةً لَهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي مِن إذهاب السَّمعِ والبَصَرِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ، قالَ ابنُ عبَّاس: ((يَاأَيُّهَا النَّاسُ) خِطَابٌ لأَهْلِ مَكَّةَ؛ و(يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا) خِطَابٌ لأَهْلِ الْمَدِيْنَةِ). وهو ها هُنا عامٌّ؛ وقَوْلُهُ تَعَالَى: (اعْبُدُوا رَبَّكُمْ) أي وَحِّدُوهُ وأطيعوهُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (الَّذِي خَلَقَكُمْ) أي أوجدَكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) أي وخَلَقَ الذين مِن قبلكم. (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) أي لكي تَنْجُوا من العذاب والسُّخْطِ. قال سيبويه: (لَعَلَّ وَعَسَى حَرْفَا تَرَجٍّ) وهُما من اللهِ تعالى واجبان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ . أي هو الذي جَعَلَ؛ وقيل: اعْبُدُوا ربَّكم الذي جعلَ لكم الأرضَ فِراشاً أي بساطاً؛ وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) إنَّما أطلق البناءَ على السماءِ دون الأرضِ؛ لأنَّ خَلْقَها بعدَ خلق الأرض. قالَ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾[1] قال ابنُ عباس: (كُلُّ سَمَاءٍ مُطْبَقَةٌ عَلَى الأُخْرَى كَالْقُبَّةِ؛ وَسَمَاءُ الدُّنْيَا مُلْتَزِقَةٌ أطْرَافُهَا بالأَرْضِ).

=(كاد) مثبتة فإن خبرها منفي في المعنى لا محالة؛ لأنها للمقاربة، فإذا قلتَ: كاد زيد يفعل، كان معناه قارب الفعل إلا أنه لم يفعل، فإذا نفيت انتفى خبرُها بطريق الأولى؛ لأنه إذا انتفيت مقاربة الفعل انتفى الفعل من باب أولى، وفيه تفصيل.

(١) البقرة / ٢٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ، أي من السَّحاب؛ سُمِّيَ ماءً لقربه من السَّماء؛ وقيل: معناهُ من نحو السماءِ، وقيل: لأنَّ اللهَ تعالى ينْزِلُ المطرَ من السماء إلى السَّحاب؛ ومن السَّحاب إلى الأرضِ، وقيل: يخلقُ اللهُ المطرَ في السحاب ثم ينْزلهُ منه إلى الأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ ؛ ظاهرُ المرادِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ ؛ أي أمثالاً ونُظراءَ. ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ، أنَّ اللهَ خلقَ كافَّة الأشياءِ دونَ غيره، وأنْ ليسَ للأصنامِ عليكم نعمةٌ تستحقُّ بها عبادَتكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ ﴾ ؛ أي في شكٍّ، ﴿ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ ، مُحَمَّدٍ ﷺ أنه ليس مِنِّي، وأنَّ محمداً يختلِقُه من نفسه، ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ ؛ أي من بَشَرٍ مثله؛ والهاءُ في (مِثْلِهِ) عائدةٌ إلى النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقيل: معناهُ فَأْتُوا بسورةٍ من مثله مِمَّا نزَّلنا.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي آلِهتكم ومن رجوتُم معونتَه في الإتيانِ بسورةٍ مثله، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ، أنه ليس من الوحيِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأْتُوا) أمرُ تعجيزٍ؛ لأنهُ تعالى عَلِمَ عجزَ العباد عنهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ ؛ أي فإن لَمْ تأتوا بمثله ولنْ تأتوا بذلك أبداً، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ ؛ أي حَطَبُها الناسُ والحجارةُ. وَقِيْلَ: المرادُ بالحجارةِ: حجارةُ الكبريتِ؛ لأنَّها أسرعُ وقوداً وأبطأُ جموداً وأنتنُ رائحةً وأشدُّ حرّاً والصق بالبدَن، ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ ﴾ ؛ أي بأنَّ لَهم، موضعُ أنَّ نصبَ بنَزعِ الخافض، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ ؛ أي بساتينَ، ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ﴾ ؛ أي من تحت شَجَرِهَا، ومساكِنها وغرَفِها، ﴿ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ أي أنْهارُ الماءِ والعسل واللَّبَنِ والخمرِ.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي كلما أُطعِمُوا من أنواع الثمرات بالبكْرِ والعَشيَّات؛ إذا أُوتوا به بكرةً قالوا: هذا الذي أُوتينا به عشيةً؛ وإذا أُوتوا به عشيةً قالوا: هذا الذي أوتينا به بكرةً؛ فإذا طعموهُ وجدوا طعمهُ غيرَ الطعمِ الذي طَعِمُوهُ من قبلُ. وقوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ ؛ أي في المنظرِ مختلفاً في الطعم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ ؛ أي نساءٌ وجوارٍ لا يَحِضْنَ ولا يَسْتَحْلِمْنَ ولا يَلِدْنَ ولا يحتجنَ إلى ما يتطهَّرنَ منه؛ ولا يَحْسِدْنَ ولا يَغِرْنَ ولا ينظرن إلى غير أزواجهن؛ مهذَّباتٌ في الْخَلْقِ والْخُلُق؛ طاهراتٌ من كل دَنَسٍ وعيبٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي هم مع هذه الكراماتِ دائمون لا يَموتون ولا يُخْرَجون أبداً.

وسُئِلَ الرَّسُولُ ﷺ مَرَّةً: مَا بَالُ أهْلِ الْجَنَّةِ عَمِلُوا فِي عُمُرٍ قَصِيرٍ فَخُلِّدُوا فِي الْجَنَّةِ؛ وَمَا بَالُ أهْلِ النَّار عَمِلُوا فِي عُمُرٍ قَصِيرٍ فَخُلِّدُوا فِي النَّار ؟ فَقَالَ: [كُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيْقَيْنِ يَعْتَقِدُ أنَّهُ لَوْ عَاشَ أبَداً عَمِلَ ذلِكَ الْعَمَلَ].

والبشارةُ المطلقةُ هو الخبرُ السارُّ الذي يحدثُ عند الاستبشار والسرور، وإنْ كان قد يستعملُ مقيَّداً فيما يسوءُ، كما قالَ تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بعَذَابٍ ألِيمٍ﴾(١). ولِهذا

(١) آل عمران / ٢١. البِشَارَةُ: اسمٌ لخبرٍ يغيِّرُ بشَرَةَ الوجه مُطلقاً، سارّاً كان أم مُحزناً، إلا أنه غلبَ استعمالها في الأوَّل، وصار اللفظ حقيقةً له بحكم العُرف حتى لا يفهم منه غيره. واعتبر فيه الصدق على ما نصَّ عليه في الكتب الفقهية. فالمعنى العرفي للبشارةِ هو الخبر الصِّدقُ السارُّ الذي ليس عند المخبَر به علمهُ. واستبشرَ إذا وجدَ ما يسرُّه من الفرحِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠] وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران : ١٧١].

ووجود المبشَّر به وقت البشارة ليس بلازم، لقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ [الصافات: ١١٢] وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]. وفي الحديث قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: [انْقَطَعَ الْوَحْيُ وَلَمْ يَبْقَ إلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ، وَهِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ].

والبشارة المطلقة بالخير قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠] ولا تكون بالشرِّ إلا بالتقييد كما أن النِّذارة تكون على إطلاق لفظها في الشرِّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ ألِيمٍ﴾ [التوبة :٣].

قال علماؤُنا فيمن قالَ: أيُّ عبيدِي بشَّرني بقُدومِ فُلان فهو حرٌّ، فبشَّره جماعةٌ من عبيدِهِ واحدٌ بعدَ واحدٍ؛ أنَّ الأوَّلَ يعتقُ دون غيرِهِ؛ لأن البشارةَ حصلَتْ بخبرِهِ خاصَّةً؛ بخلافِ ما إذا قالَ: أيُّ عبيدِي أخبرني بقُدومِ فلانٍ، فأخبرَه واحدٌ بعد واحدٍ فإنَّهم يُعْتَقُونَ جميعاً[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾، هذا مثلٌ آخرُ للمنافقين؛ وسَبَبُهُ لَمَّا ذكرَ اللهُ في المنافقين المثلَين المتقدِّمَين قالُوا: إنَّ اللهَ تعالَى أجلُّ وأعلَى من أن يَضْرِبَ هذه الأمثالَ؛ فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ لأن البعوضةَ تَحيى ما دامَتْ جائعةً فإذا شَبعَتْ هلكت؛ فكذلك المنافقونَ يَحْيَوْنَ ما افتقَرُوا وإذا شَبعُوا بَطِرُوا وهَلَكُوا. فكأنَّهُ قالَ تعالى: كيفَ أستَحِي مِن ضَرْب الْمَثَلِ في المنافقِين وأنا أضربهُ بالبعوضِ الذي هو مِثلُهم.

وَقِيْلَ: إنَّ المشركينَ لَمَّا نزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾[2] وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ﴾[3] قالُوا: إن اللهَ تعالَى يضربُ المثلَ بالذُّباب والعنكبوتِ؛ فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ كأنهُ قال: لا أستحِي بضرب المثلِ بالبعوض والعنكبوت مع صِغرِهما فإنَّهما يُعْجِزَانِ آلِهَتَهم.

ومعنى الآيةِ: أنَّ اللهَ لا يَمنعهُ الحياءُ أن يضربَ الحقَّ شَبَهاً ما بعوضةً فما أكبرَ منها مثلَ الذُّباب وغيرِهِ. وَقِيْلَ: فما فوقَها في الصِّغَر.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾؛ أي فيعلمون أنَّ المثلَ حقٌّ من ربهم؛ وأما الكافرون فيقولون: أيَّ شيءٍ أرادَ الله بذِكْرِ البعوضِ والذباب مثلاً.

---

(١) لأن البشارةَ الخبرُ الذي يظهر السُّرور، وعتق المبشِّر أن خبره أفاد ذلك، ولو قال مكان بشَّرني: أخبرني، عتقوا جميعاً؛ لأنهم جميعاً أخبروهُ.

(٢) الحج : ٧٣.

(٣) العنكبوت : ٤١.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: يُضِلُّ ويَخْذِلُ بالمثلِ كثيراً من الناس، ويوفِّقُ لمعرفته كثيراً، ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ يعني الخارجينَ عن طاعة اللهِ. قيل: همُ اليهودُ في هذه الآية.

وأمَّا في قولهِ: (مَثَلاً مَا) قيل: نكرةٌ معناه أن يضربَ مِثالاً شيئاً من الأشياء بعوضةً فما فوقها. وقيل: الأصحُّ أنَّها زائدةٌ مثل ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾[١] ولا إعرابَ لها فيتخطَّاها الناصبُ والخافضُ إلى ما بعدها. وقيل: نصبَ بعوضةً على معنى ما بين بعوضةٍ إلى ما فوقها؛ فإذا أُلْقِيَ (بين) و(إلى) نصبَ[٢]. ويقالُ في الكلام: هي أحسنُ الناسِ ما قرناً[٣]، ومَدُّ (مَا). قَوْلُهُ تَعَالَى (مَثَلاً) نُصِبَ على القطعِ عند الكوفيِّين؛ غيرَ أنَّه قُطِعَ الإضافةَ؛ أي بهذا المثلِ. وعند البصريِّين على الحالِ؛ أيْ ما أرادَ اللهُ بالمثل في هذه الحالةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ ؛ نعتٌ للفاسقين. ومن جعلَهُ مبتدأً وقف على الفاسقين. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ) أي يتركون أمرَ اللهِ ووصيَّته من بعد تغليظه وتوكيدهِ. والعهدُ: ما أخذَهُ الله على النبيِّين ومَن اتَّبعَهم أن لا يكفُروا بالنبيِّ ﷺ ويبيِّنُوا نعتَهُ وصفتَهُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ ، يعني الرحمَ الذي أمرهم بصلته، ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

---

(١) النساء / ١٥٥.

(٢) في نصبها أربعة أوجه؛ نقلها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن:ج١ ص٢٤٢-٢٤٣.

(٣) أصلهُ: (هي أحسنُ الناسِ مَا قَرْناً فَقَدَماً) حذف ذكر (بين) و(إلى) أي القاهما وأدخل الفاء في (ما) الثانية دلالة عليهما، فنصب (بعوضة) على إسقاط الخافض، فأصله (ما بين بعوضةً) فلما ألقى (بين) أعربَت (بعوضةً) بإعرابها، وكانت الفاء في قوله: (فما فوقها) بمعنى (إلى) أي إلى ما فوقها. فقولهم: (هي أحسنُ الناس ما قرناً فقدَماً) يعنون ما بين قرنها إلى قدمها. وأنشدوا:

يَا أحْسَنَ النَّاسِ مَا قَرْناً فَقَدَماً ... وَلاَ حِبَالَ مُحِبٍّ وَاصِلٍ تَصِلُ

أي ما بين قرن إلى قدمٍ، فلما أسقط (بين) نصب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا ﴾ ؛ أي وكنتم نُطفاً في أصلاب آبائكم، ﴿ فَأَحْيَٰكُمْ ﴾ ، في أرحامِ أمهاتكم، وأخرجكم نِسَماً صِغاراً، ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ ، عند انقضاء آجالكم، ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ ، للبعثِ، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ، في الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ؛ يعني من الشَّجَرِ والثمار والدواب، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ ، فإن قيل: هذه الآية تقتضي أن خلق السماء بعد الأرض؛ وقال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ ثم قال: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ؟ قِيْلَ: مجموعُ الآيتين يدلُّ على أن خَلْقَ الأرض قَبْلَ السَّماء؛ إلا أنَّ بَسْطَ الأرضِ بعد خَلْقِ السَّماء، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ؛ يعني آدمَ وذريَّتَهُ. واختلَفُوا في معنى الخليفة، فروي: أنَّ رَجُلاً سَأَلَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَكَعْباً وَسَلْمَانَ: مَا الْخَلِيْفَةُ؛ وما الْمَلِكُ؟ فَقَالَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ: (مَا نَدْري) وَقَالَ سَلْمَانُ: (الْخَلِيْفَةُ: هُوَ الَّذِي يَعْدِلُ فِي رَعِيَّتِهِ وَيَقْسِمُ بَيْنَهُمْ بالسَّوِيَّةِ وَيُشْفِقُ عَلَيْهِمْ شَفَقَةَ الرَّجُلِ عَلَى أهْلِهِ وَالْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ؛ وَيَقْضِي بكِتَاب اللهِ تَعَالَى). فَقَالَ كَعْبٌ: (مَا كُنْتُ أحْسَبُ أنَ أحَداً يُفَرِّقُ الْخَلِيْفَةَ مِنَ الْمَلِكِ غَيْري؛ وَلَكِنَّ اللهَ مَلأَ سَلْمَانَ عِلْماً وَحِلْماً وَعَدْلاً).

وروي أنَّ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ لِسَلْمَانَ: أمَلِكٌ أنَا أمْ خَلِيْفَةٌ؟ قَالَ سَلْمَانُ: (إنْ أنْتَ جَبَيْتَ أرْضَ الْمُسْلِمِيْنَ دِرْهَماً أوْ أكْثَرَ أوْ أقَلَّ؛ وَوَضَعْتَهُ فِي غَيْر حَقِّهِ!! فَأَنْتَ مَلِكٌ. وَإنْ أنْتَ فَعَلْتَ بالْعَدْلِ وَالإنْصَافِ فَأَنْتَ خَلِيْفَةٌ) فَاسْتَغْفَرَ عُمَرُ رضي الله عنه.

وروي أنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ يَقُولُ إذَا جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَر: (يَا أيُّهَا النَّاسُ إنَّ الْخِلاَفَةَ لَيْسَتْ بجَمْعِ الْمَال وَلاَ تَفْرِيْقِهِ؛ وَلَكِنَّ الْخِلاَفَةَ الْعَمَلُ بالْحَقِّ؛ وَالْحُكْمُ بالْعَدْلِ؛ وَأخْذُ النَّاسِ بأمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)[١].

---

(١) في المخطوط: أدرج الناسخ عبارة قال: (كذا في تفسيرِ الثعلبيِّ رَحِمَهُ اللهُ). والثعلبي الإمام=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا ﴾ ؛ أي يَعصيكَ فيها؛ ﴿ وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ ؛ أي نُبَرِّيك من السُّوء ونُصَلِّي لكَ ونطهِّرُ أنفسَنا لكَ. وَقِيْلَ: اللامُ في (نُقَدِّسُ لَكَ) زائدةٌ؛ أي نقدِّسُك.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ، أي أعلمُ أنه سيكون فيهم أنبياءٌ وقومٌ صالِحون يسبحُون بحَمْدِي ويقدِّسُونَ لِي ويطيعونَ أمْري. وروي: (أنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الأَرْضَ جَعَلَ سُكَّانَهَا الْجِنَّ بَنِي الْجَانِ؛ وَجَعَلَ سُكَّانَ السَّمَوَاتِ الْمَلاَئِكَةَ؛ لأَهْلِ كُلِّ سَمَاءٍ عِبَادَةٌ أهْوَنُ مِنَ الَّتِي فَوْقَهَا، وَكَانَ إبْلِيْسُ مَعَ جُنْدٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا؛ وَكَانَ رَئِيْسُهُمْ واسْمُهُ عَزَازِيْلُ. فَلَمَّا أفْسَدَتِ الْجِنُّ بَنِي الْجَانِ الَّذِيْنَ سَكَنُوا الأَرْضَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ وَعَمِلُوا الْمَعَاصِي بَعَثَ اللهُ إلَيْهِمْ إبْلِيْسَ مَعَ جُنْدِهِ؛ فَهَبَطُوا إلَى الأَرْضِ وَاَجْلَوا الْجِنَّ مِنْهَا؛ وَاَلْحَقُوهُمْ بجَزَائِرِ الْبحَارِ؛ وَسَكَنَ إبْلِيْسُ وَالْجُنْدُ الَّذِيْنَ مَعَهُ فِي الأَرْضِ. فَلَمَّا أرَادَ اللهُ أنْ يَخْلُقَ آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ؛ قَالَ لِلْمَلاَئِكَةِ الَّذِيْنَ كَانُوا مَعَ إبْلِيْسَ فِي الأَرْضِ: (إنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً). فَتَعَجَّبُوا[1] مِنْ ذَلِكَ؛ وَ (قَالُوا أتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) كَمَا فَعَلَتِ الْجِنُّ بَنُو الْجَانِ (وَنَحْنُ نُسَبحُ بحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) فَلَمَّا قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ خَرَجَتْ لَهُمْ نَارٌ مِنَ الْحُجُب وَاحْتَرَقَتْ عَشْرَةُ آلاَفِ مَلَكٍ مِنْهُمْ وَأعْرَضَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ عَنِ الْبَاقِيْنَ حَتَّى طَافُوا حَوْلَ الْعَرْشِ سَبْعَ سِنِيْنَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ اعْتِذَاراً إلَيْكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ لَمَّا قَالَ للملائكةِ: (إنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: يَخْلِقُ رَبُّنَا مَا يَشَاءُ؛ فَلَنْ يَخْلِقَ خَلْقاً أفْضَلَ وَلاَ أكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَّا. وَإنْ كَانَ خَيْراً مِنَّا فَنَحْنُ أعْلَمُ مِنْهُ؛ لأَنَّا خُلِقْنَا قَبْلَهُ وَرَأيْنَا مَا لَمْ يَرَهُ؛ فَلَمَّا أعْجِبُوا بعَمَلِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ فَضَّلَ اللهُ آدَمَ عَلَيْهِمْ بالْعِلْمِ فَعَلَّمَهُ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا؛ وَهِيَ أسْمَاءُ الْمَلاَئِكَةِ؛ وَقِيْلَ: أسْمَاءُ ذُرِّيَّتِهِ؛ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:

=المفسر أبو إسحق أحمد بن محمَّد النيسابوري (ت ٤٢٧هـ) وله تفسير (الكشف والبيان في تفسير القرآن). ونقل ما ذكره الطبراني بلفظ قريب في: ج ١ ص١٧٧، ط دار إحياء التراث العربي.

(١) في المخطوط: (فتعبوا)، والمناسب ما أثبتناه، والله أعلم.

[أسْمَاءُ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الدَّوَاب وَالطُّيُور وَالأَمْتِعَةِ حَتَّى الشَّاةَ وَالْبَقَرَ وَالْبَعِيْرَ وَحَتَى الْقَصْعَةَ وَالسُّكُرُّجَةَ(١)](٢). وَقِيْلَ: أسماءُ كلِّ شيءٍ من الحيوانِ والجمادات وغيرِها؛ فقِيْلَ: هذا فرسٌ وهذا حمارٌ وهذا بغل حتى أتى على آخرِها.

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ ﴾ ، أي عَرَضَ تلك الشُّخوص الْمُسَمَّيَاتِ، ﴿ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ ، ولَم يقل عرضَها ردَّه إلى الشخوص المسميات؛ لأن الأعراض لا تُعرض؛ وإن شئتَ قلتَ: لأن فيهم من يعقل فغلبهم. وفي قراءة أبي: (ثُمَّ عَرَضَهَا). وقال الضحَّاك: (عَلَّمَ اللهُ آدَمَ أسْمَاءَ الْخَلْقِ وَالْقُرَى وَالْمُدُن وَالأجْيَال وَأسْمَاءَ الطَّيْرِ وَالشَّجْرِ؛ وَأسْمَاءَ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَكُلَّ نَسْمَةٍ اللهُ بَادِيْهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ). وعرض تلك الأسماء على الملائكة؛ ﴿ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ بأن الخليفةَ الذي أجعلهُ: يفسدُ فيها ويسفك الدِّماءَ؟ أراد بذلك:كيفَ تدَّعون عِلْمَ ما لَم يكن وأنتم لا تعلمون عِلْمَ ما تَرَوْنَ وتُعَاينُونَ؟!

وقال الحسنُ وقتادة: (مَعْنَاهُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ أنِّي لاَ أخْلُقُ خَلْقاً إلاَّ كُنْتُمْ أعْلَمَ مِنْهُ وَأفْضَلَ!!)(٣). فقالتِ الملائكةُ أقراراً بالعجز واعتذاراً: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ ؛ أي تنْزيهاً لكَ عن الاعتراضِ في حُكمِك وتدبيرِكَ، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ ، في أمرِكَ.

و (سُبْحَانَكَ) منصوبٌ على المصدر؛ أي نسبحُ سُبْحاناً في قول الخليل؛ وَقِيْلَ: على النِّداءِ المضافِ؛ أي يَا سُبحَانكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (الْحَكِيمُ) له مَعنَيان؛ أحدُهما: الْمُحْكِمُ للفعلِ كقولِهم: عذابٌ أليمٌ؛ أي مؤلِم. وضربٌ وجيعٌ؛ أي مُوجِعٌ؛ فعلى هذا هو صِفَةُ فعلٍ. والآخرُ: بمعنى الْحَاكِمُ؛ فحينئذ يكون صفةُ ذاتٍ.

---

(١) السُّكُرُّجَةُ: جاءت في الحديثِ [لاَ آكُلُ فِي سُكُرُّجَةٍ] هي بضم السين والكاف والراء والتشديد: إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأُدْمِ، وهي فارسية معربة. لسان العرب: (سكرج)

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان: الرقم (٥٣٩ بلفظ قريب.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان: الرقم (٥٦١) بلفظ قريب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ ﴾ ؛ الأدَمَةُ: لونٌ مُشْرَبٌ بسَوادٍ؛ وَقِيلَ: هي كلُّ لون يشبهُ لونَ التُّراب؛ فلما ظهرَ عجزُ الملائكةِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا آدمُ؛ ﴿ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ ﴾ ؛ أي أخبرْهُم بأسمائِهم؛ فسمَّى كلَّ شيء باسمهِ والْحَقَ كلَّ شيء بجنسه، ﴿ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ ﴾ ، اللهُ: ﴿ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ ﴾ ، يا ملائكَتي، ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ، وما كان فيها وما يكون، ﴿ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ ﴾ ، من الخضوعِ والطَّاعة لآدم، ﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ في أنفسِكم له من العداوةِ؛ وَقِيْلَ: ما تُبدونَ من الإقرار بالعجزِ والاعتذار وما كنتم تَكتُمُونَ من الكراهةِ في استخلافِ آدمَ عليه السلام.

وَقِيْلَ: معناهُ: أعْلَمُ ما أظهرتُم من الطاعةِ وما أضمرَ إبليسُ من المعصيةِ لله تعالى في الأمرِ بالطاعة لآدمَ عليه السلام؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا صوَّرَ آدم ورآهُ إبليسُ قَال للملائكةِ الذينَ معه: أرأيتُم هذا الذي لَم تَروا مِن الخلائق مثلَهُ إن أمركم اللهُ بطاعتهِ ماذا تصنَعُون ؟ قالوا: نطيعُ. وأضمرَ الخبيثُ في نفسهِ أنه لا يطيعُ. وَقِيلَ: معناهُ: (أعْلَمُ مَا تُبْدُونَ) يعني قولَهم: (أتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا)، (وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) يعني قولَهم: لن يخلق الله خلقاً أفضل ولا أكرمَ ولا أعلمَ عليه مِنَّا.

فإن قِيلَ في قولهِ تعالى: (أنْبِئُونِي بِأسْمَاءِ هَؤُلاء) أمرُ تكليفِ ما لا يطاقُ؛ فهل يجوزُ تكليف ما لا يطاقُ ؟ قُلْنَا: الصحيحُ أنه ليس بتكليفٍ. وهذا كمَن يُلقِي المسألةَ على مَن يتعلَّم منهُ، فيقول: أخبرني بجواب هذه المسألةِ ؟ ولا يريدُ بذلكَ أن يأمرَهُ بجوابها؛ لأنه يعلمُ أنه لا يعرفهُ. بل يقصدُ أن يقررَ عليه أنه لا يعرفُ جوابَها؛ ليكون أشدَّ حرصاً على تعلُّم تلك المسألة.

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ الآيةِ: أن إبليس كان من الملائكة؛ لأنه مُستثنَى منهم، وإلى هذا ذهبَ جماعةٌ من العلماءِ، وقالوا: معنى قولهِ في آيةٍ أخرَى: ﴿إلا إبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنِّ﴾[1] يعني من خُزَّانِ الجِنَانِ. وذهب جماعةٌ آخرون

(١) الكهف: ٥٠.

إلى أنه من أولادِ الجانِّ؛ لأنه مخلوقٌ من نار وله ذريةٌ، والملائكةُ من نور وليس لَهم ذُرية. فعلى هذا يكونُ مُستثنى منقطعاً؛ مثل قولِهِ تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾[١].

وقيل: سببُ كونه مع الملائكةِ: إن الملائكةَ لَمَّا حاربَتِ الجنَّ سَبَوا إبليسَ صغيراً فنشأ معهم؛ فلما أمرتِ الملائكةُ بالسُّجود امتنعَ وكفرَ وعاد إلى أصلِهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (اسْجُدُوا لآدَمَ) هو سجودُ تعظيمٍ وتحيَّة لا سجودَ صلاةٍ وعبادةٍ؛ نظيرهُ في قصَّة يوسُفَ عليه السلام: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[٢] وكان ذلك تحيَّةَ الناسِ وتعظيمَ بعضهم بعضاً؛ ولَم يكن وضعُ الوجهِ على الأرض وإنَّما كان الانحناءَ. فلما جاءَ الإسلامُ أبطلَ ذلك بالسَّلام؛ وفي الحديثِ: أنَّ مُعَاذ بْنَ جَبَلٍ لَمَّا رَجَعَ مِنَ الْيَمَنِ سَجَدَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ:[مَا هَذَا؟] قَالَ: رَأَيْتُ الْيَهُودَ يَسْجُدُونَ لأَحْبَارِهِمْ وَالنَّصَارَى يَسْجُدُونَ لِقِسِّيسِهِمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَهْ يَا مُعَاذُ ! كَذَبَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ إنَّمَا السُّجُودُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ][٣].

---

(١) النساء : ١٥٧. (٢) يوسف : ١٠٠.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٨ ص٣١: الحديث (٧٢٩٤) بلفظ: [كَذَبُوا عَلَى أنْبِيَائِهِمْ كَمَا حَرَّفُوا كِتَابَهُمْ، لَوْ أمَرْتُ أحَداً أنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ، لأَمَرْتُ الْمَرْأةَ أنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا]، وفيه النهَّاسُ بن قهم القيسي، أبو الخطاب البصري، ضعيفٌ، ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٧٤٧٧).

في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: كتاب النكاح: باب حق الزوج على المرأة: ج ٤ ص٣٠٩؛ قال الهيثمي: ((رواه البزار بإسنادين والطبراني، وأحد إسنادَي البزار رجاله رجال الصحيح)). وقال: ((رواه بتمامه البزار وأحمد باختصار ورجاله رجال الصحيح)).

والحديث صحيح وله شواهد وردت في حديث جماعة من أصحاب النبي ﷺ، منها حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لاَ يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، وَلَوْ صَلُحَ لِبَشَرٍ أنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، لأَمَرْتُ الْمَرْأةَ أنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا]. رواه النسائي في السنن الكبرى: كتاب عشرة النساء: حق الرجل على المرأة: الحديث (٩١٤٧/ ١).

ومنها حديث قيس بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قال: أتيتُ الحيرةَ، فرأيتُهم يسجدون لِمَرزُبَانٍ لهم، فقلتُ: رسولُ الله أحقُّ أن يُسجَدَ له، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلتُ: إني أتيتُ الحيرةَ فرأيتهم يسجدون لمرزُبان لهم، فأنتَ رسولَ الله ﷺ أحقُّ أن يُسجَد لكَ؟ قال: [أرَأيْتَ لَوْ مَرَرْتَ=

وقال بعضُهم: سجَدُوا على الحقيقةِ؛ جُعِلَ آدمُ قبلةً لَهم؛ والسجودُ للهِ كما جعلت الكعبةُ قِبلةً لصلاةِ المؤمنين والصلاةُ لله عَزَّ وَجَلَّ. وإنَّما سُمِّي آدم لأنه خُلِقَ من التُّراب؛ والترابُ بلسان العبرانيَّة آدم بالمدِّ؛ ومنهم مَن قال: سُمِّي بذلك لأنه كان آدمَ اللَّون. وكُنيته: أبو مُحَمَّدٍ؛ وأبو البَشَرِ.

وقوله: (إلا إبْلِيسَ) منصوبٌ على الاستثناء؛ ولا ينصرفُ للعُجْمَةِ والْمَعْرِفَةِ. وقولهُ تعالى: (وَاسْتَكْبَرَ) أي تكبَّرَ وتعظَّمَ عن السجودِ لآدم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) أي وصارَ مِن الكافرين كقولهِ تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾(١). وقال أكثرُ المفسِّرين: معناهُ: وكان في علمِهِ السابق من الكافرين الذين وجبَتْ لَهم الشقاوةُ. قال رسولُ الله ﷺ: [إذا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ وَسَجَدَ، اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي؛ وَيَقُولُ: يَا وَيْلَهُ أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ؛ وَأُمِرْتُ بالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ](٢).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ؛ وَذلِكَ أنَّ آدَمَ كَانَ فِي الْجَنَّةِ وَحْشِياً؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَنْ يُجَالِسُهُ وَيُؤَانِسُهُ؛ فَنَامَ نَوْمَةً فَخَلَقَ اللهُ تَعَالَى زَوْجَتَهُ حَوَّاءَ مِنْ قُصَيْرَاهُ؛ مِنْ شِقِّهِ الأَيْسَرِ مِنْ غَيْرِ أنْ أحَسَّ آدَمُ بذَلِكَ وَلاَ وَجَدَ لَهُ ألَماً؛ وَلَوْ ألِمَ مِنْ ذلِكَ لَمَا عَطَفَ رَجُلٌ عَلَى امْرَأةٍ؛ فَلَمَّا هَبَّ آدَمُ مِنْ نَوْمِهِ إذْ هُوَ بحَوَّاءَ جَالِسَةً عِنْدَ رَأسِهِ كَأَحْسَنِ مَا خَلَقَ اللهُ. قَالَ لَهَا: مَنْ أنْتِ؟ قَالَتْ: زَوْجَتُكَ! خَلَقَنِي اللهُ لَكَ.

=بِقَبْرِي؛ أكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ؟] قُلْتُ: لاَ. قَالَ: [لاَ تَفْعَلُوا، لَوْ كُنْتُ آمِراً أحَداً أنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ النِّسَاءَ أنْ يَسْجُدْنَ لأَزْوَاجِهِنَّ لِمَا جَعَلَ اللهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ حَقٍّ]. رواه أبو داود في السنن: كتاب النكاح: الحديث (٢١٤٠). والحاكم في المستدرك: كتاب النكاح: باب التشديد في العدل بين النساء: الحديث (٢٨١٧). وفي إسناده شريك بن عبدالله بن أبي شريك القاضي، صدوق ثقة، سيء الحفظ، ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٢٨٦٤).

(١) هود : ٤٣.

(٢) الحديث عن أبي هريرة ﷺ؛ رواه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة: الحديث (١٣٣/ ٨١). وابن ماجة في السنن: كتاب إقامة الصلاة: باب سجود القرآن: الحديث (١٠٥٢).

فَقَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ ذلِكَ امْتِحَاناً لَهُ: مَا هَذِهِ يَا آدَمُ ؟ قَالَ: امْرَأةٌ، قَالُوا: وَمَا اسْمُهَا ؟ قَالَ: حَوَّاءُ، قَالُوا: وَلِمَ سُمِّيَتْ حَوَّاءُ. قَالَ: لأنَّها خُلِقَتْ مِنْ حَيٍّ، قَالُوا: يَا آدَمُ أتُحِبُّهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا لِحَوَّاءَ: أتُحِبِّيْنَهُ يَا حَوَّاءُ ؟ قَالَتْ: لاَ، وَفِي قَلْبِهَا أضْعَافُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ حُبِهِ، فَلَوْ صَدَقَتِ امْرَأةٌ فِي حُبهَا لِزَوْجِهَا لَصَدَقَتْ حَوَّاءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ ؛ أي واسعاً كثيراً، ﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ ؛ وأين شِئتُما وكيفَ شئتما، ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ ؛ قِيْلَ: هي الكَرْمُ؛ وَقِيْلَ: التين؛ وَقِيْلَ: شجرةٌ من أحسَنِ أشجار الجنَّة عليها كلُّ نوعٍ من أطعِمَة الجنَّة؛ ثمرُها مثل كِليةِ البقرة؛ ألينُ من الزُّبد؛ وأحلَى من الشَّهد؛ وأشدُّ بياضاً من اللَّبن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، أي فتَصِيرا من الضارِّين لأنفُسِكما بالمعصيةِ؛ وأصلُ الظُّلْمِ: وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ ؛ أي عن الجنَّة؛ ومعنى أزلَّهما استزلَّهما، وقراءةُ حمزةَ: (فَأَزَالَهُمَا الشَّيْطَانُ) وهو إبليسُ؛ وهو فَيْعَالُ من شَطَنَ؛ أي بَعُدَ، سمِّي بذلك لبُعده عن الخيرِ وعن رحمةِ الله. وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ ؛ أي من النَّعيم.

وَذلِكَ أنَّ إبْلِيْسَ أرَادَ أنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ لِيُوَسْوِسَ لآدَمَ؛ فَمَنَعَهُ الْخَزَنَةُ؛ فَأتَى الْحَيَّةَ وَكَانَتْ مِنْ أحْسَنِ الدَّوَاب لَها أربعُ قوائمَ كقوائم البعير، وكانت من خُزَّان الجنة؛ ولإبليس صديقاً، فسألَها أنْ تدخلَهُ في فمها فأدخلته في فمها؛ ومرَّت به على الخَزَنَةِ وهم لا يعلمون. فلما دخلَ الجنَّة وقفَ بين يدي آدمَ وحوَّاء فناحَ عليهما نياحةً وبكى؛ وهو أوَّل من ناحَ. فقالا له: ما يبكيكَ؟ قال: أبكي عليكما تَموتان وتفارقان ما أنتما فيه من النعيمِ والكرامة. فاغتمَّا لذلك! فقال: يا آدمُ هل أدُلُّكَ على شجرة الْخُلْدِ؟ فأبَى أن يقبلَ منه. فقاسَمهما بالله إنِّي لكما من الناصحين. فاغْتَرَّا. وما كانا يظُنَّان أن أحداً يَحلفُ بالله كاذباً. فبادرت حوَّاءُ إلى أكل الشجرة؛ ثم ناولت آدمَ حتى أكلها[1].

---

(١) أصله عن وهب بن منبه يحكيه، أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦١٩). وروي عن ابن عباس، أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٢٠).

روي: أن سعيدَ بن المسيب كان يحلفُ بالله ما يستثني: ما أكلَ آدمُ من الشَّجرةِ وهو يعقلُ، ولكن حوَّاء سَقَتْهُ الخمرَ حتى إذا سَكَنَ مَأْرَبَهُ إليها فأكلَ، فلما أكلَ تهافتت عنهما ثيابَهما؛ وبَدَتْ سوءَاتُهما وأخرجا من الجنَّة.

قِيْلَ: إن آدمَ دخل الجنة عند الضَّحْوَةِ؛ وأخرج ما بين الصَّلاتين، مَكَثَ نصفَ يوم من أيَّام الآخرَةِ؛ وهي خَمسُمائة عام.

مَسْأَلَةٌ: قالت القدريةُ: إن الجنَّة التي أسْكِنُهَا آدم لَم تكن جنَّة الْخُلْدِ، وإنَّما كانت بستاناً مِن بساتينِ الدُّنيا؟ قالوا: لأنَّ الجنَّة لا يكونُ فيها ابتلاءٌ؛ ولا تكليفٌ.

الْجَوَابُ: أنَّا قد أجمعْنَا على أنَّ أهلَ الجنَّةِ مأمورون فيها بالمعروفِ ومكلَّفون ذلك. وجوابٌ آخرُ: أن اللهَ قادرٌ على الجمعِ بين الأضداد؛ فأريَ آدم الْمِحْنَةَ في الجنَّة؛ وأري إبراهيمُ النعيمَ في النار؛ لئَلاَّ يأمنَ العبدُ ربَّهُ؛ ولا يقنَطُ من رحمتهِ. وَلِيَعْلَمَ: أن اللهَ له أن يفعلَ ما يشاء.

واحتجُّوا بأن من دخل الجنَّة يستحيل عليه الخروج منها. فالجوابُ: أن مَن دخلها للثواب لا يخرج منها أبداً؛ وآدمُ لم يدخلها للثواب، الا ترى أن رَضْوَانَ وخُزَّانَ الْجِنَانِ يدخلونها ثم يخرجون منها وإبليسُ كان خازنَ الجنَّة فأُخرج منها.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ؛ أي قُلنا لآدَمَ وحواءَ وإبليسَ والحيَّة والطاووسَ: انزلوا إلى الأرض (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) فإبليس عدوٌّ لآدم وذريته؛ والحيَّة تلدغ ابن آدم؛ وابن آدم يَشْدَخُ رأسها.

قيل: إن إبليسَ قال لآدم وحوَّاء: أيُّكما أكلَ من الشجرة كان مُسَلَّطاً على صاحبه؛ فابتدَءَا إلى الشجرةِ؛ فسبقت حوَّاءُ فأكلت منها؛ وأطعمت آدمَ. وقيل: إن آدمَ قال لَها: يا حوَّاء ويْحَكِ ما تعلمين أن الله قد نَهانا عنها. فقالت: أما تعلمُ سَعَةَ رَحْمَةِ اللهِ، فأكلَت منها وأطعمتهُ.

قِيْلَ: إن إبليسَ لَمَّا دخل إلى الجنة في فَمِ الحية سأل الطاووسَ عن الشجرة التي نَهى اللهُ آدمَ وحوَّاء عنها؛ فدلَّ عليها. فغضبَ اللهُ على الطاووس فأهبطه بميسانَ؛ وهو موضعٌ بسَوادِ العِرَاق. وأهبطَ إبليسُ بساحلِ بحر إيليَّة؛ وهي مدينةٌ إلى جنب البصرةِ. وأهبطَتِ الحيَّةُ بأصبهان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي إلى وقتِ انقضاء آجَالكم ومنتهى أعماركم. روي: أن إبراهيمَ بن أدهم كان يقولُ: (أوْرَثَتْنَا تِلْكَ الأَكْلَةُ حُزْناً طَوِيْلاً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ ؛ قرأ ابنُ كثير بنصب (آدَمَ) ورفع (كَلِمَاتٌ) بمعنى جاءَتِ الكلماتُ آدمَ من ربه. وفي قولهِ تعالى: (فَتَابَ عَلَيْهِ) اختصارٌ وتقليبُ المذكور؛ وإلا فهو قد تابَ عليه وعلى حوَّاء.

واختلفوا في الكلمات التي تلقَّاها آدمُ، قيل: نزل بها جبريلُ؛ وهي: [سُبْحَانَكَ لاَ إلَهَ إلاَّ أنْتَ وَبحَمْدِكَ؛ عَمِلْتُ سُوءاً وَظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِيْنَ، سُبْحَانَكَ لاَ إلَهَ إلاَّ أنْتَ وَبحَمْدِكَ؛ عَمِلْتُ سُوءاً وَظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي إنَّكَ أنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيْمُ؛ سُبْحَانَكَ لاَ إلَهَ إلاَّ أنْتَ وَبحَمْدِكَ؛ عَمِلْتُ سُوءاً وَظَلَمْتُ نَفْسِي فَتُبْ عَلَيَّ إنَّكَ أنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ]. هكذا روي عن رسول اللهِ ﷺ[(١)].

وعن ابنِ عباس أنَّها: [رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنْفُسَنَا وَإنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ][(٢)]. وروي أنه قال: [يَا رَبِّ؛ أرَأيْتَ مَا أتَيْتُ؛ شَيْءٌ ابْتَدِعُهُ مِنْ نَفْسِي، أوْ شَيْءٌ قَدَّرْتَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أنْ تَخْلُقَنِي؟ فَقَالَ: بَلْ شَيْئاً قَدَّرْتُهُ عَلَيْكَ قَبْلَ أنْ أخْلُقَكَ، قَالَ: يَا رَب فَكَمَا قَدَّرْتَهُ عَلَيَّ فَاغْفِرْ لِي][(٣)].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في معالجة كل ذنب بالتوبة: النص (٧١٧٣) عن أنس ﷺ، وقال البيهقي: ((ذكر أنه عن النبي ﷺ ولكن شكٌّ فيه)). ونقل السيوطي في الدر المنثور: ج ١ ص١٤٥ أنه أخرجه ابن عساكر عن انس أيضاً.

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص١٤٤ نقل السيوطي قال: ((أخرجه الثعالبي من طريق عكرمة عن ابن عباس)).

(٣) في الدر المنثور: ج ١ ص١٤٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه وكيع وعبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة، وأبو نعيم في الحلية عن عبيد بن عمير الليثي)). وأخرجه أبو نعيم في الحلية: ج ٣ ص٢٧٣ مختصراً عن عبيد بن عمير التابعي. والطبري في جامع البيان: النص (٤٥٤).

وعن رسول الله ﷺ قال: [تَحَاجَّ آدَمُ وَمُوسَى؛ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أنْتَ آدَمُ الَّذِي أغْوَيْتَ النَّاسَ؛ وَأخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إلَى الأرْضِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أنْتَ مُوسَى الَّذِي أعْطَاكَ اللهُ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ؛ وَاصْطَفَاكَ عَلَى النَّاسِ بالرِّسَالَةِ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أتَلُومُنِي عَلَى أمْرٍ كَانَ قَدْ كُتِبَ عَلَيَّ أنْ أفْعَلَهُ مِنْ قَبْلِ أنْ أخْلَقَ. فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى][(١)].

وعن شَهْرِ بن حَوْشَبٍ قال: [بَلَغَنِي أنَّ آدَمَ لَمَّا أهْبِطَ إلَى الأرْضِ مَكَثَ ثَلاَثَمِائَةَ سَنَةٍ لاَ يَرْفَعُ رَأسَهُ حَيَاءً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ]. وقال ابنُ عباس:[بَكَى آدَمُ وَحَوَّاءُ عَلَى مَا فَاتَهُمَا مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ؛ وَلَمْ يَأكُلاَ وَلَمْ يَشْرَبَا أرْبَعِيْنَ يَوْماً؛ وَلَمْ يَقْرَبْ آدَمُ حَوَّاءَ مِائَةَ سَنَةٍ].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَتَابَ عَلَيْهِ) أي تجاوزَ عنه، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي يقبلُ توبةَ عباده؛ رحيمٌ بخلقه.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ ﴾؛ آدمُ وحواء وإبليسُ والحيةُ والطاووسُ، ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾؛ أي كتابٌ ورسولٌ، ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾، فيما يستقبلُهم، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾، على ما خلَّفوا.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾؛ يعني القرآنَ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾، لا يخرجون منها[(٢)].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾؛ أي يا أولادَ يعقوب. ومعنى إسرائيل يعني: صفوةُ اللهِ، و(إيل) هو الله. وَقِيْلَ: (إسْرَ) هو العبدُ، و(إيْلُ) هو اللهُ، فمعناه: عبدُالله. وهو خطابٌ لليهود والنصارى.

وإنَّما سُمي يعقوب؛ لأن يعقوبَ وعيصا كانا توأمين، فاقتَتَلا في بطن أمهما؛ فأراد يعقوبُ أن يخرجَ فمنعه عيصٌ وقال: واللهِ لإن خرجت قبلي لأعترضنَّ في بطن

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ: كتاب القدر: باب النهي عن القول بالقدر: الحديث (١) عن أبي هريرة ﷺ. والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣١٤، وإسناده على شرط الشيخين وأخرجاه.

(٢) الصُّحبةُ: الاقترانُ بالشيء في حالةٍ ما، فإن كانت الملازمةُ والخُلْطَةُ فهي كمال الصُّحبة.

أمي فأقتُلها، فتأخَّر يعقوب وخرج عيص وأخَذ يعقوبَ بعقبهِ فخرج بعده فسمي يعقوب؛ فلذلك سُمي عيصاً لَمَّا عصيَ فخرجَ قبل يعقوب وكان عيصُ أحبهما إلى أبيهِ؛ وكان يعقوب أحبَّهما إلى أمه؛ وكان عيص صاحبَ صيدٍ؛ فلما كَبرَ إسحق وعميَ قال لعيصُ: يا بنيَّ أطعمني لحمَ صيدٍ واقترب مني حتى أدعو لك بدعاءٍ دعا لي به أبي إبراهيمُ عليه السلام وكان عيصُ رجلاً أشعرَ؛ وكان يعقوبُ أجرد، فخرج عيصُ وطلب الصيدَ، فقالت أمه ليعقوب: يا بُنَيَّ إذهب إلى الغنمِ فاذبح شاةً منها ثُم اشْوِهَا والبس جِلدها وقدِّمها إلى أبيك، وقل أنا ابنُكَ عيص، ففعل ذلك يعقوبُ، فلما جاءَ قال: يا أبتاهُ، كُلْ. قال: من أنتَ؟ قال: ابنك عيصُ. فمسَّهُ فقال: المسُّ مسُّ عيص والريح ريحُ يعقوب، فقالت أمه: هو ابنك عيص فادعُ له. قال: قدِّم طعامَك. فقدمهُ فأكل منه، ثم قال: ادْنُ مني، فدنى منهُ فدعا له أن يجعلَ اللهُ في ذرِّيته الأنبياءَ والملوكَ. وذهب يعقوبُ فجاء عيص، فقال: قد جئتُك بالصيد الذي أردتَه، قال: يا بني قد سبقكَ أخوك يعقوبُ، فغضبَ وقال: واللهِ لأقتلنَّه. فقال إسحقُ: يا بني قد بقيت لك دعوةٌ فهلمَّ أدعو لك بها، فدعا أن تكونَ ذريته عددَ التراب؛ وأن لا يَملكَهُم أحدٌ غيرهم[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي احفَظُوا واشكُروا. قال الحسنُ: (ذِكْرُ النِّعْمَةِ شُكْرُهَا)[2]. قال رسولُ الله ﷺ: [الْمُتَحَدِّثُ بِنِعَمِ اللهِ شَاكِرٌ، وَتَارِكُهَا كَافِرٌ][3]. وقولهُ تعالى: (نِعْمَتِي) أراد نِعَمِي؛ لفظُها واحدٌ ومعناها

---

(١) ينظر: الكتاب المقدس: سفر التكوين: إسحق يبارك يعقوب (٢٧): ص٣٢. طبعة العهد الجديد، الإصدار الرابع (١٩٩٣)، الطبعة الثلاثون، جمعية الكتاب المقدس لبنان.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٤٦؛ قال السيوطي: ((وأخرج البيهقي عن الحسن قال: أكثروا ذِكر هذه النعمة، فإن ذكرها شكر)) ونقل عن ابن أبي حاتم قال: ((عن الحسن بن علي في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ قال: (إذا أصبتَ خيراً فحدِّث إخوانك)..)). وأخرج ابن جرير الطبري في جامع البيان عن أبي نضرة قال: ((كان المسلمون يرون أن من شكر النعمة أن يحدَّث بها)).

(٣) عن أنس بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: [مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ]. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في در السلام: فصل في المكافأة بالصنائع: الحديث =

جمعٌ؛ نظيرها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾[1]. والعددُ لا يقع على الواحد.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) أي على أجدادكم وأسلافِكم؛ وذلك أن الله تعالى فَلَقَ لهم البحرَ فأنجاهم من فرعون وأهلكَ عدوَّهم وأورثهم ديارَهم وأموالهم وظلَّل عليهم الغمامَ في التيه تقيهم حرَّ الشمس، وجعل لهم عموداً من نور يضيء لهم بالليل؛ إذا لم يكن ضوءُ القمر، وأنزل عليهم المنَّ والسلْوَى، وفَجَّر لهم اثني عشر عيناً؛ وأنزلَ عليهم التوراةَ فيها بيانُ كلِّ شيء يحتاجون إليه في دِينهم ودُنياهم، فهذه نِعَمٌ من الله كثيرةٌ لا تحصى.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ ؛ أي الذي عَهِدْتُ إليكم في التوارة، ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ، أي أدخلكم الجنةَ وأنجز لكم ما وعدتكم. وقرأ الزهري: (أُوَفِّ) بالتشديد على التأكيدِ؛ يقال: وفَى وَوَافَى ووفَّى بمعنى واحد. قِيْلَ: إن اللهَ تعالى كان قد عَهِدَ إلى بني إسرائيلَ في التَّوراةِ: إنِّي باعثٌ من بني إسماعيلَ نبيّاً أمِّياً فاتبعوهُ، فمن تَبعَهُ وصدَّقَ بالنور الذي يأتِي به غفرتُ له ذنوبَه وأدخلتُه الجنة وجعلتُ له أجرَين؛ أجراً باتِّباعه ما جاءَ به موسى والأنبياءُ من بني إسرائيل؛ وأجراً باتباعه ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ.

وقال قتادةُ: (هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أخَذَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ فَهَذَا قَوْلُهُ

=(٩١١٩) وإسناده ضعيف.

ونقل السيوطي في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٤٦؛ قال: ((وأخرج أحمد وأبو داود عن جابر ابن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ أعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَهُ فَلْيُجِزْ بِهِ، فَإنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ بِهِ، فَمَنْ أثْنَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ])).

رواه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب شكر المعروف: الحديث (٤٨١٣) وفي إسناده من يكره فأبهم، وأخرجه بإسناد آخر ولفظ قريب [مَنْ أبْلَى بَلاَءً فَذَكَرَهُ]: الحديث (٤٨١٤) وإسناده حسن، ولعله يقوى به.

(١) إبراهيم : ٣٤.

(وَأَوْفُوا بعَهْدِي)، ثُمَّ قَالَ: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الآيةُ[1]، فَهَذَا قَوْلُهُ: (أُوفِ بعَهْدِكُمْ)). وَقِيْلَ: معناهُ: أَوْفُوا إلَيَّ بشرطِ العبوديَّة أَوْفِ بشرطِ الرُّبوبيَّة.

وقال أهلُ الإشارةِ: أوفُوا بعهدي في دار مِحنَتِي بحفظ حُرمتي أوفِ بعهدكم في دار نِعمَتِي على بساطِ كرامَتِي بقُربي ورؤيَتِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ ، أي خافوني في نقضِ العهد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ ﴾ ، يعني القُرْآنَ، ﴿ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ ﴾ ؛ أي مُوافقاً لِما معكم من التَّوراةِ والإنجيل وسائرِ الكُتُب في التَّوحيدِ والنبوَّةِ وبعضِ الشرائع. نزلت في كعب بن الأشرَفِ وأصحابهِ من عُلماءِ اليهُودِ ورؤسَائِهم. ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ ﴾ ؛ اي لا تكُونوا أوَّلَ مَن يكفرُ بالقُرْآنِ فيتابعُكم اليهودُ على ذلك.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا ﴾ ؛ وذلك أنَّ علماءَ اليَهُودِ ورؤساءَهم كانت لَهم مآكِلُ يصيبونَها من سَفَلَتِهِمْ وعوامِّهم؛ يأخذون منهم شيئاً مَعْلُوماً كلَّ عامٍ من زرعِهم وضُروعهم ونُقودِهم؛ فخافوا أنَّهم إنْ سَمِعُوا مُحَمَّداً ﷺ وتابعوهُ وآمنوا به تفوتُهم تلكَ الْمَآكِلُ والرئاسةُ واختارُوا الدُّنيا على الآخرةِ. والهاءُ في قوله (كَافِرٍ بهِ) عائدةٌ إلى ما أنزلت على مُحَمَّدٍ؛ ويجوزُ أن تكون عائدةً إلى قولِهِ: (لِمَا مَعَكُمْ) لأنَّهم كتَمُوا نعْتَ محمَّدٍ ﷺ وصفتَهُ في التَّوراةِ؛ فإذا كفَرُوا بالقُرْآنِ فقد كفروا بالتورَاةِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي فَاخْشَوْنِ في أمرِ مُحَمَّدٍ ﷺ ولا ما يفوتُكم من الرئاسةِ والمآكلِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ ، قال مقاتلُ: (وَذَلِكَ لأنَّ الْيَهُودَ أَقَرُّوا بِبَعْضِ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وكَتَمُوا بَعْضَهَا لِيُصَدَّقُوا فِي ذَلِكَ؛ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَلا تَلْبسُوا الْحَقَّ) الَّذِي تُقِرُّونَ به وَتُبَيِّنُونَهُ (بالْبَاطِلِ) الَّذِي تَكْتُمُونَهُ. فَالْحَقُّ

---

(١) المائدة / ١٢: ﴿..وَقَالَ اللهُ إنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

بَيَانُهُ وَالْبَاطِلُ كِتْمَانُهُ). وَقِيْلَ: معناهُ: لا تكتمُوا الحقَّ بالباطلِ هو إيْمانُهم ببعضِ ما جاء به النبيُّ ﷺ وكفرُهم ببعضهِ. ﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ ؛ يعني نَعْتَ النبيِّ ﷺ وصفتَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي تعلَمُون أنه نبيٌّ مرسلٌ؛ وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ) يحتملُ أن يكون تكتُمُوا جزماً على النهي. ويحتملُ أن يكون نَصْباً على معنى: وأنْ تَكْتُموا؛ أي لا تجمَعُوا بين اللَّبس والكتمان، فهذا مثلُ:

لاَ تَنْــهَ عَــنْ خُلُــقٍ وَتَــأْتِيَ مِثْلَــهُ عَــارٌ عَلَيْــكَ إنْ فَعَلْــتَ عَظِيْــمُ[1]

وقولهُ: (وَلا تَلْبسُوا الْحَقَّ) أي لا تختَلِطوا، يقالُ: لَبَسْتُ عَلَيْهِ الأمرَ؛ أي خَلَطْتُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ ؛ أي حافظوا على الصَّلوات الخمس لِمَوَاقِيْتِهَا بركوعِها وسجودِها، وأدُّوا زكاةَ أموالِكم المفروضة. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي صلُّوا مع المصلِّين مُحَمَّدٍ وأصحابه في الجماعاتِ إلى الكعبة؛ يخاطبُ اليهود فعبَّر بالركوع عن الصلاةِ، إذ كان رُكناً من أركانِها؛ كما عبَّر باليد عن الجسَد في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[2] وبالعنُقِ عن النَّفس كقولهِ تعالى: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾[3]. والفائدةُ في تكرار ذكرِ الصلاة لئلا يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أن الصلاةَ لا تجبُ إلا على من تجبُ عليه الزكاة، وقيل: إن اليهودَ كانوا يصلُّون بغير ركوعٍ فأمر بالركوعِ في الصلاة.

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ ؛ خطابٌ لعلماء اليهودِ، كانوا يُخبرون مشركي العرب قبل بعثِ النبي ﷺ: بأنَّ رسولاً سيظهرُ يدعو إلى الحق فاتبعوه وأجيبُوا دعوته. فلما بُعث النبيُّ ﷺ؛ حسَدُوه وكفروا به؛ فأنزلَ الله هذه الآية مذكِّراً لهم ما كان منهم.

---

(١) نقل القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص٣٦٧ قال: ((وقال أبو الأسود الدؤليُّ:

لاَ تَنْــهَ عَــنْ خُلُــقٍ وَتَــأْتِيَ مِثْلَــهُ عَــارٌ عَلَيْــكَ إذا فَعَلْــتَ عَظِيْــمُ
وَابْــدَأْ بنَفْسِــكَ فَانْهَــهَا عَــنْ غَيِّــهَا فَــإن انْتَــهَتْ عَنْــهُ فَــأَنْتَ حَكِيــمُ
فَــهُنَاكَ يُقْبَــلُ إنْ وَعَظْــتَ وَيُقْتَــدَى بِــالْقَوْلِ مِنْــكَ وَيَنْفَــعُ التَّعْلِيــمُ))

(٢) الحج / ١٠.

(٣) الإسراء / ١٣.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ ؛ أي تتركون أنفسكم فلا تَتَّبعُونَهُ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ، يعني التوراةَ وما فيه، وتعلمون ما فيها من وجوب اتباعه، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ، أنَّ ذلكم حُجَّةٌ عليكم وأنه نبيٌّ حقٌّ فتصدقونَهُ وتتبعونَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ؛ أي استعينوا على ما استقبَلَكم من أنواع البلايا. وقيلَ: على طلب الآخرة بالصبر على أداء الفرائض؛ وبالصلاة على تَمحيص الذنوب. وقيل: استعينوا بالصَّبر والصلاة على ما يَذْهَبُ منكم من الرئاسة والْمَأْكَلَةِ باتِّباع مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقال مجاهدُ: (الصَّبْرُ فِي هَذِهِ الآيَةِ الصَّوْمُ). وقيل: (الواو) هنا بمعنى (على)؛ تقديره: استيعنوا فيما يَنُوبُكُمْ بالصبر على الصلاة؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(١).

وروي أن ابنَ عباس نُعِيَتْ إلَيْهِ بِنْتٌ لَهُ وَهُوَ فِي سَفَرٍ؛ فَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ قَالَ: (عَوْرَةٌ سَتَرَهَا اللهُ؛ وَمُؤْنَةٌ كَفَاهَا اللهُ؛ وَأجْرٌ سَاقَهُ اللهُ). ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ. ثُمَّ قَالَ: (صَنَعْنَا مَا أمَرَنَا اللهُ بهِ: وَاسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ)(٢).

وأصلُ الصَّبْرِ هُوَ الْحَبْسُ، يقال: قُتِلَ فُلاَنٌ صَبْراً؛ إذا حُبس حيّاً حتى ماتَ؛ وقيل: الصَّبْرُ هو الصومُ؛ ويسمَّى شهر رمضان شهر الصَّبر، وسُمي الصوم صبراً؛ لأن صاحبه يحبسُ نفسه عن الطعام والشراب.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ يحتملُ أنَّ الهاء كنايةٌ عن الصلاة؛ لأنَّها أشرفُ الطاعات، ويحتمل أن تكون عن الاستعانةِ، ويحتمل أن يكون المرادُ بها الصبر والصلاةُ جميعاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ

(١) طه / ١٣٢.

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص١٦٣؛ قال السيوطي: ((وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ونقله)). رواه الطبري في التفسير: النص (٧١٢). والبيهقي في شعب الإيمان: باب في الصبر: النص (٩٦٨١ و٩٦٨٢).

يُرْضُوهُ﴾(١) فاكتفى بذكرِ أحدهما دلالةً على الآخر. ونظيرُ القول الأول قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا﴾(٢) ردَّ الكنايةَ إلى الفضة لأنَّها أغلبُ وأعم. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾(٣) ردَّ الكنايةَ إلى التجارة لأنَّها الأهم والأفضلُ. وقال الأخفشُ: (رَدَّ الْكِنَايَةَ إِلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا؛ أَرَادَ كُلَّ خَصْلَةٍ مِنْهُمَا الْكَبِيرَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾(٤) يَعْنِي كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾(٥) وَلَمْ يَقُلْ آيَتَيْنِ؛ أَرَادَ جَعَلْنَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا آيَةً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ) أي ثقيلةٌ شديدةٌ إلا على الخاشعين؛ أي المؤمنين. وقيلَ: إلا العابدين المطيعين. وقيلَ: الخائفين. وقيل: المتواضعين. وقال الزجَّاجُ: (الْخَاشِعُ الَّذِي يُرَى أثَرُ الذُّلِّ وَالْخُشُوعِ عَلَيْهِ؛ وَيُقَالُ: خَشَعَ؛ إذَا رَمَى ببَصَرِهِ إلَى الأَرْضِ، وَاخْتَشَعَ إذَا طَأْطَأَ رَأسَهُ لِلسُّجُودِ). والخشوعُ والخضوعُ نظيران؛ إلا أن الخضوعَ يكون بالبدن والخشوعَ بالبصر والصوتِ والقلب كما قالَ تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾(٦) ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ﴾(٧) ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾(٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي الذين يعلمون ويستيقنون؛ لأنَّهم لو كانوا شاكِّين لكانوا كافرين. ومثلهُ: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيه﴾(٩) أي أيقنتُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ فيجزيهم بأعمالهم.

---

(١) التوبة / ٦٢.
(٢) التوبة / ٣٤.
(٣) الجمعة / ١١.
(٤) الكهف / ٣٣.
(٥) المؤمنون / ٥٠.
(٦) القلم / ٤٣.
(٧) طه / ١٠٨.
(٨) الحديد / ١٦.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي عالَمَي زمانكم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا ﴾ ؛ معناه: واخْشَوا يوماً؛ أي عذابَ يومٍ، ﴿ لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ ؛ أي لا تكفي ولا تُغني. وفيه إضمارٌ؛ تقديره: واتَّقوا يوماً لا تَجزي فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئاً من الشدائدِ والْمَكَارهِ. وقيل: معناهُ: لا تُغني نفسٌ مؤمنة ولا كافرةٌ عن نفسٍ كافرة شيئاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ ﴾ ؛ لأنَّها كافرةٌ، وكانت اليهودُ تزعم أنَّ آباءَهم الأنبياءُ؛ كإبراهيم وإسحق ويعقوب يشفعون لَهم؛ فآيَسَهم اللهُ تعالى بهذه الآية. وقرأ أهلُ مكة والبصرة (تُقْبَلُ) بتاء التأنيث (الشَّفَاعَةُ). وقرأ الباقون بالياء بتقديمِ الفعل؛ أو لأنَّ تأنيثَه غيرُ حقيقي. وقرأ قتادةُ: (لاَ يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةَ) بياء مفتوحةٍ، ونصبَ الـ (شَّفَاعَةَ) يعني لا يقبلُ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ ﴾ ؛ أي فداءٌ كما كانوا يأخذون في الدُّنيا. وسُمِّيَ الفداءُ عَدْلاً؛ لأنه يساوي المفدى ويُماثله، قال اللهُ تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾(١) والفرقُ بين العِدل والعَدل: أن العِدل بكسر العين: مثلُ الشيء من جنسه، وبفتحها بَدَلُهُ؛ قد يكون من جنسه أو من غير جنسه، مثل قوله: ﴿طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾. وقولهِ ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي لا يُمنعون من عذاب الله.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ ؛ يعني نَجَّيْنَا أسلافكم؛ وإنَّما عدَّها مِنَّة عليهم؛ لأنَّهم نجوا بنجاتِهم. وقرأ إبراهيمُ النخعي: (نَجَيْتُكُمْ) على التوحيد. و(آلِ فِرْعَوْنَ) أشياعُه وأتباعُه وأسرته وعشيرته وأهلُ بيته. وفرعون هو الوليدُ بن مصعبٍ، وكان من العماليق؛ جمع عِمْلاَقٍ، وهي قبيلةٌ.

---

(١) الحاقة / ٢٠.

(٢) المائدة / ٩٥.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَاب) أي يُكلِّفونكم ويُذيقُونكم أشدَّ العذاب وأسواَهُ؛ وذلك أن فرعونَ جعل بني إسرائيل خَدَماً وخَوَلاً. فصنفٌ يبنونَ؛ وصنف يحرثون ويزرعون؛ وصنفٌ يخدمونَهُ، ومن لم يكن منهم في عملٍ من هذه الأعمال فعليه الجزيةُ، فذلك سوء العذاب. وقيل: إنَّهم كُلِّفُوا الأعمالَ القذرة.

وقيلَ: تفسيرهُ ما بعده: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ ؛ وقرأ ابنُ محيص: (يَذْبَحُونَ) بالتخفيف. ومن قرأ بالتشديد فعلى التكثير؛ وذلك أن فرعونَ رأى في منامه ناراً أقبلَتْ من بيتِ المقدس فأحرقت مصرَ وأحرقت القِبْطَ وتركت بني إسرائيلَ. فسأل الكَهَنَةَ، فقالوا: يُولَدُ في بني إسرائيلَ غلامٌ؛ يكون هلاكُكَ على يديه. فأمر فرعونُ بقتلِ كلِّ غلام يولدُ في بني إسرائيل؛ وتركِ كل أنثى؛ ففعلوا ذلك. وأسرعَ الموت في مشيخة بني إسرائيل؛ فقال القِبْطُ لفرعون: إن الموتَ وَقَعَ في مَشْيَخَةِ بني إسرائيل وأنت تذبحُ صغارَهم فيوشِكُ أن يقعَ العملُ علينا؛ فأمروا أن يذبَحوا سنةً ويتركوا سنةً؛ فوُلِدَ هارون في السنةِ التي لا يذبحون فيها؛ فتُرِكَ. وولد موسى في السنة التي يذبَحون فيها.

قوله: (وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) أي يتركوهنَّ أحياءً فلا يذبحوهن بل يستخدموهُن. وقيل: معناه يستحيون من الْحَيَاءِ الذي هو الرَّحم؛ فإن القومَ كانوا ينظرون إلى فروجِ نساء بني إسرائيل فيعلَمُوا هل هنَّ حُبَّلٌ أم لا!!

قولُهُ: ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ يعني في سَومِهم إياكم سوء العذاب محنةٌ وفتنة عظيمةٌ. وقيل: معناه: وفي إنجاء آبائِكم منهم نعمةٌ عظيمة. والبلاءُ ينصرف على وجهين: النعمةُ والْمِحْنَةُ. قالَ الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1].

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ ﴾ ، وذلك أنه لَمَّا دنا هلاكُ فرعون أمرَ الله موسى أن يسري ببني إسرائيل من مصرَ؛ فأمرَ موسى قومَه أن يُسْرِجُوا في بيوتِهم إلى الصُّبح. وألقى اللهُ على القِبْطِ الموتَ؛ فاشتغلوا بدفنهم، وخرجَ موسى في ستمائة ألفٍ وعشرين ألفاً سوَى الذُّرية. وكان موسى على ساقَتِهم

(١) الأنبياء / ٣٥.

وهارون على مقدِّمتهم، فخرجَ فرعون على طلبهم وعلى مقدمته هامانُ في ألفِ ألفٍ وسبعمائة ألف، وسارَ بنو إسرائيل حتى وصلُوا البحرَ والماءُ في غايةِ الزيادة، ونظـرُوا فإذا هم بفرعونَ وقومهِ وذلك حين أشرقَت الشمسُ. فبقوا متحيِّرين؛ قالوا: يا موسَى كيف نصنعُ؛ وما الحيلةُ وفرعون خلفَنا والبحرُ أمامنا؟ فقال موسـى: (كَـلاَّ؛ إنَّ مَعِـي رَبي سَيَهْدِينِي). فأوحَى اللهُ إليه: (أن اضْـرِبْ بعَصَـاكَ الْبَحْـرَ) فضربـهُ فلـم يَنْفَلِـقْ. فأوحَى الله إليه: أنْ كَنِّهِ؛ فضربهُ بعصاه وقال: انْفَلِقْ أبَـا خـالدٍ بـإذن الله عَـزَّ وَجَـلَّ. ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[1]. وظهرَ فيه اثنا عشـر طريقـاً؛ لكـل سِـبْطٍ طريقٌ، وأرسلَ الله الريحَ والشمس على قعرِ البحر فصار يَبَساً؛ فخاضَت بنو إسرائيل البحرَ كل سِبْطٍ في طريق، وعن جانبيه الماءُ كالجبل الضَّخـم لا يـرى بعضـهم بعضـاً، فخافُوا ! وقال كلُّ سبطٍ: قد قُتِلَ إخواننا، فأوحَى الله إلى جبالِ المـاء: تشـبَّكي فصـارَ الماءُ شَبَكَاتٍ يَرى بعضهم بعضاً ويسمعُ بعضـــهم كـلامَ بعـض؛ حتـى عـبَروا البحـرَ سالمين. فذلك قَوْلُهُ تَعَـالَى: (وَإذْ فَرَقْنَـا بكُـمُ الْبَحْـرَ) أي فلقنـاهُ وصيَّرنـا المـاءَ يَمينـاً وشمالاً. وقوله: (فَأنْجَيْنَاكُمْ) أي من الغرقِ ومن آل فرعون.

وقولهُ: ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ ؛ وذلك أنَّ فرعون لَمَّـا وصـل إلى البحـرِ ورآه منفلقاً. قال لقومـهِ: أنظـروا إلى البحـرِ انفلـقَ مـن هيبَـتي حتـى أدرك أعدائـي وعبيدي الذين أبقُوا فأقتُلَهم؛ ادخلوا البحرَ. فهابَ قومهُ أن يدخلوه؛ ولم يكن في خَيْلِ فرعون أنثى، فجاء جبريل على فرسٍ أنثى ودنَا فتقدَّمهم وخاض البحرَ، فلما شَـمَّت خيولُ فرعون ريحها اقتحمت البحرَ في أثرها حتى خاضوا كلّهم البحر، وجاء ميكائيلُ على فرسٍ خلفَ القوم يحثُّهم ويقول لهم: إلْحَقُوا بأصحابكم، حتى إذا خرجَ جـبريل من البحرِ وَهَمَّ أوَّلُهم أن يخرجَ. أمرَ الله البحر أن يـأخذهم؛ فـالتطمَ عليـهم؛ فغرقـوا جميعاً وذلك بمـرأى مـن بـني إسـرائيل، فذلـك قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (وَأغْرَقْنَـا آلَ فِرْعَـوْنَ) ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ إلى مصارعهم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ ؛ وذلك أن بـني إسـرائيلَ لَمَّا أمِنُوا عدوَّهم ودخلوا مصرَ لَم يكن لهم كتابٌ ولا شريعةٌ ينتهون إليها، فوعدَ اللهُ

(١) الشعراء / ٦٣.

موسى أن يُنَزِّلَ عليهم التوراةَ؛ فقال موسى لقومهِ: إنِّي ذاهبٌ لِميقات ربـي؛ فـآتيكم بكتابٍ فيه بيانُ ما تأتون وما تَذَرُونَ. وواعدهم ثلاثين ليلةً من ذي القعدة وعشراً من ذي الحجةِ؛ واستخلفَ عليهم أخاه هارون. فلما أتى الوعدُ جـاءَ جـبريل عليه السلام علـى فرسٍ يقال له فرسُ الحياة؛ لا يصيبُ شيئاً إلا حَيِيَ بـه، فلمـا رأى السـامريُّ جـبريلَ عليه السلام على ذلك الفرسِ؛ قال: إنَّ لِهذا شأناً؛ وكان رجُلاً منافقـاً، قـد أظـهرَ الإسـلام فأخذ قبضةً من تربةِ حافر فرسِ جبريل، وكان بنوإسرائيل قد استعارُوا حُلِياً كثيرةً من قوم فرعون حين أرادوا الخروجَ من مصرَ بعلَّة عُرْسٍ؛ فأهلكَ الله قومَ فرعون وبقيت تلك الحُلِيُّ في أيدي بني إسرائيل. فلما لَمْ يرجِعْ موسى، قال السامريُّ لبـني إسـرائيل: إن الأمتعةَ والحليَّ التي استعرتُموها من قوم فرعون غنيمةٌ لا تحلُّ لكم فاحفروا حفيرةً فادفنوها فيها حتى يرجعَ موسى. ففعلوا ذلك. فلما اجتمعت الحليُّ صاغَها السامري وكان رجُلاً صائغاً، وجعل عليها القبضةَ التي أخذهـا مـن أثـر حـافر فـرسِ جـبريل؛ فأخرجَ عِجلاً من ذهبٍ فَخَارَ؛ فذلـك قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ عِجْـلاً جَسَـدًا لَـهُ خُـوَارٌ﴾[1] فعبدوهُ من دون الله.

قال السدي: (كَانَ يَخُورُ والسامريُّ يَقُولُ: هَذَا إِلَهُكُمْ وإِلَهُ مُوسَى (فَنَسِيَهُ) أيْ تَرَكَهُ هَا هُنَا وَخَرَجَ بطَلَبِهِ). فلما رأوا العجلَ وسمعوا قولَ السـامري افتُتِـن بـالعجل ثمانية آلاف منهم فعبدوهُ من دون الله.

وقال بعضُهم: معنى الآية: واذكروا إذ أخبرَ الله موسى أن يؤتيه الألـواحَ فيـها التوراة على رأسِ ثلاثين يوماً من ذي القعـدة، وأمـرهُ أن يصومَـها؛ فوجـد مِـنْ فِيْـهِ خَلُوفاً؛ أي تغيُّر رائحة، فاستاكَ، فأمرهُ الله أن يصومَ عشرةً أخرى من أول ذي الحجة؛ كما قال تعالى في موضعٍ آخر: ﴿وَأتْمَمْنَاهَا بعَشْرٍ﴾[2]. فقال السامريُّ في الأيامِ العشرة لبني إسرائيل: قد تَمَّتْ الثلاثون ولم يرجع موسى وإنكـم قـد اسـتعرتُم مـن نسـاءِ آل فرعون حليَّهم حين سارَ بكم من مصر؛ فلما لم تردُّوا عليهنَّ حليَّهن لَم يردّ الله علينـا موسى، فهاتوا ما معكُم من الحلـيِّ حتـى نُحْرِقَـهُ؛ فلعـلَّ الله أن يـردَّ علينـا موسـى،

---

(١) الأعراف / ١٤٨.

(٢) الأعراف / ١٤٢.

فجمعوا الحليَّ وكان السامريُّ صائغاً فاتخذ من ذلك عِجلاً، فصارَ العجلُ جسداً له خُوارٌ، فعبدوهُ فذلكَ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

قال ابنُ عباس: (فَصَارَ عِجْلاً لَهُ لَحْمٌ وَدَمٌ وَشَعْرٌ). وقيل: جعل فيه خُروقاً فكان الريحُ تقع في تلك الخروق فيسمع منها مثل الخوار، فأوهمَهم أن ذلك الصوت خواره. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) أي من بعد انطلاقِ موسى إلى الجبل، (وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) أي ضارُّون لأنفسكم بالمعصيةِ؛ واضعون العبادةَ في غيرِ موضعها.

وفي قولهِ: (وَاعَدْنَا) خلافٌ بين القُرَّاء؛ فقرأ أبو عمرو ويعقوب: (وَعَدْنَا) بغير ألِفٍ في جميع القرآنِ. وقرأ الباقون بالألفِ؛ وهي قراءةُ ابن مسعودٍ. فمن قرأ بغير ألف؛ قال: لأنَّ الله تعالى هو المنفردُ بالوعد. والقرآنُ ينطق به كقولـهِ: ﴿وَعَدَ اللهُ﴾[1] و﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾[2] ونحوُها. ومن قرأ بالألفِ فقال: قد تَجِيْءُ المفاعلةُ من واحد؛ كقولِهم: عَاقَبْتُ اللِّصَّ؛ وعَافَاكَ اللهُ؛ وطارَقْتُ النعلَ؛ وسافرَ؛ ونافقَ.

قال أهل اللغة: الْوَعْدُ فِي الْخَيْرِ؛ وَالْوَعِيْدُ فِي الشَّرِّ؛ قال الشاعرُ[3]:

وَإنِّي إذَا أَوْعَدْتُهُ أوْ وَعَدْتُهُ لَمُخْلِفُ إيْعَادِي وَمُنْجِزُ وَعْدِي

والعِجْلُ وَالْعُجُولُ: وَلَدُ الْبَقَرَةِ.

إنَّما قُرِنَ التاريخُ بالليلِ دون النهار؛ لأن العربَ وضعت التاريخ على سنين القمر؛ وإنَّما يهلُّ بالليلِ. وقيلَ: لأن الظلمةَ أقدمُ من الضوءِ؛ والليلُ خُلق قبل النهار؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾[4].

---

(١) النور / ٥٥. (٢) إبراهيم / ٢٢.

(٣) البيت لعامر بن الطفيل كما في لسان العرب (وعد).

وإنِّي، إنْ أوْعَدْتُهُ أوْ وَعَدْتُهُ لأُخْلِفُ إيْعَادِي وَأنْجِزُ مَوْعِدِي

يقال: وعَدتهُ خيراً، ووعدتهُ شراً؛ فإذا لم يُذكر واحداً منهما قلتَ: في الخير: وعَدتُه، وفي الشر: أوعدته. قاله الهروي في الغريبين.

(٤) يس / ٣٧.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي تركناكم فلم نَسْتَأْصِلْكُمْ؛ مِن قوله ﷺ: [إعْفُوا اللِّحَى][١]. وقيل: مَحَوْنا ذنوبكم من قول العرب: عَفَتِ الرياحُ الْمَنْزلَ فَعَفَا. وقولهُ عَزَّ وَجَلَّ: (مِنْ بَعْدِ ذلِكَ) أي مِن بعدِ عبادتِكم العجلَ. وقوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي لكي تشكُروا عَفْوي عنكم وصَنِيْعِي إليكم.

واختلفَ العلماء في ماهية الشُّكر؛ فقال ابنُ عباس: (هُوَ الطَّاعَةُ بِجَمِيْعِ الْجَوَارحِ لِرَبِّ الْخَلاَئِقِ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ). وقال الحسنُ: (شُكْرُ النِّعْمَةِ ذِكْرُهَا). وقال الفضيل: (شُكْرُ كُلِّ نِعْمَةٍ أنْ لاَ يُعْصَى اللهُ تَعَالَى بَعْدَهَا). وقال أبو بكر الرازي: (حَقِيْقَةُ الشُّكْرِ مَعْرِفَةُ الْمُنْعِمِ؛ وَأنْ لاَ تَعْرِفَ لِنَفْسِكَ فِي النِّعْمَةِ حَظّاً؛ بَلْ تَرَاهَا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ). قال اللهُ: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللهِ﴾[٢]. ويدل عليه قوله ﷺ: [قَالَ مُوسَى: يَا رَب كَيْفَ آدَمُ أنْ يُؤَدِّي شُكْرَ مَا أجْرَيْتِ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ؟ خَلَقْتَهُ بِيَدِكَ؛ وَأسْجَدْتَ لَهُ مَلاَئِكَتَكَ؛ وَأسْكَنْتَهُ جَنَّتَكَ. فَأَوْحَى اللهُ إلَيْهِ: أنَّ آدَمَ عَلِمَ أنَّ ذلِكَ كُلَّهُ مِنِّي وَمِنْ عِنْدِي؛ فَذَلِكَ شُكْرُهُ].

وقال الجنيدُ: حقيقةُ الشكر العجزُ عن الشكر[٣]. وقال بعضهم: الشكرُ أن لا ترى النعمةَ البتة؛ بل ترى المنعمَ. وقال أبو عثمان الْحَيِّري[٤]: صدقُ الشكر أن لا تَمدح بلسانك غير المنعمِ. وروي عن الشِّبل[٥] أنه قالَ: الشكر التواضعُ تحتويه المنّة. وقيل: الشكرُ خمسة أشياءِ: مجانبةُ السيئات؛ والمحافظةُ على الحسناتِ؛ ومخالفة الشهوات؛ وبذلُ الطاعات؛ ومراقبة رب السموات.

---

(١) عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. رواه النسائي في السنن كتاب الزينة: باب إحفاء الشارب: ج ٨ ص١٣٩، وإسناده صحيح. (٢) النحل / ٥٣.

(٣) نقله القرطبي عنه أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص٣٩٨.

(٤) أبو عثمان، سعيد بن إسماعيل بن سعيد الحيري، قال أبو نعيم: ((كان حميد الأخلاق مديد الأرفاق، توفي سنة ثمان وتسعين ومائتين)). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ج ١٠ ص٢٤٤.

(٥) شِبلُ الْمَدَرِيُّ، أو المروزي، ذكره أبو نعيم في الحلية: ج ١٠ ص١٦١، ونقل القرطبي عن الشبل: ((الشكر التواضع، والمحافظة على الحسنات، ومخالفة الشهوات، وبذل الطاعات، ومراقبة جبار الأرض والسموات)). الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص٣٩٨.

وسُئل أبو الحسن علي بن عبدالرحيم: مَن أشكرُ الشاكرين؟ فقال: الطاهرُ من الذنوب يعدُّ نفسه من المذنبين؛ والمجتهدُ بعد أداءِ الفرائض يعدُّ نفسه من المقصِّرين؛ والراضي من الدنيا بالقليلِ يعدُّ نفسه من الراغبين؛ والقاطعُ بذكر الله دهرَهُ يعدُّ نفسه من الغافلينَ؛ هذا أشكرُ الشاكرين.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) ﴾ قال مجاهد والفرَّاء: (هُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ يَعْنِي التَّوْرَاةَ؛ وَمَا يُفَرَّقُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ). وقد سَمَّى الله تعالى التوراة فرقاناً في موضعٍ آخر وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾[(١)]، وسَمَّى اللهُ النُّصرة يوم بدرٍ على الكفار فُرقاناً كما قال: ﴿وَمَا أنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾[(٢)] أراد به يوم بدر؛ وإنَّما عطفَ الشيء على نفسه وكرَّره؛ لأن العرب تكرِّر الشيء إذا اختلفَ ألفاظه، قال عنترةُ[(٣)]:

حُيِّيْتُ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... أقْوَى وَأقْفَرَ بَعْدَ أمِّ الْهَيْثَمِ

وقال الكسائيُّ: الفرقانُ: بعثُ الكتاب؛ يريد: (وَإذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ). والفرقانُ: فرقٌ بين الحلال والحرامِ؛ والكفرِ والإيمان؛ والوعْدِ والوعيد، فزيدت الواوُ فيه كما تزادُ في النعوت؛ من قولهم: فلانٌ حسنٌ وطويلٌ. ودليلُ هذا التأويلِ:﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[(٤)]. وقال قطربُ: (أرَادَ بالْفُرْقَانِ: الْقُرْآنَ).

وفي الآيةِ إضمارٌ معناهُ: وإذا آتينا موسى الكتاب ومُحَمَّداً الفرقانَ. قوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) أي بهذين الكتابين، وقال بعضُهم: أراد بالفرقانِ انفراق البحرِ وهو من عظيمِ الآيات، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإذْ فَرَقْنَا بكُمْ الْبَحْرَ﴾.

---

(١) الأنبياء / ٤٨. (٢) الأنفال / ٤١.

(٣) عنترةُ بن شدَّاد العبسِيُّ: أشهر فرسان العرب في الجاهلية، ومن شعراء الطبقة الأولى من أهل نجد، أمه حبشية، وكان من أحسن العرب شيمة، ومن أعزهم نفساً، يوصف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقة وعذوبة، قتل سنة (٢٢) قبل الهجرة.

(٤) الأنعام / ١٥٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ ؛ يعني الذين عَبدوا العجلَ: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾ ؛ أي أضررتُم أنفسكم، ﴿ بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ ؛ إلَهاً. فقالوا: فإيشْ نصنع؛ وما الحيلةُ؟ فقال: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ ؛ أي فارجعوا إلى خالقكم. وكان أبو عمرو يختلسُ الهمزة إلى الجزمِ في قوله: (بَاريكُمْ، وَيَأْمُرْكُمْ، وَيُشْعِرْكُمْ، وَيَنْصُرْكُمْ) طلباً للخفَّة.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ؛ أي يقتلُ البريءُ المجرمَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ ؛ يعني القتلَ. قال ابنُ عباس: (أبَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنْ يَقْبَلَ تَوْبَةَ بَنِي إسْرَائِيْلَ إلاَّ بالْحَالِ الَّذِي كَرِهُوا أنْ يُقَاتِلُوهُمْ حِيْنَ عَبَدُوا الْعِجْلَ). وقال قتادة: (جَعَلَ اللهُ تَوْبَتَهُمْ الْقَتْلَ؛ لأنَّهُمْ ارْتَدُّوا. وَالْكُفْرُ يُبِيْحُ الدَّمَ). وقرأ قتادة: (فَاقْتَالُوا أنْفُسَكُمْ) من الإقالةِ؛ أي استقيلوا العثرة بالتوبة. فلما أمرهم موسى بالقتلِ قالوا: نصبرُ لأمر الله تعالى، فجلسوا بالأفنيةِ محسَّبين وأصلبَ عليهم القوم الخناجر؛ فكان الرجلُ يرى ابنه وأخاهُ وأباه وقريبه وصديقه فلا يُمكنهم إلا المضيُّ لأمر الله.

وقيلَ لهم: من حلَّ جيوبَه أو مدَّ طرفه إلى قاتلهِ أو اتَّقى بيده أو رجلهِ فهو ملعونٌ مردودة توبتَه؛ فكانوا يقتلونهم إلى المساءِ. فلما كَثُرَ فيهم القتلُ عاد موسى وهارون وبَكَيَا وتضرَّعا وقالا: يا رب هلكت بنُو إسرائيل البقيةَ البقيةَ؛ فأمرَهم الله تعالى أن يرفعوا السلاحَ عنهم ويكفُوا عن القتل ،وقد قتل منهم ألوفٌ كثيرة فاشتدَّ ذلك على موسَى، فأوحى الله تعالى إليه أمَا يُرضيك أن أدْخِلَ القاتلَ والمقتول الجنةَ؛ فكان مَن قُتل منهم شهيداً ومَن بقي منهم كَفَّرَ عنهُ ذنوبَهُ، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي ففعلتم ما أمرَكُم به فتابَ عليكم؛ أي فتجاوزَ عنكم، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

وفي بعضِ التفاسير: أن موسَى عليه السلام قال لهم بعدما رجعَ من الجبل وأعطاهُ الله التوراة: أنكُم ظلَمتم أنفسَكُم بعبادتِكم العجلَ فتوبوا إلى بارئِكم فاقتلوا أنفسَكم؛ أي ليقتلَ الذين لم يعبدُوا العجلَ الذين عبدوا العجل. فقالوا: يا موسَى نحنُ نفعل ذلك، فأخذ عليهم المواثيقَ ليصبرنَّ على القتلِ، فأصبَحوا بأفنيةِ البيوت كل بَنِي أبٍ على حِدَةٍ فأتاهم هارونُ والاثنا عشر ألفاً الذين لم يعبدُوا العجلَ بالسيوفِ، فقال لهم

هارونُ: هؤلاء إخوانُكم قد أتوكم شاهرينَ السيوف فاتَّقوا الله واصبروا، فلعنَ اللهُ رجلاً حلَّ جنوته أو قامَ من مجلسه أو مدَّ طرفَهُ إليهم أو اتَّقَاهُمْ بيده أو رجلهِ. فقالوا: آمينَ. فجعلوا يقتلونَهم إلى المساء.

وقام موسَى يدعو ربَّهُ لَمَّا شُقَّ عليه من كثرةِ الدماء. فنَزلت التوراةُ، وقيل لـه: ارفع السيفَ، فإنِّي قد قبلتُ توبتهم جميعاً من قُتِلَ منهم ومن لم يُقتل، وجعلت ذلك القتلَ لهم شهادةً وغفرتُ لمن بقي منهم. فكان القتلى سبعينَ ألفاً والقاتلون اثنا عشر ألفاً. وكان السببُ في امتحانِهم بذلك: أنهُ كان فيهم من عَرَفَ بطلانَ عبادة العجلِ؛ إلا أنَّهم لم يَنْهَوا الآخرين لخشيةِ وقوع القتلِ فيما بينهم، فابتلاهم اللهُ بما تركُوا النهيَ عن المنكر لأجلهِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ؛ وذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ أمرَ موسى أن يأتيَهُ في ناسٍ من بني إسرائيلَ؛ فاختارَ موسى من قومهِ سبعين رجلاً من خيارهم؛ وقال لهم: صومُوا وتطهَّروا وطهِّروا ثيابكم. ففعلوا ذلك، فخرجَ بهم موسى إلى طور سَيْنَاءَ لميقات ربهِ؛ فلما بلغُوا هنالك أمرَهم موسى بالْمُكْثِ في أسفلِ الجبل وصعد هو؛ فقالوا لموسى: أطلُب لنا نسمع كلامَ الله؛ فوقع على الجبلِ غمام أبيضٌ؛ فغشاهُ كله.

وكان موسى عليه السلام إذا ناجَى ربه وقعَ على وجهه نورٌ ساطعٌ لا يستطيع أحدٌ من بني آدم أن ينظرَ إليه؛ فضربَ دونه الحجابُ؛ ودنَا القوم حتى دخلوا في الغمامِ؛ وخرُّوا سجَّداً؛ فسمعوهُ وهو يكلِّم موسى يأمرُه وينهاه، فأسْمَعهم اللهُ تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا﴾[1] أخرجتُكم من مصرَ فاعبدوني ولا تعبدوا غيري؛ فلما فَرَغَ موسى وانكشفَ الغمامُ؛ وأقبلَ إليهم، قالوا: (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً) أي لا نصدِّقَ حتى نرى الله عَيَاناً وعلانيةً، ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ ؛ أي فأخذتهم الصاعقة؛ أي نزلت نارٌ من السماء فأحرقتهم جميعاً. ويقال: سَمعوا صوتاً فماتُوا. يقال: صُعِقَ فلانٌ؛ أي هلكَ، ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

---

(١) طه / ١٤.

قرأ عمرُ وعثمان وعليٌّ بغير ألف (الصَّعْقَةُ). وقرأ ابنُ عباس: (جَـهَرَةً) بفتح الهاء وهما لُغتان. فلبثوا موتى يوماً وليلة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم لَمَّا هلكوا جعل موسى يبكي ويتضرَّع؛ ويقول: ماذا أقولُ لبني إسرائيل إذ أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارَهم؛ لو شئت أهلكتَهم مـن قبلُ وإيَّـاي، أتُـهلكنا بما فعلَ السفهاء منا، فلم يزل يناشدُ ربَّه حتى أحياهم الله عَزَّ وَجَلَّ جميعاً رجـلاً بعـد رجلٍ؛ ينظرُ بعضهم إلى بعض كيف يَحْيَوْنَ.

فإن قيل: كيفَ يقبلُ اللهُ التوبةَ بعد الموتِ قبل البعث في دار الدنيا كالانتباهِ من النوم؛ لأن اللهَ ردَّهم إلى التكليفِ في الدنيا وأحياهُم ليتوفَّوا بقيةَ آجالهم وأرزاقهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ ؛ أي في التيـه يقيكـم حـرَّ الشمس؛ وذلك أنَّهم كانوا في التَّيـه ولم يكـن لهـم كِـنٌّ[١] يسـترُهم؛ فشـكوا ذلـك إلى موسى؛ فأنزل الله عليهم غماماً أبيض؛ أي سحاباً رقيقاً ليس بغمام المطـر؛ لكـن أرقَّ وأطيب منه؛ فأظلهم وكان يدلي لهم بالليل عموداً من السماء مـن نـور فيسـير معـهم بالليل حيث ساروا مكان القمر. فقالوا: هذا الظل قد حصل فأين الطعام؛ فـأنزل الله عليهم المنَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ ، الْمَنُّ؛ قال مجاهد: (هُـوَ شَيْءٌ كَالصَّمْغِ كَانَ يَقَعُ عَلَـى الأَشْـجَارِ؛ وَطَعْمُـهُ كَالشَّـهْدِ). وقـال الضحَّـاك: (هُـوَ الزَّنْجَبِيْنُ[٢]). وقال وهبُ: (هُوَ الْخُبْزُ الرِّقَاقُ). وقال السديُّ: (عَسَلٌ كَانَ يَقَـعُ عَلَـى الشَّجَرِ بِاللَّيْلِ. وَكَانَ يَنْزِلُ عَلَيهِمْ هَذَا الْمَنُّ كُلَّ لَيْلَةٍ؛ يَقَعُ عَلَى أشْجَارِهِمْ مِثْلُ الثَّلْـجِ؛

(١) الكِنُّ بالكسر: وقاء كل شيء وستره، كالكِنَّة والكِنان بكسرهما، والبيت، وجمعـه أكْنَـانٌ وأكِنَّـةٌ، وكَنَّهُ: ستره، واستكنَّ: استترَ.

(٢) الزَّنْجَبِينُ: هو طَلٌّ أكثر ما يسقط بخراسان وما وراء النهر. قاله ابن سـينا في القـانون في الطـب: ج ١ ص٤٤٣. قال ابن حجر: ((هو الطلُّ الذي يسقطُ علـى الشـجر فيجمـع ويؤكـلُ حُلْـواً)). وَقِيْلَ: طلٌّ يقع من السَّماء، هو ندًى شبيهٌ بالعسلِ جامدٌ متحبِّب. عن المفردات لابن البيطار.

لِكُلِّ إنْسَانٍ مِنْهُمْ صَاعٌ كُلَّ لَيْلَةٍ؛ فَإنْ أخَذَ أكْثَرَ مِنْ ذلِكَ دَوَّدَ وَفَسَدَ. وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ يَأْخُذُ صَاعَيْنِ كَأنَّهُ كَانَ لَمْ يَأْتِهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ).

وَقِيْلَ: هو شيء حلوٌ؛ كان يَسقطُ على الشجر كالشهد المعجون بالسَّمن، وكان يأخذ كل واحد منهم كل غداةٍ صاعاً يكفيه يومه وليلته، فإن أخذَ أكثر من ذلك فَسَدَ عليه[(١)].

فقالوا: يا موسَى! قَتَلَنَا هذا الْمَنُّ بحلاوتهِ، فادعوا لنا ربك يطعمنا لَحماً، فدعا فأنزلَ عليهم السَّلْوَى: وَهُوَ طَائِرٌ يُشْبهُ السَّمَانِيَّ؛ كذا قال ابنُ عباس. وأكثرُ المفسرين بعثَ اللهُ سحابةً مطرت السمانِيَّ في عرضِ ميل وقدر طول رُمح في السماء بعضهم على بعض. وقال المؤرِّجُ[(٢)]: (السَّلْوَى هُوَ الْعَسَلُ بلُغَةِ كِنَانَةَ؛ فَيَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا يَكْفِيْهِ يَوْماً وَلَيْلَةً، وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ يَأْخُذُ مَا يَكْفِيْهِ يَوْمَيْنِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ ﴾ ؛ أي وقلنا لهم: كُلُوا من حلائلِ ما رزقناكم ولا تدَّخروا لغدٍ؛ فادَّخروا لغدٍ، فقطعَ الله عنهم ذلك، ودوَّدَ وفسدَ ما ادَّخروا. قالَ رسولُ الله ﷺ: [لَوْلاَ بَنُو إسْرَائِيْلَ لَمْ يَخْبَثِ الطَّعَامُ، وَلَمْ يَخْنِزِ اللَّحْمُ، وَلَوْلاَ حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أنْثَى زَوْجَهَا][(٣)].

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ ؛ أي ما ضرُّونا بالمعصية، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٥٧ ﴾ ؛ أي يضرُّون باستيجابهم عذابي وقطعِ مادة الرزق الذي

---

(١) عن سعيد بن زيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [الْكَمَأةُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ]. رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٤٧٨)، وفي كتاب الطب: الحديث (٥٧٠٨).

(٢) المؤرِّجُ: هو مُؤَرِّجُ بن عمرو السَّدوسي، ويكنى أبا فَيْدٍ، كان من أصحابِ الخليل بن أحمد، مات سنة خمس وتسعين ومائة، وهو من علماء اللغة والتفسير، من كتبه: جماهيرُ القبائل، وغريب القرآن، والأمثال، وله شعر جيد.

(٣) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الرضاع: باب لولا حواء: الحديث (٦٤/ ١٤٦٧ و٦٥/ ١٤٦٨) من طريق أبي هريرة ﷺ. وأخرجه البخاري مختصراً في الصحيح: كتاب أحاديث الأنبياء: الحديث (٣٣٣٠ و٣٣٩٩). والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٠٤.

كان يَنْزل عليهم بلا كلفةٍ ولا مشقَّةٍ في الدنيا ولا حسابٍ ولا تبعة في العقبى وهذا كله في التيهِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ ؛ أي قُلنا لبني إسرائيل بعد انقضاء التِّيْهِ؛ على لسان يوشَعَ بعد موت موسى وهارون: ادخلوا مدينة أريحا بقرب بيت المقدس؛ وهي قريةُ الجبَّارين؛ وكان فيها قومٌ من بقيَّة عَادٍ يقال لهم العمالقةُ. قال الضحَّاك: (هَذِهِ الْقَرْيَةُ يَعْنِي الرَّمْلَةَ وَالأُرْدُنَّ وَفِلَسْطِيْنَ)[1]. وقال مجاهدٌ: (بَيْتُ الْمَقْدِسِ). وقال مقاتلٌ: (إيْلِيَّا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ ؛أي واسِعاً بلا حساب. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ ؛ يعني بَاباً من أبواب القرية، وكان لها سبعةُ أبواب،وقال:بابُ مسجدِ بيت المقدس.(سُجَّداً) أي ركَّعاً منحنين متواضعين. وقولهُ: ﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾ ؛ أي قولوا: مسألتنا حِطَّةٌ.

قال ابن عباس: (أُمِرُوا بالاسْتِغْفَار). وقيل: أمروا أن يقولوا لا إله إلا الله. وقيل: قولوا إنما قيل لنا حقٌّ. وقال قتادة: وحطَّ عنا خطايانا. وعن ابن عباس أيضاً: قِيْلَ مَعْنَاهُ: قُولُوا: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ لأنَّهَا تَحُطُّ الذُّنُوبَ وَمَا كَانَ يَحُطُّ الذُّنُوبَ فَيَصِحُّ أنْ يُتَرْجَمَ عَنْهُ بحِطَّةٍ. وذلك أنَّهم كانوا قدأذنبوا بإبائِهم دخولَ أريحا، فلما فصلوا عن التيه أحبَّ الله أن يستنقذهم من الخطيئة.

وحطَّةٌ: رفع على الحكاية في قول أبي عبيدة. وقال الزجَّاج: (تَقْدِيْرُهُ: مَسْأَلَتُنَا حِطَّةٌ)[2]. ومن قرأ (حِطَّةً) بالنصب معناه: حِطَّ عنا ذنوبنا حطَّةً.

---

(١) نقله أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص٤٠٩، وقال: ((وتدمر...)).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص٤١٠؛ قال القرطبي: ((والأئمة من القراء على الرفع. وهو أولى في اللغة، لما حكي عن العرب في معنى (بَدِّلْ)، قال أحمد بن يحيى: يقال: بدَّلْتُه: اي غيَّرتهُ ولم أزل عينه، وأبدلته: أزلتُ عينه وشخصه. كما نقل النحاس في إعراب القرآن عن أبي النجم قال: عَزْلَ الأميرِ للأميرِ المبدَّلِ)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ ﴾ ، قـرأ أهـل المدينـة بيـاءٍ مضمومـة؛ وأهـلُ الشـام بتـاء مضمومـة، والبـاقون بنـون مفتوحـة. ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ إحساناً وثواباً.

قوله عـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾ ؛ أي خالفوا فقالوا: حَطًّا سمتانا[1]؛ أي حِنْطَةٌ حَمْرَاءُ بلُغتهم. قالوا هـذا القـولَ منـهم استهزاءً وتبديلاً مكان القول الذي أمروا به أن يقولوا: حطَّةٌ.

وقال الحسنُ: (اُمِرُوا انْ يَقُولُوا: حِطَّةٌ، فَقَالُوا: حِنْطَةٌ. وَاُمِرُوا انْ يَدْخُلُوا الْبَابَ رُكَّعاً فَدَخَلُوا حَبْواً عَلَى اَسْتَاهِهِمْ)[2]. وَقِيْلَ: مُنْحَرِفِيْنَ. قَالَ مُجَـاهِدٌ: (طُوطِـئَ لَـهُمُ الْبَابُ لِيَخْفِضُوا رُؤُوسَهُمْ فَلَمْ يَخْفِضُوا وَلَـمْ يَرْكَعُـوا وَدَخَلُـوا زَحْفـاً)[3]. وانتصـب (قَوْلاً) على المصدر؛ أي وقالوا قولاً غير الَّذي قيل لهم.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزًا ﴾ ؛ أي عذابـاً، ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، أرسلَ اللهُ عليهم طَاعُوناً فهلكَ منهم في ساعةٍ واحدة سبعون ألفاً فجأةً. وَقِيْلَ: نزلت بهم نارٌ فأحرقتهم لتبديلِهم ما أمـروا بـه. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي يعصون ويخالِفُون ما أمرَ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ ﴾ ؛ أي سأل لهم السُّقيا، وذلك أنَّهم عطشوا في التِّيْهِ فقالوا: يا موسى من أين لنا الشرابُ، وكان قولهم له حال نزولِهم في الأرضِ الْقِفْرِ بعد غرقِ فرعون؛ فاستسقى لهم موسـى، ﴿ فَقُلۡنَا ﴾ ؛ أي

---

(١) عند القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١ ص٤١١: ((قالوا: حطَّه - بالهاء - سمهاثا بالثاء)). وعند غيره: ((حطًّا شمقا)). وعند الطبري من حديث ابن مسعود ﷺ: ((هَطَّـى سمقـا يـا أزبـة هزبا)): النص (٨٦٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٥٩) عـن ابـن عبـاس ﷺ قـال: ((أمـروا أن يدخلـو ركعاً، ويقولوا: حطَّةٌ. قال: أمروا أن يستغفروا — قال: فجعل يدخلون من قِبل أستاههم من باب صغير ويقولون: خِطَّةٌ يستهزئون. فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَـوْلا غَـيْرَ الَّـذِي قِيـلَ لَهُمْ﴾)). وعن الحسن بلفظ قريب منه، أخرجه الطبري في الجامع: الرقم (٨٦١).

(٣) أخرجه الطبري في الجامع: الرقم (٨٦١).

فأوحَى الله إليه: أنْ: ﴿ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ ﴾ ؛ وكانت عصاه من آس الجنَّة طولُها عشرة أذرعٍ على طولِ موسى؛ ولها شُعبتان تتَّقدان في الظلمةِ نوراً، وكان آدمُ حملها معهُ من الجنَّة إلى الأرضِ فتوارثتها الأنبياء صاغِراً عن كابرٍ حتى وصلَ إلى شعيب فأعطاها موسَى.

وأما الحجرُ الذي أمر موسى بضربه فقد اختلف فيه المفسرون، قال وَهَبُ بنُ مُنَبه: كَانَ مُوسَى يَضْرِبُ لَهُمْ أقْرَبَ حَجَرٍ مِنْ عَرَضِ الْحِجَارَةِ؛ فَتَفَجَّرَ عُيُوناً لِكُلِّ سَبْطٍ عَيْناً، وَكَانُوا اثْنَى عَشَرَ سَبْطاً، ثُمَّ تَسِيْلُ كُلُّ عَيْنٍ فِي جَدْوَلٍ إلَى السَّبْطِ الَّذِي أمِرَ أنْ يَسْقِيَهُمْ.

ثم إنَّهم قالوا: إن فقدَ موسى عصاهُ مِتْنَا عطشاً، فأُوحِيَ إليهِ: يا موسى، لا تَقْرَعَنَّ الحجارةَ، ولكن كلِّمها تُطِعْكَ لعلهم يعتبرون. فقالوا: كيفَ بنا إذا أفضينا إلى الأرضِ التي ليس فيها حجارةٌ؟ فحملَ موسى معَهُ حَجَراً، فحيثما نزلوا ألقاهُ.

وقال آخرون: كان حَجَراً مخصوصاً بعينهِ؛ والدليلُ على ذلك إدخالُ الألف واللام عليه وذلك للتعريف؛ ثم اختلفوا فيه مَا هُوَ؟ قال ابنُ عباس: (كَانَ حَجَراً خَفِيْفاً مُرَبَّعاً مِثْلَ رَأسِ الرَّجُلِ يَحْمِلُهُ مَعَهُ، فَإذَا احْتَاجُوا إلَى الْمَاءِ وَضَعَهُ وَضَرَبَهُ بعَصَاهُ). وروي أنه كان رُخاماً. وقيل: كان حجراً فيه اثنا عشر حفرةً تنبعُ من كل حفرة عينُ ماءٍ عذبٍ فراتٍ؛ فإذا اتخذوا حاجتهم من الماء؛ وأراد موسى حملَهُ ضربه بعصاه، فغارَ الماءُ وانقطعَ. وكان يسقي كلَّ يوم ستمائة ألف.

وقال سعيد بن جبير: (هُوَ الَّذِي وَضَعَ مُوسَى عَلَيْهِ ثَوْبَهُ لِيَغْتَسِلَ حِيْنَ رَمَوْهُ بالأُدْرَةِ؛ فَنَفَرَ الْحَجَرُ بثَوْبهِ وَمَرَّ بهِ عَلَى مَلإٍ مِنْ بَنِي إسْرَائِيْلَ حَتَّى عَلِمُوا أنَّهُ لَيْسَ بآدَرٍ؛ فَلَمَّا وَقَفَ الْحَجَرُ أتَاهُ جِبْرِيْلُ ؛ فَقَالَ: يَا مُوسَى إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لَكَ: إرْفَعْ هَذَا الْحَجَرَ فَلِي فِيْهِ قُدْرَةٌ وَلَكَ فِيْهِ مُعْجِزَةٌ. وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى ذلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا﴾[1] فَحَمَلَهُ مُوسَى وَوَضَعَهُ

---

(١) الأحزاب / ٦٩.

فِي مِخْلاَتِهِ، وَكَانَ إذَا احْتَاجَ إلَى الْمَاءِ ضَرَبَهُ بعَصَاهُ)[١].

وقصَّة ذلك الحجر ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:[كَانَ بَنُو إسْرَائِيْلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً؛ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلَى سَوْءَةِ بَعْضٍ؛ وَكَانَ مُوسَى يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ. فَقَالُوا: مَا يَمْنَعُ مُوسَى أنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إلاَّ أنَّهُ آدَرٌ. فَذَهَبَ يَغْتَسِلُ مَرَّةً؛ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَفَرَّ الْحَجَرُ بثَوْبِهِ، فَجَمَحَ مُوسَى بأثْرِهِ يَقُولُ: ثَوْبي يَا حَجَرُ ثَوْبي يَا حَجَرُ، حَتَّى نَظَرَتْ بَنُو إسْرَائِيْلَ إلَى سَوْءَةِ مُوسَى؛ فَقَالُوا: وَاللهِ مَا بمُوسَى مِنْ بَأْسٍ فَقَامَ بَعْدَمَا نَظَرَ بَنُو إسْرَائِيْلَ إلَيْهِ؛ فَأَخَذَ مُوسَى ثَوْبَهُ فَطَفِقَ بالْحَجَرِ ضَرْباً][٢].

قِيْلَ: ضربَهُ موسى إثنا عشر ضربةً. وكان يظهرُ على كل ضربة مثل ثدي المرأةِ ثم يتفجَّر بالأنهار المطَّردة، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ ، وفي الآية إضمارٌ واختصارٌ؛ تقديره: (فَقُلْنَا اضْرِبْ بعَصَاكَ الْحَجَرَ)؛ فضرب؛ (فَانفَجَرَتْ) أي سَالَتْ.

وأصلُ الانْفِجَار: الانْشِقَاقُ وَالانْتِشَارُ، ومنه: فَجْرُ النَّهَار؛ لأنه يَنْشَقُّ من الظلام. وأما قولهُ في موضع آخر:﴿فَانْبَجَسَتْ﴾[٣] فالانبجاسُ: أوَّلُ ما يَتَقَاطَرُ من الماءِ ويَنْشَقُّ، والانفجارُ حين السيلان. وكان الانبجاسُ في أول القصةِ؛ والانفجارُ في آخرها. والانبجاسُ أقلُّ من الانفجار. وقال بعضهم: هو حَجَرٌ أمرَ اللهُ موسى أن يأخذَهُ من أسفلِ البحر حين مرَّ فيه مع قومهِ. وقيل: إنه من الجنةِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ ؛ أي موضع مشربهم؛ ويكون بمعنى المصدر مثل المدخل؛ والمخرج؛ والمطلع. وكان كل سِبْطٍ يشربون من عينٍ لا يُخالطهم فيها غيرهم للعصبيةِ التي كانت بينهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن سعيد بن جبير وعبدالله بن الحارث عن ابن عباس: الرقم (٢١٨٨١ و٢١٨٨٥). ومعنى (أدرٌ): الرجل انتفخَتْ خصيته لتسرُّب السائل في غلافها.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢١٨٨١ و٢١٨٨٣) تفسير سورة الأحزاب عن ابن عباس، والنص (٢١٨٨٢ و٢١٨٨٥) مكرر، والنص (٢١٨٨٧) وإسناده صحيح. رواه البخاري في الصحيح: كتاب أحاديث الأنبياء: الحديث (٣٤٠٤).

(٣) الأعراف / ١٦٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي قلنا: كلوا من الْمَنِّ والسلوى واشربُوا من الماء؛ فهذا كله مِن رزق الله الذي يأتيكم به بلا مشقَّةٍ ولا مُؤْنَةٍ ولا تَعَبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ، العَيْثُ والعَثْوَاءُ: شدَّةُ الْفَسَادِ؛ وإنَّما جُمع بين العيثِ والفساد وإن كان معناهما واحداً تأكيداً كما يقال: كذبٌ وزورٌ؛ وظلم وجورٌ؛ أي قيل لهم: كلوا واشربوا ولا تُسرعوا إلى الفساد في الأرض عاثيين. والدليل على أن العيثَ هو الفسادُ قول الشاعر[(١)]:

لَوْلاَ الْحَيَاءُ وَأَنَّ رَأْسِي قَدْ عَثَى ... فِيْهِ الْمَشِيْبُ لَزُرْتُ أُمَّ الْقَاسِمِ

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم وَحِمُوا[(٢)] الْمَنَّ والسَّلوى وملُّوهما. قال الحسنُ: كَانُوا أناساً أَهْلَ كُرَاشٍ[(٣)]؛ كُرَّاثٍ؛ وَأبْصَالٍ؛ وَأعْدَاسٍ؛ فَفَزِعُوا إلَى عِكْرِهِمْ عِكْرَ السُّوءِ؛ وَاشْتَاقَتْ طَبَائِعُهُمْ إلَى مَا جَرَتْ عَلَيْهِ عَادَاتُهُمْ؛ فقالوا: (لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ) يعنون به المنَّ والسلوى. وإنما قال: (طَعَامٍ وَاحِدٍ) وهما اثنان؛ لأن العربَ تعبر عن الاثنين بلفظ الواحد؛ وعن الواحد بلفظ الاثنين؛ كقولهِ تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾[(٤)] وإنما يخرجُ من الملح دون العَذْب. وقال عبدُالرحمن بن يزيد: (كَانُواْ يَعْجِنُونَ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى لِيَصِيْرَ طَعَاماً وَاحِداً فَيَأْكُلُونَهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا ﴾ ، قرأ يحيى بن وثَّاب وطلحة بن مصرف: (وَقُثَّائِهَا) بضم القاف، وهي

---

(١) ابن بَري ينشد لعدي، هو ابن الرقاع. ينظر ديوانه: ص٩٩. ولسان العرب: (جسم).

(٢) الوحم: شدَّةُ شَهوة الْحُبلَى لشيءٍ تأكلهُ، ثم يقال لكلِّ من أفرَطت شهوتهُ في شيء. ويقال: وحْمَى لِمَن يطلبُ شيئاً لا حاجةَ له فيه من حرصهِ. لسان العرب: مادة (وحم).

(٣) الكِرْشُ – بالفتح والكسر-: هو كل مُجْتَرٍّ، وكَرشَاءُ: كثيرةُ اللحم، واستَكرَشَ الصبيُّ: عَظُمت كِرشُه، واستكرشَ الجدْيُ: حين يعظم بطنهُ ويشتدُّ أكلهُ.

(٤) الرحمن / ٢٢.

لغة تميم. قوله تعالى: ﴿ وَفُومِهَا ﴾ ؛ قال ابن عباس: (الْفُومُ: الْخُبْزُ)(١) تَقُولُ الْعَرَبُ: فُومُو لَنَا؛ أي اخْبِزُوا لَنَا. وَيُقَالُ لِسَائِرِ الْحُبُوب الَّتِي تُخْتَبَزُ: الْفُومُ(٢). يقول الرجلُ لجاريته: فُومي؛ أي اختبزي. وقال عطاء: هِيَ الْحِنْطَةُ؛ وهي لغةٌ قديمة. وقال الكلبي: هُوَ الثُّومُ. قال حسَّان:

وَأَنْتُمْ أُنَاسٌ لِئَامُ الأُصُولِ طَعَامُكُمُ الْفُومُ وَالْحَوْقَلُ

يريد: الثومَ والبصل. والعربُ تعاقب بين الفاء والثاءِ. فتقول للحقيرِ: حدثٌ وحدفٌ؛ ودليل هذا التأويل أنَّها في مصحف عبدالله: (وَثُومِهَا) بالثاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ ؛ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [عَلَيْكُمْ بِالْعَدَسِ فَإِنَّهُ مُبَارَكٌ مُقَدَّسٌ؛ وَإِنَّهُ يُرِقُّ الْقَلْبَ وَيُكْثِرُ الدَّمْعَ، وَإِنَّهُ بَارَكَ فِيْهِ سَبْعُونَ نَبِيّاً آخِرُهُمْ عِيْسَى الْتَلِيْلاً](٣). فَقَالَ لَهم موسَى: ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ . وفي مصحف أُبَيّ: (أتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أدْنَى) أي أخَسُّ وأرْدَى (بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) يعني المنَّ والسَّلوى. وقولُهُ تعالى: ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ ؛ معناه إنْ أبَيْتُمْ إلا ذلك فاهبطوا مصراً من الأمصار؛ ولو أراد مصراً بعينها لم يصرفه كقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾(٤). وقال الضحَّاك: (هِيَ مِصْرُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ). ودليلُ هذا القول قراءةُ الحسن وطلحة: (مِصْرَ) بغيرِ تنوينٍ جعلاَها معرفةً؛ فاجتمع فيها التعريفُ والتأنيثُ من حيث أراد البقعةَ فلم ينصرف.

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾ ؛ أي الذلُّ والهوانُ بالجزيةِ، ﴿ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ ؛ أي زيُّ الفقر فتراهم كأنَّهم فقراء وإن كانوا مياسير. وقيل: فُقَرَاءُ القَبَلِ فلا يُرَى في أهلِ الملل أذلَّ ولا أحرصَ على المال من اليَهُودِ. قَوْلُهُ تَعَالَى:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٩٦)، وفيه يقول: ((الحنطة والخبز)).

(٢) نقله ابن جرير الطبري في جامع البيان عن أهل اللغة سماعاً: مج ١ ص٤٤٤.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص٤٢٧؛ حكاه القرطبي عن علي ﷺ وقال: ((ذكره الثعلبي وغيره)). وفي الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: ص١٦١ : النص (٢٣)؛ قال الشوكاني: ((هو موضوع)).

﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي رجعوا؛ وقيل: استحقُّوا، والباء صلةٌ. وقيل: احتملُوا واقروا به، ومنهُ الدعاء المأثور: [أَبُوءُ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ؛ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي](١). وغضبُ الله عليهم: ذمُّهُ إياهم وتوعُّده لهم في الدنيا، وإنزالُ العقوبة بهم العقبى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي ذلك الغضبُ؛ ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي بصفة مُحَمَّدٍ وآية الرجمِ في التوراة والإنجيل والفُرْقَان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ قرأ السلمي: (وَيُقَتِّلُونَ) بالتشديد؛ و(النَّبِيِّينَ) في جميع القُرْآن بالتشديدِ من غيرِ همزةٍ، وتفرَّدَ نافع بهمزِ (النَّبِيْئِيْنَ) فمن هَمَزَ فمعناهُ: الْمُخْبِرُ؛ من قول العرب: أنْبَأَ يُنْبِئُ إنْبَاءً، ومَن حذف الهمزةَ؛ فإنه أرادهُ؛ لكن حَذْفُهُ الهمزةَ طلباً للخفَّة؛ لكثرةِ استعمالها. وَقِيْلَ: لأنه بمعنى الرَّفيعِ مأخوذ من النبوَّة وهي المكانُ المرتفع. يقال: نَبَا الشيءُ بغيرِ همزٍ إذا ارتفعَ.

وقولهُ تعالى: (وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بغَيْرِ الْحَقِّ) أي بلا جُرمٍ مثل زكريَّا ويحيى وسائر من قتلَ اليهودُ من الأنبياءِ. وفي الخبر: أنَّ اليهودَ قتلوا سبعين نبيّاً في أوَّل النهار، وقامت سُوقُ بَقْلِهِمْ في آخر النهار. وقيل: قتلُوا في يومٍ واحد ثلاثمائة نبيٍّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي يتجاوزون أمْرِي ويرتكبون مَحارمي.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ؛ أي إنَّ الذين آمَنوا بموسى والتوراةِ ثم لَم يتهَوَّدوا؛ والذين آمَنوا بعيسى ولَم يقسِموا بالنصرانيَّة، ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ ، أي والذين تَهودوا وتنصَّروا وتصابأوا، ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

---

(١) يوسف / ٩٩.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٧ ص٢٩٢: الحديث (٧١٧٢) بهذا اللفظ. والبخاري في الصحيح: كتاب الدعوات: باب ما يقول إذا أصبح: الحديث (٦٣٠٦)، وفي (٦٣٢٢): [أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي].

اختلفَ العلماءُ في تسميةِ الذين هـادوا بـهذا الاسـم؛ فقـالوا: بعضُـهم سُـمُّوا بذلك لأنَّهم هَادُوا؛ أي تَابُوا من عبادةِ العجلِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: إخباراً عنهم: ﴿إِنَّـا هُدْنَـا إِلَيْكَ﴾(١) أي تُبْنَا. وقال بعضُهم: لأنَّهم هَـادُوا؛ أي مَـالُوا عـنِ الإسـلام وعـن ديـنِ موسى الطَّيْلاَ؛ يقال: هَادَ يَهُودُ هَوْداً؛ إذا مالَ.

واختلَفُوا أيضاً في تسميةِ النَّصارى بذلك؛ قال مقاتلُ: (لأَنَّ أصْلَـهُمْ مِـنْ قَرْيَـةٍ يُقَالُ لَهَا نَاصِرَةٌ؛ كَانَ يَنْزِلُهَا عِيْسَى وَأمُّهُ؛ فَنُسِبُوا إلَيْهَا). وقال الزُّهْرِيُّ: (سُمُّوا بذَلِـكَ لأَنَّ الْحَوَارِيِّيْنَ قَالُوا: نَحْنُ أنْصَارُ اللهِ).

(وَالصَّابِيِيْنَ) قرأ أهلُ المدينةِ بتركِ الهمزة. وقرأ الباقون بـالهمزة وهـو الأصـلُ. يقال: صَبَا يَصْبُوا صَبْواً، إذا مالَ وخرج من دينٍ إلى دين.

واختلفوا في الصابئين من هم؟ فقال عُمَرُ: هُمْ طَائِفَةٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَاب ذَبَائِحُهُمْ ذَبَائِحُ أهْلِ الْكِتَاب؛ وبه قال السـديُّ. وقـال ابـنُ عبـاس: (لاَ دِيْـنَ لَـهُمْ؛ وَلاَ تَحِـلُّ ذَبَائِحُهُمْ؛ وَلاَ مُنَاكَحَةُ نِسَائِهِمْ). وقال مجاهدُ: (قَبِيْلَةٌ نَحْوَ الشَّام بَيْنَ الْيَهُودِ وَالْمَجُوسِ لاَ دِيْنَ لَهُمْ؛ وَكَانَ لاَ يَرَاهُمْ مِنْ أهْلِ الْكِتَاب). وقال مقاتلُ وقَتَادةُ: (هُمْ يُقِرُّونَ باللهِ؛ وَيَعْبُدُونَ الْمَلاَئِكَةَ؛ وَيَقْرَأونَ الزَّبُورَ؛ وَيُصَلُّونَ إلَى الْكَعْبَةِ، أخَذُواْ مِنْ كُلِّ دِيْنٍ شَيْئاً). وقال الكلبيُّ: (هُمْ قَوْمٌ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَـارَى يَحْلِقُـونَ أوْسَـاطَ رُؤُوسِـهِمْ وَيُحَنُّـونَ مَذَاكِيْرَهُمْ). وقال عبدُالعزيز بن يحيى: (قَدِ انْقَرَضُواْ فَلاَ عَيْنٌ وَلاَ أثَرٌ).

قوله تعالى: (إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أي على التحقيقِ وعقـدِ التصديـقِ؛ وهـم الذيـن آمَنُوا بعيسَى ثم لَمْ يتهوَّدوا ولَم يتنصَّروا ولَم يتصَابأُوا؛ وانتظَرُوا خـروجَ مُحَمَّـدٍ ﷺ قبلَ مَبْعَثِهِ. وَقِيْلَ: هم طلابُ الدِّين؛ منهم حبيبُ النجارُ؛ وقسُّ بن ساعدةَ؛ وورقةُ بن نوفلٍ؛ وزيدُ بـن عمـرو بـن نُفيـل؛ وأبـو ذرٍّ الغفـاريُّ؛ وسـلمانُ الفارسـي؛ وبَحِـيرَا الراهبُ، آمَنوا بالنبيِّ ﷺ قبلَ مَبْعَثِهِ؛ فمنهم مَن أدركَهُ وتابعَهُ ومنهم مـن لَـم يدركـهُ. وَقِيْلَ: هم مؤمِنُو الأمَمِ الماضيةِ. وَقِيْلَ: هم المؤمنونَ مِن هذه الأُمَّة.

---

(١) الأعراف / ١٥٦.

قوله: (وَالَّذِينَ هَادُوا) أي الذينَ كانوا على دِينِ موسَى ولَم يبدِّلوا ولَم يغيِّروا. (والنَّصَارَى) الذين كانوا على دِين عيسَى ولَم يبدِّلوا ومَاتُوا على ذلـكَ، (وَالصَّـابِئِينَ مَنْ آمَنَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) مَن ماتَ منهم وهو مؤمنٌ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبهِمْ)، إنَّما ذكرَهُ بلفظِ الجمعِ؛ لأن لفظةَ (مَنْ) تصلحُ للواحدِ؛ والاثنين؛ والجمعِ؛ والمذكَّرِ؛ والمؤنث، قَالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[١] ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ﴾[٢]. قال الفرزدقُ في التَّثنيةِ[٣]:

تَعَـالَ فَـإنْ عَـاهَدْتَنِي لاَ تَخُونَنِـي ... نَكُـنْ مِثْـلَ مَـنْ يَـا ذِئْـبُ يَصْطَحِبَـان

فإن قِيْلَ: ما معنى إعطاءِ أجرِ المؤمن وهو عاملٌ لنفسهِ؟ قِيْـلَ: لَمَّـا حمـلَ علـى نفسهِ المشقَّةَ وحرمَها شهوائَها؛ فآجَرَهُ في الآخرة عِوَضاً عما فائهُ من اللَّذَّاتِ في الدُّنيا.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)؛ فيما تعاطَوا من الحرامِ، (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)، على ما اقترَفُوا من الآثامِ، لِما سبقَ لَهم في الإسـلامِ. وَقِيْـلَ: (لاَ خَـوْفٌ عَلَيْـهِمْ) في الكبائرِ فأنَا أغْفِرُهَا، (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) على الصغائرِ فإنِّي أكفِّرُها.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾؛ أي(وَإذ أخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) يا معشرَ اليهودِ(وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ) وهو الجبلُ بالسِّـريانية في قـول بعضِهم. وقالُوا: ليسَ من لغةٍ في الدُّنيا إلاَّ وهي في القُرْآن! وقال الْحُذَّاقُ من العلماءِ: لا يجوزُ أن يكونَ في الْقُرْآن لُغةٌ غيرَ لغةِ العرب؛ لأنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾[٤] وقال: ﴿بِلِسَان عَرَبِيٍّ﴾[٥] وإنَّما قَالَ هذا وأشْبَاهَهُ وفَاقاً وقعَ بين اللُّغتـين؛ وقـد وجدنَا الطُّور في كلامِ العرب، قال جَرِيرُ:

فَـإنْ تَرْسِـلْ مَـا الْجِـنُّ نَسَـواْ بِـهَا ... وَإنْ يَرْسِلْ مَا صَاحِبُ الطُّـور يَـنْزِلُ

(١) محمد / ١٦.
(٢) الأحزاب / ٣١.
(٣) من الشواهد، ينظر: ديوانه: ج ٢ ص٣٢٩. ولسان العرب: (منن).
(٤) الزمر / ٢٨.
(٥) الشعراء / ١٩٥.

والمأخوذُ عليهم ميثاقان؛ الأَوَّلُ: حين أخرجَهم من صُلب آدم كالذَّرِّ. والثـانِي: الذي أخذَ عليهم في التوراةِ وسائرِ الكتب. والمرادُ في هذه الآية الثانِي؛ وذلـك أنَّ اللهَ تعالى أنزلَ التوراةَ فأمرَ موسى قومَهُ بالعملِ بأحكامـها فـأبَوا أن يقبَلُـوا ويعمَلُـوا بـها للآصَار والأثقالَ التي كانت فيها، وكانت شريعتهُ ثقيلةً فأمرَ الله جـبريلَ فقطـعَ جَبَـلاً على قدر عَسكَرِهم؛ وكـان فَرْسَـخاً في فرسـخٍ، فرفعـهُ فـوق رؤوسِـهم مقـدارَ قامـةِ الرَّجُلِ.

عن ابنُ عبَّاس: (أمَرَ اللهُ جَبَلاً مِنْ جِبَال فِلَسْطِيْنَ فَانْقَطَعَ مِنْ أصْلِـهِ حَتَّـى قَـامَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ مِثْلَ الظُّلَّةِ). وقال عطاءُ: (رَفَعَ اللهُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمُ الطُّورَ، وَبَعَـثَ نَـاراً مِنْ قِبَلِ وُجُوهِهِمْ؛ وَأتَـاهُمُ الْبَحْـرُ الْمِلْـحُ مِـنْ خَلْفِـهِمْ). وقيـلَ لَـهم: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ ؛ أي اقبَلُوا مـا آتينـاكم بجِدٍّ ومواظبـةٍ في طاعـة الله تعـالى. وفيـه إضمارٌ؛ أي وقلنا لَهم خُذوا.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ ﴾ ؛ أي احفظوهُ واعملوا بما فيـه. وَقِيْـلَ: معناهُ: واذكرُوا ما فيه مِن الثواب والعقاب. وفي حرفِ أبـي بكـرٍ: (وَادَّكِـرُواْ) بـدال مشدَّدة وكسر الكاف. وفي حرفِ عبدِالله: (وَتَذَكَّرُواْ مَا فِيْهِ) ومعناهُما اتَّعِظُوا بهِ. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي لكـي تَنجُـوا مـن العـذاب في العُقبَـى والهـلاكِ في الدُّنيـا إنْ قَبلْتُمُـوهُ وفعلتـم مـا أُمِرْتُـم بـهِ؛ وإلا وَضَحْتُكُـمْ بـهذا الجبـلِ وأغرقتُكم في البحرِ وأحرقتُكم بهذه النار. فلمـا رَأوا أنْ لا مـهربَ منه قَبلُـوا ذلـك وسَجَدُوا خَوفاً، وجعَلُوا يلاحظونَ الجبلَ وهم سُجودٌ مخافةَ أن يقعَ عليهم؛ فصـارت صِفَةً في اليهودِ لا يسجدونَ إلاَّ على أنصافِ وجُوهِـهم؛ فلمَّـا رأوا الجبـلَ قـالوا: يـا موسَى سَمعنا وأطعنا ولولا الجبلُ ما أطعنَا.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي أعرضتُـم وعصَيتـم من بعدِ أخذِ الميثاق ورفع الجبل، ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ ، بتأخيرِ العذاب عنكـم، ﴿ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي لصرتُـم مِـن المغبونـين في العقوبةِ وذهاب الدُّنيا والآخرةِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ ؛ وذلك أنَّهم كانوا في زَمَنِ دَاوُدَ بأرضٍ يقال لَها: إيليةُ على ساحلِ البحر بين المدينة والشَّام، وكانت مسكنَ بني إسرائيلَ. وكان اللهُ قد حرَّم عليهم صيدَ السَّمكِ يومَ السبتِ، وكان إذا دخلَ يومُ السبتِ لَم يبق حوتٌ إلا اجتمعَ هناك حتى يخرجن خراطيمَهن من الماءِ لأَمْنِهَا في ذلك اليوم. فإذا مضى يومُ السبت تفرَّقن ولَم يخرجن ولَزِمْنَ لُجَّةَ البحرِ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾[١] فعمدَ رجالٌ فحفَرُوا حفيرةً عشيَّةَ الجمُعةِ حيث يدخلُ السمكُ وساقوا إليها الماءَ من البحرِ، فأقبلَ الموجُ بالحيتان فحبَسُوا السَّمكَ فيها يومَ السبتِ، وأخذوا منها ليلةَ الأحدِ ويومَ الأحدِ، وقالوا: نحنُ لا نصطادُ يومَ السبتِ.

وكان في القريةِ نحواً من سبعينَ ألفاً؛ فصِنْفٌ منهم أمسكَ عن الاصطياد ونَهى؛ وصنف أمسكَ ولَم ينهَ؛ وصنفٌ منهم انتَهَوا؛ وصنفٌ منهم انتهَكُوا الحرمةَ. وكان الذين نَهَوا اثني عشرَ ألفاً؛ فلما أَبَى الْمُجرمونَ قَبُولَ نُصْحِهِمْ قال النَّاهونَ: واللهِ لا سَاكَنَّاكم في قريةٍ واحدة، فقَسَّموا القريةَ بجدارٍ ولَعَنَهُمْ داودُ عليه السلام وغضبَ اللهُ لإصرارهم على المعصية، فخرجَ النَّاهُونَ ذات يومٍ من بابهم، والْمُجرِمُونَ لَم يفتحوا بابَهم ولا خرجَ منهم أحدٌ؛ فلما أبطأُوا تسوَّروا عليهم الحائطَ فإذا هم جميعاً قردةٌ. فمكثُوا ثلاثةَ أيامٍ ثم هلكُوا. ولَم يَمكث ممسوخٌ مُسِخَ فوقَ ثلاثةِ أيام، ولَم يتوالَدُوا، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ ؛ أي صَاغِرِيْنَ مَطْرُودِين بلغة كِنَانَةَ، قالهُ مجاهدُ وقتادة والربيعُ.

وقال أبو روق: يَعْنِي (خُرْساً لاَ يَتَكَلَّمُونَ)، دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾[٢]. وَقِيْلَ: مبعدونَ من كلِّ خيرٍ، رُوي عن ابنِ مسعود: (أَنَّهُمْ لَمْ يَلِدُواْ بَعْدَمَا مُسِخُواْ) قال: (وَلِذَلِكَ الْمَمْسُوخُ لاَ يَكُونُ لَهُ نَسْلٌ). وَقِيْلَ: إنَّهم كانُوا رجالاً ونساءً فمسخَهم اللهُ تعالى الذكرَ ذكرٌ والأنثى أنثى؛ وكانوا يتَعَاوَوْنَ، وكان تسيلُ

---

(١) الأعراف / ١٦٣.

(٢) المؤمنون / ١٠٨.

دموعهم ولَم يأكلوا ولَم يشرَبُوا، ثم أهلكَـهم اللهُ تعـالى. فجـاءت ريـحٌ فـهبَّت بـهم وألقتهم في الماءِ، وما مسخَ الله تعالى أمَّةً إلا أهلكَها.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ ؛ أي القردة؛ وَقِيْلَ: الْمَسْـخَةَ؛ وَقِيْـلَ: العقوبةَ؛ وَقِيْلَ: القريةَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (نَكَالاً) أي عقوبةً وعِبْرَةً وفضيحةً، ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ ؛ أي عقوبةً لِمَا مضَى من ذنوبـهم وعـبرةً لِمَـن بعدهـم. وقـال قتادةُ: (مَعْنَاهُ جَعَلْنَا تِلْكَ الْعُقُوبَةَ جَزَاءً لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ذُنُوبهِمْ قَبْلَ نَهْيِـهِمْ عَـنْ الصَّيْـدِ؛ وَمَا خَلْفَهَا مِنَ الْعِصْيَانِ بأَخْذِ الْحِيْتَانِ بَعْدَ النَّهْيِ). وَقِيْلَ: لِمَا بَيْـنَ يَدَيْـهَا مـن عقوبـةِ الآخرة؛ وما بَعْدَها من فضيحةٍ في دُنياهم، فتُذكَرون بها إلى يوم القيامة. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي عِظَـةً وعـبرةً للمؤمنـين مـن أمَّـةِ مُحَمَّـدٍ ﷺ الذين يتَّقُونَ الشِّرك والكبائرَ والفواحشَ، فلا يفعلون مِثْلَ فعلِهم.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ ؛ هذه الآيةُ نزلت بعد قولهِ تعالى: ﴿وَإذْ قَتَلْتُـمْ نَفْسًـا فَـادَّارَأْتُمْ فِيـهَا﴾[1] وإنْ كانت مُقَدَّمَةً في التلاوةِ؛ لأن قتلَ النفسِ كان قبلَ ذبح البقرةِ.

وَالْقِصَّةُ فيه مَا رُويَ: أنَّ بَنِي إسْرَائِيْلَ قِيْلَ لَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ: أيُّمَا قَتِيْلٍ وُجِدَ بَيْـنَ قَرْيَتَيْنِ فَلْيُقَسْ إلَى أيِّهِمَا أقْرَبُ؛ ثُمَّ لِيُؤْخَذْ لأَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ وَلْيَحْلِفْ خَمْسُونَ شَيْخاً مِنْ شُيُوخِهِمْ باللهِ مَا قَتَلُوهُ وَلاَ عَلِمُوا لَهُ قَاتِلاً. فَقَتَلَ رَجُلاَنِ مِنْ بَنِي إسْرَائِيْلَ ابْنَ عَمٍّ لَهُمَا اسْمُهُ عَامِيْلُ لِيَرِثَاهُ؛ وَكَانَتْ لَهُمَا ابْنَةُ عَمٍّ حَسَنَةٍ، فَخَافَا أنْ يَنْكِحَهَا؛ فَقَتَلاَهُ لِذَلِـكَ وَحَمَلاَهُ إلَى جَانِب قَرْيَةٍ فَأُخِذَ أهْلُ تِلْكَ الْقَرْيَةِ بهِ فَجَاءُوا إلَـى مُوسَـى عليه السلام، وَقَـالُوا: أدْعُ اللهَ تَعَالَى أنْ يُطْلِعَنَا عَلَى قَاتِلِهِ، فَأَوْحَى اللهُ إلَيْهِ: امُرْهُمْ أنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً، فَأَمَرَهُمْ بذَلِكَ لِيَضْرِبَ الْمَقْتُولُ ببَعْضِ تِلْكَ الْبَقَرَةِ فَيَحْيَـى فَيُخْـبرَهُمْ بمَـنْ قَتَلَـهُ. فَـ: ﴿ قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ ؛ أي تستهزئُ بنا يا موسَى حين سـألناكَ عـن القتـلِ وتأمرُنـا بذبـحِ بقرةٍ!! وإنَّما قالوا ذلك لتباعُدِ الأمرين في الظاهرِ؛ ولَم يَدْرُوا ما الحكمةُ فيه.

---

(١) البقرة / ٧٢.

وقرأ ابن محيصن: (أيَتَّخِذُنَا) بالياء يعنون اللهَ عَزَّ وَجَلَّ. ولا يستبعدُ هذا من جَهْلِهم؛ لأنَّهم هم الذين قالوا: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَـهًا كَمَا لَـهُمْ آلِهَـةٌ﴾[1]. وفي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: (هُزُواً) ثلاثُ لغات: (هُزْواً) بالتخفيف والهمز ومثله كُفْواً؛ وهي قراءة الأعمشِ وحمزةَ وخلف. و(هُزُؤاً) و(كُفُؤاً) مهموزان مثقَّلان، وهي قراءةُ أبي عمرو وأهل الحجاز والشام والكسائي. وهُزُواً وكُفُواً مثقَّلان بغيرِ همز هي قراءةُ حفصٍ عن عاصم، وكلها لغاتٌ صحيحة فصيحةٌ معناها الاستهزاءُ.

فـ: ﴿قَالَ﴾ ؛ لَهم موسَى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ؛ أي أمْتَنِعُ باللهِ أنْ أكونَ مِن المستهزئين بالمؤمنين.

فلمَّا عَلِمَ القومُ أن ذبحَ البقرةِ عَزْمٌ من اللهِ، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ ، أي مَا هذه البقرةُ؛ كبيرةٌ أم صغيرةٌ؟ ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: [وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ؛ لَوْ أنَّهُمْ عَمَدُوا إلَى أدْنَى بَقَرَةٍ فَذَبَحُوهَا لأَجْزَتْ، وَلَكِنْ شَدَّدُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ بالْمَسْأَلَةِ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ][2]. إنَّما كان تشديدُهم تقديراً مِن الله عَزَّ وَجَلَّ وحكمةً منهُ.

وكان السببُ فيه: أن رجُلاً من بني إسرائيلَ كان بَارّاً بأبَويهِ، وبلغَ من برِّه أنَّ رجلاً أتاه بلؤلؤة فابتاعها بخمسين ألفاً، وكان فيها فضلٌ. فقال: إن أبي نائمٌ ومفتاح الصندوق تحت رأسه، فأمهلني حتى يستيقظ وأعطيك الثمن. قال: فأيقِظْهُ وأعطني الثمن. قال: ما كنتُ لأفْعَلَ، قال: أزيدُك عشرةَ آلاف إن أيقظتَ أباك وعجَّلت النقدَ. فقال: وأنا أزيدُكَ عشرين ألفاً إنِ انتظرتَ انتباهَ أبي؛ ففعل ولَم يوقِظِ الرجلُ أباه؛ فأعقبه الله ببرِّهِ أباهُ أن جعل البقرةَ تلك بعينها عنده. وأمرَ بني إسرائيل أن يذبحوا تلك البقرة بعينها.

---

(١) الأعراف / ١٣٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٣١ و١٠٣٢ و١٠٣٣) مرسلاً. وفي الدر المنثور: ج ١ ص١٨٩؛ قال السيوطي: ((وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة:...)) ذكره، وسكت عنه.

وقال ابنُ عبَّاس: (كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيْلَ رَجُلٌ صَالِحٌ لَهُ ابْـنٌ طِفْـلٌ؛ وَكَـانَ لَـهُ عِجْلَةٌ، فَأَتَى بالعِجْلَةِ إِلَى غَيْضَةٍ؛ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَوْدِعُكَ هَذِهِ العِجْلَةَ لابْنِي حَتَّـى يَكْبُرَ. وَمَاتَ الرَّجُلُ فَنَشَأَتِ العِجْلَةُ فِي الْغَيْضَةِ وَصَارَتْ عَوَاناً؛ وَكَانَتْ تَهْرُبُ مِنْ كُلِّ مَنْ رَآهَا، فَلَمَّا كَبُرَ الابْنُ وَكَانَ بَاراً بأُمِّهِ، كَانَ يَقْسِمُ اللَّيْلَةَ أثْلاثاً؛ يُصَلِّـي ثُلُثـاً؛ وَيَنَـامُ ثُلُثاً؛ وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأسِ أمِّهِ ثُلُثاً، فَإِذَا أصْبَحَ ذَهَبَ يَحْتَطِـبُ عَلَـى ظَـهْرِهِ وَيَبِيْعُـهُ فِـي السُّوقِ، ثُمَّ يَتَصَدَّقُ بثُلُثِهِ؛ وَيَأكُلُ ثُلُثَهُ؛ وَيُعْطِي أمَّهُ ثُلُثَهُ.

فَقَالَتْ لَـهُ أمُّـهُ يَوْمـاً: إنَّ أبَـاكَ وَرَّثَـكَ عِجْلَـةً، وَذَهَـبَ بـهَا إِلَـى غَيْضَـةِ كَـذَا واسْتَوْدَعَهَا اللهَ، فَانْطَلِقْ إِلَيْهَا وَادْعُ إِلَهَ إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أنْ يُرِدَّهَا عَلَيْكَ؛ فَإِنَّ مِنْ عَلامَتِهَا أنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ يَخْرُجُ مِنْ جِلْدِهَا. وَكَانَتْ تُسَمَّى الْمُذَهَّبَةَ لِحُسْنِهَا وَصُفْرَتِهَا وَصَفَاءِ لَوْنِهَا.

فَأَتَى الْفَتَى الْغَيْضَةَ فَرَآهَا تَرْعَى؛ فَصَاحَ بهَا وَقَـالَ: أعْـزِمُ عَلَيْـكِ بإِلَـهِ إِبْرَاهِيْـمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ فَقَبَضَ عَلَى عُنُقِـهَا وَقَادَهَا. فَتَكَلَّمَتِ الْبَقَرَةُ بإِذْنِ اللهِ تَعَالَى؛ وَقَالَتْ: أيُّهَا الْفَتَى الْبَارُّ بوَالِدَيْهِ! ارْكَبْنِي فَـإِنَّ ذَلِكَ أهْوَنُ عَلَيْكَ. قَالَ: إنَّ أمِّي لَـمْ تَـأْمُرْنِي بذَلِـكَ! وَلَكِـنْ قَـالَتْ: قُودَهَـا بعُنُقِـهَا، فَقَالَتْ: وَحَقِّ إِلَهِ بَنِي إِسْرَائِيْلَ؛ لَوْ رَكِبْتَنِي مَا كُنْتَ تَقْدِرُ عَلَيَّ أبَداً، فَـانْطَلِقْ فَـإِنَّكَ لَـوْ أمَرْتَ الْجَبَلَ أنْ يَنْقَطِعَ مِنْ أصْلِهِ وَيَنْطَلِقَ مَعَكَ لَفَعَلَ لِبِرِّكَ بأُمِّكَ!

فَجَاءَ بهَا إِلَى أمِّهِ فَقَالَتْ لَهُ: يَا بُنَيَّ إنَّكَ فَقِيْرٌ؛ وَشُقَّ عَلَيْكَ الاحْتِطَابُ بالنَّـهَارِ؛ وَالْقِيَامُ باللَّيْلِ، فَاذْهَبْ وَبعْ هَذِهِ الْبَقَرَةَ فَخُذْ ثَمَنَهَا. فَقَالَ: بكَمْ؟ فَقَالَتْ: بثَلاثَةِ دَنَانِيْرَ؛ وَلاَ تَبعْهَا بغَيْرِ رضَايَ وَمَشُورَتِي! وَكَانَ ثَمَنُ الْبَقَرَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ثَلاثَةُ دَنَانِيْرَ.

فَانْطَلَقَ بهَا إِلَى السُّوقِ، فَبَعَثَ اللهُ مَلَكاً فِي صُورَةِ بَشَرٍ لِيَخْتَبرَ كَيْفَ بِـرُّ الْفَتَـى بوَالِدَيْهِ! فَقَالَ الْمَلَكُ: بكَمْ تَبيْعُ هَذِهِ الْبَقَرَةَ؟ قَالَ: بثَلاثَةِ دَنَانِيْرَ؛ وَأشْرُطُ عَلَيْكَ رضَـى وَالِدَتِي. فَقَالَ الْمَلَكُ: بسِتَّةِ دَنَانِيرَ؛ وَلاَ تَسْتَأْذِنْ أمَّكَ. فَقَالَ: لَوْ أعْطَيْتَنِي وَزْنَهَا ذَهَباً لَمْ آخُذْهُ إلاَّ برضَاءِ وَالِدَتِي! فَرَدَّهَا إِلَى أمِّهِ. فَقَالَتْ: بعْهَا بسِتَّةِ دَنَانِيْرَ عَلَـى رضَـى مِنِّـي. فَانْطَلَقَ بهَا وَقَالَ لِلْمَلَكِ: إنَّهَا أمَرَتْنِي أنْ لاَ أنْقُصَهَا مِنْ سِتَّةِ دَنَانِيْرَ عَلَى أنْ أسْـتَأْمِرَهَا. فَقَالَ الْمَلَكُ: أنَا أعْطِيْكَ اثْنَى عَشَـرَ عَلَـى أنْ لاَ تَسْـتَأْمِرَهَا، فَـأَبَى، وَرَجَـعَ إِلَـى أمِّـهِ

فَأَخْبَرَهَا بذَلِكَ. فقَالَتْ: يَا بُنَيَّ إنَّ الَّذِي يَأْتِيْكَ مَلكٌ فِي صُورَةِ بَشَرٍ؛ فَقُلْ لَهُ: أتَأْمُرُنَا أنْ نَبِيْعَهَا أمْ لاَ؟ فَأتَى إلَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُ مَا قَالَتْ أمُّهُ. فَقَالَ لَهُ: اذْهَبْ إلَى أمِّكَ وَقُلْ لَهَا: أمْسِكِي هَذِهِ الْبَقَرَةَ، فَإنَّ مُوسَى يَشْتَرِيْهَا مِنْكُمْ لِقَتِيْلٍ يُقْتَلُ مِنْ بَنِي إسْرَائِيْلَ، فَلاَ تَبِيْعُوهَا إلاَّ بِمِلْءِ مِشْكِهَا ذَهَباً. وَقَدَّرَ اللهُ عَلَى بَنِي إسْرَائِيْلَ ذَبْحَهَا مُكَافَأةً لَهُ عَلَى بِرٍّ وَالِدَيْهِ فَضْلاً مِنْهُ وَرَحْمَةً).

وروي أنَّها كانت لرجلٍ يبيعُ الجوهرَ، فجاءه إبليسُ بجرابٍ من اللُّؤلُؤِ يساوي مِائتي ألفٍ، فعرضَهُ عليه بمائة ألفٍ، فوجدَ الجوهريُّ المفتاحَ تحت رأسِ أبيه وهو نائمٌ، وقال: كيفَ أوقِظُ أبي لربحِ مائة ألفٍ؟! فكرهَ أن يوقظَهُ، فرجعَ وقال: إنَّ أبي نائمٌ والمفتاحُ تحتَ رأسِهِ. فقال له إبليسُ: إذهب أيْقِظْهُ فأنا أبيعُكَ بخمسين ألفاً. فذهبَ فلم يحتمل قلبهُ ذلك، فرجعَ، فلم يزل إبليسُ يحطُّ من الثمنِ حتى بلغَ عشرةَ دراهم، فلم يوقِظْ أباهُ وتركَ الشراءَ، فجعلَ الله في مالهِ البركةَ حتى اشترَوا بقرتَهُ بملءِ مِشْكِهَا ذهباً.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ ؛ وفي مُصحفِ عبدِالله: (سَلْ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا). ومعنى الآية: (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا) سِنُّها؟. (قَالَ) موسى: (إنَّهُ) يعني اللهَ عَزَّ وَجَلَّ (يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بكْرٌ) لا كبيرةٌ ولا صغيرة. وارتفع (فَارِضٌ) و(بكْرٌ) بإضمار (هي)؛ أي لا هِيَ فارضٌ ولا هِيَ بكرٌ.

قال مجاهدُ والأخفشُ: (الْفَارِضُ: الْكَبِيْرَةُ الْمُسِنَّةُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ. والبكْرُ: الْفَتِيَّةُ الصَّغِيْرَةُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ). قال السديُّ: (الْبكْرُ: الَّتِي لَمْ تَلِدْ قَطّ إلاَّ وَاحِداً). وَقِيْلَ: معناه لا فارضٌ؛ أي ليست بكبيرةٍ قد ولدَتْ بُطوناً كثيرةً، ولا بكراً؛ أي لَم تَلِدْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي وسطٌ بين الصغيرةِ والكبيرة قد وَلَدَتْ بَطناً أو بطنين؛ وجَمعُها عُوَنٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي افعَلُوا ما تؤمرون به من الذَّبحِ، ولا تُكثروا السؤالَ.

ثُم عادُوا في السؤال فَـ: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ ؛ موضع (مَا) رُفِعَ بالابتداء؛ و(لَوْنُهَا) خبرهُ. وقرأ الضحَّاك: (مَا لَوْنَهَا) نصباً كأنه

أعْمَلَ فيه التبيينَ وجعل (مَا) صلةً. ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ ؛ قِيْلَ: يعني سوداءَ مثلَ قولِه: ﴿جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾[1] أي سُودٌ، كذا قال الحسنُ. والعربُ تسمي الأسودَ أصفرَ. قال الشاعرُ[2]:

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي ... هُنَّ صَفْرٌ أَوْلاَدُهَا كَالزَّبِيْب

والصحيحُ: أنَّها صفراءُ؛ لأن السوداءَ لا تؤكَّدُ بالفاقعِ، وإنَّما تؤكَّد بالحالِك، يقال في المبالغةِ في الوصف: أصفرُ فاقعٌ؛ وأحمرُ قانٍ؛ وأسودُ حالكٌ؛ وأخضرُ ناضر؛ وأبيض ناصِعٌ. ويقال: أبيضٌ نقيٌّ، فمعنى (فَاقِعٌ) أي صافٍ شديد الصُّفرة. وقال ابنُ عبَّاس: (صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا شَدِيْدَةُ الصُّفْرَةِ). وقال العتبيُّ: (غَلَطَ مَنْ قَالَ: الصَّفْرَاءُ هَا هُنَا السَّوْدَاءُ؛ لأَنَّ هَذَا غَلَطٌ فِي نُعُوتِ الْبَقَرِ، وإنَّمَا هُوَ فِي نُعُوتِ الإبلِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي تعجبُ الناظرين إليها؛ لتَمَامِ خَلْقِهَا؛ وكمال حُسنِها؛ ونُصوع لونِها. قال عليٌّ رضي الله عنه:(مَنْ لَبسَ نَعْلاً صَفْرَاءَ قَلَّ هَمُّهُ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ:﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرينَ﴾). فإن قِيْلَ: لِمَ أمروا بذبحِ البقرة دونَ غيرِها؟ قِيْلَ: لأن القُرْبَانَ تكون من الإبلِ والبقرِ والغنم؛ وكانوا يحرِّمون لحمَ الإبلِ؛كما قالَ تعالى:﴿إلا مَا حَرَّمَ إسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾[3] يعني لحومَ الإبلِ؛ وكان ذبحُ البقرةِ أفضلَ من ذبحِ الغنم فخصَّت بذلك.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ ؛ أسائمة أم عاملةٌ؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ ؛ هذه قراءةُ العامة؛ وقرأ محمَّدُ الأمويُّ[4]: (إنَّ الْبَاقِرَ) هو جمعُ البقرِ. قال قطربُ: يقال في جمعِ البقرة: بقرٌ وباقرٌ وباقورٌ وبُقور. فإن قِيْلَ: لِمَ قال (تَشَابَهَ) والبقرُ جمعٌ؛ ولَمْ يقل تَشَابَهَتْ؟ قِيْلَ: فيه

(١) المرسلات / ٣٣.

(٢) البيت للأعشى، ينظر: ديوانه: ص٢٠ من قصيدة في مدح قيس بن معديكرب.

(٣) آل عمران / ٩٣.

(٤) مُحَمَّد ذو الشامة الأموي. وقرأ بها عكرمة ويحيى بن يعمر. نقله القرطبي في الجامع: ج ١ ص٤٥٢؛ وقال: ((جعله فعلاً مستقبلاً)).

ثلاثةُ أقوال: أحدُها: أنه ذُكِّرَ لتذكيرِ لفظ البقر كقوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[1]. وسُئل عن هذا سيبويهِ فقال: (كُلُّ جَمْعٍ حُرُوفُهُ أَقَلُّ مِنْ حُرُوفِ لَفْظِ وَاحِدِهِ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ تُذَكِّرُهُ). وقال الزجَّاج: (مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَرَادَ جِنْسَ الْبَقَرِ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (تَشَابَهَ) فيه سبعُ قراءات: (تَشَابَهَ) بفتحِ التاءِ والهاء وتخفيفِ الشِّين؛ وهي قراءةُ العامَّة. وقراءةُ الحسنِ: (تَشَابَهُ) بالتخفيفِ وهاء مضمومَة؛ يعني تَتَشَابَهُ. وقراءةُ الأعرجِ: (تَشَّابَهُ) بفتح التاءِ والتشديد وضمِّ الهاء على معنى: تَتَشَابَهُ. وقرأ مجاهدُ: (تَشَّبَّهُ) كقراءةِ الأعرجِ إلا أنه بغيرِ ألف. وفي مُصحف أُبَـيٍّ: (تَشَابَهَتْ) أنَّثَهُ لتأنيثِ البقر. وقرأ ابنُ إسحق: (تَشَّابَهَتْ) بالتشديد[2]. وقرأ الأعمش: (مُتَشَابِهٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾؛ يعني إلى وَصْفِهَا. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [وَاسْمِ اللهِ لَوْ لَمْ يَسْتَثْنُوا لَمَا بُيِّنَتْ لَهُمْ إِلَى آخِرِ الأَبَدِ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾؛ أي لا مُذلَّلة بالعمل، ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي ليست بحراثةٍ، ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾؛ أي ليست نَاضِحةً لا يُسقى عليها الزرعُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾؛ أي بريَّة من العيوب. وقال الحسنُ: (مُسَلَّمَةُ الْقَوَائِمِ لَيسَ فِيهَا أثرُ الْعَمَلِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾؛ أي لا عيبَ فيها. وقال قتادةُ: (لاَ بَيَاضَ فِيهَا أَصْلاً). وقال مجاهدُ: (لاَ بَيَاضَ فِيهَا وَلاَ سَوَادَ). وَقِيْلَ: ليس فيها لونٌ يفارقُ سائرَ لونِها. والذَّلُولُ في الدواب: بمَنْزِلَةِ الذليلِ في الناسِ؛ يقال: رجلٌ ذليلٌ؛ ودابَّة ذلولٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي بالوصفِ البيِّن التامِّ؛ فطلبُوها؛ فلم يَجدوها بكمَالِ وصفها إلا عندَ الفتى البارِّ بوالدَيه؛ فاشترَوها منه بمِلْءِ

---

(١) القمر / ٢٠.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص٤٥٢؛ نقل القرطبي قال: ((قال أبو حاتم: وهو غلطٌ؛ لأن التاء في هذا الباب لا تدغم إلا في المضارع)).

(٣) في الدر المنثور: ج ١ ص١٨٩؛ قال السيوطي: ((أخرج البزار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: [إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ أَخَذُوا بأَدْنَى بَقَرَةٍ لأَجْزَاهُمْ ذَلِكَ]. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ...)) وذكره بلفظ قريب.

مِشْكِهَا[1] ذَهباً. وقال السديُّ: (بوزْنِهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ ذَهَباً). وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي من غلاءِ ثمنها. وَقِيْلَ: وما كادوا يجدونها باجتماعِ أوصافِها. وَقِيْلَ: لأن كلَّ واحد منهم خَشِيَ أن يكون القاتلُ من قبيلتهِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا ﴾ ؛ يعني: عاميل. وهذه الآيةُ أوَّلُ القصَّة؛ ومعناها: وَاذْكُرُواْ إذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيْهَا؛ أي اخْتَلَفْتُمْ فِيْهَا، كذا قال ابنُ عبَّاس ومجاهد؛ ومنهُ قولُ النبيِّ ﷺ: [كُنْتَ خَيْرَ شَرِيْكٍ لاَ تُدَارِي وَلاَ تُمَارِي][2]. وقال الضحَّاك: (فَادَّارَأْتُمْ فِيْهَا؛ أي اخْتَصَمْتُمْ). وقال عبدُالعزيز بن يحيى: (شَكَكْتُمْ). وقال الربيعُ: (تَدَافَعْتُمْ). وأصل الدَّرْئ الدفعُ. يعني إلقاءَ ذاك على هذا؛ وهذا على ذاكَ يدافعُ كلُّ واحد عن نفسهِ كقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾[3]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي مُظْهِرُ ما كَتَمْتُمْ من أمرِ القاتلِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ ؛ أي اضربُوا المقتولَ ببعضِ البقرةِ؛ أي بعُضوٍ منها. واختلفوا في هذا البعضِ ما هو؟ فقال ابنُ عبَّاس: (الْعُضْوُ الَّذِي يَلِي الْغُضْرُوفَ وَهُوَ الْمَقْتَلُ). وقال الضحَّاك: (بلِسَانِهَا). وقال سعيدُ بن جبير: (مُعْجَبُ ذَنَبِهَا؛ وهو العُصْعُصُ؛ لأَنَّهُ أَسَاسُ الْبَدَنِ الَّذِي رُكِّبَ عَلَيْهِ؛ وَهُوَ أَوَّلُ مَا يُخْلَقُ وَآخِرُ مَا يَبْلَى). وقال مجاهدُ: (بَذَنِهَا). وَقِيْلَ: بفخذِها. وَقِيْلَ: فخذها الأيمن. وقال السديُّ: (الْبُضْعَةُ الَّتِي بَيْنَ كَتِفَيْهَا). ففعَلُوا ذلك، فلما ضرَبُوهُ قامَ القتيلُ حيّاً

(١) الْمِشْكَدَانَة: فارسيَّة معناها: موضعُ المِسْكِ. ولقِّب بها عبدالله بن عامر المحدث لطيب ريحه وأخلاقه. القاموس المحيط: (مشكدانة).

(٢) عن عبدالله بن السائب قال: كنت شريكاً للنبي ﷺ، فلما قدمت المدينة قلتُ: أتعرفني؟ قال: [كُنْتَ شَرِيكاً لِي، فَنِعْمَ الشَّرِيكُ أنْتَ، كُنْتَ لاَ تُمَارِي وَلاَ تُدَارِي]. في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ٩ ص٤٠٩؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير منصور بن أبي الأسود، وهو ثقة)). وعنه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ لأبايعه، فقلت: يَا رَسُولَ اللهِ أتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: [نَعَمْ، ألَمْ تَكُنْ شَرِيكاً لِي، فَوَجَدْتُكَ خَيْرَ شَرِيكٍ لاَ تُدَارِي وَلاَ تُمَارِي]. قال الهيثمي:((رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح)). والحديثُ بلفظ قريب خرجه أبو داود وابن ماجة.

(٣) الرعد / ٢٢.

بإذن الله تعالى وأوداجهُ تَشْخُبُ دَماً. فسألوهُ: مَن قتلَكَ فقال: فلانٌ وفلانٌ؛ لابني عمٍّ له. ثم اضطجعَ ميْتاً. فأُخذا فقُتلاَ. وفي الآيةِ اختصارٌ تقديرهُ: ﴿ فَقُلْنَا اضرِبُوهُ بِبَعضِهَا ﴾ فضربوهُ فحيَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ؛ أي كما أحيَى عاميلَ بعد موتهِ كذلك يُحيي اللهُ الموتى. ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ؛ أي عجائب قُدرته ودلالتهِ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي لكي تفهمُوا إحياءَ الموتى وغير ذلك. قال الواقديُّ[1]: (كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ (لَعَلَّكُمْ) فَهُوَ بمَعْنَى (لِكَي) غَيْرَ الَّذِي فِي الشُّعَرَاءِ: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[2] فَإنَّهُ بمَعْنَى كَأَنَّكُمْ تَخْلُدُونَ فَلاَ تَمُوتُونَ)[3]. والله تعالى كان قادراً على إحيائه بغير هذا السبب؛ إلا أنَّ الله أمرَهم بذلك؛ لأن إحياءَ الميتِ بالميتِ آكدُ دليلاً وأبينُ قدرةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ ، قال الكلبي: قالوا بَعْدَ ذَلِكَ: لَمْ نَقْتُلْهُ نَحْنُ؛ وَأنْكَرُوا؛ وَلَمْ يَكُنْ أعْمَى قَلْباً وَلاَ أشَدَّ تَكْذِيباً مِنْهُمْ لِنَبيِّهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ).

قال الكلبيُّ: (قَسَتْ؛ أيْ يَبسَتْ وَفَسَدَتْ). وقال أبو عُبيد: (حَقَدَتْ). وقال الواقديُّ: (جَفَّتْ فَلَمْ تَلِنْ). وَقِيْلَ: اسودَّت. وقال الزجَّاج: (تَأْويْلُ الْقَسْوَةِ ذَهَابُ اللِّيْنِ وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ). وَقِيْلَ: قَسَتْ؛ أي غَلُظَتْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ بَعْدِ ذلِكَ) أي من بعدِ إحياء الميْتِ. وَقِيْلَ: من بعدِ هذه الآيات التي تقدَّمت من مَسْخِ القردة والخنازير؛ ورفعِ الجبل؛ وخروجِ الأنهار من الحجَرِ؛ وغيرِ ذلك. ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾ ؛ في غِلَظِهَا وشدَّتِها ويُبسِها؛

(١) مُحَمَّد بن عمر بن واقد السهمي بالولاء، المدني، أبو عبدالله الواقدي، من أقدم المؤرخين في الإسلام وأشهرهم، ومن حفَّاظ الحديث، ولد في (١٣٠) من الهجرة، وتوفي (٢٠٧) من الهجرة. من كتبه: تفسير القرآن.

(٢) الآية / ١٢٩.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص٢٢٧؛ قال القرطبي: ((إن العرب استعملت (لعل) مجردة من الشك بمعنى (لام كي) فالمعنى: لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا)).

﴿ أَوۡ أَشَدُّ ﴾ ؛ يبساً وغلظاً. ومعنى (أوْ أشَدُّ): بل أشدُّ، كقوله: ﴿كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾(١). وَقِيْلَ: (أوْ) بمعنى الواو؛ أي وَأشَدُّ، ﴿ قَسۡوَةٗۚ ﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾(٢) ومثلُ: ﴿لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾(٣)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾(٤). وقرأ أبو حَيوَةَ: (أوْ أشَدَّ قَسَاوَةً).

ثُم عَذَرَ اللهُ الحجارةَ وفضَّلها على القلب القاسي، فأخبرَ أنَّ منها ما يكونُ فيه رطوبةً؛ وأنَّ منها لَمَا يتردَّى من أعلَى الجبلِ إلى أسفلهِ مخافةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ﴾ ، وقرأ مالكُ بن دينار: (نَتَفَجَّرُ) بالنون كقوله ﴿فانْفَجَرَتْ﴾. وفي مُصحف أبَيٍّ (مِنْهَا الأَنْهَارُ) ردَّ الكناية إلى الحجارةِ. ﴿ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ (٥) فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ ﴾ ، قرأ الأعمشُ: (يَتَشَقَّقُ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ ﴾ ؛ أي ينْزِلُ من أعلى الجبلِ إلى أسفله من خِشْيَةِ الله؛ وقلوبكم يا معشرَ اليهود لا تلينُ ولا تخشعُ ولا تأتِي بخيرٍ. قِيْلَ: لا يهبطُ من الجبال حَجَرٌ بغير سببٍ ظاهرٍ إلا وهو مجعولٌ فيه التمييز. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤ ﴾ ؛ وعيدٌ وتهديدٌ؛ أي ما اللهُ بتاركٍ عقوبةَ ما تعملون؛ بل يُجازيكم به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ ﴾ ؛ خطابٌ للنبيِّ ﷺ وأصحابه: أفَتَرْجُونَ أيُّها المؤمنون أن تصدِّقكم اليهودُ فيما آتاكم به نبيكم مُحَمَّدٌ، ﴿ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ ﴾ ؛ أي طائفةٌ، ﴿ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعني التوراةَ، ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾ ؛ أي يغيِّرونه، ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ ؛ أي مِن بعد ما فهموهُ وعلِموهُ كما غيَّروا آيةَ الرَّجمِ وصِفَةَ النبيِّ ﷺ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ ﴾(٦)؛ أيْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّهُمْ كَاذِبُونَ، هذا قول مجاهدٍ وعكرمة والسديُّ وقتادة.

---

(١) النحل / ٧٧. (٢) النور / ٦١. (٣) النور / ٣١.

(٤) الإنسان / ٢٤. (٥) فيه إدغام التاء؛ في الأصل: يتشقَّقُ.

(٦) أنَّهم مفترون، والهمزة للآية؛ أي لا تطمعوا فلا سابقة في الكفر به أبينُ. تفسير الجلالين.

وقال ابنُ عبَّاس ومقاتلُ والكلبيُّ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي السَّبْعِيْنَ الَّذِيْنَ اخْتَارَهُمْ مُوسَى لِمِيْقَاتِ رَبِهِ لَمَّا أخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ وَأحْيَاهُمُ اللهُ تَعَالَى بدُعَاءِ مُوسَى؛ حِيْنَ قَالُوا: يَا مُوسَى أسْمِعْنَا كَلاَمَ اللهِ؟ فَطَلَبَ ذَلِكَ؛ فَأجَابَهُ اللهُ: مُرْهُمْ أنْ يَتَطَهَّرُوا وَيُطَهِّرُوا ثِيَابَهُمْ وَيَصُومُوا؛ فَفَعَلُوا، ثُمَّ خَرَجَ بِهِمْ مُوسَى حَتَّى أتَوا الطُّورَ؛ فَلَمَّا غَشِيَهُمُ الْغَمَامُ سَمِعُوا صَوْتاً كَصَوْتِ الشَّبُّور[١]؛ فَسَجَدُوا، فَسَمِعُوا كَلاَمَ اللهِ يَقُولُ: (إنِّي أنَا اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إلَهَ إلاَّ أنَا الْحَيُّ الْقَيُّومُ، لاَ تَعْبُدُوا إلَهاً غَيْرِي وَلاَ تُشْرِكُوا بي شَيْئاً، وَأوْصِيْكُمْ ببرِّ الْوَالِدَيْنِ؛ وَأنْ لاَ تَحْلِفُونِي كَاذِبيْنَ؛ وَلاَ تَزْنُوا؛ وَلاَ تَسْرِقُوا؛ وَلاَ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً؛ وَلاَ يَشْهَدُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ شَهَادَةَ زُورٍ؛ وَأطْعِمُوا الْمَسَاكِيْنَ؛ وَصِلُوا الْقَرَابَةَ؛ وَلاَ تَظْلِمُوا الْيَتِيْمَ؛ وَلاَ تَقْهَرُوا الضَّعِيْفَ)[٢].

فَلَمَّا سَمِعُوا خَرَجَتْ أرْوَاحُهُمْ ثُمَّ رُدَّتْ إلَيْهِمْ. فَقَالُوا: يَا مُوسَى إنَّا لاَ نُطِيْقُ أنْ نَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي آخِرِ كَلاَمِهِ: (إنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَفْعَلُوا هَذِهِ الأشْيَاءَ فَافْعَلُوا، وَإنْ شِئْتُمْ فَلاَ تَفْعَلُوا، وَلاَ بَأسَ). والمعنى بهذهِ الآية تُقِرُّ بهِ الصحابةُ في أنَّ اليهودَ إنْ كذَّبُوا النبيَّ فلَهم سابقةٌ في الكُفْرِ والتَّحريفِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ ؛ قرأ ابن السُّمَيْقَع (وَإذَا لاَقَوْا) قِيْلَ: يعني المنافقينَ مِن أهلِ الكتاب في وقتِ موسى؛ فإنه كان في قومهِ منافقونَ، كما في أمَّتِنا. وَقِيْلَ: المرادُ به منافِقُو هذه الأمةِ، وإنَّما ذكرَهم اللهُ تعالى هنا مع اليهودِ؛ لأن أكثرَهم كانوا منهم من اليهودِ قَبْلَ مبعثِ النبيِّ ﷺ.

معناهُ: (وَإذَا لَقُوا) المنافقون من اليهودِ (الَّذِينَ آمَنُوا)، يعني أبَا بكرٍ وأصحابه من المؤمنين. قالوا: (آمَنَّا) كإيْمانكم وشَهدنا بأن مُحَمَّداً صادقٌ ونجدهُ في كتابنا بنعته وصفتهِ، ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ، أي وإذا خلَوا إلى رؤسائهم، ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ ؛ قال لَهم رؤساؤُهم - كعبُ بن أشرف؛ وكعب بن أسد؛ ووهبُ بن

---

(١) على وزن (التنور): وهي البوق.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢ ص٢؛ قال القرطبي: ((هذا حديث باطل لا يصح. رواه ابن مردان عن الكلبي، وكلاهما ضعيف لا يحتج به)).

يهودا، وغيرُهم - من رؤساءِ اليهود: ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي تخبرونهم أنَّهم على الحقِّ ليكون لهم الحجَّةَ عليكم عند الله في الدنيا والآخرة إذْ كنتم مُقرِّين بصحة أمرهم ولَم تتَّبعوهم.

وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: أتُحَدِّثُونَهُمْ بمَا قَضَى اللهُ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابكُمْ أنَّ مُحَمَّداً حَقٌّ وَقَوْلَهُ صِدْقٌ). ومِنْهُ قِيْلَ لِلْقَاضِي: الْفَتَّاحُ. وقال الكسائيُّ: بمَا بَيَّنَهُ اللهُ لَكُمْ. وقال الواقديُّ: بمَا أنْزَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ؛ نظيرهُ: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ﴾[(١)]؛ أي أنزلنا. وقال أبو عبيد والأخفش: (بمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ وَأعْطَاكُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ ﴾ ؛ أي ليخاصموكم ويحتجُّوا بقولِكم عليكم عند ربكم. وقال بعضُهم: هو أن الرجلَ من المسلمين يلقَى قرينَهُ وصديقَهُ من اليهودِ فيسألهُ عن أمرِ مُحَمَّدٍ ﷺ فيقول: إنه حقٌّ وهو نبيٌّ؛ فيرجعون إلى رؤسائِهم فيلومُونهم على ذلكَ. وَقِيْلَ: إن كعبَ بن الأشرف وغيرَه من رؤساء الكفار كانوا يقولون لعبدِالله بن أبَي وأصحابه: إذا أقررتُم بنبوَّةِ هذا النبيِّ وأنَّ ذِكْرَهُ في التوراةِ حقٌّ؛ تأكَّدت حجتهُ عليكم. وقال مجاهدُ: (إنَّ النَّبيَّ ﷺ سَبَّ يَهُودَ بَنِي قُرَيْظَةَ؛ فَقَالَ لَهُمْ: [يَا إخْوَانَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيْر، وَيَا عَبَدَةَ الطَّاغُوتِ] فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنْ أخْبَرَ مُحَمَّداً بهَذا؟ مَا سَمِعَهُ إلاَّ مِنْكُمْ؛ أوْ مَا خَرَجَ إلاَّ مِنْكُمْ !)[(٢)].

وأصلُ الْفَتْحِ: فَتْحُ الْمُغْلَقِ؛ ثُم استعملَ في مواضعَ كثيرةٍ من فتح البلدان؛ وفتحُكَ على القارئ. وقد يكونُ الفتحُ بمعنى الْحُكمِ؛ كما في هذه الآيةِ ومنه قولـه: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾[(٣)]. ويسمَّى القاضي: الفاتِحُ بلغة عُثمانَ. وقد يكون الفتحُ بمعنى النَّصْرِ مثلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[(٤)] أي يطلبونَ النُّصْرَةَ عليهم. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي أفليسَ لكم ذِهْنُ الإنسانيَّة.

---

(١) الأعراف / ٩٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١١١٣).

(٣) الأعراف / ٨٩.

(٤) البقرة / ٨٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ أي ما يسرُّون من تكذيب النبيِّ ﷺ فيما بينهم، وما يُعْلِنُونَ مع الصَّحابةِ من التصديق.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ ؛ أي ومن اليهودِ من لا يُحسن القراءةَ ولا الكتابة إلا أن يحدثهم كبارُهم بشيء فيظنُّونه حقّاً؛ فيصدقونهم وهو كذبٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ . اختلفوا في معنى الأماني، قال الكلبيُّ: مَعْنَاهُ لاَ يَعْلَمُونَ إلاَّ مَا يحدِّثُهم بهِ عُلَمَاؤُهُمْ. وقال أبو رَوْق: (الْقِرَاءَةُ مِنْ ظَهْرِ الْقَلْب وَلاَ يَقْرَءُونَ فِي الْكُتُب) وَدَلِيْلُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إلا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أمْنِيَّتِهِ﴾[1] أيْ إلاَّ إذَا قَرَأ ألْقَى الشَّيْطَانُ فِي قِرَاءَتِهِ. قال الشاعر[2]:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهُ لاَقَى حَمَامَ الْمَقَادِرِ

وقال مجاهد: (الأَمَانِيُّ الْكَذِبُ وَالأَبَاطِيْلُ؛ كقول عثمانَ ﷺ: (مَا تَمَنَّيْتُ مُنْذُ أسْلَمْتُ) أيْ مَا كَذَبْتُ). وأراد بالأمانِيِّ الأشياءَ التي كتبَها علماؤُهم من عند أنفسِهم ثم أضافُوها إلى اللهِ تعالى من تغيير صفةِ النبيِّ ﷺ. وقال الحسنُ: (مَعْنَى: يَتَمَنَّوْنَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلا أيَّامًا مَعْدُودَةً﴾[3] وَقَوْلِهِ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلا مَنْ كَانَ هُودًا أوْ نَصَارَى﴾[4] وقَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أبْنَاءُ اللهِ وَأحِبَّاؤُهُ﴾[5]).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ ؛ أي مَا هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ ظَنّاً وَتَوَهُّماً لاَ حَقِيْقَةً وَيَقِيْناً، قاله قتادةُ والربيع. وقال مجاهدُ: مَعْنَاهُ: (وَإنْ هُمْ إلاَّ يَكْذِبُونَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ؛ نزلت هذه الآيةُ في علماءِ اليهود الذين غيَّروا صفةَ النبيِّ ﷺ في التوراةِ فكتبوها: مُحَمَّدٌ سِبْطاً؛ طويلاً؛ أزْرَقاً؛ شبط الشّعرِ. وكانت صفتُهُ في التوراة: حسَنَ الوجهِ؛ جَعْدَ الشعرِ؛ أسمرَ ربعة. فبدَّلوا وقالوا: هذا من عند اللهِ، وإذا سُئلوا عن

---

(١) الحج / ٥٢.
(٢) هو كعب بن مالك.
(٣) البقرة / ٨٠.
(٤) البقرة / ١١١.
(٥) المائدة / ١٨.

صفتهِ قرَأوا ما كَتَبُوهُ؛ فيجدونه مخالفاً لصفتهِ فيكذّبونـه. وإنَّمـا فعلـتِ اليـهودُ ذلـك؛ لأنَّهم خافوا ذهابَ مُلكِهم وزوالَ رئاستهم حين قَدِمَ النـبيُّ ﷺ المدينـةَ؛ فاحتـالوا في تغييرِ صفته ليمنَعُوا الناسَ عن الإيْمان بهِ.

والوَيْلُ: الشِّدَّةُ فِي الْعَذَاب. وَقِيْلَ: الهـلاكُ. وَقِيْـلَ: الْخِـزْيُ؛ ويكنَّـى عنـه بـ (وَيْسَ) وَ(وَيْحَ)[١]. وَقِيْلَ: هو وادٍ في جهنَّم يَهوي فيه الكافرُ أربعـين خَريفـاً قبـلَ أن يقعَ إلى قعرهِ. وَقِيْلَ: يسيلُ فيه صديدُ أهل النار. وَقِيْلَ: لو جُعلـت فيـه جبـالُ الدُّنيـا لَمَاعَتْ من شدَّة حرِّه.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ ﴾ ؛ يعـني مـا كـان لَـهم مـن الْمَأْكَلَـةِ والهدايَـا مـن أغنيائـهم؛ أَلْحَـقَ اللهُ بـهم ثـلاثَ ويـلاتٍ فيمـا غـيَّروا مـن الكتـاب. وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي ممـا يُصيبـون مـن المـآكلِ والهدايـا. ولفـظُ الأيـدِي للتـأكيدِ كقولهم: مشيتُ برِجْلي؛ ورأيتُ بعَينِي. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةًۚ ﴾ ؛ اختلَفُوا في هذه الأَيَّام[٣] ما هِيَ؟ قال ابنُ عبَّاس ومجاهدٌ: (قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِيْنَةَ وَالْيَهُـودُ تَقُولُ: مُدَّةُ الدُّنْيَا سَبْعَةُ آلاَفِ سَنَةٍ؛ وَإنَّمَا نُعَذَّبُ بكُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ يَوْماً وَاحِداً، ثُمَّ يَنْقَطِعُ الْعَذَابُ عَنَّا بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٤].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢ ص٨؛ قال القرطبي:((قال الخليل: ولم يُسمع على بنائه إلا وَيْـحَ ووَيْسَ ووَيْهَ ووَيْكَ ووَيْلَ ووَيْبَ؛ وكله يتقارب في المعنى. وقد فرق بينها قـوم؛ وهـي مصـادر لم تنطق العرب منها بفعل. قال الجرميُّ: ومما ينتصب انتصاب المصادر: ويله وعوله ووَيْحَهُ ووَيْسَـهُ؛ فإذا أدخلت اللام رفعتَ فقلتَ: ويلٌ له، وويحُ له)).

(٢) الأنعام / ٣٨.

(٣) في المخطوط (الآياتُ)، وهو تصحيف، والصحيح كما أثبتناه لِمقتضى السياق.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الرقم (١١٦٤) بإسنادين عن عكرمـة عـن ابـن عبـاس؛ وعـن مجاهد: الرقم (١١٦٥) بثلاثة أسانيد.

وقال قتادةُ وعطاءُ: (يَعْنُونَ الأَرْبَعِينَ يَوْماً الَّتِي عَبَدَ آبَاؤُهُمْ فِيْهَا الْعِجْلَ؛ وَهِيَ مُدَّةُ غَيْبَةِ مُوسَى الطَّيِّلاً).

وفي بعضِ التَّفاسير: اخْتُلِفَ في مقدار عبادتِهم العجلَ؛ فقيل: عشرةُ أيام. وَقِيْلَ: سبعةُ أيَّام. وَقِيْلَ: أربعون يوماً. فقَالَ اللهُ تَعَالَى تكذيباً لَهم: ﴿ قُلْ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ: ﴿ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾ ؛ أي مَوْثِقاً أنَّ لا يعذِّبكم إلاَّ هذه المدَّة، ﴿ فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾. وروي أنه يقالُ لَهم عند مُضِيِّ الأجلِ: يَا أعْدَاءَ اللهِ قَدْ مَضَى الأَجَلُ وَبَقِيَ الأَبَدُ.

ولفظُ الـ (مَعْدُودَةً) للقلَّة كقوله: ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾[١]، وفي الصَّوم: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾[٢]. واحتجَّ أصحابُنا بقولهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: [الْمُسْتَحَاضَةُ تَدَعُ الصَّلاَةَ أَيَّامَ أَقْرَائِهَا][٣] وقولهﷺ: [دَعِي الصَّلاَةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكِ][٤] أن أقلَّ الأيامِ ثلاثةٌ وأكثرها عشرةٌ؛ لأنه يقالُ لِما دون الثلاثة: يومٌ

---

(١) يوسف / ٢٠. (٢) البقرة / ١٨٤.

(٣) رواه أبو داود في السنن: كتاب الطهارة: باب من قال تغتسل من طهر إلى طهر: الحديث (٢٩٧). والترمذي في الجامع الصحيح: أبواب الطهارة: باب ما جاء في المستحاضة: الحديث (١٢٦ و١٢٧)، وقال: ((تفرد به شريك عن ابن أبي اليقظان (عثمان بن عمير) وفيه عدي بن ثابت عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ. نقل الترمذي الاختلاف في اسم جده في التهذيب: ج ١ ص٥٦١: ترجمة ثابت الأنصاري: الرقم (٨٧٨) تضارب الأقوال في جده.

ولقد ضعف أهل الحديث الرواية؛ وأذن بعضهم بكتابته. وضعفه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الطهارة: الحديث (٥٦٩)، وفي كتاب الحيض: الحديث (١٦٧٤ و١٦٧٦)؛ وقال: ((وروي عن أبي يوسف مرفوعاً)). وضعفه أبو داود والترمذي كما نقله البيهقي في الرقم (١٦٨٠)، وفي الرقم (١٦٨١) قال البيهقي: ((تفرد به أبو يوسف عن عبدالله بن علي أبي أيوب الأفريقي، وأبو يوسف ثقة، إذا كان يروي عن ثقة)). والحديث له أصل في الصحيح، فهو حسن إن شاء الله، وقد قال الإمام الشافعي: ((لو كان هذا محفوظاً عندنا كان أحب إلينا من القياس)). نقله البيهقي في السنن الكبرى: الرقم (١٦٨١).

(٤) رواه الدارقطني في السنن: كتاب الحيض: الحديث (٣٦): ج ١ ص٢١٢. وله ألفاظ أخرى أنه قال: [دَعِي قَدْرَ الأَيَّامِ الَّتِي كُنْتِ تَحِيضِينَ]. وهو عند البخاري في الصحيح: كتاب الحيض: باب إذا حاضت في شهر: الحديث (٣٢٥). وأبي داود في السنن: كتاب الطهارة: الحديث (٢٧٤ و٢٧٧).

ويومَان، وفيما زادَ على العشرةِ أحدَ عشر؛ وليس لأحدٍ أن يعترضَ على هـذا بقولـهِ في ليلة الصِّيام: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ أرادَ بها الشهرَ كلَّه؛ لأنـه ظـاهرُ لفـظ الأيَّـامِ مـن الثلاثة إلى العشرةِ. إلاَّ أنه قد يذكرُ ويراد به الزيادةَ، وقد فسَّر الله تعـالى أيـامَ الصـومِ بالشَّهر، فانعقدَ بذلك التفسيرِ. وأما أيامُ الحيضِ فمبهمةٌ؛ فلا بـدَّ أن تكـون محصـورةً؛ لأن الأحكامَ تختلفُ بحالِ الحَيض والطُّهرِ، فكانَ حمـلُ اللفـظِ علـى ظـاهرِهِ وحقيقتـه أولَى[1].

---

(١) القول بأن لفظ (معدودة) في الآية للقلة، كقوله تعالى: ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْـدُودَةٍ﴾، وفي آيـة الصوم ﴿أيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ مما يفيد الزيادة والكثرة، فإنه لا يسلَّم له؛ لوجود المعارضـة مـن أوجـه عديدة:

الأول: أن لفظ ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾ وردَ وهو يفيد القلة أيضاً كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِـي أَيَّـامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنْ اتَّقَى﴾ [البقرة/ ٢٠٣] وهي أيام التشريق ثلاثة أيام، وكقوله تعالى: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَـهُمْ وَيَذْكُـرُوا اسْـمَ اللهِ فِـي أَيَّـامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ [الحج / ٢٨]، وفي الأثر عن ابن عباس قال: ((الأيـام المعلومـات: الأيـام العشـر، والأيام المعدودات: أيام التشريق)) وإسناده حسن. فعلى هذا، فإن الفهم فيه نظر، وعليه جـواب فلا يسلَّم له.

ومن وجه ثان: أن صفة الجمع التاء أو الألف أو التاء متعلقة الاسم إن كان مذكراً أو مؤنثـاً، وقد يرد على الوجهين، كما في صورة (معدودة) و(معدودات)، وذلك أن الاسم إذا كان مذكراً، فالأصل في جمعه التاء، يقال: كوز وكيزان مكسورة، وثياب مقطوعة. وإن كان مؤنثاً كان الأصـل في صفة جمعه الألف والتاء، يقال: جرَّة أو جرار مكسورات، وخابية وخوابي مكسوراتٌ، إلا أنـه قد يوجد الجمع بالألف والتاء فيما واحده مذكر في بعض الصور، وعلى هذا ورد قوله ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿أيَّاماً مَعْدُودَةً﴾، والأيام المعدودات في قوله: ﴿أَيَّـامٍ مَعْـدُودَاتٍ﴾ هـي أيام التشريق كما تقدم، وهي ثلاثة أيام، والأيام المعلومات في قوله: ﴿أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ هي الأيـام العشر، وهو جمع أيضاً يتعين معناه بالأيام العشر. ولكن على ما يبدو لنا أنه يفيد معنـى آخـر: أن اليهود استهانوا بالأيام وهوَّنوا أمرها واستخفوا بها؛ فالمسألة ليس متعلقها العـدد، وإنما متعلقـها شأن هذه الأيام وأثرها عليهم. ولهذا تعدُّ أنَّها تفيد العدد المفتوح قلة أو كثرة، ولكنها ارتبطـت في الذهن بالشأن، فذكر الله عظم هذه الأيـام بـالألف والتـاء؛ ليتسـع معـهودها الذهـني للزيـادة في الثواب حين اقترنت بذكر الله. والله أعلم.

أما الاحتجاج بالحديثين، فإنه بمقتضى الدلالـة العقليـة للنصـوص الشـرعية، إذ إن الموضـوع مختلف في الصور الثلاث: صورة العذاب، وصورة الحج، وصـورة الحيـض. وأيـام الأقـراء غـير محددة فهي مبهمة، وغير المحدد لا يبنى عليه فهمٌ لأنـه غـير معـروف أو هـو مقـدَّر، وذلـك أن=

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ ؛ أي ليس كما تقولون. قال الكسائيُّ: (الْفَرْقُ بَيْنَ بَلَى وَنَعَمْ: أنَّ بَلَى إقْرَارٌ بَعْدَ جَحْدٍ؛ وَنَعَمْ جَوَابُ اسْتِفْهَامٍ لِغَيْرِ جَحْدٍ. فَإذَا قِيْلَ لَكَ: ألَيْسَ فَعَلْتَ كَذَا؟ تَقُولُ: بَلَى. أوْ قِيْلَ لَكَ: ألَمْ تَفْعَلْ كَذَا؟ تَقُولُ: بَلَى). وقَالَ تَعَالَى: ﴿ألَسْتُ بربكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(١). وقالَ في غيرِ الجحُودِ: ﴿فَهَلْ

=حصر إضافة لفظ الأيام بالعشرة فما دونها، فيقال: أيام خمسة، وأيام عشرة، ولا تضاف إلى ما فوقها، فلا يقال: أيام أحد عشر، فإنه يشكل بأيام الصيام، من قوله تعالى: ﴿أيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ وهي أزيد من العشرة. ولا يقال: إنه فسر أيام الصوم بالشهر من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ﴾ [البقرة / ١٨٥] فإنه كذلك تفسير للأيام المعدودات فيه، فتكون الأيام المعدودات هي جميع الشهر.

ثم إنه إذا ثبت أن الأيام محمولة على العشر فما دونها، فالأشبه أن يقال: إنه الأقل أو الأكثر؛ لأنها أضيفت إلى عارض ولم يرد به تحديد العدد، فيقال: أيام سفرك، وإقامتك، ومشيك، وإن كان ثلاثين أو عشرين أو ما شئت من العدد؛ لأن من يقول: ثلاثة، يقول: أحمله على أقل الحقيقة، فله وجه. ومن يقول: عشرة، يقول: أحمله على الأكثر، وله وجه، فخُرِّج الكلام عليه. وفي التقدير أن لفظ (المعدودة) أو (معدودات) يحمل على إرادة القائل حسب ما هو معتاد عنده؛ ويقتضي إما معرفة معهوده في الخطاب؛ أي فهم الواقع المراد عنده في إطلاق اللفظ، أو ورود النص في ذلك.

أما المفهوم الذي ورد عندهم، فإنه اختُلف فيه عددٌ محددٌ، إما أنه يسير فلا خلاف لورود النص في ذلك، ولكن المختلف فيه هو مقدار هذا اليسير بزعمهم، وأصح القولين فيه: أنه يقبل الأكثر والأقل؛ وكأن الموضوع ليس ذا بال من حيث العدد، ولكن المراد هو اعتقادهم بأنهم ناجون من غير أن يتخذوا عهداً أو وعداً بذلك.

أما حديث لبثهم يسير، أخرجه أحمد والبخاري والدارمي والنسائي والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: لَمَّا افتُتحت خيبرُ أهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سمٌّ، فقال رسولُ الله ﷺ: [اجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ هَهُنَا مِنَ الْيَهُودِ] فقالَ لهم: [مَنْ أبُوكُمْ؟] قالوا: فلانٌ. قال: [كَذَبْتُمْ، بَلْ أبُوكُمْ فُلاَنٌ] قالوا: صدقتَ وبرَرتَ. ثم قال لهم: [هَلْ أنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إنْ سَألْتُكُمْ عَنْهُ؟] قالوا: نَعم يا أبا القاسم، وإن كذَبناك عرفتَ كذبنا كما عرفتَهُ عن أبينا. فقال لهم: [مَنْ أهْلُ النَّارِ؟] قالوا: نكون فيها يَسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم رسولُ الله ﷺ: [اخْسَئُوا — وَاللهِ — لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيْهَا أبَداً].

أما حديث الأقل من عشرة، فهو ما تقدم من قولهم بمدة الدنيا.

أما حديث لبثهم أربعين يوماً، فقد أسنده الطبري في التفسير: النصوص (١١٥٥ و١١٥٩ و١١٦٠). وروي موقوفاً عن عكرمة، أخرجه الطبري في النصوص (١١٦١ و١١٦٢) وعن ابن زيد في النص (١١٦٣).

(١) الأعراف / ١٧٢.

وَجَدْتُم مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾[1]. وإنَّما قال ها هُنا: بَلَى؛ للجُحودِ الذي قبلَهُ. وهو قَوْلُهُ: (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ) والسببُ هنا الشِّركُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ . قرأ أهلُ المدينةِ: (خَطِيْئَاتُهُ) بالجمعِ. وقرأ الباقون: (خَطِيْئَتُهُ) على الواحدِ. والإحاطةُ: الإحْدَاقُ بالشَّيء من جميعِ نواحيه؛ أي سُدَّتْ عليه طريقُ النَّجاةِ؛ وماتَ على الشِّركِ. وَقِيْلَ: السَّيِّئَةُ: الذَّنْبُ الذي وُعِدَ عليه العقابَ. والخطيئةُ: الشِّركُ. ولا بدَّ أن تكون الخطيئةُ أكبرَ من السيئة؛ لأن ما أحاطَ بغيره كان أكبرَ منه.

وأصل بَلَى: بل؛ وهو لردِّ الكلام الماضي؛ وإثبات كلام آخر مبتدأ؛ وإنَّما زيدت اللام لتحسين الوقف. وقيل: أصله: بل لا؛ فخففت. وقال الربيع بن خيثم في معنى قوله: (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيْئَاتُهُ): هُوَ الَّذِي يُصِرُّ[2] عَلَى خَطِيْئَةٍ قَبْلَ أنْ يَمُوتَ، ومثله قال عكرمة. وقال مقاتلُ: يَعْنِي أصَرَّ عَلَيْهَا. وقال الكلبيُّ: مَعْنَى (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيْئَتُهُ) أيْ أوْبَقَتْهُ ذُنُوبُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾، ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ ؛ أي أخذنا عليهم في التوراةِ العهدَ الشديدَ: ﴿ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ؛ بالتاء قرأ ابنُ كثيرٍ وحمزة والكسائيُّ؛ وقرأ الباقون بالياءِ. قال أبو عمرو: وَالإنْزَاهُ (وَقُولُوا لِلنَّاسِ) فَدَلَّتِ الْمُخَاطَبَةُ عَلَى التَّاءِ. قال الكسائي: إنَّمَا ارْتَفَعَ (لاَ تَعْبُدُونَ) لأَنَّ مَعْنَاهُ: أخَذْنَا مِيْثَاقَ بَنِي إسْرَائِيْلَ أنْ لاَ تَعْبُدُونَ إلاَّ اللهِ. فَلَمَّا أُلْقَى (أنْ) رَفَعَ، وَمِثْلُهُ: لاَ يَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، ونظيرهُ قوله تعالى: ﴿قُلْ أفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي اعْبُدُ أيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[3] يريدُ: أنْ أعبدَ؛

---

(١) الأعراف / ٤٤.

(٢) في المخطوط: (يموت) ولا ينسجم من كلام المصنف. والمناسب (يصرُّ) فأثبتناه.

(٣) الزمر / ٦٤.

فلما حذفَ (أنْ) الناصبةَ عاد الفعلُ إلى المضارعة. وقرأ أبَيُّ بنُ كعب: (لاَ تَعْبُدُوا) جزماً على النَّهيِ؛ أي وقل لَهم: لا تعبدُوا إلاَّ الله.

ومعنى الآيةِ: أمَرْنَاهُم بإخلاص العبادةِ لله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ؛ أي وصَّيناهم بالوالدين إحساناً برّاً بهما؛ وعَطْفاً عليهما. وإنَّما قال: (وَبالْوَالِدَيْنِ) وأحدُهما والدةٌ؛ لأن المذكَّرَ والمؤنَّثَ إذا اقترنَا غلبَ المذكرُ لخفَّته وقوَّته.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ ؛ أي وبذي القُربَى. ووصَّيناهم بصِلَةِ الرَّحمِ. واليَتَامَى: جمعُ يَتِيْمٍ؛ وهو الطفلُ الذي لا أبَ له. والمساكِينُ: الفقراءُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ؛ اختلفَ القُرَّاء فيه؟ فقرأ زيدُ بن ثابت وأبو العاليةِ وعاصم وأبو عمرو ونافع بضمِّ الحاء وجزْمِ السِّين؛ وهي قراءةُ أبي حاتِم، ودليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبالْوَالِدَيْنِ حُسْناً﴾[(١)] وَقَوْلُهُ: ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾[(٢)].

وقرأ ابنُ مسعودٍ وحمزة والكسائي وخلَف: (حَسَناً) بفتح الحاءِ والسِّين؛ وهو اختيارُ أبي عُبيد. قال: إنَّما آثرْناهَا؛ لأنَّهَا نعْتٌ بِمَعْنَى قَوْلاً حَسَناً. وقرأ عيسَى بن عمر بضمِّ الحاء والسِّين والتنوين؛ وهو لغةٌ مثل (النُّصُبُ والسُّحُتُ). وقرأ عاصمُ الجحدري (إحْسَاناً) بالألف. وقرأ أبَي بنُ كعبٍ وطلحة بن مصرف (حُسْنِي) بالتأنيثِ مرسلةً؛ ومجازهُ كلمة حُسْنَى.

ومعنى الآية: أيُهَا الرُّؤَسَاءُ مِنَ الْيَهُودِ قُولُوا لِلسَّفَلَةِ قَوْلاً حَسَناً؛ أيْ حَقّاً وَصِدْقاً، وَبَيِّنُوا لَهُمْ صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا فِي التَّوْرَاةِ، وَلاَ تَكْتُمُوهَا، وَلاَ تُغَيِّرُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ. هذا قولُ ابنِ عبَّاس وابن جُبير وابن جريج ومقاتل. ودليله قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾[(٣)] أي صِدقاً. وَقِيْلَ: معناه: مُرُوهُمْ بالمعروف وانْهُوهُمْ عن المنكرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) أي ثُم أعرَضْتم عن العهدِ

---

(١) النساء / ٣٦. (٢) النمل / ١١. (٣) طه / ٨٦.

والميثاق. وقولهُ (إلا قَلِيلا مِنكُمْ) هو عبدُالله بن سلامٍ وأصحابهُ. وانتصبَ (قَلِيلاً) على الاستثناءِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ ﴾ ؛ أي لا يقتلُ بعضُكم بعضاً بغيرِ حقٍّ، وإنَّما قال ذلك لمعنَيَين: أحدُهما: أن كلَّ قومٍ اجتمَعُوا على دِينٍ واحد فهم كنفسٍ واحدة. والآخرُ: وهو أن الرجلَ إذا قَتَلَ غيرَهُ فكأنَّما قتلَ نفسه لأنه يقادُ ويقتصُّ منه. وقرأ طلحةُ بن مصرِّف: (لاَ تَسْفُكُونَ) بضمِّ الفاء وهما لُغتان، مثل: يَعْرُشُونَ ويَعْكُفُونَ. وقرأ بعضُهم: (لاَ تُسَفِّكُونَ) بالتَّشديدِ على التكثيرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ ؛ أي لا يُخرجُ بعضُكم بعضاً من دارهِ؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ ﴾ ؛ أي ثم اعترَفْتم بأنَّ هذا العهدَ قد أخِذَ عليكم وعلى آبائِكم وأنهُ حقٌّ، ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ، اليومَ على ذلك يا معشرَ اليهودِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ ؛ أي ثُم أنتم يا هؤلاءِ؛ فحذفَ حرفَ النِّداء للاستغناءِ بدلالةِ الكلام عليه. كقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾[1]. وقولهُ:(تَقْتُلُونَ أنفُسَكُمْ) قرأ الحسنُ: (يُقَتِّلُونَ) بالتشديدِ. ﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ ﴾ ، والآيةُ خطابٌ ليهودِ قريظةَ والنضيرِ؛ كانت بنُو قريظةَ حلفاءَ الأوسِ؛ وبنو النضيرِ حلفاءَ الخزرجِ، فكان كلُّ فريقٍ يقاتلُ الفريقَ الآخر وإذا غلبَهم قتلَهم وسَبَى ذراريهم وأخرجَهم من ديارهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ ، قرأ أهل الشام وأبو عمرو ويعقوب: (تَظَّاهَرُونَ) بتشديد الظاء، ومعناهُ: يَتَظَاهَرُونَ؛ فأُدغم التاءُ في الظاءِ مثل: (اثَّاقَلْتُمْ) وَ(ادَّارَكُوا). وقرأ عاصمُ والأعمش وحمزة وطلحة والحسن والكسائي: (تَظَاهَرُونَ) بالتخفيفِ؛ حذفُوا تاءَ التفاعلِ وأبقَوا تاء الخطاب مثلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[2] و﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ﴾[3]. وقرأ أبي ومجاهدُ وقتادة: (تَظَّهَرُونَ) بالتشديدِ من غيرِ ألِفٍ؛ أي تَتظهَرُونَ. ومعناهما جميعاً واحدٌ:

(١) الإسراء / ٣. (٢) المائدة / ٢. (٣) الصافات / ٢٥.

تُعَاوَنُونَ. والظَّهيرَةُ العَوْنُ؛ سُمي بذلك لإسنادهِ ظهرَهُ إلى ظهرِ صاحبه. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (بالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) أي بالمعصيةِ والظُّلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ ﴾ ؛ مُتَّصِلٌ بقوله (وَلا تُخْرِجُونَ أنفُسَكُمْ) لأن قَوْلَهُ: (وَإِنْ يَأْتُوكُمْ) داخلٌ في الميثاق. ومعناهُ: فكُّوا أسراكُم من غيرِكم بالفداءِ. وقرأ السلمي ومجاهدُ وابن كثير وأبو عمرٍو وابن عامر: (أسَارَى) بالألف، و(تُفْدُوهُمْ) بغير ألف. وقرأ الحسن: (أسْرِي) بغيرِ ألف، (تُفَادُوهُمْ) بالألف. وقرأ النخعيُّ وطلحة والأعمش وحمزة (أسْرِي تَفْدُوهُمْ) كلاهما بغير ألف. وقرأ شيبةُ ونافع وعاصم وقتادةُ والكسائي ويعقوب (أسَارَى تُفَادُوهُمْ) كِلاهما بالألف.

والأُسَارَى: جمعُ أسيرٍ؛ مثل: مريض ومرضَى، وقريع وقرعَى، وقتيلٍ وقتلى. والأَسْرَى: جمع أسير أيضاً، مثل: سُكارَى وكسالى. ولا فرق بين الأسارَى والأسرَى في الصحيح. قال بعضُهم: المقيَّدون المشدُودون أسارى، والأَسْرَى: هم المأسورون غيرُ المقيدين. قَوْلُهُ تَعَالَى: (تُفْدُوهُمْ) بالمالِ، و(تُفَادُوهُمْ) أي مفاداة الأسير بالأسير. و(أسْرَى) في موضعِ نصب على الحال.

ومعنى الآيةِ ما قال السديُّ: (إنَّ اللهَ تَعَالَى أخَذَ عَلَى بَنِي إسْرَائِيْلَ فِي التَّوْرَاةِ أنْ لاَ يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَلاَ يُخْرِجَ بَعْضَهُمْ بَعْضاً مِنْ دِيَارِهِمْ؛ وَأيُّمَا عَبْدٍ أوْ أمَةٍ وَجَدْتُمُوهُ مِنْ بَنِي إسْرَائِيْلَ فَاشْتَرُوهُ وَأعْتِقُوهُ. وَكَانَتْ قُرَيْظَةُ حُلَفَاءَ الأَوْسِ، وَالنَّضِيْرُ حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ، وَكَانُوا يُقْتَلُونَ فِي حَرْبِ سُمَيْرٍ؛ فَيُقَاتِلُ بَنُو قُرَيْظَةَ مَعَ حُلَفَائِهِمْ؛ وَالنَّضِيْرُ مَعَ حُلَفَائِهِمْ، فَإذَا غَلَبُوا خَرَّبُوا دِيَارَهُمْ وَأخْرَجُوهُمْ مِنْهَا؛ وَإذَا أسِرَ رَجُلٌ مِنَ الْفَرِيْقَيْنِ كِلاَهُمَا جَمَعُوا لَهُ حَتَّى يَفْدُوهُ فَيُعَيِّرُونَهُمُ الْعَرَبُ بذَلِكَ؛ فَيَقُولُونَ: كَيْفَ تُقَاتِلُونَهُمْ وَتُفْدُونَهُمْ؟ فَيَقُولُونَ: إنَّا قَدْ أمِرْنَا أنْ نَفْدِيَهُمْ؛ وَحُرِّمَ عَلَيْنَا قِتَالُهُمْ. قَالُوا: فَلِمَ تُقَاتِلُونَهُمْ؟ قَالُوا: إنَّا نَسْتَحِي أنْ يَسْتَذِلَّ حُلَفَاؤُنَا؛ فَذَلِكَ حِيْنَ عَيَّرَهُمْ اللهُ تَعَالَى)(١).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: ج ١ ص٥٦٠: النص (١٢١٣).

وقال: (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أنفُسَكُمْ) وفي الآية تقديم وتأخيرٌ؛ تقديره: (وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَان) ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ (وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أسَارَى تُفْدُوهُمْ). وكان اللهُ تعالى أخذَ عليهم أربعةَ عهودٍ: تركُ القتلِ؛ وترك الإخراج؛ وتركُ المظاهرةِ عليهم من أعدائهم؛ وفداءُ أسَرَائِهِمْ. فأعرضُوا عن كلِّ ما أمرَ الله تعالى به؛ إلاَّ الفداءَ. فقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ؛ وإيمانُهم الفداءُ؛ وكفرُهم القتلُ والإخراج والمظاهرة. وقال مجاهد: (يَقُولُ: إنْ وَجَدْتَهُ فِي يَدِ غَيْرِكَ فَدَيْتَهُ؛ وَأنْتَ تَقْتُلُهُ بِيَدِكَ؟!)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ ؛ أي فما جزاءُ من يؤمِنُ ببعضِ الكتاب ويكفرُ ببعضٍ إلا ذلٌّ وهوانٌ في الدُّنيا. يعني بالخِزْيِ: قتلَ بني قُرَيظة وسبيَهم وإجلاءَ بنو النضيرِ عن منازلِهم. يقالُ في السُّوء والشرِّ: خَزِيَ يَخْزَى خِزْياً. وفي الحياءِ: خَزَى يَخْزِي خَزَايَةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ ﴾ ؛ وهو عذاب النار. وقرأ السلميُّ والحسن وأبو رجاءٍ: (تُرَدُّونَ) بالتاء. كقولِهِ تعالى: (أفَتُؤْمِنُونَ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ ((قرأ)) بالياء مدنيٌّ ومكي وأبو بكرٍ ويعقوب. والباقون بالتاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ ؛ أي استبدَلُوا الدُّنيا بالآخرةِ، ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ ؛ أي لا يُهوَّنُ، ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ من عذاب الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ ﴾ ، أي أعطينا موسَى التوراةَ جُمْلَةً واحدةً، وأرْدَفْنَا وأتبعنا من بعدهِ رُسُلاً؛ رَسُولاً من بعد رسولٍ؛ يقال: قَفَى أثَرَهُ وَقَفَى غَيْرَهُ في التعديَةِ مأخوذٌ من قفاء الإنسان؛ قَالَ اللهُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٢١٨).

تَعَالَى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[(١)]. وَقِيْلَ: إنَّ اللهَ تعالى أنزلَ التَّوراةَ على موسى جملةً واحدة، وأمرَهُ أن يحملَها فلم يُطِقْ؛ فبعثَ اللهُ بكلِّ آية مَلَكاً، فلم يُطيقوا حَملَها؛ فبعثَ الله بكلِّ حرفٍ ملكاً، فلم يطيقوا، فخفَّفها اللهُ على موسى، فحملَها وعمِلَ بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ يعني من إحياءِ الموتى؛ وإبْراءِ الأكْمَهِ والأبرص؛ ونزول المائدة. ومعنى (الْبَيِّنَاتِ): الدَّلالات اللائحاتِ والعلاماتِ الواضحات. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ ؛ الْمَدُّ (آيَدْنَاهُمَا) القوة[(٢)]؛ أي وأعنَّاهُ بجبريلَ. خفَّف ابنُ كثير (القُدْس) وثقَّله الآخرون. وهما لُغتان مثل (الرُعْبُ وَالسُحْتُ). قال السديُّ والضحاك وقتادة: (رُوحُ الْقُدُس: جِبْرِيْلُ)[(٣)]. قال الحسنُ: (القُدُسُ: هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَرُوحُهُ: جِبْرِيْلُ عليه السلام). وأضافه إلى نفسهِ تكريْماً وتخصيصاً، نحوُ: بيتُ اللهِ؛ وناقةُ الله؛ وعبدالله. وقال السديُّ: (الْقُدُسُ: الْبَرَكَةُ)[(٤)] وقد أعظمَ اللهُ تعالى بركةَ جبريل إذ نزلَ عامةَ وحيِ أنبيائهِ على لسانهِ. وتأييدُ عيسى بجبريلَ عليه السلام أنه كان قَرِيْنُهُ يسيرُ معه حيثُما سارَ؛ ورفعَهُ إلى السَّماءِ حينَ أراد اليهودُ قتلَهُ. وَقِيْلَ: سُمي جبريل رُوحَ القُدُسِ؛ لأن بمجيئه يُحيي الكفارَ بالإسلامِ.

والقُدُسُ: الظاهرُ. وقيل: المباركُ. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: (رُوحُ الْقُدُسِ: اسْمُ اللهِ الأَعْظَمِ، وَبِهِ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى؛ وَيُرِي النَّاسَ تِلْكَ الْعَجَائِبَ).

وقال ابن زيد: هُوَ الإنْجِيْلُ جَعَلَهُ اللهُ رُوحاً كَمَا جَعَلَ الْقُرْآنَ لِمُحَمَّدٍ رُوحاً. قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾[(٥)].

---

(١) الاسراء / ٣٦.
(٢) في المخطوط تصحيف (الما دواء لأيديهما). والصحيح ما أثبتناه إن شاء الله.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٢٢٧ و١٢٢٨ و١٢٢٦).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٢٣٣).
(٥) الشورى / ٥٢.

فلما سمعتِ اليهودَ بذكرِ عيسى؛ قالوا: يا مُحَمَّد لا مِثْلَ عيسى كما تزعمُ عملتَ؛ ولا كما تقصُّ علينا من الأنبياء فعلتَ، فائتنا بما أتى به عيسى إن كنتَ صادقاً. فقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ ؛ أي أفكُلَّما جاءَكم أيُّها اليهودُ رسولٌ بما لا يوافقُ هواكم (اسْتَكْبَرْتُمْ) أي تكبَّرتُم وتعظَّمتُم عن الإيْمان به، ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ ؛ مثلَ عيسى ومُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ، مثل زَكريَّا ويحيى وسائرَ مَن قَتَلُوا من الأنبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ. والألفُ في (أفكُلَّمَا) ألفُ استفهامٍ معناه التوبيخُ والزَّجْرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ؛ أي قالت اليهودُ: قلوبنا ممنوعةٌ من القَبُول؛ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ ؛ أي أنَّهم ألِفُوا كُفْرَهُمْ فاشتدَّ إعجابُهم به ومحبَّتُهم لهُ فمنَعَهم الله الألطافَ والفوائدَ التي منحَ اللهُ المؤمنين مجازاةً لَهم على كُفرِهم.

قرأ ابن محيصن: (غُلُفٌ) بضمِّ اللام. وقرأ الباقون بجزْمِها. فمَن خفَّف فهو جَمْعُ الأغْلُفِ مثل أصفر وصُفر؛ وهو الذي عليه غشاوةٌ وغطاءٌ بمنْزلة الأغلفِ غيرِ المختون؛ والأقلفُ مثله، أي عليها غِشَاوةٌ فلا تَعِي ولا تفقهُ ما تقولُ يا مُحَمَّد! قالَهُ قتادة ومجاهد؛ نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾[(١)].

ومَن ثقَّلَ (غُلُفٌ) فهو جَمْعُ غِلاَفٍ مثل: حجابٍ وحُجُبٍ؛ وكتابٍ وكُتُبٍ، ومعناه: قُلُوبُنَا أوْعِيَةٌ لِكُلِّ عِلْمٍ؛ فَلاَ نَحْتَاجُ إلَى عِلْمِكَ وَكِتَابكَ؛ فَهِيَ لاَ تَسْمَعُ حَدِيْثاً إلاَّ وَعَتْهُ؛ إلاَّ حَدِيْثَكَ لاَ تَعِيَهُ وَكِتَابَكَ؛ قاله عطاءُ وابن عباس. وقال الكلبيُّ: (يُرِيْدُونَ أوْعِيَةً لِكُلِّ عِلْمٍ فَهِيَ لاَ تَسْمَعُ حَدِيْثاً إلاَّ وَعَتْهُ؛ إلاَّ حَدِيْثَكَ لاَ تَعِيَهُ وَلاَ تَعْقِلَهُ. فَلَوْ كَانَ فِيْهِ خَيْرٌ لَفَهِمَتْهُ ولَوَعَتْهُ) قَالَ اللهُ تَعَالَى: (بَل لَعَنَهُمْ اللهُ بكُفْرِهِمْ) وأصلُ اللَّعنِ: الطردُ والإبعادُ؛ فمعناهُ: طَرَدَهُمُ اللهُ؛ أي أبعدَهم من كلِّ خيرٍ. وقال النضرُ بن شُميل: (الْمَلْعُونُ: للْمُخْزَى وللْمَلِكِ)[(٢)].

---

(١) فصلت / ٥.

(٢) لعنَ: (أبَيْتَ اللعنَ): كلمة كانت العرب تحيِّي بها ملوكَها في الجاهلية، تقول للملك: أبيتَ=

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ قال قتادةُ: (مَعْنَاهُ مَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ إلاَّ قَلِيْلٌ؛ وَهُوَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وَأصْحَابُهُ؛ لأنَّ مَنْ آمَنَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ أكْثَرُ مِمَّنْ آمَنَ مِنَ الْيَهُودِ). فعلى هذا القول (مَا) صلةٌ معناهُ: فقَليلاً يؤمنونَ. ونصبَ (قَلِيْلاً) على الحال، وَقِيْلَ: على معنى صَارُوا قليلاً يُؤمنون. وَقِيْلَ: معناهُ: إيْمانُهم باللهِ قليلٌ؛ لأنَّهم يؤمنونَ ببعضٍ ويكفرون ببعضٍ. وانتصبَ (قَلِيْلاً) على هذا التأويلِ على معنى: إيْماناً قليلاً يؤمنون.

وقال معمر: (مَعْنَاهُ لاَ يُؤْمِنُونَ إلاَّ بقَلِيْلٍ مِمَّا فِي أيْدِيْكُمْ وَيَكْفُرُونَ بأَكْثَرَ) وعلى هذا القول يكون (قَلِيْلاً) منصوباً بنَزعِ الخافضِ، و(ما) صلةٌ؛ أي فبقليلٍ يؤمنون. وقال الواقديُّ وغيره: (مَعْنَاهُ: لاَ يُؤْمِنُونَ قَلِيْلاً وَلاَ كَثِيْراً) وهذا كقولِ الرجُلِ للآخرِ: ما أقلَّ ما تفعلُ كذا! يريد لا يفعلهُ البتَّةَ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ ؛ يعني القُرْآنَ موافقاً لِما معهم؛ يعني التوراةَ وسائرَ الكتب في التوحيدِ والدُّعاء إلى اللهِ؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ أي وكانوا مِن قبل مَبْعَثِ رسولِ الله ﷺ يَسْتَنْصِرُونَ بذكرِ القُرْآن ونبيٍّ آخرِ الزمانِ على الَّذين جَحَدُوا توحيدَ الله؛ كانوا إذا قَاتلُوا المشركين؛ قالوا: (اللَّهُمَّ انْصُرْنَا عَلَيْهِمْ باسْمِ نَبيِّكَ وَبكِتَابكَ الَّذِي تُنَزِّلُ عَلَى الَّذِي وَعَدْتَنَا أنَّكَ بَاعِثُهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ؛ الَّذِي نَجِدُ صِفَتَهُ فِي التَّوْرَاةِ) وكانوا يرجون أنَّ ذلك النبيَّ منهم، وكانوا إذا قالُوا ذلك نُصِروا، وكانوا يقولونَ لأعدائِهم من المشركين: أطلَّ زمانٌ يخرجُ نبيٌّ فيصدِّقُ ما قلناهُ فنقتُلكم معه قتلَ عادٍ وإرَم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ ﴾ ؛ أي فلما بُعث مُحَمَّدٌ ﷺ وعرفوهُ بصفتهِ في كتابهم ولَم يكن منهم، ﴿ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ ؛ وغيَّروا صفتَهُ بغياً

=اللعنَ؛ معناه: أبيت أيها الملك أن تأتي ما تُلعن عليه. واللعنُ: الإبعاد والطرد من الخير، وَقِيْلَ: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق والسبُّ والدعاء. ورجل لعين وملعون، والجمع ملاعين. لسان العرب: (لعن).

وحَسَداً لَمَّا بُعث من غيرِ بني إسرائيلَ مخافةَ زوال رئاستِهم، ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا ﴾، أي بئْسَمَا باعُوا به أنفُسَهم من الهدايَا بكتمان صفة مُحَمَّدٍ ﷺ أنَّهم اختارُوا الدُّنيا على الآخرةِ؛ باعُوا أنفسَهم بأن يكفُروا، ﴿ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾؛ يعني القُرْآنَ حَسَداً منهم للنبيِّ ﷺ. وَقِيْلَ: معناه: بئْسَ الذي اختارُوا لأنفسِهم حتى استبدلوا الباطلَ بالحقِّ؛ والكفرَ بالإيْمان. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَغْيًا ﴾؛ أصلُ البغيِ: الْفَسَادُ، يقال: بَغَى الْجُرْحُ إذا أفْسِدَ. ومعنى قولنا: بَغْياً؛ أي الْبَغْيَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾؛ يعني الكتابَ والنبوةَ على مُحَمَّد ﷺ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾، قال قتادةُ: (الْغَضَبُ الأَوَّلُ: حِيْنَ كَفَـرُواْ بعِيْسَى وَالإنْجِيْلِ، وَالثَّانِي: حِيْنَ كَفَرُواْ بمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ؛ وَاسْتَوْجَبُواْ اللَّعْنَةَ عَلَى إثْرِ اللَّعْنَةِ)[1]. وقال السديُّ: (الْغَضَبُ الأَوَّلُ: بعِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ؛ وَالثَّانِي: كُفْرُهُمْ بمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَبْدِيْلِ صِفَتِهِ).

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) ﴾؛ أي وللجاحدين بنبوَّة مُحَمَّدٍ ﷺ من الناسِ كلِّهم عذابٌ مهينٌ؛ يُهانونَ فيه فلا يُعَزُّونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾؛ أي إذا قِيْلَ ليهودِ المدينة: صدِّقوا بالقُرْآن؛ ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾؛ يعنونَ التوراةَ، ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾؛ أي ويجحدون بما سِوَى الذي أنزلَ عليهم كقولهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾[2] أي سِوَاهُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾؛ يعني الْقُرْآنَ، ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾؛ أي مُوافِقاً للتوراةِ وسائر الكتب. ونصبَ (مُصَدِّقاً) على الحال.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ﴾؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: إنْ كنتم تصدِّقون التوراةِ فلِمَ تقتلونَ أنبياءَ اللهِ، ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾؛ وليس فيما أنزلَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٢٨٠).
(٢) المؤمنون / ٧.

عليكم قتلُ الأنبياءِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي فلِمَ تقتلونَ أنبياءَ الله إنْ كنتم مؤمنينَ بالتوراةِ وقد نُهيتم فيها عن قتلِهم. وقوله (لِمَ) أصله (لِمَا) فحذفت الألفُ فَرقاً بين الخبر والاستفهامِ؛ كقوله (فِيْمَ) و(بِمَ) و(مِمَّ) و(عَلاَمَ) و(حتَّى مَ).

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي الدَّلالات الواضحات والآيات التسع، ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ ؛ أي مِن بعد ذلك إلَهاً[١] ؛ ﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ أي كَافِرُون باللهِ. وفائدةُ الآيةِ: أن تكذيبَ الأنبياءِ من عادَتِكم؛ كما أنَّ موسى جاءَكم بالبيِّنات ثُم اتَّخذتُمُ العجلَ إلَهاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ﴾ ؛ أي أخذنا عليكم العهدَ في التوراة، ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ ؛ أي الجبل، ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ ؛ أي خذُوا ما أعطيناكم بجِدٍّ ومواظبةٍ في طاعة الله تعالى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ ؛ أي اسْمَعُوا ما فيه مِن حلاله وحرامهِ؛ وما تؤمرون به؛ أي استجيبوا؛ أطيعوا. سُميت الطاعةُ سَمعاً؛ لأنَّها سببُ الطاعةِ والإجابة؛ ومنه قولُهم: سَمعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ؛ أي أجابَهُ. قال الشاعر[٢]:

دَعَوْتُ اللهَ حَتَّى خِفْتُ أنْ لاَ يَكُونَ اللهُ يَسْمَعُ مَا أقُولُ

أي يجيبُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ؛ أي سَمعنا قولَكَ وعَصَينا أمركَ ولولا مخافةُ الجبلِ ما قَبلنا. قالوا ذلك بعدما رُفع الجبلُ عنهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ ؛ أي سُقوا في قلوبهم حُبَّ العجلِ، ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ ، وخالطَها ذلك كإشراب اللَّون؛ لشدَّة الملازمةِ.

---

(١) في المخطوط: (ذلك إلهاً) ولا ينسجم الشرح مع النص؛ لأنه سُبق بالضمير (الهاء) في (بَعْدِهِ) فاستغنى عن ذكر ذلك. فحذفناه وأثبتناه كما في النص أعلاه.

(٢) ينظر: اللسان: (سمع). والجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص٣١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّد: بئسَ ما يأمرُكم به إيْمانكم من عبادةِ العجلِ من دون الله؛ أي بئسَ الإيْمان إيْمانٌ يأمرُكم بالكفر. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ أي إنْ كنتم مؤمنين بزَعمِكم؛ لأنَّهم قالوا: نؤمنُ بما أنزل علينا، فكذّبَهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ هذا جوابُ قول اليهود: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلا مَنْ كَانَ هُودًا أوْ نَصَارَى﴾[(١)] و ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلا أيَّامًا مَعْدُودَةً﴾[(٢)]. وقولِهم: ﴿ نَحْنُ أبْنَاءُ اللهِ وَأحِبَّاؤُهُ﴾[(٣)] فكذّبَهم اللهُ وألزمَهم الحجةَ فقال: قل لَهم يا مُحَمَّدُ: (إنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ)؛ يعني الجنَّةَ؛ ﴿ خَالِصَةً ﴾ ؛ أي خاصَّةً. وَقِيْلَ: صافيةً، ﴿ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ ﴾ ؛ أي فاسألُوا اللهَ الموتَ؛ فإنَّ مَن كان بهذه الصفةِ فالموتُ خيرٌ له ولا سبيلَ إلى دخول الجنَّة إلا بعد الموتِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي في قولكم؛ فقولوا: اللهم أمِتنا. فقال لهم النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية: [إنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ فِي مَقَالَتِكُمْ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ أمِتْنَا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لاَ يَقُولُهَا رَجُلٌ مِنْكُمْ إلاَّ غَصَّ بريْقِهِ فَمَاتَ مَكَانَهُ] فأبَوا أن يفعلُوا ذلك[(٤)].

قال ابنُ عبَّاس: عن رَسُول اللهِ ﷺ:[لَوْ قَالُواْ ذلِكَ مَا بَقِيَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ يَهُودِيٌّ إلاَّ مَاتَ][(٥)] فَلَمَّا لَمْ يَقُولُواْ ذلِكَ أنْـزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ أي أسلفَت من المعاصِي وكتمان صِفَةِ النبيِّ ﷺ. وقولهُ: (أبَدًا) يعني هي مدَّةُ العمرِ. وأما بعدَ ذلك فإنَّهم يَتَمَنَّوْنَهُ في الآخرةِ وقتَ مشاهدةِ العذاب. وإنَّما أضافَ إلى الأيدِي؛ لأنَّ أكثر المعاصي تكون باليدِ. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

---

(١) البقرة / ١١١. (٢) البقرة / ٨٠. (٣) المائدة / ١٨.

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة: ج ٦ ص٢٧٤ بإسناده عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس؛ طبعة دار الكتب العلمية، تحقيق د. عبدالمعطي قلعجي.

(٥) في الدر المنثور: ج ١ ص٢٢٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٢٩٨).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ ؛ الـلامُ لام القَسَمِ؛ والنونُ توكيدُ القسمِ، تقديرُهُ: واللهِ لتجدنَّهم يا مُحَمَّدُ -يعني اليهودَ -. ومعنى الآية: لتعلمنَّ اليهودَ أحرصَ الناس على البقاء. وفي مُصحف أُبَيٍّ: (عَلَى الْحَيَاةِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنه متصلٌ بالكلام الأول؛ معناهُ: وأحرصَ مِن الذين أشركوا. قال الفرَّاء: (وَهَذَا كَمَا يُقَالُ: هُوَ أَسْخَى النَّاسِ وَمِنْ حَاتِمٍ؛ أيْ وَأَسْخَى مِنْ حَاتِمٍ). وَقِيْلَ: هو ابتداءٌ؛ وتمام الكلام عند قولِهِ: (حَيَاةٍ). ثم ابتدأ بواو الاستئناف وأضمر (يَوَدُّ) اسْماً تقديرهُ: ومِن الذين أشركوا قومٌ، ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ﴾ . وَقِيْلَ: معناهُ: ولتجدنَّهم أحرصَ الناس على حياةٍ وأحرصَ مِن الذين أشركوا؛ وأرادَ بالذين أشركوا الْمَجُوسَ ومَن لا يؤمنُ بالبعثِ. وقَوْلُـهُ: ﴿ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ؛ أي أنْ يعمَّر. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ ؛ أي وما أحدُهم بمباعِدِهِ من العذاب تعميرُهُ، ولا التعميرُ بمباعدهِ من العذاب. ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ تَمامُ الآية مفسَّر.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ، قال ابنُ عبَّاس: إنَّ حَبْراً مِنَ الأَحْبَار عَالِماً مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ، يُقَالُ لَـهُ ابْـنُ صُورِيَا، قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: كَيْفَ نَوْمُكَ؟ فَإنَّا نَعْرِفُ نَوْمَ النَّبِيِّ الَّذِي يُجْتَبَى فِي آخِرِ الزَّمَان، قَالَ: [تَنَامُ عَيْنَايَ وَقَلْبِي يَقْظَانُ] قَالَ: صَدَقْتَ. فَأَخْبِرْنَا عَنِ الْوَلَدِ أمِنَ الرَّجُلِ أمْ مِنَ الْمَرْأةِ؟ قَالَ: [أمَّا الْعَظْمُ وَالْعَصَبُ وَالْعُرُوقُ فَمِنَ الرَّجُلِ؛ وَأمَّا اللَّحْمُ وَالدَّمُ وَالظُّفْرُ وَالشَّعْرُ فَمِنَ الْمَرْأةِ]. قَالَ: صَدَقْتَ. فَمَا بَالُ الْوَلَدِ يُشْبِهُ أعْمَامَهُ لَيْسَ فِيْهِ شَبَهٌ مِنْ أخْوَالِهِ، وَيُشْبِهُ أخْوَالَهُ لَيْسَ فِيْهِ شَبَهٌ مِنْ أعْمَامِهِ؟ فَقَالَ: [أيُّهُمَا عَلاَ مَاؤُهُ عَلَى مَاءِ صَاحِبِهِ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ] قَالَ: صَدَقْتَ. بَقِيَتْ خِصْلَةٌ إنْ قُلْتَهَا آمَنْتُ بكَ وَاتَّبَعْتُكَ! أيُّ مَلَكٍ يَأْتِيْكَ بالْوَحْيِ؟ قَالَ: [جِبْرِيْلُ] قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّنا. يَنْزِلُ بالْقِتَالِ وَالشِّدَّةِ وَرَسُولُنَا مِيْكَائِيْلُ يَنْزِلُ بالسُّرُورِ وَالرَّخَاءِ، فَلَوْ كَانَ مِيْكَائِيْلُ هُوَ الَّذِي يَأْتِيْكَ آمَنَّا بكَ وَصَدَّقْنَاكَ. فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: إشْهَدُوا أنَّ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيْلَ فَإنَّهُ عَدُوٌّ لِمِيْكَائِيْلَ. فَقَالَ: لاَ نَقُولَنَّ

هَذَا. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ(١).

وقال مقاتلُ: إنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ: إنَّ جِبْرِيْلَ عَدُوُّنَا أُمِرَ أنْ يَجْعَلَ النُّبُوَّةَ فِيْنَا فَجَعَلَهَا فِي غَيْرِنَا. وقالَ قتادةُ وعكرمةُ والسديُّ: كَانَ لِعُمَرَ ﷺ أرْضٌ بأَعْلَى الْمَدِيْنَةِ؛ مَمَرُّهَا عَلَى مَدَارِسِ الْيَهُودِ، وكَانَ عُمَرُ إذا أتَى أرْضَهُ يَأْتِيهِمْ وَيَسْمَعُ مِنْهُمْ وَيُكَلِّمُهُمْ، فَقَالُوا: يَا عُمَرُ مَا فِي أصْحَابِ مُحَمَّدٍ أحَبُّ إلَيْنَا مِنْكَ؛ إنَّهُمْ يَمُرُّونَ بنَا فَيُؤْذُونَنَا وَأنْتَ لاَ تُؤْذِيْنَا وَإنَّا لَنَطْمَعُ فِيْكَ! فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: (مَا أحْبَبْتُكُمْ كَحُبكُمْ إيَّايَ وَلاَ أسْأَلُكُمْ إنِّي شَاكٌّ فِي دِيْنِي، وَإنَّمَا أدْخُلُ إلَيْكُمْ لأَزْدَادَ بَصِيْرَةً فِي أمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأرَى آثَارَهُ فِي كِتَابكُمْ). فَقَالُوا: مَنْ صَاحِبُ مُحَمَّدٍ الَّذِي يَأْتِيْهِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؟ قَالَ: (جِبْرِيْلُ) قَالُوا: ذاكَ عَدُوُّنَا يُطْلِعُ مُحَمَّداً عَلَى سِرِّنَا وَهُوَ صَاحِبُ كُلِّ عَذَابٍ وَخَسْفٍ وَشِدَّةٍ؛ وَإنَّ مِيْكَائِيْلَ إذا جَاءَ؛ جَاءَ بالْخَصْبِ وَالسَّلاَمَةِ. فَقَالَ عُمَرُ: (تَعْرِفُونَ جِبْرِيْلَ وَتُنْكِرُونَ مُحَمَّداً ﷺ!) قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: (أنَا أشْهَدُ أنَّ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيْلَ فَهُوَ عَدُوٌّ لِمِيْكَائِيْلَ؛ وَمَنْ كَانَ عَدُوّاً لَهُمَا فَاللهُ عَدُوٌّ لَهُ). ثُمَّ رَجَعَ عُمَرُ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ جِبْرِيْلَ قَدْ سَبَقَهُ بالْوَحْيِ؛ فَقَرَأ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَاتِ. وَقَالَ: [لَقَدْ وَافَقَكَ رَبُّكَ يَا عُمَرُ]. فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: (لَقَدْ رَأيْتُنِي فِي دِيْنِ اللهِ بَعْدَ ذَلِكَ أصْلَبَ مِنَ الْحَجَرِ)(٢).

قال اللهُ تعالى تَصديقاً لعمر: (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيل) أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: مَن كان عدُوّاً لجبريلَ. وإذ هو الْمُنْزِلُ للكتاب عليَّ، فإنه إنَّما أنزله على قلبي بأمرِ الله لا مِن تلقاء نفسه، وإنَّما أنزلَ ما هو، ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، من الكتُب التي في أيديكم، لا مكذِّباً لَها، وإنه وإنْ كان فيما أنزلَ الأمرُ بالحرب والشدَّة على الكافرين، ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ . وَقِيْلَ: معناهُ: على وجهِ التَّرْغِيْمِ؛ أي فإنَّ جبريلَ هو الذي نزَّلَ عليك رُغْماً لَهم.

---

(١) أصله من حديث رسول الله ﷺ. أخرجه أحمد في المسند: ج ١ ص٢٧٨، والطبراني في المعجم الكبير: ج ١٢ ص١٩٠-١٩١: الحديث (١٣٠١٢). وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ٨ ص٢٤٢؛ قال الهيثمي:(رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات).

(٢) أخرج أصوله الطبري في التفسير: النص(١٣٣٠ و١٣٣١ و١٣٣٣ و١٣٣٦ و١٣٣٧).

وفي جبريلَ سبعُ قراءات: (جَبْرَئِيْلُ) مهموزٌ مشبع مفتوح الجيم والراء؛ وهي قراءةُ حمزة والكسائي وخلف. قال الشاعرُ[١]:

شَهِدْنَا فَمَا تَلْقَى لَنَا مِنْ كَتِيْبَةٍ مَدَى الدَّهْرِ إلاَّ جَبْرَئِيْلُ أمَامُهَا

و(جَبْرَاييْلُ) ممدودٌ مشبع على وزن جبراعيل؛ وهي قراءةُ ابن عبَّاس وعلقمة ابن وثاب. و(جَبْرَائِلُ) ممدود مختلس على وزن جبراعل؛ وهي قراءةُ طلحةَ بن مصرف. و(جَبْرَئِلُ) مقصورٌ مهموز مختلس، وهي قراءةُ يحيى بن آدم. و(جَبْرَالٌّ) مقصورٌ مشدَّد اللام من غيرِ ياء؛ وهي قراءةُ يحيى بن يعمر. و(جَبْرِيْلُ) بفتح الجيمِ وكسر الراء من غير همزة؛ وهي قراءةُ ابن كثير. و(جِبْرِيْلُ) بكسرِ الجيم والراء من غيرِ همزة؛ وهي قراءةُ عليٍّ ﷺ وابنِ المسيَّب والحسن وأهلِ البصرة والمدينة. وقد رُوي ذلك عن النبيِّ ﷺ.

و(جِبْرِيْلُ) بلغة السِّريانية: عبدُالله. وإن (جَبْرَ) هو العبدُ، و(إيْلُ) هو اللهُ[٢]. وعن معاذٍ ﷺ قال: (إنَّمَا جِبْرِيْلُ وَمِيْكَائِيْلُ كَقَوْلِكَ: عَبْدُاللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ)[٣]. وَقِيْلَ: جبريلُ: مأخوذ من جَبَرُوتِ اللهِ؛ وميكاييلُ من مَلَكُوتِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبك) يعني: فإنَّ جبريلَ (نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبك). (عَلَى) كنايةٌ عن غيرِ مذكور كقولهِ تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾[٤] و﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[٥] يعني الشمسَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ معناهُ: مَن كَانَ عدُوّاً لهؤلاءِ فليكُنْ، وهذا على التهديدِ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾، يعني اليهودَ. وإنَّما قال: (عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) ولَم يقل: عدوٌّ لَهم؛

(١) نسبه ابن منظور في لسان العرب: (جبر) إلى كعب بن مالك. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص٣٧؛ قال القرطبي: ((وهي لغة تميم وقيس)).

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص٢٢٥؛ نقله السيوطي قال: ((أخرجه ابن أبي الدنيا عن ابن عباس)).

(٣) في الدر المنثور؛ قال السيوطي: ((أخرجه الديلمي عن أبي أمامة)).

(٤) فاطر / ٤٥.

(٥) ص / ٣٢.

لأنه لو قال ذلكَ لَم يُعلم بذلكَ أن عداوةَ جبريل تكون كُفراً، بل كان يجوزُ أن يتوهَّم متوهِّمٌ أن عداوةَ جبريل فِسْقاً ولا تكونُ كُفراً؛ فأزالَ اللهُ هذا الإشكالَ.

وفي ميكائيل أربعُ لغات: ممدودٌ مشبع على وزن ميكاعيل؛ وهي قراءةُ أهلِ مكَّة والكوفة والشَّام. و(مِيْكَائِلَ) ممدودٌ مهموز مختلس مثل ميكاعل؛ وهي قراءةُ أهل المدينة. (ومِيْكَئِل) مهموز مقصور على وزن ميكعل؛ وهي قراءةُ الأعمش وابن محيصن. و(مِيْكَالَ) بغيرِ همز؛ وهي قراءةُ أبي عمرو.

و(مِيْكَائِيْل) معناهُ عبدُالله. (مِيْكَ) عبدٌ؛ و(ايل) هو اللهُ. وكذلك (إسرائيلُ) وهذه أسماءُ أعجميَّة رُفعت إلى العرب فلَفَظَتْ بها ألفاظٌ مختلفة. فإنَّما عطف جبرائيل وميكائيل على الملائكةِ بعد دخولِهما في اسمِ الملائكة؛ لفضيلَتهما، مثلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ الآية[1]. ومعنى الآيةِ: مَن كان عدُوّاً لأحدٍ من هؤلاء فإنَّ الله عدوٌّ له. الواوُ فيه بمعنى (أو). يعني: مَن كفرَ بالله أو ملائكتهِ أو كتبهِ؛ لأن الكافرَ بالواحدِ كافرٌ بالكلِّ.

فقال ابن صوريا: يا مُحمَّد مَا جِئْتَنَا بشيءٍ نعرفهُ؟ وما أنزلَ اللهُ عليك من آيةٍ بيِّنة! فأنزلَ اللهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ ؛ أي واضِحات مفصَّلاتٍ بالحلال والحرامِ؛ والحدودِ؛ والأحكامِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ (٩٩)﴾ ؛ وهم اليهودُ وغيرُهم؛ سَمَّى الكفرَ فِسْقاً؛ لأن الفسقَ الخروجُ عن الشيء إلى شيءٍ؛ واليهودُ خرجوا من دِينهم بتكذيب النبيِّ ﷺ، والفاسقون هم الخارجونَ عن أمرِ الله.

---

(١) الأحزاب/ ٧: ﴿... وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص٢٣٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس)). وأخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان: النص (١٣٥٩). وفي السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص١٩٦: ما نزل في ابن صوريا، وهو عبدالله بن صوريا الأعور الفطيوني من أحبار يهود: ج ٢ ص١٩٨ السيرة النبوية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا ﴾ ، (واو) العطفِ دَخلت عليها الألفُ ألفُ الاستفهامِ كما تدخلُ على الفاء في قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿أفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾[١] ﴿أفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أوْلِيَاءَ﴾[٢]. وعلى (ثُمَّ) كقولهِ: ﴿أثُمَّ إذَا مَا وَقَعَ﴾[٣].

قرأ أبو السمَّال[٤] (أوْ كُلَّمَا) ساكنة الواو على النسق. و(كُلَّمَا) انتصبَ على الظرفِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (عَاهَدُوا عَهْدًا) يعني اليهودَ. قال ابنُ عبَّاس:[لَمَّا ذكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَهُمْ مَا أخَذَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَمَا عَهِدَهُ إلَيْهِمْ فِيْهِ؛ قَالَ مَالِكُ ابْنُ الْمُصَيْفِي[٥]: وَاللهِ مَا عُهِدَ إلَيْنَا فِي مُحَمَّدٍ عَهْداً وَلاَ مِيْثَاقاً. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ][٦]. تُوَضِّحُهُ قراءةُ ابنِ رجاءٍ أبي العطارديِّ: (أوَكُلَّمَا عُوهِدُواْ عَهْداً) فجعلَهم مفعولين. ودليلُ هذا التأويلِ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَإذْ أخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ الآية[٧].

وقال بعضُهم: هو أن اليهودَ عاهَدُوا: لئِنْ خرجَ مُحَمَّدٌ لنؤمننَّ به ولنكوننَّ معه على مشركي العرب ونَنفُوهم من بلادهم. فلما بُعث نقضُوا العهدَ وكفروا به، دليلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي طرحوهُ وراءَ ظهورهم. ﴿ نَّبَذَهُۥ ﴾ ؛ أي طرحَهُ ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ ؛ أي طرحوهُ كأنَّهم لا يعلمون صِدْقَ ما جاء به النبيُّ ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ أي أنَّهم يعلمون ذلكَ ولكنَّهم تجاهلوهُ كأنَّهم لا يعلمونَ.

---

(١) الزخرف / ٤٠. (٢) الكهف / ٥٠. (٣) يونس / ٥١.

(٤) أبو السمَّال العدويُّ: وقراءة (أوَ) ساكنة الواو تجيء بمعنى (بل) كما يقول القائل: لأضربنك؛ فيقول المجيب: أوَيكفي اللهُ.

(٥) هكذا في المخطوط؛ وفي السيرة النبوية: (مالك بن الصيف)، وقال القرطبي: ((ويقال فيه: مالك ابن الصيف)).

(٦) أخرجه ابن إسحق في السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص١٩٦. وأسند ابن جرير الطبري عنهما بإسناده إلى ابن عباس في جامع البيان: ج ٤ ص٦٢٠: النص (١٣٦٠).

(٧) آل عمران / ١٨٧.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، يعـني التـوراة، ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ يعني القرآن؛ وقيل: التوراة أيضاً؛ لأنَّهم إذا نبذوا القرآنَ فقد نبذوا التوراة. والنَّبْذُ: الطَّرْحُ. وقرأ ابن مسعود: (نَقَضَـهُ فَرِيْـقٌ). وقال عطاءُ: (هِيَ الْعُهُودُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُول اللهِ ﷺ وَبَيْـنَ الْيَـهُودِ كَفِعْلِ قُرَيْظَـةَ وَالنَّضِيْرِ). والدليلُ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُـونَ عَـهْدَهُمْ فِـي كُـلِّ مَرَّةٍ﴾[1] وكانوا قد عاهَدوا النَّبيَّ ﷺ أن لا يعينُوا عليه أحداً؛ فنقضوا وأعانوا مشركي قريش عليه يومِ الخندق. وإنَّما قال: (فَرِيْقٌ مِنْهُمْ) لأن علماءَهم هم الذين نبذوا عناداً مع العلم به؛ وإنَّما قال: (بَلْ أَكْثَرُهُمْ) لأنَّ منهم مـن آمـنَ وهـو ابـنُ سـلام وكعـبُ الأحبار وغيرهما.

والنبذُ وراءَ الظَّهر مثل من يستخِفُّ بالشيء ولا يعملُ به. تقول العربُ: اجعل هذا خلفَ ظهرك؛ وتحت قدمِكَ؛ ودُبُرَ أذنك؛ أي اتركهُ وأعرِض عنه، قال اللهُ تعـالى: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾[2]. وأنشد الزجَّاج[3]:

نَظَـرْتَ إلَـى عِنْوَانِـهِ فَنَبَذْتَـهُ كَنَبْـذِكَ نَعْـلاً أَخْلَقَـتْ مِـنْ نِعَالِكَـا

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ ؛ يعني اليهود. وهو عطف على (نَبَذَ فَرِيْقٌ) كأنه قال[4]: انبذوا كتابَ الله واتَّبعوا ما تتلوا الشياطينُ من السِّـحر، ﴿ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾ ؛ ومعنى (مَا تَتْلُـو) يعـني مـا تَلَـتْ قبلـهم شـياطينُ الجـن والإنس (عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) أي على عهدِ ملك سليمان، قيل: معنى تتلو تكـذبُ، يقـال: فلان تَلاً من فلان؛ إذا صدَقَ في الحكاية عنه، وتلى عليهِ إذا كذبَ عليه؛ كما يقال: تالٍ عنه وتالٍ عليه.

وقال ابنُ عبَّاس: (تَتْلُو؛ أيْ تَتْبَعُ وَتَعْمَلُ). وقال عطاءُ: (تَتَحَدَّثُ وَتَتَكَلَّمُ بـهِ). وقرأ الحسنُ: (الشَّيَاطُونُ) بالواو في موضع الرفعِ في كـلِّ القـرآن. وسُئل أبـو حـامد

(١) الأنفال / ٥٦. (٢) هود / ٩٢.
(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢ ص٤٠: قال أبو الأسود.
(٤) أي قال الفريق من اليهود.

الخارجي عن قراءة الحسنِ هذه فقال: (هِيَ لَحْنٌ فَاحِشٌ عِنْدَ أكْثَرِ أهْلِ الأَدَب). غـيرَ أن الأصمعيَّ زعم أنه سَمِعَ أعرابياً يقول: بُسْتَانُ فلان حَوْلَهُ (بَسَاتُون).

وقصةُ ذلك: أن الشياطينَ كتبوا السحرَ والنيرنجات على لسان آصف: هـذا مـا علَّم آصف بن برخيا سليمان الملك. ثم دفنوها تحت مُصَلاَّهُ حـين نـزعَ الله مُلكـه ولم يشعر بذلك سليمان. فلما مات عليه السلام استخرجوها من تحتِ مُصَـلاَّهُ وقـالوا للنـاس: إنَّما مَلَكَكُمْ سليمانُ بهذا، فتعلموهُ. وأما علماء بني إسرائيل وصلحاؤُهم فقالوا: معاذ الله أن يكون هذا علمُ سليمان؛ فلا نتعلمهُ.

وأما السَّفَلَةُ فقالوا: هذا عِلـمُ سـليمان وأقبلـوا علـى تَعَلُّمِـهِ؛ ورفضـوا كُتُـبَ أنبيائهم وقالوا: إنَّما تَمَّ ملكهُ بالسِّحرِ وبه سحرَ الجن والإنـس والطـير والريـاح. فلـم يزالوا على ذلك الاختلافِ وفَشَتِ الْمَلاَمَةُ لسليمان حتى بعث الله تعالى مُحَمَّداً ﷺ وأنزل عذرهُ على لسانه وأظهر براءتهُ مما رُمِي بـه مـن الكفـر تكذيبـاً لليـهود، فقـال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَطِينَ كَفَرُوا ﴾ ؛ أي هم الذين كتبوا السحرَ وهم الذين يعلِّمونه الناسَ. هذا قولُ الكلبي.

وقال السديُّ: كانت الشياطينُ تصعدُ إلى السماء فتقعـد منـها مقـاعدَ للسـمع؛ فيسمعون كلام الملائكة فيما يكـون في الأرض مـن مـوتٍ أو غـيره؛ فيـأتون الكهنـةَ فيخلطون بما سمعوا كذباً وزوراً في كلِّ كلمة سبعين كذبة. ويخبرونَهم بذلك؛ فالتفت الناس إلى ذلك وفشَى في بني إسرائيل أن الجنَّ تعلم الغيبَ. فبعث سليمانُ في النـاس وجمعَ تلك الكتب وجعلها في صندوق ودفنها تحت كرسيِّه، وقـال: (لاَ أسْمَعُ أحَداً يَقُولُ إنَّ الشَّيَاطِيْنَ تَعْلَمُ الْغَيْبَ إلاَّ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ). فلمـا مـاتَ سـليمان صَلَـوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ ضَلَّ الناسُ وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمرَ سليمان. فتمثَّلَ شيطانٌ على صورة إنسان، وأتى نَفَراً من بني إسرائيلَ، وقال:هل أدلُّكم على كنْزٍ؟قالوا: نَعَمْ، قال: احفروا تحت الكرسيِّ، وذهبَ معهم فأراهم المكانَ فحفـروا فوجـدوا تلـك الكُتُـبَ؛ فلما أخذوها، قال الشياطينُ: إن سليمانَ كان يضبط الجنَّ والإنـسَ والشـياطين بـهذه الكتب، وأفشَى في الناس أن سليمانَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ كـان سَـاحراً. واتخـذ بنُـو إسرائيلَ الكتبَ. ولذلـك أكـثرُ مـا يوجـدُ السـحرُ في اليـهود. فلمـا جـاءَ محمَّـد ﷺ

خاصمت اليهودُ بذلك، فَبَرَّأ الله سليمانَ وأنزل هذه الآيـة. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (وَمَـا كَفَـرَ سُلَيْمَانُ) أي بالسِّحرِ؛ فإن السحرَ كفرٌ (وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا)[1].

قرأ أهلُ الكوفة إلا عاصماً؛ وأهـلُ الشـام بتخفيـفِ النـون ورفـعِ الشـياطين؛ وكذلكَ في الأنفال: ﴿وَلَكِنِ اللهُ قَتَلَهُمْ﴾ ﴿وَلَكِنِ اللهُ رَمَى﴾[2]. وقرأ الباقون بالتشـديدِ ونصب ما بعده.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ ؛ قـال بعضُـهم: السِّـحْرُ: العلـمُ والحذقُ بالشيء؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾[3] أي العالِمُ. وقال بعضُهم: هو التَّمْوِيْهُ بالشيء حتى يُتَوهَّمَ أنه شيء ولا حقيقةَ له كالسراب عندَ مَن رآهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ ، محَلُّ (ما) نُصِـبَ بإيقـاعِ التعليم عليه، معناه: ويعلِّمون الذي أنزل على الملَكين. ويجوزُ أن يكون نصباً بالاتباعِ؛ أي واتبعوا ما أنزل على الملَكين. قرأ ابنُ عباس والحسنُ والضحاك ويحيى وابن كثير: بكسرِ اللام من (الْمَلِكَيْنِ) وقال: هما رجُلان سـاحران كانـا ببَـابلَ؛ لأن الملائكـةَ لا يعلمونَ الناس السحرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِبَابلَ ﴾؛ هي بابلُ العراق. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ﴾ اسمان سريانيَّان؛ وهما في محَل الخفض على تفسير الْمَلَكَيْـنِ بـدلاً منـهما، إلا أنَّـهما فُتِحا لعجمتهما ومعرفتهما. وكانت قصتُهما على ما حكاهُ ابن عباس والمفسـرونَ: أن الملائكةَ رأوا ما يصعدُ إلى السماء من أعمالِ بني آدمَ الخبيثة وذنوبـهم الكثـيرة وذلـك زمـنَ إدريـس ، فعـيَّروهم بذلـك؛ وقـالوا: هـؤلاءِ الذيـن جَعَلْتَـهُمْ في الأرض واخترتَهم؛ فهم يعصونك! فقال اللهُ تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرضِ وركَّبت فيكـم مـا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٣٦٦).

(٢) الآية / ١٧.

(٣) الزخرف / ٤٩.

(٤) طه / ٦٦.

ركَّبت فيهم لارتكبتُم ما ارتكبوا. فقالوا: سبحانَكَ ما كان ينبغي لنا أن نعصيك. قال اللهُ تعالى: فاختاروا مَلِكَيْنِ من خياركم؛ أهْبِطْهُمَا إلى الأرض. فاختاروا هَارُوتَ وَمَارُوتَ؛ وكانا من أعْبَدِ الملائكةِ وأصلَحِهم. فركَّب الله فيهما الشهوةَ وأهْبَطَهما إلى الأرضِ؛ وأمرَهُما أن يحكُمَا بين الناس بالحقِ؛ ونهاهما عن الشركِ والقتل بغيرِ حقٍّ والزنا وشرب الخمر، فكانا يقضيان بين الناس يومَهما، فإذا أمسيَا ذكرَا اسمَ اللهِ الأعظم، وصُعد به إلى السماء.

قال قتادةُ: فما مرَّ عليهما شهرٌ حتى افتُتِنا، وذلك أنه اختصم إليهما ذاتَ يوم الزُّهْرةُ؛ وكانت مِن أجملِ النساء، وكانت من أهلِ فارسَ، ملكةٌ في بلدها. فلما رأيَاها أخذت بقلوبهما فراوَدَاها عن نفسِها فأبَتْ وانصرفت؛ ثُمَّ عادت في اليومِ الثاني ففعلاَ مثلَ ذلك، فأَبَتْ وقالت: لاَ؛ إلاَّ أن تعبدوا ما أعبدُ وتصلِّيا لِهذا الصنَم؛ وتقتُلا النفسَ؛ وتشربا الخمرَ. فقالا: لاَ سبيلَ إلى هذا، فإنَّ الله تعالى نَهانا عنها؛ فانصرفَتْ. ثم عادت في اليومِ الثالث ومعها قدحٌ من الخمرِ وفي أنفسِهما من الْمَيْلِ إليها ما فيها، فراوَدَاها عن نفسِها؛ فعرضَتْ عليهما ما قالت بالأمسِ فقالا: الصلاةُ لغيرِ الله عظيمٌ؛ وقتلُ النفس عزيزٌ؛ وأهونُ الثلاثة شربُ الخمرِ؛ فشربا فَانْتَشَيَا ووقَعَا بالمرأةِ وَزَنَيَا، فلما فرغَا رآهما إنسانٌ فقتلاَهُ. قال الربيعُ بن أنس: وسَجَدَا للصنمِ. فمسخَ الله عَزَّ وَجَلَّ الزُّهْرَةَ كوكباً.

وقال السديُّ والكلبيُّ: إنَّهما لَمَّا قالت لهما: لن تدركانِي حتى تُخبراني بالذي تصعدانِ به إلى السماءِ؟ فقالا: بالاسمِ الأكبر. فقالت: ما أنْتُما مدركانِي حتى تُعَلِّمَانِيه؟ قال أحدُهما للآخر: علِّمها؟! قال: إني أخافُ الله. قال الآخر: فأينَ رحمةُ الله؟ فعلَّماها ذلك فتكلمت به وصعدت إلى السماءِ؛ فمسخَها الله كوكباً. فعلى قول هؤلاء: هي الزهرةُ بعينها، وقيَّدوها فقالوا: هي الكوكبُ الأحمر.

يدلُّ على صحة هذا القول ما رويَ عن عليٍّ ﷺ قال: [كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذَا رَأى سُهَيْلاً قَالَ: لَعَنَ اللهُ سُهَيْلاً إنَّهُ كَانَ عَشَّاراً باليَمَنِ، وَإذَا رَأى الزُّهْـرَةَ قَالَ: لَعَنَ

اللهُ الزُّهْرَة، فَإِنَّهَا فَتَنَتْ مَلَكَيْن][١]. وكان ابنُ عمر رضي الله عنهما إذا رأى الزهرة قال: (لاَ مَرْحَباً وَلاَ أهْلاً)[٢]. وعن ابنِ عباس: أنَّ المرأةَ التي فَتَنَتْ هاروت وماروتَ مُسخت، فهي هذا الكوكبُ الحمراء. يعني الزُّهرة.

وأنكرَ الآخرون هذا؛ وقالوا: إن الزهرةَ من الكواكب السبعة السيارة التي أقسمَ اللهُ تعالى بها؛ فقالَ: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾[٣] وإنَّما المرأةُ التي فَتَنَتْ هاروتَ وماروت كان اسْمُها زَهْرَةٌ من جَمالها؛ فلما رأى رسولُ الله ﷺ الزهرةَ ذكرَ هذه المرأةَ لِموافقة الاسمين؛ فَلَعَنَهَا. وكذلك سهيلٌ كان رجُلاً عشَّاراً باليمن فلما رأى رسولُ الله ﷺ النجمَ ذكرهُ؛ فلعنَهُ؛ واللهُ تعالى أعلمُ.

قال المفسرون: فلمَّا أمسَى هاروتُ وماروت بعدما أصابَا الذنبَ هَمَّا بالصعودِ إلى السماءِ فلم تطاوعْهُما أجنحتُهما، فعَلِمَا ما حَلَّ بهما، فقصدا إدريسَ النَّبيَّ ﷺ فأخبراهُ بأمرهما وأمَرَاهُ أن يشفعَ لهما؛ وقالا: إنا رأيناك يصعدُ لك من العبادةِ مثلَ ما يصعدُ لجميع أهل الأرض، فاشفَعْ لنا إلى رَبكَ؟ ففعلَ إدريسُ؛ فخيَّرهما اللهُ تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرةِ، فاختارَا عذابَ الدنيا؛ إذ عَلِمَا أنه ينقطعُ، فهما ببَابلَ يُعَذَّبَان.

واختلفَ العلماءُ في عذابهما؛ فقال ابن مسعود: (هُمَا مُعَلَّقَان بشُعُورهِمَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ). وقال قتادةُ: (كُبلاَ مِنْ أقْدَامِهِمَا إلَى أصُول أفْخَاذِهِمَا). وقال مجاهدُ: (أنَّ جُبّاً مُلِيَتْ نَاراً فَجُعِلاَ فِيْهَا). وقيل: معلقان مُنَكَّسَان بالسلاسل. وقيل: منكوسان يُضربان بسياط الحديد.

وروي أنَّ رجُلاً أراد تعلُّمَ السحر فقصدَهما؛ فوجدهما معلَّقين بأرجُلِهما؛ مُزْرَقَّة أعينهما؛ مسودَّة وجوههما؛ ليس بين ألسِنَتهما وبين الماءِ إلا قدرُ أربعِ أصابع وهما معذَّبان بالعطش؛ فلما رأى ذلك هَالَهُ مكانُهما؛ فقال: لاَ إله إلا اللهِ. فلما سَمعا كلامهُ، قالا: مَنْ أنْتَ؟ قال: رجلٌ من الناس. قالوا: ومن أيِّ أمَّةٍ؟ قال: من أمَّةِ محمدٍ

---

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة: الرقم (٦٤٤). وفي كنز العمال: الرقم (١٨٤٥٧).

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص٢٣٨؛ قال السيوطي: ((أخرج سعيد وابن جرير والخطيب في تاريخه)).

(٣) التكوير / ١٥.

ﷺ. قالا: أوَقَدْ بُعث محمدٌ؟ قال: نَعَمْ. قالا: الحمدُ لله وأظهرا الاستبشارَ. وقال الرجل: وممَّ استبشارُكما؟ قالا: إنه نَبيُّ الساعةِ، وقد دَنَا انقضاءُ عذابنا.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ ؛ يعني الملَكين؛ و (مِنْ) صلةٌ؛ أي لا يُعلِّمان أحداً السحرَ، ﴿حَتَّى﴾ ؛ ينصحاهُ أولاً وينهياه و﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ، ومحنةٌ؛ ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ ، بتعلُّم السحر. يقولان له ذلك سبعَ مرَّات. قال السديُّ وعطاء: (فإنْ أبَى إلاَّ التَّعَلُّمَ! قالاَ لهُ: ائْتِ هَذِهِ الرَّمَادَ فَبُلْ عَلَيْهِ؛ فَإذَا بَالَ عَلَيْهِ خَرَجَ مِنْهُ نُورٌ يَسْطَعُ فِي السَّمَاءِ؛ فَتِلْكَ الْمَعْرِفَةُ. وَيَنْزِلُ شَيْءٌ أسْوَدُ حَتَّى يَدْخُلَ مَسَامِعَهُ يُشْبهُ الدُّخَانَ؛ وَذلِكَ غَضَبُ اللهِ).

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: (إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ) (إنَّمَا) وحَّدها لأنَّها مصدرٌ؛ والمصدر لا يثنَّى ولا يُجمع مثل قوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾[1]. وفي مصحف أبي: (وَمَا يُعَلِّمُ الْمَلَكَان مِنْ أحَدٍ). وتعلُّم السحر لا يكون إثماً؛ كمن يقولُ لرجلٍ: علِّمني ما الزِّنا، وما السَرِقةُ؟ فيقول: هو كذا وكذا؛ ولكنه حرامٌ فلا تفعلْهُ. وهما كانا لا يَصِفَان السحرَ لأحد حتى يقولا: إنَّما نحنُ اختبار وابتلاء للناس؛ فلا تَكْفُرْ أيها المتعلِّمُ؛ أي لا تتعلَّم للعملِ به.

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قالت: قَدِمَتْ عليَّ امرأة من أهل دَوْمَةِ الْجَنْدَلَ تَبْغِي رسولَ الله ﷺ بعد موته لتسألَهُ عن شيء دخلت فيه من أمر السِّحْرِ ولم تعملَ به، فلما لم تَجِدْ رسولَ الله ﷺ بكت حتى رحمتُها، وقالت: إنِّي أخافُ أنَ أكون قد هلكتُ؛ كان لي زوجٌ فغاب عنِّي، فدخلتُ على عجوز فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلتِ ما آمُرك فأجعله يأتيك. فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين فركبَتْ أحدهما وركبْتُ الآخرَ، فلم يكن كثيراً حتى وقفنا ببَابلَ، فإذا برجلين معلَّقين بأرجلهما، فقالا: ما جاءَ بكنَّ؟ قلتُ: لنتعلَّم السحرَ، فقالا: إنَّما نحنُ فتنة فلا تَكْفُري وارجعي، فقلت: لاَ، قالا: إذهبي إلى ذلك التنُّور؛ فبولِي فيه. فذهبتُ ففزعتُ ولم أفعل فجئتُ إليهما، فقالا لي: فعلتِ؟ فقلت: نعم، فقالا: هل رأيتِ شيئاً؟ قلتُ: لاَ، قالا: كذبتِ، إنك لم تفعلي، ارجعي إلى بلادِك، إنَّما نحنُ فتنةٌ فلا تكفري. فأبيتُ، قالاَ: إذهبي إلى تلك التنُّور فبولِي فيه، فذهبتُ فاقشعرَّ جِلدي فرجعتُ إليهما، فقلت:

---

(١) البقرة / ٧.

قد فعلتُ، قالا: هل رأيتِ شيئاً؟ قلتُ: لاَ، قالا: كذبتِ، لم تفعلي ارجعي إلى بلادك فلا تكفري. فأَبَيْتُ. قالا: إذهبي إلى تلك التنور فبولِي فيه، فذهبتُ فبلت فيه، فرأيت فَارساً مقنَّعاً بحديدٍ خرجَ مني حتى ذهبَ في السماء وغابَ عني حتى لم أره، فجئتهما، فقلتُ: قد فعلتُ، فقالا لي: ما رأيتِ؟ قلتُ: رأيت فارساً مقنَّعاً بالحديد، خرج مني فذهبَ في السماء حتى غابَ، قالا: صدقتِ، ذاكَ إيْمانُك خرجَ منك، إذهبي. فلما رأيتُ أني لا أريدُ شيئاً إلا كانَ سُقِطَ في يدي وندمتُ والله يا أمَّ المؤمنين، ما فعلتُ شيئاً قطْ ولا أفعلهُ أبداً[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ ، قيل: معناهُ: فيعملُ به السامع؛ فيكفُر بالعمل؛ فتقعُ الفرقةُ بينه وبين زوجتِه بالردَّة، إذا كانت مسلمةً. وقيل: معناه: يسعَى بينهما بالنميمةِ والإغراءِ والإفشَاء وتَمويه الباطلِ لكي يبغضَ كلُّ واحد منهما صاحبَه فيفارقه.

قرأ الحسنُ (بَيْنَ الْمَرِّ) بالتشديدِ. وقرأ الزهريُّ: بضمِّ الميم والهمزة. وقرأ الباقون بفتحِ الميم والهمزة. ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ ﴾ ؛ أي بالسحر، ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ ؛ أي أحداً؛ وقولهُ: ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي بعِلْمِهِ وقضائهِ ومشيئته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ ؛ أي يضرُّهم في الآخرةِ ولا ينفعهم في الدنيا. وقيل: معناه: يضرُّهم ولا ينفعُهم كلاهُما في الآخرة؛ لأن السِّحرَ كان ينفعهم في دنياهم، لأنَّهم يكتسبون به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ ﴾ ؛ أي عَلِمَتِ اليهودُ، ﴿ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ ﴾ ؛ أي لمن اختارَ السحرَ والكفْرَ على الإيْمان، ﴿ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ ؛ أي من نصيبٍ. وقال الحسنُ: (مِنْ دِيْنٍ وَلاَ وَجْهٍ عِنْدَ اللهِ)[2]. وقال ابن عباس: (مِنْ قِوَامٍ)[3].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان: النص (١٤٠٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٤٢٦) بلفظ: (ليس له دين).

(٣) قِوَامُ كل شيء: عمادهُ ونظامه؛ وما يقيمُ الإنسان مِن القوتِ. وقوامُ الأمر: ما يقومُ به.

وقيل: من خلاصٍ. قال أمية: يدعون بالويل فيها؛ لا خَلاَقَ لهم إلا السرابيلُ من قَطْرٍ وأغلال؛ أي لا خلاصَ لهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ أي باعوا به أنفسهم؛ حيث اختاروا السحرَ والكفرَ على الدين والحقِّ. وقيل: لبئس ما باعَ المستعملون السحرَ به أنفسهم بعقوبة الآخرة، ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

وذهبَ جماعة إلى أن قوله: (مَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) عطفٌ على (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ) في معنى النفي، كأنه قال: لَم ينْزِلْ على الملَكين ولكن الشياطينَ هاروت وماروت وأتباعَهما يعلّمان الناس السحرَ. والغرضُ من هذه الآية أنْ بُهْتَ اليهود وكذبهم؛ حملَهم على أخذ السحرِ من الشياطين، وادَّعوا أنَّهم أخذوهُ من سليمانَ، وأن ذلك اسمُ الله الأعظم ليكتسبوا به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ ؛ أي لو أن اليهودَ آمنوا بمحمَّد ﷺ والقرآن واتَّقَوا اليهودية والسحرَ، ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ ؛ أي لكان ثوابُ الله خيراً لهم من كسبهم بالكفرِ والسحر. ﴿ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ ؛ وذلك أنَّ المسلمين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: راعِنا يا رسولَ الله، وارعِنا سَمْعَك، يعنون من المراعاةِ؛ وكانت هذه اللفظَةُ شيئاً قبيحاً باليهوديةِ. قيل: كان معناها عندهم اسْمَعْ لا سَمِعتَ؛ فلما سَمِعَهَا اليهودُ اغتنموها؛ وقالوا فيما بينهم: كنَّا نَسُبُّ محمَّداً سراً فأعلِنوا له الآن بالشَّتم، وكانوا يأتونه ويقولون: راعِنا يا محمدُ؛ ويضحكون فيما بينهم. فسمعها سعدُ بن معاذ ﷺ فَفَطِنَ لَها؛ وكان يعرفُ لغتهم، فقال لليهودِ: عليكم لعنةُ الله، والذي نفسي بيده يا معشرَ اليهود لئن نَسْمَعْهَا من رجلٍ منكم يقولُها لرسول الله ﷺ لأضربنَّ عُنُقَهُ. قالوا: أوَلَسْتُمْ تقولونها؟! فأنزلَ الله هذه الآيةَ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا) لكيلا تجدَ اليهودُ سبيلاً إلى سَب رسول الله ﷺ[1].

(١) لباب النقول في أسباب النزول: ص٢٤؛ عزاه السيوطي إلى أبي نعيم أنه أخرجه في دلائل النبوة من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

وقيل معناها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا) للنبيِّ ﷺ (رَاعِنا) أي اسْمَعْ إلينا نَسْتَمِعْ إليكَ. وَقِيْلَ: إنَّ اليهودَ قالوا للنبيِّ ﷺ: إسْمَعْ إلى كلامنا حتى نَسْمَعَ إلى كلامكِ، فنهَى اللهُ عنه؛ إذ لا يجوزُ لأحدٍ أن يخاطِبَ أحداً من الأنبياءِ إلا على وجه التوقيرِ والإعظام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ ؛ يحتملُ أن يكون من النَّظَرِ الذي هو الرؤيةُ، ويحتملُ أن يكون انظرنا حتى تبيِّن لنا ما تعلِّمنا. وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ فَهِّمْنَا). وقال بعضهم: معناه بيِّن لنا. وقَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱسْمَعُواْۗ ﴾ ؛ أي اسمعوا ما تؤمرون به. والمرادُ أطيعوا. وقَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ تفسيره قد تقدَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ ؛ أي ما يتمنَّى الذين كفروا من يهودِ المدينة ونصارى نجران ولا مشركي العرب عبدةَ الأوثان أن ينَزَّل عليكم أيُّها المؤمنون من خيرٍ، ﴿ مِّن رَّبِّكُمْۗ ﴾ ، من الوحْي وشرائع الإسلامِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا الْمُشْرِكِينَ) مجرورٌ في اللفظ بالنَّسق على (مِن)، مرفوع في المعنى بفعلِهِ، كقولهِ: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾[1]. قوله تعالى: (مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِكُمْ) أي خيرٍ كما تقول: ما أتاني من أحدٍ، فـ (مِن) فيه وفي إخوانه صلةٌ، وهي كثيرة في القُرْآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾ ؛ أي يختارُ برحمته للنبوة والإسلام من يشاءُ، ويختصُّ بها مُحَمَّدٌ ﷺ. والاختصاصُ آكَدُ من الخصوص؛ لأن الاختصاصَ لنفسِك؛ والخصوصَ لغيرك، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ على من اختصَّه بالنبوَّة والإسلام.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ ؛ قيل: سببُ نزول هذه الآية: أنَّ اليهودَ كانوا يقولون حين حُوِّلت القبلةُ إلى الكعبة: إنْ كانَ الأولُ حقّاً فقد رجعتُم، وإن كان الثاني حقّاً فقد كنتم على الباطلِ. وقيل: سببهُ: أنَّ اليهود كانوا

---

(١) الأنعام / ٣٨.

يُنْكِرُونَ نسخَ الشرائع؛ ويقولون: إن النسخَ سببُ الندامة، ولا يجوزُ ذلك على الله. فَنَزلت هذه الآية ردّاً عليهم وبيَّن أنه يدبرُ الأمرَ كيف يشاء.

ومعناهُ: ما نُبدِّلْ من آية أو نتركْها غيرَ منسوخة نأت بخيرٍ من المنسوخة؛ أي أكثرُ في الثواب. وقيل: ألْيَنُ، وأسهلُ على الناس؛ أو مثلها في المصلحةِ والثواب. قيل: إن قولَه: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ ، مثل الأمرِ بالقتال؛ فرضَ اللهُ في القتال أوَّل ما فرضَ في الجهاد بأن يكونَ كلُّ مسلم بدل عشرةٍ من الكفار، وكان لا يحلُّ له أن يَفِرَّ من عشرةٍ كما قال تعالى:﴿إنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[1] ثم نُسِخَ بقوله: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ﴾ الآيةَ[2]. ولَم يقل أحدٌ إن بعض آيات القرآن خير من بعض في التلاوة والنظم؛ إذ جميعه معجزٌ.

وأما قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ ؛ فهو مثل آيةُ القِبلة جعلَ الله ثوابَ الصلاةِ إلى الكعبة بعد النسخِ مثلَ ثواب الصلاةِ إلى بيتِ المقدس قبلَ النسخ. وروي أن المشركين: قالوا: ألا تَرَوْنَ إلى مُحَمَّدٍ يأمرُ أصحابَهُ بأمرٍ ثم ينهاهم عنهُ، ويأمرُهم بخلافهِ، ويقول اليومَ قولاً ويرجعُ عنه غداً، ما هذا القرآنُ إلا كلامُ محمَّدٍ يقولهُ من تِلْقَاءِ نفسه، وهو كلامٌ يناقضُ بعضُه بعضاً. فأنزلَ الله تعالى: ﴿وَإذا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إنَّمَا أنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[3].وانزل أيضاً:(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أوْ مِثْلِهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا نَنسَخْ) قرأ ابن عامر (نُنْسِخْ) بضم النون وكسر السين، ومعناه على هذه القراءة نجعله نسخةً من قولك: نسخت الكتابَ؛ إذا كتبتَهُ. وقرأ الباقون: (نَنْسَخْ) بفتح النون والسين.

وقوله (أوْ نُنْسِهَا) قراءة سعيد بن المسيب وشيبة ونافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي (نُنْسِيْهَا) بضم النون وكسر السين، ومعناه: نأمره بتركها. وقرأ أبي

(١) الأنفال / ٦٥.

(٢) الأنفال / ٦٦: ﴿.. وَعَلِمَ أنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإنْ يَكُنْ مِنْكُمْ ألْفٌ يَغْلِبُوا ألْفَيْنِ بِإذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

(٣) النحل / ١٠١.

ابن كعب (أو نُنْسِكْ). وقرأ عبدالله (مَا نُنْسِكْ مِن آيَةٍ أَوْ نَنْسَخْهَا). وقرأ سالِمُ مولَى حذيفةَ: (أو نُنْسِكَهَا). وقرأ أبو حاتم: (أَوْ نُنِسِّهَا) بالتشديد. وقرأ الضحاك: (أَوْ تُنْسَهَا) بضم التاء وفتح السين. وقرأ سعدُ بن أبي وقاص: (أَوْ تَنْسَاهَا) بتاء مفتوحة. وعن القاسمِ بن رُبيعة قال: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ أبي وَقَّاص يَقْرَأُ (أَوْ تَنْسَهَا)، فَقُلْتُ: إنَّ سَعِيْدَ ابْنَ الْمُسَيَّب يَقْرَأُ (أَوْ تَنْسَاهَا) فَقَالَ: (إنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى آل الْمُسَيَّب. قَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى﴾[١] ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذَا نَسِيتَ﴾[٢])[٣].

وقرأ عمرُ بن الخطاب وابن عباس وعطاء وابن كثير وأبو عمرو والنخعي: (أو نَنْسَأْهَا) بفتح النون الأُولى وفتح السين وبعدها همزةٌ مهموزة، ومعناها: نَتْرُكْهَا، يقال: نسيتُ الشيء؛ إذا تركتُه، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[٤] أي فتركَهم. وقيل: معناه نؤخِّرُها فلا نبدلُها ولا ننسخها، يقال: نسأَ اللهُ في أجَلِهِ؛ وأنسأَ اللهُ في أجله، ومنه النسيئةُ في البيع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا) أي بما هو أسهلُ وأنفع وأكثر أجراً، لا أن آية خيرٌ من آيةٍ؛ لأن كلام الله واحد، وكله خير. (أَوْ مِثْلِهَا) يعني في المنفعة والثواب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ أي من النسخ والتبديل. قال الزجَّاج: (لفظه استفهامٌ، ومعناه التوقيفُ والتقرير)[٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي ألم تعلم يا محمدُ أنَّ لهُ مُلْكُ السموات والأرض ومن فيهنَّ، وأنه أعلمُ بوجوه الصلاح فيما يتعبَّده من ناسخ ومنسوخ ومتروكٍ وغير متروكٍ. ويجوزُ أن يكون هذا الخطابُ

(١) الأعلى / ٦. (٢) الكهف / ٢٤.

(٣) في الحجة في القراءات السبعة: ج ١ ص٣٦٤ و٣٦٥؛ قال أبو علي الفارسي: ((رواه هُشَيم وأسنده)). وهشيم هو ابن بشير بن أبي حازم، قاسم بن دينار السلمي (١٠٤-١٨٣) هجرية، مفسر من ثقات المحدثين، له كتاب التفسير، وكتاب السنن في الفقه. وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٤٥٥). (٤) التوبة / ٦٧.

(٥) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ١ ص١٦٨. وأشار المحقق في الهامش إلى النسخة من المخطوط وقال: (التوقيف والتقرير، والمراد التوقيف على العلم، أي قد علمت).

للنبيِّ ﷺ والمراد به غيرُه. كقولهِ تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾[١].

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ، ويجوز أن يكون تطييباً لنفوس المؤمنين، وبياناً أنـه وليُّـهم ونـاصرهم، وأنَّـهم بنصـره إياهم يغلبون من سواهم، ويجوز أن يكون وعيداً لمن لا يؤمنُ بالناسخِ والمنسـوخ، أي ليس لكم قرائبَ تنفعكم ولا مانعَ يمنعُكم من عذاب الله.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ قال ابن عباس: (نَزَلَتْ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ أبي أُمَيَّةَ الْمَخْزُومِيِّ وَفِي رَهْـطٍ مِـنْ قُرَيْشٍ أتوا النَّبِيَّ ﷺ وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إجْعَلْ لَنَا الصَّفَا ذَهَبـاً وَوَسِّـعْ لَنَـا أرْضَ مَكَّـةَ، وَفَجِّرِ الأنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً، وَنَحْنُ نُؤْمِنُ بكَ. وَقَالُوا أيْضاً: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِـنَ لَـكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا، أوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْـهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا﴾[٢] فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٣]. ومعناها: أتريدون، والميم صلـةٌ. وقيـل: معناها: بل؛ وسألوا رؤيةَ اللهِ كما سألَها السـبعونَ رجـلاً مـن بـني إسـرائيل موسَـى. وقوله: (رَسُولَكُمْ) بمعنى مُحَمَّد ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ ؛ أي من يختارُ الكفرَ علـى الإيمـان ويسـتبدلهُ بـه، ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي أخطـأ قصـد الطريق.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا ﴾ ، أنزلت في نفرٍ من اليهودِ؛ قالوا لحذيفةَ بن اليمان وعمار ابن ياسر بعد وقعة أحد: ألَمْ تَرَوا مَا أصَـابَكُمْ؟ وَلَـوْ كُنْتُـمْ عَلَـى الْحَـقِّ مَـا هُزِمْتُـمْ، فَارْجِعُوا إلَى دِيْنِنَا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأفْضَلُ، وَنَحْنُ أهْدَى مِنْكُمْ سَبيْلاً، فَقَالَ لَهُمْ عَمَّارُ: (كَيْفَ نَقْضُ الْعَهْدِ فِيْكُمْ؟) قَالُوا: شَدِيْدٌ. قَالَ: (فَإنِّي عَهِدْتُ أنْ لاَ أكْفُـرَ بمُحَمَّـدٍ ﷺ

---

(١) الطلاق / ١.

(٢) الإسراء / ٩٠-٩١.

(٣) في الدر المنثور: ج ١ ص٢٦٠؛ قال السيوطي: ((وأخرج عبد بن حميـد وابـن جريـر وابـن أبـي حاتم عن مجاهد:... وذكره)). ورواه ابن جرير الطبري في جامع البيان: النص (١٤٧٦).

مَا عِشْتُ) فَقَالَتِ الْيَهُودُ: أمَّا هَذَا فَقَدْ صَبَاً. وقال حذيفةُ: (وَأمَّا أنَا فَقَدْ رَضِيْتُ بِاللهِ رَبّاً وَبِمُحمَّدٍ نَبيّاً وَبالاسْلاَمِ دِيْناً وَبالْقُرْآن إمَاماً وَبالْكَعْبَةِ قِبْلَةً وَبالْمُؤْمِنِيْنَ إخْوَاناً). ثُمَّ أتَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأخْبَرَاهُ بذَلِكَ فَقَالَ: [أصَبْتُمَا الْخَيْرَ وَأفْلَحْتُمَا] فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَاب لَوْ يَرُدُّونَكُمْ) يا معشرَ المؤمنين (مِنْ بَعْدِ إيمَانِكُمْ كُفَّارًا) ونصبَ كُفاراً بالردِّ. وقيل: بالحال. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (حَسَدًا) أي حَسَداً لكم لتشريفِ الله إياكم عليهم بوضع النبوَّة فيكم بعد ما كانَ في بني إسرائيلَ. وانتصبَ (حَسَداً) على المصدر؛ أي يحسدونكم حسداً. وقيل: بنَزْعِ الخافضِ، تقديره: لِلْحَسَدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ ، راجع إلى (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَاب) لا إلى قوله (حَسَداً) لأن حَسَدَ الإنسانِ لا يكونُ إلا من قِبَلِهِ؛ فكأنهُ تعالى بيَّن أن مودَّتهم ردُّكم إلى الكفر؛ لا لأنَّ دينَهم يأمرهم ذلك، ولكن ذلك مِن عند أنفسِهم، ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾ ، في التوراةِ وسائر الكتب: أن مُحَمَّداً ﷺ صِدْقٌ، وأن دينَه حقٌّ. وقيل: معنى (مِنْ عِنْدِ أنفُسِهِمْ) أي لم يأمرهم اللهُ بذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ ﴾ ؛ أي اتركوهم وأعْرِضُوا عنهم، ﴿ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ ﴾ ؛ أي حتى يأذنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لكم في مُقَاتَلَتِهِمْ وسَبْيِهِمْ وينصركم عليهم. وقد جاءَ اللهُ تعالى بأمرهِ حين استقرَّت آيات النَّبيُّ ﷺ ومعجزاتهُ ولم يؤمنوا؛ أمرَ اللهُ النَّبيَّ ﷺ بقتالهم بقولهِ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ..﴾ الآيةُ، إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(١) وغير ذلك من الآيات، فقتَلُوا بني قريظةَ؛ وأجْلَوا بني النضير. وقيل: معناهُ: (حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأمْرِهِ): قيام الساعةِ ويجازيهم بأعمالِهم. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ ﴾ ، لَمَّا أمرَ الله تعالى بالصفحِ عن اليهود، عَلِمَ أن ذلك يشقُّ على المسلمين، فأمرهم الله بالاستعانة على ذلكَ بالصلاةِ والزَّكاة كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾(٢).

---

(١) التوبة / ٢٩: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

(٢) البقرة / ٤٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعني من طاعةٍ وعمل صالح تجدوا ثوابَهُ ونفعَهُ عند اللهِ. وَقِيْلَ: أرادَ بالخير المالَ،كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾[1] ومعناهُ: وما تقدِّموا لأنفسكم من زكاةٍ وصدقةِ الثمرة واللقمةِ تجدوهُ عند الله مِثْلَ أحُد. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ ، وفي الحديث:[إذا مَاتَ الْعَبْدُ قَالَ النَّاسُ: مَا خَلَّفَ؟ وَقَالَ الْمَلاَئِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟][2].

روي أن عليَّ بن أبي طالب كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ دَخَلَ الْمَقَابرَ، فَقَالَ: (السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أهْلَ الْقُبُور، أمْوَالُكُمْ قُسِّمَتْ؛ وَدِيَارُكُمْ سُكِنَتْ؛ وَنِسَائُكُمْ نُكِحَتْ، فَهَذَا خَبَرُ مَا عِنْدَنَا، فَمَا خَبَرُ مَا عِنْدَكُمْ؟) فهتفَ به هاتفٌ: وعليكمُ السلامُ، ما أكلنا ربحنا؛ وما قدَّمنا وجَدْنا، وما خلَّفنا خَسِرْنَا[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ ، قال الفرَّاءُ: وأراد يهوداً فحذفت الياءُ الزائدة. قال الأخفشُ: (الْهُوْدُ جَمْعُ هَادٍ؛ مِثْلُ عَائِدٍ وَعُودٍ، وَحَائِلٍ وَحُولٍ). وَفِي مُصحف أبَيٍّ: (إلاَّ مَنْ كَانَ يَهُودِيّاً أوْ نَصْرَانِيّاً).

ومعنى الآية: قالت اليهودُ: لن يدخل الجنةَ إلا مَن كان يهودياً ولا دينَ إلا اليهوديةُ. وقالت النصارى: لن يدخلَ الجنةَ إلا مَن كان نصرانيّاً، ولا دينَ إلا النصرانيةُ. فأنزلَ الله تعالى: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ ، يجوز أن تكون (تِلْكَ) كنايةٌ عن الجنة؛ ويجوزُ أن تكون المقالةُ. وأمانيُّهم: أباطيلُهم بلغةِ قريش، وقيل: شهواتُهم التي تَمَنَّوْهَا على اللهِ بغير الحقّ. ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَهم يا مُحَمَّدُ: ﴿ هَاتُواْ

---

(١) البقرة / ١٨٠.

(٢) الحديث عن أبي هريرة؛ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في الزهد وقصر الأمل: الحديث (١٠٤٧٥). ولفظه: [إذا مَاتَ الْمَيِّتُ...]. وفي إسناده يحيى بن سليمان الجعفي، قال النسائي: ((ليس بثقة)). ووثقه الدارقطني، وقال ابن حجر: ((له أحاديث مناكير)) في تهذيب التهذيب: الترجمة (٧٨٤٣). وفي إسناده أيضاً: عبدالرحمن بن مُحَمَّد المحاربي، ترجم له ابن حجر في التهذيب: الرقم (٤١١٢)؛ قال: ((قال النسائي: ثقة، وقال أبو حاتم: صدوق إذا حدَّث عن الثقات، ويروي عن مجاهيل أحاديث منكرة)).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢ ص٧٣؛ علقه القرطبي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه مر ببقيع الغرقد فقال:... وذكره.

﴿ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ ؛ أي حُجَّتكم على ذلك من التوراةِ والانجيل، ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾.

ثُم قال الله تعالى ردّاً عليهم وتكذيباً لَهم: ﴿ بَلَىٰ ﴾ ؛ أي ليس كما قالوا، بل يُدْخِلُ الجنَّةَ، ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي من أخلصَ دينَهُ لله. وَقِيْلَ: مَن فوَّض أمرهُ إلى الله. وقيل: مَن خضع وتواضعَ لله. وأصل الإسلامِ: الاسْتِسْلاَمُ؛ وَهُوَ الْخُضُوعُ وَالانْقِيَادُ. وإنَّما خُصَّ الوجهُ؛ لأنه إذا جادَ بوجههِ في السجود لم يَبْخَلْ بسائر جوارحهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ؛ أي محسنٌ في عمله، وقيل: معناه: وهو مؤمن مخلصٌ، ﴿ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي فيما يستقبلُهم من أهوال القيامة، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ على ما خلفوا في الدنيا؛ لأنَّهم يتيقَّنون بثوابهم عند الله.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ . قال ابنُ عباس: (صَدَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيْقَيْنِ، وَلَوْ حَلَفَ عَلَى ذَلِكَ أحَدٌ مَا حَنِثَ، وَلَيْسَ أحَدٌ مِنَ الْفَرِيْقَيْنِ عَلَى شَيْءٍ). قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ ؛ أي وَكِلاَ الفريقين يقرأون كتابَ الله، ولو رجعوا إلى ما مَعَهم من الكتاب لَمَا اختلفوا.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ ؛ أي الذين ليسُوا من أهلِ الكتاب؛ نحوَ الْمَجُوسِ ومشركي العرب. يقولون أيضاً: لن يدخلَ الجنَّةَ إلا من كان على دِيننا. وقيل: أرادَ بالذين لا يعلَمُون آباءَهم الذين مَضَوا. وقال مقاتلُ: (هُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ؛ قَالُواْ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ وَأصْحَابهِ: لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّيْنِ). وقال ابن جُريج:(قُلْتُ لِعَطَاءٍ: كَيْفَ قَالَ الَّذِيْنَ لاَ يَعْلَمُونَ؟ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: أمَمٌ كَانَتْ قَبْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى)[1] مِثْلَ قَوْمِ نُوحٍ؛ وَقَوْمِ هُودٍ؛ وَصَالِحٍ؛ وَلُوطٍ؛ وَشُعَيْبَ؛ وَنَحْوُهُمْ. قَالُواْ فِي أنْبيَائِهِمْ: لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَإنَّ الدِّيْنَ دِيْنُنَا.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٥٠٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ ؛ أي يقضي بين اليهودِ والنصارى والمشركينَ يوم القيامة؛ أي يُريْهِمْ مَن يدخلُ الجنة عياناً؛ ومن يدخلُ النار عياناً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ يعني من الدِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ ؛ نزلت هذه الآية في ططوس بن استيسيانوس الرومي وأصحابهِ، وذلك أنَّهم غَزَوا بني إسرائيل فقتلُوا مُقاتِليهم؛ وسَبَوا ذراريهم؛ وحرَقوا التوراةَ؛ وخرَّبوا بيت المقدسِ وألقوا فيهِ الْجِيَفَ؛ وذبَحوا فيه الخنازيرَ، وكان خَرَاباً إلى أن بَنَاهُ المسلمونَ في أيام عمرَ ﷺ. ولم يدخل بيتَ المقدس بعد عمارتِها رُومِيٌّ إلا خَائفاً مستخفياً لو عُلِمَ به لقُتِلَ.

وقال قتادة والسديُّ: (نَزَلَتْ فِي بَخْتَنَصِّرْ وَأَصْحَابِهِ غَزَوا الْيَهُودَ وَخَرَّبُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَأعانَهُمْ عَلَى ذلِكَ ططوس الروميُّ وأصحابُهُ النَّصَارَى مِنْ أهْلِ الرُّومِ؛ وَذلِكَ لِبُغْضِهِمُ الْيَهُودَ)[1]. إلاَّ أنَّ هَذَا يُشْبهُ الْغَلَطَ، وَالأول أظهرُ؛ لأنه لا خلافَ أنَّ بختنصِّر قبلَ مولد عيسى ﷺ بدهرٍ طويل، والنصارى إنَّما ينتمون إلى عيسى ﷺ، فكيف يكونون مع بختنصر؟!

ومعنى الآية: (وَمَنْ أظْلَمُ) أي ومَن أكفرُ عتياً (مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ) يعني بيت المقدس ومَحَارِيْبَهُ. وقوله: (أنْ يُذْكَرَ) موضعُ (أن) نَصْبٌ على أنه مفعولٌ ثان؛ لأن المنع يتعدى إلى مفعولين، وإن شئتَ جعلته نصباً بنَزع الخافض؛ أي بأن يذكر.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ ؛ وقال قتادةُ ومقاتل: (لَمْ يَدْخُلْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ أحَدٌ مِنَ النَّصَارَى إلاَّ مُتَنَكِّراً مُسَارَقَةً لَوْ قُدِرَ عَلَيْهِ عُوقِبَ وَنُهِكَ ضَرْباً). قال السديُّ: (اخْتَفَوا بالْجِزْيَةِ). وقال أهلُ المعاني: هذا خبرٌ فيه معنى الأمرِ، يقول: أجْهَضُوهُمْ بالجهادِ لئلا يدخلها أحد منهم إلا خائفاً من القتلِ والسبي.

قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ ؛ أي عذابٌ وهوان؛ وهو القتل والسبي إن كانوا حرباً، والجزية إن لم يكونوا حرباً. قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ ؛ وهو النار. قال عطاءُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ).

---

(١) أصله أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٥١١) عن قتادة. و(١٥١٢) عن السدي.

وأرادوا بالمساجدِ: المسجدِ الحرام؛ منعوا النَّبِيَّ ﷺ والمسلمين عن ذكرِ الله فيه وصدُّوهم عنه عام الحُديبية، فعلى هذا سعيُهم في خرابها هو المنعُ عن ذكرِ الله فيها؛ لأن عمارةَ المعاجد بإقامةِ العبادات فيها.

وقولهُ تعالى: (أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أنْ يَدْخُلُوهَا إلا خَائِفِينَ) يعني أهلَ مكَّة، يقول الله: أفتحُها عليكم حتى يدخلُوها، ويكونوا أولَى بها منهم، فَفَتَحَهَا اللهُ عليهم، وأمرَ رسولُ الله ﷺ منادياً ينادي: [ألاَ لاَ يَحُجَّنَّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ؛ وَلاَ يَطُوفَنَّ بالْبَيْتِ عَرْيَانٌ](١). فمُنعوا منها، فهذا خوفُهم. (لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ) أي ذلٌّ وقتلٌ ونفيٌ (وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ).

وَقِيْلَ: المرادُ بالآية: جميعَ الكفار الذين مَنَعوا المسلمين من المساجد. وكل موضع يُتَعَبَّدُ فيه فهو مسجدٌ، قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: [جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً](٢). فعلى هذا تقديرُ (وَمَنْ أظْلَمُ) الآية مِمَّنْ خالفَ مِلَّةَ الإسلام؛ (أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أنْ يَدْخُلُوهَا إلا خَائِفِينَ)؛ أي يظهرُ الإسلامُ على جميعِ الأديان، ولا يدخلُ الكفارُ المساجد إلا خائفين بعد أن كانوا لا يتركوا المسلمين أن يدخلوا مساجدهم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ ؛ قيل: معناه لا يَمنعكم تخريبُ من خرَّب مساجد الله أن تذكروهُ حيث كنتم من أرضه. وقال ابن عباس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي نَفَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي سَفَرٍ قَبْلَ تَحْوِيْلِ الْقِبْلَةِ إلَى الْكَعْبَةِ، فَأَصَابَهُمُ الضَّبَابُ، وَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَتَحَرَّوا الْقِبْلَةَ فَصَلَّوا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ صَلَّى قِبَلَ الْمَشْرِق؛ وَمِنْهُمْ مَنْ صَلَّى قِبَلَ الْمَغْرِب. فَلَمَّا ذهَبَ الضَّبَابُ اسْتَنَارَ لَهُمْ أنَّهُمْ لَمْ يُصِيْبُوا، فَلَمَّا قَدِمُوا؛ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذِلِكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ)(٣).

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الحج: باب لا يطوف بالبيت عريان: الحديث (١٦٢٢). ومسلم في الصحيح: كتاب الحج: باب لا يحج البيت مشرك: الحديث (٤٣٥/ ١٣٤٧).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١ ص٥١: الحديث (١١٠٤٧)، وإسناده حسن. وفي الحديث (١١٠٨٥) بإسناد ضعيف. ورواه البخاري في الصحيح: كتاب التيمم: الحديث (٣٣٥)، وكتاب الصلاة: الحديث (٤٣٨).

(٣) في لباب النقول في أسباب النزول: ص٢٧؛ قال السيوطي: ((وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: ... وذكره)).

وقال عبدُالله بن عامر: [كُنَّا مَع رَسُول اللهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ سَوْدَاءَ مُظْلِمَةٍ؛ فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الأَحْجَارَ فَيَعْمَلُ مَسْجِداً فَيُصَلِّي فِيْهِ، فَلَمَّا أصْبَحْنَا إذَا نَحْنُ قَدْ صَلَّيْنَا إلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ][(١)].

وقال عبدُالله بن عمرَ: نَزَلَتْ فِي صَلاَةِ الْمُسَافِرِ يُصَلِّي حَيْثُمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ تَطَوُّعاً؛ [كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي عَلَى رَاحِلَتِهِ فِي السَّفَرِ أيْنَمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ][(٢)]. وقال عكرمةُ: (نَزَلَتْ فِي تَحْوِيْلِ الْقِبْلَةِ إلَى الْكَعْبَةِ لَمَّا صَلَّى إلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ بَعْدَمَا كَانَتْ قِبْلَتُهُمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، قَالَتِ الْيَهُودُ: يُصَلُّونَ مَرَّةً هَكَذَا، وَمَرَّةً يُصَلُّونَ هَكَذَا! فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

فإنْ قِيْلَ: لِمَ قال: (الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) على التوحيد وله المشارق والمغارب؟ قيل: لأنه أخرجهُ مخرجَ الجنس كما يقال: أهلَكَ اللهُ الدينارَ والدرهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي رضَى اللهِ كقوله تعالى: ﴿إنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾[(٣)] أي لرضَاه. وقيل: معناه: (فثَمَّ وَجْهُ اللهِ) أي عِلْمُهُ محيطٌ بهم. وقيل: معناه: فأينما تُوَلُّوا وجوهَكم أيها المؤمنون في سفرِكم وحضَرِكم فثمَّ قِبْلَةُ اللهِ التي وجَّهتكم إليها فاستقبلُوها؛ يعني الكعبةَ.

وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ تَعَالَى يَرَى وَيَعْلَمُ). والوجهُ صلةٌ كقوله: ﴿ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ﴾[(٤)] أي تريدونه بالدعاء. وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ﴾[(٥)] أي إلا هوُ. وقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبكَ﴾[(٦)] أي ويبقى ربُّكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (يَعْنِي: وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ). وقال أبو عُبيدة: (الْوَاسِعُ: الْغَنِيُّ). يقال: فلان يُعْطِي مِن سَعتهِ؛ أي

(١) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح: أبواب الصلاة: باب ما جاء في الرجل يصلي لغير القبلة: الحديث (٣٤٥)؛ وقال: ((هذا حديث ليس إسناده بذاك)). بسبب أشعث بن سعيد أبو الربيع السمان، يضعف في الحديث.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٥٢٥). ومسلم في الصحيح: كتاب صلاة المسافرين: الحديث (٣٣/ ٧٠٠).

(٣) الإنسان / ٩.

(٤) الروم / ٣٩.

(٥) القصص / ٨٨.

(٦) الرحمن / ٢٧.

من غِنَاهُ. وقال الفرَّاء: (الْوَاسِعُ: الْجَوَادُ الَّذِي يَسَعُ عَطَاؤُهُ كُلَّ شَيْءٍ). وقيل: الواسعُ: الرحيمُ؛ دليله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]. وقيل: الواسع: العالِم الذي يسعُ علمه كل شيء. وقال الله تعالى:﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[2]. وقوله: (عَلِيمٌ) أي عالِم بنيَّاتِهم حيثما صلَّوا ودَعَوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ ؛ نزلت في يهودِ المدينة حيث قالوا: عُزَيْرٌ ابن الله، وفي نصارى نجران حيث قالوا: المسيحُ ابن الله، وفي مشركي العرب حيث قالوا: الملائكةُ بنات الله[3]. وقوله: (سُبْحَانَهُ) تنْزيهاً نَزَّهَ نفسَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؛ عبيدٌ وملكٌ؛ أي مَن كان مالِكَ السموات والأرض؛ فإن الأشياءَ تضافُ إليه من جهة المِلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ أي مطيعون.

وهذا تأويلٌ لا يستغرق الكلَّ، فيكون لفظ عمومٍ أريدَ به الخصوص[4]. ثم سَلَكُوا في تخصيصه طريقين؛ أحدُهما: راجعٌ إلى عُزير والمسيح والملائكة، وهذا قولُ مقاتل. والطريق الثَّاني: راجعٌ إلى أهل طاعتهِ دون الناس أجمعين، وهذا قولُ ابنِ عباس والفرَّاء. وقال بعضهم: هو عامٌّ في جميعِ الخلق.

ثُمَّ سَلَكوا في الكفار طريقين؛ أحدُهما: أن ظِلالَهُم تسجدُ لله وتطيعه؛ وهو قولُ مجاهد؛ ودليله قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَظِلالُهُمْ﴾[6]. والثَّاني: قالوا: هذا في القيامةِ، قاله السديُّ؛ وتصديقهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾[7]. وقال عكرمةُ ومقاتلُ: (مَعْنَى الآيَةِ: كُلٌّ لَهُ مُقِرُّونَ بالْعُبُودِيَّةِ). وقال ابن كيسان: (قَائِمُونَ بالشَّهَادَةِ، وَأَصْلُ الْقُنُوتِ[8]

---

(١) الأعراف / ١٥٦. (٢) البقرة / ٢٥٥.

(٣) في الأصل المخطوط: (العرب بنات الله)

(٤) قاعدة أصولية. (٥) النحل / ٤٨.

(٦) الرعد / ١٥: ﴿وَللهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ .

(٧) طه / ١١١. (٨) في المخطوط: وأصل الفنون.

الْقِيَامُ). وقيل: مُصلُّون؛ دليلهُ: ﴿أمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾[(١)]. وقيل: دَاعُونَ، ويسمَّى دعاءُ الوِتْرِ: قنوتٌ، الآية[(٢)] يدعو قائماً.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ﴾ ؛ أي مُبْتَدِعُهما ومُنْشِؤُهما على غير مثال يسبقُ، ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ ؛ أي إذا أرادَ شيئاً، ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ ، وهذه الآيةُ والتي قبلَها جوابٌ عن قول جماعة من النصارى نَاظَروا النَّبيَّ ﷺ في أمر عيسى ﵇. قالَ لَـهم النَّـبيُّ ﷺ: [هُـوَ عَبْـدُ اللهِ وَرَسُـولُهُ] قَالُوا: هَلْ رَأيْتَ مَنْ خُلِقَ بغَيْرِ أبٍ؟ فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ وما قبلَها جواباً لَهم[(٣)].

ومعناهـا: إنَّ اللهَ مبتـدعُ السـموات والأرضِ وخالقُـهما، وإذا أرادَ أمـراً مثـلَ عيسى بغيرِ أبٍ أو غير ذلك، فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فيكونُ كما أرادَه. والإبْـدَاعُ: إيجـادُ الأشياءِ على غيرِ مثال سبقَ؛ والبديعُ فعيلٌ بمعنـى مُفَعِّـلٌ، والبديـعُ أشـدُّ مبالغـةً مـن المبدعِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَيَكُونُ) مَن رَفَعَهُ؛ فمعناهُ: فهو يكونُ. ومَن نَصَبَهُ؛ فعلى جـواب الأمر بالفاءِ. فإن قيلَ: قوله (كُنْ) خطابٌ للموجـود أو للمعـدوم، ولا يجـوزُ الأول؛ لأنَّ الشيءَ الكائنَ لا يؤمَرُ بالكون، والثاني لا يجوزُ أيضـاً؛ لأنَّ المعـدومَ لا يخـاطبُ؟ قيل: إنَّما قالَ ذلك على سبيلِ المثَلِ، لأن الأشياءَ لسهولتها عليه وسرعةِ كونِها بـأمره بمنْزلة ما يقولُ له كُنْ فيكونُ. وهذا مِثْلُ قولِهِ: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أوْ كَرْهًا﴾[(٤)] لم يُرِدْ بهذا أن السماءَ والأرضَ كانتا في موضعٍ فقال لَهما: ائْتِيَا، فجَاءا من ذلك الموضعِ، ولكن أرادَ به تكوينَهما، فعلى هذا معنى (كُنْ فَيَكُونُ) أي يُرِيْدُهُ فَيَحْدُثُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ ؛ أرادَ بـالذين لا يعلمون يهودَ المدينةِ وغيرَهم من الكفار، وقيل: النصارى. وقيل: مشركو العـــرب؛

(١) الزمر / ٩.

(٢) لعله أراد قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر / ٩].

(٣) من حديث جعفر بن أبي طالب ﵁ في مناظرة النجاشي له في الحبشـة. أخرجـه الإمـام أحمـد في المسند: ج ١ ص٢٠٣. وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٢٧؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد ورجاله رجـال الصحيح)).

(٤) فصلت / ١١.

قالوا: هَلاَّ يكلِّمُنا اللهُ عياناً بأنّكَ رسولهُ. ﴿ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾ ؛ أي علامةٌ دالةٌ على صدقِك ونبوتكَ؛ يعنُونَ قولَهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾[1] الآيةَ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ ؛ يعني اليهودَ الذين قالوا لِموسى: أرنَا اللهَ جَهْرَةً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ أي قلوبُ الأوَّلين والآخرين منهم في القسوةِ والكُفر. ويقال: تشابَهت قلوبُ المشركين واليهود والنصارى في القسوةِ والكُفر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ، أي لِمن أيقنَ وطلب الحقَّ. والآيات مثلُ بيانِ نعتِ النَّبيِّ ﷺ وصفتهِ في التوراة؛ وانشقاقِ القمر؛ وإعجاز القرآن وغيرِ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي أرسلناكَ يا مُحَمَّدُ بالصِّدق؛ من قولِهم: فلانٌ مُحِقٌّ في دعواهُ إذا كان صادقاً، دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾[2] أي صِدْقٌ. وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: لَنْ نُرْسِلَكَ عَبَثاً بغَيْرِ شَيْءٍ؛ بَلْ أرْسَلْنَاكَ بالْحَقِّ) دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلا بالْحَقِّ﴾[3] وهو ضدُّ الباطل. قال ابن عباس: (بالْقُرْآنِ) دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾[4]. وقال ابنُ كيسان: (بالإسْلاَمِ) دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾[5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ ؛ أي بشيراً للمؤمنين بالثواب، ونذيراً للكافرين بالعقاب. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ ؛ أي لَسْتَ تُسألُ في الآخرة عن أصحاب الجحيم، كما قالَ :﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[6] وقالَ:﴿فَإنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾[7]. ومَن فتحَ التاءَ فعلى النَّهي. وتأويلهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: [لَيْتَ شِعْرِي، مَا فُعِلَ بأَبَوَيَّ ؟] فنزلت هذه الآيةُ[8].

---

(١) الإسراء: ٩٠. (٢) يونس / ٣٥. (٣) الحجر / ٨٥.

(٤) ق / ٥. (٥) الاسراء / ٨١. (٦) فاطر / ٨.

(٧) آل عمران / ٢٠.

(٨) في الدر المنثور: ج ١ ص٢٧١؛ قال السيوطي: ((أخرج وكيع وسفيان بن عيينة وعبدالرزاق=

وفيه قراءَتان: الجزمُ على النهي؛ وهي قراءةُ نافعٍ وشـيبةٍ والأعـرجِ ويعقـوبَ. وقرأ الباقون بالرفعِ على النَّفي؛ يعني ولَسْتَ تُسْأَلُ عنهم. وقـرأ أُبَـيٌّ: (وَمَـا تُسْـأَل). وقرأ ابنُ مسعود: (وَلَنْ تُسْأَلْ). والْجَحِيْمُ وَالْجَحْمُ وَالْجَحْمَةُ: مُعْظَمُ الدَّار.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم كانوا يسألونَ النَّبيَّ ﷺ الهدنةَ ويطمِّعونه في أن يتَّبعوه إنْ هادنَـهم، فـأنزلَ اللهُ هذه الآية. وقيل: كان النَّبيُّ ﷺ حريصاً على طلب رضَاهُمْ طمعـاً في أنْ يرجِعـوا إلى الحقِّ[1]. وَقِيْلَ: كانوا يطلُبون من النَّبيِّ ﷺ الْمُسَالَمَةَ ويطمِّعونه في أنَّـهُ إنْ هادنَـهم أسلَمُوا؛ فأمرَ اللهُ النَّبيَّ ﷺ أن لا يطيعَهم ما طلبوا مِن الهدنةِ، وأخبرَ أنَّهم لا يرضـون عنهُ بذلك، وهم يهودُ أهل المدينة ونصارى نَجْرَانَ.

قال ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ((هَذَا فِـي الْقِبْلَـةِ؛ وَذلِـكَ أنَّ يَـهُودَ الْمَدِيْنَـةِ وَنَصَارَى نَجْرَانَ كَانُوا يَرْجُونَ أنْ يُصَلِّيَ النَّبيُّ ﷺ إلَى قِبْلَتِهِمْ؛ فَلَمَّا صَرَفَ اللهُ تَعَـالَى الْقِبْلَةَ إلَى الْكَعْبَةِ؛ شَقَّ عَلَيْهِمْ وَآيَسُوا مِنْهُ أنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَى دِيْنِـهِمْ، فَـأنْزَلَ اللهُ تَعَـالَى هَذِهِ الآيَةَ (وَلَنْ تَرْضَى عَنْـكَ الْيَـهُودُ وَلا النَّصَـارَى حَتَّـى تَتَّبـعَ مِلَّتَـهُمْ) أي دِينَـهم، وقِبلتهم بيتُ المقدس))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ ؛ أي الصراطَ الـذي دعـا اللهُ إليه؛ وهو الـذي أنـتَ عليـه هـو صـراطُ الحـقِّ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ ؛ أي إن اتبعـتَ ملَّتـهم وصلَّيـتَ إلى قِبلتـهم، ﴿ بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ ؛ أي بعدما ظهرَ لك أنَّ دينَ اللهِ الإسلامُ؛ وأنَّ القبلةَ قد حُوِّلت إلى الكعبةِ،

=وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، عن مُحَمَّد بن كعب القرظي. قال: أخرج ابن جرير عـن داود بن أبي عاصم:... وذكره. ثم قال: وهذا مرسل ضعيف الإسناد، والآخـر معضـل الإسـناد ضعيف لا يقوم به ولا بالذي قبله حجـة)). أخرجـه الطـبري في جـامع البيـان: النـص (١٥٥٧ و١٥٥٨) عن مُحَمَّد بن كعب القرظي، وفي النص (١٥٥٩) عن داود بن أبي عاصم، وشكك في صحة الخبر.

(١) في المخطوط: الخلق.

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص٢٧٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه الثعلبي عن ابن عباس)).

﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ؛ أي مَا لَكَ مِن اللهِ مِن وليٍّ ينفعُكَ ويحفظُكَ عن عقابهِ، ولا نصيرَ يدفعُ مضرَّةَ عقابهِ عنكَ. وهذا خطابٌ للنبيِّ ﷺ والمرادُ به عامَّةُ الناسِ؛ مِثْلُ قولهِ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[١]. وقد عَلِمَ اللهُ أنه لا يشركُ؛ وهذا كما يقال في المثلِ: (إِيَّاكِ أعْنِي فَاسْمَعِي يَا جَارَةُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (نَزَلَتْ فِي أهْلِ السَّفِيْنَةِ الَّذِيْنَ قَدِمُوا مَعَ جَعْفَرَ بْنِ أبي طَالِبٍ؛ وَكَانُواْ أرْبَعِيْنَ رَجُلاً؛ اثْنَان وَثَلاَثُونَ مِنَ الْحَبَشَةِ؛ وَثَمَانِيَةٌ مِنْ رُهْبَان الشَّامِ؛ مِنْهُمْ بَحِيْرَا). وقال الضحَّاك:(هُمْ مَنْ آمَنَ مِنَ الْيَهُودِ: عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ، وَشُعْبَةُ بْنُ عَمْرٍو، وَأسَيْدُ وَأسَدُ ابْنَا كَعْبٍ، وَابْنُ يَامِيْنَ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ صُورِيَا). وقال عكرمةُ: (هُمْ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ). وقيل: همُ المؤمنونَ عامة.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) قال الكلبيُّ: (يَصِفُونَهُ فِي كُتُبهِمْ حَقَّ صِفَتِهِ لِمَنْ سَأَلَهُمْ مِنَ النَّاسِ) وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ تَكُونُ الْهَاءُ رَاجِعَةً إلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. وقال بعضُهم: هي عائدةٌ إلى الكتاب. واختلفوا في معناه؛ قال ابنُ مسعود: (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) أي يُحَلِّلُونَ حَلاَلَهُ وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ وَيَقْرَأُونَهُ كَمَا أنْزِلَ، وَلاَ يُحَرِّفُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ[٢]. وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: يَعْمَلُونَ بمُحْكَمِهِ وَيُؤْمِنُونَ بمُتَشَابهِهِ؛ وَيَكِلُونَ عِلْمَ مَا أشْكِلَ عَلَيْهِمْ إلَى عَالِمِهِ)[٣]. وقال مجاهدُ: (يَتَّبعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ)[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ ﴾ ؛ أي بالقرآن ويُقِرُّون بمُحَمَّدٍ ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ ﴾ ؛ أي بالقرآن ويَجْحَدُ نبوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ ، وهم كعبُ بن الأشرفِ وأصحابهُ.

---

(١) الزمر / ٦٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٥٦٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٥٧٢).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٥٧١). وأخرجه من قول ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: النص (١٥٦٤). وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: النص (١٥٦٥). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج٢ ص٩٥؛ قال القرطبي: ((روي عن ابن عمر عن النبي ﷺ، وفي إسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكره الخطيب، إلا أن معناه صحيح)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ ، تقدَّم تفسيرهُ، وفائدةُ تكرار القصصِ والألفاظ: أنَّ اللهَ تعالى أراد برحمتهِ أنْ يُشْهِرَ القصصَ في أطراف الأرضِ؛ ويلقيها في كلِّ سَمعٍ؛ ويثبتُها في كلِّ قلبٍ؛ ويزيدُ الحاضرين إفهاماً، فإنَّ القرآنَ نزل بلسانِهم، ومن مذهَبِهم أنَّ التكرارَ إرادةُ التوكيدِ وزيادةُ الإفهام. ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ ؛ أي اختبرهُ بما بعده من السُّننِ؛ وهي عشرُ خصالٍ: خمسٌ في الرأسِ: وهي المضمضمةُ؛ والاستنشاقُ والسِّواك؛ وقصُّ الشارب؛ وفَرْقُ الرأس. وخمسٌ في الجسدِ: التقليمُ؛ والخِتَان؛ والاستنجاءُ بالماءِ؛ وحلقُ العَانَةِ؛ ونتفُ الإبطِ[١]. وقيل: معناهُ: ابتَلاه الله بالمناسك التي تعبَّدَهُ بها وهي عرفة والمزدلفة والرمي والطواف والسعي. وَقِيْلَ: معناه: ابتلاهُ اللهُ بأمرٍ عظيم؛ فصبَرَ وأحسنَ الظنَّ باللهِ[٢]. فأولُ ذلك الكوكبُ والقمر والشمس، ثم النارُ؛ فجعلها عليه بَرْداً وسلاماً، ثم بالهجرةِ من أهله وولده، ثم بالختان على رأسِ ثمانين سنةً، ثم بذبحِ الولد، فاتخذهُ اللهُ خليلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَتَمَّهُنَّ) أي عَمِلَ بهنَّ ولم يتركْ منهُنَّ شيئاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ؛ أي مُقْتَداً بكَ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ إبراهيمُ: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ ؛ أي ومِن أولادي، فاجعل أئمةً يُقتدى بهم.

وأصلُ الذُّرِّيَّةِ الأَوْلاَدُ الصِّغَارُ؛ مشتقٌ من الذَّرِّ لكثرتهِ. وقيل: من الذَّرْءِ؛ وهو الْخَلْقُ. وفيه ثلاث لُغات:(ذِرِّيَّةِ) بكسرِ الذال وهي قراءةُ زيد بن ثابت. و(ذَرِّيَّةِ) بفتحِ الذال وهي قراءةُ أبي جعفر. و(ذُرِّيَّةِ) بضمِّ الذال وهي قراءةُ العامة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ أعْلَمَهُ اللهُ تعالى أنَّ في ذريته الظالِمَ؛ والظالِمُ لا يَصْلُحُ إماماً. وفيه ثلاثُ قراءات: (عَهْدِيَ الظَّالِمُونَ)

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن ابن عباس: الأثر (١٥٨٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان عن ابن عباس: الأثر (١٥٨٩).

بالواو؛ وهي قراءةُ ابـن مسعود. و(عَـهْدِيْ الظَّـالِمِينَ) بإسكان الياء؛ وهي قراءةُ الأعمش وحفصٍ وحمزة. (وَعَهْدِيَ) بفتح الياءِ؛ وهي قراءةُ العامَّة.

واختلفوا في هذا الْعَهْدِ. قال عطاءُ: (رَحْمَتِي). وقال الضحَّاك: (طَاعَتِي) ودليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[1]. وقال السديُّ: (بِنُبُوَّتِي). وقال حذيفةُ: (أَمَانَتِي) ودليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾[2]. وقال أبو عبيد:(أَمَانِي) دليله قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾[3] وقال السديُّ: (لَيْسَ لِلظَّالِمِ أنْ يُطَاعَ فِي ظُلْمِهِ)[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ ؛ أي جعلنا الكعبةَ مَثَابَةً؛ أي مَرْجِعاً. وقال ابنُ عباس: (يَعْنِي مَعَاذاً وَمَلْجَأً). وقال ابنُ جبير ومجاهد والضحَّاكُ: (يَثُوبُونَ إلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَيَحُجُّونَهُ، وَلاَ يَمَلُّونَ مِنْهُ، فَمَا مِنْ أحَدٍ قَصَدَهُ إلاَّ وَيَتَمَنَّى الْعَوْدَ إلَيْهِ)[5]. وقال قتادةُ وعكرمة: (مَجْمَعاً)[6]. وقال طلحةُ: (مَثَاباً يَحُجُّونَ إلَيْهِ وَيُثَابُونَ عَلَيْهِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَمْنًا) وصفٌ للبيتِ؛ والمرادُ به جميع الحرمِ، كما قال: ﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾[7] والمرادُ الحرمُ لا الكعبة؛ لأنه لا يُذبح فيها ولا في المسجدِ.

ومعنى (وَأمْناً) أي مَأْمَناً يأمنون فيه. قال ابنُ عبَّاس: (فَمَنْ أحْدَثَ حَدَثاً خَارجَ الْحَرَمِ ثُمَّ لَجَأَ إلَيْهِ أمِنَ مِنْ أنْ يُهَاجَ فِيْهِ) أي لم يُتَعَرَّضْ لهُ، ولكن لا يبالغُ ولا يخالط ويوكل به، فإذا خرجَ منه أُقِيْمَ عليه الحدُّ فيه. وهذا كانوا يتوارثُونه من زمنِ إسماعيلَ

---

(١) البقرة / ٤٠. (٢) النحل / ٩١.

(٣) التوبة / ٤. نقله أيضاً أبو عبيد الهروي في الغريبين: ج ٤ ص١٣٤٦.

(٤) في الدر المنثور: ج ١ ص٢٨٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية، قال: (لَيْسَ لِظَالِمٍ عَلَيْكَ عَهْدٌ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ أنْ تُطِيعَهُ).)).

(٥) في جامع البيان: النص (١٦١٩ و١٦١٣).

(٦) في جامع البيان: النص (١٦٢٠).

(٧) المائدة / ٩٥.

إلى أيَّام النَّبيِّ ﷺ، وكانتِ العربُ في الجاهلية تعتقدُ ذلك في الحرمِ، ويستعظمُ القتلُ فيه. كان الرجلُ منهم يؤوي إليه قاتلُ أبيه فلا يتعرَّض له. ومن الأمْنِ الذي جعلَهُ الله فيه: اجتماعُ الصيدِ والكلب ولا يهيج الكلبُ الصيدَ، ولا ينفرُ الصيدُ من الكلب حتى إذا خرجَا منه عَدَا الكلبُ على الصيدِ، وعادَ الصيدُ إلى الهرب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ ؛ قرأ شيبةُ ونافع وابن عامرٍ والحسنُ: (وَاتَّخَذُوا) بفتح الخاءِ على الخبر. وقرأ الباقون بالكسر على الأمر. قال ابنُ كيسان: (ذكَرُوا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بالْمَقَام وَمَعَهُ عُمَرُ ﷺ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ ألَيْسَ هَذَا مَقَامُ أبيْنَا إبْرَاهِيْمُ؟ قَالَ: [بَلَى]. قَالَ: أفَلاَ تَتَّخِذُهُ مُصَلًّى؟ قَالَ: [لَمْ أوْمَرْ بذَلِكَ]. فَلَمْ تَغِب الشَّمْسُ مِنْ يَوْمِهِ حَتَّى نَزَلَ: (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)[1].

وعن أنسٍ بن مالك قال: قال عمرُ ﷺ: (وَافَقَنِي رَبي فِي ثَلاَثٍ: قُلْتُ: لَوِ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيْمَ مُصَلًّى؛ فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى). وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبرُّ وَالْفَاجِرُ؛ فَهَلاَّ حَجَّبْتَ أمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِيْنَ؟ فَأنْزَلَ اللهُ آيَةَ الْحِجَاب. قَالَ: وَبَلَغَنِي شَيْءٌ كَانَ بَيْنَ أمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِيْنَ وَبَيْنَ النَّبيِّ ﷺ فَاسْتَقْرَأْتُهُنَّ. أقُولُ: لَتَكُفُّنَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أوْ لَيُبَدِّلَنَّهُ اللهُ أزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ حَتَّى أتَيْتُ عَلَى آخِرِ أمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِيْنَ، فَقَالَتْ أمُّ سَلَمَةَ: يَا عُمَرُ؛ مَا فِي أصْحَاب رَسُولِ اللهِ ﷺ مَنْ يَعِظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَعِظَهُنَّ. فَأمْسَكْتُ. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إنْ طَلَّقَكُنَّ أنْ يُبْدِلَهُ أزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾[2])[3].

واختلفوا في قولِهِ تعالى: (مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ)؛ قال النخعيُّ: (الْحَرَمُ كُلُّهُ مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيْمَ)[4]. وقيل: المسجدُ كلُّه مقامُ إبراهيمَ. وقال قتادةُ ومقاتل والسديُّ: (هُوَ الصَّلاَةُ عِنْدَ مَقَامِ إبْرَاهِيْمَ؛ أمِرُوا بالصَّلاَةِ عِنْدَهُ وَلَمْ يُؤْمَرُوا بمَسْحِهِ وَلاَ تَقْبيْلِهِ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن أنس: النص (١٦٢٩). (٢) التحريم / ٥.

(٣) رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٤٨٣).

(٤) في الدر المنثور: ج ١ ص٢٩١؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، عن ابن عباس)).

وقِصَّةُ ذلك: ما رُوي عن ابن عباس: [لَمَّا أتَى إبْرَاهِيمُ عليه السلام بابْنِهِ إسْمَاعِيْلَ وَأُمِّهِ هَاجَرَ؛ فَوَضَعَهُمَا بِمَكَّةَ، وَمَضَى مُدَّةً، وَتَزَوَّجَ إسْمَاعِيْلُ امْرَأةً مِنَ الْجُرْهُمِيِّيْنَ، اسْتَأْذَنَ إبْرَاهِيْمُ سَارَةَ أنْ يَأْتِيَ هَاجَرَ، فَأذِنَتْ لَهُ وَشَرَطَتْ عَلَيْهِ أنْ لاَ يَنْزِلَ. فَقَدِمَ إبْرَاهِيْمُ وَقَدْ مَاتَتْ هَاجَرُ، فَقَالَ لاِمْرَأةِ إسْمَاعِيْلَ: أيْنَ صَاحِبُكِ؟ قَالَتْ: لَيْسَ هُوَ هَا هُنَا، ذَهَبَ يَتَصَيَّدُ. وَكَانَ إسْمَاعِيْلُ يَخْرُجُ مِنَ الْحَرَمِ فَيَصْطَادُ، فَقَالَ لَهَا إبْرَاهِيْمُ: هَلْ عِنْدَكِ مِنْ ضِيَافَةٍ مِنْ طَعَامٍ أوْ شَرَابٍ؟ قَالَتْ: لاَ!! فَقَالَ لَهَا: إذا جَاءَ زَوْجُكِ فَأَقْرِئِيْهِ السَّلاَمَ وَقُولِي لَهُ: فَلْيُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ؛ فَذَهَبَ. وَجَاءَ إسْمَاعِيْلُ فَوَجَدَ رِيْحَ أبِيْهِ، فَقَالَ لاِمْرَأتِهِ: هَلْ جَاءَكِ أحَدٌ؟ قَالَتْ: جَاءَنِي شَيْخٌ صِفَتُهُ كَذَا وَكَذَا، كَالْمُسْتَخِفَّةِ بِشَأْنِهِ. قَالَ: فَمَا قَالَ لَكِ؟ قَالَتْ: قَالَ: أقْرِئِي زَوْجَكِ السَّلاَمَ وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ أخْرَى.

فَلَبِثَ إبْرَاهِيْمُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ سَارَةَ فِي زِيَارَةِ إسْمَاعِيْلَ، فَأذِنَتْ لَهُ، وَاشْتَرَطَتْ عَلَيْهِ أنْ لاَ يَنْزِلَ. فَجَاءَ، فَقَالَ لاِمْرَأةِ إسْمَاعِيْلَ: أيْنَ ذَهَبَ صَاحِبُكِ؟ قَالَتْ: يَتَصَيَّدُ وَهُوَ يَجِيءُ الآنَ إنْ شَاءَ اللهُ؛ فَانْزِلْ يَرْحَمُكَ اللهُ. قَالَ: هَلْ عِنْدَكِ ضِيَافَةٌ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَجَاءَتْ بِاللَّبَنِ وَاللَّحْمِ فَدَعَا فِيْهَا بِالْبَرَكَةِ. وَلَوْ جَاءَتْ يَوْمَئِذٍ بِخُبْزِ بُرٍّ أوْ شَعِيْرٍ أوْ تَمْرٍ لَكَانَتْ أكْثَرَ أرْضِ اللهِ بُرّاً أوْ شَعِيْراً أوْ تَمْراً. فَقَالَتْ لَهُ: إنْزِلْ حَتَّى أغْسِلَ رَأسَكَ. فَلَمْ يَنْزِلْ، فَجَاءَتْهُ بِالْمَقَامِ فَوَضَعَتْهُ فِي شِقِّهِ الأيْمَنِ فَوَضَعَ قَدَمَيْهِ عَلَيْهِ، فَبَقِيَ أثَرُ قَدَمَيْهِ عَلَيْهِ، فَغَسَلَتْ رَأسَهُ الأيْمَنَ، ثُمَّ حَوَّلَتِ الْمَقَامَ إلَى شِقِّهِ الأيْسَرِ فَغَسَلَتْهُ، وَبَقِيَ أثَرُ قَدَمَيْهِ عَلَيْهِ. فَقَالَ: إذا جَاءَ زَوْجُكِ فَأَقْرِئِيْهِ السَّلاَمَ وَقُولِي لَهُ: قَدِ اسْتَقَامَتْ عَتَبَةُ بَابِكَ. فَلَمَّا جَاءَ إسْمَاعِيْلُ فَوَجَدَ رِيْحَ أبِيْهِ، فَقَالَ لاِمْرَأتِهِ: هَلْ جَاءَكِ أحَدٌ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، شَيْخٌ أحْسَنُ النَّاسِ وَجْهاً وَأطْيَبُهُمْ رِيْحاً. فَقَالَ: كَذَا، وَقُلْتُ لَهُ: كَذَا، وَغَسَلْتُ رَأسَهُ وَهَذَا مَوْضِعُ قَدَمِهِ عَلَى الْمَقَامِ. قَالَ: ذَاكَ إبْرَاهِيْمُ][1].

قال أنسُ بن مالكٍ:(رَأيْتُ فِي الْمَقَامِ أثَرَ أصَابعِهِ وَعَقِبِهِ وَأخْمَصِ قَدَمَيْهِ، غَيْرَ أنَّهُ أذهَبَهُ مَسْحُ النَّاسِ بأيْدِيْهِمْ)[2]. ورويَ عن عبدالله بنِ عمرَ أنه قال: أشْهَدُ بِاللهِ

---

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٣٠٤؛ قال السيوطي: ((وأخرجه أحمد وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم والبيهقي في الدلائل، عن سعيد بن جبير)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان عن قتادة: النص (١٦٤١).

ثلاَثَ مَرَّاتٍ أنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [الرُّكْنُ وَالْمَقَامُ يَاقُوتَتَان مِنْ يَـاقُوتِ الْجَنَّةِ طَمَسَ اللهُ نُورَهُمَـا، وَلَـوْلاَ أنَّ اللهَ طَمَـسَ نُورَهُمَـا لأَضَـاءَا مَـا بَيْـنَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْرِب][1].

وقيل: مقامُ إبراهيمَ الحجُّ كلُّه: عرفة؛ والمزدلفة؛ والرمـي. وقيـلَ: الحـرمُ كلـه؛ وقيل: الحجرُ الأسود المعروف الذي وضعَتْهُ امرأةُ إسماعيلَ تحت قدميه فغابَتْ رجليهِ فيه، وهذا مِن معجزاتِ إبراهيمَ عليه السلام.

وقولـه عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ ﴾ ؛ أي أمرناهُمـا وأوْصَيناهُمـا، ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾ ؛ أي مَسْجِدِي؛ يعني الكعبـةَ مـن الأوثـان والنَّجاسات. وعن حذيفةَ قال: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ اللهَ أوْحَـى إلَـيَّ أنْ أنْـذِرْ قَوْمَكَ أنْ لاَ يَدْخُلُوا بَيْتاً مِنْ بُيوتِي إلاَّ بقُلُوبٍ سَـلِيْمَةٍ؛ وَالْسِنَةٍ صَادِقَـةٍ؛ وَأيْـدٍ نَقِيَّـةٍ؛ وَفُرُوجٍ طَاهِرَةٍ. وَلاَ يَدْخُلُوا بَيْتاً مِنْ بُيُوتِي وَلأَحَدٍ عِنْدَهُمْ مَظْلَمَةٌ؛ فَـإنِّي الْعَنُـهُ مَـا دَامَ قَائِماً بَيْنَ يَدَيَّ يُصَلِّي حَتَّى يَرُدَّ تِلْكَ الظُّلاَمَةَ إلَى أهْلِهَا، فَأكُونُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ؛ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ؛ وَيَكُونُ مِنْ أوْلِيَائِي وَأصْفِيَائِي].

وعن مُعاذ بن جبلٍ؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [جَنِّبُـوا مَسَـاجِدَكُمْ صِبْيَـانَكُمْ؛ وَمَجَانِيْنَكُمْ؛ وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ؛ وَرَفْعَ أصْوَاتِكُـمْ؛ وَحُدُودَكُـمْ؛ وَخُصُومَتَكُـمْ؛ وَبَيْعَكُـمْ؛ وَشِرَاءَكُمْ. وَجَمِّرُوهَا يَوْمَ جُمَعِكُمْ؛ وَاجْعَلُوا عَلَى أبْوَابهَا مَطَاهِرَكُمْ][2].

وقرأ الحسنُ وحفصٌ وهشام ونافع: (بَيْتِيَ) بفتـح اليـاء. والبـاقون بإسـكانِها. وإضافةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ البيتَ لنفسهِ تخصيصاً وتفضيلاً.

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع: كتاب الحج: باب ما جاء في فضل الحجر الأسود: الحديث (٨٧٨)؛ وقال: غريب. وابن حبان في الصحيح: كتاب الحج: باب فضل مكة: الحديث (٣٧١٠)، وإسناده حسن. والحاكم في المستدرك: كتاب المناسك: الحديث (١٤٢٠)، وإسناده صحيح.

(٢) من حديث معاذ بن جبل، ووائلة بن الأسقع، وأبي أمامة، وأبـي الـدرداء. أمـا حديـث معـاذ، فأخرجه عبدالرزاق في المصنف: النص (١٧٢٦): ج ١ ص٤٤٢. لأنه قِيْلَ: إن مكحول لم يسـمع من معاذ بـن جبـل. وفي نصـب الرايـة: ج ١ ص٤٩٢؛ قـال الزيلعـي: ((وأخرجـه الطـبراني في معجمه بالسند نفسه، ولكن فيه عن مكحول عن يحيى بن العلاء عن معاذ،... فذكره)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ ؛ وهم الغرباءُ؛ وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ ؛ أي المقيمينَ والْمُجاورينَ؛ وقوله تعالى: ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ يعني الْمُصَلِّيْنَ. وَقِيْلَ: أرادَ بذلك جميعَ المسلمين. وعن ابن عباس قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ للهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عِشْرِيْنَ وَمِائَةَ رَحْمَةٍ يَنْزِلُ عَلَى أهْلِ الْبَيْتِ سِتُّونَ لِلطَّائِفِيْنَ وَأرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّيْنَ، وَعُشْرُونَ لِلنَّاظِرِيْنَ](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ ؛ يعني مكَّة والحرمَ آمِناً من الْجَدْبِ وَالْقَحْطِ، وقيل: من الحرب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ ؛ لا يكونُ إلا ويوجد فيه أنواعُ الثمراتِ، فأحبَّ إبراهيمُ أن لا يأكلَ طعامَ الله إلا الْمُوَحِّدُونَ؛ فَأَعْلَمَهُ اللهُ أنْ لا يخلُق خَلْقاً إلا يرزقَه، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ﴾ ؛ أي سأرزقهُ في الدنيا يسيراً. قيل: خَشِيَ إبراهيمُ أن لا يستجابَ له في الرزقِ كما لم يستجبْ له في الإمامة؛ فخصَّ المؤمنين في المسألةِ في الرزق، فأعلمَهُ اللهُ أنَّ المؤمنَ والكافرَ في الرزق سواءٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ) في موضع نَصْبٍ بدلٌ من (أهْلَهُ) بدلُ بعضٍ من كلٍّ كقولهِ تعالى: ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبيلا﴾(٢). وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً) أي فسأرزقهُ إلى منتهى أجلهِ. قرأ ابنُ عامر: (فَأَمْتِعُهُ) بفتحِ الألف وجزمِ العين، (ثُمَّ أضْطَرَّهُ) موصولةُ الألف مفتوحةُ الراءِ على جهة الدُّعاء من إبراهيمَ عليه السلام، وقرأ الباقون بالتشديد. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي ألْجِئُهُ إلى عذاب النار في الآخرة، ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ ؛ أي بئْسَ المرجعِ يصيرُ إليه.

واختلفوا في مكَّةَ: هل كانت حَرَماً آمِناً قبلَ دعاء إبراهيم؛ أم صارت كذلك بدعائهِ؟ قِيْلَ: إنَّمَا صارَتْ كذلك بدعائهِ، بدليلِ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: [إنِّي حَرَّمْتُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان: ج ١ ص١٥١: النص (١١٦) عن ابن عباس.

(٢) آل عمران / ٩٧.

الْمَدِيْنَةَ كَمَا حَرَّمَ إبْرَاهِيْمُ مَكَّةَ][(١)]. والأصحُّ: أنَّها كانت حَرَماً آمِناً قبل دعائهِ بدليلِ قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: [إنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَوَضَعَهَا بَيْنَ أخْشَبَيْنِ][(٢)] أي جبلينِ؛ فعلى هذا كانت آمْناً قبلَ دعائه من الخسفِ والاصْطِلاَمِ لأهلهِ.

وكان اللهُ قد جعلَ في قلوب الناس هيبةَ ذلك المكان حتى كانوا لا ينتهكونَ حُرْمَةَ مَن كان فيه بمال ولا بنفسٍ، ثم بدعاءِ إبراهيم صارت حَرَماً آمِناً بأنْ أمرَ اللهُ الناسَ بتعظيمهِ على ألْسِنَةِ الرُّسُلِ. والواوُ في قولهِ (وَمَنْ كَفَرَ) دليلٌ على إجابةِ الله دعوةَ إبراهيمَ خاصةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ ؛ قيل: إنَّ الله تعالى خَلَقَ موضِعَ البيت قبل أن يخْلُقَ الأرضَ بألفي عام، وكان ربوةً بيضاءَ على الماءِ فَدُحِيَتِ الأرضُ من تحتها، فلَّما أهبطَ اللهُ آدمَ إلى الأرض كان رأسهُ يلمس السماءَ حتى صَلُعَ، وأورثَ أولادَه الصلعَ. ونفرت مِن طولهِ دوابُّ الأرض، وكان يسمعُ كلامَ أهلِ السماء وتسبيحَهم، ويأنسُ إليهم. فاشتكت نفسُه فقبضهُ الله إلى ستينَ ذِراعاً بذراع آدم. فلما فقدَ آدمُ ما كان يسمع من أصواتِ الملائكة وتسبيحَهم استوحشَ وشَكَى إلى اللهِ، فأنزلَ الله ياقوتة من ياقوتِ الجنة لها بابان من زُمُرُّدَةٍ خضراءَ؛ بابٌ شرقي وباب غربيٌّ، وفيه قناديلُ من الجنة، فوضعه على موضعِ البيت الآن. ثم قال: يا آدمُ إنِّي أهبطتُ لكَ بيتاً يُطَوَّفُ به كما يطافُ حول عرشي، ويصلَّى عنده كما يصلَّى عند عرشي. وأنزلَ عليه الحجرَ ليمسح به دموعَهُ وكان أبيضَ. قال رسولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ الْحَجَرَ يَاقُوتَةٌ مِنْ يَاقُوتِ الْجَنَّةِ، وَلَوْلاَ مَا مَسَّهُ الْمُشْرِكُونَ بأنْجَاسِهِمْ مَا مَسَّهُ ذُو عَاهَةٍ إلاَّ شَفَاهُ اللهُ تَعَالَى][(٣)]. فتوجَّه آدمُ من أرض الهندِ إلى مكَّة ماشياً، وقُيِّضَ له مَلَكٌ يدلُّه على البيتِ.

---

(١) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الحج: باب فضل المدينة: الحديث (٤٥٤/ ١٣٦٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٦٦٨).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في المناسك: فضيلة الحجر الأسود: النص (٤٠٣٠ و٤٠٣٣) في إسناد أيوب بن سويد، وهو لين الحديث، فهو حسن لغيره.

قيل لِمجاهدٍ: يا أبَا الحجَّاج؛ ألاَ كان يركبُ؟ قال: وأيُّ شيءٍ يحملهُ! فوالله إن خطوتَه مسيرةُ ثلاثةِ أيام، وكلُّ موضعٍ وضعَ عليه قدمه صارَ عمراناً، وما تعدَّاه صارَ مَفَاوزاً وقِفَاراً. فأتى مكةَ وحجَّ البيتَ وأقام المناسكَ؛ فلما فرغَ تلقَّته الملائكةُ فقالوا: برَّ حَجُّكَ يا آدمُ، فلقد حَجَجْنَا هذا البيتَ قبلَكَ بألفي عام.

قال ابن عباس: (حَجَّ آدَمُ أرْبَعِيْنَ سَنَةً مِنَ الْهِنْدِ إلَى مَكَّةَ عَلَى رِجْلَيْهِ؛ فَكَانَتِ الْكَعْبَةُ كَذَلِكَ إلَى أيَّامِ الطُّوفَان، فَرَفَعَهَا اللهُ إلَى السَّمَاءِ الرَّابعَةِ، فَهُوَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ ألْفُ مَلَكٍ ثُمَّ لاَ يَعُودُونَ إلَيْهِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَبَعَثَ اللهُ جِبْرِيْلَ حَتَّى جَاءَ الْحَجَرَ الأسْوَدَ فِي جَبَلِ أبي قُبَيْسٍ صِيَانَةً لَهُ عَنِ الْغَرَق، فَكَانَ مَوْضِعُ الْبَيْتِ خَالِياً إلَى زَمَنِ إبْرَاهِيْمَ ، ثُمَّ أمَرَ اللهُ إبْرَاهِيْمَ بَعْدَمَا وُلِدَ إسْمَاعِيْلُ وَإسْحَقُ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ أنْ يَبْنِيَ بَيْتاً لَهُ يُعْبَدُ وَيُذْكَرُ فِيْهِ، فَلَمْ يَدْرِ إبْرَاهِيْمُ أيْنَ يَبْنِي؟ فَسَألَ اللهَ أنْ يُبَيِّنَ لَهُ مَوْضِعَهُ، فَبَعَثَ اللهُ إلَيْهِ السَّكِيْنَةَ لِتَدُلَّهُ عَلَى مَوْضِعِ الْبَيْتِ؛ وَهِيَ رِيْحٌ مَجُوجٌ لَهَا رَأسَان تُشْبهُ الْحَيَّةَ، فَتبعَهَا إبْرَاهِيْمُ حَتَّى أتَيَا مَكَّةَ، فَجَعَلَتِ السَّكِيْنَةُ تَطُوفُ عَلَى مَوْضِعِ الْبَيْتِ كَمَا تَطُوفُ الْحَيَّةُ. وَأمِرَ إبْرَاهِيْمُ أنْ يَبْنِيَ عَلَيْهِ لِتَسْتَقِرَّ السَّكِيْنَةُ. فَبَنَاهُ) وهذا قولُ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ.

قال ابن عباس : (بَعَثَ اللهُ سَحَابَةً عَلَى قَدْر الْكَعْبَةِ فَجَعَلَتْ تَسِيْرُ وَإبْرَاهِيْمُ يَسِيْرُ فِي ظِلِّهَا إلَى أنْ وَافَتْ مَكَّةَ وَوَقَفَتْ عَلَى مَوْضِعِ الْبَيْتِ، وَنُودِيَ: يَا إبْرَاهِيْمُ إبْنِ عَلَى ظِلِّهَا لاَ تَزِيْدُ وَلاَ تُنْقِصُ، فَبَنَى بخَيَالِهَا). وقال بعضُهم: أرسلَ اللهُ جبريلَ ليدُلَّه على موضعِ البيتِ وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإذْ بَوَّأنَا لإبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[1]. فبَنى إبراهيمُ وإسماعيل البيتَ؛ كان إبراهيمُ يَبْنِيَهُ وإسماعيلُ يناولُهُ الحجارةَ والملائكةُ ينقلون الحجارةَ من خمسة أجْبُلٍ: طُور سَيْنَاءَ؛ وطور زَيْنَاءَ؛ والْجُودِيِّ؛ وَلُبْنَانَ؛ وَحِرَاءَ. قيل: إنَّ قواعدَه من حِرَاءَ.

فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود قال لإسماعيل: ائتني بحَجَرٍ حَسَنٍ يكون للناس عَلَماً؛ فأتاهُ بحجرٍ؛ فقال: ائتني بحجرٍ أحسنَ من هذا؛ فمضى إسماعيلُ

---

(١) الحج / ٢٦.

ليأتِيَ بحجرٍ فصاح أبو قُبيس: يَا إبراهيمُ إن لكَ عندي وديعةً فخُذهـا، فـأخذَ الحجـر الأسودَ ووضعهُ مكانه.

وقيل: إنَّ الله تعالى أمدَّ إبراهيم وإسماعيل بتسعةِ أمـلاكٍ يُعِيْنُوهُمَـا علـى بنـاءِ البيت، فلما فَرَغَـا مـن بنائـه جَثَيَـا علـى الرُّكَـب وقـالاَ: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾. فقيل: قد فُعِلَ لكمـا، فقـالاَ: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ ؛ فقيل: قد فُعِلَ لكما ذلـك، فقـالا: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ ؛ أي موحِّدين مخلصين.

والقواعدُ هي أساسُ الكعبةِ؛ كذا قال الكلبيُّ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أي بنيَّاتِنَا. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ) قرأ عوفُ: (مُسْلِمِيْنَ) علـى الجمعِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) أي واجعل من ذرِّيتنا أمـةً مخلصـة لكَ بالتوحيدِ والطاعة. ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ ؛ أي عَرِّفنـا مُتَعَبَّدَاتِنَـا وشـرائعَ دِيننـا وأعلامَ حَجِّنا. وأصلُ النُّسُكِ الْعِبَادَةُ، ويقال للعابدِ: ناسِكٌ.

وقرأ ابنُ مسعود: (وَأرهِمْ مَنَاسِـكَهُمْ) ردَّه إلى الأمَّـةِ. وقـرأ قتـادة وابـنُ كثـير بسكونِ الراء في جميعِ القرآن. وقرأ أبو عمرٍو بـاختلاسِ كسْـرَةِ الـراء. وقـرأ البـاقون بكسرِ الراء.

فأجابَ اللهُ دُعاءَهما؛ فبعثَ اللهُ جبريلَ عليه السلام فأراهُما المناسـكَ في يـوم عرفـةَ، فلما بلغَ عرفات قـال: يَـا إبْرَاهِيْـمُ عَرَفْـتَ؟[1]. قـال: نَعَـمْ؛ فسُـمِّيَ الْوَقْـتُ عَرَفَـةَ، والموضعُ عرفات.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ ؛ أي وَتَجَـاوَزْ عـن ذُنوبنـا الصغـائر؛ لأن ذنـوبَ الأنبيـاءِ لا تكـون إلاَّ الصغـائر[2]. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ أي المتجاوزُ الرجَّاعُ بالرحمة على عبادهِ.

(١) في هامش المخطوط: وصل في سرعة وأن آدم عليه السلام تعارف مع حواء بعرفة فلذلك سميت عرفة.

(٢) ويجوز طلب التجاوز عن مطلق الذنوب كبائر أو صغائر، ولو كانت الأنبياء عليهم السلام معصومين عنها يطلق التجاوز كسراً للنفس لاستغفار النبي مع عصمته من الذنوب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ ؛ أي وابعـث في ذرِّيتنـا الأمَّةَ المسلمةَ؛ أي ذريَّة إبراهيمَ وإسماعيل مـن أهـلِ مكَّـة، (رَسُـولاً مِنْـهُمْ) أي مـن أهل نَسَبهِمْ، ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ ﴾ ؛ أي يقـرأ عليـهم كتـابَكَ، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ ؛ الذي ينْزلُ عليه ومعانيه، ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ؛ أي فِقْهَ الحـلال والحـرام. وقال مجاهدُ: (فَهْمُ الْقُرْآنِ). وقال مقاتلُ:(هِيَ مَوَاعِظُ الْقُرْآنِ وَبَيَانُ الْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ). وقال ابنُ قتيبةَ: (هِيَ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ، وَلاَ يُسَمَّى الرَّجُلُ حَكِيْماً حَتَّى يَجْمَعَهُمَا). وقال بعضُهم: كلُّ حكمةٍ وَعَظَتْكَ أو زَجَرَتْكَ أو دَعَتْكَ إلى مَكْرَمَةٍ أو نَهَتْكَ عن قبيحٍ فـهي حِكْمَةٌ؛ وقيل: الحكمةُ وضعُ الأشياءِ في مواضِعها. وقيل: هي السُّنَّةُ البَيِّنَةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ ؛ أي يطهِّرهم مـن الكفـرِ والفواحـش والدَّنَـس والذنوب. وقيل: يصلِحُهم بأخذِ زكاةِ أموالِهم. وقـال ابـنُ كيسـان: (أنْ يَشْـهَدَ لَـهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بالْعَدَالَـةِ إذَا شَـهِدُواْ لِلأَنْبِيَـاءِ بـالْبَلاَغِ). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ ؛ الْعَزِيْزُ: هُوَ الْمَنِيْعُ الذي لا يغلِبُه شيءٌ. وَالْحَكِيْـمُ: الـذي يَحْكُـمُ ما يريدُ.

وقال ابنُ عباس: (الْعَزِيْزُ: الَّذِي لاَ يُوجَـدُ مِثْلُـهُ) دليلـهُ قولـه: ﴿لَيْـسَ كَمِثْلِـهِ شَيْءٌ﴾[1]. وقال الكلبيُّ: (الْعَزِيْزُ: الْمُنْتَقِمُ مِمَّنْ أسَاءَ) دليلهُ قَوْلُهُ تَعَـالَى:﴿وَاللهُ عَزِيـزٌ ذُو انْتِقَـامٍ﴾[2]. وقـال الكسـائيُّ: (الْعَزِيـزُ: الْغَـالِبُ) دليلــهُ قولــه: ﴿وَعَزَّنِــي فِــي الْخِطَابِ﴾[3] أي غلَبَنِي. وقال ابـنُ كيسـان:(الْعَزِيـزُ: الَّـذِي لاَ يُعْجِـزُهُ شَـيْءٌ). وقـال المفضَّلُ: (الْعَزِيْزُ: الْمُمْتَنِعُ الَّذِي لاَ تَنَالُهُ الأَيْدِي؛ وَلاَ يُرَدُّ لَهُ أمْرٌ؛ وَلاَ غَـالِبَ لَـهُ فِيْمَـا أرَادَ). وقيل: العزيزُ: هو القويُّ ذو القدرة؛ دليلهُ قوله: ﴿فَعَزَّزْنَا بثَالِثٍ﴾[4] أي قَوَّيْنَـا. وأصلُ العِزَّةِ في اللغةِ: الشِّدَّةُ؛ يُقَالُ: عَزَّ عَلَيَّ كَذَا؛ إذا شَقَّ. والمرادُ بالرســولِ في هـذه الآية مُحَمَّدٌ ﷺ. وبالكتاب القرآنُ.

---

(١) الشورى / ١١. (٢) آل عمران / ٤.
(٣) ص/ ٢٣. (٤) يس / ١٤.

روي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: [أنَا إنَّمَا دَعْوَةُ أبي إبْرَاهِيْمَ، وَبُشْرَى أخِـي عِيْسَـى][1] يعني قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِـنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[2] فاستجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام وبعـثَ فيـهم مُحَمَّـداً سيِّدَ الأنبياءِ؛ لذلك قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [إنِّي عَبْدُ اللهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّيْنَ وَإنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِيْنَتِهِ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ ، هـذا تحريـضٌ مـن الله علـى مِلَّـةِ نبيِّنَـا مُحَمَّـدٍ ﷺ الـتي هـي مِلَّـةُ إبراهيـمَ؛ لأنَّ إبراهيـمَ وإسماعيلَ كانَا سألاَ في دعائِهما أن يجعلَ اللهُ من ذريَّتهما في مكةَ رَسُولاً؛ لأن الكلامَ كان في ذِكْرِ مكةَ ولم يكن أحدٌ من أهلِ مكة من ذريَّتهما نبياً سوى مُحَمَّـدٍ ﷺ. وملـةُ إبراهيمَ داخلةٌ في ملةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ مع الزيادات التي في شرائعِ هذه المِلَّةِ.

وسببُ نزول هذه الآية: أنَّ عَبْدَاللهِ بْنَ سَلاَمٍ دَعَا ابْنَي أخِيْـهِ مَسْلَمَةَ وَمُـهَاجِرَ إلَى الإسْلاَمِ، وَقَالَ لَهُمَا: قَدْ عَلِمْتُمَا أنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ فِي التَّوْرَاةِ: (إنِّـي بَـاعِثٌ مِـنْ وِلْدِ إسْمَاعِيْلَ نَبيّاً اسْمُهُ أحْمَدُ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَى وَرَشَـدَ؛ وَمَـنْ لَـمْ يُؤْمِـنْ بـهِ فَمَلْعُونٌ) فَأَسْلَمَ مَسْلَمَةُ وَأبَى مُهَاجِرُ أنْ يُسْلِمَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ)[4] أيْ يَتْرُكُ دِيْنَهُ وَشَرِيْعَتَهُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٤٠٨). والطبراني في المعجـم الكبـير: ج ٨ ص١٧٥: الحديث (٧٧٢٩) عن أبي أمامة. والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٦٢ عـن خـالد بـن معـدان. والحاكم في المستدرك: ذكر أخبار سيد المرسلين: الحديث (٤٢٣٠)؛ وقال: ((خالد بن معدان مـن خيار التابعين، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة، فإذا أسند حديثاً إلى الصحابة، قال: صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه)).

(٢) الصف / ٦.

(٣) في الدر المنثور: ج ١ ص٣٣٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد وابن جرير وابن أبي حـاتم وابـن مردويه والبيهقي في الدلائل، عن العرباض بن سارية)). وأخرجـه الإمـام أحمـد في المسـند: ج ٥ ص٢٦٢. والطبري في جامع البيان: النـص (١٧٠٩). وفي مجمـع الزوائـد ومنبـع الفوائـد: ج ٨ ص٢٢٣؛ قال الهيثمي: ((أحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد، وقد وثقه ابن حبان)).

(٤) في لباب النقول في أسباب النزول:ج ٢٩؛ قال السيوطي: (قال ابن عيينة وذكره).

يقال: رَغِبْتُ في الشيءِ؛ إذا أرَدْتُهُ، وَرَغِبْتُ عَنْهُ؛ إذا تَرَكْتُهُ. والرغبةُ في اللغة: مَحَبَّةُ مَا لِلنَّفْسِ فِيْهِ مَنْفَعَةٌ. ولِهذا لا يجوزُ في صفاتِ الله: رَاغِبٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) أي خَسِرَ وَهَلَكَ. وقال الكلبيُّ: (ضَلَّ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ). وقال بعضُ أهلِ اللغة: سَفِهَ بمَعْنَى يَسْفَهُ، وقيل: (سَفِهَ نَفْسَهُ) أي جَهِلَ نَفْسَهُ بمعنى لم يتفكَّر في نفسهِ أنَّ لَهَا خَالِقاً. وقيل: سَفِهَ فِي نَفْسِهِ؛ إلا أنهُ حذف الخافض فنُصِبَ، مثلُ قولهِ تعالى: ﴿وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾(١) أي على عُقْدَةِ النكاحِ. ويقال: ضربتُهُ الظهرَ والبطنَ؛ أي على الظهرِ والبطنِ. وأصلُ السَّفَهِ وَالسَّفَاهَةِ: الْجَهْلُ وَضَعْفُ الرَّأيِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي للرسالةِ. وأصلُ الطَّاءِ فيه التاءُ، جعلت طاءً لقرب مخرَجِها ولتطوُّع اللِّسان به. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ أي الفائزينَ. قاله الزجَّاجُ(٢). وَقِيْلَ: الْمُسْتَوْجِبيْنَ لِلْكَرَامَةِ. وقيلَ: في الآيةِ تقديمٌ وتأخير، تقديرهُ: ولقد اصطفيناهُ في الدنيا والآخرةِ وإنَّه لَمِنَ الصالحينَ، نظيرهُ في سورةِ النحل: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ﴾ أي استقِمْ على الإسلامِ وَاثْبُتْ عليهِ؛ لأنه كان مُسْلِماً كقولهِ تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أنَّهُ لا إلَهَ إلا اللهُ﴾(٤) أي اثْبتْ على عِلْمِكَ. وقال ابنُ عبَّاس: (إنَّمَا قَالَ ذلِكَ حِيْنَ خَرَجَ مِنَ السَّرَبِ(٥) وَرَأى الْكَوْكَبَ وَالْقَمَرَ وَالشَّمْسَ، فَألْهَمَهُ اللهُ الإخْلاَصَ فَاسْتَدَلَّ وَعَرَفَ وَحْدَانِيَّةَ اللهِ فَأَسْلَمَ حِيْنَئِذٍ، وَقَالَ: ﴿إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ حَنِيفًا وَمَا أنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾(٦)) وليس أنه كان حين أفَلَتِ الشمسُ كافراً؛ لأنَّ الله تعالى لا يُنَبِئُ مَن كان كافراً قطّ.

---

(١) البقرة / ٢٣٥. (٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ١ ص١٨٥.

(٣) الآية / ١٢٢. (٤) محمد / ١٩.

(٥) السَّرَبُ بالتحريك: الْحَفِيْرُ، وَبَيْتٌ تَحْتَ الأرْضِ. القرطبي: ج ٢ ص١٣٤.

(٦) الأنعام / ٧٨-٧٩.

ويجوزُ أن يكون معنى الإسلامِ: تسليمُ الأمور إلى الله تعالى والانقيادُ له من غيرِ امتناعٍ وعِصْيَان. وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: اَخْلِصْ دِيْنَكَ للهِ بالتَّوْحِيْدِ). وقال عطاءُ:(سَلِّمْ نَفْسَكَ إلَى اللهِ وَفَوِّضْ أمْرَكَ إلَيْهِ). وقيل: اخْضَعْ واخشَعْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ ؛ قرأ أهلُ المدينةِ وأهلُ الشَّام: (وَأوْصَى) بالألفِ. وقرأ الباقون بالتشديد. وهما لُغتان؛ يقال: أوْصَيْتُهُ وَوَصَّيْتُهُ؛ إذا أمرتُهُ مثلَ إنْزلَ ونزّلْ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (بهَا) يعني بكلمةِ الإخلاص: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ. وقال أبو عُبيدةَ: (إنْ شِئْتَ رَدَدْتَ الْكِنَايَةَ إلَى الْمِلَّةِ؛ لأنَّهُ ذكَرَ مِلَّةَ إبْرَاهِيْمَ؛ وَإنْ شِئْتَ رَدَدْتَهَا إلَى الْوَصِيَّةِ). وقال المفضَّلُ: (بالطَّاعَةِ كِنَايَةٌ عَنْ غَيْرِ مَذْكُورٍ). وكنايةُ الْمِلَّةِ هنا أصحُّ؛ لأن ردَّها إلى المذكور أولَى من ردِّها إلى المدلول، وكلمةُ الإخلاصِ مدلولٌ عليها في ضِمْنِ قولهِ تعالى: (قَالَ أسْلَمْتُ لِرَب الْعَالَمِينَ).

وبَنُو إبراهيمَ أربعةٌ: إسْمَاعِيْلُ؛ وَإسْحَقُ؛ وَمَدْيَنُ؛ وَمَدَائِنُ. قوله تعالى: (وَيَعْقُوبُ) قيل: سُمي بيعقوبَ؛ لأنه خرجَ على إثْر العيص؛ وقد مَضَتْ قصتُهما. وقيل: سُمي بيعقوبَ لكثرة عَقِبِهِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: [بُعِثْتُ عَلَى إثْرِ ثَمَانِيَةِ آلاَفِ نَبِيٍّ: أرْبَعَةُ آلاَفٍ مِنْ بَنِي إسْرَائِيْلَ][(١)]. ومعنى الآية: وصَّى بها أيضاً يعقوبُ بَنِيْهِ الاثني عَشَرَ. وحُكي عن مجاهدٍ أنه حكى عن بعضِهم: (وَيَعْقُوبَ) بالنصب عطفاً على بَنِيْهِ داخلاً في جُملتها الموصِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ أي الإسلامَ، ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ ؛ أي مؤمنون. وقيل: مُخلصون. وقيل: مُحسنون بربكم الظنَّ. وقيل: مُفَوِّضُونَ.

روي أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ الْيَهُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ألَسْتَ تَعْلَمُ أنَّ يَعْقُوبَ يَوْمَ مَاتَ أوْصَى بَنِيْهِ بدِيْنِ الْيَهُودِيَّةِ؟ فأنزلَ اللهُ تعالى قولَهُ: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حيلة الأولياء وطبقات الأصفياء: ج ٣ ص١٦٢؛ وقال: ((غريب من حديث زياد، تفرد به زكريا)).

﴿يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ ؛ أي أكنتم أيُّها اليهودُ حضوراً حين حضرَ يعقوبَ الموتُ، ﴿إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ ؛ الصادِقَ، ﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾ ؛ الْحَلِيْمَ.

والمراد بحضور الموت: حضورُ أسبابهِ؛ لأن مَن حضرَهُ الموتُ لا يتمكَّن من القول، وقد سُمي سببُ الشيء باسْمِه. كما قالَ تعالى:﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[(١)].

وقال الكلبيُّ: (مَعْنَى الآيَةِ: أنَّ يَعْقُوبَ لَمَّا دَخَلَ مِصْرَ رَأى أهْلَهَا يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ وَالنِّيْرَانَ؛ فَجَمَعَ أوْلاَدَهُ وَخَافَ عَلَيْهِمْ ذلِكَ. وَقَالَ لَهُمْ: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي). وقال عطاءُ: (إنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَقْبضْ نَبياً حَتَّى يُخَيِّرَهُ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، فَلَمَّا خَيَّرَ يَعْقُوبَ قَالَ: أنْظِرْنِي حَتَّى أسْألَ أوْلاَدِي وَأوْصِيَهُمْ، فَجَمَعَ أوْلاَدَهُ وَأوْلاَدَ أوْلاَدِهِ وَقَالَ لَهُمْ: قَدْ حَضَرَ أجَلِي، فَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟ أيْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِي. (قَالُوا نَعْبُدُ إلَهَكَ وَإلَهَ آبَائِكَ) ﴿إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾[(٢)].

قرأ يحيى بن مُعَمَّر: (إلَهَ أبيْكَ) على التوحيدِ؛ قال: لأنَّ إسماعيلَ عمٌّ يعقوبَ لا أبوهُ. وقرأ العامَّة: (وَإلَهَ آبَائِكَ) على الجمعِ. وقالوا: عمُّ الرجل صِنْوُ أبيهِ[(٣)]. وقال النبيُّ ﷺ للعباسِ: [هَذَا بَقِيَّةُ آبَائِي] والعربُ تُسمي العمَّ أباً كما تُسمِّي الْخَالَةَ أمّاً. قال اللهُ تعالى: ﴿وَرَفَعَ أبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾[(٤)] يعني يعقوب وليان؛ وهي خالة يوسف عليه السلام.

---

(١) الشورى / ٤١.

(٢) على ما يبدو أنه يتأوَّلُ حديثَ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قالت: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَثِيراً مَا أسْمَعُهُ يَقُولُ: [إنّ اللهَ لَمْ يَقْبِضْ نَبِيّاً حَتَّى يُخَيِّرَهُ]. أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٢٣٤.

(٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أن النبيَّ ﷺ قال: [إنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أبِيهِ]. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٠ ص٧٢: الحديث (٩٩٨٥) وص٢٩١: الحديث (١٠٦٩٨)، وإسنادهما حسن.

(٤) يوسف / ١٠٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ ؛ أي لا تَتَّكِلُوا أيها اليهودُ على أبائكم وأسلافِكُم اعتماداً منكم على شفاعَتِهم عنكم فإنَّهم جماعةٌ قد مَضَتْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ ؛ أي لَها جزاءُ ما عملت من خير أو شرٌ ولكم جزاءُ ما عملتم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ ؛ أي إنَّما تُسألون عن أعمالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي رُؤُوسِ يَهُودِ الْمَدِيْنَةِ كَعْب بْنِ الأَشْرَفِ وَمَالِكِ بْنِ الضَّيْفِ وَوَهَب بْنِ يَهُودَا وَأَبِي يَاسِرِ، وَفِي نَصَارَى نَجْرَانَ السَّيِّدِ وَالْعَاقِب وَأصْحَابِهِمَا، خَاصَمُواْ الْمُسْلِمِيْنَ فِي الدِّيْنِ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: نَبيُّنَا مُوسَى أفْضَلُ الأَنْبيَاءِ؛ وَكِتَابُنَا التَّوْرَاةُ أفْضَلُ الْكُتُب؛ وَدِيْنُنَا أفْضَلُ الأَدْيَان؛ وَكَفَرْتُ بعِيْسَى وَالإنْجِيْلِ وَمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآن. وَقَالَتِ النَّصَارَى: نَبيُّنَا عِيْسَى أفْضَلُ الأَنْبيَاءِ؛ وَكِتَابُنَا الإنْجِيْلُ أفْضَلُ الْكُتُب؛ وَدِيْنُنَا أفْضَلُ الأَدْيَان؛ وَكَفَرْتُ بمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآن. وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيْقَيْنِ لِلْمُسْلِمِيْنَ: كُونُوا عَلَى دِيْنِنَا؛ فَلاَ دِيْنَ إلاَّ ذلِكَ؛ دَعَوْهُمْ إلَى دِيْنِهِمْ)[1]. فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ ؛[2] أي مُسْلِماً مُخْلِصاً مائلاً عن كلِّ دينٍ سوى الإسلام، ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ ؛ يعني إبراهيمَ عليه السلام.

وَالْحَنَفُ: مِثْلُ أصَابعِ الْقَدَمَيْن. سُمي إبراهيمُ حنيفاً؛ لأنه حَنَفَ عمَّا كان يعبدُ آباؤه؛ أي عَدَلَ. وقيل: الْحَنَفُ: الاستقامةُ، وإنَّما سُمي الرجلُ الأعرجُ أحْنَفاً تأوُلاً[3]؛ كما يقالُ للأعمى بصيراً.

والفائدةُ في ذكرِ ملَّة إبراهيمَ (كونه) لا شَكَّ أنه حقٌّ عندنا وعندَ اليهودِ والنصارى، ولم يختلفِ الناسُ في أن مِلَّتَهُ الإسلامُ والتوحيد. قال ابنُ عباس: (الْحَنِيْفُ: هُوَ الْمَائِلُ عَنِ الأَدْيَانِ كُلِّهَا إلاَّ دِيْنَ الإسْلاَمِ). وقال مقاتلُ: (الْحَنِيْفُ:

---

(١) ذكره مختصراً ابن هشام في السيرة:ما نزل من البقرة في المنافقين ويهود: ج ٢ ص١٩٨.

(٢) في المخطوط: أدرج (مسلماً) إلى النص القرآني.

(٣) في المخطوط: (تعاولاً) وهو تصحيف.

الْمُخْلِصُ). وانتصبَ حنيفاً على القطعِ عند الكوفيِّين؛ لأن تقديرَهُ: بلْ ملَّة إبراهيمَ الحنيفَ، فلما سقطتِ الألفُ واللام لم يتبعِ النكرةُ المعرفةَ فانقطع منه، فنُصِبَ. وقال البصريُّون: انتصبَ على الحالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ ؛ الآيةُ، وذلك أنهُ جاءَ أحبارُ اليهودِ إلى النبيِّ ﷺ فقالُوا لَهُ: بمَنْ نُؤْمِنُ مِنَ الأَنْبيَاءِ؟ فأنزلَ اللهُ: (قُولُوا آمَنَّا باللهِ؛ ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ ؛ يعني القرآنَ، ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ ؛ وهي عشرةُ صُحُفٍ، ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ ؛ يعني أولادَ يعقوبَ واحدهم سِبْطٌ، سُموا بذلك لأنه وُلِدَ لكلِّ واحدٍ منهم جماعةٌ من الناس، وسِبْطُ الرَّجُلِ: حَافِدُهُ، ومنه قيل للحسنِ والْحُسين: سِبْطَيْنِ لرسول الله ﷺ. والأسباطُ من بني إسرائيلَ كالقبائلِ من العربِ؛ والشعوب من العَجَم، فكان في الأسباطِ أنبياءٌ، فلذلكَ قال اللهُ تعالى (وَمَا أُنْزِلَ) إليهم؛ وقيل: هم بَنُو يعقوبَ من صُلبهِ صاروا كلُّهم أنبياءَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ ﴾ ؛ يعني التوراة، ﴿ وَعِيسَىٰ ﴾ ؛ يعني الإنجيلَ، ﴿ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ ؛ أي لا نؤمنُ ببعضٍ ونكْفُرُ ببعضٍ كما فعلتِ اليهودُ والنصارى، بل نؤمن بجميعِ أنبياءِ الله وكُتُبهِ؛ فلما نزلتْ هذهِ الآيةُ قرأهَا رسولُ اللهِ ﷺ على اليهودِ والنصارى وقال: [إنَّ اللهَ أمَرَنِي بهَذَا] فلما سَمعتِ اليهودُ بذكرِ عيسى أنكرُوا وكفَرُوا وقالوا: لا نؤمنُ بعيسى. قالتِ النصارَى: إنَّ عيسَى ليسَ بمَنْزِلَةِ الأنبياءِ ولكنهُ ابنُ الله، فأنزلَ اللهُ تعالى قولَهُ تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ ﴾ ؛ أي فإنْ آمَنوا بجميعِ ما آمَنْتُمْ بهِ كإيْمانِكم. قِيْلَ: معناهُ: فإنْ آمَنوا بما آمنتم به.

و(مِثْلِ) هنا صلةٌ، وهكذا كانوا يقرأونَها. كان يقرؤها ابنُ عباسٍ ويقول: إقْرَأوا (فَإِنْ آمَنوا بمَا آمَنْتُمْ بهِ) فليسَ للهِ مِثْلٌ. وقيل: بمعنى (على). وقيل: الباءُ زائدةٌ. ومعنى الآيةِ: إنْ آمَنوا باللهِ ورُسُلِهِ وكُتُبهِ فقدِ اهتَدَوا.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإنْ تَوَلَّوْا) أي وإنْ أعْرَضُوا عن الإيْمان بالقرآن ومُحَمَّدٍ ﷺ (فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ) أي خلافٍ وعداوة، يقال: فلانٌ وفلانٌ تَشَاقَّا؛ أي أخذَ كلٌّ

واحدٍ منهم بشِقٍّ غير شِقِّ صاحبهِ. دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى حاكياً عن شُعيب: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾(١) أي خِلافِي. وقيل: مأخوذٌ مِما أخذَ كلُّ واحد فيما يَشُقُّ على صاحبهِ. وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: فَإِنَّمَا هُمْ فِي ضَلاَل). وقال الكسائيُّ: (مَعْنَاهُ: فَإِنَّمَا هُمْ فِي خَلْعِ الطَّاعَةِ). وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: فَإِنَّمَا هُمْ فِي بعَادٍ وَفِرَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

وقيل: لَمَّا انتَهى النبيُّ ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ قالت النصارى: لن نؤمنَ بموسى(٢) ولا نؤمنُ بكَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إلا أنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأنَّ أكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾(٣).

وإنَّما أضافَ اللهُ الإنزالَ إلى إسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطِ، وإنَّما كان الإنزالُ على آبائِهم؛ لأنَّهم كانوا جميعاً يعلَمُون ذلك، فأضافَ الإنزالَ إليهم كما قال: (قُولُوا آمَنَّا باللهِ وَمَا أنزِلَ إِلَيْنَا) أي إلى نَبيِّنَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ يعني اليهودَ والنصارى؛ أي فَسَيَكْفِيْكَهُمُ اللهُ يا مُحَمَّدُ وسائرُ المسلمين شَرَّ اليهودِ والنصارى، ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ، لأقوالِهم، ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ ، بأحوالِهم، فكفاهُ الله أمرَهم بالقتلِ والسَّبي في بني قُرَيْظَةَ؛ والجلاءِ والنَّفي في بني النَّضِيْرِ؛ والجزيةِ والذِّلةِ في نصارى نَجران.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي دينَ اللهِ وفِطْرَتَهُ؛ لأن دينَ الإسلامِ يؤثِرُ في الْمُتَدَيِّنِ مِن الطهور والصلاةِ والوَقَار وسائرِ شعائر الإسلامِ كالصِّبغ الذي يكونُ في الثوب. ولا شيء في الأديانِ أحسنُ من دينِ الإسلام، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ ؛ وقيل: أرادَ بالصبغةِ الْخِتَانَ. وروي أنَّ صِنفاً من

---

(١) هود / ٨٩.

(٢) في أصل المخطوط: (لن نؤمن بموسى وعيسى، ولا نؤمن بك). وعلى ما يبدو أنه تصحيف لأنه لا ينسجم ومعتقدهم، فأثبتناه على النسق الصحيح.

(٣) المائدة / ٥٩.

النَّصارى كانوا إذا وُلِدَ لَهم ولدٌ وأتى عليه سبعةُ أيَّام صَبَغُوهُ؛ أي غَمَسُوهُ في ماءٍ لَهم يقالُ له: الْمَعْمُودِي ليطهِّروه بذلكَ، وقالوا: هذا طُهُورُهُ ومكانُ الخِتَانِ[١]. فقيل لَهم:(صِبْغَةَ اللهِ) أي التطهرُ الذي أمرَ اللهُ بهِ أبلغُ في النظافةِ.

وأولُ من اخْتَتَنَ إبراهيمُ عليه السلام بالقَدُّومِ؛ وهيَ موضعُ مَمَرِّهِ بالشامِ؛ وكان يومئذٍ ابنُ مِائَةٍ وعشرين سنةً، ثم عاشَ بعد ذلك ثمانين سنةً.

ونصبَ (صِبْغَةَ) على الإغراءِ؛ أي الْزَمُوا صبغةَ اللهِ، أو اتَّبِعُوا. وقال الأخفشُ: (هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾. وقال ابنُ كيسان: ﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾ أيْ وجْهَةَ اللهِ؛ بمَعْنَى الْقِبْلَةِ). وقال الزجَّاج: (مَعْنَاهُ: خِلْقَةَ اللهِ، مِنْ صَبَغْتُ الثَّوْبَ إذَا غَيَّرْتُ لَوْنَهُ وَخِلْقَتَهُ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى أنَّ اللهَ تَعَالَى ابْتَدَأ الْخِلْقَةَ عَلَى الإسْلاَمِ)[٢] دليلهُ قول مقاتلٍ في هذهِ الآية: ﴿فِطْرَةَ اللهِ﴾[٣] أيْ دِيْنَ اللهِ. ويوضِّحه قولُ رسولِ الله ﷺ: [كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، إلاَّ أنَّ أبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ، كَمَا تُنْتِجُونَ الْبَهِيْمَةَ، فَهَلْ تَجِدُونَ مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا؟] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أرَأيْتَ مَنْ يَمُوتُ وَهُوَ صَغِيْرٌ؟ قَالَ: [اللهُ أعْلَمُ بمَا كَانُوا عَامِلِيْنَ][٤]. وقال أبو عبيدةُ: (مَعْنَاهُ: سُنَّةُ اللهِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾؛ أي مُطِيْعُونَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا ﴾ ، وذلك أنَّ اليهودَ كانوا يقولون: نحنُ أهل الكتاب الأوَّل والعِلْم القديمِ. وكانوا يقولون هم والنصَارى: نحنُ أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤه. فأمرَ اللهُ تعالى النَّبيَّ ﷺ بهذه الآيةِ أنْ (قُلْ) لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: (أتُحَاجُّونَنَا) ﴿ فِى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي أتُجَادِلُونَنَا وتخاصِمُونَنا. وقرأ الأعمشُ والحسن: (أتُحَاجُّنَّا) بنون واحدة مشدَّدة. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فِي اللهِ) أي في دينِ اللهِ. وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ الأنبياءَ كانوا مِنَّا وعلى ديننا ولم يكونوا من العرب؛ فلو كنتَ نبيّاً لكنتَ مِنَّا على ديننا.

---

(١) جامع البيان: ج ١ ص٢٩٢. (٢) قاله في معاني القرآن وإعرابه: ج ١ ص١٨٩.

(٣) الروم / ٣٠.

(٤) رواه البخاري في الصحيح: كتاب القدر: الحديث (٦٥٩٩ و٦٦٠٠). ومسلم في الصحيح: كتاب القدر: باب معنى كل مولود: الحديث (٢٤/ ٢٦٥٨).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ ؛ أي لنا دِيننا ولكم دينُكم. وهذهِ الآية منسوخةٌ بآيةِ السَّـيف. وقوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ ؛ أي مُوَحِّدُونَ. قال عبدُالواحد بنُ زيـدٍ: سَأَلْتُ الْحَسَـنَ عَـنِ الإخْلاَصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: سَأَلْتُ حُذَيْفَةَ عَنِ الإخْلاَصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: سَـأَلْتُ النَّـبِيَّ ﷺ عَنِ الإخْلاَصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: [سَأَلْتُ جِبْرِيْلَ عَنِ الإخْلاَصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: سَـأَلْتُ رَبَّ الْعِزَّةِ عَنِ الإخْلاَصِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: سِـرٌّ مِـنْ سِـرِّي أوْدَعْتُـهُ قَلْـبَ مَـنْ أحْبَبْـتُ مِـنْ عِبَادِي][(١)]. وَقَالَ ﷺ: [مَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيْقَةَ الإخْلاَصِ حَتَّى لاَ يُحِبَّ أنْ يُحْمَـدَ عَلَـى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى].

وقال سعيدُ بن جبيرٍ: (الإخْلاَصُ أنْ يُخْلِصَ الْعَبْدُ دِيْنَهُ وَعَمَلَـهُ للهِ وَلاَ يُشْـرِكَ بِهِ فِي دِيْنِهِ وَلاَ يُرَائِي بعَمَلِهِ أحَداً). وقال الفُضيل: (تَرْكُ الْعَمَلِ مِنْ أجْلِ النَّاسِ رِياءً، وَالْعَمَلُ مِنْ أجْلِ النَّاسِ شِرْكٌ، وَالإخْلاَصُ أنْ يُعَافِيَكَ اللهُ مِنْـهُمَا). وقـال يحيـى بـن مُعاذ: (الإخْلاَصُ تَمْيِيْزُ الْعَمَلِ مِنَ الْعُيُوب كَتَمْيِيْزِ اللَّبَنِ مِـنَ الْفَـرْثِ وَالـدَّمِ). وقـال بعضُهم: هو ما لا يكتبهُ الْمَلَكَـان؛ ولا يفسِـدُه الشَـيطانُ؛ ولا يظلـمُ عليـه الإنسـانُ. وقيل: هو أن لا تشوبهُ الآفاتُ؛ ولا تتبعه رُخَصُ التأويلاتِ. وقيـل: هـو أنْ تسـتويَ أفعالُ العبدِ في الظاهر والباطن. وقيل: هو أن يَكْتُمَ حسناتَهُ كما يكتمُ سيِّئاته. قال أبو سليمان: (لِلْمُرَائِي ثَلاَثُ عَلاَمَاتٍ: يَكْسَلُ إذَا كَانَ وَحْدَهُ؛ وَيَنْشَطُ إذَا كَانَ فِي النَّـاسِ؛ وَيَزِيْدُ فِي الْعَمَلِ إذَا أُثْنِيَ عَلَيْهِ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ ، قرأ ابنُ عامر وحمزةُ والكسائيُّ وخَلَف وحفصُ بالتـاءِ للمخاطِبة التي قبلَها (قُلْ أتُحَاجُّونَنَا) والـتي بعدَهـا: (قُـلْ أأنْتُـمْ أعْلَـمُ أمِ اللهُ). وقـرأ

(١) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ٦ ص٢٤٠٣: الحديـث (٣٨٣٢/ ب)؛ قـال العراقـي: ((رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً، يقول كل واحد من رواته: سـألت فلانـاً عـن الإخلاص، وهو من رواية أحمد بن عطاء الجهيمي عن عبدالله بن زبد عـن الحسـين عـن حذيفـة عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى. وأحمد وعبدالواحد كلاهما مـتروك، وهمـا مـن الزهـاد. ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي ﷺ بسند ضعيف)).

الباقونَ بالياء إخباراً عن اليهودِ والنصارى أنَّ إبراهيمَ وإسماعيل وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا هُوداً أو نصارى. ومعنى الآيـة: أتُحَاجُّوننا بقولِكم كونوا هُوداً أو نصارى تُهتدوا، وقولُكم: لن يدخلَ الجنةَ إلا مَن كان هُوداً أو نصارى، أم بقولِكم: إنَّ إبراهيم وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوب والأسباطَ كانوا هُوداً أو نصارى، مع عِلْمِكُمْ بخلافِ ذلك. وهذا استفهامٌ بمعنى التوبيخِ، فإنَّهم كانوا يزعمون أنَّ الدينَ الصحيحَ هو اليهوديةُ والنصرانية؛ وأنَّ هؤلاءِ الأنبياءُ تمسَّكوا بها.

يقولُ الله تعالى: (قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: (أأَنْتُمْ أعْلَمُ أمْ اللهُ) فإنَّ اللهَ قد أخبر أنَّهم كانوا مسلمين، وأنَّهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، فقالوا: ما هو كما قُلْتَ، وإنا على دين إبراهيمَ، وما أنتَ برسولِ الله؛ ولا على دينهِ. فأنزلَ اللهُ تعالى قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ) يعني علماءَ اليهودِ والنصارى؛ لأنَّهم عَلِمُوا أنَّ إبراهيمَ وإسماعيل وإسحق ويعقوبَ والأسباط كانوا حُنَفَاءَ مسلمين؛ وأنَّ رسالةَ نَبيِّنَا حَقٌّ بَيَّنَهُ اللهُ في التوراةِ والإنجيل، فَكَتَمُوهُ حَسَداً وطلباً للرئاسة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠ ﴾ ؛ يعني من كِتْمَانِ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وصفتهِ؛ يجازيكم عليه في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤١ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرُها. فائدةُ التكرار: أنَّ القرآن أنزل على لغةِ العرب، ومن عادتِهم ذكرُ الجواب الواحد في أوقاتٍ مختلفة لأغراضٍ مختلفة؛ يعدُّون ذلك فصاحةً. وإنَّما يعابُ تكرار الكلامِ في مجلسٍ واحد لغرضٍ واحد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ أي الْجُهَّالُ: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ﴾ ؛ أي ما صَرَفَهُمْ وحوَّلَهم عن قبلتهم؛ ﴿ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ ﴾ ؛ يعني بيتَ المقدسِ. نزلتْ في اليهودِ ومشركي مكَّةَ ومنافقي المدينةِ؛ طَعَنُوا في تحويلِ القبلةِ، وقال مشركُو مكة: قد تَرَدَّدَ على محمدٍ أمرهُ، واشتاقَ إلى مولدهِ ومولدِ آبائه، وقد توجَّه نحو قِبلتهم؛ وهو راجعٌ إلى دينكم عاجِلاً. فقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ ﴾ ؛ أي للهِ المشرقُ والمغرب مِلْكاً وخَلْقاً؛ والْخَلْقُ عبيدٌ يحوِّلُهم كيفَ يشاءُ.

وكان النبيُّ ﷺ يصلّي بمكة إلى الكعبةِ، وكان يجعلُ الكعبةَ بينَهُ وبين بيتِ المقدس، فلما هاجَرَ إلى المدينةِ أمِرَ بأن يصلِّيَ إلى بيتِ المقدس لِئَلاَّ يكذِّبه اليهودُ؛ لأن نَعْتَهُ في التوراةِ أن يكون صاحبَ قِبلتين؛ يصلّي إلى بيتِ المقدس نحوُ مدةَ سبعةَ عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً، ثم يأمرهُ الله تعالى بالتحويلِ إلى الكعبةِ لِيَمْتَحِنَ أهلَ الإسلامِ، فيظهرُ مَن تَبعَ الرسولَ مِن غيرِهم من منافقي اليهودِ.

فلمَّا حُوِّلَتِ القبلةُ إلى الكعبة بعد إقامة الحجَّة على الكفار، عَلِمَ أنَّهم يقولون في نَسْخِ القبلةِ أشياءَ يُؤْذُونَ بها النبيَّ ﷺ، فأخبرَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ بما سيقولون في المستأنفِ؛ ليعجِّل السَّكَنَ ويعرفَ أنَّ ذلك من باب الوحي والغيب كما كان أخبرَ اللهُ تعالى.

ومعناه: سيقولُ السفهاءُ وهم اليهودُ وكفَّار مكةَ: ما الَّذي صرفَ أصحابَ مُحَمَّدٍ ﷺ عن قِبلتهم بيتِ المقدس، قُلْ يا مُحَمَّدُ: للهِ المشرقُ والمغربُ (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) إلى طريقٍ قَويْمٍ؛ وهو الإسلامُ وقِبلة الكعبةِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) أي مَن كان مَالِكَ المشرق والمغرب لا يُعْتَرَضُ عليهِ في جميع ما يأمرُ، ويجوز أن يكونَ معناهُ: أنَّ الله خالقُ الأماكنِ كلِّها، فليسَ بعضُ ما خَلَقَ أولَى أن يُجعل قبلةً في العقلِ من بعضٍ، فوجبَ الانتهاءُ إلى أمرِ الله باستقبالِ ما شاءَ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ؛ أي عَدْلاً؛ وقيل: خِيَاراً، يقالُ في صفةِ النبيِّ ﷺ: [هُوَ أوْسَطُ قُرَيْشٍ حَسَباً] ويقالُ: فلانٌ وسيطٌ في حَسَبهِ؛ أي كامِلٌ مُنْتَهٍ في الكمال؛ ولأن المتوسِّطَ في الأمور لا يفرِّطُ فيَغْلُو ولا يُقَصِّرُ فَيَتَّضِعُ، فهذه الأمةُ لم تَغْلُو في الأنبياءِ كَغُلُوِّ النصارى حيث قالُوا: المسيحُ ابن الله ! ولم يقصِّروا كتقصيرِ اليهود حيث كذَّبوا الأنبياءَ وقَتَلُوهُمْ. وأصلهُ أن خيرَ الأشياءِ أوسطُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ ؛ أي شهداءَ للنبيين صلوات الله عليهم بالتبليغِ. وقد يقامُ مقام اللام في مثلِ قوله:﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى

النُّصب﴾[١] أي للنُّصب؛ وقولهُ تعالى: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ ؛ أي ويكون مُحَمَّدٌ ﷺ عليكم شهيداً معدّلاً مزكّياً لكم، وذلك أن الله تعالى يجمعُ الأولين والآخِرين في صعيدٍ واحد، ثم يقولُ لكفار الأمم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[٢]، فينكرون ويقولون: ما جاءَنا من نذير، فيسألُ الأنبياءَ عن ذلك فيقولون: قد بلَّغناهم. فيسألهم البينةَ إقامةً للحجة عليهم؛ وهو أعلم بذلك، فيؤتى بأمة مُحَمَّدٍ ﷺ فيشهدونَ لهم بالتبليغ، فتقولُ الأمم الماضية: من أينَ عَلِموا ذلك وبيننا وبينهم مدةٌ مديدة؟ فيقولوا: عَلِمْنَا ذلك بإخبار الله تعالى إيَّانا في كتابهِ الناطق على لسان رسولِ الله، فيؤتى بالنبيِّ ﷺ؛ فيزكِّي أُمَّتَهُ ويشهدُ بصدقهم.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ ﴾ ؛ أي ما أمرتُك يا مُحَمَّدُ بالتوجه إلى بيت المقدس ثم بالتحويل منها إلى الكعبة إلا ليتميز من يتبع الرسول ممن يرجع إلى دينه الأول. وقيل: ومعناه: (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي) أنتَ (عَلَيْهَا) وهي الكعبةُ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[٣] أي أنتم؛ إلا لنرى ونُمَيِّزَ من يتبع الرسول في القبلة ممن ينقلبُ على عَقِبَيْهِ فيرتدُّ ويرجع إلى قِبلته الأولَى. قولهُ: (لِنَعْلَمَ) أي ليتقرَّر علمنا عندكم. وقيلَ: معناه: ليعلَمَ محمدٌ ﷺ؛ فأضاف علمه إلى نفسهِ تفصيلاً وتخصيصاً كقولهِ تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ﴾[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً ﴾ ؛ أي وإن كان اتباعُ بيت المقدس ثم الانتقال إلى الكعبة لشديدٌ؛ ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ ﴾ ؛ أي حَفِظَ الله قلوبَهم على الإسلام. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ ﴾ ؛ أي تصديقكم بالقبلتين. وقيل: معناهُ: وما كان الله ليفسدَ صلاتكم إلى بيت المقدس؛ وذلك أنَّ حُيَيَّ ابْنَ أخْطَبَ وَأصْحَابَهُ مِنَ الْيَهُودِ قَالُوا لِلْمُسْلِمِيْنَ: أخْبرُونا عَنْ صَلاَتِكُمْ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أكَانَتْ هُدًى أمْ ضَلاَلَةً؟ فَإنْ كَانَتْ هُدًى فَقَدْ تَحَوَّلْتُمْ عَنْهَا! وَإنْ كَانَتْ

---

(١) المائدة / ٣.
(٢) الملك / ٨.
(٣) آل عمران / ١١٠.
(٤) الأحزاب / ٥٧.

ضَلاَلَةً فقَدْ دَنَّبْتُمُ اللهَ بها. وَمَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَيْهَا فقَدْ مَاتَ عَلَى الضَّلاَلَةِ؛ وَكَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ التَّحْوِيْلِ إلَى الْكَعْبَةِ سَعْدُ بْنُ زُرَارَةَ مِنْ بَنِي النَّجَّار؛ وَالْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ وَرجَالٌ آخَرُونَ. فَانْطَلَقَتْ عَشَائِرُهُمْ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ بذَلِكَ، وَقَالُوا: إنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ حَوَّلَكَ إلَى قِبْلَةِ إبْرَاهِيْمَ؛ فَكَيْفَ بإخْوَانِنَا الَّذِيْنَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيْمَانَكُمْ) أيْ صَلاَتَكُمْ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾، الرَّءُوفُ: شديدُ الرحمةِ؛ وهو الذي لا يضيِّعُ عنده عملُ عامل. رَحِيْمٌ بهم حين قبل طاعتهم وتعبدهم في كل وقت بما يصلحُ لَهم. والجمع بين الرحمةِ والرأفة في الآية للتأكيدِ كما في قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ﴾.

وفي (رَءُوفٌ) ثلاث قراءات: مهموز مثقَّل؛ وهي قراءة شيبة ونافع وابن كثير وابن عامر وحفص، واختاره أبو حاتم. قال الشاعر[(١)]:

سَنُطِيْعُ رَسُولَنَا وَنُطِيْعُ رَبَّاهُ ... هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بنَا رَءُوفَا

و(رَوُوفٌ) مثقل غير مهموز؛ وهي قراءة أبي جعفر. و(رؤف) مهموز مخفف؛ وهي قراءة الباقين، واختاره أبو عبيد. قال جرير[(٢)]:

بتَّ تَرَى لِلْمُسْلِمِيْنَ عَلَيْكَ حَقّاً ... كَفِعْلِ الْوَالِدِ الرَّؤُفِ الرَّحِيْمِ

والرأفة: أشدُّ الرحمة.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ وذلك أنَّ النَّبِيَّ

---

(١) هو كعب بن مالك الأنصاري، في ديوانه: ص٢٣٦. ولسان العرب: (رأف). وبلا نسبة في معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ج ٢ ص٤٧١. وفي لسان العرب بلفظ:

نُطِيْعُ نَبِيَّنَا وَنُطِيْعُ رَبّاً ... هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بنَا رَؤُوفَا

(٢) البيت لجرير في ديوانه: ص٢١٩ من قصيدة: صراط أمير المؤمنين، يمدح هشام بن عبدالملك، وهو من شواهد اللغة. وفي لسان العرب: (رأف)، ومعجم مقاييس اللغة: ج ٢ ص٤٧٢ بلفظ:

تَرَى لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْكَ حَقّاً ... كَفِعْلِ الْوَالِدِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

ﷺ قَالَ لِجِبْرِيْلَ الْعَلَيْهِ: [وَدَدْتُ أنَّ اللهَ تَعَالَى صَرَفَنِي عَنْ قِبْلَةِ الْيَهُودِ إلَى غَيْرِهَا؟] فَقَالَ جِبْرِيْلُ: إنَّمَا أنَا عَبْدٌ مِثْلُكَ لاَ أمْلِكُ شَيْئاً؛ فَاسْأَلْ رَبَّكَ أنْ يُحَوِّلَكَ عَنْهَا، فَارْتَفَعَ جِبْرِيْلُ وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُدِيْمُ النَّظَرَ إلَى السَّمَاءِ رَجَاءَ أنْ يَأْتِيَهُ جِبْرِيْلُ بِمَا سَأَلَ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ(١): قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ، ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ .

وروي: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأصْحَابَهُ كَانُوا يُصَلُّونَ بِمَكَّةَ إلَى الْكَعْبَةِ، فَلَمَّا هَاجَرُوا إلَى الْمَدِيْنَةِ أمَرَهُ اللهُ أنْ يُصَلِّيَ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؛ لِيَكُونَ أقْرَبَ إلَى تَصْدِيْقِ الْيَهُودِ لَهُ إذَا صَلَّى إلَى قِبْلَتِهِمْ مَعَ مَا يَجِدُونَ مِنْ صِفَتِهِ فِي التَّوْرَاةِ. فَرُوِيَ أنَّهُ ﷺ صَلَّى هُوَ وَأصْحَابُهُ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سَبْعَةَ عَشَرَ شهراً؛ وَكَانَتِ الْكَعْبَةُ أحَبَّ الْقِبْلَتَيْنِ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ(٢).

واختلفوا في السبب الذي كان لأجله يكرهُ قبلةَ بيت المقدس وهَوِيَ الكعبة. فقال ابن عباس: (لأنَّهَا قِبْلَةُ أبِيهِ إبْرَاهِيْمَ الْعَلَيْهِ). وقال مجاهدٌ: (مِنْ أجْلِ أنَّ الْيَهُودَ قَالُوا: يُخَالِفُنَا مُحَمَّدٌ فِي دِيْنِنَا وَيَتَّبِعُ قِبْلَتَنَا).

وقال مقاتلٌ: (لَمَّا أمَرَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَتِ الْيَهُودُ: يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أنَّهُ نَبِيٌّ؛ وَمَا نَرَاهُ أحْدَثَ فِي نُبُوَّتِهِ شَيْئاً! ألَيْسَ يُصَلِّي إلَى قِبْلَتِنَا، وَيَسْتَنُّ بِسُنَّتِنَا! فَإنْ كَانَتْ هَذِهِ نُبُوَّةً فَنَحْنُ أقْدَمُ وَأوْفَرُ نَصِيباً. فَشَقَّ ذلِكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَازْدَادَ شَوْقاً إلَى الْكَعْبَةِ وَقَالَ: [وَدَدْتُ أنَّ اللهَ تَعَالَى صَرَفَنِي عَنْ قِبْلَةِ الْيَهُودِ إلَى غَيْرِهَا، فَإنِّي أبْغِضُهُمْ وَأبْغِضُ مُوَافَقَتَهُمْ] فَقَالَ جِبْرِيْلُ الْعَلَيْهِ: إنَّمَا أنَا عَبْدٌ مِثْلُكَ، لَيْسَ لِي مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ، فَاسْأَلْ رَبَّكَ. ثُمَّ عَرَجَ جِبْرِيْلُ الْعَلَيْهِ؛ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُدِيْمُ النَّظَرَ

---

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٣٤٣؛ قال السيوطي: ((وأخرج أبو داود في ناسخه عن أبي العالية: ... وذكره)).

(٢) روي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٨٤٩). وفي الدر المنثور: ج ١ ص٣٤٣؛ قال السيوطي: ((وأخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه والبيهقي، عن ابن عباس ... وذكر شطراً منه. وأخرجه ابن أبي شيبة وأبو داود في ناسخه والنحاس والبيهقي في سننه)).

إلَى السَّمَاءِ رَجَاءَ أنْ يَنْزِلَ جِبْرِيْلُ بمَا يُحِبُّ مِنْ أمْرِ الْقِبْلَةِ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا) أي فَلَنُلْحِقَكَ إلى قبلةٍ تحبُّها وتهواها، (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أي نحوه وقصدهُ. وهو نُصب على الظرف. وقيل: شطرُ الشيء نصفهُ، فكأن اللهَ أمرهُ أن يحوّلَ وجهَهُ إلى نصفِ المسجد الحرام؛ والكعبةُ في النصف منه من كلِّ جهة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ ؛ أي أينما كنتم من برٍّ أو بحر أو جبل أو سهل أو شرق أو غرب فولوا وجوهكم نحوه. فحولت القبلة في رَجَبَ بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين.

وقال مجاهد: (نَزَلَتِ الآيَةُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَسْجِدِ بَنِي سَلَمَةَ وَقَدْ صَلَّى بأَصْحَابهِ رَكْعَتَيْنِ مِنَ الظُّهْرِ، فَتَحَوَّلَ فِي الصَّلاَةِ فَاسْتَقْبَلَ الْمِيْزَابَ فَسُمِّيَ ذلِكَ الْمَسْجِدُ مَسْجِدَ الْقِبْلَتَيْنِ. فَلَمَّا حُوِّلَتِ الْقِبْلَةُ إلَى الْكَعْبَةِ؛ قَالَتِ الْيَهُودُ: يَا مُحَمَّدُ مَا أمِرْتَ بهَذَا وَمَا هُوَ إلاَّ شَيْءٌ تَبْتَدِعُهُ مِنْ نَفْسِكَ، فَتَارَةً تُصَلِّي إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَتَارَةً تُصَلِّي إلَى الْكَعْبَةِ، فَلَوْ ثَبَتَّ عَلَى قِبْلَتِنَا لَكُنَّا نَرْجُو أنْ تَكُونَ صَاحِبَنَا الَّذِي كُنَّا نَنْتَظِرُهُ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ ، يعني أمر الكعبة وأنَّها قبلةُ إبراهيم، أي وأنَّ اليهودَ والنصارى ليَعلمون أنَّ استقبالَ الكعبةِ حَقٌّ من ربهم؛ لأنَّ نعتَ النبيِّ ﷺ في التوراةِ أن يكون صاحبَ القِبلتين، ثم هدَّدَهم فقال عزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ ؛ أي لا يخفى عليه جحُودهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾ ؛ يعني يهود المدينة ونصارى نجران، فقالوا للنبي ﷺ: ائتنا بآية كما أتى الأنبياء قبلك، فأنزل الله هذه الآية. وقوله (مَا تَبعُوا قِبْلَتَكَ) يعني الكعبة، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ ؛ أي وما انت بمصلٍّ إلى قبلتهم بعد التحويل؛ ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ ؛ لأن اليهودَ تستقبلُ بيت المقدس والنصارى تستقبل المشرق.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم ﴾ ؛ أي إن صليت إلى قبلتهم واتبعت ملَّتهم، ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ ؛ إنَّها حقٌّ وإنَّها قبلة إبراهيم، ﴿ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥ ﴾ ؛ أي الجاحدين الضارين لأنفسهم، وهذا وعيدٌ على معصيةٍ عَلِمَ اللهُ أنَّها لا تقع منهُ كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(١) وقد علم اللهُ أنه لا يشركُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ ؛ يعني مؤمني أهل الكتاب: عبدُالله بنُ سلام وأصحابهُ، ﴿ يَعۡرِفُونَهُۥ ﴾ ؛ أي يعرفون مُحَمَّداً ﷺ، ﴿ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ ﴾ ، من بين الصِّبيان. روي عن ابن عباس أنه قال: [لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ قَالَ عُمَرُ ﷺ لِعَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ: قَدْ أنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبيِّهِ ﷺ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أبْنَاءَهُمْ﴾ كَيْفَ يَا عَبْدَاللهِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ؟ قَالَ: يَا عُمَرُ لَقَدْ عَرَفْتُهُ فِيْكُمْ حِيْنَ رَأيْتُهُ كَمَا أعْرِفُ ابْنِي إذَا رَأيْتُهُ مَعَ الصِّبْيَانِ يَلْعَبُ، وَأنَا أشَدُّ مَعْرِفَةً بمُحَمَدٍ ﷺ مِنِّي لابْنِي، فَقَالَ عُمَرُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: أشْهَدُ أنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقٌّ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَقَدْ نَعَتَهُ اللهُ فِي كِتَابنَا. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: وَفَّقَكَ اللهُ يَا ابْنَ سَلاَمٍ، فَقَدْ صَدَقْتَ وَأصَبْتَ](٢).

قولهُ تعالى: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ ﴾ ؛ مثل كعب بن الأشرف وأصحابه (يَكْتُمُونَ الْحَقَّ) يعني محمداً ﷺ وأمر الكعبة، ﴿ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ﴾ ؛ أن ذلك حقٌّ. رُويَ عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِيْنَ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:(كُنْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أشَدُّ مَعْرِفَةً لَكَ مِنِّي بابْنِي. قَالَ لَهُ:[وَكَيْفَ ذلِكَ؟] قَالَ: لأنِّي أشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ﷺ حَقّاً يَقِيْناً؛ وَلاَ أشْهَدُ بذَلِكَ لابْنِي؛ لأنِّي لاَ أدْري مَا أحْدَثَتِ النِّسَاءُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: وَفَّقَكَ اللهُ يَا عَبْدَاللهِ)(٣).

---

(١) الزمر / ٦٥.

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص٣٥٧؛ قال السيوطي: ((وأخرجه الثعلبي من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس)).

(٣) في الدر المنثور: ج ١ ص٣٥٦؛ قال السيوطي: ((وأخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج... وذكر شطراً منه)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي هذا القرآن حقٌّ. وقيل: جاءك بالحقِّ من ربك يا محمد أنَّ الكعبة قبلةُ إبراهيم تعلمُها اليهود. وقرأ عليٌّ ﷺ: (الْحَقَّ) نصباً على الإغراء. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ ؛ أي لا تكونـنَّ من الشاكِّين في أمر القرآن والقبلة. والخطابُ في هذه الآية للنبي ﷺ؛ والمراد به غـيرهُ، وكذلك كل ما ورد عليك من هذا فهذا سبيلهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ ؛ أي لكـل ملَّـة مـن اليـهود والنصارى قبلةٌ هو موليها، أي مستقبلها؛ ومقبل إليها. يقال: وَلَّيْتُـهُ وَوَلَّيْـتُ إليـه إذا أقبلتُ إليه، ووليتُ عنه إذا أدبرتُ عنه. وَقِيْلَ: معناهُ: اللهُ مُوَلِّيهَا؛ أي يـولي أهـل كـل ملة القبلة التي يريدونها. وقرأ ابن عباس وابن عامر وأبو رجـاء: (وَلِكُـلٍّ وجْهَـةٌ هُـوَ مُوَلَّيهَا) أي مصروف إليها. وفي حرف أُبَـي: (وَلِكُـلٍّ قِبْلَـةٌ هُـوَ مُوَلِّيـهَا). وفي حـرف عبدالله: (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا قِبْلَةً هُوَ مُوَلِّيهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ؛ أي فبادروا بالطاعات أيها المسـلمون فقد ظهرَ لكم الحق، واستبقوا إلى أوامر الله وطاعته مبادرة من يطلب الاستباق إليـها، تقديره: فَاسْتَبِقُوا إلَى الْخَيْرَاتِ، فحذف الخافض كقول الشاعر(١):

ثَنَـائِي عَلَيْكُـمْ يَـا آلَ حَـرْبٍ وَمَـنْ يَمِـلْ سِـوَاكُمْ فَـإنِّي مُـهْتَدٍ غَـيْرُ مَـائِلِ

يعني: ومن يَمل إلى سواكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي أينمـا تكونـوا أنتم وأهل الكتاب يقبض الله أرواحكم ويجمعكم للحساب فيجزيكم بأعمالكم، وإن كانت قد تفرقت بكم البقاعُ والْمِلَلُ. وقيل: هذا خطابٌ للمؤمنين الذين قد سَبَقَ في عِلْمِ اللهِ أنَّهم يُصلُّون إلى الكعبةِ. ومعناهُ: أينما تكونوا في شـرق الأرض وغربـها، في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات يجمعكم الله تعالى إلى هذه القِبلة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ ؛ أي من الخلق والبعث والحساب وغير ذلك.

(١) البيت للراعي النيمري، عُبيد بن حُصين (؟-٩٠هـ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ؛ هذا تأكيدٌ لأمر التحويل إلى الكعبة؛ وبيان أنه لا يتغير فينسخُ كما تغير بيت المقدس. و (حَيْثُ) مبني على الضمّ مِثْلُ (قطُ). وقيل: رفع على الغاية مثل (قَبْلُ، وبَعْدُ). وقرأ عبيد بن عمير: (وَمِنْ حَيْثَ) بالنصب؛ قال: لأنّها ساكنة في الأصل، وإذا اجتمع ساكنان حرِّك الثاني بالفتح، لأنه أخف الحركات مثل (لَيْتَ، وكَيْفَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي الأمر بالتوجه إلى الكعبة لصدق (مِنْ رَبك). ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ ؛ بيانُ أن حكمَ النبيِّ ﷺ وأمته في التوجه إلى الكعبة في السفر والحضر سواءٌ؛ لأنه كان يجوز أن يَظُنَّ ظانٌّ الفرق بين المسافر والمقيم كالنفل على الراحلة، فبيَّن الله تعالى أن المسافر كالمقيم في التوجه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ ؛ أي لئلا يكون لليهودِ عليكم حجَّة، ولأنَّ المسلمين لو لم يُصَلوا إلى الكعبة لكان ذلك مخالفةً للبشارةِ السابقة؛ فيكون ذلك حجَّة لهم بأن يقولوا: ليس هو النبي المبشَّرُ.

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي لا يحاجكم أحد إلا من ظلم فيما وضح له؛ واحتج بغير الحق. وأراد بالذين ظلموا قريشاً واليهود. وكانت حجةُ قريش الباطلةَ أن قالوا: إنَّما رجع إلى الكعبة لأنه علم أنَّها قبلةُ آبائه وهو الحق وكذا يرجع إلى ديننا ويعلم أنه حقٌّ. وأما اليهود فإنَّهم يقولون: إن كانت قبلتنا ضلالةً فقد صليتَ إليها سبعة عشر شهراً، وإن كانت هدًى فقد انصرفتَ عنها. وقيل: لأن اليهودَ يقولون: إن محمداً لم ينصرف عن بيت المقدس مع علمه بأنه حقٌّ إلا أنه إنما يفعل برأيه ويزعم أنه أُمِرَ به. وقيل: إن من حجة مشركي مكة أنَّهم قالوا لَمَّا صُرفت القبلة إلى الكعبةِ: إنَّ مُحَمَّداً قد تحيَّر في دينهِ وتوجَّه إلى قبلتنا وعَلِمَ أنَّا أهدى سبيلاً منهُ وإنه لا يستغني عنا ولا شكَّ أنه يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا. فأجابَهم الله تعالى بهذه الآية (لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) نفى أن لا

يكون لأحدٍ حجةٌ قَبْلَ رسول الله ﷺ وأصحابه. بسبب[١] تحويلهم إلى الكعبة. إلا الذين ظلموا من قريش فإن لهم قِبَلِهم حجة لِما ذكرنا.

والحجةُ: الخصومةُ والجدال والدعوةُ الباطلةُ كقولهِ تعالى: ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[٢] أي لا خصومة. وقولهِ تعالى: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ﴾[٣] و﴿لِيُحَاجُّوكُمْ﴾[٤] وحَاجَجْتُهُمْ؛ كلها بمعنى المخاصمة والمجادلة لا بمعنى الدليل والبرهان. وموضع (الَّذِيْنَ) نُصِبَ بنَزع الخافض، تقديره: إلاَّ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا. وقال الفرَّاء: موضعه نُصِبَ بالاستثناء. وإنما قال: (مِنْهُمْ) ردّاً إلى لفظ الناس؛ لأنه عامٌّ وإن كان كل واحد منهم غير الآخر. وقالَ بعضهم: هذا الاستثناء منقطع من الكلام الأول، ومعناه: لئلا يكون كلهم عليكم حجة؛ اللهم إلا الذين ظلموا فإنَّهم يحاجونكم بالباطل ويجادلونكم بالظلم، وهذا كما يقدر في الكلام للرجل: الناسُ كلُّهم لكَ حامِدون إلا الظالِمُ لكَ. وقولهم للرجل: ما لكَ عندي حقٌّ إلا أن يظلمَ. وما لك حجَّة إلا الباطلَ.

وقال أبو رَوق: (معنى الآية: (لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ) يعني اليهود عليكم حجةٌ). وذلك أنَّهم قد عرفوا أن الكعبة قبلةُ إبراهيم عليه السلام وقد كانوا وجدوا في التوراة أن مُحَمَّداً ﷺ يحوِّله الله إليها لئلا يكون لهم حجة فيحتجوا بأن النبي ﷺ الذي نجده سَيُحَوَّلُ إليها، ولم تحول أنتَ. فلما حوّل النبي ﷺ ذهبت حجتهم. ثم قال: (إلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) يعني إلا الذين يظلموكم فيكتموا ما عرفوا من ذلك. وكان أبو عبيدة يقول: (إلاَّ) هنا بمعنى (ولاَ) كأنه قال: لئلا يكون للناس عليكم حجة ولا الذين ظلموا، والذين ظلموا لا يكونوا حجةً لهم. قال الشاعر:

وَكُلُّ أخٍ مُفَارِقُهُ أخُوهُ ... لَعَمْرُ أبيكَ إلاَّ الفَرْقَدَانِ

---

(١) في أصل المخطوط (ليست) وعلى ما يبدو أنه تصحيف لأنه لا ينسجم مع السياق فأثبتناه على النسق الصحيح.

(٢) الشورى / ١٥. (٣) البقرة / ١٣٩. (٤) البقرة / ٧٦.

يعني: والفرقدان أيضاً يفترقان. وقال آخر[(١)]:

مَـــا بالْمَدِيْنَـــةِ دَارٌ غَـــيْرُ وَاحِـــدَةٍ   دَارُ الْخَلِيْفَـــــةِ إلاَّ دَارُ مَرْوَانَـــــــا

يعني: ولا دار من دار وإنما حسن ذلك بعد قوله غير واحدة.

قوله عَـزَّ وَجَــلَّ: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي ﴾ ؛ أي لا تخشـوا الكفـار في انصرافكم إلى الكعبة؛ وفي تظاهرهم عليكم في المحاجة والمحاربة فإني وليكـم أظـهركم عليهم بالحجة والنصر، واخشوني في تركها ومخالفتها. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ ؛ عطف على قوله: (لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ) أي ولكي أتم نعمتي عليكم بهدايتي إياكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام فيتم لكم الملَّـة الحنيفية[(٢)]، وقال علي كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: (تَمَامُ النِّعْمَةِ الْمَـوْتُ عَلَـى الإسْـلاَمِ). وروي عنه أنه قال: (النِّعَمُ سِتٌّ: الإسْلاَمُ، وَالْقُرْآنُ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ، وَالسُّنَنُ، وَالْعَافِيَةُ، وَالْغِنَى عَمَّا فِي أيْدِي النَّاسِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) أي لكي تهتدوا من الضلالة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا ﴾ ؛ هذه الكاف للتشبيه وتحتـاج إلى شيء يُرجـع إليـه. واختلفـوا؛ فقـال بعضـهم: هـو راجـع إلى مـا قبلـه؛ تقديـره: (فَـلا تَخْشَـوْهُمْ وَاخْشَـوْنِي وَلأُتِـمَّ نِعْمَتِـي عَلَيْكُـمْ) كمـا أرسـلتُ فيكـم رســولاً، ﴿ مِّنكُمْ ﴾ ، فيكون إرسالُ الرسل مؤذناً بإتمام النعمة. والآية خطـاب للعـرب؛ أي ولأتِمَّ نعمتي عليكم كما ابتدأتُ النعمةَ بإرسال رسول منكم إليكم؛ لأن اختيـاره من العرب نعمة عظيمةٌ وشرف لهـم، واسـتدعاء إلى الإسـلام؛ لأنـه لـو اختـاره مـن العجم لكانت العرب مع عزمها ونجوتها لا تتبعهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ ، يعـني القـرآن؛ ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ ؛ أي يصلحكم بأخذ زكاتكم؛ ويـأمركم بأشـياء تكونـوا بـها أزكيـاءَ؛ ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ

---

(١) هو للفرزدق، وأراد مروان بن الحكم. عن شرح الشواهد.

(٢) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [تَمَـامُ النِّعْمَـةِ دُخُـولُ الْجَنَّـةِ وَالنَّجَـاةُ مِـنَ النَّـار]. أخرجـه الطـبراني في المعجـم الكبـير: ج ٢٠ ص٤٨: الرقـم (٩٧ و٩٨) وإسـناده حسـن؛ قالـه الترمذي في الجامع: الحديث (٣٥٢٧).

﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ؛ القرآن والفقهَ والمواعظَ ومعرفة التأويل والسُّنة؛ ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ ؛ من الأحكامِ وشرائع الإسلام وأقاصيصِ الأنبياء وأخبارهم ما لم تكونوا تعلمون قبل إرساله؛ ونِعْمَتِي بهذا الرسول مُحَمَّدٍ ﷺ.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ ؛ متصلٌ بما قبله؛ أي كما أنعمنا عليكم برسالة رجلٍ؛ أي منكم إليكم فاذكروني. ومعنىالآية: قال ابنُ عبَّاس: (ٱذْكُرُونِي بالطَّاعَةِ أذْكُرْكُمْ بمَعُونَتِي). وقال ابن جُبير: (مَعْنَاهُ اذْكُرُونِي بطَاعَتِكُمْ أذْكُرْكُمْ بمَغْفِرَتِي)[١]. وقال الفضيلُ: (اذكُرُونِي بطَاعَتِي أذْكُرْكُمْ بثَوَابي).

روي عن النبي ﷺ أنه قال: [مَنْ أطَاعَ اللهَ فَقَدْ ذَكَرَ اللهَ، وَإنْ قَلَّ صِيَامُهُ وَصَلاَتُهُ. وَمَنْ عَصَى اللهَ فَقَدْ نَسِيَ اللهَ وَإنْ كَثُرَ صِيَامُهُ وَصَلاَتُهُ وَتِلاَوَتُهُ الْقُرْآنَ][٢]. وقيل: معناه اذكروني بالتوحيد والإيمان أذكركم بالدرجات والجِنان. وقال أبو بكر رضي الله عنه: (كَفَى بالتَّوْحِيْدِ عِبَادَةً، وَكَفَى بالْجَنَّةِ ثَوَاباً). وقال ابنُ كيسان: (مَعْنَاهُ اذْكُرُونِي بالشُّكْرِ أذْكُرْكُمْ بالزِّيَادَةِ). وقيل: اذكروني على ظاهر الأرض أذكركم في بطنها.

وقال الأصمعي:(رأيت أعرابياً واقفاً يوم عرفة بعرفات وهو يقول: إلَهِي عَجَّتْ إلَيْكَ الأَصْوَاتُ بضُرُوب اللُّغَاتِ يَسْألُونَكَ الْحَاجَاتِ، وَحَاجَتِي إلَيْكَ أنْ تَذْكُرَنِي عِنْدَ الْبَلاَءِ إذا نَسِيَنِي أهْلُ الدُّنْيَا). وقيل: معناهُ: اذكروني في الدنيا أذكركم في العقبى. وقيل: اذكروني بالطاعات أذكركم بالمعافاة، دليله قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أوْ أنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٣].

وقيل: معناه اذكروني في الخلاء والملأ أذكركم في الخلاء والملأ. بيانه: ما روي في الخبر: أن الله تعالى قال في بعض الكتب: [أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، فَلْيَظُنَّ بي عَبْدِي

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص(١٩١٧) بلفظ: (اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي).

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص٣٦١؛ قال السيوطي: ((وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان)).

(٣) النحل / ٩٧.

مَا شَاءَ؛ فَأَنَا مَعَهُ إذَا ذَكَرَنِي، فَمَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ؛ وَمَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً، وَمَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ بَاعاً، وَمَنْ أتَانِي مَشْياً أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ أتَانِي بقِرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً أتَيْتُهُ بمِثْلِهَا مَغْفِرَةً بَعْدَ أنْ لاَ يُشْرِكَ بي شَيْئاً](1).

وقيل: معناه اذكروني في الرخاء أذكركم في الشدة والبلاء. وقيل: اذكروني بالسلم والتفويض أذكركم بأصلح الاختيار. دليله قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(2). وقيل: اذكروني بالشوق والمحبة أذكركم بالوصل والقربة. وقيل: اذكروني بالتوبة أذكركم بغفران الحوبة. وقيل: اذكروني بالدعاء أذكركم بالعطاء. وقيل: اذكروني بالسؤال أذكركم بالنوال. اذكروني بلا غفلة أذكركم بلا مهلة، اذكروني بالندم أذكركم بالكرم، اذكروني بالمعذرة أذكركم بالمغفرة، اذكروني بالإرادة أذكركم بالإفادة، اذكروني بالإخلاص أذكركم بالخلاص، اذكروني بالقلوب أذكركم بكشف الكروب، اذكروني بلا نسيان أذكركم بالأمان، اذكروني ذكراً فانياً أذكركم ذكراً باقياً، اذكروني بصفاء السرِّ أذكركم بخلاص البرِّ، اذكروني بالصفو أذكركم بالعفو، اذكروني بالتعظيم أذكركم بالتكريم، اذكروني بالمناجاة أذكركم بالنجاة، اذكروني بترك الجفاء أذكركم بحفظ الوفاء، اذكروني بالجهد في الخدمة أذكركم بإتمام النعمة، اذكروني بالاستغفار أذكركم بالاغتفار، اذكروني بالمناجاة أذكركم بإعطاء الحاجات، اذكروني بالاعتراف أذكركم بمحو الاقتراف، ولذكر الله أكبر.

قال سفيان بن عُيَيْنَةَ: إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: [لَقَدْ أعْطَيْتُ عِبَادِي مَا لَوْ أعْطَيْتُ جِبْرِيْلَ وَمِيْكَائِيْلَ قَدْ أجْزَلْتُ لَهُمَا، قُلْتُ: اذْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ. قُلْتُ لِمُوسَى: قُلْ لِلظَّلَمَةِ لاَ يَذْكُرُونِي؛ فَإنِّي أذْكُرُ مَنْ ذَكَرَنِي وَإنَّ ذِكْرِي إيَّاهُمْ أنْ ألْعَنَهُمْ](3). وقال أبو عثمان

---

(1) في الدر المنثور: ج ١ ص٣٦١؛ قال السيوطي: ((وأخرجه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي هريرة ﷺ)).

(2) الطلاق / ٣.

(3) في الدر المنثور: ج١ص٣٦١؛ قال السيوطي:((اخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأحمد في الزهد والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عبَّاس؛ قال: [أوْحَى اللهُ إلَى دَاوُدَ: قُلْ لِلظَّلَمَةِ لاَ يَذْكُرُونِي، فَإنَّ حَقّاً عَلَيَّ أذْكُرُ مَنْ ذَكَرَنِي، وَإنَّ ذِكْرِي إيَّاهُمْ أنْ ألْعَنَهُمْ].

الهندي: (إنِّي لأَعْلَمُ حِينَ يَذْكُرُنِي رَبي)، قِيْلَ: كَيْفَ ذلِكَ؟ قَالَ: (إنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: (فَاذْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ) فَإذا ذكَرْتُ اللهَ ذكَرَنِي)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ ؛ أي اشكروا لي نعم الدنيا والدين ولا تكفروا نعمتي وإحساني إليكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ ؛ أي استعينوا على ما أكرمتُكم من عبادةٍ وشُكر بالصبر على أداء الفرائضِ واجتناب المحارمِ؛ وبالمواظبة على الصلوات والاستكثار منها (إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابرينَ) على أداء الفرائض.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ ؛ نزلت في قتلى بدرٍ من المسلمين وكانوا أربعةَ عشر رجلاً؛ ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين، كان الناس يقولونَ للرجل يقتل في سبيل الله: مَات فلانٌ، وكان الكفار يقولون للشهداء على طريق الطعنِ: إنَّ أصحابَ رسول الله ﷺ يَقْتُلُونَ أنفسَهم في الحرب من غير سبب ثم يَموتون فيذهبون، فنهى الله المسلمين أن يقولوا مثل هذا، ونبَّه على أن ذلك كذبٌ بقوله: (بَلْ أحْيَاءٌ).

واختلفوا في حياتِهم؛ والصحيح: أنَّهم اليوم أحياءٌ على الحقيقة؛ قال رسول الله ﷺ: [إنَّ أرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي أجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَتَأْكُلُ وَتَشْرَبُ مِنْ أنْهَارِهَا وَتَأْوِي اللَّيْلَ إلَى قَنَادِيْلَ مِنْ نُورٍ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ][2]. وقال الحسن: (إنَّ الشُّهَدَاءَ أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبهِمْ يَصِلُ إلَيْهِمُ الرَّوحُ وَالْفَرَحُ). وَقِيْلَ: إنَّ مساكن الشهداء سِدرةُ المنتهى.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف: ج ٧ ص٢١٠: النص (٣٥٣٦٧).

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص٣٧٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه مالك وأحمد والترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجة عن كعب بن مالك... وذكره)). والحديث أخرجه الترمذي في الجامع: الرقم (١٦٤١)؛ وقال: ((حديث حسن صحيح)). والنسائي في المجتبى: ج ٤ ص١٠٨ بلفظ قريب.

وقال ﷺ: [يُعْطَى الشَّهِيْدُ سِتَّ خِصَالٍ عِنْدَ أوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ: يُكَفَّرُ عَنْهُ كُلُّ خَطِيْئَةٍ؛ وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ؛ وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِيْنِ؛ وَيُؤَمَّنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ؛ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ؛ وَيُحَلَّى حِلْيَةَ الإيْمَانِ][1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ ؛ أي لا يشعرون أنَّهم كذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾ ؛ أي ولَنَخْتَبِرَنَّكُمْ يا أمةَ مُحَمَّدٍ بشيء من الخوف؛ يعني خوفَ العدوِّ والفزع في القتال؛ وقحط السنين وقلة ذات اليد؛ ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ ؛ أي هلاك المواشي وذهاب الأموال. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَنفُسِ ﴾ ؛ أراد به الموت والقتل والأمراض، وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ؛ أي لا يخرجُ الثمار والزروع كما كانت تخرج من قبل؛ أو تصيبها آفةٌ؛ وأراد بالثمراتِ الأولادَ لأنَّهم ثمرة القلب وهم إذا هم شُغِلُوا بالجهاد منعهم ذلك عن عمارة البساتين ومناكحةِ النساء؛ فيقلُّ أولادهم وثمرة بساتينهم.

وقالَ بعضُهم: معناه (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ) أي خوف الله تعالى، (وَالْجُوعِ) يعني صوم رمضان؛ (وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ) أداء الزكاة الصدقات؛ (وَالأَنفُسِ) الأمراض؛ (وَالثَّمَرَاتِ) موت الأولاد؛ لأن ولَد الرجل ثمرة فؤاده؛ يدل عليه قوله عَلَيْهِ السَّلاَمُ:[إذا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلْمَلاَئِكَةِ: أقَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أقَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمَدَكَ وَاسْتَرْجَعَكَ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ ؛ أي على هذه الشدائدِ والبلايا بالثواب لتطيبَ أنفسهم. ثم وصفَهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ

---

(١) عن قيس الجذامي، أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٠٠، وتفرد به. والبخاري في التاريخ الكبير: ج ٧ ص١٤٣-١٤٤: الرقم (٦٤٢)، وقال: ((عن قيس الجذامي، رجل كانت له صحبة)).

(٢) رواه الترمذي في الجامع: أبواب الجنائز: الحديث (١٠٢١)؛ وقال: حديث حسن غريب. وأحمد في المسند: ج ٤ ص٤١٥. وابن حبان في الصحيح: كتاب الجنائز: الحديث (٢٩٤٨).

قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ؛ (الَّذِينَ) نعتُ للصابرين؛ ومعناهُ: الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ من هذه المصائب؛ (قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) عبيدٌ وملكٌ يحكمُ فينا بما يشاء من الشدة والرخاء، إن عِشنا فإليه أرزاقُنا، وإن مِتْنا فإليه مردُّنا، وإنا إليه راجعون في الآخرة.

قال عكرمةُ:(طُفِئ سِرَاجُ رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ:[إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ] فَقِيْلَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَمُصِيْبَةٌ هِيَ، قَالَ: [نَعَمْ، كُلُّ شَيْءٍ يُؤْذِي الْمُؤْمِنَ فَهُوَ لَهُ مُصِيْبَةٌ])[١]. وقال ابنُ جبير: (مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ فِي الْمُصِيْبَةِ مَا أُعْطِيَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ - يعني الاسترجاعَ- وَلَوْ أُعْطِيَهَا أَحَدٌ لأُعْطِيَهَا يَعْقُوبُ عليه السلام، أَلاَ تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي فَقْدِ يُوسُفَ: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾[٢])[٣]. وَقَالَ ﷺ: [مَنِ اسْتَرْجَعَ عِنْدَ الْمُصِيْبَةِ جَبَرَ اللهُ مُصِيْبَتَهُ وَأَحْسَنَ عُقْبَاهُ، وَجَعَلَ لَهُ خَلَفاً صَالِحاً يَرْضَاهُ][٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبهِمْ وَنِعْمَةٌ). قيل: الصلاةُ هنا الثناء والرحمةُ والبركة. وجمعَ الصلواتِ لأنه عَنَى بها الرحمةَ بعد الرحمةِ. (وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) إلى الاسترجاع. وقيل: إلى الجنةِ والثواب. وقيل: إلى الحقِّ والصواب. وقيل: الرحمةُ التي لا يعلمُ مقاديرها إلا الله كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٥]. وعن عمرَ رضي الله عنه: أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ قَالَ: (نِعْمَ الْعَدْلاَنِ وَنِعْمَ الْعَلاَوَةُ). ويعني بالعدلين: قولَه (صَلَوَاتٌ مِنْ رَبهِمْ وَرَحْمَةٌ) وبالعلاوة قولَه: (هُمُ الْمُهْتَدُونَ). وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِذَا

---

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٣٨٠؛ عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في العزاء.

(٢) يوسف / ٨٤.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٣٤).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٣٢). وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عباس. وفي مجمع الزوائد: ج٢ ص٢٣٠-٢٣١؛ قال الهيثمي: ((فيه علي بن أبي طلحة، وهو ضعيف)).

(٥) الزمر / ١٠.

وَجَّهْتُ إلَى عَبْدٍ مِنْ عَبيْدِي مُصِيبَةً فِي أهْلِهِ أوْ وَلَدِهِ أوْ بَدَنِهِ فَاسْتَقْبَلَ ذلِكَ مِنْهُ بصَبْرٍ جَمِيْلٍ اسْتَحَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أنْ أنْشُرَ لَهُ دِيْوَاناً أوْ أنْصِبَ لَهُ مِيْزَاناً](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي من أعلامِ دينهِ ومتعبداته؛ وأراد بالشعائر ها هنا مناسكَ الحج. وسببُ نزول هذه الآية: أنَّ أنسَ بن مالك رضي الله عنه قالَ: (كُنَّا نَكْرَهُ الطَّوَافَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لأنَّهُمَا كَانَا مِنْ مَشَاعِرِ قُرَيْشٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَرَكْنَاهُ فِي الإسْلاَمِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٢).

وقال ابنُ عباس: (كَانَ عَلَى الصَّفَا صَنَمٌ عَلَى صُورَةِ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: إسَافاً، وَعَلَى الْمَرْوَةِ صَنَمٌ عَلَى صُورَةِ امْرَأةٍ يُقَالُ لَهَا: نَائِلَةٌ. وَإنَّمَا ذكَّرُوا الصَّفَا لِتَذْكِيْرِ إسَافَ، وَأنَّثُوا الْمَرْوَةَ لِتَأْنِيْثِ نَائِلَةَ؛ وَزَعَمَ أهْلُ الْكِتَابِ أنَّهُمَا زَنَيَا فِي الْكَعْبَةِ فَمَسَخَهُمَا اللهُ، فَوَضَعَهُمَا عَلَى الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِيُعْتَبَرَ بهمَا، فَلَمَّا طَالَتِ الْمُدَّةُ عُبدَا مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى. وَكَانَ أمْرُ الْجَاهِلِيَّةِ إذَا طَافُواْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مَسَحُواْ الصَّنَمَيْنِ. فَلَمَّا جَاءَ الإسْلاَمُ كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا لأَجْلِ الصَّنَمَيْنِ، وَقَالَتِ الأَنْصَارُ: إنَّ السَّعْيَ مِنْ أمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ (إنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ))(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ ؛ أي فلا إثم في الطواف بينهما لمكان الأصنام عليهما، فإن الطواف بينهما واجبٌ. والجُناح هو الإثم؛ وأصله يتطوَّفُ وأدغمت التاء في الطاء. وقرأ أبو حيوة: (يَطُوفُ بهِمَا) مخففة.

واختلفَ العلماءُ في السعي؛ فقالَ أبو حنيفة وأصحابهُ والثوري: هو واجبٌ وينجبرُ بالدم. وقال مالكٌ والشافعي: هو فرضٌ، ولا ينجبرُ بالدم كطوافِ الزيارة.

---

(١) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ٥ ص٢١٦٧: الحديث (٣٤١٩)؛ قال: ((رواه الحكيم في النوادر، والديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٤١ و١٩٤٥). ورواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٤٩٦).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٣٧) عن الشعبي.

وقال أنسُ بن مالك وابنُ الزبير ومجاهدٌ: هو تطوعٌ إن فعلَهُ فحسنٌ، وإنْ تركَهُ لم يلزمهُ شيء، واحتجُّوا بقراءةِ ابن عباس وابن سيرينَ: (فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ لاَ يَطُوفَ بِـهِمَا). وكذلك هو في مصحفِ عبدالله؛ وبقولهِ بعد ذلك: (وَمَنْ تَطَـوَّعَ خَـيْرًا) وهـذا دليـلٌ على أنه تطوُّعٌ.

والجوابُ عنه: أن (لاَ) صلةٌ كقولـه: ﴿مَـا مَنَعَـكَ الا تَسْـجُدَ﴾[1] وقولـه: ﴿لاَ أقْسِمُ﴾[2]. وحُجة من أوجبهُ: أنَّ اللهَ سَماهما (مِـنْ شَـعَائِرِ اللهِ). وأما قولـه: (وَمَـنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا) فمعناهُ من زاد على الطواف الواجب. وحجةُ من قال إنه فرضٌ: فتسميةُ الله له من شعائره. قلنا: هذا لا يدلُّ على الفرضيـة؛ فـإن الله سَـمَّى المزدلفـةَ المشـعر الحرام؛ ولا خلافَ أنَّ الدم يقومُ مقامه.

وسُمِّي الصَّفَا؛ لأنه جلسَ عليـه صَفِـيُّ اللهِ آدم عليه السلام. وسميـت المـروةُ؛ لأنَّـها جلست عليها امرأته حوَّاءُ، وأصلُ السعي: أنَّ هاجرَ أمَّ إسمـاعيلَ لَمَّـا عطـش ابنـها إسماعيل وجاعَ صعدت على الصَّفا فقامت عليه تنظرُ؛ هل ترَى من أحـدٍ؟ فلـم تـرَ أحداً؛ فهبطت من الصَّفا حتى جاوزتِ الواديَ ورفعت طرفَ دِرعها ثم سعت سـعيَ الإنسان المجهودِ حتى جاوزت الوادي؛ ثم أتتِ المروةَ وقامت عليها؛ هل ترى أحـداً؟ فلم ترَ أحداً، فعلتْ ذلكَ سبع مراتٍ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ ؛ قـرأ حمـزةُ والكسـائي: (يَطَّـوَّعْ) باليـاء وتشديد الطاء والجزم. وكذلك الثاني بمعنـى يتطـوع. وقـرأ عبـدالله: (يَتَطَـوَّعْ) وقـرأ الباقون:(تَطَوَّعَ) بالتاء ونصب العين. ومعنى الآيـة: ومـن زاد في الطـواف الواجـب. وقال ابنُ زيد: (وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَاعْتَمَرَ). وقيل: من تطوع بالحج والعمرة بعد حجته الواجب. وقال الحسن: (فِعْلُ غَيْرِ الْمَفْرُوضِ عَلَيْهِ مِنْ زَكَاةٍ وَصَلاَةٍ وَنَـوْعٍ مِـنْ أنْـوَاعِ الطَّاعَاتِ كُلِّهَا)؛ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ ؛ أي مجاز له بعمله عليمٌ[3] بنيَّته يشكرُ اليسير ويعطي الكثير ويغفر الكبير.

---

(١) الأعراف / ١٢. (٢) القيامة / ١.

(٣) في المخطوط: عليهم، بدل عليم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ ؛ هم علماءُ اليهود الذين كتموا أمرَ النبيِّ ﷺ وصفتَه في التوراة، وكتموا أمرَ القِبلة والأحكامِ والحلالِ والحرامِ؛ ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ؛ أي من بعد ما أوضحناهُ للناس في التوراة والإنجيل؛ وأراد بالناس بني إسرائيل. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي يُبعدهم اللهُ من رحمتهِ. وأصلُ اللَّعْنِ في اللغة: هُوَ الطَّرْدُ، ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

اختلفَ المفسرونَ في هؤلاءِ اللاعنين؛ فقال قتادةُ: (هُمُ الْمَلاَئِكَةُ). وقال عطاءُ: (الْجِنُّ وَالإِنْسُ). وقالَ الحسنُ:(عِبَادُ اللهِ أجْمَعُونَ). وقالَ ابنُ عباسٍ: (كُلُّ شَيْءٍ إلاَّ الْجِنَّ وَالإِنْسَ). وقال مجاهدٌ: (اللاَّعِنُونَ: الْبَهَائِمُ تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ إذا اشْتَدَّتِ السَّنَةُ وَامْسَكَتِ الْقَطْرَ، وَيَقُولُونَ: هَذَا لِشُؤْمِ بَنِي آدَمَ)(١). وقال عكرمةُ: (دَوَابُّ الأَرْضِ وَهَوَامُهَا حَتَّى الْخَنَافِسَ وَالْعَقَارِبَ، فَيَقُولُونَ: مُنِعْنَا الْقَطْرَ لِمَعَاصِي بَنِي آدَمَ)(٢).

وإنَّما قالَ لِهذه الأشياء اللاعنونَ ولم يقل اللاعناتُ؛ لأن مِن شأن العرب إذا وصفت شيئاً من البهائم والجمادات بما هو صفةٌ للناس من قولٍ أو فعلٍ أنْ يخرجوهُ علىمذهب بني آدم وجمعهم كقوله تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(٣) ولم يقل ساجدات وأشباه ذلك. وفي الآيةِ دلالةٌ على وجوب إظهار علوم الدين وزجرٍ عن كتمانِها؛ لأن العبرةَ بعموم اللفظ لا السبب المخصوص.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ ؛ أي إلا الذين تابوا من اليهودية وأصلحوا أعمالهم فيما بينهم وبين ربهم. وقيل: أصلحوا ما كانوا أفسدوه مما لا علم لهم به، وبيَّنوا صفة مُحَمَّد ﷺ في كتابِهم، وشهدوا بالحق فيما عندهم من العلم؛ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي اتجاوز عنهم وأقبلُ التوبة منهم، قَوْلُهُ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٣).

(٣) يوسف / ٤.

تَعالَى: ﴿ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ ؛ أي المتجاوز عن التائبين، الرحيم بهم بعد التوبة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ ؛ هذا عامٌّ في جميع الكفار؛ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ ؛ أما المؤمنون فيلعنوهم في الدنيا والآخرة؛ وأما الكفار فيلعن بعضهم بعضاً في الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾[1]. وروي: أن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم الملائكة والناس أجمعون.

وقوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ؛ أي في اللعنة والنار مقيمين. وقيل: إن اللعنة هنا النار؛ لأن اللعنة هي إبعاد الله من رحمته وذلك عذابه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ ؛ أي ولا هم يُمهلون ويؤجلون. قالَ أبو العالية: (لاَ يُنْظَرُونَ فَيَعْتَذِرُونَ).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي كُفَّار مَكَّةَ، قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ صِفْ لَنَا وَانْسِبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ سُورَةَ الإخْلاَصِ وَهَذِهِ الآيَةَ)[2]. وقال الضَّحاكُ: عن ابن عباس: (كَانَ لِلْمُشْرِكِيْنَ فِي الْكَعْبَةِ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسُتُّونَ صَنَماً يَعْبُدُونَهُم مِنْ دُونِ اللهِ إفْكاً وَإثْماً، فَدَعَاهُمُ اللهُ إلَى تَوْحِيْدِهِ وَالإخْلاَصِ فِي عِبَادَتِهِ، فَقَالَ: (وَإلَهُكُمْ إلَهٌ وَاحِدٌ لا إلَـهَ إلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ))[3]. ويقال: نزلت هذه الآية في صنف من المجوس؛ ويقال لهم: الملْكَانية، يقولون: هما اثنان: خالقُ الخيرِ، وخالق الشر.

---

(١) العنكبوت / ٢٥.

(٢) أصل قول الكلبي ما روي عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انْسِبْ لَنَا رَبَّكَ؟ فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ﴾. أخرجه الترمذي في الجامع: كتاب التفسير: الحديث (٣٣٦٤) موصولاً ومرسلاً.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢ ص١٩٠؛ قال القرطبي: ((لما حذَّرَ تعالى من كتمان الحق، بيَّن أن أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمرُ التوحيد، ووصلَ ذلك بذكر البرهان وعلم طريق النظرِ، وهو الفكرُ في عجائب الصنع، ليعلمَ أنه لا بد له من فاعلٍ لا يشبهُهُ شيء)).

ومعنى الآية: أن الذي يستحق أن تَأْلَهَ قلوبكم إليه في المنافع والمضار وفي جميع حوائجكم وفي التعظيم له إله واحد لا يستحق الإلهية أحد غيره. فلما نزلت هذه الآية عجِبَ المشركون وقالوا: إن محمداً يقول: إن إلهكم إلهٌ واحدٌ، فليأتنا بآية إن كان من الصادقين. فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ ؛ أي في تعاقب الليل والنهار؛ وفي الذهاب والمجيء.

والاختلاف مأخوذٌ من خَلَفَ يَخْلُفُ بمعنى أن كل واحد منها يخلف صاحبه وإذا ذهب أحدهما جاء الآخر خلافه؛ أي بعده. نظيره قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾[(١)]. وقال عطاء: (أرَادَ اخْتِلاَفَ اللَّيلِ وَالنَّهَار فِي اللَّون وَالطُّول وَالْقِصَرِ وَالنُّور وَالظُّلْمَةِ وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَان). والليل: جمعُ لَيلَةٍ مثل نخلة ونخلٌ؛ والليالي جمعُ الجمعِ. والنهار واحدٌ وجمعه نُهُرٌ. وقدَّم الليل على النهار؛ لأنه هو الأصل والأقدم. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ) يعني السُّفُنُ، واحده وجمعه سواءٌ، قال الله تعالى في واحده: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[(٣)] وقال في جمعه: ﴿حَتَّى إذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بهِمْ﴾[(٤)]. ويذكَّر ويؤنث قال الله تعالى في التذكير:﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ وقال في التأنيث: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾. قَوْلُهُ تَعَالَى: (بمَا يَنفَعُ النَّاسَ) يعني ركوبها والحمل عليها في التجارات والمكاسب وأنواع المطالب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ ﴾ ؛ يعني المطر، ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ؛ أي بعد يبسها وجذوبتها، ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ ؛ أي نشرَ وفرقَ من كل دابة من أجناس مختلفة، منهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ ؛ أي تقليبها دبوراً وشمالاً وجنوباً وصبا. وقيل: تصريفها مرة بالرحمة ومرة بالعذاب.

---

(١) الفرقان / ٦٢. (٢) يس / ٣٧.
(٣) يس / ٤١. (٤) يونس / ٢٢.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف: (وَتَصْرِيْفِ الرِّيْحِ) بغير ألف على الواحد. وقرأ الباقون: (الرِّيَاحِ) على الجمع. قال ابن عباس:(الرِّيَاحُ لِلرَّحْمَةِ؛ وَالرِّيحُ لِلْعَذَابِ)، وكان النبيُّ ﷺ إذا هاجَتِ الريحُ يقول: [اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحاً وَلاَ تَجْعَلْهَا رِيْحاً][1].

قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ ﴾ ؛ أي المذلَّل، ﴿ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ سُمي سحاباً لأنه ينسحب بالسير في سرعة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ؛ أي لعلامات دالة على وحدانية الله لقوم يعرفون لو كانت هذه الأمورُ إلى اثنين لاختلفا. وقيلَ: لآياتٍ لقوم يعقلون فيعلمون أنَّ لهذه الأشياء خالقاً وصانعاً. قال رسول الله ﷺ:[وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأ هَذِهِ الآيَةَ وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيْهَا وَيَعْتَبِرْ بهَا][2].

قيل: إنَّ السحاب كالمنخَل يخرج منه المطر قطرةً قطرة ولا تلتقي منه قطرتان في الجوِّ؛ إذ لو خرج منهمراً سيَّالاً لأغرق ما أتى عليه كما في طُوفان نوح عليه السلام قال الله تعالى في طوفان نوحٍ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ ؛ وهم المشركون. والأندادُ: هم الأصنام المعبودة من دون اللهِ، قاله أكثرُ المفسرين، وقال السديُّ: (يَعْنِي سَادَتَهُمْ وَقَادَتَهُمْ الَّذِيْنَ كَانُوا يُطِيْعُونَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ)[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي كحُب المؤمنين اللهَ تعالى. يقال: بعتُ غلامي كبيعِ غلامِكَ؛ أي كبيعكَ غلامك. وأنشد الفرَّاء:

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص١٧٠: الحديث (١١٥٣٣). وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص١٣٥-١٣٦؛ قال الهيثمي: ((وفيه حسين بن قيس الملقب بـ (حنش) وهو متروك، وقد وثقه حصين بن نمير، وبقية رجاله رجال الصحيح)).

(٢) أخرجه ابن حبان في الصحيح: كتاب الرقاق: باب التورية: الحديث (٦٢٠) عن عائشة، وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) القمر / ١١.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٩٧). قال: ((قال السدي: (الأنداد من الرجال يطيعونهم كما يطيعون الله، إذا أمروهم أطاعوهم وعصوا الله)).

أَبَيْـتُ وَلَسْـتُ مُسَـلِّماً مَـا دُمْـتُ حَيّـاً عَلَـى زَيْـدٍ كَتَسْـلِيْمِ الأَمِـيْرِ

أي كتسليمي على الأمير، وهذا قولُ أكثر العلماء. وقال الزجَّاج: (تَقْدِيْرُ الآيَةِ: يُحِبُّونَهُمْ كَحُب اللهِ؛ يَعْنِي يُسَوُّونَ بَيْنَ هَذِهِ الأَصْنَامِ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى فِي الْمَحَبَّةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ؛ أي يخلصون في محبة الله لا يشركون به غيره؛ وهم يشركون معه معبوداتِهم. وقيل: إنَّ المؤمنين يعبدون اللهَ في كلِّ حال؛ والكفار يعبدون الأوثان في الرخَاء فإذا أصابتهم شدةٌ تركوا عبادتَها. وقال ابنُ عباس: (مَعْنَاهُ أثْبَتُ وَأدْوَمُ، وَذلِكَ أنَّ الْمُشْرِكِيْنَ كَانُوا يَعْبُدُونَ صَنَماً فَإذا رَأوا شَيْئاً أحْسَنَ مِنْهُ تَرَكُوهُ وَأقْبَلُوا عَلَى عِبَادَةِ الأَحْسَنِ). وقال قتادةُ: (إنَّ الْكَافِرَ يُعْرِضُ عَنْ مَعْبُودِهِ فِي وَقْتِ الْبَلاَءِ وَيُقْبلُ عَلَى اللهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوْا اللهَ مُخْلِصِينَ لَـهُ الدِّيـنَ﴾[1] وَالْمُؤْمِـنُ لاَ يُعْـرِضُ عَـنِ اللهِ تَعَـالَى فِـي السَّـرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ). وقيل: لأنَّ الكفار يَرَوْنَ معبودَهم مصنوعَهم؛ والمؤمنون يرونَ الله تعالى صانِعَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ ﴾ . قرأ أبو رجاءٍ والحسنُ وشيبةُ ونافع وقتادة ويعقوبُ وأيوب: (وَلَوْ تَرَى) بالتاء على أنه خطابٌ للنبي ﷺ. والجواب محذوف تقديره: ولو ترى يا محمد (الَّذِينَ ظَلَمُوا) أي أشركوا (إذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ) لرأيتَ أمراً عظيماً؛ ولعلمتَ ما يصيرون إليه، أو تعجبتَ منه. وقرأ الباقون بالياء؛ فمعناه: (وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أنفسهم عند رؤية العذاب لعلموا، ﴿ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ؛ أو لآمنوا أو لعلموا مضرَّة الكفر. نظيره هذه الآية في المحذوف: ﴿وَلَوْ أنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ﴾[2] أي لكان هذا القرآن.

وقولهُ تعالى: (إذ يَرَوْنَ الْعَذَابَ) قرأ ابنُ عامر: (إذ يُرَوْنَ الْعَذَابَ) بضم الياء على التعدي. وقرأ الباقون بفتحه على اللُّزوم. وقيلَ: معنى الآية: ولو يرى عبدةُ الأوثان اليوم ما يرونَ حين رؤية شدة عذاب الله وقوته لتركوا عبادةَ الأوثان ومحبتها.

---

(١) العنكبوت / ٦٥.

(٢) الرعد / ٣١.

وهذا التأويلُ على قراءة الياء. وقوله: (أنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا) أي لأن القـوة لله جميعاً؛ ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ ؛ للرؤساء والأتباع من عبدة الأوثان.

وقرأ الحسنُ وقتادة وشيبة وسلام ويعقوب: (إنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا وَإنَّ اللهَ) بالكسر فيهما على الاستئناف. والكلام تامٌّ عند قوله: (يَـرَوْنَ الْعَذَابَ) مع إضمار الجواب؛ كما ذكرنا. وقرأ الباقون بفتحها على معنى بأنَّ القوة لله جميعاً معطوفٌ على ما قبل. وقيلَ: على معنى لرأوا أنَّ القوة لله جميعاً، أو لأيْقَنُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾ ، متصـلٌ بقولـه: (شَدِيدُ الْعَذَاب) أي شديدُ العذاب وقتَ تبرَّأ المتَّبعون من التابعين، ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ ، جميعاً ودخلوا في النار جميعاً وعاينوا ما فيها. قرأ مجاهدٌ بتقديم الفاعلين على المفعولين؛ وقرأ الباقون بالضدِّ. (وَالتَّابعُونَ هُمُ الأَتْبَاعُ وَالضُّعَفَاءُ وَالسَّفَلَةُ) قالـه أكثر المفسرين. وقال السديُّ: (هُمُ الشَّيَاطِيْنُ يَتَبَرَّأُونَ مِنَ الإِنْسِ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ ، قـالَ ابـنُ عبَّـاسٍ ومجاهدُ وقتادة: (يَعْنِـي أَسْبَابَ الْمَـوَدَّةِ وَالْوَصْـلاَتِ الَّتِـي كَـانَتْ بَيْنَـهُمْ فِـي الدُّنْيَـا، فَصَارَتْ مَحَبَّتُهُمْ عَدَاوَةً). وقال الكلبيُّ: (يَعْنِي بالأَسْبَاب الأَرْحَامَ). وقـال أبـو رَوْق: (الْحَلْفُ وَالْعُهُودُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا؛ وَتَقَطَّعُ بَيْنَـهُمْ الأَسْبَابُ؛ أيْ لاَ سَبَبَ يَبْقَى لَهُمْ إلَى رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾ ؛ أي قال السفلاءُ والخَـدَمُ: ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾ ؛ أي قـالوا: لـو أن لنـا رجعـة إلى الدنيـا لتبرأنا منـهم كمـا تـبرَّأوا منـا في الآخـرة، يقـول الله تعـالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ ؛ التي عملوها في الدنيا لغير الله؛ ﴿ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي كما أراهم العذابَ؛ وكما تبرأ بعضُهم من بعضٍ كذلك يريهم اللهُ أعمالَهم التي عملوها في الدنيا لغيرِ الله حسراتٍ عليهم؛ أي ندماتٍ عليهم كما أراهم تَبَرُّأ بعضهم عن بعض. وقيل: أرادَ أعمالَهم الصالحة التي عملوها. قال السديُّ: (تُرْفَـعُ لَـهُمُ الْجَنَّـةُ فَيَنْظُـرُونَ إلَيْـهَا وَإلَى تَبَوُّئِهِمْ فِيْهَا لَوْ أطَاعُوا اللهَ، فَيُقَالُ لَـهُمْ: تِلْـكَ مَنَـازِلُكُمْ لَـوْ أطَعْتُـمُ اللهَ تَعَـالَى؛

ثُمَّ يُمْنَعُونَ عَنْهَا، فَذَلِكَ حِيْنَ يَنْدَمُونَ))[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ ؛ أي التابعون والمتبوعون.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ﴾ ؛ أي من الزروع والأنعام وغير ذلك مما أحلَّ الله لكم. والطيبُ صفة للحلال؛ وهما واحدٌ، ويجوز أن يكون الحلال الْمُسْتَلَذّ. ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ ﴾ ؛ أي لا تسلكوا طريقَهُ التي يدعوكم إليها.

وقيل: نزلت هذه الآية في ثقيفٍ وخُزاعة وبني عامر بن صعصعة؛ كانوا يُحَرِّمُونَ الْبَحِيْرَةَ والسائبةَ والوصيلة والحام وبعض الحروثِ.

ووجه دخول (من) التي هي للتبعيض: أن كل ما في الأرض لا يُمكن أكله لا يحلُّ. وقوله تعالى: (حَلالاً طَيِّبًا) انتصبا على الحال. وقيل: على المفعول؛ أي كُلوا حلالاً طيباً مما في الأرض.

وقولهُ: (خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) قرأ شيبةُ ونافع وعاصمٌ في رواية أبي بكرٍ، والأعمش وحمزة وأبي عمرو؛ وابنِ كثير في رواية: بسكون الطاء في جميع القرآن. وقرأ قُنْبُلُ وحفصٌ: بضم الخاء والطاء في جميع القرآن. وقرأ عليٌّ رضي الله عنهُ وسلامٌ عليه: بضمِّ الخاء والطاءِ وهمزة بعد الطاء. وقرأ أبو السمَّال العدويُّ وعبيدُ بن عميرٍ: (خَطَوَاتِ) بفتح الخاء والطاء.

فمن أسكنَ الطاءَ بقَّاهُ على الأصلِ؛ وطلب الْخِفَّةَ؛ لأنه جمعُ خطوةٍ بإسكان الطاء، ومن ضمَّ الطاء فإنه اتبع ضمة الخاء ضمة الطاء مثل ظُلمة وظُلُمات وقربة وقُرُبات. ومَن همَزَ الواو مع الضم ذهبَ بها مذهبَ الخطيئةِ، ومن فتح الخاء والطاء فإنه أرادَ جمعَ خطوةٍ مثل ثَمَرات.

---

(١) في جامع البيان: النص (٢٠١٤) نقله الطبري بلفظ: ((فينظرون إليها وإلى بيوتهم فيها لو أنهم أطاعوا الله، فيقال: تلك مساكنكم لو أطعتم الله، ثم تقسم بين المؤمنين فيرثونهم، فذلك حين يندمون)).

واختلفَ المفسرونَ في قولهِ: (خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) فعن ابن عبَّاسٍ: (أنَّ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ عَمَلُهُ)[١]. وقال مجاهدُ وقتادة والضحاكُ: (خَطَايَاهُ)[٢]. وقال الكلبيُّ والسديُّ: (طَاعَتُهُ)[٣]. وقال عطاءٌ: (زَلاَّتُهُ وَشَهَوَاتُهُ). وقال الْمُوَرِّجُ: (آثَارُهُ). وقال القُتَبيُّ والزجَّاج: (طُرُقُهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ ؛ أي بيِّنُ العداوةِ، وقيل: مظهرُها قد بَانَ عداوتهُ لكم بإبائه السجودَ لأبيكم آدم وغروره إياه حين أخرجه من الجنة. ثم بيَّن الله عداوته فقال: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ ﴾ ؛ أي بالإثم والمعاصي، وقيل: السوءُ: ما يجب به التعزير؛ والفحشاء: ما يجب به الحدُّ. وقيل: كل ما كان في القرآن من الفحشاء فهو زناً، إلا قوله تعالى: ﴿ وَيَأْمُرُكُمْ بالْفَحْشَاءِ﴾[٤] فإنه منع الزكاة. وقيل: الفحشاء: ما قُبحَ من القول والفعل. وقال طاوُوس: (الْفَحْشَاءُ: مَا لاَ يُعْرَفُ فِي شَرِيْعَةٍ وَلاَ سُنَّةٍ). وقال عطاءُ: (هِيَ الْبُخْلُ). وقال السديُّ: (هِيَ الزِّنَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ ؛ من تحريم الحرث والأنعام وغير ذلك؛ ومِن وصفكم اللهَ تعالى بالأنداد والأولاد، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. فإن قيل: كيفَ يصحُّ أنْ يأمرَ الشيطانُ وهو لا يشاهَد ولا يسمَع صوته؟ قيل: معنى يأمركم يدعوكم ويرغبكم كما يقول الإنسان: نفسي تأمرُني بكذا؛ أي تدعوني إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي إذا قيل هؤلاء الكفار: اتبعوا في التحليل والتحريم ما أنزل الله؛ ﴿ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ ؛ أي ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأوثان وتحريم البحيرة والسائبة ونحوُ ذلك. يقولُ الله تعالى: أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ؛ أي أيتبعونَ آباءهم وإن كانوا جهَّالاً لا يعقلون؛ ﴿ شَيْـًٔا ﴾ ؛ من الدينِ، ﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ ؛ للسُّنةِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٠١٨).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٠١٩ و٢٠٢٠ و٢٠٢١).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٠٢٢).
(٤) البقرة / ٢٦٨.

وقيل: إن هذه الآية قصةٌ مستأنفة؛ وإنَّها نزلت في اليهود؛ فعلى هذا تكون الهاءُ والميم في قوله: (لَهُمْ) كنايةٌ عن غير مذكور. وعنِ ابن عباسٍ قَالَ: [دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى إلَى الإسْلاَمِ وَرَغَّبَهُمْ فِيْهِ وَحَذَّرَهُمْ عَذَابَ اللهِ، فَقَالَ لَهُ رَافِعُ بْنُ خَارِجَةَ وَمَالِكُ بْنُ عَوْف: بَلْ نَتَّبعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا فَهُمْ كَانُوا خَيْراً مِنَّا وَأعْلَمَ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةِ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ ؛ هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للكفار فوصفهم بعدمـا أمرَهـم ونـهاهم؛ فلم يأتمروا ولم ينتهوا بصفة الدواب، معناه: مَثَلُنَا أو مِثْلُكَ يا مُحَمَّـدُ مـع الكفـار أو مثلُ واعظِ الذين كفروا. فحُذف اختصاراً كمثل الذي يصيح بها بما لا يدري ما يقـال له إلا أنهُ يسمع الصوتَ، وهو الإبل والبقر والغنم ينْزجر بالصوت ولا تَفْقَهُ ما يقـال لَها؛ ولا تحسنُ جواباً؛ فكما أنَّ البهائم لا تفهم كلامَ من يدعوها، فكذا هؤلاء الكفار لا ينتفعون بوعظ النبي ﷺ. وهذا قولُ ابنِ عبـاس وعكرمـة ومجاهد وقتـادة وعطـاء والربيع وأكثر المفسرين، فإنَّهم قالوا المرادُ (بِمَا لا يَسْمَعُ إلا دُعَاءً وَنِدَاءً) البـهائمُ الـتي لا تعقل كالأنعام والحمير ونحوها[2].

وأضاف المثل إلى الكفار اختصاراً لدلالة الكلام عليه؛ وتقديرهُ: مثلك يا محمـد ومثل الذين كفروا في وعظهم ودعائهم إلى الله تعالى كمثل الداعي الذي ينعِـق بـهم؛ أي يصوِّت ويصيح بها، يقال: نَعَقَ يَنْعِقُ نَعْقاً وَنِعَاقاً؛ إذا صاحَ وزجرَ، قال الشاعر[3]:

فَـانْعِقْ بضَـأْنِكَ يَـا جَرِيْـرُ فَإنَّمَـا مَنَّتْـكَ نَفْسُـكَ فِـي الْخَـلاَءِ ضَـلاَلاَ

---

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٤٠٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابـن إسحق وابـن جريـر وابـن أبـي حاتم)). أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية عن ابن إسحق: ج ٢ ص٢٠٠. والطبري في جامع البيان: النص (٢٠٢٥).

(٢) نقل أقوالهم الطبري في جامع البيان: النصوص (٢٠٢٨-٢٠٣٥).

(٣) هو الأخطل، ينظر: في ديوانه: ٢٥٠. والبيت أيضاً في نقائض جرير والأخطل: ص٨١. ولسـان العرب: مادة (نعق). ونعق: صاح.

فكما أنَّ هذه البهائمَ تسمعُ الصوتَ ولا تفهم ولا تعقل ما يقال لها؛ كذلك الكافر لا ينتفع بوعظ إن أمرته بخير أو زجرته عن شرٍّ؛ غير أنه يسمع صوتك. وقال الحسن: (معناه: مثله فيما أتيتم به حيث يسمعونه ولا يعقلونه كمثل راعي الغنم الذي ينعق بها، فإذا سمعتِ الصوتَ رفعتْ رأسها فاستمعت إلى الصوتِ والدعاء ولا تعقلُ منه شيئاً، ثم تعودُ بعد ذلك إلى مرعاها؛ لم تفقه ما ناداها به). وقال قوم: معنى الآية: مثلُ الكفار في دعائهم الأصنام وعبادتِهم الأوثان كمثلِ الرجل يصيحُ في جوفِ الجبال، فيجيبهُ فيها صوت يقال لها الصَّدى؛ يجيبهُ ولا ينفعه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلا دُعَاءً وَنِدَاءً). وقيل: إنَّ الدعاءَ والنداءَ واحدٌ كما أن الحلالَ والطيِّبَ واحدٌ. وقيل: الدعاءُ ما يكون للقريب، والنداءُ إنما يكون مُدُّ الصوتِ للبعيد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ ؛ أي هم صمٌّ عن الخير لا يسمعون الحقَّ؛ والعرب تقول لمن يسمعُ ولا يعمل بما يسمعه: كأنه أصَمُّ. وقوله تعالى: (بُكْمٌ) أي خُرْسٌ لا يتكلمون بخيرٍ، (عُمْيٌ) لا يبصرون الهدى فهم لا يعقلونَ ما يؤمرون به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ؛ أي من حلال ما رزقناكم من الحرث والأنعام وسائر المأكولات، قال ﷺ: [إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إلاَّ الطَّيِّبَ، وَإنَّ اللهَ تَعَالَى أمَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بمَا أمَرَ بهِ الْمُرْسَلِيْنَ؛ فَقَالَ: يَا أيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ، وقال: يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ ؛ أي وَاشْكُرُوا للهِ على ما رزقكم وأباحَ لكم من النعم إنْ كُنتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ؛ أي إن كنتم تُقِرُّونَ أنه إلَهُكُمْ ورازقُكم، وهذا أمرُ إباحةٍ وتخيير؛ أعني قوله تعالى: (كُلُوا) لأن تناولَ المشتهَى لا يدخلُ في التعبد؛ وقد يكون الأكلُ تعبُّداً في بعض الأحوال عند دفعِ ضرر النفسِ أو تقويتها على الطاعة، وعند مساعدةِ الضيفِ إذا امتنعَ عن الأكل.

---

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٤٠٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة)). (١) طه / ٦٩.

فلما نزلت هذه الآية قالتِ الكفارُ: إذاً لم تكن البَحيرةُ والسائبة والوصيلة محرمةً في المحرمات، فأنزلَ اللهُ تعالى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ قرأ السلمي: (إنَّمَا حَرُمَ عَلَيْكُمُ) براء مضمومة مخففة (الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ) رفعاً.

وروي عن أبي جعفرَ أن قرأ: (حُرِّمَ) بضم الحاء وكسر الراء وتشديدها ورفع ما بعدها. وقرأ إبراهيمُ بن أبي عبيلة: (إنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ) بنصب الحاء والراء وتشديد الراء ورفع الميتة وما بعدها، وجَعل (مَا) بمعنى الذي المنفصلة، ويكون موضع (مَا) نصباً باسم إنَّ؛ وما بعدها خبرها. كما قال: ﴿إنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾[1]. وقرأه الباقون (حَرَّمَ) بنصب الحاء وتشديد الراء ونصب (الْمَيْتَةَ) وما بعدها، وجعلوا (إنَّمَا) كلمة واحدة تأكيداً وتحقيقاً. والميتة: ما لَم يُذَكَّ، والدمُ: يعني المسفوحَ الجاري. وهذه الآية مخصوصةٌ بالسُّنة؛ وهو قوله ﷺ: [أحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَان: السَّمَكُ وَالْجَرَادُ، وَالدَّمَان: الْكَبِدُ وَالطُّحَالُ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ) أرادَ جميعَ أجزائه وكل بدنِهِ، فعبَّر ذلك باللحم؛ لأنه معظمهُ وقِوامه. وقوله تعالى: (وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ) أي ما ذُكِرَ عليه عند الذبح اسمُ غير الله، قال ابنُ عباس ومجاهدُ وقتادة والضحاك: (يَعْنِي مَا ذُبحَ لِلأَصْنَامِ وَالطَّوَاغِيْتِ كُلِّهَا) وأصلُ الإهلال رفعُ الصوت، ومنه إهلال الحجِّ؛ وهو رفعُ الصوتِ بالتلبية، ومنه إهلالُ الصبي واستهلاله؛ وهو صياحه عند خروجه من بطن أمِّهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ؛ قرأ عاصمُ وحمزة ويعقوب وأبو عمرو: (فَمَنِ اضْطُرَّ) بكسر النون فيه وفيما يشابهه مثل (أنِ اقْتُلُوا) وأمثاله. وقرأ ابن محيصن: (فَمَن اطُّرَّ) بإدغام الضاد في الطاء حتى يكون طاء خالصة.

---

(١) في الدر المنثور: ج١ ص٤٠٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد وابن ماجة والدراقطني وابن مردويه، عن ابن عمر)). رواه أحمد في المسند: ج٢ ص٩٧. وابن ماجة في السنن: كتاب الصيد: الحديث (٣٢١٨)، وإسناده حسن. وفي نصب الراية: ج٤ ص٢٠٢؛ قال الزيلعي: ((وله طريق آخر، قاله ابن مردويه في تفسير سورة الأنعام)).

ومعنى الآية: فمن أحرجَ فالتجأ إلى ذلك بالمجاعة والإكراهِ، (غَيْرَ بَاغٍ) أي غير طالب لذلك؛ أي غير طالب تلذُّذٍ، (وَلاَ عَادٍ) أي ولا متجاوز قدر ما يسدُّ به رَمَقَهُ، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: (غَيْرَ بَاغٍ) نصبَ (غَيْرَ) على الحال، وقيل: على الاستثناءِ؛ وإذا رأيتَ (غَيْرَ) لا يقع في موضعها (إلاَّ) فهي حال؛ وإذا يقع في موضعها (إلاَّ) فهي استثناء؛ فَقِسْ على هذا.

وقال بعضُ المفسرينَ: على معنى (غَيْرَ بَاغٍ) أي غيرَ قاطعٍ للطريقِ، (وَلاَ عَادٍ) أي ولا مفارقٍ للأئمة ولا مُشَاقٍّ للأمَّةِ خارجٍ عليهم بسيفهِ، ومن خرج يخيفُ السبيل؛ أو يفسدُ في الأرض؛ أو آبقٍ من سيده؛ أو فرَّ من غَرِيْمِهِ؛ أو خرج عاصياً بأيِّ وجهٍ كان فاضطُرَّ إلى الميتة؛ لم يَجُزْ أكلُها، واضطرَّ إلى الخمرِ عند العطش؛ لم يحلُّ له شربُها، وهذا قولُ مجاهدٍ وابن جبيرٍ والكلبيِّ، وبهذا التأويل أخذَ الشافعيُّ رحمه اللهُ، وقال أبو حنيفة ومالك رَحِمَهُمَا اللهُ: ((يجوزُ ذلك لهم ولو كانوا بغاةً خارجين على المسلمين كما يجوزُ لأهل العدل)).

قال ابنُ عباس والحسن ومسروق: (تَفْسِيْرُ قَوْلِهِ: (غَيْرَ بَاغٍ) أيْ غَيْرَ بَاغٍ فِي الْمَيْتَةِ، وَلاَ عَادٍ فِي الأَكْلِ). وقال مقاتلُ: (أيْ غَيْرَ بَاغٍ وَمُسْتَحِلٍّ، وَلاَ عَادٍ أيْ وَلاَ مُتَزَوِّدٍ مِنْهَا). وقال السديُّ: (غَيْرَ بَاغٍ فِي أكْلِهِ بشَهْوَةٍ وَتَلَذُّذٍ، وَلاَ عَادٍ أيْ لاَ يَأْكُلُ حَتَّى يَشْبَعَ مِنْهَا، وَلَكِنْ يَأْكُلُ مِنْهَا مَا يُمْسِكُ رَمَقَهُ). وقال بعضُهم: غيرَ باغٍ؛ أي متجاوزٍ للقدر الذي يحل له، ولا عادٍ؛ أي لا يقصر فيها فيما يحل له منها؛ فلا يأكلُهُ. قال مسروق: (بَلَغَنِي أنَّهُ مَنِ اضْطُرَّ إلَى الْمَيْتَةِ فَلَمْ يَأْكُلْهَا حَتَّى مَاتَ دَخَلَ النَّارَ).

واختلفَ الفقهاءُ في حدِّ الاضطرار إلى الميتة فيما يحلُّ للمضطر أكله من الميتة، فقال بعضهم: إنه لا يجوزُ له الأكل إلا عند خوف التلف في آخر الرمق وهو الصحيحُ، وقال بعضهم: إذا كان يضعف عن الفرائضِ. وقال بعضهم: إذا كان بحيث لو دخل إلى سوقٍ لا ينظر إلى شيء سوَى المطعوم.

وأما مقدارُ ما يأكل عند الضرورة فقال أبو حنيفةَ: (لا يأكل إلا ما يسدُّ رمقه)، وهو أحد قولي الشافعي. وقال مالكٌ:(يأكلُ حتى يشبع ويتزوَّدُ منها، فإن وجدَ شيئاً مباحاً طرحَها). وقال مقاتلٌ: (لا يزيد على ثلاثة لُقَمٍ).

قولهُ: (فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) أي فلا حرجَ عليه في أكلِها، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لمن أكل من الحرام في حالة الاضطرار، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ ؛ به حيث رَخَّصَ له في ذلك، فإن قيلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) تناقض قوله: (إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)؛ لأنَّ الغفرانَ يقتضي إثبات الإثم؟ قِيْلَ: لأنه بالغفران قد يَسَّرَ ما لولا الإباحةُ لكانت معصيةً، وبرحمته جَوَّزَ عند الضرورة إحياءَ النفس بتناولهِ.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، نزل في علماء اليهود والنصارى، قال الكلبيُّ: عن أبي صالح عن ابن عباس: (كَانَ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ يَأْخُذُونَ مِنْ سَفَلَتِهِمُ الْهَدِايَّةَ، وَكَانُواْ يَرْجُونَ أنْ يَكُونَ النَّبِيُّ الْمَبْعُوثُ مِنْهُمْ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ مِنْ غَيْرِهِمْ، خَافُواْ ذهَاَب مَآكِلِهِمْ وَزَوَال رئَاسَتِهِمْ، فَعَمَدُواْ إلَى صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَغَيَّرُوهَا ثُمَّ أخْرَجُوهَا إلَيْهِمْ وَقَالُواْ: هَذَا نَعْتُ النَّبِيِّ الَّذِي يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، لاَ يُشْبهُ نَعْتَ هَذَا النَّبِيِّ الَّذِي بمَكَّةَ، فَإذَا نَظَرَتِ السَّفَلَةُ إلَى النَّعْتِ الْمُغَيَّر وَجَدُوهُ مُخَالِفاً لِصِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلاَ يَتَّبعُونَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ (إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ) يَعْنِي صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنُبُوَّتَهُ)[1] ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ﴾ ؛ أي بالمكتوب، ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ؛ أي عِوَضاً يسيراً؛ يعني المآكل التي كانوا يُصيبونَها من سَفلتهم، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ ؛ ذكرَ البطونَ ها هنا للتأكيدِ؛ ما يأكلونَ إلا ما يوردهم النارَ؛ وهي الرِّشوةُ والحرامُ، ومن الدين والإسلام، فلما كان عاقبته النار سَمَّاه في الحال ناراً، كقولهِ تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[2] يعني أنَّ عاقبتهُ النار، وقال عَلَيْهِ السَّلاَمُ في الذي يشربُ في الإناءِ الذهب والفضةِ: [إنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ][3] أخبرَ عن المال بالحال.

---

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٤٠٩؛ قال السيوطي: ((وأخرج الثعلبي بسند ضعيف عن ابن عباس: ...وذكره)).

(٢) النساء / ١٠.

(٣) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الأشربة: باب آنية الفضة: الحديث (٥٦٣٤). والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٣٠١ و٣٠٦.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي لا يكلمهم كلاماً ينفعُهم ويسرهم كما يكلمُ أولياءَه من البشارةِ والرضا، وأما التهديدُ فلا بدَّ منه لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(١)]. وقيل: معناه: لا يُسْمِعُهُمْ كلامَ نفسهِ، بل يرسلُ إليهم ملائكةَ العذاب، فيكلمونَهم بأمر الله، وإنَّما أضافَ السؤال إلى نفسهِ؛ لأن سؤالَ الملائكة بأمرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ ؛ أي لا يطهِّرهم من دنس ذنوبهم؛ ولا يُثني عليهم خيراً؛ ولا يُصلح أعمالهم الخبيثة؛ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ ؛ أي مؤلِمٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾ ؛ أي الذين مالوا إلى التحريف للتوراة والإنجيل هم الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، وقوله تعالى: (وَالْعَذَابَ بالْمَغْفِرَةِ) معناه: أنَّ الإيمانَ بالنبي ﷺ يوجبُ المغفرةَ؛ والكفرَ به يوجب العذابَ؛ فيكونُ المستبدِلُ للكفر بالإيمان مُشترياً للعذاب بالمغفرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَمَا أصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار) قال الحسنُ وقتادة والربيع: (وَاللهِ وَمَا لَهُمْ عَلَيْهَا مِنْ صَبْرٍ، وَلَكِنْ مَا أجْرَاهُمْ عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُهُمْ إلَى النَّار!)[(٢)]. وقال الكسائيُّ وقطرب: (مَا أصْبَرَهُمْ عَلَى عَمَلِ أهْلِ النَّار؛ أيْ مَا أدْوَمَهُمْ عَلَيْهِ). وقيل: معناهُ: ما ألقاهم في النار. وقال عطاءُ والسدي: (مَعْنَاهُ: مَا الَّذِي أصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار، وَأيُّ شَيْءٍ صَبَّرَهُمْ عَلَى النَّار حِيْنَ تَرَكُوا الْحَقَّ وَاتَّبَعُوا الْبَاطِلَ)[(٣)].

وَقِيْلَ: هو لفظُ استفهامٍ بمعنى التوبيخ لهم والتعجب لنا، كأنه قال: ما أجرأهم على فعل أهل النار مع علمهم. قالوا: وهذه لغةٌ يَمانية. وقال الفراءُ: (أخْبَرَنِي

---

(١) الحجر / ٩٢.

(٢) في جامع البيان: النص (٢٠٦٧) عن الحسن، والنص (٢٠٦٦) عن قتادة، والنص (٢٠٦٩) عن الربيع.

(٣) في جامع البيان: النص (٢٠٧١).

الْكَسَائِيُّ؛ قَالَ: أَخْبَرَنِي قَاضِي الْيَمَنِ: أنَّ خَصْمَينِ اخْتَصَمَا إِلَيْهِ، فَوَجَبَتِ الْيَمِيْنُ عَلَى أَحَدِهِمَا؛ فَحَلَفَ، فَقَالَ لَهُ خَصْمُهُ: مَا أَصْبَرَكَ عَلَى اللهِ! أيْ مَا أجْرَأكَ عَلَى اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي ذلكَ العذابُ لهم في الآخرة. وقيلَ: ذلك الضلالُ (بِأنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ) أي بالعذاب والصِّدقِ. واختلفوا فيه؛ فحينئذ يكونُ ذلك في موضع الرفع. وقال بعضُهم: هو في محل النصب؛ معناهُ: فعلنا ذلك بهم؛ بأنَّ الله أو لأن الله نزَّلَ الكتابَ بالحق فاختلفوا فيه وكفروا به؛ فَنُزِعَ الخافضُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ ؛ قيل: هم اليهودُ والنصارَى، وأرادَ بالكتاب: التوراةَ والإنجيلَ وما فيهما من **البشارةِ** بمُحَمَّدٍ ﷺ وصحَّةِ أمرهِ ودينهِ.

وقيلَ: هم الكفارُ كلهم، وأراد بالكتاب القرآنَ واختلافَهم فيه؛ لأنَّ بعضهم قال: هو سحرٌ، وبعضهم قال: هو قولُ البشر، وبعضهم قال: هو أساطيرُ الأولين، (وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَاب) ﴿ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ ؛ أي خلافٍ طويل.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ ؛ قرأ حمزة وحفص: (لَيْسَ الْبِرَّ) بالنصب، ووجهُ ذلك: أنهما جعلا (أنْ) وصلتها في موضع الرفع على اسم ليس، تقديره: ليس توليتكم وجوهكم البرَّ، كقولهِ تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾[1]. وقرأ الباقون بالرفع على أنه اسمُ (لَيْسَ).

واختلفَ المفسرون في هذه الآية؛ فقال قومٌ: أراد بها اليهودَ والنصارى قبل المشرق، وزعمَ كل فريقٍ منهم أن البرَّ في ذلك، فأخبرَ الله تعالى أن البرَّ غيرُ دينهم وعملهم، وعلى هذا القول قتادةُ والربيع ومقاتل.

وقيل: لَمَّا حُوِّلَتِ القبلةُ إلى الكعبة كَثُرَ الخوضُ في أمر القبلة، فتوجَّهت النصارى نحوَ المشرق، واليهود يصلونَ قِبل المغرب إلى بيت المقدس، واتخذوهُما قبلةً

---

(١) الحشر / ١٧.

وزعموا أنه البرُّ، فأكذبَهم اللهُ تعالى بهذا وبيَّن أن البر في طاعته واتباع أمره، وأن البرَّ يتمُّ بالإيْمان. وقيل: معناهُ: ليس البرُّ كلهُ في الصَّلاة فقط، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ ﴾ ، الذي يؤدِّي للثواب، ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ ، والإقرار بالملائكة أنَّهم عبادُ الله ورسله؛ لا كما قال بعض الكفار: أنَّ الملائكة بناتُ الله. والإقرار بالنبيِّين كلهم.

فإنْ قيلَ لَهم: جعل (مَنْ) خبرَ (الْبرَّ) و(مَنْ) اسمٌ و(الْبرَّ) فعلٌ، وهم لا يُجبَرُونَ: (الْبرَّ) زيْدَ. قيل: معناهُ عند بعضهم: ولكنَّ البرَّ الإيْمانُ بالله، والعربُ تجعل الاسم خبراً للفعل كقولهم: البرُّ الصادقُ الذي يصلُ رحِمه ويخفي صدقتهُ، يريدون صلةَ الرحم وإخفاءَ الصدقةِ، فيكون (مَنْ) في موضعِ الْمَصْدَر كأنه قال: ولكن البرَّ مَن آمن بالله والْبرُّ برُّ مَن آمَنَ بالله، كما يقال: الْجُودُ من حاتم، والشجاعةُ من عنتر؛ أي الجود جودُ حاتم، والشجاعة شجاعة عنتر، ومثله قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[(١)]

أي أهلَ القريةِ. ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[(٢)]؛ أي كخلق نفسٍ. وقال أبو عُبيدة: (مَعْنَاهُ: وَلَكِنَّ الْبَارَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾[(٣)] أيْ لِلْمُتَّقِي). وقيل: معناهُ: ولكن ذا البرَّ مَن آمنَ بالله، كقوله: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾[(٤)] هم ذو درجاتٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ ؛ أي مَن آمنَ بالله والملائكةِ كلهم والكتاب يعني الكتبَ، والنبيينَ أجمع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ ؛ اختلفوا في الهاء الذي في (حُبِهِ)؛ فقال أكثرُ المفسرين: الهاءُ في (حُبِهِ) راجعٌ إلى المال؛ يعني إعطاءَ المال في صحتهِ ومحبتهِ إياهُ وصلته به، وهو صحيحٌ يخشى الفقر ويأملُ الغنى، ولا يهمل حتى إذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ فيقول: لفلانٍ كذا أو لفلان كذا. أو قيل: هي عائدةٌ إلى الله؛ أي على حب الله تعالى. وقيل: على حب الأنبياء.

---

(١) يوسف / ٨٢.
(٢) لقمان / ٢٨.
(٣) طه / ١٣٢.
(٤) آل عمران / ١٦٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ؛ أي أهل القربى؛ قال ﷺ: [أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ عَلَى ذَوي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ][(١)]. وعن ميمونةَ زوج النبيِّ ﷺ قالت: أَعْتَقْتُ جَارِيَةً لِي، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بذَلِكَ؛ فَقَالَ: [آجَرَكِ اللهُ، أَمَا أَنَّكِ لَوْ أَعْطَيْتِهَا بَعْضَ أَخْوَالِكِ كَانَ أَعْظَمَ لأَجْرِكِ][(٢)].

وقولُه تعالى: ﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ ﴾ [(٣)] ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ؛ يعني الْمُجتَازَ، قال مجاهدٌ: (وَهُوَ الْمُسَافِرُ وَالْمُنْقَطِعُ عَنْ أَهْلِهِ يَمُرُّ عَلَيْكَ)[(٤)]. وقال قتادةُ: (وَهُوَ الضَّيْفُ يَنْزِلُ بالرَّجُلِ) قَالَ: (لِقَوْلِهِ ﷺ: [مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ] وَقَالَ ﷺ: [حَقُّ الضِّيَافَةِ ثَلاَثٌ، فَمَا فَوْقَ ذلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ][(٥)]. وَإنَّمَا قِيْلَ لِلْمُسَافِرِ وَالضَّيْفِ: ابْنُ السَّبِيْلِ؛ لِمُلاَزَمَتِهِ الطَّرِيْقَ كَمَا يُقَالُ لِلرَّجُلِ الَّذِي أتَتْ عَلَيْهِ الدُّهُورُ: ابْنُ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ)[(٦)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّآئِلِينَ ﴾ ؛ يعني المستطعمينَ الطالبين، قال رسول الله ﷺ: [لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإنْ جَاءَ عَلَى ظَهْرِ فَرَسٍ][(٧)] وقالَ ﷺ: [هَدِيَّةُ اللهِ لِلْمُؤْمِنِ

---

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٤١٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه الطبراني والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط. وقال: وأخرجه أحمد والدرامي والطبراني عن حكيم بن حزام)). وفي نصب الراية: ج ٤ ص٤٠٦؛ قال الزيلعي: ((ورواه الطبراني في معجمه، قال ابن طاهر: سنده صحيح)).

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص٤١٤؛ قال السيوطي: ((وأخرجه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم وصححه)).

(٣) لقد بُيِّن معنى اليتامى والمساكين فيما مضى، ص ٢٠٠ .

(٤) في جامع البيان: النص (٢٠٩٢).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٠٩٠).

(٦) قاله الطبري في جامع البيان بعد النص (٢٠٩٢).

(٧) عن الحسين بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أخرجه أحمد وأبو داود وابن أبي حاتم. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص١٣٠: الحديث (٢٨٩٣). والإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٠١. وأبو داود في السنن: كتاب الزكاة: الحديث (١٦٦٥). وفي مجمع الزوائد: ج ٣ ص١٠١؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه عثمان بن فائد، وهو ضعيف)). قلتُ: وقد أخرجه الطبراني من طريق آخر في المعجم الكبير.

السَّائِلُ عَلَى بَابِهِ][1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ ؛ يعني المكاتَبين؛ كذا قال أكثرُ أهل التفسير. وقيل: فداءُ الأسَارى. وقيل: عِتق النَّسمة هو شراؤُها للعتقِ وفكُّ الرقبة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ يعني المفروضةَ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ؛ يعني الواجبةَ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ ﴾ ؛ يعني فيما بينَهم وبين الله، وفيما بينهم وبينَ الناس إذا وعدُوا أنْجزوا؛ وإذا حلَفوا بَرُّوا؛ وإذا نذرُوا أوفَوا؛ وإذا قالوا صدقُوا؛ وإذا ائتمنوا أدَّوا. وقيل: معناه الموفونَ بالعهود التي أمرَ الله بأوفائها من سائر المواثيقِ؛ مدَحهُم على الوفاء بمَا عاهدوا رسولَ الله ﷺ من نصرتهِ على الأعداءِ؛ ومظاهرتهِ بالجهاد.

واختلفوا في رفع الْمُوفِيْنَ؛ فقال الفراءُ والأخفش: (هُوَ عَطْفٌ عَلَى مَحَلِّ (مَنْ) فِي قَوْلِهِ ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: وَلَكِنَّ الْبِرَّ الْمُؤْمِنُونَ والْمُوفُونَ)[2]. وقيل: هو رفعٌ على الابتداءِ، والخبرُ تقديره: وهُمُ الموفون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ ؛ في انتصابه خلافٌ؛ قال الكسائيُّ: (عَطْفٌ عَلَى ذوي الْقُرْبَى، كَأَنَّهُ قَالَ: وَآتَى الصَّابرِيْنَ). وقال بعضهم: معناهُ: أعْنِي الصابرين. وقال الخليلُ والفرَّاء: (نُصِبَ عَلَى الْمَدْحِ، وَالْعَرَبُ تَنْصِبُ عَلَى الْمَدْحِ وَالذَّمِّ، فَالْمَدْحُ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ﴾[3]، وَالذَّمُّ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَلْعُونِينَ﴾[4])[5]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فِي الْبَأْسَاءِ) يعني الشدة والفقر، (وَالضَّرَّاءِ) يعني المرضَ والزَّمَانَةَ، وفي هاتين الحالتينِ يعظمُ موقع الصبر على العبادةِ.

---

(١) في التمهيد لما في موطأ مالك من المعاني والمسانيد: ج ٢ ص٦٢٣؛ قال ابن عبد البر: ((ومما وضع على مالك مما يدخل في هذا الباب وأسنده عن موسى بن مُحَمَّد وقال: ورواه أيضاً سعيد ابن موسى، ثم قال: وموسى بن مُحَمَّد وسعيد بن موسى متروكان، والحديث موضوع، وحسبنا الله ونعم الوكيل)). وفي الدر المنثور: ج ١ ص٤١٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو نعيم والثعلبي والديلمي والخطيب في رواة مالك بسند واه عن ابن عمر)).

(٢) معاني القرآن للأخفش: ج ١ ص٣٤٨، تحقيق د. عبدالأمير مُحَمَّد الورد.

(٣) النساء / ١٦٢. (٤) الأحزاب / ٦١.

(٥) معاني القرآن للفراء: ج ١ ص١٠٥. وذكره الإمام الطبراني على سبيل الإجمال وليس نصاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ ؛ أي وقتَ القتال وشدة الحرب، يقال: لا بأسَ عليك؛ أي لا شدةَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ ؛ أي في إيمانِهم وجهادهم، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ ؛ محارمَ الله تعالى. قيل: [جَاءَ رَجُلٌ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الإيْمَانِ؛ فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ][1].

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ ؛ نزلت هذه الآية في الأوسِ والخزرجِ وكان بينهما قتلى وجراحات في الجاهلية، وكان لأحدهما طَوْلٌ على الآخر في الكثرةِ والشرفِ، فأقسَمُوا ليقتلنَّ بالعبدِ منا الحرَّ منهم؛ وبالمرأةِ منا الرجلَ منهم؛ وبالرجلِ منا الرجلين منهم، وجعلوا جراحاتِهم ضِعْفَي جراحات أولئك، فلم يأخذها بعضهم من بعضٍ حتى جاءَ الإسلامُ، فرفعوا أمرَهم إلى رسول الله ﷺ فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية وأمَرَهم بالمساواةِ؛ فَرَضُوا وسلَّمُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ ؛ قيل: إن (مَنْ) اسمُ القاتلِ مَنْ تُرِكَ له القَوْدُ وصحَّ عنه من القصاص في قتل العمد؛ فَرُضِيَ منه بالدِّيَة، وقوله: (مِنْ أَخِيْهِ) أي من أخ المقتول منه؛ فيسع العافي بالمعروف؛ أي بترفق في طلب الديةِ من القاتلِ ولا يعسر؛ وليؤدِّ القاتل إليه بإحسان؛ أي لا يبخس ولا يُماطل، هذا قول أكثر المفسرين. قالوا: العفوُ: أن يقبلَ الدية في قتل العمدِ، وقيل في تأويله: إن العفوَ في اللغة ما سَهُلَ وتيسرَّ، قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾[2]؛ أي ما سَهُلَ من الأخلاق، فعلى هذا يكون قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ) أي وليّ القتيل إذا بذل له من بدل أخيه شيء من المال من جانب القاتل؛ فَـــ لَهُ ﴿ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ أي فَلْيَقْبَلْهُ، ﴿ وَأَدَآءٌ ﴾ ؛ أي ليؤدِّ، ﴿ إِلَيْهِ ﴾ ، القاتلُ ﴿ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ .

---

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٤١٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم وصححه عن أبي ذر، أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان؟ فتلا: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ حتى فرغ منها. ثم سأله أيضاً، فتلاها. ثم سأله فتلاها، وقال: [وَإذَا عَمِلْتَ حَسَنَةً أحَبَّهَا قَلْبُكَ، وَإذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً أبْغَضَهَا قَلْبُكَ].

(٢) الأعراف / ١٩٩.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ ؛ أي أن الصلح عن القصاص على شيء من الديةِ أو غير ذلك تسهيلٌ من ربكم عليكم، رحمةً رحمكم الله بها؛ وذلك أن اللهَ كتبَ على أهل التوراة في النفس والجراحِ أن يُقِيدُوا ولا يأخذوا الديةَ ولا يعفوا، وعلى أهل الإنجيل أن يعفُوا ولا يقيدوا ولا يأخذوا الديةَ، فخيَّر الله هذه الأمةَ بين القصاص والدية والعفو.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ ؛ أي إذا قتلَ الوليُّ قاتلَ وليهِ بعد أخذ الديةِ منه فله عذابٌ أليم: القتلُ في الدنيا والنار في الآخرة، ومن قتلَ بعد أخذ الدية يُقتلُ ولا يعفى عنه، قال ﷺ: [لاَ أُعَافِي رَجُلاً قَتَلَ بَعْدَ أخْذِ الدِّيَةِ][1].

وفي هذه الآية دليلٌ على أن القاتل لا يصيرُ كافراً ولا يخلد في النار؛ لأن الله تعالى خاطبهم فقال:(يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ) وقال في آخر الآية: (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أخِيهِ شَيْءٌ) فسمَّى القاتل أخاً للمقتول، وقال تعالى: (ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبكُمْ وَرَحْمَةٌ) وهما يلحقان المؤمنين دون الكفار. ويروى أن مسروقاً: (سُئِلَ هَلْ لِلْقَاتِلِ تَوْبَةٌ؟ فَقَالَ: لاَ أغْلِقُ بَاباً فَتَحَهُ اللهُ).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ؛ يعني أن الذي يريد قتلَ غيرَهُ إذا علم أنه إذا قَتَلَ قُتِلَ؛ أمسكَ عن القتل وارتدع؛ فيكون ذلك حياةً له وحياة للذي هَمَّ بقتله، وفي بقائهما بقاءٌ لمن يتعصبُ لهما؛ لأن الفتنةَ تُنبِئُ بالقتلِ؛ فتؤدي إلى المحاربةِ التي لا منتهى لها. وقيل: أراد الآخرة بذلك لا من اقتصَّ منه في الدنيا حيٌّ في الآخرة، وإذا لم يقتصَّ منه في الدنيا اقتص منه في الآخرة؛ فمعنى الحياةِ سلامتهُ في الآخرة. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (يَا أوْلِي الألْبَاب) أي يا ذوي العقول، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ ؛ أي لكي تتقوا القتلَ مخافةَ القصاص.

---

(١) رواه أبو داود في السنن: كتاب الديات: باب من قتل بعد أخذ الدية: الحديث (٤٥٠٧) عن جابر بن عبدالله. والإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٣٦٣.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ ؛ أي فُرض عليكم إذا حَضَرَ أحدَكم أسبابُ الموتِ من العلل والأمراض،﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ ؛ أي مَالاً، ﴿ ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ وفي ارتفاع الوصية وجهان؛ أحدُهما: اسم ما لم يسمَّ فاعله؛ أي كتب عليكم الوصيةُ، والثاني: بخبر الجار والمجرور. وفي قوله: (لِلْوَالِدَيْنِ). وقَوْلُهُ تَعَالَى: (بالْمَعْرُوفِ) أي لا يزيد على الثُّلُثِ؛ ولا يوصي للغني ويترك الفقير. كما قيلَ: الوصيةُ للأحوج فالأحوج. وقوله تعالى: ﴿ حَقًّا ﴾ ؛ أي حَقّاً واجباً وهو نعتٌ على المصدر، معناه: حقٌّ ذلك حقاً. وقيل: على المفعول؛ أي جعل الوصية حقّاً. وقوله تعالى:﴿ عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ ؛ أي على المؤمنين.

وسببُ نزول هذه الآية: أنَّهم كانوا في ابتداء الإسلام يوصون للأباعد طلباً للرياءِ، فأمرَ الله تعالى مَن (تَرَكَ خَيْراً) أي مالاً. نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾(١) أي من مال، وقوله:﴿إِنِّي لِمَا أنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٢) أي من مال، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾(٣). وقوله تعالى: (إذَا حَضَرَ أحَدَكُمُ الْمَوْتُ) أي إذا مَرِضَ أحدكم؛ لأنه إذا عاينَ الموتَ فقد شُغل عن الوصية.

وهذه الآية منسوخةٌ عند أكثرِ العلماء، واختلفوا بأيِّ دليل نُسِخَتْ؛ فقالَ بعضهم: بآية المواريث، وهذا لا يصحُّ؛ لأنَّ الله تعالى قال فيها: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بهَا﴾(٤). والصحيح: أنَّها نُسِخَتْ بقوله ﷺ: [لاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ](٥). وهذا الخبرُ وإن كان خبرَ واحدٍ فقد تَلَقَّتْهُ الأمة بالقَبول، فقد جرى مجرى التواتر، ويجوزُ نسخ القرآن بمثل هذه السُّنة، ولا تجبُ الوصية إلا على من عليه شيء من الواجباتِ لله تعالى أو لعبادهِ، وتستحبُّ لمن لا شيء عليه بالوصية بالثلث لأقاربه الذين لا يرثونه بالرحمِ، وفي جهات الخيرِ إذا لم يخف ضرراً على ورثته، قال الضَّحاك:(مَنْ

(١) البقرة / ٢٧٢. (٢) القصص / ٢٤.
(٣) العاديات / ٨. (٤) النساء / ١١.
(٥) رواه الترمذي في الجامع: كتاب أبواب الوصايا: باب ما جاء لا وصية لوارث: الحديث (٢١٢٠)، وقال: إسناده حسن.

مَاتَ وَلَمْ يُوصِ لِذِي قَرَابَتِهِ، فَقَدْ خُتِمَ عَلَيْهِ بِمَعْصِيَتِهِ)[١]. وقيلَ: لا يجب على أحدٍ وصيةٌ، فإن أوصَى فحسنٌ، وإن لم يُوصِ فلا شيءَ عليه، وهذا قولُ عليٍّ وابنِ عمرَ وعائشةَ وعكرمةَ ومجاهدٍ والسديِّ.

قال عروةُ بن الزبير: (دَخَلَ عَلِيٌّ ﷺ عَلَى مَرِيْضٍ يَعُودُهُ؛ فَقَالَ: إنِّي أُرِيْدُ أنْ أُوصِي، قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿إنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ وَإنَّمَا تَتْرُكُ شَيْئاً يَسِيْراً فَدَعْهُ لِعِيَالِكَ، فَإنَّهُ أفْضَلُ)[٢]. وروى نافعٌ عن ابنِ عمر: (أنَّهُ لَمْ يُوصِ، فَقَالَ: أمَّا رِبَاعِي فَلاَ أحِبُّ أنْ يُشَارِكَ وَلَدِي فِيْهَا أحَدٌ)[٣]. وروي: (أنَّ رَجُلاً قَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: إنِّي أُرِيْدُ أنْ أُوْصِي، قَالَتْ: كَمْ مَالُكَ؟ قَالَ: ثَلاَثَةُ آلاَفٍ، قَالَتْ: كَمْ عِيَالُكَ؟ قَالَ: أرْبَعَةٌ، قَالَتْ: إنَّمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿إنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ وَهَذَا شَيْءٌ يَسِيْرٌ فَاتْرُكْ لِعِيَالِكَ)[٤]. وقد روي عن عروةَ بن ثابت قال للربيعِ بن خُثَيْمٍ: (أوْصِ لِي بِمُصْحَفِكَ، فَنَظَرَ إلَى ابْنِهِ، وَقَالَ: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾)[٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ ﴾ ؛ أي فمن غيَّر الوصيةَ من الأوصياءِ أو الأولياءِ أو الشُّهَدَةِ بعدما سَمِعَهُ؛ ﴿ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ أي الْمُبَدِّل بعد الموصي؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ ؛ لِما قالَهُ الْمُوصِي؛ ﴿ عَلِيمٞ ١٨١ ﴾ ؛ بما فعَلَهُ الوصيُّ. وإنَّما ذكَّرَ الوصيةَ وهي مؤنَّثةٌ؛ لأنَّها في معنى الإيصاءِ كقوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِهِ﴾ ردَّه إلى الوعظِ، وَقِيْلَ: لأنَّ الوصيةَ قولٌ فذهبَ إلى المعنى وتركَ اللفظَ.

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان: النص (٢١٦١).

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص٤٢٢؛ قال السيوطي: ((وأخرج عبدالرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في سننه، عن عروة)).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢١٩١).

(٤) في الدر المنثور: ج ١ ص٤٢٣؛ قال السيوطي: ((وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي، عن عائشة:... وذكره)).

(٥) رواه الطبري في جامع البيان: النص (٢١٩٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ﴾ ؛ لِما توعَّدَ اللهُ المبدِّلَ؛ خافَ الأوصياءُ من التبديلِ، فكانوا ينفذونَ وصيةَ الميت وإن جارَ في وصيتهِ واستغرقت كلَّ المال، فأنزلَ اللهُ هذه الآية وبيَّن أن الإثم في تبديلِ الحقِّ بالباطل، وإذا غيَّر الوصيُّ من باطلٍ إلى حقٍّ على طريق الإصلاحِ فهو محسنٌ فلا أثمَ عليه.

ومعنى الآية: لمن عَلِمَ من موصٍ جَنَفاً مثلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إلاَّ أنْ يَخَافَا ألا يُقِيمَا﴾(1) أي إلا أنْ يَعْلَمَا. وقوله تعالى: (جَنَفاً) أي مَيْلاً عن الحقِّ على جهةِ الخطأ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ إثْمًا) أي مَيْلاً إلى جهة العمدِ؛ بأن زادَ في الوصيةِ على الثُّلث؛ أو أقرَّ بغيرِ الواجبِ؛ أو جَحَدَ حقّاً عليه، ﴿ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي الوصيُّ بين وَرَثَةِ الموصي وغرمائهِ، بأن ردَّ الوصيةَ إلى المعروفِ الذي أمرَ اللهُ به، ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ، في التبديلِ.

والهاء والميم في قولهِ تعالى: (بَيْنَهُمْ) كنايةٌ عن الورثةِ، والكنايةُ تصحُّ عن المعلوم وإن لَم يكن مذكوراً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾ ؛ يعني غفورٌ رحيمٌ إذ رخَّصَ للوصي في خِلافِ الوصيةِ على جهة الإصلاحِ.

قرأ مجاهدُ وعطاء وابن كثير وأبو عمروٍ وابنُ عامر وشيبةَ ونافعُ وحفص: (مُوصٍ) بالتخفيف، وقرأ الباقون: (مُوَصٍّ) بالتشديدِ.

وقولهُ تعالى: (جَنَفاً) أي جَوْراً وعُدولاً عن الحق، والْجَنَفُ: الميلُ في الكلامِ وفي الأمور كُلِّها. وقرأ عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: (حَيْفاً) بالحاء والياء؛ أي ظُلماً. قال الفراءُ: (الْفَرْقُ بَيْنَ الْجَنَفِ وَالْحَيْفِ: أنَّ الْجَنَفَ عُدُولٌ عَنِ الشَّيْءِ، وَالْحَيْفَ حَمْلٌ عَلَى الشَّيْءِ حَتَّى يَنْتَقِصَهُ، وَعَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يَنْتَقِصَ حَقَّهُ). قال المفسِّرونَ: الْجَنَفُ الخطأُ، والإثمُ العمدُ.

ومعنى الآيةِ: مَن حضرَ مريضاً وهو يوصِي، فخافَ أن يخطئَ في وصيَّته ليفعلَ ما ليس له فعلهُ، أو يتعمَّدَ جَوْراً فيها فيأمرُ بما ليس له، فلا حرجَ على مَن حضرَهُ أنْ يصلحَ بينه وبين ورثتهِ؛ بأن يأمرَهُ بالعدلِ في وصيته وينهاهُ عن الجنفِ؛ فينظر للموصي

---

(١) سورة البقرة / ٢٢٩.

وللورثة، وهذا قولُ مجاهدٍ؛ قال: (هَذَا حِيْنَ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ، فَإذَا أسْرَفَ أمَرَهُ بالْعَدْل، وَإذَا قَصَّرَ؛ قَالَ: افْعَلْ كَذَا، أعْطِ فُلاَناً كَذَا)(١).

وقالَ آخرون: هو إذا أخطأَ الميتُ في وصيته وأحافَ فيها متعمِّداً، فلا حرجَ على وَلِيِّهِ أو وَصِيِّه أو وَالِي أمُور المسلمين أن يُصلحَ بعد موتهِ بين الورثة وبين الموصَى لَهم، ويردَّ الوصيةَ إلى العدلِ والحقِّ، وهذا قولُ ابن عباس وقتادةُ والربيع.

وروي عن عطاءٍ أنه قالَ: (هُوَ أنْ يُعْطِيَ عِنْدَ حُضُور أجَلِهِ بَعْضَ وَرَثَتِهِ دُونَ بَعْضٍ مِمَّا سَيَرِثُونَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَلاَ إثْمَ عَلَى مَنْ أصْلَحَ بَيْنَ الْوَرَثَةِ)(٢).

وقال طاووسُ: (هُوَ أنْ يُوصِي لِبَنِي ابْنِهِ يُرِيْدُ ابْنَهُ، أوْ لِبَنِي بِنْتِهِ يُرِيْدُ بِنْتَهُ، أوْ لِزَوْجِ ابْنَتِهِ يُرِيْدُ ابْنَتَهُ، فَلاَ حَرَجَ عَلَى مَنْ أصْلَحَ بَيْنَ الْوَرَثَةِ)(٣).

وقال السديُّ: (هُوَ فِي الْوَصِيَّةِ لِلآبَاءِ وَالأَقْرَبيْنَ، يَمِيْلُ إلَى بَعْضِهِمْ وَيَحِيْفُ عَلَى بَعْضِهِمْ، فَالأَصْلَحُ أنْ لاَ يُنَفِّذَهَا؛ وَلَكِنْ يُصْلِحُ بَيْنَهُمْ عَلَى مَا يَرَى أنَّهُ الْحَقُّ، يُنْقِصُ بَعْضاً وَيَزِيْدُ بَعْضاً)(٤).

قال ابنُ زيد: (فَعَجزَ الْمُوصِي أنْ يُوصِي لِلْوَالِدَيْنِ كَمَا أمَرَهُ اللهُ تَعَالَى، وَعَجزَ الْمُوصَى إلَيْهِ أنْ يُصْلِحَ، فَانْتَزَعَ اللهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَفَرَضَ الْفَرَائِضَ)(٥). قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ اللهَ لَمْ يَرْضَى بِمَلِكٍ مُقَرَّبٍ، وَلاَ بِنَبِيٍّ مُرْسَلٍ حَتَّى تَوَلَّى قِسْمَةَ مَوَارِيْثِكُمْ](٦).

(١) رواه الطبري في جامع البيان: النص (٢٢١٤).
(٢) رواه الطبري في جامع البيان: النص (٢٢١٩).
(٣) رواه الطبري في جامع البيان: النص (٢٢٢٠).
(٤) رواه الطبري في جامع البيان: النص (٢٢٢٢).
(٥) رواه الطبري في جامع البيان: النص (٢٢٢٣).
(٦) في معناه من باب الصدقات أخرج أبو داود في السنن: الحديث (١٦٣٠). والبيهقي في السنن الكبرى: الحديث (٧٨٢٦)، ولفظه: [إنَّ اللهَ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلاَ غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ هُوَ فِيهَا، فَجَزَّأهَا ثَمَانِيَةَ أجْزَاءٍ].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ) ولَم يخيِّر للورثةِ ولا للمختانينَ في الوصيَّة ذكرٌ؛ لأن سياقَ الآية وما تقدَّم من ذكرِ الوصية يدلُّ عليه. روي أن سعدَ بن أبي وقَّاص قال: مَرِضْتُ مَرَضاً أشْرَفْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ؛ فَعَادَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّ لِي مَالاً كَثِيراً، وَلَيْسَ يَرِثُنِي إلاَّ بِنْتٌ وَاحِدَةٌ لِي أفَأُوْصِي بِثُلُثَي مَالِي؟ قَالَ: [لاَ] فَقُلْتُ: بِشَطْرِ الْمَالِ؟ قَالَ: [لاَ]. قُلْتُ: فَثُلُثُ مَالِي؟ قَالَ: [نَعَمْ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ، إنَّكَ يَا سَعْدُ إنْ تَتْرُكْ وَلَدَكَ غَنِيّاً خَيْراً مِنْ أنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ][1].

ورويَ أنَّ جَاراً لمسروقٍ أوصَى فدعا مسروقاً يُشهدهُ، فوجدهُ قد زادَ وأكثرَ، فقالَ: (لاَ أشْهَدُ، إنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ قَسَّمَ بَيْنَكُمْ فَأَحْسَنَ الْقِسْمَةَ، فَمَنْ يَرْغَبْ برَأيِهِ عَنْ أمْرِ اللهِ فَقَدْ ضَلَّ، أوْصِ لِذِي قَرَابَتِكَ الَّذِيْنَ لاَ يَرِثُونَ؛ وَدَعِ الْمَالَ عَلَى قَسْمِ اللهِ)[2].

وَقَالَ ﷺ:[مَنْ حَافَ فِي وَصِيَّتِهِ أُلْقِيَ فِي اللّوَاءِ؛ وَاللّوَاءُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ][3]. وقال ﷺ: [إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِيْنَ سَنَةً، فَإذَا أوْصَى وَحَافَ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمُ لَهُ بشَرٍّ عَمَلِهِ فَيَدْخُلَ النَّارَ][4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (إذَا سَمِعْتَ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَارْعِ لَهَا سَمْعَكَ، فَإنَّهَا لأَمْرٍ تُؤْمَرُ بِهِ وَلَنَهْيٍ تُنْهَى عَنْهُ). وقال جعفرُ الصَّادق: (لَذَّةُ مَا فِي النِّدَاءِ إزَالَةُ تَعَبِ الْعِبَادَةِ وَالْعَنَاءِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ) أي فُرِضَ عليكم الصيامُ، ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ ، كما فُرِضَ على الذين من قبلِكم من الأنبياءِ والأُمم،

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: الحديث (١٢٩٥). ومسلم في الصحيح: كتاب الوصية: الحديث (٥/ ١٠٢).

(٢) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٢ ص٦٠ عن مسلم بن صبيح.

(٣) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٢ ص٦٠ عن أبي أمامة.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط: ج ٤ ص٢٢: الحديث (٣٠٢٦). والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٧٨. وابن ماجة في السنن: كتاب الوصايا: الحديث (٢٧٠٤). وعند أبي داود والترمذي بلفظ: [ستين سنة]. وسبب ضعفه شهر بن حوشب إذا تفرَّد.

أوَّلُهم آدَمُ عليه السلام. وهو ما روي عن علي كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أنه قال: أتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ عِنْدَ انْتِصَافِ النَّهَار، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ ثُمَّ قَالَ: [يَا عَلِيُّ، هَذَا جِبْرِيْلُ يُقْرِئُكَ السَّلاَمَ] قُلْتُ: وَعَلَيْهِ السَّلاَمُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [يَا عَلِيُّ، يَقُولُ لَكَ جِبْرِيْلُ: صُمْ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاَثَةَ أيَّامٍ؛ يُكْتَبُ لَكَ بأوَّلِ يَوْمٍ عَشْرَةُ آلافِ حَسَنَةٍ، وبالْيَوْمِ الثَّانِي ثَلاَثُونَ ألْفَ حَسَنَةٍ، وَبالْيَوْمِ الثَّالِث مِائَةُ ألْفِ حَسَنَةٍ] فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ثَوَابٌ لِي خَاصَّةً أمْ لِلنَّاسِ عَامَّةً؟ فَقَالَ: [يَا عَلِيُّ، يُعْطِيْكَ اللهُ هَذَا الثَّوَابَ وَلِمَنْ يَعْمَلْ مِثْلَ عَمَلِكَ بَعْدَكَ] قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هِيَ؟ قَالَ: [أيَّامُ الْبِيْضِ؛ ثَلاَثَةَ عَشَرَ وَأرْبَعَةَ عَشَرَ وَخَمْسَةَ عَشَرَ](١).

قال عَنتَرَةُ: قلتُ لعليٍّ رضي الله عنه: لأيِّ شيءٍ سُميت هذه الأيامُ البيضَ؟ قال: [لَمَّا أهْبَطَ اللهُ آدَمَ عليه السلام مِنَ الْجَنَّةِ أحْرَقَتْهُ الشَّمْسُ، فَاسْوَدَّ جَسَدُهُ، فَأتَاهُ جِبْرِيْلُ عليه السلام، فَقَالَ: يَا آدَمُ أتُحِبُّ أنْ تُبَيِّضَ جَسَدَكَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: صُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلاَثَةَ عَشَرَ وَأرْبَعَةَ عَشَرَ وَخَمْسَةَ عَشَرَ. فَصَامَ آدَمُ عليه السلام أوَّلَ يَوْمٍ فَابْيَضَّ ثُلُثُ جَسَدِهِ، وَصَامَ الْيَوْمَ الثَّانِي فَابْيَضَّ ثُلُثَاهُ، وَصَامَ الْيَوْمَ الثَّالِثَ فَابْيَضَّ كُلُّ جَسَدِهِ، فَسُمِّيَتْ أيَّامَ الْبِيْضِ](٢).

قالَ المفسِّرون: فرضَ اللهُ تعالى على رسولهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وعلى المؤمنين صيامَ يومِ عاشُوراء وصومَ ثلاثةِ أيَّام من كلِّ شهرٍ حين قَدِمَ المدينةَ، فكانوا يصُومون إلى أن نزلَ صومُ شهرِ رَمضان قبل قِتَالِ بدرٍ بشَهرٍ وأيَّام.

وقال الحسنُ: (أرَادَ بالَّذِي مِنْ قَبْلِنَا النَّصَارَى، فَشَبَّهَ صِيَامَنَا بصِيَامِهِمْ لاتِّفَاقِهِمَا فِي الْوَقْتِ وَالْقَدْرِ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى النَّصَارَى صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَاشْتَدَّ

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٢ ص٦٢.

(٢) في الحديث الصحيح عن أصحاب السنن: عن قتادة بن ملحان- ويقال: ابن منهال-: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأمُرُنَا أنْ نَصُومَ الْبِيضَ: ثَلاَثَ عَشْرَةَ؛ وَأرْبَعَ عَشْرَةَ؛ وَخَمْسَ عَشْرَةَ، وَقَالَ: [هِيَ كَهَيْئَةِ الدَّهْرِ]. وللنسائي من حديث جرير مرفوعاً: [صِيَامُ ثَلاَثَةِ أيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صِيَامُ الدَّهْرِ: أيَّامُ الْبِيضِ صَبِيحَةَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ]. والحديث إسناده صحيح. وفي الفتح: ج ٤ ص٢٨٤: شرح الحديث (١٩٨١)؛ قال ابن حجر: ((قِيلَ: المراد بالبيض الليالي وهي التي يكون فيها القمر من أول الليل إلى آخره)).

ذَلِكَ عَلَيْهِمْ؛ لأَنَّهُمْ رُبَّما كَانَ يَأْتِي فِي الْحَرِّ الشَّدِيْدِ؛ وَكَانَ يَضُرُّهُمْ فِي أَسْفَارِهِمْ؛ فَاجْتَمَعَ رَأْيُ عُلَمَائِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ عَلَى أنْ يَجْعَلُوا صِيَامَهُمْ فِي فَصْلٍ مِنَ السَّنَةِ بَيْنَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَجَعَلُوهُ فِي الرَّبِيْعِ وَزَادُوا فِيْهِ عَشْرَةَ أيَّام كَفَّارَةً لِمَا صَنَعُوا؛ فَصَارَ أرْبَعِيْنَ يَوْماً). قال مجاهدُ: (أصَابَهُمْ مَوَتَانٌ عَظِيْمٌ؛ فَقَالُوا: زِيْدُوا فِي صِيَامِكُمْ؛ فَزَادُوا عَشْراً قَبْلُ، وَعَشْراً بَعْدُ، فَصَارَ خَمْسِيْنَ يَوْماً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ ؛ أيْ لِكَيْ تَتَّقُوا الأَكْلَ وَالشُّرْبَ وَالْجِمَاعَ فِي زَمَانِ الصَّوْمِ. وقيل: معناه لتكونوا أتقياءَ. وأصلُ الصيام والصوم في اللغة: الإمساكُ، يقال: صَامَتِ الريحُ إذا سكنَت، وصامَتِ الخيلُ إذا وقفتْ وأمسكت عن السير. قال النابغةُ[1]:

خَيْلٌ صِيَّامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ وَأُخْرَى تَعْلُكُ اللُّجُمَا

ويقال: صَامَ النهارُ إذا اعتدلَ وقامَ قائمُ الظهيرةِ؛ لأن الشمسَ إذا بلغت كبدَ السماءِ وقفَتْ وأمسكت عن السَّيرِ سويعةً. قال امرؤُ القيس[2]:

فَدَعْ ذا وَسَلِّ الْهَمَّ عَنْكَ بجَسْرَةٍ ذمُولٍ إذَا صَامَ النَّهَارُ وَهَجَّرَا

وقال آخرُ:

حَتَّى إذَا صَامَ النَّهَارُ وَاعْتَدَلْ وَسَالَ لِلشَّمْسِ لُعَابُ فَنَزَلْ

ويقالُ للرجلِ إذا أمسكَ عن الكلام: صامَ، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾[3] أي صمتاً. فالصومُ: هو الإمساكُ عن الْمُفْطِرَاتِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ ؛ يعني شَهْرَ رمضانَ ثلاثينَ يوماً أو تسعةً وعشرين. قال رسولُ الله ﷺ: [نَحْنُ أمَّةٌ أمِّيَّةٌ لاَ نَحْسِبُ وَلاَ نَكْتُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا] وعقدَ الإبْهامَ في الثالثة [وَالشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا] إتْمام الثَّلاثين[4].

---

(١) ينظر: الديوان: ص١١٢. واللسان: (صوم).

(٢) ينظر: لسان العرب: (صوم). (٣) مريم / ٢٦.

(٤) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الصوم: باب قولِ النبي ﷺ: [لاَ نَكْتُبُ]: الحديث=

ونصبَ (أيَّاماً) على الظرفِ؛ أيْ في أيامٍ؛ وقيل: على خبرِ ما لم يسمَّ فاعله؛ أيْ كتب عليكمُ الصيامَ أياماً. وقيل: بإضمار فعلٍ؛ أي صُوموا أياماً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ؛ أي فافطرَ فعدةٌ كقولـه: ﴿فَمَـنْ كَـانَ مِنْكُـمْ مَرِيضًـا أوْ بـهِ أذًى مِـنْ رَأسِـهِ فَفِدْيَةٌ﴾[1] تقديره: فحلقَ أو قصرَ ففديةٌ؛ فاختصر وتقديره: فعليهِ عدةٌ.

قراءةُ أبي عُبيد: (فَعِدَّةً) بالنصب؛ أي فليصمْ عدةً. و(أخَرٍ) في موضع خفـضٍ؛ إلا أنَّها لا تنصرفُ؛ لأنَّها معدولةٌ عن جهتها فكان حقُّـها (أخْرَيَـاتٍ) فلمـا عـدلَ إلى (فُعَلٍ) لم يجز مثل عُمَرٍ وزُفَرٍ. ومعنى الآيةِ: فليصُمْ عدةً من أيام أخر غيرِ أيام مرضـهِ أو سفرهِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ ؛ قـرأ ابنُ عباس وعائشةَ وعطاءُ وابن جبيرٍ وعكرمةُ ومجاهد (يُطَوَّقُونَـهُ) بضـمِّ اليـاء وفتـح الطاء والواو والتشديد؛ أي يُكَلَّفُونَهُ. ورُوي عن مجاهدٍ وعكرمة بفتـحِ اليـاء وتشـديد الطاء والواو؛ أي يَطَّوَّقُونَهُ بمعنى يتكلَّفونـه. وروي عـن ابـنِ عبَّـاسٍ أيضـاً أنـه قـرأ: (يَطَّيَّقُونَهُ) بفتحِ الياء وتشديد الطاء والياء الثانية وفتحها بمعنى يُطِيقُونَهُ. يقـال: طَـاقَ وأطَاقَ بمعنى واحدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ) قرأ أهلُ المدينةِ والشام (فِدْيَةُ طَعَـامِ) مضافـاً إلى(مَسَاكِيْنِ) جمعاً؛ أضافَ الطعـام إلى الفدية وإن كانـا واحـداً لاختـلافِ اللفظـين، كقوله تعالى: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾[2]. وقولهم: مَسْجِدُ الْجَامِعِ، وَرَبِيْعُ الأَوَّلِ. وقرأ ابـنُ عبَّاس: (طَعَامُ مِسْكِيْنٍ) على الواحدِ، وهي قراءة الباقين غيرَ نافعٍ، فمن وحَّد فمعنـاه لكل يومٍ طعامُ مسكينٍ واحد، ومن جمعَ ردَّهُ إلى الجمعِ؛ أي عليه إطعامُ مساكين فديـةُ أيَّامٍ يُفطِرُ فيها.

=(١٩١٣). ومسلم في الصحيح: كتـاب الصيام: بـاب وجـوب صـوم رمضـان لرؤيـة الهـلال: الحديث (١٥/ ١٠٨٠) واللفظ له.

(١) البقرة / ١٩٦. (١) ق / ٩.

ومعنى الآية: (وَعَلَى الَّذِيْنَ) يطيقونَ الصومَ فلم يصوموا (فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِيْنٍ) وذلك أنه كان يرخصُ في الصومِ الأول لِمن يطيقُ الصومَ أن يُفْطِـرَ ويتصـدقَ مكـان كلِّ يوم على مسكين؛ ثم نُسِخَ بقوله:﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[1].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ ؛ قـرأ يحيى بـن وثّـاب وحمزة والكسائيُّ: (يَطَّوَّعْ) بالياء وتشديد الطاء وجزمِ العين على معنى يَتَطَـوَّعُ. وقـرأ الآخرون بالتاء وفتح العين وتخفيفِ الطاء على الفعلِ المـاضي. ومعنـى الآيـة: فمَـن يتطوَّع خيراً؛ أي زادَ على طعامِ مسكين واحدٍ فـهو خـيرٌ لـه؛ ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ من أن تُطعِموا وتُفطِروا، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ ؛ ثـوابَ الله في الصوم.

واختلف العلماءُ في تأويل هذه الآية وحكمها؛ فقال قوم: كان ذلك في أوَّل ما فرضَ اللهُ الصومَ، وذلك أن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا نزَّل فرضَ صيـام شـهر رمضـانَ علـى رسول الله ﷺ وأمرَ أصحابهُ بذلك، شقَّ عليـهم الصـوم؛ وكـانوا قومـاً لَـم يتعـوَّدوا الصومَ؛ فخيَّرهم اللهُ تعالى بين الصيامِ والإطعام؛ فكان مَن شاءَ صامَ، ومَن شاء أفطـرَ وافتدَى بالطعام. ثم نُسِخَ ذلك بقولـه تعـالى: ﴿فَمَـنْ شَـهِدَ مِنْكُـمْ الشَّـهْرَ فَلْيَصُمْـهُ﴾ ونزلت العزيْمةُ في إيجاب الصَّوم. وعلى هذا القول معاذُ بن جبـل وأنـسُ بـن مـالك وسـلمةُ بـن الأكـوعِ وابـنُ عمـر وعلقمـةُ وعكرمـةُ والشـعبي والزهـري وإبراهيـم والضَّحاكُ. وهي إحدى الروايات عن ابنِ عبَّاسٍ[2].

وقال آخَرون: بل هذا خاصٌّ للشَّيخِ الكبيرِ والعجوزةِ الكبيرةِ اللذيـن يُطِيقَـان الصَّومَ ولكن يشقُّ عليهما؛ رخصَ لَهما إنْ شاءا أفطرَا مع القدرة ويطعما لكـلِّ يـومٍ مسكيناً؛ ثم نُسِخَ ذلك بقَوْلِـهِ تَعَـالَى:﴿فَمَـنْ شَـهِدَ مِنْكُـمْ الشَّـهْرَ فَلْيَصُمْـهُ﴾ وثبَتَـتِ الرخصةُ للذين لا يُطيقونَهُ. وهذا قولُ الربيعِ بن أَنس وروايةُ سعيدِ بن جبير عن ابـنِ عبَّاسٍ، قال الحسنُ: (هَذَا فِي الْمَرِيْضِ، كَانَ إذَا وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ الْمَرَضِ وَكَانَ يَسْتَطِيْعُ

---

(١) البقرة / ١٨٥.

(٢) نقل جميع هذه الروايات وأخرجها الطبري في جامع البيان: النصوص (٢٢٤٦-٢٢٥٩).

الصِّيَامَ، فَهُوَ بالْخِيَار إنْ شَاءَ صَامَ وَإنْ شَاءَ أفْطَرَ وَأطْعَمَ حَتَّى نُسِخَ ذَلِكَ)[1].

فعلى هذه الأقاويلِ: الآيةُ منسوخةٌ؛ وهذا قولُ أكثرِ الفقهاء والمفسِّرين. وقال قومٌ: لَم تُنسخ هذه ولا شيءٌ منها، وإنَّما تأويلُها: وعلى الذين يطيقونَهُ في حال شفائِهم وفي حال صحَّتهم وقوَّتهم، ثم عَجَزُوا عن الصَّومِ؛ فديةٌ طعامُ مِسكين؛ وجعلوا هذه الآيةَ مُحْكَمَةً؛ وهذا قولُ سعيدِ بن المسيَّب والسديُّ؛ وإحدى الرواياتِ عن ابنِ عبَّاسٍ. فجملةُ ما ذكَرنا من الأقاويلِ على قراءةِ مَن قرأ (يُطِيْقُونَهُ) من الإطاقةِ وهي القراءةُ الصحيحةُ التي عليها عامةُ أهلِ القُرْآنِ ومصاحفُ البُلدان.

وأما على قراءةِ (يَطَّوَّقُونَهُ) فيأوِّلُونَهُ أنه الشيخُ الكبير والعجوزةُ الكبيرة والمريضُ الذي لا يُرجى بَرَؤُهُ؛ فَهُمْ مكلفونَ ولا يطيقونه، فلهم أنْ يُفطِرُوا ويطعموا مكان كلِّ يومٍ مسكيناً، وقالوا: الآيةُ مُحْكَمَةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ) أي خيرٌ لكم مِن أن تُفطروا وتُطعموا. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) أي إن كنتم تعلمونَ ثوابَ اللهِ تعالى في الصَّوم.

ثُم بيَّن اللهُ تعالى أيامَ الصيام بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ ؛ قرأ العامَّة (شَهْرُ) بالرفعِ على معنى أتاكم شهرُ رَمضانَ. وقال الفرَّاءُ: (ذَلِكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ). وَقِيْلَ: ابتداءٌ وما بعده خبرٌ. وقال الأخفشُ: (هُوَ شَهْرُ رَمَضَانَ). وقال الكسائيُّ: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ).

وقرأ الحسنُ ومجاهد: (شَهْرَ رَمَضَانَ) نُصب على معنى صُومُوا شهرَ رمضانَ. وقال الأخفشُ: (نُصِبَ عَلَى الظَّرْفِ؛ أيْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ شَهْرَ رَمَضَانَ)[2]. وَقِيْلَ: نُصِبَ على الإغراءِ؛ أي التزمُوا شهرَ رمضان. وَقِيْلَ: نُصِبَ على البدلِ مِن قوله: (أيَّاماً مَعْدُودَاتٍ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٢٦٠).

(٢) في معاني القرآن للأخفش: ج ١ ص٣٥٢؛ قال الأخفش: ((أو جعله ظرفاً على ﴿كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيَامُ﴾ ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ﴾ أي في شهرِ رمضان و(رمضان) في موضع جر لأن (شهرَ) أضيف إليه ولكنه لا ينصرف)).

وسُمي الشَّهرُ شهراً لشُهرتهِ. واختلفوا في رمضانَ؛ فقال بعضُهم: هو اسمٌ من أسماءِ الله؛ فيقالُ: شهرُ رمضانَ كما يقال: شهرُ اللهِ؛ ويدلُّ على ذلك ما رُوي عن أنس قال: قالَ رسول الله ﷺ: [لاَ تَقُولُواْ رَمَضَانَ، انْسِبُوهُ كَمَا نَسَبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ: شَهْرُ رَمَضَانَ][1].

قال أبو عُمر: (وَإنَّمَا سُمِّيَ رَمَضَانَ لأنَّهُ رَمَضَتْ فِيْهِ الْفِصَالُ مِنَ الْحَرِّ). وقيل: سُمي بذلك لأنه يرمضُ الذنوبَ؛ أي يحرقُها. وَقِيْلَ: لأن القلوبَ تأخذُ فيه من حرارةِ الموعظة كما يأخذ الرملُ والحجارة من حرِّ الشمس. وقال الخليلُ: (هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الرَّمَضِ؛ وَهُوَ مَطَرٌ يَأْتِي فِي الْخَرِيْفِ؛ سُمِّيَ بِهِ هَذَا الشَّهْرُ لأنَّهُ يَغْسِلُ الأَبْدَانَ مِنَ الآثَامِ غَسْلاً وَيُطَهِّرُ قُلُوبَهُمْ تَطْهِيْراً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (الَّذِي أنزلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) رُوي أن عطيةَ بن الأسودِ قال لابن عباس: إنهُ قد وقع الشكُّ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أنزلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿إنَّا أنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ و﴿إنَّا أنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[2] وقد نزلَ في سائر الشُّهور قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[3] ؟ فقالَ: (أنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيْلُ عليه السلام عَلَى

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الصيام: باب ما روي في كراهية قول القائل: جاء رمضان، وذهب رمضان: الحديث (٧٩٩٦). وقال: ((وفيه أبو معشر، وهو نجيح السندي، ضعفه يحيى بن معين، وكان يحيى القطان لا يحدث عنه، وكان عبدالرحمن بن مهدي يحدث عنه. والله أعلم)). وفي الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: ص٨٧؛ قال الشوكاني: ((رواه ابن عدي عن أبي هريرة مرفوعاً، وفي إسناده مُحَمَّد بن أبي معشر، ورواه تمام في فوائده من حديث ابن عمر من غير طريق أبي معشر، وأخرجه ابن النجار من حديث عائشة، وكلها طرق لا تصح، فيها انقطاع أو سند مظلم)).

(٢) الدخان / ٣.

(٣) الإسراء / ١٠٦.

(٤) الواقعة / ٧٥.

النَّبِيِّ ﷺ نُجُوماً عِشْرِيْنَ سَنَةً، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾(1))(2).

وَقِيْلَ: كانَ ينْزلُ في كلِّ شهرٍ من شهرِ رمضان إلى سماءِ الدُّنيا ما كان ينْزلُ في تلك السَّنة، فنَزل من اللوحِ الْمَحفوظ في عشرينَ شهراً، ونزلَ به جبريلُ في عشرينَ سنةً. وقال بعضُهم: كان ابتداءُ إنزالِهِ على النبيِّ ﷺ في شهرِ رمضانَ، فأُضيفَ إنزالُ الكلِّ إلى ذلكَ.

وعن وَاثِلَةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: [أُنْزِلَتْ صُحُفُ إبْرَاهِيْمَ فِي ثَلاَثِ لَيَالٍ مَضَيْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ فِي سِتِّ لَيَالٍ مَضَيْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الإنْجِيْلُ فِي ثَلاَثِ عَشْرَةَ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ فِي ثَمَانِي عَشْرَةَ لَيْلَةً مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الرَّابعَةِ وَالْعِشْرِيْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ](3). وروي أن التوراةَ أنزلت في اثنتي عشرةَ ليلةً خلت من رمضانَ، والإنجيلَ في ثمانِي عشرةَ من رمضانَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ ؛ أي أنزل الفرقانُ هَادِياً للناس من الضَّلالةِ، وانتصبَ (هُدًى) على القطعِ؛ لأنَّ القرآن معرفةٌ وهدىً نكرةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ ؛ أي ودلالاتٍ واضحاتٍ من الهدى والفُرقان بين الحقِّ والباطل. وَقِيْلَ: معناهُ: بيِّناتٍ من الحلالِ والحرام؛ والحدودِ والأحكامِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٤٥٦؛ قال السيوطي: ((أخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في الأسماء والصفات قال: ...وذكره)).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٢ ص٦٢: الحديث (١٥٨). والإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص١٠٧. وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص١٩٧: باب التاريخ؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عمران بن داود القطان، ضعفه يحيى، ووثقه ابن حبان، وقال أحمد: أرجو أن يكون صالح الحديث، وبقية رجاله رجال ثقات)). وفي المخطوط ساق الحديث عن أبي ذر، والصحيح عن واثلة. والله أعلم.

وعن سعيدِ بن المسيب عن سلمانَ رضي الله عنه قال: خَطَبَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ شَعْبَانَ؛ فَقَالَ: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ أَظَلَّكُمْ شَهْرٌ عَظِيْمٌ؛ شَهْرٌ مُبَارَكٌ؛ شَهْرٌ فِيْهِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، جَعَلَ اللهُ صِيَامَهُ فَرِيْضَةً؛ وَقِيَامَ لَيْلِهِ تَطَوُّعاً، فَمَنْ تَقَرَّبَ بِخِصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّى فِيْهِ فَرِيْضَةً، وَمَنْ أَدَّى فِيْهِ فَرِيْضَةً كَانَ كَمَنْ أَدَّى سَبْعِيْنَ فَرِيْضَةً فِيْمَنْ سِوَاهُ. وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْرِ، وَالصَّبْرُ ثَوَابُهُ الْجَنَّةُ، وَشَهْرُ الْمُوَاسَاةِ، وَشَهْرٌ يُزَادُ فِيْهِ رِزْقُ الْمُؤْمِنِ، وَشَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ، مَنْ فَطَّرَ فِيْهِ صَائِماً كَانَ مَغْفِرَةً لِذُنُوبِهِ وَعِتْقَ رَقَبَةٍ مِنَ النَّارِ وَكَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئاً.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَيْسَ كُلُّنَا يَجِدُ مَا يُفَطِّرُ الصَّائِمَ؟ فَقَالَ ﷺ: [يُعطِي اللهُ هَذَا الثَّوَابَ مَنْ فَطَّرَ صَائِماً عَلَى مُذْقَةِ لَبَنٍ أَوْ تَمْرٍ أَوْ بِشَرْبَةِ مَاءٍ، وَمَنْ أَشْبَعَ فِيْهِ صَائِماً سَقَاهُ اللهُ مِنْ حَوْضِي شَرْبَةً لاَ يَضْمَأُ بَعْدَهَا أَبَداً حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَكَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً، وَمَنْ خَفَّفَ عَنْ مَمْلُوكِهِ فِيْهِ غَفَرَ اللهُ لَهُ فِيْهِ وَأَعْتَقَهُ مِنَ النَّارِ. فَاسْتَكْثِرُوا فِيْهِ مِنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ؛ خِصْلَتَانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ، وَخِصْلَتَانِ لاَ غِنَاءَ لَكُمْ عَنْهُمَا: فَأَمَّا اللَّتَانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ: فَشَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَتَسْتَغْفِرُونَهُ. وَأَمَّا اللَّتَانِ لاَ غِنَاءَ لَكُمْ عَنْهُمَا: فَتَسْأَلُونَ اللهَ الْجَنَّةَ، وَتَعُوذُونَ بِهِ مِنَ النَّارِ](١).

وعن أبي سعيدٍ الخدري؛ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: [إنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَأَبْوَابَ الْجَنَّةِ لَتُفْتَحُ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَلاَ تُغْلَقُ إِلَى آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْهُ، وَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي فِي لَيْلَةٍ مِنْهَا إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ سَجْدَةٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ وَسَبْعَمِائَةِ حَسَنَةٍ، وَبَنَى لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ بَابٍ، لِكُلِّ بَابٍ مِنْهَا مِصْرَاعَان مِنْ ذَهَبٍ. فَإِذا صَامَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ غَفَرَ اللهُ لَهُ كُلَّ ذَنْبٍ إِلَى آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَكَانَ كَفَّارَةً إِلَى مِثْلِهِ، وَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ يَصُومُهُ قَصْرٌ فِي الْجَنَّةِ لَهُ أَلْفُ بَابٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ مِنْ غُدْوَةٍ إِلَى أَنْ تُورَى بِالْحِجَابِ، وَلَهُ بِكُلِّ

---

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٤٤٦؛ قال السيوطي: ((وأخرج العقيلي وضعفه، وابن خزيمة في صحيحه، والبيهقي والخطيب والأصبهاني في الترغيب، عن سلمان الفارسي... وذكره)).

سَجْدَةٍ يَسْجُدُهَا مِنْ لَيْلٍ أوْ نَهَارٍ شَجَرَةً يَسِيْرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا][(١)].

وعن أنسٍ ﷺ قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: [إذَا كَانَ أوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، نَادَى الْجَلِيْلُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَعَظَمَتُهُ: يَا رِضْوَانُ حَلِّي جَنَّتِي وَزَيِّنْهَا لِلصَّائِمِيْنَ مِنْ أمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلاَ تُغْلِقْهَا حَتَّى يَنْقَضِي شَهْرُهُمْ. ثُمَّ يُنَادِي: يَا مَالِكُ أغْلِقْ أبْوَابَ جَهَنَّمَ عَنِ الصَّائِمِيْنَ مِنْ أمَّةِ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ لاَ تَفْتَحْهَا حَتَّى يَنْقَضِي شَهْرُهُمْ. ثُمَّ يُنَادِي: يَا جِبْرِيْلُ انْزِلْ إلَى الأَرْضِ فَغُلَّ مَرَدَةَ الشَّيَاطِيْنِ عَنْ أمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى لاَ يُفْسِدُواْ عَلَيْهِمْ صِيَامَهُمْ. وَللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَعِنْدَ وَقْتِ الإفْطَارِ عِتْقاً يَعْتِقُهُمْ مِنَ النَّارِ عَبِيْدٌ وَإمَاءٌ، وَلَهُ فِي كُلِّ سَمَاءٍ مَلَكٌ طَرَفُهُ تَحْتَ الْعَرْشِ وَقَوَائِمُهُ فِي تُخُومِ الأَرْضِ السَّابِعَةِ، لَهُ جَنَاحٌ بِالْمَشْرِقِ وَجَنَاحٌ بِالْمَغْرِبِ، يُنَادِي: هَلْ مِنْ تَائِبٍ يُتَابُ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى سُؤْلَهُ؟ وَلَوْ أذِنَ اللهُ لِلسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أنْ يَتَكَلَّمَا لَبَشَّرَتَا مَنْ صَامَ رَمَضَانَ الْجَنَّةِ][(٢)].

وَقَالَ ﷺ: [نَوْمُ الصَّائِمِ عِبَادَةٌ، وَصَمْتُهُ تَسْبِيحٌ، وَعَمَلُهُ مُضَاعَفٌ][(٣)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ، قرأ العامةُ بجزمِ اللام. وقرأ الحسنُ والأعرج بكسر اللام، وهي لامُ الأمر، وحقُّها الكسرُ إذا انفردت؛ كقَوْلِهِ تَعَالَى:﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾[(٤)]؛ وإذا وُصلت بشيء ففيه وجهان: الجزمُ والكسرُ، وإنَّما الوصلُ بثلاثة أحرف؛ بالفاءِ كقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٤٥٠؛ قال السيوطي: ((وأخرج البيهقي والأصبهاني...وذكره)).

(٢) في لسان الميزان: ج ١ ص٤٦٢: الرقم (١٤٢٤): ترجمة أحرم بن حوشب: ذكره ابن حجر وقال: ((قال يحيى: كذاب خبيث. وقال البخاري ومسلم والنسائي: متروك الحديث. وقال الدارقطني: منكر الحديث. وقال ابن حبان في الثقات: كان يضع الحديث. فالحديث ضعيف)). ذكره ابن الجوزي في الموضوعات: ج ٢ ص١٨٧، ط١. والسيوطي في اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة: ج ٢ ص٥٢-٥٣.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٥ ص٨٣ عن ابن مسعود ﷺ. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في الصوم: الحديث (٣٩٣٧ و٣٩٣٩) عن عبدالله بن أبي أوفى، وقال: ((معروف ابن حسان ضعيف، وسليمان بن عمرو النخعي أضعف منه)).

(٤) الطلاق / ٧.

الْبَيْتِ﴾[١]، وبالواو كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا﴾[٢] وبـ (ثُمَّ) كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾[٣].

واختلفَ العلماءُ في معنى هذه الآيةِ؛ فقال بعضُهم: معناها: فمن شَهدَ بالغاً عاقلاً مُقيماً صحيحاً مكلفاً فَلْيَصُمْهُ، وبهِ قال أبو حنيفةَ وأصحابه. وقال قومٌ: معناه: فمن دخلَ عليه شهرُ رمضان وهو مقيمٌ في داره فَلْيَصُمِ الشهرَ كله غابَ بعده فسافرَ أو أقام فلم يبرح، قاله السديُّ والنخعي. قال قتادةُ: (إنَّ عَلِيّاً كَانَ يَقُولُ: إذَا أدْرَكَهُ رَمَضَانُ وَهُوَ مُقِيْمٌ ثُمَّ سَافَرَ فَعَلَيْهِ الصَّوْمُ).

قالوا: والمستحبُّ له أن لا يسافرَ إذا أدركه رمضان مقيماً إنْ أمكنه حتى ينقضيَ الشهرُ. وروي في ذلك عن إبراهيم بن طلحة (أنَّهُ جَاءَ إلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا يُسَلِّمُ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: فَأيْنَ تُرِيْدُ؟ قَالَ: أُرِيْدُ الْعُمْرَةَ، قَالَتْ: جَلَسْتَ حَتَى إذَا دَخَلَ عَلَيْكَ شَهْرُ رَمَضَانَ خَرَجْتَ فِيْهِ؟ قَالَ: قَدْ خَرَجَ رَحْلِي، قَالَتْ: اجْلِسْ حَتَّى إذَا أفْطَرْتَ فَاخْرُجْ، فَلَوْ أدْرَكَنِي رَمَضَانُ وَأنَا ببَعْضِ الطَّرِيْقِ لأَقَمْتُ لَهُ)[٣].

وقال آخرونَ: معناهُ: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) أي ما شَهِدَ منه وكان حاضراً؛ فإنْ سافرَ فله الإفطارُ إن شاءَ، قالهُ ابنُ عبَّاس وعامَّة أهلِ التفسير؛ وهو أصحُّ الأقاويل؛ ويدل عليه ما روَى ابنُ عباس؛ قال: [خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ صَائِماً فِي رَمَضَانَ حَتَّى إذَا كَانَ بالْكُدَيْدِ أفْطَرَهُ][٤]. وعن الشعبيِّ: (أنه سافرَ في رمضان فأفطرَ عند باب الجسرِ). وعن أبي ميسرةَ: (أنه خرجَ في رمضان حتى إذا بلغَ القنطرةَ دعا بماءٍ فشربَ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ؛ أي مَن كان مريضاً أو مسافراً فأفطرَ فعليه قضاءُ ما أفطرَ فيه.

---

(١) قريش / ٣. (٢) الحج / ٢٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٣٢٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٣٣٤ و٢٣٣٥). والكُدَيْدُ: موضع بالحجاز. ويوم الكديد من أيام العرب، وهو موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة. معجم البلدان: (الكديد).

واختلفوا في المرضِ الذي أباحَ الله فيه الإفطـار؛ فقال قـومٌ: هـو كـلُّ مـرض يُسمى مرضاً. قال طريفُ بن تَمَّام: (دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ سِيْرِيْنَ فِي رَمَضَانَ وَهُوَ يَـأْكُلُ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: إنَّهُ وُجِعَتْ إصْبَعِي هَذِهِ)(١). وقالَ آخرون: هو كلُّ مرضٍ كان الأغلبُ من أمرِ صاحبه بالصوم الزيادة في علتهِ زيادةً غير محتملة. وقال حسنُ وإبراهيـم: (إذَا لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَرِيْضُ أنْ يُصَلِّيَ الْفَرَائِضَ فَلَهُ أنْ يُفْطِرَ)(٢). والأصلُ فيه أنه إذا لَم يُمكنه الصوم وأجهدَه أفطرَ، وإذا لم يجهده فهو بمعنى الصحيحِ الذي يطيقُ الصوم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ عَلَى سَفَرٍ) واختلفوا في صيامِ المسافر، فقال قومٌ: الإفطـارُ في السفر عزيْمةٌ واجبة وليس برخصةٍ، فمن صامَ في السَّفر فعليهِ القضاءُ إذا أقـام؛ وهـو قولُ أبي هريرةَ وابنِ عبَّاسٍ وعُروة بن الزبيرِ والضحاك، وتمسكوا بقوله ﷺ: [لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ](٣). وعن عبدالرحمن بن عوف أنه قالَ: (الصَّائِمُ فِي السَّفَرِ كَالْمُفْطِرِ فِي الْحَضَرِ)(٤).

وقالَ آخرون: الإفطارُ في السفرِ رخصةٌ من الله عَزَّ وَجَـلَّ؛ والفـرضُ الصـومُ، فمن صامَ ففرضه أدَّى؛ ومن أفطرَ فبرخصةِ الله أخذ، ولا قضـاءَ علـى مـن صـام إذا أقام. وهذا هو الصحيحُ؛ وعليه عامة الفقهاء؛ يدلُّ عليه ما روى جابرٌ قال: [كُنَّا مَـعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَمِنَّا الْمُفْطِرُ وَمِنَّا الصَّائِمُ؛ فَلَمْ يَكُنْ بَعْضُنَا يَعِيْبُ بِبَعْضٍ](٥).

(١) هو طريف بن تَمَّام العطاردي، أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٣٤٠).

(٢) أخرجهما الطبري في جامع البيان: النص (٢٣٣٧ و٢٣٣٩) عن الحسن، والنص (٢٣٣٨) عـن إبراهيم.

(٣) رواه البخـاري في الصحيـح: كتـاب الصـوم: بـاب (٣٦): الحديـث (١٩٤٦) عـن جـابر ﷺ. ومسلم في الصحيح: كتاب الصيام: الحديث (٩٢/ ١١١٥). والنسائي في السنن: كتاب الصيـام: الباب (٤٦): ج ٤ ص١٧٥.

(٤) رواه النسائي في السنن: كتاب في الصيام: بـاب (٥٣): ج ٤ ص١٨٣. وابـن ماجـة في السـنن: كتاب الصيام: باب (١١): الحديث (١٦٦٦).

(٥) الحديـث رواه مسـلم في الصحيـح: كتـاب الصيـام: بـاب جـواز الصـوم والفطـــر: الحديـث (٩٧/ ١١١٧)، من طريقين عن جابر وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. والطـبري في جـامع البيان: الحديث (٢٣٣٦).

وعن حمزةَ بن عمرو أنه قال: يَا رَسُولَ اللهِ، إنِّي أجِدُ فِيَّ قُوَّةً عَلَى الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ؟ قَالَ: [هِيَ رُخْصَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَنْ أخَذَهَا فَحَسَنٌ، وَمَنْ أحَبَّ أنْ يَصُومَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ][(١)].

فأمَّا قولهُ ﷺ: [لَيْسَ مِنَ الْبرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ] فإنَّ أصلَهُ ما روى جابرٌ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ برَجُلٍ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ يُرَشُّ عَلَيْهِ الْمَاءُ، فَقَالَ: [مَا بَالُ صَاحِبكُمْ هَذَا؟] قَالُواْ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ صَائِمٌ. فَقَالَ: [لَيْسَ مِنَ الْبرِّ أنْ تَصُومُواْ فِي السَّفَرِ، فَعَلَيْكُمْ برُخْصَةِ اللهِ تَعَالَى الَّتِي رَخَّصَ لَكُمْ فَاقْبَلُوهَا][(٢)]. وكذلك تأويلُ قولهِ عليه السلام: [الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ، كَالْفِطْرِ فِي الْحَضَرِ] يدلُّ عليه حديث مجاهد: (عَنِ ابْنِ عُمَرَ أنَّهُ مَرَّ برَجُلٍ يُنْضَحُ عَلَيْهِ الْمَاءُ فِي وَجْهِهِ وَهُوَ صَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: أفْطِرْ وَيْحَكَ! فَإنِّي أرَاكَ إنْ مُتَّ عَلَى هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ)[(٣)].

والذي يُؤَيِّدُ ما قُلناه ما روي عن عروة وسالِم: (أنَّهُمَا كَانَا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِالْعَزِيْزِ إذْ هُوَ أمِيْرٌ عَلَى الْمَدِيْنَةِ، فَتَذَاكَرُواْ الصَّوْمَ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ سَالِمٌ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ لاَ يَصُومُ فِي السَّفَرِ. وَقَالَ عُرْوَةُ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَصُومُ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ سَالِمٌ: إنَّمَا أحَدِّثُكَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، فَقَالَ عُرْوَةُ: إنَّمَا أحَدِّثُكَ عَنْ عَائِشَةَ، فَارْتَفَعَتْ أصْوَاتُهُمَا، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِالْعَزِيْزِ: اللَّهُمَّ عَفْواً إنْ كَانَ يُسْراً فَصُومُوا وَإنْ كَانَ عُسْراً فَأفْطِرُوا)[(٤)].

ثُم اخْتُلِفَ في المستحب؛ فقال قومٌ: الصوم أفضلُ؛ وهو قولُ معاذ بن جبل وأنس وإبراهيم ومجاهد؛ وروي أن أنسَ بن مالكٍ أمرَ غُلاَمَهُ أوْ غُلاماً له بالصوم في السفر، فقيلَ له في هذه الآية. فقال:(نَزَلَتْ وَنَحْنُ نَرْتَحِلُ يَوْمَئِذٍ جِيَاعاً وَنَنْزِلُ عَلَى غَيْرِ شِبَعٍ، فَمَنْ أفْطَرَ فَرُخْصَتُهُ، وَمَنْ صَامَ فَالصَّوْمُ أفْضَلُ)[(٥)].

---

(١) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الصيام: باب التخيير في الصوم والفطر: الحديث (١٠٧/ ١١٢١). والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٣٦٨).

(٢) تقدم.

(٣) أصله أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٦١) وما بعده.

(٤) رواه الطبري في جامع البيان: النص (٢٣٥٠).

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الصيام: الأثر (٨٢٦٢).

وقال آخرون: المستحبُّ الإفطارُ لما روي عن جابر قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ فِي رَمَضَانَ، فَصَامَ حَتَّى إذَا بَلَغَ كِرَاعَ الْغَمِيمِ[١] فَصَامَ النَّاسُ، فَبَلَغَهُ أنَّ النَّاسَ قَدْ شُقَّ عَلَيْهِمُ الصِّيَامُ، فَدَعَا بِقَدَحٍ مَاءٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَشَرِبَ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ، فَأَفْطَرَ بَعْضُهُمْ وَصَامَ بَعْضُهُمْ، فَبَلَغَهُ أنَّ نَاساً صَامُوا، فَقَالَ: [أُوْلَئِكَ الْعُصَاةُ][٢].

وعن يعلَى بن يوسف؛ قال: سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ عَنِ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ: (أرَأيْتَ لَوْ تَصَدَّقْتَ عَلَى رَجُلٍ فَرَدَّهَا عَلَيْكَ، ألَمْ تَغْضَبْ؟) قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: (فَإنَّهَا صَدَقَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى تَصَدَّقَ بهَا عَلَيْكُمْ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾ ؛ أي حين رخَّصَ الإفطارَ للمريضِ والمسافر؛ ﴿ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ ؛ أي تكليفَ الصوم في المرضِ والسفر.

قرأ يزيدُ بن القعقاع: (الْيُسُرَ) و(الْعُسُرَ) مثقَّلين في جميعِ القُرْآنِ. وقرأ الباقون بالتخفيف؛ وهو الاختيارُ وهما لغتان جيدتان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ ؛ قرأ أبو بكر: بتشديدِ الميم. وقرأ الباقون بالتخفيفِ؛ وهو الاختيارُ لقولهِ تعالى: ﴿الْيَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٤]. والواوُ في قوله: (وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ) واوُ العطف؛ واللامُ لام (كي)، تقديرهُ: (يُرِيدُ اللهُ بكُمُ الْيُسْرَ) أي يريدُ لأن يسهِّل عليكم (وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ).

---

(١) كِرَاعُ الغَمِيمِ: اسم موضعٍ بين مكَّة والمدينة؛ والكِرَاعُ: جانب مستطيلٌ من الحرَّة، تشبيهاً بالكراعِ، وهو ما دون الرُّكبة من السَّاق. والغميمُ: وادٍ بالحجاز.

(٢) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الصيام: باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر: الحديث (٩٠/ ١١١٤). والترمذي في الجامع: كتاب الصوم: باب ما جاء في كراهية الصوم في السفر: الحديث (٧١٠).

(٣) في الدر المنثور: ج ١ ص٤٦١؛ قال السيوطي: ((وأخرج عبد بن حميد عن ابن عمر: .... وذكره)).

(٤) المائدة / ٣.

وقال الزجَّاج: (مَعْنَاهُ: فَعَلَ اللهُ ذلِكَ لِيُسَهِّلَ عَلَيْكُمْ ما أفْطَرْتُمْ فِي مَرَضِكُمْ وَسَفَرِكُمْ، إذَا بَرَأْتُمْ وَأقَمْتُمْ فَقَضَيْتُمُوهَا)[(١)]. وَقِيلَ: ومعنى (وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ) أي ولتتمِّمُوا مدةَ ما أفطرتم بالمرضِ والسفر. وَقِيْلَ: معناه عدة ثلاثين يوماً إذا غُمَّ عليكم هلالُ شوال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ ؛ أي ولتعظِّموا اللهَ بقلوبكم وأفواهكم وأعمالكم على ما هداكُم لدينهِ وشريعتهِ ووفَّقكم ورزقكم شهرَ رمضان، وخصَّكم به دون سائر أهلِ الملل.

ويقالُ: أرادَ بذلك التكبيرَ في صلاة عيدِ الفطر. وقال بعضهم: أراد به التكبيرَ ليلةَ الفطر، قال ابنُ عباس:(حَقٌّ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ إذا رَأَوا هِلاَلَ شَوَّالَ أنْ يُكَبِرُوا)[(٢)]. وروي عن سعيدِ بن المسيب وأبي سَلَمة وغيرهما: (أنَّهُمْ كَانُوا يُكَبِرُونَ لَيْلَةَ الْفِطْرِ يَجْهَرُونَ بالتَّكْبِيْرِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ ؛ أي لكي تَشكُروا اللهَ على الرخصةِ ونعمةِ الهدَى.

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ؛ إلا أنهُ اختلفَ المفسرون في سبب نزول هذه الآيةَ؛ فقال ابن((عباس))[(٣)]: (نَزَلَتْ فِي عُمَرَ رضي الله عنه وَأَصْحَابهِ حِيْنَ أصَابُوا مِنْ أهْلِيْهِمْ فِي لَيَالِي رَمَضَانَ) وستأتِي قصَّتُهم إن شاءَ اللهُ تعالى.

وروى الكلبيُّ عن أبي صالحٍ عنه قال: (قَالَ يَهُودُ الْمَدِيْنَةِ: يَا مُحَمَّدُ، كَيْفَ يَسْمَعُ رَبُّنَا دُعَاءَنَا وَأنْتَ تَزْعُمُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ السَّمَاءِ مَسِيْرَةَ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ؛ وَأنَّ غِلَظَ كُلِّ سَمَاءٍ مِثْلُ ذَلِكَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). وقال عطاءُ وقتادة: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ج ١ ص٢٢٠.

(٢) رواه الطبري في جامع البيان: النص (٢٣٨٠).

(٣) بياض في أصل المخطوطة، لم يذكر الاسم.

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ نَدْعُو رَبَّنَا؟ وَمَتَى نَدْعُوهُ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَـةَ)[2]. وقـال الضحَّـاكُ: (سَـأَلَ بَعْـضُ الصَّحَابَـةِ رَسُـولَ اللهِ ﷺ: أَقَرِيْبٌ رَبُّنَا فَنُنَاجِيْهِ، أمْ بَعِيْدٌ فَنُنَادِيْهِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

قال أهلُ المعانِي: فيه إضمارٌ كأنه قال: فقُلْ لهم يا مُحَمَّدُ وأعلِمهم أنـي قريـبٌ منهم بالعلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾ ؛ فإن قيلَ: ما وجـهُ هـذه الآيةِ وقوله:﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقد يدعوهُ كثيرٌ من خَلْقِهِ فـلا يجيـبُ دعـاءه؟! قُلنا: اختلفَ العلماءُ في تأويل ذلك، فقال بعضُهم: معنى الدعاءِ هنا الطاعة، ومعنـى الإجابةِ الثَّواب. كأنه قالَ: أجِيْبُ دعوةَ الدَّاعي بالثواب إذا أطَاعَنِي.

وَقِيْلَ: معناهُ الخصوصُ؛ وإنْ كان اللفـظُ عامّـاً، أي أجيـبُ دعـوةَ الدَّاعـي إن شئت[3]، وأجيبُ دعوةَ الداعي إذا وافقَ القضـاء، وأجيـبُ دعـوةَ الداعـي إذا كـانتِ الإجابةُ له خيراً. ويدلُّ عليه ما رُوي عن أبي سعيدٍ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَا مِنْ مُسْلِمٍ دَعَا اللهَ بدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيْهَا قَطِيْعَةُ رَحِمٍ وَلاَ إثْمٌ إلاَ أعْطَاهُ اللهُ بـهَا إحْـدَى ثـلاَثِ خِصَالٍ: إمَّا أنْ يُعَجِّلَ دَعْوَتَهُ؛ وَإمَّا أنْ يَدَّخِرَ لَهُ فِي الآخِـرَةِ؛ وإمَّـا أنْ يَدْفَـعَ عَنْـهُ مِـنَ السُّوءِ مِثْلَهَا]، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إذَنْ نُكْثِرُ؟ قَالَ: [اللهُ أكْثَرُ][4].

---

(١) غافر / ٦٠.

(٢) رواهما الطبري في جامع البيان: النصوص (٢٣٨٣) و(٢٣٨٨).

(٣) في أصل المخطوط: الورقة (٤٠): (إذا تثبت). وهو تصحيف، وقد ضبطته على تفسير الثعلـبي: ج ٢ ص٧٥. وعلى ما يبدو من متابعته أنه ينقـل كثـيراً مـن الطـبراني وربمـا يختصـر أو يضيـف الاسناد لمروياته.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص١٨. وابن عبد البر في التمهيد: آخر باب زيد بن أسـلم: ج ٢ ص٦٥٢: النـص (١٢١/ ٥١). وفي الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ٢ ص٣١٠؛ قـال القرطـبي: ((خرجه أبو عمر بن عبدالبر، وصححه أبو مُحَمَّد عبدالحق، وهو في الموطأ منقطـع السـند. قـال أبو عمر: وهذا الحديث يخـرج في التفسـير المسـند)). وفي مجمـع الزوائـد ومنبـع الفوائـد: ج ١٠ ص١٤٨؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه، والـبزار والطـبراني في الأوسـط، ورجـال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح، غير علي بن علـي الرفـاعي، وهـو ثقة)).

و((قال)) بعضُهم: هو عامٌّ وليس فيه أكثرَ من إجابةِ الدعوة؛ فأما إعطاءُ الأمنية وقضاء الحاجةِ، فليس بمذكورٍ. وقد يجيبُ السيدُ عبدَه؛ والوالدُ ولدَه، ولا يعطيهِ سؤالهُ؛ فالإجابة كائنةٌ لا محالة عند حصول الدعوة؛ لأن قوله: أجيب وأستجيبُ هو خبرٌ؛ والخبر لاَ يَعْتَرِضُ عليه النسخُ؛ لأنه إذا نُسِخَ صارَ المخبرُ كذّاباً، فتعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

ودليلُ هذا التأويلِ ما روى ابنُ عمر: أن رسولَ الله ﷺ قال: [مَنْ فُتِحَ لَهُ بَابٌ فِي الدُّعَاءِ فُتِحَتْ لَهُ أبْوَابُ الإجَابَةِ][(1)]. وَأوْحَى اللهُ إلَى دَاوُدَ عليه السلام: [قُلْ لِلظَّلَمَةِ لاَ يَدْعُونِي، فَإنِّي أوْجَبْتُ عَلَى نَفْسِي أنْ أجِيْبَ مَنْ دَعَانِي؛ وَإنِّي إذاً أجِيْبُ الظَّالِمِيْنَ لَعَنْتُهُمْ][(2)]. وَقِيْلَ: إن اللهَ تعالى يجيبُ دعاءَ المؤمن في الوقتِ، إلا أنه يؤخرُ إعطاءَ مراده ليدعوه فيسمعَ صوته. يدل عليه ما روى جابرٌ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: [إنَّ الْعَبْدَ لَيَدْعُو اللهَ تَعَالَى وَهُوَ يُحِبُّهُ؛ فَيَقُولُ: يَا جِبْرِيْلُ اقْضِ لِعَبْدِي هَذَا حَاجَتَهُ وَأخِّرْهَا؛ فَإنِّي أحِبُّ أنْ لاَ أزَالُ أسْمَعُ صَوْتَهُ. وَإنَّ الْعَبْدَ لَيَدْعُو اللهَ وَهُوَ يُبْغِضُهُ؛ فَيَقُولُ: يَا جِبْرِيْلُ اقْضِ لِعَبْدِي هَذَا حَاجَتَهُ وَأعْجِلْهَا؛ فَإنِّي أكْرَهُ أنْ أسْمَعَ صَوْتَهُ][(3)].

وبلغنا عن يحيىَ بنِ سعيد قال: ((رَأيْتُ رَبَّ الْعِزَّةِ فِي الْمَنَامِ فَقُلْتُ: يَا رَب، كَمْ أدْعُوكَ فَلَمْ تَسْتَجِبْ لِي؟ فَقَالَ: يَا يَحْيَى، إنِّي أحِبُّ أنْ أسْمَعَ صَوْتَكَ)).

وقال بعضُهم: إن للدعاءِ آداباً وشرائطَ هي أسبابُ الإجابةِ ونيلِ الأمنيةِ، فمن راعاها واستكملَها كان من أهل الإجابةِ، ومن أغفلَها وأخلَّ بها فهو من أهلِ الاعتداءِ في الدعاء. وَقِيْلَ: ما مِن أحدٍ يدعو اللهَ تعالى على ما توجبه الحكمةُ إلا وهو يجيب دعاءَه. والدعاءُ على شرطِ الحكمة أن يقولَ: اللهم افعل لي كذا، أو كذا إنْ لم يكن مفسدةً في دِيني وفيما يُرضيكَ عني.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف: ج ٦ ص٢٢: الحديث (٢٩١٥٩). والترمذي في الجامع: كتاب الدعوات: الحديث (٣٥٤٨)، وقال: ((هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن ابن أبي بكر القرشي، وهو ضعيف في الحديث، ضعَّفه بعض أهل العلم من قِبَلِ حِفظهِ)).

(٢) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٢ ص٧٥.

(٣) كنز العمال: النص (٣٢٧٤) عن أنس وجابر معاً، وعزاه إلى تهذيب تاريخ ابن عساكر، وقال: وفيه إسحق بن عبدالله بن أبي فروة، متروك.

ويحكَى أن إبراهيمَ بن أدهم رحمهُ الله قيل له: مَا بَالُنَا نَدْعُو اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَلاَ يَسْتَجِيْبُ لَنَا؟ فَقَالَ: (لأَنَّكُمْ عَرَفْتُمُ اللهَ فَلَمْ تُطِيْعُوهُ؛ وَعَرَفْتُمْ رَسُولَهُ فَلَمْ تَتَّبِعُوهُ؛ وَعَرَفْتُمُ الْقُرْآنَ فَلَمْ تَعْمَلُواْ بِهِ؛ وَأَكَلْتُمْ نِعْمَةَ اللهِ فَلَمْ تُؤَدُّوا شُكْرَهَا؛ وَعَرَفْتُمُ الْجَنَّةَ فَلَمْ تَطْلُبُوهَا؛ وَعَرَفْتُمُ النَّارَ فَلَمْ تَهْرُبُوا مِنْهَا؛ وَعَرَفْتُمُ الشَّيْطَانَ فَوَافَقْتُمُوهُ؛ وَعَرَفْتُمُ الْمَوْتَ فَلَمْ تَسْتَعِدُّوا لَهُ؛ وَدَفَنْتُمُ الأَمْوَاتَ فَلَمْ تَعْتَبِرُوا بِهِمْ؛ وَتَرَكْتُمْ عُيُوبَكُمْ وَاشْتَغَلْتُمْ بِعُيُوب النَّاسِ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى ﴾ ؛ أي فليجيبوا لي بالطاعةِ؛ يقال: أجابَ واستجاب بمعنى. قال الشاعرُ:

وَدَاعٍ دُعَاءَ مَنْ يُجِيْبُ إلَى النِّدَاء فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذاكَ مُجِيْبُ

وقال رجاءُ الخرسانيُّ[1]: (مَعْنَاهُ فَلْيَدْعُونِي). وَالإجَابَةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى الإعْطَاءُ؛ وَمِنَ الْعَبْدِ الطَّاعَةُ. وفي بعض التفاسيرِ: الاستجابةُ أن تقولَ في بعض صلاتك: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ... إلى آخر التلبية.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ ؛ الإيمانُ أن تقول: آمنتُ باللهِ وكفرتُ بالجبْتِ والطاغوتِ؛ وعدُكَ حقٌّ؛ ولقاؤكَ حقٌّ؛ وأشهدُ أنك واحدٌ فرد لم يلد ولم يولدْ ولم يكن له كُفُواً أحد؛ وأشهدُ أن الساعةَ آتيةٌ لا ريب فيها؛ وأنكَ تبعثُ من في القبور.

قال ابنُ عباس: (مَا تَرَكْتُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ بَعْدَ صَلاَةٍ بَعْدَمَا نَزَلَتْ هَـذِهِ الآيَـةُ). وقال الكلبيُّ: (مَا تَرَكْتُهَا مُنْذُ أرْبَعِيْنَ سَنَةً). فعلى هذا معنى الاستجابة: الإجابةُ بالطاعةِ والانقيادِ في كلِّ ما ألزمه؛ وقوله: (لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) أي ليكونوا على رجاءِ الرُّشْدِ في مصالحِ الدُّنيا والآخرةِ.

---

(١) في هامش المخطوط كتب: هو مدفون بجيلة؛ وله مقام بها وأوقافهُ كثيرة؛ له قرًى ومزارعُ وجواميس وزروع وكروم وبساتين وغير ذلك ما يبلغُ في كل سَنة ألفَ دينار كبيرة وخمسمائة دينار.

قوله عزَّ وجَلَّ: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ ؛ قال المفسِّرونَ: كان الرجلُ في ابتداء الأمر إذا أفطرَ أحِلَّ له الطعامُ والشراب والجماعَ إلى أن يصلِّي العشاء الأخيرة أو ترَقَّدَ قبلَها، فإذا صلَّى العشاء ورَقَدَ قبلَ الصلاة ولَم يُفطِرْ، حَرُمَ عليهِ الطعامُ والشرابُ والجماعُ إلى مثلِها من القَابلَةِ. ثم إنَّ عُمَرَ ﷺ وَاقَعَ أهْلَهُ بَعْدَمَا صَلَّى الْعِشَاءَ؛ فَلَمَّا اغْتَسَلَ أخَذَ يَبْكِي وَيَلُومُ نَفْسَهُ، ثُمَّ أتَى النَّبيَّ ﷺ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إنِّي أعْتَذِرُ إلَيْكَ وَإلَى اللهِ مِنْ نَفْسِي هَذِهِ الْخَاطِئَةُ، إنِّي رَاجَعْتُ أهْلِي بَعْدَمَا صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْعِشَاءِ الأخِيْرَةِ؛ فَوَجَدْتُ رَائِحَةً طَيِّبَةً فَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي فَجَامَعْتُ أهْلِي، فَهَلْ لِي مِنْ رُخْصَةٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:[مَا كُنْتَ جَدِيْراً بذَلِكَ يَا عُمَرُ!] فَقَامَ رِجَالٌ فَاعْتَرَفُوا بالَّذِي كَانُوا صَنَعُوا بَعْدَ الْعِشَاءِ، فَنَزَلَتْ فِي عُمَرَ وَأصْحَابهِ (أحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلَى نِسَائِكُمْ)(١) أيْ أبيْحَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ.

قرأ ابنُ مسعود والأعمشُ: (الرُّفُوثُ) برفعِ الواو والفاء وبواو. والرفوثُ والرفثُ كنايةٌ عن الجِماع. قال ابنُ عباس: (إنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيْمٌ؛ فَكُلُّ مَا ذكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْمُبَاشَرَةِ وَالْمُلاَمَسَةِ وَالإفْضَاءِ وَالدُّخُول، فَإنَّمَا يُرِيْدُ بهِ الْجِمَاعَ)(٢). قال الشاعرُ:

فَضَلْنَا هُنَالِكَ فِي نِعْمَةٍ ... وَكُلِّ اللَّذاذَةِ غَيْرُ الرَّفَثِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٤١٥) عن ابن عباس، والنص (٢٤١٣) عن كعب ابن مالك. وفي الدر المنثور: ج ١ ص٤٧٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم)). وروي عن صرمة بن قيس؛ أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الصوم: الحديث (٢٣١٤). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٢ ص٣١٧؛ قال القرطبي: ((قال ابن العربي: يدلُّ على أن سبب الآية جماعُ عمر لا جوع قيس؛ لأنه لو كان السبب جوع قيس لقال: فالآن كلوا، فابتدأ به لأنه المهم الذي نزلت الآية لأجله)). قاله ابن العربي في أحكام القرآن: ج ١ ص٩١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان بلفظ قريب منه: النص (٢٤٢٥) عن عطاء وعن ابن عباس. وفي الدر المنثور: ج ١ ص٤٧٨؛ قال السيوطي: ((وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في سننه عن ابن عباس... وذكره)).

وقال القُتَيبِيُّ: (الرَّفَثُ هُوَ الإفْصَاحُ عَمَّا تُحِبُّ أنْ يُكْنَى بِهِ عَنْ ذِكْرِ النِّكَاحِ؛ وَأصْلُهُ الْفُحْشُ وَالْقَوْلُ الْقَبِيْحُ). وقال الزجَّاجُ: (الرَّفَثُ كُلُّ كَلِمَةٍ جَامِعَةٍ لِكُلِّ مَا يُرِيْدُهُ الرِّجَالُ مِنَ النِّسَاءِ)[١].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ ؛ أي هن سَكَنٌ لكم وأنتم سَكَنٌ لَهن؛ قالَهُ أكثرُ المفسِّرين. ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾[٢] أي سَكَناً، ودليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[٣].

وقال أهلُ المعانِي: اللِّبَاسُ: الشِّعَارُ الذي يلي الجلدَ من الثياب؛ فسمي كل واحدٍ من الزَّوجَين لِبَاساً؛ لتجرُّدهما عند النومِ واجتماعهما في ثوبٍ واحدٍ؛ وانضمامِ جسدِ كلِّ واحد منهما إلى جسد صاحبه، حتى يصيرَ كلُّ واحد منهما لصاحبهِ كالثَّوب الذي يلبسهُ. وقال بعضُهم: يقال: لِمَا سترَ الشيءَ وواراهُ لباساً، فجازَ أن يكون كلُّ واحد منهما لصاحبه سِتراً عما لا يحل، كما روي في الخبر [مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ أحْرَزَ نِصْفَ دِيْنِهِ][٤].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ ؛ أي عَلِمَ اللهُ أنكم كنتم تَظْلِمُونَ أنفسَكم بمعصيتكم وجِماعِكم بعد العشاءِ الأخيرة في ليالِي الصَّومِ فتجاوزَ عنكم ولَم يعاقِبْكم على ذلك وعفَا عنكم ذنُوبَكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَالْـَٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ ﴾ ؛ أي جامِعُوهن في ليالِي الصومِ فهو حلالٌ لكم. سُميت الْمُجَامَعَةُ مباشرةً؛ لتلاصُقِ بَشَرَةِ كلِّ واحد منهما لصاحبهِ.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ١ ص٢٢١.

(٢) النبأ / ١٠. (٣) الأعراف / ١٨٩.

(٤) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ٢ ص٩٤٢: الحديث (١٢٨١)؛ قال العراقي: ((رواه ابن الجوزي في العلل من حديث انس بسند ضعيف، وهو عند الطبراني في الأوسط بلفظ [استَكْمَلَ نِصْفَ الإِيْمَان])). وأخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٨ ص٣١٥: الحديث (٧٦٤٤) وفي ج ٩ ص٣٦٧: الحديث (٧٨٩٠). والحاكم في المستدرك: كتاب النكاح: الحديث (٢٧٢٨)؛ وقال: ((هذا حديث صحيح ولم يخرجاه)) بإسناد آخر غير إسناد الطبراني.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ ﴾ ؛ أي واطلبُوا ما قضَى اللهُ لكم من الولدِ. قال مجاهدُ: (إنْ لَمْ تَلِدْ هَذِهِ فَهَذِهِ)(١). وقال ابنُ زيدٍ: ((وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ) أيْ ((مَا)) أحَلَّ لَكُمْ مِنَ الْجِمَاعِ)(٢). وقرأ معاذُ بن جبل: (وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ مِنَ الاتِّبَاعِ) يعني ليلةَ القدر، وكذلك روى أبو الجوزاء عن ابنِ عباس. وقرأ الأعمش: (وَأْتُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ) أي افعَلوا.

وأشبهُ الأقاويلِ فظاهرُ الآية في تأويلِ قوله: (وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ) قول من تأوَّلَهُ على الولد؛ لأنه عقيب قوله (فَبَاشِرُوهُنَّ) وهو أمرٌ بإباحةِ الطلب وندبٌ كقوله ﷺ: [تَنَاكَحُوا تَكْثَرُوا، فَإنِّي أبَاهِي بكُمُ الأمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى بالسَّقَطِ](٣).

وقال أهلُ الظاهر: هو أمرُ إيجابٍ وحَتْمٍ يدلُّ عليه ما روى أنس بن مالك: أنَّ امْرَأةً كَانَ يُقَالُ لَهَا الْخَوْلاَءُ عَطَّارَةُ أهْلِ الْمَدِيْنَةِ، دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ فَقَالَتْ: يَا أمَّ الْمُؤْمِنِيْنَ، زَوْجِي فُلاَنٌ أتَزَيَّنُ لَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ وَأتَطَيَّبُ كَأنِّي عَرُوسٌ زُفَّتْ إلَيْهِ، فَإذَا أوَى إلَى فِرَاشِهِ دَخَلْتُ فِي لِحَافِهِ الْتَمِسُ بذَلِكَ رضَى اللهِ تَعَالَى؛ فَحَوَّلَ وَجْهَهُ عَنِّي أرَاهُ قَدْ أبْغَضَنِي؟ فَقَالَتْ: اجْلِسِي حَتَّى يَدْخُلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. قَالَتْ: فَبَيْنَمَا أنَا كَذَلِكَ إذْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: [مَا هَذِهِ الرَّوَائِحُ الَّتِي أجِدُهَا، هَلْ أتَتْكُمُ الْخَوْلاَءُ؟ ابْتَعْتُمْ مِنْهَا شَيْئاً؟] قَالَتْ عَائِشَةُ: لاَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَصَّتْ عَلَيْهِ الْخَوْلاَءُ قِصَّتَهَا، فَقَالَ لَهَا: [اذْهَبي وَاسْمَعِي لَهُ وَأطِيْعِي] فَقَالَتْ: أفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا لِي مِنَ الأَجْرِ؟ قَالَ: [مَا مِنِ امْرَأةٍ رَفَعَتْ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَضَعَتْهُ تُرِيْدُ الإحْسَانَ إلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهَا حَسَنَةً، وَمَحَى عَنْهَا سَيِّئَةً، وَرَفَعَ لَهَا دَرَجَةً. وَمَا مِنِ امْرَأةٍ حَمَلَتْ مِنْ زَوْجِهَا حِيْنَ تَحْمِلُ إلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهَا مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ الْقَائِمِ لَيْلَةَ الصِّيَامِ نَهَارَهُ وَالْغَازِي فِي سَبْيْلِ اللهِ. وَمَا مِنِ امْرَأةٍ يَأْتِيْهَا طَلْقٌ إلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهَا بكُلِّ طَلْقَةٍ عِتْقَ نَسْمَةٍ؛ وَبكُلِّ رَضْعَةٍ عِتْقَ رَقَبَةٍ. فَإذَا فَطَمَتْ وَلَدَهَا نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أيَّتُهَا الْمَرْأةُ قَدْ كُفِيْتِي بالْعَمَلِ فِيْمَا مَضَى، فَاسْتَأْنِفِي الْعَمَلَ فِيْمَا بَقِيَ].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٤٣٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٤٣٧).

(٣) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ٢ ص٩٣٩؛ قال العراقي: ((رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث ابن عمر بسند ضعيف)).

قَالَتْ عَائشة: قَدْ أعْطِيَ النِّسَـاءُ خَيْراً كَثِيْراً، فَمَـا بَـالُكُمْ يَـا مَعْشَـرَ الرِّجَـال، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ قَالَ: [مَا مِنْ رَجُلٍ أخَذَ بيَدِ امْرَأتِهِ يُرَاودُهَا إلاَّ كَتَبَ اللهُ لَـهُ حَسَنَةً؛ وَإنْ عَانَقَهَا فَعَشْرُ حَسَنَاتٍ؛ وَإنْ قَبَّلَهَا فَعِشْرُونَ حَسَنَةً؛ وَإنْ أتَاهَا كَانَ خَيْراً مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا، فَإذَا قَامَ لِيَغْتَسِلَ لَمْ يَمرَّ الْمَاءَ عَلَى شَعْرَةٍ مِنْ جَسَـدِهِ إلاَّ تُمْحَـى عَنْـهُ سَيِّئَةٌ وَيُعْطَى لَهُ دَرَجَةٌ، وَيُعْطَى بغُسْلِهِ خَيْراً مِنَ الدُّنْيَـا وَمَـا فِيْـهَا، وَإنَّ اللهَ عَـزَّ وَجَـلَّ يُبَاهِي بهِ الْمَلاَئِكَةَ، يَقُولُ: أنْظُرُوا إلَى عَبْدِي قَامَ فِي لَيْلَةٍ باردَةٍ يَغْتَسِـلُ مِـنَ الْجَنَابَـةِ، يَتَيَقَّنُ بأنِّي رَبُّهُ، اشْهَدُوا أنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ][1].

قَوْلُهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ؛ هذا أمـرُ إباحـةٍ مثـل ﴿وَإذا حَلَلْتُـمْ فَاصْطَـادُوا﴾[2] وشـبهه. نزلتْ في رجلٍ من الأنصار يسمى صِرْمَةَ بن أنس هكذا قال الكلبيُّ. وقـال معـاذُ بـن جبل: (اسْمُهُ أبو صِرْمَةَ). وقال عكرمةُ والسديُّ: (اسْمُهُ أبو أقَيسَ بْن صِرْمَةَ). وقـال مقاتلُ: (صِرْمَةُ بْنُ إيَاسٍ).

وكانت قصتهُ: أنَّهُ ظَلَّ نَهَارَهُ يَعْمَلُ فِي أرْضٍ لَهُ وَهُوَ صَائِمٌ، فَلَمَّـا أمْسَـى قَـالَ لأَهْلِهِ: قَدِّمِي الطَّعَامَ، فَأرَادَتِ الْمَرْأةُ أنْ تُطْعِمَهُ شَيْئاً سُخْناً، فَأخَذَتْ تَعْمَلُ لَهُ سَخْنِيَّةً، وَكَانَ ذَلِكَ الْوَقْتُ مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ أوْ نَامَ حَرُمَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَالْجِمَاعُ، فَلَمَّا فَرَغَتْ مِنْ طَبْخِ طَعَامِهِ؛ إذْ بهِ قَدْ نَامَ فَأيْقَظَتْهُ فَكَرِهَ أنْ يَعْصِيَ اللهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ، فَأبَى أنْ يَأكُلَ فَأصْبَحَ صَائِماً مَجْهُوداً، فَلَمْ يَنْتَصِفِ النَّهَارُ حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أفَاقَ أتَـى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَدْ أجْهَدَهُ الصَّوْمُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: [يَا أبَا قَيْسٍ، مَـا لَكَ طَرِيْحاً!] قَالَ: ظَلَلْتُ أمْسَ فِي النَّخْلِ نَهَاري كُلَّهُ أجُرُّ بـالْجَرِيْدِ حَتَّـى أمْسَـيْتُ. - وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ: أجُرُّ الْجَرِيْدَ - فَأتَيْتُ أهلي، فَأرَادَتِ امْرَأتِي أنْ تُطْعِمَنِـي شَـيْئاً سُـخْناً، فَأبْطَـأتْ عَلَـيَّ فَنِمْـتُ، فَـأيْقَظُونِي وَقَـدْ حَـرُمَ الطَّعَـامُ وَالشَّـرَابُ؟ فَطَوَيْـتُ

(١) في فتح الباري شرح صحيح البخاري: شرح الحديـث (١٩١٥) مـن كتـاب الصـوم؛ قـال ابـن حجر: ((والجمع بين هذه الروايات أنه أبو قيس صِرمَةُ بن أبي أنس قيس بن مالك بن عدي بـن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، كذا نسبه ابن عبدالبر وغيره)).

(٢) المائدة / ٢.

فَأَصْبَحْتُ قَـدْ أجْـهَدَنِي الصَّـوْمُ. فَـاغْتَمَّ رَسُـولُ اللهِ ﷺ فَـأنْزَلَ اللهُ تَعَـالَى: (وَكُلُـوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْـرِ)(١). أي كلُـوا في لَيالِي الصَّومِ واشربُوا فيها حتى يتبينَ لكم بياضُ النهار وضَوءَ يْهِ من سـوادِ الليـل وظلمتهِ، كذا قال المفسِّرونَ. وَقِيْلَ: معناهُ حتى يتبينَ لكم الفجرُ الأولُ من الثانِي، قال الشاعرُ:

الْخَيْـطُ الأَبْيَـضُ قَبْـلَ الصُّبْـحِ مُنْصَـدِعٌ ... وَالْخَيْـطُ الأَسْـوَدُ حِيْـنَ اللَّيْـلِ مَرْكُـومُ

وعن عديٍّ بن حاتم قال: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّلاَةَ وَالصِّيَامَ فَقَالَ: [صَلِّ كَذَا وَكَذَا، وَصُمْ كَذَا وَكَذَا، فَإذَا غَابَتِ الشَّمْسُ فَكُلْ وَاشْرَبْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الْخَيْـطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ؛ وَصُمْ ثَلاَثِيْنَ يَوْماً إلاَّ أنْ تَرَى الْهِلاَلَ قَبْـلَ ذلِـكَ] قَـالَ: فَأَخَذْتُ خَيْطَيْنِ مِنْ حَرِيْرٍ أبْيَضَ وَأسْوَدَ، وَكُنْتُ أنْظُرُ فِيْهِمَا فَـلاَ يَتَبَيَّـنُ لِـي، فَذَكَـرْتُ ذَلِكَ لِرَسُول اللهِ ﷺ فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، فَقَالَ: [يَا عَدِي، إنَّمَا ذَلِكَ بَيَـاضُ النَّهَار مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ](٢).

وقوله: (مِنَ الْفَجْرِ) يعني المستطيرَ الذي ينتشرُ ويأخذ الأفقَ؛ وهو الثانِي؛ وهو الفجرُ الصادقُ الذي تحلُّ فيه الصَّلاةُ؛ ويحرمُ فيه الطعـامُ علـى الصيَـام. وأمـا الفجـرُ الأول؛ وهو الذي يَسْتَطِعُ في السَّماءِ مستطيلاً كذنب السَّرْحَانِ ولا ينتشرُ؛ فذلك مـن الليلِ لا تحلُّ الصلاةُ فيه، ولا يحرمُ الطعام فيه على الصائمِ؛ وهو الفجرُ الكاذب(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصوم: الحديـث (١٩١٥). وأبـو داود في السـنن: كتـاب الصوم: باب مبدأ فرض الصوم: الحديث (٢٣١٤).

(٢) في الدر المنثور: ج ٢ ص٤٨١؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن أبي حـاتم)) وأصلـه في جامع البيان للطـبري: النـص (٢٤٤٨). ورواه البخـاري في الصحيـح: كتـاب التفسـير: سـورة البقرة: الباب (٢٨): الحديث (٤٥١٠). وأبو داود في السنن: كتاب الصوم: الحديث (٢٣٤٩).

(٣) في الدر المنثور: ج ٢ ص٤٨٢؛ قال السيوطي: ((وأخـرج ابـن شـيبة وابـن جريـر والدارقطـني والبيهقي عن محمَّد بن عبدالرحمن عن ثوبان؛ أنه بلغهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قـالَ: [الْفَجْـرُ فَجْـرَان، فَأَمَّا الَّذِي كَأَنَّهُ ذنَبُ السَّرْحَان، فَإنَّهُ لاَ يُحِلُّ شَيْئاً وَلاَ يُحَرِّمُهُ. وَأمَّا الْمُسْتَطِيرُ الَّذِي يَـأْخُذ الأُفُـقَ، فَإنَّهُ يُحِلُّ الصَّلاَةَ وَيُحَرِّمُ الطَّعَامَ]. قال: وأخرجه الحاكم من طريقه عن جابر موصـولاً)). وهـو في جامع البيان: النص (٢٤٥٣).

وعن سَمُرَةَ بن جُنْدُبٍ؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لاَ يَمْنَعُكُمْ مِنَ السُّحُور أذانُ بلاَلٍ، وَلاَ الصُّبْحُ الْمُسْتَطِيْلُ؛ وَلَكِنِ الصُّبْحُ الْمُسْتَطِيْرُ فِي الأُفُقِ][1].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ ﴾ ؛ قال عبدُالله بنُ أبي أوفَى: كُنَّا مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ فِي مَسِيْرٍ وَهُوَ صَائِمٌ؛ فَلَمَّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ قَالَ لِرَجُلٍ: [انْزِلْ فَأَخْرِجْ لِي مَاءً؟] فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَمْسَيْتَ؟ قَالَ: [انْزِلْ فَأَخْرِجْ لِي مَاءً] فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّ عَلَيْنَا نَهاراً؟ فَقَالَ لَهُ الثَّالِثَةَ؛ فَنَزَلَ فَخَرَجَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إذَا أقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا، وَأدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَا هُنَا، فَقَدْ أفْطَرَ الصَّائِمُ]. وفي بعضِ الألفاظ: [أكَلَ أوْ لَمْ يَأْكُلْ][2].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ ﴾ ؛ أصلُ العكوفِ والاعتكافِ الْمُلاَزَمَةُ والاقامةُ[3]؛ يقال: عَكَفَ بالمكان إذا أقامَ بـه، قال الله تعالى: ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أصْنَامٍ لَهُمْ﴾[4] أي يقيمون. قال الفرزدقُ[5] يصف القُدورَ:

تَـرَى حَوْلَهُنَّ الْمُعْتَفِيْنَ كَأَنَّهُمْ ... عَلَى صَنَمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عُكَّفُ

والاعتكافُ: هو حبسُ النَّفْسِ في المسجدِ على عبادةِ الله تعالى.

واختلفَ العلماءُ في معنى المباشرةِ التي نُهى المعتكفَ عنها؛ فقال قومٌ: هي المجامعةُ خاصةً؛ معناه: ولا تُجامعوهنَّ وأنتم معتكفينَ في المساجدِ؛ قالهُ ابنُ عباسٍ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٤٥٤). ومسلم في الصحيح: كتاب الصيام: الحديث (٤١-٤٣/ ١٠٩٤). وأبو داود في السنن: كتاب الصوم: الحديث (٢٣٤٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٤٧٨). والبخاري في الصحيح: كتاب الصوم: باب الصوم في السفر: الحديث (١٩٤١)، وفي باب متى يحل فطر الصائم: الحديث (١٩٥٥ و١٩٥٦).

(٣) في المخطوط (البينات) بدلاً من (الملازمة). ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٢ ص٣٣٢. واللباب في علوم الكتاب: ج ٣ ص٣١٨.

(٤) الأعراف / ١٣٨.

(٥) في ديوان الفرزدق: ج ٢ ص٥٦١، وجمهرة أشعار العرب: ص٣١٩. والْمُعْتَفُونَ: الذين جاءُوا يطلبون العطاءَ والطعامَ.

وعطاء والضحاكُ والربيع. وقال قتادةُ(١) ومقاتل والكلبيُّ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي نَفَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ كَانُوْا يَعْتَكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ، فَإِذَا أعْرَضَتْ بالرَّجُلِ مِنْهُمْ حَاجَةٌ إلَى أهْلِهِ خَرَجَ إلَيْهَا، فَجَامَعَهَا ثُمَّ يَغْتَسِلُ وَيَرْجِعُ إلَى الْمَسْجِدِ، فنُهُوا أنْ يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ لَيْلاً وَنَهَاراً حَتَّى يَفْرَغُوا مِنَ اعْتِكَافِهِمْ).

وقال ابنُ زيد: (الْمُبَاشَرَةُ: الْجِمَاعُ وَاللَّمْسُ وَالْقُبْلَةُ وَأنْوَاعُ التَّلَذُّذِ)(٢). والجماعُ مفسدٌ للاعتكاف بالإجماعِ. وأما المباشرةُ غير الجماع فعلى ضَربين: ضربٌ يقصد به التلذُّذُ بالمرأةِ فهو مكروهٌ ولا يفسدُ الاعتكافَ عند أكثرِ الفقهاء؛ وقال مالك:(يُفْسِدُهُ). والضربُ الثانِي: ما لا يقصد به التلذُّذ بالمرأةِ؛ فهو مباحٌ كما جاءَ في خبرِ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا [أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُدْخِلُ إلَيْهَا رَأسَهُ فَتُرَجِّلُهُ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ](٣). قال رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنِ اعْتَكَفَ عَشْراً فِي رَمَضَانَ كَانَ بِحَجَّتَيْنِ وَعُمْرَتَيْنِ](٤).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي الْمُجَامَعَةُ في الاعتكافِ معصيةٌ. وَقِيْلَ: جميعُ ما في هذه الآيةِ إلى آخرها أحكامُ اللهِ،﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ ؛ يعني المباشِرَ في الاعتكافِ. وَقِيْلَ: أحكامُ اللهِ لا تقربُوها بالخلافِ،﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ﴾ ، لكم هذه الأحكامَ؛ أي فهكذا يبيِّن للناسِ سائرَ أدلَّتِهِ علـى دِينِهِ وشرائعه، وَقِيْلَ: سائرَ أوامره ونواهيهِ لكي تتَّقوا معاصيهِ.

و(حُدُودُ اللهِ) قال السديُّ: (شُرُوطُ اللهِ)(٥) وقال شهرُ بن حوشب: (فَرَائِضُ اللهِ). وقال الضحَّاكُ: (مَعْصِيَةُ اللهِ)(٦). وأصلُ الحد في اللغة: المنعُ، وقيل منه للبوَّاب: حدادٌ. وقال الخليلُ بن أحمد: الْحَدُّ: الْجَامِعُ الْمَانِعُ، وَمِنْهُ حُدُودُ الدَّارِ وَالأرْضِ؛ وَهِيَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٤٩٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٤٩٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٠٠) بأسانيد.

(٤) في الدر المنثور: ج ٢ ص٤٨٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه البيهقي وضعفه، عن علي بن الحسين عن أبيه)).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٠١).

(٦) اخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٠٢).

مَا تَمْنَعُ غَيْرَهَا أنْ يُدْخِلَ فِيْهَا غَيْرَهَا. وسُمي الحديدُ حديداً لأنه يُمْتَنَعُ به مِن الأعداءِ. ويقالُ: حَدَّتِ المرأةُ وأحَدَّتْ إذا منعتْ نفسَها من الزينةِ. فحدودُ الله هي ما منعَ اللهُ منها أو منعَ من مخالفتها والتعدِّي إلى غيرها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلا تَقْرَبُوهَا) أي فلا تأتوها، يقال: قَرُبْتُ من الشيء أقْرُبُهُ، وَقربته وقرُبت منه بضمِّ الراءِ؛ إذا دَنَوْتَ منه.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ) أي هكذا يُبَيِّنُ الله؛ ﴿ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ ؛ لكي تتَّقوها وتنجُوا من سخط الله والعذاب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ ؛ أكلُ المالِ بالباطلِ على وجهين؛ أحدُهما: أخذهُ على وجهِ الظُّلم بالغصب والخيانة وشهادةِ الزُّور واليمينِ الفاجرة؛ والثاني: أخذهُ من جهات محظورةٍ مع رضاءِ صاحبه؛ مثل القمار وأجرةِ الغناء والملاهي والنائحةِ وثمن الخمر والخنْزير والرِّبا وأشباهِ ذلك. ومعنى الآيةِ: ولا يأكلُ بعضكم أموالَ بعضٍ بالباطل؛ أي من غيرِ الوجهِ الذي أباحهُ الله تعالى. وأصلُ الباطل: الشيءُ الذاهبُ الزائل؛ يقال: بَطَلَ يَبْطُلُ بُطُولاً وَبُطْلاَناً؛ إذا ذهبَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ ؛ أي ولا تظهروا حجَّتكم للحكام بالباطل، فيحكمُ الحاكمُ في الظاهرِ مع عِلْمِ المحكوم له أنه غير مستحقٍّ في الباطنِ. وأصلُ الإدلاء: هو إرسالهُ الدلوَ في البئر؛ يقال: أدلَى دلوهُ؛ إذا أرسَلها، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾[1] ودلاَّها يَدْلُوهَا؛ إذا أخرجَها ثم جعل كلَّ إلقاءِ قولٍ أو فعلٍ إدْلاءً، ومنه قِيْلَ للمحتجِّ بدعواهُ: أدلَى بحجَّته؛ لأن الحجَّةَ سببُ وصولهِ إلى دعواهُ كالدلوِ سببُ وصوله إلى الماءِ.

واختلف النحاةُ في مَحَلِّ قولهِ: (وَتُدْلُوا بهَا) قال بعضُهم: الجزم لتَكَرُّر حرف النهي؛ أي لا تأكلوا ولا تدلوا وكذلك هو في حرف أبَي بإثبات (لاَ). وقيل: هو

---

(١) يوسف / ١٩.

نصبٌ على الظَّرفِ كقول الشاعر:

لاَ تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِيَ مِثْلَـهُ ... عَـارٌ عَلَيـكَ إنْ فَعَلْـتَ عَظِيـمُ

وَقِيْلَ: نُصِبَ بإضمار (إنْ) المخفَّفة. وقـال الأخفـشُ: (نُصِـبَ عَلَـى الْجَـوَاب بالْوَاو).

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾؛ أي لتـأكلوا طائفـةً مـن أمـوال النـاس بـالظلم والجـور وأنتـم تعلمون أنكم مبطلونَ في دعواكم. قال ابنُ عباس: (هَذَا فِي الرَّجُلِ يَكُونُ عَلَيْـهِ مَـالٌ وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِيْهِ بَيِّنَةٌ؛ فَيَجْحَدُ الْمَالَ وَيُخَاصِمُهُمْ فِيْهِ إلَى الْحُكَّامِ؛ وَهُوَ يَعْرِفُ أنَّ الْحَقَّ عَلَيْهِ وَيَعْلَمُ أنَّهُ إثْمٌ أكْلُ حَـرَامٍ)[1]. وقـال مجـاهدُ: (مَعْنَـى الآيَـةِ: لاَ تُخَـاصِمْ وَأنْـتَ ظَالِمٌ)[2]. وقال الحسنُ: (هُوَ أنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ عَلَى صَاحِبِهِ حَقٌّ؛ فَإذَا طَالَبَهُ بِـهِ دَعَـاهُ إلَى الْحَاكِمِ؛ فَيَحْلِفُ لَهُ وَيَذْهَبُ بحَقِّهِ). وقال الكلبيُّ: (هُـوَ أنْ يُقِيْـمَ شَـهَادَةَ الـزُّور). وقال شُريح لبعض الخصومِ: (إنِّي أقْضِي لَكَ وَأنَا أظُنُّـكَ ظَالِمـاً؛ وَلاَ يَسَـعُنِي إلاَّ أنْ أقْضِيَ بمَا يَحْضُرُنِي مِنَ الْبَيِّنَةِ؛ وَإنَّ قَضَائِي لاَ يُحِلُّ لَكَ حَرَاماً).

وعن أبي هريرة؛ قـال: قـال رسـولُ الله ﷺ: [إنَّمَـا أنَـا بَشَـرٌ مِثْلُكُـمْ، وَلَعَـلَّ بَعْضَكُمْ يَكُونُ ألْحَنَ بحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأقْضِيَ لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بشَيْءٍ مِنْ مَالِ أخِيْهِ فَإنَّمَا أقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ نَار][3].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ نزلت هذه الآية في معاذِ بنِ جبلَ وثعلبةِ بن غنمَة[4] الأنصاريين، سَألاَ رَسُولَ اللهِ ﷺ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٠٣). وفي الدر المنثـور: ج ٢ ص٤٨٨-٤٨٩؛ قـال السيوطي: ((وأخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٠٤).

(٣) أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الأحكام: باب قضيـة الحـاكم: الحديـث (٢٣١٨)، وإسـناده صحيح.

(٤) في المخطوط: (عثمان)، وصوَّبناه من الدر والإصابـة في تمييز الصحابـة: ج ١ ص٤٠٦: الرقـم (٩٥).

فَقَالاَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا بَالُ الْهِلاَلِ يَبْدُو رَقِيْقاً مِثْلَ الْخَيْطِ، ثُمَّ يَزْدَادُ حَتَّى يَمْتَلِئَ وَيَسْتَوِيَ، ثُمَّ لاَ يَزَالُ يَنْقُصُ حَتَّى يَعُودَ كَمَا بَدَأَ، وَلاَ يَكُونُ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ[(١)]. فأنزلَ اللهُ تعالى: (يَسْأَلُونَكَ) يا محمدُ (عَنْ الأَهِلَّةِ) وعن الحكمة في معناها. وهي جمع هِلاَلٍ مثلُ رِدَاءٍ وَأَرْدِيَةٍ؛ وسُمي هِلالاً لأنه حين يُرى يُهِلُّ الناسُ بذكرِ الله؛ أي يرفعون أصواتهم كما يقال: أهلَّ القومُ بالحج؛ إذا رفعُوا أصواتهم بالتلبية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ) أي هي بيانُ المواقيت التي يحتاجُ الناس إليها في صومِهم وفطرهم وعدَّةِ نسائهم وآجَال دُيونِهم ومدَّة إجاراتِهم وحيضِ الحائضِ وعدَّة الحامل وغير ذلك، أخبرَهم اللهُ تعالى عن الحكمةِ في زيادة القَمَرِ ونُقصانه واختلافِ أحواله؛ فلهذا خالفَ بينه وبين الشمسِ التي هي دائمةٌ على حالٍ واحد. وقوله: (وَالْحَجِّ) أي وبيانُ وقتِ حجِّهم. ولو جعل القمرَ مدوَّراً كالشمس أبداً لَم تُعرفِ المواقيتُ ولا السُّنونُ ولا الشهورُ.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ ؛ قال المفسرونَ: كانَ الناسُ في الجاهليةِ وفي أوَّل الإسلامِ إذا أحرمَ الرجلُ منهم بالحجِّ والعمرة لَم يدخل حائطاً ولا دَاراً ولا بيتاً من بابه؛ فإنْ كان مِن أهلِ الْمَدَرِ؛ أي البيوتِ نَقَبَ نقباً في ظهرِ بيته، ويتخذ سُلَّماً إليه يدخلُ منه ويخرجُ؛ ولا يدخلُ من الباب. وإنْ كان من أهلِ الوَبَرِ؛ أي الخيامِ والفَسَاطِيطِ خرجَ ودخلَ من خلف الخيمة والفساطيطِ؛ ولا يدخلُ في الباب ولا يخرج منه حتى يحلَّ من إحرامِهِ. ويرون ذلك برّاً إلا أنْ يكون الرجلُ من الْحُمُسِ وهم: قريشٌ؛ وكِنَانة؛ وخزاعةَ؛ وثقيف؛ وجثيم؛ وبنو عامر بن صعصعة؛ وبنو النضر بن معولة؛ سُمُّوا حُمْساً لتشدُّدهم في دِينهم وعلىأنفسهم، فإنَّهم كانوا لا يستظِلُّون أيامَ مِنَى ولا يَسْلُونَ السِّمْنَ ولا يأقطون الأقط. والحماسةُ الشدةُ والصلابة، إلا أنَّهم كانوا مع هذا يدخلونَ البيوت من أبوابها بخلافِ الفريق الأوَّل. فلما كان في زمنِ الحديبية أهلَّ رسولُ الله ﷺ بالعمرةِ فدخل

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٤٩٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن عساكر بسند ضعيف)). وأخرجه الطبري مختصراً في جامع البيان: النصوص (٢٥١٠-٢٥١٧) بأسانيد عن قتادة والربيع وابن جرير وابن عباس وعلي.

بستاناً من بابهِ قد خَربَ وهو مُحْرِمٌ، فأتبعهُ عطيَّةُ بنُ عامرِ السلمي من غير الْحُمُسِ؛ فدخل معه من الباب وهو مُحْرِمٌ، فقال له رسولُ الله ﷺ: [لِمَ دَخَلْتَ مِنَ الْبَابِ وَأنْتَ مُحْرِمٌ مِنْ غَيْرِ الْحُمُسِ؟] فقَالَ: رَأيْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ دَخَلْتَ الْبَابَ وَأنْتَ مُحْرِمٌ، فَدَخَلْتُ عَلَى أثرِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أنَا مِنَ الْحُمُسِ] فَقَالَ الرَّجُلُ: إنْ كُنْتَ أحْمُسِياً يَا رَسُولَ اللهِ فَأنَا أحْمُسِيٌّ؛ لأنَّ دِيْنَنَا وَاحِدٌ؛ رَضِيْتُ بهَدْيكَ وَسُنَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ[1].

وقال الزهريُّ: (كَانَ نَاسٌ مِنَ الأَنْصَارِ إذا أهَلُّوا بالْعُمْرَةِ لاَ يَسْتَظِلُّونَ بشَيْءٍ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْبَيْتَ كَي لاَ يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ شَيْءٌ مَا دَامُوا مُحْرِمِيْنَ، حَتَّى كَانَ زَمَنُ الْحُدَيْبيَةَ؛ أهَلَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالْعُمْرَةِ فَدَخَلَ حُجْرَةً؛ فَدَخَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى أثرِهِ مِنَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟] فَقَالَ: إنِّي رَأيْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ عَلَيْكَ السَّلاَمُ دَخَلْتَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أنَا أحْمَسٌ؛ وَالْحُمُسُ لاَ يُبَالُونَ بذَلِكَ] فَقَالَ الأَنْصَاريُّ: أنَا أحْمَسٌ؛ يَعْنِي أنَا عَلَى دِيْنِكَ وَسُنَّتِكَ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (وَلَيْسَ الْبرُّ بأنْ تَأتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورهَا وَلَكِنَّ الْبرَّ مَنْ اتَّقَى وَأتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أبْوَابهَا) أيْ لَيس مِنْ خَلْفِهَا إذا أحْرَمْتُمْ)[2].

قرأ حمزةُ والكسائي وعاصم ونافع وابن عامر وابن كثيرٍ: بكسر الباء (مِنَ الْبِيُوتِ) في جميع القُرْآن. وقرأ الباقون بضمها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ ؛ أي ليس البرَّ بأن تأتوا البيوتَ من خلفها إذا أحرمتم؛ ولكن البرَّ مَن اتَّقَى الشركَ والمعاصي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ ؛ أي ائتوا البيوتَ مُحرمين ومُحِلِّيْنَ من أبوابها، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا اللهَ في جميعِ ما أمَرَكم به ونَهاكم عنه لكي تنجُوا من العقوبةِ وتَفُوزُوا بالبقاءِ في الجنَّة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٢٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٢٤).

وقد روي عن بعضهم أنه كان يقولُ في هذه الآية: (لَيْسَ الْبِرَّ أنْ تَطْلُبُوا الْمَعْرُوفَ مِنْ غَيْرِ أهْلِهِ، وَلَكِنِ اطْلُبُوهُ مِنْ أهْلِهِ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ ؛ أي وقَاتِلُوا في دِينِ الله وطاعتهِ الذين يقاتِلُونكم. قال الربيعُ وعبدالرحمن بن زيد: (هَذِهِ أوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ، وَذَلِكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأصْحَابَهُ خَرَجُوا فِي الْعَامِ الَّذِي أرَادُوا فِيْهِ الْعُمْرَةَ فَنَزَلُوا بالْحُدَيْبِيَةِ قَرِيْباً مِنْ مَكَّةَ)(١). وَالْحُدَيْبِيَةُ اسْمٌ لِلْبئْرِ فَسُمِّيَ ذَلِكَ الْمَوْضِعُ باسْمِ الْبئْرِ، فَصَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْبَيْتِ، فَأَقَامَ بالْحُدَيْبِيَةِ شَهْراً ثُمَّ صَالَحَهُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى أنْ يَرْجِعَ عَامَهُ ذَلِكَ عَلَى أنْ يُخْلُوا لَهُ مَكَّةَ مِنَ الْعَامِ الْقَابلِ ثَلاَثَةَ أيَّامٍ، فَيَطُوفَ وَيَنْحَرَ الْهَدْيَ وَيَفْعَلَ مَا يَشَاءُ؛ وَصَالَحُوهُ عَلَى أنْ لاَ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ قِتَالٌ إلَى عِشْرِ(٢) سِنِينَ. فَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إلَى الْمَدِيْنَةِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبلُ تَجَهَّزَ لِعُمْرَةِ الْقَضَاءِ؛ وَكَانُوا يَخَافُونَ أنْ لاَ تَفِي قُرَيْشٌ بذَلِكَ؛ وَكَانُوا يَكْرَهُونَ قِتَالَهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَفِي الْحَرَمِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

ومعناها: وقاتِلوا في طاعةِ الله الذين يَبْدَأونَكُمْ بالقتال؛ ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ ؛ أي ولا تنقضُوا العهدَ بالبداءة بقتالِهم قبلَ تقديمِ الدعوةِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ ؛ أي المتجاوزين عن الْحُدُودِ؛ أي لا يرضَى عنهم عملَهم. فلما نزلت هذه الآيةُ كان ﷺ يقاتلُ مَن قَاتَلَهُ ويكفُّ عمن كفَّ عنه، حتى نزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾(٣) فنُسخت هذه الآيةُ وأمر بالقتالِ مع المشركين كافَّة(٤).

وقال بعضُهم: هذه الآية مُحْكَمَةٌ أمِرَ رسولُ الله ﷺ بالقتال ولَم يُنسَخْ شيءٌ من حُكمِ هذه الآية؛ فعلى هذا القول معنى قوله: (وَلاَ تَعْتَدُوا) أي لا تقتلُوا النساءَ والصبيانَ والشيخَ الكبير ولا مَن ألقَى إليكم السَّلَمَ وكفَّ يدَهُ عن قتالِكم؛ فإنْ فعلتم

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٣٠ و٢٥٣١).

(٢) في المخطوط: عشرين سنة. والصحيح كما أثبتناه.

(٣) التوبة / ٥.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٤٧) من قول قتادة.

ذلك فقد اعْتَدَيْتُمْ؛ وهو قولُ ابنِ عبَّاس ومجاهد[١]. فمعنى الآية: (وَقَاتِلُوا فِي سَبيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ) أي الذين هم مِن أهلِ القتال دون النساءِ والولدان الذين لا يقاتلون. فعلى هذا القولِ الآيةُ غير منسوخةٍ.

وقال يحيى بن يحيى[٢]: (كَتَبْتُ إلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِالْعَزِيْزِ أسْألُهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾ فَكَتَبَ إلَيَّ أنَّ ذَلِكَ فِي النِّسَاءِ وَالذُّرِّيَّةِ وَالرُّهْبَانِ وَمَنْ لَمْ يَنْتَصِبْ لِلْحَرْبِ مِنْهُمْ)[٣].

وقال الحسنُ: ((وَلا تَعْتَدُوا) أيْ لاَ تَأْتُوا مَنْ نُهِيْتُمْ عَنْهُ). وقال بعضهم: الاعتداءُ ترك قتالهم. وقال بعضهم: نزلت هذه الآيةُ والقتال كان محظوراً قبل الهجرةِ كما قال تعالى:﴿وَجَادِلْهُمْ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ﴾[٤] ثم أمرَ اللهُ بالقتال بعد الهجرة لمن قاتلهم بهذه؛ ثم نزلت آية أخرى في الإذن بالقتال عامة لِمن قاتلَهم ولِمن لَم يُقاتِلْهم، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بأنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[٥].

وعن سُليمان بن بُريدةَ عن أبيهِ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا بَعَثَ عَلَى سَرِيَّةٍ أوْ جَيْشٍ أمِيْراً أوْصَاهُ فِي نَفْسِهِ خَاصَّةً بتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبِمَنْ تَبعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ خَيْراً. وَقَالَ: [أغْزُواْ باسْمِ اللهِ وَفِي سَبيْلِ اللهِ، قَاتِلُواْ مَنْ كَفَرَ باللهِ، أغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدُرُوا وَلاَ تُمَثِّلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيْداً][٦].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٣٤) عن ابن عباس، والنص (٢٥٣٣) عن مجاهد.

(٢) في أصل المخطوط: (يحيى بن عامر)، والصحيح: (يحيى بن يحيى الغساني) كما جاء عند الطبري وفي الدر المنثور. وترجمه ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٧٩٤٨)؛ وقال: ((استعمله عمر ابن عبدالعزيز على قضاء الموصل)).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٣٢). وفي الدر المنثور: ج ١ ص٤٩٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه وكيع وابن أبي شيبة)).

(٤) النحل / ١٢٥.

(٥) الحج / ٢٩.

(٦) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الجهاد: باب تأمير الأمير: الحديث (٢ و٣/ ١٧٣١). وأخرجه أبو داود في السنن: كتاب الجهاد: باب في دعاء المشركين: الحديث (٢٦١٢). والترمذي في الجامع: كتاب الديات: باب ما جاء في النهي عن المثلة: الحديث (١٤٠٨).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ ؛ أي اقتلُوا الذينَ يبدأونكم بالقتال من أهلِ مكَّةَ حيث وجدتُموهم؛ ﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ ؛ أي كما أخرَجُوكم من مكَّةَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ ؛ أي والشِّركِ الذي هم فيه أعظَمُ ذنباً مِن قتلِكم إياهم في الْحَرَمِ والأشهر الْحُرُم والإحرامِ. هكذا قالَ عامة المفسرين. وقال الكسائيُّ: (الْفِتْنَةُ هَا هُنَا الْعَذَابُ) وَكَانُواْ يُعَذِّبُونَ مَنْ أسْلَمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ ؛ أي إذا بدأوكم في غيرِ الحرم، ثم لجأوا إلى الحرمِ فكُفوا عن قتالهم ولا تقاتلوهم في الحرم حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ، فإن بدأوكم بالقتالِ في الحرم فاقتلوهم فيه، ﴿ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾.

قرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرِّف ويحيى بن وثَّاب والأعمشُ وحمزة والكسائي:(وَلاَ تَقْتُلُوهُمْ) بغيرِ ألِفٍ من القتل على معنى ولا تقتلُوا بعضَهم. تقول العربُ: قتلنا بني تَميم؛ وإنَّما قتَلُوا بعضَهم. وقرأ الباقون كلها بالألِفِ من القتال.

واختلفوا في حُكمِ هذه الآيةِ؛ فقال بعضُهم: هي منسوخةٌ؛ نُهُوا عن الابتداء بالقتال، ثُم نُسِخَ ذلك بقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، وهذا قولُ قُتَادةَ والربيع[1]. وقال مقاتلُ: (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ) أيْ حَيْثُ أدْرَكْتُمُوهُمْ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ. لَما نزلت هذه الآيةَ نَسَخَها قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) ثُمَّ نَسَخَتْهَا آيةُ السيفِ التي في براءَة، فهي ناسخةٌ منسوخةٌ).

وقال آخرون: هذه آيةٌ مُحْكَمةٌ؛ ولا يجوزُ الابتداء في القتال في الحرمِ. وهو قولُ مجاهدٍ[2] وأكثر المفسرين. وسُمِّيَ الكفرُ فتنةً؛ لأنه يؤدي إلى الهلاك كما أن الفتنةَ تؤدي إلى الهلاكِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ﴾ ؛ أي فإن انتهوا عن القتال والكفرِ فإن اللهَ (غَفُورٌ) لِما مضَى من جَهْلِهم ولِما سلَفَ من كُفرِهم، (رَحِيمٌ) بهم بعد تَوبَتِهم وإسلامِهم.

---

(١) أخرجهما الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٤٣ و٢٥٤٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٤٥).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ؛ أي قاتِلُوا المشركين حتى لا يكونَ شِرْكٌ؛ أي قاتِلُوهم حتى يُسلِمُوا، فليس يقبلُ من الوثنيِّ جزيةٌ ولا يرضَى منه إلا بالإسلامِ، وليسوا كأهلِ الكتاب الذين يؤخذُ منهم الجزيةُ. والحكمةُ في ذلك: أنَّ مع أهلِ الكتاب كتباً مُنَزَّلَةً فيها الحقُّ وإن كانوا قد أهمَلُوها، فأمهَلَهُم الله بحُرمةِ تلك الكتبِ من القتلِ وأمرَ بإذلالِهم بالجزية، ولينظرُوا في كُتبِهم وليدبَّروها فيقفوا على الحقِّ منها فيتبعوهُ. وأما أهلُ الأوثان فليس لَهم كتبٌ تُرشِدُهم إلى الحقِّ وكان إمهالُهم زائداً في شِركِهم؛ فأبَى اللهُ أن يرضَى منهم إلاَّ بالإسلامِ أو القتلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي وتكونُ الطاعةُ لله وحدَهُ وأن لا يعبدوا دونَهُ شيئاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ ؛ أي (فَإِنْ انتَهَوْا) عن القتالِ والكفرِ (فَلا عُدْوَانَ) أي فلا سبيلَ ولا حجَّةَ في القتلِ في الْحَرَمِ والشهرِ الحرام إلا على الظالمين. قال قتادةُ وعكرمة: (فِي هَذِهِ الآيَةُ الظَّالِمُ الَّذِي أبَى أنْ يَقُولَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ)[1]. وإنَّما سُمِّي الكافرُ ظالماً لوضعهِ العبادةَ في غيرِ موضِعها. وَقِيْلَ: معناهُ: فلا عدوانَ إلا على الذين يَبْدَأونَ بالقتال. ومن الدليلِ على أن هذه الآية غيرُ ناسخةٍ للأولَى: أنَّها معها في خطابٍ واحدٍ، ولا يصحُّ النسخُ إلا بعد التمكُّنِ من الفعلِ.

قال ابنُ عباس: فَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ فَأخْلَى لَهُ أهْلُ مَكَّةَ الْحَرَمَ ثلاَثَةَ أيَّامٍ؛ فَدَخَلَ هُوَ وَأصْحَابُهُ فَطَافُواْ وَنَحَرُواْ الْهَدْيَ وَأقَامُوا بمَكَّةَ حَتَّى قَضَواْ حَاجَتَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ، ثُمَّ رَجَعُوا، فَأنْزَلَ اللهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾ ؛ أي الشهرُ الذي دخلتَ فيه مكة وهو ذو القعدةِ، واعتمَرْتَ فيه أنتَ وأصحابُكَ وقضيتم من مكة فيه وَطْرَكُمْ في سنةِ سبعٍ بالشهر الحرام وهو ذو القعدةِ أيضاً الذي صَدُّوكَ فيه عن البيتِ أنتَ وأصحابُك ومنعوكم من مرادكم في سنةِ ستٍّ.

وقوله تعالى: (وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ) أي اقتصصتُ لكم منهم في الشهر الحرام في ذي القعدة كما صدُّوكم في ذي القعدة مراغمةً. (وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ) جمع الْحُرْمَةِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٥٨) عن قتادة، والنص (٢٥٦٠) عن عكرمة.

كالظلمات جمع الظلمة، والحجرات جمع حجرة. والحرمةُ: ما يجبُ حفظهُ وتركُ انتهاكِهِ، وإنَّما جَمعَ (الْحُرُمَاتُ) لأنه أرادَ الشهرَ الحرامَ والبلدَ الحرام؛ وحرمةَ الإحرامِ. والقصاصُ: المساواةُ؛ وهو أن يفعلَ بالفاعلِ كما فعل.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) بالقتالِ في الحرمِ فكافئوه وقاتلوهُ كمثلِ ما فعلَ. وسَمَّى الجزاءَ اعتداءً على مقابلةِ اللفظِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ ؛ أي (اتَّقُوا اللهَ) في كل ما أمرتُم به ونُهيتم عنه (وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) بالنصرِ والمعونة.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ ؛ وفي هذه الآية نهيٌ عن البُخْلِ. معناهُ: تصدَّقُوا يا أهلَ الميسرةِ ولا تُمسكوا عن الإنفاق (فِي سَبيلِ اللهِ) فإن البخلَ؛ والإمساك عن ذلك هو الهلاكُ. وهذا قولُ حذيفةَ والحسنُ وعكرمة وعطاء والضحاك. قال ابنُ عبَّاس في هذه الآية: (أنْفِقْ فِي سَبيْلِ اللهِ وَإنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إلاَّ سَهْمٌ وَاحِدٌ، وَلاَ يَقُولَنَّ أحَدُكُمْ أنِّي لاَ أجِدُ شَيْئاً)[١]. وقال السديُّ:(أنْفِقْ فِي سَبيْلِ اللهِ وَلَوْ عِقَالاً).

وقَوْلُهُ تَعَالَى:(وَلا تُلْقُوا بأيْدِيكُمْ إلَى التَّهْلُكَةِ) معناه: ولا تلقُوا أنفسَكم، فعبَّر بالبعضِ عن الكلِّ كقولهِ تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيكُمْ﴾[٢] و﴿بِمَا كَسَبَتْ أيْدِيكُمْ﴾[٣]. وإنَّما حذفَ ذكر النفسِ هنا لأن في الباءَ دليلاً عليه؛ والباءُ زائدة كقولهِ تعالى:﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[٤]. والعربُ لا تقولُ: ألقَى بيدهِ إلاَّ في الشرِّ، والإلقاءُ في التهلكة معناه: ولا تُمسكوا بأيديكم عن الصدقةِ في الجهاد فتهلَكوا. وقيلَ: هو

---

(١) هذه الأقوال وغيرها أخرجها الطبري في جامع البيان: النصوص (٢٥٧٥-٢٥٩٨). وذكره القرطبي في جامع البيان: ج ٣ ص٣٠٥، ونقل عن ابن عطية قوله: ((وليس هذا بثابت الإسناد)).

(٢) آل عمران / ١٨٢. (٣) الشورى / ٣٠. (٤) المؤمنون / ٢٠.

الإسرافُ في الإنفاقِ حتى لا يبقَي له شيئاً يأكلُهُ فيتلفُ. وَقِيلَ: هو أن يخرج بين الصفَّين فيُستَقتَلُ من غيرِ قصدٍ بنكايةِ العدوِّ.

وقيلَ: معنى (وَلا تُلْقُوا بأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) أي لا يَقُلْ: ليس عندي شيءٌ. وقال الحسنُ: (إِنَّهُم كَانُوا يَنفِرُونَ لِلْغَزْوِ وَلاَ يُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1]. وقال مقاتلٌ: (لَمَّا أمَرَ اللهُ تَعَالَى بالإنْفَاقِ؛ قَالَ رَجُلٌ: أمِرْنَا بالنَّفَقَةِ فِي سَبِيْلِ اللهِ؛ فَإِنْ أنْفَقْنَا أمْوَالَنَا بَقِيْنَا فُقَرَاءَ ذوي مَسْكَنَةٍ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) يَعْنِي أنْفِقُواْ وَلاَ تَخْشَوا الْفَقْرَ فَإنِّي رَازِقُكُمْ ومُخْلِفٌ عَلَيْكُمْ).

وعن أبي الدَّرداءِ وأبي هريرة وعبدِالله بن عمر وجابرٍ وأبي أمامة والحسن بن عليٍّ بن أبي طالب وعمران بن الحصين؛ كلهم حدَّثوا عن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [مَنْ أرْسَلَ نَفَقَةً فِي سَبِيْلِ اللهِ وَأقَامَ فِي بَيْتِهِ فَلَهُ بكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ دِرْهَمٍ، وَمَنْ غَزَا بنَفْسِهِ فَأنْفَقَ فَلَهُ بكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ ألْفِ دِرْهَمٍ. ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أيْ ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[2].

وقال زيدُ بن أسلمَ: (إنَّ رجَالاً كَانُواْ يَخْرُجُونَ فِي بُعُوثٍ يَبْعَثُهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بغَيْرِ نَفَقَةٍ؛ فَإمَّا أنْ يُعْطُوهُمْ؛ وَإمَّا كَانُوا عِيَالاً وَوَبَالاً. فَأمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بالإنْفَاقِ عَلَى أنْفُسِهِمْ فِي سَبيلِ اللهِ تَعَالَى، فَإذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ مَا تُنْفِقُ فَلاَ تُخْرِجْ نَفْسَكَ بغَيْرِ نَفَقَةٍ وَلاَ قُوَّةٍ فَتُلْقِي بيَدِكَ إلَى التَّهْلُكَةِ، فَتَهْلَكَ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ أوْ مِنَ الْمَشْيِ). التَّهْلُكَةُ: مصدرٌ بمعنى الإهلاكِ؛ وهو تَفْعُلَةٌ مِن الهلاكِ. ولَم يَجِئْ مِن كلامِ العرب مصدرٌ على تفعُلَةٍ بضمِّ العينِ إلا هذا. وقال بعضُهم: التهلكةُ: كلُّ شيء عاقبتهُ إلى الهلاكِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ ؛ أي (أحْسِنُوا) في النفقةِ والإفضال على الْمُحتاجِ. وروى أبو الجوزاء[3] عن ابنِ عبَّاس ﷺ: قال:

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٥٨١). (٢) البقرة / ٢٦٧.

(٣) في المخطوط: أبو الحوري، وهو تحريف. وأبو الجوزاء هو أوس بن عبدالله الربعي البصري، من ربعة الأزد، تابعي روى عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وغيرهم. ترجم له ابن حجر في التهذيب: الرقم (٦١٩) ونقل عن العجلي قال: تابعي ثقة.

(التَّهْلِكَةُ: عَذَابُ اللهِ)[(١)]. فمعنى قوله: (وَلا تُلْقُوا بأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) أي لا تتركُوا الجهادَ فتُعَذَّبوا، دليله قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[(٢)]. وعن أبي هريرةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ][(٣)]. وقال ابنُ سيرين: (الإِلْقَاءُ فِي التَّهْلُكَةِ: هُوَ الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ). وقال أبو قُلابة: (هُوَ الرَّجُلُ يُصِيبُ الذَّنْبَ فَيَقُولُ: قَدْ هَلَكْتُ لَيْسَ لِي تَوبَةٌ فَيَيْأَسُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَيَنْهَمِكُ فِي الْمَعَاصِي، فَنَهَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ).

وسُئل بعضهم عن الإلقاءِ باليد في التهلكة؛ أهوَ الرجلُ يحمل على الكتيبة وهم ألفٌ بالسَّيف؟ قال: لاَ، ولكنه الرجلُ يصيب الذنبَ فيقول: قد أهْلِكْتُ لا توبةَ لِي. وقال الفضيلُ بن عِيَاضٍ في هذه الآية: (وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ): (بإسَاءَةِ الظَّنِّ باللهِ، فَأَحْسِنُوا الظَّنَّ باللهِ؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْنَ الظَّنَّ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ؛ إتْمامهما أن تُحرم بهما من دُوَيرَةِ أهلِكَ. وَقِيْلَ: إتمام العمرةِ إلى البيت، وإتمامُ الحج إلى آخرِ الحجِّ كله. وَقِيْلَ: إتْمامُهما أن تكون النفقةُ حلالاً وينتهي عن جميع ما نَهى الله عنه؛ ويأتِي بجميع ما شَرَعَ اللهُ من المشاعرِ والمواقف. وَقِيْلَ: أتِمُّوا الحجَّ والعمرة من المواقيت. ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ ؛ أي إن مُنِعْتُمْ من البيتِ بعدما أحرمتم بحجٍّ أو عُمرةٍ؛ فأردتُم الإحلالَ فعليكم مما تَيَسَّرَ من الْهَدْيِ.

قال ابنُ عبَّاس: (أعْلاَهُ بَدَنَةٌ؛ وَأوْسَطُهُ بَقَرَةٌ؛ وَأدْنَاهُ شَاةٌ، يَبْعَثُ الْمُحْصِرُ بِهَا إلَى مَكَّةَ وَيُوَاعِدُهُمُ الْيَوْمَ الَّذِي يَذْبَحُوهُ عَنْهُ. فَإذَا ذُبحَ عَنْهُ حَلَّ وَرَجَعَ إلَى أهْلِهِ، ثُمَّ يَقْضِي مَا كَانَ أحْرَمَ بهِ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٥٩٥)عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) التوبة / ٣٩.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح:كتاب الإمارة: باب ذم من مات ولم يغز: الحديث(١٥٨/ ١٩١٠). وأبو داود في السنن: كتاب الجهاد: باب كراهية ترك الغزو: الحديث (٢٥٠٢).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ ؛ أي لا يحلق أحدكم رأسَه ولا يحل من الإحرام حتى يبلغَ الهديُ الحرمَ؛ أي حتى يعلمَ أن الهدي قد ذُبح عنه في الحرم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾ ؛ أي مَن كان مريضاً من الْمُحْرِمِيْنَ؛ مُحْصَرِيْنَ أو غيرَ مُحْصَرِيْنَ، فلم يستطعِ الإقامةَ على شروطِ الإحرام، فعجَّل وفعلَ شيئاً مما يفعلهُ الحلال قبل أن يُنحر عنه الْهَدْيُ، ﴿ أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ﴾ ؛ أي أو كان في رأسهِ قملٌ يؤذيهِ لا يستطيع أن يصبرَ عليه، فحلقَ رأسَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ ﴾ ؛ أي فعليه فداءُ ما صنعَ صيامَ ثلاثة أيام، ﴿ أَوْ صَدَقَةٍ ﴾ ؛ على ستَّةِ مساكين؛ لكل مسكينٍ نصفُ صاع من بُرٍّ أو صاع من تمر، أو صاع من شعير، ﴿ أَوْ نُسُكٍ ﴾ ؛ أي شاةٍ يذبحُها في الحرم.

روي عن كعب بن عجرة؛ أنه قال: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِيَّ؛ مَرَّ بي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِي؛ فَقَالَ لِي: [أتُؤْذِيْكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟] قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: [احْلِقْ رَأسَكَ وَأطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِيْنَ؛ لِكُلِّ مِسْكِيْنٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ حِنْطَةٍ، أوْ صُمْ ثَلاَثَةَ أيَّام، أوْ انْسُكْ بِنَسِيْكَةٍ](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ ؛ أي فإذا أمنتم الموانعَ من المرض والعدوِّ وكل مانع. ويقال: في الآية إضمارٌ تقديره: فإذا أمنتم من العدوِّ وبرئتم من المرضِ، فاقضوا ما كنتم أحرمتم به قبلَ الإحصار من حجٍّ أو عمرةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَمَنْ تَمَتَّعَ بالْعُمْرَةِ إلَى الْحَجِّ) أي من بدأ بالعمرة في أشهر الحجِّ؛ وأقامَ بمكة في عامه للحجِّ؛ فحج من غيرِ أن يرجعَ إلى أهله؛ فَعليه ما تيسَّر من الهدي. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ ؛ أي

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٥١٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير والطبراني والبيهقي في سننه؛ وقال: أخرجه وكيع وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة)). وأخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٥١٧). ولفظ مسلم قريب منه؛ أخرجه في الصحيح: كتاب الحج: الحديث (٨٠/ ١٢٠١).

فمَن لَم يجدِ الهديَ ولا عنه؛ فعليهِ صيامُ ثلاثة أيام في الحجِّ يصومها قبل يوم النَّحرِ متتابعات ومتفرِّقات؛ وصيامُ سبعةِ أيَّام إذا رجعَ إلى أهلهِ. ويقالُ: إذا رجعَ من مِنى. ويقال: إذا رجعَ إلى ما كان عليهِ؛ أي فرغ من أمرِ الحجِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ ؛ أي كاملةٌ للثواب. وَقِيْلَ: كاملةٌ للهدي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ؛ أي ذلك التمتعُ والهديُ لِمن لَم يكن أهلهُ حاضِري مكةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ ؛ أي اتقوا اللهَ في جميعِ ما أمِرْتُم به ونُهيتم عنه.

وقد اختلفَ السلفُ في وجوب العُمرة؛ فروي عن ابنِ مسعود والشعبيِّ وإبراهيم النخعيِّ: (إنَّهَا تَطَوُّعٌ)، وبه قال أبو حَنيفةَ وأصحابهُ ومالكٌ. وعن عائشةَ وابن عبَّاس وابن عمرَ ومجاهد: (أنَّهَا وَاجِبَةٌ)؛ وبه قال الشافعيُّ. ولا دلالةَ في هذه الآية على الوُجوب؛ لأن لفظَ الإتْمامِ يقتضي نفيَ النقصانِ عنها إذا فُعلت؛ لأن ضدَّ الإتْمامِ هو النُّقصانُ.

وقرئ (وَالْعُمْرَةُ للهِ) بالرفعِ على معنى الابتداءِ. ومَن نصبَ العمرةَ احتملَ أن تكونَ للابتداءِ؛ لكن نصبَها اتباعاً للحجِّ، كذا قال الزجَّاج. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (للهِ) فإنَّ أهلَ الجاهليةِ كانوا يُشركون في إحرامِهم؛ كانوا يقولونَ: (لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تَملكهُ وما ملك). تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيْراً. فأمرَ اللهُ تعالى بإخلاصِ القولِ والعملِ للهِ تعالى.

وأما لفظُ الإحصار فقد ذكرَ الكسائيُّ وأكثر أهلِ اللغة: (أنَّ الإِحْصَارَ هُوَ أنْ يَكُونَ بِمَرَضٍ أوْ عَدُوٍّ، وَالْحَصْرُ: أنْ يَكُونَ بِحَبْسِ عَدُوٍّ، يُقَالُ: أحْصَرَهُ الْمَرَضُ أو الْعَدُوُّ فَهُوَ مُحْصَرٌ. وَحَصَرَهُ الْعَدُوُّ فَهُوَ مَحْصُورٌ) وهذا على مذهبنا مستمرٌّ. وقال الفرَّاءُ: (لاَ فَرْقَ بَيْنَ الْحَصْرِ وَالإحْصَار، وَهُمَا شَرِيْكَانِ فِي الْمَعْنَى) وهذا قريبٌ من مذهب الشَّافعي، فإن عندهُ لا يكون المريضُ مُحْصِراً ولا يكون الإحصارُ إلا بالعدوِّ. فأما المريضُ فلا يتحلَّلُ بالهدي وإن لَم يقدر على الذَّهاب. وأنكرَ المبردُ والزجاج على الفراءِ وقالاَ: (إنَّ الْحَصْرَ وَالإحْصَارَ مُخْتَلِفَانِ فِي الْمَعْنَى؛ ألاَ تَرَى أنَّكَ تَقُولُ: حَبَسْتُ الرَّجُلَ؛ إذَا جَعَلْتَهُ فِي الْحَبْسِ، وَاحْبَسْتُهُ إذَا عَرَّضْتَهُ لِلْحَبْسِ).

والهديُ في اللغة: اسمٌ لِما يُهدى إلى البيتِ؛ وهو جمعُ هديَّةٍ كما يقال: جَدْي وجَدِيَّةٌ[١]. وعن عائشةَ وابن عمر أنَّهما قالاَ: (إنَّ الْهَدْيَ إنَّمَا يَكُونُ بَقَرَةً أوْ بَدَنَةً). وفائدةُ قوله: (فَمَا اسْتَيْسَرَ) على هذا القول التخيرَ بين أعيانِ الإبلِ والبقرِ، ولا يجوزُ من كلِّ شيء إلا الشيء فصاعداً، إلا الجذعَ من الضأن فإنه يُجزي على ما وردَ في الأضحِيَةِ؛ وهو ما مضَى له ستةُ أشهر. والثَّنِيُّ: البالغُ من كل شيءٍ؛ وهو عند الفقهاءِ في الغنَمِ ما له سَنَةٌ؛ وفي البقرِ ما له سَنَتان؛ وفي الإبلِ ما له خمسُ سِنِين.

واختلفوا في المذكور في قولِهِ (حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ) قال ابنُ مسعود وابنُ عبَّاس؛ وعطاء وطاووس ومجاهدُ: (مَحِلُّهُ: مَنْحَرُهُ؛ وَهُوَ الْحَرَمُ) وقال مالكُ والشافعيُّ: (مَحِلُّهُ: الْمَوْضِعُ أحْصِرَ فِيْهِ؛ فَيَكُونُ الْمَعْنَى حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ؛ أيْ يَنْحَرُ الْهَدْيَ فَيَحِلُّ أكْلُهُ). وظاهرُ الآية تقتضي أن (يَبْلُغَ الْهَدْيُ) بعد الإحصار مبلغاً لَم يكن بَالِغاً قبل ذلكَ؛ ولو كان موضعُ الإحصار مَحِلاً للهدي لكانَ بالغاً محله لوقوعِ الإحصار، وأدَّى ذلك إلى بُطلانِ الغايةِ المذكورةِ في الآية.

وأما قولهُ في شأن الحديبية ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾[٢] أي يبلغ محِله فهو حجةٌ في أن المحِل هو الحرمُ؛ وليس في تلك الآيةِ بيانُ موضعِ الذَّبح أنه كان في الحلِّ أو الحرمِ، فيحتملُ أن الهديَ كان ممنوعاً عن الحرمِ؛ ولَمَّا وقعَ الصلحُ أطلقوا الهديَ حتى ذُبحَ في الحرمِ.

وذهبَ أبو يوسف ومحمَّد: إلى أنَّ هديَ المحصرِ بالحجِّ مؤقَّت بيومِ النحرِ؛ وليسَ في هذه الآيةِ أنَّ المرادَ بالمحِلِ الزمانُ؛ لأنَّ قوله تعالى: (فَإنْ أحْصِرْتُمْ) عائدٌ إلى الحجِّ والعمرة المذكورين في أوَّل هذه الآيةِ. ولا خلافَ أن هديَ الْمُحصَرِ بالعمرةِ غير مؤقَّت بيومِ النحرِ، وفي ظاهرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ) دليلٌ على أن المحصرَ إذا لم يجدِ الهديَ لا يحلُّ حتى يجد الهدي فيذبحُ عنه. وقال عطاء: (يَصُومُ عَشْرَةَ أيَّامٍ وَيُحِلُّ كَالْمُتَمَتِّعِ إذَا لَمْ يَجِدْ).

---

(١) الْجَدَا بالقصر و(الْجَدْوَى) العطيَّةُ و(جَدَاهُ واجْتَدَاهُ واسْتَجْدَاهُ) أي طلَبَ جَدْوَاهُ، وأجْدَاهُ أعْطَاهُ. مختار الصحاح: مادة (جدى)

(٢) الفتح / ٢٥.

فَصْلٌ: وإذا لَم يَصُمْ الثلاثةَ أيامٍ قبل يوم النحرِ - أعني المتمتعَ والقارنَ - فقد اختلفوا في ذلك؛ فقال عمرُ وابنُ عبَّاسٍ وابن جبير: (لاَ يُجْزِيَهُ إلاَّ الْهَدْيُ، وَلاَ يَحِلُّ إلاَّ بهِ). وهو قولُ أبي حنيفةَ وأصحابهِ. وقال ابنُ عمر وعائشةُ: (يَصُومُ أيَّامَ مِنَى) وهو قولُ مالك. وقالَ عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: (يَصوُم أيَّامَ التَّشريْقِ) وهو قولُ الشافعيُّ.

والفائدةُ في قولهِ: (تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ) أنه كان يجوزُ أن يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أن البدلَ لا يُلْحَقُ بالْمُبْدَلِ في الثواب؛ فبيَّن اللهُ تعالى أنه في الكَمَال بمَنْزلة المبدّل أن لو فَعَلَهُ. ويقال: إنَّ (الواوَ) قد جاءت في القُرْآن بمعنى (أوْ) التي للتخيير كما في قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾[١] فربَّما يتوهَّمُ أن هذا مثلَ ذلك؛ فأكَّدَ الله تعالى صومَ العشرةِ كلِّها بقولهِ: (تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ) لإزالةِ هذا الإشكال.

فَصْلٌ: اختلفوا في حاضرِ المسجدِ الحرام؛ فقال عطاءُ ومكحول: (هُمْ كُلٌّ مِنْ دُون الْمَوَاقِيْتِ إلَى مَكَّةَ) وهو قولُ أبي حنيفةَ وأصحابه؛ إلا أنَّ أبَا حنيفةَ وأصحابه يقولون: (أهْلُ الْمَوَاقِيْتِ بِمَنْزلَةِ مَن دُونِهَا؛ لأنَّهُمْ كُلُّهُمْ فِي حُكْمِ أهْلِ مَكَّةَ يَجُوزُ لَهُمْ دُخُولُهَا بغَيْرِ إحْرَامٍ). وقال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهد: (هُمْ أهْلُ الْحَرَمِ) وقال الحسنُ وطاووس ونافعٌ: (هُمْ أهْلُ مَكَّةَ). وقال الشافعيُّ: (هُمْ مَنْ كَانَ دَارُهُ دُونَ اللَّيْلَتَيْنِ مِنْ مَكَّةَ؛ وَذلِكَ مِقْدَارُ أقْرَب الْمَوَاقِيْتِ إلَى مَكَّةَ).

وظاهرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: (ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) يقتضِي الإشارةَ إلى الهدي والْمُتعةِ جميعاً؛ فلا يباحُ المتعةُ والقِران لأهلِ المواقيت ومَن دونَها إلى مكة. وذهبَ الشافعيُّ إلى أن قَوْلَهُ: (ذَلِكَ) إشارةٌ إلى الهدي دونَ المتعة والقِران، فتجوزُ عنده المتعةُ والقِران لأهلِ مكَّة، ولكن لا هَديَ عليهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ ؛ في هذه الآيةِ تقديرُ حذفِ مبتدأ؛ تقديره: مدَّةُ الحجِّ أشهرٌ معلومات. ويقال: الحجُّ في أشهرٍ معلومات. وقوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[٢] أي مدَّة غدوِّها ومدة رواحِها.

---

(١) النساء / ٣. (٢) سبأ / ١٢.

واختلفوا في هذه الأشهر؛ فقال ابنُ عباس وأكثرُ المفسِّـرين: (إنَّـهَا شَـوَّالُ وَذُو الْقِعْدَةِ وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ). وأما مَن قـالَ: إنَّـها شـوالُ وذو القعـدة وذو الحجـة، فليسَ باختلافٍ لأن المرادَ بعضُ ذي الحجة؛ لأن الحـجَّ كلـه لا محالـةَ في بعـضِ هـذه الأشهرِ لا في جميعها. ويجوزُ إضافتهُ إلى جميعِ هذه الأشهرِ وإنْ كان هو في بعضِـها؛ ألا ترى إنكَ تقولُ: لقيتُ فلاناً سنةَ كذا، وقمتُ يوم كذا؛ بمعنى بعضِ المدة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ ؛ أي من أوجبَ فيهنَّ الحجَّ بالتلبيةِ أو ما يقومُ مقامَها من ذِكر أو سَـوق الهدي فلا يرفثُ ولا يفسقُ، وهذا لفظُ خبرٍ بمعنى النهي؛ كما أنَّ قَوْلَهُ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾(١) و ﴿يُرْضِعْنَ﴾(٢) خبرَان لفظاً؛ وأمرَانِ معنًى.

والرَّفَثُ: قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ مُرَاجَعَةُ النِّسَاءِ بذِكْرِ الْجِمَاعِ). والفُسُـوقُ: قـال ابنُ عمر: (هُوَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ فِي الإحْرَامِ). واختارَ بعضُهم هذا القـول؛ وقـالوا: لـو كان المرادُ به جميعَ المعاصي لكان لا يُخَصُّ بالنهي عنها حالةَ الإحرام.

وقال ابنُ عبَّاس وجماعةٌ من المفسِّرين: (الْمُرَادُ بها جَمِيْـعَ الْمَعَـاصِي). وفـائدةُ تخصيص حالته هذه بالنهي فهو تعظيمُ حُرمة هـذه العبـادة؛ كمـا يقـال: لا تَغْتَـبْ في صومِك؛ وكما قال ﷺ: [إذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أحَدِكُـمْ؛ فَـلاَ يَرْفُـثْ؛ وَلاَ يَجْـهَلْ، وَإنْ جُهِلَ عَلَيْهِ فَلْيَقُلْ: إنِّي صَائِمٌ](٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) قال بعضُهم: الْجِدَالُ: أن تُجَادِلَ صـاحبَكَ حتى تُغضِبَهُ أو يُغضِبَكَ. وَقِيْلَ:كانت قريشُ تقـفُ بالمزدلفـة؛ وكـانت اليمـنُ وربيعـةُ تقفُ بعرفةَ خارجَ الْحَرَمِ؛ وكان كلُّ فريقٍ منهم يجادلُ صاحبَهُ في الموقف؛ فنَزلت هذه الآيةُ.

---

(١) البقرة / ٢٢٨.

(٢) البقرة / ٢٣٣.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصوم: باب هل يقول إنـي صـائم: (١٩٠٤). ومسـلم في الصحيح: كتاب الصوم: باب فضل الصيام: الحديث (١٦٣/ ١١٥١).

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ ؛ أي ما تَفْعَلُوا من أسباب الحجِّ وتركِ الرَّفَثِ والفسوقِ والجدال يعلمهُ الله؛ أي يقبلهُ منكم فيجزيكم عليه، واللهُ تعالى عالِمٌ من دون أنْ يفعلوا، ولكن المرادَ به يعلمهُ الله مَفْعُولاً؛ وكان مَن قبله يعلمهُ غيرَ مفعول. وأرادَ الله بهذا الحثَّ على فعلِ الخيرِ ودلَّ به على العدلِ؛ إذ بيَّن أنه لا يجازي العبدَ على ما يعلمهُ منه، وإنَّما يجازيه على ما يقعُ منه.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ ؛ أي تَزَوَّدُوا في سَفرِ الحجِّ والعمرة ما تَكُفُّونَ به وجوهَكم عن المسألةِ. نزلت في قومٍ كانوا يخرُجون بأهاليهم بغيرِ زادٍ ويتَّكِلُونَ على الناسِ؛ ويسمُّون أنفسهم المتوكِّلةَ، يقولون: نَحُجُّ بيتَ ربنا واللهُ رازقُنا. وَقِيْلَ: نزلت في قومٍ يتركُونَ أزوادَهم ويصيبونَ في حجِّهم من أهلِ الطريقِ ظُلماً؛ فبيَّن اللهُ تعالى أن الزادَ هو أن تَتَّقُوا ما لا يَحِلُّ، لا أن تُلقُوا أزوادَكم وتصيرُوا كَلاًّ على الناسِ.

ويقال: في الآية تقديمٌ وتأخير؛ تقديرهُ: وتزوَّدوا مِن الطاعات، ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ ، (فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) ولا يَمتنعُ أن يكون المرادُ به زادَ الدُّنيا وزادَ الآخرة. كأنَّ اللهَ خصَّ على الزَّادين جميعاً وأمرَ بالتزوُّد لسَفَرِ الدُّنيا بالطعامِ ولسفرِ الآخرة بالتَّقوَى؛ فإن النجاةَ من هَلَكَاتِ سفر الدُّنيا بالزادِ، ومن سفرِ الآخرة بالعملِ الصالحِ. قال الشاعرُ:

إذْ أنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... وَلاَقَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أنْ لاَ تَكُونَ كَمِثْلِهِ ... وَأنَّكَ لَمْ تَرْصُدْ كَمَا كَانَ أرْصَدَا

واختلفَ العلماءُ في جواز الإحرام بالحجِّ قبلَ أشهر الحج؛ فرُوِي عن ابنِ عبَّاس وجابرَ وعطاء ومجاهد وعكرمةَ أنَّهم قالوا: (لاَ يُحْرِمُ الرَّجُلُ بالْحَجِّ قَبْلَ أشْهُرِ الْحَجِّ). وقال عطاءُ: (مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَيَجْعَلُهَا عُمْرَةً). وقال الشافعيُّ: (تَكُونُ عُمْرَةً).

وعن إبراهيم النخعيِّ: (جَوَازُ الإحْرَامِ بالْحَجِّ قَبْلَ أشْهُرِ الْحَجِّ) وهو قولُ أبي حنيفةَ وأصحابه؛ ومالكٌ والليث؛ والثوري. وحجَّتهم: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾. وهذا عمومٌ في كون الأهِلَّةِ كلها وقتاً

للحجِّ؛ ومعلومٌ أنَّ الأهلةَ ليست بميقاتٍ لأفعال الحج؛ فوجبَ أن يكون حكمُ ذلك اللفظ مُستعملاً في إحرام الحجِّ.

أما قَوْلُهُ تَعَالَى: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ) فيحتملُ أنه توقيتٌ لأفعال الحجِّ؛ فإن من قَدِمَ مكةَ قبل أشهر الحج مُحرماً وطافَ وسعَى لَم يكن ذلك السَّعيُ مُعْتَدّاً بـه في الحجِّ. وذهبَ بعضُ أصحابنا إلى أنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ) توقيتٌ لاستحباب الإحرام؛ لأنه إذا قَدَّمَ الإحرامَ على شوال امتدَّ[1] مكثهُ في الإحرامِ واضطرَّ إلى شيءٍ من مُحرَّماتِ الإحرامِ.

فَصْلٌ: والنصبُ في قَوْلِهِ تَعَالَى: (فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) على التمييز؛ ويقرأ بالرفعِ والتنوين؛ فكِلاَ الوجهين جائزٌ في كلامِ العرب. وأما قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ) فأكثرُ القرَّاء على نصبهِ؛ ولَم ينقل فيه الرفعُ والتنوين إلا في روايةٍ شاذَّة. ومَن رفعَ الرفثَ والفسوقَ جعل ما بعدَهُ كلاماً مبتدأ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ روي عن عبدالله ابن عمر: أنَّ رَجُلاً سَأَلَهُ فَقَالَ: إنِّي لأُكْرِي إبلِي إلَى مَكَّةَ، أفَيُجْزِئُ حَجِّي؟ فَقَالَ: أوَلَسْتَ تُلَبِّي وَتَقِفُ بعَرَفَاتَ وَتَرْمِي الْجِمَارَ؟) قَالَ: بَلَى، قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ مِثْلِ مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ فَلَمْ يُجِبْهُ حَتَّى أنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبكُمْ)، فَقَالَ ﷺ: [أنْتُمْ حُجَّاجٌ][2].

ومعنى الآيةِ: ليس عليكم جناحٌ أن تطلبوا رزقاً في التجارة في أيامِ الحجِّ. وكان ابنُ عبَّاس يقرؤُها (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ). وعن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: [إذا كَانَ يَوْمُ عَرَفَةَ غَفَرَ اللهُ لِلْحَاجِّ الْخَالِصِ؛ وَإذَا كَانَ لَيْلَةُ الْمُزْدَلِفَةِ غفَرَ اللهُ لِلتُّجَّار، وَإذَا كَانَ يَوْمُ مِنَى غفَرَ اللهُ

---

(١) أشار الناسخ في هامش المخطوط كتب: (امتدَّ) كأنه اشتبه عليه، فأثبت (اشتدَّ) في متن المخطوط. والصحيح على ما يبدو لنا أنه: (امتدَّ)، فأثبتناه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٠١١). وأبو داود في السنن: كتاب المناسك: الحديث (١٣٧٧).

لِلْجَمَّالِيْنَ، وَإِذَا كَانَ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ غَفَرَ اللهُ لِلسُّؤَّال، وَلاَ يَشْهَدُ ذلِكَ الْمَوْقِفَ خَلْقٌ مِمَّنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ، إلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ][1].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ ﴾ ؛ معناهُ: إذا دَفَعْتُمْ من عرفاتَ فاذكرُوا اللهَ باللِّسان عند الْمَشْعَرِ الحرام؛ وهو الجبلُ الذي يقفُ عليه الناسُ بالمزدلفةِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ ﴾ ؛ أي اذكروهُ بالثناءِ والتوحيد والشُّكر ذكراً مثلَ هدايته إيَّاكم؛ أي ذِكراً يكونُ جَزَاءً لهدايتهِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ﴾ ؛ أي وإن كنتم من قَبْلِ هدايته إياكم لَمِنَ الضَّالينَ عنِ الهدى.

وَقِيْلَ: إنَّ المراد بالذِّكرِ الأول في هذه الآيةِ صلاةُ المغرب والعشاءِ التي يجمعُ بينهما في وقتِ العشاء بالمزدلفة. والمرادُ بالذِّكر الثانِي هو الذكرُ المفعول بالمزدلفة غَدَاةَ جمعٍ في موقفِ المزدلفة. فعلى هذا يكون الذكرُ الأول غيرَ الثانِي. وقد سَمَّى الصَّلاةَ ذكراً على معنى أن الذِّكرَ ركنٌ من أركانِها.

والإفَاضَةُ: هي الدفعُ بالكثرةِ، يقال: أفاضَ القومُ في الحديثِ؛ إذا تدافعوا فيه وأكثرُوا التصرُّفَ؛ وأفاضَ الْمِرْجَلُ إنَاهُ؛ إذا صَبَّهُ، وفاضَ الإناءُ إذا انصبَّ منهُ الماءُ للامتلاءِ، وأفاضَ البعيرُ بجرَّتِهِ؛ إذا رمي بها متفرقةً كثيرة[2].

وَعَرَفَاتُ: جمعُ عَرَفَةَ؛ وهي مكانٌ واحد ذكرها بلفظ الجمع؛ وإرادته جمعُ أجزائها. وسُميت عرفاتُ لارتفاعها من بشرِ الأرض، وقيلَ: سُميت بذلك لأن آدمَ

---

(١) في لسان الميزان: ج ٢ ص٢٧٧: الترجمة (٩٨١)؛ قال ابن حجر: ((فيه – أي في اسناده– علي ابن عيسى أبو عبدالغني؛ قال ابن حبان: يضع الحديث على الثقات لا تحل الرواية عنه بحال. وذكر له الحديث أعلاه)). وفي التمهيد لابن عبدالبر: ج ١ ص٩٩: ذكر الحديث بإسناده وقال: ((هذا حديث غريب من حديث مالك، وليس محفوظاً عنه إلا من هذا الوجه، وأبو عبدالغني لا أعرفه، وأهل العلم ما زالوا يسامحون أنفسهم في رواية الرغائب والفضائل عن كل أحد، وإنما كانوا يتشددون في أحاديث الأحكام)).

(٢) لسان العرب: ج ١٠ ص٣٦٨.

وحوَّاء تعارفَا بها بعد التفاقُدِ. ويقال: لأنَّ جبريل عرَّفها إبراهيمَ عليه السلام ليقفَ عليها حين كان يعلِّمه أمرَ المناسكِ؛ فقال إبراهيمُ: عرفتُ. وقال بعضُهم: سُميت بذلك لأن الناسَ يَعْتَرِفُونَ في هذا اليومِ على ذلك الموقف بذنوبهم. وقيلَ: هي مأخوذةٌ من العُرف وهو الطِّيْبُ، قال الله تعالى: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[1] أي طيَّبها لهم.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾؛ قال عامَّةُ المفسرين: كانت قريشُ وحلفاؤها ومن دَانَ بدِينها وهم الْحُمُسُ لا يخرجونَ من الْحَرَمِ إلى عرفات؛ وكانوا يقفونَ بالمزدلفةِ يقولون: نحنُ أهلُ اللهِ وسُكَّانُ حَرَمِهِ؛ فلا يَخلفُ الحرمَ ولا يَخرج منه فلسنا كسائرِ الناسِ، كانوا يتعظَّمون أن يقِفُوا مع سائرِ العرب بعَرفات. ويقول بعضُهم لبعض: لا تعظِّموا إلا الحرمَ، فإنكم إنْ عظَّمتم غيرَ الحرم تهاون الناسُ بحَرَمِكُمْ، فقِفُوا بجَمْعٍ، فإذا أفاضَ الناسُ من عرفات أفاضُوا من الْمَشْعَرِ وهو المزدلفةُ. فأمرهمُ الله أن يقِفُوا بعرفاتَ ويُفِيضُوا منها إلى المزدلفة مع سائرِ الناسِ فيكونَ المرادُ بالإفاضةِ في هذه الآية على هذا القول: الإفاضةَ من عَرفاتٍ.

وكان سائرُ الناس غير الْحُمُسِ يقفون بعرفات، فأنزلَ الله هذه الآية وأمرَ قُريشاً وغيرَهم من الْحُمُسِ أن يقِفُوا بعرفةَ حيث يقفُ الناس، ويدفَعُوا منها معهم. وإنَّما ذَكرَ الناسَ وأرادَ قريشاً بالإفاضةِ من حيث أفاضَ الناسُ؛ لأن قريشاً ومَن دَان بدِينها كانوا قليلاً بالإفاضةِ إلى سائرِ الناس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ) على هذا التأويلِ راجعٌ إلى أوَّل الكلام، كأنهُ ((قال))[2] (فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ) (فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ) الْمَسْجِدِ (الْحَرَامِ). فيكون في الآيةِ تقديمٌ وتأخير. ويكون الأمرُ بالإفاضةِ عطفاً على الإحرامِ دون الإفاضةِ من عَرفات؛ فكأنه قال: أحرموا كما أمركم الله (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ). وعلى هذا التأويلِ جمهورُ المفسرين.

---

(١) مُحَمَّد / ٦.   (٢) ((قال)) سقطت من المخطوط، ويقتضيها السياق بالضرورة.

وقال الضحَّاك: (مَعْنَى الآيَةِ: ثُمَّ أفِيْضُوا مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ الَّتِي تَفِيْضُ مِنْهَا قُرَيْشُ). وإنَّما ذهبَ الضحاكُ إلى أن المرادَ بالإفاضة في هذه الآيةِ الإفاضةُ من المزدلفة؛ لأنَّ الله تعالى عطفَ هذه الآيةَ على الإفاضةِ من عَرفات؛ فعُلِمَ أن المرادَ بهذه الإفاضةِ الإفاضةُ من المزدلفة؛ إلاَّ أن عامَّة المفسرين على الوجهِ الأول.

والمرادُ بقوله: (مِنْ حَيْثُ أفَاضَ النَّاسُ) هم العربُ كلهم غيرُ الْحُمُس، وقال الكلبيُّ: (هُمْ أهْلُ الْيَمَنِ). وقال الضحَّاك: (النَّاسُ هُنَا إبْرَاهِيْمُ عليه السلام وَحْدَهُ؛ لأَنَّهُ كَانَ الإمَامَ الْمُقْتَدَى بهِ، فَسَمَّاهُ اللهُ نَاساً كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أخْرَى: ﴿إنَّ إبْرَاهِيمَ كَانَ أمَّةً﴾(١) وَقَدْ يُسَمَّى الرَّجُلُ الْوَاحِدُ باسْمِ الناس كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾(٢) يَعْنِي مُحَمَّداً ﷺ). وكذلك قولهُ ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ﴾(٣) يعني نعيمَ بن مَسعُودِ الأشجعي ﴿إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ يعني أبا سُفيان. وإنَّما يقالُ هذا لِمن هو نَدْبٌ يُقتدَى به أو يكون لسانَ قومهِ وإمامَهم.

وقال الزهريُّ: (النَّاسُ هَا هُنَا آدَمُ عليه السلام) ودليلهُ قراءة ابن مسعود: (ثُمَّ أفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفَاضَ النَّاسِ يَعْنِي آدَمُ). وقال: (لأَنَّهُ نَسِيَ مَا عُهِدَ إلَيْهِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾(٤).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أي استغفِرُوا اللهَ هناكَ مِن ذنوبكم؛ أي في مواطنِ الحجِّ، فإن الدعاءَ في تلك المواطنِ جديرٌ بالإجابةِ. وقال بعضُهم: هذا خطابٌ للحُمُس أمرَهُم اللهُ بالاستغفار مما كان منهم في الجاهليَّةِ من مُخالفَةِ أمرهِ بتركِ الوقوف بعرفات. (إنَّ اللهَ غَفُورٌ) لذنوب عباده إذا تابُوا، (رَحِيمٌ) بهم بعدَ التوبة. ويقال: معناهُ: إنَّ اللهَ غفور رحيمٌ للحاج.

---

(١) النحل / ١٢٠.

(٢) النساء / ٥٤.

(٣) آل عمران / ١٧٣.

(٤) طه / ١١٥.

وعن أبي هريرةَ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [الْحَاجُّ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللهِ تَعَالَى، إنْ دَعَواْ أجَابَهُمْ، وَإنْ اسْتَغْفَرُوا غَفَرَ لَهُمْ](١). وقالَ ﷺ: [اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْحَاجِّ وَلِمَنِ اسْتَغْفَرَ لَهُ الْحَاجُّ](٢).

وقد اختلفَ العلماءُ في الوقوف بالمزدلفةِ، فذهبَ أكثرُهم إلى أنه ليس بركْن على ما يُروى عن النبيِّ ﷺ [إنَّهُ قَدَّمَ ضَعَفَةَ أهْلِهِ بلَيْلٍ](٣). وفي بعض الأخبار: أنَّهُ قَدَّمَ اُغَيْلِمَةَ بَنِي عَبْدِالْمُطَّلِب بلَيْلٍ، وَجَعَلَ يَلَطِّخُهُمْ بيَدِهِ وَيَقُولُ: [أيْ بَنِيَّ، لاَ تَرْمُوا جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ إلاَّ مُصْبحِيْنَ](٤). فلو كان الوقوفُ بها فرضاً لَمَا رخَّصَ في تركهِ للضعيف كالوقوفِ بعرفة.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ ؛ أي إذا فرغتم من مُتَعَبَّدَاتِكُمْ (فَاذكُرُوا اللهَ) عَزَّ وَجَلَّ بالخير (كَذِكْرِكُم آبَاءَكُمْ) بل أشدُّ ذكراً. وذلك أنَّهم كانوا يَقِفُونَ بعد قضاءِ المناسك يوم النحرِ بينَ المسجدِ الذي في مِنَى وبين الجبلِ، يتناشَدون الأشعارَ ويتفاخرون بذكرِ فضائلِ آبائهم، يقول أحدُهم: يا رب إنَّ عَبْدَكَ فُلاناً — يعني أباه — كان يفعلُ كذا وكذا من الخيرِ. فأمرَهُم الله تعالى أنْ يذكروهُ فهو الذي فَعَلَ ذلك الخيرَ إلى آبائهم، وأنَّ أيَادِيَهُ عندهم أكثرُ وأعظمُ من أيادي آبائهم عليهم.

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال لَهم بعد نزول هذه الآيةِ: [إنَّ اللهَ قَدْ أذهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمِهَا بالآبَاءِ، إنَّ النَّاسَ مِنْ آدَمَ وَإنَّ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ؛ لاَ فَضْلَ لِعَرَبيٍّ عَلَى أعْجَمِيٍّ إلاَّ بالتَّقْوَى] ثُمَّ تَلاَ ﴿يَا أيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأنْثَى...﴾ الآيَةُ(٥).

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الحج: باب فضل الحج والعمرة: الحديث (١٠٥٢٥)؛ وقال: ((فيه صالح بن عبدالله، منكر الحديث)).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ج ٨ ص٨١: الحديث (١٠٥١٦).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (١٢٠٧٨). والترمذي في الجامع: أبواب الحج: باب ما جاء في تقديم الضعفة: الحديث (٨٩٣)، وقال: ((حسن صحيح)).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الحج: باب الوقت المختار لرمي العقبة: الحديث (٩٦٥١) عن ابن عباس، والحديث (٩٦٥٤).

(٥) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في التفاخر بالأحساب: الحديث (٥١١٦).

وقال بعضُهم: معناهُ: أذكُرُوا اللهَ بالتوحيدِ كما تذكرون آباءَكم بذلك؛ فإنَّكم لا ترضَون أن تُنسَبُوا إلى أبوَين، وكذلك لا ترضَون من أنفُسِكم باتِّخاذ إلَهَيْنِ.

وعن عطاءٍ والربيعِ والضحاك في قوله: (كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ): (هُوَ كَقَوْلِ الصَّغِيْرِ أوَّلَ مَا يَفْقَهُ الْكَلاَمَ (أَبَهْ أَبَهْ) أي استَغِيْثُوا باللهِ وَافْزَعُوا إلَيْهِ فِي جَمِيْعِ أمُورِكُمْ؛ كَمَا يَفْزَعُ الصَّغِيْرُ إلَى أبيْهِ فِي جَمِيْعِ أمُورِهِ وَيَلْتَحُّ بذِكْرِهِ)[١]. وعن أبي الجوزاءِ قال: قلتُ لابن عباس ﷺ: أخبرْنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: (فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ) وَقَدْ يَأْتِي عَلَى الرَّجُلِ الْيَوْمُ لاَ يَذْكُرُ أبَاهُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ أنْ تَغْضَبَ للهِ إذَا عُصِيَ أشَدَّ مِنْ غَضَبكَ لِوَالِدَيْكَ إذا شُتِمَا)[٢].

وأما وجهُ نصب (أشَدَّ) فقالَ الأخفشُ: (اذكُرُوهُ ذِكْراً أشدَّ ذِكْراً). وقال الزجَّاجُ: (هُوَ فِي مَحَلِّ الْخَفْضِ، وَلَكِنَّهُ لاَ يَنْصَرِفُ لأَنَّهُ صِفَةٌ عَلَى وَزْنِ (أفْعَلَ). وَنُصِبَ (ذِكْراً) عَلَى التَّمْيِيْزِ)[٣].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾؛ نزلت في مُشركي قريشٍ كانوا يقولون في عادتِهم في الحجِّ: اللهُمَّ ارزقنا إبلاً وبقراً وغَنَماً وعبيداً وإماءً وأموالاً. ولَم يكونوا يسألونَ لأنفُسِهم التوبةَ والمغفرةَ، كانوا لا يرجونَ إلا نعيمَ الدُّنيا، ولا يخافونَ البعثَ والنشورَ[٤]. فبيَّنَ اللهُ تعالى بقوله: (وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ) أي من نَصِيْبٍ ولا ثوابٍ.

والمعنى: مَن يطلب بحَجِّهِ أمورَ الدُّنيا لا يريدُ بذلك ثوابَ الله تعالى، فلا نصيبَ لهُ في ثواب الآخرةِ. وقال أنسُ بنُ مالكٍ: (كَانُواْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً فَيَدْعُونَ

---

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٥٥٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم عن عطاء)).

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص٥٥٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم)).

(٣) قاله في معاني القرآن وإعرابه: ج ١ ص٢٣٦.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٠٧١) عن أبي بكر بن عياش.

وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اسْقِنَا الْمطَرَ وَأعْطِنَا عَلَى عَدُوِّنَا الظَّفَرَ)[١]. وقـال قتـادةُ: (هَـذَا عَبْـدٌ نَوَى الدُّنْيَا؛ لَهَا أنْفَقَ وَلَهَا عَمِلَ وَلَهَا نَصِبَ)[٢] فَهِيَ هَمُّهُ وَسُؤْلُهُ وَطَلَبُهُ.

ثُم بيَّن اللهُ تعالى دعاءَ المؤمنين بقوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾؛ واختلفوا في معنى الْحَسنتين؛ فقال عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ:(آتِنَـا فِـي الدُّنْيَـا حَسَـنَةً) أي امْرَأةً صَالِحَةً، (وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً) الْحُورَ الْعِيْنَ، (وَقِنَا عَذَابَ النَّار) الْمَرْأةَ السُّـوءَ). وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: آتِنَا فِي الدُّنْيَـا الْعِلْـمَ وَالْعِبَـادَةَ، وَفِـي الآخِـرَةِ الْجَنَّـةَ)[٣]. قـال السديُّ: (مَعْنَاهُ: آتِنَا فِي الدُّنْيَا رِزْقاً حَلاَلاً وَاسِعاً وَعَمَلاً صَالِحاً، وَفِي الآخِرَةِ مَغْفِـرَةً وَثَوَاباً). وقال عطيَّةُ: (مَعْنَاهُ: (آتِنَا فِي الدُّنْيَا) الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ به، (وَفِي الآخِرَةِ) تَيْسِـيْرَ الْحِسَاب وَدُخُولَ الْجَنَّةِ). وقال مجاهدُ: (مَعْنَى الْحَسَـنَةِ: النِّعْمَـةَ، فَكَأنَّـهُمْ سَـألُواْ اللهَ نِعْمَةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ النَّار).

وقيل: معناهُ: آتنا في الدنيـا التوفيـقَ والعصمـة، وفي الآخـرة النجـاةَ والرحمـة. وقيل: معناهُ: آتنا في الدنيا أولاداً أبراراً، وفي الآخرةِ مرافقةَ الأنبياء. وقيلَ: معناهُ: آتنا في الدنيا المالَ والنعمةَ، وفي الآخرة تمامَ النعمة، وهو الفوز من النـار ودخـول الجنـة. وَقِيْلَ: معناه آتنا في الدنيا: الدين واليقين، وفي الآخرةِ اللقاءَ والرضاء. وقيـل: معنـاهُ: آتنا في الدنيا الثَّباتَ على الإيمان، وفي الآخرة السلامةَ والرضوان. وقيل: معناهُ: آتنا في الدنيا حلاوةَ الطاعةِ، وفي الآخرة لذَّةَ الرؤيةِ. وقيل: معناهُ: آتنا في الدنيـا الإخـلاصَ، وفي الآخرة الْخَلاصَ.

وقال قتادةُ: (مَعْنَاهُ: آتِنَا فِي الدُّنْيَا عَافِيَةً، وَفِي الآخِرَةِ عَافِيَةً)[٤]. ودليلُ ذلك ما رُوي عن أنسٍ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَادَ مَرِيْضاً قَدْ أضْنِـيَ وَنَحَـلَ جِسْـمُهُ حَتَّـى صَـارَ كَالْفَرْخِ الْمَنْتُوفِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: [هَلْ كُنْتَ تَدْعُو اللهَ بشَرٍّ أوْ تَسْألُهُ شَيْئاً؟] قَالَ:

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٠٧٢) بلفظ قريب.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٠٧٤).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٠٧٩).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٠٧٧).

كُنْتُ أقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا. فَقَالَ: [سُبْحَانَ اللهِ! إذنْ لاَ تَسْتَطِيْعُهُ وَلاَ تُطِيْقُهُ، إنَّكَ ضَعِيْفٌ لاَ تَسْتَطِيْعُ أنْ تَقُومَ لِعَذَاب اللهِ، هَلاَّ قُلْتَ: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار] فَدَعَا الرَّجُلُ بذَلِكَ فَشَفَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأبْرَأهُ مِنْ مَرَضِهِ(١).

وقال سهلُ بن عبدالله: معنى الآية: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا) السُّنَّةَ (وَفِي الآخِرَةِ) الْجَنَّةَ. وعن عبدِالله بن عباس ﷺ قال: (عِنْدَ الرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ مَلَكٌ قَائِمٌ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ يَقُولُ: آمِيْنَ، فَإذَا مَرَرْتُم بِهِ فَقُولُوا: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار). وقال عوفُ في هذه الآية: (مَنْ آتَاهُ اللهُ الإسْلاَمَ وَالْقُرْآنَ وَمَالاً وَوَلَداً فَقَدْ أوْتِيَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً).

ورويَ أنَّ قوماً قالوا لأنس بن مالك: أدْعُ لَنَا؛ فَقَالَ: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار) فقَالُوا: زدْنَا، فَأعَادَهَا، فقَالُوا: زدْنَا، فَأعَادَهَا، فَقَالُوا: زدْنَا، فقَالَ:(مَا تُرِيْدُونَ! قَدْ سَألْتُ اللهَ لَكُمُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ). قال أنسُ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أنْ يَدْعُو بهَا يَقُولُ:[اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار](٢).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ معناهُ: إنَّ الذين يسألونَ الله تعالى الدنيا والآخرة لهم حظٌّ ونصيب وافرٌ من الثواب والخيرِ والجزاء اكتسبوهُ في حجِّهم؛ وفي هذا بيانُ استجابة دعائهم على القطعِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٥٥٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن حبان وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب)). وأخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الذكر: باب كراهية الدعاء: الحديث (٢٣ و٢٤/ ٢٦٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الدعوات: باب قول النبي ﷺ ((ربنا آتنا في الدنيا حسنة)): الحديث (٦٣٨٩). ومسلم في الصحيح: كتاب الذكر والدعاء: باب فضل الدعاء باللهم: الحديث (٢٦ و٢٧/ ٢٦٩٠).

وعن ابن عباس في هذه الآية: أنَّ رَجُلاً قَالَ لِرَسُول اللهِ ﷺ: إنَّ أبِي مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ، أفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: [أرَأيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أبِيكَ دَيْنٌ فَقَضَيْتَهُ، أمَا كَانَ ذلِكَ يُجْزِي؟] قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: [فَدِيْنُ اللهِ أحَقُّ أنْ يُقْضَى]، قَالَ: فَهَلْ لِي مِنْ أجْرٍ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: (أوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا)[1]. يعني مَن حجَّ عن ميتٍ كان الأجر بينه وبين الميتِ.

وقال سعيدُ بن جبير: جَاءَ رَجُلٌ إلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: إنِّي أكْرَيْتُ دَابَّتِي وَاشْتَرَطْتُ عَلَيْهِمْ أنْ أحُجَّ، فَهَلْ يُجْزِيْنِي ذلِكَ؟ قَالَ: (أنْتَ مِنَ الَّذِيْنَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: (أوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) يعني إذا حاسبَ فحسابهُ سريعٌ لا يحتاج إلى عقدِ يدٍ ولا إلى وعيِ صدرٍ ولا رؤية ولا فكرٍ. وقال الحسنُ:(أسْرَعُ مِنْ لَمْحِ الْبَصَرِ). وفي الخبرِ: أنَّ اللهَ تعالى يحاسبُ العبادَ في قدرِ حَلْب شاة؛ وأن محاسبةَ الله تعالى ليست كمحاسبة الناسِ بعضهم لبعضٍ، يحاسبهم جميعاً في لحظةٍ واحدة، يظنُّ كلٌّ واحد أنه

---

(١) عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: كَانَ الْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ رَدِيفَ رَسُول اللهِ ﷺ، فَجَاءَتْهُ امْرَأةٌ مِنْ خَثْعَمٍ تَسْتَفْتِيَهُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ: إنَّ فَرِيْضَةَ اللهِ فِي الْحَجِّ عَلَى عِبَادِهِ أدْرَكَتْ أبِي شَيْخاً كَبِيْراً لاَ يَسْتَطِيْعُ أنْ يَثْبُتَ عَلَى الرَّاحِلَةِ ! أفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: [نَعَمْ] وَذلِكَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ. رواه النسائي في السنن: كتاب الحج: باب حج المرأة عن الرجل: ج ٥ ص١١٩. وبمعناه في صحيح البخاري: كتاب جزاء الصيد: باب الحج عمن لا يستطيع: الحديث (١٨٥٤ و١٨٥٥).

عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ؛ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ خَثْعَمٍ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: إنَّ أبِي شَيْخٌ كَبِيْرٌ لاَ يَسْتَطِيْعُ الرُّكُوبَ وَأدْرَكَتْهُ فَرِيْضَةُ اللهِ فِي الْحَجِّ؛ فَهَلْ يُجْزِئُ أنْ أحُجَّ عَنْهُ؛ قَالَ: [أنْتَ أكْبَرُ وَلَدِهِ؟] قَالَ: نَعَمْ ! قَالَ: [أرَأيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أبِيْكَ دَيْنٌ ! أكُنْتَ تَقْضِيهُ؟] قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: [فَحُجَّ عَنْهُ]. رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٥. والنسائي في السنن: كتاب الحج: باب تشبيه قضاء الحج بقضاء الدين: ج ٥ ص١١٧-١١٨. وإسناده صحيح.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أنَّ امْرَأةً مِنْ جُهَيْنَةَ جَاءَتْ إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: إنَّ أمِّي نَذَرَتْ أنْ تَحُجَّ ! فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: [نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا؛ أرَأيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أمِّكِ دَيْنٌ؛ أكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟ اقْضُوا اللهَ فَاللهُ أحَقُّ بِالْوَفَاءِ]. رواه البخاري في الصحيح: كتاب جزاء الصيد: باب الحج والنذر عن الميت: الحديث (١٨٥٢).

يحاسبهُ خاصةً، لا يشغله شيءٌ عن شيء. ومعنى الحساب: تعريفُ اللهِ تعالى عبادَه مقادير الخير على أعمالهم، وتذكيرهُ إياهم بما قد نَسَوْهُ. يدلُّ عليه قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ﴾(١). وقيل: معناهُ سريع الحساب؛ أي سريع الْمُجَازَاةِ، وفيه إخبارٌ عن سرعةِ فناء الدنيا وقيامِ الساعة.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ ؛ يعني اذكروا اللهَ تعالى بالتكبيرِ إدبار الصلوات وعند الجمراتِ، يكبر مع كلِّ حصاةٍ؛ وغيرها من الأوقاتِ. واختلفوا في الأيام المعدوداتِ؛ فروي عنِ ابنِ عباس والحسنِ ومجاهد وعطاء والضحاكِ والنخعي: (أنَّ الأَيَّامَ الْمَعْدُودَاتِ: أَيَّامُ التَّشْرِيْقِ؛ وَالأَيَّامَ الْمَعْلُومَاتِ: أَيَّامُ الْعَشْرِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ)(٢)؛ وهكذا رُوي عن أبي حنيفةَ وأبي يوسف ومحمدٍ. وروي أيضاً عنِ ابن عباسٍ: (أنَّ الأَيَّامَ الْمَعْدُودَاتِ: أَيَّامُ الْعَشْرِ، وَالأَيَّامَ الْمَعْلُومَاتِ: أَيَّامُ النَّحْرِ).

ولا شكَّ أن في هذه الرواية غلطاً وهي خلافُ الكتاب؛ لأنَّ الله تعالى عقَّب الأيامَ المعدودات بقوله: ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ؛ وليس في العشرِ حكمٌ بتعليقِ يومين دون الثالث. وعن أبي يوسف: (أنَّ الْمَعْلُومَاتِ: أَيَّامُ النَّحْرِ، وَالْمَعْدُودَاتِ: أَيَّامُ التَّشْرِيْقِ)؛ قال هذا القولَ استدلالاً من الآيتين؛ لأنَّ الله تعالى قال في ذِكر الأيامِ المعلومات: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾(٣). وقال في هذه الآية: (فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ)، فيومُ النَّحر على هذه الرواية من المعلوماتِ دون المعدوداتِ؛ وآخرِ أيام التشريق من المعدوداتِ دون المعلوماتِ؛ واليومُ الثاني والثالثُ من أيام النحرِ من المعلوماتِ والمعدودات جميعاً.

والجوابُ عن استدلال أبي يوسف من الآيتين: أنَّ لفظَ المعلومات يقتضي الشُّهرة، ولفظَ المعدودات يقتضي تقليلَ العدد كما في قوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾(٤) فاقتضى الظاهرُ أنَّ المعدوداتَ أقل من المعلوماتِ؛ ويحتملُ أنْ يكون معنى ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ

---

(١) المجادلة / ٦.
(٢) أخرجه الإمام الطبري في جامع البيان: النص (٣٠٨٦-٣٠٨٩).
(٣) الحج / ٢٨.
(٤) يوسف / ٢٠.

بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ لِمَا رزقهم كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِتُكَبِرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي لِما هداكم، فكأنَّ اللهَ تعالى أرادَ بالمعلوماتِ أيامَ العشر؛ لأنَّ فيها يومَ النحر وفيه الذبحُ، ويكون ذلك اليومُ بتكرار سنين عليه أيَّاماً.

وأما الذّكْرُ المذكورُ في هذه الآية فهو الذّكْرُ عندَ رَمْيِ الجِمار في أيامِ التشريق. وقال بعضُهم: هو التكبيرُ في إدبار صلاةِ العصر في هذه الأيام؛ يكبِّر من صلاة الغداةِ مِن يوم عرفة إلى صلاةِ العصر من آخر آيامِ التشريق عند جماعةٍ من الفقهاء. والتأويلُ الأولُ أصحُّ وأقرب إلى ظاهر القرآن؛ لأن اللهَ تعالى عقَّب الذكرَ في هذه الآية بقوله: (فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) أي من تعجَّل الرجوعَ إلى أهلِهِ فلا إثمَ عليه في تركِ الرمي في اليوم الثالث؛ ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ ﴾ ؛ إلى آخرِ النَّفْرِ وأقام هنالكَ في اليوم الثالث، ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ ؛ أي لِمن اتَّقى الإثمَ والفسوقَ والتفريطَ في حقوق الحجِّ كلها. وأما مَن لم يَتَّقِ فغيرُ موعود له الثوابُ. وقال ابنُ عمر وابنُ عباس وعطاءُ وعكرمة ومجاهدُ وقتادة والضحاك والنخعيُّ والسديُّ: (مَعْنَى الآيَةِ: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيْقِ فَنَفَرَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيْقِ؛ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ فِي تَعْجِيْلِهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ عَنِ النَّفْرِ فِي الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيْقِ إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَتَّى يَنْفِرَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ؛ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ فِي التَّأْخِيْرِ، فَإِنْ لَمْ يَنْفِرْ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَأَقَامَ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ؛ فَلْيُقِمْ إِلَى الْغَدِ مِنَ الْيَوْمِ الثَّالِثِ فَيَرْمِي الْجِمَارَ ثُمَّ يَنْفِرُ مَعَ النَّاسِ).

وقال بعضُهم: معنى الآيةِ: فمن تعجَّل في يومين فهو مغفورٌ له لا إثمَ عليه ولا ذنبَ، ومن تأخَّر فكذلك، وهو قولُ عليٍّ بن أبي طالب وأبي الدَّرداء وابن مسعودٍ والشعبي. قال معاويةُ بن قرة:(خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أمُّهُ)(١). وقال يحيى بنُ إسحقَ: سَأَلْتُ مُجَاهِداً عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: (مَعْنَاهُ: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِلَى قَابلٍ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ أيْضاً إِلَى قَابلٍ)(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣١٢٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣١٢٦).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (لِمَنِ اتَّقَى) قال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: لِمَنِ اتَّقَى قَتْلَ الصَّيْدِ، فَإنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَهُ أنْ يَقْتُلَ صَيْداً حَتَّى يُخْلِفَ أيَّامَ التَّشْرِيْق). وقال قتادةُ:(مَعْنَاهُ: لِمَنِ اتَّقَى أنْ يُصِيْبَ فِي حَجَّتِهِ شَيْئاً مِمَّا نَهَى اللهُ عَنْهُ). وقال أبو العاليةِ: (مَعْنَاهُ: فَلاَ إثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى اللهَ فِيْمَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِهِ). وكان ابنُ مسعود يقولُ: (إنَّمَا جُعِلَ مَغْفِرَةً للذُّنُوب لِمَنِ اتَّقَى اللهَ فِي حَجِّهِ). قال ابنُ جُرَيْجٍ: (وَهِيَ فِي مُصْحَفِ عَبْدِاللهِ: فَلاَ إثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى اللهَ). وعن ابن عباسٍ: (مَعْنَاهُ: لِمَنِ اتَّقَى عِبَادَةَ الأَوْثَان وَمَعَاصِيَ اللهِ). فإنْ قيل كيفَ قال اللهُ تعالى: (وَمَنْ تَأخَّرَ فَلا إثْمَ عَلَيْهِ) ومعلومٌ أنَّ مَن تأخر إنَّما تأخَّرَ لإقامةِ واجبٍ، فلا يليقُ بحاله أن يقالَ: فلا إثمَ عليه، بل يليقُ أن يقال: ومن تأخرَ كان أعظمَ لأجرِهِ؟ قيل: هذا على مزاوجةِ الكلامِ.

وَقِيْلَ: إنَّ رَمْيَ الجمار لا يجوزُ أن يكون تطوُّعاً؛ إذ المتنفلُ به يكون غائباً؛ فلمَّا قال اللهُ تعالى: (فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إثْمَ عَلَيْهِ) أوْهَمَ ذلك كونَ الرمي في ذلك اليومِ الثالث تطوُّعاً؛ لأنَّ هذا تخييرٌ بين فعلِهِ وتركه، فقالَ تعالى: (وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إثْمَ عَلَيْهِ) لِيُبَيِّنَ أنَّ هذا واجبٌ خُيِّرَ بين فعله.

فَصْلٌ: والأيامُ الْمُسَمَّاةُ في الحجِّ ستةُ أيام: يومُ التَّرْوِيَةِ؛ ويوم عرفَةَ[1]؛ ويوم النَّحْرِ؛ ويوم القَرِّ؛ ويوم النَّفْرِ؛ ويومُ الصَّدْر. وسُمي يوم الترويةِ لأنَّ جبرائيل عليه السلام قال لإبراهيمَ عليه السلام: [احْمِلْ رَيَّكَ مِنَ الْمَاءِ]. وأما عرفةَ فقد ذكرنا لِمَ سُمي به، ويومُ النَّحر معلومٌ؛ ويوم القَرِّ لاستقرار الناس بمنى، ويوم النَّفْرِ لأنَّهم ينفرونَ من مِنى إلى مكةَ، ويومُ الصَّدر لأنَّهم يصدرون إلى أهاليهم. ورميُ الجمار مشروعٌ في يوم القرِّ والنفرِ والصدر؛ وهي أيامُ التشريق.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾؛ هذا أمرٌ لهم بالتقوى في مستقبلِ أعمارهم؛ أي لا تَتَّكِلُوا فيما أسلفتم من أعمال البرِّ، ولكن زيدوا في الطاعة في باقي العُمْرِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاعْلَمُوا أنَّكُمْ إلَيْهِ تُحْشَرُونَ) أي في الآخرةِ يجازيكم بأعمالكم؛ إذِ الحشرُ إنَّما يكون للمجازاةِ، ومن تصوَّر أنه لا بُد

(١) سقط من المخطوط: (ويوم عرفة).

من حَشْرٍ ومحاسبةٍ ومساءلةٍ؛ ولا بد من أحدِ أمرين: إمَّا الجنة وإما النارُ، يدعوهُ بذلك إلى التقوَى والتشديدِ.

والْحَشْرُ في اللغة: هو الْجَمْعُ للناسِ مِن كلِّ ناحيةٍ؛ وَالْمَحْشَرُ هو الْمَجْمَعُ؛ فيكونُ معنى الآية: (وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) أي تُجْمَعُونَ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾؛ قال ابنُ عباس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الأَخْنَسِ بْنِ شُرَيْقٍ، كَانَ حَسَنَ الْمَنْظَرِ؛ حُلْوَ الْكَلاَمِ؛ فَاجِرَ السَّرِيْرَةِ؛ حَلاَّفاً شَدِيْدَ الْخُصُومَةِ فِي الْبَاطِلِ، وَكَانَ يُجَالِسُ النَّبِيَّ ﷺ فَيُظْهِرُ لَهُ الْحَسَنَ وَيَحْلِفُ بِاللهِ أَنَّهُ يُحِبُّهُ وَيَتَّبِعُهُ عَلَى دِيْنِهِ؛ وَكَانَ ﷺيَسْمَعُ كَلاَمَهُ فَيُعْجِبُهُ، وَكَانَ يُدْنِيْهِ مِنْ مَجْلِسِهِ، فَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَى نِفَاقِهِ)(١).

ومعنى الآية: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ) كلامهُ وحديثهُ؛ أي يفرحُ بإظهارهِ الإيمانَ وتُسَرُّ بقوله، (وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ) أي يقولُ: اللهُ شهيدٌ على ما في قلبي كما هو على لساني من الإيمان. وقَوْلُهُ تَعَالَى:(وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) أي شديدُ الخصومة جَدِلٌ بالباطل. والأَلَدُّ: مأخوذ من لَدِّيَّ الْعُنُقِ؛ وهما صَفْحَتَاهُ. وتأويلهُ: أن خصمهُ في أيِّ وجهٍ أخذَ من أبواب الخصومة من يمين أو شمالٍ غلبهُ في ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾؛ أي إذا أعرضَ عنك الأخنسُ يا محمدُ وفارقكَ أسرعَ مشياً في الأرض لِيَعْصِيَ فيها ويضُرَّ المؤمنين، وليهلِكَ ما قدرَ عليه من زرعٍ ونسلٍ، (وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ) أي لا يرضَى المعاصي.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣١٤٠). وفي الدر المنثور: ج ١ ص٥٧٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن الكلبي قال: كنت جالساً بمكة، فسألوني عن هذه الآية؟ قلتُ: هو الأخنس بن شُريق، وسمعِني فتًى من وَلَدِهِ، فلما قمتُ اتبعني فقال: إن القرآنَ إنما أنزل في أهلِ مكة، فإن رأيتَ أن لا تسَمِّي أحداً حتى تخرجَ منها فافعل)).

روي: أنَّ الأخنسَ خرج من عندِ النبيِّ ﷺ فمَرَّ بزرعٍ فأحرقهُ؛ وبحمارٍ فعقرهُ؛ فنَزلت هذه الآيةُ بما فيها من الوعيدِ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ[(١)]، وصارت عامةً في جميع المفسدين. وقيل: معنى الآية: (لِيُفْسِدَ فِيهَا) أي ليوقعَ الفتنةَ بين الناس فيشتغلُوا عن الزراعةِ وعن أعمالهم، فيكونُ في ذلك هلاكُ الحرثِ والنسل. وقيل: يُخيفُ الناسَ حتى يَهربُوا من شَرِّهِ، فيخرِّبُ الضِّياعَ وينقطعُ نسلُ الناسِ والدواب.

وفي هذه الآية تحذيرٌ من الاغترار بظاهر القول وما يبديه الرجلُ من حَلاوة المنطقِ، وأمْرٌ بالاحتياطِ في أمر الدين والدنيا حتى لا يُقْتَصَرَ على ظاهرِ أمرِ الإنسانِ خُصوصاً فيمَن هو أَلَدُّ الْخِصَامِ؛ ومَن ظهرت منه دلائلُ الريبة. ولهذا قالوا: إنَّ علينا استبراءَ حالِ من نراه في الظاهرِ أهلاً للقضاء والشهادةِ والفتيا والأمانةِ، وأن لا يُقْبَلَ منهم ظاهرُهم حتى يُسألَ عنهم ويُبحثَ عن أمرهم، إذ قد حذَّرَ اللهُ تعالى أمثالَهم في توليتهم على أمور المسلمين؛ ألا ترى أنه عقَّبه بقوله: (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا) فيحتمل أن يكونَ المرادُ بالتولِّي: أن يتولَّى أمراً من أمور المسلمين، فأعلمَ اللهُ بهذه الآيةِ أنه لا يجوزُ الاقتصار على الظاهرِ دونَ الاحتياط والاستبراءِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ ؛ أي إذا قيلَ لهذا المنافق: احذرْ عقوبةَ الله ولا تفسدْ، أخذتْهُ الْمَنَعَةُ والحميَّةُ والأَنَفَةُ بسبب الإثم الذي فيهِ والكفرِ الذي في قلبهِ؛ يعني أنه تَكبَّرَ وقال: أمثلي يقالُ له: اتَّقِ. ويقال: حملتهُ العزَّة على فعل ما يوجبُ الإثمَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ أي كفاهُ النارُ في الآخرة عقوبةً ونكالاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ ؛ أي لبئسَ القرار النارُ. والْمِهَادُ: الْفِرَاشُ الْمُوطِئُ للنومِ كما يُمهد للطفلِ؛ فلما كان المعذَّبُ يُلْقَى في نار جهنم، جعل ذلك مهاداً له على معنى: أنَّ جهنم للكافرِ مكان كالمهادِ للمؤمن في الجنةِ.

(١) أخرجه الطبري عن السدي في جامع البيان: الأثر (٣١٤٠). ولم يثبت أن الأخنس أسلم. قاله ابن عطية في التفسير.

ويُحكى: أنَّ يهودياً كانت له حاجةٌ إلى هارون الرشيد، فاختلفَ إلى بابـهِ زمانـاً فلم يَقْضِ حاجتهُ، فوقفَ يوماً على الباب، فخرجَ هارونُ وهو يسعى بين يديهِ، فقـال لهُ: اتَّقِ اللهَ يا أميرَ المؤمنين! فنَزَلَ هارونُ عن دابَّته وخرَّ ساجِداً؛ فلما رفعَ رأسـهُ أمَـرَ بحاجته فَقُضِيَتْ. فقيلَ له: يا أميرَ المؤمنين، نَزَلْتَ عن دابَّتك لقول يهوديٍّ؟! قـال: لاَ، ولكنْ ذكرتُ قولَ اللهِ (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ).

قولـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي صُهَيْب بْنِ سِنَان وَعَمَّار بْنِ يَاسِرٍ وَأُمِّهِ سُمَيَّةَ وَأَبِيهِ يَاسِرٍ وَبِلاَل وَخَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ وَغَيْرِهِمْ، أَخَذَهُمُ الْمُشْـرِكُونَ فِـي طَرِيْـق مَكَّةَ؛ فَعَذَّبُوهُمْ، فَأَمَّا صُهَيْبُ فَقَالَ لَهُمْ: أَنـا شَـيْخٌ كَبِـيْرٌ لاَ يَضُرُّكُـمْ أَمِنْكُـمْ كُنْـتُ أَمْ مِـنْ عَدُوِّكُمْ، أعْطِيْكُمْ جَمِيْعَ مَالِي وَمَتَـاعِي وَذَرُونِـي وَدِيْنِـي نَشْـتَرِيْهِ مِنْكُـمْ بمَـالِي، فَفَعَلُـوا؛ فَأَعْطَاهُمْ مَالَهُ وَتَوَجَّهَ إلَى الْمَدِيْنَةِ. فَلَمَّا دَخَلَ الْمَدِيْنَةَ لَقِيَهُ أبُو بَكْرٍ فَقَالَ: رَبِحَ الْبَيْعُ يَـا صُهَيْبُ، قَالَ: وَبَيْعُكَ لاَ يَخْسَرُ، وَمَا ذَاكَ يَا أبَا بَكْرٍ! فَأَخْبَرَهُ بمَـا نَـزَلَ فِيْـهِ؛ وَهُـوَ قَوْلُـهُ: (وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ)[(١)].

وَأمَّا سُمَيَّةُ وَيَاسِرٌ فقُتِلاَ، وَكَانَا أوَّلَ قَتِيْلَيْنِ قُتِلاَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ. وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُمَا بمَكَّةَ: [اصْبرُوا يَا آلَ يَاسِرٍ، فَإنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّـةَ][(٢)]. وَأمَّـا الآخَـرُونَ؛ فَإنَّهُمْ أعْطَوا عَلَى الْعَذَابِ بَعْضَ مَا أرَادَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ كَلِمَةِ الْكُفْرِ وَسَـبِّ الإِسْـلاَمِ؛ وَكَانَتْ قُلُوبُهُمْ مُطْمَئِنَّةً بالإِيْمَان، فَتُرِكُوا وَقَدِمُوا الْمَدِيْنَـةَ، وَفِيْـهِمْ نَـزَلَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿مَنْ كَفَرَ باللهِ مِنْ بَعْدِ إيْمَانِهِ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإِيْمَانِ﴾[(٣)].

ومعنى قوله: (وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ) على هذا التـأويلِ الـذي ذكرنـاهُ: ومِن الناس من يشري نفسَهُ ودينَهُ بمالِهِ. وعن عمرَ وعليٍّ رضي الله عنهما: أنَّهما قالاَ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب معرفة الصحابة: باب ذكر هجرة صهيب: الحديث (٥٧٥٩) عن سعيد بن المسيب مرسلاً. والطـبراني في المعجـم الكبـير: ج ٨ ص٢٩: ذكـر وفـاة صـهيب: الحديث (٧٢٩٠) مرسلاً.

(٢) نقله الهندي في كنز العمال، ونسبه للطبراني والخطيب: النص (٣٣٥٦٨).

(٣) النحل / ١٠٦.

في هذه الآيةِ:(هُوَ الرَّجُلُ يَأْمُرُ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُقْتَلُ عَلَيْهِ)(١) فعلى هذا معنى قولهِ تعالى: (يَشْرِي نَفْسَهُ) أي يبيعُ نفسَهُ يبذلُها في الجهادِ في سبيل الله. وهذا من أسماءِ الأضدادِ، قال الشاعرُ(٢) في شريتُ بمعنى بعتُ:

وَشَرَيْتُ بُرْداً لَيْتَنِي ... مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَهْ

أي هلكتُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ) نُصب على أنه مفعولٌ لهُ؛ كأنَّه قال: لابتغاءِ مرضاةِ الله. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ ؛ أي رحيمٌ بهم يُرَغِّبُهُمْ في الخيرِ، ويُثِيبُهُمْ عليه رأفةً بهم. ويقالُ: إنَّهُ لرأفتهِ ورحمتهِ أمرَهم ببيعِ أنفسهم لكي ينالوا من كريمِ ثوابهِ ما هو خيرٌ لهم.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِيمَنْ أسْلَمَ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ: عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وَأصْحَابُهُ، وَذلِكَ أنَّهُمْ عَظَّمُوا السَّبْتَ وَكَرِهُوا لُحُومَ الإبلِ وَالْبَانِهَا، وَاتَّقَوا أشْيَاءَ كَانُوا يَتَّقُونَهَا قَبْلَ أنْ يُسْلِمُوا. وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّ التَّوْرَاةَ كِتَابُ اللهِ، فَدَعْنَا فَلْنُقِمْ فِي صَلاَتِنَا بِاللَّيْلِ؟ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ وَأمَرَهُمْ أنْ يَدْخُلُوا فِي جَمِيْعِ شَرَائِعِ مُحَمَّدٍ ﷺ)(٣).

ومعناها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً) أي في الإسلامِ، وقال مجاهدٌ:(فِي أحْكَامِ الدِّيْنِ وَأعْمَالِهِ)(٤). وأصلهُ من الاسْتِسْلاَمِ والانقيادِ؛ ولذلك قيلَ للصلحِ: سِلْمٌ. وقال حذيفةُ في هذه الآيةِ: (الإسْلاَمُ ثَمَانِيَةُ أسْهُمٍ: الصَّلاَةُ سَهْمٌ، وَالزَّكَاةُ سَهْمٌ، وَالصَّوْمُ سَهْمٌ، وَالْحَجُّ سَهْمٌ، وَالْعُمْرَةُ سَهْمٌ، وَالْجِهَادُ سَهْمٌ، وَالأمْرُ بالْمَعْرُوفِ سَهْمٌ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ سَهْمٌ. وَقَدْ خَابَ مَنْ لاَ سَهْمَ لَهُ)(٥).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣١٨٠).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص٢١؛ قال القرطبي: البُرْدُ هنا اسمُ غلامٍ.

(٣) في الدر المنثور: ج ١ ص٥٧٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم)). وعن عكرمة قال: ((أخرجه ابن جرير)). وفي جامع البيان عن عكرمة: النص (٣٠٨٨).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣١٩١).

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص٢٣.

وقال الحسنُ ﷺ: (مَعْنَى الآيَةِ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) تَكَلَّمُوا بكَلِمَةِ الإِيْمَان؛ أيْ أقِيْمُوا عَلَى الإِيْمَان) حثَّ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ جميعَ المؤمنين على الإسلامِ والطاعة لِمن يشري نفسه؛ ألا تراهُ قال بعدَ ذلك: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ؛ أي لا تفعلوا فعل الَدِّ الْخِصَامِ. وقيلَ: (وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَان) أي لا تقتفوا آثارَهُ؛ لأنَّ تَرْكَكُمْ شيئاً من شرائعِ الإسلام اتباعٌ للشيطان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ ؛ أي إنه عدوٌّ لكم ظاهرُ العداوة، فإن قيل: كيفَ قال الله تعالى: (إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) وهو لَم يُبْدِ لنا شخصهُ؟ قِيْلَ: قد كانَ إبداؤهُ العداوةَ لأبينا آدمَ عليه السلام حين امتنعَ من السُّجودِ له وقال: أنا خيرٌ منه، فكان إبداؤه وإظهاره العداوةَ لأبينا آدم عليه السلام أبداءً وإظهاراً لنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (كَافَّةً) أي جميعاً مأخوذٌ من: كَكَفْتُ الثَّوْبَ؛ أي جَمَعْتُهُ وَضَمَمْتُ بَعْضَهُ إلَى بَعْضٍ. ومعنى كافَّة في اللغة: مشتقٌ من كَفَّ الشَّيْءَ يَكُفُّهُ؛ أي مَنَعَهُ. وسميت الراحةُ مع الأصابع كفّاً؛ لأنَّها يكفُّ بها عن سائر البدن. ورجلٌ مَكْفُوفٌ: أي كُفَّ بصرهُ عن النظرِ. ومنه قيل لحاشية القميصِ: كُفَّةٌ؛ لأنَّها تَمنعُ الثوبَ من أنْ ينتشرَ. وكلُّ مستطيلٍ فحرفه كُفَّة بالضم، وكل مستديرٍ فحرفه كِفَّةٌ بالكسر نحو: كِفَّةُ الميزانِ.

واختلفَ القراءُ في السِّلْمِ؛ فقرأ ابنُ عباس والأعمش: (السِّلْمِ) بكسر السين هنا وفي الأنفال وسورةِ محمدٍ. وقرأ أهل الحجاز والكسائي بالفتحِ، وقرأ حمزةُ وخلَفٌ في الأنفال بالفتحِ وسائرها بالكسرِ، وقرأ الباقون هنا بالكسرِ والباقي بالفتح، وهما لغتان.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ ؛ أي إن زَلَلْتُمْ؛ أي إن عَدَلْتُمْ عن الطريق المستقيم بالخروجِ عن طاعةِ الله إلى المعصية. وقال ابنُ عباس: (مَعْنَاهُ: فَإنْ مِلْتُمْ إلَى أوَّل شَرِيْعَتِكُمْ مِنْ تَحْرِيْمِ لُحُومِ الإبلِ وَالسَّبْتِ). (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتكُمْ الْبَيِّنَاتُ) أي الدَّلاَلاَتِ وَالْحُجَجِ؛ يَعْنِي مُحَمَّداً ﷺ وَشَرَائِعَهُ، (فَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) أي غالبٌ بالنقمة ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ من ذلك.

وقوله (حَكِيمٌ) أي مُحْكِمٌ في الفعل، حكيمٌ في أمرهِ. ويقالُ: عالِمٌ ذو حكمةٍ فيما شَرَعَ لكم من دينهِ. وقال ابنُ حِبان[1]: (مَعْنَى: فَإِنْ زَلَلْتُمْ؛ أيْ أخْطَأْتُمْ). وقال السديُّ: (فَإِنْ ضَلَلْتُمْ). وقال ابنُ عباس: (يَعْنِي الشِّرْكَ).

وقرأ أبو السمَّالِ العدوي: (فَإِنْ زَلِلْتُمْ) بكسرِ اللاَّم، وفي هذه الآية تشبيهُ العصيانِ بزَلَّةِ القدمِ.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ ؛ افترقَ الناسُ في تفسير هذه الآية على أربعةِ أقوال؛ فرقةٌ منهم يتأولونَها على ظاهرها ويَصِفُونَ الله بالإيتاءِ الذي هو زوالٌ من مكان إلى مكانٍ. وهذا القولُ غير مُرْضٍ تعالى اللهُ عنه. وفرقةٌ يفسرون الإتيانَ تفسيراً مجملاً لا يعدون ظاهر اللفظ، يقولونَ: يأتِي كيفَ شاء بلا كيفٍ. وهذا غير مُرْضٍ أيضاً.

وأما الفرقتان الأُخريان من أهل السُّنَّةِ والجماعة؛ فإحداهما لا يفسِّرون هذه الآية ويقولون: نُؤْمِنُ بظاهِرها ونسكتُ عن الخوضِ في معناها؛ لِما فيه من الاشتباهِ والتشبيه. وقال الكلبيُّ: (هَذَا مِنَ الْمَكْتُومِ الَّذِي لاَ يُفَسَّرُ). وقال ابنُ عباس: (نُؤْمِنُ بِهَا وَلاَ نُفَسِّرُهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْمُتَشَابِهَاتِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾[2]).

وأمَّا الفرقةُ الرابعة فيفسرونها ويردُّون مثلَ هذه المتشابهات إلى الآياتِ المحكماتِ ويقولون: معناها ما ينظرُ الكفارُ بعد قيامِ الحجةِ عليهم، إلا أنْ يأتيَهم أمرُ اللهِ وهو الحسابُ، أو أن يأتيَهم عذابُ اللهِ؛ لأنَّ الإتيانَ لفظٌ مُشْتَبهٌ يحتملُ حقيقةَ الإتيانِ ويحتمل إتيانَ الأمرِ، وقد قامتِ الدلالةُ على أنَّ اللهَ تعالى لا يجوزُ عليه الإتيانُ والمجيءُ والانتقالُ والمزاولةُ؛ لأنَّ ذلك من صفاتِ الأجسام وَالْمُحْدَثِيْنَ، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن ذلكَ، قال عليٌّ ﷺ: (مَنْ زَعَمَ أنَّ اللهَ فِي شَيْءٍ أوْ مِنْ شَيْءٍ أوْ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ أَلْحَدَ؛ لأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ لَكَانَ مُحْدَثاً؛ وَلَوْ كَانَ فِي شَيْءٍ لَكَانَ مَحْصُوراً؛ وَلَوْ كَانَ عَلَى شَيْءٍ لَكَانَ مَحْمُولاً). وإذا كان لفظُ الإتيان مشتبهاً وَجَبَ رَدُّهُ إلى الْمُحْكَمِ

---

(١) الإمام الحافظ مُحَمَّد بن حبان، صاحب الصحيح (٢٧٠-٣٥٤) من الهجرة.

(٢) آل عمران / ٧. (٣) الآية / ٣٣.

نحوُ قولهِ تعالى في سورةِ النحل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلا أنْ تَأْتِيَـهُمْ الْمَلائِكَـةُ أوْ يَـأْتِيَ أمْـرُ رَبكَ﴾(١).

وقال بعضُهم: معناه: هل ينظرونَ إلا أن يأتيَهم الله بظُلَلٍ من الغمامِ وبالملائكةِ أو معَ الملائكة، فتكونُ في معنى الباء، فعلى هذا التأويل زالَ الإشكالُ وسَهُلَ الأمـرُ. وأما ذكرُ الظُّلَّةِ في الآية، فإنَّ الْهَوْلَ إذا بَدَا من الظُّلة المظلمةِ من السحاب كان أعظـمَ وأشدَّ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى في قصة شُعيب: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَـوْمِ الظُّلَّـةِ إِنَّـهُ كَـانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

وأما قوله: (وَالْمَلائِكَةِ) قرأ أبو جعفر بخفضِ (الْمَلائِكَةِ) عطفاً علـى الغمـام؛ أي (والظُّلَلِ) مِن الملائكةِ؛ أي جماعةُ من الملائكـة. قولـه (وَالْمَلائِكَـةُ) وسَمَّاهم الله ظُلَلاً؛ لأن الملائكةَ لا تسيرُ بالأقدام ولكنها تطيرُ بالأجنحة كما تطيرُ الطيرُ. ومن قرأ: (وَالْمَلائِكَةُ) بالرفع؛ وهي قراءةُ الجمهور والإجماع فتقديره: وتأتيهم الملائكةُ في ظُلَلٍ، يدلُّ عليه قراءة أبَي وعبدِالله:(هَلْ يَنظُرُونَ إلا أنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ وَالْمَلائِكَةُ فِي ظُلَـلٍ مِـنْ الْغَمَامِ). والغمامُ: هو السَّحابُ الرقيقُ الأبيض، سُمِّيَ بذلك لأنه يَغُمُّ؛ أي يَسْتِرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقُضِيَ الأَمْرُ) أي المعنى: الحكمُ بإنزال الفريقين منازلهم من الجنة والنـار. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ ؛ أي عواقـب الأمـــور ومصير الخلائق إلى الله تعالى، ومن قرأ (تُرْجَعُ) برفع التاء فعلى ما لم يسم فاعله، ومن قرأ بنصب التاء فمعناه: والى الله تصير الأمور. ومن قرأ بالياء؛ فـلأن تـأنيث الأمـور غيرُ حقيقيٍّ.

قَوْلُهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ﴾ ؛ أي سَلْ يا محمدُ يهودَ أهلِ المدينة كم أعطيناهم؛ أي أعطينا أسلافَهم وإمامَهم من علامـةٍ واضحةٍ مثل العصا، واليدِ البيضـاء؛ وفَلْـقِ البحـر؛ وتظليـلِ الغمـام؛ وإنـزال الْمَـنِّ والسلوى وغيرِ ذلك مما كان في وقتِ موسى عليه السلام مـن المعجـزات، كمـا آتيتُـكَ مـن المعجزاتِ فلم يُؤْمِنْ أولئكَ كما لم يؤمن هؤلاءِ الكفار.

---

(١) الشعراء / ١٨٩.

وهذا السؤالُ سؤالُ تقريعٍ وإنكار للكفار وتقرير لقلب النبي ﷺ لا سؤالَ استفهامٍ؛ لأنه ﷺ كان لا يحتاجُ إلى السؤال. والمعنى: كما أن هؤلاءَ لم يؤمنوا بالآياتِ البينات التي أعطيتَها فلا تَغتَمنَّ. و(سَلْ بَنِي إسْرَائِيلَ) أي أنظرها في آياتِ بني إسرائيلَ كم أعطيناهم من علاماتٍ واضحات في زمنِ موسى عليه السلام .

قولـه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾ ؛ أي من يغيِّر حُجَّةَ الله الدالة على أمرِ نبيِّه ﷺ مِن بعد ما جاءته حجةُ الله بأن يجحدَها أو يصرفَها عن وجهها، (فَإنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَاب) أي شديدُ التعذيب لمن استحقَّه، وسَمى اللهُ تعالى الحَجَّ نعمةً؛ لأنَّها من أعظمِ النِّعَمِ على الناسِ في أمرِ الدين.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ ؛ نزلت هذه الآيةُ في مشركي العرب أبي جهلٍ وأصحابهِ، كانوا يتنعَّمون بما بَسَطَ الله لهم في الدنيا من المال ويكذبون بالمعادِ، ويسخرونَ من المؤمنين الذين يرفضونَ الدنيا ويُقبلون على الطاعةِ والعبادةِ، ويقولون: لو كان محمَّدٌ نبياً لاتبعه أشرافُنا، واللهِ ما يتبعهُ إلا الفقراءُ مثل ابن مسعودٍ وعمار وصهيب وسالم وأبي عبيدةَ بن الجراح وبلال وخبَّاب وعامرِ بن فهيرة وغيرهم، هكذا قالَ الكلبيُّ.

وقال مقاتلُ: (نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِيْنَ: عَبْدِاللهِ بْنِ أبَيٍّ وَأصْحَابِهِ)[(١)]، كَانُوا يَتَنَعَّمُونَ فِي الدُّنْيَا بِمَا بَسَطَ اللهُ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ، وَيَسْخَرُونَ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِيْنَ وَفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِيْنَ، وَيَقُولُونَ: انْظُرُوا إلَى هَؤُلاَءِ الَّذِيْنَ يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ ﷺ أنَّهُ يَغْلِبُ بهِمْ ! وَكَانُوا يُعَيِّرُونَهُمْ بِقِلَّةِ ذَاتِ أيْدِيْهِمْ. وقال عطاءُ: (نَزَلَتْ فِي عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَرُؤَسَائِهِمْ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيْرِ، سَخِرُوا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِيْنَ فَوَعَدَهُمُ اللهُ تَعَالَى أنْ يُعْطِيَهُمْ أمْوَالَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ بغَيْرِ قِتَالٍ أسْهَلَ شَيْءٍ وَأيْسَرَهُ).

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ١ ص١١٠.

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ:[مَـنِ اسْـتَذَلَّ مُؤْمِناً أوْ مُؤْمِنَـةً أوْ حَقَّـرَهُ لِفَقْرِهِ وَقِلَّةِ ذاتِ يَدِهِ، شَهَّرَهُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَفْضَحُـهُ، وَمَـنْ بَـهَتَ مُؤْمِنـاً أوْ مُؤْمِنَةً أوْ قَالَ فِيْهِ مَا لَيْسَ فِيْهِ، أقَامَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى تَلٍّ مِنْ نَارٍ حَتَّى يَخْـرُجَ مِمَّـا قَـالَ فِيْهِ، وَإنَّ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ اللهِ أعْظَمُ مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أحَـبُّ إلَـى اللهِ تَعَـالَى مِنْ مُؤْمِنٍ تَائِبٍ أوْ مُؤْمِنَةٍ تَائِبَةٍ، وَإنَّ الْمُؤْمِنَ يُعْرَفُ فِي السَّمَاءِ كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُـلُ أهْلَـهُ وَوَلَدَهُ][(١)]. وقال أبو بكرٍ الصدِّيـق رضي الله عنه: (لاَ تَحْقِـرَنَّ أحَـداً مِـنَ الْمُسْـلِمِيْنَ، فَـإنَّ صَغِيْرَ الْمُسْلِمِيْنَ عِنْدَ اللهِ كَبِيْرٌ). وقال يحيى بن مُعاذ: (بئْسَ الْقَوْمُ قَوْمٌ إذَا اسْتَغْنَى الْمُؤْمِنُ بَيْنَـهُمْ حَسَدُوهُ، وَإذا افْتَقَرَ بَيْنَهُمْ اسْتَذَلُّوهُ).

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي فوقهم في الدرجةِ، يعـني الذينَ اتَّقَوا الشركَ والفواحش والكبـائرَ فـوق الكفـار يـوم القيامـة، في الجنـةِ يكـون المؤمنون في عِلِّيِّيْنَ والكفارُ في الجحيم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾ ﴾؛ قال ابـنُ عباس: (يَعْنِي كَثِيْراً بغَـيْرِ مِقْـدَارٍ؛ أيْ يَـرْزُقُ رزْقـاً كَثِيْراً لاَ يُعْـرَفُ حِسَـابُهُ). وقـال الضحاكُ: (يَعْنِي بغَيْرِ تَبعَةٍ، يَرْزُقُهُ فِي الدُّنْيَا وَلاَ يُحَاسِبُهُ فِي الآخِرَةِ).

وَقِيْلَ: معناهُ: أن الله تعالى لا يحاسَب على ما يرزقُ؛ لأنه لا شريكَ له فيُمَانِعـهُ ولا قسيمَ فينازعهُ، ولا يقال له: لِم أعطيتَ هذا وحَرَمْتَ هذا، ولا لِـم أعطيـتَ هـذا أكثرَ مِن هذا؛ لأنه عَزَّ وَجَلَّ لا يُسأل عما يفعلُ. وقيل: معناهُ: يعطي مِن غير أن يخافَ نفاذَ خزائنهِ، فلا يحتاجُ إلى حساب ما يخرجُ منها؛ إذ كـان الحسـابُ مـن المعطي إنَّمـا يكون ليعلمَ قدر العطاءِ لِئلا يتجاوز في عطائهِ إلى ما يُجْحِـفُ بـه؛ فـهو لا يحتـاجُ إلى الحساب لأنه عالِم غنيٌّ لا يخاف نفادَ خزائنه؛ لأنَّها بين الكافِ والنون. وقيل: معنـاهُ: (وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ) من الكفار وغيرهم (بغَيْرِ حِسَابٍ) أي بغـيرِ مقـدار لا يعـرف حسابه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص٢٣. وفي هامش اللباب في علوم الكتاب: ج ٣ ص٤٩٥؛ قـال المحقق: ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة: ج ٢ ص٣١٦، وعزاه ابـن لأل إلى (مكـارم الأخـلاق) من حديث علي، وحكم عليه بالوضع.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: لَوْلاَ أنْ يَجْزَعَ عَبْدِي الْمُؤْمِنُ لَعَصَبْتُ الْكَافِرَ بعَصَابَةٍ مِنْ حَرِيْرٍ وَلَصَبَّيْتُ الدُّنْيَا عَلَيْهِ صَبّاً]. ومصداقُ ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلا أنْ يَكُونَ النَّاسُ أمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾(١). وقال ﷺ: [لَوْ أنَّ الدُّنْيَا عِنْدَ اللهِ تَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى الْكَافِرَ مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ](٢).

وعن قُطْرُبَ: في قولِهِ تعالى:(وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بغَيْرِ حِسَابٍ): (أيْ أنَّ اللهَ يُعطِي الْعَدَدَ الْمُتَنَاهِي لاَ مِنْ عَدَدٍ أكْثَرَ مِنْهُ كَمَا يَفْعَلُهُ الْعِبَادُ، وَلَكِنْ يُعْطِي الْمُتَنَاهِي مِنْ غَيْرِ الْمُتَنَاهِي). فإن قيل: أليسَ اللهُ تعالى قال في آيةٍ أخرى: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾(٣) فكيفَ قال في هذه الآيـة ﴿بغَيْرِ حِسَابٍ﴾؟ قيـل: العطـاءُ مـن جهـة الله عَزَّوَجَلَّ على ضربين؛ أحدُهما: ثـوابٌ، والآخـر: تَفَضُّـلٌ، فمـا كـان ثوابـاً كـان لـه حسابٌ؛ لأنه يكون على قدر الاستحقاقِ بالعمل.

وأما التفضُّلُ فلا يكون له حسابٌ كما قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾(٤). والمرادُ بقوله: ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ الثـوابَ دون التفضـلِ، والمـرادُ بقولـه: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بغَيْرِ حِسَابٍ﴾ التفضُّلُ، فإن قيل: كيفَ قال: بغيرِ حساب؛ وقد روي عن النبي ﷺ أنه قالَ: [حَلاَلُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عَذَابٌ](٥).

قِيْلَ: روي عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في معنى الحساب في المؤمنـين: العـرضُ، [وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ](٦).

---

(١) الزخرف / ٣٣.
(٢) علقه الهندي في كنز العمال: النص (١٨٦٠٣).
(٣) النبأ / ٣٦.
(٤) فاطر / ٣٠.
(٥) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: الحديث (٢٩٧٧)؛ قال العراقي: ((رواه ابـن أبـي الدنيـا والبيهقي في الشعب من طريقه موقوفاً على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع)). وعلقه الديلمـي في الفردوس بمأثور الخطاب: النص (٨١٩٢) عن ابن عباس بلفظ: [يَا ابْنَ آدَمَ مَا تَصْنَعُ؟ الدُّنْيَـا حَلاَلُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عَذَابٌ].
(٦) أخرجه البخاري في الصحيح:كتاب الرقاق: باب من نوقش الحساب عذب: الحديث (٦٥٣٦)، وفي الحديث (٦٥٣٧) بلفظ: [وَلَيْسَ أحَدٌ يُنَاقِشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ إلاَّ عُـذِّبَ]. ومسـلم في الصحيح: كتاب الجنة: باب إثبات الحساب: الحديث (٧٩ و٨٠/ ٢٨٧٦).

فإن قيل: مَن الذي زَيَّنَ للذين كفروا الحياةَ الدنيا؟ قيل: ذهبَ بعضُ المفسرين إلى أن الذي زيَّنَها لهم إبليسُ كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾(١). وعن الحسن أنهُ قال: (زَيَّنَهَا وَاللهِ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، فَلاَ أَحَدَ أَذمَّ لِلدُّنْيَا مِمَّنْ خَلَقَهَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(٣)).

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ الله تعالى هو الذي زيَّنها لهم؛ إذ خلقَ فيها الأشياء المعجِبةَ وركَّب الشهوات في قلوب العباد؛ فنظرَ الذين كفروا إلى الدنيا بأكثر من مقدارها؛ فاغترُّوا بذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(٤). قالوا: إنَّما فعلَ الله ذلك؛ لأن التكليفَ لا يتمُّ إلا مع الشهوةِ، فإن الإنسانَ لا يجوز أن يكلَّفَ إلا بأن يُدعى إلى ما تَنفِرُ عنه نفسهُ أو يزجر عما تَتُوقُ إليه نفسه، وهو معنى قوله ﷺ: [حُفَّتِ الْجَنَّةُ بالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ](٥).

وقرأ مجاهدُ وحميد: (زَيَّنَ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوا) بفتح الزاء، على معنى زَيَّنَهَا الله عَزَّوَجَلَّ لهم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (مَعْنَاهُ: كَانَ النَّاسُ أَهْلَ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ: كُفَّاراً كُلُّهُمْ فِي ابْتِدَاءِ عَهْدِ نُوحٍ ﷺ وَكَذلِكَ فِي عَهْدِ إبْرَاهِيْمَ) يعني أنَّ أممَ الأنبياء عليهم السلامُ الذين بُعِثَ إليهم الأنبياءُ كانت كفاراً كما كانت هذه الأمةُ. وجائزٌ أن يقال: كانت أمةً واحدة على الكفر وإن كان فيهم مسلمونَ؛ إذا كان المسلمون قليلين مقهورينَ في البقية؛ لانصراف اسم الأمةِ إلى الأعمِّ الأكثرِ. وقال قتادةُ والضحاك: (كَانَ النَّاسُ أَمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الْحَقِّ) أي كانوا مؤمنين في زمن آدم ﷺ وبعد وفاته إلى مبعث نوح ﷺ، وكان بينَ آدم ونوح عشرةُ قرون

(١) الأنفال / ٤٨. (٢) النساء / ٧٧.

(٣) الحديد / ٢٠. (٤) الكهف / ٧.

(٥) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الجنة: الحديث (١/ ٢٨٢٢). والترمذي في الجامع: أبواب صفة الجنة: الحديث (٢٥٥٩).

كلهم على شريعةٍ واحدة من الحقّ والهدى. ثم اختلفوا في زمنِ نوح عليه السلام فبعثَ الله إليهم نوحاً وكان أوّلَ نبيٍّ بُعِثَ، ثم بُعِثَ بعده النبيونَ. وقال الكلبيُّ: (هُمْ أهْلُ سَفِيْنَةِ نُوحٍ، كَانُوا كُلُّهُمْ مُؤْمِنِيْنَ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ وَفَاةِ نُوحٍ، فَبَعَثَ اللهُ إلَيْهِمْ نَبِيَّهُ هُودُ عليه السلام).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ ؛ أي مبشِّرين لِمن أطاعَ الله تعالى بالجنةِ، ومنذرينَ بالنار والسُّخطِ لِمن عصاهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي وأنزلَ عليهم الكتاب؛ إذِ الأنبياءُ صلوات الله عليهم لم يكونوا منذرينَ حتى ينْزل الكتابُ معهم، وقوله: (بالْحَقِّ) أي بالعدل. وقولهُ: ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ ؛ أي ليقضيَ الكتابُ بينهم بالحكمَة، وأضافَ الحكمَ إلى الكتاب وإنْ كان اللهُ تعالى هو الذي يحكمُ على جهةِ التفخيم لأمرِ الكتاب. وقولهُ: (فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) أي من أمرِ الدين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي ولم يختلفْ في أمرِ الدين وبعثِ النبيين إلا الذين أعطوا الكتاب من بعدِ ما جاءتْهم الدلالاتُ الواضحات من اللهِ. وقوله: (بَغْيًا بَيْنَهُمْ) نُصِبَ على أنه مفعولٌ له؛ أي لم يختلفوا إلا للبغيِ والحسدِ والتفرُّق؛ وذلك أنَّ أهلَ الكتاب كانوا عَلِمُوا حقيقةَ أمرِ النبي ﷺ في كتبهم قبل مَبْعَثِهِ، فلما بعثهُ اللهُ كفروا به إلا قليلاً منهم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾ ؛ أي فأرشدَ اللهُ المؤمنين (لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ) الذي اختلفَ فيه أهلُ الزَّيْغِ، (بإذْنِهِ) أي بتوفيقهِ وقضائه وعلمه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ ؛ أي واللهُ يُوَفِّقُ لِمعرفته من يشاءُ ممن كان أهلاً لذلك إلى طريقٍ واضح يرضاهُ الله تعالى.

والأُمَّةُ في اللغة على وجوهٍ؛ منها الجماعةُ كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾(١) وقوله: ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾(٢) أي جماعاتٍ وقرون. ومنها الدينُ والملة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾(٣). ومنها الحينُ والزمانُ كقوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾(٤). ومنها الرجلُ القدوةُ للناس في الخير قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾(٥) ويسمَّى الإمامُ أُمَّةً أيضاً؛ لأنه يجمعُ خصالَ الخير.

ومنها الرجلُ المنفرد بدينٍ على حِدَةٍ لا يُشْرِكُهُ فيه غيرُه قال ﷺ: [يُبْعَثُ زَيْدُ ابْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ أُمَّةً وَاحِدَةً](٦) وكان قد أسلمَ قبل خروجِ النبي ﷺ ولم يكن بمكة يومئذٍ مؤمنٌ غيرُه، ثم تابعه بعد ذلك ورقةُ بن نوفل، وعاشَ ورقةُ إلى وقتِ خروج النبي ﷺ.

ومنها القامة؛ يقال: فلان حسن الأُمَّة؛ أي القامة. والإِمَةِ بالكسر النِّعْمَةُ؛ يقال: فلان ذو إِمَةٍ؛ أي ذو نعمةٍ.

---

(١) القصص / ٢٣. (٢) الأعراف / ٣٨.
(٣) الزخرف / ٢٢. (٤) يوسف / ٤٥.
(٥) النحل / ١٢٠.

(٦) هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبدالعزى القرشي العدوي، أحد حكماء العرب، وهو ابن عم عمر بن الخطاب ﷺ، لم يدرك الإسلام، وكان يكره عبادة الأوثان، ولا يأكل مما ذبح عليها. ورحل باحثاً عن الدين الحق؛ فلم تستمله اليهودية ولا النصرانية، وعرف بدين إبراهيم عليه السلام اسماً، فأخذ يعبد الله على دين إبراهيم منتظراً بلوغ الدعوة وجاهر بعدائه للأوثان، فتألبت عليه قريش، فأخرجوه من مكة، فانصرف إلى (حراء) فسلط عليه عمه (الخطاب) شباباً لا يدعونه يدخل مكة؛ فكان يدخلها سرّاً، وكان عدوّاً لِوَأْدِ البنات، ولا يعلم ببنت يرادُ وَأْدُهَا إلا قصد أباها وكفاه مؤونتها، فيربيها حتى إذا ترعرعت عرضها على أبيها، فإن لم يأخذها، بحث لها عن كفء فزوجها به، رآه النبي قبل البعثة، وسُئل عنه فقال: [يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ]. ينظر: دلائل النبوة للبيهقي: ج ٢ ص١٠٢، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب معرفة الصحابة: سعيدُ بن زيدِ بن عَمْرو سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِزَيْدِ بْنِ عَمْرٍو، فَقَالَ: [يُبْعَثُ يَوْمَ ...]: الحديث: ج ٣ ص٤٣٩، ٤٤٠ .

وأما الكتبُ المنَزَّلة قبلَ القرآن فقد روي أنَّ الله أنزلَ على شيث خمسينَ صحيفةً وكان يعملُ بها هو ومن معه ومَن بعدهُ إلى زمن إدريس، ثم أنزلَ اللهُ على إدريسَ عليه السلام ثلاثينَ صحيفةً فكان يعملُ بها إلى زمنِ إبراهيم، ثم أنزلَ على إبراهيمَ عشرَ صحائفَ، فكان يعملُ بها إلى زمن موسى، ثم أنزلَ على موسَى عليه السلام عشرَ صحائفَ قبل التوراةِ، فكان يعملُ بها موسى ومن معه إلى غرَقِ فرعونَ، ثم أنزلَ الله التوراة، فكان يعملُ بها إلى زمنِ داود، ثم أنزلَ الله تعالى الزَّبُورَ على داودَ، فكان يعملُ بها إلى زمنِ عيسى عليه السلام، ثم أنزلَ اللهُ الإنجيلَ فكان يعمل بها إلى بَعْثِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ثم أنْزَلَ اللهُ الفرقانَ ناسِخاً لِمَا قبله من الكُتب.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ ؛ أي أظننتُم أيها المؤمنون أنْ تدخلوا الجنةَ ولم تصبكم صِفَةُ الذين مُحِنُوا من قبلكم؛ أي ولم تُبْتَلَوا كما ابْتُلِيَ الذين من قبلكم،(مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ) أي الشدَّةُ وهي القتلُ، (وَالضَّرَّاءُ) والبلاءُ والفقرُ والمرض. وقيل: البأساء: نقيضُ النعماءِ، والضرَّاء: نقيض السرَّاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي حُرِّكُوا وخوِّفوا (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) أي جاهدوا حتى قال كلُّ رسول بُعِثَ إلى أمته: متى فتحُ الله؟ يقول الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ ؛ يعني ألا إنَّ نصرَ الله لك ولأمتكَ يا محمدُ قريبٌ عاجلٌ كما نَصَرْتُ الرسلَ قبلك، والمثلُ قد يُذكر بمعنى الصفةِ كما قال الله تعالى:﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾[1] أي صفةُ الجنة، ذهب السديُّ إلى أن هذه الآيةَ نزلت بالمدينةِ يوم الخندق حين اشتدَّت مخافةُ المؤمنين من العدوِّ.

ووجهُ إيصال هذه الآية بما قبلها: أنَّ الله تعالى قالَ فيما تقدَّم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً) ثم قالَ: (فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا). وكان المسلمون اتَّكَلُوا على مجرَّد اهتدائهم، فبيَّن اللهُ في هذه الآيةِ أنه لا يجوزُ الاتِّكالُ على مجرَّدِ

(١) الرعد / ٣٩.

الإيمان من غيرِ مُكَابَدَةِ ما قَاسَاهُ السلفُ من المؤمنين كما قالَ تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[١].

وأما القراءةُ في قوله تعالى: (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ) من نصبَ فعلَى الأصلِ؛ لأن (حتى) تنصبُ الفعلَ. ومن قرأ بالرفعِ أدخلَ (حتى) على جملةِ ما بعده لا على الفعلِ خاصة؛ كأنه قالَ: حتى الرسولُ يقولُ، فلا يظهرُ عمل (حتى). قال الشاعرُ:

فَيَا عَجَبَا حَتَّى كُلَيْبُ تَسُبُّنِي كَأَنَّ أَبَاهَا نَهْشَلٌ أَوْ مُجَاشِعُ

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ؛ الآية قال ابنُ عباس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ جَوَاباً عَنْ سُؤَالِ عَمْرو بْنِ الْجَمُوحِ الأَنْصَارِيّ لَمَّا حَثَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الصَّدَقَةِ وَرَغَّبَ فِيْهَا النَّاسَ، وَذَلِكَ قَبْلَ نُزُولِ الْفَرَائِضِ؛ قَالَ عَمْرُو: يَا رَسُولَ اللهِ، بِمَاذَا نَتَصَدَّقُ؟ وَعَلَى مَنْ يُتَصَدَّقُ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٢]. ومعناهُ يسألونَكَ أيَّ شيءٍ يتصدقون به،فقُل لهم: ما تصدقتم به من مال: فعلى الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ؛ والضِّيف النازل بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ ؛ أي وما تفعلوا مِن خيرٍ من وجوه البرِّ فإنَّ اللهَ به عليمٌ يحصيَهُ ويجازيكم عليه، لا يضيعُ عنده عملُ عاملٍ، فإن قيل: كيفَ يطابق في هذه الآيةِ جوابُ هذا السؤال؛ لأنَّ السؤال إنَّما وقعَ على المنفق، والجوابُ إنَّما وقعَ على المنفَق عليه؟ قيل: إن الجوابَ مطابقٌ لهذا السؤال؛ لأن قوله: و(مَا أنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ) يتناول القليلَ والكثير لشمول اسمِ الخير، فكأن الجواب صدرَ عن القليل والكثيرِ مع بيان من تُصرف إليه النفقة؛ لأن المسؤولَ إذا كان حكيماً يَعْلَمُ ما يحتاج إليه السائلُ؛ أجابَ عن كل ما يحتاجُ إليه، كما روي عن رسولِ الله ﷺ أنَّهُ سُئِلَ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ؛ فَقَالَ: [هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ؛ الْحِلُّ

---

(١) العنكبوت / ٢.

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص٥٨٥؛ قال السيوطي: ((وأخرج ابن المنذر عن ابن حبان قال:... وذكره)).

مَيْتَتُهُ][١]. وإنَّما قالَ ذلك لأنه عَلِمَ أنَّهم لَمَّا جهلوا حُكْم ماءِ البحر، فإنَّهم أشدُّ جهلاً بحكمِ ما فيه من المأكول، كذلك هؤلاء لَمَّا جهلوا الْمُنْفَقَ كان جهلهُم بالْمُنْفَقِ عليهم أكثرَ؛ فلهذا ذكرَ الله المنفَقَ عليهم مع ذكر المنفَق.

واختلفوا في هذه النفقةِ المذكورة؛ هل هي واجبةٌ أم لا؟ قال الحسنُ: (الْمُرَادُ بهَا التَّطَوُّعُ عَلَى مَنْ لاَ يَجُوزُ وَضْعُ الزَّكَاةِ فِيْهِ كَالْوَالِدَيْنِ وَالْمَوْلُودِيْنَ؛ وَوَضَعَ الزَّكَاةَ فِيْمَنْ يَجُوزُ وَضْعُهَا فِيْهِمْ). وقال السديُّ: (هَذِهِ الآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بآيَةِ الزَّكَاةِ)[٢]. والصحيح أنَّها ثابتةُ الحكمِ عامَّة في الفرضِ والتطوع؛ لأن الآية متى أمكنَ استعمالُها لم يَجُزِ الحكمُ بنسخِها، ويحتملُ أن يكون المراد بها النفقةُ على الوالدين والأقربين إذا كانوا محتاجين[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ ((.....))[٤]: (لَمَّا كَتَبَ اللهُ الْجِهَادَ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَكَرِهَتْهُ نُفُوسُهُمْ، وَقَبلَتْهُ قُلُوبُهُمْ، وَأحَبَّ اللهُ تَعَالَى أنْ يُطَيِّبَ نُفُوسَهُمْ بهَذِهِ الآيَةِ).

وقيلَ في وجهِ اتصالها بما قبلها: أنَّ ما قبلَها ذكرَ التعبُّدَ بالنفقةِ التي تَشُقُّ على البدن، وفي هذه الآية ذكرَ ما لا شيءَ في التعبُّدِ أشقُّ منه وهو القتالُ. ومعنى الآية: فُرِضَ عليكم القتالُ وهو شاقٌّ عليكم، وأرادَ بالكراهةِ كراهةَ الطبعِ لا عدمَ الرضا بالأمرِ، وهذا كما يكرهُ الإنسانُ الصومَ بالصيف من جهةِ الطبع، وهو مع ذلك يحبُّه ويرضاه من حيث إنَّ الله أمرهُ به.

---

(١) تقدم.

(٢) أخرج الطبري في جامع البيان: النص(٣٢٣٧): قال السدي: (يوم نزلت هذه الآية لم تكن زكاة، وإنما هي النفقة ينفقها الرجل أهله، والصدقة يتصدق بها. فنسختها الزكاة).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص٣٧؛ قال القرطبي: ((وقال ابن جريج وغيره: هي ندبٌ؛ والزكاة غير الإنفاق، فعلى هذا لا نسخ فيها، وهي مبيِّنة لمصارف صدقة التطوع، فواجب على الرجل الغني أن ينفق على أبوَيه المحتاجين ما يصلحهما في قدر حالهما من حاله، من طعام وكسوة وغير ذلك)).

(٤) أسقطه الناسخ سهواً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ ﴾ ؛ أي لعلَّكم تكرهونَ الجهادَ وهو خير لكم لِما فيه من النصـر لدينِ الله تعالى على أعداء الله؛ والفوز بالغنيمة مع عِظَمِ المثوبة، وإدراكِ مَحِلِّ الشُّهداء (وَعَسَى أنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) أي لعلَّكم تحبُّون القعودَ عن الجـهاد وهـو شـرٌّ لكم، تُحرمون الفتحَ والغنيمة والشهادةَ، ويتسلطُ عليكم العدوُّ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ ؛ أي يعلـمُ مـا فيه مصلحتُكم وما هو خيرٌ لكم في عاقبة أموركم وأنتم لا تعلمون ذلك، فبـادرُوا إلى ما أمرتم به إذ ليس كلُّ ما تشتهون خيراً، ولا كل ما تحذرون شرّاً.

وفي هـذه الآيـة دلالـةٌ علـى فـرض القتـال كمـا قـال تعـالى: ﴿كُتِـبَ عَلَيْكُـمْ الصِّيَامُ﴾(١) وأراد به فرضَ الصيام. ثم لا يخلو القتـالُ المذكـور في هـذه الآيـة مـن أن يرجع إلى معهودٍ قد عرفهُ المخاطَبون وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَـبيلِ اللهِ الَّذِيـنَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾(٢) وقولهُ: ﴿وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾(٣).

وتكونُ هذه الآية تأكيداً لذلك القتلِ المعهود الذي عُلم حكمه، فيكونُ القتـال في هذه الآية راجعاً إلى جنسِ القتال، فتكون هذه الآية مجملـةً مفتقـرةً إلى البيـان؛ لأن من المعلومِ أن الله تعالى لم يأمُرْ بالقتال الناسَ كلهم، فـلا يصـحُّ اعتقـادُ العمـوم فيـه، فكان بيانُ هذا المجملِ بقولهِ تعالى:﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَلا بالْيَوْمِ الآخِـرِ﴾(٤) وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾(٥).

قوله عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ قال ابنُ عباسٍ في سبب نـزول هـذه الآيـة: أنَّ النَّـبيَّ ﷺ بَعَـثَ ابْـنَ عَمَّتِـهِ عَبْدَاللهِ بْنَ حَجْشٍ(٦) قَبْلَ قِتَالِ بَدْرٍ، وَبَعَثَ مَعَـهُ ثَمَانِيَـةَ رَهْـطٍ مِـنَ الْمُـهَاجِرِيْنَ وَهُـوَ

---

(١) البقرة / ١٨٣. (٢) البقرة / ١٩٠. (٣) البقرة / ١٩١.

(٤) التوبة / ٢٩. (٥) التوبة / ٥.

(٦) عبدالله بن جحش الأسدي: أمه أميمة بنت عبدالمطلب. أسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقـم، هاجر الهجرتين، أخته زينـب بنـت جحـش زوج النـبي ﷺ. وأول لـواء عقـد رسـولُ الله كـان=

أمِيْرُهُمْ، كَتَبَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ كِتَاباً، وَقَالَ لَهُ: [إذا نَزَلْتَ مَنْزِلَتَيْنِ، فَافْتَحِ الْكِتَابَ وَاقْرَأْهُ عَلَى أصْحَابِكَ، ثُمَّ امْضِ لِمَا أمَرْتُكَ بِهِ، وَلاَ تُكْرِهْ أحَداً مِنْ أصْحَابِكَ عَلَى السَّيْرِ مَعَكَ].

فَسَارَ عَبْدُاللهِ حَتَّى بَلَغَ مَنْزِلَتَيْنِ، ثُمَّ فَتَحَ الْكِتَابَ فَإذَا فِيْهِ: [بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ، أمَّا بَعْدُ: فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ بِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنْ أصْحَابِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بَطْنَ نَخْلَةَ، فَتَرْصُدَ بِهَا عِيرَ قُرَيْشٍ، لَعَلَّكَ تَأْتِيْنَا مِنْهُمْ بِخَبَرٍ. وَالسَّلاَمُ.]. فَقَالَ عَبْدُاللهِ: سَمْعاً وَطَاعَةً لأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَانْطَلَقَ الْقَوْمُ مَعَهُ حَتَّى وَصَلُوا بَطْنَ نَخْلَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ فَنَزَلُوا هُنَاكَ.

فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إذْ مَرَّ بِهِمْ عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيِّ فِي عِيْرٍ لِقُرَيْشٍ فِي أوَّلِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبَ، وَالْمُؤْمِنُونَ يَظُنُّونَ أنَّهَا آخِرُ يَوْمٍ مِنْ جُمَادَى الأُخْرَى، فَأَمَرَ عَبْدُاللهِ أنْ يَحْلِقُوا رَأسَ عُكَاشَةَ لِيُشْرِفَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَيَظُنُّوا أنَّهُمْ عُمَّارٌ فَيَأْمَنُوا. فَفَعَلَ ذلِكَ وَأمِنَهُ الْمُشْرِكُونَ، وَقَالُوا: قَوْمٌ عُمَّارٌ لاَ بَأسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ.

وَرَمَى وَاقِدُ بْنُ عَبْدِاللهِ عَمْرَو بْنَ الْحَضْرَمِيِّ فَقَتَلَهُ وَاسْتَأْسَرَ بَعْضَ الْمُشْرِكِيْنَ، وَهَرَبَ بَعْضُهُمْ إلَى مَكَّةَ، وَاسْتَاقَ الْمُسْلِمُونَ الْعِيْرَ، فَعَيَّرَهُمُ الْمُشْرِكُونَ بِذَلِكَ وَقَالُوا: اسْتَحَلَّ مُحَمَّدٌ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، شَهْراً يَأْمَنُ فِيْهِ الْخَائِفُ وَيُطْلَقُ فِيْهِ الأَسِيرُ. وَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أمْرِ الْغَنِيْمَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)[١].

ويقال: لَمَّا أمرَ الله المسلمين بالقتال، ظَنُّوا عمومَ الأمرِ في جميع الشهور، فسألُوا رسول الله ﷺ ليعرفوا، فنَزلت هذه الآيةُ. والقولُ الأول أقربُ إلى ظاهرِ القرآن.

ومعنى الآيةِ: (يَسْأَلُونَكَ) عن قتالٍ في (الشَّهْرِ الْحَرَامِ) لأن قوله: (قِتَالٍ فِيهِ) بدلٌ الاشتمال عن الشهرِ الحرام، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) أي القتَالُ في

=لعبدالله ابن جحش. استشهد يوم أحد ودفن هو وحمزة في قبر واحد. ترجمه ابن عبدالبر في الاستيعاب: الرقم (١٥٠٢).

(١) السيرة النبوية لابن هشام: سرية عبدالله بن جحش: ج ٢ ص٢٥٢. وطبقات ابن سعد: ج ٢ ص١٠: سرية عبدالله الأسدي.

الشهر الحرام عظيمُ الذنب عند اللهِ تعالى، ثم استأنفَ الكلام فقال: (وَصَدٌّ عَنْ سَبيلِ اللهِ) أي منعُ الناسِ عن الكعبة أن يأتوها ويطوفوا بها (وَكُفْرٌ بِهِ) أي وكفرٌ بالله تعالى، ويقال: بالحجِّ، أو كفرٌ بالمسجد الحرام.

وَقِيْلَ: فيه تقديمٌ وتأخير، تقديرهُ: وصدٌّ عن سبيل الله وعن المسجدِ الحرام وكفرٌ بالله وإخراج أهل المسجدِ الحرام منه أعظمُ عقوبة عند الله من القتال في الشهرِ الحرام، أي الكفارُ مع هذا الإحرام أولَى بالعنتِ ممن قَتل مشركاً في الشهر الحرام كما قالَ تعالى: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ ؛ أي الشركُ بالله أعظم عقوبةً وإثماً من القتال.

ومعنى كفرهم بالمسجدِ الحرام: أنَّ الله جعلَ المسجد الحرام للمؤمنين ولعبادتِهم إياهُ فيه، فلما جعله الكفارُ لأوثانِهم ومنعوا المسلمين منه، كان ذلك كفراً منهم بالمسجد الحرامِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ ؛ معناهُ: لا يزال أهلُ مكة يقاتلونكم أيها المسلمون حتى يصرفونكم عن دينكم الإسلام إلى دينهم الكفر إن قَدِرُوا على ذلك، ثم حذَّر الله المؤمنين ليثبتوا على الإسلام فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ ؛ أي مَن يَرْجِعْ منكم عن دين الإسلام فيَمُتْ على كفرِهِ، (فَأُوْلَئِكَ حَبطَتْ أعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) أي التي عملوها للآخرةِ؛ أي لا يبقَى لعمل من أعمالكم ثوابٌ يجازون به في الدارين، الآية: (وَأوْلَئِكَ أصْحَابُ النَّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) مقيمون دائمونَ.

والصَّدُّ والصَّرْفُ والمنعُ، يقال: صَدَّ يَصُدُّ صَدّاً؛ إذا صَرَفَ غيرَهُ عن الشيء، وصَدَّ يَصِدُّ صدوداً؛ إذا أعرضَ بنفسه. ومن قرأ (يَرْتَدِدْ) بدالين فهو لغةُ أهل الحجاز، أظهروا التضعيف حذراً من التقاءِ الساكنين، ومن قرأ (يَرْتَدَّ) بالتشديد فهو لغةُ بني تَميم أدغموا الحرفين من جنسٍ واحد وحرَّكوه إلى الفتحةِ. وقوله: (فَيَمُتْ) جزمَ بالعطف على (يَرْتَدَّ) ولو كان جواباً لكان رفعاً. وأكثرُ الأمة على أن النهيَ عن القتال

في الشهر الحرام منسوخٌ؛ نسخته سورةُ براءة، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَلا بالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية[١]؛ لأنَّها نزلت بعد حظرِ القتال في الشهر.

فإن قيل: إذا كان نفسُ الارتداد يُحْبطُ العمل حتى يبطل حجةَ الذي أداه، فأينَ فائدة قوله: (فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ)؟ قيل: إنَّما ذكرَ الله تعالى في هذه الآية أمرَ الآخرة لا أمراً يرجع إلى إحباطِ عمله في الماضي؛ إذ المعلومُ من حال المرتدِّ أنه إذا عاد إلى الإسلامِ والتوبة والعمل الصالح وماتَ على ذلك لا يعاقبُ في الآخرة، فلما جمعَ الله في هذه الآية بيَّن إحباط عمله فيما يتصل بالدنيا والآخرة حتى يزولَ ثوابه إلى العقاب الدائم، كذلك شرطَ موته على الكفر.

روي في التفسير[٢]: أنه لَمَّا نزلت هذه الآية قامَ عبدُالله بن جحش وأصحابه؛ فقالوا: يا رسولَ الله، أنطمعُ من ربنا أن تكون لنا هذه غزوةٌ في الجهاد، فنَزل قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾؛ معناهُ أن الذين صدَّقوا وهاجروا من مكة إلى المدينة وجاهدُوا في محاربةِ المشركين في طاعةِ الله تعالى أهلُ هذه الصفة، يُعطون مغفرةَ الله تعالى وجنَّته، (وَاللهُ غَفُورٌ) لِما كان منهم من القتالِ والأسرِ وأخذ الغنيمة في الشهر الحرامِ، (رَحِيمٌ) بهم حين رفعَ إثم ذلك عنهم.

والْمُهَاجَرَةُ: مُفَاعَلَةٌ مِنَ الْهَجْرِ، وفي هذا الموضع هجران الموطنِ والعشيرة في رضا الله تعالى، والهجرُ نقيض الوَصْلِ، وأطلق اللفظ في هذه الآية على المفاعلةِ، ويزادُ ما ذكرناه؛ ونظيره المساعَدة: وهي ضَمُّ الرجلِ ساعدَه إلى ساعدِ أخيه بالتقوية والمعونة. وأما المجاهَدةُ: فهي بذلُ الرجلِ الجهدَ من نفسه مع إخوانه، ويجوز أن يراد بذلك أنْ يبذِلَ الجهدَ في قتال عدوِّه، وقد فعلَ العدوُّ مثل فعلِه، فيصير مفاعلةً.

---

(١) التوبة / ٢٩: ﴿... وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

(٢) رواه الطبري في جامع البيان: تفسير الآية: مج ٢ ج ٢ ص٤٨٣: النص (٣٢٧٢).

وإنَّما قال اللهُ تعالى: (أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ) لأنَّ أحداً لا يعلم أنه صابرٌ إلى أنْ يبلُغَ في الطاعة كلَّ مبلَغٍ؛ إلا بخبرِ الله تعالى أو بخبرِ مُحَمَّد ﷺ؛ لأنه لا يدري لعله قَصَّرَ في شيء من الواجبات، وما يدري ما الذي يكون منهُ وما بينه وبين موتهِ، ولا يعلم أحدٌ من المسلمين بما يُخْتَمُ له، خَتَمَ اللهُ لَنَا بالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ فِي بُدُوِّ الإسْلاَمِ، وَهِيَ لَهُمْ حَلاَلٌ، وَكَانَ مُنَادِي رَسُول اللهِ ﷺ يُنَادِي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ وَقْتَ الصَّلاَةِ: ألاَ مَنْ كَانَ سَكْرَاناً فَلاَ يَحْضُرْ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ فِي الْجَمَاعَةِ؛ تَعْظِيْماً لِلْجَمَاعَةِ وَتَوْقِيْراً لِرَسُول اللهِ ﷺ، وَأنَّ عُمَرَ جَاءَ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَقَالَ: بَيِّنْ لَنَا أمْرَ الْخَمْرِ، فَإنَّهَا مُهْلِكَةٌ لِلْمَالِ مُذْهِبَةٌ لِلْعَقْلِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (يَسْألُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ)[(١)].

وأما الْمَيْسِرُ فقد كان جماعةٌ من العرب يجتمعون فيشترون جَزُوراً، ثم يجعلون لكلِّ واحد منهم سهماً، ثم يقترعونَ عليها، فمن خرجَ سهمهُ بَرِئَ من ثمنها وأخذ نصيبه من الجزور وبقي آخرهم عليه ثمن الجزور كلّه ولا يذوقُ من لحمها شيئاً، فتقتسمُ أصحابه نصيبَه، وربما كانوا يتصدقونَ بذلك على الفقراءِ، فسُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن ذلك، فأنزلَ الله هذه الآية.

والْمَيْسِرُ: هو الْقِمَارُ، ويقال للقمار: مَيْسِرٌ، والمقامِرُ اليَاسِرُ، وقال مقاتلُ: (سُمِّيَ مَيْسِراً لأنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: يَسِّرُوا لَنَا ثَمَنَ الْجَزُور)[(٢)]؛ وذلك أنَّ أهلَ الثروةِ من العرب كانوا يشرون جزوراً فينحرونها، ويجزِّئونها أجزاءً، قال ابنُ عمر: (عَشْرَةُ أجْزَاءٍ) وقال الأصمعيُّ: (ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرِيْنَ جُزْءاً) ثم يسهمون عليها بعشرةِ أقداحٍ ويقال لها الأزلامُ والأقلامُ، سبعةٌ منها لها أنصب؛ وهي القذولة نصيبٌ واحد، والتوأم

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٦٠٥؛ ذكر السيوطي الحديث عن عمر ﷺ، وقال: ((أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وصححه، والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر عن عمر: ... وذكره)).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ١ ص١١٦.

له نصيبان، والرقيبُ وله ثلاثة، والجليسُ وله أربعة، والنامسُ وله خمسة، والمسيلُ وله ستةُ، والمعلي وله سبعة. وثلاثةٌ منها لا أنصب لها، وهي المسح والسفيحُ والوغد، ثم يجعلون القداحَ في خريطةٍ سُمِّيت الربابة، قال أبو ذؤيب[(١)]:

وَكَأَنَّهُنَّ رِبَابَةٌ وَكَأَنَّهُ يَسَرٌ يَفِيضُ عَلَى الْقِدَاحِ وَيَصْدَعُ

ويضعونَ الرِّبابة على يدِ واحد عَدْلٍ عندَهم ويسمى الْمُجِيلُ[(٢)] والْمُفِيضُ[(٣)]، ثم يُجِيْلُها ويُخْرِجُ منها قدحاً باسمِ واحد منهم، فأيُّهم خرجَ سهمهُ أخذ نصيبه على قدر ما يخرج، فإن كان خرجَ له سهم من هذه الثلاثةِ التي لا أنصب لها، اختلفوا فيه؛ قال بعضُهم: كان لا يأخذُ شيئاً ويغرم ثمن الجزور كلِّه، وقال بعضهم: لا يأخذُ شيئاً ولا يغرمُ، ويكون ذلك القدحُ لغواً فيُعَادُ سهم ثانياً، فهؤلاء اليَاسِرُونَ، ثم يدفعون ذلك الجزورَ إلى الفقراءِ ولا يأكلون منه شيئاً، وكانوا يفتخرونَ بذلك ويذمُّون من لم يفعل منهم ويسمونه الْبَرَمِ[(٤)].

فهذا أصلُ القِمار التي كانت العرب تفعلهُ، وإنَّما عَنَى اللهُ تعالى بالْمَيْسِرِ في هذه الآية أنواعَ القمار كلِّها، وقال طاووسُ ومجاهدُ وعطاء: (كُلُّ شَيْءٍ فِيْهِ قِمَارٌ فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ، حَتَّى لَعِبَ الصِّبْيَان الصِّغَار بالْجَوْزِ وَالْكِعَابِ). وعن عليٍّ ﷺ قال: (النَّرْدُ وَالشَّطْرَنْجُ مِنَ الْمَيْسِرِ). قال القاسمُ[(٥)]: (كُلُّ شَيْءٍ أَلْهَاكَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ).

---

(١) شعر أبي ذؤيب يصف الحمار وأتنه. ويفيض: يدفع؛ ومنه الإفاضة. وصدعتُ الشيء: أظهرتهُ وبيَّنتهُ. لسان العرب: ج ٥ ص٩٩.

(٢) الْمُجِيلُ: هو من أجَالَ يُجِيلُ إجَالَةً؛ إذا حرَّكَ الرِّبابَةَ؛ أي يضع يده في الخريطة ويحركها مرتين أو ثلاثاً. ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ٣ ص٥٨.

(٣) الْمُفِيضُ: من الإفَاضَةِ، والإفاضَةُ بالقِدَاحِ: الضربُ بها وإجَالَتُها عند القمار.

(٤) في لسان العرب: (برم)؛ قال ابن منظور: ((البرم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر، والجمع أبرام)).

(٥) القاسم بن مُحَمَّد. والأثر رواه الطبري في جامع البيان: الرقم (٣٢٨٥).

قال ابنُ عباس: (فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ تَرَكَ بَعْضُ النَّاسِ الْخَمْرَ، وَقَالُوا: لاَ حَاجَةَ لَنَا فِيْمَا فِيْهِ إثْمٌ كَبِيْرٌ. وَلَمْ يَتْرُكْهَا بَعْضُهُمْ وَقَالُوا: نَأْخُذُ مَنْفَعَتَهَا وَنَتْرُكُ إثْمَهَا. وَكَانُوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى أصَابَ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ خَمْراً فَأَنْشَا مِنْهَا، فَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَقَامَ يُصَلِّي الْمَغْرِبَ، فَقَرَأ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾(١) عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا، قَالَ: أعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَأَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أعْبُدُ. فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾(٢)). وكانوا يشربونَها قبلَ الصلاة؛ وكانوا يتناشدون الأشعارَ في شربها ويفتخرون، فقال عمرُ: (اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا بَيَاناً شَافِياً فِي الْخَمْرِ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿فَهَلْ أنْتُمْ مُنتَهُونَ﴾(٣)؛ فَقَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا يَا رَب)(٤) فأمرَ رسولُ الله ﷺ بإراقةِ الخمر حتى أمر بكسر الدِّنَانِ تغليظاً وتشديداً.

ومعنى الآية: يسألونك يا محمدُ عن الخمرِ والميسر، قل فيهما إثمٌ عظيم؛ لأن الخمرَ يوقعُ العداوة والبغضاءَ ويَحُولُ بين الإنسان وبين عقلهِ الذي يعرفُ به ما يجب عليه لخالقهِ. والقمارُ يورث العداوة أيضاً؛ فإنَّ المقمورَ إذا رأى غيره قد فازَ بمالِهِ من غير منفعةٍ رجعت إليه؛ بَغَضَهُ وعاداه. وَقِيْلَ: معنى قولهِ تعالى: (قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ) أي وزْرٌ عظيم من المشائمَةِ والمخاصمة وقولِ الفُحْشِ والزور وزوال العقلِ، والمنعِ من الصلاة، واستحلالِ مال الغير بغيرِ حقٍّ.

وقرأ أهلُ الكوفة إلا عاصماً: (قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَثِيرٌ) بالثَّاء؛ وقرأ الباقون بالباء؛ واختارهُ أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: (وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) ولقولهِ تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾(٥).

---

(١) الكافرون / ١.　(٢) النساء / ٤٣.　(٣) المائدة / ٩٠-٩١.

(٤) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأشربة: الحديث (٣٦٧٠). والترمذي في الجامع: أبواب تفسير القرآن: الحديث (٣٠٤٩). والحاكم في المستدرك: كتاب الأشربة: الحديث (٧٣٠٦؛ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) النساء / ٢.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: (وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) فالمنفعةُ في الخمر اللذَّةُ في شربها والتجارةُ فيها قبلَ التحريم. والمنفعةُ في الْمَيْسِرِ: مصيرُ الشيء الذي يصيبهُ من المال في القمار بلا كَدٍّ ولا تعبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) قال المفسرون: إثمُ الخمر: هو أنه يشربُ ويَسْكَرُ ويؤذي الناسَ، وإثمُ الميسرِ: هو أن يقامرَ فيمنع الحقَّ ويظلم. وقال الربيع: (الْمَنَافِعُ قَبْلَ التَّحْرِيمِ؛ وَالإِثْمُ بَعْدَ التَّحْرِيمِ)[١].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ ؛ معناه: يسألونكَ أيَّ شيءٍ يتصدَّقون به؟ قل الفضلَ وما يسهلُ عليك إنفاقهُ؛ وهذا نَزَلَ جواباً عن قول عمرِو بن الجموح: بماذا نُنْفِقُ؟ وفي الآية المتقدمةِ جوابٌ عن قولِه: لِمَنْ نَتَصَدَّقُ؟.

واختلفوا في معنى قولِه تعالى: (قُلِ الْعَفْوَ)؛ فقالَ ابنُ عمر وقتادةُ وعطاء والسدي: (هُوَ مَا فَضَّلَهُ مِنَ الْمَالِ عَنِ الْعِيَالِ)؛ وهو روايةٌ عن ابن عباس. وقال الحسنُ: (هُوَ أنْ لاَ يَفْنَى مَالُكَ فِي النَّفَقَةِ، ثُمَّ تَقْعُدَ تَسْأَلُ النَّاسَ). وقال مجاهدٌ: (هُوَ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى). وقال الضحَّاك: (هُوَ قَدْرُ الطَّاقَةِ). وقال الربيعُ: (هُوَ الْعَفْوُ، هُوَ الطَّيِّبُ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: أفْضَلُ مَالِكَ وَأطْيَبُهُ)[٢].

وأصلُ العَفْوِ في اللغة: الزِّيَادَةُ وَالْكَثْرَةُ. قال الله تعالى: ﴿حَتَّى عَفَوا﴾[٣] أي كثُروا. وقال ﷺ: [أعْفُوا اللِّحَى][٤]. والعفوُ أيضاً: ما تأخذهُ وتعطيهِ سَهْلاً بلا تَكَلُّفٍ من قولهم: خُذْ ما أعْفَاكَ؛ أي ما أتاكَ سهلاً من غير إكراهٍ.

ونظيرهُ هذه الآية مِن الأخبار ما روي: أنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عِنْدِي دِيْنَارٌ، قَالَ: [أنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِكَ] قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ:[أنْفِقْهُ عَلَى أهْلِكَ]، قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: [أنْفِقْهُ عَلَى وَلَدِكَ]، قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: [أنْفِقْهُ عَلَى وَالِدَيْكَ]، قَالَ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: سورة البقرة: النص (٣٣٠١).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٣٢٧).
(٣) الأعراف / ٩٥.
(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٥٢ و١٥٦.

عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: [أنْفِقْهُ عَلَى فَرَسِكَ]، قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ:[أنْفِقْهُ عَلَى قَرَابَتِكَ]، قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: [أنْتَ أبْصَرُ بِهِ](١).

وعن جابرٍ قال: أتَى رَجُلٌ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ بِبَيْضَةٍ مِنْ ذَهَبٍ أصَابَهَا فِي بَعْضِ الْمَعَادِنِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، خُذْ هَذِهِ صَدَقَةً فَوَاللهِ مَا أصْبَحْتُ أمْلُكُ غَيْرَهَا، فَأعْرَضَ عَنْهُ. فَأتَى مِنْ رُكْنِهِ الأيْمَنِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَأعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ أتَاهُ مِنْ رُكْنِهِ الأيْسَرِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَأعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ قَالَ مِثْلَ ذلِكَ، فَقَالَ مُغْضِباً: [هَاتِهَا] فَأخَذَهَا مِنْهُ فَحَذَفَهُ بِهَا لَوْ أصَابَهُ لَشَجَّهُ أوْ عَقَرَهُ، ثُمَّ قَالَ: [يَجِيءُ أحَدُكُمْ بمَالِهِ كُلِّهِ لِيَتَصَدَّقَ بِهِ وَيَجْلِسُ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ، أفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى، وَلْيَبْدَأ أحَدُكُمْ بِمَنْ يَعُولُ](٢).

قال الكلبيُّ: (كَانَ الرَّجُلُ بَعْدَ نُزُول هَذِهِ الآيَةِ إنْ كَانَ مِنْ أهْلِ الزَّرْعِ وَالنَّخِيْلِ؛ نَظَرَ إلَى مَا يَكْفِيْهِ وَعِيَالِهِ سَنَةً؛ وَيَتَصَدَّقُ بمَا فَضَلَ. وَإنْ كَانَ مِنْ أهْلِ التِّجَارَةِ أمْسَكَ رَأسَ مَالِهِ وَمِنَ الرِّبْحِ مَا يَتَقَوَّتُ بِهِ وَيَحْتَاجُ إلَيْهِ؛ وَيَتَصَدَّقُ بمَا فَضَلَ. وَإنْ كَانَ مِمَّنْ يَعْمَلُ بيَدِهِ؛ أمْسَكَ مَا يَكْفِيْهِ وَعِيَالِهِ يَوْمَهُ ذَلِكَ وَيَتَصَدَّقُ بسَائِرِهِ. وَكَانُوا عَلَى ذلِكَ إلَى أنْ فُرِضَتِ الزَّكَاةُ مُقَدَّرَةً مَعْلُومَةً).

واختلفوا في قراءةِ قوله: (قُلِ الْعَفْوَ) فقرأ الحسنُ وقتادةُ وأبو عمرو: (قُلِ الْعَفْوُ) رفعاً على معنى الذي ينفقونَهُ هو العفوُ، أو على معنى قل هوَ العفوُ. ودليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أسَاطِيرُ الأوَّلِينَ﴾(٣). وقرأ الباقون (الْعَفْوَ) بالنصب على معنى: قل أنفقوا العفوَ، ودليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾(٤).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٥١ و٤٧١. والطبري في جامع البيان: الحديث (٣٣٣٠) وإسناده حسن.

(٢) رواه أبو داود في السنن:كتاب الزكاة: باب الرجل يخرج من ماله: الحديث (١٦٧٣). والطبري في جامع البيان: الحديث (٣٣٣٢).

(٣) النحل / ٢٤.

(٤) النحل / ٣٠.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ أي مثل هذا البيان يبيِّن اللهُ لكم أوامرَه ونواهيه ودلائلَه في الدينِ (لَعَلَّكُمْ تَتَفكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا) أنَّها دارُ فناءٍ وبلاء لا يبقى إلا العملُ الصالح، (وَ) في أمرِ (الآخِرَةِ) فإنَّها دار جزاءٍ وبقاء لا ينفعُ فيها إلا سابقُ تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقال الْمُفَضَّلُ[(١)]: (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ) فِي أمْرِ النَّفَقَةِ (لَعَلَّكُمْ تَتَفكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) فَتَحْبسُونَ مِنْ أمْوَالِكُمْ مَا يُصْلِحُكُمْ فِي مَعَايشِ الدُّنْيَا، وَتُنْفِقُونَ الْبَاقِي فِيْمَا يَنْفَعُكُمْ فِي الْعُقْبَى. وقال بعضُهم: معناه يبيِّن لكم الآيات في أمرِ الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرونَ في زوالِ الدنيا وفنائها، فتزهدُوا فيها؛ وفي إقبالِ الآخرة وبقائها فترغبونَ فيها؛ وهذا القولُ قريب من الأول.

قال الزجَّاج: (إنَّمَا قَالَ: (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ) وَهُوَ يُخَاطِبُ الْجَمَاعَةَ؛ وَكَانَ يَنْبَغِي أنْ يَقُولَ: كَذَلِكُمْ؛ لأنَّ الْجَمَاعَةَ مَعْنَاهَا الْقَبِيْلُ؛ كَأنَّهُ قَالَ: كَذَلِكَ أيُّهَا الْقَبِيْلُ). ويجوزُ أن يكون الخطاب للنبيِّ ﷺ؛ لأن خطابَهُ مشتملٌ على خطاب أمته كما قال تعالى: ﴿يَاأيُّهَا النَّبِيُّ إذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[(٢)]. وقد روي عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: [تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ][(٣)].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ ﴾؛ قال ابن عباس: (لَمَّا نَزَلَ فِي أمْرِ الْيَتَامَى ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلا بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ﴾[(٤)]

---

(١) المفضل بن سلمة بن عاصم، قال الخطيب: (وكان فهماً فاضلاً وله كتاب (ضياء القلوب) وغيره من الكتب في الأدب، وأبو سلمة بن عاصم صاحب الفراء). تاريخ بغداد: ج ١٣ ص١٢٥: الرقم (٧١٠٩).

(٢) الطلاق / ١.

(٣) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: النص (٣٨٧٩)؛ قال العراقي: ((رواه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بلفظ [ستين سنة] بإسناد ضعيف. ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات.

(٤) الأنعام / ١٥٢.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَـارًا﴾[١] أَشْفَقَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ؛ وَكَانَ كُلُّ مَنْ فِـي حِجْـرِهِ يَتِيْـمٌ يَجْعَـلُ لِلْيَتِيْـمِ بَيْتـاً وَطَعَاماً وَخَادِماً عَلَى حِدَةٍ؛ وَكَانُواْ لاَ يُخَالِطُونَ الْيَتَامَى فِي شَيْءٍ[٢]، فَشُقَّ ذلِكَ عَلَيْهِمْ، فَجَاءَ عَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ إِلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ فِي أَمْـرِ الْيَتَـامَى مِمَّا أَنْزَلَ مِنَ الشِّدَّةِ، أَفَيُصْلَحُ لَنَا يَـا رَسُـولَ اللهِ أَنْ نُخَالِطَـهُمْ نَسْتَعِيْرُ مِنْـهُمُ الْخَـادِمَ وَالدَّابَّةَ وَنَشْرَبَ مِنْ لَبَنِ شَاتِهِمْ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَـامَى) أي عن مخالطةِ اليتامى، (قُلْ إِصْلاَحٌ) لأموالهم خيرُ الأشياءِ إذ هو خيرٌ من الإنفاق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ) أي وإن تشاركُوهم وتخلطوا أموالَـهم بأموالكم في نفقاتِكم ومطاعمكم ومساكنكم وخدمِكم ودوابكم فتصيبوا من أموالِهم عِوَضاً من قيامكم بأمورهم وتكافئوهُم على ما يصيبون من أموالكم، فـهُمْ إخوانكـم في الدين.

وقرأ طاووسُ: (قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ) بمعنى الإصلاحِ لأموالهم من غير أجـرةٍ ولا أخذِ عِوَضٍ منهم خيرٌ وأعظم أجراً. وقرأ أبو مُخَلِّدٍ: (فَـإِخْوَانَكُمْ) بـالنصب؛ أي تخالطوا إخوانَكم. قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِـحِ) أي يعلـمُ مـن كـان غرضهُ بالمخالطة إصلاحَ أمر اليتامى، ومن يكون غرضهُ إفسادَ أمرهم.

قوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ ؛ أي لأثـمكم في مخالطتـهم وضيَّق عليكم. والعَنَتُ: الإثمُ؛ ويسمى الفُجُـور عَنَتـاً؛ لِمـا فيـه مـن الإثـمِ. وأصـلُ العَنَتِ: الشدَّةُ والمشقَّة؛ يقال: عَقَبَةٌ عَنُوتٌ؛ أي شاقَّة كَئُودٌ. وقال أبو عبيـدة: (مَعْنَـاهُ: وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَهْلَكَكُمْ). قولـه عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ ؛ أي منيعٌ غالبٌ لا يمانَع فيما يفعل من المساهِل والمشاق، ذو حكمةٍ فيما أمركم بـه في أمـرِ اليتامى وغير ذلك.

واسمُ اليتيم إذا أُطلق انصرفَ إلى الصغـيرِ الـذي لا أبَ لـه. والعـربُ تسـمي المنفردَ يتيماً؛ يقولون: الدُّرَّةُ اليتيمةُ؛ يريدون بذلك أنّها منفردةٌ لا نظير لها.

---

(١) النساء / ١٠. (٢) في المخطوط: (في شق).

وفي الآية ضروبٌ من الأحكام: منها قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ إصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ) يدلُّ على جواز خلطِ الوصي مالَه بمالِ اليتيم في مقدار ما يغلبُ على ظنه أن اليتيمَ يأكلُ قدر طعامِ نفسه بغالب الظن. ويدلُّ على جواز التصرف في مالِهِ بالبيع والشراء؛ وجواز دفعهِ مضاربةً إذا كان ذلك صلاحاً. ويدلُّ على أن لِوَلِيِّ اليتيمِ أن يعاقدَ نفسه في مالهِ إذا كان فيه خيرٌ ظاهر لليتيم على ما قالهُ أبو حنيفةُ رَحِمَهُ اللهُ. ويدلُّ على أنَّ للوصيِّ أيضاً أن يؤجِّرَ اليتيمَ ممن يعلمُه الصناعات والتجاراتِ، أو يستأجرَ من يُعَلِّمُهُ ما له فيه صلاحٌ من أمرِ الدين والأدب؛ لأن كلَّ ذلك من الصلاح.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإخْوَانُكُمْ) فيه دليل على أن للولي أن يُزَوِّجَ اليتيمَ ابنته، أو يزوِّجَ اليتيمةَ ابنه، أو يتزوجَ اليتيمةَ لنفسهِ، فيكون قد خلطَ اليتيم بنفسهِ وعياله واختلطَ أيضاً به. يقال: فلانٌ خليط فلان؛ إذا كان شريكاً له في المال. ويقال: قد اختلطَ فلانٌ بفلان؛ إذا صَاهَرَهُ. ولا يكون التزويجُ إلا للولي الذي يكون ذا نَسَبٍ من اليتيم؛ لأن الوصايةَ لا تُسْتَحَقُّ بها الولايةُ في النكاح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ ؛ قال عبدُالله بن عباس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي مَرْثَدِ بْنِ أبي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ وَكَانَ شُجَاعاً فَوْراً، بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى مَكَّةَ لِيُخْرِجَ مِنْهَا نَاساً مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ سِرّاً؛ فَلَمَّا قَدِمَهَا سَمِعَتْ بِهِ امْرَأةٌ مُشْرِكَةٌ يُقَالُ لَهَا: عِنَاقٌ، وَكَانَتْ خَلِيْلَتَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَأَتَتْهُ وَقَالَتْ لَهُ: يَا مَرْثَدُ، ألاَ تَخْلُوْ بي؟ فَقَالَ: وَيْحَكِ يَا عِنَاقُ! إنَّ الإسْلاَمَ قَدْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ذلِكَ. فَقَالَتْ: هَلْ لَكَ أنْ تَتَزَوَّجَ بي، فَقَالَ: نَعَمْ، لَكِنْ أرْجِعُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَأسْتَأْمِرُهُ ثُمَّ أتَزَوَّجُكِ. فَقَالَتْ: أنْتَ تَتَبَرَّمُ، ثُمَّ اسْتَعَانَتْ عَلَيْهِ فَضَرَبُوهُ ضَرْباً شَدِيْداً ثُمَّ خَلَّوا سَبِيْلَهُ. فَلَمَّا رَجَعَ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ أعْلَمَهُ بمَا كَانَ مِنْ أمْرِهِ وَأمْرِ عِنَاق وَمَا لَقِيَ بسَبَبِهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أيَحِلُّ لِي أنْ أتَزَوَّجَهَا؟ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1]. ومعناها: ولا تتزوجُوا المشركات حتى يُصَدِّقْنَ بتوحيدِ الله.

---

(١) نقله علي بن أحمد الواحدي في أسباب النزول عن تفسير الكلبي: ص٤٥.

قال المفضلُ:(أصْلُ النِّكَاحِ الْوَطْءُ، ثُـمَّ كَـثُرَ ذلِـكَ حَتَّـى قِيْـلَ لِعَقْـدِ الـتَّزْوِيْج: النِّكَاحُ). فحرَّمَ اللهُ نكاحَ المشركات عقداً ووطءاً، ثم استثنى الحرائرَ الكتابيَّات، فقـالَ تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾(١).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ ؛ أي نكاحُ أمَةٍ مؤمنةٍ خيرٌ من نكاح حرَّة مشركةٍ ولو أعجبتكم الحرةُ المشركة بحُسنها وجمالها ومالِها. نزلَتْ في أمَةٍ سوداءَ كانت لحذيفةَ بن اليمان يقال لها خَنْسَاءُ، فقال لها حذيفةُ: يَا خَنْسَاءُ، قَدْ ذُكِرْتِ فِي الْمَلإِ الأَعْلَى مَعَ سَـوَادِكِ ورَمَـامَتِكِ، وَأنْـزَلَ اللهُ ذلِـكَ فِـي كِتَابهِ، فَأعْتَقَهَا حُذَيْفَةُ وَتَزَوَّجَهَا(٢).

وقال السديُّ: (نَزَلَتْ فِي أمَةٍ سَوْدَاءَ لِعَبْدِاللهِ بْنِ رَوَاحَةَ، كَانَ قَدْ غَضِبَ عَلَيْـهَا عَبْدُاللهِ فَلَطَمَهَا، ثُمَّ فَزِعَ وَأتَى النَّـبِيَّ ﷺ، فَـأخْبَرَهُ بذَلِـكَ، وَقَـالَ ﷺ: [وَمَـا هِـيَ يَـا عَبْدَاللهِ؟] فَقَالَ: هِيَ تَشْـهَدُ أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهَ وَأنَّـكَ رَسُـولُ اللهِ، وَتَصُـومُ رَمَضَـانَ، وَتُحْسِنُ الْوُضُوءَ فَتُصَلِّي، فَقَالَ:[هَذِهِ مُؤْمِنَةٌ]، وَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بالْحَقِّ نَبياً لأَعْتِقُهَا وَلأَتَزَوَّجُهَا؛ فَفَعَلَ، فَطَعَنَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ وَقَالُوا: أتَنْكِـحُ أمَةً؛ وَقَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِ حُـرَّةً مُشْـركَةً وَكَـانُوا يَرْغَبُـونَ فِـي نِكَـاحِ الْمُشْرِكَاتِ رَجَـاءَ إسْلاَمِهِنَّ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٣).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ﴾ ؛ أي لا تُزَوِّجُـوا المشـركينَ مسـلمةً حتـى يصدِّقـوا بـالله، ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ ؛ أي ولو أعجبكم الحرُّ المشركُ بمالهِ وحُسن حالهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ ؛ يعـني المشـركينَ والمشـركاتِ يدعـون إلى عمـلِ أهـل النـار. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ

(١) المائدة / ٥.

(٢) في الدر المنثور: ج ١ ص٦١٦؛ قال السيوطي: ((وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيـان: ... وذكره)).

(٣) رواه الطبري في جامع البيان: النص (٣٣٧٩).

بِإِذْنِهِۦ ﴾ ؛ أي واللهُ يدعو إلى أسباب الوُصول إلى الجنة والمغفـرةِ ومخالطـةِ المؤمنـين وغيرِ ذلك، (بِإِذْنِهِ) أي بأمرهِ وعلمه الذي عَلِمَ أنه به وصُولكم[١] إليهما.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ ؛ أي يبيِّن أمرَهُ ونَهيهُ في التزويجِ وغيره للناس لعلهم يتَّعظون ويرغبونَ في أهلِ الديانة والأمانة.

وَاعْلَمْ: أنَّ الظاهرَ أنَّ اسمَ المشركات يتناولُ الوثنيات، وقال اللهُ تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ﴾[٢] ففَـرَّقَ بينـهما في اللفـظ. وظـاهرُ العطـفِ يقتضـي أن المعطـوفَ غـيرُ المعطـوفِ عليـه؛ فعلـى هـذا لا يكـون تزويـجُ المسـلمين بالكتابيات داخلاً في هذه الآية، لكن استُفيدَ جوازه لهم بقوله تعالى في ســورةِ المائدة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[٣].

وعن ابنِ عباسٍ والحسنِ ومجاهد: (أنَّ هَذِهِ الآيَةَ عَامَّـةٌ فِـي جَمِيْـعِ الْكَـافِرَاتِ؛ الْكِتَابيَّاتِ مِنْهُمْ وَغَيْرِ الْكِتَابيَّاتِ، ثُمَّ نُسِخَتْ مِنْهَا الْكِتَابيَّاتُ بآيَةِ الْمَائِدَةِ)[٤]. وعن ابن عمر: أنه كان إذا سُئل عن نكاح اليهوديَّةِ والنصرانية، قال:(إنَّ اللهَ حَـرَّمَ الْمُشْـرِكَاتِ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ، وَلاَ أعْلَمُ شَيْئاً مِنَ الشِّرْكِ أكْبَرُ مِنْ أنْ تَقُـولَ: رَبُّـهَا عِيْسَـى عليه السلام، أوْ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَالتَّكْذِيْبُ بمُحَمَّدٍ ﷺ عَدْلٌ فِي الإثْمِ وَالْجُرْمِ وَالإشْرَاكِ باللهِ)[٥].

---

(١) في المخطوط: (وصلة لكم إليهما) وهو تصحيف، وأثبتناه حسب مقتضى السياق.
(٢) البقرة / ١٥١.
(٣) الآية / ٥.
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٣٦٨) عن ابن عباس، والنص (٣٣٦٩) عـن الحسـن البصري، والنص (٣٣٧٠) عن مجاهد، والنص (٣٣٧١) عن الربيع.
(٥) في الدر المنثور: ج ١ ص٦١٥؛ قال السيوطي: ((وأخرج البخاري والنحاس في ناسخه عن نافع عن ابن عمر: ... وذكره)). وفي الجامع لأحكـام القـرآن: ج ٣ ص٦٧-٦٨؛ نقـل القرطـبي عـن النحاس قوله: ((صح سنده: ... وذكره)) ثم قال: ((هذا قول خارج عـن قـول الجماعـة الذيـن تقوم بهم الحجة؛ لأنه:
١. قد قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب من الصحابة والتابعين جماعة، منـهم عثمـان وطلحـة وابن عباس وجابر وحذيفة. ومن التابعين سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وطاوس وعكرمة والشعبي والضحاك؛ وفقهاء الأمصار.=

فإن قيلَ: في هذه الآية نَهْيٌ عن نكاحِ المشركات بسببٍ وهو دعاءُ أهل الشــركِ إلى النار، وهذه العلَّة تَعُمُّ الكتابياتِ وغيرهن، فكيفَ أبيح للمسلمين نكاحُ الكتابيات والعلَّةُ قائمة؟ قيل: يحتملُ أن يكــون قولـه: (أوْلَئِـكَ يَدْعُـونَ إلَـى النَّـار) راجعـاً إلى قوله:(وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ) لاَ إلى قولـه: (وَلا تَنكِحُـوا الْمُشْـرِكَاتِ)؛ لأن أولئـكَ كنايةٌ عن الرجالِ دون النساء. ولا يجوزُ تزويجُ المسلمة من مشركٍ ولا كتابيٌّ.

قوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ ؛ قــال ابــنُ عباس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي رَجُلٍ مِنَ الأنْصَار يُقَالُ لَـهُ: أبُـو الدَّحْدَاحَـةِ، أتَـى إلَـى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: كَيْفَ نَصْنَعُ بالنِّسَاءِ إذَا حِضْنَ؛ هَلْ نَقْرَبُهُنَّ أوْ لاَ؟ فَـنَزَلَتْ هَـذِهِ الآيَةُ)[1]. فلما نزلت هذه الآيةُ عَمِدَ المسلمون إلى النســاءِ الْحِيَّـضِ فـأخرجوهن مـن لبيوت كما كانت الأعاجمُ تفعلُ بنسائهم إذا حِضْنَ، وإذا فرغن واغتسلنَ ردُّوهن إلى البيوتِ، فقَدِمَ ناسٌ من الأعراب المدينةَ، فشكَوا إلى رسولِ الله ﷺ عَزْلَ النساءِ عنهم، وقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ البردَ شديدٌ والثيابَ قليلةٌ وقد عزَلنا النســاءَ، فـإن آثَرْنـاهُنَّ بالثياب هَلَكَ أهلُ البيت برداً، وإذا آثَرْنا أهلَ البيت هلكَ النساءُ الْحِيَّضُ، وليس كلنـا يَجِدُ وسعة فيوسعُ عليهم جميعاً، فقال ﷺ: [إنَّمـا أمِرْتُـمْ أنْ تَعْـتَزِلُوا مُجَامَعَتَـهُنَّ إذَا حِضْنَ، وَلَمْ تُؤْمَرُوا أنْ تُخْرِجُوهُنَّ مِنَ الْبُيُوتِ] وقرأ عليهمُ الآيةَ[2].

---

٢. =وأيضاً؛ فيمتنع أن تكون هذه الآية من سورة (البقرة) ناسخة للآية التي في سـورة (المائدة)؛ لأن (البقرة) من أول ما نزل بالمدينة، (والمائدة) من آخر ما نزل. وإنما الآخِرُ ينسخُ الأول.

٣. وأما حديث ابن عمر، فلا حجة فيه؛ لأن ابن عمر رَحِمَهُ اللهُ كان رجلاً متوقفاً، فلمـا سمـع الآيتين، في واحدة التحليل، وفي الأخرى التحريم ولم يبلغه النسخ توقف، ولم يؤخذ عنه ذكـر النسخ، وإنما تُؤُوِّلَ عليه، وليس يؤخذ الناسخ والمنسوخ بالتأويل)).

٤. في الدر المنثور: ج ١ ص٦١٩؛ قال السيوطي: ((وأخـرج ابـن جريـر عـن السـدي في قولـه: ﴿وَيَسْألُونَكَ عَنِ الْمَحِيـضِ﴾ قـال: الـذي سـأل عـن ذلـك ثـابت بـن الدحـداح)). وقـال: ((وأخرج ابن المُنذر وابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان: ... وذكره)).

(١) أبو الدحداحة: هو ثابت بن الدحداح، ويقال: ابن الدحداحة بن نعيـم، يكنـى: أبـا الدحـداح. مات سنة سـت مـن الهجـرة. الاستيعاب في معرفـة الأصحـاب لابـن عبدالـبر: ج ٢ ص٢٧٨: الترجمة (٢٥٤).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: كتـاب الحيـض: بـاب جـاز غسـل المـرأة الحـائض رأس زوجـها:=

وقال بعضُهم: كانت العربُ في الجاهلية إذا حاضَت المرأةُ، لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يساكنُوها في بيت، ولم يجالسُوها على فراشٍ كفعل اليهود والمجوس، فسألَ أبو الدَّحْدَاحِ رسولَ الله ﷺ عن ذلكَ، وقال: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ نَصْنَعُ بالْحِيَّضِ؟ فأنزل الله هذه الآية.

ووجهُ اتصال هذه الآية بما قبلها آية أخرى فيما تقدَّم((من)) حديث نكاحِ من تحرمُ ومَن تحلُّ، فبيَّن الله بعده حالَ التحليلِ والتحريم بهذه الآية.

وقال ابنُ عباس: (مَا رَأَيْتُ قَوْماً كَانُوا خَيْراً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ مَا سَأَلُوهُ إلاَّ عَنْ ثَلاَثَةَ عَشَرَ مَسْأَلَةٍ حَتَّى قُبِضَ، كُلُّهُنَّ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾[1] ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أنفَقْتُمْ﴾[2] ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[3] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾[4] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾[5] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾[6] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾[7] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾[8] ﴿وَإذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾[9] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾[10] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾[11] ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾[12] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾[13])[14].

=الحديث(١٦/ ٣٠٢). وأبو داود في السنن: كتاب الطهارة: باب مؤاكلة الحائض ومجامعتها: الحديث (٢٥٨)، وفي كتاب النكاح: باب في إتيان الحائض ومباشرتها: الحديث (٢١٦٥). وإسناده صحيح. والحديث حكاه السيوطي في الدر المنثور: ج ١ ص٦١٩ بلفظ قريب؛ قال: ((وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس)).

(١) البقرة / ٢١٧. (٢) البقرة / ٢١٥. (٣) البقرة / ٢١٩.

(٤) البقرة / ١٨٩. (٥) البقرة / ٢١٩. (٦) البقرة / ٢٢٠.

(٧) البقرة / ٢٢٢. (٨) الأعراف / ١٨٧. (٩) البقرة / ١٨٦.

(١٠) الأنفال / ١. (١١) الإسراء / ٨٥. (١٢) الكهف / ٨٣.

(١٣) طه / ١٠٥.

(١٤) في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: كتاب العلم: باب السؤال للانتفاع: ج ١ ص١٥٩؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الكبير وفيه عطاء بن السائب، وهو ثقة، لكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات)).

ومعنى الآية: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أذًى) أي الدم مستقذر نجسٌ، وقال الكلبيُّ: (الأَذَى مَا يَعُمُّ وَيُكْرَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ ﴾ ؛ أي اعتزلوا مجامعتَهن وهن حيَّض، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ ؛ أي ولا تجامعوهنَّ حتى ينقطعَ عنهن الدمُ. عن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: [مَنْ وَطِئَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فَأَصَابَهُ جُذَامٌ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ؛ وَمَنِ احْتَجَمَ يَوْمَ السَّبْتِ أوِ الأَرْبعَاءِ فَأَصَابَهُ وَضَحٌ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ][1].

فوطءُ النساءِ الْحِيَّضِ حرامٌ بنص القرآن، فإن وطأها زوجها أثِمَ ولزمته الكفارة، روي عن ابن عباس: عن رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي رَجُلٍ جَامَعَ امْرَأتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ؛ قَالَ: [إنْ كَانَ دَماً غَلِيْظاً فَلْيَتَصَدَّقْ بدِيْنَارٍ؛ فَإنْ كَانَ صُفْرَةً فَنِصْفُ دِيْنَار][2]. ولا بأسَ باستخدام الحائضِ وبمباشرة بدنِها إذا كانت مُتَّزِرَةً، والاستمتاعِ بما فوقَ الإزار.

قال مسروقُ: قلت لعائشةَ رضي الله عنها: مَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ مِنَ امْرَأتِهِ إذَا كَانَتْ حَائِضاً؟ قَالَتْ: (كُلُّ شَيْءٍ إلاَّ الْجِمَاعُ)[3]. وروي أنَّ عائشةَ رضي الله عنها كَانَتْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعَةً فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَأنَّهَا وَثَبَتْ وَثْبَةً شَدِيْدَةً، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٤ ص١٨١: الحديث (٣٣٢٤) عن أبي هريرة ﷺ؛ وقال: ((لم يرو هذا الحديث عن أبي هريرة إلا الحسن بن الصلت، شيخ من أهل الشام، تفرد به ابن أبي السَّريّ)). وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: كتاب النكاح: باب فيمن وطئ الحائض: ج ٤ ص٢٩٩؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط عن بكر بن أبي سهل، وقد ضعفه النسائي، وقال الذهبي: قد حمل الناس عنه وهو مقارب الحديث)).

(٢) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: [إذَا كَانَ دَماً أحْمَرَ فَدِينَارٌ، وَإنْ كَانَ دَماً أصْفَرَ فَنِصْفُ دِينَارٍ]. رواه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٧٢. ومختصراً رواه أبو داود في السنن: كتاب الطهارة: الحديث (٢٦٤ و٢٦٥). والحاكم في المستدرك: كتاب الطهارة: الحديث (٦٢٩)؛ وقال: حديث صحيح. وأخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الطهارة: باب ما جاء في الكفارة في ذلك: الحديث (١٢٧).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٣٩٦).

اللهِ ﷺ: [مَا لَكِ ؟ لَعَلَّكِ نُفِسْتِ] يعني حُضْتِ؛ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: [شُدِّي عَلَيْكِ إزَارَكِ وَعُودِي إلَى مَضْجَعِكِ][(١)].

وعن أمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: بَيْنَمَا أنَا مُضْطَجِعَةٌ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ فِي الْخَمِيْلَةِ إذْ حِضْتُ، فَانْسَلَلْتُ مِنْهَا وَأخَذْتُ ثِيَابَ حَيْضِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أنُفِسْتِ؟] قُلْتُ: نَعَمْ، فَدَعَانِي فَاضْطَجَعْتُ مَعَهُ فِي الْخَمِيْلَةِ[(٢)].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قَالَتْ:[كُنْتُ أغْتَسِلُ أنَا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ إنَاءٍ وَاحِدٍ وَنَحْنُ جُنُبَانِ؛ وَكُنْتُ أغْسِلُ رَأسَ رَسُول اللهِ ﷺ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ وَأنَا حَائِضٌ؛ وَكَانَ يَأمُرُنِي إذْ كُنْتُ حَائِضاً أنْ أتَّزِرَ ثُمَّ يُبَاشِرُنِي][(٣)].

وسُئِلَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: هَلْ تَأكُلُ الْمَرْأةُ مَعَ زَوْجِهَا وَهِيَ طَامِثٌ؟ قَالَتْ: (نَعَمْ، كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُونِي فَآكُلُ مَعَهُ وَأنَا عَارِكٌ؛ وَكَانَ يَأخُذُ الْعِرْقَ فَيَضَعَهُ عَلَى فِيْهِ؛ وَأغْتَرِفُ بِهِ ثُمَّ أضَعُهُ، فَيَأخُذُهُ وَيَشْرَبُ مِنْهُ وَيَضَعُ فَمَهُ حَيْثُ وَضَعْتُ

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الطهارة: باب ما يحل للرجل من امرأته وهي حائض: الحديث (٩٤). وقال ابن عبدالبر: ((لم يختلف رواة الموطأ في إرسال هذا الحديث، ولا أعلم أنه روي بهذا الإسناد من حديث عائشة البتة، ويتصل معناه من حديث أم سلمة)).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الحيض: باب من سمى النفاس حيضاً: الحديث (٢٩٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الحيض: باب الاضطجاع مع الحائض في لحاف واحد: الحديث (٥/٢٩٦).

(٣) أخرجه أبو عوانة في مسنده: ج ١ ص٣٠٩ و٣١٣. وعلى ما يبدو أن الإمام الطبراني جمع الأحاديث في نص واحدة لضرورة الاختصار، فالشطر الأول منه أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الحيض: باب غسل الحائض رأس زوجها وترجيله: الحديث (٢٩٥) وأطرافه في (٢٩٦ و٣٠١ و٢٠٢٨ و٢٠٢٩ و٢٠٣١ و٢٠٤٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الحيض: باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله: الحديث (٦/ ٢٩٧).

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه الشطر الثالث منه. أما البخاري ففي الصحيح: كتاب الحيض: الحديث (٣٠٢). ومسلم في الصحيح: كتاب الحيض: باب مباشرة الحائض فوق الإزار: الحديث (٢٩٣). وأبو داود في السنن: كتاب الطهارة: الحديث (٢٦٨ و٢٧٣). والترمذي في الجامع: أبواب الطهارة: باب ما جاء في مباشرة الحائض: الحديث (١٣٢) واللفظ له.

مِنْ الْمَعْدِنِ، وَيَدْعُو بالشَّرَاب فَيَشْرَبُ ثُمَّ آخُذُ الْقَدَحَ فَأَشْرَبَ مِنْهُ، ثُمَّ أَضَعُهُ فَيَأْخُذُهُ فَيَشْرَبُ مِنْهُ وَيَضَعُ فَمَهُ حَيْثُ وَضَعْتُ فَمِي مِنَ الْقَدَحِ)[(١)].

فدلَّت هذه الآيةُ على أنَّ المرادَ الاعتزالُ من الحَيَّضِ جِماعُهُنَّ، وذلكَ أن اليهودَ والمجوس كانوا يجتنبونَ الحَيَّض في كلِّ شيء؛ وكانت النصارى يُجامعونهن ولا يبالونَ بالحيضِ، فأمرَ اللهُ تعالى بالاقتصادِ بين هذين الأمرين (وَخَيْرُ الأُمُور أوْسَطُهَا). قال أنسُ رضي الله عنه: لَمَّا أنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أذى) الآيَةُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [افْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ إلاَّ الْجِمَاعَ] فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودُ، فَقَالُوا: مَا يُرِيْدُ هَذَا الرَّجُلُ أنْ يَدَعَ مِنْ أمْرِنَا شَيْئاً إلاَّ خَالَفَنَا فِيْهِ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ) قرأ الأعمشُ وعاصم وحمزة والكسائي: (يَطَّهَّرْنَ) بالتشديدِ؛ أي يغتسلنَ؛ يدلُّ عليه قراءةُ عبدالله (حَتَّى يَتَطَهَّرْنَ) بالتاء على الأصلِ. وقرأ الباقون (يَطْهُرْنَ) مخفَّفاً؛ أي حتى يَطْهُرْنَ من حيضهنَّ وينقطعَ الدمُ.

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (المجتبى): كتاب الطهارة: باب مؤاكلة الحائض والشرب من سؤرها: ج ١ ص١٤٨-١٤٩، وباب الانتفاع بفضل الحائض: ج ١ ص١٤٩. والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٢١٠.

(٢) بلفظ [اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إلاَّ النِّكَاحَ]. أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الحيض: باب جواز غسل الحائض رأس زوجها: الحديث (١٦/ ٣٠٢). وأبو داود في السنن: كتاب الطهارة: باب في مؤاكلة الحائض: الحديث (٢٥٨)، وفي كتاب النكاح: باب في إتيان الحائض ومباشرتها: الحديث (٢١٦٥). وابن حبان في الصحيح: كتاب الطهارة: باب الحيض والاستحاضة: الحديث (١٣٦٢).

وبلفظ: [اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إلاَّ الْجِمَاعَ]. أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الطهارة: باب ما جاء في مؤاكلة الحائض وسؤرها: الحديث (٦٤٢).

وبلفظ:[وَأنْ يَصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ مَا خَلاَ الْجِمَاعَ]. أخرجه النسائي في المجتبى: كتاب الطهارة: باب تأويل قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾: ج ١ ص١٥٢.

وبلفظ: [وَأنْ يَفْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ مَا خَلاَ النِّكَاحَ]. أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب تفسير القرآن: الحديث (٢٩٧٧).

واختلفَ الفقهاءُ في الحائضِ متى يحلُّ وطؤُها؛ فقال أبو حنيفةَ وصاحباه: (إذا طَهُرَتْ لِعَشْرَةِ أيَّامٍ جَازَ وَطْؤُهَا دُونَ الْغُسْلِ؛ وَإنْ طَهُرَتْ لأَقَلِّ مِنْ عَشْرَةِ أيَّامٍ لَمْ يَجُزْ وَطْؤُهَا حَتَّى تَغْتَسِلَ أوْ يَمْضِيَ عَلَيْهَا وَقْتُ صَلاَةٍ كَامِلٍ). وقال مجاهدُ وطاووس وعطاء: (إذَا انْقَطَعَ دَمُهَا وَغَسَلَتْ فَرْجَهَا وَتَوَضَّأَتْ جَازَ وَطْؤُهَا). وقال الشافعيُّ: (لاَ يَحِلُّ وَطْؤُهَا إلاَّ بشَرْطَيْنِ: انْقِطَاعُ الدَّمِ وَالاغْتِسَالُ). فمن قرأ (يَطَّهَّرْنَ) بالتشديد كان حُجة للشافعي ومن تابعهُ؛ ومن خفَّفَ كان حُجة للمبيحين وطأها قبلَ الغسلِ.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي فإذا اغتسلنَ فجامعوهُن من حيث أمركمُ الله تنحيةً في الحيضِ وهو الفرجُ، قاله ابن عباس وقتادة والربيع. وقيل: معناهُ: فَأْتُوهنَّ من قِبَل النكاح والجهاتِ التي يحلُّ فيها أن يقربَ المرأة في الشريعةِ. وقال مجاهدُ: (كَانُوا عَلَى اسْتِخَارَةِ إيْتَائِهِنَّ فِي الأَدْبَار فِي أيَّامِ الْحَيْضِ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ وَحَرَّمَ بهَا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ)[1]؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إتْيَانُ النِّسَاءِ فِي أعْجَازِهِنَّ حَرَامٌ][2]. وقال ابنُ كيسان: (مَعْنَاهُ لاَ يَأْتُونَهُنَّ صَائِمَاتٍ وَلاَ مُعْتَكِفَاتٍ وَلاَ مُحْرِمَاتٍ؛ وَإيْتَاؤُهُنَّ وَغَشْيَانُهُنَّ لَكُمْ حَلاَلٌ).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ ؛ قال عطاءُ ومقاتل والكلبي: (مَعْنَاهُ: إنَّ اللهَ يَرْضَى عَمَلَ التَّوَّابيْنَ مِنَ الذُّنُوب وَمِنْ إتْيَانِ النِّسَاءِ فِي وَقْتِ الْحَيْضِ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِيْنَ بالْمَاءِ عَنِ الأَحْدَاثِ وَالْحَيْضِ وَالنَّجَاسَاتِ وَالْجِنَابَاتِ). وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: (إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابينَ) عَنِ الذُّنُوب وَ(الْمُتَطَهِّرينَ) عَنْ أدْبَار النِّسَاءِ أنْ يَأْتُوهَا)، وقالَ: (مَنْ أتَى امْرَأةً فِي دُبُرِهَا فَلَيْسَ مِنَ الْمُتَطَهِّرِيْنَ)[3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٣٨٧ و٣٤٣٤).

(٢) والحديث بمعناه عن أبي هريرة؛ أخرجه أبو داود في السنن: كتاب النكاح: باب في النكاح:الحديث(٢١٦٢). وابن ماجة في السنن:كتاب النكاح: الحديث(١٩٢٣) بإسناد صحيح. وعن جابر بن عبدالله؛ أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب النكاح: باب جواز جماع امرأته في قبلها: الحديث (١١٧-١١٩/ ١٤٣٥). والترمذي في الجامع: كتاب التفسير: باب ومن سورة البقرة: الحديث (٢٩٧٩). وابن ماجة في السنن: الحديث (١٩٢٥).

(٣) في الدر المنثور: ج ١ ص٦٢٥؛ قال السيوطي: ((وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد: ... وذكره)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٤٤٤).

وقال بعضُهم: معناه: (التَّوَّابِينَ) من الذنوب و(الْمُتَطَهِّرِينَ) من الشركِ. وقال سعيدُ بن جبير: ((التَّوَّابِينَ) مِنَ الشِّرْكِ، و(الْمُتَطَهِّرِينَ) مِنَ الذُّنُوب). وعن عبدِالرحيم: (مَعْنَاهُ: (إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) مِنَ الْكَبَائِرِ، و(الْمُتَطَهِّرِينَ) مِنَ الصَّغَائِرِ). وقيل: (التَّوَّابِينَ) مِن الأفعال، و(الْمُتَطَهِّرِينَ) من الأقوال. وقيل: (التَّوَّابِينَ) من الأقوالِ والأفعال، و(الْمُتَطَهِّرِينَ) من القعود والإضمار(١). وقيل:(التَّوَّابِينَ) من الآثامِ، و(الْمُتَطَهِّرِينَ) من الإجرامِ. وقيل: (التَّوَّابِينَ) من الذنوب، و(الْمُتَطَهِّرِينَ) من العيوب.

والتَّوَّابُ: هو الذي كُلَّمَا أذنبَ تابَ. والْمَحِيْضُ: مصدرٌ يقال: حَاضَتِ المرأةُ حَيْضاً وَمَحِيْضاً وَمَحَاضاً؛ كلُّ ذلك مصدرٌ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ ؛ قال ابن عباس: (كَانَتِ الْيَهُودُ يَقُولُونَ: إنَّا لَنَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ أنَّ كُلَّ إتْيَانٍ يُؤْتَى النِّسَاءُ غَيْرَ مُسْتَلْقِيَاتٍ فَإنَّهُ دَنَسٌ عِنْدَ اللهِ؛ وَمِنْهُ يَكُونُ الْحَوَلُ وَالْخَبَلُ فِي الْوَلَدِ. فَأَكْذَبَهُمُ اللهُ تَعَالَى بهَذِهِ الآيَةِ)(٢).

وعن جابر بن عبدالله قال:كَانَتِ الْيَهُودُ يَقُولُونَ: مَنْ جَامَعَ امْرَأتَهُ ضَحِيَّةً مِنْ قَفَاهَا فِي قُبُلِهَا كَانَ وَلَدُهَا أحْوَلاً؟! فَذَكَرْتُ ذلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: [كَذَبَتِ الْيَهُودُ]. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أنَّى شِئْتُمْ)(٣).

وقال الحسنُ وقتادة ومقاتلُ والكلبيُّ: (تَذَاكَرَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ وَالْيَهُودُ إتْيَانَ النِّسَاءِ؛ فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: إنَّا نَأْتِيهِنَّ بَاركَاتٍ وَقَائِمَاتٍ وَمُسْتَلْقِيَاتٍ وَمِنْ بَيْنِ أيْدِيهِنَّ وَمِنْ خَلْفِهِنَّ بَعْدَ أنْ يَكُونَ الْمَأْتَى وَاحِداً وَهُوَ الْفَرْجُ. فَقَالَ الْيَهُودُ: وَمَا أنْتُمْ إلاَّ كَالْبَهَائِمِ؛ لَكِنَّا نَأْتِيهِمْ عَلَى هَيْئَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإنَّا لَنَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ أنَّ كُلَّ إتْيَانٍ يُؤْتَى

(١) في أصل المخطوطة مرسومة كما أثبتناه، ولا تدل على المراد.

(٢) الحديث عن جابر، تقدم.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٣٤٧٥). والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٥٢٨). ومسلم في الصحيح: كتاب النكاح: باب جواز جماع امرأته في قُبلها من قدامها وورائها: الحديث (١١٧/ ١٤٣٥).

النِّسَاءَ غَيْرَ مُسْتَلْقِيَاتٍ فَإِنَّهُ دَنَسٌ عِنْدَ اللهِ، وَمِنْهُ يَكُونُ الْحَوَلُ وَالْخَبَلُ. فَذَكَرَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ لِرَسُول اللهِ ﷺ وَقَالُواْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّتِنَا وَبَعْدَمَا أَسْلَمْنَا نَأْتِي النِّسَاءَ كَيْفَ شِئْنَا؛ وَإِنَّ الْيَهُودَ عَابَتْ ذَلِكَ عَلَيْنَا؛ وَزَعَمَتْ أَنَّا كَذَا وَكَذَا؟ فَأَكْذَبَ اللهُ تَعَالَى الْيَهُودَ؛ وَرَخَّصَ لِلْمُسْلِمِيْنَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)[١].

وعن ابن عباس قال: (كَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأَنْصَار مَعَ هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْيَهُودِ وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَاب؛ فَكَانُواْ يَرَوْنَ لَهُمْ فَضْلاً عَلَيْهِمْ فِي الْعِلْمِ؛ وَكَانُواْ يَقْتَدُونَ بكَثِيْرٍ مِنْ فِعْلِهِمْ؛ وَكَانَ مِنْ شَأْن الْيَهُودِ أَنْ لاَ يَأْتُواْ النِّسَاءَ إلاَّ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ عَلَى الْمَرْأةِ. وكَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأَنْصَار قَدْ أَخَذُواْ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ. وَكَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ قُرَيْشٍ يَشْرَحُونَ النِّسَاءَ شَرْحاً مُنْكَراً، وَيَتَلَذَّذُونَ بِهِنَّ مُقْبلاَتٍ وَمُدْبِرَاتٍ وَمُسْتَلْقِيَاتٍ؛ فَلَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى الْمَدِيْنَةِ، تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْهُمْ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَار، فَذَهَبَ يَصْنَعُ بِهَا كَذَلِكَ، فَأَنْكَرَتْ عَلَيْهِ! وَقَالَتْ: إِنَّمَا كُنَّا نُؤْتَى عَلَى حَرْفٍ، فَإِنْ شِئْتَ فَاصْنَعْ ذَلِكَ وَإلاَّ فَاجْتَنِبْنِي حَتَّى شَرِيَ أَمْرُهُمَا. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) مُقْبلاَتٍ وَمُدْبِرَاتٍ وَمُسْتَلْقِيَاتٍ)[٢]. والمعنى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ) أي مُزْدَرَعٌ[٣] لكم للولدِ[٤].

وقال الزجَّاج: (مَعْنَاهُ: نِسَاؤُكُمْ ذَوَاتُ حَرْثٍ لَكُمْ؛ فَبَيَّنَ كَيْفَ يَحْرُثُونَ لِلْوَلَدِ وَاللَّذَّةِ) أي (فَأْتُوا حَرْثَكُمْ) كيفَ (شِئْتُمْ) وحيثُ شئتم ومتى شئتم بعد أن يكونَ في موضعٍ واحد وهو الفرجُ. قال أبو عُبيد: (سُمِّيَتِ الْمَرْأَةُ حَرْثاً عَلَى وَجْهِ الْكِنَايَةِ؛ فَإِنَّهَا لِلْوَلَدِ كَالأَرْضِ لِلزَّرْعِ). وفي الآية دليلٌ على تحريم الوطءِ في الدُّبر؛ لأنه موضعُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٤٥٣) عن مرة الهمداني، والنص (٣٤٥٦) عن عبدالله بن علي عن أصحاب النبي ﷺ.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٤٧٤).

(٣) في لسان العرب: مادة (زرع): المزدرع: موضعُ الزَّرعِ؛ قال الشاعر:

وَاطْلُبْ لَنَا مِنهُمْ نَخْلاً وَمُزْدَرَعاً ... كَمَا لِجِيرَانِنَا نَخْلٌ وَمُزْدَرَعُ

(٤) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب النكاح: باب في جامع النكاح: الحديث (٢١٦٤)، وإسناده صحيح.

الفَرَثِ لا موضع الحرثِ؛ وإنما قالَ الله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ) وهذا من لُطْفِ كناياتِ القرآنِ.

وقال أهلُ المعاني: معنى الآيةِ: نساؤكم كحرثٍ لكم، كقولهِ تعالى:﴿حَتَّى إذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾[1] أي كَنَارٍ؛ والعربُ تسمي النِّساء حرثاً؛ قال الشاعرُ:

إذَا أَكَلَ الْجَرَادُ حُرُوثَ قَوْمٍ ... فَحَرْثِي هَمُّهُ أَكْلُ الْجَرَادِ

يريدُ امرأتي.

وأنشد أحمدُ بن يحيى ثعلبُ:

حَبَّذَا مِنْ هِبَةِ اللَّـ ... ـهِ البنَاتُ الصَّالِحَاتُ

هُنَّ النَّسْلُ وَالزُّرُ ... وعُ وَهُنَّ الشَّجَرَاتُ

يَجْعَلُ اللهُ لَنَا فِيـ ... ـمَا يَشَاءُ الْبَرَكَاتُ

إنَّمَا الأَرْحَامُ أَرْضُو ... نَ لَنَا مُحْرَثَاتُ

فَعَلَيْنَا الزَّرْعُ فِيْهَا ... وَعَلَى اللهِ النَّبَاتُ

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَنَّى شِئْتُمْ) أي كيف شئتم. وقال سعيدُ بن المسيَّب: (هَذَا فِي الْعَزْلِ؛ أيْ إنْ شِئْتُمْ فَاعْزِلُواْ وَإنْ شِئْتُمْ فَلاَ تَعْزِلُوا). ودليلُ هذا ما روي عن عبدالله أنه قالَ: (تُسْتَأْمَرُ الْحُرَّةُ فِي الْعَزْلِ؛ وَلاَ تُسْتَأْمَرُ الأَمَةُ)[2].

وقد وَهِمَ بعضُ الناس في تأويلِ هذه الآية وتعلَّق بظاهرها وجوَّز إتيانَ المرأة في دُبرها؛ وهذا لا يصحُّ؛ لأنَّ قوله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أنَّى شِئْتُمْ) يقتضي إباحةَ إتيان المرأة في قُبلها؛ والقولُ بجواز إتيان المرأة في دبرها باطلٌ. والصحيحُ: أنه حرامٌ؛ لِما روى أبو هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَلْعُونٌ مَنْ أتَى الْمَرْأةَ فِي دُبُرِهَا][3].

---

(١) الكهف / ٩٦.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب النكاح: باب من قال يعزل عن الحرَّة بإذنها: الأثر (١٤٦٧١)، والأثر (١٤٦٧٢) عن ابن عمر: [يُعْزَلُ عَنِ الأَمَةِ، وَتُسْتَأْمَرُ الْحُرَّةُ].

(٣) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب النكاح: باب في جامع النكاح: الحديث (٢١٦٢).

وعن عبدِالله بن الحسن عن أبيه: أنَّهُ لَقِيَ سَالِمَ بْنَ عَبْدِاللهِ؛ فَقَالَ لَهُ: مَا حَدِيْثٌ يُحَدِّثُ بِهِ نَافِعٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ؟ قَالَ: وَمَا هُوَ ؟ قَالَ: زَعَمَ أنَّ عَبْدَاللهِ بْنَ عُمَرَ لَمْ يَرَ بَأساً بإِتْيَان النِّسَاءِ مِنْ أدْبَارِهِنَّ! قَالَ: كَذَبَ الْعَبْدُ وَأخْطَأَ، وَإنَّمَا قَالَ عَبْدُاللهِ: (يُؤْتَوْنَ فِي فُرُوجِهِنَّ مِنْ أدْبَارِهِنَّ)(١).

والدليلُ على تحريمِ الوطءِ في الدبرِ قولـه ﷺ: [وَلاَ تَأْتُواْ النِّسَاءَ فِي أدْبَارِهِنَّ](٢). وعنِ ابنِ عبَّاس قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [لاَ يَنْظُرُ اللهُ تَعَالَى إلَى رَجُلٍ أتَى رَجُلاً أو امْرَأةً فِي دُبُرِهَا](٣). وعن أبي هريرةَ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَلْعُونٌ مَنْ أتَى الْمَرْأةَ فِي دُبُرِهَا](٤). وقال ﷺ: [مَنْ أتَى حَائِضاً أو امْرَأةً فِي دُبُرِهَا؛ أوْ أتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ فِيْمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ](٥).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ أي قدِّموا من العملِ الصالح لآخرتكم. وقيل: معناهُ: سَمُّوا الله تعالى عند الجماعِ(٦)، كما روي عنِ ابن عباس أنه

(١) ذكره أهل التفسير؛ ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٤ ص٨١. وأخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب عشرة النساء: الحديث (٨٩٧٨/ ٥) بلفظ قريب منه من طريق كعب بن علقمة، عن أبي النضر أنه أخبره أنه قال لنافع: مولى عبدالله بن عمر: .... وذكره.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٤ ص٨٨-٩٠: الحديث (٣٧٣٣-٣٧٣٤) عن خزيمة بن ثابت. وابن حبان في صحيحه: كتاب النكاح: باب النهي عن إتيان النساء في أعجازهن: الحديث (٤١٩٨) وإسناده صحيح. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣١٢ و٢١٥. والنسائي في السنن الكبرى: كتاب عشرة النساء: ذكر اختلاف الناقلين لخبر خزيمة بن ثابت: الحديث (٨٩٨٢-٨٩٩٦).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب عشرة النساء: ذكر حديث ابن عباس: الحديث (٩٠٠١/ ١ و٩٠٠٢/ ٢). وابن حبان في صحيحه: كتاب النكاح: باب ذكر الزجر عن إتيان المرء امرأة في غير موضع الحرث: الحديث (٤٢٠٣). والترمذي في الجامع: كتاب الرضاع: باب ما جاء في كراهية إتيان النساء في أدبارهن: الحديث (١١٦٥)؛ وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٤) تقدم. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٧٩. والنسائي في السنن الكبرى: ج ٥ ص٣٢٢: الحديث (٩٠١٥/ ٥).

(٥) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب عشرة النساء: الحديث (٩٠١٧/ ٧).

(٦) في جامع البيان: ج ٢ ص٥٤٢: النص (٣٤٨٠؛ قال ابن جرير: ((عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: (التسمية عند الجماع يقول: بسم الله).)).

قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [إذا أرَادَ أحَدُكُمْ أنْ يَأْتِيَ أهْلَهُ فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ؛ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإنْ قُدِّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرُّهُ الشَّيْطَانُ](1).

وقيلَ: معنى:(وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ) النيةُ الصالحة عند ذلك؛ وهو أن ينويَ: ربَّما قضى اللهُ ولداً يعبدهُ. وقيل: معناه: (وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ) هو التزويجُ بالعفائفِ ليكونَ الولدُ صالحاً طاهراً.

وقيل: هو تقديمُ الأَفْرَاطِ(2)، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ – الْحِنْثَ – لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ إلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ] فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاثْنَانِ. قَالَ: [وَاثْنَانِ]، فَظَنَنَّا أنَّهُ لَوْ قِيْلَ لَهُ وَوَاحِدٌ، قَالَ: وَوَاحِدٌ(3).

وقال السديُّ والكلبي: (يَعْنِي الْعَمَلَ الصَّالِحَ) دليلهُ سياقُ الآيةِ: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ﴾ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاتَّقُوا اللهَ) أي اخْشَوْهُ ولا تقربوهنَّ في حال الحيضِ ولا على وجهٍ لا يحلُّ، (وَاعْلَمُوا أنَّكُمْ مُلاقُوهُ) يومَ القيامةِ فيجزيكم

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الخلق: الحديث (٣٢٧١)، وكتاب النكاح: باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله: الحديث (٥١٦٥). ومسلم في الصحيح: كتاب النكاح: باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع: الحديث (١١٦/ ١٤٣٤). ولفظهما: [جَنِّبْنَا]. وأخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب عشرة النساء: باب ما يقول إذا أتاهن: الحديث (٩٠٣٠/ ١ و٩٠٣٠/ ٢).

(٢) الأفراط: جمع فرط، وهم الأولاد الذين ماتوا قبل أن يبلغوا الحلمَ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٧٦ عن أبي هريرة ﷺ و ج ٣ ص٣٠٦ عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وعنه أيضاً أخرجه ابن حبان في الصحيح: كتاب الجنائز: باب ما جاء في الصبر: ذكر رجاء نوال الجنان: الحديث (٢٩٤٧)، وإسناده قوي، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٣ ص٦-٧؛ وقال: ((رواه أحمد ورجاله ثقات)).

وعن أنس؛ أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: باب فضل من مات له ولد فاحتسب: الحديث (١٢٤٨). وفي باب ما قيل في أولاد المسلمين: الحديث (١٣٨١). وأخرجه من طريق أبي هريرة ﷺ: الحديث (١٢٥١)، وعلقه في باب ما قيل في أولاد المسلمين.

بأعمالكم. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ ؛ أي المصدّقين بالبعثِ والثواب بالجنةِ(١).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ نزلت هذه الآية في عبدِالله بن رواحةَ الأنصاري ﷺ حَلَفَ ألاَّ يدخلَ على خَتَنِهِ بشيرِ بن النعمان الأنصاريِّ ولا يكلِّمه ولا يصلحَ بينه وبين خصمهِ؛ وجعلَ يقولُ: حَلَفْتُ باللهِ أنْ لاَ أفْعَلَ وَلاَ يَحِلُّ لِي إلاَّ أنْ أبَرَّ فِي يَمِيْنِي؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ؛ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَرَأ عَلَيْهِ الآيَةَ، وَقَالَ: [مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِيْنٍ فَرَأى أنَّ غَيْرَهَا خَيْرٌ مِنْهَا؛ فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ؛ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِيْنِهِ، افْعَلُوا الْخَيْرَ وَدَعُوا الشَّرَّ]. وكفَّر ابنُ رواحة عن يَمينه ورجعَ إلى الذي هو خيرٌ(٢).

ومعنى الآية: (وَلا تَجْعَلُوا اللهَ) علَّة (لأَيْمَانِكُمْ) أي لا تجعلوا اليمينَ باللهِ مانعةً لكم من البرِّ والتقوى؛ وهو أن يجعلَ الرجلُ اليمينَ مُعْتَرَضاً بينهُ وبين ما هو مندوبٌ إليه أو مأمورٌ به من البرِّ والتقوى والإصلاحِ؛ يفعلُ ذلك للامتناع من الخيرِ؛ لأن المعترضَ بين الشيئين يمنعُ وصول أحدهما إلى الآخرِ. ومعنى(أنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا) أي لا تَبَرُّوا ولا تتقوا القطيعةَ، ولا تُصلحوا بين المتشاجرين كما قال امرؤُ القيس:

---

(١) قلتُ: هذا بعيدٌ وإن كان محتملاً ضمناً، والمقام يقتضي المعنى: أي الملتزمون المقيَّدون المتبعون لأمر الله عَزَّ وَجَلَّ في إتيان النساء، المجتنبون لما نهى الله عنه في إتيانهن. في الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص٩٦؛ قال القرطبي: ((تأنيسٌ لفاعل البر ومبتغِ سنن الهدى)).

(٢) ذكره ابن عطية في تفسيره، والسمرقندي في بحر العلوم: ج ١ ص٢٠٦ عن الكلبي. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص٩٧؛ قال القرطبي: ((وَقِيْلَ: نزلت في عبدالله بن رواحة حين حلف أن لا يكلم بشيرَ بن النعمان، وكان ختنه على أخته)).

أما الحديث إلى قوله: [وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِيْنِهِ] أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب ندب من حلف يميناً: الحديث (١١ و١٢ و١٣ و١٤/ ١٦٥٠) عن أبي هريرة، والحديث (١٥ و١٦ و١٧ و١٨/ ١٦٥١) عن عدي بن حاتم، والحديث (١٩/ ١٦٥٢) عن عبدالرحمن بن سمرة.

وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص٩٧؛ قال القرطبي: ((نزلت بسبب الصدِّيق، إذ حلف أن لا ينفق على مِسطَح حين تكلم في عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ وَقِيْلَ: حين حلف أن لا يأكل مع الأضياف)).

فَقُلْتُ يَمِيْنَ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِداً وَلَوْ قَطَعُواْ رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

أرادَ بذلك: لا أبرحُ؛ وكان أبو العباس[١] يُنكر إضمارَ حرفِ النفي في هذه الآية ويقولُ: (هَذَا إنَّما يَكُونُ فِي تَصْرِيْحِ الْيَمِيْنِ) كقولِكَ: واللهِ أقومُ؛ بمعنى واللهِ لا أقومُ. وأما في مثل هذا الموضعِ، فلا يجوزُ حذفُ حرفِ النفي. قال: (وَالصَّوَابُ أنَّ مَعْنَاهُ: لاَ تَجْعَلُواْ اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ كَرَاهَةَ أنْ تَبَرُّوا). فحُذفَ المضافَ وأقيمَ المضافُ إليه مقامَهُ؛ ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أنْ يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ﴾[٢].

وذهبَ بعضُ المفسرين إلى أنَّ معنى الآية: (وَلا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ) أي لا تَعْتَرِضُوا باليمينِ بالله تعالى في كلِّ حقٍّ وباطلٍ؛ وهو نَهيٌ عن كثرة الحلفِ، لِما في ذلك من الْجُرْأةِ على الله عَزَّ وَجَلَّ والابتذالِ لاسمه في كلِّ حقٍّ وباطلٍ. يقال: هذه عُرْضَةٌ لكَ؛ أي عدة لك تبتذلُها فيما تشاءُ. ومعنى (أنْ تَبَرُّوا) على هذا الإثباتِ؛ أي لا تحلفوا في كلِّ شيء لأَنْ تبرُّوا إذا حلفتم وتتَّقوا الْمَآثِمَ فيها.

ويجوزُ أن يكونَ قولَهُ تعالى: (أنْ تَبَرُّوا) مبتدأ، وخبرهُ محذوف تقديرهُ: أنْ تبرُّوا وتتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ؛ أي أوْلَى. فعلى هذا يكون موضعُ (أنْ تَبَرُّوا) رَفْعاً. وعلى التأويلِ الأول يكون نصباً؛ لأن معناهُ: لأنْ تَبرُّوا، موضعهُ نُصب بنَزع الخافضِ.

وقال مقاتلُ: (نَزَلَتْ فِي أبي بَكْرِ الصِّدِّيْقِ ﷺ حِيْنَ حَلَفَ لاَ يَصِلُ ابْنَهُ عَبْدَالرَّحْمَنِ حَتَّى يُسْلِمَ)[٣]. وقال ابنُ جريج:(نَزَلَتْ فِي أبي بَكْرِ الصِّدِّيْقِ ﷺ حِيْنَ حَلَفَ لاَ يُنْفِقُ عَلَى مُسْطَحٍ حِيْنَ خَاضَ فِي حَدِيْثِ الإفْكِ)[٤].

---

(١) أبو العباس محمد بن يزيد الْمُبَرِّد، شيخ أهل النحو، وحافظ علم العربية، وكان عالماً فاضلاً موثوقاً به في الرواية، توفي في شوال سنة خمس وثمانين ومائتين. ترجم له الخطيب في تاريخ بغداد: الرقم (١٨١٤): ج ٤ ص١٥١.

(٢) النور / ٢٢.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ١ ص١١٩.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٤٩٦).

قال المفسرونَ: هذا في الرجلِ يحلفُ بالله أن لا يَصِلَ رَحِمَهُ، ولا يكلِّمُ قرابتَه، ولا يتصدَّق، ولا يصنعُ خيراً، ولا يُصْلِحُ بين اثنين. فأمرهُ الله تعالى أن يَحْنَثَ في يمينه ويفعلَ ذلك الخير ويكفِّر عن يمينِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾؛ أي سَميع لأيمانِكم عليم بما تقصدون باليمين عند الحلفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾؛ اختلفَ العلماءُ في لَغْوِ اليمين المذكور في هذه الآيةِ؛ فقال قومٌ: هو ما يَسْبَقُ به اللسانُ على سرعةٍ وعجلة ليصلَ به كلامهُ من غير عَقْدٍ ولا قصدٍ؛ مثلُ قول الإنسان: لاَ واللهِ؛ بلى والله، ونحو ذلكَ. فهذا لا كفَّارة فيه ولا إثْمَ عليه، وعلى هذا القول عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا والشعبيُّ وعكرمة ومجاهدُ.

وقال آخرون: لَغْوُ الْيَمِيْنِ هو أنْ يحلفَ الإنسانُ على شيءٍ يرى أنه صادقٌ فيه، ثم تبينُ له خلاف ذلك؛ فهو خطأٌ منه غير عمدٍ، فلا إثْمَ عليه ولا كفارةَ؛ وعلى هذا القول ابنُ عباس والزهري والحسن وإبراهيمُ النخعي وقتادة والربيعُ وزرارة بنُ أوفى ومكحولُ والسديُّ. وقال عليٌّ ﷺ وطاووسُ: (اللَّغْوُ الْيَمِيْنُ فِي حَالَةِ الْغَضَبِ وَالضَّجَرِ مِنْ غَيْرِ عَقْدٍ وَلاَ عَزْمٍ)، ومثلهُ مرويٌّ عن ابن عباس[(١)]. يدلُّ عليه قولهُ ﷺ: [لاَ يَمِيْنَ فِي غَضَبٍ][(٢)].

وقال بعضُهم: هو اليمينُ في المعصيةِ، لا يؤاخذهُ الله بالحنثِ في يمينه ويكفِّرُ، وبه قال سعيدُ بن جبيرٍ[(٣)]. وقال غيرهُ: ليس عليه في ذلك كفَّارة[(٤)]. وقال مسروقُ في الرجلِ يحلفُ على المعصيةِ: (كَفَّارَتُهُ أنْ يَتُوبَ عَنْهَا، وَكُلُّ يَمِيْنٍ لاَ يَحِلُّ لَهُ أنْ يَفِيَ بهَا

---

(١) في الدر المنثور: ج ١ ص٦٤٤؛ أخرجه السيوطي بلفظ: ((لَغْوُ الْيَمِينِ أنْ تَحْلِفَ بِاللهِ وَأنْتَ غَضْبَانٌ))، وقال: ((أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي)).

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان: النص (٣٥٣٠).

(٣) جامع البيان: النص (٣٥٣١)، والنصوص (٣٥٣٢).

(٤) جامع البيان: النص (٣٥٢٦) عن مكحول.

فَلَيْسَ فِيْهَا كَفَّارَةٌ؛ وَلَوْ أَمَرَهُ بِالْكَفَّارَةِ لأَمَرْتُهُ أنْ يَتِمَّ عَلَى قَوْلِهِ)[١]. يدلُّ عليه مـا رويَ عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [مَنْ نَذَرَ فِيْمَا لاَ يَمْلِكُ فَلاَ نَـذْرَ لَـهُ، وَمَـنْ حَلَـفَ عَلَـى مَعْصِيَةٍ فَلاَ يَمِيْنَ لَهُ][٢].

وعن إبراهيم النخعيِّ قال: (لَغْــوُ الْيَمِيْــنِ أنْ يَصِـلَ الرَّجُـلُ كَلاَمَـهُ بـالْحَلْفِ، كَقَوْلِهِ: وَاللهِ لَيَأْكُلَنَّ؛ وَاللهِ لَيَشْرَبَنَّ؛ وَنَحْوِهَا، لاَ يَقْصِدُ بذَلِكَ الْيَمِيْنَ وَلاَ يُرِيْدُ بِهِ حَلْفاً، فَلَيْسَ عَلَيْهِ فِيْهِ كَفَّارَةٌ)[٣]. يدلُّ عليه مـا رويَ أنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ مَـرَّ بقَـوْمٍ يَنْتَضِلُـونَ وَمَعَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أصْحَابهِ؛ فَرَمَى رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقَالَ: وَاللهِ أصَبْـتُ؛ وَاللهِ أخْطَـأْتُ. فَقَالَ الرَّجُلُ الَّذِي مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ: حَنَثَ الرَّجُلُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَـالَ ﷺ: [كُـلُّ أيْمَانِ الرُّمَاةِ لَغْوٌ لاَ كَفَّارَةَ فِيْهَا وَلاَ عُقُوبَةَ][٤].

وقالت عائشةُ: (أيْمَانُ اللَّغْوِ مَا كَانَ فِي الْهَزْلِ وَالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَـةِ وَالْحَدِيْـثِ الَّذِي لاَ يُعْقَدُ عَلَيْهِ الْقَلْبُ)[٥]. وقال زيدُ بن أسلمَ: (هُوَ دُعَاءُ الْحَالِفِ لِنَفْسِهِ، كَقَوْلِهِ: أعْمَى اللهُ بَصَرِي إنْ لَمْ أفْعَلْ كَذَا، أخْرَجَنِي اللهُ مِنْ مَالِي إنْ لَمْ آتِكَ غَداً)[٦].

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان: النص (٣٥٣٥)؛ من قول الشعبي، والنص (٣٥٣٦) فيه قـول مسروق: ((كلُّ يمين لا يحلُّ لكَ أن تفي بها فليس فيها كفارةٌ)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٥٣٧). والحاكم في المستدرك: كتاب الأيمان والنـذور: باب من طلق ما لا يملك فلا طـلاق لـه: الحديـث (٧٨٩٢) عـن عبـدالله بـن عمـرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقال: ((حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)). وهو في سنن أبـي داود: الرقـم (٣٢٧٣). والنسائي في السنن الصغرى: ج ٧ ص١٢. وابن ماجة في السنن: الرقم (٢١١١)

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٥٣٩).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير: ج ٢ ص٢٧١: الحديث (١١٥١). وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص١٨٥: باب في لغو اليمين؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في المعجم الصغير ورجالـه ثقـات إلا شيخ الطبراني يوسف بن يعقوب لم أجد من وثقه ولا جرحه). وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٣٤٢) عن الحسن البصري.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٥٤١).

(٦) خرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٥٤٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ) أي بما تعمَّدتم الكذبَ؛ وهو أن يحلفَ على شيءٍ يعلمُ أنه ليس كذلكَ. والمعنى: (وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ) بما عزمتم وقصدتُم وتعمدتُم؛ لأن كَسْبَ القلب العقدُ والنيةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾ ؛ أي (غَفورٌ) لِمن تابَ من اليمين الغَمُوسِ، (حَلِيْمٌ) عن الحالفِ إذ لم يُعَجِّلْ عليه بالعقوبةِ. وقيل: معناهُ: (وَاللهُ غَفُورٌ) لِمن حنثَ وكَفَّرَ عن يمينهِ، (حَلِيمٌ) حين رَخَّصَ لكم في الحنثِ ولم يعاقبكم على اليمينِ على ترك البرِّ.

واللَّغْوُ في اللغةِ: الْكَلاَمُ السَّاقِطُ الَّذِي لاَ فَائِدَةَ فِيْهِ وَلاَ حُكْمَ لَهُ، يقال: أَلْغَيْتُ الشَّيْءَ إذا طَرَحْتُهُ. وقد يذكرُ اللَّغو ويراد به الكلامُ الفاحشُ القبيح، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾(٢).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (إنَّ الْعَرَبَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَكْرَهُ امْرَأتَهُ وَيَكْرَهُ أنْ يَتَزَوَّجهَا غَيْرُهُ، فَيَحْلِفُ أنْ لاَ يَطَأَهَا أبَداً وَلاَ يُخْلِي سَبيْلَهَا إضْرَاراً؛ فَتَبْقَى مُعَلَّقَةً لاَ ذَاتَ زَوْجٍ وَلاَ مُطَلَّقَةً، حَتَّى يَمُوتَ أحَدُهُمَا. فَأبْطَلَ اللهُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَجَعَلَ الأَجَلَ فِي هَذَا بَعْدَ هَذَا الْقَوْلِ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ إذَا تَمَّتْ هَذِهِ الْمُدَّةُ وَلَمْ يَفِئْ إلَيْهَا بَانَتْ بتَطْلِيْقَةٍ)(٣).

وفي قراءةِ عبدالله: (لِلَّذِينَ آلَوْا مِنْ نِسَائِهِمْ) على لفظ الماضي؛ والإيْلاَءُ: الْحَلْفُ؛ يقال: آلَى يُؤْلِي إيْلاَءً؛ والاسمُ الأَلية، قال الشاعرُ:

عَلَيَّ اللهَ وَصِيَامَ شَهْرٍ ... أَمْسِكُ طَائِعاً إلاَ يَكْفِي

(١) القصص / ٥٥.

(٢) الفرقان / ٧٢.

(٣) ذكر معناه أهل التفسير؛ وفي الدر المنثور: ج ١ ص٦٤٧؛ قال السيوطي: ((وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والطبراني والبيهقي والخطيب في تالي التلخيص عن ابن عباس: ... وذكر شطراً منه)). وفي مجمع الزوائد: ج ٥ ص١٠؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح)). وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الإيلاء: النص (١٥٦٣٢).

وجمعُ الأَلِيَّةِ الأَلاَيَا قال الشاعر[١]:

قَلِيْـلُ الأَلاَيَـا حَـافِظٌ لِيَمِيْنِـهِ إِذَا نَـذَرَتْ مِنْـهُ الإِلِيَّـةُ بَـرَّتِ

والإيلاءُ في الشرع: هو الحلفُ على تركِ الجماع الذي يكسبُ الطـلاق بمضـيِّ المدةِ. ومعنى الآية: للذينَ يحلفون من نسائهم لا يقربوهُـن أربعـةَ أشـهر. والـتربُّصُ: التَّوَقُّفُ. وقال بعضهم: التَّرَبُّصُ: التَّصَبُّرُ.

قولهُ: (فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فإن رجعوا عمـا حَلَفُـوا عليـه؛ فَقَـرُبَ الرجلُ امرأته أو كان عاجزاً عن الوطءِ ففَاءَ بلسانهِ، (فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ) لذنب الإضـرار بالامتناع عنِ الجماع، (رَحِيمٌ) بهم إذ رخَّص لهـم القُربـان بالكفـارة. وفي قـراءة ابـنِ مسعود: (فَإِنْ فَاءُوا فِيْهِنَّ).

واختلفَ العلماءُ فيما يكون مُولياً به على وجوه؛ أحدُها: مـا روي عـن علـي وابن عباس والحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: (أنَّ الإِيْلاَءَ هُوَ الامْتِنَاعُ مِنَ الْجِمَاعِ عَلَى جِهَـةِ الْغَضَبِ؛ وَالإِصْرَارُ بِتَأْكِيْدِ الْيَمِيْنِ حَتَّى لَوْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ رَضِيْعٌ يَخْشَى أنْ يَقْرُبَ أُمَّهُ أنْ تَحْبَلَ فَيَضُرَّ ذَلِكَ بِالْوَلَدِ، فَحَلَفَ أنْ لاَ يَقْرَبَهَا لَمْ يَكُنْ مُولِياً)[٢].

وقال النخعيُّ وابنُ سيرين والشعبيُّ:(هُوَ الْيَمِيْـنُ عَلَـى أنْ لاَ يُجَامِعَـهَا، سَـوَاءً كَانَ فِي الْغَضَبِ أوْ فِي الرِّضَا)[٣]. وبهذا القول قال علماؤُنا رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى حتـى قال أبوُ يوسف وأبو حنيفةَ ومحمدٌ[٤]:(كُلُّ يَمِيْنٍ فِي زَوْجَةٍ مُنِعَتْ جِمَاعَ أرْبَعَـةِ أشْـهُرٍ مِنْ غَيْرِ حِنْثٍ يَلْزَمُهُ تَعيِيْنَ إيْلاَءٍ؛ وَفِي أُخْرَى فَهُوَ إِيْلاَءٌ)[٥].

---

(١) هو كثير عزة. وفي بعض كتب التفسير: (إذا صدَرت). (إنْ سَبَقت)

(٢) عـن علـي؛ أخرجـه الطـبري بأسـانيد في جـامع البيـان: النصـوص (٣٥٦٠ و٣٥٦١ و٣٥٦٢ و٣٥٦٨)، وأخرى عن ابن عباس: النصوص (٣٥٦٥)، وعن الحسن: (٣٥٧٤ و٣٥٧٠).

(٣) أخرجه الطبري عن النخعي في النص (٣٥٨٠)، وعن الشـعبي في النـص (٣٥٧٨)، وعـن ابـن سيرين في النص (٣٥٧٤).

(٤) أي مُحَمَّد بن الحسن الشيباني، الإمامُ العلَمُ المشهور.

(٥) هذا ما ذهب إليه النخعي كما نقله الطبري في جامع البيان: النص (٣٥٧٣ و٣٥٧٥)، والشـعبي في النص (٣٥٧٦)، وسعيد بن المسيب في النص (٣٥٨٢).

والقولُ الثالث: ما رُوي عن سعيدِ بنِ المسيَّب: (أنَّ الإِيْلاَءَ هُوَ الْيَمِيْنُ فِي الْجِمَاعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الضَّرَر حَتَّى لَوْ حَلَفَ لاَ يُكَلِّمُهَا كَانَ مُولِياً)[1].

والقولُ الرابع: قولُ عبدالله بنِ عمر: (أنَّهُ إذا هَجَرَهَا فَهُوَ إيْلاَءٌ)، ولم يذكر الحلفَ[2].

والتَّرَبُّصُ: انتظارُ الشيء خيراً أو شرّاً يَحِلُّ بكَ أو به؛ ولذلك سُمي المحتكرُ متربصاً لانتظاره غلاءَ السِّعرِ، قال الشاعرُ:

تَرَبَّصْ بِهَا رَيْبَ الْمَنُونِ لَعَلَّهَا   تُطَلَّقُ يَوْماً أَوْ يَمُوتُ حَلِيْلُهَا

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾؛ أي وإن حقَّقوا الطلاقَ بالإقامةِ على حكمِ اليمين إلى تمام أربعةِ أشهرٍ؛ (فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ) لإيْلائهم؛ (عَلِيمٌ) بهم وبنِيَّاتِهِمْ. والعَزْمُ في اللغة: هو العقدُ على فعلٍ في المستقبلِ؛ يقال: عَزَمَ على كذا؛ إذا عَقَدَ قلبَهُ عليه. والعزمُ الشرعيُّ المذكور في هذه الآية على ثلاثةِ أوجهٍ: قال ابنُ عباس: (عَزِيْمَةُ الطَّلاَقِ انْقِضَاءُ الأَرْبَعَةِ أشْهُرٍ قَبْلَ أنْ يَفِيءَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ)[3]، وهو قولُ ابن مسعود[4] وزيدِ بن ثابت وعثمانَ بن عفانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ[5]؛ قالوا: (إنَّهَا تَبِيْنُ بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ بِتَطْلِيْقَةٍ)، وبه أخذَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ.

---

(١) ذكره الطبري في جامع البيان: النص (٣٥٨٢).

(٢) عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: ((أيما رجل آلى من امرأته، فإذا مضت الأربعة أشهر، وقف حتى يطلق أو يفيء، ولا يقع الطلاق إذا مضت الأربعة أشهر حتى يوقف)). أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الإيلاء: الأثر (١٥٦١١)، وقال: رواه البخاري في الصحيح؛ وهو كذلك كتاب الطلاق: الحديث (٥٢٩١).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٦٣٣).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٦٣٣ و٣٦٢٧).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٦٢٤ و٣٦٢٥).

وعن عليٍّ[(١)] وابن عمر[(٢)] وأبي الدرداءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مثلُ القـول الأول[(٣)]. وروي عنهُم أيضاً: (أنَّهُ يُوقَفُ بَعْدَ مُضِيِّ الْمُدَّةِ، فَإمَّا أنْ يَفِيءَ وَإمَّا أنْ يُطَلِّقَ)[(٤)] وهذا قولُ عائشة[(٥)] وآخرين. وبه قال مالكُ والشافعيُّ؛ فَإن امْتَنَعَ عَنْهُمَا؛ فللشافعيِّ قولان؛ أحدُهما: يَحْبسُهُ الْحَاكِمُ وَلاَ يُجْبِرُهُ عَلَى أحَدِ الأَمْرَيْنِ. والثانِي: يُطَلِّقُ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ.

وقال ابنُ جبير وسالم والزهريُّ وعطاء وطاووسُ: (إذَا مَضَتْ أرْبَعَةُ أشْهُرٍ فَهِيَ تَطْلِيْقَةٌ رَجْعِيَّةٌ). فإن قيلَ: قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (فَـإنَّ اللهَ سَـمِيعٌ عَلِيـمٌ) يقتضـي أنَّ عزيْمـةَ الطلاق مسموعةٌ ولا يكون كذلك إلا بقولٍ من الزوجِ بعدَ الإيلاء؟ قُلْنَا: هذا القـولُ لا يصحُّ؛ لأن اللهَ تعالى لم يَزَلْ سميعاً ولا مسموعَ وقد قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَـبيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[(٦)] وليس هناكَ قولٌ[(٧)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٦٢٢ و٣٦٢٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٦٣٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٦٦٦).

(٤) عن علي ﷺ؛ أخرجه الطبري في جامع البيـان: النـص (٣٦٦٤)، وعـن عثمـان ﷺ في النـص (٣٦٦٥)، وعن أبي الدرداء ﷺ في النص (٣٦٦٧-٣٦٦٩).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٦٦٥).　　(٦) البقرة / ٢٤٤.

(٧) في جامع البيان: مج ٢ ص٥٩٥؛ قال ابن جرير الطبري: ((ومعلوم أن انقضاء الأشـهر الأربعـة غير مسموع، وإنما هو معلوم، فلو كان عزم الطلاق انقضاء الأشهر الأربعة، لم تكن الآية مختومـة بذكر الله الخبر عن الله تعالى ذكرهُ أنه سميع عليم كما أنه لم يختم الآية الـتي ذكـر فيـها الفـيء إلى طاعته في مراجعة المؤلي زوجته التي آلى منها وأداء حقها إليها بذكر الخبر عن أنه شـديد العقـاب، إذ لم يكن موضع وعيد على معصية، ولكنه ختم ذلك بذكر الخبر عن وصفـه نفسـه تعـالى ذكـرهُ بأنه غفور رحيم، إذ كان موضع وعد المنيـب علـى إنابتـه إلى طاعتـه، فكذلـك ختـم الآيـة الـتي فيهاذكر القول، والكلام بصفة نفسه بأنه للكلام سميع وبالفعل عليم، فقال تعالى ذكرهُ: وإن عزم المؤلون على نسائهم على طلاق من آلوا منه مـن نسـائهم، فـإن الله سميـع لطلاقـهم إيـاهن إن طلقوهن، عليم بما أتوا إليهن مما يحل لهم، ويحرم عليهم)).

قوله عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ ؛ وقال ابنُ عباس: (كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُطَلِّقُ الرَّجُلُ امْرَأتَهُ، فَإنْ كَانَتْ حُبْلَى كَانَ أحَقَّ برَجْعَتِهَا وَإلاَّ كَانَتْ أحَقَّ بنَفْسِهَا، فَكَانَتِ الْمَرْأةُ إذا أحَبَّتِ الرَّجُلَ قَالَتْ: أنَا حُبْلَى، وَلَيْسَتْ حُبْلَى لِيُرَاجِعَهَا. وَإذا كَرِهَتْهُ وَهِيَ حُبْلَى قَالَتْ: لَسْتُ حُبْلَى؛ لِكَي لاَ يَقْدِرَ عَلَى مُرَاجَعَتِهَا؛ فَجَعلَ اللهُ عِدَّةَ الْمُطَلَّقَاتِ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ، وَنَهَى النِّسَاءَ عَنْ كِتْمَانِ مَا فِي أرْحَامِهِنَّ مِنَ الْحَيْضِ وَالْحَبَلِ).

ومعنى الآيةِ:(وَالْمُطَلَّقَاتُ) يَنْتَظِرْنَ (بأنفسِهِنَّ) ماذا يصنعُ بهن أزواجهُنَّ من الْمُرَاجَعَةِ وتركِ المراجعةِ. وقد اختلفَ السلفُ في القَرْءِ المذكور؛ قال أبو بكر وعمرُ وعثمان وابنُ عباس وابن مسعود وأبو موسَى الأشعري: (هُوَ الْحَيْضُ)، وقالُوا: (إنَّ الزَّوْجَ أحَقُّ بهَا مَا لَمْ تَغْتَسِلْ مِنَ الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ)[١]، وبه أخذَ أبو حنيفةَ وأصحابُه. وقال ابنُ عمر وزيدُ بن ثابت وعائشةُ:(الأقْرَاءُ هِيَ الأطْهَارُ)[٢]، (وَإذَا دَخَلَتْ فِي الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ، فَلاَ سَبيْلَ لَهُ عَلَيْهَا)[٣]، وبه قال مالكٌ[٤] والشافعيُّ.

وإنَّما اختلفَ السلفُ في هذه المسألة؛ لأن القَرْءَ في اللغةِ عبارةٌ عن الحيضِ وعن الطُّهر؛ وهو من أسْماء الأضدادِ؛ قالَ أبو عبيدةَ: (هُوَ خُرُوجٌ مِنْ شَيْءٍ إلَى شَيْءٍ؛ يُقَالُ: قَرَأ النَّجْمُ إذَا طَلَعَ؛ وَقَرَأ النَّجْمُ إذَا غَابَ). والمرأةُ تخرج من الطهر إلى الحيضِ، ومن الحيضِ إلى الطهر. قال الشاعرُ:

يَا رُبَّ ذِي ضِغْنٍ عَلَيَّ فَارضٍ ... لَهُ قُرُوءٌ كَقُرُوءِ الْحَائِضِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٧٠٧). والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب العدد: الأثر (١٥٧٩٨). وأخرج حديث عثمان في الأثر (١٥٨٠٠)، وحديث أبي موسى الأشعري في الأثر (١٥٨٠١).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب العدد: الأثر (١٥٧٨٧).

(٣) عن عائشة أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: الأثر (١٥٧٨٨)، وعن زيد بن ثابت في الأثر (١٥٧٨٩ و١٥٧٩٠)، وعن ابن عمر في الأثر (١٥٧٩١).

(٤) في السنن الكبرى: الأثر (١٥٧٩٥)؛ قال البيهقي: ((قال مالك رَحِمَهُ اللهُ: وذاك الأمر الذي أدركتُ عليه أهل العلم ببلدنا، والله أعلم)).

وأرادَ بذلك الحيضَ؛ يعني: أن عداوتَه تَهيجُ في أوقـات معلومـةٍ كمـا أن المـرأةَ تحيضُ في أوقات معلومةٍ. وقال آخر[١]:

أفِـي كُـلِّ عَـامٍ أنْـتَ جَاشِـمُ غَــزْوَةٍ تَشُــدُّ لأقْصَاهَــا عَزِيْــمَ عَزَائِكَــا
وَمُوَرِّثَــةٍ عِــزّاً وَفِــي الْحَــيِّ رِفْعَــةً لِمَـا ضَــاعَ فِيــهَا مِــنْ قُــرُوءِ نِسَــائِكَا

وأرادَ بالقرءِ في هذا البيتِ الطُّهرَ؛ لأنه خرجَ إلى الغزو ولم يَغْشَ نساءَه فأضـاع أقراءَهُن؛ أي أطهارَهن.

فلما اختلفَ السلفُ واختلفت اللغةُ في هذا الاسم لم يجب حملهُ على الأمريـن جميعاً، ووجبُ حمله على حقيقتهِ دون مجازه. واسم القَرْءِ حقيقـةٌ في الحيـضِ؛ مجـازٌ في الطهر؛ لأن كلَّ طهرٍ لا يسمى قرءاً وإنَّما الطهرُ الذي يكونُ بـين الحيضتـين، فسُـمِّي بهذا الاسم لمجاوزتهِ الحيضَ. فلو كان هذا الاسمُ حقيقةً في الطهرِ لكان لا ينتفـي عنـه بحال؛ لأنَّ الأسْماء الحقائقَ لا تنتفي عن مسمَّياتِها بحال؛ ووجدنا هـذا الاسـمَ ينتفـي عن طهرِ الآيسة والصغيرةِ، فكان حملهُ على الحيض أولَى من حمله على غيرهِ[٢].

فإذا اختلفـتِ الأمـةُ في ذلـك كـان المرجـعُ إلى لغـةِ النـبيِّ ﷺ وقـد قـالَ ﷺ: [الْمُسْتَحَاضَةُ تَدَعُ الصَّلاَةَ أيَّامَ أقْرَائِـهَا][٣] وأرادَ بـالأقراءِ الحيـضَ بالإجمـاعِ، واتَّفَـقَ

---

(١) في الجامع: ج ٣ ص١١٣؛ قال القرطبي: ((قال الأعشى في الأطهار)) وفي الهـامش في الديـوان: ص٢٩ من قصيدة في مدح هوذة بن علي الحنفي. وجشـم الأمـر: تكلفـه علـى جـهد ومشـقة، والعزيم: الجدُّ، والعزاء: حسن الصبر عن فقد الشيء.

(٢) في السنن الكبرى: كتاب العدد: جماع أبواب عدة المدخول بها: في ذيل النـص (١٥٧٩٧)؛ قـال البيهقي: ((وقد روي هذا اللفظ الذي احتجوا به في أحاديث ذكرناها في كتاب الحيـض، وتلـك الأحاديث في نفسها مختَلفٌ فيها، فبعض الرواة قال فيها: [أيَّامَ أقْرَائِـها] وبعضـهم قـال فيـها: [أيَّامَ حَيْضِهَا]، وما في معناه، وكل ذلك من جهة الرواة، كل واحد منهم يعبِّر عنـه بمـا يقـع لـه، والأحاديث الصحاح متفقة على العبارة عنه بأيام الحيض دون لفظ الأقراء، والله اعلم)).

وفي جامع البيان: مج ٢ ص٦٠٣؛ قال أبـو جعفـر الطـبري رَحِمَـهُ اللهُ: ((والقَـرْءُ في كـلام العرب جمعه قُرُوءٌ... وأقرأ إذا جاءَ وقتُ طلوعهِ)). والله أعلم.

(٣) أخرج طرقه أبو داود في السنن: كتاب الطهارة: باب من قال تغتسل من طهر إلى طهر: الحديـث (٢٩٧-٣٠٠) وقال: كلها ضعيفة لا تصح.

الصَّحَابَةُ أن عدَّة أمِّ الْوَلَدِ بالْحَيْضِ وكذلك الاستبراء[١].

وذهبَ الزجَّاجُ إلى أن القَرْءَ الْجَمْعُ من قولِهم: قرأتُ القرآنَ؛ أي لَفَظْتُ به مَجْمُوعاً. ويقال: قَريتُ الماءَ في الحوضِ[٢]. ويسمى الحوضُ مِقْرَاةً. قال: (وإنَّمَا يَجْتَمِعُ الدَّمُ فِي الْبَدَنِ فِي الطُّهْرِ فَهُوَ الْقَرْءُ) غير أن الأمر لا يظهرُ في الحقيقة؛ لأن هذا مِن علمِ ما في الأرحامِ، وقد خَصَّ اللهُ تعالى نفسَه بعلمِ ما في الأرحامِ، ولا يمتنعُ أن يجتمعَ الدمُ في حالة الحيضِ قطرةً أو قطرتين كالعبرةِ ونحوها؛ إذ لو اجتمعَ جُملة لَدَرَّ دُرُوراً لا ينقطعُ كالبول وسائرِ المائعات المجتمعةِ.

والمطلَّقةُ قبلَ الدخول مخصوصةٌ من هذه الآية بآيةٍ أخرى وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إذا نَكَحْتُمْ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾[٣]. وكذلك الحاملُ مخصوصةٌ بآية أخرى.

وروي أنَّ رَجُلاً مِنْ أشْجَعَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَلَّقْتُ امْرَأتِي وَهِيَ حَامِلٌ وَقَدْ ذهَبَتْ وَأنَا أخَافُ أنْ تَنْطَلِقَ فَتَتَزَوَّجَ مِنْ بَعْدِي فَيَكُونُ وَلَدِي لَهُ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأنفسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ) إلى آخرِ الآيَةِ. فَرُدَّتِ امْرَأةُ الأَشْجَعِيِّ إلَى الأَشْجَعِيِّ، فَقَامَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أرَأيْتَ الْكَبِيْرَةَ الَّتِي يَئِسَتْ مِنَ الْحَيْضِ مَا عِدَّتُهَا؟ فَنَزَلَ: ﴿وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أشْهُرٍ﴾[٤]. فَقَالَ آخَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أرَأيْتَ الصَّغِيْرَةَ الَّتِي لَمْ تَبْلُغِ الْحُلُمَ؛ مَا عِدَّتُهَا؟ فَأنْزَلَ ﴿وَاللائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾. فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَالْحَوَامِلُ مَا عِدَّتُهُنَّ؟ فَنَزَلَ: ﴿وَأوْلاتُ الأَحْمَالِ أجَلُهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

---

(١) أسند البيهقي آثاراً في السنن الكبرى: كتاب العدد: باب استبراء أم الولد.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص١١٤؛ قال القرطبي: ((قال أبو عمر بن عبدالله: قول من قال: إن القَرْءَ مأخوذٌ من قولهم: قَرَيْتُ الماء في الحوضِ ليس بشيء؛ لأن القرءَ مهموزٌ وهذا غيرُ مهموز)).

(٣) الأحزاب / ٤٩.

(٤) الطلاق / ٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أرْحَامِهِنَّ) تخويفاً من اللهِ تعالى للمُعْتَدَّاتِ كي لاَ (يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أرْحَامِهِنَّ) من الْحَبَلِ فيخبرنَ بانقضاءِ العدة ثم يتزوجْنَ فَيُلْزِمْنَ الولدَ غيرَ أبيه؛ ولا يكتمنَ الحيضَ فيمتنعنَ عن الإخبار بانقضاءِ العدَّة ليستوجبنَ النفقةَ على أزواجهن.

وفي هذهِ الآية دليلٌ على أنَّ قولَ المرأة يُقبل على أمرِ رَحِمِهَا حتى لو قالت: حِضْتُ؛ حرُمَ على الزوجِ وطؤها؛ وإذا قالت: طَهُرْتُ؛ حلَّ له وطؤها؛ إذ لو لم يجب قَبولُ قولِها لم يكن لِنَهْيِهَا عن الكتمان معنى ولا فائدةٌ؛ ولِهذا إذا قالَ لامرأته: إذا حِضت فأنتِ طالقٌ؛ فقالت: حِضْتُ؛ طُلِّقَتْ، وكان قولُها كالبينةِ في حقِّ نفسها؛ لأنَّا قَبلْنَا قولَها فيما يخصُّها من انقضاء عدتِها وإباحةِ وطئها وحظرِهِ.

وفرَّقوا بين هذا وبين سائرِ الشروط نحو قولِهِ: إذا دخلتِ الدارَ أو كلَّمتِ زيداً؛ فقالوا: لا يُقبل قولُها فيه إلا ببينةٍ. فأما إذا علَّق عِتْقَ عبده بحيضةِ زوجته؛ فقالت: حِضْتُ؛ لم تُصدَّق؛ لأن ذلك حكمٌ في غيرها لا يخصُّها ولا يتعلق بها؛ فهو كغيره من الشروطِ ولا تصدَّق.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾ ؛ أي أزواجهن أحقُّ بمراجعتهن في الأجلِ الذي أمرن أن يتربصن فيه؛ إن أرادوا بمراجعتهن حُسن الصحبة والمعاشرةِ دون الإضرار والعدوان.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ أي لَهن على أزواجهنَّ من الحقِّ والْحُرمة وحُسن المعاشرةِ مثلُ ما للزوجِ عليهن من الحقوق بالمعروف. واسمُ المعروف عامٌّ في كلِّ ما يُعرف من إقامة الحقِّ، يسمى بذلك لأن كلَّ واحد يعرفُ بأنه حقٌّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ ؛ أي لَهم زيادةٌ فيما للنساء عليهم وهو الفضلُ بنفقتهن وقيامهم بما يصلحُهن. والفضلُ في العقلِ والميراث أن يكون الرجلُ مسلَّطاً على تأديب المرأة إذا نشزت. وعن رَسُول اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ:[لَوْ أذِنْتُ لِبَشَرٍ أنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ وَلَوْ صَحَّ ذلِكَ؛ لأَمَرْتُ الْمَرْأةَ أنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ

عَلَيْهَا؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ مِنْ قَدَمِهِ إلَى مَفْرَقِ رَاسِهِ لَشَحِبَ بالْقَيْحِ وَالصَّدِيْدِ ثُمَّ لَحَسَتْهُ مَا أدَّتْ حَقَّهُ][1].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ ؛ أي مَلِكٌ غالب يحكمُ ما أراد ويَمتحن بما أحبَّ فينتقم مِمَّن عصاهُ، وهو ذو حكمةٍ فيما يأمرُ من أمرِ الدين والدنيا؛ لا يأمرُ شيئاً إلا لحكمةٍ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ ؛ قال عروةُ بن الزبير وقتادة في معنى هذه الآيةِ: (إنَّ الطَّلاَقَ الَّذِي يَمْلِكُ فِيهِ الرَّجْعَةَ مَرَّتَانِ؛ فَإنَّهُ بَعْدَ الطَّلْقَةِ الثَّالِثَةِ لاَ يَمْلِكُ الرَّجْعَةَ). وفي الآيةِ ما يدلُّ على هذا؛ لأنَّ الله

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (١٢٠٠٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وفي مجمع الزوائد: ج ٩ ص٥؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني وفيه أبو عزة الدباغ، وثقه ابن حبان، واسمه الحكم بن طهمان، وبقية رجاله ثقات)). ولفظه من دون ذكر الزيادة: [والذي نفسي بيده- ما أدت حقه].

وأخرجه أيضاً: الحديث (٥٠٨٤ و٥١١٦ و٥١١٧) عن زيد بن أرقم، والزيادة فيه بلفظ آخر: [وَلاَ تُؤَدِّي الْمَرْأةُ حَقَّ زَوْجِهَا حَتَّى لَوْ سَألَهَا نَفْسَهَا عَلَى قَتَبٍ لأَعْطَتْهُ]. في الزوائد: ج ٤ ص٣٠٨؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الكبير والأوسط – وفي إسناد الأول- قال: رجاله رجال الصحيح خلا المغيرة بن مسلم، وهو ثقة)). وفي ج ٤ ص٣١٠؛ قال: ((رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح خلا صدقة بن عبدالله السمين، وثقه أبو حاتم وجماعة، وضعفه البخاري وجماعة)).

أما الزيادة، فهي على ما يبدو من كلام معاذ، وربما أدرجه البعض في الحديث. في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ٤ ص٣٠٨؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد والطبراني من رواية عبدالحميد ابن بهرام عن شهر؛ وفيهما ضعف وقد وثقا)).

ولفظ الحديث كما في السنن: [مَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ، وَلَوْ كَانَ أحَدٌ يَنْبَغِي أنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ، لأَمَرْتُ الزَّوْجَةَ أنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا لِمَا عَظَّمَ اللهُ عَلَيْهَا مِنْ حَقِّهِ]. أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ: أبواب الرضاع: الحديث (١١٥٩). وابن حبان في الصحيح: كتاب النكاح: باب معاشرة الزوجين: الحديث (٤١٦٢) واللفظ له. وفي إسنادهما مُحَمَّد بن عمرو، روى له أصحاب السنن، وروى له البخاري مقروناً، ومسلم متابعة، وهو حسن الحديث. وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

عَقَّبهُ بقوله: (فَإمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أوْ تَسْرِيحٌ بإحْسَانٍ). وعنِ ابن عباس ومجاهدٍ: (أنَّ الْمُرَادَ بالآيَةِ بَيَانُ طَلاَقِ السُّنَّةِ).

وقولهُ: (الطَّلاقُ مَرَّتَان) لفظهُ لفظ الخبرِ ومعناه الأمرُ والندبُ، وفي لفظ المرَّتين دليلٌ على أن التفريقَ سُنَّة؛ لأَن من طَلَّقَ اثنتينِ معاً لا يُقال طلَّقها مرتين، وليس في هذه الآيةِ كيفيةُ سُنة التفريق. وقد فسَّره اللهُ تعالى بقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[1] وأرادَ بذلك تفريقَ الطلاق على إظهار العدة؛ ألا تَرَى أنه تعالى خاطَبَ الرجالَ إحصاءَ العدة، وذكرَ الرجعةَ في سياق الآية بقوله: ﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أمْرًا﴾. وعلى هذا قالَ ﷺ لابْنِ عُمَرَ حِيْنَ طَلَّقَ امْرَأتَهُ فِي حَالِ الْحَيْضِ: [مَا هَكَذَا أمَرَكَ رَبُّكَ؛ إنَّمَا أمَرَكَ أنْ تَسْتَقْبلَ الطُّهْرَ اسْتِقْبَالاً، فَطَلِّقْهَا لِكُلِّ قَرْءٍ تَطْلِيْقَةً؛ فَإنَّهَا الْعِدَّةُ الَّتِي أمَرَ اللهُ أنْ يُطَلَّقَ فِيْهَا النِّسَاءُ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَإمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ) أي عليكم إمساكهن بحُسْنِ الصحبةِ والمعاشرة إذا أردتُم الرجعةَ، (أوْ تَسْرِيحٌ بإحْسَان) أي يتركوهن حتى ينقضيَ تمام الطُّهر ويَكُنَّ أملكَ لأنفسهن. والإحسانُ: أنْ يوفِّي الزوجُ حقَّها في المهر ونفقةِ العدَّة؛ وأنْ لا يُطَوِّلَ العدةَ عليها. وروي أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ؛ فَقِيْلَ لَهُ: أيْنَ التَّطْلِيْقَةُ الثَّالِثَةُ؟ فَقَالَ: [فِي قَوْلِهِ: (أوْ تَسْرِيحٌ بإحْسَان)][3].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (نَزَلَتْ فِي جَمِيْلَةَ بنْتِ عَبْدِاللهِ بْنِ أَبي

---

(١) الطلاق / ١.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الخلع والطلاق: باب الاختيار للزوج أن لا يطلق إلا واحدة: الحديث (١٥٣١٣ و١٥٣١٤). وأخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الطلاق: الحديث (٥٢٥١)، وفيه أنه ﷺأمر عمر أن يأمر ابنه. وأخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الطلاق: باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها: الحديث (١-١٤/ ١٤٧١). ولم يرد أن الرسول ﷺ خاطب ابن عمر مباشرة.

(٣) عن أبي رزين؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٣٧٨٤) من ثلاثة طرق. وأبو رزين هو الأسدي، واسمه مسعود، تابعي كوفي ثقة، غير أبي رزين العقيلي الصحابي، فالحديث مرسل.

ابن سَلُول[١] وَفِي زَوْجِهَا ثَابتِ بْنِ قَيْس، كَانَتْ تَبْغَضُهُ بُغْضاً شَدِيْداً لاَ تَقْدِرُ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَكَانَ يُحِبُّهَا حُبّاً شَدِيْداً لاَ يَقْدِرُ عَلَى أنْ يَصْبِرَ عَنْهَا؛ وَكَانَ بَيْنَهُمَا كَلاَمٌ، فَأتَتْ أبَاهَا فَشَكَتْ عَلَيْهِ وَقَالَتْ: إنَّهُ يَضْربُنِي وَيُسِيْءُ إلَيَّ! فَقَالَ لَهَا: ارْجِعِي إلَى زَوْجِكِ، فَأتَتْهُ الثَّانِيَةَ وَبهَا أثَرُ الضَّرْب، فَشَكَتْ إلَيْهِ فَقَالَ لَهَا: ارْجِعِي إلَى زَوْجِكِ. فَلَمَّا رَأتْ أنَّهُ لاَ يُشْكِيْهَا وَلاَ يَنْظُرُ فِي أمْرهَا أتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَشَكَتْ عَلَيْهِ وَأرَتْهُ أثَرَ الضَّرْب بهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، لاَ أنَا وَلاَ هُوَ، فَأرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى ثَابتٍ وَقَالَ: [يَا ثَابتُ، مَا لَكَ وَلأَهْلِكَ؟] قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بالْحَقِّ نَبيّاً؛ مَا عَلَى الأَرْضِ شَيْءٌ أحَبُّ إلَيَّ مِنْهَا غَيْرُكَ، لَكِنَّهَا لاَ تُطِيْعُنِي، فَقَالَ لَهَا النَّبيُّ ﷺ: [مَا تَقُوليْنَ؟] فَكَرِهَتْ أنْ تَكْذِبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَالَتْ: مَا كُنْتُ أحَدِّثُكَ الْيَوْمَ حَدِيْثاً يَنْزلُ عَلَيْكَ خِلاَفُهُ غَداً، هُوَ مِنْ أكْرَمِ النَّاس لِزَوْجَتِهِ لاَ أعِيْبُ عَلَيْهِ فِي دِيْنٍ وَلاَ خُلُق، وَلَكِنِّي أبْغَضُهُ لاَ أنَا وَلاَ هُوَ. فَقَالَ ثَابتُ: قَدْ أعْطَيْتُهَا حَدِيْقَةً لِي، قُلْ لَهَا فَلْتَرُدَّهَا عَلَيَّ وَأنَا أخْلِي سَبيْلَهَا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أتَرُدِّيْنَ عَلَيْهِ حَدِيْقَتَهُ وَتَمْلِكِيْنَ أمْرَكِ؟] قَالَتْ: نَعَمْ، وَزيَادَةً. فَأنْزَلَ اللهُ قَوْلَهُ: (وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إلا أنْ يَخَافَا ألا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ) الآيَةُ، فَقَالَ ﷺ: [أمَّا الزِّيَادَةُ فَلاَ] ثُمَّ قَالَ لِثَابتٍ: خُذْ مِنْهَا مَا أعْطَيْتَهَا وَخَلِّ سَبيْلَهَا، فَفَعَلَ. وَكَانَ ذِلِكَ أوَّلَ خُلْعٍ فِي الإسْلاَمِ)[٢].

---

(١) اضطرب النقل في اسم امرأة ثابت بن قيس. وفي فتح الباري شرح صحيح البخاري: شرح الحديث (٥٢٧٣)؛ وما بعده قال ابن حجر: ((وأبهم في هذه الطريق اسم المرأة، وفي الطرق التي بعدها، وسميت في آخر الباب ? جميلة)). قال: ((وقع في رواية النسائي والطبراني من حديث الربيع بن معوِّذ: أن ثابت بن قيس ضرب امرأته فكسر يدها، وهي جميلة بنت عبدالله بن أبي، فأتى أخوها يشتكي إلى رسول الله ﷺ... الحديث، وبذلك جزم ابن سعد في (الطبقات) فقال: جميلة بنت عبدالله بن أبي، أسلمت وبايعت، وكانت تحت حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة...)). وقال عن اختلاف الأسماء وتعددها بأنه لا تنفي فيما بينها ((لاحتمال أن يكون لها أسماء وأحدهما لقب)).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الطلاق: باب (١٢): الحديث (٥٢٧٧). وابن ماجه في السنن: كتابا الطلاق: باب المختلعة تأخذ ما أعطاها: الحديث (٢٠٥٦). والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب الخلع: الحديث (١٥٢١٠-١٥٢١٢).

ومعنى الآيةِ: (وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَأْخُذُوا) شيئاً مما أعطيتموهن مِن مهر ولا غيرِهِ، (إلا أنْ يَخَافَا). قال أبو عبيدٍ: (مَعْنَاهُ: مُعَلَّماً وَمُؤَقَّتاً حَقِيْقَتُهُ؛ أيْ إلاَّ أنْ يَكُونَ الأَغْلَبُ عَلَيْهَا عَلَى مَا ظَهَرَ مِنْهُمَا مِنَ أسْبَاب التَّبَاعُدِ الْخَوفُ مِنْ أنْ لاَ (يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ) وَهُوَ مَا فَرَضَ اللهُ تَعَالَى لِلزَّوْجِ).

ومَن قرأ (يُخَافَا) على فعلٍ ما لم يُسَمَّ فاعلهُ، كان المعنى إلا أن يُخافا عليهما أن لا يُقيما حدودَ اللهِ، وهو ما فَرَضَ اللهُ تعالى للزوجِ على المرأةِ، والمرأةِ على الزوجِ. وقد يُذكر الخوفُ في معنى الْعِلْمِ كما قال أبو مِحْجَنٍ الثقفيّ[1]:

إذا مِتُّ فَادْفِنِّي إلَى أصْلِ كَرْمَةٍ ... تُرْوِي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقُهَا

وَلاَ تَدْفِنَنِي بِالْفَلاَةِ فَإنَّنِي ... أخَافُ إذَا مَا مِتُّ أنْ لاَ أذُوقُهَا

وأما قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي علمتم بغَالِب ظَنِّكُمْ أن لا يكونَ بينهما صلاحٌ ولا مقامٌ على النكاحِ. ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ ؛ أي لا حرجَ عليهما في الأخذِ والإعطاءِ. ويقال: معناهُ: لا حرجَ على الزوج أن يأخذَ ما افتدت به المرأةُ نفسَها مما أعطاها الزوجُ. قال الفرَّاءُ: (هَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[2] وَإنَّمَا يَخْرُجُ ذلِكَ مِنْ أحَدِهِمَا؛ كَذَلِكَ فِي هَذِهِ الآيَةِ أرَادَ بقَوْلِهِ تَعَالَى: (فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا) نَفْيَ الْحَرَجِ عَنِ الزَّوْجِ فِي الأَخْذِ؛ فَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مُفْتَدِيَةٌ باخْتِيَارِهَا وَرِضَاهَا).

وإنَّما يُباح للزوج أن يَخلَعَهَا إذا كان النُّشُوزُ من قِبَلِ المرأة؛ وروي عن ابن عباس ﷺ أنه قالَ: (لَوِ اخْتَلَعَتْ بكُلِّ شَيْءٍ لَهَا لأَخَذْتُهُ)[3].

---

(١) رفع الفعل المضارع بعد (أنْ) لوقوعها بعد الخوف، بمعنى العلم واليقين، واسم (أنْ) المخففة ضمير شأن محذوف أو ضمير متكلم، وجملة (لا أذوقُها) في محل رفع خبرُها. اي أعلمُ إذا متُّ أني لا أذوقُها، إشارة منه إلى أن من شرب الخمر في الدنيا لا يشربها في الآخرة.

(٢) الرحمن / ٢٢.

(٣) يذكر عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الطلاق: الحديث (٣٢).

وروي أن امرأةً نَشَزَتْ فرُفعت إلى عمر ﷺ فأباتَها في بيتِ الزِّبْلِ ثلاثَ ليالٍ ثم دعا بها فقالَ ﷺ: (كَيْفَ وَجَدْتِ مَبيْتَكِ؟) فَقَالَتْ: مَا بتُّ لَيَالِيَ مِنْذُ كُنْتُ عِنْدَهُ أقَرُّ لِعَيْنِي مِنْهُنَّ. فَقَالَ عُمَرُ ﷺ لِزَوْجِهَا: (اخْلَعْهَا، وَلَوْ بقِرْطِهَا)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ ؛ الآيةُ؛ أي هذه الآياتِ المنَزَّلة من الأوامر والنواهي فرائضُ الله وأحكامه (فَلا تَعْتَدُوهَا) أي فلا تتجاوزُوها، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي مَن يتجاوز أحكامَ اللهِ ويترك ما أمرَ الله به أو يعملُ بما نَهاه، ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ ؛ الضَّارُّونَ لأنفسهم بمعصيتهم. وإذا كان النشوزُ من قِبل الزوج، فلا يحلُّ له أخذه شيئاً منها دِيَانةً؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾[2].

واختلفَ السلفُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في الْخُلْعِ؛ هل هو طلاقٌ أو فسخٌ؟ فذهبَ بعضهم إلى أنه فسخٌ؛ وهي روايةٌ عن ابن عباس، واستدلُّوا بظاهر هذه الآية؛ فقالوا: إنَّ اللهَ ذكَرَ الطلاق الثالثَ بعد هذا بقوله: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ ؛ فلو كان الخلعُ طلاقاً لجعل الطلاقَ أكثرَ من ثلاثٍ.

وأكثرُ فقهاءِ الأمصار قالوا: الْخُلْعُ طلاقٌ؛ وهو ((رواية عن))[3] عمرَ وعثمانَ وابن مسعود والحسن وإبراهيم النخعي وغيرهم. وليس في ظاهر هذه الآية أنَّ الخلعَ فسخٌ؛ لأن قوله تعالى: (وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَأْخُذُوا) حكمٌ مبتدأ؛ إذ (الواو) للاستئناف؛ إلا أن يقومَ دليل الجمعِ، فكأنَّ الله تعالى ذكرَ في أول هذه الآية حكمَ الطلاق بغير بدل وخيَّر الزوج بين أن يُراجعها في العدةِ أو يتركها حتى تنقضي عدتُها، ثم استأنفَ بيانَ حُكم الطلاقين إذا كان على وجهِ الخلع، وأبَانَ عن موضعِ الحظرِ والإباحةِ فيها، ثم ذكرَ حُكم الطلقة الثالثةِ بالآية التي بعد هذهِ الآية. وهذا مما يستدلُّ به على أن المختلعةَ يلحقُها الطلاق؛ لأن عامةَ الفقهاء اتفقوا على أن تقديرَ الآيةِ وترتيبَ أحكامها على ما وصفناهُ؛ فحصلت التطليقةُ الثالثة بعد الْخُلْعِ.شرطٌ في إباحتها للأول؛ إلا ما روي عن سعيدِ بن المسيب روايةً شاذةً: أنَّهُ لَمْ يَجْعَلْهُ شَرْطاً؛

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٨٤١) بإسنادين ولفظين، و (٣٨٤٢).

(٢) النساء / ٢٠. (٣) ((رواية عن)) ليس في الأصل المخطوط، وأضفناه لضرورة السياق.

وَلَمْ يُتَابِعْهُ أَحَدٌ عَلَى ذلِكَ[1].

(١) في المسألة مذهبان: مذهب الجمهور، ومذهب سعيد بن المسيب ومن تابعه عليه. أما مذهب الجمهور: وهو أن المطلقة ثلاثاً لا تحل للأول إلا بشروط؛ وهي: أن تعتدَّ منه، وتتزوج بغيره، ويطأها، ثم يطلقها، وتعتد من الآخر.

أما مذهب سعيد، فذكره ابن حزم في المحلى: ج ١٠ ص١٧٨؛ وقال: ((روينا من طريق سعيد ابن منصور نا هشيم نا داود بن أبي هند عن سعيد بن المسيب في المطلقة ثلاثاً ثم تتزوج، قال سعيد: أما الناس فيقولون: حتى يجامعها، وأما أنا فإني أقول: إذا تزوجها بتزويج صحيح لا يريد بذلك إحلالاً؛ فلا بأس أن يتزوجها الأول)).

وهذه المسألة ليس رأي الإمام سعيد بن المسيب فيها شاذاً، إنما الرواية صحيحة، ولكن الفهم الآخر غريب، وليس كما قيل من أنه لم يتابعه أحد عليه؛ بل تابعه عليه الإمام سعيد بن جبير، نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص١٤٨؛ قال: ((من قال بقول سعيد بن المسيب: سعيد بن جبير، ذكره النحاس في كتاب (معاني القرآن) قال: وأهل العلم على أن النكاح ها هنا الجماع؛ لأنه قال ﴿زوجاً غَيْرَهُ﴾ فقد تقدمت الزوجية، فصار النكاح الجماع؛ إلا سعيد بن جبير فإنه قال: النكاح ها هنا التزويج الصحيح ما لم يرد إحلالها)).

أما أنه ليس رأياً شاذاً؛ فلأنه لم يطلق القول بتحليلها بمجرد العقد كما نقل البعض عنه بحسب فهمهم لرأيه، وإنما نظرَ في المسألة من جهة معتبرة أصولياً حسب القواعد والثوابت؛ في أحكام القرآن: ج ١ ص١٩٨؛ قال القاضي ابن عربي: ((ما مرَّ بي من الفقه مسألة أعسر منها؛ وذلك أن من أصول الفقه: أن الحكم هل يتعلق بأوائل الأسماء أم بأواخرها؟... فإن قلنا: إن الحكم يتعلق بأوائل الأسماء لزمنا مذهب سعيد بن المسيب، وإن قلنا إن الحكم يتعلق بأواخر الأسماء لزمنا أن نشترط الإنزال مع تغييب الحشفة في الإحلال؛ لأنه آخر ذوق العُسيلة)).

أما قول ابن المنذر الذي نقله الإمام القرطبي في الجامع: ج ٣ ص١٤٨؛ قال: ((قال: ومعنى ذوق العُسيلة هو الوطء؛ وعلى هذا جماعة العلماء إلا سعيد بن المسيب، فقال: (أما الناس فيقولون: لا تحل للأول حتى يجامعها الثاني، وأنا أقول: إذا تزوجها تزوُّجاً صحيحاً لا يريد بذلك إحلالها، فلا بأس أن يتزوجها الأول). وهذا قول لا نعلم أحداً وافقه عليه إلا طائفة من الخوارج؛ والسنة مستغنى بها عما سواها)). فإنه قول لا يضر، والطائفة من الخوارج أراد سعيد ابن جبير حيث قتله الحجاج بن يوسف الثقفي. أما أنه لا يضر فلأن الأصل في البحث الفقهي النظر في الدليل وليس كثرة من قال، ثم أن يكون النظر بعمق فكر وانتباه إلى دلالات النص الشرعي من الدليل. =

وإنَّما جُعِلَ دخولُ الزوج الثاني بها شرطاً لمفهومِ الآية وورُود السُّنة. أما مفهومُ

=أما قول القرطبي: ((وأظنهما – أي السعيدين – لم يبلغهما حديث العُسيلة، أو لم يصح عندهما؛ فأخذا بظاهر القرآن، وهو قوله: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ والله أعلم)). فأجاب عليه ابن كثير وذكر ما رواه النسائي بسنده عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبي ﷺ، وقال: ((وهذا من رواية سعيد بن المسيب عن ابن عمر مرفوعاً؛ على خلاف ما يحكى عنه، فبعيد أن يخالف ما رواه من غير مستند)). تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص٢٧٧.

وما قاله ابن كثير منصفٌ؛ كما أنصفه القاضي ابن العربي، فله مستندٌ في ذلك؛ ووجه استدلال في المسألة؛ أن النكاح حقيقة في العقد على الصحيح. في المفردات قال الراغب: ((أصل النكاح العقد؛ ثم استعير للجماع، ومحالٌ أن يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد؛ لأن أسماء الجماع كلها كنايات لاستقباحهم ذكره: كاستقباحهم تعاطيه)). وعلى هذا فالآية تقتضي من عقد عليها عقداً صحيحاً، ثم طلقت قبل الدخول أو مات عنها زوجها، حلت بذلك للأول، وهذا ما ذهب إليه الإمامان السعيدان.

وأما وجه الاعتراض على مذهب السعيدين، فإنه قد يأتي من جهة أن العرب فرَّقت بين العقد والوطء بفرق لطيف، فإذا قالوا: (نكح فلانٌ فلانةً أو ابنة فلان) أرادوا عقدَ عليها. وإذا قالوا: (نكح امرأته أو زوجته) فلا يريدون غير المجامعة. وعلى هذا فالآية يفهم منها إرادة الوطء لا العقد فحسب. وهو وجه يعضده الحديث عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في حديث رفاعة القرظي، إن لم يكن معنى آخر يصرف دلالة النص عن أصله بأن المراد بالنكاح الوطءُ لا العقد.

وعلى ما يبدو في استدلال سعيد بن المسيب، أن الحديث لا يخرج دلالة النص القرآني عن حقيقة العقد، إلا في حال تبييت النية والمغالطة؛ فالحديث كما أخرجه البخاري في الصحيح، وفيه قالت: ((وَاللهِ مَالِي إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبٍ، إِلاَّ أَنَّ مَا مَعَهُ لَيْسَ بِأَغْنَى عَنِّي مِنْ هَذِهِ – وَأَخَذَتْ هُدْبَةً مِنْ ثَوْبِهَا. فَقَالَ – أي عبدُالرحمن الزوجُ الثاني-: كَذَبَتْ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لأَنْفُضُهَا نَفْضَ الأَدِيمِ، وَلَكِنَّهَا نَاشِزٌ تُرِيدُ رُفَاعَةَ – أي الزوجَ الأول – فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ، لَمْ تَحِلِّي لَهُ - أو لَمْ تَصْلُحِي لَهُ – حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ] قَالَ: وَأَبْصَرَ مَعَهُ ابْنَيْنِ لَهُ، فَقَالَ: [بَنُوكَ هَؤُلاَءِ؟] قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: [هَذَا الَّذِي تَزْعُمِينَ مَا تَزْعُمِينَ؟ فَوَاللهِ لَهُمْ أَشْبَهُ بِهِ مِنَ الْغُرَابِ بِالْغُرَابِ].

ومن قراءة النص، يُفهم أن الرسول ﷺ أشار إليها بذوق العُسيلة مع وجود فساد نيتها وليس قبل، مما يشير إلى سلامة قول سعيد بن المسيب. أما إذا لم تكن نيَّة فاسدة، فالأمر إلى ما قال سعيد ابن المسيب وسعيد بن جبير لا محالة، فالأصل في صحة النكاح الثاني سلامةُ القصد لا التحليل= لنكاح الزوج الأول. =

الآية؛ فلأنَّ الله تعالى قال: (حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ) والنكاحُ هـو الـوطء في الحقيقـةِ، وذِكْرُ الزوجِ يفيدُ العقد لاستحالة أن يكونَ زوجاً من غيرِ عقـدٍ، فكـأنَّ قولـه (حَتَّـى تَنكِحَ زَوْجًا) كنايةٌ مفهمةٌ مغنية عن التصريحِ.

وأمَّا السُّنَّةُ: فما روي أنَّ رُفَاعَةَ الْقُرَظِيَّ طَلَّقَ امْرَأتَهُ ثَلاثاً، فَتَزَوَّجهَا عَبْدُالرَّحْمَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَجَاءَت إِلَى رَسُول اللهِ تُرِيْـدُ أنْ تَرْجِـعَ إِلَـى زَوْجِـهَا الأوَّل، فَقَـالَ ﷺ: [هَلْ جَامَعَكِ عَبْدُالرَّحْمَنِ؟] فَقَالَتْ: مَا الَّذِي مَعَهُ إلاَّ كَهُدْبَةِ ثَوْبِي هَـذَا. فَقَـالَ ﷺ: [أفَتُرِيْدِيْنَ أنْ تَرْجِعِي إِلَى زَوْجِكِ الأوَّل؟] قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: [لاَ؛ حَتَّى تَذُوقِـي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ] فَنَدِمَتْ عَلَى مَقَالَتِهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ طَـافَ بِـي، فَقَالَ: [لاَ أُصَدِّقُكِ الآنَ][(1)].

قولــه عَــزَّ وَجَــلَّ: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ حُكــم الطلاقين إذا كان على وجهِ الخلع، وأبَانَ عن موضعِ الحظر والإباحـةِ فيـها، ثـم ذكـرَ حُكم الطلقة الثالثةِ بالآية التي بعد هذهِ الآية. وهذا مما يسـتدلُّ بـه علـى أن المختلعـةَ يلحقُها الطلاق؛ لأن عامةَ الفقهاء اتفقوا على أن تقديرَ الآية وترتيبَ أحكامـها علـى

=وقد يقال: إن أمر النية موكول إلى القلوب، وهذا لا يسلم معه العمل؛ لا محالة؟ فـالجواب: إن الأصل في العقود العمل، والأصل في عقد النكاح استمتاع كلٍّ من الزوجين بالآخر، ومباشرة ذلك، فالنية معقودة على الاستمتاع، وانشغال القلب بنية أخـرى صـرفٌ للنيـة الأولى، وهـذا إذا كان القلب مشغولاً بنية التحايل على الحكم الشرعي، فهذه نية مفسدة للعمل على سبيل التعبُّد، مما يخرج إلى دائرة الهوى والوقوع بالإثم، ثم مبطلة للعقد حين تعرف وتُبـان كمـا ظـهر مـن أمـر زوجة رفاعة القرظي.

أما إذا لم يكن الأمرُ على سبيل مَن أمَرَها رسول الله ﷺ بـذوق العُسيلة، كـأن كـانت النيـة الصدق والعقد الصحيح، ومات عنها زوجها الثاني قبل الدخول، أو طلَّقها؛ فالأمر على ما قـال القاضي ابن العربي: ((مَا مرَّ بي فِي الفقهِ أعسَرُ مِنهَا)). والراجح صحة العقد، وإذا كـان الأمـر كذلك صحَّت النية، وتعسَّر الأمر أو تعذَّر ذوق العسيلة، فالتكليف بزوج ثـالث فيـه شـيء مـن التكلُّف، فالقول ما قال سعيد بن المسيب وسعيد بـن جبـير بشـرطين: الأول: أن يكـون النكـاح صحيحاً. والثاني: أن لا يقصد الزوج الثاني بالنكاح تحليل المـرأة لـلأول، بـل لا يقصـدان المـرأة والزوج الثاني ذلك، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب اللباس: الحديث (٥٨٢٥).

ما وصفناهُ؛ فحصلت التطليقةُ الثالثة بعد الْخُلْعِ. ؛ أي فإن طلَّقها الزوجُ الثاني بعدما دخلَ بها، فلا حرجَ على المرأةِ والزوجِ الأول أن يتراجَعا؛ بأنْ يتزوجها مرةً أخرى بعد انقضاءِ العدَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أي إن عَلِمَا بغالب ظنِّهما أنَّهما يقيمان حدودَ الله فيما بينهما؛ لأنَّهما قد افترقَا؛ ورأى الزوجُ وحدتهُ ورأتِ المرأة غُربتها ووحشتَها.

والحكمةُ في شرط دخولِ الزوج الثاني بها: أن الطلاقَ لَمَّا كان من أبغضِ المباحات إلى اللهِ تعالى على ما وردَ به الخبرُ عن رسول اللهِ ﷺ: [إنَّ مِنْ أبْغَضِ الْمُبَاحَاتِ إلَى اللهِ تَعَالَى الطَّلاَقَ][(١)] شرطَ اللهُ في حرمةِ الطلقة الثالثة ما يَكْبُرُ على الأزواجِ من غشيان غيرِ تلك المرأة؛ حتى لا يعجلوا بالطلاقِ عند الغضب ولا يطلِّقوا إلا على وجهِ السُّنة.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾ ؛ أي هذه الآيةُ التي ذكرت أحكامَ الله وفرائضَه يبيِّنُها في القرآن لقوم يعلمون أوامرَ الله تعالى؛ وإن ما يأتي به رسولُ الله ﷺ صدقٌ. وتخصيصُ العلماء في هذه الآية؛ لأنَّهم هم الذين يحفظونَ أوامر الله وأحكامَه وينتفعون بالآياتِ. وقيل: خصَّهم الله بالذكرِ على جهة النباهةِ لَهم كما خصَّ جبريل وميكائيل مِن بين الملائكة على جهة النباهةِ لهما.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾ ؛ نزلت في ثابتِ بن يسار الأنصاري؛

---

(١) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: [أبْغَضُ الْحَلاَلِ إلَى اللهِ الطَّلاَقُ]. أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الطلاق: باب في كراهية الطلاق: الحديث (٢١٧٨). وابن ماجة في السنن: كتاب الطلاق: باب (١): الحديث (٢٠١٨). والحاكم في المستدرك: كتاب الطلاق: باب ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق: الحديث (٢٨٤٨)؛ وقال: ((هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)). وصححه الذهبي وقال: ((على شرط مسلم)). وفي مصابيح السنة: كتاب النكاح: الحديث (٢٤٤٩) جعله البغوي من الحسان.

طلَّقَ امرأته حتى إذا انقضَتْ عدَّتُها إلاَّ يومين أو ثلاثة؛ وكادت تَبِيْنُ منه راجَعها، ثـم طلَّقها ففعل بها مثل ذلك، حتى مضت لها سبعةُ أشهر مُضَارّاً لها بذلك. وكان الرجلُ إذا أراد أن يُضَارَّ امرأته طلَّقها ثم تركها حتى تحيضَ الثالثة، ثـم راجعـها، ثـم طلَّقـها فتطولُ عليها العدة، فهذا هو الضِّرَارُ؛ فأنزلَ اللهُ هذه الآية(١).

ومعنى الآية: (وَإِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَـاءَ) تطليقـةً أو تطليقتـين (فَبَلَغْـنَ أَجَلَـهُنَّ) أي قاربنَ وقتَ انقضاء العدَّة (فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ) أي احبسوهُنَّ بالرجعةِ على أحسـنِ الصُّحبة، لا على تطويلِ العدَّة، (أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ) أي اتركوهن بمعـروفٍ حتـى ينقضي تَمامُ أجلـهن، (وَلا تُمْسِـكُوهُنَّ ضِـرَارًا) أي لا تحبسـوهنَّ في العـدةِ إضـراراً (لِتَعْتَدُوا) عليهن؛ أي تظلموهُن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ ؛ أي مـن يفعـل ذلـك الاعتداء فقد عرَّضَ نفسه لعذاب الله بإتيانِ مـا نـهى الله عنـه، قـالَ رسـولُ اللهِ ﷺ: [مَلْعُونٌ مَنْ ضَارَّ مُسْلِماً أَوْ مَاكَرَهُ](٢).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ ﴾ ؛ أي لا تـتركوا مـا حـدَّ الله لكم من أمرِ الطلاق وغيرِهِ فتكونـوا مقصِّريـن لاعبـين. وعـن أبـي الـدرداء ﷺ قال:كَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ امْرَأتَهُ أوْ يُعْتِقُ عَبْدَهُ ثُمَّ يَقُولُ: إنَّمَـا كُنْـتُ لاَعِبـاً، فَـيَرْجِعُ فِـي الْعِتْقِ وَالنِّكَاحِ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ ﷺ: [مَنْ طَلَّقَ لاَعِباً أوْ اعْتَقَ لاَعبـاً فَقَـدْ جَازَ عَلَيْهِ](٣) أي نَفَذَ عليه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٣٨٨٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ١٠ ص١٤٦: الحديث (٩٣٠٨) وفيه: [أوْ غَرَّهُ]. والـترمذي في الجامع: أبواب البر والصلة: باب ما جاء في الخيانة والغش: الحديث (١٩٤١)، وقال: حديـث غريب.

(٣) في الدر المنثور: ج ١ ص٦٨٣؛ قال: ((وأخرج ابن أبي عمر في مسنده وابـن مردويـه عـن أبـي الدرداء: ... وذكره)).

وعن رسول اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: [ثَـلاَثٌ جِدُّهُـنَّ جِـدٌّ وَهَزْلُـهُنَّ جِـدٌّ: الطَّـلاَقُ، وَالْعِتَاقُ، وَالنِّكَاحُ]. وفي بعضِ الرواياتِ:[الطَّلاَقُ، وَالنِّكَاحُ، وَالرَّجْعَـةُ][١]. وروي في الخبرِ: [خَمْسٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: الطَّلاَقُ، وَالْعِتَاقُ، وَالرَّجْعَـةُ، وَالنِّكَـاحُ، وَالنَّذْرُ].

وعن أبي موسى الأشعريِّ قالَ: غَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الأَشْعَرِيِّيْنَ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، غَضِبْتَ عَلَى الأَشْعَرِيِّيْنَ؟ قَـالَ: [يَقُـولُ أحَدُكُـمْ لاِمْرَأتِـهِ: قَـدْ طَلَّقْتُكِ، ثُمَّ يَقُولُ: قَدْ رَاجَعْتُكِ، لَيْسَ هَذَا طَلاَقُ الْمُسْلِمِيْنَ، طَلِّقُوا الْمَـرْأةَ فِـي قُبُـلِ طُهْرِهَا][٢]. وقال الكلبيُّ: (مَعْنَى (وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا) أيْ أمْسِكُوا بمَعْرُوفٍ أوْ سَرِّحُوا بإحْسَانٍ).

قولـه عَــزَّ وَجَــلَّ: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ ؛ أي احفظوا مِنَّة الله عليكم في أمر الدين. وقيل: (اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ) بالإيمان، (وَمَا أنزلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَاب) يعـني القـرآنَ، (وَالْحِكْمَـةِ) يعني مواعظَ القرآن والحدودَ والأحكامَ. وقيـل: الحكمـةُ هـي فِقْـهُ الحـلال والحـرامِ. وقوله: (يَعِظُكُمْ بِهِ) أي ينهاكم عن الإضرار وسائر المعاصي.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) ﴾ ؛ أي اخْشَوْهُ فيما أمركم به ونَهاكم عنهُ، (وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ بكُلِّ شَـيْءٍ) مـن أعمـالِكم مـن العدلِ والجور، (عَلِيمٌ) أي عالِمٌ يَجْزِيْكُمْ على الخيرِ والشر.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الطـلاق: بـاب في الطـلاق علـى الهزل: الحديـث (٢١٩٤). والترمذي في الجامع: أبواب الطلاق واللعان: الحديث (١١٨٤)، وقال: حديث حسـن غريـب. وابن ماجة في السنن: كتاب الطلاق: باب مـن طلـق أو نكـح لاعبـاً: الحديـث (٢٠١٩)، وفيـه عبدالرحمن بن حبيب بن أردك، قال النسائي: ((منكر الحديث)). ولعل أبو داود والترمذي وابن ماجة حسّنوا الحديث من جهة أن عمل الفقهاء عليه، حيث قال الترمذي: ((والعمل علـى هـذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم)) وما كان كذلك فهو حسن إذا احتج بـه عمـوم أهل العلم وإن كان في إسناده من هو ضعيف، أو لكثرة شواهده، والله أعلم.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيـان: الحديـث (٣٨٨٩). وابـن ماجـة في السـنن: كتـاب الطـلاق: الحديث (٢٠١٧) مختصراً.

ومِن الناسِ من يحتجُّ بقوله: (فَإمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أوْ تَسْرِيحٌ بإحْسَانٍ) في إيجاب الفرقة بين الْمُعْسِرِ العاجزِ عن النفقة وبينَ امرأتهِ؛ لأنَّ الله خيَّرهم بين أحدِ شيئين؛ فإذا عجزَ عن أحدهما تعيَّن عليه الثاني. قُلْتُ: هذا الاحتجاج بعيدٌ من الآيةِ؛ لأن العاجزَ عن نفقة المرأة مُمسِكٌ بالمعروف إذ لَم يكلَّفْ الإنفاقَ في هذه الحالـة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا مَا آتَاهَا﴾[1] وغيرُ جائز أن يقال للمعسرِ: غيرُ مُمسكٍ بالمعروف؛ إذ تركُ الإمساك بالمعروفِ ذمٌّ؛ والعاجز غيرُ مذموم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ قال الحسنُ وقتادة: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي مَعْقَلِ بْنِ يَسَارٍ، كَانَتْ أخْتُهُ جُمَيْلُ[2] تَحْتَ أبي الْبَدَّاحِ طَلَّقَهَا تَطْلِيْقَةً وَاحِدَةً ثُمَّ تَرَكَهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، ثُمَّ نَدِمَ عَلَى طَلاَقِهِ إيَّاهَا؛ فَخَطَبَهَا فَرَضِيَتِ الْمَرْأةُ بذَلِكَ وَأحَبَّتْ أنْ تُرَاجِعَهُ، وَأبَى أخُوهَا مَعْقِلُ وَقَالَ لَهَا: إنِّي اخْتَرْتُهُ عَلَى أشْرَافِ قَوْمِي فَطَلَّقَكِ، ثُمَّ تُرِيْدِيْنَ أنْ تُرَاجِعِيْهِ؟! وَجْهِي مِنْ وَجْهِكِ حَرَامٌ أبَداً لأَنْ تَزَوَّجْتِيْهِ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ يَنْهَى مَعْقِلاً عَمَّا صَنَعَ)[3].

وروي أنَّ أبَا الْبَدَّاحَ لَمَّا طلَّقَهَا وَتَرَكَهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطِبُهَا وَأرَادَ مُرَاجَعتَهَا، وَكَانَتِ الْمَرْأةُ تُحِبُّ مُرَاجَعَتَهُ، قَالَ لَهُ أخُوهَا: أفْرَشْتُكَ كَرِيْمَتِي وَآثَرْتُكَ عَلَى قَوْمِي فَطَلَقْتَهَا وَلَمْ تُرَاجِعْهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، وَجِئْتَ تَخْطِبُهَا؟! وَاللهِ لاَ أنْكِحُهَا أبَداً. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ[4].

ومعنَاها: (وَإذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ) واحدةً أو اثنتين، (فَبَلَغْنَ أجَلَهُنَّ) يعني انقضت عدَّتُهن، وأرادَ ببلوغِ الأجلِ في هذه الآيةِ حقيقةَ البلوغِ بانقضاءِ العدَّة، (فَلا

(١) الطلاق / ٧.

(٢) في الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ج ٤ ص٣٦٤: الترجمة (٣٣١٠)؛ قال ابن عبدالبر: ((جُمَيْلُ بنتُ يسار أختُ مَعْقِل، سَمَّاها الكلبيُّ في تفسيره)).

(٣) أخرجه الطبري بأسانيد في جامع البيان: الحديث (٣٨٩٥ و٣٨٩٠-٣٨٩٤).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٣٨٩٣).

تَعْضُلُوهُنَّ) أي لا تمنعوهُنَّ (أنْ يَنكِحْنَ أزْوَاجَهُنَّ) يعني الذين كانوا أزواجاً لَهنَّ من قبلُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (إذا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بالْمَعْرُوفِ) أي إذا تراضَوا بنكاحٍ جديد ومهرٍ وشهود؛ وما لا يكون مُستنكراً في عقلٍ ولا عادةٍ ولا خُلق.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ ؛ أي ذلك الذي ذُكر من النَّهي عن العضلِ (يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ باللهِ) ويؤمنُ بالبعث. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ؛ أي أن لا تمنعوها خيرٌ لكم وأفضلُ وأدخلُ في التزكية من المنعِ لَهنَّ، وأطهرُ من الذنب وأبعدُ من الريبة؛ لأنه إذا كان في نفسِ كلِّ واحد منهما علاقةُ حُبٍّ لَمْ يُؤْمَنْ أن يتجاوزَا ذلك إلى غيرِ ما أحلَّ الله لَهما.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾ ؛ أي (وَاللهُ يَعْلَمُ) حُبَّ كلٍّ منهما لصاحبهِ، (وَأنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) ذلكَ. (وَاللهُ يَعْلَمُ) ما لكم فيه الصلاحُ في العاجلِ والآجل، ويعلمُ ما يُزَكِّيكُمْ مِمَّا يُرْدِيكُمْ (وَأنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) ذلكَ.

فلما نزلت هذه الآية دَعَا النَّبِيُّ ﷺ مَعْقِلاً فَقَرَأَ عَلَيْهِ الآيَةَ وَقَالَ: [إنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلاَ تَمْنَعْ أخْتَكَ مِنْ أبـي الْبَدَّاحِ] فَقَالَ: إنِّي أؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأشْهِدُكَ أنِّي قَدْ أنْكَحْتُهُ. وَكَفَّرَ عَنْ يَمِيْنِهِ[(١)].

والعَضْلُ في اللغة له معنَيان؛ أحدُهما: المنعُ؛ يقال: عَضَلَ الرجلُ المرأةَ يَعْضِلُهَا وَيَعْضُلُهَا إذا مَنَعَهَا من الأزواجِ ظُلماً. وَأعْضَلَ الداءُ الأطباءَ إذا أعياهم عن معالجتهِ، ويقال: داءٌ عُضَالٌ؛ ومَسْألَةٌ مُعْضِلَةٌ. والآخرُ: التضييقُ؛ يقال: عَضَلَ القضاءُ بالجيشِ إذا ضاق بهم، وعَضَلَتِ المرأةُ بولدِها إذا عَسُرَ خروجُه.

---

(١) أخرجه البخاري مختصراً في صحيحه: كتاب النكاح: باب لا نكاح إلا بوَلِيٍّ: الحديث (٥١٣٠)، وكتاب الطلاق: الحديث (٥٣٣١). وابن جرير الطبري في جامع البيان: الحديث (٣٨٩٢ و٣٨٩٣).

وفي الآيةِ دليلٌ على جواز نكاحِ المرأة على نفسِها إذا عقدت بغيرِ وليٍّ؛ لأنَّ الله تعالى أضَافَ العقدَ إليها ونَهى الولِيَّ عن عَضْلِهَا إذا تراضَى الزوجان بالمعروفِ. ويدلُّ على ذلك قولهُ: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أنْ يَتَرَاجَعَا﴾. وقولهُ: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أنفسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ ؛ أي والمطلّقاتُ اللاَّتِي لهن أولادٌ من أزواجهن المطلّقين ولدنَهم قبلَ الطلاق أو بعده؛ وقوله: (يُرْضِعْنَ أوْلادَهُنَّ) لفظهُ لفظ الخبر ومعناه: الأمرُ، كأنه قال: لِتُرْضِعِ الوالداتُ أولادَهنَّ، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأنفُسِهِنَّ﴾ يدلُّ على ذلك أنه لو كانَ قوله: (يُرْضِعْنَ) خبراً لَمَا وُجِدَ مُخْبَرُهُ على خلاف ما أخبرَ الله به؛ فلما كان من الوالداتَ مَن لا ترضعُ؛ عُلِمَ أنه لَمْ يرد به الخبرَ؛ فكان هذا محمولاً في حالِ قيام النكاح على الأوامرِ الواجبة من طريقِ الدين لا من جهةِ الحكمِ؛ فإنَّها إذا امتنعت من الإرضاعِ لم يكنْ للزوجِ أن يُجْبرَهَا على ذلك من حيثُ الحكمُ، وإن أرضعتْ لم تستحقَّ نفقة الرضاع مع بقاءِ الزوجية، ولا يجتمعُ لها نفقتان.

وفي الآيةِ إثباتُ حقِّ الرضاعِ للأم، وبيانُ مدة الرضاعِ للمستحق على الوالد، فإنَّ الولد لو امتنع من الإرضاع في الحولين أجبر عليه كما قالَ تعالى في آيةِ المطلقات: ﴿فَإِنْ أرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أجُورَهُنَّ﴾(١) وقالَ: ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أخْرَى﴾.

فإن قيلَ: كيفَ قال الله تعالى: (حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) والحَوْلان لا يكونان إلا كاملين؟ قيل: لإزالة الإبْهام؛ فإنَّ الإنسان قد يقولُ: أقمتُ عند فلانٍ سنتين؛ إذا كان قريباً مِن سنتين، وسِرْتُ شهراً؛ إذا كان قريباً من شهرٍ، فبيَّن اللهُ تعالى أنَّهما حَولانِ كاملان: أربعةٌ وعشرون شهراً من يوم يولدُ إلى أنْ يُفطَمَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (لِمَنْ أرَادَ أنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) أي لِمن أرادَ من الآباء أن يُتِمَّ الرضاعةَ المفروضة عليهِ؛ أي هذا منتهى الرضاعةِ وليس فيما دون ذلك وقت محدودٌ، وإنما هو على مقدار إصلاح الصبيِّ وما يعيشُ به.

---

(١) الطلاق / ٦.

قرأ أبو رجاء: (الرِّضَاعَةُ) بكسر الراء؛ قال الخليلُ: (وَهُمَا لُغَتَان مِثْلُ الْوَكَالَةِ وَالْوِكَالَةِ؛ وَالدَّلاَلَةِ والدِّلاَلَةِ). وقرأ مجاهدُ: (لِمَنْ أرَادَ أنْ يُتِمَّ الرَّضْعَةَ) وهي فَعْلَةُ كالْمَرَّةِ الواحدة، وقرأ عكرمة: (لِمَنْ أرَادَ أنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةُ) على الفاعلِ. وقرأ ابنُ عباس: (لِمَنْ أرَادَ أنْ يُكْمِلَ الرَّضَاعَةَ).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ ﴾ ؛ معناهُ: وعلى الأب نفقتُهن وكسوتُهن كما يُعْرَفُ أنه العدلُ، يكون ذلك أجرةً لَهن على الرضاع إذا كانَ إرضاعُ الولد بعد الفراقِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا) أي لا يُجبر الأب على النفقةِ والكسوة إلا مقدارَ طاقته، والتكليفُ هو الإلزامُ، قال الضحَّاك: (هَذَا فِي الْمُطَلَّقَاتِ دُونَ الْمُزَوَّجَاتِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَابَلَ هَذِهِ النَّفَقَةَ بالإرْضَاعِ، وَنَفَقَةُ الزَّوْجَةِ لاَ تَجِبُ بالإرْضَاعِ وَإنَّمَا تَجِبُ بسَبَب الزَّوْجِيَّةِ).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ ﴾ ؛ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوبُ وسلامُ برفع الراء مشدَّدةً على الخبرِ مَنْسُوقاً على قوله: (لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ) وأصلهُ: (لا تضاررُ) فأُدغمت الراءُ في الراءِ. وقرأ نافعُ وابن عامر وعاصمُ وحمزة والكسائيُّ: (لاَ تُضَارَّ) مشدَّدةً منصوبة على النَّهي. وأصلهُ (لا تضارر) فأُدغمت الراء في الراء وحُرِّكت إلى أخفِّ الحركات وهو النصبُ؛ ويدلُّ عليه قراءة عُمَرَ: (لاَ تُضَارَرَ) على إظهار التضعيف.

ومعنى الآية: (لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بوَلَدِهَا) فيُنْزع منها إلى غيرها بعد أنْ رضيت بإرضاعه؛ وألِفَها الطفلُ؛ (وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بوَلَدِهِ) أي لا تلقيهِ هي إلى أبيهِ بعد أن عَرَفَهَا الولد لِتُضَاررَ الأبَ بذلك. وقيل: معناهُ: (لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بوَلَدِهَا) فتُكرهُ على إرضاعه إذا قَبلَ من غيرها وكرهت هي رضاعَهُ؛ لأن ذلك ليس بواجبٍ عليها. (وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بوَلَدِهِ) فيحملُ على أن يعطي الأمَّ إذا لم يرضَعْ إلا منها أكثرَ مما يجبُ لها عليه. وهذان القولان على مذهب الفعلِ المجهول على معنى أنه يُفْعَلُ ذلك بهما، والوالدةُ والمولودُ له مفعولان.

وأصلُ الكلمة (تضارَر) بفتح الراء الأولى؛ ويحتملُ أن يكون الفعل لهما ويكون على مذهب من قد سُمي فاعله، والمعنى: لا تُضَارَرُ والـدةٌ بولدهـا فتـأبَى أن ترضـع ولدها لشفق على أبيهِ. (وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بوَلَدِهِ) أي ولا يُضَارَّ الأبُ أمَّ الصـبيِّ فيمنعُـها من إرضاعهِ وينْزعه منها؛ وهذا المذهبُ أصله (لاَ يُضَارَرُ) بكسرِ الراء الأولى.

وجعل الزجَّاج قولَه: (لاَ تُضَارَّ) بالنصب نَهياً للوالـدةِ عـن الإضـرار بـالولد. وقولَه: (وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بوَلَدِهِ) نَهياً للوالد عن الإضرار بولده. ومعنى ذلـك: لا تـتركُ الوالدة إرضاعَ ولدِها غيضاً على أبيهِ فَتُضِرَّ بـالولدِ؛ لأن الوالـدةَ أشـفقُ بولدهـا مـن الأجنبية، ولا يأخذُ الأب الولدَ من أمِّــهِ قصـداً إلى الإضـرار بـها فَيُضِرُّ بولـدهِ، ولا يَمنعها الأجرةَ فيُضِرُّ بولدهِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ يعني على وارثِ الولـد إذا لم يكن له أبٌ مثلُ ما على الأب من النفقةِ والكسوة وتركِ الإضرار. قال عمرُ والحسنُ: (إنَّهُ عَلَى الْعَصَبَاتِ دُونَ أصْحَاب الْفَرَائِض)[1]. وقال قتادةُ: (إنَّهُ عَلَـى الْـوَارِثِ مِـنَ الْعَصَبَاتِ وَأصْحَاب الْفَرَائِـضِ جَمِيْعـاً؛ عَلَـى كُـلِّ وَاحِـدٍ مِنْـهُمْ بمِقْـدَار نَصِيْبِـهِ مِـنَ الْمِيْرَاثِ)[2] إلاَّ أنَّهُ لَمْ يُشْرَطْ أنْ يَكُونَ الْوَارِثُ ذا رَحِمٍ مَحْرَمٍ مِنَ الْوَلَدِ، وقد شـرطَ أصحابُنا ذلك.

قوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ ؛ أي إن أرادَ الأبـوان فِطَـامَ الولـدِ مـن اللـبن دون الحولـين بتراضيـهما وبتشاوُرهما؛ فلا إثْمَ عليهما في ذلك. وعن ابن عباس: (فِطَامُ الْوَلَدِ مِـنَ اللَّبَـنِ دُونَ حَوْلَيْن بتَرَاضِيْهِمَا وَبمُشَاوَرَتِهِمَا فَلاَ إثْمَ عَلَيْهِمَا فِي ذلِكَ)[3]. وعن ابن عباس: (مَعْنَاهُ: إنْ أرَادَا فِصَالاً قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ أوْ بَعْدَهُمَا بتَرَاضِيْهِمَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا؛ فَإنْ تَشَاقَّا رَجَعَا إلَى الْحَوْلَيْنِ)[4].

---

(١) أخرجهما الطبري في جامع البيان: النص (٣٩٤١-٣٩٤٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٩٤٩).

(٣) بمعناه أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيـان: النـص (٣٩٧٨) عـن السـدي، وفي (٣٩٧٩) عن قتادة، وفي (٣٩٨٠) عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٣٩٧٦ و٣٩٨٤).

وإنَّما سُمي الفطامُ فصالاً؛ لانفصالِ المولودِ من الاغتذاء بثدي أمِّهِ إلى غير ذلك من الأقواتِ. وأصلُ الفَصْلِ: القطعُ والتفريقُ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ أي (وَإنْ أرَدْتُمْ) يعني الآباءَ والأمهات (أنْ تَسْتَرْضِعُوا أوْلادَكُمْ) غيرَ الوالدة، فلا إثْمَ عليكم، (إذَا سَلَّمْتُمْ) من الأجرةِ ما تراضيتم به. ولهذا قالوا: إن الأمَّ إذا لم تَخْتَرْ أن تُرضع الولد بعد الطلاق، واختارت أن يكون الولدُ عندها، أمر الزوجُ أن يستأجرَ ظِئْراً لترضعَهُ في بيتِ أم الرضيعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾ ؛ أي (اتَّقُوا اللهَ) في الضِّرَار ومخالفةِ أمر الله، (وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ) من العدل والجور في أولادكم ونسائِكم (بَصِيرٌ) عالِمٌ يجزيكم به.

وأما تأويلُ ذكرِ الحولين في مدة الرضاعِ، فأما أكثرُ مدَّته على قولِ أبي حنيفة؛ فعلى بيانِ مقدار استحقاق نفقة الرضاع وثبوتِ حُكم الحرمةِ: فثلاثونَ شهراً على مذهبِهِ. وعن ابن عباس أنهُ كان يقول في قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾(١): (بَيَانُ أقَلِّ مُدَّةِ الْحَمْلِ وَأكْثَرِ مُدَّةِ الرَّضَاعِ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ فِي آيَةٍ أخْرَى: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾(٢)). وكان يقولُ: (إذَا كَانَ الْحَمْلُ لِسِتَّةِ أشْهُرٍ كَانَ مُدَّةُ الرَّضَاعِ سَنَتَيْنِ؛ وَإذَا كَانَ الْحَمْلُ تِسْعَةَ أشْهُرٍ كَانَ الرَّضَاعُ سَنَةً وَتِسْعَةَ أشْهُرٍ). وعلى هذا مهما زادَ في الحمل شهراً نَقُصَ بإزائه مِن الرضاع؛ وهذا يقتضي أن الحملَ إذا بلغ سنتين؛ أنَّ المرأةَ لا تُرضع ولدها إلا ستةَ أشهرٍ. فكان أبو حنيفةَ يحملُ قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ على ذكرِ الحمل على الأيدي مع بيانِ مدةِ أكثر الرضاعِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ ؛ معناه: إنَّ الذين يَموتون منكم ويتركونَ نساءَهم من بعدهم؛ ينتظرونَ في عدتِهن؛ معنى (أرْبَعَةَ أشْهُرٍ وَعَشْرًا) لا يتزوجنَ ولا يتزيَّنَّ في هذه المدةِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ ؛ أي إذا انقضت عِدتُهن؛ ﴿ فَلَا

(١) الأحقاف / ١٥. (٢) لقمان / ١٤.

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ؛ أي لا حرجَ عليكم في تركهنَّ بعد انقضاء المدةِ ليتزيَّن زينةً لا يُنكر مثلها، ويتزوجنَ من الأكْفَاءِ ويفعلنَ كلَّ معروفٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ ؛ أي بما تعملون من الخيرِ والشر عالِمٌ يجزيكم به.

فإن قيل: (الَّذِيْنَ) اسمٌ موصول و(يَتَوَفَّوْنَ) (وَيَذَرُونَ) من صلته، وجملته مبتدأ؛ و(يَتَرَبَّصْنَ) فعلُ الأزواجِ لا فعلُ (الَّذِيْنَ) ولا فيه ضميرٌ عائد إلى (الَّذِيْنَ)؛ فيبقى المبتدأ بلا خبرٍ، والمبتدأ لا يخلو من خبر اسماً كان أو فعلاً؛ وليس من ذلك ها هُنا شيءٌ؟ قيل: قال أبو العباسِ السرَّاج:(فِي الآيَةِ ضَمِيْرٌ تَقْدِيْرُهُ: أزْوَاجُهُمْ يَتَرَبَّصْنَ) لأن الفعلَ يدلُّ على الفاعل. وقال الأخفشُ: (تَقْدِيْرُهُ: يَتَرَبَّصْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ)[(١)] حتى يكون الضميرُ عائداً إلى (الَّذِيْنَ). وذكرَ الزجَّاج: أنَّ النُّونَ فِي قَوْلِهِ (يَتَرَبَّصْنَ) قَائِمٌ مَقَامَ الأَزْوَاجِ كِنَايَةٌ عَنْهَا لاَ مَحَالَةَ فَصَارَ كَالتَّصْرِيْحِ، وهذا كما يُقال: الذي يَموت ويُخلف ابنتين ترثانِ الثلثين؛ معناه يرثُ ابنتاهُ الثلثين[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَعَشْرًا) ظاهرُ لفظِ العشر يتناول الليالي؛ ألا ترى أنه يقالُ للأيام: عشرةُ أيامٍ؛ وإنَّما غلبَ لفظ التأنيث في الآية فقيل: (عَشْرًا)؛ لأنَّ العرب تُقدِّمُ الليلَ على النهار ويعدُّون أولَ كلِّ شهر من الليلة؛ ألا تراهم يُصَلُّونَ التراويحَ إذا رأوا الهلالَ ويَدَعُونها إذا رأوا هلال شوَّال. ومن عادتِهم أنَّهم إذا ذكروا أحدَ العددَين على سبيل الجمعِ أرادوا مثلهُ العدد الآخر؛ كما قال تعالى في قصَّة زكريَّا عليه السلام: ﴿قَالَ آيَتُكَ ألا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثلاثةَ أيَّامٍ إلا رَمْزًا﴾[(٣)] وقالَ في موضعٍ آخر:﴿ثلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[(٤)] والقصةُ واحدة، فعبَّر تارةً بالأيام عن الليالي، وتارةً بالليالي عن الأيام.

---

(١) في معاني القرآن للأخفش: ج ١ ص١٧٦؛ قال: ((فخبرُ (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ): (يَتَرَبَّصْنَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ) ولم يذكر (بَعْدَ مَوْتِهِمْ) كما يحذفُ بعض الكلام، يقول: ينبغِي لهنَّ أن (يتربَّصنَ)، فلما حذفتَ (ينبغِي) وقعَ (يتربَّصن) موقعَها)).

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ١ ص٢٧٠. ونقله المصنف رحمه الله بتصرف.

(٣) آل عمران / ٤١.

(٤) مريم / ١٠.

ويقال: الحكمةُ في تقدير عدَّة الوفاة بأربعةِ أشهر وعشرِ ما روي عن عبدِالله بن مسعودٍ أنه قالَ: [يُجْمَعُ خَلْقُ أَحَدِكُمْ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِيْنَ يَوْماً نُطْفَةً، وَأَرْبَعِيْنَ يَوْماً عَلَقَةً، ثُمَّ أَرْبَعِيْنَ يَوْماً مُضْغَةً، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيْهِ الرُّوحُ فِي عَشْرَةِ أَيَّامٍ، فَيُكْتَبُ أَجَلُهُ وَرِزْقُهُ وَأَنَّهُ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيْدٌ][1]. فيجوزُ أنَّ الله قدَّر هذه في عدَّة الوفاة؛ ليظهر أنَّها حاملٌ أو حائل.

واختلفوا في عدَّة الحامل؛ فقال عمرُ وابن مسعودٍ وعبدالله بن عمرَ وأبو هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: (أَنَّ الْحَامِلَ تَخْرُجُ مِنْ هَـذِهِ الْعِـدَّةِ إِذَا وَضَعَـتْ. وَإِنْ كَـانَ زَوْجُـهَا عَلَى السَّرِيْرِ)[2] حتى قال ابنُ مسعود: (مَنْ شَاءَ بَاهَلْتُـهُ، إِنَّ قَوْلَهُ تَعَـالَى: ﴿وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[3] نَزَلَ بَعْدَ قَوْلِـهِ: (أَرْبَعَـةَ أَشْـهُرٍ وَعَشْـرًا).)[4]. وقال عليٌّ ﷺ: (عِدَّةُ الْحَامِلِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا تَنْقَضِي بِأَبْعَدِ الأَجَلَيْنِ)[5].

وعن عمرو بن شعيبٍ عـن أبيه عـن جـدِّه قـال: قُلْـتُ يَـا رَسُـولَ الله ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فِي الْمُطَلَّقَةِ أَوِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا؟ قَـالَ ﷺ: [فِيهِمَا جَمِيْعاً][6].

---

(١) أخرجـه الطـبراني في المعجـم الأوسـط: الحديـث (٤٥٥٦ و١٧٣٨)، وفي الصغـير: الحديـث (٢٠٠)، وليس فيها [نُطْفَةً]. وأخرجه البخاري في الصحيح بلفظ قريب منه مؤخـر فيـه [ثُـمَّ يُنْفَخُ فِيْهِ الرُّوحُ] في الصحيح: كتاب بدء الخلق: الحديث (٣٢٠٨)، وفي كتاب أحاديث الأنبياء: الحديث (٣٣٣٢)، وفي كتاب القدر: الحديث (٦٥٩٤)، وفي كتاب التوحيد: الحديـث (٧٤٥٧). وفي شرح الحديث (٦٥٩٤) من صحيح البخاري قال ابن حجر: ((ووقع عنـد أبـي عوانـة عـن رواية بن جرير عن شعبة مثل رواية آدم لكـن زاد [نُطْفَـةً] بـين قولـه [أَحَدُكُـمْ] وبـين قولـه [أربَعِينَ] فبيَّن أن الذي يجمع هو النطفة)) والحديث مشهور.

(٢) أخرج الطبري في جامع البيان: النص (٢٦٥٩٢)؛ عن أبي بن كعب قال: قـال رسـول الله ﷺ: [أَجَلُ كُلِّ حَامِلٍ أَنْ تَضَعَ مَا فِي بَطْنِهَا].

(٣) الطلاق / ٤.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٦٥٨٧ و٢٦٥٨٩).

(٥) في جامع البيان: تفسير الآية: النص (٢٦٥٩٤)؛ قال الطبري: ((وذلك قـول مـروي عـن علـي وابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا))، وأخرجه عن علي ﷺ في النص (٢٦٥٩١).

(٦) هو قريب من حديث أبي بن كعب في الهامش (٢). وأدرج الناسخ في المتن: (كذا في تفسير عبد الصمد) وهو ليس أسلوب المصنف رحمه الله، وعبد الصمد هو ابن الشيخ القاضي محمـود ابـن يونس الحنفي الغزنوي.

وروي أن سُبيعة بنتَ الحارثِ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ زَوْجِـهَا بأيَّـام؛ فَـأرَادَتْ أنْ تَتزَوَّجَ، فَمَرَّ بهَا أبو السَّنَابلِ فَقَالَ: أتُرِيْدِيْنَ أنْ تَتزَوَّجِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَـالَ: كَـلاَّ، إنَّـهُ آخِرُ الأجَلَيْن، فأتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَتْ لَهُ، فَقَالَ ﷺ: [كَذَبَ أبو السَّنَابلِ، إذا أتَاكِ مَنْ يُرِيْدُ ذَلِكَ فَأَعْلِمِيْنِي][(١)]. وجميـعُ أهـل التفسـير علـى أن هـذه الآيـةِ ناسـخةٌ لقولـه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أزْوَاجًـا وَصِيَّـةً لأَزْوَاجِـهِمْ مَتَاعًـا إلَـى الْحَـوْلِ غَـيْرَ إخْرَاجٍ﴾[(٢)] وإن كانت هذه الآيةُ متقدمةً على تلك الآيةِ في التلاوةِ.

وأجمعَ الفقهاءُ إلا أبا بكرٍ الأصـمّ أن (أرْبَعَـةَ أشْـهُرٍ وَعَشْـرًا) عـدَّة الحـرَّة دون الأمةِ؛ وأن عدَّة الأمةِ تنقضي بشهرينَ وخمسةِ أيَّام. وكان أبو بكرٍ الأصـمّ يقـول: (إنَّ عِدَّتَهُمَا جَمِيْعاً تَنْقَضِي بأرْبَعَةِ أشْهُرٍ وَعَشْراً؛ فَإنّ وَلَدَ الأمَةِ إنَّمَا يُنْفَخُ فِيْـهِ الـرُّوحُ فِـي الْوَقْتِ الَّذِي يُنْفَخُ فِيْهِ الرُّوحُ فِي وَلَدِ الْحُرَّةِ). والجوابُ عـن هـذا أن يقـالَ: إن خـبرَ عبدالله بن مسعود ﷺ من أخبار الآحاد لا يوجبُ حقيقةَ العلم. ولِما أجمعوا على أن الرِّقَّ ينصِّف عددَ الأقراءِ وعدَّة الشهور في الآيسةِ والصغيرةِ؛ كذلك وجبَ أن ينصِّف عدَّة الوفاةِ[(٣)].

قوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ الآيةُ، قال ابنُ عباس: (التَّعْرِيْضُ: هُوَ أنْ يَقُـولَ الرَّجُـلُ لِلْمُعْتَدَّةِ: إنِّي أُرِيْدُ النِّكَاحَ وَأُحِبُّ الْمَرْأةَ مَنْ صِفَتُهَا كَذَا وَكَذَا؛ فَيَصِفُهَا بالصِّفَـةِ الَّتِـي

---

(١) مخرج في الصحيحين؛ أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٩٩)، وفي كتاب الطلاق: الحديث (٥٣١٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الطلاق: باب انقضاء عدة المتوفـى عنـها زوجها: الحديث (٥٦/ ١٤٨٤).

(٢) البقرة / ٢٤٠.

(٣) خبر الآحاد حجة في البيان لمعرفة دلالة النص الشرعي على الأفكار والأحكام؛ وحجة أبي بكر الأصم على فهمه ظاهر الآية، ثم ظاهر حديث أبي مسعود ﷺ. فإذا جاء نص في الفصـل حُكـم به، وفي جامع الأحكام: ج ٣ ص١٨٣؛ قال القرطبي: ((قول الأصم صحيـح مـن حيـث النظـر؛ فإن الآيات الواردة في عدة الوفاة والطلاق بالأشهر والأقراء عامة في حـق الأمـة والحـرَّة. فعـدة الحرَّة والأمَة سواء على هذا النظر، فإن العمومات لا فصل فيها بين الحرة والأمَـة، كمـا اسـتوت الأمَة والحرَّة في النكاح، فكذلك تستوي معها في العدة. والله أعلم)).

هِيَ عَلَيْهَا حَتَّى تَعْلَمَ رَغْبَتَهُ فِيْهَا)[١]. وقيل: هو أن يقولَ لَها: إنكِ لتعجبينـي وأرجُـو أن يجمعَ الله بيني وبينكِ، أو يقول: يا ليتَ لي مثلكِ وإن قضَى اللهُ أمراً كانَ.

ومعنى الآية: (وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ) اللواتي هُنَّ في عدَّة موتٍ أو طلاقٍ بائن أو ثلاثٍ، قوله عَزَّ وَجَلَّ: (أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ) معناهُ: أو أضمرتُم في قلوبكم العزمَ على النكاحِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾؛ أي (عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ) في العـدَّة لرغبَتكـم فيـهنَّ وخوفكـم لسـبقَ غـيركم إليهنَّ، (وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً) أي لا يواعدُها الخاطِب في السـرِّ ولا يواثقُـها؛ أي أن لا يتزوجَ غيرها. وقيل: لا يواعدُها في السرِّ تصريحاً. وقيلَ: المرادُ بالسـرِّ الجِمـاعُ؛ لأنه لا يكون إلا في السرِّ، كأنه يقولُ: لا يُتعِبُ الخاطبُ نفسَه لها لرغبتها في نفسه.

قوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْـرُوفًاۚ ﴾؛ أي إلا أن يعرِّضـوا بالخطبة كنايةً من غير إفصاح. قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَعْـزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَـاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ ﴾؛ أي لا تعزموا على عقدِ النكاحِ، حـذفَ (علـى) للتخفيـف كما يقالُ: ضربتُ فلاناً ظهرَه وبطنَه؛ أي على ظهرهِ وعلى بطنهِ. ومعنى: (حَتَّى يَبْلُـغَ الْكِتَابُ أجَلَهُ) أي حتى يبلُغَ فرضُ المطلقات أجلَهُ؛ أي حتى تنقضي العدةُ؛ فإن العدَّةَ فرضُ القرآن.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ ﴾؛ أي يعلمُ ما في قلوبكم من الوفاءِ وغير ذلك فاحذروا أن تخـالفوه فيمـا أمركـم ونـهاكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾؛ أي (غَفُـورٌ) لمخـالفتكم إن تُبْتُمْ، (حَلِيْمٌ) حين لم يعجِّل عليكم بالعقوبةَ.

والتَّعْرِيْضُ في اللغة: هو الإيْمَاءُ والتَّلْوِيْحُ والدَّلاَلَةُ على الشيءِ من غير كشـفٍ ولا تبيينٍ، نحوُ أنْ يقولَ الرجلُ لغيره: مَا أقبحَ البخلَ! يعرِّضه لذلكَ. والخِطبةُ بكسر

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٠٢٠) والنصوص (٤٠٢٢).

الخاء: هي الكلامُ الذي يستدعي به إلى النكاحِ. والخُطبةُ بالضم: هو الكلامُ المؤلَّفُ إما بموعظةٍ أو دُعاء إلى شيءٍ.

والكنايةُ: هي الدلالةُ على الشيءِ مع العدول عن الاسمِ الأخصِّ إلى لفظٍ آخر يدلُّ عليه، نحو أن يُكنِّي عن زيدٍ فيقولَ لغيره: ما أبْخَلَ صديقكَ، وما أبخلَ الذي كُنا عنده. والإكنانُ: هو السَّتْرُ، يقال في كل شيء سَتَرْتَهُ أكْنَنْتُهُ؛ وفيما يصونهُ كنيةً. قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾(١) أي مَصُونٌ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ ﴾ ؛ أي لا حرجَ عليكم إن طلقتمُ النساءَ ما لم تجامعوهن أو تُسَمُّوا لَهُنَّ مَهراً؛ (وَمَتِّعُوهُنَّ) أي متِّعوا اللاَّتي طلقتموهن قبل المسيسِ. والفرضُ على الغنيِّ بمقدار غناه، وعلى الفقيرِ بمقدار طاقتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾ ؛ أي ما تعرفونَ أنه القصدُ وقدر الإمكان (حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ) أي واجباً على المؤمنين. انتصبَ (مَتَاعًا) على المصدر من قولهِ تعالى: (وَمَتِّعُوهُنَّ). ونصبَ (حَقًّا) على الحالِ من قوله (بالْمَعْرُوفِ حَقًّا) تقديرهُ: عُرِفَ حَقّاً. ويجوزُ أن يكون: نصباً على معنى: حُقَّ ذلكَ عليهم حقّاً.

وفي الآيةِ دلالةُ جواز النكاحِ بغير تسميةِ المهر؛ لأن اللهَ تعالى حَكَمَ بصحةِ الطلاق مع عدمِ التسميةِ، والطلاقُ لا يصحُّ إلا في نكاحٍ صحيح. ومعنى (أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً) أي ما لم تَمَسُّوهُنَّ ولم تفرضوا لهنَّ فريضةً. وقد تكون (أو) بمعنى الواو كقوله: ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾(٢) وكذلك قولهُ: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾(٣)؛ المعنى: وجاءَ أحدٌ منكم من الغائطِ.

---

(١) الصافات / ٤٩.

(٢) الإنسان / ٢٤.

(٣) النساء / ٤٣.

وأعلى الْمُتْعَةِ: خادمٌ وثياب ووَرِقٌ، وأدناها: خمارٌ ودِرعٌ ومِلْحَفَــةٌ. ولا يجاوزُ بالمتعةِ نصفَ المثل بغيرِ رضا الزوج. وقد اختلفَ السلفُ في أن هذه المتعةَ هــل يُجبر الزوج عليها أم لا؟ قال شُريح: (إنَّ الْقَاضِي يَأْمُرُ الزَّوْجَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُجْبِرَهُ عَلَيْهَا)[١]. وكان شُريح يقول للزوج: (إنْ كُنْتَ مِنَ الْمُتَّقِيْنَ أوْ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ فَمَتِّعْهَا)[٢].

وأما عندنا فإنَّ القاضي يُجبر الزوجَ على المتعةِ للمرأة التي طلَّقها قبلَ المسيس والفرض؛ لأنَّ الله تعالى قال: (حَقّاً) وليسَ في ألفاظ الإيجاب آكدُ مِن قولهم:(حَقّاً عليه). وفي قولهِ:(عَلَى الْمُحْسِنِينَ) بيانُ أنَّها من شروطِ الإسلام؛ وعلى كلِّ أحدٍ أن يكون مُحسناً كما قالَ تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣] وهو هدًى للناسِ كلهم. وقيل: إنَّما خصَّ المحسنين بالذكرِ تشريفاً لهم؛ لأنه لا يجبُ على غيرهم، فوصفَ المؤمنين بالإحسانِ؛ لأن الإحسانَ أكثرُ أخلاقِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾ ؛ معناهُ: (وَإنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ) أن تجامعوهنَّ وقد سَمَّيتم لهن مهراً، فعليكم نصفُ ما سَميتم من المهر، إلا أن يتركنَ ما وجبَ لهن من الصَّداق، بأن تقولَ إحداهن: ما مَسَّني ولا قَرُبَني فَأَدَعُ له المهرَ.

قولهُ: ﴿ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ ؛ ذهبَ أكثرُ المفسرين إلى أن الذي بيدهِ عقدةُ النكاح هو الزوجُ؛ وعفوهُ أن يترُكَ لها جميعَ الصَّداق ولا يرجعُ عليها بشيءٍ منه إذا كان قد أعطاها مهرَها؛ وإن لم يكن أعطاها فعفوهُ أن يتفضَّلَ عليها بأن يُتِمَّ لها جميعَ مهرها. وقد يكون الصَّداقُ عبداً بعينهِ أو عرضاً بعينه لا يُمكن تَمليكه بالإسقاطِ والإبراء من واحدٍ من الجانبين، فيكونُ معنى العفوِ في ذلك الفضلُ؛ وفي الآيةِ ما يدلُّ على ذلك وهو قولهُ: (وَلا تَنسَوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ). وإنَّما ندبَ الزوجَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤١١٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤١١٣).

(٣) البقرة / ٢.

إلى تتميم الصداقِ؛ لأنه إذا تزوَّجها ثم طلَّقها فقد فعل ما يُشِينها، فكان الأفضلُ أن يعطيها مهرَها.

وذهبَ بعضُهم إلى أن (الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ) هو وليُّ المرأةِ حتى قالَ مالك لأبي البكرِ: أنْ يسقطَ نصفَ الصَّداق عن الزوجِ بعد الطلاق قبلَ الدخول. والصحيحُ: هو الأول؛ لأن قولَه (عُقْدَةُ النِّكَاحِ) يقتضي عقدةً موجودة، والزوجُ هو الذي يَملك استدامةَ النكاحِ وحَلِّهِ، وهو الذي يَملك العقدَ على نفسهِ من غيرِ وليٍّ يحتاجُ إليه. وتكونُ عقدة النكاحِ على الحقيقة بيدِ الزوج. وأما وليُّ المرأةِ فلا يَملك العقدَ عليها إلا برضاها، ولا يَملك إسقاطَ سائر حقوقِها[1].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ؛ ندبَ اللهُ كلَّ فريقٍ من الزوجِ والمرأة إلى العفوِ، كأنه قال: أيُّهما عَفَا عن صاحبِهِ فقد أخذَ بالفضلِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) أي أقربُ إلى أن يتَّقي أحدُهما ظلمَ صاحبهِ، فإنَّ من تركَ حقَّهُ كان أقربَ إلى أن لا يظلمَ غيره بطلب ما ليس له، ومن بَذَلَ النفلَ كان أقربَ إلى بذلِ الفرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ ؛ أي لا تتركُوا الإحسانَ والإنسانيةَ فيما بينكم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾ ؛ أي بما تعملون من الفضلِ والإحسانِ بصيرٌ عالِمٌ يجزيكم به. ونسيانُ الفضلِ هو الاستقصاءُ في استيفاء الحَقِّ على الكمال حتى لا يتركَ شيئاً من حقِّه على صاحبِهِ. فظاهرُ هذه الآية يقتضِي أن الزوجَ إذا كانَ سَمَّى لها مَهراً بعدَ عقد النكاحِ ثم طلَّقها ينتصفُ؛ وإليه

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص٢٠٦-٢٠٧؛ قال القرطبي: ((روى الدارقطني مرفوعاً من حديث قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لِهَيْعَةَ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده؛ قال: قال رسول الله ﷺ: [وَلِيُّ عُقْدَةَ النِّكَاحِ الزَّوْجُ] وأسند هذا عن علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وشريح. قال: وكذلك قال نافع بن جبير ومحمد بن كعب وطاووس ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير، زاد غيره: ومجاهد والثوري، واختاره أبو حنيفة، وهو الصحيح من قول الشافعي، كلهم لا يرى سبيلاً للولي على شيء من صَداقها، للإجماع في أن الولي لو أبرأ الزوج من المهر قبل الطلاق لم يجز، فكذلك بعده، وأجمعوا على أن الولي لا يملك أن يهب شيئاً من مالها، والمهر مالُها)).

ذهب مالكٌ والشافعي؛ وهو قولُ أبي يوسفَ الأول ثم رجعَ إلى قولِ أبي حنيفة ومحمد. فكأن المرادَ بهذه الآيةِ على قولهم: أنْ يكونَ الفرضُ في نفسِ العقد؛ لأن التسميةَ بعد تمام عقدِ النكاح تقديرٌ لمهر المثلِ أو بدلٌ عنه، فيسقطُ بالطلاقِ قبلَ الدخول؛ فتجبُ المتعة.

وقد ذهبَ أبو حنيفةَ وأصحابه إلى أنَّ المرادَ بقولهِ تعالى: (مِنْ قَبْلِ أنْ تَمَسُّوهُنَّ) نفس الْمَسِيْسِ أو ما يقومُ مقامه، فإنه إذا خَلاَ بها خُلْوَةً صحيحةً نحو أن لا يكونَ أحدُهما مُحْرِماً ولا مريضاً ولا صائماً صومَ فرضٍ، ولا تكونُ المرأة حائضاً ولا رَتْقَاءَ، ثم طلَّقها؛ وجبَ لها المهرُ كله وإنْ لم يدخل بها كما روي عن زُرَارَةَ بن أوفى[1] أنه قالَ: (أجْمَعَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ أنَّ مَنْ أغْلَقَ عَلَى امْرَأتِهِ بَاباً وَأرْخَى سَتْراً ثُمَّ طَلَّقَهَا؛ وَجَبَ لَهَا الصَّدَاقُ كَامِلاً، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ)[2]. وفرَّقَ عمرُ رضي الله عنه بين العِنِّيْنِ وامرأتهِ وأوجبَ عليه المهرَ، وقال: (مَا ذنْبُهُنَّ إذَا جَاءَ الْعَجْزُ مِنْ قِبَلِكُمْ)[3].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾؛ أي وَاظِبُواْ وداوِمُوا على الصلواتِ المفروضةِ في مواقيتِها وشروطِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى) اختلفُوا فيها؛ فعن عليٍّ وابنِ عباس وأبي هريرةَ وعبدالله والحسنِ والنخعيِّ وقتادة وأبي أيوبَ والضحاكِ والكلبيِّ ومقاتل: (إنَّهَا صَلاَةُ الْعَصْرِ)[4] يدلُّ عليه ما رَوى سمرة بن جندبٍ عن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ:

---

(١) زُرَارَةُ بْنُ أوْفَى العَامِرِيُّ الْحَرَشِيُّ، تابعي ثقة، مات سنة (٩٣) من الهجرة، ونقل ابن حجر ترجمته قال: ((قال أبو حبان القصاب: صلى بنا زرارة الفجر، ولما بلغ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ شهق شهقة فمات. سمع من ابن عباس وأبي هريرة وعائشة وغيرهم)) ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٢٠٧٣).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ج ٦ ص٢٨٨: النص (١٠٨٧٥).

(٣) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ج ٦ ص٢٨٨: النص (١٠٨٨٣).

(٤) أخرج الطبري هذه الأقوال في تفسير الآية من جامع البيان.

[الصَّلاَةُ الْوُسْطَى هِيَ الْعَصْرُ][١] . وفي بعضِ الأخبار: هي التي فرَّط فيها سليمانُ.

وعن هشامِ بن عروةَ عن أبيهِ قال: كَانَ فِي مُصْحَفِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى صَلاَةُ الْعَصْرِ)[٢] ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ ؛ وهكذا كان يقرؤُها أُبيّ بن كعبٍ. وعن أبي يونسَ ﷺ مولَى عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قَالَ: أَمَرَتْنِي عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنْ أَكْتُبَ لَهَا مُصْحَفاً، فَقَالَتْ: إذا بَلَغْتَ (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ) فَآذِنِّي، فَلَمَّا بَلَغْتُ أَعْلَمْتُهَا فَأَمْلَتْ عَلَيَّ: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى صَلاَةُ الْعَصْرِ)[٣].

وروى نافعٌ عن حفصةَ زوجِ النبيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ لِكَاتِب مُصْحَفِهَا: إذَا بَلَغْتَ (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى) فَأَخْبِرْنِي، حَتَّى أُخْبِرَكَ بِمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَلَمَّا بَلَغَ إلَى ذلِكَ وَأَخْبَرَهَا، فَقَالَتْ لَهُ: اكْتُبْ، فَإنِّي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى صَلاَةِ الْعَصْرِ)[٤].

وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قالَ يومَ الخندق: [شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الْوُسْطَى صَلاَةِ الْعَصْرِ، مَلأَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَبُطُونَهُمْ نَاراً][٥]. وقَالَ عليٌّ ﷺ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) رواه الترمذي في الجامع: أبواب الصلاة: باب ما جاء في الصلاة الوسطى أنّها العصر: الحديث (١٨٢) ونقل عن البخاري قال: ((قال علي بن عبدالله: حديث الحسن عن سمرة حديث صحيح، وقد سَمِعَ منه. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٧ و١٢ و١٣. والطبري في جامع البيان: النص (٤٢٣٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٢٢٠).

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب صلاة الجماعة: باب الصلاة الوسطى: الحديث (٢٥). ومسلم في الصحيح: كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى صلاة العصر: الحديث (٢٠٧/ ٦٢٩).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ موقوفاً: كتاب صلاة الجماعة: الحديث (٢٦). والطبري في جامع البيان موصولاً: الحديث (٤٢٣٧).

(٥) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد: باب غزوة الخندق: الحديث (٤١١١) وهو نفسه الذي بعده عن علي ﷺ. ومسلم في الصحيح: كتاب المساجد ومواضع الصلاة: الحديث (٢٠٢/ ٦٢٧).

[شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الْوُسْطَى صَلاَةِ الْعَصْرِ، مَلأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَاراً] ثُمَّ صَلاَّهَا بَيْنَ الْعِشَائَيْنِ[(١)].

ورويَ أن رجلاً قال في مجلسِ عمر بن عبدالعزيز بن مروان: أرْسَلَنِي أبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَأنَا غُلاَمٌ صَغِيْرٌ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ أسْألُهُ عَنِ الصَّلاَةِ الْوُسْطَى، فَأخَذَ بإصْبَعِي الصَّغِيْرَةِ وَقَالَ: [هَذِهِ الْفَجْرُ] وَقَبَضَ الَّتِي تَلِيْهَا وَقَالَ: [هَذِهِ الظُّهْرُ]، ثُمَّ قَبَضَ الإبْهَامَ وَقَالَ:[هَذِهِ الْمَغْرِبُ] ثُمَّ قَبَضَ الَّتِي تَلِيْهَا وَقَالَ: [هَذِهِ الْعِشَاءُ] ثُمَّ قَالَ: [أيُّ أصَابعِكَ بَقِيَ؟] قُلْتُ: الْوُسْطَى، وَقَالَ: [وَأيُّ صَلاَةٍ بَقِيَتْ؟] قُلْتُ: الْعَصْرُ، قَالَ: [هِيَ الْعَصْرُ][(٢)].

قالوا: وإنَّما كانت العصرُ هي الوسطى؛ لأنَّها بينَ صلاتي ليل وصلاتي نهار؛ وإنَّما خصَّها بالذكر لأنَّها تقعُ في وقت اشتغال الناس بأمور البيت، فخصَّها بالذِّكر للحثِّ عليها. روى بُرَيْدَةَ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [بَكِّرُوا بالْعَصْرِ يَوْمَ الْغَيْمِ، فَإنَّهُ مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبطَ عَمَلُهُ][(٣)]. وروى نافعٌ عن ابنِ عمر: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [مَنْ فَاتَتْهُ صَلاَةُ الْعَصْرِ فَكَأنَّمَا وَتِرَ أهْلَهُ وَمَالَهُ][(٤)].

وقال قبيصةُ بن ذُويب: (هِيَ صَلاَةُ الْمَغْرِبِ؛ لأنَّهَا أوْسَطُ صَلاَةٍ وَجَبَتْ عَلَى النَّاسِ)[(٥)]. وقيل: لأنَّها وسطٌ في عدد الركعاتِ؛ لأنَّها بين الثنتين والأربعِ ولا تُقْصَرُ في السفر، وهي وِتْرُ النهار. وإنَّما خصَّها بالذِّكر لأنَّها أولُ صلاة الليلِ الذي يرغبُ الناس عن الصلاة فيه.

---

(١) هو ما قبله، وأخرجه الطبري بألفاظ كثيرة في جامع البيان: النصوص في الرقم (٤٢٣٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٢٤٥). وفي الدر المنثور: مج ٢ ص٧٢٦ ذكره السيوطي ولم ينسبه إلى غير الطبري.

(٣) أخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب الصلاة: باب الوعيد على من ترك الصلاة: الحديث (١٤٧٠). وأخرجه البخاري في الصحيح: كتاب مواقيت الصلاة: الحديث (٥٥٣): عن أبي المليح قال: كُنَّا مع بُرَيدَةَ في غزوٍ في يوم ذي غيم، فقال: بكِّروا بصلاة العصرِ، فإن النبيَّ ﷺ قال: [مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبطَ عَمَلُهُ].

(٤) رواه البخاري في الصحيح: كتاب المواقيت: باب من فاتته العصر: الحديث (٥٥٢). ومسلم في الصحيح: كتاب المساجد: الحديث (٢٠٠ و٢٠١/ ٦٢٧).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٢٦٣).

روى هشامُ بن عروة عن أبيه عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ أفْضَلَ الصَّلَوَاتِ عِنْدَ اللهِ صَلاَةُ الْمَغْرِب لَمْ يُحِطَّهَا عَنْ مُسَافِرٍ وَلاَ مُقِيْمٍ، فَتَحَ اللهُ بهَا صَلاَةَ اللَّيْلِ وَخَتَمَ بهَا صَلَوَاتَ النَّهَار، فَمَنْ صَلاَّهَا وَصَلَّى بَعْدَهَا رَكْعَتَيْنِ بَنَى اللهُ لَهُ قَصْراً فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ صَلَّى أرْبَعَ رَكَعَاتٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ ذنْبَ عِشْرِيْنَ سَنَةً] أو قال [أرْبَعِيْنَ سَنَةً][1].

وحكى الشيخُ الإمام أبو الطيِّب السهلُ بن محمد بن سليمان: (أنَّهَا صَلاَةُ الْعِشَاءِ؛ لأنَّهَا بَيْنَ صَلاَتَيْنِ لاَ تُقْصَرَان). روى أبو عمرَ عن عثمانَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ نِصْفِ لَيْلَةٍ، وَمَنْ صَلَّى الْفَجْرَ مَعَ جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ][2].

وقال جابرُ بن عبدالله: (هِيَ صَلاَةُ الْفَجْرِ؛ لأنَّهَا تَقَعُ بَيْنَ الظَّلاَمِ وَالضِّيَاءِ)[3]. وقال زيدُ بن ثابت وأبو سعيدٍ الخدري وأسامةُ وعائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: (إنَّهَا صَلاَةُ الظُّهْرِ)[4] لأنَّهَا تَقَعُ فِي وَسَطِ النَّهَار. وإنَّمَا خَصَّهَا بالذِّكْرِ؛ لأنَّهَا أوَّلُ صَلاَةٍ فُرِضَتْ عَلَى النَّاسِ.

---

(١) رواه الطبراني مختصراً في المعجم الأوسط: ج ٧ ص٢٣٠: الحديث (٦٤٤٥). وفي تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: الرقم (١١٥٦)؛ قال المحقق: ((أورده صاحب القوت وضعفه)) ونقل عن العراقي قال: ((رواه أبو الوليد يونس بن عبدالله الصفار في كتاب الصلاة، ورواه الطبراني في الأوسط مختصراً، وإسناده ضعيف)).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٥٨ و٦٨. وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب فضل صلاة الجماعة: الحديث (٥٥٥).

(٣) في الدر المنثور: ج ٢ ص٧١٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير)).

(٤) حديث زيد رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان: النص (٤٢٤٨). والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب الصلاة: جماع أبواب الأذان والإقامة: الأثر (٢١٩٤).

وأما أثر أبي سعيد الخدري؛ فرواه البيهقي في السنن الكبرى: الرقم (٢١٩٦). وأثر أسامة في الرقم (٢١٩٥).

وأثر عائشة أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ج ١ ص٥٧٦: باب الصلاة الوسطى: الأثر (٢٢٠٠).

روى زيدُ بن ثابتٍ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي الظُّهْرَ، وَكَانَتْ أثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى أصْحَابِهِ، فَلاَ يَكُونُ وَرَاءَهُ إلاَّ الصَّفُ وَالصَّفَّان مِنَ النَّاس، يَكُونُونَ فِي قَائِلَتِهِمْ وَتِجَارَتِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَقَدْ هَمَمْتُ أنْ أحَرِّقَ عَلَى قَوْمٍ لاَ يَشْهَدُونَ الصَّلاَةَ بُيُوتَهُمْ] فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى)[١].

وقال عليٌّ ﷺ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [إذا زَالَتِ الشَّمْسُ سَبَّحَ كُلُّ شَيْءٍ لِرَبنَا، فَأَمَرَ اللهُ بالصَّلاَةِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ] وهي الساعةُ التي تفتح فيها أبواب السماءِ، فلا تغلقُ حتى تصلى الظهر، ويستجابُ فيها الدعاء؛ ولأنَّها أولُ صلاةٍ توجَّه النبيُّ ﷺ فيها وأصحابُه إلى الكعبةِ، وهي التي ترفعُ جميع الصلوات والجماعاتِ لأجلها يومَ الجمعة.

وقال بعضُهم: هي إحدى الصلوات الخمسِ ولا نعرفُها بعينها. وسئلَ الربيعُ ابن خَيْثَمَ عن الصلاةِ الوسطى، فقال للسائلِ: (إذَا أنْتَ عَلِمْتَهَا أكُنْتَ مُحَافِظاً عَلَيْهَا وَمُضَيِّعاً سَائِرَهُنَّ؟) قال: لاَ، قال: (فَإنَّكَ إذَا حَافَظْتَ عَلَيْهِنَّ فَقَدْ حَافَظْتَ عَلَيْهَا). وبه يقولُ أبو بكر الورَّاق؛ قال: (لَوْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى لَعَيَّنَهَا، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ أرَادَ تَنْبِيْهَ الْخَلْقِ عَلَى أدَاءِ جَمِيْعِ الصَّلَوَاتِ، فَأَخْفَاهَا اللهُ تَعَالَى فِي جُمْلَةِ الصَّلَوَاتِ لِيُحَافِظُوا عَلَى جَمِيْعِهَا رَجَاءَ الْوُسْطَى كَمَا أخْفَى لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي لَيَالِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأخْفَى اسْمَهُ الأَعْظَمَ فِي جَمِيْعِ الأسْمَاءِ، وَأخْفَى سَاعَةَ الإجَابَةِ فِي سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ؛ حِكْمَةً مِنْهُ فِي فِعْلِهِ، وَرَحْمَةً لِخَلْقِهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ) أي طائعينَ؛ وبه قال الشعبيُّ وعطاء والحسنُ وابن جبيرٍ وقتادة وطاووسُ وعطية؛ وهو روايةُ عكرمة عن ابنِ عباس. قال الضحَّاك ومقاتلُ والكلبيُّ: (لِكُلِّ أهْلِ دِيْنٍ صَلاَةٌ يَقُومُونَ فِيْهَا عَاصِيْنَ؛ وَقُومُوا أنْتُمْ فِي صَلاَتِكُمْ مُطِيْعِيْنَ)[٢]. ودليلُ هذا التأويل ما روى أبو سعيدٍ الخدريُّ: أن النبيَّ ﷺ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٧٢٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه وأبو داود وابن جرير والطحاوي والروياني وأبو يعلى والطبراني والبيهقي)).
(٢) أخرج هذه الأقوال بأسانيدها الإمام الطبري: جامع البيان: النصوص(٤٢٨٥-٤٢٩٣).

قال:[كُلُّ قُنُوتٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ الطَّاعَةُ][(١)].

وقال عبدُالله بن مسعودٍ: (مَعْنَاهُ: وَقُومُوا للهِ سَاكِتِيْنَ)[(٢)]. كما روي عن زيدِ بن أرقمَ قال: [كُنَّا نَتَكَلَّمُ فِي الصَّلاَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُول اللهِ ﷺ وَيُكَلِّمُ أحَدُنَا مَنْ هُوَ إلَى جَانبِهِ؛ وَيَدْخُلُ الرَّجُلُ فَيُسَلِّمُ وَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ السَّلاَمَ؛ وَيَسْأَلُهُمْ كَمْ صَلَّيْتُمْ؟ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ كَمْ صَلَّوا؛ وَيَجِيْءُ خَادِمُ الرَّجُلِ وَهُوَ فِي الصَّلاَةِ فَيُكَلِّمُهُ بحَاجَتِهِ كَفِعْلِ أهْلِ الْكِتَاب. وَكُنَّا كَذَلِكَ إلَى أنْ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ) فَأُمِرْنَا بالسُّكُوتِ وَنُهِيْنَا عَنِ الْكَلاَمِ][(٣)]. قال مجاهدٌ: (مَعْنَاهُ: (وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ) خَاشِعِيْنَ، فَنُهُوا عَنِ الْعَبَثِ وَالاَلْتِفَاتِ فِي الصَّلاَةِ).

وقيل: معناهُ مُطِيْلِيْنَ القيامَ كما في قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبكِ﴾[(٤)]. ويدلُّ عليه أيضاً حديثُ جابرٍ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ: أيُّ الصَّلَوَاتِ أفْضَلُ؟ قَالَ: [طُولُ الْقُنُوتِ][(٥)]. وقيل: معناهُ: وقومُوا لله مُصَلِّيْنَ. دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾[(٦)] أي مُصَلٍّ. وقال ﷺ: [مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيْلِ اللهِ كَمَثَلِ الْقَانِتِ الصَّائِمِ][(٧)] أي المصلِّي الصائِم. وقال ابنُ عباس: (وَقُومُواْ للهِ دَاعِيْنَ). والقنوتُ: هو الدعاءُ في الصلاةِ.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط بلفظ [كُلُّ حَرْفٍ ذُكِرَ مِنَ الْقُنُوتِ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ طَاعَةٌ]: الحديث (٥١٧٧)؛ وقال: ((لا يروى هذا الحديث عن أبي سعيد إلا بهذا الإسناد)). والإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٧٥. والطبري في جامع البيان: النص (٤٢٩٦). وابن حبان في الإحسان: كتاب البر والإحسان: الحديث (٣٠٩) وإسناده ضعيف، قاله الهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٦ ص٣٢٠.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النصوص (٤٣٠٠).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٣٠١). ورواه البخاري في الصحيح: كتاب الصلاة: باب القراءة خلف الإمام: الحديث (٢٤١ و٢٤٢). ومسلم في الصحيح: كتاب المساجد: باب تحريم الكلام في الصلاة: الحديث (٥٣٩).

(٤) آل عمران / ٤٣.

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٣٠٢ و٣١٤ و٣٩١. ومسلم في الصحيح: كتاب المسافرين: باب أفضل الصلاة: الحديث (٧٥٦/ ١٦٥) وإسناده صحيح.

(٦) الزمر / ٩.

(٧) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: ج ٢ ص٤٤٣ في أول الجهاد. والطبراني في المعجم الأوسط: الحديث (٨٧٨٢) وإسناده صحيح، وأصله في الصحيحين. وبهذا اللفظ أخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب السِّير: الحديث (٤٦٢٢).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ ؛ أي إذا خِفتم من العدوِّ ولم يُمكنكم أن تقوموا قانتينَ موفِّين حقَّ الصلاة؛ فصلُّوا قياماً على أرجلِكم؛ وحيثُما توجَّهتم بالإيْماء إذا لم يُمكنكم استقبالُ القبلةِ وإقامةُ الركوعِ والسجود. (أوْ رُكْبَانًا) على دوابكم إذا لم يُمكنكم استقبالُ القبلة وإقامة الركوع والسجودِ؛ ولم تستطيعوا النُّزول فصلوا رُكباناً حيثما توجَّهت بكم لا عُذرَ لكم في تركِ الصلاة حالةَ الخوف.

وانتصبَ (رجَالاً) على الحالِ. وكان الحسنُ يقول: (فَرِجَالاً) أي قائمين ماشِين.

وذهب أبو حنيفةَ وأصحابُه إلى أنَّهم لا يصلُّون وهم يقاتلونَ أو يَمشون؛ لما رويَ عن النبيِّ ﷺ: [أنَّهُ فَاتَهُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ ثَلاَثُ صَلَوَاتٍ، فَقَضَاهُنَّ عَلَى التَّرْتِيْب][(١)]. فلولا أنَّ الاشتغالَ بالقتال يفسدُها لَما ترك الإيْماء بها حالَ القيام.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) ﴾ ؛ أي إذا أمِنتُمْ من الخوفِ فصلُّوا لله تعالى كما أمركم قانتينَ مؤدِّين حقوقَ الصلاة وشرائطها. قوله: (كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) معناه: ما لم تكونوا تعلمونَهُ قبل التعليمِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس:(نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ الْمَوَارِيْثِ وَقَبْلَ اسْتِقْرَار الْعِدَّةِ). وكانت المرأةُ في ابتداء الإسلام إذا احتضرَ زوجُها أوصى لها في مالهِ بنفقة سَنَةٍ من طعامها وشرابها وكسوتِها وسُكناها، وكان ذلك حظُّها من الميراثِ من مال زوجها، وإنْ كانت من أهل الْمَدَر سكنت بيتَ

---

(١) الحديث رواه ابن حبان في الإحسان: كتاب الصلاة: باب صلاة الخوف: الحديث (٢٨٩٠) عن أبي سعيد الخدري بإسناد صحيح على شرط مسلم. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٢٥. والنسائي في السنن: كتاب الأذان: باب الأذان للفائت من الصلوات: ج ٢ ص١٧. وأخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٢ ص١٢٠: الحديث (١٢٣٠) عن ابن مسعود ﷺ، وفيه محمد ابن كثير الكوفي، اختلف فيه.

زوجها حتى تُبْنِي بيتاً، وإنْ كانت من أهل الوَبَرِ سكنت بيتَ زوجها حتى تغـزلَ بيتـاً فتتحوَّل إليه. فإن خرجت من بيتِ زوجها أو تزوجت فلا نفقةَ لها ولا سُكنى[١].

ثم نُسخت الوصية بآيةِ المواريث وبقولـه ﷺ: [لاَ وَصِيَّـةَ لِـوَارِثٍ][٢]. ونسـخَ حكمُ الْحَوْلِ باعتبار أربعة أشهر وعشراً عدَّة الوفاة بقولـهِ: ﴿وَالَّذِيـنَ يُتَوَفَّـوْنَ مِنْكُـمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[٣].

ومعنى الآية: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ) نسـاءً؛ أي ويـتركون نسـاءً مـن بعدهم؛ فعليهم (وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ). ويقال: كتبَ عليهم وصيةً؛ وكانت هذه الوصيـةُ واجبةً من الله تعالى لنسائِهم أوصَى الميت أو لم يُوصِ كما قال تعالى في آيةِ المواريـث: ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللهِ﴾[٤].

قرأ الحسنُ وأبو عمرو وابن عامرٍ والأصمُّ والأعمشُ وحمزة وحفصٌ: (وَصِيَّةً) بالنصب على معنى: فَلْتُوصُوا وصيةً. وقرأ الباقونَ بـالرفع علـى معنـى: لأزواجِـهنَّ وصيةٌ، أو كُتِبَ عليهم وصيةٌ.

وقوله: (مَتَاعًا) نُصب على المصدر؛ أي متعوهُن متاعاً، وقيل: جعلَ اللهُ ذلـك لهم متاعاً، وقيل: نُصـب علـى الحـال. وقولـه: (إِلَـى الْحَـوْلِ) أي متعوهـن بالنفقـةِ والسُّكنى والكِسْوَةِ وما يحتاج إليه حَوْلاً كـاملاً. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (غَـيْرَ إِخْـرَاجٍ) أي لا تخرجوهن من بيوتِ أزواجهن.

وإنَّما انتصب (غَـيْرَ) لأنـه صفـةٌ للمتـاعِ، وقيـل: علـى الحـال، وقيـل: بـنَزع الخافضِ؛ أي من غيرِ إخراج، وقيل: على معنى: لاَ إخراجاً، كما يقـال: أتيتـك غـيرَ رغبةٍ إليك.

قولـه عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ ؛ أي فإن خرَجْنَ من قِبَلِ أنفسهن قبل مُضِيٍّ الحول من غير إخراجِ الورثة (فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) يا أولياءَ الميْتِ (فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِـهِنَّ) مـن

---

(١) ذكر الطبري معناه بإسناده في جامع البيان: النص (٤٣٤٣).
(٢) تقدم. (٣) البقرة / ٢٣٤. (٤) النساء / ١٢.

النُّشوز والتزيُّنِ والتزوُّج بالمعروف إذا لم تكنِ المرأةُ حُبلى مـن الميْـتِ. وقيـل: معناهُ: (فَإِنْ خَرَجْنَ) بعد انقضاء عدتِهن، (فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ).

وفي معنى رفعِ الْجُنَاحِ عن الرجالِ بفعل النسـاء وجـهان؛ أحدُهمـا: لا جُنـاح عليكم في قطعِ النفقة إذا خرجنَ قبلَ تَمام الحول. والثاني: لا جُنـاح عليكـم في تـركِ منعهِنَّ من الخروجِ؛ لأن مقامَها حَولاً في بيت زوجها غيرُ واجبٍ عليــها؛ خيَّرهـا اللهُ تعالى في ذلك إلى أن نُسخت بأربعةِ أشهرٍ وعشرٍ؛ لأن ذلكَ لو كان واجباً عليها لكـان واجباً على أولياءِ الزوج منعُها من ذلك.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (غَيْرَ إِخْرَاجٍ) يتضمَّن معنيين؛ أحدُهما: وجوبُ السكنى في مـال الزوج؛ وقد نُسخ ذلك. والثاني: حظرُ الخروج والإخراجِ؛ وهو لزومُ اللُّبْثِ في البيت إلى انقضاءِ عدتِها أربعةَ أشهر وعشراً؛ وذلك بـاقٍ لم يُنسـخ، ولا يجـوزُ لهـا أن تبيـت بالليالي في غيرِ منْزلِها، ولا يجوزُ لها أن تتزينَ؛ لأن امـرأةً جـاءت إلى رسـول الله ﷺ؛ فقالت: إنَّ ابْنَتِي تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَقَدِ اشْتَكَتْ عَيْنَهَا؛ أفَتُكَحِّلُهَا؟ فَرَخَّـصَ لَـهَا ثُـمَّ قَالَ ﷺ: [كَانَتْ إحْدَاكُنَّ تَجْلِسُ فِي أحْلاَسِ بَيْتِهَا حَوْلاً لاَ تَخْرُجُ حَتَّى إذا مَـرَّ بـهَا كَلْبٌ خَرَجَتْ وَرَمَتْهُ ببعْرَةٍ، إلاَّ عَلَى زَوْجٍ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ وَعَشْراً](١).

عن زينبَ بنتِ أبي سلمة قالت: دَخَلَتُ عَلَى زَيْنَبَ بنْتِ جَحْـشٍ حِيْـنَ تُوُفِّـيَ أخُوهَا، فَدَعَتْ بطِيْبٍ فَمَسَّتْهُ ثُمَّ قَـالَتْ: وَاللهِ مَـا لِـي بـالطِّيب مِـنْ حَاجَـةٍ غَـيْرَ أنِّـي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [لاَ يَحِلُّ لامْرَأةٍ تُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أنْ تُحِدَّ عَلَى مَيْتٍ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، إلاَّ عَلَى زَوْجِهَا أرْبَعَةَ أشْـهُرٍ وَعَشْـراً](٢). وعـن ابـن مسـعود رضي الله عنه: [أنَّ نِسْوَةً قَتْلَى أحُدٍ شَكَوْنَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْوَحْشَةَ؛ فَـأمَرَهُـمْ أنْ يَـتَزَاوَرْنَ بالنَّهَار وَلاَ يَبتْنَ باللَّيْلِ إلاَّ فِي مَنَازِلِهِنَّ](٣).

---

(١) الحديث عن زينب بنت أمِّ سلمة عن أم حبيبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. والطـبراني في المعجـم الكبـير: مج ٢٣ ص١٨٩: الحديث (٤٢٥). والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٢٩١.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٤٢١-٤٢٤) وإسناده صحيح. وأخرجه البخـاري في الصحيح: كتاب الطلاق: باب تحد المتوفى عنها أربعة أشهر وعشراً: الحديث (٥٣٣٤-٥٣٣٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الطلاق: باب وجوب الإحداد: الحديث (١٤٨٦-١٤٨٩).

(٣) أخرجـه البيـهقي في السـنن الكـبرى: كتـاب العـدد: بـاب كيفيـة سـكنى المطلقـة: الحديـث=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾ ؛ أي قادرٌ على النقمةِ ممن خالفَ أمرهُ وحُكمه فيما حكمَ على الأزواجِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾ قال سعيدُ بن جبير وأبو العاليةِ والزهريُّ: (الْمُرَادُ بالْمَتَاعِ فِي هَذِهِ الآيَةِ: الْمُتْعَةُ؛ وَهِيَ وَاجِبَةٌ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ)[1]. وذهبَ أصحابُ أبي حنيفة إلى أنَّ المتعةَ تجب للمطلقاتِ كلُّهن من طريقِ الديانة بحكمِ هذه الآية؛ ولكن لا يجبرُ الزوجُ على المتعةِ إلا لمطلقةٍ لم يُدخل بها ولم يفرضْ لها مهراً للآية المتقدمةِ. وقال بعضُهم: أراد بالمتاعِ في هذه الآية نفقةَ عدَّة الطلاق؛ لأن اللهَ تعالى عطفَهُ على قولِهِ (مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ) والمرادُ هناك النفقةُ والسكنَى.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾ ؛ أي مثلُ هذا البيان (يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ) دلائلَهُ في المستقبلِ كما بيَّن في الماضي من أمور دينكم ودُنياكم؛ لكي تفهمُوا ما أمرتُم بـه. ويقـال: لكـي تكمـلَ عقولُكم؛ فإن العقلَ الغريزيَّ إنَّما يكمل بالعقلِ المكتسب، وحقيقةُ العاقل أن يعملَ ما افترضَ عليه، وحقيقةُ العمل استعمالُ الأشياءِ المستقيمة.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (وَذلِكَ أنَّ مَلِكاً مِنْ مُلُوكِ بَنِي إسْرَائِيْلَ أمِرَ بالْخُرُوجِ إلَى قِتَالِ عَدُوِّهِـمْ؛ فَخَرَجُـوْا لِلْقِتَـالِ ثُـمَّ جَبُنُـوا وَكَرِهُوا الْقِتَالَ، فَقَالُوا لِمَلِكِهِمْ: إنَّ الأَرْضَ الَّتِي تُرِيْدُهَا فِيْهَا الْوَبَـاءُ فَـلاَ نَأْتِـهَا حَتَّـى يَنْقَطِعَ عَنْهَا الْوَبَاءُ، فَقَالَ لَهُمْ اللهُ: مُوتُوا).

واختلفُوا في عددِهم؛ فقال مقاتلُ والكلبي: (كَـانُوا ثَمَانِيَـةَ آلاَفٍ). وقـال أبـو رَوْقٍ: (عَشْرَةَ آلاَفٍ). وقال أبو مالكٍ: (ثَلاَثُونَ أَلْفاً). وقال السديُّ: (بِضْعَةٌ وَثَلاَثُـونَ

=(١٥٩٢٥). وفي إعلاء السنن: مج ٦ ص٢٩٠: النص (٣٣٧٤)؛ قال التهانوني: ((هو مرسل؛ وكلهم رجال الصحيح، فالسند صحيح مرسل)).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٣٥٨) عن سعيد بن جبير، والنص (٤٣٥٩) عن الزهري.

أَلْفاً). وقال ابنُ جُرَيج: (أَرْبَعُونَ أَلْفاً) وقال عطاءُ بن أبي رَبَاح: (تِسْعُونَ أَلْفاً). وقال الضحَّاكُ: (كَانُوا عَدَداً كَثِيْراً). فقَوْلُهُ تَعَالَى: (أُلُوفٌ) دليلٌ على كَثرتِهم؛ إذ لو كانوا كما قالَ مقاتل والكلبيُّ لقال: وهم آلافٌ؛ لأن مِن عشرةِ آلاف إلى ما دونها يقالُ فيها: آلافٌ، ولا يقالُ فيها: ألوفٌ؛ لأن الألوفَ جمعُ الكثيرِ، والآلافُ جمعُ القليلِ.

فمكثوا موتَى ثمانيةَ أيامٍ حتى انتفخوا وبلغَ بني إسرائيل موتُ أصحابهم، فخرجوا إليهم ليدفنُوهم، فعجزوا عنهم مِن كثرتِهم، فحظَرُوا عليهم الحظائرَ[1]، ثم أحياهُم اللهُ تعالى بعد ثمانيةِ أيَّامٍ، فبقي فيهم من ريحِ النَّتَنِ التي كانت فيهم بعد الموتَ حتى بقيَ في أولادهم إلى اليومِ.

وقال السُّدِّيُّ: (وَقَعَ الطَّاعُونُ فِي بَنِي إسْرَائِيْلَ، فَخَرَجَ قَوْمٌ مِنْـهُمْ هَارِبِيْنَ مِنْ دِيَارِهِمْ حَتَّى انْتَهَواْ إلَى مَكَانٍ فَمَاتُواْ وَتَفَرَّقَتْ عِظَامُـهُمْ وَتَقَطَّعَتْ أوْصَالُـهُمْ، فَأَتَى عَلَيْهِمْ مُدَّةٌ وَقَدْ بَلِيَتْ أجْسَادُهُمْ، فَمَرَّ بِهِمْ نَبِيٌّ يُقَالُ لَهُ حِزْقِيْلُ ثَالِثُ خُلَفَاءِ بَنِي إسْرَائِيْلَ بَعْدَ مُوسَى ﷺ؛ لأنَّهُ كَانَ بَعْدَ مُوسَى يُوشَعُ بْنُ نُون، ثُمَّ كَالِبُ بْنُ يوفنا، ثُمَّ حِزْقِيْلُ. وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ الْعَجُوز، وَذلِكَ أنَّ أمَّهُ كَانَتْ عَجُوزاً فَسَأَلَتِ اللهَ تَعَالَى الْوَلَدَ وَقَدْ كَبُرَتْ وَعَقُمَتْ، فَوَهَبَهُ اللهُ تَعَالَى لَهَا؛ فَلِذَلِكَ سُمِّيَ ابْنَ الْعَجُوز)[2].

وقال الحسنُ ومقاتل: (هُوَ ذُو الْكِفْلِ، وإنَّمَا سُمِّيَ حِزْقِيْلُ ذَا الْكِفْلِ؛ لأنَّهُ تَكَفَّلَ بسَبْعِيْنَ نَبِيّاً وَأنْجَاهُمْ مِنَ الْقَتْلِ، فَقَالَ لَهُمْ: اذهَبُوا فَإنِّي إنْ قُتِلْتُ كَانَ خَيْراً مِنْ أنْ تُقْتَلُوا جَمِيْعاً، فَلَمَّا جَاءَ الْيَهُودُ وَسَأَلُواْ حِزْقِيْلَ عَنِ الأَنْبيَاءِ السَّبْعِيْنَ، فَقَالَ لَهُمْ: ذَهَبُوا وَلَمْ أدْرِ أيْنَ هُمْ. وَحَفِظَ اللهُ ذَا الْكِفْلِ مِنَ الْيَهُودِ. فَلَمَّا مَرَّ حِزْقِيْلُ عَلَى أوْلَئِكَ الْمَوْتَى وَقَفَ عَلَيْهِمْ وَجَعَلَ يُفَكِّرُ فِيْهِمْ مُتَعَجِّباً، فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الْقَادِرِ عَلَى أنْ يُحْيِي هَذِهِ الأَجْسَادَ، فَأَوْحَى اللهُ إلَيْهِ: يَا حِزْقِيْلُ، أتُرِيْدُ أنْ أرِيَكَ كَيْفَ أحْيِي الْمَوْتَى؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ: نَادِهِمْ، فَنَادَى: أيُّهَا الْعِظَامُ، ثُمَّ قَالَ: ألاَ أيَّتُهَا الأَجْسَادُ الْبَالِيَةُ، إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُنَّ أنْ تَكْتَسِيْنَ لَحْماً، فَجَعَلَ اللَّحْمُ يَجْرِي عَلَيْهِنَّ حَتَّى صِرْنَ أجْسَاداً مِنَ اللُّحُومِ، ثُمَّ

---

(١) الحظائر: جمع حظيرة؛ وهو ما يحيطُ بالشيء من حجرٍ أو قصب أو غيره.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٣٦٦)، ومن طريق وهب بن منبه: النص (٤٣٧٠).

قَالَ: أَلاَ أَيَّتُهَا الأَجْسَادُ الْبَالِيَةُ الْخَاوِيَةُ، إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُنَّ أنْ تَقُمْنَ بإذْنِ اللهِ، فَقَامُواْ. فَرَجَعُواْ إلَى بلاَدِهِمْ وَأقَامُواْ وَتَوَالَدُوا، وَكَانَ أحَدُهُمْ إذَا اكْتَسَى ثَوْباً صَارَ عَلَيْهِ كَفَناً يَكُونُ فِيْهِ رِيْحُ الْمَوْتِ).

وقال وهبُ: (أصَابَهُمْ بَلاَءٌ وَشِدَّةٌ مِنَ الزَّمَانِ، فَشَكَوا مَا أصَابَهُمْ فَقَالُواْ: يَا لَيْتَنَا قَدْ مِتْنَا فَاسْتَرَحْنَا مِمَّا نَحْنُ فِيْهِ. فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إلَى حِزْقِيْلَ: إنَّ قَوْمَكَ قَدْ صَاحُواْ مِنَ الْبَلاَءِ، وَزَعَمُواْ أنَّهُمْ لَوْ مَاتُواْ اسْتَرَاحُوا، وَأيُّ رَاحَةٍ فِي الْمَوْتِ؛ أيَظُنُّونَ أنِّي لاَ أقْدِرُ أنْ أبْعَثَهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ! فَانْطَلِقْ إلَى مَوْضِعِ كَذَا، فَإنَّ فِيْهِ أمْوَاتاً، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا حِزْقِيْلُ، نَادِهِمْ. وَكَانَتْ أجْسَادُهُمْ وَعِظَامُهُمْ قَدْ تَفَرَّقَتْ؛ فَرَّقَتْهَا الطَّيْرُ وَالسِّبَاعُ) فنادى حزقيل بالنداء الذي ذكرناه.

ومعنى الآية: ألَم يعلمِ الذينَ، وقيل معناهُ: ألَمْ ينتهِ عِلْمُكَ إلى خبرِ هؤلاء الذينَ خَرجوا من ديارهم، والمرادُ بالرؤيةِ رؤيةَ القلب لا رؤيةَ العين. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (حَذَرَ الْمَوْتِ) أي خرجوا هاربين حَذَرَ الموتِ، وانتصبَ على أنه مفعولٌ له. وظاهرُ هذا يقتضي أنَّ خروجَهم كان على جهةِ الفرار من الوباءِ على ما فسَّره السديُّ.

وقيل في معنى: (أُلُوفٌ) أي مُؤْتَلِفُواْ القلوب لم يخرجوا من تباغضٍ، ومعنى: (فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا) أي أماتَهم، وقيل: أماتَهم الله بشيءٍ يسمعوهُ، وسمعتِ الملائكة.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ أي مُتَفَضِّلٌ على جميعِ الناس كما تفضَّلَ على هؤلاء بأن أحياهم بعد الموتِ وأراهم البصيرةَ لا غاية بعدها، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ ؛ ربَّ النِّعَمِ. وفي الآيةِ دلالةٌ على أن الموتَ لا ينفع الهرب منه كما قال تعالى: ﴿أيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[1] وقالَ تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أوْ الْقَتْلِ﴾[2]. وإذا كان الآجالُ مؤقتةً محصورةً لا يقع فيها تقديمٌ وتأخير كما قدَّرَ الله تعالى؛ لم ينفعِ الفرارُ من الطاعون وغيرِ ذلك.

---

(١) النساء / ٧٨.
(٢) الأحزاب / ١٦.

وقد روي: أنَّ عُمَرَ ﷺ أرادَ أنْ يَدْخُلَ الشَّامَ وَبِهَا طَاعُونٌ، فَاسْتَشَارَ أصْحَابَهُ بِذَلِكَ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْمُهَاجِرِيْنَ بِالرُّجُوعِ، فَعَزَمَ عَلَى الرُّجُوعِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ: (يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ، أتَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ تَعَالَى؟!) فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: (لَوْ كَانَ غَيْرَكَ يَقُولُهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ! نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ فَهَبَطْتَ بِهَا وَادِياً لَهُ عَدْوَتَانِ؛ إِحْدَاهُمَا خِصْبَةٌ وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَسْتَ إِنْ رَعَيْتَ الْخِصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ). فَجَاءَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ فَقَالَ: (عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمٌ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [إِذَا وَقَعَ هَذَا الرِّجْزُ فِي أَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوهَا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا عَنْهَا]. فَحَمَدَ اللهَ تَعَالَى عُمَرُ ﷺ وَرَجَعَ(١).

فإن قيلَ: إذا كانت الآجالُ مقدرةً لا تتقدمُ ولا تتأخر، فما وجهُ النهي منه ﷺ عن دخولِ أرض بها طاعونٌ؟ وأيُّ فرقٍ بين دخولِها وبين إبقائهِ فيها؟ قيل: وجهُ النهي عن الدخول أنه إذا دخلها وبها طاعونٌ فجائز أن يدركَه أجلٌ بها فيقولُ قائل: لو لم يدخلْها ما ماتَ، كما قال ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾(٢) فكَرِهَ رسولُ الله ﷺ أن يدخلَ أرضاً فيها طاعونٌ لِما يخشى أن يموتَ فيها أحدٌ بأجله، فيقول الجُهَّالُ: لو لم يدخلها لم يَمُتْ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾ قال أكثرُ المفسرين: هذا خطابٌ لِـهذه الأمـة، معنـاه: قـاتلوا في طاعـةِ الله تعـالى ولا تَهربوا من الموت كما هربَ هؤلاء الذين سمعتم خبرَهم، فلا ينفعكم الهربُ واعلموا أنَّ الله سميعٌ لِما يقولهُ المنافق بعلمـهِ: الهـربُ مـن القتـال، عليـمٌ بمـا يضـرُّه. وقـال

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتـاب الطـب: بـاب مـا يُذكـر في الطـاعون: الحديـث (٥٧٢٩) و (٥٧٣٠) وينظر كتاب الحيل: باب مـا يُكـره مـن الاحتيـال في الفـرار مـن الطـاعون: الحديـث (٦٩٧٣). ومسـلم في الصحيـح: كتـاب السـلام: بـاب الطـاعون والطـيرة والكهانـة: الحديـث (٩٧/ ٢٢١٩) وفيه تفصيل القصة .

(٢) آل عمران / ١٥٦.

بعضُهم: هذه الآيةُ خطاب للذين جَبُنوا، وهي متصلةٌ بقولــه تعـالى: (فَقَـالَ لَـهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) وقال لهم: (قَاتِلُوا فِي سَبيلِ اللهِ).

قولــه عَــزَّ وَجَــلَّ: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ؛ قال: (سبعين)[١]: (لَمَّا أنْزَلَ اللهُ قَوْلَهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿مَـنْ جَـاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا﴾[٢] قَالَ ﷺ: [رَب زدْ أمَّتِي] فَنَزَلَ (مَـنْ ذَا الَّـذِي يُقْـرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا) فَقَالَ: [رَب زدْ أمَّتِي] فَنَزَلَ ﴿إنَّمَا يُوَفَّـى الصَّـابرُونَ أجْرَهُـمْ بغَـيْرِ حِسَابٍ﴾[٣])[٤].

وفي الآية استدعاءٌ إلى الانفاق والبرِّ في سبيل الله بألطفِ الكلام وأبلغِهِ، وسَمَّاهُ الله قرضاً تأكيداً لاستحقاق الجزاء؛ لأنه لا يكون قرضاً إلا والعــوضُ مستحَقٌ فيـه. ومعنى الآيةِ: مَن ذا الذي يتصدقُ بصدقة طيبةٍ من نفس طيبةٍ لا يَمُنُّ بها على السائلِ ولا يؤذيه، قال الحسنُ: (هُوَ النَّفَقَةُ فِي أبْوَاب الْبرِّ مِنَ النَّفْلِ). وقـال ابـنُ زيـد: (هُـوَ الإنْفَاقُ فِي الْجِهَادِ فِي سَبيْلِ اللهِ). وقال الواقديُّ: (قَرْضاً حَسَـناً) يَكُـونُ الْمَـالُ مِـنَ الْحَلاَلِ). وقال سهلُ بن عبدالله: (هُوَ أنْ لاَ يَعْتَقِدَ بقَرْضِهِ عِوَضاً).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أضْعَافًا كَثِيرَةً) قرأ عـاصم وأبـو حـاتم (فَيُضَاعِفَـهُ) بالنصب، وقرأ ابن عامرٍ ويعقوب بالتشديدِ والنصب بغير ألِف، وقرأ ابنُ كثير وشـيبةُ بالتشديد والرفعِ، وقرأ الآخرونَ بالألف والتخفيفِ ورفعِ الفاء. فمَن رَفَعَهُ عطفه على

---

(١) أخرج الطبري بسنده؛ قال: ((قال ابن زيـد في قولـه تعـالى: ﴿مَـنْ ذَا الَّـذِي يُقْـرِضُ اللهَ قَرْضـاً حَسَناً﴾ قال: هذا في سبيل الله ﴿فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ قـال: بـالواحد سـبعمائة ضعـف)) جامع البيان: النص (٤٣٧٨).

(٢) الأنعام / ١٦٠.

(٣) الزمر / ١٠.

(٤) أخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب السير: باب فضل النفقة في سبيل الله: الحديـث (٤٦٤٨)؛ عن ابن عمر؛ وإسناده حسـن إن شـاءَ الله. وفي الـدر المنثـور: تفسـير الآيـة: ج١ ص٧٤٧؛ قـال السيوطي: ((أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه وابــن مردويـه والبيـهقي في شعب الإيمان، عن ابن عمر: .... الحديث)).

(يُقْرِضُ)، ومن نصبَ جعله جوابَ الاستفهام بالفاءِ. والتشـديدُ والتخفيـف لُغتـان، ودليلُ التشديدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَضْعَافًا كَثِيرَةً) لأن التشديدَ للتكثير.

قال الحسنُ والسديُّ: (هَذَا التَّضْعِيْفُ لاَ يَعْلَمُهُ إلاَّ اللهُ). قال أبو زيـدٍ: (مَعْنَـى قَوْلِهِ تَعَالَى: (فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أضْعَافًا كَثِيرَةً) أيْ يُعْطِيَهُ سَبْعَمِائَةِ أمْثَالِهِ). كما قال تعـالى في آيةٍ أخرى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنْبَتَـتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾(١). وعن أبي عثمان النهديِّ قال: أدْخَلَ أبُـو هُرَيْـرَةَ إصْبَعَيْـهِ فِي أذُنَيْهِ وَقَالَ: صُمَّتَا إنْ لَمْ أكُنْ سَمِعْتُ مِـنْ رَسُـولِ اللهِ ﷺ يَقُـولُ:[يُضَـاعِفُ اللهُ لِلْمُؤْمِنِ حَسَنَةً إلَى ألْفَي ألْفِ حَسَنَةٍ](٢).

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ ؛ أي يُقتِّرُ ويوسِّعُ على من يشاءُ من خلقهِ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أيْدِيَهُمْ﴾(٣) أي يُمسكوها عن النفقةِ في سبيل الله، وقولهُ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾(٤). وقيل: معناهُ: يقبـضُ الصدقاتِ ويبسطُ، والله يسلبُ النعمة من قومٍ ويبسـطُها علـى قـومٍ. وقيـل: معنـاه: يقبضُ الصدقاتِ ويبسطُ عليها الجزاءَ عاجلاً وآجلاً. وقيلَ: القبضُ والبسطُ الإحيـاءُ والإماتةُ، فمن أمَاتهُ الله فقد قَبَضَهُ، ومن مدَّ له في عمرهِ فقد بسطَ له.

قولـه عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَإِلَيۡـهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ ؛ أي ترجعـونَ في الآخــرة فيجزيكم بما قدَّمتم، وقد جهلتِ اليهودُ معنى هذه الآية أو تجاهلت حتى قـالت: إن اللهَ يستقرضُ منا فهو فقيرٌ ونحن أغنياءُ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أغْنِيَاءُ﴾(٥) وعَرَفَ المسلمون معنى الآية ووثقوا بثواب الله ووعده.

---

(١) البقرة / ٢٦١.

(٢) أخرج الإمام أحمد: ج٢ ص٥٢١ بإسناده عن أبي عثمـان النـهدي تصحيـح أبـي هريـرةﷺ لـه فقال: ((لَيْسَ هَذَا قُلْتُ: وَلَمْ يَحْفَظِ الَّذِي حَدَّثَكَ، وَإنَّمَـا قُلْـتُ: إنَّ اللهَ لَيُعْطِـي الْعَبْـدَ الْمُؤْمِـنَ بِالْحَسَـنَةِ الْوَاحِدَةِ ألْفَي ألْفِ حَسَنَةٍ)). نقله السيوطي في الدر المنثور: مج١ ص٧٤٥.

(٣) التوبة / ٦٧.

(٤) الشورى / ٢٧.

(٥) آل عمران / ١٨١.

قال ابنُ عباسٍ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ جَاءَ أَبو الدَّحْدَاحَةِ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أرى رَبَّنَا يَسْتَقْرِضُ مِمَّا أَعْطَانَا لأَنْفُسِنَا، وَإِنَّ لِي حَدِيْقَتَيْنِ فَإِنْ تَصَدَّقْتُ بِإِحْدَاهُمَا فَلِي مِثْلاَهَا فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: [نَعَمْ]. وَأُمُّ الدَّحْدَاحَةِ مَعِي؟ قَالَ: [نَعَمْ] قَالَ: وَالصِّبْيَةُ مَعِي؟ قَالَ: [نَعَمْ] فَتَصَدَّقَ بِأَفْضَلِ حَدِيْقَتَيْهِ وَهِيَ تُسَمَّى الْحَبِيْبَةَ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ وَجَدَ أُمَّ الدَّحْدَاحَةِ وَالصِّبْيَةَ فِي الْحَدِيْقَةِ الَّتِي تَصَدَّقَ بهَا، فَقَامَ عَلَى بَابِهَا وَتَحَرَّجَ أَنْ يَدْخُلَهَا، ثُمَّ نَادَى: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحَةِ؛ يَا أُمَّ الدَّحْدَاحَةِ، قَالَتْ: لَبَّيْكَ، قَالَ: قَدْ جَعَلْتُ حَدِيْقَتِي هَذِهِ صَدَقَةً وَاشْتَرَطْتُ مِثْلَيْهَا فِي الْجَنَّةِ وَأُمَّ الدَّحْدَاحَةِ مَعِي وَالصِّبْيَةَ مَعِي، قَالَتْ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيْمَا اشْتَرَيْتَ. ثُمَّ خَرَجُوا مِنْهَا وَدَفَعُوهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ قَبِلَ مِنْكَ، فَأَعْطِهِ الْيَتِيمَيْنِ اللَّذَيْنِ فِي حِجْرِكَ]. وَقَالَ ﷺ: [كَمْ مِنْ نَخْلٍ مُدْلٍ عُرُوقُهَا فِي الْجَنَّةِ لأَبي الدَّحْدَاحَةِ][(١)].

وعن أبي زيدِ بن أسلمَ قال: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا) الآيَةُ، قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ: فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَسْتَقْرِضُنَا وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْقَرْضِ؟! قَالَ: [نَعَمْ، يُرِيْدُ أَنْ يُدْخِلَكُمْ ((الْجَنَّةَ))[(٢)]]، قَالَ: فَإِنِّي إِنْ أَقْرَضْتُ رَبي يَضْمَنُ لِيَ الْجَنَّةَ، قَالَ: [نَعَمْ، مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَلَهُ مِثْلُهَا فِي الْجَنَّةِ]، قَالَ: وَزَوْجَتِي أُمُّ الدَّحْدَاحِ مَعِي؟ قَالَ: [نَعَمْ] قَالَ: وَبِنْتِي الدَّحْدَاحَةِ؟ قَالَ: [نَعَمْ]. قَالَ: وَالصِّبْيَةُ مَعِي؟ قَالَ: [نَعَمْ] قَالَ: نَاوِلْنِي يَدَكَ، فَنَاوَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ الْمُبَارَكَةُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي حَدِيْقَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا بِالسَّافِلَةِ وَالأُخْرَى بِالْعَالِيَةِ، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا قَدْ جَعَلْتُهُمَا قَرْضاً للهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [اجْعَلْ

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٢ ص٥١٦: الحديث (١٨٨٧)؛ وقال: ((تفرد به أحمد عن عمر بن الخطاب)). وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ١ ص١٨٧؛ قال الهيثمي: ((وفيه إسماعيل بن قيس الأنصاري، متروك)). وعن عبدالله بن مسعود؛ في مجمع الزوائد: ج ٦ ص٣٢١؛ قال الهيثمي: ((رواه البزار ورجاله ثقات)). وفي ج ٩ ص٣٢٤؛ قال الهيثمي: ((رواه أبو يعلى والطبراني ورجالهما ثقات، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح)).

(٢) ((الْجَنَّةَ)) للضرورة، وإلا فهي ليست في المخطوط.

إحْدَاهُمَا قَرْضاً للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالأُخْرَى لَكَ وَلِعِيَالِكَ] قَالَ: إشْهَدْ يَا رَسُولَ اللهِ أنِّي قَدْ جَعَلْتُ أحْسَنَهُمَا للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ حَائِطٌ فِيْهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ، قَالَ: [إذَنْ يُجْزِيْكَ بِهِ اللهُ فِي الْجَنَّةِ]. قَالَ: فَانْطَلَقَ أبُو الدَّحْدَاحِ حَتَّى أتَى أمَّ الدَّحْدَاحِ وَهِيَ مَعَ أوْلاَدِهَا فِي الْحَدِيْقَةِ تَدُورُ تَحْتَ النَّخْلَةِ، فَأنْشَأ يَقُولُ:

هَدَاكِ رَبِّي سُبُلَ الرَّشَادِ ... إلَى سَبِيْلِ الْخَيْرِ وَالسَّدَادِ
بِيْنِي مِنَ الْحَائِطِ بِالْوِدَادِ ... فَقَدْ مَضَى قَرْضاً إلَى التَّنَادِ
أقْرَضْتُهُ اللهَ عَلَى اعْتِمَادِي ... بِالطَّوْعِ لاَ مَنٍّ وَلاَ نَكَادِ[1]
إلاَّ رَجَاءَ الضِّعْفِ فِي الْمَعَادِ ... فَارْتَحِلِي بِالنَّفْسِ وَالأَوْلاَدِ
وَالْبِرُّ لاَ شَكَّ فَخَيْرُ زَادِ ... قَدَّمَهُ الْمَرْءُ إلَى الْمَعَادِ

قَالَتْ أمُّ الدَّحْدَاحِ: رَبِحَ بَيْعُكَ، بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيْمَا اشْتَرَيْتَ. فَأجَابَتْهُ أمُّ الدَّحْدَاحِ وَأنْشَأتْ تَقُولُ:

بَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ وَفَرَحْ ... مِثْلُكَ أدَّى مَا لَدَيْهِ وَنَصَحْ
إنَّ لَكَ الْحَظَّ إذِ الْحَظُّ وَضَحْ ... قَدْ مَتَّعَ اللهُ عِيَالِي وَمَنَحْ
بِالْعَجْوَةِ السَّوْدَاءِ وَالزَّهْوِ الْبَلَحْ ... وَالْعَبْدُ يَسْعَى وَلَهُ مَا قَدْ كَدَحْ
طُولَ اللَّيَالِي وَعَلَيْهِ مَا اجْتَرَحْ

ثُمَّ أقْبَلَتْ أمُّ الدَّحْدَاحِ عَلَى أوْلاَدِهَا تُخْرِجُ مَا فِي أفْوَاهِهِمْ وَتَنْفِضُ مَا فِي أكْمَامِهِمْ وَتَطْرَحُ مَا فِي ثِيَابِهِمْ حَتَّى افْضَتْ إلَى الْحَائِطِ الآخَرِ، فَقَالَ ﷺ: [كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَّاحٍ وَدَارٍ فَيَّاحٍ[2] فِي الْجَنَّةِ لأَبي الدَّحْدَاحِ][3].

قال أهلُ المعاني: في الآيةِ اختصارٌ وإضمار؛ تقديرهُ: مَن ذا الذي يقرضُ عبادَ اللهِ قرضاً حسناً، وجاءَ في الحديث: [إنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِعَبْدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

(١) في الجامع لأحكام القرآن: (ولا ارتداد)، وفي هامش المخطوط: (ولا ازدياد).
(٢) العَذْقُ - بفتح فسكون-: النخلة، وبكسر وسكون: العُرْجُونُ بما فيه من الشَّمَاريخ. ورَدَّاح: ثقيلة. والفَيَّاحُ: الواسع.
(٣) رواه الطبري في جامع البيان: النص (٤٣٧٩)؛ وهو مرسل ولم يذكر الشعر.

اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، وَاسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، وَاسْتَكْسَيْتُكَ فَلَمْ تَكْسُنِي. فَيَقُولُ الْعَبْدُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا سَيِّدِي!؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ: عَبْدِي فُلاَنٌ الْجَائِعُ وَفُلاَنٌ الْعَارِي فَلَمْ يَعُدْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِكَ، فَلأَمْنَعُكَ الْيَوْمَ فضَلِي كَمَا مَنَعْتَهُمْ مِنْ فَضْلِكَ].

وقال يحيى بنُ معاذ: (عَجِبْتُ لِمَنْ يُبْقِي لَهُ مَالاً وَرَبُّ الْعَرْشِ يَسْتَقْرِضُهُ)[١]. وعن أبي أمامة قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [رَأَيْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ مَكْتُوباً: الْقَرْضُ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَالصَّدَقَةُ عَشْرَة. فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيْلُ، مَا بَالُ الْقَرْضِ أكْثَرُ جَزَاءً. قَالَ: لأَنَّ صَاحِبَ الْقَرْضِ لاَ يَأْتِيْكَ إلاَّ مُحْتَاجاً وَرُبَّمَا وَقَعَتِ الصَّدَقَةُ فِي غَيْرِ اَهْلِهَا][٢]. وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ اَقْرَضَ اَخَاهُ الْمُسْلِمَ، فَلَهُ بكُلِّ دِرْهَمٍ وَزْنُ ثَبيْرٍ وَطُور سَيْنَاءَ حَسَنَاتٍ] وهما جَبَلان.

وقولـه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ألَمْ تعلم يا محمدُ بالملإ من بني إسرائيلَ. والملأُ من القوم: أشرافُهم ووجوهُهم يجتمعون للمشاورةِ. وجمعهُ الأَمْلاَءُ؛ واشتقاقهُ مِن مَلأْتُ الشيءَ؛ لا واحدَ لـه من لفظهِ كالإبلِ والخيلِ والجيشِ والقومِ والرهطِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ بَعْدِ مُوسَى) أي مِن بعدِ وفاة موسَى، وقولهُ: (إذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا) اختلفُوا فيه مَن هو؟ قال قتادةُ: (هُوَ يُوشُعُ بْنُ نُون بْنِ أفْرَاتِيْمَ[٣] بْنِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ). وقال السديُّ: (هُوَ شَمْعُونَ). وقد كان بعدَ يوشع، وإنما سُمي سَمعون لأن اُمَّهُ دعتِ الله عَزَّ وَجَلَّ أن يرزقَها غُلاماً فاستجابَ الله دعاءَها، فولدت غلاماً فسمَّته سَمعون، وقالت: قد سَمِعَ اللهُ دعائي، فلأجلِ ذلكَ سَمته سمعون. والسينُ في لغة العبرانية شينٌ، فهو بالعبرانيةِ شَمعون وبالعربية

(١) في كنز العمال: الرقم (١٥٣٨٢)، ونسبه إلى الطبراني والحكيم في نوادره.

(٢) في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ج ١ ص٥١: الترجمة (يحيى بن معاذ).

(٣) عند الطبري: (أفراثيم).

سَمعون. وقال الكلبيُّ ومقاتل وسائرُ المفسرين: (هُوَ إِشْمُويلُ بْنُ هَلْقَانَا[١]، وَبالْعَرَبِيَّةِ يُقَالُ لَهُ: إِسْمَاعِيْلُ بْنُ بَالِي[٢] وَهُوَ مِنْ نَسْلِ هَارُونَ عليه السلام).

وقال الكلبيُّ: (وَسَبَبُ مَسْأَلَتِهِمْ إِيَّاهُ: أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ مُوسَى عليه السلام خَلَفَ بَعْدَهُ فِي بَنِي إِسْرَائِيْلَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ يُقِيْمُ فِيْهِمُ التَّوْرَاةَ وَأَمْرَ اللهِ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ، ثُمَّ خَلَفَ فِيْهِمْ حِزْقِيْلُ كَذَلِكَ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ، وَعَظُمَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيْلَ الأَحْدَاثُ فَنَسُوا عَهْدَ اللهِ تَعَالَى حَتَّى عَبَدُوا الأَوْثَانَ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ إِلْيَاسَ عليه السلام نَبِيّاً فَجَعَلَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ، ثُمَّ خَلَفَ بَعْدَ إِلْيَاسَ عَلَيْهِمُ الْيَسَعُ وَكَانَ فِيْهِمْ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ قَبَضَهُ اللهُ؛ فَعَظُمَتْ فِيْهِمُ الأَحْدَاثُ وَكَثُرَتْ فِيْهِمُ الْخَطَايَا وَظَهَرَ لَهُمْ عَدُوٌّ يُقَالُ لَهُ: البلساياء وَهُمْ قَوْمُ جَالُوتَ، وَكَانُوا يَسْكُنُونَ سَاحِلَ الرُّومِ بَيْنَ مِصْرَ وَفِلَسْطِيْنَ؛ وَهُمُ الْعَمَالِقَةُ. فَظَهَرُوا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيْلَ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى كَثِيْرٍ مِنْ أَرَاضِيْهِمْ وَسَبَوا كَثِيْراً مِنْ ذَرَارِيْهِمْ، فَضَرَبُوا عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ وَلَقُوا مِنْهُمْ بَلاَءً شَدِيْداً. وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَبِيٌّ يُدَبِّرُ أَمْرَهُمْ، فَكَانُوا يَسْأَلُونَ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَبْعَثَ لَهُمْ نَبِيّاً يُقَاتِلُونَ مَعَهُ، وَكَانَ سِبْطُ النُّبُوَّةِ قَدْ هَلَكُوا وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إلاَّ امْرَأَةٌ حُبْلَى، فَأَخَذُوهَا وَحَبَسُوهَا فِي بَيْتٍ خِشْيَةَ أَنْ تَلِدَ أُنْثَى فَتُبْدِلُهَا بِغُلاَمٍ، لِمَا تَرَى مِنْ رَغْبَةِ بَنِي إِسْرَائِيْلَ فِي وَلَدِهَا، فَجَعَلَتِ الْمَرْأَةُ تَدْعُو اللهَ أَنْ يَرْزُقَهَا غُلاَماً، فَوَلَدَتْ غُلاَماً فَسَمَّتْهُ اشْمُويْلَ أَيْ إِسْمَاعِيْلُ. وَكَبُرَ الْغُلاَمُ فَتَعَلَّمَ التَّوْرَاةَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَكَفِلَهُ شَيْخٌ مِنْهُمْ. فَلَمَّا بَلَغَ أَنْ يَبْعَثَهُ اللهُ نَبِيّاً أَتَى جِبْرِيْلُ وَالْغُلاَمُ نَائِمٌ إِلَى جَنْبِ الشَّيْخِ، فَدَعَاهُ: يَا اشْمُويْلُ، إذْهَبْ إِلَى قَوْمِكَ فَبَلِّغْهُمْ رِسَالَةَ رَبِكَ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَكَ فِيْهِمْ. فَلَمَّا أَتَاهُمْ كَذَّبُوهُ وَقَالُوا: إِنْ كُنْتَ صَادِقاً فَابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلُ فِي سَبِيْلِ اللهِ).

وإنّما سألوا الملكَ لأنَّهم علموا أنَّ كلمتَهم لا تتفقُ وأمورَهم لا تنتظمُ، ولا يحصلُ منهم الاجتماع على القتال إلا بمَلِكٍ يحملُهم على ذلك ويجمع شَملَهم، فكان الملكُ هو الذي يجمع أمرهم والنبيُّ يشيرُ عليه ويرشدهُ ويأتيه من ربه بالخبرِ. فلما قالوا

---

(١) في قصص الأنبياء للثعلبي: عن وهب بن منبه: هو شمويل بن هلفاقا، ولم ينسبه أكثر من ذلك، والصحيح كما عند الطبراني، لأنه القانة في التوراة.

(٢) في المخطوط: (نالي)، وفي الجامع لأحكام القرآن: شمويل بن بال، وأشار المحقق إلى أنه في نسخة (أ): بان. والذي في الطبري وابن عطية: بالي.

لاشمويل: ابعثْ لنا مَلِكاً نقاتلُ في سبيل الله، قال لهم: لعلَّكم إذا بعثَ الله لكم مَلِكاً وفرضَ عليكم القتالَ تَجْبُنُوا عن القتالِ فلا تقاتلوا!!

وإنَّما قال ذلك متعرّفاً ما عندهم من الحدِّ وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ ؛ ومعناه: قال لهم نبيُّهم عسى ربُّكم إنْ فرضَ عليكم القتال مع ذلك الملكِ أن لا تَفُوا بما تقولون ولا تقاتلُون معه، و(قَالُوا وَمَا لَنَا ألا نُقَاتِلَ)؛ ((قالوا: وأيُّ شيءٍ لنا)) في ترك القتالِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وقيل معناه: وليس لنا أن نَمتنع عن قتالِ عدوِّنا في طلب مرضاةِ الله، (وَقَدْ أخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأبْنَائِنَا) أي وقد أخْلَوْنا من منازلنا وسَبَوا ذرارينا.

ومعنى الإخراجِ من الأبناء: أنه لَمَّا كان الإخراجُ من الديار يؤدِّي إلى مفارقةِ الأبناء قالوا: أخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأبْنَائِنَا. ويجوز أن يكون على وجهِ الاتباع كما يقالُ: متقلّدٌ سيفاً ورمحاً.

فإنْ قيلَ: ما وجهُ دخول (أنْ) في قوله (ألاَّ نُقَاتِلَ) والعربُ ما تقول: ما لكَ أن لا تفعل كذا، وإنَّما يقولون: ما لكَ لا تفعلُ؟ قيل: دخول (أن) وجد فيها لغتان فصيحتان. فدليلُ إثباتِها قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ ألا تَسْجُدَ﴾[1] و﴿مَا لَكَ ألا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[2]. ودليلُ حذفِها قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ باللهِ﴾[3].

واختلفوا في قراءةِ قوله تعالى:(ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ) قرأ بعضهم (نُقَاتِلُ) بالرفع على معنى فإنَّا نقاتلُ، وأكثرهم على (نُقَاتِلْ) بالجزمِ على جواب الأمر. وقرأ أبو عبدالرحمن السلميّ: (يُقَاتِلْ) بالياءِ والجزم؛ جعل الفعلَ للملك، كذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقَدْ أخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا) قرأ عمرُ (وَقَدْ أخْرَجَنَا) بفتح الهمزةِ والجيم؛ يعني العدوَّ.

وقوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ ؛ فيه حذفٌ؛ معناه: فبعثَ اللهُ لهم مِلكاً وكتبَ عليهم القتال؛ (فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ)؛ أي لَمَّا فرضَ عليهم أعرضوا عنه وضيَّعوا أمرَ الله عَزَّ وَجَلَّ إلا قليلاً منهم،

(١) الأعراف / ١٢. (٢) الحجر / ٣٢. (٣) الحديد / ٨.

وهم ثلاثمائة وثلاثةَ عشر رجلاً؛ هم الذين عبَروا النهر، وسنذكرهم إن شاءَ اللهُ في موضعهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾؛ أي عالِمٌ بالذين ظلموا أنفسهم بالمعصية وبعقوبتهم، وفي هذا تهديدٌ لِمن ولَّى عن القتال.

واختلفُوا في قراءة (عَسَيْتُمْ) فقرأ نافع وطلحة والحسن: (عَسِيْتُمْ) بكسر السين في كلِّ القرآن؛ وهي لغةٌ. وقرأ الباقون بالفتحِ؛ وهي اللغةُ الفصيحة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ ﴾؛ وكان السببُ فيه على ما ذكره المفسرون: أن اشْمويل عليه السلام سألَ الله تعالى أن يبعثَ لَهم مَلِكاً، فأُتِي بعصًا وقرنٍ فيه دهنٌ، وقالوا له: إن صاحبَكم الذي يكون مَلِكاً طولهُ طول هذه العصا، وقيل له: انظر إلى هذا القرنِ الذي فيه الدهنُ، فإذا دخلَ عليك رجلٌ فَنَشَّ[1] الدهنُ في القرنِ؛ فهو مَلِكُ بني إسرائيل فادهِن به رأسهُ وملِّكه على بني إسرائيل. فقاسوا أنفسَهم بالعصا؛ فلم يكن أحدٌ منهم مثلها.

قال وهب: (وَكَانَ طَالُوتُ رَجُلاً دَيَّاناً). وقال عكرمةُ والسديُّ: (كَانَ يَسْقِي عَلَى حِمَارٍ لَهُ مِنَ النِّيْلِ، فَضَلَّ حِمَارُهُ؛ فَخَرَجَ فِي طَلَبِهِ). وقال بعضُهم: ضَلَّتْ حُمولات لأبيه، فأرسلَهُ أبوه مع غلامٍ له يطلُبانها، فمرَّا ببيت اشمويل، فقال الغلامُ لطالوتَ: لو دخلنا على هذا النبيِّ فسألناه عن الحمولاتِ ليُرشدنا ويدعو لنا بخير. فقال طالوتُ: نفعل ذلكَ، فدخلاَ عليه، فبينما هما عنده إذ نَشَّ الدهنُ الذي في القرنِ فقام أشمويلُ وقاسَ طالوتَ بالعصا فكان على طولِهِ، فقال لطالوت: قرِّب رأسكَ، فقرَّبه، فدهنه بذلك الدهن، ثم قال له: أنتَ ملكُ بني إسرائيل الذي أمرني الله أن أملِّككَ عليهم. فقال طالوتُ: أوَما عَلِمْتَ أن سِبطي أدنى أسباط بني إسرائيل؟ قال: بَلَى، قال: فبأيِّ آيةٍ أكونُ أهلاً لذلك؟ قال: بآيةِ أنكَ ترجعُ إلى أبيك، وقد وجدَ أبوكَ حُمولاته، فرجعَ فكان كذلك.

---

(١) نشَّ الشيء: جفَّ وذهبَ ماؤهُ، ونشَّ اللحم: صوَّتَ على المقلى، ونشَّتِ الجرَّة الجديدة: صوَّتت كصوت الغليان عند صبِّ الماء فيها.

ثم قالَ أشمويل لبني إسرائيلَ: (إنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا فَقَالُوا أنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ). وإنَّما قالوا ذلك لأنهُ كان في بني إسرائيل سِبطان؛ سِبْطُ نبوَّةٍ وسِبْطُ مَمْلَكَةٍ. وكان سِبط النبوة لاوي بن يعقوب ومنه موسى وهَارون، وسِبط المملكة سبط يهودا بن يعقوبَ ومنه كان دَاود وسليمان، ولم يكن طالوتُ من هؤلاء ولا من هؤلاء، وإنَّما هو من سبط بنيامين بن يعقوب، فمن أينَ يكونُ له الملكُ علينا ونحن أحقُّ بالملك منه. ومع ذلك هو فقيرٌ لم يؤتَ سَعَةً من المالِ ينفقهُ علينا كما يفعلهُ الملوك.

﴿ قَالَ ﴾ ، أشمويل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي اختارَهُ عليكم للملكِ، ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ ؛ أي فضَّله عليكم بالعلمِ؛ وذلك أنه كان أعلمَهم في وقته، فرفعهُ الله تعالى بعلمه. وقيل: كان عالماً بأمر الحرب، وكان طويلاً جسيماً وكان يفوقُ الناس بمنكبيه وعنقه ورأسهِ. وإنَّما سُمي طالوتَ لطولهِ وقوَّتهِ، فأعلمهم اللهُ تعالى أن العلمَ هو الذي يجبُ أن يقعَ به الاختيار، وأن الزيادةَ في الجسم مِمَّا يهيبُ به العدوّ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾ ؛ أي يعطي مُلكه من يشاءُ، وهو جلَّ وعزَّ لا يشاءُ إلا الحكمةَ والعدل، فلا تُنكروا ملك طالوت مع كونهِ من غيرِ أهل الملكِ، وأن الملكَ ليس بالوراثةِ وإنَّما هو بيدِ الله يؤتيه من يشاءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ ؛ أي يوسعُ على من يشاء ويعلمُ أين ينبغي أن يكون الملكُ والسعةُ، وإنما قال: (وَاسِعٌ) بمعنى مُوسِعٌ، كما يقال: أليمٌ بمعنى مؤلِم. وقيل: معناهُ واسع الفضلِ، إلا أنه حذفَ الفضلَ كما يقال: فلان كبيرٌ؛ أي كبيرُ القدر. وأما طالوتُ وجالوتُ وداودَ، فاجتمعَ فيهم العجمة والتعريفُ؛ فلذلك لم ينصرفْ، فلو سَمَّيت رجلاً باسم جاموس لا ينصرفُ وإن كان أعجميّاً؛ لأنه قد تمكَّن في العربية؛ لأنك تدخلُ عليها الألف واللام فتقول: الجاموس[1].

---

(١) طالوت وجالوت اسمان أعجميان معرَّبان، ولذلك لم ينصرفا فضلاً عما قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ في حال دخول الألف واللام؛ أي لا ينصرفا للعَلَميَّة والعُجمة الشخصية.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ؛ قال ابن عباس: (هذا جوابٌ عن قولِهم لنبيِّهم: واللهِ ما نصدقك أنَّ الله بعثهُ علينا، ولكنكَ أنت بعثته علينا مَلِكاً مضارَّة لنا حينَ سألناكَ مَلِكاً، وإلا فآتنا بآيةٍ أن الله قد بعثهُ علينا. فقالَ لهم: (إنَّ آيَةَ مُلْكِهِ) أي الدلالةُ على كون طالوتَ ملكاً، أن يأتيكم التابوتُ الذي أخذَه منكم عدوُّكم. وكان ذلك التابوتُ من عودِ الشمار[1] الذي يتخذُ منه الأمشاطُ المرصَّعة بالذهب عليه صفائحُ الذهب، وكانت السكينةُ في التابوت؛ وهي شبهُ دابَّةٍ رأسُها كرأسِ الْهرَّةِ ولها ذنبٌ كذنبها له رأسان، ووجهٌ كوجه الإنسان ولها جناحان من زبرجد وياقوت، وكان فيها روحٌ تكلمهم بالبيانِ فيما اختلفوا فيه، وكان لعينَيها شعاعٌ إذا نظرتْ إلى إنسانٍ دُعِرَ).

قال ابنُ عباس: (كانت بنو إسرائيلَ إذا حضر القتال قدَّموا التابوتَ بين أيديهم إلى العدوِّ، فإذا أتَتِ السكينةُ في التابوت وسُمع من التابوت أنينُها أقربَ نحوَ العدو وهم يَمضون معه أينما مَضَى، فإذا استقرَّ ثبتُوا خلفه، وكانت السكينةُ إذا صرخت في التابوتِ بصراخ هِرَّة أيقنوا بالنصرِ وجاءهم الفتحُ، فلما عَصَتْ بنو إسرائيل الأنبياءَ صلوات الله عليهم، سلَّطَ الله عليهم عدوَّهم فقاتلهم وغلبَهم على التابوت، ومَضَوا به إلى قريةٍ من قُرى فلسطين، وجعلوه في بيتِ صَنَمٍ لهم، وجعلوا التابوت تحتَ الصنم، فأصبحوا من الغدِ والصنمُ تحته، وأصنامهم كلُّها أصبحت مكسَّرةً، فأخرجوا التابوتَ من بيتِ الصنم، ووضعوهُ في ناحيةٍ من مدينتهم، فأخذَ أهل تلك الناحيةِ وجعٌ في أعناقهم حتى هلكَ أكثرُهم، فقال بعضهم لبعض: أليسَ قد علمتُم أن إلهَ بنو

(١) في المخطوط:(السمسار)، وفي هامش الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص٢٤٨: (شمار) وهو من قول الكلبي. وفي معجم أسماء النبات: ص٣٤: (شمساد).

وفي الإصحاح الخامس والعشرين من سفر الخروج: الفقرة (١٠): (تصنعُ تابوتاً من خشَبِ السَّنْطِ، طولُهُ ذراعان ونصف). العهد القديم – الإصدار الثاني ١٩٩٥، الطبعة الرابعة: ص١٠٠: المسكن المقدس وأثاثه: التابوت.

وفي لسان العرب: مادة (سنط): ج ٦ ص٣٩١؛ قال: ((والسَّنْطُ: قرظٌ ينبتُ في الصَّعيد وهو حطبُهم، وهو أجودُ حطبٍ استوقدَ به الناسُ)).

إسرائيلَ لا يقومُ له شيء، فأخرجُوا التابوتَ إلى قريةٍ أخـرى، فبعـثَ اللهُ علـى أهـل تلك القريةِ بلاءً حتى كان الرجلُ منهم يبيتُ سالِماً ويصبحُ ميتاً قد أكِلَ ما في جوفه، فأخرجوهُ منها إلى الصحراء ودفنوهُ في مَخْرَاةٍ لهم، فكان كل من تغوَّط هنـالك منـهم أخذه الباسورُ والقولنج، فتحيَّروا! فقالت لهم امرأةٌ من بني إسرائيل كانت عندهم قـد سَبَوها: اعلموا أنكم لا تزالون ترون ما تكرهـون مـا دامَ التـابوتُ فيكـم فـأخرجوه عنكم، فأتوا بعَجَلٍ بإشارة تلك المرأةِ فحملوا عليها التابوتَ، ثم علَّقوها على ثوريـن ثم ضربُوا جنوبَها فأقبل الثـورانِ يسـيران، ووكَّـلَ اللهُ أربعـةً مـن الملائكـةِ يسـوقون الثورين، فلم يَمر التابوت بشيء من الأرض إلاَّ كان مُقدَّساً، فأقبلاً حتى وقعَـا علـى أرض بني إسرائيل فوضعُوا التابوت في أرضِ بـني إسـرائيل، فلمـا رَأى بنـو إسـرائيلَ التابوتَ كبَّروا وحمدوا اللهَ وأطـاعوا طـالوتَ وأقـروا بمُلْكِـهِ، فذلـكَ قولـهُ: (تَحْمِلُـهُ الْمَلائِكَةُ) أي تَسُوقُهُ)[١]. وقال ابنُ عباس: (جَاءَتِ الْمَلاَئِكَـةُ بالتَّـابُوتِ تَحْمِلُـهُ بَيْـنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إلَيْهِ حَتَّى وَضَعَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ طَالُوتَ)[٢].

وقرأ ابنُ مسعود ومجاهد والأعمـش: (يَحْمِلُـهُ) باليـاءِ. وعـن علـي ﷺ: (أنَّ السَّكِيْنَةَ كَانَ رِيْحاً هَفَّافَةً لَهَا وَجْهٌ كَوَجْهِ الإنْسَانِ)[٣].

وقوله تعالى: (وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ) يعني أنهُ كان في التـابوتِ أيضاً رُضَاضُ الألواحِ لموسى وعصاهُ من آسٍ وعمامةُ هارون وقفيزةٌ من الْمَـنِّ وهـو التَّرَنْجَبِينُ[٤] الذي كان لبنِي إسرائيلَ في طِسْـتٍ مـن ذهـبٍ. وقولـه تعـالى: (تَحْمِلُـهُ الْمَلائِكَةُ) أي تسوقهُ الملائكة. وقال بعضهم: أرسـلَ الله ريحـاً انـتزعت التـابوتَ مـن أيدي الكفَّار، ثم حملتهُ الملائكة فألقته بين يَدَي طالوتَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص(٤٤١٤ و٤٤١٥ و٤٤١٧) عن وهب بن منبه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٤٤٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٤٢٠).

(٤) في لسان العرب: مادة (منن): ج ١٣ ص١٩٨ نقل من قـول الزجـاج؛ قـال: ((وأهـل التفسـير يقولون: إنَّ المنَّ شيء كان يسقط على الشجر حلو يُشرب، ويقال: إنـه الـترنجبين... كـان يـنزل عليهم من السماء عفواً بلا علاج. والتَّرنجبين؛ والطرنجبين بالطاء، وهو طـلٌّ يقـع مـن السـماء، وهو ندي شبيه بالعسل جامد متحبب. (عن مفردات ابن البيطار).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ ﴾ ؛ أي إن في رجوع التابوت إليكم لعلامةً أن الله ملَّك عليكم طالوتَ، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾ ؛ أي مصدِّقين بذلك.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ ؛ الآية، أي فلما خرجَ طالوتُ من البلد (بالْجُنُودِ) يعني خرج بهم من بيتِ المقدس وهُمْ سبعون ألفَ مقاتلٍ؛ وقيل: ثمانون ألفاً، ولم يتخلَّف عنه إلا كبيرٌ لهرمِهِ أو مريضٌ لسقمِهِ أو ضريرٌ لضررِهِ أو معذورٌ لعذره. وذلك أنَّهم لَمَّا رأوا التابوت قالوا: قد أتانا التابوتُ وهو النصرُ لا شكَّ فيه، فسارعوا إلى الجهاد، فخرجَ معهُ خَلْقٌ كثير؛ فقال: لا حاجةَ لي في كلِّ ما أرى، ولا أبتغي إلا كلَّ شابٍّ نشيطٍ فارغٍ، ولا يخرجُ معي صاحبُ تجارة ولا رجلُ عليه دَين، ولا رجلٌ تزوجَ امرأةً لم يَبْنِ بها؛ لأنَّهم يكونون مشغولين. فاجتمعَ إليه ثمانون ألفاً من شرطهِ. فخرجَ بهم في حرٍّ شديد، فأصابَهم العطشُ؛ فسألوا الماءَ؛ فقال لهم طالوتُ: (إنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ) أي مُخْتَبِرُكُمْ بنهرٍ جارٍ؛ وهو نهر الأردن وفلسطين؛ ليرى طاعتَكم وهو أعلمُ؛ ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ ؛ أي فليسَ من أهلِ دِيني وطاعتي، وليسَ معي على عدوِّي، ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾ ؛ أي ومن لم يشربه، ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ ؛ ومعي على عدوِّي، وقد يطلقُ لفظ الطعمِ على الشرب، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ ﴾ ؛ قرأ ابنُ عباس وأبو الجوزاء وابنُ كثير وشيبة ونافعُ وأبو عمرو وأيوبُ: (غَرْفَةً) بفتح الغين، وقرأ الباقون بضمِّها؛ وهي قراءةُ عثمان، وهما لُغتان. قال الكسائيُّ: (الغُرْفَةُ بالضَّمِّ: الَّذِي يُجْعَلُ فِي الْكَفِّ مِنَ الْمَاءِ إذا غُرِفَ. وَالغَرْفَةُ بالْفَتْحِ الاغْتِرَافُ، فَالضَّمُّ اسْمٌ وَالْفَتْحُ مَصْدَرٌ). وقال أبو حاتم: (الغُرْفَةُ بالضَّمِّ: مِلْءُ الْكَفِّ وَمِلْءُ الْمِغْرَفَةِ، وَبِالْفَتْحِ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْقَلِيْلِ وَالْكَثِيْرِ). قال الكلبيُّ ومقاتل: (كَانَتِ الغُرْفَةُ لَيَشْرَبُ مِنْهَا الرَّجُلُ وَخَادِمُهُ وَدَابَّتُهُ).

---

(١) المائدة / ٩٣.

قيل: ابتلاهمُ اللهُ بذلكَ النهر ليميِّزَ الصادقَ من الكاذب، وكـان أشمويـل هـو الذي أخبَر طالوتَ بذلك؛ لأنَّ الله تعالى ﴿لا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أحَـدًا. إلا مَـنْ ارْتَضَـى مِنْ رَسُول﴾[1] فلا يجوزُ هذا القول إلا من نَبِيٍّ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (فَشَـرِبُوا مِنْـهُ) ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ؛ نصبَ (قَلِيلاً) على الاستثناءِ. قرأ ابنُ مسعود: (إلاَّ قَلِيْلٌ) بالرفعِ، كقول الشاعر[2]:

وَكُـــلُّ أخٍ مُفَارِقُـــهُ أخُـــوهُ لَعَمْـــرُو أبيْـــكَ إلاَّ الْفَرْقَـــدَانِ

ومعنى الآية: أنه لَمَّا عُرِض لهم النهرُ وقد اشتد بهم العطشُ؛ وقعوا فيه فشربوا كلُّهم أكثرَ من غُرفة إلا قليلاً منهم؛ وهم ثلاثمائة وثلاثةَ عشرَ رجلاً كعدَّة أهل بـدر، قالَ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ لأَصْحَابهِ: [أنْتُمْ عَلَى عَدَدِ أصْحَاب طَالُوتَ][3].

قالوا: فمَنِ اغترفَ غُرفة قويَ وصحَّ إيْمانه وعبَر النهرَ سالماً لكفتْهُ تلك الغرفـة الواحدة لشربهِ وخادمهِ ودوابه. وأما الذين أخذُوا أكثرَ مـن ذلـك وخـالفوا اسـودَّت شفاهُهم واشتدَّت عَطْشَتُهُمْ فلم يَرْوَوْا وبقَوا على شطِّ النهر وجَبُنُوا عن لقـاءِ العـدوِّ ولم يشهدُوا الفتحَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ؛ يعني لَمَّا جاوزَ طالوتُ النهرَ هو والذين صدَّقوه وهـم القليـلُ الذيـن لم يشـربوا إلا مقـدارَ الغُرفـة، ﴿قَالُواْ﴾ ؛ أي قال الذين شَربوا وخالفوا أمـرَ الله وكـانوا أهـلَ شـركٍ ونفـاق: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ ؛ وانصرفـوا عـن طـالوتَ ولَم يشهدوا قتالَ جالوتَ. قال بعضُ المفسرين: إن القـوم كلَّـهم جـاوزوا النـهرَ، ثـم إن الذين خالفوا في الشرب من النهر اعتزلُوا مـن المطيعـينَ و(قَـالُوا لاَ طَاقَـةَ لَنَـا الْيَـوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ).

(١) الجن / ٢٦-٢٧.

(٢) البيت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي (١٠٠ ق.هـ-٢١هـ). في الديـوان: ص١٧٨، وهـو مـن الشواهد.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب المغازي: باب عدة أصحاب بـدر: الحديـث (٣٩٥٩) عـن البراء ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناه: قال الذين يوقنونَ ويعلمون أنَّهم مُلاقو اللهَ؛ وهم القليلُ الذين ثبَتوا مع طالوتَ، (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ) أي كم مِن فرقةٍ قليلة قهرت فرقةً عدتُها كثيرة بأمرِ الله ونصرتهِ، وكانت فئةُ جالوتَ مائة ألفٍ. والفئةُ جمعٌ لا واحدَ له من لفظهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ ؛ أي معهم بالنصرِ والمعونةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ ؛ معنَاها: لَمَّا خرجُوا واصطفُّوا لِمحاربةِ جالوتَ وجنوده، قالوا: ربَّنا أصْببْ علينا الصَّبْرَ صَبّاً، ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ ؛ في أماكنِها في الحرب بتقويةِ قلوبنا، ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾ ؛ أي أعِنَّا على قومِ جالوتَ بإلقاء الرُّعب في قلوبهم، ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ في هذا الحال؛ لأنَّ ذكرَ الهزيْمةِ بعد سؤالِ النصرِ يدلُّ على إجابةِ الدعاء، كأنَّ الله تعالى قال: فاستجابَ اللهُ دعاءَهم فهزَموهُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ ؛ قال المفسرونَ: لَمَّا عبرَ طالوتُ ومن معه النهرَ، كان من جُملة من عبَر معهم أبو داودَ الطَّيْلاَ واسْمهُ إيشا في ثلاثة عشر ابناً له وكان داودُ أصغرَهم، ثم إنَّ جالوت أرسلَ إلى طالوت: أنْ أرسِلْ إلَيَّ مَن يقابلني، فإنْ قتلنِي فلكم مُلكي، وإن قتلتهُ فلي ملكُكم. فشَقَّ ذلك على طالوتَ ونادى في عسكرهِ: مَن قتلَ منكم جالوتَ زوَّجتهُ ابنتي وأعطيتهُ نصفَ مملكتِي، فلم يُجِبْ أحدٌ منهم وَهَابَ الناسُ جالوتَ، فسألَ طالوتُ نبيَّهم أن يدعو اللهَ، فدعا اللهَ تعالى، فأتى بقرنٍ فيه دهنٌ فقيل لهُ: إنَّ صاحبَكم الذي يقتلُ جالوت هو الذي يَضَعُ هذا القرنَ على رأسهِ فيغلِي الدهنُ، فدعا طالوتُ بني إسرائيل فجرَّبَهم، فلم يوافق ذلك منهم أحدٌ، فأوحى الله إلى نبيِّهم أنَّ في أولاد إيشا مَن يقتلُ جالوتَ، فدعا طالوتُ إيشا وقال لهُ: اعرضْ عليَّ أولادَكَ، فأخرجَ له اثنا عشر رجلاً أمثال الاسطواناتِ، وفيهم رجلٌ فارع عليهم، فجعل يعرِضُهم على القرنِ، فلم يَرَ شيئاً، فلم يزل يردِّدُ القرنَ على ذلك الجسيمِ حتى أوحي إليه أنَّا لا نأخذُ الرجالَ على قدر

صورهم، بل على إصلاحِ قلوبهم، فقُل لإيشا: هل لكَ ولدٌ غيرُهم؟ فقال: لاَ، فقال: رَب إنه زعمَ أنه لا ولدَ له غيرهم، فقال: كَذَبَ. فقال له: إنَّ ربك كذَّبك، فقال: صدقَ اللهُ، إن لي ابناً صغيراً يقال له داودُ اسْتَحَيْتُ أن يراهُ الناس لقِصَرِ قامته وحقارتهِ، فجعلتهُ في الغنم يرعى وهو في شِعْب كذا، وكان داودُ الطّيْلا قَصِيراً مشقاً أزْرَقاً، فخرجَ طالوتُ في طلبه، فوجدَ الوادي قد سَالَ بينه وبين الزريبةِ التي كان يريحُ إليها الغنمَ، فوجده يحملُ شاتين يجوزُ بهما السيلَ ولا يخوضُ بهما الماءَ، فلما رآهُ قال: هذا هوَ لا شكَّ فيه، هذا يرحمُ البهائمَ فهو بالناسِ أرحمُ. فدعاه فوضعَ القرنَ على رأسه؛ ففاضَ، قال: هل لكَ أن تقتلَ جالوت وأزوِّجُك بابنتي وأعطيكَ نصف مملكتي، قال: نَعَمْ، قال له: فهل جرَّبت نفسكَ في شيء، قال: نعم؛ وقعَ الذئبُ في غنمي فضربتهُ ثم أخذتُ برأسه وجسدهِ وقطَعت رأسه من جسدهِ، فقال له طالوتُ: إن الذئبَ ضعيفٌ، فهل جربتَ نفسكَ في غيره، قال: نعم؛ دخلَ الأسدُ في غنمي؛ فضربتهُ وأخذت بلحييه فشققتُهما.

فمضى به طالوتُ إلى عسكرهِ، فمرَّ داود بثلاثةِ أحجارٍ فقُلْنَ له: خُذْنا معك ففينا مِيْتَةُ جالوتَ، فأخذَهُنَّ ثم مضَى. فلما تصافُّوا للقتال وبَرَزَ جالوتُ وسأل المبارزةَ، انتدبَ إليه داودُ، فأعطاهُ طالوتُ فرساً ودِرعاً وسلاحاً، فقال داودُ: إنِّي لم أتعود القتال بهذا، ولكني أقاتلهُ بالْمِقْلاَعَةِ كما أريدُ، فأخذَ داود الْمِقلاَعَةَ ومضَى نَحْوَ جالوتَ.

وكان جالوتُ من أشدِّ الناس وأقواهم، وكان له بيضةٌ هي ثلاثُمائة رَطْلٍ من حديدٍ، فلما نظرَ إلى داود ألقي في قلبهِ الرعبُ، وكان جالوتُ على فرسٍ أبلقَ عليه السلاحُ التامُّ، قال: بَرَزْتَ إليَّ بالمقلاعة والحجر لتقتلني كما تقتلُ الكلبَ، قال: نَعَمْ؛ لأنك شرٌّ من الكلب. قال جالوتُ: لا جَرَمَ لأقْسِمَنَّ لَحْمَكَ بين سِباع الأرضِ وطيور السماءِ. فقال داود: بل يُقَسِّمُ اللهُ لحمك، ثم قال داودُ: باسم إلهِ إبراهيمَ، وأخرجَ حجراً ووضعهُ في مِقْلاَعَتِهِ، ثم أخرجَ الحجرَ الثاني وقال: باسمِ إلهِ إسحقَ؛ ووضعهُ في مِقْلاَعَتِهِ، ثُم أخرجَ الحجرَ الثالث، وقال: باسْمِ إلهِ يعقوبَ؛ ووضعهُ في مقلاعته، فصارت كلُّها حَجَراً واحداً ودوَّر الْمِقْلاَعَ ورمى به، فأصابَ الحجرُ أنفَ

البيضةِ وخلطَ دِماغه وخرج من قَفَاهُ، وقتلَ من ورائه ثلاثين رجلاً، وهزمَ اللهُ الجيش وخرَّ جالوتُ قتيلاً.

فأخذهُ داود وجرَّه حتى ألقاهُ بين يدي طالوت ثم قال له: أنجِزْني ما وعدتَني وأعطِني امرأتي، فقال له طالوتُ: أتريد ابنةَ الملكِ بغير صَدَاق، قال: ما شرطتَ عليَّ صِداقاً، وليس لي شيءٌ. فزوَّجهُ ابنتهُ، واراد أن يدفعَ إليه نصفَ ملكهِ فقال له وزيرٌ: إنْ دفعتَ إليه ذلك نازعَك في المُلْكِ وأفسدَ عليك مُلكك، فامتنعَ طالوت من ذلك وقصدَ قتلهُ، فهرب داودُ عليه السلام فندمَ طالوت فخرج في طلبهِ حتى أتى على امرأةٍ من قدماء بني إسرائيل وهو يبكي على داودَ، فضربَ بابَها؛ فقالت: مَن هذا؟ قال: أنا طالوتُ، قالت: أنتَ أشقى الناس؛ طردتَ داودَ وقد قتلَ جالوت وهزمَ جنوده، قال: إنَّما أتيتكِ لأسألكِ ما توبتِي ؟ قالت: توبتكَ أن تأتي مدينةَ كذا وتقاتِلَ أهلها، فإن فتحتَها فهي توبتُك، وإن قُتلت فهي عقوبَتُك[1].

فانطلق طالوتُ إلى تلك المدينة فقاتلَ أهلها حتى قُتل. فاجمعَ بنو إسرائيل فملَّكوا داودَ عليه السلام من بعده. فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ؛ أي جمعَ له بين الملكَ والنبوَّة. والحكمةُ هي النبوَّةُ، ولم يجتمع كِلاهما لأحدٍ إلا لداودَ وسليمانَ عليهم السلامُ. قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ ؛ أي علَّمَه الدروعَ ومنطقَ الطير وغيرَ ذلك من العلوم، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ ؛ أي ولولا دفعُ الله بأسَ المشركين بالغزاةِ والمجاهدين كما دفعَ بداود شرَّ جالوت لفسدت الأرضُ بأهلها لغلبةِ الكفار. وقيل: معناهُ: لولا الأنبياءُ صلواتُ الله عليهم الدَّاعون إلى سبيلهِ الناهونَ عن الفسادِ؛ لفسدت أحوالُ الناس.

---

(١) أخرج هذه القصة الطبري في جامع البيان: النص (٤٤٧٧-٤٤٨٤) من رواية وهب بن منبه، وعلى ما يبدو أنَّها من الإسرائيليات.

روي في الخبرِ عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لَوْلاَ رجَالٌ رُكَّعٌ؛ وَصِبْيَانٌ رُضَّعٌ وَبَهَائِمٌ رُتَّعٌ؛ لَصُبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ صَبّاً][(١)]. وقال الحسنُ: (يَزَعُ اللهُ بالسُّلْطَانِ أكْثَرَ مِمَّا يَزَعُ بالْقُرْآنِ، وَلَوْلاَ السَّلاَطِيْنُ وَالأُمَرَاءُ الْمُسَلَّطُونَ عَلَى الْعَيَّارِيْنَ وَالدَّعَارَةِ لَخَرَجُوا عَلَى أهْلِ الصَّلاَحِ فَاسْتَوْلَوا عَلَيْهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ) من قرأ (دِفَاعُ) فهو من قولهم: دَافَعَ مُدَافَعَةً وَدِفَاعاً؛ والدَّفْعُ: الصَّرْفُ. ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ ؛ ذو مَنٍّ عليهم يدفعُ المفسدينَ عنِ المصلحينَ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ ؛ أي القرآنُ بما فيه من الأخبار الماضية آياتُ الله بتَنْزيل جبريلَ عليه السلام بها عليك لبيان الحقِّ من الباطل، ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾ ؛ لأنك أخبرتَ بهذه الآيات مع أنكَ لم تشاهِدْها ولم تخالِطْ أهلَها. وقيل في معنى هذه الآياتِ: إماتةُ اللهِ الألوفَ دفعةً واحدة وإحياؤهم دفعةً واحدة وإعطاؤهُ الملك طالوتَ وهو من أهل الخمول الذي لا ينقادُ له الناس، ونصرُ أصحاب طالوت مع قلَّة عددهم وضَعْفِهم على جالوتَ وأصحابِهِ مع شوكتهم وكثرتِهم دلالةً على قدرتِه وعلى نبوَّة أنبيائه صلواتُ الله عليهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِيْنَ) لأنكَ قد أعْطِيْتَ من الآياتِ مثلَ ما أعطيَ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم وزيادةً.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذي نزَّلنا عليك خبرَهم في القرآن هم الرسلُ لم يكونوا في الفَضْلِ متساوينَ، ولكن (فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) في الدنيا والعُقبى. ثم فَسَّرَ فضيلةَ كلِّ واحد منهم فقال: (مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ) وهو مُوسى عليه السلام

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢ ص١١٦-١١٧؛ قال القرطبي: ((خرجه أبو بكر الخطيب في كتاب (السابق واللاحق) عن عبدالله بن مسعود)). وفي تلخيص الحبير: ج٢ ص١٠٤: كتاب صلاة الاستسقاء: الحديث (٩)؛ قال: ((خرجه أبو يعلى والبزار والبيهقي من حديث أبي هريرة، وفي إسناده إبراهيم بن خيثم بن عراك، وقد ضعفوه. وأخرجه أبو نعيم في المعرفة في ترجمة مسافع، والبيهقي وابن عدي)) وضعفوه.

كَلَّمَهُ اللهُ من غيرِ سفير، (وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ) فوقَ بعض (دَرَجَاتٍ)؛ أي اتَّخذ اللهُ إبراهيمَ خليلاً، وسخَّرَ لسليمانَ الريحَ والجنَّ والشياطين وعلَّمه منطقَ الطير. وقال مجاهدُ: (وأَرَادَ بِهَذِهِ الآيَةِ فَضِيلَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى جَمِيْعِ الأَنْبيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[١])[٢]. وقيل: هو إدريسُ كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ ؛ أي أعطيناهُ الدلالات على إثبات نبوَّتهِ من إبراءِ الأَكْمَهِ وَالأَبْرَصِ وإحياءِ الموتى والإنْبَاءِ بما غابَ عنه،(وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) أي قوَّيناهُ وأعنَّاهُ بجبريل الطاهرِ حين أرادوا قتلَهُ حتى رفعهُ الله إلى السماء[٤]. وقال الحسنُ: (الرُّوحُ جِبْرِيْلُ، وَالْقُدُسُ هُوَ اللهُ تَعَالَى؛ فَيَصِيْرُ تَقْدِيْرُ الآيَةِ: وَقَوَّيْنَاهُ بِرُوحِ اللهِ تَعَالَى). وعن ابن عباسٍ أنه قال:(الْقُدُسُ اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ الَّذِي كَانَ بِهِ عِيْسَى عليه السلام يُحْيِي الْمَوْتَى)[٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ ؛ أي لو شاءَ اللهُ لم يَقْتَتِلِ الذينَ مِن بعدِ الرسل مِن بعد ما وَضُحَتْ لَهم الحججُ والدلائل كما قالَ تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾[٦]. وقيل: معناهُ: ولو شاءَ اللهُ لأنزل آيةً تضطرُّهم إلى الإيْمان وتَمنعهم عن الكفر كما قال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[٧].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا) أي شاءَ اختلافَهم فاختلفوا. ويقال: لم يُلْجِئْهُمْ إلى الإيْمان؛ لأنَّ التكليفَ لا يُحسن مع الضرورةِ، والجزاءُ لا يُحسن إلا مع التَّلْجِئَةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) أي بالكتب والرسلِ.

---

(١) الانشراح / ٤.
(٢) ذكر الطبري معناه في جامع البيان: النص (٤٤٩١).
(٣) مريم / ٥٧.
(٤) ذكره الطبري في جامع البيان: تفسير الآية.
(٥) رواه الطبري في جامع البيان: النص (١٢٣٢): تفسير الآية ٨٧ من سورة البقرة.
(٦) الأنعام / ٣٥.
(٧) الشعراء / ٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾؛ أي ولو شاء الله لم يقتتلوا مع اختلافهم بأن يأمرَ المؤمنينَ بالكَفِّ عن القتال، وبأن يُلْجِئَهُمْ جميعاً إلى تَرْكِ القتال،(وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) مِن تقدير الاتِّفَاقِ والاختلافِ وغيرِ ذلك مِن مَّا تُوجِبُهُ الحكمةُ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾؛ حثٌّ علىالانفاقِ في الجهاد في سبيل اللهِ. وقيل: هو الأمرُ بالزكاةِ المفروضة. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ) يعني يوم القيامةِ (لاَ بَيْعٌ فِيهِ)أي ليس فيه فِدَاءٌ (وَلا خُلَّةٌ) أي ليسَ فيه خُلَّةٌ لغيرِ المؤمنينَ. وأما المؤمنونَ فتكون لَهم خُلَّةٌ كما قالَ تعالى: ﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا الْمُتَّقِينَ﴾[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا شَفَاعَةٌ) أي لغيرِ المؤمنين، وأما المؤمنونَ فيشفعُ بعضهم لبعضٍ ويشفعُ لهمُ الأنبياءُ والرسلُ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾؛ أي هُم الذين ظلموا أنفسَهم حتى لا خُلَّةَ لهم ولا شفاعة. وكان عطاءُ يقول: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَقُلْ: وَالظَّالِمُونَ هُمُ الْكَافِرُونَ؛ لأَنَّ كُلَّ كَافِرٍ ظَالِمٌ وَلَيْسَ كُلُّ ظَالِمٍ كَافِراً).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾؛ ذكر وحدانيةِ الله تعالى وصفتهِ؛ لِيُعْلِمَ أنَّ مَن كان بهذه الصفةِ لا يخفى عليه كُفْرُ مَن كَفَرَ ومعصيةُ من عصَى؛ فيجازي كُلَّ عابدٍ على مَا عَمِلَ. فأولُ هذه الآية نفيُ معبودِ الكفَّار وإثباتُ معبودِ المؤمنين؛ وإثباتُ الشيءِ مع نفي غيرهِ أبلغُ في الإثبات، كأنه قالَ: (اللهُ لا إلَهَ إلا هُوَ) دون غيرهِ، وهو المعبودُ لا معبودَ للخلقِ سواهُ.

ومعنى (الْحَيُّ الْقَيُّومُ) الدائمُ الذي لا يَموت موصوفٌ بالبقاءِ على الأبدِ، وبه حَيِّي كلَّ حيٍّ. وأما القيومُ فهو القائمُ بتدبيرِ الخَلْقِ في شأنِهم وأرزاقِهم وأعمالهم وآجالِهم ومجازاتِهم على عملهم، وقيل: معنى القيومُ العالِمُ بالأمور من قولهم: فلانٌ

---

(١) الزخرف / ٦٧.

يقومُ بهذا الكتاب؛ أي يُحسنه ويعلمُ ما فيه. وقيل: معنى (الْحَيُّ الْقَيُّومُ) الدائمُ الذي لا يزولُ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ ﴾ ؛ أي لا يأخذه نُعَاسٌ ولا نوم. والنُّعَاسُ: اسمٌ لأوَّلِ ما يدخلُ في الرأسِ من النومِ قبل وصولِه إلى القلب. والنومُ هو الذي يصلُ إلى القلب فيُستثقَلُ. ومعنى الآية: لا يغفلُ عن تدبيرِ الخلق، فإن قيل: ما معنى نفي النومِ بعد نفي النعاس؟ قلنا: مثلُ هذا اللفظِ إنَّما يكونُ لنفي قليلِ النوم وكثيرِه، ونظيرهُ قول العرب: فلانٌ لا يَملكُ قليلاً ولا كثيراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ ﴾ ؛ أي هو مالك السموات والأرض وما فيهما، كلهم عبيده وإماؤه وتحت قبضته وقدرته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ ﴾ ؛ هذا جواب عن قول المشركين في أصنامهم: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾[1] و﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللهِ زُلْفَى﴾[2]؛ أي لا يشفع أحدٌ لأحد عند اللهِ إلا بأمره ورضائه، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض بالدعاء، وكما يشفع الأنبياء للمؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ ﴾ ؛ أي (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أيْدِيهِمْ) من أمرِ الآخرةِ، (وَمَا خَلْفَهُمْ) مِن أمر الدنيا. قال مجاهدُ: على العكسِ من هذا[3]. وقيل: يعلمُ الغيبَ الذي تَقَدَّمَهُمْ والذي يكونُ بعدَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ ؛ أي لا يعلمونَ الغيبَ لا مِمَّا تقدَّمَهم ولا مِمَّا يكون بعدَهم إلا بما شاءَ اللهُ أن يعلموه، وهو ما أنْبَأَ به الأنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ ﴾ ؛ قال ابن عباس: (كُرْسِيُّهُ: عِلْمُهُ)[4]، فَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ. وقيل: وَسِعَتْ

---

(١) يونس / ١٨. (٢) الزمر / ٣.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٥١١).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٥١٥).

قدرتهُ التي يُمسك بها السموات والأرضَ. وقال الحسنُ: (الْكُرْسِيُّ: هُوَ الْعَرْشُ)، ويقال: هو سريرٌ دونَ العرشِ، ويقال: هو مكانٌ خَلَقَ اللهُ فيه السمواتِ والأرضَ. وقال عطاءُ والكلبي ومقاتلُ: (السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ تَحْتَ الْكُرْسِيِّ فِي الصِّغَرِ كَحَلَقَةٍ فِي فَلاَةٍ).

وقال الكلبيُّ: (يَحْمِلُ الْعَرْشَ أرْبَعَةُ أمْلاَكٍ، لِكُلِّ مَلَكٍ أرْبَعَةُ أوْجُهٍ؛ وَجْهُ إنْسَانٍ، وَوَجْهُ ثَوْرٍ، وَوَجْهُ أسَدٍ، وَوَجْهُ نَسْرٍ. أقدامُهم في الصخرةِ التي تحتَ الأرضين بمسيرة خمسمائةِ عامٍ، وبين السماءِ السابعةِ وبين الكرسيِّ مسيرةُ خمسمائةِ عامٍ، والعرشُ فوقَ الماءِ).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ ؛ أي لا يُثقِلُهُ ولا يَشُقُّ عليه حِفْظُ السموات والأرض، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ ؛ أي الْعَلِيُّ عن الأشباهِ والأمثالِ وصفات الْمُحْدَثِيْنَ، عظيمُ الشأن والسلطان والبُرهان.

روى محمدُ بن الحنفية قال: (لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْكُرْسِيِّ خَرَّ كُلُّ صَنَمٍ فِي دَار الدُّنْيَا؛ وَخَرَّ كُلُّ مَلِكٍ فِي الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِهِ؛ وَسَقَطَتِ التِّيْجَانُ عَنْ رُؤُوسِهِمْ، وَهَرَبَتِ الشَّيَاطِيْنُ وَضَرَبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا إلَى إبْلِيْسَ فَأَخْبَرُوهُ بذَلِكَ، فَأَمَرَهُمْ أنْ يَبْحَثُوا؛ فَجَاءُوا إلَى الْمَدِيْنَةِ فَبَلَغَهُمْ أنَّ آيَةَ الْكُرْسِيِّ نَزَلَتْ).

وعن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ؛ أعْطَاهُ اللهُ قُلُوبَ الشَّاكِرِيْنَ وَأعْمَالَ الصِّدِّيْقِيْنَ وَثَوَابَ النَّبِيِّيْنَ، وَبَسَطَ عَلَى يَمِيْنِهِ بالرَّحْمَةِ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إلاَّ أنْ يَمُوتَ فَيَدْخُلُهَا، وَمَنْ قَرَأهَا حِيْنَ يَأْخُذُ مَضْجِعَهُ أمَّنَهُ اللهُ وَجَارَهُ وَجَارَ جَارِهِ وَالدُّوَيْرَاتِ حَوْلَهُ][1].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ ؛ الآية، اختلفَ المفسرون في هذه الآية على ثلاثةِ أقوالٍ؛ قال السديُّ والضحَّاك: (إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ الأَمْرِ بقِتَالِ

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٩ ص٣١: الحديث (٨٠٦٤) عن أبي أمامة. والبيهقي في شعب الإيمان: الحديث (٢٣٩٥) عن علي ﷺ وإسناده ضعيف. وعن أنس في الحديث (٢٣٩٦) وإسناده ضعيف.

الْمُشْرِكِيْنَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ﴾[1]، وَكَانَ الْقِتَالُ غَيْرَ مُبَاحٍ فِي أوَّل الإسْلاَمِ إلَى أنْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ الصَّحِيْحَةُ بصِحَّةِ نُبُوَّةِ رَسُول اللهِ ﷺ، فَلَمَّا عَانَدُوا بَعْدَ الْبَيَان أمَرَ اللهُ الْمُسْلِمِيْنَ بقِتَالِهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾[2] وَغَيْرِ ذلِكَ مِنْ آيَاتِ الْقِتَال).

وقال الحسنُ وقتادةُ:(إنَّ هَذِهِ الآيَةَ خَاصَّةٌ فِي أهْلِ الْكِتَاب أنْ لاَ يُكْرَهُوا عَلَى الإسْلاَمِ بَعْدَ أنْ يُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ، وَأمَّا مُشْرِكُو الْعَرَب فَلاَ يُقَرُّونَ بالْجِزْيَةِ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهُمْ إلاَّ الإسْلاَمُ أو السَّيْفُ).

والقولُ الثالث: أن معناهُ: مَن دخلَ في الإسلام بمحاربةِ المسلمين ثم رضي بعد الحرب فليس بمُكْرَهٍ؛ أي لا يقولوا لهم: إنَّما أسلمتم كَرْهاً؛ فلا إسلامَ لكم.

ومعنى الآية: (لاَ إكْرَاهَ) في الإسلام؛ أي لا تُكرهوا على الإسلامِ، ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أي قد وَضَحَ الطريقُ المستقيم من الطريقِ الذي ليس بمستقيم بما أعطاهُ الله أنبياءَه من المعجزاتِ، فلا تكرِهوا على(الدِّيْنِ). ودخولُ الألف واللام فِي (الدِّين) لتعريفِ المعهود.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ ؛ أي فمن يكفُر بما أمرَ الله أن يكفرَ بهِ، ويصدِّقُ بالله وبما أمرَ به، فقد عقدَ لنفسهِ من الدين عقداً وثيقاً لا تحلُّه حجةٌ من الحجَجِ لا انقطاعَ لها بالشبهةِ والشكوكِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ ؛ أي سميعٌ لِما يعقدهُ الإنسان في أمرِ الدين، عالِمٌ بنيَّته في ذلك.

والغَيُّ: نقيضُ الرُّشْدِ. والطاغوتُ: مأخوذ من الطُّغيان، والطاغوتُ اسمٌ للأصنامِ والشياطين وكلُّ ما يُعبد مِن دون اللهِ تعالى.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ؛ معناه: اللهُ وليُّ المؤمنين في نصرِهم وإظهارهم وهدايتِهم في إقامةِ الحجة

(١) فصلت / ٣٤.

(٢) التوبة / ٥.

في دينهم، ومتولّي خزانتهم على حُسن عملهم، يُخرجهم من ظُلُمَـاتِ الكفـرِ إلى نُور الهدى.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾؛ معناهُ: والذين جَحَدوا توحيدَ الله أولياؤُهم الذينَ يتولونَهم الطاغوتُ.

ومعنى: (يُخرِجُونَهُمْ مِنَ النُّور إِلَى الظُّلُمَاتِ)، ولم يكن لهم نورٌ؛ قيل: أرادَ بـه اليهودَ والنصارى الذين كانوا على دينِ عيسى عليه السلام؛ خَرجوا من التوحيدِ الذي كـانوا فيه إلى الكفرِ بمُحَمَّدٍ ﷺ.

وقوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ ﴾؛ أي ألَمْ تعلم يا محمدُ بالذي جادلَ إبراهيمَ في ربه؛ أي هل رأيتَ كالذي (حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبهِ أنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ) أي بـأن أعطـاهُ الله الملـكَ وأعجـب بملكـه وسلطانه وهو نَمْرُودُ بْنُ كَنْعَـانَ أوَّل مـن تجـبَّر في الأرضِ بادعـاء الرُّبُوبيَّـةِ فخـاصمَ إبراهيمَ في توحيدِهِ. وقيل: إنَّ الهاءَ في قوله (آتَاهُ) راجعةٌ إلى إبراهيمَ عليه السلام، و(الْمُلْكَ) هو النبوَّة ووجوبُ طاعتهِ على الناس[1].

---

(١) الضمير في (آتَاهُ) فيه وجهان: أظهرهما: أن يعود علـى (الَّـذِي) وهـو قـول جمـهور المفسـرين. وأجاز المهدوي أن يعود على (إِبْرَاهِيمَ)؛ أي ملكُ النبوة.

قال ابن عطية: ((هذا تحامل من التأويل)). وقال أبو حيان: ((هذا قول المعتزلـة، قـالوا: لأن الله تعالى قال: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمُونَ﴾ والملكُ عهدٌ، ولقولـه تبـارك وتعـالى: ﴿فَقَـدْ آتَيْنَـا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيمـاً﴾ [النسـاء / ٥٤]. وعـود الضمـير إلى أقـرب مذكور واجب، وأقرب مذكور إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وأجيب عن الأول: بأن الملك حصل لآل إبراهيم وليس فيها دلالة علـى حصولـه لإبراهيـم عليه الصلاة والسلام. وعن الثاني: بأن الذي حاجَّ إبراهيم كان هـو الملـك، فعـود الضمـير إليـه أولى)).

ينظر: اللباب في علوم الكتـاب: ج ٤ ص٣٣٨، ابـن عـادل الدمشـقي الحنبلـي، دار الكتـب العلمية، بيروت – لبنان، ط١ (١٩٩٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ ؛ وذلك أن نَمْرُودُ قال لإبراهيم: مَنْ رَبُّكَ؟ قال (إِبْرَاهِيمُ رَبِي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) عند انقضاءِ الأجل. فـ﴿ قَالَ ﴾ ؛ نَمْرُودُ: ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ قالَ إبراهيمُ: ائتني ببيانِ ذلك؟ فأتَى برجلين من سجنهِ وجبَ عليهما القتلُ؛ فقتلَ أحدهما وتركَ الآخر. فقال: هذا قد أحييته، وهذا قد أمتُّه[1]. ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ ؛ أي تحيَّر وانقطعَ بما ظهرَ عليه من الحجَّة، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ ؛ أي لا يرشِدُ المشركينَ إلى دينه وحجَّته.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يَثْبُتْ إبراهيمُ على الحجَّة الأولى؛ والانتقالُ من الحجة إلى حجَّةٍ أخرى في المناظرةِ غيرُ محمودٍ؟ قيل: عنهُ أجوبةٌ:

أحدُها: أن إبراهيم كان داعياً ولم يكن مُناظراً، فمى كان يراهُ أقربَ إلى الهدايـة أخذَ به.

والثاني: أنه روي أنه قالَ لنمرود: إنكَ أمَتَّ الحيَّ ولم تُحْيي الميِّـتَ، والانتقالُ بعد الإلزامِ محمودٌ.

والثالث: أن نمرودَ كان عالماً أن ما ذكرهُ ليس بمعارضةٍ وكان مَن حوله من أصحابهِ يوقنون بكذبهِ في قوله:(أنَا أحْيي وَأمِيتُ) لكن أراد التمويهَ على أغمَار[2] قومه كما قال فرعونُ للسحرة حين آمنوا: أن هذا المكرَ مكرتُموه في المدينةِ، كذلك فعلَ نمرودُ بقوله: (أنَا أحْيي وَأمِيتُ). فتركَ إبراهيم إطالةَ الكلامِ، وعَدَلَ إلى حجَّةٍ مسكتةٍ لا يُمكنه التمويهُ فيها.

فإن قيل: فهلاَّ قال نمرود لإبراهيمَ: إن مجيءَ الشمس هو العادةُ؟ فقُلْ لربك حتى يأتي بها من المغرب! قيل: عَلِمَ لِمَا رأى من المعجزات التي ظهرت أنهُ لو سأله

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٥٨٢) عن قتادة، والنص (٤٥٨٣) عن مجاهد، والنص (٤٥٨٤) عن زيد بن أسلم.

(٢) في لسان العرب: (غمر)؛ قال: ((الْمُغَمَّرُ من الرجالِ: إذا استجهلَهُ الناسُ)).

ذلك لأتى بهِ، فكان يزدادُ فضيحة عند الناسِ. وقيل: خَذَلَهُ عن هذا القولِ، فلم يُوَفَّق للسؤال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) البُهْتُ في اللغة: هي مُوَاجَهَةُ الرجلِ بالكذب عليه؛ يقال: بَهَتَ يَبْهَتُ بُهتاناً، وبَاهَتَ يُبَاهِتُ مُبَاهَتَةً. وفي الحديثِ: [إنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهْتٌ][(1)] أي كَذَبَةٌ. والبهتُ الحيرة عند انقطاعِ الحجة أيضاً. وفيه لغاتٌ: بَهَتَ وبَهِتَ وبُهِتَ، وأجودها بُهِتَ بضمِّ الباء.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾؛ عَطَفَ هذه الآية على معنى الكلامِ الأول لا على اللفظِ، كأنه قال: أرأيتَ كالذي (حَاجَّ إبْرَاهِيمَ فِي رَبِهِ) (أوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ).

قال ابنُ عباس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عُزَيْرِ بْنِ شَرْيَحَيَّا، وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ بَنِي إسْرَائِيلَ، سَبَاهُ بَخْتَنَصَّرَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إلَى أرْضِ بَابلَ حِيْنَ سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَخَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَخَرَجَ عُزَيْرُ فِي أرْضِ بَابلَ ذاتَ يَوْمٍ عَلَى حِمَارٍ، فَمَرَّ بدَيْرِ هِرَقْلَ عَلَى شَاطِئِ دِجْلَةَ، فَطَافَ بالْقَرْيَةِ فَلَمْ يَرَ بهَا سَاكِناً وَعَامَّةُ شَجَرِهَا حَامِلٌ، فَجَعَلَ يَتَعَجَّبُ مِنْ خَرَابِ الْقَرْيَةِ وَمَوْتِ أهْلِهَا وَكَثْرَةِ حَمْلِهَا وَهِيَ سَاقِطَةٌ عَلَى سُقُوفِهَا. وَذَلِكَ أنَّ السَّقْفَ يَقَعُ قَبْلَ الْحِيْطَانِ، ثُمَّ تَقَعُ الْحِيْطَانُ عَلَيْهِ. فَأَخَذَ شَيْئاً مِنَ التِّيْنِ وَالْعِنَب، وَعَصَرَ الْعِنَبَ فَشَرِبَ مِنْهُ، ثُمَّ جَعَلَ فَضْلَ التِّيْنِ فِي سَلَّةٍ وَفَضْلَ الْعِنَب فِي الأُخْرَى وَفَضْلَ الْعَصِيْرِ فِي الزِّقِّ، ثُمَّ نَظَرَ إلَى الْقَرْيَةِ فَـ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾؛ أيْ كَيْفَ يُحْيِي اللهُ هَذِهِ الْقَرْيَةَ بَعْدَ خَرَابهَا وَمَوْتِ أهْلِهَا!؟

لَمْ يَكُنْ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُ إنْكَاراً لِلْبَعْثِ، لَكِنْ أحَبَّ أنْ يَرَى كَيْفَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى فَيَزْدَادُ بَصِيْرَةً فِي إيْمَانِهِ، فَنَامَ فِي ذلِكَ الدَّيْرِ؛ ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ ﴾ في منامهِ؛ ﴿ مِاْئَةَ عَامٍ ﴾؛ وَأعْمَى عَنْهُ السِّبَاعَ وَالطَّيْرَ، ثُمَّ أحْيَاهُ فَنُودِيَ: يَا عُزَيْرُ: (كَمْ لَبثْتَ)؟ وَكَانَ أمِيْتَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، ﴿ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾؛ بَعْدَ مِائَةِ سَنَةٍ فِي آخِرِ النَّهَارِ،

---

(١) شطر من حديث طويل؛ أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب أحاديث الأنبياء: الحديث (٣٣٢٩) عن أنس ﷺ.

فظَنَّ أنَّ مِقْدَارَ لُبْثِهِ يَوْمٌ، ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ ؟ فَـ ﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا ﴾ ، فَلَمَّا نظَرَ إلَـى الشَّـمْسِ قَـدْ بَقِـيَ مِنْـهَا شَـيْءٌ، فقَـالَ: ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ ؛ فَنُـودِيَ؟. ﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ ﴾ ؛ مَيْتاً، ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ ﴾ ، مِنَ التِّيْـنِ وَالْعِنَب، ﴿ وَشَرَابِكَ ﴾ ، الْعَصِيْر، ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ ؛ أيْ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهَا بَعْـدَ مِائَةِ عَامٍ وَلَمْ تُغَيِّرْهَا السُّنُونُ؛ فَنَظَرَ فَإذَا بالْعِنَب وَالتِّيْنِ كَمَا شَاهَدَهُ وَبالْعَصِيْرِ طَرِيّاً.

ثُمَّ قِيْلَ لَهُ: ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ ؛ فنَظَرَ فَإذا هُوَ عِظَامٌ بِيْـضٌ تلـوحُ قَـدْ تَفرَّقَتْ أوْصَالُهُ، فَسَمِعَ صَوْتاً: (أيَّتُهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ إنِّي جَاعِلٌ فِيْكُنَّ رُوْحاً فَـاجْتَمِعْنَ) فَارْتَهَشَتِ الْعِظَامُ وَسَعَى بَعْضُهَا إلَى بَعْضٍ، قَالَ: فَرَأيْتُ الصُّلْبَ يَسْعَى كُلُّ فَقَرَةٍ مِنْهَا إلَى صَاحِبَتِهَا، ثُمَّ رَأيْتُ الْورْكَيْـنِ يَسْـعَيَانِ إلَـى مَكَانِـهِمَا؛ وَالسَّـاقَيْنِ إلَـى مَكَانِـهِمَا؛ وَالعِطْفَينِ[١] إلَى مَكَانِهِمَا، ثُمَّ رَأيْتُ كُلَّ الأَضْلاَعِ يَسْعَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إلَـى فَقَرَتِـهِ، ثُمَّ رَأيْتُ الْكَعْبَيْنِ سَعَيَا إلَى مَكَانِهِمَا؛ وَالذِّرَاعَيْنِ إلَى مَكَانِهِمَا، ثُمَّ رَأيْتُ الْعُنُقَ يَسْـعَى كُلُّ فَقَرَةٍ مِنْهُ إلَى صَاحِبَتِهَا، ثُمَّ جَاءَ الرَّأسُ إلَى مَكَانِهِ، ثُمَّ رَأيْـتُ الْعَصَـبَ وَالْعُـرُوقَ وَاللَّحْمَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ بُسِطَ عَلَيْهِ الْجِلْدُ، ثُمَّ ذُرِيَ عَلَيْهِ الشَّعْرُ، ثُمَّ نُفِـخَ فِيْـهِ الـرُّوحُ، فَإذَا هُوَ قَائِمٌ يَنْهَقُ. فَخَرَّ عُزَيْرٌ سَاجِداً للهِ تَعَالَى؛ وَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: (أعْلَـمُ أنَّ اللهَ عَلَـى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). قَالَ ذَلِكَ حِيْنَ تَبَيَّنَ لَهُ مِنْ كَمَالِ الْقُدْرَةِ الْبَلاَءُ فِي حِمَارِهِ؛ وَالْمَـوْتُ فِي نَفْسِهِ؛ وَالْبَقَاءُ فِي الْعِنَبِ وَالْعَصِيْرِ اللَّذَيْنِ هُمَا مِنْ أسْرَعِ الأَشْيَاءِ فَسَـاداً أوْ تَغَـيُّراً، ثُمَّ مُشَاهَدَةُ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ[٢].

قال ابنُ عباس: (وَبُعِثَ وَهُوَ شَابٌّ ابْنُ أرْبَعِيْنَ سَنَةً عَلَـى السِّـنِّ الَّـذِي أُمِيْـتَ عَلَيْهَا، وَكَانَ ابْنُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ابْنُ عِشْرِيْنَ سَنَةً، فَصَارَ لاِبْنِهِ مِائَـةٌ وَعُشْـرُونَ سَـنَةً، وَلِعُزَيْر أرْبَعِيْنَ سَنَةً عَلَى السِّنِّ الَّتِي أُمِيْتَ عَلَيْهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ ؛ ثُمَّ إنَّهُ رَجَعَ إلَى بَنِي إسْرَائِيْلَ وَهُوَ يَقْرَأُ التَّوْرَاةَ كُلَّهَا عَـنْ ظَـهْرِ قَلْبِهِ، فَأمْلاَهَا عَلَيْهِمْ لَمْ يَخْرِمْ مِنْهَا حَرْفاً وَاحِداً، وَكَـانَتِ التَّـوْرَاةُ قَـدْ ذهَبَـتْ عَنْـهُمْ،

---

(١) العِطْفُ: الْمَنْكِبُ، وعِطفَا الدابَّة والرَّجُلِ: جانبَاهُ من لَدُنْ رأسهِ إلى وركه.

(٢) أخرج معناه الطبري في تفسير الآية بأسانيد عن ابن عباس ووهب بن منبه.

فَجَاءَهمْ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيْلَ فَانْتَسَبَ لَهُمْ فَعَرَفُوهُ، قَالَ: أخْبَرَنِي جَدِّي أنَّهُ قَالَ: دَفَنْتُ التَّوْرَاةَ يَوْمَ سُبِيْنَا فِي خَابِئَةِ كَرْمِي، فَأَرَوْهُ كَرْمَ جَدِّهِ فَأَخْرَجَ التَّوْرَاةَ فَعَارَضُوهَا بمَا أمْلاَهَا عُزَيْرٌ فَمَا اخْتَلاَفَا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ، فَتَعَجَّبُوا مِنْ كَثْرَةِ عِلْمِهِ وَحَدَاثَةِ سِنِّهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ).

وقال الحسن وقتادة والربيع: (إنَّ الْقَرْيَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذِهِ الآيَةِ هِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ بَعْدَمَا خَرَّبَهُ بَخْتَنَصَّرَ)[1]. وكان وهبُ بن مُنَبهٍ يقولُ: (كَانَ الْمَارُّ بهَذِهِ الْقَرْيَةِ أرمْيَا النَّبيُّ ﷺ)[2].

وقيل: معنى (خَاوِيَةٌ) أي خاليةٌ لا أنِيْسَ فيها، يقال: خَوَتِ الدارُ إذا خَلَتْ، وخَوِيَ البطنُ إذا جاعَ. وسُمي السقفُ عرشاً لارتفاعهِ عن أرضه، ويسمى السريرُ عرشاً لارتفاعهِ عن الأرض.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ ، (نُنشِزُهَا) من قرأ بالراء المهملة فمعناه يحيها من النَّشْرِ؛ يقال: أنشرَهُ اللهُ إذا أحياهُ، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إذا شَاءَ أنْشَرَهُ﴾[3]. ومن قرأ (نُنشِزُهَا) بالزاء المعجمة فمعناه يرفعُها ويُعلي بعضها على بعض من النَّشْزِ وهو المكانُ المرتفع، ومنه نُشُوزُ المرأةِ على زوجها: تَرَفُّعُهَا عنْ طاعته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾ ؛ من قرأ (أعْلَمُ) بقطع الألف؛ أي قال عزير: علمْتُ مشاهدةً ما كنت أعلمُهُ غيباً. ومن قرأ (اعْلَمْ) بالوصل فمعناه قال لنفسه: (اعْلَمْ أنَّ اللهَ) ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ .

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ ؛ تقديرُ الآية: ألَمْ ترَ إذ قالَ إبراهيمُ؛ ويقال: وَاذْكُرْ إذ قالَ إبراهيمُ. قال ابنُ عباس: ((سَبَبُ هَذِهِ الْقِصَّةِ: أنَّ إبْرَاهِيْمَ ﷺ مَرَّ بجِيْفَةِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٦١٠) عن الربيع، وعن عكرمة في النص (٤٦٠٩).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٦٠٩ و٤٦٠٦).
(٣) عبس / ٢٢.

عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، تَنْقَضُّ عَلَيْهَا طُيُورُ السَّمَاءِ فَتَأْخُذُ مِنْهَا بِأَفْوَاهِـهَا فَتَأْكُلُـهُ، وَيَسْـقُطُ مِنْ أفْوَاهِهَا فِي الْبَحْرِ فَيَأْكُلُ مِنْهُ الْحِيْتَانُ، وَتَجِيْءُ السِّبَاعُ فَتَأْخُذُ مِنْـهُ عُضْـواً. فَوَقَـفَ مُتَعَجِّباً!! وَقَالَ: (رَب أرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى. قَالَ أوَلَـمْ تُؤْمِـنْ) أيْ أوَلَـمْ تُصَـدِّقْ بِأنِّي أحْيِي الْمَوْتَى؟ (قَالَ بَلَى) عَرَفْتُ، وَلَكِنْ أحْبَبْتُ أنْ أعْلَمَ كَيْفَ تُحْيِي هَذِهِ النَّفْسَ الَّتِي أرَى بَعْضَهَا فِي بُطُونِ السِّبَاعِ؛ وَبَعْضَهَا فِي بُطُونِ الْحِيْتَانِ؛ وَبَعْضَهَا فِي حَوَاصِـلِ الطَّيْرِ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)). وَقِيلَ: معنى(وَلَكِنْ لِيَطْمَئِـنَّ قَلْـبِي) أي لِيَسْكُنَ قلبي أنكَ الذي أعطيتني ما سألتُكَ. وقيل: إنك اتَّخذْتَنِي خليلاً.

﴿ قَالَ ﴾ ؛ اللهُ تعـالى: ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ ؛ وذلك أنَّ إبراهيم عليه السلام لمـا مرَّ بالجيفةِ وقد توزَّعَتها الطيورُ والسباع والحيتانُ، تعجَّبَ وقـال: يـا رب قـد علمـتُ بأنكَ تجمعُها من بطون السباع وحواصلِ الطير وبطونِ الحيتان، فـأرني كيـفَ تُحْيِـيْهَا لأُعَاينَ ذلك فأزدادُ يقيناً؟ قال اللهُ تعالى لهُ: (أوَلَمْ تُؤْمِـنْ. قَـالَ بَلَـى) يـا رب آمنـتُ وليس الخبرُ كالمعاينةِ والمشاهدة.

وقال ابنُ زيد: (مَرَّ إبْرَاهِيْمُ عليه السلام بِحُوتٍ مَيْتٍ نِصْفُهُ فِي الْبَحْرِ وَنِصْفُهُ فِي الْـبَرِّ، فَمَا كَانَ فِي الْبَحْرِ فَدَوَابُّ الْبَحْرِ تَأْكُلُهُ، وَمَا كَانَ فِي الْـبَرِّ فَـدَوَابُّ الْـبَرِّ تَأْكُلُـهُ، فَقَـالَ إبْلِيْسُ لَعْنَةُ اللهِ عَلَيْهِ: يَا إبْرَاهِيْمُ، مَتَى يَجْمَعُ اللهُ هَذَا مِنْ بُطُونِ هَؤُلاَءِ؟! فَقَـالَ: (رَب أرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى. قَالَ أوَلَمْ تُؤْمِنْ. قَـالَ بَلَـى وَلَكِـنْ لِيَطْمَئِـنَّ قَلْـبِي) بِذَهَـابِ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ وَيَصِيْرُ الشَّيْطَانُ خَاسِئاً صَاغِراً).

وروي أنَّ نمرودَ قال لإبراهيم: أنتَ تزعمُ أن ربكَ يحيي الموتـى وتدعونـي إلى عبادتهِ، فقُل له يُحيي الموتى إنْ كان قادراً، وإلاَّ أقتلُـكَ. فقـالَ إبراهيـمُ: (رَب أرِنِـي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى. قَالَ أوَلَمْ تُؤْمِنْ) بأني أحييهم، فـ (قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْـبِي) بقوةِ حُجَّتِي ونجاتي من القتلِ، فإنَّ عدوَّ اللهِ توعَّدني بالقتلِ إن لَمْ تُحيي لهُ ميتاً.

وقال ابنُ عباس وابن جبيرٍ والسديُّ: (لَمَّا اتَّخَذَ اللهُ إبْرَاهِيْمَ خَلِيْلاً، سَألَ مَلَكُ الْمَوْتِ رَبَّهُ أنْ يَأْذنَ لَهُ فَيُبَشِّرَ إبْرَاهِيْمَ بذَلِكَ، فَأذِنَ لَهُ، فَـأتَى إلَـى إبْرَاهِيْـمَ وَقَـالَ: يَـا إبْرَاهِيْمُ، جِئْتُ أبَشِّرُكَ بِأنَّ اللهَ اتَّخَذَكَ خَلِيْـلاً، فَحَمَـدَ اللهَ تَعَـالَى؛ وَقَـالَ: مَـا عَلاَمَـةُ

ذلِكَ؟ قَالَ: أنْ يُجِيْبَ اللهُ دُعَاءَكَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بسُؤَالِكَ. ثُمَّ انْطَلَقَ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ إبْرَاهِيْمُ: (رَب أرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى. قَالَ أوَلَمْ تُؤْمِنْ. قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) أيْ لِيُعْلَمَ أنَّكَ تُجِيْبُنِي إذَا دَعَوْتُكَ، وَتُعْطِيَنِي إذَا سَألْتُكَ وَإنَّكَ اتَّخَذْتَنِي خَلِيْلاً).

روى أبو هريرةَ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [يَرْحَمُ اللهُ إبْرَاهِيْمَ عليه السلام نَحْنُ أحَقُّ بالشَّكِّ مِنْهُ][(١)] يعني إنَّما شكَّ إبراهيمُ أيُجيبه ربهُ إلى ما سألَ أم لاَ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَخُذْ أرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ) مختلفةً أجناسُها وطِباعُها ليكونَ أبلغ في القدرةِ، وخصَّ الطيرَ من سائرِ الحيوان لخاصيَّة الطيران. واختلفوا في تلكَ الأربعةِ من الطيور؛ فقال ابنُ عباس: (أخَذَ طَاوُوساً وَنَسْراً وَغُرَاباً وَدِيْكاً). وقال مجاهدُ وابن جُريج: (أخَذَ غُرَاباً وَدِيْكاً وَطَاوُوساً وَحَمَامَةً). وعن أبي هريرةَ: (أنَّهُ أخَذَ الطَّاوُوسَ وَالدِّيْكَ وَالْغِرْنُوقَ وَالْحَمَامَةَ). وقال عطاءُ: (أخَذَ قَطَاةً خُضْراً وَغُرَاباً أسْوَداً وَحَمَامَةً بَيْضَاءَ وَدِيْكاً أحْمَرَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى:(فَصُرْهُنَّ إلَيْكَ) قرأ عليٌّ رضي الله عنه وأبو الأسودِ والحسن وعكرمةُ والأعرج وشيبةُ ونافعُ وابنُ كثير وابنُ عامر وعاصمُ والكسائيُّ وأبو عمرٍو ويعقوبُ وأيوبُ: (فَصُرْهُنَّ) بضمِّ الصاد، معناهُ: أمِلْهُنَّ إليكَ. يقال: صِرْتُ الشيءَ أصُورُهُ؛ أي أمَلْتُهُ. ويقال: رَجُلٌ أصْوَرٌ إذا كان مَائِلَ العُنُق. ويقال: إني إليكم لأَصْوَرُ؛ أي لَمَائِلٌ مشتاقٌ، وامرأة صَوْرَاءُ أي مشتاقةٌ مائلةٌ. قال الشاعرُ[(٢)]:

اللهُ يَعْلَمُ أنَّا فِي تَلَفُّتِنَا ... يَوْمَ الْفِرَاقِ إلَى جِيْرَانِنَا صُوَرُ

وقال عطاءُ والْمَوْرَجُ وعطيةُ: (مَعْنَى (فَصُرْهُنَّ) أي اجْمَعْهُنَّ وَاضْمِمْهُنَّ إلَيْكَ). يقال: صَارَ يَصُورُ صَوْراً إذا جُمِعَ. قال أبو عبيدٍ وابنُ الأنباري: (مَعْنَى (فَصُرْهُنَّ) أيْ قَطِّعْهُنَّ وَمَزِّقْهُنَّ، يُقَالُ: صَارَ يَصِيْرُ صَيْراً إذا قُطِّعَ؛ وَانْصَارَ الشَّيْءُ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الأنبياء: باب قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ونبئهم﴾: الحديث (٣٣٧٢)، وكتاب التفسير: الحديث (٥٤٣٧).

(٢) البيت في لسان العرب: (صور): ج ٧ ص٤٣٩، وهو من شواهد النحويين، قائله أبو إسحق، إبراهيم بن هرمة، عاش الفترتين الأموية والعباسية، (٨٠-١٧٦) من الهجرة. وهو عند الطبري والقرطبي: (تلفتنا) بدل (تقلبنا)، وعند الطبري وفي اللسان: (إلى أحبابنا) بدل (إلى جيراننا).

يَنْصَارُ انْصِيَاراً إذا انْقَطَعَ). وأنشدَ بعضُهم بيتاً في اللُّغْزِ:

وَغُـــلاَمٌ رَأَيْتُـــهُ صَـــارَ كَلْبـــاً ... ثُـــمَّ فِـــي سَـــاعَتَيْنِ صَـــارَ غَـــزَالاَ

أي قَطَعَ.

وقرأ علقمةُ وسعيد بنُ جبيرٍ وقتادةُ ويحيى بن وثّاب والأعمشُ وخلفُ: (فَصِرْهُنَّ) بكسرِ الصَّاد، معناهُ قَطِّعْهُنَّ. قال أبو العباسِ السرَّاجُ: (هُمَا لُغَتَانِ لِلْعَرَبِ). وعن ابن عباسٍ روايتان؛ إحدَاهما: (فَصَرِّهِنَّ) مفتوحة الصاد مشدَّدة الراءِ مكسورة من التَّصْرِيَةِ وهي الجمعُ ومنه الْمُصَرَّاةُ. والأُخرى: (فَصُرَّهُنَّ) بضم الصاد وفتح الراءِ والتشديدِ من الصَّرِّ وهي في معنى الجمعِ.

فمَن تأوَّلَهُ على القطعِ والتمزيق ففيه تقديمٌ وتأخير، تقديرُهُ: فخُذْ أربعةً من الطيرِ إليكَ، فَصَرِّهِنَّ. ومن تأوَّلَهُ على الضمِّ والإمالة؛ ففيه إضمارٌ معناه: فَصُرَّهُنَّ إليكَ ثم قطِّعهن، فحذفهُ واكتفى بقولِهِ: (ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا) لأنه يَدُلُّ عليه، وهذا كما قالَ: خُذْ هذا الثوبَ واجعل منه على كلِّ رُمْحٍ عَلَماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا) لفظهُ عامٌّ ومعناهُ خاصٌّ؛ لأنَّ (أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ) لا تبلغُ الجبالَ كلَّها، ولا كانَ إبراهيمُ يَصِلُ إلى ذلك، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] وقولهِ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2]. وقولهِ: (جُزْءًا) قُرِئَ برفعِ الزاء مثقل بالهمزةِ مخفَّفاً وهي لغاتٌ.

وقالَ المفسرون: أمرَ اللهُ إبراهيمَ أن يذبحَ تلك الطيور وينتفَ ريشها ويقطِّعها ويفرِّق أجزاءَها ويخلطَ ريشها ودماءَها ولحومها بعضُها ببعض، ففعلَ إبراهيمُ ذلك، ثم أمر أن يجعلَ أجزاءَها على الجبال. واختلفوا في عددِ الأجزاء والجبال، فقال ابنُ عباس وقتادةُ والربيع: (أُمِرَ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ طَائِرٍ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ ثُمَّ يَعْمَدَ إِلَى أَرْبَعَةِ أَجْبُلٍ، فَيَجْعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ رُبُعاً مِنْ كُلِّ طائرٍ، ثُمَّ يَدْعُوهُنَّ: تَعَالَيْنَ بإذن اللهِ). وهذا مثلٌ ضربهُ الله لإبراهيم وأَرَاهُ إيَّاه، يقول: كما بعثتُ الطيورَ من هذه الجِبالِ الأربعة يُبْعَثُ الناسُ يومَ القيامة من بقاعِ الأرض ونواحيها.

---

(١) النمل / ٢٣. (٢) الأحقاف / ٢٥.

وقال ابن جُريج والسديُّ: (جَزَّأَهَا سَبْعَةَ أجْزَاءٍ وَوَضَعَهَا عَلَى سَبْعَةِ أجْبَال، وَأمْسَكَ رُؤُوسَهُنَّ عِنْدَهُ ثُمَّ دَعَاهُنَّ: تَعَالَيْنَ بِإذْنِ اللهِ، فَجَعَلَ الرِّيْش كُلّ رِيْشَةٍ تَطِيْرُ إلَى الأُخْرَى، وَكُلّ قَطْرَةٍ مِنَ الدَّم تَطِيْرُ إلَى الأُخْرَى، وَكُلّ عَظْم يَطِيْرُ إلَى الآخَر، وَكُلّ قِطْعَةٍ تَطِيْرُ إلَى الأُخرَى، وَإبْرَاهِيْمُ يَنْظُرُ حَتَّى الْتَقَتْ كُلُّ جُثَّةٍ بَعْضَهَا إلَى بَعْض حَتَّى سَوَّاهُنَّ اللهُ تَعَالَى. ثُمَّ جِئْنَ يَسْعَيْنَ عَلَى أرْجُلِهِنَّ بغَيْرِ رُؤُوسٍ، فَعَلَّقَ عَلَيْهِنَّ إبْرَاهِيْمُ رُؤُوسَهُنَّ).

واختلفوا في معنَى السَّعي؛ قال بعضُهم: هو الإسراعُ في المشي. وقال بعضُهم: مَشْياً على أرجُلِهن. والحكمةُ في المشيِ دون الطيرانِ كونهُ أبلغُ في الحجَّةِ وأبعدُ من الشبهةِ؛ لأنَّها لو طارت لَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أنَّها غيرُ تلك الطيور، أو أنَّ أرجُلَها غيرُ سليمةٍ.

قال أبو الحسنِ الأقطعُ: (صَحَّ عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [لِكُلِّ آيَةٍ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ][(1)] فَظَاهِرُ هَذِهِ الآيَةِ مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ، وَبَاطِنُهَا أنَّ إبْرَاهِيْمَ أمِرَ بذَبْحِ أرْبَعَةِ أشْيَاءَ فِي نَفْسِهِ بسِكِّيْنِ اليأس كَمَا ذَبحَ فِي الظَّاهِرِ الأرْبَعَةَ الطُّيُورَ بسِكِّيْنِ الْحَدِيْدِ، فَالنَّسْرُ مُثِّلَ لِطُول الْعُمْرِ وَالأمَلِ؛ وَالطَّاوُوسُ زِيْنَةُ الدُّنْيَا وَبَهْجَتِهَا، وَالْغُرَابُ الْحِرْصُ؛ وَالدِّيْكُ الشَّهْوَةُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ ؛ أي غالبٌ على كلِّ شيءٍ لا يَمتنع عليهِ ما يريدُ؛ (حَكِيمٌ) فيما يريدُ لا يفعلُ إلا ما فيهِ حكمةٌ، قال بعضُهم: كانت هذه القصةُ قبلَ أنْ يولَدَ لإبراهيمَ ولدٌ؛ وقبل أن تَنْزِلَ عليه الصُّحفُ، وكان يومئذٍ ابنَ خمسٍ وتسعين سنةً.

---

(١) الحديث عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: [أنْزلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أحْرُفٍ، لِكُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ]. أخرجه الطبري في جامع البيان: المقدمة: الحديث (٩)، وفيه انقطاع، ومن طريق موصول. وابن حبان في الصحيح (الإحسان): كتاب العلم: الحديث (٧٥). وحسَّنه الشيخ شعيب حفظه الله، ثم علق التحسين بشرطه.

وقطعاً لا يذهب النابه إلى مقولة البعض الذين يقولون بالظاهر الذي يعلمه علماء المسلمين والباطن الذي يعرفه أهل الحقيقة. فإن هذا من التلاعب وضرب من التقوُّل أو العبث بدلالات الألفاظ لا على أصول معتبرة أو قواعد العلم الشرعي ولسان العرب.

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾ ؛ وجهُ اتصال هذه الآية بما قبلَها آيةٌ أخرى فيما تقدَّمَ ذكرُ النفقةِ في الجهادِ بقولهِ تعالى: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(١)، ثم ذكرَ ما كان مِن مسألةِ قوم أشمويل مِن الله أن يبعثَ له مَلِكاً يقاتلون معه أعداءَهم، وكانت الغلبةُ لهم مع قلَّةِ عددهم، ثم عقَّبَهُ الله تعالى بذكرِ أمورٍ تدلُّ على وحدانيَّته، فبيَّنَ أنَّ الكُفْرَ بعد هذهِ الآيات أعْظَمُ وأشْنَعُ، فمن كَفَرَ بعد هذا فقاتِلُوه وأنفِقُوا في القتال، فإنَّ النفقةَ في القتال تكونُ بسبعمائةٍ.

وعن ابنِ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ وَالَّتِي بَعْدَهَا فِي شَأْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَعَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. أمَّا عُثْمَانُ فَجَاءَ إلَى النَّبيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَقَالَ: عَلَيَّ جِهَازُ مَنْ لاَ جِهَازَ لَهُ، وَاشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ وَاجْعَلُهَا سَبِيْلاً لِلْمُسْلِمِيْنَ. وَأمَّا عَبْدُالرَّحْمَنِ فَكَانَ لَهُ ثَمَانِيَةُ آلاَفٍ، فَجَاءَ بِأَرْبَعَةِ آلاَفٍ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إنَّ لِي ثَمَانِيَةَ آلاَفٍ؛ أمْسَكْتُ نِصْفَهَا لِنَفْسِي وَلِعِيَالِي؛ وَأقْرَضْتُ نِصْفَهَا لِرَبي وَهِيَ هَذِهِ. فَقَالَ ﷺ: [بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيْمَا أمْسَكْتَ وَفِيْمَا أعْطَيْتَ] وَأمَرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُبضَتْ مِنْهُ)(٢).

ومعنى الآية: صفةُ (الَّذِينَ يُنفِقُونَ أمْوَالَهُمْ فِي) طاعةِ الله كصِفَةِ (حَبَّةٍ) ألقيت في الأرضِ وأخْرَجَتْ (سَبْعَ سَنَابلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) أي كما تكونُ الحبَّة واحدةً والمكتسبُ منها سبعمائة، فكذلكَ النفقةُ تكون واحدةً والمكتسبُ بها سبعمائةِ ضِعْفٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي كما يُضَاعِفُ اللهُ في زرع الزُّرَّاعِ الحادثِ من البَذْرِ الجيِّد في الأرضِ العامرةِ، كذلكَ يُضَاعِفُ للمرءِ الصالحِ

---

(١) البقرة / ٢٤٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: تفسير الآية ٧٩ من سورة التوبة: الحديث (١٣٢٢٠-١٣٢٣٣). في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ٧ ص٣٢؛ قال الهيثمي: ((رواه البزار من طريقين؛ أحدهما متصلة عن أبي هريرة، والأخرى مرسلة)). وفي فتح الباري شرح صحيح البخاري: شرح الحديث (٤٦٦٨)؛ قال ابن حجر: ((وأصح الطرق فيه ثمانية ألف درهم)).

ثوابَ صدقتهِ بالمالِ الطيِّب إذا وضعَهُ في موضعهِ. يضاعفُ لمن يشاءُ من السَّبْعِ إلى السَّبعين إلى سبعمائة إلى مائةِ ألْفٍ إلى ما شاءَ الله من الأضعافِ مِمَّا لا يعلمهُ إلا هو.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ ؛ أي غَنِيٌّ بتلك الأضعافِ (عَلِيمٌ) بِمَنْ يُنْفِقُ. وقيل: معناهُ: (وَاللهُ وَاسِعُ) الفضلِ، جَوَادٌ لا ينقصهُ ما يتفضَّل به من السَّعَةِ والمضاعفةِ؛ (عَلِيمٌ) بمن يستحقُّ الزيادةَ.

والفائدةُ في تخصيصِ السبع في الآيةِ ما قالوا: إنَّ السَّبْعَ أشرفُ الأعدادِ كما روي عن ابن عبَّاس أنه قال: (كَادَتِ الأَشْيَاءُ تَكُونُ كُلُّهَا سَبْعاً؛ فَإنَّ السَّمَوَاتِ سَبْعٌ؛ وَالأَرْضُونَ سَبْعٌ؛ وَالْكَوَاكِبَ السَّيَّارَةَ سَبْعٌ؛ وَالْبحَارَ سَبْعَةٌ؛ وَأَيَّامَ الأُسْبُوعِ سَبْعَةٌ؛ وَسُجُودَ الْعَبْدِ عَلَى سَبْعَةِ أعْضَاءٍ).

وأجمعَ أهلُ التفسيرِ إلا السديّ: أنَّ العدَّةَ المضاعفةَ بسبعمائة مختصَّةٌ بالإنفاق في الجهاد؛ وأما غيرُ ذلك من الطاعاتِ؛ فالحسَنةُ بعشرِ أمثالها كما قالَ الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ ؛ نَزَلَتْ في شأن النفقةِ التي يُستَحَقُّ بها الثوابُ المضاعفُ؛ معناهُ: (الَّذِينَ يُنفِقُونَ أمْوَالَهُمْ فِي) طاعةَ اللهِ (ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أنفقُوا مَنًّا) على السائلِ نحو أن يقولَ للسائل إذا وقعَ بينه وبينه خصومةٌ: أعطيتُك كذا، وأحسنتُ إليك، وما أشبهه مما يبغضُ على السائلِ. وأصلهُ من القَطْعِ؛ يقال: مَنَنْتُ الشيءَ إذا قَطَعْتُهُ؛ ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَهُمْ أجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[2] أي غيرُ مقطوعٍ، ويقال: جَبَلٌ مَنِيْنٌ؛ أي مقطوعٌ. وقيل: أصل الْمِنَّةِ النعمةُ، يقال: مِنَّ (يَمُنُّ) إذا أعْطَى وأنْعَمَ، قال اللهُ تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أوْ أمْسِكْ﴾[3] أي أعطِ أو أمسِك.

وقال الكلبيُّ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عُثْمَانَ وَعَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، أمَّا عُثْمَانُ ﷺ فَجَهَّزَ الْمُسْلِمِيْنَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ بألْفِ بَعِيْرٍ بأقْتَابهَا وَأحْمَالِهَا). وروي أن عثمانَ جاء بألفِ مِثْقَالٍ في جيشِ العسرةِ فصبَّها في حِجْرِ رسولِ اللهِ ﷺ، فكانَ ﷺ يُدْخِلُ

---

(١) الأنعام / ١٦٠. (٢) التين / ٦. (٣) ص / ٣٩.

يَدَهُ فِيهَا وَيُقَلِّبُهَا وَيَقُولُ: [مَا يَضُرُّ عُثْمَانَ مَاذَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ][(١)]. وقال أبو سعيدٍ الخدري: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَافِعاً يَدَيْهِ يَدْعُو لِعُثْمَانَ وَيَقُولُ: [يَا رَب، عُثْمَانُ رَضِيتُ عَنْهُ فَارْضَ عَنْهُ] فَمَا زَالَ يَدْعُو رَافِعاً يَدَيْهِ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[(٢)]. وأما عبدالرحمن بن عوف فقد ذكرنا صدقته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا أذى) أي لا يؤذي السائلَ؛ لا يُعَيِّرُهُ ولا يزجرهُ؛ نحو أن يقول: أنتَ أبداً في فقرٍ وما أبلانا بكَ، وأراحَنَا اللهُ منكَ، وأعطيناكَ فما شكرتَ، وما أشبه ذلك. قَالَ ﷺ: [الْمَانُّ بِمَا يُعْطِي لاَ يُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إلَيْهِ وَلاَ يُزَكِّيْهِ وَلَهُ عَذَابٌ ألِيْمٌ][(٣)] فحظرَ اللهُ الْمَنَّ بالصَّنيعة على عبادهِ واختصَّ به صفةً لنفسه؛ لأنه مِن العبدِ تَعْيِيْرٌ وَتَكْدِيْرٌ؛ ومِن اللهِ تعالى إفْضَالٌ وَتَذْكِيْرٌ. قال بعضُهم:

لَيْسَ الْكَرِيْمُ إذا أعْطَى بمَنَّانِ أفْسَدْتَ بِالْمَنِّ مَا قَدَّمْتَ مِنْ حَسَنِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ ؛ أيْ (لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) فيما يستقبلُهم من أهوالِ يوم القيامةِ، (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) على ما خلَّفوا في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ ﴾ ؛ أي كلام حسنٌ وردٌّ جميلٌ على السائلِ ولطفٌ به ودعاءٌ له بالسعةِ؛ وتجاوزٌ عن مَظْلَمَةٍ؛ وعدة حسنةٌ (خَيْرٌ) عندَ الله (مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى) لأن الصدقةَ إذا أتبعَها الأذى ذهبَ المالُ والثواب جميعاً. وقال الضحَّاك: (مَعْنَى الآيَةِ: قَوْلٌ فِي إصْلاَحِ ذاتِ الْبَيْنِ).

---

(١) رواه الترمذي في الجامع: أبواب المناقب: الحديث (٣٧٠٠ و٣٧٠١). وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٥٩١١ و٩٢٢٢).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص٣٠٦.

(٣) أخرجه بمعناه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب غلظ تحريم إسبال الإزار: الحديث (١٧١/ ١٠٦). وأبو داود في السنن: كتاب اللباس: باب ما جاء في إسبال الإزار: الحديث (٤٠٨٧).

قوله: (وَمَغْفِرَةٌ)؛ قال ابنُ جرير: (وَمَعْنَى (مَغْفِرَةٌ) أيْ سَتْرٌ مِنْهُ عَلَيْهِ لِمَا عَلِمَ مِنْ خِلَّتِهِ وَفَاقَتِهِ)(١). وقيل: يتجاوزُ عن السائلِ إذا استطالَ عليه عندَ ردِّه؛ علمَ اللهُ أنَّ الفقيرَ إذا رُدَّ بغيرِ شيء شُقَّ عليهِ ذلك، فربَّما دعاهُ ذلك إلى بذاءةِ اللسان وإظهار الشكوى، وعَلِمَ ما يلحقُ المانع منه فحثَّه على العَفْوِ والصَّفْحِ.

رُوي عن رسول اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: [إذا سَأَلَ السَّائِلُ فَلاَ تَقْطَعُوا عَلَيْهِ مَسْأَلَتَهُ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا، ثُمَّ رُدُّوهَا عَلَيْهِ بوَقَارٍ وَلِيْنٍ وَبِبَذْلٍ يَسِيْرٍ أوْ رَدٍّ جَمِيْلٍ، فَإنَّهُ قَدْ يَأْتِيكُمْ مَنْ لَيْسَ بإنْسٍ وَلاَ جَانٍّ يَنْظُرُ كَيْفَ صُنْعُكُمْ فِيْمَا خَوَّلَكُمُ اللهُ مِنَ النِّعَمِ](٢).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾؛ أي (غَنِيٌّ) عن صدقاتِ العباد، (حَلِيمٌ) إذا لم يعجِّل بالعقوبةِ على الذي ((مَنَّ))(٣) بصدقتهِ. روى بشْرُ بنُ الحارثِ؛ قال: رَأيْتُ عَلِيّاً ؓ فِي الْمَنَامِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ، تَقُولُ شَيْئاً لَعَلَّ اللهَ يَنْفَعُ بهِ؟ فَقَالَ لِي: مَا أحْسَنَ عَطْفَ الأَغْنِيَاءِ عَلَى الْفُقَرَاءِ رَغْبَةً فِي ثَوَاب اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأحْسَنَ مِنْهُ صَبْرُ الْفُقَرَاءِ عَنِ الأَغْنِيَاءِ ثِقَةً باللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾؛ أي تبطِلُوا صدقاتِكم بذلك كإبطالِ مَن ينفقُ ماله مُرَاءَاةً وسُمعةً لِيَرَوا نفقتهُ ويقال: إنه سخيٌّ كريم صالحٌ، يعني بذلكَ المنافقَ الذي ينفقُ مالَه لا رغبةً في الثواب ولا رهبةً من العقاب، بل خوفاً من الناسِ ورياءً لهم أنه مؤمنٌ. ﴿ فَمَثَلُهُۥ ﴾؛ أي مَثل نفقةِ هذا المنافق الْمُرَائِي؛ ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾؛ أي كحَجَرٍ أملسٍ؛ ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ ﴾؛ أي مطرٌ كثير شديدُ الوقعِ فذهب بالتراب الذي كان ((على)) الحجر، وبقيَ الحجرُ يابساً لا شيءَ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾؛ أي حَجَراً صَلْباً أملَساً لا يبقى عليه شيء، وهو مِن الأرضِ ما لا يُنْبتُ، ومن الرؤوسِ ما لا شعرَ عليه. قال رُؤْبَةُ:

---

(١) جامع البيان: مج ٣ ص٨٩: تفسير الآية. وفيه: ((من خلقتهِ وسوء حالتهِ)).
(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص٣١٠؛ قال القرطبي: ((روي عن عمر ؓ)).
(٣) سقطت من أصل المخطوط، وتقتضيها ضرورة السياق.

.... بَــرَّاقُ أَصْــلادِ الْجَبــينِ الأَجْلَــهِ[(١)]

وهذا مثلٌ ضربه اللهُ لنفقةِ المنافق والمرائي والمؤمن الذي يَمُنُّ بصدقته ويـؤذي؛ يعني أنَّ الناس يرونَ أن لهؤلاء أعمالاً كما ترَى الترابَ على هذا الصَّفوان، وإذا كـان يومُ القيامة اضمحلَّ وبَطَلَ؛ لأنهُ لم يكن للهِ كما أذهبَ الوابلَ ما كان علـى الصَّفـوانِ من التراب، (فَتَرَكَهُ صَلْدًا) لا شيءَ عليه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ ؛ أي لا يقـدرُ الْمَانُّ بنفقتهِ والمؤذي والمنافقُ على ثواب شيء مما أنفقُوا، كما لا يقدرُ أحدٌ من الخلـقِ على التراب الذي كان على الحجرِ الأملس بعدما أذهبَه المطرُ الشديد.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ ؛ أي لا يهديـهم حتى يُخلصوا أعمالَهم. وقيل: لا يهديهم بالمثوبة لهم كما يهدي المؤمنينَ.

وأصلُ الوَابلِ من الوَبيْلِ وهو الشديدُ كما قالَ تعالى: ﴿أَخْذًا وَبِيلاً﴾[(٢)]. ويقال: وَبَلَتِ السَّمَاءُ تَبلُ؛ إذا اشتدَّ مطرُها. والصَّلْدُ: الحجرُ الأملسُ الصلبُ، ويسمى البخيل صَلْداً تشبيهاً له بالحجر في أنه لا يخرجُ منه شيء. ويقال للأرضِ التي لا تُنبِـتُ شـيئاً: صُلْداً، وصَلَدَ الزَّنْدُ صُلُوداً إذ لَمْ يُور ناراً.

وفي الآية دلالةٌ على أنَّ الصدقةَ وسائرَ القُرَب إذا لم تكن خالصــةً لله تعـالى لا يتعلَّقُ بها الثـوابُ، ويكـونُ فاعلـها كمـن لا يفعـلُ؛ ولهـذا قـالَ أصحابُنـا: لا يجـوزُ الاستئجارُ على الحجِّ وسائر الأفعالِ التي من شرطِها أن تُفعل على وجهِ القربــةِ؛ لأن أخذَ الأجرَةِ عليها يُخرجها من أنْ تكون قربةً.

ثم ضربَ جَلَّ ذِكْرُهُ لنفقةِ المخلصين المثيبين مثلاً آخـرَ أعلـى مـن المثـلِ الأول فقـــالَ: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ ؛ أي

---

(١) بيت من الرجز في ديوان رؤبة بن العجاج، طبعة ليبسك، ص١٦٥. (ولأجلِهِ) من (الْجَلَهْ) أشد من الحلجِ، وهو ذهاب الشَّعر من مقدم الجبين.

(٢) المزمل / ١٦.

صِفَةُ الذين ينفقون أموالهم لطلب رضا الله تصديقاً وحقيقةً. قال الشعبيُّ والكلبي والضحَّاك: (يَعْنِي تَصْدِيْقاً مِنْ أنْفُسِهِمْ، يُخْرِجُونَ الزَّكَاةَ طَيِّبَةً بِهَا نُفُوسُهُمْ). وقال السديُّ وأبو صالحٍ وأبو روق: (مَعْنَاهُ وَيَقِيْناً مِنْ أنْفُسِهِمْ؛ أيْ عَلَى يَقِيْنٍ بإخْلاَفِ اللهِ عَلَيْهِمْ). وقال قتادةُ: (مَعْنَاهُ: وَاحْتِسَاباً، وَقِيْلَ: ثِقَةً باللهِ). وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: يَتَثَبَّتُونَ). قال الحسنُ: (كَانَ الرَّجُلُ إذَا هَمَّ بصَدَقَةٍ ثَبَتَ؛ فَإنْ كَانَ للهِ أمْضَاهُ، وَإنْ خَالَطَهُ شَكٌّ أمْسَكَ). وقال ابنُ كيسان: (مَعْنَاهُ: إخْلاَصاً وَتَوَطُّناً لأَنْفُسِهِمْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ). وقال سعيدُ بن جبير: (وَتَحْقِيْقاً فِي دِيْنِهِمْ).

قولهُ: (كَمَثَلِ جَنَّةٍ برَبْوَةٍ أصَابَهَا وَابلٌ فَآتَتْ أكُلَهَا ضِعْفَيْنِ) أي كصفةِ بستانٍ بمكان مرتفعٍ أصابَها مطرٌ كثير شديدٌ، فأتَتْ ثمرتَها ضعفين في الحملِ. قال عطاءُ: (حَمَلَتْ فِي سَنَةٍ مَا يَحْمِلُ غَيْرُهَا فِي سَنَتَيْنِ). وقال عكرمةُ: (حَمَلَتْ فِي السَّنَةِ مَرَّتَيْنِ). قال الفرَّاءُ: (إذَا كَانَ فِي الْبُسْتَانِ نَخْلٌ فَهُوَ جَنَّةٌ، وَإذَا كَانَ فِيْهِ كَرْمٌ فَهُوَ فِرْدَوْسٌ).

وقرأ مجاهدُ: (كَمَثَلِ حَبَّةٍ) بالحاء والباءِ. وقرأ السلمي والعطارديُّ والحسن وعاصمُ وابنُ عامر: (برَبْوَةٍ) بفتح الراءِ هنا وفي سورة المؤمنينَ وهي لغةُ بني تميم. وقرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافع وابنُ كثير والأعمش وحمزة والكسائيُّ وأبو عمرو ويعقوب وأيوبُ: (برُبْوَةٍ) بضمِّ الراءِ فيهما، واختارهُ أبو عبيدة لأنها أكثرُ اللُّغات وأشهرُها. وقرأ ابنُ عباس وأبو إسحقَ: (برِبْوَةٍ) بكسرِ الراء. وقرأ أشهبُ العقيليُّ: (بربَاوَةٍ) بالألفِ وكسرِ الراء. وهُنَّ جميعاً للمكانُ المرتفعُ المستوي، والمطرُ على الرَّوابي أشدُّ ونبتُها أحسن، وإنما سُميت ربوةً لأنَّها رَبَتْ وَعَلَتْ فغَلَظَت، من قوله رَبَى الشيءُ يربُو إذا عَظُمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أكُلَهَا). قرأ نافعُ وابن كثير وأبو عمرٍو بالتخفيف، وقرأ الباقون بضمِّ الكافِ. والأُكُلُ هو الثمرُ وهو اسمٌ لما يُؤْكَلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ ؛ أي فطَلٌّ، والطلُّ أضعفُ المطر مثل الرَّذاذِ وهو المطرُ الدائم الصِّغَارُ القَطْرِ لا يكادُ يسيل منه الْمَيَازيبُ، كذلك

المنفقُ لوجه الله إنْ كانت نفقتهُ كثيرةً فثوابُها كثيرٌ، وإن كانت قليلةً شيئاً بعد شيءٍ فبعدَدِها.

وقال السديُّ: (الطَّلُّ هُوَ النَّدَى). وروي عن زيدِ بن أسلمَ في قوله تعالى: (فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابلٌ فَطَلٌّ) قال: (هِيَ أرْضُ مِصْرَ إنْ لَمْ يُصِبْهَا مَطَرٌ زَكَتْ أيْ أنْبَتَتْ، وَإنْ أصَابَهَا مَطَرٌ أضْعَفَتْ أيْ آتَتْ ضِعْفَ ذلِكَ). وهذا مثلٌ ضربه اللهُ لعمل المؤمن المخلص، يقول: كما أنَّ هذه الجنةَ تصلحُ في كلِّ حال ولا تخلفُ ولا تُخَيِّبُ صاحبَها، سواءٌ أقلَّ المطر أم كثُرَ، كذلك يضاعفُ الله ثوابَ صدقةِ المؤمن المخلص الذي لا يَمُنُّ ولا يؤذي؛ سواءٌ أقلَّتْ صدقتهُ أو كَثُرتْ ولا يخيبُ بحاله، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ ؛ أي بصيرٌ بما يعملونه من الرياءِ والإخلاصِ؛ يجزيكم على قدر نيَّاتِكم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ﴾ ؛ الآية، هذا استفهامٌ في الظاهر يقتضي في الحقيقةِ تقديراً: أي لا يَوَدُّ أحدُكم كقولهِ تعالى:﴿أيُحِبُّ أحَدُكُمْ أنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أخِيهِ مَيْتًا﴾[1]. ومعنى الآية: يتمنَّى أحدُكم أن يكونَ له بستانٌ من نخيل وكَرْمٍ؛ تجري من تحتِ شجرها ومساكنِها وغرفِها الأنهارُ، له في الجنةِ من ألوان الثمار كلِّها، وأصابَه الْهَرَمُ والضعفُ وله أولادٌ ضعاف عَجَزَةٌ عن الحيلة، ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ﴾ ، يعني تلكَ الجنةَ. والإعصارُ: ريحٌ عاصفُ تَهُبُّ به مِن الأرضِ بالشدة كالعمودِ إلى نحو السماءِ، وتسميها العربُ الزَّوْبَعَةَ، وسُميت إعصاراً لأنَّها تعلُو كثوبِ عُصِرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾ ؛ أي الجنةَ. وهذا مثلٌ ضربه الله لنفقةِ المنافقِ والمرائي، تقولُ عَمَلُ هذا المرائي في حُسنه كحُسن الجنةِ ينتفعُ بها كما ينتفعُ صاحب الجنةِ، فإذا كَبُرَ وضَعُفَ فصار له أولادٌ صغار ضِعَافٌ، أصاب جنتَهُ إعصارٌ فيه نارٌ، فاحترقت عندما هو أحوجُ إليها وضَعُفَ عن إصلاحِها لِكِبَرِهِ وضَعُفَ أولادهُ

(١) الحجرات / ١٢.

عن أصلاحِها لِصِغَرِهِمْ؛ وعجزِهِ وعجزِهِم من أن يَغْرِسُوا مثلها، لا يُرَدُّ عليه شبابهُ وقوته ليغرسَ، فيحزنَ ويغتَمَّ ويهلك أسفاً وتحسُّراً على ذلك، فلا هو يجدُ شيئاً يعيشه ولا معَ أولاده شيءٌ يعودون به عليه، فبقي هو وأولادهُ فُقَراءَ عجزةً متحيرينَ لا يقدرون على حيلةٍ، فكذلك يُبْطِلُ اللهُ صدقةَ هذا المرائي والمنافقُ والْمَانُّ بصدقتهِ؛ حيثُ لا يسمع مستغيثَ لهما ولا توبةَ ولا إقالة، يُحْرَمُ أجرَها عند أفقرِ ما يكونُ إليها، ويرى في القيامةِ أعمالَه هباءً منثوراً، ولا يؤذنُ له في الرجوعِ إلى الدنيا ليتصدَّق وليكون من الصالحين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ أي كهذا البيانِ الذي بَيَّنَ اللهُ لكم فيما تقدَّم؛ ويبيِّن لكم الدلالات والعلامات لكي تتفكَّروا فتعتَبروا.

فإنْ قيلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ) فعلُ مستقبلٍ، وقوله: (وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ) فعلُ ماضٍ، فكيفَ عطفَ الماضي على المستقبلِ؟ والجوابُ من وجهين:

أحدُهما: أن (قد) ها هنا مقدَّرة؛ المعنى وقد أصابهُ الكِبَرُ، فيكون للحالِ كما قالَ في آيةٍ أخرى: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ﴾[1] أي قَدْ قُدَّ.

والثَّاني: أنَّ (يودُّ) يقتضي أن يكون في خبرهِ (لو) كما في قولهِ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ﴾[2] وقولهِ: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[3] ويقتضي أن يكون في أخْبُرهِ (إنْ) كما في هذه الآية و(لو) للماضي، و(أنْ) للمستقبل. ثم قد تستعمل (لو) مكانَ (إن)؛ و(إنْ) مكان (لو) يقامُ أحدهما مقام الآخر، ويقولُ الإنسان: أنا أتمنَّى لو كان لي ولدٌ، ويقول: أتمنَّى إن كان لي ولدٌ. وإذا كان معنى التمنِّي قد يقعُ على الماضي صحَّ عطفُ الماضي عليهِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي أنفقوا من خِيار ما كسبتم، وخيارهُ نظيرهُ قَوْلُهُ

---

(١) يوسف / ٢٧. (٢) البقرة / ٩٦. (٣) النساء / ٨٩.

تَعَالَى:﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(١). وقال ابن مسعودٍ ومجاهد: (مِنْ حَلاَلِ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الأَمْوَالِ) دليلهُ:﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾(٢) وقال عَلَيْهِ السَّلاَمُ: [إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يُحِبُّ إلاَّ الطَّيِّبَ، لاَ يَكْسَبُ عَبْدٌ مَالاً مِنْ حَرَامٍ فَيَتَصدَّقُ بهِ فَيُقْبَلُ مِنْهُ؛ وَلاَ يُنْفِقُ فَيُبَارِكُ لَهُ فِيْهِ، وَلاَ يَتْرُكُهُ خَلْفَهُ إلاَّ كَانَ زَادَهُ إلَى النَّار، وَإنَّ اللهَ لاَ يَمْحُو السَّيِّءَ بالسَّيِّءِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّءَ بالْحَسَنِ، وَإنَّ الْخَبيْثَ لاَ يَمْحُو الْخَبيْثَ](٣).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمِمَّا أخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ) أي من أعشار الحبوب والثمار.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ﴾ ؛ أي لا تعمَدُوا إلى الرَّدِيء من أموالِكم منه تتصدقون، ولستم بقابضيه وقابليهِ (إلا أنْ تُغْمِضُوا فيهِ)، يقول: لو كانَ لبعضِكم على بعضٍ حقٌّ فجاءَ بدون حقِّه، لم يأخذ منهُ إلا أن يَتَغَامَضَ له عن بعضِ حقِّهِ ويتسامَحَ عن عيبٍ فيه، فكيفَ تُعطونه في الصدقةِ.

وقد رُوي في سبب نزول هذه الآية أنَّ النبيَّ ﷺ حَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ وَقَالَ: [إنَّ للهِ فِي أمْوَالِكُمْ حَقّاً](٤). فَكَانَ يَأْتِي أهْلُ الصَّدَقَةِ بصَدَقَاتِهِمْ فَيَضَعُونَها فِي الْمَسْجِدِ، فَيَقْسِمُهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَجَاءَ رَجُلٌ ذاتَ يَوْمٍ بَعْدَمَا تَفَرَّقَ عَامَّةُ أهْلِ الْمَسْجِدِ بعَذْقٍ مِنْ حَشَفٍ فَوَضَعَهُ فِي الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا أبْصَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: [بئْسَ مَا صَنَعَ صَاحِبُ الْحَشَفِ] فَأَمَرَ بِهِ فعُلِّقَ، فَجَعَلَ كُلُّ مَنْ يَرَاهُ يَقُولُ: بئْسَ مَا صَنَعَ صَاحِبُ الْحَشَفِ،

---

(١) آل عمران / ٩٢.

(٢) المؤمنون / ٥١.

(٣) الشطر الأول من الحديث؛ أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الزكاة: باب قبول الصدقة من الكسب الطيب: الحديث (٦٥). وأصل الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٣٨٧: عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ اللهَ قَسَّمَ بَيْنَكُمْ أرْزَاقَكُمْ، وَإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ، وَلاَ يُعْطِي الدِّينَ....].

(٤) من حديث ابن عباس؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٨١٨): ((قال ابن عباس: يقول: وحَقِّي عَلَيْكُمْ مِنْ أطْيَبِ أمْوَالِكُمْ وَأنْفسِهَا)).

فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةِ[(١)].

وقال بعضُهم: معنى: (وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ) أي لا تتصدَّقوا بالحرامِ. فيكون معنى (إلا أنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) على هذا التأويلِ: إلاَّ أن تَتَرَخَّصُوا في تناولهِ إنْ كان حَرَاماً. والإغماضُ: تركُ النظرِ، يقال في الْمَثَلِ: أغْمِضْ فِي هَذَا وَغَمِّضْ؛ أي لا تَسْتَقْصِ وكُنْ كأنَّكَ لَمْ تُبْصِرْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ ؛ أي (غَنِيٌّ) عن صدقاتِكم محمودٌ في أفعالِهِ، ولم يأمرْكم بالصدقةِ عن عِوَضٍ ولكن بلاكُم بما أمركم، فهو مستحقٌّ للحمدِ على ذلك وعلى جميعِ أمرِهِ.

وفي الآية إباحةُ الكسب وإخبارٌ أن فيه ما هو طيِّب، قالَ ﷺ:[وَالْخَيْرُ عَشْرَةُ أجْزَاءٍ أفْضَلُهَا التِّجَارَةُ إذَا أخَذَ الْحَقَّ وَأعْطَى الْحَقَّ]. وَقَالَ ﷺ: [تِسْعَةُ أعْشَارِ الرِّزْقِ فِي التِّجَارَةِ، وَلاَ يَفْتَقِرُ مِنَ التُّجَّارِ إلاَّ تَاجِرٌ حَلاَّفٌ][(٢)]. سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أيُّ كَسْبَ الرِّزْقِ أفْضَلُ؟ قَالَ: [عَمَلُ الرَّجُلِ بيَدَيْهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ][(٣)]. وقالَ ﷺ: [يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، إنَّ هَذَا الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ وَالْكَذِبُ، فَشَوِّبُوهُ بالصَّدَقَةِ][(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٨١٤): ((عن عطاءٍ يقول: علَّقَ إنسانٌ...)). وله شاهد من حديث أبي داود في السنن: كتاب الزكاة: باب ما لا يجوز من الثمرة في الصدقة: الحديث (١٦٠٧). والْحَشَفُ: هو من التمر ما لم ينو، فإذا يبس صلُبَ وفسد.

(٢) في الدر المنثور: ج ٢ ص٤٩٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه سعيد بن منصور عن نعيم بن عبدالرحمن الأزدي)). وفي المطالب العالية لابن حجر: الحديث (١٣٦٨). وفي الهامش قال البوصيري: رواه مسدد مرسلاً بسند صحيح. ونعيم بن عبدالرحمن بصري، ذكره ابن حبان في الثقات (باختصار).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص١٤١. والطبراني في الكبير: ج ٢٢ ص١٦٣: الحديث (٥١٩). والحاكم في المستدرك: كتاب البيوع: باب ليس منا من غشَّنا: الحديث (٢٢٠٥) عن رافع بن خديج. وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٦٠: كتاب البيوع؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه المسعودي وهو ثقة)).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٨ ص٢٩٧: الحديث (٩٠٣ و٩٢١)، وفي المعجم الأوسط: الحديث (١٢٥٤) وإسناده صحيح.

قولـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ ؛ أي الشيطانُ يَعِدُكُمْ بالفقرِ فحذفَ الباءَ كقول الشاعرِ[١]:

أمَرْتُـكَ الْخَـيْرَ لَكِـنْ مَـا ائْتَمَـرْتَ بِـهِ   فَقَـدْ تَرَكْـتَ ذا مَـالٍ وَذا نَشَـبِ[٢]

ويقال: وَعَدْتُهُ خَيْراً؛ وَوَعَدْتُهُ شَرّاً، وقالَ اللهُ تعالى في الخيرِ:﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾[٣] وقال في الشَّرِّ: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٤] وإذا لم تَذْكُرِ الخيرَ والشرَّ؛ قُلْتَ في الخيرِ: وَعَدْتُهُ؛ وفي الشرِّ: أوْعَدْتُهُ. قال الشاعرُ:

وَإنِّـي إذا أوْعَدْتُـهُ أوْ وَعَدْتُـهُ   لَمُخْلِـفُ مِيْعَـادِي وَمُنْجِـزُ مَوْعِـدِي

ومعنى: (يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ) أي يخوِّفُكم الفقرَ بالنفقةِ في وجوهِ البرِّ وإنفاقِ الجيِّد من المال، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيَأْمُرُكُمْ بالْفَحْشَاءِ) أي بالبخلِ ومنعِ الزكاة، وزَعَمَ الكلبيُّ أن كلَّ فحشاءٍ في القرآن فهو زنًا إلا في هذه الآيةِ، وإنما سُمي منعُ الزكاة فحشاءً؛ لأن العربَ تسمي البخيلَ فاحشاً؛ والبخلَ فحشاءً. والفقرُ: سُوءُ الحالِ وقلةُ ذاتِ اليد، وفيه لغتان: الْفَقْرُ وَالْفَقُرُ، كالضَّعفِ والضُّعفِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ ؛ أي(مَغْفِـرَةً) لذنوبكم بالإنفاق من خِيَار الأموال،(وَفَضْلاً) أي خلفاً في الدُّنيا والآخرةِ،﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ ؛ يوسِعُ الرزقَ والخلفَ والمثوبةَ، ويعلمُ حيث ينبغي أن تكونَ السَّعَةُ، قال ابنُ عباس وابن مسعودٍ: (ثِنْتَانِ مِنَ اللهِ وَثِنْتَانِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَمِنَ اللهِ

---

(١) قال القرطبي: وأنشد سيبويه:

أمَرْتُـكَ بِـالْخَيْرِ فَـافْعَلْ مَـا أُمِـرْتَ بِـهِ   فَقَـدْ تَرَكْتُـكَ ذَا مَـالٍ وَذَا نَشَـبِ

والبيت لعمرو بن معدي كـرب: في الديـوان: ص٦٣. ونسـب لخفـاف بـن ندبـة: الديـوان: ص١٢٦. وكتاب سيبويه: ج ١ ص٣٧.

(٢) في لسان العرب: مادة (نشب)؛ قال ابن منظور: ((قال أبو عُبيد: من أسماءِ المال عندَهم النَّشَبُ والنَّشْبَةُ. يُقَالُ: فُلاَنٌ ذُو نَشَبٍ، وفلانٌ ما لَهُ نشَبٌ. والنَّشَبُ: المالُ والعقارُ)).

(٣) الفتح / ٢٠.

(٤) الحج / ٧٢.

الْمَغْفِرَةُ وَالْفَضْلُ، وَمِنَ الشَّيْطَانِ الْفَقْرُ وَالْفَحْشَاءُ)(١). ووعدُ الشيطان وَسَاوسُ وتَخَيُّلٌ؛ أي يُخَيِّلُ إِلَيْكَ أَنَّكَ إنْ أَمْسَكْتَ مالَكَ استغنيتَ، وإن تصدقتَ به افتقرتَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ اختلفوا في تفسير الحكمة؛ قال ابنُ مسعود:(هِيَ الْقُرْآنُ). وقال ابنُ عباس وقتادةُ:(عِلْمُ نَاسِخِ الْقُرْآنِ وَمَنْسُوخِهِ؛ وَمُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ؛ وَمُقَدَّمِهِ وَمُؤَخَّرِهِ؛ وَحَلاَلِهِ وَحَرَامِهِ؛ وَأَمْثَالِهِ؛ وَغَيْرِهِ)(٢). وقال السديُّ: (هِيَ النُّبُوَّةُ)(٣). وقال أبو العاليةِ: (هِيَ الْفِقْهُ)(٤). وقال مجاهدُ وإبراهيم: (هِيَ الإصَابَةُ وَالْفَهْمُ)(٥). وقال الربيعُ(٦):(هِيَ خِشْيَةُ اللهِ تَعَالَى)(٧). وقال سهلُ بن عبدِالله: (هِيَ السُّنَّةُ). وقيل: هي سرعةُ الجواب مع إصابةِ الصواب، واللهُ أعلمُ.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ؛ أي من يُعْطَ العلمَ فقد أعطيَ خيراً كثيراً يصلُ به إلى رحمةِ اللهِ تعالى. قال بعضُ الحكماء: سَمَّى اللهُ العلمَ خيراً كثيراً، والدنيا مَتَاعاً قليلاً، فينبغي لِمن أوتِيَ العلمَ أن يعرفَ قَدْرَ نفسهِ ولا يتواضعَ لأصحاب الدنيا لدنياهم. وقال الحسنُ: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ؛ يَعْنِي الْوَرَعَ فِي دِيْنِ اللهِ).

قرأ الربيعُ: (تُؤْتِي الْحِكْمَةَ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ) بالتاءِ، وقرأ يعقوبُ: (وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ) بكسرِ التاء، أرادَ ومن يُؤْتِهِ الله؛ فحذف الهاءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ ؛ وما يَتَّعِظُ إلا ذوُو العقول؛ واللُّبُّ من العقلِ ما صَفِيَ عن دواعي الهوى، وَسُمِّي العقلُ لُبّاً لأنه أنْفَسُ ما في الإنسان كما أن لُبَّ الثمرةِ أنفسُ ما فيها.

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان: النص (٤٨٣٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٨٣٤): عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ((يعني المعرفة بالقرآن... وذكره))، وفي النص (٤٨٣٨)؛ قال: ((الفقه في القرآن)).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٨٤٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٨٣٦)؛ قال: ((الكتاب والفهم فيه)).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النصوص (٤٨٣٩).

(٦) الربيع بن خيثم.

(٧) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٨٤٤).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ﴾ ؛ أي ما تصدَّقتم بهِ مِن صدقةٍ أو أوجبتُمُوه على أنفسِكم من فعلِ برٍّ مثلَ صلاةٍ أو صدقةٍ أو صومٍ، فإنَّ اللهَ لا يخفَى عليه ذلكَ ويقبلَه ويجازي عليهِ.

ويقالُ: معنى (فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ) أي يحفظهُ، وإنَّما قالَ: (يَعْلَمُهُ) ولم يقل يعلمُهَا؛ لأنه ردَّهُ إلى الآخرِ منهُما كقولهِ تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾[1]. وإنْ شئتَ حَمَلْتَهُ على (ما) التي قبلهُ كقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾[2] ولم يقل: بهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ ﴾ ؛ أي وما للواضعينَ النفقةَ والنَّذْرَ في غيرِ موضعِهما بالرِّيَاءِ والمعصيةِ ونحوهما (مِنْ) أعوانٍ يدفعون عنهم العذابَ. والأَنْصَارُ: جمع نَصِيْرٍ مثل جَنِيبٍ وأجنابٍ وشريفٍ وأشرافٍ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَفْضَلُ؛ صَدَقَةُ السِّرِّ أوْ صَدَقَةُ الْعَلاَنِيَةِ؟ فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ[3]. ومعناها: إنْ تُظهروا الصدقات وتُعلنوها؛ فَنِعِمَّا الشيءُ صدقةُ العلانيةِ.

وأصلُ (فَنِعِمَّا هِيَ): فَنِعِمَا مَا هِيَ؛ فَوُصِلَتْ وأُدْغِمَتْ. وكان الحسنُ يقرأ: (فَنِعِمَا مَا هِيَ) مفصولةً عن الأصلِ؛ أي نِعْمَتِ الخصلةُ. و(ما) في موضعِ الرفعِ و(هِيَ) في محلِّ النصب كما يقول: نِعِمَّا الرجلُ رَجُلاً، فإذا عَرَّفْتَ رَفَعْتَ وَقُلْتَ: نِعْمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ.

---

(١) النساء / ١١٢.

(٢) البقرة / ٢٣١.

(٣) في الدر المنثور: ج ٢ ص٧٨؛ قال السيوطي: ((أخرج أحمد والطبراني في الترغيب عن أبي أمامة: أنَّ أبَا ذَرٍّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الصَّدَقَةُ؟ قَالَ: [أضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ وَعِنْدَ اللهِ أزْيَدُ] ثُمَّ قَرَأ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أضْعَافًا كَثِيرَةً﴾. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ أيُّ الصَّدَقَةِ أفْضَلُ؟ قَالَ: [سِرٌّ إلَى فَقِيرٍ، أوْ جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ] ثُمَّ قَرَأ ﴿إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾.

وقرأ أبو جعفر ونافعُ وشيبة وعاصمُ وأبو عمرو بكسر النونِ وجزمِ العين، ومثلهُ في سورةِ النساء، واختارهُ أبو عبيدةَ وذلك أنّها لغةُ النبيِّ ﷺ حين قال لعَمْرو بنِ العَاصِ: [نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ][1].

وقرأ ابنُ عامرٍ ويحيى بن وثابٍ والأعمشُ وحمزة والكسائي وخلفُ بفتح النونِ وكسرِ العين. وقرأ طلحةُ وابن كثيرٍ وورش وحفصُ ويعقوب وأيوب بكسر النون والعين. وهي لغاتٌ صحيحةٌ.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي وإن تُسرُّوها وتعطوها الفقراءَ سِراً فهو خيرٌ لكم وأفضلُ من العلانيةِ، وكلاهُما مقبولٌ منكم إذا كانت النيةُ صادقةً، ولكن صدقةُ السرِّ أفضلُ، قال ﷺ: [صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّب، وَتُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَتَدْفَعُ سَبْعِيْنَ بَاباً مِنَ الْبَلاَءِ][2].

وقَالَ ﷺ: [سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ: الإمَامُ الْعَادِلُ، وَشابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالْمَسْجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ؛ فَاجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذاتُ حُسْنٍ وَجَمَال؛ فَقَالَ: إنِّي أخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ يَمِيْنُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ][3].

قال أهلُ المعاني: هذهِ الآيةُ في صدقةِ التطوعِ، ولإجماعِ العلماءِ أنَّ الزكاةَ المفروضةَ إعلانُها أفضلُ كالصلاةِ المفروضةِ في الجماعةِ أفضلُ من إفرادِها، وكذلكَ

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ج٤ ص١٩٧. والطبراني في الأوسط: الحديث (٣٢١٣)، وإسناده صحيح.

(٢) رواه الطبري من كلام قتادة: النص (٤٨٤٧)، وكلام الربيع في النص (٤٨٤٩). وأخرج الطبراني شطره الأول عن ابن مسعود في المعجم الكبير: ج ١٩ ص٣٥٩: الحديث (١٠١٨)، وفي الأوسط: الحديث (٩٤٨١). في مجمع الزوائد: ج ٣ ص١١٥؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن)) وأراد رواية أبي أمامة.

(٣) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الأذان: باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة: الحديث (٦٦٠).

سائرُ الفرائضِ؛ لمعنيين؛ أحدِهما: ليقتدي به الناسُ، والثاني: لزوالِ التهمةِ؛ لِئَلاَّ يسيءَ به الناسُ الظنَّ، ولا رياءَ في الفرضِ.

وأما النوافلُ والفضائلُ فإخفاؤها أفضلُ لِبُعْدِهَا عن الرياءِ، يدلُّ على صحَّةِ هذا التأويلِ ما روي عن أبي جعفرَ في قولهِ تعالى: (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ) قالَ:(يَعْنِي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَقَوْلُـهُ تَعَالَى: (وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ) يَعْنِي التَّطَوُّعَ)[١]. وعن ابنِ عباس أنه قالَ: (جَعَلَ اللهُ صَدَقَةَ التَّطَوُّعِ فِي السِّرِّ تَفْضُلُ عَلاَنِيَتَهَا بسَبْعِيْنَ ضِعْفاً، وَصَدَقَةُ الْفَرِيْضَةِ تَفْضُلُ عَلاَنِيَتُهَا سِرَّهَا بِخَمْسٍ وَعِشْرِيْنَ ضِعْفاً)[٢]. وَقَالَ ﷺ:[الْمُسِرُّ بالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بالصَّدَقَةِ، وَالْجَاهِرُ بالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بالصَّدَقَةِ][٣]. وذهب الحسنُ وقتادةُ إلى أن الإخفاءِ في كلِّ صدقةٍ أفضل؛ مفروضةً كانت أم تطوُّعاً.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ ﴾ ؛ قرأ ابنُ عباس وعكرمةُ: (وَتُكَفِّرُ) بالتاء؛ يعني الصدقاتَ. وقرأ الحسنُ وابن عامرٍ وحفصُ: (وَيُكَفِّرُ) بالياءِ والرفعِ على معنى ويكفِّر اللهُ. وقرأ ابن كثيرٍ وعاصمُ وأبو عمرو بالنونِ ورفعِ الراء على الاستئنافِ؛ أي ونَحْنُ نُكَفِّرُ. وقرأ أبو جعفرَ وشيبةُ ونافع والأعمش وحمزةُ والكسائيُّ بالنون والجزمِ عطفاً على موضع الفاء التِي في قوله: (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) لأنَّ موضِعَها جُزِمَ بالجزاءِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ) أدخل (مِنْ) للتبعيض؛ ليكون العبادُ فيها على وَجَلٍ فلا يَتَّكِلُوا. وقال نحاةُ البصرةِ: معناه الإسقاطُ؛ أي ويُكَفِّرُ عنكم سيِّئاتِكم.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ ﴾ ؛ أي بما تعملونَ من الصدقةِ عالِمٌ يجزيكم بهِ.

---

(١) جامع البيان: مج ٣ ج ٣ ص١٢٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٨٤٩).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٧ ص٢٥٨: الحديث (٩٢٣) عن عتبة بن عامر، وفي الأوسط: الحديث (٣٢٥٩). والإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص١٥١ و١٥٨، وإسناده حسن.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس والكلبيُّ: (اعْتَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُمْرَةَ الْقَضَاءِ، وَكَانَتْ مَعَهُ فِي تِلْكَ الْعُمْرَةِ أسْمَاءُ بِنْتُ أبِي بَكْرِ الصِّدِّيْق ﷺ، فَجَاءَتْهَا أمُّهَا قُتَيْلَةُ وَجَدُّهَا أبُو قُحَافَةَ يَسْألُونَهَا الصِّلَةَ وَالْعَطِيَّةَ، فَقَالَتْ: لاَ أعْطِيكُمْ شَيْئاً حَتَّى أسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَإنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى دِيْنٍ؛ فَاسْتَأْذَنَتْهُ فِي ذلِكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، فَأمَرَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بالتَّصَدُّق عَلَيْهِمَا)(١). وقال محمدُ بن الحنفيَّةِ: (كَانَ يَكْبُرُ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ التَّصَدُّقُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأُمِرُوا بذَلِكَ فِي غَيْرِ فَرِيْضَةٍ).

ومعنى الآيةِ: ليسَ عليكَ يا محمدُ تَحْصِيْلَ الهدى لهم بأن تَمنعهم من الصدقةِ لتحملهم على الإيمانِ، ولكنَّ اللهَ يُثبتُ وَيُرْشِدُ ويوفِّقُ للخيرِ مَن يشاءُ. وروي أنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب ﷺ رَأى رَجُلاً مِنْ أهْلِ الذِّمَّةِ يَسْألُ عَلَى أبْوَاب الْمُسْلِمِيْنَ، فَقَالَ: (مَا أنْصَفْنَاكَ؛ أخَذْنَا مِنْكَ الْجِزْيَةَ وَأنْتَ شَابٌّ؛ ثُمَّ ضَيَّعْنَاكَ الْيَوْمَ) فَأمَرَ أنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِ قُوتُهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ أي ما تنفقُوا من مالٍ على برٍّ أو فاجِرٍ فلأنفسِكُم ثوابهُ ونفعهُ عائدٌ إليكم، ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي عَلِمَ اللهُ أنكم لا تريدون بنفقتِكُم إلا طلبَ مرضاةِ اللهِ وإنْ كان المتصدَّق عليه كافراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ أي ما تتصدَّقوا به من مال يوفَّ إليكم ثوابهُ في الآخرةِ، (وَأنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) أي لا تُنْقَصُونَ شيئاً من ثواب أعمالِكم وصدقاتِكم.

---

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٤ ص٤٢٨-٤٢٩. وأصله في صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب صلة الوالد المشرك. ومسلم في الصحيح: كتاب الزكاة: باب فضل الصدقة والنفقة على الأقربين والزوج والأولاد.

(٢) أخرجه أبو يوسف في كتاب الخراج: فصل فيمن تجب عليه الجزية: ص١٣٦. قال في إعلاء السنن: الرقم (٤١٧٥): ((الأثر حسن الإسناد)).

وظاهرُ الآيةِ يقتضي جوازَ دفعِ الصدقـاتِ إلى الكفَّـار إلاَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَـصَّ مِنهَا الزَّكَاةَ؛ فَقَالَ: [أُمِرْتُ أنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أغْنِيَائِكُمْ وَأرُدُّهَا عَلَى فُقَرَائِكُمْ][1].

قوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ ؛ قيل: معناهُ: ما أنفقتُم من نفقةٍ للفقـراء، وقيـل: معنـاهُ: عليكـم بالنفقـةِ للفقراءِ الذين حُبسُوا في طاعةِ اللهِ؛ أي أحْصَرَهُمْ فرضُ الجهادِ فمنعَهم من التصـرُّفِ والسيرِ لطلب المعاشِ، وهؤلاء أصحابُ الصُّفَّةِ حَبَسُوا أنفسَهم لطلب العلمِ؛ وفضـلِ الجمعة؛ وخدمةِ رسول الله ﷺ، وكانوا نحواً من أربعمائةِ رجلٍ لم يكن لهم مساكنُ ولا عشائرُ؛ كانوا معتكفينَ في المسجدِ في صُفَّته؛ قالوا: نخرجُ في كلِّ سَرِيَّةٍ يبعثُها رسولُ الله ﷺ في سبيلِ الله، فحثَّ اللهُ على الصدقةِ عليهم، فكان الرجلُ إذا بقـيَ عنـده فضـلٌ أتاهم به[2].

وقوله تعالى: (لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ) الضربُ في اللغة: السَّيْرُ، يعـني لا يستطيعون سَيْراً في الأرضِ للتجارة وطلـب المعيشـة، ونظـيرهُ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾[3] وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَآخَـرُونَ يَضْرِبُـونَ فِـي الأَرْضِ﴾[4]. وقـالَ الشاعرُ:

لَحِفْـظُ الْمَـالِ أيْسَـرُ مِـنْ فَنَائِـهِ وَضَـرْبٌ فِـي الْبِـلاَدِ بِغَـيْرِ زَادِ

وقال ابنُ زيد: (مِنْ كَثْرَةِ مَا جَاهَدُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ، فَصَـارَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا حَرْباً عَلَيْهِمْ؛ لاَ يَتَوَجَّـهُونَ فِيـهَا جِهَـةً إلاَّ وَلَـهُمْ فِيـهَا عَـدُوٌّ)[5]. وكـان السديُّ يقول: (مَعْنَى (أحْصِرُوا) أيْ مَنَعَهُمُ الْكُفَّارُ بـالْخَوْفِ مِنْـهُمْ؛ فَـلاَ يَسْتَطِيعُونَ

---

(١) في الجامع لأحكام القـرآن: ج ٣ ص٣٣٧ و ج ٨ ص١٦٨ و١٧٢. وأصلـه مـن حديـث معـاذ حين أرسله رسول الله ﷺ إلى اليمن، وهو في الصحيحين.

(٢) في كنز العمال: الرقم (١٦٥٧٧)، وعزاه للخطيب في تاريخه.

(٣) النساء / ١٠١.

(٤) المزمل / ٢٠.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٨٦٦).

تفرُّقاً فِي الأَرْضِ لِمَنْعِ الْكُفَّار إيَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ)[١]. وقيلَ: هذا لا يصحُّ؛ لأنه لـو كـان كذلكَ لقال: حُصِروا، بغير ألِفٍ.

وقال سعيدُ بن جبـير:(هَـؤُلاَءِ قَـوْمٌ أصَابَتْـهُمْ جِرَاحَـاتٌ مَـعَ رَسُـول اللهِ ﷺ؛ فَصَارُوا زُمَناً وَاحْصَرَهُـمُ الْمَـرَضُ وَالزَّمَانَـةُ عَـنِ الضَّـرْب فِـي الأَرْضِ)[٢]. فاختـارَ الكسائيُّ هذا القولَ لأنه يقال: أحْصِرُوا من المرضِ والزَّمَانةِ عن الضـرب في الأرض، ولو أراد الحبسَ قال: حُصِرُوا، وإنَّمـا الإحصـارُ مـن الخـوفِ أو المـرضِ، والحَصْـرُ: الحبسُ في غيرهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَحْسَبُهُمْ الْجَاهِلُ أغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ) قـرأ الحسـنُ وأبـو جعفـر وشيبة وابنُ عامر والأعمشُ وعاصم وحمزةُ: (يَحْسَبُهُمْ) بفتحِ السينِ في جميع القـرآن، والباقون بالكسرِ.

ومعنى الآية: يظنُّهم الجاهلُ بأمرهم وشأنِهم أغنياءَ من التعفُّفِ عـن السـؤال؛ لِتَجَمُّلِهِمْ باللباسِ وكَفِّهم عن المسألةِ. والتعفُّفُ يُذْكَرُ ويراد به تَرْكُ المسـألةِ كما قـالَ ﷺ: [مَنِ اسْتَغْنَى أغْنَاهُ اللهُ تَعَالَى، وَمَنِ اسْتَعَفَّ أعَفَّهُ اللهُ][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَعْـرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ ؛ أي تعرفـهم أنـتَ يـا محمـدُ بعلامـةِ فقرهم ورَثَاثةِ حالِهم. وقيلَ: بتخشُّعهم وتواضُعِهم. وقيلَ: بصفرة ألوانِهم من الجـوعِ وقيامِ الليل وصيامِ النهار. وقيلَ: بفَرَحِهِمْ واستقامةِ حالِهم عند تواردِ البلاءِ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ ؛ قال عطاءُ: (إذَا كَـانَ عِنْدَهُ غَدَاءٌ لاَ يَسْأَلُ عَشَاءً، وَإنْ كَانَ عِنْدَهُ عَشَاءٌ لاَ يَسْأَلُ غَدَاءً). وقـال أهـلُ المعـاني: (لاَ يَسْأَلُونَ النَّـاسَ إلْحَافًـا) ولا غـيرَ إلحـافٍ؛ أي ليـس لهـم سـؤالٌ فيكـون إلحافـاً، والإلْحَافُ: الإلْحَاحُ، دليلُ هذا القولِ قَوْلُـهُ تَعـالَى: (يَحْسَـبُهُمْ الْجَـاهِلُ أغْنِيَـاءَ مِـنْ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٨٦٧).

(٢) في الدر المنثور: ج ٢ ص٨٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبـد بـن حميـد وابـن المنـذر وابـن أبـي حاتم)).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٢٨٩٦). والطبري في جامع البيان: الحديث (٤٨٧٦).

التَّعَفُّفِ) أي من القناعةِ، ولو كانوا يسألونَ لكان يعرفُهم بالسؤالِ لا بالسيماءِ. وإنَّما يُسمى الْمُلِحُّ في السؤال مُلْحِفاً؛ لأنه يَلْصَقُ بالمسؤولِ ويشتملُ على وجودِ الطلب في المسألةِ كاشتمال اللِّحافِ.

وعن أبي هُريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ يَرَى أثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ، وَيَكْرَهُ الْبُؤْسَ وَالتَّبَاؤُسَ، وَيُحِبُّ الْحَلِيْمَ الْمُتَعَفِّفَ، وَيَبْغَضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيْءَ السَّائِلَ الْمُلْحِفَ][(١)]. وقالَ ﷺ: [مَنْ سَألَ وَلَهُ مَا يُغْنِيْهِ، جَاءَتْ مَسْألَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُدُوحاً أوْ خُمُوشاً أوْ خُدُوشاً فِي وَجْهِهِ] قيلَ: ومَا غِنَاؤُهُ؟ قَالَ: [خَمْسُونَ دِرْهَماً][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾؛ أي ما يتصدَّقوا به من مال، (فَإنَّ اللهَ بهِ عَلِيمٌ) يجزيكُم بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾؛ قال ابنُ عباس ومقاتلُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَلِيٍّ ؓ؛ كَانَتْ لَهُ أرْبَعَةُ دَرَاهِمَ لَمْ يَمْلِكْ غَيْرَهَا؛ فَتَصَدَّقَ بدِرْهَمٍ لَيْلاً؛ وَبدِرْهَمٍ نَهاراً؛ وَبدِرْهَمٍ سِرّاً؛ وَبدِرْهَمٍ عَلاَنِيَةً، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ)[(٣)].

وعن ابنِ عباس قال: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ بَعَثَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ بدَنَانِيْرَ كَثِيْرَةٍ إلَى أصْحَابِ الصُّفَّةِ حَتَّى أغْنَاهُمْ؛ وَبَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ ؓ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ بوسْقٍ مِنَ التَّمْرِ -وَالْوسْقُ سُتُّونَ صَاعاً فَكَانَ أحَبُّ الصَّدَقَتَيْنِ إلَى اللهِ تَعَالَى صَدَقَةُ عَلِيٍّ ؓ وَنَزَلَ فِيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى:

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص١٨١ و١٨٢. والترمذي في الجامع: الحديث (٢٨١٩، وقال: حديث حسن.

(٢) أخرج الطبراني شطره عن جابر في الأوسط: الحديث (٥٤٦٣)، وشطره الأخير عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: الحديث (٢٤٢٢).

(٣) في الدر المنثور: ج٢ ص١٠٠؛ قال السيوطي:(أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن عساكر). وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٣٢٤؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني، وفيه عبدالواحد بن مجالد، وهو ضعيف)).

(الَّذِينَ يُنفِقُونَ أمْوَالَهُمْ باللَّيْلِ وَالنَّهار سِرًّا وَعَلانِيَةً) أرادَ باللَّيْلِ سِرّاً صَدَقَةَ عليٍّ ﷺ، وَبالنَّهار عَلاَنِيَةً صَدَقَةَ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ).

وروي أيضاً عن ابن عباس في هذه الآية (الَّذِينَ يُنفِقُونَ أمْوَالَهُمْ باللَّيْلِ وَالنَّهار): يَعْنِي فِي عَلْفِ الْخَيْلِ الْمُرْتَبطَةِ فِي سَبيْلِ اللهِ. وكان أبو هريرة إذا مَرَّ بفَرَسٍ سَمِيْنٍ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ؛ فَإذا مَرَّ بفَرَسٍ أعْجَفَ سَكَتَ.

وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَنِ ارْتَبَطَ فَرَساً فِي سَبيْلِ اللهِ وَأنْفَقَ عَلَيْهِ احْتِسَاباً؛ كَانَ شَبَعُهُ وَجُوعُهُ وَرِيُّهُ وَظَمَؤُهُ وَبَوْلُهُ وَرَوْثُهُ فِي مِيْزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][(١)]. وقال ﷺ: [الْمُنْفِقُ فِي سَبيْلِ اللهِ عَلَى فَرَسِهِ كَالْبَاسِطِ كَفَّيْهِ بالصُّرَّةِ][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبهِمْ) قال الأخفشُ وقُطْرُبُ: (جَعَلَ الْخَبَرَ بالْفَاءِ؛ لأنَّهُ فِي مَعْنَى (مَن)، وَجَوَابُ (مَن) بالْفَاءِ؛ كَأنَّهُ قَالَ: مَنْ أنْفَقَ كَذَا فَلَهُ أجْرُهُ عِنْدَ رَبهِ). وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) قد تقدَّم تفسيرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ ؛ معناهُ: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا) في الدنيا (لاَ يَقُومُونَ) في الآخرةِ من قبورهم لِعِظَمِ بطونِهم، (إلا كَمَا يَقُومُ) في الدنيا الذي يضربُه ويصيبهُ (الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ) أي مِن الجنون. روي أنَّهم يُبعثونَ يوم القيامةِ وقد انتفخت بطونُهم كلَّما قامُوا سقطُوا والناسُ يَمشونَ عليهم وهم كالْمَجَانِيْنِ. قال الحسنُ: (هَذِهِ عَلاَمَةُ أكْلِ الرِّبَا؛ يُعْرَفُونَ بهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ ؛ ومعناهُ: كان الرجلُ إذا حلَّ مالهُ بعد الأجلِ طلبَهُ؛ فيقول المطلوبُ: زدني في الأجل وأزيدُكَ

---

(١) عن أسماء بنت يزيد؛ أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٤٥٨، وفي إسناده شهر. وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٤١١ و١١٩٤) عن علي ﷺ، وفيه الحارث. ولهما أصل من حديث أبي هريرة؛ أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد: الحديث (٣٨٥٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٣١١٢) عن أبي هريرة وفيه [كَالْبَاسِطِ كَفَّهُ بالنَّفَقَةِ لاَ يَقْبِضُهَا]، وقال: ((تفرد به عبدالرزاق)). وأبو داود في السنن: كتاب اللباس: باب ما جاء في إسبال الإزار: شطر حديث طويل لأبي الدرداء: الرقم (٤٠٨٩).

في مالِكَ. فيفعلان ذلكَ؛ فإذا قيلَ لهم: إن هذا ربًا؛ قالوا: هُما سواءٌ؛ والزيادةُ في آخرِ البيع بعد الأجلِ كالزيادة في أوَّل البيع إذا بعتَ بالنسيئةِ سواءً. وليس الأمرُ كما توهَّموا؛ لأن الزيادةَ في الثمنِ في آخر البيعِ لأجْل الإبعاد في الأجَلِ بعدما صارَ الثمنُ دَيناً في الذمة يكون عِوَضاً عن الأجلِ؛ والاعتياضُ عن الأجل باطلٌ، وأما الزيادةُ في الثمنِ في أصل العقدِ فتكون مقابلةً للبيعِ، ويجوزُ بيعُ المبيع بثمنٍ قليل وثمن كثيرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ ؛ أي أحلَّ الزيادةَ في أول البيع وحرَّم الزيادة في آخرِهِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي فمن جاءه زَجْرٌ من ربهِ ونُهيَ عن الرِّبا فانتهَى فلهُ ما مضى من أكلِهِ الرِّبا قبل النهيِ؛ أي لا إثْمَ عليهِ في ذلكَ، وأمرُهُ فيما بقيَ من عمرهِ إلى اللهِ؛ إنْ شاءَ عَصَمَهُ وإن شاءَ لَمْ يَعْصِمْهُ. وقيل: معناهُ: (فَلَهُ مَا سَلَفَ) أي لهُ ما أخذَ من الربا قبل التحريمِ، (وَأمْرُهُ إلَى اللهِ) في المستأنفِ في العفوِ والتجاوز.

وإنَّما لم يقل: فَمَنْ جَاءَتهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبهِ؛ لأن تأنيثَ الموعظةِ ليس بحقيقيٍّ، فيجوزُ تذكيرهُ ويجوز أن ينصرفَ إلى المعنى، كأنه قالَ: فمن جاءَهُ وعظٌ ونُهي من ربهِ عن الرِّبا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ أي من عَادَ إلى أكلِ الربا (فَأوْلَئِكَ أصْحَابُ النَّار هُمْ فِيهَا) دائمون إلى ما شاءَ اللهُ. وقيل: معناهُ: مَن عادَ بعد النهي إلى قولهِ إنَّما البيعُ مثلُ الربا؛ فأولئكَ أهلُ النار هم فيها مقيمون؛ لأن مستحلَّ الربا كافرٌ لإنكارهِ آيةً من كتاب اللهِ تعالى.

وعن أبي هريرةَ ﷺ عن رسول اللهِ ﷺ أنهُ قَالَ: [سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَبْقَى أحَدٌ إلاَّ أكَلَ الرِّبَا، وَإنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ](1). وعن عبدِالله بن مسعودٍ قال: (آكِلُ الرِّبَا وَمُؤَكِّلُهُ وَكَاتِبُهُ وَشَاهِدُهُ إذا عَلِمُوا بهِ؛ مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ

(١) رواه أبو داود في السنن: كتاب البيوع والإجارات: باب في اجتناب الشبهات: الحديث (٣٣٣١). وابن ماجة في السنن: كتاب التجارات: الحديث (٢٢٧٨).

إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)(١). وقال ﷺ: [الرِّبَـا بِضْـعٌ وَسَـبْعُونَ بَابـاً؛ أَدْنَاهَـا كَإتْيَـانِ الرَّجُـلِ أُمَّهُ](٢).

والْخَبَطُ في اللغةِ هو الضربُ على غيرِ استواءٍ؛ يقال: خَبَـطَ البعـيرُ إذا ضـربَ بيدهِ. والْمَسُّ: الجنونُ، يقال: رجلٌ مَمْسُوسٌ؛ أي مجنونٌ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ ؛ معناه: يُـهْلِكُ اللهُ الربا ويذهبُ ببَرَكَتِهِ. والْمَحْقُ: نقصانُ الشيء حالاً بعد حال، ويقال: إنَّ الربا ينقـصُ حالاً بعد حالٍ إلى أن يتلفَ كلُّه. قوله: (وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) أي يقبلُها ويعطـي خَلَفَـها في الدنيا، ويضاعفُ ثوابه في الآخرة واحدةً إلى عشر إلى سبعينَ إلى سبعمائةٍ إلى ما شاءَ الله من الأضعافِ. كما روي عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قـالَ: [إنَّ اللهَ يَقْبَـلُ الصَّدَقَـاتِ وَلاَ يَقْبَلُ مِنْهَا إلاَّ الطَّيِّبَةَ، وَيُرَبيهَا لِصَاحِبهَا كَمَا يُرْبي أحَدُكُمْ مُهْرَهُ وَفَصِيْلَـهُ حَتَّـى أنَّ اللُّقْمَةَ تَصِيْرُ مِثْلَ أحُدٍ](٣).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ ؛ أي يبغـضُ كـلَّ جاحدِ تحريمَ الربا؛ فاجرٍ عاصٍ بأكلهِ واستحلالهِ. وإنَّما قال: (كَفَّار) ولم يقـل: كـافر؛ ليبيِّن أن مستحلَّ الربا مع كونه كافراً كَفَّارٌ للنعمةِ. والأثيمُ: الْمَادِي في الإثمِ، والآثِمُ: الفاعلُ للإثمِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ ؛

---

(١) رواه أبو داود في السنن: كتاب البيـوع: بـاب في آكـل الربـا: الحديـث (٣٣٣٣). والـترمذي في الجامع: أبواب البيوع: الحديث (١٢٠٦)، وقال: حسن صحيح.

(٢) عن أبي هريرة ﷺ؛ أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب التجارات: الحديث (٢٢٧٤). وأخرجـه الطبري في الأوسط: الحديث (٧١٤٧) عن البراء بن عازب، وفي إسناده عمـر بـن راشـد، وهـو ضعيف.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة: الحديث (٣٤٠٢)، وعن عائشـة رَضِـيَ اللهُ عَنْـهَا: الحديـث (٤٢٤٠). وفي مجمـع الزوائـد: ج ٣ ص١١١؛ قـال الهيثمـي: ((حديـث عائشـة رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح)).

معناهُ:(إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) باللهِ وكتبهِ ورسله وتحريمِ الربـا (وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ) فيمـا بينهم وبينَ ربهم، وأتمُّوا الصلواتَ الخمس، وأعطوا الزكـاة المفروضـةَ مـن أموالهـم، فلهُم جزاؤهم وثوابُهم في الآخرة (عِنْدَ رَبهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) إذا ذبحَ المـوتُ (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) إذا أطبقتِ النارُ على أهلها.

قوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي نَفَرٍ مِـنْ ثَقِيْـفٍ ابْنِ مَسْعُودٍ وَحَبِيْبٍ وَرَبِيْعَةٍ وَعَبْدِ يَالَيْلِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عُمَيْرَ الثَّقَفِيِّ، كَانَتْ لَـهُمْ دُيُـونٌ عَلَى بَنِي الْمُغِيْرَةِ؛ وَكَانَ بَنُو الْمُغِيْرَةِ يُرْبُوهُمْ، فَلَمَّا ظَهَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أهْلِ مَكَّةَ وُضِعَ الرِّبَا كُلُّهُ، وكَانَ أهْلُ الطَّائِفِ قَدْ صَالَحُوا عَلَى أنَّ لَهُمْ رِبَاهُمْ مِـنَ النَّـاسِ يَأْخُذُونَـهُ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ رِبَا النَّاسِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عَنْهُمْ لاَ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ، فَقَـالَ ﷺ: [أكْتُبْ فِي آخِرِ كِتَابِهِمْ: أنَّ لَكُمْ مَا لِلْمُسْلِمِيْنَ وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْهِمْ]. فَلَمَّا حَلَّ الأَجَـلُ طَلَبَتْ ثَقِيْفُ مِنْ بَنِي الْمُغِيْرَةِ رِبَاهُمْ؛ فَقَالَتْ بَنُو الْمُغِيْرَةِ: مَا بَالُنَا نَكُونُ أشْقَى النَّاسِ؛ وُضِـعَ الرِّبَا عَنِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَيُؤْخَذُ مِنَّا خَاصَّةً! فَقَالَتْ لَهُمْ ثَقِيْفُ: إنَّا صَالَحْنَا عَلَـى ذلِـكَ، فَاخْتَصَمُوا إلَى أمِيْنِ مَكَّةَ وَهُوَ عَتَّابُ بْنُ أسَيْدٍ، فَلَمْ يَدْرِ مَاذا يَقْضِي بَيْنَهُمْ، فَكَتَبَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَدِيْنَةِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ خِطَاباً لِثَقِيْفٍ)[1].

ومعناها: (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) اخشَوا اللهَ واتركوا (مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا) فإنه لم يَبْقَ غيرُ رِبَاكُمْ (إنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) أي مصدِّقين بتحريم الرِّبا فهذا حكمهُ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ أي إن لم تقبَلُوا أمرَ الله ولم تُقِرُّوا بتحريمِ الربا ولم تتركوهُ، فاعلموا أنكـم كفَّـارٌ يحاربكم اللهُ ورسوله؛ أي يعذِّبكـم الله في الآخـرة بالنـار؛ ويعذِّبكـم رسـولهُ في الدنيـا بالسَّـيفِ. والإذنُ: الإعْلاَمُ، ومن قرأ (فَآذِنُوا) أي فأعلِمُوا أصحـابَكم المتمسـكينَ بمثـل مـا أنتـمْ عليه: أنَّ مَنْ عامَلَ بالربا مستحِلاً له حاربَهم اللهُ ورسوله.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٤٩٠١).

وقيل: معنى الآيةِ: فإن لم تتركُوا ما بقيَ من الربا بعد نزولِ الأمر بتركهِ (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ).

ومثلُ هذا اللفظ لا يوجبُ الإكفارَ؛ لأن لفظَ محاربة الله ورسولهِ يُطلق على ما دونِ الكفر كما في آية قُطَّاعِ الطريقِ. وهذا الحكمُ في آيـة الربـا إنَّمـا هـو مسـتقيمٌ إذا اجتمعَ أهل بلدة لهم مَنَعَةٌ وقوَّةٌ على المعاملةِ بالربـا وكـانوا محرِّمـين لـه، فـإن الإمـامَ يستتيبُهم؛ فإن تابوا وإلا قاتلَهَم. وأما إذا عامَلَ واحد أو جماعةٌ قليلٌ عددهـم معاملـةَ الربا، فإن الإمام يستتيبُهم؛ فإن تابوا وإلا زَجَرَهم وحبسَـهم إلى أن يُظـهروا توبتـهم. وقد روي عن ابن عباس وقتادةَ والربيعِ فيمن أرْبَا: (أنَّ الإمَامَ يَسْتَتِيْبُهُ، فَإنْ تَـابَ وإلاَّ قَتَلَهُ)[1]. فهذا محمولٌ على أن يفعله مُستحلاً له؛ لأنه لا خلافَ بين العلماء أنه ليـسَ بكافرٍ إذا اعتقدَ تحريْمَه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ ؛ أي فـإن رجعتُـمْ عـن استحلال الربـا وأقررتُـم بتحريْمـهِ. ويقال: إنْ تُبْتُمْ عن معاملةِ الربا (فَلَكُمْ رُءُوسُ أمْوَالِكُمْ) التي أسلفْتُموها بـني المغـيرةِ، (لاَ تَظْلِمُونَ) بطلب الزيادة على رأسِ المال، (وَلاَ تُظْلَمُونَ) بحبسِ رأس المال عنكم.

قال ابنُ عباس: (فَلَمَّا نَزَلَتْ هَاتَـانِ الآيَتَـانِ، كَتَـبَ بـِهِمَا رَسُـولُ اللهِ ﷺ إلَـى عَتَّابٍ، فَقَرَأَهُمَا عَلَى ثَقِيْفٍ فَقَالُوا: بَلَى، نَتُـوبُ إلَـى اللهِ فَإنَّـهُ لإيْـذَانٌ لَنَـا بِحَـرْبِ اللهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ طَلَبُوا رُؤُوسَ أمْوَالِهِمْ مِنْ بَنِي الْمُغِيْرَةِ، فَقَالَتْ بَنُو الْمُغِيْرَةِ: نَحْـنُ الْيَـوْمَ أهْلُ عُسْرٍ وَأخِّرُونَا إلَى أنْ تُدْرَكَ الثِّمَارُ، فَأَبَوا أنْ يُؤَخِّرُوهُمْ، فَـنَزَلَ قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ ؛ أي إن كـان المطلـوبُ ذا ضيـقٍ وشدَّةٍ؛ فتأخيرهُ إلى سَعَةٍ ويَسَارٍ[2].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النـص (٤٩٠٣) عـن ابـن عبـاس، وفي النـص (٤٩٠٥) عـن قتادة، وفي النص (٤٩٠٦) عن الربيع.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٩٠١ و٤٩٠٧).

وروي عن ابن عباس وشريحٍ وإبراهيم: (أنَّ الإنْظَارَ إنَّمَا يَجِبُ فِي الدَّيْنِ، يَعْنِي دَيْنَ الرِّبَا خَاصَّةً)(١). وكان شُرَيْحٌ يحبسُ المعسرَ في غيره من الديون(٢). وعن أبي هريرةَ والحسنِ والضحَّاك: (أنَّ ذلِكَ وَاجِبٌ فِي كُلِّ دَيْنٍ) وهذا هو الأَصحُّ(٣)؛ لأنَّ نزولَ الآية في رأسِ مال الربا لا يَمنعُ اعتبارَ سائرِ الديون بها بالاستدلال والقياسِ.

وذهبَ بعضِ النحويِّين: إلى أن الرفعَ في قوله (ذُو عُسْرَةٍ) دليل على أنه ابتداءٌ على معنى: وإن وقعَ ذو عسرةٍ، أو وجد ذو عسرة، ولو كان مختصّاً هذا بالربا لقال: وإنْ كان ذَا عُسْرَةٍ، بالنصب. ويحتملُ أن يكون تقديرُ الرفعِ (وَإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ) غريْماً لكم.

ومن قرأ (مَيْسُرَةٍ) بضمِّ السين، فهي لغةٌ. وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ أنْظَرَ مُعْسِراً أوْ وَضَعَ لَهُ أظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ](٤). وقالَ ﷺ: [مَنْ أحَبَّ أنْ تُسْتَجَابَ دَعْوَتُهُ وَتَنْكَشِفَ كُرْبَتَهُ؛ فَلْيُيَسِّرْ عَلَى الْمُعْسِرِ](٥). وعن أبي بُريدةَ قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ أنْظَرَ مُعْسِراً كَانَ لَهُ بكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ](٦).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ أدَانَ دَيْناً وَهُوَ يَنْوِي أنْ لاَ يُؤَدِّيَهُ فَهُوَ سَارِقٌ](٧). وعن أبي قتادةَ: أنَّ رَجُلاً أتِيَ بِهِ إلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ؛

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٩١٥) عن ابن عباس، وفي النص (٤٩١٦) عن شريح، وفي النص (٤٩١٧) عن إبراهيم.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٩١٦) والنصوص (٤٩١٨).

(٣) عن الضحاك أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٩٢٢)، وعن الحسن: النص الأول من النصوص الرقم (٤٩١٨).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٥٠١٨) عن عون بن عبدالله بن عتبة. وفي النص (٨٨٣) عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) في الدر المنثور: مج ٢ ص١١٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب اصطناع المعروف عن ابن عمر)).

(٦) في الدر المنثور: مج ٣ ص٤١٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد وابن ماجة والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عن بريدة)).

(٧) رواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٨٣٣) عن ميمونة.

فقَالَ:[هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟] قَالُوا: نَعَمْ، فَتَأَخَّرَ وَقَالَ: [صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ]. قَالَ أَبُو قَتَادَةُ: أَنَا أَكْفُلُ بِهِ، فَقَالَ ﷺ: [بِالْوَفَاءِ؟] قَالَ: بِالْوَفَاءِ، فَصَلَّى عَلَيْهِ وَكَانَ عَلَيْهِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ دِرْهَماً أَوْ تِسْعَةَ عَشَرَ دِرْهَماً[(١)].

وعن أبي موسى الأشعريِّ ﷺ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَا مِنْ خَطِيئَةٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ الْكَبَائِرِ مِنْ أَنْ يَمُوتَ الرَّجُلُ وَعَلَيْهِ أَمْوَالُ النَّاسِ دَيْناً فِي عُنُقِهِ، لاَ يُوجَدُ لَهَا قَضَاءٌ][(٢)].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ ؛ أي وإنْ تصَدَّقوا من رأسِ المال فهو أفضلُ (إنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) ثوابَ مَن أنظرَ معسراً أو وضَعَ عنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ ؛ هذا تحذيرٌ من الله عَزَّوَجَلَّ أن يوافي العبادُ ذلك اليومَ على غِرَّةٍ وغفلةٍ وتقصيرٍ في أوامر الله ومخالفتهِ فيما أحلَّ الله وحرَّم، يقول: اخْشَوا عذاب يومٍ ترجعون فيه إلى جزاءِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ ؛ أي توفَّى كلُّ نفسٍ جزاءَ ما عملت من خيرٍ أو شرٍّ، (وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) أي لا يُنقَصُ من حسناتِهم ولا يُزاد في سيئاتِهم.

قرأ أبو عمرٍو ويعقوبُ: (تَرْجِعُونَ) بفتح التاء، واعتبرهُ بقراءة أُبَيّ (وَاتَّقُوا يَوْمًا تَصِيْرُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ). وقرأ الباقون (تُرْجَعُونَ) بضمِّ التاء، اعتباراً بقراءة عبدِالله: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرَدُّونَ فِيهِ إِلَى اللهِ).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٧ ص٢٢: الحديث (٦٢٥٨)، وص٣١: الحديث (٦٢٩٠) عن سلمة بن الأكوع، وفيه: أن أبا قتادة تكفَّل بالدين. وأخرجه البخاري في الصحيح عن أبي سلمة؛ في الصحيح: كتاب الحوالة: باب إن أحال دين الميت على رجلٍ جازَ: الحديث (٢٢٨٩).

(٢) في الفردوس بمأثور الخطاب: ج ٤ ص٤٣: النص (٦١٣٥) علقه الديلمي.

قال ابنُ عباس: (هَذِهِ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا حَجَّ الْبَيْتَ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيْلُ عليه السلام وَهُوَ وَاقِفٌ بعَرَفَةَ بقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآيَةُ[١]، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ هَذِهِ الآيَةُ (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلَى اللهِ). قَالَ[٢]: يَا رَسُولَ اللهِ، ضَعْهَا عَلَىرَأسِ ثَمَانِيْنَ وَمِائَتَي آيَةٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ[٣]، فَقَبضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ بتِسْعَةِ أيَّامٍ)[٤].

قال المفسرونَ: لَمَّا نزلَ على رسول الله ﷺ ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وَإنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[٥] قَالَ: [يَا لَيْتَنِي أعْلَمُ مَتَى ذلِكَ] فأنزلَ اللهُ هذه الآية ﴿إذا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾[٦]، قَالَ: [أمَا إنَّ نَفْسِي نُعِيَتْ إلَيَّ] ثم بكَى بكاءً شديداً، فقيلَ لهُ: يا رسولَ اللهِ، أتبكي من الموتِ وقد غُفِرَ لك ما تقدَّمَ من ذنبكَ وما تأخرَ؟! فَقَالَ: [وَأيْنَ خَوْفُ الْمَطْلَعِ، وَأيْنَ ضِيْقُ الْقَبْرِ وَظُلْمَةُ اللَّحْدِ، وَأيْنَ الْقِيَامَةُ وَالأهْوَالُ] فعاشَ رسولُ الله ﷺ بعد نزول هذه الآيةِ عاماً؛ ثم نزل قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أنفُسِكُمْ﴾[٧] فعاش رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية عَامَهَا بستةِ أشهرٍ.

ثم لَمَّا خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى حَجَّةِ الوداعِ نزلَ عليه في الطريق ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾ إلى آخرِها[٨]، ثم نزلَ بعدَها وهو واقفٌ بعرفةَ ﴿الْيَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآيةَ، فعاشَ بعدها إحدَى وثمانينَ ليلةً، ثم نزل بعدَها آياتُ

(١) المائدة / ٣.

(٢) في أصل المخطوط:(قالوا)، والصحيح كما أثبتناه:(قال) لأن القائل هو جبريل عليه السلام، ثم إن ترتيب آيات السورة توقيف.

(٣) في الدر المنثور: ج ٢ ص١١٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو عبيد وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، من طرق عن ابن عباس)). وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٣٢٤؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقاة)).

(٤) اختلف أهل التفسير والأثر في مدة بقاء الرسول ﷺ بعدها، فمنهم من قال: عاش واحداً وثمانين يوماً، وقيل: واحداً وعشرين يوماً. وسيأتي تفصيل بيانه في الفقرة بعدها.

(٥) الزمر / ٣٠.　(٦) النصر / ١.

(٧) التوبة / ١٢٨.　(٨) النساء / ١٧٦.

الرِّبَا. ثم نزلَ بعد ذلكَ (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ) وهي آخرُ آيةٍ نزلت، فعاشَ رسولُ الله ﷺ بعدَها إحدَى وعشرين ليلةً، قال ابن جُريج: (تِسْعَ لَيَالٍ). وقال ابن جُبير ومقاتلُ: (سَبْعَ لَيَالٍ). ثم ماتَ يومَ الاثنين لليلتين مضت من شهرِ ربيعٍ الأول حينَ زاغَتِ الشمسُ سنةَ إحدَى عشرةَ من الهجرةِ[1].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (لَمَّا حَرَّمَ الرِّبَا أَبَاحَ السَّلَمَ) وَظَاهِرُ الآيَةِ عَلَى كُلِّ دَيْنٍ مِنْ سَلَمٍ وَغَيْرِهِ. ومعنى الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا) تبايعتم بالنَّسيئةِ إلى وقتٍ معلوم فاكتبُوا الدَّين بأجلهِ وأشْهِدُوا عليه كَيْلا تحدِّث نفسُ أحدِكم بالطمعِ في حقِّ صاحبه، ولا يقعُ شكٌّ في مقدارهِ ولا جحودٌ ولا نسيانٌ. والدَّين: ما كانَ مؤجَّلاً، والعينُ: ما كان حَاضِراً.

واختلفُوا في هذه الكتابةِ أنَّها فَرْضٌ أو ندبٌ؟ فذهبَ أبو سعيدٍ الخدري والحسنُ والشعبيُّ: (أَنَّ الْكِتَابَةَ والإِشْهَادَ عَلَى الدُّيُون الآجِلَةِ كَانَا وَاجِبَيْنِ بهَذِهِ الآيَةِ، ثُمَّ نُسِخَا بقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾)[2]. وقال ابنُ عباس: (لاَ وَاللهِ، إنَّ آيَةَ الدَّيْنِ مُحْكَمَةٌ مَا فِيْهَا نَسْخٌ). وهو قولُ الربيعِ وكعبٍ، وهذا هو الأصحُّ؛ لأن الأمرَ بالكتابةِ والإشهادِ إنَّما وردَ مقروناً بقولهِ: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾، ويستحيلُ ورودُ الناسخِ والمنسوخِ معاً في شيءٍ واحد، فكأنَّ المرادَ بالأمرِ الندبُ.

والفائدةُ في قوله: (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) بيانُ إعلامِ وجوب الأجلِ؛ فإن جهالةَ الأجلِ في الْمُبَاعَاتِ تفسدُها. وقال بعضُهم: إن الكتابةَ فرضٌ واجبٌ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص٣٧٥؛ قال القرطبي: ((ذكره أبو بكر الأنباري في كتاب (الردّ.))). وفي الدر المنثور: ج ٢ ص١١٦؛ قال السيوطي: ((أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، ... وذكره)).

(٢) حديث أبي سعيد الخدري ﷺ؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٩٦٣)، وعن الشعبي في النص (٤٩٦٢ و٤٩٥٧)، وفي معناه عن الحسن في النص (٤٩٦٠).

وقال ابن جُريج: (مَنْ أدَانَ دَيْناً فَلْيَكْتُبْ، وَمَنْ بَاعَ فَلْيُشْهِدْ)(١). يدلُّ عليه ما رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: [ثَلاَثَةٌ يَدْعُونَ اللهَ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ: رَجُلٌ كَانَ لَهُ دَيْنٌ فَلَمْ يُشْهِدْ، وَرَجُلٌ أعْطَى سَفِيْهاً مَالاً وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أمْوَالَكُمْ﴾(٢)، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ امْرَأةٌ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا](٣).

وقال قومٌ: هو مستحبٌّ؛ وإن كتَبَ فحسنٌ وإن تركَ فلا بأسَ، كقولهِ تعالى: ﴿وَإذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾(٤) وقولهِ تعالى: ﴿فَإذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا﴾(٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾؛ قرأ الحسنُ:(وَلِيَكْتُبْ) بكسرِ اللام وهذه لامُ الأمرِ، وهي إذا كانت مفردةً ((سُكِّنَتْ)) طلباً للخفَّةِ، ومنهم من يكسِرُها فليس فيها إلا الحركةُ، وإذا كان قبلَها (واو) أو (فاء) أو (ثُمَّ) فأكثرُ العرب على تسكينِها طلباً للخفَّةِ. ومنهم من يكسِرُها على الأصلِ.

ومعنى هذه الآيةِ: وَلْيَكْتُبْ كاتبٌ بين البائعِ والمشتري؛ والطالب والمطلوب بالحقِّ والإنصافِ، فلا يزادُ فيه ولا ينقصُ منه، ولا يقدِّمُ الأجلَ ولا يؤخِّرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾؛ أي لا يَمْتَنِعُ أن يكتبَ كما ألْهَمَهُ اللهُ شُكراً لِما أنعمَ عليه حيث علَّمهُ الكتابةَ وأحوجَ غيرهُ إليهِ؛ ﴿ فَلْيَكْتُبْ ﴾.

واختلفوا في وجوب الكتابة على الكاتِبِ؛ والشهادةِ على الشاهدِ؛ فقال مجاهدُ والربيع: (وَاجِبٌ عَلَى الْكَاتِبِ انْ يَكْتُبَ)(٦). وقال الحسنُ: (ذَلِكَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي لاَ يَقْدِرُ فِيْهِ عَلَى كَاتِبٍ غَيْرِهِ، فَيَضُرُّ بصَاحِبِ الدَّيْنِ إن امْتَنَعَ، فَإنَّ الْكِتَابَةَ حِيْنَئِذٍ عَلَيْهِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٩٥٠).

(٢) النساء / ٥.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: كتاب النكاح: باب المرأة الصالحة والسيئة الخلق: الأثر (١٧١٣٨) عن أبي موسى الأشعري. والحاكم في المستدرك: تفسير سورة النساء: الحديث (٣٢٣٥)، وقال: ((حديث صحيح على شرط الشيخين)).

(٤) المائدة / ٢. (٥) الجمعة / ١٠.

(٦) عن مجاهد أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٠٣٣).

فَرِيْضَةٌ. وَإِنْ قَدَرَ عَلَى كَاتِبٍ غَيْرِهِ فَهُوَ فِي سَعَةٍ إِذَا قَامَ بِهِ غَيْرُهُ)[١]. وقـال الضحَّـاك: (هَذَا ((كَانَ))[٢] وَاجِباً، فَنَسَخَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ﴾). وقال السديُّ: (هُوَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ فِي حَالِ فَرَاغِهِ). وقال الشعبيُّ: (هُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ كَالْجِهَادِ). والصحيحُ: أن الكتابةَ غيرُ واجبةٍ في الأصلِ على الْمُتَدَايِنَيْنِ، فإذا لم تكن واجبةً عليهم؛ فكيفَ تكونُ واجبةً على الأجنبي الذي لا حُكْمَ له في هذا العقدِ ولا سببَ؟!

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ ؛ يعني الْمَدْيُونَ المطلوبَ يُقِرُّ على نفسهِ بلسانهِ لِيُعْلِمَ ما عليهِ ويُملي على الكاتب. والإِمْلاَلُ والإِمْلاَءُ: بمعنى واحدٍ؛ وهما لُغتان فصيحتان جاء بهما القرآنُ. ثم خَوَّفَهُ اللهُ تعالى فقالَ: (وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ) أي وَلْيَخْشَ اللهَ ولا يُنْقِصُ من الحقِّ الذي عليهِ شيئاً.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ ؛ أي فإن كان المطلوبُ الذي عليه المالُ سفيهاً أو ضعيفاً؛ أي خفيفَ العقلِ جاهلاً بالإملاء؛ لا يُمَيِّزُ تمييزاً صحيحاً، قالهُ مجاهدُ. وقال السديُّ: (يَعْنِي عَاجِزاً لاَ يَسْتَطِيْعُ أنْ يُمِلَّ لِعُجْمَةٍ أوْ زَمَانَةٍ). وقَوْلُهُ تَعَالَى: (ضَعِيفًا) أي ضَعِيفاً في العقلِ مثلَ الصبيِّ والمرأةِ أو شيخاً كبيرَ السنِّ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يُمِلَّ هُوَ) يعني لِمَرَضٍ أو خَرَسٍ أو حَبْسٍ لا يُمكِّنهُ حضورَ الكتاب أو يجهلُ ما لهُ وعليهِ. قولهُ: (فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بالْعَدْل) أي وَلِيُّهُ الذي يقومُ بأمرهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (بالْعَدْل) أي بالحقِّ. وقال ابنُ عباس والربيعُ ومقاتل: (فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّ الْحَقِّ) وهو صاحبُ الدَّينِ؛ لأنه أعلمُ بدَينه يُملُّ بالعدلِ والصدقِ والحق والإنصافِ.

---

(١) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٠٢٦).
(٢) ((كان)) ليست في أصل المخطوط.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ ؛ يعني أشْهِدُوا على الحقِّ شهيدين من الأحرار البالغينَ دون الكفار والعبيدِ والصبيان، وهذا مذهبُ مالكٍ وأبي حنيفة والشافعيِّ وسفيانَ وأكثرِ الفقهاءِ. وأجازَ شُريح وابن سيرين شهادةَ العبيد، وأجازَ بعضُهم شهادتَهم في الشيءِ التافه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ ؛ الآيةُ، أي فإن لم يكُن الشاهدان رجلَين فليكن رجلٌ وامرأتان. قولُهُ: ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ ؛ أي مِمَّنْ ترضون عدالتَه وأمانتَه. وَالْمَرْضِيُّ: مَن يجتمعُ فيه ثلاثةُ أشياء:

أحدُها: العدالةُ، وأصلُها الإيْمان واجتنابُ الكبائر ومراعاةُ حقوق الله من الواجباتِ والمسنوناتِ وَصِدْقُ ((الْحَدِيْثِ))(١) وأداءُ الأمانة.

والثاني: نَفْيُ التهمةِ؛ نحو أن لا يكونَ المشهودُ له ولداً ولا والداً ولا زوجةً ولا زوجاً، فإن شهادةَ هؤلاء غيرُ مقبولة لِما ذكرنا، وإن كانوا عُدُولاً مَرْضِيِّيْنَ.

الثالثُ: التيقُّظُ وقلةُ الغفلة وأن لا يكون كثيرَ الغلطِ.

قال النخعيُّ: (الرَّجُلُ الْعَدْلُ: هُوَ مَنْ لَمْ يَظْهَرْ فِيْهِ رِيْبَةٌ). وقال الشعبيُّ: (هُوَ مَنْ لاَ يُطْعَنُ عَلَيْهِ فِي بَطْنٍ وَلاَ فَرْجٍ). وقال الحسنُ: (هُوَ مَنْ لَمْ يُعْلَمْ لَهُ خِيَانَةٌ).

وقالَ ﷺ: [لاَ تَجُوزُ شَهَادَةُ خَائِنٍ وَلاَ خَائِنَةٍ؛ وَلاَ مَجْلُودٍ؛ وَلاَ ذِي حِقْدٍ عَلَى أخِيْهِ؛ وَلاَ مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُورٍ؛ وَلاَ الْخَادِمَ مَعَ أهْلِ الْبَيْتِ](٢). وعن ابن عباسٍ قال: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الشَّهَادَةِ؟ فَقَالَ:[أتَرَى هَذِهِ الشَّمْسَ؟] فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ:[عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ أوْ دَعْ](٣).

---

(١) فراغ في الأصل.

(٢) في كنز العمال: (١٧٧٥٤-١٧٧٥٩)، والحديث عن ابن عمر وعائشة وابن عمرو وسليمان بن موسى، أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأقضية: باب مَن ترد شهادته: الحديث (٣٦٠٠-٣٦٠٢). والترمذي في الجامع: أبواب الشهادات: الحديث (٢٢٩٨) وضعفه. وابن ماجة في السنن: كتاب الأحكام: باب من لا تجوز شهادته: الحديث (٢٣٦٦). والدارقطني في السنن: ج٤ ص٢٤٤. برواياته: كتاب الأقضية والأحكام: الحديث (١٤٣-١٤٧).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الأحكام: باب الصدق طمأنينة والكذب ريبة: الحديث=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ ؛ معناهُ: أن تُذَكِّرَ الذاكرةُ الناسيةَ إن نَسِيَتْ، ومعنى تَضِلَّ: تَنْسَى، كقولهِ تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾[1]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَتُذَكِّرَ) معطوفٌ على (تَضِلَّ). وقرأ الأعمشُ: (إِنْ تَضِلَّ) بكسرِ الهمزة (فَتُذَكِّرُ) بالرفعِ، ومعناهُ: الخبرُ أو الابتداءُ. وموضع (تَضِلَّ) جُزِمَ بالجزاءِ، إلا أنَّهُ لا تَبِيْنُ فيه للتضعيفِ، (فَتُذَكِّرُ) رَفْعاً؛ لأن ما بعدَ (فاء) الخبرِ مبتدأ. وقيل في تفسيرِ الآيةِ: إنِ امتنعتْ إحدى المرأتين عن أداءِ الشهادة تُعِظُهَا الأخرى حتى تَشْهَدَ.

ومَنْ قرأ (فَتُذْكِرَ) بالتخفيفِ فالإذكارُ والتذكيرُ بمعنى واحد. وقيل في معنى التحقيق: تجعلُها ذِكراً؛ أي يقومان مقامَ رجلٍ. قرأ زيدُ بن أسلم: (فَتُذَاكِرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى) من المذاكرةِ. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرٍو ويعقوبُ: (فَتُذْكِرَ) بالتخفيفِ. وقرأ الباقون (فَتُذَكِّرَ) بالتشديدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾ ؛ أي لا يَمتنعوا إذا دُعُوا إلى إقامةِ الشهادة عند الحكَّام، وهذا قولُ مجاهدٍ وعطاءٍ وعكرمةَ وابن جبير والضحاكِ والسديِّ. وقال بعضُهم: هذا في تحمُّل الشهادةِ؛ وهو أمرُ إيجابٍ أيضاً.

قال قتادةُ: (كَانَ الرَّجُلُ يَطُوفُ فِي الْحَيِّ الْعَظِيْمِ فِيْهِ الْقَوْمُ؛ فَيَدْعُوهُمْ إلَى الشَّهَادَةِ؛ فَلاَ يَتْبَعُهُ أحَدٌ مِنْهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[2].

وقال الشعبيُّ: (هُوَ مُخَيَّرٌ فِي تَحَمُّلِ الشَّهَادَةِ إذَا وُجِدَ غَيْرُهُ، فَإذَا لَمْ يُوجَدْ غَيْرُهُ وَجَبَ عَلَيْهِ التَّحَمُّلُ)[3]. وقال بعضُهم: هذا أمرُ ندبٍ؛ وهو مخيَّر في جميع الأحوال، وهو قولُ عطاء. وقال المغيرةُ: (قُلْتُ لإبْرَاهِيْمَ: إنِّي أدْعَى إلَى الشَّهَادَةِ؛ وَإنِّي أخَافُ

=(٧١٢٧)؛ وقال: ((هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه))، وتعقبه الذهبي في مختصره؛ فقال: ((بل واهٍ)). معلول بـ (محمد بن سليمان) و(عمرو بن مالك البصري).

(١) الشعراء / ٢٠.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص(٤٩٩١)، وعن الربيع مثله في النص(٤٩٩٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٤٩٩٤).

أنْ أنْسَى، قَالَ: فَلاَ تَحْمِلْ إنْ شِئْتَ)[١]. وقال الحسنُ: (هَذِهِ الآيَةُ فِي التَّحَمُّلِ وَالإقَامَةِ إذا كَانَ فَارغاً)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ﴾ ؛ أي لا تَمَلُّوا أن تكتبوا الحقَّ قليلاً كان أو كثيراً إلى محِله، يقالُ: سَأَمْتُ أسْأَمُ سَئَامَةً؛ إذا مللْتُ، قال زهيرُ[٣]:

سَئِمْتُ تَكَالِيْفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِيْنَ حَوْلاً لاَ أبَا لَكَ يَسْأَمِ

وقال لَبِيْدُ[٤]:

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَسُؤَالِ هَذَا النَّاسِ كَيْفَ لَبِيْدُ؟

و(أنْ) في موضعِ نصبٍ من وجهين؛ إن شئتَ جعلتهُ مع الفعلِ مصدراً؛ وأوقعت السَّئَامَةَ عليهِ؛ تقديرهُ: ولا تَسْأمُوا كِتَابَتَهُ. وإن شئتَ نصبهُ بنَزعِ الخافضِ، و(الهاء) راجعةٌ إلى الحقِّ؛ أي ولا تَسْأمُوا مِن أنْ تكتبوهُ.

وقرأ السلمي: (وَلاَ يَسْأمُوا) بالياءِ، وقوله تعالى: (صَغِيرًا أوْ كَبيرًا) انتصبَ من وجهين؛ أحدُهما: على الحالِ من الهاءِ. والثاني: أن يجعلَه خبراً لـ (كَانَ) المحذوفةِ؛ تقديرهُ: صغيراً كانَ الحقُّ أو كَبيراً.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾ أي الكتابُ أعْدَلُ عند الله وأحصَى للأجلِ وأحفظُ للشهادة وأقربُ أن لا يشُكُّوا في مقدار الحق ومقدار الأجل. وفي هذا دليلٌ أنه لا يجوزُ إقامةُ الشهادة إلا مع زوال الريب، كما روي عن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: [إذا رَأيْتَ مِثْلَ الشَّمْسِ فَاشْهَدْ وَإلاَّ فَدَعْ][٥].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٠٠٥).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٠١٠).
(٣) البيت من معلقة زهير؛ ينظر: الديوان: ص٢٩. شرح الشنقيطي (٨٦).
(٤) البيت للبيد؛ ينظر: ديوان لبيد (٣٥). المحتسب: ج ١ ص١٨٩.
(٥) تقدم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ ؛ قرأ عاصمٌ (تِجَارَةً) بالنصب على خبرِ كانَ، وأضمرَ اسْمَها؛ تقديرهُ: إلا أن تكونَ المداينةُ تجارةً أو المبايعةُ تجارةً. وقرأ الباقون بالرفعِ لوجهين؛ أحدُهما: أن يكونَ الكَوْنُ بمعنى الوقوعِ؛ تقديرهُ: إلا أن تكونَ تجارةٌ؛ فحينئذٍ لا خبرَ لهُ، والثاني: أن تُجعل تجارةٌ اسمَ يكونُ، والخبر (تُدِيْرُونَهَا)؛ تقديرهُ: إلا أن تكونَ تجارةٌ حاضرةٌ دائرةٌ بينكم.

ومعنى الآيةِ: إلاَّ أن تقعَ تجارةٌ حالَّة يداً بيدٍ، ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ ؛ في تركِ الكتابةِ في تلك التجارةِ؛ لأنهُ ليس فيه أجلٌ ولا نسيئة، وهذا تَوْسِعَةٌ من الله للعبادِ كيلا يُضَيِّقَ عليهم أمرَ بيعاتِهم في المأكولِ والمشروب والأشياء التي تَمُسُّ حاجتهم إليها في أكثرِ الأوقات. ويَشُقُّ عليهم كتابةُ جميعها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ ؛ أي أشْهِدُوا على حقوقكم إذا بعْتُمْ واشتريتم، وهذا محمولٌ على البياعاتِ النفيسة، فأما القدرُ اليسير الذي ليسَ في العادةِ التوثيق بالإشهاد فيه نحوُ شراء الخبزِ والبقلِ وما جرى مَجْراه؛ فغيرُ داخلٍ في هذا الخطاب.

قال الضحَّاك: (قَوْلُهُ: (وَأَشْهِدُوا إذَا تَبَايَعْتُمْ) هَذَا الإشْهَادُ وَاجِبٌ فِي صَغِيْرِ الْحَقِّ وَكَبِيْرِهِ؛ وَنَقْدِهِ وَنَسِيْئَتِهِ ولَوْ كَانَ عَلَى تَافِهٍ). وقال آخرون: هو أمرُ ندبٍ؛ إن شاءَ أشهدَ وإن شاء لم يشهدْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ ؛ يحتملُ وجهين؛ أحدُهما: لا يُضَارُّ الكاتبُ ولا الشاهدُ الطالبُ والمطلوب؛ يعني لا يكتبُ الكاتبُ إلا بالحقِّ، ولا يشهدُ الشاهد إلا بالحقِّ. تقديرهُ: لا يُضَارِرُ على النهيِ. والثاني: على اسمِ ما لم يسمَّ فاعلهُ؛ أي لا يُدعى الكاتبُ وهو مشغولٌ لا يُمكنه تركُ شغلهِ إلا بضررٍ يدخل عليه، وكذلك لا يُدْعَى الشاهدُ ومجيئه يضُرُّ به.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ﴾ ؛ أي لا تقصدوا الْمُضَارَّةَ بعد نهيِ الله تعالى عنها، فإنهُ إثْمٌ وخروجٌ من أمرِ الله. وقَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ أي (وَاتَّقُوا اللهَ) في الضِّرَار ولا تعصُوه

فيما أمركم به، (وَيُعَلِّمُكُمْ اللهُ) ما به قَوَامُ دِينكم ودُنياكم، ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ من أعمالِكم، ﴿ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ ؛ يعلم ما تعملونَ في الكتابةِ والشهادةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ الآيةُ، معناه: إذا كنتم مسافرين (وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا) يكتبُ الوثيقة بالحقِّ، (فَـ) الوثيقةُ (رِهَانٌ) يقبضُها الذي له الحقُّ.

قرأ ابنُ عباس وأبو العالية ومجاهدُ:(كِتَاباً) يعني الصحيفةَ والدَّواةَ؛ قالوا: لأنه ربَّما يجدُ الكاتبَ ولا يجد المرادَ والصحيفةَ والدواةَ. وقرأ الضحَّاك: (كُتَّاباً) على جمعِ الكاتب. وقرأ الباقون:(كَاتِباً) وهو المختارُ لموافقة الْمُصْحَفِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ) قرأ ابنُ عباس ومجاهدُ وابن كثير وأبو عمرو: (فَرُهُنٌ). وقرأ عكرمةُ وعبدالوارث: (فَرَهْنٌ) بإسكان الهاء. وقرأ الباقون: (فَرِهَانٌ) وهو جمعُ رهنٍ مثل نَعْلٍ ونِعَالٍ؛ وجَبَلٍ وجِبَالٍ. والرُّهُنُ: جمعُ رهان وهو جمع الجمعِ، قاله الفرَّاءُ والكسائي. وقال أبو عبيدٍ: (هُوَ جَمْعُ رَهْنٍ، مِثْلُ سَقْفٍ وسُقُفٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ ؛ أي إنْ كان الذي عليه الحقُّ أميناً عند صاحب الحق فلم يرتهن منه شيئاً لِثقتِهِ وحُسن ظنِّه؛ (فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ) أي فليؤدِّ المطلوبُ أمانته بأن لا يبخَسَ ولا يجحدَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ ﴾ ؛ أي لا تكتُمُوها عند الحكَّام ولا تَمتنعوا عن أدائِها، ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ ؛ أي فاجرٌ سَرِيْرَتُهُ، وأضافَ الإثْمَ إلى القلب وإن كان الآثِمُ هو الكاتِمَ؛ لأن اكتسابَ الإثم بكتمان الشهادة يقعُ بالقلب؛ وهذا أبلغُ في الوعيدِ وأحسنُ في البيانِ؛ لأن كاتِمَ الشهادة يلحقهُ الإثم من وجهين؛ أحدُهما: العزمُ على أن لا يؤدِّي. والثاني: تركُ أدائها باللسان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾ ؛ أي عليمٌ بما تعملون به من كتمانِ الشهادةِ وإقامتها؛ وأداءِ الأمانة والخيانةِ فيها؛ عالِمٌ لا يخفَى عليه شيء مِمَّا تفعلونَ.

ولا خلافَ بين العلماء في جواز الرهن في الْحَضَرِ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ [اشْتَرَى مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَاماً إلَى أجَلٍ وَرَهَنَهُ دِرْعَهُ](١). والفائدةُ في ذكرِ السفرِ في الآية: أن الأغلبَ من حال السفر عدمُ الشهود والكُتَّاب؛ فخُصَّ الرهنُ بحال السفرِ. وعن مجاهد: (أنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ الرَّهْنَ فِي الْحَضَرِ).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ ؛ اختلفَ المفسرونَ في هذه الآيةِ؛ فقال قومٌ: هي خاصَّةٌ؛ واختلفوا في خصوصِها، فقال بعضُهم: نزلت في كتمان الشهادة وإقامتِها. يعني: (وَإنْ تُبْدُوا مَا فِي أنفُسِكُمْ) أيُّها الشهودُ مِن كتمان الشهادةِ أو تُخفوا الكتمانَ (يُحَاسِبْكُمْ بهِ اللهُ). وهذا قولُ الشعبيِّ وعكرمةَ، وروايةُ مجاهد عن ابنِ عباس، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى فيما قبلها: ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ الآيةُ.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّها عامَّةٌ في الشهادةِ وفي غيرها، ثم اختلفُوا في وجهِ عمومِها؛ فقال بعضُهم: هي منسوخةٌ.

وروي أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ جَاءَ أبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَنَاسٌ مِنَ الأنْصَار إلَى رَسُول اللهِ ﷺ؛ فَجَثَوا عَلَى الرُّكَبِ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَزَلَ عَلَيْنَا آيَةٌ أشَدُّ مِنْ هَذِهِ؛ إنَّ أحَدَنَا لَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ بمَا لاَ يُحِبُّ أنْ يَثْبُتَ فِي قَلْبِهِ - يعني يحدثُ نفسَهُ بأمرٍ من المعصيةِ ثُم لا يعملُ بها - وَإنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نُحَدِّثُ بهِ نُفُوسَنَا إذا هَلَكْنَا؟ فَقَالَ ﷺ: [هَكَذَا نَزَلَتْ]، فَقَالُوا: كُلِّفْنَا مِنَ الْعَمَلِ مَا لاَ نُطِيْقُ، فَقَالَ ﷺ: [أفَتَقُولُونَ كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟!] فَقَالُوا: بَلْ سَمِعْنَا وَأطَعْنَا يَا رَسُولَ الله. وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ ذلِكَ؛ فَمَكَثُوا حَوْلاً، فَأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا﴾(٢) فَنَسَخَتْ مَا قَبْلَهَا. فَقَالَ ﷺ: [إنَّ اللهَ تَجَاوَزَ

---

(١) أخرجه البخاري عن علي ﷺ في الصحيح: كتاب البيوع: باب شراء النبي ﷺ بالنسيئة: الحديث (٢٠٦٨)، وفي كتاب السلم: باب الرهن في السلم: الحديث (٢٢٥٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج١ ص٢٣٣. ومسلم في الصحيح:كتاب الإيمان: باب أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يكلف إلا بما يطاق: الحديث (١٩٩/ ١٢٥)، وإسناده صحيح.

لأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أنْفُسَهَا مَا لَمْ يَعْمَلُوا أوْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ][(١)]. وهذا قولُ ابنِ مسعودٍ وأبي هريرةَ وعائشةَ بروايةِ ابنِ جبير وعطاءٍ وابن سيرين وقتادةَ والكلبيِّ وشيبانَ.

وقال بعضُهم: لا يجوزُ أن تكون هذه الآيةُ منسوخةً؛ لأنَّها خبرٌ من عندِ الله؛ والخَبَرُ لا يحتملُ النسخَ؛ لأنه خلَفٌ؛ تَعَالَى اللهُ عَنْ ذلِكَ عُلُوّاً كَبيْراً، لكنَّ المرادَ بالآيةِ إظهارُ العمل وإخفاؤه. وقال الربيعُ: (هَذِهِ الآيَةُ مُحْكَمَةٌ لَمْ يَنْسَخْهَا شَيْءٌ، فَإنَّ اللهَ تَعَالَى يُعَرِّفُ عَبْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: إنَّكَ أخْفَيْتَ فِي صَدْرِكَ كَذَا وَكَذَا، يُحَاسِبُهُ عَلَى مَا أسَرَّ وَأعْلَنَ مِنْ حَرَكَةٍ فِي جَوَارِحِهِ وَهَمِّهِ فِي قَلْبِهِ، فَهَكَذَا يَصْنَعُ بكُلِّ عِبَادِهِ، ثم يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)[(٢)].

وقيل: لا يؤاخذُ المؤمنَ بما حاسبَهُ من ذلك، فمعناهُ: وإن تُظهروا ما في أنفسكم من المعاصي أو تُضمروا إرادتَها في أنفسكم فتخفوها (يُحَاسِبْكُمْ بِـهِ اللهُ) أي يخبرُكم بها ويحاسبُكم عليها، ثم يغفرُ لمن يشاء ويعذبُ من يشاء، وهذا قولُ الحسنِ والربيع وروايةُ الضحاكِ عنِ ابن عباس، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولا﴾[(٣)].

وقالَ آخرون: معنى الآيةِ: أنَّ اللهَ يحاسبُ خلقه بجميع ما أبدَوا من أعمالهم وأخفَوا ويعاقبهم عليه؛ غيرَ أنَّ معاقبتَه إياهم على ما أخفَوا مما لم يعملوا بها بما يحدثُ في الدنيا من النوائب والمصائب والأمور التي يحزنون عليها ويألَمون بها؛ مثل الحمَّى وغير ذلك حتى الشوكةُ يشاكُها والشيء يضيعُ فيفقده ويُرَاعُ عليه، ثم يجدهُ[(٤)]. وهذا قولُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب العتق: باب الخطأ والنسيان: الحديث (٢٥٢٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب تجاوز الله عن حديث النفس: الحديث (٢٠١/ ١٢٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٠٨٨).

(٣) الإسراء / ٣٦.

(٤) في أصل المخطوط: (يحدثه) بدل (يجده).

(٥) روى الضحاك عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: يَا رَسُولَ اللهِ مَا حَدَّثَ الْعَبْدُ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ شَرٍّ كَانَتْ مُحَاسَبَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: [يَا عَائِشَةُ هَذِهِ مُعَاتَبَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْعَبْدَ بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ=

وقال بعضُهم: معناهُ: (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ) مـن الأعمـالِ الظـاهرة، (أَوْ تُخْفُوهُ) من الأحوالِ الباطنة، (يُحَاسِبْكُمْ بِـهِ اللهُ) العـائدِ علـى أفعـال العـارفِ علـى أحوالهِ[(١)].

وقال بعضُهم: إن اللهَ تعالى يقولُ يوم القيامة: هذا يَوْمٌ تُبْلَـى السَّـرَائِرُ وتُخـرَجُ الضمائر، وإن كتَّابي لم يكتبوا إلا ما ظهرَ من أعمالكم، وأنا المطَّلِعُ على سرائركم ممـا لم يعلموهُ ولا يكتبوه، فأنا أخبرُكم بذلك وأحاسبُكم؛ لتعلموا أنه لا يَعْزِبُ عنه مثقالَ ذرَّة من أعمالكم، ثم أغفرُ لمن شئت وأعذبُ من شئت. فأما المؤمنونَ فيخبرُهم بذلك كله ويغفرُ لهم، ولا يؤاخذهم بذلك إظهاراً لفضلهِ. وأما الكافرون فيخبرُهم ويعاقبهم عليها إظهاراً لعدلهِ[(٢)]. فمعنى الآيةِ:(وَإِنْ تُبْـدُوا مَـا فِـي أَنفُسِـكُمْ) فتعمَلُـوا بـه، (أَوْ تُخْفُوهُ) مما أضمرتُـم وأسـررتُم ونَوَيتـم، (يُحَاسِـبْكُمْ بِـهِ اللهُ) ويعرِّفْكُـم إياهُ ويغفـر للمؤمنين، ويعذبُ الكافرين، يدلُّ عليه قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (يُحَاسِـبْكُمْ بِـهِ اللهُ) ولم يقـل: يؤاخذكُم به الله. والمحاسبةُ غير المعاقبة فالحسابُ ثابت، والعقاب ساقطٌ. وقال الحسنُ ابن مسلم: (يُحَاسِبُ اللهُ الْمُؤْمِنَ بِالْمِنَّةِ وَالْفَضْلِ؛ وَالْكَافِرَ بِالْحُجَّةِ وَالْعَدْلِ).

وقيلَ في تأويل الآيةِ: أنَّها وردت فيما يؤاخذُ به العبدُ فيما بينه وبينَ الله تعـالى، وتأويلُ قولهِ ﷺ:[إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَعْمَلُوا أَوْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ][(٣)]: إنَّما وردَ فيما يلزمُ العبدَ من أحكامِ الدنيا، فلا يقعُ عِتْقُهُ ولا طلاقهُ ولا بيعـه ولا هبتهُ بالنيَّة ما لم يتكلَّمْ.

=الْحُمَّى وَالنَّكْبَةِ، وَحَتَّى الشَّوْكَةَ وَالْبِضَاعَةَ يَضَعُهَا فِي كُمِّهِ فَيَفْقِدُهَـا، فَيَرُوعُ لَـهَا فَيَجِدُهَـا فِـي ضِبْنِهِ، حَتَّى أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَخْرُجُ مِنْ ذُنُوبِهِ كَمَا يَخْرُجُ التِّبْرُ الأَحْمَرُ مِـنَ الْكِيْرِ]. أخرجـه الإمـام أحمد في المسند: ج ١ ص٢١٨.

(١) وذلك أن أفعال الجوارح إذا خلت عن أفعال القلوب، لا يترتب عليها عقـاب، كأفعـال النـائم والساهي، ويدل عليه حديث علي ﷺ عن النبي ﷺ قـال: [إِنَّ اللهَ تَجَـاوَزَ لأُمَّتِـي عَـنِ الْخَطَـأ وَالنِّسْيَان، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ].

(٢) جامع البيان: تفسير الآية: النصوص (٥٠٨٢-٥٠٨٧) عن الضحاك عن ابن عباس.

(٣) تقدم.

ومِن نظائر هذه الآيةِ: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾(١) وقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢). ويدلُّ على ذلك أن مَن أحبَّ ما يبغضُه اللهُ، أو أبغضَ ما يحبُّه اللهُ كان معاقَباً على ذلك وإن لم يعمل إلا بقلبهِ.

وقال بعضُهم: إن الإخفاءَ في هذه الآية أن يُضْمِرَ على السُّوء ويهمَّ بـهِ، ثـم لا يصِلُ إليه ولا يتمكَّنُ منه. وهذا القولُ حسنٌ جداً اختارهُ جماعةٌ من المفسرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ رفعَهُما أبو جعفر وابن عامر والحسن وعاصمُ ويعقوبُ على الابتداء؛ أي فهو يغفرُ. ونصبَهُما ابن عباسٍ على الصرفِ. وجزمَهُما الباقون عطفاً على (يُحَاسِبْكُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ ؛ يعني من المغفرةِ والعقوبة.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ الآية، لَمَّا سبقَ في السورة ذكرُ أحكام كثيرة أثنى اللهُ على مَن آمن بها وقَبِلَهَا، وقال عزَّ من قائلٍ: (آمَنَ الرَّسُولُ) بجميعِ الأحكامِ التي أنزلَها اللهُ تعالى، وكذلك المؤمنونَ كلُّهم آمنوا باللهِ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ ﴾ ؛ إنَّما أتى بالملائكةِ لأن حَيّاً من خُزاعة كانوا يقولون: الملائكةُ بناتُ اللهِ، فقالَ ﷺ: [وَالْمُؤْمِنُونَ يَقُولُونَ: إنَّ الْمَلاَئِكَةَ عِبَادُ اللهِ].

قولهُ: ﴿ وَكُتُبِهِۦ ﴾ ؛قرأ ابن عباس وعكرمةُ والأعمش وحمزة والكسائيُّ وخَلَفُ: (وَكِتَابهِ) بالألفِ. وقرأ الباقون (وَكُتُبهِ) بالجمعِ، وهو ظاهرٌ كقوله (وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ). وللتوحيدِ وجهان؛ أحدُهما: أنَّهم أرادوا القرآنَ خاصَّةً، والثاني: أنَّهم أرادوا جميعَ الكُتُب؛ كقول العرب:كَثُرَ الدرهمُ والدينار في أيدي الناسِ، يريدون الدراهمَ والدنانيرَ. يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ﴾(٣).

---

(١) البقرة / ٢٢٥. (٢) النور / ١٩. (٣) البقرة / ٢١٣.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرُسُلِهِۦ ﴾ ؛ قرأ الحسن: (وَرُسْلِهِ) بسكون السين لكثرةِ الحركات؛ ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ ؛ أي لا نفعلُ كما فعلَ أهلُ الكتاب آمنوا ببعضِ الرسل وكفروا ببعضٍ. وفي مُصحفِ عبدِالله: (لاَ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ). وقرأ جُرير بن عبدالله وسعيدُ بن جبيرٍ ويحيى بن يَعْمُرَ ويعقوبُ: (لاَ يُفَرِّقُ) بالياءِ، بمعنى لا يفرِّقُ الكلُّ، ويجوزُ أن يكون خبراً عن الرسول. وقرأ الباقون بالنون على إضمار القول؛ تقديرهُ: قالوا لا نُفرِّقُ، كقولهِ تعالى: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾[1]؛ أي يقولون: سلامٌ عليكم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ؛ أي سَمعنا قولَك وأطَعنا أمرَكَ. وقيل: معنى (وَأطَعْنَا) قَبلْنَا ما سَمعنا؛ بخلافِ ما قالتِ اليهودُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ ؛ أي اغْفِرْ غُفْرَانَكَ يَا رَبَّنَا. وقيل: معناهُ: نسألُكَ غفرانَك. والأول مصدرٌ، والثاني مفعولٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإلَيْكَ الْمَصِيرُ) أي نحنُ مقرُّون بالبعثِ. ومعنى قوله: (وَإلَيْكَ) أي إلى جَزَائِكَ؛ وهذا كما قالَ عَزَّ وَجَلَّ حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿إنِّي ذاهِبٌ إلَى رَبي سَيَهْدِينِي﴾[2] أي إلى حيثُ أمرُ رَبي.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ ؛ قرأ إبراهيمُ بنُ أبي عبلةَ: (إلاَّ وَسِعَهَا) بفتحِ الواو وكسرِ السين على الفعلِ؛ يريدُ إلا وَسِعَهَا أمرُهُ.

ومعنى الآيةِ: (لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا) فَرْضاً من فروضها من صومٍ أو صلاة أو صدقةٍ أو غير ذلك من حديثِ النفسِ؛ إلا مقدارَ طاقتها كما قالَ ﷺ لِعِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ: [صَلِّ قَائِماً؛ فَإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِداً؛ فَإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِكَ تُومِئُ

---

(١) الرعد / ٢٣-٢٤.

(٢) الصافات / ٩٩.

إيْمَاءً][(١)]. قال قومٌ: لو كلَّفَ اللهُ العبادَ فوقَ وسعِهم لكان ذلك لهُ؛ لأن الخلقَ خلقهُ والأمرَ أمره، ولكنه أخبرَ أنه لا يفعلهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) يعني النفسَ لها جزاءُ ما عملت من الخيرِ والعملِ الصالح؛ أي لها أجرهُ وثوابه؛ وعليها وزْرُ ما اكتسبت من المعصيةِ والعمل السيِّءِ لا يؤاخذُ أحدٌ بذنب أحدٍ؛ ولاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى.

والفرقُ بين الكَسْب والاكْتِسَاب: أن الكسبَ فعلُ الإنسان لنفسهِ ولغيره، والاكتسابَ ما يفعلهُ لنفسه خاصةً. وقيل: لا فرقَ بينهما في اللغةِ. فعلى القول الأول وُصِفَ المسيءُ بالاكتساب؛ لأن وزرَهُ لا يَعْدُوهُ؛ ومعصيتهُ لا تضُرُّ غيرَه، ووُصِفَ المحسنُ بالكسب؛ لأن غيرَهُ يشاركه في ثوابهِ بالهداية والشفاعةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ؛ أي لا تُعاقبنا إن نسينا طاعتَكَ أو أخطأنا في أمركَ. وقال الكلبيُّ: (إنْ جَهِلْنَا أوْ تَعَمَّدْنَا)، فذهبَ إلى الخطأ الذي هو ضِدُّ الصواب لا ضدَّ القصدِ. يقال: خَطَأَ إذا تعمَّدَ؛ وأخطأ إذا سَهَى، وقد يقالُ: أخطأ إذا تعمَّد. وقيل: معنى الآيةِ: إن تَرَكْنَا أمراً أو اكتسبنا خطيئةً.

والنسيانُ بمعنى التركِ معروفٌ في الكلامِ كما في قولهِ تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[(٢)] أي تركوا ذِكْرَ اللهِ وأمرَهُ فتركهم في العذاب. والمرادُ بالمؤاخذةِ والنسيان سقوطَ الإثمِ في الآخرة. فأما في حكمِ الدنيا فلا يرتفعُ التكليفُ منه إذا ذكرَهُ بعد النسيان كما قالَ ﷺ: [مَنْ نَامَ عَنْ صَلاَةٍ أوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إذا ذَكَرَهَا][(٣)]. وكذلك الخطأُ مرفوعُ الإثمِ في الآخرة وهو تأويلُ الخبرِ المرويِّ عن رسول الله ﷺ: [وَرُفِعَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٤٢٦. والبخاري في الصحيح: كتاب تقصير الصلاة: باب إذا لم يطق قاعداً: الحديث (١١١٧). وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: الحديث (٩٥٢). والترمذي في الجامع: أبواب الصلاة: باب ما جاء أن صلاة القاعد على النصف: الحديث (٣٧٢).

(٢) التوبة / ٦٧.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٦١٢٥)، وإسناده صحيح.

عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ][1]. فأمَّا في أحكامِ الدنيا فيتعلقُ به الحكمُ؛ لأن الله نصَّ على لزومِ قتلِ الخطأ في إيجاب الدية والكفارةِ.

قال الكلبيُّ: (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إذَا نَسُوا شَيْئاً مِمَّا أُمِرُوا بِهِ أَوْ أَخْطَأُوا عُجِّلَتْ لَهُمُ الْعُقُوبَةُ، فَيُحَرَّمُ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ مَطْعَمٍ أَوْ مَشْرَبٍ عَلَى حَسْبِ ذَلِكَ الدِّيَةُ، فَأَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِيْنَ أَنْ يَسْأَلُوهُ تَرْكَ مُؤَاخَذَتِهِمْ). وقال ابنُ زيدٍ: (قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنْ نَسِينَا) شَيْئاً مِمَّا افْتَرَضْتَهُ عَلَيْنَا، (أَوْ أَخْطَأْنَا) شَيْئاً مِمَّا حَرَّمْتَهُ عَلَيْنَا).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ ؛ أي لا تحملْ علينا ثِقْلاً؛ ويقال: عَهْداً؛ كما حَمَلْتَهُ على بني إسرائيلَ بجُرمٍ منهم أمرتَهم بقتلِ بعضِهم بعضاً؛ وحَرَّمْتُ عليهم الطيباتُ بظُلمهم، وكما كانوا مأمورين بأداءِ رُبُعِ أموالِهم في الزكاةِ ونحو ذلك من الأمور التي كانت تُثْقِلُ عليهم. ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذلِكُمْ إِصْرِي﴾[2] أي عَهْدِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ ؛ أي لا تُحمِّلنا ما يشقُّ علينا من الأعمال، وهذا كما يقالُ: لا أطيقُ كلامَ فلان، ولا أطيقُ هذا الأمرَ؛ أي لا أحملهُ إلا بمشقَّةٍ. هذا هو معنى الآيةِ؛ لأن اللهَ تعالى لا يكلِّفُ أحداً شيئاً لا يكونُ ذلك في قدرتهِ. وقيل: معناه: (مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ) من العذاب، وقيل:هو حديثُ النفسِ والوَسْوَسَةِ. وعن مكحول أنَّهُ (الْغُلْمَةُ)[3]. وعن بعضِهم أنه كان يقولُ: اللَّهُمَّ أعِذْنِي وإخوتِي من شرِّ الغُلْمَةِ، فإنَّها ربَّما جَرَّتْ إلى جهنم. وقال ابنُ عبدالوهاب:(يَعْنِي الْعِشْقَ). وعنْ إبراهيمَ في قوله تعالى: (رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ): قال يعقوبُ: (يَعْنِي الْحُبَّ).

وقال بعضُهم: حضرتُ ذا النون المصريّ في مجلسٍ له، فتكلمَ ذلك اليومِ في محبَّة الله عَزَّ وَجَلَّ، فماتَ أحدَ عشرَ نفساً في المجلس؛ فصاحَ رجلٌ من المريدين فقال:

---

(١) تقدم.   (٢) آل عمران / ٧١.

(٣) عن الدر المنثور: ج ٢ ص١٣٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم عن مكحول؛ قال: الغربة والغلمة والإنعاظ)). ومعنى الغُلمة: هيجان شهوة النكاح؛ أي شدَّة شهوة المواقعة بين الرجل والمرأة.

ذكرتَ محبةَ الله، فاذكُرْ محبةَ المخلوقين. فتأوَّهَ ذو النونُ تأوُّهاً شديداً وشقَّ قميصه نصفين، وقال: آهٍ.. علقت رهونُهم؛ واستعبرت عيونُهم؛ وخالفوا السُّهَادَ؛ وفارقوا الرقادَ؛ فليلهم طويلٌ؛ ونومُهم قليلٌ؛ أحزانُهم لا تتغيرُ؛ وهمومهم لا تفقدُ؛ باكيةٌ عيونُهم؛ قريحة جفونُهم.

وقال يحيى بن معاذ: (لَوْ كَانَتِ الْعُقُوبَةُ بِيَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَا عَذَّبْتُ الْعُشَّاقَ؛ لأَنَّ ذُنُوبَهُمْ اضْطِرَارٌ لاَ اخْتِيَارٌ). وقال بعضُهم: (رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ) يعني شَمَاتَةَ الأعداءِ؛ قال الشاعرُ:

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الْفَتَى ... فَتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الْحُسَّادِ
إنَّ الْمَصَائِبَ تَنْقَضِي أيَّامُهَا ... وَشَمَاتَةُ الْحُسَّادِ بِالْمِرْصَادِ

وقيل: هو الفرقةُ والقطيعة، نعوذُ باللهِ العظيمِ منهما، يقال: قطعُ الأوصالِ أيسرُ من قطعِ الوِصَالِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾ ؛ أي تَجَاوَزْ عن تقصيرِنا وذنوبنا ولا تفضحنا (وَارْحَمْنَا)؛ فإنَّنا لا ننالُ العملَ بطاعتك إلا بمعونتكَ، ولا نترُكُ المعصيةَ إلا برحمتِكَ. وقيل: معنى: (وَاعْفُ عَنَّا) أي اترُكْ عنَّا العقوبةَ، ومعنى العفو: التركُ. وقوله تعالى: (وَاغْفِرْ لَنَا) أي استُرْ لنا ذنوبَنا وعيوبَنا،(وَارْحَمْنَا) أي أنْعِمْ علينا بالجنةِ والثواب، وقيل: معنى الآية: (وَاعْفُ عَنَّا) من الْمَسْخِ (وَاغْفِرْ لَنَا) من الْخَسْفِ (وَارْحَمْنَا) من الغرق؛ أي لا تفعلْ بنا ما فعلتَ ببعض من تقدَّمَنا من الأممِ. وقيل: معناهُ: (وَاعْفُ عَنَّا) الصغائرَ (وَاغْفِرْ لَنَا) الكبائرَ (وَارْحَمْنَا) بتثقيلِ الميزان. وقيلَ: معناهُ: (وَاعْفُ عَنَّا) في سكراتِ الموت (وَاغْفِرْ لَنَا) في ظلمةِ القبور (وَارْحَمْنَا) في أهوال القيامة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ ؛ أنتَ وليُّنا وناصرُنا ومتولِّي أمورنا، (فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) أي أعِنَّا عليهم في إقامةِ الحجة وإظهار الدين كما وعدتَنا.

روي عن عبدالله بن عباس: أنَّ النَّبيَّ ﷺ [لَمَّا قَرَأَ ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ قَالَ: قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ، فَلَمَّا قَرَأَ: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أوْ أخْطَأْنَا﴾ قَالَ:

لاَ أُوَاخِذُكُمْ، فَلَمَّا قَرَأَ ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، قَالَ: لاَ أَحْمِلُ عَلَيْكُمْ، فَلَمَّا قَرَأَ ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قَالَ: لاَ أُحَمِّلُكُمْ، فَلَمَّا قَرَأَ ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: قَدْ عَفَوْتُ عَنْكُمْ؛ وَغَفَرْتُ لَكُمْ؛ وَرَحِمْتُكُمْ؛ وَنَصَرْتُكُمْ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْنَ][1].

وكان معاذُ بن جبلٍ إذا خَتَمَ هذه السورةِ، قال: (آمِيْن)[2].

وعن الحسنِ والضحاك ومجاهدٍ وجماعة من المفسرين: أنَّ قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ...﴾ إلى آخر السورة كان في قصةِ المعراج؛ قالوا: لَمَّا انْتَهَى النَّبِيُّ ﷺ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى قَالَ لَهُ جِبْرِيْلُ: إِنِّي لَمْ أُجَاوِزْ هَذَا الْمَكَانَ، وَلَمْ يُؤْمَرْ أَحَدٌ بِالْمُجَاوَزَةِ غَيْرُكَ، فَامْضِ أَنْتَ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [فَمَضَيْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى] فَأَشَارَ جِبْرِيْلُ عليه السلام أَنْ سَلِّمْ عَلَى رَبِكَ، فَقُلْتُ: [التَّحِيَّاتُ للهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ] فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ لأُمَّتِي حَظٌّ فِي السَّلاَمِ، فَقُلْتُ: [السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِيْنَ] فَقَالَ جِبْرِيْلُ وَأَهْلُ السَّمَوَاتِ كُلُّهُمْ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِهِ﴾. فَأَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُشْرِكَ أُمَّتَهُ فِي الْكَرَامَةِ وَالْفَضِيْلَةِ؛ فَقَالَ ﷺ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ الآيَةُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا﴾ الآيَةُ، فَقَالَ جِبْرِيْلُ عليه السلام عِنْدَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: سَلْ تُعْطَ، فَقَالَ ﷺ: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ بِهَذِهِ الآيَاتِ لِيُعْلِمَ أُمَّتَهُ بِذَلِكَ أَوْ يُعْلِمَهُمْ كَيْفَ يَدْعُونَ اللهَ تَعَالَى].

وَقَد تَقَدَّمَ فَضْلُ السُّورَةِ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

آخر تفسير سورة (البقرة) والحمد لله رب العالمين

(١) رواه الطبري في جامع البيان: النص (٥١٢٧) بمعناه، وبلفظه في النص (٥١٣٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥١٣٥).

فهرس المجلد الأول

الموضوع	الصفحة
* الاستهلال	٥
* مقدمة في علم أصول التفسير	٩
– مفهوم القرآن الكريم	٩
– جمع القرآن	١٦
– رسم المصحف	٢٣
– فصل منه: أن الرسول محمد ﷺ لم يكن يكتب	٢٥
– اعجاز القرآن	٣٠
– التفسير والتأويل	٣٨
– تاريخ نشوء التفسير وأسبابه	٤٢
– أسلوب المفسرين في التفسير	٤٦
– مصادر التفسير	٥٠
– حاجة الأمة اليوم إلى مفسرين	٥٥
* ترجمة المصنف	٧٥
– اسمه المصنف ونسبه ومولده	٧٥
– شيوخه وتلاميذه	٧٥
– سعة علم المصنف وأقوال العلماء فيه	٧٧
– وفاته	٧٨
– مؤلفاته	٧٨
* مقدمة التحقيق	٧٩
– توصيف المخطوط ونسبته إلى مؤلفه	٧٩
– منهج الإمام الطبراني في التفسير	٨٨
* منهج تحقيق التفسير والعمل به	٩١
* السيرة الذاتية والعلمية للمحقق	٩٢
* شكر وتقدير	٩٥
* صور المخطوطة	٩٦

فهرس السور والآيات

سورة الفاتحة	
الآيات	**الصفحة**
٧-١	١١٣
سورة البقرة	
الآيات	**الصفحة**
٤٦-١	١٢٠
٦٥-٤٧	١٦١
٩٢-٦٦	١٨٣
١١٨-٩٣	٢٣٥
١٢٨-١١٨	٢٣٥
١٧٦-١٣٩	٢٥٦
١٩٥-١٧٧	٢٩١
٢٠٩-١٩٦	٣٣٥
٢٢٠-٢١٠	٣٥٩
٢٢٩-٢٢١	٣٨١
٢٣٧-٢٣٠	٤١١
٢٤٥-٢٣٧	٤١٣
٢٥٢-٢٤٦	٤٤٩
٢٧٠-٢٥٣	٤٦٧
٢٨٦-٢٧١	٤٨٧

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإِمَامِ الْحَافِظِ العَلاَّمَةِ أبي الْقَاسِمِ
سُلَيمَانِ بْنِ أحْمَدَ بنِ أيُّوبَ الطَّبَرانِيِّ
(٢٦٠-٣٦٠) مِنَ الهِجْرَةِ

ضَبَطَهُ عَلَى أصْلِهِ وَخرَّجَ أحَادِيثَهُ وعلَّقَ عَلَيهِ
هِشَامُ بْنُ عَبدِالكَرِيمِ البَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

المجلد الثاني

دار الكتاب الثقافي
الأردن-إربد

بسم الله الرحمن الرحيم

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٨ / ١/٩٢)

٢٢٢
الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (٢٦٠-٣٦٠هـ)
التفسير الكبير: تفسير القرآن العظيم/ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)؛ تحقيق هشام عبدالكريم البدراني الموصلي.- إربد : دار الكتاب الثقافي ، ٢٠٠٨.
صدر على شكل ستة أجزاء
(...) ص.
ر.أ (٩٢ / ١ / ٢٠٠٨).
الواصفات:/ التفاسير//القرآن//القرآن الكريم/

• تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

دار الكتاب الثقافي
للطباعة والنشر والتوزيع
الأردن / إربد
شارع إيدون إشارة الإسكان
تلفون
(٧٢٦١٦١٦ - ٢-٠٠٩٦٢)
فاكس
(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٥٠٣٤٧)
ص.ب (٦٢٠٣٤٧-٢١١)

Dar- AlKitab
PUBLISHERS
Irbid - Jordan
Tel:
(00962-2-7261616)
Fax:
(00962-2-7250347)
P. O. Box: (211-620347)
E-mail:
Dar_ Alkitab1@hotmail.Com

ردمك ISBN 978-9957-492-02-1

دار المتنبي للنشر والتوزيع
الأردن – إربد – تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

وَهِيَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ حَرْفٍ وَخَمْسُمِائَةٍ وَعِشْرُونَ حَرْفاً، وَثَلاثَةُ آلافِ كَلِمَةٍ وَأَرْبَعمِائَةٍ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَمِائَتَا آيَةٍ.

قالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ آلِ عِمْرَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ صَلَّى اللهُ وَمَلاَئِكَتُهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَغِيبَ الشَّمْسُ][1] وقالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ آلَ عِمْرَانَ أُعْطِيَ بكُلِّ آيَةٍ مِنْهَا أَمَاناً عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ] وقال ﷺ: [تَعَلَّمُوا الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ؛ فَإنَّهُمَا الزَّهْرَاوَان وَإنَّهُمَا يَأْتِيَان يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ مَلَكَيْنِ يَشْفَعَانِ لِصَاحِبِهِمَا حَتَّى تُدْخِلاَهُ الْجَنَّةَ]، وفضائلها أكثرُ مِن أنْ تُحصى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾، قال ابنُ عبَّاس معناه: (أنَا اللهُ أعْلَمُ)، ويقال: هو قَسَمٌ أقْسَمَ اللهُ بأنه واحدٌ لا شريكَ لـه ولا معبودَ للخلقِ سواهُ، وقد تقدَّم تفسيرُ الحروف المقطَّعة في أول سورة البقرَة.

قال أنسُ رضي الله عنه: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي وَفْدِ نَجْرَانَ وَكَانُوا سِتِّينَ رَاكِباً قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِيْهِمْ أرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلاً مِنْ أشْرَافِهِمْ، وَفِي الأَرْبَعَةَ عَشَرَ ثَلاثَةٌ يَؤُولُ أمْرُهُمْ إلَيْهِمْ: الْعَاقِبُ أمِيْرُ الْجَيْشِ وَصَاحِبُ مَشُورَتِهِمْ الَّذِيْ لاَ يَصْدُرُونَ إلاَّ عَنْ رَأيِهِ وَاسْمُهُ عَبْدُ الْمَسِيْحِ، وَالثَّانِي: اسْمُهُ الأَيْهَمُ صَاحِبُ رَحْلِهِمْ، وَأبُو حَارِثَةَ بْنُ عَلْقَمَةَ إمَامُهُمْ وَصَاحِبُ مَدَارِسِهِمْ، وَكَانَ قَدْ دَرَسَ كُتُبَهُمْ حَتَّى حَسُنَ عِلْمُهُ فِيْهِمْ فِي دِيْنِهِمْ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٧ ص٩٢: الحديث (٦١٥٣)، وقال: تفرد به محمد بن ماهان. وفي الدر المنثور: مج ٢ ص١٤٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه الطبراني في الوسط بسند ضعيف)).

فَدَخَلُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَسْجِدِهِ وَقْتَ صَلاَةِ الْعَصْرِ وَعَلَيْهِمْ ثِيَابُ الْحِبَرَاتِ[(١)]؛ جُبَبٌ وَأَرْدِيَةٌ، فَقَامُوا وَأَقْبَلُوا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَوَجَّهُوا إلى نَاحِيَةِ الْمَشْرِق، فَقَالَ ﷺ لِلْعَاقِبِ وَالأَيْهَم: [أَسْلِمَا][(٢)]. فَقَالاَ: قَدْ أَسْلَمْنَا قَبْلَكَ، فَقَالَ: [كَذَبْتُمَا، يَمْنَعُكُمَا عَنِ الإِسْلاَمِ دَعْوَاكُمَا للهِ وَلَداً وَعِبَادَتِكُمَا الصَّلِيْبَ وَأَكْلِكُمَا الْخِنْزِيْرَ] قَالاَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَلَداً للهِ فَمَنْ أَبُوهُ ؟ وَخَاصَمُوهُ جَمِيْعاً فِي عِيْسَى عليه السلام، فَقَالَ ﷺ: [أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لاَ يَكُونُ وَلَداً إلاَّ وَهُوَ يُشْبِهُ أَبَاهُ ؟] قَالُوا: بَلَى، قَالَ: [أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، وَأَنَّ عِيْسَى يَأْتِي عَلَيْهِ الْفَنَاءُ ؟] قَالُوا: بَلَى، قال: [أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا قَيِّمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ[(٣)] يَحْفَظُهُ وَيَرْزُقُهُ؟] قَالُوا: بَلَى، قَالَ: [فَهَلْ يَمْلِكُ عِيْسَى مِنْ ذلِكَ شَيْئاً؟] قَالُوا: لا، قَالَ: [أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ؟] قَالُوا: بَلَى، قَالَ: [فَهَلْ يَعْلَمُ عِيْسَى مِنْ ذلِكَ شَيْئاً غَيْرَ مَا عَلَّمَهُ اللهُ؟] قَالُوا: لاَ، قَالَ: [فَإِنَّ رَبَّنَا صَوَّرَ عِيْسَى فِي الرَّحِمِ كَيْفَ شَاءَ، وَرَبُّنَا لاَ يَأْكُلُ وَلاَ يَشْرَبُ وَلاَ يُحْدِثُ، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ ذلِكَ؟] قَالُوا: بَلَى، قَالَ: [أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ عِيْسَى حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَمَا تَحْمِلُ النَّاسَ الْمَرْأَةُ، ثُمَّ وَضَعَتْهُ كَمَا تَضَعُ الْمَرْأَةُ، ثُمَّ غُذِّيَ كَمَا يُغْذَى الصَّبِيُّ، فَكَانَ يَطْعَمُ وَيَشْرَبُ وَيُحْدِثُ ؟] قَالُوا: بَلَى، قَالَ: [فَكَيْفَ يَكُونُ هَذا كَمَا زَعَمْتُمْ ؟] فَسَكَتُوا. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيْهِمْ أَوَّلَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ إلى بِضْعٍ وَثَمَانِيْنَ آيَةً فِيْهَا)[(٤)].

فقالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (الم. اللهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) الحيُّ: هو الدائمُ الذي لا ندَّ لهُ، الذي لا يَموت ولا يزولُ، والقيُّومُ: القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبَت.

---

(١) الْحِبَرَاتُ – بكسر الحاء وفتح الباء -: جمع حَبَرَةٍ؛ وهو ضربٌ مُوَشًّى من بُرودِ اليمَن.

(٢) في جامع البيان: النص (٥١٣٦) ذكر الطبري: ((قالا: قد أسلَمنا. قال: [إنَّكُمَا لَمْ تُسْلِمَا، فَأَسْلِمَا] قالا: بلَى أسلَمنا قبلَك...)).

(٣) في جامع البيان: النص (٥١٣٧): [يَكْلَؤُهُ وَيَحْفَظُهُ وَيَرْزُقُهُ].

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥١٣٧) عن الربيع، وقد أدرج الطبراني الروايتين برواية واحدة.

وأكثرُ القُرَّاء على فتحِ الميم من (الم) وللفتحِ وجهَان؛ أحدُهما: أنـهُ لَمَّـا كـانت الميمُ بعدَ ياء ساكنة استثقلوا فيها السكونَ فحرَّكوها إلى الفتحِ؛ لأنَّ ذلك أخفُّ نَحْـوُ: أيْنَ وكَيْفَ. والثانِي: أنهُ ألْقِيَ عليها فتحةُ الهمزةِ من ألفِ (الله) وهذا جائزٌ في الهجـاء وإنْ كان لا يجوزُ مثله في الكلامِ الموصول من حيـثُ إنَّ حـروفَ الهجـاء مبنيـةٌ علـى الوقفِ، ومَن قرأ بتسكين الميمِ فعلى أصلِ حروف الهجـاء أنَّـها مبنيـةٌ علـى الوقـوفِ والسكون.

قوله عَزَّوَجَــلَّ: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، قـرأ ابراهيمُ بن أبي عبلة: (نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ) بتخفيف الزاي، وقـرأ البـاقون بالتشـديد، ونصبَ الياءَ لأنَّ القرآنَ كان ينْزل مُنَجَّماً شيئاً بعد شيء، والتنْزيل مرَّةً بعد مرَّةٍ. قـال اللهُ تعـالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ ﴾ ؛ لأنَّـهما نَزَلَتَـا دفعـةً واحـــدة. ومعنى الآية: نزَّلَ عليكَ يا مُحَمَّدُ القرآنَ بالصدقِ لإقامةِ أمر الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مُصَدقاً لِّمَا بَينَ يَدَيهِ)؛ أي مُوَافِقاً لِما تقدَّمَه مـن التـوراة والانجيـلِ وسائرِ كتب الله تعالى في الدُّعاء إلى توحيدِ الله، وبيان أقَاصِيص الأنبياءِ والأمر بالعدل والإحسَان وسائرِ ما لا يجري فيه النَّسْخُ وبعض الشـرائع. وانتصَـبَ (مُصَدِّقـاً) علـى الحالِ من الكتاب .

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإنْجِيلَ) أي أنــزلَ التـوراة جملـةً علـى موسـى، والإنجيل جملة على عيسى ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ القـرآن، ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ ؛ أي بيانـاً ونوراً وضياءً لمن تبعه. وموضع (هُدًى) نصب على الحال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ ؛ يعني القرآنَ، وأمَّا ذِكْرُهُ لبيانِ أنهُ يُفَرِّقُ بين الحقِّ والباطل، ومتى اختلفَ فوائدُ الصفاتِ علىموصوفٍ واحد لم يكن ذِكْـرُ الصفـةِ الثانية تَكْراراً، بل تكونُ الثانيةُ في حُكْمِ المبتدلات لكلِّ صفة فـائدةٌ ليسـت للأخـرى، والصفةُ الأولى تفيدُ أنَّ من شأنِهِ أن يُكْتَبَ، والصفةُ الثانية تفيدُ أنَّ من شأنه أن يُفَـرِّقَ بين الحق والباطلِ. وقيل: إنَّ كلَّ كتاب لله فهو فرقانٌ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾، معناهُ: إنَّ في كُتُب اللهِ ما يدلُّ على صدق قولِكَ؛ فمَنْ جَحَدَ بآياتِ الله وهي العلاماتُ الْهَادِيَةُ إليه الدَّالَّةُ على توحيدهِ فأولئكَ لَهم عذابٌ شديدٌ، (وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) أي ذو نِقْمَةٍ يَنْتَقِمُ ممن عصاهُ.

ثم حذرَهم عن التلبُّس والاستتار عن المعصية، فقالَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾، أي لا يخفَى عليه قولُ الكفَّار وعملُهم، يُحصي كلَّ ما يعملونَه فيجازيهم عليه في الآخرةِ.

وفائدةُ تخصيصِ الأرض والسماء وإنْ كان اللهُ لا يَخفى عليه شيءٌ بوجهٍ من الوجوه: أنَّ ذِكْرَ الأرضِ والسماء أكبرُ في النفسِ وأهولُ في الصدر، فذكرَه على وجه الأهوال، إذ كان الغرضُ به التحذير.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾؛ أي خلقكم في أرحامِ الأُمَّهات كيف يشاءَ من لَوْنٍ وطُولٍ وقِصَرٍ وعِظَمٍ وصُغْرٍ وذُكُورَةٍ وأنُوثَةٍ وَحُسنٍ وقُبحٍ وسعيدٍ أو شَقِيٍّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي لا مُصَوِّرَ ولا خالقَ إلاّ هو. ومعنى العزيز: الْمَنِيْعُ في سلطانهِ، لا يغالَبُ ولا يُمانَعُ، ومعنى الحكيم: الْمُحْكِمُ في تدبيرهِ وقضائه في عبَاده، وأفعالُ الله كلُّها شاهدةٌ بأنه الواحدُ القديْمُ العالِمُ القادرُ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾، قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: هُوَ الَّذِي أنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مِنْهُ آيَاتٌ وَاضِحَاتٌ مُبيِّنَاتٌ لِلْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ هُنَّ أصْلُ الْكِتَابِ الَّذِي أنْزِلَ عَلَيْكَ يُعْمَلُ عَلَيْهِ فِي الأَحْكَامِ، وَهُنَّ أمٌّ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيْلِ وَالزَّبُور وَكُلِّ كِتَابٍ) نحوُ قولهِ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[1].

(١) الانعام / ١٥١ .

وقَوْلُهُ تَعَالَى:(وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) أي ومنهُ آياتٌ أُخَرُ اشتبهَت على اليهودِ مثلُ ﴿الم﴾ و ﴿المص﴾. وقيلَ: يشبهُ بعضُها بعضاً.

واختلفوا في الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ، فقال قتادةُ والربيعِ والضحَّاك والسديُّ: (الْمُحْكَمُ هُوَ النَّاسِخُ الَّذِي يُعْمَلُ بِهِ، وَالْمُتَشَابهُ هُوَ الْمَنْسُوخُ الَّذِي يُؤْمَنُ بِهِ وَلاَ يُعْمَلُ بِهِ)[١]. وعن ابنُ عباس قال: (مُحْكَمَاتُ الْقُرْآنِ: نَاسِخُهُ، وَحَلاَلُهُ؛ وَحَرَامُهُ، وَحُدُودُهُ؛ وَفَرَائِضُهُ؛ وَأَوَامِرُهُ[٢]، وَالْمُتَشَابِهَاتُ: مَنْسُوخُهُ، وَمُقَدَّمُهُ وَمُؤَخَّرُهُ، وَأَمْثَالُهُ وَأَقْسَامُهُ)[٣]. وقال مجاهدُ وعكرمة: (الْمُحْكَمُ: مَا فِيْهِ الْحَلاَلُ وَالْحَرَامُ، وَمَا سِوَى ذلِكَ مُتَشَابهٌ)[٤]، وقال بعضُهم: الْمُحْكَمُ هو الذي لا يحتملُ من التأويلِ إلاّ وَجْهاً وَاحِداً، وَالْمُتَشَابهُ مَا احْتَمَلَ وُجُوهاً.

وقال ابنُ زيد: (الْمُحْكَمُ مَا ذكَرَهُ اللهُ مِنْ قِصَصِ الأَنْبِيَاءِ مِثْلَ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَإبْرَاهِيْمَ وَلُوطٍ وَشُعَيْبَ وَمُوسَى عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، وَالْمُتَشَابهُ هُوَ مَا اخْتَلَفَ فِيْهِ الأَلْفَاظُ مِنْ قِصَصِهِمْ عِنْدَ التِّكْرَار كَمَا فِي مَوْضِعٍ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ ﴿قُلْنَا احْمِلْ﴾[٥] وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿فَاسْلُكْ ﴾[٦]، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْعَصَا: ﴿فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾[٧]، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿فَإِذا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾[٨]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٩] ونحو﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[١٠] وَنَحْوِ ذلِكَ)[١١].

---

(١) اللفظ للربيع؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: النص(٥١٦٩) والنصوص (٥١٧١)، وعن قتادة في النص (٥١٦٧)، وعن الضحاك في النصوص (٥١٧٠ و٥١٧١).

(٢) في جامع البيان: نقله الطبري بدل (وأوامره) بلفظ (وما يؤمن به، ويعمل به) وأضاف إلى المتشابهة: (وما يؤمن به، ولا يعمل به).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥١٦٤).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥١٧٢).

(٥) هود / ٤٠ . (٦) المؤمنون / ٢٧.

(٧) طه/ ٢٠ . (٨) الاعراف/ ١٠٧.

(٩) الرحمن/ ١٣ . (١٠) المرسلات/ ١٥ .

(١١) أخرجه الطبري بلفظ قريب في جامع البيان: النص (٥١٧٤).

وقال بعضُهم: الْمُحْكَمُ ما عرفَ العلماءُ تأويلَه وفهموا معانيــه، وَالْمُتَشَـابهُ مـا ليسَ لأحدٍ إلى علمهِ سبيلٌ مما استأثرَ الله بعلمه، نحوُ: خروجِ الدجَّال؛ ونزولِ عيسـى؛ وطلوع الشمس من مغربها؛ وقيامِ الساعة؛ وفناء الدنيا ونحوها[١].

وقال ابنُ كيسان: (الْمُحْكَمَاتُ حُجَجُهَا وَاضِحَةٌ؛ وَدَلاَئِلُهَا وَاضِحَةٌ؛ لاَ حَاجَـةَ لِمَنْ سَمِعَهَا إلَى طَلَب مَعْنَاهَا، وَالْمُتَشَابهُ هُوَ الَّذِي يُـدْرَكُ عِلْمُـهُ بـالنَّظَرِ، وَلاَ تَعْـرِفُ الْعَوَامُّ تَفْصِيْلَ الْحَقِّ فِيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ).

وقال بعضُهم: الْمُحْكَمُ ما اجْتُمِعَ على تأويلِهِ، والمتشابهُ ما ليس فيه بيانٌ قاطع.

وقال محمدُ بن الفضلِ: (هُوَ سُورَةُ الإِخْلاَصِ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيْهَا إلاَّ التَّوْحِيْدُ فَقَـطْ، وَالْمُتَشَـابهُ نَحْـوُ قَوْلِـهِ ﴿الرَّحْمَـنُ عَلَـى الْعَـرْشِ اسْـتَوَى﴾[٢] وَنَحْـوُ قَوْلِـهِ ﴿خَلَقْـتُ بِيَدَيَّ﴾[٣]، وَنَحْوُ ذلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إلَى تَأْوِيْلِهَا فِي الإِبَانَةِ عَنْهَا).

ويقال: الْمُحْكَمُ: نحوُ قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَـهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[٤] والمتشابهُ: نحوُ قوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾[٥] ثُـمَّ قـالَ ﴿وَقَـدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾[٦] ثم قال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[٧] فظَـنَّ مَن لا معرفةَ له أن العددَ ثمانية أيامٍ ولم يعلم أنَّ اليومين الأوَّلين داخـلان في الأربعـةِ التي ذكرَها اللهُ من بعد.

وقال الزجَّاج: (الْمُحْكَمُ مَا اعْتَرَفَ بهِ أَهْلُ الشِّرْكِ مِمَّا أَخْبَرَ اللهُ بهِ مِـنْ إنْشَـاءِ الْخَلْقِ؛ وَجَعْلِهِ مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حيٍّ؛ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِـنَ الثِّمَـار وَسَـخَّرَ لَـهُمْ مِـنَ الْفُلْكِ وَالرِّيَاحِ. وَالْمُتَشَابهُ: مَا تَشَابَهَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْـرِ الْبَعْـثِ). وَقَـدْ سَـمىالله جُمْلَـةَ القرآن مُحكماً؛ فقالَ :﴿كِتَـابٌ أُحْكِمَـتْ آيَاتُـهُ﴾[٨] فوصفَـهُ بالإحكـامِ، وسَـماه كلـه

(١) نقله الطبري في جامع البيان: بعد النص (٥١٧٣): مج ٣ ج ٣ ص٢٣٧.

(٢) طه/ ٥ . (٣) ص/ ٧٥ .

(٤) ق / ٣٨ . (٥) فصلت / ٩ .

(٦) فصلت / ١٠ . (٧) فصلت / ١٢ .

(٨) هود / ١ .

متشابهاً في آيةٍ أخرى، فقالَ :﴿اللهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابهاً﴾(١) أي يشبهُ بعضُه بعضاً في الْحُسن والتصديق.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ؛ معناهُ: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبهِمْ) مَيْلٌ عن الحقِّ والهدى وهم اليهود فَيَتَّبعُونَ مَا اشتبهَ عليهم من أمرِ الحروف المقطَّعة، يحسبون ذلك بحساب الْجُمَلِ (ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ)؛ أي طلبَ الكُفْرِ والشِّرك، (وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) في طلب تفسير منتهَى ما كتبَ اللهُ لأمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ من المدَّة ليرجع الْمُلْكُ إلى اليهودِ، (وَمَا يَعْلَمُ) تفسيرَ ما كتبَ الله لهذه الأمَّة (إلاَّ اللهُ).

وقال الربيعُ: (إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي وَفْدِ نَصَارَى نَجْرَانَ لَمَّا حَاجُّواْ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْمَسِيْحِ؛ فَقَالُواْ: ألَيْسَ هُوَ كَلِمَةُ اللهِ وَرُوحٌ مِنْهُ ؟ قَالَ: [بَلَى] قَالُوا: حَسَناً، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٢).

وقال ابنُ جريج: (الَّذِين فِي قُلُوبهِمْ زَيْغٌ؛ أيْ شَكٌّ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ)(٣). وقال الحسنُ: (هُمُ الْخَوَارجُ)، وقال بعضُهم: جميعُ المبتَدِعة، أعاذنا اللهُ من البدعةِ.

ومعنى الآية: أن النصارى صَرفوا كلمة الله إلى ما يقولون من قدم عيسى مع الله عَزَّ وَجَلَّ، وصرفوا قوله ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾(٤) إلى أنه جزءٌ منه كروحِ الإنسانِ، وإنَّما أراد الله تعالى بقوله ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾(٥) أنَّ الله تعالى إنَّما صيَّره بكلمةٍ منه وهي قولهُ ﴿كُنْ﴾(٦) فكان، وسَماهُ روحَهُ لأنه خلقَهُ من غيرِ أبٍ، بل أمرَ جبريلَ فنفخَ في جيب مريَم عَلَيْهَا السَّلاَمُ؛ فهو روحٌ من الله أضافَهُ إلى نفسهِ تشريفاً له، كبيتِ الله وأرضِ الله.

---

(١) الزمر / ٢٣ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥١٨٧).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥١٨٢).

(٤) النساء / ١٧١.

(٥) البقرة / ١١٧ .

(٦) الشورى / ٥٢ .

وقيل: سَمَّاه روحاً؛ لأنهُ كان يُحيي الموتى، كما سَمَّى القرآنَ روحاً من حيث إن فيه حياةُ الناس في أمرِ دينهم، قالَ اللهُ تعالى ﴿وَكَذلِكَ أوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا﴾[1] فصرفَ أهلُ الزيغِ قولَه تعالى ﴿وَكَلِمَتُهُ الْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ إلى مذاهبهم الفاسدةِ طلبَ الكفرِ والضَّلال، ولم يَرُدُّوا هذا اللفظَ الذي اشتبه عليهم وشبَّهوه على أنفسهم إلى الآيةِ الْمُحْكَمَةِ؛ وهو قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾[2] فعلى هذا يكونُ: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ) أي ما يعلمُ تأويلَ جميعِ المتشابه حتى يستوعب علمَ المتشابهات إلاّ اللهُ.

واختلفَ أهلُ العلم في معنى هذه الآيةِ، فقالَ قومٌ (الواو) في قولهِ تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾ ، واو العطفِ، يعني أن تأويلَ المتشابهِ يعلمهُ الله ويعلمهُ الراسخونَ في العلم، وهم مع عِلْمِهِمْ: ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ ﴾ ؛ والمعنى والثابتونَ في العلم يعلمونَ تأويلَ ما نَصَبَ اللهُ لَهم الدلالة عليه إلى المتشابه وبعلمهم يقولونَ: ربَّنا آمنَّا به[3]، فروي عن ابن عبَّاس: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ الله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) يَعْلَمُونَهُ قَائِلِيْنَ: آمَنَّا بِهِ). ومنهُم من جعلَ تَمام الكلامِ عند قولِهِ (إلاّ اللهُ). وفي قراءةِ ابنِ مسعود آمَنَّا (يَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ آمَنَّا بِهِ) وهو مرويٌّ أيضاً عنِ ابن عبَّاس.

ولا يبعدُ أن يكونَ للقرآنِ تأويلٌ ليستأثرَ اللهُ بعلمه دون خلقِه؛ لأنَّا لا نعلمُ مرادَ الله وحكمته في جميعِ أوامره ونواهيه؛ غيرَ أنه الْزَمَنَا العملَ بما أنزلَهُ ولم يطالبْنا بما لا سبيلَ لنا إلى معرفتهِ، ولم يُخْفِ عنَّا علم ما غابَ عنَّا، مثل قيام الساعة وغير ذلك إلاّ لِما فيه من المصلحةِ لنا وما هو خيرٌ لنا في دينِنا ودُنيانا، وما عَلَّمْنَاهُ فلم يعلِّمناهُ إلاّ لمصلحتنا ونفعنا فنعرفَ بصحَّة جميع ما أنزلَ الله؛ والتصديق بذلك كله ما علمنا منه وما لم نعلم.

---

(١) آل عمران / ٥٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٢٠٣ و٥٢٠٩) عن مجاهد.

وكان ابن عباس يقولُ: (أنَا مِنَ الرَّاسِخِيْنَ فِي الْعِلْمِ)[١]. وقرأ مجاهدُ هذه الآيَةَ؛ فقال: (أنَا مِمَّنْ يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ). وروى عكرمةُ عن ابن عبَّاس؛ قالَ: (كُلُّ الْقُرْآنِ أعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إلاَّ أرْبَعاً (غِسْلِيْنَ) وَ(حَنَاناً) وَ(الأَوَّاه) وَ(الرَّقِيْمُ).). وهذا إنَّما قالَهُ ابنُ عباس في وقتٍ ثم عَلِمَهَا بعد ذلك وفسَّرها.

وممن اختار تمام الكلامِ عند قوله (إلاَّ اللهُ) واستئنافَ الكلام بقوله (وَالرَّاسِخُونَ): عائشةُ وعروة بنُ الزبير ورواية طاووسٍ عن ابن عباس كذلكَ أيضاً؛ واختارهُ الكسائيُّ والفرَّاء ومحمدُ بن جرير؛ وقالوا: (إنَّ الرَّاسِخِيْنَ لاَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيْلَهُ، وَلَكِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ)[٢]. والآيَةُ راجعةٌ على هذا التأويل إلى العلمِ بمدَّة أجلِ هذه الأمة؛ ووقتِ قيام السَّاعة وفنَاء الدُّنيا؛ ووقتِ طُلوع الشمس من مغربها؛ ونزول عيسى؛ وخُروج الدجَّال ويَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ؛ وعلم الرُّوح ونحوُها مما استأثرَ اللهُ بعلمه ولم يُطْلِعْ عليه أحداً من خَلْقِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) أُخَرُ جمع أُخْرَى، ولم ينصرف لأنَّه معدولٌ عن أُخَرٍ مثل عُمَرَ وَزُفَرَ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) قال بعضُهم: هُم علماءُ أهلِ الكتاب الذين آمَنوا منهم؛ مثلُ عبدِالله بن سلام وأصحابه، ودليلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾[٣] يعني الدَّارسين علمَ التوراة. وعن أبي أمامة قال: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ؟ فَقَالَ: [مَن بَرَّ فِي يَمِيْنِهِ؛ وَصَدَقَ لِسَانُهُ؛ وَاسْتَقَامَ قَلْبُهُ؛ وَعَفَّ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ؛ فَذلِكَ الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ][٤].

وسُئل أنس بنُ مالكٍ عن تفسيرِ الراسخين في العلم مَنْ هُمْ؟ فقالَ: (الرَّاسِخُ: هُوَ الْعَالِمُ الْعَامِلُ بِمَا عَلِمَ الْمُتَّبِعُ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٢٠٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٢٠٢) بمعناه عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) النساء / ١٦٢ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٢١٢) عن أنس بن مالك وأبي أمامة وأبي الدرداء. وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٣٢٤ نسبه الهيثمي للطبراني، وقال: ((فيه عبدالله بن يزيد، ضعيف)). ومن طريق أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٢١٣).

وقيل الراسخونَ في العلم: المتواضِعون لله، المتذلِّلون في طلب مَرْضَاتِه، لا يتعاظَمون على مَن فوقهم ولا يحتقِرون مَن دونَهم.

وقال بعضُهم: الراسخُ في العلم مَن وُجِدَ فِي عمله أربعةُ أشياء: التقوى بينَهُ وبينَ اللهِ، والتواضعُ بينه وبين الخلْقِ، والزهدُ بينه وبين الدُّنيا، والمجاهدةُ بينه وبينَ نفسهِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ ؛ أي ويقولُ الراسخونَ في العلمِ ربنا لا تُمِلْ قلوبَنا عن الحقِّ والهدى كما أزغْتَ قلوبَ اليهود والنصارى، (بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) أي لا تُزِغْ قلوبَنا بعد إذْ أرشدتَنا ونصرتنا ووفَّقتنا لدينِكَ الحقّ، وقولهُ: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ ؛ أي أعطِنا من عندك نعمةً، وقيل: لُطفاً يثبتُ قلوبنا على الهدى. واسمُ الرحمةِ يقع على كلِّ خيرٍ ونعمة، وقيل معناهُ: وَهَبْ لنا من لَدُنْكَ توفيقاً وتثبيتاً على الإيْمان والهدى. وقال الضحَّاك: (مَعْنَاهُ: وَهَبْ لَنَا تَجَاوُزاً وَمَغْفِرَةً). وقيل: هَبْ لنا لزومَ خدمتك على شرطِ السُّنة.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨ ﴾ ؛ أي أنتَ المعطي والوهَّاب الذي من عادتِه الإعطاءُ والهبة، وإنَّما سمي القلب قَلباً لتقلُّبه، وإنَّما مثل القلب مثل ريشةٍ بفلاة من الأرض، وعن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [إنَّ قَلْبَ ابْنِ آدَمَ مِثْلَ الْعُصْفُور يَتَقَلَّبُ فِي الْيَوْمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ][1].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ؛ أي يقولونَ ربَّنا إنكَ محيي الناسِ بأجمعهم بعدَ الموت جزاءً؛ (لِـ) جزاء (يَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ) أي لا شكَّ فيه يعني يومَ القيامة.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٩ ﴾ ؛ أي لا يُخْلِفُ اللهُ ما وعدَ من البعث والحساب والميزان والجنَّة والنار.

---

(١) في الدر المنثور: مج٢ ص١٥٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخلاص والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن أبي عبيدة بن الجراح)). أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الرقاق: الحديث (٨٠٠٥) وقال: ((هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه)) وسكت عنه الذهبي في هذا الموضع، وأخرجه الحاكم في الرقم (٧٩٢٠)، وقال الذهبي: فيه انقطاع.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أرادَ بالذين كفرُوا اليهودَ الذين تقدَّم ذِكرهم. وقيلَ: أراد بهم نصارَى نجرانَ، ويقالُ: عامَّة الكفار، ومعنى: (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أمْوَالُهُمْ وَلاَ أوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً) أي لا يدفعُ عنهم كثرةُ أموالِهم وأولادِهم شيئاً من عذاب الله في الدُّنيا والآخرة؛ لأنه لا يُقبل منهم فداءٌ ولا شفاعة. ويسمَّى المالُ غِنًى لأنه يدفعُ عن مالكِه الفقرَ والنوائب، فأخبرَ اللهُ أن أموالَ هؤلاء الكفار وأولادَهم لا تَقِيهم من العذاب.

قرأ السلمي: (لَنْ يُغْنِي عَنْهُمْ) بالياءِ لتقدُّم الفعلِ ودخول الحائل بينَ الاسم والفعل، وقرأ الحسنُ (لَنْ تُغْنِي) بالتَّاء وسكون الياء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي حطبُ النار، والوَقودُ بنصب الواو ما يُوقَدُ به النارُ، وفي هذا بيانُ أنَّ أهلَ النار يحترقون في النار احتراقَ الحطب لا كما يحترقُ الإنسان بنار الدُّنيا، فإنَّ نارَ الدنيا تُسِيْلُ الصَّديدَ من الإنسان ولا تأخذه كما تأخذ الحطبَ، ومن قرأ (وُقُودُ) بضمِّ الواو فهو مصدرُ وَقَدَتِ النَّارُ وُقُوداً، كما يقال وَرَدَ وُرُوداً؛ فيكون المعنى: أولئك هُم وقودُ النار.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ ﴾ ؛ الآيةُ؛ المعنى أنَّ الذين كفروا لن تُغني عنهم أموالُهم ولا أولادُهم مِن الله شيئاً عند حلول النقمة والعقوبة مثلَ آلِ فرعونَ وكفَّار الأممِ الخاليةِ أخذناهُم وعاقبناهم فلم تُغْنِ عنهُم أموالُهم ولا أولادهم. وقيل: معناهُ عَادَةُ هؤلاءِ الكفَّار في الكفر والتكذيب بالحقِّ كعادة آلِ فرعونَ وعادة الذين مِن قبلِهم قومُ نوحٍ وعَاد وثمود؛ (كَذبُوا) بكتُبنا ورسُلنا فعاقبَهم اللهُ بكفرهم وشِركهم، ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾ إذا عاقبَ، فعقابهُ شديدٌ على الدَّوام، والتأبيدُ لا كعقوبةِ أهل الدُّنيا.

والدَّأبُ في اللغة: الْعَادَةُ، كذا قال النَّضرُ بن شُميل والْمُبَرِّدُ، فيكون معناهُ: كعادَةِ آل فرعونَ. وقال الزجَّاج: (الدَّأبُ: الاجْتِهَادُ؛ أيْ كَاجْتِهَادِ آلِ فِرْعَوْنَ فِي كُفْرِهِمْ وَتَظَايُرِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ، يُقَالُ: دَأبَ فِي كَذا يَدْأبُ دَأباً إذا أدَامَ الْعَمَلَ فِيْهِ، ثُمَّ نُقِلَ مَعْنَاهُ إلَى الشَّأْنِ وَالْحَالِ وَالْعَادَةِ).

وقال ابنُ عبَّاس وعكرمةُ ومجاهد والضحَّاك والسديُّ: (مَعْنَاهُ: كَفِعْلِ آلِ فِرْعَوْنَ وَصُنْعِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ)(١) يَقُولُ: كَفَرَتِ الْيَهُودُ بمُحَمَّدٍ كَكُفْرِ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وقال الربيعُ والكسائيُّ: (مَعْنَاهُ: كَشَبَهِ آلِ فِرْعَوْنَ). وقال سيبويه: (الْكَافُ فِي (كَدَأْب) فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، فَخَبَرُ الْمُبْتَدَأ تَقْدِيْرُهُ: دَأْبُهُمْ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾، أي قُلْ يا مُحَمَّدُ للذين كفروا ستُهْزَمُونَ وتُقتلون وتُحشرونَ بعد الموتِ إلى جهنَّم وبئس الفِرَاشِ. قرأ يحيى بنُ وثَّاب وحمزة والكسائيُّ وخَلَفُ بالياءِ فيهما، والباقون بالتَّاء، فمَنْ قرأهُما بالياءِ فعلى الإخبار عنهم أنَّهم يُغلبون ويُحشرون، ومَن قرأها بالتَّاء فعلى الخطاب؛ أي قُلْ لَهم إنَّكم ستُغلبون وتحشرون.

واختلفَ المفسِّرون في هؤلاءِ الكفَّار؛ فقالَ مقاتلُ: (هُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ، وَمَعْنَاهُ: قُلْ لِكُفَّار مَكَّةَ سَتُغْلَبُونَ يَوْمَ بَدْرٍ وَتُحْشَرُونَ إلَى جَهَنَّمَ فِي الآخِرَةِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ "الآيَةُ" قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْكُفَّار يَوْمَ بَدْرٍ [إنَّ اللهَ غَالِبُكُمْ وَحَاشِرُكُمْ إلَى جَهَنَّمَ]).

وقال الكلبيُّ عن أبي صالحٍ عن ابن عبَّاس: (إنَّ الْمُرَادَ بهِمْ يَهُودُ الْمَدِيْنَةِ، وَذلِكَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا هُزِمَ الْكُفَّارُ يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَتِ الْيَهُودُ: هَذا وَاللهِ النَّبِيُّ الأُمِّيُّ الَّذِي بَشَّرَنَا بِهِ مُوسَى وَنَجِدُهُ فِي التَّوْرَاةِ بنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ، وَإنَّهُ لاَ تُرَدُّ لَهُ رَايَةٌ، وَأرَادُوا تَصْدِيْقَهُ وَاتِّبَاعَهُ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لاَ تَعْجَلُوا حَتَّى تَنْظُرُوا إلَى وَقْعَةٍ لَهُ أخْرَى، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أحُدٍ وَغُلِبَ أصْحَابُ رَسُول اللهِ ﷺ قَالُوا: وَاللهِ مَا هُوَ بِهِ، فَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءُ فَلَمْ يُسْلِمُوا، وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُول اللهِ ﷺ عَهْدٌ إلَى مُدَّةٍ فَنَقَضُوا ذلِكَ الْعَهْدَ قَبْلَ أجَلِهِ، وَانْطَلَقَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ فِي سِتِّيْنَ رَاكِباً إلَى أبِي سُفْيَانَ بمَكَّةَ وَوَافَقُوهُمْ عَلَى أنْ تَكُونَ كَلِمَتُهُمْ وَاحِدَةً، ثُمَّ رَجَعُوا إلَى الْمَدِيْنَةِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النصوص (٥٢٣٤-٥٢٣٩).

(٢) أسباب النزول للواحدي النيسابوري: ص٦٢.

وعن ابن عباس وقتادة أنَّهُمَا قَالاَ: (لَمَّا أهْلَكَ اللهُ قُرَيْشاً يَوْمَ بَدْرٍ، جَمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْيَهُودَ بسُوق بَنِي قَيْنُقَاعَ، فَدَعَاهُمْ إلَى الإسْلاَمِ وَحَذرَهُمْ مِثْلَمَا نَـزَلَ بقُرَيْـشٍ مِنَ الانْتِقَامِ، فَأَبَوا وَقَالُوا: لَسْنَا كَقُرَيْشٍ الأغْمَارَ الَّذِيْنَ لَمْ يَعْرفُوا الْقِتَالَ وَلَمْ يُمَارسُوهُ، لَئِنْ حَارَبْتَنَا لَنَقْتُلَنَّ رجَالاً، وَتَعْرفَ الْبَأْسَ وَالشِّـدَّةَ، فَـأَنْزَلَ اللهُ هَـذِهِ الآيَـةَ)(١). قَوْلُـهُ تَعَالَى: (إلَى جَهَنَّمَ) اشتقاقُ جهنَّم من الْجِهْنَامِ وهي البئرُ البعيدةُ القعرِ.

قوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾ ؛ أي قـد كـانَ لكم أيها اليهودُ عبرةٌ، ويقال: أيُّها الكفارُ على صدق ما أقولُ لكـم في فرقتـين الْتَقَتَـا يومَ بدرٍ؛ فرقةٌ تقاتلُ في سبيلِ الله؛ أي في طاعـةِ الله وهُـمْ رسـولُ الله ﷺ وأصحابُـه ثلاثُمائة وثلاثةَ عَشَرَ رجُلاً، سَبعةٌ وسبعون رجلاً من المهاجرين، ومائتان وستَّةٌ وثلاثون من الأنصار، وكان صاحبُ رايةِ رسول الله ﷺ والمهاجرينَ عليٌّ ﷺ، وصاحبُ رايـة الأنصار سعدُ بن عبادةَ، وكان جملةُ الإبل التي في جيشِ رسول الله ﷺ يومئـذٍ سـبعين بعيراً، والخيلِ فرسَين؛ فرسِ المقداد وفرسِ مَرْثَدَ بن أبي مرثَـدٍ، وقيـل: فـرسُ علـيٍّ، وكان معهم من السِّلاح ستةَ أدرُع وثمانيةَ سُيُوف، وجميعُ من استشـهدَ مـن المسـلمين أربعةَ عشر رجُلاً، ستَّة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأخْرَى كَافِرَةٌ) أي فرقةٌ أخرى كافرةٌ؛ وهم كفـارُ مكـةَ سـبعمائة وخمسونَ رجُلاً مقاتلين، ورئيسُهم يومئذ عُتْبَةُ بن ربيعةَ، وكانت خَيْلُـهُمْ مائـةَ فـرسٍ، وكانت حربُ بدرٍ أوَّلَ مَشْهَدٍ شهدَهُ رسولُ الله ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأيَ الْعَيْنِ) مَـن قـرأ باليـاءِ؛ فـالمعنى تـرَى الفئـةُ المؤمنة الفئةَ الكافرة مثليهم ظاهرَ العينِ؛ أي ظَنَّ المسلمونَ أن المشركينَ ستمائة ونيِّف، وإنَّهم يغلبوا المشركين كما وعدَهم اللهُ بقوله: ﴿فَإنْ يَكُنْ مِنْكُـمْ مِائَـةٌ صَـابرَةٌ يَغْلِبُـوا مِائَتَيْنِ﴾(٢) قَلَّلَ اللهُ المسلمين في أعيُنِ المشـركين، والمشـركينَ في أعـين المسـلمينَ حتـى اقتَتَلَ الفريقان كمـا قـالَ الله تعـالى: ﴿وَإذْ يُرِيكُمُوهُـمْ إذِ الْتَقَيْتُـمْ فِـي أعْيُنِكُـمْ قَلِيـلاً

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٢٤١).
(٢) الأنفال/ ٦٦ .

وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ ثم قذفَ الله الرُّعْبَ في قلوب الكَفَرَةِ حتى انْهزموا بكفٍّ من ترابٍ أخذه رسولُ الله ﷺ فرماه في وجوههم وقال: [شَاهَتِ الْوُجُوهُ][(١)].

ومن قرأ (تَرَوْنَهُمْ) بالتاء فهو خطابٌ لليهودِ، يعني يرَون كفارَ مكة قريشاً والمؤمنينَ رَأيَ العين، فإن قيل لِمَ قال (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ) ولم يَقُلْ قد كانت والآية مؤنَّثة؟ قيلَ: لأنَّه ردَّها إلى البيانِ؛ أي قد كانَ بيانٌ، فذهبَ إلى المعنى وترك اللَّفظ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ) قرأ أبو رجاء والحسنُ وشيبةُ ونافع ويعقوب بالتَّاء، وقرأ الباقون بالياءِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يُقَوِّي ويُشْدِدُ بقوَّته من يشاءُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي في غلبَةِ المؤمنين للمشركين مع قلَّة المؤمنين وشوكةِ المشركين، (لَعِبْرَةً) لذوي الأبصار في الدين؛ أي لِذوي بصارةِ القلوب، ويجوزُ أن يكون معناه: لعبرةً لمن أبصرَ الجيشَ الجمعين بعينهِ يومئذ، وفي قوله تعالى: (فِئَةٌ) قِراءتان، مَن قرأها بالرفعِ فعلى معنى: إحداهُما فئةٌ تُقَاتِلُ، ومَن قرأها بالخفضِ فعلى البدلِ من فئتين، كما قال الشَّاعرُ[(٢)]:

وَكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحِيْحَةٍ ... وَرِجْلٍ رَمَاهَا الدَّهْرُ بالْحَدَثَانِ

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ ؛ بيَّنَ الله بهذه الآية إنَّ ما بُسِطَ للمشركين من زَهْرَةِ الدُّنيا وزينَتِها هو الذي يَمنعهم من تصديقِ النبيِّ ﷺ فيما يدعوهم إليه.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير: ج ٣ ص٢٠٣: الحديث (٣١٢٨). وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ٦ ص٨٤؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني وإسناده حسن)).

(٢) من شواهد الشعر قول كثير عزة (ت ١٠٥هـ) كما في كتاب سيبويه: ج ١ ص٤٣٢-٤٣٣:

وَكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحِيحَةٍ ... وَرِجْلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانُ فَشُلَّتِ

ومن الشواهد أيضاً قول يزيد بن مفرغ الحميري (ت ٦٩ هـ):

وَكُنْتُمْ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحِيحَةٍ ... وَرِجْلٍ بِهَا رَيْبٌ مِنَ الْحَدَثَانِ

والمعنى: حُسِّنَ للناسِ حبُّ اللَّذات والشهواتِ والمشتهياتِ من النساء والبنين، بدأ بالنساءِ لأنَّهن حبائلُ الشيطان وأقربُ إلى الإفتتان ويحملْنَ الرجالَ على قطعِ الأرحام والآباء والأمَّهات وجمع المال من الحلال والحرام. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْبَنِينَ) قال ﷺ:[هُمْ ثَمَرَةُ الْقُلُوب وَقُرَّةُ الأَعْيُنِ؛ وَإنَّهُمْ مَعَ ذلِكَ لَمَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ) مِنَ القناطيرِ، جمع قِنْطَار، واختلفوا فيه، فقال الربيعُ: (الْقِنْطَارُ هُوَ الْمَالُ الْكَثِيْرُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ). وقال ابنُ كيسان: (هُوَ الْمَالُ الْعَظِيْمُ). وعن أبي هُريرة: قالَ رسولُ الله ﷺ: [الْقِنْطَارُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أوْقِيَّةٍ][(٢)]، وعن أنسٍ: (أنَّ الْقِنْطَارَ أَلْفُ مِثْقَال). وعن مُعاذ: (أَلْفٌ وَمِائَتَا أوْقِيَةٍ)[(٣)]. وعن أنس أيْضاً عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ: [أَلْفَا مِثْقَال]. وعن عكرمةَ: (مِائَةُ أَلْفٍ وَمِائَةُ مَنٍّ وَمِائَةُ رَطْلٍ وَمِائَةُ مِثْقَالٍ وَمِائَةُ دِرْهَم). وقيلَ القنطارُ: ما بينَ السماء والأرض من المال، وَقِيْلَ: مِلْءُ مَسْكِ ثور ذهباً وفضَّة، وقال ابنُ المسيَّب وقتادةُ: (ثَمَانُونَ أَلْفاً). وعن مجاهدٍ: (سَبْعُونَ أَلْفاً). وعن الحسنِ أنه قالَ: (الْقِنْطَارُ مِثْلُ دِيَةِ أحَدِكُمْ). وحاصلُهُ أن القنطارَ: هو المالُ الكثير.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (الْمُقَنْطَرَةِ)؛ قال قتادةُ: (أي الْمُنَضَّدَةُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ). وقال بعضُهم: المقنطرةُ: المدفونةُ. وقال السديُّ: (الْمَضْرُوبَةُ الْمَنْقُوشَةُ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنَ الذهَب وَالْفِضَّةِ) سُمي الذهبُ ذهباً لأنه يَذْهَبُ ولا يبقى، والفضةُ لأنَّها تَنْفَضُّ أي تتفرَّقُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ) الخيلُ جمعٌ لا واحدَ له من لفظهِ، واحده فَرَسٌ، والْمُسَوَّمَةِ هي الرواتعِ من السَّوْمِ وهو الرعيُ، قال اللهُ: ﴿شَجَرٌ فِيهِ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢١١ عن الأشعث بن قيس؛ وفيه قصة. وفي جامع المسانيد: ج ١ ص٣٥٧: الحديث (٣٦٨) قال ابن كثير: ((رواه الطبراني من طريق ابن لهيعة عن الحارث بن زيد عن علي بن رباح عن الأشعث مرفوعاً)).

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الأدب: باب بر الوالدين: الحديث (٣٦٦٠)، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه الطبراني في جامع البيان: النص (٥٢٦٧).

تُسِيمُونَ﴾[١] أو تكون من السِّيْمَا؛ وهي العلامةُ من الأوضَاحِ والغُـرَّةُ الـتي تكـون في الخيل[٢]. وقال السديُّ: (الْمُسَوَّمَةُ: هِـيَ الْوَاقِفَـةُ). وقـال مجـاهدٌ: (الْحِسَـانُ) وقـال الأخفشُ: (هِيَ الْمُعَلَّمَةُ). وقال ابنُ كيسان: (الْبُلْقُ).

روي عن عليٍّ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: [لَمَّـا أرَادَ اللهُ أنْ يَخْلُـقَ الْخَيْـلَ قَالَ لِلرِّيْحِ الْجَنُوب: إنِّـي خَـالِقٌ مِنْـكِ خَلْقـاً فَاجْعَلُـهُ عِـزّاً لأَوْلِيَـائِي؛ وَمَذَلَّـةً لأَعْدَائِـي؛ وَجَمَالاً لأَهْلِ طَاعَتِي، ثُمَّ خَلَقَ مِنْهَا فَرَساً وَقَـالَ لَـهُ: خَلَقْتُـكَ وَجَعَلْـتُ الْخَـيْرَ مَعْقُـوداً بنَاصِيَتِكَ؛ وَالْغَنَائِمَ مَجْمُوعَةً عَلَى ظَهْرِكِ؛ وَعَطَّفْتُ عَلَيْكَ صَاحِبَكِ؛ وَجَعَلْتُـكَ تَطِـيْرُ بلاَ جَنَاحٍ؛ وَأنْتَ لِلطَّلَب وَأنْتَ لِلْـهَرَب، وَسَـأَجْعَلُ عَلَـى ظَـهْرِكَ رجَـالاً يُسَـبحُونَنِي وَيَحْمَدُونَنِي وَيُهَلِّلُونَنِي وَيُكَبرُونَنِي][٣].

وقيل: خلَق اللهُ خيلاً تلقى أعناقُها كأعناق البُخْـتِ، فلمـا أرسـلَها إلى الأرضِ واستوت أقدامُها صَهَلَ فرسٌ منها فقيل لهُ: بُوركْتَ من دابَّة، أذلَّ بصهيلِكَ المشركينَ، أذلَّ به أعناقَهم واملأْ به آذانَهم، وأرْعِبْ به قلوبَهم، فاختارَ الفرس، فقيل له: اخترتَ عزَّكَ وعزَّ ولدِك، ما خلقتُ خَلْقاً أعزُّ إلَيَّ منكَ ومنهُ.

وعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيْـهَا الْخَـيْرُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ][٤]، وعن أنسٍ قال: (لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أحَـبُّ إلَـى رَسُـول اللهِ ﷺ بَعْـدَ النِّسَاءِ مِنَ الْخَيْلِ). وعن أبي ذرٍّ قال: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَا مِـنْ فَـرَسٍ عَرَبـيٍّ إلاَّ يُؤْذَنُ لَهُ عِنْدَ كُلِّ فَجْرٍ بدَعْوَةٍ فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ مَنْ خَوَّلْتَنِـي مِـنْ بَنِـي آدَمَ وَجَعَلْتَنِـي لَـهُ،

---

(١) النحل / ١٠ .

(٢) الأوضاح: الْحُلِيُّ من الدراهم الصحاح، وبفتحتين (وَضَحٌ): الضوء والبياض، وقـد يكنـى بـه عن البرص. أراد الْمُحَجَّلَةَ في أرجلها بالبياض. والغُرَّةُ: بياض في جبهة الفرس فـوق الدرهـم، وهو معروف.

(٣) أدرج الناسخ عبارة: (كذا في تفسير الثعلبي) في المتن كعادته، وعلى ما يبدو أن الثعلبي نقـل مـن هنا، أو أخذ عنه.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديـث (٢٠٩٠). والإمـام مـالك في الموطـأ: الحديـث (٩٠١). والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص١٠١ و٢٦٢، وإسناده صحيح.

فَاجْعَلْنِي أَحَبَّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ](١)، وقال ﷺ: [ارْتَبِطُوا الْخَيْلَ وَامْسَحُوا بِنَوَاصِيهَا، وَعَلَيْكُمْ بِكُلِّ كُمَيْتٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ أَوْ أَدْهَمَ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ](٢). وعن أبي هُرَيرةَ: [كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَكْرَهُ الشِّكَالَ مِنَ الْخَيْلِ](٣) وهو أن يكون له ثلاثُ قوائِمَ محجَّلة وأخرى مطلقةٍ، أو يكون الثلاثُ مطلقةً والرابعةُ محجَّلة، ولا يكونُ الشِّكالُ إلاّ في الرِّجل دون اليدِ.

وقال ﷺ: [الشُّؤْمُ فِي ثَلاثَةٍ: الْمَرْأةُ وَالْفَرَسُ وَالدَّارُ](٤) وقال ﷺ: [الْخَيْلُ ثَلاثَةٌ: فَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ؛ وَفَرَسٌ لِلإنْسَانِ؛ وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ، فَالَّذِي لِلرَّحْمَنِ مَا اتُّخِذَ فِي سَبِيْلِ اللهِ وَقُوتِلَ عَلَيْهِ أعْدَاءُ اللهِ، وَأمَّا فَرَسُ الإنْسَانِ فَمَا اسْتَبْطَنَ وَتَحَمَّلَ عَلَيْهِ(٥)، وَأمَّا فَرَسُ الشَّيْطَانِ فَمَا رُوهِنَ عَلَيْهِ أوْ قُومِرَ عَلَيْهِ](٦).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ) الأنعامُ جمع النَّعَمِ، وأشهرُ النَّعَمِ أكثر ما يستعملُ في الإبلِ، وقد يقعُ على سائر المواشِي من البقرِ والغنم والإبل، وقولهُ تعالى: (وَالْحَرْثِ) بمعنى الزَّرعِ.

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الصغرى: كتاب الخيل: باب دعوة الخيل: ج ٦ ص٢٢٣. والحاكم في المستدرك: كتاب الجهاد: باب من احتبس فرساً: الحديث (٢٥٠٢)؛ وقال: ((هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٠٠. والترمذي في الجامع: أبواب الجهاد: الحديث (١٦٩٦)؛ وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٥٠ و٤٣٦. ومسلم في الصحيح: كتاب الإمارة: باب ما يكره من صفات الخيل: الحديث (١٨٧٥).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الاستئذان: باب ما تبقى من الشؤم: الحديث (٢٢). والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص١١٥ و١٢٦. والبخاري في الصحيح: كتاب النكاح: باب ما تبقى من شؤم المرأة: الحديث (٥٠٩٣).

(٥) في المخطوط: (ما استطرق عليه)، والتصحيح من المعجم الكبير.

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٤ ص١٠: الحديث (٣٧٠٧) عن خباب بن الأرت، وفيه مسلمة بن علي، وفي مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢٦٠؛ قال الهيثمي: ((مسلمة بن علي ضعيف)). وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٨١ عن رجل من الأنصار بلفظ قريب منه، في ج ٥ ص٢٦٠؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح))، وله شاهد أيضاً من حديث ابن مسعود، أخرجه الإمام أحمد في المسند، والبيهقي في السنن الكبرى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ ؛ أي هذا الذي ذكرتُ متاعُ الحياةِ الدنيا، أيْ شيءٌ يُسْتَمْتَعُ به في الدُّنيا ثم يزولُ ويفنى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ ، أيْ حُسْنُ الْمَرْجِعِ والمنقلَبِ للمؤمنينَ وهو الجنةُ الباقية، ثم بيَّنَ الله إنَّما أعدَّ اللهُ للمؤمنين في الآخرةِ خيرٌ من هِبَةِ الدُّنيا.

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ؛ أي (قُلْ) يا مُحَمَّدُ: أخبرُكم بخيرٍ من الذي زُيِّنَ للناسِ في الدنيا للذين اتقوا الشِّرْكَ والكبائرَ والفواحش؛ فلا يشتغلون بالزينَةِ عن طاعةِ الله، لَهم عند ربهم جناتٌ؛ أي بساتينُ تجري من تحتِ شجرِها ومساكنِها أنْهَارُ الماء والعسَلِ والخمرِ واللَّبن، (خَالِدِينَ فِيهَا) أي مُقيمين دائمين؛ أي ليست تلكَ المياهُ كمياه الدُّنيا تجري أحياناً وتنقطعُ أحياناً، بل تكونُ جاريةً أبداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ ؛ أي ولَهم نساءٌ مهذبات في الْخَلْقِ والْخُلُقِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ ؛ أي لَهم معَ ذلك رضا اللهِ عنهُم وهو من أعظمِ النِّعم، قال اللهُ تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾[1]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ ؛ أي عالِمٌ بأعمالِهم وثوابهم.

واختلفُوا في منتهى الاستفهامِ في قولهِ تعالى: (أَؤُنَبِّئُكُمْ)؛ قال بعضُهم: مُنْتَهَاهُ عند قولهِ:(بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ) وقَوْلُهُ تَعَالَى:(لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) استئنافُ الكلامِ، وقال بعضُهم: منتهاهُ: (عِنْدَ رَبهِمْ) وقَوْلُهُ تَعَالَى: (جَنَّاتٌ) استئنافُ كلامٍ.

قرأ أبو بكرٍ عن عاصم: (وَرُضْوَانٌ) بضمِّ الراء في جميعِ القرآن وهي لغةُ قيسٍ وعيلان وتَميم؛ وهما لُغتان كالعُدْوَانِ والطمعان والطعنان، وقرأ عامَّة القُرَّاء (وَرِضْوَانٌ) بكسر الراء.

(١) التوبة / ٧٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾، (الَّذِينَ) في موضعِ خَفْضٍ رَدّاً على قولِهِ (لِلَّذِيْنَ اتَّقَوا) أي للمتَّقين (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا) وَصَدَّقْنَا بالله وبالرسولِ فاغفِرْ لنا خطايَانا، وادفَع عنَّا عذابَ النار، ويجوز أن يكونَ موضع (الَّذِينَ) رفعاً على معنى هُم (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا) كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أنفُسَهُمْ﴾[1] ثم قال في صفتِهم مبتَدِئاً: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾؛ (الصَّابرِيْنَ) في موضع خفض بدلٌ من (الَّذِينَ يَقُولُونَ). وذهب بعضُهم إلى (الصَّابرِيْنَ) نُصِبَ بالمدحِ. ومعنى الآية: (الصَّابرِيْنَ) على طاعَة اللهِ وعلى الشدائدِ والمصائب وعلى ارتكَاب النَّهي وعلى البأسَاء والضرَّاء، (وَالصَّادِقِيْنَ) في إيمانِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، فإنَّ الصدقَ قد يقعُ في القول كما يقعُ في الفعلِ، يقالُ: صَدَقَ فلانٌ في القتال، وصَدَقَ في الجملةِ أي حقَّقَ. قال قتادةُ في تفسيرِ الصَّادِقِينَ: (هُمْ قَوْمٌ صَدَقَتْ نِيَّاتُهُمْ وَاسْتَقَامَتْ قُلُوبُهُمْ وَالْسِنَتُهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ). (وَالْقَانِتِينَ) أي القائمينَ بعبادةِ الله المطيعين، (وَالْمُنْفِقِينَ) يعني في طاعَة اللهِ.

وقوله:(وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بالأَسْحَار) قال قتادةُ:(أرَادَ بِهِ الْمُصَلِّيْنَ بالأَسْحَار) قال أنسُ بن مالك: (أرَادَ بِهِ السَّائِلِيْنَ الْمَغْفِرَةَ بالأَسْحَار)، وقال الحسنُ: (انْتَهَتْ صَلاَتُهُمْ إلَى وَقْتِ السَّحَرِ؛ ثُمَّ كَانَ بَعْدَهَا الاسْتِغْفَارُ)، وعن إبراهيمَ بنِ حاطبٍ عن أبيه قالَ: (سَمِعْتُ صَوْتاً فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ سَحَراً يَقُولُ: إلَهِي دَعَوْتَنِي فَأَجَبْتُكَ؛ وَأمَرْتَنِي فَأَطَعْتُكَ؛ وَهَذَا سَحَرٌ فَاغْفِرْ لِي. فَنَظَرْتُ فَإذا هُوَ عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه).

روي عن النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ:[ثَلاَثَةُ أصْوَاتٍ يُحِبُّهُمُ اللهُ: أصْوَاتُ الدِّيكِ، وَصَوْتُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَصَوْتُ الْمُسْتَغْفِرِيْنَ بالأَسْحَار][3]. وروي أنَّ داود رضي الله عنه

(١) التوبة / ١١١ . (٢) التوبة / ١١٢ .

(٣) عن أم سعدٍ، وعلقه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: النص (٢٥٣٨)، وأم سعد هي بنت زيد كما في كنز العمال: النص (٣٥٢٨٥). ترجم ابن عبدالبر لها في الاستيعاب: الرقم (٣٥٩٠).

سَأَلَ جِبْرِيْلَ: أيُّ اللَّيْلِ أفْضَلُ ؟ فَقَالَ: لاَ أدْري إلاَّ أنَّ الْعَرْشَ يَهْتَزُّ فِي وَقْتِ السَّحَرِ. وقال سفيانُ الثوريُّ: (إنَّ للهِ رِيْحاً يُقَالُ لَهَا الصُّبْحَةُ تَهُبُّ وَقْتَ السَّحَرِ؛ تَحْمِلُ الأَذْكَارَ وَالاسْتِغْفَارَ إلَى الْمَلِكِ الْجَبَّارِ)، وقال: (بَلَغَنَا أنَّهُ إذا كَانَ أوَّلُ اللَّيْلِ نَادَى مُنَادٍ: ألاَ لِيَقُمِ الْعَابِدُونَ، فَيَقُومُونَ فَيُصَلُّونَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فِي شَطْرِ اللَّيْلِ: ألاَ لِيَقُمِ الْقَانِتُونَ، فَيَقُومُونَ كَذلِكَ فَيُصَلُّونَ، فَإذا كَانَ السَّحَرُ نَادَى مُنَادٍ: أيْنَ الْمُسْتَغْفِرُونَ؟ فَيَسْتَغْفِرُ أوْلَئِكَ؛ فَإذا طَلَعَ الْفَجْرُ نَادَى مُنَادٍ: ألاَ لِيَقُمِ الْغَافِلُونَ؛ فَيَقُومُونَ مِنْ فِرَاشِهِمْ كَالْمَوْتَى إذا نُشِرُوا مِنْ قُبُورِهِمْ). وقال لُقمان لابنهِ:(يَا بُنَيَّ لاَ يَكُونَنَّ الدِّيْكُ أكْيَسَ مِنْكَ؛ يُنَادِي بالأسْحَار وَأنْتَ نَائِمٌ). والسَّحَرُ: هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ؛ روى أنسٌ ﵁ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَن قرأ شَهِدَ الله أنَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ عِنْدَ مَنَامِهِ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى مِنْهَا سَبْعِيْنَ ألْفَ خَلْقٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ][1]. وعن سعيدِ بن جُبير قالَ: (كَانَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاثُمِائَةٌ وَسِتُّونَ صَنَماً ؛ لِكُلِّ حَيٍّ مِنْ أحْيَاءِ الْعَرَب صَنَمٌ أوْ صَنَمَان، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ أصْبَحَتْ تِلْكَ الأَصْنَامُ كُلُّهَا وَقَدْ خَرَّتْ سُجَّداً).

وعن ابن مسعودٍ أنهُ قالَ: [مَنْ قَرَأ (شَهِدَ الله أنَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ) إلَى قَوْلِهِ: (إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسْلاَمُ) وَقَالَ: أنَا أشْهَدُ بِمَا شَهِدَ اللهُ بهِ وَأسْتَوْدِعُ اللهَ هَذِهِ الشَّهَادَةَ وَهِيَ لِي وَدِيْعَةٌ عِنْدَهُ؛ يُجَاءُ صَاحِبُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: عَبْدِي عَهِدَ لِي وَأنَا أحَقُّ مَنْ وَفَّى بالعَهْدِ، أدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ][2].

ومعنى الآيةِ: قال محمدُ بن السائب الكلبيُّ: (لَمَّا ظَهَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالْمَدِيْنَةِ قَدِمَ عَلَيْهِ حَبْرَانِ مِنْ أحْبَار الْيَهُودِ مِنَ الشَّامِ، فَقَالَ أحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ حِيْنَ أبْصَرَ

---

(١) في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: ص٣١٢؛ قال الشوكاني: ((في إسناده: وضَّاع)).

(٢) في تخريج أحاديث كتاب إحياء علوم الدين: النص (١١٠٨)؛ قال: ((روى أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث ابن مسعود ﵁ مرفوعاً: ... وذكره، ثم قال: فيه عمر بن المختار وهو يروي الأباطيل. وقال: ووجدت بخط الحافظ ابن حجر أنه في المسند من طريق ابن عتبة عن عبدالله بن مسعود عن عم أبيه عبدالله بن مسعود نحوه بزيادة، وفيه انقطاع)).

الْمَدِيْنَةَ: مَا أَشْبَهَ هَذِهِ الْمَدِيْنَةَ بِمَدِيْنَةِ النَّبِيِّ الَّذِي يَخْرُجُ فِي آخِـرِ الزَّمَـان، فَلَمَّـا دَخَـلاَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عَرَفَاهُ بالصِّفَةِ وَالنَّعْتِ، فَقَالاَ لَهُ: أنْتَ مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: [نَعَمْ]. قَالاَ: أنْتَ أحْمَدُ ؟ قَالَ: [أنَا مُحَمَّدٌ وَأحْمَدُ]. قَالاَ: فَإنَّا نَسْألُكَ عَنْ شَيْءٍ فَإنْ أخْبَرْتَنَـا بِـهِ آمَنَّا بكَ وَصَدَّقْنَاكَ، قَالَ: [اسْألُوا]. قَالاَ: أخْبِرْنَا عَنْ أعْظَمِ شَهَادَةٍ فِي كِتَاب اللهِ تَعَالَى؟ فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ هَذِهِ الآيَةَ (شَهِدَ اللهُ أنَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ) إلَى آخِرِهَـا، فَأسْـلَمَ الرَّجُلاَنِ وَصَدَّقَا برَسُول اللهِ ﷺ).

قرأ أبو نُهيك وأبو الشَّعث (شُهُدُ اللهِ) بالمدِّ والرفعِ على معنـى: هُـمْ شـهُدُ اللهِ الذين تقدَّم ذِكرهم. وقرأ المهلَّب: (شَهَدَ اللهُ) بـالمدِّ والنصـب علـى المـدِّ. والآخـرونَ (شَهدَ اللهُ) على الفعلِ أي قَضَاءُ اللهِ، ويقال: أخْبَرَ اللهُ. وقال مجاهدُ: (حَكَمَ اللهُ). قرأ ابنُ السمؤل: (شَهدَ اللهُ أنَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ). وقرأ ابنُ عباسٍ: (إنَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ) بكسرِ الألف جعلهُ خَبَراً مستأنفاً، وقال بعضُهم بكسره لأنَّ الشهادة قـولٌ ومـا بعـدَ القـولِ مكسورٌ على الحكايةِ، تقديرهُ: قَالَ اللهُ إنهُ لا إلهَ إلاّ الله. قال المفضَّل: (مَعْنَى الشَّهَادَةِ (شَهدَ اللهُ): الإخْبَارُ وَالإعْلاَمُ، وَمَعْنَى الْمَلاَئِكَةِ وَالْمُؤْمِنِيْنَ بالإقْرَار؛ كَقَوْلِـهِ ﴿شَـهِدْنَا عَلَى أنفُسِنَا﴾[1] أيْ أقْرَرْنَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ ؛ معناه الأنبياءُ، وقيلَ: المهاجرونَ والأنصَـارُ، وقيل: علماءُ المؤمنـين أهـلُ الكتـاب: عبـدُالله بـن سـلام وأصحابـه، وقـال الكلبـيُّ والسديُّ: (عُلَمَاءُ الْمُؤْمِنِيْنَ كُلُّهُمْ، فَقَرَنَ اللهُ شَهَادَةَ الْعُلَمَاءِ بشَهَادَتِهِ، لأنَّ الْعِلْمَ صِفَـةُ اللهِ تَعَالَى الْعُلْيَا وَنِعْمَتُهُ الْعُظْمَى، وَالْعُلَمَاءُ أعْلاَمُ الإسْلامِ وَالسَّابقُونَ إلَى دَار السَّـلاَمِ وَشَرَحُ الأَمْكِنَةِ وَحُجَجُ الأَزْمِنَةِ)[2].

وعن جابر بن عبدِالله قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [سَاعَةٌ مِنْ عَالِمٍ يَتَّكِـئُ عَلَـى فِرَاشِهِ، وَيَنْظُرُ فِي عِلْمِهِ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الْعَابدِيْنَ سَـبْعِيْنَ عَاماً][3]. وعـن أنـسٍ رضي الله عنه

(١) الأنعام / ١٣٠.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٣١٣) بمعناه عن السدي.

(٣) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: النـص (٣٥٠٤). وفي فيـض القديـر شـرح الجـامع الصغير: ج ٤ ص٨١: الحديث (٤٦٢٢)؛ قال المناوي: ((ورواه عنه – أي عن جابر – أيضاً أبو نعيم، ومن طريقه وعنه تلقاه الديلمي مصرحاً، فلو عزاه المصنف للأصل لكان أولى)).

قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ، فَإنَّ تَعْلِيْمَهُ للهِ خِشْيَةٌ، وَمُدَارَسَتَهُ تَسْبِيْحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيْمَهُ مَنْ لاَ يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لأنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ سَبيلِ الْجَنَّةِ وَالنَّار، وَهُوَ الأُنْسُ فِي الْوَحْشَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالدَّلِيْلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسِّلاَحُ عَلَى الأَعْدَاءِ. يَرْفَعُ اللهُ بِهِ أقْوَاماً فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً، يُقْتَدَى بِهِمْ وَتُقَصُّ آثَارُهُمْ وَيُقْتَدَى بأَفْعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إلَى رَأيِهِمْ، وَتَرْغَبُ الْمَلاَئِكَةُ فِي خِلَّتِهِمْ، وَبأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، وَفِي صَلاَتِهِمْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، وَكُلُّ رَطْبٍ وَيَابسٍ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، حَتَّى حِيْتَانَ الْبَحْرِ وَهَوَامَّهُ، وَسِبَاعَ الأَرْضِ وَأنْعَامَهَا، وَالسَّمَاءَ وَنُجُومَهَا، ألاَ وَإنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوب عَنِ الْعَمَاءِ، وَنُورُ الأَبْصَار مِنَ الظُّلُمَاتِ، يَبْلُغُ بالْعَبْدِ مَنَازلَ الأَحْرَار وَمَجَالِسَ الْمُلُوكِ، وَالْفِكْرُ فِيْهِ يَعْدِلُ بالصِّيَام، وَمُدَارَسَتُهُ بالْقِيَامِ، وَبهِ يُعْرَفُ الْحَلاَلُ وَالْحَرَامُ، وَبهِ يُوصَلُ الأَرْحَامُ، يُلْهِمُهُ اللهُ السُّعْدَى، وَيَحْرِمُهُ الأَشْقِيَاءَ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ ﴾ ؛ أي بالعَدْل، ونصبَ (قَائِماً) على الحال من شَهِدَ، وقيل: من قولهِ (لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ)، ويجوزُ وقوعُ الحالِ المؤكَّد على الاسمِ في غير الإشارَة، يقولُ: إنهُ زيدٌ معروفاً؛ وهو الحقُّ مصدِّقاً.

فإن قيل: الحالُ وصفُ هيئة الفاعلِ وذلك مما يقبلُ تغيير؛ فهل يجوزُ من الله أن يزولَ عنه قيامهُ بالقسطِ ؟ قيل: هذا على مذهب الكوفيِّين لا يلزمُ؛ لأنَّهم يسمُّونه على لفظِ القطع، يعنونَ بالقطع: قطعَ المعرفةِ إلى لفظِ النَّكرة، مثلَ قولهِ: ﴿الدِّينُ وَاصِباً﴾[(١)] كان أصلهُ الواصِبُ، وهذا كان أصلهُ القائمُ، فلما قطعت الألف واللام نُصِبَ.

وأمَّا عند البصريِّين فالحالُ حَلالٌ من باب حل في الشيء وصار فيه حالٌ يأتِي بعدَ الفعلِ يجوز عليه التغيير، وحالٌ يأتِي بعدَ الاسمِ[(٢)] لا يجوزُ عليه التغيير، وهذا مِن ذلكَ، وكذلكَ قَوْلُهُ: ﴿وَهَذا بَعْلِي شَيْخاً﴾[(٣)] .

---

(١) النحل / ٥٢ .

(٢) في المخطوط: (الإسلام) بدل (الاسم)، والمناسب هو ما أثبتناه.

(٣) هود / ٧٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾، قال جعفرُ الصَّادق: (إنَّمَا كَرَّرَ الشَّهَادَةَ لأنَّ الأُوْلَى وَصْفٌ وَتَوْحِيْدٌ، وَالثَّانِيَةُ رَسْمٌ وَتَعْلِيْمٌ) أيْ قُولُوا (لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) العزيزُ: الغالِبُ المنيعُ، والحكيم: ذو الحكمَة في أمرهِ وسلطانه، وقَوْلُهُ: (قَائِماً بالْقِسْطِ) أي قائمٌ بالتدبير؛ أي يُجري أفعالَه على الاستقامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾؛ معنى الدِّين المرتضَى؛ نظيرهُ ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[1]، والإسلامُ: هو الدخولُ في السِّلْمِ والانقيادُ والطاعَة. وعن قتادةَ: (هُوَ شَهَادَةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَالإقْرَارُ بمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ وَهُوَ دِيْنُ اللهِ الَّذِي شَرَعَ لِنَفْسِهِ؛ وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ؛ وَدَلَّ عَلَيْهِ أوْلِيَاءَهُ؛ وَلاَ يَقْبَلُ غَيْرَهُ).

وقرأ الكسائيُّ: (الدِّيْنَ عِنْدَ اللهِ) بالفتحِ على معنى: شَهِدَ اللهُ أنهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ، وشهدَ أنَّ الدِّينَ عند اللهِ الإسلامُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ ﴾؛ أي لَمْ تقر اليهودُ والنصارى للإسلامِ ولم يتسَمَّوا باليهوديَّة والنصرانيَّة (إلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ) في كتابهم حَسَداً بينهم.

رويَ: أنَّ اليهودَ كانوا يُسمُّون مسلمينَ؛ فلمَّا بُعث عيسى عليه السلام وسَمَّى أصحابَه مسلمين حسدَت اليهودُ مشاركتَهم في الاسمِ فسَمَّوا أنفسَهم يهوداً؛ فكانوا يُسمُّون مسلمينَ ويهوداً، فغيَّرتِ النصارى اسْمَهم وسَمَّوا أنفسَهم نصارى. والبَغْيُ: هو طلبُ الاستعلاءِ بغير حقٍّ.

وقال بعضُهم: معنى الآيةِ: ما اختلفَ الذينَ أوتُوا الكتابَ في نبوَّة مُحَمَّدٍ ﷺ إلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ بيانُ نعتِه وصفته في كُتبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي مَن يجحَدُ بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآنِ فإنَّ اللهَ سَرِيْعُ الْمُجَازَاةِ، سريعُ التعريفِ للعاملِ عملَه لا يحتاجُ إلى إثباتٍ وتذكيرٍ.

---

(١) المائدة / ٣.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ ﴾ ؛ أي فإنْ خاصمُوكَ يا مُحَمَّدُ في الدِّين؛ فَقُلْ: انْقَدْتُ للهِ وحدَهُ بلسانِي وجميعِ جوارحِي، وإنَّما خصَّ الوجهَ لأنه أكرمُ جوارحِ الإنسان وفيه بَهاؤُهُ وتعظيمُه، فإذا خضعَ وجهُهُ لشيء فقد خضعَ له سائرُ جوارحِهِ التي دونَ الوجهِ. قال الفرَّاء: (مَعْنَاهُ: أخْلَصْتُ عَمَلِي للهِ، وَالْوَجْهُ الْعَمَلُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَنِ اتَّبَعَنِ) في موضعِ رفعٍ عطفاً على إنِّي أسْلَمْتُ؛ أي أسلمتُ وَمَنِ اتَّبَعَنِي أسلمَ أيضاً كما أسلمتُ، والأصلُ إثباتُ الياء في (تَبعَنِي) لكن حُذفت للتخفيفِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ ﴾ ؛ الذينَ أوتُوا الكِتَابَ همُ اليَهودُ والنصارَى؛ والأمِّيُّونَ مشركو العرب؛ أي قُلْ لَـهُمْ أخلَصْتُم كما أخلصنَا، ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ ﴾ اخلصُوا؛ ﴿ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ ﴾ ؛ مِنَ الضلال؛ ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ ؛ عن الإسلام وقالَتْ النَّصارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ؛ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُۗ ﴾ ؛ بالرِّسالةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بمن يؤمنُ ومَن لا يؤمن، لا يفوتُه شيءٌ من أعمالِهم التي يُجازيهم بها.

قال الكلبيُّ: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ذكَرَ ذلِكَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ؛ فَقَالَ أهْلُ الْكِتَابِ: أسْلَمْنَا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْيَهُودِ: [تَشْهَدُونَ أنَّ عِيسَى كَلِمَةُ اللهِ وَعَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؟] قَالُوا: مَعَاذ اللهِ؛ وَلَكِنَّهُ ابْنُ اللهِ. فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإنْ تَوَلَّوْا فَإنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ)). (وَالله بَصِيرٌ بالْعِبَادِ) أي عليمٌ بصير بمن يؤمنُ وبمَنْ لا يؤمنُ؛ وبأهْلِ الثَّواب وبأهلِ العقَاب.

فإن قيلَ: قَوْلُهُ: (وَمَنِ اتَّبَعَنِي) عَطفٌ على المضمرِ في قولهِ: (أسْلَمْتُ) والعربُ لا تعطفُ الظاهرَ على المضمرِ؟ قيلَ: إنَّما لا تعطفُ إذا لم يكن بين الكلامَين فاصلٌ، أمَّا إذا كان بينَهما فاصلٌ جازَ.

قَوْلُهُ (أَسْلَمْتُ) لفظهُ استفهامٌ ومعناهُ أمْرٌ؛ أي أسلِمُوا كقولهِ تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[1] أي انْتَهُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾؛ معناهُ: إنَّ الذينَ يجحَدونَ بآياتِ اللهِ وهمُ اليهودُ والنصارى. (وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بغَيْرِ حَقٍّ) قرأ الحسنُ (وَيُقَتِّلُونَ) بالتشديدِ فهُما على التكثيرِ، وقرأ حمزةُ (وَيُقَاتِلُونَ الَّذِيْنَ يَأْمُرُونَ).

وفي إضافَتِهم قتلَ الأنبياءِ هؤلاءِ الَّذين كانوا على عَهْدِ رسول اللهِ ﷺ قولاَن؛ أحدُهما: رضاهُم بقتلِ مَن سَلَفَ منهُم النبيينَ نحوُ قتلِهم زكريَّا ويحيى، والثاني: أنَّ هؤلاء قاتلُوا النبيَّ ﷺ وهَمُّوا بقتلِه كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿إذْ يَمْكُرُ بكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾[2]، وقرأ بعضُهم: (يُقَاتِلُونَ النَّبِيِّيْنَ بغَيْرِ حَقٍّ).

وعن أبي عبيدةَ بن الجرَّاحِ ﷺ قالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ أيُّ النَّاسِ أشَدُّ عَذاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: [رَجُلٌ قَتَلَ نَبيّاً أوْ رَجُلاً أمَرَ بالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ] ثُمَّ قَرَأ هَذِهِ الآيَةَ؛ ثُمَّ قَالَ: [يَا أبَا عُبَيْدَةَ؛ قَتَلَتْ بَنُو إسْرَائِيْلَ ثَلاثَةً وَأرْبَعِينَ نَبيّاً مِنْ أوَّلِ النَّهَارِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَامَ مِائَةُ رَجُلٍ وَاثْنَا عَشَرَ رَجُلاً مِنْ عُبَّادِ بَنِي اسْرَائِيْلَ؛ فَأمَرُوا بالْمَعْرُوفِ وَنَهَوا عَنِ الْمُنْكَرِ فَقَتَلُوهُمْ جَمِيْعاً فِي آخِرِ النَّهَارِ مِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ] فَهُمُ الذينَ ذكرَهم اللهُ في كتابهِ وأنزلَ فيهم الآيةَ[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَبَشِّرْهُمْ بعَذَابٍ ألِيمٍ) أيْ أخبرْهُم بعذابٍ وجيعٍ يَخْلُصُ وَجَعُهُ إلى قلوبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ ﴾، أي أهلُ هذه الصِّفة بطلَت حسناتُهم فلا يستحقُّون الثناءَ عليها في الدُّنيا، ولا يستحقُّون

---

(١) المائدة / ٩١ . (٢) الانفال / ٣٠ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: تفسير الآية (٢٢) من سورة آل عمران: النص (٥٣٣٢). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٢٧٢؛ قال الهيثمي: ((رواه البزار وفيه ممن لم أعرفه اثنان)).

الثوابَ عليها في الآخرة؛ ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي من ناصرٍ يَمنعونَهم من العذاب إذا نزلَ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾. قَالَ الكلبيُّ: (وَذلِكَ أنَّ رَجُلاً وَامْرَأةً مِنْ أشْرَافِ أهْلِ خَيْبَرَ مِنَ الْيَهُودِ فَجَرَا وَكَانَ فِي كِتَابهِمُ الرَّجْمُ؛ فَكَرِهُوا رَجْمَهُمَا لِشَرَفِهِمَا وَرَجَوا أنْ يَكُونَ لَهُمَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رُخْصَةٌ فِي أمْرِهِمَا فِي الرَّجْمِ فَيَأْخُذُوا بهِ. فَرُفِعَ أمْرُهُمَا إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَحَكَمَ عَلَيْهِمَا بالرَّجْمِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: جُرْتَ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ! فَقَالَ ﷺ: [بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ التَّوْرَاةُ، فَمَنْ أعْرَفُكُمْ بهَا] قَالُوا: ابْنُ صُوريَّا، فَأَرْسَلُوا إلَيْهِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أنْتَ ابْنُ صُوريَّا؟] قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: [أنْتَ أعْلَمُ الْيَهُودِ؟] قَالَ: كَذلِكَ يَزْعُمُونَ. فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئاً مِنَ التَّوْرَاةِ فِيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ -دَلَّهُ عَلَى ذلِكَ ابْنُ سَلاَمٍ- فَقَالَ لابْنِ صُوريَّا: إقْرَأ؛ فَلَمَّا أتَى عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ فَوَضَعَ كَفَّهُ عَلَيْهَا؛ ثُمَّ قَامَ ابْنُ سَلاَمٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ قَدْ جَاوَزَهَا وَوَضَعَ كَفَّهُ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَامَ ابْنُ سَلاَمٍ فَرَفَعَ كَفَّهُ عَنْهَا، وَقَرَأ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ:(الْمُحْصَنُ وَالْمُحْصَنَةُ إذا زَنَيَا وَقَامَتْ عَلَيْهِمَا الْبَيِّنَةُ؛ فَيُسْأَلُ عَنِ الْبَيِّنَةِ، فَإنْ كَانُوا عُدُولاً رَجَمَ، وَإنْ كَانَتِ الْمَرْأةُ حُبْلَى يُتَرَبَّصُ بهَا حَتَّى تَضَعَ مَا فِي بَطْنِهَا). فَأَمَرَ بهمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ برَجْمِهِمَا فَرُجِمَا، فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ لِذلِكَ غَضَباً شَدِيْداً وَرَجَعُوا كُفَّاراً)[1]. فذلك قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَاب) معناهُ: ألَمْ تعلَمْ يا مُحَمَّدُ بالذينَ أعْطُوا حَظّاً من التوراةِ.

وقَوْلُهُ: (يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَاب اللهِ) قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ التَّوْرَاةُ دُعِيَ إلَيْهَا الْيَهُودُ فَأَبَوا لِعِلْمِهِمْ بلُزُومِ الْحُجَّةِ، وَأنَّ فِيْهِ الْبشَارَةَ بالنَّبِيِّ ﷺ). وقال الحسنُ وقتادة: (أرَادَ بهِ الْقُرْآنَ، فَإنَّهُمْ دُعُوا إلَى الْقُرْآنِ لِمُوَافَقَتِهِ التَّوْرَاةَ فِي أُصُولِ الدِّيَانَةِ)[2]. وعن الضحَّاك

(١) أصله من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب (٦): الحديث (٤٥٥٦).

(٢) في الدر المنثور: ج ٢ ص١٧٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة... وذكره بمعناه)).

في هذهِ الآية: (أنَّ اللهَ تَعَالَى جعَلَ الْقُرْآنَ حَكَماً بَيْنَهُمْ وَبَيْـنَ رَسُـول اللهِ ﷺ؛ فَحَكَـمَ الْقُرْآنُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بأنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ الْهُدَى فَـأعْرَضُوا). وقَـال قتـادةُ: (هُـمُ الْيَهُودُ دُعُوا إلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَاتِّبَـاعِ مُحَمَّـدٍ ﷺ؛ فَـأعْرَضُوا وَهُـمْ يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبـاً عِنْدَهُمْ فِي كُتُبهِمْ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ) أي يُعْرِضُ؛ جمعٌ كُثُرٌ منهم من الدَّاعي وهم مُعْرِضُونَ عن العمل بالمدعوِّ إليه، وقيلَ: معناهُ: ثُمَّ يَتَولَّى فَرِيْقٌ مِنْهُمْ بعد عِلمهم أنَّـها في التوراةِ، وإنَّما ذكرَ الإعراضَ بعد التولِّي؛ لأن الإنسـانَ قـد يُعْـرِضُ عـن الدَّاعـي ويتأمَّلُ ما دَعَاهُ إليه فينكـرُ أنـه حـقٌّ أو بـاطل، وهـم لَـمْ يتـأمَّلوا ولم يتفكَّـروا فيمـا دعوا إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ ؛ أي (ذلِكَ) الإعراضُ والكذب (بأنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أيَّاماً مَعْدُودَاتٍ) يعنونَ الأربعينَ يوماً التي عَبَـدَ آبـاؤُهم فيـها العجـلَ. قولـه تعـالى: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي غرَّهُم افتراؤُهم على اللهِ أنَّه لا يعذبُهم إلاّ أيَّاماً معدودات، ويقالُ: غرَّهم افتراؤهم أنَّهم قالُوا نحنُ أبناء اللهِ وأحبَّاؤه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ؛ أي كيـفَ يحتالون وكيف يصنعُون إذا جمعناهم بعد الموتِ لجزاء يوم لا شكَّ فيـه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي أعطيت كلُّ نفس برَّةٌ وفاجرةٌ جزاءَ ما عملت من خـيرٍ أو شـرٍّ تامّـاً وافيـاً، (وَهُـمْ لاَ يُظْلَمُونَ) أي لا يُنقصون من حسنةٍ ولا يزادون على سيِّئة. قـال الضحَّـاك عـن ابـن عبَّاس: (أوَّلُ رَايَةٍ تُرْفَعُ لأَهْلِ الْمَوْقِفَ ذلِكَ الْيَوْمِ مِـنْ رَايَـاتِ الْكُفَّـار رَايَـةُ الْيَـهُودِ؛ فَيَفْضَحُهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ ثُمَّ يَأْمُرُ بهِمْ إلَى النَّار)[2].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٣٣٤).

(٢) نقله الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٣ ص٣٩.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ . قـال علـيٌّ رضي الله عنه قـال النبيُّ ﷺ: [لَمَّا أرَادَ اللهُ تَعَالَى أنْ يُنَزِّلَ الْفَاتِحَـةَ؛ وَآيَـةَ الْكُرْسِـيِّ؛ وَشَـهِدَ اللهُ؛ وَقُـلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، تَعَلَّقْنَ بالْعَرْشِ وَقُلْنَ: تُهْبِطُنَا دَارَ الذُّنُوب وَإلَـى مَـنْ يَعْصِيْـكَ؟! فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي؛ مَا مِنْ عَبْدٍ قَرَأكُنَّ فِـي دُبُـرِ كُـلِّ صَـلاَةٍ مَكْتُوبَـةٍ إلاَّ أسْكَنْتُهُ حَضْرَةَ الْعَرْشِ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَإلاَّ نَظَرْتُ إلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ سَـبْعِيْنَ نَظْـرَةً، وَإلاَّ قَضَيْتُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِيْنَ حَاجَةً، أدْنَاهَا الْمَغْفِرَةَ، وَأعَذْتُهُ مِنْ كُلِّ عَدُوٍّ وَنَصَرْتُهُ عَلَيْـهِ، وَلاَ يَمْنَعُهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إلاَّ أنْ يَمُوتَ][(١)].

ومعنى الآيةِ: قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا فَتَحَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَوَعَدَ أمَّتَهُ مُلْـكَ فَـارسَ وَالرُّومَ، قَالَ الْمُنَافِقُونَ وَالْيَهُودُ: هَيْهَاتَ، مِنْ أيْنَ لِمُحَمَّدٍ مِلْكُ فَـارسَ وَالـرُّومَ، هُـمْ أعَزُّ وَأمْنَعُ مِنْ ذلِكَ، ألَمْ يَكْفِ مُحَمَّداً مَكَّةَ وَالْمَدِيْنَـةَ حَتَّـى أطْمَـعَ نَفْسَـهُ فِـي مُلْـكِ فَارسَ وَالرُّومِ)[(٢)].

ويقالُ في وجه اتِّصال هذه الآية بما قبلَها: إنَّ اليهودَ قالوا: لا نتبعُكَ؛ فإنَّ النبوَّة والملكَ لم يزل في أسلافِنا بني إسرائيل، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ. ومعناها: قُلْ يا مُحَمَّدُ: يا اللهُ يا مَالِكَ الْمُلْكِ.

وإنَّما زيدت الميمُ لأنَّها بدلٌ عن (يَا) التي هي حرفُ النداءِ، ألا تَرى أنه لا يجوزُ في الإخبار إدخالُ الميم؛ لا يقالُ: غَفَرَ اللَّهُمَّ لي كما يقالُ في النداء اللَّـهُمَّ اغْفِـرْ ((لي))؛ ولهذا لا يجوزُ الجمع بين ((ما كان)) الميم في آخرِه والنداء في أوَّله، لأنه لا يجوزُ الجمـع بين العِوَضِ والمعوَّض، وإنَّما شُـدِّدت الميـمُ لأنَّـها عِـوَضٌ عـن حرفـين، فـإنَّ النـداءَ حرفان، وهذا اختيارُ سيبويه. وقال الفرَّاء: (مَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ: اللَّهُمَّ يَـا اللهُ أمَّ بخَـيْرٍ؛ أيْ أقْصُدْ. طُرِحَتْ حَرَكَةُ الْهَمْزَةِ عَلَى الْهَاءِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَالِكَ الْمُلْكِ) أي مالِكَ كلِّ مَلِكٍ، هذه صفـةٌ لا يسـتحقُّها أحـدٌ غيرُ الله، وقيل: معناه: مالِكَ أمرِ الدنيـا والآخـرة. وقـال مجـاهدُ: (أرَادَ بـالْمُلْكِ هُنَـا

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٥٢.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٣٤٠) عن قتادة بمعناه.

النُّبُوَّةَ)[١]، وقيل: إنَّ هذا لا يصلُح لأنَّه قالَ: (وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ) واللهُ تعالى لا يَنْزِعُ النبوَّةَ من أحدٍ؛ لأنه لا يريدُ لأداءِ الرسَالة إلاّ مَن يعلمُ أنه يؤدِّي الرسالةَ على الوجه، وأنَّه لا يغيِّرُ ولا يبدِّلُ، لأنه عالِمٌ بعواقب الأمور.

ومعنى: (تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ) أي تُعطي الملكَ من تشاء أنْ تعطيه. وقال الكلبيُّ: (تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ) يَعْنِي مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ، (وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ) أيْ مِنْ أبِي جَهْلٍ وَأَصْحَابِهِ). وقيل معناه: (تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ) يعني العربَ، (وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ) يعني الرُّوم والعجمَ وسائر الأممِ[٢].

وقال بعضُهم: (تُؤْتِي الْمُلْكَ) أي العافيةَ، قال ﷺ: [مَنْ أصْبَحَ آمِناً فِي سِرْبِهِ؛ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ؛ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيْزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذافِيْرِهَا][٣].

وقيل: هو القناعةُ. وقال ابنُ المباركِ: (دَخَلْتُ عَلَى سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ بِمَكَّةَ فَوَجَدْتُهُ مَرِيْضاً شَارِبَ الدَّوَاءِ وَبِهِ غَمٌّ شَدِيْدٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ: مَا لَكَ يَا أبَا عَبْدِاللهِ ؟ فَقَالَ: أنَا مَرِيْضٌ شَارِبُ الدَّوَاءِ وَبِي غَمٌّ شَدِيْدٌ، فَقُلْتُ: أعِنْدَكَ بَصَلَةٌ ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: ائْتِنِي بِهَا، فَكَسَرْتُهَا ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: شُمَّهَا؛ فَشَمَّهَا فَعَطَسَ عِنْدَ ذلِكَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِيْنَ، فَسَكَنَ مَا بِهِ، فَقَالَ: يَا ابْنَ الْمُبَارَكِ؛ أنْتَ فَقِيْهٌ وَطَبِيْبٌ ! فَقُلْتُ: مُجَرِّبٌ يَا أبَا عَبْدِاللهِ. قَالَ: فَلَمَّا رَأيْتُهُ سَكَنَ مَا بِهِ وَطَابَتْ نَفْسُهُ، قُلْتُ: إنِّي أُرِيْدُ ((أنْ)) أسْألَكَ حَدِيْثاً، قَالَ: سَلْ مَا شِئْتَ، قُلْتُ: أخْبرْنِي مَنِ النَّاسُ ؟ قَالَ: الْفُقَهَاءُ، قُلْتُ: فَمَنِ الْمُلُوكُ؟ قَالَ: الزُّهَّادُ، وَقُلْتُ: فَمَنِ الأَشْرَافُ ؟ قَالَ: الأَتْقِيَاءُ، قُلْتُ: فَمَنِ السَّفَلَةُ؟ قَالَ: الظَّلَمَةُ. ثُمَّ وَدَّعْتُهُ فَخَرَجْتُ)[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النصوص (٥٣٤١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٣٤٠) عن قتادة مرسلاً.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٢ ص٤٩٢: الحديث (١٨٤٩) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ وقال: ((لم يرو هذا الحديث عن الفضيل إلا علي)). وفي مجمع الزوائد: ج١٠ ص٢٨٩: كتاب الزهد: باب فيمن أصبح معافى؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط، وفيه علي بن عابس، وهو ضعيف)). والحديث له شاهد أخرجه الترمذي من طريق سلمة بن عبيدالله الخطمي، عن أبيه، وكانت له صحبة، وذلك في الجامع: الحديث (٢٣٤٦)، وإسناده صحيح.

(٤) كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري: ج ٢ ص٢٦٣.

وقيل: معنى: (تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ) يعني مُلْكَ المعرفةِ كما أُوتِيَ سحرةُ فرعون، (وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ) كما نُزع من إبليسَ وبلعَامَ. وقيل: مَعْنَى الْمُلْكِ: الْجَنَّةُ كما أُوتِيَ الْمُؤْمِنُونَ. قال اللهُ تعالى: ﴿وَمُلْكاً كَبِيراً﴾[1]. (وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ) كما نُزع من الكفَّار. وقيل: أراد بالْمُلْكِ توفيقَ الإيمان والطاعة. وقيلَ: هو قيامُ الليل. وقال الشِّبْلِيُّ: (هُوَ الاسْتِغْنَاءُ مِنَ الْمُكَوِّنِ عَنِ الْكَوْنَيْنِ).

قوله تعالى: (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) قال عطاءُ: (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ) يَعْنِي الْمُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَار، (وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) يَعْنِي فَارسَ وَالرُّومَ. وقيل: (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ) مُحَمَّداً وأصحابَه حتى دخلوا مكَّة بعشرةِ آلافٍ ظاهرين عليها (وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) أبَا جهلٍ وأصحابَه حتى جُزَّتْ رؤوسُهم وألقوا في القُلَيب.

وقيل: (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ) بالإيمان والمعرفة، (وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) بالكُفر والنكدة، وقيل: (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ) بالطاعةِ، (وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) بالمعصية، وقيل: ((تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ) بالتوفيق والمعرفةِ، (وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) بالحرمان والْخُذلان، وقيل: (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ) بالتمليك والتشديد، (وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) بسلب الملك وتسليطِ العدُوِّ عليه، وقيل: (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ) بقهرِ النفس ومخالفة الهوى، (وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) من أتْباع الهوى، وقيل: (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ) بأن يقهرَ الشيطان، (وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) بأن يقهرَهُ الشيطان، وقيل: (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ) بالطاعة والرضا، (وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) بالحرصِ والطمع.

قال بعضُهم: الْحُرُّ عَبْدٌ مَا طَمَعْ، وَالْعَبْدُ حُرٌّ مَا قَنَعْ. وقال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

أَلاَ يَا نَفْسُ إنْ تَرْضَي بقُوْتٍ ... فَأَنْتِ عَزِيْزَةٌ أَبَداً غَنِيَّهْ

وقال آخرُ:

أفَادَ مِنِّي الْقَنَاعَةَ كُلَّ عِزٍّ ... وَهَلْ عِزٌّ أَعَزُّ مِنَ الْقَنَاعَهْ

فَصَيِّرْهَا لِنَفْسِكَ رَأْسَ مَالٍ ... وَصَيِّرْ بَعْدَهَا التَّقْوَى بضَاعَهْ

وقال بعضُهم: معناهُ: (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ) بالاخلاص، (وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) بالريَاء، وقيل: (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ) بالجنَّة والرؤية، (وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) بالنار والحجاب .

(١) الإنسان / ٢٠ .

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي بيدِكَ الخيرُ والشرُّ، فاكتفى بذكرِ الخيرِ لأنه الأفضلُ ولأنه إنَّما قـال ذلـكَ علـى وجـه الرَّغبة، والرغبةُ إنَّما تقعُ في الخيرِ لا في الشرِّ، وفي ذكرِ أحد الأمرين دليلٌ على الآخر كما قال تعالى: ﴿سَرَابيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[1] ولم يذكر البردَ؛ والمعنى تقيكُم الحرَّ والـبردَ، وقيل: معنى الآيةِ: (بِيَدِكَ الْخَيْرُ) أي النصرُ والفتح والفيء والغنيمةُ وغير ذلـك مـن خيرِ الدُّنيا والآخرة. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي من الإعطـاء والـنَّزع والعزِّ والذُّل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ ؛ أي يُدْخِلُ من الليلِ في النَّهار حتى يصيرَ النهارُ خمسَ عشرة ساعةً وهو أطـولُ مـا يكـون، وأقصـرهُ تِسْعُ ساعاتٍ، ويُدْخِلُ النَّهارَ في الليلِ حتى يصيرَ الليلُ خمسَ عشرة ساعةً وهو أطـولُ ما يكون، وأقصرهُ تِسْعُ ساعاتٍ، فما نَقُصَ من أجزاءِ أحدِهما دخلَ في الآخر، وهـذا قولُ أكثرِ المفسِّرين. وقال بعضُهم: معنـاهُ: تذهـبُ بـالليلِ وتجـيء بالنـهار، وتذهـبُ بالنَّهار وتَجيء بالليل.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ ، قال ابنُ عبَّاس وقتادةُ ومجاهد والضحَّاك وابن جُبير والسديُّ: (مَعْنَاهُ: تُخْرِجُ الْحَيْوَانَ مِنَ النُّطْفَةِ وَهِيَ مَيْتَةٌ، وَتُخْرِجُ النُّطْفَةَ مِنَ الْحَيْوَان وَهُي حَيٌّ، وَالدَّجَاجَةَ مِنَ الْبَيْضَـةِ، وَالْبَيْضَةَ مِنَ الدَّجَاجَةِ)[2]. وقال بعضُهم: يخرجُ النَّخلةَ من النواةِ، والنواةَ من النخلـةِ، وتخرجُ السنبلةَ من الحبَّة، والحبَّةَ من السنبلةِ.

وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: يُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ؛ وَالْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَالْعَـالِمَ مِنَ الْجَاهِلِ؛ وَالْجَاهِلَ مِنَ الْعَالِمِ)[3]. دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتـاً فَأَحْيَيْنَـاهُ﴾ الآية[4].

---

(١) النحل / ٨١ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٣٥١) عن ابن عباس، وفي النـص (٥٣٥٢ و٥٣٥٦) عن مجاهد، وفي النـص (٥٣٥٦) عـن قتـادة، وفي النـص (٥٣٥٣) عـن الضحـاك، وفي النـص (٥٣٥٤) عن السدي.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٣٦١). (٤) الانعام / ١٢٢ .

وحكايةُ عن الزهري: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَإذا هُوَ بامْرَأةٍ حَسَنَةِ الْهَيْئَةِ، فَقَالَ: [مَنْ هَذِهِ؟] قَالَتْ: إحْدَى خَالاَتِكَ، قَالَ: [أيُّ خَالاَتِي هَذِهِ؟] قَالَتْ: هَذِهِ خَالِدَةُ بنْتُ الأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ، فَقَالَ ﷺ: [سُبْحَانَ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ]، وكانتِ امرأةً صالِحة، وكانَ ماتَ أبوها كَافراً[1].

قال أهلُ الإشارةِ: معناهُ: يُخرج الحكمةَ من قلب الفاجر حتى لا تسكُنَ فيه، والمسقِطةُ مِن قلب العارف. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي بغيرِ تقديرٍ، وقد تقدَّم تفسيرُ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ أبَيٍّ وَأصْحَابِهِ الْمُنَافِقِيْنَ؛ كَانُواْ مَعَ إظْهَارِهِمُ الإيْمَانَ يَتَوَلَّوْنَ الْيَهُودَ وَيَأْتِيهِمْ بأَخْبَارِ الْمُؤْمِنِيْنَ، وَيَرْجُونَ أنْ يَكُونَ لَهُمُ الظَّفَرُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ؛ فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ يَنْهَى الْمُؤْمِنِيْنَ عَنْ مِثْلِ فِعْلِهِمْ، وَيَنْهَى الْمُنَافِقِيْنَ أيْضاً؛ أيْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ، فَلاَ تَتَّخِذِ الْكُفَّارَ أوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِيْنَ)[2].

وقالَ الضحَّاك عن ابن عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ؛ وَكَانَ بَدْرِيّاً نَقِيباً؛ وَكَانَ لَهُ حُلَفَاءُ مِنَ الْيَهُودِ، فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ يَوْمَ الأَحْزَاب؛ قَالَ عُبَادَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّ مَعِي خَمْسُمِائَةِ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ؛ وَقَدْ رَأيْتُ أنْ يَخْرُجُواْ مَعِي فَأسْتَظْهِرُ بِهِمْ عَلَى الْعَدُوِّ، فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ ؛ أي مَن يوالِيهم في نقل الأخبار إليهم وإظهارهم على عَوْرَةِ المسلمين، فليس مِن الله في شيء. قال السديُّ: (فَلَيْسَ مِنَ الْوِلاَيَةِ فِي شَيْءٍ، فَقَدْ بَرِئَ اللهُ مِنْهُمْ). كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أخْرَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإنَّهُ مِنْهُمْ﴾[4] معنى أنَّ وَلِيَّ الكافرِ راضٍ بكفره،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: تفسير الآية: مج ٣ ج ٣ ص٣٠٧: النص (٥٣٦٣). والهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٩ ص٢٦٧. والعجلوني في كشف الخفا: ج ١ ص٥٣٩. وترجمة خالدة عند عبدالبر: الرقم (٣٣٤٤).

(٢) في اللباب في علوم الكتاب: ج ٥ ص١٤٣ ذكره عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) المائدة / ٥١ .

والرِّضَى بالكفر كفرٌ، قالَ رسولُ الله ﷺ: [أنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ مَعَ مُشْرِكٍ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ ؛ أي إلاَّ أن يُحصرَ المؤمن في أيدي الكفَّار يخافُ على نفسِه فيداهِنُهم فيرضيهم بلسانهِ وقلبُهُ مطمئنٌّ بالإيْمان فهو مُرَخَّصٌ لـه في ذلـكَ، كمـا رُويَ: أنَّ مُسَيْلَمَةَ الْكَذابَ لَعَنَهُ اللهُ اخَذ رَجُلَيْنِ مِنْ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ لأحَدِهِمَا: أتَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَقَالَ لِلآخَرِ: أتَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أتَشْهَدُ أنِّي رَسُولُ اللهِ؟ قال: إنِّي أصَمٌّ، فَأعَادَ عَلَيْهِ السُّؤَالَ ثَلاَثاً، فَأجَابَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ هَذا الْجَوَاب، فَضَرَبَ مُسَيْلَمَةُ عُنُقَهُ، فَبَلَغَ ذلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: [أمَّا الْمَقْتُولُ فَمَضَى عَلَى صِدْقِهِ وَيَقِيْنِهِ فَهَنِيْئاً لَهُ، وَأمَّا الآخَرُ فَقَبلَ رُخْصَةَ اللهِ فَلاَ تَبعَةَ عَلَيْهِ][2].

فمعنى الآيةِ: إلاَّ أن تَخافوا منهم مخافةً. قرأ الحسنُ والضحَّاك ومجاهد: (تَقِيَّةً). وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالإمالةِ. وقرأ الباقون بالتفخُّم، فكلُّ ذلك لغاتٌ فيها، ومعناهُ واحد.

قولهُ تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ ؛ أي يُخوِّفُكم عقوبتَه وبطشَهُ على موالاةِ الكفَّار وارتكابِ المنهيِّ عنه. وقال الزجَّاج: (مَعْنَاهُ: وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ إيَّاهُ). وَخَاطَبَ اللهُ العبادَ على قدر عملهم وعقلِهم، ومعنى قولهِ تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾[3] أي تعلمُ حقيقةَ ما عندي ولا أعلمُ حقيقةَ ما عندكَ. قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ ، زيادةٌ في الإبعادِ وتذكيرٌ بالمعادِ؛ أي إنْ فعلتُم ما نهيتُكم عنه فمرجعكم إليَّ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٤ ص١١٤: الحديث (٣٨٣٦). والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب القسامة: باب ما جاء في وجوب الكفارة في أنواع القتل الخطأ: الحديث (١٦٩٣٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢٥٣؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني ورجاله ثقات)).

(٢) ذكره أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي في مجمع البيان في تفسير القرآن: المُجلد الأول: ص٤٢٩-٤٣٠. وقف على تصحيحه فئة من أفاضل العلماء، عُني بطبعه أحمد عارف الزين، مطبعة العرفان - صيدا، سنة ١٣٣٣هـ. وفي اللباب في علوم الكتاب: ج ٥ ص١٤٤، ذكره عن الحسن.

(٣) المائدة / ١١٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ ؛ أي قُلْ إن تُسِرُّوا ما في قلوبكم من التكذيب بالنبيِّ ﷺ والعداوَة للمؤمنين والمودَّة للكافرين أو تظهرُوه بالشَّتم والطَّعن والحرب يعلمهُ الله فيجازيكم عليه، وإنَّما ذكرَ الصَّدر مكانَ القلب؛ لأنه مشتملٌ على القلب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لا يخفَى عليه شيءٌ من عملِ أهل السموات وأهلِ الأرض، فلا يغرنَّكم الإخفاءُ، فإن الإخفاءَ والإبداء عنده سواءٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي على جزاءِ عمَل السرِّ والعلانيَة قادرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ ؛ نصبَ (يَوْمَ) بنَزع الخافضِ لأن أوَّل هذه الآية منصرفٌ إلى قوله: (وَيُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ) في: (يَوْمَ تَجِدُ)، وقيل: بإضمار فعلٍ؛ أي اذكُرُوا (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا) أي حَاضِراً مكتوباً في ديوانِهم لا يقصرُ فيه. وقرأ عبيدةُ بن عمر (مُحْضِرًا) بكسر الضاد، ويعني عملُه يحضره الجنة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ ؛ أي والذي عملَتْ من سوء يتمنَّى أن يكونَ بينه وبين ذلك أجلٌ طويلٌ بُعد ما بينَ المشرقِ والمغرب، لَيْتَهُ لم يعملْ، جعل بعضُهم (ما) جزاءً في موضعِ النَّصب واعملَ فيه الوجودَ أي وتجدُ عملَها، وجعل بعضُهم جزاءً مستأنفاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي رحيمٌ بالمؤمنين خاصَّة؛ هكذا قال ابنُ عبَّاس، وقيلَ: إن أول هذه الآية عدلٌ، وأوسطها تهديد وتخويفٌ، وآخرُها رأفةٌ ورحمةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ لَمَّا نزلت الآياتُ المتقدّمة قالتِ اليهودُ: نحنُ أبناءُ اللهِ واحبَّاؤُه، وإنَّما يقولُ الله مثلَ هذه الآياتِ في أعدائه، وأرادوا بقولهِ أحبَّاؤُه: نُحِبُّهُ وَيُحِبُّنَا؛ فأنزلَ اللهُ هذه الآية.

والْمَحَبَّةُ: في الحقيقةِ هي الإرادةُ، وهو أن تريدَ نَفْعَ غيرك فيبلُغَ مرادَه في نفعك إيَّاهُ، وأما الْعِشْقُ: وهو إفراطُ الْمَحَبَّةِ في هذا المعنى. وأما مَحَبَّةُ الطعام والملاذِ؛ فهو شهوةٌ وتَوَقَانُ النفسِ. وأما مَحَبَّةُ العباد للهِ تعالى، فاللهُ يستحيلُ عليه المنافع، فلا يصحُّ أن يرادَ بمُحِبهِ هذه الطريقة لكي يراد بها إعظامُه وإجلاله وطاعتهُ ومحبَّة رسلهِ وأوليائِه، ومحبَّة الله إيَّاهم إثابتهُ إياهم على طاعتِهم؛ وإنعامهُ عليهم؛ وثناؤُه عليهم؛ ومغفرَتُه لهم.

ومعنى الآيةِ: إنْ كنتُم تحبُّون طاعةَ الله والرضا بشرائعهِ فاتَّبعوني على ديني يَزِدْكُمُ اللهُ حُبّاً، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ؛ في اليهوديَّة؛ ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

وروى الضحَّاك عن ابنِ عبَّاس وقال: وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قُرَيْشٍ وَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَقَدْ نَصَبُوا أصْنَامَهُمْ، وَعَلَّقُوا عَلَيْهَا بَيْضَ النَّعَامِ، وَجَعَلُوا فِي آذانِهَا الشُّنُوفَ[(١)] وَهُمْ يَسْجُدُونَ لَهَا، فَقَالَ ﷺ: [يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؛ وَاللهِ لَقَدْ خَالَفْتُمْ مِلَّةَ أبيكُمْ إبْرَاهِيْمَ] وَقَالَتْ قُرَيْشُ: إنَّمَا نَعْبُدُ هَذِهِ حُبّاً للهِ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللهِ زُلْفَى؛ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). أي قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ ﷺ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ، فَأنَا رسولُ اللهِ إليكم، وحجَّتُه عليكم، وأنا أوْلَى بالتعظيمِ من أصْنَامِكُمْ. فلما نزلَتْ هذهِ الآيةُ عرضَها عليهم فلم يقبَلُوا[(٢)].

وقيل: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَرَضَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْيَهُودِيِّ، فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبي سَلُولٍ: إنَّ مُحَمَّداً ﷺ يَجْعَلُ طَاعَتَهُ كَطَاعَةِ اللهِ، وَيَأمُرُنَا أنْ نُحِبَّهُ كَمَا أحَبَّتِ النَّصَارَى عِيسَى عليه السلام؛ فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي فإنْ لَم يفعلوا ما

---

(١) الشُّنُفُ: الذي يُلبس في أعلى الأذن، بفتح الشين، ولا تقل: شُنُف، الذي في أسفلها القُرْطُ. لسان العرب لابن منظور: ج ٧ ص٢١٤.

(٢) في أسباب النزول: ص٦٦؛ نقل الواقدي قال: ((عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: ... وساقه، وفيه: [لَقَدْ خَالَفْتُمْ مِلَّةَ أبيكُمْ إبْرَاهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ، وَلَقَدْ كَانَ عَلَى الإسْلاَمِ])).

تدعوهُم إليه من إتِّباعِك وطاعةِ أمرِكَ فإنَّ اللهَ تعالى لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِيْنَ؛ أي لا يغفرُ لَهم ولا يُثني عليهم.

فلما نزلتْ هذه الآيةُ قالتِ اليَهُودُ: نحنُ أبناءُ إبراهيمَ وإسحاق ويعقوبَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ ونحنُ على دينهم، فأنزلَ الله قولَه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ معناهُ: أنَّ اللهَ اصطفاهُم بالإسلام، وإنَّ آدمَ كما لم ينفع أولادَه المشركين كذلك سائرَ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ لا ينفعونهم. وصَفْوةُ الله: هم الذين لا دَنَسَ فيهم بوجهٍ من الوجوهِ؛ لا في اعتقادٍ ولا في الفعلِ، والاصْطِفَاءُ: هو الاختيارُ، والصَّفْوَةُ: هو الخالِصُ من كلِّ شيءٍ، فمعناهُ: (اصْطَفَى آدَمَ) أي اختارهُ واستخلَصه.

واختلفُوا في آل عمران في هذهِ الآيةِ؛ قيلَ: أراد بهم موسى وهارُون عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ، وقيل: أرادَ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلاَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ ﴾؛ إنتصبُ على البَدَلِ، وقيل: على التَّكرار، واصطفَى ذريَّةً بعضُها من بعضٍ، وقيل: على الحالِ؛ أي اصطفاهُم حالَ كونِ بعضِهم من بعضٍ، ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ أي سَمِيعٌ لقولِهم؛ عَلِيْمٌ بهم وبمجازاتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ قال أبو عُبيد: ((إذْ) زَائِدَةٌ فِي الْكَلاَمِ وَكَذلِكَ فِي سَائِرِ الآيِ). وقال جَمَاعةٌ من النحويِّين: معناهُ: واذكُرْ إذ قالَت، وكانَ اسمُ امرأة عِمران (حِنَّة) وهي أمُّ مريَم، وكان لَها إبنانِ احداهما انشاع؛ وعِمران بنُ مَاثانَ؛ بينهُ وبين عِمران أبي مُوسى عليه السلام ألفٌ وثمانُمائة سنةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (رَب إنِّي نَذرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرا) أي أوجبتُ لكَ على نفسي أن أجعلَه عتيقاً لِخدمة بيتِ المقدس، وكانوا يحرِّرُون أولادَهم أي يعتقونَها عن أسباب الدُّنيا، يجعلون الولدَ خالصاً للهِ، لا يستعملونَها في منافعِهم، ولم يكونوا يحرِّرون إلاَّ الذُّكرانَ، وكان المحرَّرون سكانُ بيتِ الله يتعهَّدونهُ ويَكْسُونَهُ، فإذا بلغُوا خيِّرُوا؛ فإن أحبُّوا أقامُوا في البيتِ، وإن أحبُّوا ذهبوا. و(مُحَرَّرا) نُصِبَ على الحالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَتَقَبَّلْ مِنِّي) أي تقبَّل منِّي نَذْري (إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ) لدُعائي، (الْعَلِيمُ) بنيَّتِي وإخلاصي.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ ؛ وذلك أنَّها كانت تظُنُّ وقتَ النَّذر أنَّ ما في بطنِها ذكراً؛ فلما ولَدَتْ أنثى توهَّمت أن لا تُقبَلَ منها؛ فـ(قَالَتْ رَب إنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى)، وكان هذا القولُ منها على وجهِ الاعتذار؛ لأنَّ سَعْيَ الأُنثى أضعفُ وعقلَها أنقصُ، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ ، وكانوا لا يحرِّرون النساءَ لِخدمة البيتِ لِمَا يلحقهُنَّ من الحيْضِ والنِّفاس.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ ؛ هو من قولِ المرأةِ؛ معناهُ: ليسَ الذكرُ كالأنثى في خدمةِ البيتِ؛ لأن الأُنثى عورةٌ فلا تصلُح لِما يصلحُ له الذكرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ ؛ أي خَادِمَ الرَّب بلُغتهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٣٦) ﴾ ؛ أي إنِّي أمنعُها وولدَها بكَ إنْ كان لَها ولدٌ من الشيطان الرَّجيم. الرَّجيمُ: المرجُوم وهو المطرودُ من رحمةِ الله تعالى. وعن رَسُول اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ وَلِلشَّيْطَانِ طَعْنَةٌ فِي جَنْبِهِ حِيْنَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخاً مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ، إلاَّ مَرْيَمَ وَابْنَهَا عليه السلام، إقْرَؤُا إنْ شِئْتُمْ: وَإنِّي أعِيذُهَا بكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ][(١)].

قرأ عليٌّ والنخعي وابنُ عامرٍ: (وَضَعْتُ) بضم التاء.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ؛ أي استجابَ اللهُ دعاءَ (حِنَّةَ)، وقَبِلَ نَذْرَهَا، وجعل مريَم صوَّامةً وقوَّامةً، ربَّاها اللهُ تربيةً حسنة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ؛ أي ضمَّها للقيامِ بأمرِها، قال ﷺ: [أنا

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٦٧٨٠) عن أبي هريرة بلفظ قريب منه. وأخرجه الطبري في جامع البيان: تفسير الآية: الحديث (٥٤١٧-٥٤٢٠) بأسانيد عن أبي هريرة ﷺ. والحديث أخرجه أيضاً الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٣٣ و٢٧٤ و٢٧٥. والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٢٣٦٦)، وكتاب الأنبياء: الحديث (٣٤٣١).

وَكَافِلُ الْيَتِيْمِ كَهَاتَيْنِ، وَأَشَارَ بِإِصْبَعَيْهِ][1] وكان عِمرانُ قد ماتَ و(حِنَّةُ) حاملةٌ بمريَم. قرأ الحسنُ ومجاهد وابنُ كثير وشيبةُ ونافع وعاصمُ وأبو بكرٍ وابنُ عامر: (وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا) مخفَّفاً، وزكريَّا في موضعِ رفعٍ؛ أي ضمَّها إلى نفسهِ، وتصديقُ هذه القراءةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾[2]. وروي عن ابنِ كثير: (وَكَفِلَهَا زَكَرِيَّا) بكسر الفاءِ؛ أي ضمَّها، وقرأ الباقون: (وَكَفَّلَهَا) بالتشديدِ وزَكَرِيَّا بالنصب؛ أي ضمَّها اللهُ زكريَّا فضمَّها إليه بالقُرعةِ، وفي مُصحف أُبَيٍّ: (وَأَكْفَلَهَا) بالألفِ.

وكان زكريَّا وعِمران تزوَّجا أختين؛ فكانت إشياعُ بنتُ فاقودَ أختَ حِنَّةَ عندَ زكريَّا، وكانت حِنَّةُ بنتُ فاقودَ أمُّ مريَم عند عِمران.

قال المفسِّرون: فلما وضعَت حنَّةُ مريَمَ لفَّتْها في خِرْقَةٍ وحَمَلَتْهَا إلى المسجدِ فوضعَتها عند الأحبار أبناء هارون عليه السلام وهم يومئذ يَلُونَ من بيتِ المقدِسِ مَا يلي الْحَجَبَةُ[3] من الكعبة، فقالَت لَهُم: دُونَكُمْ هذه النَّذِيْرَةِ؛ فتنافَسَ فيها الأحبارُ لأنَّها كانت بنتَ إمامِهم، فقال لَهم زكريَّا عليه السلام: أنَا أحقُّ بها لأنَّ خالَتَها عندِي، فقالت لهُ الأحبارُ: لا تفعل؛ فإنَّها لو تُركت لأحَقِّ الناسِ بها لتُركت لأُمِّها، ولكنَّا نُقْرِعُ عليها فتكونُ عند مَن خرجَ سهمُه.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي عندَما رأى زكريَّا أمرَ اللهِ في مريَم طَمِعَ أنَّ الذي يأتِي مريَم بالفاكهةِ في الشِّتاء يُصْلِحُ له عُقْرَ زوجتهِ، فدعَا عند ذلكَ وقال: ﴿رَب هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[4] أي وَلَداً صالِحاً، والذُّرِّيَّةُ تكونُ واحداً وجَمعاً؛ ذكراً أو أنثى، وهو هَا هُنا واحدٌ،

---

(١) الحديث عن سهل بن سعد؛ أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٣٣. والبخاري في الصحيح: كتاب الطلاق: باب اللعان: الحديث (٥٣٠٤)، وله طرق أخرى عن عائشة وأبي هريرة وأبي أمامة وغيرهم.

(٢) آل عمران / ٤٤.

(٣) الْحَجَبَةُ: الذين يدلُّون الناس أركان الكعبة وأماكنها.

ويدلُّ عليهِ قولُه: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾(١) ولَم يقل أولياءَ، وإنَّمـا أتـت (طَيِّبَـةً) لأنه على لفظِ ذُرية كما قالَ الشاعر(٢):

أَبُـوكَ خَلِيْفَـةٌ وَلَدَتْـهُ أُخْـرَى وَأَنْـتَ خَلِيْفَـةٌ ذاكَ الْكَمَـال

فأنَّث (وَلَدَتْهُ) لتأنيثِ الخليفة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) أي سامِعُ الدعاءِ ومُجيِّبُـهُ، وقولُـهم: (سَـمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ) أي أجابَ، وأنشدَ:

دَعَـوْتُ اللهَ حَتَّـى خِفْـتُ أَنْ لاَ يَكُـونَ اللهُ يَسْـمَعُ مَـا أَقُـولُ

قوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ ؛ قرأ الأعمشُ وحمزة والكسائيُّ وخلَـفُ وقتـادةُ: (فَنَـادَاهُ)، وقـرأ الباقون: (فَنَادَتْهُ)، وإذا تقدَّمَ الفعلُ فـأنتَ فيه بالخيـار؛ إنْ شِـئْتَ أنَّثْـتَ؛ وإنْ شـئتَ ذكَّرْتَ.

ومعنى الآيةِ: فناداهُ جبريلُ عليه السلام وهو قائمٌ يُصَلِّي في المسـجدِ بـأنَّ اللهَ يُبَشِّـرُكَ بولدٍ اسْمُهُ يَحْيَى. والمرادُ بالملائكةِ هنا جِبْرِيْلَ وحدَه؛ ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَـالَتْ الْمَلاَئِكَةُ يَامَرْيَمُ﴾(٣) يعني جبريلَ وحدَهُ، وقَوْلُهُ: ﴿يُـنَزِّلُ الْمَلاَئِكَـةَ بـالرُّوحِ﴾(٤) يعـني جبريلَ وحدَه، (بالرُّوحِ) أي بالوَحْي، يدلُّ عليه قراءةُ ابنِ مسعود: (فَنَادَاهُ جِبْرِيْلُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَاب).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (أنَّ الله يُبَشِّرُكَ) قرأ ابنُ عامرٍ والأعمشُ وحمزة: (إنَّ اللهَ) بكسـر الألفِ على إضمار القول؛ تقديرهُ: فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ فقالَتْ: إنَّ اللهَ، لأنَّ النـداءَ قـولٌ، وقرأ الباقون بالفتح بوقوعِ النِّداء عليه كأنَّه قالَ: فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ بأَنَّ اللهَ. قَوْلُهُ تَعَالَى:

---

(١) هو من شواهد الفراء في معـاني القـرآن، وفيـه (ذاكَ الكمـال) بـدل (زاكـي الكمـال). وذكـره صاحب اللسان: مادة (خلف)؛ قال: ((الخليفة السلطان الأعظم؛ وقد يؤنث)) وأنشد الفـراء:... البيت، قال: ((فقال أخرى، لتأنيث اسم الخليفة، والوجه أن يقول: ولده آخر)). معـاني القـرآن للفراء: ج ١ ص٢٠٨.

(٢) آل عمران / ٤٢.

(٣) النحل / ٢ .

(يُبَشِّرُكَ) قرأ حمزةُ والكسائي (يَبْشُرُكَ) بفتح اليـاء وجـزمِ البـاء وضـمِّ الشـين، وقـرأ الباقون بضمِّ الياءِ وفتح البَاء وتشديدِ الشِّين وكسرِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ ؛ انتصبَ علـى الحال في قوله: (بكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) يعني عيسَى عليه السلام؛ يعـني أنَّ يَحيـى مصدِّقـاً بعيسـى، وكانَ يَحيى أوَّلَ مَن صدَّق بعيسَى وشَهدَ أنَّه كلمةُ اللهِ وروحُه، وكان يحيى أكـبرَ مـن عيسى بثلاثِ سنين، وقيلَ: بستَّة أشهرٍ.

واختلفُوا في تسمية يَحيى بهذا الاسمِ؛ فقالَ ابنُ عبَّاس: (لأَنَّ اللهَ تَعَـالَى حَيَـى بِهِ عُقْرَ أُمِّهِ). وقالَ قتادةُ:(لأَنَّ اللهَ أحْيَا قَلْبَهُ بالإيْمَان)[1] . وقيل: بالنبوَّة.

وقيل: إنَّ اللهَ تعالى أحيَى قلبَه بالطاعةِ حتى لَم يَعْصِ ولَم يَهُمَّ بمعصيةٍ. قالَ ﷺ: [مَا مِنْ أحَدٍ يَلْقَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إلاَّ وَقَدْ هَمَّ بخَطِيَّةٍ أوْ عَمِلَهَا إلاَّ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّـا فَإنَّـهُ لَـمْ يَهُمَّ بهَا وَلَمْ يَعْمَلْهَا][2] . وقال بعضُهم: سُمِّي بذلكَ لأنه اسْتُشْهِدَ، والشـهداءُ أحيـاءٌ عند ربهم يرزقون. قال ﷺ: [مِنْ هَوَان الدُّنْيَـا عَلَـى اللهِ عَزَّوَجَـلَّ أنَّ عِيْسَـى قَتَلَتْـهُ امْرَأةٌ، وَقُتِلَ يَحْيَى قَبْلَ رَفْعِ عِيْسَى عليه السلام].

قوله تعالى: (بكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ) إنَّما سُمي عيسَى كَلِمَةً؛ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ لهُ كُـنْ مِن غيرِ أبٍ فكانَ، فوقعَ عليه اسمُ الكلمة. قولُه تعالى: (وَسَيِّداً) السـيِّدُ في اللغـة وفي الحقيقةِ: مَنْ تَلْزَمُ طَاعَتُهُ وَيَجِبُ عَلَى النَّاسِ الاقْتِـدَاءُ وَالْقَفَـا بـهِ فِـي الْعِلْـمِ وَالْحِلْـمِ وَالْعِبَادَةِ. وقال الضحَّاكُ: (السَّيِّدُ: الْحَسَنُ الْخُلُق). وقال ابـنُ جبـير: (السَّـيِّدُ: الَّـذِي يُطِيْعُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ). وقال ابنُ المسيَّب:(السَّيِّدُ: الْفَقِيْهُ الْعَالِمُ)[3] . وقال سفيـان: (هُـوَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٤٦٩).

(٢) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٤٩٥؛ وأولـه: [كُـلُّ بَنِـي آدَمَ...] والنص (٥٤٧٩). وفي الدر المنثور: ج ٢ ص١٩٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جريـر وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عمرو بن العاص)). وأخرجه الحاكم في المسـتدرك: كتاب التوبة: باب خير الخطائين التوابون: الحديث (٧٦٩٢)؛ وقـال: ((حديـث صحيـح علـى شرط مسلم ولم يخرجاه)).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٤٩١).

الَّذِي لاَ يَحْسِدُ)، وقال عكرمةُ: (هُوَ الَّذِي لاَ يَغْضَبُ)[١]، وقال ذُو النُّون: (الْحَسُودُ لاَ يَسُودُ)، وقال الخليلُ: (سَيِّداً أيْ مُطَاعاً)، وقيل: السيِّدُ: القانِعُ بما قسَمَ اللهُ، وقيل: هو الرَّاضِي بقضاءِ الله، وقيل: المتوكِّلُ على اللهِ. وقال أبو يزيدِ البُسْطَامِي: السيدُ هو الذي قد عَظُمَتْ هِمَّتُهُ؛ ونَبُلَ قدرهُ أن يحدِّثَ نفسَه بدار الدنيا، وقيل: هو السَّخِيُّ. قال ﷺ: [مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ ؟] قَالُوا: جِدُّ بْنُ قَيْسٍ إلاَّ أنَّهُ بَخِيْلٌ، قَالَ:[وَأيُّ دَاءٍ أدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟ بَلْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ][٢].

قوله تعالى: (وَحَصُوراً) الْحَصُورُ: هُوَ الَّذِي لاَ يَأْتِي النِّسَاءَ، وهذا قولُ ابنِ مسعود وابنِ عبَّاس وابن جبير وقتادةَ وعطاءِ والسديِّ والحسنِ؛ يعنِي أنهُ يَحْصِرُ نفسَه عن الشَّهواتِ. وقال ابنُ المسيَّب والضحَّاك: (هُوَ الْعَنِّيْنُ الَّذِي مَا لَهُ ذكَرٌ قَوِيٌّ)، ودليلُ هذا التأويلِ ما روى أبو هُريرة، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَلْقَى اللهَ بذنْبٍ قَدْ أذنَبَهُ يُعَذِّبُهُ عَلَيْهِ إنْ شَاءَ أوْ يَرْحَمُهُ إلاَّ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا؛ فَإنَّهُ كَانَ سَيِّداً وَحَصُوراً؛ ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾]. ثُمَّ أهْوَى النَّبِيُّ ﷺ إلَى قَذاةٍ مِنَ الأَرْضِ فَأَخَذهَا وَقَالَ: [كَانَ ذكَرُهُ مِثْلَ هَذِهِ الْقَذاةِ][٣].

وقال الْمُبَرِّدُ: الْحَصُورُ: هُوَ الَّذِي لاَ يَدْخُلُ فِي اللَّعِب وَالْعَبَثِ وَالأَبَاطِيْلِ، وَقَدْ يُسَمَّى كَاتِمُ السرِّ حَصُوراً، والذي لا يدخلُ مع الناسِ في الْمَيْسِرِ حَصُوراً لامتناعهِ من ذلك، وأصلهُ من الحصيرِ وهو الجسدُ؛ يقال: حَصَرْتُ الرَّجُلَ عَنْ حَاجَتِهِ إذا حَبَسْتُهُ، وحَصَرَ في قِرَانِهِ إذا امتنعَ من اللقواة[٤] فلم يقدِرْ عليها، ومنه إحْصَارُ العدوِّ، قال اللهُ تعالى:﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾[٥] أي مَحْبَساً. ويسمَّى الحصيرُ حصيراً لأنه أدْخِلَ بعضُه في بعضٍ بالنسجِ وحُبسَ بعضُه على بعضٍ. وأوْلَى ما قيلَ في تفسيرِ قولهِ تعالى: (وَحَصُوراً): هو الذي لاَ يَأْتِي النِّسَاءَ، يَحْبسُ نفسَه عن ذلك اختياراً، فهذا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٤٩٣).

(٢) تقدم.

(٣) في الدر المنثور: ج ٢ ص١٩٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر عن أبي هريرة)).

(٤) هكذا رسمت في الأصل.

(٥) الاسراء / ٨ .

التأويلُ أولَى من تأويلِ بعضهم أنهُ لا شهوةَ لهُ؛ لِما في هذا مِن إضافةِ عَيْبِ الْعُنَّةِ إليهِ(1).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: قال زكريَّا لجبريلَ حين سَمع البشارة يا سيِّدي كيفَ يكونُ لي غلامٌ وقد أدركَنِي الْهَرَمُ وامرأتِي ذاتُ عُقْرٍ لا تلدُ، قالَ له جبريلُ مثلَ ذلك (يفعلُ اللهُ مَا يَشاءُ)؛ أي الذي شَاءَهُ. وقال بعضُهم: أرادَ زكريَّا بالرب اللهَ عَزَّ وَجَلَّ؛ أي قالَ يا رب كيفَ يكونُ لي غلامٌ.

قال الكلبيُّ: (كَانَ زَكَرِيَّا يَوْمَ بُشِّرَ بالْوَلَدِ ابْنَ تِسْعِيْنَ سَنَةً). وقيلَ: ابنَ تسعٍ وتسعينَ سنةً. وروى الضحَّاك عنِ ابن عبَّاس: (أنَّهُ كَانَ ابْنَ مِائَةٍ وَعِشْرِيْنَ سَنَةً). وكانتِ امرأتُه بنتَ ثمانِي وتسعينَ سنةً، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى حاكياً عنه: (وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ) أي عقيمٌ لا تَلِدُ.

يقال: رجلٌ عَاقِرٌ وامرأةٌ عَاقِرٌ، وقد عَقُرَ بضَمِّ القافِ يَعْقُرُ عُقْراً، ويقالُ: تكلَّمَ فلانٌ حتى عَقِرَ بكسرِ القافِ؛ إذا بَقِيَ لا يقدرُ على الكلامِ، وإنَّما حذفَ (الهاءَ) من عَاقِرٍ لاختصاصِ الآياتِ بهذه الصِّفة كما يقالُ امرأةٌ مُرْضِعٌ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى حاكياً عن زكريَّا: (وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ) هذا المقلوبُ؛ أي وقد بَلَغْتُ الْكِبَرَ وَشِخْتُ، فإن قيلَ: هل يجوزُ أن يقولَ الإنسانُ بَلَغَنَا الْبَلَدُ كما يقولُ بَلَغْتُ الْبَلَدَ؟ قيل: لا يجوزُ ذلك بخلافِ قولِهِ: (بَلَغَنِي الْكِبَرُ) بمعنى بلغتُ الكبرَ، والفرقُ بينهما أنَّ الكِبَرَ طالبٌ للإنسان لإتيانه عليه بحدوثِهِ فيه، والإنسانُ كالطالب للكِبَرِ لبلوغِهِ إيَّاه بمرور السنينِ والأعوامِ عليه، وأمَّا البلدُ فلا يكونُ طالباً للإنسانِ، كما يكونُ الإنسانُ طالباً للبلد.

---

(1) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٧٨؛ قال القرطبي: ((هذا أصح الأقوال لوجهين: أحدهما: أنه مدحٌ وثناء عليه، والثناء إنما يكون عن الفعل المكتسب دون الجبلة في الغالب. والثاني: أن مفعولاً في اللغة من صيغ الفاعلين)).

فإن قِيْلَ: كيفَ قال زكريَّا (أَنَّى يَكُونُ لِي غُـلاَمٌ) فاسـتبعدَ أن يعطيَـه اللهُ ولـداً على كِبَرِ السِّنِّ من امرأةٍ عاقرٍ بعدَما بشَّرتْهُ الملائكةُ بذلك؟ قيل: لَم يكن هـذا القـولُ منه على جهةِ الاستبعاد ولكنْ من شأنِ من بُشِّرَ بما يتمنَّاهُ أن يحملَه فَـرْطُ سُـرُورِهِ بـه على الزيادةِ في الاستكشافِ والاستثبَات، كما يقولُ الإنسانُ إذا رأى شيئاً مِن الأمـور العظيمة: كيفَ كان هذا ؟! على جهةِ الاستعظامِ لقدرةِ الله تعالى لا لِشَكٍّ في القدرة.

وقيل: معناه: على أيِّ حالٍ يكون الولدُ أيَرُدُّنِي اللهُ وامرأتِي إلى حالِ الشَّباب، أم على هذهِ الحالةِ؟! وقيلَ: معناهُ: أيَرْزُقُنِي اللهُ الولدَ من امرأتِـي هـذهِ أو مـن امـرأةٍ غيرها شابَّة ؟ فقيل لهُ (كَذلِكَ يَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ)؛ أي كإثمار السَّعفة اليابسـةِ؛ يفعـلُ الله ما يشاءُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ ؛ أي قالَ زكريَّا يا رَب اجعل لِي علامةً إذا حملَـتِ امرأتِـي عرفتُ ذلك منها، أرادَ بهذا القول تعجيلَ السُّرور قبلَ ظُـهور الولـدِ بـالولادة. قـال: علامةُ ذلكَ أن لا تُطِيْقَ الكلامَ مع أحدٍ من الناس منذُ ثلاثةِ أيَّام من غير خَـرَسٍ (إلاَّ رَمْزاً) أي الاَّ إشارةً بـالعينين والحـاجبين واليدَيـن، وقيـل: الرَّمـزُ: تَحْرِيْـكُ الشَّـفتين باللفظ من غير إبانةِ صَوْتٍ، فذلك علامةُ حَبَلِ امرأتِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ ؛ أي اذكُر ربَّكَ كثيراً في هذهِ الأيَّام الثلاثة؛ (وَسَبحْ بالْعَشِيِّ والإبْكَار) أي صَـلِّ غُـدُوّاً وعَشِيّاً كما كنتَ تصلِّي من قَبْلُ، يقالُ: فرغتُ من سُبْحَتِي؛ أي من صلاتِي، وسُـمِّيت الصلواتُ سُبَحاً لِمَا فيها من التوحيدِ والتَّحميد والتَّنْزيْهِ مـن كـلِّ سـوءٍ. وقيـل: أرادَ بالتسبيحِ التسبيحَ المعروفَ فيما بين الناس، وقرأ الأخفشُ (رَمَزاً) بفتحِ الميـم مصـدراً مثلَ طَلَباً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ، معطـوفٌ علـى(إذ قَـالَتِ امْـرَأَةُ عِمْرَانَ)، والمرادُ بالملائكة جبريلَ عليه السلام على ما تقدَّم. ومعنـى (إنَّ اللهَ اصْطَفَـاكِ) أي اختارَكِ لطاعتهِ وعبادته،(وطهَّرَكِ) من الكُفْرِ بالإيْمان والطاعاتِ، كما قالَ: ﴿لِيُذْهِبَ

عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1] أرادَ طهارةَ الإيْمَانِ والطاعَات، وقيل: معناهُ: وطهَّرَكِ من الأدناسِ كلِّها؛ مِن الحيضِ والنِّفاسِ وغيرِ ذلكَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) أي اختارَكِ على أهلِ زمانِك بولادة عيسَى من غيرِ أبٍ. وقيل: معنَى الآيةِ: وَطَهَّرَكِ مِنْ مَسِيْسِ الرَّجُلِ.

فإن قِيْلَ: كيف يجوزُ ظُهُورُ الملائكةِ لِمَرْيَمَ وذلك معجزةٌ لا يجوزُ ظهورُها على غير نَبِيٍّ، ومريَم لم تكن نبيّاً ؟ قيل: لأنَّها وإن لَم تكن نبياً؛ فإنَّ ذلكَ كان في وقتِ زكريَّا ‌عليه السلام، ويجوزُ ظهور المعجزاتِ في زمنِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ لغيرهم، ويكونُ ذلك معجزةً له. وقيل: كان ذلك إلْهَاماً لنبوَّة عيسى، كما كانتِ الشُّهب وتظليلُ الغمَامِ وكلامُ الذِّئب إلْهَاماً لنبوَّة نبيِّنا ﷺ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي ﴾ ؛ أي اخْلِصي لعبادةِ ربكِ، وقيل: أدِيْمِي الطاعةَ لذلك، وقيل: أطِيْلِي القيامَ في الصلاة. وقيل: معنَى قولهِ تعالى: ﴿ وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي صَلِّي معَ الجماعةِ في بيت المقدس؛ لأنَّها كانت تخدِمُ المسجدَ.

وفي الآيةِ دليلٌ على أن الواوَ لا تُوجِبُ الترتيبَ؛ لأن الركوعَ مقدَّمٌ على السجودِ في المعنَى؛ وقد تقدَّم السجودُ في هذه الآية في اللغة.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي ذلك ما قَصَصْنَاهُ عليكَ يا مُحَمَّدُ من أمرِ زكريَّا ويحيَى ومريَم وعيسَى من أخبار ما غابَ عنك نرسلُ جبريلَ به، وما كُنْتَ عندَهم يا مُحَمَّدُ إذ يطرحون أقلامَهم في نَهرٍ أَيُّهُم يَضُمُّ مريَم للقيامِ بأمرها وَمَا كُنْتَ عِنْدَهُمْ إذ يَخْتَصِمُونَ في أمرها للتربية.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ ؛ أي إعْلَمْ واذْكُرْ (إذْ قَالَتْ الْمَلاَئِكَةُ) يعني جبريلُ (يَا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بكَلِمَةٍ مِنْهُ) يعني عيسى ‌عليه السلام سَمَّاه كلمةً؛ لأنه كان بكَلِمَةٍ مِن

(١) الاحزاب / ٣٣ .

اللهِ ألقَاها إلى مريَم؛ ولم يكن بوَالِدٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (اسْمُهُ الْمَسِيحُ) إنَّما ذكَرَ بلفظِ التذكيرِ؛ لأنَّ معنى الكلمةِ الولدُ فلذلك لَم يقل اسْمُها.

واختلفوا في تسميتِه مَسِيْحاً، قال ابنُ عبَّاس: (الْمَسِيْحُ: الْمَمْسُوحُ بالْبَرَكَةِ)[1] فالمسيحُ فَعِيْلٌ بمعنى مَفْعُولٌ، وقال بعضُهم: سُمِّي مَسِيْحاً بمَعْنَى الْمَاسِحِ، كان يَمْسَحُ على ذوي العِلَلِ فَيَبْرَؤنَ. وقيل: إنه كان يَمسحُ الأرضَ مَسْحاً ولا يطوفها؛ أي يسيحُ فيها، وقيل: إنه خرجَ من بطنِ أمِّهِ مَمسوحاً بالدُّهن. وقيل: مَسَحَهُ جبريلُ بجناحيهِ من الشَّيطان حتى لا يكونَ للشيطانِ عليه سبيلٌ.

وقال الكلبيُّ: (الْمَسِيْحُ: الْمَلِكُ الَّذِي لاَ حَاجَةَ لَهُ إلَى أحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِيْنَ). رُوي عن ابنِ عبَّاس أنه عليه السلام كانَ يقولُ: (الشَّمْسُ ضِيَاءٌ وَالْقَمَرُ سِرَاجٌ) وإنَّهُ كَانَ يَقُولُ: (الشَّمْسُ سِرَاجِي وَالْقَمَرُ ضِيَائِي)، ويَقُولُ: (الْبَرِّيَّةُ طَعَامِي، أبِيْتُ حَيْثُ يُدْركُنِي اللَّيْلُ، لَيْسَ لِي وَلَدٌ يَمُوتُ وَلاَ دَارٌ تَخْرَبُ وَلاَ مَالٌ يُسْرَقُ، أصْبحُ وَلاَ غَدَاءَ لِي، وَأمْسِي وَلاَ عَشَاءَ لِي، وَأنَا مِنْ أغْنَى النَّاسِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ؛ أي ذا قَدْرٍ ومنْزلة في الدنيا عندَ أهلِها، وفي الآخرةِ عندَ ربهِ، والوجيهُ الذي لا يُرَدُّ قولُه، ولا مسألتُه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ، أي مِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ إلَى ثواب الله في جنَّةِ عدنٍ وهي الدرجةُ العُليا، والتقرُّب إلى اللهِ تقرُّبٌ إلى ثوابهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ ؛ أي في مضجعِ الرِّضاع. قال مجاهدُ: (قَالَتْ مَرْيَمُ: كُنْتُ إذا خَلَوْتُ أنَا وَعِيْسَى حَدَّثْتُهُ وَحَدَّثَنِي، فَإذَا شَغَلَنِي إنْسَانٌ؛ يُسَبحُ فِي بَطْنِي وَأنَا أسْمَعُ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَهْلًا ﴾ ؛ أي يُكَلِّمُ الناسَ بعدما دخلَ في السنِّ؛ يعني قبلَ أن يرفعَ إلى السماءِ. وقال الحسنُ: (وَكَهْلاً أيْ بَعْدَ نُزُولِهِ مِنَ السَّمَاءِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي ومِن المرسلين.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٥٥٩) عن سعيد.

(٢) في اللباب في علوم الكتاب: ج ٥ ص٢٣١؛ ذكره ابن عادل.

وقالَ الكلبيُّ: (أرَادَ بالْمَهْدِ: الْحِجْرَ). روي أنَّهم لَمَّا قالُوا لَها: ﴿يَا مَرْيَـمُ لَقَـدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾[١] كلَّمَـهم وهـو في حِجرهـا فقـالَ: ﴿إنِّـي عَبْـدُ الله آتَـانِي الْكِتَـابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً. وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أيْنَ مَا كُنتُ﴾ الآية[٢]، وكان يومئذٍ ابنَ أربعين يوماً.

فإن قيلَ: الكلامُ في حالِ كونِه في المـهدِ يَعجَـبُ النـاسُ منـه، وأمَّـا الكـلامُ في الكهولَة فليسَ بعجبٍ، فكيفَ ذَكَرَهُ اللهُ؟ قيلَ: في ذلـكَ الكـلامِ وفي الكهولَـةِ بشـارةٌ لِمَرْيَمَ في أنَّ عيسى يعيشُ إلى وقتِ الكُهولة.

وقيل: تكلَّمَ في المهدِ ببَرَاءَةِ أمِّهِ مِمَّا رماها بِهِ اليهودُ، وتكلَّم بالكهولةِ بإبطَال ما ادَّعاه النصارَى من كونهِ إلَهاً؛ لأنه كانَ طِفلاً ثم صارَ كَهْلاً، ومن يكونُ بـهذه الصِّفـة لا يكون إلَهاً.

والكَهْلُ في اللُّغَةِ: مَنْ جَاوَزَ حَدَّ الشَّـبَاب وَلَـمْ يَبْلُـغْ حَـدَّ الشَّـيْخُوخَةِ، يقـالُ: اكْتَهَلَ النَّبَاتُ إذا قَوِيَ وَاشْتَدَّ. وقيل: الكَهْلُ: هو الذي يكونُ ابنَ أرْبَعٍ وثَلاَثِيْنَ سنةً.

وقوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ ؛ أي ولَم يُصِبْنِي رَجُلٌ بالنِّكاحِ ولاَ بالسِّفَاحِ، وكان هذا القولُ منها على جهـةِ الاسـتعظامِ لقدرَة الله تعَالى، لاَ على وجهِ الاستبعاد كما تقدَّم ذكرُه.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ ؛ أي يكونُ لكِ ولـدٌ من غيرِ بَشَرٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي إذا أرادَ أن يخلُقَ ما يشاءُ وحَكَمَ بتكوينِ شيءٍ فإنَّما يقولُ لهُ كُنْ فَيَكُونُ كمـا أرادَهُ اللهُ تعالى. وهذا إخبارٌ عن سرعة كون مُرَادِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه لا يكونُ في وَهْمِ العبادِ شيء أسرعَ مِن كُنْ، وإنَّما ذكرَهُ بلفظِ الأمر لأنـهُ أدَلُّ علـى القـدرةِ، ونصـبَ بعـضُ القُرَّاءِ فَيَكُونُ على جواب الأمرِ بالألف، ورفعَهُ الباقون على إضمار هو يَكُونُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ؛ قـرأ نـافعُ ومجـاهدُ والحسن وعاصم بالياءِ؛ كقولهِ تعالى: ﴿كَذلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَـا يَشَـاءُ﴾[٣]. وقـال المـبرِّدُ:

---

(١) مريم / ٢٧. (٢) مريم / ٣٠، ٣١ .

(٣) آل عمران / ٤٨.

(رَدُّوهُ عَلَى قَوْلِهِ (إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ). وقرأ الباقونَ بالنون على التعظِيم، ورَدُّوهُ على قوله: (نُوحِيْهِ إلَيْكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)؛ أي الخطَّ، وقيلَ الزبور وغيره من الكتب سوَى التوراةِ والإنجيلِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْحِكْمَةَ) أي الْفِقْهَ؛ وهو فَهْمُ الْمَعَانِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ قيلَ: علَّمَه اللهُ تعالى التوراةَ في بطنِ أمِّهِ، والإنجيلَ بعدَ خروجه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ؛ أي وَيَجْعَلُهُ بعدَ ثلاثين سنةً رسولاً إلى بني اسرائيلَ؛ ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ ﴾ ؛ بعلامةٍ؛ ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ لِنُبُوَّتِي، وقيلَ: (وَرَسُولاً) عطفاً على (وَجِيْهاً). وكان أولُ أنبياءِ بني إسرائيلَ يوسُف عليه السلام وآخرَهم عيسى عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾ ؛ قرأ نافعُ (إنِّي) بالكسرِ على الاستئناف وإضمار القولِ، وقرأ الباقون بالفتحِ.

ومعنى الآيةِ: أنِّي أقدرُ لكم من الطينِ صورةً كهيئة الطيرِ فأنفخُ في الطينِ كنفخ النائم فيصيرُ طيراً يطيرُ بينَ السماء والأرضِ بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ، ويقرأ (طَائِراً) إلاّ أنَّ هذا أحسنَ؛ لأن الطائرَ يرادُ به الحالُ. قرأ الزهريُّ وأبو جعفرَ (كَهَيَّةِ الطَّيْرِ) بالتشديدِ، وقرأ الآخرون بالهمز. وَالْهَيْئَةُ: الصورةُ الْمُهَيَّئَةُ من قولِهم: هَيَّأْتُ الشَّيْءَ إذا أصلحتُه. وقرأ أبو جعفر: (كَهَيْئَةِ الطَّائِرِ) بالألف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ قرأ عامَّة القرَّاء (طَيْراً) على الجمع لأنه يَخْلُقُ طيراً كثيرةً، وقرأ أهلُ المدينة (طَائِراً) بالألفِ على الواحدِ ذهبوا إلى نوعٍ واحد من الطَّير لأنه لم يخلق إلاَّ الْخُفَّاشَ، وإنَّما خَصَّ الْخُفَّاشَ لأنَّه أكملُ الطيرِ خَلْقاً ليكون أبلغَ في القدرةِ لأنَّ لها ثَدْياً وأسْنَاناً؛ وهي تحيضُ وتطهرُ، قال وهب: (وَهِيَ تَطِيرُ مَا دَامَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إلَيْهَا، فَإذا غَابَت عَنْ أعْيُنِهِمْ سَقَطَتْ، ولأنَّها تَطِيرُ

بغَيْرِ رِيْشٍ وتَلِدُ وَلاَ تَبيضُ)[١].

وروي أنَّهم ما قالوا لعيسى اخْلُقْ لَنَا خُفَّاشاً إلا مُتعنِّتين له؛ لأجلِ مخالفته الطيورَ بهذه الأخبار التي ذكرناها. فلمَّا قالوا لهُ اخْلُقْ لنا خُفَّاشاً؛ أخذ طيناً ونفخَ فيه فإذا هو خُفَّاشٌ يطيرُ بين السماء والأرض، فقالوا: هذا سِحْرٌ، فقال: أنا؛ ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ فقالوا: إنَّ إبراءَ الأكمَهَ والأبرَصَ يفعلهُ أطبَّاؤنا، فذهبوا إلى جَالِينُوسَ فأخبروهُ بذلكَ، فقالَ: إنَّ الَّذي وُلد أعمى لا يبصرُ بالعلاجِ، والأبرصُ الذي لو غُرزَتْ إبرةٌ لا يخرج منه الدمُ لا يبرأ بالعلاجِ، وإنْ كانَ يُحْيي الموتَى فهو نبيٌّ. فجاؤُا بأكْمهٍ وأبرَصٍ فمسحَ عليهما فَبَرَءا، فقالُوا: هذا سحرٌ؛ فإنْ كنتَ صادقاً فأحيي الموتَى، فأحيَا أربعةً من الموتى: الْعَازَرُ وكان صَدِيقاً له، فأرسلَت أختُه إلى عيسى: أنَّ أخاكَ العازَرَ مَاتَ فأتاهُ، وكان بينَهما مسيرةُ ثلاثةِ أيام، فأتى هو وأصحابُه فوجدوه قد دُفِنَ منذُ ثلاثةِ أيَّام؛ فقامَ على قبرهِ وقالَ: اللَّهُمَّ ربُّ السمواتِ السَّبع والأرضين السَّبع أحْيي العازَرَ مِن قبرهِ وودكه يقطر، فخرجَ وبقيَ مدَّة طويلةً وَوُلِدَ لهُ. وأحيَا ابنَ العجوز، مرَّ بهِ وهو على سرير يُحمل على أعناقِ الرِّجال إلى المقابر، ودعا اللهَ تعالى أن يحييَه، فجلسَ على سريرهِ وأنْزِلَ عن أعناقِ القوم، ولبسَ ثيابَهُ وحَمَلَ السريرَ على عنقهِ، ورجعَ إلى أهلهِ فبقيَ مدَّة ووُلِدَ له. وأحيا ابنةَ العَاشِرِ بعد موتِها بثلاثةِ ليال، فعاشَت مدَّة وَوَلَدَتْ.

فقالوا لهُ: إنكَ تُحْيي مَن كان قريباً موتهُ ولعلَّهم لم يَمُوتُوا فأحيي لنا سَامَ بْنَ نُوحٍ، فقال: دُلُّونِي على قبرهِ فدلُّوه، فدعَا اللهَ تعالى أن يُحييه فخرجَ من قبرهِ، فقال لهُ عيسى عليه السلام: مَنْ أنْتَ ؟ قالَ: سامُ بْنُ نُوحٍ، قالَ: ومَنْ أنا؟ قالَ: عيسَى روحُ اللهِ وكَلِمَتُهُ، قال: كَيْفَ شِبْتَ يا سامُ ولم يكن في زمانِكم شَيْبٌ، قال: سَمِعْتُ صَوتاً يقولُ أجِبْ روحَ اللهِ فظننتُ أنَّ القيامةَ قد قامت فشَابَ رأسي مِنْ هَوْلِ ذلك، وكان سامُ قد عاشَ خمسمائةَ سنةٍ، وماتَ وهو شابٌّ، فقال لهُ عيسى عليه السلام: يَا سامُ أتُحِبُّ أن

---

(١) ويقال: إنما طلبوا خلق خفاش؛ لأنه أعجب من سائر الخلق، ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش، ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور، فيكون له الضرع ويخرج منه اللبن، ولا تبصر في ضوء النهار. نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٩٤.

أسألَ اللهَ حتى تعيشَ معنا ؟ قال: لاَ، قالَ: لِمَ لا ؟ قال: لأنَّ مرارةَ المـوتِ لم تذهـب من قَلْبي إلَى الآن، وكان لهُ من يوم ماتَ أكثرُ من أربعةِ آلاف سنةٍ ثم ماتَ مكانه.

فآمنَ بعيسـى بعضُـهم وكذبـه بعضـهم، وقـالوا: هـذا سِـحْرٌ، فأخبرنـا بأكْلِنـا وادِّخارنا، فكان يقولُ: أنـتَ يـا فـلانُ أكلـتَ كـذا وادخـرتَ كـذا، وأنـتَ يـا فـلان أكلتَ كذا وادخرتَ كذا. فذلـكَ قَوْلُـهُ: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ ؛ أي بما تأكلونَه وما تدفعوهُ في بيوتِكم حتى تأكلوهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ) اختلفوا في الأَكْمَهِ، قال مجـاهدُ والضحَّـاك: (هُـوَ الَّذِي يُبْصِرُ بالنَّهَار دُونَ اللَّيْلِ)[1]، وقال ابنُ عبَّاس وقتادة: (هُوَ الَّذِي وُلِدَ أعْمَى وَلَمْ يُبْصِرْ شَيْء قَطْ)[2]. وقال الحسن والسدِّي: (هُوَ الأَعْمَى الْمَعْرُوفُ)[3]. (وَالأَبْرَصَ): هُوَ الَّذِي بهِ وَضَحٌ. وقال وَهَبٌ: (رُبَّمَا اجْتَمَعَ عَلَى عِيْسَى مِـنَ الْمَرْضَـى فِـي الْيَـوْمِ الْوَاحِدِ خَمْسُونَ ألْفاً مَنْ أطَاقَ مِنْهُمْ أنْ يَبْلُغَهُ بَلَغَهُ، وَمَنْ لَمْ يُطِقْ أتَـاهُ عِيْسَـى يَمْشِـي إلَيْهِ، وَإنَّمَا كَانَ يُدَاويْهمْ بالدُّعَاءِ عَلَى شَرْطِ الإيْمَان). قال الكلبيُّ: (كَانَ عِيْسَى يُحْيِي الْمَوْتَى بـ (يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ) أي أخبرُكم بمـا تـأكلونَ غُـدْوَةً وَعَشِيّاً وما تدفعونَ من الغداءِ إلى العشاء، ومن العَشاء الى الغداء. وقـرأ مجـاهدُ (وَمَـا تَذْخَرُونَ) بذالٍ معجمة ساكنة وفتح الخاء.

قال السديُّ: (كَانَ عِيْسَى إذا كَانَ فِي الصِّبْيَان مَعَ الْمُعَلِّمِ يُحَدِّثُ الصِّبْيَـانَ بمَـا يَصْنَعُ آبَاؤُهُمْ وَيَقُولُ لِلصَّبيِّ: انْطَلِقْ فَقَدْ أكَلَ أهْلُكَ كَذا وَكَـذا وَهُـمْ يَـأْكُلُونَ السَّـاعَةَ كَذا، فَيَنْطَلِقُ الصَّبيُّ إلَى أهْلِهِ وَهُوَ يَبْكِي وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ ذلِكَ الشَّيْءَ حَتَّى يُعْطُوهُ إيَّـاهُ،

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٥٨٠). وفي الدر المنثور: ج ٢ ص٢١٥؛ قـال السيوطي: ((أخرجه أبو عبيد والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابـن أبـي حـاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد عن مجاهد)).

(٢) في الدر المنثور: ج ٢ ص٢١٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابـن أبـي حـاتم من طريق الضحاك)). وفي جامع البيان: النص (٥٥٨٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٥٨٣) عن السدي، والنص (٥٥٨٦) عن الحسن.

فَيَقُولُونَ لَهُ: مَنْ أخْبَرَكَ بهذا ؟ فيَقُولُ: عِيْسَى، فَحَبَسُوا أوْلاَدَهُمْ عَنْهُ وَقَالُوا لاَ تَلْعَبُوا مَعَ هَذا السَّاحِرِ، فَجَمَعُوهُمْ فِي بَيْتٍ، فَجَاءَ عِيْسَى يَطْلُبُهُمْ، فَقَالُوا لَهُ: لَيْسُوا هُنَا، قَالَ: فَمَا فِي هَذا الْبَيْتِ؟ قَالُوا: خَنَازِيْرُ، فقَالَ عِيْسَى: كَذلِكَ يَكُونُونَ إنْ شَاءَ اللهُ، فَفَتَحُوا عَنْهُمْ فَإذا هُمْ خَنَازِيْرُ بأجْمَعِهِمْ، فَهَمُّوا بعِيْسَى أنْ يَقْتُلُوهُ، فَلَمَّا خَافَتْ عَلَيْهِ اُمُّهُ حَمَلَتْهُ عَلَى حِمَارٍ لَهَا وَخَرَجَتْ بهِ هَاربَةً إلَى مَفَازَةٍ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ ما قُلْتُ لكم علامةً لكم في نُبُوَّتِي إنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِيْنَ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ ؛ معناهُ: وجِئْتُكُمْ (مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) أي أتيتُ بالتوراةِ وأحكامِها وصَدَّقْتُهَا، وقيل: يعني بالتصديقِ أنَّ في التوراةِ البشارةَ بي، فإذا خرجتُ فقد صُدِّقْتُ ذلكَ، ولا يجوزُ أن يكون (وَمُصَدِّقاً) عطفاً على (وَرَسُولاً) لأنه لو كان ذلكَ لقالَ ومصدِّقاً لِما بينَ يديهِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ لأنه كانَ في التوراةِ أشياءُ مُحرَّمة حَلَّلَ عيسى بعضَها وهو العملُ في يوم السبت؛ وشحومُ البقرِ والغنمِ وسائرِ ما حُرِّمَ عليهم بظُلْمِهِمْ. وقيل: معناها: ولأحلَّ لكم كلَّ الذي حَرَّمَ عليكُم أحبارُكم لا ما حرَّمَ أنبياؤُكم، ويكونُ البعضُ بمعنى الكلِّ، واستدلَّ صاحبُ هذا القول بقول لَبِيْدٍ:

تَرَّاكُ أمْكِنَةٍ إذا لَمْ أرْضَهَا ... أوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

قيلَ: معناهُ: كلُّ النفوسِ. وقال الزجَّاج: (لاَ يَجُوزُ أنْ يَكُونَ الْبَعْضُ عِبَارَةً عَنِ الْكُلِّ؛ لأَنَّ بَعْضَ الشَّيْءِ جُزْءٌ مِنْهُ). قَال: (وَمَعْنَى قَوْل لَبِيْدٍ: أوْ مَا يَعْتَلِقُ نَفْسِي حِمَامُهَا؛ لأَنَّ نَفْسَهُ بَعْضُ النُّفُوسِ)[٢]. وقرأ النخعِيُّ: (وَلاُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حَرُمَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٥٩٥).

(٢) وهذا القول غلطٌ عند أهل النظر من أهل اللغة؛ لأن البعضَ والجزء لا يكونان بمعنى الكلِّ في هذا الموضع، لأن عيسى عليه السلام إنما أحل لهم أشياء مما حرمها عليهم موسى من أكلِ الشُّحوم وغيرها، ولم يحل لهم القتل ولا السرقة ولا فاحشةً. والدليل على هذا أنه روي عن قتادة أنه=

عَلَيْكُمْ)[1] أي صَارَ حَرَاماً.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ أي أحلُّ لكم شيئاً مِما حُرِّم عليكم من غيرِ برهان، بل أتيتُكم بعلامةِ نُبُوَّتِي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا اللهَ فيما أمركم ونهاكم وأطيعون فيما أبيِّنُه لكم؛ ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ ؛ أي قالَ لَهم عيسَى إنَّ اللهَ خالقِي وخالقكم فوحِّدُوه؛ ﴿ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي هذا الذي أدعُوكُم إليهِ طريقِي في الدِّين فلا عِوَجَ لهُ، مَن سَلَكَهُ أدَّاهُ إلى الحقِّ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ ؛ أي لَمَّا وجدَ عيسى، وقيل: لَمَّا عَلِمَ منهم الكفرَ والقصدَ إلى قتلِه؛ ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ؛ أي مَن أعْوَانِي معَ اللهِ، وقيل: معناهُ: مَن أنصَاري إلى سبيلِ اللهِ، وقيل: مَن أنصاري للهِ، ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ ؛ أي قالَ الْمُخْلِصُونَ في النُّصرةِ والتَّصديقِ: نَحْنُ أعوانُ دِيْنِ اللهِ معكَ؛ ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ ؛ أي صَدَّقْنَا بتوحيدِ الله؛ ﴿ وَاشْهَدْ ﴾ ؛ يَا عيسَى؛ ﴿ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ والإحساسُ هو العلم من خَلَجَاتِهم.

واختلفَ المفسِّرون في الحواريِّين، قال بعضُهم: هم المخلصونَ الخواصُّ كما قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [الزُّبَيرُ ابْنُ عَمَّتِي وَحَوَارِيِّي مِنْ أُمَّتِي][2] أي هو مِن أمَّتي، وكان الحواريونَ لعيسى اثْني عشرَ رَجُلاً مِن أصحابهِ، مكانَ العشرةِ من النبيِّ ﷺ، سُمُّوا الحوارِينَ مِن الْحَوَرِ وَهُوَ الْخُلُوصُ. يقالُ: عَيْنٌ حَوراءُ إذا اشْتَدَّ بَيَاضُ بَيَاضِهَا وَقَلُصَ؛ وَاشْتَدَّ سَوَادُ سَوَادِهَا وَخَلُصَ، ومنهُ وفيهِ يقال: دَقِيْقٌ حَوَارِيٌّ للَّذي لم يبق منه إلاّ لُبَابُهُ. وقال بعضُهم: سُمُّوا حواريين من الْحَوَار وهو البياضُ، إلاَّ أنَّهم اختلفُوا في

=قال: ((جاءهم عيسى بِأَلْيَن مما جاء به موسى صلى الله عليهما وعلى نبينا؛ لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياء من الشحوم، فجاءهم عيسى بتحليل بعضها)).

(١) حَرُمَ بوزن شَرُفَ وظَرُفَ، ونسبَ الفعل إلى عيسى عليه السلام تجوُّزاً للعلم بأن المحرِّم هو الله تعالى.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٣١٤. وابن أبي شيبة في المصنف: ج ٦ ص٣٧٩: الحديث (٣٢١٥٤)، وإسناده صحيح.

بياضهم. قيلَ: كانوا قَصَّارِيْنَ يُبَيِّضُونَ الثيابَ فمرَّ بهم عيسى عليه السلام فقـالَ: أَلاَ أَدُلُّكُـمْ عَلَى تَطْهِيْرِ أَنْفَعُ مِنْ هَذا؟ قالوا: نَعَمْ، قالَ: تَعَالَوا حَتَّى نُطَـهِّرَ أَنْفُسَنَا مِـنَ الذُّنُـوب، فَبَايَعُوهُ على ذلكَ. وقيل: كانوا بِيْضَ الثياب، وقيل: كانوا بِيْضَ القلوب من الفسَاد.

وقال بعضُهم: كانوا صَيَّادِيْنَ، قال لَهم عيسى عليه السلام: أَلاَ أَدُلُّكم علـى اصطيـادٍ أنفعُ مِن هذا ؟ قالوا: بَلَى، قال: تعالَوا حتى نصطادَ أنفسَنا من شِرْكِ إبليسَ؛ فبايَعُوه.

كأنَّهم ذهبوا في هذا إلى اشتقاقهِ مِنَ الْحَـوَرِ الـذي هـو الرُّجـوع، ومنـه سُـمِّي الْمِحْوَرُ لأنه راجعٌ إلى المكان الذي زالَ منه، وقيل: لأنه بدورانهِ يَنْصَقِلُ حتى يَبْيَـضَّ. والْمِحْوَرُ عودُ الْخَبَّاز، وقيلَ: الْمِحْوَرُ الذي تدورُ عليه البَكْرَةُ، وربَّما كان من حديدٍ.

وأمَّا ما رُوي في الحديثِ: [نَعُوذُ باللهِ مِنَ الْحَوَرِ بَعْدَ الْكَـوْرِ][1] فمعنـاهُ: مِـن الرجوعِ والخروج من الجماعَة بعدَ أنْ كُنَّا فيها، يقال: كَارَ عِمَامَتَهُ إذا لفَّها على رأسهِ؛ وحَارَهَا: اذا نَقَضَهَا .

قال مُصْعَبُ: (لَمَّا اتَّبَعَ الْحَوَارِيُّونَ عِيْسَى عليه السلام وَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُـلاً، وَكَـانُواْ إذا جَاءُواْ قَالُواْ: يَا رُوحَ اللهِ جُعْنَا، فَيَضْرِبُ بيَدِهِ الأَرْضَ سَهْلاً كَانَ أوْ جَبَلاً، فَيَخْـرُجُ لِكُلِّ إنْسَانٍ رَغِيْفَيْنِ فَيَأْكُلُهُمَا. فَإذا عَطِشُوا قَالُواْ: يَا رُوحَ اللهِ عَطِشْـنَا، فَيَضْـرِبُ بِيَـدِهِ الأَرْضَ فَيَخْرُجُ الْمَاءُ فَيَشْرَبُونَ، قَالُوا: يَا رُوحَ اللهِ؛ مَنْ أفْضَلُ مِنَّا إذا شِئْنَا أطْعِمْنَا وَإنْ شِئْنَا أسْقِيْنَا، وَآمَنَّا بكَ وَاتَّبَعْنَاكَ ؟ قال: أَفْضَلُ مِنْكُمْ مَنْ يَعْمَلُ بيدِهِ، وَيَأْكُلُ مِنْ كَسْبهِ، قَالَ: فَصَارُواْ يَغْسِلُونَ الثِّيَابَ بالْكَرْيِ).

وقال ابنُ المبارك: (سُمُّواْ حَوَارِيِّيْنَ لأَنَّهُ كَانَ يُرَى بَيْنَ أعْيُنِهمْ أثَرُ الْعِبَادَةِ وَنُورُهَا وَحُسْنُهَا). قال النضرُ بن شُمَيل: (الْحَوَارِيُّ خَاصَّـةُ الرَّجُـلِ الَّـذِي يَسْـتَعِيْنُ بـهِ فِيْمَـا يَنُوبُهُ). وعن قتادةَ قال: (الْحَوَارِيُّ: الْوَزِيْرُ)[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٨٣. ومسلم في الصحيح: كتاب الحج: بـاب مـا يقـول إذا ركب إلى سفر الحج: الحديث (٤٢٦/ ١٣٤٣). وابن ماجة في السنن: كتـاب الدعـاء: بـاب مـا يدعو به الرجل إذا سافر: الحديث (٣٨٨٨) وإسناده صحيح.

(٢) في الدر المنثور: ج ٢ ص٢٢٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة)). وينظر: الطبري في جامع البيان: النص (٥٦١٤) عنه قال: ((الَّذِينَ تُصْلُحُ لَهُمُ الْخِلاَفَةُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي قَالُوا: رَبَّنَا آمَنَّا بمَا أنْزَلْتَ فِي كِتَابكَ؛ يعني: الإنجيلَ على عيسى، واتَّبعنَا عيسى (فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) أي مع الْمُصَدِّقِيْنَ لأنبيائِكَ الذين يشهدون بصدق الأنبياء مِن قبلنا، وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ: فَاكْتُبْنَا مَعَ النَّبيِّيْنَ). وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأمَّتُهُ)[1].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ يعني مَكرَ الكفارُ الذين لم يؤمنوا بقصدهم قَتْلَ عيسى الطّيّلاً. وَالْمَكْرُ: هُوَ الاحْتِيَالُ فِي تَدْبيْرِ الشَّرِّ. وقَوْلُهُ: (وَمَكَرَ اللهُ) أي جَازَاهُمُ اللهُ على ما تقدَّم أنَّ الجزاءَ على المكرِ يُسمى مَكراً، كما في الاعتداءِ والسيِّئة والاستهزَاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) أي هو أفضلُ الصانعين حين يجازي الكفارَ على صُنعهم؛ وَخَلَّصَ المكورَ بهِ؛ وذلك أنَّ عيسى الطّيّلاً بعد إخراجِ قومه إياهُ وأمَّهُ مِن بين أظهرِهم عادَ إليهم مع الحواريِّين، ودعاهُم إلى الإسلام فَهَمُّوا بقتلهِ وتواطَأُوا عليه، وذلكَ مكرُهم، فلمَّا أجْمَعوا على قَتْلِهِ هَرَبَ منهُم إلى بيتٍ فدخلَهُ فرفعَه جبريلُ من الْكُوَّةِ إلى السَّماء. فقال مَلِكُ اليهودِ واسْمُه يَهُودا، لِرَجُلٍ خَبيْثٍ منهم يقال لَهُ طِيْطَانُوسَ: أدْخُلْ عليه البيتَ، فدخلَ فألقَى اللهُ عليه شَبَهَ عيسَى الطّيّلاً، فلمَّا لَم يجِدْ عيسى خرجَ؛ فَرَأوْهُ على شَبَهِ عيسى فظنُّوا أنهُ عيسى؛ فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ، ثُمَّ قالوا: وَجْهُهُ يشبهُ وجهَ عيسى، وبدنهُ يشبهُ بدنَ صاحبنا، فإن كانَ هذا صاحبُنا فأينَ عيسى؟ وإن كان هذا عيسَى فأين صاحبُنا؟، فوقعَ بينهم قتالٌ، فقتلَ بعضُهم بعضاً.

وقال وَهَبُ: (لَمَّا طَرَقُواْ عِيْسَى فِي بَعْضِ اللَّيْلِ وَنَصَبُوا لَهُ خَشَبَةً لِيَقْتُلُوهُ؛ أظْلَمَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ فَصَلَبُوا رَجُلاً مِنهُمْ يُقَالُ لَهُ يَهُودَا ظَنُّوا أنَّهُ عِيْسَى الطّيّلاً، وَهُوَ الَّذِي دَلَّهُمْ عَلَيْهِ، وَذلِكَ أنَّ عِيْسَى جَمَعَ الْحَوَارِيِّيْنَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ثُمَّ قَالَ: لَيَمْكُرَنَّ بي أحَدُكُمْ قَبْلَ أنْ يَصِيْحَ الدِّيْكُ، وَيَبيْعُنِي بدَرَاهِمَ يَسِيْرَةٍ. فَخَرَجُوا وَتَفَرَّقُوا، وَكَانَتِ

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٢٢٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس)).

الْيَهُودُ تَطْلُبُهُ، فَأَتَى أحَدُ الْحَوَارِيِّينَ وَقَالَ لِلْيَهُودِ: مَا تَجْعَلُونَ لِمَنْ يَدُلُّكُمْ عَلَى عِيْسَى؟ فَجَعَلُوا لَهُ ثَلاَثِيْنَ دِرْهَماً، فَأَخَذَهَا وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا دَخَلُوا الْبَيْتَ وَرُفِعَ عِيْسَى، أَلْقَى اللهُ شَبَهَ عِيْسَى عَلَى الَّذِي دَلَّهُمْ عَلَيْهِ؛ فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ، فَرُوِيَ أنَّهُ لَمَّا أخَذُوهُ لِيَقْتُلُوهُ قَالَ لَهُمْ: أنَا الَّذِي دَلَلْتُكُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إلَيْهِ وَصَلَبُوهُ وَهُمْ يَظُنُّونَهُ عِيْسَى).

قالَ أهلُ التواريخِ: (حملَتْ مريَم بعيسى ولَها ثلاثَ عشرةَ سنةً، وولدَتْ عيسى لِمُضِيِّ خمسٍ وستِّين سنةً من غَلَبَةِ الاسكندر على أرضِ بَابلَ، وأوحَى اللهُ إليه على رأسِ ثلاثين، ورفعَهُ اللهُ من بيتِ المقدس ليلةَ القدر من شهر رَمَضَانَ وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً، وعاشَتْ أمُّهُ بعدَ رفعهِ ستَّ سنين)[1].

وَالْمَكْرُ: هُوَ السَّعْيُ بالْفَسَادِ فِي سَتْرٍ وَمُنَاجَاةٍ، وأصلهُ مِنْ قَوْلِ الْعَرَب: مَكَرَ اللَّيْلُ وَأمْكَرَ؛ إذا أظْلَمَ. والمكرُ من المخلوقين: الْخَبُّ والخديعةُ والغِيْلَةُ، وهو مِن الله استدراجُهُ العبادَ، قال اللهُ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2]. قال ابنُ عباس: (كُلَّمَا أحْدَثُوا خَطِيئَةً تَجَدَّدَتْ لَهُمْ نِعْمَةٌ)[3]. وقال الزجَّاجُ:(مَكْرُ اللهِ مُجَازَاتُهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ، فَسُمِّيَ الْجَزَاءُ باسْمِ الابْتِدَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[4] وَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[5]). وقال عمرُو بن كُلثوم:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنَّ أحَدُ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِيْنَا

وسألَ رجلٌ جنيداً: كيفَ رضي اللهُ المكرَ لنفسه وقد عابَ به غيرَهُ ؟ قال: لاَ أدري، ولكن أنْشَدَنِي[6]:

(١) ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب: ج ٥ ص٢٧٠.
(٢) الأعراف / ١٨٢ .
(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٩٨.
(٤) البقرة / ١٥ .
(٥) النساء / ١٤٢ .
(٦) الأبيات لأبي نواس، الحسن بن هانئ (١٤٦-١٩٨) من الهجرة. وفي الديوان:
وَيَسْمَجُ مِنْ سِوَاكَ الشَّيْءُ عِنْدِي فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

فَدَيْتُكَ قَدْ جُبِلْتُ عَلَى هَوَاكَ فَنَفْسِي لاَ يُنَازِعُنِي سِوَاكَا
أُحِبُّكَ لاَ بِبَعْضٍ، بَلْ بِكُلٍّ وَإِنْ لَمْ يُبْقِ حُبُّكَ لِي حِرَاكَا
وَيَقْبُحُ مِنْ سُوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي وَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

فقالَ الرجلُ: أسألُكَ عن آيةٍ في كتاب اللهِ تعالى وتُجيبني بشعرِ فلان؟! فقالَ: وَيْحَكَ! قد أجبتُكَ إن كنتَ تعقِلُ، ومكرُ اللهِ بهم خاصَّة في هذه الآيةِ إلقاؤُهُ الشَّبَهَ على صاحبهم الذي أرادَ قَتْلَ عيسى عليه السلام[١].

قولـه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أوَّلُ هذه الآيةِ مُتَّصِلٌ بقوله: (خَيْرُ الْمَاكِرِيْنَ). وقيلَ: معناهُ: واذكروا (إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ). قال الضحَّاك: (كَسَا اللهُ عِيسَى الرِّيْشَ وَأَلْبَسَهُ النُّورَ؛ وَقَطَعَ عَنْهُ لَذةَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَب فَطَارَ فِي الْمَلاَئِكَةِ).

واختلفَ المفسرون في معنى التَّوَفِّي في هذه الآيةِ؛ فقال الحسنُ والكلبي والضحَّاك وابن جُريج: (مَعْنَاهُ: إنِّي قَابضُكَ وَرَافِعُكَ مِنَ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ)[٢]. فعلى هذا القول لِلتَّوَفِّي ثلاثُ تأويلاتٍ: أحدُها: إنِّي رافعُكَ إلَيَّ وَافِياً لَنْ ينالوُا منكَ شيئاً؛ من قولِهم: تَوَفَّيْتُ كَذا وَاسْتَوْفَيْتُهُ؛ إذا أخذتُه تامّاً، والأخذُ معناهُ: إنِّي مُسَلِّمُكَ؛ مِن قولِهم: تَوَفَّيْتُ كَذا إذا سَلَّمْتَهُ. وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: إنِّي مُنَيِّمُكَ وَرَافِعُكَ إلَيَّ مِنْ نَوْمِكَ). يدلُّ عليهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ باللَّيْلِ﴾[٣] أي يُنِيمُكُمْ؛ لأن النومَ أخُو الموتِ.

ورويَ عن ابن عبَّاس أنَّ معنى الآيةِ: (إنِّي مُمِيتُكَ)[٤] يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بكُمْ﴾[٥] ولهُ على هذا القول تأويلان؛ أحدُها:

---

(١) أدرج الناسخ عبارة: (كذا في تفسير الثعلبي) في المتن كعادته، وعلى ما يبدو أن الثعلبي نقل من هنا أو أخذ عنه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٦٢٢) عن الحسن، والنص (٥٦٢٣) عن ابن جريج.

(٣) الأنعام / ٦٠ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٦٢٨).

(٥) السجدة / ١١ .

قال وَهَبُ بن مُنَبهٍ: (تَوَفَّاهُ اللهُ ثَلاَثَ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَار ثُمَّ أحْيَاهُ وَرَفَعَهُ إلَيْهِ). والآخَرُ: قال الضحَّاك: (إنَّ فِي الْكَلاَمِ تَقْدِيْماً وَتَأْخِيْراً؛ مَعْنَاهُ: إنِّي رَافِعُكَ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا؛ وَمُتَوَفِّيْكَ بَعْدَ إنْزَالِكَ مِنَ السَّمَاءِ) قال الشاعرُ:

أَلاَ يَا نَخْلَةً مِنْ ذاتِ عِرْقٍ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللهِ السَّلاَمُ

أي عليكِ السلامُ ورحمةُ اللهِ.

قال ﷺ: [أنَا أوْلَى النَّاس بعِيْسَى عليه السلام؛ لأنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَإنَّهُ نَازلٌ عَلَى أمَّتِي وَخَلِيْفَتِي فِيْهِمْ. فَإذا رَأيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ؛ وَإنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعُ الْخَلْقِ إلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، سَبْطُ الشَّعْرِ كَأنَّ شَعْرَهُ يَقْطُرُ وَإنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، يَدُقُّ الصَّلِيْبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيْرَ، وَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الإسْلاَمِ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الدَّجَّالَ، وَيَقَعُ أمْنُهُ فِي الأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعِي الأُسُودُ مَعَ الإبلِ، وَالنُّمُورُ مَعَ الْبَقَرِ، وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ، وَيَلْعَبُ الصِّبْيَانُ بالْحَيَّاتِ لاَ يَضُرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَيَلْبَثُ فِي الأَرْضِ أرْبَعِيْنَ سَنَةً][(١)].

وفي رواية كَعْبٍ: [أرْبَعَةٍ وَعِشْرِيْنَ سَنَةً، ثُمَّ يَتَزَوَّجُ وَيُولَدُ لَهُ ثُمَّ يَمُوتُ، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَيَدْفِنُوهُ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ][(٢)].

وقيل للحسن بْنِ الفَضْلِ: هَلْ تَجِدُ نُزُولَ عِيْسَى مِنَ السَّمَاءِ فِي الْقُرْآنِ ؟ قَالَ: (نَعَمْ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾[(٣)] وَهُوَ لَمْ يَكْتَهِلْ فِي الدُّنْيَا، وَإنَّمَا رُفِعَ وَهُوَ شَابٌّ، وَإنَّمَا مَعْنَاهُ وَكَهْلاً بَعْدَ نُزُولِهِ مِنَ السَّمَاءِ).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [كَيْفَ تَهْلَكُ أمَّةٌ أنَا فِي أوَّلِهَا؛ وَعِيْسَى فِي آخِرِهَا؛ وَالْمَهْدِيُّ مِنْ أهْلِ بَيْتِي فِي وَسَطِهَا؟!][(٤)] وقال ابنُ عمر: رَأيْنَا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٦٣٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٦٢٤).

(٣) آل عمران / ٤٦ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٦٢٤) من غير الزيادة: [وَالْمَهْدِي مِنْ أهْلِ بَيْتِي فِي وَسَطِهَا].

النَّبِيُّ ﷺ يَتَبَسَّمُ فِي الطَّوَافِ، فَقِيْلَ لَهُ فِي ذلِكَ؛ فَقَالَ : [اسْتَقْبَلَنِي عِيْسَى فِي الطَّوَافِ وَمَعَهُ مَلَكَانِ].

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: (وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي مُخْرِجُكَ من بين أظهُرهم ومُنَجِّيْكَ منهُم، فإنَّهم كانوا أرْجَاساً. وكان تطهيرُ عيسى منهم إزالَتَهُم عنهُ برفعهِ، فإنَّ التطهُّرَ إزالةُ الأنْجَاسِ عنِ الثوب والبدن. قوله عَزَّ وَجَلَّ: (وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) أي إلى السَّماء، وقيل: إلى كَرَامَتِي كما قالَ ابراهيمُ عليه السلام: (إِنِّي ذاهِبٌ إِلَى رَبِي) أي حَيْثُ أمَرَنِي رَبِي.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: (وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) معناهُ: جاعلُ الذينَ آمنوا بكَ فوقَ الذين كذبوا بكَ؛ أي فوقَهم في العزِّ والغَلَبَةِ؛ لا تَرَى يهودياً حيثُ كان إلاَّ أذلَّ من النصرانِيِّ. قالوا: وهذا يدلُّ على أنه لا يكونُ لليهود مُلْكٌ كما هو للنَّصارى[1].

وقيل: أرادَ بقوله (فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا) فوقَهم بالحجَّة والبرهان، قال ابنُ عباس والربيع وقتادةُ والشعبي ومقاتلُ والكلبيُّ: (الْمُرَادُ بالَّذِيْنَ اتَّبَعُوا عِيْسَى أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِيْنَ صَدَّقُوهُ فِيْمَا قَالَ؛ فَوَاللهِ مَا تَبعَهُ مَنِ ادَّعَاهُ رَبّاً؛ تَعَالَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَتَقَدَّسَ أنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ). قال الضحَّاكُ: (يَعْنِي الْحَوَارِيِّيْنَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي مَرْجِعُ الكفَّار والمؤمنين إلَيَّ؛ (فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) من أمرِ الدِّين وأمرِ عيسَى عليه السلام.

---

(١) قد يقول سائل: إذاً هذه (دولة إسرائيل) التي تتوسط قلب العالم الإسلامي؟! الجواب: إن كيان ما يسمى بـ (دولة إسرائيل) ليس دولةً حقيقة، وإن حاولت الدول الكبرى أن تجعل منها دولة، وإن تعاون معهم دول الجوار، فهي ليست دولة حقيقةً. وإنما هي سلطة إدارية فحسب؛ لأنها لا تملك أمان نفسها بنفسها، ولا سلطانها قائم من ذاتها، وإنما هو بمددٍ من الناسِ من كيان الدول الكبرى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أيْنَ مَا ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران / ١١٢].

قَوْلُــــهُ تَعَـــــالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِـرَةِ ﴾ ؛ أي أعاقِبُـهم عقوبـةً شـديدة في الدُّنيا بـالقتلِ والسَّبي والجزيـةِ، وفي الآخـرةِ بالنـار، ﴿ وَمَا لَهُـم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي مـانِعين يَمنعونَـهم مـن عذاب اللهِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ ؛ قرأ الحسَــنُ وحَفْـصٌ (فَيُوَفِّيـهُمْ أجُورَهُـمْ) باليـاء[1]، ومعنـاهُ: الذيـنَ صدقوا وعمِلوا الصالحـاتِ نُكمِـلُ لَـهم ثـوابَ أعمالِـهم بالطاعـةِ؛ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يرحَمُهم ولا يغفِرُ لَهم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي ما جَرَى من القِصَصِ نُنْزِلُ بهِ عليكَ يا مُحَمَّدُ فَيَتْلُوهُ عليكَ جبريلُ بأمرِنـا. وإنَّمـا أضافَ التلاوةَ إلى نفسهِ؛ لأنه حَصَلَ بأمرِهِ، (وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) أي ومِـن القـرآنِ ومِـن الحكمَةِ بالتَّأليفِ والنَّظْمِ، وسَمَّاه حَكِيماً لأنه بما فيه من الحكمةِ كأنهُ ينطِـقُ بالحكمـةِ. ويقالُ: معنَى الحكيمِ الْمُحْكَمُ وهو فَعِيْلٌ بمعنى مَفْعُولٍ.

قوله عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: وَذلِكَ أنَّ وَفْدَ نَصَارَى نَجْرَانَ: اَلسَّيِّدُ وَالْعَـاقِبُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَائِهِمْ جَاؤُوا إلَى رَسُـول اللهِ ﷺ فَقَـالَ لَـهُمُ النَّـبِيُّ ﷺ: [أسْـلِمُوا] فَقَالُوا: أسْلَمْنَا قَبْلَكَ، فَقَـالَ ﷺ: [يَمْنَعُكُـمْ مِـنَ الإسْـلاَمِ ثَـلاَثٌ: أكْلُكُـمُ الْخِـنْزِيْرَ؛ وَعِبَادَتُكُمُ الصَّلِيْبَ؛ وَقَوْلُكُمْ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدٌ] فَقَالُوا لَهُ: مَا لَــكَ تَشْـتُمُ صَاحِبَنَـا ؟ قَالَ ﷺ: [وَمَا أقُولُ؟] قَالُوا: تَقُولُ إنَّهُ عَبْدُ اللهِ، قَالَ [أجَلْ؛ هُوَ عَبْـدُ اللهِ وَرَسُـولُهُ وَكَلِمَتُهُ ألْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُول] فَغَضِبُوا وَقَالُوا: هَلْ رَأيْتَ إنْسَاناً قَطّ مِنْ غَيْرِ أبٍ؟![2] فَأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) أي صفةُ خَلْقِ عيسى بلاَ أبٍ كصفةِ خلقِ آدمَ، خلقَهُ من ترابٍ مِن غير أبٍ ولا أمٍّ ثُم قالَ

---

(١) ينظر: أبو علي الفارسي: الحجة للقراءات السبعة: ج ٢ ص٢٢، طبعة دار الكتب العلمية: ط ١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٦٤٧).

لآدمَ: كُنْ؛ فَكَانَ. وأرادَ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ أنَّ كون الولدِ مِن غيرِ أبٍ ليسَ بـأعجبَ مِنْ كونِ الإنسانِ لغيرِ أبٍ وأمٍّ، وَقد خلقَ اللهُ آدمَ من غيرِ أبٍ وأمٍّ.

وفي هذه الآيةِ دلالةٌ على صحَّة القياسِ؛ لأنه لو لَم يَصِحْ القيـاسُ لم يكـنِ اللهُ يجيبُ به، وفيها دليلٌ على جواز قياسِ الشيء بالشَّيء مـن وجـهٍ دون وجـهٍ؛ لأن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إنَّما شَبَّهَ عيسى بآدمَ في كونهِ من غيرِ أبٍ؛ لا في كَونـه مـن غـيرِ أمٍّ؛ ولا في خَلْقِهِ من التُّراب.

فإنْ قيلَ: هَلاَّ قالَ اللهُ تعالى: (كُنْ فَكَانَ) فإنَّ آدمَ قد انقضَى كونُـه وقـد أخـبرَ عنهُ بالمستقبلِ ؟ قيل: إنَّ الفعلَ الماضي منقطعٌ والمضارعَ متَّصلٌ؛ وذلك يقـالُ: يـروى عن النَّبيِّ ﷺ أنهُ فَعَلَ كذا فكان فعل كُن لأنه لا يقتضِي التَّكرار، ومـا رويَ أنـه كَـانَ يَفْعَلُ كذا فإنهُ على التَّكرار دونَ الانقطاعِ. ثُم فِعْـلُ الله يُبنـى علـى الْمُهْلَـةِ ويَحْـدُثُ علىالتَّدريج، ألا ترَى أنه خَلَقَ السموات والأرضَ في ستَّة أيامٍ، وكذلك بَدَتِ الحيـاةُ في آدمَ على التدريجِ، وكذلك أمرُ عيسى على التدريجِ كان يبدأ شيئاً فشيئاً؛ فأخبرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن ذلكَ بفعلٍ دائم.

قوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ قـال الفرَّاء: (رُفِعَ بِخَبَرِ ابْتِدَاءٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيْرُهُ: هُوَ الْحَقُّ أوْ هَذا الْحَـقُّ). وقيـل: تقديـرهُ: هَذا الَّذِي أنْبَأْتُكَ بهِ هُوَ الْحَقُّ وَالصِّدْقُ فِي أمْرِ عِيْسَى، (فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْـتَرينَ) أي من الشَّاكِّينَ؛ فالخطابُ للنبيِّ ﷺ والمرادُ به أمَّتُهُ، لأنَّ النبيَّ ﷺ لَمْ يكـن شَـاكّاً في أمـرِ عيسى عليه السلام قَطُّ، وهذا كما قالَ تعالى: ﴿يَا أيُّـهَا النَّـبِيُّ إذا طَلَّقْتُـمْ النِّسَـاءَ﴾[1]. وقـال بعضُهم: معناهُ: لا تَكُنْ أيها السَّامِعُ لِهذا النَّبأ من الشَّاكِّينَ.

قوله عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ ؛ أي فمن خاصَمَك وجادلَكَ يا مُحَمَّدُ في أمرِ عيسى من بعدِ ما جاءَكَ من البيان بأنهُ عَبْـدُ اللهِ ورسولُه، ولم يكن ابنَ اللهِ ولا شريكَهُ؛ ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْاْ ﴾ ؛ يا مَعْشَرَ النَّصَـارَى؛ ﴿ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ ؛ لنخـرجَ إلى

(١) الطلاق / ١ .

فَضَاءٍ من الأرض؛ ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ ؛ أي نلْتَعِنْ، وَالْبُهْلَةُ: اللَّعْنَةُ؛ يقالُ: بَهَلَهُ اللهُ؛ أي لَعَنَهُ اللهُ وَبَاعَدَهُ. ويقال: معنى (نَبْتَهِلْ): نَجتَهِدْ ونَتَضَرَّعْ في الدُّعاءِ على الكاذب. ثم فَسَّرَ الابتهالَ فقالَ تعالى: ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي نقولُ: لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ في أمرِ عيسى.

قرأ الحسنُ وأبو واقدٍ وأبو السمَّال العدويّ: (تَعَالُوا) بضمِّ اللام. وقرأ الباقونَ: (تَعَالَوْا) بفتحِ اللاَّم، والأصلُ فيه: تَعَالَيُوا؛ لأنهُ تفَاعَلُوا من العُلُوِّ، فَاسْتُثْقِلَتِ الضمَّةُ على الياءِ فَسُكِّنَتْ ثم حذفَتْ وبقيتِ اللامُ على فتحِها، ومَن ضمَّ فقد نقلَ حركةَ الياء المحذوفةِ إلى اللاَّم. قال الفرَّاء: (مَعْنَى تَعَالَ: ارْتَفِعْ).

فَلَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ عَلَى نَصَارَى نَجْرَانَ وَقَالَ لَهُمْ: [إنَّ اللهَ أمَرَنِي أنْ أبَاهِلَكُمْ إنْ لَمْ تَقْبَلُوا] قَالُوا لَهُ: يَا أبَا الْقَاسِمِ؛ بَلْ نَرْجِعُ فَنَنْظُرُ فِي أمْرِنَا ثُمَّ نَأْتِيكَ فَنُعْلِمُكَ، فَرَجَعُوا وَخَلاَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَقَالَ السَّيِّدُ لِلْعَاقِبِ: قَدْ وَاللهِ عَلِمْتَ أنَّ الرَّجُلَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَئِنْ لاَعَنْتُمُوهُ يَا مَعْشَرَ النَّصَارَى لَيَسْتَأْصِلَنَّكُمْ، وَمَا لاَعَنَ نَبِيٌّ قَوْماً قَطُّ فَعَاشَ كَثِيْرُهُمْ وَلاَ ثَبَتَ صَغِيْرُهُمْ، وَإنْ أنْتُمْ أبَيْتُمْ إلاَّ دِيْنَكُمْ فَوَاعِدُوهُ وَارْجَعُوا إلَى بلاَدِكُمْ. فَأتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنَ الْغُدُوِّ وَقَدْ خَرَجَ بِنَفَرٍ مِنْ أهْلِهِ مُحْتَضِناً الْحُسَيْنَ آخِذاً بيَدِ الْحَسَنِ؛ وَفَاطِمَةُ تَمْشِي عَلَى إثْرِهِمْ وَعَلِيٌّ بَعْدَهَا وَهُوَ يَقُولُ لَهُمْ: [إذا أنَا دَعَوْتُ فَأَمِّنُوا]. فَقَالَ وَاحِدٌ مِنَ النَّصَارَى: وَاللهِ إنِّي لأَرَى وُجُوهاً لَوْ سَأَلُوا اللهَ أنْ يُزِيْلَ جَبَلاً مِنْ مَكَانِهِ لأَزَالَهُ، فَلاَ تَبْتَهِلُوا فَتَهْلَكُوا وَلاَ يَبْقَى عَلَى الأَرْضِ نَصْرَانِيٌّ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَقَالُوا: يَا أبَا الْقَاسِمِ؛ قَدْ رَأيْنَا أنْ لاَ نُلاَعِنَكَ وَنَتْرُكَكَ عَلَى دِيْنِكَ وَنَثْبُتَ عَلَى دِيْنِنَا، فَقَالَ ﷺ: [فَإنْ أبَيْتُمُ الْمُبَاهَلَةَ فَأَسْلِمُوا يَكُنْ لَكُمْ مَا لِلْمُسْلِمِيْنَ وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْهِمْ]. فَأَبَوا؛ فَقَالَ: [إنِّي أنَابذُكُمْ] فَقَالُوا: مَا لَنَا بِحَرْبِ الْعَرَبِ مِنْ طَاقَةٍ، وَلَكِنَّا نُصَالِحُكَ عَلَى أنْ لاَ تَغْزُونَا وَلاَ تُخِيْفُنَا وَلاَ تَرُدَّنَا عَنْ دِيْنِنَا؛ عَلَى أنْ نُؤَدِّيَ إلَيْكَ كُلَّ عَامٍ ألْفَي حُلَّةٍ؛ ألْفٌ فِي صَفَرَ وَألْفٌ فِي رَجَبَ. فَصَالَحَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى ذلِكَ وَقَالَ لَهُمْ: [وَإنْ كَانَ كَيْدٌ بالْيَمَنِ أعَنْتُمُونَا بثَلاَثِيْنَ دِرْعاً وَثَلاَثِيْنَ فَرَساً وَثَلاَثِيْنَ بَعِيْراً، وَالْمُسْلِمُونَ ضَامِنُونَ لَهَا حَتَّى

يَرُدُّوهَا عَلَيْكُمْ][(١)].

وكَتَبَ لَهُمْ كِتَابَ الأَمَانِ وَالصُّلْحِ: [بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ، هَـذا مَـا كَتَـبَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ لِنَجْرَانَ فِي كُلِّ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ وَسَوْدَاءَ أوْ رَقِيْقٍ فَاضِلاً عَنْهُمْ؛ تُـرِكَ ذلِكَ كُلُّهُ عَلَى ألفَي حُلَّةٍ، فِي كُلِّ صَفَرَ ألْفُ حُلَّةٍ، وَفِي كُلِّ رَجَبَ ألْفُ حُلَّةٍ يُمْنُ كُـلِّ حُلَّةٍ وَقِيَّةٌ، وَمَا زَادَتِ الْحُلَلُ عَلَى الأَوَاقِ فَبحِسَابهَا، وَمَـا نَقُـصَ مِـنْ دِرْعٍ وَخَيْـلٍ أوْ رِكَابٍ فَبحِسَابهِ. وَعَلَيْهِمْ عَارِيَةٌ ثَلاَثُونَ دِرْعاً وَثَلاَثُونَ فَرَسـاً وَثَلاَثُـونَ بَعِـيْراً إنْ كَـانَ كَيْداً باليَمَنِ، وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا جِوَارُ اللهِ تَعَالَى وَذِمَّةُ مُحَمَّـدٍ رَسُـولِ اللهِ ﷺ عَلَـى أنْفُسِهِمْ وَمَالِهِمْ. وَكُلُّ مَا تَحْتَ أيْدِيْهِمْ مِنْ قَلِيْلٍ وَكَثِيْرٍ لاَ يُغَيِّرُ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَلاَ يُغَيَّرُ أسْقُفٌ مِنْ أسْقُفِهِ، وَلاَ رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلاَ يُحْشَرُونَ مِنْ بلاَدِهِمْ، وَلاَ يُعْشَـرُونَ، وَلاَ يَطَأُ أرْضَهُمْ حَبَشٌ. وَمَا سَألَ مِنْهُمْ حَقّاً فَلَهُ النِّصْفُ غَيْرَ ظَـالِمِيْنَ وَلاَ مَظْلُومِيْـنَ، وَمَنْ أكَلَ الرِّبَا مِنْ ذِي قَبْلٍ فَذِمَّتِي مِنْهُ بَرِيَّةٌ، لاَ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ رَجُـلٌ يَطْلُـبُ آخَـرَ، لَـهُمْ جِوَارُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ أبَداً حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بأمْرِهِ مَا نَصَحُوا وَأصْلَحُوا فِيْهَا عَلَيْهِمْ غَـيْرَ مُثْقَلِيْنَ بظُلْمٍ][(٢)].

شَهِدَ الشُّهُودُ أبُو سُلَيْمَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَغَيْـلاَنُ بْـنُ عَمْرٍو، وَمَـالِكُ بْـنُ عَـوْفٍ وَغَيْرُهُمْ. ثُمَّ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُمْ مُعَاذَ بْنَ جَبَـلٍ لِيَقْضِـيَ بـالْحَقِّ فِيْمَـا بَيْنَـهُمْ، وَرَجَعُوا إلَى بلاَدِهِمْ. فَقَالَ ﷺ: [لَوْ بَاهَلُونِي لاضْطَرَمَ الْوَادِي عَلَيْهِمْ نَـاراً، وَلَـمْ يُـرَ نَصْرَانِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيَّةٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]. وفي بعضِ الرِّوايـاتِ أنـهُ قَـالَ: [لَـو الْتَعَنُـوا لَهَلِكُوا كُلُّهُمْ حَتَّى الْعَصَافِيْرَ فِي سُقُوفِهِمْ]. وفي بعض الروايَـات أنَّ النبيَّ ﷺ قَـالَ: [وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، إنَّ الْعَذَابَ يُدْلَى عَلَى أهْلِ نَجْرَانَ، وَلَوْ تَلاَعَنُوا لَمُسِـخُوا قِـرَدَةً وَخَنَازِيْرَ؛ وَلاضْطَرَمَ الْوَادِي عَلَيْهِمْ نَاراً؛ وَلاستَأْصَلَ اللهُ نَجْـرَانَ وَأهْلَـهُ حَتَّـى الطَّـيْرَ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٢٣١-٢٣٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو نعيم في الدلائل مـن طريـق الكلبي)). والطبري في جامع البيان: النص (٥٦٦٩).

(٢) أخرجه أبو عبيد بن سلام في الأموال: بـاب كتـب اليـهود الـتي كتبـها رسـول الله ﷺ: النـص (٥٠٣): ج ١ ص٢٤٤.

وَالشَّجَرَ، وَمَا حَالَ الْحَوْلُ عَلَى النَّصَارَى كُلِّهِمُ حَتَّى هَلَكُوا]. فدلَّ هـذا الخبرُ على أن امتناعِهم عنِ المباهلةِ لَمْ يكن إلاَّ لعلمِهم أنَّ الحقَّ مع النبيِّ ﷺ، ولو لم يعلمُوا ذلكَ لَبَاهَلُوهُ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي هذا الذي أوحينا إليكَ من الْحُجَجِ والآيَاتِ لَهُوَ الخبرُ الحقُّ بأنَّ عيسى لم يكن إلَهاً ولا ولدَ اللهِ ولا شريكَهُ. والقَصَصُ: هو الخبرُ الذي يتلُوا بعضُه بعضاً. قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي ما إلهَ إلاّ اللهُ واحدٌ بلا ولدٍ ولا شريك. ودخولُ (مِنْ) في قولهِ (وَمَا مِنْ إلَهٍ إلاَّ اللهُ) لتوكيدِ النَّفي في جميعِ ما ادَّعاهُ المشركونَ أنَّهم آلِهةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛أي العزيزُ بالنقمَة لِمن لا يؤمنُ به، ذو الحكمةِ في خَلْقِ عيسى عليه السلام من غيرِ أبٍ؛ وفي أمرِهِ ألاّ تعبدُوا إلاَّ اللهَ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي إنْ أعرضُوا عمَّا أتيتَ به من البيان؛ فإنَّ اللهَ عالِمٌ بالمفسدينَ الذين يعبدون غيرَ اللهِ ويدعُون الناسَ إلى عبادةِ غيرِ الله يُجازيهم على ذلكَ.

ثم دعاهُم اللهُ إلى التوحيدِ فقالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: يَا أَهْلَ الْكِتَاب هَلُمُّوا إلى كَلِمَةٍ عَدْلٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ.

وفي (سَوَاءٍ) ثلاثُ لغات: سَواءَ وسِوى وسُوًا، ولا يُمَدُّ فيها إلاّ المفتوحُ، قال اللهُ تعالى: ﴿مَكَاناً سُوًى﴾[1]. ثم فسَّرَ الكلمةَ فقال تعالى: (ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ) أحداً مِن المخلوقينَ، وموضع (أنْ) رفع على إضمار (هي). وقيلَ: موضعُها نُصب بنَزعِ الخافضِ، وقيل: موضعها خَفِضَ بدلاً من الكلمةِ؛ أي تَعالُوا إلى أنْ لاَ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ.

---

(١) طه / ٥٨ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ أي نرجِعُ إلى معبودِنا وهو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لا شريكَ لهُ؛ وأنَّ عيسى بَشَرٌ كما أنَّنا بَشَرٌ فلا تتخذُوه رَبّاً، وسَمَّى اللهُ هذه الثلاثةَ الألفاظ كَلِمَةً لأنَّ معناها: نَرْجِعُ إلَى وَاحِدٍ، وهي كلمةُ العدل: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ.

قال بعضُ المفسِّرين: ولا يتَّخذ بعضُنا بعضاً أربَاباً من دون الله كما فعلَتِ اليهودُ والنَّصارى؛ فإنَّهم اتَّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دونِ اللهِ؛ أي أطاعُوهم في معصيةِ الله. قال عكرمةُ: (هُوَ سُجُودُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ)[1]، وقيل: معناهُ: لا نطيعُ أحداً في المعاصِي، وفي الخبرِ: [مَنْ أطَاعَ مَخْلُوقاً فِي مَعْصِيَةِ اللهِ فَكَأنَّمَا سَجَدَ سَجْدَةً لِغَيْرِ اللهِ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي فإن أبَوا التوحيدَ فقولوا اشهدُوا بأنَّا مُقِرُّونَ بالتوحيدِ مُسْلِمُونَ لِما أتانَا به الأنبياءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ من اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ ﴾ ، قال الكلبيُّ: (وَذلِكَ أنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اجْتَمَعُوا فِي بَيْتِ مَدْرَسَةِ الْيَهُودِ، وَكُلُّ فَرِيْقٍ يَقُولُ: إنَّ إبْرَاهِيْمَ مِنَّا وَعَلَى دِيْنِنَا، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ عليه السلام فَقَالُواْ: اقْضِ بَيْنَنَا أيُّنَا أوْلَى بإبْرَاهِيْمَ وَدِيْنِهِ، فَقَالَ ﷺ: [كُلُّ الْفَرِيْقَيْنِ مِنْكُمْ بَرِيْءٌ مِنْ إبْرَاهِيْمَ وَدِيْنِهِ، إنَّ إبْرَاهِيْمَ كَانَ حَنِيْفاً مُسْلِماً وَأنَا عَلَى دِيْنِهِ، فَاتَّبعُوا دِيْنَهُ الإسْلاَمَ] فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). ومعناها: يا أيُّها اليهودُ والنصارى لِمَ تتخاصَموا في ابراهيمَ ودينهِ (وَمَا أنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالانْجِيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِهِ) ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ، أي أفَلَيْسَ لكم ذِهْنُ الإنسانيَّة فتعلمُوا أن اليهوديَّةَ ملَّةٌ مُحَرَّفَةٌ عن شريعةِ موسى عليه السلام، وأنَّ اليهودَ سُمُّوا بهذا الاسم لأنَّهم من ولدِ يَهُودَا، والنصرانيَّةَ ملَّةٌ مُحَرَّفَةٌ عن شريعةِ عيسى عليه السلام، سُمُّوا نصارَى لأنَّهم من قريةٍ بالشام يقال لها: نَاصِرَةٌ. ويقالُ: معناهُ: أفَلاَ تَعْقِلُونَ وتنظرون أنه ليسَ في التوراةِ والانجيل أنَّ إبراهيمَ عليه السلام كان يهوديّاً أو نصرانيّاً.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٦٨٦).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ) أي مِن بعد مَهْلَكِ إبراهيمَ عليه السلام بزمان طويل، وكان بينَ إبراهيم وموسَى ألفَ سنةٍ، وبين موسى وعيسَى ألفَ سنةٍ. أفَلاَ تَعْقِلُونَ دُحُوضَ حُجَّتِكُمْ وبطلانَ قولِكم .

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ ﴾ ، معناه: وأنتُم يا هؤلاءِ يَا معشرَ اليهودِ والنصارى حاجَجْتُم فيما لكم به علمٌ مِن بَعْثِ مُحَمَّدٍ ﷺ وصفتِه في كتابكم، فَلِمَ تخاصمونَ فيما ليس لكم به علمٌ وهو أمرُ إبراهيمَ عليه السلام، ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ﴾ ، دينَ إبراهيمَ وشأنَهُ، ﴿ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

و (الهاء) في (هَا أنْتُمْ) تنبيهٌ، و(أنْتُمْ) اسمٌ للمخاطَبين، و(هَؤُلاَءِ) إشارةٌ إليهم، كأنَّهُ يقول: انْتَبِهُوا أنتمُ الذينَ حاجَجْتم. قرأ أهلُ المدينةِ والبصرةِ بغيرِ همز ولا مدٍّ إلاَّ بقدر خروجِ الألف السَّاكنة، وقرأ أهلُ مكة مهموزٌ مقصور على وزن هَعَيْتُمْ، وقرأ أهلُ الكوفةِ وابنُ عامرٍ بالمدِّ والهمزِ، وقرأ الباقون بالمدِّ دونَ الهمزِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا ﴾ ؛ هذا تكذيبٌ مِن اللهِ للفريقين في قولِهم: إنَّ إبْرَاهِيْمَ كَانَ يَهُودِيّاً أوْ نَصْرَانِيّاً. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا ﴾ ؛ أي مَائلاً عن اليهوديَّةِ والنصرانيَّة مُخْلِصاً مُستَسلِماً لأمرِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ على دِينهم.

والحنيفُ: هو الْمَائِلُ عن كلِّ دِيْنٍ سِوَى الإسلام، يُشَبَّهُ بالأَحْنَفِ الذي تكونُ صُدُورُ قَدَمَيْهِ مَائِلَةً عن جهةِ الْخِلْقَةِ. وقيل: الْحَنِيْفُ: الذي يُوَحِّدُ اللهَ ويَحُجُّ ويضَحِّي ويَخْتَتِنُ ويستقبلُ القِبلةَ، وهو أسهلُ الأديان وأحبُّها إلى اللهِ تعالى، وأهلهُ أكرَمُ الخلقِ على اللهِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس والكلبيُّ: (وَذلِكَ أنَّ رُؤَسَاءَ الْيَهُودِ قَالُوا لِلنَّبيِّ ﷺ: لَقَدْ عَلِمْتَ يَا مُحَمَّدُ أنَّا أوْلَى بدِيْنِ إبْرَاهِيْمَ مِنْكَ وَمِنْ غَيْرِكَ، وَأنَّهُ كَانَ يَهُودِيّاً، وَمَا بكَ إلاَّ الْحَسَدَ لَنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ). ومعناها: إنَّ أحقَّ الناسِ بموالاة إبراهيمَ لَلَّذِيْنَ اتَّبَعُوهُ في دينهِ في زمانه، ولم يغيِّرُوا ولم يُبَدِّلُوا، (وَهَذا النَّبيُّ) يعني

مُحَمَّداً ﷺ (وَالَّذِيْنَ آمَنُوا) يعني أصحابَه الذي اتَّبعوهُ. قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي في النَّصْرِ والمعرفةِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ ؛ يعني كعبَ بن الأشرف وأصحابَهُ دَعَوا أصحابَ رسولِ الله ﷺ: مُعَاذ وحذيفةَ وعمَّارَ بن ياسرٍ الى دِينِهم اليهوديَّة، وقد مَضَتْ قضيَّتُهم في سورةِ البقرةِ. ومعناه: تَمَنَّتْ جماعةٌ من أهلِ الكتاب أن يُهْلِكُوكُمْ بإدخالِكُم في الضَّلاَل، ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ أي وما يرجعُ وَبَالُ إضْلالِهم إلاَّ على أنفسِهم، ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ وما يعلمونَ أنَّ وَبَالَ ذلِك يعودُ عليهم، وقيل: ما يعلمونَ أنَّ الله يُطْلِعُ نَبيَّهُ ﷺ على فِعْلِهِمْ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي لِمَ تَجْحَدُونَ بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن وأنتم تعلمونَ في كتابكم أنهُ نَبيٌّ مُرْسَلٌ، يعني أنَّ نَعْتَهُ مذكورٌ في التوراةِ والإنجيل. والأصلُ فِي (لِمَ تَكْفُرُونَ): لِما تَكفُرون؛ أي لأيِّ شيءٍ تكفرونَ، حذفت الألفُ للتخفيف وفُتحت الميمُ دليلاً على سقوطِ الألف، وعلى هذا ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ وَ﴿فِيمَ تُبَشِّرُونَ﴾ وَ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: لِمَ تَخْلُطُونَ الإسلامَ باليهوديَّة والنصرانيَّة، وقيل: إنَّهم أقرُّوا ببعضِ أمْرِ النَّبيِّ ﷺ وكتمُوا بعضَهُ، وقيل: معناهُ: لم تُغَطُّونَ الحقَّ بباطِلكم، وتغطيتُهم الحقَّ بالباطلِ تحريفُهم للتوراةِ والإنجيلَ وتأويلُهم على غيرِ وجههِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ) يعني صِفَةَ النَّبيِّ ﷺ كتَمُوهَا وهم يعلمون أنهُ رَسُولُ اللهِ ودينُه حقٌّ.

قرأ أبو مُخَلَّدٍ (تُلَبِّسُونَ) بالتشديدِ، وقرأ عُبيد بن عمر: (لِمَ تُلبسُوا) بغيرِ نونٍ ولا وجهَ لهُ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ ﴾ ؛ قال مجاهدُ ومقاتل والكلبيُّ: (هَذا فِي شَأْن الْقِبْلَةِ لَمَّا صُرِفَتِ الْقِبْلَةُ إلَى الْكَعْبَةِ، شُقَّ ذلِكَ عَلَى الْيَهُودِ، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ لأَصْحَابِهِ: آمِنُوا بالَّذِي أنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ فِي شَأْن الْكَعْبَةِ وَصَلُّوا إلَيْهَا أوَّلَ النَّهَار ثُمَّ اكْفُرُوا بالْكَعْبَةِ آخِرَ النَّهَار، وَارْجِعُوا إلَى قِبْلَتِكُمْ صَخْرَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ). ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي لعلَّهم يقولون هؤلاءِ أصحابُ كتابٍ، وهم أعْلَمُ منَّا، فربَّما يرجعون إلى قِبلتنا، فَحَذرَ اللهُ نَبيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ مَكْرَ هؤلاءِ القومِ وأطْلَعَهُ على سرِّهم.

وقال بعضُهم: إنَّ علماءَ اليهود قالوا فيما بينَهم: كنَّا نخبرُ أصحابَنا بأشياءَ قد أتى بها مُحَمَّدٌ ﷺ، فإن نحنُ كفرْنا بها كلِّها اتَّهمَنا أصحابُنا، ولكن نؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ لنوهِمَهم أنَّا نصدِّقه فيما نصدِّقه، ونريهم أنَّا نكذِّبه فيما ليسَ عندنا. ويقال: إنَّهم أتَوا النبيَّ ﷺ في صدر النَّهار، فقالُوا: أنْتَ الذي أخبرنا في التوراةِ إنكَ مبعوثٌ، ولكن أنْظِرْنا إلى العَشِيِّ لِنَنْظُرَ في أمرِنا.

فلمَّا كان العَشِيُّ أتَوا الأنصارَ فَقَالُوا لَهم: كنَّا أعلمنَاكُم أنَّ مُحَمَّداً هو النبيُّ الذي هو مكتوبٌ في التوراة، إلاَّ أنَّا نظرنَا في التوراةِ فإذا هو مِن ولدِ هارون عليه السلام ومحمدٌ ﷺ من ولد إسْمَاعِيْلَ بنِ إبراهيمَ، فليس هو النبيُّ الذي هو عندَنا. وإنَّما فعلُوا ذلك لعلَّ مَن آمنَ به منهم يَرْجِعُ، لأنَّ هذا يكونُ أقربَ عندهم إلى تشكيكِ المسلمين.

ووجهُ الشَّيء أوَّلُهُ، يقالُ لأوَّلِ الثوب وَجْهُ الثوب، ويسمَّى أوَّلُ النهار وَجْهَهُ لأنهُ أحْسَنُهُ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ ؛ حكايةُ قول كعب بن الأشرَف وأصحابه قالُوا لليهودِ: لا تصدِّقوا إلاَّ لِمن تَبعَ دينكم اليهوديَّة، وصلَّى إلى قِبلتكم نحوَ بيتِ المقدس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ قال بعضُهم: هذا كلامُ مُعْتَرِضٌ بين كَلاَمَي اليهودِ، ويجوزُ دخولُ العارضِ بين الكلامين اذا احتيجَ إليه كما

دخلَ على قولهِ تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إنَّا لاَ نُضِيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً﴾(١) ثم عَادَ إلى أوَّل الكلامِ فقالَ تعالى: ﴿أوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾(٢) كذا قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ إنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ) عارضَ ثم عادَ إلى كلامِ اليهود، فقَالَ تعالى: ﴿ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ ﴾ ؛ أي قالُوا لا تصدِّقوا أن يعطَى أحدٌ من الكتاب والعلم مثلَ ما أعطيتُم؛ ﴿ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ ؛ أي يحاجكم أحدٌ، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ إنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ و؛ ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ فلا تُنكِروا أن يُؤْتِهِ غيرَكم.

وقال بعضُهم: ليسَ في الآيةِ تقديمٌ وتأخير، ومعناهُ: قالَت اليهودُ: ولا تؤمِنُوا إلاّ لِمن تَبعَ دينَكم، قلْ يَا مُحَمَّدُ إنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ؛ فَلاَ تَجحدوا أن يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم، أو يُحَاجُّكُمْ أحدٌ عند ربِّكم، (قُلْ): إنَّ الفَضْلَ بيَدِ اللهِ، ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي النبوة والكتاب والهدى بقدرة الله تعالى يعطيه من يشاء، ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي واسعُ الفضلِ والقدرةِ، عَلِيْمٌ بمن هوَ من أهلِ الفضلِ.

وقيل معنى الآيةِ: ولاَ تؤمنُوا إلاّ لِمن تَبعَ دينَكم أي ملَّتَكم، ولا تؤمنُوا إلاّ أنْ يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم من العلمِ والحكمَةِ؛ والكتاب والحجة؛ والْمَنِّ والسَّلوى؛ وفَلْقِ البحرِ وغيرِها من الكرامَات، ولا تؤمنُوا إلاّ أنْ يجادلُوكم عند ربكم لأنكم أصحُّ ديناً منهم، وهذا قولُ مجاهدٍ.

وقال ابن جُريج: (مَعْنَاهُ: أنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ لِسَفَلَتِهِمْ: لاَ تُؤْمِنُواْ إلاَّ لِمَنْ تَبعَ دِيْنَكُمْ كَرَاهَةَ أنْ يُؤْتَى أحَدٌ مِثْلَ مَا أوْتِيْتُمْ؛ فَأيُّ فَضْلٍ يَكُونُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ حَيْثُ عَمِلُواْ مَا عَمِلْتُمْ، وَحِيْنَئِذٍ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبكُمْ فَيَقُولُونَ: عَرَفْتُمْ أنَّ دِيْنَنَا حَقٌّ؛ فَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ لِئَلاَّ يَعْلَمُواْ مِثْلَ مَا عَلِمتُمْ فَلاَ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبكُمْ)(٣). ويجوزُ أن تكونَ (إلاَّ) على هذا القول مضمرةً لقولهِ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أنْ تَضِلُّوا﴾(٤) ويكونُ تقديرُه: ولاَ تؤمنوا إلاَّ لِمَنْ تَبعَ دينَكم؛ لئلاَّ يؤتَى أحدٌ مِثْلَ ما أوتيتم؛ لئلا يحاجُّوكم به عند ربكم.

(١) الكهف / ٣٠ . (٢) الكهف / ٣١ .
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٧٣٥).
(٤) البقرة / ١٧٦ .

وقرأ الحسنُ والأعمش (إنْ يُؤْتَى) بكسرِ الألف، وجهُ هذه القراءةِ: أنَّ هذا مِن قول الله عَزَّ وَجَلَّ بلا اعتراضٍ، وأن يكونَ كلامُ اليهود منتهياً عندَ قوله (إلاَّ لِمَنْ تَبـعَ دِينَكُمْ). ومعنى الآية: قُلْ يَا مُحَمَّدُ إنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أنْ يؤتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم يا أمَّةَ مُحَمَّدٍ أو يُحَاجُّوكُمْ؛ يعني: إلاَّ أنْ يحاجُّوكم أي يجادِلوكُم اليهودُ بالباطلِ فيقولـوا نحنُ أفضلُ مِنكم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (عِنْدَ رَبِّكُمْ) أي عند فِعْلِ ربكم ذلـكَ، وتكـون (أنْ) علـى هـذا القول بمعنى الْجَحْدِ والنَّفي؛ أي لا يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم، وما أعْطِيَ أحدٌ مثل مـا أعطيتم يا أمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ من الدِّين والحجَّة حتى يجادِلوكم عند ربكم. قرأ ابن كثـير: (ءَانْ يُؤْتَى أحَدٌ) بالمدِّ[1]، وحينئذٍ في الكلامِ اختصارٌ تقديرُه: ءَالأَنْ يؤتَى أحدٌ مثـلَ مـا أوتيتُم يا معشرَ اليهودِ مِـن الكتـاب تحسِـدونَهم ولا تؤمنـونَ بـه، وهـذا قـولُ قتـادةَ والربيعِ؛ قالاَ: (هَذا مِنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: قُلْ يَا مُحَمَّـدُ إنَّ الْـهُدَى هُـدَى اللهِ؛ لَمَّـا أنْزَلَ كِتَاباً مِثْلَ كِتَابكُمْ وَنَبيّاً مِثْلَ نَبيِّكُمْ حَسَدْتُمُوهُ وَكَفَرْتُمْ بهِ)[2].

ويحتمل أن يكون تَمامُ الخبرِ عن اليـهود عنـدَ قولـهِ تعـالى:(لَعَلَّـهُمْ يَرْجِعُـونَ)، فيكونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلاَ تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَـنْ تَبـعَ دِيْنَكُـمْ) إلى آخـرِ الآيـةِ مِـن كـلامِ الله عَزَّوَجَلَّ، وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قالَ مُثبتاً لقلوب المؤمنين لئَلاَّ يشكُّوا عند تَلَبُّـسِ اليـهودِ في دينِكم، ولا تصدِّقوا يا معشرَ المؤمنينَ إلاَّ لِمَنْ تَبعَ دينَكـم، ولا تصدِّقـوا أن يؤتَـى أحدٌ مِثْلَ ما أوتيتم من الدِّين والفضـلِ، ولا تصدِّقـوا أن يُحـاجُّوكم في دينكـم عنـدَ ربكم، أو يقدِرون عليه، فإن الْهُدَى هُدى اللهِ، وإن عند تَلَبُّسِ الْيَهُودِ عَلَيْهِمْ لئَلاَّ يَزِلُّوا أو يَرْتَابُوا، يدلُّ عليه قولُ الضحَّاك: (إنَّ الْيَهُودَ قَالُوا: إنَّا نُحَاجُّ عِنْدَ رَبنَـا مَـنْ خَالَفَنَـا فِي دِيْنِنَا). بَيَّنَ الله أنَّهم هـمُ الْمُدْحَضُونَ الْمَغْلُوبُونَ، وأنَّ المؤمنينَ هـمُ الغالبونَ. وقـال أهلُ الإشارةِ في هذه الآية: لا تُعاشروا إلاَّ مَن يوافِقكـم علـى أحوالكـم وطريقتكـم، فإنَّ مَن لم يُوافقكم لا يُرافِقكم.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص١١٢-١١٣؛ قال القرطبي: ((وقـال أبـو حـاتم: (آن) معنـاه (الأن) فحذفت لام الجر استخفافاً وأبدلت مَدَّةً، كقراءة من قرأ ﴿أنْ كَانَ ذا مَالٍ﴾ أي الآنْ)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٧٣٣) عن قتادة، والنص (٥٧٣٤) عن الربيع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يَختص بدينهِ الإسلام مَن يشاءُ، وقيل: يَختَصُّ بالنبوَّة مَن يشـاءُ؛ ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ ، على مَن اختصَّهُ بالإسلام والنبُوَّة.

قوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ ؛ فِي الآية دليلٌ وبيان أنَّ أهلَ الكتاب فيهم أمانةٌ وفيهم خِيَانَةٌ، فمنهم مَن إنْ تَأْمَنْهُ تُبَايعْهُ بملْءِ مِسْكِ ثور تُؤَدِّهِ ذهَباً، يُؤَدِّهِ إليكَ بلا عناءٍ ولا تعب، وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بدِيْنَار لاَ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ إلاّ بعد عَناء وتعبٍ. وقال الضحَّاك: (هُوَ فِنْحَاصُ بْنُ عَـازُورَاء الْيَـهُودِيّ؛ أوْدَعَهُ رَجُلٌ دِيْنَاراً فَخَانَهُ)(١). والقِنْطَارُ عبارةٌ عن المال الكثير، والدِّيْنَارُ عبارةٌ عن المال القليلِ.

وقال الضحَّاك عن ابن عبَّاس:(مَعْنَى الآيَةِ: وَمِنْ أهْـلِ الْكِتَـاب مَـنْ إنْ تَأْمَنْـهُ بقِنْطَار يُؤَدِّهِ إلَيْكَ؛ وَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ؛ أوْدَعَهُ رَجُلٌ ألْفاً وَمِائَتَي أوْقِيَّةٍ مِـنْ ذهَـبٍ فَأَدَّاه إلَيْهِ؛ فَمَدَحَهُ اللهُ تَعَالَى، وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بدِيْنَار لاَ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ؛ وَهُوَ فِنْحَـاصُ ابْنُ عَازُورَاء الْيَهُودِيُّ؛ أوْدَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ دِيْنَاراً فَخَانَهُ). وفي بعضِ التفاسـير: أنَّ الذي يؤدِّي الأمانةَ في هذهِ الآية هم النَّصَارَى؛ والذينَ لا يؤدُّونَها هم اليهودُ.

قرأ الأشهبُ العقيلي (تِيْمَنْهُ بقِنْطَار) بكسرِ التَّـاء وهـي لغـةُ بكـرٍ وتميـم، وفي حرفِ ابن مسعودٍ: (مَا لَكَ لاَ تِيْمَنَّا)، وقراءةُ العامَّة (تَأْمَنْهُ) بالألِف.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (يُـؤَدِّهِ) فيـه خمـسُ قِـراءَات، فقرأهـا كلُّـها أبـو عمـرٍو وعـاصمُ والأعمش وحمزةُ سَاكِنَةَ الْهَاءِ، وقرأ أبو جعفرٍ ويعقــوبَ مُخْتَلَسَـةً مكسـورةً مشـبَعةً، وقرأ سلامُ مَضْمُومَةً مُخْتَلَسَةً، وقرأ الزهريُّ مضمومةً مُشبعةً، وقرأ الآخرون مكسورةً مشبعةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً) قرأ الأعمشُ ويحيى بـن وثَّـاب وطلحـةُ بكسرِ الدَّال، ومعنى الآيةِ: (إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً) أي مُلِحّاً، كذا قالَ ابـنُ عبـاس،

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص١١٥.

وقال مجاهدُ: (إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمـاً) مُلاَزمـاً. وقـال ابـنُ جبـير: (مُرَابطـاً). وقـال الضحَّاك: (مُوَاظِباً)[١]. وقال قتادةُ:(مَعْنَاهُ: إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْـهِ قَائِمـاً: بقَبْضِـهِ). وقـال السديُّ: (قَائِماً عَلَى رَاسِهِ، فَإنْ سَأَلْتَهُ إيَّاهُ حِيْـنَ دَفَعْتَـهُ إلَيْـهِ رَدَّهُ عَلَيْـكَ، وَإنْ أخَّرْتَـهُ أنْكَرَ)[٢]. وذهبَ بـه ذلـك إلى الاسـتحلال والخيانـةِ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ ﴾ ؛ أي فإنَّهم قالوا: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ ؛ أي وقال العربُ نظـيرُه قَوْلُـهُ تَعَالَى:﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾[٣]. والسبيلُ هو الإثمُ والحرجُ؛ دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبيلٍ﴾[٤] وذلكَ أنَّ اليهودَ قالُوا: لاَ حرجَ علينـا في حبسِ أموالِ العرب قد أحلَّها اللهُ لنا؛ لأنَّهم ليسوا على دِيننـا، وكـانوا يسـتحِلُّون ظُلْمَ مَنْ خالَفَهم في دينهم[٥].

وقال الكلبيُّ: (قَالَتِ الْيَهُودُ: إنَّ الأَمْوَالَ كُلَّهَا لَنَا؛ وَمَا كَانَ فِـي أيْـدِي الْعَـرَب مِنْهَا فَهُوَ لَنَا، وَإنَّمَا ظَلَمُونَا وَغَصَبُونَا عَلَيْهَا وَلاَ سَبيْلَ عَلَيْنَا فِـي أخْذِنَـا إيَّاهَـا مِنْـهُمْ). فَأَكْذبَـهُمُ اللهُ بقَوْلِـــهِ: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ فلمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: [كَذبَ أعْدَاءُ اللهِ، مَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إلاَّ وَهُوَ تَحْتَ قَدَمِي إلاَّ الأَمَانَةُ؛ فَإنَّهَا مُؤَدَّاةٌ إلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ][٦].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: (ذلِـكَ بأَنَّـهُمْ قَـالُوا لَيْـسَ عَلَيْنَـا فِـي الأُمِّيِّـينَ سَـبيلٌ) أي ذلـك الاستحلالُ والخيانةُ منهم بقولِهم: ليس علينا في مال العـرَب والذيـن لا كتـابَ لَـهم حجةٌ ولا مأثم. وقولهُ تعالى: (وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) أي يقولون لَمْ يجعـل لَـهم علينا في كتابنا حُرْمَةً كحُرْمَتِنَا، (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أنَّ اللهَ تعالى قد أنزلَ عليهم في كتابـهم الوفاءَ وأداءَ الأمانة لِمن ائْتَمَنَهُمْ وخالَطَهم[٧].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٧٤١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٧٤٢)

(٣) الجمعة / ٢ . (٤) التوبة / ٩١ .

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٧٤٣).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٧٤٥) مرسلاً عن سعيد بن جبير.

(٧) أصله عن ابن عباس؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٧٤٦).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي ليس الأمرُ كما يزعمون، لكن من أتَمَّ عهدَ الله الذي عاهدَهُ الله تعالى في التوراةِ واتَّقَى ظلمَ الناسِ في تركِ الوفاء ونقضِ العهد، فإنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ لنقضِ العهد وتركِ الوفاء. قالَ ﷺ: [ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإنْ صَلَّى وَصَامَ: مَنْ إذاَ حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذا أوْعَدَ أخْلَفَ، وَإذا ائْتُمِنَ خَانَ][(1)] وقال ﷺ:[مَنِ ائْتُمِنَ عَلَى أمَانَةٍ فَأدَّاهَا وَلَوْ شَاءَ لَمْ يُؤَدِّهَا؛ زَوَّجَهُ اللهُ مِنَ الْحُور الْعِيْنِ مَا شَاءَ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِيْمَا كَانَ بَيْنَ امْرِئِ الْقَيْسِ[(2)] وَعَبَدَانِ بْنِ الأَشْوَعِ مِنَ الْخُصُومَةِ فِي أرْضٍ غَلَبَهُ عَلَيْهَا امْرُؤُ الْقَيْسِ؛ فَاسْتَحْلَفَهُ عَبَدَانُ فَهَمَّ بِالْحَلْفِ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فَامْتَنَعَ أنْ يَحْلِفَ، وَأقَرَّ لِعَبَدَانَ بحَقِّهِ وَدَفَعَهُ إلَيْهِ، فَقَالَ ﷺ: [لَكَ عَلَيْهَا الْجَنَّةَ]). وقيل: نزلت هذه الآيةُ في اليهودِ لكتمانِهم مَبْعَثَ النَّبيِّ ﷺ. ومعنى الآيةِ: إنَّ الذين يجتازون على عهدِي الذي عهدتُ به في الدنيا، أولئكَ لا نصيبَ لهم في الآخرةِ؛ ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ بكلامِ خيرٍ ولا رحمةٍ، وقيل: لا يُسْمِعُهُمْ كلامَه كما يكلِّمُ أولياءَهُ بغيرِ سفيرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي لا يرحَمُهم ولا يعطِفُ عليهم ولا يقولُ لَهم خيراً؛ ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ ؛ أي لا يُثْنِي عليهم خَيراً؛ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ ، في أنَّها هذه الأحوالُ (عَذابٌ أَلِيْمٌ) أي مُوجِعٌ. رويَ عن رسولِ اللهِ ﷺ: [مَنِ اقْتَطَعَ شَيْئاً مِنْ مَالِ مُسْلِمٍ بيَمِيْنِهِ فَقَدْ أوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ] قَالَ رَجُلٌ: وَلَوْ كَانَ شَيْئاً يَسِيراً؟ قَالَ: [وَلَوْ كَانَ قَضِيباً مِنْ أرَاكٍ][(3)]. وقَالَ ﷺ:[أكْبَرُ الْكَبَائِرِ الشِّرْكُ باللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَالْيَمِيْنُ الْغَمُوسُ][(4)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج٢ ص٥٣٦ عن الحسن قال:((صح عن النبيﷺ...)) وذكره. وعن أنس في مجمع الزوائد: ج ١ ص١٠٨؛ قال الهيثمي: ((رواه أبو يعلى، وفيه يزيد الرقاشي، وهو ضعيف)).

(٢) هو امرؤ القيس بن عابس الكندي، أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٧٥٥).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب وعيد من اقتطع من مسلم: الحديث (٢١٨/ ١٣٧). والنسائي في السنن الصغرى: ج ٨ ص٢٤٦.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٤٩٥ عن عبدالله بن أنيس الجهني، وإسناده صحيح.

وقال ﷺ: [إِيَّاكُمْ وَالْيَمِينَ الْفَاجِرَةَ، فَإِنَّهَا تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاَقِعَ][(١)] وقال ﷺ: [الْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ تُسْقِمُ الرَّحِمَ][(٢)]، وَهِيَ [مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ][(٣)].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ ؛ رويَ: أنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْيَهُودِ أوْلِي فَاقَةٍ وفقرٍ قَدِمُوا الْمَدِيْنَةَ مِنَ الشَّامِ لِيُسْلِمُوا، فَلَقِيَهُمْ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ فَقَالَ لَهُمْ: أتَعْلَمُونَ أنَّ مُحَمَّداً نَبِيٌّ ؟ قَالُوا: نَعَمْ، وَمَا تَعْلَمُهُ أنْتَ ؟ قَالَ: لاَ، قَالُوا: فَإنَّهُ يَشْهَدُ أنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ: لَقَدْ مَنَعَكُمُ اللهُ خَيْراً كَثِيْراً، كُنْتُ أُرِيدُ أنْ أمِيرَ لَكُمْ وَأكْسُوا عِيَالَكُمْ فَحَرَمَكُمُ اللهُ، فَقَالُوا: رُوَيْدَكَ حَتَّى نَلْقَاهُ، فَانْطَلَقُوا وَكَتَبُوا صِفَةً سِوَى صِفَتِهِ وَنَعْتاً سِوَى نَعْتِهِ، ثُمَّ انْتَهُوا إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَلَّمُوهُ وَسَألُوهُ، ثُمَّ رَجَعُوا إلَى كَعْبٍ فَقَالُوا: كُنَّا نَرَى أنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَإذا هُوَ لَيْسَ بالنَّعْتِ الَّذِي نُعِتَ لَنَا؛ وَجَدْنَا نَعْتَهُ مُخَالِفاً لِلَّذِي عِنْدَنَا؛ وَأخْرَجُوا الَّذِي كَتَبُوهُ فَنَظَرَ إلَيْهِ كَعْبُ فَفَرِحَ وَأخَذَ إقْرَارَهُمْ وَخُطُوطَهُمْ ثُمَّ بَعَثَ إلى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثَمَانِيَةَ قُمُصٍ مِنَ الْكِرْبَاسِ وَخَمْسَةَ آصُعٍ مِنَ الشَّعِيْرِ، فَنَزَلَتِ الآيَةُ.

ومعناها: وإنَّ مِنْ أهْلِ الكتاب طائفةٌ يُحَرِّفُونَ الكتابَ ثم يَقْرَأونَ ما حَرَّفُوهُ ليظُنَّ المسلمون أنَّ ذلكَ من التوراةِ؛ وَمَا هُوَ مِنْهَا، ويقولونَ هو مِن عند اللهِ نُزِّلَ وما هُو مِن عِنْدِ اللهِ نُزِّلَ؛ ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ ؛ بادِّعائِهم أنَّ ذلك الْمُحَرَّفَ مِن التوراةِ؛ ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أنَّهُمْ يكذبونَ، وَلَيُّ اللِّسَانِ هو العدولُ عن الصدقِ والصواب.

---

(١) الحديث عن علي ﷺ، نسبه الهندي صاحب الكنز إلى الخطيب في المتفق والمفترق: النص (٤٦٣٧٤). وبلاقع: يذهب ما فيها من مال، ويفرق الله شملها، ويغير عليها ما أولاه من نعمة. ينظر: كتاب الغريبين: (بلقع): ج ١ ص٢١٢. وأخرجه البيهقي أيضاً في السنن الكبرى: كتاب الأيمان: الحديث (٢٠٤٣٥)، وقال: الحديث مشهور بالإرسال.

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال: النص (٤٦٣٨٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٣٥ و٢٤٢ و٤١٣. والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب البيوع: الحديث (١٠٥٤٦) عن أبي هريرة ﷺ.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّهُ لَمَّا كَثُرَتْ دعوةُ النَّبيِّ ﷺ إيَّاهم إلى الإسلامِ وقامَت عليهم الْحُجَجُ؛ قالوا: إنَّ هذا الرجلَ يريدُ أن نَتَّبعَهُ ونَعْبُدَهُ كما كان عيسى مِن قومه حتى عَبَدُوهُ، فكَذا كَلَّمَ الله عَزَّ وَجَلَّ بهذه الآيةِ، ومعناها: ما كان بَشَرٌ من الأنبياءِ مثلَ عيسى وعُزَيْرٍ وغيرهم أن يعطيَهُ اللهُ الكتابَ وعِلْمَ الحلالِ والحرامِ والنبوَّة؛ (ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ) أي لا يَجْمَعُ لأحدٍ النبوَّةَ والقولَ للناسِ: كونوا عِباداً لِي، وليس هذا على وجهِ النَّهي، ولكنه على وجه التَّنْزيْهِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه لا يَخْتَارُ نبيّاً يقولُ مثلَ هذا القول للناسِ. ويجوزُ أن يكونَ هذا على وجهِ تَعْظِيْمِ الأنبياءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

وقال الضحَّاك ومقاتلُ: (مَعْنَاهُ: (مَا كَانَ لِبَشَرٍ) يَعْنِي عِيْسَى عليه السلام (أنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ) يَعْنِي الإنْجِيْلَ؛ نَزَلَتْ فِي نَصَارَى نَجْرَانَ). وقال ابنُ عبَّاس وعطاءُ:((مَا كَانَ لِبَشَرٍ) يَعْنِي مُحَمَّداً ﷺ (أنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ) يَعْنِي الْقُرْآنَ. وَذلِكَ أنَّ أبَا رَافِعٍ الْقُرَظِيَّ مِنَ الْيَهُودِ، وَالرَّئِّيسَ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ، قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ؛ نُرِيْدُ أنْ نُصَيِّرَكَ وَنَتَّخِذَكَ رَبّاً ؟! فَقَالَ ﷺ: [مَعَاذَ اللهِ أنْ يُعْبَدَ غَيْرُ اللهِ أوْ نَأْمُرَ بعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، مَا بذلِكَ بَعَثَنِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلاَ بذلِكَ أمَرَنِي] فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1]. والبَشَرُ جمعُ بَنِي آدَمَ لا واحدَ لهُ من لفظِهِ، كالقَوْمِ وَالْجَيْشِ، ويوضَعُ موضِعَ الواحدِ والجمعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى (وَالْحُكْمَ) يعني الفَهْمَ والعِلْمَ، وقيل: الأحكامَ[2].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ، أي ولكن يقولُ: (كُونُوا رَبَّانِيِّيْنَ) أي عُلَمَاءَ عَامِلِيْنَ، وقيل: فُقَهَاءَ مُعَلِّمِيْنَ. قال مُرَّةُ بن شِرَحْبِيْلَ: (كَانَ عَلْقَمَةُ مِنَ الرَّبَّانِيِّيْنَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ الْقُرْآنَ). وعن سعيدِ بن جُبير: (مَعْنَاهُ: حُكَمَاءَ أتْقِيَاءَ)[3]. وقيل: متعبدين مخلصين. وقيل: علماءَ نُصَحَاءَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ في خلقِهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: الحديث (٥٧٩٦).

(٢) في المخطوط: (الأحكام عن).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٧٨١).

وقيل: (الرَّبَّانِيُّ: هُوَ الْعَالِمُ بالْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ وَالأَمْرِ وَالنَّهْيِ؛ وَالْعَارِفُ بأَنْبَاءِ الأُمَّةِ وَمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ). وقال عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: (هُوَ الَّذِي يَرُبُّ عِلْمَهُ بعَمَلِهِ) أي يُصْلِحُ علمَهُ بعملِه وعملَهُ بعلمِهِ. وقال محمَّد بنُ الحنفية يوم ماتَ ابنُ عبَّاس: (مَاتَ رَبَّانِيُّ هَذِهِ الأُمَّةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ) معناهُ: بما أنتم تُعَلِّمُونَ كقولِهِ: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾[1] أي وامرأتِي عَاقِرٌ. وقوله: ﴿مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ﴾[2] أي مَن هو في الْمَهْدِ صبيّاً. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ)، قرأ السَّلمي والنخعيُّ وابن جُبير والضحَّاك وابن عامر والكوفيُّون: (بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ) بالتشديد من التَّعْلِيْمِ، وقرأ الباقون بالتخفيف: مِنَ الْعِلْمِ. قال أبو عمرو: (وَتَصْدِيْقُ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ: (وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) ولَم يقل: تُدَرِّسُونَ). وقرأ الحسنُ: (بِمَا كُنْتُمْ تَعَلَّمُونَ) بفتحِ التاء والعينِ وتشديد اللاَّم؛ على معنى: تَتَعَلَّمُونَ. وقرأ أبو حَيْوَةَ: (تُدَرِّسُونَ) بالتشديد[3]، وقرأ الباقونَ (تَدْرُسُونَ): من الدَّرْسِ.

وعن ابن عبَّاس قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَا مِنْ مُؤْمِنٍ ذكَرٍ وَلاَ أُنْثَى وَلاَ مَمْلُوكٍ إلاَّ وَللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ حَقٌّ أنْ يَتَعَلَّمَ مِنَ الْقُرْآنِ وَيَتَفَقَّهَ فِيْهِ] ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)[4]. وإنَّما قيلَ للفقهاءِ: رَبَّانِيِّيْنَ؛ لأنَّهم يُرَبُّونَ بالْعِلْمِ؛ أي يقومون بهِ. وزيدَتِ الألِفُ والنون للمبالغةِ، كما يقالُ رجل كثير اللِّحْيَةِ: لِحْيَانِيٌّ، والذي جمعه جُمَّانِيٌّ. وعن ثعلبٍ أنهُ قالَ: (يُقَالُ: رَجُلٌ رُبِيٌّ وَرَبَّانِيٌّ؛ أيْ عَالِمٌ عَامِلٌ مُعَلِّمٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾، قرأ الحسنُ وعاصم وحمزة وابنُ عامر: (وَلاَ يَأْمُرَكُمْ) بنصب الراء عطفاً على (ثُمَّ يَقُولُ) مردودٌ على البشرِ، وقرأ الباقون

(١) مريم / ٥. (٢) مريم / ٢٩.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص١٢٣؛ نسب القرطبي إلى أبي حَيْوَةَ: (تَدْرِسُونَ) بكسر الراء، وهي لغة ضعيفة. وفي المخطوط: (ابن حيوة) والصحيح كما أثبتناه.

(٤) حكاه القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص١٢٢-١٢٣.

بالرفعِ والاستئناف والانقطاعِ مِن الكلام الأوَّل. واختلفوا فيهِ على هذهِ القراءَة. فقال الزجَّاج: (مَعْنَاهُ: وَلاَ يَأْمُرُكُمُ اللهُ). وقال ابن جُريج وجَماعةٌ: (وَلاَ يَأْمُرُكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ)، وقيل: ولا يأمرُكم البشرُ أن تتخذُوا الملائكةَ والنبيِّين أرباباً كفعلِ قُرَيْشٍ وخُزَاعَةَ؛ حيثُ قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ. واليهودِ والنَّصارى حيثُ قالوا: عُزَيرُ والمسيحُ ابن اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ) استفهامٌ بمعنى الإنكار؛ أي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بعثَ النبيَّ ﷺ ليدعُوَ الناسَ إلى الإسلامِ؛ فكيفَ يدعُو إلى الكفرِ بعد أنْ كانت فطرَتُكم على الإسلامِ؟. ويقالُ: إنْ كنتُم مُقِرِّيْنَ بالتوحيدِ.

قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾؛ قرأ سعيدُ بن جبير (لَمَّا) بتشديد الميمِ، وقرأ حمزةُ (لِمَا) بكسرِ اللامِ والتخفيفِ، وقرأ الباقون بالفتحِ والتخفيفِ. فمن فَتَحَ وخفَّف فهي لامُ الابتداءِ أدخلت على (مَا)[1]، كقولِ القائلِ: لَزَيدٌ أفضلُ من عمرٍو، و(مَا آتَيْتُكُمْ) اسمٌ، والذي بعده صلةٌ[2]. وجوابه: (لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ)، وإن شئتَ جعلتَ خبر (مَا) من كتابٍ، وتكون (مِنْ) زائدة معناه: لِمَا آتيتُكم كتاباً وحكمةً. ثم ابتدأ فقال: (ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ) أي ثم إن جاءكم رسولٌ مصدِّق لِمَا معكُم لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، اللامُ لامُ القسَمِ؛ تقديرهُ: وَاللهِ لَتُؤْمِنُنَّ بهِ، فوكَّده في أول الكلام بلام التوكيدِ وفي أجزاءِ الكلام بلاَمِ القسَم كأنه استحلَفَهم: وَاللهِ لَتُؤْمِنُنَّ بهِ. وأخذُ الميثاق في معنى التَّحليفِ؛ لأن الْحِلْفَ وَثِيْقَةٌ، وموضع (مَا) في قولهِ (لِمَا) نُصِبَ بقوله (آتَيْتُكُمْ)، كأنهُ قالَ: لِلَّذي اتَيْتُكُمُوهُ مِنْ كِتَابٍ. وقال الزجَّاج:(هَذِهِ لاَمُ التَّخْفِيْفِ دَخَلَتْ عَلَى (مَا) لِلْجَزَاءِ؛ وَمَعْنَاهُ: لَهُمَا آتَيْتُكُمْ). ودخولُ اللاَّم في الشَّرطِ والجواب للتوكيدِ كما في قولهِ تعالى: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي

(١) هي لام الابتداء المتلقى بها القسمُ، وتسمى اللام المتلقية للقسم. و(ما) مبتدأة موصولة و(آتيتكم) صلتُها. والعائد محذوف تقديره: آتيناكموه حذف لاستكمال شروطه.

(٢) في المخطوط: (وما أنتم والذي بعده صلب) وهو تصحيف. ينظر: معاني القرآن للأخفش: ج ١ ص٢٠٩.

والجواب للتوكيدِ كما في قولهِ تعالى: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[1] وكما يقولُ: لَئِنْ جئتَني لأكرمتُكَ.

ومن قرأ (لِمَا) بالكسر والتخفيف فهي لامُ الإضافةِ دخلت على (مَا) التي هي بمعنى الَّذي؛ ومعناه: للَّذي أتيتُكم؛ يعني: الذي أخذ ميثاقَ النبيين لأجْلِ الذي آتيناهُم من كتابٍ وحكمةٍ؛ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ): قرأ نافعُ بالألف والنُّون على التَّعْظِيمِ؛ لأنَّ عِظَمَ الشَّأْنِ قد يُعَبرُ عن نفسِه بلفظِ الجمعِ. وقرأ الآخرونَ (آتَيْتُكُمْ). واختلفَ المفسِّرون في المعنِيِّ بهذه الآية، فقال قومٌ: إنَّما أخذ الميثاقَ على الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ: أن يُصَدِّقَ بعضُهم بعضاً، ويأمُرَ بعضُهم بالإيْمان ببعضٍ، فذلك معنَى النُّصْرَةِ بالتصديق، وهذا قولُ ابنِ جُبير وطاوُوس وقتادةَ والحسنِ والسديِّ؛ يدلُّ عليه ظاهرُ الآية. قالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: (لَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيّاً إلاَّ أخَذ عَلَيْهِ الْعَهْدَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ، وَأخَذ الْعَهْدَ عَلَى قَوْمِهِ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ؛ وَلَئِنْ بُعِثَ وَهُمْ أحْيَاءٌ لَيَنْصُرُنَّهُ)[2].

وقال بعضُهم: إنَّما أخذ الميثاق على أهلِ الكتاب؛ وهو قولُ مجاهدٍ والربيعِ قَالُوا:(ألاَ تَرَى إلَى قولِهِ:(ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ) إنَّمَا كَانَ مُحَمَّدٌ مَبْعُوثاً إلَى أهْلِ الْكِتَاب دُونَ النَّبِيِّينَ)[3]. وقال بعضُهم: إنَّما أخذ العهدَ على النبيِّين وأمَمِهم؛ واكتفَى بذِكْرِ الأنبياءِ عن ذكرِ الأُمم؛ لأنَّ أخذ الميثاقِ على المتبُوعِ دلالةٌ على أخذهِ على الأتْبَاعِ، وهذا قولُ ابنِ عباس وهو أوْلَى بالصواب[4].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ ؛ أي قالَ اللهُ تعالى لأنبيائهِ: أقْرَرْتُمْ بما أمرتُكم به على ما قُلْتُ لكم وقَبلْتُمْ على ذلكم عَهْدِي. ومعنى (أخَذْتُمْ) أي قَبلْتُمْ؛ نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إنْ أُوتِيتُمْ هَذا فَخُذُوهُ﴾[5] أي

(١) الاسراء / ٨٦ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٧٩٠).

(٣) أخرجهما الطبري في جامع البيان: النص (٥٧٨٦ و٥٧٨٧).

(٤) أسنده الطبري في جامع البيان: النص (٥٧٨٨).

(٥) المائدة / ٤١ .

فَاقْبَلُوهُ، وقولهُ: ﴿لا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[١] أي لا يُقبَلُ، وقولهُ: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾[٢] أي يَقْبَلُهَا.

والإِصْرُ في اللُّغة: الثِّقَلُ؛ لكن يُراد به العَهْدُ لِما فيه من الثِّقَلِ. وقال بعضُهم: لفظُ الأخذِ يحتملُ وجهين؛ أحدُهما: قَبلْتُم عَلَى ذلِكُمْ عَهْدِي، والثاني: أخَذْتُمُ الْعَهْدَ عَلَى ذلِكُمْ بذلِكَ عَلَى أمَمِكُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ ﴾ ؛ أي قالَتِ الأنبياءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ: أقْرَرْنَا بالْعَهْدِ، ﴿ قَالَ ﴾ اللهُ؛ تَعَالَى؛ ﴿ فَٱشۡهَدُواْ ﴾ ؛ أي يشهَدُ بعضُكم على بعضٍ بذلكَ، واشهَدُوا على أتْباعكُم. وقيل: معنى (فَاشْهَدُوا) أي بَيِّنُوا لِمن يكونُ بعدَكم؛ لأن الشاهدَ هو الذي يُصَحِّحُ دعوَى المدَّعي، ثم قالَ تعالى: ﴿ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي أنَا مِن الشاهدين عليكُم وعلى أمَمِكُمْ. وقيل: معنى (فَاشْهَدُوا) أي قالَ للملائكةِ: فَاشْهَدُوا على إقرارهم.

وشهادةُ الله للنبيين تَبْيِنَةُ أمرِ نبوَّتِهم بالمعجزاتِ، ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ قرأ أبو عمرو: (يَبْغُونَ) بالياء[٣]، و(تُرْجَعُونَ) بالتاء، قالَ: (لأنَّ الثَّانِي أعَمُّ، وَالأوَّلُ خَاصٌّ، فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا لافْتِرَاقِهِمَا فِي الْمَعْنَى). وقرأ الحسنُ ويعقوبُ وسلام وحَفْصُ: (يَبْغُونَ) بالياء، و(يُرْجَعُونَ) بالياء أيضاً. وقرأ الباقونَ بالتاءِ فيهما على الخطاب.

ومعنى الآيةِ: أبَعْدَ هذه الوثائق الجارية بينَهم وبينَ اللهِ في أمر النبيِّ ﷺ يطلبُون دِيناً سوى ما عَهِدَهُ اللهُ إليهم. قال الكلبيُّ: (وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ اخْتَلَفُوا فِي دِيْنِ إبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ؛ كُلُّ فِرْقَةٍ قَدْ زَعَمَتْ أنَّهَا أوْلَى بدِيْنِه، فَقَالَ ﷺ: [كِلاَ

---

(١) البقرة / ٤٨.

(٢) التوبة / ١٠٤.

(٣) في المخطوط: (تَبْغُونَ) بالتاء، والصحيح كما أثبتناه.

الْفَرِيْقَيْنِ بَرِيْءٌ مِنْ دِيْنِ إبْرَاهِيْمَ] فَغَضِبُوا وَقَالُوا: وَاللهِ مَا نَرْضَى بقَضَائِكَ وَلاَ نَأْخُذُ بدِيْنِكَ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً) أي له أخلصَ وخضَعَ. قال الكلبيُّ: (أَمَّا أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَمَنْ وُلِدَ فِي الإسْلاَمِ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ أَسْلَمُوا طَائِعِيْنَ، وَمَنْ أَبَى قُوتِلَ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الإسْلاَمِ كَرْهاً؛ يُجَاءُ بهِمْ أَسَارَى فِي السَّلاَسِلِ وَيُكْرَهُونَ عَلَى الإسْلاَمِ). وَفِي الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [عَجِبَ[٢] رَبُّكُمْ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إلَى الْجَنَّةِ بالسَّلاَسِلِ][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإلَيْهِ يُرْجَعُونَ) أي إلى جَزَائِهِ تُرْجَعُونَ في الآخرةِ، فَبَادِرُوا إلى دِينه ولا تطلبُوا غيرَ ذلك، وقيل معنى: (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) أي أقَرُّوا لَهُ بالأُلُوهيَّة كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[٤].

وقال الزجَّاج: (مَعْنَاهُ: أنَّ كُلَّهُمْ خَضَعُوا للهِ مِنْ جِهَةِ مَا فَطَرَهُمُ اللهُ عَلَيْهِ). قال الضحَّاك: (هَذا حِيْنَ أخِذ مِنْهُ الْمِيْثَاقُ وَأقَرَّ بهِ).

وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: الَّذِي أسْلَمَ طَوْعاً أيِ الَّذِي وُلِدَ فِي الإسْلاَمِ، وَبالَّذِي أسْلَمَ كَرْهاً يَعْنِي الَّذِي أجْبرَ عَلَى الإسْلاَمِ، فَيُؤْتَى بهِمْ فِي السَّلاَسِلِ فَيُكْرَهُونَ عَلَى الإسْلاَمِ)، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [كُلُّ الْمَلاَئِكَةِ أطَاعُوا فِي السَّمَاءِ؛ وَالأَنْصَارُ فِي

(١) نقله القرطبي عن الكلبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص١٢٧.
(٢) في صحيح ابن حبان: كتاب الإيمان: باب الفطرة: الحديث (١٣٤)، وفي التعليق على الحديث قال ابن حبان رَحِمَهُ اللهُ: ((قوله ﷺ: [عَجِبَ رَبُّنَا] من ألفاظ التعارف التي لا يتهيأ علم المخاطَب يخاطَب منه في القصد إلا بهذه الألفاظ التي استعملها الناس فيما بينهم. والقصد في هذا الخبر السبي الذي يسبيهم المسلمون من دار الشرك مكتفين في السلاسل يقادون بها إلى دار الإسلام حتى يسلموا فيدخلوا الجنة)).
(٣) إسناده صحيح على شرط مسلم. أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد: باب الأسارى في السلاسل: الحديث (٣٠١٠)، وفي كتاب التفسير: الحديث (٤٥٥٧). والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٤٥٧ و٣٠٢ و٤٠٦.
(٤) الزخرف / ٨٧ .

الأَرْضِ][1]. وقال ﷺ: [وَلاَ تَسُبُّوا أصْحَابي فَإنَّهُمْ أسْلَمُوا مِـنْ خَـوْفِ اللهِ، وَأسْـلَمَ النَّاسُ مِنْ خَوْفِ سُيُوفِهِمْ][2].

وقال الحسنُ: (الطَّوْعُ: لأَهْلِ السَّمَوَاتِ خَاصَّةً، وَأهْلُ الأَرْضِ مِنْهُمْ مَنْ أسْـلَمَ طَوْعاً؛ وَمِنْهُمْ مَنْ أسْلَمَ كَرْهاً).

وقرأ الأعمش: (كُرْهاً) بضمِّ الكافِ. وأما انتصابُ (طَوْعاً) و (كَرْهاً) فلأنَّـهما مصدران وُضِعَا موضعَ الحالِ كما يقـالُ: جِئْـتُ رَكْضـاً وَعَـدْواً؛ أي راكضـاً وماشِياً بسرعةٍ؛ كأنَّهُ قَالَ: ولهُ أسْلَمَ مَن في السمواتِ والأرض طَائِعِيْنَ وَكَـارهِيْنَ. وعـن ابـنِ عبَّاس أنهُ قال: (إذا اسْتَصْعَبَتْ دَابَّةُ أحَدِكُمْ أوْ كَانَتْ شَمُوساً[3] فَلْيَقْرَأْ فِي أذُنِهَا هَـذِهِ الآيَةَ: (أفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ) إلَى آخِرِهَا)[4].

قوله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ ؛ الآيةُ خطابٌ للنبيِّ ﷺ وأمرٌ له أن يقولَ عن نفسِه وعن أمَّتِهِ (آمَنَّا بِـاللهِ). قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ ؛ أي مِن الرُّسُلِ، لا نؤمنُ ببعضِهم ونكفرُ ببعضهم كما فعلَتِ اليهودُ، بل نؤمنُ بهم جميعاً. قولـه عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي مُخْلِصُونَ للهِ في التوحيدِ والطَّاعةِ.

قولـه عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الآية، قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ إلَى قَوْلِهِ: (لَنْ تَنَالُوا الْـبِرَّ) فِـي عَشْـرَةِ رَهْـطٍ ارْتَـدُّوا عَـنِ الإسْـلاَمِ وَلَحِقُـوا بمَكَّـةَ، مِنْـهُمْ طُعْمَـةُ بْــنُ أبَـيْرِقَ[5] ووَحْـوَحُ بْـنِ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٢٥٤؛ قال السيوطي: ((وأخرج الديلمي عن أنس، ... وذكره)).

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص١٢٨.

(٣) شمست الدابة: شردت وجمحت ومتعت على ظهرها.

(٤) في الدر المنثور: ج ٢ ص٢٥٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه الطبراني في الأوسط عن أنس)).

(٥) طُعمة بن أبيرق بـن عمـرو الأنصـاري: في الإصابـة في تمييـز الصحابـة: ج ٣ ص٥١٨: الرقـم (٤٢٤٩) ترجم له ابن حجر، ونقل أنه من الصحابة، وشهد المشـاهد كلـها إلا بـدراً. ثـم قـال: ((وقد تكلم في إيمانه طعمة)).

الأَسْلَتِ[(١)] وَالْحَارِثُ بْنُ سُوَيْدٍ[(٢)] وَغَيْرُهُمْ، وَنَدِمَ الْحَارِثُ وَأَرْسَلَ إِلَى أخِيْهِ الْحَلاَّسِ ابْنِ سُوَيْدِ الْمُسْلِمِ: أنِّي قَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا صَنَعْتُ، فَسَلْ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ وَإلاَّ أذْهَبُ فِي الأَرْضِ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ)[(٣)].

ومعناهَا: مَن يطلبُ دِيناً غيرَ دِينِ الإسلام فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ مَا أقامَ عليهِ؛ أي لن يُثابَ ولن يُثنَى عليهِ. ويقالُ: هذه الآيةُ نزلَت في المرتدِّين. وقولهُ تعالى: ﴿ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي مِن الْمَغْبُونِيْنَ حيث تركَ مَنْزِلَهُ في الجنَّة، واختار مَنْزِلَهُ في النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ ؛ أي كيفَ يهديهم وقد كفرُوا بعدَ إذْ آمنُوا؛ وَ؛ بعدَ أن؛ ﴿ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ ﴾ يعني مُحمَّداً ﷺ؛ ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ ؛ أي دلالاتُ صِدْقِهِ ونبوَّتِه، فكيف يستحقُّون هدايةَ اللهِ تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَشَهِدُوا أنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ) عطفٌ على قولهِ (إيْمَانِهِمْ) دون قولهِ (كَفَرُوا)، وقد يعطفُ الفعلُ على المصدر، كما يقالُ: أعجبَنِي ضربُ زيدٍ وإنْ غَضِبَ، وتقديرُ الآية: بعدَ أنْ آمنوا وبعدَ أن شَهدُوا أنَّ الرسولَ حقٌّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي لا يُرْشِدُ المشركينَ ومَن لم يكن أهْلاً لذلكَ، فإنَّ ظاهرَ الآية يقتضي أنَّ مَن كفرَ بعد إسلامهِ لا يهديَهُ اللهُ، وأنَّ الظالمين لا يهديهم الله. وكثيرٌ من المرتدِّين أسلمُوا ومِن الظالمين تَابُوا. وقيل: معناهُ: لا يهديَهم اللهُ ما داموا مُقيمين على كفرهم، فإذا جاهدُوا وقصَدُوا الرجوعَ إلى الحقِّ وَفَّقَهُمُ اللهُ كما قالَ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[(٤)]. وقيل: معنى الآيةِ: كيفَ يرحَمُهم اللهُ وينجِّيهم من العقوبةِ.

---

(١) وَحْوَحُ بن الأسلَتِ، وهو عامرُ بن جشَم بن وائل، الأنصاري: ترجم له ابن حجر في الإصابة: الرقم (٩١١٦)؛ وقال: ((له صحبة، وشهد الخندق وما بعدها)).

(٢) ترجم له ابن عبدالبر في الاستيعاب: ج ١ ص٣٦٣: الرقم (٤٤٨).

(٣) أخرجه الطبري بلفظ قريب منه: في جامع البيان: النص (٥٨٢٠).

(٤) العنكبوت / ٦٩ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفةِ (جَزَاؤُهُمْ أنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ) أي عذابَه، واللَّعْنَةُ من اللهِ الإبْعَادُ، وأمَّا لعنةُ الملائكةِ والناسِ فدعاؤُهم على الكفَّار بأنْ يبعِدَهم اللهُ من رحمتِه. فإن قيلَ: كيفَ قال اللهُ: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ومِن الناسِ من يُوالِي الكافرَ ويوافِقُه ولا يَلْعَنُهُ ؟ قيل: إنَّهم في الآخرةِ يَلْعَنُ بعضُهم بعضاً. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ؛ أي مُقيمينَ في اللَّعنةِ، وقيل: في العذاب؛ ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ حين يَنْزِلُ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ ؛ استثناءٌ من قولِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ (أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ الله)؛ ومعناهُ: (إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ) الكفر والشِّرك بعدَ ارتدادِهم؛ (وَأَصْلَحُوا) أي لَم يكتفُوا بمجرَّد الإيْمانِ. ويقال: أصْلَحُوا أعمالَهم بالتوبةِ، وقيل: أصْلَحُوا ما أفسدُوه من الناسِ مِمَّن تَبعَهُمْ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ أي يتجاوزُ عنهم، رَحِيْمٌ بهم بعدَ التوبةِ.

قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ لِلْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ:[الرُّخْصَةُ فِي التَّوْبَةِ] أرْسَلَ أخُوهُ الْجَلاَّسُ إلَيْهِ: أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ التَّوْبَةَ؛ فَارْجِعْ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاعْتَذِرْ إلَيْهِ. فَرَجَعَ وَتَابَ، وَقَبلَ ذلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَبَلَغَ ذلِكَ أصْحَابَهُ الَّذِيْنَ بمَكَّةَ؛ فَقَالُوا: نَتَرَبَّصُ بمُحَمَّدٍ رَيْبَ الْمَنُونِ؛ فَإنْ بَدَا لَنَا الرَّجْعَةُ إلَيْهِ ذهَبْنَا كَمَا ذهَبَ الْحَارِثُ فَيَقْبَلُ تَوْبَتَنَا)[1] فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ ﴾ ؛ إنَّ الذينَ كفروا باللهِ وبالرسولِ بعدَ تصديقِهم ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً بقولِهم: نُقِيْمُ بمَكَّةَ مَا بَدَا لَنَا، لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ أي عنِ الإسلامِ.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ هؤلاء لم يكونُوا مُحَقِّقِيْنَ؛ لأنه قالَ:(وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ). وكانت هذهِ الآيةُ خاصَّة في قومٍ عَلِمَ اللهُ أنَّهم لا يَتُوبُونَ إلاَّ عند حضور

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٢٥٧-٢٥٨؛ قال السيوطي: ((وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي صالح مولى أم هانئ)) وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ج ٧ ص٣٧٠: الرقم (٣٦٧٦٧) بلفظ قريب منه.

الموتِ، وماتَ طُعْمَةُ كَافِراً، ولو كانوا يُحَقِّقُونَ التوبةَ قبلَ الْمُعَايَنَةِ لَقُبلَتْ توبتُهم. ويجوزُ أن يكونَ بمعنى: (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) أي التوبةُ التي يتوبُونَها عندَ الموتِ. قوله عَزَّوَجَلَّ: (ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً). قال الحسنُ وقتادة وعطاءُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الْيَهُودِ الَّذِيْنَ كَفَرُوا بعِيْسَى عليه السلام وَالإِنْجِيْلِ بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ بأَنْبيَائِهِمْ وكُتُبهِمْ؛ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً بمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآن)[١].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ ؛ أي إنَّ الذينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا على كُفْرِهِمْ لو كانَ لأحدِهم في الآخرة مِلْءُ الأرضِ ذهباً فافتدَى به لَن يُقْبَلَ منهُ، كما رُوي: أنه يقالُ للكافرِ يومَ القيامة: لو كانَ لكَ مِلْءُ الأرضِ ذهباً أكُنْتَ تفتدي بهِ مِن العذاب ؟ فيقولُ: نَعَمْ، فيقالُ له: قد سُئلتَ ما هو أيسرُ عليكَ من هذا فلم تَفْعَلْ؟

وقولهُ تعالى: (ذهَباً) نُصِبَ على التفسيرِ في قول الفرَّاء، ومعنى التفسير: أن يكون الكلامُ تاماً وهو مُبْهَمٌ كقولهِ: عندِي عُشْرُونَ، فالعددُ معلومٌ والمعدودُ مُبْهَمٌ، فإذا قلتَ: عُشْرُونَ دِرْهَماً؛ فسَّرْتَ العددَ؛ ولذلكَ إذا قلتَ: هو أحْسَنُ الناس؛ فقد أخبرتَ عن حُسْنِهِ ولم تُبَيِّنْ في أيِّ شيءٍ، فاذا قلتَ: وَجْهاً أو فِعْلاً؛ فَقَدْ بَيَّنْتَهُ ونصبتَ على التَّفسيرِ، وإنَّما نصبتَهُ لأنَّهُ ليسَ له ما يخفِضُه ولا ما يرفعُه، فلمَّا خلاَ من هَذين نُصِبَ؛ لأن النصبَ أخفُّ الحركاتِ؛ فجُعِلَ لكلِّ ما لا عَامِلَ لهُ.

وقال الكسائيُّ: (نُصِبَ عَلَى إِضْمَار (مِنْ ذهَبٍ) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِيَامًا﴾[٢] أيْ مِنْ صِيَام). وقد يقالُ: نُصبَ على التمييز ثلاثةُ أشياءٍ: تَمييزُ جملةٍ مبهمَةٍ كما في قولهِ: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾[٣]، وتَمييزُ عددٍ مُبْهَمٍ كقولِكَ: عُشْرُونَ دِرْهَماً، وتَمييزُ مِقدارٍ مُبْهَمٍ كما يقالُ: عِنْدِي مِلْءُ زقٍّ عَسَلاً.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النصوص (٥٨٢٥) عن الحسن، و(٥٨٢٦ و٥٨٢٧) عن قتادة.
(٢) المائدة / ٩٥ .
(٣) الكهف / ٣٤ .

وأمَّا دخولُ الواو في قولهِ: (وَلَوِ افْتَدَى بِهِ)؛ فقال بعضُهم: هي زائدةٌ. وقال الزجَّاج: (لَيْسَتْ بزَائِدَةٍ؛ وَإنَّمَا هِيَ لتَعْمِيْم النَّفْي لِوُجُوهِ الْقَبُول، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ وَاواً لأَوْهَمَ الْكَلاَمُ؛ لأَنَّ ذلِكَ لاَ يُقْبَلُ فِي الإفْتِدَاءِ، وَيُقْبَلُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الإفْتِدَاءِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفةِ لَهم عذابٌ وَجِيْعٌ في الآخرةِ، ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي مِن مَانِعٍ يَمْنَعُهُمْ مِن العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: لَنْ تَنَالُواْ الْجَنَّةَ)، وقال عطاءُ: (لَنْ تَنَالُوا الطَّاعَةَ). وقال أبو روق: (مَعْنَاهُ: لَنْ تَنَالُوا الْخَيْرَ)، وقال مقاتلُ:(لَنْ تَنَالُوا التَّقْوَى)، وقال الحسنُ: (لَنْ تَكُونُوا أبْرَاراً حَتَّى تَتَصَدَّقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ مِنَ الأَمْوَال؛ أيْ مِنْ كَرَائِمِ أمْوَالِكُمْ وَأحَبـِهَا إلَيْكُمْ، طَيِّبَةً بـِهَا أنْفُسُكُمْ؛ صَغِيْرَةً فِي أعْيُنِكُمْ)[١]، وقال مجاهدُ والكلبيُّ: (هَذِهِ الآيَةُ مَنْسُوخَةٌ؛ نَسَخَتْهَا الزَّكَاةُ). وروَى الضحَّاك عن ابن عبَّاس: (أرَادَ بـِهَذِهِ الآيَةِ: حَتَّى تُخْرِجُوا زَكَاةَ أمْوَالِكُمْ)، وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ: لَنْ تَنَالُوا شَرَفَ الدِّيْنِ وَالتَّقْوَى حَتَّى تَتَصَدَّقُوا وَأنْتُمْ أصِحَّاءُ تَأْمَلُونَ الْغِنَى وَتَخْشَوْنَ الْفَقْرَ). ويقالُ: معناهُ: لن تبلغُوا حقيقةَ التوكُّل والتقوَى حتى تُخرجوا زكاةَ أموالكِم طيبةً بها أنفسُكم.

وذهبَ أكثرُ المفسِّرين إلى أنَّ المقصودَ من هذه الآيةِ: الحثُّ على صدقةِ النَّفل والفرضِ بأبلغِ وجُوهِ القُرَب؛ لأن قولَهُ: (مِمَّا تُحِبُّونَ) يدلُّ على المبالغةِ فيه. رويَ عن عبدِالله بنِ عمرَ: أنَّهُ اشْتَرَى جَارِيَةً كَانَ يَهْوَاهَا، فَلَمَّا مَلَكَهَا أعْتَقَهَا وَلَمْ يُصِبْ مِنْهَا، فَقِيْلَ لَهُ فِي ذلِكَ، فَقَالَ: (لَنْ تَنَالُوا الْبرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)[٢]. وعن عمرَ بنِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٨٣٨).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص١٣٢-١٣٣ ذكر القرطبي: ((وأعتق ابن عامر نافعاً؛ وكان أعطاه فيه عبدالله بن جعفر ألف دينار. قالت صفية بنت أبي عبيد: أظنه تأول قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وروى شبل بن أبي نجيح عن مجاهد قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء يوم فتح مدائن كسرى؛ فقال سعد بن أبي وقاص: فدعا بها عمر فأعجبته، فقال: إن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. فأعتقها عمر ﷺ.

عبدِالعزيز أنهُ كان يشتري أعدَالَ السُّكَّر فيتصدَّقُ بها، فقيلَ لهُ: هلاَّ تصدَّقْتَ بثمنهِ ؟ فقالَ: (لاَ؛ لأَنَّ السُّكَّرَ أَحَبُّ إلَيَّ؛ فَأَرَدْتُ أَنْ أُنْفِقَ مِمَّا أُحِبُّ)[١].

وروي: أنَّ سائلاً وقفَ على باب الرَّبيع بنِ خَيْثَمَ؛ فقال: أطْعِمُوهُ سُكَّراً، فقيلَ لهُ: ما يصنعُ بالسُّكَّرِ؟ هَلاَّ تطعمهُ خبزاً أنفعُ له؟ قالَ: وَيْحَكُمْ! أطعموه سُكَّراً فإنَّ الربيعَ يحبُّ السُّكَّرَ. ووقفَ سائلٌ على باب الربيعِ في ليلةٍ باردة؛ فخرجَ إليه فرآهُ كأنه مَقْرُورٌ[٢]، فقال: لَنْ تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ، فَنَزَعَ بُرْنُساً فأعطاهُ إيَّاه.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾؛ أي ما تتصدَّقوا من صدقةٍ فإنَّ اللهَ بها وبزيادتِكم عَلِيْمٌ يُجزيكم على ذلكَ في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ ﴾ ؛ قال ابنُ عباسٍ: (مَعْنَاهُ: كُلُّ الطَّعَامِ الْحَلاَلِ الْيَوْمَ وَهُوَ مَا سِوَى الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيْرِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي يَعْقُوبَ عليه السلام مِنْ قَبْلِ أنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ عَلَى مُوسَى عليه السلام؛ إلاَّ الطَّعَامَ الَّذِي حَرَّمَهُ يَعْقُوبُ عَلَى نَفْسِهِ؛ وَهُوَ لَحْمُ الإبلِ وألْبَانُهَا)[٣].

وذلك أنَّ يعقوبَ عليه السلام كان يَمشي إلى بيتِ المقدسِ فَلَقِيَهُ مَلَكٌ مِنَ الملائكة وهو خَلْفَ الأثقال، فظنَّ يعقوبُ أنه لِصٌّ؛ فعالَجه ليصارعَه فكان كذلكَ حتى أضاءَ الفجرُ، فضمَّر المَلَكُ فَخِذ يعقوبَ فهاج به عِرْقُ النَّسَا، فصعدَ المَلَكُ إلى السَّماء، وجاء يعقوبُ يعرجُ حتى لَحِقَ الأثقالَ؛ فكانَ يَبِيْتُ الليلَ ساهراً مِن وَجَعِهِ ويَنْصَبُ نهاره، فأقسَمَ لَئِنْ شفاهُ اللهُ لَيُحَرِّمَنَّ أحَبَّ الطعامِ والشراب على نفسهِ؛ فشفاهُ الله من ذلكَ،

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص١٣٣، وذكِرَ عن ذلك عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أيضاً. في الدر المنثور: ج ٢ ص٢٦٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن المنذر عن نافع عن ابن عمر)).

(٢) القَرُّ: البردُ عامَّةً، واقترَّ بالماءِ البارد: اغتَسَلَ، والقُرُورُ: الماءُ البارد يُغتَسَلُ به، كأنه أرادَ أنه مبلولٌ بالماء الباردِ، ماءِ المطرِ والشتاء.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الرقم (٥٨٥٧) بلفظ آخر.

فحرَّم أحبَّ الطعامِ والشراب إليه، وكان ذلك لُحُومَ الإبلِ وألبانها، ثم استَنَّ وَلَدُهُ سبيلَهُ. فذلك قولهُ: (إلاَّ مَا حَرَّمَ إسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ).

فلمَّا نزلَتْ هذهِ الآيةُ؛ قال النبيُّ ﷺ لليهودِ: [مَا الَّذِي حَرَّمَ إسْرَائِيْلُ عَلَى نَفْسِهِ؟] قَالُوا: كُلُّ شَيْءٍ حَرَّمْنَاهُ الْيَوْمَ عَلَى أنْفُسِنَا؛ فَإنَّهُ كَانَ مُحَرَّماً عَلَى نُوحٍ عليه السلام فَهَلُمَّ جَرّاً حَتَّى انْتَهَى إلَيْنَا، وَأنْتَ يَا مُحَمَّدُ وَأصْحَابُكَ تَسْتَحِلُّونَهُ، وَادَّعَوا أنَّ ذلِكَ مَسْطُورٌ فِي التَّوْرَاةِ.

وقال الكلبيُّ: (كَانَ هَذا حِيْنَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [أنَا عَلَى مِلَّةِ إبْرَاهِيْمَ عليه السلام] قَالَ الْيَهُودُ: كَيْفَ وَأنْتَ تَأْكُلُ الإبلَ وَألْبَانَهَا ؟! فَقَالَ ﷺ: [كَانَ ذلِكَ حَلاَلاً لإبْرَاهِيْمَ فَنَحْنُ نُحِلُّهُ]. قَالَتِ الْيَهُودُ: كُلُّ شَيْءٍ أصْبَحْنَا الْيَوْمَ نُحَرِّمُهُ؛ فَإنَّهُ كَانَ حَرَاماً عَلَى إبْرَاهِيْمَ وَنُوحٍ، وَهَلُمَّ جَرّاً حَتَّى انْتَهَى إلَيْنَا. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ تَكْذِيْباً لَهُمْ: (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِبَنِي إسْرَائِيلَ إلاَّ مَا حَرَّمَ إسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾، وذلك أنَّ الْيَهُودَ قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: [مَا الَّذِي حَرَّمَ إسْرَائِيْلُ عَلَى نَفْسِهِ ؟] قَالُوا: كُلَّ شَيْءٍ نُحَرِّمُهُ الْيَوْمَ عَلَى أنْفُسِنَا. قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلنَّبِيِّ ﷺ: (قُلْ فَأْتُوا بالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). أي فاقرأوها؛ هل تَجدون فيها تَحريْمَ كُلِّ ذِي نابٍ وظُفُرٍ وتحريْمَ شُحُومِ البقرِ والغنمِ وغيرِ ذلك مِمَّا حرَّمَ اللهُ عليكم من الطيِّبات بعدَ نزول التوراة بظلمِكُم وبَغْيِكُمْ، كما قالَ تعالى: ﴿فَبظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أحِلَّتْ لَهُمْ﴾[1].

فَأَبَوا أن يأتُوا بالتوراةِ خوفاً من الفضيحةِ لِعِلْمِهِمْ بصِدْق النَّبِي ﷺ فأنزلَ اللهُ تعالى قولَه تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾؛ أي مَن اختَلَقَ على اللهِ الكذبَ بأن يُنَزِّلَ عليه ما لَم يُنَزِّلْهُ في كتابٍ مِن بعد ذلك، يقالُ من بعدَ قيامِ الحجَّة عليهِ: فَأوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ لأنْفُسِهِمْ.

---

(١) النساء / ١٦٠ .

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ ؛ أي قُلْ لهم يا مُحَمَّدُ صَدَقَ اللهُ في أنَّ كلَّ الطعامِ كان حِلاًّ لبني إسرائيلَ إلاّ ما حرَّمَ إسرائيلُ على نفسِه، (فَاتَّبعُوا مِلَّةَ إبْرَاهِيْمَ) في استباحةِ لُحوم الإبلِ وألبانِها وافعلوا ما كان يفعلهُ من الصلاةِ إلى الكعبةِ وحجِّ البيتِ، ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ أي لم يكن إبراهيمُ على دينِ المشركين، ولَمْ يفعل كما كان يفعلهُ اليهود في ادِّعائِهم أنَّ عُزَيْراً ابن اللهِ؛ ولا كما يقولُ النصارى إنَّ المسيحَ ابن الله. وهذه الآياتُ حُجَّةٌ على اليهودِ في إنكارهم نَسْخِ الشريعةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ قال مجاهدُ: (تَفاخَرَ الْمُسْلِمُونَ وَالْيَهُودُ؛ فَقَالَتِ الْيَهُودُ: بَيْتُ الْمَقْدِسِ أفْضَلُ وَأعْظَمُ مِنَ الْكَعْبَةِ؛ لأنَّهَا مَهَاجِرُ الأَنْبيَاءِ وَهِيَ الأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ، وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: بَلِ الْكَعْبَةُ أفْضَلُ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ: (إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ). وقرأ ابنُ السميقع: (وَضَعَ) بفتح الواو والضَّاد بمعنى وَضَعَهُ اللهُ. (لَلَّذِي ببَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ) (فِيهِ ءايَتٌ بَينَتٌ مقَامُ إبرهِيمَ)؛ وليس ذلكَ بيتُ المقدس، وكتبَ على الناسِ حجُّ البيتِ وليس ذلكَ بيتُ المقدسِ.

واختلفُوا في قولِهِ تعالى: (إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)؛ قال بعضُهم: هو أوَّلُ بيتٍ وُضِعَ على وجهِ الماءِ عندَ خَلْقِ اللهِ السَّموات والأرضَ، خَلَقَهُ اللهُ تعالى قبلَ الأرضِ بألفَي عامٍ، وكان رَبْوَةً بيضاءَ على الماءِ فَدُحِيَتِ الأرضُ من تحتِهِ، وهذا قولُ ابنِ عمرَ ومجاهدُ وقتادة والسديُّ. وقيل: معناهُ: أوَّلُ بيتٍ بناهُ آدمُ في الأرضِ، قالهُ ابن عبَّاس. وقال الضحَّاك: (مَعْنَاهُ: أوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ فِيْهِ الْبَرَكَةُ وَاخْتِيْرَ مِنَ الْفِرْدَوْسِ الأَعْلَى).

وقيلَ: هو أوَّلُ بيتٍ جُعِلَ قِبلةً للمسلمين. وعن أبي ذرٍّ قَالَ: سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عَنْ أوَّل بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، فَقَالَ: [الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ؛ ثُمَّ بَيْتُ الْمَقْدِسِ] فَقِيْلَ لَهُ: كَمْ بَيْنَهُمَا ؟ قال: [أرْبَعُونَ عاماً][1].

(١) رواه مسلم في الصحيح: كتاب المساجد ومواضع الصلاة: الحديث (١/ ٥٢٠). والطبري في جامع البيان: الحديث (٥٨٧٢).

وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِعِبَادَةِ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ الْكَعْبَةُ؛ بَنَاهَا إبْرَاهِيْمُ عليه السلام كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[1]. وَأمَّا بنَاءُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَقَدْ كَانَ بَعْدَ الْكَعْبَةِ بدَهْرٍ طَوِيْلٍ؛ بَنَاهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ).

قال الكلبيُّ: (كَانَ آدَمُ عليه السلام حِيْنَ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ بَنَى الْكَعْبَةَ فَطَافَ بهَا، فَلَمَّا كَانَ فِي زَمَنِ طُوفَانِ نُوحٍ عليه السلام رَفَعَهَا اللهُ إلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ بحِيَالِ مَوْضِعِ الْكَعْبَةِ؛ وَهِيَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُقَالُ لَهُ الضِّرَاحُ؛ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ). ورويَ أنَّ اللهَ تعالى أنزلَ الكعبةَ من السَّماء وهي مِن ياقوتةٍ حَمراءَ، وكانتِ الملائكةُ تَحُجُّهَا قبلَ آدمَ عليه السلام، فلمَّا كثُرَتِ الخطايَا رفعَها اللهُ تعالى.

وعن رَسُول اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [إنَّ الْكَعْبَةَ كَانَتْ خُشْعَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ فَدُحِيَتِ الأَرْضُ مِنْ تَحْتِهَا] وَالْخُشْعَةُ: مثلُ الصُّبْرَةِ متواضعةً[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ببَكَّةَ)، قال الضحَّاك: (هِيَ مَكَّةُ، وَالْعَرَبُ تُعَاقِبُ بَيْنَ الْبَاءِ وَالْمِيْمِ فَتَقُولُ: ضَرْبَةُ لاَزبٍ، وَضَرْبَةُ لاَزمٍ). وقال ابنُ شِهاب: (بَكَّةُ الْمَسْجِدُ وَالْبَيْتُ، وَمَكَّةُ الْحَرَمُ كُلُّهُ) ومثلُه قال الزهريُّ. وسُمِّي المسجدُ بَكَّةَ؛ لأنَّ الْبَكَّ هُوَ الرَّحْمَةُ، في اللغةِ يقالُ: بَكَّهُ إذا رَحِمَهُ. وسُمِّي المسجدُ بَكّاً لأن الناسَ يتباكُّون فيهِ؛ أي يزدحِمون للطوافِ. وقال أبو عُبيد: (بَكَّةُ اسْمٌ لِبَطْنِ مَكَّةَ، وَمَكَّةُ لِمَا بَقِيَ). وقال عبدُالله بنُ الزُّبير: (سُمِّيَتِ الْبَلَدُ بَكَّةَ لأنَّهَا تَبُكُّ أعْنَاقَ الْجَبَابرَةِ؛ مَا قَصَدَهَا جَبَّارٌ إلاَّ قَصَمَهُ اللهُ كَأَصْحَاب الْفِيْلِ وَغَيْرِهِمْ). وسُميت مَكَّةُ لاجْتِذابهَا النَّاسَ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ. يُقَالُ امْتَكَّ الْفَصِيْلُ فِي ضَرْعِ النَّاقَةِ اذا اسْتَقْصَى فَلَمْ يَدَعْ شَيْئاً مِنْهُ.

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (مَا أعْلَمُ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ بَلْدَةً الْحَسَنَةُ فِيْهَا بمِائَةِ أَلْفٍ إلاَّ مَكَّةَ، وَلاَ دِرْهَماً يُتَصَدَّقُ بهِ يُكْتَبُ لَدَيْهِ أَلْفَ دِرْهَمٍ إلاَّ بمَكَّةَ، وَمَا أعْلَمُ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ بَلْدَةً فِيهَا شَرَابُ الأَبْرَار وَمُصَلَّى الأَخْيَار إلاَّ مَكَّةَ، وَمَا أعْلَمُ عَلَى وَجْهِ

(١) الحج / ٢٦ .

(٢) في كتاب الغريبين: ج ٢ ص٥٥٧؛ قال الهروي: ((وقرأت لابن حمزة قال: الخشعة: قف من الأرض قد غلبت عليها السهولة. ومن روى [خَشَفَةٌ] أي ليس بحجر ولا طين)).

الأَرْضِ بَلْدَةً إذا دَعَا الرَّجُلُ فِيْهَا بدُعَاءٍ أمَّنَ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى دُعَائِهِ إلاَّ مَكَّـةَ، وَلاَ أعْلَـمُ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ بَلْدَةً يَمُوتُ فِيْهَا الْمَيِّتُ فَيَكُونُ تَكْفِيْراً لِخَطَايَاهُ إلاَّ مَكَّةَ، وَمَا أعْلَـمُ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ بَلْدَةً صَدَرَ إلَيْهَا جَمِيْعُ النَّبِيِّيْنَ وَالْمُرْسَلِيْنَ إلاَّ مَكَّةَ، وَمَا أعْلَمُ عَلَـى وَجْهِ الأَرْضِ بَلْدَةً يَنْزِلُ فِيْهَا كُلَّ يَوْمٍ مِـنْ رُوحِ الْجَنَّـةِ وَرَائِحَتِـهَا مَـا يَـنْزِلُ إلاَّ بمَكَّـةَ، وَالرَّكْعَةُ الْوَاحِدَةُ فِيْهَا بمائَةِ الْفِ رَكْعَةٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مُبَارَكاً) نُصِبَ على الحالِ؛ أي الذي اسْتَقَرَّ بمكَّةَ، والبركـةُ بثُـوْبِ الْخَيْرِ ونُمُوِّهِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهُدًى لِلْعَالَمِيْنَ) أي قِبْلَةً للمؤمنينَ. وقيل: بيانٌ ودلالـةٌ للعالمينَ على اللهِ بإهْلاَكِ مَن قصدَهُ من الجبابرةِ، وباسْتِئْنَاسِ الطَّيرِ فيه بالناسِ، وبأنْ لا يعلوهُ طَائِرٌ إعْظَاماً لهُ، وبإمْحَاق ما يُرْمَى فيه من الْجِمَـار في كـلِّ سَنَةٍ، فلـولا أنَّ مـا يُقْبَلُ منها يُرْفَعُ كما قالَ ابنُ عبَّاس، وإلاَّ كـان قـدِ اجتمـعَ هنـاكَ مِـن الحجـارةِ مثـلَ الجبالِ. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالْهُدَى أنهُ طريقُ الجنَّة.

قولـه عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ ﴾ ؛ أي فيـه علامــاتٌ واضحات، وهُنَّ ما تقدَّم ذكرُه ومقامُ إبراهيم أيضاً، والآيةُ في مقام إبراهيمَ: أن قدمَيه دخلتَا في حَجَرٍ صَلْدٍ بقدرةِ اللهِ تعالى صارَ الحجرُ كالطين حتى غَاصَتْ قدماهُ فيـه ثـم عادَ حَجَراً صَلْداً ليكونَ ذلكَ دلالةً على صِدْق نبوَّته عليه السلام. قرأ ابنُ عبَّاس: (فِيْهِ آيَـةٌ بَيِّنَةٌ) على الواحدِ وأرادَ مقامَ إبراهيم وحدَهُ. وقرأ الباقون بالجمعِ أرادُوا مقامَ إبراهيم والحجرَ الأسود والْحَطِيْمَ وزَمْزَمَ والْمَشَاعِرَ كلَّها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ ﴾ ؛ قال الحسنُ:(عَطَـفَ اللهُ قُلُـوبَ الْعَرَب فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى أنَّ كُلَّ مَنْ لاَذ بالْحَرَمِ وَإنْ كَانَ جَانِياً لاَ يُهَاجُ فِيْـهِ، وَذلِـكَ بدُعَاءِ إبْرَاهِيْمَ عليه السلام حَيْثُ قَالَ: ﴿رَب اجْعَلْ هَذا بَلَدًا آمِنًا﴾[1] وَكَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَـنْ دَخَلَهُ أمِنَ مِنَ الْقَتْلِ؛ وَلَمْ يَزِدْهُ الإسْـلاَمُ إلاَّ شِـدَّةً. وقيـل: إن أوَّل مـن لاذ بـالْحَرَمِ: الحيتانُ الصغارُ من الكبار في الطُّوفان، وقيل: من دخلَهُ عامَ عُمرة القضـاء مـع النـبيِّ ﷺ كان آمِناً، بيانهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إنْ شَاءَ الله آمِنِينَ﴾[2].

---

(١) البقرة / ١٢٦.   (٢) الفتح / ٢٧ .

قال أهلُ المعانِي: صورةُ الآية خبرٌ؛ ومعناها: أمرٌ؛ تقديرُها: ومَن دَخَلَهُ فَأَمِّنُوهُ، لقولهِ: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ﴾[1] أي لا تَرْفُثُوا ولا تفسُقوا ولا تُجادِلوا. وقيل: معناهُ: مَن دخلَهُ لقضاءِ النُّسُكِ مُعَظِّماً للهِ عارفاً بحقوقه متقرِّباً إلى اللهِ تعالى كان آمِناً يومَ القيامة. وقال الضحَّاك: (مَعْنَاهُ: مَنْ حَجَّهُ فَدَخَلَهُ كَانَ آمِناً مِنَ الذُّنُوب الَّتِي اكْتَسَبَهَا قَبْلَ ذلِكَ). وقال جعفرُ الصَّادق: (مَنْ دَخَلَهُ عَلَى الصَّفَاءِ كَمَا دَخَلَهُ الأَنْبِيَاءُ وَالأَوْلِيَاءُ كَانَ آمِناً مِنْ عَذابهِ).

قال أبو النَّجم القرشيُّ: كنتُ أطوف بالبيتِ؛ فقلتُ: (يا سيِّدي قد قُلْتَ: (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً) مِن أيِّ شيءٍ؟ فسمعتُ قائلاً مِن ورائِي يقولُ: آمِناً مِن النار؛ فالتفتُّ فلم أرَ شيئاً). يدلُّ على هذا ما رَوى أنسُ بن مالكٍ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: [مَنْ مَاتَ فِي أحَدِ الْحَرَمَيْنِ بَعَثَهُ اللهُ مِنَ الآمِنِيْنَ][2]. وقال ﷺ: [الْحُجُونُ وَالْبَقِيْعُ يُؤْخَذُ بأَطْرَافِهِمَا وَيَنْتَشِرَانِ فِي الْجَنَّةِ] وهُما مَقْبَرَتَا مكَّةَ والمدينةِ. وقال ﷺ: [مَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّ مَكَّةَ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهار تَبَاعَدَتْ عَنْهُ جَهَنَّمُ مَسِيْرَةَ مِائَتَي عَامٍ؛ وَتَقَرَّبَتْ مِنْهُ الْجَنَّةُ مَسِيْرَةَ مِائَةِ عَامٍ][3].

وقال وَهَبُ بْنُ مُنَبِهٍ: (مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ سَبْعَمِائَةَ أَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِيْنَ إلَى الْبَيْتِ، بيَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سِلْسِلَةٌ مِنْ ذهَبٍ، فَيَقُولُ لَهُمْ: اذهَبُوا إلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَزُمُّوهُ بهَذِهِ السَّلاَسِلِ ثُمَّ قُودُوهُ إلَى الْمَحْشَرِ؛ فَيَأْتُون بهِ بسَبْعَمِائَةِ سِلْسِلَةٍ مِنْ ذهَبٍ؛ ثُمَّ يَقُودُونَهُ وَمَلَكٌ يُنَادِي: يَا كَعْبَةَ اللهِ سِيْرِي، فَتَقُولُ: لَسْتُ سَائِرَةً حَتَّى أُعْطَى سُؤْلِي، فَيُنَادِي مَلَكٌ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ سَلِي، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ شَفِّعْنِي فِي جِيْرَتِي الَّذِيْنَ دُفِنُوا حَوْلِي مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ، فَيَقُولُ اللهُ: قَدْ أعْطَيْتُكِ سُؤْلَكِ،

---

(١) البقرة / ١٩٧ .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٦ ص٢٤٠: الحديث (٦١٠٤)؛ وفيه: [اسْتَوْجَبَ شَفَاعَتِي وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الآمِنِينَ]. وفي مجمع الزوائد: ج ٢ ص٣١٩؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الكبير، وفيه عبدالغفور بن سعيد، وهو متروك)).

(٣) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الرقم (٣٤٧٠٤) وعزاه لأبي الشيخ عن أبي هريرة. وكعادته أدرج الناسخ عبارة: (كذا في تفسير الثعلبي).

فَيُحْشَرُ مَوْتَى مَكَّةَ مِنْ قُبُورِهِمْ بِيْضَ الْوُجُوهِ كُلُّهُمْ مُحْرِمُونَ؛ فَيَجْتَمِعُونَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ثُمَّ يُلَبُّونَ، ثُمَّ تَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ: سِيْرِي يَا كَعْبَةَ اللهِ؛ فَتَقُولُ: لَسْتُ سَائِرَةً حَتَّى أُعْطَى سُؤْلِي، فَيُنَادِي مَلَكٌ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ: سَلِي، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ؛ عِبَادُكَ الْمُذْنِبِيْنَ الَّذِيْنَ وَفَدُوا إلَيَّ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيْقٍ شُعْثاً غُبْراً؛ قَدْ تَرَكُوا الأَهْلِيْنَ وَالأَوْلاَدَ وَالأَحْبَابَ، وَخَرَجُوا شَوْقاً زَائِرِيْنَ مُسَلِّمِيْنَ طَائِعِيْنَ حَتَّى قَضَوا مَنَاسِكَهُمْ كَمَا أمَرْتَهُمْ، فَأَسْأَلُكَ أنْ تُؤَمِّنَهُمْ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ وَشَفِّعْنِي فِيْهِمْ وَتُجَمِّعَهُمْ حَوْلِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ: إنَّ مِنْهُمْ مَنِ ارْتَكَبَ الذُّنُوبَ بَعْدَكِ وَأَصَرَّ عَلَى الْكَبَائِرِ حَتَّى وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، فَتَقُولُ الْكَعْبَةُ: إنَّمَا أسْأَلُكَ الشَّفَاعَةَ لأَهْلِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: قَدْ شَفَّعْتُكِ فِيْهِمْ وَأَعْطَيْتُكِ سُؤْلَكِ. ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: ألاَ مَنْ زَارَ الْكَعْبَةَ، فَيُعْزَلُ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ فَيَعْتَزِلُونَ؛ فَيَجْمَعُهُمُ اللهُ حَوْلَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ بِيْضَ الْوُجُوهِ آمِنِيْنَ مِنَ النَّارِ، يَطُوفُونَ وَيُلَبُّونَ. ثُمَّ يُنَادِي مَلَكٌ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَا كَعْبَةَ اللهِ سِيْرِي، فَتَقُولُ الْكَعْبَةُ: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ؛ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ؛ لَبَّيْكَ لاَ شَرِيْكَ لَكَ لَبَّيْكَ؛ إنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ؛ لاَ شَرِيْكَ لَكَ. ثُمَّ يُشَيِّعُونَهَا إلَى الْمَحْشَرِ).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ ؛ قال عكرمة: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ قَالَتِ الْيَهُودُ: نَحْنُ مُسْلِمُونَ؛ فَأُمِرُوا أنْ يَحُجُّوا إنْ كَانُوا مُسْلِمِيْنَ). واللاَّم في قوله (للهِ) لامُ الإيجاب والإلزام؛ أي للهِ فَرْضٌ وَاجِبٌ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ.

قرأ أبو جعفرٍ والأعمشُ وحمزة والكسائيُّ وخَلَفُ وحفصُ: (حِجُّ الْبَيْتِ) بكسرِ الحاء هذا الحرفَ وحده خاصَّة. وقرأ ابن أبي إسحقَ جميعَ ما في القرآن بالكسر، وهي لغةُ نَجْدٍ. وقرأ الباقون بالفتحِ في كلِّ القرآن، وهي لغةُ أهلِ الحجاز، وهما لُغتان فصيحتان بمعنى واحدٍ. وقال بعضُهم هو بالفتحِ المصدرُ، وبالكسرِ الاسمُ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ ؛ بدلٌ مِن الناس، وهو بدلُ البعضِ من الكلِّ، قال عبدُالله بنُ عمرَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الاسْتِطَاعَةِ فِي هَذِهِ

الآيَةِ فَقَالَ: [السَّبِيْلُ إلَى الْبَيْتِ: الزَّادُ وَالرَّاحِلَـةُ][(١)] ومثلـهُ عـنِ ابـنِ مسـعودٍ وابـنِ عبَّاس وعائشةَ وجابرِ بن عبدالله وأنسِ بن مالك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾؛ معناهُ: مَن أنكرَ فريضةَ الحجِّ فلم يَرَ واجباً فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عن مَنْ حَجَّ وعَنْ مَنْ لَمْ يَحُـجَّ؛ أي لم يتعبَّدِ الناسَ بالعبادات لحاجتهِ إليها، وإنَّما تعبَّدَهم به لعلمهِ بمصالِحهم فيـها. وقـد رُوي: أنَّهُ لَمَّا نَزَلَ فَرْضُ الْحَجِّ؛ جَمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ الْمُسْلِمِيْنَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَمُشْرِكِي الْعَرَب، فقال ﷺ: [إنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا] فَلَمْ يَقْبَلْـهُ إلاَّ الْمُسْلِمُونَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (وَمَنْ كَفَرَ فَإنَّ الله غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ)[(٢)].

وأمَّا ما روي عن رَسُول اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَنْ أدْرَكَ حَجَّةَ الإسْلاَمِ فَلَمْ يَحِجَّ؛ وَلَمْ يَمْنَعْهُ حَاجَةٌ ظَاهِرَةٌ؛ وَلاَ إمَامٌ جَائِرٌ ظَالِمٌ؛ وَلاَ سِجْنٌ حَابسٌ حَتَّـى يَمُـوتَ عَلَـى ذلِكَ؛ فَلْيَمُتْ عَلَى أيِّ حَال شَاءَ يَهُودِيّاً أوْ نَصْرَانِيّاً][(٣)] ولا يجوز الحكمُ بكُفْرِهِ بأخبار الآحَادِ، وتأويلُ الخبرِ: أنَّهُ لَمْ يَرَ الْحَجَّ فرضاً عليهِ وقد وجـدَ الاسـتطاعةَ. وعـن ابـن عمرَ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَعْنَى وَمَـنْ كَفَـرَ؛ أيْ وَمَـنْ كَفَـرَ بـاللهِ وَالْيَـوْمِ الآخِرِ][(٤)]. وقال ﷺ: [مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَلاً][(٥)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيـان: الحديـث (٥٩١٦). والـترمذي في الجـامع الصحيـح: أبـواب الحج: باب ما جاء في إيجاب الحج بـالزاد والراحلـة: الحديـث (٨١٣)، وقـال: ((هـذا حديـث حسن. وفيه يزيد الخوزي، وقد تكلم بعض أهل العلم من قبل حفظه)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٩٣٦) عن الضحاك بمعناه.

(٣) رواه الدارمي في السنن: كتاب المناسك: باب من مـات ولم يحـج: الحديـث (١٧٨٥) عـن أبـي أمامة، وأوله: [مَنْ لَمْ يَمْنَعْهُ عَنِ الْحَجِّ...]. في نصب الراية لأحاديث الهدايـة: ج ٤ ص٤١١؛ قال الزيلعي: ((قد روى هذا الحديث عن علي وأبي هريرة، وحديث أبـي أمامـة علـى مـا فيـه أصلحها)).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٩٣٨).

(٥) في نصب الراية: ج ٤ ص٤١٢ قال الزيلعي: ((رواه الواحدي في تفسير الوسيط بسنده عن ابـن مسعود وعن النبي ﷺ)). وقال: ((قال البيهقي في شعب الإيمان: وهذا الحديث إن صح، فالمراد والله أعلم إذا كان لا يرى تركه قائماً ولا فعله براً، والله أعلم)).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ لليهودِ والنصارى: لِمَ تكفرونَ بالحجِّ وَمُحَمَّدُ والقرآنُ واللهُ عالِمٌ بما تعملونَ، وإنَّما قال فِي هذا الموضعِ: (قُلْ يَا أهْلَ الْكِتَاب)، وقال من قَبْلُ: (يَا أهْلَ الْكِتَاب) أنهُ تعالى خاطبَهم أوَّلاً على جهة التَّلَطُّفِ في استدعائِهم إلى الإيْمَانِ ثم أعرضَ عن خطابهم إذْلاَلاً وإهَانَةً لَهُمْ، وأمرَ غيرهُ بمخاطبَتِهم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ﴾ ؛ نزلت يومَ بَدْرٍ في اليهودِ كانوا يَدْعُونَ عمَّاراً وأصحابَه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إلى اليهوديَّة، وكانوا يَسْعَوْنَ في إحياءِ الضَّغَائِنِ التي كانت بين الأَوْسِ والْخَزْرَجِ في الجاهليَّة وكانت قد مَاتَتْ في الإسلامِ[١]. ومعنى الآيةِ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: لِمَ تَصْرِفُونَ مَن آمَنَ عن دينِ اللهِ وعن الطريقِ التي هي الْمُوصِلَةُ إلى رضَا الله من الإسلام والحجِّ وغيرِ ذلك، (تَبْغُونَهَا عِوَجاً) أي تطلبونَ لَهَا مَيْلاً. قال أبو عُبيد: (الْعِوَجُ بالْكَسْرِ فِي الدِّيْنِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَالْعَوَجُ بالْفَتْحِ فِي الْجِدَار وَالْحَائِطِ وَالْعَصَا).

قوله تعالى: (وَأنْتُمْ شُهَدَاءُ) أي وأنتم شهداءُ تقديْمَ البشَارَةِ بمُحَمَّدٍ ﷺ في كتبكُم، وقيل: معناهُ: وأنتم عُقَلاَءُ كما في قولهِ تعالى: ﴿أوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ تَهْدِيْدٌ لَهُمْ على الكفرِ أي لا يَخفَى على اللهِ شيءٌ مِمَّا تعملونَ من الْجَحْدِ والكتمان.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ قال زيدُ بن أسلم: (أنَّ شَاسَ بْنَ قَيْسٍ الْيَهُودِيَّ وَكَانَ شَيْخاً كَبيْراً عَظِيْمَ الْكُفْرِ؛ شَدِيْدَ الطَّعْنِ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ؛ شَدِيْدَ الْحَسَدِ لَهُمْ، مَرَّ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي

---

(١) أخرجه الطبري مطولاً في جامع البيان: النص (٥٩٤٥).

(٢) ق / ٣٧ .

مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فِيْهِ، فَغَاظَهُ مَا رَأى مِنْ جَمَاعَتِهِمْ وَأُلْفَتِهِمْ وَصَلاَحِ ذاتَ بَيْنِهِمْ فِي الإِسْلاَمِ بَعْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْعَدَاوَةِ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا لَنَا مَعَهُمْ إذا اجْتَمَعُوا بهَا مِنْ قَرَارٍ، فَأَمَرَ شَاباً مِنَ الْيَهُودِ كَانَ مَعَهُمْ؛ فَقَالَ: اعْمَدْ إلَيْهِم وَاجْلُسْ إلَيْهِمْ؛ ثُمَّ ذَكِّرْهُمْ يَوْمَ بُعَاث وَمَا كَانَ قَبْلَهُ؛ وَأنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا تَقَاوَلُوا فِيْهِ مِنَ الأَشْعَارِ؛ وَمَا كَانَ يُعْلَنُ - بالْعَيْنِ المهملة - يَوْمَ اقْتَتَلَتْ فِيْهِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ وَكَانَ الظَّفَرُ فِيْهِ لِلأَوْسِ عَلَى الْخَزْرَجِ؛ فَفَعَلَ. فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذلِكَ وَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا حَتَّى تَوَاثَبَ رَجُلاَنِ مِنَ الْحَيِّ؛ أحَدُهُمَا مِنَ الأَوْسِ وَالآخَرُ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَتَقَوَّلاَ ثُمَّ قَالَ أحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إنْ شِئْتُمْ وَاللهِ رَدَدْنَاهَا جَذَعَةً الآنَ، وَغَضِبَ الْفَرِيْقَانِ جَمِيْعاً وَقَالاَ: مَوْعِدُكُمُ الْحرَّةُ، فَخَرَجُوا إلَيْهَا بالسِّلاَحِ، وَانْضَمَّتِ الأَوْسُ إلَى الأَوْسِ، وَالْخَزْرَجُ إلَى الْخَزْرَجِ، فَبَلَغَ ذلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَخَرَجَ بمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ إلَيْهِمْ فَقَالَ: [يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِيْنَ أتَدْعُونَ إلَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأنَا بَيْنَ أظْهُرِكُمْ بَعْدَ إذْ أكْرَمَكُمُ اللهُ بالإِسْلاَمِ، وَقَطَعَ عَنْكُمْ أمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَألَّفَ بَيْنَكُمْ]. فَعَلِمُوا أنَّهَا نَزْغَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَكَيْدٌ مِنْ عَدُوِّهِمْ، وَألْقَوا السِّلاَحَ مِنْ أيْدِيْهِمْ وَبَكَوا وَتَعَانَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، ثُمَّ رَجَعُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَامِعِيْنَ مُطِيْعِيْنَ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

ومعناها: (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) يعني الأوسَ والخزرجَ، (إنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ) يعني شَاساً وأصحابَه، إن تطيعوهُم في إحياءِ الضَّغائنِ التي كانت بينكُمْ بالعصبية وجهالةِ وَحَمِيَّةِ الجاهليَّة يردُّوكم الى الشِّرْكِ والكفرِ بعد تصديقِكم بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن. قال جابرُ بن عبدِالله: (مَا كَانَ مِنْ طَالِعٍ أكْرَمَ إلَيْنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَمَا رَأيْتُ يَوْماً قَطُّ أقْبَحَ أوَّلاً وَلاَ أحْسَنَ آخِراً مِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ).

قولُه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ ؛ هذا على طريقِ التعجُّب والاستبعَاد أن يقعَ منهم الكفرُ مع معرفتِهم بدلالاَتِ اللهِ؛ أي كيفَ تكفرونَ وأنتم يتلَى عليكُم القرآنُ ومعكم رسولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٩٤٥).

لكمُ الآياتِ؟! قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ ﴾ ؛ أي يَسْتَمْسِكْ بدينهِ وطاعته ويَمْتَنِعْ به مِن غيره؛ ﴿ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ ﴾ ؛ أي أُرْشِدَ إلى طريقٍ؛ ﴿ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ قائمٍ يرضاهُ الله وهو الإسلامُ، وَالْعِصْمَةُ: الْمَنْعُ، فكلُّ مانعٍ شيئاً فهو عَاصِمٌ، قال الفرزدقُ:

أنَا ابْنُ الْعَاصِمِيْنَ بَنِي تَمِيْمٍ إذا مَا أعْظَمَ الْحَدَثَانُ نَابَا[١]

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: يَا أيُّهَا الَّذِيْنَ صدَّقُوا بمُحَمَدٍ ﷺ والقُرآن أطيعُوا اللهَ حقَّ طاعتهِ، واثبُتوا على الإسلامِ حتَّى لا يُدْرِكُكُمُ الموتُ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. قال الكلبيُّ: (حَقَّ تُقَاتِهِ: أنْ يُطَاعَ فَلاَ يُعْصَى، وَأنْ يُذْكَرَ فَلاَ يُنْسَى، وَأنْ يُشْكَرَ فَلاَ يُكْفَرَ)[٢]. وقال ابنُ عبَّاس: (هُوَ أنْ لاَ يُعْصَى طَرْفَةَ عَيْنٍ). وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: جَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ؛ وَلاَ يَأْخُذْكُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ؛ وَقُومُوا للهِ بالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَى أنْفُسِكُمْ وَأبْنَائِكُمْ)[٣].

فلما نزلَتْ هذه الآيةُ قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ يَقْوَى عَلَى تَقْوَى اللهِ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَشَقَّ ذلِكَ عَلَيْهِمْ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[٤]

فصارَ ابتداءُ هذهِ الآية منسوخاً به، وإلى هذا ذهبَ قتادةُ ومقاتل وجماعةٌ من المفسِّرين. قال قتادةُ[٥]: (وَلَيْسَ فِي آلِ عِمْرَانَ مِنَ الْمَنْسُوخِ إلاَّ هَذِهِ الآيَةُ). وقال بعضُهم: لا يجوزُ أن يكلِّفَ اللهُ عبادَه ما لا يطيقون، وليست هذه الآيةُ منسوخةً، وإنَّما معناهُ: اتَّقُوا اللهَ فيما يحقُّ عليكم أن تتَّقُوهُ فيهِ؛ وهو ما فسَّرَه اللهُ تعالى في كتابهِ في مواضِعَ شتَّى.

---

(١) في لسان العرب: ((حَدَثَ حَدَثَانُ الدَّهْرِ وَحَوَادِثُهُ: نُوَبُهُ. وَنَابَ: أَصَابَ وَنَزَلَ)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٩٥٧) من حديث عبدالله بن مسعود، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٩٦٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) التغابن / ١٦ .

(٥) عند القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص١٥٧ك ((قال مقاتل:)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[١] أي مُؤْمِنُونَ، وقيل: مُخْلِصُونَ مُفَوِّضُونَ أمركم إلى اللهِ تعالى. وقال الفُضَيْلُ: (مُحْسِنُونَ الظَّنَّ باللهِ). وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ: (لاَ يَتَّقِي اللهَ عَبْدٌ حَقَّ تُقَاتِهِ حَتَّى يَخْزُنَ لِسَانَهُ)[٢].

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ الآية. قال مقاتلُ: (كَانَ بَيْنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ عَدَاوَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقِتَالٌ؛ حَتَّى هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الْمَدِيْنَةِ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ، فَافْتَخَرَ بَعْدَ ذلِكَ رَجُلاَنِ: ثَعْلَبَةُ بْنُ غَنْمِ الأَوْسِيُّ؛ وَسَعْدُ بْنُ زُرَارَةَ الْخَزْرَجِيُّ، فَقَالَ الأَوْسِيُّ: مِنَّا خُزَيْمَةُ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؛ وَمِنَّا حَنْظَلَةُ غَسَلَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ؛ وَمِنَّا عَاصِمُ بْنُ ثَابتٍ حَمَى الدِّيْنَ؛ وَمِنَّا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الَّذِي اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِهِ وَرَضِيَ بحُكْمِهِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ. وَقَالَ الْخَزْرَجِيُّ: مِنَّا أرْبَعَةٌ أحْكَمُوا الْقُرْآنَ: أبَيُّ بْنُ كَعْبٍ؛ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ؛ وَزَيْدُ بْنُ ثَابتٍ؛ وَأبُو زَيْدٍ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ خَطِيْبُ الأَنْصَارِ وَرَئِيْسُهُمْ. فَجَرَى الْحَدِيْثُ بَيْنَهُمْ؛ فَغَضِبُوا، فَقَالَ الْخَزْرَجُ: أمَا وَاللهِ لَوْ تَأَخَّرَ الإسْلاَمُ قَلِيْلاً وَقُدُومُ النَّبِيِّ ﷺ لَقَتَلْنَا سَادَتَكُمْ وَاسْتَعْبَدْنَا أبْنَاءَكُمْ وَنَكَحْنَا نِسَاءَكُمْ بغَيْرِ مَهْرٍ، فَقَالَ الأَوْسُ: قَدْ كَانَ وَاللهِ الإسْلاَمُ مُتَأَخِّراً كَثِيْراً، فَهَلاَّ فَعَلْتُمْ ذلِكَ حِيْنَ ضَرَبْنَاكُمْ حَتَّى أدْخَلْنَاكُمُ الْبُيُوتَ، وَتَكَاثَرَا وَتَشَاتَمَا ثُمَّ تَبَادَءَا وَاقْتَتَلاَ حَتَّى اجْتَمَعَ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ وَمَعَهُمُ السِّلاَحُ، فَبَلَغَ ذلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ إلَيْهِمْ فِي أنَاسٍ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ وَقَدْ نَهَضَ بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ. قَالَ جَابرُ: فَمَا كَانَ طَالِعٌ يَوْمَئِذٍ أكْرَمَ عَلَيْنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَوْمَأَ إلَيْنَا فَكَفَفْنَا فَوَقَفَ بَيْنَنَا، فَقَرَأ: ﴿يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأنْتُمْ مُسْلِمُونَ. وَاعْتَصِمُوا بحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأوْلَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ فَألْقَى الْفَرِيْقَانِ السِّلاَحَ وَاطْفَأُوا الْحَرْبَ، فَلَمْ يَكُنْ فِي الأَرْضِ شَخْصٌ أحَبَّ إلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ نُزُولِ الآيَةِ، وَمَشَى بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَانَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً يَبْكُونَ، فَمَا رَأيْتُ بَاكِياً أكْثَرَ مِنْ يَوْمَئِذٍ).

---

(١) معنى التفسير في الاية (١٣٢) من سورة البقرة.

(٢) في الدر المنثور: ج ٢ ص٢٨٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم عن أنس)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بِحَبْلِ اللهِ) أي تَمسَّكوا بدينِ الله، وقيلَ: بالْجَمَاعَةِ[١]. وقال مجاهدُ وعطاءُ: (بعَهْدِ اللهِ)[٢]. وقال قتادةُ والسديُّ والضحَّاك: (مَعْنَاهُ: وَاعْتَصِمُوا بالْقُرْآنِ)[٣]. وقالَ عليٌّ ﷺ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: [كِتَابُ اللهِ هُوَ الْحَبْلُ الْمَتِيْنُ؛ وَالذِّكْرُ الْحَكِيْمُ؛ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيْمُ]. وقال ابنُ مسعودٍ ﷺ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ هَذا الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِيْنُ؛ وَهُوَ النُّورُ الْمُبِيْنُ؛ وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ؛ وَعِصْمَةُ مَنْ تَمسَّكَ بهِ؛ وَنَجَاةُ مَنْ تَبعَهُ][٤]. وقال مقاتلُ: (مَعْنَى الآيَةِ: وَاعْتَصِمُوا بأَمْرِ اللهِ وَطَاعَتِهِ). وقال أبو العاليَة: (بِإخْلاَصِ التَّوْحِيْدِ للهِ)[٥]. وقال ابنُ زيد: (بالإسْلاَمِ)[٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلاَ تَفرَّقُوا) أي تَنَاصَرُوا في دينِ الله ولا تَتَفرَّقُوا فيه كما تَفرَّقَتِ اليهودُ والنصارى. قالَ ﷺ: [إنَّ بَنِي إسْرَائِيْلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إحْدَى وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً، فَإنَّ أمَّتِي سَتَتَفَرَّقُ عَلَى اثْنَيْنِ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إلاَّ فِرْقَةً وَاحِدَةً] فَقِيْلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَا هَذِهِ الْفِرْقَةُ الْوَاحِدَةُ؟ فَقَبَضَ يَدَهُ وَقَالَ: [الْجَمَاعَةُ] ثُمَّ قَرَأ: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعاً وَلاَ تَفرَّقُوا[٧]. وقال ﷺ: [إنَّ اللهَ تَعَالَى رَضِيَ لَكُمْ ثلاَثاً وَكَرِهَ لَكُمْ ثلاَثاً: أنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعاً وَلاَ تَفرَّقُوا؛ وَاسْمَعُوا وَأطِيْعُوا لِمَنْ وَلاَّهُ اللهُ أمْرَكُمْ. وَكَرِهَ لَكُمْ قِيْلَ وَقَالَ؛ وَإضَاعَةَ الْمَالِ؛ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ][٨].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٩٧٣) عن ابن مسعود ﷺ وعن الشعبي.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٩٧٨) عن مجاهد، والنص (٥٩٧٩) عن عطاء.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٩٧٤) عن قتادة.
(٤) أخرج شطراً منه الطبري في جامع البيان: الحديث (٥٩٧٦).
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٩٨٣).
(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٩٨٤).
(٧) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٥٩٨٧) عن أنس. وابن ماجة في السنن: كتاب الفتن: باب افتراق الأمم: الحديث (٣٩٩٣). وفي مجمع الزوائد؛ قال: إسناده صحيح ورجاله ثقات.
(٨) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الأقضية: باب النهي عن كثرة السؤال: الحديث (١٠/ ١٧١٥) عن أبي هريرة ﷺ. والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب قتال أهل البغي: باب النصيحة لله ولكتابه: الحديث (١٧١٢٣). ويبدو أن في طبعة دار القلم تحقيق الشيخ خليل=

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ) أي احفظُوا مِنَّةَ اللهِ عليكم إذْ كُنْتُمْ أعْدَاءً في الجاهليَّة، يَقْتُلُ بعضُكم بعضاً، فجمعَ اللهُ بين قلوبكم بالإسلام الْمُحَرِّمِ للأنفسِ والأموالِ إلاّ بحَقِّهَا، فَصِرْتُمْ بنعمةِ اللهِ إخوَاناً في الدِّين.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ اسْحَقَ: (كَانَ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ أخَوَيْنِ لأَبٍ وَأمٍّ، فَوَقَعَتْ بَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ بسَبَب سَمِيْرٍ وَحَاطِبٍ، وَذلِكَ أنَّ سَمِيْرَ بْنَ زَيْدٍ أحَدَ بَنِي عَمْرو بْن عَوْفٍ قَتَلَ خَلِيْطاً لِمَالِكِ بْنِ الْعَجْلاَنِ الْخَزْرَجِيِّ يُقَالُ لَهُ حَاطِبُ بْنُ الْحَرْثِ؛ فَوَقَعَ الْحَرْبُ بَيْنَ الْقَبِيْلَتَيْنِ؛ فَتَطَاوَلَتْ بَيْنَهُمْ تِلْكَ الْعَدَاوَةُ مِائَةً وَعُشْرُونَ سَنَةً، وَلَمْ يُسْمَعْ بقَوْمٍ كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْحَرْب مِثْلَ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ. وَاتَّصَلَتْ تِلْكَ الْعَدَاوَةُ إلَى أنْ أطْفَأَ اللهُ ذلِكَ بالإسْلاَمِ، وَألَّفَ بَيْنَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَذلِكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بُعِثَ وَظَهَرَ بمَكَّةَ آمَنَ بهِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ وَهُمْ بالْمَدِيْنَةِ، فَلَمَّا هَاجَرَ إلَيْهِمُ النَّبيُّ ﷺ وَقَعَتِ الأُلْفَةُ بَيْنَهُمْ وَزَالَتِ الْعَدَاوَةُ مِنْ قُلُوبهِمْ وَقَدْ كَادُوا يَتفَانُوْنَ، وَقَدْ كَانَ سَبَبُ أُلْفَتِهِمْ مَا رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَرَجَ بالْمَوْسِمِ وَهُوَ بمَكَّةَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَب، فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَ الْعَقَبَةِ إذْ لَقِيَ رَهْطاً مِنَ الْخَزْرَجِ أرَادَ اللهُ بهِمْ خَيْراً؛ وَهُمْ سِتَّةُ نَفَرٍ: أسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ؛ وَعَوْفُ بْنُ عَفْرَاءَ؛ وَرَافِعُ بْنُ مَالِكٍ؛ وَقُطْبَةُ بْنُ عَامِرٍ؛ وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ؛ وَجَابرُ بْنُ عَبْدِاللهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ أنْتُمْ؟] فَقَالُوا: نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، فَقَالَ: [أفَلاَ تَجْلِسُونَ حَتَّى أكَلِّمَكُمْ؟] قَالُوا: بَلَى؛ فَجَلَسُوا؛ فَدَعَاهُمْ إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الإسْلاَمَ وَتَلاَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ. وَكَانَ مَعَهُمْ بالْمَدِيْنَةِ يَهُودٌ أهْلُ كِتَاب ذكَرُوا لَهُمْ أنَّ نَبيّاً مَبْعُوثاً قَدْ دَنَا زَمَانُهُ، فَلَمَّا كَلَّمَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَدَعَاهُمْ إلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَذا وَاللهِ النَّبيُّ الَّذِي ذكَرَهُ الْيَهُودُ؛ فَلاَ يَسْبقَنَّكُمْ إلَيْهِ أحَدٌ، فَأجَابُوهُ وَصَدَّقُوهُ وَأسْلَمُوا؛ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّ مَعَنَا قَوْماً بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، وَعَسَى اللهُ أنْ يَجْمَعَ كَلِمَتَهُمْ بكَ؛ فَأقْدِمْ إلَيْهِمْ وَادْعُوهُمْ إلَى أمْرِكَ، فَإنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ عَلَيْكَ فَلاَ رَجُلَ أعَزُّ مِنْكَ، ثُمَّ انْصَرَفُوا رَاجِعِيْنَ إلَى بلاَدِهِمْ وَقَدْ أسْلَمُوا، فَلَمَّا وَصَلُوا الْمَدِيْنَةَ ذكَرُوا لَهُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَدَعَوهُمْ إلَى الإسْلاَمِ حَتَّى

=الميس على شرح النووي لصحيح مسلم، أنه قد سقطت منه الثالثة [وَأنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّى اللهُ أمْرَكُمْ] وهي عند البيهقي في السنن الكبرى؛ وقال: ((أخرجه مسلم)).

فَشَا فِيْهِمْ؛ فَلَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ[١] إلاَّ فِيْهَا ذِكْرٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

حَتَّى إذا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبلُ وَافَى رَسُولَ اللهِ ﷺ إلَى الْمَوْسِمِ مِنْـهُمُ اثْنَـا عَشَـرَ رَجُلاً: أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ؛ وَعَوْفُ وَمُعَاذُ ابْنَا عَفْرَاءَ[٢]، وَعُقْبَةُ بْـنُ عَـامِرٍ[٣]؛ وَقُطْبَـةُ بْـنُ عَامِرٍ؛ وَرَافِعُ بْنُ مَالِكٍ؛ وَذكْوَانُ بْنُ عَبْدِ قَيْـسٍ؛ وَعُبَـادَةُ بْـنُ الصَّـامِتِ[٤]؛ وَيزيـدُ بْـنُ ثَعْلَبَةَ؛ وَالعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ[٥]، فَهَؤُلاَءِ الْخَزْرَجِيُّونَ، وَأَبُو الْهَيْثَم بْن التَّيْـهَان، وَعُوَيْـمُ[٦] ابْنُ سَاعِدَةَ مِنَ الأَوْسِ. فَاجْتَمَعُوا برَسُول اللهِ ﷺ بالْعَقَبَةِ الأُوْلَى؛ فَبَايَعُوهُ عَلَـى أنْ لاَ يُشْرِكُوا باللهِ شَيْئاً، ((قَال:)) فَإنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمُ الْجَنَّةَ. وَكَانَ ذِلِكَ قَبْلَ أنْ يُفْرَضَ الْجِهَادُ، فَلَمَّا رَجَعُوا إلَى الْمَدِيْنَةِ بَعَثَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُصْعَـبَ بْـنَ عُمَـيْرِ ابْـنِ هَاشِـمٍ، وَأمَرَهُ[٧] أنْ يُقْرِءَهُمُ الْقُرْآنَ وَيُعَلِّمَهُمُ الإسْلاَمَ وَيُفَقِّهَهُمْ فِي الدِّيْنِ.

فَكَانَ مُصْعَبُ يُسَمَّى فِي الْمَدِيْنَةِ (الْمُقْرِئُ) وَكَانَ نُزُولُهُ فِـي بَيْـتِ أَسْعَدِ بْـنِ زُرَارَةَ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ لأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ: انْطَلِقْ بنَا إلَى هَذيْنِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذيْنِ قَـدْ أتَيَا دَارَنَا فَسَفَّهَا ضُعَفَاءَنَا وَأخْرِجُوهُمْ؛ فإنَّ أسْعَدَ ابْنَ خَـالَتِي وَلَـوْلاَ ذلِـكَ لَكَفَيْتُـكَ، وَكَانَ سَعْدُ وَأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ سَيِّدَا قَوْمِهِمَا مِنْ بني عَبْـدِ الأَشْـهَلِ وَكِلاَهُمَـا مُشْـرِكَان.

---

(١) في المخطوط: (فلم يبق دار من دورهم أن تعبد الأصنام). وهو تصحيـف، وأجرينـا التصحيـح من السيرة النبوية لابن هشام: آخر عبارة من بدء إسلام الأنصار: ج ٢ ص٧٣، مطبعة مصطفـى الحلبي: (١٩٣٦م)، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري.

(٢) في السيرة النبوية لابن هشام: ((ابنا الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم... وهما ابنا عفراء)).

(٣) عقبة بن عامر: شهد بدراً بعد شهوده العقبة الأولى، ثم شهد أحـداً فـأعْلَمَ بعصابـة خضـراء في مغفره. ولقد شهد الخندق وسائر المشاهد كلها، وقتل يوم اليمامة شهيداً.

(٤) يكنى عبادة بن الصامت: أبا الوليد. وأمه قرة العين بنت عبادة بـن نضلـة. وكـان عبـادة نقيبـاً، شهد العقبة الأولى والثانية والثالثة، وشهد بدراً والمشاهد كلـها. ثـم وجهـه عمـر ﷺ إلى الشـام قاضياً ومعلماً، فأقام بحمص ثم انتقـل إلى فلسـطين ومـات بـها، ودفـن ببيـت المقـدس، وقـبره معروف بها إلى اليوم، وفي وفاته أقوال أخرى.

(٥) شهد العباس بيعة العقبتين، فأقام مع رسول الله ﷺ بمكة حتى هاجر إلى المدينة، فكان يقال لـه: مهاجري أنصاري، قتل يوم أحد شهيداً ولم يشهد بدراً.

(٦) في المخطوط: (عُوَيمُ).

(٧) في المخطوط: (وأمرهم)، وفي السيرة النبوية لابن هشام: (وأمرَهُ) وهو أصح.

فَأَخَذ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ حَرْبَتَهُ وَأَقْبَلَ إِلَى أَسْعَدَ وَمُصْعَبَ وَهُمَا جَالِسَانِ فِي حَائِطٍ، فَلَمَّا رَأَى أَسْعَدُ بْنَ زُرَارَةَ قَالَ لِمُصْعَبٍ: هَذا سَيِّدُ قَوْمِهِ قَدْ جَاءَكَ فَاصْدُق اللهَ فِيهِ، قَالَ مُصْعَبُ: إنْ يَجْلِسْ أُكَلِّمْهُ. فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمَا أُسَيْدُ شَتَمَهُمَا وَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمَا تُسَفِّهَان ضُعَفَاءَنَا؟ اعْتَزِلاَ إنْ كَانَ لَكُمَا فِي السَّلاَمَةِ حَاجَةٌ، قَالَ مُصْعَبُ: إجْلِسْ وَاسْمَعْ؛ فَإنْ رَضِيْتَ أمْراً قَبِلْتَهُ؛ وَإنْ كَرِهْتَهُ كَفَفْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَهُهُ، قَالَ: أنْصَفْتَ، ثُمَّ رَكَزَ حَرْبَتَهُ وَجَلَسَ عِنْدَهُمَا فَكَلَّمَهُ مُصْعَبُ بالإسْلاَم، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، قَالاَ: فَوَاللهِ لَعَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الإسْلاَمَ قَبْلَ أنْ يَتَكَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: مَا أحْسَنَ هَذا وَأجَلَّهُ ! كَيْفَ تَصْنَعُونَ إذا أرَدْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا فِي هَذا الدِّيْنِ ؟ قَالاَ: اغْتَسِلْ وَطَهِّرْ ثَوْبَكَ ثُمَّ اشْهَدْ شَهَادَةَ الْحَقِّ (لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ مُحَمَّدُ رَسُولُ اللهِ) ثُمَّ تُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ. فَقَامَ وَاغْتَسَلَ وَطَهَّرَ ثَوْبَهُ وَقَالَ: أشْهَدُ أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ.

ثُمَّ قَالَ: إنَّ وَرَائِي رَجُلاً إن اتَّبَعَكُمَا لَمْ يَتَخَلَّفْ أحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ - يَعْنِي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ - وَسَأُرْسِلُهُ إلَيْكُمَا، ثُمَّ أخَذَ حَرْبَتَهُ وَانْصَرَفَ إلَى سَعْدٍ وَقَوْمِهِ وَهُمْ جُلُوسٌ فِي نَادِيْهِمْ، فَلَمَّا نَظَرَ إلَيْهِ سَعْدٌ مُقْبلاً؛ قَالَ: أحْلِفُ باللهِ لَقَدْ جَاءَكُم أُسَيْدُ بغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذهَبَ مِنْ عِنْدِكُمْ، فَلَمَّا وَصَلَ إلَى عِنْدِهِمْ، قَالَ لَهُ سَعْدُ: مَا فَعَلْتَ ؟! قَالَ: كَلَّمْتُ الرَّجُلَيْنِ؛ فَوَاللهِ مَا رَأيْتُ بهِمَا بَأْساً وَقَدْ نَهَيْتُهُمَا فَقَالاَ: نَفْعَلُ، وَحُدِّثْتُ أنَّ بَنِي حَارِثَةَ خَرَجُوا إلَى أسْعَدِ بْنِ زُرَارَةَ لِيَقْتُلُوهُ لَمَّا عَرَفُوا أنَّهُ ابْنُ خَالَتِكَ لِيُحَقِّرُوكَ. فَقَامَ سَعْدٌ مُغْضِباً مُبَادِراً لِلَّذِي ذكَرَهُ فَأخَذ الْحَرْبَةَ مِنْهُ ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ مَا رَأيْتُكَ أغْنَيْتَ شَيْئاً؛ وَمَضَى إلَيْهِمَا؛ فَلَمَّا رَآهُمَا مُطْمَئِنَّيْنِ عَرَفَ أنَّ أُسَيْداً مَا فَعَلَ ذلِكَ إلاَّ لِيَسْتَمِعَ مِنْهُمَا، فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَبَسِّماً، ثُمَّ قَالَ لأَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ: يَا أبَا أمَامَةَ؛ لَوْلاَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الْقَرَابَةِ مَا رُمْتَ هَذا مِنِّي تَغْشَّانَا فِي دِيَارِنَا بمَا نَكْرَهُ، فَقَالَ لَهُ مُصْعَبُ: اُقْعُدْ وَاسْمَعْ؛ فَإنْ رَضِيْتَ أمْراً وَرَغِبْتَ فِيْهِ قَبِلْتَهُ، وَإنْ كَرِهْتَهُ عَدَلْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَهُهُ، فَرَكَزَ حَرْبَتَهُ وَجَلَسَ؛ فَعَرَضَ عَلَيْهِ الإسْلاَمَ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، قَالَ: فَعَرَفْنَا وَاللهِ فِي وَجْهِهِ الإسْلاَمَ قَبْلَ أنْ يَتَكَلَّمَ بهِ، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ تَصْنَعُونَ إذا أسْلَمْتُمْ ؟ قَالُوا: تَغْتَسِلُ؛ وَتُطَهِّرُ ثَوْبَكَ؛ وَتَشْهَدُ أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ؛ وَتُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، فَقَامَ وَاغْتَسَلَ وَغَسَلَ ثَوْبَهُ وَشَهِدَ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ.

ثُمَّ أخَذ حَرْبَتَهُ وَمَضَى إِلَى نَادِي قَوْمِهِ وَمَعَهُ أسَيْدُ بْنُ حُضَيْرِ الأَوْسِيُّ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ؛ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ؛ كَيْفَ تَعْلَمُونَ أمْرِي فِيكُمْ ؟ قَالُوا: سَيِّدُنَا وَأفْضَلُنَا رَأياً[١]، قَالَ: فَإِنَّ كَلاَمَ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ. قَالَ: فَمَا أمْسَى فِي دَار بَنِي الأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلاَ امْرَأةٌ إلاَّ مُسْلِماً وَمُسْلِمَةً، وَرَجَعَ أسْعَدُ وَمُصْعَبُ إِلَى مَنْزِل أسْعَدِ بْنِ زُرَارَةَ فَأقَامَا عِنْدَهُ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الإِسْلاَمِ، فَلَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنَ الأَنْصَار إلاَّ وَفِيْهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مُسْلِمُونَ.

ثُمَّ إنَّ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ وَخَرَجَ مَعَهُ مِنَ الأَنْصَار مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ سَبْعُونَ رَجُلاً مِنْ حُجَّاجِ قَوْمِهِمْ مِنْ أهْلِ الشِّرْكِ حَتَّى قَدِمُوا مَكَّةَ، فَوَاعَدُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ الْعَقَبَةَ مِنْ أوْسَطِ أيَّام التَّشْرِيْق؛ وَهِيَ بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ الثَّانِيَةِ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الْحَجِّ وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَاعَدْنَا فِيْهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَعَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ عَمْرِو ابْنِ حَرَامٍ أبو جَابرٍ أخْبَرْنَاهُ؛ وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ مِنْ قَوْمِنَا إِيْمَانَنَا، فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ: يَا أبَا جَابر[٢]؛ إنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا وَإنَّا نَرْغَبُ لَكَ فِيْمَا نَرْغَبُ لأَنْفُسِنَا، وَدَعَوْنَاهُ إِلَى الإِسْلاَمِ وَأخْبَرْنَاهُ بِمِيْعَادِ رَسُول اللهِ ﷺ، فَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ وَكَانَ نَقِيّاً، فَبِتْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا، حَتَّى إذا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا لِمِيْعَادِ رَسُول اللهِ ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِيْنَ؛ حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْب عِنْدَ الْعَقَبَةِ، وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلاً[٣] وَمَعَنَا امْرَأتَانِ مِنْ نِسَائِنَا: نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ مِنْ نِسَاءِ بَنِي النَّجَّار؛ وَأسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيٍّ مِنْ نِسَاءِ بَنِي سَلَمَةَ، فَاجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْب نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ إلاَّ أنَّهُ أحَبَّ أنْ يَحْضُرَ مَعَ ابْنِ أخِيْهِ وَيَتَوَثَّقَ لَهُ، فَلَمَّا جَلَسَ كَانَ أوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ الْعَبَّاسُ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ - وَكَانَتِ الْعَرَبُ تُسَمِّي الأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ باسْم الْخَزْرَجِ - إعْلَمُوا أنَّ مُحَمَّداً مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ؛ هُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، وَأرَاهُ قَدْ أبَى إلاَّ اللُّحُوقَ بِكُمْ وَالانْقِطَاعَ إلَيْكُمْ، فَلَمَّا كُنْتُمْ تَرَوْنَ أنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إلَيْهِ

---

(١) في المخطوط: (وأفضلنا رباً).

(٢) في المخطوط: (يا جابر).

(٣) في السيرة النبوية لابن هشام: ((ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً)).

وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ؛ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذلِكَ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ[١] بِهِ إِلَيْكُمْ ؟ فَمِنَ الآنَ فَدَعُوهُ؛ فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَرِفْعَةٍ وَمَنَعَةٍ.

قَالَ: فَقُلْنَا: سَمِعْنَا قَوْلَكَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَخُذْ لِنَفْسِكَ وَرَبِّكَ مَا شِئْتَ، فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَلَى الْقُرْآنَ وَدَعَا إِلَى اللهِ وَرَغَّبَ فِي الإِسْلاَمِ، وَقَالَ:[أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي[٢] مَا تَمْنَعُونَ أَنْفُسَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ]. قَالَ: فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ[٣] بِيَدِهِ؛ ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيّاً نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ أَبْنَاءَنَا، بَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ؛ فَنَحْنُ أَهْلُ الْحَرْبِ وَنَحْنُ أَهْلُ الْحَلَقَةِ وَرِثْنَاهَا صَاغِراً عَنْ كَابِرٍ[٤]. ثُمَّ قَالَ أَبو الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّاسِ عُهُوداً وَنَحْنُ قَاطِعُوهَا، فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: [بَلِ الدَّمُ الدَّمُ؛ وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ، وَأَنْتُمْ مِنَّا وَأَنَا مِنْكُمْ، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ].

ثُمَّ قَالَ: [أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَي عَشَرَ نَقِيْباً كُفَلاً عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيْهِمْ كَكَفَالَةِ الْحَوَارِيِّيْنَ بِعِيْسَى ؏]. فَأَخْرَجُوا إِثْنَي عَشَرَ نَقِيْباً، تِسْعَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ؛ وَثَلاَثَةٌ مِنَ الأَوْسِ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا لِبَيْعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ عَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ الأَنْصَارِيُّ: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ؛ هَلْ تَدْرُونَ عَلَى مَا تُبَايِعُونَ؛ إِنَّمَا تُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِ[٥] الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ إِذَا انْتُهِكَتْ أَمْوَالُكُمْ بِالأَخْذِ، وَأَشْرَافُكُمْ بِالْقَتْلِ أَسْلَمْتُمُوهُ ؟! فَمِنَ الآنَ؛ فَهُوَ وَاللهِ إِنْ فَعَلْتُمْ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ عَلَى نُهَيْكَةِ الأَمْوَالِ[٦] وَقَتْلِ الأَشْرَافِ، فَخُذُوهُ فَهُوَ وَاللهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُهُ عَلَى مُصِيْبَةِ الأَمْوَالِ وَقَتْلِ الأَشْرَافِ؛ فَمَا لَنَا بِذلِكَ يَا

(١) في المخطوط: (بعد الخزرج).

(٢) في المخطوط: (لا تمنعوني).

(٣) في المخطوط: (البراء بن معذور).

(٤) في السيرة النبوية: (كابراً عن كابرٍ).

(٥) (حرب) هذه الزيادة للضرورة وليست لابن هشام: ج ٢ ص٨٨.

(٦) من المخطوط وكما في السيرة النبوية: (نُهكَةِ الأموالِ) أو نُهيكَةِ الأموال: نقصُها.

رَسُولَ اللهِ إنْ نَحْنُ وَفَّيْنَا ؟ قَالَ: [لَكُـمُ الْجَنَّـةُ]. قَـالُوا: ابْسُـطْ يَـدَكَ؛ فَبَسَـطَ يَـدَهُ، فَبَايَعُوهُ.

فَأَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِهِ: الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ؛ ثُمَّ بَايَعَ الْقَوْمُ وَاحِداً وَاحِداً، قَالَ: فَلَمَّا بَايَعْنَا صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأسِ الْعَقَبَةِ بِأنْفَذِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ أحْيَاءٌ كَثِيْرَةٌ، فَقَالَ ﷺ: [هَذَا عَدُوُّ اللهِ شَيْطَانُ الْعَقَبَةِ] ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [امْضُوا إلَى رِحَالِكُمْ]. فَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بالْحَقِّ نَبِيّاً؛ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيْلَنَّ غَداً عَلَى أهْلِ مِنَى بِأسْيَافِنَا، فَقَالَ ﷺ: [لَمْ أؤْمَرْ بذَلِكَ، إرْجِعُوا إلَى رِحَالِكُمْ].

قَالَ: فَرَجَعْنَا إلَى مَضَاجِعِنَا فَبِتْنَا، فَلَمَّا أصْبَحْنَا غَدَتْ عَلَيْنَا جُلَّةُ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَنَا: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ؛ بَلَغَنَا أنَّكُم جِئْتُمْ صَاحِبَنَا هَذَا لِتَسْتَخْرِجُوا ابْنَ أخِيْنَا مِنْ بَيْنِ أظْهُرِنَا وَبَايَعْتُمُوهُ عَلَى حَرْبِنَا، وَإنَّهُ وَاللهِ مَا حَيٌّ مِنَ الْعَرَبِ أبْغَضُ إلَيْنَا أنْ تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنْكُمْ، فَانْبَعَثَ مَنْ هُنَاكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِاللهِ مَا كَانَ هَذَا شَيْءٌ وَمَا عَلِمْنَا، وَصَدَقُوا لأنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا عَلَى بَيْعَتِنَا، فَجَعَلَ بَعْضُنَا يَنْظُرُ إلَى بَعْضٍ.

ثُمَّ انْصَرَفَ الأنْصَارُ إلَى الْمَدِيْنَةِ وَقَدْ شَدُّوا الْعَقْدَ، فَلَمَّا قَدِمُوا أظْهَرُوا الإسْلاَمَ بِهَا، وَبَلَغَ ذلِكَ قُرَيْشاً، فَآذوا أصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ ﷺ لأصْحَابِهِ: [إنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إخْوَاناً وَمَنْزِلاً وَدَاراً تَأمَنُونَ فِيْهَا][(١)]. فَأمَرَهُمْ بِالْهِجْرَةِ إلَى الْمَدِيْنَةِ وَاللُّحُوقِ بِإخْوَانِهِمْ مِنَ الأنْصَارِ، فَأوَّلُ مَنْ هَاجَرَ إلَى الْمَدِيْنَةِ: أبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الأسَدِ الْمَخْزُومِيُّ؛ ثُمَّ عَامِرُ بْنُ رَبِيْعَةَ وَمَعَهُ امْرَأتُهُ لَيْلَى بِنْتُ أبِي خَيْثَمَةَ؛ ثُمَّ عَبْدُاللهِ بْنُ جَحْشٍ، ثُمَّ تَتَابَعَ[(٢)] أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أرْسَالاً إلَى الْمَدِيْنَةِ، فَأقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ يَنْظُرُ أنْ يُؤْذَنَ لَهُ فِي الْهِجْرَةِ إلَى أنْ أذِنَ لَهُ.

فَقَدِمَ الْمَدِيْنَةَ؛ فَجَمَعَ اللهُ أهْلَ الْمَدِيْنَةِ أوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا بِالإسْلاَمِ، وَأصْلَحَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ بِرَسُولِهِ، وَرَفَعَ عَنْهُمُ الْعَدَاوَةَ الْقَدِيْمَةَ، وَألَّفَ بَيْنَهُمْ). وذلكَ قولهُ عَزَّوَجَلَّ:

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص١١١.
(٢) في المخطوط: (تبايع).

(وَلاَ تَفرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْدَاءً فَألَّفَ بَيْنَ قُلُوبكُمْ) أي بالإسلام (فَأصْبَحْتُمْ بنِعْمَتِهِ إخْوَاناً) أي فَصِرْتُمْ، ونظيرُهُ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١) ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(٢) ﴿إنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً﴾(٣).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (بنِعْمَتِهِ) أي بدينِ الإسلامِ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (إخْوَاناً) أي في الدين والولايَة، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ﴾(٤)، قالَ ﷺ:[لاَ تَحَاسَدُواْ وَلاَ تَبَاغَضُواْ وَلاَ تَنَابَزُواْ وَلاَ تَنَاجَشُواْ؛ وَكُونُواْ عِبَادَ اللهِ إخْوَاناً، الْمُسْلِمُ أخُو الْمُسْلِمِ؛ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا -وَأشَارَ بيَدِهِ إلَى صَدْرِهِ- حَسْبَ امْرِئ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقُرَ أخَاهُ الْمُسْلِمَ](٥).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ ؛ أي كنتم في الجاهليَّة على طَرَفِ هُوَّةٍ مِنَ النَّارِ؛ أيْ كنتم أشْرَفْتُمْ على النار؛ وَكِدْتُمْ تقعونَ فيها، أو أدْرَكَكُمُ الموتُ على الكفرِ؛ فَأنْقَذَكُمُ اللهُ مِنْهَا؛ أي خلَّصَكم من النار والحفرةِ بالنَّبيِّ ﷺ والإيْمَان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ التي مثلَ هَذا البيانِ الذي تُلِيَ عليكُم يُبَيِّنُ اللهُ لكم الدَّلالاتِ والْحُجَجِ في الأوامرِ والنَّواهي لكي تهتدُوا من الضلالةِ، وتكونوا على رجاءِ الهدايةِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ أي لِيَكُنْ منكم جَمَاعَةٌ يدعونَ إلى الصُّلحِ والإحسانِ، ويأمرونَ بالتوحيدِ واتِّباعِ مُحَمَّدٍ ﷺ وسائرِ الطَّاعات الواجبةِ؛ ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ ؛ والشِّرْكِ وسائرِ ما لا يُعْرَفُ في شريعةٍ ولا سُنَّةٍ، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ، أي النَّاجُونَ من السَّخَطِ والعذاب، وإنَّما قال: (وَلْتَكُنْ مِنكُمْ) ولم يقُلْ: وليَكُن مِنكُم جَمِيْعُكُم؛

---

(١) المائدة / ٣٠ . (٢) المائدة / ٣١ .

(٣) الكهف / ٤١ . (٤) الحجرات / ١٠ .

(٥) عن أبي هريرة ﷺ؛ رواه البخاري في الصحيح: كتاب النكاح: باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح: الحديث (٥١٤٣)، وفي الأدب: باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر: الحديث (٦٠٦٤). وأخرجه همام في صحيفته: الحديث (٦)، تحقيق رفعت فوزي في المطلب. والحديث مشهور.

لأنَّ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عنِ المنكر فَرْضٌ على الْكِفَايَةِ، إذا قامَ بـه البعـضُ سَـقَطَ عن الباقين[١]، ويجوزُ أن يكون المرادُ بالأُمَّةِ العلماءَ في هذه الآية الذيـن يُحْسِـنُونَ مـا يَدْعُونَ إليه.

وذهب بعضُ المفسِّرين الى أنَّ المعنى: ولتكونوا كُلُّكُمْ، لكنْ (مِنْ) هُنـا دخلـت للتوكيدِ وتخصيصِ المخاطَبين من سائرِ الأجناسِ كما في قولهِ تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[٢] أي فاجتنبوا الأوثانَ فإنَّها رجسٌ؛ لا أنَّ المرادَ: فاجتنبوا بَعْضَ الأوثانِ دون بعضٍ، واللامُ في (وَلْتَكُنْ) لامُ الأمرِ.

وقولهُ: (يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ) أي إلى الإسلامِ، ثم النهيُ عن المنكرِ على مراتـبٍ؛ أوَّلُها: الوعظُ والتَّخويفُ، فإن زالَ بذلكَ لم يَجُزْ للناهي أن يَتَعَدَّى عنـهُ إلى غـيره مـا فوقَه، ثم بالإيذاءِ والنِّعال، ثـم بالسَّـوْطِ، ثـم بالسِّـلاح والقتـال؛ لأن المقصـودَ زوالُ المنكرِ.

فأمَّا إذا كان النَّاهي عن المنكرِ خائفاً على نفسِه، فقد قال ﷺ: [مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإنْ لَـمْ يَسْـتَطِعْ فَبقَلْبـهِ؛ وَذلِـكَ أضْعَـفُ الإيْمَان][٣]. وقالَ ﷺ:[مَنْ أمَرَ بالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَـنِ الْمُنْكَـرِ فَـهُوَ خَلِيْفَـةُ اللهِ فِـي أرْضِهِ؛ وَخَلِيْفَةُ رَسُولِهِ؛ وَخَلِيْفَةُ كِتَابهِ][٤]. وقالَ ﷺ: [أؤْمُـرُواْ بـالْمَعْرُوفِ وَإنْ لَـمْ تَعْمَلُواْ بِهِ كُلِّهِ، وَانْهَواْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإنْ لَمْ تَنْتَهُوا عَنْهُ كُلِّهُ][٥].

---

(١) يريد أذا أقامه البعض فأنجزهُ عملاً وحقق هدفه سقط عن الباقين؛ وإلا فهو مطلوب مـراد علـى سبيل التحقيق والإنجاز، فيجب على المخاطبين المبادرة إلى إنجازه وتحقيقه.

(٢) الحج / ٣٠ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسـند: ج ٣ ص٥٤ و٢٠ و٤٩. ومسـلم في الصحيـح: كتـاب الإيمـان: باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمـان: الحديـث (٤٩/ ٧٨). وأبـو داود في السـنن: كتـاب الصلاة: باب الخطبة يوم العيد: الحديث (١١٤٠)، وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه الديلمي في الفـردوس بمـأثور الخطـاب: النـص (٥٨٣٤) عـن ثوبـان. وابـن عـدي في الكامل: ج ٧ ص٢٣٠: الترجمة (١٨/ ١٦١٦) وضعَّفه بـ (كادح بن رُحمة العُرَني).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٧ ص٣٢٩: الحديث (٦٦٢٤)، وأولـه: [لاَ تَـأمُرْ بـالْمَعْرُوفِ حَتَّى تَعْمَلَ بِهِ]. في مجمع الزوائد: ج ٧ ص٢٧٧؛ قـال الهيثمـي: ((رواه الطـبراني في الصغـير=

وقال عليٌّ ﷺ: (أفْضَلُ الْجِهَادِ الأَمْرُ بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَشَنْأنُ الْفَاسِقِيْنَ)(١). وقَالَ أبو الدَّرْدَاءِ: (لَتَأمُرُنَّ بالْمَعْرُوفِ وَتَنْهُوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ وإلاَّ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ظَالِماً لاَ يُجِلُّ كَبِيْرَكُمْ وَلاَ يَرْحَمُ صَغِيْرَكُمْ، وَيَدْعُو أخْيَارُكُمْ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهَمُ؛ يَسْتَنْصِرُونَ فَلاَ يُنْصَرُونَ؛ وَيَسْتَغْفِرُونَ فَلاَ يُغْفَرُ لَكُمْ). وقال حذيفة: (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لأَنْ يَكُونَ فِيْهِمْ جِيْفَةُ حِمَار أحَبُّ إلَيْهِمْ مِنْ مُؤْمِنٍ يَأْمُرُهُمْ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ)(٢)، وقال الثوريُّ: (إذا كَانَ الرَّجُلُ مَحْبُوباً فِي جِيْرَانِهِ مَحْمُوداً عِنْدَ إخْوَانِهِ، فَاعْلَمْ أنَّهُ مُدَاهِنٌ)(٣).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ ؛ أي ولا تكونُوا كاليهودِ والنصارى الذين اختلفُوا فيما بينَهم وصارُوا فِرَقاً وشِيَعاً، (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ) الكتابُ في أمرِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ على تفريقِهم واختلافِهم. قالَ بعضُهم: لاَ تَكُونُوا كَالَّذِيْنَ تفرَّقوا واختلفُوا، قال: وهُمُ الْمُبْتَدِعَةُ من هذه الأُمَّة.

ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى وقتَ العذاب العظيم الذي يصيبُهم؛ فقالَ تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ؛ معناهُ: (وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) وهو يومُ القيامةِ، وانتصبَ على الظَّرف أي فِي يومٍ. قرأ يحيى بن وثَّاب: (تِبْيَضُّ) (وَتِسْوَدُّ) بكسرِ التَّاء على لُغة تَميم. وقرأ الزهريُّ (تَبْيَاضُّ) و(تَسْوَادُّ).

ومعنى الآيةِ: تَبْيَضُّ وجوهُ المخلصينَ للهِ بالتوحيدِ؛ أي تُشْرِقُ فتصيرُ كالثَّلج بَيَاضاً والشَّمس ضياءً، وَتَسْوَدُّ وجوهُ الكفَّار والمنافقين مِنَ الْحُزْنِ حين يُدْعَوْنَ إلى السُّجودِ فلا يستطيعونَ. وعن ابنِ عبَّاس قال: (مَعْنَاهُ: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهُ أهْلِ الْعِلْمِ

=والأوسط من طريق عبدالسلام بن عبدالقدوس بن حبيب عن أبيه، وهما ضعيفان)).

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ترجمة الإمام علي ﷺ: ج ١ ص٧٤.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ١ ص٣٨٩.

(٣) ينظر: المصدر نفسه.

وَالسُّنَّةِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ)[١]. وقال بعضُهم: البياضُ مِنَ الوجوهِ إشْرَاقُهَا وَاسْتِبْشَارُهَا وسُرُورُهَا بعمَلِها[٢] وبثواب الله، وَاسْوِدَادُهَا لِحُزْنِـهَا وكَآبَتِـهَا وكُسُـوفِهَا بعمَلِها وبعقاب ربها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾؛ جوابهُ محذوفٌ؛ أي يقالُ لَهُمْ: (أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ) قيلَ: هم قومٌ من أهلِ الكتاب كانوا مصدِّقين بأنبيائِهم مصدِّقينَ بمُحَمَّدٍ ﷺ قبلَ أن يُبعث، فلما بُعِثَ كَفَرُوا به، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ). وقيلَ: هم مَن كفرَ باللهِ يومَ الميثاق حين أُخْرِجُوا من صُلْبِ آدمَ عليه السلام. وقيلَ: هُمُ الخوارجُ وأهلُ البدَعِ كلِّها، وقيل: هم أهْلُ الرِّدَّةِ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾؛ وهم المؤمنونَ الذين ابْيَضَّتْ وجوهُهم في الآخرةِ في جَنَّةِ اللهِ تعالى، صارُوا إليها برحمتِه هم فيها مقيمون دائمون. وفي الآيةِ بيانُ أنَّ الجنَّةَ لا تُنَالُ إلاَّ برحمةِ الله وإن اجتهدَ الْمُجْتَهِدُ في طاعتهِ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي هذه حُجَجُ اللهِ يَنْزِلُ بها جبريلُ عليه السلام فيقرأها عليكَ بالصدق؛ ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾؛ أي للجِنِّ والإنسِ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾؛ مَعْنَاهُ: جميعُ ما في السَّموات والأرضِ من الخلق عبيدُ الله ومخلوقُه فلا يريدُ ظلمَهم، فإنَّ مَن بَلَغَ غِنَاهُ هذا المبلغَ لا يحتاجُ إلى الظُّلم. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ) أي عواقبُ الأمور في الآخرةِ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾؛ خطابٌ لأصحاب رسول الله ﷺ،

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٢٩١؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم وأبو نصر في الإبانة= والخطيب في تاريخه واللالكائي في السنة)).

(٢) في المخطوط: (بعلمها).

وهوَ يَعُمُّ سَائِرَ أُمَّتِهِ. قال الحسنُ: (نَحْنُ آخِرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ)(١). وقيل معنى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ) أي كنتم في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وقيل: كنتم مُذْ كُنْتُمْ، وقيلَ: الكافُ زائدةٌ؛ أي أَنْتُمْ خَيْرُ أُمَّـةٍ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) أي بالتَّوحيدِ واتِّباعِ الشَّريعةِ، (وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) أي عن الشِّرْكِ والظُّلمِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتُؤْمِنُونَ بالله) أي تُوَحِّدُونَ اللهَ تعالى بالإيْمانِ باللهِ وتصديقِ رُسُلِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ؛ لأنَّ مَن كَفَرَ بالنَّبيِّ ﷺ لَمْ يُوَحِّدِ اللهَ تعالى، ودليلُ هذا التأويلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ ؛ أي لو صَدَقَ اليهودُ والنصارى مع إيْمانِهم باللهِ تعالى إيْمَانَهم بنَبيِّهِ ﷺ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنَ الإقامةِ على دِينهم.

وعن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: [أَنْتُمْ تُتِمُّونَ عَلَى سَبْعِيْنَ أُمَّـةٍ؛ أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ](٢). وقال ﷺ: [أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ ومِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ](٣). وقالَ ﷺ:[إنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتِي](٤). وقال ﷺ: [أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ؛ إذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أعْطِيَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْ هَـذِهِ الأُمَّـةِ رَجُلاً مِنَ الْكُفَّارِ؛ فَيُقَالُ لَهُ: هَذا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّار](٥).

وقيل لعيسَى عليه السلام: يَا رُوحَ اللهِ؛ هَلْ بَعْدَ هَذِهِ الأُمَّةِ أُمَّةٌ ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ أُمَّةُ أَحْمَدَ ﷺ عُلَمَاءُ حُكَمَاءُ حُلَمَاءُ؛ أَبْرَار أَتْقِيَاءُ كَأَنَّهُمْ مِنَ الْعِفَّةِ أَنْبِيَاءُ؛ يَرْضَوْنَ مِنَ اللهِ بالْيَسِيْرِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٠٢٤) عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، عن رسول الله ﷺ. وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : النص (٦٠٢٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٤٧ و٣٥٥ و٣٦١. والترمذي في الجامع الصحيح: أبواب صفة الجنة: الحديث (٢٥٤٦) عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ ... ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٩٤٠٦) بمعناه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٦٩؛ قال الهيثمي: ((إسناده حسن)). والحديث (٤١٦٥) عن ابن عباس؛ قال الهيثمي: ((ضعيف)).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (١) عن أبي موسى الأشعري بإسناد حسن. وأخرجه بمعناه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٤٠٨.

مِنَ الرِّزْقِ؛ وَيَرْضَى اللهُ تَعَالَى مِنْهُمْ بالْيَسِيْرِ مِنَ الْعَمَلِ؛ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بشَـهَادَةِ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ.

قولهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ ؛ يعني أهلَ الكتاب منهمُ المؤمنـونَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمَ وأصحابُـه، وسـائرُ مـن أسـلمَ مِـن أهـلِ الكتـاب. ﴿ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ أي الكافرونَ الخارجونَ عن أمرِ الله، وهم الذين لَمْ يُسْـلِمُوا منهُم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ ﴾ ؛ أي لن يَصِلُوا إلى ضَرَرِكُمْ أيُّها المسلمونَ إلاّ أنْ يؤذوكُم باللِّسـان بقولِـهم: عُزَيْـرٌ ابْـنُ اللهِ؛ وَالْمَسِـيْحُ ابْـنُ اللهِ؛ وَثَالِثُ ثَلاَثَـةٍ؛ وَالْبُـهْتُ وَالتَّحْرِيْـفُ. وقـال مقـاتلُ: (إنَّ رُؤَسَـاءَ الْيَـهُودِ: كَعْـبُ بْـنَ الأَشْرَفِ؛ وَأبُو رَافِعٍ؛ وَأبُو يَاسِرٍ؛ وَابْنُ صُورِيّا وَغَيْرُهُمْ عَمَدُواْ إلَى مُؤْمِنِيْهِمْ كَعَبْـدِاللهِ ابْنِ سَلاَمٍ وَأصْحَابهِ فَآذوْهُمْ لإسْلاَمِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (لَـنْ يَضُرُّوكُـمْ إلاَّ أذَى) أيْ باللِّسَانِ؛ يَعْنِي وَعِيْداً وَطَعْناً بألْسِنَتِهِمْ وَدُعَاءً إلَى الضَّلاَلَةِ وَكَلِمَةَ كُفْـرٍ تَسْـمَعُونَهَا مِنْهُمْ فَتَتَأذوْنَ بهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ أي يعطوكُم الأدبَـارَ مُنْـهَزِمِيْنَ؛ يعـني لا يَمنعُكـم أحـدٌ مـن سَـبْيكُمْ إيَّـاهم وقتلِكـم نفوسَهم، وقوله تعالى: (ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ) جوابُ الشرطِ، إلاّ أنهُ استئنافٌ لأجـلِ رأسِ الآيِ؛ لأنَّها على النونِ كقولهِ تعالى: ﴿وَلاَ يُؤْذنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[1] وتقديره: ثُمَّ هُـمْ لا يُنْصَرُونَ، وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾[2] إذ لم يكن رأسَ آيةٍ. قال الشاعرُ:

أَلَـمْ تَسْـأَلِ الرَّبْـعَ الْقَدِيـمَ فَيَنْطِـقُ ....

أي فهو ينطق.

قوله عزَّ وَجَّـلَّ: ﴿ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ معناهُ: جُعِلَتْ عليهم مَذلَّةُ القتلِ والسَّبي أينمـا وُجِـدُوا أخِـذوا. قَوْلُـهُ

---

(١) المرسلات / ٣٦ . (٢) فاطر / ٣٦ .

تَعَالَى: (إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ) أي إلاَّ أن يعتَصِموا بعهدِ اللهِ وهو الإسلامُ. وقوله: (وَحَبْلٍ مِنَ النَّـاسِ) أي عـهدٍ وأمَـانٍ وعقـدِ ذِمَّـةِ المسـلمينَ عليـهم؛ يـؤدُّون إليـهم الخـراجَ ليؤَمِّنوهُم. وفي الآيةِ اختصارٌ؛ تقديرهُ: إلاَّ أنْ يَعْتَصِمُوا بِحَبْلٍ مِن اللهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي انصرفُـوا بغضـبٍ؛ أي استَوْجَبُوهُ مِـن اللهِ عَـزَّ وَجَـلَّ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ ؛ أي جُعِلَ عليهم زِيُّ الفقرِ والبُؤْسِ حتَّى صاروا من الذِّلَّةِ إلى ما لا يبلغُه أهلُ مِلَّةٍ بعدَ أن كانوا ذوي عِزٍّ ويَسَارٍ ومَنَعَةٍ، فترى الرجلَ منهم عليه البُؤْسُ والمسكنةُ وأنه لَغَنِـيٌّ، ولم يبقَ لليهودِ منعةٌ في موضعٍ من المواضع.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ أي ذلـك الـذُّلُّ والغضـبُ عليـهم مـن اللهِ بكفرِهـم بمُحَمَّـدٍ ﷺ والقـرآنِ ورضَـاهُم بقتـلِ الأنبيـاء بغـيرِ حـقٍّ وعصيانِهم ومجاوزاتِهم الحدَّ.

قوله عزّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس ومقاتلُ: (لَمَّا أسْلَمَ عَبْدُاللهِ ابْنُ سَلاَمٍ؛ وَثَعْلَبَةُ بْنُ سَعْيَةَ[1]؛ وَأسَيْدُ بْنُ سَعْيَةَ؛ وأسَدُ بْـنُ عُبَيْـدٍ[2] وَمَـنْ أسْـلَمَ مِـنَ الْيَهُودِ؛ قَالَتْ أحْبَارُ الْيَهُودِ: مَا آمَنَ بمُحَمَّدٍ إلاَّ أشْرَارُنَا، لَوْ كَانُوا مِنْ أخْيَارِنَـا مَـا تَرَكُـوا دِينَ آبَائِهِمْ، ثُمَّ قَالُوا لَهُمْ: قَدْ خَسِرْتُمْ حِيْنَ اسْتَبْدَلْتُمْ دِيْنَكُمْ بدِيْنٍ غَيْرِهِ. فَـأنْزَلَ اللهُ هَـذِهِ الآيَةَ)[3].

وقيل: لَمَّا ذكرَ اللهُ في الآياتِ المتقدِّمة مَن آمَنَ مِن أهلِ الكتاب، ومَن لَمْ يُؤْمِنْ. قال عَزَّ وَجَلَّ:(لَيْسُوا سَوَاءً) أي ليسَ الفريقانِ سواءً، وهذا وَقْـفٌ تَـامٌّ، ثـم استأنفَ

---

(١) في المخطوط: (شعبة).

(٢) اشتبه على الناسخ الاسمين فجعلهما اسماً واحداً، فكتب: (وأسيد بن عبيد)، والصحيـح كمـا أثبتناه.

(٣) أخرجـه الطـبري في جـامع البيـان: النـص (٦٠٤٤). وفي الـدر المنثـور: ج ٢ ص٢٩٧؛ قـال السيوطي: ((أخرجه ابن إسحق وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حـاتم والطـبراني والبيـهقي في الدلائل وابن عساكر، عن ابن عباس)). وفي السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص٢٠٦.

قولَهُ تعالى: (مِنْ أهْلِ الْكِتَاب أمَّةٌ قَائِمَةٌ) أي عادلةٌ مستقيمة مهتديةٌ. وقال الأخفشُ: (ذُو أمَّةٍ قَائِمَةٍ؛ أيْ ذِي طَرِيْقَةٍ قَائِمَةٍ)، قال: (وَالأُمَّةُ الطَّرِيْقَةُ).

ومعنى قولهِ: (يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَاءَ اللَّيْلِ) يعني يَقْرَأونَ القرآنَ في ساعاتِ اللَّيلِ، (وَهُمْ يَسْجُدُونَ) أي وهُمْ يُصَلُّونَ؛ لأنَّ القرآنَ لا يكونُ في السجودِ، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾(١) أي يُصَلُّونَ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإذا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾(٢) أي صَلُّوا. وإنَّما ذُكرت الصلواتُ باسمِ السجودِ؛ لأن السجودَ نِهايةُ ما فيها من التواضُعِ. قال ابنُ مسعودٍ ﷺ: (أرَادَ بِهِ صَلاَةَ الْعَتْمَةِ)(٣). وقيل: أرادَ به ما بينَ المغرب والعشاءِ. واختلفَ النُّحاة في واحدِ الأنا؛ قال بعضُهم: أنَاءُ مِثْلُ مَعَاءُ وَأمْعَاء. وقال بعضُهم: إنْي مثل نَحى وأنْحى.

وقال بعضُ المفسِّرين: في الآيةِ اختصارٌ وحَذْفٌ؛ تقديرهُ: مِن أهلِ الكتابِ أمةٌ قائمةٌ وأخرَى غيرُ قائمةٍ، وتركَ الأخرى اكتفاءً بذكرِ أحدِ الفريقين؛ قالوا: وهذا فعلٌ مجموع مقدَّمٌ كقولِهم: أكَلُونِي الْبَرَاغِيْثُ، وَذهَبُوا أصْحَابُكَ. وقال آخرونَ: تَمامُ الكلامِ عند قولهِ (لَيْسُوا سَوَاءً) يعني المؤمنينَ والفاسقينَ؛ لأن ذِكر الفريقين قد جرَى في قولهِ: (مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ). ثم وَصَفَ الفاسقينَ فقال: (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلاَّ أذًى)، ووصفَ المؤمنين فقالَ (أمَّةٌ قَائِمَةٌ) الآيةُ.

قوله عزّ وَجَلَّ: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (لَمَّا أسْلَمَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وَمَنْ مَعَهُ؛ قَالَتِ الْيَهُودُ: مَا آمَنَ بمُحَمَّدٍ إلاَّ أشْرَارُنَا، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ؛ إلاَّ أنَّها وَإنْ نَزَلَتْ فِيْهِمْ فَمِنْ حَقِّ كُلِّ مُسْلِمٍ أنْ يَكُونَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ). ومعنى الآيةِ: يُصَدِّقُونَ باللهِ وبالبَعثِ بعدَ الموتِ. ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ أي باتِّباعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ ؛ أي عن اتِّباعِ الْجِبْتِ والطَّاغُوتِ ومخالفةِ النبيِّ ﷺ.

---

(١) الأعراف / ٢٠٦ .

(٢) الفرقان / ٦٠ .

(٣) في الدر المنثور: ج ٢ ص٢٩٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه الفريابي والبخاري في تاريخه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ؛ أي يُبَـادِرُونَ إلى الطاعـاتِ والأعمَال الصالِحـة، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ ؛ أي مِـن المؤمنـين المخلصينَ وهم أبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وسائرُ الصحابةِ.

قولـه عـزّ وَجَـلَّ: ﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾ ؛ أي فلـن تُجْحَدُوهُ، يعني تُجْزَوْنَ بـه وتُثَـابُونَ عليـهِ. قـرأ الأعمـش ويحيى وحمـزةُ والكسـائيُّ وحفص وخلفُ: (وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ) باليـاء فيـهما إخباراً عـنِ الأمَّـة القائمةِ. وقيل: راجعٌ إلى قولهِ (الصَّالِحِينَ). وقرأ الباقون بالتَّاء فيـهما علـى الخطـاب كقولهِ (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّـةٍ). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بأعمالِهم وثواب أعمالِهم.

قوله عزّ وَجَـلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ؛ معنـاهُ: إنَّ الذيـن جَحَـدُوا بمُحَمَّـدٍ والقـرآن لَـنْ تُغْنِـي عَنْـهُمْ أمْوَالُـهُمْ وَلاَ أوْلاَدُهُـمْ مِـنْ عَـذاب اللهِ شَـيْئاً، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ أي مُقِيمُونَ دائمونَ.

قوله عزّ وَجَـلَّ: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ ؛ معناهُ: مَثَلُ ما ينفـقُ اليـهودُ في اليهوديَّة على رؤسـائِهم وعلمَائـهم، ومـا ينفـقُ أهـلُ الأوثـان علـى أصنامِـهم في تظاهُرهم على النبيِّ ﷺ وإهلاكِهم مالَ أنفسِهم (كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا) بَرْدٌ شَدِيْدٌ. ويقـال: الصرُّ: صَوْتُ لَهَب النَّار الَّتِي تُحْرِقُ الزَّرْعَ، وقيل: الصَّرُّ: ريحٌ فيها صوتٌ ونارٌ[1].

قوله تعالى: (أَصَـابَتْ حَـرْثَ قَـوْمٍ) أي زرعَ قـومٍ ظَلَمُـوا (أنْفُسَـهُمْ) بـالكفرِ والمعصيةِ، ومنعِ حقِّ اللهِ عليهم (فَأَهْلَكَتْهُ) أي أحْرَقَتْهُ الريحُ فلم ينتفعوا منهُ بشـيءٍ في الدُّنيا، كذلك مَن ينفقُ في غـير طاعَـة الله لا ينتفـعُ بنفقتـهِ في الآخـرَة، كمـا لا ينتفـعُ صاحبُ هذا الزَّرعِ مِن زَرْعِهِ في الدُّنيـا. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ بإهلاكِ زَرْعِهِمْ؛ ﴿ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ ؛ بمَنْعِ حقِّ الله فيه وكفرِهم ومعصيتهم.

---

(١) الصَّرَّةُ، بالفتحِ: الصَّيْحَةُ. والصِّرُّ، بالكسر: بَرِدٌ يضربُ النباتَ والحرث. مختار الصحاح: (صرر)

قوله عزّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالًا ﴾ ؛ نزلتِ الآيةُ في الأنصار؛ كانوا قد ظَاهَرُوا اليهودَ حتى صارَ كأنَّ بينَهم نَسَباً، وكانوا يواصلونَهم ويُعاطِفونَهم حتى كان الرجلُ من الأنصار يتزوَّج فيهم فيختارُهم على قومهِ، فلما جَاءَ اللهُ بمُحَمَّدٍ ﷺ والإسلامُ وآمَنَ الأنصارُ بغَضَهُم اليهودُ، وكان الأنصارُ يُخالطونَهم ويُشاورونَهم، كما كانوا يفعلونَ قبلَ الإسلام للرِّضاعة والمصاهرةِ التي كانت بينهم، فنهَى اللهُ الأنصارَ بهذه الآيةِ وما بعدَها.

ومعناهَا: لا تَتَّخِذُوا دَخَلاً من غيرِكم يعني اليهودَ. وبطَانَةُ الرَّجُلِ: خَاصَّتُهُ وأهلُ سِرِّهِ الذينَ يَسْتَبْطِنُونَ أمْرَهُ، سُمُّوا بذلك على جهةِ التَّشَبُّهِ ببطانةِ الثَّوب التي تَلِي جِلْدَ الإنسان. وحرفُ (مِنْ) في قوله: (مِنْ دُونِكُمْ) لِلتَّبْيِيْنِ؛ أي لا تتَّخذوا الذينَ هم أسافلُ وأراذلُ بطَانَةً. قَوْلُهُ تَعَالَى (لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً) أي لا يُبْقُونَ غايةً، ولا يتركُونَ الجهدَ في إلقائِكم في الفسادِ، يقالُ: مَا أَلَوْتُ فِي الْحَاجَةِ جُهْداً؛ أي ما قَصَّرْتُ، ونصبَ (خَبَالاً) على المفعول الثاني؛ لأنه يتعدَّى إلى مفعولين[1]، وإن شئتَ على المصدر[2]، وإن شئتَ بنَزعِ الخافضِ؛ أي بالْخَبَال. وَالْخَبَالُ: الْفَسَادُ، ومثلهُ الْخَبَلُ أيضاً؛ يقالُ: رَجُلٌ خَبَلُ الرَّأي؛ فَاسِدُ الرَّأي؛ والانْخِبَالُ: أي الْجُنُونُ. وقال مجاهدُ: (نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مُؤْمِنِيْنَ كَانُوا يُصَافِحُونَ الْمُنَافِقِيْنَ وَيُخَالِطُوهُمْ؛ فَنَهَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذلِكَ)[3].

قوله عزّ وَجَلَّ: ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ ﴾ ؛ أي تَمَنَّوا إثْمَكُمْ وَضُرَّكُمْ وهَلاكَكُمْ، والعَنَتُ في اللُّغة: الْمَشَقَّةُ، يقالُ: أكَمَةٌ عَنُوتٌ؛ أي طويلةٌ شاقَّةُ المسلَكِ. وقرأ عبدُالله: (قَدْ بَدَا الْبَغْضَاءُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ) بالتذكير؛ لتقدُّم الفعلِ؛ ولأن معنى الْبَغْضَاءِ: الْبُغْضَ. قوله تعالى: ﴿ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ ؛ أي قد ظَهَرَتِ العداوةُ من ألسنَتِهم بالشَّتم والطَّعن، ﴿ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ ﴾ ؛ أي وما يُضْمِرُونَ في قلوبهم من القتلِ لو ظَفَرُوا بكم أعْظَمُ مِمَّا أظهرُوا لكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ ؛ أي أخبرنَاكم بما أخْفَوا وأبْدَوا بالدلالاتِ والعلاَماتِ، ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ؛ الْعَدُوَّ مِنَ الْوَلِيِّ.

---

(١) أي: (الأَلْوَ) يتعدى إلى مفعولين. (٢) أي: يخبلونكم خبالاً.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٠٧٥) عن ابن عباس، والنص (٦٠٧٦) عن مجاهد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ ؛ أي أنتُمْ يا هؤلاءِ المؤمنين تُحِبُّونَ اليهودَ الذين نَهَيْتُكُمْ عن مُبَاطَنَتِهِمْ للأسباب التي بينَكم من المصاهرةِ والرَّضاع والقرابَة والجِوار، (وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ) لِمَا بينكم وبينَهم من مُخالفةِ الدين، هذا قولُ أكثرِ المفسِّرين. وقالَ بعضُهم: معناهُ: تُحِبُّونَهُمْ؛ أي تريدون لَهُمُ الإسلامَ وهو خيرُ الأشياء، ولا يُحِبُّونَكُمْ لأنَّهم يَدْعُونَكُمْ إلى الكُفْرِ وهو الْهلاكُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ ؛ أي تؤمنونَ بالتَّوراةِ والانجيل وسائرِ كُتُب اللهِ، ولا يؤمنون هُم بذلكَ كُلِّهِ، يعني لا يؤمنونَ بكتَابكُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ ؛ يعني مُنَافِقِي أهلِ الكتاب، إذا لَقُوهُمْ قالُوا آمَنَّا بمُحَمَّدٍ أنهُ رَسُولٌ صَادِقٌ فيما يقولُ، ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ ﴾ ؛ فِيْمَا بَيْنَهُمْ؛ ﴿ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ ؛ أي أطرافَ الأصابعِ من الْحَنْقِ عليكُم لِمَا يرونَ من ائْتِلاَفِكُمْ وإصلاحِ ذاتِ بينِكم، وهذا مثلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِشِدَّةِ عداوةِ اليهود للمؤمنينَ. وواحد الأنَامِلِ: أنْمُلَةٌ بفتحِ الميم وضمِّها. قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ ؛ ليسَ على طريقِ الإيجاب؛ لأنه لو كانَ على طريقِ الإيجاب لَمَاتُوا كُلُّهُمْ مِن ساعتِهم، لكنَّ معناهُ: تَمُوتُونَ بغيظِكم ولا تبلغونَ أمَانِيَّكُمْ من قَهْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وأصحابهِ. قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بما في القلوب من البُغْضِ والعداوةِ وغيرِ ذلك. وفي الحديثِ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [لاَ تَسْتَضِيئُوا بنَارِ الْمُشْرِكِيْنَ][1] أي لا تَسْتَشِيْرُوا المشركينَ في شيءٍ من أموركُم .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ ؛ قرأ السلمي: بالياءِ، ومعنى الآيةِ: إنْ تُصِبْكُمْ أيُّها المؤمنون حَسَنَةٌ بظهُوركُم على عدوِّكم وغَلَبَتِكُمْ لَهُمْ أو الغنيمةِ والخصب تَسُؤْهُمْ تِلْكَ الحسنةُ؛ أي تُحْزِنُهُمْ؛ يعني اليهودَ، وإن تُصِبْكُمْ مِحْنَةٌ من جهةِ أعدائكم ونَكْبَةٌ أو جَدْبٌ يُعْجَبُوا بها.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٩٩. والنسائي في السنن: كتاب الزينة: باب لا تنقشوا على خواتيمكم عربياً: ج ٨ ص١٧٧.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ ؛ أي وإن تصبرُوا علـى أذى اليـهود والمنافقين وتتَّقُوا معصيةَ اللهِ وتخافوا ربَّكم، ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي لا يضرُّكم احتيالُهم لإيقاعِكم في الهلاكِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ؛ أي أحاطَ عِلْمُهُ وقدرتُه بأعمالِكم وبأعمالِهم.

قرأ أبو عمرو وابنُ كثير: (لاَ يَضِرْكُمْ) بكسرِ الضَّاد والتخفيفِ، وهو جَزْمٌ على جواب الجزاء. وقرأ الضحَّاك: (لاَ يَضُرْكُمْ) بالضمِّ وجزمِ الراء؛ مِن ضَارَ يُضَارُ يَضُورُ. وذكرَ القُرَّاءُ عنِ الكَسَائِيِّ: أنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ أهْلِ الْعَالِيَةِ يَقُولُ: لاَ يَنْفَعُنِي وَلاَ يَضُورُنِي. وقرأ الباقونَ بضمِّ الضادِ وتشديد الرَّاء: مِن ضَرَّ يَضِرُّ ضَرّاً. وفي رفعِ (يَضُرُّكُمْ) وجهان؛ أحدُهما: أنهُ أرادَ الجزمَ؛ وأصلهُ (يَضْرُرْكُمْ) فأُدغمتِ الراءُ في الراءِ، ونُقلت ضمَّةُ الراء الأُولى إلى الضَّادِ، وضُمَّت الراءُ الأخيرةُ اتِّباعاً لأقرب الحركات إليها وهي الضَّادُ طلباً للمشاكَلَةِ، والوجهُ الثاني: أنَّ (لاَ) بمعنى (لَيْسَ)، ويُضمر الفاءَ فيه؛ تقديرُهُ: وإنْ تَصْبِرُوا فليسَ يَضُرُّكُمْ، وَالضَّيْرُ وَالضَّرُّ وَالضَّرَرُ بمعنًى واحدٍ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿قَالُوا لاَ ضَيْرَ﴾(١) وقال: ﴿وَإذا مَسَّكُمْ الضُّرُّ﴾(٢). وقَوْلُهُ تَعَالَى (إنَّ الله بمَا تعْمَلُونَ مُحِيطٌ) أي عالِمٌ. قرأ الحسنُ والأعمش بالتَّاء. وقرأ الباقون بالياءِ.

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾ ؛ قال مجاهدُ والكلبيُّ: (غَدَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ مَنْزِل عَائِشَةَ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ إلَى أحُدٍ، وَصَفَّ أصْحَابَهُ لِلْقِتَال كَمَا يَصُفُّهُمْ لِلصَّلاَةِ، وَذلِكَ أنَّ الْمُشْرِكِيْنَ نَزَلُوا بأُحُدٍ يَوْمَ الأرْبعَاءِ، فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بنُزُولِهِمْ اسْتَشَارَ أصْحَابَهُ؛ فَقَالَ أكْثَرُهُمْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أقِمْ بالْمَدِيْنَةِ لاَ تَخْرُجْ إلَيْهِمْ، فَإنْ أقَامُوا هُنَاكَ أقَامُوا فِي شَرِّ مَجْلِسٍ، وَإنْ دَخَلُوا إلَيْنَا قَاتَلَهُمُ الرِّجَالُ فِي وُجُوهِهِمْ وَرَمَاهُمُ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ بالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ وَرَجَعُوا كَمَا جَاءُوا، فَأعْجَبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَذا الرَّأيَ. وَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أخْرُجْ بنَا إلَى هَؤُلاَءِ الأكْلُب

---

(١) الشعراء / ٥٠ .

(٢) الاسراء / ٦٧ .

لاَ يَرَوْنَ أنَّهُ جَبُنًا عَنْهُمْ وَضَعْفاً. وَأتَاهُ النُّعْمَانُ بْنُ مَالِكٍ الأنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ لاَ تَحْرِمْنِي الْجَنَّةَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بالْحَقِّ نَبِيّاً لأَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ، فَقَالَ لَهُ: [بِمَ؟] قَالَ: بأنِّي أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنِّي لاَ أفِرُّ مِنَ الزَّحْفِ، فَقَالَ: [صَدَقْتَ] فَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ شَهِيْداً.

فَقَالَ ﷺ: [إنِّي قَدْ رَأيْتُ فِي مَنَامِي أنَّ فِي ذُبَابَةَ سَيْفِي ثُلَماً فَأَوَّلْتُهَا هَزِيْمَةً، وَرَأيْتُ أنِّي أدْخَلُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِيْنَةٍ فَأَوَّلْتُهَا الْمَدِيْنَةَ، فَكَرِهْتُ الْخُرُوجَ إلَيْهِمْ، فَإنْ رَأيْتُمْ أنْ تُقِيْمُوا بالْمَدِيْنَةِ وَتَدَعُوهُمْ، فَإنْ أقَامُوا أقَامُوا عَلَى شَرِّ مُقَامٍ، وَإنْ دَخَلُوا الْمَدِيْنَةَ قَاتَلْنَاهُمْ فِيْهَا] وكَانَ ﷺ يُعْجِبُهُ أنْ يَدْخُلُوا الْمَدِيْنَةَ فَيُقَاتَلُوا فِي الأزِقَّةِ، فَقَالَ رجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ مِمَّنْ فَاتَهُمْ يَوْمُ بَدْرٍ وَأرَادَ اللهُ لَهُمُ الشَّهَادَةَ يَوْمَ أحُدٍ: أخْرُجْ بنَا إلَى أعْدَائِنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَكَرِهَ الْخُرُوجَ إلَيْهِمْ وَأمَرَ بتَبْوِئَةِ الْمَقَاعِدِ لِلْقِتَالِ إلَى أنْ يُوَافِيَهُمُ الْمُشْرِكُونَ - وَالْمَقَاعِدُ هِيَ الْمَوَاطِنُ وَالأمَاكِنُ - فَلَمْ يَزَالُوا برَسُولِ اللهِ ﷺ يَحُثُّونَهُ عَلَى لِقَائِهِمْ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ، فَلَبسَ لأمَتَهُ وَعَزَمَ عَلَى الْخُرُوجِ، فَنَدِمَ الْمُسْلِمُونَ وَقَالُوا: بِئْسَمَا صَنَعْنَا؛ نُشِيْرُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْوَحْيُ يَأْتِيْهِ، فَقَامُوا وَاعْتَذَرُوا إلَيْهِ وَقَالُوا: اصْنَعْ مَا رَأيْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: [لاَ يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أنْ يَلْبَسَ لأمَتَهُ فَيَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ])[1].

وكان قد أقامَ المشركون بأُحُدٍ يومَ الأربعاء والخميسِ، فخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ يومَ الجمُعَة بعدما صلَّى بأصحابهِ الجمعةَ، فأصبحَ بالشِّعَب مِن أحُدٍ يومَ السبتِ من النِّصف من شَوَّالَ سنةَ ثلاثٍ من الهجرةِ، وكان مِنْ أمر حرب أحُدٍ ما كانَ؛ فذلك قولهُ عزّ وَجَلَّ: (وَإذْ غَدَوْتَ مِنْ أهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) أي واذكُر إذ غَدَوْتَ مِنْ أهْلِكَ؛ مِنْ عِنْدِ أهْلِكَ من المدينةِ تُهَيِّئُ للمؤمنينَ مواضعَ للحرب لقتال المشركين يومَ أحُدٍ. وقال الحسنُ:(نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي يَوْمِ الأَحْزَاب؛ الأَكْلَبُ: مَوْضِعٌ مِنْهَا قَرِيْبٌ مِنَ الْمَدِيْنَةِ).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦١١٣ و٦١١٤).

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ ؛ أي أن تَجْبَنَا وتَضْعُفَا ويَتَخَلَّفَا عن رسول الله ﷺ وهم: بَنُو سَلَمَةَ من الخَزرَجِ؛ وبَنُو حارثةَ من الأوسِ، وكانوا جَنَاحَي العسكَرِ، وذلكَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خرجَ إلى أحُدٍ في ألفِ رجلٍ، وقيل: في تسعَمائةٍ وخمسينَ رجُلاً، وقد وَعَدَ أصحابَهُ بالنصرِ والفتحِ إنْ صبرُوا، فلمَّا بلغُوا إلى بعضِ الطريق اعتزلَ عبدُالله بنُ أبي سَلول بثُلُثِ الناسِ ورجعَ بهم، فرجعَ في ثلاثِمائةٍ؛ وقال: عَلاَمَ نَقْتُلُ أولادَنا وأنفسَنا، فتَبعَهُمْ أبو[1] جابرُ وقالَ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ في نبيِّكم وأنفسِكم، فقال عبدُالله: لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ، وهَمَّتْ بَنُو سَلَمَةَ وَبَنُو حَارِثَةَ بالإنصرافِ معهُ، فَعَصَمَهُمُ اللهُ تعالى ولم ينصرفُوا، ومَضَوا مع رسول الله ﷺ وَثَبَّتَ اللهُ قلوبَهما فلم يرجِعَا، فذكَّرَهم اللهُ تعالى عظيمَ نِعمَتِهِ فقالَ: (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا) أي حافِظُهما وناصرُهما.

وقرأ ابن مسعود: (وَلِيُّهُمْ)؛ لأنَّ الطائفةَ جمعٌ كقولهِ تعالى: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾[2]، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ ؛ في أمورهم. قال جابرُ بن عبدِالله: (وَاللهِ مَا سَرَّنَا أنَّا لَمْ نَهُمَّ بِالَّذِي هَمَمْنَا بِهِ؛ وَلَقَدْ أخْبَرَنَا اللهُ تَعَالَى أنَّهُ وَلِيُّنَا)[3].

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ . بَدْرٌ: اسمُ موضعٍ بين مكَّةَ والمدينةِ وهو من بلادِ غِفَار، كان وقعةُ بدرٍ أوَّلَ قِتَالٍ قاتلَهُ رسولُ اللهِ ﷺ بنفسِهِ، وجملةُ مغازي رسول الله ﷺ ستةٌ وعشرونَ غَزْوَةٍ، وكانَ غزوةُ بدرِ الخامسةَ منهُنَّ؛ قاتلَ رسولُ الله ﷺ في أحدَ عشرَ غزوةٍ منهُنَّ بَدْرٌ الكبرَى؛ وأُحُدُ؛ والخندقُ، وغزوةُ بني قُرَيظَةَ؛ وغزوةُ بني الْمُصْطَلِقِ؛ وغزوةُ بني لَحْيَانَ؛ وخيبرُ والفتحُ؛ وحُنَيْنُ؛ والطائفُ؛ وتَبُوكُ.

---

(١) سقط ((أبو)) من المخطوط. وهو جابر السلمي ﷺ. وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦١١٩).

(٢) الحج / ١٩ .

(٣) رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: تفسير سورة آل عمران: باب (٨). والطبري في جامع البيان: النص (٦١٢٤).

فأمَّا بدرٌ الكبرى فكانت يومَ الجمُعة السابعَ عشرَ من رمضانَ سنة اثنتين مِن الهجرةِ على رأسِ تسعةَ عشرَ شهراً من هجرةِ النبيِّ ﷺ. وغزوةُ أحدٍ في شوَّالَ سنةَ ثلاثٍ، والخندقُ وبني قُريظةَ في شوَّال سنةَ أربعٍ، وبني المُصْطَلِق وبني لَحْيَانَ في شعبان سنةَ خمسٍ، وخيبرُ سنةَ ستٍّ، والفتحُ في رمضانَ سنة ثمان، وحُنين والطائفُ في شوَّال سنة ثمان. فأوَّلُ غزوةٍ غزاها بنفسهِ وقاتلَ فيها بدرٌ الكبرى، وآخرُها تبوكُ، وكانت سَرَايَاهُ ستّاً وثلاثينَ سَرِيَّةً.

ومعنى الآيةِ: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ الله بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أذِلَّةٌ) وأنتم قليلٌ في العددِ، وذلكَ أنَّ المسلمين كانوا ثلاثمائةٍ وثلاثةَ عشرَ رجُلاً، كان المهاجرون منهم سبعةً وسبعين، ومن الأنصار مائتين وستَّة وثلاثين، وكان عليٌّ ﷺ صاحبَ رايةِ رسول الله ﷺ، وسعدُ بن معاذٍ صاحبَ رايةِ الأنصار، وكان عددُ الكفَّار تسعَمائة ونيِّفاً. قوله عزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ ؛ أي أطيعوهُ فيما يأمرُكم لتقوموا بشُكرِ النِّعَمِ التي أنعمَها اللهُ عليكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ أصحابَ رسول الله ﷺ كانوا يومَ أحُدٍ بعدَ انصرافِ عبدِالله بن أبي سلول بثُلُثِ الناس: سَبْعَمِائةٍ؛ وكان المشركونَ ثلاثةَ آلافٍ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: [أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ مِنَ السَّمَاءِ][1]. قرأ الحسنُ ومجاهد وابنُ عامر (مُنَزَّلِيْنَ) بالتشديدِ، وقرأ الباقونَ بالتخفيفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ معنى قولهِ: (بَلَى) تصديقٌ لوعدِ اللهِ تعالى، وقول رسول اللهِ ﷺ،(تَصْبِرُوا) لعدوِّكم مع نبيِّكم (وَتَتَّقُوا) مخالفتَهُ (وَيَأْتُوكُمْ) أهلُ مكَّة مِن وجههم هذا؛ (يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦١٥١).

مُسَوِّمِينَ) أي مُعَلَّمِينَ[١] بالصوفِ الأبيَضِ[٢]، وقيل: بالأحمرِ في نواصِي الخيل وأذنابها؛ أي بيّن لَهُمْ مِنَ السَّماء مُعَلَّمِيْنَ بـهذه العلامـةِ. ويجـوزُ أن يكـون معنـى (مُسَـوَّمِيْنَ) مُرْسَلِيْنَ من الإِسَامَةِ وهيَ الإرسالُ. ومن قرأ (مُسَوِّمِيْنَ) بكسر الواو فلأنَّهم سَـوَّمُوا خيولَهم.

وقد رويَ عن رسول الله ﷺ أنهُ قـالَ لأصحابـهِ يـومَ أحُـدٍ: [تَسَـوَّمُوا؛ فَـإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ قَدْ تَسَوَّمَتْ بالصُّوفِ الأَبْيَضِ فِـي قَلاَنِسِـهِمْ وَمَغَـافِرِهِمْ][٣]. وقـال قتـادةُ: (كَانَ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ يَوْمَ بَدْر سِيْمَاءُ الْقِتَال، وَكَـانُوا عَلَـى خَيْـلٍ بُلْـق)[٤]. وقـال ابـنُ عبَّاس: (كَانَتْ يَوْمَ بَدْرٍ سِيْمَاءُ الْمَلاَئِكَةِ عَمَائِمَ بِيْـضٍ مَرْخِيَّـةٍ عَلَـى أكْتَافِـهِمْ)، قـالَ: (وَلَمْ يَصْبِرِ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ أحُدٍ لِلْقِتَال إلاَّ قَلِيْـلٌ مِنْـهُمْ، وَلَـوْ صَـبَرُوا لَـنَزَلَتْ عَلَيْـهِمُ الْمَلاَئِكَةُ وَأتَاهُمْ مَا وَعَدَهُمُ اللهُ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَصْبِرُوا، فَلَمْ تَنْزِلْ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ). قرأ ابنُ كثير وأبو عمرٍو وعاصمُ: (مُسَوِّمِيْنَ) بكسر الواو، وقرأ الباقونَ بالفتح.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ ؛ أي ما جعلَ اللهُ إمدادَكم بالملائكةِ إلاّ بشارةً لكم؛ ولتطمئِنَّ قلوبُكم بـهِ، فـلا تَجْـزَعْ مـن كثرةِ عددِهم وقلَّة عددِكم حتى تَثْبُتُوا لأعدائِكم. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ ؛ أي وإنْ أمدَّكم بالملائكةِ وقوَّى قلوبَكم، فليـسَ النصرُ لكثرةِ العدد وقِلَّتِهِ، ولكنَّهُ (مِنْ عِنْدِ الله الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) أي الْمَنِيْعِ في سُـلْطَانِهِ، الْحَكِيمِ في أمْرِهِ.

وفي الآيةِ بيانُ أنَّ الإنسانَ لا يستغني في حـال مـن الأحـوال عـن الله وإنْ كَـثُرَ عددُه واجتمعَ مالُه. قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَمْ يُبَاشِرُوا الْقِتَالَ إلاَّ يَوْمَ بَدْر، فَأمَّا مَا سِوَى ذلِكَ فَإنَّهَا تَحْضُرُ الصَّفَّ وَتُكَـثِّرُهُ وَلاَ تُقَـاتِلُ). وقـال بعـضُ المفسِّرين: إنَّ الملائكةَ لم تقاتلْ أصلاً وَلَمْ يُبعثُوا إلاّ بالبشَارَةِ، فلو بَعثُـوا للقتـال لكـانَ ملـكٌ واحـدٌ

(١) في المخطوط: (معلومين).

(٢) ينظر ما نقله الطبري في جامع البيان النص (٦١٧٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦١٦٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦١٦٨).

يكفيهم، كما فَعَلَ جبريلُ العَلِيْلا يومَ لُوطٍ. وقـال بعضُـهم: إنَّ الملائكـةَ كـانت تقـاتلُ وكان علامةُ ضربهم اشتعالُ النَّار في موضعِ ضربهم، والله أعلمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: ينصركم ليقتـلَ ويستأسِـرَ جماعـةً مـن الذيـنَ كفـرُوا بنقضِـهم ذلـكَ أو بهزْمِـهـمْ، ﴿ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ ؛ أي فيرجعوا مُنْقَلِبيْنَ مُنْقَطِعِيْنَ عن آمالِهم. وَالْكَبْتُ: هـو الْوَهَـنُ في القلب، ويُصْرَعُ المرءُ على وجهِـهِ لأجلـه. ونظـمُ الآيـةِ: ولقـد نصركُـم الله ببـدرٍ (لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي لكي يُهْلِكَ طائفةً من الذين كفرُوا. وقال السُّدِّيُّ: معناهُ: (لِيَهْدِمَ رُكْناً مِنْ أرْكَانِ الْمُشْرِكِيْنَ بالْقَتْلِ وَالأَسْرِ، فَقُتِلَ مِنْ سَادَاتِهِمْ يَـوْمَ بَـدْرٍ سَبْعُونَ وَأُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ) أي لَمْ ينالُوا شيئاً مِمَّا كانوا يرجُون من الظَّفَـرِ بكم. وقَوْلُهُ تَعَالَى (أوْ يَكْبتَهُمْ) قال الكلبيُّ: (أوْ يَهْزِمَهُمْ)، وقـال النَّضِـرُ بـن شُـميل: (يُغِيْظَهُمْ). وقال السديُّ: (يَلْعَنَهُمْ). وقال أبو عُبيدة: (يُهْلِكَهُمْ). وقُرئ في الشَّـاذِّ:(أوْ يَكْبدَهُمْ)، يقال: كَبَدَهُ؛ إذا رَمَاهُ فأصاب كَبدَهُ، والْمَكْبُودُ: الْمُتَلَهِّفُ[(١)].

قولـه عــزَّ وَجَــلَّ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ وذلك أنهُ لَمَّا شُجَّ النبي ﷺ يَوْمَ أحُدٍ وكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ، وقُتِلَ سبعونَ من أصحابِهِ، جعلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عن وجهِهِ وهو يقولُ: [كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذا بنَبيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إلَى رَبهِمْ] وَهَمَّ أن يلعنَهم ويلعنَ الذين انصرفُوا مع عبدِالله بن أبي سَلول، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةِ ينهَاهُ عن اللَّعْنِ، وبَيَّـنَ أنَّ فَلاحـهُم ليـسَ إليه وأنه ليسَ له من الأمرِ شيءٌ إلاّ أن يُبَلِّغَ الرسالةَ ويُجاهدَ حتى يظهرَ الدينُ[(٢)].

(١) الملهوف: المكروبُ؛ والمكبوت: المهزوم، والحزيـنُ، بلـغ الـهَمُّ كَبِـدَهُ. والكبـتُ والكبـد: شـدَّة الغيظِ. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص١٩٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦١٩٢) عـن أنـس بأسـانيد، وعـن الحسـن مرسـلاً في النص (٦١٩٣). وحديث أنس أخرجـه مسـلم في الصحيـح: كتـاب الجـهاد والسـير: الحديـث (١٠٤/ ١٧٩١). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: سورة آل عمران: باب (١٠ و١١).

قال عكرمةُ وقتادة: (أدمَى رَجُلٌ مِنْ هُذيْلٍ يُقَالُ لَهُ عَبْدُاللهِ بْنُ قَمِئَةَ وَجْهَ رَسُول اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ؛ فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِ تَيْساً فَنَطَحَهُ حَتَّى قَتَلَهُ. وَشَجَّ عُتْبَةُ بْنُ أبِي وَقَّاصٍ وَجْهَ رَسُول اللهِ ﷺ وَكَسَرَ رُبَاعِيَّتَهُ؛ فَدَعَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَيْهِ فَقَالَ: [اللَّهُمَّ لاَ يَحُولُ عَلَيْهِ الْحَوْلُ حَتَّى يَمُوتَ كَافِراً] قَالَ: فَمَا حَالَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ حَتَّى مَاتَ كَافِراً، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(١).

وقال الكلبيُّ: (لَمَّا شُجَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ أحُدٍ وَأصِيبَتْ رُبَاعِيَّتُهُ؛ هَمَّ أنْ يَلْعَنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَيَدْعُو عَلَيْهِمْ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ لِعِلْمِهِ أنَّ كَثِيْراً مِنْهُمْ سَيَتُوبُونَ). يدلُّ عليهِ ما روَى أنسُ أنه قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ أحُدٍ شُجَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي قَرْنِ حَاجِبِهِ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ، وَجُرِحَ فِي وَجْهِهِ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَسَالِمُ مَوْلَى أبِي حُذَيْفَةَ يَغْسِلُ عَنْ وَجْهِهِ الدَّمَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَّبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بالدَّمِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إلَى رَبهِمْ] فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ(٢).

وقال سعيدُ بن المسيَّب: لَمَّا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى مَنْ أدْمَى وَجْهَ نَبِيِّهِ وَعَلَتْ عَالِيَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَىالْجَبَلِ، فَقَالَ ﷺ: [لاَ يَنْبَغِي لَهُمْ أنْ يَعْلُونَا] فَأقْبَلَ عُمَرُ ﷺ وَرَهْطٌ مِنَ الأنْصَار حَتَّى اهْبَطُوهُمْ مِنَ الْجَبَلِ، وَنَهَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى صَخْرَةٍ لِيَعْلُوهَا وَقَدْ ظَاهَرَ بَيْنَ دِرْعَيْنِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَجَلَسَ تَحْتَهُ طَلْحَةُ، فَنَهَضَ حَتَّى اسْتَوَى عَلَيْهَا، فَقَالَ ﷺ: [أوْجَبَ طَلْحَةُ](٣).

وَوَقَفَتْ هِنْدُ وَالنِّسْوَةُ اللاَّتِي مَعَهَا يُمَثِّلْنَ بالْقَتْلَى مِنْ أصْحَاب رَسُول اللهِ ﷺ، يَجْدَعْنَ الآذانَ وَالأنُوفَ حَتَّى اتَّخذتْ هِنْدُ مِنْ ذلِكَ قَلاَئِدَ وَأعْطَتْهَا وَحْشِيّاً، وَبَقَرَتْ عَنْ كَبدِ حَمْزَةَ ﷺ فَلاَكَتْهَا؛ فَلَمْ تَسْتَطِعْ فَلَفَظَتْهَا ثُمَّ عَلَتْ صَخْرَةً مُشْرِفَةً؛

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٦١٩٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٦١٩٥).

(٣) أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية: ج ٣ ص٩١ من غير إسناد. والترمذي في الجامع: أبواب الجهاد: الحديث (١٦٩٢) عن الزبير بن العوام؛ وقال: حديث حسن غريب. وابن حبان في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: الحديث (٦٩٧٩)، وإسناده صحيح.

فَصَرَخَتْ ثُمَّ قَالَتْ[١]:

نَحْــنُ جَزَيْنَــاكُمْ بيَــوْمِ بَــدْرِ وَالْحَــرْبُ بَعْــدَ الْحَــرْبِ ذاتُ سُــعْرِ
مَــا كَــانَ عَــنْ عُتْبَــةَ لِــي مِــنْ صَــبْرِ وَلاَ أخِــي وَعَمِّــهِ وبكْــرِي
شَــفَيْتَ صَــدْرِي وَقَضَيْــتَ نَــذْرِي شَــفَيْتَ وَحْشِــيُّ غَلِيْــلَ صَــدْرِي

فَلَمَّا رَأى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْـلِمُونَ مَـا نَـزَلَ بأصْحَابِـهِمْ مِـنْ جَـدْعِ الآذان وَالأنُوفِ، وَقَطْعِ الْمَذاكِيْرِ؛ قَالُوا: لَئِنْ أنَالَنَا اللهُ فِيْهِمْ لَنَفْعَلَنَّ مِثْلَ مَا فَعَلُـوا؛ وَلَنُمَثِّلَـنَّ مُثْلَةً بهِمْ لَمْ يُمَثِّلْهَا أحَدٌ قَطْ، فَأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الآيَةَ)[٢].

وقال عطاءُ: أقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ أحُدٍ يَدْعُو عَلَى بَطْنٍ مِنْ هُذيْلٍ يُقَالُ لَـهُمْ بَنِي لَحْيَانَ، وَعَلَى بَطْنٍ مِنْ سُلَيْمٍ يُقَالُ لَهُمْ رَعْلٌ وَذكْوَانُ، وَكَانَ يَقُولُ: [اللَّهُمَّ اشْـدُدْ وَطْأتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِيْنَ كَسِنِيْنِ يُوسُـفَ][٣] فَقُحِطُـوا حَتَّـى أكَلُـوا أوْلاَدَهُمْ، وَأكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ الْمُحَرَّقَةَ، ثُمَّ أنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

وعن أبي سَالِمٍ قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [اللَّهُمَّ الْعَنْ أبَا سُفْيَانَ، اللَّهُمَّ الْعَنِ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ الْعَنْ صَفْوَانَ بْنَ أمَيَّةَ]. فَـأنْزَلَ اللهُ تَعَـالَى (لَيْسَ لَـكَ مِـنَ الأمْرِ شَيْءٌ أوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) فَأسْلَمُوا وَحَسُنَ إسْلاَمُهُمْ)[٤].

ومعنى قولِهِ (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ) أي ليسَ إليكَ من الأمر بهواكَ شـيءٌ، وقد تكون اللاَّمُ بمعنى (إلى)، كقولِهِ تعالَى: ﴿مُنَادِياً يُنَادِيْ لِلإيْمَانِ﴾[٥] أي إلى الإيْمَانِ، وقولُهُ: ﴿الَّذِي هَدَانَا لِهَذا﴾[٦] ونحوهُ. وقال بعضُهم: قوله: (لَيْسَ لَكَ مِنْ الأمْرِ شَيْءٌ)

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٩٦-٩٧.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص١٠٢.
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ١ ص٦٥: الحديث (٥٤). والبخاري في الصحيح: كتاب الأذان: باب يهوي بالتكبير حين يسجد: الحديث (٨٠٤). ومسلم في الصحيح: كتاب المساجد: الحديث (٢٩٥).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦١٩٩).
(٥) النساء / ١٩٣ .
(٦) الأعراف / ٤٣ .

اعتراضٌ بين الكلامِ؛ وتقديرُ الآيةِ: لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أوْ يَكْبِتَهُمْ أوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإنَّهُمْ ظَالِمُونَ؛ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ، وهذا وجهٌ حسنٌ. وقال بعضُهم: (أوْ بمعنى (حتَّى). وقال بعضُهم: نُصِبَ بإضمار (أنْ) تقديره: أو أنْ يتوبَ عليهم.

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لهُ جميعُ ما فيهم من الخلائقِ؛ كلُّهم عبادُ الله وفي مُلْكِهِ، ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ على الذنب الصغير إذا أصرَّ على ذلكَ، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾ ؛ في قَبولِ توبتِهم، وتأخيرِ العذاب عنهم، وإنَّما ختمَ اللهُ هذه الصفةَ بالمغفرةِ والرحمةِ؛ لأنه وإنْ كان على التعذيب قادراً، لكن الغالبُ على أمرِهِ ما يريدُ بخَلْقِهِ الرحمةُ والمغفرةُ.

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أهْلِ الطَّائِفِ، كَانَتْ بَنُو الْمُغِيْرَةِ يَرْبُونَ لَهُمْ، فإذا حَلَّ الأَجَلُ وَعَجَزُوا عَنْ ذلِكَ، زَادُوا فِي الْمَال، وَازْدَادُوا فِي الأَجَلِ؛ فَنَهَاهُمُ اللهُ عَنْ ذلِكَ). ومعنى (مُضَاعَفَةً): هو أنَّ الرجلَ إذا كان لهُ على آخرَ مالٌ، فإذا حلَّ الأجلُ طالبَه به فيعجزُ عنه، فيقولُ المطلوبُ: أخِّرْ عنِّي وأزيدُكَ في مالِكَ، فيفعلان ذلكَ؛ فنهاهُم اللهُ عنه. ومعنى (أضْعَافاً): لا تأْكُلُوا أضعافَ ما أُوْتِيتُمُوهُ؛ أي لا تأخذُوا إلاَّ الْمِثْلَ. ومعنى(مُضَاعَفَةً): لا تُضَعِّفُوا المالَ بالزيادةِ في الأجلِ.

وقولهُ: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ ؛ أي اتقُوا اللهَ في الرِّبا، ولا تستحلُّوه لكي تَنْجُوا من العذاب في الآخرةِ، ثم صارت هذه الآيةُ عامَّةً في جميعِ الناسِ، وإنَّما أعادَ اللهُ تحريْمَ الرِّبا بعدَ ما ذكرهُ في سورةِ البقرة لتأكيدِ التحريْمِ بتصريحِ النَّهي عنهُ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ في سورةِ البقرة: ربَا النَّسِيْئَةِ؛ وهنا ربا الْفَضْلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ ؛ أي اخشَوا النارَ في أكلِ الرِّبا التي خُلِقَتْ للكافرينَ باللهِ، وبتحريم الربا. فإنْ قيلَ: إذا كانتِ النارُ معدَّةً للكافرينَ؛ فكيفَ يُعَذَّبُ بها غيرُ الكافرين؟ قيلَ: فائدةُ تخصيصِ الكافرينَ بالذِّكر؛ لأنَّهم همُ العمدةُ في إعدادِ النار لَهم وقد يدخلُها غيرُ الكافرينَ على طريقِ

التَّبَعِ، كما قال في الجنَّة ﴿أعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وإن كانَ الأطفالُ والمجانينُ يدخلونَها تَبَعاً للمتقينَ. وقيل: معناهُ: واتَّقُوا النارَ في استحلال الرِّبا، فإنَّ مَن استحلَّهُ فهو كافرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾؛ أي أطيعُوا اللهَ ورسولَهُ في تحريمِ الرِّبا لكي تُرحموا فلا تُعذبوا. قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ معناهُ بادِرُوا إلى ما يوجبُ لكم مغفرةً من ربكم وهو التوبةُ. وقال ابنُ عبَّاس: (الإِسْلاَمُ). وقال أبو العاليةِ: (مَعْنَاهُ: سَارِعُواْ إلَى الْهِجْرَةِ). وقال عليٌّ ﷺ: (إلَى أدَاءِ الْفَرَائِضِ). وقال عثمانُ بن عفَّان ﷺ: (إلَى الإخْلاَصِ) وقال أنسُ: (إلَى التَّكْبِيْرَةِ الأُوْلَى). وقال سعيدُ بن جبير: (إلَى أدَاءِ الطَّاعَةِ). وقال الضحَّاك: (إلَى الْجِهَادِ). وقال عكرمةُ: (إلَى التَّوْبَةِ). وقال الورَّاق: (إلَى ائْتِمَار الأَوَامِرِ وَالإنْتِهَاءِ عَنِ الزَّوَاجِرِ). وقال سهلُ بن عبدِالله: (إلَى السُّنَّةِ). وقال بعضُهم: إلى الصلواتِ الْخَمْسِ. وقال بعضُهم: إلى الجمعةِ والجماعَات. قرأ نافعُ وابن عامرٍ: (سَارِعُوا) بحذفِ الواو على سبيل الابتداءِ لا على سبيلِ العطف[(١)].

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (الْجِنَانُ أرْبَعٌ: جَنَّةُ عَدْنٍ وَهِيَ الْعُلْيَا، وَجَنَّةُ الْمَأْوَى، وَجَنَّةُ الْفِرْدَوْس، وَجَنَّةُ النَّعِيْمِ، ثُمَّ فِي كُلِّ جَنَّةٍ مِنْهَا جَنَّاتٌ عَدَدُ نُجُوم السَّمَاءِ، قَطْرُ الْمَطَرِ كُلُّ جَنَّةٍ مِنْهَا فِي الْعَرْضِ وَالسَّعَةِ لَوْ ألْصِقَتِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ بَعْضُهُنَّ ببَعْضٍ لَكَانَتِ الْجَنَّةُ الْوَاحِدَةُ أعْرَضَ مِنْهَا)[(٢)].

وإنَّما خصَّ العَرْضَ على المبالغة لأنَّ طولَ كلِّ شيءٍ في الغالب أكثرُ من عرضهِ، يقول: هذه صفةُ عرضِها فكيفَ طولُها ! يدلُّ عليه قولُ الزهريِّ: (إنَّما

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٢٠٣؛ قال القرطبي: ((وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة وأهل الشام. وقرأ باقي السبعة: (وسارعوا) بالواو. وقال أبو علي: كِلا الأمرين شائع مستقيم، فمن قرأ بالواو فلأنه عطف الجملة على الجملة، ومن ترك الواو فلأن الجملة الثانية ملتبسة بالأولى مستغنية بذلك عن العطف بالواو)).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٢٠٤؛ نقله القرطبي عن الكلبي.

وَصَفَ عَرْضَهَا، فَأَمَّا طُولُهَا فَلاَ يَعْلَمُهُ إلاَّ اللهُ). وهذا مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنِ اسْتَبْرَقٍ﴾(١) فوصفَ البطَائةَ بأحسنَ ما يُعْلَمُ من الزينةِ، إذِ معلومٌ أن الظواهرَ تكون أحسنَ وأنفسَ مِنَ البطائنِ.

وقال بعضُ المفسِّرين: ليسَ المرادُ بهذه الآيةِ التقديرُ، لكنَّ المرادَ بها أوسعَ شيءٍ رأيتمُوه. قال إسماعيلُ السُّدِّيُّ: (لَوْ كُسِّرَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَصِرْنَ خَرْدَلاً كَانَ بكُلِّ خَرْدَلَةٍ للهِ تَعَالَى عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ ؛ أي خُلِقَتْ للمتقينَ الشِّرْكَ والمعاصِي، فإن قيلَ: إذا كانتِ الجنَّةُ عرضُها السَّمواتُ والأرضُ، فأينَ النارُ ؟ قيل: إن اللهَ خلقَ الجنة عاليَةً، والنارَ سَافِلَةً، والشيئانِ إذا كان أحدُهما عالياً والآخرُ سافِلاً لا يَمتنعان؛ لأنَّهما يوجدان في مكائين متغايرَين. وروي أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ هَذا السُّؤَالِ فَقَالَ: [سُبْحَانَ اللهِ! إذا جَاءَ النَّهَارُ فَأَيْنَ اللَّيْلُ](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ ؛ أول هذه الآيةِ نعتٌ للمتقينَ، ومعناها: الذين يتصدَّقون في حال اليُسْرِ والعُسْرِ والضرَّاءِ والشدَّة والرخَاءِ، يعني أنَّهم يُنْفِقُونَ على الدَّوام لا يَمْنَعُهُمْ قلةُ المَالِ ولا كَثْرَتُهُ عن الإنفاق، فأولُ ما ذكرَ اللهُ من أخلاق المتقينَ الموجبةِ لَهم الجنةَ: السَّخَاءُ؛ قال ﷺ: [الْجَنَّةُ دَارُ الأَسْخِيَاءِ، وَالسَّخِيُّ قَرِيْبٌ مِنَ اللهِ؛ قَرِيْبٌ مِنَ الْجَنَّةِ؛ بَعِيْدٌ مِنَ النَّار، وَالْبَخِيْلُ بَعِيْدٌ مِنَ اللهِ؛ بَعِيْدٌ مِنَ الْجَنَّةِ؛ قَرِيْبٌ مِنَ النَّار. وَالْجَاهِلُ السَّخِيُّ أَحَبُّ إلَى اللهِ مِنَ الْعَالِمِ الْبَخِيْلِ](٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ) أي الكافينَ غَيْظَهُمْ عن إمضائِهِ، يردُّون غيظَهم في أجوافِهم ويصبرون، وَالْكَظْمُ: الْحَبْسُ وَالشَّدُّ، يقالُ: كَظَمْتُ الْقِرْبَةَ؛ إذا

(١) الرحمن / ٥٤ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٦٢١١).

(٣) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ٤ ص١٩٢١: الحديث (٣٠٤٢)؛ قال العراقي: ((رواه ابن عدي والدارقطني في المستجاد الخرائطي؛ قال الدارقطني: لا يصح، ومن طريقه روى ابن الجوزي في الموضوعات، وقال الذهبي: حديث منكر)).

مَلأْتُهَا ثُمَّ شَدَدْتُ رَأْسَهَا عَلَى الإمْتِلاَءِ. والغَيْظُ: هُوَ انْتِفَاضُ الطَّبْعِ مَا يَكْرَهُهُ، ولِهذا لا يجوزُ الغيظُ على اللهِ وإن كان يجوزُ عليه الغضبُ؛ لأنَّ الغضبَ هو إرادةُ العقاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) معناهُ: الذين يَعْفُونَ عنِ المذنبينَ من الأحرار والمملوكين. وقد رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: [مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أنْ يُنْفِذَهُ فَلَمْ يُنْفِذْهُ؛ زَوَّجَهُ اللهُ مِنَ الْحُورِ الْعِيْنِ حَيْثُ شَاءَ، وَمَا عَفَا رَجُلٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ إلاَّ زَادَهُ اللهُ بهَا عِزّاً، وَلاَ نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مَالاً قَطُّ؛ فَتَصَدَّقُوا، وَلاَ فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلاَّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ، وَأعْظَمُ النَّاسِ عَفْواً مَنْ عَفَا عَنْ قُدْرَةٍ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾؛ أي يُثْنِي على المحسنينَ إلى الناس، ويرضَى عملَهم. قال عِيْسَى عليه السلام: لَيْسَ الأَحْسَنُ أنْ تُحْسِنَ إلَى مَنْ أحْسَنَ إلَيْكَ، ذاكَ مُكَافَأةٌ ! إنَّمَا الأَحْسَنُ أنْ تُحْسِنَ إلَى مَنْ أسَاءَ إلَيْكَ. وعن أبي هُريرة رضي الله عنه: أنَّ أبَا بَكْرٍ رضي الله عنه كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ، فَجَاءَ رَجُلٌ؛ فَكَانَ يَشْتِمُ أبَا بَكْرٍ وَهُوَ سَاكِتٌ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَتَبَسَّمُ، ثُمَّ رَدَّ أبُو بَكْرٍ عَلَى الرَّجُلِ بَعْضَ الَّذِي قَالَ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَامَ، فَلَحِقَهُ أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ شَتَمَنِي وَأنْتَ تَبْتَسِمُ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ غَضِبْتَ وَقُمْتَ ؟! فَقَالَ ﷺ: [إنَّكَ حِينَ كُنْتَ سَاكِتاً كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَلَيْهِ، فَلَمَّا تَكَلَّمْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أكُنْ لأَقْعُدَ فِي مَقْعَدٍ فِيْهِ الشَّيْطَانُ][2]. وعن أنسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [رَأيْتُ قُصُوراً مُشْرِفَةً عَلَى الْجَنَّةِ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيْلُ لِمَنْ هَذِهِ !؟ قَالَ: لِلْكَاظِمِيْنَ الْغَيْظَ وَالْعَافِيْنَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْنَ].

---

(١) أخرج الطبري شطراً منه في جامع البيان: الحديث (٦٢٢٠). وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٥ ص١٥٥: الحديث (٤١٥-٤١٧)، وفي الأوسط: الحديث (١١١٢)، وإسناده حسن عند الترمذي وأبي داود.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٨ ص١١٨: الحديث (٧٢٣٥). في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ٨ ص١٩٠؛ قال الهيثمي: ((روى أبو داود منه، ورواه أحمد والطبراني في الأوسط بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح)).

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ ؛ متصلٌ بقوله(وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ). قال ابنُ مسعودٍ ﷺ: قَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ كَانَتْ بَنُو إسْرَائِيْلَ أكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَّا، كَانَ أحَدُهُمْ إذا أذْنَبَ ذنْباً أصْبَحَتْ كَفَّارَةُ ذنْبهِ مَكْتُوبَةً عَلَى بَابهِ: إجْدَعْ أنْفَكَ؛ إجْدَعْ أُذُنَكَ؛ إفْعَلْ كَذا إفْعَلْ كَذا. فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [ألاَ أخْبرُكُمْ بخَيْرٍ مِنْ ذلِكَ] وَقَرَأ عَلَيْهِمُ هَذِهِ الآيَاتِ)[1]. وقال عطاءُ: (نَزَلَتْ فِي أبي مُقْبلِ التَّمَّار؛ أتَتْهُ امْرَأةٌ حَسْنَاءُ تَبْتَاعُ مِنْهُ تَمراً، فَقَالَ: إنَّ هَذا التَّمْرَ لَيْسَ بجَيِّدٍ وَفِي الْبَيْتِ أجْوَدُ مِنْهُ، فَهَلْ لَكِ فِيْهِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَذهَبَ بهَا إلَى بَيْتِهِ وَضَمَّهَا وَقَبَّلَهَا، فَقَالَتْ لَهُ: اتَّقِ اللهَ سُبْحَانَهُ، فَتَرَكَهَا وَنَدِمَ عَلَى ذلِكَ، فَأتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذكَرَ لَهُ ذلِكَ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ)[2].

وقال ابنُ عبَّاسٍ ومقاتلُ والكلبيُّ: (آخَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ رَجُلَيْنِ؛ أحَدُهُمَا مِنَ الأنْصَار؛ وَالآخَرُ مِنْ ثَقِيْفٍ، فَخَرَجَ الثَّقَفِيُّ فِي غُزَاةٍ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ وَاسْتَخْلَفَ الأنْصَاريَّ عَلَى أهْلِهِ، فَاشْتَرَى لَهُمْ لَحْماً ذاتَ يَوْمٍ، فَلَمَّا أرَادَتِ الْمَرْأةُ أنْ تَأْخُذ مِنْهُ؛ دَخَلَ عَلَى إثْرِهَا، فَدَخَلَتْ بَيْتاً فَتَبعَهَا، فَاتَّقَتْهُ بيَدَيْهَا، فَقَبَّلَ ظَاهِرَ كَفِّهَا، ثُمَّ نَدِمَ وَاسْتَحْيَا؛ فَانْصَرَفَ، فَقَالَتْ لَهُ: وَاللهِ مَا حَفِظْتَ غَيْبَةَ أخِيْكَ؛ وَلاَ وَاللهِ تَنَالُ حَاجَتَكَ. فَخَرَجَ الأنْصَاريُّ وَوَضَعَ التُّرَابَ عَلَى رَأسِهِ، وَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ يَسِيْحُ فِي الْجِبَال وَيَتَعَبَّدُ، فَلَمَّا رَجَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ غُزَاهُمْ لَمْ يَرَ الثَّقَفِيُّ أخَاهُ، فَسَألَ امْرَأتَهُ فَقَالَتْ: لاَ كَثَّرَ اللهُ فِي الإخْوَان مِثْلَهُ، وَأخْبَرَتْهُ فِعْلَهُ، فَخَرَجَ الثَّقَفِيُّ فِي طَلَبهِ، فَسَألَ عَنْهُ الرُّعَاءَ فِي الْجِبَال وَالْفَيَافِي حَتَّى دُلَّ عَلَيْهِ، فَوَافَاهُ سَاجِداً وَهُوَ يَقُولُ: رَب ذنْبي ذنْبي، فَقَالَ: يَا فُلاَنُ؛ قُمْ فَانْطَلِقْ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ لَعَلَّ اللهَ أنْ يَجْعَلَ لَكَ مَخْرَجاً. فَأقْبَلَ مَعَهُ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِيْنَةَ، فَسَألَ أصْحَابَ رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالُوا: لاَ تَوْبَةَ لَكَ، أمَا تَعْلَمُ أنَّ اللهَ يَغَارُ

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٣٢٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن المنذر)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٢٢٨) بلفظه.

(٢) أبو مقبل التمَّار هو نبهان، وكنيته أبو مقبل، ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٢٠٩؛ وقال: ((قال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت هذه الآية في نبهان)).

لِلْغَازِي فِي سَبِيْلِهِ مَا لاَ يَغَارُ لِلْمُقِيْمِ، فَقَامَ عَلَى بَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ الذنْبُ الذنْبُ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ الصَّحَابَةُ، فَخَرَجَ يَسِيْحُ فِي الْجِبَالِ؛ لاَ يَمُرُّ عَلَى حَجَرٍ وَلاَ مَدَرٍ وَلاَ سَهْلَةٍ حَارَّةٍ إلاَّ تَجَرَّدَ وَتَمَرَّغَ فِيْهَا، حَتَّى كَانَ ذاتَ يَوْمٍ عِنْدَ الْعَصْرِ نَزَلَ جِبْرِيْلُ بتَوْبَتِهِ بهَذِهِ الآيَةِ)(١).

ومعناها: (وَالَّذِيْنَ إذا فَعَلُوا) كبيرةً (أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) بفعلِ الصَّغيرةِ مثلَ النَّظرةِ واللَّمْسِ والغَمْزِ والتقبيلِ، ذكَرُوا مقامَهم بين يديِّ الله وعقابه. وقيلَ: معناه: ذكَرُوا اسمَ اللهِ، فقالُوا ربَّنا ظلمْنَا أنفُسَنا فاغفِرْ لنَا. وقال السُّدِّيُّ: (قَوْلُهُ: (فَعَلُوا فَاحِشَةً) يَعْنِي الزِّنَا) وَقَوْلُهُ (أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) قال الكلبيُّ: (يَعْنِي لِمَا دُونَ الزِّنَا مِثْلَ الْقُبْلَةِ وَاللَّمْسِ وَالنَّظْرَةِ فِيْمَا لاَ يَحِلُّ). وقيلَ: (فَعَلُوا فَاحِشَةً) أي فعلُوا الكبائرَ؛ وقولهُ (أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) يعني الصَّغائِرَ. وقيلَ: (فَعَلُوا فَاحِشَةً) فِعْلاً (أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) قَوْلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي ليسَ أحدٌ يقدِرُ على غُفْرَان الذنبِ إلاّ اللهُ. قولُهُ عزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ ؛ معناه: ولم يُقِيْمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا مِنَ المعصيةِ، فإنَّ الاستغفارَ باللسان بغيرِ ندامةِ القلب تَوْبَةُ الْكَذابيْنَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أي يعلمونَ أنَّها معصيةٌ، فإنَّهم اذا لم يعلَمُوا أنَّها خطيئةٌ كان إثْماً مَوْضُوعاً عنهم؛ مثل أنْ يتزوَّج أمَّهُ من الرِّضاعةِ أو أخْتَهُ من الرِّضاعةِ وهو لا يعلمُ، أو يشتريَ جاريةً فَيَطَأُهَا، ثم تستحقُّ الجاريةُ كان إثْمُ ذلك موضُوعاً عنه. وقيل: معناهُ: وهم يعلمونَ أنَّ لَهُمْ ربّاً يغفرُ الذنوبَ.

قال قتادةُ: (إيَّاكُمْ وَالإصْرَارَ، فَإنَّمَا هَلَكَ الْمُصِرُّونَ الماضون قُدُماً لا ينهاهم مَخَافَةُ اللهِ عَنْ حَرَامٍ حَرَّمَهُ اللهُ؛ وَلاَ يَتُوبُونَ مِنْ ذنْبٍ أصَابُوهُ حَتَّى أتَاهُمُ الْمَوْتُ وَهُمْ عَلَى ذلِكَ)(٢). وقال السُّدِّيُّ: (الإصْرَارُ السُّكُوتُ وَتَرْكُ الاسْتِغْفَارِ)(٣). قال ﷺ: [لاَ

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٢١٠. وابن عادل الحنبلي في اللباب: ج ٥ ص٥٤٣ من رواية مقاتل والكلبي. (٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٢٣٢).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٢٣٦).

كَبِيْرَةَ مَعَ الاسْتِغْفَار، وَلاَ صَغِيْرَةَ مَعَ الإصْرَار][1] وأصلُ الإصْرَار الثباتُ على الشَّيء. وقال ﷺ: [مَنْ أذْنَبَ ذنْباً وَعَلِمَ أنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذُّنُوبَ؛ غَفَرَ لَهُ اللهُ وَإنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ][2]. وقالَ ﷺ: [مَا أصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَلَوْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِيْنَ مَرَّةً، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَنْ عَلِمَ أنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى الْمَغْفِرَةِ غَفَرْتُ لَهُ وَلاَ أبَالِي][3].

قولـه عـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفةِ ثوابُهم سَتْرٌ من ربهم لذنوبهم؛ وحطُّ العقاب عنهُم، وبساتينُ تجري من تحتِ شجرِها وغُرَفِها الأنْهارُ مقيمينَ دائمين فيها، ونِعْمَ أجرُ التَّائبين في التوبةِ، فوَضَعَ عنهم ما كَانَ مَكتوباً على بَنِي إسرائيلَ؛ فإنَّهُ كان إذا أذنبَ أحدُهم يرى توبتَه مكتوبةً على بابهِ: إجْـذعْ أنْفَـكَ؛ إجْـذعْ أذُنَـكَ، فَوَضَـعَ ذلـك عـن هـذه الأمَّـة واكتفَـى منـهم بـالنَّدَمِ والاستغفار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَنِعْمَ أجْرُ الْعَامِلِينَ) أي ثوابُ المطيعين. قيلَ: أوحَى اللهُ تعالى إلى موسَى عليه السلام: (يَا مُوسَى؛ مَا أقَلُّ حَيَاءِ مَنْ يَطْمَعُ فِي جَنَّتِي بغَيْرِ عَمَلٍ، يَا مُوسَى؛ كَيْفَ أجُودُ برَحْمَتِي عَلَى مَنْ يَبْخَلُ بطَاعَتِي). وقال شَهْرُ بن حَوْشَبٍ: (طَلَبُ الْجَنَّةِ بلاَ عَمَلٍ ذنْبٌ مِنَ الذُّنُوب).

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب: باب في معالجة كل ذنب: الحديث (٧٢٦٨) عن ابن عباس، ولفظه: [لاَ كَبِيرَةٌ بِكَبِيرَةٍ مَعَ الاسْتِغْفَار، وَلاَ صَغِيرَةٌ بِصَغِيرَةٍ مَعَ الإصْرَار]. وفي كشف الخفـا: الحديـث (٣٠٧٠)؛ قال العجلوني: ((وأخرجه الطبراني عن أبي هريرة، وزاد فيه: [فَطُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي كِتَابِهِ اسْتِغْفَاراً كَثِيراً] ولكن في إسناده بشر بن عبيد الفارسي وهو متروك)).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٤٤٦٩). في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ١ ص٧٧٤: الحديث (٩٨٦)؛ قال العراقي: ((رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود بسند ضعيف)). وفي الدر المنثور: ج ٢ ص٣٢٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وأبو داود والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي بكر الصديق)).

(٣) أخرجه الطبري مختصراً في جامع البيان: النص (٦٢٣٧). والبيهقي في شعب الإيمان: الحديث (٧٠٩٩) عن أبي بكر رضي الله عنه.

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: (قَدْ خَلَتْ) مَضَتْ (مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ) وهي الطرائقُ في الخيرِ والشرِّ. وقيل: معناهُ: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ) بإهلاكِ المكذِّبينَ لِرُسُلِنَا، فسافِرُوا في الأرضِ، فانظُرُوا كيفَ صَارَ آخرُ المكذِّبينَ بالرُّسُلِ والكُتُبِ؛ أي اتَّعِظُوا بالآثار التي بَقِيَتْ منهم في الأرضِ مثلَ ديار قَوْمِ لُوطٍ وعَادٍ وغيرِهم.

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ ؛ أي هذا القرآنُ بيانٌ للناسِ من الضَّلالةِ وهُدًى من العَمَى ونَهْيٌ للمتقينَ من الفواحِشِ. والبَيَانُ: كُلُّ مَا يَظْهَرُ بِهِ الْمَعْنَى، والْهُدَى: بَيَانُ طَرِيْقِ الرُّشْدِ دُونَ طَرِيْقِ الْغَيِّ، وَالْمَوْعِظَةُ: مَا يَدْعُو إِلَى فِعْلِ الْحَسَنَةِ مِنْ تَرْغِيْبٍ أوْ تَرْهِيْبٍ.

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ ؛ هذا عائدٌ إلى ما تقدَّم ذكرُه من حديثِ حَرْبِ أحُدٍ، معناهُ: لا تَضْعُفُوا ولا تَجْبُنُوا يا أصحابَ مُحَمَّدٍ عن قتالِ عدوِّكم لِمَا نالَكم يومَ أحُدٍ من القَتْلِ والجرحِ والْهَزِيْمَةِ، وكان قُتِلَ يومئذٍ خمسةٌ من المهاجرينَ: حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ؛ وَعَبْدُاللهِ بْنُ جَحْشٍ ابنُ عمَّةِ النبيِّ ﷺ؛ وعُثْمَانُ بْنُ شَمَّاسٍ؛ وسَعْدٌ مولَى عُتْبَةَ، والأنصار سبعونَ رجُلاً.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَنْتُمْ الأعْلَوْنَ) أي في الحجَّة، وقيل: وأنتمُ الغالبُونَ في العاقبةِ؛ أي تكونُ لكم العاقبةُ بالنَّصرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ ؛ أي مُصَدِّقِيْنَ بوعدِ الله بالنَّصرِ.

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ ؛ أي إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحُ يوم أحُد فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ يَوْمَ بَدْرٍ، وذلكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وأصحابَه كانوا قَتَلُوا من المشركين يَوْمَ بدرٍ سبعونَ رجُلاً وأسَرُوا سبعينَ، وقُتِلَ يومَ أحُدٍ مِن أصحاب النبيِّ ﷺ سبعونَ وجُرِحَ سبعونَ.

وقرأ مُحَمَّدُ بن السُّمَيْقَعِ (قَرَحٌ) بفتحِ القاف والراءِ على المصدر. وقرأ الأعمشُ وعاصم وحمزةُ والكسائيُّ وخلفُ: بضمِّ القاف فيهما؛ وهي قراءةُ ابنِ مسعودٍ. وقرأ

الباقون بفتح القاف وهي قراءةُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وهما لُغَتَان مثلُ الْجَهْدِ وَالْجُهْدِ، وقال بعضهم: (الْقَرْحُ) بفتح القاف: الْجِرَاحَاتُ واحدتُها قَرْحَةٌ، و(الْقُرْحُ) بالضمِّ وجعٌ، يقالُ: قُرِحَ الرجلُ إذا وُجِعَ.

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ أي تارةً لَهم وتارةً عليهم، وأدَالَ[١] المسلمونَ على المشركينَ يومَ بدر، حتى قَتَلُوا منهم سبعينَ وأسَرُوا سبعين، وأدَالَ المشركون يوم أحُدٍ، حتى جَرَحُوا سبعين وقَتَلُوا خمسةً وسبعين[٢]. قال أنسُ بن مالكٍ ﷺ: (أتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بعَلِيٍّ ﷺ يَوْمَئِذٍ، وَعَلَيْهِ نَيِّفٌ وَسِتُّونَ جِرَاحَةً مِنْ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ وَرَمْيَةٍ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُهَا بيَدِهِ وَهِيَ تَلْتَئِمُ بإذْنِ اللهِ فَكَأنَّهَا لَمْ تَكُنْ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ؛ بَيَّنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المعنى الذي لأجلِهِ يُدَاولُ الأيَّامَ بين المؤمنين والكفَّار، فقالَ (وَلِيَعْلَمَ الله الَّذِينَ آمَنُوا) معناهُ: لِيَرَى من يُقِيْمُ على الإيْمان مِمَّن لا يقيمُ؛ فيظهرُ المؤمنُ المخلِصُ؛ والذي في قَلْبهِ مَرَضٌ. وقال الزجَّاج: (مَعْنَاهُ: لِيَعْلَمَ اللهُ عِلْمَ مُشَاهَدَةٍ بَعْدَ مَا كَانَ عِلْمُهُ عِلْمَ الْغَيْبِ؛ لأنَّ الْعِلْمَ الَّذِي عَلِمَهُ اللهُ قَبْلَ وُقُوعِ الشَّيْءِ لاَ يَجِبُ بِهِ الْمُجَازَاةُ مَا لَمْ يَقَعْ). وأما الواوُ في قوله: (وَلِيَعْلَمَ): واوُ العطفِ على خبرٍ محذوف؛ تقديرهُ: (وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاولُهَا بَيْنَ النَّاسِ) بضروبٍ من التَّدبيرِ، (وَلِيَعْلَمَ اللهُ) المؤمنينَ مُتَمَيِّزِيْنَ من المنافِقِينَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ ؛ أي يُكْرِمُهُمْ بالشَّهادةِ، وقال بعضُهم: معناهُ: ويجعلَكُم شهداءَ على الناسِ على معاصِيهم لإجلالِكُم وتعظيمِكُم، ثم قالَ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ ؛ أي لا يفعلُ اللهُ ذلك لِحُبِّ الظالمين، فإنهُ لا يُحِبُّ الظالمينَ، وفي هذا بيانُ أنَّ اللهَ لا ينصرُ الكافرين على المسلمين، إذِ النُّصْرَةُ تدلُّ على الْمَحَبَّةِ، واللهُ لا يحبُّ الكُفَّارَ، ولكنْ قد ينصرُ المسلمينَ في بعضِ الأوقاتِ على الكفَّار، وفي بعضِ الأوقات يَكِلُ المسلمينَ إلى حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ لذنبٍ

(١) في المخطوط: (إذ بل) وهو تصحيف، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) ينظر: الطبري في جامع البيان: تفسير الآية: النص (٦٢٧٠ و٦٢٧١).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٢١٩؛ ذكره القرطبي من غير إسناد.

كان حصلَ منهم، وإنَّما جعلَ اللهُ الدُّنيا مُتَقَلِّبَةً لئلاً يَطْمَئِنَّ المسلمون إليها لِتَقَلُّبِهَا، ولكنهم يسعونَ للآخرة الَّتِي يكونُ نعيمُها إلى الأبدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ؛ معطوفٌ على قوله (وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ)؛ ومعناهُ: ويُطَهِّرَ الذينَ آمنُوا من ذنوبهم، يقالُ: مَحَّصْتُ الشَّيْءَ أمَحِّصُهُ مَحْصاً؛ إذا أخلَصتُهُ مِنَ الْعَيْب، وَمَحِصَ الجمَلُ(١) يَمْحَصُ مَحْصاً إذا ذهبَ عنهُ الوبَرُ لكَدِّ العملِ فصار أملسَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ ؛ أي يُعَنِّيَهُمْ وَيُهْلِكَهُمْ وَيُنْقِصَهُمْ؛ لأنَّهم يَحْتَرِبُونَ فيخرجُوا للحرب مرَّةً أخرى فَيَسْتَأْصِلُهُمْ، وهذا تأويلُ مُدَاوَلَةِ الأيَّام.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أظننتُم يا معشرَ المؤمنين (أنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ) جِهَادَ الْمُجاهدينَ ولا صَبْرَ الصابرينَ وَاقِعاً فيهم مُشَاهَدَةً، وهذا استفهامٌ بمعنَى الإنكار لِظَنِّهِمْ وَحُسْبَانِهِمْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ) أي وَلَمْ يعلَمِ اللهُ، يقولُ الرجلُ لِمَا يفعلُ مَعْنَاهُ: لَمْ يَفْعَلْ؛ انضمَّ إليهِ حرفُ (مَا)، وقرأ الحسنُ (وَيَعْلَمِ الصَّابرِينَ) بالكسرِ عطفاً على قولهِ (وَلَمَّا يَعْلَمِ). وأما قراءةُ النَّصب فهو نصبٌ على الظَرفِ؛ يعني على صَرْفِ آخرِ الكلام عن أوَّلِه على تقديرِ: وأن يَعْلَمَ الصابرينَ، وهو قولُ الكوفيِّين. وأمَّا البصريُّون فَيُسَمُّونَهُ نَصْباً على الجمعِ. قال الشاعرُ(٢):

لاَ تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِي مِثْلَـهُ ... عَـارٌ عَلَيْـكَ إذا فَعَلْـتَ عَظِيْـمُ

أي لا يكن منكَ النَّهْيُ عن خُلُقٍ معَ إتيانِ مثلِه، ويقالُ: لا تأكلِ السَّمكَ وتشربَ اللَّبنَ؛ أي لا يكونُ منكَ الجمعُ بينَهما.

(١) في المخطوط: (الجهل)، والصحيح كما أثبتناه. وفي رواية الزجاج: ((مَحِصَ الحبلُ مَحصاً؛ إذا انقطع وبرَهُ)). نقلها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٢٢٠. ورواها النقاش: ((مَحِصَ الحمَلُ؛ إذا ذهب وبَره وأملسَ))، نقلها ابن عادل في اللباب: ج ٥ ص٥٦٠، والمعنيان واضحان.

(٢) البيت لأبي الأسود الدؤلي، ظالم بن عمرو (١ق.هـ-٦٩هـ).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (ذلِكَ لَمَّا أخْبَرَهُمُ اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا فَعَلَ شُهَدَاؤُهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالثَّوَابِ فِي الْجَنَّةِ رَغِبُوا فِي ذلِكَ وَقَالُوا: اللَّهُمَّ أرنَا قِتَالاً لَعَلَّنَا نَسْتَشْهِدُ بِهِ فَنَلْحَقُ بإخْوَانِنَا فِي الْجَنَّةِ، فَأَرَاهُمُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ أحُدٍ فَلَمْ يَثْبُتُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَانْهَزَمُوا إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ مِنْهُمْ مِمَّنْ ثَبَتَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقُتِلَ بَعْضُهُمْ وَجُرِحَ بَعْضُهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناها: وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ بعد وَقْعَةِ بَدْرٍ مِنْ قَبْلِ أنْ تنظرُوا إليه يَوْمَ أحُدٍ؛ (فَقَدْ رَأيْتُمُوهُ وَأنْتُمْ تَنْظُرُونَ) إلى السُّيوفِ فيها الْمَوْتُ، وهذا تَعْيِيْرٌ لَهم لفشَلِهم عندَ الحرب مع صدقِ رغبتِهم في الشَّهادةِ. ومعنى (فَقَدْ رَأيْتُمُوهُ) رأيتُم أسبابَهُ.

قوله عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ ؛ الآيةُ، قال المفسِّرون: خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى أحُدٍ حتى نزلَ بالشِّعْب مِن أحُدٍ في سبعمائة رجلٍ، وأمَّرَ عبدَالله بن جُبير من بني عمرو بن عَوفٍ على الرُّماة وهم خمسونَ رجُلاً، وقالَ: [أقِيْمُوا بأصْلِ الْجَبَلِ وَانْضَحُوا عَنَّا بالنَّبْلِ لاَ يَأْتُونَ مِنْ خَلْفِنَا، وَإنْ كَانَتْ لَنَا أوْ عَلَيْنَا فَلاَ تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ، فَإنَّا لاَ نَزَالُ غَالِبِيْنَ مَا ثَبَتُّمْ مَكَانَكُمْ] فجاءَتْ قريشُ وعلى مَيْمَنَتِهِمْ خالدُ بن الوليدِ وعلى ميسرتِهم عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ ومعهم النساءُ يضربنَ بالدُّفوفِ ويَقُلْنَ الأشعارَ، وكانت هندُ تقول:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقْ ... نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقْ

إنْ تَغْلِبُوا نُعَانِقْ ... أوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقْ

فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقْ

فحملَ رسولُ الله ﷺ وأصحابُه على المشركين فهزمُوهم، وقتَلَ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ طَلحةَ بْنَ أبي طلحةَ وهو يحملُ لواءَ المشركين، وأنزلَ اللهُ نصرَهُ على المؤمنين.

قال الزُّبَيْرُ: فرأيتُ هِنْداً وصواحباتِها هارباتٍ مُصْعَدَاتٍ في الجبلِ، فلما نَظَرَتِ الرُّماةُ إلى القومِ قد انكشفُوا ورأَوا أصحابَ النبيِّ ﷺ ينتهبونَ الغنيمةَ؛ أقبلُوا يريدون النَّهْبَ واختلفُوا فيما بينَهم، فقالَ بعضُهم: لا نتركُ أمرَ رسولِ الله ﷺ، وقال بعضُهم:

ما بقيَ في الأمرِ شيءٌ. ثم انطلقَ عامَّتهم ولَحِقُوا بالعسكرِ، فلما رأى خالدُ بن الوليدِ قلَّةَ الرُّماةِ واشتغالَ المسلمين بالغنيمةِ؛ صاحَ في المشركين ثم حَمَلَ على أصحاب النبيِّ ﷺ مِن خَلْفِهِمْ فهزمُوهم وقتلُوهم، ورمَى عبدُالله بن قَمِيئَةَ الحارثيُّ[1] رسولَ اللهِ ﷺ بحَجَرٍ فكسرَ أنفَهُ ورُبَاعِيَّتَهُ فشجَّهُ في وجههِ وأنفِهِ، وتفرَّقَ عنه أصحابُه ﷺ.

وكان مصعبُ بن عمير يَذُبُّ عن رسول الله ﷺ فَقُتِلَ، فَظَنَّ قاتلُه أنهُ قَتَلَ النبيَّ ﷺ؛ فنادَى: قتلتُ مُحَمَّداً، وأقبلَ عبدُالله بن قَمِيئَةَ يريدُ قَتْلَ رسـول الله ﷺ؛ وقـال: إنِّي قتلتُ مُحَمَّداً؛ وصرخَ إبليسُ لَعَنَهُ اللهُ: ألاَ إنَّ مُحَمَّداً قد قُتِلَ. وانْكَفَأَ الناسُ عنه، وجعلَ رسولُ الله ﷺ يدعُو الناسَ: [إلَـيَّ عِبَـادَ اللهِ؛ إلَـيَّ عِبَـادَ اللهِ] فـاجتمعَ إليـه ثلاثونَ رجُلاً فَحَمَوْهُ وكشَفُوا المشركينَ عنه، وأصيبَت يدُ طلحـةَ بـنِ عبـدِالله فَيَبِسَـتْ وبها كان يَقِي رسولَ الله ﷺ، وأصيبَت عَيْنَيّ قتادةَ بـن النُّعمـان حتـى وَقَعَـتْ علـى وَجْنَتِهِ؛ فردَّها رسولُ اللهِ ﷺ مكانَها فعادت أحسنَ ما كانت.

فلما انصرفَ رسولُ الله ﷺ أدركَهُ أُبَـيُّ بـنُ خَلَـفٍ الجمحـيُّ وهـو يقـولُ: لا نَجوتُ إنْ نَجَا، فقال القومُ: ألاَ يعطفُ عليه رجلٌ منَّا يا رسولَ اللهِ ؟! فقالَ: [دَعُوهُ]. حتى إذا دَنَا منهُ تناوَلَ رسولُ اللهِ ﷺ الْحَرْبَةَ من الْحَـارثِ بـن الصِّمَّـةِ؛ ثـم اسْـتَقْبَلَهُ فَطَعَنَهُ فِي عُنُقِهِ وَخَدَشَهُ خَدْشَةً فَتَدَهْدَهَ[2] عَنْ نَفْسِهِ وَهُوَ يَخُورُ كَمَا يَخُورُ الثَّوْرُ، وَهُوَ يَقُولُ: قَتَلَنِي مُحَمَّدٌ، وحملَهُ أصحابُه وقالوا لَهُ: ليسَ عليك بأسٌ، قالَ: لو كانت هــذه الطعنةُ بربيْعَةَ وَمُضَرَ لَقَتَلَتْهُمْ، أليسَ قالَ: [أقْتُلُكَ] فلو بَزَقَ عَلَيَّ بَعْدَ تِلْـكَ الْمَقَالَـةِ قَتَلَنِي، فَلَمْ يَلْبَثْ إلاَّ يَوْماً حَتَّى مَاتَ.

وكان أُبَيُّ قد قالَ للنبيِّ ﷺ قَبْلَ هذا: عندي فرسٌ أعلِفُها كلَّ يومٍ فَرَقاً مِـن ذرَّةٍ أقْتُلُكَ عليها، فقال ﷺ:[بَلْ أنَا أقْتُلُكَ إنْ شَاءَ اللهُ] فأصدَقَ اللهُ قَوْلَ نَبيِّهِ ﷺ[3].

---

(١) في المخطوط: (ابن قمئة الحارثي).

(٢) هكذا رسمها في المخطوط. وفي كتب السيرة: (فَتَدَأْدَأَ). وهَدْهَدَ: حَدَرَ الشيءَ من علُوٍّ إلى سفلٍ. وتدَأْدَأَ: تقلَّبَ عن فرسهِ فجعل يتدحرجُ.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: غزوة أحد: قتل أبي بن خلف: ج ٣ ص٨٩.

وفشَا في الناسِ أنَّ رسولَ الله ﷺ قُتِلَ، قالَ بعضُ المسلمين: ليتَ لنا رَسُولاً إلى عبدِالله بن أُبَيٍّ فيأخُذَ لنا أماناً من أبي سُفيان؟! وبعضُ الصحابَةِ جلسُوا وألقَوا بأيديهم. وقال أُناسٌ مِنْ أهْلِ النِّفَاق: إنْ كَانَ قَدْ قُتِلَ مُحَمَّدٌ فَالْحَقُوا بدِينِكُمُ الأوَّل، فقال أنسُ بن النَّضر عَمُّ أنسِ بن مالك: يَا قَوْمِ؛ إنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ قُتِلَ؛ فَإنَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ حَيٌّ لَمْ يُقْتَلْ وَهُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا تَصْنَعُونَ بالْحَيَاةِ بَعْدَ رَسُول اللهِ ﷺ؛ فقَاتِلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ؛ وَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ. ثم قالَ: اللَّهُمَّ إنِّي أعْتَذِرُ إلَيْكَ مِمَّا يَقُولُ هَؤُلاَءِ الْقَوْمُ - يَعْنِي الْمُسْلِمِيْنَ - وَأبْرَأ مِمَّا جَاءَ بهِ هَؤُلاَءِ الْمُنَافِقُونَ. ثم حَمَلَ سَيْفَهُ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ[(١)].

ثم إنَّ رسولَ الله ﷺ انطلقَ إلى الصخرةِ وهو يدعُو النـاسَ، وأولُ من عَرَفَ رسولَ اللهِ ﷺ كعبُ بن مالكٍ، قالَ: عَرَفْتُ عَيْنَهُ تَحْتَ الْمِغْفَر تَزهُرَان، فَنَادَيْتُ بأعْلَى صَوْتِي: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِيْنَ؛ أبْشِرُوا هَـذا رَسُولُ اللهِ ﷺ. فأشَارَ إلَيَّ: أن اسْكُتْ، فانْحَازَتْ الطائفةُ إليه من أصحابه فَلاَمَهُمْ على الفرار، فقالوا: يا رسولَ اللهِ؛ أتَانَا الخبرُ بأنَّكَ قُتِلْتَ؛ فَرَغِبَتْ قلوبُنا فوَلَّيْنَا مدبرينَ. فأنزلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيَةَ (وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)[(٢)].

أكرمَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ بهذا الاسمِ اشتُقَّ من اسْمه المحمودُ، فسمَّاه مُحَمَّداً وأحْمَدَ، وفيهِ يقولُ حَسَّانٌ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ عَبْدَهُ ... بِبُرْهَانِهِ وَاللهُ أَعْلا وَأَمْجَدُ
شَقَّ لَهُ مِنَ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو الْعَرْش مَحْمُودُ وَهَذا مُحَمَّدُ
نَبيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفَتْرَةٍ ... مِنَ الدِّيْنِ وَالأَوْثَانُ فِي الأَرْضِ تُعْبَدُ
فَأَرْسَلَهُ نُوراً مُنِيْراً وَهَادِياً ... يَلُوحُ كَمَا لاَحَ الصَّقِيْلُ الْمُهَنَّدُ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٨٨. وأخرجه الطبري في جامع البيان عن السدي مسنداً: النص (٦٣٠٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٣٠٩).

روي عن رسول اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: [إذا سَمَّيْتُمْ مُحَمَّداً فَأكْرِمُوهُ وَوَسِّعُوا لَهُ فِي الْمَجْلِسِ وَلاَ تُقَبحُوا لَهُ وَجْهاً، وَمَا مِنْ قَوْمٍ كَانَتْ لَـهُمْ مَشُـورَةٌ؛ فَحَضَـرَ مَعَـهُمْ مَـنِ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ وَأحْمَدٌ فَأدْخَلُوهُ فِي مَشُورَتِهِمْ إلاَّ خَارَ اللهُ لَهُمْ، وَمَـا مِـنْ يَـدٍ وَضَعَـتْ مَخْصَرَهَا مَنْ كَانَ اسْمُهُ مُحَمَّـداً وَأحْمَـداً إلاَّ قُـرِّسَ[١] فِـي كُـلِّ يَـوْمٍ ذلِـكَ الْمَـنْزِلُ مَرَّتَيْنِ][٢]. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ معنـاهُ: أفَإنْ مَاتَ على فراشِهِ، أو قُتِلَ في طاعةِ اللهِ رجعتُم إلى دينكـم الأوَّل وقُلْتُـمْ: إنْ كـان نبيّاً لَمَا قُتِلَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي مَـن يَرْجِعْ إلى دينِه الشِّرك فلن يُنْقِصَ من مُلْكِ اللهِ شيئاً ومن سُلطانِه، وإنَّما يضُـرُّ نفسَـهُ، ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ ؛ أي المؤمنِـينَ المجـاهدين، وإنَّمـا سُـمي الإرتدادُ انقلاباً عَلَى العَقِب؛ لأن الردَّةَ رجوعٌ إلى أقبـحِ الأديـان، كمـا أنَّ الانقـلابَ على القَهْقَرى أقبحُ ما يكون مِن المشي. ويسمَّى المطيـعُ شـاكراً؛ لأن الطَّاعـات كلُّـها شُكْرٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قال أبو هريرةُ ﷺ: (لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَامَ عُمَرُ ﷺ وَقَـالَ: إنَّ رجَـالاً مِـنَ الْمُنَـافِقِيْنَ يَزْعُمُـونَ أنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ مَـاتَ، وَإنَّ رَسُـولَ اللهِ لَـمْ يَمُـتْ، وَاللهِ لَيَرْجِعَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلْيُقَطِّعَنَّ أيْدِي رجَالٍ وَأرْجُلَهُمْ يَزْعُمُونَ أنَّهُ مَاتَ، فَأقْبَلَ أبُـو بَكْرٍ ﷺ حِيْنَ بَلَغَهُ الْخَبَرُ؛ فَدَخَلَ عَلَـى رَسُـولِ اللهِ ﷺ فِـي بَيْـتِ عَائِشَـةَ رَضِـيَ اللهُ عَنْهَا؛ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مُسَجّىً بُرْدَةً؛ فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ انْكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَـهُ؛ وَقَـالَ: بأبي أنْتَ وَأمِّي يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ أمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كَتَبَهَا اللهُ عَلَيْكَ فَقَدْ ذُقْتَـهَا، ثُـمَ رَدَّ

---

(١) القَرَسُ: المقرورُ إذا لم يستطع عَملاً بيدِهِ من شدَّة الخَصَـرِ – أي مـن شـدة الـبرد – و(الخَصَـرُ) البرْدُ، (وخَصِرَ) الرجلُ إذا آلَمَهُ البردُ في أطرافِهِ. لسان العرب.

(٢) من مجموعة أحاديث؛ في كنز العمال: النص (٤٥٢٢٤)؛ قال الهندي: ((أخرجه ابن عدي وابـن عساكر عن علي، قال ابن عدي: حديث غير محفـوظ، وأورده ابـن الجـوزي في الموضوعـات)). وفي الفوائد: ص٣٢٨؛ قال الإمام الشوكاني: ((فيه متهم بـالوضع، وفي معنـاه رويـت أحـاديث أخر لا تصح)).

الثَّوْبَ عَلَى وَجْهِهِ وَخَرَجَ، فَإذا هُوَ بعُمَرَ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ لَهُ: عَلَى رسْلِكَ يَا عُمَرُ؛ انْصِتْ، فَأَبَى إلاَّ انْ يَتَكَلَّمَ، فَلَمَّا رَآهُ أبو بَكْرٍ لاَ يُنْصِتُ؛ اقْبَلَ عَلَى النَّاسِ؛ فَحَمَدَ اللهَ وَأثْنَى عَلَيْهِ؛ وَقَالَ: أيُّهَا النَّاسُ؛ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً فَإنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإنَّ اللهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ (وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) قَالَ عُمَرُ: مَا هُوَ إلاَّ انْ سَمِعْتُ أبَا بَكْرٍ يَتْلُوهَا إلاَّ عُقِرْتُ حَتَّى وَقَعْتُ عَلَى الأَرْضِ مَا تَحْمِلُنِي رِجْلاَيَ؛ وَعَرَفْتُ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ مَاتَ)[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ ؛ قال الأخفشُ: (اللاَّمُ فِي النَّفْسِ مَنْقُولَةٌ)، تقديرهُ: وما كانتْ نفسٌ لِتَمُوتَ إلاَّ بإذْنِ اللهِ، كتبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (كِتَاباً مُؤَجَّلاً) أي إلى أجَلٍ لِرزْقِهِ وَعُمْرِهِ، فكلُّ نفسٍ لَهَا أجَلٌ تَبْلُغُهُ ورزْقٌ تستوفيَهُ؛ لا يقدرُ أحدٌ على تقديْمِه وتأخيره. في هذهِ تحريضٌ للمؤمنين على القِتَالِ؛ أي لا تتركُوا الجهادَ خِشْيَةَ الموتِ والقَتْلِ؛ فإنَّهم لم يَملكُوا قتلَكم. وانتصبَ قولهُ (كِتَاباً مُؤَجَّلاً) على المصدر كقولهِ تعالى: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾[(٢)] و ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبكَ﴾[(٣)] و ﴿صُنْعَ اللهِ﴾[(٤)] و ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾[(٥)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ ؛ يعني مَن يُردْ بعملهِ وطاعته الْمَدْحَةَ والرِّياءَ لا يُحْرَمُ حظَّه المقسومَ له في الدُّنيا مِن غيرِ أن يكونَ لَهُ حَظٌّ في الآخرةِ، يعني نُؤْتِهِ من الدُّنيا ما شاءَ مِمَّا قدَّرنا له، نَزَلَ ذلك في الذينَ تَرَكُوا الْمَرْكَزَ يومَ أحُد طَلَباً للغنيمةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ ؛ أي مَن يُردْ بعملِهِ الآخرةَ نُعْطِهِ منها ما نَقْسُمُ لهُ في الدُّنيا من الرِّزقِ، نَزَلَ في الذينَ

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٣٣٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن المنذر عن أبي هريرة)). وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ: الحديث (٣٦٦٧ و٣٦٦٨).

(٢) النساء / ١٢٢ .

(٣) الكهف / ٨٢، والقصص / ٤٦، والدخان / ٦، وغيرها.

(٤) النمل / ٨٨ .

(٥) النساء / ٢٤ .

ثبَتُوا مع أميرِهِمْ عبدُالله بن جُبير حتى قُتِلُوا[١]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ ؛ أي المطيعينَ، يَجزيهم الجنَّةَ في الآخرةِ. وقرأ الأعمشُ: (وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِيْنَ) بالياء، يعني اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ ؛ قرأ الحسنُ وأبو جعفرٍ: (وَكَاينْ) مقصوراً من غيرِ هَمْزٍ ولا تشديدٍ حيثُ وقعَ. وقرأ مجاهدُ وابنُ كثير مَمدوداً مهموزاً خفيفاً على وزن فَاعِلٍ. وقرأ الباقونَ مشدَّداً مهموزاً على وزن كَعَيِّنْ، وكلُّها لغاتٌ صحيحةٌ بمعنى واحدٍ. ومعناهُ: وَكَمْ مِنْ نَبِيٍّ قَائلَ معهُ جماعاتٌ كثيرة، ﴿ فَمَا وَهَنُواْ ﴾ ؛ أي فما فرُّوا فيما بينَهم ﴿ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ في طاعةِ الله، ﴿ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ ؛ أي ما جَبُنُوا عن قِتَالِ عدوِّهم وما خضعوا لعدوِّهم؛ ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ ؛ على قِتَالِ عدوِّهم لدينِ الإسلام.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافع وأبو عمرو: (قُتِلَ مَعَهُ). وقرأ الباقون: (قَائلَ مَعَهُ)، لقولِهِ (فَمَا وَهَنُوا) ويستحيلُ وصفُهم بقلَّة الوهنِ بعد ما قُتلوا.

وأمَّا تأويلُ قَتْلِهِ فلهُ ثلاثة أوجُهٍ؛ أحدُها: أن يكونَ القتلُ واقعاً على النبيِّ ﷺ وحدَه؛ وحينئذ يكون تمامُ الكلام عند قولِهِ (قُتِلَ)، ويكون هناكَ إضمارٌ، وتقديره: وَ(مَعَهُ ربيُّونَ كَثِيرٌ). والثَّاني: أن يكونَ القَتْلُ بالنبيِّ ومَن معهُ من الرِّبِّيِّيْنَ، ويكونُ معناهُ: قُتِلَ بعضُ مَن كان معهُ. يقولُ العربُ: قَتَلْنَا بَنِي تَمِيمٍ؛ وإنَّما قُتِلَ بعضُهم. وقوله (فَمَا وَهَنُوا) راجعٌ إلى الباقينَ. والثالثُ: أن يكونَ القَتْلُ لِلرُّبِّيِّيْنَ لا غيرَ.

---

(١) عبد الله بن جبير بن النعمان، أمير الرماة على جبل أحد، أخو بني عمرو بن عوف؛ وهو مُعْلَمٌ يومئذ بثياب بيض، والرماة خمسون رجلاً. قال السهيلي: ((قال ابن عباس: هو الذي كان أميراً على الرماة؛ وكان أمرَهم أن يلزموا مكانهم، ولا يخالفوا أمر نبيهم، فثبتت معهم طائفة، فاستشهد واستشهدوا، وهم الذين أرادوا الآخرة، وأقبلت طائفة على أخذ المغنم وأخذ السلب، فكرَّ عليهم العدو وكانت المصيبة)). السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٧٠ و١٢٠ و١٣٠.

وقولهُ تعالى (ربيُّونَ): قرأ ابنُ مسعودٍ والحسن وعكرمةُ: (رُبيُّونَ) بضمِّ الراء، وقرأ الباقون بالكسرِ وهي لغةٌ فَاشِيَةٌ، وهي جمعُ الرُّبَّةِ(١) وهي الفرقةُ. قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ وقتادة والسُّدي: (جُمُوعٌ كَثِيْرَةٌ). وقال ابنُ مسعود: (الرِّبيُّونَ: الأُلُوفُ). وقال الضحَّاك: (الرُّبيَّةُ الوَاحِدَةُ أَلْفٌ). وقال الكلبيُّ: (الرُّبيَّةُ الْوَاحِدَةُ عَشْـرَةُ آلاَفٍ). وقال الحسنُ: (الرِّبيُّونَ هُمُ الْعُلَمَاءُ الْفُقَهَاءُ الصُّبَرَاءُ). وقال ابنُ زيدٍ: (الرَّبَّانِيُّونَ الْـوُلاَّةُ، وَالرِّبيُّونَ الرَّعِيَّةُ). وقال بعضُهم: الرِّبيُّونَ الذينَ يعبدُون الرَّبَّ،كما ينسبُ البصرُّيون إلى البصرةِ. وقيل: الرِّبيُّونَ الْمُنِيبُونَ إِلَى اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ ؛ حكايةُ قول الرِّبيِّينَ؛ أي ما كان قولُهم عند قتالِهم (إلاَّ أنْ قَالُوا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) الصغائِرَ والكبائرَ. والإسرافُ في اللغة: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ بارْتِكَاب الذُّنوب الْعِظَام(٢). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ ؛ أي ثبِّتها للقتال بتَقْويَةِ قلوبنا. ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ ؛ أي أعِنَّا عليهم بإلقاءِ الرُّعْب في قلوبهم أي هَلاَّ قُلْتُمْ أيُّها المؤمنون كما قالَ الرِّبيُّونَ؛ وهَلاَّ قَاتَلْتُمْ كما قاتلوا.

قرأ الأعمشُ: (وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ) بالرفعِ على أنه اسمُ (كَانَ) والخبرُ ما بعدَ (إلاَّ). وقرأ الباقون بالنصب على خبر (كَانَ)، والاسمُ ما بعدَ (إلاّ) كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلاَّ أنْ قَالُوا﴾(٣) و ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إلاَّ أنْ قَالُوا﴾(٤) ونحوهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ؛ أي أعطاهم اللهُ النصرَ والغنيمةَ والفتحَ والثناءَ الْحَسَنَ في الدُنيا؛ والجنَّةَ في الآخرة.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٢٣٠؛ قال القرطبي: ((يقال للخِرقَةِ التي تُجمع فيها القِدَاحُ: رِبَّةٌ وَرُبَّةٌ)).

(٢) في جامع البيان: تفسير الآية؛ قال الطبري: ((وأما الإسرافُ: فإنه الإفراط في الشَّيء، يقال منه: أسرفَ فلانٌ في هذا الأمرِ، إذا تجاوزَ مقدارَهُ فأسرفَ، ومعناه هنا: اغفِرْ لنا ذُنوبَنا...)).

(٣) الأعراف / ٨٢ .

(٤) الجاثية / ٢٥ .

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ ؛ أي الْمُجَاهِدِيْنَ. وفي الآيةِ دلالةٌ: أنهُ قد يجوزُ اجتماع الدُّنيا والآخرةِ لِوَاحِدٍ، وعن عَلِيٍّ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (مَنْ عَمِلَ لِدُنْيَاهُ أضَرَّ بآخِرَتِهِ، وَمَنْ عَمِلَ لآخِرَتِهِ أضَرَّ بدُنْيَاهُ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ تَعَالَى لأَقْوَامٍ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؛ يعني اليهودَ والنصارى فيما يقولونَ لكم أنَّ مُحَمَّداً ﷺ لو كانَ حَقّاً لَمَا ظهرَ عليه المشركونَ، ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ ؛ أي دينِ الشِّرك، ﴿ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ ؛ أي فترجِعوا مَغبُونِين إلَى دِينكم الأوَّل؛ ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ ؛ أي وَلِيُّكُمْ وناصرُكم، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ ؛ المانِعين من الكفَّار، لأنَّ أحَداً لا يقدِرُ أن يَنْصُرَ كَنَصْرِهِ، ولا أنْ يدفعَ كدفاعِه. وقُرئ في الشواذِّ: (بَلِ اللهَ) بالنصب على معنى: بَلْ أطيعُوا اللهَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ ؛ قال السُّدِّيُّ: (ارْتَحَلَ أبُو سُفْيَانَ وَالْمُشْرِكُونَ يَوْمَ أحُدٍ مُتَوَجِّهِيْنَ نَحْوَ مَكَّةَ، فَلَمَّا بَلَغُواْ بَعْضَ الطَّرِيْقِ نَدِمُوا؛ وَقَالُوا: بِئْسَ مَا صَنَعْنَا؛ قَتَلْنَاهُمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إلاَّ الْيَسِيْرَ ثُمَّ تَرَكْنَاهُمْ، ارْجِعُواْ فَاسْتَأْصِلُوهُمْ. فَلَمَّا عَزَمُواْ عَلَى ذلِكَ؛ ألْقَى اللهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبهِمْ حَتَّى رَجَعُواْ عَمَّا هَمُّواْ بِهِ- وستأتِي هذه القصةُ بتمامها إنْ شاءَ اللهُ تعالى - فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٢).

وقرأ أبو أيُّوب: (سَيُلْقِي) بالياء يعني (اللهُ مَوْلاَكُمْ). وقرأ الباقون بالنُّون على التَّعْظِيْمِ؛ أي سَنَقْذِفُ في قلوب الذين كفرُوا الخوفَ، وثَقَّلَ (الرُّعُبَ) ابن عامرٍ والكسائيُّ، وخفَّفه الآخرون. قَوْلُهُ تَعَالَى: (بِمَا أشْرَكُوا بالله) بإشراكِهم بالله ما لَمْ يُنَزِّلْ به كتاباً فيه عذرٌ وحجَّةٌ لهم. وقيل: معنى قولِهِ (سُلْطَاناً) أي حُجَّةً وبيَاناً وبُرهَاناً.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: من حديث سعيد بن جبير: ج ٧ ص٢٠١: النص (٣٥٢٦٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٣٥٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٣٥٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٥١) ﴾؛ أي مصيرُهم في الآخرةِ النارُ، وبئس مقامُ الظالمين النارَ في الآخرةِ. وروي في الخبر: أنَّ أبَا سُفْيَانَ صَعَدَ الْجَبَلَ يَوْمَ أحُدٍ؛ فقَالَ ﷺ: [اللَّهُمَّ إنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ أنْ يَعْلُونَا] فَمَكَثَ أبُو سُفْيَانَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: أيْنَ ابْنُ أبي قُحَافَةَ؟ أيْنَ ابْنُ الْخَطَّاب؟ أيْنَ مُحَمَّدٌ ؟ فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: هَذا رَسُولُ الله ﷺ، وَهَذا أبُو بَكْرٍ، وَهَا أنَا عُمَرُ، فَقَالَ أبُو سُفْيَانَ: نَشَدْتُكَ اللهَ يَا ابْنَ الْخَطَّاب؛ أمُحَمَّدٌ فِي الأَحْيَاءِ؟ قَالَ: إيْ وَاللهِ يَسْمَعُ كَلاَمَكَ، فَقَالَ: أيْنَ الْمَوْعِدُ؟ يَعْنِي أيْنَ نُحَاربُ بَعْدَ هَذا ؟ فَقَالَ ﷺ: [قُلْ: ببَدْرِ الصُّغْرَى]. وَكَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرِ الصُّغْرَى بَعْدَ أحُدٍ بسَنَةٍ، فَخَرَجَ النَّبيُّ ﷺ لِبَدْرِ الصُّغْرَى عَلَى الْمَوْعِدِ، وَرُعِبَ الْمُشْرِكُونَ فَلَمْ يَتَجَاسَرُوا عَلَى الْحُضُور(١).

وروي أنَّ أبَا سُفْيَانَ رَكِبَ الْجَبَلَ يَوْمَ أحُدٍ فقَالَ: اُعْلُ هُبَلَ؛ اُعْلُ هُبَلَ! فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: اللهُ أعْلاَ وَأجَلُّ، فَقَالَ أبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بيَوْمٍ؛ وَإنَّ الأَيَّامَ دُوَلَةٌ وَالْحَرْبَ سِجَالٌ، فَقَالَ عُمَرُ: لاَ سَوَاءٌ(٢) قَتْلاَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلاَكُمْ فِي النَّار(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾؛ وذلك: أنَّهُ لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأصْحَابُهُ إلَى الْمَدِيْنَةِ وَقَدْ أصَابَهُمْ مَا أصَابَهُمْ، قَالَ أنَاسٌ مِنْهُمْ: مِنْ أيْنَ أصَابَنَا هَذا وَقَدْ وَعَدَنَا اللهُ النَّصْرَ؟! فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ) الذي وعدَ بالنصرِ والظَّفَرِ يومَ أحُدٍ وهو قولُهُ: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾(٤) الآيةُ(٥).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: غزوة بدر الآخرة: ج ٣ ص٢٢٠.

(٢) لا سواء؛ أي لا نحن سواء. قال السهيلي: ((ولا يجوز دخول (لا) على اسم مبتدأ معرفة إلا مع التكرار، ولكنه جاز في هذا الموضع، لأن القصد فيه إلى نفي الفعل؛ أي لا نستوي)).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: شماتة أبي سفيان بالمسلمين بعد أحد: ج ٣ ص٩٩.

(٤) آل عمران / ١٢٠ .

(٥) عن مُحَمد بن كعب القرظي؛ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٢٣٣. واللباب في علوم الكتاب: ج ٥ ص٥٩٨.

وقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ لِلرُّمَاةِ: [لاَ تَبْرَحُواْ مِنْ مَكَانِكُمْ](١)، وكَانَ ﷺ قَدْ جَعَلَ أحُداً خَلْفَ ظَهْرِهِ وَاسْتَقْبَلَ الْمَدِيْنَةَ، وَأقَامَ الرُّمَاةَ فِيْمَا يَلِي خَيْلَ الْمُشْرِكِيْنَ، وَأمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَاللهِ بْنَ جُبَيْرِ الأنْصَارِيَّ، وَقَالَ لَهُمْ:[احْمُوا ظُهُورَنَا، وَإنْ رَأيْتُمُونَا قَدْ غِشْنَا فَلاَ تُشْرِكُونَا، وَإنْ رَأيْتُمُونَا نُقْتَلُ فَلاَ تَنْصُرُونَا]. وَأقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ وَأخَذُواْ فِي الْقِتَالِ، فَجَعَلَ الرُّمَاةُ يَتَرَشَّقُونَ خَيْلَ الْمُشْرِكِيْنَ بالنَّبْلِ، وَالْمُسْلِمُونَ يَضْرِبُونَهُمْ بالسَّيْفِ؛ حَتَّى وَلَّوْا هَارِبِيْنَ وَانْكَشَفُواْ مَهْزُومِيْنَ، فَذلِكَ قَوْلُهُ (إذْ تَحُسُّونَهُمْ بإذْنِهِ) أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً شديداً في أوَّل الحرب بأمْره وعلمِه (حَتَّى إذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ) أي إلَى أن فَشِلْتُمْ جعلُوا (حَتَّى) بمعنى (إلَى) فحينئذ لا جوابَ لهُ، وقيل (حَتَّى) بمعنى: فَلَمَّا، وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخير.

قالوا: وفِي قوله (وَتَنَازَعْتُمْ) مُقْحَمَةٌ تقديرهُ: حتَّى اذا تنازعتم في الأمر وعصيتُم فشِلْتُم؛ أي جَبُنْتُمْ وضَعُفْتُمْ. وكان (تَنَازَعْتُمْ) أنَّ الرُّمَاةَ لَمَّا انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ وَقَعَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْغَنَائِمِ؛ قَالُوا: قَدِ انْهَزَمَ الْقَوْمُ وَأمِنَّا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ تُجَاوِزُواْ أمْرَ رَسُول اللهِ ﷺ، فَثَبَتَ عَبْدُاللهِ بْنُ جُبَيْرٍ فِي نَفَرٍ يَسِيْرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ دُونَ الْعَشْرَةِ؛ قِيْلَ: ثَمَانِيَةٌ، وَانْطَلَقَ الْبَاقُونَ يَنْتَهِبُونَ، فَلَمَّا نَظَرَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيْدِ وَعِكْرِمَةُ بْنُ أبي جَهْلٍ إلَى ذلِكَ؛ حَمَلُواْ عَلَى الرُّمَاةِ مِنْ قِبَلِ ذلِكَ الشِّعْب فِي مِائَتَيْنِ وَخَمْسِيْنَ فَارساً مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ، وكَانَ خَالِدُ يَوْمَئِذٍ مُشْركاً؛ فَقَتَلَ عَبْدَاللهِ بْنَ جُبَيْرٍ وَمَنْ بَقِيَ مَعَهُ مِنَ الرُّمَاةِ، وَأقْبَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ خَلْفِهِمْ، وَتَفَرَّقَ الْمُسْلِمُونَ وَانْتَقَضَتْ صُفُوفُهُمْ وَاخْتَلَطُوا، وَحَمَلَ عَلَيْهِمُ الْمُشْرِكُونَ حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ بَيْنِ قَتِيْلٍ وَجَرِيْحٍ وَمُنْهَزِمٍ وَمَدْهُوشٍ(٢)، وَنَادَى إبْلِيْسُ: ألاَ إنَّ مُحَمَّداً قَدْ قُتِلَ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (حَتَّى إذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمْرِ) أي لَمَّا اختلفتُم في الأمرِ الذي أمركم رسولُ الله ﷺ من الثباتِ على المركزِ، وعصيتُم الرسولَ من بعدِ ما أراكُم ما تحبُّون من النَّصرِ على عدوِّكم والظفرِ والغنيمة. قال بعضُ المفسِّرين: جوابُ (إذا فَشِلْتُمْ) هَا هُنا مُقَدَّرٌ، كأنهُ قالَ: إذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ امْتُحِنْتُمْ بما رأيتُم من القتلِ والبلاءِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٣٠٩ و٦٣٦٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٣٥٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾؛ معنى: مِنَ الرُّمَاةِ مَن يريدُ الحياة ؟ وهمُ الذين تركُوا الْمَرْكَزَ ولم يَثْبُتُوا فيهِ ووقعُوا في الغنائمِ، (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الاخِرَةَ) يعني: الذينَ ثَبَتُوا في المركزِ مع عبدِاللهِ بن جُبير وباقِي الرُّماة حتَّى قُتِلُوا. قال ابنُ مسعود ﷺ: (مَا شَعَرْنَا أنَّ أحَداً مِنْ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ ﷺ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَعَرَضَهَا حَتَّى كَانَ يَوْمُ أحُدٍ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾؛ أي صرفكَم اللهُ عن المشركينَ بالْهَزِيْمَةِ لِيَبْتَلِيَكُمْ، قيل: المرادُ بالصَّرفِ في هذه المواضع رَفْعُ النَّصْر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾؛ أي لم يُعَاقِبْكُمْ عندَ ذلك فلم تُقْتَلُوا جميعاً. وقال الكلبيُّ: (تَجَاوَزَ عَنْكُمْ فَلَمْ يُؤَاخِذْكُمْ بذنْبكُمْ)، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾؛ أي ذُو مَنٍّ عليهم بالعفوِ والتَّجاوُزِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾؛ راجعٌ إلى قولهِ (وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ) لأنَّ عفوَه عنهم لا بُدَّ أن يتعلَّقَ بذنبٍ منهم؛ وذلك الذنبُ ما بيَّنهُ بقولهِ (إذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ) أي ولقد عَفَا عنكُم (إذْ تُصْعِدُونَ) أي إذ تُبْعَدُونَ هَرَباً في الأرضِ بالْهَزِيْمَةِ. والإصْعَادُ: السَّيْرُ فِي مُسْتَوَى الأَرْضِ.

وقرأ الحسنُ وقتادة: (تَصْعَدُونَ) بفتح التاء والعين[٢]. قال أبو حاتِم: يقالُ: أصْعَدْتُ؛ إذا مَضَيْتُ حِيَالَ وَجْهِكَ، وَصَعَدْتُ؛ إذا رَقِيْتُ عَلَى جَبَلٍ أوْ غَيْرِهِ. والإصْعَادُ: السَّيْرُ فِي مُسْتَوَى الأَرْضِ وَبُطُونِ الأوديةِ والشِّعاب. والصُّعُودُ: الارتفاعُ على الجبلِ والسُّطوح والسَّلالم والمدرَجِ، وكِلاَ القراءتين صوابٌ. وقد كان يومئذٍ منهم

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٣٨٥ و٦٣٨٦). وفي الدر المنثور: ج ٢ ص٣٤٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في السنن بسند صحيح)). أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٢ ص٢٣٧: الحديث (١٤٢١).

(٢) ذكرها الطبري في جامع البيان: تفسير الآية: بصيغة التحريض.

صَاعِدٌ مُصْعِدٌ؛ أي صاعدٌ إلى الجبلِ، وَمُصْعِدٌ هَاربٌ على وجههِ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوهُـمْ: [إِلَيَّ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِيْنَ؛ وَيَا أصْحَابَ الْبَقَـرَةِ وَآلِ عِمْـرَانَ أنَـا رَسُـولُ اللهِ][1] فَلَـمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ مِنْهُمْ أحَدٌ حَتَّى أتَوا عَلَى الْجَبَلِ. ويحتملُ أنَّهم ذهبُوا في بَطْنِ الوادِي أوَّلاً؛ ثُمَّ صَعَدُوا الجبلَ، فلا تَنَافِيَ حينئذٍ بين القرائتين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ) أي لا تُعَرِّجُونَ ولا تُقِيْمُونَ علـى رسـولِ الله ﷺ فلا يقيمُ بعضُكم على بعضٍ ولا يَلْتَفِـتُ بعضكـم إلى بعـضٍ. وقـرأ الحسـنُ: (وَلاَ تَلُونَ) بواوٍ واحدة، كما يقالُ: اسْتَحَيْتُ وَاسْتَحْيَيْتُ. قال الكلبيُّ: (يَعْنِـي بقَوْلِـهِ (عَلَى أحَدٍ) النَّبِيَّ ﷺ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أخْرَاكُمْ) أي مِن خلفِكم، وذلكَ أنَّهُ لَمَّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلاَّ ثَلاَثَة عَشَرَ رَجُلاً، خَمْسَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ: أبُو بَكْرٍ؛ وَعَلِيٌّ؛ وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ؛ وَطَلْحَةُ بْنُ عَبْدِاللهِ؛ وَسَعْدٌ، وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الأنْصَارِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأثَابَكُمْ غَمّاً بغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَـاتَكُمْ وَلاَ مَـا أصَـابَكُمْ) أي جزاكم غَمّاً مُتَّصلاً بغمٍّ؛ فأحدُ الغمَّين الْهَزِيْمَةُ وقَتْلُ أصحابهم، والثَّانِي: إشْـرافُ خالدٍ في فَمِ الشِّعْب مع خَيْـلِ المشـركينَ. وقيـل: الغـمُّ الأوَّلُ: هـو القتـلُ والجـراحُ، والثانِي: سَمَاعُهم بأنَّ النبيَّ ﷺ قُتِلَ؛ فأساءَهم الغمُّ الأوَّل بقولهِ (لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَـى مَا فَاتَكُمْ) أي إذْ أنالَكُم غمَّ النبيِّ ﷺ نِلتُمْ بهِ كل غـمٍّ مـن فَـوْتِ الغنيمـةِ والْهَزِيْمَـةِ. وقيل: معناهُ: مَن تَرَادَفَتْ عليه الغمُومُ واعتادَ في ذلكَ يقـلُّ حُزْنُـهُ وتأسُّـفه علـى مـا يفوتُه من الدُّنيا.

وقال الزجَّاج:(مَعْنَى قَوْلِهِ (غمّاً بغـمٍّ) أيْ جَزَاكُـمْ غَمّـاً بمَـا غَمَمْتُـمْ النَّبيَّ ﷺ بمُفَارَقَةِ الْمَكَانِ الَّذِي أمَرَكُمْ بحِفْظِهِ). وقال الحسنُ: (مَعْنَى هَذا الْغَـمِّ بغَـمِّ الْمُشْـرِكِيْنَ يَوْمَ بَدْرٍ). ويقَالُ: (لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ) متَّصِلٌ بقولـهِ (وَلَقَـدْ عَفَـا عَنْكُـمْ)، وقيل: معناهُ:(لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ) بمعنى الغنيمةِ والفتحِ. (لاَ مَـا أصَـابَكُمْ): (مَا) في موضعِ خَفْضٍ؛ أي وَلاَ مَا أصَابَكُمْ مِن القتلِ والْهَزِيْمَـةِ. وقـال بعضُـهم:(لاَ)

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٣٩٨) بلفظ: [إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ].

زائدةٌ؛ معناهُ: لِكَي تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَمَا أَصَابَكُمْ؛ عقوبةً لكم في خِلافكم وتَرْكِكُمْ الْمَرْكَزَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بأعمالِكم من إغْتِمَامِ المسلمينَ وشَمَاتَةِ المنافقينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ ؛ الآيةُ؛ وذلك أنَّهُ لَمَّا افْتَرَقَ الْفَرِيْقَانِ؛ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيّاً رضي الله عنه فِي إثْرِ الْمُشْرِكِيْنَ وَقَالَ لَهُ: [انْظُرْ؛ فَإنْ هُمْ جَنَبُواْ الْخَيْلَ وَرَكِبُواْ الإبلَ فَهُمْ يُرِيْدُونَ مَكَّةَ، وَإنْ رَكِبُواْ الْخَيْلَ وَسَاقُوا الإبلَ فَهُمْ يُرِيْدُونَ الْمَدِيْنَةَ][١]. فَخَرَجَ عَلِيٌّ فِي إثْرِهِمْ فَإذا هُمْ رَكِبُواْ الإبلَ وَقَادُوا الْخَيْلَ، فَرَجَعَ عَلِيٌّ رضي الله عنه وَأخْبَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ إنَّا قَدِ اجْتَمَعْنَا لِنُحَارِبَ ثَانِياً، فقَالَ ﷺ: [كَذبُوا؛ فَإنَّهُمْ أرَادُوا الإنْصِرَافَ إلَى مَكَّةَ] فكَانَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأمِنَ الْمُسْلِمُونَ، وَألْقَى اللهُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ؛ فَمَا بَقِيَ مِنْهُمْ أحَدٌ إلاَّ وَقَدْ ضَرَبَ ذقْنَهُ صَدْرَهُ؛ إلاَّ مُعَتَّبَ بْنَ قُشَيْرٍ وَأصْحَابَهُ الَّذِيْنَ كَانُوا يَشُكُّونَ فِي أمْرِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لَمَّا عَلِمَ اللهُ مِنْ بَاطِنِهِمْ خِلاَفَ مَا عَلِمَ مِنْ بَاطِنِ الْمُؤْمِنِيْنَ مَنَعَهُمْ مَا أعْطَى الْمُؤْمِنِينَ؛ فَتَرَدَّدُوا فِي الْخَوْفِ عَلَى أنْفُسِهِمْ وَسُوءِ الظَّنِّ بربِهِمْ؛ يَئِسُواْ مِنْ نَصْرِهِ وَشَكُّوا فِي صَادِقِ وَعْدِهِ وَصَادِقِ عَهْدِهِ.

ومعنى الآية: (ثُمَّ أنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ) الذي كنتُم فيه أمْناً. قولُه: (نُعَاساً) بدلٌ مِن (أمَنَةً) أي أمَّنَكُمْ أمَناً تَنَامُونَ معهُ؛ لأنَّ الْخَائِفَ لا ينامُ، ومِن هنا قالَ ابنُ مسعود رضي الله عنه: (النُّعَاسُ فِي الصَّلاَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَفِي الْقِتَالِ مِنَ الرَّحْمَنِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡۖ ﴾ ؛ قرأ الأعمشُ وحمزة والكسائيُّ وخلفُ: (تَغْشَى) بالتاءِ؛ ردُّوه إلى الأمَنَةِ، وقرأ الباقونَ بالياءِ؛ ردُّوه إلى النُّعاسِ؛ لأن النعاسَ يلي الفعلَ، فالتذكيرُ أوفى منهُ مِمَّا بَعُدَ منهُ، وهذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾[٣] بالياء والتَّاء، والمراد بالطائفةِ التي غَشِيَهُمُ النُّعاسُ أهلُ الصدقِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٤١٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: كتاب الجهاد: النص (١٩٣٨٧) بلفظ: ((النعاس عند القتل أمَنة من الله، وعند الصلاة من الشيطان، وتلا الآية)).

(٣) القيامة / ٣٧ .

واليقين. قال أبو طَلْحَةَ ﷺ: (رَفَعْتُ رَأسِي يَوْمَ أحُـدٍ؛ فَجَعَلْـتُ مَـا أرَى أحَـداً مِـنَ النَّاسِ إلاَّ وَهُوَ يَمِيلُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ مِنَ النُّعَاسِ)[1] قالَ أبو طلحةَ: (كُنْتُ مِمَّـنْ أنْـزَلَ اللهُ عَلَيْهِ النُّعَاسَ يَوْمَئِذٍ؛ وَكَانَ السَّيْفُ يَسْقُطُ مِنْ يَدِي ثُمَّ آخُذُهُ؛ ثُمَّ يَسْقُطُ مِنْ يَدِي ثُمَّ آخُذُهُ)[2].

والمرادُ بقولهِ تعالى: ﴿ وَطَآيِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ ؛ المنـافقونَ: مُعَتِّـبُ ابْنُ قُشَيْرٍ وأصحابُه أمَرَتْهُمْ أنفسُهم وحملتْهُم على الغمِّ[3]، يقالُ لكلِّ مَن خَافَ وَحَزَنَ فِي غيرِ موضعِ الْحُزْنِ والخوفِ: أهَمَّتْهُ نَفْسُهُ.

قَوْلُهُ: ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ ؛ يعني هـذه الطائفـةَ الـتي قد أهَمَّتْهُمْ أنفسُهم؛ يَظُنُّونَ باللهِ أنْ لا ينصرَ مُحَمَّداً وأصحابَه، وقيل: ظَنُّوا أنَّ مُحَمَّداً ﷺ قد قُتِلَ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) أي كَظَنِّ أهلِ الجاهليَّـةِ والشِّـركِ، وقيـلَ: كَظَنِّهِمْ في الجاهليَّـةِ، ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ ؛ أي مَـا لَنَـا مِـن الأمرِ من شيءٍ، لفظةُ استفهامٍ ومعناها: الْجَحَدُ؛ يعنـون النَّصْـرَ. وقيـل: معنـاهُ: هـل نَطْمَعُ أن يكونَ لنا شيءٌ من الظَّفَرِ والدولةِ. وقيـل: معنـاهُ: لـو كـانَ الأمـرُ إلينـا مـا خرجنَا، ولكن أخرِجْنَا إلى القتالِ مُكْرَهِيْنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ ﴾ ، لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ ، إن النَّصرَ والظَّفَرَ والدولةَ كلُّ ذلك للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

مَنْ نصبَ (كُلَّهُ) جعلَهُ توكيداً للأمرِ، ومن رَفَعَهُ جعلهُ خبر (إنَّ). قرأ أبو عمرٍو ويعقوبُ (كُلُّهُ) بالرفعِ على الإبتداء؛ وخبرُه (للهِ)، وهذا المبتدأ وخبره خـبرٌ لـ (إنَّ). وقرأ الباقون بالنَّصب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٤٢١).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب المغازي: الحديث (٤٠٦٨).

(٣) أخرج الطبري في جامع البيان: النص (٦٤٣٧)؛ قال: ((عن الزبير؛ قال: واللهِ إني لأسمعُ قـولَ معتِّب بن قُشير أخي بني عمرو بن عوف، والنعاسُ يغشاني ما أسمعهُ إلا كالحلُمِ حين قـال: لـو كان لنا من الأمرِ شيءٌ ما قُتلنا ها هنا)).

وروى الضحَّاك عن ابن عبَّاس في قولهِ (يَظُنُّونَ باللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ): (يَعْنِي التَّكْذِيْبَ بالْقَدَرِ) لأنَّهم تكلَّموا بالقدر فقالَ اللهُ تعالى: (قُلْ إنَّ الاَمْـرَ كُلَّـهُ للهِ) يعني القدَرَ خيرَه وشرَّه من اللهِ؛ وهو قولُهم: (لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَـا هَـا هُنَا).

وذلك أنَّ المنافقينَ قال بعضُهم لبعضٍ : لو كان لنا عقولٌ ما خرجنا مع مُحَمَّدٍ لقتال أهل مكَّة؛ ولم يُقْتَلْ رؤسَاؤنا، فقال اللهُ: (قُلْ) لهم: (لَوْ كُنْتُمْ فِـي بُيُوتِكُـمْ لَـبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقَتْلُ) أي لَخَرَجَ الذينَ قُضِيَ عليهم القتلُ (إلَـى مَضَاجِعِـهِمْ) إلى مصارعِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ ؛ أي المنـافقون يُسِرُّونَ ويضمِرون في قلوبِهم ما لا يظهرون لكَ بألسنَتِهم؛ ﴿ يَقُولُونَ ﴾ ؛ سِـرّاً: ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ ، من النَّصْرِ والدولة، ﴿ شَىْءٌ ﴾ ، وكان دينُ مُحَمَّدٍ حقّاً، ﴿ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ﴾ ، ما قُتِـلَ أصحابُنـا هنـا في اتِّباعِـهِ. وقيـل: معنـاهُ: لـو لم يُخْرِجْنَا رؤساؤُنا إلى الحربِ (مَا قُتِلْنَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ ؛ أي قُلْ للمنافقين: لو تخلَّفتم أنتم في بيوتِكم، ﴿ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ ؛ لَخَرَجَ الذينَ كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مصارعِهم ومواضِعِ قَتْلِهِمْ لا محالةَ لنفوذِ قضاءِ الله. ويقالُ: معناهُ: لو كنتُم في بيوتِكُم لَمَا أخطأكُم ما كُتِبَ عليكُم. وقيل: معناهُ: لو كنتُـم أيُّـها المنـافقين في بيوتِكم لَبَرَزَ الذينَ فُرضَ عليهم القتالُ وهم المؤمنونَ المخلصـونَ إلى مواضـعِ القتـالِ صابرينَ محتسبين. قرأ أبو عَبْلَةَ: لَبُرِّزَ بضمِّ الباء وتشديدِ الراءِ. قرأ قتادةُ: (الْقِتَالُ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ ؛ أي وَلِيَخْتَبِرَ اللهُ ويُظْهِرَ ما في قلوبِكم بأعمالكم؛ لأنَـهُ عَلِمَـهُ غيبـاً فيعلمُـه مشـاهدةً. ومعنى (وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) أي يُبَيِّنَ ما في قلوبكـم، فيُذْهِـبَ نفـاقَ مـن شـاءَ منكـم، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ ؛ أي بمـا في القلـوبِ مـن خـيرٍ وشرٍّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ ؛ أي إنَّ الذين انْهزمُوا منكم يا معشرَ المؤمنين يومَ التقَى الْجَمْعَان؛ جَمْعُ المسلمينَ وجَمْعُ المشركين، إنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشيطانُ عن أماكنِهم ببعضِ ما كَسَبُوا؛ وهو مفارقةُ المكانِ الذي أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ بحفظهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ ؛ حينَ لَم يستأصِلْهم. ويقالُ في معنَى هذه الآيةِ: إنَّهم لَم يفرُّوا على جهةِ المعاندةِ والفرار من الزَّحف، ولكنْ أذْكَرَهُمُ الشيطانُ خطايَاهُم التي كانتْ منهُم؛ فكَرِهُوا لقاءَ اللهِ إلاّ على حالةٍ يرضَونَها، ولذلك عَفَا اللهُ عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ ؛ أي متجاوزٌ لذنوبِهم لَمْ يُعَجِّلْ بالعقوبةِ عليهم. رويَ: ((أنَّ رَجُلاً مِنَ الْخَوَارجِ أتَى عَبْدَاللهِ بْنَ عُمَرَ ﵄ فَسَأَلَهُ عَنْ عُثْمَانَ ﵁: أكَانَ شَهِدَ بَدْراً؟ قَالَ: (لاَ)، قَالَ: شَهِدَ بَيْعَةَ الرُّضْوَان؟، قَالَ: (لاَ)، قَالَ: فَكَانَ مِنَ الَّذِينَ تَوَلَّوا يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَان؟ قَالَ: (نَعَمْ). فَوَلَّى الرَّجُلُ يَهُزُّ فَرَحاً، فَلَمَّا عَلِمَ ابْنُ عُمَرَ بُغْضَهُ لِعُثْمَانَ قَالَ لَهُ: (ارْجِعْ)؛ فَرَجَعَ، فَقَالَ لَهُ: (أمَّا تَخَلُّفُهُ يَوْمَ بَدْر؛ فَإنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَلَّفَهُ عَلَى ابْنَتِهِ رُقَيَّةُ يَقُومُ عَلَيْهَا، كَانَتْ مَرِيْضَةً فَتُوُفِّيَتْ يَوْمَ بَدْر، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأصْحَابُهُ فِي الْغَزْو، وَعُثْمَانُ ﵁ فِي تَكْفِيْنِ ابْنَةِ رَسُول اللهِ وَدَفْنِهَا وَالصَّلاَةِ عَلَيْهَا، فَلَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ أجْرَهُ كَأجْرِهِمْ وَسَهْمَهُ كَسَهْمِهِمْ.

وَأمَّا بَيْعَةُ الرُّضْوَان؛ فَقَدْ بَايَعَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بيَدِهِ الْيُسْرَى عَلَى الْيُمْنَى، وَقَالَ: [هَذِهِ عَنْ عُثْمَانَ] وَيَسَارُ رَسُول اللهِ ﷺ خَيْرٌ مِنْ يَمِيْنِ عُثْمَانَ ﵁))(١). وَأمَّا الَّذِيْنَ تَوَلُّوا يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَان؛ فَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيْمٌ؛ فَاجْهَدْ عَلَى جَهْدِكَ، فَقَامَ الرَّجُلُ حَزْنَانَ نَاكِساً رَأسَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾ ؛ معناهُ: (يَا

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ: الحديث (٣٦٩٩).

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا) كَمُنَافِقِي أهلِ الكتاب عبدِالله بن أُبَيّ وأصحابه؛ قالُوا لإِخْوَانِهِمْ في النِّفَاق إذا سَارُوا فِي الأَرْضِ تُجَّاراً مسافرينَ فَمَاتُوا في سفرِهم أو كانوا في الغَزْو فَقُتِلُوا لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا في سَفرِهم، وما قُتِلُوا في الغزو.

وَغُزّاً جَمْعُ غَازٍ مِثْلُ رَاكِعٍ وَرُكَّعٍ، وقد يُجمع غازٍ على غُزَاةٍ، مِثْلُ قَاضٍ وَقُضَاةٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي ليجعلَ اللهُ ما ظَنُّوا حُزْناً يتردَّدُ في أجوافِهم. ثم أخبرَ اللهُ أنَّ الموتَ والحياة إليه لا يُقَدِّمَان لِسَفَرٍ ولا يُؤَخِّرَانِ لِحضَرٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ يُحَذِّرُهُمْ عن التَّخَلُّفِ عن الجهادِ وخِشْيَةَ الموتِ والقَتْلِ؛ لأن الإحياءَ والإماتَةَ إلى اللهِ تعالى في السَّفرِ والحضَرِ؛ وحالَ القتالِ وحالَ غيرِ القتال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾؛ ترغيبٌ في الطاعةِ، وتحذيرٌ من المعصيةِ. قرأ ابنُ كثير والأعمشُ والحسن وحمزةُ والكسائي وخلفُ: بالياءِ، والباقون بالتاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾؛ معناهُ: لو قُتِلْتُمْ في طاعةِ الله أو مُتُّمْ فيها (لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) من الأموال. وإنَّما قالَ هكذا وإن كانَ هو معلوماً؛ لأن مِن الناسِ مَنْ آثَرَ الدُّنيا على الجهادِ وخِشْيَةِ القَتْلِ.

قرأ حَفْصٌ: (يَجْمَعُونَ) بالياء على الخبر؛ خَيْرٌ لكم أيُّها المؤمنونَ مِمَّا يجمعُ المنافقون في الدُّنيا. وقرأ نافعُ وأكثرُ أهلِ الكوفة: (مِتُّمْ) بكسرِ الميم مِنْ مَاتَ يُمَاتُ. وقرأ الباقونَ بضَمِّهَا مِن مَاتَ يَمُوتُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾؛ معناهُ: لَئِنْ مُتُّم على فُرُشِكُمْ، أو قُتِلْتُمْ في الغزْو فَإِلَى اللهِ تُرْجَعُونَ في الآخرةِ، كيفَ ما دارَتِ القصَّة فإنَّ مصيرَكم إلى اللهِ، ولئن تصِيرُوا إلى اللهِ بالقتلِ الذي تستحقُّون عليه العِوَضَ خيرٌ من أنْ تصيروا إليه بالموتِ الذي لا يستحقُّون عليه العِوَضَ. قال عَلِيٌّ رضي الله عنه:

فَـإنْ تَكُـنِ الأَبْـدَانُ لِلْمَـوْتِ أُنْشِـئَتْ فَمَقْتَلُـهَا بالسَّـيْفِ فِـي اللهِ أفْضَـلُ

واللاَّمُ في (لَئِنْ) لامُ القسَمِ، وتصلحُ أن تكونَ للابتداءِ والتأكيدِ، واللامُ في (لَمَغْفِرَةٌ) جوابُ القسَمِ، وتصلحُ أن تكون مؤكِّدةً جوابَ الشرطِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي فَبرَحْمَةٍ عظيمةٍ مِن الله لِنْتَ لَهم حتى صار لِيْنُكَ لَهُمْ سَبَباً لِدخولِهم في الدِّينِ؛ لأنه ﷺ أتاهُم بالْحُجَجِ والبَرَاهِيْنِ مع لِيْنٍ وخُلُقٍ عظيمٍ، ولِهذا قالَ ﷺ: [إنَّمَا أنَا لَكُمْ مِثْلَ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ][1].

و (مَا) في قولهِ زائدةٌ لا يَمْنَعُ الباءُ من عملِها، مثلَ قولِهم ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾[2] قال بعضُهم: يُحتمل أن تكونَ (مَا) استفهاميةٌ للتعجُّبِ؛ تقديرُهُ: فَبمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ سَهُلَتْ لَهُمْ أخْلاَقُكَ وكثرَةُ احتمالِكَ؛ فلم تَغْضَبْ عليهم فيما كان منهم يومَ أحُدٍ.

قولهُ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ ؛ أي لو كنتَ يا مُحَمَّدُ خَشِناً في القول سَيِّءَ الْخُلُقِ قَاسِيَ القلب لتفرَّقُوا من حولِكَ، فلم تَرَ منهُم أحداً، ولكنَّ اللهَ جعلَكَ سَمْحاً سَهْلاً طَلْقاً لَطِيْفاً لَيِّناً بَرّاً رَحِيْماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ؛ أي فَاعْفُ عَنْهُمْ مَا أتَوْهُ يومَ أحُدٍ؛ وتَجَاوَزْ عنهُم الجرِيْمَةَ التي تكونُ بينَكَ وبينَهم، وكانوا عَصَوا النَّبيَّ ﷺ في تركِ المركزِ، وتركِ الآيةِ لِدَعْوَتِهِ: [ارْجِعُوا ارْجِعُوا]، فَنَدَبَ اللهُ النبيَّ ﷺ إلى العَفْوِ عنهُم. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاسْتَغْفِرْ لَهُم) أي في الذنب الذي يكونُ منهم حتى أشَفِّعَكَ فيهِم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلأَمْرِ ﴾ ؛ أي اذا أردتَ أن تعملَ عملاً مِمَّا لم يكن عندكَ فيه وحيٌ فَشَاوِرْهُمْ فيهِ، وَاعْمَلْ أبداً بتدبيرِهم ومشورتِهم، وكانَ ﷺ مُسْتَغْنِياً عن مشورتِهم، فإنَّهُ كان أرشدَهم وأكملَهم رأياً، لَكنَّ اللهَ إنَّما أمرهُ بالْمُشَاوَرَةِ

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٥٠. وأبو داود في السنن: كتاب الطهارة: باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة: الحديث (٨). والنسائي في السنن: كتاب الطهارة: ج ١ ص٣٨، وإسناده صحيح.

(٢) النساء / ١٥٥ .

لِتَقْتَدِيَ بِهِ الأُمَّةُ، وليكونَ فيه تطييبٌ لنفوسِ المؤمنينَ، ورفعٌ لأقدارهم وثناءٌ عليهم[١]. قال مقاتلُ وقتادة: (كَانَتْ سَادَاتُ الْعَرَب إذا لَمْ يُشاوَرُوا فِي الأَمْرِ شُقَّ عَلَيْهِمْ، فَأُمِرَ النَّبِيُّ ﷺ بِمُشَاوَرَتِهِمْ فِي الأَمْرِ؛ فَإنَّهُ أَطْيَبُ لأَنْفُسِهِمْ، وَإذا شَاوَرُوا عَرَفُوا إكْرَامَهُ لَهُمْ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ؛ أي أعْزَمْتَ على شيءٍ فَثِقْ باللهِ، وفَوِّضْ إليه ولا تَتَّكِلْ على مشورتِهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ ؛ علَى اللهِ.

واختلفَ العلماءُ في معنى التَّوَكُّلِ، فقال سهلُ بن عبدِالله:(أوَّلُ مَقَامِ التَّوَكُّلِ: أنْ يَكُونَ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَي اللهِ كَالْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَي الْغَاسِلِ، يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَالرَّجَاءُ لاَ يَكُونُ لَهُ حَرَكَةٌ وَلاَ تَدْبِيرٌ، وَالْمُتَوَكِّلُ لاَ يَسْأَلُ وَلاَ يَرُدُّ وَلاَ يَحْبسُ). وقال إبراهيمُ الخوَّاص: (التَّوَكُّلُ إسْقَاطُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ مِمَّا سِوَى اللهِ).

قال بعضُهم: المتوكِّلُ الذي إذا أُعْطِيَ شَكَرَ، وإذا مُنِعَ صَبَرَ، وأن يكونَ العطاءُ والمنعُ عندَه سواءً، والمنعُ مع الشُّكْرِ أحبُّ إليه لِعِلْمِهِ باختيارِ اللهِ ذلكَ. وقال ذُو النُّونِ: (التَّوَكُّلُ إنْقِطَاعُ الْمَطَامِعِ مِمَّا سِوَى اللهِ)، وقالَ: (هُوَ مَعْرِفَةُ مُعْطِي أرْزَاقِ الْخَلاَئِقِ، وَلاَ يَصِحُّ لأَحَدٍ حَتَّى تَكُونَ السَّمَاءُ عِنْدَهُ كَالصُّفْرِ؛ وَالأَرْضُ كَالْحَدِيْدِ؛ لاَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَطَرٌ؛ وَلاَ يَخْرُجُ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتٌ، وَيَعْلَمُ أنَّ اللهَ لاَ يَنْسَى لَهُ مَا

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٢٤٩-٢٥٠؛ نقل القرطبي قال: ((قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام؛ من لا يستشيرُ أهل العلمِ والدِّين فعزلهُ واجب. وهذا ما لا خلاف فيه. وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾))، وقال: ((قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتَّاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعِمارتها. وكان يقال: ما ندم من استشار. وكان يقال: من أعجب برأيه ضلَّ)). أما أنَّ التشاورَ واجبٌ، ففيه تفصيل، قال القرطبيُّ: ((قال الشافعي: هو كقوله: [وَالْبِكْرُ تُسْتَأْمَرُ] تطييباً لقلبها، لا أنه واجبٌ)).

(٢) أخرج أصله الطبري في جامع البيان: النص (٦٤٦٦) عن قتادة. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٢٥٠ نقله القرطبي عن مقاتل وقتادة والربيع.

ضَمِنَ مِنْ رِزْقِهِ بَيْنَ هَذَيْنِ). قال بعضُهم: حَسْبُكَ من التوكُّلِ أن لا تطلُبَ لنفسكَ ناصراً غيرَ اللهِ؛ وأن تُقْبلَ بالكليَّة على ربكَ، وتُعْرِضَ عمَّن دونَهُ.

وقال الثوريُّ: (إنْ تَيَقَّنَ تَدْبِيْرَكَ فِي تَدْبِيْرِهِ، وَتَرْضَى باللهِ وَكِيْلاً وَمُدَبراً). وقالَ بعضُهم: هو السُّكونُ عن الحركاتِ اعتماداً علىخَالِقِ السَّموات. وقيلَ لِحَاتِمِ الأصمِّ: عَلَى مَا بَنَيْتَ أمْرَكَ هَذا مِنَ التَّوَكُّلِ؟ قَالَ: (عَلَى أرْبَعِ خِصَالٍ؛ عَلِمْتُ أنَّ رِزْقِي لَيسَ يَأْكُلُهُ غَيْرِي؛ فَلَسْتُ أشْتَغِلُ بهِ، وَعَلِمْتُ أنَّ عَمَلِي لَيْسَ يَعْمَلُهُ غَيْرِي فَأنَا مَشْغُولٌ بهِ، وَعَلِمْتُ أنَّ الْمَوْتَ يَأْتِيْنِي بَغْتَةً فَأنَا أبَادِرُهُ، وَعَلِمْتُ أنِّي بعَيْنِ اللهِ فِي كُلِّ حَالٍ فَأنَا أسْتَحِي مِنْهُ).

قَوْلُهُ: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ يَمْنَعْكُمُ اللهُ تعالى مِن عدوِّكم فلا غالبَ لكم من العدوِّ، مِثْلَ يوم بَدْر؛ ﴿ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ ﴾ ؛ بأنْ يَكِلَكُمْ إلى أنفسِكم ويرفعَ نصرَهُ عنكم كيومِ أحُدٍ؛ ﴿ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ ﴾ ؛ أي مِن بَعْدِ خُذْلاَنِهِ إيَّاكم، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠ ﴾ ؛ فِي النُّصْرَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم اتَّهَمُوا رسولَ اللهِ ﷺ في الغنائمِ يومَ أحُدٍ حين وقعُوا في عسكرِ المشركينَ يأخذونَ الغنائمَ فظنُّوا أنَّ مَن أخذ شيئاً فهو لهُ، وأنَّ النبيَّ لا يَقْسِمُ لَهم كما لم يقْسِمْ يومَ بدرٍ، ولِهذا تركَ الرُّمَاةُ المركزَ فوقعوا في الغنيمةِ. وعن ابن عبَّاس وابنِ جُبير أنَّهُما قَالاَ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي قَطِيْفَةٍ حَمْرَاءَ فُقِدَتْ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لَعَلَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أخَذهَا. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

ومعنَاها: ما كانَ النبيُّ أنْ يَخُونَ أصحابَهُ فيستأثرَ شيئاً من الغنيمةِ، وهذا على قراءةُ مَن قرأ بفتحِ الياء وضمِّ الغين، وهي قراءةُ مجاهدٍ وابنِ كثيرٍ وأبي عمرو وعاصمٍ. وقرأ الباقون بضمِّ الياء وفتحِ الغَين؛ ومعناها: ما كانَ لِنَبيٍّ أن يُنْسَبَ إلى

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٤٧٦) عن ابن عباس، وفي النص (٦٤٧٧) عن ابن جبير، وعنهما في النصوص (٦٤٧٨).

الغَلُول ولا يخونُ أصحابَه. وقيل: معناهُ: ما كان لنبيٍّ أن يُخَانَ، وقيل: معناهُ: ليس من حقِّ النبيِّ أن يُسْتَرَ عنهُ شيءٌ من الغنائم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي مَنْ يَخُنْ يأتِ بما خَانَ يومَ القيامةِ. قال الكلبيُّ: (يُمَثَّلُ لَهُ ذلِكَ الشَّيْءُ فِي النَّار، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: انْزِلْ فَخُذْهُ؛ فَيَنْزِلُ فَيَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِهِ، فَإذا بَلَغَ مَوْضِعَهُ وَقَعَ إلَى النَّار؛ ثُمَّ[1] يُكَلَّفُ أنْ يَنْزِلَ إلَيْهِ فَيُخْرِجُهُ، فَإذا بَلَغَ بهِ مَوْضِعَهُ وَقَعَ فِي أسْفَلِ جَهَنَّمَ؛ فَيُكَلَّفُ أنْ يَنْزِلَ إلَيْهِ؛ فَلاَ يَزَالُ ذلِكَ دَأْبُهُ مَا شَاءَ اللهُ).

والغُلُولُ في اللُّغة: أخْذُ الشَّيْءِ فِي الْخِفْيَةِ. وعن عُبادة بن الصَّامت قالَ: صَلَّى بنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى جَنْب بَعِيرٍ مِنَ الْمَغْنَمِ؛ ثُمَّ تَنَاوَلَ وَبَرَةً مِنْ سِنَام بَعِيرٍ وَقَالَ: [يَا أيُّهَا النَّاسُ؛ إنَّ هَذا مِنْ غَنَائِمِكُمْ؛ فَأدُّوا الْخَيْطَ وَالْمِخْيَطَ وَمَا دُونَ ذلِكَ وَمَا فَوْقَ ذلِكَ، فَإنَّ الْغُلُولَ عَارٌ عَلَى أهْلِهِ وَنَارٌ وَشَنَارٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][2].

وَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَلْ أحَدٌ أحَقُّ بالْغَنِيمَةِ مِنْ أحَدٍ؟ فَقَالَ: [لاَ؛ وَلاَ السَّهْمُ الَّذِي تَسْتَخْرِجُهُ مِنْ جَسَدِكَ لَسْتَ أحَقَّ بهِ مِنْ أخِيْكَ الْمُسْلِمِ][3]. وَرُويَ أنَّ رَجُلاً مِنَ الصَّحَابَةِ تُوُفِّيَ يَوْمَ خَيْبَرَ فَقَالَ ﷺ: [صَلُّوا عَلَى صَاحِبكُمْ] فَتَغَيَّرَتْ وُجُوهُ النَّاسِ لِذلِكَ! فَقَالَ: [إنَّهُ غَلَّ فِي سَبيْلِ اللهِ] فَفُتِّشَ مَتَاعُهُ، فَوَجَدُوا فِيْهِ خَرَزاً مِنْ خَرَزِ الْيَهُودِ لاَ يُسَاوي دِرْهَمَيْنِ[4].

---

(١) في المخطوط: (لم)، وهو تصحيف.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٧٣٧٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. والنسائي في السنن: ج ٦ ص٢٦٤. وابن ماجة في السنن: كتاب الجهاد: الحديث (٢٨٥٠).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب قسم الفيء والغنيمة: باب إخراج الخمس: الحديث (١٣١٣٣)، وباب التوبة في الغنيمة: الحديث (١٣٢٠٦ و١٣٢٠٧)، وفي كتاب السير: باب أخذ السلاح: الحديث (١٨٥٢٠).

(٤) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الجهاد: باب في تعظيم الغلول: الحديث (٢١٨٠). والنسائي في السنن: كتاب الجنائز: باب الصلاة على من غلَّ: ج ٤ ص٦٤. والحاكم في المستدرك: كتاب الجهاد: باب من قتل معاهداً: الحديث (٢٦٢٨)، وقال: ((هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وأظنهما لم يخرجاه)).

وَرُوِيَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أهْدِيَ لَهُ عَبْدٌ أسْوَدُ يُقَالُ لَهُ مِدْعَمُ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذاتَ يَوْمٍ يَحِطُّ رَحْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إذْ جَاءَهُ سَهْمٌ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ النَّاسُ: هَنِيئاً لَهُ الْجَنَّةُ، فَقَالَ ﷺ: [كَلاَّ؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ لَمْ يَضُمَّهَا الْمَقَاسِمَ لَتُشْعَلُ عَلَيْهِ نَاراً][(١)].

وروي عن عُمَرَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [إذا وَجَدْتُمُ الرَّجُلَ قَدَ غَلَّ؛ فَاحْرِقُوا مَتَاعَهُ وَاضْرِبُوهُ][(٢)]. وعن عمرو بن شُعيب؛ عن أبيهِ عن جدِّه؛ عن رسول الله ﷺ وأبي بَكْرٍ وعُمَرَ: [أحْرِقُوا مَتَاعَ الْغَالِّ، وَاضْرِبُوهُ وَامْنَعُوهُ سَهْمَهُ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ ؛ أي جزاءَ ما عَمِلَتْ من خيرٍ أو شرٍّ، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ ؛ أي لا يُنْقَصُ من حسناتِهم، ولا يُزادُ من سيئاتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ استفهامٌ بمعنى تقدير حال الفريقَين، يقولُ: ليس مَن اتَّبَعَ رضْوَانَ اللهِ؛ أي مَن تركَ الْغُلُولَ وَالْحَرَامَ وأخذ الحلالَ مِن الغنيمةِ كمن استوجبَ سَخَطَ اللهِ بأخذِ الغُلُول والحرام، وقيل: معنى الآية: (أفَمَنِ اتَّبَعَ رضْوَانَ الله) بالجهادِ في سبيل الله (كَمَنْ بَاءَ بسَخَطٍ مِنَ اللهِ) بالفرار من الجهاد. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ راجعٌ إلى (مَنْ بَاءَ بسَخَطٍ مِنَ اللهِ). ﴿ وَبِئْسَ ﴾ ؛ النَّارُ؛ ﴿ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾ .

---

(١) رواه أبو داود في السنن: كتاب الجهاد: باب في تعظيم الغلول: الحديث (٢٧١١). والنسائي في السنن: كتاب الإيمان والنذر: ج ٧ ص٢٤.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الجهاد: باب في عقوبة الغال: الحديث (٢٧١٣). والحاكم في المستدرك: كتاب الجهاد: باب التشديد في الغلول: الحديث (٣٦٣٠)، وقال: ((هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه))، وفي الجامع الصحيح: كتاب الحدود: باب ما جاء في الغال: الحديث (١٤٦١)؛ قال الترمذي: ((والعمل على هذا عند بعض أهل العلم، وهو قول الأوزاعي وأحمد وإسحق. وسألتُ محمداً البخاري عن هذا الحديث فقال: إنما روي هذا عن صالح بن مُحَمد بن زائدة، وهو أبو واقد الليثي، وهو منكر الحديث)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين يتَّبعون رضوانَ اللهِ ذوُو درجاتٍ رفيعَةٍ، والآخرونَ ذوُو دَرَكَاتٍ خَسِيْسَةٍ، فإنَّ لأحدِ الفريقين درجاتٌ في الجنَّة، وللآخرِ دَرَكَاتٌ في النَّار، والمعنَى: أنَّ مَن اتبعَ رضوانَ اللهِ، ومَن بَاءَ بسَخَطٍ من اللهِ مختَلِفُو المنازلِ عندَ الله، فَلِمَنِ اتبعَ رضوانَ الله الكرامةُ والثوابُ العظيم، ولِمَنْ باءَ بسَخَطٍ مِن اللهِ المَهانةُ والعذاب الأليمُ. وقال بعضُهم: هذه الآيةُ خاصَّة في المؤمنين؛ أي هُم طبقاتٌ بعضُهم أرفعُ مِن بعضٍ في الجنَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بمَنْ غَلَّ وَمَنْ لاَ يُغِلُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ أي لقد أنْعَمَ على المؤمنينَ إذ بَعَثَ فيهم رَسُولاً مِنْهُمْ، وهو النبيُّ ﷺ؛ بعثَهُ الله من العرب، معروفَ النَّسب، عرفُوهُ بالصِّدق والأمانةِ، وكان يُسَمَّى (الأَمِيْنُ) قبلَ الوحي، وقيلَ: بعثهُ الله من جِنْسِ بَنِي آدمَ، ولَمْ يبعثْهُ من الملائكةِ؛ لأنه إذا كان من جِنسِهِمْ كان تَعَلُّمُهُمْ منهُ أسهلَ عليهم. وقرأ في الشَّواذ: (مِنْ أَنْفَسِهِمْ) بنصب الفاءِ؛ أي أشْرَفِهِمْ؛ لأن العربَ أفضلُ من غيرهم، وقريشُ أفضلُ العرب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ؛ أي يقرأ عليهم القرآنَ بما فيه من أقاصِيْصِ الأُمم السَّالفة، وهو أمِّيٌّ لَمْ يقرأ الكُتُبَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ ؛ أي يُطَهِّرُهُمْ من الشِّركِ والذُّنوب، ويأخذُ منهم الزَّكاةَ التي يُطَهِّرُهُمْ بها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ؛ أي القرآنَ والفِقْهَ، ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أنْ يَأْتِيَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ؛ مِن الْهُدَى.

والخطابُ يُبَيِّنُ قولَه تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ﴾ ؛ أي لَمَّا أصابتكُم مصيبةُ يومِ أحُدٍ قد أصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا يومَ بدرٍ؛ أي قَتلتُم يومَ بدرٍ سبعينَ، وأسرتُم سبعينَ، وقُتِلَ منكم يومَ أحدٍ سبعونَ، ولم يُؤْسَرْ منكم أحدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾ ؛ القتلَ والْهَزِيْمَةَ ونحنُ مسلمونَ ورسولُ اللهِ ﷺ فِيْنَا والوحيُ يَنْزِلُ علينا، وهُم مشركونَ، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ: ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ لِمُخَالَفَتِكُمْ أمرَ رسول الله ﷺ بالخروجِ عَنِ المدينةِ، وقد كانَ أمَرَكم بالْمُقَامِ فيها ليدخلَ عليكم الكفَّار فتقتلُوهم في أزقَّتِهَا. وقيلَ: إنَّما أصابَكم هذا مِن

عند قومِكم بمعصيَةِ الرُّماةِ بتركهم ما أمرَهُم بـه النبيُّ ﷺ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ ؛ أي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِن النَّصرِ وغيرِ ذلك قَادِرٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معنـاهُ: مَـا أصَابَكُمْ يا معشرَ المسلمين يوم أحُدٍ يَوْمَ الْتَقَى جيشُ المسلمينَ، وجيشُ المشركينَ يـومَ أحُدٍ من القتلِ والْجُرُوحِ والهزيْمَةِ فَبعِلْمِ اللهِ وقضائِـه وإرادتـه، ويقـالُ: أرادَ بـالإذنِ: التَّخْلِيَةَ بين المؤمنينَ والكفَّار، وإلاّ فاللهُ لا يُؤْذِنُ بالمعصيةِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾ ؛ أي لِـيُرِي المؤمنِينَ، وقيل: لتعلَمُوا أنتم أنَّ الله قد عَلِمَ نِفَاقَهُمْ، وأنتُم لَمْ تكونوا تعلمـونَ ذلـك، والمعنى: لِيَرَى اللهُ إيْمَانَ المؤمنينَ بثبوتهم على ما نَالَهُمْ، ويرَى المنافقين بفَشَلِهِمْ، وقلَّةِ صبرِهِم على ما يَنْزِلُ بهِ في ذاتِ الله تعالى. ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ﴾ ؛ ذلكَ أنَّ عبدَاللهِ بن أبَـيّ وأصحابَـه لَمَّـا رجعوا إلى المدينةِ قال لَهم عبدُالله بنُ جبيرٍ: (تَعالُوا إلَى أحُـدٍ وَقَـاتِلُوا فِـي طَاعَـةِ اللهِ وَادْفَعُوا فِي أنْفُسِكُمْ وَأهْلِكُمْ وَحَرِيْمِكُمْ)، فقال المنافقون: لا يكونُ قتالٌ اليـومَ، ولـو نعلمُ أن يكونَ قتالٌ لكنَّا معكُم[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ ؛ أي كانوا قبـلَ ذلك القول عند المؤمنين أقربَ إلى الإيْمان بظاهرِ حالِهم؛ ثُم هَتَكُوا سَتْرَهُمْ وأظـهروا مَيْلَهُمْ إلى الكُفْرِ؛ فصارُوا في ذلكَ اليومِ أقربَ إلى الكفرِ. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ كنايةٌ عن كَذِبِهِمْ في قولِهم (لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ ؛ أي بما يُخفون من الشِّركِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾ ؛ معناهُ: الذينَ قالُوا لإخوانِهم من المنافقينَ بالمدينةِ وقعدُوا بأنفسِهم عن الجـهادِ: لـو أطاعونـا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٥٢٢)، وفيه أن الذي خاطبهم عبدالله بن عمر وابـن حرام أخو بني سلمة. وفي النص (٦٥٢٤) من قول عبدالله بن جابر بن أبي عبـدالله الأنصـاري. ونقله في الدر المنثور: ج ٢ ص٣٦٩ قال: ((أخرجه ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر)).

المسلمونَ الذينَ خَرَجُوا إلى القتال ما قُتِلُوا في الغَزْو، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ ؛ في مقالَتِكم: لو لَمْ يخرجُوا إلى القتال ما قُتلوا. قال الفقيهُ أبو اللَّيث: (سَمِعْتُ بَعْضَ الْمُفَسِّرِيْنَ يَقُولُ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ مَاتَ يَوْمَئِذٍ سَبْعُونَ نَفْساً مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس وابنُ مسعودٍ وجابرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَمَّا أُصِيْبَ إخْوَانُكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ؛ جَعَلَ اللهُ أرْوَاحَهُمْ فِي أجْوَافِ طُيُورٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنْهَارَ الْجَنَّةِ؛ وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا؛ وَتَأْوِي إلَى قَنَادِيْلَ مِنْ ذهَبٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَلَمَّا رَأوا طِيْبَ مَنْقَلِهِمْ وَمَطْعَمِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ، وَمَا أعْطَى اللهُ مِنَ الْكَرَامَةِ؛ قَالُوا: يَا لَيْتَ إخْوَانِنَا عَلِمُوا مَا أعَدَّ اللهُ لَنَا مِنَ الْكَرَامَةِ، وَمَا نَحْنُ فِيْهِ مِنَ النَّعِيْمِ، فَلَمْ يَنْكِلُوا عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَمْ يَجْبُنُوا فِي الْحَرْب، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أنَا أبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ؛ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ](١).

وقال جابرُ بن عبدِالله الأنصاريُّ: قُتِلَ أبِي يَوْمَ أحُدٍ وَتَرَكَ عَلَيَّ ثَلاَثَ بَنَاتٍ؛ فَقَالَ ﷺ: [ألاَ أبَشِّرُكَ يَا جَابرُ ؟!] قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [إنَّ أبَاكَ حِيْنَ قُتِلَ أحْيَاهُ اللهُ تَعَالَى وَكَلَّمَهُ كِفَاحاً(٢)؛ فَقَالَ: يَا عَبْدَاللهِ؛ سَلْنِي مَا شِئْتَ، قَالَ: أسْألُكَ أنْ تُعِيْدَنِي إلَىالدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِيْهَا ثَانِيَةً، فَقَالَ: يَا عَبْدَاللهِ؛ إنِّي قَضَيْتُ أنْ لاَ أعِيْدَ إلَى الدُّنْيَا خَلِيْقَةً قَبَضْتُهَا، قَالَ: يَا رَب فَمَنْ يُبَلِّغُ قَوْمِي مَا أنَا فِيْهِ مِنَ الْكَرَامَةِ ؟ قَالَ اللهُ: أنَا، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ](٣).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٥٣٥) عن ابن عباس، والنص (٦٥٣٦) عن ابن مسعود، والنص (٦٥٣٩) عن جابر بن عبدالله.

(٢) كِفاحاً – بكسر الكاف -: أي مواجهة ليس بينهما حجابٌ.

(٣) أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب تفسير القرآن: باب ومن سورة آل عمران: الحديث (٣٠١٠)؛ وقال: حديث حسن غريب. وابن ماجة في السنن: كتاب الجهاد: باب فضل الشهادة في سبيل الله: الحديث (٢٨٠٠). وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٥٣٩).

ومعنَى الآيةِ: وَلاَ تَظُنَّنَّ يـا مُحَمَّـدُ الشـهداءَ المقتولـينَ في طاعـةِ الله. (أَمْوَاتـاً) نُصِبَ على المفعول؛ لأن الْحُسْبَانَ يتعدَّى إلى مفعولين، (بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبهِمْ يُرْزَقُونَ) الجنَّة، سَمَّاهُمْ أحياءً؛ لأنَّهم يأكلونَ ويتمتَّعـون ويُرزقـون كالأحيـاءِ. وقيـل: سَـمَّاهُمْ أحياءً؛ لأنَّهم يُكتب لَهم في كلِّ سنةٍ ثوابَ غَزْوَةٍ، ويُشْرَكُونَ في فضـلِ كـلِّ جـهادٍ إلى يومِ القيامة. وقيل: لأنَّ أرواحَهم تركعُ وتسجدُ كلَّ ليلةٍ تحتَ العرشِ إلى يومِ القيامـة كأرواحِ الأحيَاء. وقيل: لأنَّ الشهيدَ لا يَبْلَـى في الأرضِ ولا يتغـيَّرُ في القـبرِ. ويقـالُ: أَرْبَعَةٌ لاَ تَبْلَى أجْسَادُهُمْ: الأَنْبيَاءُ؛ وَالْعُلَمَاءُ؛ وَالشُّهَدَاءُ؛ وَحَمَلَةُ الْقُرْآنِ.

وعن عبدِالله بن عبدِالرَّحمن: (أنَّهُ بَلَغَهُ أنَّ عَمْـرَو بْـنَ الْجَمُـوحِ، وَعَبْـدَاللهِ بْـنَ عَمْرِو بْنِ الْحَرَامِ الأَنْصَارِيَّيْنِ كَانَا قَدْ أخْرَبَ السَّيْلُ قَبْرَيْهِمَا وكَانَا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ؛ وَهُمَا مِمَّنِ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكَانَ قَبْرُهُمَا مِمَّا يَلِي السَّيْلَ، فَوُجِدَا فِي قَبْرِهِمَـا لَـمْ يَتَغَـيَّرَا كَأَنَّمَا مَاتَا بالأَمْسِ، وَكَانَ بَيْنَ أحُدٍ وَبَيْنَ خَرَاب السَّيْلِ سِتٌّ وَأرْبَعُونَ سَنَةً).

وقيل: سموا أحياءً؛ لأنَّهم لم يُغسَّلُوا كما تُغَسَّلُ الأحياءُ. قـال ﷺ: [زَمِّلُوهُـمْ بدِمَائِهِمْ وَكُلُومِهِمْ؛ فَإنَّهُمْ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بدِمَائِهِمْ؛ اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ؛ وَالرِّيْحُ رِيْحُ الْمِسْكِ][(١)]. قرأ الحسنُ وابن عامر (قُتِّلُوا) بالتشديدِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ ؛ أي مـن رزقِـه وثوابِه، وانتصبَ على الحـال. وقـرأ ابـنُ السـميقع: (فرحـين) وهمـا لُغتـان كـالفرِةِ والفارة، والطمِع والطَّامع، والحذِر والحـاذر. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ ؛ أي يطلبُـون السُّرورَ بقدومِ مَن لَمْ يَقْدَمْ عليهم من إخوانِهم، يقولون: لَيْتَ إخوانَنا قُتِلُوا كما قُتِلْنَا؛ فينالُوا من الكرامةِ والثواب ما نُلْنَا. وقال السديُّ: (يُؤْتَى الشَّهِيْدُ بكِتَابٍ فِيْهِ مَنْ يَقْدُمُ عَلَيْهِ مِنْ إخْوَانِهِ وَأهْلِهِ؛ فَيُقَالُ: يَقْدُمُ عَلَيْكَ فُلاَنٌ يَوْمَ كَذا؛ وَيَقْـدُمُ عَلَيْـكَ فُـلاَنٌ يَـوْمَ كَذا؛ فَيَسْتَبْشِرُ بذلِكَ كَمَا بُشِّرَ إنْسَانٌ بقُدُومِ غَائِبٍ؛ يَتَعَجَّلُ السُّرُورَ بهِ قَبْلَ قُدُومِهِ).

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٤٣١. والنسـائي في السـنن: كتـاب الجنائز: بـاب مـواراة الشهيد في دمه: ج ٤ ص٧٨.

وأصلُ الاستِبْشَار: مِنَ الْبَشَرَةِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا فَرِحَ ظهرَ أثرُ السرور في بَشَـرَةِ وجهِهِ. ومعنى الآيةِ: يَسْتَبْشِرُونَ بأنْ لا خوفٌ عليهم وعلى إخوانِهم الذيـنَ يأتونـهم مِن بعدِهم؛ وأنَّهم لا يَحْزَنُونَ في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ ؛ أي بجنَّـةٍ وكرامـةٍ، وَيَسْتَبْشِرُونَ أنَّ الله لا يُضِيْعُ ثوابَ الموحِّدين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ ؛ قـرأ الكسـائيُّ والفـرَّاء: (وَإنَّ اللهَ) بالكسـر علـى الاسـتئنافِ ودليلهُ قراءة ابنِ مسعود (وَاللهُ لاَ يُضِيْعُ أجْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ).

وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: [مَا يَجِدُ الشُّهَدَاءُ مِنَ الْقَتْلِ فِـي سَـبِيْلِ اللهِ إلاَّ كَمَا يَجِدُ أحَدُكُمْ مِنَ الْقَرْصَةِ][1]. وفي حديثٍ آخـرَ: [عَضَّـةُ النَّمْلَـةِ أشَـدُّ عَلَـى الشَّهِيْدِ مِنْ مَسِّ السِّلاَحِ][2]. وفي حديثٍ آخرَ: [إنَّ الضَّرْبَةَ وَالطَّعْنَةَ عَلَى الشَّهِيْدِ مِثْلَ شُرْبِ الْمَاءِ الْبَارِدِ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكونَ أوَّلُ هذه الآيةِ في موضعِ الخفض على النَّعْتِ للمؤمنين، والأحسـنُ أن يكونَ في موضع الرَّفعِ على الإبتداءِ أو خبرُه للذيـن أحسـنوا. ومعنـى الآيـةِ: الذيـنَ أجابُوا اللهَ بالطاعة والرسولَ بالخروجِ إلى بدرِ الصُّغرى من بعدِ ما أصابَـهم الْجِـرَاحُ؛ ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي وَافُوا الميعادَ، ﴿ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ ؛ سَخْطَ اللهِ ومعصيتَهُ، ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾ ، لهم ثَوَابٌ وَافِرٌ في الجنَّة.

قال ابنُ عباس: (وَذلِكَ أنَّهُمْ تَوَاعَدُوا يَوْمَ أحُدٍ أنْ يَجْتَمِعُوا بِبَدْرِ الصُّغْرَى فِـي الْعَامِ الْقَابلِ، فَلَمَّا حَضَرَ الأَجَلُ نَدِمَ الْمُشْرِكُونَ، فَلَقِيَ أبُو سُفْيَانَ نُعَيْـمَ بْـنَ مَسْـعُودٍ؛ وَكَانَ يَخْرُجُ إلَى الْمَدِيْنَةِ لِلتِّجَارَةِ؛ فَقَالَ: إذا أتَيْتَ الْمَدِيْنَةَ فَخَوِّفْهُمْ كَيْلاَ يَخْرُجُوا وَلَكَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٩٧. والترمذي في الجامع: أبواب فضل الجهاد: باب ما جاء في فضل المرابط: الحديث (١٦٦٨)، وقال: حسن صحيح غريب.

(٢) في كنز العمال: النص (١١١٣١)؛ قال الهندي: ((أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس)).

(٣) هو تمام ما قبله، ونصه: [عَضَّةُ النَّمْلَةِ أشَدُّ عَلَى الشَّهِيدِ مِنْ مَسِّ السِّلاَحِ، بَلْ هِيَ أشْـهَى عِنْـدَهُ مِنْ شَرَابِ مَاءٍ بَارِدٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ].

عَشْرٌ مِنَ الإبلِ إنْ رَدَدْتَهُمْ، فَلَمَّا قَدِمَ نُعَيْمُ إلَى الْمَدِيْنَةِ؛ وَكَانَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ يُرِيْدُونَ مُوَافَاةَ أبِي سُفْيَانَ؛ قَالَ: بِئْسَ الرَّأيِ رَأيْتُمْ، أتَوْكُمْ فِي دِيَارِكُمْ وَقَرَارِكُمْ، وَلَمْ يَنْفَلِتْ مِنْهُمْ إلاَّ الشَّرِيْدُ؛ تُرِيْدُونَ أنْ تَأْتُوهُمْ فِي دِيَارِهِمْ وَقَدْ جَمَعُوا لَكُمْ، أمَا إنَّ الرَّجُلَ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يُطِيْقُ عَشْرَةً مِنْكُمْ، إذاً وَاللهِ مَا يَنْفَلِتُ مِنْكُمْ إلاَّ الشَّرِيْدُ. فَكَرِهَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْخُرُوجَ إلَيْهِمْ وَتَثَاقَلُوا، فَلَمَّا رَأى رَسُولُ اللهِ ﷺ ذلِكَ مِنْهُمْ قَالَ: [وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لأَخْرُجَنَّ إلَيْهِمْ، وَإنْ لَمْ يَخْرُجْ مَعِي مِنْكُمْ أحَدٌ] فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْمِيْعَادِ، وَمَعَهُ أبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ وَعَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةُ وَأبُو عُبَيْدَةَ فِي سَبْعِيْنَ رَجُلاً حتى انْتَهَوا إلَى بَدْرٍ؛ فَلَمْ يَخْرُجْ أبُو سُفْيَانَ وَلَمْ يَلْقَوا بهَا أحَداً مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ، فَتَسَوَّقُوا مِنَ السُّوقِ حَاجَتَهُمْ ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أصَابَهُمْ الْقَرْحُ)[(١)]. قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها لِعَبْدِاللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ: (يَا ابْنَ أخْتِي؛ أمَا وَاللهِ إنَّ أبَاكَ وَجَدَّكَ - تَعْنِي أبَا بَكْرٍ - لَمِنَ الَّذِيْنَ قَالَ اللهُ فِيْهِمْ (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ) الآيَةُ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا ﴾ ؛ معناهُ: الذينَ قالَ لَهُمْ نُعَيْمُ بن مسعودٍ إنَّ أبا سفيان وأصحابَه قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ولا تَخرجوا إليهم؛ فَزَادَهُمْ هذا القولُ تصديقاً ويقيناً وجُرأةً على القتالِ. ﴿ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي يَقِيْناً باللهِ، وكَافِيْنَا اللهُ أمرَهم. ﴿ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ ؛ أي النَّاصِرِ الحافظِ، وموضع (الَّذِيْنَ) خَفْضٌ مردودٌ على (الَّذِيْنَ) الأوَّل. وقد ذكرَ اللهُ نُعَيْماً بلفظِ النَّاسِ؛ لأن الواحدَ قد يُذكر بلفظِ الجماعةِ على معنى الحسنِ، ولِهذا قالوا: مَن حلفَ وقالَ: إنْ كلَّمتُ الناسَ فعبدي حُرٌّ، فكلَّمَ رجلاً واحداً حَنَثَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ ﴾ ؛ أي فَانْصَرَفُوا بأجْرٍ مِن اللهِ وفَضْلٍ؛ وهو ما تَسَوَّقُوا به من السُّوقِ. ورُوي أنَّهم اشْتَرَوا

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان مختصراً: النص (٦٥٦١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٥٦٢).

أدماً وزيتاً وأشياءَ وغيرَ ذلك بسعرٍ رخيصٍ فربحُوا على ذلكَ. ومعنى (لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) لَمْ تُصِبْهُمْ جراحةٌ ولا قتلٌ، ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ في الخروجِ إلى المشركينَ؛ ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ ؛ بدَفْعِ المشركينَ عنِ المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ ؛ أراد بالشيطانِ نُعَيْمَ بنَ مسعودٍ؛ وكُلُّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ فهو شيطانٌ. وقيل: معناهُ: ذلك التخويفُ من عملِ الشَّيطانِ وَوَسْوَسَتِهِ، وقولهُ (يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) يعني المنافقينَ ومَن لا حقيقةَ في إيْمانهِ. ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ ؛ أي خافُونِي في تركِ أمري.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ قولَه تعالى: (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا) أُنْزِلَتْ في حرب أحُدٍ، وذلكَ: أنهُ لَمَّا رَجَعَ الْمُسْلِمُونَ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ بَعْدَ الْهَزِيْمَةِ؛ قَالَ لَهُمْ: [رَحِمَ اللهُ قَوْماً انْتَدَبُوا لِهَؤُلاَءِ الْمُشْرِكِيْنَ لِيَعْلَمُوا أنَّا لَمْ نُسْتَأْصَلْ] فَانْتَدَبَ قَوْمٌ مِمَّنْ أصَابَهُمُ الْجِرَاحُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ فَشَدُّوا عَلَى الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّى كَشَفُوهُمْ عَنِ الْقَتْلَى بَعْدَ أنْ مَثَّلُوا بِحَمْزَةَ، وَقَدْ كَانَ هَمُّوا بالْمُثْلَةِ بقَتْلَى الْمُسْلِمِيْنَ، فَقَذفَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ؛ فَانْهَزَمُوا.

وَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْقَتْلَى وَدَفَنَهُمْ، فَجَاءَ أنَاسٌ مِنَ الْعَرَب وَقَدْ مَرُّوا بأَبي سُفْيَانَ وَأصْحَابهِ بمَوْضِعٍ يُسَمَّى حُمْرَاءَ الأَسَدِ، فَقَالُوا لِلْمُسْلِمِيْنَ: تَرَكْنَاهُمْ مُتَأَهِّبيْنَ لِلرُّجُوعِ إلَى الْمَدِيْنَةِ لِقَتْلِ بَقِيَّتِكُمْ، فَعِنْدَ ذلِكَ قَالَ الْمُسْلِمُونَ: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أصْحَابَهُ بالْمَسِيْرِ إلَيْهِمْ، فَلَمَّا سَارُوا إلَى حَمْرَاءِ الأَسَدِ وَهِيَ عَلَى رَأس ثَمَانِيَةِ أمْيَالٍ مِنَ الْمَدِيْنَةِ لَمْ يَروا الْمُشْرِكِيْنَ هُنَاكَ؛ فَانْصَرَفَ الْمُسْلِمُونَ إلَى الْمَدِيْنَةِ بنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ؛ وَهِيَ كِفَايَتُهُ لَهُمْ شَرَّ قُرَيْشٍ حَتَّى لَمْ يَنَلْهُمْ مِنْهُمْ سُوءٌ. وفي قوله (وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) بيان أنه تعالى تفضّل عليهم من بعد بنعيم الدنيا والآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ ؛ قرأ نافعُ (يُحْزِنْكَ) بضمِّ الياء وكسرِ الزَّاي في جميعِ ما كانَ في هذا الفعلِ في

جميعِ القرآن إلاّ آيةً في الأنبياءِ ﴿لاَ يَحْزُنُهُمْ الْفَزَعُ﴾[1]. وقرأ الباقون بفتحِ الياء وضمِّ الزَّاي وهما لغتان. وقرأ طلحةُ بن مصرِّف: (يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ) والباقون (يُسَارِعُونَ).

ومعنى الآيةِ: لا يَحْزُنْكَ يا محمدُ الذينَ يُبَادِرُونَ الْجَحْدَ والتكذيبَ؛ وهم اليهودُ كانوا يَكْتُمُونَ صفةَ النبيِّ ﷺ في التوراةِ، وكان يَشُقُّ على النبيِّ ﷺ. وقيل: يعني كفارَ قُرَيْشٍ كانوا يَكذِّبونَه، وكان الناسُ يقولون: لو كان حَقّاً لاتَّبَعَهُ أقرباؤُه، وكان ذلكَ يَشُقُّ عليه. وقيل: نزلَت هذه الآيةُ في قومٍ ارتدُّوا عنِ الإسلامِ فَاغْتَمَّ النبيُّ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً) أي لم يَنْقُصُوا شيئاً من مُلْكِ اللهِ وسلطانِه؛ ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ ؛ نَصِيباً من الجنَّةِ؛ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ .

قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي الذينَ اختارُوا الكفرَ على الإيْمان لا ينقصُ من مُلْكِ اللهِ شيئاً، وإنَّما أضَرَّ من أنفسِهم حيثُ استوجَبُوا العذابَ؛ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾ ؛ أي وَجَعٌ في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ قرأ حمزة بالتَّاء على الخطاب للنبيِّ ﷺ؛ أي لا تَظُنَّنَّ يا مُحَمَّدُ اليهودَ والنصارى والمنافقين أنَّ إمْلاَءَنَا لَهم خيرٌ لَهم من أنْ يَموتوا كما ماتَ شهداءُ أُحُدٍ. وقيل: معناهُ: لا تحسبنَّ يا مُحَمَّدُ أمْلِي لَهم لِخيرٍ وتوبةٍ تقعُ منهم،﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ﴾ ، إنَّما إمْلاؤُنا لَهُمْ لتكونَ عاقبةُ أمرهم أنْ يزدادُوا بذلكَ معصيةً على معصيةٍ؛﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ ؛ يُهَانُونَ فيه.

وقيل: إنَّ المرادَ بالذينَ كفروا كفَّارَ مكَّةَ؛ أي لا تَظُنَّنَّ ما أصابُوه يومَ أُحدٍ من الظَّفر خيرٌ لأنفسِهم، وإنَّما كان ذلكَ ليزدادُوا معصيةً فَيُزَادُ في عقوبتِهم. وقرأ الباقون: (وَلاَ تَحْسَبَنَّ) بالتاء معناه: لا تحسبنَّ الكفارَ إملاءَنا إياهُم خيرٌ لَهم، وَالإمْلاَءُ

---

(١) الآية / ١٠٣ .

في اللُّغة: إطَالَةُ الْمُدَّةِ وَالإمْهَالِ وَالتَّأْخِيْر، ومنه قَوْلُهُ ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾[1] أي دَهْراً طويلاً. قال ابنُ مسعود: (مَا مِنْ نَفْسٍ بَرَّةٍ وَلاَ فَاجِرَةٍ إلاَّ وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهَا مِنَ الْحَيَاةِ، أمَّا الْفَاجِرَةُ فَقَدْ قَالَ اللهُ: ﴿إنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إثْماً﴾؛ وَأمَّا الْبَرَّةُ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأبْرَارِ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ؛ اختلفوا في تأويْلِهَا؛ قال الكلبيُّ:(قَالَتْ قُرَيْشُ: يَا مُحَمَّدُ؛ تَزْعُمُ أنَّ مَنْ خَالَفَكَ فَهُوَ فِي النَّار؛ وَاللهُ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ، وَمَنْ اتَّبَعَكَ عَلَى دِيْنِكَ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ؛ وَاللهُ عَنْهُ رَاضٍ، فَخَبِّرْنَا بِمَنْ يُؤْمِنُ بكَ وَمَنْ لاَ يُؤْمِنُ بكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هذه الآيَة). ومعناهَا: لَمْ يَكُنِ اللهُ ليترُكَ مَن كان في علمهِ السَّابق أنهُ يُؤْمِنُ، عَلَى مَا أنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ حتى يُمَيِّزَ الكافرَ والمنافقَ من المؤمنِ المخلص (وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعَكُمْ) يا أهلَ مَكَّةَ على مَن يصيرُ منكم مُؤمناً قبلَ أن يؤمنَ، ولكنَّ اللهَ يصطفي بالنبوَّةِ والرسالةِ من يشاءُ فيوحِي إليه بما يشاءُ؛ لأنَّ الغيبَ لا يطَّلِعُ عليه إلاّ الرُّسُلُ بوحيٍ من اللهِ ليقيمُوا البرهانَ على أنَّ ما أتَوا بهِ من عند اللهِ؛ ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ ؛ أي صَدِّقُوا، ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ ؛ الشِّرْكَ والمعصيةَ؛ ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ ؛ فِي الْجَنَّةِ.

وقال بعضُهم: الخطابُ للكافرين والمنافقين، معنى الآيَةِ: (مَا كَانَ اللهُ لِيَذرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَىمَا أنْتُمْ عَلَيْهِ) يا معشرَ الكفَّار والمنافقين من الكفرِ والنِّفاق (حَتَّى يَمِيزَ الْخَبيثَ مِنَ الطَّيِّب). وقيل: الخطابُ للمؤمنينَ؛ أي ما كانَ اللهُ لِيَذركُمْ يَا معشرَ المؤمنين على ما أنتُم عليهِ من الْتِبَاسِ المؤمنِ بالمنافقِ حَتَّى يَمِيْزَ الْخَبيْثَ.

قرأ الحسنُ وقتادة والكوفيون إلاّ عاصِماً: (يُمَيِّزَ) بضمِّ الياء والتشديد، وكذلكَ في الأنفال. والباقون بالتخفيفِ وفتحِ الياء من الْمَيْزِ وهو الفرقُ، ويسمَّى العاقلُ مُمَيِّزاً لأنه يُفَرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ، معناهُ: حتَّى تُمَيِّزَ المنافقَ من المخلصِ، فَيُمَيِّزُ اللهُ

---

(١) مريم / ٤٦ .

(٢) النساء / ١٩٨ .

المؤمنين يومَ أحدٍ من المنافقين حينَ أظهرُوا النفاقَ وتَخلَّفُوا عن رسولِ الله ﷺ. وقال بعضُهم: معنى الآيَة: (مَا كَانَ اللهُ لِيَذرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ) مِنَ الإقرار حتى يَفْرضَ عليهمُ الجهادَ والفرائضَ لِيَمِيْزَ بها من يَثْبُتُ على إيْمانهِ مِمَّنْ ينقلبُ على عَقِبَيْهِ، وما كانَ لِيُطْلِعَكُمْ على الغيب؛ لأنه لا يعلمهُ إلاّ الله، ولكنَّ اللهَ يَخْتَارُ من رُسُلِهِ من يشاءُ، فَيُطْلِعَهُ على بعضِ عِلْمِ الغيب.

وروي: أنَّ الحجَّاجَ بنَ يوسفَ كان عندَهُ مُنَجِّمٌ، فأخذ الحجاجُ حُصَيَّاتٍ بيدهِ قد عَرَفَ عددَها، فقالَ لِلْمُنَجِّمِ: كَمْ فِي يَدِي ؟ فَحَسَبَ المنجِّمُ فأصابَ، ثم اغْتَفَلَهُ الحجاجُ فأخذ حُصَيَّاتٍ لَمْ يَعُدَّهَا، قَالَ للمنجِّم: كَمْ فِي يَدِي ؟ فَحَسَبَ المنجِّمُ فَأَخْطَأَ، ثم حَسَبَ فأخطأ، فقال: أيُّها الأميرُ: أظُنُّكَ لا تعرفُ عددَهُ، قال: لاَ، فقال: إنَّ ذلكَ الأوَّل أحصيتَ عددَهُ فخرجَ عن حَدِّ الغيب، فأَصَبْتُ في حِسَابهِ، وهذا لم تَعْرِفْ عددَهُ فصارَ غَيْباً، والغيبُ لا يعلمهُ إلاّ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۡۖ ﴾ ؛ من قرأ: (وَلاَ تَحْسَبَنَّ) بالتَّاء فمعناهُ: ولا تَظُنَّنَّ يا مُحَمَّدُ بُخْلَ الذين يَبْخَلُونَ بما أعطاهُم اللهُ من المال؛ فيمنعونَ مِن ذلك حقَّ اللهِ في الزَّكاةِ والجهادِ وسائرِ وجوه البرِّ التي وَجَبَتْ عليهم، لاَ تَظُنَّنَّ ذلك خَيْراً لَهم. وقوله (هُوَ خَيْرٌ) للفصلِ، ويسمِّيه الكوفيُّون الْعِمَادَ، ومعنى (بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ) أي بُخْلُهُمْ بحقِّ اللهِ شرٌّ لَهم. ومن قرأ بالياء والفعلِ الْمُبَاخِلِيْنَ؛ كأنَّهُ قالَ: ولا يَحسبنَّ الذين يَبْخَلُونَ الْبُخْلَ خيراً لهم .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ ؛ أي سيأتونَ يومَ القيامة بما بَخِلُوا به من الزَّكاة ونفقةِ الجهاد كَهَيْأَةِ الطَّوْق في أعناقِهم، قال ﷺ: [يَأْتِي كَنْزُ أحَدِكُمْ شُجَاعاً أقْرَعَ فَيَتَطَوَّقُ فِي عُنُقِهِ يَلْدَغُهُ؛ حَيَّةٌ فِي عُنُقِهِ يُطَوَّقُ بهَا؛ وَتَقُولُ: أنَا الزَّكَاةُ الَّتِي بَخِلْتَ بي فِي الدُّنْيَا][(١)] . وقال بعضُهم: يُجْعَلُ ما بَخِلَ به من الزَّكاة حَيَّةً في عُنُقِهِ يُطَوَّقُ بها - أي يومَ القيامةِ - تَنْهَشُهُ من قرنهِ إلى قَدَمِهِ؛ وَتَنْقُرُ رَأْسَهُ وتقولُ:

(١) عن أبي هريرة ﷺ؛ أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الزكاة: باب إثم مانع الزكاة: الحديث (١٤٠٣). والترمذي في الجامع عن ابن مسعود: أبواب التفسير: الحديث (٣٠١٢).

أنَا مَالُكَ، ولا يزالُ كذلكَ حتى يُسَاقَ إلى النار وَيُغَلَّ، وهـذا قـولُ ابـنِ مسـعود وابـنِ عبَّاس والشعبيُّ والسُّدِّيُّ .

وقال ﷺ: [مَا مِنْ ذِي رَحِمٍ يَأْتِي إلَى ذِي رَحِمِهِ يَسْأَلُهُ مِنْ فَضْـلٍ مَـا أعْطَـاهُ اللهُ فَيَبْخَلُ بهِ عَلَيْهِ؛ إلاَّ أخْرَجَ اللهُ لَهُ مِنْ جَهَنَّمَ شُجَاعاً يَتَلَمَّظُ حَتَّى يُطَوِّقَهُ. ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ](١). وَقَالَ ﷺ: [مَانِعُ الزَّكَاةِ فِي النَّار] وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ المرادَ بـهذه الآيـةِ اليهودُ؛ بَخِلُوا بيَـانَ صفـةِ النـبيِّ ﷺ، ومعنـى (سَـيُطَوَّقُونَ) علـى هـذا القـول: وِزْرَهُ وَمَأْثمَهُ. والأظهرُ في هذه الآيةِ: أنَّهُ الْبُخْلُ بالْمَال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ تحريضُ الإنفاق؛ ومعناهُ: يَمُوتُ أهلُ السَّموات وأهلُ الأرضِ كلُّهم من الملائكةِ والجنِّ والإنـسِ ولا يبقـى إلاَّ اللهُ، وإذا كانتِ الأموالُ لا تبقَى للإنسان ولا يحملُها مع نفسهِ إلى قبرهِ؛ فالأَوْلَى بهِ أن يُنْفِقَهَا في الوجوهِ التي أمـرَ اللهُ بـها؛ فيسـتوجبُ بـها الحمـدَ والثـوابَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بمن يُؤَدِّي الزَّكاةَ ومن يَمنعُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ ؛ قال مجاهدُ: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يُقْـرِضُ اللهَ قَرْضًـا حَسَـنًا﴾(٢) قَـالَتِ الْيَهُودُ: إنَّ اللهَ يَسْتَقْرِضُ مِنَّا وَنَحْنُ اغْنِيَاءُ). قال الحسنُ: (إنَّ قَائِلَ هَذِهِ الْمَقَالَـةِ حُيَـيُّ ابْنُ اخْطَبَ)(٣). قال عكرمةُ والسُّدِّيُّ ومقاتلُ: (كَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ أبِي بَكْرٍ ﷺ إلَـى الْيَهُودِ يَدْعُوهُمْ إلَى الإسْلاَمِ وَإلَى إقَامَةِ الصَّلاَةِ وَإيْتَاءِ الزَّكَاةِ وَانْ يُقْـرِضَ اللهَ قَرْضـاً حَسَناً، فَدَخَلَ أبو بَكْرٍ مَدَارسَهُمْ؛ فَوَجَدَ نَاساً كَثِيراً مِنْهُمْ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ يُقَـالُ لَهُ فِنْحَاصَ بْن عَازُورَا؛ وَكَانَ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَـالَ أبُـو بَكْـرٍ ﷺ لِفِنْحَـاصَ: إتَّـقِ اللهَ وَاسْلِمْ، فَوَاللهِ إنَّكَ تَعْلَمُ انَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ تَجِدُونَـهُ مَكْتُوبـاً عِنْدَكُـمْ فِـي التَّـوْرَاةِ وَالإنْجِيْلِ؛ فَآمِنْ وَصَدِّقْ وَاقْرِضِ اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُدْخِلْكَ الْجَنَّةَ. فَقَالَ فِنْحَـاصُ: يَـا أبَا بَكْرٍ تَزْعُمُ انَّ رَبَّنَا يَسْتَقْرِضُ مِنَّا امْوَالَنَا، وَمَا يَسْتَقْرِضُ إلاَّ الْفَقِيْرُ مِـنَ الْغَنِـيِّ، فَـإنْ

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٥٥٨٩).

(٢) البقرة / ٢٤٥ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٦١٩) عن الحسن، والنص (٦٦٢٠) عن قتادة.

كَانَ مَا تَقُولُ حَقّاً فَإنَّ اللهَ فَقِيْرٌ وَنَحْنُ أغْنِيَاءُ. فَغَضِبَ أبُو بَكْرٍ ﷺ وَضَرَبَ وَجْهَ فِنْحَاصَ ضَرْبَةً شَدِيْدَةً، وَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ؛ لَوْلاَ الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ يَا عَدُوَّ اللهِ. فَذهَبَ فِنْحَاصُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ انْظُرْ مَا صَنَعَ بي صَاحِبُكُمْ؟ فَقَالَ ﷺ لأَبي بَكْرٍ: [مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟] فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ قَالَ قَوْلاً عَظِيْماً زَعَمَ أنَّ اللهَ فَقِيْرٌ وَهُمْ أغْنِيَاءُ، فَغَضِبْتُ للهِ تَعَالَى وَضَرَبْتُ وَجْهَهُ. فَجَحَدَ فِنْحَاصُ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ رَدّاً عَلَى فِنْحَاصَ، وَتَصْدِيْقاً لأَبي بَكْرٍ ﷺ: (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أغْنِيَاءُ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ ﴾ ؛ أي سَيَكْتُبُ الكاتبونَ الكرامُ عليهم بأمرنا قولَهم؛ ﴿ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ؛ بلا جُرْمٍ لَهم فيجازيهم به. وقرأ حمزةُ والأعمش (سَيُكْتَبُ) بياءٍ مضمومة وفتحِ التاء (وَقَتْلُهُمُ الأَنْبيَاءَ) بالرفع. ﴿ وَنَقُولُ ﴾ ؛ بالياءِ اعتباراً بقراءةِ ابن مسعود، وقال: ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ ؛ أي النَّار، وإنَّما قالَ (الْحَرِيْقِ) لأنَّ النارَ اسمٌ للملتهبَةِ وغيرِ الملتهبةِ، والحريقُ اسم منها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ ؛ أي يقالُ للكافرين ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيْكُمْ عَلَى الكفرِ وقَتْلِ الأنبياءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وقولهُ: (وَأنَّ الله لَيْسَ بظَلاَّمٍ لِلْعَبيدِ) لا يُعَذِّبُ أحداً بغيرِ ذنبٍ ولا يَمْنَعُ أحداً جَزَاءَهُ حَسْبَ استحقاقهِ خيراً فَعَلَهُ أو شرّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (نَزَلَتْ فِي كَعْب بْنِ الأَشْرَفِ وَمَالِكِ ابْنِ الصَّيْفِ وَوَهَب بْنِ يَهُوذا وَفِنْحَاصُ بْنُ عَازُورَا؛ أتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: أتَزْعُمُ يَا مُحَمَّدُ أنَّ اللهَ بَعَثَكَ إلَيْنَا رَسُولاً، وَأنْزَلَ عَلَيْكَ كِتَاباً، وَأنَّ اللهَ قَدْ عَهِدَ إلَيْنَا فِي التَّوْرَاةِ: أنْ لاَ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ، فَإنْ جِئْتَنَا بهِ صَدَّقْنَاكَ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٦١٥).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص٢٩٥؛ قال القرطبي: ((قال الكلبي وغيره:...)).

ومعناها: وَسَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِيْنَ قَالُوا إنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا، ومحلُّ (الَّذِيْـنَ) خَفْـضٌ رَدّاً على (الَّذِيْنَ) الأوَّل؛ ومعناها: عَهِدَ إِلَيْنَا: أمَرَنَا وَأَوْصَانَا في كُتُبهِ وعلى ألْسِنَةِ رُسُلِهِ أن لا نُصَدِّقَ رسولاً يَزْعُمُ أنَّهُ جَاءَ من عند اللهِ (حَتَّى يَأْتِيَنَا بقُرْبَانٍ) وهو ما يُتَقَرَّبُ بهِ إلى اللهِ من صَدَقَةٍ، وكانَتِ القرابينُ والغنائمُ لاَ تَحِلُّ لِبَنِي إسْرَائِيْلَ، وكـانوا إذا قرَّبـوا قُرباناً أو غنِموا غنيمةً فتقبلُ منهم؛ جـاءت مـن السَّـماء نـارٌ ولَـها دُخَـانٌ ولها دَوِيٌّ وَخَفِيْقٌ فتأكلُ ذلكَ القربانَ وتلكَ الغنيمةِ، فيكون ذلك علامـةَ القَبـول، واذا لم يُقْبَـلْ بقيَ إلى حالهِ، فقالَ هؤلاءِ اليهودُ: (إنَّ الله عَهِدَ إلينـا ألاَّ نُؤْمِـنَ لِرَسُـولٍ حَتَّـى يَأْتِيَنَـا بقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ) كما كان في زَمَنِ موسَى وزكريَّا ويحيَى وغيرِهم عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ.

وكـان هـذا القـولُ منـهم كَذِبـاً علـى اللهِ واعتـلالاً ومدافعـةً في الإيْمـانِ بالنبيِّ ﷺ لا إحْتِجَاجـاً صحيحـاً؛ فـاحْتَجَّ اللهُ عليـهم بقولـهِ: ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ قَـدْ جَـاءَكُـمْ رُسُـلٌ مِـن قبلِـي بالعلامـاتِ الواضحـاتِ والمعجـزَاتِ (وَبـالَّذِي قُلْتُـمْ) مـن أمـرِ القُربـان، ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ ؛ في مَقَالَتِكُمْ. وكانوا قَتلُـوا زكريَّـا ويحيَـى وغيرَهم، وأرادَ بذلكَ أسلافَهم فخاطبَهُم بذلكَ لأنَّهم رَضُوا بفعلِ أسلافِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ؛ فَـإنْ كذبُـوكَ يا مُحَمَّدُ فلستَ بأوَّلِ رسُولٍ كُذِّبَ، فقد كُذِّبَ نوحُ وهود وصالحُ وغيرُهم؛ ﴿ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي بالعلاماتِ الواضحَاتِ؛ ﴿ وَٱلزُّبُرِ ﴾ ؛ وهو جَمْعُ زَبُورٍ؛ وهو كلُّ كتابٍ ذي حِكْمَةٍ؛ يقال: زَبَـرْتُ إذا كتبـتُ؛ وَزَبَـرْتُ اذا قـرأتُ. وأمـا﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾ ؛ فهو الكتابُ المبيِّنُ للحلالِ والحرامِ.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ قرأ الأعمشُ: (ذائِقَةٌ) بالتنوين، ونصبَ (الْمَـوْتَ)، قـال ابـنُ عبَّـاس: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[1] قَالَتِ الْملاَئِكَـةُ: هَلَـكَ أهْـلُ الأَرْضِ. فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ أيْقَنَتِ الْمَلاَئِكَةُ بالْهَلاَكِ). وعن أبي هريرةَ ﷺ قَالَ: قالَ رسولُ

---

(١) الرحمن / ٢٤.

اللهِ ﷺ: [لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ اشْتَكَتِ الأَرْضُ إلَى رَبِهَا لِمَا أخِذ مِنْهَا؛ فَوَعَدَهَا أنْ يَرُدَّ إلَيْهَا مَا أخَذ مِنْهَا، فَمَا مِنْ أحَدٍ إلاَّ يُدْفَنُ فِي التُّرْبَةِ الَّتِي أخِذ مِنْهَا] ورأى أبو هريرة قَبْراً جديداً، فَقَالَ: (سُبْحَانَ اللهِ! انْظُرُوا كَيْفَ سَبَقَ هَذا الْعَبْدُ إلَى تُرْبَتِهِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإنَّمَا تُوَفَّوْنَ أجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي تُعْطَوْنَ جزاءَ أعمالِكم يومَ القيامةِ، إنْ خَيراً فخيرٌ؛ وإنْ شَرّاً فَشَرٌّ، لا تَغْتَرُّوا بنِعَمِ الكُفَّار، ولا تَحْزَنُوا لشدائدِ المؤمنينَ، فإنَّ كِلاَ الفريقين يَتَفرَّقُونَ؛ فلا بُؤْسُ يبقَى ولا نعيمٌ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي أبْعِدَ عنها؛ ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ ؛ أي نَجَا وَسَعِدَ وَظَفَرَ بما يرجُو. قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ ؛ متاعُ الدُّنيا مثلُ القِدْر والقَصْعَةِ والفأس، يتمتَّعُ بهذه الأشياءِ؛ أي يُنتَفعُ بها ثم تذهبُ فتفنَى، كذلك الحياةُ الدُّنيا. وقيل: (مَتَاعُ الغُرُور) ما يُغَرُّ به الإنسانُ في الحال، فكما أنَّ التاجرَ يهربُ من متاعِ الغرور وهو ما يسرعُ إليه الفسادُ مثلَ الزُّجاجِ، والذِي يسرعُ إليه الكسرُ ويصلحه الجبرُ؛ كذلك ينبغِي للحيِّ أن يهربَ من الدُّنيا الفانيةِ إلى متاعِ الآخرةِ.

وعن عبدِ اللهِ بن عمرَ؛ قَالَ: (لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَجَّيْنَاهُ بِثَوْبٍ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ نَبْكِي، فَأتَانَا آتٍ نَسْمَعُ صَوْتَهُ وَلاَ نَرَى شَخْصَهُ، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَقُلْنَا: وَعَلَيْكُمُ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَقَالَ: (كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ) إلَى آخِرِ الآيَةِ، ثُمَّ قَالَ: إنَّ فِي اللهِ خَلَفاً لِكُلِّ هَالِكٍ؛ وَعَزَاءً مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ؛ وَدَرْكاً مِنْ كُلِّ فَائِتٍ، فَبِاللهِ فَاتَّقُوا وَإيَّاهُ فَارْجُوا، فَإنَّ الْمُصَابَ مَنْ حُرِمَ الثَّوَابَ). قال: (فَتَحَدَّثْنَا أنَّهُ جِبْرِيْلُ ﷺ)[1].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الجنائز: باب ما يقول في التعزية: الحديث (٧١٩٢) عن القاسم بن عبدالله بن عمر، عن جعفر بن مُحَمد عن أبيه عن جده، وقال: ((قد روي من وجه آخر عن جعفر عن أبيه عن جابر، ومن جهة آخر عن أنس بن مالك، وفي أسانيده ضعف. والله أعلم)). وفي طبقات ابن سعد: ذكر التعزية برسول الله ﷺ: ج ٢ ص٢٧٥: ... وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكرَ الجنَّةَ أتى عَقِبَهَا بما يدعو إليها ويُوجِبُها فقالَ: (لَتُبْلَوُنَّ فِي أمْوَالِكُمْ وَأنْفُسِكُمْ) أي لَتُخْتَبَرُنَّ بالنقصِ والذهابِ في الأموال، وفي أبدانِكم بالأمراضِ والأوْجاعِ. ويقال: إنَّ المرادَ بالإبتلاءِ فَرَائِضَ الدينِ مثلَ الجهادِ في سبيلِ الله والإنفاقِ فيه.

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ ؛ معناهُ: وَلَتَسْمَعُنَّ من اليهودِ والنصارى ومشركي العرب كلامَ أذًى كثيراً. أمَّا من اليهودِ فقولُهم: عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ، وقولُهم: إنَّ اللهَ فَقِيْرٌ وَنَحْنُ أغْنِيَاءٌ. ومنَ النصارَى قولَهم: الْمَسِيْحُ ابنُ اللهِ، وقولَهم: إنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ. ومِن المشركينَ قولَهم: الْمَلاَئِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وعبادتُهم الأوثانَ ونصبَهم الحربَ لرسولِ الله ﷺ. والأذى: مَا يَكْرَهُ الإنْسَانُ وَيَغْتَمُّ بهِ.

قال الزهريُّ: (نَزَلَتْ فِي كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ؛ وَذلِكَ أنَّهُ كَانَ يَهْجُو النَّبِيَّ ﷺ، وَيَسُبُّ الْمُسْلِمِيْنَ وَيُحَرِّضُ الْمُشْرِكِيْنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأصْحَابِهِ فِي سَمَرِهِ حَتَّى آذاهُمْ، فَقَالَ ﷺ: [مَنْ لِي بابْنِ الأَشْرَفِ؟] فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الأَنْصَارِيُّ: أنَا لَكَ بِهِ يَا رَسُولَ اللهِ أنَا أقْتُلُهُ، قال: [افْعَلْ إنْ قَدِرْتَ عَلَى ذلِكَ]، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ إنَّهُ لاَ بُدَّ لَنَا أنْ نَقُولَ؟ قَالَ: [قُولُوا مَا بَدَا لَكُمْ فَأنْتُمْ فِي حِلٍّ مِنْ ذلِكَ].

وَاجْتَمَعَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَأبُو نَائِلَةَ وَهُوَ أخُو كَعْبٍ مِنَ الرِّضَاعَةِ، وَهُوَ سِلْكَانُ بْنُ سَلاَمَةَ بْنُ وَقْشٍ، وَعَبَّادُ بْنُ بشْرِ بْنِ وَقْشٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ أوْسٍ، وَأبُو عَبْس ابْنِ جَبْرٍ، وَمَشَى مَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ ثُمَّ وَجَّهَهُمْ، فقَالَ: [انْطَلِقُوا عَلَى اسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ أعِنْهُمْ][(١)].

ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى بَيْتِهِ، وَهُوَ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، فَأتُوا حَتَّى انْتَهَوا إلَى حِصْنِهِ؛ فَقَوَّمُوا أبَا نَائِلَةَ لأَنَّهُ أخُوهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ، فَجَاءَهُ فَتَحَدَّثَ مَعَهُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يَا كَعْبُ؛ إنِّي جِئْتُكَ لِحَاجَةٍ أريْدُ ذِكْرَهَا لَكَ فَاكْتُمْهَا عَلَيَّ، قَالَ: أفْعَلُ، قَالَ: كَانَ قُدُومُ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٥٨-٥٩. ودلائل النبوة: ج ٣ ص١٩٨-١٩٩.

هَذا الرَّجُلِ بلاَدَنَا بَلاَءً عَلَيْنَا؛ عَادَتْنَا الْعَرَبُ فَرَمَوْنَا عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ؛ وَانْقَطَعَتْ عَنَّا السَّبِيْلُ حَتَّى ضَاعَتِ الْعِيَالُ وَجهَدَتِ الأَنْفُسُ. فَقَالَ كَعْبُ ابْنُ الأَشْرَفِ: أمَا وَاللهِ لَقَدْ أخْبَرْتُكَ أنَّ الأَمْرَ سَيَصِيْرُ إلَى هَذا. فَقَالَ أبُو نَائِلَةَ: إنَّ مَعِيَ أصْحَاباً أرَدْنَا أنْ تَبِيْعَنَا مِنْ طَعَامِكَ وَنَرْهَنُكَ وَنُوثِقُ لَكَ سِلاَحاً، وَقَدْ عَلِمْتَ حَاجَتَنَا الْيَوْمَ إلَى السِّلاَحِ، فَقَالَ: هَاتُوا سِلاَحَكُمْ، وَأرَادَ أبُو نَائِلَةَ يَذْكُرُ السِّلاَحَ حَتَّى لاَ يُنْكِرَ السِّلاَحَ إذا رَآهُ، فَرَجَعَ أبُو نَائِلَةَ إلَى أصْحَابِهِ فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَهُ، فَأَقْبَلُوا إلَيْهِ حَتَّى انْتَهَوا إلَيْهِ، وَكَانَ كَعْبٌ حَدِيْثَ عَهْدٍ بِعُرْسٍ.

فَبَادَاهُ أبُو نَائِلَةَ فَوَثَبَ فِي مِلْحَفِهِ؛ فَأَخَذتِ امْرَأتُهُ بِنَاصِيَتِهِ وَقَالَتْ: إنَّكَ رَجُلٌ مُحَارِبٌ وَصَاحِبُ الْحَرْبِ لاَ يَنْزِلُ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: إنَّ هَؤُلاَءِ وَجَدُونِي نَائِماً مَا أيْقَظُونِي؛ وَإنَّهُ أبُو نَائِلَةَ أخِي، قَالَتْ: فَكَلِّمْهُمْ مِنْ فَوْقِ الْحِصْنِ، فَأَبَى عَلَيْهَا، فَنَزَلَ إلَيْهِمْ فَتَحَدَّثَ مَعَهُمْ سَاعَةً ثُمَّ قَالُوا لَهُ: يَا ابْنَ الأَشْرَفِ؛ هَلْ لَكَ أنْ نَتَمَاشَى وَنَتَحَدَّثَ سَاعَةً؟ فَمَشَى مَعَهُ سَاعَةً، ثُمَّ إنَّ أبَا نَائِلَةَ جَعَلَ يَدَهُ عَلَى رَأسِ كَعْبٍ ثُمَّ شَمَّهَا وَقَالَ: مَا شَمَمْتُ طِيْبَ عُرْسٍ قَطُّ مِثْلَ هَذا ! قَالَ كَعْبٌ: إنَّهُ طِيبُ أمِّ فُلاَنٍ؛ يَعْنِي امْرَأتَهُ.

ثُمَّ مَشَى سَاعَةً، فَعَادَ أبُو نَائِلَةَ لِمِثْلِهَا حَتَّى اطْمَأنَّ ثُمَّ مَشَى سَاعَةً، ثُمَّ عَادَ بِمِثْلِهَا، ثُمَّ أخَذ بِفَوْدِ رَأسِهِ حَتَّى اسْتَمْكَنَ، ثُمَّ قَالَ لأَصْحَابِهِ: اضْرِبُوا عَدُوَّ اللهِ؛ فَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أسْيَافُنَا فَلَمْ تُغْنِ شَيْئاً، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَرَكَزْتُ مِغْوَلاً فِي ثُنَّتِهِ، ثُمَّ تَحَامَلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَغَتْ عَانَتَهُ، فَصَاحَ صَيْحَةً لَمْ يَبْقَ مِنْ حَوْلِهَا حِصْنٌ إلاَّ وَقَدْ أوْقَدَ نَاراً، فَوَقَعَ عَدُوُّ اللهِ عَلَى الأَرْضِ، وَقَدْ أصِيْبَ الْحَارِثُ بْنُ أوْسٍ بِجُرْحٍ فِي رَأسِهِ؛ أصَابَهُ بَعْضُ أسْيَافِنَا، فَنَزَفَهُ الدَّمُ وَأبْطَأَ عَلَيْنَا؛ فَوَقَفْنَا لَهُ سَاعَةً، ثُمَّ احْتَمَلْنَاهُ وَجِئْنَا بِهِ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ آخِرَ اللَّيْلِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَخَرَجَ إلَيْنَا؛ فَأَخْبَرْنَاهُ بِقَتْلِ كَعْبٍ وَجِئْنَا بِرَأسِهِ إلَيْهِ، وَتَفَلَ عَلَى جُرْحِ صَاحِبِنَا فَبَرَأَ، وَرَجَعْنَا إلَى أهْلِنَا، فَأَصْبَحْنَا وَقَدْ خَافَتِ الْيَهُودُ لِوَقْعَتِنَا بِعَدُوِّ اللهِ(١)، فَقَالَ ﷺ: [مَنْ ظَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ رَجُلِ يَهُودٍ فَاقْتُلُوهُ].

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٥٩-٦٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾؛ أي إنْ تَصْبرُوا على أذى الكفَّار وتتَّقُوا معصيةَ اللهِ فإنَّ ذلكَ مِن عزمِ الأمور وخيرِها؛ أي من حقيقة الإيمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾؛ أي قد أخذ اللهُ ميثاقَ أهلِ الكتاب لِيُبَيِّنَ الكتابَ بما فيه من نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وصفتِه للناسِ ولا يُخْفُونَ شيئاً من ذلكَ. قرأ عاصمُ وأبو عمرٍو وابنُ كثير بالياءِ فيهما. وقرأ الباقون بالتَّاء فيها.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾؛ أي ضَيَّعُوهُ وتركُوا العملَ به، يقالُ للذِي تركَ العملَ بهِ: جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾؛ أي اختارُوا بكِتمَانِ نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ وصفتهِ عَرَضاً يَسِيراً من المآكِلِ والْهَدَايَا التي كانت لعلمائِهِم من رؤسائِهِم، ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾؛ أي يختارُون الدنيا على الآخرةِ.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾؛ قرأ أهلُ الكوفةِ: (يَحْسَبَنَّ) بالياءِ، وقرأ غيرُهم بالتَّاء، فمن قرأ بالياء فمعناهُ: لا يَحْسَبَنَّ الْفَارِحُونَ فَرَحَهُمْ مُنْجِياً لَهم من العذاب، ومن قرأ بالتاءِ فالخطابُ للنَّبِيِّ ﷺ، وقوله: (فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ) إعادةُ توكيدٍ. قرأ الضحَّاك بالتاءِ وضمِّ الباء أرادَ مُحَمَّداً وأصحابَه. وقرأ مجاهدُ وابن كثير وأبو عمر بالياءِ وضمِّ الباءِ خبراً عن الْفَارِحِيْنَ؛ أي لا يَحْسَبَنَّ أنفُسَهم.

واختلفوا فيمَنْ نزلَتْ، فقالَ مجاهدُ وعكرمة: (نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَكَانُواْ يَقُولُونَ: نَحْنُ أهْلُ الصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ وَالْكِتَابِ الأَوَّلِ وَالْعِلْمِ الأَوَّلِ، يُرِيدُونَ الْفَخْرَ وَالسُّمْعَةَ وَالرِّيَاءَ لِكَي يُثْنِي عَلَيْهِمْ وَيَحْمِدَهُمْ سَفَلَتَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ مِنْ بَيَانِ صِفَةِ كِتَابِهِمْ). وقالَ عطاءُ: (نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِيْنَ؛ كَانُواْ يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَيُخَالِطُونَ الْمُسْلِمِيْنَ وَيُرَاؤُنَ بِالأَعْمَالِ الَّتِي يُحِبُّونَ أنْ يُحْمَدُواْ وَيُمْدَحُواْ عَلَى ذلِكَ)[1].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٦٤٣) عن عطاء عن أبي سعيد الخدري.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ ؛ أي لا تَظُنَّهُمْ يا مُحَمَّدُ بمَنْجَاةٍ؛ أي بُعْدٍ مِن العذاب، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ ؛ وَجِيْعٌ في الآخرةِ، وتكرارُ (لاَ تَحْسَبَنَّ) لطول القصَّة. ويجوزُ أن يكونَ خبرَ (لاَ تَحْسَبَنَّ) الأوَّل مُضْمَراً تقديرُهُ: لاَ يَحْسَبَنَّ الذينَ يَفْرَحُونَ بما أُوْتُوا ويُحِبُّونَ أن يُحْمَدُوا بما لن يفعلوا نَاجِيْنَ، ومن قرأ (بمَا أُوْتُوا) بالمدِّ؛ فَمَعْنَاهُ: بما أعطوا من النفقةِ والصَّدقة. ومن قرأ (بمَا أتَوا) بما أعْطَوا من الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾ ؛ أي وللهِ خزائنُ السَّموات والأرض، فخزائنُ السموات المطر، وخزائنُ الأرضِ النباتُ، ووجهُ اتِّصال هذه الآيةِ بما سبقَ أنَّ في هذا تكذيبُ اليهودِ في قولِهم: إنَّ اللهَ فَقِيْرٌ، وَنَحْنُ أغْنِيَاءٌ، وبيانُ أنَّ مَن كان مَالِكَ السَّموات والأرضِ قادرٌ على الانتقامِ من الكفَّار، والإثابةِ للمؤمنين وعلى كلِّ شيءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ ؛ معناه: إنَّ في خلقِ السَّموات بما فيها من الشَّمسِ والقمرِ والنُّجوم، والأرضِ بما فيها من الجبال والشَّجر والنَّباتِ والدواب واختلافِ اللَّيل والنَّهار في الْمَجِيْءِ والذهاب واللونِ لَعَلاَمَاتٌ واضحاتٌ لِذوي العقولِ على توحيدِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ ؛ بيانٌ لصفةِ أولي الألباب، ومعنى الذِّكْرِ المطلق؛ أي يَذْكُرُونَ اللهَ في جميعِ أحوالِهم، وقيل: المرادُ به الصَّلاةُ؛ أي لا يتركون الصَّلاةَ؛ صَحُّوا أو مَرِضُوا، يُصَلُّونَ قِيَاماً إنِ استطاعوا؛ أو جُلُوساً إنْ لم يستطيعُوا القيامَ؛ ومضطجعينَ إنْ لَمْ يستطيعُوا الجلوسَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي في عِظَمِ شأنِهما ومَن فيهما مِن الآياتِ والعِبْرَاتِ؛ القائلينَ: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ ؛ أي ما خَلَقْتَ هَذا الْخَلْقَ لِلْبَاطِلِ وَالْعَبَثِ؛ بَلْ خلقتَهُ دليلاً على وَحْدَانِيَّتِكَ وَصِدْقِ ما أتَتْ بِهِ أنبياؤُكَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ ؛ أي تَنْزِيـهاً لـكَ وبـراءةً لـكَ مِـن أن تكـون خلَقْتَهُمَا باطلاً؛ ﴿ فَقِنَا ﴾ ؛ فادْفعْ؛ ﴿ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ ؛ قـال ﷺ: [مَـنْ أحَبَّ أنْ يَرْتَعَ فِـي رِيَـاضِ الْجَنَّـةِ فَلْيُكْـثِرْ ذِكْـرَ اللهِ][١]. وقـال ﷺ: [ذِكْـرُ اللهِ عَلَـمُ الإيْمَانِ؛ وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ؛ وَحِصْنٌ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ وَحِرْزٌ مِنَ النِّيْرَانِ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيَتَفكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّـمَوَاتِ وَالأرْضِ) أي لَـهما صَـانِعٌ قـادر مُريد حكِيمٌ، وكانَ سفيانُ الثوريُّ يَبُولُ الدَّمَ مِنْ طُولِ حُزْنِهِ وَفِكْرَتِـهِ، وَكَـانَ إذا رَفَـعَ رَأسَهُ إلَى السَّمَاءِ فَرَأى الْكَوَاكِبَ غُشِيَ عَلَيْهِ.

وانتصبَ قولهُ (بَاطِلاً) بنَزع الخافضِ؛ أي مَا خَلَقْتُهُ لِلْبَاطِلِ، فقيلَ على المفعول الثانِي، وقوله: (مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً) ذاهباً به إلى لفظِ الْخَلْـقِ، ولـو رَدَّهُ إلى السَّـماءِ والأرضِ لقال: هذهِ[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾ ؛ أي فَقَـدْ أهَنْتَـهُ وَذلَّلْتَهُ، وقيل: أهلكتَـهُ؛ وقيـل: فَضَحْتَـهُ؛ ﴿ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾ ؛ أي ما لَهُمْ مِن مانعٍ يَمنعهم مِمَّا يرادُ دونَهم من العذاب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ ؛ أي يقولونَ ربَّنا إنَّنا سَمعنا مُحَمَّداً ﷺ يدعُو الْخَلْقَ إلى الإيمـانِ أنْ آمِنُـوا بربكم فَأجَبْنَا إلى ما دَعَانَا إليهِ وأمَرْنَا بِهِ. وقال مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ: (الْمُنَادِي هُـوَ الْقُرْآنُ؛ يَدْعُو النَّاسَ كُلَّهُمْ إلَى شَهَادَةِ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُـولُ اللهِ، وقولُـهُ: (لِلإيْمَانِ) أي إلى الإيْمانِ، كقولهِ ﴿لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[٣].

---

(١) عن معاذ بن جبل؛ أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: كتاب الزهد: باب ما جـاء في فضـل ذكـر الله: النص (٣٥٠٤٩). وفي كتاب أقضية الرسول: ج ٦ ص٥٩: الحديث (٢٩٤٤٨).

(٢) في الكشف والبيان: ج ٣ ص٢٣٢؛ قال الثعلبي: (لقالَ: هذهِ باطلاً عبثاً هـزلاً). وفي المخطـوط رسم الحرف فكتب: (لقا هذ).

(٣) الأنعام / ٢٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ؛ أي اغفِرْ لَنَا الكبائرَ وما دونَها؛ ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ ؛ أي شِرْكَنَا في الجاهليَّة، ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ ؛ أي اجْعَلْ أرواحَنا مع أرواحِ الأنبياءِ والصالِحين الذين كانُوا قَبْلَنَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ ؛ أي أعطِنَا ما وعدتَنا على ألْسِنَةِ رُسُلِكَ، ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ؛ أي لا تُعَذِّبْنَا، ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ ؛ من الثَّواب والْجَنَّةِ للمؤمنين، فإنْ قيلَ: ما فائدةُ قولِهم (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ) وقد عَلِمُوا أنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الميعادَ ؟ قيلَ: فائدتهُ التَّعبُّدُ والخضوعُ ورفعُ الحاجةِ إليه في عمومِ الأحوال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (مَعْنَى فِي الدِّيْنِ وَالنُّصْرَةِ وَالْمُوَالاَةِ). وقيل: حكم جميعكم في الثَّواب واحدٌ، وقيل: كُلُّكُمْ من آدمَ وحوَّاء. وقال مجاهدُ: (قَالَتْ أمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنِّي أسْمَعُ اللهَ يَذْكُرُ الرِّجَالَ فِي الْهِجْرَةِ، وَلاَ يَذْكُرُ النِّسَاءَ بشَيْءٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أنِّي لاَ أضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذكَرٍ أوْ أنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)[1]. قال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ: رجَالُكُمْ شَكْلُ نِسَائِكُمْ فِي الطَّاعَةِ، وَنِسَاؤُكُمْ شَكْلُ رجَالِكُمْ فِي الطَّاعَةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ﴾ ؛ الآيةُ أي الذينَ هاجَروا من مكَّةَ إلى المدينةِ، وأخرجُوا مِن أوطانِهم وأُوْذُوا في طاعَتِي، ﴿ وَقَاتَلُوا ﴾ ؛ المشركينَ مع مُحَمَّدٍ ﷺ، وقَتَلَهُمُ الْعَدُوُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ ؛ ذُنُوبَهُمْ، ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ؛ أي بساتينُ تجري من تحتِ شجرِها ومساكنِها الأنهار، ﴿ ثَوَابًا ﴾ ؛ جزاءً، ﴿ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ ؛ انتصبَ (ثَوَاباً) على المصدرِ؛ معناهُ: لأثِيبَنَّهُمْ ثواباً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ ؛ أي حُسْنُ الجزاءِ للموحِّدين المطيعين.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٦٦٩ و٦٦٧١).

قرأ محاربُ بن دثار[١]: (وَقَاتَلُواْ وَقَتَلُواْ) بالفتح. وقال يزيدُ بن حازم: (سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِالْعَزِيْزِ يَقْرَأ: وَقَتَلُواْ وَقُتِلُواْ؛ يَعْنِي أنَّهُمْ قَتَلُواْ الْمُشْرِكِيْنَ، ثُمَّ قَتَلَهُمُ الْمُشْرِكُونَ). وقرأ أبو رجاءٍ وطلحةُ والحسن: (وَقَتَّلُوا وَقُتِّلُوا) بالتشديد. وقرأ عاصمُ وأبو عمرٍو ونافعُ: (وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا) بالتخفيفِ أي قَاتَلُوا ثُمَّ قُتِلُوا. وقرأ الأعمشُ وحمزة والكسائيُّ وخلَفُ: (وَقُتِّلُوا وَقَاتَلُوا) أي وقاتَلَ من بَغَى منهم، وقيل معناهُ: وَقَاتَلُوْا وَقَدْ قَاتَلُوا؛ وأضمرَ فيه (قَدْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ ﴾ ؛ أي لا يُحزنُكَ ولا يُعجبُكَ، ﴿ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ ؛ إمتدادُ هذه الآيةِ خطابٌ للنبيِّ ﷺ؛ والمرادُ به أصحابُه؛ كأنَّهُ قال: لاَ يَغُرَّنَّكَ أيُّها السامعُ ذهابَ اليهودِ ومجيئَهم في تجاراتِهم ومكاسبهم في الأرض؛ منفعةٌ يسيرةٌ في الدُّنيا تنقطعُ وتفنى؛ ﴿ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ ﴾ ؛ مصيرُهم إلَى؛ ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ ؛ أي بئسَ الفراشُ النارُ.

وقيل: كان النبيُّ ﷺ لا يغرُّه شيءٌ لتحذيرِ الله إيَّاه عن الاغترار بشيء وتأديبُه إيَّاه[٢]. وقيل: نزلت في مشركِي العرَب؛ كانوا في رَخَاءٍ من العيشِ، وكانُوا يَنْحَرُونَ ويتنعَّمون، فقال بعضُ المؤمنينَ: إن أعداءَ الله فيمَا نرَى من الخيرِ؛ ونحنُ قد هَلَكْنَا من الجوعِ والجهدِ، فَنَزلتْ هذه الآيةُ.

وقرأ يعقوب: (لاَ يَغُرَّنْكَ) بإسكانِ النون. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ) أي تصرُّفُهم في الأرضِ للتجَارات والبياعَات وأنواعِ المكاسب. وقوله: (مَتَاعٌ قَلِيلٌ) أي متاعٌ قليلٌ فَانٍ. قال النخعيُّ: (إنَّ الدُّنْيَا جُعِلَتْ قَلِيْلاً؛ وَمَا بَقِيَ مِنْهَا إلاَّ قَلِيْلٌ مِنْ قَلِيْلٍ).

---

(١) محارب بن دثار السدوسي. روى عن ابن عمر وجابر وغيرهما من الصحابة، فهو تابعي صدوق مأمون. توفرت فيه خصال ست: الحلم، الصبر، السخاء، الشجاعة، البيان، التواضع. ترجم له ابن حجر في التهذيب: الرقم(٦٧٥٧). مات سنة (١١٦) من الهجرة.

(٢) عن قتادة قال: ((واللهِ ما غَرُّوا نبيَّ الله، ولا وكَّلَ إليهم شيئاً من أمرِ الله، حتى قبضَهُ الله على ذلك)). أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٦٧٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ تقديرُ هذه الآية مع ما قبلَها: لا يُعْجِبُكَ يا مُحَمَّدُ تقلُّبُ أولئكَ الكفار في نعيم الدُّنيا، بل ما أعْطِيَ المتَّقونَ في الآخرةِ أفضلُ، فإنَّ (الَّذِيْنَ اتَّقَوا رَبَّهُمْ) أي وَحَّدُوهُ وأطاعوهُ (لَهُمْ جَنَّـاتٌ) أي بساتينُ تجري من تحتِ أشجارها ومساكنها الأنْهارُ مُقِيْمِيْنَ فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (نُزُلاً) أي رزْقاً وثوَاباً لَهم، وهذا نُصِبَ على التفسيرِ؛ كما يقالُ للشيء: هِبَةٌ أو صَدَقَةٌ. ويجوزُ أن يكونَ نصباً على المصدر على معنى: انْزِلُوا نُزُلاً، والنُّزُلُ: ما يُهَيَّأُ للنَّازلِ من كرامةٍ وبرٍّ وطعامٍ وشرابٍ ومَنظر حَسَنٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ ؛ أي مِن عندِ الله من الجزاءِ والثَّواب خيرٌ للصالحين من مَا لَهُمْ في الدُّنيا. قرأ أبو جعفر: (لَكِنَّ الَّذِيْنَ) بالتشديد. وقرأ الحسنُ والنخعيُّ: (نُزْلاً) ساكنة الزَّاي.

روَى أنسُ بن مالكٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى سَرِيْر، وَتَحْتَ رَأسِهِ وسَادَةٌ مِنْ أدَمٍ وَحَشْوُهَا لِيْفٌ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ رضي الله عنه فَانْحَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ انْحِرَافَةً؛ فَرَأى عُمَرُ أثَرَ الشَّرِيْطِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَى، فَقَالَ لَهُ: [مَا يُبْكِيْكَ يَا عُمَرُ؟] فَقَالَ: وَمَا لِي لاَ أبْكِي يَا رَسُولَ اللهِ! وَكِسْرَى وَقَيْصَرَ يَعِيْشَانِ فِيْمَا يَعِيْشَان فِيْهِ مِنَ الدُّنْيَا، وَأنْتَ عَلَى الْحَال الَّذِي أرَى، فَقَالَ: [يَا عُمَرُ ! أمَا تَرْضَى أنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟ فَقَالَ: بَلَى، قَالَ: [هُوَ كَذلِكَ](1).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ مِن أهلِ الكتاب لَمَنْ يُصَدِّقُ باللهِ والقرآن والتَّوراةِ والإنْجيلِ والزَّبُور وسَائرِ كُتُب اللهِ، وَهُمْ: عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وَأصْحَابُهُ؛ ﴿ خَٰشِعِينَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص١٤٠. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٢٦؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد وأبو يعلى، ورجال أحمد رجال الصحيح غير مبارك بن فضالة، وقد وثقه جماعة وضعفه جماعة)). وابن حبان في الصحيح: كتاب النكاح: باب معاشرة الزوجين: الحديث (٤١٨٨) من حديث ابن عباس، وإسناده حسن على شرط مسلم.

لِلَّهِ ﴾ ؛ أي ذلِيْلَةٌ أنفُسُهُمْ للهِ؛ ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ بمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآن؛ ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ؛ عَرَضاً يَسِيْراً كما فعلَهُ رؤساءُ اليهودِ؛ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ . وقال قتادةُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ؛ لَمَّا مَاتَ نَعَاهُ جِبْرِيْلُ عليه السلام إلَى رَسُول اللهِ ﷺ؛ أيْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ؛ فَقَالَ ﷺ لأَصْحَابهِ: [اخْرُجُوا فَصَلُّوا عَلَى أخٍ لَكُمْ مَاتَ بغَيْرِ أرْضِكُمْ] قَالُوا: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: [النَّجَاشِيُّ][1] فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الْبَقِيْعِ، وَكُشِفَ لَهُ مِنَ الْمَدِيْنَةِ إلَى أرْضِ الْحَبَشَةِ؛ فَأَبْصَرَ سَرِيْرَ النَّجَاشِيِّ فَصَلَّى عَلَيْهِ واسْتَغْفَرَ لَهُ؛ وَقَالَ لأَصْحَابهِ: [اسْتَغْفِرُوا لَهُ]. فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: انْظُرُوا إلَى هَذا يُصَلِّي عَلَى عِلْجٍ حَبَشِيٍّ نَصْرَانِيٍّ لَمْ يَرَهُ قَطُّ، وَلَيْسَ عَلَى دِيْنِهِ!؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (خَاشِعِينَ للهِ) تُنْصَبُ على الحالِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً) أي لا يُحَرِّفُونَ كُتُبَهُمْ، ولا يكتمونَ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لأجلِ الْمَآكِلِ والرئاسَةِ، كما فعلت رؤساءُ اليهودِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩٩ ﴾ ؛ فقد تقدَّم تفسيرُه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي (اصْبرُوا وَصَابرُوا وَرَابطُوا) أي اصبروا على أداءِ الفرائضِ، واجتنابِ الْمَحَارمِ، وصَابرُوا أعداءَكم في الجهادِ في مقاتلَتِهم، ورَابطُوا خُيُولَكُمْ على الجهادِ. والرِّبَاطُ وَالْمُرَابَطَةُ: أن يَرْبُطَ كلٌّ واحدٍ من الفريقين خُيُولَهُمْ في الثَّغْرِ. وقيل الْمُرَابَطَةُ: الْمُحَافَظَةُ على الصلواتِ.

قال أبو هريرةَ رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [ألاَ أخْبرُكُمْ بمَا يَمْحُو اللهُ بهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بهِ الدَّرَجَاتِ ؟] قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قال: [إسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارهِ؛ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إلَى الْمَسَاجِدِ؛ وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ][3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٦٧٩) بأسانيد.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٦٨١). والواحدي في أسباب النزول: ص٩٣.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٦٩٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الطهارة: باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره: الحديث (٤١/ ٢٥١).

وقال الضحَّاك: (مَعْنَى الآيَةِ: يَا أيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اصْبرُوا عَلَى أمْـرِ اللهِ). وقـال الكلبيُّ: (اصْبرُواْ عَلَى الْبَلاَءِ)، وقالتِ الحكماءُ: الصَّبْرُ ثَلاَثَةُ أشْـيَاءِ: تَـرْكُ الشَّـكْوَى؛ وَصِدْقُ الرِّضَا؛ وَقَبُولُ الْقَضَاءِ. وقيل: الصَّبْرُ: هو الثَّبَاتُ على أحكامِ الكتاب والسُّنة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَصَابرُوا) الْكُفَّارَ (وَرَابطُوا) بمعنى دَاومُوا واثْبُتُوا. قَالَ ﷺ: [مَنْ رَابَطَ يَوْماً فِي سَبيْلِ اللهِ كَانَ كَصِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَمَنْ تُوُفِّيَ فِي سَبيْلِ اللهِ أجْـرَى اللهُ لَهُ أجْرَهُ حَتَّى يَقْضِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أهْلِ الْجَنَّةِ وَأهْلِ النَّار، وَمَنْ رَابَطَ يَوْماً فِـي سَـبيْلِ اللهِ جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّـار سَبْعَةَ خَنَـادِقَ؛ كُـلُّ خَنْـدَقٍ مِنْـهَا كَسَـبْعِ سَـمَوَاتٍ وَسَـبْعِ أرْضِيْنَ][(١)].

قال بعضُهم في هذه الآيةِ (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبرُوا) عِنْـدَ قِيَـامِ النَّفِـيْرِ عَلَـى احْتِمَالِ الْكُرَب، (وَصَابرُواْ) عَلَى مُقَاسَاةِ الْعَنَاءِ وَالتَّعَب، (وَرَابطُوا) فِـي دَار أعْدَائِـي بلاَ هَرَبٍ، واتقوا عدوَّكم من الألتفاتِ الى السَّبب لكي تُفْلِحُوا غداً بلقائي عند بسَاطِ القُرَب. وقال السري السقطي:(اصْبرُواْ عَلَى الدُّنْيَا رَجَاءَ السَّلاَمَةِ، وَصَابرُواْ عِنْدَ الْقِتَالِ بالثَّبَاتِ وَالاسْتِقَامَةِ، وَرَابطُوا هَوَى النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ، وَاتَّقُـوا مَـا يَعْقِـبُ لَكُـمُ النَّدَامَـةَ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ ؛ غداً على بسَاطِ الكرامةِ.

وقيل: معناهُ: اصبروا على بلائِي، وَصَابرُوا بالشُّكر على نَعْمَـائِي، وَرَابطُـوا في دار أعدائي، واتَّقوا مَحَبَّةَ مَن سِوَايَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ بلقـائِي. وقيـل: اصْـبرُوا علـى البغضاءِ؛ وصابرُوا على البَأْسَاءِ والضرَّاء؛ ورابطوا في دار الأعداءِ؛ واتَّقوا إلَهَ الأرضِ والسَّماء؛ لَعَلَّكُمْ تفلحون في دار البقاءِ. وعن جعفرِ الصَّادق قالَ: (مَعْنَى هَـذِهِ الآيَـةِ: اصْبرُوا عَلَى الْمَعَاصِي؛ وَصَابرُوا مَعَ الطَّاعَاتِ؛ وَرَابطُوا الأرْوَاحَ بالْمَسَـاجِدِ، وَاتَّقُـوا اللهَ لِكَي تَبْلُغُوا مَوَاقِفَ أهْلَ الصِّدْقِ؛ فَإنَّهَا مَحَلُّ الْفَلاَحِ). واللهُ أعْلَمُ.

آخر تفسير سورة (آل عمران) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٥ ص٤١٦: الحديث (٤٨٢٢) عن جابر ﷺ. وفي الدر المنثور: ج ٢ ص٤١٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه الطبراني في الأوسط بسند لا بأس به)).

سُورَةُ النِّسَاءِ

سُورَةُ النِّسَاءِ مَدَنِيَّةٌ[1]؛ وَهِيَ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفاً وَثَلاثُونَ حَرْفاً، وَثَلاثَةُ آلافٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَخَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَمِائَةٌ وَسِتٌّ وَسبعون آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (قَدْ يَكُونُ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) عَامّاً؛ وَقَدْ يَكُونُ خَاصّاً لأَهْلِ مَكَّةَ؛ وَهُوَ هَا هُنَا عَامٌّ لِجَمِيْعِ النَّاسِ، وَمَعْنَاهُ: أجِيْبُوا رَبَّكُمْ وَأطِيْعُوهُ). وقَوْلُـهُ تَعَالَى: (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) يعني آدمَ، وإنَّما أتتِ النفسُ لاعتبار اللفظِ دونَ المعنى. قال الشاعرُ:

أبُوكَ خَلِيْفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى وَأنْتَ خَلِيْفَةٌ ذاكَ الْكَمَالُ

فقالَ: وَلَدَتْهُ أُخْرَى؛ لأن لفظَ الخليفة مؤنَّث.

وإنَّما مَنَّ الله علينا بأنْ خلقَنا من نفسٍ واحدة؛ لأن ذلك أقربُ إلى أن يَعْطِفَ بعضٌ على بعضٍ، ويَرْحَمَ بعضُنا بعضاً لرجوعنا في القرابةِ إلى أصلٍ واحد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) أي وخلَقَ من نفسِ آدمَ زوجَها حَوَّاءَ؛ خلَقَها من ضِلْعٍ من أضلاعه اليُسرى وهي القُصْرَى بعدَ ما أُلْقِيَ عليه النومُ فلم يُؤْذِهِ، ولو آذاهُ لَمَا عَطَفَ عليها أبداً. قال ﷺ: [إنَّ الْمَرْأةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ أعْوَجٍ، فَإنْ أرَدْتَ

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص١؛ قال القرطبي: ((وهي مدنية إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن طلحة، وهي قوله: ﴿إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأمَانَاتِ إلَى أهْلِهَا﴾)).

أنْ تُقِيْمَهَا كَسَرْتَهَا، وَإنْ تَرَكْتَهَا وَفِيْهَا عِوَجٌ اسْتَمْتَعْتَ بهَا عَلَى عِوَجٍ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ ؛ أي بَشَراً وفِرَقاً، وأظهر من آدمَ وحوَّاء خَلْقاً كثيراً من الرِّجال والنساء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا معاصيَ اللهِ، (الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ) أي يتساءَلُ بعضُكم بعضاً من الجوارحِ والحقُوق؛ يقولُ الرجل للرجُلِ: أسألُكَ باللهِ افْعَلْ لِي كذا.

قرأ أهلُ الكوفة: (تَسَاءَلُونَ)[(٢)] مخففاً، وقرأ الباقون بالتشديدِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالأَرْحَامَ) قرأ عامَّة القُرَّاء بنصب (الأَرْحَامَ) على معنى: واتَّقُوا الأرحامَ أن تقطعُوها.

وقرأ النخعيُّ وقتادةُ والأعمش وحمزة بالخفضِ على معنى: وبالأرحامِ على معنى: تساءَلونَ باللهِ وبالأرحامِ؛ فيقول الرجلُ: أسألُكَ باللهِ وبالرَّحِمِ. والقراءةُ الأُولى أفصحُ؛ لأن العربَ لا تعطفُ بظاهرٍ على مُضْمَرٍ مخفوض إلاّ بإعادةِ الخافض، لا يقولونَ: مررتُ به وزيدٍ، ويقولونَ: بهِ وبزيدٍ، وقد جاءَ ذلك في الشِّعر، قال الشاعرُ[(٣)]:

قَدْ كُنْتَ مِنْ قَبْلُ تَهْجُونَا وَتَشْتِمُنَا ... فَاذْهَبْ فَمَا بِكَ وَالأَيَّامِ مِنْ عَجَبِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي حَفِيظاً لأعمالكم، وَالرَّقِيْبُ هو الحافظُ، وقال بعضُهم: عَلِيْماً؛ والعَلِيمُ والحافظُ متهاديان؛ لأن العليمَ بالشيء حافظٌ له.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ٧ ص٢٤٤: الحديث (٦٩٩٢) عن سمرة. وابن حبان في الصحيح: كتاب النكاح: باب معاشرة الزوجين: الحديث (٤١٧٨)، وإسناده صحيح، وله طرق أخرى عن أبي هريرة.

(٢) الحجة للقراءات السبعة: ج ٣ ص١١٨-١١٩.

(٣) للشاهد لفظ آخر في كتب اللغة والتفسير:

فَالْيَوْمَ قَرَّبْتَ تَهْجُونَا وَتَشْتِمُنَا ... فَاذْهَبْ فَمَا بِكَ وَالأَيَّامِ مِنْ عَجَبِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ ؛ قال مقاتلُ والكلبيُّ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي رَجُلٍ مِنْ غَطَفَانَ؛ كَانَ فِي يَدِهِ مَالٌ كَثِيْرٌ لابْنِ أخٍ لَهُ يَتِيْم، فَلَمَّا بَلَغَ الْيَتِيْمُ طَلَبَ مَالَهُ، فَمَنَعَهُ الْعَمُّ فَتَرَافَعَا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (إنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا). فَقَرَأهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ الرَّجُلُ: أطَعْنَا اللهَ وَأطَعْنَا الرَّسُولَ وَنَعُوذُ باللهِ مِنَ الْحَوْبِ الْكَبِيْرِ، فَدَفَعَ مَالَهُ إلَيْهِ، فَقَالَ ﷺ: [مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ وَيُطِيْعَ رَبَّهُ هَكَذا فَإنَّهُ يَحِلُّ دَارَهُ إلى جَنَّةٍ] فَلَمَّا قَبَضَ الصَّبِيُّ مَالَهُ أنْفَقَهُ فِي سَبيْلِ اللهِ، فَقَالَ ﷺ: [ثَبَتَ الأَجْرُ وَبَقِيَ الْوِزْرُ] فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، عَرَفْنَا أنَّهُ ثَبَتَ الأَجْرُ، فَكَيْفَ بَقِيَ الْوِزْرُ وَهُوَ يُنْفِقُ فِي سَبيْلِ اللهِ؟ فَقَالَ: [ثَبَتَ الأَجْرُ لِلْغُلاَمِ؛ وَبَقِيَ الْوِزْرُ عَلَى وَالِدِهِ] لأَنَّ الْوَالِدَ كَانَ مُشْركاً)[١].

وإنَّما سَمَّى اللهُ تعالى البالغَ يتيماً، ولا يُتْمَ بعدَ البلوغِ استصحاباً بالاسم الأوَّل، كما قالَ تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾[٢] ولا سِحْرَ مع السُّجود، ولأنه قريبُ عَهْدٍ بالْيُتْمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّب) أي لاَ تبذِّروا أموالَكم الحلالَ وتأكلُوا الحرامَ من أموال اليتامَى. قال سعيدُ بن المسيَّب والنخعيُّ والزهريُّ والسدي والضحَّاك: (كَانَ أوْصِيَاءُ الْيَتَامَى وَأوْلِيَاؤُهُمْ يَأْخُذُونَ الْجَيِّدَ مِنْ مَال الْيَتِيْمِ، وَيَجْعَلُونَ مَكَانَهُ الرَّدِيْءَ، وَرُبَّمَا كَانَ أحَدُهُمْ يَأْخُذُ الشَّاةَ السَّمِيْنَةَ مِنْ مَال الْيَتِيْمِ، وَيَجْعَلُ مَكَانَهَا الْمَهْزُولَةَ، وَيَأْخُذُ الدِّرْهَمَ الْجَيِّدَ وَيَجْعَلُ مَكَانَهُ الزَّيْفَ وَيَقُولُ: دِرْهَمٌ بدِرْهَمٍ؛ فَذلِكَ تَبْدِيْلُهُمْ، فَنَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذلِكَ)[٣].

وقال مجاهدُ: (مَعْنَى الآيَةِ: لاَ تَجْعَلْ رزْقَكَ الْحَلاَلَ حَرَاماً؛ تَتَعَجَّلُهُ بأنْ تَسْتَهْلِكَ مَالَ الْيَتِيْمِ، فَتُنْفِقَهُ عَلَى نَفْسِكَ، وَتَحَرَّ فِيْهِ لِنَفْسِكَ وَتُعْطِيْهِ غَيْرَه، فَيَكُونُ مَا

---

(١) في أسباب النزول: ص٩٤-٩٥؛ نقله الواحدي النيسابوري. والجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٨.

(٢) الاعراف / ١٢٠ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٧٣٠) عن السدي، وفي النص (٦٧٢٧) عن النخعي، وفي النص (٦٧٢٨) عن الزهري، وفي النص (٦٧٢٩) عن الضحاك.

يَأْخُذُهُ مِنْ مَالِ الْيَتِيْمِ حَرَاماً خَبِيْثاً، وَتُعْطِيْـهِ مَـالَكَ الْحَـلاَلَ، وَلَكِـنْ آتُوهُـمْ أمْوَالَـهُمْ بأَعْيَانِهَا)(١). وفي هذا دليلٌ على أنه لا يجوزُ لوليِّ اليتيمِ أن يستقرضَ مـالَ اليتيـم ولا أن يستبدلَهُ من نفسهِ، وقيل: معنى (وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبيثَ بالطَّيِّب) أي لا تجعلِ الزيـف بدلَ الجيِّد؛ ولا المهزولَ بدل السَّمين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ ﴾ ؛ كقولـه تعـالى: ﴿مَـنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾(٢) أي مَعَ اللهِ، وقيل معناه: لا تأكلُوا أموالَهم مُضِيْفِيْنَ إلى أموالِكم؛ لأنَّهم كانوا يَخْلِطُونَ أموالَ اليتامَى بأموالِهم حتى يصيرَ دَيْناً عليهم، ثم كانوا يبيعونـها مع أموالِهم ويربحونَ عليها ويَسْتَبِدُّونَ بتلـك الأربـاحِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ ﴾ ؛ أي إثْماً عَظِيْماً، وفيه ثلاثُ لغاتٍ: قراءةُ العامَّة: (حُوبـاً) بـالضمِّ وهي قراءةُ النبيِّ ﷺ وهي لغةُ أهلِ الحجاز، وقراءة الحسنِ (إنَّهُ كَانَ حَوْباً) بفتح الحاء وهي لغةُ تميم، وقراءةُ أُبَيِّ بن كعبٍ: (حَاباً) على المصدر مثلُ القَال، ويجوزُ أن يكون اسْماً مثلُ الزادِ، ويقالُ للذنب: حُوبٌ وَحَوْبٌ وَحَابٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ ﴾ ؛ قال ابـنُ عبَّـاس: (لَمَّـا نَـزَلَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى (إنَّ الَّذِيـنَ يَأْكُلُونَ أمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً) الآيَةُ، خَافَ النَّاسُ أنْ لاَ يَعْدِلُـواْ فِـي أمْـوَالِ الْيَتَـامَى - وَكَانُوا يَتَزَوَّجُونَ مِنَ النِّسَاءِ مَا شَاءُوا - فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ)(٣).

ومعناهـا: إنْ خِفْتُـمْ أن لاَ تعدِلُـوا في أمـوال اليتـامَى؛ فَخَـافُوا في النِّســـاءِ إذا اجتمعنَ عندَكُم أن لا تعدلُوا بينهنَّ، فَتَزَوَّجُوا ما حَلَّ لكم من النِّساءِ، ولاَ تَنْكِحُوا إلاَّ ما يُمكنكم إمساكهُنَّ: ثِنْتَان ثِنْتَان؛ وَثَلاَث ثلاث؛ وأربع أربعٍ، ولا يزيـدُوا علـى أربـعِ حرائر. وقيل: معنى الآية: إن خِفْتُمْ أن لا تعدِلــوا يـا معشـرَ الأوليـاءِ في اليتـامَى إذا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٧٣١).
(٢) آل عمران / ٥٢ .
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٧٤٨).

تزوجتُم بهنَّ؛ فانْكِحُوا ما حلَّ لكم من النساء غيرهنَّ. وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: إنْ خِفْتُمْ فِي ولاَيَةِ الْيَتَامَى إيْمَاناً وَتَصْدِيْقاً؛ فَخَافُوا فِي الزّنَا، وَانْكِحُوا الطَّيِّبَ مِنَ النِّسَاءِ)[١].

وقال بعضُهم: كانوا يَتَحَرَّجُونَ عن أموال اليتامى، ويترخَّصون في النساءِ، ولا يعدلونَ فيهنَّ ويتزوجُون منهنَّ ما شاءُوا فربما عدلوا، وربَّما لم يعدلوا، فلما سألُوا عن أموال اليتامى، أنزلَ اللهُ تعالى (وَآتُوا الْيَتَامَى أمْوَالَهُمْ)، وأنزلَ (وَإنْ خِفْتُمْ ألا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى)، أي كما خِفْتُمْ أن لا تُقْسِطُوا في اليتامى وهَمَّكُمْ ذلكَ؛ فخافُوا في النساءِ أن لا تعدلُوا فيهنَّ؛ ولا تزوَّجوا أكثرَ مما يُمكنِكم إمساكهنَّ والقيامُ بحقِّهنَّ؛ لأن النساءَ كاليتامَى في الضَّعْفِ والعَجْزِ، فما لكم تُرَاقِبُونَ اللهَ في شيء، وتَعْصُونَهُ في مثلِهِ، وهذا قولُ سعيدِ بن جبير وقتادةَ والربيعِ والضحَّاك والسديِّ، وروايةُ ابنِ عبَّاس[٢].

والإقْسَاطُ في اللغة: الْعَدْلُ، يقال: أقْسَطَ؛ إذا عَدَلَ، وَقَسَطَ؛ إذا جَارَ، وإنَّما قال: (مَا طَابَ) ولم يقل مَنْ طَابَ؛ لأن (ما) مع الفعلِ بمنْزلة المصدر، كأنهُ قالَ: فانكحُوا الطيِّبَ، يعني الحلالَ من النساء. وقرأ ابن أبي عبلةَ: (مَنْ طَابَ)؛ لأن (ما) لِما لا يعقلُ و(من) لمن يعقل، إلاّ أنَّ عامَّة القُرَّاء والعلماءِ يقولون: إن العربَ تجعلُ (ما) بمعنى (مِن)؛ و(مِن) بمعنى (ما)، وقد جاءَ القُرْآنُ بذلكَ: قال اللهُ تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ) بدل مِنْ (طَابَ لَكُمْ) وهو مما لا ينصرفُ، لأن (مَثْنَى) معدولٌ عن اثنين وذلكَ نكرةٌ، و(ثُلاَثَ) معدولٌ عن ثلاثةٍ.

وذهبَ بعض الرَّوَافِضِ إلى استحلال تِسْعٍ استدلالاً بهذه الآيةِ، وَلَيْسَ ذلِكَ بشَيْءٍ، فإنَّ الواوَ هنا بمعنى (أو)، وروي عن قيسِ بن الْحَارثِ: أنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ ثَمَانِي نِسْوَةٍ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ أمَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يُمْسِكَ أرْبَعاً وَيُفَارقَ أرْبَعاً، وَقَالَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٧٥١) بإسنادين.

(٢) أسباب النزول للواحدي: ص٩٥.

(٣) الشمس / ٥ .

(٤) النور / ٤٥ .

(٥) الشعراء / ٢٣ .

ﷺ لِغَيْلاَنَ حِيْنَ أسْلَمَ وَتَحْتَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ: [امْسِكْ مِنْهُنَّ أرْبعاً؛ وَفَارِقْ سَائِرَهُنَّ][(١)].

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: وإن خِفْتُمْ أن لا تعدِلُوا في القِسْمَةِ والنَّفقةِ بيـن النسـاءِ الأربـع الـتي أحـلَّ اللهُ لكم؛ فتزوَّجوا امرأةً واحدة لا تخافون الْمَيْلَ في أمرها، واقْتَصِرُوا على الإمَاءِ حتـى لا تحتاجُوا إلى الْقَسْمِ بينهنَّ يعني السَّرَاري. وقولُ الحسنِ وأبي جعفرَ: (فَوَاحِدَةٌ) بالرَّفع؛ أي فَوَاحِدَةٌ كَافِيَةٌ؛ أو فَلْتَكُنْ وَاحِدَةٌ. وقـرأ العامَّـة نصبـاً أي فَـانْكِحُوا وَاحِـدَةً. قَوْلُـهُ تَعَالَى: (أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ) ذكَرَ الأَيْمَانِ توكيداً؛ تقديرهُ: أوْ مَا مَلَكْتُمْ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي الـتَّزَوُّجُ بـالواحدةِ، والإقتصار على مِلْـكِ اليمـين أقـربُ إلى أن لا تَعُولُـوا. قـال: أنْ لاَ تَجُـورُوا وأن لا تَمِيلُوا: ألاَّ تَجُور. والْعَوَلُ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، ومنهُ الْعَوَلُ في الفرائضِ: مُجَاوَزَةُ مَخْـرَجِ الْفَرَائِضِ. رَوَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلَهُ تَعَـالَى (ألا تَعُولُـوا) قَـالَ: [ألاَّ تَجُورُوا، أوْ أنْ لاَ تَمِيلُوا][(٢)].

وأما مَن قال معنى: أنْ لاَ تَعُولُوا: لاَ تَكْثُرَ عِيَالُكَ، وهذا محكـيٌّ عـن الشَّـافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، فقد قيلَ: إنه خطأٌ في اللغة؛ لأنه لا يقالُ في كثرةِ العِيَال: عَالَ يَعُولُ، وإنَّما يقالُ: عَالَ يَعِيْلُ إذا صارَ ذا عِيَالٍ[(٣)]، وفي الآيةِ ما يُبْطِلُ هذا التأويلَ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى:

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٤٢٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة والنحاس في ناسخه)).

(٢) في الدر المنثور: ج ٢ ص٤٣٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه، قال ابن أبي حاتم: قال أبي: هذا حديث خطأ: عن عائشة موقوف)). وفي صحيح ابـن حبان: كتاب النكاح: الحديث (٤٠٢٩).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٢٢؛ قال القرطبي: ((وقال أبـو حـاتم: كـان الشـافعي أعلـم بلغة العرب منا، ولعله لغة. قال الثعلبي المفسر: قـال أستاذنا أبـو القاسـم حبيـب بـن القاسـم: سألت أبا عمر الدُّوري عن هذا وكان إماماً في اللغة غير مدافع مقال: هي لغة حِمِيَرَ وأنشد:

وَإنَّ الْمَــوْتَ يَــأْخُذُ كُــلَّ حَــيٍّ   بِــلاَ شَــكٍّ وَإنْ أمْشَــى وَعَــالاَ

يعني وإن كثرت ماشيته وعياله... وقرأ طلحة بن مصرف: (ألاَّ تُعِيلُوا) وهي حجة الشافعي ﷺ)).

(أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ) لأن إباحةَ كلِّ مَا مَلَكَ اليمينُ أزْيَدُ في العيالِ من أربع نِسْـوَةٍ. وقرأ طاوُوس: (أنْ لاَ يَعِيلُوا) مِنَ الْعِيْلَةِ؛ يقال: عَالَ الرَّجُلُ يَعِيْلُ؛ إذا افْتَقَرَ، والْعِيْلَـةُ: الْفَقْرُ. قال الشاعر[(١)]:

وَمَــا يَــدْرِي الْفَقِــيْرُ مَتَــى غِنَــاهُ وَمَــا يَــدْرِي الْغَنِــيُّ مَتَــى يَعِيــلُ

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ ﴾ ؛ قـال الكلـبيُّ: (هَـذا خِطَـابٌ لِلأوْلِيَاءِ، كَانَ الْوَلِيُّ إذا زَوَّجَ امْرَأةً، فَإنْ كَانَ زَوْجُهَا مَعَــهُمْ فِـي الْعَشِـيْرَةِ لَـمْ يُعْطِـهَا الْوَلِيُّ مِنْ مَهْرِهَا قَلِيْلاً وَلاَ كَثِيْراً، وَإنْ كَـانَ زَوْجُـهَا غَرِيْبـاً حَمَلُوهَـا عَلَـى بَعِـيْرٍ إلَـى زَوْجِهَا، وَلاَ يُعْطُونَهَا مِنْ مَـهْرِهَا غَـيْرَ ذلِـكَ الْبَعِـيْرِ، فَنَـهَاهُمْ عَـنْ ذلِـكَ وَأمَرَهُـمْ أنْ يُعْطُوهَا الْحَقَّ أهْلَهُ)[(٢)]. وقال مقاتلُ وأكثر أهلِ التَّفسير: (هَذا خِطَابٌ لِلأزْوَاجِ، كَـانَ الرَّجُلُ يَتَزَوَّجُ الْمَرْأةَ فَلاَ يُعْطِيْهَا مَهْرَهَا، فَأمِرُوا أنْ يُعْطُوا نِسَاءَهُمْ مُهُورَهُنَّ الَّتِـي هِـيَ أثْمَانُ فُرُوجِهِنَّ) وهذا القولُ أصحُّ وأوضـحُ. والصَّدُقَـاتِ: الْمُـهُورُ، واحـدهُ صَدُقَـةٌ بضمِّ الدال.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نِحْلَةً ﴾ قال قتادةُ:(فَرِيْضَةً وَاجِبَةً)،وقال ابن جُريج:(فَرِيْضَةً مُسَمَّاةً)، وقال الكلبيُّ: (عَطِيَّةً وَهِبَةً)، وقال أبو عُبيدة:(عَنْ طِيْب نَفْسٍ)، قال الزجَّاج: (تَدَيُّناً). وقيل: معناهُ: عطيَّةٌ من اللهِ تعالى للنِّساءِ حيث جَعْلِ المـهرَ لَـهُنَّ، ولم يوجـب عليهنَّ شيئاً من القومِ مع كون الاستِمْتَاع مشتَركاً بينـهنَّ وبـين الأزواجِ. وقيـل معنـى (نِحْلَةً): دِيَانَةً، فانتصبَ (نِحْلَةً) على المصدر، وقيل: على التفسيرِ.

وروي عن رسول الله أنه قال: [مَنِ ادَّانَ دَيْناً وَهُوَ يَنْوِي أنْ لاَ يُؤَدِّيَهُ لَقِـيَ اللهَ سَارِقاً، وَمَنْ أصْدَقَ امْرَأةً صِدَاقاً وَهُوَ يَنْوِي أنْ لاَ يُوَفِّيَهَا لَقِيَ اللهَ زَانِيـاً][(٣)]وقـال ﷺ:

---

(١) البيت لأحَيْحَةَ بن الْجُلاحِ بن الْحَرِيشِ الأوسي (؟؟-١٢٩ق.هـ)، شـاعر جـاهلي، مـن دهـاة العرب وشجعانهم.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٢٣.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ٨ ص٣٤-٣٥: الحديث (٧٣٠١). والإمام أحمد في المسـند: ج ٤ ص٣٣٢. وابن ماجة في السنن: كتاب الصدقات: باب من ادَّان دينـاً ولم ينـو قضـاءه: الحديـث (٢٤١٠) بإسناد حسن. وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٢٨٤: باب فيمن نوى أن لا يؤدي صداق=

[إِنَّ أَحَقَّ الشُّرُوطِ أَنْ تُوَفُّوا مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾؛ أي إنْ أحْلَلْنَ لكُم عن شيءٍ من المهرِ، وإن وَهَبْنَ لكم منه شيئاً. ونصب (نَفْساً) على التَّمييزِ إذا قيلَ (طِبْنَ لَكُمْ) لم يُعلم في أيِّ صنفٍ وقعَ الطيبُ، فكأنه قالَ: إن طَابَتْ أنفسُهن بهبَةِ شيءٍ من المهر فكلُوا الموهوبَ لكم هنيئاً لا إثْمَ فيه، مَريئاً لا مَلاَمَةَ فيه. قال الحضرميُّ[2]: (إنَّ ناساً كَانُوا يَتَأَثَّمُونَ أنْ يَرْجِعَ أحَدُهُمْ فِي شَيْءٍ مِمَّا سَاقَ إلَى امْرَأتِهِ). قال اللهُ تعالى: (فَإنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا) من غيرِ إكراهٍ ولا خَدِيْعَةٍ (فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا) أي شافياً طَيِّباً.

وقيل معناهُ: فكلوهُ دواءً شافياً، وقيل: الْهَنِيءُ: الطَّيِّبُ الْمُسَاغُ الَّذِي لاَ يَغُصُّهُ شَيْءٌ، وَالْمَرِيْءُ: الْمَحْمُودُ الْعَاقِبَةِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ وَلاَ يُؤْذِي، تقول: لا تخافونَ في الدنيا منهُ مطالبةً، ولا في الآخرة بتبعةٍ، يقال: هنأني لِي الطعامُ وَمَرَّأنِي، فإذا أفْرِدَ يقال: أمْرَأنِي ولا يقال إهْنَأنِي، وَهَنِيْئاً مصدرٌ.

وعن عَلِيٍّ رضي الله عنه أنهُ قالَ: (إذا كَانَ أحَدُكُمْ مَرِيْضاً فَلْيَسْأَلِ امْرَأتَهُ دِرْهَمَيْنِ مِنْ مَهْرِهَا تَهَبْ لَهُ بطِيْبَةِ نَفْسِهَا؛ فَلْيَشْتَرِ بذلِكَ عَسَلاً، وَيَشْرَبْهُ مَعَ مَاءِ الْمَطَرِ، فَقَدِ اجْتَمَعَ الْهَنِيءُ وَالْمَرِيءُ وَالشِّفَاءُ وَالْمَاءُ الْمُبَارَكِ)[3]. لأنَّ اللهَ تعالى سَمَّى المهرَ هَنِيْئاً مَرِيْئاً إذا وَهَبَتْهُ المرأةُ لِزَوْجِهَا؛ وسَمَّى العسلَ شِفَاءً؛ وسَمَّى المطرَ مَاءً مُباركاً، فإذا اجتمعتْ هذهِ الأشياءُ يُرْجَى له الشِّفاء.

=امرأته؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد والطبراني وفي إسناد أحمد رجل لم يسمَّ، وبقية رجاله ثقات. وفي إسناد الطبراني من لم أعرفهم)) وإسناده حسن.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٧ ص٢٣٩-٢٤٠: الحديث (٧٥٢-٧٥٧). وأخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الشروط: باب الشروط في المهر: الحديث (٢٧٢١)، وكتاب النكاح: باب الشروط في النكاح: الحديث (٥١٥١). ومسلم في الصحيح: كتاب النكاح: باب الوفاء بالشروط: الحديث (٦٣/ ١٤١٨).

(٢) في جامع البيان: النص (٦٧٨٧)؛ قال الطبري بإسناده أبي المعتمر: ((قال: زعم الحضرمي ... وذكره)).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٢٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ ؛ أي لا تُعْطُوا الْجُهَّالَ بمواضعِ الحقِّ - وهم النساءُ والصِّبيانُ- أموالَكم التي جعلَ اللهُ لكم قِوَامَ أمركم ومعيشتِكُم؛ أي جعلَكم تقومونَ به قِيَاماً إذا عَلِمَ الرجلُ أنَّ امرأتَهُ سفيهةٌ مُفْسِدَةٌ، وأن وَلَدَهُ سَفِيْهٌ مفسدٌ، فلا يَنْبَغِي لهُ أن يُسَلِّطَ أحداً منهُما على مالهِ الذي هو قِوَامُ أمرهِ. ومن قرأ (قِيَماً) فمعناهُ: الـتي جعلَـها اللهُ لكـم قِيْمَـةً للأشـياءِ فَبـهَا تقـومُ أمورُكم.

وقال مجاهدُ: (نَهَى الرِّجَالَ أنْ يُؤْتُوا النِّسَاءَ أمْوَالَهُمْ وَهُنَّ سُفَهَاءُ؛ كُنَّ أزْوَاجـاً، أوْ بَنَاتٍ أوْ أُمَّهاتٍ)[1]. وعن الضحَّاك: (النِّسَاءُ مِنْ أسْفَهِ السُّفَهَاءِ)[2] يدلُّ على هـذا التأويلِ قولهُ ﷺ: [ألاَ إنَّمَا خُلِقَتِ النَّـارُ لِلسُّـفَهَاءِ - قَالَـهَا ثَلاَثـاً - ألاَ إنَّ السُّـفَهَاءَ النِّسَاءُ إلاَّ امْرَأةٌ أطَاعَتْ قَيِّمَهَا][3].

وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: جَاءَتِ امْرَأةٌ سَـوْدَاءُ جَرِيئَـةُ الْمَنْطِـقِ إلَـى رَسُـول اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: بأَبِي وَأُمِّي أنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ بَلَغَنِي أنَّكَ تَقُولُ فِيْنَـا كُـلَّ شَـيْءٍ، قَـالَ: [أيُّ شَيْءٍ قُلْتُ فِيْكُنَّ ؟] قَالَتْ: سَمَّيْتَنَا السُّفَهَاءَ، قَالَ: [اللهُ تَعَالَى سَـمَّاكُنَّ السُّـفَهَاءَ فِـي كِتَابهِ] قَالَتْ: وَسَمَّيْتَنَا النَّوَاقِصَ، قَـالَ: [فَكَفَـى نَقْصـاً أنْ تَـتْرُكَ كُـلُّ وَاحِـدَةٍ مِنْكُـنَّ الصَّلاَةَ فِي كُلِّ شَهْرٍ خَمْسَةَ أيَّامٍ لاَ تُصَلِّي فِيْهَا] - يَعْنِي أيَّامَ حَيْضِهَا- ثُـمَّ قَـالَ ﷺ: [أمَا يَكْفِي إحْدَاكُنَّ إذا حَمَلَتْ كَانَ لَهَا كَأجْرِ الْمُرَابطِ فِـي سَـبيْلِ اللهِ، وَإذا وَضَعَـتْ كَانَتْ كَالْمُتَشَحِّطِ بدَمِهِ فِي سَبيْلِ اللهِ، فَإذا أرْضَعَتْ كَانَ لَهَا بكُلِّ جُرْعَةٍ عِتْقُ رَقَبَةٍ مِنْ وَلْدِ إسْمَاعِيْلَ، فَإذا سَهرَتْ كَانَ لَهَا بكُلِّ سَهْرَةٍ عِتْقُ رَقَبَةٍ مِـنْ ولْـدِ إسْـمَاعِيْلَ، وَذلِـكَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٨٠٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٨١٠).

(٣) في الدر المنثور: ج ٢ ص٥١٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد عن عبدالله بن شـبل بلفـظ: قَـالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ الْفُسَّاقَ أهْلُ النَّار]. قِيْلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَن الْفُسَّاقُ؟ قَالَ: [النِّسَاءُ]. قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أوَلَسْنَ أمَّهَاتُنَا وَأخَوَاتُنَا وَأزْوَاجُنَا؟! قَـالَ: [بَلَـى، وَلَكِنَّـهُنَّ إذَا أعْطِـينَ لَـمْ يَشْكُرْنَ، وَإذَا ابْتُلِينَ لَمْ يَصْبِرْنَ])).

لِلْمُؤْمِنَاتِ الْخَاشِعَاتِ الصَّابرَاتِ اللاَّتِي لاَ يَكْفُرْنَ الْعَشِيْرَ][1] فَقَالَتِ السَّوْدَاءُ: أَيَا لَـهُ فَضْلاً لَوْلاَ مَا تَبعَهُ مِنَ الشُّرُوطِ.

وروي: أنَّ امْرَأةً مَرَّتْ بعَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ لَهَا شَارَةٌ وَهَيْئَةٍ، فَقَـالَ لَـهَا ابْـنُ عُمَـرَ: (وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أمْوَالَكُمْ)[2]. وقال معاويةُ بن مُرَّةَ: (عَوِّدُوا نِسَاءَكُمْ (لاَ)[3]، فَإنَّهُنَّ سَفِيْهَاتٌ، إنْ أطَعْتَ الْمَرْأةَ أهْلَكَتْكَ).

وعنِ أبي موسَى الأشعريِّ قالَ: (ثَلاَثَةٌ يَدْعُونَ اللهَ فَلاَ يَسْـتَجِيْبُ لَـهُمْ: رَجُـلٌ كَانَتْ تَحْتَهُ امْرَأةٌ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ دَيْنٌ فَلَـمْ يُشْـهِدْ عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ أعْطَى سَفِيْهاً مَالَهُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أمْوَالَكُمْ) أيِ الْجُهَّالَ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ)[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا). قرأ ابـنُ عمـر (قَوَامـاً) بفتـح القـافِ والواو، وقرأ عيسَى بن عمر (قِوَاماً) بكسر القاف وهما لُغات. وقـرأ الأعـرجُ ونـافع وابنُ عامر (قِيماً) بكسر القاف من غير ألف. وقرأ الباقون (قِيَاماً) بالألف.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ ﴾ ؛ أي أطْعِمُـوا النسـاءَ والأولادَ واكسُوهم مِـن أموالِكـم. ﴿ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي عُدُوهُـمْ عُـدَّةً

---

(١) الحديث أخرجه البخاري بلفظ آخر عن أبي سعيد الخدري، ومسلم في الصحيح أيضاً. في فتـح الباري شرح صحيح البخاري: شـرح الحديـث (٩٧٩): ج ٢ ص٥٩٤؛ قـال ابـن حجـر: ((ولم أقف على تسمية هذه المرأة، إلا أنه يختلج في خاطري أنَّـها أسمـاء بنـت يزيـد بـن السـكن الـتي تعرف بخطيبة النساء، فإنها روت أصل القصة في حديث أخرجه البيهقي والطبراني وغيرهمـا... قالت: فناديت رسول الله وكنت عليه جريئةً))

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٨١١).

(٣) أي عودوا نساءكم أن تقولوا لهن (لا) في غالب ما يطلبن، واجعلوا الاستثناء (نعم).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك: تفسير سـورة النسـاء: الحديـث (٣٢٣٥)؛ وقـال: ((هـذا حديـث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبـي موسـى، وإنما أجمعوا على سند حديث شعبة بهذا الإسناد: [ثَلاَثَةٌ يُؤتُونَ أجُورَهُـمْ مَرَّتَيْـنِ] وقـد اتفقنـا جميعاً على إخراجه)). والحديث الموقوف سنده جيد.

حَسَنَةً، نحوَ أن يقولَ الرجلُ: سأفعل كذا إن شاءَ اللهُ، وقيلَ: رُدُّوا عليـهم رَدّاً جميلاً، وقولوا لَهم قَوْلاً لَيِّناً تطيبُ به أنفسُهم. والرِّزْقُ من اللهِ تعالى: الْعَطِيَّةُ غَيْرُ الْمَحْدُودَةِ، ومن العبادِ الشيءُ الموظَّف لوقتٍ محدود. وإنَّما قال (فِيْهَا) ولم يقل: مِنْهَا؛ لأنـه أرادَ: اجعلوا لَهم حَظّاً فيهَا أي رزْقاً فيها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ ؛ أي اختَـبرُوهُمْ في عقولِـهم وتدبـيرهم وديانَتِهم حتى إذا بَلَغُوا مبلغَ النِّكاحِ وهو الْحُلُمُ، وهذا دليلُ جـواز الإذن للصبيِّ في التجارةِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا ﴾ ؛ أي عَلِمْتُمْ منهم ووجدتُـم إصْلاحـاً في عقولِـهم وحِفْظـاً في أموالِـهم﴿ فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ ؛ الَّتِي عندَكم. نزلَتْ هذه الآيةُ في ابنِ رُفَاعَةَ وعَمِّهِ، وكان رفاعةُ قد تُوُفِّيَ، وتركَ ابنَهُ صغيراً، فأتَى عمُّهُ ثـابتُ إلى النـبيِّ ﷺ، فقـال لـهُ: إنَّ ابْـنَ أخِـي يَتِيْـمٌ فِـي حِجْرِي، فَمَتَى أدْفَعُ إلَيْهِ مَالَهُ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ﴾ ؛ أي لا تـأْكُلُوا أموالَ اليتامَى بغيرِ حَقٍّ. والإسْرَافُ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ ؛ أي لِيَتَورَّعْ بغِنَاهُ عن مال اليتيم، ولا يُنْقِصْ شيئاً من مَالِهِ، والْعِفَّـةُ: الامْتِنَاعُ عمَّا لاَ يَحِلُّ فِعْلُهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ اختلفُوا في معنَى ذلكَ، قال عمر بن الخطـاب وسـعيدِ بـن جُبـير وعبيـدةُ السَّلمانِيُّ: (مَعْنَاهُ: فَلْيَأْخُذْ مِنْ مَال الْيَتِيْمِ عَلَى جِهَةِ الْقَرْضِ مِقْدَارَ حَاجَتِـهِ، فَـإذا أيْسَـرَ رَدَّ عَلَيْـهِ مِثْلَهُ)[2]. وهكَذا روَى الطحَّاويُّ عن أبي حنيفـةَ، فمعنـى قولـهِ تعـالى: (بـالْمَعْرُوفِ) بالْقَرْضِ، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إلا مَنْ أمَرَ بصَدَقَةٍ أوْ مَعْرُوفٍ﴾[3] أي أو قَرْضٍ.

---

(١) ابن رفاعة هو ثابت بن رفاعة. الجامع لأحكام القـرآن: ج ٥ ص٣٤٠. وفي الـدر المنثـور: ج ٢ ص٤٣٧؛ قال السيوطي: ((وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتـادة في الآيـة: ... وذكـره)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٨٧٦).

(٢) أخرجـه الطـبري في جـامع البيـان: النـص (٦٨٥٤-٦٨٥٦) عـن عبيـدة السـلماني، والنـص (٦٨٥٩) بأسانيد عن سعيد بن جبير. وفي النص (٦٨٥٨) عن ابن عباس، وفي النـص (٦٨٦١) عن مجاهد بأسانيد.

(٣) النساء / ١١٤ .

وقال مكحولُ وعطاء وقتادةُ: (إنَّ لِوَلِيِّ الْيَتِيْمِ انْ يَأْخُذ مِنْ مَال الْيَتِيْمِ قَدْرَ مَا يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ وَيَسُدُّ جُوعَتَهُ لاَ عَلَى جِهَةِ الْقَرْضِ)(١). قال الشَّعبيُّ: (لاَ يَأْكُلُ إلاَّ أنْ يَضْطَرَّ إلَيْهِ كَأَنْ يَضْطَرَّ إلَى الْمَيْتَةِ)(٢). وقال بعضُهم: (فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) أي يأكل من غيرِ إسرافٍ، ولا قَضاءِ عليهِ فيما أكل(٣).

واختلفوا في كيفيَّة هذا بالمعروفِ، فقال عكرمةُ والسُّدِّيُّ: (يَأْكُلُ وَلاَ يُسْرِفُ فِي الأَكْلِ وَلاَ يَكْتَسِي مِنْهُ)(٤). وقال النخعيُّ: (لاَ يَلْبَسُ الْكِتَّانَ وَلاَ الْحُلَلَ، وَلَكِنْ مَا يَسُدُّ الْجُوعَةَ وَيُوَارِي الْعَوْرَةَ)(٥). وقال بعضُهم: معنى: (فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) هو أن يأكلَ من ثَمْرِ نخيلهِ ولَبَنِ مَوَاشِيهِ بالمعروفِ ولا قضاءَ عليه، فأمَّا الذهبُ والفضَّة إذا أخذ منه شيئاً ردَّ بَدَلَهُ. قال الضحَّاك: (الْمَعْرُوفُ رُكُوبُ الدَّابَّةِ وَخِدْمَةُ الْخَادِمِ، وَلَيْسَ لَهُ أنْ يَأْكُلَ من مالهِ شيئاً)(٦).

وعن ابنِ عبَّاس:(أنَّ رَجُلاً جَاءَ إلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: إنَّ فِي حِجْرِي أمْوَالَ أيْتَامٍ؛ أفَتَأْذنُ لِي أنْ أصِيبَ مِنْهَا؟ فَقَالَ: إنْ كُنْتَ تَبْغِي ضَالَّتَهَا، وَتَهْنَأ جَرْبَاهَا، وَتَلُوطَ حَوضَهَا فَاشْرَبْ غَيْرَ مُضِرٍّ بالنَّسْلِ وَلاَ نَاهِكٍ فِي الْحَلْبِ)(٧). عن ابن عبَّاس روايةٌ أخرى أنَّ معنى الآيةِ:(فَلْيَأْكُلْ مِنْ مَالِ نَفْسِهِ بالْمَعْرُوفِ حَتَّى لاَ يُصِيْبَ مِنْ مَالِ الْيَتِيْمِ شَيْئاً).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٨٧٠) عن مكحول، وفي النص (٦٨٨٠) عن عطاء، وفي النص (٦٨٨٣) عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٨٦٠).

(٣) هو من قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٨٨٦)، وفي النص (٦٨٨٧) عن ابن زيد، وفي النصوص (٦٨٨٢) عن إبراهيم النخعي.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٨٧٠) عن مكحول، وفي النص (٦٨٦٧) عن عكرمة، وفي النص (٦٨٦٦) عن السدي.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٨٦٩).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٨٧٧).

(٧) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٨٧٢ و٦٨٧١). ومعنى تبغي ضالتها: أي تنشدها وتطلبها، وهَنَأ البعير: طلاهُ بالهناء، وهو القطران، يعالج من الجرب. وتلوط حوضها: تصلحه وتملسه بالطين.

وعن ابن مسعُودٍ ﷺ أنهُ قال: (لاَ يَأْكُلُ مِنْ مَال الْيَتِيْـمِ قَرْضـاً وَغَـيْرَهُ) وهـذا قولُ أبي حنيفةَ. وروى بشْرُ عن أبي يوسف أنه قال: (لاَ يَأْكُلُ مِنْ مَال الْيَتِيْمِ إذا كَانَ مُقيْماً، فَإنْ خَرَجَ فِي تَقَاضِ دَيْـنٍ لِلْيَتِيْـمِ أوْ إلَـى ضِيَـاعٍ لَـهُ، فَلَـهُ أنْ يُنْفِـقَ وَيَكْتَسِـي وَيَرْكَبَ، فَإذا رَجَعَ رَدَّ الثِّيَابَ وَالدَّابَّةَ إلَى الْيَتِيْمِ). وعنه لأبي يوسـف روايـةٌ أخـرى: (أنَّ قَوْلَهُ (فَلْيَـأْكُلْ بـالْمَعْرُوفِ) يَجُـوزُ أنْ يَكُـونَ مَنْسُـوخاً بقَوْلِـهِ تَعَـالَى:﴿لاَ تَـأْكُلُوا أمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالْبَاطِلِ إلاَّ أنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾[(١)]).

فحاصلُ هذه الروايَاتِ؛ أنَّ الأصحَّ على مذهب أبي حنيفةَ وأصحابهِ: أنه ليـس للوصيِّ أن يأكلَ من مال اليتيمِ قَرْضاً ولا غيرَهُ؛ إلاّ أن يضطرَّ إلى شـيءٍ منـه فيـأخذهُ بالضرورةِ، ثم يَرُدُّ إذا وجدَ. وعن ابنِ عبَّاس قال: جَاءَ رَجُلٌ إلَى النَّبيِّ ﷺ فَقَـالَ: يَـا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّ فِي حِجْرِي يَتِيْماً فَأضْرِبُهُ، قال: [مَا كُنْتَ ضَارباً مِنْهُ وَلَدَكَ][(٢)] .

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ؛ إذا دَفَعْتُـمْ إلَيْـهِمْ أمْوَالَـهُمْ بعدَ بلوغِهم وإينـاسِ الرُّشْـدِ، ﴿ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ وثيقـةً لكـم، ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي شَهيْداً ومُجازياً لها إلاّ أن الإشهادَ فيما بين الناسِ من أحكام الدُّنيا لضروب مِن المصلحةِ، وانتصب (حَسِيْباً) على القطـع، وكَفَـى بـاللهِ الْحَسِـيْب حَسِيْباً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ العربَ كانت لا تُورثُ إلاَّ مَن طَاعَنَ بالرِّمَاحِ وَذادَ عن المال وحَازَ الغنيمةَ، فأعلمَ اللهُ تعالى أنَّ حَقَّ الميراثِ لِلرِّجَالِ والنِّسَاءِ. قال ابـنُ عبَّـاس: (تُوُفِّـيَ أوْسُ بْـنُ

(١) النساء / ٢٩.

(٢) أخرجه الطبري عن الحسـن مرسـلاً في جـامع البيـان: النـص (٦٨٨٤). والطـبراني في المعجـم الصغير: الحديث (٢٤٤) عن جابر بن عبدالله. وابن حبان في الصحيـح: كتـاب الرضـاع: بـاب النفقة: الحديث (٤٢٤٤)، وإسناده حسن إن شاء الله.

ثابتِ الأَنْصَارِيُّ وَتَرَكَ ثَلاَثَ بَنَاتٍ لَهُ[(١)]، وَتَرَكَ امْرَأَةً يُقَالُ لَهَا أمُّ كُجَّةَ[(٢)] وَهِيَ أمُّهُنَّ، فَقَامَ رَجُلاَنِ مِنْ بَنِي عَمِّهِ قَتَادَةُ وَعَرْفَطَةُ وَكَانَا وَصِيَّيْنِ لَهُ فَأَخَذا مَالَهُ، وَلَمْ يُعْطِيَا امْرَأَتَهُ وَلاَ بَنَاتَهُ شَيْئاً مِنَ الْمَالِ، فَجَاءَتْ أمُّ كُجَّةَ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّ أوْسَ بْنَ ثَابتٍ تُوُفِّيَ وَتَرَكَ ثَلاَثَ بَنَاتٍ، وَلَيْسَ عِنْدِي مَا أنْفِقُ عَلَيْهِنَّ، وَقَدْ تَرَكَ أبُوهُنَّ مَالاً حَسَناً وَهُوَ عِنْدَ قَتَادَةَ وَعَرْفَطَةَ وَلَمْ يُعْطِيَانِي وَلاَ لِبَنَاتِي شَيْئاً، هُنَّ فِي حِجْرِي لاَ يَطْعَمْنَ وَلاَ يَسْقِيْنَ وَلاَ يُرْفَعُ لَهُنَّ رَاسٌ، فَقَالَ ﷺ: [ارْجِعِي إلَى بَيْتِكِ حَتَّى أنْظُرَ مَا يُحْدِثُ اللهُ فِيهِنَّ] فَرَجَعَتْ إلَى بَيْتِهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ لآيَةَ)[(٣)].

ومعناه: للرجال حظٌّ مِمَّا تركَ الوالدانِ والأقربونَ، وللنساءِ كذلكَ أيضاً، مما قَلَّ مِن المال أو كثُرَ، (نَصِيبًا مَفْرُوضًا) أي مَعْلُوماً مقدَّراً، فأرسلَ النبيُّ ﷺ إلى قتادةَ وعَرْفَطَةَ[(٤)]: [أنْ لا تَقْرَبَا من مال أوْسٍ شَيْئاً، فَإنَّ اللهَ قَدْ أنْزَلَ لِبَنَاتِهِ نَصِيباً، وَلَمْ يُبَيِّنْ كَمْ هُوَ، أنْظُرُكُمْ يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لَهُنَّ] فأنزلَ اللهُ بعد ذلكَ (يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أوْلادِكُمْ) إلى قولهِ (ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) فأرسلَ النبيُّ ﷺ إلى قتادةَ وعرفطةَ: [أن ادْفَعَا إلَى أمِّ كُجَّةَ ثُمْنَ جَمِيعِ الْمَالِ إدْفَعَا إلَيْهَا لِبَنَاتِهَا الثُّلُثَيْنِ وَلَكُمُ بَاقِي الْمَالِ].

وانتصبَ قَوْلُهُ تَعَالَى (نَصِيباً) لِخروجِهِ مخرجَ المصدر كقول القائلِ: عِنْدِي حَقّاً؛ ولك معي درهمٌ هبةً.

---

(١) في الدر المنثور: نقل السيوطي: ((وترك ابنتين وابناً صغيرا)).

(٢) في الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٨ ص٢٨٤-٢٨٦؛ قال ابن حجر: ((ذكر الواقدي عن الكلبي في تفسيره عن أبي صالح عن ابن عباس... وذكره)) وذكر الاختلاف في الأسماء. ونقل قال: ((قال أبو داود: هذا خطأ، وإنما هما ابنا سعد بن الربيع...)) ثم قال: ((وأما المرأة فلم يختلف في أنها أم كُجَّة بضم الكاف وتشديد الجيم، إلا ما حكى أبو موسى عن المستغفري أنه قال فيها: أم كُحْلَةَ، بسكون المهملة بعدها لام)).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٨٩٠). وفي الدر المنثور: ج ٢ ص٤٣٨ و٤٣٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس...)) وقال: ((وأخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة)).

(٤) اختلف في أسمائهم (سويد وعرفجة) وفي أسمائهم اضطرب الرواة.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ ؛ أي حَضَرَ قسـمةَ المواريـثِ ذو قرابـةِ الميِّـت في الرَّحِـم الذيـن لا يورَثون واليتامَى المحتاجونَ والمساكين فأعطُوهم شيئاً من المال قبلَ القسمةِ، ﴿ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي عِدُوهُم عِدَةً حسنةً، وقيلَ: اعتذِرُوا عند قِلَّةِ المال وقولوا لَهم: كُنَّا نُحِبُّ أن يكونَ أكثر من ذلك.

وعنِ ابن عبَّاس روايَتَان؛ إحدَاهُما: (أنَّ هَذِهِ الآيَةَ مُحْكَمَـةٌ غَـيْرُ مَنْسُـوخَةٍ)[1] وهو قولُ عطاءٍ ومجاهدُ والزهريُّ وجماعةٌ، حتى روي عن عبيدةَ السَّلمانِيِّ: (أنَّهُ ذَبَـحَ لِلأقْرِبَاءِ شَاةً مِنْ أمْوَالِ الْيَتَامَى وَأعْطَاهُمْ؛ وَقَالَ: إنِّي أحِبُّ أنْ يَكُونَ ذلِكَ مِـنْ مَـالِي لَوْلاَ هَذِهِ الآيَةُ)[2]. وعنِ ابن سِيْرِيْنَ أنَّهُ فعلَ مِثْـلَ ذلـكَ. وقـال قتـادةُ عـنِ الحسـنِ: (لَيْسَتْ مَنْسُوخَةً، وَلَكِنَّ النَّاسَ شَحُّوا وَبَخِلُوا، وَكَانَ التَّابعُونَ يُعْطُونَ الأوَانِـي وَالشَّـيْءَ الَّذِي يُسْتَحْيَا مِنَ قِسْمَتِهِ)[3].

والرواية الثَّانيةُ:(أنَّ هَذِهِ الآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بآيَةِ الْمَوَاريْثِ)[4] وهو قـول سـعيدِ بـنِ المسيَّب والسديُّ وأبي مالكٍ[5] وأبي صالحٍ والضحَّاك؛ لأنَّها لو كانت واجبةً مع كَثْرَةِ قسـمةِ المواريـثِ في عـهدِ النبيِّ ﷺ والصَّحابَـةِ ومَـن بعدَهـم لَنُقِـلَ وجـوبُ ذلـك واستحقاقُهُ لهؤلاءِ كما نُقِلَتِ المواريثُ للزومِ الحاجَة إلى ذلكَ، لكن يستحبُّ ذلـكَ في حقِّ الوَرَثَةِ لحضور البالغين. وحديثُ عبيدةَ السَّلمانِيُّ محمولٌ علـى أنَّ الورثـةَ كـانوا بَالِغِيْنَ؛ فذبحَ الشاةَ من جُملةِ المال بإذنِهم .

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ قال عامَّـة المفسِّـرين: (كَـانَ

---

(١) نقل الروايات الطبري في جامع البيان: النصوص (٦٨٩٣).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٩٢٣ و٦٩٢٤) عن مُحَمد بن سيرين.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٩٢٢).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٩٠٥) قال: ((عن ابن عبـاس؛ قـال: وذلـك قبـل أن تنزل الفرائض، فأنزل الله الفرائض، وأعطى كل ذي حق حقه)).
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٩٠٤)، وعن الضحاك النص (٦٩٠٦).

الرَّجُلُ إذا حَضَرَهُ الْمَوْتُ يَقُولُ لَهُ مَنْ حَضَرَهُ عِنْدَ وَصِيَّتِهِ: اُنْظُرْ لِنَفْسِكَ؛ فَإنَّ أوْلاَدَكَ وَذُرِّيَّتَكَ لاَ يُغْنُونَ عَنْكَ شَيْئاً، قَدِّمْ لِنَفْسِكَ، اعْتِقْ وَتَصَدَّقْ، أوْصِ لِفُلاَنٍ بكَذا وَلِفُلاَنٍ بكَذا، فَلاَ يَزَالُونَ كَذلِكَ حَتَّى يَذْهَبَ عَامَّةُ مَالِهِ، وَيَبْقَى عِيَالُهُ بغَيْرِ شَيْءٍ، فَنَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذلِكَ وَأمَرَهُمْ أنْ يَتْرُكُوا أمْوَالَهُمْ لِوَرَثَتِهِمْ)[1].

روي عن رسول اللهِ ﷺ: أنَّهُ دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ يَزُورُهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنِّي ذُو مَالٍ وَلَيْسَ لِي إلاَّ بنْتٌ وَاحِدَةٌ، أفَأُوْصِي بالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: [لاَ] قَالَ: فَبالشَّطْرِ؟ قَالَ: [لاَ] فَبالثُّلُثِ ؟ قَالَ: [وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ، إنَّكَ إنْ تَدَعْ وَرَثَتَكَ أغْنِيَاءَ خَيْراً مِنْ أنْ تَدَعَهُمْ فُقَرَاءَ يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ][2].

قال بعضُ المفسِّرين: هذه الآيةُ خطابٌ لِمن يتصرَّف بأموالِ اليتامى؛ معناهُ: وَلْيَخْشَ الذينَ يخافُونَ الضَّيَاعَ على وَرَثَتِهِمْ الضعافِ بعدَ موتِهم، فلا يفعلون في أموالِ اليتامَى إلاَّ بما يُحبُّونَ أن يُفعَلَ في أولادِهم مِن بعدِ موتِهم. والقولُ السَّدِيْدُ: هو الذي لا خلافَ فيه مِن جهةِ الفساد، مأخوذٌ من سَدِّ الثُّلْمَةِ، وهو الْعَدْلُ والصَّوَابُ مِن القول.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ ؛ نَزَلَتْ فِي حَنْظَلَةَ بْنِ الشَّمَرْدَلِ؛ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ مَالِ الْيَتِيْمِ فِي حِجْرِهِ ظُلْماً. ومعناها: إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أمْوَالَ الْيَتَامَى بغَيرِ حقٍّ، إنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ حَرَاماً. ويسمَّى الحرامُ ناراً؛ لأن الحرامَ يُوجِبُ النَّارَ فسمَّاهُ باسْمِها على معنَى أنَّ أجوافَهم تُمَثَّلُ ناراً في الآخرةِ. قال السديُّ: (مَنْ أكَلَ مِنْ مَالِ الْيَتِيْمِ ظُلْماً يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَهَبُ النَّارِ يَخْرُجُ مِنْ فِيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَعَيْنَيْهِ وَأنْفِهِ، كُلُّ مَنْ رَآهُ عَرَفَ أنَّهُ أكَلَ مَالَ الْيَتِيْمِ ظُلْماً)[3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٩٢٧ و٦٩٢٦) عن ابن عباس، وفي النصوص (٦٩٢٨-٦٩٣٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص١٧٩. والبخاري في الصحيح: كتاب الفرائض: باب ميراث البنات: الحديث (٦٧٣٣).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٩٣٩).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي سَـيَصْلَوْنَ النـارَ في الآخـرة ويلزمونـها، والصِّـلاَءُ: مُلاَزَمَـةُ النَّـار لِلاحْـتِرَاق وَالإنْضَـاج. قـرأ العامَّـةُ: (وَسَيَصْلُونَ) بفتح الياء أي يدخلونها كقولهِ تعالى: ﴿إلا مَنْ هُـوَ صَـالِ الْجَحِيـمِ﴾[(١)] وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لاَ يَصْلاهَا إلا الأَشْقَى﴾[(٢)].

وقرأ أبو رجَاءٍ والحسنُ وابنُ عامرٍ وأبو بكر عن عاصم بضمِّ الياء على معنـى: وَسَيَدْخُلُونَ النَّارَ على ما لَمْ يُسَمَّ فاعلهُ، ونظيره ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[(٣)] و﴿فَسَوْفَ نُصْلِيـهِ نَارًا﴾[(٤)]. وقرأ حمزةُ بن قيسٍ: (وَسَيُصَلَّونَ) بتشديد اللاَّم من التَّصْلِيَةِ لكثرةِ الفعلِ؛ أي مرَّةً بعدَ مرةٍ، نظيرهُ ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾[(٥)] والكلُّ صوابٌ، يقـال: صِلْـتُ شِيَـاءً إذا شَوَيْتُهُ. وفي الحديثِ: [أتِيَ بشَاةٍ مَصْلِيَّةٍ][(٦)] وَاصْلَيْتُهُ: أَلْقَيْتُهُ فِي النَّـار، وَصَلَّيْتُـهُ مـرَّةً بعدَ مرَّةٍ.

السَّعِيْرُ: النَّارُ الْمَسْعُورَةُ أي الْمَوْقُودَةُ. قالَ ﷺ: [رَأيْتُ لَيْلَـةَ اسْـرِيَ بـي قَوْمـاً لَهُمْ مَشَافِرُ كَمَشَافِرِ الإبلِ؛ إحْدَاهُمَا قَالِصَةٌ عَلَى مِنْخرِه، وَالأُخْرَى عَلَى بَطْنِهِ، وَخَزَنَـةُ النَّار يُلَقِّمُونَهُمْ جَمْرَ جَهَنَّمَ وَصخْرَهَا ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ أسَافِلِهِمْ، فَقُلْتُ: يَـا جِـبْرِيْلُ مَـنْ هَؤُلاَءِ؟ قَالَ: الَّذِيْنَ يَأْكُلُونَ أمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً][(٧)].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ الْمَالُ لِلْبنْتَيْنِ؛ وَكَانَتِ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبيْنَ إلَى انْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ثُمَّ صَارَ ذلِكَ مَنْسُوخاً بهَا). ومعناهَا: يَعْهَدُ اللهُ إليكُـم ويَفْـرِضُ عليكُـم في أولادِكم إذا مِتُّمْ: لِلذكَرِ الواحدِ من الأولادِ مِثْلُ نَصِيبِ الأُنْثَيَيْـنِ في الميراثِ، واسمُ

(١) الصافات / ١٦٣.
(٢) الليل / ١٥.
(٣) المدثر / ٢٦.
(٤) النساء / ٣٠.
(٥) الحاقة / ٣١.
(٦) ذكره أهل اللغة في شواهدهم، وينظر: الطبري في جامع البيان: تفسير الآية.
(٧) في الدر المنثور: ج ٢ ص٤٤٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري: ... وذكره)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٦٩٤٠) وإسناده حسن إن شاء الله.

الولدِ يتناولُ وَلَدَهُ مِن صُلْبِهِ حقيقةً وَلَدَ وَلَدِهِ في النّسبةِ والتعصيب، ولكنَّهم مِن ذوي الأرحامِ مَجَازاً، فإذا كان للميِّت ولدٌ من صُلْبِهِ وجبَ حملُ اللفظ على الحقيقةِ، وإن لم يكن له وَلَدٌ من صُلْبِهِ حُمِلَ على مَن كان مِن صُلْب بَنِيْهِ مَجازاً، وأمَّا ولدُ البَنَاتِ فلا يُعَدُّ مِن وَلَدِهِ في النّسبةِ والتعصب، ولكنَّهم مِن ذوي الأرحامِ. قال الشاعرُ:

بَنُونَـا بَنُـو أَبْنَائِنَـا وَبَنَاتُنَـا بَنُوهُـنَّ أَبْنَـاءُ الرِّجَـالِ الأَبَـاعِدِ

وعن هذا قالَ أصحابُنا: فَمَنْ أوصَى لولدِ فلان أنَّ ذلك لولدهِ لصلب، فإن لم يكن لهُ ولدٌ من صُلْبِهِ فهو ولدُ ابنهِ، ولا يدخلُ أولادُ البنـاتِ في هـذه الوصيَّـة علـى أظهرِ الرّوايتين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ﴾ ؛ أي إنْ كان الأولادُ نساءً أكثرَ من اثنتين ليس معهُنَّ ذكَرٌ؛ ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ ؛ مِن المـال، والبـاقِي للعَصَبَـةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ﴾ ؛ قَـرأ العَامَّـة بـالنصب علـى خبرِ كَانَ، وقرأ نافعُ وَحْدَهُ بالرفعِ على أنَّ معناهُ: وَإنْ وَقَعَتْ وَاحِدَةٌ؛ فحينئذٍ لا خـبرَ لهُ، وقراءةُ النصب أجْوَدُ، وتقديرُهُ: فإن كانت المولودةُ واحدةً.

فإن قيل: لِمَ أعْطَيْتُمُ الْبِنْتَيْنِ الثُّلُثَيْنِ وفي الآيةِ إيجَابُ الثُّلُثَيْنِ لأكْثَرَ مِنَ الابْنَتَيْنِ؟ قِيْلَ: فِي فحوَى الآيةِ دليلٌ على أن فَرْضَ الابنتين الثُّلُثان؛ لأنَّ في أوَّلِها ﴿لِلذكَرِ مِثْـلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾، فيقتضِي أنَّ للابنةِ الواحدة مع الابن الثُّلُثُ، فإنْ كـان لهـا معـهُ الثُّلُـثُ كانت تأخذُ الثُّلُثَ مع عدمهِ أولَى، فاحْتَجْنَا إلى بيان حُكْمِ مـا فـوقَ الأُنثيـين؛ فذلـك نصٌّ على حُكْمِ ما فوقِهما، ويدلُّ عليه أنهُ اذا كانَ للابنِ الثُّلُثان، وللابنةِ الثُّلُثُ دلَّ أن نصيبَ الأُنثيين الثُّلُثانِ بحالٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ للذكرِ مثلُ حظِّ الأُنثيين.

وجوابٌ آخر: أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ للأُخت من الأب والأمِّ النصفَ في آخرِ هـذه السورة، كما جعلَ للابنة النصفَ في هذه الآيةِ، وجعلَ للأُختين هناك الثُّلُثَيْن، فأعطينا الاثنين الثُّلُثَيْنِ قياساً على الأُختين في تلكَ الآيـةِ، وأعطينـا جُمْلَـةَ الأخـواتِ الثُّلُثـين قياساً على البناتِ في هذه الآية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ ﴾ ؛ أي لأَبَوَي المَيِّت كنايةً عن غير المذكور لكلِّ واحدٍ منهما السُّدُسُ؛ ﴿ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞ ﴾ ؛ أو وَلَدُ ابنٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ ﴾ ؛ أي إن لَم يكنْ للميِّت ولدٌ ذكرٌ ولا أنثى، ولا وَلَدَ وَلَدٍ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ، والباقِي للأب.

ورويَ عن ابن مسعودٍ:(أنَّ الْوَلَدَ يَحْجُبُونَ الأُمَّ مِنَ الثُّلُثِ إلَى السُّدُس، وَإنْ لَمْ يَرِثُوا نَحْوَ أنْ يَكُونُوا كُفَّاراً أوْ مَمْلُوكِيْنَ أوْ قَاتِلِيْنَ؛ لأَنَّ اللهَ لَمْ يُفَرِّقْ فِي الآيَةِ بَيْنَ الْوَلَدِ الْكَافِرِ وَالْمُسْلِمِ، فَقَالَ: (وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ).

وقال عُمَرُ وعَلِيٌّ وزيدُ بن ثابتٍ: (لِلأُمِّ الثُّلُثُ)، وجعلُوا الكافرَ والرقيقَ بمَنْزِلَةِ المَيِّت، وحَمَلُوا الآيةَ على ولدٍ يحوزُ الميراثَ. قرأ أهلُ الكوفةِ إلاّ عاصِماً وخَلَفاً: (فَلإِمِّهِ) بكسرِ الهمزة استثقالاً لِضَمَّةٍ بعد كسرٍ. وقرأ الباقون بالضمِّ على الأصلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ ﴾ ؛ ذكرهُ بلفظِ الجمعِ، وأقلُّه ثلاثةٌ ولا خلافَ، وإن الحَجْبَ يقعُ بثلاثةٍ من الإخوةِ والأخواتِ وإن ذلكَ لا يقعُ بالواحدِ، ثم قالَ عامَّة الصحابةِ: (إنَّ حُكْمَ الاثْنَيْنِ فِي هَذا حُكْمُ الثَّلاَثَةِ كَمَا فِي الْبِنْتَيْنِ وَالأُخْتَيْنِ). وعن ابنُ عبَّاس: (أنَّهُ كَانَ لاَ يَحْجُبُ الأُمَّ عَنِ الثُّلُثِ إلَى السُّدُسِ بأَقَلَّ مِنْ ثَلاَثَةِ إخْوَةٍ)، وهذا القولُ غير مأخوذٍ بهِ. ورويَ عنهُ أيضاً: (أنَّهُ جَعَلَ لِلابْنَتَيْنِ النِّصْفَ كَنَصِيْبِ الْوَاحِدَةِ بظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى (فَوْقَ اثْنَتَيْنِ) ولم يقل بهذا آخرٌ غيرهُ فلا يُعْتَدُّ به.

وروي أنَّ جَدَّةً جَاءَتْ إلَى أبي بَكْرٍ ﷺ، وَطَلَبَتْ مِيْرَاثَهَا؛ فَقَالَ أبو بَكْرٍ ﷺ: (لاَ أجِدُ لَكِ فِي كِتَابِ اللهِ شَيْئاً) فَقَامَ الْمُغِيْرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَشَهِدَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أعْطَى جَدَّةَ أمِّ الأُمِّ السُّدُسَ، فَقَالَ:(إئْتِ مَعَكَ بشَاهِدٍ آخَرَ) فَجَاءَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَشَهِدَ بمِثْلِ شَهَادَتِهِ، فَأَعْطَى أبو بَكْرٍ ﷺ السُّدُسَ)[1].

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الفرائض: باب ميراث الجدة: الحديث (٢٨٩٤). والترمذي في الجامع: الفرائض: باب ما جاء في ميراث الجدة: الحديث (٢١٠١). وفي الإحسان صحيح ابن حبان: كتاب الفرائض: الحديث (٦٠٣١)، وإسناده صحيح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ﴾ ؛ إنَّ هذه القسمةَ بعد فَضْلِ المال على الدَّين، وبعدَ إمضاءِ الوصيَّة من الثُّلُثِ إن كان الميتُ أوصى بها. قرأ ابنُ كثير وابن عامر:(يُوصَى بهَا) بفتحِ الصَّاد. وقرأ الباقونَ بكسرِ الصَّاد.

فإن قيلَ: كيفَ ذكَرَ اللهُ الوصيَّةَ قبلَ الدَّين؛ والدَّيْنُ مُقَدَّمٌ على الوصيَّةِ ؟ قيل: إنَّ كلمة (أوْ) لا تُوجِبُ الترتيبَ، لكنَّها توجبُ تأخيرَ قِسْمَةِ الميراثِ في هذه الآية عن أحدِهما إذا انفردَ، وعن كلِّ واحد منهُما إذا اجتمعا. روى عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ [أنَّهُ قَضَى بالدَّيْنِ قَبْلَ الْوَصِيَّةِ][1] وهذا شيءٌ قد اجتمَعَت عليه الأمَّةُ حتى رويَ عنِ ابن عبَّاس: أنه قيلَ لهُ: مَا لَنَا نُقَدِّمُ أفْعَالَ الْعُمْرَةِ عَلَى أفْعَالِ الْحَجِّ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للهِ﴾[2]؟ كَمَا تُقَدِّمُونَ الدَّيْنَ عَلَى الْوَصِيَّةِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بهَا أوْ دَيْنٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ المذكورينَ في الآيَةِ آبَاؤُكُمْ وَأبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أيُّهُمْ أقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، أمَّا في الدُّنيا فقد يكونُ الولدُ أكثرَ نفعاً لوالدِهِ، وقد يكونُ الوالدُ أكثرَ نفعاً لولدِهِ. وأمَّا في الآخرةِ، فإنَّ الأبَ أرفعُ درجةً في الجنَّة يسألُ اللهَ تعالى أن يَرْفَعَ ابنه إليه فَيَرْفَعُ، وإنْ كان الابنُ أرْفَعَ سألَ اللهَ أن يرفعَ أباه إليه.

وفي هذا جوابُ طعنِ الملحدينَ عن قولِهم: هَلاَّ كَانَ الرجالُ أولَى بالميراثِ لكونِهم قوَّامين على النِّساء؟ وعن جواب آخرين منهم لِمَ جازَ تفضيلُ الذكرِ على الأنثى في قسمتِها الميراثَ؛ والأنثى أوْلى بالزيادةِ بعجزِها عن التصرُّف؟ فبيَّن اللهُ تعالى أنهُ فَرَضَ الفرائضَ على ما هو عندهُ حكمةٌ ومصلحةَ لَهم، ولو وَكَّلَ ذلك إليكم لَمَا تَعْلَمُوا أيُّهم أنفعُ، فوضعتُم الأموالَ في غيرِ حكمةٍ. وقيل معناهُ: لا يدري أحدُكم أهوَ أقربُ وفاةً فينتفعُ ولدُه بماله، أمِ الولدُ أقربُ وفاةً فينتفعُ والدهُ بماله.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٩٥١). والترمذي في الجامع: الفرائض: الحديث (٢٠٩٤)، وإسناده صحيح.
(٢) البقرة / ١٩٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ نُصِبَ على الحال والتوكيدِ من قوله (يُوصِيْكُمُ)، وقيل: مصدرٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي لَمْ يَزَلْ عَالِماً بالمواريثِ وغيرِها، حَكِيْماً حين بيَّن قسمةَ المواريثِ على الحكمةِ. وعن الحسنِ أنَّ معناهُ: (كَانَ اللهُ عَالِماً بالأَشْيَاءِ قَبْلَ خَلْقِهَا، حَكِيماً فِيْمَا يُقَدِّرُ مِنْ تَدْبِيْرِهِ فِيْهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ﴾ ؛ أي لكم يا مَعْشَرَ الرجالِ: نِصْفُ مَا تَرَكَ نساؤُكم إن لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ذكرٌ أو أنثى أو مِن غيرِكم أو ولدِ ولده؛ ﴿ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ ﴾ ؛ أي ذكرٌ أو أنثى منكم أو مِن غيرِكم أو ولد ولده؛ ﴿ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ﴾ ؛ مِن المالِ، ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ ؛ أي مِن بعدِ قضاء الدَّين عليهنَّ أو إمضاءِ وصيَّة أَوْصَيْنَ بهَا من الثُّلُثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ﴾ ؛ أي مِمَّا تركتُم أيُّها الأزواجُ من المالِ، ﴿ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ﴾ ، ذكرٌ أو أنثى أو وَلَد ابن منهنَّ أو غيرهن؛ ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ﴾ ؛ ذلك، ﴿ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ ؛ قضاءُ دَيْنٍ عليكم، أوْ إمضاءُ وصيَّة أوصيتم بهَا من الثُّلُثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ ﴾ ؛ الآيةُ وإن كان رجلٌ، أو امرأةٌ يورَثُ (كَلاَلَةً) وهو نُصِبَ على المصدر، وقيلَ على الحال، وقيلَ: على خبرِ ما لَم يسمَّ فاعلهُ؛ تقديرهُ: وإنْ كانَ رجلٌ يورَثُ مالهُ كَلاَلَةً، قاله ابنُ عبَّاس. وقرأ الحسنُ: (يُورِثُ) بكسرِ الراءِ؛ جعلَ الفعل لهُ.

واختلفُوا في الكَلاَلَةِ، قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ مَنْ لاَ وَلَدَ لَهُ وَلاَ وَالِدَ). وعن ابنِ عبَّاس وعمرَ وجابر وأبي بكرٍ وقتادةَ والزهريِّ: (الْكَلاَلَةُ اسْمٌ لِمَا عَدَا الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ)(١). وقال الشعبيُّ:(سَمِعْتُ أنَّ أبَا بَكْرٍ ﷺ قَالَ فِي الْكَلاَلَةِ: أقْضِي فِيْهَا، فَإنْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٩٦١).

كَانَ صَوَاباً فَمِنَ اللهِ تَعَالَى، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللهُ بَرِيْءٌ مِنْـهُ: هُـوَ مَا دُونَ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ، يَقُولُ كُلُّ وَارِثٍ دُونَهُمَا كَلاَلَةٌ). قالَ: (فَلَمَّا كَـانَ عُمَـرُ بَعْـدَهُ، قَالَ: إنِّي اَسْتَحِي مِنَ اللهِ اَنْ اُخَالِفَ اَبَا بَكْرٍ ﷺ، هُوَ مَا خَلاَ الْوَالِدَ وَالْوَلَدَ)[(١)]. وقال طاوُوس: (هُوَ مَا دُونَ الْوَلَدِ) وقال الحكمُ: (هُوَ مَا دُونَ الأَب)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ ﴾ ؛ إنَّمـا لم يقـل ولَـهُما؛ لأن مِـن عـادةِ العرب أنَّ الرجُلَ والمرأةَ ربَّما أضافت إليهما، وربما أضـافت إلى أحدِهمـا، وكلاهُمـا جائزٌ[(٣)]، ومعنى: وَلَهُ اَخٌ اَوْ اُخْتٌ من اُمٍّ، وفي قراءة اُبَيٍّ وسعدِ بن أبي وقَّاص: (وَلَـهُ اَخٌ اَوْ اُخْتٌ مِن اُمٍّ)، ﴿ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ ﴾ ؛ مما ترك الميتُ من المال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ ﴾ ؛ أي اَكْثَرَ من واحدٍ فَهُمْ كلُّهم سواءٌ في الثُّلُثِ لا يفضَّل الذكرُ علىالأُنثى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾ ؛ قد تقدَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ ﴾ ؛ نُصِبَ على الحـال؛ أي يوصـي بـها الميـتُ غير مُضَارٍّ في حال وصيَّة بأن يزيدَ على الثُّلُثِ، ويفضِّل بعضُ الورثةِ على بعضٍ. قال ﷺ: [إنَّ اللهَ قَـدْ اَعْطَـى كُـلَّ ذِي حَـقٍّ حَقَّـهُ؛ فَـلاَ وَصِيَّـةَ لِـوَارِثٍ إلاَّ أنْ يُجِيْزَهَـا الْوَرَثَةُ][(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٩٥٧) بأسانيد.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٦٩٦٧).

(٣) في جامع البيان: تفسير الآية: مج ٣ ج ٤ ص٣٨؛ قال الطبري: ((فإن قال قـائل: وكيـف قِيْـلَ: وله أخ أو أخت، ولم يقل: لهما أخ أو أخت، ... قِيْلَ: إن من شأن العرب إذا قدمت ذكر اسمين قبل الخبر فعطفت أحدهما على الآخر بـ (أو) ثم أتـت بالخـبر، أضـافت الخـبر إليـهما أحيانـاً، وأحياناً إلى أحدهما، وإذا أضافت إلى أحدهما كان سواء عندها إضافة ذلـك إلى أحـد الاسمـين الذين ذكرتهما إضافته، فتقول: من كان عنده غلام، أو جارية فليحسن إليـه، يعـني فليحسـن إلى الغلام، وليحسن إليها، يعني: فليحسن إلى الجارية، وليحسن إليهما)).

(٤) أخـرج شـطره الأول الإمـام أحمـد في المسـند: ج ٤ ص١٨٦ و٢٣٨ و٢٣٩. والـترمذي في أبــواب الوصايا: الحديث(٢١٢١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجة في السنن: الوصايـا:=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ نُصِبَ على المصدر؛ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ عَلِيْمٌ بما دبَّره من هذه الفرائضِ؛ حَلِيْمٌ على مَن عَصَاهُ بأن أخَّرَهُ وقَبلَ التوبةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي هذه فرائضُ اللهِ التي أمرَكم بها في المواريثِ وأموال اليتامَى. والحدودُ: هِيَ الأَمْكِنَةُ الَّتِي لاَ يَنْبَغِي أنْ يُتَجَاوَزَهَا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ أن مَن يقيمُ حدودَ اللهِ، وحدودَ رسولِه في أمرِ الميراثِ وغيره، ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ قُرِئ (نُدْخِلْهُ) بالنون في الموضعين، والياءُ أقربُ من لفظِ الآية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ؛ نُصِبَ على الحال أي نُدْخِلُ المقدَّرين للخلُودِ فيها. ﴿ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي النَّجاةُ الوافرةُ فازُوا بها في الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ ﴾ ؛ أي قِسْمَةَ الميراثِ فلم يقسِمْها؛ لأنَّ المنافقينَ كانُوا لا يُقِرُّونَ للنساءِ والصِّبيان الصِّغار من قسمةِ المواريث بشيءٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ ظاهر المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ ؛ أي اللاَّتِي يَزْنِيْنَ من حَرَائِرِكُمْ الثَّيِّبَاتِ الْمُحْصَنَاتِ، ﴿ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴾ ، فاطْلُبُوا عليهنَّ أربعةً من الشُّهود من أحْرَاركُم المسلمين العدول، ﴿ فَإِن شَهِدُوا۟ ﴾ ؛ عليهنَّ بالزِّنَا، فَاحْبسُوهُنَّ في البيوتِ، وهي السُّجُونُ، بيوتٌ معروفةٌ في المدينة، ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ ﴾ ، بِالْحَبْسِ، ﴿ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ ، مَخْرَجاً مِن الْحَبْسِ قبلَ الموتِ.

=الحديث (٢٧١٢) كلهم عن عمرو بن خارجة. وعنه أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٧٧٨٧). أما لفظ [إلاَّ أنْ يُجِيزَ الْوَرَثَةُ] أو [إلاَّ أنْ يَشَاءَ الْوَرَثَةُ] أخرجه الدراقطني في السنن: كتاب الفرائض: ج ٤ ص٩٨: الحديث(٩٣) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وفي إسناده نظر. والحديث (٩٤) عن ابن عباس.

وإنَّما كان هذا قبلَ نزولِ الحدود؛ كانتِ المرأةُ في أوَّلِ الإسلام إذا زَنَتْ حُبِسَتْ فِي البيتِ حتى تَموتَ[١]، وإنْ كان لَها زوجٌ كان مهرُها لهُ، حتى نَـزَلَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِـدٍ مِنْـهُمَا مِائَـةَ جَلْـدَةٍ﴾[٢] فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: [خُذُوا عَنِّي؛ خُذُوا عَنِّي: قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيْلاً، الثَّيِّبُ بالثَّيِّب جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْـمُ، وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيْبُ عَامٍ][٣] فَنَسِخَتْ تلكَ الآيةُ بعضَ هذه الآيـةِ، وهـو الإمْسَاكُ فِي البُيُوتِ، وبقي منها مُحْكَماً وهو الإشْهَادُ.

وكان في هذا النَّسْخِ نَسْخُ القُـرْآنِ بالسُّـنَّةِ، ثُـم تغريـبٌ في البكـرِ بقولـهِ تعـالى (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) لأن ظاهرَ تلكَ الآية يقتضِي أنَّ الْجَلْدَ بَيَانٌ لجميعِ الحكم المتعلّق بالزّنا، إذ لو لم يجعل ذلـكَ كذلـك لكـانَ قُصُـوراً في البيان في مواضع الحاجةِ، ونُسِخَ جلدُ الزّنا المحصنِ الثَّيِّب بحديثِ مَاعِزٍ: [أنَّ النَّبيَّ ﷺ رَجَمَهُ وَلَمْ يَجْلِدْهُ][٤].

وعن عُمَرَ ﷺ أنَّهُ قـالَ: (لَـوْلاَ أنَّ النَّـاسَ يَقُولُـونَ زَادَ عُمَـرُ فِـي كِتَـاب اللهِ؛ لَكَتَبْتُ فِي حَاشِيَةِ الْمُصْحَفِ: الشَّيْخُ وَالشَّـيْخَةُ إذا زَنَيَـا فَارْجُمُوهُمَـا نَكَـالاً مِـنَ اللهِ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ)[٥]. وقـال الشَّـافِعِيُّ رَحِمَـهُ اللهُ: (جَلْـدُ الثَّيِّـب الْمُحْصَـنِ مَنْسُوخٌ، وَتَغْرِيبُ الْبِكْرِ غَيْرُ مَنْسُوخٍ)، وعند داوُدَ ومَن تابعَهُ من أصحـاب الظَّواهِـرِ: (لَيْسَ بشَيْءٍ مِنْهُمَا مَنْسُوخٌ).

---

(١) أخرجه الطبري من قول ابن عباس في جامع البيان: النص (٦٩٩٠).

(٢) النور / ٢ .

(٣) عن عبادة بن الصامت؛ أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣١٣ و٣١٧. وأبو داود في السنن: كتاب الحدود: باب في الرجم: الحديث (٤٤١٥ و٤٤١٦). والترمذي في الجامع: أبواب الحدود: الحديث (١٤٣٤)، وقال: صحيح.

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الحدود: باب من اعترف على نفسه بالزنا: الحديث (٢٢/ ١٦٩٥).

(٥) أخرجه أحمد في المسند: ج ١ ص٣٦ و٤٣. والترمذي في الجامع: أبواب الحدود: الحديث (١٤١٣)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في السنن الكبرى: كتاب الرجم: الحديث (٧١٥٤/ ٤). وأبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٣ ص٩٥، وقال: هذا حديث ثابت مشهور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ ؛ يعني الرجلَ والمرأةَ إلاَّ أنَّ المذكَّر والمؤنَّث إذا اجتمعا غُلِّبَ المذكَّرُ، والهاءُ راجعةٌ إلى الفاحشةِ. قال المفسِّرون:(هَاءُ) الْبكْرِ إنْ يَزْنِيَان فَآذُوهُمَا بالشَّتْمِ وَالتَّعْيِيْرِ؛ يقالُ لَهُما: زَنَيْتُمَا؛ فَجَرْتُمَا؛ انْتَهَكْتُمَا حُرُمَاتِ اللهِ. وقيلَ: بهاء اللَّذين لم يُحْصَنَا. وقال عطاءُ وقتادة:(مَعْنَى: (فَآذُوهُمَا) أيْ عَنِّفُوهُمَا باللِّسَان: أمَا خِفْتُمَا اللهَ! أمَا اسْتَحْيَيْتُمَا مِنْهُ!)(١). قال ابنُ عبَّاس: (أرَادَ بالأَذى الضَّرْبَ بالنِّعَال وَالأَيْدِي)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ﴾ ؛ أي فإنْ تَابَا عن الزِّنا واصلحَا العملَ بعد التوبةِ فأعرضُوا عنهما؛ لا تَسُبُّوهُما ولا تعيِّرُوهما. وعن أبي هُريرة ﷺ: (أنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ أحَدُهُمَا: إقْضِ بَيْنَنَا بكِتَاب اللهِ، وَقَالَ الآخَرُ: أجَلْ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ اقْضِ بَيْنَنَا بكِتَاب اللهِ وَأذنْ لِي أنْ أتكَلَّمَ، قَالَ: [تكَلَّمْ] فَقَالَ: إنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفاً عَلَى هَذا - أيْ أجِيْراً- فَزَنَا بامْرَأتِهِ، فَأخْبَرُونِي أنَّ عَلَىابْنِي الرَّجْمَ فَافْتَدَيْتُهُ بمِائَةِ شَاةٍ وَجَاريَةٍ، ثُمَّ سَألْتُ أهْلَ الْعِلْمِ فَأخْبَرُونِي أنَّ عَلَى ابْنِي جَلْدَ مِائَةٍ وَتَغْرِيْبَ عَامٍ، وَإنَّمَا الرَّجْمُ عَلَى امْرَأتِهِ ! فَقَالَ ﷺ: [أمَا وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ؛ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بكِتَاب اللهِ، أمَّا غَنَمُكَ وَجَاريَتُكَ فَرَدٌّ عَلَيْكَ] وَجَلَدَ ابْنَهُ بمِائَةٍ وَغَرَّبَهُ عَاماً، وَامَرَ أنَيْساً الأَسْلَمِيَّ أنْ يَأْتِيَ امْرَأةَ الرَّجُلِ؛ فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي لَم يَزَلْ مُتَجَاوزاً عن النَّاسِ رَحِيْماً بهم بعد التوبة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّما التَّجَاوُزُ مِن الله للذينَ يعملونَ المعصيةَ بجَهَالَةٍ،﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٠٠٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٠١١).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصلح: باب إذا اصطلحوا على صلح جور: الحديث (١٦٩٥ و٢٦٩٦).

قَرِيبٍ﴾ ؛ أي ثم يتوبُون من قَبْلِ أن يَنْزلَ بهم سلطانُ الموتِ لا في وقتِ المعايَنة، ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ ﴾ ؛ يَقْبَلُ اللهُ توبتَهم؛ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ ؛ بأهلِ التوبة؛ ﴿حَكِيمٗا ﴿١٧﴾﴾ ؛ حَكَمَ بقَبُولِ التوبةِ، قيل: إنَّ (على) في قولهِ: (عَلَى اللهِ) بمعنى (عِنْدَ) أي إنَّما التوبةُ عندَ الله. وقيلَ: بمعنى (مِنْ) أي مِن اللهِ.

واختلفُوا في قولهِ: (بجَهَالَةٍ). قال مجاهدُ والضحَّاك: (الْجَهَالَةُ الْعَمْدُ)[(١)]. وقال الكلبيُّ: (لَمْ يَجْهَلْ أنَّهُ ذنبٌ، ولَكِنَّهُ جَهِلَ عُقُوبَتَهُ). قال سائرُ المفسِّرين: (يَعْنِي الْمَعَاصِي كُلَّهَا، فَكُلُّ مَنْ عَصَى رَبَّهُ فَهُوَ جَاهِلٌ حَتَّى يَنْزَعَ عَنْ مَعْصِيَتِهِ). وقال قتادةُ: (أجْمَعَ الصَّحَابَةُ أنَّ كُلَّ مَنْ عَصَى رَبَّهُ فَهُوَ جَاهِلٌ عَمْداً كَانَ أوْ خَطَأً)[(٢)]. وقال الزجَّاج: (مَعْنَى قَوْلِهِ (بجَهَالَةٍ): اخْتِيَارُهُمُ اللَّذةَ الْفَانِيَةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ) أي ثم يَتُوبُونَ قَبْلَ إصابتهم بأَسْبَاب الْمَوْتِ، سَمَّى ذلك قَرِيْباً لأنَّ كلَّ ما هوَ آتٍ قريبٌ؛ لأنَّ المرءَ لا يَأمَنُهُ في كلِّ وقتٍ وساعة، وكلُّ ما يكون هذا صِفَتُهُ فهو موصوفٌ بالْقُرْب.

قال ﷺ: [مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بسَنَةٍ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ] ثُمَّ قَالَ: [إنَّ السَّنَةَ لَكَثِيْرٌ، مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بشَهْرٍ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ] ثُمَّ قَالَ: إنَّ الشَّهْرَ لَكَثِيْرٌ، ثُمَّ قَالَ: [مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بجُمُعَةٍ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ] ثُمَّ قَالَ: [إنَّ الْجُمُعَةَ لَكَثِيْرٌ، مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بيَوْمٍ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ] ثُمَّ قَالَ: [إنَّ الْيَوْمَ لَكَثِيْرٌ، مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بسَاعَةٍ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ] ثُمَّ قَالَ: [إنَّ السَّاعَةَ لَكَثِيْرٌ، مَنْ تَابَ مِنْ قَبْلِ أنْ يُغَرْغِرَ نَفْسُهُ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ][(٣)].

وقال الكلبيُّ: (قولهُ: (مِنْ قَرِيبٍ) الْقَرِيبُ مَا دَامَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ الْمَرَضِ وَالْمَوْتِ). وقال أبو موسَى الأشعريُّ: (هُوَ أنْ يَتُوبَ قَبْلَ مَوْتِهِ بفُوَاقِ[(٤)] نَاقَةٍ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٠٢٦ و٧٠٢٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٠٢٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٠٦. والطبراني في الأوسط: الحديث (٤١٥٨) مختصراً. وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص١٨٧؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد وفيه راوٍ لم يسمَّ، وبقية رجاله ثقات، ورواه الطبراني في الأوسط)). والطبري في جامع البيان: النص (٧٠٤٦).

(٤) الفُوَاقُ: الوقت بين الحلبتين، كناية عن قصر الوقت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ ؛ أي وليس قَبُولُ التوبةِ للذين يعمَلُون المعاصِي مقيمِينَ عليها حتَّى إذا عَايَنَ أحدُهم أسبابَ الموتِ والسَّوْق والنَّزْع ومعاينةَ الموتِ، قَالَ: إنِّي تُبْتُ الآنَ، ولاَ على الَّذِينَ يَمُوتُونَ على الكُفْرِ، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ ؛ هَيَّأْنَا لَهُمْ، ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ مُؤْلِماً وهو النارُ التي مصيرهم إليها.

وذهب الربيعُ إلى أنَّ المرادَ بالذين يعملون السيئات: المنافِقُون، ثم عَطَفَ الكافرين الْمُجَاهِرِيْنَ بالكفر على المنافقين. وحاصلُ هذه الآيةِ أنَّ مَن وقعَ في النَّزْعِ وقالَ: إنِّي تُبْتُ الآنَ، فحينئذ لا يُقْبَلُ مِن كافرٍ إيْمَانُهُ، ولا مِن عَاصٍ توبتُه، وقولُهُ: وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ مَوْضِعُ خَفْضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ ؛ الآيَةُ، قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَوَّل الإسْلاَمِ إذا مَاتَ رَجُلٌ وَلَهُ امْرَأةٌ؛ جَاءَ ابْنُهُ مِنْ غَيْرِهَا أوْ قَرِيْبُهُ مِنْ عَصَبَتِهِ الَّذِي يَرِثُهُ، فَألْقَى ثَوْبَهُ عَلَى تِلْكَ الْمَرْأةِ فَورِثَ نِكَاحَهَا بصِدَاقِ الأَوَّل، يَقُولُ: أنَا وَلِيُّ زَوْجِكِ فَوَرِثْتُكِ، فَإنْ كَانَتْ جَمِيْلَةً أمْسَكَهَا وَدَخَلَ بهَا، وَإنْ لَمْ تَكُنْ جَمِيْلَةً طَوَّلَ عَلَيْهَا لِتَفْتَدِيَ بنَفْسِهَا مِنْهُ بمَا تَرِثُ مِنَ الْمَيِّتِ أوْ تَمُوتَ فَيَرِثُهَا، فَإنْ ذهَبَتْ إلَى أهْلِهَا قَبْلَ أنْ يُلْقِيَ عَلَيْهَا ثَوْبَهُ فَهِيَ أحَقُّ بنَفْسِهَا.

فَكَانُوا يَفْعَلُونَ ذلِكَ حَتَّى تُوُفِّيَ أبُو قَيْس بْن الأَسْلَتِ، وَتَرَكَ امْرَأتَهُ كَبْشَةَ بنْتِ مَعَن الأَنْصَاريَّةَ، فَقَامَ لَهَا ابْنٌ مِنْ غَيْرِهَا يُقَالُ لَهُ حُصَيْنُ بْنُ أبي قَيْسٍ؛ فَطَرَحَ ثَوْبَهُ عَلَيْهَا فَوَلِيَ نِكَاحَهَا ثُمَّ تَرَكَهَا وَلَمْ يَقْرَبْهَا وَلَمْ يُنْفِقْ عَلَيْهَا فَضَارَّهَا بذلِكَ لِتَفْتَدِيَ مِنْهُ بمَالِهَا، فَأتَتْ كَبْشَةُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّ أبَا قَيْسٍ تُوُفِّيَ وَوَرِثَ ابْنُهُ نِكَاحِي؛ وَقَدْ أضَرَّنِي وَطَوَّلَ عَلَيَّ، فَلاَ هُوَ يُنْفِقُ عَلَيَّ، وَلاَ هُوَ يُخْلِي سَبيْلِي، فَقَالَ ﷺ: [اُقْعُدِي فِي بَيْتِكِ حَتَّى يَأْتِينِي فِيْكِ أمْرُ اللهِ] فَانْصَرَفَتْ، وَسَمِعَ بذلِكَ نِسَاءُ الْمَدِيْنَةِ، فَأتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا نَحْنُ إلاَّ كَهَيْئَةِ كَبْشَةَ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٠٥٦) وما بعده. وفي الدر المنثور: ج ٢ ص٤٦٢ و٤٦٣؛ قال السيوطي: ((وأخرجه النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم)).

ومعناهَا: يا أيُّها الذينَ أقرُّوا وصَدَّقُوا لا يَحِلُّ لكم أنْ تَرثُوا النساءَ جَبْراً؛ ﴿ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾ ؛ أي لاَ تَمْنَعُوهُنَّ تَخْلِيَةَ سبيلهنَّ حتى يَفْتَدِيْنَ ببعضِ ما لَهُنَّ؛ ﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ ﴾ ؛ فَحِيْنَئِذٍ يحلُّ لكم ضِرَارُهُنَّ ليفتدينَ منكُم، وهو أنَّها إذا زَنَتِ المرأةُ جازَ لزوجِها أن يسألَها الْخُلْعَ.

قال عطاءُ: (كَانَ الرَّجُلُ إذا زَنَتِ امْرَأتُهُ أخَذ مِنْـهَا مَا يُسَاقُ إلَيْـهَا وَأخْرَجَـهَا، فَنَسَخَ اللهُ ذلِكَ بالْحُدُودِ). قال قتادةُ والضحَّاك: (الْفَاحِشَةُ النُّشُوزُ؛ يَعْنِي إذا نَشَـزَتِ الْمَرْأةُ حَلَّ لِزَوْجِهَا أنْ يَأخُذ مِنْهَا الْفِدْيَةَ)[1]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (مبينَةٍ)؛ بخفض الياء أي مُبَيِّنَةٍ فُحشِها.

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف والأعمشُ: (كُرْهاً) بضمِّ الكاف هُنا وفي التوبةِ، وقرأ الباقون بالفتح وهُما لغتان. وعن الضحَّاك: (أنَّ هَـذِهِ الآيَـةَ نَزَلَـتْ فِـي الرَّجُـلِ يَكُونُ فِي حِجْرِهِ يَتِيْمَةٌ؛ فَيَكْرَهُ أنْ يُزَوِّجَهَا لِمَالِهَا، فَيَتَزَوَّجُـهَا لأَجْـلِ مَالِـهَا، أوْ يَكُـونَ تَحْتَهُ عَجُوزٌ، وَنَفْسُهُ تَتُوقُ إلَى شَابَّةٍ فَيَكْرَهُ فِرَاقَ الْعَجُوز وَيَتَوَقَّـعُ مَوْتَـهَا لِيَرِثَـهَا وَهُـوَ يَعْزِلُ فِرَاشَهَا).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴾ ؛ أمَرَ لـلأزواجَ بعشـرةِ نسـائِهم بالْجَمِيْلِ، وهو أن يُوَفِّيَهَا حقَّها من المهرِ والنَّفقةِ والمبيت وتركِ أذاها بالكلامِ الغليـظِ، والإعراضِ عنها والعُبُوسِ في وجهها بغيرِ ذنبٍ منها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ الخيرَّة ربَّما كـانت للعبـدِ في الصَّبر على ما يكرههُ؛ يقولُ: لعلكم أيُّها الأزواجُ أنْ تكرهُوا صُحْبَتَـهُنَّ ويجعـلُ الله في ذلـك خـيراً كثيراً بأن يَرْزُقَكُمْ منهنَّ الأولادَ، فتظهرُ بعد ذلك الأُلْفَةُ والموافقـةُ، وتنقلـبُ الكراهـة صُحْبَةً؛ والنفورُ ميلاً. وقيل: يعني بالخيرِ الكثير: ما يحصلُ له من الثَّواب في الآخرة في الإنفاقِ عليها. وقيل: معناهُ: عسَى اللهُ أن يقضيَ بالفراقِ على وجهٍ يحمَدُ، فيستبدلُ به المرأةُ مَن هو خيرٌ لَها منهُ، ويستبدلُ هو بها مَن هي خيرٌ له منها.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٠٨٠ و٧٠٨١).

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ[1] عِنْدَكُمْ، أخَذْتُمُوهُنَّ بِأمَانَةِ اللهِ؛ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ؛ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أحَداً تَكْرَهُونَهُ، فَإنْ فَعَلْنَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ][2] وقالَ ﷺ: [أبْغَضُ الْحَلاَلِ إلَى اللهِ تَعَالَى الطَّلاَقُ][3] قَالَ ﷺ: [تَزَوَّجُوا وَلاَ تُطَلِّقُوا، فَإنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الذوَّاقِينَ وَالذوَّاقَاتِ[4]][5].

قالَ تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ ؛ الآيةُ؛ أيْ إنْ أردتُم تخليةَ امرأةٍ، ولم يكن مِن قِبَلِهَا نشوزٌ وإتيانُ فاحشةٍ؛ ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾ ؛ أي مَالاً عظيماً، وتقدَّم تفسيرُ القنطار؛ ﴿ فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ ؛ مِمَّا أعطيتمُوها، ﴿ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ظُلْماً وذنباً ظاهراً، والبُهْتَانُ: هُوَ الْبَاطِلُ الَّذِي يَتَحَيَّرُ مِنْ بُطْلاَنِهِ، ومن ذلك سُمِّيَ الكذبُ العظيم لأنَّهُ يُبَاهِتُ بهِ مُحَيِّرُهُ، وَيَتَحَيَّرُ المكذوبُ عليه لِعِظَمِهِ، وأصلُ الْبُهْتِ: التَّحَيُّرُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[6] أي تحيَّر لانقطاعِ حُجَّتِهِ، وإنَّما سَمَّى اللهُ تعالى أخذ المهرَ بغير حقٍّ بالبهتان؛ لأن الزوجَ لَمَّا استعملَ الْمَكْرَ والخداعَ في أخذِ ما أعطاها، صارَ في الوزر بمنْزلة مَن يكذِّبوهم أنَّ الذي قالَهُ حَقٌّ.

---

(١) في المخطوط: (عورات) والتصحيح من لفظ الترمذي في جامعه؛ ثم قال: ((ومعنى [عِوَانٌ عِنْدَكُمْ] يعني أسرى في أيديكم)).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الحج: باب حجة النبي: الحديث (١٤٥/ ١٢١٨) شطر حديث طويل. وأبو داود في السنن: الحج: باب صفة حجة النبي ﷺ: الحديث (١٩٠٥) عن جابر. والترمذي في الجامع: أبواب الرضاع: باب ما جاء في حق المرأة: الحديث (١١٦٣)؛ وقال: ((هذا حديث حسن صحيح عن سليمان بن عمرو بن الأحوص)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٠٨٤) عن جابر، وفي النص (٧٠٨٥) عن ابن عمر.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الطلاق: باب في كراهية الطلاق: الحديث (٢١٧٨) عن ابن عمر. وابن ماجة في السنن: كتاب الطلاق: الحديث (٢٠١٨).

(٤) في أصل المخطوط: (الزوَّاقِينَ والزوَّاقَاتِ).

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال: ج٦ ص١٩٦: ترجمة (٣١٢/ ١٢٧٩) عمرو بن جميع. وفي كشف الخفا: ج ١ ص٢٧٢: الحديث (٩٧١)؛ قال العجلوني: ((قال ابن الجوزي: حديث موضوع، ورواه الطبراني عن أبي موسى... وذكره)).

(٦) البقرة / ٢٥٨ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي كيف تستحلُّون أخذ شيءٍ منهُ، وقد وَصَلَ بعضُكم إلى بعضٍ. قال ابنُ عبَّاس: (الإفْضَاءُ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ)[(١)].

وقال جماعةٌ من أهلِ التَّفسيرِ: (إذا كَانَ مَعَهَا فِي لِحَافٍ وَاحِدٍ، جَامَعَهَا أوْ لَمْ يُجَامِعْهَا؛ فَقَدْ وَجَبَ الْمَهْرُ. وعنْ زُرَارَةُ بن أوفَى أنه قال: (قَضَى الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ: أنَّهُ مَنْ أغْلَقَ عَلَى امْرَأةٍ بَاباً، أوْ أرْخَى سِتْراً، وَكَشَفَ خِمَاراً فَقَدْ وَجَبَ الْمَهْرُ وَالْعِدَّةُ)[(٢)]. وذكرَ الفرَّاءُ: (الإفْضَاءُ هُوَ الْخُلْوَةُ وَإنْ لَمْ يَقَعْ دُخُولٌ) كَأنَّهُ ذهبَ إلى أن الإفضاءَ مأخوذٌ من الفضَاءِ، وهو المكانُ المتَّسعُ الذي ليسَ فيه بناءٌ ولا حاجزٌ عن إدراكِ ما فيه، فسمِّيت الخلوةُ فضاءً لحصولِ الزوجِ إلى جميعِ ما يقصدُه من الوطءِ، والدُّخولِ في موضعٍ لا مانعَ فيه من ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) أي عَهْداً وَثِيْقاً وهو ذكرُ المهرِ في النِّكاحِ، وقيل: هو ما أشْرَطَ اللهُ تعالى للنِّساءِ على الرجلِ من إمساكٍ بمعروفٍ أو تسريحٍ بإحسان. وقال الشعبيُّ وعكرمة والربيعُ: (هُوَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: [أخَذْتُمُوهُنَّ بأمَانَةِ اللهِ؛ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بكَلِمَةِ اللهِ][(٣)].

فَصْلٌ: فيما وردَ من الأخبارِ في الرُّخصةِ في الْمُغَالاَةِ بالمهور، قال عطاءُ: (خَطَبَ عُمَرُ رضي الله عنه إلَى عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ابْنَتَهُ أمَّ كُلْثُومٍ وَهِيَ مِنْ فَاطِمَةَ بنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه: إنَّهَا صَغِيْرَةٌ، فَقَالَ عُمَرُ: إنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [إنَّ كُلَّ نَسَبٍ وَصِهْرٍ يَنْقَطِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلاَّ نَسَبي وَصِهْرِي] فَلِذلِكَ رَغِبْتُ فِي هَذا، فَقَالَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: فَإنِّي مُرْسِلُهَا إلَيْكَ حَتَّى تَنْظُرَ إلَى صِغَرِهَا، فَأرْسَلَهَا إلَيْهِ،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٠٩١) بأسانيد.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الصداق: باب من قال: من أغلق باباً أو أرخى ستراً: الحديث (١٤٨٤٥)، وقال: هذا مرسل: زرارة لم يدركهم؛ وقد رويناه عن عمر وعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا موصولاً.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧١٠٣) عن الربيع، وفي النص (٧١٠٢) عن عكرمة. والحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الحج: الحديث (١٤٧/ ١٢١٨)، وقد تقدم تخريجه.

فَجَاءَتْهُ فَقَالَتْ: إنَّ أبي يَقُولُ لَكَ هَلْ رَضِيْتَ هَذِهِ الْحُلَّةَ ؟ فَقَالَ: قَدْ رَضِيتُهَا، فَأنْكَحَهُ عَلِيٌّ؛ فَأصْدَقَهَا عُمَرُ أرْبَعِينَ ألْفَ دِرْهَمٍ)[١]. وعنْ نافعٍ عن ابن عمرَ رضي الله عنه: (أنَّهُ كَانَ يُزَوِّجُ الْمَرْأةَ مِنْ بَنَاتِهِ عَلَى عَشْرَةِ آلاَفِ دِرْهَمٍ)[٢]. وتزوَّج ابنُ عبَّاس رضي الله عنه امرأةً على عشرةِ آلاف دِرْهمٍ.

فَصْلٌ: في أقلِّ المهر. رويَ عن عمرَ رضي الله عنه: أنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ؛ فَحَمَدَ اللهَ تَعَالَى وَأثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: (ألاَ لاَ تُغَالُوا فِي صِدَاقِ النِّسَاءِ؛ فَإنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرَمَةً فِي الدُّنْيَا، أوْ تَقْوَى عِنْدَ اللهِ لَكَانَ أوْلاَكُمْ بِهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم)[٣]. مِنْ يُمْنِ الْمَرْأةَ أنْ يَسَّرَ صِدَاقَهَا وَأنْ يَسَّرَ رَحِمَهَا[٤]. وعن أبي هُريرة قال: (كَانَ صِدَاقُنَا مُنْذُ كَانَ فِيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَشْرُ أوَاقٍ أرْبَعُمِائَةِ دِرْهَمٍ)[٥]. وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ: [أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَزَوَّجَ أمَّ سَلَمَةَ عَلَى عَشْرَةِ دَرَاهِمَ][٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ ؛ روي أنَّهم كانوا بعدَ قوله: (يَـأيهَا الذِينَ ءامَنُوا لاَ يَحِل لَكُم أن تَرِثُوا النسَاء كَرهاً)إذا رَضِيَتِ المرأةُ أمسكَها وَلِيُّ الميتِ، وبرضَاها على حكمِ النِّكَاحِ، فإذا سَخِطَتْ تَرَكَهَا فحرَّم اللهُ ذلك عليهم بهذه الآيةِ. ومعنَاها: لاَ تَزَوَّجُوا ما تَزَوَّجَ آباؤُكم من النساءِ، ويقال: لاَ تَطَأُوا ما وَطِئ آباؤُكم.

واسمُ النِّكَاحِ يقعُ على العقدِ والوطءِ جميعاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ) معناه إلا ما قد سلف في الجاهليَّة من نكاحِ منكوحةِ الأب كان ذلك مَعْفُواً لكُم لا

---

(١) أخرجه ابن سعد في طبقاته: ج ٨ ص٤٦٣-٤٦٤. والحاكم في المستدرك بلفظ قريب: كتاب معرفة الصحابة: الحديث (٤٧٣٨).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الصداق: الأثر (١٤٦٩١) عن عمرو بن دينار، لكن قال: ((على ألف دينار)).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: الأثر (١٤٦٨٣).

(٤) من قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: الأثر (١٤٧٠٦).

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: الأثر (١٤٧٠٢).

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ١ ص٢٨٦: الحديث (٤٦٧). في مجمع الزوائد: كتاب النكاح: باب الصداق: ج ٤ ص٢٨٢؛ قال الهيثمي: ((فيه عمر بن الأزهر، متروك)).

تؤاخَذُون به. وقال قُطْرُبُ: (هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ؛ تَقْدِيْرُهُ : لَكِنْ مَا قَدْ سَلَفَ فَدَعُوهُ فَاجْتَنِبُوا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ ؛ يعني أنَّ نكاحَ امرأةِ الأب كان فاحشةً فيما سلفَ؛ لأنَّهم كانوا يسمُّونه في الجاهليَّةِ (نِكَاحَ الْمَقْتِ) وكان المولودُ يقال له الْمَقْتِيُّ، فأعلَمَهُم اللهُ تعالى أنَّ هذا الذي حَرَّمَ عليهم لم يزل مُنْكَراً في قلوبهم مَمْقُوتاً عندَهم، وَالْمَقْتُ: هُوَ الْبُغْضُ عَلَى أمْرٍ قَبِيْحٍ رَكِبَهُ صَاحِبُهُ، وقيل الْمَقْتُ: هُوَ أشَدُّ الْبُغْضِ، والفاحشةُ اسمٌ لِما يرتفعُ ذكر قَبيحَتِهِ فيما بين الناس. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي نكاحُ امرأةِ الأب طريقُ سوءٍ؛ لأنه يؤدِّي إلى جهنَّمَ، و(سَبِيْلاً) نُصِبَ على التمييز.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ ، قال ابنُ عبَّاس: ((حَرَّمَ اللهُ مِنَ النِّسَاءِ أرْبَعَةَ عَشَرَ صِنْفاً؛ سَبْعَةٌ بالنَّسَبِ؛ وَسَبْعَةٌ بالسَّبَبِ، وَتَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ثُمَّ قَالَ: وَالسَّابعَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ))(١). والجدَّاتُ - وإن بعُدت- مُحرَّمَاتٌ؛ لأنَّ اسمَ الأمَّهاتِ يَشْمَلُهُنَّ، كما أن اسم الآباء يتناولُ الأجدَادَ وإن بَعُدوا، واسمُ البَنَاتِ يتناولُ بناتَ الأولادِ وإن سَفِلْنَ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأخَوَاتُكُمْ) يشمَلُ الأخواتِ مِن الأب والأمِّ ومن الأب ومن الأمِّ، قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ) يتناولُ عمَّاتِ الأب والأمِّ وخالاتِ الأمِّ والأب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ ؛ قال ﷺ:[يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ](٢) وَقَالَ ﷺ: [تُحَرِّمُ الْجُرْعَةُ وَالْجُرْعَتَانِ مَا يُحَرِّمُ الْحَوْلاَنِ الْكَامِلاَنِ].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧١١٢) باسانيد. وفي النص (٧١١٤) بلفظه. وفي صحيح البخاري: كتاب النكاح: باب ما يحل من النساء وما يحرم.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط عن عائشة: الرقم (٥٥٢)، وعن أنس في الرقم (٢٠٨١).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّ أفْلَحَ أخَا أبي القُعَيْسِ جَاءَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا بَعْدَ نُزُول آيَةِ الْحِجَاب وَكَانَ عَمَّهَا مِنَ الرِّضَاعَةِ؛ قَالَتْ: فَأَبَيْتُ أنْ آذنَ لَهُ حَتَّى أخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: [لِيَلِجَ عَلَيْكِ؛ فَإنَّهُ عَمُّكِ] فَقَالَتْ: إنَّمَا أرْضَعَتْنِي الْمَرْأةُ، وَلَمْ يُرْضِعْنِي الرَّجُلُ ! فَقَالَ ﷺ: [لِيَلِجَ عَلَيْكِ فَإنَّهُ عَمُّكِ]، وَكَانَ أبُو القُعَيْسِ زَوْجَ الْمَرْأةِ الَّتِي أرْضَعَتْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس وعطاءُ وسعيد بن جبير: (إنَّ أمَّ الْمَرْأةِ مُبْهَمَةٌ[2] تَحْرُمُ عَلَى زَوْجِ ابْنَتِهَا بنَفْسِ الْعَقْدِ)[3]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ ؛ لا خِلاَفَ بينَ أهلِ العلم أنَّ كونَها في حَجُورهِ لا يكونُ شرطاً في تحريْمِها وإنَّما ذكرَهُ اللهُ تعالى على عادةِ الناسِ أنَّ الرَّبيْبَةَ تكونُ في حِجْرِ زَوْجِ الأُمِّ، فخرجَ الكلامُ على وفق العادة دونَ الشرطِ، وهذا كقولهِ: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾[4] ومعلومٌ أن المعتكفَ لا يحلُّ له الجماعُ وإن كان قد خرجَ من المسجد لحاجةٍ، إلاَّ أنَّ الغالبَ مِن حالِ العاكفِ أن يكون في المسجدِ، فَقَرَنَهُ بذكرِ المسجدِ.

وأما قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ نِسَائِكُمْ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) فمِنَ الناسِ مَن رَدَّ هذا الشرطَ على قوله (مِنْ نِسَائِكُمْ) وعلى قوله (وَأمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ) فَشَرَطَ الدخولَ بالنِّساءِ في المسألتين في بيوت التحريمِ المذكور في الآيةِ؛ على معنى أنَّ اللهَ عَطَفَ حُكماً على حكمٍ وعقَّبهما بشرطِ الدُّخول بقوله: (اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) وهو قولُ بشْرِ بن غيَّاث؛ إلاَّ أنَّ هذا لا يَصِحُّ؛ لأنَّ قولَه (وَأمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ) جملةٌ مستقلةٌ[5] بنفسِها.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب النكاح: باب ما يحل من الدخول والنظر إلى النساء في الرِّضاع: الحديث (٥٢٣٩)، وفي كتاب التفسير: الحديث (٤٧٩٦).

(٢) في أصل المخطوط: (متهمة) والصحيح ما أثبتناه.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب النكاح: الأثر (١٤٢٢٦).

(٤) البقرة / ١٨٧ .

(٥) في المخطوط: (مستقبلة) وهو تصحيف.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَرَبَائِبُكُمْ) بما فيه من شرطِ الدُّخول جملةٌ أخرى مستقلة بنفسِها فلم يَجُزْ بناءُ إحدى الجملتين على الأخرى، ولو جعلنَا شرطَ الدخولِ راجعاً إلى الأوَّل، لَخصَّصْنَا عمومَ اللفظِ الأول بالشَّكِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي فإن لم تكونوا دَخَلْتُمْ نساءَكم، فلا حرجَ عليكم في تزويجِ الرَّبَائِب إذا طلقتُم أمَّهاتُهنَّ قبلَ الدخول، أو مَاتَتْ أمَّهاتُهنَّ قبلَ دخول الزوج بهنَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ﴾ ؛ أي وَنِكَاحَ نساءِ أبنائكم؛ ﴿ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ ؛ وإنَّما سُميت امرأةُ الابن حَلِيْلَةً؛ لأنَّها تحلُّ معه في الفراش، وقيل: لأنَّها حَلَالٌ لَهُ، وأمَّا أمَةُ الابن فلا تُسمى حليلةً، ولا تَحْرُمُ على الأب ما لم يَطَأها الابنُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ أَصْلابكُمْ) ليس هو على ما ظَنَّ بعضُ الناس أنه مَن شَرَطَ الصُّلْبَ في هذه الآية؛ أخرجَ امرأةَ الابن في الرِّضاع من التحريم، بل امرأةُ الابن في الرِّضاع بمَنْزلةِ امرأة الابن من الصُّلْب في الْحُرْمَةِ، وإنَّما شرطَ اللهُ تعالى كَوْنَ الابن من صلبه لإخراجِ امرأةِ الابن من التَّبَنِّي عن التحريم. فإنَّ النبيُّ ﷺ لَمَّا تَزوَّجَ امْرَأةَ زَيْدِ بْنَ الْحَارِثَةِ بَعْدَمَا فَارَقَهَا زَيْدٌ؛ تَكَلَّمَ فِيْهِ الْمُشْرِكُونَ وَقَالُوا: إنَّ مُحَمَّداً تَبَنَّى هَذا ثُمَّ تَزَوَّجَ امْرَأتَهُ، وَكَانُوا يَجْعَلُونَ الْمُتَبَنَّى بمَنْزِلَةِ ابْنِ الصُّلْب فِي الْمِيْرَاثِ وَالْحُرْمَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ(١)، وَقَوْلَهُ: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ﴾(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ﴾ ؛ في موضعِ رفعٍ، ومعناهُ: وحَرَّمَ عليكم أنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ، وصورةُ الجمعِ أن يتزوَّجَ أختين، أو في عقدين لا يَدْري أيَّتُهما كانتِ هي الأولى، وأمَّا إذا تزوَّجَ امرأةً ثُم تزوَّجَ بعد ذلك أخْتَها وهو يعلمُ الثانيةَ؛ فنكاحُ الثانيةِ حرامٌ دون الأُولى؛ لأنَّ الجمعَ حَصَلَ بالثانيةِ، ويَحْرُمُ عليه أيضاً بين وَطْءِ الأختين بمِلْكِ اليمينِ، ويحرمُ عليه أيضاً تزوُّج إحداهُما والأخرى

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧١٢٣).
(٢) الأحزاب / ٥ .

مُعْتَدَّةٌ منهُ في طلاقٍ بائن، أو رجعيٌّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ ؛ إلاّ ما مَضَى في الجاهليَّةِ فإنـه مَعْفُـوٌّ لكـم إذا تُبتـم عنـهُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يُؤَاخِذُكُمْ بما كان منكم قبلَ التحريم.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ ؛ هذه الآيةُ عطفٌ على مـا تقـدَّم؛ أي وَحَـرَّمَ عليكـم المحصنـاتِ وهـنَّ ذواتُ الأزواجِ اللاَّتي أحصِنَّ بالأزواجِ، (إلاَّ مَـا مَلَكَـتْ أيْمَـانُكُمْ) أي إلاَّ مَـا أفَـاءَ اللهُ عليكـم مـن السَّبَايَا. ورويَ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ: أنَّ الْمُسْلِمِيْنَ أصَابُواْ يَوْمَ أوْطَاسَ سَـبَايَا لَـهُنَّ أزْوَاجٌ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ؛ فَتَـأثَّمَ الْمُسْلِمُونَ مِـنْ وَطْئِـهِنَّ؛ وَقَـالُوا: لَـهُنَّ أزْوَاجٌ فِـي دَار الْحَرْب فَأنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ، فَنَادَى مُنَادِي رَسُـولُ اللهِ ﷺ: [ألاَ لاَ تُوْطَـأ الْحُبَـالُ حَتَّـى يَضَعْنَ، وَلاَ غَيْرُ الْحُبَالِ حَتَّى يَسْتَبْرئْنَ بحَيْضَةٍ][١].

وَذهَبَ بعضُ الصحابَة وهو أبَيُّ بن كعبٍ، وأنسُ وجابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: (أنَّ الأَمَةَ إذا خَرَجَتْ مِنْ مِلْكِ مَوْلاَهَا إلَى مِلْكِ رَجُلٍ آخَرَ؛ حَرُمَـتْ عَلَـى زَوْجِـهَا بـأيِّ سَبَبٍ خَرَجَتْ)[٢] حتى رُويَ عن ابنِ عبَّاس أنـهُ قـالَ: (طَـلاَقُ الأَمَـةِ يُثْبـتُ طَلاَقَـها وَبَيْعَهَا وَهِبَتَهَا وَمِيرَاثُهَا وَسَبْيُهَا وَصَدَقَتُهَا)[٣].

وأنكرَ ذلك عَلِيٌّ وعمرُ وعبدُالرحمنِ بن عوفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ وقـالوا: (إنَّمَـا نَزَلَتِ الآيَةُ فِي السَّبَايَا خَاصَّةً بَدَلِيْلِ مَا رُويَ أنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا اشْـتَرَتْ بَرِيْـرَةَ وَأعْتَقَتْهَا؛ فَخَيَّرَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَكَانَ زَوْجُهَا عَبْداً أسْوَدَ يُسَمَّى مَغِيْثاً).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧١٢٩) بإسانيد. وفي الدر المنثور: ج ٢ ص٤٧٨؛ قـال السيوطي: ((أخرجه الطيالسي وعبدالرزاق والفريابي وابن أبـي شـيبة وأحمـد وعبـد بـن حميـد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأبـو يعلـى وابـن جريـر وابـن المنـذر وابـن أبـي حـاتم والطحاوي وابن حبان والبيهقي)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان مختصراً: النص (٧١٣٣)؛ قال: ((قالوا: بيعها طلاقها)).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧١٣٥)؛ قال: ((طـلاق الأمـة ستٌّ: بيعـها، وعتقـها، وهبتها، وبراءتها، وطلاق زوجها)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ ؛ نُصِبَ على المصدر؛ أي كَتَبَ اللهُ عليكم كتابَ اللهِ، وقيل نُصِبَ على الإغراءِ؛ أي إلْزَمُوا كتابَ اللهِ، واتَّبعُوا كتابَ اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ ﴾ ؛ قرأ أهلُ الكوفة (وَأُحِلَّ) على ما لَم يسمَّ فاعلهُ، نَسَقاً على قوله (حُرِّمَتْ)، وقرأ الباقون بالفتحِ على أنهُ قد ذكرَ اللهُ بقوله: (كِتَابَ اللهِ)، والمعنى: أحَلَّ لكُم نكاحَ ما سِوَى ما ذكرتُ لكم من الْمُحَرَّمَاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ ﴾ ؛ بدل من (مَا)، فمن رفعَ أحَلَّ فموضعها رفعٌ، ومن نصبَ فموضعُها نصبٌ. وقال الكسائيُّ: (مَوْضِعُهُ نَصْبٌ فِي الْقِرَائَتَيْنِ بنَزْعِ الْخَافِضِ، يَعْنِي لِئَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ؛ أيْ تَطْلُبُوا بِأمْوَالِكُمْ إمَّا بِنِكَاحٍ أوْ بِملْكِ يَمِيْنٍ مُحْصِنِيْنَ؛ أيْ نَاكِحِيْنَ أعِفَّاءَ غَيْرَ زُنَاةٍ، وَأصْلُهُ مِنْ: سَفَحَ الْمَذِيُّ وَالْمَنِيّ). فِي هذا دليلٌ أن بَدَلَ الْبُضْعِ لا يجوزُ أن يكون صِداقاً، وكذلكَ خدمةُ الزَّوجِ لا يكونُ صِداقاً عند أبي حنيفةَ وأبي يوسف.

وأصْلُ الإحْصَانِ في اللغة: مَا يَمْنَعُ، ومنه يسمَّى الْحِصْنُ حِصْناً؛ لأنه يَمْنَعُ مِن العدوِّ، ومنه الدِّرْعُ الْحَصِيْنَةُ؛ أي الْمَنِيْعَةُ، وَالْحِصَانُ بكسر الحاء: الْفَحْلُ من الخيلِ يَمْنَعُهُ رَاكِبُهُ مِنَ الْهَلاَكِ، والْحَصَانُ بفتح الحاء: الْعَفِيْفَةُ مِنَ النِّسَاءِ لِمَنْعِهَا فَرْجَهَا؛ مَنه قال حِسَانُ في عائشةَ:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بريبَةٍ وَتُصْبحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

والإحْصَانُ في القُرْآنِ يقعُ على معانٍ مختلفة منها: نِكَاحٌ كما في أوَّل هذه الآيةِ؛ ومنها: الْحِزْيَةُ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[1]، ومنها: الإسْلاَمُ كما في قولِهِ تعالى: (فَإذا أحْصِنَّ فَإنْ أتَيْنَ بفَاحِشَةٍ) أي اذا أسْلَمْنَ، ومنها: الْفِقْهُ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ ؛ اختلفُوا في معنى ذلكَ. قال الحسنُ ومجاهدُ: (يَعْنِي فَمَا اسْتَمْتَعتُمْ وَتَلَذَذْتُمْ بالْجِمَاعِ مِنَ النِّسَاءِ

(١) المائدة / ٥ .
(٢) النور / ٤ .

بالنِّكَاحِ الصَّحِيْحِ فَآتُوهُنَّ مُهُورَهُنَّ) وهو قولُ ابنِ عبَّاس: أنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْمُتْعَةِ؛ أسِفَاحٌ أمْ نِكَاحٌ ؟ فَقَالَ: (لاَ سِفَاحٌ وَلاَ نِكَاحٌ) قِيْلَ: فَمَا هِيَ ؟ قَالَ: (الْمُتْعَةُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى) قِيْلَ لَهُ: هَلْ لَهَا مِنْ عِدَّةٍ ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ حَيْضَةٌ) قِيْلَ: هَلْ يَتَوَارَثَان ؟ قَالَ: (لاَ)[١]. ثم رُوِيَ عنه أنه رَجَعَ عن القول بالمتعة، وقال عندَ مَوْتِهِ:(اللَّهُمَّ إنِّي أتُوبُ إلَيْكَ مِنْ قَوْلِي بالْمُتْعَةِ، وَقَوْلِي مِنَ الصَّرْفِ فِي دِرْهَمٍ بدِرْهَمَيْنِ يَداً بيَدٍ).

وَعن عُمَرَ رضي الله عنه أنَّهُ خَطَبَ حِيْنَ وُلِّيَ فَقَالَ:(أيُّهَا النَّاسُ؛ إنَّ اللهَ تَعَالَى أحَلَّ لَنَا الْمُتْعَةَ ثَلاَثاً ثُمَّ حَرَّمَهَا؛ وَأنَا أقْسِمُ باللهِ لاَ أحَدٌ تَمَتَّعَ إلاَّ رَجَمْتُهُ). وعنهُ أيضاً أنه قالَ:(لاَ أوْتَى برَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأةً إلَى أجَلٍ إلاَّ رَجَمْتُهُ بالْحِجَارَةِ)[٢]. وعن ابن مسعُود: (أنَّ الْمُتْعَةَ كَانَتْ رُخْصَةً لأَصْحَاب مُحَمَّدٍ ﷺ فِي غُزَاةٍ شَكَواْ فِيْهَا الْغُرْبَةَ، ثُمَّ نَسَخَتْهَا آيَةُ النِّكَاحِ)[٣].

وقد أجمعَ سائرُ الفقهاءِ والعلماء والتابعينَ والسَّلف الصالحين على أنَّ هذهِ الآيةُ منسوخةٌ، ومتعةُ النِّساءِ حَرَامٌ. روَى الربيعُ عن سُبْرَةَ الْجُهَنِيُّ عن أبيهِ قال: كُنَّا مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ؛ فَشَكَوْنَا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ الْغُرْبَةَ، فَإذا هُوَ يَقُولُ:[يَا أيُّهَا النَّاسُ؛ إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ حَرَّمَ ذلِكَ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ][٤]. قال بعضُهم: سَألْتُ الْحَسَنَ عَنْ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ، فَقَالَ: (إنَّمَا كَانَ ثَلاَثَةَ أيَّامٍ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ نَهَى عَنْهُ).

قوله: (فَآتُوهُنَّ أجُورَهُنَّ) أي مُهُورَهُنَّ، يسمَّى المهرُ أجراً؛ لأنه ثَمَنُ البُضْعِ، أو لأنهُ بدلٌ من المنافعِ، كما يسمَّى بدلُ منفعةِ الدار والدابَّة أجراً. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرِيضَةً ﴾ ؛ أي أعطوهُنَّ أجورَهن فَرِيْضَةً من الله لَهُنَّ عليكم، والفرضُ ما يكون في أعلَى مراتبِ الإيجابِ عن الله تعالى، ولِهذا لا يجوزُ إسقاطُ المهرِ في ابتداءِ العقدِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٤٨٧-٤٨٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن المنذر من طريق عمار مولى الشريد)).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب النكاح: الأثر (١٤٥٠٧) وما بعده.

(٣) بمعناه أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: الحديث (١٤٤٧٧ و١٤٤٧٨) وأصلهما في الصحيحين.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب النكاح بأسانيد كثيرة: (١٤٤٨٤-١٤٤٩١) وأصله في الصحيحين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ﴾ ؛ أي لا إثْمَ عليكُم فيما تراضَيتُم به من الزيادةِ والنقصان في المهرِ من بعد الفريضة في ابتداء النِّكاح. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي عَلِيْماً بما يصلحُ أمرَ العبادِ، حَكِيْمٌ فيما أمركُم به ونَهاكم عنهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس وابن جُبير وقتادةُ ومجاهد: (الطَّوْلُ الْغِنَى وَالسَّعَةُ) أي ومَن لم يستطِعْ منكم غِنىً وقدرةً، ولم يَجِدْ مَالاً يتزوجُ به الحرائرَ؛ فليتزوَّجْ بعضُكم من إمَاءِ بعضٍ. وقال جابرُ ابن زيد وربيعةُ والنخعيُّ: (الطَّوْلُ الْهَوَى) أي مَن لم يَقْدِرْ منكم على نكاحِ الحرائِرِ هوىً وعِشْقاً بِأمَةٍ من الإماءِ لا يتَّسِعُ قلبُه لنكاحِ الحرَّةِ، فليتزوَّج بالأَمَةِ التي يَهْوَاها من الإماءِ المؤمناتِ. قرأ الكسائيُّ: (الْمُحْصِنَاتِ) بكسر الصَّاد في كلِّ قراءةٍ إلاّ الأوَّل وهو قولهُ: (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ النِّسَاءِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ﴾ ؛ أي بحقيقةِ الإيْمان وأنتُم تعرفون الظَّاهِرَ، وليسَ عليكُم أنْ تبحثُوا عن الباطنِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ ؛ أي في الدِّين، وقيلَ: مِنَ النَّسب؛ أي كلُّكم ولْدُ آدم عليه السلام، وإنَّما قالَ ذلك؛ لأن العربَ كانت تطعنُ في الأنسابِ، وتفخرُ بالأحسَابِ وتعيِّرُ بِالْهُجْنَةِ، وتسمِّي ابنَ الأَمَةِ (الْهَجِيْنُ)، فأعلَمَ اللهُ أنَّ الأَمَةَ في جواز نكاحِها كالحرَّة لذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ ؛ أي انْكِحُوا الإماء بإذن مَوَالِيهِنَّ واعطوهُنَّ مهورَهن؛ يعني بإذنِ أهلهِنَّ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ أي مهرٌ غيرُ مهر البغيِّ وهو أن يكون عشرةَ دراهِمَ فما فوقَها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ ﴾ ؛ أي عَفَائفَ غيرَ زَوَانٍ مُعْلِنَاتٍ بالزِّنا، ﴿ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ ؛ أي أخِلاَّءَ في السِّرِّ؛ وذلك لأنَّ أهلَ الجاهليَّة كان فيهم زَوَانٍ بالعلانيَةِ لَهنَّ راياتٌ مضروبةٌ، وبعضُهن اتخذتْ أخْدَاناً في السِّرِّ حتَّى قال

ابنُ عبَّاس: (كَانَ فِيْهِمْ مَنْ يُحَرِّمُ مَا ظَهَرَ مِنَ الزِّنَا، وَيَسْتَحِلُّ مَا خَفِيَ فِيْهِ، فَنَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ نِكَاحِ الْفَرِيْقَيْنِ جَمِيْعاً)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ﴾ ؛ معناه: أن الإماءَ اذا أسلمْنَ وتزوَّجن، ومن قرأ (أَحْصِنَّ) بضمِّ الهمزة فمعناهُ: اذا زُوِّجْنَ وأحْصِنَّ بالأزواجِ، (فَإِنْ أتَيْنَ بفَاحِشَةٍ) يعني الزِّنا فَعَلَيْهِنَّ نصفُ قَدْر الحرائرِ: خَمْسُونَ جَلْدَةً. والمرادُ بهذه الآيةِ: نصفُ الجلدِ؛ لأن الرجمَ لا نصفَ له.

وذهبَ عامَّةُ الفقهاءِ إلى أنَّ الإسلامَ والتَّزَوُّجَ لا يكونا شرطاً في وجوب الجلدِ على الأَمَةِ؛ فإنَّها وإن لم تكن مُحْصَنَةً بالإسلامِ والتزويجِ أُقِيْمَ عليها نِصْفُ حَدِّ الْحُرَّةِ إنْ زَنَتْ[2]؛ فَقَالَ ﷺ: [إنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا؛ ثُمَّ إنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا؛ ثُمَّ إنْ زَنَتْ فَبِعْهَا]. واستدلُّوا بما رُوي عن أبي هُريرة رضي الله عنه عنِ النبيِّ ﷺ: (أنَّهُ سُئِلَ عَنِ الأَمَةِ إذا زَنَتْ وَلَمْ تُحْصَنْ [فَبِيْعُوهَا])[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ ﴾ ؛ أي تزويجَ الإماءِ والرِّضا بنكاحهنَّ عند عدمِ طَوْلِ الْحُرَّةِ لمن خَشِيَ الزِّنا منكُم، وقيل: لِمَنْ خشِيَ الضررَ في الدِّين والدنيا، (مِنكُم)؛ عن نكاحِ الإمَاءِ، ﴿ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ ﴾ ، وإنَّما قالَ ذلكَ؛ لأن ولدَ الأمةِ رقِيْقاً لِمَوْلَى الأمَةِ، ولهُ استخدامُ الأمَةِ في الحاجاتِ وبين أيدِي الرِّجال الأجانب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي غَفُورٌ لِما أصبتُم من الْحُرُمَاتِ يَغْفِرُ لكُم بعد التوبةِ، رَحِيْمٌ لا يُعَجِّلُ بالعقوبةِ على المذنبين.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٢١٣).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الحدود: باب حد الرجل أمَته إذا زنت: الحديث (١٧٥٨٢) عن أبي هريرة، والحديث (١٧٥٨٣) عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني، وقال: رواه البخاري في الصحيح ومسلم.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب العتق: باب (١٧): الحديث (٢٥٥٥ و٢٥٥٦)، وفي كتاب الحدود: باب (٣٥).

فإن قِيْلَ: ما فائدةُ شرطِ الإحصان في قولِهِ تعالى: (فَإذا أُحْصِنَّ) والأَمةُ تُحَدُّ حَدَّ الزنا سواءٌ كانت مُحْصَنَةً بالإسلامِ والزوجِ أم لا ؟ قيلَ: فائدةُ ذكر إحصان الإماء في الآيةِ: أنَّ حدَّ الحرَّةِ يختلفُ بالإحصان وعدمِ الإحصان، فكان يجوزُ أن يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أنَّ حدَّ الأمةِ يختلفُ أيضاً بالإحصانِ بالإسلام والزوجِ، كما يختلفُ حدُّ الحرَّة بذلك؛ فأوجبَ الله تعالى ذلك الحدَّ بالْجَلدِ في الحالة التي يوجبُ فيها الرجمَ على الحرَّةِ؛ لِيُعْلِمَ أنَّ الإماءَ لا مُدْخَلَ لَهن في الرجمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) الْفَتَاةُ في اللغة: الشَّابَّةُ؛ إلاّ أنَّ الأَمَةَ تسمى فتاةً؛ عجوزاً كانت أم شَابَّة؛ لأنَّها لا تُوَقَّرُ تَوَقُّرَ الحرَّة الكبيرةِ. والأَخْدَانُ: جمع الْخِدْنِ؛ والْخَدِيْنُ: الصَّدِيْقُ. والعَنَتُ في اللغةِ: الْمَشَقَّةُ، ويسمَّى الزنا بهِ لأن فاعلَهُ يلقَى الإثْمَ العظيمَ في الآخرة، ويقامُ عليه الحدُّ في الدُّنيا.

وقد تعلَّق أصحابُ الشَّافِعِيِّ بظاهرِ هذه الآيةِ؛ فقالوا: إذا كان عندَ الرجلِ من الْمال ما يُمَكِّنُهُ أنْ يتزوجَ به الحرَّةَ؛ لا يجوزُ له أن يتزوَّجَ أكثرَ من أمَةٍ واحدة. وقالوا: ويجوزُ للعبدِ أن يتزوَّجَ الأَمَةَ. قالوا: لا يجوزُ أن يتزوجَ الأمةَ اليهوديَّةَ ولا النصرانيَّةَ، ولا يجوزُ أن يتزوجَ أكثرَ من أمةٍ واحدة. قالُوا: ويجوزُ للعبدِ أن يتزوجَ أمةً على الحرَّةِ؛ لأن هذهِ الآيةَ خطابٌ للأحرار، قالَ اللهُ تعالى: (فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ).

وليست هذه الآيةُ عند أصحابنا على طريقةِ الشَّرط، ولكن معنَاها: مَن لم يَبْسُطِ اللهُ له في الرِّزْقِ فَلْيَرْضَ بما قَسَمَ اللهُ له، وَلْيَعْقِدْ أدونَ نكاحين إن لم يقدِرْ على أعلاهُما، وفي قولهِ (مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) بيانُ أنَّ المؤمنةَ خيرٌ من الحرَّة الكتابيَّة، ولو كان جوازُ نكاحَ الأمة للحرِّ مقيَّداً لحال الضرورة وخَوْفِ العَنَتِ لكانَ الحرُّ إذا تزوجَ حرَّةً على الأمَةِ يبطلُ نكاحُ الأمَةِ، ولاَ خِلاَف إنْ كان نكاحُ الحرَّةِ إذا طرأ على نكاحِ الأمة لم يبطُلِ النكاحُ. وعن أبي يوسُفَ أنهُ تأوَّلَ هذه الآيةَ: على أنَّ وجودَ الطَّوْلِ هو كَوْنُ الحرَّةِ في نكاحهِ على ما وردَ به الحديثُ عن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [لاَ تُنْكَحُ الأَمَةُ عَلَى الْحُرَّةِ، وَتُنْكَحُ الْحُرَّةُ عَلَى الأَمَةِ][1] وهذا تأويلٌ صحيحٌ؛ لأن

---

(١) عن جابر بن عبدالله؛ أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب النكاح: باب لا تنكح أمة على حرة: الأثر (١٤٣٣٠)؛ وقال: هذا إسناد صحيح.

مَن لا يكونُ عندَه حرَّةٌ فهو غيرُ مستطيعٍ للطَّوْلِ إليها؛ لأن القدرةَ على الْمالِ لم يوجِبْ له مِلْكَ الوطئ إلاّ بعدَ وجودِ النكاحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ ؛ أي يُرِيْدُ اللهُ أنْ يُبَيِّنَ لكم ما تحتاجون إلى معرفتِهِ من الحلال والحرَام، وكيفيَّة الطاعةِ، ويُبَصِّرَكُمْ طريقَ الذين مِن قبلِكم من أهلِ التَّوراة والانجيلِ، يَدُلُّكُمْ على طاعةِ الله، كما دلَّ مَن قبلَكم، ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ ﴾ ؛ أي يَتَجَاوَزُ عنكم ما كان مِنكم في الجاهليَّةِ؛ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ؛ بما فعلتم وبمَّن يتوبُ؛ ﴿ حَكِيمٞ ٢٦ ﴾ ؛ فيما أمَرَكم به ونَهاكم عنهُ في قوله (لِيُبَيِّنَ) بمعنى (أنْ)، والعربُ تُعَاقِبُ بين لامِ كَي وبين (أنْ)، فيقعُ أحدُهما مكانَ الآخرِ، كقولِهِ ﴿وَأمِرْتُ لاَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾[1] وقولهُ ﴿وَأمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾[2] وفي موضعٍ آخر: ﴿وَأمِرْتُ أنْ أسْلِمَ﴾[3] وقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾[4] وفي موضع آخر ﴿أنْ يُطْفِئُوا﴾[5]، وقال الشاعرُ[6]:

أُرِيْدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بكُلِّ سَبيْلِ

يُرِيْدُ أنْ أنْسَى.

ومعنى الآية: يريدُ الله لِيُبَيِّنَ لكم شرائعَ دينِكم ومصالِحَ أمركم. وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: يُبَيِّنَ لَكُمْ مَا تَأْتُونَ وَمَا تَذرُونَ). وقال عطاءُ: (يُبَيِّنُ لَكُمْ مَا يُقَرِّبُكُمْ إلَيْهِ). وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: يُبَيِّنُ لَكُمْ أنَّ الصَّبْرَ عَلَى نِكَاحِ الإمَاءِ خَيْرٌ لَكُمْ (وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) أيْ شَرَائِعَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ فِي تَحْرِيْمِ الْبَنَاتِ وَالأُمَّهَاتِ وَالأَخَوَاتِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ ؛ أي يريدُ أن يَدُلَّكُمْ على ما يكون سَبَباً لتوبَتِكم، ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ ﴾ ؛ اختلفُوا في (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ) مَنْ هُمْ ؟ قال السُّدِّيُّ:

---

(١) الشورى / ١٥ .
(٢) الأنعام / ٧١ .
(٣) غافر / ٦٦ .
(٤) الصف / ٨ .
(٥) التوبة / ٣٢ .
(٦) البيت للمتوكل الليثي (ت ٨٥ هـ).

(هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى)[١]، وقال بعضُهم: هم الْمَجُوسُ لأنَّهم كـانوا يُحِلُّـونَ نكـاحَ الأخواتِ وبناتِ الأخِ وبناتِ الأختِ، فلمَّا حَرَّمَهُ اللهُ تعـالى؛ قـالوا: إنَّكـم تنكِحـون بناتَ الخالةِ وبناتَ العمَّةِ، والخالةُ حرامٌ عليكم، فانكِحوا بناتَ الأخِ وبنـات الأخـت كما تنكحُوا بناتَ الخالة والعمَّةِ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ. وقال مجاهدُ: (هُمُ الزُّنَـاةُ؛ يُرِيْدُونَ أنْ تَمِيْلُوا عَنِ الْحَقِّ فَتَكُونُوا مِثْلَهُمْ تَزْنُونَ كَمَا يَزْنُونَ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ ﴾ ؛ أي في نكاحِ الأَمَةِ إذا لم تجـدوا طَوْلَ الحرَّةِ، وفي كلِّ أحكامِ الشَّرعِ. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: يريـدُ الله لِيُسَـهِّلَ عليكُـم فيضـعَ أوزاركـم ويحُــطَّ ذنوبَكــم، ﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي أسِـيْراً للشهوة، وَقِيْلَ: ضَعِيفاً في كلِّ شيء.

وقال طاوُوس والكلبيُّ:(مَعْنَاهُ لاَ يَصْبِرُ عَلَى النِّسَاءِ، لَيْسَ يَكُـونُ الإنْسَـانُ فِـي شَيْءٍ أضْعَفَ مِنْهُ فِي أمْرِ النِّسَاءِ)[٣]. وقال سعيدُ بن المسيَّب: (مَا آيَـسَ الشَّـيْطَانُ مِـنْ ابْنِ آدَمَ إلاَّ أتَاهُ مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ، وَقَدْ أتَى عَلَيَّ ثَمَانُونَ سَنَةً وَذهَبَتْ إحْدَى عَيْنَيَّ، وَأنَا أخْوَفُ مَا أخَافُ عَلَى فِتْنَةِ النِّسَاءِ)[٤]. وقال عبادةُ بن الصَّامت: (ألاَ تَرَوْنِي مَا آكُلُ إلاَّ مَا لُوِّقَ لِي - أي لُيِّنَ وَسُخِّنَ- وَلاَ أقُومُ إلاَّ مَا قَدْ مَاتَ صَاحِبِي - يَعْنِي ذكَـرَهُ- وَمَـا يَسُرُّنِي أنِّي خَلَوْتُ بامْرَأةٍ لاَ تَحِلُّ لِي مَخَافَةَ أنْ يَأْتِيَنِي الشَّيْطَانُ فَيُحَرِّكَهُ عَلَـيَّ؛ أنَّـهُ لاَ سَمْعَ لَهُ وَلاَ بَصَرَ)[٥].

وقال الحسنُ: (مَعْنَى (وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا) أيْ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ مَـهِيْنٍ). وقـال ابنُ كَيْسَانَ: (مَعْنَاهُ: تَسْتَمِيْلُهُ شَهْوَتُهُ وَيَسْتَلِيْنُهُ خَوْفُهُ وَحُزْنُهُ). قال ابنُ عبَّاس: (ثَمَـانِي آيَاتٍ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ؛ هُنَّ خَيْرٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ: ﴿يُرِيـدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿يُرِيـدُ اللهُ أنْ يُخَفِّـفَ عَنْكُـمْ﴾؛ ﴿إنْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٢٥٤).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٢٥٣) بأسانيد.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٢٥٧) بأسانيد.
(٤) الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص١٤٩.
(٥) حكاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص١٤٩.

تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ﴾؛ ﴿إنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذرَّةٍ﴾؛ ﴿إنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾؛ ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بعَذابكُمْ إنْ شَكَرْتُمْ﴾؛ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ أوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أجُورَهُمْ﴾)[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾ ؛ أي لا يَأْكُلْ بعضكم مالَ بعضٍ بالظلم وشهادَةِ الزُّور واليمين الفاجرةِ والرِّبا والقمار وغير ذلك من الغَصْب والسرقَةِ والخيانَةِ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ ؛ استثناءٌ منقطعٌ؛ لأن الاستثناءَ خلافُ المستثنى منهُ؛ لأن التجارةَ ليست بباطلٍ، كأنَّهُ قالَ: لكن كُلُوا ما مَلَكْتُمْ بالْمُبَايَعَةِ عن تراضٍ منكم.

قرأ أهلُ الكوفةِ (تِجَارَةً) بالنصب على معنى: إلاَّ أن تكونَ الأموالُ تجارةً، وقرأ الباقون بالرفعِ على معنى: إلاَّ أن تقعَ تجارةٌ. رويَ[(٢)]: أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ امْتَنَعَ النَّاسُ عَنْ أكْلِ الأَمْوَال بالْهِبَةِ وَالْهَدِيَّةِ وَالضِّيَافَةِ حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلاَ عَلَى أنفُسِكُمْ أنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ الآيَةُ[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ؛ أي لا يَقْتُلْ بعضُكم بعضاً فإنَّكم أهلُ دِيْنٍ واحدٍ، وأنتم كنَفْسٍ واحدةٍ. قال ﷺ: [الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ؛ إذا ألِمَ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُ الأَعْضَاءِ لِلْحُمَّى وَالسَّهَرِ][(٤)]. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يَقْتُلَنَّ الرجلُ نفسَه عند الضَّجَرِ والغضب. قال ﷺ: [إنَّ رَجُلاً مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أخَذتْهُ قَرْحَةٌ فِي يَدِهِ فَقَطَعَهَا فَأرَاقَ دَمَهَا حَتَّى مَاتَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: بَادَرَنِي ابْنُ آدَمَ بنَفْسِهِ فَقَتَلَهَا

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٤٩٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن أبي الدنيا في التوبة والبيهقي في الشعب)). وأخرجه البيهقي في الشعب: النص (٧١٤٥).

(٢) في جامع البيان: النص (٧٢٦١).

(٣) النور / ٦١ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٧١ و٢٧٦. ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب تراحم المؤمنين: الحديث (٦٦-٦٧/ ٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير.

بيَدِهِ، فَقَدْ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ][1]. وعن جَابرِ بن سَمُرَةَ: [أنَّ رَجُلاً ذبَحَ نَفْسَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ ﷺ][2].

وقال بعضُهم: معنى الآيةِ: لا تَقْتُلُوا أنفسَكم لطلب المال بما يودِّي إلى التلفِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾؛ لا يَرْضَى منكُم قَتْلَ بعضِكم بعضاً، ولا أكلَ المالِ بالباطل، فيرجعُ ضَرَرُهُ عليكُم في الدُّنيا والدِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ﴾؛ أي مَن يأكُلِ المالَ بالباطلِ أو يَقتُلِ النفسَ بغيرِ الحقِّ (عُدْوَاناً) أي اعتداءً وجَوراً بغيرِ حِلٍّ. وَالْعُدْوَانُ: بأنْ يَعْدُو غيْرَ ((مَا)) أمْرَ بهِ، والظُّلْمُ: أنْ يَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، معنى: إذا فعلَ ذلك على وجهِ التعدِّي (فَسَوْفَ نُصْلِيْهِ نَاراً) أي ندخلُهُ النارَ، ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾؛ التعذيبُ، ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾؛ لا يَمنع كثرةُ رحمتِهِ من تعذيب مَن يستحقُّ العذابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾؛ معناهُ: إنْ تَتْرُكُوا كَبَائِرَ الذُّنوب نُكَفِّرْ عَنْكُمُ الصغائرَ، كما رويَ عن رسول اللهِ ﷺ أنهُ قال: [الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا جُنِّبَتَ عَنِ الْكَبَائِرِ][3]، ﴿ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾؛ يعني الجنَّةَ. قرأ أهلُ المدينة: (مَدْخَلاً) بفتح الميم، وهو موضعُ الدخول. وقرأ الباقون بالضمِّ على المصدر، بمعنى الإدخَال.

واختلفُوا في الكبائرِ التي جعلَ اللهُ تعالى اجْتِنَابَهَا تكفيراً للصغائر، فقال ابنُ عبَّاس: (هِيَ كُلُّ شَيْءٍ سَمَّى اللهُ فِيْهِ النَّارَ لِمَنْ عَمِلَ بهَا أوْ شَيْءٍ نَزَلَ فِيْهِ حَدٌّ فِي

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب غلظ تحريم قتل النفس: الحديث (١٨٠/ ١١٣) عن الحسن، والحديث (١٨١/ ١١٣) موصولاً.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٥ ص٢٠: ترجمة شريك بن عبدالله: الرقم (٨/ ٨٨٧).

(٣) عن أبي هريرة؛ أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الطهارة: باب الصلوات الخمس والجمعة: الحديث (١٤/ ٢٣٣). والترمذي في الجامع: أبواب الصلاة: باب في فضل الصلوات الخمس: الحديث (٢١٤)؛ وقال: حديث حسن صحيح.

الدُّنْيَا)(١). ويروى: أنَّ رَجُلاً أتى ابْنَ عُمَرَ ﷺ فقالَ: إنّي أصَبْتُ ذنْباً فأُحِبُّ أنْ تَعُدَّ عَلَيَّ الْكَبَائِرَ؛ فَعَدَّ عَلَيْهِ سَبْعاً؛ فَقَالَ: (الإشْرَاكُ باللهِ؛ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ؛ وَقَتْلُ النَّفْسِ؛ وَأكْلُ الرِّبَا؛ وَأكْلُ مَال الْيَتِيْمِ؛ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ؛ وَالْيَمِيْنُ الْفَاجِرَةُ)(٢). وعن ابنِ مسعُودٍ قالَ: (الْكَبَائِرُ أرْبَعٌ: الْيَأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ؛ وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ؛ وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ؛ وَالشِّرْكُ)(٣).

قال مقاتلُ: (الْكَبَائِرُ: مَا نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْهُ مِنْ أوَّلِ هَـذِهِ السُّوَرِ). ويقـال: لا كبيرةَ مع الاستغفار ولا صغيرةَ مع الإصرار.

وعن ابنِ مسعُود قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أيُّ الذنب أعْظَمُ؟ قَالَ: [أنْ تَجْعَلَ للهِ أنْدَاداً وَهُوَ خَلَقَكَ] قُلْتُ: ثُمَّ مَاذا ؟ قَالَ: [أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خِشْيَةَ أنْ يَأْكُلَ مَعَكَ] قُلْتُ: ثُمَّ مَاذا؟ قَالَ: [أنْ تُزْنِي بِحَلِيْلَةِ جَاركَ]. وتصديقُ ذلك قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إلاَّ بالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أثاماً، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾(٤).

وعن رسول اللهِ ﷺ أنهُ قَالَ: [أكْبَرُ الْكَبَائِرِ الإشْرَاكُ باللهِ؛ وَالْيَمِيْنُ الْغَمُوسُ؛ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ؛ وَقَتْلُ النَّفْسِ]. وعن أنسٍ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [أرْبَعٌ مِنَ الْكَبَائِرِ: الشِّرْكُ باللهِ؛ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ؛ وَشَهَادَةُ الزُّور](٥).

وسُئِلَ ابنُ عبَّاس ﷺ عن الكبائر: أسَبْعٌ هِيَ ؟ قَالَ: (هُنَّ إلَى سَبْعِينَ لأَقْرَبُ مِنْهُنَّ إلَى السَّبْعِ)(٦) ثم قالَ: (الْكَبَائِرُ: الشِّرْكُ؛ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ؛ وَقَتْلُ الْمُؤْمِنِ؛

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٢٩٤)، وفي النص (٧٢٩٩)؛ قال: ((كلُّ شيء عُصِيَ اللهُ فيه فهو كبيرةٌ)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٢٨٩)، والرجل هو طيلَسة بن ميَّاس.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٥٩١) بأسانيد، وفي النص (٧٢٩٢) بأسانيد وألفاظ.

(٤) الفرقان / ٦٨، ٦٩. والحديث أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٧٣١٠ و٧٣١١). وأصله في الصحيحين وعند أبي داود في السنن، والترمذي في الجامع، والنسائي.

(٥) أخرجهما الطبري في جامع البيان: النص (٧٣٠٦) بأسانيد وألفاظ عن أنس.

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٢٩٨) بأسانيد وألفاظ.

وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ؛ وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ؛ وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ؛ وَالسِّحْرُ؛ وَالرِّبَا؛ وَالزِّنَا؛ وَالسَّرِقَةُ؛ وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ؛ وَتَرْكُ الصَّلَوَاتِ؛ وَمَنْعُ الزَّكَاةِ؛ وَشَهَادَةُ الزُّورِ؛ وَقَتْلُ الْوَلَدِ خَشْيَةَ أنْ يَأْكُلَ مَعَهُ؛ وَالْحَسَدُ؛ وَالْكِبْرُ؛ وَالْحَيْفُ فِي الْوَصِيَّةِ؛ وَتَحْقِيرُ الْمُسْلِمِيْنَ). وقال سعيدُ بن جبير: (كُلُّ ذنْبٍ أوْعَدَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ النَّارَ فَهُوَ كَبيْرَةٌ). قال الضحَّاك: (مَا وَعَدَ اللهُ عَلَيْهِ حَدّاً فِي الدُّنْيَا وَعَذاباً فِي الآخِرَةِ فَهُوَ كَبيْرَةٌ)(١).

قال بعضُهم: ما سَمَّاهُ الله في القرآن كبيراً أو عظِيماً فهو كبيرةٌ، نحوَ قولهِ: (إنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا) ﴿إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾(٢) ﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٣) ﴿سُبْحَانَكَ هَذا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾(٤) ﴿إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾(٥) ﴿إنَّ ذلِكُمْ كَانَ عِنْدَ الله عَظِيماً﴾(٦).

وقال سفيانُ الثوريُّ: (الْكَبَائِرُ مَا كَانَ مِنَ الْمَظَالِمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْعِبَادِ، وَالصَّغَائِرُ مَا كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ لأَنَّ اللهَ كَرِيْمٌ يَعْفُو). وَقِيْلَ: الكبيرُ ما نَهى اللهُ عنه من الذنوب الكبائرِ والسيِّئات مقدماتُها وأتبعها مثلُ النظرةِ واللَّمسةِ والقُبلةِ وأشباهِها. وَقِيْلَ: الكبيرةُ ما قَبُحَ في العقلِ والطبع مثل القَتْلِ والظُّلْمِ والزنا والكذب والنميمة ونحوها. وقال بعضُهم: الكبائرُ ما يستحقِرهُ العبدُ، والصغائرُ ما يستقطعه فيخافُ منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ؛ أي لا يَتَمَنَّى الرجلُ مالَ أخيه ولا شيئاً من الذي لغيرهِ، ولكن لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي مِثْلَهُ، ولا يتمنَّى الرجلُ امرأةَ أخيهِ ولا خادمَهُ ولا دابَّته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ﴾ ؛ أي حظٌّ من الأجرِ مما اكتسبُوا من العملِ الصالح ﴿ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ ؛ حظٌّ من الأجرِ مما عَمِلْنَ من العمل الصالحِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٣٠٥).
(٢) الإسراء / ٣١ .
(٣) لقمان / ١٣ .
(٤) النور / ١٦ .
(٥) يوسف / ٢٨ .
(٦) الأحزاب / ٥٣ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْـلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي مـن رزقـه، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ ﴾ ؛ لم يـزل ﴿ بِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، مـن أعمـال الرجـال والنّسـاء، ﴿ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ عالماً.

وعن جابر بن عبدالله قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُول اللهِ ﷺ وَهُـوَ فِـي نَفَـرٍ مِـنَ الصَّحَابَةِ؛ إذْ أقْبَلَتِ امْرَأةٌ حَتَّى قَامَتْ عِنْدَ رَسُول اللهِ ﷺ؛ ثُـمَّ قَـالَتْ: يَـا رَسُـولَ اللهِ ﷺ؛ أنَا وَافِدَةُ النِّسَاءِ إلَيْكَ، إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ رَبُّ النِّسَاءِ وَرَبُّ الرِّجَال، وَآدَمُ أبو النِّسَاءِ وَأبو الرِّجَال، وَحَوَّاءُ أمُّ النِّسَـاءِ وَأمُّ الرِّجَـال، وَأنْـتَ بَعَثَـكَ اللهُ رَسُـولاً إلَـى النِّسَـاءِ وَالرِّجَال، ثُمَّ الرِّجَالُ إذا خَرَجُواْ فِي سَبيْلِ اللهِ، فَقُتِلُواْ فَهُمْ أحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبـهِمْ فَرِحِيْـنَ، وَنَحْنُ نَحْتَبسُ عَلَيْهِمْ وَنَخْدِمُهُمْ، فَهَلْ لَنَا مِنَ الأجْرِ شَيْءٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : [أقْرئِي النِّسَاءَ مِنِّي السَّلاَمَ؛ وَقُولِي لَهُنَّ: إنَّ طَاعَةَ الـزَّوْجِ وَاعْتِرَافـاً لِحَقِّـهِ يَعْـدِلُ مَـا هُنَـالِكَ، وَقَلِيْلٌ مِنكُنَّ يَفْعَلُهُ][(١)].

وقال قتادةُ والسُّدِّيُّ: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلذكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ فَقَـالَتِ الرِّجَالُ: إنَّا لَنَرْجُوا أنْ يُفَضِّلَنَا اللهُ عَلَى النِّسَاءِ بحَسَنَاتِنَا فِي الآخِرَةِ كَمَا فَضَّلَنَا عَلَيْـهِنَّ بالْمِيْرَاثِ؛ فَيَكُونُ أجْرُنَا مِثْلَي أجْرِ النِّسَاءِ، وَقَالَ النِّسَاءُ: إنَّا لَـنَرْجُوا أنْ يَكُـونَ الْـوزْرُ عَلَيْنَا نِصْفَ مَا عَلَى الرِّجَال كَمَا لَنَا فِي الْمِـيْرَاثِ النِّصْـفُ مِـنْ نَصِيْبـِهِمْ، فَـأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْض) (لِلرِّجَال نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا) مِنَ الْمِيْرَاثِ وَالْعِقَاب، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيْبٌ كَذلِكَ مِنْـهُ)[(٢)]. قـال قتـادةُ: (يُجْـزَى الرَّجُـلُ بالْحَسَنَةِ عَشْرَ أمْثَالِهَا، وَالْمَرْأةُ تُجْزَى عَشْرَ أمْثَالِهَا أيْضاً).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٣١٩) بأسانيد وألفاظ، وفي النـص (٧٣٢١) بأسـانيد وألفاظ، وفي النص (٧٣٢٤ و٧٣٢٥). والطبراني في الكبير: ج ٢٣ ص٢٣٠: الحديـث (٦٠٩) مرسلاً عن أم سلمة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٣٢٦) عن السدي، وفي النص (٧٣٢٩) عن قتادة. في الدر المنثور: ج ٢ ص٥١٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق والـبزار والطـبراني عـن ابـن عباس ﷺ)). في مجمـع الزوائـد: ج ٤ ص٣٠٥؛ قـال الهيثمـي: ((رواه الـبزار وفيـه رشـد بـن كريب، وهو ضعيف)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ) وقرأ ابنُ كثيرٍ والكسائيُّ وخلف: (وَسَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ) ﴿وَسَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ و﴿فَسَلِ الَّذِينَ﴾ يقرأون بغيرِ الهمزة، وقرأ الباقونَ بالهمزة. قال ﷺ: [مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ مِنْ فَضْلِهِ غَضِبَ عَلَيْهِ][1] وقال سفيانُ بن عُيَيْنَةَ: (لَمْ يَأْمُرْ بالْمَسْأَلَةِ إلاَّ لِيُعْطِي)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ ؛ أي ولكلِّ واحدٍ من الرجال والنساء جعلنَا موالِي عَصَبَةٍ يَرِثُونَهُ مِمَّا تركَهُ والدُه وأقرباؤُه من ميراثِهم، والوالدان والأقربونَ على هذا التأويلِ هُمُ الموروثون. وَقِيْلَ: معناهُ: وَلِكُلٍّ جعَلْنَا مَوَالِيَ؛ أي وَرَثَةً مِن الذين تركَهُم، ثم فسَّرهم فقالَ: الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ، على هذا التأويل هم الوارثُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ ؛ في محلِّ الرفع بالابتداء، والْمُعَاقَدَةُ هي الْمُعَاهَدَةُ بين اثنين. وقرأ أهلُ الكوفة (عَقَدَتْ) بغير ألف أراد عقدت لهم أيْمانُهم. قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إذا أعْجَبَهُ ظَرْفُ الرَّجُلِ عَاقَدَهُ وَحَالَفَهُ؛ وَقَالَ: أنْتَ ابْنِي تَرِثُنِي؛ خِدْمَتِي خِدْمَتُكَ؛ وَذِمَّتِي ذِمَّتُكَ؛ وَثَأرِي ثَأرُكَ، فَيَكُونُ بِهِ بِبَعْضِ وَرَثَتِهِ مِثْلُ نَصِيْبِ أحَدِهِمْ، إلاَّ أنْ يَنْقُصَ نَصِيْبُهُ عَنِ السُّدُسِ لِكَثْرَةِ الْوَرَثَةِ؛ فَيُعْطَى السُّدُسَ خَاصَّةً لاَ يُنْقَصُ مِنْهُ شَيْءٌ، ثُمَّ نُسِخَتْ بقَوْلِهِ تَعَالَى﴿وَأَوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلَى بِبَعْضٍ﴾[3])[4].

قال قتادةُ: (أرَادَ بقَوْلِهِ: (الَّذِيْنَ عَقَدَتْ أيْمَانُكُمْ): الْحُلَفَاءُ؛ كَانَ الرَّجُلُ يُعَاقِدُ الرَّجُلَ فَيَقُولُ: دِيْنِي دِيْنُكَ؛ وَثَأرِي ثَأرُكَ؛ وَحِزْبِي حِزْبُكَ؛ وَسِلْمِي سِلْمُكَ؛ تَرِثُنِي وَأرِثُكَ؛ تَعْقِلُ عَنِّي وَأعْقِلُ عَنْكَ؛ وَتَطْلُبُ بِي وَأطْلُبُ بِكَ، فَيَكُونُ لِلْحَلِيْفِ السُّدُسُ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٤٤٢ و٤٤٣ و٤٤٧. والترمذي في الجامع: أبواب الدعاء: الحديث (٣٣٧٣) عن أبي هريرة ﷺ وإسناده صحيح.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص١٦٥.

(٣) الأنفال / ٧٥ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان من مجموع رواية الحسن البصري في الرقم (٧٣٤٤)، وسعيد بن المسيب في الرقم (٧٣٤٥)، وابن عباس في الرقم (٧٣٤٦).

ثُمَّ نُسِخَ ذلِكَ بقَوْلِهِ: ﴿وَأوْلُوا الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلَى ببَعْضٍ﴾)(١). وقال مجاهدُ: (أرَادَ بقَوْلِهِ: (فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ) النَّصْرَ وَالْعَقْلَ وَالرِّفَادَةَ دُونَ الْمِيْرَاثِ)(٢).

فَعَلَى هَذا تَكُونُ الآية غيرَ منسوخةٍ لقولِهِ تعالى: ﴿أوْفُوا بالْعُقُودِ﴾(٣) ولقولِهِ ﷺ: [أوْفُوا لِلْحُلَفَاءِ بعُهُودِهِمْ الَّتِي عَقَدَتْ أيْمَانُكُمْ]. وليس معنى قولِ ابن عبَّاس أنَّ هذه الآية منسوخةٌ، نُسِخَ حُكمها من الأصلِ، ولكن معناهُ: تقديمُ ذوي الأرحامِ على أهلِ العقد، وهو كحدوثِ ابنٍ لِمَنْ لهُ أخٌ لا يخرجُ الأخَ من أن يكون أهْلاً للميراثِ إلاّ أن يكون الابنُ أولى منه، كذلك أولي الأرحامِ أوْلَى من الحليفِ، فإذا لم يكن للميتِ رَحِمٌ ولا عُصْبَةٌ فالميراثُ للحليفِ، ولِهذا قال أصحابُنا: فمن أسلمَ على يدَي رجلٍ ووالاهُ - عَاقَدَهُ - ثم ماتَ ولا وارثَ له غيرهُ أن ميراثَه لهُ، ولِهذا قالوا: إنَّ من أوصَى بجميعِ ماله ولا وارثَ له صحَّتِ الوصيةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أي لم يَزَلْ شاهداً على كلِّ شيءٍ من إعطاءِ النصيب ومنعِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس ومقاتلُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي سَعْدِ بْنِ الرَّبْيعِ - وَكَانَ مِنَ النُّقَبَاءِ - وَفِي امْرَأتِهِ ابْنَةُ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ وَهُمَا مِنَ الأنْصَارِ(٤)، نَشَزَتْ عَلَيْهِ فَلَطَمَهَا، فَانْطَلَقَ أبُوهَا مَعَهَا إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أفْرَشْتُهُ كَرِيْمَتِي فَلَطَمَهَا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: [اقْتَصِّي مِنْهُ] وَكَانَ الْقِصَاصُ يَوْمَئِذٍ بَيْنَهُمْ فِي اللَّطْمَةِ وَالشَّجَّةِ وَالْجِرَاحِ، فَانْصَرَفَتْ مَعَ أبِيْهَا لِيَقْتَصَّ مِنْهُ،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٣٤٧) بإسنادين وألفاظ جمعها الطبراني فيما حكاه عنه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٣٥٤).

(٣) المائدة / ١ .

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص١٦٩؛ قال القرطبي: ((وقال أبو رَوْق: نزلت في جميلة بنت أبي وفي زوجها ثابت بن قيس بن شماس. وقال الكلبي: نزلت في عميرة بنت مُحمد بن مَسلَمَة وفي زوجها سعد بن الربيع)).

فَقَالَ ﷺ: [ارْجِعُوا؛ هَذا جِبْرِيْلُ أتَانِي] فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ ﷺ:[أرَدْنَا أمْراً؛ وَأرَادَ اللهُ أمْراً، وَالَّذِي أرَادَ اللهُ خَيْرٌ] وَرُفِعَ الْقِصَاصُ)[1].

ومعناها: الرجالُ مُسَلَّطُونَ على أدب النِّساء بالحقِّ، والقوَّامُون الْمُبَالِغُونَ بالقيامِ عليهنَّ بتعليمهنَّ وتأديبهنَّ وإصلاحِ أمورهن، وقولُهُ تعالى: (بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) أي جَعَلَ اللهُ ذلك للرجال بفضلِهم على النساء في العقلِ والرَّأي، وَقِيْلَ: بزيادةِ الدِّين واليقين، وَقِيْلَ: بقوة العبادةِ والجهادِ، وَقِيْلَ: بالجمُعة والجماعةِ وبإنفاقِهم أموالِهم في الْمُهُور وأقْوَاتِ النساءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾؛ أي فَالْمُحْصَنَاتُ المطيعاتُ لله في أمرِ أزواجِهن، وَقِيْلَ: قائماتٌ بحقوق أزواجِهن. وأصل الْقُنُوتِ: مُدَاوَمَةُ الطَّاعَةِ، وقولهُ تعالى: (حَافِظَاتٌ لِلْغَيْب) أي يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وأموالَ أزواجهنَّ في حال غَيْبَةِ أزواجهنَّ. ويدخلُ في حفظِ المرأة لغيب الزوج أن تَكْتُمَ عليه ما لا يحسُنُ إظهارهُ مما يقفُ عليه أحدُ الزوجين على الآخر. وقولهُ تعالى: (بِمَا حَفِظَ اللهُ) أي يحفظُ الله إياهُنَّ من معاصيهِ وبتوفيقه لَهُنَّ، ويقال: بما حفظهنَّ الله تعالى في مهورهن وإلزام الزوج النفقةَ عليهن. قال ﷺ: [خَيْرُ النِّسَاءِ مَنْ إذا نَظَرْتَ إلَيْهَا سَرَّتْكَ؛ وَإذا أمَرْتَهَا أطَاعَتْكَ؛ وَإذا غِبْتَ عَنْهَا حَفِظَتْكَ فِي مَالِكَ وَنَفْسِهَا][2].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٥١٢-٥١٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبدالملك عن الحسن. وعبد بن حميد وابن جرير من طريق قتادة عن الحسن. وأخرجه ابن مردويه عن علي، ولم يذكر الاسم. وهو في جامع البيان للطبري: النص (٧٣٧٢ و٧٣٧٣ و٧٣٧٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٧٣٩١) عن أبي هريرة. والحاكم في المستدرك: كتاب النكاح: باب أيُّ النساء خير: الحديث (٢٧٣٠؛ وقال: ((هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه)). وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٢٧٢: كتاب النكاح: باب في المرأة الصالحة؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط، وفيه جابر الجعفي، وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله ثقات)). وهو في المعجم الأوسط للطبراني: الحديث (٢١٣٦).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ ؛ أي النساءِ التي تعلمونَ عصيانَـهنَّ لأزواجِـهن فَعِظُوهُـنَّ، والنُّشُوزُ: الرَّفْعُ عَنِ الصَّاحِب، مأخوذٌ من النَّشْزِ وهو المكانُ المرتفعُ، المرادُ من الْوَعْظِ وَالْهَجْرِ وَالضَّرْب في الآيةِ أن يكونَ ذلك على الترتيب المذكور فيها؛ لأن هذا من باب الأمْرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر، إذا أمكنَ الاستدراكُ بالأسهلِ والأخفِّ لا يُصَارُ إلى الأثقلِ، فالأَوْلى أن يبدأ الزوجُ فيقول لامرأتهِ الناشِزَةُ: إتَّقِ اللهَ وارجعي إلى فراشِي[(١)]، فأطاعَتْهُ وإلاَّ سبَّهَا، هكذا قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه[(٢)].

والْهَجْرُ: الْكَلاَمُ الْفَاحِشُ، يقالُ: هَجَرَ الرَّجُلُ يَهْجُرُ، إذا هَذَا، وأهْجَـرَ الرجـلُ في مَنْطِقِهِ بهجرٍ هجاراً إذا تكلَّمَ بقبيحٍ. وقال الحسنُ وقتادة: (قَوْلُهُ: (وَاهْجُرُوهُنَّ فِـي الْمَضَاجِعِ) مِنَ الْهَجْرِ؛ وَهُوَ أنْ لاَ يَقْرَبَ فِرَاشَهَا وَلاَ يَنَامَ مَعَـهَا؛ لأَنَّ اللهَ تَعَـالَى قَرَنَـهُ بقَوْلِهِ تَعَالَى (فِي الْمَضَاجِعِ)[(٣)]. إذا لم ينفعْها الوعظُ هَجَرَهَا زوجُها في المضجَـعِ، فـإنْ كانت تُحِبُّ زوجَها شُقَّ عليها الهجرانُ، وإن كانت تَبْغَضُهُ وافقَها ذلـك، فكـان دليـلاً على النُّشُوز من قِبَلِها؛ فيضربُها الزوجُ ضرباً غيرَ مبرِّح ولا شائنٍ، كما يؤدِّبُ الرجـل وَلَدَهُ، ويكون ذلك مَوْكُولاً إلى رأيِهِ واجتهاده على ما يرى من المصلحةِ، ولِهذا قيـلَ: إن هذا الضربَ مُقَيَّدٌ بشرطِ السَّلامة، فالأَوْلى أن يضربَها بالنعلِ واللَّطْـمِ ضربَتَـين أو ثلاثاً على حسب ما يراهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ ﴾ ؛ أي فيما تَلْتَمِسُـونَ منـهنَّ؛ ﴿ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ ؛ أي لا تطلُبوا عليهنَّ عِلَلاً ولا تكلفوهنَّ الْحُـبَّ لكـم، فإنَّـهن لا يَملكنَ ذلك، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي عَلاَ فوقَ كلِّ شـيء كبيراً فلا شيءَ أكبرُ منه، أراد بالعَلِيِّ: الْعُلُـوَّ في القـهرِ والقَـدْرِ لا عُلُـوَّ المكـانِ، وأراد

---

(١) عند الطبري في جامع البيان: النص (٧٤٠٣): (فراشك).

(٢) في جامع البيان: النص (٧٤١٦) أسند الطبري عن ابن عباس؛ قال: ((يعظـها فـإن هـي قبلـت وإلا هجرها في المضجع ولا يكلمها من غير أن يذر نكاحها، وذلك عليـها شـديد)). ومـا أثبتـه الإمام الطبراني هو عند الطبري في النص (٧٤٠٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٤٢٨).

بالكَبيرِ الجلالَ وَالْعَظَمَةَ. والمعنى: أنِّي مع عُلُوِّي وَكِبْرِيَائِي، أرضَى من عبادِي بالطاعةِ ولا آخذُهم بالحب الذي لا غايةَ بعده، فإن أكبرَ عبادي من يُؤْثِرُ نفسَهُ عَلَيَّ، ولا يُخلِصُ حُبَّهُ لِي كلَّ الإخلاص.

وقد روي: أنَّهُ لَمَّا شَكَا الرِّجَالُ نِسَاءَهُمْ إلى رَسُول اللهِ ﷺ فَأَمَرَهُمْ بالضَّرْب؛ أصْبَحَ ببَاب رَسُول اللهِ ﷺ سَبْعُونَ امْرَأةً يَشْكُونَ أزْوَاجَهُنَّ، فَأَقْبَلَ عَلَى أصْحَابهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ وَقَالَ: [إنَّ الْمَرْأةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ أعْوَجٍ، فَإنْ أرَدْتُمْ إقَامَتَهَا كَسَرْتُمُوهَا، وَإنْ رَفَقْتُمْ بهَا اسْتَمْتَعْتُمْ بهَا عَلَى عِوَجٍ][1] ثُمَّ قَالَ: [خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ][2].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ ؛ أي وإن عَلِمْتُمْ أيُّها المؤمنون بعدَ العِظَةِ والهجرانِ تباعدَ الزوجين عن الحقِّ، وهو أن يكونَ كلُّ واحد منهما في شِقٍّ على حِدَةٍ، ولم يَدْرُوا من أيُّهما جاءَ النُّشُوزُ فابعثوا عَدْلاً ذا رأيٍ وعقل من أهلِ الزَّوجِ؛ وعَدْلاً من أهلِ المرأةِ؛ يختارُ الحاكمُ حَكَماً مِن أهلهِ وحَكَماً من أهلِها، فيخلـوا حَكَمَ الزوجِ به؛ فيقول: أخبرني ما في نَفسِكَ أتَهْوَاهَا أم لاَ؟ فأنا لا أدري ما أقولُ وما أعمل بهِ حتى أرى ما تريدُ، فإن قال: أهْوَاهَا؛ ولكنها تُسِيْءُ معاشرتِي، فَعِظْهَا وَأرْضِـها عنِّي، علم أنَّ الرجلَ ليس بنَاشِزٍ، وإن قالَ: لاَ حاجةَ لِي بها؛ فَرِّقْ بينِي وبينَها وخُذْ لِي منها ما استطعتَ؛ علم أنه نَاشِزٌ، وكذلكَ يفعلُ حَكَمُ المرأةِ بالمرأة.

ثم يلتقي الْحَكَمَان، فيصدِّقُ كلُّ واحد منهما صاحبَهُ فيما سَمِعَ، فيُقْبلان على الزوجِ إن كان نَاشِزاً فيقولاَن له: يَا عَدُوَّ اللهِ؛ أنتَ العاصي لله، الظالِمُ على امرأتِـكَ، ويَعِظَانِهِ ويَزْجُرَانِهِ، وَكَذلِكَ يَفْعَلاَنِ بالمرأة إن كانت هـي النَّاشِـزَةَ، فذلـك قولُـهُ: (إنْ يُرِيدَا إصْلاحًا يُوَفِّقْ اللهُ بَيْنَهُمَا) أي أنَّ الْحَكَمَيْنِ إذا أرادَا عَدْلاً ونصيحةً ألَّفَ اللهُ بين

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الرضاع: باب الوصيـة بالنسـاء: الحديـث (٦٠ و٦١/ ١٤٦٩ و٦٢/ ١٤٧٠). والترمذي في الجامع: أبواب الطـلاق: الحديـث (١١٨٨). والحديـث مخرج في السنن والمسانيد.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٤٤١٧) عن أبي هريرة، والحديث (٦١٤١) عن عائشـة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

الزوجين، ويقالُ: وَفَّقَ اللهُ بين أقوال الْحَكَمَيْنِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ ؛ بأمر الْحَكَمَيْنِ، ﴿ خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ بنَصِيْحَتِهِمَا، ويقالُ: عَلِيْماً بما فيه صلاحُ الحقِّ، خَبِيْراً بذلكَ.

وذهبَ بعضُ العلماء: إلى أنَّ الْحَكَمَيْنِ إذا رَأيَا أن يفرِّقا بينهما فَرَّقَا بينهما، وكذلكَ إذا رأى الْحَاكِمُ أن يفرِّقَ فعلَ إذا وقعَ اليأسُ عن زوال الشِّقاق، واعتبروا بالغاية فما عند أصحابنا رَحِمَهُمُ اللهُ فليسَ للحَكَمين أن يفرِّقا إلاّ أن يكونا وَكِيْلَيْنِ في الْخُلْعِ من جانبين، أو يرضَى الزوجُ بتفريقِها.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ ؛ أي وَحِّدُوا اللهَ تعالى، وأطيعُوه ولا تعبدُوا معه غيرَهُ، فإن ذلك يُفْسِدُ عبادتَه. قالت الحكماءُ: الْعُبُودِيَّةُ تركُ الاختيار وملازمةُ الافتقار. وَقِيْلَ: الْعُبُودِيَّةُ أربعةُ أشياءٍ: الوفاءُ بالعهودِ؛ والحفظُ للحُدُودِ؛ والرِّضَا بالموجودِ؛ والصَّبْرُ على المفقودِ. قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَبالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا) أي أحْسِنُوا بالوالدين إحْسَاناً، وَقِيْلَ: اسْتَوْصُوا بالوالدين إحْسَاناً، وقد يذكرُ المصدر المنصوبُ على تقديرِ فعلٍ محذوف كقولهِ تعالى: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ (١)، ومعناه الأمرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ ؛ أي وأحْسِنُوا بذوي الْقَرَابَةِ واليتامَى والمساكينِ. والإحسانُ إلى ذوي القربَى هو مُوَاسَاةُ الفقيرِ منهم إذا خافَ عليه ضَرَرَ الجوعِ والعُرِيِّ وحُسْنَ العشرةِ وكفُّ الأذى عنهُ والْمُحَابَاةُ دونه مِمَّنْ يريدُ ظُلْمَهُ. وعن أبي هريرةَ ﷺ: أنَّ رَجُلاً شَكَا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ قَسْوَةً فِي قَلْبِهِ؛ فَقَالَ: [إنْ أرَدْتَ أنْ يَلِيْنَ قَلْبُكَ فَأَطْعِمِ الْمَسَاكِيْنَ وَامْسَحْ بِرَأسِ الْيَتِيْمِ وَأطْعِمْهُ](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ ؛ قال ﷺ: [الْجِيَرانُ ثلاثَةٌ: جَارٌ لَهُ ثلاثَةُ حُقُوقٍ؛ وَهُوَ الْجَارُ الْقَرِيْبُ الْمُسْلِمُ، وَجَارٌ لَهُ

---

(١) محمد / ٤ .

(٢) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٣ ص٣٠٤.

حَقَّان؛ وَهُوَ الْجَارُ الأَجْنَبِيُّ الْمُسْلِمُ، وَجَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ؛ وَهُوَ الْجَارُ الْكَافِرُ][1] فعلى هذا يكون معنى (الْجَارِ الْجُنُبِ): هو الجارُ الذي هو مِن قومٍ آخرين لا قرابةَ بينك وبينه. ويقالُ: إن الجارَ ذوي القربَى هو الذي يُقَارِبُكَ في الجوار، تعرفهُ ويعرفُك، والجارُ الْجُنُبُ: هو الجارُ الغريبُ المتباعِدُ.

وَالْجُنُبُ في اللغة: الْبَعِيْدُ. وقرأ الأعمشُ: (وَالْجَارِ الْجَنْبِ) بفتحِ الجيم وإسكان النُّون، وهما لُغتان. يقالُ: رَجُلٌ جُنُبٌ وَجُنْبٌ؛ إذا لم يكن قَرِيباً، وجَمْعُهُ: أجَانِبُ، وقيل للجُنُب جُنُبٌ لاعتزالهِ الصلاةَ وبُعْدِهِ من المسجدِ حتى يغتسلَ. وقال بعضُهم: (الْجَارُ الْجُنُبُ) الكافر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ) هو الرفيقُ في السفر؛ المنقطعُ إلى الرجلِ رجاءَ خَيْرِهِ، كذا قالَ ابنُ عبَّاس ومجاهدُ وابنُ جبير وعكرمةُ وقتادة[2]، وقال بعضُهم: الصاحبُ بِالْجَنْبِ هو الْمُلاَصِقُ دارَه بدارِكَ؛ فهو إلى جَنْبِكَ، ويقالُ: هو جارُ الرجلِ في البيتِ الواحد. وقال عَلِيٌّ وعبدُالله وابنُ أبي ليلى والنخعيُّ: (هِيَ الزَّوْجَةُ تَكُونُ مَعَهُ إلَى جَنْبِهِ)[3].

وعن أبي هُريرةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ، وأَيُّمَا رَجُلٍ أغْلَقَ بَابَهُ دُونَ جَارِهِ مَخَافَةً عَلَى أهْلِهِ وَمَالِهِ فَلَيْسَ جَارُهُ ذلِكَ

(١) في كشف الخفا: ج ١ ص٢٩٤: الحديث (١٠٥٣)؛ قال العجلوني: ((أخرجه البزار وأبو الشيخ في الثواب وأبو نعيم عن جابر وهو ضعيف)). في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ج ٥ ص٢٠٧؛ قال أبو نعيم: ((غريب)). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٦٤: كتاب البر والصلة: باب حق الجار والوصية؛ قال الهيثمي: ((رواه البزار عن شيخه عبدالله بن مُحَمد الحارثي، وهو وضَّاع)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٥٠٢) عن ابن عباس، والنص (٧٥٠٣) عن ابن جبير، والنص (٧٥٠٥) عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٥١٢) عن علي وعبدالله، والنص (٧٥١٤) عن ابن أبي ليلى.

بِمُؤْمِنٍ][(١)] قَالُواْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا حَقُّ الْجَارِ ؟ قَالَ: [إنْ دَعَاكَ أجَبْتَـهُ؛ وَإنْ أصَابَتْـهُ فَاقَةٌ عُدْتَ عَلَيْهِ؛ وَإن اسْتَقْرَضَكَ أقْرَضْتَهُ؛ وَإنْ أصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّيْتَـهُ؛ وَإنْ مَـرِضَ عُدْتَـهُ؛ وَإنْ أصَابَتْهُ مُصِيْبَـةٌ عَزَّيْتَـهُ؛ وَإنْ مَـاتَ شَـهِدْتَ جَنَازَتَـهُ، وَلاَ تَسْـتَعْلِي عَلَيْـهِ بِالْبُنْيَـان لِتَحْجِبَ عَنْهُ الرِّيْحَ إلاَّ بِإذْنِهِ، وَلاَ تُـؤْذِهِ بِقُتَّـارِ قِـدْرِكَ[(٢)] إلاَّ أنْ تَغْـرِفَ لَـهُ مِنْـهَا، وَإن اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَاهْدِ لَهُ مِنْهَا؛ وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَادْخِلْهَا سِرّاً وَلاَ يُخْرِجْ وَلَدُكَ مِنْـهَا شَـيْئاً فَيُغِيْظُ وَلَدَهُ بِهِ][(٣)]. قـال ﷺ: [مَـنْ آذى جَـارَهُ فَقَـدْ آذانِـي، وَمَـنْ آذانِـي فَقَـدْ آذى اللهَ][(٤)].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ؛ قـال مجـاهدُ والربيـع:(هُـوَ الْمُسَـافِرُ)[(٥)]، ومعناهُ: صاحبُ الطريق. وقال قتادةُ والضحَّاك: (هُوَ الضَّيْفُ يَنْزِلُ بِـكَ، سُـمِّيَ ابْنَ السَّبِيْلِ لأَنَّهُ كَالْمُجْتَازِ الَّذِي لاَ يُقِيْمُ، وَالضِّيَافَـةُ ثَلاَثَـةُ أيَّـامٍ وَمَـا زَادَ صَدَقَـةٌ). وقـال الشافعيُّ: (هُوَ الَّذِي يُرِيْدُ السَّفَرَ وَلاَ نَفَقَةَ لَهُ).

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ ؛ يعـني الْمَمَـالِيْكَ أحْسِـنُوا إليهم ولا تكلّفوهم إلاَّ طاقتَهم، قال ﷺ:[أطْعِمُوهُـمْ مِمَّـا تَـأْكُلُونَ؛ وَاكْسُـوهُمْ مِمَّـا تَلْبَسُونَ؛ وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا لاَ يُطِيْقُونَ؛ فَإنَّـهُمْ لَحْـمٌ وَدَمٌ وَخَلْـقٌ أمْثَـالُكُمْ][(٦)]. وقـال

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٥٣٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه الحاكم وصححه عن أبي هريرة)). أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب البر والصلة: الحديث (٧٣٧٩)، والحديث (٧٣٨٠) عن أنس.

(٢) القُتَّارُ – بضم القاف -: رائحة القدر والشواء ونحوهما.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص١٨٨؛ قال القرطبي: ((ورد حديث جمعَ النبي ﷺ فيه مرافق الجار هو حديث معاذ بن جبل... وذكره)). ثم قال: ((وهذا حديث جامع، وهو حديث حسن، في إسناده أبو الفضل عثمان بن مطر الشيباني غير مَرْضِيٍّ)). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٦٥: كتاب البر والصلة: باب حق الجار؛ قال الهيثمي: ((وعن معاوية بن حيدة قال: قلتُ يا رسول الله...)) وذكره بلفظ قريب منه، ثم قال: ((رواه الطبراني وفيه أبو بكر الهذلي، وهو ضعيف)).

(٤) ذكره في كنز العمال: الحديث (٢٤٩٢٧)، وعزاه إلى أبي الشيخ وأبي نعيم عن أنس.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٥٢٠ و٧٥٢١).

(٦) شطر حديث أخرجه أحمد في المسند: ج ٥ ص١٥٨ و١٦١. وابن ماجة في السنن: الأدب:=

أنسُ: كَانَتْ وَصِيَّةُ رَسُول اللهِ ﷺ عِنْدَ وَفَاتِهِ: [الصَّلاَةَ وَمَا مَلَكَتْ أيْمَـانُكُمْ] جَعَـلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُغَرْغِرُ بهَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي صَدْرِهِ وَمَا يَفِيْضُ بهَا لِسَانُهُ[١].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي لا يَرْضَى عملَ من يَخْتَالُ في مِشْيَتِهِ ويفتخرُ على الناس بكِبْرهِ، وإنَّما ذكرَ الْمُخْتَالَ في آخرِ هذه الآية؛ لأن المختالَ يَأْنفُ مِن ذوي القربَى قرابته إذا كانوا فقراءَ؛ ومن جيرانهِ إذا كانوا كذلكَ ولا يُحسِنُ عِشْرَتَهُمْ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكونَ أوَّل هذه الآيةِ في موضع نَصْبٍ بدلاً من قولهِ (مَنْ كَانَ) ويحتملُ أن يكون نصباً على الذمِّ، على معنىَ: أعْنِي الَّذِيْنَ يَبْخَلُونَ، ويحتملُ أن يكون رفعـاً علـى الاسـتئنافِ على إضمار (هُمْ) الذينَ يبخلون. قال ابنُ عبَّـاس ومجـاهدُ: (الْمُـرَادُ بالآيَـةِ الْيَـهُودُ، بَخِلُـوا بمَـا كَـانَ عِنْدَهُـمْ مِـنَ الْعِلْـمِ بـأمْرِ النَّـبيِّ ﷺ وَأمَـرُوا قَوْمَـهُمْ بـالْبُخْلِ وَهُــوَ الْكِتْمَانُ)[٢]، ويقال:كانوا لا يعطونَ من أموالِهم شيئاً، ويأمرون الناسَ بذلك.

وقال بعضُهم: الآية عامَّة في كل من يَبْخَلُ بما أوتِي من المال ويكتمُ مـا أعطـاه اللهُ من النعيمِ لا يُخْرِجُ زكاتَهُ، فعلى هذا يكون المرادُ بالكافرين في هذه الآية: كَـافِرِي النِّعَمِ دون الكفار باللهِ. فأمَّا على التأويلِ الأوَّل فالمرادُ بالكافرين اليهودَ.

والبُخْلُ: مَنْعُ الْوَاجِب. قرأ يحيى بن يعمر ومجاهدُ وحمـزة والكسـائي وخلـف: (بالْبَخَلِ) بفتح الباء والخاء، وقرأ قتادةُ وأيوب بفتح الباءِ وسكون الخاء، وقرأ عيسـى

=الحديث (٣٦٩٠). وأصله عند البخاري في الصحيح: كتاب الإيمـان: الحديـث (٣٠)، وكتـاب العتق: الحديث (٢٥٤٥).

(١) أخرجه ابن ماجة في السنن: الوصايا: هـل أوصـى رسـول الله ﷺ: الحديـث (٢٦٩٧) بإسـناد حسن، والحديث (٢٦٩٨) عن علي ﷺ بإسناد ضعيف، وفي الجنائز: الحديـث (١٦٢٥) عـن أم سلمة بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النـص (٧٥٣٣) عـن ابـن عبـاس، وفي النـص (٧٥٢٩) عـن مجاهد.

ابن يعمر: بضمِّ الباء والخاء، وقرأ الباقون بضم الباء وسكون الخاء، وكذلك في سورةِ الحديد، وكلُّها لغةٌ معروفة فيه إلاَّ أن اللغة العاليَةَ: ضمّ الباء وسكون الخاء، وبفتح الباء والخاء لغةُ الأنصار.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ؛ في محَل نصبٍ عطفاً على (الَّذِيْنَ يَبْخَلُونَ) وإن شئتَ جعلتَهُ عطفاً على قوله: (وَأعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ). قال السُّدِّيُّ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَـةُ فِـي الْمُنَـافِقِيْنَ الَّذِيْنَ يُرَاؤُن النَّاسَ فِي الإنْفَاقِ، وَلاَ يَتَصَدَّقُونَ فِي السِّرِّ). قِيْلَ: المرادُ به كفارُ مكَّةَ أنفقُوا على الناسِ وقتَ خروجهم إلى حرب بدر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أن من يفعلْ ما يَدْعُوهُ إليه الشيطان وسوَّل له فَبئْسَ قرينهُ الشيطان يُغْويَـهِ في الدُّنيا ويكون قريناً معهُ في السلسلةِ في النار. و(قَرِيْناً) نُصِبَ على التمييز، وَقِيْلَ: على القطعِ؛ أي قطعِ الألف واللام.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ أي ماذا عليهم لو صَدَّقُوا الله واليوم الآخر وتصدَّقوا مما رَزَقَهُمُ الله من الأموالِ، وما فرضَ عليهم من الصدقـةِ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي أنَّهم لا يؤمنون، وفي الآية بيانُ أنَّهم إنَّما كفروا لِسُوءِ اختيارهم وقِلَّةِ تأمُّلِهِمْ مع قدرتِهم على الإيْمان؛ لأنهُ لا يُحْسَنُ أن يقالَ لمن لا يقدرُ على الشيءِ: ماذا عليك لو فعلتَ كذا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ؛ أي لا يُنْقِصُ من جزاءِ الأعمال زِنَةَ نَمْلَةٍ حُمَيْرَاءَ صغيرةٍ[1]. والْمِثْقَالُ مِفْعَالٌ من الثِّقْلِ؛ وهو ما يوزنُ به الشيء، من ذلك يسمَّى ما يوزنُ به الدينارُ مثقالاً؛ لأنه يعادلهُ في الثِّقَلِ. وقرأ عبدُالله: (إنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ نَمْلَةٍ)[2] والمعنى: إنَّ اللهَ لا يُنْقِصُ أحَداً مِن خَلْقِهِ مِن ثوابِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٥٣٦) بلفظ قريب منه من تفسير ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) في الدر المنثور: ج٢ ص٥٣٩؛ قال السيوطي:((أخرجه ابن أبي داود في المصاحف)).

عمله وَزْنَ ذرَّةٍ، بل يجازيهِ عليها ويُثِيْبُهُ بها. وقال بعضُهم: الذرُّ الهباءُ في الكوَّة، فكلُّ جزءٍ منها ذرَّةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا ﴾ ؛ قرأ العامَّة (حَسَنَةً) بالنصب على معنى: وإن تَكُ الْفِعْلَةُ حسنةً. وقرأ أهلُ الحجاز: بالرفع على معنى: إنْ تَقَعْ حَسَنَةٌ، أو يُؤْخَذْ حَسَنَةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُضَاعِفْهَا) قرأ الحسنُ بالنون، والباقون بالياء، وهو الصحيحُ لقوله: (وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ)؛ وقرأ أبو رجاءٍ وابنُ كثير وابن عامر: (يُضَعِّفْهَا) بتشديد العين وهما لُغتان.

وقال أبو عبيد: (يُضَاعِفْهَا؛ أيْ يَجْعَلْهَا أضْعَافاً كَثِيْرَةً، وَيُضَعِّفْهَا بالتَّشْدِيْدِ يَجْعَلْهَا ضِعْفَيْنِ). وقال الضَّحاك: (أرَادَ بالْحَسَنَةِ: التَّوْبَةَ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إلاَّ حَسَنَةً وَاحِدَةً مَقْبُولَةً غَفَرَ اللهُ لَهُ). وَقِيْلَ: معناهُ: إن أزادَ على سيِّئاته مثقالَ ذرَّة من الحسنةِ يضاعفْهُ اللهُ حتى يجعلَهُ مثل أحُدٍ، ويوجبُ له الجنَّةَ، ويعطيهُ من عنده الزيادةَ على ما يستحقُّه من جزاءِ عمله، فذلك الأجر العظيم لا يعلم مقدارَهُ إلاّ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ وهو الجنةُ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ ﴾ ؛ معناه: كيفَ يَصْنَعُ الْكُفَّارُ؟ وكيف يكون حالُهم يومَ القيامة؟ إذا جِئْنَا من كل جماعةٍ بنَبيِّهَا شهيداً عليهم ولَهُم، ﴿ وَجِئۡنَا بِكَ ﴾ ؛ يَا مُحَمَّدُ ﴿ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ الذين أرْسِلْتَ إليهم؛ ﴿ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أتَشْهَدُ لِمن صَدَّقَ بالتصديقِ، وعلى كل من كَذبَ بالتكذيب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ معناه: يومَ وقوعِ الشهادة تَمَنَّى الذين كفرُوا باللهِ، وعَصَوا الرسولَ أن الأرض تُسَوَّى بهم: يَمْشِي عليهَا أهلُ الجمعِ وَيَوَدُّونَ أنَّهم لم يَكْتُمُوا اللهَ حَدِيثًا؛ وذلك حينَ مَيَّزَ اللهُ أصحابَ اليمين من أصحاب الشِّمال، ويقولُ للوحوشِ والطيور والبهائمِ: كوني تُرَاباً؛ أي ويرَى الكفَّارُ ذلك ويَرَوْنَ ما أكرمَ اللهُ به المسلمينَ، فيقولُ بعض الكفَّار لبعضٍ: هَلُمُّوا نقولُ إذا سُئِلْنَا: وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ، فيقولونَ ذلك، فَيَخْتِمُ اللهُ على ألسِنَتِهم، ويأذنُ لجوارحهم في الكلام،

فتشهدُ عليهم عندَ ذلك؛ فيقولون: يا لَيْتَنَا كُنَّا تُراباً، ويتمنَّون أنَّهم لم يَكْتُمُوا اللهَ حديثاً؛ لأنَّهم كانوا كَذبُوا في قولِهم: مَا كُنَّا مُشْرِكِيْنَ.

وقالَ بعضُهم: معنى: (لاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا) كلامٌ مستأنفٌ غيرُ داخلٍ في التَّمنِّي؛ ومعناهُ: لاَ يَقْدِرُونَ على كِتْمَان شيءٍ مما عَمِلُوهُ؛ لظهور ذلكَ عندَ اللهِ؛ أي لا يُفِيْدُ كِتْمَانُهُمْ. وقال الكلبيُّ: (يَقُولُ اللهُ لِلْبَهَائِمِ وَالْوُحُوشِ وَالطَّيْرِ: كُونِي تُرَاباً؛ فَتَسَوَّى بهِمُ الأَرْضُ؛ فَعِنْدَ ذلِكَ يَتَمَنَّى الْكَافِرُ أنْ يَكُونَ كَذلِكَ). وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ: يَوَدُّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لَوْ تُسَوَّى بهِمُ الأَرْضُ، ولَمْ يَكْتُمُوا أمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلاَ نَعْتَهُ).

قرأ أهلُ المدينةِ والشامِ (تَسَّوَّى) بفتحِ التاء والتشديد على معنى وَتَتَسَوَّى؛ فأدغمتِ التاءُ الثانية في السين. وقرأ أهلُ الكوفةِ إلاّ عاصماً بفتحِ التاء والتخفيف على حذفِ أحدِ التاءَين مثلُ قولهِ: ﴿لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾[(١)] وقرأ الباقون بضمِّ التاء والتخفيف على الْمَجْهُولِ؛ أي لو سُوِّيَتْ بهم الأرضُ وصَارُوا هم والأرضُ شيئاً واحداً.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ؛ كَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ قَبْلَ التَّحْرِيْمِ، ثُمَّ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَيُصَلُّونَ مَعَهُ؛ فَنَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذلِكَ)[(٢)].

وتأويلُ الآية على هذا: لاَ تَقْرَبُوا مواضِعَ الصلاةِ وهو المسجدُ وَأنْتُمْ سُكَارَى، حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وما يقرأ إمَامُكم في الصلاةِ. وسُكَارَى: جمعُ سَكْرَان، وهذا خطابٌ لمن لم يَبْلُغْ به السُّكْرُ إلى حدٍّ لا يفهمُ الكلامَ كلَّهُ، لأنَّ الذي لا يفهمُ شيئاً لا يصحُّ أن يخاطَبَ، فكانوا بعد نزولِ هذه الآيةِ يَجْتَنِبُونَ السُّكر أوقاتَ الصلاةِ حتى نزلَ تحريمُ الخمرِ في سورة المائدةِ.

---

(١) هود / ١٠٥ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٥٥٦).

وقال مقاتلُ: (نزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ؛ كَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ فِي دَار عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَبْلَ التَّحْرِيْمِ؛ فَحَضَرَتْ صَلاَةُ الْمَغْرِب؛ فَقَدَّمُوا رَجُلاً فَقَرَأَ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وَقَالَ:أعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ؛ وَحَذفَ (لاَ) فِي جَمِيْعِ السُّورَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

فمعناها على هذا: لاَ تَقْرَبُوا نَفْسَ الصلاةِ، وأنتمُ سُكَارى حتَّى تعلموا ما تَقْرَأُونَ. وعن عمرَ ﷺ أنهُ قال بَعْدَ نزول هذه لآية: (اللَّهُمَّ إنَّ الْخَمْرَ يَضُرُّ بالْعُقُول وَالأَمْوَال؛ فَأَنْزِلْ فِيْهَا أمْرَكَ) فَصَبَّحَهُمُ الْوَحْيُ بآيَةِ الْمَائِدَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلاَ جُنُبًا) أي لا تَقْرَبُوا مواضعَ الصلاةِ وأنتم جُنُباً، ﴿ إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ﴾ ، إلاّ أن تكونُوا مُجْتَازِيْنَ، وإذا لم يكن الماءُ إلاَّ في المسجدِ، تيَمَّمَ الْجُنُبُ ودخلَ المسجدَ وأخذ الماء ثم خرجَ واغتسلَ. وقال الشافعيُّ: (يَجُوزُ لِلْجُنُب الْعُبورُ فِي الْمَسْجِدِ بغَيْرِ تَيَمُّمٍ، وَلاَ تَجُوزُ لَهُ الإقَامَةُ فِيْهِ). وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: لا تُصلُّوا وأنتم جُنُبٌ إلا أن تكونوا مسافرينَ لا تجدون الماءَ فتيمَّمون وتصلُّون، هكذا رويَ عن عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ومجاهدُ والحاكم. وانتصبَ قوله (جُنُباً) على الحال؛ أي لا تَقْرَبُوا الصلاةَ وأنتم جُنُبٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ ؛ أي إذا كنتم مَرْضَى فَخِفْتُمْ الضررَ باستعمال الماء أو كنتم مسافرينَ، ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ ؛ معناهُ: وجاءَ أحدُكم من الغائطِ: هو المكانُ المطمئِنُّ من الأرض؛ يقال: تَغَوَّطَ الرجلُ إذا دَخَلَ المكانَ المطمئنَّ لقضاءِ الحاجةِ، ويجعلُ هذا اللفظ كنايةً عن ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ ؛ قال عَلِيٌّ وابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (مَعْنَاهُ: أوْ جَامَعْتُمُ النِّسَاءَ)[1] وبه قال الحسنُ ومجاهد وقتادةُ. وقال ابنُ مسعودٍ وابن عمرَ والنخعيُّ والشعبيُّ: (أرَادَ بهِ اللَّمْسَ باليَدِ، وَكَانُوا لاَ يُبِيْحُونَ لِلْجُنُب التَّيَمُّمَ).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٥٩٧).

واختلفَ العلماء في هذا، فقال الشافعيُّ: (إذا مَسَّ الرَّجُلُ بَدَنَ الْمَرْأةِ نُقِضَ وُضُوءُهُ سَوَاءٌ كَانَ باليَدِ أمْ بغَيْرِهَا مِنَ الأَعْضَاءِ). وقال الأوزاعيُّ: (إنْ مَسَّهَا باليَدِ نُقِضَ؛ وَإنْ كَانَ بغَيْرِ الْيَدِ لَمْ تُنْقَضْ).

وقال مالكُ وابنُ حَنْبَلٍ والليثُ بنُ سعدٍ: (إنْ كَانَ اللَّمْسُ بشَهْوَةٍ نُقِضَ وَإلاَّ فَلاَ). وقال أبو حَنِيْفَةَ وأبو يوسُف: (إنْ كَانَ مُلاَمَسَةً فَاحِشَةً يُحْدِثُ الانْتِشَارَ فِي التَّجَرُّدِ نَقَضَ؛ وَإلاَّ فَلاَ). وقال محمدٌ: (لاَ تَنْقُضُ الْمُلاَمَسَةُ بحَالٍ)، وبه قال ابنُ عبَّاس والحسنُ البصريُّ.

دليلُ الشافعيِّ ما رويَ [أنَّ النَّبيَّ ﷺ نَهَى عَنْ بَيْعِ الْمُلاَمَسَةِ](١) واللَّمْسُ أكثرُ ما استعملَ في لَمْسِ اليدِ. وحُجَّةُ مَن لم يوجب الوُضوءَ بالملامسةِ ما رويَ عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: [كُنْتُ أنَامُ بَيْنَ يَدَي رَسُول اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي وَرِجْلاَيَ فِي قِبْلَتِهِ، فَإذا سَجَدَ وَغَمَزَنِي فَضَمَمْتُ رِجْلاَيَ فَإذا قَامَ بَسَطْتُهُمَا]، والبيوتُ يومئذٍ ليس فيها مصابيحُ(٢).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أيضاً قَالَتْ: افْتَقَدْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذاتَ لَيْلَةٍ؛ فَجَعَلْتُ أطْلُبُهُ بيَدَيَّ؛ فَوَقَعَتْ يَدَيَّ عَلَى قَدَمَيْهِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَان وَهُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ: [أعُوذُ برِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ؛ وَبمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ؛ وَأعُوذُ بكَ مِنْكَ، لاَ أحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أنْتَ كَمَا أثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ] فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاَةِ فَقَالَ لِي: [أتَاكِ شَيْطَانُكِ؟](٣). قالُوا: فَلَمَسَتْهُ عائشةُ وهو في الصلاةِ فَمَضَى فيها. وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: [أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُقَبلُ بَعْضَ أزْوَاجِهِ ثُمَّ يُصَلِّي وَلاَ يَتَوَضَّأُ](٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب البيوع: باب بيع المنابذة: الحديث (٢١٤٦). ومسلم في الصحيح: كتاب البيوع: باب إبطال بيع الملامسة: الحديث (١/ ١٥١١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص١٤٨ و٢٥٥. والبخاري في الصحيح: كتاب الصلاة: باب الصلاة على الفراش: الحديث (٣٨٢)، وفي كتاب التطوع: الحديث (٥١٣).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه: كتاب الصلاة: باب صفة الصلاة: الحديث (١٩٣٢ و١٩٣٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم، قاله المحقق الأرنؤوط.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٤٣٨٢). في مجمع الزوائد: ج ١ ص٢٤٧؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سعيد بن بشير، وثقه شعبة وغيره، وضعفه يحيى وجماعة)).

ومذهبُ الشافعيِّ في الملامسةِ على ثلاثةِ أوجُهٍ: اللَّمسُ ينقضُ الوضوءَ قولاً واحداً؛ وهو لَمْسُ الشابَّةِ الأجنبيَّة بأيِّ جُزْءٍ من أجزائهِ؛ سَاهياً كان أم متعمِّداً؛ حيَّةً كانت أم مَيِّتةً. ولَمْسٌ لا ينقضُ قولاً واحداً؛ وهو مَسُّ الشَّعرِ والظُّفرِ والسِّنِّ. ولَمْسٌ فيه قولان: وهو لَمْسُ الصغيرةِ والعجوز الكبيرةِ وذواتِ مَحَارِمِهِ؛ أحدُهما: ينقضُ الوضوءَ؛ لأنَّهن من جُملة النساءِ، والثاني: أنهُ لا ينقضُ؛ لأنه لا مُدْخَلَ للشهوةِ فيهنَّ، دليلهُ: [أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ لأُمَامَةَ بنْتِ زَيْنَبَ وَأبُوهَا أبُو الْعَاصِ][(١)]. ولو كان اللَّمْسُ من خلفِ حائلٍ لا ينقضُ؛ سواءٌ كان الحائلُ صَفِيْقاً أم رَقِيْقاً. وفي الْمَلْمُوسِ للشافعيِّ قولان؛ أحدُهما: ينقضُ؛ لاشتراكهما في الإلْتِذاذِ بهِ، والثاني: لا ينقضُ؛ لخبرِ عائشةَ (فَوَقَعَتْ يَدَيَّ عَلَى أخْمَصِ رَسُولِ اللهِ ﷺ).

قولـه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ ﴾ ؛ أي إذا لم تَقدِرُوا على استعمال الماء وقد يذكرُ الموجودَ، ويراد به القدرةُ على استعمال الماءِ، فإنْ كان بينَهُ وبين الماءِ سَبُعٌ أو عَدُوٌّ لم يكن وَاجِداً للماء في الْحُكْمِ. ومعناهُ: فَتَيَمَّمُوا، ﴿ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ ؛ أي فاقصدُوا تُراباً طاهراً، ويقالُ: إن الصعيدَ ما يتصاعَدُ على وجهِ الأرض تُراباً كان أم صخرةً ولا ترابَ عليها؛ لأن اللهَ تعالى قال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾[(٢)] وإذا كان على الصخرةِ ترابٌ لا يكون زَلَقاً، وَلِهذا جَوَّزَ أبو حَنِيْفَةَ ومحمدٌ التَّيَمُّمَ بكلِّ ما كان مِن جنسِ الأرض. وقال مالكٌ: (يَجُوزُ التَّيَمُّمُ بالأرْضِ وَبكُلِّ مَا اتَّصَلَ بهَا؛ حَتَّى لَوْ ضَرَبَ بيَدِهِ عَلَى شَجَرَةٍ ثُمَّ تَيَمَّمَ بهَا أجْزَاهُ). وقال الشافعيُّ: (لاَ يَجُوزُ إلاَّ بالتُّرَاب الَّذِي يَعْلَقُ باليَدِ). والتَّيَمُّمُ مِن خصائصِ هذه الأُمَّةِ.

وسببُ نزول هذه الآية ما رُويَ عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكَانَ مَعِي عِقْدٌ اسْتَعَرْتُهُ مِنْ أسْمَاءَ؛ فَانْقَطَعَ؛ حَتَّى إذا كُنَّا بالْبَيْدَاءِ افْتَقَدْتُهُ؛ فَأخْبَرْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأنَاخَ وَأنَاخَ النَّاسُ مَعَهُ؛ فَأمَرَنَا بالْتِمَاسِهِ فَلَمْ يُوجَدْ؛ فَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ تِلْكَ وَلَيْسَ عِنْدَهُ مَاءٌ. فَجَاءَ النَّاسُ إلَى أبي بَكْرٍ ﷺ فَقَالُوا: ألاَ تَرَى إلَى

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصلاة: باب إذا حمل جارية: الحديث (٥١٦).

(٢) الكهف / ٤٠ .

عَائِشَةَ حَبَسَتِ النَّاسَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ؛ فَعَاتَبَنِي وَقَالَ: قَبَّحَهَا اللهُ مِنْ قِلاَدَةٍ حَبَسَتِ الْمُسْلِمِيْنَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ وَقَدْ حَضَرَتِ الصَّلاَةُ، ثُمَّ طَعَنَ بِيَدِهِ عَلَى خَاصِرَتِي فَمَا مَنَعَنِي مِنَ التَّخَوُّفِ إلاَّ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ وَاضِعاً رَأسَهُ عَلَى فَخِذِي، فَأصْبَحْنَا عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةِ، ثُمَّ وَجَدْنَا الْقِلاَدَةَ تَحْتَ الْبَعِيْرِ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ أسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ: مَا هَذا بأوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أبِي بَكْرٍ، جَزَاكِ اللهُ خَيْراً؛ فَوَاللهِ مَا نَزَلَ بكِ أمْرٌ تَكْرَهِيْنَهُ إلاَّ جَعَلَ اللهُ لَكِ وَلِلْمُسْلِمِيْنَ فِيْهِ خَيْرا)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ ﴾ ؛ معناهُ بعدَ ضرب الأيدي على الصَّعيدِ الطيِّب، قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي مُتَفَضِّلاً عليكُم بتسهيلِ الأوامر وتخفيفاً؛ لأنَّهُ نقلَكُمْ من الوضوءِ إلى التَّيَمُّمِ، غفُوراً متجاوزاً عنكُم، يغفرُ لكم بهذه الطاعَاتِ السَّهلةِ ذنوبكم.

وروى جابرٌ قال: خَرَجْنَا فِي سَفَرِنَا فَأصَابَ رَجُلاً مِنَّا شَجَّةٌ فِي رَأسِهِ ثُمَّ احْتَلَمَ، فَسَألَ أصْحَابَهُ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً ؟ قَالُوا: لاَ؛ أنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ، فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ أخْبَرْنَاهُ بذلِكَ، فَقَالَ: [قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، هَلاَّ سَألُوا إذا لَمْ يَعْلَمُوا؛ إنَّمَا شِفَاءُ الْعَيِّ السُّؤَالُ، إنَّمَا كَانَ يَكْفِيْهِ أنْ يَتَيَمَّمَ](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (هُمُ الْيَهُودُ؛ كَانُوا يَسْتَبْدِلُونَ الضَّلاَلَةَ بأخْذِ الرِّشَا بكِتْمَان صِفَةِ النَّبيِّ ﷺ، يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ عَلَى كِتْمَانِهِمْ بَعْدَمَا اُوتُوا الْعِلْمَ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي يريدون أن تَضِلُّوا أنتُمْ طريقَ الْهُدَى كما ضَلُّوا هُمْ بأنفسِهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التيمم: الحديث (٣٣٤ و٣٣٦).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الطهارة: باب في المجروح: الحديث (١١٤٧٢) عن ابن عباس. وعنه أخرجه ابن ماجة في السنن: الحديث (٥٧٢)؛ وإسنادهما منقطع. والحديث صحيح كما قال الحاكم في المستدرك: كتاب الطهارة: أحكام التيمم: الحديث (٦٤٩ و٦٥٠). وصححه ابن حبان في الإحسان: كتاب الطهارة: الحديث (١٣١٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ ﴾ ؛ أي هو أعلمُ بهم، يعلمُـهم ما هـم عليه، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي أنَّ عـداوةَ اليـهودِ لا تَضُـرُّ المسلمين إذ ضَمِنَ لَهم النصرَ والولايةَ؛ أي اكتفُوا بولايةِ الله ونصرتِه. وقـرأ الحسـنُ: (أنْ تَضَلُّوا السَّبيْلَ) بفتحِ الضَّاد؛ أي عن السَّبيلِ، وَقِيْلَ: معناهُ: (وَاللهُ أعْلَمُ بأعْدَائِكُمْ) أي أعلمُ بهم منكُم فلا تَسْتَنْصِحُوهُمْ، ويجوزُ أنْ يكون أعْلَمُ بمعنى عَلِمَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ؛ إن شِئْتَ جعلتَهُ متَّصلاً بقولهِ (الَّذِينَ أوتُوا نَصِيبًـا مِـنَ الْكِتَـابِ) (مِـنَ الَّذِينَ هَادُوا)، وإن شئتَ جعلتَها منقطعةً مسـتأنفة. قـال ابـنُ عبَّـاس: (كَـانُوا يَـأْتُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَيَسْأَلُونَهُ عَنِ الأَمْرِ فَيُخْبِرُهُمْ، وَيُرَى أنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ بِهِ فَإذا انْصَرَفُوا حَرَّفُوا كَلاَمَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَقُولُونَ لَهُ: سَمِعْنَا قَوْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِي أنْفُسِهِمْ: وَعَصَيْنَا أمْرَكَ). وقال بعضُهم (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا) راجعٌ إلى قولهِ (وَاللهُ أعْلَمُ بِـأعْدَائِكُمْ) علـى جهةِ التبيين للأعداءِ كما يقالُ: هذا الثوبُ من القُطْنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا ﴾ ؛ معنـاهُ: أنَّـهم كـانوا إذا كَلَّمُـوا رسولَ اللهِ ﷺ بشيءٍ قالوا: اسْمَعْ؛ وقالوا في أنفُسِهم: لا أسْمعْتَ ولا سَمعتَ. وقيل معناهُ: غَيْرُ مُجَابٍ لهُ بشيءٍ مما يدعُـو إليـهِ، وكـانوا يقولـون: رَاعِنَـا؛ يوهِمُـون أنَّـهم يريدون بهذا القول: انْظُرْنَا حتَّـى نُكَلِّمْـكَ بمَـا نريـدُ، وكـانوا يريـدونَ بذلـك السَّـبَّ بالرُّعُونَةِ بلُغَتِهم. ويقالُ: كانوا يقولونَ هذه الكلمةَ على وجـهِ التَّجَـبُّرِ والتَّكَـبُّرِ، كمـا يقولُ المتكبرُ لغيرِهِ: افْهَمْ كَلاَمِي وَاسْمَعْ قَوْلِي، وكانوا يقولونَ: أرْعِنَا سَـمْعَكَ وَتَـأمَّلْ كلامَنا ومثل هـذا مِمَّـا لا يخـاطَبُ بـه الأنبيـاءُ صَلَـوَاتُ اللهِ عَلَيْـهِمْ، إنَّمـا يخـاطبون بالإجْلاَلِ والإعْظَامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ ﴾ ؛ أي كانوا يَلْـوُونَ أَلْسِـنَتَهُمْ بالسَّب والتَّعيير والطَّعْنِ في الدِّين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا ﴾ ؛ معناهُ: لو قالوا سَمِعْنَا قولَكَ وأطَعْنَا أمرَكَ مكان قولِهم سَـمِعْنَا وَعَصَيْنَـا، وقالُوا: وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا نَسْمَعْ قَوْلَكَ وَنَفْهَمْ كلامَك مكان قولِهم: وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ ؛ وأصوبُ. ﴿ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ ؛ أي خذلَهم وأبعدَهم من رحمتهِ مجازاةً بكفرِهم. ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ فلا يؤمنون

إيْماناً إلاَّ قليلاً، وَقِيْلَ: معناهُ: لا يؤمنونَ إلاَّ قليلاً منهُم وهم: عبدُالله بْنُ سلاَمٍ ومن تابَعَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ ؛ أي يَا أيُّهَا الَّذِيْنَ اُعطُوا عِلْمَ التَّوراةِ، صدِّقوا بهذا القُرْآن الذي نَزَّلْنَا على مُحَمَّدٍ ﷺ مُوَافِقاً لِمَا معكُم من التوراةِ، ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ ؛ أي مِن قَبْلِ أن نَمْحُوَ آثاراً لوجوهِ منها: فَنَخْسِفُ بالعينِ والأنفِ وغيرَ ذلك من آثار الوجُوهِ فنحوِّلُها إلى الأَقْفِيَةِ فتمشونَ الْقَهْقَرَى.

روي: أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَدِمَ عَبْدُاللهِ بنُ سَلاَمٍ مِنَ الشَّامِ؛ فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبْلَ اَنْ يَأْتِيَ اَهْلَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا كُنْتُ اَرَى اَنْ اَصِلَ إلَيْكَ حَتَّى تُحَوَّلَ وَجْهِي فِي قِفَاءٍ.

ويقال معنى: ﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ ؛ نجعلُ وجوهَهم على هَيْأَةِ اَقْفَائِهِمْ، ومعنى: ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ﴾ ؛ أو نجعلهم قِرَدَةً كما مَسَخْنَا أصحابَ السبتِ، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ قضاؤُه كائِناً لا شكَّ فيهِ، فإن قيلَ: كيفَ قالَ اللهُ تعالى آمِنُوا (مِنْ قَبْلِ اَنْ نطْمِسَ وُجُوهًا) وَاَوْعَدَهُمْ بطمسِ الوجُوهِ إن لَم يؤمِنُوا، ثُمَّ لم يؤمِنوا، ولم يقعِ الطَّمْسُ؟ قيلَ: يحتملُ أن يكون هذا وَعِيْداً لَهم على تركِ جَمِيعهم الإسلامَ، وقد آمَنَ منهم جماعةٌ بعدَ هذه الآيةِ كعبدِالله بنِ سلام وعبدِالله بن ثعلبةَ وأَسَيْدَ بن ثعلبة وأَسَيْدَ بن عبيدٍ وغيرهم، ويحتملُ أن يكون المرادُ بالآية: الطَّمْسُ في الآخرةِ، وسيفعلُ اللهُ ذلك بهم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِيْنَ؛ فِي شَأْنِ وَحْشِيٍّ وَابْنِ حَرْبٍ وَأَصْحَابِهِ، وَكَانَ قَدْ جَعَلَ لِوَحْشِيٍّ إنْ قَتَلَ حَمْزَةَ اَنْ يُعْتِقَهُ مَوْلاَهُ، فَلَمْ يُوفَّ لَهُ بذلِكَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ نَدِمَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ عَلَى مَا فَعَلُوا مِنْ قَتْلِ حَمْزَةَ؛ فَكَتَبُوا إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: أنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا صَنَعْنَا، وَأنَّهُ لَيْسَ يَمْنَعُنَا عَنِ الإسْلاَمِ إلاَّ أنَّا سَمِعْنَاكَ تَقُولُ إذْ كُنْتَ عِنْدَنَا بِمَكَّةَ ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أثاماً. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾(١) وَقَدْ دَعَوْنَا مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ وَقَتَلْنَا النَّفْسَ وَزَنَيْنَا، وَلَوْلاَ هَذِهِ الآيَةُ لاتَّبَعْنَاكَ، فَنَزَلَ ﴿إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾(٢) الآيَةُ، فَبَعَثَ بهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى وَحْشِيٍّ وَأصْحَابهِ، فَلَمَّا قَرَأوهَا كَتَبُوا إلَيْهِ: إنَّ هَذا شَرْطٌ شَدِيدٌ نَخَافُ أنْ لاَ نَعْمَلَ عَمَلاً صَالِحاً فَلاَ نَكُونَ مِنْ أهْلِ هَذِهِ الآيَةِ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ: (إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) فَبَعَثَ بهَا إلَيْهِمْ فَقَالُواْ: نَخَافُ أنْ لاَ نَكُونَ مِنْ أهْلِ الْمَشِيْئَةِ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾(٣) فَبَعَثَ بهَا إلَيْهِمْ فَوَجَدُوهَا أوْسَعَ مِمَّا كَانَ قَبْلَهَا، فَدَخَلَ هُوَ وَأصْحَابُهُ فِي الإسْلاَمِ وَرَجَعُواْ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَبلَ مِنْهُمْ ثُمَّ قَالَ ﷺ لِوَحْشِي: [أخْبرْنِي كَيْفَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ؟] فَلَمَّا أخْبَرَهُ، قَالَ لَهُ: [وَيْحَكَ! غَيِّبْ وَجْهَكَ عَنِّي] فَلَحِقَ وَحْشِيٌّ بالشَّامِ فَكَانَ فِيْهَا إلَى أنْ مَاتَ. قَالُواْ: مَاتَ وَفِي بَطْنِهِ الْخَمْرُ(٤).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي ومَن يُشْرِكْ باللهِ سِوَاهُ فقدِ اختلَقَ على اللهِ ذنباً عظيماً غيرَ مغفورٍ له.

قولهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي بَحْرَى بْنِ عَمْرٍو وَمَرْحَبَ بْنِ زَيْدٍ؛ أتَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَعَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ بأطْفَالِهِمْ؛ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ؛ هَلْ عَلَى أوْلاَدِنَا هَؤُلاَءِ مِنْ ذنْبٍ؟ قَالَ: [لاَ] فَقَالُوا: وَالَّذِي نَحْلِفُ بهِ؛ مَا نَحْنُ إلاَّ كَهَيْئَتِهِمْ مَا مِنْ ذنْبٍ نَعْمَلُهُ بالنَّهَار إلاَّ كُفِّرَ عَنَّا باللَّيْلِ، وَمَا مِنْ ذنْبٍ نعمله باللَّيْلِ إلاَّ كُفِّرَ عَنَّا بالنَّهَار. فَهَؤُلاَءِ الَّذِيْنَ يُزَكُّونَ أنْفُسَهُمْ، بَرَّؤُهَا مِنَ الذُّنُوب، وَزَعَمُواْ أنَّهُمْ أزْكِيَاءُ)(٥). يقولُ الله تعالى: (بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) أي يُطَهِّرُ من الذنوب مَن يشاءُ مَن كان أهْلاً لذلكَ.

---

(١) الفرقان / ٦٨ ، ٦٩ . (٢) الفرقان / ٧٠. (٣) الزمر / ٥٣ .

(٤) قصة وحشي أخرجها البخاري في الصحيح: كتاب المغازي: باب قتل حمزة بن عبدالمطلب ﷺ: الحديث (٤٠٧٢)، وفيها قول الرسول ﷺ له:[غَيِّبْ وَجْهَكَ عَنِّي].

(٥) في أسباب النزول: ص١٠٣؛ نقله الواحدي عن الكلبي. وينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٦ ص٤١٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي لا يُنْقَصُونَ من جزاءِ ما يستحقُّونه قدرَ الْفَتِيْلِ وهو مَا تفتلُهُ بينَ إصبعَيْكَ من الوَسَخِ إذا مَسَحْتَ إحداهُما بالأخرى، وَقِيْلَ: الْفَتِيْلُ: ما في بَطْنِ النَّوَاةِ في شقِّها من لِحَائِهَا[1].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ ؛ أي انْظُرْ يا مُحَمَّدُ كيفَ يَخْتَلِقُ اليهودُ الكذبَ على اللهِ، ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ ﴾ ؛ بما يفعلونه، ﴿ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾ ، ذنباً بَيِّناً.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ ؛ قرأ السلمي:(أَلَمْ تَـرْ) ساكنةَ الراء في كلِّ القرآن كما قال الشاعر[2]:

مَـنْ يَـهْدِهِ اللهُ يَـهْتَدِ لا مُضِـلَّ لَـهُ ... وَمَـنْ أَضَلَّ فَمَا يَهْدِيـهِ مِـنْ هَـادِي

قال ابنُ عبَّاس: (رَكِبَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ فِي تِسْعِيْنَ رَاكِباً مِنَ الْيَهُودِ؛ فِيْهِمْ حُيَيُّ بْنُ أخْطَبَ وَجَدْيُ بْنُ أخْطَبَ وَمَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ وَغَيْرُهُمْ إلَى أهْلِ مَكَّةَ لِيُحَالِفُوهُمْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَنْقُضُوا الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ قَبْلَ أجَلِهِ، فَقَالَ أبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ أهْلِ الْكِتَابِ؛ أنْشِدُكُمْ باللهِ أيُّهُمْ أقْرَبُ لِلْهُدَى؛ نَحْنُ أمْ مُحَمَّدٌ وَأصْحَابُهُ، فَإنَّا نُعَمِّرُ مَسْجِدَ اللهِ، وَنَسْقِي الْحَجِيْجَ، وَنَحْجُبُ الْكَعْبَةَ، وَنَصِلُ الرَّحِمَ، وَمُحَمَّدٌ قَطَعَ أرْحَامَنَا وَاتَّبَعَهُ شِرَارُ الْحَجِيْجِ بَنُو غِفَارٍ، فَنَحْنُ أهْدَى أمْ هُمْ ؟ فَقَالَتِ الْيَهُودُ: أنْتُمْ أهْدَى مِنْهُمْ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[3].

ومعناه: ألم يَنْتَهِ علمُكَ يا مُحَمَّدُ إلى (الَّذِينَ أوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَاب) أي علماً بالتَّوراةِ وما فيها من نَعْتِ مُحَمَّدٍ وصفتِه يصدِّقون بالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ. قال ابنُ عبَّاس: (الْجِبْتُ: حُيَيُّ بْنُ أخْطَبَ، وَالطَّاغُوتُ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ)[4]. وقيل الْجِبْتُ:

(١) والنقير: النقرةُ في ظهر النواة، والقطميرُ: جُملة ما التفَّ عليها من لِحائها.
(٢) البيت لجرير (٢٨-١١٠هـ).
(٣) في الدر المنثور: ج ٢ ص٥٦٢ نسبه السيوطي إلى الطبراني والبيهقي في الدلائل؛ وأحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وعبدالرزاق.
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٧٣٣).

الكَهَنَةُ، والطَّاغُوتُ: الشَّيَاطِيْنُ. وَقِيْلَ: الْجِبْتُ والطـاغُوتُ: صَنَمَـان كـان المشـركونَ يعبدونَهما من دون اللهِ[١]. وقيل الْجِبْتُ: الصنمُ، والطَّاغُوتُ: مترجمـة الصنمِ علـى لسانه[٢].

وقال أهلُ اللغة: كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَى اللهِ تَعَالَى مِنْ حَجَرٍ أو مَدَرٍ أو صُـورَةٍ فـهو جِبْتٌ وَطَاغُوتٌ، دليلهُ قال تعالى:﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٣] وقولهُ تعالى: ﴿وَالَّذِيـنَ اجْتَنَبُـوا الطَّـاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَـا﴾[٤]. وقـال مجـاهدُ: (الْجِبْـتُ: السِّـحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ)[٥]. يدلُّ عليه قولهُ ﴿وَالَّذِيـنَ كَفَـرُوا أَوْلِيَـاؤُهُمُ الطَّـاغُوتُ﴾[٦] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ).

وقال بعضُ المفسِّرين: لَمَّا خَرَجَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى مَكَّةَ بَعْـدَ وَقْعَةِ أحُدٍ لِيُحَالِفُوا قُرَيْشاً عَلَى عَدَاوَةِ رَسُول اللهِ ﷺ؛ نَزَلَ كَعْـبُ عَلَـى أبـي سُـفْيَانَ فَأَحْسَنَ مَثْوَاهُ، وَنَزَلَ الْيَهُودُ فِي دُور قُرَيْش، فَقَالَ أهْلُ مَكَّةَ: إِنَّكُمْ أهْلُ كِتَابٍ وَمُحَمَّدٌ صَاحِبُ كِتَابٍ، وَلاَ نَأْمَنُ أنْ يَكُونَ هَذا مَكْرٌ مِنْكُمْ، فَإِنْ أرَدْتَ يَا كَعْبُ أنْ نَخْرُجَ مَعَكَ فَاسْجُدْ لِهَذَيْنِ الصَّنَمَيْنِ وآمِنْ بهِمَا؛ فَفَعَلَ هُوَ وَأصْحَابُهُ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُؤْمِنُونَ بالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ).

قَالَ كَعْبُ لأَهْلِ مَكَّةَ: يَجِيْءُ مِنْكُمْ ثَلاثُونَ؛ وَمِنَّا ثَلاثُونَ؛ فَنَلْزَقُ أكْبَادَنَا بالْكَعْبَةِ فَنُعَاهِدُ رَبَّ الْبَيْتِ لَنُجْهِدَنَّ عَلَى قِتَال مُحَمَّدٍ، فَفَعَلُوا ذلِكَ، ثُـمَّ قَـالَ أبُـو سُـفْيَانَ: يَـا كَعْبُ؛ إِنَّكَ امْرُؤٌ تَقرَأ الْكِتَابَ وَنَحْنُ أمِّيُّونَ لاَ نَعْلَمُ، فَمَنْ أهْدَى سَبيلاً، وَأقْـرَبُ إِلَـى الْحَقِّ نَحْنُ أمْ مُحَمَّدٌ، فَقَالَ كَعْبٌ: وَاللهِ أنْتُمْ أهْدَى سَـبيْلاً مِـنَ الَّـذِي عَلَيْـهِ مُحَمَّـدٌ. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ (ألَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أوتُوا نَصِيبًـا مِـنْ الْكِتَـاب). يَعْنِـي كَعْبـاً وأصحابَهُ يؤمنونَ بالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ يعـني الصَّنمـين، ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي لأبي سُفيانَ وأصحابه: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾.

---

(١) قاله عكرمة، نقله الطبري في جامع البيان: النص (٧٧٢٠).

(٢) تراجمة الصنم: الكهّان؛ لأنهم كانوا ينطقون على ألسنة الأصنام؛ يزعمون ويدعون.

(٣) النحل / ٣٦ .

(٤) الزمر / ١٧ .

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٧٢٣).

(٦) البقرة / ٢٥٧ .

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي أبْعَدَهُمْ من رحمتهِ، ومن يُبْعِدْهُ اللهُ من رحمته ، ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ .

قال تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي ألَهم نصيبٌ، والميمُ زائدةٌ، وهذا على وجه الإنكار؛ أي ليس لَهم من الْمُلْكِ شيءٌ، (فَإذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا) يعني مُحَمَّداً وأصحابَه لا يعطونَهم شيءٌ من حَسَدِهِمْ وبُخْلِهِمْ وبُغْضِهِمْ، ورُفعَ قوله: (يُؤْتُونَ) لاعتراض (لا) بينهُ وبين (إذاً)[1]. وفي قراءةِ عبدِالله: (فَإذاً لاَ يُؤْتُوا) بالنصب، ولم يعمل بـ (لا)[2]. وقال بعضُهم: معناهُ: أنَّ اليهودَ

(١) متعلق كلامه دلالة (إذاً) من قوله تعالى: ﴿فَإِذاً﴾، قال سيبويه: (((إذاً) في أصل الأفعال بمنزلة (أظن) في عوامل الأسماء، وتقريره: أن الظن إذا وقع أول الكلام نصبَ لا غير؛ كقولك: أظن زيداً قائماً، وإن توسَّط جاز إلغاؤه، وإعماله تقول: زيدَ ظننت منطلقٌ، ومنطلقاً. وإن تأخر، ألغي.

والسبب في ذلك أن (ظنَّ) وأخواتها نحو: (عَلِمَ، وحسِبَ) ضعيفة في العمل لأنها لا تؤثر في مفعولاتها، فإذا تقدمت دلَّ تقدمها على شدة العناية فقوي على التأثير، وإذا تأخرت دل على عدم العناية فلَغَى، وإن توسَّطت لا يكون في محل العناية من كل الوجوه، ولا في محل الإهمال من كل الوجوه، فلا جرمَ أوجب توسُّطها الإعمال، والإعمالُ في حال التوسط أحسن، والإلغاء حال التأخر أحسن، وإذا عرفت ذلك، فنقول: (إذاً) على هذا الترتيب، فإن تقدمت نصبت الفعلَ، وإن توسَّطت أو تأخرت جاز الإلغاء)). وهذا معنى قوله: (لا بينه وبين إذاً) والله أعلم. ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٦ ص٢٢٤-٢٢٥.

وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٢٥٠؛ قال القرطبي: ((قال سيبويه: (إذاً) في عوامل الأفعال بمنزلة (أظن) في عوامل الأسماء، أي تُلغى إذا لم يكن معتمداً عليها، فإن كانت في أول الكلام وكان الذي بعدها مستقبلاً نصبت؛ كقولك: أنا أزورُكَ، فيقول مجيباً لك: إذاً أكرمَك، نصبَ لأن الذي قبل (إذاً) تام فوقعت ابتداء كلام. فإن وقعت متوسطة بين شيئين، كقولك: زيد إذاً يزورك، ألغيت؛ فإن دخل عليها فاء العطف أو واو العطف، فيجوز فيها الإلغاء والإعمال؛ أما الإعمال فلأن ما بعد الواو يستأنف على طريق عطف الجملة على الجملة، فيجوز في غير القرآن: فإذاً لا يُؤتُوا. وفي التنزيل: ﴿وإذاً لاَ يَلْبَثُونَ﴾ وفي مصحف أبي: (فَإذاً لاَ يَلْبَثُوا). وأما الإلغاء فلأن ما بعد الواو لا يكون إلا بعد كلام يعطف عليه، والناصب للفعل عند سيبويه (إذاً) لمضارعتها (أنْ)، وعند الخليل (أنَّ) مضمرة بعد (إذاً))).

(٢) لأن (لا) يتخطاها العامل، ولأن (إذاً) ألغيت عن العمل، فكأنه قيل: فلا يؤتون الناس إذن. حيث إن (الفاء) للعطف والإنكار، وهي متوجهة إلى مجموع المعطوفين، و(إذاً) إذا وقعت بعد الواو والفاء، يجوز فيها الإلغاء والإعمال، ولذلك قرئ على النصب (فَإذاً لاَ يُؤْتُوا) وهذا يجوز في غير القرآن، أما مع القرآن فلا، لأنه مبني على الوقف.

لو كان لَهم نصيبٌ مِن الْمُلْكِ ما أعطوا الناسَ مقدارَ النَّقِيْرِ؛ وهو النقطةُ الـتي تكـون في ظَهْرِ النَّواةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ ؛ أي بَلْ يحسدون مُحَمَّداً ﷺ على ما أعطاهُ الله تعالى من النبوَّة. وَقِيْلَ: علـى مـا أحَـلَّ اللهُ له من النساءِ، وقالوا: لو كان نَبيّاً لشغلتْهُ النبـوَّةُ عـن النسـاءِ. وقـال قتـادةُ: (أرَادَ بالنَّاسِ الْعَرَبَ، حَسَدُوهُمْ عَلَى النُّبُوَّةِ أكْرَمَـهُمُ اللهُ بـهَا بمُحَمَّـدٍ ﷺ)، وقـال عَلِـيٌّ ﷺ: (أرَادَ بالنَّاسِ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأبي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا).

قولـهُ تعـــالى: ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ؛ أي لَمَّــا قالتِ اليهودُ: لو كان مُحَمَّدٌ نَبيّاً ما رَغِبَ في كثرةِ النِّساءِ؛ حسـدوهُ علـى كَـثْرَةِ نسـائهِ وعابُوهُ بذلـك فأكذبَـهم اللهُ بقولـه (فَقَـدْ آتَيْنَـا آلَ إبْرَاهِيـمَ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ) أراد بالحكمةِ النبوَّة، ﴿ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس:(هُــوَ مُلْـكُ سُلَيْمَانَ بْن دَاوُدَ، وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ سَبْعُمِائَةِ مَهْرِيَّــةٍ - أيْ مَمْـهُورَةٍ - وَثَلاَثُمِائَـةِ سَـريَّةٍ ولداؤد مِائَةُ امْرَأةٍ، فَأقَرَّتِ الْيَهُودُ لِرَسُول اللهِ ﷺ بذلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ: [ألْفُ امْرَأةٍ عِنْـدَ رَجُلٍ وَمِائَةُ امْرَأةٍ عِنْدَ رَجُلٍ أكْثَرُ أمْ تِسْعُ نِسْوَةٍ عِنْدَ رَسُول اللهِ] فَسَكَتُوا)[1].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ ؛ معناهُ: مِـنَ اليهودِ مَن آمَنَ بمُحَمَّدٍ ﷺ: عبدُاللهِ بـنُ سَـلاَمٍ وأصحابُـه؛ ومنـهم مـن أعـرضَ عـن الإيْمان به. وَقِيْلَ: معناهُ: مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بهذا الْخَبَرِ عـن داودَ وسـليمانَ، ومنـهم مـن كَذبَ به، ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي وَقُوداً لِمَنْ كفرَ به؛ أي إنْ صَرَفَ اللهِ عن اليهودِ بعضَ العذاب في الدُّنيا مثل الطَّمْسِ وغيرِه، فقد أبدلَهم عـذابَ جـهنَّمَ في الآخرةِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾ ؛ أي إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بمُحَمَّدٍ والْقُرْآنِ سَوْفَ نُدْخِلُهُمْ ناراً. وقرأ حُميـد بـن قيـسٍ: (نَصْلِيـهِمْ) بفتحِ النون؛ أي نَشْوِيْهِمْ مِنَ قولِهم: شـاةٌ مَصْلِيَّـةٌ؛ أي مَشْـوِيَّةٌ، ونُصبـتِ النـارُ بـنَزعِ الخافض على هذه القراءةِ؛ تقديرهُ: بنَار.

---

(١) أخرجه الطبري مختصراً في جامع البيان: النص (٧٧٦٤).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ ؛ أي كُلَّمـا أحْرِقَتْ جلودُهم جَدَّدْنَا لَهم جلوداً غيرَهـا بيضـاءَ كـالقراطيس، وذلـك أنَّـهم كلَّمـا احْتَرَقُوا حَسَّت عليهم النارُ ساعةً ثم تَزَايَدَتْ سعيراً وبَدَأوا خَلْقاً جديداً فيـهم الـرُّوحُ ثم عادَتْ النَّارُ تُحْرِقُهُمْ؛ فهذا دَأْبُهُمْ أبداً. قال الحسنُ:(تَنْضَجُ جُلُودُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِيْنَ أَلْفَ مَرَّةٍ، كُلَّمَا أكَلَتْهُمُ النَّارُ وَأنْضَجَتْهُمْ؛ قِيْلَ لَهُمْ: عُودُوا؛ فَيَعُودُونَ كَمَا كَانُوا). وعن مجاهدٍ قَالَ: (مَا بَيْنَ جِلْدِهِ وَلَحْمِهِ دُودٌ لَهَا حَلْبَةٌ كَحَلْبَـةِ حُمُـرِ الْوَحْـشِ). وعـن أبـي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: [غِلَظُ جِلْدِ الْكَافِرِ اثْنَـانِ وَأرْبَعُـونَ ذِرَاعـاً، وَضِرْسُـهُ مِثْـلُ أحُدٍ](١).

قيل: كيفَ جاز أنْ يعذِّبَ اللهُ جِلْداً لَم يَعْصِهِ؟ قيل: إنَّ العاصِي والمتألِّمُ واحدٌ وهو الإنسانُ لا الجلدُ؛ لأن الجلودَ إنَّما تَألَمُ بالأرواحِ، والدليلُ على أنَّ القصدَ تعذيبُ الإنسانِ لا تعذيبُ الجلودِ قولهُ تعالى: ﴿ لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ ؛ ولَـم يقـل ليـذوقَ العذابَ، وَقِيْلَ: معناهُ: تبدل جلودٌ هي تلك الجلودُ المتحرقة، وذلـك أنَّ (غـيرَ) علـى ضربين: بتضَادٍّ و(غير) بلا تضادٍّ، فالتضادُّ مثلُ قولِكَ: الليلُ غيرُ النَّهار، والذكرُ غـيرُ الأنثى، والثاني مثل قولِكَ لصائغ: صُغْ لي من هذا الخاتمِ خاتماً غيرَهُ، فيكسره ويصوغُ لكَ خاتماً، والخاتمُ المصوغُ هو الأَوَّلُ، إلاّ أن الصياغةَ قد تغيَّرت، والقصةُ واحدةٌ.

وقالت الحكماءُ: كما أنَّ الجلد بَلِيَ قبلَ البعثِ كذلك يبدلُ بعد النُّضج. وقـال السُّدِّيُّ: (يُبْدَلُ مِنْ لَحْمِ الْكَافِرِ يُعَادُ الْجِلْدُ لَحْماً وَيَخْرُجُ مِنَ اللَّحْمِ جِلْدٌ آخَـرُ؛ لأنَّـهُ جِلْدٌ لَمْ يَعْمَلْ خَطِيْئَةً). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي غالباً في أمرهِ، لا يَمْلِكُ أحدٌ مَنْعَهُ من إنزالِ وعدِهِ، ذو حِكْمَـةٍ فيمـا حَكَـمَ مـن النـار للكفَّار.

(١) في الدر المنثور: ج٢ ص٥٦٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي صـالح، قـال: قـال أبو مسعود لأبي هريرة:(أتدري كـم غلـظ جلـد الكـافر؟)... وذكـره)) وأصلـه عنـد مسـلم في الصحيح: كتاب الجنة: النار يدخلها الجبارون: الحديث (٤٤/ ٢٨٥١).

قوله عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ؛ أي بساتينَ تجري من تحتِ شجرها وغُرَفها الأنهارُ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ ؛ في الخلْــق، ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) ﴾ ؛ أي ظِلاً دائماً وهو ظِلُ الأشجار والقصور؛ ظلٌ لا حرَّ معه ولا بَرْدَ، وليس كـلُ ظـلٌ يكون ظَليلاً. وَقِيْلَ: الظَّلِيْلُ الكثيفُ الذي لا تَنْسَخُهُ الشَّمسُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ ؛ وذلك: أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ أتَى الْبَيْتَ لِيَدْخُلَهُ؛ فَسَألَ عَنِ الْمِفْتَاحِ، فَقِيْلَ: هُوَ مَعَ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الدَّار وَكَانَ سَادِنَ الْكَعْبَةِ، فَأَرْسَلَ إلَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُ: [هَاتِ الْمِفْتَاحَ] فَأَبَى، فَلَوَى عَلِيٌّ ﷺ يَدَهُ وَأخَذهُ مِنْهُ وَفَتَحَ الْبَابَ وَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْبَيْتَ، وَصَلَّى فِيْـهِ رَكْعَتَيْنِ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ لَهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ: بأبي أنْتَ وَأمِّي يَـا رَسُـولَ اللهِ؛ إجْعَـلْ لِـيَ السِّدَانَةَ مَعَ السِّقَايَةِ - يَعْنِي اجْعَلْ لِي مِفْتَاحَ الْبَيْـتِ - فَـأنْزَلَ اللهُ هَـذِهِ الآيَـةَ (إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلىٰأهْلِهَا) فَأمَرَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ عَلِيّاً ﷺ أنْ يَـرُدَّ الْمِفْتَـاحَ إلَى عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِ فَقَالَ عُثْمَانُ: أنَا أشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ؛ وَأسْلَمَ، فَقَالَ جِبْرِيْلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا دَامَ هَذا الْبَيْتُ أرَى اللَّبنَةَ مِنْ لَبنَاتِهِ قَائِمَةً؛ فَإنَّ الْمِفْتَاحَ فِـي أوْلاَدِ عُثْمَانَ بْنِ أبي طَلْحَةَ.

روي: أنَّهُ لَمَّا طَلَبَ الْمِفْتَاحَ مِنْ عُثْمَانَ أبَى، فَقَالَ ﷺ: [يَـا عُثْمَـانُ؛ إنْ كُنْـتَ تُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَهَاتِ الْمِفْتَاحَ] فَقَالَ: هَاكَ أنْتَ يَـا رَسُـولَ اللهِ؛ خُـذْهُ بأمَانَـةِ اللهِ. فَأَخَذ النَّبِيُّ ﷺ الْمِفْتَاحَ فَفَتَحَ الْبَابَ وَمَكَثَ فِي الْبَيْتِ مَا شَاءَ اللهُ، فَلَمَّا خَرَجَ نَزَلَ جِبْرِيْلُ بهَذِهِ الآيَةِ[1] . ويدخلُ في هذا جملةُ الأمانةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ ؛ خطابٌ لِلأئمَّةِ؛ أي ويَأْمُرُكُمْ اللهُ أن تحكمُـوا بـين النـاس بالحـقِّ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ﴾ ؛ أي

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٥٧٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه من طريق الكلبي عـن أبـي صالح عن ابن عباس)). وأخرجه الطبري في جـامع البيـان: النـص (٧٧٨٢) عـن ابـن جريـج مرسلاً. وفي الدر المنثور نسبه السيوطي إلى ابن المنذر أيضاً.

نِعْمَ الذي يَـأْمُرُكُمْ بـه مـن أداءِ الأمَانَـةِ والحكـمَ بـالحقّ؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا ﴾ ؛ لِمَقَالَةِ الْعَبَّاسِ؛ ﴿ بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ بِأَمَانَةِ عُثْمَانَ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ ؛ أي أطيعُوا اللهَ تعالى فيما أمَرَ؛ وأطيعُوا الرسُولَ فيما بَيَّنَ. وَقِيْـلَ: أطيعُـوا اللهَ في الفرائضِ، وأطيعُوا الرسولَ في السُّنَنِ.

وقولهُ تعالى: (وَأوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ) قال عكرمةُ: (هُوَ أبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ)[١] لِقَوْلِـهِ ﷺ: [اقْتَدُوا مِنْ بَعْدِي بأبي بَكْرٍ وَعُمَرَ][٢]، [وَإنَّ لِي وَزِيْرَيْنِ فِـي الأَرْضِ؛ وَوَزِيْرَيْـنِ فِـي السَّمَاءِ، فَبِالسَّمَاءِ جِبْرِيْلُ وَمِيْكَائِيْلُ، وَبِالأَرْضِ أبُـو بَكْـرٍ وَعُمَـرَ][٣]، [عِنْـدِي بِمَنْزِلَـةِ الرَّأسِ مِنَ الْجَسَدِ][٤]. وقال الورَّاق: (هُمْ أبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَـانَ وَعَلِيٌّ لقولـهِ ﷺ:

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٨٠٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ٩ ص٧٢: الحديث (٨٤٢٦) عن عبـدالله بـن مسـعود، وفي الأوسـط عنه: الحديث (٧١٧٣). والترمذي في الجامع: المنـاقب: بـاب منـاقب عبـدالله بـن مسـعود: الحديـث (٣٨٠٥)؛ وقال: غريب من هذا الوجه. وأخرجه الطبراني في الأوسط: عن حذيفة في الرقـم (٣٨٢٨ و٥٤٩٩ و٥٨٣٦). وفي الإحسـان في تقريـب صحيـح ابـن حبـان: كتـاب إخبـاره ﷺ عـن منـاقب الصحابة: الحديث (٦٩٠٢) بإسناد صحيح. والـترمذي في الجـامع: الحديـث (٣٦٦٢)؛ وقـال: هـذا حديث حسن.

(٣) في مجمع الزوائد: ج ٩ ص٥١: كتاب المناقب: باب فيما ورد من الفضل لأبي بكر وعمـر؛ قـال الهيثمي: ((رواه الطبراني وفيه مُحمد بن محبب الثقفي، وهـو كـذاب، ورواه الـبزار بمعنـاه وفيـه عبدالرحمن بن مالك بن مغول، وهو كذاب)).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٦ ص١٧٠: الحديث (٥٣٥٠) وج ٥ ص١٧٠: عن حُذيفة بن اليَمَان قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَقَدْ هَمَمْتُ أنْ أبْعَثَ فِي النَّاسِ مُعَلِّمِينَ كَمَا بَعَثَ عِيسَى بْـنُ مَرْيَمَ الْحَوَارِيِّينَ إلَى بَنِي إسْرَائِيلَ] فَقِيلَ لَهُ: أيْنَ أنْتَ عَنْ أبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، ألاَ تَبْعَثُ بهِمَا؟ قَـالَ: [إنَّهُمَا لاَ غِنَى عَنْهُمَا، إنَّهُمَا مِنَ الدِّينِ كَالرَّأسِ مِنَ الْجَسَدِ].

في مجمع الزوائد: ج ٩ ص٥٣؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط، وفيـه حفـص بـن عمر الأيلي، وهو ضعيـف)). وأخرجـه الطـبراني في الأوسـط أيضـاً: ج ٥ ص٥٢٤: الحديـث (٤٩٩٦) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وفي مجمع الزوائد: ج ٩ ص٥٢؛ قـال الهيثمـي: ((رواه الطبراني وفيه مُحَمد مولى بني هاشم، لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. قلتُ: ولـه طريـق عـن ابـن عمر ضعيفة تأتي في فضل جماعة من الصحابة في أول المجلد الذي يلي هذا)).

[الْخِلاَفَةُ بَعْدِي فِي أرْبَعَةٍ مِنْ أمَّتِي: أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ](١) وقال عطاءُ: (هُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالأنْصَارُ وَالتَّـابِعُونَ بإحْسَـانٍ لقولـهِ تعـالى: ﴿وَالسَّـابقُونَ الأوَّلُـونَ مِـنَ الْمُهَاجِرينَ وَالأنصَار وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بإحْسَانٍ﴾(٢) الآية. وَقِيْلَ: هم أصحابُ رسـولِ اللهِ ﷺ كما قالَ: [أصْحَابي كَالنُّجُومِ؛ بَأيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ](٣).

وقال جـابرُ بـن عبـدِالله(٤) والحسـنُ(٥) والضحَّـاك ومجـاهدُ(٦): (هُـمُ الْفُقَـهَاءُ وَالْعُلَمَاءُ أهْلُ الدِّيْنِ وَالْفَضْـلِ) الَّذِيْـنَ يُعَلِّمُـونَ النَّـاسَ مَعَـالِمَ دِيْنِـهِمْ؛ وَيَأمُرُونَـهُمْ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَأوْجَبَ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ طَاعَتَهُمْ. قال ابنُ الأسـودِ: (لَيْسَ شَيْءٌ أعَزُّ مِنَ الْعِلْـمِ، فَـالْمُلُوكُ حُكَّـامٌ عَلَـى النَّـاسِ، وَالْعُلَمَـاءُ حُكَّـامٌ عَلَـى الْمُلُوكِ). وقال أبو هريرةَ: (هُمْ وُلاَةُ الْمُسْلِمِيْنَ). وقال الكلبيُّ ومقـاتلُ: (هُـمْ أمَـرَاءُ السَّرَايَا، كَانَ ﷺ إذا بَعَثَ سَرِيَّةً أمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً، وَأمَرَهُمْ أنْ يُطِيْعُوهُ وَلاَ يُخَالِفُوهُ).

والأظهرُ مِن هذه الأقاويلِ: أن المرادَ بهم العلماءُ لقولهِ تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ ؛ أي فـإن اخْتَلَفْتُـمْ في شـيءٍ مـن الحلال والحـرام والشـرائعِ والأحكـام، فـردُّوه إلى أدلَّـةِ الله وأدلَّـة رسـوله، وهـذا الـردُّ لا يكـون إلاَّ بالاستدلالِ والاستخراج بالقياسِ؛ لأن الموجودَ في نصِّ الكتاب اذا عُلِمَ وعُمِلَ بـه لا

---

(١) في الفردوس بمأثور الخطاب: النص (٣٠١٩) عن أبي الجعفاء السلمي؛ قال: (الْخُلَفَـاءُ ثَلاَثَـةٌ). وفي الفتن: ص٦٤: الحديث (٢٣٩ و٢٤٠ و٢٥١) عن سعيد بن المسيب قـال: (الْخُلَفَـاءُ ثَلاَثَـةٌ، وَسَائِرُهُمْ مُلُوكٌ).

(٢) التوبة / ١٠٠ .

(٣) قالَ ابنُ حَجَرٍ رحمه الله: ((رواه عبد بن حميد في مسنده من طريق حمزة النصيـبي عـن نـافع عـن ابن عمر، وحمزة ضعيف جداً)). ينظر تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: كتـاب القضاء: باب أدب القاضي: ج ٤ ص٢٠٩. وينظر أيضاً: لسان الميزان لابن حجر: ج ٢: الرقم (٤٨٨و٥٩٤).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٧٩٥)؛ قال: ((أوْلِي الْفِقْهِ مِنْكُمْ)).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٧٩٩)؛ قال: ((الْعُلَمَاءُ)).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: النـص (٧٧٩٥)؛ قـال: ((أوْلِـي الْفِقْـهِ وَالْعِلْـمِ مِنْكُـمْ)). وفي النص (٧٨٠٢)؛ قال: ((أوْلِي الْفَضْلِ وَالْفِقْهِ وَدِينِ اللهِ)).

يوصفُ بأنه رَدٌّ إلى الكتاب، وإنَّما يقالُ: هو اتِّبَاعٌ للنَّصِّ، وغيرُ العلماءِ لا يعلمون كيفيَّةَ الردِّ إلى الكتاب والسُّنة ولا دلائلِ الأحكام، والجواب قولهُ تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ؛ دليلٌ على أن الإيمانَ اتِّبَاعُ الكتاب والسُّنة والإجماع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي رَدُّ الخلافِ إلى اللهِ والرسول خيرٌ من الإصرار على الاختلافِ وأحسنُ عاقبةً لكم، ويقالُ: أحسنُ تأويلاً من تأويلِكم الذي تُؤَوِّلُونَهُ من غير رَدِّ ذلكَ إلى الكتاب والسُّنة. وعن عمرَ رضي الله عنه أنه قالَ: (الرُّجُوعُ إلَى الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ ؛ الآيةُ. قال الكلبيُّ: (نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ يُقَالُ لَهُ بشْرٌ، كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودِيٍّ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: انْطَلِقْ نَتَحَاكَمُ إلَى مُحَمَّدٍ- لأَنَّهُ عَلِمَ أنَّهُ لاَ يَقْبَلُ الرِّشْوَةَ وَلاَ يَجُورُ فِي الْحُكْمِ-. وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَنْطَلِقُ إلَى كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ - وَهُوَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ الطَّاغُوتَ - فَأَبَى الْيَهُودِيُّ أنْ يُخَاصِمَهُ إلاَّ إلَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَضَى مَعَهُ الْمُنَافِقُ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَضَى لِلْيَهُودِيِّ، فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ لَزِمَهُ الْمُنَافِقُ وَقَالَ: انْطَلِقْ بنَا إلَى عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: يَا عُمَرُ؛ اخْتَصَمْتُ أنَا وَهَذَا إلَى مُحَمَّدٍ فَقَضَى لِي عَلَيْهِ فَلَمْ يَرْضَ بقَضَائِهِ، وَزَعَمَ أنَّهُ يُخَاصِمُنِي إلَيْكَ، فَقَالَ عُمَرُ لِلْمُنَافِقِ: أكَذلِكَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: رُوَيْدَكُمَا حَتَّى أخْرُجَ إلَيْكُمَا، فَدَخَلَ عُمَرُ وَأخَذ السَّيْفَ وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ خَرَجَ إلَيْهِمَا؛ فَضَرَبَ بهِ الْمُنَافِقَ حَتَّى مَاتَ؛ وَقَالَ: هَكَذا قَضَائِي فِيمَنْ لَمْ يَرْضَ بقَضَاءِ اللهِ وَقَضَاءِ رَسُولِهِ، وَهَرَبَ الْيَهُودِيُّ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ. وَقَالَ جِبْرِيلُ: إنَّ عُمَرَ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فَسُمِّيَ الْفَارُوقَ)[1].

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٥٨٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن مكحول، وفي لباب النقول في أسباب النزول: ص٧٣؛ قال السيوطي: ((وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الأسود... وذكره)). وفي الدر المنثور: ج ٢ ص٥٨٢؛ قال: ((أخرجه الثعلبي عن ابن عباس)). وفي اللباب: ج٦ ص٤٥٤؛ أورده عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وفي هامشه قال المحقق: وينظر تفسير البغوي: ج ١ ص٤٤٦ وأورده القرطبي عن الكلبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٢٦٣.

ومعنى الآية: ألَم ترَ يا مُحمَّدُ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أنَّهُمْ آمَنُوا بالقُرْآن وبالكُتُب التي أنْزلَتْ من قبلِكم وهم المنافقونَ، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ ؛ وهو كعبُ بنُ الأشرفِ، ﴿ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ ؛ بالطَّاغوتِ، ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ عَنِ الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (اخْتَصَمَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ إلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي أمْرٍ بَيْنَهُمَا؛ فَقَضَى لِلزُّبَيْرِ؛ فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ؛ فَمَرَّا عَلَى الْمِقْدَادِ فَقَالَ: لِمَنْ كَانَ الْقَضَاءُ يَا ثَعْلَبَةُ ؟ فَقَالَ: قَضَى لابْنِ عَمَّتِهِ؛ وَلَوَى شِدْقَهُ، فَفَطِنَ يَهُودِيٌّ كَانَ مَعَ الْمِقْدَادِ فَقَالَ: قَاتَلَ اللهُ هَؤُلاَءِ؛ يَشْهَدُونَ أنَّهُ رَسُولُ اللهِ ثُمَّ يَتَّهِمُونَهُ فِي قَضَاءٍ بَيْنَهُمْ، وَأيْمُ اللهِ لَقَدْ أذْنَبْنَا فِي حَيَاةِ مُوسَى عليه السلام فَقَالَ لَنَا: اقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ؛ فَقَتَلْنَا فَبَلَغَ قِتَالُنَا سَبْعِينَ ألْفاً فِي طَاعَةِ اللهِ حَتَّى رَضِيَ عَنَّا. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ ثَعْلَبَةَ وَلَيِّهِ شِدْقَهُ (وَإذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إلى مَا أنزَلَ اللهُ وَإلى الرَّسُول) أي هَلُمُّوا إلى التَّحَاكُمِ إلى أوامرِ الله في كتابه وإلى الرسُول ﷺ لِيَحْكُمَ بينكم رأيتَ المنافقينَ يُعْرِضُونَ عن حُكْمِكَ إعْرَاضاً)[1].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ أي كيفَ يكونُ حالُهم من نَدَمٍ وجُراةٍ إذا أصابتهم مصيبةٌ بقتلِ عُمَرَ لصاحبهم وظهور نفاقهم بما فعلوهُ من ردِّ حُكْمِ النبيِّ ﷺ ولَيِّ الشِّدْقِ، ﴿ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ مُعْتَذِرِيْنَ، ﴿ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا ﴾ ؛ تَسْهِيْلاً كيلا تَشْغَلَكَ خصومتُنا، ﴿ وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ بين الخصومِ بالإلتماسِ ما يقاربُ التوسط دون الحملِ على الإعراض عن الحكمِ.

---

(١) في لباب النقول في أسباب النزول: ص٧٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه الطبراني في الكبير والحميدي في مسنده عن أم سلمة قالت: (خاصم الزبير رجلاً إلى رسول الله ﷺ ...). وقال: وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ﴾ أنزلت في الزبير وحاطب بن أبي بلتعة اختصما في ماء)).

قال اللهُ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ؛ عن عقوبتِهم في الدُّنيا، ويقال: أعْرِضْ عن قَبُول عُذْرِهِمْ، ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ ؛ مع ذلك بلسانِكَ ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ واعْلِمْهُمْ أنَّهم إنْ عادُوا فحقُّهم العقوبةُ والقتلُ، والقولُ البليغ أن يبلغَ صاحبه بعبارتهِ كُنْهَ ما في قلبهِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لِيُطَاعَ ذلك الرسولُ بأمر الله، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ بمُطَالَبَةِ الحُكمِ إلى الطاغوتِ، ﴿ جَآءُوكَ ﴾ ؛ أيُّهَا الرسُولُ، ﴿ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ ؛ وتابوا إليه، ﴿ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ ؛ عند ذلكَ، ﴿ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا ﴾ ؛ قَابلاً للتوبةِ، ﴿ رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ بهم بعدَ التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي لا يكونوا مؤمنينَ عند اللهِ حتى يُحَكِّمُوكَ فيما وقعَ من الاختلاف بينَهم، ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ ؛ أي ثُمَّ لا تَضِيْقُ صدورُهم مِمَّا قضيتَ، وَقِيْلَ: لا يجِدونَ شَكّاً في حُكمِكَ، ﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي يُقَادُوا لحكمكَ انقياداً.

والْمُشَاجَرَةُ في المخاصمةِ مأخوذٌ من الشَّجَرِ؛ تشبيهاً للخصومةِ في دخُول بعضِ الكلام في بعضِ الأشجار بالتِفَافِ بعضِها على بعضٍ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ ؛ (نزلت في ثابتِ بن قيسٍ لأنه قال: أمَا وَاللهِ إنَّ اللهَ يَعْلَمُ مِنِّي الصِّدْقَ أنَّ مُحَمَّداً ﷺ لَوْ أمَرَنِي بقَتْلِ نَفْسِي لَقَتَلْتُ نَفْسِي)[1]، وكان ثابت من القليلِ الذين استثناهُم اللهُ في الآيةِ.

ومعنى الآيةِ: لو أنَّا فَرَضْنَا عليهم كما فَرَضْنَا على بني إسرائيلَ أن اقْتُلُوا أنفُسَكُمْ، أو أمرناهم أن يخرجُوا من ديارهم لَشَقَّ ذلكَ عليهم ولم يفعلْهُ إلاَّ قَلِيلٌ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٨٣٧).

مِنْهُمْ. ورُفع الـ (قَلِيْلٌ) على البدل من الواو، ومعنى ما فَعَلَهُ إلاّ قليلٌ منهم، وقرأ أبَيُّ ابن كعبٍ وابنُ عامر (إلاّ قَلِيْلاً مِنْهُمْ) بالنصب على معنى استثنَى قليلاً منهُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ ﴾ ؛ أي لو فَعَلَ المنافقون ما يُؤْمَرُونَ به من الرِّضَى بحكمك، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ ؛ مِن الْمُحَاكَمَةِ إلى غيرِكَ، ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ لقلوبهم على الصَّواب؛ لأن الحقَّ يبقَى والباطلَ يذهبُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي إذْ لو يفعلونَ ما يُؤمرون به لأعطيناهُم مِن عندنا ثواباً جَزِيلاً في الجنَّة، ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي إلى صِراطٍ مستقيمٍ، وَقِيلَ: معناهُ: لَهَدَيْنَاهُمُ في الآخرةِ إلى طريقِ الجنَّةِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ﴾ ؛ نزلت في ثَوْبَانَ مَوْلَى النبيِّ ﷺ وكَانَ شَدِيْدَ الْحُبِ لِرَسُول اللهِ ﷺ قَلِيْلَ الصَّبْرِ عَنْهُ، فَأَتَاهُ ذاتَ يَوْمٍ وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَنَحَلَ جِسْمُهُ، فَقَالَ ﷺ:[مَا غَيَّرَ لَوْنُكَ؟] فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا بي مَرَضٌ وَلاَ وَجَعٌ، غَيْرَ أنِّي لَمْ أرَكَ فَاشْتَقْتُ إلَيْكَ فَاسْتَوْحَشْتُ، فَهَذا الَّذِي نَزَلَ بي مِنْ أجْلِ ذلِكَ، ثُمَّ ذكَرْتُ الآخِرَةَ فَأخَافُ أنْ لاَ أرَاكَ هُنَاكَ فَإنَّكَ تُرْفَعُ مَعَ النَّبيِّيْنَ، وَإنِّي إذا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ كُنْتُ فِي مَنْزِلَةٍ أدْنَى مِنْ مَنْزِلَتِكَ، وَإنْ لَمْ أدْخُلِ الْجَنَّةَ فَذاكَ حِيْنَ لاَ أرَاكَ أبَداً، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ؛ لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَابْنِهِ وَأهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أجْمَعِيْنَ](١).

ومعنى الآية: ومَن يُطِعِ اللهَ في الفرائضِ والرسولَ في السُّنن؛ فأولئكَ مع الذينَ أنْعَمَ اللهُ عليهم مِنَ النبيِّين والصدِّيقينَ، وهم أفاضلُ الصَّحابةِ،

(١) في أسباب النزول: ص١١٠؛ قال الواحدي: ((قال الكلبي... وذكره)). وفي لباب النقول: ص٧٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه الطبراني وابن مردويه بسند لا بأس به عن عائشة)) ولكنه أبهم الرجل ولم يسمِّه أنه ثوبان. وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٨٤٥) عن الربيع مرسلاً: ((أن أصحاب النبي ﷺ...)) وكأنه شعور شائع فيهم.

﴿ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ ؛ هم الذين استُشْهِدُوا في سبيل الله، ﴿ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ؛ وهم الذينَ استَقَامَتْ أحوالُهم بحُسْنِ عملِهم، وَالْمُصْلِحُ الْمُقَوَّمُ بحُسْنِ عَمَلِهِ. وقالَ عكرمةُ: (النَّبِيُّونَ: هَا هُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالصِّدِّيْقُونَ: أبو بَكْرٍ، وَالشُّهَدَاءُ: عُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ، وَالصَّالِحُونَ: سَائِرُ الصَّحَابَةِ)(١).

فإن قيلَ فكيفَ يكونُ المطيعون للهِ ورسولهِ مع النبيِّين ودرجتِهم في أعلى عِلِّيِّيْنَ؟ قِيْلَ: إنَّ الأنبياءَ ولو كانوا في أعْلى عِلِّيِّيْنَ؛ فإنَّ غيرَهم من المؤمنينَ يَرَوْنَهُمْ وَيَزُورُونَهُمْ ويستمتِعون برؤيتِهم، فيصلحُ اللفظ أنْ يقالَ إنَّهم معهُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ﴾ ؛ أي حَسُنَ الأنبياءُ ومَن معهُم رُفَقَاءَ في الجنَّةِ؛ أي ما أحسنَ مُرافَقَتَهُمْ فيها، فذكرَ الرفيقَ بلفظِ التوحيدِ؛ لأنه نُصِبَ على التمييز، كما في قولهِ تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ ويجوزُ أن يكونَ معناهُ: حَسُنَ كُلُّ واحدٍ من أُوْلَئِكَ رَفِيْقاً، كما قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾(٢) ولم يقل أطْفَالاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ أي ذلك الْمَنُّ من اللهِ على المطيعين، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ۝٧٠ ﴾ ؛ بهم وبأعمالِهم ومجازياً لهم بما يستحقُّونه من ثوابٍ وكرامةٍ.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ ؛ أي أسلحتكم، ﴿ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ ﴾ ؛ أي مِن عدوِّكم بالأسْلِحَةِ والرِّجال، ولا تَخْرُجُوا متفرِّقين، ولكن اخرجُوا ثُبَاتٍ، ﴿ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ۝٧١ ﴾ ؛ أي اخرجُوا جماعاتٍ جماعاتٍ؛ سَرِيَّةً سَرِيَّةً كما يأمرُكم رسولُ اللهِ ﷺ في جهادِ عدوِّكم، واخرجوا كلُّكم جميعاً مع النبيِّ ﷺ إن أرادَ الخروجَ، والثُّبات: الجماعاتُ في تفرقةٍ واحدُها ثُبَةٌ؛ أي انفرُوا جماعةً بعد جماعةٍ، ويجوزُ أن يكون معنَى: الْحِذْرُ: السِّلاَحُ.

---

(١) في اللباب في علوم الكتاب: ج ٦ ص٤٧٩؛ أورده عن عكرمة. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٢٧٢ أشار إليه القرطبي بإجمال.

(٢) غافر / ٦٧.

واستدلَّ أهل القدر بهذه الآيـةِ قـالوا: إنَّ الحـذرَ ينفـعُ ويَمنـعُ عنكـم مُكَـايَدَةَ العدوِّ، وإلاَّ لم يكن لأمرهِ تعالى آتاهم بـالحذر، معنـاهُ: فيقـالُ لـهم الائتمـار بـأمرِ الله والإنتهاء بنَهْيِهِ واجبٌ عليهم؛ لأنَّهم به يَسْلَمُونَ من معصيـةِ الله تعـالى؛ لأن المعصيـةَ تركُ الأوامرِ والنواهي. وليسَ في الآية دليلٌ على أن حَذرَهُمْ ينفعُ من القدر شيئاً، بل المرادُ منه طُمَأْنِيْنَةُ النفسِ لا أنَّ ذلك يدفعُ القدرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ ؛ أي مِمَّنْ أظهرَ الإيْمان ليتشاغَلَنَّ عن الجهادِ، ويثقِلَنَّ غيرَهُ وهو عبدُاللهِ بن أبَيٍّ وَجَدُّ بنُ قيسٍ، وأصحابُهما مِن المنافقينَ الذين كانوا يشاركون المسـلمينَ في ظـاهرِ الإسـلامِ كـانوا ينتظـرونَ هـلاكَ المسـلمين وهزيْمَتَهم ويتثاقَلون عن الجهادِ، يقال: أبْطَأَ الرجُلُ اذا تأخَّرَ عنِ العمل بإطالةِ المدَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي إنْ أصابتْكم نَكْبَةٌ أو هَزِيْمَةٌ أو قتلٌ، قال هذا الْمُبْطِئُ: قَدْ مَنَّ اللهُ عليَّ إذْ لم أكُنْ مَعَهُمْ حَاضِراً في تلك الغزوةِ فيصيبُني مثلَ الذي أصابَهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي وإن أصـابَكم أيُّــها المؤمنون ظَفَرٌ وغَنِيْمَةٌ، ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ ؛ هـذا الْمُبْطِـئُ نَادِمـاً، ﴿ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ ﴾ ؛ في الغَزْوِ فأُصيبَ حظّاً وافـراً وغنـائمَ كثـيرةً. قَوْلُهُ تَعَالَى: (كَأَن لم تَكُن بَينَكُم وَبَينَهُ مَودةٌ) ؛ قال بعضُهم: هو معـرضٌ بـين اليمـينِ وما قبلَهُ؛ تقديرهُ: وَلَئِنْ أصَابَكُمْ فضلٌ من اللهِ ليقولَنَّ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ، ﴿ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ كأنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ؛ أي يتمنَّى أن ينالَ مِـن غـيرِ أن يريدَ الجهادَ والقتال، وقيلَ: هو متصلٌ بقولِهِ (قَدْ أنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إذْ لَمْ أكُـنْ مَعَـهُمْ شَهيدًا) كَأنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ؛ أي صِلَةٌ في الدِّين ومعرفةٌ في الصُّحبةِ، كأنـهُ لم يُعَاقِدْكُمْ قَبْلَ أن يجاهدَ معكم.

ثُمَّ أمرَ اللهُ تعالى كُلَّ مَنْ عَقَدَ الإيمانَ بالقتال؛ فقال عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ؛ أي لِيُقَـاتِلْ في طاعـةِ الله ورضَائِهِ الذين يَبْيعونَ الحيـاةَ الدُّنيـا بـالآخرةِ وهـم المؤمنـونَ. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: إنَّ الخطاب لِلْمُبْطِئِيْنَ؛ ومعنى (يَشْرُونَ): يَخْتَارُونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرةِ. وهذا اللفظُ

من الأضدادِ، يقالُ: شَرَيْتُ بِمَعْنَى بعْتُ، وَشَرَيْتُ بِمَعْنَى اشْتَرَيْتُ، فيكون معنى الآيةِ على هذا: آمِنُوا ثُمَّ قاتِلوا، لإنه لا يجوزُ أن يكونَ الكافرُ مأموراً بشيءٍ يتقدَّم على الإيْمان.

ثم ذكَرَ اللهُ تعالى فضلَ الْمُجَاهِدِيْنَ؛ فَقَالَ: ﴿ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي في الجهادِ الذي هو طاعةُ اللهِ تعالى: ﴿ فَيُقۡتَلۡ ﴾ ؛ هو؛ ﴿ أَوۡ يَغۡلِبۡ ﴾ ؛ العدوَّ؛ ﴿ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ فسوفَ نُعْطِيْهِ في كِلاَ الوجهين ثواباً وافراً في الجنَّة، وسَمَّى اللهُ تعالى الثوابَ عظيماً؛ لأنه نالَ ثمناً مِن العزيزِ بأغلَى الأثمانِ، وقد يكون ثَمَنُ الشيءِ مثلَهُ، ويكون وَسَطاً من الأثمانِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: أيُّ شيءٍ لكم أيُّها المؤمنون في تَرْكِ الجهادِ مع اجتماعِ الأسبابِ الموجبَةِ للتحريضِ عليهِ، وقولهُ تعالى: (لاَ تُقَاتِلُونَ) في موضعِ نصبٍ على الحال كأنهُ قال: وَمَا لَكُمْ تَارِكِيْنَ الْجِهَادَ؟ كما قالَ تعالى في آيةٍ أخرى ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾[1].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ ﴾ ؛ في موضعِ خَفْضٍ بإضمار (فِي)؛ معناهُ: وفِي بيانِ المستضعفينَ؛ أي وفي نُصْرَةِ المستضعفينَ، ويجوزُ أن يكون معناهُ: وَعَنِ الْمُسْتَضْعَفِيْنَ؛ أي لِلذب عن المستضعفينَ، ﴿ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ﴾ ؛ الذين هم بِمَكَّةَ ويَلْقَوْنَ فيها أذىً كثيراً وهم: سَلَمَةُ بْنُ هِشَام وَالْوَلِيْدُ بْنُ الْوَلِيْدِ وَعَبَّاسُ بْنُ رَبِيعَةَ وغيرَهم، كانوا أسْلَمُوا بِمَكَّةَ فأراد عشائِرُهم من أهلِ مكَّة بعدَ هجرةِ النبيِّ ﷺ أن يفتنوهم عن الإسلامِ. يقولُ الله تعالى: مَا تُقَاتِلُونَ المشركينَ في خَلاَص هؤلاء الضُّعفاءِ، ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ ؛ يسألونَ اللهَ؛ ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ﴾ ؛ أي خَلِّصْنَا من هذه القَرْيَةِ؛ يَعْنُونَ مكَّةَ؛ ﴿ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا ﴾ ؛ أي الكفَّارُ أهلُها، ﴿ وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴾ ؛ أي مِن عندك حَافِظاً يحفظُنا من أذاهُم، ﴿ وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ ﴾ ؛ مِنْ عِنْدِكَ؛ ﴿ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي مَانِعاً يَمْنَعُنَا منهم. فاستجابَ اللهُ دعاءَهم، وجعلَ لهم النبيُّ ﷺ حافِظاً وناصِراً بفتحِ مكَّة على يديهِ، واستعملَ عليهم عَتَّابَ بنَ أسَيْدٍ، عتاب يُنْصِفُ الضعيفَ من الشديدِ.

(١) المدثر / ٤٩ .

قوله عزَّ وَجلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: الذين آمَنُوا بمُحمَّدٍ وَالْقُرْآن، يُقَاتِلُونَ في طاعةِ اللهِ بأمْرِ الله، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ أبُو سُفْيَانَ وأصحابَهُ، ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ ؛ يقاتلون في طاعةِ الشيطان، ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ وضَعفهُ بالوسوسَةِ إلى أوليائهِ بأنَّ الظفرَ يكون لَهم كيدُ ضعيفٍ، وإنَّما أدخلَ على هذا اللَّفظِ (كانَ) لتبين أن صفةَ الضَّعْفِ لازمةٌ لـه، وأنهُ (كَانَ ضَعِيفًا) فَخَذلَ أولياءَه، كما خذلَهم يومَ بدرٍ حيث قال لَهم: إنِّي بريءٌ منكُم إنِّي أرَى ما لا تَرَوْنَ.

قوله عزَّ وَجلَّ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس[(١)] وقتادةُ[(٢)] والحسن والكلبيُّ[(٣)]: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي قَوْمٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَهُمْ: عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَسَعْدُ بْنُ أبي وَقَّاصٍ وَطَلْحَةُ بْنُ عَبْدِاللهِ وَالْمِقْدَادُ وَغَيْرُهُمْ، كَانُوا يَلْقَوْنَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ أذىً كَثِيْراً وَهُمْ بمَكَّةَ قَبْلَ أنْ يُهَاجِرُواْ إلَى الْمَدِيْنَةِ؛ فَشَكَواْ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ؛ وَقَالُواْ: يَا رَسُولَ اللهِ ءأذنْ لَنَا فِي قِتَالِ هَؤُلاَءِ فَإنَّهُمْ قَدْ آذوْنَا، فَقَالَ ﷺ:[كُفُّواْ أيْدِيَكُمْ؛ فَإنِّي لَمْ أؤْمَرْ بقِتَالِهِمْ، وَأقِيْمُوا الصَّلاَةَ الْخَمْسَ، وَأدُّواْ زَكَاةَ أمْوَالِكُمْ] فَلَمَّا خَرَجُواْ إلَى الْمَدِيْنَةِ وَأمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بقِتَالِ الْمُشْرِكِيْنَ، وَأمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالْمَسِيْرِ إلَى بَدْرٍ، كَرِهَ بَعْضُهُمْ وَشَقَّ ذلِكَ عَلَيْهِمْ).

ومعنى الآية: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ ﴾ ؛ بالمدينةِ أي فُرِضَ؛ ﴿ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ وقيل معناهُ: ﴿ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ ﴾ ؛ كقولهِ ﴿مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٨٦٦). في الدر المنثور: ج ٢ ص٥٩٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، والبيهقي في السنن)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٨٦٨). وفي الدر المنثور: ج ٢ ص٥٩٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر)).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٢٨١؛ قال: ((أخرجه النسائي وقاله الكلبي وقاله الحسن)).

(٤) الصافات / ١٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ﴾ ؛ يعني مُشْرِكِي مكَّة لِمَ فَرَضْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ؛ أي الجهادَ؛ ﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ؛ أي هَلاَّ تَرَكْتَنَا حتى نَمُوتَ بآجالِنا. قال الحسنُ: (لَمْ يَقُولُوا هَـذِهِ لِكَرَاهَـةِ أَمْـرِ اللهِ، وَلَكِـنْ لِدُخُـولِ الْخَوْفِ عَلَيْهِمْ بذلِكَ)، وقال بعضُهم: نزلَتْ في المنافقينَ، لأن قولَه: (لِمَ كَتَبْـتَ عَلَيْنَـا الْقِتَالَ) لا يَلِيْقُ بالمؤمنينَ، وكذلك الحسَـنَةُ مـن غـيرِ الله. وَقِيْـلَ: نزلـت في قَـوْمٍ مـن المؤمنين لم يكونُوا راسخين في العِلْمِ، قالوا هذا القولَ؛ لأنَّهم رَكَنُوا إلى الدُّنيـا وآثَـرُوا نعيمَها على القتال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: منفعـةُ الدُّنيـا يسيرةٌ تنقطعُ وتقضى، والاستمتاعُ بها قليلٌ؛ لأن الجديدَ منها إلى البلَى، والشابُّ منها إلى الهرمِ والإنقضاء .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ ؛ أي وثوابُ الآخرةِ أفضـلُ لِمـن اتَّقى المعاصي، ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي ولا يُنْقَصُونَ من جزَاءِ أعمالِـهم الذي استحقُّوه مقدارَ الفتيلِ، وقد تقدَّم تفسيرُ الفتيلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ ؛ أي أيْنَمَـا تَكُونُوا يَا مَعْشَرَ المؤمنينَ والمنافقينَ في بَرٍّ أو بَحْرٍ أو سَـفَرٍ أو حَضَـرٍ يَلْحَقْكُـمُ المـوتُ، وإنْ كُنْتُمْ فِي حُصُونٍ مُحَصَّنَةٍ مِن حديدٍ وغيرِه، مرتفعـةٍ إلى عَنَانِ السَّماء، والمعنـى: أنكم وإن سُومِحْتُمْ وأخذتُم بتركِ القتال، فإنَ آخِرَ أعمـاركم مـوتٌ لا تَنْجُـونَ منـه. وقال عكرمةُ: (مُشَيَّدَةٌ: مُحَصَّنَةٌ). وقال العينيُّ: (مُطَوَّلَةٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ هذا حكايـةُ قول المنافقين واليهودِ، كانوا يقولون: ما زِلْنَا نعرفُ النَّقْصَ في ثِمارنا ومراعينا مُذْ قَـدِمَ هذا الرجلُ علينا -يعنون النبيَّ ﷺ- بعدَ قُدُومِهِ المدينةَ، فذلك قوله: (وَإنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ) أي إنْ يُصِبْهُمْ خِصَبٌ ورخصُ سِعْرٍ وتتـابعُ أمطـارٍ يقولـوا: هـذِهِ مـن فَضْـلِ الله؛ ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ ؛ قَحْـطٌ وجُدُوبَـةٌ وغـلاءُ سِـعْرٍ، ﴿ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ ؛ هذه من شُؤْمِ مُحَمَّدٍ وأصحابِه.

يقـولُ الله تعـالى ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي قُـلْ لَـهُمْ يَـا مُحَمَّـدُ: الحسـنةُ والسـيِّئةُ كلُّها بقضـاءِ الله وتقديـره، ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ اليهودُ والمنافقين لا يقربونَ من فَهْمِ حديثٍ عن الله. والْفِقْهُ: هـو الْفَهْمُ، ثم اختصَّ من جهة العُرْفِ بعلم الْفَتْوَى. وقال الحسنُ: (أرَادَ بالْحَسَنَةِ فِي هَذِهِ الآيَةِ: الظَّفَرَ وَالْغَنِيْمَةَ، وَبالسَّيِّئَةِ: الْقَتْلَ وَالْهَزِيْمَةَ) وكَانُوا إذا غَلَبُوا قَالُوا: هَذِهِ مِنْ عِنْـدِ اللهِ، وَإذا غَلَبَهُمْ الْعَدُوُّ قَالُوا: هَذِهِ مِنْ خَطَأ رَأيكَ وَتَدْبيرِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ ؛ واختلفَ المفسِّرون في المخاطَب بهذه الآية، قال أكثرُهم: هُوَ النَّبيُّ ﷺ وَالْمُـرَادُ لَـهُ عَامَّـةُ النَّاسِ. وقال قتادةُ: (الْمُخَاطَبُ بهَا الإنْسَانُ)[١] كَأنَّهُ قَالَ: مَا أصَابَكَ أيُّهَا الإنْسَانُ مِنْ حَسَنَةٍ؛ أيْ مِنْ خِصْبٍ وَرُخْصِ سِعْرٍ وَفَتْحٍ وَغَنِيْمَةٍ فَاللهُ تَعَالَى هَدَاكَ لَهُ وَأعَانَكَ عَلَيْـهِ وَوَفَّقَكَ لَهُ، وَمَا أصَابَكَ مِنْ قَحْطٍ وَجُدْبَـةٍ وَهَزِيْمَـةٍ وَنَكْبَـةٍ وَكُـلُّ أمْـرٍ تَكْرَهُـهُ؛ فَإنَّمَـا أصَابَكَ ذلِكَ بِمَا كَسَبَتْ يَدَاكَ بقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَـالَى ﴿وَمَـا أصَـابَكُمْ مِـنْ مُصِيبَةٍ فَبمَا كَسَبَتْ أيْدِيكُمْ﴾[٢]. وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [مَا مِـنْ خَدْشَـةِ عُـودٍ وَلاَ اخْتِلاَجِ عِرْقٍ وَلاَ عَثْرَةِ قَدَمٍ إلاَّ بذنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللهُ أكْثَرُ][٣].

وقال بعضُ المفسِّرين: بين هذه الآيةِ وبينَ التي قبلَها إضمارٌ تقديرُه: فَمَا لِهَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيْثاً يَقُولُونَ مَا أصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ، وَمَـا أصَـابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ؛ لأنَّهُ مستحيلٌ أن يأمرَ اللهُ تعالى بإضافةِ الحسنَةِ والسيِّئة إلى أمرهِ وقضائه في آيةٍ ثم يَتْلُوهَا بآيةٍ تُفَرِّقُ بينـهُما بعـدَ أن ذمَّ قومـاً علـى التفرقـةِ في الأُولى، فكيف يجوزُ أن يَذِمَّ على الجمعِ في الآية الثانيةِ، ومثلُ هذا الإضمار كثيرٌ في القرآنِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٨٨٥) بمعناه. (٢) الشورى / ٣٠ .

(٣) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٥٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه سعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن البصري: قال رسول الله ﷺ: وذكره)) فـهو مرسـل مـن حديث الحسن. وفي ص٣٥٥؛ قال: ((وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنـذر والبيـهقي في شعب الإيمان عن قتادة ﷺ... وذكره. وقال: وأخرج ابن مردويه عن الـبراء ﷺ: ... وذكـره)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٨٨٣) عن قتادة مرسلاً.

وقرئَ في الشواذِّ بنصب الميم (فَمَنْ نَفْسِكَ) أي كلٌّ مِنَ اللهِ، فمَن أنتَ ونفسَكَ حتى يُضَافَ إليكَ شيءٌ، غير أنَّ القراءةَ سُنَّةٌ مُتَبَّعَةٌ؛ فلا يقرأ إلاّ بما تَصِحُّ بـه الروايـةُ، وحاصلُ المعنى على قراءةِ العامَّة: أي: مَا أصَـابَكَ مِـنْ خَـيْرٍ وَنِعْمَـةٍ فَمِـنَ اللهِ، وَمَـا أصَابَكَ مِنْ بَلِيَّةٍ، أوْ شَيْءٍ تَكْرَهُهُ فَمِنْ نَفْسِكَ؛ أي بذنوبكم، وأنا الذي قدَّرتُها عليكَ. قال الضحَّاك: (مَا حَفِظَ الرَّجُلُ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ إلاَّ بذنْبٍ) ثم قرَأ (وَمَا أصَـابَكُمْ مِـنْ مُصِيبَةٍ فَبمَا كَسَبَتْ أيْدِيكُمْ)، قال: (فَنِسْيَانُ الْقُرْآنِ مِنْ أعْظَمِ الْمَصَائِب).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾ ؛ أي ومِن نِعْمَةِ اللهِ عليـكَ إرسـالهُ إياكَ رسولاً إليهم، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ على أنكَ رسولٌ صـادقٌ يشـهدُ لك بالرسالةِ والصِّدق، وَقِيْلَ: شَهِدَ على مقالةِ القوم أنَّ الحسنةَ من اللهِ، والسيئةَ مـن عندكَ، وَقِيْلَ: معناهُ: يشهدُ أنَّ الحسنةَ والسيِّئةَ كلَّها من اللهِ.

قولـه عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي مَـن يُطِـعِ الرسولَ فيما يأمرهُ فقد أطاعَ اللهَ؛ لأنَّ الرسولَ إنَّما يـأمرُ بـه مـن عنـدِ الله، ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ ﴾ ؛ أي أعْرَضَ عن طاعتهِ، ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أي ليسَ عليك إلاّ البلاغ وما أرسلناكَ عليـهم مُسَـلَّطاً تُجْـبرُهُمْ علـى الإيْمـان والطاعـة وتَمنعُهم عن الكفرِ والمعصيةِ؛ فإنك مُبَلِّغٌ وأنا العالِمُ بسرائِرهم، وهذه الكلمةُ من آخرِ الآية منسوخةٌ بآيةِ السَّيْفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ المنافقين كانوا يقولونَ للنبيِّ ﷺ أمْرُكَ طاعةٌ وقولُكَ مُتَّبَعٌ، ﴿ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ ﴾ ؛ فإنْ خرجُوا مِن عندِكَ يا مُحَمَّد، ﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾ ؛ أي غَـيَّرَتْ جماعـةٌ منـهم الأمـرَ الذي أمرتَهم به على وجهِ التكذيب، يقالُ لكلِّ أمر قُضِيَ بليلٍ: قَدْ بُيِّتَ بـهِ، وإنَّمـا لم يقل للبيت؛ لأنَّ كل تأنيثٍ غيرَ حقيقي يجوزُ تعبيرهُ بلفظِ التذكير، وَقِيْلَ: معناهُ: قَدَّرُوا ليلاً غيرَ ما أعطوكَ نَهاراً .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ ؛ أي يَحْفَظُ عليهم ما يَفْتَرُونَ من أمرك، وَقِيْلَ: ما يُسِرُّونَ من النفاق. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي لا تُعَاقِبْهُمْ يا مُحَمَّدُ واسْتُرْ عليهم إلى أنْ يَسْتَقِيْمَ أمـرُ الإسـلامِ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ثِـقْ

باللهِ وفوِّضْ أمركَ إليه، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي حَافِظاً، والوكيلُ: هو العالِمُ بما يُفَوَّضُ إليه من التدبير.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ؛ أي أفلا يَتفكَّرُونَ في الْقُرْآن أنه يُشْبِهُ بعضُه بعضاً ويصدِّقُ بعضه بعضاً، وأنَّ أحَداً من الخلائقِ لا يقدرُ على مِثْـــلِهِ، فيعلمون أنه حَقٌّ ويعلمون أنه مِن عِنْدِ اللهِ، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ أي تعارضاً وتَبَايُناً وبعضهُ بليغاً وبعضُه ساقطاً.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ ؛ يَعْنِي المنافقينَ كانوا إذا أتاهُم خبرٌ من أمرِ السَّرَايَا الذين بعثَهُم رسولُ اللهِ ﷺ من ظَفَرٍ وَدَوْلَةٍ وَغَنِيْمَةٍ؛ أو أتاهم عنهم خَبَرُ نَكبَةٍ أو هَزِيْمَةٍ أفْشَوا ذلكَ الخبرَ، وأظهروهُ قبل أن يُحَدِّثَ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ لِيَحْذَرَ بخبرِ الظَّفَرِ من ينبغِي أن يحذرَ من الكفَّار ويقوَى بخبرِ هزيْمَة المسلمينَ قَلْبُ مَن كان يَبْتَغِي نكبةَ المسلمين منهُم، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ.

ومعناهُ: اذا جاءَ المنافقينَ (أمْرٌ مِنَ الأَمْنِ)؛ يعني الغنيمةَ والفتـحَ، (أو الْخَـوْفِ) أي الهزيْمَـة والقتـلِ (أذاعـوا بـهِ)؛ أي أشَـاعُوهُ وأفْشَـوهُ، ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي لم يَتَحَدَّثُوا به ولم يُفْشُوهُ حتى يكـونَ النبيُّ ﷺ هـو الذي يَتَحدَّثُ بهِ. والمعنى: لو تَرَكُوا أمرَ السَّرايَا والعسكرِ إلى النَّبِيِّ ﷺ وإلى أولي الأمرِ من المؤمنينَ وهم: أبو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَأكَابِرُ الصَّحَابَـةِ حتـى يكونـوا هـم الذين يُفْشُونَهُ، ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ؛ يطلبونَ الخبرَ ويستخبرونَهُ من النبيِّ ﷺ وأكابرِ الصَّحابة أن ذلك الخبرَ صحيحٌ أم لاَ.

قال الكلبيُّ: (لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبطُونَهُ أيْ يَتَّبعُونَهُ). وقال عكرمةُ: (يَسْألُونَ عَنْهُ؛ أيْ لَوْ تَرَكُوا إذاعَتَهُ حَتَّى يَتَحَدَّثَ بِهِ النَّبِيُّ لَعَلِمَهُ الَّذِيْنَ يَسْألُونَ عَنْـهُ). وقـال القُتَيبِيُّ: (لَعَلِمَهُ الَّذِيْنَ يَسْتَخْرِجُونَهُ، يُقَالُ: اسْتَنْبَطْتُ الْمَاءَ إذا أخْرَجْتُهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ ؛ أي لـولا مـا أنـزلَ اللهُ عليكم من القُرْآن، وبَيَّنَ لكم الآياتِ على لسان نَبيِّـهِ ﷺ، ﴿ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي كانَ أقَلُّكُمْ يَنْجُوا من الكُفْرِ، والمرادُ بالفضلِ ها هنـا النبيُّ ﷺ

والقُرْآنَ، وَقِيْلَ: في الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ معناه: أذاعُوا بهِ إلاَّ قَلِيْلاً مِنَ الخبرِ لم يذيعوهُ، أو قليلاً من الْمُنَافِقِيْنَ لَمْ يُذِيْعُوهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ ﴾ ؛ وذلـك أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا الْتَقَى هُوَ وَأبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أحُدٍ وكَانَ مِنْ أمْرِهِمْ مَا كَانَ، ورَجَعَ أبُو سُفْيَانَ إلَى مَكَّةَ وَوَاعَدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَدْرَ الصُّغْرَى فِي ذِي الْقِعْدَةِ، فَلَمَّا بَلَـغَ النَّبِيَّ ﷺ الْمِيْعَادُ، قَالَ لِلنَّاسِ: اخْرُجُوا إلَى الْعَدُوِّ، فَكَرِهُوا ذلِكَ كَرَاهَةً شَدِيْدَةً أوْ بَعْضَهُمْ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (فَقَاتِلْ فِي سَبيلِ اللهِ) أي لا تَدَعْ بجهاد العدو ولو وحدك.

وَقِيْلَ: لا تُؤَاخَذُ بفعلِ غيرِك، وإنَّما تُؤَاخَذُ بفعلِ نفسِـك وليسَ عليـك ذنـبُ غيرِك، ﴿ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ ؛ على القتال لَعَلَّ اللهَ أن يَكُـفَّ عنـكَ قتـالَ الكفَّـار، وعسَى مِن اللهِ واجبٌ؛ لأنهُ في اللغة الإطْمَاعُ، وإطماعُ الكريْمِ لا يكونُ إلا إنجازاً.

والفاءُ في قوله: (فَقَاتِلْ) جوابٌ عن قولِهِ: (وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبيلِ اللهِ فَيُقْتَـلْ أوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أجْرًا عَظِيمًا) فَقَاتِلْ وحَرِّضِ المؤمنينَ علـى القتـال؛ أي حَرِّضْـهُمْ على القتالِ ورَغِّبْهُمْ فيهِ. فَتَثَاقَلُوا وَلَمْ يَخْرُجُوا مَعَهُ؛ فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَبْعِيْنَ رَاكِباً حَتَّى أتَى بَدْرَ الصُّغْرَى؛ فَكَفَاهُمُ اللهُ بَأْسَ الْعَدُوِّ وَلَمْ يُوَافِقْهُمْ أبُو سُـفْيَانَ؛ وَلَـمْ يَكُنْ قِتَالٌ يَوْمَئِذٍ، فَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأصْحَابُهُ، فذلـكَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾ ؛ أي قتالَ المشركينَ وصولَتَهم، ﴿ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ۝٨٤ ﴾ ؛ أي عُقُوبَةً.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ ﴾ ؛ أي مَنْ يصلِحْ بين اثنين يَكُـنْ لَـهُ أجـرٌ وثـواب مِـن ذلـك الإصلاحِ، ومن يَمْشِي بالْغِيْبَةِ والنَّمِيْمَةِ لهُ حظٌّ من وزرِهَا وعقوبتِها، هكذا رويَ عـن ابنِ عبَّاس، وقيلَ: معناهُ: من يوحِّدْ ويأمُرْ بالتوحيدِ يكُنْ له أجرٌ من ذلكَ، ومن يُشْرِكْ ويأمُرْ بالشِّركِ يكـن لـه وزْرٌ مِـن ذلـكَ. ويقـالُ: الشَّـفَاعَةُ الْحَسَـنَةُ هـي للمؤمنِـينَ، والشفاعة السيِّئةُ الدعاءُ عليهِم، فإنَّ اليهودَ كانوا يدعون على المؤمنـينَ فتوعَّدَهُـمُ اللهُ بذلكَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى:﴿ كِفْلٌ مِّنْهَاۗ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّـاس وقتـادةُ: (الْكِفْـلُ: الإثْـمُ وَالْوِزْرُ)[(١)]. وقال الفرَّاء وأبو عبيدٍ: (الْكِفْلُ: الْحَظُّ وَالنَّصِيْبُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ عن أبـي صالحٍ عن ابنِ عبَّاس: (مُقِيْتاً أيْ مُقْتَدِراً مُجَازياً بالْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ)، قال الشاعرُ[(٢)]:

وَذِي ضِغْـــنٍ كَفَفْـــتُ النَّفْـــسَ عَنْـــهُ وَكُنْـــتُ عَلَـــى مُسَـــاءَ تِـــهِ مُقِيْتَـــا

أي مُقْتَدِراً.

وقال الزجَّاج: (الْمُقِيْتُ: الْحَفِيْظُ). قال الشاعرُ[(٣)]:

أَلِـــيَ الْفَضْـــلُ أَمْ عَلَـــيَّ إذا حُـــو سِـبْتُ أنِّـي عَلَـى الْحِسَـاب مُقِيـتُ

وقـال مجـاهدُ: (الْمُقِيْـتُ الشَّـاهِدُ)[(٤)]. وقـال الفـرَّاء: (الْمُقِيْـتُ الَّـذِي يُعْطِـي كُـلَّ إنْسَـانٍ قُوْتَـهُ). وجـاء في الحديـثِ: [كَفَـى بـالْمَرْءِ إثْمـاً أنْ يُضَيِّـعَ مَـنْ يَقُـوْتُ -أوْ يُقِيتُ-][(٥)].

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (أرَادَ بالتَّحِيَّةِ السَّلاَمَ؛ أيْ إذا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أحَدٌ فَأَجِيْبُوا بتَحِيَّةٍ أحْسَنَ مِنْهَا؛ وَهُوَ أنْ تَزِيْدُوا فِي التَّحِيَّةِ فَتَقُولُوا: وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، يُحَيِّي بذلِـكَ الْمُسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَالْمَلَكَيْنِ الْحَافِظَيْنِ مَعَهُ بأَبْلَغِ التَّحِيَّةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ رُدُّوهَا) مَعْنَاهُ: وأجيبُوا بمثلِ الذي سَلَّمَ عليكم. وقال بعضُهم: معناهُ: وَإذا حُيِّيتُمْ بتَحِيَّةٍ؛ أي إذا أُهْدِيَ إليكم هديةٌ فَكَافِئُوا بأفضلَ منها أو مِثْلِهَا؛ لأن

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٩٢٥).

(٢) البيت في اللسان: (قوت)، نسبه إلى الزبير بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ. وفي المخطوط:(وذي ضعن كففتُ الضعن) وصححناه كما في الشواهد الشعرية للمفسرين.

(٣) البيت للسموأل بن عادياء الأزدي اليهودي (؟؟-٦٤ق.هـ).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٧٣٠).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير: الحديث (١٣٤١٤). وأبو داود في السنن: كتاب الزكاة: باب في صلة الرحم: الحديث (١٦٩٢). وفي الإحسان صحيح ابن حبان: كتاب الرضاع: الحديث (٤٢٤٠) بإسناد صحيح.

التحيَّةَ في اللغة الْمِلْكُ، وكانوا يقولون قبلَ الإسلام: حَيَّاكَ اللهُ؛ أي مَلَّكَكَ اللهُ، ثم أبدلُوا بهذا اللفظِ بالسَّلام بعدَ الإسلامِ، وأُقِيْمَ السلامُ مقامَ قولِهم: حيَّاكَ اللهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي مُجَازياً يعطي كلَّ شيءٍ من العِلْمِ والحفظِ والجزاء مقداراً يَحْسِبُهُ؛ أي يَكْفِيهِ، يقال: حَسْبُكَ هَذا؛ أي اكْتَفِ به، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَطَاءً حِسَاباً﴾[1] أي كَافِياً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ؛ أي لا إلَهَ في الأرضِ وفي السَّماء غيرُه، واللامُ في (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) لامُ أنفسِهم، كأنهُ قال اللهُ: يجمعكُم في الحياةِ والموت في قبوركم، إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ؛ أي لا شَكَّ فيهِ أنهُ كائنٌ لا محالةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ استفهامٌ بمعنى النَّفي، ليسَ أحدٌ أوفَى من اللهِ تعالى وَعْداً ولا أصْدَقَ منه قَوْلاً، ولا صادقاً إلاّ ويوجدُ غيرهُ على خلافِ مُخْبَرِهِ وقتاً من الأوقاتِ[2] إلاّ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فَمَنْ أصدقُ مِن اللهِ حديثاً.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ ؛ قال ابنُ هِشَام: (هَاجَرَ أنَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَدِمُوا عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ الْمَدِيْنَةَ فَأسْلَمُوا، ثُمَّ نَدِمُوا عَلَى ذلِكَ وَأرَادُوا الرَّجْعَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: كَيْفَ نَخْرُجُ؟ قَالُوا: نَخْرُجُ كَهَيْأَةِ الْمُتَنَزِّهِيْنَ، فَقَالُوا لِلْمُسْلِمِيْنَ: إنَّا قَدِ اجْتَوَيْنَا الْمَدِيْنَةَ فَنَخْرُجُ وَنَتَنَزَّهُ - أيْ نَتَفَسَّحُ- فَصَدَّقُوهُمْ، فَخَرَجُوا فَجَعَلُوا يُبَاعِدُونَ قَلِيْلاً حَتَّى بَعُدُوا، ثُمَّ أسْرَعُوا فِي السَّيْرِ إلَى مَكَّةَ حَتَّى لَحِقُوا بهَا، وَكَتَبُوا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ: أنَا عَلَى مَا فَارَقْنَاكُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّصْدِيْقِ، وَلَكِنَّا اشْتَقْنَا إلَى أرْضِنَا وَاجْتَوَيْنَا الْمَدِيْنَةَ.

ثُمَّ أنَّهُمْ أرَادُوا أنْ يَخْرُجُوا فِي تِجَارَتِهِمْ إلَى الشَّامِ، فَاسْتَبْضَعَهُمْ أهْلُ مَكَّةَ وَقَالُوا: أنْتُمْ عَلَى دِيْنِ مُحَمَّدٍ، فَإنْ لَقُوكُمْ فَلاَ بَأسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ. فَخَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ

---

(١) النبأ / ٣٦ .

(٢) في المحرر الوجيز: ص٤٦٢؛ قال ابن عطية: (والصدق في حقيقته أن يكون ما يجري على لسان الْمُخبَر موافقاً لما في قلبِهِ، وللأمر الْمُخبَر عنه في وجوده).

مُتَوَجِّهِيْنَ إلَى الشَّام، فَبَلَغَ ذلِكَ الْمُسْلِمِيْنَ، فَقَالَت طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: مَا يَمْنَعُنَا أنْ نَخْرُجَ إلَى هَؤُلاَءِ الَّذِيْنَ رَغِبُوا عَنْ دِيْنِنَا وَتَرَكُوهُ، نَخْرُجُ إلَيْهِمْ فَنَقْتُلُهُمْ وَنَأْخُذُ مَا مَعَهُمْ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: كَيْفَ نَقْتُلُ قَوْماً عَلَى دِيْنِكُمْ، وَكَانَ بِحَضْرَةِ رَسُول اللهِ ﷺ وَهُوَ سَاكِتٌ لاَ يَنْهَى أحَدَ الْفَرِيْقَيْنِ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ وَالَّتِي بَعْدَهَا يُبَيِّنُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ شَأْنَهُمْ)[1].

ومعناها: فِمَا لَكُمْ من هؤلاءِ المنافقينَ حتى صِرْتُمْ في أمرِهم فرقتين مِن مُحِلٌ لأموالِهم وَمُحَرِّمٍ، ﴿ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ ؛ أي رَدَّهُمْ إلى كُفْرِهم وضلالَتِهم بما كَسَبُوا من أعمالِهم السيِّئَةِ، ونفاقِهم وخُبْثِ نِيَّاتِهم، وانتصاب (فِئَتَيْنِ) على الحالِ؛ يقالُ: مَا لَكَ قَائِماً؛ أي لِمَ قُمْتَ في هذه الحالةِ، وَقِيْلَ: على خَبَرِ (صار).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ ﴾ ؛ أي تريدون يا مَعْشَرَ المخلصينَ أن تُرْشِدُوا مَن خَذلَهُ اللهُ عن دِينه وحجَّته، وَقِيْلَ: معناهُ: أتقولونَ إنَّ هؤلاءِ مهتدون، ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي لن تَجِدَ له هَادِياً، وَقِيْلَ: لن تَجِدَ لهُ طريقاً إلى الْهُدَى. وقرأ عَبْدُاللهِ وأُبَيّ: (وَاللهُ رَكَّسَهُمْ) بالتشديدِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ ﴾ ؛ أي تَمَنَّى المنافقونَ والكفارُ أن تكفرُوا أنتُم بمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآن كما كَفَرُوا، فتكونُوا أنتم وهم سواءً في الكفرِ، ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ ؛ أي أحِبَّاءَ، ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ في طاعةِ اللهِ، ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ ، فإنْ أعْرَضُوا عن الإيْمان والْهِجْرَةِ فَأْسِرُوهُمْ، ﴿ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ ﴾ ، في الحِلِّ والْحَرَمِ، ﴿ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ أي حَبِيْباً في العَوْنِ والنُّصرةِ.

وهذه الآية محمولةٌ على حال ما كانتِ الهجرةُ فَرْضاً كما قال ﷺ: [أنَا بَرِيْءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ أقَامَ بَيْنَ اظْهُرِ الْمُشْرِكِيْنَ][2] ثم نُسِخَ ذلك يومَ فتحَ مكَّة كما روَى ابنُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٩٥٠) عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ٢ ص٣٠٢: الحديث (٢٢٦١ و٢٢٦٢) عن جرير بن عبدالله البجلي، والحديث (٢٢٦٤) وفيه قال: يا رسول الله: ولِمَ؟ قال: [لاَ تَرَاءَى نارَاهُمَا]. وفي=

عبَّاس قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ: [لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإن اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا][(١)].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَتَكُونُونَ سَوَاءً) لَمْ يدخل جوابَ التَّمنِّي؛ لأن جوابَهُ بالفاءِ منصوبٌ، وإنَّما أرادَ العطفَ على معنى: وَدُّوا لو تكفرونَ وَوَدُّوا لو تكونُوا سواءً، مثلَ قولهِ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[(٢)] أي وَدُّوا لو تُدْهنُ وودُّوا لو تُدْهِنُونَ، ومثلُه ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ﴾[(٣)] أي وَودُّوا لو تميلونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ ؛ هذا استثناءٌ لِمَن اتَّصَلَ من الكفار بقومٍ بينهم وبين المسلمينَ مِيْثاقٌ، قال ابنُ عبَّاس: (أرَادَ بالْقَوْمِ الأَسْلَمِيِّينَ، وَادَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أبَا بُرْدَةَ هِلاَلَ بنَ عُوَيْمِرَ الأَسْلَمِيَّ وَأصْحَابَهُ عَلَى أنْ لاَ يُعِينُوهُ وَلاَ يُعِينُوا عَلَيْهِ، فَمَنْ وَصَلَ إلَيْهِمْ وَلَحِقَ بهِمْ بالأَنْسَاب أوْ بالْوَلاَءِ) يعني: لجأ أحدٌ من الكفار في عهدِ الأسلَمِيِّين على حَسْب ما كان بين يدَي رسول اللهِ ﷺ وبينَ قُريشٍ من الموادعة[(٤)]؛ فدخلت خُزَاعَةُ في عهدِ النبيِّ ﷺ، ودخلت بَنُو كِنَانَةَ في عهدِ قُريشٍ[(٥)].

=ج٤ ص١١٤: الحديث (٣٨٣٦) عن خالد بن الوليد. وفي مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢٥٣؛ قال الهيثمي: ((رجاله ثقات)).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ١٠ ص٣٣٩: الحديث (١٠٨٤٣ و١٠٩٤٤). والإمام عبدالرزاق في المصنف: الحديث (٩٧١٣)، وإسناده صحيح وأخرجه الشيخان.

(٢) القلم / ٩ .

(٣) النساء / ١٠٢.

(٤) في المخطوط: (المواعدة) وهو قريب، والصحيح: الموادعة.

(٥) في لباب النقول: ص٧٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس)). وعن قصة الموادعة قال: ((وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن عن سراقة بن مالك المدلجي حدَّثهم ... وذكره)). وفي الدر المنثور: ج ٢ ص٦١٣؛ قال: ((وأخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن الحسن عن سراقة بن مالك حدثهم...)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: ويَصِلُونَ إلى قومٍ جاؤُكم ضَاقَتْ صدورهُم أن يقاتِلوكُم مع قومِهم، ﴿ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ ؛ معكُم وهم بَنُو مُدْلَجٍ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ لَسَلَّطَ قوم هلال بن عويْمِر، وبنِي مُدْلَجٍ عليكم، ﴿ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ﴾ ؛ كما قَتَلْتُمُوهُمْ ظالِمين لهم، ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾ ؛ أي فإنْ تركوكُم فلم يقاتِلُوكم مع قومِهم، واستسلَمُوا أو خَضَعُوا بالصُّلح والوفاءِ، ﴿ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ أي حُجَّةً في القتالِ وقال أهلُ النَّحْوِ: معنى (أوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ) أي حَصِرَتْ. و(حَصِرَتْ) لا يكون حالاً إلاّ بعدَ[1]؛ قالوا: ويجوزُ أن يكون (حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ) خبراً بعد خبرٍ؛ كأنه قالَ: أو جاؤُكم، ثم أخبرَ بعدُ فقالَ: (حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أنْ يُقَاتِلُوكُمْ). وفي الشواذِّ: (أوْ جَاؤُكُمْ حَصَرَةً صُدُورُهُمْ)[2].

وأمَّا اللامُ في (لَسَلَّطَهُمْ) فجوابُ (لَوْ شَاءَ اللهُ)، واللاَّمُ في (فَلَقَاتَلُوكُمْ) للبدلية، والفاءُ فاءُ عطفٍ بمنْزلة الواو.

وقد رويَ عن عطاءٍ عن ابنِ عبَّاس: (أنَّ هَذِهِ الآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بقَوْلِهِ (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) بآيَةِ السَّيْفِ؛ هِيَ مُعَاهَدَةُ الْمُشْرِكِيْنَ وَمَوَادَعَتُهُمْ مَنْسُوخَةٌ بقَوْلِهِ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾[3])[4]. ولأن الله تعالى أعَزَّ الإسلامَ

---

(١) هكذا في المخطوط. وعلى ما يبدو أنه أراد: أن (حَصِرَتْ) حالٌ من فاعل (جَاءُوكُمْ)، وإذا وقعت الحالُ فعلاً ماضياً، الراجح أنه لا يحتاج إلى (قد) لكثرة ما جاء منه، فعلى هذا لا تضمر (قد) قبل (حُصرت). ومن اشترط ذلك قدَّرها هنا، فيكون تقدير عبارة المصنف رَحِمَهُ اللهُ: ((أي حَصِرَتْ، وحصرت لا يكون حالاً إلا بعد (قد).)) حيث ذهب المصنف رَحِمَهُ اللهُ إلى أن الحال إذا وقع فعلاً ماضياً يحتاج إلى اقترانه بـ (قد). وفي هذا خلاف، الراجح فيه ما تقدم أنه لا يحتاج إلى (قد) لكثرة ما جاء منه. والله أعلم.

(٢) حَصَرة على وزن نبقة، وهي قراءة تؤيد كون (حَصِرَتْ) حالاً، ونقلها المهدوي عن عاصم في رواية حفص، وروي عن الحسن أيضاً (حصرات) و(حاصرات). وفي هذا خلاف طويل، وما ينبغي. ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٦ ص٥٥٣-٥٥٤. (٣) التوبة / ٥ .

(٤) في الدر المنثور: ج ٢ ص٦١٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس. وقال: أخرجه أبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: [نَسَخَتْهَا بَرَاءَةٌ])). وفي جامع البيان: النص (٧٩٧٠ و٧٩٧١) عن قتادة، وفي النص (٧٩٧٢) عن ابن زيد.

وأهلَهُ؛ فلا يُقْبَلُ من مشركي العرب إلاّ الإسلامُ أو السَّيْفُ بهذه الآيةِ، وقد أمرَنا اللهُ تعالى في أهلِ الكتاب بقتالِهم حتى يُسْلِمُوا أو يُعْطُوا الجزيةَ بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَلاَ بالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1] فلا يجوزُ مُدَاهَنَةُ الكفَّار وتركُ أحدِهم على الكفرِ من غير جِزْيَةٍ إذا كان بالمسلمين قُوَّةٌ على القتال، وأما إذا عَجَزُوا عن مقاومتِهم وخافُوا على أنفسِهم وذراريهم جازَ لَهم مهادنةُ العدوِّ من غير جزيةٍ يؤدُّونَها إليهم؛ لأن حَظْرَ الموادعةِ كان لسبب القوَّة؛ فإذا زالَ السببُ زالَ الْحَظْرُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: ستجدون قَوماً آخرينَ يريدون أن يَأْمَنُوكُمْ، أي يُظهرون لكم الصُّلْحَ، يريدونَ أنْ يأمنُوكم بكلمةِ التَّوحِيدِ، يُظهرونَها لكم، ﴿ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ ؛ أي ويأمَنُوا من قومِهم بالكفرِ في السرِّ، ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ﴾ ؛ كلَّما دُعُوا إلى الكُفْرِ رَجَعُوا فيهِ.

قال ابنُ عبَّاس: (هُمْ أَسَدُ وَغَطَفَانُ؛ كَانُوا حَاضِرِي الْمَدِيْنَةِ، وَكَانَا يَتَكَلَّمَانِ بالإِسْلاَمِ وَهُمَا غَيْرُ مُسْلِمَيْنِ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَهُ قَوْمُهُ: بمَاذا آمَنْتَ ؟ وَلِمَاذَا أَسْلَمْتَ؟ فَيَقُولُ: آمَنْتُ برَب العُودِ، وَبرَبِّ الْعَقْرَب وَبرَبِّ الْخُنْفُسَاءِ. يُرِيْدُونَ بِهِ الاسْتِهْزَاءَ، فَإذا لَقُوا مُحَمَّداً ﷺ وَأَصْحَابَهُ قَالُوا: إنَّا عَلَى دِيْنِكُمْ؛ وَأَظْهَرُوا الإِسْلاَمَ، فَأَطْلَعَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى ذلِكَ بهَذِهِ الآيَةِ)[2].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ ؛ أيْ فانْ لَمْ يتركوا قتالكم ولَمْ يَستَديِموا لكم في الصُّلْحِ، ولَمْ يمنعوا أيديَهم عن قتالِكم، ﴿ فَخُذُوهُمْ ﴾ ؛ أي إسِرُوهُمْ، ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ ؛

(١) التوبة / ٢٩ .

(٢) في اللباب في علوم الكتاب: ج ٦ ص٥٥٦؛ قال: ((قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس... وذكره)). وفي المخطوط: (آمنتُ بهذا العود، وبهذه العقرب، وبهذه الخنفساء) وأظنه تصحيفاً، وصححناه كما في اللباب. وأخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان: النص (٧٩٧٤) من طريق آخر؛ قال: ((وذلك أن الرجل كان يوجد قد تكلم بالإسلام، فيقرب إلى العود والحجر والعقرب والخنفساء، فيقول المشركون لذلك المتكلم بالإسلام: قل هذا ربي، للخنفساء والعقرب!)) ولعل بهذه الرواية تتضح عبارة الإمام الطبراني فيما ذكره. والله أعلم.

أي حيث وَجَدْتُمُوهُـمْ، ﴿ وَأُولَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾ ﴾؛ أي أهل هذه الصفة جعلنا لكم عليهم حجة ظاهرة بالقتال معهم، قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إلا خَطَأً) أي ما كانَ لِمؤمنٍ في حُكْمِ اللهِ أن يَقْتُلَ مؤمناً بغيرِ حقٍّ إلاَّ أن يكونَ وُقُوعُ القتلِ منه على وجهِ الخطأ، وهو ألاَّ يكونَ قاصداً قَتْلَهُ فيكونُ مرفوعَ الإثمِ والعقاب.

واختلفَ المفسِّرون فيمَنْ نزلت هذه الآيةُ؛ قال ابنُ مسعودٍ: (فِي عَيَّاشِ بْنِ رَبِيْعَةَ الْمَخْزُومِيِّ؛ أتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ بمَكَّةَ قَبْلَ أنْ يُهَاجِرَ إلَى الْمَدِيْنَةِ فَأسْلَمَ مَعَهُ، فَخَافَ أنْ يَعْلَمَ أهْلُهُ بإسْلاَمِهِ، فَخَرَجَ هَارِباً إلَى الْمَدِيْنَةِ؛ فَاخْتَفَى فِي جَبَلٍ مِنْ جِبَالِهَا؛ فَجَزِعَتْ أمُّهُ جَزَعاً شَدِيْداً حِيْنَ بَلَغَهَا إسْلاَمُهُ وَخُرُوجُهُ إلَى الْمَدِيْنَةِ؛ فَقَالَتْ لأَبْنَيْهَا الْحُرَيْثِ[1] وَأبي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ - وَهُمَا أخَوَاهُ لأُمِّهِ-: وَاللهِ لاَ يُظِلُّنِي سَقْفٌ وَلاَ أذُوقُ طَعَاماً وَلاَ شَرَاباً حَتَّى تَأتُونِي بهِ، فَخَرَجَا فِي طَلَبهِ، وَخَرَجَ مَعَهُمَا الْحَرْثُ بْنُ زَيْدٍ حَتَّى أتَيَا الْمَدِيْنَةَ، فَوَجَدَا عَيَّاشاً فِي أطَمٍ - أيْ جَبَلٍ - فَقَالاَ لَهُ: إنْزِلْ؛ فَإنَّ أمَّكَ لَمْ يَأْوِهَا سَقْفُ بَيْتٍ بَعْدَكَ، وَقَدْ حَلَفَتْ لاَ تَأكُلُ طَعَاماً وَلاَ تَشْرَبُ شَرَاباً حَتَّى تَرْجِعَ إلَيْهَا، وَلَكَ عَلَيْنَا ألاَّ نُكْرِهَكَ عَلَى شَيْءٍ؛ وَلاَ نَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ دِيْنِكَ، فَحَلَفُوا لَهُ عَلَى ذلِكَ فَنَزَلَ إلَيْهِمْ، فَأَوْثَقُوهُ بنِسْعَةٍ[2] ثُمَّ جَلَدَهُ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ.

ثُمَّ قَدِمُوا بهِ عَلَى أمِّهِ، فَلَمَّا أتَاهَا قَالَتْ لَهُ: وَاللهِ لاَ أحِلُّكَ مِنْ وثَاقِكَ حَتَّى تَكْفُرَ بالَّذِي آمَنْتَ بهِ، ثُمَّ تَرَكُوهُ مَطْرُوحاً مَوْثُوقاً فِي الشَّمْسِ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أعْطَاهُمُ الَّذِي أرَادُوا، فَأتَاهُ الْحُرَيْثُ بْنُ زَيْدٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَيَّاشُ؛ هَذا الَّذِي كُنْتَ عَلَيْهِ، فَوَاللهِ لَئِنْ كَانَ الْهُدَى لَقَدْ تَرَكْتَ الْهُدَى، وَلَئِنْ كَانَ ضَلاَلَةً لَقَدْ كُنْتَ عَلَيْهَا، فَغَضِبَ عَيَّاشُ مِنْ مَقَالَتِهِ، قَالَ: وَاللهِ لاَ ألْقَاكَ خَالِياً إلاَّ قَتَلْتُكَ.

ثُمَّ إنَّ عَيَّاشاً أسْلَمَ بَعْدَ ذلِكَ، وَهَاجَرَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَدِيْنَةِ، ثُمَّ أسْلَمَ بَعْدَ ذلِكَ الْحُرَيْثُ بْنُ زَيْدٍ وَهَاجَرَ إلَى الْمَدِيْنَةِ، وَلَمْ يَعْلَمْ عَيَّاشُ بإسْلاَمِهِ، فَبَيْنَمَا عَيَّاشُ يَسِيْرُ بظَهْرِ قِبَاءَ إذْ لَقِيَ الْحُرَيْثَ بْنَ زَيْدٍ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ النَّاسُ: وَيْحَكَ يَا عَيَّاشُ!

---

(١) ينظر ترجمته في الاستيعاب: الرقم (٥٢١).

(٢) النِّسْعَةُ - بالكسر-: سَيْرٌ مضفورٌ، يُجعل زِمَاماً للبعيرِ وغيره.

إنَّهُ قَدْ أسْلَمَ، فَرَجَعَ عَيَّاشُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ قَدْ كَانَ مِنْ أمْـرِي وَأمْرِ الْحُرَيْثِ مَا عَلِمْتَ؛ وَإنِّي لَمْ أعَلَمْ بإسْلاَمِهِ حَتَّـى قَتَلْتُـهُ[1]، فَـنَزَلَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي ما كان لِمُؤْمِنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً الْبَتَّـةَ إلاّ خَطأً ولا عمداً بحالٍ، لَكِنْ إنْ قَتَلَهُ خَطأً على غير قصدٍ، أو قَتَلَهُ على ظَنٍّ أنهُ مُبَاحُ الدَّمِ فعليه عِتْقُ رَقَبَةٍ مؤمنةٍ في مالهِ، وعليه وعلى عَاقِلَتِهِ تسـليمُ دِيَّـةٍ كاملـةٍ إلى أوليـاء المقتول، ويكونُ القاتلُ كواحدٍ من العاقلةِ، وإذا لم يكن له عاقلةٌ كانت الديَّـةُ في بيـتِ المال في ثلاثِ سـنين. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ ؛ معنـاهُ: إلاّ أن يَتَصَـدَّقَ أولياءُ المقتولِ، فيتركُوا الديَّةَ ويعفُوا.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ ؛ أي إن كانَ المقتـولُ خطـأً مـن قـومِ حَـرْبٍ لكـم، فَقُتِـلَ في دار الحرب وهو مؤمنٌ أسلمَ في دار الحرب ولم يهاجر حتى قُتِلَ، فعلـى قَاتِلِـهِ عِتْـقُ رقبـةٍ مؤمنة، ولم يذكر الديَّة لأن دمَ المقتول لا قيمةَ لهُ، إذ لَمْ يُحَـرِّزْ نَفْسَـهُ بـدَار الإسْـلاَم، وَلَيْسَ هو فِي صُلْحِ الْمُسْلِمِيْنَ. وَقِيْلَ: إنَّما لم يَذْكُر الديَّة؛ لِئَلاَّ يُسَلِّمَ إلى أهـلِ الحـرب ديَةٌ فَيَقْوَوْنَ بها عَلَيْنَا، وهذا القولُ يقتضي أنَّ الديَّةَ واجبةٌ، إلاّ أنّـها لا تُسَـلَّمُ إليـهم. وفي وجوب هذه الديَّةِ خلافٌ بين العلماءِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ ؛ أي إن كان المقتولُ خطأً مـن قـومٍ بينَكم وبينَهم عهدٌ أو صُلْحٌ، فعلَى القاتلِ وعاقلته تَسْلِيْمُ ديَّةٍ كاملةٍ إلى أولياءِ المقتـولِ،

---

(١) في اللباب في علوم الكتاب: ج ٦ ص٥٥٩. وأخرجه الطبري في جامع البيـان: النـص (٧٩٨٣) عن مجاهد، وفي النص (٧٩٨٤) عن عكرمة، وفي النص (٧٩٨٥) عن السدي مختصراً ومرسـلاً. وفي السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص١٢٠؛ قال ابن هشـام: ((إن رسـولَ الله ﷺ قـال وهـو بالمدينة: [مَنْ لِي بعَيَّاشِ بْن أبِي رَبيعَةَ، وَهِشَام بْن الْعَاص؟ فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ: (أنـا لَـكَ يَـا رَسُولَ اللهِ بهمَا) فَخَرَجَ إلَى مَكَّةَ، فدخلَها مُستخفياً؛ ...)) وذكر أنه أنقذَهما وذكـرَ قصَّـة سـيفه وإصبعه ولم يَذكر أن عيَّاش ارتدَّ وأسلمَ. وينظر أيضاً: الروض الأنف في تفسير سيرة ابن هشـام للسهيلي: ج ٢ ص٣٠١.

وعلى القاتلِ عِتْقُ رَقَبَةٍ مؤمنةٍ. والفائدةُ في إعادةِ ذكر المؤمنة: أنه لـو لَـمْ يُعِـدْ ذكرَهـا لكان يَتَوهَّمُ مُتَوَهِّمٌ أنه لَمَّا وجبَ في المؤمنِ رقبةٌ في مثـل صفتـهِ تجبُ أيضـاً في قتـلِ الكافر رقبةٌ في مثل صفةِ المقتُول.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِـدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ ؛ أي مــن لم يَجِدْ رقبةً مؤمنة، فعليهِ صيامُ شهرين متوالِيَين لا يفصلُ بين صيامِهما. وقَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي اعْمَلُوا ما أمركم اللهُ به للتوبةِ يَتُوبُ اللهُ عليكـم، وهـذا نُصِبَ على ما يقالُ: فعلتُ كذا حَذراً من الشَّرِّ.

وإنَّما سُميت الكفارةُ توبةً؛ لأن قاتلَ الخطأ كـان عَاصِياً في سـبب القتـلِ مـن حيثُ إنه لَمْ يَحْتَرِزْ، وإن لم يكن عاصِياً في نفسِ القتل. ويقالُ: معنى التَّوْبَةِ: التَّوْسِـعَةُ والتخفيفُ من اللهِ. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ أي عَلِيْمٌ بكُلِّ شيءٍ حَكَيْمٌ بما يأمرُكم به من الديَّةِ والكفَّارةِ، وقال بعضُهم: نَزَلَتْ الآية في أبي الدَّرْدَاءِ حينَ قَتَلَ رَاعِياً خطأً[1].

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَــلَّ: ﴿ وَمَن يَقْتُـلْ مُؤْمِنًـا مُّتَعَمِّدًا فَجَـزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي مِقْيَسِ بْنِ خَبَابَةَ؛ وَجَدَ أخَاهُ قَتِيْـلاً فِـي بَنِي النَّجَّار؛ فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذكَرَ لَهُ ذلِكَ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلاً مِنْ بَنِي فِهْرٍ، وَقَـالَ لَهُ: [إئْتِ بَنِي النَّجَّار فَأَقْرِئْهُمْ مِنِّي السَّـلاَمَ؛ وَقُـلْ لَـهُمْ: رَسُـولُ اللهِ ﷺ يَـأْمُرُكُمْ إنْ عَلِمْتُمْ قَاتِلَ هِشَامَ أنْ تَدْفَعُوهُ إلَى مَقِيْسٍ يَقْتَصُّ مِنْهُ، وَإنْ لَمْ تَعْلَمُوا لَهُ قَاتِلاً أنْ تَدْفَعُوا إلَيْهِ دَيَّتَهُ] فَأَبْلَغَهُمُ الْفِهْرِيُّ ذلِكَ، فَقَالُوا: سَمْعاً وَطَاعَةً للهِ وَلِرَسُولِهِ؛ وَاللهِ مَا نَعْلَمُ لَـهُ قَاتِلاً؛ وَلَكِنَّا نُؤَدِّي دِيَتَهُ، فَأَعْطَوْهُ مِائَةً مِنَ الإبلِ، وَانْصَرَفَا رَاجِعَيْنِ نَحْـوَ الْمَدِيْنَـةِ وَبَيْنَـهُمَا وَبَيْنَ الْمَدِيْنَةِ قَرِيْبٌ، فَوَسْوَسَ الشَّيْطَانُ إلَى مِقْيَسٍ وَقَالَ لَهُ: أيُّ سَبَبٍ صَنَعْتَ بقَبُـول دِيَّةِ أخِيْكَ فَتَكُونَ عَلَيْكَ سُبَّةٌ، اقْتُلِ الَّذِي مَعَكَ تَكُونُ نَفْسٌ مَكَانَ نَفْسٍ وَفَضْلَ الدِيَّـةِ، فَرَمَى الْفِهْرِيَّ بصَخْرَةٍ فَشَدَخَ رَأسَهُ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ رَكِبَ بَعِيْراً مِنْهُمَا وَسَاقَ بَقِيَّتَـهَا رَاجِعـاً إلَى مَكَّةَ كَافِراً، وَجَعَلَ يَقُولُ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٧٩٨٦) عن ابن زيد.

قَتَلْتُ بِهِ فِهْراً وَحَمَّلْتُ عَقْلَهُ ... سُرَاةَ بَنِي النَّجَّارِ وَأَرْبَابَ فَارِعِ
فَأَدْرَكْتُ ثَأْرِي وَاضْطَجَعْتُ مُوَسَّداً ... وَكُنْتُ إلَى الأَوْثَانِ أَوَّلَ رَاجِعِ

فَنَزَلَتْ هذه الآيةُ، وَقُتل مِقيَسُ يومَ فتحِ مكّةَ[1].

ومعناها: ومَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً في قتلهِ مُسْتَحِلاًّ لهُ فَجَزَاؤُهُ جهَنَّم خَالِداً فِيْهَا باستحْلالِهِ لَهُ وارتدادهِ عن إسلامهِ، ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ ؛ بقتْلِهِ غيرَ قاتلِ أخيهِ، ﴿ وَلَعَنَهُ ﴾ ؛ أي بَاعَدَهُ من رحمتهِ، ﴿ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ بجُرْأتِهِ على اللهِ بقتلِ نفسٍ بغير حقٍّ.

واختلفَ الناسُ في حُكْمِ هذه الآيةِ، قالتِ الخوارجُ والمعتزلة: (إنَّهَا فِي الْمُؤْمِنِ إذا قَتَلَ مُؤْمِناً، وَهَذا الْوَعِيْدُ لاَحِقٌ بهِ). وقالت المرجئةُ: (إنَّهَا نَزَلَتْ فِي كَافِرٍ قَتَلَ مُؤْمِناً، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ إذا قَتَلَ مُؤْمِناً فَإنَّهُ لاَ يُخَلَّدُ فِي النَّار)[2].

وقالت طائفةٌ من أصحاب الحديث: كُلُّ مُؤْمِنٍ قَتَلَ مُؤْمِناً فَهُوَ خَالِدٌ فِي النَّار غَيْرَ مُؤَبَّدٍ يُخْرَجُ بشَفَاعَةِ الشَّافِعِيْنَ، وَزَعَمَتْ: انَّهُ لاَ تَوْبَةَ لِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً.

والصحيحُ: أنَّ المؤمنَ إذا قَتَلَ مؤمناً متعمِّداً لا يَكْفُرُ بذلك ولا يخرجُ من الإيْمان؛ إلاَّ إذا فَعَلَ ذلك مُسْتَحِلاً لهُ، فإن أُقِيدَ بمن[3] قتلَه فذلك كفارةٌ له، وإن كان تَائِباً من ذلك ولم يكن مُعَاداً كانت التوبةُ أيضاً كفَّارةً له، فإنْ ماتَ بلا توبةٍ ولا قَوْدٍ فأمرهُ إلى اللهِ؛ إنْ شاءَ غفرَ لهُ وإن شاءَ عذبه على فعلهِ ثم يخرجهُ بعد ذلك إلى الجنَّةِ

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٦٢٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وقال: وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله سواء)). وفي تاريخ الطبري: ج ٢ ص١١٠ ذكره، وفي ص١٦٠ ذكر الخبر عن فتح مكة حتى قال: ((وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه حين أمرهم أن يدخلوا مكة، أن لا يقتلوا أحداً إلا من قاتلهم؛ إلا أنه قد عقد في نفر سمَّاهم، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم.... وأما مقيس بن صبابة فقتله نُميلة بن عبدالله، رجل من قومه)). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٣٣٣. وفي أسباب النزول للواحدي: ص١١٤-١١٥.

(٢) في المخطوط: (لا يخلد في النهار) وهو تصحيف.

(٣) في المخطوط: (فإن أقيد ظنٌّ).

التي وعدَهُ بإيْمانه؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يُخْلِفُ الميعادَ، وتركُ الْمُجَازَاةِ بالوعيدِ يكونُ منه تَفضُّلاً، وتركُ الْمُجَازَاةِ بالوعدِ يكونُ خِلْفاً، تعالَى اللهُ عن الخلفِ عُلُوّاً كبيراً.

والدليلُ على أنَّ المؤمنَ لا يصيرُ بقتلهِ المؤمنَ كافراً، ولا خارجاً عن الإيْمان قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ﴾ ولا يكون القصاصُ إلاّ في قتلِ العَمْدِ، فبينما هم مؤمنين وآخَى بينهُم بقوله ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾(١) ولم يُردْ به إلاّ الأُخُوَّةَ في الإيْمان، والكافرُ لا يكونُ أخاً للمؤمنِ، ثم قالَ: ﴿ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ ولا يجعلُ ذلك للكافرِ، ثم أوجبَ على المعتدِي بعد ذلك عذاباً أليماً لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ ولم يُوقِعِ الغضبَ ولا التخليدَ في النار ولا يسمِّي هذا العذابُ ناراً، والعذابُ قد يكون ناراً، وقد يكون غيرَها في الدُّنيا، قال اللهُ تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمْ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾(٢) يعني القَتْلَ والأَسْرَ، ولو كان القتلُ يخرجهم من الإيْمان لَمَا خاطبَهم بقولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾(٣) الآية واقتِتَالُهم على وجهِ العَمْدِ.

ورويَ: أنَّ مُؤْمِناً قَتَلَ مُؤْمِناً عَلَى عَهْدِ رَسُول اللهِ ﷺ فَلَمْ يَأْمُر الْقَاتِلَ بالإيْمَان، ولو كانَ كافراً لأَمَرَهُ أوَّلاً بالإيْمان، وقال لطالِب الدَّم: [أتعْفُو ؟] قَالَ: لاَ، قَالَ: [أتأْخُذُ الدِّيَّةَ ؟] قَالَ: لاَ، فَأَمَرَ بقَتْلِهِ، ثُمَّ أعَادَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أوْ ثلاَثاً حَتَّى قَبلَ الدِّيَّةَ(٤)، ولم يحكُمْ عليه بالكُفْرِ، فلو كان ذلكَ كُفْراً لَبَيَّنَهُ رسولُ اللهِ ﷺ؛ لأن ذلك كان ردَّةً تَحْرُمُ بها زوجتُه عليه، ولم يَجزْ على رسولِ اللهِ ﷺ الإغْفَالُ عنهُ؛ لأنَّهُ النَّاصِحُ الشَّفِيْقُ المنعوتُ بالتَّأدِيْب والتعليمِ.

---

(١) البقرة / ١٧٨ .

(٢) التوبة / ١٤ .

(٣) الحجرات / ٩ .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الديات: باب الإمام يأمر بالعفو: الحديث (٤٤٩٩) عن وائل ابن حجر. والنسائي في السنن الصغرى: كتاب القسامة: باب ذكر اختلاف الناقلين بخبر علقمة ابن وائل فيه: ج ٨ ص١٤.

ودليلٌ آخر أن القاتلَ لا يصيرُ كافراً: هو أنَّ الكُفْرَ والْجُحُودَ والإباءَ والشِّرْكَ إضافةٌ، والقاتِلُ لم يَجْحَدْ ولم يَأْبَ قبولَ الْفَرَائِضِ، ولا أضافَ إلى الله تعالى شَريكاً، ولو جازَ أن يكون كَافراً ولم يَأْتِ بالكفرِ لَجَازَ أن يكونَ مؤمناً مَن لم يَأْتِ بالإيْمان.

قال: تَعَلَّقَتِ الخوارجُ والمعتزلةُ بهذه الآيةِ؛ وقالُوا: إنَّ المؤمنَ إذا قَتَلَ مؤمناً متعمِّداً يبقَى فِي النَّار مُؤَبَّداً؛ لأن اللهَ تعالى قال (خَالِداً فِيهَا). يقال لَهم: إنَّ هذه الآيةَ نزلت في كَافِرٍ قَتَلَ مُؤمناً متعمِّداً وقد ذكرنا القصَّةَ فيه، وسياقُ الآيةِ يدلُّ عليهِ؛ وروايات المفسِّرين تدلُّ على أنَّها لو سَلَّمْنَا بأنَّها نزلَتْ في مُؤْمِنٍ قَتَلَ مُؤْمِناً فإنَّا نقولُ لَهم: لَوْ قُلْتُمْ إنَّ الخلودَ التأبيدُ فأخبرونا عن قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾[١] هُنَا في الدُّنيا، فإن قلتم: إنَّهُ أرادَ التأبيدَ؛ فالدُّنيا تزولُ وتفنَى، ومثله ﴿أَفَإِيْنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[٢]، وقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[٢].

وإن قلتُم: لَمْ يُرِدْ به التأبيدَ؛ وذلك القولُ منكم لا بُدَّ منه؛ فقد ثَبَتَ أن معنَى الخلودِ غيرُ معنى التَّأبيدِ، وكذلكَ العربُ تقول: لأُدْخِلَنَّ فُلاناً في السِّجن، فإن قُلْتُمْ: المرادُ به التأبيدُ؛ فالسجنُ ينقطع ويفنىَ ويَموتُ المسجون أو يَخرجُ منه، فإنْ قالُوا: إنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قالَ (وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ) دلَّ على كُفْرِهِ؛ لأن اللهَ تعالى لا يَغْضَبُ إلاّ على مَن كان كافراً، قُلْنَا: هذه الآيةُ لا توجِبُ عليه الغضبَ؛ لأنَّ معناهُ: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾، وجزاؤُه أنْ يغضبَ اللهُ عليه ويَلْعَنَهُ، وما ذكرَهُ اللهُ وجعله جزاءَ الشيءِ فليسَ يكونُ ذلك واجباً؛ لأنه لو كان على الوجوب لكان كقولِهِ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾[٣] وهي لغةُ العرب إذا قال القائل: جزاؤُه كذا؛ ثم لَمْ يُجَازِهِ لم يكن كاذباً، وإذا قالَ: أجْزِيْهِ ذلكَ ولم يفعل كان كاذباً، فَعُلِمَ أنَّ بينهما فَرْقاً واضحاً.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ في قولِهِ تعالى(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ) قَالَ: [هِيَ جَزَاؤُهُ أنْ جَازَاهُ][٤]. فإن قِيْلَ: قولهُ: (وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ

(١) الأنبياء / ٣٤ . (٢) الهمزة / ٣ . (٣) الأنبياء / ٢٩ .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الفتن: باب تعظيم قتل المؤمن: الحديث (٤٢٧٦) عن أبي مجلز. وفي الدر المنثور: ج ٢ ص٦٢٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم وأبو القاسم بن=

وَلَعَنَهُ) من الأفعال الماضية، ومتى قُلْتُمْ إنَّ المرادَ به: فجزاؤه ذلكَ أنْ جَازَاهُ كان مِن الأفعال المستقبلة ؟ يقالُ لَهم: قد يَردُ الخطابُ باللفظ الماضي والمرادُ منه المستقبلُ كقوله تَعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنهُمْ إلاَّ أنْ يُؤْمِنُوا بالله﴾[(١)] أي إلاَّ أن آمَنُوا باللهِ، ومثلهُ كثير.

وأما قولُ من زَعَمَ: أنهُ لا توبةَ لِمَنْ قَتَلَ مؤمناً متعمِّداً، فإنه مُخالفٌ للكتاب والسُّنة، وذلكَ أن اللهَ تعالى يغفرُ الذنوب جميعاً، وأمرَ بالتوبةِ منها، فقالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَتُوبُوا إلَى اللهِ جَمِيعاً أيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾[(٢)] ولم يَفْصِلْ بين ذنبٍ وذنب، وإذا كان اللهُ تعالى يَقْبَلُ التوبةَ من الكُفْر فقبولُهَا من القتلِ أوْلَى، وقالَ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلَهاً آخرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إلاَّ بالْحَقِّ...﴾ إلى قولهِ تعالى ﴿إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾ الآية[(٣)] وقال إخوَةُ يوسُف: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾[(٤)] ثم قالُوا ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ أي تائِبيْنَ. وسُئِلَ النبيُّ ﷺ: أمِنْ كُلِّ ذنبٍ يُقْبَلُ التَّوْبَةُ؟ قال: [نَعَمْ].

ثم المقتول اذا اقْتَصَّ منهُ الولِيُّ فذلك جزاؤه في الدُّنيا، وفيما بين المقتول والقاتلِ الأحكامُ باقية في الآخرةِ؛ لأن الولِيَّ وإنْ قَتَلَهُ فإنَّما أخذ حقَّ نفسهِ، وأمَّا المقتولُ فلم يكن له في القِصاصِ منفعةٌ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي مِرْدَاسِ بْنِ نُهَيْكٍ؛ كَانَ مُسْلِماً لَمْ يُسْلِمْ مِنْ قَوْمِهِ غَيْرُهُ، فَسَمِعُوا بسَرِيَّةٍ لِرَسُول اللهِ ﷺ تُرِيْدُهُمْ فَهَرَبُوا كُلُّهُمْ، وَأقَامَ الرَّجُلُ فِي غَنَمِهِ؛ لأنَّهُ كَانَ عَلَى دِيْنِ الْمُسْلِمِيْنَ، فَلَمَّا رَأى الْخَيْلَ خَافَ أنْ يَكُونُوا مِنْ غَيْرِ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ

=بشران في أماليه بسند ضعيف عن أبي هريرة)). وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٨٦٠١)، وقال:((تفرد به مُحَمد بن جامع)). في لسان الميزان: ج٥ ص٩٩: الترجمة (٣٤٠)؛ قال ابن حجر: ((مُحَمد بن جامع البصري العطار، قال ابن عدي: لا يتابع على أحاديثه، وضعفه أبو يعلى)).

(١) البروج / ٨ . (٢) النور / ٣١ .

(٣) الفرقان / ٦٧ . (٤) يوسف / ٩ .

ﷺ؛ فَألْجَأ غَنَمَهُ إلَى عَاقُول مِنَ الْجَبَلِ وَهُوَ الْعِوَجُ(١)، فَلَمَّا سَمِعَهُمْ يُكَبِرُونَ عَرَفَ أنَّهُمُ الصَّحَابَةُ؛ فَكَبَّرَ وَنَزَلَ وَهُوَ يَقُولُ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ؛ السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ، فَغَشَاهُ أسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَقَتَلَهُ وَسَاقَ غَنَمَهُ، وكَانَ أمِيرُ السَّرِيَّةِ غَالِبَ بْنَ فُضَالَةَ اللَّيْثِيّ، ثُمَّ رَجَعُوا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَأخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَوَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ ذلِكَ وَجْداً شَدِيْداً وَقَالَ: [قَتَلْتُمُوهُ إرَادَةَ مَا مَعَهُ] فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ؛ فَقَرَأهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أسَامَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ:[فَكَيْفَ بلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ !؟] قَالَ ذلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لَهُ بَعْدَ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ، وَأمَرَهُ أنْ يُعْتِقَ رَقَبَةً)(٢).

وعن الحسن: (أنَّ أنَاساً مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ لَقُوا أنَاساً مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ، فَشَدَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ وَمَعَهُ مَتَاعٌ، فَلَمَّا غَشِيَهُ السَّيْفُ قَالَ: إنِّي مُسْلِمٌ، فَكَذبَهُ ثُمَّ أوْجَرَ السِّنَانَ وَأخَذ مَتَاعَهُ، وَكَانَ وَاللهِ قَلِيْلاً، فَأُخْبرَ بذلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

قَالَ جُنْدُبُ بْنُ سُفْيَان(٣): وَلَقَدْ كُنْتُ عِنْدَ رَسُول اللهِ ﷺ حِيْنَ جَاءَ السَّيْفُ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ بَيْنَما نَحْنُ نَطْلُبُ الْقَوْمَ وَقَدْ هَزَمَهُمُ اللهُ تَعَالَى إذْ لَحِقْتُ رَجُلاً بالسَّيْفِ، فَلَمَّا أحَسَّ السَّيْفَ وَاقِعٌ بهِ، قَالَ: إنِّي مُسْلِمٌ؛ إنِّي مُسْلِمٌ؛ فَقَتَلْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [قَتَلْتَ مُسْلِماً !] قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ؛ إنَّهُ قَالَ ذلِكَ مُتَعَوِّذاً، فَقَالَ: [فَهلاَّ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبهِ ! فَنَظَرْتَ أصَادِقاً هُوَ أمْ كَاذِباً] قَالَ: لَوْ شَقَقْتُ عَنْ قَلْبهِ مَا كَانَ يُعْلِمُنِي؛ هَلْ قَلْبُهُ إلاَّ بضْعَةٌ مِنْ لَحْمٍ، قَالَ:[فَأنْتَ قَتَلْتَهُ؛ لاَ مَا فِي قَلْبهِ عَلِمْتَ؛ وَلاَ لِسَانَهُ صَدَّقْتَ؛ إنَّمَا يُعَبرُ عَنْهُ لِسَانُهُ] فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: [لاَ أسْتَغْفِرُ لَكَ] قَالَ: فَمَا لَبثَ الْقَاتِلُ أنْ مَاتَ فَدَفَنُوهُ؛ فَأصْبَحَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ إلَى جَانِب قَبْرهِ، فَعَادُوا فَحَفَرُوا لَهُ وَأمْكَنُوا فَدَفَنُوهُ؛ فَأصْبَحَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ ثَلاَث مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأى ذلِكَ قَوْمُهُ اسْتَحْيَوا وَحَزِنُوا وَأخَذوا برجْلِهِ فَألْقَوْهُ فِي شِعْبٍ مِنَ

(١) العِوَجَ من الأرض ما لا تستوي، وهو الانعطافُ فيما كان قائماً. لسان العرب: مادة (عوج).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٠٨٠) عن قتادة، والنص (٨٠٨١) عن السدي. وفي لباب النقول: ص٧٧-٧٨؛ قال السيوطي: ((وأخرجه الثعلبي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس... وذكره مختصرا)).

(٣) هو جُندب بن عبدالله بن سفيان البجلي العلقي، في الاستيعاب: ج ١ ص٣٢٤؛ قال ابن عبدالبر: (ومنهم من يقول: جُندب بن سفيان، ينسبونه إلى جدّه).

الشِّعَاب، فَقَالَ ﷺ: [لاَ؛ إنَّها لَتَنطَبقُ عَلَى مَنْ هُوَ أعْظَمُ جُرْماً مِنْهُ، وَلَكِنْ أرَادَ اللهُ أنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ حُرْمَةَ الدَّمِ])[1].

ومعنى الآيةِ: يَا أيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إذا خَرَجْتُمْ مسافرين في طاعةِ الله فَتَبَيَّنُوا؛ أي مَيِّزُوا الكافرَ من المؤمنِ بالدلائلِ والعلامات، ولا تَعْجَلُوا بالقتلِ حتى يَتَبَيَّنَ لكم ذلكَ. ومن قرأ (فَتَثَبَّتُوا) بالثَّاء فمعناهُ: قِفُوا في أمرِ مَن أظهرَ لكم الإسلامَ ولا تَعْجَلُوا بقتلِهِ، ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ ﴾ ؛ أي الانقيادَ والمتابعةَ وأسْمَعَكُمْ كلامَ الإسلام؛ ﴿ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ فتقتلوهُ وتطلبون بردِّ إسلامهِ استغنامَ ما معه من المال، ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ ؛ يظهرُكم عليها، ويبيحُ لكم أخذها.

ومن قرأ (السَّلاَم) بالألفِ فمعناهُ: لا تقولوا لِمَنْ سَلَّمَ عليكُم، ودعاكُم لَسْتَ مُؤْمِناً، والتسليمُ من علاماتِ الإسلام، به يتعارفُ المسلمون، وبه يُحَيِّي بعضُهم بعضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)؛ يعني تطلبُون بذلك الغُنْمَ والغنيمةَ وسلبَهُ، وعرضُ الدنيا منافعُها ومتاعُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾ ؛ أي مِن قبلِ الهجرة تأمَنُونَ في قومِكم بين المؤمنينَ بلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ فكيفَ تُخيفون وتقتلونَ من قالَها، فنهاهُم اللهُ تعالى أن يُخيفوا أحداً يَأْمَنُ بما كانوا يَأْمَنُونَ بمثلِهِ وهم في قومِهم. وَقِيْلَ: معناهُ: كنتم تُقْتَلُونَ وتُؤْخَذُ أموالُكم قبلَ الْهجْرَةِ، ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ بتوفيقِ الإيْمان والْهجرةِ، ﴿ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ ؛ ولا تُخيفوا أحداً بأمرٍ كنتم تأمنونَ بمثله، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ مِن القتلِ وغيرِ ذلك خَبيْراً.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴾ ؛ أي لا يستوي في الفَضْلِ والثَّواب القاعدونَ عن الجهادِ من المؤمنين الأصحَّاء؛ الذين لا ضَرَرَ بهم من المرضِ والزَّمَانَةِ؛ ولا عُذْرَ يَمنعُهم من الجهادِ، ﴿ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ ﴾ ؛ في طاعةِ الله بالإنفاقِ من أموالِهم والخروج بأنفُسِهم.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٦٣٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل)). وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة:ج٧ ص١٢٧-١٢٨ عن عمران بن حصين.

رويَ: أنَّهُ نَزَلَ أوَّلاً (لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ) فَجَاءَ ابْنُ أمِّ مَكْتُومٍ وَرَجُلٌ آخَرُ مَعَهُ وَهُمَا أعْمَيَان، فَقَالاَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أمَرَ اللهُ بالْجِهَادِ وَفَضَّلَ الْمُجَاهِدِيْنَ عَلَى الْقَاعِدِيْنَ، وَحَالُنَا عَلَى مَا تَرَى، فَهَلْ لَنَا مِنْ رُخْصَةٍ؟ وَاللهِ لَو اسْتَطَعْنَا لَجَاهَدْنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ (غَيْرُ أوْلِي الضَّرَر) أي غير أولي الضرر فِي الْبَصَرِ، فَجَعَلَ لَهُمْ مِنَ الأجْرِ مَا لِلْمُجَاهِدِيْنَ.

وروَى ابنُ أبي لَيْلَى؛ قال: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ (لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ) قَالَ ابْنُ أمِّ مَكْتُومٍ: اللَّهُمَّ أنْزِلْ عُذْرِي، فَنَزَلَ قَوْلُهُ (غَيْرُ أوْلِي الضَّرَر) فَوُضِعَتْ بَيْنَهُمَا، وَكَانَ بَعْدُ ذلِكَ يَغْزُو وَيَقُولُ: إدْفَعُوا إلَيَّ اللِّوَاءَ؛ وَيَقُولُ: أقِيْمُونِي بَيْنَ الصَّفَّيْن)[1].

وعن زيد بن ثابت قال:(كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي، وَقَدْ أمْلَى عَلَيَّ قَوْلَهُ: (لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ) فَعَرَضَ ابْنُ أمِّ مَكْتُوم فَثَقُلَتْ فَخِذُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى فَخِذِهِ حَتَّى كَادَتْ تَنْحَطِمُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ (غَيْرُ أوْلِي الضَّرَر)[2].

ومَن قرأ (غَيْرَ أوْلِي الضَّرَر) بالنصب فهو نصبٌ على الاستثناءِ، كأنَّهُ قالَ: إلاَّ أوْلِي، كما يقالُ: جاءَنِي القومُ غيرَ زيدٍ. ويجوزُ أن يكونَ على الحالِ؛ أي لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ فِي حَالِ صِحَّتِهِمْ وَالْمُجَاهِدُونَ، وهذا كما يقالُ: جاءَنِي زيدٌ غيرَ مريضٍ؛ أي صَحِيْحاً.

ومن قرأ (غَيْرُ) بالرفعِ، فيجوزُ الرفعُ في استثناءِ الإثباتِ من النَّفيِ، ويجوزُ أن يكونَ (غَيْرُ) صفةً للقاعدين، وإنْ كان أصلُ (غَيْرُ) أن تكونَ صفةً كما هو نكرةٌ. المعنى: لاَ يَسْتَوِي القاعدونَ الذي هُم غَيْرُ أولِي الضَّرَر والْمُجَاهِدُونَ في الفَضْلِ والثَّواب، وإن كانوا كلُّهم مؤمنين.

واختارَ بعضُهم قراءةَ الرفعِ؛ لأنَّ معنى الصِّفةِ على لفظةِ (غَيْرُ) أغلبُ من معنى الاستثناء، واختارَ بعضُهم قراءةَ النصب لأن قولَه (غَيْرَ أوْلِي الضَّرَر) نزلَ بعد

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٦٤٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن سعد وابن المنذر من طريق ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليلى)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٠٩٤ و٨٠٩٥).

قولهِ: (لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ) فيكـونُ معنـى الاستثناءِ به أَلْيَقُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ ﴾ ؛ أي فَضِيْلَةً ومَنْزِلَـةً؛ ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ ﴾ ؛ أي وَكِلاَ الفريقين الْمُجَاهِدُ والقاعدُ وعدَهم اللهُ الْحُسْنَى يعنِي الْجَنَّـةَ بالإِيْمـان. وفي هذا دليلٌ أنَّ الجهادَ فرضٌ على الكفايةِ؛ لأنه لو كان فَرْضاً على الأعيانِ لَـمْ يَجُـزْ أن يكونَ القاعدُ عنه موعودٌ بالْحُسنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ أي فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهدين على القاعدينَ عن الجهادِ بغيرِ عُذر ثوابـاً حَسَـناً في الجنَّـة، فقَوْلُهُ تَعَالَى: (أجْراً) نُصِبَ على التَّفسيرِ. وقـال الأخفـشُ: (عَلَـى الْمُقَـدَّرِ؛ تَقْدِيْـرُهُ: آجَرَهُمُ اللهُ أجْراً).

والفائدةُ في تكرار لفظ التفضِيل: أنَّ في الأول بيانُ تفضيـلِ مَـن جـاهدَ بالمـال والنفسِ جميعاً؛ وفي آخرِ الآية بيانُ تفضيلِ الْمُجَـاهِدِ مُطْلَقـاً، ويدخـلُ فيـه الْمُجَـاهِدُ بالمالِ والنَّفْسِ، والْمُجَاهِدُ بالمالِ دونَ النفس، وبالنفسِ دونَ المال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ ﴾ ؛ هذا بدلٌ مـن قولـهِ تعـالى (أجْراً) أو صفةٌ له؛ وهو موضـع نصـبٍ. وعـن ابـن مُحَـيْرِيْزَ أنـهُ قـال: (فَضَّـلَ اللهُ الْمُجَاهِدِيْنَ عَلَى الْقَاعِدِيْنَ سَبْعِيْنَ دَرَجَةً؛ بَيْـنَ كُـلِّ دَرَجَتَيْـنِ مَسِـيْرَةَ سَـبْعِيْنَ خَرِيْفـاً لِلْجَوَادِ الْمُضَمَّرِ)[1].

قولهُ: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي غَفُوراً لذنـب مَـن جـاهدَ، رَحِيْماً إذ ساوَى في وعدِ الْحُسنى بينَ مَن له العذرُ وبين مَن جاهدَ.

فإن قِيْلَ: كيفَ ذكرَ التفضيـلَ في هـذه الآيـة بدرجـاتٍ، وفي الآيـةِ الـتي قبلـها بدرجةٍ؟ قُلْنَا: قـالَ بعضُـهم: أراد بذكـرِ الدرجَـة في الآيـةِ الأُولى: الفضيلـةَ والكرامـةَ في الدُّنيا، وبذكرِ الدرجاتِ درجاتِ الجنَّةِ منال في النَّعيمِ، بعضُها أعلى من بعضٍ، وذكـرَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨١١٢).

المغفرةَ لبيان خُلُوصِ نعيمِهم عنِ الكَـدَر، كمـا رويَ في الخبر: (أنَّ اللهَ يُنْسِيْهِمْ فِي الْجَنَّةَ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الذُّنُوب فِي الدُّنْيَا حَتَّى لاَ يَلْحَقَـهُمُ الْحَيَاءُ)، وذكـرَ الدرجـةَ لبيان أنَّ اللهَ أعطاهُم ذلكَ النفعَ العظيم على جهـةِ النِّعْمَـةِ مـع مـا يضـافُ إليـه مـن الفضلِ بالزيادة في النِّعمةِ. وقال بعضُـهم: أرادَ بـالتفضيلِ في الدرجـةِ في الآيـة الأُولى تفضيلَ الْمُجَاهِدِيْنَ على القاعدينَ المعذورينَ، وبالآيةِ الثانية تفضيلَهم على القـاعدين الذين لا عُذْرَ لَهم.

قولـه عـزّ وَجَـلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أهْلِ مَكَّةَ تَكَلَّمُوا بالإسْـلاَمِ وَلَـمْ يُـهَاجِرُوا - أيْ أظْـهَرُوا الإسْلاَمَ وَأسَرُّوا النِّفَاقَ - فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ خَرَجُوا مَعَ الْمُشْـرِكِيْنَ إلَـى الْمُسْـلِمِيْنَ، فَلَمَّا رَأوْا قِلَّةَ الْمُسْلِمِيْنَ قَالُوا وَهُمْ مَعَ الْمُشْرِكِيْنَ: غَرَّ هَـؤُلاَءِ دِيْنُـهُمْ، فَقُتِلُـوا يَوْمَئِـذٍ فَضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ وُجُوهَهُمْ وَأدْبَارَهُمْ)[١]، وَقَالَتْ لَهُمْ: لِمَاذا خَرَجْتُمْ مَعَ الْمُشْـرِكِيْنَ وَتَرَكْتُمُ الْهِجْرَةَ؟! فَكَانَ سُؤَالُ الْمَلاَئِكَةِ لَهُمْ بهذا عَلَى سَبيْلِ التَّقْرِيْعِ.

ويجوزُ أن يكونَ معناهُ: فِيْمَ كُنْتُمْ في المشـركينَ أمْ فِـي المسـلمينَ؟ ﴿ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي مَقْـهُورُونَ في أرض مكَّـة، فأخرَجُونـا معهم كَارهينَ، قالتِ الملائكةُ: ﴿ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً ﴾ ؛ يعـني أرضَ المدينـةِ واسـعة أمِيْنَـةً، ﴿ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ ؛ أي إليـها، وتخرجُـوا مـن بـين أظْـهُرِ المشركينَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (ظَالِمِي انفُسِهِمْ) نُصِبَ على الحال بمعنى تَتَوَفَّـاهُمُ الْمَلاَئِكَـةُ في حالِ ظُلْمِهِمْ لأنفسِهم بالشِّـركِ والنِّفـاق، والأصـلُ (ظَـالِمِيْنَ) إلاَّ أن النـونَ حُذِفَـتْ استخفافاً وهي ثانيةٌ في المعنى، فيكونُ هذا في معنـى النكـرةِ وإنْ أُضيـفَ إلى المعرفـةِ، كما في قولهِ تعالى: ﴿هَدْيًا بَـالِغَ الْكَعْبَـةِ﴾[٢]. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: (تَوَفَّـاهُمْ الْمَلاَئِكَـةُ) أي تَقْبِضُ أرواحَهم عند الموتِ، وإنَّما حُذفت التاءُ الثانية لاجتماع التَّاءين.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨١١٤ و٨١١٧).

(٢) المائدة / ٩٥ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ ﴾ ؛ أي أهلَ هذه الصِّفة مصيرُهم ومنْزلتهم جهنمُ؛ ﴿ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ لِمن صارَ إليها، واختلفوا في خَبَرِ: (إنَّ الَّذِيْنَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ)؛ قال بعضُهم: خبرهُ: (قَالُوا فِيْمَ كُنْتُمْ)، أي قالوا لهم: فيما كنتم، قال بعضُهم خبرهُ: (فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ). وفي قولهِ تعالى: (أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) دليلٌ أنهُ لا عذرَ لأحدٍ في المقام على المعصيةِ في بَلَدِهِ لأجلِ الْمَالِ والوَلَدِ والأهلِ، بل ينبغي أن يُفَارِقَ وَطَنَهُ إن لم يُمكنه إظْهَارُ الْحَقِّ فيهِ، ولِهذا رويَ عن سعيدِ بنِ جُبير أنه قالَ: (إذا عُمِلَ بالْمَعَاصِي فِي أرْضٍ فَاخْرُجْ مِنْهَا)[1]، ورويَ عن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [مَنْ فَرَّ بدِيْنِهِ مِنْ أرْضٍ إلَى أرْضٍ، وَإنْ كَانَ شِبْراً اسْتَوْجَبَ بِهِ الْجَنَّةَ، وَكَانَ رَفِيْقَ ابْرَاهِيْمَ وَمُحَمَّدٍ ﷺ][2].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾ ؛ استثناءٌ من قولهِ تعالى: (فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) والمعنَى: إلاَّ مَن صَدَقَ أنه مُسْتَضْعَفٌ من الشُّيوخِ والولْدَان وَنسَاءٍ لا يَجدونَ نَفَقَةَ الخروجِ إلى المدينة ولا يُمكنهم الخروجُ إليها، ولا يعرفونَ الطريقَ حتى يُهاجروا، والمعنَى: إلاَّ الْمُسْتَضْعَفِيْنَ المخلصينَ الْمُقْهُورِيْنَ بمَكَّةَ لَم يستطيعوا الْهِجْرَةَ، ومُنِعُوا من اللُّحُوقِ بالنبيِّ ﷺ وهم يريدونَ اللُّحوقَ بهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ قال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ لاَ يَعْرِفُونَ طَرِيْقَ الْمَدِيْنَةِ)[3]. وقالَ ابنُ عبَّاس: (كُنْتُ أنَا وَأُمِّي مِنَ الَّذِيْنَ لاَ يَسْتَطِيْعُونَ حِيْلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً، وكُنْتُ غُلاَماً صَغِيْراً يَوْمَئِذٍ، فَنَحْنُ مِمَّنِ اسْتَثْنَانَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)[4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٣٤٧، وفيه تلا ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٠: تفسير الآية ١٩ من سورة الحديد؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه عن أبي الدرداء ﷺ... وذكره بلفظ قريب)). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٣٤٧ وج١٣ ص٣٥٨.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨١٣٠) عن مجاهد، والنص (٨١٢٩) عن عكرمة، والنص (٨١٣١) عن السدي.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨١٢١ و٨١٢٤ و٨١٣٧). وأصله عند البخاري في الصحيح: تفسير سورة النور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفة من المستضعفين، عَسَى اللهُ أن يَتجَاوزَ عنهُم، و(عَسَى) مِن اللهِ كلمةُ إيجابٍ؛ لأنه أرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ، والفائدةُ في ذِكْرِ هذا اللفظِ أنْ يكونَ العبدُ بين الخوفِ والرَّجاءِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ أي لَمْ يَزَلْ عفُوّاً عن عبادهِ غفُوراً لَهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ ؛ أي مَن يَخرُجْ في سبيلِ الله الذي أمرَ اللهُ بالْهجْرَةِ فيهِ وهو سبيلُ المدينةِ؛ يَجِدْ في الأرض مُتَحَوَّلاً كثيراً ومُتَزَحْزَحاً عَمَّا يكرهُ[١]. وقولهُ تعالى: (وَسَعَةً) أي سَعَةً في الرِّزْقِ. وقال قتادةُ: (سَعَةً فِي إظْهَار الدِّيْنِ)[٢] وإنَّما قال ذلكَ لِمَا كان يلحقُهم من الضِّيْقِ من جهةِ الكفَّار في إظهار دِينهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً) سَمِعَهَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي اللَّيْثِ شَيْخٌ كَبِيْرٌ يُقَالُ لَهُ جُنْدُعُ بْنُ ضَمِرَةَ[٣] فَقَالَ: أنَا وَاللهِ مِمَّن اسْتَثْنَانَا اللهُ تَعَالَى فَإنِّي لاَ أجِدُ حِيْلَةً، وَاللهِ لاَ أبِيْتُ لَيْلَةً بمَكَّةَ، فَخَرَجُوا بهِ يَحْمِلُونَهُ عَلَى سَرِيْرِهِ؛ فَأتَوا بهِ التَّنْعِيْمَ فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَصَفَّقَ بيَمِيْنِهِ عَلَى شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذِهِ لَكَ وَهَذِهِ لِرَسُولِكَ أبَايِعُكَ عَلَى مَا بَايَعَكَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَمَاتَ حَمِيْداً.

---

(١) في الدر المنثور: ج٢ ص٦٥٠؛ نسبه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد. وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨١٤٦): ((مندوحة عما يكره)). وبإسناد آخر: ((مُزحزَحاً عما يكره)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨١٥٢)؛ قال: ((إي واللهِ من الضلالة إلى الهدى، ومن العيلة إلى الغنى)).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن ج ٥ ص٣٤٩؛ قال القرطبي: ((الرابعة: هو ضمرة بن العِيص، أو العيصُ بن ضمرة بن زنْبَاع، حكاه الطبري عن سعيد بن جبير، ويقال: ضُمَيرَةَ أيضاً. ويقال: جُنْدَعُ بن ضَمْرَةَ من بني ليث)). وقال: ((وحكى أبو الفرج الجوزي: أنه حبيب بن ضمرة. وَقِيْلَ: ضمرَانُ بن جُندب الضمري)).

فَبَلَغَ ذلِكَ أصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ وكَانُوا يَقُولُونَ: لَوْ بَلَغَ إلَيْنَا لَتَمَّ أجْرُهُ، وَضَحِكَ الْمُشْرِكُونَ وَقَالُوا: مَا أدْرَكَ مَا طَلَبَ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا)(١). أي مهاجِراً قومَهُ وأهلَه وولدَه إلى طاعةِ الله وطاعةِ رسوله؛ ﴿ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ ﴾ ؛ في الطريقِ؛ ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ فقد وجبَ ثوابُهُ على اللهِ الْمَلِيءُ الوفِيُّ بوعدِهِ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ ؛ بما كان منهُ في الشِّرْكِ؛ ﴿ رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ بهِ في الإسلامِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ؛ أي إذا سافرْتُم في الأرضِ؛ لأن الخروجَ إلى الصحراءِ أو القصدَ إلى القرية القريبةِ لا يسمَّى ضَرْباً في الأرضِ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) أي ليسَ عليكم حَرَجٌ ومَأثَمٌ في أن تَقْصُرُوا من الصلاةِ، يعني من أربعِ رَكَعَاتٍ إلى ركعتين، ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ﴾ ؛ أي إنْ عَلِمتُمْ أن يَغْتَالَكُمْ، ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ ؛ ويقتلُوكم، ﴿ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ أي عَدُوّاً ظاهِرَ العداوة، يُبدون عداوتَهم لكم.

وفي الآيةِ ذكرُ القَصْرِ من الصلاةِ بين شَرْطَيْنِ، وأجمعتِ الأمَّةُ أن أصلَ القَصْرِ لا يَتَعَلَّقَ بهما وأن كلَّ واحدٍ منهما يؤثِّر في القصرِ نوعَ تأثيرٍ، فتأثيرُ السَّفرِ في القصرِ في العددِ في الصَّلاة الرباعيَّة، وتأثيرُ الخوفِ في القصرِ في أركان الصَّلاة إذا خافَ إنْ قامَ في الصلاة أن يراهُ العدوُّ، أو خاف أن ينزل عن الدابَّة أن يدركهُ العدوُّ، وكان لهُ ترك القيامِ، وأنْ يُومِئَ على الدابَّة، فيحتملُ أن حرفَ العطفِ مضمراً في قولِهِ: (إنْ خِفْتُمْ) كأنهُ قال: وإنْ خِفْتُمْ أن يَفْتِنَكُمُ الذينَ كَفَرُوا فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ.

(١) ينظر: الطبري في جامع البيان: النص (٨١٣٧) ضمرة بن جندب الضمري، والنص (٨١٣٨) جندب بن ضمرة الْجُنْدُعي، والنص (٨١٤٠) ضمرة من بني بكر عن ابن عباس، والنص (٨١٤١) ضمرة بن العيص الزرقي، أحد بني ليث. في الدر المنثور: ج ٢ ص٦٥٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني بسند رجاله ثقات عن ابن عباس)).

وقال الحسنُ: (صَلاَةُ السَّفَرِ رَكْعَتَانِ، فإذا قَـامَ الْحَـرْبُ فَرَكْعَـةٌ) وهـذا اللفـظُ يقتضي القصرَ الذي هو في غاية في القصرِ متعلقٌ بشـرطين علـى مذهبـِهِ. ورويَ: أنَّ رَجُلاً سَأَلَ عُمَرَ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ فَقَالَ: كَيْفَ يَقْصُرُ النَّاسُ وَقَدْ أمِنُوا ؟ فَقَالَ عُمَرُ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ؛ حَتَّى سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذلِكَ فَقَالَ: [صَدَقَـةٌ تَصَـدَّقَ بهَا عَلَيْكُمْ ألاَ فَاقْبَلُوا صَدَقَةَ اللهِ عَلَيْنَا][(١)]. يقتضي إسقاطَ الفرضِ عنَّا. وفي قولهِ ﷺ: [فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ] دليلٌ أنَّ القصرَ عَزِيْمَةٌ لا رُخْصَةٌ؛ لأن ظاهرَ الأمرِ على الوجـوب، ولِهذا قال أصحابُنا: إنَّ المسافرَ إذا صَلَّى الظهرَ أربعاً، ولم يقعُد في الثانيةِ قَدْرَ التَّشَـهُّدِ فَسَدَتْ صلاتُه، كمصلِّي الفجرِ أربعاً.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ ﴾ ؛ الآيَـةُ، قال ابنُ عبَّاس:(لَمَّا رَأى الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأصْحَابَهُ قَامُوا إلَى صَلاَةِ الظُّـهْرِ وَهُوَ يَؤُمُّهُمْ؛ نَدِمُوا عَلَى تَرْكِهِمْ الإقْدَامَ عَلَـى قِتَالِـهِمْ، فَقَـالَ بَعْضُـهُمْ: دَعُوهُـمْ؛ فَـإنَّ بَعْدَهَا صَلاَةٌ هِيَ أحَبُّ إلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأوْلاَدِهِمْ - يُرِيْدُونَ الْعَصْرَ - فَإذا رَأيْتُمُوهُمْ قَامُوا إلَيْهَا فَشُدُّوا عَلَيْهِمْ، فَنَزَلَ جِبْرِيْلُ ؑ بِـهَذِهِ الآيَـةِ وَأطْلَـعَ اللهُ النَّـبِيَّ ﷺ عَلَـى قَصْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ، وَعَنْ هَذا كَانَ إسْلاَمُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيْدِ حِيْنَ عَرَفَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ اطَّلَعَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ قَصْدِ الْمُشْرِكِيْنَ فِي السِّرِّ فِيْمَا بَيْنَهُمْ)[(٢)].

ومعنى الآيةِ: وإذا كُنتَ يا مُحَمَّـدُ مـعَ المؤمنـينَ في الغَـزْو فـابتدأتَ في صـلاةِ الخوفِ؛ فَلْيَقُمْ جَمَاعَةٌ منهُم معكَ في الصلاةِ؛ وَلْتَكُـنْ أسـلحتُهم معَـهم في صلاتِـهم؛ لأنَّ ذلك أهْيَبُ للعدوِّ، فإذا سَجَدَتِ الطائفةُ التي معكَ وصَلَّتْ ركعةً، فلينصرِفُـوا إلى

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨١٥٤) بأسانيد، والسائل هو يعلى بن أميـة. وأخرجـه مسلم في الصحيح: كتاب صلاة المسـافرين: الحديـث (٦٨٦/٤). وأبـو داود في السـنن: كتـاب الصلاة: باب صلاة المسافر: الحديث (١١٩٩).

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول: ص١٢٠. وأخرجه أهل التفسير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وجابر ﷺ. وعن أبي عياش الزرقي أخرجه عبدالرزاق وسعيد بن منصـور وابـن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطـني والطـبراني والحـاكم وصححه، والبيهقي. قاله السيوطي في الدر المنثور: ج ٢ ص٦٥٩.

المصاف وليقفوا بإزاءِ العَدُوِّ؛ ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ ؛ وهمُ الذينَ كانوا بإزاءِ العدوِّ، ولم يصلُّوا معكَ في الركعةِ الأولى؛ فليصلُّوا معكَ الركعةَ الأخرى، ولْتَكُنْ أسلحتُهم معَهم في الصَّلاةِ، ولم يذكرْ في الآية لكلِّ طائفةٍ إلاّ ركعةً واحدةً.

وفي صلاةِ الخوفِ خلافٌ بين العلماء؛ قال بعضُهم: إنَّها غيرُ مشروعةٍ بعدَ رسولِ الله ﷺ؛ وهو روايةٌ عن أبي يوسف وهو قولُ الحسنِ بن زياد؛ لأنَّ في هذه الآيةِ ما يدلُّ على كون النبيِّ ﷺ شرَطٌ في إقامةِ صلاة الخوف؛ ولأنَّها إنَّما جازَتْ للنبيِّ ﷺ لِيَسْتَدْرِكَ الناسُ فضيلةَ الصلاةِ خَلْفَهُ؛ لأنَّ إمامةَ غيرِهِ لَمْ تكن لتقومَ مقامَ إمامتِهِ.

وذهبَ أكثرُ العلماء إلى أنَّ صلاةَ الخوف مشروعةٌ بعد النبيِّ ﷺ، وأنَّ الخطابَ في هذه الآيةِ وإنْ كان للنبيِّ ﷺ فالأئمَّةُ بعدَه يقومون مقامَه كما في قولِهِ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾(١) ونحوِ ذلك من الآياتِ.

واختلفوا في كيفيَّة صلاةِ الخوف، فقال أبو حَنِيْفَةَ ومحمدٌ: (يَجْعَلُ الإِمَامُ النَّاسَ طَائِفَتَيْنِ؛ طَائِفَةٌ بِإِزَاءِ الْعَدُوِّ؛ وَطَائِفَةٌ مَعَهُ؛ فَيُصَلِّي بهمَا رَكْعَةً رَكْعَةً، ثُمَّ تَنْصَرِفُ هَذِهِ الطَّائِفَةُ إِلَى وَجْهِ الْعَدُوِّ، وَتَجِيْءُ الأُخْرَى فَيُصَلِّي بِهِمْ رَكْعَةً، وَيَتَشَهَّدُ وَيُسَلِّمُ. ثُمَّ تَرْجِعُ هَذِهِ الطَّائِفَةُ إِلَى وَجْهِ الْعَدُوِّ بغَيْرِ سِلاَمٍ، وَتَأْتِي الأُوْلَى فَتَقْضِي الرَّكْعَةَ الثَّانِيَةَ وحْدَاناً بغَيْرِ قِرَاءَةٍ، فَإِذا سَلَّمَتْ وَقَفَتْ بِإِزَاءِ الْعَدُوِّ، وَجَاءَتْ تِلْكَ الطَّائِفَةُ فَتَقْضِي الرَّكْعَةَ الأُوْلَى وحْدَاناً بِقِرَاءَةٍ.

وعن أبي يوسُف: (إذا كَانَ الْعَدُوُّ فِي وَجْهِ الْقِبْلَةِ؛ وَقَفَ الإِمَامُ وَجَعَلَ النَّاسَ خَلْفَهُ صَفَّيْنِ؛ فَافْتَتَحَ بهمُ الصَّلاَةَ مَعاً، فَصَلَّى بهمْ رَكْعَةً؛ فإذا سَجَدَ الإِمَامُ سَجَدَ مَعَهُ الصَّفُّ الأَوَّلُ، وَوَقَفَ الثَّانِي يَحْرِسُونَهُمْ، فَإِذا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مِنَ السُّجُودِ سَجَدَ الصَّفُّ الثَّانِي؛ وَتَأَخَّرَ الأَوَّلُ، وَيَقُومُ الصَّفُّ الثَّانِي فَيَرْكَعُ بِهِمْ جَمِيْعاً، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ وَيَسْجُدُ الصَّفُّ الْمُتَقَدِّمُ سَجْدَتَيْنِ، وَالصَّفُّ الآخَرُ يَحْرِسُونَهُمْ، ثُمَّ يَسْجُدُ

---

(١) التوبة / ١٠٣ .

الصَّفُّ الْمُؤَخَّرُ سَجْدَتَيْن لأَنْفُسِهِمْ؛ ثُمَّ يَتَشَهَّدُ الإمَامُ وَيُسَلِّمُ بهِمْ جَمِيْعاً). وهكذا قالَ ابنُ أبي ليلَى .

وقال مَالِكُ: (يَجْعَلُ الإمَامُ النَّاسَ طَائِفَتَيْنِ، فَيُصَلِّي بطَائِفَةٍ رَكْعَـةً وَسَـجْدَتَيْنِ، ثُمَّ يَنْتَظِرُ الإمَامُ حَتَّى يُصَلُّوا بَقِيَّةَ صَلاَتِهِمْ وَيُسَلِّمُوا وَيَنصَرفُوا إلَى وَجْهِ الْعَدُوِّ، وَتَـأْتِي الطَّائِفَةُ الأُخْرَى فَيُصَلِّي بِـهِمْ رَكْعَـةً وَسَـجْدَتَيْنِ، وَيُسَـلِّمُ الإمَـامُ، وَيَقُومُـونَ فَيُتِمُّـونَ صَلاَتَهُمْ). وقال الشَّافِعِيُّ مِثْلَ ذلكَ إلاّ أنه قالَ في الطائفـةِ الأُخـرى: (لاَ يُسَـلِّمُ بِـهِمُ الإمَامُ؛ وَلَكِنْ يَنْتَظِرُ حَتَّى يَقُومُوا فَيُتِمُّوا صَلاَتَهُمْ، ثُمَّ يُسَلِّمُ بهِمْ).

وإنَّما وقعَ بهم هذا الاختلافُ لاختلافِ الأخبار الواردة في هـذا البـاب. روى عَلِيٌّ وابنُ مسعُودٍ وجماعةٌ من الصحابةِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلاَّهَـا كَمَـا قَـالَ أَبُـو يُوسُـفَ، ذكرنَا عن أبي حَنِيْفَةَ ومحمدٍ وعـن ابـنِ عبَّـاس: أنَّ النَّـبِيَّ ﷺ صَلاَّهَـا كمـا قـال أبـو يوسُف، وعن سهلِ بن أبي حثمة[1] أنهُ ﷺ صَلاَّهَا كما قالَ الشَّافِعِيُّ.

فدلَّتْ هذه الأخبارُ على جواز الجميع، وإنَّما يقعُ الكـلامُ في الأوَّل، والأقـربُ إلى ظاهرِ القُرْآن وظاهرهُ يشهدُ للروايةِ التي رواهَا عَلِـيٌّ وابـنُ مسـعودٍ؛ لأنَّ في قولـهِ تعالى: (فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِنهُمْ مَعَكَ) دليلٌ على أن الإمامَ لا يُصَلِّـي بالطـائفتين معـاً، وفي قولهِ تعالى: (فَإذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ) دليلٌ على أنَّ الطائفةَ الأُولى تنصـرفُ عَقِبَ السجودِ. وعنـدَ مـالكٍ والشـافعيِّ: لا تنصـرفُ الطائفـةُ الأُولى إلاَّ بعـد تمـام الصلاةِ.

وفي قولهِ: (وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا) دليلٌ أنَّ الطائفةَ الثانية تـأتِي وهـي غيرُ مُصَلِّيَةٍ، وهذا خلافُ ما قالَ أبو يُوسف. وهــذا كُلُّـهُ إذا أمْكَنَـهُمْ إقامـةُ الصـلاة بالجماعةِ، أمَّا إذا لم يُمكنهم الجماعةُ لقيامِ القتال وكثرةِ العـدوِّ، وصلَّى كـلٌّ واحــدٍ لنفسه على حسب ما أمكنَه، إمَّا إلى القِبلة وإما إلى غيرها إذا لم يمكنْهُ التوجُّـه إليـها أو راكباً يُومِئُ إيْماءً، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾[2].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨١٨١ و٨١٨٢).

(٢) البقرة / ٢٣٩.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (غزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُحَارِباً بَنِي أنْمَارَ فَهزَمَهُمُ اللهُ تَعَالَى؛ فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ وَلاَ يَرَوْنَ مِنَ الْعَدُوِّ أحَداً، فَوَضَعُوا أسْلِحَتَهُمْ وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْشِي لِحَاجَةٍ لَهُ قَدْ وَضَعَ سِلاَحَهُ، حَتَّى قَطَعَ الْوَادِي وَالسَّمَاءُ تَرُشُّ، فَحَالَ الْوَادِي بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأصْحَابِهِ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ، فَبَصَرَ بِهِ غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ الْمُحَارِبيُّ، فَانْحَدَرَ مِنَ الْجَبَلِ وَمَعَهُ السَّيْفُ، وَقَالَ لأَصْحَابِهِ: قَتَلَنِي اللهُ إنْ لَمْ أقْتُلْ مُحَمَّداً، فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلاَّ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأسِهِ وَفِي يَدِهِ السَّيْفُ مَسْلُولاً.

فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ مَنْ يَعْصِمُكَ مِنِّي الآنَ ؟ فَقَالَ: [اللهُ عَزَّ وَجَلَّ] ثُمَّ قَالَ ﷺ: [اللَّهُمَّ اكْفِنِي غَوْرَثَ بْنَ الْحَرْثِ بمَا شِئْتَ] فَأهْوَى بالسَّيْفِ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَضْرِبَهُ، فَانْكَبَّ لِوَجْهِهِ وَبَدَرَ سَيْفَهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأخَذ السَّيْفَ وَقَالَ: [مَنْ يَمْنَعُكَ وَيَعْصِمُكَ مِنِّي يَا غَوْرَثُ ؟] قَالَ: لاَ أحَد. قَالَ: [إشْهَدْ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنِّي رَسُولُ اللهِ وَأعْطِيْكَ سَيْفَكَ] قَالَ: لاَ، وَلَكِنْ لاَ أقَاتِلُكَ أبَداً، وَلاَ أعِينُ عَلَيْكَ عَدُوّاً، فَأعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَيْفَهُ، فَقَالَ غَوْرَثُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أجَلْ؛ لأنْتَ خَيْرٌ مِنِّي، فَقَالَ: [أجَلْ؛ أنَا أحَقُّ بذلِكَ مِنْكَ].

فَرَجَعَ إلَى أصْحَابِهِ؛ قَالُوا لَهُ: وَيْلَكَ ! رَأيْنَاكَ قَدْ أهْوَيْتَ بالسَّيْفِ قَائِماً عَلَى رَأسِهِ، مَا مَنَعَكَ مِنْهُ ؟ فَقَالَ: لَقَدْ أهْوَيْتُ لَكِنْ وَاللهِ لاَ أدْرِي مَنْ زَلَخَنِي بَيْنَ كَتِفَيَّ، فَخَرَرْتُ لِوَجْهِي، وَخَرَّ سَيْفِي مِنْ يَدِي، فَسَبَقَنِي إلَى سَيْفِي فَأخَذهُ. ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَطَعَ الْوَادِي وَأتَى أصْحَابَهُ فَأخْبَرَهُمْ بالْقِصَّةِ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إنْ كَانَ بكُمْ أذًى مِنْ مَطَرٍ أوْ كُنتُمْ مَرْضَى أنْ تَضَعُوا أسْلِحَتَكُمْ)[1]. أي لا

(١) في الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٥ ص٣٢٨: الترجمة (٦٩٢٨) غورث بن الحارث: قال ابن حجر: ((ذكره الثعلبي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس)). وقال: ((ولكن ساق في القصة أشياء مغايرة لما تقدم من الطريق الصحيحة)) وللقصة أصول صحيحة.

مَأثمَ عليكُم في ذلكَ، وخُذُوا حِذْرَكُمْ من عدوِّكم؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾؛ يُهَانُونَ فيه وهو الْقَتْلُ في الدُّنيا والنارُ في الآخرةِ.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾؛ يعني صَلاَةَ الخوفِ إذا فَرَغْتُـمْ منـها فَـاذْكُرُوا اللهَ؛ أي صَلُّـوا قِيَامـاً للصحيحِ؛ وقُعُوداً للمريضِ؛ وَعَلَى جُنُوبكُمْ للمرضَى والجرحَى الذين لا يسـتطيعون الجلوسَ. وَقِيْلَ: معناهُ: فَاذْكُرُوا اللهَ بتوحيدِه وتسبيحه وشُكْرِهِ على كلِّ حالٍ. قال ابـنُ عبَّاس: (لَمْ يَعْذُر اللهُ أحَداً فِي تَرْكِ ذِكْرِهِ إلاَّ الْمَغْلُوبَ عَلَى عَقْلِهِ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾؛ أي رَجَعْتُمْ مـن سـفركم وزالَ عنكـمُ الخـوفُ والمـرض والقتـالُ (فَـأَقِيمُوا الصَّـلاَةَ) أي أتِمُّوهـا أربعـاً بركوعِها وسُـجودِها وسـائر شـروطها، ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾؛ أي فَرْضـاً مَفْرُوضـاً مُوَقَّتـاً أوقاتـه، ويقـالُ: معلومـاً فَرْضُـهُ للمسافرين ركعتان ولِلْمُقِيْم أربعُ ركعاتٍ. وقال الأعمشُ: (مَوْقُوتاً؛ أيْ مُؤَقَّتاً).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾؛ أي لا تَضْعُفُـوا في طلـب ابتغاء القوم أبي سفيان وأصحابه لِمَا أصابَكم من القتلِ والجراحات يوم أحُدٍ. وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ ﴾؛ أي إنْ كُنتُمْ تَألَمُونَ من الجِرَاحِ فَلَهُمْ مثلُ ذلك، والمعنَى: إنْ كـان لكـم صَارفٌ عن الحرب وهو أنكم تألَمُونَ من الجراحِ فلهم مثلُ ذلك من الصَّارفِ، ولكم أسبابٌ داعية إلى الحرب ليست لَهم، وهو أنَّكم ترجونَ الثـوابَ والنَّصْـرَ مـن اللهِ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾؛ بمصالِحكُم ﴿ حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾؛ فيما يَأمُرُكُمْ به.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِـي رَجُـلٍ مِـنَ الأَنْصَـار يُقَـالُ لَـهُ طُعْمَةُ بْنُ أبَيْرق؛ سَرَقَ دِرْعاً مِنْ جَارٍ لَهُ يقالُ لَهُ: قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَان، وَكَانَتِ الدِّرْعِ فِـي غِرَارَةٍ وَجِرَابٍ فِيْهِ دَقِيْقٌ، فَانْتَثَرَ الدَّقِيْقُ مِنَ الْمَكَان الَّذِي سَرَقَهُ إلَى بَاب مَنْزِلِهِ، فَفُطِـنَ بِهِ أنَّهُ هُوَ السَّارقُ؛ فَمَضَى بالدِّرْعِ إلَى يَهُودِيٍّ يُقَالُ لَهُ زَيْدُ بْنُ السَّمِين فَأَوْدَعَـهُ إيَّاهَـا، فَالْتُمِسَتِ الدِّرْعُ عِنْدَ طُعْمَةَ فَلَمْ تُوجَدْ عِنْدَهُ، فَحَلَفَ لَهُمْ مَا أخَذهَا وَلاَ لَهُ عِلْمٌ، فَقَـالَ

أصْحَابُ الدِّرْعِ: لَقَدْ أدْلَجَ عَلَيْنَا وَأخَذهَا، وَطَلَبْنَا أثَرَهُ حَتَّى دَخَلْنَا دَارَهُ، وَلَقِيْنَا الدَّقِيْقَ مُنْتَثِراً، فَلَمَّا حَلَفَ تَرَكُوهُ وَاتَّبَعُوا أثَرَ الدَّقِيْقِ حَتَّى انْتَهَوا إلَى مَنْزِلِ الْيَهُودِيِّ وَطَلَبُوهُ، فَقَالَ: دَفَعَهَا إلَيَّ طُعْمَةُ بْنُ أبَيْرِق، وَشَهِدَ لَهُ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى ذلِكَ، فَقَالَ قَوْمُ طُعْمَةَ: انْطَلِقُوا إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنُكَلِّمُهُ فِي صَاحِبِنَا نُعَذِّرُهُ وَنَتَجَاوَزُ عَنْهُ، فَإنَّ صَاحِبَنَا بَرِيْءٌ مَعْذُورٌ. فَأتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَكَانُوا أهْلَ لِسَانٍ وَبَيَانٍ، فَسَألُوهُ أنْ يَعْذُرَهُ عِنْدَ النَّاسِ؛ فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَعْذُرَهُ وَيُعَاقِبَ الْيَهُودِيَّ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

وفي رواية عن ابنِ عبَّاس:(أنَّ طُعْمَةَ سَرَقَ دِرْعاً؛ وَكَانَ الدِّرْعُ فِي جِرَابٍ فِيْهِ نِخَالَةٌ، فَخَرَقَ الْجِرَابَ حَتَّى كَانَ يَتَنَاثَرُ النُّخَالَةُ بطُولِ الطَّرِيْقِ، فَجَاءَ بِهِ إلَى دَار زَيْدِ بْنِ السَّمِيْنِ الْيَهُودِيِّ وَتَرَكَهُ عَلَى بَابِ دَارِهِ، وَحَمَلَ الدِّرْعَ إلَى بَيْتِهِ، فَلَمَّا أصْبَحَ صَاحِبُ الدِّرْعِ جَاءَ إلَى زَيْدِ بْنِ السَّمِيْنِ عَلَى أثَرِ النُّخَالَةِ، وَحَمَلَهُ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَقْطَعَ يَدَهُ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). إنا أنزلنا إليك يا مُحَمَّدُ القُرْآنَ إنْزالاً بالحقِّ، وَقِيْلَ:(بالْحَقِّ) أي بالأمر والنَّهي والفصلِ لتحكمَ بين الناسِ بما أعلمَكَ اللهُ وأوحى إليكَ، ﴿ وَلَا تَكُن ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ؛ ﴿ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ ؛ أي لِطُعْمَةَ وقومهِ مُعِيْناً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي تُبْ إلى اللهِ واستغفرْهُ مِمَّا هَمَمْتَ بهِ من قطعِ يد زَيْدِ بن السَّمين. وقال الكلبيُّ: (مِنْ هَمِّكَ باليَهُودِيِّ أنْ تَضْرِبَهُ). وقال مقاتلُ: (وَاسْتَغْفِرِ اللهَ مِنْ جِدَالِكَ الَّذِي جَادَلْتَ عَنْ طُعْمَةَ)، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا ﴾ ؛ لِمَنْ يستغفرُهُ؛ ﴿ رَّحِيمًا (١٠٦) ﴾ ؛ بالتَّائبينَ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ ولا تُخَاصِمْ عن الذين يَظْلِمُونَ أنفسَهم بالخيانةِ والسَّرقة ورمي اليهوديِّ بها، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) في أسباب النزول: ص١٢١؛ قال الواحدي: ((هذا قول جماعة من المفسرين)). وفي اللباب: ج ٧ ص٥؛ قال: ((روى عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس... وذكره). في لباب النقول: ص٨٣؛ قال السيوطي: ((قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم)). وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الحدود: باب مغالطة بني أبيرق: الحديث (٨٢٢٥). وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٩ ص١٦: الحديث (١٥)، من طريق عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جده.

مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ ؛ أي خائناً في الدِّرعِ؛ ﴿أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ ؛ في رَمْيِهِ اليهوديَّ. وَقِيلَ: الْخَوَّانُ: المكتسبُ للإثمِ، والآثِمُ الفاجرُ بالكذب ورمي البريءِ، وإنَّما قال: (يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ) وإنْ كانوا خَانُوا غيرَهم؛ لأن مضرَّةَ خيانتِهم راجعةٌ إليهم، كما يقالُ: فَمَنْ ظَلَمَ غَيْرَهُ مَا ظَلَمَ إلاَّ نَفْسَهُ، وإنَّما قال: (خَوَّاناً) ولم يقل خَائِناً لعظيمِ أمرِ الخيانةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ؛ معناهُ: يستخفِي قومُ طُعْمَةَ؛ أي يُسِرُّونَ من الناس وهم يعلمون أنهُ سارقٌ ولا يستَتِرُون من اللهِ؛ أي لا يُمكنهم الاستخفاءُ منه، فإنَّ سِرَّهُمْ وعلانيتَهم عند الله ظَاهرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهُوَ مَعَهُمْ) وهو شاهدٌ لأفعالِهم (إذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ) أي يُدَبرُونَ، ويقولون بالليلِ قَوْلاً لا يرضاهُ اللهُ؛ وهو اتِّفاقُ قول طُعْمَةَ على أنْ يَرْمُوا اليهوديَّ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ ؛ أي عالِماً لا يفوتهُ شيء كما لا يفوتُ الْمُحِيْطَ بالشيءِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أرادَ أن يقطعَ طُعْمَةَ في السرقةِ بعد هذه الآياتِ؛ فجاءَ قومُه شَاكِّينَ في السِّلاحِ فجادلُوا عنه وهربُوا به، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ، ومعناها: هَا أَنْتُمْ يا قومَ طُعْمَةَ خاصمتُم النبيَّ ﷺ عن طعمةَ وعن خيانتهِ في دار الدُّنيا.

وفي قراءة أُبَيّ: (جَادَلْتُمْ عَنْهُ فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَالِمَ الْغَيْب وَالشَّهَادَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إذا أخَذَهُ بعَذَابهِ وَأدْخَلَهُ النَّارَ)؛ ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ ؛ يتوكَّلُ بهم ويصلحُ أمرَهم ويحفظَهم من عذاب الله.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ ؛ أي ومَن يَعْمَلْ سوءاً ((ويرمي))(١) به غيرَه نحو السَّرقةِ والقتلِ والقَذْفِ، أو أنه يَظْلِمُ نفسَه نحو الكذب

(١) ((ويرمي)) سقطت من المخطوط.

الكذب واليمين الفاجِرَة وشرب الْخَمْـرِ وتـركِ الفرائـض؛ ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ ؛ بالتوبـةِ؛ ﴿ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا ﴾ ؛ للمستغفرينَ التـائبين؛ ﴿ رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ بهم بعدَ التوبةِ. وإنَّما شُرطت التوبة؛ لأن الاستغفارَ لا يكونُ توبةً بالإجماع ما لم يَقُـلْ معهُ: تُبْتُ وأسأتُ ولا أعودُ إليه أبداً؛ فَاغْفِرْ لِي يا رب. وَقِيْلَ: معناهُ: مَن يعمل سوءاً بسَرِقَةِ الدرعِ، أو يظلم نفسَه برميهِ البريءَ بالسرقةِ.

وَقِيْلَ: معناهُ: من يعمل سُوءاً أو شِرْكاً (أوْ يَظْلِمْ نفسَه) يعني بمـا دونَ الشِّـركِ، (ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ) أي يتوبَ إلى اللهِ، (يَجِدِ اللهَ غَفُـوراً رَحِيْمـاً). وَقِيْـلَ: أرادَ بالسُّـوء: الكبيرةَ، ويَظْلِم النفسَ: الصغيرةَ.

وعن عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ؛ قالَ: (حَدَّثَنِي أبُو بَكْرٍ وَصَدَقَ أبُو بَكْرٍ ﷺقَالَ: مَـا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذنْباً ثُمَّ يَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَيَسْتَغْفِرُ اللهَ إلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ، وَتَلاَ هَـذِهِ الآيَةَ (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ) الآيةُ)[1].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي مَـنْ يعمَلْ معصيةً فإنَّما عقوبتهُ على نفسهِ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ أي لَمْ يزل عَلِيْماً بكلِّ ما يكونُ، حَكِيْماً فيما حَكَمَ به من القَطْعِ على السارقِ. وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: (وَمَنْ يَكْسِبْ إثْمًا) يعني بيَمِيْنِهِ بالباطلِ، فإنَّما يَضُرُّ به نفسَهُ، (وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا) بسارقِ الدِّرعِ، (حَكِيمًا) حَكَمَ بالقطعِ على طُعْمَةَ بالسَّرقةِ.

وقد روي: أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ؛ عَرَفَ قَوْمُ طُعْمَـةَ كُلُّـهُمْ أنَّـهُ هُـوَ الظَّـالِمُ، فَأقْبَلُوا عَلَيْهِ وَقَالُوا لَهُ: اتَّقِ اللهَ وَائْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَبُوءُ بالذنْب، فَقَـالَ: لاَ؛ وَالَّـذِي يُحْلَفُ بهِ مَا سَرَقَهَا إلاَّ الْيَهُودِيُّ. فنزل قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ أي ومَن يعمل معصيةً بغيرِ عمدٍ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٦٧٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابـن أبـي حـاتم وابـن السـني في عمـل اليوم والليلة وابن مردويه)). وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص١٠. وأبو داود في السـنن: كتاب الصلاة: باب في الاستغفار: الحديث (١٥٢١)، وفيه تلا الآية: ﴿وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ﴾.

أو متعمِّداً ثُمَّ يَرْمِ بَرِيْئاً؛ فقد استوجبَ عقوبةَ البُهْتَانِ برميهِ غيرَهُ بشيء لم يفعلْهُ (وَإثْمًا مُبينًا) أي ذنْباً بَيِّناً ظَاهِراً.

وَقِيْلَ: معناهُ: (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً) أي بيمينهِ الكاذبة (أوْ إثْماً) بسرقةِ الدِّرعِ ورَمْيِ اليهودي. والْبُهْتَانُ: بَهْتُ الرَّجُلِ بِمَا لَمْ يَفْعَلْهُ. وقال الزجَّاج: (الْبُهْتَانُ الْكَذِبُ الَّذِي يُتَحَيَّرُ مِنْ عِظَمِهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ ؛ أي لَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عليكَ يا مُحَمَّدُ بالنبوَّة والإسلامِ؛ وَرَحْمَتُهُ بإرسال جبريلَ عليه السلام إليكَ بالقُرْآن الذي فيه خَبَرُ ما غاب عنكَ لقصدتَ من قومِ طُعْمَةَ أنْ يُخْطِئُوكَ ويحملوكَ أن تَحكُمَ بما هو غيرُ واجبٍ في الباطنِ، وأن تُبَرِّئَ الخائنَ من غيرِ حقيقةٍ ؛ ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ أي وما يكون إضْلالُهم إلاّ على أنفسِهم، ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ ولا ينقصونَكَ شيئاً مع عِصْمَةِ الله تعالى إيَّاكَ؛ ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ؛ أي القُرْآنَ ومعرفةَ الحلال والحرام؛ ﴿ وَعَلَّمَكَ ﴾ ؛ بالْوَحْيِ؛ ﴿ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ ؛ قَبْلَهُ؛ ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ بالنبوَّة والإسلامِ.

وفي هذه الآياتِ دلالةٌ أنه لا يجوزُ لأحدٍ أن يخاصِمَ عن غيرِهِ في إثباتِ حقٍّ أو نفيهِ وهو غيرُ عالِمٍ بحقيقةِ أمرهِ، وأنه لا يجوزُ للحاكمِ الْمَيْلُ إلى أحدِ الخصمين، وإن كان أحدُهما مُسلماً والآخرَ كافراً، وأن وجودَ السرقةِ في يدَيّ إنسانٍ لا يوجبُ الحكمَ بها عليهِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ أي لا خيرَ في كثيرٍ من إسرار قومِ طُعْمَةَ فيما يريدون بينَهم إلاّ نَجْوَى مَن أمرَ بصدقةٍ فتصدَّق بها، ويجوزُ أن يكون معنى (إلاّ مَنْ أمَرَ) الاستثناء ليس من الأوَّل على معنى (لكن) فيكون موضع (مَنْ أمَرَ) نصباً على الإضمار، والأوَّل موضعهُ خفضٌ[1].

---

(١) الأول: أن تكون (مَن) في موضع خفض ويكون التقدير: لا خير في كثير من نجواهم إلا نجوى مَن أمرَ بصدقة. أو بدل (كثيرٍ). والثاني: هو الاستثناء المنقطع.

وذهب الزجَّاج: (إلَى أنَّ النَّجْوَى فِي اللُّغَةِ: مَا تَفَرَّدَ بِهِ الْجَمَاعَةُ وَالاثْنَان؛ سِـرّاً كَانَ ذلِكَ أوْ ظَاهِراً). وقال: (مَعْنَى: نَجَـوْتُ الشَّـيْءَ إذا خَلَّصْتَـهُ وَأفْرَدْتَـهُ، وَنَجَـوْتُ فُلاناً إذا اسْتَسَرْتُهُ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ مَعْرُوفٍ) أي أوْ أمرٍ بمعروفٍ، ويسمى البرُّ كلهُ معروفـاً، قـال ﷺ: [كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَأوَّلُ أهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً أهْلُ الْمَعْرُوفِ، وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ إصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) يعني الإصلاحَ بين المتخاصمين، وإصـلاحَ ذاتِ البَيْنِ، قال ﷺ: [ألاَ أخْبرُكُمْ بأفْضَلِ دَرَجَةٍ مِنَ الصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ؟] قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [إصْلاَحُ ذاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ، فَلاَ أقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّيْنَ](٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: من يفعـل ذلك البرَّ والصلاحَ والصدقةَ لطلب مَرْضَاةِ اللهِ تعالى، لا لِلرِّيَاءِ والسُّمعةِ،﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ ﴾ ؛ نُعْطِيْهِ؛﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ ؛ أي ثَوَاباً وَافِراً في الجنَّة.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ نَزَلَتْ فِي طُعْمَةَ؛ وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا نَزَلَ فِيْهِ الْقُرْآنُ، وَعَلِمَ قَوْمُـهُ أنَّـهُ ظَالِمٌ، وَخَافَ هُوَ عَلَى نَفْسِهِ الْقَطْعَ وَالْفَضِيْحَةَ؛ هَرَبَ إلَى مَكَّةَ؛ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَـةَ، ومعناها: ومن يخالفِ الرسولَ في التوحيدِ والحدُودِ مُعانِداً من بعدِ ما تَبَيَّـنَ لـه حكـمُ اللهِ، ويتَّبع ديناً غيرَ دينِ المؤمنين وهو دينُ أهلِ مكَّة؛﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ ؛ أي نَكِلُـهُ

(١) في المخطوط:(إذا استهلكته) وهو تصحيف؛ لأن القـول بـ(نجـوتُ فلانـاً؛ أنجـوهُ نَجـواً؛ أي ناجَيتـهُ، فالنَّجوى الْمُسَارَّةُ). ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج:ج٢ ص٨٥-٨٦.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط مختصراً: [كُلُّ مَعْـرُوفٍ صَدَقَـةٌ]: الحديـث (٨٢٤٤) عـن عائشـة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، والحديث (٩٠١١ و٩٠٤٠) عن جابر ﷺ، والحديث (٦٠٨٢) عــن أم سـلمة؛ الحديث بلفظ تقديم وتأخير في عباراته.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٤٤٤-٤٤٥. وأبو داود في السنن: الأدب: باب إصـلاح ذات البين: الحديث (٤٩١٩). والترمذي في الجـامع: صفـة الجنـة: بـاب سـوء ذات البـين هـي الحالقة: الحديث (٢٥٠٩).

في الآخرةِ إلى ما تولَّى. قِيْلَ: وَنَتْرُكُهُ إلى ما اختارَ لنفسهِ في الدُّنيا؛ أي لا يتولَّى اللهُ نَصْرَهُ ولا معونتَه، ﴿ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ أي وَنُلْزِمُهُ دخولَ جهنَّم في الآخرةِ، ﴿ وَسَآءَتْ ﴾ ؛ جهنَّمُ؛ ﴿ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ أي لِمن صارَ اليها.

فَلَمْ يَتُبْ طُعْمَةُ وَلَمْ يَنْدَمْ، وَأَقَامَ عَلَى كُفْرِهِ، ثُمَّ إنَّهُ نَقَبَ بَيْتَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ مِنْ أهْلِ مَكَّةَ؛ فَسَقَطَ عَلَيْهِ حَجَرٌ فَنَشَبَ فِيْهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَدْخُلَ وَلاَ يَخْرُجَ حَتَّى أصْبَحَ؛ فَأَخَذهُ لِيَقْتُلَهُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: دَعُوهُ؛ فَإنَّهُ قَدْ لَجَأَ إلَيْكُمْ وَتَحَرَّمَ بكُمْ فَاتْرُكُوهُ؛ فَأَخْرَجُوهُ مِنْ مَكَّةَ، فَخَرَجَ مَعَ قَوْمٍ مِنَ التُّجَّارِ نَحْوَ الشَّامِ؛ فَنَزَلُوا مَنْزلاً فَسَرَقَ بَعْضَ مَتَاعِهِمْ وَهَرَبَ، فَطَلَبُوهُ فَوَجَدُوهُ؛ فَرَمَوْهُ بالْحِجَارَةِ حَتَّى قَتَلُوهُ؛ فَصَارَ قَبْرُهُ تِلْكَ الْحِجَارَةَ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي وَحْشِيٍّ قَاتِلِ حَمْزَةَ ﷺ). والمعنى: إنَّ الله لا يغفرُ شِرْكَ الْمُشْرِكِ به إنْ ماتَ بغيرِ توبةٍ؛ ويغفرُ ما دون الشِّرْكِ لِمن يشاءُ من أهلِ الإسلامِ من غيرِ توبةٍ.

وقال الضحَّاك عن ابن عبَّاس: (إنَّ شَيْخاً مِنَ الأَعْرَاب جَاءَ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ؛ إنِّي شَيْخٌ مُنْهَمِكٌ فِي الذُّنُوب وَالْخَطَايَا؛ إلاَّ أنِّي لاَ أشْرِكُ بهِ شَيْئاً مُذْ عَرَفْتُهُ وَآمَنْتُ بهِ؛ وَلَمْ أتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ وَلِيّاً، وَلَمْ أقَعْ عَلَى الْمَعَاصِي جُرْأةً عَلَى اللهِ وَلاَ مُكَابَرَةً لَهُ، وَلاَ تَوَهَّمْتُ طَرْفَةَ عَيْنٍ أنْ أعْجِزَ اللهَ هَرَباً، إنِّي لَنَادِمٌ تَائِبٌ مُسْتَغْفِرٌ، فَمَا لِي عِنْدَ اللهِ ؟. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (إنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)[1]. ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ أي فقد ذهبَ عن الصواب والْهُدَى ذهاباً بعيداً، وحُرِمَ الخيرَ كلَّه.

والفائدةُ في قوله (بَعِيدًا) أنَّ الذهابَ عن الجنَّة على مراتبَ أبعدُها الشِّرْكُ باللهِ تعالى.

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٣٨٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ ؛ أي إن يعبدُ أهل مكَّةَ من دون الله إلاّ الأصنامَ والأوثان، وسَمَّاها إناثاً؛ لأنَّهم سَمَّوها باسمِ الإناثِ: اللاَّتُ وَالْعُزَّى وَمَنَاتَ، فعبدُوها مع اعتقادِهم بنُقْصَان مراتب الإناثِ عن الذُّكور؛ لأنَّ الإناثَ من كلِّ جنسٍ أرَاذِلَةٌ[١]، ويُقَالُ: إناثاً؛ أي مَوَاتاً؛ لأنَّ الْمَوَاتَ كلَّها يُخْبرُ عنها كما يُخبرُ عن الإناثِ، يقالُ: هذه الأَحْجَارُ تُعْجِبُنِي؛ ((كما تقولُ: هذه المرأة تُعجبني)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾ ؛ أي ما يريدون بعِبَادَةِ الأوثان إلاّ عبادةَ الشَّيطان، وَالْمَرِيْدُ: الْعَاتِي الْخَارجُ عَنِ الطَّاعَةِ، ويسمَّى الْمَرِيْدُ مَرِيْداً لِتَعَرِّيْهِ عَنِ الْخَيْرِ، يقال: شجرةٌ مَرْدَاءُ؛ أي لا وَرَقَ عليها، وغلامٌ أمْرَدٌ: إذا لم يكن على وجههِ شعرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾ أرادَ به الشيطانَ أبعَدَهُ من رحمتهِ إلى عقابهِ بالحكم لهُ بالخلودِ في جهنَّم، ويسقطُ بهذا قولُ من قالَ: كيفَ يصحُّ أن يقالَ: (لَعَنَهُ اللهُ) وهو في الدُّنيا لا يخلُو من نِعْمَةٍ تَصِلُ إليه من الله في كلِّ حال؟ الجواب لا يعتدُّ بتلك النعمة مع الْحُكْمِ له بالخلودِ في النَّار.

قوله تعالى (لأَتَّخِذنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا) أي قالَ إبليسُ: لأَتَّخِذنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيْباً معلُوماً، فكلُّ ما أُطِيْعَ فيه إبليسُ فهو مفروضٌ له.

والفرضُ في اللغة: الْقَطْعُ؛ ومنهُ الْفُرْضَةُ أي الثُّلْمَةُ[٢]، والفرضُ في القوس: ما شُدَّ به الوترُ، والفريضةُ في العباداتِ: الأمرُ الْحَتْمُ الْقَاطِعُ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[٣] أي جعلتم لَهُنَّ قطيعةً من المال، وأما قولُ الشاعر:

إذا أكَلْتَ سَمَكاً وَفَرْضاً ... ذهَبْتَ طُولاً وَذهَبْتَ عَرْضَا

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٣٨٧؛ قال القرطبي: ((لأن الأنثى من كل جنس أخسُّه، فهذا جهل ممن يشركُ بالله جماداً فيسمِّيه أنثى، أو يعتقده أنثى)).
(٢) في لسان العرب: (فرض)؛ قال ابن منظور: ((وَفُرْضَةُ النَّهرِ: ثُلْمَتُهُ الَّتِي مِنْهَا يُستَقى)).
(٣) البقرة / ٢٣٧ .

فالفرضُ هنا التَّمْرُ[١]، سُمي فرضاً لأنه يؤخذ من فرائضِ الصَّدقةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ ؛ حكايةُ قول إبليسَ؛ أي لأُضِلَّنَّهُمْ عن الحقِّ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ أنَّهُ لا جَنَّةَ ولا نارَ ولا بعثَ ولا حسابَ، ولأُريحنَّهم طولَ الحياةِ في الدُّنيا، ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ ؛ أي بتَشْقِيْقِ آذانِ الأنعَامِ؛ وهي الْبَحِيْرَةُ التي كانوا يفعلونها نُسُكاً وعبادةً للأوثان، والقطع. ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس[٢] ومجاهدٌ[٣] وقتادة والحسنُ[٤] والضحَّاك[٥]: (فَلَيُغَيِّرُنَّ دِيْنَ اللهِ) نَظِيْرُهُ ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾[٦] أي لدين اللهِ، كقولهِ: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾. وقال عكرمةُ: (مَعْنَاهُ: فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ بـالْخَصْيِ وَالْوَشْمِ وَقَطْعِ الآذانِ وَفَقْءِ الْعُيُونِ)[٧]. قال مجاهدُ: (كَذبَ عِكْرِمَةُ؛ إنَّمَا هُوَ دِيْنُ اللهِ)[٨].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ ؛ أي مَن يَتَّخِذْهُ ناصِراً من دون اللهِ فقد غَبنَ غُبْناً ظاهراً؛ لأنه خَسِرَ الجنَّةَ والنعيمَ الذي فيها.

فإن قيل: كيفَ عَلِمَ إبليسُ أنهُ يَتَّخِذُ من عبادِ الله نصيباً ؟ فيه أجوبةٌ؛ منها: أنَّ اللهَ لَمَّا خاطبَهُ بقولهِ ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أجْمَعِينَ﴾[٩] عَلِمَ إبليسُ أنهُ يَنَالُ من ذرِّيةِ آدمَ ما تَمنَّى. ومنها: أنه لَمَّا وَسْوَسَ لآدمَ فنالَ منهُ ما نالَ، طَمِعَ في ذرِّيته. ومنها: أن إبليسَ لَمَّا عَايَنَ الجنَّةَ والنارَ عَلِمَ أنَّ لَهَا سُكَّاناً من الناسِ).

---

(١) لسان العرب: (فرض). وتهذيب اللغة: ج ١٢ ص١٢.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٢٦١).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٢٦٣-٨٢٦٤).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٢٦٧).
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٢٧١).
(٦) الروم / ٣٠ .
(٧) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٢٥٨).
(٨) في جامع البيان: النص (٨٢٦٤)، ومعنى كذبَ: أخطأ.
(٩) هود / ١١٩ .

وقولـه: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ ؛ أي يَعِدُهُـمْ أن لاَ جَنَّـةَ وَلاَ نَـارَ؛ وَيُمَنِّيْـهِمْ طُولَ البقاءِ في الدُّنيا ودوامَ نعيمِها ويُؤْثِرُوهَا على الآخـرةِ، ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ ؛ أي بَاطِلاً، والْغُرُورُ: إيْهَامُ النَّفْعِ فيما فيه ضررٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفَـةِ مستقرُّهم جهنَّم، ﴿ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ ؛ أي مَخْلَصـاً، يقـال: حَـاصَ يَحِيْـصُ حَيْصاً؛ إذا عَدَلَ عن الشيءِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ؛ أي أنْهَارُ الماءِ واللَّبنِ والخمْرِ والعسلِ؛ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ ؛ أي مقيمينَ في الجنَّةِ إلى الأبدِ، وإنَّما ذكرَ الطاعةَ مع الإيْمان وجمـعَ بينـهُما: فقال: (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يُبَيِّنُ بطلانَ مَنْ يَتَوَهَّمُ أنـه لا يَضُـرُّ المعصيـةُ والإخْلاَلُ بالطاعةِ مع الإيْمان؛ كما لا تنفـعُ الطاعـةُ مـع الكفـرِ أو لِيُبَيِّـنَ استحقاقَ الثواب على كلِّ واحدٍ من الأمرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ ؛ انتصبَ (وَعْـدَ) علـى المصـدر، تقديـرهُ: وَعَدَ لَهمُ اللهُ هذا وَعْـداً حَقّـاً كائنـاً؛ ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾ ؛ أي ليسَ أحدٌ أصدقَ مِن اللهِ قَوْلاً ووَعْداً.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ؛ أي ليـس ثوابُ اللهِ تعالى بأمَانِيِّكُمْ، فإنَّ (لَيْسَ) يقتضِـي اسْـماً، واختلفُـوا في المخـاطَبين بـهذه الآيةِ. قال قتادةُ والضحَّاك: (إنَّ أهْلَ الْكِتَاب وَالْمُسْلِمِيْنَ افْتَخَرُوا، فَقَالَ أهْلُ الْكِتَاب: نَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ؛ وَكِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابكُمْ؛ وَنَحْنُ أوْلَى باللهِ مِنْكُمْ. وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: نَحْـنُ أوْلَى باللهِ مِنْكُمْ؛ نَبِيُّنَا خَاتَمُ النَّبيِّيْنَ؛ وَكِتَابُنَا يَقْضِي عَلَى الْكُتُب الَّتِي كَانَتْ قَبْلَهُ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)(١).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيـان: النـص (٨٢٧٦) عـن قتـادة، والنـص (٨٢٨٢ و٨٢٧٨) عـن الضحاك.

وقال مجاهدُ: (الْمُخَاطَبُونَ بِهَا عَبَدَةُ الأَوْثَانِ؛ فَإِنَّهُمْ قَالُوا: لاَ نُبْعَثُ وَلاَ نُحَاسَبُ، وَقَالَ أهْلُ الْكِتَابِ: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أيَّاماً مَعْدُودَةً، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (لَيْسَ بأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أمَانِيِّ أهْلِ الْكِتَابِ)[(١)]. ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ ؛ ولا يَنْفَعُهُ تَمَنِّيهِ، والمرادُ بالسُّوءِ الكُفْرُ.

وقال بعضُهم: المخاطَب بها المسلمونَ؛ أي (مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ) أي لَيْسَ بأَمَانِيِّكُمْ يا معشرَ المسلمين أنْ لا تُؤَاخَذُوا بسُوءٍ بعد الإيْمان، (وَلاَ أمَانِيِّ أهْلِ الْكِتَابِ): لاَ يَدْخُلُ الجنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أوْ نَصَارَى، من يعمَلْ معصيةً يُجْزَ بذلك ولا ينفعه تَمنِّيه.

روي: أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ؛ قَالَ أبُو بَكْرٍ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ كَيْفَ الْفَلاَحُ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ ؟ فَقَالَ ﷺ: [غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أبَا بَكْرٍ، ألَسْتَ تَمْرَضُ؟ ألَسْتَ تَنْصَبُ؟ ألَسْتَ تُصِيبُكَ الَّلأْوَاءُ؟] قَالَ: بَلَى، [فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بهِ][(٢)].

وعن أبي هريرةَ ﷺ أنهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ شُقَّ ذلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ، فَشَكَوا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: [قَاربُوا وَسَدِّدُوا]. يقالُ: كلُّ ما يصيبُ المؤمنَ كفَّارَةٌ حتى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا فِي قدميهِ، والنَّكْبَةَ يَنْكبُهَا[(٣)].

قال عطاءُ: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) قَالَ أبو بَكْرٍ ﷺ: هَذِهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَأيُّنَا لَمْ يَعْمَلْ سُوءاً، وَإنَّا لَمَجْزِيُّونَ بكُلِّ سُوءٍ عَمِلْنَاهُ؟! قَالَ: [إنَّمَا هِيَ الْمُصِيبَاتُ تَكُونُ فِي الدُّنْيَا][(٤)]. فَقَالَ أبُو هُرَيْرَةَ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٢٨٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص١٠. وابن حبان في صحيحه: كتاب الجنائز: الحديث (٢٩١٠)، وفي موارد الضمآن: الحديث (١٧٣٤) وحسَّنه. واللأواء: الشدَّة وضيقُ المعيشةِ. لسان العرب: ج ١٥ ص٢٣٨.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٤٨. ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب ثواب المؤمن: الحديث (٥٢/ ٢٥٧٤). والترمذي في الجامع: الحديث (٣٠٣٨)، قال: حديث حسن غريب.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٦. والترمذي في الجامع: الحديث (٣٠٣٩)، وقال: هذا حديث غريب في إسناده مقال.

فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) بَكَيْنَا وَحَزِنَّا وَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا أَبْقَتْ هَذِهِ الآيَةُ مِنْ شَيْءٍ، [أمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَكَمَا أُنْزِلَتْ؛ وَلَكِنْ يَسِّرُوا وَقَارِبُوا وَسَدِّدُوا؛ إنَّهُ لاَ يُصِيبُ أحَدُكُمْ مُصِيبَةً فِي الدُّنْيَا إلاَّ كُفِّرَ عَنْهُ بهَا خَطِيئَةً؛ حَتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا فِي قَدَمِهِ])[1].

وقال الحسنُ في قولهِ تعالى: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) قال: (الْكَافِرُ، وَأمَّا الْمُؤْمِنُ فَلاَ يُجَازَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلاَّ بأَحْسَنِ عَمَلِهِ وَيُتَجَاوَزُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) ثُمَّ قَرَأ ﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أسْوَأ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أجْرَهُمْ بأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] وقَرَأ ﴿وَهَلْ نُجَازِي إلاَّ الْكَفُورَ﴾[3].

ولولا السُّنة لأمكنَ أن يقالَ: إنَّ الآيةَ نزلت في الكفَّار؛ لأنَّ في سياقِ الآيةِ: ﴿ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ ﴾ ؛ ومَنْ لم يكن لَهُ يومَ القيامةِ وليٌّ ولا نصيرٌ كان كافراً؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد ضَمِنَ نصرَ المؤمنين في الدَّارَين فقالَ تعالى: ﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشْهَادُ﴾[4]. ولكنَّ الخطابَ إذا وَرَدَ مُجْمَلاً، وبَيَّنَ الرَّسُولُ عليه السلام كَانَ الْحُكْمُ لِبَيَانِهِ لاَ لِلآيَةِ؛ إذِ البَيَانُ إلَيْهِ ﷺ، قال اللهُ تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيْهِمْ﴾[5].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾ ؛ أي وهو مصدِّقٌ بالثواب والعقاب، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ أي ولا يُنقَصون مما استحقوهُ من جزاء أعمالهم مقدارَ النَّقيرِ، وهو النُّقرَةُ التي تكون في ظهرِ النَّواة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ ﴾ ؛ معناهُ: أيُّ أحدٍ منكُم أصْوَبُ طريقةً وسِيْرَةً، مِمَّنْ أخلصَ عملَهُ وطاعتَهُ للهِ وهو مُحْسِنٌ في الاعتقادِ والعملِ فيما بينَهُ وبين رَبهِ واتَّبعَ دينَ إبراهيمَ حَنِيْفاً؛ أي مَائِلاً عن كلِّ دِيْنٍ سوَى الإسلامِ.

---

(١) تقدم.
(٢) يوسف / ٣٥ .
(٣) سبأ ١٧ .
(٤) غافر / ٥١ .
(٥) النحل / ٤٤ .

وَقِيْلَ: الْحَنِيْفُ: المستقيمُ في سُلُوكِ الطَّرِيقِ الذي أُمِرَ بسلوكِه. ومعنى الْمُحْسِنِ: ما رويَ عن النبيِّ ﷺ سُئِلَ عَنِ الإحْسَانِ فَقَالَ: [أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإنَّهُ يَرَاكَ][١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾؛ قال الكلبيُّ عن أبي صالحٍ عن ابنِ عبَّاس: (خَلِيْلاً أيْ صَفِيّاً). وَقِيْلَ: في معنى قوله: (خَلِيلاً) وَجْهَان: أحدُهما: الإصطفاءُ بالْمَحَبَّةِ، والإختصاصُ بالإسراءِ دون مَن لم تكن له تلك المنْزلةُ، والثاني: من الْخِلَّةِ وهو الحاجةُ، فخليلُ اللهِ: المحتاجُ إليه؛ المنقطعُ بحوائجهِ إلى اللهِ تعالى دونَ غيرِه، وقد يُسَمَّى الفقيرُ خَلِيْلاً، قال زهيرُ:

وَإنْ أتَاهُ خَلِيْلٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ ... يَقُولُ لاَ غَائِبٌ مَالِي وَلاَ حَرَمُ

أي ولا ممنوعٌ.

فإذا أُريدَ به الوجهَ الأول؛ جازَ أنْ يقالَ: إبراهيمُ خَلِيْلُ اللهِ؛ واللهُ خَلِيْلُ إبراهيمَ. وإذا أُريدَ الوجهُ الثاني؛ لم يَجُزْ أن يوصفَ اللهُ تعالى بأنهُ خَلِيْلُ إبراهيمَ، وجاوز وصفهُ بأنَّهُ خليلُ اللهِ.

وعن جابر بن عبدِاللهِ رضي الله عنه عَن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [اتَّخَذَ اللهُ إبْرَاهِيْمَ خَلِيْلاً لإطْعَامِهِ الطَّعَامَ؛ وَإفْشَائِهِ السَّلاَمَ؛ وَصَلاَتِهِ باللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ][٢]. فإنْ قيلَ: لِمَ كان اتِّبَاعُ ملَّةِ إبراهيمَ أوْلَى من اتِّباعِ مِلَّةَ غيرِه من الأنبياءِ مثل عيسَى ومُوسَى؟ قِيْلَ: إنَّ الفِرَقَ كلُّهم متَّفقونَ على تَعْظِيمِهِ، ووجوب اتِّباعِ مِلَّتِهِ، وهو كان يدعُو إلى الْحَنِيْفِيَّةِ دونَ اليهوديَّة والنصرانيَّةِ.

---

(١) الحديث مشهور؛ أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الإيمان: باب سؤال جبريل النبي ﷺ: الحديث (٥٠)، وباب بيان الإيمان والاسلام: الحديث (٦٤). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: الحديث (١٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٤٠١. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في إكرام الضيف: الحديث (٩٦١٦) عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مختصراً.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ إنَّما قالَ هكذا لِيُبَيِّنَ أنَّ إبراهيمَ مع كونِه خليلَ اللهِ وأنهُ لَمْ يَتَّخِذْهُ لحاجتهِ إليهِ، لكنَّهُ اتَّخذهُ خليلاً جزاءً على عملهِ. وقال بعضُهم: إنَّما قالَ ذلكَ لأَنَّهُ لَمَّا أمرَ الناسَ بطاعتهِ حَثَّهُمْ على الطَّاعةِ بما يوجبُ الرغبةَ فيها؛ وهو كونهُ مَالِكَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ ؛ أي عَالِماً بكلِّ شيءٍ، قادِراً على كلِّ شيءٍ مِن كلِّ وجهٍ، فلا يخرجُ شيءٌ عن مقدورهِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي أمِّ كجَّة امْرَأةِ أوْسِ بْنِ ثابتٍ وَبَنَاتِهَا مِنْهُ؛ لَمَّا أمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بتَوْرِيثِهِنَّ مِنْ أوْسٍ، أقْبَلَ عُيَيْنَةُ بْنُ حُصَيْنٍ الْفَزَّارِيُّ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّكَ قَدْ وَرَّثْتَ النِّسَاءَ وَالْبَنَاتَ وَالصِّغَارَ؛ وَلَمْ نَكُنْ نَحْنُ نُورِّثُ إلاَّ مَنْ قَاتَلَ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ وَحَازَ الْغَنِيْمَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(١).

ويقالُ: إنَّها نزلَت بعدَ نزول قولهِ تعالى: (يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أوْلادِكُمْ) إلى قولهِ (عَلِيمًا حَكِيمًا) قَبْلَ نزول فَرْضِ الزَّوجاتِ، فجاؤوا إلى رسول اللهِ ﷺ يَسْتَفْتُونَهُ في ميراثِ أمِّ كجة امْرَأةِ الْمُتَوَفَّى، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ ووعدَهم أن يُفْتِيَهمْ في ميراثِ الزوجاتِ؛ فأَفْتَاهُمْ في ذلكَ بقولهِ تعالى (وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أزْوَاجُكُمْ) إلى آخرِ الآيةِ.

ومعنى الآية: يَسْتَفْتُونكَ يا مُحَمَّدُ في أمرِ النِّسَاءِ وما يجبُ لَهنَّ من الميراثِ، قُلِ اللهُ يُبَيِّنُ لكم ميراثَهن، والذي يُقْرَأ عليكُم في كتاب الله في أوَّل هذه السُّورةِ، يُفْتِيْكُمْ ويُبَيِّنُ لكم ما سَأَلْتُمْ عنه في بناتِ أمِّ كجة اللاَّتِي لا تُعْطُوهُنَّ مَا فُرِضَ لَهُنَّ من الميراثِ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُوصِيكُمْ اللهُ فِي أوْلادِكُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ؛ أي ترغبون عَنْ نِكَاحِهِنَّ لِدَمَامَتِهِنَّ فلا تعطوهُنَّ نصيبَهن من الميراثِ لِمَنْ يَرْغَبُ فيهنَّ غيرُكم؛ وذلكَ أنَّ بَنِي أعْمَامِ تِلْكَ الْبَنَاتِ كَانُوا أوْلِيَاءَهُنَّ؛ وَكَانُوا لاَ يُعْطُونَهُنَّ حَظَّهُنَّ مِنَ الْمِيْرَاثِ، وَيَرْغَبُونَ

---

(١) تقدم.

أنْ يَتَزَوَّجُونَهُنَّ، وَهذا قول ابنِ عبَّاس وابنِ جُبير وقتادةَ ومجاهدٍ. وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا والحسن: (أنَّ مَعْنَاهُ: وَتَرْغَبُونَ فِي أنْ تَتَزَوَّجُونَهُنَّ لِجَمَالِهِنَّ وَلاَ تُعْطُوا لَهُمْ مَا أوْجَبَ اللهُ لَهُنَّ مِنَ الصَّدَاقِ). وفي كِلاَ القولين دليلٌ على جواز نِكَاحِ الأولياءِ لليتامَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ ؛ أي وفي (الْمُسْتَضْعَفِيْنَ مِنَ الوِلْدَانِ) أي في مِيْرَاثِ اليتامَى. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ ؛ أي وَفِي (أنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بالْقِسْطِ) في أموالِهم وحقوقِهم بالعدل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ ؛ أي مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ في أمرِ اليَتَامَى والضِّعَافِ؛ (فَإِنَّ اللهَ كَانَ بهِ عَلِيمًا) يَجْزِيْكُمْ على ذلكَ.

واختلفَ أهلُ النَّحوِ في موضعِ (وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) فذهبَ أكثرُهم إلى أنهُ مَوْضِعُ رَفْعٍ؛ تقديرهُ: وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكتاب يُفْتِيْكُمْ. وقال بعضُهم: هو في موضعِ خَفْضٍ تقديرهُ: وَفِي مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ، إلاَّ أن هذا الوجهَ أضعفُ من الأوَّل؛ لأنه لا يصحُّ عطفُ الظاهرِ على المضمرِ بحرفِ الجرِّ من دون إعادة حرفِ الجرِّ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ ؛ الآية نزلت في خُوَيْلَةَ ابْنَةِ مُحمدِ بن مَسْلَمَةَ وفي زوجِها سعدِ بنِ الربيعِ؛ تزوَّجَها وهي شابَّةٌ؛ فلما عَلاَهَا الْكِبَرُ جَفَاهَا وتزوَّج عليها شابَّةً آثَرَها عليها، فَشَكَتْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ؛ فنَزلت هذه الآيةُ[1]، هذا قولُ الكلبيِّ وجماعةٍ من المفسِّرين.

وقال سعيدُ بن جُبير: (كَانَ رَجُلٌ لَهُ امْرَأةٌ قَدْ كَبِرَتْ؛ وَكَانَ لَهَا سِتَّةُ أوْلاَدٍ، فَأرَادَ أنْ يُطَلِّقَهَا وَيَتَزَوَّجَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: لاَ تُطَلِّقْنِي وَدَعْنِي عَلَى أوْلاَدِي؛ وَاقْسِمْ لِي

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٤٠٣؛ قال القرطبي: ((وروى ابن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب: أن رافع بن خديج كانت تحته خولة ابنة محمَّد بن مسلمة... وذكره)). وأبهم المرأة الطبريُّ في جامع البيان: النص (٨٣٥٢).

فِي كُلِّ شَهْرَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ إِنْ شِئْتَ، وَإِنْ شِئْتَ لاَ تُقْسِمْ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ يَصْلُحُ ذلِكَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذكَرَ لَهُ ذلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(١).

ومعناها: (وإن امْرَأَةٌ خَافَتْ) أي عَلِمَتْ مِن زوجِها بُغْضاً، أو إعْرَاضاً بوجههِ عنها لإيْثار غيرِها عليها. قال الكلبيُّ: (يَعْنِي: تَركَ مُجَامَعَتَهَا وَمُضَاجَعَتَهَا وَمُجَالَسَتَهَا وَمُحَادَثَتَهَا؛ فَلاَ جُنَاحَ عَلَى الزَّوْجِ وَالْمَرْأَةِ أنْ يُصَالِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً مَعْلُوماً بتَرَاضِيْهِمَا؛ وَهُوَ أنْ يَقُولَ لَهَا الزَّوْجُ: إنَّكِ امْرَأَةٌ قَدْ دَخَلْتِ فِي السِّنِّ؛ وَأنَا أريدُ أنْ أتَزَوَّجَ عَلَيْكِ امْرَأَةً شَابَّةً أوْثِرُهَا عَلَيْكِ فِي الْقَسْمِ لَهَا لشَبَابهَا أوْ أزيْدُ فِي نَصِيْبِهَا مِنَ الْقَسْمِ، فَإنْ رَضِيْتِ وَإلاَّ سَرَّحْتُكِ بالأَحْسَنِ وَتَزَوَّجْتُ أخْرَى. فَإنْ رَضِيَتْ بذلِكَ فَهِيَ الْمُحْسِنَةُ، وَحَلَّ لِلزَّوْجِ ذلِكَ)(٢).

كَمَا رُويَ عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ أنَّهُ طلَّقَ امْرَأتَهُ سَوْدَةَ؛ فَسَألَتْهُ لِوَجْهِ اللهِ أنْ يُرَاجِعَهَا وَتَجْعَلَ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ فَفَعَلَ(٣). ومثلُ هذا الصُّلْحِ لا يقعُ لازماً؛ لأنَّها إذا أبَتْ بعدَ ذلكَ إلى المقاسَمَة على السؤالِ كان لَها ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ ﴾ ؛ أي خيرٌ من الإقامةِ علَى النُّشُوز. وَقِيْلَ: خيرٌ من الفِرْقَةِ. ودخولُ حرفِ الشَّرطِ على الاسمِ في قولهِ تعالى: (وَإنِ امْرَأَةٌ) فعلى تقدير فِعْلٍ مُضْمَرٍ؛ أي: وَإنْ خَافَتِ امْرَأَةٌ خَافَتْ، أو على التقديم والتأخير، كأنه قالَ: وَإنْ خَافَتِ امرأةٌ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً، وعلى هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إن امْرُؤٌ هَلَكَ﴾(٤)، ﴿وَإنْ أحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾(٥) وهذا لا يكونُ إلاّ في الفعلِ الماضي؛ كما يقالُ: إن اللهُ أمكَنَني ففعلتُ كذا، فأمَّا في المستقبلِ فيصُحُّ أن يُفَرَّقَ بين الَّتِي للجزاءِ وبين لفظِ الاستقبال، فيقالُ: إن امرأةٌ تَخَفْ؛ لأنَّ (إنْ) تجرمُ المستقبلَ فلا يفصلُ بين العاملِ والمعمول.

---

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٧ ص٥٣.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٥ ص٤٠٤-٤٠٥. واللباب في علوم الكتاب: ج ٧ ص٥٣.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٢٢٦: الحديث (١١٧٤٦). والترمذي في الجامع: التفسير: سورة النساء: الحديث (٣٠٤٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٤) النساء / ١٧٦. (٥) التوبة / ٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ ؛ أي جُبلَتِ الأنفسُ على الشُّحِّ، فَشُحُّ المرأةِ الكبيرة مَنَعَهَا من الرِّضَا بدون حقِّـها، وتـركِ بعـضِ نصيبـها مـن الرجـلِ لغيرِها، وشُحُّ الرجلِ بنصيبهِ من الشَّابَّةِ يَمنعُه من توقـيرِ نصيـب الكبـيرةِ مـن القَسْـمِ عليها. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ ؛ أي إن تُحسـنوا العِشْـرَةَ وتتَّقُـوا الظُّلْمَ على النساء؛ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ من الإحسانِ والْجُودِ، عالِماً بخيرِ عملِكم، والسوءِ فيجزيكُم على ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ ؛ أي ولن تَقْدِرُوا أن تُسَاوُوا بينَ النساءِ ولو اجتهدتُم في العـدل، كمـا رُويَ أنَّ النَّـبيَّ ﷺ كَـانَ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ ثُمَّ يَقُـولُ: [اللَّـهُمَّ إنَّ هَـذَا قَسْـمِي فِيْمَـا أمْلِـكُ؛ فَـلاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا لاَ أمْلِكُ][(١)] وأرادَ به التسويةَ وَالْمَحَبَّةَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ ؛ أي لا تَميلُوا إلى الشابَّة والجميلَةِ بالفعلِ كلَّ الميلِ في النفقةِ والقسمة والإقبال عليها، فتتركُوا العجوزَ بغيرِ قسمة كالْمَنْبُوذةِ وَالْمَحْبُوسَةَ لا أيْمَ ولا ذاتَ بعلٍ. وعن رسـول اللهِ ﷺ أنه قال: [مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأتَانِ فَمَالَ إلَى إحْدَاهُمَـا؛ جَـاءَ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَأحَـدُ شِـقَّيْهِ مَائِلٌ][(٢)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ ؛ أي وإنْ تُصْلِحُـوا مـا أفْسَـدْتُمُوهُ بإفرادِ الْمَيْلِ، فتعدِلُوا في القسمةِ بينَهُنَّ، وتتَّقوا الْجَـوْرَ والعقوبـةَ فيـه، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾ ؛ لِمَا سَلَفَ منكُم من الظُّلْمِ عليهنَّ رَحِيْماً بكم بعد التوبةِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ؛ أي معنـاهُ: أنَّ الزوجَ والمرأةَ إذا تَفَرَّقَا دون تركِ حقوق الله التي أوجبَها عليهما؛ أغْنَى اللهُ كُلاً من سَعَتِهِ مِن رزقهِ؛ الزوجَ بامرأةٍ أخرى، والمـرأةَ بـزوجٍ آخـرَ؛ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا ﴾ ؛

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب النكاح: باب في القسم بين النساء: الحديث (٢١٣٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٤٧. وأبو داود في السنن: كتاب النكـاح: بـاب القسـم بين النساء: الحديث (٢١٣٣). والترمذي في الجامع: كتاب النكاح: باب ما جاء في التسـوية بـين الضرائر: الحديث (١١٤١).

لَهُما في النِّكاحِ؛ ﴿ حَكِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ حَكَمَ على الزوجِ بالإمساكِ بالمعروفِ أو التسريحِ بالإحسان. وَقِيْلَ: معناهُ: وكانَ اللهُ واسعَ الْمُلْكِ جَوَاداً لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وحُكْمُهُ فيما يَحْكُمُ من الفِرْقَةِ يجعلُ لكلِّ واحدٍ منهُما مَن يسكنُ إليه ويَتَسَلَّى به عن الأوَّل.

ومِن حُكْمِ هذه الآيةِ: أنَّ الرجلَ إذا قَسَمَ لنسائهِ لا يجبُ عليه وطءُ واحدةٍ منهُنَّ، لأنَّ الوطءَ لَذةٌ لهُ فهي حَقُّهُ، فإذا تركهُ لم يُجْبَرْ عليهِ، وليس هو كَالْمُقَامِ والنفقةِ. وعمادُ القَسْمِ الليلُ، ولا يُجامعُ المرأةَ في غيرِ يومِها، ولا يدخلُ بالليلِ على التي لم يَقْسِمْ لَها، ولا بأسَ أن يدخلَ عليها بالنهارِ في حاجةٍ ويعودَها في مرضِها في ليلةِ غيرِها، فإنْ فَعَلَتْ فلا بأسَ أن يُقيم حتى تَشْفَى أو تموت، فإن أرادَ أن يَقْسِمَ لَيلتين ليلتين أو ثلاثاً ثلاثاً كانَ لهُ ذلكَ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ كُلُّهُمْ عبيدُه وإماؤُهُ، ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ؛ أي أمَرْنا أهلَ التوراةِ في التَّوراة، وأهلَ الإنْجِيْلِ في الإنجيلِ، وأهلَ كل كِتَابٍ في كتابهم، ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي ووصَّيْنَاكم يا أمَّةَ مُحَمَّدٍ في كتابكم؛ ﴿ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ؛ وأطيعُوه في النِّسَاءِ واليتامَى وأحكامِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا ﴾ ؛ أي وإن تَجْحَدُوا وصيَّةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلم تَعْمَلُوا بها، ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ؛ من الملائكةِ، ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ من الْجِنِّ والإنسِ وسائرِ الْخَلْقِ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا ﴾ ؛ عن عبادَتِكم، لا يضرُّهُ كُفْرُ من كَفَرَ منكم، ولا ينفعهُ طاعةُ مَن أطاعَ منكم، ﴿ حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾ ؛ مَحْمُوداً في ذاتهِ وفي خَوَاصِّ ملائكتهِ وعبادِه، حَمَدْتُمُوهُ أو لم تَحْمِدُوهُ. وَقِيْلَ: حامداً لِمن وَحَّدَهُ وأطاعَهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ تَنْبِيْهٌ بعد تنبيهٍ؛ كأنهُ تعالى نَبَّهَهُمْ عن غَفْلَتِهِمْ بأنه حَفِيْظٌ على أعمالِهم كي يَتَحَفَّظُوا ولا يتهاوَنُوا لِمَا أُمِرُوا من أمرِ الله تعالى، وليس شيءٌ من هَذِهِ الأَلْفَاظِ تَكْرَارٌ فِي كِتَابِ اللهِ تعالى، ولكنْ كلُّ واحدٍ منها مَقْرُونٌ بفَائِدَةٍ جَدِيْدَةٍ، والفائدةُ في قولهِ تعالى: (وَللهِ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) بأنَّها الأمرّ بالاتِّكَال عَلى اللهِ تعالى، والثِّقَـةِ بـه وتفويـض الأمُور إليه، ولذلكَ عَقَّبَهُ بقولـهِ تعـالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ ﴾ ؛ أي حَافِظاً لأعمالكم كَفِيلاً بأرزاقِكم.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ ؛ أي كَمَا يَمْلِكُ الموجودَ مـن السَّموات والأرض يَمْلِـكُ أيضـاً الاسـتبدالَ بإفنـاءِ الْخَلْـقِ وإنشاءِ الآخرين. وَقِيْلَ: هو خطابٌ للكفار؛ لأنهُ تعالى قال من قَبْـلُ: (إنْ تَكْفُـرُوا) فكأنَّــهُ قالَ: إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيُّهَا الكفَّارُ وَيَأْتِ بقـوم آخَرِيْـنَ أطْـوَعَ منكـم، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾ ؛ وكان اللهُ على إهْلاَكِكُمْ وخَلْقِ غَيْرِكُمْ قادِراً.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَــلَّ: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ ؛ أي مَن كان يريدُ بعملهِ منفعةَ الدُّنيا، فَلْيَعْمَلْ للهِ ولا يَقْتَصِرْ علىطلب الدُّنيا، فإنَّ ثوابَ الدُّنيا واصلٌ إلى الْبَرِّ والفـاجر، والمؤمـنِ والكـافر، ولكـن لِيَتَكَلَّـفْ طلـبَ الآخـرةِ الـتي لا تُنـال إلاّ بـالعملِ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا ﴾ ؛ لِكَـلاَمِ عبـادهِ، ﴿ بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾ ؛ بمـا في قلوبـهم، وفي الآيـةِ تـهديدٌ للمنـافقين الْمُرَائِيْــنَ. وفي الحديثِ: [إنَّ فِي النَّار وَادِياً تَتَعَوَّذُ مِنْـهُ جَـهَنَّمُ كُـلَّ يَـوْمٍ أرْبَعْمِائَـةِ مَـرَّةٍ أعِـدَّ لِلْقُـرَّاءِ الْمُرَائِيْنَ][(١)]. وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: مَن كان يريدُ بعملهِ عِوَضاً من الدُّنيــا ولا يريـدُ بـه وجهَ اللهِ؛ أثابَهُ الله عليهِ من عَرَضِ الدُّنيا ما أحبَّهُ؛ ودَفَعَ منهُ فيها ما أحَبَّ.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ؛ أي قُومُـوا بــالعدلِ وقُولُــوا الحَــقَّ، والقَـوَّامُ بالقِسْطِ المستعملُ له على حَسْبَ ما يجبُ من إنصافهِ مـن نفسـه، وإنصـافِ كلِّ مظلومٍ من ظالِمِه، ومنعُ كلِّ ظالِمٍ من ظُلْمِهِ، ولفظُ القَوَّامِ لا يكون إلاَّ للمبالغةِ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٢ ص١٣٦: الحديث (١٢٨٠٣) عـن ابـن عبـاس عـن النبيِّ ﷺ قال: [إنَّ فِي جَهَنَّمَ لَوَادياً تَسْتَعِيذُ جَهَنَّمُ مِنْ ذَلِكَ الْوَادِي فِي كُلِّ يَوْمِ أرْبَعَ مِائَـةِ مَـرَّةٍ، أعِدَّ ذَلِكَ الْوَادِي لِلْمُرَائِينَ مِنْ أمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ: لِحَامِلِ كِتَابِ اللهِ، وَلِلْمُصَّدِّقِ فِـي غَـيْرِ ذَاتِ اللهِ، وَلِلْحُجَّاجِ إلَى بَيْتِ اللهِ، وَلِلْخَـارِجِ فِـي سَـبِيلِ اللهِ]. في مجمـع الزوائـد: ج ١٠ ص٢٢٢؛ قـال الهيثمي: ((رواه الطبراني عن شيخه يحيى بن عبدالله بن عبدويــه عـن أبيـه، ولم أعرفـهما وبقيـة رجاله رجال الصحيح)).

وَالْقِسْطُ وَالإِقْسَاطُ: الْعَـدْلُ، يقـالُ: أقْسَـطَ الرجـلُ إقْسَـاطاً إذا عـدَلَ، وَأتَـى بالْقِسْـطِ وَقَسَـطَ يَقْسِـطُ قِسْـطاً إذا جَـارَ، قـال اللهُ تعـالى: ﴿وَأقْسِـطُوا إنَّ اللهَ يُحِـبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1] أي اعدِلُوا، وقالَ تعالى: ﴿وَأمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبـاً﴾[2] أي الجائِرُون.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (شُهَدَاءَ للهِ) نُصِبَ على أحدِ ثلاثةِ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنه خبرٌ ثـانٍ، كما يقالُ: هذا حُلْوٌ حَامِضٌ. والثانِي: على الحال، كما يقالُ: هذا زيدٌ راكباً. والثالثُ: على أنه صِفَةُ الْقَوَّامِيْنَ، فإن قوَّامين نَكِرَةٌ، وشُـهَدَاءَ نَكِـرَةٌ، والنكـرةُ تنعـتُ بـالنَّكرةِ. ومعنى (شُهَدَاءَ للهِ) أي شَهِدُوا بالحقِّ للهِ على ما كان مِن قريبٍ أو بعيدٍ.

وَقِيْلَ: معنَى الآية: كُونُوا قَوَّامِيْـنَ بـالعدل في الشَّـهادةِ علـى مَـن كـانت وَلَـوْ عَلَىأنفُسِكُمْ أوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ في الرَّحِمِ؛ فأقِيمُوهـا عليـهم للهِ ولا تَخـافُوا غَنِيّـاً لِغِنَاهُ، ولا ترحَمُوا فقيراً لِفقْرِهِ؛ فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (إن يَكُن غَنِياً أو فَقَـيراً)؛ أي فـلا تَتْرُكُوا الحقَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَوْ عَلَى أنفُسِكُمْ) أي قولُوا الحقَّ وَلَوْ عَلَى أنفُسِـكُمْ، والشـهادةُ على النفسِ إقرارٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ الْوَالِدَيْـنِ وَالأَقْرَبِـينَ) أي علـى وَالِدِيكُـمْ وعلـى أقربائِكُم، وفي هذا بيانُ أنَّ شهادةَ الابن على الوالدين لا تكونُ عُقُوقاً، ولاَ يَحِـلُّ للابـن الامتناعُ عن الشهادةِ على أبَوَيْهِ؛ لأنَّ في الشهادةِ عليهما بالحقِّ مَنْعاً لَهما عن الظُّلْمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ ؛ معناهُ: إن يكـن المشهودُ عليه غَنِيّاً أو فقيراً فاللهُ أحقُّ بالغنيِّ والفقير مـن عبـادهِ مـن أحدِهـم بوالدَيـهِ وقَرَابَاتِهِ وأرحمُ وأرْأفُ، فَأقيمُوا الشهادةَ للهِ، لا تَميلُوا في الشهادَةِ رحمـةً للفقـير، ولا تقصدوا إقامتَها لاحتمال غِنى الغنيِّ؛ أي لأجلِ غِنَـاهُ، وعـن هـذا قـال ﷺ: [أنْصُـرْ أخَاكَ ظَالِماً أوْ مَظْلُوماً] قِيْلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ كَيْفَ يَنْصُرُهُ ظَالِماً ؟ قَالَ: [أنْ تَرُدَّهُ عَنْ ظُلْمِهِ فَإنَّ ذلِكَ نَصْرُهُ][3].

---

(١) الحجرات / ٩ . (٢) الجن / ١٥ .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير: الحديث (٥٧٦). والإمـام أحمـد في المسـند: ج ٣ ص٢٠١ و٣٢٣. والبخاري في الصحيح: كتاب المظالم: باب أعن أخاك: الحديـث (٢٤٤٣ و٢٤٤٤)، وفي كتاب الإكراه: الحديث (٦٩٥٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ ؛ معناهُ: ولا تتَّبعوا الهوَى لِتَعْدِلُوا، وهذا كما يقالُ: لاَ تَتَّبع الهوَى لِرضَى رَبكَ. ويُقَالُ: معناهُ: لا تَتَّبعُوا أنْ لا تعدِلُوا، ويقالُ: كراهةَ أنْ تعدلُوا، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿يُبَيِّـنُ اللهُ لَكُـمْ أنْ تَضِلُّـوا﴾[1] ويقالُ: معنى تَعْدِلُوا: تَمِيْلُوا من الْحَقِّ إلى الْهَوَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ ﴾ ؛ من قرأ (تَلْـوُوا) بواوَيـن فمعنـاهُ: أن تُمَاطِلُوا في إقامةِ الشَّهادةِ وتُقَلِّبُوا اللسانَ لتفسِدُوا الشهادةَ، أوْ تُعْرِضُوا عـن إقامـةِ الشَّهادةِ مأخوذٌ مِن لَوَى فُلاَنٌ فِـي دِيْنِـهِ؛ أي دَافَـعَ، ومنـه قولـهُ ﷺ: [لَـيُّ الْوَاجِـدِ ظُلْمٌ][2]. والمعنى: (إنْ تَلْوُوا) اللِّسَانَ لِتُحَرِّفُوا الشهادةَ لتبطلُوا الحقَّ، وتُعرِضُـوا عنـها فتكتمُوها ولا تقيمُوهـا عنـدَ الحكَّـام، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، مِـن إقامتِـها وكتمانِها، ﴿ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ .

ومن قرأ (تَلُـوا) بـواو واحـدة فـهو مِـن الولاَيَـةِ، معنـاهُ: إنْ أقمتُـمْ الشـهادةَ وأعرَضْتُم، وعن ابْنِ عبَّاس:(أنَّ الْمُرَادَ بالآيَةِ: الْقَاضِي؛ يَتَقَدَّمُ إلَيْهِ الْخَصْمَان، فَيُعْرِضُ عَنْ أحَدِهِمَا وَيُدَافِعُ فِي إمْضَـاءِ الْحَـقِّ؛ أوْ لاَ يُسَـوِّي بَيْنَـهُمَا فِـي الْمَجْلِسِ وَالنَّظَرِ وَالإشَارَةِ)[3]. وَلاَ يَمْنَـعُ أن يكـونَ المـرادُ بالآيـةِ القـاضي والشـاهدُ وعامَّـةَ النـاسِ؛ لاحتمال اللَّفظِ للجميعِ.

وعن رسول اللهِ ﷺ أنهُ قالَ عِنْدَ نُزُول هَذِهِ الآيَةِ: [مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَـوْمِ الآخِرِ فَلْيُقِمْ شَهَادَتَهُ عَلَى مَنْ كَانَتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْم الآخِـرِ فَـلاَ يَجْحَـدْ حَقّاً هُوَ عَلَيْهِ؛ وَلْيُؤَدِّيهِ عَفْواً وَلاَ يُلْجِؤهُ إلَى سُلْطَان وَخُصُومَةٍ فَلْيَقْطَعْ بهَا حَقَّهُ. وَأيُّمَا رَجُلٍ خَاصَمَ إلَيَّ فَقَضَيْتُ لَهُ عَلَى أخِيْهِ بِحَقٍّ لَيْسَ عَلَيْهِ فَلاَ يَأْخُذْ بـهِ؛ فَإنَّمَـا أقْطَـعُ لَـهُ قِطْعَةً مِنْ نَار جَهَنَّمَ][4].

---

(١) النساء / ١٧٦.

(٢) أخرجـه عبدالـرزاق في المصنـف: البيـوع: بـاب مطـل الغـني: الحديـث (١٥٣٥٥ و١٥٣٥٦). والبخاري في الصحيح: كتاب الحوالة: الحديث (٢٢٨٧).

(٣) أخرجـه الطـبري في جـامع البيـان: النـص (٨٤٠٩). وفي الـدر المنثـور: ج ٢ ص٧١٤؛ قـال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبـي حـاتم وأبـو نعيم في الحلية عن ابن عباس)).

(٤) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٣ ص٤٠٠.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ عن أبي صالح عن ابن عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ؛ وَأَسَدِ بْنِ كَعْبٍ وَأَخِيْهِ أُسَيْدٍ؛ وَثَعْلَبَةَ بْنِ قَيْسٍ؛ وَسَلاَمِ ابْنِ أُخْتِ عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ؛ وَسَلَمَةَ ابْنُ أَخِيْهِ؛ وَيَامِيْن بْنِ يَامِيْنَ، فَهَؤُلاَءِ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ، أَتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّا نُؤْمِنُ بكَ وَبكِتَابكَ وَبمُوسَى وَالتَّوْرَاةِ وَبعُزَيْرٍ، وَنَكْفُرُ بمَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [بَلْ آمِنُوا باللهِ وَبرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَبالرُّسُلِ كُلِّهِمْ وَبكِتَابهِ الْقُرْآنِ وَبكُلِّ كِتَابٍ أنْزَلَهُ اللهُ] قَالُوا: لاَ[1] نفْعَلُ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ[2]).

ومعناها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بمُحَمَّدٍ والقُرْآنِ ومُوسَى والتَّوراةِ (آمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ) مُحَمَّدٍ (وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أنزَلَ مِنْ قَبْلُ) يعني الكُتُبَ الْمُتَقَدِّمَةَ التَّوراةَ والإنْجِيْلَ والزَّبُورَ وسائرَ الكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ، ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ ؛ أي أخطأَ خطأً بَعِيْداً، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّا نُؤْمِنُ باللهِ وَبرَسُولِهِ وَالْقُرْآنِ؛ وَكُلِّ كِتَابٍ كَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ؛ وَكُلِّ رَسُولٍ كَانَ مِنْ قَبْلُ؛ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ، كما فَرَّقَتِ اليهودُ والنصارَى.

ومعنى الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا بموسَى والتوراةِ وعيسَى والإنجيلِ آمِنُوا بمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ. قال أبو العاليةِ وجماعةٌ من المفسِّرين: (هَذِهِ الآيَةُ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ، وَتَأْويْلُهَا: يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا آمِنُوا؛ أيْ أقِيْمُوا وَاثْبُتُوا عَلَى الإيْمَانِ). وقال بعضُهم: إنَّها خطابٌ للمنافقينَ؛ ومعناها: يا أيُّها الذينَ آمَنُوا في الْمَلأ آمِنُوا فِي الْخَلاءِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَنْ يَكْفُرْ باللهِ وَمَلائِكَتِهِ وكُتُبهِ وَرُسُلِه) أي من يَجْحَدْ بوحدانيَّةِ اللهِ تعالى وبملائكتهِ وكُتُبهِ ورسُلِهِ والبعثِ بعدَ الموتِ؛ فقد أخطَأَ خطأً بَعِيْداً عنِ الحقِّ والصواب.

---

(١) (لا) سقطت من المخطوط.

(٢) في الدر المنثور: ج ٢ ص٧١٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه الثعلبي عن ابن عباس)). في تفسيره. ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٧ ص٧١، أخرجه عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٣ ص٤٠١.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا ﴾ ؛ اختلفَ المفسِّرون في هذه الآيةِ، فَقِيْلَ: إنَّ المرادَ بهم اليهودُ. قال الكلبيُّ: (آمَنُوا بمُوسَى؛ ثُمَّ كَفَرُوا بَعْدَ مَوْتِهِ، ثُمَّ آمَنُوا بعُزَيْرٍ عليه السلام، ثُمَّ كَفَرُوا بَعْدَ عُزَيْرٍ بعِيْسَى عليه السلام، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً بمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ). وقال مقاتلُ: (آمَنُوا بمُوسَى عليه السلام، ثُمَّ كَفَرُوا بَعْدَ مَوْتِهِ، ثُمَّ آمَنُوا بعِيْسَى عليه السلام، ثُمَّ كَفَرُوا بَعْدَ مَا رُفِعَ إلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ أقَامُوا عَلَى كُفْرِهِمْ بمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ). وَقِيْلَ: آمنُوا بموسى عليه السلام، ثم كفرُوا بعدَه بعيسَى عليه السلام، ثم كفرُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ قبلَ أن يُبْعَثَ، ثُم كفروا به بعدَ ما بُعِثَ، ثم أقاموا على كفرهم. وقال قتادةُ: (آمَنَ الْيَهُودُ بمُوسَى ثُمَّ كَفَرُوا بِهِ بعِبَادَةِ الْعِجْلِ، ثُمَّ آمَنُوا بالتَّوْرَاةِ، ثُمَّ كَفَرُوا بَعْدَ ذلِكَ بعِيْسَى، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً بنَبيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي ما دَامُوا على كُفْرِهِم؛ ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾ ؛ أي ولا يُوَفِّقُهُمْ طَرِيقاً إلى الإسلامِ، ولكن يَخْذُلُهُمْ مُجازاةً لَهم على كُفْرِهم. فإنْ قيلَ: إنَّ الله لا يغفرُ كُفْرَ مرَّةٍ؛ فما الفائدةُ في قوله (ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا)؟ قِيْلَ: إنَّ الكافرَ إذا آمَنَ غُفِرَ لَهُ كفرُه، فإذا كَفَرَ بعد إيْمانهِ لم يُغْفَرْ لهُ كفرُه الأول، وهو مُطَالَبٌ بجَمِيْعِ كُفْرِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ ؛ خَوِّفِ المنافقين عَبْدَاللهِ بْنَ أُبَيٍّ وأصحابَه، ومن يكونُ على سبيلِهم إلى يومِ القيامةِ بأنَّ لَهم عذاباً وَجِيْعاً يخلصُ وجعه إلى قلوبهم.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أي همُ الذين يتَّخذونَ اليهودَ أحبَّاء في العَوْنِ والنُّصْرَةِ من دون المؤمنينَ المخلصين الموحِّدين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ ؛ هذا استفهامٌ بمعنى الإنكار؛ أي كيفَ يطلبون عند الكفَّار العزَّة وهم أذلاَّءُ في حُكْمِ اللهِ تعالى، ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ ؛ أي فإنَّ القوةَ والْمَنَعَةَ للهِ جميعاً، فمن أرادَ طَلَبَ العزَّةِ فليطلُبْها من اللهِ تعالى؛ لأنه المقدِّرُ بجميع مَن لهُ العزَّةُ مِن خلقهِ لِجميع العزَّةِ لَهُ.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٤١٧ و٨٤١٨).

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾ ؛ أي قد نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْقُرْآنِ سُورَةَ الأَنْعَامِ بمَكَّةَ أنْ إذا سَمِعْتُم آيَاتِ اللهِ يُجْحَدُ بها، وَيُسْخَرُ مِنْهَا فلا تَجْلِسُوا مَعَهُمْ حتَّى يكونَ خَوْضُهُمْ في حديثٍ غيرِ الْقُرْآن، وأرادَ بذلك المذكورَ في الأنعامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وإذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ ؛ أي من جَالَسَهُمْ راضياً بما هُم عليه من الكُفْرِ والاستهزاءِ بآيَاتِ الله فهو مِثْلُهُمْ في الكُفْرِ؛ لأن الرِّضَا بالكفر والاستهزاء كُفْرٌ، ومَن جَلَسَ معهُم سَاخِطاً لذلكَ منهم لم يَكْفُرْ، ولكنه يكونُ عاصِياً بالقعودِ معهم؛ فيكونُ معنى قولهِ تعالى: (إنَّكُمْ إذًا مِثْلُهُمْ) أي في أصْلِ العِصْيَان وإن لم تبلُغْ معصيةُ المؤمنين معصيةَ الكفَّار، إذا لم يكن جلوسُ المؤمنينَ معهم لإقامةِ فَرْضٍ أو سُنَّةٍ، أما إذا كان جلوسُه هنالكَ لإقامةِ عبادَةٍ وهو سَاخِطٌ لتلكَ الحال لا يقدرُ على تغييرِها، فلا بأسَ بالجلوس. كما روي عن الحسن: (أنَّهُ حَضَرَ هُوَ وَابْنُ سِيْرِيْنَ جِنَازَةً وَهُنَاكَ نَوحٌ[2]؛ فَانْصَرَفَ ابْنُ سِيْرِيْنَ؛ فَذَكَرَ ذلِكَ لِلْحَسَنِ فَقَالَ: إنَّا كُنَّا مَتَى رَأَيْنَا بَاطِلاً تَرَكْنَا حَقّاً؛ أسْرَعَ ذلِكَ فِي دِيْنِنَا!).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ ؛ أي يَجْمَعُهُمْ فِي جهنَّم مجازاةً لَهم لاجتماعهم في الدُّنيا للاستهزاءِ، فمَن شاءَ لا يكونُ معهم في جهنَّم فلا يكونُ معهم في الدُّنيا.

---

(١) الأنعام / ٦٨.

(٢) نوحُ بن أبي مريم، واسمه ماقبة، ويعرف بنوح الجامع، كان أبوه مجوسياً، وإنما سمي الجامع؛ لأنه أخذ الفقه عن أبي حنيفة وابن أبي ليلى، والحديث عن أرطاة وطبقته، والمغازي عن ابن إسحق، والتفسير عن الكلبي ومقاتل، وكان مع ذلك عالماً بأمور الدنيا، فسمي الجامع. وأدرك الزهري وابن المنكدر، وكان يدلس عنهما، واستقضى على مرو وأبو حنيفة حيٌّ. نقل ابن حجر في ترجمته (٧٤٩٠) قال: إنه لم يوثقه أحد. وفي الكامل في ضعفاء الرجال: ج ٨ ص٢٩٢: الترجمة (٢٢/ ١٩٧٥)؛ قال ابن عدي: ((سئل ابن المبارك عن نوح بن أبي مريم فقال: هو يقول: لا إله إلا الله)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾؛ أي هم الذين يَنْتَظِرُونَ بكم الدَّوَائِرَ، ويرامون أحوالَكم يعني المنافقين، والْمُتَرَبصُ لِلشَّيْءِ: هُوَ الْمُتَوَقِّعُ لأَسْبَابه، ويسمَّى الْمُحْتَكِرُ مُتَرَبصاً لِتَوَقُّعِهِ غلاءَ السِّعر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي اذا كان لكم ظَفَرٌ ودَوْلَةٌ وغَنِيْمَةٌ، ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾؛ أي قالَ المنافقون: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ على دِينِكم فَأعطُونا من الغنيمةِ، ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾؛ أي ظُهُورٌ على المسلمين؛ ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي قالَ المنافقون: أَلَمْ نُخْبِرْكُمْ بعَزِيْمَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وأصحابه، ونُطْلِعْكُم على سِرِّهِمْ ونكتُبْ ذلكَ إليكُم ونحذِّرْكُم عنهُم ونُجِبْهم عنكُم ونُوَاليكُم، ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ فاللهُ يقضِي بينَ المؤمنين والمنافقينَ والكفار ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾؛ أي لم يجعلِ اللهُ لليهود ظُهُوراً على المؤمنينَ.

وَقِيْلَ: السبيلُ: الْحُجَّةُ، ولن يجعلَ اللهُ للكافرين مِن اليهودِ وغيرهم حُجَّةً على المسلمينَ في الدُّنيا والآخرةِ، وَقِيْلَ: معنى السَّبِيْلِ: الدَّوْلَةُ الدَّائِمَةُ. وَقِيْلَ: معناهُ: لن يُدْخِلَ اللهُ الكافرين الجنةَ؛ فيقولون للمؤمنين: ما أغْنَى عنكُم تَعَبُكُمْ في الدُّنيا، وما ضَرَّنَا كُفْرُنَا بعد أن تَسَاوَيْنَا.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾؛ أي يُخَادِعُونَ أولياءَ اللهِ بإظهارهم الإيْمان وإبطانِهم الكفرَ؛ ليحقِنُوا بذلك دماءَهم ويشاركُوا المسلمين في غنائمِهم، وجعلَ اللهُ مُخَادَعَةَ أوليائهِ مخادعةً لهُ كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهُوَ خَادِعُهُمْ) أي مُجَازِيْهِمْ جزاءَ أعمالِهم؛ وذلكَ أنَّهم على الصِّراطِ يُعْطَوْنَ نُوراً كما يعطَى المؤمنونَ؛ فإذا مَضَوا بهِ على الصِّراطِ طُفِئَ نورُهم، ويبقى المؤمنون ينظُرُون بنورهم، فينادُون المؤمنينَ: انْظِرُونَا نَقْتَبِسْ من نوركم، فيناديهم الملائكةُ على الصِّراطِ: ارجعوا وراءَكم فالتمسُوا نوراً، وقد علمُوا أنَّهم لا

(١) الفتح / ١٠ .

يستطيعون الرجوعَ، قال: فيخافُ المؤمنونَ حينئذٍ أن يُطْفَأَ نورُهم، فيقولون: ربَّنَا أتْمِمْ لنا نورَنا، واغْفِرْ لنا إنَّكَ على كُلِ شيءٍ قديرٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ؛ يعـني المنـافقينَ؛ ﴿ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ ؛ أي مُتَثَاقِلِيْنَ لا يريـدون بـها وَجْـهَ اللهِ تعـالى، ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ ولا يريـدُون الصـلاةَ إلاّ مُـرَاءَةً للنـاس خَوْفـاً منـهم، ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ ؛ أي لا يُصَلُّونَ للهِ إلاّ قليلاً رياءً وسُمْعَةً، ولو كـانوا يريـدون بذلـكَ القليلِ وجهَ اللهِ لكانَ كثيراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ نصبَ على الذمِّ؛ ومعنـاهُ: مُـتَرَدِّدِيْنَ بين كُفْرِ السِّرِّ وإيْمانِ العلانيةِ، ليسُوا من المؤمنين فيجـبُ لَـهم مـا يجبُ للمسـلمين؛ وليسُوا من الكفَّار فيَجبُ عليهم ما يجبُ على الكفَّار. وَقِيْـلَ: معناهُ: مُتَحَيِّرِيْنَ بـين الكفرِ والإيْمان، ﴿ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ أي ليسُوا مـن المؤمنـينَ فيجـبُ عليهم ما يجبُ عليهم، وليسُوا من الكفَّار فيؤخَذُ منهم ما يؤخذُ من الكفَّار؛ أي ما هُم بمؤمنين مُخلصين، ولا مشركينَ مصرِّحين بالشِّركِ.

وكان ﷺ يَضْرِبُ مَثَلاً لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُنَافِقِيْنَ وَالْكَافِرِيْنَ كَمَثَلِ ثَلاَثَةٍ دُفِعُوا إلَـى نَهْرٍ؛ فَقَطَعَهُ الْمُؤْمِنُ؛ وَوَقَفَ الْكَافِرُ؛ وَنَزَلَ فِيْهِ الْمُنَافِقُ، حَتَّى إذا تَوَسَّطَهُ عَجَزَ؛ فَنَـادَاهُ الْكَافِرُ: هَلُمَّ إلَيَّ لاَ تَغْرَقْ، وَنَادَاهُ الْمُؤْمِنُ: هَلُمَّ إلَيَّ لِتَخْلُصَ. فَمَا زَالَ الْمُنَافِقُ يَـتَرَدَّدُ بَيْنَهُمَا حَتَّى إذا أتَى عَلَيْهِ مَاءٌ فَغَرَّقَهُ، فَكَانَ الْمُنَافِقُ لَمْ يَزَلْ فِي شَكٍّ حَتَّى يَأْتِيْهِ الْمَوْتُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ ؛ أي من يَخْذُلْهُ اللهُ عـن الْهُدى، فلن تَجِدَ له يا مُحَمَّدُ طريقاً إلى الْهُدَى.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أي لا تفعلُوا أيُّها المؤمنـونَ كفعـلِ المنـافقين، ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾ ؛ أي أتُريدُونَ أنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ حجَّـةً ظـاهرةً توجِبُ العقوبةَ عليكم في الدُّنيـا والآخـرةِ. والسُّـلْطَانُ في اللغـة: هُـوَ الْحُجَّـةُ؛ يقـالُ للأميرِ: سُلْطَانٌ؛ يرادُ بذلك أنه حُجَّةٌ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي في الطَّبَقِ الأسفلِ؛ وهي الْهَاوِيَةُ لِمَكْرِهِمْ وخيانتهم للنبيِّ ﷺ مع إبْطَانِ الكُفر، قال أبو عُبيد: (جَهَنَّمُ أدْرَاكٌ مَنَازِلٌ، كُلُّ مَنْزِلَةٍ مِنْهُ دَرْكٌ). ومن قرأ (الدَّرْكِ) بإسكان الرَّاء، وهو لغةٌ؛ وأكثرُ القرَّاء على فتحِها. والدَّرَكَاتُ في النَّار مثلُ الدرجَاتِ في الجنَّة، كل ما كان من درجاتِ الجنَّة أعلَى؛ فثوابُ مَن فيه أعظمُ، وما كان من دَرَكَاتِ النار أسفلَ؛ فعقابُ مَن فيه أشَدُّ. وسُئل ابنُ مسعودٍ عن الدَّرْكِ الأسْفَلِ؛ فقالَ: (هُوَ تَوَابيْتُ مِنْ حَدِيْدٍ؛ مُبْهَمَةٌ عَلَيْهِمْ لاَ أبْوَابَ لَهَا)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ ؛ أي مانعاً يَمنع عنهُم العذابَ، وعن عبدِالله بن عمرَ؛ (أنَّ أشَدَّ النَّاسِ عَذاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاَثَةٌ: الْمُنَافِقُونَ؛ وَمَنْ كَفَرَ مِنْ أصْحَابِ الْمَائِدَةِ؛ وَآلُ فِرْعَوْنَ). قال اللهُ تعالى في أصحاب المائدة: ﴿فَإنِّي أعَذِّبُهُ عَذابًا لا أعَذِّبُهُ أحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[٢] وقالَ: ﴿أدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ الْعَذَابِ﴾[٣] وقالَ: ﴿إنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.

فإن قِيْلَ: مَا وجهُ التَّوْفِيْقِ بين هذه الآيةِ وبينَ قولهِ تعالى: ﴿أدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ الْعَذابِ﴾ ؟ قِيْلَ: لا يَمتنعُ أن يجتمعَ القومُ في موضعٍ واحد ويكون عذابُ بعضِهم أشدَّ من عذاب بعضٍ، ألا ترَى أن البيتَ الداخلَ في الحمَّامِ يجتمعُ فيه الناس، فيكون بعضُهم أشدَّ أذىً بالنار؛ لكونه أدنَى إلى موضعِ الوَقُودِ. وكذلك يجتمعُ القوم في القعودِ في الشَّمس، ويتأذى الصَّفْرَاويُّ منها أشدُّ وأكثر من تأذِّي السَّوْدَاويِّ.

والْمُنَافِقُ في اللغة: مأخوذ من النَّفَقِ؛ وهو السِّرْبُ؛ أي استَتَرَ بالإسلامِ كما يَسْتَتِرُ الرجلُ بالسِّرْب. وَقِيْلَ: هو مأخوذٌ من قولِهم: نَافَقَ الْيَرْبُوعُ؛ إذا دخل نَافِقَاءَهُ؛ فإذا طُلِبَ من النَّافِقَاءِ خرج من النافقاء؛ والنُّفْقَاءُ؛ والقَاصِعَةُ؛ والرَّاهِطَاءُ؛ وَالدَّامَّاءُ حُجْرَةُ اليربوعِ[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٤٥٣).

(٢) المائدة / ١١٥.

(٣) غافر / ٤٦.

(٤) النَّفَقُ: سَرَبٌ في الأرضِ، مشتَقٌّ إلى موضعٍ آخر، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تَبْتَغِي نَفَقاً=

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أي إلا الذين تَابوُا من النِّفَاق، وأصلحُوا العملَ فيما بينهم وبين ربهم وتَمسَّكوا بتوحيدِ الله ودِينه، ﴿ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ ﴾ ؛ وأخلصُوا توحيدَهم وعملَهم، ﴿ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي أخلصُوا ذلك من شَوْب الرِّيَاءِ، وطلب عَرَضِ الدُّنيا، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ في الجنَّة والثواب، لا يضرُّهم النفاقُ السابق إذا أصلَحُوا وتابُوا. قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ؛ وهو الجنَّة.

ولَمَّا حُذِفَتِ الياءُ من (يُؤْتَ) في الخطِّ، كما حذفت في اللفظ بسكونِها وسكون اللام في اسم اللهِ، فكذلكَ ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[1] و﴿يَدْعُ الدَّاعِي﴾[2]. ويحتملُ أن يكون معنَى الآيةِ: بَيَانُ زيادةِ الثواب لِمَنْ يَسْبِقُ منه كفرٌ ولا نفاق، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أجْرًا عَظِيمًا). (وَسَوْفَ) كلمة تَرْجِيَةٍ وإطْمَاعٍ؛ وهي من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إيجابٌ؛ لأنه أكرمُ الأكرمِين، وَوَعْدُ الكريمِ إنجازٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ ؛ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ المنافقين هم الذينَ أوقعُوا أنفسَهم في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار، واستحقُّوا ذلك بنفاقِهم، وإنه ليسَ في حكمةِ الله تعذيبُ مَن شَكَرَ وآمَنَ، وإنَّما في حكمتهِ أن

=﴿فِي الأَرْضِ﴾ والجمع النِّفَاقُ. والنَّفَقَةُ والنَّافِقَاءُ: جُحر الضبِّ واليربوعِ. فهو سَرَبٌ في الأرضِ له مَخْلَصٌ إلى مكانٍ آخر. وَقِيْلَ: النَّفقَةُ والنافقاءُ: موضعٌ يرقِّقُه اليربوعُ في جُحره، فإذا أتي من قِبَلِ القَاصِعَاءِ ضربَ النافقاءَ برأسهِ فانتفقَ منها. وبعضهم يسميه النُّفَقَةُ.

ولليربوع جحرٌ آخر يقال له: القَاصِعَاءُ؛ فإذا طُلب قَصَّعَ فخرجَ من القاصعاءِ، فهو يدخلُ النافقاءَ ويخرجُ. وَقِيْلَ: إن قُصَعَةَ اليربوعِ أن يحفرَ حفيرة ثم يسدُّ بابَها بتُرابها، ويسمى ذلك الترابُ الدَّامَّاءُ، ثم يحفرُ حَفْرًا آخر يقال له: النَّافِقَاءُ والنفقةُ والنفَقُ، فلا ينفذُها ولكنه يحفِرُها حتى ترقَّ، فإذا أُخِذَ عليه بقَاصِعَائِهِ غَدَا إلى النَّافِقَاءِ فضربَها برأسهِ ومَرَقَ منها؛ وترابُ النُّفقة يقال له: الرَّاهِطَاءُ.

قاله الأزهري في تهذيب اللغة: مادة (نفق): ج ٩ ص١٥٦. وابن سيده في المحكم: ج ٦ ص٤٤٧-٤٤٨.

(١) العلق / ١٨.

(٢) القمر / ٦.

يَجْزِيَ كلَّ عامل بما عَمِلَ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا يَفْعَلُ اللهُ بعَذابكُمْ) أي ما حَاجَتُهُ إلى تعذيبكم أيُّها المنافقونَ إن وحَّدتُم في السِّرِّ وصدَقتُم في إيْمانكم.

ويقالُ معنى: (إنْ شَكَرْتُمْ) نِعَمَ اللهِ (وَآمَنْتُمْ) بهِ وبكتبه ورُسُلهِ. وَقِيْلَ: فيه تقديمٌ وتأخير؛ أي إن آمنتُم وشكرتُم؛ لأنَّ الشُّكْرَ لا يقعُ مع عدمِ الإيْمان. وبيَّنَ اللهُ تعالى أن تعذيبَ عبادهِ لا يزيدُ في مُلْكِهِ، وأن تركَ عقوبتِهم على فعلهم لا يُنْقِصُ من سُلْطَانِه.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ ؛ أي شَاكِراً للقليلِ من أعمالكم؛ مُثِيْباً عليها؛ يقبلُ اليَسِير؛ ويعطي الجزيلَ عليها بأضعافِها لكم؛ واحدةٌ إلى عشرةٍ إلى سبعمائة إلى ما شاءَ اللهُ من الأَضْعَافِ. والشُّكرُ من العبدِ: هو الاعترافُ بالنِّعمة الواصلةِ إليه مع صِدْقٍ من التَّعظيمِ، والشُّكْرُ من اللهِ تعالى: هو مجازاتُهُ العبدَ على طاعتهِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ ؛ قال ابن عبَّاس: (مَعْنَاهُ: لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بالدُّعَاءِ الشَّرِّ عَلَى أحَدٍ إلاَّ أنْ يُظْلَمَ فِيْهِ؛ فَيَدْعُو عَلَى ظَالِمِهِ فَلاَ يُعَابُ عَلَى ذلِكَ، وَهُوَ مَأْذُونٌ لَهُ فِي أنْ يَشْكُو ظَالِمَهُ وَيَدْعُو عَلَيْهِ)[١].

ويقالُ: (إلاَّ مَنْ ظُلِمَ) استثناءٌ منقطع؛ معناهُ: لكن المظلومُ يجهر بظَلاَمَتِهِ تَشَكِّياً. وفي تفسير الحسن: (لاَ يُحِبُّ اللهُ الْمُشَتِّمَ فِي الانْتِصَار إلاَّ مَنْ ظُلِمَ، فَلاَ بَأْسَ لَهُ أنْ يَنْتَصِرَ مِمَّنْ ظَلَمَهُ بمَا يَجُوزُ لَهُ الانْتِصَارُ بهِ فِي الدِّيْن). ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾[٢]. قال الحسنُ: (لاَ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ ((إذا قِيْلَ لَهُ))[٣]: يَا زَانِي، أنْ يَقُولَ بمِثْلِ ذلِكَ أوْ نَحْوِهِ مِنْ أنْوَاعِ الشَّتْمِ). وقال مجاهدُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الضَّيْفِ إذا لَمْ يُضَفْ وَمُنِعَ حَقَّهُ، فَقَدْ أذِنَ لَهُ أنْ يَشْكُو)[٤]، وَالضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أيَّام.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٤٥٩).

(٢) الشعراء / ٢٢٧.

(٣) ((إذا قِيْلَ له)) ليس من المخطوط.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٤٦٦) بألفاظ وأسانيد.

ومن قرأ (إلاَّ مَنْ ظَلَمَ) بنصب الظّاء، فمعناهُ: لكن الظالِمُ يجهرُ بذلك ظُلماً واعتداءً. وَقِيْلَ: لكن الظالِمُ إجْهَرُوا له بالسُّوءِ من القول. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾؛ أي (سَمِيْعاً) لدُعاءِ الْمَظْلُومِ؛ (عَلِيْماً) بعقوبةِ الظالِم. ويقالُ: (سَمِيْعاً) لجميع المسمُوعات؛ (عَلِيْماً) لجميع المظلُومات. فقولهُ تعالى: (إلاَّ مَنْ ظُلِمَ) في موضعِ نصبٍ على الاستثناء المنقطعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾؛ معناه: إنْ تُظْهِرُوا خيراً أو تُسِرُّوهُ أو تعفُوا عن مَظْلَمَةٍ ظُلِمْتُمْ بها؛ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا. العَفُوُّ: كَثِيْرُ الْعَفْوِ من غيرِ حَصْرٍ، والقديرُ والقادر بمعنى واحدٍ؛ أي أنَّ اللهَ قادرٌ على العقوبة به، ثم يعفُو عن عبادهِ مع قدرته على الانتقام. وَقِيْلَ: معنىَ الآية: إن تَرُدُّوا جواباً حَسَناً أو تَسْكُتُوا عن الظالِم ولا تُحَقِّرُوهُ ولا تؤاخذوه بظُلْمِهِ؛ فإن يُعفَ عن الظالِم[1] ذنوبُهُ؛ فإن عَفْوَ اللهِ عن معاصيكم أكثرُ من عفوكم عمن ظلمَكم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾؛ نزلت هذه الآية في اليهودِ والنَّصارى؛ آمنتِ اليهودُ بموسى والتوراةِ؛ وكفرَتْ بعيسى والإنجيلِ، وآمنَتِ النصارَى بعيسى والإنجيلِ؛ وكفرت بموسى والتوراة وبمُحَمَّدٍ والقُرْآنِ؛ وكلُّهم كفَرَ بمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ، فأعْلَمَ اللهُ: أنْ ليسَ من الإيْمان بالبعضِ، والكفرِ بالبعضِ دينٌ يُتَّخَذُ ذلك طريقاً.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾؛ أي أهلُ هذه الصِّفة هُمُ الْكَافِرُونَ البتَّةَ، وانتصبَ قولهُ (حَقًّا) على المصدر، والفائدةُ في قوله: (حَقًّا) بيانُ أنَّ إيْمانهم بالبعضِ لا ينفعُهم، ولا يسلبُ اسمَ الكفرِ عنهم.

---

(١) في المخطوط: (المظلوم).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ ؛ يعني في الإيْمان والتصديق؛ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ ؛ أي ثوابَهم، وسُمِّي الثوابُ أجراً؛ لأنه مُسْتَحَقٌّ كالأجرة، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي يسألك يا مُحَمَّدُ كعبُ بنُ الأشرفِ وجماعةٌ من اليهود أنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ جُمْلَةً واحدةً كما أُنْزِلَتِ التوراةُ على موسى، وهذا حينَ قالوا للنبيِّ ﷺ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي لا تَعْجَبْ من مسألَتِهم إنزالَ الكتاب من السماء بعد أن جاءَتْهُم البيِّنات على نبوَّتك، فإنَّهم سألُوا موسى بعدما رَأوا الآياتِ أعظمَ من ذلك، ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ؛ أي مُعَايَنَةً ظاهرةً مكشفةً؛ وهم السَّبعون الذين كانوا معه عند الجبلِ حين كلَّمَهُ اللهُ، فسألوهُ أن يَرَوا ربَّهم رؤيةً يدركونهُ بأبصارهم في الدُّنيا. وقال أبو عُبيد: (مَعْنَى الآيَةِ: قَالُوا جَهْرَةً أرِنَا اللهَ) فَجَعَلَ جَهْرَةً صِفَةً لِقَوْلِهِمْ؛ قَالَ: (لأَنَّ الرُّؤْيَةَ لاَ تَكُونُ إلاَّ جَهْرَةً). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ ؛ أي أخذتْهُم النارُ عقوبةً لَهم بسؤالِهم موسى ما لَمْ يستحقُّوه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ ؛ أي عَبَدُوا العجلَ من بعد ما جاءتْهُم الدَّلالاتُ على توحيدِ الله، وفي هذا بيانُ جَهْلِ اليهودِ وتَعَنُّتِهِمْ وعِنَادِهِمْ، وأيُّ جَهْلٍ أعظمُ من اتِّخَاذِ العِجْلِ إلَهاً، بعد ظُهُور المعجزاتِ وثُبُوتِ الآيات البيِّنات.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي تَجَاوَزْنَا عنهم بعد توبتِهم مع عِظَمِ جنايتِهم وجريْمَتهم ولم نَسْتَأْصِلْهُمْ، دلَّ اللهُ تعالى بذلكَ على سَعَةِ رحمتِهِ ومغفرتِه وتَمام نِعْمَتِهِ ومِنَّتِه، بيَّنَ ذلك أنهُ لا جريْمَة تضيقُ عنها مغفرةُ اللهِ، وفي هذا مَنْعٌ من القُنُوطِ واستدعاءٌ إلى التوبة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾ ؛ أي أعطيناهُ حُجَّةً على مَن خالفَهُ بيِّنةً ظاهرةً؛ وهي اليَدُ والعصَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾ ؛ أي ورفعنَا فوقَ رؤوسِهم الجبلَ بإقرارهم باللهِ وبنبوَّة موسَى، وذلك حين أبَوا قَبُولَ التَّوراةِ، فرفعَ اللهُ فوقَهم الطُّورَ، فقبلُوها فَخَرُّوا سُجَّداً، فرفعَ اللهُ الطُّورَ عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ ؛ أي قلنا لَهم: ادخلُوا بابَ أريْحَا إذا دخلتمُوها خاشعينَ للهِ مُنْحَنِيَةً أصلابُكم، فدخلوا زَحْفاً وبدَّلُوا ما قِيْلَ لَهم. ويقالُ: أراد بالباب: البابَ الذي عَبَدُوا فيه العِجْلَ، أمَرَهُم اللهُ أن يدخلوه بعدَ تَوْبَتِهِمْ عن عبادةِ العِجْلِ ساجدين للهِ عَزَّ وَجَلَّ، فيصيرُ ذلك كفَّارَةً لعبادةِ العجل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ ؛ أي قُلْنَا لَهم مع هذا أيضاً: لا تَسْتَحِلُّوا أخْذ السَّمَكِ في يوم السَّبتِ. ومن قرأ (لاَ تَعَدُّوا) بتشديد الدَّال؛ فأصلهُ: لا تَعْتَدُوا؛ فأُدْغِمَتِ الدالُ في الدال وأقيمَ التشديدُ مقامه. والقراءةُ بالتخفيف من عَدَا يَعْدُو عُدْوَاناً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾ ، أي إقْرَاراً وثيقاً شَدِيداً يعني العَهْدَ الذي أخذهُ الله في التَّوراةِ فَأَبَوا إلاَّ مُضِيّاً على المعصيةِ وخُرُوجاً عن الطاعةِ استخفافاً بأمرِ الله.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ؛ أي فَبِنَقْضِهِمُ الميثاقَ الذي أخِذ عليهم في التَّوراةِ وبِجَحْدِهِمْ القُرْآنَ والإنْجِيْلَ وبِما في التَّوراةِ من نَعْتِ الإسلامِ وصِفَةِ النبيِّ ﷺ وقتلِهم الأنبياءَ بغيرِ جُرْمٍ، ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ؛ أي في أوْعِيَةٍ لا تَعِي شيئاً، يقولُ الله تعالى: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ ؛ أي ليسَ كما قالُوا، ولكن خَتَمَ اللهُ على قلوبهم مجازاةً على كفرهم، ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾ ؛ أي إلاَّ إيْماناً قليلاً لا يَجِبُ أن يسمَّوا به مؤمنين، فذلك أنَّهم آمنُوا ببعضِ الرُّسُلِ والكتُب دون البعضِ.

وقال الحسنُ: (فِي هَذا تَقْدِيْمٌ وَتَأْخِيْرٌ؛ مَعْنَاهُ: بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بكُفْرِهِمْ إلاَّ قَلِيْلاً فَلاَ يُؤْمِنُونَ، وَالْمُرَادُ بالْقَلِيْلِ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وَمَنْ تَابَعَهُ). أما دخولُ (مَا) في قولهِ تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ) فمعناه التأكيدُ؛ كأنه قالَ: فَبِنَقْضِهِمُ الْعَهْدَ، وجوابُ قولهِ تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ) مضمرٌ في الآية؛ تقديرهُ: فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيْثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ، هذا لأنَّ أولَ الآيةِ ذمٌّ على الكفرِ، ومَن ذمَّهُ اللهُ فقد لَعَنَهُ، يعني مَن ذمَّهُ على الكُفْرِ. ويقالُ: إن

الجالبَ للباقي قولَهُ: ﴿فبمَا﴾ قولُهُ تعالى مِنْ بَعْدُ ﴿فبظُلْم مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ فقوله تعالى (فَبظُلْم) بدلٌ من (فَبمَا نَقْضِهِمْ)، وجوابُهما جميعاً ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ﴾.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ ؛ عَطْفٌ على ما تقدَّم؛ أي وَبجَحْدِهِمْ عِيْسَى وَالإنْجِيْلَ وَمُحَمَّداً ﷺ وَرَمْيِهِمْ مَرْيَمَ بالزِّنَا؛ وَهُوَ الْبُهْتَانُ الْعَظِيْمُ.

وذلك: أنَّ عِيْسَى ﵇ اسْتَقْبَلَ رَهْطاً مِنَ الْيَهُودِ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَدْ جَاءَ السَّاحِرُ بْنُ السَّاحِرَةِ؛ وَالْفَاعِلُ بْنُ الْفَاعِلَةِ، فَقَذفُوهُ وَأمَّهُ، فَلَمَّا سَمِعَ بذلِكَ عِيْسَى، قَالَ: اللَّهُمَّ أنْتَ رَبي وَأنَا عَبْدُكَ؛ بقُدْرَتِكَ خَرَجْتُ وَبكَلِمَتِكَ خَلَقْتَنِي، وَلَمْ آتِهِمْ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، اللَّهُمَّ الْعَنْ مَنْ سَبَّنِي وَسَبَّ وَالِدَتِي. فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ وَمَسَخَ ذلِكَ الرَّهْطَ الَّذِيْنَ سَبُّوهُ وَسَبُّوا أمَّهُ خَنَازِيْرَ، وكَانُوا رَمَوا أمَّهُ بيُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ مَاثَانَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا مُسِخَ الرَّهْطُ الَّذِيْنَ سَبُّوا عِيْسَى وَأمَّهُ، فَمَسَخَ اللهُ مَنْ سَبَّهُمَا قِرَدَةً وَخَنَازِيْرَ؛ فَزعَتِ الْيَهُودُ وَخَافَتْ دَعْوَتَهُ؛ فَاجْتَمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ؛ فثَارُوا إلَيْهِ لِيَقْتُلُوهُ؛ فَهَرَبَ مِنْهُمْ وَدَخَلَ بَيْتاً فِي سَقْفِهِ روْزَنَةٌ- أيْ كُوَّةٌ- فَرَفَعَهُ جِبْرِيْلُ ﵇ إلَى السَّمَاءِ؛ وَأمَرَ يَهُودِيّاً مَلِكُ الْيَهُودِ رَجُلاً يُقَالُ لَهُ طِيْطَانُوسُ أنْ يَدْخُلَ الْبَيْتَ فَيَقْتُلَهُ؛ فَدَخَلَ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَألْقَى اللهُ عَلَيْهِ شَبَهَ عِيْسَى ﵇، فَلَمَّا خَرَجَ إلَى أصْحَابهِ قَتَلُوهُ وَهُمْ يَظُنُّونَ أنَّهُ عِيْسَى، ثُمَّ صَلَبُوهُ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَتَلْنَاهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ وَجْهَهُ وَجْهُ عِيْسَى وَجَسَدَهُ جَسَدُ صَاحِبنَا، فَإنْ كَانَ هَذا عِيْسَى فَأيْنَ صَاحِبُنَا ؟ وَإنْ كَانَ هَذا صَاحِبُنَا فَأيْنَ عِيْسَى؟ فَاشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وَاخْتَلَفُوا فِيْهِ، ثُمَّ بُعِثَ عَلَيْهِمْ طَاطُوسُ بْنُ اسْتِيبَانْيُوسَ الرُّومِيُّ فَقَتَلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيْمَةً).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (رَسُولَ اللهِ) قَولُ اللهِ خاصَّة لا قَولَ اليهودِ، وكانت اليهودُ تقول: عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ، قال اللهُ تعالى: (رَسُولَ اللهِ) أي يَعْنُونَ الذي هو رَسُولُ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي وما قتلوا عيسَى وما صَلَبُوهُ ولكن ألْقَى اللهُ على طِيْطَانُوسُ شَبَهَ عِيْسَى فقتلوهُ؛ ورُفِعَ عِيْسَى إلى السَّماءِ. قال الحسنُ: (إنَّ عِيْسَى عليه السلام قَالَ لِلْحَوارِيِّيْنَ: أيُّكُمْ يَرْضَى أنْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي فَيُقْتَلَ فَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ؛ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْحَوَارِيِّيْنَ فَقَالَ: أنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَألْقَى اللهُ عَلَيْهِ شَبَهَ عِيْسَى؛ فَقُتِلَ وَصُلِبَ، وَرَفَعَ اللهُ عِيْسَى إلَى السَّمَاءِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ ؛ أي مِنْ قَتْلِهِ، قال الكلبيُّ: (اخْتِلاَفُهُمْ فِيْهِ: أنَّ الْيَهُودَ قَالُواْ: نَحْنُ قَتَلْنَاهُ وَصَلَبْنَاهُ، وَقَالَ طَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَى: بَلْ نَحْنُ قَتَلْنَاهُ وَصَلَبْنَاهُ، فَمَا قَتَلَهُ هَؤُلاَءِ وَلاَ هَؤُلاَءِ، بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إلَيْهِ إلَى السَّمَاءِ).

ويقال: إنَّ الله تعالى لَمَّا ألقَى شَبَهَ عيسَى على طيطيانوسُ ألقاهُ على وجههِ دون جَسَدِهِ، فلمَّا قَتَلُوا طيطيانوس؛ نَظَرُوا إليهِ فإذا وجههُ وجهُ عيسَى وجسَدُه غيرُ جَسَدِ عيسَى، فقالوا: إن كان هذا عيسَى، فأينَ صاحبُنا؟ وإن كانَ صاحِبُنا فأينَ عيسَى؟ فقال اللهُ تعالى: ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ ﴾ ؛ نعتٌ كمصدرٍ محذوف تقديرهُ: وَمَا عَلِمُوهُ عِلْماً يَقِيْناً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ ؛ أي بَلْ رَفَعَهُ الله إلى السَّماء، وإنَّما سَمَّى ذلكَ رَفْعاً إليهِ؛ لأنه رُفِعَ إلى موضعٍ لا يَملكُ فيه أحدٌ شيئاً إلاَّ (الله). قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ ؛ قد ذكرنا معناهُ غيرَ مرَّة، وفائدةُ ذكرهِ ها هنا: بيانُ قدرةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على نَجَاةِ من يشاءُ، وبيانُ حكمتهِ فيما فعلَ ويفعلُ وحَكَمَ ويحكمُ، فلما رَفَعَ اللهُ عيسى عليه السلام كَسَاهُ الرِّيْشَ وألبسَهُ النورَ وقطعَ عنهُ شهواتِ الْمَطْعَمِ والْمَشْرَب وطارَ مع الملائكةِ؛ فهو معهم حولَ العرشِ فكأنه إنْسِيّاً ملكياً سَمَاوِيّاً أرْضِيّاً. قال وهبُ بن مُنَبهٍ: (يُبْعَثُ عِيْسَى عَلَى رَأسِ ثَلاَثِيْنَ سَنَةٍ، وَرَفَعَهُ اللهُ وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثٍ وَثَلاَثِيْنَ سَنَةً، وَكَانَتْ نُبُوَّتُهُ ثَلاَثَ سِنِيْنَ).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٧٢٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة)). في جامع البيان: النص (٨٤٨٦) عن قتادة بإسنادين.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾؛ لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى اختلافَ اليهودِ والنَّصارى في عيسَى؛ بَيَّنَ بعدهُ أن هذا الشَّكَّ سيزولُ عن كل كتابيٍّ، فقالَ تعالى: (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ) أي ما أحدٌ مِن أهلِ الكتاب إلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بعيسَى قبلَ أن يَموتَ الكتابيُّ يعني: إذا عَايَنَ اليهوديُّ أمرَ الآخرةِ وحَضَرَتْهُ الوفاةُ؛ ضَرَبَتِ الملائكةُ وَجْهَهُ ودُبُرَهُ؛ وقالت: أتاكَ عيسى نبيّاً فَكَذَبْتَ بهِ؛ فيؤمنُ حين لا ينفعهُ إيْمانهُ، ويقول للنصرانِيِّ: أتاكَ عيسى عليه السلام نبيّاً فَكَذَبْتَ عبدَاللهِ ورسولَهُ، فزعمتَ أنهُ هو اللهُ وابن اللهِ، فيؤمنُ بأنهُ عبدُاللهِ حين لا ينفعهُ إيْمانهُ.

وَقِيْلَ: معناهُ: قبلَ موتِ عيسَى، وهذا قولُ الحسنِ وقتادةَ والربيعِ؛ جعلوا هاتَين الكنايَتين في (بِهِ) و (مَوْتِهِ) راجعينَ إلى عيسَى عليه السلام، والقولُ الأولُ هو قولُ عكرمةَ ومجاهدُ والسُّدِّيُّ؛ جعلوا الهاءَ في قولهِ (به) راجعةً إلى عيسَى، وفي قوله (مَوْتِهِ) راجعةً إلى الكتابيِّ الذي يؤمنُ به إذا عايَن الموتَ، وهي روايةٌ عن ابن عبَّاس؛ قالوا:(لاَ يَمُوتُ يَهُودِيٌّ وَلاَ صَاحِبُ كِتَابٍ حَتَّى يُؤْمِنَ بعِيْسَى؛ وَإِن احْتَرَقَ أوْ غَرِقَ أوْ تَرَدَّى أوْ سَقَطَ عَلَيْهِ جِدَارٌ أوْ أكَلَهُ سَبُعٌ أوْ أيَّ مِيتَةٍ كَانَتْ)(١) حَتَّى قيلَ لابن عبَّاس: (أرَأيْتَ إنْ خَرَّ مِنْ فَوْق بَيْتٍ؟ قال: تَكَلَّمَ بهِ فِي الْهَوْيِ؛ قِيلَ لَهُ: رَأيْتَ لَوْ ضُرِبَتْ عُنُقُ أحَدِهِمْ؟ قَالَ: تَلَجْلَجَ بهِ لِسَانُهُ)(٢). يدلُّ على صحَّة هذا التأويلِ قراءةُ أُبَيٍّ (قَبْلَ مَوْتِهِمْ).

قال شَهْرُ بن الْحَوْشَبِ: (قَالَ لِيَ الْحَجَّاجُ يَوْماً: إنَّ آيَةً مِنْ كِتَاب اللهِ مَا قَرَأتُهَا إلاَّ تَلَجْلَجَ لِي فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ، قُلْتُ: وَمَا هِيَ ؟ قَالَ: (وَإنْ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ إلا لَيُؤْمِنَنَّ بهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) وَإنِّي لأُوْتَى بالأَسِيرِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَأضْرِبُ عُنُقَهُ؛ فَمَا أسْمَعُهُ يَقُولُ شَيْئاً.

قُلْتُ: إنَّ الْيَهُودِيَّ إذا حَضَرَهُ الْمَوْتُ؛ ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ وَجْهَهُ وَدُبُرَهُ؛ وَتَقُولُ لَهُ: يَا عَدُوَّ اللهِ؛ أتَاكَ عِيْسَى عَبْداً نَبِيّاً فَكَذبْتَ بهِ، فَيَقُولُ: إنِّي آمَنْتُ بهِ إنَّهُ عَبْدٌ نَبِيٌّ، فَيُؤْمِنُ بهِ حِيْنَ لاَ يَنْفَعُهُ إيْمَانُهُ، وَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ لِلنَّصْرَانِيِّ: يَا عَدُوَّ اللهِ؛ أتَى عِيْسَى

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٥٠٧) بأسانيد وألفاظ يكمل بعضها بعضاً.

(٢) في جامع البيان: النص (٨٥٠٧).

عَبْداً نَبِيّاً فَكَذَبْتَ بِهِ وَقُلْتَ: إِنَّهُ اللهُ وَابْنُ اللهِ، فَيَقُولُ: إِنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ حِيْنَ لاَ يَنْفَعُهُ إِيْمَانُهُ.

قَالَ الْحَجَّاجُ: وَمَنْ حَدَّثَكَ بِهَذا الْحَدِيْثِ ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنِي بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ، قَالَ: -وَكَانَ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ-، ثُمَّ نَكَتَ فِي الأَرْضِ بِقَضِيبَةٍ سَاعَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ: أَخَذْتَهَا مِنْ عَيْنٍ صَافِيَةٍ، أَخَذْتَهَا مِنْ مَعْدَنِهَا.

قَالَ الْكَلْبِيُّ: فَقُلْتُ لِشَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ: وَمَا الَّذِي أَرَدْتَ بِقَوْلِكَ لِلْحَجَّاجِ: حَدَّثَنِي بِذلِكَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ وَهُوَ يَكْرَهُهُ، وَيَكْرَهُ مَنْ جَاءَ مِنْ قِبَلِهِ ؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَغِيْظَهُ)[١].

وحُجَّةُ من قال: إنَّ الهاءَ في قوله (مَوْتِهِ) راجعةٌ إلى عيسَى: ما رويَ في الخبر عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: [أنَا أوْلَى النَّاسِ بعِيْسَى؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَيُوشِكُ أنْ يَنْزِلَ فِيْكُمْ حَكَماً عَدْلاً، فَإذا رَأيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ، فَإنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعُ الْخَلْقِ إلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، كَأَنَّ رَأسَهُ يَقْطُرُ وَإنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيَقْتُلُ الْخِنْزِيْرَ؛ وَيُرِيْقُ الْخَمْرَ؛ وَيَكْسِرُ الصَّلِيْبَ؛ وَيُذْهِبُ السَّحَرَةَ؛ وَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الإسْلاَمِ؛ وَتَكُونُ السَّجْدَةُ وَاحِدَةً للهِ رَب الْعَالَمِيْنَ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ مَسِيْحَ الضَّلاَلَةِ الْكَذابَ الدَّجَّالَ؛ حَتَّى لاَ يَبْقَى أحَدٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ وَقْتَ نُزُولِهِ إلاَّ يُؤْمِنُ بِهِ، وَتَقَعُ الأَمَنَةُ فِي زَمَانِهِ حَتَّى تَرْتَعَ الإبلُ مَعَ الأَسْوَدِ؛ وَالْبَقَرُ مَعَ النُّمُورِ؛ وَالْغَنَمُ مَعَ الذِّئَابِ، وَيَلْعَبُ الصِّبْيَانُ بِالْحَيَّاتِ، لاَ يُؤْذِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً، ثُمَّ يَلْبَثُ فِي الأَرْضِ أرْبَعِيْنَ سَنَةً ثُمَّ يَمُوتُ، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَيَدْفِنُونَهُ][٢]. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:[إنَّ الْمَسِيْحَ جَاءٍ، فَمَنْ لَقِيَهُ فَلْيُقْرِؤْهُ مِنِّي السَّلاَمَ][٣].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٧٣٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن المنذر عن شهر بن حوشب))، وفيه: ((قال شهرُ بن حَوشَبَ: وأيْمِ اللهِ مَا حَدَّثَنِيهُ إلاَّ أمُّ سَلَمَةَ، وَلَكِنِّي أحْبَبْتُ أنْ أغِيظَهُ)).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب البيوع: باب قتل الخنزير: الحديث (٢٢٢٢)، وكتاب الأنبياء: باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام: الحديث(٣٤٤٨ و٢٤٧٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بالشريعة: الحديث (٢٤٢/ ١٥٥).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: الفتن والملاحم: باب كلمة لا إله إلا الله: الحديث (٨٦٧٨ و٨٦٧٩)، وقال: ((فيه إسماعيل، وأظنه ابن عياش، ولم يحتجا به)).

وروي: أنهُ خَلِيْفَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أمَّتِهِ ينْزِل على ثمانيةِ جِبَالِ بيتِ المقدس وفي يده عصًى من حديدٍ، فيمكثُ في الأرضِ أربعين سنةً إمَاماً مهدياً، وَقِيْلَ: إنَّ المرادَ بقوله (لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ) مُحَمَّدٌ ﷺ يؤمِنُ به أهلُ الكتاب في وقت المشاهدةِ ولكن لا ينفعُهم، والقول الأوَّل أصحُّ؛ لأن الآيةَ في قصَّة عيسَى عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ ؛ أي يَشْهَدُ عيسى عليه السلام على نفسِه يومَ القيامةِ بالعبوديَّة، وعلى النصارَى بأنَّهم عَبَدُوهُ بغَيْرِ حَقٍّ، وعلى اليهودِ بأنَّهم كَذبُوهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ ؛ أي فَبكُفْرِ اليهودِ وجُرمِهم حرَّمنا عليهم أشياءَ كانت طَيِّبَةً لَهم في التوراةِ؛ منها: لُحُومُ الإبلِ وألبانُها والشُّحومُ، وكانوا إذا أصابُوا ذنباً عظيماً حَرَّمَ اللهُ عليهم طعاماً طَيِّباً، ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ ؛ معناهُ: بسبب مَنْعِهِمُ الناسَ عن دينِ الله وهو الإسلامُ، وَ؛ بسَبَب؛ ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ ؛ وقد نُهوا عن ذلك في التَّوراة، وَ؛ بسبب؛ ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ ؛ أكلِ أموال الناس بالظُّلمِ، وأخذِ الرِّشَا في الحكمِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ ؛ أي خَلَقْنَا وهيَّأنا للكافرينَ منهم عذاباً وَجِيْعاً يَخْلُصُ وجعهُ إلى قلوبهم، وإنَّما خَصَّ الكافرينَ لبيانِ أن مَن يؤمنُ منهم غيرُ داخلٍ في هذا الوعيدِ.

ثُمَّ استثنىَ اللهُ تعالى منهم مَن آمَنَ، فقال تعالى: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ؛ أي لكن التائبون مِن أهلِ الكتاب وهم عبدُالله بنُ سلامٍ وأصحابُه، وسَمَّاهم (الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) لثباتِهم في العِلْمِ وتَبَحُّرِهِمْ فيه؛ لا يضطربون ولا تَميلُ بهم الشُّبَهُ، بمَنْزِلة الشجرةِ الرَّاسخةِ بعروقِها في الأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ) أي والمؤمنونَ مِن غيرِ أهل الكتاب من أصحاب رسول الله ﷺ يصدِّقون بما أُنْزِلَ إليكَ من الفُرْقَانِ، وما فيه من تَحريم هذهِ

الأشياءِ عليهم، ويصدِّقون بما أُنزلَ من قبلِكَ على الأنبياءِ من الكُتُـب، ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكونَ معناهُ: يؤمنونَ بـالنبيِّين المقيمـينَ الصـلاةَ، فيكـون قولـهُ (وَالْمُقِيمِينَ) نَسَقاً على قولهِ (بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ).

ويجوزُ أن يكون نَصْباً على المدحِ على معنى: أعْنِي الْمُقِيْمِيْـنَ الصَّـلاَةَ؛ وَهُـمْ: ﴿ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ؛ كما يقال: جـاءنِي قومُـكَ الْمُطْعِمُـونَ فِـي الْمَحَـلِّ؛ وَالْمُعِيْنُونَ فِـي الشَّـدَائِدِ[1]. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ ؛ أي الْمُصَدِّقُونَ بـاللهِ وبـالبعثِ بعـدَ المـوتِ أولئـكَ سنعطيهم ثوَاباً وافِراً في الجنَّة.

قَوْلُهُ جَلَّ وَعَـزَّ: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ ؛ أي أنزَلْنَا جبريلَ عليكَ بهذا القُرْآنِ كما أوحينَا إلى نوحٍ؛ فأمرَ بالاسـتقامةِ على التَّوحيدِ ودعوةِ الخلقِ إليه، وكما أوحيْنَا إلى النبيِّين مِن بعدِ نـوحٍ أوحينَـا إليـك. قِيْلَ: إنَّ نوحاً عليه السلام عَمَّرَ ألفَ سنةٍ لم تَنْقُصْ لهُ سِنٌّ ولا قوَّة، ولم يَشِـبْ لـه شَـعْرٌ، ولم يبلُغْ أحدٌ من الأنبياءِ في الدَّعوةِ ما بَلَغَ، ولم يَصْبرْ على أذى قومهِ ما صَبَرَ، وكان يدعُو قومَهُ ليلاً ونهاراً، وسِرّاً وإعْلاَناً، وكان الرجلُ من قومهِ يضربهُ فيُغْمَى عليه، فإذا أفَاقَ دَعَا وَبَلَّغَ، وَقِيْلَ: هو أوَّلُ مَن تَنشَقُّ عنهُ الأرضُ يومَ القيامةِ بعد مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ ؛ وهم بَنُو يعقوبِ عليه السلام وهم اثْنَا عشرَ رَجُـلاً، و: إلَـى؛ ﴿ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا ﴾ ؛ أي أعْطَيْنَا؛ ﴿ دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ ؛ والزَّبُورُ: هو الكتابُ، مأخوذٌ من الزُّبْرِ؛ وهو الكتابةُ، ومن قرأ زُبُوراً بضَمِّ الزَّاي وهو الأعمشُ وحمزةُ وابن وثَّاب؛ فمعناهُ: الكُتُبُ على الْجَمْعِ.

فإن قيلَ: كيفَ قدَّمَ اللهُ ذكـر عِيسَـى علىذِكْـرِ أيُّـوبَ ويونُـسَ وهـارونَ وسـليمان وداوُدَ، وهو مِنْ بعدِهم ؟ قِيْلَ: لأنَّ الواوَ للجمعِ دون الترتيب، فتقديمُ ذِكْرِهِ في الآيةِ

---

(١) في معاني القرآن وإعرابـه: ج ٢ ص١٠٦؛ قـال الزجـاج: (علـى معنـى أذكـر المطعمـين، وعـم المغيثون في الشدائد.

لا يوجبُ تقديْمَهُ في الْخَلْـقِ والإرسـال، والفـائدةُ في تقديْمـهِ في الذكـر: الـردُّ علـى اليهودِ، ولِغُلُوِّهِمْ في الطَّعْنِ فيه وفي نَسَبِهِ، فقدَّمهُ اللهُ في الذكرِ؛ لأن ذلك أبلغُ في كُتُب اليهودِ وفي تَنْزِيْههِ مِمَّا رُمِيَ به ونُسِبَ إليهِ.

قَوْلُهُ جَلَّ وَعـزَّ: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ عَطْـفُ علـى (إنَّا أوْحَيْنَا إلَيْكَ)،كأنهُ قالَ: إنا أرسلناكَ مُوحِيْنَ إليـكَ، وأرسـلنا رُسُـلاً قـد قَصَصْنَـا عليكَ، ويجوزُ أن يكون مَنْصُوباً بالفعلِ الذي بعدَه، كأنــهُ قـالَ: وقـد قَصَصْنَـا رُسُـلاً عليـكَ، ومعنـاه: قَصَصْنَـاهُمْ؛ أي سَـمَّيْنَاهُمْ لـكَ في القُـرْآن، وعرَّفنـاكَ قِصَّتَـهُمْ، ﴿ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ ، أي وأرسلنَا رُسُلاً لم نُسَمِّهِمْ لـكَ وأمرنـاهم بالاستقامةِ على التَّوْحِيْدِ ودعوةِ الْخَلْقِ إلى اللهِ.

وعـن أبـي ذرٍّ قـال: قُلْـتُ: يَـا رَسُـولَ اللهِ؛ كَـمْ كَـانَتِ الأَنْبِيَـاءُ ؟ وَكَـمْ كَـانَ الْمُرْسَلُونَ ؟ قَالَ: [كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ مِائَةَ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةً وَعُشْرِينَ أَلْفاً، وَكَانَ الْمُرْسَلُونَ ثَلاَثَمِائَةٍ وَثَلاَثَةَ عَشَرَ][(١)].

وعن كعب الأحبار أنه قالَ: (الأنبياءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ ألفَا ألفٍ ومائتا ألـفٍ وخمسةٌ وعشرون ألفاً، والمرسلُ ثلاثُمائة وثلاثة عشر. وكان داودُ ﷺ قد أُنْزِلَ عليـه الزبورُ، وكان يَنْزِلُ إلى البرِّية ويقرأ الزبورَ؛ فيقومُ معه علماءُ بني إسرائيلَ خَلْفَهُ؛ ويقومُ الناسُ خَلْفَ العلماءِ، وتقومُ الْجِنُّ خلفَ الناسِ، وتجيءُ الـدوابُّ الـتي في الجبـال إذا سَمعت صوتَ داودَ فَيَقُمْنَ بين يديه تَعَجُّباً لِمَا يسمعنَ من صوتهِ، وتجيءُ الطيرُ حتـى يُظَلِّلْنَ على داودَ في خلائقَ لا يحصيهنَّ إلاّ اللهُ يُرَفْرِفْـنَ علـى رأسـهِ، وتجـيءُ السِّبَاعُ حتى تحيطَ بالدواب والوحشِ لما يسمعنَ، ولما قَارَنَ الذنْبَ لم يَرَ ذلك، فقيل لهُ: ذلـكَ أُنْسُ الطاعةِ، وهذه وَحْشَةُ المعصيةِ.

وعن أبِي موسَى الأشعريِّ قالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَوْ رَأَيْتَنِـي الْبَارِحَـةَ وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ، لَقَدْ أُعْطِيْتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيْرِ آلِ دَاوُدَ] فَقَالَ: فَقُلْتُ: أمَا وَاللهِ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٢ ص٧٤٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبـد بـن حميـد والحكيـم الـترمذي في نوادر الوصول وابن حبان في صحيحه والحاكم وابن عساكر. وضعفه)). وفي تفسير الآيـة؛ قـال ابن كثير: ((فيه معان بن رفاعة السلامي، ضعيف)).

يَا رَسُولَ اللهِ؛ لَوْ عَلِمْتُ أنَّكَ تَسْتَمِعُ لَحَبَّرْتُهُ تَحْبِيْراً[(١)]. وكان عمرُ ﷺ اذا رأى أبَا موسَى الطَّيِّلاً قال: (ذكِّرْنَا يَا أبَا مُوسَى) فيقرأهُ عندَهُ)[(٢)]. وعن أبي عثمان النَّهْدِيِّ؛ قالَ: (مَا سَمِعْتُ قَطُّ بُرْبُطاً وَلاَ مِزْمَاراً وَلاَ عُوْداً أحْسَنَ مِنْ صَوْتِ أبِي مُوسَى، وَكَانَ يَؤُمُّنَا فِي صَلاَةِ الْغَدَاةِ فَنَوَدُّ أنَّهُ يَقْرَأ سُورَةَ الْبَقَرَةِ مِنْ حُسْنِ صَوْتِهِ)[(٣)].

وفي تفسير الكلبيِّ: (أنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أنْزَلَ الآيَةَ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ الآيَةِ؛ وَقَرَأهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ؛ قَالَ الْيَهُودُ فِيْمَا بَيْنَهُمْ: مَا نَرَى مُحَمَّداً يَقْرَأُ بِمَا أنْزَلَ اللهُ عَلَى مُوسَى؛ وَلَقَدْ أوْحِيَ إلَيْهِ كَمَا أوْحِيَ إلَى النَّبِيِّيْنَ مِنْ قَبْلِهِ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ فَقَرَأهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَقَالُوا: إنَّ مُحَمَّداً قَدْ ذكَرَهُ فِيْمَنْ ذكَرَهُ وَفَضَّلَهُ بِالْكَلاَمِ عَلَيْهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ ﴾، وفائدة تخصيصِ موسَى الطَّيِّلاً بالكلامِ مع أنَّ اللهَ تعالى كَلَّمَ غيرَه من الأنبياءِ؛ لأنه تعالى كَلَّمَهُ من غيرِ واسطةٍ؛ وكَلَّمَ غيرَه من الأنبياء بالْوَحْيِ إليهم على لِسَانِ بعضِ الملائكةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾؛ يدلُّ على التأكيدِ كَيْلاَ يحملَ كلامُ الله إياهُ على معنى الوَحْيِ إليه.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب صلاة المسافرين: باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن: الحديث (٢٣٥/ ٧٩٣) عن عبدالله بن بريدة عن أبيه، والحديث (٢٣٦) عن أبي موسى الأشعري، وفيه: [لَقَدْ أوتِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ]. وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ج ١ ص٢٥٨ عن سعيد بن أبي بردة عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري ﷺ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ ذاتَ لَيْلَةٍ وَأبُو مُوسَى يَقْرَأ فِي بَيْتِهِ. وَمَعَ النَّبِيِّ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَقَامَا فَاسْتَمَعَا لِقِرَاءَتِهِ، ثُمَّ إنَّهُمَا مَضَيَا، فَلَمَّا أصْبَحَ الصُّبْحُ لَقِيَ أبُو مُوسَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: [يَا أبَا مُوسَى، مَرَرْتُ بِكَ الْبَارِحَةَ وَمَعِي عَائِشَة ...] وذكره.

(٢) أخرج أبو نعيم في الحلية: ج ١ ص٢٥٨ عن الزهري عن أبي سلمة قال: ((كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ لأَبِي مُوسَى: ذكِّرْنَا رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ، فَيَقْرَأ)).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ج ١ ص٢٥٨. والبُرْبُطُ: مَلهَاةٌ تشبه العودَ، وهو فارسي معرَّب. وأصله (بُربُتْ) لأن الضارب به يضعه على صدره. واسم المصدر (بر).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ ؛ معناه: فَأَرْسَلْنَا هؤلاءِ رُسُلاً مُبَشِّرِيْنَ بالجنَّةِ لمن أطاعَ ومُخَوِّفِيْنَ بالنار لمن عصَى؛ ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ ؛ لئلاَّ يكونَ للناس على اللهِ حُجَّةٌ يومَ القيامةِ بعد إرسال الرُّسُلِ إليهم؛ فيقولوا: ربَّنَا لولاَ أرسلتَ إلينا رسُولاً فَنَتَّبعَ آيَاتِكَ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المرادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ رُؤَسَاءَ مَكَّةَ أتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: سَأَلْنَا الْيَهُودَ عَنْ نَعْتِكَ وَصِفَتِكَ؛ فَزَعَمُوا أنَّهُمْ لاَ يَعْرِفُونَكَ فِي كُتُبهِمْ، فَأْتِنَا بمَنْ يَشْهَدُ لَكَ أنَّ اللهَ بَعَثَكَ إلَيْنَا رَسُولاً، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ، وَأنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أيُّ شَيْءٍ أكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[(١)])[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ ﴾ ؛ أي على عِلْمٍ منهُ بأنَّكَ أهْلٌ لإنزالهِ عليكَ، وعَلِمَ من يَقْبَلُ ومن لا يقبلُ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿اللهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رسَالَتَهُ﴾[(٣)]. وَقِيْلَ: معناهُ: (أنْزَلَهُ بعلْمِهِ) أي عَلِمَ ما فيهِ من الأحكامِ وما تحتاجُ إليه العبادُ من أمرِ دِينهم ودُنياهم ثُمَّ أنْزَلَهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: أنزلَهُ اليكَ من عندهِ لم يُبَدَّلْ ولم يُغَيَّرْ، بل وَصَلَ إليكَ كما كان في اللَّوحِ الْمَحْفُوظِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ ﴾ ؛ أي يشهدونَ على شهادةِ اللهِ، وعلى شهادتِكَ بأنَّ الذي شَهِدْتَ به حَقٌّ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ ؛ أي اكْتَفُوا باللهِ شهيداً في شَهَادَتِهِ أن تَشْهَدَ اليهودُ بما في كتابهم.

---

(١) الأنعام / ١٩ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٢ ص٧٥٠ قال السيوطي: ((أخرجه ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل: عن ابن عباس)). وفي السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص٢١١، وتفصيل قصة ذلك.

(٣) الأنعام / ١٢٤ .

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾؛ معناهُ: إنَّ الذين جَحَدُوا وحدانيَّةَ اللهِ ومُحَمَّداً ﷺ والقُرْآنَ، وصَرَفُوا الناسَ عن دينِ الله وطاعتهِ فقد أخْطَأوا خطأً بعيداً عن الْهُدَى والثواب. بَيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ضَلاَلَتَهُمْ في الدُّنيا.

ثم بَيَّنَ عقوبتَهم في الآخرةِ فقالَ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾؛ أي إنَّ الذينَ كفرُوا بما يجبُ الإيْمان به وظَلَمُوا أنفسَهم بكُفْرِهِمْ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ما داموا على كُفْرِهم، ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ ﴾؛ إلَى الإسلامِ، ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾؛ لكن نُرْكَهُمْ على طريقِ جَهَنَّمَ وهو الكفرُ. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يُرْشِدُهُمْ في الآخرةِ إلى طريقٍ غيرَ طريقِ جهنم، كما في قولهِ تعالى: ﴿فاهْدُوهُمْ إلى صِراطِ الْجَحِيمِ﴾(١)، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾؛ التَّخْلِيْدُ والتعذيبُ، ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾؛ سَهْلاً هَيِّناً.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾؛ خطابٌ لعامَّةِ الْخَلْقِ، (قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ) يعني مُحَمَّداً ﷺ بكلمةِ التَّوحيدِ والقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ رَبكُمْ، ﴿ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾، فصدِّقوا باللهِ ورسوله، وبِمَا جاءَ بهِ مِن عندهِ يكُنْ خيراً لكم من التَّكْذِيْب.

قال الخليلُ والبصريُّون: (انْتصَبَ قَوْلُهُ تَعَالَى (خَيْراً) لأَنَّكَ إذا أمَرْتَ بفِعْلٍ دَخَلَ فِي مَعْنَاهُ؛ تَقْدِيْرُهُ: إئْتُوا خَيْراً لَكُمْ، وَإذا نَهَيْتَ عَنْ فِعْلٍ دَخَلَ فِي مَعْنَاهُ؛ تَقْدِيْرُهُ: إئْتِ بَدَلَهُ خَيْراً لَكُمْ). وقال الفرَّاءُ:(انْتصَبَ لأَنَّهُ مُتَّصِلٌ بالأَمْرِ وَهُوَ مِنْ صِفَتِهِ)(٢) تَقْدِيْرُهُ: هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، فَلَمَّا سَقَطَ هُوَ اتَّصَلَ بِمَا قَبْلَهُ، وَعَلَى هَذَا: انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ. وقال الكسائيُّ: (انْتصَبَ لِخُرُوجِهِ مِنَ الْكَلاَمِ) وقال: (هَذا إنَّمَا تَقُولُهُ الْعَرَبُ فِي الْكَلاَمِ التَّامِّ، نَحْوَ قَوْلِكَ: لَتَقُومَنَّ خَيْراً لَكَ، وَانْتَهِ خَيْراً لَكَ، وَإذا كَانَ الْكَلاَمُ نَاقِصاً رَفَعُوا، فَقَالَ: أن انْتَهُوا خَيْرٌ لَكُمْ).

---

(١) الصافات / ٢٣ .
(٢) معاني القرآن لأبي زكريا الفراء: ج ١ ص٢٩٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي إنْ تَكْفُـرُوا يُعَاقِبْكُمُ اللهُ، فَإنَّ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْض. وَقِيْلَ: إنْ تكفرُوا فإنَّ الله غَنِيٌّ عنكُم، لكونهِ مَالِكَ السَّموات والأرض، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾ ؛ أي لَمْ يَزَلْ عَلِيْماً بخلقهِ، بمن يؤمنُ وبمن لا يؤمنُ، حَكِيْماً في أمرهِ، حَكَمَ بالإسلامِ على عبادهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ ؛ نزلَت في نصارى نَجْرَانَ وهم: النَّسْطُورِيَّةُ: الذين يقولونَ عيسـى ابنُ الله، وَالْمَارْيَعْقُوبِيَّةُ: الذين يقولون عيسى هـو اللهُ، وَالْمَرْقُوسِيَّةُ: الذيـن يقولـون ثالثُ ثلاثةٍ؛ ويقال هم الْملكانيَّة. ومعنى الآيةِ: يَا أهْلَ الْكِتَـاب لاَ تُجَـاوزُوا الحـدَّ في الدينِ فتغيِّروا فيه. والغُلُوُّ في الدينِ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فيهِ، وقد غَلَـتِ النصـارى في أمـرِ عيسى حتى جَاوَزُوا به مَنْزِلَةَ الأنبياءِ فجعلوهُ إلَهاً.

ويقالُ: إنَّ الآيةَ خطابٌ لليهودِ والنصارى؛ لأنَّ اليهودَ أيضاً غَلَوا في أمرِ عيسَى حتى جاوَزُوا به مَنْزِلَةَ مَنْ وُلِدَ على غيرِ الطَّهارةِ فجعلوهُ لغـيرِ رُشْـدِهِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلا الْحَقَّ) أي لا تَصِفُوا اللهَ إلاّ بالحقِّ، والحقُّ أن يقالَ: إلَهٌ وَاحِدٌ لاَ شَرِيْكَ لَهُ وَلاَ صَاحِبَةَ وَلاَ وَلَدَ، وينَزِّهُهُ عن القبائحِ والنَّقائصِ وعن جميـعِ صفـاتِ الْمُحْدَثِيْنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ليسَ المسيحُ إلاَّ رَسُولَ اللهِ؛ لأن (إنَّمَا) تقتضِي تحقيقَ المذكور وتَمْحِيْقَ ما سواهُ، كقولهِ تعالى: (إنَّمَا اللهُ إلَهٌ وَاحِدٌ)، وفي قولهِ: (عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) بيانٌ أنهُ لا يجوز أن يكونَ إلَهاً؛ أي كيفَ يكون إلَهاً وهو ابـنُ مَرْيَـمَ أمَـةُ اللهِ؟ وكيـفَ يكـون إلَـهاً وأُمُـهُ قَبْلَـهُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ ؛ أي إنهُ كان بكلمتهِ عَزَّ وَجَلَّ وهو قولهُ: (كُـنْ) فكَانَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أمْرٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ أتَاهَا جِبْرِيْلُ بأَمْرِ اللهِ فَنَفَخَ فِي جَيْب دِرْعِهَا؛ فَدَخَلَتْ تِلْكَ النَّفْخَةُ بَطْنَـهَا؛ فَخَلَـقَ اللهُ عِيْسَى بنَفْخَةِ جِبْرِيْلَ ﷺ). والنَّفْخُ في اللغة: يُسَمَّى رُوْحـاً. وَقِيْـلَ: سَـمَّاهُ اللهُ تعـالى رُوْحاً؛ لأنه كان يُحْيي بِهِ الناسَ في الدينِ كما يُحْيَوْنَ بالأرواحِ. وَقِيْلَ: لأنه رُوْحٌ مِـن

الأرواحِ أضافَهُ اللهُ إليهِ تشريفاً لهُ، كما يقالُ: بَيْتُ اللهِ. وقال السُّدِّيُّ: (مَعْنَاهُ (وَرُوحٌ مِنْهُ) أيْ مَخْلُوقٌ مِنْهُ؛ أيْ مِنْ عِنْدِهِ).

وَقِيْلَ: معناهُ: ورحمةٌ منهُ؛ أي جعله اللهُ رحمةً لمن آمَنَ بهِ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[١] أي قَوَّاهُمْ برحمةٍ منه. وَقِيْلَ: الرُّوحُ: الوَحْيُ؛ أوحَى إلى مَرْيَمَ بالْبِشَارَةِ، وأوحَى إلى جبريلَ بالنَّفْخِ، وأوحَى إليه أن كُنْ؛ فَكَانَ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ﴾[٢] أي بالوحيِ، ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾[٣] أي وَحْياً.

وروِيَ: أنَّهُ كَانَ لِهَارُونَ الرَّشِيْدِ طَبِيْبٌ نَصْرَانِيٌّ، وَكَانَ غُلاَماً حَسَنَ الْوَجْهِ جِدّاً، وَكَانَ كَامِلَ الأَدَبِ جَامِعاً لِلْخِصَالِ الَّتِي يَتَوَسَّلُ بهَا إِلَى الْمَلِكِ، وَكَانَ الرَّشِيْدُ مُولَعاً بِأَنْ يُسْلِمَ وَهُوَ يَمْتَنِعُ، وَكَانَ الرَّشِيْدُ يُمَنِّيْهِ الأَمَانِيَّ إنْ أسْلَمَ، فَقَالَ لَهُ ذاتَ يَوْمٍ: مَا لَكَ لاَ تُؤْمِنُ ؟ قَالَ: إنَّ فِي كِتَابكُمْ حُجَّةً عَلَى مَن انْتَحَلَهُ، قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْه) فَعَبَّرَ بِهَذا أنَّ عِيْسَى جُزْءٌ مِنْهُ.

فَضَاقَ قَلْبُ الرَّشِيْدِ، وَجَمَعَ الْعُلَمَاءَ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ يُزِيْلُ شُبْهَتَهُ حَتَّى قِيْلَ لَهُ: قَدْ وَفَدَ حُجَّاجُ خُرَاسَانَ وَفِيْهِمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ وَاقِدٍ مِنْ أهْلِ مَرْوٍ؛ وَهُوَ إمَامٌ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ؛ فَدَعَاهُ؛ فَجَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْغُلاَمِ، فَسَأَلَهُ الْغُلاَمُ عَنْ ذلِكَ، فَاسْتَعْجَمَ عَلَيْهِ الْجَوَابُ فِي الْوَقْتِ، وَقَالَ: قَدْ عَلِمَ اللهُ؛ يَا أمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ؛ فِي سَابقِ عِلْمِهِ أنَّ الْخَبِيْثَ يَسْأَلُنِي فِي مَجْلِسِكَ عَنْ هَذا؛ وَأنَّهُ لَمْ يَخْلُ كِتَابَهُ مِنْ جَوَابهِ، وَأنَّهُ لَيْسَ يَحْضُرُنِي الآنَ، وَللهِ عَلَيَّ أنْ لاَ أطْعَمَ وَلاَ أشْرَبَ حَتَّى أؤَدِّيَ الَّذِي يَجِبُ مِنَ الْحَقِّ إنْ شَاءَ اللهُ.

وَدَخَلَ بَيْتَهُ مُظْلِماً؛ وَأغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ؛ وَانْدَفَعَ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؛ حَتَّى بَلَغَ سُورَةَ الْجَاثِيَةِ إلَى قَوْلِهِ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾[٤] فَصَاحَ بأَعْلَى صَوْتِهِ: افْتَحُوا الْبَابَ؛ فَقَدْ وَجَدْتُ الْجَوَابَ، فَفَتَحُوا وَدَعَا الْغُلاَمَ؛ فَقَرَأ

---

(١) المجادلة / ٢٢. (٢) النحل / ٢.

(٣) الشورى / ٥٢. (٤) الآية / ١٣ .

عَلَيْهِ الآيَةَ بَيْنَ يَدَي الرَّشِيْدِ وَقَالَ: إنْ كَانَ قَوْلُهُ ﴿رُوحٌ مِنْهُ﴾ يُوجِبُ أنْ يَكُونَ عِيْسَى بَعْضاً مِنْهُ؛ وَجَبَ أنْ يَكُونَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ بَعْضاً مِنْهُ.

فَانْقَطَعَ النَّصْرَانِيُّ وَأسْلَمَ؛ وَفَرِحَ الرَّشِيْدُ فَرَحاً شَدِيْداً، وَوَصَلَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ بصِلَةٍ جَيِّدَةٍ. فَلَمَّا عَادَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ إلَى مَرُو؛ صَنَّفَ كِتَاباً سَمَّاهُ (كِتَابُ النَّظَائِرِ فِي الْقُرْآنِ) وَهُوَ كِتَابٌ لاَ يُوَازِيْهِ كِتَابٌ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ ؛ أي صدِّقوا بوحدانيَّة اللهِ بما جاءَكم به الرُّسُلُ من الله؛ ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ﴾ ؛ أي تقولوا آلِهتُنَا ثلاثةٌ: أبٌ؛ وابنٌ؛ وروحُ قدسٍ، ﴿ ٱنتَهُواْ ﴾ ؛ عن الكُفْرِ، عن هذهِ المقالةِ، وتُوبُوا إلى اللهِ هُوَ؛ ﴿ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ ؛ من الإصرار على الكُفْرِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ ؛ أي ما اللهُ إلاَّ إلهٌ واحدٌ؛ ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ ؛ كلمةُ تَنْزِيْهٍ عن السُّوءِ؛ أي تَنْزِيْهاً لهُ أنْ يكون له ولدٌ؛ ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ كلُّهُم عَبِيْدُهُ وإمَاؤُه وفي قبضتِهِ؛ ويستحيلُ أن يكون الْمَمْلُوكُ ابْناً لِلْمَالِكِ؛ أي لا يجتمعُ الْمِلْكُ مع الولادةِ، ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أنْ يَتَّخِذ وَلَداً. إنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ ؛ أي اكتفُوا برُبُوبيَّتِهِ وبكفالَتِه، فلا ولدَ لهُ ولا شريكَ؛ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عمَّا يقولُ الظالِمُون عُلُوّاً كَبيْراً.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ؛ نَزَلَ فِي وَفْدِ نَجْرَانَ؛ نَاظَرُوا النَّبِيَّ ﷺ فِي أمْرِ عِيْسَى، فَقَالَ لَهُمْ: [هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ]. فَقَالُوا: لاَ تَقُلْ هَكَذا؛ فَإنَّ عِيسَى يَأْنَفُ مِنْ هَذا الْقَوْلِ؛ فَنَزَلَ تَكْذِيْباً لِقَوْلِهِمْ: (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أنْ يَكُونَ عَبْدًا للهِ)[2] أي لن يأنفَ، ولن يَتَعَظَّمَ عن الإقرار والعبوديَّة لله عَزَّ وَجَلَّ، (وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) أي ولن يستنكفَ الملائكةُ المقرَّبونَ عن العبوديَّة وهم حَمَلَةُ الْعَرْشِ. وإنَّما خصَّ الملائكةَ بعد عيسى؛ لأن

---

(١) مريَم / ٩٢-٩٣. (٢) في أسباب النزول للواحدي: ص١٢٥ نقله عن الكلبي.

النَّصارى كانوا يقولونَ: عيسى ابن الله، وبَنُو مُدْلَجٍ كانوا يقولونَ: الملائكةُ بنـات اللهِ، فَرَدَّ اللهُ على الفريقين جَميعاً.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ ؛ أي مَن يَأنفُ ويَمتنعُ عن توحيدِهِ وطاعتـه ويَتَعَظَّـمُ عـنِ الإيْمـانِ؛ فَسَيَجْمَعُهُمُ إليه جميعاً: الْمُسْتَنْكِفُ وَالْمُسْتَكْبِرُ؛ والْمُقِرُّ وَالْمُطِيْعُ.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ ؛ أي فـالذينَ آمنُـوا بمُحَمَّـدٍ وَالْقُـرْآن وعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ فَيُوفِرُ عليهم جزاءَ أعمالِهم في الجنَّة، وَيَزِيْدُهُمْ من عطائـهِ مَـا لاَ عَيْـنٌ رَأتْ؛ وَلاَ أذُنٌ سَمِعَتْ؛ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ ؛ أي وأما الذين أبَوا وامتنعُوا عنِ الإيْمان بمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُـرْآن؛ ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ؛ وَجِيْعـاً، ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾ ؛ ولا يَجِدُونَ لَهم سـوَى اللهِ قريباً ينفعُهم، ولا مانعاً يَمنعُهم من النار.

قَوْلُهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ ؛ خطابٌ للناس كلِّهم، والبُرْهَانُ هـو النَّبِيُّ ﷺ، سَـمَّاهُ بُرْهَانـاً لظهور المعجزةِ، والنورُ المبينُ الْقُرْآنُ؛ سَـمَّاهُ نُـوراً مُبِيْنـاً؛ لأن النـورَ هـو الـذي يُبَيِّـنُ الأشياءَ حتى تُرَى، والقُرْآنُ مُبَيِّنُ الأشياءِ كلِّها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ ؛ أي فأمَّا الذينَ صَدَّقُوا بوحدانيَّةِ الله وتَمَسَّكُوا بدينهِ وكتابهِ، وسـألُوا العصمةَ من مَعَاصِيهِ؛ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي الآخرةِ جَنَّتَهُ وكراماتـهِ الـتي أعدَّهـا لَـهم فيـها، ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ ؛ أي ويُعَرِّفُهُمْ في الدُّنيا سبيلَ الْهُدَى وهو الإسلامُ، وَيُثَبِّتُهُمْ عليهِ، وتقديرُ الآية: وَيَهْدِيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَيَرْحَمُهُمْ فِي الآخِرَةِ.

قَوْلُهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ ؛ نزلت في جَابرِ بنِ عبـدِالله حـين جـاءَ إلى النَّـبِيِّ ﷺ فَقَـالَ: إنَّ لِـي

أخْتاً؛ فَمَا لِي فِيْهَا بَعْدَ مَوْتِهَا، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ[١]، وقد تقدَّم تفسيرُ الكَلاَلَةِ، وابتدأ بالرجلِ، فيقالُ: إنهُ ماتَ قبلَ أختهِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ ﴾ ؛ يعني مِن أمٍّ وأبٍ أو من أبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ ﴾ ؛ وحكـمُ الثَّلاثِ والأربعِ فصاعداً حكمُ الاثنين كالبناتِ، وإنْ كانوا إخوةً؛ ﴿ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً ﴾ ؛ أي وإنْ كـان الورثـةُ إخـوةً مـن أمٍّ وأبٍ، أو مـن أبٍ ذُكُـوراً وإناثـاً؛ ﴿ فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ ﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ ﴾ ؛ أي يُبَيِّـنُ اللهُ لَكُـمْ قِسْـمَةَ المواريثِ؛ لِئَلاَّ تُخْطِئُوا في قِسْمَتِهَا، وقد حذفَ (لا) في الكـلامِ ويـرادُ إثباتُـها كمـا في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أنْ تَمِيـدَ بكُـمْ﴾[٢]، ويقـال في القَسَـمِ: واللهِ أبْـرَحُ قَـاعِداً؛ أي لاَ أبْـرَحُ، وتُذْكَـرُ (لا) ويـراد طرحُـها كمـا في قولــهِ تعـالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾[٣] و ﴿مَا مَنَعَكَ ألاَّ تَسْجُدَ﴾[٤].

وذهبَ البصريُّـون إلى أنَّ معنـاهُ: كَرَاهَـةَ أنْ تَضِلُّـوا، فحـذفَ المضـافَ وأقـامَ المضاف إليه مقامهُ، كما في قولهِ تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَـةَ﴾[٥]. وقـال الفـرَّاءُ: (مَوْضِعُـهُ نُصِبَ بنَزْعِ الْخَافِضِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

وَعَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ النِّسَاءِ: أعْطِيَ مِـنَ الأَجْـرِ كَمَـنِ اشْتَرَى ذا رَحِمٍ وَاَعْتَقَهُ، وَبُرِّئَ مِنَ الشِّرْكِ، وَكَـانَ فِـي مَشِـيْئَةِ اللهِ مِـنَ الَّذِيْـنَ يَتَجَـاوَزُ عَنْهُمْ][٦].

آخر تفسير سورة (النساء) والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٥٤٥) والحديث مشهور.

(٢) لقمان / ١٠. (٣) القيامة / ١ .

(٤) الأعراف / ١٢ . (٥) يوسف / ٨٢ .

(٦) عن أبي، ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب: ج ٧ ص١٥٩. والزمخشري في الكشـاف، وفي مثلـه نظر.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ مَدَنِيَّةٌ إلاَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فإنَّ هاتين الآيتين نزلَتَا بمكَّةَ بعدَ الفتحِ، وحكمُهما حكمُ المدنيَّة لنزولِهما بعدَ الهجرةِ. وعددُ حُرُوفِهَا أحَدَ عَشَرَ ألْفاً وَتِسْعُمِائَةٍ وَثَلاَثَةٌ وَثَلاَثُونَ حَرْفاً، وَعَدَدُ كَلِمَاتِهَا أَلْفَان وَثَمَانُمِائَةٍ وَأَرْبَعُ كَلِمَاتٍ، وعَدَدُ آياتِها مِائَةٌ وَعُشْرُونَ آيَةً عند الكوفيِّين، واثْنَانِ وَعُشْرُونَ عندَ الحجَازيِّينَ، وَثَلاَثٌ وَعُشْرُونَ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ ؛ أي أوفوا بالعقود التي كَتَبَـهَا اللهُ عليكم مِما أحلَّه لكم وحرَّمَه عليكُم، وَقِيْلَ: معناهُ: أتِمُّوا العهودَ التي بينكم وبين المشركينَ ولا تنقُضُوها حتى يكونَ النَّقْضُ من قِبَلِهِمْ، هكذا رويَ عن ابنِ عبَّاس والضَّحاك وقتادةَ. وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ أوْفُوا بعُقُودِ الدِّيْنِ؛ يَعْنِي أوَامِرَ اللهِ وَنَوَاهِيْهِ)[1]. وَقِيْلَ: معناهُ: أوْفُوا بكُلِّ عَقْدٍ تعقدونَهُ على أنفسِكم من نَذْرٍ أو يَمينٍ. وَقِيْلَ: أوْفُوا بالعقودِ التي يعقِدُها بعضُكم لبعضٍ، نحوَ عَقْدِ البيعِ والإجارةِ والنِّكاحِ والشَّرْكةِ، ولا تنافِي بينَ هذه الأقوال؛ إذ كلُّ هذه العقود يجبُ الوفاءُ بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ؛ أي رُخِّصَتْ لكم الأنعامُ نفسُها، وأضافَ البهيمةَ إلى الأنعامِ، كما يقالُ: مسجدُ الجامعِ؛ ونفسُ الإنسانِ. والأنْعَامُ: هِيَ الإبلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، ودخل في هذهِ الآية إباحةُ الظِّباءِ وبَقَرِ الوَحْشِ وحمارِ الوحشِ؛

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: عن ابن عباس قال: ((مَا أحِلَّ، وَمَا حَرَّمَ، وَمَا فُرِضَ، وَمَا حُدَّ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ، فَلاَ تَغْدُرُوا وَلاَ تَنْكُثُوا)): النص (٨٥٦٩).

لأنَّها أبْهَمُ في التَّمَيُّزِ من الأَهْلِيَّةِ، ولِهذا استثنَى اللهُ الصيدَ في حالةِ الإحرام في قولِهِ تعالى: (غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ). والبهيمةُ في اللغة يتناولُ كلَّ حَيٍّ لا يُميِّزُ، اسْتَبْهَمَ عليه الجوابُ؛ أي اسْتَغْلَقَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي إلاّ ما يُقْرَأ عليكم في القُرْآنِ مِمَّا حُرِّمَ عليكم في هذه السورة من الْمَيْتَةِ والدَّمِ ولحمِ الخنْزيرِ والموقُوذةُ والمتردِّيَةُ والنَّطيحَةُ الآيةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ ﴾ ؛ نُصِبَ على الحالِ من الكافِ والميم التي في قولِهِ: (أحِلَّتْ لَكُمْ) كما يقالُ: جاءَ زيدٌ راكباً؛ وجاءَ غيرُ راكبٍ. والمعنى: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأنْعَامِ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ؛ أي من أنْ تَسْتَحِلُّوا قتلَ الصَّيدِ وأنتم مُحْرِمُونَ. وَقِيْلَ: نُصِبَ على الحالِ من قوله (أوْفُوا بالْعُقُودِ) أي أوْفُوا بالمعقُودِ غيرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ، هذا قولُ الأخفشِ، والأوَّلُ قولُ الكسائيِّ.

ومعنى الآيةِ: أُحِلَّتْ لكمُ الأنعامُ إلاَّ ما كان وَحْشِياً، فإنَّهُ صَيْدٌ لا يحلُّ لكم إذا كنتم مُحْرِمِيْنَ، فذلكَ قولهُ: ﴿ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ . قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي يقضِي على عبادِهِ بما شاءَ من التحليل والتحريمِ على ما تُوجِبُهُ الحكمةُ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أراد به الْمَنَاسِكَ؛ أي لا تَسْتَحِلُّوا مخالفةَ شيءٍ منها، ولا تجاوزُوا مواقيتَ الحرمِ غيرَ مُؤَدِّيْنَ حقوقَها، وذلك: أنَّ الأنصارَ كانوا لا يَسْعَوْنَ بين الصَّفَا والمروةِ، وكان أهلُ مكَّة لا يخرجونَ إلى عَرَفَةَ فأمرَ اللهُ تعالى أنْ لا يتركُوا شيئاً من الْمَنَاسِكِ. وقال الحسنُ: (شَعَائِرُ اللهِ دِيْنُ اللهِ)؛ أيْ لاَ تُحِلُّوا فِي دِيْنِ اللهِ شَيْئاً مِمَّا لَمْ يُحِلَّهُ اللهُ. ويقالُ: هي حدودُ اللهِ في فرائضِ الشرعِ.

والشَّعَائِرُ في اللغة: الْمَعَالِمُ، والإشْعَارُ: الإعْلاَمُ، وَالشَّعِيرَةُ وَاحِدَةُ الشَّعَائِرِ؛ وهِيَ كُلُّ مَا جُعِلَ عَلَماً لِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ ﴾ ؛ أي ولا تَسْتَحِلُّوا القَتْـلَ والغـارَةَ في الشَّهرِ الحرام، وأرادَ بذلك الأشـهُرَ الْحُـرُمَ كلَّـها؛ وهـي: رَجَـبٌ؛ وذُو الْقَعْـدَةِ؛ وذُو الْحِجَّةِ؛ وَالْمُحَرَّمُ، إلاَّ أنه ذُكِرَ باسمِ الجنس كمـا في قولـهِ تعـالى: ﴿إنَّ الإنسَـانَ لَفِـي خُسْرٍ﴾[1] أرادَ به جِنْسَ الإنسان، ولذلك استثنَى المطيـعَ بقولـه: ﴿إلاَّ الَّذِيْـنَ آمَنُـوا﴾. وكانَ في ابتداءِ الإسلامِ لا تجوزُ الْمُحَارَبَةُ في الأشهرِ الْحُرُمِ كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ قِتَـالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾[2]، ثم نُسِخَ حرمةُ القتال في الشهرِ الحرام بقولهِ تعالى: ﴿فَـاقْتُلُوا الْمُشْـرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[3].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ ﴾ ؛ أي لا تُحِلُّـوا الْـهَدْيَ؛ أي لا تَذْبَحوهُ قَبْلَ مَحِلِّهِ؛ ولا تنتفِعُوا بهِ بعدَ أن جعلتموهُ للهِ، ولا تمنعـوهُ أن يَبْلُـغَ البيـتَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا الْقَلائِدَ) أي ولا تُحِلُّوا القلائدَ التي تكونُ في أعنـاق الهدايـا؛ أي لا تقطعُوها قبلَ الذبْحِ وتصدَّقوا بها بعـدَ الذبـحِ كمـا قـالَ ﷺ لِعَلِـيٍّ ﷺ: [تَصَدَّقُـوا بِجِلاَلِهَا وَخِطَامِهَا، وَلاَ تُعْطِي الْجَزَّارَ مِنْهَا شَيْئاً][4].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ ﴾ ؛ معنـاهُ: ولا تَسْـتَحِلُّوا القَتْـلَ والغارةَ على القاصدينَ المتوجِّهين نحوَ البيتِ الحرام، وعن ابن عبَّاس ﷺ: (أنَّ الآيَـةَ وَرَدَتْ فِي شُرَيْحِ بْنِ ضُبَيْعَةَ بْنِ هِنْدِ الْيَمَامِيِّ[5]، دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِيْنَـةِ وَقَـالَ: أنْتَ مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ؟ قَالَ: [نَعَمْ] قَالَ: إلاَمَ تَدْعُو ؟ قَالَ: [أدْعُو إلَى شَهَادَةِ أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ، وَأنِّي رَسُولُ اللهِ]. فَقَالَ: إنَّ لِي أمَرَاءَ أرْجِعُ إلَيْـهِمْ وَأشَـاوِرُهُمْ، فَـإنْ قَبِلُـوا

---

(١) العصر / ٢ . (٢) البقرة / ٢١٧. (٣) التوبة / ٥.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الحج: باب يتصدق بجلود الهدي: الحديث (١٧١٧)، وهـو الحديث (١٧١٦ و١٧١٨). ومسلم في الصحيح: الحج: باب الصدقـة بلحـوم الهدايـا: الحديـث (٣٤٨/ ١٣١٧) ولفظه عـن علـي ﷺ قـال: [أمَرَنِـي رَسُـولُ اللهِ ﷺ أنْ أقُـومَ عَلَـى بُدْنِـهِ وَأنْ أتَصَدَّقَ بِلَحْمِهَا وَجُلُودِهَا وَأجِلَّتِهَا وَأنْ لاَ أعْطِيَ الْجَزَّارَ مِنْهَا؛ قَالَ: نَحْنُ نُعْطِيهِ مِنْ عِنْدِنَا].

(٥) في رواية الطبري، ذكره قال: ((الْحُطَمُ بنُ هند البكري))، وفي روايـة قـال: ((الحطـم أخـو بنـي ضبيعة بن ثعلبة البكري)). وفي أسباب النزول قال الثعلبي: ((نـزل الْحُطيـم واسمـع شُـريح بـن ضبيع الكندي، أي أتى النبيَّ من اليمامة)).

قَبلْتُ. ثُمَّ انْصَرَفَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [لَقَدْ دَخَلَ بوَجْهِ كَافِرٍ وَخَرَجَ بعَقِبَي غَادِرٍ]. فَمَرَّ بسَرْحٍ لأَهْلِ الْمَدِيْنَةِ فَاسْتَاقَهَا، وَانْطَلَقَ نَحْوَ الْيَمَامَةِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ يَقُولُ:

بَاتُوا نِيَاماً وَابْنُ هِنْدٍ لَمْ يَنَمْ ... بَاتَ يُقَاسِيهَا غُلاَمٌ كَالزُّلَمْ
خَدَلَّجُ السَّاقَينِ خَفَّاقُ الْقَدَمْ ... قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بسَوَّاقٍ حُطَمْ
لَيْسَ براعِي إبلٍ وَلاَ غَنَمْ ... وَلاَ بجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ
هَذا أوَانُ الْحَرْبِ فَاشْتَدِّي زَلَمْ(١)

وَقَدْ كَانَ عِنْدَ دُخُولِهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ خَلَّفَ خَيْلَهُ خَارجَ الْمَدِيْنَةِ وَدَخَلَ وَحْدَهُ. فَلَمَّا كَانَ فِي الْعَامِ الْقَابلِ؛ خَرَجَ شُرَيْحُ نَحْوَ مَكَّةَ فِي تِجَارَةٍ عَظِيْمَةٍ فِي حُجَّاجِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ مِنْ أهْلِ الْيَمَامَةِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُغِيْرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَإذا كَانَ أشْهُرُ الْحَجِّ أمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَإذا سَافَرَ أحَدُهُمْ فِي غَيْرِ الأَشْهُرِ الْحُرُمِ نَحْوَ مَكَّةَ قَلَّدَ هَدْيَهُ مِنَ الشَّعْرِ وَالْوَبَرِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ هَدْيٌ قَلَّدَ رَاحِلَتَهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ رَاحِلَةٌ جَعَلَ فِي عُنُقِهِ قِلاَدَةً، وَكَانُوا يَأْمَنُونَ بذلِكَ، فَإذا رَجَعُوا مِنْ مَكَّةَ جَعَلُوا شَيْئاً مِنْ لِحَاءِ شَجَرِ الْحَرَمِ فِي عُنُقِ الرَّاحِلَةِ فَيَأْمَنُوا، فَلَمَّا سَمِعَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بخُرُوجِ شُرَيْحٍ وَأصْحَابهِ اسْتَأْذنُوا النَّبِيَّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾ ؛ في موضعِ نَصْبٍ على الحالِ، معناهُ: قَاصِدِيْنَ طالِبينَ رزْقاً بالتِّجارةِ، (وَرِضْوَاناً) أي رضىً مِن اللهِ تعالى عَلَى عَمَلِهِمْ، وَلاَ يرضَى عنهم حتَّى يُسْلِمُوا. وقال الحسنُ وقتادةُ: (مَعْنَى رِضْوَاناً؛ أيْ يَرْضَى اللهُ عَنْهُمْ؛ فَيُصْلِحُ مَعَاشَهُمْ وَيَصْرِفُ عَنْهُمُ الْعُقُوبَاتِ فِي الدُّنْيَا إذا كَانُوا لاَ يُقِرُّونَ بالْبَعْثِ، ثُمَّ نُسِخَ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ ذلِكَ تَعَرُّضَ الْمُشْرِكِيْنَ بقَوْلِهِ تَعَالَى:

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٤٣ تقديم وتأخير في صدر البيت وعجزه.

(٢) أخرجه مختصراً الطبري في جامع البيان: النص (٨٦١٢) عن السدي. وفي أسباب النزول للواحدي: ص١٢٥-١٢٦. وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ٦ ص٤٣.

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾[١] كَافَّةً، وبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذا﴾[٢]). وقرأ الأعمشُ (وَلاَ آمِّينَ) أي البيتَ الحرامَ بالإضافةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ﴾ ؛ أي لا يحملنَّكم ويكسبنَّكم بُغْضُ قومٍ وعداوتُهم بأن صرفوكُم عامَ الْحُدَيْبِيَةِ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ على أن تَظْلِمُوهُمْ، وتتجاوزُوا الحدَّ للمكافأةِ. وموضع: (أنْ تَعْتَدُوا) نَصْبٌ لأنه مفعولٌ، و (أنْ صَدُّوكُمْ) مفعولٌ لهُ، كأنهُ قال: لا يَكْسِبَنَّكُمْ بغضُ قومٍ الإعتداءَ عليهم بصدِّهم إيَّاكم.

قرأ أهلُ المدينةِ إلاَّ قالون ابنَ عامرٍ والأعمش: (شَنْآنُ) بجزمِ النُّون الأُولى. وقرأ الآخرون بالفَتْحِ وهُما لُغتان؛ إلاَّ أنَّ الفتحَ أجودُ لأنه أفْهَمُ اللُّغتين، ولأنَّ المصادِرَ أكثرُ ما تجيءُ على (فَعَلاَنُ) مثل النَّفَيَانِ[٣] وَالرَّتَقَانِ[٤] والعَسَلاَنِ[٥] ونحوُ ذلك[٦].

قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى: (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ) أيْ وَلاَ يَحْمِلَنَّكُمْ)[٧]. وقال الفرَّاءُ: (وَلاَ يَكْسِبَنَّكُمْ)، قال: (يُقَالُ: فُلاَنٌ جَرِيْمَةُ أهْلِهِ؛ أيْ كَاسِبُهُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (أنْ صَدُّوكُمْ) قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بكسرِ الألفِ على الاستئناف والجزاءِ، وقرأ الباقون بالفتحِ؛ أي لئن صَدُّوكُمْ، والفتحُ أجودُ؛ لأن الصدَّ كان وَاقِعاً من الكفَّار يومَ الحديبيةِ قبل نُزُولِ هذه السورةِ.

---

(١) التوبة / ٥ . (٢) التوبة / ٢٨ .

(٣) النَّفَيَانُ: نفيانُ السَّيلِ: ما فاضَ من مُجتمعِهِ، كأنه يجتمعُ في الأنهار الإخاذات، ثم يفيضُ إذا ملأها، فذلك نَفَيانُهُ.

(٤) الرَّتْقُ: إلحامُ الفَتْقِ وإصلاحهُ، والرَّتَقَانُ: ثوبانِ يُرتَقَان بحوَاشيهما.

(٥) العَسَلاَنُ: الناقة السريعة، أو المشيُ الْخَبَبُ، ومَشي الذئب واهتزازُ الرمح.

(٦) في الحجة للقراءات السبعة: ج ٢ ص١٠٥؛ قال أبو علي الفارسي: ((أما الشَّنَآنُ، فإن فعلاناً يجيءُ على ضربين: أحدهما اسم، والآخر: وصفٌ. والاسم على ضَربين: أحدهما أن يكون مصدراً كالنَّقَزَان، والنَّفَيَان.. وعامة ذلك يكون معناهُ التحرك والتقلُّب، فالشَّنَآنُ على ما جاءت به هذه المصادرُ. والاسم الذي ليس بمصدر نحو: الوَرَشَانُ والعَلَجَانُ. وأما مجيءُ فعلان وصفاً فنحو: الزَّفَيَانِ والقَطَوان)).

(٧) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٦٤٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ؛ أي تَحَاثُّوا على الطَّاعةِ وترك المعصيةِ، قال أبو العاليَةِ: (الْبِـرُّ: مَا أمِرْتَ بهِ، وَالتَّقْوَى: تَرْكُ مَا نُهِيْتَ عَنْهُ)(١). وظاهرُ الأمرِ يقتضي وجوبَ المعاونةِ على الطَّاعةِ، وظاهرُ الأمرِ على الوُجُوب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ ؛ أي لا يُعِنْ بعضُكم بعضاً على شيءٍ من المعاصي والظُّلْمِ، وقال بعضُهم: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الإثْمِ وَالْبرِّ؛ فَقَالَ: [الْبرُّ: حُسْنُ الْخُلُق، وَالإثْمُ: مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ](٢). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي اخْشَوْهُ وأطيعوهُ فيما أمرَكم به ونَهاكم عنه، (إنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَاب) إذا عَاقَبَ، فعقابهُ شديدٌ.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ ؛ الْمَيْتَةُ: اسمٌ لِكُلِّ ذِي رُوحٍ فَارَقَهُ رُوحُهُ حَتْفَ أنْفِهِ، والمرادُ بالدَّم: الدَّمُ الْمَسْفُوحُ، وحُرِّمَ عليكُم لَحْمُ الْخِنْزِيْرِ لِعَيْنِهِ لا لكونهِ ميتةً حتى لا يحلَّ تناولهُ مع وجودِ الذكاةِ فيه.

وفائدةُ تخصيصِ لَحْمِ الْخِنْزِيْرِ بالذِّكْرِ دونَ لحمِ الكلب وسائرِ السِّباعِ: أنَّ كثيراً من الكُفَّارِ ألِفُوا لحمَ الخنْزِير، واعتادُوا أكلَهُ وأولِعُوا به ما لَمْ يعتادُوا بهِ أكلَ غيرِهِ. وَقِيْلَ: فائدتهُ: أنَّ مُطْلَقَ لفظِ التحريم يدلُّ على نجاسةِ عَيْنِهِ مع حُرْمَةِ أكلِهِ، ولحمُ الخنْزيرِ مختصٌّ بهذا الحُكْمِ؛ وذلكَ: أنَّ سائرَ الحيواناتِ الْمُحَرَّمُ أكلُها إذا ذُبحَتْ كان لحمُها طاهراً لا يفسدُ الماءَ إذا وقعَ فيه، وإنْ لم يَحِلَّ أكلهُ بخلافِ لحم الْخِنْزِيْر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا أهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بهِ) أي وحُرِّمَ عليكم ما ذُكِرَ عليه عندَ الذبْحِ اسمُ غيرِ الله، وذلك أنَّهم كانوا يذبحونَ لأصنامِهم يتقرَّبون بذبْحِها إليهم، فَحَرَّمَ اللهُ كلَّ ذبيحةٍ يُتَقَرَّبُ بذبحِها إلى غيرِ الله تعالى، ولذلك قالَ الفُقَهَاءُ: إنَّ الذابحَ لو سَمَّى النبيَّ ﷺ معَ اللهِ تعالى فقالَ: بسمِ اللهِ ومُحَمَّدٍ؛ حَرُمَتِ الذبيْحَةُ(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٦٤٧).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب البر: باب تفسير البر والإثم: الحديث (١٤/ ٢٥٥٣) عن النواس بن سمعان الأنصاري.

(٣) أدرج الناسخ قوله: ((قال في تفسير عبدِ الصَّمَدِ، وذكر الإمامُ أبو عاصِم العامريُّ محمدُ بنُ=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ ﴾ ؛ أي حُرِّمَ عليكم أكلُ لحم الْمُنْخَنِقَةِ؛ وهي التي تَنْخَنِقُ بحَبْلٍ أوْ شَبَكَةٍ فَتَمُوتُ مِنْ غَيْرِ ذكَاةٍ، وأمَّا الْمَوْقُوذةُ؛ فهي الْمَضْرُوبَةُ بالْخَشَبِ حتَّى تَمُوتَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْمُتَرَدِّيَةُ) هي التي تَتَرَدَّى من جَبَلٍ أو سَطْحٍ أو فِي بئْرٍ فَتَمُوتُ قَبْلَ الذكَاةِ. وَالتَّرَدِّي: هُوَ السُّقُوطُ، مأخوذٌ من الرَّدَاءِ وهو الْهلاَكُ، قال ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: [إذا تَرَدَّتْ رَمْيَتُكَ مِنْ جَبَلٍ فَوَقَعَتْ فِي مَاءٍ فَلاَ تَأْكُلْ؛ فَإنَّكَ لاَ تَدْري أسَهْمُكَ قَتَلَهَا أم الْمَاءُ][(١)].

فصارَ هذا الكلامُ أصلاً في كلِّ موضعٍ اجتمعَ فيه معنيان: أحدُهما حَاظِرٌ، والآخرُ مبيحٌ فأنَّهُ تَغْلُبُ جِهَةُ الْحَظْرِ، ولهذا قالَ ﷺ: [الْحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أمُورٌ مُشَبَّهَةٌ، فَدَعْ مَا يُرِيْبُكَ إلَى مَا لاَ يُرِيْبُكَ، ألاَ وَإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً، وَإنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، فَمَنْ رَتَعَ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أنْ يَقَعَ فِيْهِ][(٢)] وعن عمرَ ﷺ أنه قالَ: (كُنَّا نَدَعُ تِسْعَةَ أعْشَارِ الْحَلاَلِ مَخَافَةَ الرِّبَا)[(٣)].

=أحمدِ عن أصحابنا:(أنَّ سُلْطَاناً لَوْ دَخَلَ بَلَداً فَذَبَحَ النَّاسُ الذبَائِحَ تَقَرُّباً إلَيْهِ بذبْحِهَا وَإرَاقَةِ دَمِهَا؛ لَمْ يَحِلَّ تَنَاوُلُ شَيْءٍ مِنْهَا؛ لأنَّهُ قَدْ أهِلَّ بهَا لِغَيْرِ اللهِ وَتُقُرِّبَ بذبْحِهَا إلَى غَيْرِ اللهِ). وكان يُفَرِّقُ بين هذا وبَيْنَ مَا يذبحُهُ الرجلُ لضيفهِ بمعنى: أنَّ صاحبَ الضيفِ إنَّما يتقرَّبُ إلى ضيفهِ باللَّحْمِ دونَ إراقةِ الدم، ألاَ ترَى أنهُ لو ذبحَ الشاةَ باسْمه ونَسَبهِ ولم يقرِّبْها إليه لم يكن تَقْرِيْباً إليه.

فأمَّا ما يُذْبَحُ لأجلِ الأمرَاءِ عند دخولِهم البلادَ، إنَّما يتقرَّبون إليهم بالذبحِ وإراقةِ الدَّمِ دونَ اللَّحْمِ، فإنَّ اللحمَ لاَ يُحْمَلُ إليهم ولا يرجعُ إليهم شيءٌ من منافعهِ، فلذلكَ افْتَرَقَا. وكان يُحكى عن بعضِ المشايخ: أن هذه المسألةَ وَقَعَتْ ببعضِ بلادِ ما وراءَ النَّهْرِ؛ فَاخْتَلَفَ فيها فُقَهَاؤُهَا؛ فكتبُوا إلى أئِمَّةِ بُخَارَى؛ فأفْتَوا بتحريْمِها)).

ويلاحظ أن أسلوب المفسر في عبارته يختلف عن أسلوب المصنف رحمه الله، فضلاً عن وضوح الإدراج في السياق.

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الصيد: باب الصيد بالكلاب المعلمة: الحديث (٧/ ١٩٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الإيمان: باب فضل من استبرأ لدينه: الحديث (٥٢ و٢٠٥١). ومسلم في الصحيح: المساقاة: باب أخذ الحلال وترك الشبهات: الحديث (١٠٧/ ١٥٩٩).

(٣) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: البيوع: باب طعام الأمراء وأكل الربا: النص (١٤٦٨٣): ((عن الشعبي قال: قال عمر: ... وذكره)).

قوله عزّ وجَلّ: ﴿ وَٱلنَّطِيحَةُ ﴾ ؛ هي التي تُنْطَحُ حتى تموتَ، وإذا تناطحتِ الحيواناتُ فقَتَلَ بعضُها بعضاً في النِّطَاحِ فهي حرامٌ بالآية، قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَخْنُقُونَ الشَّاةَ حَتَّى إذا مَاتَتْ أكَلُوهَا وَكَذلِكَ الْمَوْقُوذةُ)[١]، قال قتادةُ:(كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَضْرِبُونَ الشَّاةَ بالبَعْضِ حَتَّى إذا مَاتَتْ أكَلُوهَا)[٢]، يقالُ منه: وَقَدَهُ يَقِدُهُ إذا ضَرَبَهُ حتى أشفَا على الهلاكِ. قال الفَرَزْدَقُ:

شَغَّارَةٌ تَقِذُ الْفَصِيلَ برجْلِهَا فَطَّارَةٌ لِقَوَادِمِ الأَبْكَارِ[٣]

قَوْلُهُ تَعَالَى: (النَّطِيحَةُ) إنَّما دخلَت الهاءُ فيها وإنْ كان الفعلُ بمعنى المفعول يُسَوَّى فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ كقولهم: لِحْيَةٌ دَهِيْنٌ وعينٌ كَحِيلٌ وكفٌّ خَضِيبٌ؛ لأنَّ النطيحةَ لم يتقدَّمْها اسم، فلو أسقطتِ الهاء منها لم يُدْرَ أهيَ مذكَّرٌ أم مؤنثٌ، فنظيرُ ذلك لو قيلَ: شاةٌ نطيحٌ لم تذكَّر الهاء المذكَّرُ الشاة[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ ، وقرأ ابن أبي زائدة: (وَأكِيْلَةُ السَّبُعِ). وقرأ الحسنُ وطلحة: (السَّبْعُ) بسكون الباءِ وهي لغةٌ في السَّبُعِ، ومعنى قولهِ تعالى: (وَمَا أكَلَ السَّبُعُ) هو فَرِيْسَتُهُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٦٥٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٦٥٥).

(٣) الشغَّارَةُ: الناقةُ ترفع رجلَها ضاربةً الفصيلَ لتمنعَهُ من الرضاعِ عند الحلب. يقالُ: شَغَرَ الكلب: إذا رفعَ رجلَهُ ليبولَ، وهو منصوبٌ على الذمِّ. وتَقِذُ والوَقذُ: أشدُّ الضربِ. والموقوذةُ: التي أنهكت ضَرباً بالخشبِ حتى تموتَ.

والفطَّارةُ: الحاذقةُ بحلبِ الفُطر، وهو الحلبُ بأطرافِ الأصابع، والحلبُ بالسبَّابة والوسطى ويستعينُ بطرفِ الإبهام. والفَطْر والفُطْرُ: خلافُ الضبِّ؛ وضبُّ الناقة يضبُّها: جمع خَلْفَيْهَا في كفِّه للحلبِ، وهو الحلبُ بالكفِّ كلها. وَقِيْلَ: هذا هو الضَّفُّ. وقَوادِمُها: أخلافُها، وهما القادمان، وجمعه قَوَادِمُ. والأبكارُ تُحلَبُ فُطراً؛ لأنه لا يستمكن أن يحلبَها ضبّاً لقِصَرِ الخلفِ لأنها صغارٌ.

(٤) لكن ذكر الهاء ها هنا (النطيحةُ)؛ لأن الهاء إنما تحذف من الفعيلة إذا كانت صفةً لموصوف منطوق به، فيقال: شاةٌ نطيحٌ وامرأة قتيلٌ. فإن لم تذكر الموصوف فتقول: رأيتُ قتيلةَ بني فلان، وهذه نطيحةُ الغنمِ، وإلا لم يتميز أذكر أم أنثى. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٤٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ ؛ أي إلاّ ما ذكَرْتُم ذكاتَهُ مما أكَلَ منهُ السَّبعُ فذكَّيتُم، فإنَّ ذلك يحلُّ لكم، أو ما أبيْنَ من الصَّيدِ قبلَ الذكَاةِ فهو ميِّتٌ، ويحتملُ أن يكون قوله تعالى: (إلاَّ مَا ذكَّيْتُمْ) راجعاً إلى الْمُنْخَنِقَةِ وَالْمَوْقُوذةِ وَالْمُتَرَدِّيَةِ وَالنَّطِيْحَةِ وَمَا أكَلَ السَّبُعُ، فإنَّها كلُّها في الحكمِ بمعنى واحدٍ. وعن الحسنِ أنهُ كان يقولُ في هذه الجملةِ: (إذا طَرَفَتْ بعَيْنِهَا؛ أوْ وَكَصَتْ برِجْلِهَا؛ أوْ حَرَّكَتْ بَدَنَهَا فَذكِّهَا وَكُلْ)[١]. وشَرَطَ أكثرُ العلماءِ في إباحة أكلِها بالذكاةِ: أن تكونَ حياتُها وقتَ الذكاةِ أكثرَ من حياةِ المذبوحِ، فإن كانت بهذه الصِّفةِ أثَّرَتِ الذكاةُ في إباحَتِها وإلاّ فَلاَ.

والتَّذْكِيَةُ: تَمَامُ فَرْيِ الأَوْدَاجِ وَإنْهَار الدَّمِ، ومنهُ الذكَاءُ في الفَهمِ إذا كانَ تَامَّ الْعَقْلِ، وذكَّيْتُ النَّارَ إذا أتْمَمتُ إشعالَها .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ ؛ أي وَحُرِّمَ عليكم مَا ذُبحَ عَلَى النُّصُب، هي جمعُ النَّصْب، والنِّصَابُ: وهي الْحِجَارَةُ، كانوا يَنْصِبُونَهَا فَيَعْبُدُونَهَا من دونِ اللهِ تعالى ويُقَرِّبُونَ لها الذبائحَ، والفرقُ بين النُّصُب والأصنامِ: أنَّ الصنَمَ اسمٌ لِما كانَ على صُورةِ الإنسان، والنُّصُبُ ما لاَ نَقْشَ لهُ ولا صورةَ ولكنه يُعْبَدُ. والوَثَنُ ما كان مَنْقُوشاً، والحائِطُ لاَ شخصَ لهُ. وَقِيلَ: النُّصُبُ وَاحِدٌ وجمعهُ أنْصَابٌ، مثلُ عُنُقٍ وأعناقٍ.

وقرأ الحسنُ بن صالحٍ وطلحةُ بن مصرف: (عَلَى النُّصْب) بجزم الصاد، وقرأ الجحدريُّ: بفتح النونِ والصادِ؛ جعلهُ اسْماً موحداً كالجبَلِ والجَمَلِ، والجمعُ الأنْصَابُ كالأجْبَال والأجْمَال، وكلُّها لغاتٌ وهي الشيءُ الْمُنَصَّبُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[٢].

واختلفُوا في معنى النُّصُب ها هنا؛ قال ابن جُرَيج ومجاهدُ وقتادة: (كَانَ حَوْلَ الْبَيْتِ ثلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ حَجَراً، وكَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَذْبَحُونَ عَلَيْهَا، وَيُشَرِّحُونَ اللَّحْمَ عَلَيْهَا، وَكَانُوا يُعَظِّمُونَهَا وَيَعْبُدُونَهَا وَيَذْبَحُونَ لَهَا، وَكَانُوا مَعَ هَذا يُبْدِلُونَهَا إذا رَأوا حِجَارَةً

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٦٧٣) عن ابن عباس، والنص (٨٦٧٤) عن الحسن.
(٢) المعارج / ٤٣ .

هِيَ أعْجَبُ إلَيْهِمْ مِنْهَا). وَقَالُوا: (لَيسَتْ أصْنَاماً إنَّمَا الصَّنَمُ مَا يُنْقَشُ). وقال آخرون: النُّصُبُ هي الأصنامُ الْمَنْصُوبَةُ. قال الأعشَى:

وَذا النُّصُـــبَ الْمَنْصُـــوبَ لاَ تَنْسُـــكَنَّهُ وَلاَ تَعْبُـــدِ الأَوْثَـــانَ وَاللهَ فَـــاعْبُدَا

قال قُطْرُبُ: (مَعْنَى الآيَةِ: وَمَا يُذْبَحُ لِلنُّصُبِ؛ أيْ لأَجْلِهَا، وَاللاَّمُ وَ(علَى) يَتَعَاقَبَان فِي الْكَلاَمِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَسَلاَمٌ لَكَ﴾(١) أيْ عَلَيْكَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإنْ أسَأْتُمْ فَلَهَا﴾(٢) أيْ فَعَلَيْهَا). وقال بعضُهم: معناهُ: وما ذُبحَ على اسمِ النُّصُب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ﴾ ؛ وهي القِدَاحُ؛ أي حُرِّمَ عليكم الاسْتِقْسَامُ؛ وهُوَ طَلَبُ الْقَسْمِ بالأَزْلاَمِ؛ وَهِيَ الْقِدَاحُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِبُونَهَا عِنْدَ الْعَزْمِ عَلَى الْمَيْسِرِ ويقتسمونَ بها لَحْمَ الْجَزُور على ما تقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾(٣).

وقال الحسنُ: (كَانُوا يَتَّخِذُونَ السِّهَامَ؛ فَإذا أرَادَ الرَّجُلُ أنْ يَخْرُجَ إلَى سَفَرٍ أوْ تِجَارَةٍ أوْ سَرُوحٍ؛ أجَالَ السِّهَامَ بيَدِهِ، وكَانَ مَكْتُوباً عَلَى بَعْضِهَا: أمَرَنِي رَبي، وَعَلَى بَعْضِهَا: نَهَانِي رَبي، فَإنْ خَرَجَ الَّذِي عَلَيْهِ: أمَرَنِي رَبي؛ قَالَ: قَدْ أمِرْتُ بالْخُرُوجِ ولاَ بُدَّ لِي مِنْ ذلِكَ؛ فَيَخْرُجُ، وَإنْ كَرِهَ الْخُرُوجَ خَرَجَ غَيْرَ بَعِيْدٍ ثُمَّ رَجَعَ، وَلاَ يَدْخُلُ مِنْ بَاب بَيْتِهِ، وَلَكِنْ يَنْقُبُ ظَهْرَ بَيْتِهِ مِنْهُ يَدْخُلُ وَمِنْهُ يَخْرُجُ إلى أنْ يَتَّفِقَ لَهُ الْخُرُوجُ. وَإنْ خَرَجَ الَّذِي عَلَيْهِ: نَهَانِي رَبي، قَالَ: قَدْ نُهِيْتُ عَنِ الْخُرُوجِ، وَلاَ يَسْعُنِي. فَنَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ ذلِكَ)(٤).

فعلى هـذا لا يجوزُ أن يكونَ معنى الاسْتِقْسَامِ طلبَهم في الخروجِ والجلوسِ، والخروج في قَسْمِ الرِّزْقِ والحوائجِ، وظاهرُ هذه الآيةِ يقتضِي أنَّ العملَ على قولِ الْمُنَجِّمِيْنَ: لا تخرجُ من أجلِ نَجْمِ كذا؛ وَاخْرُجْ من أجلِ نَجْمِ كَذا؛ فِسْقٌ لأنَّ ذلكَ دُخُولٌ فِي عِلْمِ الْغَيْب، وَلاَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ إلاَّ اللهُ.

---

(١) الواقعة / ٩١ . (٢) الاسراء / ٧ . (٣) البقرة / ٢١٩ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٦٩٣).

وَمَعْنَى الفِسْقِ: الخروجُ من الطاعةِ؛ وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ ؛ إشارةٌ إلى ما تقدَّم ذكرهُ من المعاصي والحرامِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا) في موضعِ رَفْعٍ؛ أي وَحُرِّمَ عليكُم الاستقسامُ بالأزلامِ، والأَزْلاَمُ: هِيَ الْقِدَاحُ الَّتِي لاَ رِيْشَ لَهَا وَلاَ نَصْلَ، وَاحِدُهَا زُلَمٌ، مثلُ عُمَرَ وَزُفَرَ، وَقِيْلَ: زَلَمٌ مثلُ قَلَمٍ. وقال ابنُ جُبير: (هِيَ حَصَى بَيْضَاءَ كَانُوا يَضْرِبُونَ بهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ يَوْمَ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ ومَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَهُوَ يَوْمُ الْفَتْحِ، يَئِسَ الْكُفَّارُ يَوْمَئِذٍ مِنْ رُجُوعِ الْمُسْلِمِيْنَ إلَى دِيْنِهِمْ بمَا ظَهَرَ مِنْ عُلُوِّ الإسْلاَمِ وَالْمُسْلِمِيْنَ عَلَى سَائِرِ الأَدْيَانِ). وقال بعضُهم: أراد به يَوْمَ حَجَّةِ الوداعِ، وقال الحسنُ: (أرَادَ بالْيَوْمِ جَمِيْعَ زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَصْرِهِ، كَمَا يُقَالُ: كَانَتْ حَادِثَةُ كَذا فِي يَوْمِ فُلاَنٍ، يُرَادُ بهِ عَصْرُهُ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ ؛ أي لِيَكُنْ خوفكُم للهِ وحدَه؛ فقد أمِنْتُمْ، وحوَّلَ اللهُ الخوفَ الذي كان يلحقُكم إليهم بإظهار الإسلامِ. وَقِيْلَ: معناهُ: لا تَخْشَوْهُمْ بإظهار تحريم ما كانوا يُبيْحُونَهُ، وأسرِعُوا في تركِ إظهار الْمُحَرَّمَاتِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ وَهُوَ وَاقِفٌ بعَرَفَةَ يَوْمَ عَرَفَةَ؛ وَالنَّاسُ وُقُوفٌ رَافِعُونَ أيْدِيَهُمْ بالدُّعَاءِ، فَبَرَكَتْ نَاقَةُ النَّبيِّ ﷺ مِنْ ثِقَلِ هَذِهِ الآيَةِ بَعْدَ أنْ كَادَ عَضُدُهَا يَنْدَقُّ، وَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَهَا آيَةُ حَلاَلٍ وَلاَ حَرَامٍ، وَعَاشَ النَّبيُّ ﷺ بَعْدَهَا وَاحِداً وَثَمَانِيْنَ يَوْماً، ثُمَّ قَبَضَهُ اللهُ تَعَالَى إلَى رَحْمَتِهِ)[1].

قال طارقُ بنُ شِهابٍ: (جَاءَ يَهُودِيٌّ إلَى عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ: يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ! آيَةً تَقْرَأونَهَا لَوْ أنْزِلَتْ عَلَيْنَا لاتَّخَذْنَا يَوْمَ نُزُولِهَا عِيْداً، فَقَالَ: وَأيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: (الْيَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) الآيَةُ، قَالَ عُمَرُ: هَلْ عَلِمْتَ فِي أيِّ يَوْمٍ نَزَلَتْ وَفِي أيِّ مَكَانٍ نَزَلَتْ؟ إنَّهَا نَزَلَتْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَوْمَ عَرَفَةَ وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٨٧١٠) عن السدي عن أسماء بنت عميس.

ﷺ وَهُوَ وَاقِفٌ، وَكِلاَهُمَا بِحَمْدِ اللهِ لَنَا عِيْدٌ، وَلاَ يَزَالُ ذلِكَ الْيَوْمُ عِيْداً)[١]. قال ابنُ عبَّاس: (إنَّهَا نَزَلَتْ فِي يَوْمِ عِيْدَيْنِ: يَوْمُ جُمُعَةٍ وَيَوْمُ عَرَفَةَ)[٢].

رويَ عن عمرَ ﷺ أنَّهُ بَكَى يَوْمَ نَزَلَتْ هَـذِهِ الآيَـةُ، فَقَـالَ لَـهُ النَّبِيُّ ﷺ: [مَا يُبْكِيْكَ يَا عُمَرُ؟!] قَالَ: أبْكَانِي أنَّا كُنَّا فِي زِيَادَةٍ مِـنْ دِيْنِنَـا، فَأمَّـا إذا أكْمِـلَ، فَإنَّـهُ لاَ يَكْمُلُ شَيْءٌ إلاَّ نَقُصَ، قَالَ: [صَدَقْتَ][٣].

واختلفُوا في معنىَ الآيةِ؛ قال بعضُهم: معناها: اليومَ أكملتُ لكم شَرَائِعَ دِيْنِكُمْ من الفرائضِ والسُّنَنِ والأحكامِ والحدود والحلال والحرام، فلم يَنْزِلْ بعدَها حلالٌ ولا حرامٌ ولا شيء من الفرائضِ، وثَبَتَ لكم جميع ما كنتُ أريدُ أن أبَيِّنَـهُ لكـم في الأزَلِ، فأمَّا دينُ اللهِ فلم يَزَلْ كامِلاً لا يُنْقَصُ فيهِ، وهذا قولُ ابنِ عبَّاس والسُّدِّيُّ. وقال قتادةُ وسعيدُ: (مَعْنَاهُ: أكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ؛ فَلَمْ يَحُجَّ مَعَكُمْ مُشْرِكٌ). ويحتملُ أن يكون المرادُ بالأكملِ للدين أظْهَرَهُ على سـائرِ الأديـان بـالنُّصْرَةِ والغَلَبَـةِ، و(الْيَـوْمَ) نُصِـبَ علـى الظَّرفِ، كما يقالُ: الآنَ، وفِي هذا الزَّمَانِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) أي أتْمَمْتُ عليكم مِنَّتِي بإظـهار الدِّيـنِ حتى لم يَحُجَّ معكم مُشْركٌ، وَقِيْلَ: نِعْمَةُ اللهِ بَيَانُ فَرَائِضِهِ، وَقِيْـلَ: هـي إيجـابُ الجنَّـةِ، وَقِيْلَ: معناهُ: وانجزتُ لَكُمْ وَعْدِي في قَولِي: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِـي عَلَيْكُـمْ﴾[٤]، فكـان مـن تَمَامِ نِعْمَتِهِ أنْ دَخَلُوا مكَّةَ آمنينَ وعليها ظاهرين، وحَجُّوا مطمئنِّين، ولم يخالِطْهم أحدٌ من المشركينَ.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتـاب الإيمـان: بـاب زيـادة الإيمـان ونقصانـه: الحديـث (٤٥)، وكتاب المغازي: باب حجة النبي ﷺ: الحديث (٤٤٠٧). ومسلم في الصحيـح: كتـاب التفسـير: الحديث (٣و٤و٥/ ٣٠١٧).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٢ ص١٤٣: الحديث (١٢٨٣٥). والترمذي في الجامع: كتاب التفسير: الحديث (٣٠٤٤)، وقال: حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٨٧١٢) مرسـلاً. وفي الـدر المنثـور: ج ٣ ص١٨؛ قـال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير)).

(٤) البقرة / ١٥٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا) أي اخْتَرْتُ لكمُ الإسلامَ من الأديانِ كلِّها دِيناً، فمن دَانَ بالإسلام، فقد اسْتَحَقَّ ثَوَابي ورضَاي.

والدِّيْنُ: اسْمٌ لِجَمِيْعِ مَا يَعْبُدُ اللهَ بِهِ خَلْقُهُ، وأمرَهم بالإقامةِ عليه، وهو الذي أمِرُوا أن يكونَ ذلك عادتُهم والذي به يجزونَ، فإن الدِّينَ في اللغةِ: الْعَادَةُ، والدِّين الْجَزَاءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي مَنْ دَعَتْهُ الضرورةُ إلى أكلِ شيء مِمَّا حَرَّمَ اللهُ عليه في مجاعةٍ غَيْرِ مائلٍ إلى إثم؛ أي زَائِدٍ على ما يَسُدُّ به رَمَقَهُ (فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أباحَ ذلك رحمةً منه وتسهيلاً على خَلْقِهِ. وَالْمَخْمَصَةُ: مَأخُوذةٌ مِنَ الْمَخْصِ وَهُوَ شِدَّةُ ضُمُور الْبَطْنِ، وَالْمُتَجَانِفُ مِنَ الْجَنَفِ وَهُوَ الْمَيْلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ) جَاءَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: إنَّ لَنَا كِلاَباً نَتَصَيَّدُ بِهَا فَتَأْخُذُ الْبَقَرَ وَالظِّبَاءَ وَالْحُمُرَ، فَمِنْهَا مَا نُدْرِكُ ذكَاتَهُ، وَمِنْهَا مَا لاَ نُدْرِكُ، وَقَدْ حَرَّمَ اللهُ الْمَيْتَةَ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناها: يسألونَكَ يا مُحَمَّدُ: أيَّ شيءٍ أحِلَّ لهم من الصَّيدِ وغيره ؟ قُلْ أحَلَّ لَكُمُ الْمُبَاحَاتِ. يقال: هذا يَطِيبُ لفلان؛ أي يَحِلُّ، قال الله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾[1] أي ما حَلَّ لكم. وكُلُّ شَيْءٍ لَمْ يَأْتِ تَحْرِيْمُهُ فِي كِتَابٍ أوْ سُنَّةٍ فَهُوَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ. وقال بعضُهم: أراد بالطيِّباتِ المستلذاتِ والمشتَهَياتِ، وهو عامٌّ أريدَ به غيرُ ما تَضَمَّنَتْهُ الآيةُ المتقدِّمةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ) أي وأحلَّ صَيْدَ ما عَلَّمْتُمْ، فحذفَ ذِكْرَ الصَّيدِ لأنَّ في الكلامِ دليلاً عليه، والْجَوَارِحُ: هِيَ الْكَوَاسِبُ مِنَ الْفَهْدِ؛ وَالصَّقْرِ؛ وَالْبَازِ؛ وَالْعُقَابِ؛ وَالنَّسْرِ؛ وَالْبَاشِقِ؛ وَالشَّاهِيْنِ وسائرِ ما يُصْطَادُ به الصيدُ.

---

(١) النساء / ٣.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾(١) أي كَسَبْتُم، وَقِيلَ: معنى الْجَوَارِحِ: الْجَارِحَاتُ بنَابٍ أو مَخْلَبٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (مُكَلِّبِينَ) حالٌ للمعلِّمينَ؛ أي في حال إغْرَائِهِمْ الكلبَ على الصَّيدِ، والتَّكْلِيبُ: إغْرَاءُ السَّبُعِ عَلَى الصَّيْدِ وإرْسَالُهُ.

ومن قرأ (مُكَلَّبِيْنَ) بفتح اللاَّمِ فهو حالٌ من الكوَاسِبِ المعلَّمين. وقرأ ابنُ مسعودٍ والحسنُ: (مُكْلِبِيْنَ) بإسكان الكافِ وتخفيف اللام، فعلى هذا المعنى يجوزُ أن يكونَ مِن قولِهم: أكْلَبَ الرَّجُلُ إذا كثُرَتْ كِلابُهُ، وأمْشَى إذا كثُرَتْ مَاشِيَتُهُ، ولذلكَ ذكَرَ الكلاب؛ لأنَّها أعَمُّ وأكثرُ، والمرادُ به جميعُ الجوارحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ أي تُؤَدِّبُوهُنَّ أن يُمْسِكْنَ الصَّيدَ عليكم كما أدَّبَكُمُ اللهُ تعالَى، ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي على الإرْسَال، كما رُويَ عنْ رَسُول اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِم: [إذا أرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ، وَسَمَّيْتَ اللهَ تَعَالَى فَكُلْ، وَإنْ أكَلَ مِنْهُ فَلاَ تَأكُلْ، فَإنَّهُ إنَّمَا أمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ](٢). وفي بعضِ الرِّواياتِ: [وَإنْ شَارَكَ كَلْبَكَ كَلْبٌ آخَرُ فَلاَ تَأْكُلْ، فَإنَّكَ إنَّمَا سَمَّيْتَ عَلَى كَلْبِكَ، وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى كَلْب غَيْرِكَ](٣).

وذهبَ بعضُ أهلِ العلم إلى أنَّ معنى الإمساكِ في هذه الآيةِ أنْ يَحْفَظَ الكلبُ الصَّيْدَ حتَّى يجيءَ صاحبهُ، فإنْ تركَهُ حتى غَابَ عن صاحبهِ ثم وجدَهُ صاحبُهُ بعدَ ذلكَ مَيْتاً لَمْ يَحِلَّ أكلهُ. قال ﷺ: [كُلْ مَا أصْمَيْتَ، وَدَعْ مَا أنْمَيْتَ](٤)، قِيلَ: الإصْمَاءُ: مَا رَأيْتَ؛ وَالإنْمَاءُ مَا تَوَارَى عَنْكَ.

---

(١) الأنعام / ٦٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الذبائح والصيد: باب صيد المقراض: الحديث (٥٤٧٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الصيد والذبائح: باب الصيد بالكلاب المعلمة: الحديث (١-١٩٢٩/٧).

(٣) ينظر الهامش السابق.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٢ ص٢٢: الحديث (١٢٣٧٠). وفي المعجم الأوسط: الحديث (٥٥٣٩). وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص١٦٢: كتاب البيوع: باب تصرف العبد؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط وفيه عَباد بن زياد، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه موسى ابن هارون وغيره)).

واختلفَ أهلُ العلمِ في حَدِّ التعليمِ؛ قال أبو حَنِيْفَةَ رَحِمَهُ اللهُ: (لَيْسَ فِيْهِ حَدٌّ مُؤَقَّتٌ، وَإِنَّمَا يُرْجَعُ فِيْهِ إِلَى أَهْلِ الصَّنْعَةِ، فَإِنْ حَكَمُوا بتَعْلِيْمِهِ حَلَّ صَيْدُهُ بَعْدَ ذلِكَ وَإِلاَّ فَلاَ؛ لأَنَّ الاصْطِيَادَ لِلْكِلاَب بمَنْزِلَةِ الْحِرَفِ وَالصِّنَاعَاتِ لِلنَّاسِ، وَلَيْسَ فِي مَعْرِفَةِ كَوْنِ الإِنْسَانِ عَالِماً بصَنْعَتِهِ مُتَقَدِّماً عَلَى حِرْفَتِهِ حَدٌّ يُؤْمَنُ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ يُرْجَعُ فِي كُلٍّ إِلَى أَهْلِهَا).

وقال أبو يُوسُف ومحمَّدُ وكثيرٌ من الفقهاءِ: (إذا دُعِيَ الْكَلْبُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ عَلَى الْوَلاَءِ فَأَجَابَ؛ وَأَرْسِلَ فَاسْتَرْسَلَ، وَأَخَذ الصَّيْدَ وَلَمْ يَأْكُلْ، حَكَمْنَا بكَوْنِهِ مُعَلَّماً؛ لأَنَّ التَّعْلِيْمَ لاَ يَحْصُلُ بالْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ، وَيَحْصُلُ بالْمَرَّاتِ الْكَثِيْرَةِ، فَجُعِلَ الْحَدُّ الْفَاصِلُ بَيْنَ الْقَلِيْلِ وَالْكَثِيْرِ بالثَّلاَثِ الَّتِي هِيَ أَقَلُّ الْجَمْعِ الصَّحِيْحِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ، وروَى أبو رافعٍ قالَ: (جَاءَ جِبْرِيْلُ عليه السلام إِلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ؛ فَأَذِنَ لَهُ فَلَمْ يَدْخُلْ، فَأَخَذ رَسُولُ اللهِ ﷺ رِدَاءَهُ وَخَرَجَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: [قَدْ أذِنَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ!] قَالَ: أجَلْ؛ وَلَكِنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتاً فِيْهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ. فَنَظَرُوا فَإذا فِي بَعْضِ بُيُوتِهِمْ جَرْوٌ)[1].

وعن عَلِيٍّ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [لاَ تَدْخُلُ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتاً فِيْهِ صُورَةٌ وَلاَ كَلْبٌ وَلاَ جُنُبٌ][2] قَالَ أبو رَافِعٍ: (فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ لاَ أدَعَ كَلْباً فِي

---

(١) في مجمع الزوائد: ج ٤ ص٤٢-٤٣: كتاب الصيد والذبائح: باب ما جاء في الكلاب؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الكبير وفيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف)). وفي مصنف ابن أبي شيبة: كتاب اللباس والزينة: باب في الصور والبيت: الحديث (٢٥١٨٥) عن سلمى (أم رافع) مختصراً. وفي أسباب النزول: ص١٢٧؛ قال الواحدي: ((رواه الحاكم في صحيحه، وذكر المفسرون شرح هذه القصة)). وأسنده عن أم رافع وأبي رافع. وفي لباب النقول: ص٨٧؛ قال السيوطي: ((رواه الطبراني والحاكم والبيهقي وغيرهم عن أبي رافع)).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٨٣ و١٠٤ و١٣٩ و١٥٠. وأبو داود في السنن: كتاب الطهارة: باب في الجنب يؤمر بالغسل: الحديث (٢٢٧)، وكتاب اللباس: باب في الصور: الحديث (٤١٥٢). والنسائي في السنن الصغرى: كتاب الطهارة: باب في الجنب إذا لم يتوضأ: ج ١ ص١٤١، وكتاب الصيد والذبائح: ج ٧ ص١٨٥. عن عبدالله بن نُجَي عن أبيه، من أصحاب علي رضي الله عنه.

الْمَدِيْنَةِ إلاَّ قَتَلْتُهُ، فَقَتَلْتُ حَتَّى بَلَغْتُ الْعَوَالِي، فَانْتَهَيْتُ إلَى امْرَأةٍ فِي نَاحِيَةِ الْمَدِيْنَةِ عِنْدَهَا كَلْبٌ يَحْرُسُ غَنَمَهَا فَرَحِمْتُهُ؛ ثُمَّ أتَيْتُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَأخْبَرْتُهُ بِأمْرِهِ فَأَمَرَنِي بِقَتْلِهِ، فَرَجَعْتُ إلَى الْكَلْب فَقَتَلْتُهُ)[١]. وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَافِعاً صَوْتَهُ يقولُ: [اقْتُلُوا الْكَلْبَ][٢].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لاَ يَحِلُّ ثَمَنُ الْكَلْبِ، وَلاَ حُلْوَانُ الْكَاهِنِ، وَلاَ مَهْرُ الْبَغِيِّ] وَنَهَى عَنِ اقْتِنَائِهَا وَإمْسَاكِهَا، وَأمَرَ بغَسْلِ الإنَاءِ مِنْ وُلُوغِهَا سَبْعَ مَرَّاتٍ إحْدَاهُنَّ بالتُّرَاب[٣]. قَالَ: (أمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بقَتْلِ الْكَلْب، فَجَاءَ أنَاسٌ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا يَحِلُّ لَنَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي أمَرْتَ بقَتْلِهَا؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٤] فَلَمَّا نَزَلَتْ أذِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي اقْتِنَاءِ الْكِلاَب الَّتِي يُنْتَفَعُ بهاَ، وَنَهَى عَنِ اقْتِنَاءِ مَا لاَ يُنْتَفَعُ بِهَا، وَأمَرَ بقَتْلِ الْكَلْب الْعَقُور، وَمَا يَضُرُّ وَيُؤْذِي، وَرَفَعَ الْقَتْلَ عَمَّا سِوَاهَا مِمَّا لاَ ضَرَرَ فِيْهِ.

وعن عبدِالله بن المغفل قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَوْلاَ أنَّ الْكِلاَبَ أمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لأَمَرْتُ بقَتْلِهَا، فَاقْتُلُوا مِنْهَا الأَسْوَدَ الْبَهِيْمَ، وَأيُّمَا قَوْمٍ اتَّخَذُوا كَلْباً لَيْسَ بكَلْب صَيْدٍ أوْ حَرْثٍ أوْ مَاشِيَةٍ، فَإنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أجُورِهِمْ كُلَّ يَوْمٍ قِيْرَاطٌ][٥]. وعن أبي هريرة قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنِ اقْتَنَى كَلْباً لَيْسَ بكَلْب صَيْدٍ وَلاَ مَاشِيَةٍ وَلاَ أرْضٍ،

---

(١) في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ٤ ص٤٢؛ قال الهيثمي: ((رواه البزار وأحمد بأسانيد، رجال بعضها رجال الصحيح. ورواه الطبراني في الكبير أيضاً)).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٧ ص١٧٤: الحديث (٦٣٢٢).

(٣) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب البيوع: باب في أثمان الكلاب: الحديث (٣٤٨٤). والنسائي في السنن: كتاب الصيد: باب النهي عن ثمن الكلب: ج ٧ ص١٩٠.

(٤) في مجمع الزوائـد ومنبع الفوائد: ج ٤ ص٤٣؛ قال الهيثمي: ((رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح، خلا سعيد بن بحر شيخ البزار، لم أجد من ترجمه)).

(٥) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الصيد: باب في اتخاذ الكلب للصيد: الحديث (٢٨٤٥). والنسائي في السنن الصغرى: كتاب الصيد: باب صفة الكلاب التي أمر بقتلها: ج ٧ ص١٨٥. وابن حبان في الإحسان: كتاب الحظر والإباحة: الحديث (٥٦٥٧) وإسناده صحيح.

فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيْرَاطَانِ][(١)]. والحكمةُ في ذلكَ: أنه يَنْبَحُ على الضَّيْفِ ويُرَوِّعُ السائلَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ ؛ أي الآنَ تَمَّمَ اللهُ لكم بيانَ الْحَلاَلاَتِ؛ وهو كُلُّ ما لَمْ يَجْرِ ذِكْرُهُ في الْمُحَرَّمَاتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي ذبائحُ اليهودِ والنصارى حلالٌ لكم.

والدليل على أنَّ المرادَ بالطعامِ ها هنا الذبائحُ: أنَّ ما سِوَى الذبائحِ من الأطعمةِ والأشربةِ حلالٌ للمسلمين؛ سواءٌ كانت لأهلِ الكتاب أو لغيرهم، فَبَانَ المرادُ به الذبائحُ؛ لأنَّ ذبائحَ غيرِ أهل الكتاب من الكفَّار حرامٌ على المسلمينَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ ؛ أي ذبائحُكم حلالٌ لَهم؛ أي رُخِّصَ لكم في أن تُطْعِمُوهُمْ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (أرَادَ بالْمُحْصَنَاتِ هَا هُنَا الْحَرَائِرَ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْكِتَابيَّاتِ). وقال ابنُ عبَّاس: (أرَادَ بِهِ الْحَرَائِرَ الْعَفَائِفَ مِنْهُنَّ).

وتقديرُ الآية: وأحِلَّ لكم نكاحُ الْمُحْصَنَاتِ من المؤمناتِ والكتابيَّات، وقد استدلَّ بعضُ الفقهاءِ بظاهرِ هذه الآية: على أنه لا يجوزُ للمسلم نكاحُ الأَمَةِ الكتابيَّةِ، والصحيحُ: أنه يجوزُ بظاهرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾[(٢)] بدليلِ حلِّ ذبائحِهن.

وإنَّما خَصَّ الْمُحْصَنَاتِ بإباحةِ نكاحهنَّ مع جواز نكاحِ غيرِهن؛ لأنَّ الآيةَ خرجت مَخْرَجَ الامتنانِ والْمِنَّةِ في نكاحِ الحرائرِ العفائف أعظمَ وأتَمَّ، يدلُّ على ذلكَ: أنه لا خلافَ في جوازِ النكاحِ بين المسلم والأَمَةِ المؤمنةِ، وإنْ كان في الآيةِ تخصيصُ الْمُحْصَنَاتِ من المؤمناتِ، والأفضلُ لمن أرادَ النكاحَ أن لا يَعْدِلَ عن نكاحِ الحرائرِ

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الحرث والمزارعة: باب اقتناء الكلب للحرث: الحديث (٢٣٢٢) بلفظ: [مَنْ أمْسَكَ]. وأخرجه أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٤٥. والنسائي في السنن الصغرى: كتاب الصيد: باب الرخصة في إمساك الكلب: ج ٧ ص١٨٩ بلفظ: [مَنِ اقْتَنَى].

(٢) النساء / ٢٥.

الكتابيَّات مع القدرةِ عليهنَّ؛ وذلك لأنَّ نكاح الأمَةِ يؤدِّي إلى إرقاق الولد؛ لأنَّ الولدَ يتبعُ الأمَةَ في الرِّقِّ والحريَّةِ، ولا ينبغِي لأحدٍ أن يختارَ رقَّ وَلَدِهِ، كما لا ينبغي أنْ يختارَ رقَّ نفسهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ ﴾ ؛ أي ناكحينَ غيرَ زَانينَ معلنينَ بالزِّنا، ولا مُتَّخِذِي صديقاتٍ للزِّنا سِرّاً. قال الحسنُ: (كَانَ بَعْضُ الْجَاهِلِيَّةِ تُسَافِحُ وَتَزْنِي بكُلِّ مَنْ وَجَدَ مِنَ النِّسَاءِ، وَبَعْضُهُمْ يَتَّخِذُ خَلِيْلَةً يَزْنِي بهَا سِرّاً وَيَتَجَنَّبُ الزِّنَا عَلاَنِيَةً، فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَى بِـهَذِهِ الآيَـةِ حُرْمَةَ الزِّنَا سِرّاً وَعَلاَنِيَةً).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٥ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا رَخَّصَ اللهُ لِلْمُسْلِمِيْنَ فِي نِكَاحِ الْكِتَابيَّاتِ؛ قَالَ أهْلُ الْكِتَاب: لَوْلاَ أنَّ اللهَ رَضِيَ أعْمَالَنَا لَمْ يُحِلَّ لِلْمُسْلِمِيْنَ تَزْويْجَ نِسَائِنَا. وَقَـالَ الْمُسْلِمُونَ: كَيْفَ يَتَزَوَّجُ الرَّجُلُ الْكِتَابيَّةَ وَهِيَ كَافِرَةٌ ؟ فَأنْزَلَ (وَمَنْ يَكْفُرْ بالإِيْمَان فَقَـدْ حَبطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) مِنَ الْمَغْبُونِيْنَ، غَبَنَ نَفْسَهُ وفَسَـقَ وَصَـارَ إلَى النَّار، لا يُغْنِي عَنِ الْمَـرْأةِ الْكِتَابيَّـةِ إسْـلاَمُ زَوْجِـهَا وَلاَ يَنْفَعُـهَا ذلِـكَ، وَلاَ يَضُـرُّ الْمُسْلِمَ كُفْرُ زَوْجَتِهِ الْكِتَابيَّةِ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس وجماعةٌ من المفسِّرين: (مَعْنَاهُ: إذا أرَدْتُمُ الْقِيَامَ إلَى الصَّلاَةِ، وَإنَّمَا أضْمَرُوا إرَادَةَ الْقِيَامِ؛ لأنَّ صِحَّةَ قِيَامِ الصَّلاَةِ بالطَّهَارَةِ فَلاَ يَصِحُّ جُزْءٌ مِنَ الْقِيَامِ قَبْلَ تَقَدُّمِ الطَّهَارَةِ).

وظاهرُ الآية يقتضي أنَّ القيامَ إلى الصلاةِ يكـون سَـبَباً لوجـوب الطَّـهارةِ، ولا خلافَ بين السَّلَفِ والْخَلَفِ أنَّ الطهارةَ لا تجبُ سبب القيام إلى الصَّلاةِ، إلاَّ أنه رُويَ عن ابن عُمَرَ وعليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أنَّهُمَا كَانَا يَتَوَضَّأن عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ، وَيَقْرَآن هَـذِهِ الآيَةَ). فيحتمل أنَّهما كانا يفعلان ذلك نَدْباً واستحباباً، فإن تجديدَ الطَّـهارةِ لكـلِّ صـلاةٍ مستحبٌّ. وقد روي عن رَسُولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: [مَنْ تَوَضَّأ فَهُوَ عَلَى وُضُوءٍ مَـا لَـمْ

يُحْدِثْ][1]. وَقَالَ: [لاَ وُضُوءَ إلاَّ مِنْ حَدَثٍ][2]. فَثَبَتَ أن في الآيةِ إضمارٌ آخر تقديرهُ: أذا أرَدْتُمُ القيامَ إلى الصلاةِ وأنتم مُحْدِثُونَ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ، وهذا نظيرُ قولهِ تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[3] معناه: فأفْطَرَ فَعَلَيْهِ عدَّةٌ مِن أيَّام أخَرَ، وقولهُ: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ﴾[4] معناه فَحَلَقَ فَعَلَيْهِ فِدْيَةٌ. وقال بعضُهم: معنى الآيةِ: إذا قُمْتُمْ من نَوْمِكُمْ إلى الصَّلاةِ، وقال: هذا على أنَّ النومَ في حالةِ الاضطجاع حَدَثٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ) الغَسْلُ: إجْرَاءُ الْمَاءِ عَلَى الْمَحَلِّ وَتَسْييْلُهُ، سَوَاءٌ وُجِدَ مَعَهُ الدَّلْكُ أمْ لاَ، وَالْوَجْهُ: مَا يُوَاجِهُكَ مِنَ الإنْسَان، وَحَدُّهُ مِن قِصَاصِ الشَّعْرِ إلى أسفلِ الذقْنِ، ومِن شَحْمَتَي الأُذُن إلى شَحْمَتَي الأُذُن. وظاهرُ الآيةِ يقتضي أنَّ المضمضةَ والاستنشاقَ غيرُ واجبتينِ في الوضوءِ؛ لأن اسمَ الوجهِ يتناولُ الظاهرَ دون الباطنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأيْدِيَكُمْ إلى الْمَرَافِقِ) أي مع المرافقِ، هكذا قال علماؤُنا رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى، إلاّ زُفَرَ رَحِمَهُ اللهُ؛ فإنهُ ذهبَ إلى ظاهر الآيةِ وقال: (إنَّ حَرْفَ (إلَى) لِلْغَايَةِ، وَالْغَايَةُ لاَ تَدْخُلُ فِي الْحُكْمِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[5]). وأمَّا عامَّةُ العلماءِ فقالوا: إنَّ (إلى) تُذْكَرُ بمعنى (مَعَ) كما قالَ تعالى ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾[6]، فاذا احتملَ اللفظُ الغايةَ واحتملَ معنى المقارنةِ حَلَّ

---

(١) الحديث بمعناه: عن أنس بن مالك قال:[كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ لِكُلِّ صَلاَةٍ، وَكَانَ أحَدُنَا يَكْفِيهِ الْوُضُوءُ مَا لَمْ يُحْدِثْ]. رواه البخاري في الصحيح: كتاب الوضوء: باب الوضوء من غير حدث: الحديث (٢١٤). وأبو داود في السنن: كتاب الطهارة: باب الرجل يصلي بوضوء واحد: الحديث (١٧١)، وغيرهم. واللفظ للدارمي كما في السنن: كتاب الطهارة: باب لا وضوء إلا من حدث: الحديث (٧٢٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٤١٠ و٤٢٥. وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٦٩٢٥) عن أبي هريرة بلفظ: [إلاَّ مِنْ صَوْتٍ أوْ رِيحٍ].

(٣) البقرة / ١٨٤.

(٤) البقرة / ١٩٦.

(٥) البقرة / ١٨٧.

(٦) النساء / ٢.

محَلَّ الْمُجْمَلِ، فَكَانَ مَوْقُوفاً عَلَى بَيَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وقد روي: [أَنَّهُ كَانَ إذا تَوَضَّأَ أَدَارَ الْمَاءَ عَلَى مِرْفَقَيْهِ](١)، فصار فعلَهُ بياناً للمجملِ، فحُمِلَ على الوُجُوب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَامْسَحُوا برُءُوسِكُمْ) اختلفَ العلماءُ في مقدار وجوب الْمَسْحِ منه، فذهبَ مالكٌ إلى أنَّ مسحَ جميعِ الرأسِ واجبٌ، وقال: (ظَاهِرُ الآيَةِ يَقْتَضِي الْجَمِيعَ دُونَ الْبَعْضِ، لأنَّكَ إذا قُلْتَ: مَرَرْتُ بزيدٍ؛ أردتَ جُمْلَتَهُ لاَ بَعْضَهُ، وَمِثْلُ ذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(٢) وَالْمُرَادُ كُلُّ الْبَيْتِ، وكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَامْسَحُوا بوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾(٣)). وذهب الشافعيُّ: إلى أنَّ الواجبَ مقدارُ ما يتناولُهُ الاسمُ، ومِن أصحابهِ من قَدَّرَهُ بثلاثِ شَعْرَاتٍ. وهذا بعيدٌ؛ لأن فَاعِلَهُ لا يسمَّى مَاسِحاً رأسَهُ ولا برَأسِهِ، ولأنَّ ذلك القدرُ يحصلُ بغسلِ الوجهِ، وفِعْلُ ذلك أيضاً مُتَعَسِّرٌ.

وقال أصحابُنا في الاحتجاجِ على مالكٍ بأنَّ (الباءَ) تُذْكَرُ ويرادُ بها التَّبْعِيْضُ،كما تقولُ: أخذتُ برأسِ فلان، ومسحتُ برأسِ اليتيم، فاذا احتملَ اللفظُ التبعيضَ كان مُجْمَلاً فوجبَ الرُّجُوعُ فيه إلى فعلِ الرسول ﷺ، وقد رويَ: [أَنَّهُ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى نَاصِيَتِهِ](٤). والناصيةُ: هِيَ الرُّبُعُ الْمُقَدَّمُ مِنَ الرَّأسِ، ومعلومٌ أنه كان لا يتركُ بعضَ الواجبِ، فثبتَ أنَّ الفرضَ مقدورٌ على هذا المقدار، إلاّ أنَّ الأفضلَ أن يَمسحَ جميعَ الرأسِ ليخرج عنِ الفرضِ بيقينٍ. وقد رويَ: [أنَّ النَّبيَّ ﷺ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ] [وَمَسَحَ جَمِيْعَ رَأسِهِ](٥).

---

(١) عن جابر أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الطهارة: باب إدخال المرفقين في الوضوء: الحديث (٢٥٦ و٢٥٧).

(٢) الحج / ٢٩ . (٣) النساء / ٤٣ .

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الطهارة: باب إيجاب المسح بالرأس وإن كان مغنماً: الحديث (٢٨٢) مرسلاً، والحديث (٢٨٩) عن بلال ﷺ؛ وقال: إسناده حسن. وأصله عند مسلم في الصحيح:كتاب الطهارة: باب المسح على الرأس والخفين: الحديث (٧٥-٨٠/ ٢٧٤) من حديث المغيرة بن شعبة، وفيه: [مَسَحَ بِنَاصِيَتِهِ].

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: باب الاختيار في استيعاب الرأس بالمسح: الحديث (٢٧٠). وأصله عند مسلم في الصحيح.

واختلفَ العلماءُ في عددِ مَسْحِ الرَّأسِ. قال علماؤُنا: الأفضلُ أن يَمسحَ جميعَ رأسهِ بماءٍ واحدٍ. وروى الحسنُ عن أبي حَنِيْفَةَ: (أنَّ مَسْحَ رَأسِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ بِمَاءٍ وَاحِدٍ كَانَ سُنَّةً). وقال الشافعيُّ: (الأَفْضَلُ أنْ يَمْسَحَ ثَلاَثاً بِثَلاَثِ مِيَاهٍ). رويَ عن رسول اللهِ ﷺ: [أنَّهُ مَسَحَ رَأسَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً][(١)]، وقال ﷺ: [الْوُضُوءُ ثَلاَثاً ثَلاَثاً إلاَّ الْمَسْحَ][(٢)].

وَأمَّا مسحُ الأُذُنَيْنِ فهو سُنَّةٌ لا خلافَ في ذلك بين أهلِ العلمِ، وإنَّما اختلفُوا في كيفيَّةِ مَسْحِهِمَا. قال أصحابُنا: يَمْسَحُ ظَاهِرَهُمَا وباطنَهُما معَ الرأسِ بماءٍ واحدٍ، كما رويَ عن رسولِ اللهِ ﷺ: [أنَّهُ مَسَحَ برَأسِهِ وَأذُنَيْهِ بِمَاءٍ وَاحِدٍ][(٣)]. وفي بعضِ الرِّواياتِ: مَسَحَ رَأسَهُ، وَمَسَكَ شَيْئاً لأُذُنَيْهِ؛ ثُمَّ قَالَ: [الأُذُنَانِ مِنَ الرَّأسِ][(٤)]. وقال الشافعيُّ: (هُمَا عُضْوَانِ مُنْفَرِدَانِ يُمْسَحَانِ ثَلاَثاً بِثَلاَثِ مِيَاهٍ)[(٥)].

وأمَّا مسحُ الرَّقَبَةِ؛ فلم يُذْكَرْ في شيءٍ من الكُتُبِ المشهورةِ، ويحتملُ أن يكونَ سُنَّةً، ويحتملُ أن يكونَ مُسْتَحَبّاً؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان يَمسحُ مُقَدَّمَ رأسهِ؛ فقالَ بعضُهم:

---

(١) الأثر عن عثمان ﷺ، أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: الرقم (٢٦٤): باب المسح بالرأس: بلفظ ((ثُمَّ مَسَحَ رَأسَهُ بِيَدَيهِ كِلْتَيْهِمَا مَرَّةً)) والأثر عن علي ﷺ، أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: الرقم (٢٦٥).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الطهارة: باب وضوء بعض الأعضاء ثلاثاً وبعضها مرة واحدة: الحديث (٣٧٩) عن عبدالله بن زيد بن عاصم. وأصله أخرجه مسلم في الصحيح.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الطهارة: باب مسح الأذنين: الحديث (٣٠٢) عن ابن أبي مليكة، وفيه: ((فأخذَ ماءً فمسَحَ برَأسِهِ وأذُنَيهِ)).

(٤) أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الطهارة: باب ما جاء في أن الأذنين من الرأس: الحديث (٣٧)؛ وقال: ((هذا حديث ليس إسناده بذاك القائم. والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبيِّ ﷺ ومن بعدهم)).

(٥) في الأم: ج ١ ص٢٦: كتاب الطهارة: باب مسح الرأس؛ قال الشافعيُّ: ((وأحبُّ لو مسحَ رأسَهُ ثلاثاً، وواحدةٌ تُجزئهُ، وأحبُّ أن يمسحَ ظاهرَ أذنَيهِ وباطنهما بماءٍ غير ماء الرأس، ويأخذ بإصبعيه الماءَ لأذنيه فيُدخِلُهما فيما ظهرَ من الفرجةِ التي تفضي إلى الصِّمَاخِ، ولو تركَ مسحَ الأذنين لم يُعِدْ)).

إنَّ المقصودَ من مسح مُؤَخَّرِ الرأسِ مسحُ الرقبةِ. وقد رويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال:[مَنْ مَسَحَ رَقَبَتَهُ فِي الْوُضُوءِ أمِنَ مِنَ الْغَلِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأرْجُلَكُمْ إلَى الْكَعْبَيْنِ) قرأ ابنُ عامرٍ ونافعُ والكسائيُّ وحفصُ ويعقوب: (وَأرْجُلَكُمْ) بالنصب، وهي قراءةُ عَلِيٍّ ﷺ، وقرأ الباقونَ (وَأرْجُلِكُمْ) بالخفضِ وهي قراءةُ أنسٍ وعلقمةَ والشعبيِّ، فمن نَصَبَ فمعناهُ: وَاغْسِلُوا أرْجُلَكُمْ عطفاً على الوجهِ واليدينِ، ومن خَفَضَ فعلى العطف على الرَّأسِ أو على الابتداء، والجواز لفظاً لا معنىً، كقولِ العرب: جُحر ضَبٍّ خَربٍ، وقولِهم: أكلتُ السَّمْنَ واللبنَ، واللبنُ يشرب ولا يؤكلُ، ويقال: فلانٌ متقلِّدٌ سيفاً ورُمحاً، والرُّمحُ لا يُتَقَلَّدُ به، وإنَّما يحملُ. وقال لبيد: وَأطْفَلَتْ بالْجَلْهَتَيْنِ ظِبَاؤُهَا وَنَعَامُهَا[(٢)]، النَّعَامُ لا يُطفِلُ وإنما يفرخُ، وقولُهم: جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ، كان ينبغي أن يقالَ: خَربٌ لأنه نعتُ الجحرِ، وإنَّما خُفِضَ للمجاوزةِ.

وقال بعضُهم: أرادَ بذلك المسحَ على الْخُفَّيْنِ، فإن الماسِحَ على الْخُفَّيْنِ يُسَمَّى ماسِحاً على الرِّجْلَيْنِ لقُرْب الجوار، كما يقالُ: قَبَّلَ فلانٌ على رجْلِ الأميرِ ورأسِه ويدِه، وإن كان الرِّجْلاَن في الْخُفِّ، والرأسُ في العمامةِ، واليدُ في الكُمِّ. وفي الحديث: [أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إذا رَكَعَ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ][(٣)] وليسَ المرادُ أنه لم يَكُنْ بينهُما حائلٌ. واختارَ بعضُهم المسحَ على الرِّجْلَيْنِ، وهو قولُ ابنِ عبَّاس، وقالُوا: (الْوُضُوءُ

---

(١) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ١ ص٢٩٦: النص (٣٠٢)؛ قال: ((غريب. قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط: لا يعرف مرفوعاً. وقال: رواه أبو منصور الديلمي بسند ضعيف)).

(٢) في لسان العرب: باب (جله) و(طفل).:

فَعَلاَ فُرُوعُ الأَيْهَقَانِ وَأَطْفَلَتْ بالْجَلْهَتَينِ ظِبَاؤُهَا وَنَعَامُهَا

الجلهتان: جَنبتا الوادي.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب في افتتاح الصلاة: الحديث (٧٣٤). والترمذي في الجامع: أبواب الصلاة: الحديث (٢٦٠)، وقال: حديث حسن صحيح.

غَسْلاَنِ وَمَسْحَانِ)[١]. وذهب بعضُهم إلى أنَّ الْمُتَوَضِّئَ مُخَيَّرٌ بين غَسْلِ الرِّجلين ومَسْحِهما.

وإذا احتملت قراءةُ الخفضِ المسحَ على الْخُفَّيْنِ، واحتملت مسحَ الرِّجلين، واحتملت غَسْلَهُمَا، وجبَ الرُّجوعُ إلى فِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ، فقد رُوِيَ: [أنَّهُ دَاوَمَ عَلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ]. واتفقتِ الأُمَّةُ على فعلهِ.

وروى ابنُ عمرَ عن رسول اللهِ ﷺ: [أنَّهُ تَوَضَّأَ مَرَّةً مَرَّةً؛ وَغَسَلَ رِجْلَيْهِ؛ وَقَالَ: هَذا وُضُوءٌ لاَ يَقْبَلُ اللهُ الصَّلاَةَ إلاَّ بِهِ]، ولأنَّ اللهَ تعالى قالَ: (وَأَرْجُلَكُمْ إلَى الْكَعْبَيْنِ)، وهذا يدلُّ على الغَسْلِ كاليدينِ حدُّهما إلى المرافقِ وكان فرضُهما الغَسْلُ دون الْمَسْحِ. وقال ﷺ: [لاَ يَقْبَلُ اللهُ صَلاَةَ امْرِئٍ حَتَّى يَضَعَ الطُّهُورَ مَوَاضِعَهُ، فَيَغْسِلُ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَيَمْسَحُ برَأسِهِ وَيَغْسِلُ رِجْلَيْهِ][٢]. وعن جابرٍ ﷺ قالَ: [أمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ نَغْسِلَ أرْجُلَنَا إذا تَوَضَّأْنَا]. وقال ابنُ أبي ليلَى:(أجْمَعَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى وُجُوب غَسْلِ الرِّجْلَيْنِ)[٣]. وعن عبدِالله بن عُمَرَ قال: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَوْمٍ وَعَرَاقِيْبُهُمْ تَلُوحُ، فَقَالَ: [أسْبغُوا الْوُضُوءَ، وَيْلٌ لِلأَعْقَاب مِنَ النَّار][٤]. ورأى رسولُ اللهِ ﷺ أعْمَى يَتَوَضَّأُ، فقَالَ: [اغْسِلْ بَاطِنَ قَدَمَيْكَ] فَجَعَلَ يَغْسِلُ حَتَّى سُمِّيَ أبا غَسِيلٍ[٥]. وقالت عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (لإنْ يُقْطَعَ قَدَمَايَ أحَبُّ إلَيَّ مِنْ أنْ أمْسَحَ عَلَيْهِمَا مِنْ غَيْرِ خُفَّيْنِ).

وذهبتِ الرَّوَافِضُ إلى أن الواجبَ في الرجلين الْمَسْحُ. ورَوَوا في المسحِ خَبَراً ضَعِيْفاً شَاذاً.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٨؛ قال السيوطي: ((أخرج عبدالرزاق وابن جرير وعبد بن حميد عن ابن عباس، قال: (الْوُضُوءُ غَسْلَتَان وَمَسْحَتَان)، الا ترى أنه ذكر التيمم فجعل مكان الغسلتين مسحتين وترك المسحتين)). وأخرجه عبدالرزاق في المصنف: الرقم (٥٤): ج ١ ص١٩.

(٢) ذكره الثعلبي عن خلاد بن السائب عن أبيه عن رسول الله ﷺ كما في الكشف والبيان: ج ٤ ص٢٩٠.

(٣) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه سعيد بن منصور)).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٨٨٢) بأسانيد، وأصله في الصحيحين.

(٥) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ج ١ ص٢٥: الحديث (٧٥-٧٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِلَى الْكَعْبَيْنِ) هما النَّاتِئَان مِن جَانِبَي الرِّجْلِ، وهما مَجْمَعُ مَفْصَلِ السَّاقِ وَالْقَدَمِ، مأخوذٌ مِنَ الْكَعْبِ وَهُوَ النُّتُوءُ؛ يُقَالُ: جَارِيَةٌ كَاعِبٌ إذا خَرَجَ ثَدْيَاهَا. وروَى هشامُ عن محمدٍ: أنَّهُ الْكَعْبُ الَّذِي فِي وَسَطِ الْقَدَمِ عِنْدَ مَقْعَدِ الشِّرَاكِ. والصحيحُ: أن مُحمداً إنَّما قال ذلكَ في الْمُحْرِمِ بالْحَجِّ، فإنه يَقْطَعُ خُفَّيْهِ أسفلَ من الكعبين، قال: (وَالْكَعْبُ هَا هُنَا مَقْعَدُ الشِّرَاكِ)، فنقلَ هشامُ ذلك إلى الطهارةِ، ولا خلافَ في الكعب في الوضوءِ بين العلماءِ الثلاثة: أنهُ داخلٌ في غَسْلِ الرِّجلين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ ﴾ ، أي إنْ كُنْتُمْ جُنُبًا وأردتُم القيامَ إلى الصَّلاةِ فَاغْتَسِلُوا، والْجُنُبُ يوضعُ موضعَ الجمعِ؛ يقالُ: رجلٌ جُنُبٌ؛ ورجَالٌ جُنُبٌ؛ وقومٌ جنُبٌ. ولَفظُ الإطْهَار يقتضِي تَطَهُّرَ جميعِ البدن في الاغتسال من الجنابةِ كما قال ﷺ: [تَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ جَنَابَةٌ، فَبُلُّوا الشَّعْرَ وَانْقُوا الْبَشَرَةَ][1]. ولهذا قال أصحابُنا: إنَّ المضمضةَ والاستنشاقَ وَاجِبَان في غُسْلِ الْجَنَابَةِ، وقولهُ تعالى: (فَاطَّهَّرُوا) أي فَتَطَهَّرُوا، إلاّ أن التَّاءَ تُدْغَمُ في الطاءِ لِقُرْب مخرجهما. وعن أنسٍ ﷺ قالَ قال رسول الله ﷺ: [يَا بُنَيَّ! إذا أخَذْتَ فِي الْغُسْلِ مِنَ الْجَنَابَةِ فَبَالِغْ فِيهِ، فَإِنَّ تَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ جِنَابَةٌ] فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَكَيْفَ أبَالِغُ ؟ قَالَ: [رَوِّ أصُولَ الشَّعْرِ؛ وَانْقِ بَشَرَتَكَ تَخْرُجْ مِنْ مُغْتَسَلِكَ وَقَدْ غُفِرَ لَكَ كُلُّ ذَنْبٍ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ ﴾ ؛ أي من جُدَرِيٌّ أو غيرِهِ، فلم تطيقُوا غَسْلَ هذه الأشياءِ، ﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ ، أو كنتم مسافرين، ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ ؛ معناهُ: وجاءَ أحدٌ منكُم مِن قضاءِ الحاجةِ، لأنهُ لا خَلاَءَ، وأنَّ المريضَ والمسافرَ إذا لم يكونا مُحْدِثَيْن لا يلزمُهما الوضوءُ ولا التَّيَمُّمُ، وقد تذكرُ (أو) بمعنى (الواو) مثلُ قولهِ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[3].

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الطهارة: باب ما جاء أن تحت كل شعرة: الحديث (١٠٦)، وقال: غريب.

(٢) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الحديث (٢٧٣٦١) ونسبه إلى ابن جرير.

(٣) الصافات / ١٤٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ ؛ معناهُ: أو جَامَعْتُمُ النِّسَاءَ. ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً ﴾ ؛ أي تَقْدِرُونَ على ما تَتَطَهَّرُونَ بِهِ من الْجَنَابَةِ وَالْحَدَثِ، ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ ؛ أي اقْصُدُوا تُرَاباً نَظِيفاً، ﴿ فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ ؛ اختلفَ العلماءُ في قولهِ (مِنْهُ)؛ قال أبو يوسف: (مَعْنَاهُ التَّبْعِيْضُ؛ أي امْسَحُوا بوُجُوهِكُمْ وَأيْدِيْكُمْ مِنْ بَعْضِ الصَّعِيْدِ وَهُوَ التُّرَابُ). وقال أبو حَنِيْفَةَ ومحمدُ: (مَعْنَى (مِنْ) هَا هُنَا ابْتِدَاء الْغَايَةِ؛ أيْ فَانْقُلُوا الْيَدَ بَعْدَ وَضْعِهَا عَلَى الصَّعِيْدِ إلَى الْوُجُوهِ وَالأَيْدِي مِنْ غَيْرِ أنْ يَتَخَلَّلَهَا مَا يُوجِبُ الْفَصْلَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ ؛ أي ما يريدُ اللهُ أنْ يجعلَ عليكم بتكليفِ العباداتِ تَضْيِيقاً في الدِّينِ، ﴿ وَلَٰكِن ﴾ ، وإنَّما، ﴿ يُرِيدُ ﴾ ، بذلكَ، ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ ، أن يُطَهِّرَكُمْ من الذُّنُوب والأحْدَاثِ وَالْجَنَابَةِ، كما رويَ عن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [أيَّمَا رَجُلٍ قَامَ إلَى وُضُوئِهِ يُرِيْدُ الصَّلاَةَ ثُمَّ غَسَلَ كَفَّيْهِ نَزَلَتْ خَطِيْئَةُ كَفَّيْهِ مَعَ أوَّلِ قَطْرَةٍ، فَإذا تَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ نَزَلَتْ خَطِيْئَةُ لِسَانِهِ وَشَفَتَيْهِ مَعَ أوَّلِ قَطْرَةٍ، فَإذا غَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إلَى الْمِرْفَقَيْنِ وَرِجْلَيْهِ إلَى الْكَعْبَيْنِ سَلِمَ مِنْ كُلِّ ذنْبٍ هُوَ عَلَيْهِ، وَكَانَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أمُّهُ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (بإدْخَال الْجَنَّةِ)، وقال ابنُ عبَّاس: (بجَوَاز التَّيَمُّم لَكُمْ بالتُّرَاب فِي حَال عَدَمِ الْمَاءِ). ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦ ﴾ ؛ أي لِكَي تَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ فِي رُخْصَتِهِ لَكُمْ وَتَخْفِيْفِهِ عَلَيْكُمْ فِي التَّكْلِيْفِ. قال عثمانُ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [مَا تَوَضَّأَ عَبْدٌ فَأسْبَغَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ إلَى الصَّلاَةِ إلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلاَةِ الأُخْرَى][(٢)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ ﴾ ؛ أي احْفَظُوا نِعَمَ اللهِ عليكم، وإنما ذكره بلفظِ النِّعْمَةِ؛ لأنهُ ذهبَ فيه مَذْهَبَ الجنسِ،

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد والطبراني بسند حسن عن أبي أمامة)).

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن المبارك في الزهد وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان)).

(وَمِيثَاقَهُ) أي عهده الذي عاهَدَكُم به. قال ابنُ عبَّاس والحسنُ: (يَعْنِي الْمِيثَـاقَ الَّـذِي أخَذَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى ذُرِّيَّةِ آدَمَ حِيْنَ أخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِهِ، وقال ﴿أَلَسْـتُ بِرَبِّكُـمْ قَـالُوا بَلَى﴾[1]).

وقال السُّدِّيُّ: (أرَادَ بالْمِيْثَاق هُنَا مُبَايَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي كُـلِّ مَا أمَرَ بِهِ أوْ نَهَى فِي حَالِ الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالرِّضَا وَالكُـرْهِ). وَهَـذا أقْـرَبُ إلَـى ظَـاهِرِ الآيَةِ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى ذكَّرَهُمْ الميثاقَ وهم لا يحفظونَ الميثاقَ الذي من وَقْتِ آدمَ.

وَقِيْلَ: أرادَ به العهدَ الوثيقَ الذي أخَذَهُ اللهُ على جميعِ عبادِهِ في أوامرِهِ ونواهيـه فَسَمِعُوهُ وقَبلُوهُ وآمَنُوا به علـى مـا فَسَّـرَ اللهُ بقولـِهِ: ﴿ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ ﴾ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ ؛ أي اخْشَوا عِقَابَهُ في نقضِ الميثـاقِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي بما في القلوب من الوَفَاءِ والنَّقْضِ، وذاتُ الصُّدُور ما تَضَمَّنَتْهُ الصُّدورُ وهي القلوبُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّـٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ ؛ أي كونُوا قَوَّامِينَ بـأمر الله قـائلينَ لـهُ مُبَيِّنِيْـنَ عـن ديـنِ اللهِ بـالحقِّ والعـدل، ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ﴾ ؛ أي لا يحملنَّكم بُغْضُ الكفَّار على تركِ العدلِ فيه مُكَافَأةً لِما سَلَفَ منهم، ويقالُ: لا يَحْمِلَنَّكُمْ عَدَاوَةُ المشهودِ لهُ على كِتْمَـان مالهِ عندَكم من الشهادةِ، ولا عداوةُ المشهودِ عليه على إقامةِ الشَّهادةِ عليه بغيرِ حَقٍّ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ ؛ أي اعْدِلُـوا في جميـعِ أقوالِكـم وأفعالكم فيما لكُم وعليكُم، فإنَّ العدلَ أقربُ للتَّقوَى؛ أي أقربُ إلى أن تُصِـيرُوا بـه مؤمنـينَ، وَقِيْـلَ: أقــربُ إلى تقــوَى عــذاب الله. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ من الخيرِ والشرِّ والعدلِ والْجَوْرِ.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ ؛ أي الذيـن صَدَّقُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ والْقُرْآن، وعَمِلُوا الصالحاتِ فيما بينَهم وبـينَ ربـهم، وهـذا تمـامُ الكلامِ، يقالُ: وَعَدْتُ الرَّجُلَ؛ يرادُ بذلك وَعَدْتُهُ خَيْراً، وَأوْعَدْتُ الرَّجُلَ؛ يرادُ بذلـك

---

(١) الأعراف / ١٧٢

شَرّاً، فكانَ اللهُ لَهم دليلاً على عِدَةِ الْخَيْرِ، ثم فَسَّرَ ذلكَ الخيرَ فقالَ: ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ ﴾ ؛ أي مَغْفِرَةٌ لذنوبهم، وثوابٌ عَظِيْمٌ في الجنَّةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١٠ ﴾ ؛ أي أصْحَابُ النَّار الْمُوقَدَةِ، والْجَحِيْمُ من أسْمَاءِ جَهَنَّمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (وَذلِكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً سَبْعِيْنَ رَجُلاً إلَى بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، وَأمَّرَ عَلَيْهِمُ الْمُنْذِرَ بْنَ عَمْرو الأنْصَارِيَّ، وَكَانَ طَرِيقُهُمْ عَلَى بَنِي سُلَيْمٍ، وَكَانُوا يَوْمَئِذٍ صُلَحَاءَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأمَرَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ السَّرِيَّةَ أنْ يَنْزِلُوا عَلَى بَنِي سُلَيْمٍ فَنَزَلُوا عَلَيْهِمْ، فَبَعَثَ بَنُو سُلَيْمٍ إلَى بَنِي عَامِرٍ وَأخْبَرُوهُمْ بأمْرِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ، فَارْتَحَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ عِنْدِ بَنِي سُلَيْمٍ إلَى بَنِي عَامِرٍ، فَأَضَلَّ أرْبَعَةٌ مِنْهُمْ بَعِيْراً لَهُمْ، فَاسْتَأْذنُوا أمِيْرَهُمْ أنْ يَطْلُبُوا بَعِيْرَهُمْ ثُمَّ يَلْحَقُوا بهِمْ فَأَذِنَ لَهُمْ، وَسَارَ الْمُنْذِرُ بِمَنْ بَقِيَ مَعَهُ حَتَّى أتَاهُمْ وَقَدْ جَمَعُوا لَهُمْ وَاسْتَعَدُّوا لَهُمْ بالسِّلاَحِ، فَالْتَقَوا ببئْرِ مَعُونَةَ فَاقْتَتَلُوا قِتَالاً شَدِيْداً، ثُمَّ قُتِلَ الْمُنْذِرُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيْعاً.

ثُمَّ أقْبَلَ الأرْبَعَةُ الَّذِينَ أضَلُّوا الْبَعِيْرَ، فَلَقِيَتْهُمْ أمَةٌ لِبَنِي عَامِرٍ فَقَالَتْ لَهُمْ: أمِنْ أصْحَاب مُحَمَّدٍ أنْتُمْ ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَتْ: فَإنَّ إخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا جَمِيْعاً عَلَى الْمَاءِ، فَقَالَ أحَدُ الأَرْبَعَةِ: مَا تَرَوْنَ ؟ قَالُوا: نَرَى أنْ نَرْجِعَ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَنُخْبِرَهُ بالأَمْرِ، قَالَ: لاَ؛ وَلَكِنْ وَاللهِ لَمْ أكُنْ لأَرْغَبَ بنَفْسِي عَنْ أصْحَابي، إرْجِعُوا فَأَقْرِئُوا مُحَمَّداً ﷺ مِنِّي السَّلاَمَ. ثُمَّ أشْرَفَ عَلَى أصْحَابهِ فَإذا هُمْ مَقْتُولُونَ، وَالْمُشْرِكُونَ قُعُودٌ يَتَغَدَّوْنَ، فَانْحَدَرَ إلَيْهِمْ مِنَ الْجَبَلِ بسَيْفِهِ فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ.

وَغَشِيَ الثَّلاَثَةُ الْمَدِيْنَةَ، فَلَقُوا رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ خَارجَيْنِ مِنَ الْمَدِيْنَةِ فَقَالاَ لَهُمَا: مَنْ أنْتُمَا؟ قَالاَ: مِنْ بَنِي عَامِرٍ، قَالاَ: هَذان مِنَ الَّذِيْنَ قَتَلُوا إخْوَانَنَا؛ فَقَتَلُوهُمَا وَأخَذُوا سِلاَحَهُمَا، ثُمَّ دَخَلُوا الْمَدِيْنَةَ فَأَخْبَرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ:[بئْسَ مَا صَنَعْتُمْ، قَتَلْتُمْ رَجُلَيْنِ مِنْ أهْلِ الْمِيْثَاق]. وَجَاءَ أوْلِيَاءُ الْقَتِيْلَيْنِ يَطْلُبُونَ الْقِصَاصَ، فَقَالَ ﷺ: [لَيْسَ لَكُمْ إلاَّ دِيَةُ صَاحِبَيْكُمْ أغَرْنَا إلَى عَدُوِّنَا مِنْ بَنِي عَامِرٍ، وَلَكِنَّا نُؤَدِّي إلَيْكُمُ الدِّيَةَ].

فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ أبو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ حَتَّى أتَى بَنِي قُرَيْظَةَ؛ فَقَالَ لَهُمْ: [إنَّكُمْ جِيْرَانُنَا وَحُلَفَاؤُنَا، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أصَبْنَا بِهِ مِنْ دَمِ الرَّجُلَيْنِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ وَهُمَا مِنْ أهْلِ الْمِيْثَاقِ، وَنَحْنُ نُرِيْدُ أنْ نُؤَدِّي دِيَتَهُمَا، فَاتَّخِذُوا بِهَا عِنْدَنَا يَداً نَجْزِيكُمْ بِهَا بَعْدَ الْيَوْمِ، فَإنَّ الأَيَّامَ دُوَلٌ]. فَقَالُوا: مَرْحَباً وَأهْلاً يَا أبَا الْقَاسِمِ، وَلَكِنَّ إخْوَانَنَا مِنْ بَنِي النَّضِيْرِ لاَ نَقْضِي أمْراً مِنْ دُونِهِمْ، نُعْلِمُهُمْ بِذلِكَ حَتَّى تَأْتِيَنَا يَوْمَ كَذا وَقَدْ جَمَعْنَا الَّذِي تُرِيْدُ. فَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأصْحَابُهُ.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْمِيْعَادِ؛ أتَاهُمْ وَمَعَهُ أبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ؛ فَأجْلَسُوهُمْ فِي بَيْتٍ، ثُمَّ خَرَجُوا يَجْمَعُونَ السِّلاَحَ، وَخَلاَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَقَالُوا: إنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا مُحَمَّداً أقْرَبَ مِنْهُ الآنَ؛ فَمَنْ يَظْهَرُ عَلَى هَذا الْبَيْتِ فَيَطْرَحُ عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيُرِيْحُنَا مِنْهُ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ جَحَّاشٍ: أنَا، فَجَاءَ إلَى رَحَاءٍ عَظِيْمَةٍ لِيَطْرَحَهَا عَلَيْهِ؛ فَأمْسَكَ اللهُ أيْدِيَهُمْ.

وَقِيْلَ: لَمَّا جَمَعُوا السِّلاَحَ وَهَمُّوا بِقَتْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأصْحَابِهِ، جَاءَ جِبْرِيْلُ عليه السلام فَأخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِذلِكَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَامَ عَلَى الْبَابِ، وَإذا هُمْ مُجْتَمِعُونَ يَنْتَظِرُونَ قُدُومَ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ لِيَهْجِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأصْحَابِهِ، وَخَرَجَ عَلِيٌّ رضي الله عنه وَإذا هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ قَائِماً عَلَى الْبَابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أبْطَأْتَ عَلَيْنَا حَتَّى خِفْنَا أنْ يَكُونَ قَدِ اغْتَالَكَ أحَدٌ، فقال: [قَدْ أرَادُوا ذِلِكَ، اللَّهُمَّ الْعَنْهُمْ]. ثُمَّ خَرَجَ بَقِيَّةُ أصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَحِقُوا جَمِيْعاً بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! إنَّ قُدُورَنَا تَغْلِي نُرِيْدُ أنْ نُطْعِمَكَ، وَقَدْ رَجَعْتَ بِغَيْرِ عِلْمِنَا. فَأخْبَرَهُمْ بِمَا هَمُّوا بِهِ وَعَزَمُوا عَلَيْهِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناهَا: يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ احْفَظُوا مِنَّةَ اللهِ عليكم إذْ هَمَّ قومٌ - وهم بَنُو قُرَيْظَةَ - أن يَبسِطُوا إليكُم أيديَهم بالقتلِ، ﴿ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ ؛ بالمنعِ عن قَتْلِكُمْ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ في جميعِ أمُورِهم وأحوالِهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ ؛ أي أخَذ اللهُ العَهْدَ على بني إسرائيلَ أن يؤمنُوا بهِ وبجميعِ كُتُبهِ

ورُسُلِهِ، وبعثَ منهم اثني عَشَرَ مَلِكاً، مِن كُلِّ سِبْطٍ منهم رَجُلٌ ليأخذ على قومهِ ما يأمرُهم اللهُ به مِن طاعتهِ. وَقِيْلَ: إنَّ النقيبَ هو الرسولُ والأمينُ، وهم الذين أرسلَهُم موسَى إلى قومِهِ الجبَّارين عُيوناً، فوجدوهُم يدخلُ في كُمِّ أحدِهم أربعةٌ منهم، ولا يحملُ عنقود عنبٍ إلاّ عشرة منهم، ويدخلُ في شُقِّ رمانةٍ إذا نزع حَبَّهُ خمسةُ أنفس وأربعة، فرجعَ النقباءُ كلهم، ونَهى كل نقيب سِبْطَهُ عن القتالِ إلاّ يُوشُعَ بْنَ نُونٍ وكَالِبَ بن يوقنا أمَرَا أقوامهما بالقتال.

وقال الحسنُ: (النَّقِيْبُ الضَّمِيْنُ، وَإنَّمَا أرَادَ بِهَذَا أنْ يَضْمَنَ بِهَا مُرَاعَاةَ أحْوَالِهِمْ)، وقد روي: [أنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَعَلَ الأَنْصَارَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ اثْنَى عَشَرَ نَقِيْباً][1]. وفائدةُ النَّقِيْب: أنَّ القومَ إذا عَلِمُوا أنَّ عليهم نقيباً كانوا أقربَ إلى الاستقامةِ، والنَّقِيْبُ والعَرِيْفُ نَظِيْرَانِ، وَقِيْلَ: النقيبُ فوقَ العريفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ ؛ خطابٌ للنُّقَبَاءِ، ومعناها: إنِّي حفيظٌ عليكم في النَّصرِ لكم والدفعِ عنكم. وَقِيْلَ: هو خطابٌ لجميعِ بني إسرائيلَ ضَمِنَ لَهم النَّصْرَ على عدوِّهم بالشَّرائطِ التي شَرَطَهَا عليهم بقولهِ تعالى: ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ ؛ أي لو عَظَّمْتُمُوهُمْ ونَصَرْتُمُوهُمْ بالسَّيفِ على الأعداءِ، ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ؛ أي تَصَدَّقْتُمْ مِن أموالِكم تطوُّعاً صدقةً حسَنَةً؛ وهي أن تكونَ من حَلاَلِ المالِ وخِيَارهِ برغبةٍ وإخلاصٍ لا يَشُوبُهَا رياءٌ ولا سُمعةٌ ولا يُكَدِّرُهَا مَنٌّ ولا أذًى، ﴿ لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ من تحت شَجرِها ومساكِنها؛ ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ العَهْدِ والميثاقِ؛ ﴿ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١٢) ﴾ ؛ أي أخطأ قصدَ الطريقِ وهو طريقُ الجنَّةِ، فمَنْ أضَلَّهُ وقعَ في طريقِ النَّار إذ لا طريقَ سواهُما.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ ؛ أي فَنَقَضَ اليهودُ ميثاقَهم الذي أخذ عليهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: أسماء النقباء الاثني عشر وتمام خبر العقبة: ج ٢ ص٨٦.

في التَّوراةِ فبَاعَدْنَاهُمْ من الرَّحمةِ، وَقِيْلَ: عَذبْنَاهُمْ بالْجِزْيَةِ. وَقِيْلَ: مَسَخْنَاهُمْ قِرَدَةً وخَنَازِيْرَ، ودخولُ (مَا) في هذه الآيَةِ صِلَةٌ زائدةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) أي صيَّرناها يَابسَةً خاليةً من حَلاَوَةِ الإيْمان مجازاةً لَهم على معصيتِهم. قرأ يحيى بن وثَّاب والأعمشُ وحمزة والكسائيُّ: (قَسِيَّةً) بتشديدِ اليَاءِ من غيرِ ألِفٍ، وقرأ الباقون (قَاسِيَةً) بألفٍ وهُما لُغتان، مثلُ زَكِيَّة وزَاكِيَة[1]، وَقِيْلَ: معنى (قَاسِيَةٍ): غَلِيْظَةٌ متكَبرةٌ لا تَقبَلُ الوعظَ، وَقِيْلَ: رَدِيْئَةٌ فَاسِدَةٌ، من الدَّراهمِ القَسِيَّةِ، وهي المغشوشةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ). قرأ السلَّمي والنخعيُّ: يحرِّفون الكلامَ باللَّفِّ؛ أي يُغَيِّرُونَ الفاظَهُ ولا يُقِرُّونَهُ على ما هو عليه في التَّوراةِ، كما أخبرَ اللهُ تعالى عنهُم مِن لَيِّ ألسِنَتِهم بالكتاب، وَقِيْلَ: يُغَيِّرُونَ تأْوِيْلَه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ ؛ أي وَتَرَكُوا نصيباً مِمَّا أمِرُوا به في كتابهم من نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وصفتهِ، ومِن رَجْمِ الزَّانِي الْمُحْصَنِ، وأصلُ النِّسيَانِ التَّرْكُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ ؛ أي لا تَزَالُ يا مُحَمَّدُ تُطَّلِعُ على خَائِنَةٍ ومعصيةٍ مِنْهُمْ، وفَاعِلَةٌ من أسماءِ المصادر مثل: عَاقِبَةٍ وكَاذِبَةٍ، وقد تكونُ الخائنةُ من أسماءِ الجماعةِ كما يقالُ: رَافِضٌ ورَافِضَةٌ، فيكون المعنى: ولا تزالُ تُطَّلِعُ على فِرْقَةٍ خائنةٍ منهم مثلَ كعب بن الأشرف وأصحابهِ من بني قُرَيظةَ حين نَقَضُوا العهدَ، ورَكِبُوا إلى أبي سُفيانَ بمكة، وَلَقُوهُ وعاهَدوهُ على رسولِ الله ﷺ على ما سَبَقَ ذِكرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ ؛ لم ينقُضُوا العهدَ، وهم عبدُالله بنُ سَلامٍ وأصحابُه. وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (خَائِنَةٍ) أيْ مَعْصِيَةٌ)، وقال بعضُهم: أي كَذِبٌ وفجورٌ، وكانت خيانتُهم بنَقْضِ العهدِ، ومظاهرتُهم المشركينَ على حَرْب رسولِ الله ﷺ وهَمُّهُمْ بقتلهِ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص١١٥؛ قال القرطبي: ((مثل العَلِيَّة والعَالِيَة، والزكيَّةِ والزَّاكِيَة)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ﴾ ؛ أي أعْـرِضْ عنـهُم ولا تعاقِبْـهُم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي الْمُتَجَـاوزِيْنَ، وهـذا مَنْسُـوخٌ بآيَـةِ السَّيفِ بقولهِ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَلاَ باليَوْمِ الاخِرِ﴾(١).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ ؛ بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ النصارَى لم يكونـوا بَعْـدَ أخـذِ الميثـاقِ أحْسَنَ معاملةً من اليهودِ، ومعنى أخْذِ الميثاق: هو ما أخَذ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي الإنْجِيْلِ مِـنَ الْعَهْدِ الْمُؤَكَّدِ باتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبَيَان صِفَتِهِ وَنَعْتِهِ، كمـا قَـالَ تَعَـالَى في آيـةٍ أخـرَى: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً برَسُولٍ يَأْتِي مِـنْ بَعْـدِي اسْـمُهُ أحْمَـدُ﴾(٢) فَنَسُوا حَظّاً مما ذُكِّرُوا به؛ أي تَرَكُـوا بعضـاً مِمَّـا ذُكِّـرُوا بـهِ، ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ ؛ أي هَيَّجْنَا بـين فِـرَقِ النَّصَـارَى، وهـم النَّسْـطُوريَّةُ وَالْيَعْقُوبيَّةُ وَالْمَلْكَانِيَّةُ، وألْقَيْنَا بينَهم العداوةَ في الدِّينِ.

وذلك أنَّ اللهَ رفعَ الأُلْفَةَ بينَهم وألقَى بينهم العداوةَ والبغضـاءَ، فَـهُمْ يَقْتَتِلُـونَ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ. وأصلُ الإغْرَاءِ: الإلْصَاقُ مَأخُوذٌ مِنَ الْغِرَاءِ الَّذِي يُلْصَقُ بهِ الأَشْـيَاءُ، وَالْعَدَاوَةُ: تَبَاعُدُ الْقُلُوب وَالنِّيَّـاتِ، وَالْبَغْضَـاءُ: الْبُغْـضُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي يخبرُهم في الآخرةِ بمـا كـانوا يصنعونَ من الجِنَايَةِ والمخالفةِ وكِتْمَانِ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وصِفَتِهِ.

ثم خاطبَ اللهُ تعالى الفريقينِ من اليـهودِ والنَّصـارَى فقـالَ تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ ؛ يعني التَّوراةَ والإنجيْلَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (تُخْفُونَ) يعني صِفَةَ مُحَمَّـدٍ ﷺ وآيَةَ الرَّجْمِ، وإضافةُ اليهودِ والنَّصارَى إلى الكِتَاب تَعْيِيْرٌ لَهم، كما يقالُ: يَا عَـاقِلُ لَـمْ تَعْلَمْ؛ أي يا جاهلُ.

وقولُـــهُ تعـــالى: ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ يعني بالنُّور مُحَمَّداً ﷺ يُبَيِّـنُ لكـم كثـيراً مِمَّـا كنتـم

---

(١) التوبة / ٢٩ .
(٢) الصف / ٦ .

تَكْتُمُونَ من الإسلامِ، وآيةِ الرَّجمِ، وتحريمِ الزِّنَا وغيرِ ذلكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) أي يتجاوزُ عن كثيرٍ مِمَّا كنتُم تكتمونهُ ولا يعاقبُكم عليهِ، يعني مِمَّا لم يُؤْمَرْ ببَيَانِهِ، وقولهُ تعالى: (وَكِتَابٌ مُبِينٌ) يعني الْقُرْآنَ يُبَيِّنُ الحلالَ والحرامَ والأمرَ والنَّهيَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ ؛ أي يَهْدِي اللهُ بالقُرْآنِ مَنْ قَبلَ الحقَّ ورَغِبَ في الإسلامِ، وقولهُ تعالى: (رضْوَانَهُ) أي رضَا اللهِ، وقولهُ تعالى: (سُبُلَ السَّلامِ) أي طُرُقَ السَّلامةِ، وهي دِيْنُ الإسلامِ، والسَّلامُ والسَّلامَةُ، كالرَّضَاعِ والرَّضَاعَةِ، ويقالُ: السَّلامُ هو اللهُ، وسُبُلُ السَّلامِ: طُرُقُ اللهِ التي دَعَا إليهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ؛ أي يخرجُهم من ظُلُمَاتِ الكُفْرِ، بالتعريفِ لَهم إلى نُور الإيمانِ، ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ ؛ أي بإذنِ اللهِ ومشيئتِه، وسُمِّيَ الإيْمانُ نوراً؛ لأنَّ الإنسانَ إذا آمَنَ أبْصَرَ بهِ طريقَ نَجاتِهِ فطَلَبَهُ، وطريقَ هَلاكِهِ فحَذِرَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي ويُرْشِدُهُمْ إلى طريقِ الحقِّ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ ؛ نزلَتْ في نَصارَى نَجْرَانَ وهم الماريعقوبية أو اليعقوبية، قالُوا: إنَّ اللهَ هو المسيحُ بن مريَمَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: مَن يَقْدِرُ أن يدفعَ شيئاً من عذاب اللهِ؛ ﴿ إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي إنْ أرادَ أنْ يُهلِكَ عيسَى ابن مريم وأمَّهُ، وهذا احتجاجٌ من اللهِ تعالى على النَّصارَى بما لا يَملكون دَفْعَهُ، إذِ المسيحُ وأمُّهُ بَشَرَان يأكُلان الطعامَ ويحتاجَان إلى ما يحتاجُ إليه الناسُ، وقد عَلِمُوهُ ضرورةً أنَّهما كَانَا بعدَ أن لَمْ يَكُونَا، وشاهدَ كثيرٌ منهم ميلادَ عِيْسَى وحالَهُ مِن الطفولةِ والشَّباب والكُهُولَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنْ أَرَادَ أنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأمَّهُ) أي إذا أرادَ اللهُ إهلاكَ عيسَى وأمَّهُ لَمَا أعجزَهُ ذلكَ، ولا هناكَ دافعٌ، وكيفَ يكون إلَهاً مَن لا يقدرُ على دفعِ الْهَلاكِ عن نفسهِ ولا عن غيره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ ﴾ ؛ أي مَنْ مَلَكَ السَّمواتِ والأرضَ لا يُوصَفُ بالولادةِ. وَقِيْلَ: مَن كان مَالِكُ السَّمواتِ والأرضَ يقدرُ على خَلْقِ وَلَدٍ بلا وَالِدٍ، كما قال تعالى: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ ؛ أي كما يشاءُ، بأبٍ وبغيرِ أبٍ، ولو كان خَلْقُ عيسَى من غيرِ أبٍ مُوجِباً كونه إلَهاً وابنَهُ لكانَ خَلْقُ آدمَ من غيرِ أبٍ ولا أمٍّ أوْلَى بذلكَ؛ لأنه أعجَبُ وأبْدَعُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ مِن خَلْقِ عيسَى وغيرِه قادرٌ على عقوبَتِكم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ ﴾ ؛ وذلكَ: أنَّ جماعةً مِن اليهودِ دخَلُوا على النبيِّ ﷺ، فدعاهُم إلى الإيْمانِ وحذرَهم، فقالُوا: نحنُ أبناءُ اللهِ وأحِبَّاؤهُ فلا يُعَذِّبُنَا، وكذلك قالَتِ النَّصَارَى نَحْنُ أبْنَاءُ اللهِ وَأحِبَّاؤُهُ، حينَ حَذرَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ عذابَ اللهِ[(1)]. وأرادُوا بقولِهم: نَحْنُ أبْنَاءُ اللهِ وَأحِبَّاؤُهُ: نحنُ مِن اللهِ بمَنْزِلَةِ الأبْنَاءِ والآبَاءِ، وَقِرَاباً من اللهِ كقُرْبِ الوَالِدِ لولدِهِ، وحُبُّهُ إيَّانا كَحُبِ الوالِدِ لولدِهِ، وغَضِبُ اللهُ علينا كَغَضَبِ الوالدِ على ولده، إذا سَخِطَ على ولدِهِ في وقتٍ يرضَى عنه في وقتٍ آخرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ ﴾ ؛ أي لِمَ عَذبَ مَن قبلَكم من اليهودِ والنَّصارَى الذين كانُوا أمثالَكم في الدِّينِ فَمَسَخَهُمُ اللهُ في الدُّنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي لَسْتُمْ بأبناءِ اللهِ ولا أحبَّائه، ولكنَّكم خَلْقٌ كسائرِ الْخَلْقِ، يغفرُ لِمن هداهُ للإسلامِ، ويُعَذِّبُ مَن ماتَ على الكُفرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ ﴾ ؛ أي لهُ القُدْرَةُ على أهْلِ السَّمواتِ والأرضِ، وما بينهُما من الْخَلْقِ والعَجَائِبِ، ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي إليه مَصِيْرُ مَن آمَنَ ومَن لَمْ يُؤْمِنْ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٤٥؛ قال السيوطي: ((وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس...)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٠٦٠).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ؛ أي يا أهلَ التَّوراةِ والإنجيلِ قد جاءَكم مُحَمَّدٌ ﷺ يُبَيِّنُ لكُم الحلالَ والحرامَ على انقطاعٍ مِنَ الرُّسُلِ، ودُرُوسٍ مِن العِلْمِ. قال الكلبيُّ: (كَانَ بَيْنَ مِيْلاَدِ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ ﷺ خَمْسُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً، وَبَعْدَ مِيْلاَدِ عِيسَى أرْبَعَةٌ مِنَ الرُّسُلِ فِي مِائَةٍ وَأرْبَعَةٍ وَثَلاَثِيْنَ سَنَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إذْ أرْسَلْنَا إلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بثَالِثٍ﴾[1] قَالَ: وَلاَ أدْري الرَّسُولُ الرَّابعُ مَنْ هُوَ). قال بعضُهم: كان بَيْنَ عيسَى ومُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا سِتُّمِائَةِ سَنَةٍ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ ﴾ ؛ معناهُ: كَيْلاَ تقولُوا يومَ القيامةِ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ يُبَشِّرُنَا بالجنَّةِ، ولا مُخَوِّفٍ يُخَوِّفُنَا بالنار، ﴿ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ ﴾ ؛ يُبَشِّرُكُمْ بالجنَّةِ إنْ أطعتمُوهُ، ﴿ وَنَذِيرٞۗ ﴾ ؛ يُنْذِرُكُم بالنار إنْ عصيتمُوهُ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ ﴾ ؛ مِن إرسالِ الرُّسُلِ والثواب والعِقَاب.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا ﴾ ؛ فاذكُرُوا يا أهلَ الكِتَاب إذ قالَ مُوسَى لِبَنِي إسرائيلَ احْفَظُوا مِنَّةَ اللهِ عليكُم إذْ أكرمَ بعضَكم بالنُّبُوَّةِ، وهم السَّبعُونَ الذين اختارَهم موسَى وانطلَقُوا معهُ إلى الجبلِ.

وإنَّما مَنَّ اللهُ عليهم بذلكَ، لأنَّ كثرةَ الأشرافِ والأفاضِلِ في القومِ شرفٌ وفضلٌ لَهم، ولا شرفَ أعظمَ من النُّبُوَّةِ، وقولهُ تعالى: (وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا) أي أحْرَاراً تَملِكونَ أمرَ أنفسِكم بعدَ أن كانت تَسْتَعْبِدُكُمُ القِبْطَةُ في مملكةِ فرعونَ، وَقِيلَ: مُلُوكاً ذوي خَدَمٍ، وأهلِ مَنَازلَ لا يدخلُ عليكم فيها إلاَّ بإذنٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠ ﴾ ؛ أي أعطاكُم من عالِمِي زمانِكم، ويقالُ: أرادَ بذلكَ جميعَ العالمين، فإنهُ تَعَالَى أنزلَ عليهم الْمَنَّ والسَّلْوَى، وظَلَّلَهُمْ بالغَمَامِ، ولم يُؤْتِ أحداً مِثْلَ هذهِ النِّعَمِ قبلَهم.

---

(١) يس / ١٤ . (٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٠٦٦).

ولا يدخلُ المستقبلُ في اللفظِ؛ لأنَّ اللفظَ خَبَرٌ عن ما مَضَى، ولا يدخلُ ذلكَ على أنهُ لم يُؤْتِ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ مثلَ الفَضِيْلَةِ التي آتاهُم أو أكثرَ، والغرضُ من هذه الآيةِ أنَّ اللهَ تعالى أرادَ أن يُكَلِّفَهُمْ دخولَ الأرضِ المقدَّسة، وكان يَشُقُّ ذلكَ عليهم فَقَدَّمَ ذِكْرَ نِعَمِهِ عليهم ليكونَ بأمتثالِهم مثالٌ على امتثالِ أمرِ الله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ الاثني عَشَرَ نَقِيباً الَّذِيْنَ أرْسَلَهُمْ مُوسَى إلَى قَرْيَةِ الْجَبَّارِيْنَ جَوَاسِيْسَ؛ لَمَّا انْتَهَوا إلَى مَدِيْنَتِهِمْ أخِذُوا فَأُتِيَ بهِمْ إلَى الْمَلِكِ، وَيُقَالُ أخَذهُمْ عِوَجُ ابْنُ عُنُقٍ وَاحْتَمَلَهُمْ فِي ثَوْبهِ حَتَّى ألْقَاهُمْ بَيْنَ يَدَي الْمَلِكِ، فَقِيْلَ لِلْمَلِكِ: إنَّ هَؤُلاَءِ يَزْعُمُونَ أنَّهُمْ يَفْتَحُونَ مَدِيْنَتَكَ وَيَظْهَرُونَ عَلَيْكَ، قَالَ: فَطُوفُوا بهِمُ الْمَدِيْنَةَ فَأَرُوهُمْ إيَّاهَا.

فَطَافُوا بهِمْ، وَكَانُوا يَلْعَبُونَ بهِمْ حَتَّى أنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَأْتِي بالْقَدَحِ وَالسُّكْرَجَةِ وَالْقَصْعَةِ فَيَدْخُلُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ تَحْتَهَا، ثُمَّ رَدُّوهُمْ إلَى الْمَلِكِ فَأَرَادَ قَتْلَهُمْ، فَقَالَتْ: إيْش تَصْنَعُ بقَتْلِ هَؤُلاَءِ وَيَكْفِيهِمْ مَا رَأوا، رُدُّوهُمْ إلَى أصْحَابهِمْ يُحَدِّثُونَهُمْ بمَا رَأوا، فَأَرْسَلُوهُمْ.

فَلَمَّا خَرَجُوا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَدْ عَلِمْتُمْ خِلاَفَ بَنِي إسْرَائِيْلَ لِمُوسَى، وَقَدْ وَعَدَ اللهُ مُوسَى أنْ يَفْتَحَ لَهُمُ الأَرْضَ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ، فَهِيْمُوا التَّحَالُفَ أنْ لاَ يُخْبَرَ شَيْئاً غَيْرُ مُوسَى؛ فَتَحَالَفُوا.

فَلَمَّا خَلَوا بنِسَائِهِمْ جَعَلَتِ الْمَرْأةُ تَسْأَلُ زَوْجَهَا عَمَّا رَأى، فَيَأْخُذُ عَلَيْهَا الْمَوَاثِيْقَ أنْ لاَ تُخْبرَ أحَداً، ثُمَّ يُخْبرُهَا، وَجَعَلَتِ الْمَرْأةُ يَأْتِيْهَا أبُوهَا وَأمُّهَا وَإخْوَانُهَا فَتَأْخُذُ عَلَيْهِمُ الْمَوَاثِيْقَ ثُمَّ تُخْبرُهُمْ.

فَمَا ارْتَفَعَ النَّهَارُ حَتَّى فَشَا الْخَبَرُ فِي الْبلاَدِ، وَلَمْ يُخْبرْ يُوشَعُ وَلاَ كَالِبُ أحَداً بشَيْءٍ مِنْ أمْرِهِمْ، إنَّمَا أخْبَرَ بذلِكَ الْعَشَرَةُ. فَجَمَعَ مُوسَى عليه السلام بَنِي إسْرَائِيْلَ وَخَطَبَهُمْ ثُمَّ قَالَ: يَا بَنِي إسْرَائِيْلَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَعَلَ فِيكُمْ أنْبيَاءَ...) إلى قولـه: (فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِيْنَ).

وأمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: (ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ) قال ابنُ عبَّاس: (هِيَ أرْضُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ). ويقال: هي دمشقُ وفلسطين وبعضُ الأردنِّ، وسُميت (الْمُقَدَّسَةَ)؛ لأنَّها طُهِّرَتْ من الشِّرْكِ، وجُعِلَتْ مَسْكَناً وقَراراً للأنبياءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ) أي أمَرَكُم بدخولِها. وَقِيْلَ: التي كتبَ اللهُ لكم في اللَّوحِ الْمحفوظِ أنَّها لكُم مساكنُ، ويقال: التي وَهَبَ اللهُ لأبيكُم إبراهيمَ عليه السلام، وجعلَها مِيراثاً لكم، وذلكَ أنَّ إبراهيمَ حين ارتفعَ على الجبلِ، قِيْلَ لَهُ: أنْظُرْ؛ فَلَكَ ما أدركَ بصرُكَ وهو ميراثٌ لولدِكَ مِن بعدكَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي لا تَرْجِعُوا وراءَكم وتَجْبُنُوا من عدوِّكم منهزمينَ منهم فتنصرفُوا مغبونينَ بفَوْتِ الظَّفَرِ في الدُّنيا والعقوبةِ في الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ ؛ أي قالت بَنُو إسرائيلَ: يا موسى إنَّ فِيْهَا قَوْماً عُظَمَاءَ قَتَّالِيْنَ، ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ حينئذٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ ؛ أي قالَ يُوشَعُ وكَالِبُ من الاثني عشرَ الذين أرسلَهم موسى إلى قريةِ الجبَّارينَ، وكانوا يخافونَ الجبَّارين، ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ ؛ أي هَدَاهُمَا لقَبُولِ أمرهِ ومعرفةِ صدق وَعْدِهِ: ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ﴾ ؛ أي بابَ قرية الجبَّارينَ وهي أرِيْحَا، ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ ﴾ ؛ أي فإذا دخلتُم ذلكَ البابَ؛ ﴿ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾ ؛ عليهم؛ لأنَّهم اذا رَأوا كثرتَكم انكسرت قلوبُهم فَتَغْلِبُوهُمْ، ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا ﴾ ؛ أي فَوِّضُوا أمرَكُم إليهِ، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي مُصَدِّقِيْنَ بوعدِ الله.

وفي الآيةِ ثناءٌ على الرَّجُلَيْنِ إذ لم يَمنعهُما الخوفُ من العدوِّ عن قول الحقِّ. وقد رويَ عن رسول اللهِ ﷺ أنهُ قَالَ: [لاَ يَمْنَعَنَّ أحَدَكُمْ مَخَافَةَ النَّاسِ أنْ يَقُولَ الْحَقَّ إذا رَآهُ أوْ عَمِلَهُ، فَإنَّهُ لاَ يُبْعِدُ مِنْ رزْقِ اللهِ وَلاَ يُدْنِي مِنْ أجَلٍ][1].

---

(١) الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٢٨٢٥ و٤٩٠٣). وابن حبان في الإحسان: الحديث (٢٧٥ و٢٧٨) بإسناد صحيح.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ﴾ ؛ وذلك أنَّ موسَى لَمَّا أمرَهم من قول الرَّجُلين أن يدخلُوا قريةَ الجبَّارين، قالَتْ لهُ بَنُو إسرائيلَ: أتُكَذِّبُ الْعَشْرَةَ وتُصَدِّقُ الاثنين، إنَّا لاَ نَدْخُلُهَا أبدًا مَا دَامُوا فِيهَا، ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ مُنْتَظِرِيْنَ، فقولُهم: اذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ، احتملَ أنَّهم قالوا ذلكَ على وجهِ الْمَجَازِ على معنى: وَرَبُّكَ مُعِيْنٌ لكَ، وكان هذا القولُ فِسْقاً منهم مِن امتناعِهم عن الْمُضِيِّ إلى أمرِ اللهِ.

وَقِيْلَ: يحتملُ أنَّهم عَنَوا بذلكَ الذهَابَ ذهابَ النُّقْلَةِ، وهذا تشبيهٌ وكُفْرٌ مِن قائلِهِ، وهو أقربُ إلى معنى كلامِهم؛ لأنَّ كلامَ اللهِ تعالى خَرَجَ مخرجَ الإنكار عليهم، والتَّعَجُّب من جَهْلِهِمْ.

وعن رسول اللهِ ﷺ أنَّهُ لَمَّا أرَادَ الْخُرُوجَ إلَى بَعْضِ الْغَزَوَاتِ اسْتَشَارَ سَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ذلِكَ؛ فَقَالاَ: (إنَّا لَنْ نَقُولَ لَكَ مِثْلَ مَا قَالَتْ بَنُو إسْرَائِيْلَ لِمُوسَى: إذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَإنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنَّا نَقُولُ: إذْهَبْ فَقَاتِلْ عَدُوَّكَ إنَّا مَعَكَ مُقَاتِلُونَ).

وفِي بعضِ الرِّواياتِ قالُوا: (أقْعُدْ أنْتَ فَإنَّا بأمْرِكَ مُقَاتِلُونَ)(١). وقال الْمِقْدَادُ ابنُ الأَسْوَدِ: ((إنَّا وَاللهِ لاَ نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إسْرَائِيْلَ لِمُوسَى: (إذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ) وَلَكِنَّا نَقُولُ: نُقَاتِلُ عَنْ يَمِيْنِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ، وَلَوْ خُضْتَ بنَا الْبَحْرَ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، وَلَوْ عَلَوْتَ جَبَلاً لَعَلَوْنَاهُ مَعَكَ. فَأشْرَقَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِذلِكَ وَسَرَّهُ))(٢).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ مُوسَى عليه السلام غَضِبَ مِنْ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ذكر رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب: ج ٢ ص٢٦٧. والبداية والنهاية لابن كثير: ج ٣ ص٣٢٢.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٥٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد والبخاري والحاكم وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود... وذكره، وقال: أخرجه أحمد عن طريق طارق بن شهاب... وذكره)).

مَقَالَةِ قَوْمِهِ، وكَانَ رَجُلاً حَدِيْداً فَقَالَ: (رَب إنِّي لاَ أمْلِـكُ إلاَّ نَفْسِـي) ولا أمْلِـكُ إلاَّ أخِي، يعني لا يُطِيْعُنِي مِن هؤلاءِ إلاَّ أخِي هَارُونُ، (فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِـقِينَ) أي اقْضِ وَافْصِلْ بيننا وبينَ القوم العَاصِيْنَ.

وكَانَتْ عَجَلَةً عَجَّلَهَا مُوسَى ﷺ، فأوحَى اللهُ إلى موسى: إلَـى مَتَـى يَعْصِيني هذا الشعبُ وإلى متَى لا يُصَدِّقُونَ بالآياتِ، لأُهْلِكَنَّهُمْ وَاجْعَلَنَّ لكَ شَعْباً أشَدَّ وأكْـثرَ منهم. فقال: إلَهِي لو أنَّكَ أهلكتَ هذا الشَّعبَ من أجْلِ أنَّهم لن يستطيعُوا أن يدخلوا هذه الأرضَ فتقتلُهم في البَرِّيَّةِ وأنت عظيمٌ عَفْوُكَ كثيرٌ نِعْمَتُكَ وأنتَ تغفـرُ الذنـوبَ، فَاغْفِرْ لَهم.

فقال اللهُ تَعَالَى: قد غَفَـرْتُ لَـهم بكلمتِـكَ، ولكـن بَعْدَمَـا سَـمَّيتَهُمْ فاسِـقينَ، وَدَعَوْتَ عليـهم في عجلـة لأُحَرِّمَـنَّ عليـهم دخـولَ الأرضِ المقدَّسـةِ، فذلـك قولـهُ: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ ﴾ ؛ يَتَحَـيَّرُونَ؛ ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وَقِيْلَ: إنَّ قولهم لموسَى: (فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَـوْمِ الْفَاسِـقِينَ) كـان سُـؤَالاً منـه الفَرْقَ في الحقيقةِ دون القضاء، وكان دعاؤُه مُنْصَرِفاً إلى الآخرةِ؛ أي أدْخِلْنَـا الجنَّـةَ إذا أدخلتَهم النارَ، ولم يَعْنِ بذلك في الدُّنيا؛ لأنه لو عَنَى ذلـكَ لأجـاب الله تعـالى دُعَـاءَهُ وأهلكَهم جميعاً؛ لأنَّ دعاءَ الأنبياءِ لا يُرَدُّ من أجلِ أنَّهم يدعونَ بأمرِ الله تعالى.

ويقالُ: كان هذا دعاءً راجعاً إلى الدُّنيا، وقد أجابَ اللهُ تعالى دعاءَه؛ لأنَّهُ عاقبَ قومَهُ في التِّيْهِ، ولم يكن موسَى وهارون محبوسَين في التِّيْهِ؛ لأن الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ لا يعذبون. قال الحسنُ: (لاَ يَجُوزُ أنْ يَكُـونَ مُوسَـى مَعَـهُمْ فِيْـهَا لاَ حَيّـاً وَلاَ مَيِّتـاً، ولاَ يَجُوزُ إذا عَذبَ اللهُ بنَبِيٍّ إلاَّ أنْ يُنَجِّيَ ذلِكَ النَّـبِيَّ وَمَـنْ آمَـنَ مَعَـهُ). ويقـالُ: إنَّ هـذا الدُّعاء كان مِن موسى ﷺ عندَ الغَضَب؛ لأنه عنى به الحقيقة، الا ترى أنه ندِمَ علـى دعائه وجزِعَ من تحريم قرية الجبارين عليهم جزعاً شديداً حتى قيل له: لا تأس علـى القوم الفاسقين.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً) أي قال اللهُ تعالى: فإنَّ الأرضَ المقدَّسةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ؛ أي هم مَمْنُوعُونَ من دخولِها أربعينَ سنةً، وأصْلُ التَّحْرِيْمِ الْمَنْعُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾(١) وأرادَ به الْمَنْعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ) أي يَتَحَيَّرُونَ. قال ابنُ عبَّاس: (يَتَحَيَّرُونَ فِي سِتَّةِ فَرَاسِخَ أرْبَعِيْنَ سَنَةً، كَانُوا يَسِيْرُونَ فِي أوَّلِ النَّهَارِ فَيُمْسُونَ فِي مَكَانِهِمْ، وَيَسِيْرُونَ فِي أوَّلِ اللَّيْلِ، فَتَدُورُ بهمُ الأَرْضُ فَيُصْبحُونَ فِي مَكَانِهِمْ). قال الحسنُ: (عَمِيَ عَلَيْهِمُ السَّبِيْلَ وَأخْفِيَ عَلَيْهِمُ الأَعْلاَمُ الَّتِي يَهْتَدُونَ إلَى الطَّرِيْقِ فَلَمْ يَسْتَطِيْعُوا الْخُرُوجَ مِنْهَا).

وذهبَ بعضُهم أنَّ قولَهُ: (أَرْبَعِينَ سَنَةً) منصوب بـ (يَتِيهُونَ)، قالوا: كانتِ الأرضُ المقدَّسةُ حراماً على أولئِكَ القومِ الذينَ عَصَوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أبداً، ولم يَبْقَ منهُم أحدٌ بعد أربعين سنةً، إنَّما بَقِيَ يُوشَعُ بنُ نُون وكَالِبُ. وَقِيْلَ: ماتَ من النُّقباءِ العشرةِ الذين فَشَوا الخبرَ وهم ثمانيةٌ، ومعهم سبعُمائة ألفِ مقاتلٍ، فكان كلُّ مَن دخلَ التِّيْهَ مِمَّنْ جاوزَ عشرينَ سنةً ماتَ في التِّيهِ غيرَ يوشعٍ وكالب، ولم يدخُلْ أريحا ممن قالُوا إنَّا لن ندخُلها، وماتَ موسَى وأخوهُ هارون حين انقضاءِ التِّيْهِ.

وَفَاةُ هَارُونَ عليه السلام:

قال السُّدِّيُّ: (أوْحَى اللهُ تَعَالَى إلَى مُوسَى: أنِّي مُتَوَفٌّ هَارُونَ فَأْتِ بِهِ جَبَلَ كَذا. فَانْطَلَقَ مُوسَى وَهَارُونَ نَحْوَ ذلِكَ الْجَبَلِ، فَإذا هُمَا بشَجَرَةٍ لَمْ يُرَ مِثْلُهَا، فَإذا سَرِيْرٌ عَلَيْهَا فُرُشٌ وَرِيْحٌ طَيِّبَةٌ، فَلَمَّا نظَرَ هَارُونُ إلَى ذلِكَ أعْجَبَهُ، فَقَالَ: يَا مُوسَى إنِّي أحِبُّ أنْ أنَامَ عَلَى هَذا السَّرِيْرِ، قَالَ لَهُ: نَمْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا نَامَ عَلَيْهِ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: يَا مُوسَى خَدَعْتَنِي.

فَلَمَّا تُوُفِّيَ ذهَبَ إلَى تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَرُفِعَ السَّرِيْرُ إلَى السَّمَاءِ. فَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى عليه السلام إلَى بَنِي إسْرَائِيْلَ وَلَيْسَ مَعَهُ هَارُونُ قَالُوا: فَإنَّ مُوسَى قَتَلَ هَارُونَ وَحَسَدَهُ عَلَى حُب بَنِي إسْرَائِيْلَ. فَقَالَ مُوسَى: وَيْلَكُمْ أفَتَرونِي أقْتُلُ أخِي! فَلَمَّا كَثُرُوا عَلَيْهِ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ دَعَا، فَنَزَلَ السَّرِيْرُ حَتَّى نَظَرُوا إلَيْهِ فَصَدَّقُوهُ)(٢).

---

(١) القصص / ١٢ .

(٢) ذكر البغوي القصة في معالم التنزيل: ص٣٧٠: تفسير الآية.

وقال عُمَرُ بنُ مَيْمُون: (مَاتَ هَارُونُ فِي بَعْضِ الْكُهُوفِ، فَدَفَنَهُ مُوسَى فَرَجَعَ إلَى بَنِي إسْرَائِيلَ؛ فَقَالُوا: أيْنَ هَارُونُ ؟ قَالَ: مَاتَ، قَالُوا: لاَ؛ وَلَكِنَّكَ قَتَلْتَهُ لِحُبنَا إيَّاهُ. فَتَضَرَّعَ مُوسَى إلَى رَبهِ وَشَكَى مَا قَالَ بَنُو إسْرَائِيلَ، فَأَوْحَى اللهُ إلَيْهِ: انْطَلِقْ بِهِمْ إلَى قَبْرِهِ فَأنَا بَاعِثُهُ حَتَّى يُخبرَهُمْ بأنَّهُ مَاتَ. فَانْطَلَقَ بهِمْ إلَى قَبْرِ هَارُونَ؛ فَنَادَاهُ: يَا هَارُونُ! فَخَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ يَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْ رَأسِهِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أنَا قَتَلْتُكَ ؟! قَالَ: لاَ، وَلَكِنِّي مُتُّ، قَالَ: فَعُدْ إلَى مَضْجَعِكَ، وَانْصَرَفَ)(١).

وَفَاةُ مُوسَى عليه السلام:

قَالَ أبُو هُرَيْرَةُ: قَالَ رَسُولُ للهِ ﷺ: [جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إلَى مُوسَى عليه السلام فَقَالَ لَهُ: أجِبْ رَبَّكَ، فَلَطَمَ عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأهَا، فَرَجَعَ مَلَكُ الْمَوْتِ قَالَ: يَا رَب! إنَّكَ أرْسَلْتَنِي إلَى عَبْدٍ لاَ يُرِيْدُ الْمَوْتَ، فَقَأ عَيْنِي، فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ إلَى عَبْدِي وَقُلْ لَهُ: إنْ كُنْتَ تُرِيْدُ الْحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَمَا دَارَتْ عَلَيْهِ مِنْ شَعْرَةٍ فَلَكَ بهَا سَنَةٌ، قَالَ: ثُمَّ مَاذا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ، قَالَ: فَالآنَ مِنْ قَرِيْبٍ، قَالَ: رَب أدْنِينِي مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ قَدْرَ رَمْيَةِ حَجَرٍ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ أنِّي عِنْدَهُ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إلَى جَانِبِ الطَّرِيْقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ](٢).

قَالَ محمدُ بنُ يَحْيَى: (قَدْ صَحَّ حَدِيْثُ مَلَكِ الْمَوْتِ وَمُوسَى عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لاَ يَرُدُّهُ إلاَّ كُلُّ مُبْتَدِعٍ)(٣). وفي حديثٍ آخرَ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: [إنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ كَانَ يَأْتِي النَّاسَ عَيَاناً، حَتَّى أتَى مُوسَى عليه السلام لِيَقْبِضَهُ فَلَطَمَ فَفَقَأ عَيْنَهُ، فَجَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ بَعْدَ ذلِكَ خِفْيَةً](٤).

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٣٧٠: تفسير الآية. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص١٣١.

(٢) أخرجه همام بن منبه في صحيفته: الحديث (٦٠). وعبدالرزاق في المصنف: الحديث (٢٠٥٣٠): ج ١١ ص٢٧٤. والإمام أحمد من طريقه في المسند: ج ٢ ص٣١٥. والبخاري في الصحيح: كتاب الأنبياء: باب وفاة موسى: الحديث (٣٤٠٧). ومسلم في الصحيح: كتاب الفضائل: باب من فضائل موسى: الحديث (١٥٨/ ٢٣٧٢).

(٣) أدرج الناسخ عبارة: (كذا في تفسير الثعلبي). وفي تفسير الثعلبي: الكشف والبيان: ج٤ ص٤٦؛ قال: (لا يردها إلا ضالٌّ).

(٤) أخرجه النسائي في السنن الصغرى: كتاب الجنائز: آخر الكتاب: ج ٤ ص١١٨. والحاكم في=

وقال وهب: (خَرَجَ مُوسَى لِبَعْضِ حَوَائِجِهِ، فَمَرَّ برَهْطٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَحْفُرُونَ قَبْراً لَمْ يَرَ أحْسَنَ مِنْهُ نَظْرَةً وَبَهْجَةً، فَقَالَ: يَا مَلاَئِكَةَ اللهِ لِمَنْ هَذا الْقَبْرُ ؟ قَالُوا: لِعَبْدٍ كَرِيْمٍ، فَقَالَ: مَا رَأيْتُ مَضْجِعاً أحْسَنَ مِنْ هَذا! قَالُوا: يَا كَلِيْمَ اللهِ أتُحِبُّ أنْ يَكُونَ لَكَ؟ قَالَ: وَدَدْتُ، قَالُوا: فَانْزِلْ وَاضْطَجِعْ فِيْهِ، فَفَعَلَ ذلِكَ، ثُمَّ تَنَفَّسَ وَقَبَضَ اللهُ رُوحَهُ، ثُمَّ سَوَّتْ عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَةُ التُّرَابَ)[1].

ورويَ: أن يوشعَ رآهُ بعد موتهِ في المنامِ؛ فقال: كيفَ وجدتَ الموتَ ؟ قال: كَشَاةٍ تُسلخ وهي حيَّةٌ. وكان عُمْرُ موسَى مائةً وعشرينَ سنة، فلما ماتَ موسَى عليه السلام وكان قد اسْتَخْلَفَ يوشعَ، سارَ يوشعُ بالناسِ حتى انتهوا إلى مدينةِ الجبَّارين وحاصرُوهم. فلما كانَ يومُ الجمُعةِ وكادتِ الشمسُ تغربُ، توضَّأ يوشعُ وصلَّى ودعا ربَّهُ وسألَهُ أن يُنْجِزَ له ما وعدَهُ.

وذكرَ أنَّ الشمسَ تغربُ ليلة السَّبتِ لا يقاتلُ فيها، فَرَدَّ اللهُ الشَّمسَ حتى كانت في مقدار صلاة الظُّهر، فجمعَ يوشعُ بني إسرائيلَ وجعلَ في سِبْطٍ منهم سُوراً فصاحوا سبابيرهم، ودخلُوا مدينةَ أعدائِهم فقتلُوهم حتى أتَى الثمانينَ رَجُلاً من أصحاب يوشع كانوا يقعدونَ على الرَّجُلِ، ويحزُّون رأسَهُ فلا يطيقونَهُ من عِظَمِهِ، وكانَ طولُ كلِّ واحدٍ من الجبَّارين ثمانين ذِراعاً، وكان موسَى عليه السلام قد قَتَلَ عِوجَ بنَ عُنُقٍ قبلَ ذلك، وكان طولهُ ثلاثةً وعشرين ألفَ ذراعٍ وثلاثمائة وثلاثين ذراعاً وثلُثِ ذراعٍ، قالهُ ابنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وكان يحتجز بالسَّحاب ويشربُ منه، ويتناولُ الحوتَ من قرار البحرِ فيَشْويَهُ بعينِ الشَّمسِ ويأكله.

يروى أنَّ طوفانَ نُوحٍ عليه السلام غَمَرَ جميعَ جبالِ الدُّنيا وما بَلَغَ إلاَّ إلى رُكبتيهِ- وعاش عوجُ ثلاثةَ آلافِ سنة وسبعمائة سنة- وأهلكه اللهُ تعالى على يَدَي موسَى عليه السلام. وسببُ ذلكَ أنه كانت محطَّةُ عسكرِ موسى عليه السلام فَرْسَخاً في فرسخٍ، فجاء عِوَجُ حتى نَظَرَ إليهم ثم جاءَ الجبلَ وَقَدَّ مِنْهُ صخرةً على قدر العسكرِ، ثم حملَها لِيُطْبقَها

=المستدرك: كتاب تواريخ المتقدمين: باب كان ملك الموت يأتي الناس عياناً: الحديث (٤١٦١)؛ وقال: ((صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه)).

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٣٧٠-٣٧١.

عليهم، فبعثَ اللهُ طَيْراً حتى قَوَّرَ الصخرةَ بمنقارهِ فانقبَها فوقعت في عُنُقِ عوجٍ فطوَّقتهُ فصرعته، وأقبلَ موسَى عليه السلام وطولهُ عشرةُ أذرعٍ وعصاهُ عشرة، ووَثَبَ عشرة أذرُعٍ إلى جهةِ السَّماء، فما أصابَ إلاّ كَعْبَهُ وهو مصروعٌ في الأرضِ فقتلهُ[١]، وأقبلَ جماعةٌ كثيرة معهم سكاكينُ وخناجرُ حتى حَزُّوا رأسَهُ، وكانت أمُّهُ عُنُقاً، ويقالُ لها: عِنَاقٌ، وكانت إحدَى بناتِ آدمَ عليه السلام وهي أوَّلُ امرأةٍ زنت على وجهِ الأرضِ، وكان كل إصْبَعٍ من أصابعِها طولهُ ثلاثةُ أذرع وعرضُها ذراعين، في كلِّ إصبعٍ ظُفْرَان مثل المخلَبين، فلما زَنَتْ بعثَ اللهُ عليها أسوداً كالفيلة، وذُباباً كالإبلِ، ونُموراً كالْحُمُرِ، وسلَّطَهم عليها فأكلُوهَا[٢].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾؛ معناهُ: واقرأ يا مُحَمَّدُ على قومِكَ خبرَ ابْنَي آدمَ بالصِّدقِ؛ إذ وضعَا على الجبلِ قُرْبَاناً، والقُرْبَانُ: مَا يُتَقَرَّبُ بهِ إلى اللهِ تَعَالَى. وقِيْلَ: معناهُ: واقرأ على أولادِ هؤلاء الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ من أهلِ الكتاب حتى يُقِرُّوا برسالتِكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَتُقُبِّلَ مِنْ أحَدِهِمَا) أي قُبلَ القربانُ من أحدِهما، ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر، ومعنى القبول: إيجاب الثواب.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ حَوَّاءَ كَانَتْ تَلِدُ كُلَّ بَطْنٍ وَلَدَيْنِ ذكَراً وَأُنْثَى؛ إلاَّ شيث فَإنَّهَا وَلَدَتْهُ مُنْفَرِداً، فَوَلَدَتْ أوَّلَ بَطْنٍ قَابيْلَ وَأخْتَهُ إقْلِيْمَا، ثُمَّ وَلَدَتْ فِي الْبَطْنِ الثَّانِي هَابيْلَ وَأخْتَهُ لَبُودا. فَلَمَّا أدْرَكُوا، أمَرَ اللهُ آدَمَ أنْ يُزَوِّجَ قَابيْلَ أخْتَ هَابيْلَ، وَيُزَوِّجَ هَابيْلَ أخْتَ قَابيْلَ، فَرَضِيَ هَابيْلُ وَكَرِهَ قَابيْلُ؛ لأنَّ أخْتَهُ كَانَتْ أحْسَنَهُمَا، فَقَالَ آدَمُ: مَا أمَرَ اللهُ إلاَّ بهَذا يَا بُنَيَّ؛ وَلاَ يَحِلُّ لَكَ. فَأبَى أنْ يَقْبَلَ؛ وَقَالَ: إنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرْ بهَذا وَإنَّمَا هُوَ مِنْ رَأيِكَ. فَقَالَ لَهُمَا: قَرِّبَا قُرْبَاناً؛ فَأيُّكُمَا يُقْبَلُ قُرْبَانُهُ فَهُوَ أحَقُّ بهَا.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص١٢٧؛ قال القرطبي: ((ذكر هذا المعنى باختلاف ألفاظ مُحَمَّد بن إسحق والطبري ومكّي وغيرهم، وقال الكلبي: عوج من ولد هاروت وماروت حيث وقعا بالمرأة فحملت. والله أعلم)).

(٢) كل ما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ في هذا المقام من الإسرائيليات التي لا يعول عليها. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص١٣٤-١٣٥؛ قال القرطبي: ((وقد روي في هذا الباب عن جعفر الصادق... ومثل هذا يحتاج إلى نقل صحيح يقطع العذر، وذلك معدوم. والله أعلم)).

وَكَانَ هَابِيْلُ صَاحِبَ غَنَمٍ، وَقَابِيْلُ صَاحِبَ حَرْثٍ، فَقَرَّبَ هَابِيْلُ كَبْشاً سَمِيْناً وَلَبَناً وَزُبْداً، وَقَرَّبَ قَابِيْلُ سُنْبُلاً مِنْ شَرِّ زَرْعِهِ، وَأَضْمَرَ فِي قَلْبِهِ مَا أُبَالِي أَتُقبل مِنِّي أمْ لاَ، لاَ يَتَزَوَّجُ أُخْتِي أبَداً، وَأَضْمَرَ هَابِيْلُ فِي نَفْسِهِ الرِّضَا للهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَوَضَعَا قُرْبَانَهُمَا عَلَى الْجَبَلِ، فَنَزَلَتْ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَمَا أكَلَتْ شَيْئاً مِنَ السُّنْبُلِ بَعْدَ، ثُمَّ أكَلَتِ الْكَبْشَ وَاللَّبَنَ وَالزُّبْدَ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (فَتُقبلَ مِنْ أحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ)(١).

فَنَزَلُوا الْجَبَلَ وَتَفَرَّقُوا، وَكَانَ آدَمُ عليه السلام مَعَهُمْ، فَذهَبَ هَابِيْلُ إلَى غَنَمِهِ، وَقَابِيْلُ إلَى زَرْعِهِ غَضْبَانَ وَأظْهَرَ الْحَسَدَ لِهَابِيْلَ، وَقَالَ: يَا هَابِيْلُ لأَقْتُلَنَّكَ! قَالَ: وَذلِكَ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى تَقَبَّلَ قُرْبَانَكَ وَرَدَّ عَلَيَّ قُرْبَانِي، وَتَنْكِحُ أُخْتِي الْحَسَنَةَ، وَأنْكِحُ أُخْتَكَ الْقَبِيْحَةَ، فَيُحَدِّثُ النَّاسُ أنَّكَ خَيْرٌ مِنِّي. ﴿ قَالَ ﴾ ؛ هَابِيْلُ: مَا ذنْبِي فِي ذلِكَ ؟!)(٢). ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي من الزَّاكيةِ قلوبُهم الذين يخافون على حسناتِهم أن لا تُقْبَلَ، ولم تَكُنْ أنتَ زَاكِيَ القَلْبِ، فردَّ اللهُ قربانَكَ حيث نِيَّتَكَ.

وَقِيْلَ: أرادَ بالمتَّقين الذين يَتَّقُونَ الشِّرْكَ. قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ قَابِيْلُ كَافِراً) وَفي أكثرِ الرِّواياتِ أنَّهُ كَانَ رَجُلَ سَوْءٍ. قال الحسنُ: (كَانَ الرَّجُلُ إذا أرَادَ أنْ يُقَرِّبَ الْقُرْبَانَ؛ تَعَبَّدَ وَتَابَ وَتَطَهَّرَ مِنَ الذُّنُوب وَلَبسَ الثِّيَابَ الْبِيْضَ، ثُمَّ قَرَّبَ وَقَامَ يَدْعُو اللهَ، فَإنْ قَبلَ اللهُ قُرْبَانَهُ جَاءَتِ النَّارُ فَأكَلَتْهُ، وَذلِكَ عَلاَمَةُ الْقَبُولِ، وَإنْ لَمْ تَجِئْ نَارٌ فَذلِكَ عَلاَمَةُ الرَّدِّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ ﴾ ؛ أي قال هَابِيْلُ مُجِيْباً لقابيلَ: لَئِنْ مَدَدْتَ يدكَ إلى القتلِ ظُلماً ما أنا بالَّذي أمُدُّ يَدِي إليكَ لأقتلكَ ظُلماً، قال قابيلُ: ولِمَ ذلك؟ قال: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ بقتلِكَ ظُلماً.

واختلفَ العلماءُ في وقتِ مَوْلِدِ قابيلَ وهابيلَ، قال بعضُهم: غَشِيَ آدمُ حوَّاءَ بعد ما هَبَطَ إلى الأرضِ بمائة سَنَةٍ، فولدت لهُ قابيلَ وتَوْأمَتَهُ في بطنٍ، ثم بعدَ ذلكَ

(١) ينظر التعليق قبله.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩١٧٧) مختصراً.

البطنِ هابيلُ وتوْأمَتَهُ. قال ابنُ عبَّاس: (وَلَمْ يَمُتْ آدَمُ حَتَّى بَلَغَ وَلَدُهُ وَوَلَدُ وَلَدِهِ أرْبَعِيْنَ ألْفاً).

وقال بعضُهم: كان آدمُ يغشَى حوَّاءَ في الجنَّةِ، فَحَمَلَتْ بقابيلَ وتوْأمَتِهِ، فلَم تَجِدْ عليهما وَحَماً ولا وَصَباً ولا طَلْقاً ولا نِفَاساً لِطُهْرِ الجنَّة، فلما هَبَطَ إلى الأرضِ تغشَّاها فحملت بهابيلَ وتوأمتهِ، فوجدَتْ عليهما الوَحَمَ والوَصَبَ والطَّلْقَ والدَّمَ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ ؛ أي قال هابيلُ لقابيلَ: إنْ كنتَ تريدُ قتلي فلا تَرْجِعْ عنهُ، فإنِّي أريدُ أن ترجعَ إلى اللهِ بإثْمِ دَمِي وإثْمِ ذنْبكَ الذي مِن أجلهِ لم يُتقَبَّلُ قربانُكَ، ﴿ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ ﴾ ؛ في الآخرةِ؛ ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي وذلكَ عقوبةُ مَن لَمْ يَرْضَ بحكمِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي طَاوَعَتْهُ نفسهُ، وقِيْلَ: زَيَّنَتْ لهُ قَتْلَهُ فقَتَلَهُ. قال السُّدِّيُّ: (لَمَّا قَصَدَ قَابيْلُ قَتْلَ هَابيْلَ أتَاهُ فِي رَأسِ جَبَلٍ وَهُوَ نَائِمٌ وَغَنَمُهُ تَرْعَى، فَأَخَذ صَخْرَةً فَشَدَخَ بهَا رَأسَهُ فَمَاتَ).

وقال الضحَّاك: (كَانَ قَابيْلُ لاَ يَدْري كَيْفَ يَقْتُلُهُ حَتَّى جَاءَ إبْلِيْسُ وَبيَدِهِ حَيَّةٌ فَوَضَعَهَا بَيْنَ حَجَرَيْنِ، فَرَضَخَ رَأسَهَا بالْحَجَرِ وَقَابيلُ يَنْظُرُ، فَلَمَا نظَرَ ذلِكَ جَاءَ إلَى هَابيلَ فَلَمْ يَزَلْ يَضْربُ بالْحِجَارَةِ عَلَى رَأسِهِ حَتَّى قَتَلَهُ، وكَانَ لِهَابيلَ يَوْمَ قُتِلَ عُشْرُونَ سَنَةً). واختلفوا في موضعِ قتله، قِيْلَ: قُتِلَ على جبلِ ثور. وَقِيْلَ: بالبصرةِ.

فلمَّا مات هابيلُ قصَدتْهُ السِّباعُ لتأكلَهُ، فحملَهُ قابيلُ على ظهرهِ حتى انتنَّ ريحُهُ، فعكفَ الطُّيور والسِّباع حوالَيهِ تنتظرُ متى يُرمَي به فتأكلَهُ، ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ ﴾ ، فبعثَ الله غرابين فاقتَتلا، فقتَل أحدُهما صاحبه، ثم حفرَ له بمنقارهِ ورجله، ثم ألقاهُ في الحفيرةِ وواراهُ، وقابيلُ ينظرُ إليه، فـ؛ ﴿ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

وعن ابن عباس قالَ: (لَمَّا قَتَلَ قَابيلُ هَابيلَ رَجَعَ إلَى أبيهِ قَبْلَ أنْ يَدْفِنَـهُ، فَلَمَّا أبْطَأَ هَابيلُ قَالَ آدَمُ عليه السلام: يَا قَابيلُ أيْنَ أخُوكَ ؟ قَالَ: مَا رَأيْتُهُ؛ وكَأنَّنِي بهِ أرْسَلَ غَنَمَـهُ فِي زَرْعِي فَأفْسَدَهُ، فَلَعَلَّهُ خَافَ أنْ يَجِيءَ مِنْ أجْلِ ذلِـكَ، قَـالَ: وَحَسَّـتْ نَفْـسُ آدَمَ، فَبَاتَ لَيْلَتَهُ تِلْكَ مَحْزُوناً، فَلَمَّا أصْبَحَ قَابيلُ غَدَا إلَى ذلِكَ الْمَوْضِعِ، فَـإذا هُـوَ بغُـرَابٍ يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ عَلَى غُرَابٍ مَيِّتٍ لِيُوَاريَهُ)[1].

وَقِيْلَ: بعثَ اللهُ الغرابَ إكراماً لهابيل، وكان الغرابُ يحثِي الترابَ علـى هـابيل ليُريَ قابيل كيف يُواريه؛ أي كيف يغطِّي عورتَهُ. وفي الخبر: أنَّهُ لَمَّا قتله سـلَبَهُ ثيابـه، وتركه عُرياناً. وَقِيْلَ: أرادَ بالسَّوْءَةِ جسَدَ المقتول، سماه سَوءَةً لأنه لَمَّا بقي على وجـهِ الأرض تغيَّرَ ونَتَنَ، والسوءَةُ في اللغة: عبارةٌ عن كل شيء مستنكرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)؛ الخاسرين، أي صارَ مـن المغبونـين بـالوزر والعقوبة. قال الكلبيُّ: (كَانَ قَابيلُ أوَّلَ مَنْ عَصَى اللهَ فِي الأَرْضِ مِنْ ولْـدِ آدَمَ، وَهُـوَ أوَّلُ مَنْ يُسَاقُ إلَى النَّار).

وقال مقاتلُ: (كَانَ قَبْلَ ذلِكَ تَسْتَأْنِسُ الطُّيُورُ وَالسِّبَاعُ وَالْوُحُوشُ بهِ، فَلَمَّا قَتَـلَ قَابيلَ نفَرُوا، فَلَحِقَتِ الطُّيُورُ بالْهَواءِ؛ وَالْوُحُـوشُ بالْبَرِّيَّـةِ؛ وَالسِّـبَاعُ بالفيَـافِي وشَـاكَ الشَّـجَرُ، وَتَغَـيَّرَتِ الأَطْعِمَـةُ وَحَمِضَـتِ الْفَوَاكِـهُ وَاغْـبَرَّتِ الأَرْضُ). وقـال عبـدُالله المخزوميُّ: (لَمَّا قُتِلَ هَابيلُ رَجَفَتِ الأَرْضُ بمَا عَلَيْهَا سَبْعَةَ أيَّامٍ). وقال سالِمُ بـن أبـي الجعد: (مَكَثَ آدَمُ عليه السلام حَزيناً عَلَى قَتْلِ وَلَدِهِ هَابيلَ مِائَةَ سَنَةٍ لاَ يَضْحَكُ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَاري سَوْأةَ أخِيهِ) أي أرسلَ اللهُ غراباً يثـيرُ الـترابَ على غرابٍ آخر ميْتٍ بمنقارهِ وبرجله، فلما أبصرَ قابيل الغرابَ يبحثُ في الأرض دعَا بالويلِ على نفسه، فقال: (يَاوَيْلَتَا أعَجَزْتُ أنْ أكُونَ مِثْلَ هَذا الْغُرَاب) والوَيْلُ: كلمـةٌ تستعمَل عند الوقوعِ في الشدَّة والهلَكةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) يحتملُ أنه نَدِمَ نَدَمَ توبةٍ عـن جميـع مـا قـالَ وفعل، ويحتمل أنه نَدِمَ على تركِ مُواراةِ سَوْءَةِ أخيـه، فـإن كـانت الأُولى فـاللهُ تـوَّابٌ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩١٧٩ و٩١٨٠ و٩١٨١) بروايات عديدة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٩١٥٣).

رحيم، وإنْ كانت الثانيةُ فإثْمُ القتلِ في عُنقه. قال ابنُ عبَّاس: (لَوْ كَانَتْ نَدَامَتُهُ عَلَى قَتْلِهِ لَكَانَتْ تَوْبَةً مِنْهُ). وَقِيْلَ: إنه إنما نَدِمَ لأنه لم ينتفِعْ بقتلهِ ولم يحصُلْ له مرادهُ، فكان ندمهُ لأجلِ ذلك لا بقُبحِ فعلهِ، ولو كان ندمهُ تقرُّباً إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال ابنُ عبَّاس: (فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِقَابِيلَ: كُنْ خَائفاً لاَ تَرَى شَيْئاً إلاَّ خِفْتَ مِنْهُ أنْ يَقْتُلَكَ، قَالَ: وَكَانَ كُلُّ مَنْ رَأى قَابيلَ رَمَاهُ بالْحِجَارَةِ، فَأبْصَرَهُ بَعْضُ وَلَدِ وَلَدِهِ فَرَمَاهُ بالْحِجَارَةِ حَتَّى قَتَلَهُ) ويقالُ: كان على جبلٍ فنطحَهُ ثورٌ فوقعَ إلى سفحِ الجبلِ فتفرَّقت أوصالهُ. وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأنَّهُ أوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ](١).

قال مقاتلُ: (وَتَزَوَّجَ شِيثٌ بإقْلِيمَا)(٢). وقال الضحَّاك: (لَمَّا قَتَلَ قَابيلُ هَابيلَ حَمَلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَصْنَعُ بهِ، فَمَكَثَ ثَلاَثَةَ أيَّامٍ يَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِهِ لاَ يَدْري مَاذا يَصْنَعُ بهِ، فَبَعَثَ اللهُ غُرَابَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ، فَقَتَلَ أحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، ثُمَّ أخَذ يَحْفُرُ فِي الأَرْضِ، وَأخَذ برجْلِ الْغُرَاب الْقَتِيلِ وَألْقَاهُ فِي الْحَفِيرَةِ) فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ؛ أي من أجلِ ذلك القتلِ الذي عرفَهُ بنو إسرائيل واشتهرَ عندهم، فرَضْنَا وأوجَبنا عليهم في التَّوراة: ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ ؛ أي من غيرِ أن يجبَ عليه القَوْدُ، ﴿ أَوْ ﴾ ؛ بغيرِ؛ ﴿ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ نحوَ الشِّرك وقطعِ الطريقِ والزِّنا عند الإحصان، ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي استوجبَ النار بقتلِ النفسِ الواحدة، كما يستوجبُها مَن قَتَلَ الناس جميعاً، وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ على الناس كلِّهم معونةُ وليِّ القتيلِ حتى يفتدوهُ، ويكونوا كلُّهم خَصماً للقاتلِ حتى يُقَادَ. وَقِيْلَ: إن المرادَ به استحقاقُ القتلِ عليه بقتلِ النفس الواحدة .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب أحاديث الأنبياء: باب خلق آدم وذريته: الحديث (٣٣٣٥).

(٢) في تفسير مقاتل: ج ١ ص٢٩٦؛ قال مقاتل: ((وتزوج شيث بن آدم ليوذا التي وُلدت مع هابيل)).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩١٨٥) مختصراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي من استنقذ نفساً من غَرَقٍ أو من حَرْقٍ أو مما يُميتها لا محالةَ، أو استنقذها من كفرٍ أو ضلالة فأحياها بالنعيمِ الدائم في الجنَّة، أو عفَى عن دمها بعد ما وجبَ عليها القصاصُ استوجبَ الجنَّة، كما استوجبَها مَن أحيَا الناس جميعاً. وعن ابنِ عبَّاس قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: [مَنْ سَقَا مُؤْمِناً شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ وَالْمَاءُ مَوْجُودٌ فَكَأَنَّمَا أعْتَقَ سَبْعِينَ رَقَبَةً، وَمَنْ سَقَاهَا فِي غَيْرِ مَوْطِنِهَا فَكَأَنَّمَا أحْيَا نَفْساً، وَمَنْ أحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ؛ أي لقد جاءت بني إسرائيلَ رسُلنا بالأوامر والنواهي والعلامات الواضحات، ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ بعدَ أن جاءَتهم الدلائلُ والمعجزات، ﴿ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ مُشركون تاركُو أمرَ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَادَعَ أبَا بُرْدَةَ هِلاَلَ بْنَ عُوَيْمِرَ الأَسْلَمِيَّ: [عَلَى أنْ لاَ يُعِينَهُ وَلاَ يُعِينَ عَلَيْهِ، وَمَنْ أتَاهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٦٥٨٨) عن عائشة بلفظ قريب منه. وابن ماجة في السنن: كتاب الأحكام: باب المسلمون شركاء في ثلاث: الحديث (٣٤٧٤)، وفيه علي بن زيد ابن جدعان، وهو ضعيف، وزهير بن مرزوق. وفي مجمع الزوائد: ج٣ ص١٣٣؛ قال الهيثمي: ((رواه ابن ماجة باختصار، والطبراني في الأوسط وفيه زهير بن مرزوق، قال البخاري: مجهول منكر الحديث)).

وفي الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: ص٧٣٠: الحديث (٢٨)؛ قال الشوكاني: ((رواه ابن عدي وفيه متهم ومتروك. ورواه عبد بن حميد بإسناد فيه مجهول)). وفي الكامل في الرجال الضعفاء: ج ١ ص٣٣٨: الترجمة (٥٢/ ٥٢) أحمد بن محمَّد بن علي؛ قال ابن عدي: ((هذا الحديث كذب موضوع على رسول الله ﷺ مع أحاديث أخر)). وفي ج ٣ ص١٣٨ أخرجه من طريق آخر ضعيف، وآفته الحسن بن أبي جعفر. قلتُ: ولم أجده من طريق ابن عباس.

أمَّنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ مَرَّ بِهِلاَلِ بْـنِ عُوَيْمِـرَ إلَـى رَسُـولِ اللهِ ﷺ فَـهُوَ آمِنٌ].

فَمَرَّ قَوْمٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يُرِيدُونَ الإسْلاَمَ عَلَى قَوْمٍ مِمَّنْ أسْلَمَ مِـنْ قَـوْمِ هِـلاَلٍ، وَلَمْ يَكُنْ هِلاَلٌ يَوْمَئِذٍ حَاضِراً، فَخَرَجَ أصْحَابُهُ إلَيْهِمْ فَقَتَلُوهُمْ وَأخَذُوا أمْوَالَهُمْ، فَبَلَـغَ ذلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأنْزَلَ اللهُ فِيْهِمْ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

ومعناها: (إنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ) الفَسَادَ نحو القتلِ والنَّهب والتخريب وقطع الطريق (أنْ يُقَتَّلُـوا) إنْ قتَلُـوا أحـداً ولم يـأخذوا المالَ (أوْ يُصَلَّبُوا) مقتُولين إن قتَلُوا وأخذُوا المـالَ، (أوْ تُقَطَّـعَ أيْدِيـهِمْ وَأرْجُلُـهُمْ مِـنْ خِلافٍ) اليدُ اليمين من الرّسغ، والرِّجل اليُسرى من الكعب إن أخَذُوا المالَ ولم يقتُلوا أحَداً، (أوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ) إن أخَافُوا الطريقَ ولم يفعَلُوا سِوَى ذلك.

واختلَفُوا في معنى النَّفي، قال بعضُهم: يعني الحبسَ، وقال بعضُهم: هو الطلبُ حتى لا يستقرَّ بهم مكانٌ. والتوفيقُ بـين القولَـين: أنَّـهم إنْ أخِـذُوا بعـد مـا أخَـافُوا الطريقَ؛ أودعَهم الإمامُ السِّجن حتى يتوبُوا أو يموتوا، وإنْ لم يُؤخَـذوا أمَـرَ بطلبـهم، وأمرَ أن يُنادى في الناسِ: أنَّ مَن قتلَهم لا سبيلَ عليه.

وإنما سُمي الحبسُ نَفياً؛ لأنه يمنعُ المحبوسين مـن الـتردُّد والتصـرُّف في الأرضِ، ويكون ذلك بمنزلةِ النَّفيِ من الأرض.

واختلَفُوا في كيفيَّة الصَّلب مع القتلِ. قال أبو حَنيفة: (يُصْلَبُ حَيّاً لِيَرَى النَّاسَ وَيَرَوهُ؛ وَيَكُونُ ذلِكَ زِيَادَةَ عُقُوبَةٍ لَهُ، ثُمَّ تُبْعَجُ بَطْنُهُ بالرُّمْحِ؛ يُطْعَنُ فِي خَاصِرَتِهِ حَتَّـى يَمُوتَ). وقال أبو يُوسف والشافعيُّ: (يُقْتَلُ ثُـمَّ يُصْلَـبُ). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي فضيحـةٌ في الدنيـا، ﴿ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أعظَمُ من هذا.

وقال مقاتلُ وسعيد بن جُبير: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي قَوْمٍ مِنْ بَنِي عُرَيْنَـةَ، قَدِمُـوا الْمَدِينَةَ عَلَـى رَسُـولِ اللهِ ﷺ وَبَـايَعُوهُ عَلَـى الإسْـلاَمِ، وَهُـمْ كَذَبَـةٌ وَلَيْـسَ يُرِيـدُونَ

(١) تقدم.

الإسْلاَمَ، فَاجْتَوَوا الْمَدِينَةَ وَعَظُمَتْ بُطُونُهُمْ وَاصفَرَّتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَخْرُجُوا إلَى إبلِ الصَّدَقَةِ فَيشْرَبُوا مِنْ أبْوَالِهَا وَألْبَانِهَا، فَفَعَلُوا ذلِكَ حَتَّى صَحُّوا، ثُمَّ قَتَلُوا الرُّعَاةَ وَاسْتَاقُوا الإبلَ وَارْتَدُّوا عَنِ الإسْلاَمِ.

فَصَاحَ الصَّائِحُ: يَا خَيْلَ اللهِ اركَبِي. فَرَكِبُوا لاَ يَنْتَظِرُ فَارسٌ فَارساً، فَأَسْرَعُوا فِي طَلَبِهِمْ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أبي طَالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ فِي طَلَبِهِمْ، فَجَاءوا بهِمْ، فَقَطَّعَ أيْدِيَهُمْ وَأرْجُلَهُمْ مِنْ خِلاَفٍ، وَسَمَّلَ أعْيُنَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ بالْحَيَاةِ حَتَّى مَاتُوا، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، فَصَارَتْ عَامَّةً فِي قُطَّاعِ الطُّرُقِ نَاسِخَةً لِتَسْمِيلِ الْعَيْنِ)(١).

وقال اللَّيثُ بنُ سعدٍ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ مُعَاتِبَةً لِرَسُول اللهِ ﷺ وَتَعْلِيماً لَهُمْ عُقُوبَتَهُمْ، فَقَالَ تَعَالَى: (إنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أنْ يُقَتَّلُوا أوْ يُصَلَّبُوا) وَلَمْ يَكُنْ جَزَاؤُهُمْ هَذِهِ الْمُثْلَةَ الَّتِي هِيَ السَّمْلُ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ خَطِيباً وَنَهَى عَنِ الْمُثْلَةِ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾ ؛ معناهُ: أن يُقتَّلوا أو يُصلَّبوا إلاَّ الذين تَابُوا من قطعِ الطَّريق من قبلِ أن يقدرَ عليهم الإمامُ، ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ ﴾ ؛ لعبادِه، ﴿ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ بهم بعدَ التوبةِ.

روى الشعبيُّ: (أنَّ حَارثَةَ بْنَ زَيْدٍ خَرَجَ مُحَارباً فِي عَهْدِ عَلِيٍّ ﵁، فَأَخَافَ السُّبُلَ وَسَفَكَ الدِّمَاءَ وَأخَذ الأَمْوَالَ، ثُمَّ جَاءَ تَائِباً فَأَتَى الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ فَطَلَبَ إلَيْهِ أنْ يَسْتَأْمِنَ لَهُ عَلِياً كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ فَأبَى، فَأَتَى عَبْدَاللهِ بْنَ جَعْفَرَ فَأَبَى عَلَيْهِ، فَأَتَى سَعْدَ بْنَ قَيْسٍ الْهَمَدَانِيَّ فَقَبلَهُ وَضَمَّهُ إلَيْهِ، فَلَمَّا صَلَّى عَلِيٌّ ﵁ صَلاَةَ الْغَدَاةِ، أتَى سَعْدُ بْنُ قَيْسٍ الْهَمَدَانِيُّ وَقَالَ: يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ مَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَاربُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ؟ قَالَ: أنْ يُقَتَّلُوا أوْ يُصَلَّبُوا أوْ تُقَطَّعَ أيْدِيَهُمْ وَأرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ. قَالَ: مَا تَقُولُ فِيْمَنْ تَابَ مِنْ قَبْلِ أنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: أقُولُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: (إلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أنْ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٢١٩). وأصله في الصحيحين من حديث أنس بن مالك، وعند الطبري في النص (٩٢١٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٢٢٧).

تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فَقَالَ سَعْدُ بْنُ قَيْسٍ: وَإنْ كَانَ حَارِثَةَ بْنَ زَيْدٍ ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَجَاءَ بِهِ إلَيْهِ، فَبَايَعَهُ وَأمَّنَهُ وَكَتَبَ لَهُ أمَاناً مَنْشُوراً، فَقَالَ حَارِثَةُ:

ألاَ أبْلِغَنَّ هَمَدَانَ إمَّا لَقِيتَهَا عَلَى النَّأيِ لاَ يَسْلَمْ عَدُوٌّ يَعِيبُهَا

لَعَمْرُو أبيهَا إنَّ هَمَدَانَ تَتَّقِي الإلَهَ وَيَقْضِي بالكِتَابِ خَطِيبُهَا[(١)]

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ ؛ أي يا أيُّها الذين آمَنوا اخشَوا عذابَ الله واحذَرُوا معاصيَهُ، واطلبُوا إليه القربةَ بالأعمال الصالحةِ، ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ ﴾ ؛ أعداءَ الله في طاعتهِ، ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي لعلَّكم تظفَرُون بعدوِّكم في الدنيا، وتنجُوا من النار في العُقبى. والوسيلةُ: القُرْبَةُ، وهي فَعِيلَةٌ من: توَسَّل إلى فلانٍ بكَذا؛ أي تقرَّبَ إليه، وجمعُها وسَائِلُ. قال الشاعرُ[(٢)]:

إذا غَفِلَ الْوَاشُونَ عُدْنَا لِوَصْلِنَا وَعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلُ

وقال عطاءُ: (الْوَسِيلَةُ: أفْضَلُ دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ)، قال ﷺ: [سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإنَّهَا دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ يَنَالُهَا إلاَّ عَبْدٌ وَاحِدٌ، وَأرْجُو مِنَ اللهِ أنْ أكُونَ أنَا هُوَ][(٣)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ ﴾ ؛ وفي الآية إزالةُ طَمَعِ الكفَّار عن التخلُّص من عذاب الآخرة، يقول: لو مَاتُوا على الكفرِ، وكان لهم ما في الأرضِ جميعاً من الأموال بأسرِها وضعفهُ معَهُ لَيَشتروا به أنفسهم من عذاب الله ما تُقبلَ ذلك الفداءُ منهم لو فادَوا، ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ وجيعٌ يخلُصُ وجعهُ إلى قلوبهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٢٧٩-٩٢٨١).

(٢) من شواهد الطبري في جامع البيان: تفسير الآية: الرقم (٩٢٩٧).

(٣) الحديث عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الصلاة: الحديث (١١/ ٣٨٤). وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: الحديث (٥٢٣). والترمذي في الجامع: كتاب المناقب: باب فضل النبي ﷺ: الحديث (٣٦١٤)، وقال: حديث حسن صحيح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ قِيْلَ: معناهُ: كلَّما رفعَتهُم النارُ بلَهَبهَا يتمنَّوا أن يخرجوا منها، يقولُ الله تعالى: (وَمَا هُمْ بخَارجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ) دائمٌ لا ينقطعُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي طُعْمَةَ بْنِ أبَيْرِقَ سَارِق الدِّرْعِ) وقد مضت قصَّتهُ في سورةِ النساء، ثم صارت عامَّة في جميعِ الناس. ومعنى الآية: والسارقُ من الرجال والسارقةُ من النِّساء فاقطعُوا أيدِيَهُما أي أيمانِهمَا كذا تأوَّلَهُ ابنُ عباس. وفي قراءةِ ابن مسعود: (فَاقْطَعُوا أيْمَانَهُمَا).

وقرأ عيسى بن عمر: (وَالسَّارقَ وَالسَّارقَةَ) بالنصب على إضمار اقطَعُوا السارقَ والسارقةَ، كما تقولُ: زَيداً اضربهُ، والقراءة المختارةُ: الرفعُ؛ لأن القطعَ على الأيدِي لا على السارق. وقال المبرِّدُ: (لَيْسَ الْقَصْدُ مِنَ الْكَلاَمِ إلَى وَاحِدٍ بعَيْنِهِ، وَإنَّمَا مَعْنَاهُ: مَنْ سَرَقَ فَاقْطَعُوا يَدَهُ، بخِلاَفِ قَوْلِكَ: زَيْداً اضْربْهُ. وَلَوْ أرَادَ سَارقاً بعَيْنِهِ لَكَانَ وَجْهُ الْكَلاَمِ النَّصْبَ). وعلى هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا﴾[1] ولو أرادَ زانياً بعينهِ لنصبَ.

وإنما ذكرَ أيديَهُما بلفظِ الجمع؛ لأنه أرادَ أيْمانَهُما؛ لأنَّ ما كان واحداً فبَيَّنَهُ بلفظِ الجمع والإضافةِ إلى الاثنين، ومثلُ ذلكَ ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[2]، والإضافةُ إلى الاثنين يدلُّ على أن المرادَ به التثنيةُ دون الجمعِ.

فإن قِيْلَ: لأيِّ معنى قدَّمَ اللهُ ذكرَ السارقِ على السَّارقة، وقدَّمَ ذكرَ الزانيةِ على الزانِي؟ قِيْلَ: لأنَّ السرقةَ في الرجال أكثرُ، والنساءُ هي أصلُ الفتنةِ للرجال بالتعريضِ لهم، ولو لَزمَتِ المرأةُ بيتَها كما أمرَ اللهُ تعالى لم تقَعْ هي، ولا الرجالُ في الزِّنا.

واختلفوا في كم تقطَعُ يدُ السارقِ من المال إذا سرقَهُ، فقال بعضُهم: في عشرةِ دراهمَ فصاعداً، ولا يقطعُ فيما دون ذلك، وإليه ذهبَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ، وكان

---

(١) النور / ٢ .

(٢) التحريم / ٤ .

سُليمان بن يسار لا يقطعُ الخمسَ إلاَّ في خمسةِ دراهمَ. وقال مالكُ: (يُقْطَعُ فِـي ثَلاَثَـةِ دَرَاهِمَ فَصَاعِداً)(١)، وقال الأوزاعيُّ والشافعي: (يُقْطَعُ فِي رُبُعِ دِينَارٍ فَصَاعِداً)(٢).

وقال بعضُهم: يقطع في القليلِ والكثير ولو كان دَانِقاً، وهو قـولُ ابـنِ عبَّـاس. وقال بعضُهم: في درهمٍ.

ولو قطعَ السارقُ ثم عادَ فسرقَ، قُطعت رجلهُ اليُسرَى، فإن سرقَ ثالثاً قال أبو حنيفةَ وأصحابهُ: (لاَ يُقْطَعُ، لِمَا رُوِيَ أنَّ عَلِيّاً كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أُتِيَ بسَـارقٍ فَقَطَـعَ يَـدَهُ الْيُمْنَى، ثُمَّ أُتِيَ بِهِ مَرَّةً أُخْرَى فَقَطَعَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى، ثُمَّ أُتِيَ بِـهِ ثَالِثَـةً فَضَرَبَـهُ وَحَبَسَـهُ وَقَالَ: إنِّي أسْتَحِي مِنَ اللهِ أنْ لاَ أدَعَ لَهُ يَداً يَسْتَنْجِي بهَا وَلاَ رِجْلاً يَمْشِي بَهَا)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ ؛ أي عقوبـةً علـى مـا فعَـلاَ، وانتصـبَ (جَزَاءً) لأنه مفعولٌ له، كأنه قالَ: فاقطعُوهما لجزاءِ فعلـهما. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴾ ؛ أي عقوبةً وفضيحة من اللهِ. والنَّكَالُ: هو أنْ يُنَكَّـلَ بـهِ ليعتـبرَ بـه غـيرهُ فَيَنْكَلَ؛ أي لا يفعلَ مثلَ فعلـهِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي منيعٌ بالنِّقمة من السارقِ، ذو حِكمة فيما حكمَ من القطعِ لما في ذلك من زَجْرِ السَّارق عن غيِّهم صيانةً لأموالِ الناس.

---

(١) في جامع البيان: تفسير الآية: مج ٤ ج ٦ ص٣١١؛ قال الطبري: ((ثم اختلفوا في السارق الذي عناه الله، فقال بعضهم: عنى بذلك سارق ثلاثة دراهم فصاعداً، وذلـك قـول جماعـة مـن أهـل المدينة، منهم مالك بن أنس ومن قال بقوله: واحتَجُّوا لقولهم ذلك بأن رسـول الله ﷺ: [قَطَـعَ فِي مِجَنٍّ – تِرْسٍ – قِيمَتُهُ ثَلاَثَةُ دَرَاهِمَ])). وهو من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْـهُمَا؛ أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الحدود: باب (١٣): الحديث (٦٧٩٦).

(٢) في جامع البيان: ج ٦ ص٣١١؛ قال الطبري: ((وقال آخرون: بل عنى بذلك: سارق ربع دينـار أو قيمته. وممن قال بذلك الأوزاعي وقال بقوله. واحتجوا لقولهم بالخبر الذي روي عن عائشـة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: [الْقَطْعُ فِي رُبُعِ دِينَارٍ فَصَاعِداً])). والحديث أخرجـه البخـاري في الصحيح: كتاب الحدود: الحديث (٦٧٨٩) وما بعده.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب السرقة: باب السارق يعود فيسرق ثانياً وثالثاً ورابعـاً: الأثر (١٧٧٥٩). وفي نصب الراية لأحاديث الهداية: ج ٣ ص٣٧٤؛ قال الزيلعي: ((رواه محمَّـد بن الحسن في كتاب الآثار)).

وظاهرُ الآية يقتضِي وجوبَ القطعِ على السَّارق في القليلِ والكثير، وهو قولُ الخوارج، إلاّ أنه قد وردَ عن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ: [لاَ قَطْعَ فِي أقَلِّ مِنْ عَشْرَةِ دَرَاهِمَ](١) وبه أخذ أصحابُنا، ورُوي عن عليٍّ وابنِ مسعود مثلُ قَولِنا.

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: (لاَ تُقْطَعُ الْخَمْسُ إلاَّ فِي خَمْسٍ) أي الخمسُ أصابعَ لا تُقطع إلاَّ في خمسةِ دراهمَ(٢). وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ أنَّها قالت: (لاَ قَطْعَ إلاَّ فِي رُبُعِ دِينَارٍ)(٣) وهو قولُ الشافعيِّ. وقال عبدُالله بن عمرَ: (ثَلاَثَةِ دَرَاهِمَ)(٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ ﴾ ؛ أي من تاب من السراق من بعد سرقته وأصلح العمل فيما بينه وبين الله تعالى، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ ﴾ ؛ أي يتجاوزُ عنه ولا يؤاخذهُ في الآخرةِ، ولا تقطعُ يده إذا ردَّ المالَ قبل المرافعةِ إلى الحاكمِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ بمن ماتَ على التوبةِ.

وأما إذا رُفع إلى الحاكمِ ثم تابَ فالقطعُ واجبٌ، فإنْ كانت توبتهُ حقيقةً كان ذلك زيادةَ درجاتٍ له، كما أنَّ الله تعالى ابتلَى الصالحين والأنبياءَ بالبلايا والْمِحَنِ والأمراضِ زيادةً لهم في درجاتِهم، وإنْ لم تكن توبتهُ حقيقةً كان الحدُّ عقوبةً له على ذنبهِ، وهو مؤاخَذٌ في الآخرةِ إن لم يتُبْ.

وعن عبدِالله بن عامر قال: سَرَقَتِ امْرَأةٌ عَلَى عَهْدِ رَسُول اللهِ ﷺ فَجَاءُوا بِهَا إلَيْهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ هَذِهِ الْمَرْأةَ سَرَقَتْنَا، فَقَالَ قَوْمُهَا: نَحْنُ نَفْدِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٧١٣٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٢٧٤؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده ضعيف)). وفي نصب الراية: ج ٣ ص٣٥٩؛ قال الزيلعي: ((أخرجه أحمد عن الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً. قال في التنقيح: الحجاج مدلس ولم يسمع هذا الحديث من عمرو)) انتهى.

(٢) أخرجه الدارقطني في السنن: كتاب الحدود والديات: الحديث (٣٠٧ و٣٠٨) عن عمر، إسناده حسن. وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٢٧٤؛ قال الهيثمي: ((عن سعد بن أبي وقاص، أخرجه الطبراني في الأوسط، وفيه أبو واقد الصغير، ضعفه الجمهور، وقال أحمد: ما أرى به بأساً)).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الحدود: الحديث (٦٧٨٩ و٦٧٩٠ و٦٧٩١).

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح: الحديث (٦٧٩٧ و٦٧٩٨).

اللهِ ﷺ: [اقْطَعُوا يَدَهَا] قَالُوا: نَحْنُ نَفْدِيهَا بِخَمْسِمِائَةِ مِثْقَال، فَقَالَ: [اقْطَعُوا يَدَهَا] فَقُطِعَتْ يَدُهَا الْيُمْنَى، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:[نَعَمْ إنَّ التَّوْبَةَ تُخْرِجُكِ عَنْ خَطِيئَتِكِ كَيَوْمِ وَلَدَتْكِ أمُّكِ]. فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأصْلَحَ فَإنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ)[(١)].

وعن عائشةَ قالت: كَانَتِ امْرَأةٌ مَخْزُومِيَّةٌ تَسْتَعِيرُ الْمَتَاعَ وَتَجْحَدُهُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بقَطْعِ يَدِهَا، فَأتَى أهْلُهَا أسَامَةَ فَكَلَّمُوهُ، فَكَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: [يَا أسَامَةُ لاَ أرَاكَ تُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ] ثُمَّ قَامَ خَطِيباً فَقَالَ: [إنَّمَا هَلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ بأنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ قَطَعُوهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا]. أعَاذهَا اللهُ مِنْ ذلِكَ، فَقَطَعَ يَدَ الْمَخْزُومِيَّةِ[(٢)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي له القدرةُ على أهلِ السَّموات والأرضِ، والخطابُ للنبيِّ ﷺ. قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يعذِّبُ مَن يشاءُ على الذنب الصغير وهو عدلٌ منه، ويغفرُ لِمَن يشاءُ الذنبَ العظيمَ وهو فضلٌ منه؛ أي يعذِّبُ من توجبُ الحكمة تعذيبَهُ، ويغفرُ لمن توجبُ الحكمة مغفرتَهُ،﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

وقولهُ تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ أي لا يحزِنْكَ يا مُحَمَّدُ فعلُ الذين يسارعُ بعضهم بعضاً في الإقامةِ على الكفرِ والحثِّ عليه.

قرأ نافعُ: (يُحْزِنْكَ) بضمِّ الياء، ومعناهما واحدٌ. وقرأ السلميُّ: (يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ)، وقولهُ تعالى: (مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بأفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ) وهم المنافقون

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٩٣١٢).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الحدود: باب كراهية الشفاعة في الحدود: الحديث (٩٧٨٨).

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ ؛ أي ومن يهودِ المدينة الذين هم أهلُ الصُّلح للنبيِّ ﷺ. وفي هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتثبيتٌ لفؤادهِ بوعد النُّصرَةِ والظفرِ، وإعلامٌ أنَّ اليهود والنصارى والمنافقين لا يضرُّونَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ ؛ أي قابلون للكذب، يعني بني قُريظة هم سَمَّاعون لقوم آخرين لم يأتُوك، يعني يهودَ خيبر، وذلك: أنَّ رَجُلاً وَامْرَأةً مِنْ أشْرَافِ أهْلِ خَيْبَرَ زَنَيَا، وَكَانَتْ خَيْبَرُ حَرْباً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ الزَّانِيَان مُحْصِنَيْنِ، وَكَانَ حَدُّهُمَا الرَّجْمُ فِي التَّوْرَاةِ، فَكَرِهَتِ الْيَهُودُ رَجْمَهُمَا لِشَرَفِهِمَا، وَقَالُوا: إنَّ هَذا الرَّجُلَ الَّذِي فِي يَثْربَ لَيْسَ فِي كِتَابهِ الرَّجْمُ وَلَكِنَّهُ الضَّرْبُ، فَأَرْسِلُوا إلَى إخْوَانِكُمْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإنَّهُمْ صُلْحٌ لَهُ وَجِيرَانُهُ فَيَسْألُونَهُ عَنْ ذلِكَ، فَبَعَثُوا رَهْطاً مِنْهُمْ مُسْتَخْفِينَ، وَقَالُوا لَهُمْ: اسْألُوا مُحَمَّداً عَنِ الزَّانِيَيْنِ مُحْصِنَيْنِ مَا حَدُّهُمَا؟ فَإنْ أمَرَكُمْ بالْجَلْدِ فَاقْبَلُوا مِنْهُ، وَإنْ أمَرَكُمْ بالرَّجْمِ فَاحْذرُوهُ وَلاَ تَقْبَلُوا مِنْهُ، وَأرْسَلُوا الزَّانِيَيْنِ مَعَهُمْ.

فَقَدِمَ الرَّهْطُ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، وَذكَرُوا لَهُمْ ذلِكَ وَقَالُوا: اسْألُوا لَنَا مُحَمَّداً عَنْ قَضَائِهِ، فَقَالَ لَهُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ: إذاً وَاللهِ يَأمُرُكُمْ بمَا تَكْرَهُونَ، ثُمَّ انْطَلَقَ مِنْهُمْ قَوْمٌ مِثْلُ كَعْب بْنِ الأَشْرَفِ وَكَعْب بْنِ أسَدٍ وَسَبْعَةَ بْنِ عُمَرَ وَمَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ وَعَازُورَاءَ وَغَيْرُهُمْ، وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أخْبرْنَا عَنِ الزَّانِيَةِ وَالزَّانِي إذا أحْصَنَا مَا حَدُّهُمَا وَكَيْفَ تَجِدُ فِي كِتَابكَ ؟ فَقَالَ ﷺ: [وَهَلْ تَرْضَوْنَ بقَضَائِي فِي ذلِكَ ؟] قَالُوا: نَعَمْ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام بالرَّجْمِ، فَأخْبَرَهُمْ فَأَبَوا أنْ يَأْخُذُوا بهِ.

فَقَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: اجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ابْنَ صُورِيَّا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [هَلْ تَعْرِفُونَ شَابّاً مِنَ الرَّبِّيِّينَ أعْوَرَ سَكَنَ فَدَكْ ؟] قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: [فَأَيُّ رَجُلٍ هُوَ فِيكُمْ ؟] قَالُوا: هُوَ أعْلَمُ مَنْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مِنَ الْيَهُودِ بالتَّوْرَاةِ، قَالَ: [فَأَرْسِلُوا لَهُ]، فَفَعَلُوا، فَأَتَاهُمُ ابْنُ صُورِيَّا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أنْتَ ابْنُ صُورِيَّا ؟] قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: [أنْتَ أعْلَمُ الْيَهُودِ ؟] قَالَ: كَذلِكَ يَزْعُمُونَ، قَالَ: [أتَجْعَلُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ؟] قَالُوا: نَعَمْ قَدْ رَضِينَا بهِ إذا رَضِيْتَ بهِ.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: [أنْشِدُكَ باللهِ الَّذِي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ الْقَوِيُّ، إلَهُ بَنِي إسْرَائِيلَ الَّذِي أنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، وَالَّذِي فَلَقَ لَكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَاكُمْ وَأغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ،

وَالَّذِي ظَلَّلَ عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، هَلْ تَجِدُونَ فِي كِتَابِكُمُ الرَّجْمَ عَلَى مَنْ أَحْصَنَ ؟] قَالَ ابْنُ صُورِيَّا: نَعَمْ وَالَّذِي ذَكَّرْتَنِي بِهِ؛ وَلَوْلاَ خِشْيَةَ أَنْ تُحْرِقَنِي التَّوْرَاةُ إِنْ كَذَبْتُ أَوْ غَيَّرْتُ لَمَا أَعْرَفْتُ لَكَ، وَلَكِنْ كَيْفَ فِي كِتَابِكَ يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: [إِذَا شَهِدَ أَرْبَعَةٌ عُدُولٌ أَنَّهُ أَدْخَلَ فِيهَا، كَمَا يَدْخُلُ الْمِيلُ فِي الْمِكْحَلَةِ وَجَبَ عَلَيْهِ الرَّجْمُ]، قَالَ ابْنُ صُورِيَّا: وَالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى لَهَكَذَا أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى.

فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ: مَا أَسْرَعَ مَا صَدَقْتَهُ، أَمَا كُنْتَ لَمَّا أَتَيْنَا عَلَيْكَ بِأَهْلٍ وَمَا أَنْتَ بِأَعْلَمِنَا، فَقَالَ لَهُمْ: أَنْشَدَنِي بِالتَّوْرَاةِ، وَلَوْلاَ خِشْيَةَ التَّوْرَاةِ أَنْ تُهْلِكَنِي لَمَا أَخْبَرْتُهُ، وَخِفْتُ إِنْ كَذَبْتُهُ أَنْ يَنْزِلَ بِنَا عَذَابٌ شَدِيدٌ.

فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِرَجْمِ الْيَهُودِيَّيْنِ الزَّانِيَيْنِ، وَقَالَ: [أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحْيِي سُنَّةً إِذَا أَمَاتُوهَا]، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) فَلاَ يُخْبِرُكُمْ بِهِ.

فَقَالَ ابْنُ صُورِيَّا: أَنْشُدُكَ بِاللهِ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تُخْبِرَنَا بِالْكَثِيرِ الَّذِي أُمِرْتَ أَنْ تَعْفُو عَنْهُ، فَأَعْرَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ابْنُ صُورِيَّا: أَخْبِرْنَا عَنْ ثَلاَثِ خِصَالٍ، قَالَ: [مَا هُنَّ ؟] قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ نَوْمِكَ؟ قَالَ: [تَنَامُ عَيْنَايَ وَقَلْبِي يَقْظَانٌ]، قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ شَبَهِ الْوَلَدِ بِأَبِيهِ لَيْسَ فِيهِ مِنْ شَبَهِ أُمِّهِ شَيْءٌ، وَعَنْ شَبَهِ أُمِّهِ لَيْسَ فِيهِ مِنْ شَبَهِ أَبِيهِ شَيْءٌ، قَالَ: [أَيُّهُمَا عَلاَ وَسَبَقَ مَاؤُهُ مَاءَ صَاحِبِهِ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ]، قَالَ: صَدَقْتَ.

فَأَسْلَمَ ابْنُ صُورِيَّا حِينَئِذٍ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَنْ يَأْتِيكَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ بِالْوَحْيِ ؟ قَالَ: [جِبْرِيلُ] قَالَ: صِفْهُ لِي، قَالَ: فَوَصَفَهُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّهُ فِي التَّوْرَاةِ كَمَا قُلْتَ، وَإِنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَلَمَّا أَسْلَمَ ابْنُ صُورِيَّا شَتَمُوهُ[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٧١ بمعناه، ولم يذكر فيه (ابن صوريا). وذكر ابن هشام في السيرة النبوية ج ٢ ص٢١٣-٢١٤ القصة بسياق آخر وفيها اعتراف ابن صوريا بنبوة سيدنا الرسول مُحَمَّد ﷺ، وذكر حسد اليهود له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي من يُرِدِ الله بَلِيَّتَهُ وعقوبتَهُ وفضيحته، فلن تقدِرَ يا مُحَمَّدُ أن تدفعَ عنه شيئاً مما أرادَ اللهُ به.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفة لم يردِ اللهُ أن يفتحَ قلوبَهم ليُبصِروا الحقَّ. وَقِيْلَ: معناهُ: لم يطهِّرْ قلوبَهم من علاماتِ الكفر، مثلَ الختمِ والطَّبع والضِّيق، كما شرحَ صُدورَ المؤمنين، وطهَّرَ قلوبَهم بكتابةِ الإيمان فيها.

وقال الحسنُ: (لَمْ يُرِدِ اللهُ أنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ؛ أيْ لاَ يُبَرِّئُ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَهُمْ مُقِيمِينَ عَلَى دِينِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ) ﴿ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ ؛ أي فضيحةٌ بما أظهرَ الله من كذبهم، وَقِيْلَ: أرادَ بالخزي القتلَ والسَّبي والجزيةَ، ﴿ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أعظمُ مما في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ ؛ أوَّلُ هذه الآيةِ راجعٌ إلى صفةِ اليهود والمنافقين الذين سبقَ ذِكرُهم، والفائدةُ في إعادةِ وَصفِهم بسمَّاعِين للكذب: بيانُ أنَّهم إنما يستحقُّوا الخزيَ بإصرارهم على الكذب واستماعِهِ، وضمِّهم إلى ذلك السُّحْتَ.

واختلَفُوا في المرادِ بالسُّحْتِ، فقال ابنُ مسعودٍ والحسنُ: (أرَادَ بِهِ الرِّشْوَةَ عَلَى الْحُكْمِ)(١) وقال عليٌّ وأبو هريرةَ: (هُوَ الرِّشْوَةُ عَلَى الْحُكْمِ؛ وَمَهْرُ الْبَغِيِّ؛ وَعَسْبُ التَّيْسِ؛ وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ؛ وَثَمَنُ الْخَمْرِ)(٢).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٨٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن؛ قال: (تلك حكَّام اليهود يسمع كذبةً ويأخذ رشوةً) وأخرج عبدالرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال: (السحت: الرشوة في الدين) قال سفيان: (يعني في الحكم).)) وأخرج الطبري في جامع البيان: النص (٩٣٣٤) أثر الحسن، والنص (٩٣٣٨) أثر ابن مسعود.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٣٤٣) عن أبي هريرة، النص (٩٣٥١) عن علي ﷺ.

والسُّحْتُ: اسمٌ لما لا يَحِلُّ أخذهُ، وأصلُ السُّحتِ من الهلاكِ، يقال: سَحَتَهُ وَأَسْحَتَهُ؛ إذا استَأْصَلَهُ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بعَذابٍ﴾(١) أي يُهلِكَكُمْ، وسُمِّيَ الحرامُ سُحْتاً؛ لأنه يؤدِّي إلى الهلاكِ والاستئصال.

وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ] قِيلَ: مَا السُّحْتُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:[الرِّشْوَةُ فِي الْحُكْمِ](٢). وعن مسروق عن ابن مسعودٍ قال: ((الرِّشْوَةُ سُحْتٌ، قُلْتُ لَهُ: فِي الْحُكْمِ ؟ قَالَ: لاَ؛ ذاكَ الْكُفْرُ؛ ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾))(٣). وأرادَ بهذا استحلالَ الرِّشوة وجَحْدَ الحقِّ.

والرشوةُ تنقسمُ على وجوهٍ؛ منها: الرشوةُ على الحكمِ، وذلك حرامٌ على الرَّاشِي والمرتَشِي؛ لأنه لا يخلُو إمَّا ليحكمَ له الحاكمُ بحقِّه، فيكون المرتشِي آخِذاً للأجرة على أداءِ ما هو فرضٌ عليه، ويكون الرَّاشي مُحَاكِماً إلى مَن لا يصلحُ للحكمِ ولا ينفذُ حُكمه، وإما أنْ يرشِي فيقضِي له بما ليس له بحقٍّ، فيكون الإثمُ أعظمَ ويفسق الحاكمُ منَ وجهين، وكذلك المرتشي، والرَّائِشُ: أرادَ بالرائش الذي يمشِي بينهما.

ومنها: الرشوةُ في غيرِ الحكم، كما رُوي عن وهب بن منبه: (أَنَّهُ قِيْلَ لَهُ الرِّشْوَةُ حَرَامٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: إِنَّمَا نَكْرَهُ أَنْ تَرْشِي لِتُعْطَى مَا لَيْسَ لَكَ، أَوْ تَدْفَعَ حَقّاً لَزِمَكَ، فَأَمَّا أَنْ تَرْشِي لِتَدْفَعَ عَنْ دِينِكَ وَدَمِكَ وَمَالِكَ، فَلَيْسَ بِحَرَامٍ، وَإِنَّمَا الإِثْمُ عَلَى الْقَابضِ)(٤).

---

(١) طه / ٦١ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٨١؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر)). وفي جامع البيان: النص (٩٣٥٣) عن عمر بن حمزة بن عبدالله بن عمر مرسلاً.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٣٤٩).

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص١٨٣-١٨٤؛ نقله القرطبي وقال: ((قال أبو الليث السمرقندي الفقيه: وبهذا نأخذ؛ ولا بأس بأن يدفع الرجل عن نفسه وما به من رشوة. وهذا كما روي عن ابن مسعود أنه كان بالحبشة فرَشَا دينارين وقال: إنما الإثم على القابض دون الدافع)).

قرأ عاصمُ ونافع وحمزة وابن عامر: (للسُّحْتِ) بضم السين وجزمِ الحاء، وقرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائي بضمِّهما جميعاً، وقرأ أبو العبَّاس: (للسَّحْتِ) بفتح السِّين وجزم الحاء، وقرأ عُبيد بن عمر: (للسِّحْتِ) بكسر السين وجزم الحاء، وكلُّه بمعنى واحدٍ وهو الحرامُ.

وَقِيْلَ: يقال رجلٌ مَسْحُوتُ المعِدَةِ؛ إذا كَانَ أكُولاً لاَ يُلْفَى أبَداً إلاَّ جَائِعاً، قِيْلَ: نزَلت هذه الآيةُ في حكَّام اليهودِ كعب بن الأشرفِ وأمثالِهِ، كانوا يرتَشُون ويقضُون لمن رشَاهُم. وعن الحسن في قوله: (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أكَّالُونَ لِلسُّحْتِ) قال: (ذلِكَ الْحُكَّامُ؛ يَسْمَعُ كَذِبَهُ وَيَأْخُذُ رشْوَتَهُ، فَيَكُونُ الْحَاكِمُ قَدْ سَمِعَ الدَعْوَةَ الْكَاذِبَةَ وَيَأْكُلُ رشْوَتَهُ)(١).

ورُوِي: أنَّ مسروقاً شَفَعَ لرجُلٍ في حاجةٍ، فأهدَى له جاريةً، فغضِبَ غَضباً شديداً وقال: لَوْ عَلِمْتُ أنَّكَ تَفْعَلُ هَذَا مَا تَكَلَّمْتُ فِي حَاجَتِكَ وَلاَ أتَكَلَّمُ فِيمَا بَقِيَ مِنْ حَاجَتِكَ، سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ شَفَعَ فِي حَاجَةٍ لِيَرُدَّ بهَا حَقّاً أوْ يَدْفَعَ بهَا ظُلْماً فَأُهْدِيَ إلَيْهِ شَيْءٌ فَهُوَ سُحْتٌ))، فَقِيلَ لَهُ: يَا أبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ مَا كُنَّا نَرَى ذلِكَ إلاَّ أخْذ رشْوَةٍ عَلَى الْحُكْمِ ؟ فَقَالَ: (الأَخْذُ عَلَى الْحُكْمِ كُفْرٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بمَا أنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) وَإذا أرْشَى الْحَاكِمُ انْعَزَلَ مِنْ سَاعَتِهِ وَإنْ لَمْ يُعْزَلَ))(٢).

ومن السُّحت: ثمنُ الخمرِ والخنزيرِ والميتةِ، وعُسْبُ الفحلِ، وأجرة النَّائحة والمغنِّية والسَّاحر، وهديَّة الشفاعةِ، ومهرُ البغيِّ، وحُلوانُ الكاهنِ. هكذا قال عمرُ وعليٌّ وابن عبَّاس ﷺ. وقال ابن كيسان: سمعتُ الحسنَ يقولُ: (إذا كَانَ لَكَ عَلَى رَجُلٍ دَيْنٌ، فَأكَلْتَ فِي بَيْتِهِ، فَهُوَ سُحْتٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ؛ وذلك أنَّ اليهودَ لما أرادُوا أن ينهَضُوا من عندِ النبيِّ ﷺ بعد قصَّة الزِّنا، تعلَّقت بنو قُريظة ببني

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٣٣٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٣٤٧).

النضير، فقالوا: يا مُحَمَّدُ إخواننا بنو النضير أبونا واحدٌ وديننا واحدٌ وكتابنا واحد، إذا قَتَلوا منَّا قتيلاً أعطُونا سبعين وسقاً من تَمر، وإذا قَتَلنا منهم قتيلاً أخذوا منا أربعين ومائةَ وسقٍ، وجِراحاتُنا على النصفِ من جراحاتِهم، فقال ﷺ: [دَمُ الْقُرَظِيِّ وَفَاءٌ بِدَمِ النَّضِيرِ]. فأنزلَ الله تعالى هذه الآيةَ[1]؛ أي فإن جاءَكَ الفريقان كأنَّهم راضين بحُكمِكَ، فاحكُم بما أنزلَ الله، وإن شئتَ فأعرِضْ عنهم.

وَقِيْلَ: معناهُ: فإن جاءَكَ أهلُ خيبرَ في حُكم الزِّنا، فاقضِ بينهم بالرَّجم في هذه الحادثةِ، وفي نظيرِها من الحوادثِ التي تقعُ من بعدُ، أو أعرِضْ عنهم، ولا تحكم بينَهم، خيَّره الله تعالى بين أن يحكمَ بينهم وبين أن يُعرض عنهم، وهذا التخييرُ منسوخٌ بقولهِ تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أنزَلَ اللهُ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾؛ لإعراضِكَ عنهم، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾؛ أي بالعدلِ؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾؛ أي العادِلين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾؛ أي كيف يرضَون بحُكمِكَ وعندهم التوراةُ فيها حكمُ الرجمِ والقصاصِ وغير ذلك، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾، يعرضون عن العملِ بها، ﴿مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ من بعدِ البيان الذي في كتابهم، ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣)﴾؛ ليسوا بمصدِّقين بما عندَهم، يزعُمون أنَّهم مؤمنون بالتوراةِ وهم كاذِبون. وفي هذه الآية بيانٌ على أنَّ هؤلاء اليهود كانوا لا يحكِّمون النبيَّ ﷺ بحكم رضًى وانقيادٍ، ولولا طلبُهم الترخُّص واتِّباع ما لا يُغني في كتابهم لما جَاءوه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾؛ أي إنَّا أنزَلنا التوراةَ على موسى فيها بيانٌ من الضَّلالة ونُورٌ لمن آمَنَ به، يقضي بها النبيُّون الذين أخلَصُوا، وهذه صفةُ الأنبياءِ؛ لا أن فيهم مَن لم يخلِصْ، كما يقال: صلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وعلى آلهِ الطيِّبين، لا يرادُ بذلك أنَّ في أهلهِ غيرَ طيِّب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٣٦١).

والمرادُ بالنبيِّين مُوسَى وعيسى ومُحَمَّدٍ ﷺ وغيرُهم من الذين كانوا من وقتِ موسى إلى وقت نبيِّنا عليهم السَّلامُ. ويقال أرادَ بالنبيِّين مُحَمَّداً ﷺ فإنه كان كالنائب عن أنبياء بني إسرائيلَ في أنْ يحكُمَ في الزِّنا بينهم بحُكمِ التوراةِ.

وَقِيْلَ: معنى (الَّذِينَ أَسْلَمُوا) أي انقَادُوا لأحكامِ الله لا على أنَّ غيرَهم من النبيِّين لم يكونوا مُسلمين. وَقِيْلَ: معنى (أَسْلَمُوا) أي صَارُوا إلى السَّلامةِ، كما يقال: أصْبَحُوا وَأمْسَوا: وادَّاخَلُوا في الصَّباحِ والمساءِ. وَقِيْلَ: معناهُ: الَّذِينَ أَسْلَمُوا أنفُسَهم إلى اللهِ. كما رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ إذا آوَى إلَى فِرَاشِهِ: [أَسْلَمْتُ نَفْسِي إلَيْكَ](1). قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (لِلَّذِينَ هَادُوا) يعني لليهودِ، وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: للذين تَابُوا من الكفرِ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾(2).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ ﴾ ؛ هم العُلماء العامِلون، يَرُبُّونَ العلمَ؛ أي يقُومون به، ﴿ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾ ؛ سائرُ العلماء دون الأنبياءِ والربَّانيِّين، وإنما سُمي العالِمُ حَبراً لكثرةِ ما يكتبُ بالحبرِ، ويقال: هو مِن التحبيرِ وهو تحسينُ العلمِ، وتقبيحُ الجهلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ من الرَّجمِ وسائر الأحكامِ، ﴿ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ ؛ إنه كذلك، ومعنى (اسْتُحْفِظُوا): استودَعُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ ؛ خطابٌ لعلماء اليهودِ؛ أي لا تخشَوُا السَّفلةَ والْجُهَّالَ في إظهار نعت النبيِّ ﷺ وآيةِ الرَّجم، واخشَوا عِقَابي في كتمانِها، ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ؛ أي لا تختَارُوا عَرَضاً يَسيراً من الدُّنيا، فإن الدُّنيا ما فيها قليلٌ.

---

(١) الحديث عن البراء بن عازب؛ قال: علَّمَني رسولُ الله ﷺ أنْ أقولَ إذا أخذتُ مَضجَعي عند النوم: [أسْلَمْتُ نَفْسِي إلَيْكَ، وَألْجَأتُ ظَهْرِي إلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أمْرِي إلَيْكَ، رَهْبَةً مِنْكَ وَرَغْبَةً إلَيْكَ، لاَ مَلْجَأ إلاَّ إلَيْكَ، آمَنْتُ بكِتَابكَ الَّذِي أنْزَلْتَ وَبالرَّسُول الَّذِي أرْسَلْتَ]. أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٥ ص١٠٤؛ وقال: ((صحيح ثابت)).

(٢) الأعراف / ١٥٦ .

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ ذهبَ الخوارجُ إلى أنَّ معنى الآيةِ: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا نَزَّلَ اللهُ وَحَكَمَ بِخِلاَفِهِ كَانَ كَافِراً بِفِعْلِ ذلِكَ، اعْتِقَاداً كَانَ أوْ غَيْرَ ذلِكَ)، وكَفَّرُوا بذلك كلَّ مَن عصَى اللهَ تعالى بكبيرةٍ أو صغيرة، وأدَّاهم ذلك إلى الضَّلال والكُفرِ تكفيرِهم الأنبياءَ صلواتُ الله عليهم بصغائرِ ذُنوبهم!

وأما عامَّةُ أهلِ الإسلام قالوا: إن المرادَ بهذه الآية: أنَّ مَنْ جَحَدَ شيئاً مما أنزلَ اللهُ مثلَ ما فعلَهُ اليهودُ من التحريفِ والتبديل وإنكار بعض آياتِ الله تعالى، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفة بمنزلةِ الكافر بالكُتب وبالرُّسل كلِّها.

يدلُّ على هذا أنه لا خلافَ أنَّ مَن لم يَقْضِ بينهم بما نزَّلَ اللهُ لا يكفرُ بأنْ لم يحكُمْ؛ لأنَّ أكثرَ الناس بهذه الصِّفةِ، والحاكمُ بين الناس في كثيرِ حالاته لا يحكمُ، فإذا صَلُحَ الخوارجُ أن يَزيدُوا في ظاهرِ اللفظ فيقولوا معناهُ: (مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا نَزَّلَ اللهُ وَحَكَمَ بِخِلاَفِهِ) صَلُحَ لغيرِهم أن يقولوا معناهُ: ومَن لم يحكُمْ بصحَّة ما نزَّلَ اللهُ (فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)، وهذا عامٌّ في اليهودِ وغيرِهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الْجِرَاحَاتِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَبَنِي النَّضِيرِ، كَانَ لِبَنِي النَّضِيرِ مَقْتَلٌ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَالدِّيَةُ وَالدَّمُ ضِعْفُ مَا كَانَ لِبَنِي قُرَيْظَةَ) فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ.

ومعناها: وأوحَينا على بني إسرائيلَ في التَّوراة: (أنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ) يعني أن نفسَ القاتلِ بنفسِ المقتول وَفاءً، (وَالْعَيْنَ بالْعَيْنِ) بفَقْئِهِمَا، (وَالأَنْفَ بالأَنْفِ) يُجدع بِهِ، (وَالأُذُنَ بالأُذُنِ) يُقطَعُ به (وَالسِّنَّ بالسِّنِّ) يُقلَعُ بهِ، وخفَّفَ نافعُ الأُذْنَ في جميعِ القرآن، وثقَّلَهُ غيرُهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ ؛ أي يجزئُ فيها القصاصُ، والقِصَاصُ: عبارةٌ عن الْمُسَاوَاةِ، وهذا مخصوصٌ فيما يُمكن القِصَاصُ فيه، فأمَّا ما كان من رضَّةٍ أو هَشْمَةٍ لعظمٍ، وهذه ركنٌ لا يحيطُ العلمُ به، ففيه أرْشٌ أو حكومةٌ.

قرأ الكسائيُّ: (وَالْعَيْنُ) رفعاً إلى آخرِهِ، وكذلك قولـهُ (وَالْجُـرُوحُ) رفعَـهُ ابـنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ، ونصَبُوا سائرَ الحروفِ قبلَـهُ، قـالوا: لأَنَّ لَـهَا نَظَـائِرَ فِـي الْقُرْآنِ؛ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[1] و ﴿إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُـهَا مَـنْ يَشَـاءُ مِـنْ عِبَـادِهِ وَالْعَاقِبَـةُ لِلْمُتَّقِـينَ﴾[2] و ﴿إِذا قِيـلَ إِنَّ وَعْـدَ اللهِ حَـقٌّ وَالسَّاعَةُ﴾[3]. وقرأ نافعُ وعاصم وحمزة وخلفُ كلها بالنصب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي مَن عفَا عـن مَظْلَمَـةٍ في الدُّنيـا، فـهو كفَّارةٌ للجراحِ لا يؤاخَذُ به في الآخرة، كما أنَّ القصاصَ كفَّارةٌ له، وأما أجـرُ العَـافِي فعلى اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى:﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾[4] وهذا قـولُ إبراهيـم ومجاهد وزيد بن أسلم، وروايةٌ عن ابنِ عباس.

وَقِيْلَ: معناهُ: فهو كفَّارة للمجروحِ ووليِّ القتيلِ، وهو قولُ ابنِ عمـرَ والحسـن والشعبي وقتادة وجابر بن زيد. ودليلُ هذا قولهُ ﷺ: [مَنْ تَصَدَّقَ مِنْ جَسَـدِهِ بشَـيْءٍ كَفَّرَ اللهُ بقَدْرِهِ مِنْ ذُنُوبهِ][5] فمَن عفا كان عفوهُ كفارةً لذُنوبهِ يعفو عنه الله ما أسلفَ من ذُنوبه، وأما الكافرُ إذا عفَا لا يكون عفوهُ كفارةً له مع إقامتهِ علـى الكفـر. وقـال ﷺ: [مَنْ أُصِيبَ بشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ فَتَرَكَهُ للهِ كَانَ كَفَّارَةً لَهُ][6].

ورُوي: أنَّ رجلاً طَعَنَ رجُلاً على عهدِ معاويةَ ﷺ؛ فـأعطَوهُ دِيَتَيْـنِ علـى أن يرضَى، فلم يَرْضَ، فحدَّث رجُلاً من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قالَ: [مَـنْ تَصَـدَّقَ

---

(١) التوبة / ٣ . (٢) الأعراف / ١٢٨.

(٣) الجاثية / ٣٢ . (٤) الشورى / ٤٠.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٤٣٦) عن عبادة بن الصامت. وفي الدر المنثـور: ج ٣ ص٩٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد والنسائي بلفظ قريـب منـه)). وفي مجمـع الزوائـد: ج ٦ ص٣٠٣؛ قال الهيثمي: ((رواه عبدالله بن أحمد في زوائـد المسـند والطـبراني في الكبـير، ورجـال المسند رجال الصحيح)).

(٦) في الدر المنثور: ج ٣ ص٩٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد عن رجل من الصحابة)).

بدَمٍ فَمَا دُونَهُ كَانَ كَفَّارَةً لَهُ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إلَى يَوْمِ تَصَدَّقَ بِهِ] فَتَصَدَّقَ بِهِ[1]. وقال ﷺ:[ثَلاَثٌ مَنْ جَاءَ بهنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الإيْمَان دَخَلَ الْجَنَّةَ مِنْ أيِّ أبْوَابِهَا شَاءَ، وَتَزَوَّجَ مِنَ الْحُور الْعِينَ حَيْثُ شَاءَ: مَنْ عَفَا عَنْ قَاتِلِهِ، وَمَنْ قَرَأ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ﴾ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَمَنْ أدَّى دَيْناً خَفِيّاً] قَالَ أبُو بَكْرٍ الصديق ﷺ: أوْ إحْدَاهُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [أوْ إحْدَاهُنَّ][2].

فأما القصاصُ في العين، فلا يجبُ إلاَّ إذا ضربَهَا رجلٌ فأذهبَ ضوءَها وهي قائمةٌ، فإنه يسدُّ العينَ الأخرى وحولَ إلى العينِ التي يجبُ فيها القصاصُ من الضَّارب بثوبٍ أو قُطنٍ مُبْتَلٍ، ويُحمَى مَرَةٌ[3] ويقرَّبُ إلى العين حتى يذهبَ ضوءُها[4]. وأما إذا قلعَها فلا قصاصَ فيه؛ لتعذُّر استيفائها على المماثلة؛ لأنَّا لا نعلمُ للقلعِ حَدّاً معلوماً ينتهي إليه، وهذا كمَن قطعَ لحماً من فخذِ رجُل أو ذراعَهُ، فإنه لا يجبُ القصاص.

وأما الأنفُ؛ فمعناهُ: إذا قطعَ الْمَارنَ؛ وهو مَا لاَنَ منه وجبَ فيه القصاصُ؛ أما إنْ قطعَهُ من أصلهِ فلا قصاصَ فيه؛ لأنه عَظْمٌ لا يمكن استيفاؤهُ على المساواةِ، كمن قطعَ يد رجُلٍ من نصفِ الساعد. وعن أبي يوسف: (إنَّ الأنْفَ إذا اسْتَوْعَبَ فَفِيهِ

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٩٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة وابن جرير عن أبي الدرداء)). وأبهمه ابن جرير في جامع البيان: النص (٩٤٤٧) قال: ((فحدَّث رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: وذكره))، وفي النص (٩٤٣٥) أفصح عنه. وأخرجه أحمد في المسند: ج ٦ ص٤٤٨. والترمذي في الجامع: كتاب الديات: باب ما جاء في العفو: الحديث (١٣٩٣)، وقال: غريب.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٣٣٨٥). وأبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٦ ص٢٤٣، وقال: غريب. وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٣٠١؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عمر بن نبهان، وهو ضعيف)). وفي المطالب العالية: ج ٣ ص٢٤٩: الحديث (٣٤٠٤)، وضعفه البوصيري.

(٣) الْمَرَهُ: ضد الكُحل. قال الأزهري: ((الْمَرَهُ والْمَرْهَةُ: بَيَاضٌ تَكْرَهُهُ عَيْنُ النَّاظِرِ)) تهذيب اللغة: (مره): ج ٦ ص١٦٠.

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص١٩٥؛ قال القرطبي: ((قال ابن المنذر: وأحسنُ ما قيلَ في ذلك ما قاله عليُّ بن أبي طالبٍ ﷺ: أنه أمرَ بعينهِ الصحيحة فغُطِّيت، وأعطَى رجل بيضةً فانطلق بها وهو ينظرُ حتى انتهى نظَرُهُ)) وهكذا مع العين الثانية.

الْقِصَاصُ، وكَذلِكَ الذكَرُ وَاللِّسَانُ).

وأما الأُذن؛ فمعناه: إذا استُوفِيت بالقطعِ، وأما إذا قُطِعَ بعضُها فلا قصاصَ فيها.

وأما السنُّ؛ فمعناهُ: القلعُ وكسرُ البعضِ، لأن القلعَ يمكن استيفاؤهُ على المساواةِ، ولا يجوز استيفاءُ اليُمنَى باليُسرَى، ولا اليسرى باليُمنى، وإن تراضَيا على ذلك لأنه لا مساواةَ بينهما.

وأمَّا المساواةُ في النفسِ فلا يشترطُ، ألا ترَى أن الرجُلَ يُقْتَلُ بالمرأةِ، فعُلِمَ أن التساوي من الرجُلِ والمرأةِ في الأنفُسِ غيرُ معتبرٍ في القصاص، وفي الأطرافِ معتبرٌ، ولهذا لا يُجزِئُ عندَنا بين الرجُلِ والمرأةِ في الأطراف قصاصٌ، ولا بين الحرِّ والعبدِ لعدم التساوي بين الطرفَين في البدلِ، وكذلك بين العبدِ والعبد لا يمكن معرفةُ التساوي بين أطرافهما في البدل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ) يعني التي لها حدٌّ معلومٌ مثلَ الْمُوضِحَةِ ونحوها، وأما ما ليس له حدٌّ معلوم لا يمكن مراعاةُ التساوي فيه، ففيه الأَرْشُ دونَ القصاصِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾؛ الآيةُ أي اتَّبعنا النبيين الذين ذكرناهم بعيسى عليه السلام وجعلناهُ ممن يَقْفُوهُمْ، يقال: قَفَوْتُ أثرَ فُلانٍ؛ إذا اتَّبَعْتُهُ. وحقيقةُ التَّقْفِيَةِ: الإتيانُ بالشيءِ في قَفَا غيرِهِ.

قولهُ: (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) نُصِبَ على الحال من عيسَى، كان مصدِّقاً بالكتاب الذي أنزلَ قبله وهو التوراةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾؛ أي أعطيناه الإنجيلَ فيه هدى من الضلالة، وبيان الأحكام، قَوْلُهُ تَعَالَى: (فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً) نعتُ الإنجيل الذي أعطيناهُ ذلك كتاباً، أي ومُوافقاً لما تَقدَّمَهُ، ﴿ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى ﴾؛ أي بَياناً لنعتِ النبيِّ ﷺ وصفته، ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ أي نَهياً للذين يتَّقون الفواحشَ والكبائر.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ ؛ أي وليَقْضِ أهلُ الإنجيلِ، وهذا جزمٌ بالأمرِ؛ أي قُلنا لَهم: احكُموا بما أنـزلَ الله في الإنجيـل. قـال الكلبيُّ: (بَيَّنَ اللهُ حُكْمَ الرَّجْمِ عَلَى الزَّانِي الْمُحْصِنِ، وَحُكْـمَ الْقِصَـاصِ فِـي النَّفْسِ وَالأَطْرَافِ، وَحُكْمَ الْقَطْعِ عَلَى السَّارقِ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ وفِيمَـا أنْـزَلَ عَلَـى نَبيِّنَـا ﷺ، وَجَمِيعُ هَذِهِ الْكُتُبِ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضاً).

قرأ الأعمش وحمزةُ: (وَلِيَحْكُمَ) بكسر اللام وفتحِ الميم؛ أي آتيناهُ الإنجيلَ لكـي يحكُمَ، وقرأ الباقون بجزمِ اللام والميم. قال مقاتلُ: (أمَرَ اللهُ الرَّبَّـانِيِّينَ أنْ يَحْكُمُـوا بمَـا فِي التَّوْرَاةِ، وَأمَرَ الْقِسِّيسِينَ وَالرُّهْبَانَ أنْ يَحْكُمُوا بمَا فِـي الإنْجِيـلِ، فَكَفَـرُوا وَكَذبُـوا مُحَمَّداً ﷺ؛ وَقَالُوا: الْعُزَيْرُ ابْنُ اللهِ، وَقَالُوا: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي مَن لم يحكُمْ بما أنزلَ اللهُ في كُتبهِ على رُسله، فأُولئكَ همُ الخارجون عن أمرِ الله.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ ؛ أي وأنزلنا إليكَ يا مُحَمَّدُ القرآنَ بالصِّدق، ومُوافقـاً لِمَـا تقـدَّم مـن الكُتب في التوحيدِ، وبيانِ الحقِّ من الباطلِ، ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي أميناً ومُؤتَمناً على ما قبلهِ من الكتب. ويقال: شَاهداً على الكُتب كلِّها، وهذا وصفٌ خاصٌّ للقرآن دون ما سواهُ.

وأصلُ مُهَيْمِنٍ: مُؤْتَمَن، على وزن مُفَيْعِلٍ من الأمانةِ، إلاّ أن الهـاءَ أبدلـت مـن الهمزةِ كما قالوا: أرَقْتُ الماءَ وهَرَقْتُ الماءَ، وأنَاكَ وهُنَـاكَ، وهَيْـهَاتَ وأيْـهَاتَ، ونظـيرُ المهيمنِ: مُسَيطِرٌ. قال الشعبيُّ والكسائي ورواية الكلبي[١] عن ابنِ عباس معنـى قولـه (وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) أي شَاهداً[٢]، قال الشاعرُ:

إنَّ الْكِتَـــابَ مُـــهَيْمِنٌ لِنَبيِّنَـــا ... وَالْحَـــقُّ يَعْرِفُـــهُ ذوُو الألْبَـــاب

---

(١) في المخطوط: (الدالبي) هكذا رسمها الناسخ، والأقرب إلى رسمها (الكلبي) والله أعلم.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٤٥١).

أي شَاهداً. وقال ابنُ جبير[1] وأبو عبيد والحسن: (أميناً)، وهي روايةُ العوفي عن ابنِ عباس. وأمانةُ القرآن أنه أمينٌ على ما قبلَهُ من الكتب وهي فيما أخبرَ به أهل الكتاب في كُتبهم، فإنْ كان ذلك في القرآن فصَدَّقوا وإلاّ كَذبوا. وقال الضحاكُ: (مُهَيْمِناً؛ أيْ قَاضِياً). وقال عكرمةُ: (دَالاًّ). وقال ابنُ زيدٍ: (مُصَدِّقاً). وقال الخليلُ: (رَقِيباً وَحَافِظاً).

ويقالُ: هَيْمَنَ فلانٌ على كذا إذا شاهدَهُ وحَفِظَهُ. تقولُ العرب للطائر إذا طارَ، وحوَّلَ وَكْرَهُ، ورفرفَ على فَرْخِهِ صيانةً له: هَيْمَنَ الطَّيرُ يهَيْمِنُ، وكذلك يقَالُ للطائر إذا أرخَى جناحَيهِ يسَعُهما بيضُهُ وفرخُهُ ورفرفَ على فرخهِ صيانةً له[2]. ومنه قيلَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ: الْمُهَيْمِنُ؛ أي الرقيبُ الرحيمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ ؛ أي فاحكم في الزاني والزانية بالرَّجم، ويقال: احكُمْ بين بني قُريظة وبني النضير في الجراحاتِ التي بينهم في التَّسوية بين الفريقين، ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ؛ أي لا تتَّبع مرادَهم، ﴿ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ؛ أي جعلنا لكلِّ نبيٍّ منكم يا معشرَ الأنبياءِ فرائضَ وسُنناً، والشِّرْعَةُ والشَّريعَةُ: هو التخلُّص إلى الجنَّة كشريعةِ الأنهَار والحياضِ في الدُّنيا، وهو التخلُّص إلى الشرب والاستقامة، وأصلُ الشِّرْعَةِ من قولهم: شَرَعَ فلانٌ يَشْرَعُ شُروعاً إذا دخلَ في الأمرِ دخولاً ظاهراً، ويقالُ: الشِّرْعَةُ والمنهاجُ كِلاَهُما الطريقُ، والطريقُ ها هنا الدِّينُ، وقد يعبَّرُ عن الشيءِ الواحد بلَفظَين مختلفين تأكيداً للكلامِ.

وقال المبرِّدُ: (الشِّرْعَةُ: ابْتِدَاءُ الطَّرِيق، وَالْمِنْهَاجُ: الطَّرِيقُ الْمُسْتَمِرُّ). ويقالُ: عنى المنهاج: الدلائلُ الواضحة التي يستدلُّ بها على الفرائضِ من كتابٍ وسُنَّة، وَقِيْلَ: معناهُ: لكلٍّ جَعلنا منكم سَبيلاً وسُنَّة. والمنهاجُ: الطريقُ الْمُبينُ الواضحُ.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٤٥٧).

(٢) هكذا في المخطوط أعاد كتابة العبارة، وعلى ما يبدو لي أنَّها مكررة في الموضع الأول من النص، ومكانها الأخير.

قال المفسِّرون: عنَى بذلك جميعَ أهلِ الْمِلَلِ المختلفةِ، جعلَ الله لكل ملَّةٍ شِرعَةً ومنهاجاً، فلأهْلِ التوراةِ شريعةٌ، ولأهلِ الإنجيل شريعةٌ، ولأهلِ القرآن شريعةٌ، يُحِلُّ فيها ما شاءَ ويحرِّمُ فيها ما شاءَ، فالدِّينُ واحدٌ والشريعةُ مختلفة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ؛ أي لجعلَكم على أمرٍ واحد في دعوةِ جميع الأنبياء، ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ ﴾ ؛ أي ولكن ليختبرَكم، ﴿ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ، فيما أعطَاكُم من الكتب، وفيما أمرَكم من السُّنن والشرائعِ المختلفة، فيتبيَّنُ من يطيعُ اللهَ ومن يعصيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ؛ أي بَادِرُوا يا أمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ بالخيرات والطاعاتِ والأعمال الصالحة قبل الفَوْتِ والموتِ. قال ﷺ: [اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي إلى اللهِ مرجعُ مَنْ آمَنَ، ومَن لم يؤمِنْ، ﴿ فَيُنَبِّئُكُم ﴾ ، فيجزيكُم يومَ القيامةِ، ﴿ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ من أمرِ الدِّين والشريعة.

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ ؛ معناه: أنزَلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ، وبأن تحكُمَ بين اليهودِ بما أنزلَ اللهُ من رجمِ الزانِي المحصِن، والقِصاصِ بين الشَّريف والوضيع، ولا تعمَلْ بهواهُم في الْجَلْدِ، وتركِ الرَّجم، ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أي أن يَستَزِلُّوكَ[2] عن بعضِ ما بيَّن اللهُ في كتابهِ.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ يَهُودَ بَنِي النَّضِيرِ مِثْلَ ابْنِ صُورِيَّا وَكَعْب بْنِ أسَدٍ وَغَيْرِهِمْ، قَالُوا فِيْمَا بَيْنِهِمْ: اذهَبُوا بنَا إلَى مُحَمَّدٍ لَعَلَّنَا نَفْتِنُهُ عَنْ دِينِهِ، فَإنَّمَا هُوَ بَشَرٌ!

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الرقاق: باب نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الحديث (٧٩١٦) عن ابن عباس، وقال: ((حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)). وأبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٤ ص١٤٨ عن عمرو بن ميمون.

(٢) في المخطوط: (يستلذوك).

فَأَتَوْهُ فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ إنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أنَّا أحْبَارُ الْيَهُودِ وَأشْرَافُهُمْ وَسَادَاتُهُمْ، وَإنَّا إن اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعَكَ كُلُّهُمْ وَلَنْ يُخَالِفُونَا، وَإنَّ بَيْنَنَا وبَيْنَ قَوْمِنَا خُصُومَةً فَنُحَاكِمُهُمْ إلَيْكَ فَاقْضِ لَنَا عَلَيْهِمْ فَنُؤْمِنُ بكَ، فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ، وَكَانَ حَرِيصاً عَلَى إسْلاَمِهِمْ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَاحْذَرْهُمْ أنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أنزَلَ اللهُ إلَيْكَ).)[1].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم ﴾ ؛ أي إنْ أعرَضُوا عن حُكمِكَ، فاعلم إنَّما يريدُ الله أنْ يُعاقِبَهم بالقتلِ في بني قُريظَةَ، وَبالْجَلاَءِ إلَى الشَّام فِي بَنِي النَّضِير، ﴿ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ ؛ أي بمَا سلَفَ من ذُنوبهم، وهو جُحودهم لدينِكَ ونعْتِكَ وصفتِكَ والتوراةِ والإنجيلِ، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي خارجون عن الطاعةِ ناقِضُون للعهدِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ ؛ قرأ ابنُ عامرٍ (تَبْغُونَ) بالتاء، وقرأ الباقون بالياءِ. ومعنى الآية: تطلبُون من حُكم الزِّنا والقصاص، وهم أهلُ الكتاب شيئاً فيما لم ينزِّلهُ الله عليكم كما يفعلهُ أهلُ الجاهلية، وأيُّ أحدٍ أعدلُ في الحكمِ من الله تعالى. قولهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي مَن أيقَنَ بُيِّنَ له عدلُ اللهِ في حُكمهِ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ ؛ وذلك: أنَّهُ لَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أحُدٍ خَافَ النَّاسُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أنْ يَظْهَرَ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارُ، فَأَرَادَ مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى صُحْبَةٌ أنْ يَتَوَلاَّهُمْ وَيُعَاقِدُوهُمْ، فَنَهَاهُمُ اللهُ عَنْ ذلِكَ. ومعناهُ: يا أيُّها الذين آمنُوا لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارى أحبَّاءَ في العون والنُّصرة، بعضهم على دين بعض، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ؛ إذا تولاَّهُ لأجلِ كُفرهِ صارَ كافراً مثلَهُ، وأمَّا إذا تولاَّهُ لا لأجلِ كُفرهِ صارَ مِن جُملة المستحقِّين العذابَ لمخالفةِ أمر الله ولِمُوالاَتهِ مَن أوجبَ الله عليه أن يُعذِّبَهُ. وقال عكرمةُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أبي لُبَابَةَ حِينَ قَالَ لِبَنِي قُرَيْظَةَ حِينَ رَضُوا بحُكْمِ سَعْدٍ: إنَّهُ الذبْحُ)[2].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٤٧٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٤٨٣).

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي لا يُرشِدُ اليهودَ والنصارى إلى دِينه، وحُجَّتِهِ ما دامُوا على كُفرِهم.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ ؛ وذلك أنَّ المنافقين كانوا يَوَدُّونَ يهودَ عُرَيْنَةَ ونصارَى نَجران؛ لأنَّهم كانوا أهلَ رِيْفٍ، وكانوا يَمرُّون بهم فيُقرِضُونَهم، فقال المنافِقون: كيف نقطعُ موَدَّة قومٍ إنْ أصابَتنا سيِّئةٌ، واحتَجنا إليهم وسَّعُوا علينا في المنازل، وعرَضُوا علينا الثمارَ في القابلِ، فنَزل قولهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:(فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أي ترَى يا مُحَمَّدُ الذين في قلوبهم شكٌّ ونفاق يُبادِرون إلى ولايةِ الكفَّار ومعاقدتِهم،﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ ؛ شدَّةٌ وجُدُوبَةٌ.

ويقال: أرادَ بهذا القولِ أنَّهم يخشَون أن لا يَتِمَّ أمرُ مُحَمَّدٍ ﷺ بأن يدورَ الأمرُ على الحالةِ التي هم عليها فيحتاجون إلى الكفَّار. يقول اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ ﴾ ؛ أي عسَى أن يَظهَرَ المسلمون، و(عَسَى) من اللهِ واجبةٌ. وسَمَّى النصرَ فتحاً؛ لأن فيه فتحُ الأمرِ المغلَقِ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ ؛ معناه: أو يقضِي بالخصب لِمُحَمَّدٍ ﷺ وأصحابهِ، ويقال هو أن يُؤمَرَ النبيُّ ﷺ بإظهار أمر المنافقين وقَتلِهم، ﴿ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ فيصبحَ المنافقون على ما أضمَرُوا في أنفُسِهم من ولايةِ رؤوس اليهود والنصارَى إليهم نادِمين، فلا تنفعُهم الندامةُ حينئذٍ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ﴾ ؛ قرأ أهلُ الكوفةِ: (وَيَقُولُ) بالواو والرفعِ على الاستئناف، وقرأ أهلُ البصرةِ بالنصب والواو عطفٌ على (أنْ يَأْتِيَ)، وقرأ الباقون برفعِ اللام وحذفِ الواو.

ومعنى الآية: يقولُ المؤمنون المخلِصون عندما أظهَرَ اللهُ نفاقَ المنافقين: (أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا باللهِ) يعنون المنافقين الذين حلَفُوا بالله أنَّهم لَمَعَكُمْ على دينِكم،

﴿ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ ، بَطَلَ ما أظهروهُ من الإيمان والأعمال الصالحةِ، ﴿ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ فصاروا مَغبُونين في الوِزْرِ والعقوبةِ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (جَهْدَ أيْمَانِهِمْ) تفسيرٌ للقَسَمِ باللهِ تعالى، فإنَّ مَن يحلفُ باللهِ فقد بذلَ جُهد يَمينهِ، إذ لا يمينَ أعظمُ من اليمين بالله، ولا حرمةَ أكبرُ من حرمةِ الله. قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (فَجَاءَ اللهُ بالْفَتْحِ وَنَصرَ الرَّسُولَ ﷺ، وجاءَ أمرُ الله من عنده بإجلاءِ بني النضير، وقتل مقاتِلة بني قُريظة وسَبي ذراريهم)[1]، فنَدِمَ المنافقون حين ظهرَ نفاقُهم، وقال المؤمنون: (أهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أقْسَمُواْ باللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِمْ).

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ ﴾ ؛ قرأ أهلُ المدينةِ والشام (يَرْتَدِدْ) بدالين، وفي الآيةِ تهديدٌ لِمَن لا ثباتَ له على الإيمان. قال ابنُ عبَّاس: (هُمْ أسَدُ وَغَطَفَانَ وَأنَاسٌ مِنْ كِنْدَةَ، ارْتَدُّواْ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبيِّ ﷺ فِي عَهْدِ أبي بَكْرٍ رضي الله عنه).

وَكَانَ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ فِرْقَةٌ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو حَنِيفَةَ بالْيَمَامَةِ، وَرَئِيسُهُمْ مُسَيْلَمَةُ الْكَذّابُ وَكَانَ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي آخِرِ سَنَةِ عَشْرٍ، وَزَعَمَ أنَّهُ أشْرَكَ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي النُّبُوَّةِ، وَكَتَبَ إلَى النَّبيِّ ﷺ: مِنْ مُسَيْلَمَةَ رَسُولِ اللهِ إلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ؛ أمَّا بَعْدُ: فَإنَّ الأَرْضَ نِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لَكَ! وَبَعَثَ بذلِكَ رَجُلَيْنِ مِنْ أصْحَابهِ نَهْشَلاً وَالْحَكَمَ بْنَ الطُّفَيْلِ، وَكَانَا مِنْ سَادَاتِ الْيَمَامَةِ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبيُّ ﷺ: [أتَشْهَدَانِ أنَّ مُسَيْلَمَةَ رَسُولُ اللهِ ؟] قَالاَ: نَعَمْ، فَقَالَ: [لَوْلاَ أنَّ الرُّسُلَ لاَ تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أعْنَاقَكُمَا]، ثُمَّ أجَابَ: [مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إلَى مُسَيْلَمَةَ الْكَذّاب؛ أمَّا بَعْدُ: فَإنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ][2].

ومَرِضَ رسولُ الله ﷺ وتوفِّيَ، وجعلَ مسيلمةُ يغلو أمرهُ باليمامةِ يوماً بعدَ يوم، فبعثَ أبو بكرٍ رضي الله عنه خالدَ بن الوليدِ في جيشٍ عظيم حتى أهلكَهُ الله على يدي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٢١٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٣٩٦ و٤٠٤، عن عبدالله بن مسعود. وفي مجمع الزوائد: ج ٥ ص٣١٤: كتاب الجهاد: باب النهي عن قتل الرسل؛ قال الهيثمي: ((رواه أبو داود باختصار، وأحمد والبزار وأبو يعلى مطولاً، وإسنادهم حسن)).

وحشيٌّ قاتِلِ حمزةَ بن عبدِ المطلب بعد حربٍ شديدة، فكان وحشيُّ يقول: (قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَتَلْتُ شَرَّ النَّاسِ فِي الإِسْلاَمِ).

ومن المرتدِّين أيضاً طلحةُ بن خُوَيلِد رئيسُ بني أسدٍ، وكان قد ادَّعى النبوةَ أيضاً في حياةِ رسول الله ﷺ، فقاتلَهُ أبو بكرٍ ﷺ بعد وفاةِ رسول الله ﷺ، بعثَ إليه خالدَ ابن الوليدِ، فقاتلَهُ قتالاً شديداً، وهربَ طلحةُ على وجههِ نحوَ الشامِ، فلجأَ إلى بني حنيفةَ فأجاروهُ، ثم أسلَمَ بعد ذلك وحسُنَ إسلامهُ.

وارتدَّ أيضاً بعد وفاةِ رسول الله ﷺ كثيرٌ من العرب منهم: فَزَارَةُ ورئيسهم عُيينة بن حصين، وبنو سُليم وبنو يربوعَ، وطائفةٌ من بني تَميم، ورأسُوا عليهم امرأةً يقال لها سَجَاحُ بنت المنذر، وادَّعتِ النبوةَ ثم زوَّجت نفسَها من مسيلمةَ الكذاب.

وارتدَّت كندةُ ورئيسهم الأشعثُ بن قيسٍ، وارتدَّت بنو بكرِ بن وائلٍ بأرضِ البحرين، وكفَى اللهُ المسلمين أمرَ هؤلاء المرتدِّين، ونصرَ دينَهُ على يدِ أبي بكرٍ الصديق ﷺ، وأخبارُ أهلِ الردَّة طويلةٌ مشهورة فلا نطوِّلُ بذكرِها الكتابَ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ؛ قال عليٌّ والحسن وقتادة: (هُمْ أَبُو بَكْرٍ وَأَصْحَابُهُ)[1]، وقال مجاهدُ: (هُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ). وقال عياضُ بن غُنَيم: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ أَوْمَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ وَقَالَ: [هُمْ قَوْمُ هَذا][2]. وقالَ ﷺ: [أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَلْيَنُ قُلُوباً وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً؛ الإِيْمَانُ يَمَانٌ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ][3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٥٠٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٥٠٤)، وإسناده صحيح. وأخرج الطبراني في الأوسط: ج ٢ ص٢٣٢: الحديث (١٤١٤)، عن جابر قال: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قَالَ: [هَؤُلاَءِ قَوْمٌ مِنَ الْيَمَنِ، ثُمَّ مِنْ كِنْدَةَ، ثُمَّ السَّكُونُ ثُمَّ مِنْ تُجِيبٍ]. في مجمع الزوائد: ج ٧ ص١١؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده حسن)). والسَّكون: قبيلة يمنية تفرَّعت من كِندة، وتُجيبُ تفرَّعت من السَّكون.

(٣) عن أبي هريرة؛ أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب المغازي: باب قدوم الأشعريين: الحديث (٤٣٨٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب تفاضل أهل الإيمان: الحديث (٨٢/ ٥٢ و٩٠/ ٥٢).

وقال الكلبيُّ: (هُمْ أحْيَاءٌ مِنَ الْيَمَنِ: أَلْفَان مِنَ النَّجْعِ، وَخَمْسَةُ آلاَفٍ مِنْ كَمْدَةَ وَبُجيلَةَ، وَثَلاثَةُ آلاَفٍ مِنْ أحْيَاءِ النَّاسِ، فَقَاتَلُوا الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَنِ الإسْلاَمِ) وهم الذين أثنى اللهُ عليهم بقولهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ يُلِينُونَ لهم جانبَهم ليس هذا من الهوان، إنما هو من اللِّين والرِّفق، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾(١).

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ ؛ أي أشدَّاءَ أقوياءَ غُلَظَاءَ على الكافرين، يُغَازُونَ الكفارَ ويغالبونَهم، ونظيرُ هذه الآية قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(٢). قال عطاءُ: (أذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ: كَانُوا كَالْوَالِدِ لِوَلَدِهِ، وَكَالْعَبْدِ لِسَيِّدِهِ، أعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ: كَالسَّبُعِ عَلَى فَرِيسَتِهِ). وقال السديُّ: (مَعْنَى قَوْلِهِ: (فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) يَعْنِي الأَنْصَارَ)(٣). ورُوي أنَّ النبي ﷺ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ، فَضَرَبَ بيَدِهِ عَلَى عَاتِقِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ فَقَالَ: [هَذا وَذوُوهُ]، ثُمَّ قَالَ: [لَوْ كَانَ الدِّينُ مُعَلَّقاً بالثُّرَيَّا لَنَالَهُ رجَالٌ مِنْ أبْنَاءِ فَارسَ](٤).

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ﴾ ؛ أي يُقاتلون العدوَّ في طاعةِ الله، ولا يخافون ملامةَ اللائمين، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ ﴾ ؛ أي ذلك التمكينُ والتوفيق فضلٌ من اللهِ يُكرِمُ به من يشاءُ مَن كان

---

(١) الاسراء / ٢٤ .

(٢) الفتح / ٢٩ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٥١١).

(٤) أخرجه الترمذي في الجامع: كتاب التفسير: الحديث (٣٢٦٠) عن أبي هريرة، وقال: ((هذا حديث غريب في إسناده مقال))، والحديث (٣٢٦١) وإسناده ضعيف. وفي صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب فضل فارس: الحديث (٢٣٠ و٢٣١/٢٥٤٦)؛ عن أبي هريرة قال: ((كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ، فَلَمَّا قَرَأ ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قَالَ رَجُلٌ: مَنْ هَؤُلاَءِ؟ ...)) وذكره. وأخرجه ابن حبان في صحيحه: كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة: الحديث (٧١٢٣)، وفيه قال عِندَمَا تَلاَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أمْثَالَكُمْ﴾، وإسناده صحيح.

أهلاً لذلك، ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ ؛ الفضلِ والرحمة، ﴿ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ مَن يصلُح للهدَى.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ قَالَ ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي مُسْلِمِي أهْلِ الْكِتَابِ: عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ وَأصْحَابهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، بُيُوتُنَا قَاصِيَةٌ، وَلاَ نَجِدُ مُتَحَدَّثاً دُونَ هَذا الْمَسْجِدِ، وَإنَّ قَوْمَنَا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ لَمَّا رَأوْنَا قَدْ آمَنَّا باللهِ وَرَسُولِهِ وَتَرَكْنَاهُمْ وَدِينَهُمْ، أظْهَرُوا لَنَا الْعَدَاوَةَ، وَأقْسَمُوا أنْ لاَ يُنَاكِحُونَا وَلاَ يُوَاكِلُونَا وَلاَ يُخَالِطُونَا، وَلاَ نَسْتَطِيعُ أنْ نُجَالِسَ أصْحَابَكَ لِبُعْدِ الْمَوْضِعِ.

فَبَيْنَمَا هُمْ يَشْكُونَ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَالنَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ يُصَلُّونَ فِيْهِ مِنْ قَائِمٍ وَرَاكِعٍ وَسَاجِدٍ، إذا بمِسْكِينٍ يَطُوفُ يَسْألُ النَّاسَ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: [أعْطَاكَ أحَدٌ شَيْئاً ؟] قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: [مَاذا ؟] قَالَ: خَاتَمُ فِضَّةٍ، قَالَ: [مَنْ أعْطَاكَهُ ؟] قَالَ: ذاكَ الرَّجُلُ، فَإذا هُوَ عَلِيٌّ رضي الله عنه، قَالَ: [عَلَى أيِّ حَالٍ أعْطَاكَهُ؟] قَالَ: أعْطَانِيَهُ وَهُوَ رَاكِعٌ، فَقَرَأ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ عَلَى عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ وَأصْحَابهِ)(١).

والبَسَهُمْ بما أبدلَهم اللهُ به من ولايتهِ وولاية رسولهِ وولايةِ المؤمنين، ومعنى الآيةِ: إنَّما حافِظُكم وناصرُكم اللهُ ورسوله والمؤمنون الذين يُقيمون الصلاةَ بحقوقها ويؤتُون الزكاةَ في حالِ رُكوعهم. وفي الآيةِ دليلٌ على إباحةِ العمل اليسيرِ في الصَّلاة، فلما قرأ رسولُ الله ﷺ عليهم الآية قالَ عبدُ الله بن سلام وأصحابه: (رَضِينَا باللهِ وَبرَسُولِهِ وَبالْمُؤْمِنِينَ أوْلِيَاءً).

ورُوي أن عبدَالله بن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كان ذاتَ يومٍ جالساً عند شَفير زَمْزَمَ يقولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إذا أقْبَلَ رَجُلٌ مُتَعَمِّمٌ بعِمَامَةٍ قَالَ: فَهَلاَّ ابْنَ عَبَّاسٍ لاَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الاَ قَالَ ذلِكَ الرَّجُلُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَألْتُكَ باللهِ مَنْ أنْتَ ؟ فَكَشَفَ الْعِمَامَةَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: أيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص١٠٥-١٠٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس...)).

عَرَفَنِي، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي فَأَنَا جُنْدُبُ بْنُ جُنَادَةَ الْبَدْرِيُّ، أنَا أبُو ذرٍّ الْغَفَّارِيُّ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بهائَيْنِ وَإلاَّ فصُمَّتَا، وَرَأيْتُهُ بهائَيْنِ وَإلاَّ فَعَمِيَتَا، يَقُولُ عَلَى قَائِدِ الْبَرْدَةِ وَقَاتِلِ الْكَفَرَةِ: [مَنْصُورٌ مَنْ نَصَرَهُ، مَخْذُولٌ مَنْ خَذَلَهُ].

أمَا إنِّي صَلَّيْتُ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ يَوْماً مِنَ الأَيَّامِ صَلاَةَ الظُّهْرِ، فَسَأَلَ سَائِلٌ فِي الْمَسْجِدِ فَلَمْ يُعْطِهِ أحَدٌ، فَرَفَعَ السَّائِلُ رَأسَهُ إلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ أنِّي سَألْتُ فِي مَسْجِدِ رَسُولِكَ ﷺ يَوْماً مِنَ الأَيَّامِ فَلَمْ يُعْطِنِي أحَدٌ، وَكَانَ عَلِيٌّ رَاكِعاً فَأَوْمَأَ إلَيْهِ نَحْوَهُ بخِنْصَرِهِ الْيُمْنَى وَكَانَ فِيهَا خَاتَمٌ، فَأخَذ السَّائِلُ الْخَاتَمَ مِنْ خِنْصَرِهِ وَذلِكَ بحَضْرَةِ النَّبيِّ ﷺ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلاَتِهِ رَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأسَهُ إلَى السَّمَاءِ قَالَ: [اللَّهُمَّ أخِي مُوسَى سَأَلَكَ قَالَ: ﴿اللَّهُمَّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أهْلِي، هَارُونَ أخِي، اشْدُدْ بهِ أزْرِي، وَأشْرِكْهُ فِي أمْرِي﴾. فَأنْزَلْتَ عَلَيْهِ ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إلَيْكُمَا بآيَاتِنَا﴾[1]، اللَّهُمَّ وَأنَا مُحَمَّدٌ نَبيُّكَ وَصَفِيُّكَ، اللَّهُمَّ فَاشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أمْرِي، وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أهْلِي عَلِيّاً اشْدُدْ بهِ ظَهْرِي].

قَالَ أبُو ذرٍّ: فَمَا اسْتَتَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْكَلاَمَ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام بهَذِهِ الآيَةِ (إنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ).

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ؛ أي من تخيَّر طاعةَ الله ورسوله ومحبَّة المؤمنين، ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ فإن جُند اللهِ، ﴿ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ؛ وذلك أنَّ اليهودَ كانوا إذا قامَ بلالٌ للأذان يضحكون، ويستهزئون ويقولون: قامَ الغرابُ لا قامَ! وإذا قامَ المؤمنون للصَّلاة قالوا: قد قامُوا لا قاموا! وإذا رأوهم رُكَّعاً وسُجَّداً استهزَأوا بهم، وتغامَزُوا فيما بينهم تَنفيراً للناسِ عن الصَّلاة وعن الداعِي إليها.

---

(١) القصص / ٣٥ .

ومعنى الآية: لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارى الذين يتخذون (دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا) أي استهزاءً وسُخريةً، يسخَرون منكم إذا أذنَ مُؤذّنكم، ويضحَكون من صلاتِكم إذا صلَّيتُم.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱلْكُفَّارَ ﴾ ؛ فيه قراءَتان: النصبُ والخفضُ، فمَن نصبَهُ فمعناهُ: لا تتَّخذوا الكفارَ، ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ ، وأراد بهم مُشركي العرب، ومن خفضَهُ فمعناهُ: مِن الذين أوتوا الكتابَ ومن الكفار. وقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي اخشَوهُ في ولايةِ الكافرين إنْ كُنتم مُؤمنين باللهِ وبرسوله.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ ؛ أي إذا نادَيتم الناسَ إلى الصَّلاة بالأذانِ والإقامة اتَّخذوها سُخريَةً واستهزاءً وضَحِكاً وبَاطلاً، وَ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ الاستهزاءُ واللعب، ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ ثوابَ الله تعالى في إقامةِ الصَّلاة، ولا عِقابَهُ في إضاعتهِ.

ورُوي:((أنَّ يَهودياً كان إذا سمعَ المؤذّنَ يقولُ: (أشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ) قالَ: أحرقَ اللهُ الكاذبَ، فدخلَ خادمهُ البيتَ بنار، فوقعت شرارةٌ منها في البيتِ فالتهبَ، واحترقَ اليهوديُّ هو وأهلهُ، واستُجيب دعاؤهُ على نفسهِ))(١).

وفي الآيةِ دليلٌ أنَّ للصلاة أذاناً يدعو به الناسَ إليها، ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إذا نُودِي لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾(٢). وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [ثَلاَثَةٌ لاَ يَكْتَرِثُونَ مِنَ الْحِسَاب، وَلاَ تُفْزِعُهُمُ الصَّيْحَةُ، وَلاَ يُحْزِنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ: حَامِلُ الْقُرْآنِ الْعَامِلُ بِهِ، يَقْدُمُ عَلَى اللهِ سَيِّداً شَرِيفاً، وَمُؤَذِّنٌ أذنَ سَبْعَ سِنِينَ لاَ يَأْخُذُ عَلَى أذانِهِ طَعَاماً، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أحْسَنَ عِبَادَةَ رَبهِ وَأدَّى حَقَّ مَوْلاَهُ](٣).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٥٢٨) عن السدي.

(٢) الجمعة / ٩ .

(٣) في كنز العمال: الرقم (٤٣٣٠٨) عن ابن عباس. وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٩٢٧٦)، وفي الصغير: الحديث (١١١٦) بلفظ: [ثَلاَثَةٌ لاَ يَهُولُـهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ...]، وقال: ((لم يروه عن بشير بن عاصم إلا عمر بن أبي قيس)). وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص٣٢٧؛ قال=

وعن أنسٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ أذنَ سَنَةً مِنْ نِيَّةٍ صَادِقَةٍ، أجْلِسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَقِيلَ لَهُ: إشْفَعْ لِمَنْ شِئْتَ][(١)]. وعن أبي هُريرةَ ﷺ: قالَ ابنُ عبَّاس: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ أذنَ خَمْسَ صَلَوَاتٍ إيْمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبِهِ وَمَا تَأخَّرَ][(٢)]. وقالَ رسولُ الله ﷺ : [الْمُؤَذِّنُ الْمُحْتَسِبُ كَالشَّهِيدِ الْمُتَشَحِّطِ فِي دَمِهِ مَا دَامَ فِي أذانِهِ، وَيَشْهَدُ لَهُ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابسٍ، فَإذا مَاتَ لَمْ يُدَوَّدْ فِي قَبْرِهِ][(٣)]. قال عمرُ ﷺ: لَوْ كُنْتُ مُؤَذِّناً لَكَمُلَ أمْرِي، وَمَا بَالَيْتُ أنْ لاَ أتنصب لِقِيَامٍ وَلاَ لِصِيَامٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤَذِّنِينَ][(٤)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ: يا أهلَ الكتاب هل تطعَنون علينا إلاَّ لإيمانِنا باللهِ تعالى والقُرآن، ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي إنَّما كَرِهتُم إيمانَنا وأنتم تعلمون أنَّنا على حقٍّ؛ لأنَّكم فسَقتُم بأنْ أقَمتُم على دِينكم لمحبَّتكم الرئاسةَ وكسبكم بها الأموالَ، فهل تُدرون شيئاً يُعاب علينا إلاَّ هذا ؟ فَلِمَاذا تطعَنون.

=الهيثمي: ((رواه الطبراني في الكبير، وفيه بحر بن كنيز السقا، وهو ضعيف))، وقال: ((رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عبدالصمد بن عبدالعزيز المقري، ذكره ابن حبان في الثقات)). وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٩ ص٣٢٠.

(١) كنز العمال: النص (٢٠٩٠٧ و٢٠٩٣٦). وفي الفوائد: ص٢١؛ قال الشوكاني: ((في إسناده وضَّاع)).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الصلاة: جماع أبواب الأذان والإقامة: باب الترغيب في الأذان: الحديث (٢٠٧٧)، وقال: ((لا أعرفهُ إلا من حديثِ إبراهيم بن رستم عن حماد)). وفي لسان الميزان: ج ١ ص٥٦: الترجمة (١٤٣)؛ قال ابن حجر: ((قال ابن عدي: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: كان يرى الإرجاء، ليس بذاك، محله الصدق. وروى عثمان الدارمي عن يحيى بن معين: ثقة. وقال ابن أبي حاتم: قال أبي: كان آفته الرأي، وكان يذكر بفقه وعبادة، وكان طاهر ابن الحسن أراد أن يوليه القضاء فامتنع)).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٢ ص٣٢٢: الحديث (١٣٥٥٤). وفي مجمع الزوائد: ج ٢ ص٣؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الكبير، وفيه إبراهيم بن رستم – تقدم في الترجمة السابقة – وهو مختلف فيه في الاحتجاج به، وفيه من لم تعرف ترجمته)).

(٤) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الرقم (٣٢١٥٨ و٣٢١٦٥).

وأما قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ)، قال بعضُهم: أرادَ بالأكثرِ كلَّهم، وأكثرُ الشيءِ يقومُ مقامَ الكلِّ. وَقِيْلَ: إنما ذكرَ لفظ الأكثرِ؛ لأن الآيةَ خرجت مخرجَ التلطُّف للدعاءِ إلى الإيمان، وكان في سابق علم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ فيهم من يُسلِمُ، وكان في القومِ من يطعنُ بنفسهِ في دين الإسلام، وإنْ كان سكتَ عن طعنِ الطاعنين.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك أنَّ اليهودَ قالوا للمُسلمين: ما نعلمُ أهلَ دينٍ أقلَّ حظاً منكم في الدُّنيا، ونرجو أنْ تَكونُوا في الآخرةِ! فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ لهؤلاء اليهودِ: هل أخبرُكم بسوءٍ مِن الذي قُلتم جزاءً، ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾؛ أي أبعدَهُ عن رَحمتهِ، وسَخِطَ عليه وهم اليهودُ، فيكون موضعُ (مَنْ لَعَنَهُ) رَفعاً على معنى (هُوَ) ويجوز أن يكون خَفضاً بَدلاً من (شَرٍّ) على معنى: هل أُنَبِّئُكُم بمَن لعنَهُ اللهُ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾؛ أي مَسَخَ بعضَهم قردةً في زمنِ داوُدَ عليه السلام بدُعائه عليهم حين اعتَدَوا في السَّبت واستحلُّوهُ، ومسخ بعضَهم خنازيرَ في زمنِ عيسى عليه السلام بعدَ أكلِهم من المائدة حين كفَرُوا بعدَ ما رأوا الآياتِ البيِّنة. ورُوي: أنه لَمَّا نزلَت هذه الآيةُ قال المسلمون لليهودِ: (يَا إخْوَةَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِير) فنكَّسُوا رؤُوسَهم وفضَحَهم اللهُ تعالى.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ فيهِ عشرُ قراءاتٍ، قرأ العامة (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) بفتحِ العين والباءِ والدال على الفعلِ؛ ومعناها: وجعَلَ منهم مَن عَبَدَ الطاغوتَ؛ أي بالَغَ في طاعةِ الشَّيطانِ والكُهَّانِ ورؤساءِ المعصية. وقرأ ابنُ مسعود: (وَعَبَدُوا الطَّاغُوتَ) أي ومَن عَبَدَ الطاغوتَ، وقرأ يحيى بن وثَّاب وحمزةُ: بفتحِ العين وضمِّ الباء وكسرِ التاء من الطاغوتِ، وهو لغةٌ في عبَدَ، مثل سَبْع وسَبُع[(١)]. وقرأ أبو جعفرٍ الفرَّاء: (وَعُبِدَ الطَّاغُوتُ) على الفعلِ المجهول[(٢)]، وقرأ الحسنُ: (وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ) على الواحدِ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٢٣٥؛ قال القرطبي: ((جعله اسماً على فَعُلَ كعَضُدَ، فهو بناءٌ للمبالغة والكثرة، كيَقُظَ ونَدُسَ وحَذُرَ)). وفي جامع البيان: النص (٩٥٣٤)، أسنده الطبري عن حمزة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب أنه قرأ: (وَعَبُدَ الطَّاغُوتَ)، يقول: ((وكان حمزة كذلك يقرؤها))

(٢) ذكره الطبري في جامع البيان: النص (٩٥٣٦).

وقرأ يزيدُ الأسلمي: (وَعَابدَ الطَّاغُوتِ) بـالألف، وقـرأ ابـنُ عبـاس: (وَعَبيـدَ الطَّاغُوتِ) بالجمعِ، وقرأ أبو واقدٍ الليثيّ: (وَعُبَّادَ الطَّاغُوتِ) مثل كُفَّـار، وقـرأ عَـوْنُ العقيلي وإبَانُ بن ثعلبٍ: (وَعُبَّدَ الطَّاغُوتِ) مثل رَاكِعْ ورُكَّع، وقرأ عبيـدُ بـن عمـير: (أعْبَدَ الطَّاغُوتِ) مثل كلب وأكلَبٍ، وقرأ الأعمشُ: (وَعُبُدَ الطَّـاغُوتِ) بضـمِّ العـين والباء وكسرِ التاء من الطاغوتِ[1]. قال الشاعرُ:

انْسُـبِ الْعَبْـدَ إلَـى آبَائِـهِ   أسْـوَدُ الْجِلْـدِ مِـنْ قَـوْمٍ عُبُـدْ

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ فإن قِيْلَ: كيف معنى هذا ليس في الإيمان شرٌّ وضلالٌ ؟ قِيْلَ: سِمَةُ المشركين شرٌّ مَكاناً لا يوجبُ أن يكون في الإيمان شرٌّ وتطيُّر. قَوْلُـهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى: ﴿أصْحَـابُ الْجَنَّـةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأحْسَنُ مَقِيلاً﴾[2] ومعلومٌ أنه لا خيرَ في مستقرِّ الكُفَّار ومُنقلَبـهم، فلمَّا نزَلت هذه الآيةُ قال المسلمون ليَـهُودَ: (يَـا إخْـوَانَ الْقِـرَدَةِ وَالْخَنَـازِير) فسَكَتُوا وأفحِمُوا، وفيهم يقولُ الشاعرُ:

فَلَعْنَـةُ اللهِ عَلَـى الْيَـهُودِ   إنَّ الْيَـهُودَ إخْـوَةُ الْقُـرُودِ

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾ ؛ ومعناهُ: وإذا جاءَكم المنافقون من أهلِ الكتاب قالوا آمَنَّا بكَ، ونحـن نعرفُ نَعْتَكَ وصِفتَكَ، يقولُ اللهُ: وقد دخَلُوا بالكفرِ وهم قد خرَجُوا بـه؛ أي دخَلُـوا عليكم، وخرجوا من عندِكم كافرين في السرِّ كمـا دخَلُـوا خرجـوا، وقولـه: (وَهُـمْ) للصِّلة والتأكيدِ، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي بما كانوا يُضمِرون في قلوبهم من الكُفرِ والنفاقِ، فأعلمَكم به وأطلعَكم عليه.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ ؛ أي وترَى يا مُحَمَّدُ كَثيراً من اليهودِ والمنافقين يُبادرون في المعصيةِ والاعتداء والظُّلم،

---

(١) في جامع البيان: تفسير الآية؛ قال الطبري: ((ذكر ذلك عـن الأعمـش، وكـان مـن قـرأ ذلـك كذلك أراد جمعَ الجمعِ من العبدِ، كأنه جمعَ العبدَ عبيداً، ثم جمع العبيد عُبُداً، مثل ثِمَار وَثُمُرٍ)).

(٢) الفرقان / ٢٤ .

﴿ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ ؛ وأكلِ الرّشوةِ والحرامِ في تغيير الأحكامِ، ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ من المعصيةِ ومجاوزة الحدِّ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: هل ينهاهم العامِلون بالعلمِ والعُلماء الذين هم دونَهم عن قول الشِّرك والكذب على الله، وأكل الحرامِ والرِّشوة في الحكمِ. قال الحسن: (الرَّبَّانِيُّونَ عُلَمَاءُ النَّصَارَى، وَالأَحْبَارُ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ). وَيُقَالُ: هُوَ كُلُّهُ فِي الْيَهُودِ، وقرأ أبو واقدٍ الليثي: (لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرِّبِّيُّونَ) كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِيُّونَ كَثِيرٌ﴾[(١)].

وقولهُ: (لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) أي بئسَ ما يصنعُ علماؤهم من كتمانِهم الحقَّ، وتركِهم النهيَ عن المعصيةِ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا والضحاك: (إنَّ هَذِهِ الآيَةَ أشَدُّ الآيَاتِ فِي تَخْوِيفِ مَنْ تَرَكَ الأَمْرَ بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ)[(٢)]، قالَ رسولُ الله ﷺ: [مَا مِنْ رَجُلٍ يُجَاوِرُ قَوْماً فَيَعْمَلُ بالْمَعَاصِي بَيْنَ أظْهُرِهِمْ، فَلاَ يَأْخُذُونَ عَلَى يَدَيْهِ، إلاَّ أوْشَكَ أنَّ اللهَ تَعَالَى يَعُمُّهُمْ مِنْهُ بعِقَابٍ][(٣)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي فِنْحَاصَ بْنِ عَازُورَاءَ الْيَهُودِيِّ وَأصْحَابهِ، كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ بَسَطَ لَهُمْ فِي الرِّزْقِ، فَكَانَ مِنْ أخْصَبِ النَّاسِ، وَأكْثَرِهِمْ خَيْراً وَأمْوَالاً،

---

(١) آل عمران / ١٤٦ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٥٤٦) عن الضحاك بن مزاحم، والنص (٩٥٤٧) عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢ ص٣٣٢: الحديث (٢٣٨٤ بهذا اللفظ، وبألفاظ أخرى في الرقم (٢٣٨٠-٢٣٨٥). وأخرج طرقه وألفاظ الأئمة؛ الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٣٦١ و٣٦٣ و٣٦٤ و٣٦٦. وأبو داود في السنن: كتاب الملاحم: باب الأمر والنهي: الحديث (٤٣٣٩). وابن ماجة في السنن: في الفتن: باب الأمر بالعروف: الحديث (٤٠٠٩) من طريق عبدالله بن جرير عن أبيه، وإسناده حسن. وأخرجه الطبراني من طريق عبدالله بن مسعود في المعجم الكبير: ج ١٠ ص٢١٥: الحديث (١٠٥١٢)، وفي المعجم الأوسط: ج ٤ ص٤٧٠: الحديث (٣٠٦١). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٢٦٨؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبدالعزيز بن عبيدالله، وهو ضعيف)).

فَلَمَّا عَصَوا اللهَ تَعَالَى فِي مُحَمَّدٍ ﷺ وَبَالَغُوا فِي تَكْذِيبِهِ، كَفَّ اللهُ عَنْهُمْ بَعْضَ الَّذِي كَانَ بَسَطَ عَلَيْهِمْ، فَعِنْدَ ذلِكَ قَالُوا: يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ[(١)]. أي قالُوا على سبيل الْهُزْءِ: إنَّ إلهَ مُحَمَّدٍ الذي أرسلَهُ ممسكةٌ يده عنانَ الرزق لا يبسطُ علينا كما كان يبسطُ. وهذا اللفظُ في كلامِ العرب عبارةٌ عن البخلِ، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾[(٢)] أي لا تمسكها عن الإنفاق.

قال بعضُهم: إنما قالَ هذه المقالةَ فِنْحَاصُ ولم ينهَهُ الآخرون، ورَضُوا بقولهِ فأشركهم اللهُ فيها، وأرادوا باليدِ العطاءَ، لأن عطاءَ الناسِ وبذلَهم في الغالب بأيديهم، فاستعملَ الناسُ اليدَ في وصفِ الناسِ بالجودِ والبُخل. ويقالُ للبخيلِ: جَعْدُ الأَنَامِلِ؛ مقبوضُ الكفِّ؛ مكفوفُ الأصابعِ[(٣)]؛ مغلولُ اليدَين، قال الشاعرُ:

كَانَتْ خُرَاسَانُ أَرْضاً إذ يَزِيدُ بِهَا ... وَكُلُّ بَابٍ مِنَ الْخَيْرَاتِ مَفْتُوحُ
فَاسْتُبْدِلَتْ بَعْدَهُ جَعْداً أَنَامِلُهُ ... كَأَنَّمَا وَجْهُهُ بِالْخَلِّ مَنْضُوحُ

وقولهُ تعالى: (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ) جوابٌ عن كلامِهم على طريقِ المقابلَة في الازدواجِ؛ أي أمسِكَتْ أيديهم عن الإنفاق في الخير، وجُعِلُوا بُخلاءَ واليهودُ أبْخَلُ الناسِ، ولا أمَّةٌ أبخلُ منهم. ويقال: معنى (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ) أي غُلَّت إلى أعناقِهم في نار جهنم، ويقال: لا يخرجُ يهوديٌّ من الدنيا إلاّ وتصيرُ يدهُ مغلولةً إلى عنقه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا) أي عُذّبوا بالجزيةِ، وطُردوا عن رحمةِ الله تعالى لقولهم: (يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ؛ عبارةٌ عن الجودِ وكثرة العطيَّة لِمَن يشاءُ، كما يقالُ: فلان بَسْطُ اليدَين، وبَاسِطُ اليدين إذا كان جَواداً يعطي يَمنَةً ويَسرَةً، وعن ابنِ عباس: (أنَّ مَعْنَاهُ: بَلْ نِعْمَتَاهُ مَبْسُوطَتَان)، وأرادَ نعمةَ الدينِ والدنيا،

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص١١٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس، وابن جرير عن عكرمة)).

(٢) الإسراء / ٢٩ .

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٢٣٨: ((وَكَزُّ الأَصَابِعِ))، والكَزُّ: البخلُ.

وَقِيْلَ: نعمتهُ الظاهرةُ ونعمته الباطنة. وَقِيْلَ: أراد بالتثنيةِ في هذا للمبالغةِ في صفة النعمةِ. قال الأعشى:

يَدَاكَ يَدَا مَجْدٍ فَكَفٌّ مُفِيدَةٌ وَكَفٌّ إذا مَا ضَنَّ بالْمَالِ تُنْفِقُ

وهذا كلُّه لأنَّ اليهود قصَدُوا تبخيلَ اللهِ، فحوسِبُوا على قدر كلامهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ ؛ دليلٌ على أن المرادَ بجواب اليهود بيانُ بسطِ النعمة، وأنَّ اللهَ يرزقُ كيف يشاءُ بحسب المصالحِ، فربَّما كان الصلاحُ في أن يعتَبروا، وربَّما كان في أن يُوسِّع، ولا يخلو حُكمه عن الحكمةِ.

واعلم أن اليدَ في اللغة تتصرفُ على وجوهٍ؛ منها: الجارحةُ وهي معروفةٌ، وتعالَى اللهُ عن الجوارحِ. ومنها: النعمةُ كما يقال: لفلان علَيَّ يدٌ؛ أي نعمةٌ. ومنها: القوةُ كما قال تعالى: ﴿أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾[(٢)].

ومنها: الْمُلْكُ ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[(٣)] أي يملِكُه. ومنها: القدرةُ كقوله ﴿بِيَدَيَّ﴾[(٤)] أي تولَّيتُ خلقَهُ، وفائدتهُ التشريف. ومنها التصرُّف كما يقالُ: هذه الدارُ في يدِ فلان؛ أي هو يتصرَّفُ فيها بالسُّكنى والإسكان، وقد يقالُ: أسلمَ فلانٌ على يدِ فلان؛ أي كان سَبباً في إسلامهِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ ؛ معناهُ: ليزيدنَّ القرآنُ الذي أنزل إليكَ، وما فيه من الإسلام، وحُكم الرجمِ كثيراً من اليهود طُغياناً وكُفراً؛ أي كلَّما أنزِلَ عليكَ شيءٌ من القرآنِ كفرُوا به فيزيدُ كُفرُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي جعَلناهم مختلِفين في دِينهم متباغِضين كما قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[(٥)].

---

(١) ص / ٤٥. (٢) الذاريات / ٤٧. (٣) البقرة / ٢٣٧.
(٤) ص / ٧٥. (٥) الحشر / ١٤.

وقولهُ تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي كلَّما اجمعوا على قتالِكم وأعَدُّوا[١] للحرب، فرَّقَ اللهُ جمعَهم وأطفأ مكرَهم وخالفَ بين كلمتِهم. وقولهُ تعالى: ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ ؛ أي يجتهدون في دفعِ الإسلام ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي لا يرضَى عملَ أهلِ الفساد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ ؛ أي ولو أنَّهم عمِلُوا بما في التوراةِ والإنجيل، ولم يكتُموا ما علمُوا من ذكرِ مُحَمَّـد ﷺ فيها، وَ عمِلُوا بـ: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ ؛ يعني القرآنَ الذي أنـزل على كافَّة الناسِ، ﴿ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ ؛ أي لوسَّعنا عليهم الرزقَ بإنزالِ المطر من السماءِ، وإخراجِ النبات من الأرضِ والشجر والنباتِ[٢]. وفي الآيةِ بيانُ أنَ التُّقَى سببٌ لتوسعةِ الرزق، واستقامةِ الأمر في الدُّنيا والآخرة، ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أنَّ أهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[٣] وقولهُ تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ ؛ أي من أهلِ الكتاب أمَّةٌ عادلة، يعني جماعةٌ عادلة في القول، وهم الذين أسلَمُوا منهم، وهم ثمانيةٌ وأربعون رجُلاً: النجاشيُّ وأصحابهُ من النَّصارى، وبَحِيرَا الراهبُ وأصحابهُ، وسَلمان الفارسيُّ وأصحابهُ، وعبدُالله بن سَلام وأصحابهُ، وجَبْرٌ مولَى قريشٍ، ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي كثيرٌ من أهلِ الكتاب ساءَ ما يعمَلون من كتمان نعت النبيِّ ﷺ وتكذيبهِ، وهم: كعبُ بن الأشرفِ وأصحابهُ وسوف تسوؤُهم أعمالهم يومَ القيامةِ إذا رأوا وبَالَها.

---

(١) في المخطوط: (واغزوا) وهو تصحيف.

(٢) في المخطوط أشار الناسخ إلى احتمال أنها (والثمار) بدل (والنبات)، وأثبت كما هو في المطبوع.

(٣) الأعراف / ٩٦.

(٤) الطلاق / ٢-٣ .

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ؛ خِطَابٌ للنبيِّ ﷺ وأمرٌ له أن يبلِّغَ الناسَ جميعَ ما أنزل إليه من ربه من القرآن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ ؛ معناهُ: إن لم تبلِّغْ آيةً مما أنزل إليك، أو حُكماً أمِرتَ بتبليغهِ إليهم، فكأنَّكَ لم تبلِّغْ شَيئاً من الرسالةِ؛ أي يحصلُ لك الثوابُ الموعود على تبليغِ الرسالة من قبل، وإنَّ كتمانَ آية واحدةٍ تحبطُ ثوابَ ما بلَّغَ من الرسالةِ.

يقالُ: إنَّ في هذه الآيةِ دَليلاً على أن النبيَّ ﷺ كان إذا أمر بشيءٍ خاص تأنَّى قَليلاً عن تبليغهِ حَذراً وخوفاً أن يبتليَهُ اللهُ، كما ابتلَى قبلَهُ إبراهيمَ بالنار وإسماعيلَ بالذبحِ وزكريَّا ويحيى بالقتلِ، وكان ﷺ عَازماً على فعلِ ما أمر به مع خوفهِ، فقيلَ له إن لم تفعَلْ ما أمرت به من دعوتِهم إلى الإسلامِ، وعبتَ دينَهم فقد بطلَ جميعُ ما فعلتَ من قبلِ التبليغِ، كأنَّك لم تبلِّغْ شيئاً من الرسالةِ، ولهذا قرأ نافعُ وابن عامر وعاصم: (رِسَالاَتِهِ) بلفظ الجمعِ، وقد يُذكر الواحد ويراد به الجماعةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ ؛ أمانٌ من اللهِ للنبيِّ ﷺ كيلاً يخافَ ولا يحذرَ، كما رُوي في الخبرِ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا دَخَلَ الْمَدِينَةَ قَالَتْ لَهُ الْيَهُودُ: يَا مُحَمَّدُ إنَّا ذوُو عُدَدٍ وَنَاسٍ، فَإنْ لَمْ تَرْجِعْ قَابَلْنَاكَ، وَإنْ رَجَعْتَ زَوَّدْنَاكَ وَأكْرَمْنَاكَ. فَكَانَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَحْرِسُهُ مِائَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار يَبِيتُونَ عِنْدَهُ، وَيَخْرُجُونَ مَعَهُ خَوْفاً مِنَ الْيَهُودِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: (وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ) عَلِمَ أنَّ اللهَ يَحْفَظُهُ مِنْ كَيْدِ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ، فَقَالَ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار: [انْصَرِفُوا إلَى رِحَالِكُمْ، فَإنَّ اللهَ قَدْ عَصَمَنِي مِنَ الْيَهُودِ]، فَكَانَ ﷺ عِنْدَ ذلِكَ يَخْرُجُ وَحْدَهُ فِي أوَّل اللَّيْلِ وَعِنْدَ السَّحَرِ إلَى أوْدِيَةِ الْمَدِينَةِ وَحَيْثُ مَا شَاءَ، فَعَصَمَهُ اللهُ مَعَ كَثْرَةِ أعْدَائِهِ وَقِلَّةِ أعْوَانِهِ، فَعَاشَ حَمِيداً وَمَاتَ سَعِيداً ﷺ (١).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص١١٨؛ قال السيوطي: ((وأخرج عبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل، وابن مردويه عن عائشة قالت: [كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فَأَخْرَجَ رَأسَهُ مِنَ الْقُبَّةِ وَقَالَ: انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللهُ]. ومثله عن أنس ﷺ، وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٩٥٨١).

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يُرشِدُهم إلى دينهِ وحُجَّته، ولا يهدِيهم إلى طريقِ الجنة في الآخرةِ.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ أي لستُم على شيءٍ من الدِّين والثـواب إلاّ أن تُقرُّوا بما في التوراةِ والإنجيل من نعتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ومبعثِهِ ونبوَّتهِ وسائرِ الأحكام التي فيها، وتُقِرُّوا بالقرآنِ الذي أُنزلَ على كافَّة الناس من ربهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ ؛ قـد ذكرنـا تفسـيرَهُ، ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي ليس عليكَ إلاَّ تبليغُ الرسالةِ فلا تحزَنْ عليهم إن كذبوكَ؛ أي لا تحزَنْ علـى هلاكِهم إذا أهلكنَاهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ معنى الآيةِ: إنَّ الذين آمَنُوا بألسِنَتِهم ولم تؤمِنْ قلوبُهم، والذيـن مَـالُوا عـن الإسـلامِ وسُمُّوا باليهوديَّة، والذين صَبَتْ قلوبُهم، وهـم صِنفٌ من النصارَى يقال لهم السَّابحون يحلقون أوساطَ رُؤوسِهم.

ويقال: الصَّابئُ هو الخارجُ من ملَّة فيها أمةٌ عظيمة إلى ملَّة فيها شرذمةٌ قليلة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَنْ آمَنَ باللهِ) أي من آمَنَ من هذه الفرق بالله وبجميـعِ مـا أنـزل اللهُ، والبعثِ بعد الموتِ، وعَمِلَ صالحاً فيما بينَهُ وبين اللهِ، فلاَ خـوفٌ عليـهم، حيـث يخافُ أهلُ النار، ولا هم يحزَنون حيث يحزنُ أهل النار.

وأما الرفعُ في قولهِ: (وَالصَّابئُونَ): قال الكسـائيُّ: هـو نسَـقٌ علـى المضمـرِ في (هَادُوا) تقديـرهِ: هـادُوهم والصـابئون. وقـال الخليـلُ وسـيبويه والبصريُّـون قولَـه: (وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابئُونَ) مرفوعٌ بالابتداءِ؛ تقديرهُ: إنَّ الذين آمَنُـوا ومـن آمَـنَ مِـن الذين هَادُوا والصابئون والنصارَى، مَن آمَن بالله واليوم الآخر. وَقِيْلَ: إنما رُفِـعَ لأنـه عُطِفَ على (الَّذِينَ) قبل دخول (إنَّ)؛ لأنه لا يُحدِثُ معنى، كما تقـولُ: زيـدٌ قـائمٌ، وإنَّ زَيداً قَائِمٌ معناهُما واحدٌ. وقرأ الحسنُ: (إنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتُهُ) برفع التاءِ.

وأما نفيُ الحزنِ عن المؤمنين ها هنا، فقد ذهبَ بعض المفسِّرين إلى أنه لا يكون عليهم حزنٌ في الآخرةِ ولا خوفٌ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾(١).

وقال بعضُهم: إنَّ المؤمنين يخافون ويحزنون لقولهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾(٢) وقولهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾(٣). وقال ﷺ: [يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً] فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَاسَوْأَتَاهُ ! فَقَالَ ﷺ: [أمَا سَمِعْتِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(٤)](٥). قالُوا: وإنما نفَى اللهُ تعالى في هذه الآيةِ الحزنَ عن المؤمنين؛ لأن حزنَهم لِما كان يعرض الزوالَ، ولم يكن له بقاءٌ معهم لم يعتدَّ بذلك.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ؛ أي أخَذنا عهدَ بني إسرائيلَ على أن يعملُوا بما في التوراةِ والإنجيل، وكل نبيٍّ يبعثهُ الله إلى قومهِ فآمِنوا به، فذلك أخذُ ميثاقِهم، ﴿ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ ﴾ ؛ أي كلَّما جاءَهم رسولٌ بما لا يوافقُ هواهم ولا ما هُم عليهِ، ﴿ فَرِيقًا كَذَّبُواْ ﴾ ؛ أي كذبوا جماعةً من الرُّسل مثلَ عيسى ومُحَمَّدٍ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِمَا، ﴿ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ مثلَ زكريَّا ويحيى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ؛ أي ظنُّوا ألاَّ يكون عذاباً وعقوبةً، وَقِيْلَ: ابتلاءً بسبب قتلِهم الأنبياء وتكذيبهم الرسُلَ. من قرأ (يَكُونَ) بالنصب فمعنى (أنْ يَكونَ)، ومن قرأ بالرفعِ فمعناهُ: (أنَّهُ لاَ يَكُونُ) أي فحَسِبُوا أنَّ فعلَهم غيرُ فاتنٍ لهم، ﴿ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ﴾ ؛ عن الحقِّ؛ أي عَمِلُوا معاملةَ الأعمى

---

(١) فصلت / ٣٠ . (٢) الحج / ٢ .

(٣) عبس / ٣٤-٣٥ . (٤) عبس / ٣٧ .

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: باب الحشر: الحديث (٦٥٢٧). ومسلم في الصحيح: كتاب الجنة وصفة نعيمها: باب فناء الدنيا: الحديث (٦٥/ ٢٨٥٩). والنسائي في السنن الصغرى: كتاب الجنائز: باب البعث: ج ٤ ص١١٤. والحديث له طرق مختصرة عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم جميعاً.

الذي لا يُبصر، والأصمُّ الذي لا يسمعُ، فصاروا كالعُمْيِ والصُّمِّ. ﴿ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي تجاوزَ عنهم بأنْ أرسلَ إليهم مُحَمَّداً ﷺ يُعلِمُهم أنه قد تابَ عليهم إنْ آمَنُوا وصدَّقُوا فلم يؤمِنْ أكثرُهم، ويقال: دَانُوا بعد ذلك وتابُوا من الكفرِ فقَبلَ اللهُ توبتَهم، فلمَّا بعثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ وجاءَهم ما عرَفُوا كفرُوا بهِ، فذلك قولُهُ: (فَعَمُوا وَصَمُّوا) أي عَمُوا عن الهدَى، وصَمُّوا عن الحقِّ بعد أن ازدادَ لهم الأمرُ وضوحاً بالنبيِّ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ ؛ بدلٌ من الواو في قوله (عَمُوا) كأنه قالَ: عَمِيَ وصَمَّ كثيرٌ منهم، وهذا كما يقالُ: جاءَني قومُكَ أكثرُهم، وقوله: (كَثِيرٌ مِنْهُمْ) يقتضي في المرة الثانيةِ أنَّهم لم يكفُروا بأكملِهم، وإنما كفرَ أكثرُهم، كما قالَ تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾[1] وقال تعالى: (مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ)[2].

ويُحكى عن بعضِ أهل اللُّغة جوابَ جمعِ الفعل متقدِّماً على الاسمِ، كما يقالُ: أكَلُونِي البراغيثُ، ويجوزُ أن يكون (كَثِيرٌ) خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ معناهُ: العميُ والصمُّ كثيرٌ منهم.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي بما تعملون من التكذيب ونقضِ الميثاق وتحريف الكلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ ؛ نزَلَت في نصارَى نَجران السيِّدِ والعاقب ومَن معهُما، وهم الماريعقوبيَّة؛ قالوا: إنَّ اللهَ هو المسيحُ بن مريمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ إعلامٌ من اللهِ تعالى أن المسيحَ دعاهم إلى توحيدِ الله تعالى، وأعلمَهم

---

(١) آل عمران / ١١٣ .

(٢) المائدة / ٦٦.

أنَّ شيئاً[١] حالهُ في أمه مربوبٌ كحالهم، وأعلمَهم أن مَن أشركَ مع اللهِ شيئاً غيرَهُ فهو كافرٌ من أهلِ النار، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (اعْبُدُوا اللهَ رَبِي وَرَبَّكُمْ) أي وحِّدوهُ، فهو خالِقي وخالقُكم ورازقي ورازقُكم. ﴿ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ؛ أن يدخلَها، ﴿ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ ؛ ومصيرهُ في الآخرة النارُ، ﴿ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي ما للمشركين من مانعٍ يمنعُهم من عذاب الله.

ثم بيَّن اللهُ كُفرَ الفريق الآخر من النَّصارى، وهم المرقُوشيَّة، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾ ؛ أي أحدُ ثلاثةٍ: أبٌ؛ وابنٌ؛ وروحُ قدس، ﴿ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ ﴾ ؛ أي المنافقون؛ ﴿ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ ؛ من مقالتِهم الأولى والثانية، ﴿ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ أي ليُصِيبَنَّ الذين أقَامُوا على مقالةِ الكفر، ﴿ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ وجيعٌ يخلصُ وجعه إلى قلوبكم .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ﴾ ؛ أوَّلُ هذه الآيةِ استفهامٌ، ومعناها الأمرُ؛ أي تُوبوا إلى اللهِ عن النصرانيَّة، واستغفروهُ من هذه المقالةِ الشَّنيعة، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ ؛ لِمَن تابَ وآمَنَ، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ بمَن ماتَ على التَّوبة.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ ؛ أي ما المسيحُ إلاَّ رسولٌ من رُسُلِ اللهِ، فإنَّ إبراءَ الأَكْمَهِ والأبرص، وإتيانهِ بالمعجزات كما أتَى موسَى بالمعجزاتِ؛ أي الآياتِ، وكما أتَى إبراهيمُ عليه السلام وغيرهما من الأنبياءِ، فلو وَجبت عبادةُ الأنبياءِ لظهور المعجزاتِ عليه لوجبت عبادةُ سائرِ الأنبياء واتخاذُهم آلهةً بسبب المعجزات، ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ ؛ أي كثيرةُ الصِّدق والتصدُّق، وذلك أنَّ جبريلَ عليه السلام أتاها فقالَ لها: إنَّمَا أنَا رَسُولُ رَبكِ؛ فَصدَّقَتْهُ، كما قالَ تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بكَلِمَاتِ رَبهَا﴾[٢].

---

(١) هكذا رسمَها الناسخ في المخطوط واضحة.

(٢) التحريم / ١٢ .

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ ؛ بيانُ أنَّهما كانا مُحدَثَين محتاجَين، وهذا احتجاجٌ بيِّنٌ على القومِ في أنه لم يكن إلَـهاً؛ لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَهُ في الآيةِ بصفاتٍ تُنافِي الآلهيَّة، منها: أنَّهُ رسولٌ بعدَ أن لم يكُنْ، ومنها: أنه كسائرِ الرُّسلِ فيما ظَهرت منه وعليه، ومنها: أنه مولودٌ من أمٍّ، ومنها: أنَّـهما كَانا يعِيشان بالغذاءِ كما يعيشُ سائر الآدميِّين، وكيف يكون إلَهاً مَن تكُون حياتهُ بالحيلةِ ولا يقيمهُ إلاَّ أكلُ الطعامِ.

ومنها ما قالوا: إنَّ أكلَ الطعامِ في الآية كنايةٌ عن قضاءِ الحاجة؛ لأن الذي يأكلُ الطعامَ لا بدَّ له من قضاءِ الحاجة. فكلُّ هذه الصفاتِ دلالةٌ على كونـهِ عَبداً مخلوقاً مربُوباً مستحيلاً أن يكون إلَهاً قَديماً، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوّاً كَبيراً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ﴾ ؛ أي انظُـرْ يـا مُحَمَّدُ كيف نبيِّنُ لهم العلاماتِ في أمر عيسَى أن لم يكُنْ إلَـهاً ولا ابناً لـه ولا ثـالثَ ثلاثةٍ، ﴿ ثُمَّ ٱنظُرْ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ، ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي مِن أين يُصرَفون عن الحقِّ الواضح إلى الباطلِ.

وَالإفْكُ: هو الصَّرْفُ، كلُّ شيء صَرَفْتَهُ فهو مَأْفُوكٌ، تقـولُ: أفكْتُـهُ عَنْـهُ أفكَـهُ إفْكاً، ويسمَّى الكذبُ إفْكاً؛ لأنه يصرفُ عن الحقِّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لهؤلاء النَّصارى ومَن سَلَكَ طريقتَهم واتَّخذ غيرَ اللهِ إلهاً: أتَعبُدون من دونِ الله ما لا يقدرُ على دفعِ ضُرٍّ عنكم ولا جرِّ نفـعِ إليكـم، ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ لِمقـالتِكم فِـي عيسـى عليه السلام وأمِّــه، ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ بكـم وبعقوبتِكم.

قَوْلُهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: لا تتجَاوَزُوا الحدَّ في دينِكم إلى غيرِ الحقِّ فتقولوا: هل فعلَ أحدٌ مثلَ فعلِ عيسى؟ وتجعَلُوا للهِ وَلداً ؟ فإنه ليس بحقٍّ، ويقَالُ: هذا خطابٌ لليهودِ والنصارى؛ أي لا ترفعُوا عيسَى عليه السلام عن درجةِ النبُوَّة إلى درجةِ الرُّبوبيَّة، ولا تَحُطُّوهُ عن درجتهِ فتقولوا: إنه مولودٌ على غيرِ رُشدهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ ﴾ ؛ أي لا تتَّبعوا شَهواتِ أوليائِكُم ورُؤَسَائِكُمْ، ولا تُؤْثِرُوا الهوَى على البيان والبرهان، ﴿ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا ﴾ ؛ من السَّفلة الذين أطَاعُوهم، ﴿ وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧ ﴾ ؛ وأصَرُّوا على ضلالتِهم عن قصدِ الطريق .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ ؛ أي طُرِدَ الذين كَفَرُوا من بني إسرائيلَ وبُوعِدُوا من رحمةِ الله، ﴿ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ ﴾ ؛ أي بدُعائه عليهم حين اعتَدوا في السَّبتِ، فمسخَهم اللهُ قردةً. ﴿ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ﴾ ، أي ولُعِنُوا بدُعاء عيسى حين كفرُوا بعد ذلكَ بالمائدةِ فمسخَهم اللهُ خَنازيرَ، ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ ﴾ ؛ ذلك اللَّعنُ والتعذيبُ بعصيانِهم واستحلالِهم المعاصي وقتلِهم الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ بغيرِ حقٍّ.

ثم بيَّن اللهُ تعالى سببَ المعصيةِ والكفرِ، فقال تعالى: ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ ﴾ ؛ أي لا ينهَى بعضُهم بعضاً عن قبيحٍ يعملونَهُ، واصطلَحوا على الكفِّ عن نهي المنكرِ، ﴿ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ ﴾ ؛ ودخولُ اللامِ في (لَبئسَ) للقسَمِ والتوكيدِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾ ؛ ترَى يا مُحَمَّدُ كَثيراً من اليهودِ يُوالون مُشركي العرب على مُعاداتِكَ ومحاربتِكَ، يعني كعبَ بن الأشرفِ وأصحابَهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: ترَى كثيراً من المنافقين يتولَّون اليهودَ، ﴿ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ ؛ أي بئسَ ما عمِلُوا لأنفسهم حين، ﴿ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ؛ وموضعُ (أنْ سَخِطَ) نصبٌ على تأويلِ بئسَ الشيءُ ذلك لإن أكسبَهم السُّخْطَ، فانتصبَ (أنْ) بلامِ (كَيْ)، ويجوزُ أن يكون موضعهُ رَفعاً على إضمار (هُوَ) تقديرهُ: هُوَ أنْ سَخِطَ اللهُ عليهم، ﴿ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ ﴾ ؛ أي مُقيمون دائمون .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: لو كان اليهودُ يصدِّقون بوحدانيَّةِ اللهِ تعالى، ﴿ وَٱلنَّبِيِّ ﴾ ، ومُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ ﴾ ، أي والقرآنِ الذي أنزل إليه، ﴿ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ ، ما اتَّخذوا

كفارَ قُريشٍ وسائرَ عَبَدَةِ الأوثانِ أحبَّاءَ في العونِ والنُّصرةِ على حربِ النبيِّ ﷺ؛ ﴿ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ ﴾ ؛ من اليهودِ؛ ﴿ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ خارجون عن الطاعةِ، ناقِضُوا العهدِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ ؛ أي لتجدنَّ يا مُحَمَّدُ أشدَّ الناسِ عداوةً لكَ وللذين آمَنُوا اليهودَ، وهم يهودُ بني قُرَيظَة وبني النضيرِ وفدك وخيبرَ، كانوا أشدَّ اليهودِ عداوةً للنبيِّ ﷺ وللمؤمنين. ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [مَا خَلاَ يَهُودِيَّان بمُسْلِمٍ إلاَّ هَمَّا بقَتْلِهِ](١). قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالَّذِينَ أشْرَكُوا) يعني مُشركي العرب كانوا في العداوةِ مثلَ اليهودِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ ؛ لم يرِدْ جميعَ النَّصارى مع ما هم فيه من عداوةِ المسلمين، وتخريب بلادِهم وهدمِ مساجدهم وقتلِهم وأسرِهم وأخذِ مصاحفهم. وإنما نزَلت هذه الآيةُ في النجاشيِّ وأصحابهِ. قال ابنُ عبَّاس وسعيدُ بن جبير والسديُّ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي النَّجَاشِيِّ وَأصْحَابهِ، وَكَانَ النَّجَاشِيُّ مَلِكَ الْحَبَشَةِ نَصْرَانِيّاً قَبْلَ ظُهُور الإسْلاَمِ، ثُمَّ أسْلَمَ هُوَ وَأصْحَابُهُ)(٢).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص١٢٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة))، ولفظه: [مَا خَلاَ يَهُودِيٌّ بمُسْلِمٍ إلاَّ هَمَّ بقَتْلِهِ]، وفي لفظ: [إلاَّ حَدَّثَ نَفْسَهُ بقَتْلِهِ]. وفي الفردوس بمأثور الخطاب: أخرجه الديلمي في النص (٦٣٤٠). وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: الترجمة (٤٤١١): ج ٨ ص٣١٢: خالد بن زيد أبو الهيثم الأزدي، وأشار إلى غرابته منه. وفي فيض القدير شرح الجامع الصغير: ج ٥ ص٤٤٤: الحديث (٧٩٠٣)؛ قال السخاوي: ((طريق الخطيب أجود)) أي أجود من طريق ابن حبان حيث ضعَّفه. ومن كلام السخاوي في فيض القدير، وفي المقاصد الحسنة: الحديث (٩٥٧). والعجلوني في كشف الخفا: الحديث (٢٢٠٨)، يميلون جميعهم من خلال نقولاتهم إلى تصحيح المعنى، مع أنهم ضعفوه إسناداً، ويأتون بالشواهد عليه واقعياً.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٦١٦-٩٦١٨).

قال المفسرون[(١)]: ائتمَرَتْ قريشُ أن يَفتِنُوا المسلمين عن دِينهم، فوثبَتْ كلُّ قبيلةٍ على مَن فيهم مِن المسلمين، يؤذونهم ويعذِّبونهم فافتتنَ كثيرٌ، وعَصَمَ اللهُ من شاءَ منهم، ومنَعَ اللهُ النبيَّ ﷺ بعمِّه أبي طالبٍ، فلمَّا رأى رسولُ الله ﷺ ما بأصحابهِ، ولم يقدِرْ على مَنعِهم ولم يُؤمَرْ بالجهادِ، أمرَهم بالخروجِ إلى أرض الحبشةِ، وقَالَ: [إنَّ بهَا مَلِكاً صَالِحاً لاَ يَظْلِمُ وَلاَ يُظْلَمُ عِنْدَهُ أحَدٌ، فَاخْرُجُوا إلَيْهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ فَرَجاً][(٢)]، وأرادَ به النجاشيَّ واسمهُ أصْحَمَةُ، وهو بالحبشيَّة عطيَّة[(٣)]، وإنما النجاشيُّ اسمُ الملكِ، كقولِهم: كِسرَى وقَيصَرَ.

فخرجَ إليه سِرّاً أحدَ عشر رجلاً وأربعُ نسوةٍ، وهم: عثمانُ بن عفَّان وامرأتهُ رُقَيَّةُ بنتُ رسول الله ﷺ، والزُّبير، وعبدُالله بن مسعودٍ، وعبدُالرحمن بن عَوفٍ، وأبو حُذيفة بن عقبةَ وامرأتهُ سَهلَةُ بنت سُهيل، ومصعبُ بن عُمَير، وأبو سَلَمَة وامرأتهُ أمُّ سَلمة، وعثمانُ بن مظعون، وعامرُ بن رَبيعة وامرأتهُ لَيلَى بنتُ جَثْمَةَ، وحَاطبُ بن عمرَ، وسُهيل بن بيضاءَ. فخرَجُوا إلى البحرِ وأخَذُوا سفينةً بنصفِ مثقالٍ إلى الحبشةِ، وذلك في رَجب في السَّنة الخامسةِ من عهد رسولِ الله ﷺ، وهذه الهجرةُ الأُولى.

ثم خرجَ جعفرُ بن أبي طالبٍ وتتابعَ المسلمون، وكان جميعُ مَن هاجرَ إلى الحبشةِ من المسلمين اثنين وثمانين رجُلاً سوَى النِّساء والصبيان، فلما علِمَتْ قريشُ بذلك وجَّهت عمرَو بن العاصِ وصاحبَهُ بالهدايا إلى النجاشيِّ وإلى بَطَارقَتِهِ ليردُّوهم إليهم، فعصمَهم اللهُ تعالى، وقد ذكرنا هذه القصَّة في سورةِ آل عِمرانَ.

فلمَّا انصرفَا خائِبَين أقامَ المسلمون هناك بخيرِ دارٍ وأحسنِ جوارٍ إلى أن هاجرَ رسولُ الله ﷺ وعَلاَ أمرهُ، وذلك في سَنة ستٍّ من الهجرةِ. كتبَ رسولُ الله ﷺ إلى النجاشيِّ على يد عمرِو بن أميَّة الضَّمْريِّ ليُزوِّجَهُ أمَّ حبيبةَ بنت أبي سُفيان، وكانت هاجَرت إليه مع زوجِها، فأرسلَ النجاشيُّ إلى أمِّ حبيبةَ جاريةً يقالُ لها بُرْهَةُ، فَأخبرتها

(١) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص٣٩٢ عن المفسرين أيضاً.

(٢) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص٩٠.

(٣) في الروض الأنف: ج ٢ ص٩٠؛ قال السهيلي: ((واسم هذا النجاشي أصْحَمَةُ بنَ أبْجَرْ، وتفسيره: عطية)).

بخطبةِ رسول الله ﷺ إيَّاها، فأعطَتها أوْضَاحاً لها سُروراً بذلك، وأمَرَها أن تُوكِّلَ مَن يُزوِّجَها، فوكَّلت خالدَ بن سعيدِ بن العاص، فأنكَحها على صداق أوزن بمائةِ مثقال، وكان الخاطبُ لرسول الله ﷺ النجاشيَّ، وأنفذَ الصَّداقَ إلى أمِّ حبيبةَ على يدَي بُرْهَةَ، فلمَّا جاءَتها بذلك أعطَتها خَمسين مِثقالاً، فقالت برهةُ: إنَّ الملكَ أمرَني أن لا آخُذ منكِ شَيئاً، فردَّتْهُ إليها ولم تأخذْهُ.

ثُم قالت لَها برهةُ: أنا صاحبُ دُهْنِ الملكِ وبناتهِ، وقد صدَّقتُ بمُحَمَّدٍ رسول الله ﷺ وآمَنتُ به، فحاجَتي إليكِ أن تُقرئيهِ مني السَّلامَ، ثم أمرَ الملكُ نساءَهُ أن يبعَثْنَ إلى أمِّ حبيبةَ بما عندهُنَّ من عُودٍ وعنبرٍ، وكان رسولُ الله ﷺ يراهُ عليها ولا يُنكِرُهُ.

وقالت أمُّ حبيبةَ: فخَرجنا في سَفينتين، وبعثَ معنا النجاشيُّ الملاَّحين، فلما خَرجنا من البحرِ رَكِبَا الظَّهر إلى المدينةِ ورسولُ الله ﷺ بخَيبَرَ، فخرجَ من خرجَ إليه، فأقمتُ بالمدينةِ حتى قَدِمَ رسولُ الله ﷺ فدَخلت عليه، فكان يسألُني عن النجاشيِّ فبلَّغتُهُ سلامَ بُرهةَ فردَّ عليها السلامَ، وأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿عَسَى اللهُ أنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِنهُمْ مَوَدَّةً﴾[1] يعني أبَا سُفيان، (وَمَوَدَّةً): تزويجُ أمِّ حبيبةَ. ثم قال رسولُ الله ﷺ: [لاَ أدْري أيّاً بفَتْحِ خَيْبَرَ أسَرُّ أمْ بقُدُومِ جَعْفَرَ][2].

وبعثَ النجاشيُّ بعدَ أن قَدِمَ جعفر المدينةَ ابنَهُ أرهى بن أصحمة في ستِّين رَاكباً من الحبشةِ، وكتبَ إليه: (يَا رَسُولَ اللهِ، إنِّي أشْهَدُ أنَّكَ رَسُولُ اللهِ صَادِقاً وَمُصَدِّقاً، قَدْ بَايَعْتُكَ وَبَايَعْتُ ابْنَ عَمِّكَ، وَأسْلَمْتُ للهِ رَب الْعَالَمِينَ، وَقَدْ بَعَثْتُ إلَيْكَ ابْنِي، وَإنْ شِئْتَ أنْ آتِيَكَ بنَفْسِي، فَعَلْتُ. وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ. فرَكِبُوا سفينةً في إثرِ جعفرَ وأصحابهِ، فلما بلَغُوا وسطَ البحرِ غَرقوا.

وكان جعفرُ يومَ وصَلَ المدينةَ إلى رسول الله ﷺ وصلَ في سَبعين رجُلاً منهم اثنان وستُّون من الحبشةِ، وثمانية من أهلِ الشَّام منهم بَحِيرا الراهبُ، قرأ عليهم رسولُ الله ﷺ سورة يس إلى آخرِها، فبَكَوا حين سَمِعُوا القرآنَ وآمَنُوا وقالوا: ما أشبهَ

(١) الممتحنة / ٧ .

(٢) الروض الأنف: ذكر قدوم جعفر: ج ٤ ص١٠٤.

هذا بما كان أنزلَ على عِيسَى عليه السلام، فأنزلَ اللهُ تعالى فيهم: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى) ووفدُ النجاشيِّ الذين قَدِمُوا مع جعفرَ وهم سَبعُونَ[1].

وقال مقاتلُ والكلبيُّ: (كَانُوا أرْبَعِينَ رَجُلاً، اثنَان وَثَلاثُونَ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَثَمَانِيَةٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ). وقال عطاءُ: (ثَمَانُونَ رَجُلاً، أرْبَعُونَ مِنْ أهْلِ نَجْرَانَ، وَاثْنَانِ وَثَلاثُونَ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَثَمَانِيَةٌ مِنْ أهْلِ الرُّومِ مِنْ أهْلِ الشَّامِ)[2].

قال قتادةُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي النَّصَارَى الَّذِينَ هُمْ مُتَمَسِّكُونَ بشَرِيعَةِ عِيسَى عليه السلام) يعني أنَّ النصارَى كانوا أقلَّ مظاهرةً للمشركين من اليهودِ، فقولُه: (وَإِذَا سَمِعُوا) على هذا التأويلِ معناهُ: وإنَّ منهم مَن إذا سَمعوا، أو منهم قومٌ إذا سَمعوا.

وفي الآيةِ ما يشهدُ لهذا القولِ أيضاً؛ لأن اللهَ تعالى وصفَهم بقُرب مودَّتِهم للمسلمين، ولم يصِفْهُم بأنَّهم يُوادُّون المسلمين، ولا يجوزُ أن يعتقدَ أحدٌ أنَّ في الآيةِ مَدحاً للنَّصارى، وإخباراً أنَّهم خيرٌ من اليهودِ إلاّ في معنى شدَّة العداوةِ، لأن مَن أمعنَ النظرَ في مقالةِ اليهود والنصارى عَلِمَ أن مقالةَ النصارى أظهرُ فَساداً من مقالةِ اليهود، لأنَّ اليهودَ يقرُّون بالتوحيدِ في الجملةِ، وإن كانت فيهم مُشبِّهَةٌ تنقضُ القولَ بالتوحيدِ بالشَّبه، والنصارَى لا يكونون مقرِّين بالتوحيدِ بوجهٍ من الوُجوهِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ ؛ معناهُ: إن قُرْبَ مودَّة النصارى للمسلمين، وقلَّةَ مظاهرتِهم للمشركين بأنَّ مِن النصارى قسِّيسِينَ؛ أي عُلماء وعُبَّاد أصحابَ الصوامعِ، ﴿ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ عن اتِّباع الحقِّ إذا تبيَّن لهم.

والقسِّيسين في اللغة مأخوذٌ من القَسِّ وهو الشَّرُّ، يقال: قسَّ فلانٌ الأذى إذا تَبعَهُ، والقَسُّ: النميمةُ أيضاً. والرُّهبان: العُبَّادُ أصحابُ الصوامعِ. وقال قطربُ:

(١) ذكره البغوي عن المفسرين في معالم التنزيل: ص٣٩٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٢٥٦-٢٥٧، نقله عن مقاتل والكلبي، وذكر البغوي عن عطاء في معالم التنزيل: ص٣٩٣.

(الْقِسِّيسُ: الْعَالِمُ) بِلُغَةِ الرُّومِ[(١)]، والرُّهْبَانُ: جَمْعُ رَاهِبٍ مِثْلَ فَارسٍ وَفُرْسَانٍ وَرُكْبَان، وَقَدْ يَكُونُ رُهْبَانٌ وَاحِدٌ وَجَمْعُهُ رَهَابِينُ مِثْلُ قُرْبَانٍ وَقَرَابِينَ. وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ رَهَبَ اللهَ أيْ خَافَهُ[(٢)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (هُمْ أرْبَعُونَ رَجُلاً قَدِمُوا مَعَ جَعْفَرَ ابْنِ أبي طَالِبٍ، وَاثْنَان وَثَلاَثُونَ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الشَّامِ، فَلَمَّا قَرَأ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ الْقُرْآنَ عَرَفُوهُ، فَرَقُّوا لَهُ فَفَاضَتْ أعْيُنُهُمْ وَلَمْ يَسْتَكْبرُوا أنْ يَدْخُلُوا فِي دِينِهِ).

ومعنَى الآيةِ: وإذا سَمِعوا القرآنَ ترَى الدمعَ يسيلُ من أعيُنِهم بمعرفتهم الحقَّ من صفةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ونعتهِ في كتابهم، ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا ﴾ ؛ أي صدَّقنا بوحدانيَّتِكَ وكتابكَ ورسولِكَ، ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي مَع مَن شَهِدَ من أنبيائِكَ ومؤمنِي عبادِكَ بأنَّكَ واحدٌ لا إلهَ غيرك؛ أي اجعَلنا في جُملتهم.

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا رَجَعُوا إلَى قَوْمِهِمْ لاَمُوهُمْ عَلَى الإيْمَانِ بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن وَقَالُوا لَهُمْ: تَرَكْتُمْ مِلَّةَ عِيسَى عليه السلام وَدِينَ آبَائِكُمْ، فَرَدُّوا عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي نحن نرجو أن يُدخِلَنا ربُّنا في الآخرةِ مع صالِحي أمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا ﴾ ؛ أي جازَاهم اللهُ بأنْ أوجبَ لهم الجنةَ في الآخرةِ بقولهم (رَبَّنَا آمَنَّا)، وقولِهم: (وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ). ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ ؛ أي بساتين، ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ؛ تجري من تحت شجرِها ومساكنها

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٢٥٧؛ قال القرطبي: (والقسيس: العالِم، أصله من قَسَّ إذا تتبع الشيء فطلبه)، وقال: (والقسُّ أيضاً: رئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم، وجمعه قسوس). وقال: (فالقسيسون هم الذين يتبعون العلماء والعبَّاد).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٢٥٨؛ قال القرطبي: (قال أبو عبيد: وقد يكون (رُهْبَان) للواحد والجمع؛ وقال الفراء: ويجمع (رُهبَان) إذا كان للمفرد رهَابنَةٌ ورَهابين، كقربان وقرابين).

وغُرَفِها أنهَارُ الماءِ والعسلِ والخمرِ واللبن، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾؛ أي ذلك الثوابُ جزاءُ الموحِّدين المخلصين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي الذين جَحَدوا وكذبوا بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن فماتوا على ذلك، فـ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾، هم، ﴿ أَصْحَٰبُ ﴾، أهل، ﴿ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾؛ النار الشَّديدة الوقودِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾؛ قال المفسِّرون: (جَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْماً، فَذكَرَ النَّارَ وَوَصَفَ الْقِيَامَةَ، فَرَقَّ النَّاسُ وَبَكوا، فَاجْتَمَعَ جَمَاعَةٌ مِنْ أصْحَاب رَسُول اللهِ ﷺ وَهُمْ أبُو بَكْرٍ؛ وَعُمَرَ؛ وَعَلِيٌّ؛ وَعَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ؛ وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُون الْجَمْحِيُّ؛ وَالْمِقْدَادُ؛ وَعَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ؛ وَأبُو ذرٍّ؛ وَسَالِمُ مَوْلَى أبي حُذيْفَةَ؛ وَسَلْمَانُ الْفَارسِيُّ؛ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ؛ وَمَعْقِلُ بْنُ مُصَرِّفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، تَوَاثَقُوا فِي دَار عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُون أنْ يَصُومُوا النَّهَارَ وَيَقُومُوا اللَّيْلَ، وَيَرْفُضُوا الدُّنْيَا، وَيَسِيحُوا فِي الأرْضِ، وَيَجُبُّوا مَذاكِيرَهُمْ وَيَعْتَزلُوا النِّسَاءَ، وَلاَ يَأْكُلُوا لَحْماً وَلاَ دَسَماً، وَيَلْبَسُوا الْمُسُوحَ. فَبَلَغَ ذلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأنْزَلَ اللهُ فِيْهِمْ هَذِهِ الآيَةَ)(١).

ومعناها: لا تحرِّموا على أنفُسِكم طيِّبات ما أحلَّ اللهُ لكم من الطعام والشراب واللباسِ والجماع، ولا تظلِمُوا أنفسكم بقطعِ المذاكير، ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ ﴾؛ أي لا تُجاوزوا حدودَ اللهِ بتحريم حلالِه، فإن مُحَرِّمَ ما أحلَّ اللهُ، كمُحِلِّ ما حرَّمَ اللهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾؛ أي لا يرضَى عملَ المعتدِين على أنفُسِهم المتجاوزين حدودَ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ ﴾؛ أي كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ من الطعامِ والشراب حلالاً أحلَّهُ الله لكم، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾. وَقِيْلَ: أنَّهُ لما بلغَ رسولَ الله ﷺ خبرُهم؛ أتى دَارَ عُثْمَانَ

(١) أسباب النزول للواحدي: ص١٣٧. وفي لباب النقول في أسباب النزول: ص٩٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن عساكر في تاريخه من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٦٣٣).

بْنَ مَضْعُونٍ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَقَالَ لامْرَأةِ عُثْمَانَ بْنِ مَضْعُونٍ - أمِّ حَكِيمٍ بنْتِ أُمَيَّةَ وَاسْمُهَا الْخَوْلَةُ وكَانَتْ عَطَّارَةً-: [أحَقٌّ مَا بَلَغَنِي عَنْ زَوْجِكِ وَأصْحَابِهِ؟] فَكَرِهَتْ أنْ تَكْذِبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ وَكَرِهَتْ أنْ تُبْدِيَ خَبَرَ زَوْجِهَا؛ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ ! إنْ كَانَ أخْبَرَكَ عُثْمَانُ فَقَدْ صَدَقَ، فَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَلَمَّا جَاءَ عُثْمَانُ أخْبَرَتْهُ زَوْجَتُهُ بذلِكَ، فَعَنِيَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَألَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذلِكَ، فَقَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ عليه السلام: [أمَّا أنَا؛ فَلَمْ أُوْمَرْ بذلِكَ، إنَّ لأنْفُسِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقّاً؛ فَصُومُوا وَأفْطِرُوا؛ وَقُومُوا وَنَامُوا، فَأنَا أقُومُ وَأنَامُ، وَأصُومُ وَأفْطِرُ، وَآكُلُ اللَّحْمَ وَالدَّسَمَ، وَآتِي النِّسَاءَ، مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي].

ثُمَّ جَمَعَ النَّاسَ وَخَطَبَهُمْ وَقَالَ: [مَا بَالُ قَوْمٍ حَرَّمُوا النِّسَاءَ وَالطَّعَامَ الطَّيِّبَ وَالنَّوْمَ، أمَّا أنَا فَلاَ آمُرُكُمْ أنْ تَكُونُوا قِسِّيسِينَ أوْ رُهْبَاناً، فَإنَّهُ لَيْسَ مِنْ دِينِي تَرْكُ اللَّحْمِ وَالنِّسَاءِ، وَاتِّخَاذُ الصَّوَامِعِ، فَإنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الصَّوْمُ، وَرَهْبَانِيَّتَهُمُ الْجِهَادُ، فَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحُجُّوا وَاعْتَمِرُوا وَأقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَصُومُوا رَمَضَانَ، وَاسْتَقِيمُوا لِيَسْتَقِيمَ لَكُمْ، فَإنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بالتَّشْدِيدِ، شَدَّدُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ].

وعن سعيدِ بن المسيَّب؛ قال: جَاءَ عُثْمَانُ بْنُ مَضْعُونٍ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي بأنْ أخْتَصِي، قَالَ: [مَهْلاً يَا عُثْمَانُ ! إنَّ اخْتِصَاءَ أُمَّتِي الصِّيَامُ]. قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أنْ أتَرَهَّبَ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ، قَالَ: [مَهْلاً يَا عُثْمَانُ! فَإنَّ تَرَهُّبَ أُمَّتِي الْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ لانْتِظَارِ الصَّلاَةِ].

قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ! إنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أنْ أخْرُجَ مِنْ مَالِي كُلِّهِ. قَالَ: [مَهْلاً يَا عُثْمَانُ! فَإنَّ صَدَقَتَكَ يَوْمٌ بيَوْمٍ، وَتَعِفُّ بنَفْسِكَ وَعِيَالِكَ، وَتَرْحَمُ الْمَسَاكِينَ وَالْيَتِيمَ، فَتُعْطِيهِمَا أفْضَلُ مِنْ ذلِكَ]. قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أنْ أُطَلِّقَ امْرَأتِي خَوْلَةَ. قَالَ: [مَهْلاً يَا عُثْمَانُ! فَإنَّ الْهِجْرَةَ فِي أُمَّتِي مَنْ هَجَرَ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ، أوْ هَاجَرَ إلَيَّ فِي حَيَاتِي، أوْ زَارَ قَبْرِي بَعْدَ وَفَاتِي، أوْ مَاتَ وَلَهُ امْرَأةٌ أوْ امْرَأتَانِ أوْ ثَلاَثٌ أوْ أرْبَعٌ].

قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! فَإنْ نَهَيْتَنِي أنْ لاَ أطَلِّقَهَا فَإنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أنْ لاَ أغْشَاهَا. قَالَ: [مَهْلاً يَا عُثْمَانُ ! فَإنَّ الْمُسْلِمَ إذا غَشِيَ امْرَأتَهُ أوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ فَلَمْ يَكُـنْ لَـهُ مِنْ وَقْعَتِهِ تِلْكَ وَلَدٌ، كَانَ لَهُ وَصِيفَةٌ فِي الْجَنَّةِ. وَإنْ كَانَ مِنْ وَقْعَتِهِ تِلْكَ وَلَدٌ، فَمَـاتَ قَبْلَهُ كَانَ لَهُ فَرْطاً وَشَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَإنْ مَاتَ بَعْدَهُ كَانَ لَهُ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أنْ لاَ آكُلَ اللَّحْمَ. قَالَ: [مَهْلاً يَـا عُثْمَـانُ ! فَإنِّي أحِبُّ اللَّحْـمَ وَآكُلُـهُ إذا وَجَدْتُـهُ، وَلَـوْ سَـألْتُ رَبِـي أنْ يُطْعِمَنِيَـهُ فِـي كُـلِّ يَـوْمٍ لأَطْعَمَنِيهُ]. قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! فَإنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أنْ لاَ أمَسَّ الطِّيبَ. قَـالَ: [مَـهْلاً يَـا عُثْمَانُ! فَإنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أمَرَنِي بالطِّيب غَبّـاً]، وَقَـالَ: [يَـوْمَ الْجُمُعَـةِ لاَ تَرْكَـهُ، يَـا عُثْمَانَ لاَ تَرْغَبْ عَنْ سُنَّتِي، فَإنَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي ثُمَّ مَاتَ قَبْلَ أنْ يَتُوب، صَرَفَـتِ الْمَلاَئِكَةُ وَجْهَهُ عَنْ حَوْضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ][(١)].

عـن أبـي موسَـى الأشـعريِّ رضي الله عنه قـال: [رَأيْـتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَـأكُلُ لَحْـمَ الدَّجَاجِ، وَرَأيْتُهُ يَأكُلُ الرُّطَبَ وَالْبِطِّيخَ][(٢)]. وعن ابن عبَّاس؛ قـال: (كُـلْ مَـا شِـئْتَ، وَالْبَسْ مَا شِئْتَ مَا أخْطَأتْكَ ثِنْتَان: سَرَفٌ وَمَخْيَلَةٌ)[(٣)]. وعن عائشة رَضِـيَ اللهُ عَنْـهَا: [أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأكُلُ الدَّجَاجَ وَالْفَـالُوذجَ، وَكَـانَ يُعْجِبُـهُ الْحَلْـواءُ وَالْعَسَـلُ][(٤)]؛

---

(١) أخرجه ابـن الجـوزي في تلبيـس إبليـس: ص٢١٨-٢١٩. ورواه مختصـراً عبـدالله بـن المبـارك المرزوي المتوفى(١٨١هـ) في كتاب الزُّهد: باب التواضع: ج ٦ ص٢٩٠: الحديث (٨٤٥). حقق كتاب الزهد وعلق عليه الأستاذ حبيب الرحمن الأعظمي. دار الكتب العلمية؛ بيروت – لبنان.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الذبائح: باب لحم الدجاج: الحديث (٥٥١٧) مختصراً. أما حديث أكل البطيخ؛ فأخرجه الترمذي في الجامع: كتاب الأطعمة: باب ما جاء في أكـل البطيـخ: الحديث (١٨٤٣) عن عائشة، وقال: حسن غريب.

(٣) رواه البخاري في الصحيح: كتاب اللباس: بـاب (١)، مـن غـير إسـناد. وفي الشـرح قـال ابـن حجر: ((وصله ابن أبي شيبة في مصنفه)).

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأطعمة: باب الحلـوى والعسـل: الحديـث (٥٤٣١)، وفي كتاب الأشربة: باب الباذق: الحديـث (٥٥٩٩) بلفـظ: [كَـانَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ يُحِـبُّ الْحَلْـوَى وَالْعَسَلَ].

وقال: [إنَّ الْمُؤْمِنَ حُلْوٌ يُحِبُّ الْحَلاَوَةَ][1]. وقال: [إنَّ فِي بَطْـنِ الْمُؤْمِـنِ زَاوِيَـةٌ لاَ يَمْلأُوهَا إلاَّ الْحَلْوَاءُ][2].

وروي: أن الحسنَ كان يأكلُ الفالوذجَ، فدخل عليه فرقدُ السبخي، فقـال: (يَـا فَرْقَدُ، مَا تَقُولُ فِي هَذا؟) قال: لا آكلهُ ولا أحبُّ أكلَهُ[3]، فأقبلَ الحسن على مَن عندَهُ كالمتعجِّب؛ فقالَ: (لُعَابُ النَّحْلِ وَلُبَـابُ الْقَمْـحِ، وَسَـمْنُ الْبَقَـرِ[4] أحِـلَّ بعَيْنِـهِ لِكُـلِّ مُسْلِمٍ)[5].

وجاءَ رجلٌ إلى الحسنِ فقال له: إنَّ لي جاراً لا يأكلُ الفالوذجَ، قـال: (وَلِـمَ ؟) قال: لا يؤدِّي شُكرَهُ، قال: (أفَيَشْرَبُ الْمَاءَ البَاردَ؟) قال: نعم، قال: (إنَّ جَـارَكَ هَـذا جَاهِلٌ، إنَّ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ فِي الْمَاءِ الْبَاردِ أكْثَرُ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ فِي الْفَالُوذجِ)[6].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ ؛ قال ابـن عبَّـاس: (هُوَ أنْ يَحْلِفَ الرَّجُلُ باللهِ فِي الشَّيْءِ يَرَى أنَّهُ كَذلِـكَ). وقـالت عائشـةُ: (هُـوَ قَـوْلُ الرَّجُلِ: لاَ وَاللهِ، وَبَلَى وَاللهِ، يَصِلُ بهِ كَلاَمَهُ وَلاَ يَعْقِدُ عَلَيْهِ قَلْبَـهُ). واللَّغْـوُ في اللغـة: هو الكلامُ الساقطُ الذي لا يعتدُّ به.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ ؛ أي بما وكَّـدتم الأيمان. قرأ أهلُ الحجاز وحفص وأبو عمرو: (عَقَّدْتُمْ) بالتشديدِ، وقرأ أهـلُ الكوفـة

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في المطاعم والمشارب: الحديث (٥٩٣٤). وقال: ((أورده شيخنا في التاريخ: ترجمة سهل بن بشر بن القاسـم، ومـتن الحديـث منكـر وفي إسناده مـن هـو مجهول)). (٢) لم أجده.

(٣) ذكره في ميزان الاعتـدال: ترجمـة فرقـد السـبخي. في الكـامل: ج ٧ ص١٤٠-١٤١؛ قـال ابـن عدي: (وكان فرقد السـبخي حائكـاً مـن نصـارى (ارمينيـة)... وكـان يُعـد مـن صـالحي أهـل (البصرة) وليس هو بكثير الحديث).

(٤) في أصل المخطوط صحف الناسخ؛ كتب: (لباب البرصع وسنن البقر) والصحيـح كمـا أثبتنـاه، وضبطت العبارة على ما قاله الأزهري في تهذيب اللغة: ج ١٥ ص٢٤٣، وابن منظور في لسـان العرب: ج ١٢ ص٢١٥.

(٥) في المخطوط: (أهل بعينه مسلم) وهو تحريف وفيه سقط.

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في تحديد نعـم الله: الأثـر (٤٥٨٣). وذكـره القرطـبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٢٦٢.

إلاَّ حفصاً: بالتخفيف (عَقَدْتُمْ). ومعناه: أن يحلِفَ الرجلُ على أمرٍ في المستقبل ليفعلَهُ ثم لا يفعلهُ، أو يحلفَ أن لا يفعلَهُ ثم يفعلُهُ. فمَن قرأ (عَقَّدْتُمْ) بالتشديدِ فمعناهُ المبالغة والتأكيدُ. وفائدتهُ أن يعتقدَها في قلبهِ، ولو عقدَها في أحدِهما دون الآخرِ لم يكن مُعتقداً، وهو كالتعظيمِ.

وكان أبو الحسنِ الكرخيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى يقول: (قِرَاءَةُ التَّشْدِيدِ لاَ تَحْتَمِلُ إلاَّ الْعَقْدَ بالْقَوْل، وَقِرَاءَةُ التَّخْفِيفِ تَحْتَمِلُ عَقْدَ الْقَلْب، وَهُوَ الْعَزِيمَةُ وَالْقَصْدُ إلَى الْقَوْل). ويحتملُ عقدَ اليمينِ قَولاً؛ يقال: عقدتُ على أمرِ كذا؛ إذا عزمتُ عليه.

وَقِيْلَ: الأصحُّ أن المرادَ بالعقدِ القولُ؛ لأنه لا خلافَ بين الأئمَّة أن القصدَ من اليمينِ لا يتعلقُ به وجوبُ الكفَّارة، وإن وجوبَها متعلقٌ باللفظِ دون القصدِ. ويحتملُ أن يكون معنى التشديدِ: أنه متى أعادَ اليمينَ على وجه التكرار، وهو يريدُ التكرارَ لا يلزمهُ إلا كفارةٌ واحدة.

وقرأ أهلُ الشام: (عَاقَدْتُمْ) بألف وهو من المعاقَدة، وهو أن يحلفَ الرجلُ لصاحبِهِ على مسألته، أو يحلفَ كلٌّ واحد منهما لصاحبِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ ﴾؛ أي كفَّارة ما عقَّدتُم من الأيمانِ عند الحنثِ، ﴿ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾؛ أي مِنْ أعدل مَا تُطْعِمُونَ أهْلِيكُمْ غداءً وعشاء لا وكَسَ ولا شَطَطَ.

وَقِيْلَ: معناهُ: من أوسَطِهِ في الشِّبع، ولا تفرطُ في الأكلِ، ولا يكون دون المغنى عن الجوعِ، فإن أرادَ أن يُطعِمَهم الطعامَ أعطَى لكلِّ مسكين نصفَ صاعٍ من حنطة عند أصحابنا، هكذا رُوي عن عمرَ وعليٍّ[(١)] وعائشة. وقال الشافعيُّ ومالك: (مُدّاً بمُدِّ النَّبيِّ ﷺ).

والْمُدُّ: رَطْلٌ وثُلُث، وهكذا رُوي عن زيدِ بن ثابت وابنِ عبَّاس وابن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين[(٢)]. وأما غدَاؤُهم وعشاؤهم فلا عبرةَ بمقدار الطعام، إلا أن

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص(٩٦٧٣) عن عمر، والنص(٩٦٧٤) عن علي.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٦٨٨) بأسانيد عنهم.

يكون فيهم صبيٌّ صغير لا يستوفِي الأشياءَ يسيراً فلا يعتدُّ به حينئذ، وإنما قال: يُغَدِّيهِمْ ويُعَشِّيهم؛ لأن ذلك أوسطُ طعامِ الأهل؛ لأن أكثرَ الأكلِ ثلاثُ مرات، وأقلُّه وجبة، والغالبُ الأوسط؛ والأوسطُ الغالب مرَّتان. وقال سعيدُ بن جبير: (يُعطِي لِكُلِّ مِسْكِينٍ مُدَّيْنِ؛ مُدٌّ لِطَعَامِهِ وَمُدٌّ لإدَامِهِ)[1].

وسُئل شريح عن الكفَّارة؛ فقال: (الْخُبْزُ وَالزَّيْتُ). فقال له السائلُ: رأيتَ إن أطعمتُ الخبزَ واللحم، فقال: (ذلِكَ أرْفَعُ طَعَامِ أهْلِكَ وَطَعَامِ النَّاسِ)[2]. وعن ابنِ مسعود وابن عمرو: (أنَّ أعْلاَ مَا بطَعَامِ الأَهْلِ الْخُبْزُ وَاللَّحْمُ، والأَدْوَنُ الْخُبْزِ الْبَحْتُ[3] بغَيْرِ إدَامٍ، وَالأَوْسَطُ الْخُبْزُ مَعَ السَّمْنِ وَنَحْوُهُ).

ظاهرُ الآية يقتضي أنه إذا أعطَى مسكيناً واحداً طعامَ العشرةِ لا يقعُ إلا عن الواحدِ، إلا أنَّ أصحابَنا إنَّما اختاروا دفعَ ذلك إلى الواحدِ في العشرة أيَّام على أعشار، والمعنى: لأنه جُوِّزَ على الحانث سدُّ عشرِ خِلات، ولا فرقَ بين سدِّ خلة الواحدِ في عشرة أيام، وسدِّ خلَّة العشرةِ في يوم واحدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ ؛ قرأ السُّلَّمي (أَوْ كُسْوَتُهُمْ) بضمِّ الكاف وهما لُغتان. ومعنى الآية: أو كسوةُ عشرةِ مساكين، و أدنى ما يجوزُ في الكسوة ثوبٌ واحد أو رداء أو قميص أو إزارٌ وقبَاءٌ أو كِسَاءٌ. وأما القَلَنسوة والْخُمُرُ والعمامَةُ والسراويلُ، فلا تجوز عن الكسوةِ في ظاهرِ الرواية.

وروي عن مُحمد أن السراويلَ تُجزئ لجواز الصلاة فيها للرجُل. وعند الشافعيِّ تجوزُ السراويل والعِمامة. وعند سعيد بن المسيَّب والضحاك: (يَجِبُ لِكُلِّ مِسْكِينٍ ثَوْبَانِ)[4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٦٧٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٦٦٧).

(٣) في المخطوط: (البحث).

(٤) أخرجه الطبري في البيان : النص (٩٧٢٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ ؛ معناهُ: أو إعتاقُ مملوكٍ يستوي فيه الذكر والأنثى؛ والصغيرُ والكبير. وظاهر اللفظِ يقتضي رقبةً مُسَلَّمَةً من العاهاتِ؛ لأن اسمَ الشخص بكمالِهِ، إلا أنَّ الفقهاءَ اتَّفقوا أن النقصَ اليسيرَ لا يمنعُ جوازَها.

ولا يجوزُ عِتْقُ أمِّ الولد، والمعتَقُ بعضُهُ بالإجماعِ، وأما المدبَّرُ فالخلافُ فيه كالخلافِ في بيعه، وأما المكاتَب فيجوزُ عِتقهُ عن الكفارةِ إذا لم يؤدِّ شيئاً من الكتابةِ عندنا. وقال الشافعيُّ: (لاَ يَجُوزُ).

ويجوزُ عندَنا عتقُ الرقبة الكافرةِ والمؤمنة في كفَّارة اليمينِ والظِّهار؛ لأن الرقبةَ مُبهَمة فيهما، إلا العبدَ المرتدَّ؛ فإنه لا يجوزُ؛ لأنه غير محقونِ الدم. وقال الشافعيُّ: (لاَ يَجُوزُ قِيَاساً عَلَى كَفَّارَةِ القَتْلِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ ؛ معناهُ: إذا لم يكن له فضلٌ عن كَسبهِ وثياب بدَنهِ وما يقتات به في منزلِهِ مقدارَ ما يطعمُ عشرةَ مساكين أو يكسُوهم ويعتقُ رقبةً، فعليه صيامُ ثلاثة أيَّام. وظاهرُ الآيةِ: يقتضي أنه يجزئُ في الصيام التفريقُ، وهو قول مالكٍ والشافعيُّ. وفي قراءةِ ابن مسعود وأُبَي بن كعب: (فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ)[1]. وعن ابن عبَّاس ومجاهد وإبراهيمَ وقتادة وطاووس؛ أنَّهم قالوا: (هِيَ مُتَتَبِعَاتٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ ؛ أي ذلك الذي ذكرتُ لكم، وأمَرتُكم به كَفَّارَةُ أيْمَانِكُمْ إذا حَلَفْتُمْ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ﴾ ؛ أي احفَظُوها من الحنثِ، وهذا إذا لم يقعِ اليمينُ على منعِ واجب أو فعلِ معصية، أما إذا كان اليمينُ على منعِ واجب أو فعلِ معصية، فعلى الحالف أن يحنثَ نفسه ويكفِّرَ عن يمينهِ.

ويقال: معناه: (احْفَظُوا أيْمَانَكُمْ) رَاعُوا ألفاظَ أيْمانِكم ليعلمَ الرجلُ ما حلفَ عليه فيكفِّرهُ إذا حنثَ. ويقال: معناهُ: لا تَحلِفُوا، كما قال الشاعرُ[2]:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٧٥٣-٩٧٥٦) عن عبدالله بن مسعود، والنص (٩٧٥٠) عن أبي بن كعب.

(٢) البيت لكثير عزة (٤٠-١٠٥هـ). ينظر: لسان العرب: مادة (ألا).

قَلِيـــلُ الأَلاَيَـــا حَـــافِظٌ لِيَمِينِـــهِ إذا بَـــدَرَتْ مِنْـــهُ الأَلْيَـــةُ بَـــرَّتِ

والتأويلُ الأول أقربُ إلى ظاهرِ الآية؛ لأن الإنسانَ لا يؤمَرُ بحفظ شيءٍ معدوم، لا يقالُ لِمَن لا مالَ له: احفَظْ مالَكَ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ أي هكذا يبيِّنُ الله لكم أمرَهُ ونَهيَهُ كما بيَّنَ كفارةَ اليمين؛ لكي تشكُروا إنعامَهُ وبيانه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ ﴾ ؛ الْمَيْسِرُ: هو القِمَارُ كلُّـه. والأَنْصَـابُ: هـي الأحجَـارُ؛ كـانوا ينصبونـها ويعبدونَها. والأَزْلاَمُ: هي الأَزْلاَمُ التي كانوا يُخيلونَها عند المعزمِ على الْمَسِيرِ.

نَهى اللهُ عن هذه الأشياءِ، وحرَّمَها بأبلغِ أسباب التحريم؛ لأنـه تعـالى سَـمَّاها كلها رجْساً، والرِّجْسُ: هو الشيءُ المستقذرُ النَّجِسُ، الذي يرتفع ((في القُبحِ))(١)، ذكرَهُ بالفتحِ؛ يقال: رَجَسَ الرَّجُلُ يَرْجِسُ، ورَجِسَ يَرْجِسُ. والرَّجْـسُ بفتـح الـراءِ: شـدَّةُ الصوتِ، ورعدٌ رَجَّاسٌ إذا كـان شـديدَ الصـوتِ. وسُـميت هـذه المعـاصي رجْسـاً؛ لوجوب اجتنابها كما يجبُ اجتناب الشيءِ المستقذر.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ ؛ أي من تزيينهِ؛ لأنه هو الداعِـي إليه والمرغِّبُ فيه والمزيِّـنُ لـه في قُلـوب فَاعليـه. وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ أمرٌ باجتنابهِ وهو تَركُه بَاطناً، وظـاهر الأمـرُ علـى الوجـوب. وروي عن عثمانَ بن عفَّان رضي الله عنه أنه قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يُجْمِعُ الْخَمْرَ وَالإيْمَانَ فِي قَلْب مُؤْمِنٍ أبَداً](٢). وقالَ ﷺ: [مُدْمِنُ الْخَمْـرِ كَعَـابدِ الْوَثَـنِ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ](٣).

---

(١) ما بـين (( )) سـقط مـن المخطـوط. في تـهذيب اللغـة: ج ١٠ ص٣٠٧؛ قـال الأزهـري: (والرَّجزُ بفتحِ الراء: شدَّةُ الصوت، فكأنَّ الرَّجسَ: العملُ الذي يقبُح ذِكرهُ ويرتفع في القُبحِ).

(٢) أخرجه ابن حبان في موارد الضمآن: الحديث(١٣٧٥). وفي الإحسان: كتاب الأشربة: الحديـث (٥٣٤٨) بإسناد ضعيف عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ. قال الشـيخ شـعيب: ((إسـناده ضعيـف والصواب وقفه كما قال الدارقطني)).

(٣) أخرج شطره الأول ابن أبي شيبة في المصنف: كتاب الأشربة: في الخمر وما جاء فيها: الحديث=

وقالَ ﷺ: [مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا سَقَاهُ اللهُ مِنْ سُمِّ الأَسَاوِدِ، وَسُمِّ الْعَقَارِب، إذا شَرِبَهُ تَسَاقَطَ لَحْمُ وَجْهِهِ فِي الإنَاءِ قَبْلَ أنْ يَشْرَبَهَا، فَإذا شَرِبَهَا يُفَسِّخُ لَحْمُهُ بالْجِيفَةِ، يَتَأَذى بِهِ أهْلُ الْمَوْقِفِ. وَمَنْ مَاتَ قَبْلَ أنْ يَتُوبَ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أنْ يَسْقِيَهُ بكُلِّ جُرْعَةٍ شَرِبَهَا فِي الدُّنْيَا شَرْبَةً مِنْ صَدِيدِ أهْلِ جَهَنَّمَ](١).

وقال ﷺ: [لَعَنَ اللهُ الْخَمْرَ وَسَاقِيهَا؛ وَشَارِبَهَا؛ وَبَائِعَهَا؛ وَمُبْتَاعَهَا؛ وَعَاصِرَهَا؛ وَمُعْتَصِرَهَا؛ وَحَامِلَهَا؛ وَالْمَحْمُولَةَ إلَيْهِ؛ وآكِلَ ثَمَنِهَا](٢). وقالَ ﷺ: [اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ، فَإنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ](٣). وقال ﷺ: [مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ بَعْدَ أنْ حَرَّمَهَا اللهُ عَلَى لِسَانِي، فَلَيْسَ لَهُ أنْ يُزَوَّجَ إذا خَطَبَ، وَلاَ يُصَدَّقَ إذا حَدَّثَ، وَلاَ يُشَفَّعَ إذا شَفَعَ، وَلاَ يُؤْتَمَنَ عَلَى أمَانَةٍ؛ فَمَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَى أمَانَةٍ فَاسْتَهْلَكَهَا فَحَقٌّ عَلَى اللهِ تَعَالَى أنْ لاَ يُخْلِفَ عَلَيْهِ](٤).

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ ؛ وذلك أنَّ مَن شربَ الخمر وسَكِرَ زال عقلهُ وارتكبَ القبائحَ، وربَّما عَرْبَدَ على جُلسائه، فيؤدِّي ذلك إلى العداوةِ والبغضاء، وكذلك القمارُ يؤدِّي إلى ذلك. قال قتادةُ: (كَانَ الرَّجُلُ يُقَامِرُ غَيْرَهُ عَلَى مَالِهِ وَأهْلِهِ، فَيَقْمِرُهُ وَيَبْقَى حَزِيناً سَلِيباً، فَيُكْسِبُهُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ لِذهَاب مَالِهِ عَنْهُ بغَيْرِ عِوَضٍ وَلاَ مِنَّةٍ)(٥).

=(٢٤٠٦٠) عن أبي هريرة. وابن ماجة في السنن: كتاب الأشربة: الحديث (٣٣٧٥) وإسناده حسن إن شاء الله.

(١) أخرجه الطبراني مختصراً في المعجم الكبير: الحديث (٧٨٥٢).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الأشربة: حرمت الخمر: الحديث (٧٣١٠)، وقال: حديث صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: الحديث (٨٨٤) مختصراً عن عبدالله بن معقل. وأخرجه بلفظه الحاكم في المستدرك: كتاب الأشربة: باب اجتناب الخمر: الحديث (٧٣١٣) عن ابن عباس؛ وقال: صحيح الإسناد.

(٤) في كنز العمال: الحديث (١٣٢٣١) قال الهندي: أخرجه ابن النجار عن علي.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٧٦٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ؛ أي يريدُ الشيطان أن يَصرفَكم عن طاعةِ الله وعن الصَّلوات الخمسِ على ما هو معلومٌ في العادةِ من أحوال أهلِ الشَّراب والقِمار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ ؛ معناهُ: انْتَهُوا عنهُما، وهذا نَهيٌ بألطفِ الوجُوهِ؛ ليكون أدعى إلى تنهاكما، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1] معناه: أسلِمُوا. فلمَّا نزَلت هذه الآيةُ قالوا: (انْتَهَيْنَا يَا رَبُّ). فأنزلَ الله تعالى هذه الآيةَ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ﴾ ؛ أي أطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ في تركِ جميعِ المعاصي عُموماً، واحذرُوا شُربَ الخمرِ وتحليلها وسائرِ المعاصي، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ ؛ أي أعرَضتُم عن طاعةِ الله وطاعة الرسول، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ ؛ أي تبليغُ الرسالة عن اللهِ بأوامره ونواهيه بلُغَة تعرفونَها. وأما التوفيقُ والخذلان والثواب والعقابُ، فإلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فلمَّا نزلَ تحريمُ الخمرِ والميسر قال الصحابةُ: (يَا رَسُولَ اللهِ! فَكَيْفَ بإخْوَانِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ؟) حتى قال المهاجِرون: (يَا رَسُولَ اللهِ! قُتِلَ أصْحَابُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَمَاتُوا فِيمَا بَيْنَ بَدْرٍ وَأحُدٍ وَهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ؛ فَمَا حَالُ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ؟)[2] فأنزل اللهُ قولَهُ تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ ؛ أي فيما شَربوا من الخمرِ، ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ ؛ الشِّركَ، ﴿وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ؛ وصدقوا واجتنبوا الخمرَ والميسرَ بعد تحريمِها، ﴿وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ؛ ما حرَّمَ الله كلَّهُ، ﴿وَّأَحْسَنُواْ﴾ .

وَقِيلَ: معناه:(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا- بالله ورسوله- وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يعني الطاعاتِ (جُنَاحٌ) أي حرَجٌ ومَأثَمٌ (فِيمَا طَعِمُوا) من الحرامِ وشربوا من الخمرِ قبل

---

(١) هود / ١٤.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٧٧٠) عن ابن عباس، والنص (٩٧٧٢) عن البراء، وينظر النصوص (٩٧٧٣-٩٧٧٨).

تحريمها، وقبل العلمِ بتحريمها إذا ما اجتَنبوا الكفرَ والشِّركَ وسائرَ المعاصي فيما مضى، (وَآمَنُوا) أي وصدَّقوا بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن (وَعَمِلُوا) الطاعات (ثُمَّ اتَّقَوْا) شربَ الخمرِ بعد التحريم (وَآمَنُوا) أي أقرُّوا بتحريمها (ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا) أي ثم دَاوَمُوا على ذلك وضَمُّوا إلى ذلك الإحسانَ في العملِ.

وَقِيْلَ: أرادَ بالاتقاءِ الأول: اتقاءُ جميع المعاصِي فيما مضَى، وأراد بالثانِي: اتقاءُ المعاصي في المستقبلِ، وأراد بالثالثِ: اتقاءُ ظُلمِ العباد في المعاملاتِ. وَقِيْلَ: أرادَ بقوله: (إذا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا) إذا ما اجتَنبوا شُربَ الخمرِ بعد تحريمها وصدَّقوا بتحريمها، (ثُمَّ اتَّقَوْا) سائرَ المعاصي، وأقرُّوا بتحريم ما يحدُثُ تحريمهُ من بعد مجانبته، ثم جَمعوا بين اتِّقاء المعاصي وإحسانِ العملِ والإحسانِ إلى الناسِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾؛ أي يرضَى عملَ الذين يفعلُون الأفعالَ الحسَنة، ويجتنبون قبائحَها.

ورُوي عن ابن عبدالرحمن السلَمي أنه قالَ: (شَرِبَ نَفَرٌ مِنْ أهْلِ بَدْرٍ الْخَمْرَ وَعَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ يَزِيدُ بْنُ أبي سُفْيَانَ، وَقَالُوا: هِيَ لَنَا حَلاَلٌ! وَتَأوَّلُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا) إلَى آخِرِ الآيَةِ. وَكَتَبَ يَزِيدُ بذلِكَ إلَى عُمَرَ ﷺ، فَكَتَبَ عُمَرُ: ابْعَثْهُمْ إلَيَّ مِنْ قَبْلِ أنْ يُفْسِدُوا مَنْ مَعَكَ، فَبَعَثَهُمْ إلَيْهِ، فَلَمَّا قَدِمُوا، جَمَعَ عُمَرُ ﷺ جَمَاعَةً ((مِنَ الصَّحَابَةِ)) فَقَالَ لَهم: مَا تَرَوْنَ فِيهِمْ؟ قَالُوا: إنَّهُمُ افْتَرَوا عَلَى اللهِ، وَشَرَعُوا فِي دِينِهِ مَا لَمْ يَأذنْ؛ فَاضْرِبْ أعْنَاقَهُمْ. وَكَانَ فِي الْقَوْمِ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ وَهُوَ سَاكِتٌ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا تَرَى؟ قَالَ: أرَى أنْ تَسْتَتِيبَهُمْ، فَإنْ تَابُوا فَاضْرِبُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، وَإنْ لَمْ يَتُوبُوا فَاضْرِبْ أعْنَاقَهُمْ. فَاسْتَتَابَهُمْ فَتَابُوا، فَضَرَبَهُمْ ثَمَانِينَ وَأرْسَلَهُمْ)(١).

ورُوي: (أنَّ قَوْماً شَهِدُوا عِنْدَ عُمَرَ ﷺ عَلَى قُدَامَةَ بْنِ مَضْعُونٍ أنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ، فَأرَادَ عُمَرُ أنْ يَجْلِدَهُ؛ فَقَالَ قُدَامَةُ: لَيْسَ لَكَ ذلِكَ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ:

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: كتاب الأشربة: باب من حُدَّ من أصحاب النبي ﷺ: الحديث (١٧٠٧٦) عن عبدالله بن عامر بن ربيعة. والبيهقي من طريق في السنن الكبرى: كتاب الأشربة: الأثر (١٨٠٠٧) عن محمد بن سيرين.

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا) وَقَرَأَ الآيَةَ. فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: إنَّكَ أخْطَأْتَ التَّأْوِيلَ يَا قُدَامَةُ؛ لَو اتَّقَيْتَ اللهَ مَا شَرِبْتَ). وفي بعضِ الروايات: (لَوِ اتَّقَيْتَ اللهَ لاَجْتَنَبْتَ مَا حَرَّمَ عَلَيْكَ. ثُمَّ أمَرَ بإقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِ)[1].

وإنما لم يَحكُموا بكُفرِ قُدامة ولم يستتيبوهُ؛ لأنه كان يتأوَّلُ الآيةَ على الحال الذي هو فيها، ووجودُ الصِّفة التي ذكرَها اللهُ تعالى في هذه الآيةِ مكفِّرةٌ لذنوبه، وأنه لا يستحقُّ العقوبةَ على شُربها مع اعتقادهِ بتحريمها، وإنَّ إحسانَهُ كفَّرَ سيِّئاته، فردَّت الصحابةُ عليه هذا التأويلَ، فأُقيمَ عليه الحدُّ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي ليعاملنَّكم اللهُ معاملةَ المختبرِ ليجازيَكم على ما يظهرُ منكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ ﴾ ؛ اختلَفُوا فيه؛ فقال بعضُهم: (مِن) ها هنا للتبعيضِ، وأرادَ بذلك صيدَ البرِّ دون صيد البحرِ، وصيدَ الإحرامِ دون الإحلالِ.

وقال بعضهم: (مِن) ها هنا للجنس كقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[2] معناه: اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الذي هو وثَنٌ. وقال بعضُهم: أرادَ بقوله: (بشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ) بما يكون من جزاءِ الصَّيد وإن لم يكن صَيداً كالبيضِ والفرخ والريشِ، والآية شاملةٌ لجميع هذه المعانِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ ﴾ ؛ أي تأخذونَهُ بأيديكم من فراخِ الطَّير وصغار الوحش والبيض، وما تصيبهُ رماحُكم من كبار الصَّيد التي لا تُصاد باليدِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ ؛ أي ليميِّزَ اللهُ مَن يخافهُ ممن لا يخافه في السرِّ بينه وبين اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي من تجاوزَ الحدَّ في أخذ صيدِ البرِّ مع الإحرامِ، وأخذ الصيد في الحرمِ بعد البيان له والنهيِ عنه، ﴿ فَلَهُۥ

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: الأثر (١٧٠٧٦). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٢٩٨؛ قال: ((ذكره الحميدي عن أبي بكر البرقاني عن ابن عباس)).

(٢) الحج / ٣٠.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ؛ يعني التعزيرَ والكفَّارة في الدُّنيا؛ يفرق الضربُ على أعضائهِ كلِّها ما خلاَ الوجهَ والرأس والفرجَ، فيضربُ ضَرباً وجيعاً ويؤمر بالكفَّارة، ويكون هذا المتعدِّي مأخوذاً بعذاب الآخرة إن ماتَ قبل التوبة.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ ؛ رُوي أن هَاتين الآيتَين نزلَتا بالحديبيةِ، وكان أصحابُ رسول الله ﷺ مُحرمين، وكان الصيدُ من الوحشِ والطير يغشَى رحالَهم. وفي قوله: (وَأَنْتُمْ حُرُمٌ) وجهان؛ أحدُهما: وأنتم مُحرِمون بحجٍّ أو عُمرة، والثاني: وأنتم داخِلون في الحرَمِ.

وقولهُ تعالى: (لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ) دليلٌ على أن كلَّ ما يقتلهُ المحرِمُ من الصيدِ لا يكون مِلكاً؛ لأن اللهَ تعالى سَمَّى ذلك قَتلاً، ولا يجوزُ أكلُ المقتولِ وإنما يجوز أكلُ المذبوحِ على شرط الذكاة.

والصيدُ في اللغة: اسمٌ لكل مُمتَنعٍ متوحِّش، فلا يفرقُ الحكمِ في وجوب الحلِّ بين المأكول منه وبين غيرِه، إلا أنه رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [خَمْسٌ فَوَاسِقَ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحَيَّةُ؛ وَالْعَقْرَبُ؛ وَالْغُرَابُ؛ وَالْفَأْرَةُ؛ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ][1]. وأرادَ بالكلب العقور: الذئبَ على ما وردَ في بعض الرواياتِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ ؛ روي أنه نزلَ في كعب بن عمرٍو[3]؛ عُرِضَ له حمارُ وحشٍ فطعنَهُ برُمحهِ فقتلَهُ، ولم يكن عَلِمَ بنُزولِ التحريمِ.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب المناسك: باب ما يقتل المحرم من الدواب: الحديث (١٨٤٨). والترمذي في الجامع: أبواب الحج: باب ما يقتل المحرم من الدواب: الحديث (٨٣٧٤) عن عائشة، والحديث (٨٣٧٥) عن ابن عمر.

(٢) عن عبدالله بن سيلان أنه سأل أبا هريرة عن الكلب العقور؛ فقال: ((هو الأسد)). أخرجه عبدالرزاق في المصنف: الأثر (٨٣٧٨).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٣٠٢؛ قال القرطبي: (وروي أن أبا اليُسَر – واسمه عمرو بن مالك الأنصاري – كان محرماً عام الحديبية بعُمرة فقتل حمار وحش فنزلت فيه). وفي تهذيب التهذيب: ج ٦ ص٥٧٧: الرقم (٥٨٤٠)؛ قال ابن حجر: (كعب بن عمرو بن عباد الأنصاري السُّلمي: أبو اليَسَر، روى عن النبي ﷺ... فكان من آخر الصحابة موتاً).

واختلَفُوا في صفـةِ العمـلِ الموجـب للجـزاءِ والكفَّـارة في قتـلِ الصيـد، فقـال الأكثرون من أهلِ العلم: سواءٌ قَتَـلَ الْمُحـرِمُ الصَّيـدَ عَمـداً أو خطـأً فعليـه الجـزاء، وجعلوا فائدةَ تخصيصِ العمل بالذِّكر في هذه الآيةِ ما في نَســخِها بقولـه: (وَمَـنْ عَـادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ)؛ لأن المخطئَ لا يجوزُ أن يلحقه الوعيدُ[١].

والقول الثانِي: ما رُوي عن قتادةَ وطاووس وعطاء؛ أنَّهم قالوا: (لاَ شَيْءَ عَلَى الْخَاطِئِ) وهو روايةٌ عن ابنِ عبَّاس.

والقولُ الثـالث: وهـو قـولُ مجـاهدٍ والحسـن: (أنَّ الْمُـرَادَ بـهِ إذا قَتَلَـهُ نَاسِـياً لإحْرَامِهِ، وَحَصَلَ الْقَتْلُ عَمْداً)[٢]. وهذا القولُ يقتضي أن غيرَ العامدِ الذاكر لإحرامهِ لا يؤمَرُ بالكفَّارة، ولكنَّ اللهَ يعاقبهُ في الآخرةِ على ما فعلَهُ. وعلى هذا التأويلِ قـالوا: إنَّ معنى قولهِ: (وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ) أي عادَ إلى هذا الفعلِ من بعد العلمِ بالنهي، كان عقوبتهُ النقمة ينتقمُ الله منه.

وقال آخَرون: هو القتلُ عَمـداً وهـو ذاكـرٌ لإحرامـه، فحُكـم عليـه في العمـدِ والخطأ الكفارةُ والجزاء، وهو اختيارُ الشافعيِّ. وقال الزهريُّ: (نَـزَلَ الْقُـرْآنُ بـالْعَمْدِ، وَجَرَتِ السُّنَّةُ بالْخَطَأ)[٣]. وقال ابنُ عبَّاس: (إنْ قَتَلَهُ عَمْداً سُئِلَ: هَلْ قَتَلَ قَبْلَـهُ شَـيْئاً مِنَ الصَّيْدِ؟ فَإنْ قَالَ: نَعَمْ؛ لَمْ يُحْكَمْ عَلَيْهِ، وَيُقَالُ لَـهُ: اذْهَـبْ، فَيَنْتَقِـمُ اللهُ مِنْـهُ، وَإنْ قَالَ: لَمْ أقْتُلْ قَبْلَهُ شَيْئاً، حُكِمَ عَلَيْهِ، فَإنْ عَادَ إلَى قَتْلِ الصَّيْدِ ثانياً وَهُوَ مُحْـرِمٌ بَعْدَمَـا حُكِمَ، ولَمْ يُحْكَمْ عَلَيْهِ ثانياً، ويُمْلأُ بَطْنُهُ وَظَهْرُهُ ضَرْبـاً وَجِيعـاً)[٤]. وعندَنـا إذا عـادَ حُكم عليه ثانياً، وعليه الجمهورُ.

وقال بعضُهم: إذا قتلَهُ عَمداً وهو ذاكرٌ لإحرامهِ، فلا حُكم عليه، وأمرهُ إلى اللهِ تعالى؛ لأنه أعظمُ من أن يكون له كفَّارةٌ. والقولُ الأول أصحُّ هذه الأقاويلِ كلِّها؛ لأن

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٧٨٧) عن عطـاء، والنـص (٩٧٨٨) عـن طـاووس، والنص (٩٧٩٠) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النصوص (٩٧٨٢) والنص (٩٧٨٤) عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٧٨٩).

(٤) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٨٦٥ و٩٨٦٦).

سائرَ جنايات الإحرامِ لا تختلفُ بين المعذور وغير المعذور، وإنَّ الله تعالى أحلَّ للمُحرِم والمريضِ حلقَ الرأس على الأذى، وأوجبَ عليه الفديةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ) نوَّنَهُ أهلُ الكوفة، ورفَعوا الـ (مِثْلُ) على البدلِ من الجزاءِ، كأنه فسَّرَ الجزاء؛ أي فعليهِ جزاءٌ مثل الصيدِ المقتول من النِّعم. وقرأ الباقون بالإضافةِ، ومعناهُ: عليه أن يجزي بمثلِ المقتول؛ أي يشتري بقيمته من النَّعَمِ فيذبح. وقد تجوزُ إضافة الشيءِ إلى نفسه كما يقال: ثوبٌ جزوبات جديدٌ[1]، ويومُ الجمعةِ.

ويحتملُ أن يكون معناه: عليه جزاءٌ مثل النَّعَم المقتولِ، ومثلُ النَّعمِ المقتول: قيمتهُ من جهةِ الْحُكْمِ، ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

وقولهُ تعالى: ﴿هَدْيًا﴾؛ منصوبٌ على الحال؛ أي يَحكُمان بقدر أن يهدي. وقولهُ تعالى: ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾؛ لفظه لفظُ المعرفةِ ومعناهُ النَّكِرَةُ، كأنه قال: بَالغاً الكعبةَ، إلا أن التنوينَ حُذف استخفافاً، وكنَّى بالكعبةِ عن الحرَمِ؛ لأن حُرمتَهُ لأجلِ الكعبة. وفي ذكرِ بُلوغ الكعبة بيانُ اختصاصٍ من هذا الجزاءِ بالحرَمِ، وأنه لا يجوزُ ذبحهُ إلا فيه. ومعنى قولهِ تعالى: (فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ) أي فعلَى القاتلِ الفداءُ مثل المقتولِ من النعم.

والنَّعَمُ في اللغة: من الإبلِ والبقر والغنمِ، فإذا انفردَت الإبلُ قِيلَ: إنَّها نَعَمٌ، وإذا انفردت البقرُ والغنم لم تسمَّ نَعَماً.

واختلفَ أهلُ العلم في كيفيَّة الجزاء، فقال أبو حَنيفة وأبو يوسف: (يَنْظُرُ الْحَكَمَان الْعَدْلاَن مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ إلَى الصَّيْدِ الْمَقْتُول، فَيُقَوِّمَانِهِ حَيّاً فِي ذلِكَ الْمَكَان وَذلِكَ الزَّمَان، فَإذا عُرِفَتِ الْقِيمَةُ خُيِّرَ الْقَاتِلُ، فَإنْ شَاءَ اشْتَرَى بتِلْكَ الْقِيمَةِ هَدْياً مِنَ النَّعَمِ فَذبَحَهُ فِي الْحَرَمِ، وَإنْ شَاءَ اشْتَرَى بهَا طَعَاماً فَأَطْعَمَهُ مَسَاكِينَ الْحَرَم وَغَيْرَهُمْ؛ كُلَّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ، أوْ صَاعٍ مِنْ تَمْرٍ أوْ شَعِيرٍ كَمَا فِي

(١) هكذا رودت في المخطوط بوضوح تام.

الْكَفَّارَاتِ. وَإِنْ شَاءَ صَامَ مَكَانَ كُلِّ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ نِصفَ يَوْمٍ، وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ قِيمَةُ الصَّيْدِ إطْعَامَ مِسْكِينٍ، صَامَ يَوْماً كَامِلاً إذا اخْتَارَ الصَّوْمَ؛ لأَنَّ الصَّوْمَ مِمَّا لاَ تَبْعِيضَ فِيْهِ).

وقال مُحَمد والشافعيُّ: (إنْ كَانَ لِلصَّيْدِ الْمَقْتُولِ مِثْلٌ مِنَ النَّعَمِ مِنْ جِهَةِ الْخِلْقَةِ، كَانَ عَلَى الْقَاتِلِ النَّظِيرُ فِي الْخِلْقَةِ؛ فَيَجِبُ عَلَيْهِ فِي النَّعَامَةِ بَدَنَةٌ؛ وَفِي بَقَرِ الْوَحْشِ بَقَرَةٌ؛ وَفِي الظَّبْي شَاةٌ؛ وَفِي الْغَزَال عَنْزٌ؛ وَفِي الأَرْنَبِ عَنَاقٌ؛ وَفِي الْيَرْبُوعِ جَفْرَةٌ. وَإنْ لَمْ يَكُنْ لِلصَّيْدِ مِثْلٌ مِنْ جِهَةِ الْخِلْقَةِ، كَانَ عَلَيْهِ قِيمَتُهُ). وعن محمَّد الخيار في هذا إلى الحكَمين دون التعيين، وهو قولُ مالكٍ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَحْكُمُ بِهِ ذوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) أي يحكمُ بالجزاءِ فقيهان عَدْلانِ ينظُران إلى أشبهِ الأشياء به، فيحكُمان به.

ورُوي عن قُبيصة بن جابرٍ قال: (خَرَجْنَا حُجَّاجاً، وَكُنَّا إذا صَلَّيْنَا الْغَدَاةَ أوْقَدْنَا نَاراً، وَاَحَلْنَا بشَيْءٍ وَنَتَحَدَّثُ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ ذات يَوْمٍ إذْ سَنَحَ لَنَا ظَبْيٌ، فَابْتَدَرْتُهُ وَرَمَيْتُهُ بحَجَرٍ فَأَصَبْتُ حَشَاهُ، فَوَكَبَ دِرْعَهُ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ سَأَلْنَا عُمَرَ ﷺ وَكَانَ حَاجّاً، وَكَانَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ جَالِساً عِنْدَهُ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذلِكَ فَقَالَ لِعَبْدِالرَّحْمَنِ: مَا تَرَى؟ قَالَ: عَلَيْهِ شَاةٌ، قَالَ: وَأنَا أرَى ذلِكَ، قَالَ: فَاذْهَبْ فَاهْدِ شَاةً. قَالَ: فَخَرَجْتُ إلَى صَاحِبي فَقُلْتُ: إنَّ أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ حَتَّى سَأَلَ غَيْرَهُ، قَالَ: فَلَمْ يَفْجَأْنَا إلاَّ عُمَرُ وَمَعَهُ الدُّرَّةُ، فَعَلاَنِي بالدُّرَّةِ، قَالَ: أتَقْتُلُ فِي الْحَرَمِ وَتُغْمِضُ الْفَتْوَى؟! قَالَ اللهُ تَعَالَى: (يَحْكُمُ بِهِ ذوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) فَأنَا عُمَرُ، وَهَذا عَبْدُالرَّحْمَنِ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ ﴾؛ فيه قراءتان؛ أحدُهما: الرفعُ والتنوين في (كَفَّارَةٌ)، والرفعُ في (طَعَامُ) من غيرِ تنوين. والأُخرى: الرفعُ في (كَفَّارَةُ) بغير تنوينٍ، والخفض في (طَعَامِ) على الإضافةِ.

---

(١) في معالم التنزيل: ص٣٩٨؛ قال البغوي: (قال مالك: إن لم يخرج المثل يقوِّمُ الصيد ثم يجعل القيمة طعاماً فيتصدق به، أو يصوم).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٨٠٨) وما بعده. وفي الدر المنثور: ج ٣ ص١٩١؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه...)) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾ ؛ أي ليذوق عقوبة صُنعهِ. والوَبَالُ: تقبُّل الشيءِ في المكروه، مأخوذٌ من الوبيل، يقال: طعامٌ وبيلٌ؛ وماء وبيلٌ؛ إذا كانا ثقيلين، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾[١] أي ثقيلاً شديداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ ؛ أي تجاوزَ اللهُ عما مضَى من قتلِ الصيد قبل التحريم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ﴾ ؛ أي من عادَ إلى قتلِ الصيد بعد العلم بالتحريم متعمِّداً لقتلهِ يعذِّبهُ الله في الآخرة ويعاقبهُ على فعلهِ. وأصلُ الانتقامِ: الانتصارُ والانتصاف، وإذا أُضيفَ إلى الله تعالى أُريدَ به المعاقبةُ والمجازاة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ أي منيعٌ بالنقمة ينتقمُ مِمَّن عصاهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ أي أُحِلَّ لكم اصطيادُ ما في البحرِ، ﴿ وَطَعَامُهُۥ ﴾ ؛ أي ما لَفَظَهُ البحرُ وحسرَ عنه الماءُ، وهذا قول أبي بكرٍ[٢] وعمر وأبي هريرة[٣]. وقال بعضُهم: (طَعَامُهُ) هو الملحُ؛ وهو قولُ سعيدِ بن جُبير وعكرمة والنخعي وقتادة.

وقولهُ تعالى: ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ ﴾ ؛ أي منفعةً لكم. وهو مصدرٌ مؤكِّد للكلامِ؛ أي تمتَّعوا مَتاعاً لكم. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ ؛ أي ومنفعةٌ للمارَّة في السفر. قال ابن عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي قَوْمٍ مِنْ بَنِي مُدْلَجٍ، كَانُوا أهْلَ صَيْدِ الْبَحْرِ، أتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: إنَّا نَصْطَادُ فِي الْبَحْرِ، وَرُبَّمَا يَعْلُو الْبَحْرُ وَرُبَّمَا مَدَّ الْبَحْرُ، فَيَعْلُو الْمَاءُ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ يَرْجِعُ وَيَبْقَى السَّمَكُ بالأَرْضِ، وَيَذْهَبُ الْمَاءُ عَنْهُ فَنُصِيبُهُ مَدّاً، فَحَلاَلٌ لَنَا أكْلُهُ أمْ لاَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ).

---

(١) المزمل / ١٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٨٨٩) عن ابن عباس رضي الله عنهم جميعاً؛ قال: ((خطب أبو بكر الناسَ فقال: أحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ، وَطَعَامُهُ: مَا قَذَفَ))، والنص (٩٨٧٧).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٨٩٠) وفيه اتفاق عمر وأبي هريرة في الفتوى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ ؛ أي وحرَّمَ عليكم اصطيادَ ما في البرِّ. ويقالُ: عَينُ صيدِ البر ما دُمتم مُحرِمين، ولا خلافَ في الاصطيادِ أنه حرامٌ على الْمُحرِمِ في البرِّ، فأما عينُ الصيدِ فإن صادَهُ حلالٌ بأمرِ الْمُحرمِ أو بإعانتِهِ أو دلالته وإشارتِهِ حَرُمَ على المحرمِ تناولهُ، وإنْ صادَهُ حلالٌ بغيرِ أمر المحرمِ حلَّ للمحرم تناولهُ كما رُوي في حديث أبي قتادةَ؛ قالَ: (كُنْتُ فِي رَهْطٍ مِنَ الْمُحْرِمِينَ وَأنَا حَلاَلٌ، فَبَصُرْتُ بِحِمَار وَحْشٍ فَقُلْتُ: نَاولْنِي الرُّمْحَ، فَأبَوا، فَأَخَذْتُهُ وَأتَيْتُ الصَّيْدَ، فَسَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ أكْلِهِ فَقَالَ: [هَلْ أعنْتُمْ؟ هَلْ أشَرْتُمْ؟ هَلْ دَلَلْتُمْ؟] فَقَالُوا: لاَ؛ فَقَالَ:[إذاً فَكُلُوا](1)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي اتَّقوا اللهَ في أخذِ الصَّيد في الإحرامِ الذي إلى موضعِ جزائه تُبعثون.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ ؛ أي جعلَ الله الكعبةَ أمْناً للناس، بها يقُومون ويأمنون، وذلك أنَّ الرجلَ كان إذا أصابَ ذنباً في الجاهليَّة والإسلامِ، أو قتلَ قتيلاً لجأ إلى الحرمِ فأمِنَ بذلك، وكانت الكعبةُ قِوَاماً لمعايشِهم وعماداً لَهم في أمرِ دينهم ودُنياهم؛ لِمَا يحصلُ في ذلك من الحجِّ والعُمرة والتجاراتِ، وما يجيءُ إلى الحرمِ من ثمرات كلِّ شيء.

وَقِيْلَ: معنى قوله: (قِيَامًا لِلنَّاسِ) أي قِبلَةً لهم، أمروا أن يقوموا في الصلاةِ متوجِّهين إليها. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ) أي جعلَ الشهر الحرامَ آمِناً أيضاً، كانوا إذا دخلَ الشَّهرُ الحرامُ لم يقتُلوا فيه أحداً حتى يمضيَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ ؛ جعل الهديَ الذي يُهدى إلى البيت أمناً للرِّفقة، وجعلَ القلائدَ أمناً، والقلائدُ البُدْنُ من البقرِ والإبل كانوا يقلِّدونَها بنعلٍ أو خُفٍّ، وربَّما كانوا يقلِّدون رواحلَهم إذا رجَعوا من مكَّة من لحاءِ شجرِ الحرم فيأمَنون

---

(١) أخرجه البخاري بمعناه في الصحيح: كتاب الصيد: باب إذا صاد الحلال: الحديث (١٨٢١)، وباب إذا المحرمون صيداً: الحديث (١٨٢٢). ومسلم في الصحيح: كتاب الحج: باب تحريم الصيد: الحديث (٩٥ و٦٤/ ١١٩٦).

بذلك، وكان أهلُ الجاهلية يأكلُ الواحد منهم القضيبَ والشجرَ من الجوع وهو يرَى الهديَ والقلائد فلا يتعرَّضُ له تعظيماً له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾؛ معناهُ: ذلك أمرُ الجاهلية دليلٌ أنه تعالى يعلمُ ما في السَّموات وما في الأرضِ وما فيه صلاحُ الخلقِ إذ جعلَ في أعظمِ الأوقات فَساداً يؤمَنُ به، وشرعَ الحجَّ وفيه مصالِحُ الخلقِ على نحو ما تقدَّمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ لمن استحلَّ ما حرَّمَ اللهُ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾﴾؛ لمن تابَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾؛ أي ما على مُحَمَّدٍ ﷺ إلاّ تبليغُ الرسالة في أمرِ الثواب والعقاب، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾؛ أي ما تُظهِرون من القولِ والعملِ، ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾؛ وليس على مُحَمَّدٍ طلبُ سرائركم، ولا يعلمُ السرائرَ إلاّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ: لا يستوي الحلالُ والحرام، ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾؛ ولو أعجبكَ كثرةُ الحرامِ، فمثقالُ حبَّة من الحلالِ أرجحُ عندَ الله من جبالِ الدُّنيا من حرامٍ.

وَقِيْلَ: معناهُ: ولا يستوي الكافرُ والمؤمن ولو أعجبكَ كثرةُ الكافرِ، والعدلُ والفاسقُ وإنْ كان في الفُسَّاق كثرةٌ، ولا يباركُ في الحرام وإنما يباركُ في الحلال، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾؛ أي اخشَوا عذابَ الله في أخذِ الحرام يا ذوي العقولِ، لكي تفوزُوا بالنجاةِ والسَّعادات في الآخرةِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾(1) قَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَيْدٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفِي كُلِّ عَامٍ؟

(1) آل عمران / ٩٧ .

فَوَجَدَ مِنْ قَوْلِ ذلِكَ الرَّجُلِ وَجْداً شَدِيداً، ثُمَّ قَالَ لَهُ: [مَا كَانَ يُؤْمِنُكَ أَنْ أَقُولَ: نَعَمْ، فَيَجِبُ عَلَيْكُمْ فِي كُلِّ عَامٍ فَلاَ تُطِيقُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ كَفَرْتُمْ، ذرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ](١).

وفي بعض الروايات: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ خَطِيباً، فَسَأَلَهُ النَّاسُ عَنْ أَشْيَاء، فَقَالَ:[لاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إلاَّ حَدَّثْتُكُمْ بِهِ]، فَأَكْثَرُوا عَلَيْهِ السُّؤَالَ حَتَّى سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الْحَجِّ: أَفِي كُلِّ عَامٍ ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَ الرَّجُلُ عَلَيْهِ ثَالِثاً، فقال ﷺ: [لَوْ قُلْتُ لَكُمْ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ] فَقَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: أَفِي الْجَنَّةِ أَنَا أَمْ فِي النَّار ؟! فَاشْتَدَّ ذلِكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا باللهِ رَبّاً وَبالإسْلاَمِ دِيناً وَبكَ نَبيّاً، نَعُوذُ باللهِ مِنْ غَضَبِ اللهِ وَغَضَبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَرَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الْغَضَبُ(٢).

وروي: أن رجلاً قال يا رسولَ اللهِ أين أبي ؟ فقال: [فِي النَّار]، فَقَامَ عُمَرُ رضي الله عنه وَقَالَ: رَضِينَا باللهِ رَبّاً وَبالإسْلاَمِ دِيناً وَبمُحَمَّدٍ نَبياً وَبالْقُرْآن إمَاماً، إنَّا يَا رَسُولَ اللهِ حَدِيثُو عَهْدٍ بالْجَاهِلِيَّةِ فَاعْفُ عَنَّا عَفَا اللهُ عَنْكَ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ(٣).

وروِيَ: أنَّ رَجُلاً مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ عَبْدُاللهِ بْنُ حُذافَةَ، وَكَانَ يُطْعَنُ فِي نَسَبهِ إذا لاَحَى؛ أيْ يُدْعَى لِغَيْرِ أبيهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أبي؟ قَالَ: [أبُوكَ حُذافَةُ]. قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَقَالَتْ أمُّهُ: مَا رَأيْتُ وَلَداً أعَقَّ مِنْكَ قَطْ! أكُنْتَ تَأْمَنُ أنْ تَكُونَ أمُّكَ قَارَفَتْ مَا قَارَفَ ((نِسَاءُ)) أهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَيَفْضَحَهَا عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ(٤).

وفي رواية أخرى: أنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُ: [أبُوكَ حُذافَةُ]، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أبي فُلاَنٌ، قَالَ: [إنَّكَ وَلَدُ الزَّانِيَةِ، وَإنَّ الَّذِي وُلِدْتَ عَلَى فِرَاشِهِ كَانَ كَثِيرَ الْمَالِ،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٩٩٨٢) وإسناده ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٩٧٨ و٩٩٧٩). وأصله أخرجه البخاري في الصحيح، ومسلم في الفضائل.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٩٧٧).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٩٧٣). والبخاري في الصحيح: تفسير سورة المائدة: باب (١٢).

فَتعَرَّضَتْ أُمُّكَ لِحُذَافَةَ فَجَامَعَهَا فَاشْتَمَلَتْ بِكَ] فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ[1].

ومعناها: يا أيُّها الذين آمَنوا باللهِ ورسولِهِ لا تسألُوا النبيَّ ﷺ عن أشياء إنْ أظهرَ لكم جوابَها ساءَكم، ذلك ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ ؛ وإنْ تسألوا عنها عندَ نُزول القرآنِ أظهرَ لكم جواباً، ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ ؛ أي عن مسألتِكم لم يؤاخذكم بالبحثِ عنها. ويقال: أراد بالعفوِ السترَ عليهم، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ أي متجاوزٌ عن العباد، حليمٌ عن الجهَّال لا يعجِّلُ عليهم بالعقوبةِ.

قَوْلُـهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ أي قد سألَ نحوَ هذه المسائل مَن قبلَكم، قال ابنُ عبَّاس: (كَانَتْ بَنُو إسْرَائِيلَ يَسْأَلُونَ أنْبِيَاءَهُمْ عَنْ أشْيَاءَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُؤْمَرُوا بها، فَإذا بَيَّنُوا لَهُمْ حُكْمَهَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَعَذبَهُمُ اللهُ وَأهْلَكَهُمْ بسَبَب ذلِكَ، كَمَا سَألَ قَوْمُ عِيسَى الْمَائِدَةَ ثُمَّ كَفَرُوا، وَسَألَ قَوْمُ صَالِحٍ النَّاقَةَ ثُمَّ عقَرُوهَا وَكَفَرُوا)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ ؛ أي لم يجعلِ اللهُ ما يقولهُ كفَّار قريشٍ من تحريمِ البَحيرةِ والسَّائبة والوصيلةِ والحامِي، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ ، ولكنَّهم هم الذين جعَلوا من ذاتِ أنفسهم، واختلقوا على اللهِ بأنه حرَّم هذه الأشياء، ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ وهم السَّفلَةُ والعوَامُّ لا يعقِلون، بل يُقلِّدُون رُؤساءَهم فيما يقولون.

وأما تفسيرُ البَحِيرَةِ: كانت الناقةُ إذا نتَجت خمسةَ أبطُنٍ نظَرُوا، فإنْ كان البطنُ الخامس ذكراً ذبَحوهُ لآلهتِهم، وكان لَحمهُ للرِّجال من سَدَنَةِ آلهتِهم ومن أبناءِ السَّبيل دونَ النِّساء، وإن ماتَ قبل الذبحِ أكلَهُ الرجالُ والنِّساء، وإن كان الخامسُ أنثى نَحرُوا أذُنها؛ أي شَقُّوها شَقّاً وَاسعاً وهي البَحِيرَةُ: لا تُركَبُ ولا تذبَحُ ولا تطرَدُ من ماءٍ ولا أكلٍ، وألبانُها ومنافعُها للرِّجال من السَّدَنَةِ وأبناءِ السبيلِ دون النِّساء حتى تموتَ، فاذا مَاتت اشتركَ فيها الرجالُ والنساء.

---

(١) ربما هو ما رواه السدي؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٩٧٦) وإسناده مرسل.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٩٨٩).

وأما السَّائبة: فكان إذا قَدِمَ الرجلُ من سَفَرٍ أو بَرِئَ من مرضٍ أو بنى بناءً، سَيَّبَ شيئاً من إناثِ الأنعام وسلَّمها إلى سَدَنَةِ آلهتهم، فيُطعمون منه أبناءَ السَّبيل من ألبانِها وأسمانِها إلاّ النساءَ، فإنَّهم كانوا لا يُطعمونهن منها شيئاً حتى تموتَ، فإذا ماتت أكلَها الرجالُ والنساء جميعاً.

وأما الوَصِيلَةُ: فهي من الغَنم كانت الشاةُ إذا نتَجت سبعةَ أبطُن، فإنْ كان البطنُ السَّابع ذكراً ذبَحوهُ لآلهتهم، وإنْ كانت أنثى صَنَعوا بها ما يصنَعون بالأُنثى من البَحِيرَةِ، وإنْ كان ذكراً وأنثى قالوا: إنَّها وصَلَتْ أخَاها، فلم تُذبح الذكرَ لمكانهِ منها، وكان منافعُهما للرِّجال دون النساءِ من السَّدَنَةِ وأبناءِ السَّبيل الى أن يموتَ واحدٌ منهما فيشترِكُ فيه الرجالُ والنساء.

وأما الْحَامِي: فهو الفحلُ إذا رَكِبَ ولدُ ولدِهِ قالوا: قد حَمَى ظهرَهُ فلا يُركب ولا يحمل عليه ولا يُمنع من ماءٍ ولا مرعَى حتى يموتَ، فيأكلهُ الرِّجالُ والنساء.

وقد رُوي عن زيدِ بن أسلمَ عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [إنِّي لأَعْرِفُ أوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ، وَأوَّلَ مَنْ غَيَّرَ عَهْدَ إبْرَاهِيمَ خَلِيل اللهِ]، قَالُوا: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: [عَمْرُو بْنُ لَحِي، وَلَقَدْ رَأيْتُهُ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّار يُؤْذِي أهْلَ النَّار بريحِ قُصْبِهِ. وَإنِّي لأَعْرِفُ أوَّلَ مَنْ بَحَّرَ الْبَحَائِرَ]، قَالُوا: مَنْ هُوَ ؟ قَالَ: [رَجُلٌ مِنْ بَنِي مُدْلَجَ، كَانَتْ لَهُ نَاقَتَانِ فَجَدَعَ أذُنَيْهِمَا وَحَرَّمَ أَلْبَانَهَا، ثُمَّ شَرِبَهُ بَعْدَ ذلِكَ، وَلَقَدْ رَأيْتُهُ فِي النَّار يَعَضَّانِهِ بأفْوَاهِهِمَا وَيَخبطَانِهِ بأخْفَافِهِمَا][(١)].

وعن أبي هُريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَكْثَمَ الْخُزَاعِيِّ: [رَأيْتُ عَمْرَو ابْنَ لُحَي يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّار، فَمَا رَأيْتُ مِنْ رَجُلٍ أشْبَهَ برَجُلٍ مِنْهُ بكَ وَلاَ بكَ مِنْهُ، وَهُوَ أوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إبْرَاهِيمَ ، وَنَصَبَ الأَوْثَانَ، وَبَحَّرَ الْبَحِيرَةَ، وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ، وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ، وَحَمَى الْحَامِي، وَلَقَدْ رَأيْتُهُ فِي النَّار يُؤْذِي أهْلَ النَّار بريحِ قُصْبهِ]، قَالَ أكْثَمُ: يَا رَسُولَ اللهِ أيَضُرُّنِي شَبَهُهُ؟ فَقَالَ: [إنَّكَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ][(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٩٩٩٦) بإسناد مرسل.

(٢) أخرجه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٣٣٧. والطبري في جامع البيان: النص (٩٩٩٤)، والحاكم في المستدرك؛ وقال: صحيح على شرط مسلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ ؛ معناهُ: إذا قيلَ لأهلِ مكة هَلُمُّوا إلى تحليلِ وتحريم ما أنزلَ اللهُ في كتابه وبيَّنَهُ الرسولُ في سُننه، قالوا: يَكفينا ما وجَدنا عليه آباءَنا من الدِّين والسُّنة، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ؛ من الدِّين والسُّنة، ﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ الطريقَ المستقيمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ؛ أي الزَمُوا أنفسَكم واحفظوها كما يقال: عليكَ زَيداً، فتنصبُ زَيداً على الإغراءِ بمعنى: الزَمْ زَيداً، كأنَّهُ تعالى قال: عليكم أيُّها المؤمنون بإصلاحِ أنفُسِكم، ومتابعةِ سُنَّة نبيِّكم، فإنكم إذا فعلتُم ذلك لا يضرُّكم ضلالةُ مَن ضلَّ من أهلِ مكة إذ هُديتم أنتم، ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ جَمِيعًا ﴾ ؛ البرُّ والفاجرُ، والمؤمنُ والكافر، ﴿ فَيُنَبِّئُكُم ﴾ ؛ فيجزيكم؛ ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ من خيرٍ أو شرٍّ.

ورُوي عن السَّلف في تأويلِ هذه الآية أحاديثُ مختلفة الظواهر، وهي متفقةٌ في المعنى، فمِنها ما رُوي عن أبي بكرٍ ﷺ قال على المنبر: أيُّهَا النَّاسُ، إنِّي أرَاكُمْ تَتَأوَّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ: (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أنفُسَكُمْ) وَإنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ بَيْنَ أظْهُرِهِمْ بالْمَعَاصِي فَلَمْ يُغَيِّرُوهَا إلاَّ يُوشِكُ أنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بعِقَابهِ][(١)].

وعن أبي أمَامَةَ قالَ: سَألْتُ أبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ فَقَالَ: لَقَدْ سَألْتَ عَنْهَا خَبيراً، سَألْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِي: [يَا أبَا ثَعْلَبَةَ ائْتَمِرُوا بالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوا عَنِ الْمُنْكَر، فَإذا رَأيْتَ دُنْيَا مُؤْثَرَةً وَشُحّاً مُطَاعاً، وَإعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأيٍ برَأيِهِ، فَعَلَيْكَ بنَفْسِكَ، فَإنَّ مِنْ بَعْدِكُمْ أيَّامَ الصَّبْرِ، وَالصَّابرُ فِيهَا كَالْقَابضِ عَلَى الْجَمْرِ،

(١) في الدر المنثور: ج٣ ص٢١٥؛ قال السيوطي:((أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد عن جرير البجلي، وذكره بمعناه)). وأخرجه عبدالرزاق في المصنف: الحديث (٢٠٧٢٣).

وَالصَّبْرُ فِيهَا كَالْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، وَالْمُتَمَسِّكُ فِيهَا بِمِثْلِ الَّذِي أنْتُمْ عَلَيْهِ لَهُ كَأجْرِ خَمْسِينَ عَامِلاً مِنْكُمْ](١).

ففي هذه الأخبار دليل على أنَّ فرضَ الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر لا يسقطُ إلاَّ عند العجز عن ذلك. كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [إذا رَأى أحَدُكُمْ مُنْكراً وَاسْتَطَاعَ أنْ يُغَيِّرَهُ فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبلِسَانِهِ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبقَلْبهِ، وَذلِكَ أضْعَفُ الإيْمَان](٢).

وحكي: أنَّهُ لَمَّا مَاتَ الْحَجَّاجُ قَالَ الْحَسَنُ ﷺ: (اللَّهُمَّ أنْتَ أمَتَّهُ فَاقْطَعْ عَنَّا سُنَّتَهُ، فَإنَّهُ أتَانَا أخَيْفِشُ أعَيْمِشُ، يَمُدُّ بيَدٍ قَصِيرَةٍ، وَاللهِ مَا عَرِقَ فِيهَا فِي سَبيلِ اللهِ عَنَانٌ، يَرْجِلُ جُمَّتَهُ وَيَتَبَخْتَرُ فِي مِشْيَتِهِ، وَيَصْعَدُ الْمِنْبَرَ فَيَهْذِرُ حَتَّى تَفُوتَهُ الصَّلاَةُ، لاَ مِنَ اللهِ يَتَّقِي وَلاَ مِنَ النَّاسِ يَسْتَحْيِي، فَوْقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَحْتَهُ مِائَةُ الْفٍ أوْ يَزِيدُونَ، لاَ يَقُولُ لَهُ قَائِلٌ: الصَّلاَةُ أيُّهَا الرَّجُلُ. ثُمَّ جَعَلَ الْحَسَنُ يَقُولُ: هَيْهَاتَ، وَاللهِ حَالَ دُونَ ذلِكَ السَّيْفُ وَالسَّوْطُ)(٣). وفي هذا الخبرِ دليلٌ أن السَّلفَ كانوا مَعذُورينَ في ذلك الوقتِ في تركِ الإنكار باليدِ واللِّسان.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي ثَلاَثَةِ نَفَرٍ، خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ إلَى الشَّامِ لِتِجَارَةٍ، أحَدُهُمْ: عَدِيُّ بْنُ بَدَّاءٍ، وَالآخَرُ عَامِرُ بْنُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٠٢٢). وفي الدر المنثور: ج ٣ ص٢١٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجة وابن جرير والبغوي في معجمه وابن المنذر وابن حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب) واللفظ للطبري في جامع البيان.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب كون النهي عن المنكر من الإيمان: الحديث (٧٨/ ٤٩). وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: الحديث (١١٤٠). وابن ماجة في السنن: كتاب إقامة الصلاة: باب ما جاء في صلاة العبد: الحديث (١٢٧٥)، وفيه: [مَنْ رَأى مُنْكَراً فَاسْتَطَاعَ...].

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٣٣٩: تفسير الآية (١٢) من سورة الحجرات: المسألة التاسعة.

أوْسٍ الدَّاريُّ، وَهُمَا نصْرَانِيَّان، وَالثَّالِثُ بَدِيلُ بْنُ وَرْقَاءَ[(١)] مَوْلَى عَمْرو بْـنِ الْعَـاص، وَكَانَ مُسْلِماً مُهَاجِراً، فَحَضَرَ بَدِيـلَ بْـنُ وَرْقَـاءَ الْوَفَـاةُ وَكَـانَ مُسْـلِماً، فَـأَوْصَى إلَـى صَاحِبَيْهِ، وَأمَرَهُمَا أنْ يَدْفَعَا مَتَاعَهُ إلَى أهْلِـهِ إذا رَجَعَـا، فَمَـاتَ بَدِيـلُ فَفَتَّشَـا مَتَاعَـهُ، وَأخَذا مِنْهُ إنَاءً مِنْ فِضَّةٍ مَنْقُوشاً بالذهَب كَانَ فِيهِ ثلاثُمِائَةِ مِثْقَال.

فَلَمَّا قَدِمَا الْمَدِينَةَ وَسَلَّمَا الْمَتَاعَ إلَى أهْلِهِ، وَجَدَ أهْلُهُ كِتَاباً فِي دُرْجِ الثِّيَاب فِيْـهِ أسْمَاءُ الأمْتِعَةِ، قَالُوا لَهُمَا: هَلْ بَاعَ صَاحِبُكُمَا شَيْئاً مِنْ مَتَاعِهِ ؟ قَـالاَ: لاَ، فَـهَلْ طَـالَ مَرَضُهُ فَأنْفَقَ شَيْئاً ؟ قَالاَ: لاَ، إنَّمَا مَرِضَ حِينَ قَدِمَ الْبَلَدَ، فَلَمْ يَلْبَـثْ أنْ مَـاتَ. فَقَـالَ لَهُمَا عَمْرُو بْنُ الْعَاص وَالْمُطَّلِبُ ابْنُ أبي وَدَاعَةَ: فَإنَّا وَجَدْنَا فِي مَتَاعِهِ صَحِيفَـةً فِيـهَا تَسْمِيَةُ مَتَاعِهِ، وَفِيهَا إنَاءٌ مَنْقُوشٌ مُمَوَّهٌ بالذهَب فِيْهِ ثلاثُمِائَةِ مِثْقَال. قَـالاَ: مَـا نَـدْري، إنَّمَا أوْصَى إلَيْنَا بشَيْءٍ وَأمَرَنَا أنْ نَدْفَعَهُ إلَيْكُمْ فَدَفَعْنَاهُ. فَرَفَعُوهُمَا إلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ وَذكَرُوا ذلِكَ لَهُ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ[(٢)].

ومعناها: يا أيُّها الذين آمَنوا شهادةُ الحالِ الذي بينكم إذا حضرَ أحدَكم المـوتُ فأراد الوصِيَّةَ شهادةُ اثنين ذوي عدلٍ منكم؛ أي مـن أهـل دينكـم. وهـذه جملـةٌ تامَّـة تتناولُ حكمَ الشَّهادة على الوصيَّة في الحضرِ والسفرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ ؛ مقيَّـدٌ بالسَّـفرِ خاصَّـة، معنـاهُ: أو آخَران من غيرِ أهل دينكــم، ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ إن أنتـم سـافرتُم في الأرضِ، ﴿ فَأَصَٰبَتْكُم ﴾ ؛ في السَّـفرِ، ﴿ مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ؛ ولم يكـن يحضرُكـم مسلمون.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ؛ أي تُقِفونـهما وهمـا النصرانيَّان، والمرادُ بقوله: (بَعْدِ الصَّلاَةِ) بعد صلاةِ العصر كان النبيُّ ﷺ يقضـي بعـدَ صلاة العصرِ وهو وقتُ اجتماعِ الناس، وأهلُ الكتـاب يعظِّمونـهُ، ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ

(١) ويسمى أيضاً بديل بن أبي مريم.

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع: كتاب التفسير: الحديث (٣٠٥٩) من رواية محمد بن السائب الكلبي (أبو النضر) وضعفه، وفي الحديث (٣٠٦٠) قال: حسن غريب. والبخاري في التاريخ الكبير: ج ١ ص٢٨٥: الترجمة (٦٧٦). والحديث أخرجه أهـل التفسـير بألفـاظ طويلـة ومختصـرة، ينظـر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٣٤٦.

إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾ ؛ أي الشَّاهدان النصرانيان يَحلفان باللهِ إذا ادَّعى عليهما ورثةُ الميِّت بسبب شأنِهم في جِنايتهما، ويقولان في اليمين: لاَ نشتري بهذا القول الذي نقولهُ بأنا دفعنا المالَ جميعه إليكم عَرَضاً يَسيراً من الدُّنيا، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ؛ أي وإن كان الميْتُ ذا قرابةٍ منَّا في الرَّحِمِ؛ أي لم نَخُنْ في التِّركة لقرابته منَّا. رُوي أنه كان بين الميْتِ المسلمِ وبين هذين النصرانيين قرابةٌ في الرَّحِم، ومعنى قوله: (إنِ ارْتَبْتُمْ) أي شَكَكْتُمْ.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي ويقولون في اليمين: ولا نكتمُ شهادةَ اللهِ، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ ؛ أي العاصين إنْ كتمنَاها كما قالَ تعالى في آيةٍ أخرى ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[1] .

وإنَّما أضافَ الشهادة إلى اللهِ تعالى تَعظيماً لها وتَهويلاً لأمرها، وقرأ بعضُهم: (شَهَادَةً اللهَ) بتنوينِ (شَهَادَةً) ونصب اسم (اللهَ) على معنى: لا نكتمُ للهَ شهادةً، وقرأ الشعبيُّ: (شَهَادَةً اللهِ) بتنوينِ (شَهَادَةً)، وخفض الهاءِ من اسم (اللهِ) موصولاً على القسَمِ، تقديرهُ: إي واللهِ.

وقرأ أبو جعفرٍ (شَهَادَةً) بالتَّنوينِ (آللهِ) بقطع الألف وكسرِ الهاء على معنى: ولا نكتمُ شهادةً اللهِ، بالاستفهام وكسرِ الهاء فجعلَ الاستفهام عِوَضاً عن حرفِ القسَمِ.

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا نُزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الْعَصْرِ وَحَلَّفَهُمَا بَعْدَ الصَّلاَةِ عِنْدَ الْمِنْبَرِ بالَّذِي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ أنَّهُمَا لَمْ يَخْتَانَا - يَخُونَا - شَيْئاً مِمَّا دَفَعَ إلَيْهِمَا بَدِيلٌ، فَحَلَفَا، فَخَلَّى عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ سَبِيلَهُمَا. فَمَكَثَا بَعْدَ ذلِكَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ ظَهَرَ الإنَاءُ، فَبَلَغَ الْوَرَثَةَ ذلِكَ، فَسَألُوا الَّذِي بيدِهِ الإنَاءُ فَقَالَ: اشْتَرَيْتُهُ مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ)[2] .

(١) البقرة / ٢٨٣ .

(٢) ألفاظ الحديث مخرجة في كتب التفسير؛ ينظر: الدر المنثور: ج ٣ ص٢٢٠-٢٢٦.

قِيْلَ: إنَّهُ لَمَّا طَالَتِ الْمُدَّةُ أظْهَرَا الإناءَ وَلَـمْ يَبِيعَـاهُ، فَقَـالَ لَـهُمَا الْوَرَثَـةُ: إنَّمَـا حَلَفْتُمَا فَمَا بَالُ الإنَاءِ مَعَكُمَا؟ فَقَالاَ: إنَّا كُنَّا اشْتَرَيْنَاهُ مِنْهُ وَلَمْ يَكُنْ لَنَا بَيِّنَةٌ، فَكَرِهْنَا أنْ نُقِرَّ بِهِ لَكُمْ فَتَأْخُذُوهُ. فَاخْتَصَمُوا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ، فَـأنْزَلَ اللهُ تَعَـالَى قَوْلَـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ ﴾ .

معناهُ: فإن اطلعَ على أن الوصيَّين استوجبَا ذنباً بالخيانةِ واليمين الفاجرةِ حيـث قالاَ: إنَّ الميتَ لم يبعْ شَيْئاً من متاعهِ، ثم قالا بعدَ ظُهور الإناءِ في أيديهما أنَّهما ابتاعــاهُ منه، فآخَران من أولياءِ المَيْت وهما عمرُو بن العاص والمطَّلب بن أبي وداعةَ، يقومَـان مقامَ النصرانيَّـين الخـائنَين في اليمـين، فيحلِفـان بـاللهِ، ﴿ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ ﴾ ؛ بـأنَّ الإناءَ لصاحِبنا، وأنَّهما لا يَعلمان بأن الميتَ باعَهُ في حياته، ﴿ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا ﴾ ؛ أي أعـدلُ وأحـقُّ بـالقبول مـن شـهادة النصرانيَّـين، ﴿ وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ ﴾ ؛ فيمـا ادَّعَينـا وحلَفنا، ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ على أنفسنا لو اعتدينا.

وقولـه: (مِـنَ الَّذِيـنَ اسْـتَحَقَّ عَلَيْـهِمُ الأَوْلَيَـان) راجـعٌ إلى قولـه (فَـآخَرَان)، و(الأَولَيان) بدلٌ من (آخَرَان) كأنه قال: وآخَرَانِ مِن الَّذين اسـتحقَّ عليـهم الوصيـةُ، وهم ورثةُ المَيْت وأولياؤهُ، وهما الأَولَيَانِ بالمَيْت. ويقال: الأولَيان باليمينِ يقومان مقامَ النصرانيَّين في اليمينِ،

ويقالُ: معنى (اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ) أي اسـتحقَّ فيـهم الإثـمَ وهـم الورثـةُ، اسـتحقَّ النصرانيَّان الإثمَ بسببهم، وقد تُقام على مقام (فِي)، كما في قولهِ تعالى: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[١]. واحدُ الأَولَيان: الوَلَى، والجمـعُ: الأَوْلَـون، والأنثـى الوَلْيَـاءُ، والجمع الْوَلَيَاتُ والولي[٢].

وقرأ الحسنُ وحفص: (مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ) بفتحِ التاءِ والحاء؛ أي وجـبَ عليـهم الإثـمُ، ثـم قـال (الأَوْلَيَـانِ) راجـعٌ إلى قولـه (فَـآخَرَانِ) الأوليـان، ولم يرتفِـعْ

---

(١) طه / ٧١ .

(٢) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٢ ص١٧٥؛ قال الزجاج: (وهذا موضع من أصعب مـا في القـرآن في الإعراب).

بالاستحقاق. وقرأ الباقون (اسْتُحِقَّ) بضمِّ التاء وكسرِ الحاء على المجهول، يعني الذين استُحِقَّ فيهم ولأَجلِهم الإثمُ وهم ورثةُ الميت، استُحِق الحالِفان بسببهم وفيهم الإثم. وقرأ الحسنُ: (مِنَ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ الأَوَّلاَن)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا) أي يَمينُنا من يمينِهما، ونظيرهُ ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ﴾[2] أراد الأَيمانَ.

فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ حَلَّفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَالْمُطَّلِبَ بْنَ أَبي وَدَاعَةَ، فَحَلَفَا فَدَفَعَا الْمَتَاعَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَيْتِ. قال ابنُ عبَّاس: (فَذَكَرْتُ هَذِهِ الآيَةَ لِتَمِيمَ بَعْدَ مَا أَسْلَمَ فَقَالَ: صَدَقَ اللهُ وَبَلَّغَ رَسُولُهُ، أَنَا أَخَذْتُ الإِنَاءَ، فَأَتُوبُ إِلَى اللهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ)[3].

وإنَّما نُقلت اليمين إلى الأولياءِ؛ لأن الوصيَّين صحَّ عليهما الإناءُ، ثم ادعيا أنَّهما ابتاعاهُ، وكذلك إذا ادَّعى رجلٌ على رجلٍ مالاً، فأقرَّ المدعَى عليه بذلكَ، وادَّعى أنه قضاهُ، فالقولُ قول صاحب المال مع يَمينه، وكذلك إذا ادَّعى سلعةً في يدِ رجُلٍ فاعترفَ بذلك، ثم ادَّعى أنه اشتَراها من المدَّعي أو وهبَهُ منه المدعي.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (عن تَميم الداريِّ قَالَ: بعْنَا الإِنَاءَ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ، فَاقْتَسَمْنَاهُ أَنَا وَعَدِيٌّ، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ تَأَثَّمْتُ مِنْ ذلِكَ بَعْدَمَا حَلَفْتُ كَاذِباً، فَأَتَيْتُ أَوْلِيَاءَ الْمَيِّتِ فَأَخْبَرْتُهُمْ أَنَّ عِنْدَ صَاحِبِي مِثْلَهَا، فَأَتَوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُمُ الْبَيِّنَةَ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَيِّنَةٌ، فَأَمَرَ الأَوْلِيَاءَ أَنْ يَحْلِفُوا، فَحَلَفُوا، فَأَخَذْتُ الْخَمْسَمِائَة مِنْ عَدِيٍّ وَرَدَدْتُ أَنَا الْخَمْسَمِائَةَ)[4].

فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ ؛ أي ذلك لكم أقربُ إلى أن تقومَ شهودُ الوصيَّة على وجهِها، ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ

---

(١) ينظر: جامع البيان: النص (١٠٠٩٢).

(٢) النور / ٦.

(٣) جزء من أثر طويل عن عكرمة؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٠٩٣).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٠٩٢).

بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ ؛ وأقربُ إلاَّ أن يخافوا أن تُـرَدَّ عليـهم أيمانُـهم بعـد أيمـان المسـلمين، ويقال: أن يُرَدَّ الأيمانُ إلى المدَّعِين المسلمين بعد أيمانِ المدعى عليهم الكفَّار.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي اخشَـــوهُ أن تحلِفُــوا أيمانــاً كاذبــةً أو تخونــوا أمانــةً، ﴿ وَٱسْمَعُواْ ﴾ ؛ أي اقبلُـــوا الموعظـــةَ، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي لا يصلحُ أمرَ الخائنين عن طاعةِ الله.

رُوي عن مجاهد أنه أخذ بظاهرِ الآية وقال: (إذا مَاتَ الْمُؤْمِنُ فِـي السَّـفَرِ، وَلاَ يَحْضُرُهُ إلاَّ كَافِرٌ، إنْ أشْـهَدَهُمَا عَلَـى ذلِـكَ، فَـإنْ رَضِـيَ وَرَثَتُـهُ بذلِـكَ، وَإلاَّ حَلَـفَ الشَّاهِدَان أنَّهُمَا صَادِقَان، فَإنْ ظَهَرَا أنَّهُمَا خَانَا، حَلَفَ اثْنَان مِنَ الْوَرَثَةِ، وَأبْطِلَتْ أيْمَانُ الشَّاهِدَين)(١). وعن هذا قال شُريح:(لاَ تَجُوزُ شَهَادَةُ الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ عَلَى الْمُسْلِمِ إلاَّ فِي السَّفَرِ، وَلاَ يَجُوزُ فِي السَّفَرِ إلاَّ عَلَى الْوَصِيَّةِ)(٢).

وذهبَ أكثرُ الفقــهاء إلى أنَّ شـهادةَ الكـافر لا تُقبـل علـى المسـلمِ بوجـهٍ مـن الوجوه؛ لأنه رُوي أنَّ آيةَ الدَّين من آخرِ ما نَزَلَ من القرآن، وتلك الآيةُ تقتَضِي جوازَ نسخِ شهادة الكافرِ على المسلمين لا محالَةَ؛ لأن قولَهُ تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رجَالِكُمْ﴾(٣) يتناولُ المؤمنين؛ لأن الخطابَ في تلك الآيةِ يوجَّــهُ إليـهم باسـم الإيمـان وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ ؛ يعني يومَ القيامةِ، ونُصِبَ (يَوْمَ) على إضمار اذكُروا و احذرُوا، ويحتمـل أنـه انتصبَ بقولِهِ (وَاتَّقُوا اللهَ)، والسُّؤال للرسلِ توبيخٌ للذين أرسِلُوا إليهم، كما في قولـه تعالى ﴿وَإذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾(٤) إنما تُسأل الموءودَةُ لتوبيخِ قاتِلِها.

وأما قولُ الرسلِ: (لاَ عِلْمَ لَنَا)، فقال ابنُ عبَّاس والحسن والسديُّ ومجاهد: (إنَّ هَذا الْجَوَابَ إنَّمَا يَكُونُ فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الْقِيَامَةِ، وَذلِـكَ عِنْـدَ زَفْـرَةِ جَـهَنَّمَ، وَجُثُـوٌّ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٠٩٦)، وبمعناه عن ابن عباس: الأثر (١٠١٠٣).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٠٩٩) بمعناه.
(٣) البقرة / ٢٨٢ . (٤) التكوير / ٨ .

الأُمَمِ عَلَى الرُّكَب، لاَ يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إلاَّ قَالَ: نَفْسِي نَفْسِي، فَعِنْدَ ذلِكَ تَطِيرُ الْقُلُوبُ مِنْ أمَاكِنِهَا، فَتَقُولُ الرُّسُلُ مِنْ شِدَّةِ هَوْلِ الْمَسْأَلَةِ وَهَوْلِ الْمَوْطِنِ: لاَ عِلْمَ لَنَا)[١] ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١٠٩ ﴾ ؛ تُرجِعُ إليهم عقولُهم، فيشهَدُون على قومِهم أنَّهم بلَّغوهم الرسالةَ، وأنَّ قومَهم كيف ردُّوا عليهم.

فإن قِيْلَ: كيف يصحُّ ذُهول العقلِ مع قولهِ تعالى ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾[٢] قِيْلَ: إن الفزعَ الأكبرَ دخولُهم جهنَّم. وعن ابنِ عبَّاس:(أنَّ مَعْنَى: لاَ عِلْمَ لَنَا؛ أيْ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا)، فَحُذِفَ الاسْتِثْنَاءُ. وَقِيْلَ: معناهُ: لا علمَ لنا بتفصيلِ الأمُور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ ؛ معناهُ: واذكُروا أيُّها المؤمنون (إذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى)، ويجوز أنْ يكون عَطفاً على قولهِ: (يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ) تقديرهُ: إذ يقولُ الله: يا عيسَى بنَ مريَم، إلاَّ أنه ذكرَهُ بلفظ الماضِي لتقديم ذكرِ الوقت.

ومعنى الآيةِ: أظْهِرْ مِنَّتِي عليكَ بالنبوَّة وعلى أمِّك بأن طهَّرتُها واصطفيتُها على نساءِ العالَمين؛ ليكون حجَّة على من كَفَرَ وادَّعاكَ إلهاً، فيكون ذلك حسرةً وندامةً عليهم يومئذٍ. والفائدةُ في ذكرِ أمِّهِ: أنَّ الناس تكلَّمُوا فيها كما تكلَّمُوا فيه.

ثم عدَّ الله نِعمَةً نعمةً: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ ؛ أعَنتُكَ وقرَّبتُكَ بجبريلَ الطاهر حين حاولَتْ بني إسرائيل قتلَكَ، ويقال: أيَّدتُكَ به في الحجَّة في كلِّ أحوالِكَ.

وقوله تعالى: (يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ) انتصبَ (ابْنَ مَرْيَمَ) لأنه مُنادَى مضافٌ؛ أي يا عيسى يا ابنَ مريمَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: (اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ) معناهُ: اذكر نِعمَتي، لفظة واحدةٌ ومعناها الجمعُ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[٣] أي نِعَمَ اللهِ، لأنَّ العددَ لا يقعُ على الواحدِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص(١٠١١٤) عن ابن عباس، والنص (١٠١١٠) عن السدي، والنص (١٠١١١) عن الحسن، والنص (١٠١١٢-١٠١١٣).

(٢) الأنبياء / ١٠٣ . (٣) ابراهيم / ٣٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ ؛ أي تكلِّمُ الناسَ في حِجْرِ أمِّكَ في حال صِغَرِكَ، وتخاطبُهم كَهلاً بعد ثلاثين سَنة، على صفةٍ واحدة واحداً واحداً، وذلك من أعظمِ الآيات.

ويقال: أرادَ بالمهدِ الذي يُربَّى فيه الطفلُ حين قال لَهم وهو في المهدِ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾[1]. قال الكلبيُّ: (مَكَثَ فِي رِسَالَتِهِ بَعْدَ ثَلاَثِينَ سَنَةً ثَلاَثِينَ شَهْراً، ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إلَيْهِ)، وَقِيْلَ: ثلاثَ سنين، ثم رُفع إلى السَّماء وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين سَنة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ ؛ أي علَّمتُكَ كُتبَ الأنبياء قبلَك والفهمَ، ويقال: أرادَ بالكتاب الخطَّ بالقلمِ، وأرادَ بالحكمةِ كلَّ صوابٍ منهنَّ من قول أو فعلٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي ﴾ ؛ معناهُ: إذ تُصوِّرُ من الطين كَشِبهِ الْخُفَّاشِ بأمري، ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ ؛ أي في الهيئةِ، ﴿ فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ﴾ ؛ يطيرُ بين السَّماء والأرضِ بأمرِ الله، ويكون النفخُ كنفخِ الرَّاقِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ ؛ الأكمهُ: الذي وُلد أعمَى، والأبْرَصُ: الذي لا تعالِجهُ الأطبَّاء، وهو الذي إذا غرزَ الإبرةَ لا يخرجُ منه الدَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ ؛ أي الموتى تخرجُهم من قُبورهم أحياءَ بإرادتِي، والمرادُ بالإذنِ أنَّ الله تعالى كان يأذنُ له في المسألةِ والدُّعاء، فيقعُ ذلك عن اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ ﴾ ؛ معناه وإذ صَنعتُ (صَرَفْتُ) أولادَ يعقوب عنكَ حين همُّوا بقتلِك، ﴿ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي بالمعجزاتِ الدالَّة على رسالتِكَ، ﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ ﴾ ؛ أي ما هذا

(١) مريم / ٣٠.

الذي يُرينا عيسى، ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ سحرٌ ظَاهِرٌ. ومن قرأ (سَاحِرٌ مُبِينٌ) أراد به عيسَى عليه السلام.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ ؛ معناهُ: وإذ ألْهَمْتُ الحواريِّين وهم خَوَاصُّ عيسى، وألقيتُ في قلوبهم: أن صدِّقوا بتوحيدِي وبرَسولِي، ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ ؛ وصدَّقنا، ﴿ وَٱشْهَدْ ﴾ ؛ يا عيسَى، ﴿ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ أي مُخلِصُون بالعبادة والتوحيدِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ كأنه قال: اذكُرْ نِعمَتِي عليكَ إذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ.

وقولهُ تعالى: (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ). قرأ الكسائيُّ (هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ) بالتاءِ بإدغام ونصب الباءِ من رَبَّكَ، أي هل تقدرُ أن تسألَ ربَّكَ ؟.

وقد رُوي عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّها قالت: (كَانَ الْحَوَارِيُّونَ أعْلَمَ بِاللهِ مِنْ أنْ يَقُولُوا: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ؟)[1] وفيه ثلاثةُ أقوال:

أحدهم: أنَّ هذا السؤالَ كان في ابتداءِ أمرهم قبل أن تَستحكِمَ معرفتُهم باللهِ تعالى ولذلك أنكرَ عليهم عيسَى عليه السلام فقال: (اتَّقُوا اللهَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) لأنه لم يُسْتَكْمَلْ إيمانُهم في ذلك الوقتِ.

والقولُ الثاني: أنَّ معناهُ: هل يفعلُ ذلك كما يقول الرجلُ لآخرَ: هل تستطيعُ أن تقومَ معي في أمرِ كذا ؟ أي هل أنتَ فاعلهُ ؟

والقولُ الثالث: أنَّ معناهُ: هل يستجيبُ لكَ ربُّكَ ؟ وهل يُطِيعُكَ إنْ سألتَهُ ؟ كما تقولُ: استجابَ بمعنى أجابَ.

والْحَوَارِيُّونَ: خواصُّ أصحاب عيسى عليه السلام. قال الحسنُ: (كَانُوا قَصَّارِينَ) وقال مجاهدُ: (كَانُوا صَيَّادِينَ) وَقِيْلَ: كانوا مَلاَّحِينَ. وقال قتادةُ: (الْحَوَارِيُّونَ: الْوُزَرَاءُ) وقال عكرمة: (هُمُ الأَصْفِيَاءُ) وكانوا اثنى عشرَ رجُلاً.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠١١٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ ؛ أي قال الحواريُّون: نريدُ بما سألناكَ أن نأكُلَ من المائدةِ، وتسكُنَ قلوبُنا بما جِئتَنا به من المعجزاتِ، ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ ؛ بأنَّكَ رسولُ الله، وَقِيْلَ: صَدَقْتَنَا في دُعائك، وفيما دَعوتَنا من كفايةِ الله تعالى إيانا، ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا ﴾ ؛ على المائدةِ؛ ﴿ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ إذا رجَعنا إلى قومِنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ ؛ أي قال عيسَى: يا الله، إلاَّ أنه أقيم الميمُ في آخرِهِ مقامَ النداءِ في أوَّلِهِ، وقوله: (أنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ) أي طَعاماً، (تَكُونُ لَنَا عِيدًا) أي نتَّخذُ اليومَ الذي تنْزِلُ فيه المائدةُ يومَ سُرورٍ لأزمَانِنا ولِمَن يكون خلفَنا. ورُوي: (أنَّ نُزُولَ الْمَائِدَةِ كَانَ فِي يَوْمِ الأَحَدِ، فَاتَّخَذتِ النَّصَارَى ذلِكَ الْيَوْمَ عِيداً). وقرأ زيدُ ابن ثابت: (لأُوْلاَنَا وَأُخْرَانَا).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَءَايَةً مِّنكَ ﴾ ؛ أي تكون المائدةُ دَلالة وحجةً لِمَن آمنَ على مَن كفرَ، ﴿ وَٱرْزُقْنَا ﴾ ؛ أي اجعَلْ ذلك رزقاً لنا، وَقِيْلَ: ارزُقنا الشُّكرَ عليه، ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ ؛ وأنتَ أفضلُ الْمُعْطِينَ والموفِّقين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي قالَ اللهُ: يا عيسَى إنِّي مُنزِلٌ المائدةَ عليكم. قرأ أهلُ المدينة والشام وقتادة وعاصم: (مُنَزِّلُهَا) بالتشديدِ؛ لأنها نزَلت مِراراً، والتفعيلُ يدلُّ على التكثيرِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ كقوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾(١). وقرأ الباقون بالتخفيفِ كقوله: (أنزِلْ عَلَيْنَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ أي فمَن يكفُرْ بعدَ نُزول المائدةِ، وَقِيْلَ: بعد ما أكَلَ من المائدةِ، فإنِّي أعذِّبهُ بجنسٍ من العذاب لا أعذِّبُ أحداً من عالَمي زمانِهم بذلك العذاب، وهو أن جعلَ اللهُ مَن كَفَرَ منهم بعد نزول المائدة خنازيرَ. وَقِيْلَ: أرادَ بهذا عذابَ الآخرةِ، كما رُوي عن ابنِ عمر أنه قالَ (أشَدُّ النَّاسِ عَذاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثلاَثَةٌ: الْمُنَافِقُونَ، وَمَنْ

(١) الاسراء / ١٠٦ .

كَفَرَ مِنْ أصْحَابِ الْمَائِدَةِ، وَآلَ فِرْعَوْنَ)[١].

ورُوي عن ابن عبَّاس في سبب نُزول المائدةِ: (أنَّ عِيسَى كَانَ إذا خَرَجَ اتَّبَعَهُ خَمْسَةُ آلاَفِ رَجُلٍ أوْ أكْثَرُ مِنْ أصْحَابهِ الَّذِينَ يَقْتَدُونَ بِهِ، وَأهْلُ الزَّمَانَةِ وَالْمَرْضَى والبطارة، فَسَلَكَ بهِمْ ذاتَ يَوْمِ الْقِفَارَ، فَفَنِيَ طَعَامُهُمْ وَجَاعُوا جُوعاً شَدِيداً، فَأعْلَمَ النَّاسُ تَلاَمِيذهُ الْحَوَارِيِّينَ قَالُوا: إنْ كَانَ صَاحِبُكُمْ حَقّاً فَلْيَدْعُ رَبَّهُ يُنَزِّلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، فكَلَّمَهُ فِي ذلِكَ رَجُلٌ مِنَ الْحَوارِيِّينَ يُقَالُ لَهُ: شَمْعُونَ الصَّفَّارُ، فَقَالَ: قُلْ لَهُمْ يَتَّقُوا اللهَ وَلاَ يَسْألُوا لأنْفُسِهِمْ الْبَلاَءَ، فَإنَّهُمْ إنْ كَفَرُوا بَعْدَ نُزُولِهَا عَاقَبَهُمُ اللهُ. فَأخْبَرَهُمْ شَمْعُونُ بذلِكَ، فَقَالُوا: (نُرِيدُ أنْ نَأكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أنْ قَدْ صَدَقْتَنَا).

فَقَامَ عِيسَى عليه السلام فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَأوْحَى اللهُ إلَيْهِ: (أنّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإنِّي أعَذِّبُهُ عَذاباً لاَ أعَذِّبُهُ أحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ)، ثُمَّ أنْزَلَ اللهُ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ فَوقَهَا مَنَديلٌ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إلَيْهَا وَعِيسَى يَبْكِي، حَتَّى اسْتَقَرَّتِ الْمَائِدَةُ بَيْنَ يَدَي عِيسَى وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رَحْمَةً، ثُمَّ كَشَفَ الْمِنْدِيلَ وَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، فَإذا عَلَى الْمَائِدَةِ سَمَكَةٌ مَشْوِيَّةٌ لاَ شَوْكَ فِيهَا، وَالْوَدَكُ يَسِيلُ مِنْهَا، وَالْخَلُّ عِنْدَ رَأسِهَا، وَالْمِلْحُ عِنْدَ ذنبهَا، وَعَلَيْهَا أرْبَعَةُ أرْغِفَةٍ، وَعَلَيْهَا الْبَقُولُ إلاَّ الْكُرَّاثُ - قَالَ عطيَّةُ: (كَانَ فِي السَّمَكَةِ طَعْمُ كُلِّ شَيْءٍ).

فَقَالَ لَهُمْ عِيسَى: كُلُوا مِنْ رزْقِ رَبكُمْ، فَأكَلُوا مِنْهَا، وَرَجَعَتِ الْمَائِدَةُ كَمَا كَانَتْ، فَلَمَّا فَرَغَ الْقَوْمُ إلَى قَرَارهِمْ، وَبَشَّرُوا هَذا الْحَدِيثَ لِسَائِرِ النَّاسِ، ضَحِكَ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ، وَقَالَ: وَيْحَكُمْ! إنَّهُ قَدْ سَحَرَ أعْيُنَكُمْ وَأخَذ بقُلُوبكُمْ. فَمَنْ أرَادَ اللهُ بِهِ الْخَيْرَ ثَبَّتَهُ عَلَى الصَّبْرِ، وَمَنْ أرادَ فِتْنَتَهُ رَجَعَ إلَى كُفْرِهِ، فَلَعَنَهُمْ عِيسَى فَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ، ثُمَّ أصْبَحُوا خَنَازيرَ يَنْظُرُ النَّاسُ إلَيهِمْ، الذكَرُ ذكَرٌ وَالأُنْثَى أنْثى وَيَلْعَنُوهُمْ، فَمَكَثُوا كَذلِكَ ثلاَثَةَ أيَّامٍ ثُمَّ هَلَكُوا، وَلَمْ يَتَوَالَدُوا وَلاَ طَعِمُوا وَلاَ شَرِبُوا)[٢].

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ص٥٩٨. والبغوي في معالم التنزيل: ص٤٠٨. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٣٦٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٣٦٩-٣٧١. وفي الدر المنثور: ج ٣ ص٢٣٢-٢٣٤؛ قال: ((أخرجه الحكيم الترمذي في نوادره وابن أبي الشيخ في العظمة وأبو بكر الشافعي في فوائده المعروفة بالغيلانيات. وذكره بمعناه)).

وقال بعضُهم: لَمَّا دعَا عيسى ربَّهُ أن يُنزِّلَ عليهم مائدةً من السَّماء، أقبلت الملائكةُ بمائدةٍ يحملونها، عليها سبعةُ أرغفةٍ وسبعةُ أحْوَاتٍ حتى وضَعُوها بين أيديهم، فأكلَ منها آخرُهم كما أكلَ أوَّلُهم.

وقال الكلبيُّ: (دَعَا عِيسَى عليه السلام شَمْعُونَ الصَّفَّارَ، وَكَانَ أفْضَلَ الْحَوَارِيِّينَ، فَقَالَ: هَلْ مَعَكَ طَعَامٌ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ مَعِي سَمَكَتَان وَسَبْعَةُ أرْغِفَةٍ، قَالَ: عَلَيَّ بِهَا، فَقَطَّعَهَا عِيسَى قِطَعاً صِغَاراً، ثُمَّ قَالَ: اقْعُدُوا وَتَرَافَقُوا رفقَةً، كُلُّ رفْقَةٍ عَشْرَةٌ، ثُمَّ قَامَ عِيسَى فَدَعَا اللهَ فَاسْتَجَابَ لَهُ، وَأنْزَلَ فِيهِ الْبَرَكَةَ، فَصَارَ خُبْزاً صِحَاحاً وَسَمَكاً صِحَاحاً، ثُمَّ قَالَ: كُلُوا بسْمِ اللهِ، فَجُعِلَ الطَّعَامُ يَكْثُرُ حَتَّى بَلَغَ رُكَبَهِمْ، فَأكَلُوا كُلُّهُمْ وَفَضَلَ شَيْءٌ كَثِيرٌ.

وَكَانَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ خَمْسَةَ آلاَفٍ وَنَيِّفاً، فَقَالَ النَّاسُ جَمِيعاً: نَشْهَدُ أنَّكَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ. ثُمَّ سَألُوهُ مَرَّةً أخْرَى، فَدَعَا عِيسَى فَأنْزَلَ اللهُ خُبْزاً وَسَمَكاً وخَمْسَةَ أرْغِفَةٍ وَسَمَكَتَينِ، فَصَنَعَ بهَا مَا صَنَعَ بالْمَرَّةِ الأُولَى، فَلَمَّا رَجَعُوا إلَى بُيُوتِهِمْ وَنَشَرُوا هَذا الْحَدِيثَ، ضَحِكَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُعَاينْ ذلِكَ، وَقَالُوا لَهُمْ: إنَّمَا سَحَرَ أعْيُنَكُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ ثَبَّتَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى بَصِيرَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ إلَى كُفْرِهِ، فَمُسِخُوا خَنَازِيرَ)[1].

وعن سَلمان الفارسيِّ رضي الله عنه قال: (لَمَّا سَألَتِ الْحَوَاريونَ عِيسَى أنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً، لَبِسَ صُوفاً وَبَكَى؛ وَقَالَ: اللَّهُمَّ أنْزلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، وَارْزُقْنَا عَلَيْهَا طَعَاماً نَأكُلُهُ وَأنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، فَنَزَلَتْ سُفْرَةٌ حَمْرَاءُ بَيْنَ غَمَامَتَين، غَمَامَةٌ مِنْ فَوْقِهَا، وَغَمَامَةٌ مِنْ تَحْتِهَا، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إلَيْهَا مُنْقَضَّةً تَهْوِي حَتَّى نَزَلَتْ بَيْنَ أيْدِيهِمْ.

فَبَكَى عِيسَى وَصَلَّى وَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَالْيَهُودُ يَنْظُرُونَ إلَيْهَا لَمْ يَرَوا مِثْلَهُ قَطْ، وَلَمْ يَجِدُوا رِيحاً أطْيَبَ مِنْ رِيحِهِ. فَقَامَ عِيسَى فَتَوَضَّأ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ صَلاَةً طَوِيلَةً، وَبَكَى كَثِيراً.

وَكَشَفَ الْمِنْدِيلَ عَنْهَا وَقَالَ: بسْمِ اللهِ خَيْرِ الرَّازِقِينَ، فَإذا هِيَ سَمَكَةٌ طَوِيلَةٌ مَشْوِيَّةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا فُلُوسُهَا[2] وَلاَ شَوْكَ فِيهَا، تَسِيلُ سَيْلاً مِنَ الدَّسَمِ، وَعِنْدَ رَأسِهَا

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب للحنبلي: ج ٧ ص٦٣٦.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٣٣: ((ليس عليها بواسير)).

مِلْحٌ وَعِنْدَ ذنبِهَا خَلٌّ، وَحَوْلَهَا مِنْ أَلْوَانِ الْبَقُول مَا خَلاَ الْكُرَّاثَ، وَإِذا خَمْسَةُ أَرْغِفَةٍ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهَا زَيْتُونٌ، وَعَلَى الآخَرِ عَسَلٌ، وَعَلَى الثَّالِثِ بَيْضٌ، وَعَلَى الرَّابِعِ خُبْزٌ، وَعَلَى الْخَامِسِ قَدِيدٌ.

فَقَالَ شَمْعُونُ: يَا رُوحَ اللهِ أَمِنْ طَعَامِ الدُّنْيَا هَذا أَمْ مِنْ طَعَامِ الآخِرَةِ، فَقَالُوا: لاَ مِنْ طَعَامِ الدُّنْيَا وَلاَ مِنْ طَعَامِ الآخِرَةِ، وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ أَنْشَأَهُ اللهُ بِقُدْرَتِهِ الْعَالِيَةِ، فَكُلُوا مِمَّا سَأَلْتُمْ يُمْدِدُكُمْ رَبُّكُمْ وَيَزِيدُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَرَيْتَنَا آيَةً أُخْرَى؟

فَقَالَ عِيسَى عليه السلام: يَا سَمَكَةُ احْيَي بِإِذْنِ اللهِ، فَاضْطَرَبَتِ السَّمَكَةُ وَعَادَ عَلَيْهَا فُلُوسُهَا وَشَوْكُهَا، فَفَزِعُوا مِنْ ذَلِكَ. فَقَالَ: مَا لَكُمْ تَسْأَلُونَ أَشْيَاءَ فَإِذا أُعْطِيتُمُوهَا كَرِهْتُمُوهَا؟ مَا أَخْوَفَنِي عَلَيْكُمْ أَنْ تُعَذبُوا، يَا سَمَكَةُ عُودِي كَمَا كُنْتِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى، فَعَادَتْ مَشْوِيَّةً كَمَا كَانَتْ.

فَقَالُوا: يَا رُوحَ اللهِ كُنْ أَنْتَ أَوَّلَ مَنْ يَأْكُلُ مِنْهَا ثُمَّ نَأْكُلُ نَحْنُ، فَقَالَ: مَعَاذ اللهِ أَنْ آكُلَ مِنْهَا، وَلَكِنْ يَأْكُلُ مِنْهَا مَنْ سَأَلَهَا. فَخَافُوا أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا، فَدَعَا عِيسَى أَهْلَ الْفَاقَةِ وَالْمَرْضَى وَأَهْلَ الْبَرَصِ وَالْجُذامِ وَالْمُقْعَدِينَ وَالْمُبْتَلِينَ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ لَكُمُ الْمَهْنَأُ وَلِغَيْرِكُمُ الْبَلاَءُ، فَأَكَلُوا مِنْهَا فَصَدَرَ عَنْهَا أَلْفٌ وَثَلاَثُمِائَةٍ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ وَفَقِيرٍ وَزَمِنٍ وَأَبْرَصٍ وَمُبْتَلَى كُلُّهُمْ شَبْعَانُ يَتَجَشَّأُ.

ثُمَّ نَظَرَ عِيسَى إِلَى السَّمَكَةِ فَإِذا هِيَ كَهَيْأَتِهَا، وَطَارَت الْمَلاَئِكَةُ بِالْمَائِدَةِ صُعُداً وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا حَتَّى تَوَارَتْ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَأْكُلْ يَوْمَئِذٍ مِنْهُمْ زَمِنٌ إِلاَّ صَحَّ، وَلاَ مَرِيضٌ إِلاَّ بَرِئَ، وَلاَ مُبْتَلَى إِلاَّ عُوفِيَ، وَلاَ فَقِيرٌ إِلاَّ اسْتَغْنَى وَلَمْ يَزَلْ غَنِيّاً حَتَّى يَمُوتَ، وَنَدِمَ مَنْ لَمْ يَأْكُلْ مِنْهَا مِنَ الْحَوَارِيِّينَ.

وَكَانَتْ إِذا نَزَلَتْ اجْتَمَعَ الأَغْنِيَاءُ وَالْفُقَرَاءُ وَالضُّعَفَاءُ وَالْكِبَارُ وَالصِّغَارُ وَالرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، يَزْدَحِمُونَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا رَأَى ذلِكَ عِيسَى جَعَلَهَا نَوْبَةً بَيْنَهُمْ، فَلَبِثَتْ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً تَنْزِلُ صُبْحاً، فَلاَ تَزَالُ مَنْصُوبَةً يَأْكُلُونَ مِنْهَا حَتَّى إِذا فَاءَ الْفَيْءُ طَارَتْ صُعُداً وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَكَانَتْ تَنْزِلُ يَوْماً وَلاَ تَنْزِلُ يَوْماً، يَعْنِي كَانَتْ تَنْزِلُ غُبّاً كَنَاقَةِ صَالِحٍ عليه السلام، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى عِيسَى عليه السلام: اجْعَلْ مَائِدَتِي وَرِزْقِي لِلْفُقَرَاءِ دُونَ

الأَغْنِيَاءِ، فَعَظُمَ ذلِكَ عَلَى الأَغْنِيَاءِ حَتَّى شَكَوا وَشَكَّكُوا النَّاسَ فِيهَا، وَقَالُوا: تَرَونَ الْمَائِدَةَ حَقّاً نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ ؟!

فَقَالَ لَهُمْ عِيسَى عليه السلام: هَلَكْتُمْ بعَذاب اللهِ تَعَالَى، فَأَوْحَى اللهُ إلَيْهِ: أنِّي شَرَطْتُ عَلَى الْمُكَذِّبينَ شَرْطاً أنَّ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ نُزُولِهَا عَذبْتُهُ عَذاباً لاَ أعَذِّبُهُ أحداً مِنَ الْعَالَمِينَ. فَقَالَ عِيسَى: إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإنَّكَ أنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

فَمَسَخَ اللهُ مِنْهُمْ ثَلاثَمِائَةٍ وَثَلاثَةٌ وَثَلاثُونَ رَجُلاً، بَاتُوا مِنْ لَيْلَتِهِمْ عَلَى فُرُشِهِمْ مَعَ نِسَائِهِمْ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ خَنَازِيرَ يَسْعَوْنَ فِي الطُّرُقَاتِ وَالْكِنَاسَاتِ، وَيَأْكُلُونَ الْعُذْرَةَ، فَلَمَّا رَأى النَّاسُ ذلِكَ فَزِعُوا إلَى عِيسَى عليه السلام ، وَبَكَى عَلَى الْمَمْسُوخِينَ أهْلُوهُمْ، فَلَمَّا أبْصَرَتِ الْخَنَازِيرُ عِيسَى عليه السلام بَكَتْ وَجَعَلَتْ تَطِيفُ بعِيسَى، وَجَعَلَ عِيسَى يَدْعُوهُمْ بأَسْمَائِهِمْ وَاحِداً وَاحِداً، فَيَبْكُونَ وَيُشِيرُونَ برُؤُوسِهِمْ وَلاَ يَقْدِرُونَ عَلَى الْكَلاَمِ، فَعَاشُوا ثَلاَثَةَ أيَّامٍ وَهَلَكُوا)[1].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أوَّلُ هذه الآيةِ معطوفٌ على قولِهِ: (إذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ) ويجوزُ أن يكون عَائداً على ما تقدَّم من قولِهِ: (يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ) كأنه قالَ: إذ يقولُ الله يومَ القيامةِ، وفي آخر السُّورة ما يدلُّ على هذا، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَالَ اللهُ هَذا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ) وذكرَ اللفظَ على صيغةِ الماضي؛ لتحقُّقِ أمرِهِ كأنه قد وقَعَ وشُوهِدَ، ونظيرُهُ ﴿وَنَادَى أصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾[2] وقوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾[3] أي سيَقُولُ.

وقال السديُّ وقطرب: (إنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِعِيسَى عليه السلام هَذا الْقَوْلَ حِينَ رَفَعَهُ)، واحتجَّا بقولِهِ: (إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ)، ولا خلافَ أنَّ الله لا يَغفِرُ لِمُشركٍ ماتَ على شِركِهِ، وإنَّما معنى الآية: وَإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ بتَوْبَتِهِمْ.

---

(١) أخرجه الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة: ذكر المائدة وصفتها: ص٣٦٣: الحديث (١/ ١٠١١) مع تغاير في بعض الألفاظ.

(٢) الأعراف / ٤٤ . (٣) ابراهيم / ٢٢ .

وقال أكثرُ المفسِّرين: إنَّما يقولُ اللهُ تعالى هذه المقالةَ يوم القيامةِ، بدليلِ ما ذكَرنا من قولهِ: (يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ)، (يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)، فإن قالوا (إذْ) للماضي، قُلنا قد تكون بمعنى (إذا) كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ﴾[1] أي إذا فَزِعوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ءَأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ) يعني ءَأنتَ قُلتَ لَهم في الدُّنيا: (اتَّخِذُونِي وَأمِّيَ إلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ)؟ فإنْ قيلَ: ما وجهُ سؤالِ الله تعالى لعيسَى مع علمهِ بأنه لم يقُلْ؟ قِيْلَ: ذلكَ توبيخٌ لقومِ عيسى وتحذيرٌ لهم عن هذه المقالةِ. وَقِيْلَ: أرادَ الله بذلك أن يُقِرَّ عيسَى بالعبوديَّة على نفسهِ، فيظهرُ منه تكذيبُهم بذلك، فيكون حجَّةً عليهم.

قال أبو رَوْقٍ وميسرةُ: (إذْ قَالَ اللهُ لِعِيسَى عليه السلام: ءَأنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأمِّيَ إلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ؟ ارْتَعَدَتْ مَفَاصِلُهُ، وَانْفَجَرَتْ مِنْ كُلِّ شَعْرَةٍ مِنْ جَسَدِهِ عَيْنٌ مِنَ الدَّمِ)[2].

ثُمَّ يَقُولُ عِيسَى عليه السلام مُجيباً اللهَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ ؛ أي تَنزيهاً لكَ يا رب، ما ينبغِي لي أن ادَّعي شيئاً لستُ بجديرٍ له، ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ ؛ عندي وما في ضَميري، وما كان منِّي في الدُّنيا، ﴿ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ؛ غيبكَ، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾ ؛ لا يعلمُ الغيبَ أحدٌ غيرُكَ. وَقِيْلَ: معناهُ: تعلمُ ما أريدُ، ولا أعلمُ ما تريدُ، (إنَّكَ أنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوب) أي ما كانَ وما يكون.

وأمَّا ذِكْرُ النفسِ في قوله: (وَلا أعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) فعلى من أوجُه الكلامِ: بأن الغيبَ من اللهِ تعالى في حُكمِ الضميرِ من الآدميِّين، والنَّفْسُ في كلامِ العرب على ضُروب؛ تُذكَرُ ويرادُ بها ذاتُ الشيءِ، كما يقالُ: جاءَني زيدٌ نفسُه؛ أي ذاتُه، وقتَلَ فلانٌ نفسَهُ، وأهلَكَ فلان نفسَهُ، ويرادُ بذلك الذاتُ بكمالِها. وتُذكَرُ ويرادُ بها الروحُ،

---

(١) سبأ / ٥١ .

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٣٧٥، بلفظ قريب منه. وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠١٤٧) عن ميسرة. وفي الدر المنثور: ج ٣ ص٢٣٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ)).

كما يقالُ: خرَجت نفسُ فلان؛ أي روحهُ. وتُذكَرُ ويراد بها ما في القلب، كما يقالُ: أضمَرَ فلانٌ ما في نفسهِ كذا وكذا.

فإذا احتمل اللفظُ هذه الوجوهَ كلَّها وجبَ حملُ الآية على أصحِّ الوُجوهِ؛ لقيامِ الدَّلالة على وجوب تنزيه صفاتِ الله تعالى عما لا يجوزُ. ولو كانت النفسُ لا تستعمل إلاَّ في أمرٍ كائن في غيرِهِ لوجبَ في قولهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾[(١)] أنْ يقالَ: إن النفسَ نفساً، فإذا بطَلَ ذلك صحَّ أن المرادَ به الجملةُ والذاتُ، كأنه قالَ: يومَ يأتِي كلُّ أحدٍ يجادلُ عن نفسهِ، فكان المرادُ بقوله: (وَلا أعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) جُملةَ الأمرِ، وحقيقةَ ما عندِ الله تعالى.

فإن قِيْلَ: ليس في النَّصارى مَن اتخذ مريم إلَهاً فما معنى هذا القولِ ؟ قِيْلَ: إنْ لم يكن فيهم مَن يقولُ هذا القولَ اليومَ، فلا بدَّ أن يكونَ فيهم مَن قال ذلك؛ لأن هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّهم قد قالوا ذلك، وتصديقٌ لكتاب الله تعالى أوجبُ من التصديقِ لنقل ناقلٍ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ ؛ أي ما قُلت لهم شيئاً إلاّ القولَ الذي أمَرتَني به، ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ ؛ أي وحِّدوهُ وأطيعوهُ، ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: فلمَّا قبَضتَني إليك من بينِهم، ورفَعتَني إلى السَّماء كنتَ أنتَ الحفيظَ عليهم، ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ ؛ من مقالَتي ومقالتِهم، مطَّلعٌ عالِمٌ مشاهدٌ.

وذهبَ بعضُ المفسرين إلى أن معنى قولهِ: (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي) أمَتَّني، وقالوا: إنَّ عيسى ليس بحيٍّ في السَّماء. إلاّ أنَّ القولَ الأَول أشهرُ، ويحتمل أنَّ الله تعالى أمَاتَهُ، ثم أحياهُ ورفعَهُ إلى السَّماء.

وقال الحسن: (الْوَفَاةُ فِي كِتَاب اللهِ تَعَالَى عَلَى ثَلاَثَةِ أوْجُهٍ: وَفَاةُ الْمَوْتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[(٢)]، وَوَفَاةُ النَّوْمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي

(١) النحل / ١١١ .

(٢) الزمر / ٤٢ .

يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾(١) أيْ يُنِيمُكُمْ، وَوَفَاةُ الرَّفْعِ كَقَوْلِهِ: ﴿يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ ؛ قرأ الحسن: (عَبْدُكَ)، قِيلَ: معناهُ التبعيضُ؛ أي إن تُعذّبَ الذين أقامُوا على الكفر فإنَّهم عبادُك، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ؛ للَّذين أسلَمُوا وتابوا، ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ ؛ لأنه قالَ: (أأنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)، وما قلتُ لهم، وفيهم المسلمون والمشركون، فقوله: (إنْ تُعَذِّبْهُمْ) راجعٌ إلى الكافرين، وقوله: (وَإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ) راجعٌ إلى المؤمنِين.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في معنى هذه الآيةِ: (وَإنْ تُعَذِّبْهُمْ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ الَّتِي أجْزَمُوهَا فَإنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإنْ يَتُوبُوا فَتَغْفِرَ لَهُمْ)(٣). قولُهُ: (فَإنَّكَ أنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أي المنيعُ في مغفرتِكَ لهم لا يمنعُكَ أحدٌ مما تريدُ، الحكيمُ في أمرِكَ.

فإنْ قيلَ: ظاهرُ الآيةِ يقتضي سؤالَ المغفرةِ للكفَّار، واللهُ لا يغفِرُ أن يُشركَ بهِ، فما معنى هذا السؤال؟ قِيْلَ: يحتملُ أنه لم يكن في كتابهِ: إنَّ الله لا يغفرُ أن يُشركَ بهِ، ويحتملُ أن يكون معناهُ: إنْ تغفِرْ لهم كَذِبَهم الذي قالوا عليَّ.

وَقِيْلَ: إنَّ عيسى عَلِمَ أنه منهم مَن آمنَ، ومنهم من أقامَ على الكفرِ، فكأنه قالَ: إن تعذِّب الكفارَ منهم فإنَّهم عبادُكَ، وأنت القادرُ عليهم، وإنْ تغفِرْ لِمَن تابَ منهم فذلك تفضُّلٌ منكَ؛ لأنه كان لكَ أن لا تفعلَ ذلك بهم بعد عظيمِ فِريَتِهم عليكَ، وكان هذا القولُ من عيسَى عليه السلام على وجهِ الخضوع والانقيادِ والاستسلام على معنى أنَّكَ أنتَ المالكُ والقادر على كلِّ شيء، فلذلك قالَ: (فَإنَّكَ أنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، ولو كان قالَ: فإنك أنتَ الغفورُ الرحيم، لأوْهَمَ الدعاءُ بطلب المغفرة والرحمةِ.

---

(١) الأنعام / ٦٠.

(٢) آل عمران / ٥٥.

(٣) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٤١؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ، وذكره بمعناه)).

ورُوي: أنه لَمَّا نزَلت هذه الآيةُ، أحْيَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَتَهُ بهَا، وَكَانَ بهَا يَقُومُ وَبهَا يَقْعُدُ وَبهَا يَسْجُدُ، ثُمَّ قَالَ:[أُمَّتِي أُمَّتِي يَا رَب]، فَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إنَّ اللهَ تَعَالَى يُقْرِؤُكَ السَّلاَمَ وَيَقُولُ لَكَ: [إنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءَكَ][(١)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ ﴾ ؛ مَن قرأ (يَوْمُ) بالرفعِ فمعناهُ: قالَ اللهُ لعيسَى عليه السلام هذا يومُ ينفعُ النبيِّين صدقُهم بتبليغِ الرسالة، والمؤمنين إيمانُهم الذي هو صدقٌ في الدنيا والآخرةِ، ولا ينفعُ الكفارَ صِدقُهم في الآخرةِ.

ومن قرأ (يَوْمَ) بالنصب فعلى الظرفِ، على معنى: قالَ اللهُ لعيسى هذا القولَ الذي تقدَّم ذِكرهُ في يومٍ ينفعُ الصادقين صدقُهم. وقال الكلبيُّ: (مَعْنَى الآيَةِ: قَالَ اللهُ: هَذا يَوْمُ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ إيْمَانُهُمْ)، وَقِيْلَ: ينفعُ الصَّادقين في الدُّنيا صِدقَهم وفي الآخرةِ. وقرأ الأعمشُ (هَذا يَوْمٌ) بالتنوين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ ؛ أي بساتينُ تجري من تحت شجرها وغُرَفها الأنهارُ، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ ﴾ ؛ أي إلى الأبدِ، ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ﴾ ؛ بإيمانِهم وطاعتهم، ﴿ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ ؛ بإكرامِهم في الجنَّة النجاةَ الوافرة. وحقيقةُ الفوز نيلُ المرادِ. قوله عزّ وَجَلَّ: (وَرَضُوا عَنْهُ) أي بما أكرمهم به من الثواب، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩ ﴾ ؛ أي ذلكَ الثوابُ والخلود في الجنَّة النجاةُ الوافرة، وحقيقةُ الفوز نيلُ المرادِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ ﴾ ؛ أي للهِ خزائنُ السَّموات والأرض، وما فيهنَّ من الخلق، يُعطي من شاءَ ما شاءَ، ويغفرُ لِمَن يشاءُ، ويعذِّبُ مَن يشاءُ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ١٢٠ ﴾ ؛ مما يريدُ بعبادهِ من المغفرةِ والعذاب قادرٌ.

والغرضُ من هذه الآيةِ نفيُ الرُّبوبية عن عيسَى عليه السلام ، وبيانُ أنَّ الله تعالى هو المستحقُّ للعبادةِ دونَ غيره، فإنه هو القادرُ على كلِّ شيءٍ من الجزاء؛ ترغيباً في الطاعةِ؛ وتحذيراً عن المعصيةِ.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب دعاء النبي ﷺ لأمته: الحديث (٣٤٦/ ٢٠٢).

وعن أُبَيٍّ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْمَائِدَةِ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ كُلِّ يَهُودِيٍّ وَنَصْرَانِيٍّ يَتَنَفَّسُ فِي الدُّنْيَا عَشْـرَ حَسَـنَاتٍ، وَمُحِـيَ عَنْـهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ][(١)].

آخر تفسيرُ سورة (المائدة) والحمد لله رب العالمين

آخر المجلد الثاني

من التفسير الكبير للإمام الطبراني

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أُبَي بن كعب.

فهرس المجلد الثاني

سورة آل عمران	
الآيات	الصفحة
١-١٦	٥
١٨-٣٨	٢٥
٣٩-٥٩	٤٥
٦٠-٩٤	٦٣
٩٥-١٢٢	٩٠
١٢٢-١٥١	١٢١
١٥٢-٢٠٠	١٤٥
سورة النساء	
الآيات	الصفحة
١-١٥	١٨٢
١٦-٣٤	٢٠٥
٣٥-٥٧	٢١٤
٥٨-٨٩	٢٥٤
٩٠-١٠٦	٢٧٤
١٠٧-١٣٥	٢٩٦
١٣٦-١٧٦	٣١٥
سورة المائدة	
الآيات	الصفحة
١-١٢	٣٤١
١٣-٤٠	٣٧٠
٤١-٥٩	٣٩٥
٦١-٨٩	٤١٩
٩٠-١٢٠	٤٤٥

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإِمَامِ الْحَافِظِ العَلاَّمَةِ أبي الْقَاسِمِ

سُلَيمَانِ بْنِ أحْمَدَ بنِ أيُّوبَ الطَّبَرانِيِ

(٢٦٠-٣٦٠) مِن الهِجْرَةِ

ضَبَطَهُ عَلَى أصْلِهِ وَخَرَّجَ أحَادِيثَهُ وعَلَّقَ عَلَيهِ

هِشَامُ بْنُ عَبدِالكَرِيمِ البَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

المجلد الثالث

دار الكتاب الثقافي

الأردن- إربد

بسم الله الرحمن الرحيم

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٨ / ١/٩٢)

٢٢٢
الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (٢٦٠-٣٦٠هـ)
التفسير الكبير: تفسير القرآن العظيم/ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)؛ تحقيق هشام عبدالكريم البدراني الموصلي.- إربد : دار الكتاب الثقافي ، ٢٠٠٨.
صدر على شكل ستة أجزاء
(...) ص.
ر.أ (٩٢ / ١ / ٢٠٠٨).
الواصفات:/ التفاسير//القرآن//القرآن الكريم/

• تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

ردمك ISBN 978-9957-492-02-1

دار الكتاب الثقافي
للطباعة والنشر والتوزيع
الأردن / إربد
شارع إيدون إشارة الإسكان
تلفون
(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٦١٦١٦)
فاكس
(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٥٠٣٤٧)
ص.ب (٢١١-٦٢٠٣٤٧)

Dar- AlKitab
PUBLISHERS
Irbid - Jordan
Tel:
(00962-2-7261616)
Fax:
(00962-2-7250347)
P. O. Box: (211-620347)
E-mail:
Dar_ Alkitab1@hotmail.Com

دار المتنبي

دار المتنبي للنشر والتوزيع
الأردن – إربد – تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)

سُــورَةُ الأنْعَـامِ

سُورَةُ الأَنْعَامِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ حَرْفٍ وَأَرْبَعمِائَةٍ وَاثْنَان وَعُشْـرُونَ حَرْفـاً؛ وَثَلاثَـةُ آلاَفٍ وَاثْنَان وَخَمْسُـونَ كَلِمَـةً؛ وَمِائَـةٌ وَخَمْـسٌ وَسُـتُّونَ آيَـةً. كُلُّـهَا احْتِجَـاجٌ عَلَـى الْمُشْرِكِينَ، وَكُلُّهَا مَكِّيَّةٌ غَيْرَ سَتِّ آيَاتٍ مِنْهَا؛ فَإنَّـهَا مَدَنِيَّـاتٌ: ﴿وَمَـا قَـدَرُوا اللهَ حَـقَّ قَدْرِهِ﴾[1] إلَى آخِرِ ثَلاَثِ آيَاتٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُـمْ﴾ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ وَنَزَلَتْ هَـذِهِ السُّـورَةُ وَشَيَّعَهَا سَبْعُونَ أَلْـفَ مَلَـكٍ قَائِدُهُمْ جِبْرِيلُ عليه السلام قَدْ سَدُّوا مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ؛ لَهُمْ زَجَلٌ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ. فَدَعَـا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْكُتَّابَ فَكَتَبُوهَا فِي لَيْلَتِهِمْ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَـا مُحَمَّـد مَـنْ قَرَأَهَـا مِـنْ أُمَّتِكَ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً صَلَّى عَلَيْهِ السَّبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ الَّذِينَ شَيَّعُوهَا إلَيْكَ، يَعُودُ كُـلُّ آيَةٍ مِنْهَا يَوْماً وَلَيْلَةً، فَخَرَّ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِداً شُكْراً للهِ تَعَالَى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ قـال كعـبُ الأحبار: وأوَّل مفتاحِ التوراة (الحمدُ لله الذي خلقَ السـمواتِ والأرضَ)، وخاتِمتُـها خاتِمة سورة هُود (وَللهِ غَيْبُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ). قال مقاتلُ: (قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَنْ رَبُّكَ؟ قَالَ: [الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ] فَكَذبُـوهُ، فَـأَنْزَلَ اللهُ تَعَـالَى حَامِداً نَفْسَهُ دَالاًّ عَلَى تَوْحِيْدِهِ: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) أي خلقَ السَّموات بما فيها من الشَّمسِ والقمر والنجومِ، والأرضَ بما فيها مـن الـبَرِّ والبحـر؛

(١) الآية / ٦٧.

(٢) الآيات / ١٥١-١٥٣.

والسَّهلِ والجبل؛ والنَّباتِ والشجَر، خلقَ السموات وما فيها في يومين؛ يوم الأحدِ ويوم الاثنين؛ وخلقَ الأرضَ وما فيها في يومين؛ يومِ الثلاثاء ويوم الأربعاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ ؛ قال السديُّ: (ظُلْمَةَ اللَّيْلِ وَنُورَ النَّهَارِ). وقال الواقديُّ: (كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور فَهُوَ الْكُفْرُ وَالإِيْمَانُ؛ إلاَّ فِي هَذِهِ الآيَةِ فَإِنَّهُ يُرِيْدُ بِهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ). قال قتادةُ: (يَعْنِي الْجَنَّةَ وَالنَّارَ)[1]. وقال الحسنُ: (يَعْنِي الْكُفْرَ وَالإِيْمَانَ)[2].

وقيل: خلقَ الليلَ والنهار لمصالحِ العباد؛ يستريحون باللَّيل ويبصرون معايشَهم بالنهار. وإنَّما جَمَعَ (الظُّلُمَاتِ) ووحَّدَ (النُّورَ) لأن النورَ يتعدَّى، والظلمةَ لا تتعدَّى.

وقال أهلُ المعانِي: (جَعَلَ) ها هنا صلةٌ؛ والعربُ تزيد (جَعَلَ) في الكلامِ كقول الشاعرِ:

وَقَدْ جَعَلْتُ أَرَى الاثْنَيْنِ أَرْبَعَةً ... وَالْوَاحِدَ اثْنَيْنِ لَمَّا هَدَّنِي الْكِبَرُ

وتقديرُ الآية: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) والظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ. وقيل: معناهُ: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)؛ لأنه خَلَقَ الظلمةَ والنورَ قبل السمواتِ والأرض. وقال قتادةُ: (خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ قَبْلَ الأَرْضِ، وَالظُّلْمَةَ قَبْلَ النُّور، وَالْجَنَّةَ قَبْلَ النَّار).

وقال وهبُ: (أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ مَكَاناً مُظْلِماً، ثُمَّ خَلَقَ جَوْهَرَةً فَأَضَاءَتْ ذلِكَ الْمَكَانَ، ثُمَّ نَظَرَ إلَى الْجَوْهَرَةِ نَظَرَ الْهَيْبَةِ، فَصَارَتْ مَاءً وَارْتَفَعَ بُخَارُهَا وَنَبَذ زَبَدُهَا، فَخَلَقَ مِنَ الْبُخَار السَّمَوَاتِ؛ وَمِنَ الزَّبَدِ الأَرْضِيْنَ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) ﴾ ؛ أي (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) بَعْدَ هذا البيان (بربهمْ يَعْدِلُونَ) الأوثانَ؛ أي يُشْرِكُونَ. وقيل: معناهُ: (يَعْدِلُونَ) أي يجعلون لله عَدِيْلاً ويعبدون الحجارةَ والأموات؛ وهم يُقِرُّونَ بأنَّ اللهَ خالقُ هذه الأشياءِ، فالأصنامُ لاَ تَعْقِلُ شيئاً من ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠١٥٧).

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٤٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ ؛ معناهُ: خلقكُم من آدمَ عليه السلام، فأخرجَ الخطابَ له؛ لأنَّهم ولَدَهُ، قال السُّديُّ: (لَمَّا أرَادَ اللهُ خَلْقَ آدَمَ، بَعَثَ جِبْرِيْلَ إلَى الأَرْضِ لِيَأْتِيَهُ بطَائِفَةٍ مِنْهَا، فَاسْتَعَاذتِ الأَرْضُ باللهِ أنْ يَنْقُصَ مِنِّي، فَرَجَعَ وَلَمْ يَأْخُذْ. فَبَعَثَ مِيكَائِيلَ؛ فَاسْتَعَاذتْ، فَبَعَثَ مَلَكَ الْمَوْتِ؛ فَاسْتَعَاذتْ بِاللهِ مِنْهُ؛ فَقَالَ: وَأنَا أعُوذُ باللهِ أنْ أخَالِفَ أمْرَهُ، فَأَخَذ مِنْ وَجْهِ الأَرْضِ، فَخَلَطَ السَّوْدَاءَ وَالْبَيْضَاءَ وَالْحَمْرَاءَ؛ فَلِذلِكَ اخْتَلَفَتِ الأَلْوَانُ؛ ألْوَانُ بَنِي آدَمَ، ثُمَّ عَجَنَهَا بالْمَاءِ الْعَذْبِ وَالْمِلْحِ وَالْمِسْكِ؛ فَلِذلِكَ اخْتَلَفَتْ أخْلاَقُهُمْ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِمَلَكِ الْمَوْتِ: رَحِمَ جِبْرِيْلُ وَمِيكَائِيْلُ الأَرْضَ وَلَمْ تَرْحَمْهَا؛ لاَ جَرَمَ أنْ أجْعَلَ أرْوَاحَ مَنْ أخْلُقُ مِنْ هَذا الطِّيْنِ بيَدِكَ)(١).

وروى أبو هريرةُ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [إنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، وَجَعَلَهُ طِيْناً، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى كَانَ حَمَأً مَسْنُوناً، ثُمَّ خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إذا كَانَ صَلْصَالاً كَالْفَخَّار؛ مَرَّ بِهِ إبْلِيْسُ لَعَنَهُ اللهُ، فَقَالَ: خُلِقْتَ لأَمْرٍ عَظِيْمٍ. ثُمَّ نَفَخَ اللهُ فِيْهِ الرُّوحَ](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ قَضَى أجَلاً) أي خَلَقَكُم مِن آدمَ عليه السلام (ثُمَّ قَضَى أجَلاً) أي جعلَ لِحياتكُم وفاةً تَحيونَ فيه وهو مُدَّةُ كلِّ واحدٍ منَّا مِن يوم يولدُ إلى يوم يَموت. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ ؛ أي مدَّة انقضاء الدُّنيا إلى أنْ تقومَ الساعةَ؛ ولا يعلمُ وقتَ قيامِها إلاَّ اللهُ. وقال مجاهدُ وابن جبير: (ثُمَّ قَضَى أجَلاً) يَعْنِي أجَلَ الدُّنيَا (وَأجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ) وُهُوَ الآخِرَةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ أي ثُمَّ أنتُم بعدَ هذا البيانِ تَشكُّونَ في موضعٍ ليس هو موضعُ الشَّكِّ. وَالْمِرْيَةُ هي الشَّكُّ الْمُجلِبُ بالشُّبهة؛ أصلُها مِن: مَرَيْتُ النَّاقَةَ إذا مَسَحْتَ ضَرْعَهَا لِيَنُزَّ لَبَنُهَا، وَيَجْلِبَهُ لِلْحَلْب(٣).

---

(١) ذكره ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص١٥.

(٢) في كنز العمال: الحديث (١٥٢٢٨).

(٣) ينظر: لسان العرب: ج ١٣ ص٩٠: مادة (مرا)؛ قال ابن منظور: (فمِن مَرَيْتُ النَّاقَةَ إذا مَسَحتُ ضَرْعَهَا لِتَدِرَّ) وقال: (وَالْمِرْيَةُ وَالْمُرْيَةُ: الشكُّ والجدَلُ، بالكسرِ والضم).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ ؛ معناه: هو اللهُ المعبود المنفردُ بالتدبيرِ في السَّموات والأرض، العالِمُ بما يُصلحهما وبما يعملُ فيهما. يعلمُ جهركم وسرَّ أعمالِكم وعلانيةَ أموركم، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي ما تعملونَ مِن خيرٍ وشرٍّ. وعن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [مَنْ قَرَأَ مِنْ أوَّلِ سُورَةِ الأَنْعَامِ ثَلاَثَ آيَاتٍ إلَى قَوْلِهِ: (وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) وَكَّلَ اللهُ بِهِ أرْبَعِينَ مَلَكاً يَكْتُبُونَ لَهُ مِثْلَ عِبَادَتِهِمْ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَنْزِلُ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ مَعَهُ مِرْزَبَةٌ مِنْ حَدِيْدٍ، فَإذا أرَادَ الشَّيْطَانُ أنْ يُوَسْوِسَ لَهُ؛ ضَرَبَهُ بهَا ضَرْبَةً كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ سَبْعُونَ حِجَاباً، فَإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: امْشِ فِي ظِلِّي؛ وَكُلْ مِنْ ثِمَارِ جَنَّتِي؛ وَاشْرَبْ مِنْ مَاءِ الْكَوْثَرِ؛ وَاغْتَسِلْ مِنْ مَاءِ السَّلْسَبِيْلِ؛ وَأنْتَ عَبْدِي وَأنَا رَبُّكَ](١).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي ما تأتِي كفَّارَ مكةَ من دلائلِ التوحيد والنبوَّة؛ مثلَ كسُوفِ الشمسِ والاستسقَاء، وكسوفِ القمرِ والدُّخان؛ إلا كانوا عن هذهِ الآيات والعلامات معرضينَ مكذِّبين تاركين لَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي فقد كَذَبَ أهلُ مكة بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن؛ وبما رَأوْهُ من انفلاق القمَر بمكةَ، كما رويَ عن ابن مسعود (أنَّ الْقَمَرَ انْفَلَقَ فِلْقَتَيْنِ حَتَّى رَأوا اجْرَابَي فِلْقَتَي الْقَمَرِ، ثُمَّ ذهَبَتْ فِلْقَةٌ وَبَقِيَتْ فِلْقَةٌ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أنْبَاءُ مَا كَانُوا بهِ يَسْتَهْزِئُون) هذا وعيدٌ لَهم؛ أي سيعلمون ما يَؤُولُ إليه عاقبةُ استهزائِهم بالرُّسُلِ والكُتُب والآيات التي كانت تأتيهم، فَقَتَلَهُمُ اللهُ يومَ بَدْرٍ بالسَّيف، ويأتيهم خبرُ استهزائهم حين يرون العذابَ معاينةً. والنبأُ عبارةٌ عن خَبَرِ الَّذي لهُ عِظَمٌ وشَأْنٌ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٤٥-٢٤٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه السلفي بسند واه عن ابن عباس)). ونقله أهل التفسير عن جابر ﷺ؛ ينظر: اللباب: ج ٨ ص٥٤٠.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ ؛ أي ألَمْ يعلم أهلُ مكَّة كم أهلَكنا من قبلهم من قرنٍ بكفرهم، مثلَ قومِ نُوح وعَاد وثمـود، ﴿ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ ؛ وأمهلناهم في العُمْرِ والولد ورفعِ الموانع ما لَمْ نُمهلْ لكم، ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا ﴾ ؛ أي فانزلنـا عليـهم المطـرَ دَارّاً دائمـاً يتبعُ بعضُه بعضاً، ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ ﴾ ؛ ((أي مِنْ تَحْتِ))[1] أشـجارهم وبساتينهم، فلم يشكرُوا وعَصَوا ربَّـهم وكذبـوا رسـلَهُم، ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ؛ بكفرهم وتكذيبهم، ﴿ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ ؛ أي مِن بعـدِ هلاكِـهم، ﴿ قَرْنًا ﴾ ؛ قَوْماً، ﴿ آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ فسكنُوا ديارَهم، ثم بُعِثَتْ إليهم الرُّسلُ، فمن لم يأخُذْ بملَّةِ الرُّسُل ومنهاجهم أهلكَهم الله.

والقَرْنُ - في قول أكثر المفسِّرين-: أهلُ عَصْرٍ واحِد، سُمُّوا قَرْناً؛ لاقترانِـهم في قَرْنٍ واحد. ويقالُ: أهلُ كلِّ عصرٍ فيهم نبيٌّ أو عالِمٌ، لاقترانِهم بـالنبوَّة والعلـم، كمـا قال ﷺ: [خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ][2]. وأرادَ بـالقرن الأوَّل: الصَّحابـةَ، وبالثاني: التابعين، وبالثالِث: تابعِي التابعين. واختلفُوا في مدَّة القـرن؛ قـال بعضُـهم: ثَمَانُونَ سنةً، وقيل: مِائةُ سنةٍ، وبين القرنين ثمَانِي عشرةَ سنةً.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ قال ابن عباس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ أبي أمَيَّةَ الْمَخْزُومِيِّ؛ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ لَـنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَنَا بكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَعَهُ أرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَشْـهَدُونَ أنَّـهُ مِـنْ عِنْدِ اللهِ وَأنَّكَ رَسُولُهُ). وقال مقاتلُ والكلبيُّ: (نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ، وَعَبْدِاللهِ ابْنِ أبي أمَيَّةَ، وَنَوْفَلِ بْنِ خُوَيْلِدٍ؛ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَنَا بكِتَابٍ مِـنْ عِنْدِ اللهِ، وَمَعَهُ أرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَشْهَدُونَ أنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَأنَّكَ رَسُـولُهُ، فَـأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)[3].

---

(١) ((أي من تحت)) ليست في المخطوطة.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (١١٤٤) عن النعمان بن بشير: ج ٢ ص٧٤، والحديـث (٥٤٧١) عن أبي هريرة ﷺ: ج ٦ ص٢٢٣. وفي مجمـع الزوائـد: ج ١٠ ص١٩؛ قـال الهيثمـي: ((فيه عاصم بن بهدلة، وهو حسن الحديث، وبقية رجال الإمام أحمد رجال الصحيح)).

(٣) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٢٩٣.

ومعناها: (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي) صَحِيْفَـةٍ وعلَّقناهُ بين السَّماءِ والأرضِ ينظرون إليه ويعاينونه ويلمسونه بأيديهم، ﴿ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ ؛ كفَّارُ مكَّة بعد معاينةِ ذلكَ: ﴿ إِنْ هَٰذَآ ﴾ ؛ مَا هَذا؛ ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي كما قالوا في انشقاقِ القَمَرِ: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[(١)]. وفي الآيةِ بيانُ أنَّهم كانوا مُعاينين مصرِّين على التكذيب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي قالُوا: لولا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ مَلَكٌ نشاهدُه ونعاينُه يخبرنا بأنه نبيٌّ، يقولُ تعالى: (وَلَوْ أنزَلْنَا مَلَكًا) كما سألوهُ فكذبوا لعذبناهُم بعذاب الاستئصال (ثُمَّ لا يُنظَرُونَ) أي لا يؤجَّلون ولا يُمْهَلُونَ بعدَ نزول الآية المقترحة، نحوَ ما ذكرَ اللهُ تعالى في قصَّة قومِ صالحٍ وغيرِهم. قال الضحَّاك: (مَعْنَاهُ: لَوْ أتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَتِهِ لَمَاتُوا)[(٢)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي لو أرسَلنا إليهم رسُولاً من الملائكةِ لأرسلناهُ في صورةِ الإنسان؛ لأنَّهم لا يستطيعون النظرَ إلى الملائكةِ؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى هلاكِهم؛ وليكونَ الشكلُ إلى الشكلِ أميلَ، وبه الذهن[(٣)] إلى الفهمِ عنه أقربَ، وإلى القَبول منه أسرع، ولو نظرنا إلى الْمَلَكِ على هيبتهِ لصُعِقْنَا.

وقد كانتِ الملائكةُ تأتِي الأنبياءَ فِي صورة الإنسان؛ من ذلك أنَّ جبريلَ عليه السلام كان يأتِي النبيَّ ﷺ في صورةِ دحيةَ الْكَلْبِيِّ، وجاءتِ الملائكةُ إلى إبراهيمَ عليه السلام في صورةِ الضَّيفين، وجاءتِ الملائكةُ إلى داودَ عليه السلام في صورة رَجُلَيْنِ يختصمان إليه، وذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً) أي لو أنزلنا إليهم مَلَكاً لجعلنا ذلكَ في صورةِ الرَّجُلِ أيضاً.

---

(١) القمر / ٢.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٣٩٣؛ نقله القرطبي عن ابن عباس والحسن وقتادة، بلفظ: (لو رأوا الملَك).

(٣) في المخطوط: (وبه السن والى الفهم عنه أقرب) وهو غير مستقيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) أي اختَلَطْنَا وشَبَّهْنَا عليهم ما يَخْلُطُونَ على أنفسِهم حتى شَكُّوا؛ فلا يدرونَ أمَلَكٌ هو أم رجُلٌ؟ وهذا لأنَّهم أنكروا نبوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ بعدَما عرفُوه بالصدق والأمانةِ، ثم لَبَسُوا على أنفسهم وعلى ضَعَفَتِهم؛ فقالوا: إنَّما هو بَشَرٌ، فلو نزلَ المَلَك على صورةِ رجلٍ لَلَبَسُوا على أنفسهم أيضاً فلم يقبلُوا منه وقالوا: إنهُ في مِثْلِ صورَتنا!

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ؛ أي اسْتَهْزَأتِ الأممُ الماضية بأنبيائِهم كما اسْتَهْزَأ بكَ يا مُحَمَّدُ قومُك، ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ ﴾ ؛ أي نَزَلَ بهم وحَلَّ بالمستهزئين من الكفَّار عقوبةُ استهزائهم بالكتاب والرسُول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

وقال الضَّحاك:(كَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَالِساً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِيْنَ: بلاَل وَصُهَيْبٍ وَعَمَّارٍ وَغَيْرِهِمْ، فَمَرَّ بهمْ أبو جَهْلٍ فِي مَلإٍ مِنْ قُرَيْشٍ؛ فَقَالَ: تَزْعُمُ يَا مُحَمَّدُ أنَّ هَؤُلاَءِ مُلُوكُ الْجَنَّةِ. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ لِيُثَبتَ فُؤَادَهُ وَيَصْبرَ عَلَى أذى الْمُشْرِكِيْنَ). أي إن سَخِرَ أهلُ مكَّة من أصحابكَ، فقد فَعَلَ ذلك الجهلةُ برسلِهم قبلكَ.

وَالْحَيْقُ في اللُّغة: مَا اشْتَمَلَ عَلَى الإنْسَانِ مِنْ مَكْرُوهِ فِعْلِهِ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بأَهْلِهِ﴾[(١)]. وأما الاستهزاءُ فهو إيْهَامُ التَّفْخِيْمِ بِمَعْنَى التَّحْقِيْرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ سافِروا في الأرضِ، ثم انظروا بأبصاركم وتأمَّلوا بقلوبكم كيفَ صارَ إجرامُ المكذِّبين بالرُّسل والكتب مِثْلُ عَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ، الذينَ عذبَهم اللهُ تعالى بعذاب الاستئصال، وكانت آثارُ ديارهم باقيةً قريبةً من مكَّة. وقال الحسنُ: (مَعْنَى (سِيرُوا فِي الأرْضِ) أي اقْرَأوا الْقُرْآنَ وَتَفَكَّرُوا فِيْهِ، فَإنَّ مَنْ قَرَأ الْقُرْآنَ وَتَفكَّرَ فِيْهِ فَكَأنَّهُ سَارَ فِي الأرْضِ).

---

(١) فاطر / ٤٣.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ لكفار مكَّة: لِمَنْ مُلْكُ ما في السَّموات والأرض، فإنْ أجابوكَ وقالوا: للهُ، وإلا فَقُلْ لَـهم ((لله))(١) إذ هُـم يعلمـونَ ويُقِـرُّونَ أن الأصنـامَ لا تَملك خَلْقَ شيء، وإنَّما اللهُ يَمْلِكُ ذلك.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أي أوْجَبَ على نفسـهِ الرَّحمـةَ فضـلاً وكَرَماً. أو قيل: معناهُ: أوجبَ على نفسهِ الثوابَ لِمن أطاعَـهُ؛ وقيـل: أوجـبَ علـى نفسهِ الرحمةَ بإمهال مَن عصاهُ؛ ليسـتدركَ ذلـك بالتوبـةِ ولم يُعَاجِلْـهُ بالعقوبـةِ، وهـذا استعطافٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ للمُتَوَلِّيْنَ عنه إلى الإقبال، وإخبـارٌ بأنـه رَحِيْـمٌ بعبـادهِ لا يُعَجِّلُ عليهم بالعقوبةِ، ويقبلُ منهم الإنابةَ والتوبةَ.

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَمَّا خَلَـقَ اللهُ تَعَـالَى الْخَلْـقَ؛ كَتَبَ فَوْقَ الْعَرْشِ: إنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي](٢). وقال عمرُ ﷺ لكعب الأحبار: (مَا أوَّلُ شَيْءٍ ابْتَدَأ اللهُ بهِ؟ فَقَالَ كَعْبٌ: كَتَبَ اللهُ كِتَاباً لَـمْ يَكْتُبْهُ بقَلَـمٍ وَلاَ مِـدَادٍ؛ كِتَابُـهُ الزُّبَرْجَدُ وَاللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ: إنِّي أنَا اللهُ لاَ إلَهَ إلاَّ أنَا، سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي)(٣).

وفي الخَبَر: أنَّ للهِ تعالى مائة رحمةٍ كلُّـها مِلْـءُ السَّموات والأرض، فـأهبطَ اللهُ تعالى منها رحمةً واحدة لأهلِ الدُّنيا، فهم بها يتراحَمون؛ وبها يتعاطَفون؛ وبها يـتراحمُ الإنس والجنُّ وطيرُ السَّماء وحيتانُ الماء؛ ومـا بـين الهـواءِ ودواب الأرض وهوامِّـها، وأخَّرَ تِسْعاً وتسعين رحمةً يرحمُ بها عبادَهُ يومَ القيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ؛ بدلٌ من الرحمةِ وتفسيرٌ لَها، فكأنَّهُ قالَ: لَيَجْمَعَنَّ بين المؤمنينَ والكفار، بين المؤمن والكـافر في الـرِّزق والنِّعمةِ والدَّولةِ إلى يومِ القيامة، لا شَكَّ فيه عند المؤمنينَ أنهُ حـقٌّ كـائنٌ، ثـم تكـونُ العاقبةُ بَدَلَ البعثِ للمؤمنين.

---

(١) ((لله)) سقطت من المخطوط.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الخلق: الحديث (٣١٩٤). ومسلم في الصحيح: كتاب التوبة: باب في سعة رحمة الله: الحديث (١٤/ ٢٧٥١) واللفظ له.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٢١١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾؛ ابتدأ كلامَهُ؛ وجوابُهُ ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾؛ لأنَّ (الَّذِيْنَ) في موضعِ شرطٍ؛ وتقديرُ الآية: الذين غَبَنُوا(١) أنفسَهم وأهليهم ومنازلَهم وخَدَمَهُمْ في الجنَّة في سابقِ عِلْمِ الله لا يؤمنونَ؛ أي لا يُصَدِّقُونَ بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ قولَه تعالى: (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) كلامٌ مبتدأ على وجهِ القَسَمِ، و(الَّذِيْنَ) بدلٌ من الكافِ والميم في (لَيَجْمَعَنَّكُمْ)، كأنهُ قال: لَيَجْمَعَنَّ هؤلاءِ المشركين (الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ) إلى هذا اليومِ الذي يجحدونه ويكفُرونه. ويحتملُ أن يكونَ قولُهُ: (الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ) راجعاً إلى المكذِّبين، كأنهُ قال: عاقبةُ المكذبين (الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ أتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ؛ قَدْ عَلِمْنَا مَا يَحْمِلُكَ عَلَى مَا تَدْعُونَا إلَيْهِ إلاَّ الْحَاجَةَ، فَنَحْنُ نَجْعَلُ لَكَ مِنْ أمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أغْنَانَا رَجُلاً، وَتَرْجِعُ عَمَّا أنْتَ عَلَيْهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)(٢).

ومعناهُ: وللهِ مُلْكُ ما استقرَّ (فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَار) من الخلائقِ كلِّهم، وهذا اللفظُ يشتمل على جميعِ المخلوقات؛ لأنَّ من الحيوانات ما يَتَصَرَّفُ بالنهار ويسكنُ بالليل، ومنها ما يتصرفُ بالليل ويسكنُ بالنَّهار. وقال محمدُ بن جُرير: (كُلُّ مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ فَهُوَ مِنْ سَاكِنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار، وَالْمُرَادُ: جَمِيعُ مَا فِي الأَرْضِ؛ لأنَّهُ لاَ شَيْءَ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى إلاَّ وَهُوَ سَاكِنٌ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَار)(٣).

وقال أهلُ المعانِي: في الآية إضمارٌ تقديرهُ: ولهُ ما سَكَنَ وتَحَرَّكَ في الليلِ والنهار. فإن قيلَ: فَلِمَ قالَ: (وَلَهُ مَا سَكَنَ) ولَمْ يَقُلْ: ولهُ ما تَحَرَّكَ؟ قيلَ: لأنَّ

---

(١) في المخطوط: (عبوا) وهو تصحيف، والصحيح كما أثبتناه؛ لأن أصل الخسار الغبن، يقال: خسر الرجل في البيع: إذا غبن.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: قريش وتفسير سورة الكهف: ج ١ ص٣١٦، شطر من حديث طويل عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ينظر: جامع البيان: تفسير الآية: مج ٥ ج ٧ ص٢١٠.

الساكنَ في الأشياءِ أعمُّ؛ لأنهُ ما من مُتَحَرِّكٍ إلا وسَكَنَ؛ وفي الأشياءِ الساكنة ما لا يتحركُ البَتَّةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) معناهُ: السميعُ لِمَقَالَةِ الكفَّار، الْعَلِيْمُ بهم وبعقوبَتِهم. ويقالُ: هو السميعُ للأصواتِ والأقوال، العليمُ بالأشياءِ والأرزَاق.

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: أسِوَى اللهِ أعْبُدُ رَبّاً وأتَّخِذُ نَاصراً، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) أي خالِقُهما ومُبدِعُهما، قال ابنُ عبَّاس: (مَا كُنْتُ أدْرِي مَا (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) حَتَّى أتَانِي أعْرَابيَّان يَخْتَصِمَانِ فِي بئْرٍ، فَقَالَ أحَدُهُمَا لِصَاحِبهِ: أنَا فَطَرْتُهَا، أي ابْتَدَأتُهَا، يَعْنِي ابْتَدَأتُ حَفْرَهَا)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ ؛ أي يرزقُ ولا يُرزق ولا يُعاوَن على الرِّزق. وقرأ الأعمشُ: (وَلاَ يَطْعَمُ) بفتحِ الياء؛ أي يرزقُ ولا يَأكُلُ؛ أي لا يجوزُ عليه الحاجةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ) انخفضَ لأنه نعتٌ لا اسمٌ لله تعالى، ويجوزُ نَصْبُهُ على معنى: أعْنِي فاطرَ السموات، ويجوزُ رفعه على إضمار (هُوَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: إنِّي أمِرْتُ أنْ أكُونَ أوَّلَ من أخلصَ لله بالتوحيدِ والعبادة من أهلِ هذا الزَّمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ لا يجوزُ أن يكونَ عطفاً على قولِهِ: (قُلْ إنِّي أمِرْتُ أنْ أكُونَ أوَّلَ مَنْ أسْلَمَ) لأنه غيرُ مأمورٍ بأن يقولَ: (وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وإنَّما هو نَهْيٌ معطوف على أمرٍ من حيثُ المعنى دون اللَّفظ؛ لأنَّ معنى الآيةِ: قِيْلَ لِي كذا: أوَّل من أسلمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ أي قُلْ يا مُحَمَّد: إنِّي أعْلَمُ أنِّي إنْ عَصَيْتُ رَبي وعبدتُ غيرَه، أن يُنْزِلَ بي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ شأنهُ وهو يومُ القيامةِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٢١٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ ؛ أي مَنْ يُصْـرفُ اللهُ عنه العذابَ العظيمَ يوم القيامةِ فقد رَحِمَهُ، ﴿ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي النجاةُ الوافرة الظَّاهرة. قرأ أهلُ الكوفة إلا حَفْصاً: (مَنْ تَصْرِفُ) بفتـحِ التَّـاء وكسـرِ الراء؛ وتفسيرهُ ما ذكرناه. وقرأ الباقون (يُصْرَفُ) علـى مـا لَـمْ يُسَـمَّ فاعلـهُ؛ أي مـن يُصرف عنهُ العذابَ بأمرِ الله؛ فقد سبقت رحمةُ اللهِ له بإيجاب الثَّواب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ إنْ يُصِبْكَ اللهُ بفقرٍ أو مَرَضٍ أو بلاء، فلا يقدرُ أحدٌ من الأصنـام وغيرِهـا علـى كَشْـفِ ذلك الضُّرِّ إلا اللهُ، وإنَّما أطلقَ هذا اللفظ وإن كان يُتَصَوَّرُ أن يكشـفَ الإنسـانُ عـن صاحبه كُرْبَةً من الْكُرَب؛ لأن كاشفَ الضُّرِّ في الحقيقةِ هو اللهُ تعـالى، إمَّـا أن يكشـفه بفضلهِ أو نسبةً له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ ؛ أي بفَضْلٍ وسَعَةٍ في الرزق وصحَّة في الجسم، فلا مُزِيْلَ لَها إلا هُوَ. إلا أنهُ لَمْ يَقُلْ: فلا مزيلَ لَها إلا هوَ؛ لأنه لَمَّا أكَّدَ هـذا في الضُّرِّ دلَّ على هذا في الخيرِ فاستغنَى عن إعادتهِ. وإنَّما قال (يَمْسَسْكَ) مع أن كون الْمَسِّ المعيَّن من صفةِ الأجسام؛ لأنَّ المعنى يَمْسَسْكَ اللهُ تعالى الضَّرَرَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يقدرُ أحدٌ أن يَمْنَعَهُ عن فعلِ مـا أرادَ فِعْلَهُ من كَشْفِ ضُرٍّ أو غيره.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْـهُمَا قـال: (أرْدَفَنِـي رَسُـولُ اللهِ ﷺ وَرَاءَهُ وَهُـوَ رَاكِبٌ عَلَى بَغْلَةٍ، فَلَمَّا سَارَ بي مَلِيّاً الْتَفَتَ إلَيَّ وَقَالَ لِي: [يَا غُلاَمُ]. قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَـا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أمَامَكَ، تَعَرَّفْ إلَـى اللهِ فِـي الرَّخَاءِ يَعْرِفْـكَ فِـي الشِّـدَّةِ، وَإذا سَـألْتَ فَاسْـألِ اللهَ، وَإذا اسْـتَعَنْتَ فَاسْـتَعِنْ بـاللهِ، وَقَدْ مَضَى الْقَلَمُ بمَا هُوَ كَائِنٌ إلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ، فَلَـوْ جَـهدَ الْخَلاَئِـقُ أنْ يَنْفَعُـوكَ بمَـا لَمْ يَقْضِ اللهُ لَكَ؛ مَـا قَـدِرُوا عَلَـى ذلِـكَ، وَلَـوْ جَـهدُوا أنْ يَضُـرُّوكَ بمَـا لَـمْ يَكْتُـب اللهُ عَلَيْكَ؛ لَمَا قَدِرُوا عَلَيْهِ. وَاعْلَمْ: أنَّ النَّصرَ مَـعَ الصَّـبْرِ، وَأنَّ مَـعَ الْكَـرْب الْفَـرَجُ،

وَأنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً][(١)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ؛ أي هو الغالبُ على أمرِ عباده. والقَهْرُ: هُوَ الاسْتِعْلاَء بالاقْتِدَار عَلَى الْغَلَبَةِ. وأراد بقولهِ: (فَوْقَ) أنَّهم تحتَ التسخيرِ والتذليل عمَّا علاَهم من الاقتدار عليهم، لا ينهاكَ أحدٌ منهم. قولُهُ: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي الْمُحْكِمُ لصنعهِ؛ الخبيرُ بأعمال الخلقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ رُؤَسَاءَ مَكَّةَ أتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ؛ أمَا وَجَدَ اللهُ رَسُولاً يُرْسِلُهُ غَيْرَكَ؟! مَا نَرَى أحَداً يُصَدِّقُكَ بمَا تَقُولُ؛ وَلَقَدْ سَأَلْنَا عَنْكَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ فَزَعَمُوا أنَّهُ لَيْسَ لَكَ عِنْدَهُمْ ذِكْرٌ وَلاَ صِفَةٌ وَلاَ نَعْتٌ، فَأَرنَا مَنْ شَهدَ أنَّكَ رَسُولُ اللهِ كَمَا تَزْعُمُ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[(٢)].

ومعناها: قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: أيُّ أحدٍ أعظمُ وأعدلُ برهاناً وحجَّةً؟ فإن أجابوكَ وقالوا: اللهُ، وإلاَّ فَقُلْ: اللهُ أكْبَرُ شَهَادَةً مِن خَلْقِهِ، وهو شَهيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، بأنِّي رسولُ الله، وأنَّ هذا القرآنَ كلامهُ. والشاهدُ هو الْمُبَيِّنُ للدعوَى، وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى دعوَى رسولهِ بالبراهين والمعجزات والآيَات الدالَّةِ على توحيدِ الله ونبوَّة مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ ؛ معناهُ: أنْزِلَ إلَيَّ هَذا الْقُرْآنُ لأُخَوِّفَكُمْ به بما فيه من الدلائلِ؛ وأخبار الأُمَم السَّالفةِ؛ والإنباءِ بما يكونُ؛ والتأليفِ الذي عَجزَ عنه العربُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَنْ بَلَغَ) أي وَأنْذِرْ مَن بَلَغَهُ القرآنُ سواكم من العَجَمِ، وغيرِهم من الجنِّ والإنس إلى أن تقومَ الساعةَ؛ لأنه ليس من بَعْدِ القرآنِ كتابٌ، ولا من بعدِ مُحَمَّدٍ رسولٌ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج٦ ص٣٩٨؛ قال القرطبي: ((أخرجه أبو بكر بن ثابت الخطيب في كتاب (الفصل والوصل) وهو حديث صحيح، وقد خرجه الترمذي)). وأخرجه الترمذي في الجامع: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع: الحديث (٢٥١٦)؛ وقال: حسن صحيح. والحاكم في المستدرك:كتاب معرفة الصحابة: باب تعليم النبيِّ ﷺ ابنَ عباس: الحديث (٦٣٥٧ و٦٣٥٨).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص٣١٥. وينظر: الروض الأنف: ج٢ ص٤٥-٤٦: عتبة بن ربيعة يذهب الى رسول الله ﷺ: طبعة دار الكتب العلمية الأولى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ ﴾ ؛ استفهامٌ بمعنى الإنكار؛ أي إنْ كنتم تشهدونَ بإثباتِ شريكٍ لله؛ فأنا لا أشهدُ بما تشهدونَ به. وإنَّما قالَ: (أخرَى) ولَمْ يَقُلْ أخرَ[1]؛ لأن الجمعَ تُذكَّرُ بلفظ وحْدَانِ التأنيث[2]، كما قالَ تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ﴾[3] ومثلهُ كثيرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ؛ لا شريكَ لـه ولا ولَدَ، ﴿ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ بهِ من الأصنامِ والأوثان.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ﴾ ؛ أي الذين أعطيناهُم التوراةَ والإنجيلَ يعرفون مُحَمَّداً ﷺ بما يجدونه مكتوباً عندهم من صِفَتِهِ ونَعتِهِ، كَمَا يَعْرِفُونَ أبْنَاءَهُمْ إذا رأوهم بين الغِلْمَان. كما روي في الخبر: (أنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ لِعَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ: يَا أبَا حَمْزَةَ؛ أتَعْرِفُ مُحَمَّداً ﷺ كَمَا تَعْرِفُ ابْنَكَ؟ قَالَ: يَا عُمَرُ؛ إنَّ مَعْرِفَتِي بِهِ أشَدُّ مِنْ مَعْرِفَتِي بابْنِي؛ لأنَّ أمِيْنَ السَّمَاءِ — يَعْنِي جِبْرِيْلَ قَدْ جَاءَ بنَعْتِهِ إلَى أمِيْنِ الأَرْضِ وَهُوَ مُوسَى عليه السلام. فَقَالَ عُمَرُ: وَكَيْفَ ذلِكَ؟ قَالَ: أشْهَدُ أنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقٌّ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَقَدْ نَعَتَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابنَا فَعَرَفْتُهُ، وَأمَّا ابْنِي فَلاَ أدْري مَا أحْدَثَ النِّسَاءُ بَعْدِي. فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : وَفَّقَكَ اللهُ يَا ابْنَ سَلاَمٍ)[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ ابتداءُ كلامٍ معناهُ: وَالَّذِيْنَ غَبَنُوا أنفسَهم بذهاب الدُّنيا والآخرة عنهم، وهم المعاندونَ الذين يعرفون ويَجْحَدُونَ مِن رؤساءِ اليهود والنصارَى، فهم لا يُقِرُّونَ بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآنِ.

---

(١) في معاني القرآن: ج ١ ص٣٢٩؛ قال الفراء: (وقوله:﴿آلِهَةً أُخْرَى﴾ ولم يقل: (أُخَرُ)؛ لأن الآلهة جمعٌ، والجمعُ يقع عليه التأنيث؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وقال الله تبارك وتعالى:﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ ولم يقل: الأُوَلُ والأولين، وكل ذلك صواب).

(٢) أما قولهُ: (بلفظ وحدان التأنيث) قال ابن عادل: (و﴿أخرَى﴾ صفة لـ ﴿آلهة﴾؛ لأن ما لا يَعقل يعامل جمعه معاملة الواحدة المؤنثة، كقوله تعالى: ﴿مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه / ١٨] و﴿الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف / ١٨٠]. ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص٦٧: تفسير الآية (١٩) من سورة الأنعام.

(٣) الحجرات / ١٤.

(٤) في جامع البيان: الأثر (١٠٢٣٠)؛ قال الطبري: ((عن ابن جريج قال: زعم أهل المدينة... وذكره من غير ذكر الأسماء)).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ ؛ معناهُ: أيُّ أحدٍ أظْلَمُ في فاحشةٍ أتاهَا مِمَّنِ اختلقَ على الله كَذِباً بإضافتهِ إلى الله ما لَمْ يُضِفْهُ إلى نفسهِ من صفة أو أمرٍ وقَوْل، وهم الذين إذا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا: وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أمَرَنَا بهَا؛ قُلْ: إنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بالْفَحْشَاءِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ كَذبَ بآيَاتِهِ) أي بدَلاَئِلِهِ؛ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي لا يُؤْمَنُ من عذاب الله ولا يَصِلُ إلى مُراده؛ وبُغْيَتِهِ القومُ الكافرون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي وَاذكُروا يومَ نَبْعَثُ الكفَّارَ وآلِهَتَهُمْ جميعاً للحساب والجزاء. وقال بعضُهم: الواوُ عاطفةٌ على قوله: (لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) كأنَّهُ قال: لاَ يُفْلِحُونَ في الدُّنيا وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ. والْحَشْرُ: جَمْعُ النَّاسِ إلَى مَوْضِعٍ مَعْلُومٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ ﴾ ؛ معناهُ: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِيْنَ اشْرَكُواْ باللهِ غَيْرَهُ: ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ﴾ ؛ آلِهَتُكُمْ؛ ﴿ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ ﴾ ؛ التي كُنْتُمْ تعبدونَ مِن دون اللهِ؛ و؛ ﴿ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ، أنَّهم شركاءُ اللهِ وشفعاؤُكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي ثُمَّ لم تكن معذرتُهم يومَ القيامة إلا مقالتَهم: (وَاللهِ رَبنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) في دار الدُّنيا. وإنَّما سميت المعذرةُ فتنةً؛ لأنَّها عينُ الفتنةِ.

ومَن قرأ (فِتْنَتَهُمْ) بالنصب فعلى خبر (لَمْ تَكُنْ) واسْمها (أنْ قَالُوا). ومن قرأ (رَبَّنَا) بالنصب فمعناه النداءُ. وقراءة حفصٍ على البدل، ويجوزُ الرفع على إضمار (هو). وقيل: المرادُ بالفتنة محبَّتُهم للأوثان التي كانوا مُفْتَتَنِيْنَ بها في الدُّنيا، فأعلمَ اللهُ تعالى أنه لم يكن افتتانُهم بشركهم وإقامتِهم عليه، إلا أن تَبَرَّأوا منه وانتهوا عنه، فحلفوا أنَّهم ما كانوا مشركِينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ ﴾ ؛ أي انظر يا مُحَمَّدُ كيف صارَ وَبَالُ الكذب عليهم؟ ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ ؛ أي عَزَبَ عنهم افتراؤُهم بما لَحِقَهُمْ من الذُّهول والدَّهَشِ، قال الضحَّاك:(وَذلِكَ حِيْنَ نَطَقَتِ الْجَوَارِحُ، وَشَهِدَتْ عَلَيْهِمْ

أَيْدِيْهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بَعْدَ حَلْفِهِمْ (وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) يقولُ الله تعالى: (انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ) ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ أبَا سُفْيَانَ وَالْوَلِيْدَ بْنَ الْمُغِيْرَةِ وَعُتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَالنَّضِرَ بْنَ الْحَارِثِ وَأبَيَّ بْنَ خَلَفٍ وَجَمَاعَةً مِنْ أهْلِ مَكَّةَ؛ كَانُواْ يَسْمَعُونَ إلَى حَدِيْثِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالُوا لِلنَّضِرِ: مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ ؟ قَالَ: لاَ أدْرِي مَا يَقُولُ؟ إلاَّ أنِّي أرَاهُ مُحَرِّكاً شَفَتَيْهِ وَيَتَكَلَّمُ بشَيْءٍ وَلاَ يَقُولُ إلاَّ أسَاطِيْرَ الأَوَّلِيْنَ مِثْلَ مَا كُنْتُ أحَدِّثُكُمْ عَنِ الْقُرُون الْمَاضِيَةِ. وكَانَ النَّضِرُ كَثِيْرَ الْحَدِيْثِ عَنِ الْقُرُونِ الأَوَّلِيْنَ وَأخْبَارِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)[1] .

ومعناهَا: ومِن أهلِ مكة من يستمعُ إلى حديثِكَ وقراءتك، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبهمْ أغْطِيَةً كراهةَ أنْ يَفْقَهُوهُ؛ وَفِي آذانِهِمْ ثُقْلاً وصَمَماً، فلا يسمعونَ الْهُدَى. وموضعُ (أنْ يَفْقَهُوهُ) نُصِبَ على أنه مفعولٌ له؛ أي جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبهِمْ أكِنَّةً لِكَرَاهَةِ أنْ يَفْقَهُوهُ. والوَقْرُ بفتح الواو: الثِّقَلُ فِي الأُذُنِ، والوِقْرُ بكسر الواو: مَا يُحْمَلُ عَلَى الظَّهْرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ ؛ أي وإن يروا كُلَّ حُجَّةٍ ودلالةٍ لا يُقِرُّوا ولا يصدِّقوا بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ ؛ أي يُخَاصِمُونَكَ بالبَاطل؛ ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي يقولُ النَّضِرُ بن الحارثِ وأصحابُه: مَا هَذا إلا أحاديثُ الأوَّلين وأباطيلُهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (نَزَلَتْ فِي أبي طَالِبٍ، كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُوهُ إلَى الإسْلاَمِ، فَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشُ إلَى أبي طَالِبٍ يُرِيْدُونَ سُوءاً بالنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ أبُو طَالِبٍ:

وَاللهِ لَنْ يَصِلُواْ إلَيْكَ بجَمْعِهِمْ حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَاب دَفِيْنَا

(١) ينظر: الروض الأنف: بين النبي ﷺ وبين قريش:ج ٢ ص٤٧ مطولاً. والسيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص٣١٥-٣١٦.

فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ وَأَبْشِرْ بِذاكَ وَقَرَّ مِنْكَ عُيُونَا
وَدَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحِي فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِيْنَا
وَعَرَضْتَ دِيْناً لاَ مَحَالَةَ أَنَّهُ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِيْنَا
لَوْلاَ الْمَلاَمَةُ أَوْ حِذارُ مَسَبَّةٍ لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بِذاكَ يَقِيْنَا[1]

فأنزلَ اللهُ تعالى: (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ) ويَنْهَوْنَ الناسَ عن أذى رسول الله ﷺ (وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) أي يَتَبَاعَدُونَ عمَّا جاءَ به من الْهُدَى، فَلاَ يُصَدِّقُونَهُ.

وقال السُّدِّيُّ والضحَّاك: (نَزَلَتْ الآيَةُ فِي جَمِيْعِ كُفَّار مَكَّةَ) يعني وَهُمْ يَنْهَوْنَ الناسَ عن اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ والإيمان؛ ويُبْعِدُونَ أنفسَهم عَنْهُ. ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ ﴾ ؛ بذلكَ؛ ﴿ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ وما يعلمون أنَّهم يهلكون أنفسَهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ ؛ أي وَلَوْ تَرَى يا مُحَمَّدُ كفارَ قريشٍ إذْ حُبسوا عَلَى النَّار؛ إذ عاينُوها ودخلُوها وعرفوا عذابَها؛ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبنَا؛ تَمَنُّوا الرجعةَ إلى الدُّنيا.

وقرأ ابن السميقع: (وَقَفُوا) فبفتحِ الواو والقاف من الوُقُوفِ. والقراءةُ الأُولى من الوَقْفِ، وجوابُ (لا) محذوفٌ وتقديرُه: ولو تَرَاهُمْ في تلكَ الحالةِ لرأيتَ عَجَباً، وقيلَ: لَعَلِمْتَ ماذا يَنْزِلُ بهم من الْخِزْيِ والندامةِ، ورأيتَ حسرةً يا لَها من حَسْرَةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبنَا) ﴿ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ قرأ حمزةُ ويعقوب وحفص: (وَلا نُكَذِّبَ) (وَنَكُونَ) بالنصب على جواب التَّمَنِّي، والعربُ تنصب جوابَ التمني بالواو كما تنصبهُ بالفاء، كما قالوا: يا ليتَكَ تصيرُ إلينا ونُكرِمَك، أو فنُكرِمَك فكلاهما بالنصب.

وقرأ ابنُ عامر (وَلا نُكَذِّبُ) بالرفع (وَنَكُونَ) بالنصب؛ لأنَّهم تَمَنُّوا الردَّ وأن يكونوا مؤمنين وأخبروا أنَّهم لا يكذبون بآياتِ ربهم وإنْ ردُّوا إلى الدنيا. ومعناه: يا

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص١٤٤ عن ابن عباس مع اختلاف في بعض الألفاظ، وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٤٠٦.

ليتنَا نُرَدُّ، ويا ليتنا لا نُكَذِبُ، كأنَّهم تَمَنَّوا الردَّ والتوفيقَ بالتصديقِ. ويجوز أن يكون ذلكَ رفعاً على معنى: ونحنُ لا نُكَذِّبُ بآيات ربنا، رُدِدْنَا أو لَمْ نُرَدَّ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي بل ظَهَرَ للذين يتَّبعون الغُوَاةَ ما كان الغُوَاةُ يُخفون عنه من أمرِ البعث والنُّشور، وما كان رؤساؤهم يُخْفُونَ من سَفلَتِهِم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ ؛ أي لو رُدُّوا إلى الدنيا كما سَأَلُوا لعادُوا لِمَا نُهُوا عنه من الكفرِ والشِّرك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ يعني وإنَّهم لكاذبون في قولِهم: (وَلا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) لأنَّهم لا يؤمنون لسابقِ عِلْمِ الله تعالى فيهم أنَّهم خُلِقُوا للنار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ ؛ أي قالَ كُفَّارُ مكَّةَ: ما حياتُنا إلا كحياةِ الدُّنيا، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ بعد الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي لو ترى يا مُحَمَّدُ إذ حُبسُوا عند ربهم للسؤال والحساب. ويقال: عَرَفُوا ما وَعَدَهم ربُّهم من البعثِ والقيامة والجنَّة والنار. ﴿ قَالَ ﴾ ؛ يقولُ الله تعالى لَهم: ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا ﴾ ؛ البعثُ والعذاب، ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ؛ أي بالصِّدق، ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ ؛ إنهُ لَحَقٌّ؛ أي لَصِدْقٌ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ يقولُ الله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ في الدُّنيا.

وإنَّما ذكر الذوْقَ بمعنى الْخُلُودِ؛ لِيُبَيِّنَ أن حالَهم في كلِّ وقت كَحَالِ مَن يُعَذبُ بالعذاب المبتدأ. ومعنى (وُقِفُوا عَلَى رَبهِمْ) أي على حُكْمِ ربهم وقضائهِ، فتقولُ لهم الملائكةُ بأمرِ الله تعالى: أَلَيْسَ هَذا العذابُ بالْحَقِّ، قَالُوا بَلَى وَرَبنَا إنه حقٌّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ ؛ أي قد غُبنَ الذين كَذبُوا بالبعثِ بعد الموت، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ ؛ أي فَجْأَةً نَدِمُوا في وقتٍ لا ينفعُهم الندامةُ. وسُميَّت القيامةُ ساعةً؛ لِتَوَهُّمِ قيامِها في كلِّ ساعةٍ.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ ؛ أي على ما قصَّرْنا وضيَّعْنَا في الدُّنيا من عملِ الآخرة، ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: والكفَّارُ يحملون أثقالَ آثامِهم فوق ظهورهم بذنبوهم، والذنبُ من أثقلِ ما يحمل. وقيل: معناهُ (عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) أي في الصفقةِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورهِمْ) قال السُّدِّيُّ: (لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ظَالِمٍ يَمُوتُ فَيَدْخُلُ قَبْرَهُ إلاَّ أتَاهُ رَجُلٌ قَبيْحُ الْوَجْهِ؛ أسْوَدُ اللَّوْنِ؛ مُنْتَنُّ الرَّائِحَةِ؛ عَلَيْهِ ثِيَابٌ دَنِسَةٌ، فَإذا رَآهُ الظَّالِمُ قَالَ لَهُ: مَا أقْبَحَكَ! فَيَقُولُ: أنَا عَمَلُكَ فِي الدُّنْيَا، فَيَكُونُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ، فَإذا بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ لَهُ: طَالَمَا كُنْتُ أحْمِلُكَ عَلَى اللَّذةِ وَالشَّهَوَاتِ، فَأَنْتَ الْيَوْمَ تَحْمِلُنِي. فَيَرْكَبُهُ وَفِي يَدِهِ مَقْمَعَةٌ فَيَضْربُ بها رَأسَهُ؛ فَيَفْضَحُهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ، فَذلِكَ قَوْلُهُ: (يَحْمِلُونَ أوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورهِمْ))(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي بئْسَ الشيءُ الذي يحملونَ من الآثامِ. ويقالُ: بئْسَ الشيء شيئاً يَزِرُونَهُ؛ أي يَحْمِلُونَهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ ؛ معناه: ما زينةُ الدُّنيا وزهرتُها إلا استمتاعٌ؛ يعني مِن قريبٍ، ثُمَّ يعقبهُ حسرةٌ وندامة. وسُمِّي ذلك لَعِباً تَشبُّهاً بلعب الصِّبيان، يبنونَ بناءً ثم يهدمونه، يلعبون بشيء فيلهُونَ به، كذلكَ أهلُ الدُّنيا يجمعون ما لا يأكلون؛ ويَبْنُونَ ما لا يسكُونون؛ ويأملون ما لا يُدركون.

وهذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تعالى لكفَّار مكَّة، يفعلون ما لا يَرْجُونَ به الثوابَ، ولا يخشون منه العقابَ، ولا يَتَفكَّرُونَ في العاقبةِ كالصبيان والبهائِم. واللَّعِبُ شَغْلُ النَّفْسِ عَمَّا لاَ حَقِيْقَةَ لَهُ وَلاَ قَصْدَ. واللَّهْوُ: طَلَبُ الْمَزْحِ بمِثْلِ ذلِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ؛ يعني الجنَّةَ أفضلُ للذين يتَّقون الشركَ والكبائر والفواحشَ، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أن الآخرة الباقيةَ خيرٌ من الدنيا الفانيةِ. قرأ ابنُ عامر: (وَلَدَارُ الآخِرَةِ) بلامٍ واحدة على الإضافة.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٢٧١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ ؛ معناه: قَدْ نَعْلَمُ إنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ما يقولُ كفارُ مكَّة من تكذيبهم إيَّاك في العلانيةِ وجُحودِهم باللهِ، ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ ؛ في السرِّ ولا بقلوبهم؛ أي هم يعلمُونَ أنك صادقٌ وكنتَ تُسمَّى فيهم (الأمينُ) قبل الرسالة، فلا يَحْزُنُكَ تكذيبُهم إيَّاك فيما يعلمون صدقكَ فيه، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ؛ المشركين، ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ بألسنتهم ما تَشْهَدُ به قلوبُهم بكذبهم فيه.

وقال السُّدِّيُّ: (الْتَقَى الأَخْنَسُ بْنُ شُرَيْق وَأَبُو جَهْلٍ؛ فَقَالَ الأَخْنَسُ لأَبي جَهْلٍ: يَا أبَا الْحَكَمِ؛ أخْبرْنِي عَنْ مُحَمَّدٍ؛ أصَادِقٌ هُوَ أمْ كَاذِبٌ؛ فَإنَّهُ لَيْسَ هَا هُنَا أحَدٌ يَسْمَعُ كَلاَمَنَا؟ فَقَالَ أبُو جَهْلٍ: وَاللهِ إنَّ مُحَمَّداً لَصَادِقٌ؛ وَمَا كَذبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ، وَلَكِنْ إذا ذهَبَ بَنُو قُصَيٍّ باللِّوَاءِ وَالسِّقَايَةِ وَالْحِجَابَةِ وَالنُّبُوَّةِ؛ فَمَاذا يَكُونُ لِسَائِرِ قُرَيْشٍ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)(١). وقال: (مَعْنَى: (لاَ يُكَذِّبُونَكَ) لاَ يَقْدِرُونَ أنْ يَقُولُوا لَكَ فِيْمَا أنْبَأْتَ بهِ مِمَّا فِي كُتُبِ الأَنْبيَاءِ قَبْلَكَ: كَذبْتَ!.

وقرأ نافع والكسائيُّ: (يَكْذِبُونَكَ) بالتخفيفِ. ومعناهُ: لا يجدونَكَ كاذباً، يقال: كَذبتَ فُلاناً بالتشديد إذا قُلْتَ له: كَذبْتَ، وأكْذبْتَ فُلاناً؛ إذا رأيتَ ما أتَى به كَذِباً. وقرأ نافعُ (لَيُحْزِنُكَ) بضمِّ الياء، والمعنى واحدٌ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ؛ تسليةٌ للنبيِّ ﷺ ليصبرَ على أذى الكفار، ومعناهُ: أنَّ الرسُلَ قبلَكَ كذبَهُم قومُهم كما كذبَكَ هؤلاء، وآذوْهُمْ كما آذوْكَ؛ فَصَبَرَ الرُّسلُ على تكذيبهم وإيذائهم (حَتَّى أتَاهُمْ نَصْرُنَا) أي أتاهُم نَصْرُنا بإهلاكِ قومِهم، فَاصْبرْ أنتَ أيضاً على تكذيب قومك إيَّاكَ وإيذائهم لكَ حتى يأتيكَ نصرُنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لا مُغَيِّرَ لِمَا وَعَدَكَ اللهُ من النصر والظَّفَر بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾(٢)، ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي مِنْ خَبَرِ المرسلين قبلكَ ما يكونُ لكَ فيه سُلْوَةٌ، فاعْتَبرْ بأخبارهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٢٧٥). (٢) غافر / ٥١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ ؛ أي إنْ كان عَظُمَ وثَقُلَ عليكَ يا مُحَمَّدُ إعراضُهم عن القبول منكَ وقولُهم: لَوْلا أنزلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ، وسؤالُهم كلَّ معجزةٍ شاءُوا، ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ ؛ فَإن اسْتَطَعْتَ أنْ تطلبَ مَسْلَكاً نافذاً فِي الأرْضِ؛ كنفقِ الْيَرْبُوعِ، فتدخلَه هارباً متوارياً؛ أوْ تطلبَ شيئاً يُسْلِمُكَ إلى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بالآيَة التي سألُوكها، فَافْعَلْ، وليس فِي الْقُرْآن فَافْعَلْ؛ لأنه قد يُحْذفُ ما يكونُ في الكلام دَلِيلاً عليه مثل قولِ الرجُلِ: إن رأيتَ أن تَمضي معي إلى فلانٍ، ولا يذكرُ فافعل.

وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ: إنَّ ما تأتِي من الآياتِ بِمَا أحبُّ، وإنَّ رسولَ الله ﷺ بَشَرٌ لا يقدرُ على الإتيان إلا بِمَا شاءَ اللهُ، وكان قد عَلِمَ أنه لو أنْزَلَ عليهم الْمَلَكَ وكلَّ آية سألُوها لم يُؤْمِنُوا، فلم يُنْزِلْ إلا ما تُثْبِتُ به الحجَّة عليهم، فَتُؤْجَرُ بالصبرِ والثَّبات على الإيْمانِ بالآية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ؛ أي لو شاءَ اللهُ لاضطَرَّهُمْ إلى الإيْمان كما قال: ﴿إنْ نَشأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[1]. وقيلَ: معناهُ: ولو شاءَ اللهُ لأَطْبَقَهُمْ على الْهُدَى. وقيل: لَوَفَّقَهُمْ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٥ ﴾ ؛ أي لاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ بتركِ الصَّبر وإظهَار الْجَزَعِ؛ واستشعار الغَمِّ لإعراضِهم عنك، فإن هذا من فِعَالِ الجاهلين. ويقال: معناهُ: لاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ بِمَقْدُوري عليهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ ؛ معناه: إنَّما يُجيب الذين يَقْبَلُونَ الحقَّ، وأمَّا الذي لا يقبلُ الحقَّ فكأنه أصَمٌّ أو مَيِّتٌ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أرادَ به كفارَ مكة؛ سَمَّاهُمْ موتى لأنَّهم لم يَتَدَبَّرُوا ولم يَتَأَمَّلُوا، ولم ينتفعوا بحياتِهم، فكانوا بِمَنْزلة الموتى وإن كانوا في صُورَةِ أحياءٍ، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٣٦ ﴾ ؛ في الآخرةِ فيجازيهم بأعمالِهم.

---

(١) الشعراء / ٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ ؛ أي قال كفَّارُ قريشٍ: لولا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ علامةٌ لنبوَّته من ربه؛ يعنونَ الآياتَ التي كانوا يقترحونها، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً ﴾ ؛ على ما تقترحونها أنتم، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ ما عليهم من الْمَضَرَّةِ في إنزال هذه الآية، إذِ الحكمةُ تقتضي التعذيبَ بعذاب الاستئصال لِمَنْ كفرَ بعد إنزالِ الآيةِ المقترحَة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ ؛ أي ما مِن دابَّة تدبُّ وتتحرَّك على وجهِ الأرض، وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بجَنَاحَيْهِ في الْهَوَاءِ، إلا أمَمٌ أمْثَالُكُمْ، في الفقرِ والفَاقَةِ والحاجة إلى مُدَبرٍ يدبرهم في أغذِيَتهم وأكنَّتهم وهدايتهم إلى مراشِدهم ومصالِحهم.

وقيل: معناهُ: إلا أممٌ أمثالُكم في الْخَلْقِ والرزقِ والموت والبعثِ؛ لأنهُ قال: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ) فيكونُ معناه: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بجَنَاحَيْهِ إلا أمَمٌ أمْثَالُكُمْ) في أنَّ الله يُميتُهَا ويَبْعَثُهَا للجزاء. وقيلَ: معنَاهُ: (إلا أمَمٌ أمْثَالُكُمْ) يَفْقَهُ بعضُه عن بعضٍ، كما يفقهُ بعضكم عن بعضٍ.

وذِكْرُ الجناحين في الآية على جهةِ التَّأكيد؛ لأنه يقالُ: طَارَ فلانٌ في الأمرِ؛ أي أسْرَعَ، وفلانٌ طَيْرٌ من الطُّيور؛ لسرعتهِ في الأمور. وقيل: ذِكْرُ الجناحين في الآيةِ لبيان أنَّ المرادَ به الطيرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ ؛ معناهُ: ما تركنا في اللَّوح المحفوظِ شيئاً إلا كَتَبْنَاهُ فيه. ويقالُ: ما تركنا بيانَ شيءٍ فِي الْقُرْآن فيما يَحتاجون إليه من أحكامِ الدِّين والدُّنيا، بل قد بَيَّنَّا في الكتاب كلَّ شيء إما مُفَصَّلاً أو مُجْمَلاً، أما الْمُفَصَّلُ كقولهِ تعالى: ﴿النَّفْسَ بالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بالْعَيْنِ﴾[1] وأما الْمُجْمَلُ كقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[2].

---

(١) المائدة / ٤٦.

(٢) الحشر / ٧.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ الطيورَ والدوابَّ يجمعون مع سَائِرِ الْخَلْقِ يومَ القيامةِ للحساب والجزاء، كما روي في الخبر عن رَسُول الله ﷺ أنَّهُ قَالَ: [إنَّ اللهَ تَعَالَى يَحْشُرُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَالْبَهَائِمَ وَالدَّوَابَّ والطَّيْرَ وَكُلَّ شَيْءٍ؛ فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ اللهِ تَعَالَى يَوْمَئِذٍ أنْ يَأْخُذ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، فَإذا مُيِّزَ بَيْنَ أهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّار؛ قَالَ لِلْبَهَائِمِ وَالْوُحُوشِ وَالطُّيُور: كُونُوا تُرَاباً تَسْتَوِي بكُمُ الأَرْضُ، فَتَكُونُ تُرَاباً، فَعِنْدَ ذلِكَ يَتَمَنَّى الْكَافِرُ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا][(١)].

والمرادُ بهذا الإفناءِ للبهائمِ بعد أنْ أحياهَا أنهُ إفناءٌ لا يكون فيه ألَمٌ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ ؛ معناه: الذين جَحَدُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآن صُمٌّ عن الخيرِ لا يسمعونَ الْهُدَى، خُرْسٌ لا يتكلمون بخيرٍ؛ أي يكون حالُهم كحالِ الأصَمِّ الأبْكَم. وحُذِفَ التشبيهُ مِن قولِه: (صُمٌّ وبُكْمٌ) على جِهَةِ المبالغة في الوَصْفِ، كما يقالُ في وصفِ القوم بالْبَلاَدَةِ: هَؤُلاَءِ حُمُرٌ.

قولهُ: (فِي الظُّلُمَاتِ) أي في ضَلاَلاَتِ الكفر في ظُلْمَةِ السَّمع والبصرِ والقلب، ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ ﴾ ؛ أي من شَاءَ اللهُ يَتْرُكْهُ في ضلالةِ الكفر، فلا يُخرجُهُ منه، ﴿ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ ومَن يشأْ يُرْشِدْهُ ويُوَفِّقْهُ للإسلامِ فَيُثَبِّتْهُ على ذلك حتَّى يَموت عليه، ويقال: معناهُ: من يَشَأ اللهُ يُضْلِلْهُ في الآخرةِ عن طريقِ الجنَّة إلى طريقِ النَّار، ومن يشأْ يجعلْهُ على طريقِ الجنَّة.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ ؛ أي قل يا مُحَمَّد لأهلِ مكَّةَ: أرَأيْتُمْ، والكافُ زائدةٌ في بيان الخطاب للتأكيد كما في (ذلِكَ) و(أولَئِكَ). والمعنى: قُلْ أرَأيْتُمْ إنْ أتَاكُمْ عَذابُ اللهِ، كما أتَى الأُممَ الماضينَ قبلَكم المكذبين لرسُلِهم، أوْ أتَتْكُمْ القيامةُ بأهوالِها وشدائدِها. ويقال: أرادَ بـ (السَّاعَةُ) الوقتَ الذي يُصْعَقُ فيه العبادُ، فيموتُون كلُّهم.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٤٢١؛ قال القرطبي: ((قول أبي هريرة فيما روى جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عنه)) وأخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٢٩٨) موقوفاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ ؛ أي أغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ في كشفِ ذلك العذاب وَدَفْعِ تلكَ الأهوال عنكُم، أم تَدْعُونَ اللهَ تعالى. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ؛ أي في مقالتِكم أنَّ الأصنامَ شركاءٌ لله؛ فَهَلاَّ تدعون الأصنامَ عند الشدائدِ. وهو احتجاجٌ مِن الله عليهم بما لا يَدْعُونَهُ؛ لأنَّهم كانوا إذا مسَّهم الضرُّ دَعَوا اللهَ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ ؛ أي بَلْ تدعونَ اللهَ في كَشْفِ العذاب والأهوال، و(بَلْ) للاستدراك بعدَ النَّفي، (فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ) أي يكشفُ عنكم الضُّرَّ الذي مِن أجله دعوتُموه فكشفَهُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنْ شَاءَ) إنَّما قُرِنَ بالمشيئةِ؛ لأنَّ كشفَ العذاب فضلٌ من الله تعالى، وفضلُ الله يعطيهِ مَن يشاءُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ ؛ أي وتتركون دعوةَ آلِهتكُم عند الشِّدة إذا أشرفتُم على الْهَلاَكِ؛ وَاضْطَرَبَتْ بكم الأمواجُ في لُجَجِ البحار؛ وفي غير ذلك من السِّجن والأوجاع التي لا صَبْرَ عليها، وقد يُذْكَرُ النِّسيان بمعنى التَّرْكِ كما في قولهِ: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[1] أي تَرَكُوا ذِكْرَ اللهِ، فَتَرَكَهُمُ اللهُ في العذاب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي وَلَقَدْ أرْسَلْنَا رسُلاً إلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ، كما أرسلناكَ إلى قومِكَ فلم يؤمنُوا، فَأَخَذْنَاهُمْ بالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ. والضَّرَّاءُ هِيَ الشِّدَّةُ النَّازلَةُ؛ وَالْبَأْسَاءُ مَأْخُوذةٌ مِنَ الْبَأْسِ، وقيل: مِن الْبُؤْسِ؛ وهو الفقرُ. والضرَّاءُ هي الأمراضُ والأوجاعُ؛ وهي مأخوذةٌ من الضَّرَر. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ؛ أي لكي تَخْشَعَ القلوبُ، وتَتَضَرَّعَ النفوسُ عند الشِّدة؛ فيرجعون إلى اللهِ فيؤمنون به؛ فيكشفُ عنهم؛ فلم يفعلُوا.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ ؛ أي فَهلاَّ حين جَاءَهُمْ بَأْسُنا؛ أي عذابُنا؛ دَعَوا اللهَ وآمنُوا به، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ؛ أي

(١) التوبة / ٦٧.

يَبسَتْ وجَفَّتْ قلوبُهم؛ فأقاموا على كُفرهم؛ إذ لم يكن في قلوبهم رقةٌ، ولا خوفٌ من اللهِ تعالى، ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ؛ أي حَسَّنَ لَهم، ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ في كفرهم؛ بأن أغْوَاهُمْ ودعاهم إلى اللَّذةِ والراحةِ دون التَّفكُّرِ والتدبُّر ببيانِ الْحَقِّ من الباطلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ أي فلمَّا تَرَكُوا ما وُعِظُوا به وأمروا به (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) مِمَّا كان مُغْلَقاً عليهم من الخيرِ والرِّزق والخصب والمطر. واَخْصَبَتْ بلادُهم وكَثُرَ خيرُهم، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ ﴾ ؛ أعْجِبُوا؛ ﴿ بِمَآ أُوتُوٓاْ ﴾ ؛ أي بما أعطوا مِنَ النِّعَمِ وَالسَّعَةِ وَالصِّحَّةِ؛ ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ ؛ أي فَجْأةً بالعذاب بعد أن ابتليناهُم في النعمةِ والشدَّة؛ فلم يزدادوا إلا كُفراً، ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي فإذا هم عندَ نزول العذاب بهم آيِسُونَ من كلِّ خير؛ متحسِّرون غايةَ الحسرَةِ. وَالْمُبْلِسُ: الْبَائِسُ الْحَزِيْنُ الشَّدِيْدُ الْحَسْرَةِ، ويقالُ: هو المنقطعُ عن الحجَّةِ.

فإن قيل: لِمَ أنعمَ الله عليهم حين نَسَوا ما ذُكِّرُوا به؛ وهذا موضعُ العقوبة دون الإنعامِ؟ قيل فيه قولان: أحدُهما: أنه أنعمَ عليهم بالدعاءِ لَهم إلى الطاعة، فإن الدعاءَ إلى الطاعة تارةً يكونُ بالعنف والتشديد، وتارةً باللِّين والإنعامِ.

والثاني: أنه إنَّما فعلَ ذلك بهم؛ لأنَّ من يُنْقَلُ من النعمةِ والراحة إلى العذاب يُجْمَعُ عليه العذابُ والحسرةُ على ما فَاتَهُ؛ فيكون ذلك أشدَّ عليه ممن ينقلُ من الشدَّة إلى العذاب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ؛ أي اسْتُؤْصِلَ بالهلاكِ آخرُ من بقيَ من القوم الكافرين. ودَابرُ الْقَوْمِ: آخِرُهُمْ مِنْ نَسْلِهِمْ وغيرِهم، بحيثُ لا يبقى لَهم بعد ذلك باقيةٌ، ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون حمداً مِن الله تعالى لنفسهِ على إهلاكِهِ القومَ الكافرين والمعاندين بعد أن أعْذرَهُمْ وَأنْذرَهُمْ. ويجوزُ أن يكون قوله: (وَالْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِينَ) تعليماً من اللهِ ((للنَّاس)) يحمدونَهُ على إهلاك الظالمينَ.

وقد قطعَ اللهُ دابرَ المعاندين من أهل مكَّة يـومَ بَـدْرٍ كمـا قطـعَ دابـر المكذبـين قبلَهم. وعن رسول اللهِ ﷺ أنه قالَ: [إذا رَأَيْتَ اللهَ تَعَالَى يُعْطِي عَبْداً فِي الدُّنْيَا عَلَى مَعْصِيَتِهِ مَا يُحِبُّ؛ فَإِنَّ ذلِكَ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ قَرَأَ ﷺ: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَـا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) الآيَةُ][(1)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّد لكفَّار مكة: إنْ سـلبَ اللهُ سَـمْعَكُمْ وَأبْصَارَكُمْ التي هي أشرفُ ما قِبَلِكم من الأعضاءِ، وَخَتَمَ عَلَـى قُلُوبكُـمْ؛ فـإن سَـلَبَ عقولكم حتى لا تفهمُوا بها فعاقَبَكم بذلك على تكذيبكُم الرسلَ؛ هل مِنْ إلَهٍ غَيْرُ اللهِ يردُّ عليكم ما سَلَبَهُ الله تعالى؟ وهل يقدرُ على ذلك غيرُهُ؟ ﴿ ٱنظُرْ ﴾ ؛ يا مُحَمَّد؛ ﴿ كَيْفَ نُصَرِّفُ ﴾ ؛ نُبَيِّنُ لَهم؛ ﴿ ٱلأَيَـٰتِ ﴾ ؛ فِي الْقُـرْآن؛ ونُخَوِّفُـهُمْ بـها؛ ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي يُعْرِضُـونَ عمـا وَضَـحَ لَـهم مكذِّبـين بـه، لا تتحركُ أفئدتُهم. والتصريفُ توجيه المعنىَ في الجهات تُظْهِرُهُ أتَمَّ الإظهار.

قَوْلُهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾ ؛ أي أرَأيْتُم إنْ أتَاكُمْ وهذا حالُكم في الإصرار على الكفر عَـذابُ اللهِ فجـأةً وعلانيـة؛ نَـهاراً جِـهاراً، ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ إلا أنتـم ومـا أشبَهكُم؛ لأنكم كفرتُم معاندينَ، فقد عَلِمْتُمْ أنكم ظالمون. وإنَّما قابلَ البغتـةَ بالجـهرةِ وإن كان ضدُّ الجهرةِ الخفيةَ؛ لأن ما يأتِي فجأةً فإنَّما يأتي خِفْيَةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ ؛ أي ليسَ على الرسُل أن يأتوا الناسَ بمَا يقترحون عليهم من الآياتِ، إنَّما نرسـلُهم بالتبشـير بالجنَّـة للمطيعـين؛ والتحذيـر بالنـار للكـافرين، ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ ﴾ ؛ بالرسُـل والكُتُـب؛ ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ؛ العملَ فيما بينهُ وبينَ ربه؛ فأقام علـى إيْمانـه وتوبتـهِ؛ ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ حين يخافُ أهل النار، ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ إذا حزِنُوا.

---

(١) عن عقبة بن عامر؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٣١٥) بإسنادين. والطبراني في الأوسـط: الحديـث (٩٢٦٨). وفي مجمـع الزوائـد: ج ٧ ص٢٣؛ قـال الهيثمـي: ((رواه أحمـد والطبراني)) وسكت عنه. والبيهقي في شعب الإيمان: باب في تعديد نعم الله: الحديث (٤٥٤٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ أي يصيبُهم العذابُ بفِسْقِهِمْ وجحودِهم بمُحَمَّدٍ ﷺ والْقُرْآن.

وقَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ ؛ نزلَت هذه الآيةُ جواباً عن قـولِ الكفـار للنبيِّ ﷺ: يـا مُحَمَّدُ؛ لولاَ أُنْزِلَ عليكَ كَنْزٌ فتستغني به؛ فإنك فقيرٌ محتاج! وعن قولِـهم: لـولا أُنْـزِلَ عليهِ مَلَكٌ، وقولِهم: لولا أُنْزِلَ عليه آيةٌ.

ومعناها: قُلْ لَهم يا مُحَمَّد: (لاَ أقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ) أي لا أدَّعـي أن مفاتيحَ الرزقِ بيدي؛ فأقبضُ وأبْسُـطُ، وليـس خزائـنُ الله مثـلَ خزائـنِ العبـاد، إنَّمـا خزائنُ الله مقدوراتُه التي لا تُوجَدُ إلا بتكوينهِ إيَّاها، (وَلا أعْلَمُ الْغَيْبَ) أي لا أدَّعـي عِلْمَ الغيب فيما مضَى وما سيكونُ، (وَلا أقُولُ لَكُمْ إنِّي مَلَكٌ) مِن السَّـماء شـاهدتُ ما لم تشاهدِ البشرُ، ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ ؛ أي لا أعْلَمُ ولا أقولُ إلا بمـا نَزَّلَهُ اللهُ علـى لسـان بعـض الملائكـة، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ ؛ أي الكافرُ والمؤمن، ويقالُ: الجاهلُ والعالِمُ، ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ في آيـاتِ الله ومَوَاعِظهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي أنْذِرْ بالْقُرْآنِ وخوِّف به (الَّذِينَ يَخَافُونَ أنْ يُحْشَرُوا إلَى رَبهِمْ) وخوِّف به الذيـن يعلمـون أنَّ حَشْرَهُمْ إلى ربهم؛ أي إلى موضعٍ لا يَمْلِـكُ فيـه أحـدٌ نفعَـهم ولا ضُرَّهـم إلا اللهَ تعالى. قالوا: والذينَ يخافونَ البعثَ أحدُ رجلين؛ إما مسلمٌ فَيُنْـذرُ ليـؤدِّي حـقَّ الله في إسلامهِ، وإما رجلٌ من أهل الكتاب فهو مقرونٌ بأن الله تعالى خَلَقَهم وأنَّهم مبعوثون محاسَبون. ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ .

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ ؛ قال عبدُالله بن مسـعودٍ: (مَـرَّ جَمَاعَـةٌ مِـنَ الْمُشْـرِكِيْنَ برَسُـول اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ صُهَيْبُ وَخَبَّـابُ بْـنُ الأَرَتِّ وَبـلاَلُ وَعَمَّـارُ بْـنُ يَاسِـرٍ وَغَـيْرُهُمْ مِـنْ ضُعَفَـاءِ الْمُسْلِمِيْنَ؛ فَأَرَادُوا الْحِيْلَةَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَطْرُدُوا أصْحَابَهُ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّد، لَوْ طَرَدْتَ هَؤُلاَءِ السَّفَلَةَ وَالْعَبِيْدَ عَنْكَ أتَاكَ أشْرَافُ قَوْمِكَ وَرُؤَسَاؤُهُمْ يَسْتَمِعُونَ مَقَالَتَكَ

وَيُصَدِّقُونَكَ، وَذكَرُوا ذلِكَ أيْضاً لِعُمَرَ ﷺ، فَذكَرَ ذلِكَ لِرَسُول اللهِ ﷺ حِرْصاً عَلَى إسْلاَمِ أشْرَافِ قَوْمِهِ، فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَفْعَلَ بَعْضَ الَّذِي طَلَبُوهُ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1]. يعلِّمُه أنه لا يجبُ أن يفضِّل غَنِياً ولا شريفاً على فقيرٍ وضعيف؛ لأن طريقَهُ فيما أرْسِلَ به الدِّيْنُ دون أحوال الدُّنيا.

فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) أي يعبدون ربَّهم بالصلاةِ المفروضة غُدُوّاً وعَشِيّاً وهم ضَعَفَةُ الصحابةِ وَصَفَهُمُ اللهُ بالمواظبة على عبادتهِ في طرفَي النَّهار؛ ثُم شَهِدَ لَهم أنَّهم مخلصون في الإيْمانِ بقولهِ: (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) أي يريدون وجهَ اللهِ تعالى بذلك؛ ويطلبون رضَاهُ. وذكرَ الوجهَ على سبيلِ التفخيم كقولهِ تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾[2]. معناهُ: إلاَّ هُو.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ ؛ أي ما عليكَ من حساب عملِهم وباطنِ أمرهم من شيء، ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ ؛ أي مَا عليهم من باطنِ أمركَ شيءٌ ولا يُسْألُونَ عن عملِكَ ولا تسألْ أنتَ عن عملِهم.

وقيل: معناهُ: ما عليكَ من رزقِهم من شيءٍ، وما مِن رزقِكَ عليهم من شيءٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ ؛ جوابُ (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ). وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَكُونَ ﴾ ؛ جوابُ (وَلا تَطْرُدِ). ﴿ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ، ومعناهُ: فتكون من الضارِّين لنفسكَ أن لو طردتَهم.

وتقديرُ الآية: وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَمَا مِنْ حِسَابكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ، فَتَطْرُدَهُمْ. وقال سلمانُ وخبَّاب: (فِيْنَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، فَجَاءَ الأَقْرَعُ بْنُ حَابسٍ التَّمِيْمِيُّ وَعُيَيْنَةُ بْنُ حُصَيْنٍ الْفَزَّارِيّ وَأصْحَابُهُمْ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ، فَوَجَدُوا النَّبِيَّ ﷺ قَاعِداً

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٣٢٦) عن ابن مسعود، والنص (١٠٣٢٨) بمعناه عن خباب ﷺ.

(٢) القصص / ٨٨.

مَعَ بلاَل وَصُهَيْبَ وَعَمَّار وَخَبَّابٍ فِي نَاسٍ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِيْنَ، فَلَمَّا رَأوْهُمْ حَوْلَهُ حَقَّرُوهُمْ؛ وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ؛ لَوْ جَلَسْتَ فِي صَدْرِ الْمَسْجِدِ، وَنَفَيْتَ عَنَّا هَؤُلاَءِ وَرَائِحَةَ جِبَابِهِمْ لَجَالَسْنَاكَ وَحَادَثْنَاكَ وَأخَذْنَا عَنْكَ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ جِبَابٌ مِنْ صُوفٍ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ غَيْرُهَا.

فَقَالَ ﷺ: [مَا أنَا بِطَارِدِ الْمُسْلِمِيْنَ] فَقَالُوا: إنَّا نُحِبُّ أنْ تَجْعَلَ لَنَا مَجْلِساً تَعْرِفُ الْعَرَبُ بِهِ فَضْلَنَا، فَإنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيْكَ؛ فَنَسْتَحِي أنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَؤُلاَءِ الأَعْبُدِ، فَإذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ فَأَقِمْهُمْ عَنَّا، فَإذَا نَحْنُ قُمْنَا فَأَقْعِدْهُمْ مَعَكَ إنْ شِئْتَ. فَأَجَابَهُمْ إلَى ذلِكَ، فَقَالُوا: أكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ بِذلِكَ كِتَاباً. فَدَعَا بِصَحِيْفَةٍ وَدَعَا عَلِيّاً ﷺ لِيَكْتُبَ.

قَالَ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ؛ إذْ نَزَلَ جِبْرِيْلُ ﷺ بِهَذِهِ الآيَةِ: (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) الآيَةُ. فَألْقَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّحِيْفَةَ مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ دَعَانَا فَأَتَيْنَاهُ وَهُوَ يَقُولُ: [سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ] فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَهُ، فَإذَا أرَادَ أنْ يَقُومَ وَيَتْرُكَنَا، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾(١).

قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْعُدُ فَنَدْنُو مِنْهُ حَتَّى تَكَادُ رُكَبُنَا أنْ تَمَسَّ رُكْبَتَهُ، فَإذَا بَلَغَ السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيْهَا قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ، وَقَالَ: [الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يُمِتْنِي حَتَّى أمَرَنِي أنْ أصْبِرَ نَفْسِي مَعَ قَوْمٍ مِنْ أمَّتِي، مَعَكُمُ الْمَحْيَا وَمَعَكُمُ الْمَمَاتُ](٢).

وقال مجاهدُ: (قَالَتْ قُرَيْشُ: لَوْلاَ بِلاَلٌ وَابْنُ أمِّ عَبْدٍ لَتَابَعْنَا مُحَمَّداً. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٣). وقال عكرمةُ: (جَاءَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيْعَةَ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيْعَةَ وَمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ وَنَوْفَلُ ابْنُ الْحَارِثِ وَعُمَرُ بْنُ نَوْفَلٍ إلَى أبِي طَالِبٍ؛ قَالُوا لَهُ: لَوْ أنَّ ابْنَ أخِيْكَ مُحَمَّداً

(١) الكهف / ٢٨.

(٢) تقدم، وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٣٢٨) بإسنادين.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٣٣١).

يَطْرُدُ عَنْهُ مَوَالِينَا؛ فَإِنَّمَا هُمْ عَبِيْدُنَا وَعُتَقَاؤُنَا، كَانَ أَعْظَمَ فِي صُدُورِنَا وَأَطْوَعَ للهِ عِنْدَنَا، وَأَدْنَى لاتِّبَاعِنَا إِيَّاهُ وَتَصْدِيْقِنَا. فَأَتَى أَبو طَالِبٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَحَدَّثَهُ بالَّذِي كَلَّمُوهُ.

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب ﷺ: لَوْ فَعَلْتَ ذلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذِي يُرِيْدُونَ؛ وَإِلَى مَا يُضْمِرُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ: (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)[١]. قَال ابنُ عبَّاس: (يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ بالصَّلاَةِ الْمَكْتُوبَةِ (بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) يَعْنِي صَلاَةَ الصُّبْحِ وَصَلاَةَ الْعَصْرِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: معناه: (وَكَذلِكَ ابْتَلَيْنَا (بَعْضَهُمْ ببَعْض): الْعَرَبيَّ بالْمَوَالِي؛ وَالْغَنِيَّ بالْفَقِيْرِ؛ وَالشَّرِيْفَ بالْوَضِيْعِ؛ لِيَقُولَ الأَغْنِيَاءُ وَالأَشْرَافُ مِثْلُ عُيَيْنَةَ بْنِ حُصَيْنٍ الَّذِي دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ لَهُ: لَوْ طَرَدْتَ هَؤُلاَءِ السَّفَلَةَ، وَمِثْلَ أصْحَابِهِ؛ كَانُوا يَقُولُونَ: هَؤُلاَءِ – يَعْنُونَ سَلْمَانَ وَأَصْحَابَهُ – مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بالْمَغْفِرَةِ وَالإِسْلاَمِ مِنْ بَيْنِنَا)[٣]. وقال الكلبيُّ: (هُوَ أنَّ الشَّرِيْفَ إذا نَظَرَ إِلَى الْوَضِيْعِ قَدْ أسْلَمَ قَبْلَهُ اسْتَنْكَفَ أنْ يُسْلِمَ، وَقَالَ: قَدْ سَبَقَنِي هَذا بالإِسْلاَمِ؛ فَلاَ يُسْلِمُ).

ومعنى (اللام) في قوله: (لِيَقُولُوا) لامُ العاقبة؛ ومعناهُ: ليكونَ عاقبةُ أمرهِما؛ قال الأغنياءُ والأشراف: أهؤلاءِ المستضعفونَ فضَّلهم اللهُ علينا. ونظيرُ هذه اللاَّم في هذهِ الآيةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[٤]، ومعلومٌ أنَّهم لم يلتقطوهُ لأجلِ أن يكون لَهم عدوّاً وحَزَناً، ولكن عاقبةُ التقاطِهم إياه أنْ صارَ لَهم عدُوّاً وحَزَناً.

وقال بعضُهم: اللامُ في قوله: (لِيَقُولُوا) معناها الاستفهامُ؛ أي ليقولَ بعضُهم لبعضٍ استفهاماً لا إنْكاراً: أهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا بالإِيْمان.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٣٣٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٣٣٥)، والأثر (١٠٣٤٢) عن قتادة، والأثر (١٠٣٤٣) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٣٤٩).

(٤) القصص / ٨.

والفائدةُ في ذلـك أن الأغنياءَ كـانوا شـاكِّين في أن سَبْقَ الفقـراءِ إلى الإيْمـان وصبرِهم على طريقةِ الدِّين؛ هـل يوجـبُ أن تكـونَ نعمـةً مـن الله عظيمـة عليـهم، فأمرَهُم اللهُ تعالى أن يَسْتَفْهِمُوا من الرسول ﷺ ما لأجلهِ يقومُ الفقراء بحضرةِ الرسُول ﷺ واستحقُّوا الإعظامَ، فيظهرُ عند الاستفهامِ جوابُ النبيِّ ﷺ، ويكون في سَـماعهم لذلكَ مصلحةٌ عظيمة توجبُ رضَاهُم بتقديـمِ النـبيِّ ﷺ أهـلَ الديـن. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ استفهامٌ بمعنى التحقيقِ علـى معنـى أنَّ اللهَ أعلمُ بمن هو من أهلِ التوحيد والثَّواب.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ اختلفُوا فيمَنْ نزلت هذه الآيةُ؛ فقال عكرمـةُ: (نَزَلَتْ فِي الَّذِيْنَ نَهَى اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ طَرْدِهِمْ، وَكَانَ ﷺ إذا رَآهُـمْ بَدَأَهُـمْ بالسَّـلاَمِ وَقَالَ: [الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أمَّتِي مَنْ أمَرَنِي أنْ أبْدَأَهُمْ بالسَّلاَمِ])[1].

وقال ابنُ عبَّاس والكلبيُّ: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآيَةُ، جَاءَ عُمَرُ ﷺ مُعْتَـذِراً مِـنْ مَقَالَتِـهِ؛ فَـأنْزَلَ اللهُ تَعَـالَى: (وَإذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيَاتِنَا) الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِـمُحَمَّدٍ ﷺ وَالقُرْآن (فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ) أيْ قَبلَ اللهُ مَعْذِرَتَهُمْ وَتَوْبَتَهُمْ). ومعنى السَّلاَمِ: السلامةُ من جميع الآفاتِ.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٤٣٥. وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٨٨٦١) عن أبي سعيد الخدري بلفظ: [مَنْ أمَرَنِي بِالصَّبْرِ مَعَهُمْ]. وأبـو داود في السـنن: كتـاب العلـم: باب في القصص: الحديث (٣٦٦٦): بلفظ: عن أبي سعيد الخدري قال: جَلَسْتُ فِي عِصَابَـةٍ مِـنْ ضُعَفَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَإنَّ بَعْضَهُمْ لَيَسْتَتِرُ بِبَعْضٍ مِنَ الْعُرِي، وَقَارِئٌ يَقْرَأُ عَلَيْنَا، إذْ جَـاءَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ، فَقَامَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَكَتَ الْقَارِئُ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: [مَـا كُنْتُـمْ تَصْنَعُـونَ؟] قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّهُ كَانَ قَارِئٌ لَنَا يَقْرَأُ عَلَيْنَا، فَكُنَّا نَسْتَمِعُ إلَى كِتَابِ اللهِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ أُمِرْتُ أنْ أصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ] قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَطَنَا لِيَعْدِلَ بِنَفْسِهِ فِينَا، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَتَحَلَّقُوا، وَبَرَزَتْ وُجُوهُهُمْ لَهُ، قَالَ: فَمَا رَأَيْـتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَرَفَ مِنْهُمْ أحَـداً غَـيْرِي، فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: [أبْشِـرُوا يَـا مَعْشَـرَ صَعَـالِيكِ الْمُهَاجِرِينَ بِالنُّور التَّـامِّ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ، تَدْخُلُـونَ الْجَنَّـةَ قَبْـلَ أغْنِيَـاءِ النَّـاسِ بِنِصْـفِ يَـوْمٍ، وَذَاكَ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ].

وقيل: إنَّ اللهَ تعالى أمرَ نَبيَّهُ ﷺ أنْ يُسَلِّمَ على المستضعفين إذا جاءُوا إليه، وإنَّما أمرَهُ بأن يبدأهم بالسَّلامِ مع أن العادةَ أن يُسَلِّمَ على القاعدِ حتى يَنْبَسِطَ إليهم بالسَّلامِ عليهم؛ لِئَلاَّ يحتشموا من الانبساطِ إليه. قال عطاءُ: (نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَأَبِي عُبَيْدَةَ وَبلاَلٍ وَسَالِمٍ وَمُصْعَب بْنِ عُمَيْرٍ وَحَمْزَةَ وَجَعْفَرَ وَعُثْمَانَ ابْنِ مَضْعُونٍ وَعَمَّار بْنِ يَاسِرٍ)(١).

وعن أنسِ بن مالكٍ ﷺ قالَ: (أتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ رجَالٌ فَقَالُوا: إنَّا أصَبْنَا ذُنُوباً عَظِيْمَةً كَبِيْرَةً، فَسَكَتَ عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (وَإذا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٢).

واختلفُوا في قوله: (سُوءًا بجَهَالَةٍ) قال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: لاَ يَعْرِفُ حَلاَلاً مِنْ حَرَام، فَمِنْ جَهَالَتِهِ رَكِبَ الأَمْرَ). وقيل: جاهلٌ بما يُورثُهُ ذلك الذنبُ. وقيل: جَهِلَ حين آثرَ المعصيةَ على الطاعةِ، واللذةَ اليسيرةَ الفانيةَ علىالكثيرةِ الباقية الدائمةِ، فعلى هذا يسمَّى مرتكبُ المعصيةِ جاهلاً.

واختلفَ القُرَّاءُ في قولِهِ تعالى: (أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بجَهَالَةٍ) وقولِهِ: (فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فكسَرَهما جميعاً ابنُ كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائيُّ وخلف والأعمشُ على الاستئناف. ونصَبَهما الحسنُ وابن عامر وعاصمُ ويعقوب بدلاً من الرحمةِ. وفتحَ نافعُ الأولَ على معنى: وكَتَبَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ، وكسرَ الثاني على الاستئنافِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ ؛ أي نُبَيِّنُ بياناً الأمرَ والنهي فِي الْقُرْآن من قبلُ، وكذا نُبَيِّنُ وَنُنَزِّلُ الآياتِ متفرقةً شيئاً بعد شيء. وقولُهُ تعالى: ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ معطوفٌ على مُضْمَرٍ تقديرهُ: لِيَظْهَرَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ وَلِتَستَبينَ طريقُ الْمُجْرِمِينَ.

---

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص١٧٤.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٣٥٦) عن ماهان بأسانيد. وفي الدر المنثور: ج ٣ ص٢٧٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه الفريابي وعبد بن حميد ومسدد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ماهان... وذكره)).

وإنَّما لم يقل: سبيلُ المؤمنين؛ لأن في الكلامِ ما يدلُّ عليه؛ لأن معناهُ وَلِتَسْتَبِيْنَ سبيلَ المجرمين من سبيلِ المؤمنين. ويقرأ (وَلِيَسْتَبِيْنَ) بالياء؛ لأن السبيلَ يُذكَّرُ ويؤنَّثُ، فَتَمِيْمٌ تُذكِّرُهُ؛ وأهلُ الحجاز تُؤَنِّثُهُ.

ودليلُ التذكيرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾[1] ولم يقل بها، ودليل التأنيث قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾[2] ولم يقل هذا سبيلِي. وقرأ أهلُ المدينة: (سَبِيْلَ) بالنصب على خطاب النبيِّ ﷺ؛ معناهُ: وَلِتَعْرِفَ يا مُحَمَّدُ سبيلَ المجرمين؛ فالخطابُ للنبيِّ ﷺ والمرادُ به عامَّة المسلمين؛ كأنه ولِتَسْتَبِيْنُوا وتزدادوا معرفةً بطريق المجرمين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ؛ أي قل يا مُحَمَّد لِعُيَيْنَةَ وأصحابه: إنِّي نُهيتُ عن عبادةِ الذي تعبدون من الأصنام مِنْ دُون اللهِ، ﴿ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ﴾ ؛ فإنَّكم قد عَبَدْتُمُوهُ وسألتموهُ طردَ سلمان وبلالَ وأصحابَهما عن طريق الهدَى، لا على طريق البيِّنة والبرهان، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا ﴾ ؛ أي قد ضَلَلْتُ إنْ عبدتُها؛ معناهُ إن فعلتُ ذلك فقد تركتُ سبيلَ الحق، وسلكتُ غيرَ سبيل الهدى.

وقرأ يحيى بن وثَّاب وأبو رجَاء: (قَدْ ضَلِلْتُ) بكسر اللام؛ وهما لُغتان؛ إلا أنَّ الفتحَ أفصحُ؛ لأنَّها لغةُ أهلِ الحجاز. وقولهُ: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ عطفٌ على (ضَلَلْتُ)؛ أي إنْ أتَّبعْ أهواءَكم فما أنا من الذينَ سلكُوا طريقَ الهدى.

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّد: إنِّي على بَصِيْرَةٍ وبيانٍ مِن أمرِ ربي؛ لاَ مُتَّبعٌ للهَوى، (وَكَذبْتُمْ بهِ) أي بالبيان، وإنَّما ذكَرَ الكنايةَ لأن البيِّنةَ والبيانَ بمعنى واحدٍ. ويجوزُ أن يكون معناهُ: وكذبتُم بما آتيتُكم به؛ وهو الْقُرْآنُ. ومعنى البيِّنةِ: الدلالةُ بينَ الحقِّ والباطلِ.

---

(١) الأعراف / ٨٦.

(٢) يوسف / ١٠٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) رُوي: أنَّ رؤساءَ قريشٍ كانوا يستعجلونَ العذابَ، حتى قامَ النضرُ بن الحارثِ في الْحَطِيْمِ وقالَ: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ ما يقولُ مُحَمَّدٌ حقّاً فَأْتِنَا بالْعَذاب، فَنَزلت هذه الآيةُ.

وقيل: معناه: (مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) من الآياتِ التي تقترحونَها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ ؛ أي ما القضاءُ وتنْزيل الآياتِ إلاَّ للهِ، ﴿ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ﴾ ؛ أي يَحْكُمُ بالعدلِ ويقضي القضاءَ الحقَّ، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي أعدلُ الْفَاصِلِيْنَ.

ومن قرأ (يُقِضُّ الْحَقَّ) بالضادِ المشدَّدة؛ فمعناهُ: يُبَيِّنُ ويَأْمُرُ به، ومن قرأ (يَقْضِي) أي يَحْكُمُ. وقرأ ابن عبَّاس: (يَقْضِي بالْحَقِّ). وأما سقوطُ الياءِ في قراءة من قرأ (يَقْضِ) فإنَّها سقطت في الخطِّ لالتقاء السَّاكنَين، كما في قولهِ تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[1] ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي﴾[2]. وفي جميعِ المصاحف: (يَقْضِ) بغيرِ ياءٍ[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّد: (لَوْ أنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) من العذاب، ﴿ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ ؛ أي لأهلكتُكم؛ وانقطعَ ما بيني وبينكم من مطالبَتِي إياكم بالإخلاص في طاعة الله وعبادتهِ، وامتناعِكم من ذلكَ، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي بعقوبتِكم ووقتِ عذابكم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ قرأ ابن السُّمَيقِعِ: (مَفَاتِيْحُ الْغَيْب) بالياء. واختلفُوا في معنى (مَفَاتِحُ الْغَيْب) فروى عبدُالله بن

---

(١) العلق / ١٨.

(٢) القمر / ٦.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٤٣٩؛ قال القرطبي: (قال مكي: وقراءة الصاد أحبُّ إلي؛ لاتفاق الحرمين وعاصم على ذلك، ولأنه لو كان من القضاء للزمت الياء فيه كما أتت في قراءة ابن مسعود. قال النحاس: ومثل هذا الاحتجاج لا يلزم؛ لأن مثل هذه الياء تحذف كثيرا). وقراءة ابن مسعود: (إنِ الْحُكْمُ إلاَّ للهِ يَقْضِي بالْحَقِّ).

عمرَ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [مَفَاتِحُ الْغَيْب خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ اللهُ: عِلْمُ السَّاعَةِ، وَنُزُولُ الْغَيْثِ، وَعِلْمُ مَا فِي الأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْري نَفْسٌ بأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ][1]. وقال السُّدِّيُّ: (مَفَاتِحُ الْغَيْب: خَزَائِنُ الْغَيْب)[2] وَهِيَ الْمَقْدُورَاتُ الَّتِي يُفْتَحُ بهَا مَا فِي الْغَيْب، وَسُمِّيَتِ الْخِزَانَةُ مِفْتَاحاً؛ لأَنَّهُ يَنْفَتِحُ مِنْهُ الأَمْرُ).

وقيل: (مَفَاتِحُ الْغَيْب) ما ينفتحُ به علمُ ما في الغيب من وقتِ نزول العذاب الذي كانوا يستعجلُون به وغيرُ ذلك. وقيل: معناهُ: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْب) أي نزولُ العذاب لا يَعلمُ متَى ينْزل ما غابَ عنكم من الثواب والعقاب، وما يصيرُ إليه من أمري وأمركم إلا هوَ. وقيل: معناهُ: (مَفَاتِحُ الْغَيْب) الآجَالُ وأحوالُ العباد من السَّعادة والشَّقاوةِ، وعواقبُ الأمور، وخواتِم الأعمال. وقال ابنُ مسعود ﷺ: (أُوْتِيَ نَبيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ إلاَّ مَفَاتِحَ الْغَيْب)[3]. وَالْمَفَاتِحُ جَمْعُ مِفْتَحٍ، وَالْمَفَاتِيْحُ جَمْعُ مِفْتَاحٍ؛ وهو معرفةُ المغيَّب.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ أي يَعْلَمُ ما في البرِّ من النباتِ والْخَلْق؛ وَما في الْبَحْرِ من الدواب والعجائب. وقيل: يعلمُ رزقَ كلِّ مَن في البرِّ والبحر، يسوقُ إلى كلِّ ذي روحٍ رزقَهُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَا مِنْ شَجَرَةٍ فِي الْبَرِّ إلاَّ وَبهَا مَلَكٌ مُوَكَّلٌ يَعْلَمُ مَا يُؤْكَلُ مِنْهَا، وَمَا يَسْقُطُ مِنْ وَرَقِهَا، وَيَعْلَمُ عَدَدَ مَا بَقِيَ عَلَى الشَّجَرَةِ مِنَ الْوَرَق وَمَا يَسْقُطُ مِنْهُ). وقيل: معنى الآيةِ: (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ) من أوراقِ الشَّجر، (إلاَّ يَعْلَمُهَا) اللهُ ثابتةً وساقطةً، ويعلمُ متَى سقوطُها وموضعُ سقوطها.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٧٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد والبخاري وابن محشيش وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٣٦٦).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٣٦٧). في مجمع الزوائد: ج ٨ ص٢٦٣؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح).

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي كلُّ حبَّة تكون في الأرضِ حتى الحبَّةُ التي تكون تحتَ الصخرة التي هي أسفلُ الأرضين يعلمُها الله، وقيل: أرادَ كلَّ حبَّة تكون في شُقوق الأرضِ مِمَّا يخرجُ منها النبات. ومن قرأ (وَلاَ حَبَّةٌ) بالرفعِ فعلى الابتداء؛ وخبرهُ (إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبينٍ).

وَقَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أرادَ بالرَّطْب الماءَ والخضر، وباليابسِ الحجرَ والمدرَ، كلُّ ذلك مكتوبٌ في اللوحِ المحفوظ؛ أثبتَ اللهُ تعالى فيه كلَّ ما يخلقُ قبلَ أن يخلقَهُ، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾(١).

وَاعْلَمْ: أنهُ قد أثبتَ ما خَلَقَ قبل خلقِهِ. والرطبُ واليابس عبارةٌ عن جميع الأشياءِ التي تكون في السَّموات والأرضِ؛ لأنَّها تخلق من أحدِ هاتين الصِّفتين. وعن النبيِّ ﷺ أنهُ قال: [مَا زَرْعٌ عَلَى الأَرْضِ وَلاَ ثِمَارٌ عَلَى الأَشْجَارِ؛ إلاَّ عَلَيْهَا مَكْتُوبٌ: بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ، رِزْقُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ](٢).

فإن قيلَ: ما الفائدةُ في كون ذلك مكتوباً في اللَّوح مع أنَّ اللهَ لا يخفى عليه شيءٌ؛ وأنه كان عالِماً بذلك قبلَ أن يخلقَه وقبل أن يكتبَه؛ ولم يكتبْها ليحفظَها ويدريها. قيل: فائدتهُ أن الحوادثَ إذا حدثت موافقةً للمكتوب، ازدادَتِ الملائكةُ بذلك علماً ويقيناً بعِظَمِ صفاتِ الله عَزَّ وَجَلَّ(٣).

قَوْلُـهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ ؛ معناه: هو الذي يقبضُكم عن التصرُّفِ بالنوم وما تصيرونَ في منامكم بالليلِ في قبضتهِ لا تملكون لأنفسِكُم تصريفاً في أموركم.

---

(١) الحديد / ٢٢.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٧٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه الخطيب في تاريخه بسند ضعيف... وذكره)). وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: ج ٤ ص٣٥٣: ترجمة أحمد بن الخليل: الرقم (٢١٢٣). وذكره الشوكاني في الفوائد: ص٣١٧.

(٣) كتب في هامش المخطوط: ((والجواب الشافي في ذلك: هو أن الله لا يُسأل عما يفعل، وإلا فعلم الملائكة ليس بأمر مهم ولازم، والله أعلم)).

والتَّوَفِّي في اللغة: هُوَ الْقَبْضُ؛ إلاَّ أن روحَ النائمِ لا تصيرُ مقبوضةً في حال نومه على جهةِ الحقيقة؛ لأن النائمَ يستمدُّ من الهواءِ على حسب ما يفعلهُ المتنبهُ، ولكنَّ الله يحدثُ في حال النوم من بدنِ النائم ضرباً من الاسترخاءِ في إغماءٍ منه، إمَّا بسلب عقله، أو بإحداثِ فعلٍ في البدنِ يكونُ ذلك الفعل سبباً لراحةِ البدن، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[١] فلما صارَ النائمُ كالميتِ في أنه لا يعقلُ وفي أن تصرفَه لا يقع على تمييز؛ شُبهَ بالميتِ من حيث التوفِّي على هذا الوجه، كما وردَ عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [النَّوْمُ أخُو الْمَوْتِ، وَأهْلُ الْجَنَّةِ لاَ يَمُوتُونَ وَلاَ يَنَامُونَ][٢]. وعلى هذا الوجهِ يتأوّل قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[٣] إلى آخر الآية.

وذهبَ بعضُهم إلى أن الروحَ تخرجُ من البدن في المنامِ، ولكن لا تنقطعُ حركة النائمِ؛ لأن نظرَ الروحِ لم ينقطع عن البدنِ؛ إذ هو على العَوْدِ في كلِّ وقتٍ وفي كل ساعةٍ؛ وقال: لا يخرجُ منه الروحُ، وإنَّما يخرج منه الذهن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ ؛ أي كسبتُم من الخيرِ والشرِّ بالنهار، يقالُ: جَرَحَ وَاجْتَرَحَ؛ بمعنى كَسَبَ وَاكْتَسَبَ، وأصلُ الاجْتِرَاحِ: عَمَلُ الْجَوَارحِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ ؛ أي يُنَبهُكُمْ من نومِكم في النهار على علمٍ منه بما اجترحتُم من قبلُ وما تجترحون من بعدُ، ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي لتبلغُوا الوقتَ المقدور الذي قدَّرهُ الله بحَيَوِيَّتِكُمْ؛ فتنقطعُ أرزاقكُم وأعمالُكم التي تعملونَ في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ.

---

(١) النبأ / ٩.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ١ ص٥٠٢: الحديث (٩٢٣) وج ٩ ص٣٧٦-٣٧٧: الحديث (٨٨١١). وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص٤١٥: باب أهل الجنة لا ينامون؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجال البزار رجال الصحيح)).

(٣) الزمر / ٤٢: ﴿.. فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إلَى أجَلٍ مُسَمًّى إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ ؛ أي ثم إلى اللهِ مصيرُكم ومتقلَّبُكم بعدَ الموتِ، ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي ثم يُخْبِرُكُمْ في الآخرةِ بما كنتم تعملون في الدُّنيا؛ فيجازي كلَّ عاملٍ ما عَمِلَ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ ؛ أي هو الْغَالِبُ لعبادهِ الْمُسْتَعْلِي عليهم بالقدرَةِ، وليس معنى (فَوْقَ) معنى المكان؛ لاستحالةِ إضافَةِ الأماكنِ إلى الله، وإنَّما معناهُ الْغَلَبَةُ والقدرةُ، ونظيرهُ: فلانٌ فَوْقَ فلانٍ في العلمِ؛ أي أعْلَمُ منهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ ؛ معناه: وَالْمُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً، فاكتفَى بالفعلِ عن الاسم. وَالْحَفَظَةُ: هُمُ الْمَلاَئِكَةُ يحفظونَ على العبادِ أعمالَهم على ما تقدَّم.

وقد وردَ في الخبرِ: أن على كلِّ واحدٍ منَّا ملَكين بالليلِ؛ وملَكين بالنهار، يكتبُ أحدُهما الحسناتِ؛ والآخرُ السيِّئاتِ، وصاحبُ اليمينِ أميرٌ على صاحب الشِّمال، فإذا عَمِلَ العبدُ حسنةً؛ كتبَ له بعَشْرِ أمثالِها؛ وإذا عَمِلَ سيِّئةً فأرادَ صاحبُ الشِّمالِ أن يكتبَ؛ قال له صاحبُ اليمين: أمْسِكْ، فيمسِكُ عنه ستَّ ساعاتٍ أو سبع ساعات، فإنْ هو استغفرَ اللهَ تعالى؛ لم يكتُبْ عليه، وإن لم يستغفرْ يكتب عليه سيِّئةً واحدةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ معناه: حَتَّى إذا حضرَ أحَدَكُمْ الْمَوْتُ؛ قبضَ روحَهُ مَلَكُ الموتِ وأعوانُه، وَهُمْ لا يقصِّرون ولا يؤخِّرونَه طرفةَ عينٍ، فإن قيلَ: كيفَ هنا (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) وقال في آيةٍ أخرى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾[1]؟ قيلَ: إنَّ مَلَكَ الموتِ هو الذي يقبضُ الأرواحَ كلَّها وهو القائمُ بذلك؛ إلا أنَّ له أعواناً؛ فتارةً أضافَ قبضَ الروحِ إلى مَلَكِ الموتِ؛ لأنه هو المختصُّ بذلكَ، وتارةً أضافَهُ إليه وإلى غيرِه؛ لأنَّهم يَصْدُرُونَ في ذلك عن أمرِه.

---

(١) السجدة / ١١.

وقال مجاهدُ: (جُعِلَتِ الأَرْضُ لِمَلَكِ الْمَوْتِ كَالطَّشْتِ يَتَنَاوَلُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ، وَلَهُ أَعْوَانٌ يَتَوَفَّوْنَ الأَنْفُسَ، ثُمَّ يَقْبِضُهَا مِنْهُمْ)[١]. ويقالُ: إنَّ أعوانَ مَلَكِ الموت يستخرجون الروحَ من الأعضاءِ عُضْواً عُضْواً، حتى إذا جَمَعُوهُ في صدرِهِ وجعل يُغَرْغِرُ به؛ قبضَهُ حينئذٍ مَلَكُ الموتِ.

وقد رويَ عن رسول الله ﷺ: أنَّهُ دَخَلَ عَلَى مَرِيْضٍ يَعُودُهُ، فَرَأَى مَلَكَ الْمَوْتِ عِنْدَ رَأسِهِ؛ فَقَالَ: [يَا مَلَكَ الْمَوْتِ؛ ارْفُقْ بِهِ، فَإنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَقَالَ مَلَكُ الْمَوْتِ: يَا مُحَمَّدُ؛ أبْشِرْ وَطِبْ نَفْساً وَقَرَّ عَيْناً؛ فَإنِّي بكُلِّ مُؤْمِنٍ رَفِيْقٌ، إنِّي لأَقْبضُ رُوحَ الْمُؤْمِنِ فَيُصْعَقُ أهْلُهُ فَأعْتَزِلُ فِي جَانِبِ الدَّار، فَأقُولُ: مَا لِي مِنْ ذنْب، وَإنِّي لَمَأْمُورٌ، وَإنَّ لِي لَعَوْدَةً فَالْحَذرَ الْحَذرَ، وَمَا مِنْ أهْلِ بَيْتِ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ، فِي بَحْرٍ أوْ بَرٍّ، إلاَّ وَأنَا أتَصَفَّحُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، حَتَّى أنِّي لأَعْلَمُ بصَغِيْرِهِمْ وَكَبيْرِهِمْ مِنْهُمْ بأنْفُسِهِمْ، وَاللهِ لَوْ أرَدْتُ أنْ أقْبضَ رُوحَ بَعُوضَةٍ لَمَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا حَتَّى يَأْمُرَنِي اللهُ تَعَالَى بقَبْضِهَا][٢].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي ثم رَدَّهُمُ الملائكةُ إلى الموضعِ الذي لا يَمْلِكُ أحدٌ الحكمَ فيه إلا اللهُ تعالى، وقولهُ: (مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) أي مَوْلاَهُمُ من كلِّ جهةٍ، فإنهُ يَمْلِكُ خلقَهم وإنشاءَهم وتربيتَهم وإماتتهم وإحياءَهم وضُرَّهم ونفعَهم، وهو الذي دَبَّرَ في الابتداء أمرَهم حيث أنشأهم. ومعنى قولهِ تعالى: (مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) أي الذي عِبادَتُهُ حقٌّ، ويعطي الثوابَ الحقَّ، ويتولَّى العقابَ بالحقِّ، وقيل: إنَّ هذه أرجَى آيةٍ في كتاب اللهِ تعالى؛ لأنه لا مَرَدَّ للعبدِ أحسنُ من مَرَدِّهِ إلى مَوْلاَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ ؛ كلمة بَيِّنَةٌ؛ أي اعلمُوا أنَّ بَيِّنَةَ القضاءِ بين العباد يومَ القيامة يحكمُ فيهم ما شاءَ وكيف شاءَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٣٨٩).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٤ ص٢٢٠: الحديث (٤١٨٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٢ ص٣٢٥؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الكبير، وفيه عمرو بن شمر الجعفي والحارث بن الخزرج ولم أجد من ترجمهما، وبقية رجاله رجال الصحيح)).

ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾؛ إذا حاسَبَ فحسابهُ يسيرٌ سريعٌ؛ لأنه لا يحاسبُ بحقد ولا يتكلَّمُ بآلةٍ، ولا يَحْجُزُهُ الكلامُ مع بعضِهم عن الكلامِ مع غيرهم، بل يحاسِبُ الجميعَ في دُفعة واحدةٍ. ومعنى الْمُحَاسَبَةِ: تَعْرِيْفُ كُلِّ وَاحِدٍ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ ثَوَابٍ أوْ عِقَابٍ؛ حَتَّى رُوِيَ فِي الْخَبَرِ: أنَّهُ يَكُونُ حِسَابُهُ فِي مِقْدَار حَلْب شَاةٍ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّد: مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ شدائد الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وأهوالِهما. تقولُ العرب لليومِ الذي فيه شدَّة: يَوْمٌ مُظْلِمٌ؛ حتى أنَّهم يقولون: يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبٍ؛ إذا اشتدَّت ظلمتهُ حتى صارَ كالليل. ويقال: أرادَ بالظلمات ظلمةَ الليل، وظلمةَ الغيمِ، وظلمة الأمواجِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) أي تَدْعُونَهُ علانيةً وسراً، والتَّضَرُّعُ: إظْهَارُ الضَّرَاعَةِ؛ وَهِيَ شِدَّةُ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ إلَى الشَّيْءِ. وقرأ أبو بكرٍ: (وَخِفْيَةً) بكسرِ الخاء، وقرأ الأعمشُ: (وَخِيْفَةً) من الخوفِ كما في آخرِ الأعراف[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾؛ في موضعِ الحال؛ معناهُ: قائلين: لَئِنْ أنجيتنا مِنْ هَذِهِ الشدائد لَنَكُونَنَّ مِنَ المؤمنينَ الموحِّدين المطيعين. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾؛ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ من شدائدِ البرِّ والبحر ومن كلِّ غمٍّ، ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾؛ بهِ الأصنامَ في الرَّخاءِ بعد النجاةِ، وبعد قيامِ الحجَّة عليكُم.

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾؛ راجعٌ إلى مشركي مكَّة؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّد: (هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) كما بعثَ على قومِ نوحٍ ولُوطٍ من الطوفان والحجَارة، ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾؛ أي هو القادرُ على أن يَخْسِفَ بكم، كما فعلَ بقَارُونَ وقومِه. ويقال: أراد بقوله: (عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) الظلمةَ، (أوْ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِكُمْ) أو يُغَلِّبَ عليكم سفهاءَكم.

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ﴾: الأعراف / ٢٠٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ ؛ معناه: أو يَخْلِطَكُمْ فِرقاً مختلفِي الأهواء، بأن يضربَ بعضَكم ببعضٍ بما يلقيهِ بينكم من العداوةِ. وقيل: معنى:(يَلْبسَكُمْ شِيَعًا) يَكِلُكُمْ إلى أنفسِكم ويُخَلِّيكُمْ من الطاعةِ بذنوبكم؛ فتختلفُوا حتى يذوقَ بعضُكم شدَّةَ بعضٍ بالحرب والقتال. وقالَ: ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ ؛ يعني بالسُّيوف يَقْتُلُ بعضُكم بعضاً.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ ؛ أي انظُرْ يا مُحَمَّد كيف نُبَيِّنُ لهم الآيةَ على إثْرِ آيةٍ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي لكي يَفْقَهُوا أوامرَ الله، ثم هم لا يفقهون.

قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ؛ شَقَّ ذلِكَ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ، فَقَالَ: [يَا جِبْرِيْلُ، مَا بَقَاءُ أمَّتِي عَلَى هَذِهِ الْخِصَال الأَرْبَعِ؟!] فَقَالَ: إنَّمَا أنَا عَبْدٌ مِثْلُكَ، فَادْعُ رَبَّكَ وَاسْألْهُ لأُمَّتِكَ. فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَتَوَضَّأَ وَأحْسَنَ الْوُضُوءَ؛ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى وَأحْسَنَ الصَّلاَةَ؛ ثُمَّ سَألَ اللهَ أنْ لاَ يَبْعَثَ عَلَى أمَّتِهِ عَذاباً مِنْ فَوْقِهِمْ وَلاَ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِهِمْ، وَلاَ يُلْبسَهُمْ شِيَعاً، وَلاَ يُذِيْقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، فَنَزَلَ جِبْرِيْلُ عليه السلام؛ فَقَالَ: يَا مُحَمَّد؛ إنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ مَقَالَتَكَ، وَإنَّهُ قَدْ أجَارَهُمْ مِنْ خِصْلَتَيْنِ: أنْ لاَ يَبْعَثَ عَلَيْهِمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِهِمْ، وَلاَ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِهِمْ، وَلَمْ يُخْرِجْهُمْ مِنَ الْخَصْلَتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ)(١).

وقال ﷺ: [سَألْتُ رَبي أنْ لاَ يَبْعَثَ عَلَى أمَّتِي عَذاباً مِنْ فَوْقِهِمْ، وَلاَ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِهِمْ؛ فَأعْطَانِي ذلِكَ. وَسَألْتُهُ أنْ لاَ يَجْعَلَ بَأسَهُمْ بَيْنَهُمْ؛ فَمَنَعَنِي ذلِكَ، وَأخْبَرَنِي جِبْرِيْلُ أنَّ فَنَاءَ أمَّتِي بالسَّيْفِ](٢).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ ؛ أي كذب بالْقُرْآن قومُك وهو الصدقُ، ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي بحفيظٍ أحفظُ أعمالَكم

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٨٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤١٩) عن الحسن.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٢٨٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة والبزار وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه...)) وذكره وهو حديث طويل.

وأجازيَكم عليها، وقيل: معناهُ: لستُ أقدِرُ أن أحُولَ بينَكم وبين الكفرِ الذي يضرُّكم، كما يدفعُ الوكيلُ الضررَ عن موكِّله. وعن ابنِ عبَّاس: (أنَّ مَعْنَاهُ: لَسْتُ بمُوَكَّلٍ عَلَيْكُمْ؛ أخْبرُكُمْ عَنِ الإيْمَان، قَالَ: ثُمَّ نُسِخَ هَذا بآيَةِ السَّيْفِ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ ؛ معناهُ: لِكُلِّ وَعْدٍ وَوَعِيْدٍ وقتٌ، وأجلُ غايةٍ؛ منهُ ما يكون في الدُّنيا، ومنه ما يكون في الآخرةِ، ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ يا أهلَ مكَّة ذلكَ إذا نَزَلَ بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ ؛ معناهُ: وإذا رأيتَ المشركين الذين يكذِّبون ويستهزئون بكَ وبالْقُرْآن (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) أي اتْرُكْهُمْ ولا تجالِسْهم على وجهِ الإنكار عليهم، إلا أنْ يتركُوا استهزاءَهم ويَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِ الْقُرْآن. وذلكَ أن المشركينَ كانوا إذا جالسُوا المؤمنين؛ وَقَعُوا في رسولِ الله ﷺ فسبُّوه واستهزؤا بهِ، فنهَى اللهُ المؤمنينَ عن مُجَالَسَتِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وَإمَّا يوقعنَّك الشَّيْطَانُ في النِّسْيَان بَعْدَ النهي فتجلسَ معهم، فلا شيءَ عليك في تلك الحالِ التي تكون فيها ناسياً، فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ قَوْمٍ إذا ذكرتَ، ودَعْ مجالسةَ المشركينَ فتأثم. قرأ ابنُ عبَّاس وابن عامرٍ: (يُنْسِيَنَّكَ) بالتشديدِ.

فلما نزلت هذه الآيةُ قال المسلمون: يا رسولَ اللهِ، لَئِنْ كُنَّا كلما استهزأ المشركون بالْقُرْآن قُمْنَا وتركناهم، لا نستطيعُ أن نجلسَ في المسجدِ الحرام، ولا أن نطوفَ بالبيتِ؟ فَنَزل قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ ، أي ما على الذين يَتَّقُونَ الشركَ والمعاصي والخوضَ في آثامِهم، ومخالفتِهم أمرَ الله من شيء من العقاب، ﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ ﴾ ؛ أي ولكن ذكِّروهم بالْقُرْآنِ ذِكْرَى إذا فعلُوا وَعِظُوهُمْ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ الشركَ والاستهزاءَ والخوضَ. فموضع (ذِكْرَى) نَصْبٌ على المصدر، ويجوزُ أن يكون في موضعِ رفعٍ؛ أي هُوَ ذِكْرَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي ذر الْكُفَّارَ الذين اختارُوا في أنفسهم اللَّعِبَ والباطلَ والاستهزاء. ويقال: معناهُ: الذين اتَّخذوا دينَهم بهوى أنفسهم، ومن اتَّخذ دينَهُ بهوى نفسهِ فهو لاعبٌ. وقال الفرَّاء في معنى الآية: (لَيْسَ مِنْ قَوْمٍ إلاَّ وَلَهُمْ عِيْدٌ يَلْهَونَ فِيْهِ، إلاَّ أمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإنَّ أعْيَادَهُمْ صَلاَةٌ وَتَكبِيْرٌ وَبِرٌّ وَخَيْرٌ)(١). وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) معناه: وشَغَلَتْهُمُ الحياة الدُّنيا بما فيها من زهرتِها وزينتِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ؛ أي ذكِّرْ بالْقُرْآنِ وعِظْ بِهِ كراهةَ أنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بمَا كَسَبَتْ. ويقال: قَبْلَ أنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ. ويقال: لئلا تُبْسَلَ نَفْسٌ؛ أي لئلا تَهلِكَ نفسٌ. وقال الحسنُ ومجاهد وعكرمة والسدي: (تُبْسَلَ: أيْ تُسَلَّمَ لِلْهَلَكَةِ)(٢).

وقال ابنُ زيد: (معناه: وَذكِّرْ بِهِ أنْ تُبْسَلَ؛ أيْ لِئَلاَّ تَبْسَلَ؛ أيْ لِئَلاَّ تُؤْخَذ)(٣). وعن ابنِ عبَّاس: (أنْ تُفْضَحَ)(٤). وقال الأخفشُ: (أنْ تُبْسَلَ: أنْ تُجَازَى)(٥). وقال الفرَّاء: (تُرْتَهنَ)، وقال عطيةُ العوفِي: (مِنْ قَبْلِ أنْ تُبسَلَ نَفسٌ؛ أيْ مِنْ قَبْلِ أنْ تُسَلَّمَ إلَى خَزَنَةِ جَهَنَّمَ). والْمُتَبَسِّلُ: الْمُسْتَسْلِمُ(٦).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ؛ أي ليس لتلك النفس مِنْ دُون اللهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ؛ أي قريبٌ يَمنعُ العذابَ عنها ولا شفيعٌ يشفعُ لَها في الآخرة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ ؛ أيَ لو جاءَت مكانَها بكلِّ ما كان في الأرضِ جميعاً افتداءً عن نفسها لا يُقْبَلُ منها.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٦: نقله القرطبي عن الكلبي أيضاً.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٤٥) عن الحسن، والأثر (١٠٤٤٦) عن مجاهد، والأثر (١٠٤٤٤) عن عكرمة.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٤٨).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٤٩).

(٥) في جامع البيان: الأثر (١٠٤٥٠) نقله الطبري عن الكلبي.

(٦) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٦؛ قال القرطبي: (والإبسالُ: تسليم المرء للهلاك، هذا هو المعروف في اللغة. أبْسَلْتُ ولَدي أرْهَنْتُهُ)، وقال: (أي تُرْتَهَنُ وتُسَلَّمُ للهَلَكةِ).

وسُمي الفداءُ عدلاً؛ لأنه مِثْلٌ للشيء، ويقالُ لأحد جَانبي الحجل: عِدْلٌ بالكسر؛ لأن كلَّ واحدٍ من العِدلين مِثْلٌ لصاحبهِ، فمعنى الآيةِ: وإن تَفْتَـدِي بكـلِّ فـداءٍ لا يُؤْخَـذْ منها.

وقولـه تعـالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ ﴾ ؛ أي وجيعٌ؛ ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي بما كانوا يَجْحَدُونَ في الدُّنيا بمُحَمَّدٍ ﷺ والْقُرْآن.

قَوْلُهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ ؛ أي قل يا مُحَمَّد لكفَّار مكَّة الذين يدعونكم إلى دينِ آبائهم: أنَعْبُدُ سِوَى اللهِ من الأصنـام مَا لا يَنفَعُنَا إن عبدناهُ في رزق ولا معاش، وَلا يَضُرُّنَا إن تركنـاهُ في رزق ولا معـاش، ﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ ؛ عطفٌ على الاستفهامِ؛ أي كيف نرجـعُ إلى الكفر بَعْدَ إذْ هَدَانَا اللهُ لدينه، وأكْرَمَنَا بمعرفتهِ، فيكونُ مَثَلُنَا؛ كَـ؛ مَثَلِ؛ ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ ؛ فأذهبَهُ؛ ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ ؛ ضَالاً، لا يقـالُ: كـالذي زَيَّنَتْ له الشياطينُ هـواهُ؛ فـهو يعمـلُ في الأرضِ بالمعـاصي. وقيـل: معنـاهُ: كـالذي اسْتَفْرَسَتْهُ الغِيْلاَنُ في الْمَهَامَةِ فأضَلُّوهُ؛ فهو حَائِرٌ. و(حَيْرَانَ) نُصِبَ على الحال.

قرأ الأعمش وحمزة: (كَالَّذِي اسْتَهْوَاهُ) بالألفِ والإمالة، وقرأ طلحـةُ بـالألف، وقرأ الحسنُ: (اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ). وفي مصحفِ عبدِالله: (اسْتَهْوَاهُ الشَّـيْطَانُ). قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ ﴾ ؛ أي له أصحـابٌ يدعونـه إلى الطريقِ المستقيم: أنِ ائْتِنَا وَاتَّبِعْنَا؛ فإنَّا على الطريقِ، فأبَى أن يأتِهم ويطيعَهم.

وقيل: إن الآيةَ نزلت في عبدِالرحمن بن أبي بكرٍ حـين دعـا أبـاهُ إلى الكفـر[1]، فأنزلَ اللهُ تعالى: (قُلْ أنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُنَـا وَلا يَضُرُّنَـا). وقولـهُ: (كَـالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ) هو عبدُالرَّحمن بن أبي بكرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (لَهُ أصْحَـابٌ يَدْعُونَـهُ

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٨؛ قـال القرطبي: ((وقـال – أي ابـن عبـاس رَضِـيَ اللهُ عَنْهُمَا في رواية أبي صالح-: نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، كان يدعو أباه إلى الكفـر وأبواه يدعوانه إلى الإسلام)).

إلَى الْهُدَى) قيل: كان أمُّهُ وأبوهُ يدعوانِه إلى الإسلام، وكان الشياطينُ والكفَّار يُزَيِّنُونَ له الكفرَ إلى أن مَنَّ الله عليه بعد ذلك بقَبُول الإسلامِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم: إنَّ دينَ الله هو الإسلامُ؛ وأمَرَنا لِنُخْلِصَ العبادةَ؛ : ﴿ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ ؛ عطف على قوله: (لِنُسْلِمَ) أي أمِرْنا لِنُسْلِمَ؛ فقيل لنا: أسْلِمُوا وأقيمُوا الصلاةَ بركوعها وسجودها، (وَاتَّقُوهُ) أي اتَّقُوا سَخَطَهُ؛ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي تُجمعون يوم القيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي لإقامةِ أمر الحقِّ؛ وهو الثوابُ والعقاب في الآخرةِ، ولم يَخْلُقْهَا باطلاً لغير شيء، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي وخَلَقَ الخلائق يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ. وقيل: معناهُ: واتَّقُوهُ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ. وقيل: وَاذْكُرُوا يَوْمَ يَقُولُ ليوم القيامةِ: كُنْ فَيَكُونُ مكوَّناً بإذنِ الله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ ؛ أي الآخرة[(١)] في أمرِ يوم القيامة حقٌّ كائنٌ لا محالة، وَلَهُ الْمُلْكُ يومئذ. وتخصيصُ ذلك اليوم بالْمُلْكِ؛ لأنَّ اليومَ الذي لا يظهرُ فيه مِن أحدٍ سوى اللهِ نفعٌ ولا ضرٌّ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ﴾[(٢)]. والصُّورُ: قَرْنٌ يَنْفُخُ فِيْهِ إسْرَافِيْلُ نفختين؛ فتُغشَى الخلائقُ كلُّهم بالنفخةِ الأولى؛ ويَحْيَوْنَ بالنفخة الثانيةِ، فتكون النفخةُ الأولى لانتهاءِ الدُّنيا؛ والثانيةُ لابتداءِ الآخرة[(٣)]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ ؛ أي وعالِمُ ما غابَ عن العبادِ وما علموهُ؛ ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ؛ في أمرِهِ، ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ بأعمالِ عباده.

---

(١) في المخطوط: (أي حرة) ويبدو أنه تصحيف، كما سيوضحه المصنف رحمه الله.

(٢) الانفطار / ١٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٦٧) عن ابن عباس بمعناه.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ ؛ أي اذْكُرْ يا مُحَمَّد إذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبيهِ آزَرَ، من قرأ (آزَرَ) بالنصب فموضعُه خفض بدل من (أبيْهِ) إلا أنه لا ينصرفُ؛ لأنه اسم أعجميٌّ، ومَن رَفَعَهُ فعلى النداءِ؛ أي يا آزرُ[1]. وكان آزرُ مَسْكَنُهُ (كُوثَى) قريةٌ من سوادِ الكوفة.

قال السُّدِّيُّ والحسنُ: (آزَرُ اسْمٌ لأَبي إبْرَاهِيْمَ)[2]. وقال الفرَّاء: (هُوَ صِفَةُ عَيْبٍ وَسَبٍّ؛ وَمَعْنَاهُ فِي كَلاَمِهِمْ: الْمِعْوَجُّ)[3]. وقيل: معناهُ: الشيخُ لَهم. وقيل: قَالَ إبْرَاهِيمُ لأَبيهِ الْمُخْطِئ، أو قال لأبيه: يَا مُخْطِئُ. وكان على هذا القول اسمٌ أندتارخ بن ياجوراء. وقال سعيدُ بن المسيب ومجاهدُ:(آزَرُ اسْمُ صَنَمٍ)[4] وهو على هذا التأويلِ في موضع نصبٍ، وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخير؛ تقديرهُ: اتَّخَذَ آزرَ أصْنَامًا آلِهَةً مِن دون اللهِ.

وقيل: كان إبراهيمُ قالَ لأبيه: لا تَتَّخِذُوا آزَرَ إلَهاً، أتَتَّخِذُ أصْنَامًا آلِهَةً، ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ ؛ عن الحق؛ ﴿ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي ظاهرَ الضَّلالةِ في ذهابٍ عن الحقِّ بيِّنٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي كما أرينا إبراهيم النصرةَ في دينهِ والحقَّ في مخالفة قومِهِ؛ نُريَهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ؛ أي مُلْكُهَا ونريه القدرةَ التي يقوِّي بها دلالتَهُ على توحيدِ الله تعالى، وهو ما رأى من السماءِ والأرض والكواكب والقمرِ والشمس.

وقال مجاهدُ وسعيدُ بن جبيرٍ: (مَعْنَى: (وَكَذلِكَ نُري إبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أيْ آيَاتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ؛ وَذلِكَ أنَّهُ اُقِيْمَ عَلَى صَخْرَةٍ وَكُشِفَ لَهُ عَنِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى الْعَرْشَ وَأسْفَلَ الأَرْضِيْنَ، وَنَظَرَ إلَى مَكَانِهِ

---

(١) نقله الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص٣٤٠، وقال: (هو وجه حسن).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٦٨) عن السدي. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٢؛ نقله القرطبي عن الحسن.

(٣) في معاني القرآن: ج ١ ص٢٤٠؛ قال الفراء: (وقد بلغني أنَّ (آزر) في كلامهم: معوجٌ، كأنه عابه بزيغه وبعوجه عن الحق).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٧١) عن مجاهد، والأثر (١٠٤٧٢) عن السدي.

فِي الْجَنَّةِ؛ وَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾[1] يَعْنِي أرَيْنَاهُ مَكَانَهُ فِي الْجَنَّةِ)[2].

وقيل: معنى الآية: كما أرينا إبراهيمَ قُبْحَ ما كان عليه أبوهُ وقومه من المذهب؛ كذلك نُريَهُ ملكوتَ السموات والأرض. والْمَلَكُوتُ: عِبَارَةٌ عَنْ أعْظَمِ الْمُلْكِ؛ زيدتِ الواوُ والتاء للمبالغةِ؛ كما يقال: رَهَبُوتٌ خَيْرٌ مِنْ رَحَمُوت، هذا مثلٌ يقوله العربُ؛ معناه: لئن تُرهب خيرٌ من أن تُرحم. فملكوتُ السموات: الشمسُ والقمر والنجوم؛ وملكوتُ الأرض: الجبال والشجرُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ ؛ أي نُريَهُ الملكوتَ ليستدلَّ بذلك على توحيدِ الله ويَثْبُتَ على اليقين.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَبًا قَالَ هَذا رَبي) قال المفسرون: إنَّ إبراهيم وُلِدَ في زمانِ النَّمْرُودِ بْنِ كَنْعَانَ، وكان النمرودُ أولَ من دعا الناسَ إلى عبادتهِ، وكان له كهَّان ومنجِّمون، فقالوا له: إنهُ يولد في هذه السنةِ غلامٌ يغيِّرُ دينَ أهل الأرض، ويكونُ هلاكُكَ وزوالُ مُلْكِكَ على يديهِ.

قال السديُّ: (رَأى النَّمْرُودُ فِي مَنَامِهِ كَأنَّ كَوْكَباً طَلَعَ فَذهَبَ بضَوْءِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ حَتَّى لَمْ يُبْقِ لَهُمَا ضَوءاً، فَفَزِعَ مِنْ ذلِكَ وَدَعَا السَّحَرَةَ وَالْكُهَّانَ؛ وَسَألَهُمْ عَنْ ذلِكَ فَقَالُوا: هُوَ مَوْلُودٌ يُولَدُ فِي نَاحِيَتِكَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ؛ يَكُونُ هَلاَكُكَ عَلَى يَدَيْهِ. فَأمَرَ بذبْحِ كُلِّ غُلاَمٍ يُولَدُ فِي نَاحِيَتِهِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ، وَأمَرَ الرِّجَالَ باعْتِزَالِ النِّسَاءِ، وَجَعَلَ عَلَيْهِمُ الْحُرَّاسَ، فَمَكَثَ كَذلِكَ مَا شَاءَ اللهُ).

قال السديُّ: (خَرَجَ النَّمْرُودُ بالرِّجَالِ إلَى الْعَسْكَرِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ النِّسَاءِ مَخَافَةَ مِنْ ذلِكَ الْمَوْلُودِ، فَبَدَتْ لَهُ حَاجَةٌ إلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمْ يَأْتَمِنْ عَلَيْهَا أحَداً مِنْ قَوْمِهِ إلاَّ

(١) العنكبوت / ٢٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٧٧) عن مجاهد بأسانيد. وفي الدر المنثور: ج ٣ ص١٠٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه آدم بن ابي إياس وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء عن مجاهد))؛ وقال: ((أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي)) وعنه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٤٧٩).

آزَرَ، فَدَعَاهُ وَأمَرَهُ لِحَاجَتِهِ إلَى الْمَدِيْنَةِ، وَقَالَ لَهُ: إنَّكَ ثِقَتِي؛ فَأقْسَمْتُ إلَيْكَ أنْ لاَ تَدْنُو مِن امْرَأتِكَ وَلاَ تُوَاقِعْهَا، ثُمَّ أوْصَاهُ بحَاجَتِهِ. فَلَمَّا دَخَلَ الْمَدِيْنَةَ وَقَضَى حَاجَتَهُ، قَالَ: لَوْ دَخَلْتُ عَلَى أهْلِي فَرَأيْتُ كَيفَ حَالُهُمْ، فَلَمَّا نَظَرَ إلَى امْرَأتِهِ لَمْ يَتَمَالَكْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا، وكَانَتْ قَدْ طَهُرَتْ مِنَ الْحَيْضِ، فَحَمَلَتْ بإبْرَاهِيْمَ ، فَلَمَّا حَمَلَتْ بهِ؛ قَالَتِ الْكَهَنَةُ لِلنَّمْرُودِ: إنَّ الْغُلاَمَ الَّذِي أخْبَرْنَاكَ بهِ قَدْ حَمَلَتْ بهِ أمُّهُ اللَّيْلَةَ، فَأمَرَ النَّمْرُودُ بذبْحِ كُلِّ وَلَدٍ مِنَ الْغِلْمَانِ.

فَلَمَّا دَنَتْ ولاَدَةُ أمِّ إبْرَاهِيْمَ وَأخَذهَا الْمَخَاضُ، خَرَجَتْ هَاربَةً مَخَافَةَ أنْ يُطَّلَعَ عَلَيْهَا فَيُقْتَلُ وَلَدُهَا، فَوَضَعَتْهُ فِي مَوْضِعٍ، ثُمَّ لَفَّتْهُ فِي خِرْقَةٍ وَجَعَلَتْهُ فِي الْحَلْفَاءِ، ثُمَّ رَجَعَتْ إلَى زَوْجِهَا فَأعْلَمَتْهُ، فَانْطَلَقَ أبُوهُ إلَيْهِ وَحَفَرَ لَهُ سَرَباً فِي ذلِكَ الْمَكَان وَجَعَلَهُ فِيْهِ، وَسَدَّ عَلَيْهِ بصَخْرَةٍ مَخَافَةَ أنْ تَأكُلَهُ السِّبَاعُ، وكَانَتْ أمُّهُ تَخْتَلِفُ إلَيْهِ سِرّاً فَتُرْضِعُهُ، وَكَانَ إذا بَكَى عَلَى أمِّهِ أتَاهُ جِبْرِيْلُ فَوَضَعَ إصْبَعَهُ فِي فَمِهِ فَيَخْرُجُ مِنْهَا اللَّبَنُ، فَكَانَ يَمُصُّ سَبَّابَةَ نَفْسِهِ)[١].

وقال أبو روق: (كَانَتْ أمُّ إبْرَاهِيْمَ كُلَّمَا جَاءَتْهُ لِتَنْظُرَ إلَيْهِ وَجَدَتْهُ يَمُصُّ أصَابعَهُ، وَقَالَتْ: ذاتَ يَوْمٍ نَظَرْتُ إلَى أصَابعِهِ، فَوَجَدْتُهُ يَمُصُّ مِنْ إصْبَعٍ مَاءً؛ وَمِنْ إصْبَعٍ لَبَناً؛ وَمِنْ إصْبَعٍ عَسَلاً؛ وَمِنْ إصْبَعٍ سَمْناً).

وقال بعضُهم: لَمَّا وضعَتْ أمُّ إبراهيمَ حَمْلَهَا، ذهبت به وحفرَتْ له حُفْرَةً وألقتْهُ فيها وسدَّتْها عليه بصخرةٍ، ورجعَتْ فسألَها أبوهُ آزرُ: ما فعلَ حَمْلُكِ؟ قالت: وضعتُ غلاماً فماتَ، فصدَّقَها وسكتَ عنها. وكان إبراهيمُ يَشِبُّ في اليومِ مثلَ ما يشِبُّ غيرُه في الشهرِ، ويشبُّ في الشهرِ ما يشبُّ غيرُه في السنةِ، فلم يَمكث إبراهيمُ في المغارة إلا خمسةَ عشر يوماً، ثم أخبرَتْ أمُّهُ أزرَ بخَبَرهِ وما صَنَعَتْ به، فلمَّا شبَّ إبراهيمُ في المغارة وعقَلَ وتكلَّم، أتتْهُ أمُّهُ ذاتَ يومٍ فقال لَهَا: مَنْ رَبي؟ قالت: أنا! قال: وَمَنْ ربُّكِ؟ قالت: أبوكَ! قال: ومَن ربُّ أبي؟ قالت: النمرودُ! قال: ومَن ربُّ النمرودِ؟ قالت: اسكت! فسكتَ)[٢].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣٠٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي وذكره)).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٤؛ قال القرطبي: ((والقصص في هذا تامٌّ في (قصص=

ثم رجعت إلى أبيه وأخبرتْهُ بذلك، فأتاهُ آزرُ؛ قال له: يا أبتاهُ مَن ربي؟ قال: أمُّكَ؛ قال: ومَن ربُّ أمِّي؟ قال: أنا! قال: ومَن ربُّكَ؟ قال: النمرودُ! قال: ومَن ربُّ النمرودِ؟ فَلَطَمَهُ؛ وقال: اسكُتْ؛ فسكتَ.

ثم أنه خرجَ بعد ذلك من السرب حين غربتِ الشمسُ، فنظرَ إبراهيمُ إلى الإبلِ والخيل والغنمِ فقال: لا بُدَّ أن يكون لهذه ربٌّ وخالقٌ، ثم تفكَّر في خلقِ السموات والأرضِ، وقال: إنَّ الذي خلقَني ورزقَني وأطعمني وسقاني هو ربي، ما لِي إلهٌ غيره. (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ) أي غشِيَهُ الليلُ؛ رأى الزهرة؛ (قَالَ هَذا رَبي). (فَلَمَّا أفَلَ) ذلك النجمُ؛ قال: لا أحبُّ ربّاً ليس بدائم. ثم نظرَ؛ فرأى القمرَ طالعاً في آخرِ الليل؛ (قَالَ هَذا رَبي)، فلما رآهُ يَسْري ويَنْتَقِلُ من مكانٍ إلى مكان، عَلِمَ أنه مُحْدَثٌ لا يصلحُ أن يكون ربّاً؛ فـ (قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبي لاكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأى الشَّمْسَ) طالعةً قد ملأتْ كلَّ شيء، (قَالَ هَذا رَبي هَذا أكْبَرُ) مما قبله، (فَلَمَّا أفَلَتْ) جاءَ إلى قومهِ فرآهُم يعبدونَ الأصنامَ، فـ (قَالَ يَا قَوْمِ إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ ؛ وأظلمَ أي غطَّاه، والتظلُّم، يقال: يُجَنُّ جُنَّةَ الليلِ؛ وَاَجَنَّهُ وجَنَّ عليهِ؛ إذا أظْلَمَ، وجُنْتُ الْمَيِّتَ وَاَجْنَتُهُ إذا دفنتَهُ[١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَءَا كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ؛ في هذا القول ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أنه قال هذا ربي في ظنِّي؛ لأنه كان في حالِ فكرةٍ واستدلال، وكان في ذلك الوقت مهلةٌ له للتروِّي والنظرِ، فلما رأى الكوكبَ في عُلُوِّهِ وضيائه، قَرَّرَ في نفسه على ما ينقسم حكمهُ من كونه ربّاً خالقاً أو مَخْلُوقاً مَرْبُوباً، فلما رآهُ طالعاً آفِلاً ومتحرِّكاً زائلاً، قضى بأنه مُحْدَثٌ بمقارنته، أما ذات الحدث وأنه ليس بربٍّ، وأنَّ الْمُحْدَثَ غيرُ قادرٍ على إحْدَاثِ الأجسام، وأن ذلك يستحيلُ منه، كما استحالَ ذلك من نفسهِ إذا كان مُحْدَثاً، فحَكَمَ بمساواته له من جهة الحدوثِ وامتناع كونه خَالِقاً.

=الكسائي) وهو كتاب مما يُقتدى به)).

(١) في المخطوط: (إذا رفته) وهو تصحيف. وفي اللغة: وجَنَّ الْمَيِّتَ جَنّاً وَاَجَنَّهُ: سَتَرَهُ. لسان العرب: (جنن).

ثم لَمَّا طلعَ القمرُ فوجد صفتهُ في الْعِظَمِ والإشراق وانبساطِ النور أكبر، قرَّرَ في نفسه أيضاً على ما ينقسمُ حكمه فقال: هذا ربـي، فلمـا رآهُ وتأمَّلـه وجـدَهُ في معنـى الكوكب في الطُّلوعِ والأُفول، فحكمَ عليه بحكمهِ، وإن كان أكثرَ منه ضوءاً.

ثم لَمَّا رأى الشمسَ في عِظَمِهَا وإشراقِها وتكاملِ ضيائها، قال: هذا ربي؛ لأنَّها كانت تخالفُ الكواكـبَ والقمـر في هـذه الأوصـافِ، فلمـا رآهَـا أفَلَـتْ، حَكَـمَ لَـهَا بالْحُدُوثِ وأنَّها في حُكمِ الكوكب والقمرِ منتقلةٌ؛ لوجودِ دلالـة الْحَـدَثِ في الجميـعِ. قالوا: والذي يُؤَيِّدُ هذا التـأويلَ الـذي ذكرنـاه: أن قـولَ إبراهيـم علـى وجـهِ النَّظَـرِ والتَّفكُّر، ما ذكرهُ الله عنه أنه عَلَيْهِ السَّلاَمُ قال: (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِي لاكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ).

والثاني؛ وهو الأقربُ إلى الصحة: أن إبراهيمَ إنَّما قال هـذا في حـالِ الطُّفولـة قبل كَمَالِ عقلهِ حين حركةِ الخواطرِ للفكرة، والنظرِ في دلائل توحيدِ الله تعالى.

فإن قيلَ: كيفَ يُحْمَلُ أن هذا القولُ من إبراهيمَ كان على ابتـداء النظـرِ، وقـد تقدَّمَ إنكارهُ على أبيه وقومهِ عبادةَ الأصنام لقوله:(أتَتَّخِذُ أصْنَامًا آلِهَـةً)؟ قيـل: تقـدُّمُ الآيةِ في التلاوةِ لا يوجبُ أنَّها مقدَّمةٌ في الحال، ولا يَمْتَنِعُ أن إبراهيمَ ﷺ أنكرَ علـى أبيه وقومه بعدَ هذا النَّظَرِ الذي ذكرناهُ.

والثالث: أنَّ قولَه: (هَذا رَبي) كان على وجهِ الإنكار الـذي يكـونُ مـع إلغـاء الاستفهام، وكان قصدهُ من هذا القولِ استدراجُ قومهِ لإقامة الحجَّة عليـهم وتقربُـهم إلى الْهُدَى، فإنَّهم كانوا يعبدونَ الأصنامَ والشمس والقمرَ والكواكب، كأنه قال لَـهم: هذا ربي في زعمِكم، كما قالَ تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[1].

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ ؛ الكوكبُ وتبيَّن ((أنه))[2] مُسَـخَّرٌ مُذلَّـلٌ؛ ﴿ قَـالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي لا أعَظِّمُهُ تَعْظِيْمَ الرَّب عَزَّ وَجَلَّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبي لأَكُونَنَّ) معناهُ على هذا القول: لئن لَم يُثَبتْنِي ربـي علـى الهـدى؛ لأنَّ

(١) الأنعام / ٢٢.

(٢) ((أنه)) سقطت من المخطوط.

الله تعالى أثنى على إبراهيمَ عليه السلام في آيةٍ أخرى بقوله: ﴿إذْ جَاءَ رَبَّهُ بقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] والسليمُ: الَّذي لاَ شَكَّ فِيْهِ وَفِي سَلاَمَتِهِ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ.

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ ؛ معناه: فلمَّا رأى القمرَ طالعاً؛ ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ ؛ يقال: بَزَغَ القمرُ إذا ابتَدَأ الطُّلوعَ، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي فلما غابَ، ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ ؛ أي لئن لم يُرشدنِي ربي ويُثَبِّتْنِي على الطريقِ المستقيم، ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ عن الهدي.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ أي فلمَّا رأى الشمسَ طالعةً؛ قال: هذا الطالعُ ربي وهذا النورُ ربي، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ ؛ أي غابَتِ الشمسُ، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ باللهِ من الأصنامِ والأوثان والشَّمس والقمرِ والكواكب.

قالوا: فمَنْ تعبدُ أنتَ يا إبراهيمُ؟ قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ؛ أي إنِّي أخلصتُ دِيْنِي وعبادتِي وجعلتُ قصدي للَّذي ابتدأ خَلْقَ السَّمواتِ والأرض، ﴿حَنِيفًا﴾ ؛ أي مَائلاً من الأديان الباطلة إلى دينِ الحقِّ مَيْلاً لا رجوعَ فيه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ ؛ أي لستُ على دينِكم أيها المشركونَ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ ؛ وذلك أنَّ قومَ إبراهيم خاصَمُوه في مخالفتهِ إياهم في دينِهم وخوَّفوه بآلِهتهم، وقالوا: أمَا تخافُ آلِهتَنَا وأنتَ تشتِمُها أن تُخبلَكَ وتُفْسِدَكَ؟! وقالوا له: إنَّ موضعَ أهلِ كذا قد تركُوا عبادةَ الأصنام فأُمْحِنُوا وقُحِطُوا، وأهلُ موضعِ كذا أحسَنُوا عبادةَ الأصنامِ فرُزقوا السَّعةَ والخصبَ. فأجابَهم إبراهيمُ عليه السلام: (أتُحَاجُّونِي فِي اللهِ) أي أتُخاصمونِي في توحيدِ الله ودينه، وقد نصرنِي اللهُ وعرَّفَنِي دينَهُ وتوحيده بما نَصَبَ لِي من الدلائلِ.

---

(١) الصافات / ٨٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾ ؛ أي لا أخافُ من هذهِ الأشياءِ التي تعبدُونَها وهي مِمَّا لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا ينفعُ ولا يضرُّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ ؛ استثناءٌ منقطع؛ أي ولكن أخافُ مشيئةَ ربي أن يعذِّبَني ببعضِ ذنوبي أو يَبْلُوَني بشيءٍ من مِحَنِ الدُّنيا. وموضع (أَنْ يَشَاءَ) نَصْبٌ على تقديرِ: لا أخافُ إلا مشيئةَ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ ؛ أي أحَاطَ علمُ ربي بكلِّ شيء، ومَلأ كلَّ شيءٍ علماً، وهو يعلمُ أنَّكم على غيرِ الحقِّ، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ تنبيهٌ على التَّفكُّرِ فيمَا كان بقولهِ لَهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ ؛ وكيف أخافُ الأصنامَ التي أشركتُموها مع اللهِ، وهي لا تَمْلِكُ الضَّرَّ والنفعَ، بل لا تعرفُ مَن عَبدَها ومَن تركَ عبادتَها، ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ ﴾ ؛ الذي يَمْلِكُ النفعَ والضرَّ ويعلمُ مَن عبدَهُ ومَن لم يعبدْهُ، ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ ؛ أي عُذْراً وحجَّة لكم؛ ﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ﴾ ؛ أي الموحِّدون أم المشركون، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ، ذلكَ.

فلم يجيبُوا، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ ؛ أي الذين أقَرُّوا بتوحيدِ الله ولم يَخْلِطُوا إيْمَانَهُمْ بشِرْكٍ، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ﴾ ؛ من العذاب؛ ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ إلى الحجَّة، وقيل: إلى الجنَّة. وقيل: إنَّ قولَه: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبسُوا إيْمَانَهُمْ بظُلْمٍ) قولُ إبراهيمَ عليه السلام.

وعن ابن مسعُودٍ رضي الله عنه أنه قال: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ؛ شُقَّ ذلِكَ عَلَى أصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالُوا: وَأيُّنَا لَمْ يُلْبسْ إيْمَانَهُ بظُلْمٍ؟ فَقَالَ ﷺ: [إنَّهُ لَيْسَ كَذلِكَ، ألاَ تَسْمَعُونَ إلَى قَوْلِ لُقْمَانَ: ﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] ؟][2].

---

(١) لقمان / ١٣.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٥٠٤) بأسانيد. والبخاري في الصحيح: كتاب الإيمان وأحاديث الأنبياء. ومسلم والترمذي.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ ؛ أي تلك المقالةُ التي حاجَّ بها إبراهيمُ حجَّتُنا أعطيناها ولَقَّنَّاهَا إبراهيمَ؛ لِيَحْتَجَّ بها على قومهِ، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ ؛ في الدُّنيا بالحجَّة والنُّصرةِ، وفي الآخرةِ بالثواب والفضيلة. ومن قرأ (دَرَجَاتٍ) بالتنوين لا على الإضافةِ فمعناهُ: نرفعُ مَن نشاءُ درجاتٍ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ: ﴿ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ في تفضيلِ بعض الناس على بعضٍ، وتخصيصِ بعضهم بالنُّبوَّة.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ ﴾ ؛ أي وَهَبْنَا لإبراهيمَ إسْحَقَ نَبيّاً لصلبهِ ويعقوبَ نافلةً، (كُلاً) يعني أنَّ إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوب هَدَيْنَاهم للنبُّوة والإسلامِ ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ [(١)] من قَبْلِ إبراهيمَ، ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ ﴾ ؛ أي ومِن ذريَّة نوحٍ، وهذا قولُ بعضِهم؛ جعلوا الهاءَ راجعةً إلى نوحٍ؛ لأنَّها أقربُ إلى اسْمِه؛ ولأنه ذُكِرَ في جملة المعطوفينَ على داودَ وسليمانَ مِمَّن ليس مِن ذريَّة إبراهيمَ وهو من ذريَّة نوحٍ كيونُسَ عليه السلام وكلُوطٍ عليه السلام الذي كان ابنَ أخِ إبراهيم ولم يكن مِن ولدهِ.

وقال بعضُهم: هي راجعةٌ إلى إبراهيم؛ لأنه هو المقصودُ بالذِّكر فيما تقدَّم من الآيةِ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي كما تفضَّلنا على هؤلاء الأنبياءِ بالنبوَّة وما يتصِّلُ بها من العزِّ والكرامةِ، كذلك نتفضَّلُ على الْمُحسنينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ معناه: ومِن ذريَّة إبراهيمَ (زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ) المرسلينَ. قال الضَّحاك: (كَانَ إلْيَاسُ مِنْ وَلَدِ إسْمَاعِيْلَ بْنِ إبْرَاهِيْمَ). وقال بعضُهم: معنى الآية: وَهدينا (زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإلْيَاسَ). وفي الآيةِ حُجَّةٌ على مَن أنكرَ في الحسنِ والحسين أنَّهما أبناءُ رسولِ الله ﷺ؛ لأنه تعالى جعلَ عيسى - ولا أبَ له - مِن ذريَّة إبراهيمَ[(٢)].

---

(١) سقطت من المخطوط وأثبتت لاقتضاء المعنى وضرورة السياق.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣١١؛ قال السيوطي: ((وأخرج أبو الشيخ والحاكم والبيهقي عن عبدالملك بن عمير قال: دَخَلَ يَحْيَى بْنِ يَعْمُرَ عَلَى الْحَجَّاجِ، فَذَكَرَ الْحُسَيْنَ فَقَالَ الْحَجَّاجُ: لَمْ=

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ ﴾ ؛ معنـاه: وَهدينـا إسْمَاعِيلَ وَالْيسَعَ؛ وهو تلميذُ إلياسَ وخليفتُه من بعده. وقال محمدُ بن إسحق: (هو ابن أخي موسى عليه السلام) . و(الْيَسَعَ) فيه قراءَتان: بالتشديدِ والتخفيف[1]، ﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛أي وكلُّ هؤلاء الأنبياءِ فضَّلناهُم بـالنبوَّة والإسلام على عالَمي زمانِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ ﴾ ؛ أي هدينا بعضَ آبائهم من قبلِهم مثلَ آدمَ وشيث وإدريسَ، وبعضَ ذرياتِهم مِن بعدهم؛ وهم أولادُ يعقوب. ومن جملة ذرياتِهم نبيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ. وقوله تعالى: (وَإِخْوَانِـهِمْ) هـم أخـوةُ يوسفَ في عصرهم، ويحتملُ أن يكون المراد بهم كلُّ من آمـنَ معـهُم، فإنَّـهم كلُّـهم داخلون في هدايةِ الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ ﴾ ؛ أي اصطفينَا هؤلاءِ الأنبياءَ بالنبوَّة والإخلاص، وجَمَعْنَا فيهم خصالَ الاجتباء؛ مأخوذٌ من قولِهم: جَبَيْتُ الماءَ في الحـوض واجْتَبَيْتُـهُ؛ إذا جَمَعْتُـهُ. وقولـه تعـالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي أثْبَتْنَاهُمْ على طريقِ الحقِّ وهو دينُ الإسلامِ.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ ﴾ ؛ أي إنَّ ذلك الطريقُ المستقيم دينُ الله يُوَفِّقُ له من يشاءُ مِمَّـن كـان أهْـلاً لذلـك، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ ﴾ ؛ أي لو أشْرَكَ هؤلاء الأنبياءُ طُرْفَةَ عـين مـع اصطفـاءِ الله تعـالى إيَّـاهم، ﴿ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا ﴾ ؛ أي لَبَطَلَـتْ أعمالُـهم الـتي؛ ﴿ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ من الطاعة، فكيفَ أنتُم يا أهلَ مكَّة؟!

=يَكُنْ مِنْ ذُرِّيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ يَحْيى: كَذَبْتَ! فَقَالَ: لَتَأْتِيَنِي عَلَى مَـا قُلْـتَ بِبَيِّنَـةٍ، فَتَـلا ﴿وَمِـنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿وَعِيسَى وَإلْيَاسَ﴾ فَأَخْبَرَ تَعَـالَى أنَّ عِيسَـى مِـنْ ذُرِّيَّـةِ إبْرَاهِيـمَ بِأُمِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ)).

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٢؛ قال القرطبي: (وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وعـاصم: (والْيَسَعَ) بلام مخففة. وقرأ الكوفيون إلا عاصماً: (واللَّيْسَعَ) وكذا قرأ الكسائي) وفي القراءة آراء كثيرة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ ﴾ ؛ أي أولئك الأنبياءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أعطيناهُم الكتابَ المنزَّل، والحُكْمَ بين الناس، وأكرمناهُم بالنبوَّة والرسَالة، ﴿ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا ﴾ أي بملَّة هؤلاءِ الأنبياء، ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ يعني قُريشاً؛ ﴿ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا ﴾ ؛ أي فقد قام بها، ﴿ قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ وهم أهلُ المدينةِ وأتباعُ النبيِّ ﷺ.

وقيل: هم الملائكةُ، وإنَّما قال: (فَقَدْ وَكَّلْنَا بهَا) ولم يقل: فقد قامَ بها، تشريفاً للملائكةِ بالإضافة إلى نفسِه على معنى: أكرَمْنا ووفَّقْنا إلى الإيْمان بها. يقال: معناهُ: فقد أكرمنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بهَا بكَافِرينَ؛ فقامُوا بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ ؛ أي أولئكَ الأنبياءُ الذين ذكرناهم من قَبْلُ هم الذين أكرمَهُم الله بالطريقةِ الحسَنة؛ فَاقْتَدِ بسيرتِهم؛ واصْبرْ كما صَبَروا حتى تستحقَّ من الثواب ما استحقُّوا. وأما الهاء في (اقْتَدِهِ) فإذا أثبَتَّ الهاء في الوقفِ تتبين بها كسرة[١] الدال[٢]، فإن وَصَلْتَ قُلْتَ: (اقْتَدِ قُلْ لا أسْألُكُمْ)[٣].

قَوْلُهُ: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ ﴾ ؛ معناهُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: لاَ أسْألُكُمْ على الإيْمان والقُرْآن جُعلاً، ﴿ إِنۡ هُوَ ﴾ ؛ يعني القُرْآنَ، ﴿ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ إلا عِظَةً بليغةً للجنِّ والإنسِ. وفي الآية دليلٌ على أن شرائعَ الأنبياءِ تَلْزَمُنَا ما لم نَعْلَمْ نسخَه؛ لأن اسمَ الهدى يقعُ على التوحيدِ والشَّرائع.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ ﴾ ؛ قال ابن عبَّاس وسعيدُ بن جُبير في معنى هذه الآية: (جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقَال لَهُ مَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ، وَكَانَ رَأسَ الْيَهُودِ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

---

(١) في المخطوط: (كثرة) بدل (كسرة).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٦؛ قال القرطبي: (لأن الهاء لبيان الحركة في الوقف وليست بهاء إضمار ولا بعدها واو ولا ياء). نقله عن ا لنحاس.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٦؛ قال القرطبي: (لأنه إن وصل بالهاء لحنَ، وإن حذفها خالف السواد) وعليه أوجب الوقف، وفي القراءة أفهام.

[أَنْشِدُكَ اللهَ يَا مَالِكُ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى عليه السلام؛ أَتَجِدُ فِيْهَا أَنَّ اللهَ يَبْغَضُ الْحَبْرَ السَّمِيْنَ؟] قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: [فَأَنْتَ الْحَبْرُ السَّمِيْنُ، وَقَدْ سَمَّنَتْكَ مَأْكَلَتُكَ الَّتِي تُطْعِمُكَ الْيَهُودُ، وَلَسْتَ تَصُومُ- أيْ وَلَسْتَ تُمْسِكُ-] فَضَحِكَ بِهِ بَعْضُ الْقَوْمِ، فَغَضِبَ مَالِكٌ، وَكَانَ حَبْراً سَمِيْناً، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه وَقَالَ: مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

وقال السُّدِّيُّ: (نَزَلَتْ فِي فِنْحَاصَ بْنِ زَوْرَاءَ؛ وَهُوَ قَائِلُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ). وقال مُحمد بن كعبٍ: (جَاءَ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ وَهُوَ مُحْتَبٍ[2]، فَقَالُوا: يَا أبَا الْقَاسِمِ، ألاَ تَأْتِيْنَا بكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ، كَمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾[3]. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ: مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ، وَلاَ عَلَى مُوسَى، وَلاَ عَلَى عِيْسَى، وَلاَ عَلَى أحَدٍ شَيْئاً. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[4].

ومعناها: ما عَظَّمُوا اللهَ حقَّ عَظَمَتِهِ ، ولا عَرَفُوهُ حقَّ معرفتِه إذ جَحَدُوا فقالُوا: مَا أنزلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ؛ أي من كتابٍ ولا وَحْيٍ، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَهم يا مُحَمَّدُ: ﴿ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ ؛ يعني التوراةَ؛ ﴿ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ ؛ أي ضياءً للناسِ وبياناً لَهم من الضَّلالة، ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ ﴾ ؛ يكتبونَه صحائفَ، ﴿ تُبْدُونَهَا ﴾ ؛ يظهرونَ ما فيها مما ليسَ فيه صفةُ النبيِّ ﷺ وزمانُه ومبعثُه ونبوَّتُه، ﴿ وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ ؛ أي يسترون ما فيه صفةُ النبيِّ ﷺ وبَعثُهُ وآيةُ الرَّجمِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ ؛ يحتملُ أن يكون خطاباً للمسلمين، أي عُلِّمْتُمْ أنتم أيُّها المؤمنون من الأحكامِ والحدُودِ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ. والأظهرُ: أنه خطابٌ لليهودِ؛ لأنه مَسُوقٌ على ما سبقَ، معناهُ:

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٥٤٤).

(٢) الْحِبْوَةُ والْحُبْوَةُ – بالضم- لغتان: ضمُّ الساقِ إلى البطنِ بثوب.

(٣) النساء / ١٥٣.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٥٤٧).

عَلِمْتُمْ بالقُرْآنِ ما كنتم أخْفَيْتُمُوهُ قبلَ نزولِ القُرْآنِ؛ لأنَّهم قد ضَيَّعُوا شيئاً كثيراً من القُرْآنِ والأحكَامِ، وكانوا يُعَانِدُونَ ولا يعملونَ حتى صاروا كأنَّهم لم يعلمُوه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ ؛ معناه: إنْ هم أجابُوكَ وقالوا: أعْلَمَنَا اللهُ، وإلا فَقُلْ: اللهُ عَلَّمَكُمْ. ويقال معناهُ: قُلِ اللهُ أنزلَ الكتابَ على موسى، ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي دَعْهُمْ واتركهم في باطِلِهم يَلْهُونَ، ويقال لكلِّ من عَمِلَ ما لا ينفعهُ: إنَّما أنْتَ لاَعِبٌ.

قال ابن عبَّاس: (فَلَمَّا رَجَعَ مَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلَى قَوْمِهِ، قَالُوا لَهُ: وَيْلَكَ! مَا هَذا الَّذِي بَلَغَنَا عَنْكَ، زَعَمْتَ أنَّهُ مَا أنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ! أرَأيْتَ كِتَابَنَا مَنْ جَاءَ بِهِ إلَى مُوسَى وَهُوَ بَشَرٌ؟! قَالَ: إنَّهُ قَدْ أغْضَبَنِي، فَلِذلِكَ قُلْتُ مَا قُلْتُ. قَالُوا: إذا غَضِبْتَ قُلْتَ غَيْرَ الْحَقِّ، وَاللهِ لاَ تَلِي لَنَا شَيْئاً، فَنَزَعُوهُ عَمَّا كَانَ يَلِي لَهُمْ، وَوَلَّوا مَكَانَهُ كَعْبَ بْنَ الأشْرَفِ)(١). قرأ ابنُ كثير وأبو عمرٍو بالياء فيها على الإخبار، وقرأ الباقون بالتَّاء على الخطاب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ ؛ يعني القُرْآنَ الذي كذب به أهلُ الكتاب ومشركُو قريشٍ؛ هو (كِتَابٌ أنزلْنَاهُ مُبَارَكٌ) أي فيه بَرَكَةٌ ومغفرةٌ للذنوب لِمَنْ آمنَ به، والبركةُ: ثبوتُ الخيرِ على النَّماءِ والزيادةِ. وقوله تعالى: ﴿ مُصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ؛ هو موافقٌ للتوراة والإنجيلِ وسائر كتب اللهِ في أصلِ الدِّين، ويقال: المرادُ بـ (الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) النشأةُ الثانيةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ؛ أي أنزلناهُ للبركةِ، ولِتُخَوِّفَ به أهلَ أمِّ القُرَى، وسُميت مكةُ أمَّ القرى لأنَّها أصلُ القرى دُحِيَتِ الأرضُ من تحتِها، ويقال: لأنَّها أعظمُ القرى شأناً، وقيل: لأنَّها قِبْلَةٌ تَأُمُّهَا الناسُ بالصلوات إليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ ؛ أي الذين يُقِرُّونَ ويصدِّقون بالبعثِ يؤمنون بالقُرْآنِ، وفي هذا بيانٌ أنَّ الإيْمانَ بالحساب والجزاءِ يقتضي

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣١٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد)).

الإيْمانَ بالقرآن، ولا ينفعُ بدون الإيْمان به وبِمُحَمَّدٍ ﷺ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ أي يُدَاومُونَ على الصلوات الخمسِ بركوعها وسجودها ومواقيتِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ قال ابن عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي مَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ وَمُسَيْلَمَةَ الْكَذاب الَّذِي كَانَ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، وَفِي عَبْدِاللهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَرْحٍ الْقُرَشِيِّ، كَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَعْدٍ يَتَكَلَّمُ بالإسْلاَمِ، وَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ الْقُرْآنَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ الأَحْيَان، وَكَانَ إذا أمْلَى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ أنَّ اللهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ، كَتَبَ مِنْ قَلْبِهِ: أنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيْمٌ، وَقَالَ: هَذا وَذاكَ سَوَاءٌ.

فَلَمَّا نَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ قَدْ أفْلَحَ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾[1]، ثُمَّ أمْلاَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا أمْلَى عَلَيْهِ قَوْلَهُ: ﴿ثُمَّ أنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ عَجِبَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَعْدٍ مِنْ تَفْصِيْلِ خَلْقِ الإنْسَان، فَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ: فَتَبَارَكَ اللهُ أحْسَنُ الْخَالِقِينَ، فَقَالَ ﷺ: اكْتُبْ، هَكَذا أنْزِلَ عَلَيَّ. فَشَكَّ عَبْدُاللهِ حِيْنَئِذٍ، وَقَالَ: لَئِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقاً فَقَدْ أوْحِيَ إلَيَّ كَمَا أوْحِيَ إلَيْهِ، وَلإنْ كَانَ كَاذِباً فَلَقَدْ قُلْتُ كَمَا قَالَ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[2].

ومعناها: أيُّ أحدٍ أكفرُ وأشدُّ غبناً في كفره ممن اختلق على الله كذباً، بأن جعل له شريكاً وولداً كما قال المشركون ومالكُ بن الصيف: (وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أنزَلَ اللهُ)، والمرادُ بالذي (قَالَ أُوحِيَ إلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إلَيْهِ شَيْءٌ) مسيلمةَ الكذاب وكان يَسْجَعُ ويَتَكَهَّنُ ويدَّعي النبوَّةَ ويزعمُ أنَّ الله أوحَى إليه. وأما عبدُالله بن سرح فارتدَّ

---

(١) المؤمنون / ١٢-١٤: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٤٠؛ قال القرطبي: ((رواه الكلبي عن ابن عباس)). وفي جامع البيان أخرجه الطبري عن عكرمة في الأثر (١٠٥٦٢)، وعن السدي في الأثر (١٠٥٦٣).

ولَحِقَ بالمشركين وقال: أنا أعلمُكم بمُحَمَّدٍ، فلقد كان يُملي عليَّ فأغيرَه وأكتبُ كما شئت[(١)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ ؛ أي لو رأيتَ الظالمين (فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ) لرأيتَ لَهم عذاباً عظيماً. والظالمون هُم الكافرون، وقيلَ: المنافقون رَآهُمْ رسولُ الله ﷺ يومَ بدرٍ في صفوفِ المشركين، وقد نُرَى مسلمين بمكَّة فأخرجَهم أهلُ مكة معهم كَرْهاً، فلما رأوا قِلَّةَ المؤمنين رَجَعُوا إلى الشِّرك، فقالوا: غَرَّ هؤلاء دينُهم، عَنَوا به المؤمنينَ، وقاتلُوا مع المشركين فَقُتِلُوا جميعاً عامَّتهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ) أي في سَكَرَاتِهِ ونزعاتِه وشدائده، وقوله تعالى: (وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ) معناه: أنَّ مَلَكَ الموتِ وأعوانه من ملائكةِ العذاب يَبْسُطُونَ أيديَهم عليهم بالعذاب ويقولون لَهم: (أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ) أي خلِّصوا أنفسَكم، ولستُم تقدرون على خلاص. وقيل: معناه فَارِقُوا أرواحكم الخبيثةَ، كما يقولُ: لأُحْرِقَنَّكَ بالْعَذاب، لأُخْرِجَنَّ نَفْسَكَ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ ؛ أي يقال لَهم يومَ قبضِ الرُّوح، وقيل: يومَ القيامةِ حين معاينَة العذاب: اليوم تُجْزَوْنَ العذابَ الشَّديد الذي تُهَانُونَ فيه، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ ﴾ ، بكَذِبكُمْ، ﴿ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ، وبما كنتم تَتَعَظَّمُونَ عن الإيْمان بمُحَمَّد ﷺ والقُرْآن.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣١٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم)).

(٢) في المخطوط: (فارقوا أزواجكم الخبيثة؛ كما يقول: ولا لأحرقن الذي يعذبه) وهو تصحيفٌ من الناسخ، ولا يستقيمُ المعنى المراد؛ إذ المعنى: أخرجُوا أرواحكم من أجسادكم؛ وهم عاجزون، فالخطابُ بمنزلة قول القائل: ((لمن يعذِّبهُ: لأُذيقَنَّكَ العذابَ ولأُخرجَنَّ نفسَكَ)) وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم، بل يقبضُها ملك الموت وأعوانه. فهي عبارة عن العنفِ والتشديد في إزهاق الروح من غير تنفيس وإمهال كما يفعل الغريمُ الملازم الملحُّ؛ ويقول: أخرجْ لي ما عليكَ الساعةَ، ولا أبرحُ من مكاني حتى أنزعَهُ من أحداقِكَ. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٤٢. واللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص٢٩٠.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ؛ أي جئتمونا بلا مَالٍ ولا وَلَدٍ كما خلقناكُم في الابتداءِ، والمعنـى: أنـهُ يقـال لَـهم: (وَلَقَـدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى). وفي الخبرِ: أنَّهُمْ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (وَاسَوْأَتَاهُ ! الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ كَذلِكَ) فَقَـالَ ﷺ: [لِكُـلِّ امْـرِئٍ مِنْـهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ، لاَ يَنْظُرُ الرِّجَالُ إلَى النِّسَاءِ، وَلاَ النِّسَاءُ إلَى الرِّجَالِ، شُغِلَ بَعْضُـهُمْ عَنْ بَعْضٍ][(١)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ ؛ أي وخلَّفتُـم مـا أعطيناكم من الأموال لغـيركم أي خَلَّـفَ عليـها غـيرَكم في دار الدُّنيـا، ولم تقدِّموهـا لأنفسكم، ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ ﴾ ، آلِهَتكم، ﴿ الَّذِينَ ﴾ ، الـتي، ﴿ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ ، يشفعون لكم ويقرِّبونكم إلَـيَّ،﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ ؛ أي وَصْلُكُم[(٢)].

ومن قرأ (بَيْنَكُمْ) بالنصب فمعناه: تقطعَ ما بينَكم؛ أي ما كنتم فيه من الشِّركة، ﴿ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أنَّـها شـفعاؤُكم عنـدَ الله حـين لم يقدرُوا عن دفعِ شيءٍ من العذاب عنكُم.

وقال الحسـنُ: (مَعْنَـى قَوْلِـهِ: (وَلَقَـدْ جِئْتُمُونَـا فُـرَادَى) أيْ كُـلُّ وَاحِـدٍ عَلَـى حِدَةٍ)[(٣)]. وقال ابنُ كيسان: (مُفْرَدِيْنَ مِنَ الْمَعْبُودِيْنَ). وقيل: (فُرَادَى) أي وحْدانـاً لا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث(١٠٥٣٦). وفي الدر المنثور: ج ٣ ص٣٢٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن عائشة)). وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الأهوال: باب رحال المتقين: الحديث (٨٧٣٢)؛ وقال: ((صحيح الإسناد ولم يخرجاه)) وقال الذهبي: منقطع. والحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتب الرقاق: باب الحشر: الحديث (٦٥٢٧) من طريق آخر. ومسلم في الصحيح: كتاب الجنة: باب فناء الدنيا وبيان الحشر: الحديث (٥٦/ ٢٨٥٩).

(٢) على معنى: لقد تَقطَّعَ وَصْلُكُمْ بينَكم. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٤٣؛ قال القرطبي: (وفي حرف ابن مسعود ما يدلُّ على النصب فيه (لَقَدْ تَقَطَّعَ مَا بينَكم) وهذا لا يجوز فيه إلا النصب؛ لأنك ذكرتَ المتقطِّع وهو – ما –).

(٣) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣٢٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ عن الحسن... وذكره)).

مالَ لكم ولا زوجَ ولا ولدَ ولا خدم. فُرَادَى: جمع فَرْدٍ، مثلُ سَكْرَانٍ وَسُكَارَى، كَسْلاَن وكُسَالَى. ويقال أيضاً: فُرَادَى بجزمِ الرَّاء وكسرها وفتحها، وجمعه أفْرَادٌ. وقرأ الأعرجُ: (فُرْدَى) بغيرِ ألِفٍ مثل سُكْرَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ) أي حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، (وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ) أي ما أعطيناكم وملَّكناكم من الأموال والأولاد والخدَم وراءَ ظهوركم في الدنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ) قرأ أهلُ الحجاز والحسن ومجاهد والكسائيُّ وحفص بالنصب؛ وهي قراءة أبي موسَى الأشعري، وقرأ الباقون بالرفع.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ ؛ أي خالقُ الْحَب وَالنَّوَى، كقولهِ تعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] أي خالقُهما. وقال الحسنُ وقتادة: (فَالِقُ الْحَب) أيْ شَاقُّ الْحَبَّةِ عَنِ السُّنْبُلَةِ، وَالنَّوَاةِ عَنِ النَّخْلَةِ. والْحَبُّ: جمع حَبَّةٍ، والنَّوَى: جمع نَوَاةٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ ؛ أي يخرجُ الإنسانَ من النُّطفةِ، والنطفةَ من الإنسان. وسُميت النطفةُ ميتاً؛ لأنَّها من جُملة الموات. وقيل: معناهُ: يخرج النباتَ الغَضَّ الطريَّ من الحب اليابسِ، ويخرجُ الحبَّ اليابس من النباتِ.

وكلُّ ما يكون نامياً عند أهلِ اللغة بمَنْزِلة الحيِّ، وما لا يكون نامياً فهو بمنْزلة الميت. ويقال: معناهُ: يخرج المؤمنَ من الكافر، ويخرج الكافرَ من المؤمنِ، وقولُه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي ذلكم اللهُ الذي يفعلُ هذا الفعلَ؛ هو اللهُ، ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ أي فمن أينَ تُصرَفُونَ عن الحقِّ. والإفكُ في اللُّغة: هُوَ قَلْبُ الشَّيْءِ وَصَرْفُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ ؛ أي شاقُّ عَمُودِ الصُّبح عن سوادِ الليل، وقال ابن عبَّاس: (مَعْنَاهُ: خَالِقُ الإصْبَاحِ). قال الزجَّاج: (الإصْبَاحُ وَالصُّبْحُ وَاحِدٌ،

---

(١) الأنعام / ١٤.

وَالأَصْبَاحُ جَمْعُ الصُّبْحِ). ويقالُ: الإصباحُ بكسر الألف المصدرُ؛ ومعناهُ الدخـولُ في ضوءِ النَّهار.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ ؛ لتسكنُوا فيه من ظُلمتهِ في أوطـانكم. وقرأ الحسنُ: (فَالِقُ الأَصْبَاحِ) بالفتحِ جمعُ صُبْحٍ، (وَجَاعِلُ اللَّيْـلِ سَكَنًا) يسكنُ فيه خَلْقُه. وقرأ النخعيُّ: (وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا) على الفعلِ في معناه: نَـوَّرَ النـهارَ بـالنور؛ لتبتغُوا من فضلهِ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ ؛ نصبُ الشَّمسِ على معنى: (وَجَعَلَ)؛ لأنَّ في (جَاعِلُ) معنى جَعَـلَ؛ أي جعـلَ منـازلَ الشـمسِ والقمـرِ بحُسْبَانٍ معلومٍ لا يختلفُ، إذا انتهَى إلى أقصى منازلهِ رجعَ، فإن الشَّمسَ تدورُ على الفَلَكِ كلِّه في ثلاثِمائة وخمسةٍ وستِّين يوماً ورُبع يومٍ، والقمـرَ يـدورُ علـى الفَلَـكِ كلِّـه في ثمـانٍ وعشرين ليلةً، ويكون مستُوراً في ليلتين، ثم يعودُ إلى ما كان، فيعـرفُ النـاسُ بذلـكَ آجالَ عقودِهم، وأوقاتَ معاملاتِهم وعباداتِهم، وسنينَ أعمارهم.

والْحُسْبَانُ: مصدرٌ، يقال: فُلانٌ حُسْبَانُهُ على اللهِ؛ أي حِسَابُهُ على اللهِ. ويقـال: إنَّ الْحُسْبَانَ جمعُ حِسَابٍ، كما يقـال: شِـهَابٌ وَشُـهْبَانٌ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي ذلكَ الذي وَصَـفَ تدبـيرَ العزيـزِ المنيـعِ في سُـلطانهِ، الغالب الذي لا يُغلبُ، العالِمِ بمصالحِ مَملكتهِ.

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ أي هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ التي تختلفُ مواضِعها من جهـةِ الشَّمال والجنوب والدبور والصبا، لتعرفوا بـها الطُّـرُقَ مـن بلـدٍ إلى بلـد (فِـي ظُلُمَـاتِ الْـبَرِّ وَالْبَحْرِ) أي في الْمَفَاوِز وَلُجَجِ البحار في الليلَة المظلمة في السُّفُنِ. فإنَّ مِن النُّجومِ مـا يجعلهُ السائرَ تلقاءَ وجههِ، ومنها ما يجعلهُ خلفَه، ومنها ما يجعله على يَمينه، ومنها مـا يَجعله على شِماله؛ لتظهرَ له الطريقُ التي تؤدِّيه إلى بُغْيَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ ؛ أي بَيَّنا العلاماتِ مفصَّلةً، ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ ؛ أي انشأ خلقكُم من نفسِ آدمَ عليه السلام وحدِها؛ فإنه خَلَقَنَا جميعاً منهُ، وخلقَ أمَّنا حَوَّاءَ من ضِلع مـن أضـلاعِ

آدم ﷺ، وإنَّما مَنَّ علينا بهذا؛ لأنَّ الناسَ إذا رجعوا إلى أصلٍ واحد كانوا أقربَ إلى أن يَألَفَ بعضُهم بعضاً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ ؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (فَمُسْتَقِرٌّ) بكسر القاف على معنى فَمنكم مُستَقِرٌّ، وقرأ الباقون بفتحها على معنى: ذلك مُستَقَرٌّ. قال ابن عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ: (فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) أيْ مُسْتَقَرٌّ فِي أرْحَامِ الأُمَّهَاتِ، وَمُسْتَوْدَعٌ فِي أصْلاَبِ الآبَاءِ)[(١)]. وقال بعضُهم على الضدِّ من هذا، إلا أنَّ لفظ الـ (مُسْتَقَرُّ) فيمَن خَلَّفَ، كلفظِ المستودَع فيمَن لَمْ يُخَلِّفْ أقربُ.

وقال ابنُ مسعُودٍ: (مَعْنَاهُ: فَمُسْتَقَرٌّ فِي الرَّحِمِ إلَى أنْ يُولَدَ، وَمُسْتَوْدَعٌ فِي الْقَبْرِ إلَى أنْ يُبْعَثَ)[(٢)]. وقال الحسنُ: (مُسْتَقَرٌّ فِي الدُّنْيَا، وَمُسْتَوْدَعٌ فِي الْقَبْرِ). وقال مجاهدُ: (فَمُسْتَقَرٌّ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ فِي الدُّنْيَا، وَمُسْتَوْدَعٌ عِنْدَ اللهِ فِي الآخِرَةِ)[(٣)]. وقال أبو العاليَة: (مُسْتَقَرُّهَا أيَّامُ حَيَاتِهَا، وَمُسْتَوْدَعُهَا حِيْنَ تَمُوتُ وَحِيْنَ تُبْعَثُ). وقال بعضُهم: مُستَقَرٌّ في الرَّحم، ومستقرٌّ فوقَ الأرض، ومستقرٌّ تحت الأرض، اقرأ: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[(٤)] و﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[(٥)]. وقيل: المستقرُّ في القبر، والمستودعُ في الدنيا. قال الحسنُ: (يا ابْنَ آدَمَ، أنْتَ وَدِيْعَةٌ فِي أهْلِكَ، وَيُوشِكُ أنْ تَلْحَقَ بصَاحِبكَ)[(٦)]، وَأنْشَدَ قَوْلَ لَبيْدٍ:

وَمَا الْمَالُ وَالأَهْلُونَ إلاَّ وَدِيْعَةٌ ... وَلاَ بُدَّ يَوْماً أنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

وقال آخرُ:

فُجِعَ الأَحِبَّةُ بالأَحِبَّةِ قَبْلَنَا ... وَالنَّاسُ مَفْجُوعٌ بِهِ وَمُفَجَّعُ

مُسْتَقِرٌّ أوْ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ خَلاَ ... وَالْمُسْتَقِرُّ يَزُورُهُ الْمُسْتَوْدَعُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٦٢٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٦١٤) بأسانيد.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٦٢٠).

(٤) الحج / ٥.

(٥) البقرة / ٣٦.

(٦) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٤٣٤، ولم يذكر الشعر.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ ﴾ ؛ أي بيَّنا العلاماتِ الدالأَّت على توحيدِ الله مفصَّلةً، ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ أي لقوم يستدلُّون بمعانِي الآيَات.

والفِقْهُ في اللُّغة: هو الفَهْمُ لِمَعْنَى الْكَلاَمِ، إلا أنه قد جُعِلَ في العُرْفِ عبارةً عن عِلْمِ الغيب، على معنى أنهُ استدراكُ معنى الكلام بالاستنباطِ عن الأُصُول، ولِهذا لاَ يَجُوزُ أن يوصفَ الله تعالى بأنه فَقِيْهٌ؛ لأنه يوصَفُ بالعلمِ؛ والعلمُ حجَّةُ الاستنباطِ، ولكنه عالِمٌ بجميعِ الأشياء على وجهٍ واحد.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ أي أنزلَ من السَّماء المطرَ، فإن الله تعالى مُنَزِّلُ المطرِ من السماء إلى السَّحاب، ويُنَزِّلُ من السحاب إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾[1] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ) أي فأخرجنا بالمطرِ نَبَاتَ كلِّ صِنْفٍ من أصنافِ الحبُوب معاشاً لَهم.

فإن قيل: كيفَ قال الله تعالى: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ) فجعلَ المطر سَبَباً للنباتِ، والفاعلُ بالسبب يكون مستعيناً بفعلِ السبب، واللهُ تعالى مُسْتَغْنٍ عن الأسباب؟

قيل: إنَّما قال اللهُ تعالى: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ)؛ لأن المطرَ سببٌ يؤدِّي إلى النَّبات، وليس بمولودٍ لهُ، واللهُ تعالى قادرٌ على إنبات النباتِ بدون المطر، وإنَّما يكون الفاعلُ بالسبب مستعيناً بذلك السبب إذا لم يُمكنه فعلُ ذلك الشَّيء إلا بذلك السبب، كما أنَّ الإنسانَ إذا لم يُمكنه أن يصعدَ السطحَ إلا بالسُّلَّم، كان السُّلَّمُ آلةَ الصُّعود، والطائرُ إذا صعدَ السطح بالسُّلَّمِ، لم يكن السُّلَّمُ آلةً لهُ؛ لأنه يُمكنه أن يصعدَ السطحَ بدون السُّلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ ؛ أي أخرجنَا من المطرِ نباتاً أخضرَ؛ وهو ساقُ السُّنبلةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ ؛ أي نُخْرِجَ من ساقِ السُّنبلة ما قد رَكِبَ بعضُه بعضاً؛ يعني سنابلَ البُرِّ والشعيرِ والأَرُزِّ والذرَّة وسائرَ الحبوب، يَرْكَبُ بعضُه بعضاً.

---

(١) ق / ٩.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ ؛ أي عُـرُوقٌ قريبـةُ المتناول ينالُها القاعدُ. والقِنْوَانُ: جَمْعُ الْقِنْوِ؛ مثل صِنْوٍ وَصِنْوَان. والقِنْوُ: عَذقُ النَّخلةِ والعَذقُ؛ بفتح العين: النَّخْلَةُ. قال الزجَّاج: (فِي الآيَةِ مَحْذُوفٌ؛ أيْ دَانِيَةٌ وَغَيْرُ دَانِيَـةٍ؛ وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ بَعِيْدَةَ الْمُتَنَاوَلِ).

وقرأ الأعرجُ: (قُنْوَانٌ) بضمِّ القاف؛ وهي لغةُ قيس. وقال مجاهدُ: [مَعْنَى قَوْلِهِ: (دَانِيَةٌ) أيْ مُتَدَلِّيَةٌ]. وقال الضَّحاك: (مُلْزَقَةٌ بالأَرْضِ)[(١)].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ ؛ عطفٌ على قولـه تعـالى: (خَضِـراً) أي وأخرجنا جَنَّاتٍ؛ أي بساتينَ وأشجارٍ مُلْتَفَّةٍ، وكل نَبَاتٍ مُتَكَاثِفٍ يَسْتُرُ بعضُه بعضاً فهو جَنَّةٌ، من جنَّ إذا استَتَرَ. وقرأ الأعمـشُ ويحيـى بـن يعمر وعـاصم: (وَجَنَّـاتٌ) بالرفعِ عطفاً على (قِنْوَانٌ) لفظاً، وإن لم تكـن في المعنـى مـن جِنْسِـهَا، وكذلـك قَوْلُـهُ تَعَالَى: (وَالزَّيْتُونُ وَالرُّمَّانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرُ مُتَشَابِهٍ) بالرفعِ أيضاً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ ؛ أي وأخرجنَا من شجرِ الزَّيتون وشجر الرُّمَّان، (مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) أي منها ما يُشْبِهُ غيرَه في الصُّورةِ واللَّون، ومنها ما لا يشبهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: متشابهاً في المنظـرِ واللَّـون، وغـيرَ متشـابهٍ في الطَّعمِ مثلَ الرُّمَّان الحامضِ والحُلْو. والفائدةُ في الجمـعِ بـين شَـجَرِ الزيتـون وشَـجَرِ الرُّمان في هذه الآيَةِ: بأنَّهما شجرَتان يشتملُ ورقُهما على الغُصْنِ من أوَّلـهِ إلى آخـره مشتبهةً بأوراقِهما، ومختلفةً ثِمارهما[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ ؛ أي انظرُوا إلى خُرُوجِ الثمرِ نَظَرَ الاعتبار إذا عُقِدَ وهو غَضٌّ، وَيَنْعِهِ إذا نَضَجَ وأخذ اللـونَ مـن بـين أصفـرٍ وأبيض وأحمرٍ، فمعناهُ: (انظُرُوا إلَى ثَمَرِهِ إذا أثْمَرَ وَيَنْعِهِ) أي ونُضْجِهِ وإدْرَاكِـهِ. وقـرأ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٦٤٣).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٤٩؛ قال القرطبي: (أي متشـابهاً في الأوراق، أي ورق الزيتون يشبه ورق الرمان في اشتماله علـى جميـع الغصـن وفي حجـم الـورق، وغـير متشـابه في الذَّواق؛ عن قتادة وغيره). وفي اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص٣٢٩؛ قال ابن عـادل: (وقـال قتادة: مشتبهاً ورقها مختلفاً ثمرها).

أبو رَجَاء: (وَيَانِعِهِ) بالألفِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (انظُرُوا إِلَى ثُمُرِهِ إِذا أَثْمَرَ) قرأ أهلُ الكوفةِ غيرُ عاصمٍ: (ثُمُرِهِ) بضمِّ الثاء والميمِ على جمعِ الثِّمار، فيكون جمعُ الجمعِ؛ لأن الثُّمُرَ جمعُ الثمار.

ومعنى الآية: أنظرُوا إلى الثَّمرِ في ابتداءِ طلُوعهِ، وانظروا إليه في انتهاءِ حالهِ وقتَ إدراكهِ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ ؛ أي إنَّ في خلقِ هذه الأشياء، وتصريفِها ونقلِها من حالٍ إلى حال لعلاماتٍ دالَّةٍ على البعثِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ باللهِ. وهذه الآيةُ دالةٌ للمؤمنين وغيرِهم، إلا أنه خَصَّ المؤمنينَ بالذكرِ؛ لأنَّهم هم الذين يَنْتَفِعُونَ بالاستدلال بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الزَّنَادِقَةِ؛ قَالُوا: إنَّ اللهَ تَعَالَى وَإِبْلِيسَ أخوان؛ فَاللهُ تَعَالَى خَالِقُ النَّاسِ وَالدَّوَاب وَالأَنْعَامِ وَكُلِّ خَيْرٍ، وَإِبْلِيسُ خَالِقُ السِّبَاعِ وَالْحَيَّاتِ وَالْعَقَارب وَكُلِّ شَرٍّ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[1])[2]. وقال مقاتلُ: (نَزَلَتِ الآيَةُ فِي جُهَيْنَةَ وَخُزَاعَةَ، قَالُوا: إنَّ صِنْفاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يُقَالُ لَهُمُ الْجِنُّ: بَنَاتُ اللهِ)[3] تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبيْراً.

وانتصبَ (الْجِنَّ) لكونهِ بدلاً من (شُرَكَاءَ) أو لأنهُ مفعولٌ ثانٍ على تقديرِ: وجعلُوا الجنَّ شركاءَ للهِ؛ كقولهِ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون الهاءُ والميم عائدةً إلى أهلِ الشِّركِ، ويجوز أن تكونَ عائدةً على الجنِّ، على أن المعنى: أنَّ الله خالِقُ الجنِّ؛ فكيفَ يكونوا شركاءَ لهُ؟!

---

(١) الصافات / ١٥٨.

(٢) ذكره ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص٣٣٣؛ قال: (قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا والكلبي).

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ١ ص٣٦٣؛ قال: (وذلك أن جهينة، وبني سلمة، وخزاعة وغيرهم قالوا: إن حيّاً من الملائكة يقال لهم: الجن بنات الرحمن...).

(٤) الزخرف / ١٩.

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ أي وكذبُـوا بنسبةِ البنين والبنات إلى اللهِ تعالى، فإنَّ مشركي العرب قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، والنصارى قالوا: المسيحُ بنُ اللهِ، واليهود قالوا: عزيرٌ بنُ الله. وكَذبُـوا كلُّـهم لَعْنَـةُ اللهِ عَلَيْـهِمْ، يقالُ: خَرَقَ؛ وَاخْتَرَقَ؛ وَاخْتَلَقَ؛ وَافْتَرَى: إذا كَذَبَ.

وقرأ أهلُ المدينة: (وَخَرَّقُوا) بالتشديدِ على التكثير. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (بغَيْرِ عِلْـمٍ) أي بجهلـهم بـلا حُجَّـة؛ ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ كلمةُ تَنْزِيْهٍ وتبعيدٍ لله تعـالى عـن كـلِّ سـوءٍ؛ أي سَبحُوهُ أيُّـها المؤمنـونَ عمَّـا يقـولُ عليه الجاهلون. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (تَعَالَى) عُلُوّاً من العُلُوِّ؛ أي استَعْلَى عمَّا وصفوهُ به. ويجـوزُ في صفاتِ الله تعالى: (عَلاَ) ولا يجوز: ارْتَفَعَ؛ لأن العُلُوَّ قد يكون بالاقتدار؛ والارتفاعُ يقتضي الجهةَ والمكانَ.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي مُبْتَـدِعُ السَّـمَوَاتِ وَالأرْضِ ومُنْشِؤُهمَا ابتداءً على غيرِ مثال سـبقَ. وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ ؛ أي مِن أينَ يكونُ له ولدٌ؛ وكيفَ يكون له ولدٌ ولم تكن له زوجةٌ، ولا يكون الولدُ إلا من زوجةٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ؛ نَفْيٌ للزوجةِ والولد؛ أي كيـفَ يكـون له ولدٌ وصاحبة وقد خَلَقَ الأشياءَ كلَّـها، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ مـن خَلْقِ العبادِ ومصالِحهم؛ وجَهْلِ الكفَّار وعنادِهم.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذي خَلَقَ الأشياءَ كلَّها وعملَها وأشركتم بـه هـو اللهُ تعـالى ربُّكُمْ لاَ إلَهَ غيرهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ من الْخَلْق فأطيعوهُ ووحِّدوهُ ولا تشركوا بينَهُ وبـينَ غيرِه في العبادةِ؛ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ أي حافظٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ؛ أي لا تـدركُ الأبصـار كُنْهَـهُ؛ ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ ؛ أي يعلمُ كُنهَهَا وماهيَّتَها؛ فإنهُ لا أحدَ يَعْلَمُ أنَّ الإنسانَ لِمَ صارَ يُبْصِرُ من عينَيهِ ولا يبصرُ بغيرهما؛ وما الشيءُ الذي يصيرُ به الإنسانُ مُبْصِراً؛

وكيفَ حقيقةُ البصرِ، فأعلَمَ اللهُ تعالى أنَّ خَلْقاً من خَلْقِهِ لا يُـدْرَكُ كُنْهُـهُ ولا يحيطـونَ بعلمهِ؛ فكيفَ يحيطونَ باللهِ؟!

فمَنْ حَمَلَ الآيةَ على هذا التأويلِ؛ لم يكن فيهِ ما يَنْفِي الرؤيـةَ في الآخـرةِ؛ لأن معنى الرؤيةِ غيرُ معنى الإحاطةِ بحقيقة الشيء. وقال بعضُ المفسِّرين: (إنَّ الإدْرَاكَ إذا قُرِنَ بالْبَصَرِ؛ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ الرُّؤْيَةُ، فَإِنَّهُ يُقَـالُ: أدْرَكْـتُ ببَصَـرِي؛ وَرَأيْـتُ ببَصَـرِي، بمَعْنًى وَاحِدٍ، كَمَا يُقَالُ: أدْرَكْتُ بأُذُنِي؛ وَسَمِعْتُ بأُذُنِي، بمَعْنًى وَاحِدٍ)[1].

قالوا: وأصلُ الإدْرَاكِ: اللُّحُوقُ؛ نحوُ قولِكَ: أدركتُ زمانَ فلانٍ؛ وأدركَ فـلانٌ أبا حَنِيْفَةَ؛ وأدركَ الزرعَ والثمرةَ؛ وأدركَ الغلامُ إذا لَحِقَ حَالَ الرِّجَال. وإدراكُ البصرِ الشيءَ ولُحُوقُهُ بهِ برُؤْيَتِهِ إيَّاهُ، إلا أنهُ لا يَمْتَنِعُ أن تكـونَ هـذه الآيـةُ عامَّـةً مـن جهـةِ اللفظ والمرادُ منها الخصُوصُ تَوْفِيْقاً بين هذه الآيةِ وبين قولـهِ تعـالى: ﴿وُجُـوهٌ يَوْمَئِـذٍ نَاضِرَةٌ. إلَى رَبهَا نَاظِرَةٌ﴾[2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ أي اللَّطِيْفُ بعبادهِ في التَّدبيرِ، الْخَبِيْرُ بمصالِحهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي جـاءَكُم الْقُرْآنُ الذي فيه الْبَيَانُ. والبَصَائِرُ: جَمْعُ الْبَصِيْرَةِ؛ وهي الْحُجَّةُ الْبَيِّنَةُ، فَمَنْ أبْصَـرَ فَلِنَفْسِهِ نفعهُ، ﴿ وَمَنْ عَمِىَ ﴾ ؛ عـنِ الْحَـقِّ وَالقُـرْآن؛ ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ ؛ فعَلَـى نفسـهِ ضَرَرُ ذلكَ، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ أي برَقِيْـبٍ أحْفَـظُ أعمـالَكم وأجازيكم عليها، فإنَّ اللهَ يجازيكُم على أعمالِكم.

وَقِيْلَ: معناهُ: لستُ عليكم بحَفِيْظٍ فأحُولَ بينَكم وبينَ إضْرَاركُمْ بأنفسكم، وإنَّما أنا رسولٌ أبَلِّغُكُمْ رسَالاَتِ رَبكُـمْ وهـو الحفيـظُ عليكـم، لا يخفَـى عليـهِ شـيءٌ مـن أعمالكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ ؛ أي مِثْـلَ مـا صَرَّفْنَا الآيَاتِ وبيَّناها فيما تُلِيَ عليكَ؛ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ونُبَيِّنُهَا في المستقبلِ لِئَلاَّ يقولُوا:

---

(١) نقله الطبري في جامع البيان: تفسير الآية: مج ٥ ج٧ ص٣٩٣ و٣٩٤.

(٢) القيامة / ٢٢-٢٣.

تَخْتَلِقُهُ من تِلْقَاءِ نَفْسِكَ، وَلِئَلاَّ يَقُولُوا دَرَسْتَ؛ أي قَرَأتَ كُتُبَ أهلِ الكتاب. ومن قرأ (دَارَسْتَ) فمعناهُ: ذاكَرْتَ أهلَ الكتاب. وكان أهلُ مكَّة يقولون: إنَّما يَتَعَلَّمُهُ مِن جَبْرٍ ويَسَارٍ؛ وكَانَا غُلامَين عَبْرَانِيَّيْنِ بمَكَّةَ(١).

ومعنى (دَرَسْتَ) أدَرَسْتَ هذه الأخبارَ التي تَتْلُوهَا علينَا، ومعنى (دَارَسْتَ) أي قَارَأتَ أهلَ الكتاب: تَعَلَّمْتَ منهُم وقرأتَ عليهم وقرأوا عليكَ.

وقرأ قتادةُ:(دُرِّسْتَ) أي قُرِّيْتَ وَتُلِيْتَ، وقرأ الحسنُ وابن عامر ويعقوب: (دَرَسَتْ) بفتح الدال والرَّاء والسين وجَزْمِ التاء؛ يعني: تَقَادَمَتْ وانْمَحَتْ وَانْمَضَتْ، وذكر الأخفشُ:(دَرُسْتَ) بضمِّ الراء؛ ومعناها: دَرَسْتَ؛ إلا أن ضَمَّ الراءِ أشدُّ مبالغةً. وقرأ ابنُ مسعودٍ والأعمشُ: (دَرَسَ) بفتح السِّين من غيرِ تاء؛ يعنونَ النَّبيَّ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾؛ أي وَلِنُبَيِّـنَ الْقُـرْآنَ والتصريفَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾؛ أي اعْمَلْ يا مُحَمَّدُ بما أنزل إليكَ من الْقُرْآن من حَلالهِ وحَرامهِ، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾؛ أنْزَلَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾؛ أي اتْرُكْهُمْ فِي ضَلاَلَتِهِمْ. وهذا منسوخٌ بآيةِ السَّيفِ. وَقِيْلَ: معناهُ: أعرِضْ عنهم اسْتِجْهَالاً لَهم.

---

(١) اختلفَ في اسمِ الشَّخصِ الذي قالوا إنَّما يُعَلِّمُهُ، فقيلَ: هو غلامُ الفَاكِهِ بنِ المغيرةِ واسْمهُ جَبْرٌ، كان نصرانيّاً فأسْلَمَ، قال القرطبيُّ: وذكرَ النقَّاشُ أن مولَى جَبْرٍ كان يضربهُ ويقول لهُ: أنتَ تُعَلِّمُ مُحَمَّداً، فيقولُ: لاَ واللهِ بل هو يُعلِّمنِي ويهديني. وقيلَ اسْمهُ يَعيشُ عبدٌ لبَنِي الحضرمِيِّ كان رسولُ الله ﷺ يُلَقِّنُهُ القُرْآنَ. وقيل نصرانيّاً بمكَّة اسْمهُ بَلْعَام، وكان غُلاماً يقرأ القُرْآنَ. أو رجُلاً كان بمكَّة يقالُ له أبو مَيْسَرَةَ وهو نصرانِيٌّ يتكلَّم بالروميَّة. وقيل عَدَّاسُ غلامُ عتبةَ بن ربيعةَ. وقيل عَابِسُ غلامُ حُويطِبَ بنِ عبدِ العزَّى ويسارُ أبو فُكيهَةَ مولَى ابنِ الحضرميِّ، وكَانا قد أسْلَمَا،وهكذَا.

وكلُّ هؤلاءِ كان رسولُ الله ﷺ يجالِسُهم ويعلِّمُهم الإسلامَ، قال النَّحَّاسُ، وهذه الأقوالُ ليست بمتناقضةٍ - أيْ أنَّ هؤلاءِ بزعمِ العرب أنَّهم يعلمونَ الرسولَ ﷺ القُرْآنَ - لأنه يجوزُ أن يكونوا أوْمَأوْا إلى هؤلاءِ جميعاً، وزعمُوا أنَّهم يعلِّمونهُ. وَالْعُجْمَةُ: الإخفَاءُ وهي خلافُ الإبَانَةِ، والأعْجَمُ مَنْ فِي لِسَانِهِ ضَعْفُ إبَانَةٍ وهو الذي لا يُفْصِحُ سواءً كان من العربِ أم من العَجَمِ. وكذلك الأعْجَمُ او الأعجميُّ المنسوبُ إلى العَجَمِ وإن كانَ فصيحاً.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ ﴾ ؛ أي لـو شـاءَ اللهُ لَوَفَّقَـهُمْ إلى الإيْمان، ﴿ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ ﴾ ؛ أي يَمْنَعُـهُمْ عمـا يضرُّهـم، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ أي وما أمَرْنا أن تُلْزِمَهُمْ الإيْمانَ شاءُوا أم أبَوا، فإنَّكَ لا يُمكنكَ أنْ تفعلَ ذلك بهم، وإنَّما هو الذي يَقْدِرُ على فِعْـلِ هـذا، ولكنَّـهُ لم يفعـلْ حتى لا يزولَ التكليفُ.

وإنَّما جَمَعَ بين حَفِيْظٍ و وَكِيْلٍ لاختلافِ معناهمـا، فـإن الْحَـافِظَ للشـيءِ هـو الذي يَصُونُهُ عما يَضُرُّهُ، والْوَكِيْلُ بالشيء هو الذي يَجْلِبُ الخيرَ إليه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ ﴾ ؛ وذلك حينَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُـدُونَ مِـنْ دُون اللهِ حَصَـبُ جَهَنَّمَ أنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ. لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُـلٌّ فِيـهَا خَـالِدُونَ﴾[1] قـال المشركونَ: لئن لَمْ تَنْتَهِ يَا مُحَمَّدُ عن سَبِّ آلِـهَتنا وعَيْبِـها لَنَسُبَّنَّ إلَـهكَ الـذي تعبـدهُ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ. أي لا تَسُبُّوا معبودَهم الذي يعبدونَه مـن دون اللهِ فَيَسُـبُّوا اللهَ عَدْواً وظُلْماً.

ونُصبَ (عَدْوًا) على المصـدر؛ أي يَعْـدُونَ عَـدْواً. ويقـال: نُصِـبَ علـى إرادة اللام؛ أي يَسُبُّونَ بالعَدْو. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (بغَيْرِ عِلْمٍ) أي بجَهْلِهِمْ يحملهم الغَيْظُ على أن يَسُبُّوا معبودَكم.

وفي هذا دليلٌ علـى أن الإنسـانَ إذا أراد أن يَـأْمُرَ غـيرَه بـالمعروفِ، ويَعْلَـمُ أنَّ المأمورَ يقعُ بذلك فيما هو أشدُّ مِمَّا هو فيه من شَتْمٍ أو ضربٍ أو قَتْلٍ، كـان الأَولى أن لا يَأْمُرُهُ ويتركه على ما هو فيهِ. وقرأ بعضُهم: (عَدُوًّا بغَـيْر عِلْـمٍ) أي أعْـدَاءً؛ نُصـبَ على الحال. وقال قتادةُ: (كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ أصْنَامَ الْكُفَّار، فَنَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذلِكَ لِئَلاَّ يَسُبُّوا اللهَ، فَإنَّهُمْ قَوْمٌ جَهَلَةٌ)[2].

---

(١) الأنبياء / ٩٨-٩٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٦٩٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ ؛ أي كما زيَّنا لـك دِينَـكَ وعملَكَ؛ زَيَّنَّا لَهم دينَهم وعملَهم، (كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أمَّةٍ عَمَلَهُمْ) الذي يعملونه بمَيْـلِ الطَّبـائِع إليـهِ مُجَـازَاةً لَـهم علـى فِعْلِـهِمْ، كمـا قـالَ تعـالى: ﴿ بَـلْ طَبَـعَ اللهُ عَلَيْـهَا بكُفْرِهِمْ﴾[1]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾ ؛ أي مصيرُهم ومُنقلبَهم إلى اللهِ تعالى، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم ﴾ ؛ فيجزيهم؛ ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ ؛ أي حَلَفُوا باللهِ واجْتَهَدُوا في المبالغةِ في اليمين (لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَـةٌ) أي علامـةٌ لِنُبُوَّتِـكَ ليصدِّقن بها. وعَنَوا بالآيةِ الآيات الـتي كـانوا يقترحونـها عليـه، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَـهم يـا مُحَمَّدُ: ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ ؛ إنَّ مَجِيْءَ الآياتِ مِن عنـد اللهِ؛ إن شَـاءَ أنزلَـها وإن شاء لم يُنْزِلْهَا، وإنما يُنْزِلُ على حَسْبِ المصلحةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ ؛ خطـابٌ للمؤمنـين؛ ﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ أي وما يدريكم أيُّها المؤمنونَ؛ أنَّهَا إذا جَـاءَتْـهم لاَ يُؤْمِنُـونَ لِمَـا سبقَ لَهم في عِلْمِ اللهِ تعالى من الشَّقَاوَةِ.

وقرأ مجاهدُ وقتادة وأبو عمرٍو وابنُ كثير: (إنَّهَا) بالكسر على الابتداءِ؛ وخـبرُهُ: (لاَ يُؤْمِنُونَ). وقرأ الباقون بالفتحِ؛ ومعناهُ عند الخليل وسِيْبَوَيْهِ: لَعَلَّـهَا إذا جَـاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ. وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ: (لاَ تُؤْمِنُـونَ) بالتـاء علـى مُخَاطَبَـةِ الكفَّـار؛ أي وَمَـا يُشْعِرُكُمْ يا أهلَ مكَّةَ أنَّهَا إذا جَاءَتْ لاَ تُؤْمِنُونَ. وقرأ الباقون بالياء. وقـرأ الأعمـشُ: (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أنَّها إذا جَاءَتْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ).

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ؛ أي نَتْرُكُ أفْئِدَتَهُمْ وأبصارَهم مُنْقَلِبَةً كما هي في الحيرةِ التي بهم؛ والغفلةِ التي فيهم؛ فلا نُوَفِّقُهُمْ مجازاةً لَهم فلاَ يؤمنون (كَمَـا لَـمْ يُؤْمِنُـوا بـهِ أوَّلَ مَـرَّةٍ) أي أوَّلَ مـا رَأوا مـن الآياتِ.

(١) النساء / ١٥٥.

وَقِيْلَ: معناه: وَنُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم على جَمْرِ جهنَّم ونارها؛ جزاءً على تَرْكِ الإيْمان وعقوبةً عليهِ، ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ أي نَتْرُكُهُمْ في ضَلالَتِهِمْ يتحيَّرون ويتردَّدون.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ؛ نزلَتْ هذه الآيةُ في رَهْطٍ من أهلِ مكَّةَ من المستهزئينَ، وهم: الوليدُ بنُ المغيرةِ؛ والعاصُ بنُ وائلٍ؛ والأسودُ بنُ عبدِ يَغُوثَ؛ وغيرُهم. قالوا: يا مُحَمَّدُ؛ ابْعَثْ لنا بعضَ موتَانا حتى نسألَهم عنكَ: أحقٌّ ما تقولُ أم باطلٌ؟ فنؤمِنُ بكَ، وأرِنَا الملائكةَ يشهدون أنَّكَ رسولُ اللهِ، وائْتِنَا باللهِ والملائكة قَبِيْلاً — أي كَفِيْلاً - على ما تقولُ إنه الحقُّ. فأنزلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ.

ومعناها: (وَلَوْ أنَّنَا نَزَّلْنَا إلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ) معاينةً للشَّهادةِ على نبوَّتكَ كما سألوكَ، (وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى) بأنكَ رسولُ اللهِ، وأنَّ القُرْآنَ كلامهُ، وجَمعنا عندَهُم كلَّ شيء من الطَّيرِ والوحوشِ والسِّباعِ وسائر الدواب كَفِيْلاً يكفلُون بصحَّةِ ما تقولُ يا مُحَمَّدُ، ما كانوا لِيُؤْمِنُوا بكَ إلا أن يُوَفِّقَهُمُ اللهُ للإيمانِ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ أنَّ اللهَ قادرٌ على ذلك.

ويجوزُ أن يكون معنى (قُبُلاً)[1] أي قَبِيْلاً يقابلُهم ويواجههم مِن الْمُقَابَلَةِ، ويقالُ: جماعةً على معنى أن القُبُلَ جمعُ القبيلِ، والقَبِيْلُ جمعُ القبيلةِ؛ كسفينةٍ وسُفُنٍ. قرأ أهلُ المدينةِ والشام: (قِبَلاً) بكسرِ القافِ وفتحِ الباءِ؛ أي مُعَايَنَةً؛ والمعنى: لو نَاطَقَتْهُمُ الأرضُ والسَّماءُ والطير والوحوشُ أن مُحَمَّداً رسولُ اللهِ، وأن ما أتاكُم به حقٌّ، قالوا لَهم ذلك معاينةً ومُشَافَهَةً؛ ما كانوا ليؤمنُوا إلا أنْ يَشَاءَ اللهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ أي كما جعلنَا لكَ ولأُمَّتِكَ أعداءً مثلَ أبي جهلٍ وأصحابه،كذلك جعلنا لِمَنْ تقدَّمَكَ من الأنبياءِ وأمَمِهِمْ عَدُوّاً. و(شَيَاطِيْنَ) نصبَ على البدلِ من (عَدُوّاً) ومفسِّراً له، ويجوزُ أن يكون مَفْعُولاً ثانياً.

---

(١) (قبُلاً) سقطت من المخطوط.

قال ابنُ عبَّاس في معنى هذه الآيةِ: (إنَّ إبْلِيسَ قَسَّمَ جُنْدَهُ فَرِيْقَيْنِ، فَبَعَثَ فَرِيْقاً مِنْهُمْ إلَى الإنْسِ؛ وَفَرِيْقاً إلَى الْجِنِّ. فَشَيَاطِيْنُ الإنْسِ وَشَيَاطِيْنُ الْجِنِّ يَلْتَقِي بَعْضُهُمْ ببَعْضٍ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أضْلَلْتُ صَاحِبي بكَذا وَكَذا، أتَيْتُهُ مِنْ قِبَلِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذاتِ، وَمِنْ قِبَلِ الْمَرَاكِبِ وَالْمَلاَبسِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَاب، فَإنْ أعْيَانِي مِنْ وَجْهٍ أتَيْتُهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، فَأَضْلِلْ صَاحِبَكَ بمثْلِهِ).

فَذلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ؛ أي يُلْقِي بعضُهم إلى بعضٍ ويُمْلِي بعضُهم إلى بعضٍ؛ ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ ؛ أي الْمُمَوَّهُ الذي يكونُ فيه تَزْيِيْنُ الأعمال القبيحة. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (غُرُورًا) نُصبَ على المصدر؛ كأنه قالَ: يُغْرُونَ بهِ غُرُوراً.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين: (إلَى أنَّ الشَّيَاطِيْنَ اسْمٌ لِكُلِّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ؛ مِنَ الْجِنِّ وَمِنَ الإنْسِ شَيَاطِيْنُ). كما رُوِيَ عن أبي ذرٍّ ﷺ قالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، فَأَمَرَنِي أنْ أصَلِّي رَكْعَتَيْنِ؛ فَصَلَّيْتُ وَجَلَسْتُ إلَيْهِ؛ فَقَالَ لِي: [يَا أبَا ذرٍّ؛ تَعَوَّذْ باللهِ مِنْ شَيَاطِيْنِ الإنْسِ وَالْجِنِّ]. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أوَمِنَ الإنْسِ شَيَاطِيْنُ؟! فَقَالَ: [أوَمَا تَقْرَأ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ﴾؟][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ ؛ أي لو شاءَ ربُّكَ أن يَمْنَعَ الشياطين من الْوَسْوَسَةِ مَا فَعَلُوهُ، ولكن يَمْتَحِنُ عِبَادَهُ بما يعلمُ أنه أبلغُ في الحكمةِ وأجزلُ في الثواب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ أي اتْرُكْهُمْ وَافْتِرَائِهِم وكَذِبهِمْ على استجهالاتِهم، فإنِّي القادرُ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ عطفٌ على (غُرُورًا)؛ أي يُوحِي بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ الغُرُور، وَلِتَمِيْلَ إليه أفئدةُ الذين لا يُقِرُّونَ بالبعثِ، ولكن يَرْضُوا القولَ الزخرف ويَكْتَسِبُونَ من الإثْمِ؛ وهو ما قُضِيَ عليهم في اللَّوحِ الْمَحْفُوظِ، يقالُ: اقْتَرَفَ فُلاَنٌ ذنْباً؛ إذا عَمِلَهُ. وَقِيْلَ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٧١٧ و١٠٧١٨). والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص١٧٨.

معنى (لِيَقْتَرِفُوا) أي لِيَخْتَلِقُوا ويَكْذِبُوا. وقرأ النخعيُّ: (وَلِتُصْغِيَ) بضمِّ التاءِ وكسرِ الغين؛ أي تُمِيْلُ، والإِصْغَاءُ: الإِمَالَةُ؛ ومنهُ الحديث: [إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصْغِي الإنَاءَ لِلْهِرَّةِ][1].

والأفْئِدَةُ: جمعُ فُؤَادٍ؛ مثلُ أغْرِبَةٍ وغُرَابٍ. ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ أي فَلْيَكْتَسِبُوا ما هم مُكْتَسِبُونَ. وقَال ابنُ زيدٍ: (وَلِيَعْمَلُوا مَا هُمْ عَامِلُونَ). يقال: اقْتَرَفَ فُلاَنٌ مَالاً؛ أي اكْتَسَبَهُ، وقَارَفْتُ الأمْرَ: أي وَاقَعْتُهُ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾[2]. ومَن قرأ: (وَلْيَرْضَوْهُ وَلْيَقْتَرِفُوا) بجزمِ اللام على لفظِ الأمرِ؛ فمعناهُ: التهديدُ؛ أي اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ ؛ وذلك أن نَفراً من أهلِ مكَّةَ قالوا: يَا مُحَمَّدُ؛ اجْعَلْ بيننا وبينكَ حَكَماً من اليهودِ والنَّصارى، فإنَّهم قرأوا الكُتُبَ قبلكَ. فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ.

ومعناها: قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: أفَغَيْرَ اللهِ أطلبُ رَبّاً ومعبوداً يُسَاوي حُكْمُهُ حُكْمَ اللهِ؛ فأجعلهُ حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أنزَلَ إلَيْكُمْ القرآن مُفَصَّلاً مبيَّناً أمرَهُ ونَهْيَهُ بلغةٍ تعرفونَها. ويقالُ: مُتَفَرِّقاً سورةً سورةً؛ وآية آيةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ ؛ أي التَّوْرَاةَ؛ هم عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وأصحابُه؛ ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ ؛ أي الْقُرْآنُ؛ ﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ؛ بما تقدَّمَ لَهم من البشَارَةِ في كُتُبِهِمْ بأنَّ اللهَ يبعثُ في آخرِ الزمان نَبيّاً من ولْدِ إسماعيلَ، ويُنَزِّلُ عليه الْقُرْآنَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ؛ أي بما أقامَ لَهم من البراهينِ على ذلك.

---

(١) الحديث عن كبشة بنت كعب بن مالك: أنَّ أبَا قَتَادَةَ ﷺ دَخَلَ فَسَكَبْتُ لَهُ وُضُوءاً، فَجَاءَتْ هِرَّةٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، فَأصْغَى لَهَا الإنَاءَ حَتَّى شَرِبَتْ، قَالَتْ كَبْشَةُ: فَرَآنِي أنْظُرُ إلَيْهِ، فَقَالَ: أتَعْجَبِينَ يَا ابْنَةَ أخِي؟! فَقُلْتُ: نَعَمْ فَقَالَ: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [إنَّهَا لَيْسَتْ نَجِسَةٌ...] الحديث. رواه أبو داود في السنن: كتاب الطهارة: الحديث (٧٥). والترمذي في الجامع: أبواب الطهارة: الحديث (٩٢)، وقال: حسن صحيح.

(٢) الشورى / ٢٣.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾؛ أي لا تَكُونَنَّ يا مُحَمَّدُ من الشَّاكِّيْنَ في أنَّهم يعلمونَ ذلك. ويقالُ: هذا خطابٌ لِلنَّبيِّ ﷺ والمرادُ به غيرُه، كأنه قال: لا تَكُونَنَّ أيها الجاهلُ بأمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ من الشَّاكِّينَ في أمرِهِ. وقرأ الحسنُ والأعمش وابنُ عامرٍ وحفصُ: (مُنَزَّلٌ) بالتشديدِ من التَّنْزِيْلِ؛ لأنه أنْزِلَ نُجُوماً مرَّةً بعد مرَّةٍ، وقرأ الباقونَ بالتخفيفِ من الإنْزَال.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾؛ قرأ أهلُ الكوفة ويعقوبُ: (كَلِمَةُ) على التوحيدِ، وقرأ الباقون: (كَلِمَاتُ) على الجمع. ومعنى الآية: وَتَمَّ إلزام الحجَّة على وَجْهِ الحكمة، لاَ ينقصان في ذلك[1]. قولُهُ (صِدْقاً) أي مُخْبَرُهُ على ما أخْبَرَ به فيما وَعَدَ وأوْعَدَ، و(عَدْلاً) أي أحْكَامُهُ كلُّها عدلٌ، و(لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) أي لا مُغَيِّرَ لِحُكْمِهِ ودِيْنِهِ، فإن اليهودَ والنصارى - وإنْ غيَّروا التوراةَ والإنجيلَ - لن يُمْكِنَهُمْ أن يأتوا بحُكْمٍ حتى يقومَ مقامَ حُكْمِهِ.

وَقِيْلَ: معناه: (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبكَ) أي وَجَبَ قولُ ربكَ بأنه ناصرٌ مُحَمَّداً ﷺ وأنَّ عاقبةَ الأمر له صِدْقًا وَعَدْلاً؛ لا مُغَيِّرَ لقولِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وذلك أنَّ أهلَ مكَّةَ كانوا يستحلُّون أكلَ الميتةِ، ويَدعُونَ المسلمين إلى أكلِها، وكانوا يقولون: إنَّما ذلك ذبحُ اللهِ؛ فهو أحَلُّ مِمَّا ذبحْتُم أنتم بسكاكينكُم، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ. ومعناها: إن تُطعْ- يا مُحَمَّد- أكثرَ مَن في الأرض يصرفونَكَ عن دِيْنِ الله، وإنَّما قال: (أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ) لأنَّ أكثرَهم كفَّار ضُلاَّلٌ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٧١: ((قال قتادة: الكلمات هي القرآن، لا مبدل له، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون)).

(٢) غافر / ٥١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ ؛ معناه: إن أكثرُهم يتَّبعونَ أكابرَهُمْ بالشَّكِّ؛ يتبعونهم فيما يعملون ((ويظنون))(١) أنَّهم على الحق، وإنَّما يعذبون على هذا الظنِّ؛ لأنَّهم اقْتَصَرُوا على الظَّنِّ والجهلِ واتَّبَعُوا أهواءَهم، ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ أي ما هم إلا يَكْذِبُونَ في قولِهم: ما قَتَلَ اللهُ أحقُّ أن تأكلوهُ مِمَّا قَتَلْتُمْ بسكاكينِكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ؛ أي عن دِيْنِ الإسلامِ وشرائعِهِ؛ ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾ ؛ بمُحَمَّدٍ والإسلامِ، وإنَّما قال: (أعْلَمُ) لأنَّ اللهَ تعالى يعلمُ الشيءَ من كلِّ جهاتِهِ، وغيرُه يعلمُ الشيءَ من بَعْضِ جهاتِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ؛ عُطِفَ على ما دلَّ عليه الكلامُ الذي قبلَه، كأنه قال: كُونُوا على الْهُدَى فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ من الذبائحِ، ﴿ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ؛ هذا للترغيب في اعتقاد صحَّة إباحتِهِ وفي أكلِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ؛ يعني من الذبائحِ، وموضع (أنْ) نصب لأنَّ (في) سقطت، ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي وقد بَينَ لكم مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ من الْمَيْتَةِ والدَّمِ والخنْزيرِ على ما تقدَّم في سورةِ المائدة.

قرأ الحسنُ وقتادة وأهلُ المدينة وحفصُ: (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) بالفتحِ فيهما على معنى: فصَّل اللهُ. وقرأ ابنُ عامر وابنُ كثير وأبو عمرو بضمِّهما جميعاً. وقرأ أهلُ الكوفةِ إلا حفصاً: (فَصَّلَ) بالفتح (وحُرِّمَ) بالضَّمِّ. وقرأ عطيةُ العوفِيُّ: (فَصَلَ) بالتخفيف مفتوحاً؛ يعني قَطَعَ الحكمَ فيما حرَّمَ عليكم.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ ؛ أي إلا ما دَعتْكُمُ الضرورةُ إلى أكلِهِ، فقد رَخَّصَ لكم حينئذٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا ﴾ ؛ يعني الكفارَ يأكلونَ

---

(١) في المخطوط: (يتبعونهم فيما يعلمون أنهم على الحق) ويبدو أنه تصحيف، وتستقيم العبارة كما أثبتناه، والله أعلم.

الْمَيْتَةَ والذبائحَ التي لم يُذْكَرِ اسمُ اللهِ عليها عَمْداً، والتي يذبحونَها لآلِهتهم بلا عِلْمٍ عندهم ولا بَصِيْرَةٍ، يتَّبعون الهوَى والشَّهوات في ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ قرأ الحسنُ وأهلُ الكوفة بضمِّ الياء لقوله: ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾[1]. وقرأ الباقونَ بفتحِها لقولِه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ﴾. فمعنى مَن قرأ بضمِّ الياء: أنَّهم يَصْرِفُونَ الناسَ عن الْهُدَى بالدُّعاءِ إلى أكلِ الْمَيْتَةِ على وجهِ الْجِدَالِ والْخِدَاعِ، وقولُهُ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ ؛ أي أعْلَمُ بعقوبةِ المتجاوزين من الحلالِ إلى الحرام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ ٱلإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ ؛ أي لا تقْرَبُوا ما حَرَّمَ اللهُ عليكم جهراً ولا سِرّاً، ويقالُ: أرادَ بظاهر الإثم: الزِّنَا الظاهرَ، وبباطنِهِ: الزِّنَا السِّر. فالعربُ كانوا يَرَوْنَ الزِّنا ظاهراً معصيةً، ولا يرَوْنَهُ في الْخِفْيَةِ معصيةً. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ الذين يعملون المعصيةَ ظاهراً وباطناً سَيُعَاقَبُونَ في الآخرةِ بما كانوا يَكْسِبُونَ في الدُّنيا من المعاصِي والفواحشِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ؛ يعني الذبائح. رويَ عن عبدِالله بن عمرَ: (أنَّهُ أتَى حُرّاً ذبَحَ شَاةً نَسِيَ أنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا، فَأَمَرَ ابْنُ عُمَرَ غُلاَمَهُ أنْ يَقُومَ عِنْدَهُ، فَإذا جَاءَ إنْسَانٌ يَشْتَرِي مِنْهُ قَالَ: إنَّ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: إنَّهُ لَمْ يُذْكَرْ عَلَيْهَا اسْمَ اللهِ، فَلاَ تَشْتَرِي).

وقال ابنُ سيرينَ: (إذا تَرَكَ التَّسْمِيَةَ نَاسِياً؛ لَمْ تُؤْكَلْ)[2]. إلاَّ أن أكثرَ أهل العلمِ على أن نسيانِها لاَ يوجبُ التحريْمَ. هكذا رُويَ عن عَلِيٍّ وابنِ عبَّاس ومجاهدٍ وعطاء وابنِ المسيِّب؛ قالوا: (إنْ تَرَكَ التَّسْمِيَةَ نَاسِياً لاَ بَأْسَ بأَكْلِهَا؛ لأَنَّ خِطَابَ الآيَةِ يَتَنَاوَلُ الْعَامِدَ، إذِ النَّاسِي فِي حَالِ نِسْيَانِهِ لاَ يَكُونُ مُكَلَّفاً).

---

(١) الأنعام / ١١٦.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣٥٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد)).

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ ﴾ ؛ أي إنَّ أكلَـهُ لفسـقٌ. وَقِيْـلَ: إنْ تـركَ التسميةَ، وَقِيْلَ: المذبوحَ بغير تسميةِ الله فِسْقٌ فيه حـينَ ذُبـحَ علـى غـيرِ وجـه الحـقِّ؛ كقولهِ: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَـٰدِلُوكُمۡۖ ﴾ ؛ أي إنَّ الشياطين لِيُوَسْوِسُونَ لأوليائِهم من الإنْس؛ وهم: أبُو الأَخْوَصِ الْخَثْعَمِيُّ وَبَدِيْـنُ ابْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ وغيرُهما من أهلِ مكَّة؛ كانوا يُخَاصِمُونَ النَّبِيَّ ﷺ في أكلِ الْمَيْتَـةِ وَاسْتِحْلاَلِهَا. والوَحْيُ: إلْقَاءُ الْمَعْنَى إلَى النَّفْسِ فِـي الْخِفْيَـةِ، ﴿ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ ﴾ ؛ في أكلِ الْمَيْتَةِ واستحلالِها من غير اضطرار، ﴿ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ ؛ مِثْلُهُمْ.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ مَن اسْتَحَلَّ شيئاً مِمَّا حَرَّمَ اللهُ، أو حَرَّمَ شـيئاً مما أحَـلَّ اللهُ؛ فهو مُشْرِكٌ. وإنَّما سُمي مُشْركاً؛ لأنه اتَّبَعَ غيرَ اللهِ فأشركَ باللهِ غيرَهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيۡتًا فَأَحۡيَيۡنَـٰهُ ﴾ ، قال ابنُ عبَّـاس: (نَزَلَـتْ فِي عَمَّار بْنِ يَاسِرٍ، وَأبي جَهْلٍ). ويقالُ: إنَّ المرادَ بالآية النبيُّ ﷺ وأبو جَهْلٍ. ومعنـى الآيةِ على القولِ الأوَّل: أوَمَنْ كَانَ كافراً، فهديناهُ إلى المغفـرةِ والإسـلامِ، ﴿ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورًا ﴾ ؛ وهو نورُ القُـرْآن والإيْمَـان والحكمـةِ؛ ﴿ يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ يضيءُ بذلك النور فيما بين النَّاس؛ ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ ؛ أي كَمَثَلِ مَـن هو في الضَّلالة وظُلُمَاتِ الكفرِ، ﴿ لَيۡسَ بِخَارِجٍ مِّنۡهَا ﴾ ؛ أبداً.

بيَّنَ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ أنَّ أبا جَـهْلٍ ليسَ بخَـارجٍ مـن الضَّلالـة أبـداً. وقـال بعضُهم: الْمِثْلُ زائدٌ؛ تقديره: كَمَنْ فِي الظُّلُمَاتِ.

وعن ابنِ عبَّاس أيضاً: (أنَّ مَعْنَاهُ: (أوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) يُرِيْدُ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ (كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بخَارجٍ مِنْهَا) أبَا جَـهْلٍ؛ رَمَـى رَسُـولَ اللهِ ﷺ وَحَمْزَةُ كَافِرٌ، فَأُخْبرَ حَمْزَةُ بمَا فَعَلَ أبُو جَهْلٍ وَهُوَ رَاجِعٌ مِنْ قَنْصِهِ يَفُوتُ وَبيَدِهِ قَوْسٌ، فَأَقْبَلَ وَهُوَ غَضْبَانٌ حَتَّى عَلاَ أبَا جَهْلٍ بالْقَوْسِ وَهُوَ يَتَضَرَّعُ وَيَسْتَكِيْنُ وَيَقُولُ: أمَا تَرَى مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّداً، قَدْ سَفَّهَ عُقُولَنَا وَسَبَّ آلِهَتَنَا وَخَالَفَ آبَاءَنَا. فَقَالَ حَمْزَةُ: وَمَنْ أسْفَهُ

---

(١) الأنعام / ١٤٥.

مِنْكُمْ؟! تَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ مِنْ دُونِ اللهِ، أنَا أشْهَدُ أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ؛ وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)[١].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾؛ أي كما زُيِّنَ لأبي جَهْلٍ عملهُ الذي كان يعملُ؛ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ أعمالُهم مجازاةً لَهم على كُفْرِهم. وقال الحسنُ: (مَا زَيَّنَهَا لَهُمْ إلاَّ الشَّيْطَانُ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ ﴾؛ أي جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ ذا نُور يَمشي به في الناسِ، كَذلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ رؤساءَها وكبراءَ وعظماءَ أهلِها مُجْرِمِيهَا. وَقِيْلَ: معناهُ: جعلنا في أهلِ مكَّة عظماؤُهم مُجْرِمِيهَا، كَذلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ. وَقَوْلُـهُ تَعَالَى: (لِيَمْكُرُوا فِيهَا) أي لِيَصِيْرَ أمرُهم إلى أن يمكروا بالتَّكَبُّر وتكذيب الرسُلِ، ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾، أنَّ كلَّ وَبَالَ أمرهم يرجعُ إليهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾؛ أي إذا جاءَتِ الأكابرَ المذكورين، وَقِيْلَ: أهلَ مكَّة؛ إذا جاءَتْهُمْ دلالةٌ واضحة على نُبُوَّةِ رسول الله ﷺ؛ قالوا: لاَ نُصَدِّقُ حتى نُعطى من الآياتِ مثلَ ما أعْطِيَ رسلُ اللهِ المعجزاتِ والدَّلائل.

وذلك أنَّ الوليدَ بن المغيرةِ قال: وَاللهِ لو كانتِ النُّبُوَّةُ حقّاً لكنتُ أوْلَى بها منكَ؛ لأنِّي أكبرُ منكَ سِنّاً[٢] وأكثرُ منكَ مالاً. وقال مقاتلُ: (قَالَ أبو جَهْلٍ: زَاحَمَنَا بَنُوا عَبْدِ الْمُطَّلِب فِي الشَّرَفِ؛ حَتَّى إذا كُنَّا كَفَرَسَي رهَان؛ قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ يُوحَى إلَيْهِ، وَاللهِ لاَ نُؤْمِنُ بِهِ وَلاَ نَتَّبعُهُ أبَداً؛ إلاَّ أنْ يَأْتِيَنَا وَحْيٌ كَمَا يَأْتِيْهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)[٣].

---

(١) أسباب النزول: ص١٥٠؛ علقه الواقدي. وفي الجامع لأحكام القرآن: ذكره القرطبي مختصراً.
(٢) في المخطوط: (نسباً)، والصحيح: (سنّاً) فأثبتناه.
(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٦٨.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ ؛ أي هو أعلمُ مَن يُرْسِلُ ومن يَخْتَصُّ بالرسالةِ ومَن هو أهْلٌ لَها. وهذا جوابٌ يَمنعهم أن يكونوا رُسُلاً حين أنِفُوا أن يكونوا أتْبَاعاً للرُّسلِ بعد قيام حُجَّةِ النبيِّ ﷺ.

بَيَّنَ اللهُ تعالى أنه إنَّما يجعلُ الرسالةَ عند مَن يقومُ بأدائِها، ولا يجعلُها عند مَن يضيِّعُ ولا يصبرُ على الْمَكَارهِ. وَقِيْلَ: إنَّما لم يجعلِ اللهُ الرسلَ في الرؤساءِ والأغنياء؛ لأنَّ الناسَ يتبعونَهم وإن لم يأتوا بالْحُجَجِ، فيقولُ مَن بعدُهم: إنَّما اتَّبعوهم لأنَّهم كانوا رؤساءَ وأكابرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي سيصيبُ الذين اكتسَبُوا الْجُرْمَ مَذلَّةٌ وهوَانٌ ثابتٌ لَهم عندَ الله؛ ﴿ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤ ﴾ ؛ أي بكفرِهم وتكذيبهم الرسلَ.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (ثُمَّ رَجَعَ إلَى ذِكْرِ عَمَّارٍ وَأبي جَهْلٍ) فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ ﴾ ؛ أي فمن يُردِ اللهُ أن يُوَفِّقَهُ للإسلامِ يُوسِعْ قَلْبَهُ وَيُلَيِّنْهُ لِقَبُول الإسلام، ﴿ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ ﴾ ؛ أي أن يَخذِلَهُ ويجعلهُ في ضلالةِ الكفر، ﴿ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا ﴾ .

﴿ حَرَجٗا ﴾ [1]؛ قِيْلَ: الْحَرَجُ: مَوْضِعُ الشَّجَرِ الْمُلْتَف"[2]؛ يعني أنَّ قلبَ الكافرِ لا تصلُ إليه الحكمةُ كما لا تصلُ الراعيَةُ إلى الموضعِ الذي الْتَفَّ فيه الشجرُ.

---

(١) في هامش المخطوط: أشار بعلامة ولم يكتب (صح)، ولعلها نقولات من القراء لما وجدوه في التفاسير: (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهدِيَهُ) يعني من يرد الله أن يوفقه للإسلام ويهديه لدينه (يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلامِ) أي يوسع قلبه ويلَيِّنه لقبول الإسلام، ويدخل فيه نورَ الإسلام وحلاوتُه، قال القتبيُّ: (يَشْرَحْ صَدْرَهُ) أي يفتحه.

عن عبدالله بن مسعود ﷺ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَـذِهِ الآيَةُ (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلامِ)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَكَيْفَ ذلِكَ؟ قَالَ: [إذَا دَخَلَ النُّورُ فِي الْقَلْبِ انْشَرَحَ وَانْفَسَحَ الصَّدْرُ] قَالُوا: وَهَلْ لِذَلِكَ مِنْ عَلاَمَةٍ يُعْرَفُ بهَا؟ قَالَ: [نَعَمْ، التَّجَافِي عَنْ دَار الْغُرُور، وَالإنَابَةُ إلَى دَار الْخُلُودِ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُول الْمَوْتِ]. (وَمَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ) عن الإسلام فلا يقبله ويتركه بغير نور (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا) يعني غير موسع (حَرَجًا).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٨١؛ نقله القرطبي من قول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وقال أهلُ اللغة: الْحَرَجُ: أضْيَقُ الضِّيْق. وقال مجاهدُ: (الْحَرَجُ: الشَّكُّ)[١] وقال قتادةُ: (حَرَجاً مُلْتَبساً)[٢]. وقال النَّضْرُ بن شُمَيْلٍ: (قَلِقاً)، وقال الكلبيُّ: (لَيْسَ لِلْخَيْرِ فِيْهِ مَنْفَذٌ). قرأ ابنُ كثير: (ضَيْقاً) بالتخفيفِ، وشدَّدهُ الباقون؛ وهما لُغتان مثل هَيِّنٍ وَلَيِّن. وقولهُ تعالى: (حَرِجاً) قرأ أهلُ المدينةِ وأبو بكرٍ بكسرِ الرَّاء، وفتحَها الباقون؛ وهُما لُغتان مثل دَنَفٍ وَدَنِفٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ يعني: يَشُقُّ عليه الإيْمانُ ويَمْتَنِعُ ويعجزُ عنه، كما يَشُقُّ عليه صعودُ السَّماء. واختلفَ القُرَّاءُ في قوله تعالى: (يَصَّعَّدُ) فقرأ أهلُ المدينة والبصرةِ والكوفة إلا أبَا بكرٍ: (يَصَّعَّدُ) بتشديد الصَّاد والعينِ من غير ألفٍ، وقرأ طلحةُ والنخعيُّ وأبو بكر: (يَصَّاعَدُ) بتشديدِ الصَّاد وبألفٍ بعدها، بمعنى يَتَصَاعَدُ. وقرأ الأعرجُ وأبو رجاءٍ وابنُ كثير: (يَصْعَدُ) مخفَّفاً؛ أي لا يَجِدُ مَخْرَجاً يَميناً ولا شِمالاً، فكأنهُ من الضِّيْقِ يصعدُ إلى السَّماء ولا يستطيعهُ. وقرأ عبدُالله (كَأنَّمَا يَتَصَعَّدُ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ ﴾ ؛ أي مِثْلَ ما قصَصْنا عليكَ يجعلُ الله اللعنةَ في الدنيا والعذابَ في الآخرة؛ ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يَرْغَبُونَ ولا يُصَدِّقُونَ بالتوحيدِ.

روي: أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ كَيْفَ يَشْرَحُ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ؟ قَالَ: [إذا دَخَلَ النُّورُ فِي الْقَلْب انْشَرَحَ وَاسْتَوْسَعَ] قَالُوا: وَمَا عَلاَمَةُ ذلِكَ؟ قَالَ: [التَّجَافِي عَنْ دَار الْغُرُور؛ وَالإنَابَةُ إلَى دَار الْخُلُودِ؛ وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الْمَوْتِ][٣].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٧٩٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٧٩٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٠٧٨٥-١٠٧٨٧) بأسانيد ضعيفة.

وقال بعضُ المفسِّرين في معنى الآية: (فَمَنْ يُردِ اللهُ أنْ يَهدِيَهُ) في الآخرةِ إلى الثَّواب ونَيْلِ الكرامةِ (يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلامِ) في الدُّنيا بالدَّلالاتِ. ومن يُردْ أنْ يُقِيْلَهُ عن ثوابهِ ونَيْلِ كرامتهِ في الآخرة (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا) في الدُّنيا عقوبةً له على كُفْرِه.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ ؛ (هذا) إشارةٌ إلى الإسلامِ، وَقِيْلَ: إلى بَيَان الْقُرْآن، سُمي ذلك مُسْتَقِيْماً؛ لأنه يَسْتَقِيْمُ بمن يَسْلُكُهُ؛ فلا يَعْرِجُ فيه حتَّى يُوردَهُ إلى الجنَّةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ ﴾ ؛ أي أتيْنَا بآيةٍ على إثْرِ آيةٍ مُفَصَّلَةً مُبَيَّنَةً؛ ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ ؛ أي يَتَّعِظُونَ بآياتِ الله، ويَتَفكَّرُونَ في دَلالاَتِ القُرْآنِ، فلم يَبْقَ لأحدٍ عذرٌ في التَّخَلُّفِ عن الإيْمان بعد هذا البَيَان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (اللهُ السلاَمُ، وَدَارُهُ الْجَنَّةُ)[1]. كأنه قِيْلَ لهم: جَنَّةُ اللهِ. وقال الفرَّاء: (مَعْنَاهُ: لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ الدَّائِمَةِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَبَلِيَّةٍ). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (عِنْدَ رَبِهِمْ) أي في الآخرةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: مُقِيْمُونَ عند ربهم؛ ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ ؛ أي يتولَّى أمرَهم بنصرِهم في الدُّنيا وإكرامِهم في الآخرة، ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ ؛ مِن الطاعَة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ معناه: يَوْمَ نَحْشُرُ الخلائقَ كلَّهم إلى الجزاءِ، يقول: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإنسِ مِمَّنْ أضلَلْتُمُوهُمْ؛ أي أضلَلْتم كثيراً من الإنس وكثيرٌ مُتَّبعُوكُمْ منهُم، ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم ﴾ ؛ أي قُرَنَاءُ الجنِّ؛ ﴿ مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ .

أما استِمْتَاعُ الإنسِ بالجن فما روى الحسنُ: (أنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إذا سَافَرُوا فَنَزَلُوا وَادِياً؛ خَافُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ فَقَالُوا: نَعُوذُ بسَيِّدِ هَذا الْوَادِي مِنْ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ؛ فَيَبيْتُونَ فِي جِوَارٍ مِنْهُمْ، وَكَانُوا يَرَوْنَ ذلِكَ اسْتِجَارَةً بالْجِنِّ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٨٠٦) عن السدي.

وأما استمتاعُ الجنِّ بالإنسِ؛ فكان عُظَمَاءُ الجنِّ يقولون: قد سُدْنَا الإنسَ مع الجنِّ؛ حتى أن الإنسَ يعوذُون بنَا، فيزدادون بذلك شَرَفاً في قومِهم وَعظَماً في أنفسهم. وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ ؛ أي أدْرَكْنَا وَقْتَنَا الذي وُقِّتَ لنا. قِيْلَ: إنَّ المرادَ به وقتُ البعثِ، وَقِيْلَ: إن المراد وقتُ الموتِ. وفي هذا دليلٌ على أنه لا يكون للمقتول أجَلاَن بخلافِ ما يقولُ بعض القومِ: إنَّ المقتولَ لو لم يُقتل لكان يبقى حَيّاً لا محالةَ. لأنه قد كان في هؤلاءِ مقتولون وقد أخْبَرُوا كلُّهم أنَّهم قد بلغُوا أجلهم الذي أجَّلَهُ الله لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ ﴾ ؛أي قَالَ اللهُ تَعَالَى: النَّارُ مقرُّكم ومَنْزِلُكمْ؛ فإنكم قد أقْرَرْتُمْ على أنفسكم باستحقاق العذاب ولزُومِ الحقِّ عليكم، قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَكَانَ مَا شَاءَ اللهُ بقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾(٢)).

وَقِيْلَ: معناه: (إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ) ما بَيْنَ البعثِ من القبرِ إلى وقت الفَرَاغ من الحساب؛ فإنه لا يكون لَهم عذابٌ في ذلك الوقت. وَقِيْلَ: معناه: (إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ) أن يعذِّبَهم من صُنُوفِ العذاب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ ؛ في عِقَابهِ؛ ﴿ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ بقَدْرِ ما يستحقُّون من العذاب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ أي مِثْلَ ما قصَصْنَا عليكَ من تسليطِ الجنِّ على الإنس؛ كذلك نُسَلِّطُ بعضَ الْمُجْرِمِيْنَ على بعضٍ، ثم يُنْتَقَمُ منهما جميعاً في الآخرةِ بالنَّار. وقال بعضُهم: معناهُ:

(١) الجن / ٦.

(٢) النساء / ٤٨.

يَتْبَعُ بعضُهم بعضاً في النار من الْمُوَالاَةِ. وقال بعضُهم: يُسَلِّطُ بعضَهم على بعضٍ، يدلُّ عليه قوله ﷺ: [مَنْ أعَانَ ظَالِماً سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾ ؛ أي يقول لَهم يومَ القيامةِ: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإنس؛ لِمَاذا فعلتُم ما فعلتم ألَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْرَأونَ عليكُم القُرْآنَ، ﴿ وَيُنذِرُونَكُمۡ ﴾ ؛ أي وَيُخَوِّفُونَكُمْ؛ ﴿ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ ﴾ ؛ وهو يومُ القيامةِ.

قال ابن عبَّاس: (كَانَتِ الرُّسُلُ تُبْعَثُ إلَى الإنْسِ؛ وَبُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ إلَى الْجِنِّ وَالإنْسِ). قال: (وَهَذا كَقَوْلِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[2] يَخْرُجُ مِنَ الْمِلْحِ مِنْهُمَا، وَكَذلِكَ الرُّسُلُ مِنَ الإنْسِ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ ﴾ ؛ يعني أنَّهم لا يَجِدُونَ جَوَاباً إلاَّ الاعترافَ بذنوبهم؛ ويقولون: أقْرَرْنَا على أنفسِنا، أنَّهم بَلَّغُوا الرسالةَ، وكَفَرْنَا بهم. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ؛ أي بزهرتِها ونعيمِها، ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ ؛ في الآخرةِ؛ ﴿ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا؛ أي أقَرُّوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ (ذلِكَ) أي ذلكَ الأمرُ. وَقِيْلَ: أرادَ الإشارةِ إلى إرسَالِ الرُّسُلِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (أنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ) أي معناهُ: لأَجْلِ أنهُ لم يَكُنْ رَبُّكَ مُعَذِّبَ أهلِ القُرى (بظُلْمٍ) أي بشركِهم وذنوبهم (وَأهْلُهَا غَافِلُونَ) عن الأمرِ والنَّهْيِ وتبليغِ الرُّسُلِ؛ أي لم يكن يُهْلِكُهُمْ بذنوبهم قَبْلَ أن يأتيَهم رسولٌ يُبَيِّنُ لَهم، وينهاهُم عمَّا هم عليهِ من المعصيةِ، فإن رجَعُوا وإلا عذبَهم اللهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يهلكهم بظلم منه؛ ولا يعذبهم وهم غافلون لِمَا كُلِّفوا من غيرِ إقامة الحجَّة بما يُقَبِّحُ ويُحَسِّن من غيرِ تَنْبيْهٍ لَهم من الرُّسُلِ.

---

(١) في المقاصد الحسنة: الحديث (١٠٦٣)؛ قال السخاوي: ((رواه ابن عساكر في تاريخه عن ابن مسعود مرفوعاً، وفيه ابن زكريا وهو العدوي متهم بالوضع فهو آفة، وقال: وبالجملة فمعناه صحيح)). وينظر كشف الخفا: الحديث (٢٣٧٨).

(٢) الرحمن / ٢٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ ؛ أي لِكُلِّ عاملٍ من الفريقين مراتبُ في عملهِ، لأهل الخيرِ درجاتٌ في الجنَّةِ بعضُها فوقَ بعضٍ، ولأهلِ الشِّرْكِ درجاتٌ في النار بعضُها أشدُّ عذاباً من بعضٍ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ ؛ أي لا يَجْري عليه السَّهْوُ عن طاعةِ المطيعين ومعصيةِ العاصِينَ، فيجزي كلَّ عاملٍ بما عَمِلَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ ؛ أي هو الغَنِيُّ عن إيْمَانِ العبادِ وطاعتِهم. والغَنِيُّ: الَّذِي لاَ يَحْتَاجُ إلَى شَيْءٍ؛ فَيَكُونُ وُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ عِنْدَهُ وَعَدَمُهُ سَوَاءٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (ذُو الرَّحْمَةِ) بيانٌ أنه تَعَالَى مع كِوْنِهِ غَنِيّاً عن شُكْرِ العبادِ وطاعتهم ذُو إنْعَامٍ عليهم. والمعنى: ورَبُّكَ الْغَنِـيُّ عن خَلْقِهِ ذو الرحمةِ بهم، ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ ؛ أي إنْ يشاء يُهْلِكُم يا أهلَ مكَّة؛ ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم ﴾ ؛ ويخلِف من بعدكم؛ أي مِنْ بَعْدِ إهلاكِكم؛ ﴿ مَّا يَشَآءُ ﴾ ؛ خَلْقاً آخرَ أطوعَ للهِ منكم؛ ﴿ كَمَآ أَنشَأَكُم ﴾ ؛ أي مِثْلَ ما ابْتَدَأ خَلْقَكم قَرْناً بعد قرنٍ؛ ﴿ مِّن ذُرِّيَّةِ ﴾ ؛ أي من أولادِ؛ ﴿ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ ؛ هالكِين.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ ﴾ ؛ أي إنَّ الذي تخافونَ من البَعْثِ والعَذاب لكائنٌ لا خَلَفَ فيه، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ ؛ أي فائِتين لستُم تقدرونَ أن تُعْجِزُوا اللهَ عن إدراكِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّد: اثْبُتوا على حَالَتِكُمْ وعلى عملكم القَبيْحِ الذي أنتم عليهِ وعلى منازلكم؛ ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ ؛ في أمْري على مَنْزِلَتِي، وهذا على سبيلِ الوَعِيْدِ والتَّهْدِيْدِ، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾ ؛ أي (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) أيُّنا يَكُونُ لَهُ العَاقِبَةُ المحمودةُ في الدُّنيا؛ وفي الآخرة، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يَظْفَرُونَ بمُرادهِم. وقرأ السلميُّ وعاصمُ (عَلَى مَكَانَاتِكُمْ) على لفظِ الجماعة. وقرأ مجاهدُ وأهل الكوفة إلا عاصِماً: (مَنْ يَكُونُ) بالياء؛ لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ أهْلَ

الْجَاهِلِيَّةِ كَانُواْ إذا حَرَثُوا حَرْثاً؛ جَعَلُوا للهِ خَطّاً؛ وَقَالُوا: مَا دُونَ هَذا الْخَطِّ لآلِـهَتِنَا يُنْفَقُ عَلَيْهَا وَعَلَى خُدَّامِ الأَصْنَامِ، وَمَا وَرَاءَ هَذا الْخَطِّ للهِ يُتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى أهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالسَّائِلِيْنَ.

وَكَانُوا إذا أرْسَلُواْ الْمَاءَ فِيْمَا سَمَّوْهُ للهِ تَعَالَى، فَانْفَجَرَ مِنْهُ إلَى الَّذِي جَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ تَرَكُوهُ؛ وَقَالُوا: هَذا أحْوَجُ وَاللهُ غَنِيٌّ عَنْهُ، وَإذا انْفَجَرَ مِنَ الَّذِي جَعَلُوهُ لأَصْنَامِهِمْ؛ رَدُّوهُ وَقَالُوا: لَيْسَ لآلِهَتِنَا بُدٌّ مِنَ النَّفَقَةِ. وَكَانُواْ إذا هَلَكَ الَّذِي لآلِهَتِهِمْ؛ وَكَثُرَ الَّذِي للهِ؛ أخَذُوا الَّذِي للهِ وَأنْفَقُوهُ عَلَى الأَصْنَامِ، وَإذا هَلَكَ الَّذِي للهِ؛ وَكَثُرَ الَّذِي لِلأَصْنَامِ قَالُوا: لَوْ شَاءَ اللهُ لأَزْكَى الَّذِي لَهُ)[1].

ومعنى الآية: وجعلَ المشركون مِن أهلِ مكَّة لله مِمَّا خَلَقَ من الزَّرْعِ والأنعامِ نَصِيْباً، وللأصْنَامِ نَصِيْباً؛ فقالُوا: هذا نصيبُ اللهِ بقولِهم، ولم يأمرْهُم اللهُ تعالى بذلكَ، وهذا النصيبُ الآخر لآلِهتنَا. وفي الآيةِ إضمارٌ تقديرهُ: وَجَعَلُوا للهِ نَصِيْباً ولشركائِهم نَصِيْباً. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (بِزَعْمِهِمْ) قرأ السلميُّ والأعمشُ والكسائيُّ بضمِّ الراء، والباقون بفتحِها، وهُما لُغتان.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما كان مِن نصيب آلِهتهم فلا يرجعُ إلى الذي جعلوهُ للهِ، ﴿ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ﴾ ؛ أي يرجعُ إلى الذي جَعَلُوهُ لشركائِهم، ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ ؛ أي بِئْسَ ما يَقْضُونَ؛ يُوَفُّونَ نَصِيْبَ الأصنامِ ويُنْقِصُونَ نصيبَ الرَّحْمَنِ، فَبِئْسَ الحكمُ حكمُهم في الإشراكِ وبالقسمةِ. وكانوا يفعلونَ بالأنعامِ الثمانيةِ أزواجٍ ونحوها كذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَدْفِنُونَ بَنَاتِهُمْ أحْيَاءً كَرَاهِيَةً لِلْبَنَاتِ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَحْلِفُ لَئِنْ وُلِدَ لَهُ كَذا وَكَذا غُلاَماً لَيَنْحَرَ أحَدَهُمْ كَمَا حَلَفَ عَبْدُ الْمُطَّلِب عَلَى ابْنِهِ عَبْدِاللهِ. وَكَانَ لآلِهَتِهِمْ خُدَّامٌ يَقُومُونَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٨٢٠ و١٠٨٢١).

عَلَيْهِمُ الَّذِيْنَ كَانُوا يُزَيِّنُونَ لِلْمُشْرِكِيْنَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ)[1].

ومعنى الآية: وكما زُيِّنَ تحريمُ الحرثِ والأنعام؛ زُيِّنَ لكثيرٍ من المشـركين دفـنُ بناتِهم أحياءً كراهيـةً لَـهُنَّ ومخافـةَ الفقـر، وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: (شُـرَكَاؤُهُمْ) أي قُرَنَـاؤُهُمْ وشَيَاطِيْنُهُمْ، وَقِيْلَ: سَدَنَةُ آلِهتهم؛ يعني خُدَّامَ أصنامِهم.

قرأ بعضُهم: (زُيِّنَ) علـى مـا لَـمْ يُسَـمَّ فاعلـهُ، ورَفَـعَ قولَـهُ: (قَتْـلُ أَوْلادِهِـمْ شُرَكَاؤُهُمْ) يحملُ علـى المعنـى علـى الفَـاعِلِ؛ كأنـهُ قـال: مَـنْ زُيِّـنَ لَـهم، ثـم قـالَ (شُرَكَاؤُهُمْ) على إضمار (زَيَّنَهُ). وقرأ ابـنُ عـامرٍ بضـمِّ الـزاي، وَقِيْـلَ: بضـمِّ الـلام (أَوْلاَدَهُمْ) بالنصب و(شُرَكَائِهِمْ) بالكسر. ومعنى ذلكَ: على التقديمِ والتَّأخير؛ كأنـهُ قالَ: زُينَّ لكثيرٍ من المشركينَ قتلَ شُرَكايُهم[2] أولادِهم، فيكونُ معنى الشركاءِ الكفار القاتلون، المتقدِّمون منهمُ والباقونَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (لِيُرْدُوهُمْ) أي لِيُهْلِكُوهُمْ. يجوزُ أن تكون هذه لامَ العاقبـةِ، إن لم يكن غرضُهم بذلكَ الأمرِ إهلاكَهم، ويجوزُ أن تكون لامَ الغرضِ؛ لأنه قد كانَ فيـهم معانِدون وغيرُ معاندين؛ فغلبَتْ صفةُ المعاندين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ ؛ أي لِيَخْلِطُـوا ويُشَـبهُوا عليـهم دينَهم دينَ إسماعيلَ عليه السلام. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ ؛ أي لـو شاءَ الله لَمَنَعَهُمْ من دفنِ البناتِ أحياءً، ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ ؛ أي اتْرُكْهُمْ وافتراءَهم على اللهِ أنه أمرَهم بدفنِ بناتِهم أحياءً، فـإنَّ اللهَ تعـالى مـع قدرتـهِ عليهم تَركَهُمْ؛ فاتركْهُم أنتَ، فإنَّ لَهم موعداً يُحاسبون فيهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٨٢٦) مختصراً.

(٢) شُرَكَايُهُمْ؛ بياء مضمومة. ينظـر: معـاني القـرآن للفـراء: ج ١ ص٣٥٧-٣٥٨؛ لأن شـركاؤهم فاعل، وهي قراءة عامة القراء. والتقدير: (زُيِّنَ لكثـيرٍ مِـن المشـركين قتـلَ أولادِهـم شـركايُهم) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص٤٥٦. وفي الجامع لأحكـام القـرآن: ج ٧ ص٩٢-٩٣؛ أتى الإمام القرطبي بفوائد.

وقُرِئَ: (قَتْلَ أوْلاَدِهِمْ شُرَكَائِهِمْ) كلاهُما بالكسرِ، فتكـون الشـركاءُ مـن نعـتِ الأولاد[1]؛ لأن أولادَهم شركاؤهم في أموالِهم.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ ؛ أي قالوا: هذهِ الأنعامُ والحرثُ التي جعلـوا بعضَـها للهِ وبعضَـها للأوثان حِجْرٌ؛ أي حرامٌ لا يأكلُها ولا يذوقُها إلا مَن يُأْذنُ له في أكلِها؛ وهم الرجـالُ دون النِّساءِ، (بزَعْمِهِمْ) أي بقولِهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ ؛ هي الْبَحِيْرَةُ والسَّـائِبَةُ وَالْحَـامُ؛ حَرَّمُوا الركوبَ عليها، وأما الْوَصِيْلَةُ فإنَّـها كـانت مـن الغَنَـمِ خاصَّـة. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي وأنعـامٌ أخَـرُ كـانوا يذبحونَـها للأصنـامِ تَقَرُّباً إليها؛ زَعَمُوا أنَّ اللهَ أمرَهم بذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي على اللهِ، نُصِبَ على معنى: (لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا) كَذِباً على اللهِ أنهُ أمرَهم بذلك. وَقِيْلَ: نُصِبَ على المصدر؛ أي افْتَرَوا افْـتِرَاءً. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ أي سَيُكَافِئُهُمْ بكَذِبهِمْ وافترائِهم على اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ ؛ أي قـالَ أهـلُ الجاهليَّـةِ: إنَّ الأجِنَّـةَ الـتي في بُطُـون هـذه الأنعـامِ - التي زَعَمُوا أنَّها لأوثانِهم - إذا انْفَصَلَتْ عن الأُمَّهاتِ؛ فهي حلالٌ لرجالِنا منافعُـها وألبانُها، ومُحَرَّمٌ على نسائِنا ما دامَت تلكَ حَيَّةً. وأمَّـا تـأنيثُ الـ (خَالِصَـةٌ)؛ فعلـى معنَى: سَأَلَهُمْ.

قال جماعةٌ: مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأنْعَامِ أو الأنعامِ التي في بُطُونِ هذهِ الأنعامِ. وأما تذكيرُ قولِهِ: (وَمُحَرَّمٌ) فلأنهُ مردودٌ على لفظِ (مَا). وقرأ الأعمشُ: (خَالِصٌ لِذُكُورنَا) بغيرِها، وردَّهُ إلى (مَا). ومَن نَصَبَ (خَالِصَةً) فعلى القَطْعِ؛ تقديرهُ: مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأنْعَامِ لِذُكُورنَا خَالِصاً. وقرأ ابنُ عبَّاس: (خَالِصَةٍ) بالإضافةِ إلى الهاء.

---

(١) في المخطوط: (الأولان) وهو تصحيف من الناسخ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ ؛ أي قالُوا: وَإنْ تَكُنْ أجنَّةُ هذه الأنعام ميتةً؛ ﴿ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ ؛ الرِّجَالُ والنساءُ. قرأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ: (وَإنْ تَكُنْ) بالتاء (مَيْتَةٌ) بالرفعِ على معنى وإنْ يَقَعْ. وقرأ ابنُ كثيرٍ كذلكَ إلا أنه بالياء، وقرأ أبو بكرٍ التاء (تَكُنْ مَيْتَةً) بالنصب على معنى: وإن تكن الأجنةُ ميتةً. وقرأ الباقون (يَكُنْ) بالياء والنصب، وردُّوه إلى ما يؤيِّدُ ذلكَ قولهُ: (فَهُمْ فِيْهِ شُرَكَاءُ) ولم يقل: فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ ؛ أي سَيَجْزِيَهِمْ في الآخرةِ بوَصْفِهِمْ الذي وَصَفُوا في هذه الأنعامِ، إلا أنهُ لَمَّا حذفَ الباءَ انتصبَ، ويجوزُ أن يكون معناه: سَيَجْزِيْهِمْ جَزَاءَ وَصْفِهِمْ، إلا أنهُ حذف الجزاءَ، وأجرى إعرابَهُ على (وَصْفَهُمْ)، ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ ؛ في مجازاتهم؛ ﴿ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾ ؛ بمقدار جزائهم. والمعنى: سيجزيهم على وَصْفِهِمُ الكذبَ على اللهِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ أي الذين قَتَلُوا بناتِهم أحياءً جَهْلاً منهم، (بغَيْرِ عِلْمٍ) أي بلاَ بَيَانٍ ولا حُجَّةٍ. نزلت في رَبِيْعَةَ ومُضَرٍ الذين كانوا يدفِنون بناتِهم أحياءً مخافةَ السَّبْيِ والفقرِ، إلا مَن كان مِن بني كِنَانَةَ، فإنَّهم كانوا لا يفعلونَ ذلك[1]. وقرأ الحسنُ والسلميُّ وأهلُ مكة والشَّام: (قَتَّلُوا) بالتشديد على التَّكْثِيْرِ، وخفَّفَ الباقون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ﴾ ؛ أي حَرَّمُوا على أنفسِهم ما أعطاهُم اللهُ من الرِّزْقِ ومن الأنعامِ والحرث، يعني: أنَّ هؤلاء الكفَّار لِجَهْلِهِمْ يقتلونَ البناتَ أحياءً مخافةَ الفقرِ والإنفاق، ثم يجعلون طائفةً من أموالِهم للأوثان، ويُحَرِّمُونَهَا على إناثِ أولادِهم.

وقولهُ: (افْتِرَاءً عَلَى اللهِ) أي يَفْتَرُونَ ذلك افْتِرَاءً عَلَى اللهِ؛ بأنَّ اللهَ حَرَّمَ هذه الأشياءَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ ضَلُّوا ﴾ ؛ أي ضَلُّوا في فِعْلِهِمْ هذا عنِ الْهُدَى، ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ ؛ مِنَ الضَّلاَلَةِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٨٦٢) عن عكرمة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ ؛ أولُ هذه الآية راجعٌ إلى ما قبلِها، كأنهُ قالَ: افْتِرَاءً عَلَى اللهِ وَهُوَ الَّـذِي أنْشَـأ جَنَّـاتٍ؛ أي هو الذي خَلَقَ بساتينَ مَعْرُوشَاتٍ؛ وهي الكُرُومُ رَفَعَ بَعْضَ أغصانِها على بعـضٍ، (وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) وهي الشَّجَرُ والزَّرْعُ وكلُّ ما لا يرتفعُ بعضُه علـى بعـضٍ، هكـذا رُويَ عنِ ابنِ عبَّاس والحسنِ.

ويقالُ: معنى (مَعْرُوشَاتٍ) ما لا يرفع لـه حيطـان، (وَغَـيْرَ مَعْرُوشَـاتٍ) مـا لا يجعلُ له حائطٌ، وَقِيْلَ: (مَعْرُوشَاتٍ) ما انْبَسَطَ على الأرضِ وأنبـتَ ممـا يُغْـرَسُ مثـل الكَرْمِ والقَرْعِ والبطِّيخِ وشِبْهِهَا، (وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) مـا قـامَ علـى سَـاقٍ فطـالَ مثـلَ النَّخْلِ والزَّرْعِ وسائرِ الأشجار. وقال الضَّحاكُ: (مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) الكَـرْمُ خَاصَّةً؛ مِنْهَا مَا غُرِسَ؛ وَمِنْهَا مَا لَمْ يُغْرَسْ). وروي عنِ ابنِ عبَّاس رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُمَا أيضاً: (أنَّ الـ (مَعْرُوشَاتٍ) مَا نَبَتَهُ النَّاسُ، (وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) مَـا أخِـذ مِـنَ الْـبَرَارِي وَالْجِبَالِ مِنَ الثِّمَار)[1]. يدلُّ عليه قـراءة علـي ﷺ (مَغْرُوسَـاتٍ وَغَـيْرَ مَغْرُوسَـاتٍ) بالغين والسين[2].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾ ؛ معنـاهُ: وأنشـأ النخـلَ والزرعَ، وهذا تخصيصُ بعضِ ما دخلَ في عمومِ الأوَّل؛ لكونهما أعمُّ نفعاً من جملةِ ما يكونُ في البساتين. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (مُخْتَلِفًا أكُلُهُ) أي مُخْتَلِفاً جملـةً مـن الألـوان كلِّـها، ومختلفٌ في الطَّعْمِ من الْحُلْوِ والحامضِ والْمُرِّ؛ والجيِّدِ والـرَّديءِ. ونُصِـبَ (مُخْتَلِفـاً) على الحال؛ أي أنشأهُ في حـال اختـلاف أكُلِـهِ. وقـد يقـالُ: ارتفـعَ (أكُلُـهُ) بـالابتداءِ (مُخْتَلِفاً) نَعْتُهُ، إلا أنه لَمَّا تقدَّمَ النعتُ على الاسمِ نُصِبَ، كما يقـالُ: عنـدي طَبَّاخـاً غُلامٌ، قال الشاعرُ:

الشَّـرُّ مُسْـتَتِرٌ يَلْقَـاكَ عَـنْ غُـرُضٍ وَالصَّالِحَـاتُ عَلَيْـهَا مُغْلَقـاً بَـابُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٨٦٨).

(٢) في المخطوط تصحيف: (يدل عليه قراءته ﷺ (معرشات) بالعين والشين)، والصحيح كما أثبتناه من الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٩٨.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ ؛ أي وأنْشَـأ شـجرَ الزَّيتـون والرُّمَّان، ﴿ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍۚ ﴾ ؛ أي منها ما هو متشابهٌ؛ ومنـها مـا هـو غـيرُ متشابهٍ. وَقِيْلَ: (مُتَشَابهاً) بالنَّظَرِ (وَغَيْرَ مُتَشابهٍ) في الطَّعـمِ؛ نحـوُ: كالرُّمَّـانَتَيْنِ لونُـهما واحدٌ؛ وطعمُهما مختلفٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾ ؛ هـذا أمـرُ إباحـةٍ لا أمـرُ إيجابٍ، والفائدةُ في قولهِ تعالَى: (إذا أثْمَرَ) إباحةُ الأكلِ من قَبْـلِ إخـراجِ الحـقِّ الـذي وَجَبَ فيه شائعاً للمساكين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ ﴾ ؛ أي أعْطُوا حقَّ اللهِ تعالى يَوْمَ يُحْصَدُ، أرادُوا العُشْرَ فيما سَقَتْهُ السَّماءُ، ونِصْفَ الْعُشْرِ فيما سُقِيَ بغربٍ ودَالِيَةٍ. قال ابنُ عبَّاس والحسنُ وقال ابنُ عمر ﷺ: ((وَآتُوا حَقَّهُ) مَا يَتَطَوَّعُ بِهِ الإنْسَانُ عِنْـدَ رَفْـعِ الْغُلَّةِ وَالتَّصَدُّقُ بهِ)[1].

قال مجاهدُ: (إذا حَصَدْتَ فَحَضَرَكَ الْمَسَاكِيْنُ، فَـاطْرَحْ لَـهُمْ مِنْـهُ، وَإذا دَرَسْـتَهُ وَذرَّيْتَهُ فَاطْرَحْ لَهُمْ مِنْهُ، فَإذا عَرَفْتَ كَيْلَهُ فَـأخْرِجْ زَكَائـهُ)[2]. قـال إبراهيـمُ النَّخعِـيُّ: (هَذِهِ الآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بالْعُشْرِ وَنِصْفِ الْعُشْرِ)[3]. وفي قولهِ: (حَصَادِهِ) قـراءَتـان بكسـرِ الحاء وفتحِها.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ ؛ هـــذا خطابٌ لِلأئِمَّـةِ؛ أي لا تـأخُذُوا فـوْقَ حَقِّكُـمْ، وَقِيْـلَ: خطـابٌ لأربـاب الأمـوال لا يَتَصَدَّقُوا بالجميعِ؛ فلا تُبْقُوا للعيال شيئاً. قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا يَتَسَرَّعُونَ بالْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْحَصَادِ، فَيُعْطُونَ الْمَسَاكِيْنَ وَالْفُقَرَاءَ، فَعَمَدَ ثَابتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ مِنْ بَيْنِـهِمْ خَاصَّةً، فَصَرَمَ خَمْسَمِائَةِ نَخْلَةٍ وَقَسَّمَهَا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، وَلَمْ يَتْرُكْ لأَهْلِهِ شَيْئاً، فَكَرِهَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٨٩٨) بمعناه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٨٩٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٩١٢ و١٠٩١٤) عن إبراهيم، والأثر (١٠٩٠٩) عن ابن عباس.

اللهُ ذلِكَ وَأنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى: (وَلاَ تُسْرِفُوا إنَّـهُ لا يُحِبُّ الْمُسْـرِفِينَ). أيْ لا تُجَـاوزُوا الْحَدَّ فتحتاجُوا إلى ما عندَ الناسِ.

وقال الأزهريُّ: (الإسْرَافُ: هُوَ الإنْفَاقُ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى). وقـال مجـاهدُ: (لَوْ كَانَ أبُو قُبَيْسٍ ذهباً فأنْفَقْتُهُ فِي طَاعَةِ اللهِ لَمْ تَكُـنْ سَـرَفاً، وَلَـوْ أنْفَقْـتُ دِرْهَمـاً أوْ دُونَهُ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى لَكُنْتُ مُسْرِفاً)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)؛ ظاهرُ المعنى، فقيـلَ: معنـى(لاَ تُسْـرِفُوا) لا تُنْقِصُوا عنِ العُشْرِ أو نصفِ العُشْرِ؛ فتمنعوا الصدقةَ وتأكلوُا حقَّ المساكين.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ ﴾ ؛ الْحَمُولَـةُ: كِبَـارُ الإبلِ الَّتِي يُمْكِنُ الْحَمْلُ عَلَيْهَا، وَالْفَرْشُ: صِغَارُهَــا الَّتِـي لاَ يُمْكِـنُ الْحَمْـلُ عَلَيْـهَا، سميت فَرْشاً لاستوائِها في الصِّغَرِ والانْحِطَاطِ كما سُوِّيَ مـا يُفْـرَشُ. وَقِيْـلَ: سُـميت فَرْشاً؛ لِقُرْبِهَا من الإبلِ، وتسمى أيضاً الغَنَمُ: فَرْشاً.

والمعنى: مما نشاء من الأنعامِ حَمُولَةَ وَفَرْشاً. ويقالُ: أرادَ بالفَرْشِ ما يُفْرَشُ من الثِّياب والبُسُطِ التي تُعْمَلُ من الوَبَرِ. إلا أنَّ القولَ الأوَّل أقربُ؛ لأنَّ الله تعالى ذكرَ في الآيةِ بعدَها: (ثَمَانِيَةَ أزْوَاجٍ)؛ أي أنْشَأَ اللهُ في الْحَمُولَةِ والفَرْشِ ثمانيةَ أزواجٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ إذنٌ في الأكـلِ مـن الحـــرث والأنعـامِ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ ﴾ ؛ في تحريـــم الحـرثِ والأنعــام؛ أي ولا تَتَّبعُـوا طُـرُقَ الشـيطان، فإنــه لا يدعوكُــم إلاَّ إلى المعصيــةِ، ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ﴾ ؛ أي ظاهرُ العداوةِ، وقد بَانَت عداوتهُ لأبيكُم آدمَ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ ﴾ ؛ معنـاهُ: وَأنْشَأَ لَكُمْ (ثَمَانِيَةَ أزْوَاجٍ) أي أصْنَافٍ، (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ) ذكرٍ وأنثى، يعـــني بـالذكرِ زَوْجاً وبالأنثى زَوْجاً، يقالُ لكلِّ مَن لهُ قَرِيْنٌ: زَوْجٌ، كمـا قـالَ تعـالى: ﴿اسْـكُنْ أنْـتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١١٠.
(٢) الأعراف / ١٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) أي ذكَرٍ وأنثى زوجين اثنين. والضَّأْنُ: ذوَاتُ الإلْيَةِ، وهو جمع ضَائِنٍ، كما يقال: تَاجِرٌ وتُجَرٌ، وَقِيْلَ: واحدهُ ضَائِنَةٌ. وَالْمَعْـزِ: ذوَاتُ الأَذْنَاب الْقِصَار، وفيه قراءتان: تَسْكِيْنُ العينِ؛ وفتحُها.

قوله: ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ أي قل لَهم يا مُحَمَّد: مِن أينَ جاء هذا التحريمُ الذي تذكرونه أيُّها الكفارُ في الولدِ السَّابعِ في الغنمِ أنه حرامٌ على النساءِ؛ حرَّمَ اللهُ الذكرَ من الضأنِ؛ والذكرَ من المعزِ؛ فحرَّم ولدَهما لحرمةِ الإناث؟

فإن جاءَ هذا التحريمُ من قِبَلِ ذُكورهما؛ فيجبُ أن تكون كلُّ أنثى حرامٌ عليكم، وإنْ كانَ من قِبَلِ اشتمال أرحامِ الأُنْثَيَيْن؛ فيجبُ أن يكونَ كلُّ أولادِهما من الذكرِ والأنثى حَرَاماً عليكم؛ لأنَّ الأرحام تشتملُ عليهما جميعاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ ؛ أي قُلْ للكافرين خَبرُونِي وفَسِّرُوا لِي ما حُرِّمَ عليكم ببَيَان حُجَّةٍ إنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ في مقالَتِكم: إنَّ اللهَ حَرَّمَ الوَصِيْلَةَ ونحوِها. وإنَّما قال: (إنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ) لأن الصِّدْقَ لا يُمكن إلا بعلمٍ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ ﴾ ؛ أي وَأنْشَأ مِنَ الإبلِ اثْنَيْنِ؛ ذكَرٍ وأنثى من جملةِ الثمانيةِ الأزواجِ، ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ﴾ ؛ ذكرٍ وأنثى، ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّد: إنَّكم تُحَرِّمونَ الولدَ من الجاموس والإبلِ والبقرِ على النِّساء، فمِنْ أينَ جاء هذا التحريمُ؛ مِن قِبَلِ الذكور؛ ﴿ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ ؛ أي مِن قِبَلِ الإناث؟ ﴿ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ ؛ أي مَن الذي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أرْحَامُ الأُنْثَيَيْن، ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ﴾ ؛ أي أمْ شاهَدتُم اللهَ تعالى حرَّم هذه الأشياءِ التي تحرِّمونها وأمرَكم بتحريمِها.

يعني إذا كُنْتُمْ لا تُقِرُّونَ بنَبِيٍّ من الأنبياءِ؛ فمِن أينَ عَلِمْتُمْ تحريمَ اللهِ؛ أبالْقِيَاسِ؟ لأنَّ الله تعالى أمَرَ نَبيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أن يُنَاظِرَهُمْ، ويُبَيِّنَ بالحجَّةِ فسادَ قولِهم وبطلانَ اعتقادِهم، فلمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ قَرَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ على أبي الأحْوَصِ

الْجُشَمِي ومَالِكِ بْنِ عَوْفٍ[1] - وكان هو الَّذي يُحَرِّمُ لَهم، وكانوا يرجعون إليه فيه - فَسَكَتَ مَالِكُ وَتَحَيَّرَ فِي الْجَوَاب. فَقَالَ ﷺ: [مَا لَكَ يَا مَالِكُ لاَ تَتَكَلَّمُ؟] فَقَالَ لَهُ مَالِكُ: بَلْ تَكَلَّمْ أنْتَ؛ أنَا أسْمَعُ[2].

فنزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ هذا استفهامٌ بمعنى التَّوْبيْخ وَالتَّعَجُّب؛ معناهُ: أيُّ أحدٍ أعْتَى وأجرأ على اللهِ مِمَّن اختلقَ على اللهِ كَذِباً (لِيُضِلَّ النَّاسَ بغَيْر عِلْم) أي لِيَصْرفَ النَّاسَ عن دِينه وحُكْمِهِ بالْجَهْلِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ ؛ أي لا يَهْدِيْهِمْ إلى الْحُجَّةِ فيما افْتَرَواْ على اللهِ، ويقالُ: لا يهديهم إلى حُجَّتِهِ وثوابهِ.

فلما نزلَتْ هذه الآيَةُ قال مالكُ بنُ عوفٍ: فِيْمَ هذا التحريمُ الذي حَرَّمَهُ آباؤُنا من السَّائِبَةِ والوَصِيْلَةِ وَالْحَامِ وَالْبَحِيْرَةِ؟ فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ ؛ فقرأ النبيُّ ﷺ الآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: [يَا مَالِكُ؛ أسْلِمْ] فَقَالَ: إنِّي امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي فَأُخْبِرُهُمْ عَنْكَ. فَأَبَى قَوْمُهُ؛ فَقَالُوا: كَيْفَ رَأيْتَ؟ فَقَالَ: رَأيْتُ رَجُلاً مُعَلِّماً. وَذكَرَ لَهُمْ؛ فَقَالُوا: إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أمَّةٍ وَإنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ[3].

ومعنى الآية: قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: لاَ أجِدُ فِي مَا أوحِيَ إلَيَّ من القرآن شيئاً مُحَرَّمًا عَلَى آكِلٍ يَأْكُلُهُ إلاَّ أنْ يَكُونَ مَيْتَةً لَمْ يُذكَّ؛ وهي تَموتُ حَتْفَ أنْفِ. فمَنْ قرأ (إلاَّ أنْ يَكُونَ) بالياء فعلى معنى: إلاَّ أن يكونَ المأكولُ ميتةً. ومن قرأ بالتاء؛ فعلى

---

(١) في الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٥ ص٧٤٤: الرقم (٧٦٨١)؛ قال ابن حجر: (المعروف في والد أبي الأحوص أنه مالك بن نضلة)، وفي الرقم (٧٦٩٨)؛ قال: (مالك بن نضلة الْجُشمي والد أبي الأحوص عوف). وفي ج ٤ ص٧٤٢: الرقم (٦١٠٥): ترجمة عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي. وله فيها قصة.

(٢) ذكر القصة مقاتل في التفسير: ج ١ ص٧٣٤؛ وقال: (كلم النبي ﷺ في ذلك عوف بن مالك الجُشمي، ويكنى أبا الأحوص).

(٣) من وجه آخر أخرج القصة ابن هشام في السيرة النبوية: ج ٢ ص٢٠٠.

معنى: إلا أن تكونَ تلك الأشياءُ ميتةً. وقرأ عَلِيٌّ ﵁: (يَطَّعِمُهُ) بتشديدِ الطاء، فأدْغَمَ التاءَ في الطاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا) أي دَماً مَصْبُوباً سَائِلاً، فكانُوا إذا ذبَحوا أكلُوا الدمَ كما يأكلون اللّحْمَ. وفي الآيةِ دليلٌ على أن الدَّمَ إذا لم يكن سَائِلاً مثلُ الدمِ الذي يكونُ في عُرُوقِ اللَّحْمِ الْمُذكَّى؛ فإنهُ لا يكون مُحَرَّماً؛ هكذا قالَ عكرمةُ وقتادة، وقال عمرانُ بن حُدَيرٍ: (سَأَلْتُ أبَا مِجْلزٍ عَمَّا يَتَلَطَّخُ باللَّحْم مِنَ الدَّمِ حَتَّى يُرَى فِيْهِ حُمْرَةُ الدَّمِ؛ قَالَ: لاَ بَأْسَ بِهِ؛ إنَّمَا نُهِيَ عَنِ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ وَهُوَ الْمُهْرَاق السَّائِلِ، لَكِن يحرم لِعَيْنِهِ)[1]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ) فيه بيانٌ أنَّ لحمَ الخنْزيرِ لا يحرمُ لكونهِ ميتةً، لكن يحرم لِعَيْنِهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) عطفٌ على قوله: (أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ). والمرادُ بالفِسْقِ: المذبوحُ للصَّنَمِ؛ وهو الذي يُذْكَرُ على ذبْحِهِ اسمُ غيرِ الله. ومعنى: (أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بهِ) أي رُفِعَ به؛ مأخوذٌ من الإهْلاَل الذي هو رَفْعُ الصَّوْتِ؛ ومنهُ إهلالُ الْمُحْرِمِ في الحجِّ، ومنهُ قولهُ ﷺ: [إذا اسْتَهَلَّ الصَّبِيُّ وَرثَ وَصُلِّيَ عَلَيْهِ][2]. وأما الرِّجْسُ؛ فمعناهُ: الْحَرَامُ، وكلُّ ما استقذرتَهُ فهو رجْسٌ، والرِّجْسُ العذابُ في غيرِ هذا الموضعِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ ؛ أي مَن دَعَتْهُ الضرورةُ إلى أكلِ شيء مِن هذه الْمُحَرَّمَاتِ؛ غيرَ طالبٍ التلذُّذ بتناولهِ، ولا متجاوزٍ قَدْرَ المباحِ منه؛ ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ ؛ إذْ رَخَّصَ لكم تناوُلَ هذه الأشياءِ عند الضَّرورةِ؛ أي أكلُ شيء من هذه الْمُحَرَّمَاتِ.

فإن قِيْلَ: لِمَ قَصَرَ التحريمَ في هذه الآيةِ على الأشياءِ المذكورة فيه؛ مع أنه تَعَالَى قد حَرَّمَ أشياءَ غيرَها في أوَّلِ سورة المائدة؟ قِيْلَ: لأنَّ هذه الآيةَ مكيَّةٌ؛ نزلت في جواب الذين جادَلُوا رسولَ اللهِ ﷺ في تحريمِ البَحِيْرَةِ وَنَحْوِهَا، فكانت هذه الأربعُ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٩٥٧) بإسنادين.

(٢) أخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب الفرائض: الحديث (٦٠٣٢) بإسناد صحيح.

الْمُحَرَّمَاتُ المذكوراتُ في هذه الآية مُحَرَّمَةٌ يومَ الْمُجَادَلَةِ، ثم نزلت بعدَ هذه الآيةِ تحريمُ غيرِها بقولِهِ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ في سورةِ المائدة[1].

وهذه الآية لا تمنعُ شيئاً آخرَ لخبرِ الآحاد، والقياسُ على الْمُحَرَّمَاتِ المنصوصَةِ لاتِّفاقِ الفقهاءِ على تحريمِ أشياءِ غير مذكورةٍ في هذه الآية كالخمْرِ ولحمِ القِرْدِ والنجاسات. وأما الخبرُ المرويُّ عن رسول الله ﷺ أنهُ: [نَهَى عَنْ أكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ؛ وَكُلِّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ][2] فهو بمَنْزلَةِ آيةٍ من كتاب اللهِ تعالى؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[3].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ ؛ في هذه الآية بيانُ ما حَرَّمَ اللهُ على اليهودِ. قال ابنُ عبَّاس: (أرَادَ بقَوْلِهِ: (كُلَّ ذِي ظُفُرٍ) الإبلَ وَالنَّعامَ وَالْبَطَّ وَالإوَزَّ وَمَا أشْبَهَ ذلِكَ مِمَّا لاَ يَكُونُ مُنْفَرِجَ الأَصَابعِ)[4]. وَقِيلَ: أراد به ما يصيدُ بالظُّفُرِ مثلَ النُّسُور والبراري وما يُشَاكِلُ ذلكَ من السِّبَاعِ والكلاب. وقال ابنُ زيدٍ: (هِيَ الإبلُ فَقَطْ)[5]. قرأ الحسنُ: (كُلَّ ذِي ظِفْرٍ) بكسرِ الظَّاء وإسكان الفاء. وقرأ أبو السَّمَال: (ظِفِرٍ) بكسرِهما جميعاً[6]؛ وهي لغةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ ؛ من الشَّحْمِ وهو السَّمْنُ، ﴿ أَوِ ﴾ ؛ ما حَمَلَتِ؛ ﴿ ٱلْحَوَايَآ ﴾ ؛ وهي الْمَبَاعِرُ والأمْعَاءُ التي عليها الشَّحْمُ من داخلِها؛ واحدتُها حَاوِيَةٌ وحَاوِيَاءُ

(١) الآية / ٣.

(٢) أخرجه الإمام احمد في المسند: ج ١ ص٣٠٢. والطبراني في المعجم الكبير: الحديث (١٢٩٩٤ و١٢٩٩٥) وإسناده صحيح.

(٣) الحشر / ٧.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٩٦٢).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٠٩٧٠).

(٦) في اللباب في علوم الكتاب: ج ٨ ص٤٨٧؛ قال الحنبلي: ((نسبها الواحدي قراءة لأبي السَّمَال)). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٢٤-١٢٥؛ قال القرطبي: (وقرأ أبو السَّمال (ظِفِرٍ) بكسر الظاء وإسكان الفاء. وأنكر أبو حاتم كسر الظاء وإسكان الفاء، ولم يذكر هذه القراءة وهي لغة. و(ظِفِرٍ) بكسرهما.

وحَوِيَّة؛ سُميت بذلك لأنَّها تَحوي ما في البَطْنِ. وقولـهُ: ﴿ أَوْ مَا اَخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ ؛ أرادَ به ما يكونُ من الشَّحْمِ الْمُخَلَّطِ من اللَّحمِ على عَظْمِ الجنب. وأما الإلْيَـةُ؛ فقد كانت داخلةً في التحريم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ ؛ أي ذلـك التحريـمُ عاقبنـاهُم بظلمِهم، ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ ؛ فيما نقولُ إنَّ هذه الأشياءِ كانت حَلالاً في الأصلِ؛ فحرَّمناها على اليهودِ بمعصيتِهم ومخالفتهم لأنبيائِهم، وكانتِ اليهودُ مع هـذا التحريمِ يجملونَ الشُّحُومَ فيبيعونَـها؛ فيستحلُّون ثمنَـها؛ كما قـال ﷺ: [لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ؛ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا وَبَاعُوهَـا وَأَكَلُـوا ثَمَنَـهَا؛ إنَّ اللهَ تَعَـالَى إذا حَرَّمَ شَيْئاً حَرَّمَ بَيْعَهُ وَأَكْلَ ثَمَنِهِ][١].

فلمَّا نزلت هذه الآيةُ؛ قال ﷺ: [هَذا مَا أوْحَى اللهُ تَعَالَى إلَيَّ أنَّـهُ مُحَـرَّمٌ مِنْـهُ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ، وَمِنْهُ عَلَى الْيَهُودِ][٢]. فقالَ المشركون: إنَّكَ لَـمْ تُصِـبْ فيمـا قُلْـتَ، فقـال الله عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ﴾ ؛ أي إنْ أنْكَرُوا ولم يقبلُوا قولَكَ؛ فقُلْ: (رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) بالإمهال بـأن لَـنْ يُعَـاجِلَكُمْ بالعقوبةِ؛ ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يُرَدُّ عذابهُ عن المشركين واليهودِ إذا جاء وقتُ العذاب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا ﴾ ؛ أي آباؤُنا من قبلِنا الذين اسْتَنَنَّا بهم، ﴿ وَلَا حَرَّمْنَا ﴾ ؛ على أنفسِنا؛ ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ ؛ من الحرْثِ والأنعام، ولكنه شاءَ لنا الشِّرْكَ والتحريمَ.

قَالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ﴾ ؛ أي قـالَ؛ ﴿ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ أي هكذا كَذبَ الذين مِن قبلِهم رُسُلَهُمْ كما كَذبَ قومُـك، ﴿ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ ؛ أي عذابَنا. ومن قرأ (كَذلِكَ كَذبَ الَّذِينَ) بالتخفيفِ؛ فمعناهُ: كما كَذبَ قومُك علـى اللهِ؛ كذلك كَذبَ مَن قبلَهم من الأُمَمِ الخالية على اللهِ؛ حتى ذاقُوا عذابَنا.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٢ ص١٥٥: الحديث (١٢٨٨٧) عن ابن عبـاس. وأبـو داود في السنن: كتاب البيوع: باب في ثمن الخمر: الحديث (٣٤٨٨) وإسناده صحيح.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير: ج ٤ ص١٤٤.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ ؛ أي قـل لَـهم يـا مُحَمَّد: هَلْ عندَكم من عِلْمٍ من بَيَانٍ وحُجَّـةٍ غـيرِ مـا في القُـرْآن؛ فَبَيِّنُـوهُ لَنَـا، ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ ؛ يعني ظَنَّهُمْ في تحريمِ البَحِيْرَةِ والسَّائِبَةِ وَالْوَصِيْلَةِ وَالْحَـامِ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ ؛ أي ما أنتم إلاَّ تَكْذِبُونَ على اللهِ.

قال المشركون: لو شاءَ الله ما أشْرَكْنَا، علـى وجـهِ الاسـتهزاء؛ فكذبَـهم اللهُ في ذلك، وإنْ كانت المشيئةُ حقّاً كما في سورة (المنافقون): ﴿إذا جَـاءَكَ الْمُنَـافِقُونَ قَـالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ لَكَـاذِبُونَ﴾(١) فكذبَهم الله في قولِهم: إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ؛ وإن كان ذلك حَقّاً؛ لأنَّهم قـالوا علـى وجـهِ الاستهزاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا آبَاؤُنَا) عطفٌ على الْمُضْمَرِ المتَّصل؛ معناهُ: مـا أشْـرَكْنَا نحـنُ ولا آباؤنا. ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ بعضَهم قـال: إنَّ مشـيئةَ المعـاصي إذا أُضيفـت إلى اللهِ تعالى كـان معناها الْخُذْلاَنَ مجازاةً لَهم على سُوءِ أفعالِهم، وإصرارهم على المعصيةِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ الله قد أبلغَكم حُجَّتَهُ؛ وهو ما أحَلَّهُ من الثمانيةِ أزواجٍ؛ فلو شاءَ لَوَفَّقَكُمْ لدينهِ وأكرمَكم بمعرفته. وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: قَدْ قَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ وَجَاءَكُـمُ الرَّسُـولُ؛ فَلَوْ شَاءَ لَوَفَّقَكُمْ وأجْبَرَكُمْ على الإيْمان). و(الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ): التَّامَّةُ الكافيةُ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّد: هَاتُوا شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أنَّ اللهَ حَرَّمَ هذه الأشـياءِ، ﴿ فَإِن شَهِدُواْ ﴾ ؛ بأنَّ اللهَ حرَّمَها، ﴿ فَلَا تَشْهَدْ ﴾ ، أنتَ يـا مُحَمَّـدُ، ﴿ مَعَهُمْ ﴾ ؛ لأنَّهم لا يشهدون إلاَّ الباطِل.

---

(١) الآية / ١.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٢٨؛ قال القرطبي: ((أي التي تقـع عنـد المحجـوج، وتزيـل الشك عمن نظر فيها. فحجته البالغة على هذا: تبيينه أنه الواحـدُ، وإرسـاله الرسـل والأنبيـاء، فبيَّن التوحيد في النظر في المخلوقات، وأيَّد الرسل بالمعجزات، ولزم أمره كل مكلف. فأما علمه وإرادته وكلامه فغيبٌ لا يطلع عليه العبد، إلا من ارتضى من رسول. ويكفـي في التكليـف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن ما أمر به لأمكنَهُ)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ ﴾ ؛ أي لا تَعْمَلْ بهوى الذين جَحَدُوا بكَ وبـالقُرْآن؛ ولا بـهوى الذيـن لاَ يُصَدِّقُونَ بالبعثِ. وإنَّما فَصَلَ بين الفريقين؛ لأنَّ مِن الكفار مَن يُؤْمِنُ بـالبعثِ كـأهل الكتاب؛ ومنهُم مَـن لا يؤمِـن بذلـكَ كَعَبَـدَةِ الأوثـان. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ ؛ أي يُسَوُّونَ باللهِ تعالى في الطاعةِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي قل يا مُحَمَّد لِمَالِكِ بنِ عوفِ الْخُشمي ولأصحابـه: هَلُمُّـوا واجْتَمِعُـوا أقْـرَأ عليكـم الذي حَرَّمَ ربُّكم عليكُم.

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي أوْصِيكُـمْ وآمُرُكُـمْ أنْ لا تُشْرِكُوا. ويقال: أتْلُوا عليكم أنْ لا تُشركوا كما في قولِهِ: ﴿مَا مَنَعَـكَ ألاَّ تَسْجُدَ﴾(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ ؛ أي وَأوْصِيكُـمْ بـالوالدين؛ أي بالإحسـان إلى الوالدين برّاً بهما وعَطْفاً عليهما، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ﴾ ؛ أي لا تَدْفُنُوا بناتِكم أحياءً مخافةَ الفقرِ.

والإملاقُ في اللغة: نَفَادُ الزَّادِ وَالنَّفَقَةِ، يقال: أمْلَقَ الرجلُ؛ إذا نَفِدَ زَادُهُ ونَفَقَتُهُ، ومنه الْمَلَقُ؛ وهو بَذْلُ الْمَجْهُودِ فِي تَحْصِيْلِ الْمُرَادِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ؛ أي علينا رزْقُكُمْ ورزْقُهُمْ جميعاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ؛ أي لا تقربوا الزنا مسرِّين ولا معلنين، ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي إلاَّ بإحدى ثلاثِ خِلاَلٍ: زناً بعد إحْصَانٍ؛ وكفرٌ بعد إيْمانٍ؛ وقتلُ نفسٍ بغير حقٍّ.

وروي أن عثمان ﷺ حين أرادوا قتله أشرف عليهم وقـالَ: (عَـلاَمَ تَقْتُلُونِـي؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بإحْدَى ثَلاَثٍ: رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إحْصَانٍ؛ فَعَلَيْهِ الرَّجْمُ، وَرَجُلٌ قَتَلَ عَمْداً، أو ارْتَدَّ بَعْدَ إسْلاَمِهِ]. فَوَاللهِ مَا زَنَيْـتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إسْلاَمٍ؛ وَلاَ قَتَلْتُ أحَداً فَأفْتَدِي نَفْسِي مِنْهُ؛ وَلاَ ارْتَدَدْتُ مُنْذُ أسْلَمْتُ؛

---

(١) الأعراف / ١٢.

إنِّي أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ﷺ)(1).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴾ ؛ أي هذا الذي ذُكِرَ لكـم أمَرَكُـمُ اللهُ في كتابهِ لِكَي تَفْعَلُوا ما أمرَكم بهِ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ ؛ أي لاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ الذي لا أبَ لهُ إلا لِحِفْظِهِ وتَميـيزه وإصلاحِـه، (حَتَّـى يَبْلُـغَ أشُـدَّهُ). قـال الشـعبيُّ: (هُـوَ بُلُـوغُ الْحُلُـمِ؛ حَيْـثُ تُكْتَـبُ الْحَسَـنَاتُ وَتُكْتَـبُ عَلَيْـهِ السَّيِّئَاتُ).

وقال السُّدِّيُّ:(الأَشُدُّ: أنْ يَبْلُغَ ثَلاَثِيْنَ سَنَةً)(2). وقال الكلـبيُّ: (مَـا بَيْـنَ ثَمَـانِي عَشْرَةَ سَنَةً إلَى ثَلاَثِيْنَ سَنَةً). وجعل أبُو حَنِيْفَةَ غَايَةَ الأَشُدِّ: (خَمْسـاً وَعِشْـرِيْنَ سَـنَةً؛ فَإذا بَلَغَهَا دَفَعَ إلَيْهِ مَالَهُ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْتُوهاً).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ؛ أي أتِمُّــوا الكَيْــلَ والوزنَ بالعدلِ عند البيعِ والشِّـراء، ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ؛ أي إلاَّ طاقَتَـها وجَهْدَهَا. وهذه الآيةُ أصلٌ في جواز الاجتهاد في الأحكام، وإنَّ كلَّ مُجْتَـهِدٍ مُصِيْـبٌ؛ فإذا اجتهدَ الإنسانُ في الكيلِ والوزن، ووَقَعَتْ فيـه زيـادةٌ يسـيرةٌ أو نقصـان يسـيرٌ لم يُؤَاخِذْهُ اللهُ به إذا اجتهدَ جهده، وإنه اعتاد الكيـل علـى ذلـك فـزادَ أو نقـص أثبـت التراجع إذا كان ذلك القدر من التفاوت مما يقع بين الكيلين.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ ؛ أي إذا قُلْتُــمْ فَاعْدِلُوا في الْمَقَالَةِ. قِيْلَ: معناه: قولوُا الحقَّ إذا شهدتُم وحكمتُـم ولـو كـان المشـهودُ عليه أوْلِي قرابةٍ من الشاهد.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٦١ و٦٥ و٧٠. وأبــو داود في الســنن: كتـاب الديـات: باب الإمــام يـأمر بـالعفو: الحديـث (٤٥٠٢). والـترمذي في الجـامع: أبـواب الفـتن: الحديـث (٢١٥٨) وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠١٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾ ؛ أي أتِمُّوا فرائضَ اللهِ التي أمرَكم بها، كما قالَ تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ ﴾[١]. ويقال: أرادَ بالعهدِ في هذه الآية: النَّذرَ واليمينَ، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بعَهْدِ اللهِ إذا عَاهَدْتُمْ﴾[٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ ؛ أي في هذا الذي ذكَرَهُ اللهُ لكم وأمرَكم اللهُ به في الكتاب لكي تتَّعِظُوا فتَمْتَنِعُوا عنِ الْمُحَرَّمَاتِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ ؛ في الجنَّة. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ ؛ أي اعْتَقِدُوا حلالَ هذا الدينِ وحرامَه ومَأْمُورَهُ ومَنْهِيَّهُ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ﴾ ؛ أي ولا تتَّبعُوا اليهوديَّةَ والنصرانيَّة وسائرَ مِلَلِ الكفرِ؛ فإنَّها سَبيلُ الشَّيْطانِ وهي طريقُ النَّار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ؛ أي فَيُضِلُّكُمْ ذلك السُّبُلُ الذي تتَّبعونَه بهواكم عن دينِ الله الذي هو الإسلامُ، ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴾ ؛ أي هذا الذي أمرَكم اللهُ به في القُرآنِ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ ؛ أي لِتَتَّقُوا السُّبُلَ المختلفةَ وتَسْتَقِيْمُوا على الإيْمانِ.

قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (هَذِهِ الثَّلاَثُ آيَاتٍ مِنَ الْمُحْكَمَاتِ؛ وَهُنَّ إمَامٌ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيْلِ وَالزَّبُور وَالْفُرْقَان؛ لَمْ يَنْسَخْهُنَّ شَيْءٌ فِي جَمِيْعِ الْكُتُبِ؛ وَهِيَ مُحَرَّمَاتٌ عَلَى بَنِي آدَمَ كُلِّهِمْ؛ وَهُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ؛ مَنْ عَمِلَ بهنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ؛ وَمَنْ تَرَكَهُنَّ دَخَلَ النَّارَ)[٣]. قال كعبُ الأحبَار: (وَالَّذِي نَفْسُ كَعْبٍ بِيَدِهِ؛ إنَّ هَذِهِ لأَوَّلُ شَيْءٍ فِي التَّوْرَاةِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ؛ قُلْ تَعَالَوْا أتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ. إلَى آخِرِ الآيَاتِ الثَّلاَثِ)[٤].

---

(١) يس / ٦٠.
(٢) النحل / ٩١.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠١٧) مختصراً، وفي الأثر (١١٠٢٤) عن ابن عباس وقال: ((أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله)).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠١٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ ؛ معناه: بل آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ. وَقِيْلَ: معنى (ثُمَّ) معنى العطفِ كأنه قال تعالى: أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ثم أَتْلُ ما آتاهُ اللهُ موسى من التَّوراةِ. قولهُ: (تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ) أي تَماماً للأَحْسَنِ على الْمُحْسِنِيْنَ النَّبِيُّ موسَى عليه السلام أحدُهم.

ويقالُ: معناه: تَماماً على ما أَحْسَنَ موسَى عليه السلام. وكان موسَى عليه السلام مُحْسِناً في معرفةِ العلمِ وكُتُب المتقدِّمين، فأعطيناهُ التوراةَ زيادةً على ذلك. و(تَماماً) نُصِبَ على القطع. وَقِيْلَ: على التَّفسيرِ. وقرأ ابنُ عمر: (عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ) بالرفعِ على معنى: على الذي هُوَ أَحْسَنُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ ؛ أي تَتْمِيْماً بالإحسانِ إليهم؛ وتَبْيِيْناً لكلِّ شيءٍ من الحلالِ والحرام؛ والهُدى من الضَّلالةِ؛ والنَّجاةَ من العذابِ لِمَنْ آمَنَ به وعَمِلَ بما فيه؛ لَعَلَّهُمْ بالبعثِ الذي فيه جزاءُ الأعمال يُقِرُّونَ وَيُصَدِّقُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ ؛ أي وَهَذا القُرْآنُ كتابٌ أنزلناهُ فيه بركةٌ وخير كثيرٌ لِمن آمَنَ به. ومعنى الْبَرَكَةِ: ثُبُوتُ الْخَيْرِ وديمومتهُ، ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ ؛ أي اقْتَدُوا به في أوامرِهِ ونواهيه، ﴿ وَٱتَّقُواْ ﴾ ، مُخالفتَه وسُخْطَهُ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ ؛ لتكونوا على رَجَاءِ الرَّحمةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ ؛ أي كراهةَ أن يقولوا: إنَّما أنزلَ الكتابَ على طائفتين مِن قبلِنا؛ أرادَ به التوراةَ لليهود؛ والإنجيلَ للنصارى، ﴿ وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ ؛ أي وقد كُنَّا عن قراءةِ كُتُبهِمْ التوراةِ والإنجيل لَغَافِلِيْنَ عمَّا فيه. وَقِيْلَ: معناهُ: وما كُنَّا عن قراءةِ كتُبهم التوراةَ والإنجيل إلاَّ غافلين عمَّا فيهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي وكراهةَ أن يقولوا: لَوْ أنَّا أنزلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ كما أنْزلَ على اليهودِ والنصارى، لكُنَّا أسرعُ إجابةً منهم. وذلك: أنَّ أهلَ مكَّة كانوا يقولون: قاتلَ اللهُ اليهودَ؛ كيف كذبوا على أنبيائِهم، واللهِ لو جاءَنا نذيرٌ وكتابٌ لَكُنَّا أهْدَى منهم.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ أي القُرآنُ بَيَاناً ودلالةً من ربكم، ﴿ وَهُدًى ﴾ ؛ مِن الضَّلالة؛ ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ ؛ لِمن آمنَ به واتَّبعَهُ، رَحِمَ اللهُ بإنزالهِ عبادَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لا أحدُ أعتَى ولا أجْرأ على الله مِمَّنْ كَذبَ بآيات اللهِ، ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ ؛ أي أعْرَضَ عنها، ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ ؛ أي سَنُعَاقِبُ الذين يُعْرِضُونَ عن آياتِنا بأقبحِ العذاب وأشدِّه بإعراضِهم وتكذِيبِهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ؛ أي ما يَنْظُرُ أهلُ مكةَ بعد نزول الآيات وقيام الْحُجَجِ عليهم إلا إتيانَ مَلَكِ الموتِ وأعوانهِ لِقَبْضِ أرواحِهم؛ أي لَمْ يَبْقَ إلاَّ هذا. قولهُ: ﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ ؛ معناهُ: أو يَأْتِيَ أمرُ ربكَ بإهلاكِهم والانتقامِ منهم؛ إمَّا بعقابٍ عاجل أو بالقيامَةِ. وقولُهُ: ﴿ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ ؛ يعني طلوعَ الشَّمْسِ من مغربها.

قال الحسن: (أوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبكَ الْحَاجَّة مِنَ التَّوْبَةِ)، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [بَادِرُوا بالأَعْمَال سِتّاً: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْربـهَا؛ وَدَابَّةَ الأَرْضِ؛ وَخُرُوجَ الدَّجَّال؛ وَالدُّخَانَ؛ وَخُوَيْصَةَ أحدِكُمْ - يَعْنِي مَوْتَهُ -، وَأمْرَ الْعَامَّةِ - يَعْنِي الْقِيَامَةَ][(١)].

وقال ﷺ: [بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِب مَسِيْرَةَ أرْبَعِيْنَ سَنَةٍ، وَمَلَكٌ قَائِمٌ عَلَى ذلِكَ الْبَاب يَدْعُو النَّاسَ إلَى التَّوْبَةِ، فَإذا أرَادَ اللهُ أنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْربهَا؛ طَلَعَتْ مِنْ ذلِكَ الْبَاب سَوْدَاءَ لاَ نُورَ لَهَا؛ فَتَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ ثُمَّ رَجَعَتْ، فَيُغْلَقَ الْبَابُ وَتُرَدُّ التَّوْبَةُ، ثُمَّ تَرْجِعُ إلَى شَرْقِهَا لِتَطْلُعَ بَعْدَ ذلِكَ مِائَةً وَعِشْرِيْنَ سَنَةً، إلاَّ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣٩٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد وعبد بن حميد ومسلم والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي هريرة)). وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الفتن: الحديث (٨٦٢١)؛ وقال: ((قد احتج مسلم بعبدالله بن رباح، هذا حديث صحيح ولم يخرجاه)) ولقد وهم فيه الحاكم؛ أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الفتن: باب في بقية من أحاديث الدجال: الحديث (١٢٨ و١٢٩/ ٢٩٤١).

أَنَّهَا سَوْدَاءُ تَمُرُّ مَرّاً][1].

وعن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا غَرَبَتِ الشَّمْسُ؛ رُفِعَ بِـهَا إِلَـى السَّمَاءِ السَّابعَةِ فِي سُرْعَةِ طَيَرَانِ الْمَلاَئِكَةِ، وَتُحْبَسُ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُسْتَأْذَنُ مِـنْ أَيْـنَ تَطْلُعُ؛ أَمِنْ مَطْلَعِهَا أَمْ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَكَذا الْقَمَرُ، فَلاَ يَزَالاَ كَذلِكَ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بالْوَقْتِ الَّذِي وَقَّتَهُ لِتَوْبَةِ عِبَادِهِ.

وَتَكْثُرُ الْمَعَاصِي فِي الأَرْضِ، وَيَذْهَبُ الْمَعْـرُوفُ فَـلاَ يَـأْمُرُ بِـهِ أَحَـدٌ، وَيَكْـثُرُ الْمُنْكَرُ فَلاَ يَنْهَى عَنْهُ أَحَدٌ، فَإِذا فَعَلُوا ذلِكَ حُبِسَتِ الشَّمْسُ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَإِذا مَضَى مِقْدَارُ لَيْلَةٍ سَجَدَتْ، وَاستَأْذَنَتْ رَبَّهَا مِنْ أَيْنَ تَطْلُعُ، فَلَمْ يَجِئْ لَهَا جَوَابٌ حَتَّى يُوَافِقَهَا الْقَمَرُ، فَيَسْجُدُ مَعَهَا؛ فَلاَ يَعْرِفُ مِقْدَارَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ إلاَّ الْمُتَهَجِّدُونَ فِـي الأَرْضِ؛ وَهُـمْ يَوْمَئِذٍ عِصَابَةٌ قَلِيْلَةٌ فِي هَوَانٍ مِنَ النَّاسِ.

فَيَنَامُ أَحَدُهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِثْلَ مَا يَنَامُ قَبْلَهَا مِنَ اللَّيَالِي، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَـهَجَّدُ وِرْدَهُ؛ فَلاَ يُصْبِحُ؛ فَيُنْكِرُ ذلِكَ، فَيَخْرُجُ وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ؛ فَإِذا هِيَ باللَّيْلِ مَكَانَـهَا وَالنُّجُـومُ مُسْتَدِيْرَةٌ، فَيُنْكِرُ ذلِكَ وَيَظُنُّ فِيْهِ الظُّنُونَ، فَيَقُولُ: خَفَّتْ قِرَاءَتِي؛ أَوْ قَصُرَتْ صَلاَتِي؛ أَمْ قُمْتُ قَبْلَ حِيْنٍ؟!

ثُمَّ يَقُومُ فَيَعُودُ إِلَى مُصَلاَّهُ، فَيُصَلِّي نَحْوَ صَلاَتِهِ فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ يَنْظُرُ؛ فَـلاَ يَرَى الصُّبْحَ، فَيَخْرُجُ فَإِذا هُوَ باللَّيْلِ كَمَا هُوَ، فَيُخَالِطُهُ الْخَوْفُ، ثُمَّ يَعُودُ وَجِلاً خَائِفـاً إِلَى مُصَلاَّهُ، فَيُصَلِّي مِثْلَ وِرْدِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلاَ يَرَى الصُّبْحَ؛ فَيَشْتَدُّ بِهِ الْخَوْفُ.

فَيَجْتَمِعُ الْمُتَهَجِّدُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي فِـي مَسَـاجِدِهِمْ، وَيَجْـأَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى بالْبُكَاءِ وَالتَّضَرُّعِ. فَيُرْسِلُ اللهُ تَعَالَى جِبْرِيْلَ عليه السلام إِلَى الشَّـمْسِ وَالْقَمَـرِ فَيَقُولُ لَهُمَا: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمَا أَنْ تَرْجِعَا إِلَى مَغَارِبِكُمَا فَتَطْلُعَا مِنْهُ، فَإِنَّهُ لاَ ضَـوْءَ لَكُمَـا عِنْدَنَا وَلاَ نُورَ، فَيَبْكِيَانِ عِنْدَ ذلِكَ وَجَلاً مِنَ اللهِ بُكَاءً يَسْـمَعُهُ أَهْـلُ السَّـمَوَاتِ السَّبْعِ وَأَهْلُ سُرَادُقَاتِ الْعَرْشِ، ثُمَّ يَبْكِي مَنْ فِيهِمَا مِنَ الْخَلاَئِقِ مِنْ خَوْفِ الْمَوْتِ وَالْقِيَامَةِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١٠٨٥) بلفظ قريب وأسانيد.

فَبَيْنَمَا الْمُتَهَجِّدُونَ يَبْكُونَ وَيَتَضَرَّعُونَ وَالْغَافِلُونَ فِي غَفَلاَتِهِمْ؛ إذا بالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ قَدْ طَلَعَتَا مِنَ الْمَغْرِب أسْوَدَان لاَ ضَوْءَ لِلشَّمْسِ وَلاَ نُورَ لِلْقَمَرِ كَصِفَتِهِمَا فِي كُسُوفِهِمَا، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[(١)]، فَيَرْتَفِعَان كَذلِكَ مِثْلَ الْبَعِيرَيْنِ يُنَازِعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا اسْتِبَاقاً، فَيَتَصَارَخُ أهْلُ الدُّنْيَا حِينَئِذٍ وَيَبْكُونَ.

فَأمَّا الصَّالِحُونَ فَيَنْفَعُهُمْ بُكَاؤُهُمْ، وَيُكْتَبُ لَهُمْ عِبَادَةً، وَأمَّا الْفَاسِقُونَ فَلاَ يَنْفَعُهُمْ بُكَاؤُهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَيُكْتَبُ ذلِكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً وَنَدَامَةً. فَإذا بَلَغَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ سُرَّةَ السَّمَاءِ وَمُنْتَصَفَهَا، جَاءَ جِبْرِيْلُ فَأخَذَ بقُرُونِهِمَا فَرَدَّهُمَا إلَى الْمَغْرِب؛ فَيَغْرُبَانِ فِي بَاب التَّوْبَةِ].

فَقَالَ عُمَرُ: بأبِي وَأمِّي أنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا بَابُ التَّوْبَةِ؟ قَالَ: [يَا عُمَرُ؛ خَلَقَ اللهُ بَاباً لِلتَّوْبَةِ خَلْفَ الْمَغْرِب؛ لَهُ مِصْرَاعَان مِنْ ذهَبٍ؛ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعِ إلَى الْمِصْرَاعِ أرْبَعُونَ سَنَةً لِلرَّاكِب، فَذلِكَ الْبَابُ مَفْتُوحٌ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ خَلْقَهُ إلَى صَبيْحَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنْ مَغْرِبهِمَا، فَإذا غَرَبَا فِي ذلِكَ الْبَاب رُدَّ الْمِصْرَاعَان وَالْتَأمَ مَا بَيْنَهُمَا، فَيَصِيْرُ كَأنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا صَدْعٌ. فَإذا أغْلِقَ بَابُ التَّوْبَةِ لَمْ يُقْبَلْ لِلْعَبْدِ تَوْبَةٌ بَعْدَ ذلِكَ، وَلَمْ يَنْفَعْهُ حَسَنَةٌ يَعْمَلُهَا إلاَّ مَنْ كَانَ قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِناً، فَإنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا كَانَ يَجْرِي قَبْلَ ذلِكَ الْيَوْمِ.

فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾، قال السُّدِّيُّ: (لاَ يَنْفَعُ أحَداً فِعْلُ الإيْمَانِ وَلاَ فِعْلُ الْخَيْرِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، فَإنَّمَا يَنْفَعُ فِعْلُ هَذا قَبْلَ تِلْكَ الْحَال)[(٢)].

وَقِيْلَ: معنى (خَيْراً) إخْلاَصاً؛ أي إذا لم تَكُنِ النفسُ مخلصةً قبل مجيءِ الآياتِ؛ لا ينفعُها الإخلاصُ بعدَ مجيء الآياتِ، ﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾، فَقَالَ أبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَكَيْفَ بالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ بَعْدَ ذلِكَ؟ وَكَيْفَ بالنَّاسِ

---

(١) القيامة / ٩.

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠٨٠). عن السدي يقول: (كسبت في تصديقها خيراً عملاً صالحاً، فهؤلاء أهل القبلة. وإن كانت مصدقة ولم تعمل قبل ذلك خيراً فعملت بعد أن رأت الآية لم يقبل منها. وإن عملت قبل الآية خيراً ثم عملت بعد الآية خيراً، قُبل منها).

وَالدُّنْيَا؟ فَقَالَ: [يَا أُبَيُّ؛ إنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يَكْبتَان الضَّوْءَ بَعْدَ ذلِكَ، ثُمَّ يَطْلُعَان وَيَغْرُبَان كَمَا كَانَا قَبْلَ ذلِكَ يَطْلُعَان وَيَغْرُبَان. فإنَّ النَّاسَ رأوا ما رأوا في فظاعة تلك الآية، يلحون عَلَى الدُّنْيَا[1] حَتَّى تَجْرِي إلَيْهَا الأَنْهَارُ وَيَغْرِسُوا فِيْهَا الأَشْجَارَ، وَيَبْنُوا فِيْهَا الْبُنْيَانَ].

فقال حذيفةُ بن أسيدٍ والبراءُ بن عازبٍ: كُنَّا نَتَذاكَرُ السَّاعَةَ إذْ أشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: [مَا تَتَذاكَرُونَ؟] قُلْنَا: السَّاعَةَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [إنَّهَا لاَ تَقُومُ حَتَّى يَخْرُجَ الدَّجَّالُ؛ وَدَابَّةُ الأَرْضِ؛ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ؛ وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ؛ وَنُزُولُ عِيْسَى؛ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبهَا][2].

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْربهَا؛ فَإذا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ؛ آمَنُوا جَمِيْعاً، فَذلِكَ حِيْنَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أوْ كَسَبَتْ فِي إيْمَانِهَا خَيْرًا][3].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ ؛ قرأ حمزةُ والكسائيُّ: (فَارَقُوا) بالألفِ؛ أي خَرَجُوا من دينِهم وتركوهُ؛ وهي قراءةُ عَلِيٍّ ﷺ[4]. وقرأ الباقونَ (فَرَّقُوا) بالتَّشديدِ بغيرِ ألفٍ؛ وهي قراءةُ ابنِ مسعُودٍ وابنِ عبَّاس وأُبَيِّ بنِ كعبٍ؛ أي جعلُوا دينَ الله فِرَقاً يتهوَّدُ قوم، ويَتَنَصَّرُ قومٌ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَكَانُوا شِيَعًا) أي فِرَقاً مختلفةً.

وقال مجاهدُ: (أرَادَ بهِمُ الْيَهُودَ)[5] فَإنَّهُمْ كَانُوا يُمَالِئُونَ الْمُشْرِكِيْنَ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ. وقال قتادةُ: (هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ فَإنَّ بَعْضَهُمْ يُكَفِّرُ

---

(١) في المخطوط: (وأما الناس على الدنيا) وملاحظ فيه الخلل، إذ فيه سقط. فضبط النص كما في تفسير الثعلبي: الكشف والبيان: ج ٤ ص٢٠٩.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٣٩٦-٣٩٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه بسند واه عن ابن عباس عن النبي ﷺ... وذكره)).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠٥٦) وأصله في الصحيحين.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠٨٢).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠٨٥)، بأسانيد.

بَعْضاً)[١]. وعن أبي هريرة أنه قال: (هُمْ أَهْلُ الْبدَعِ وَالضَّلاَلَةِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، فَإنَّ بَعْضَهُمْ يُكَفِّرُ بَعْضاً بالْجَهَالَةِ)[٢].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ ؛ أي فِرَقاً مختلفةً، والشِّيَعُ: جمع الشِّيْعَةِ؛ وهي الفِرْقَةُ التي يَتْبَعُ بعضُها بعضاً؛ يقال: شَايَعَهُ على الأمرِ؛ إذا اتَّبَعَهُ، وَقِيْلَ: أصلُ الشَّيعِ الظُّهورُ؛ يقال: شَاعَ الحديثُ يَشِيْعُ؛ إذا ظَهَرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ ؛ أي لَسْتَ مِن مذاهبهم الباطلة في شيءٍ؛ أي أنتَ بَرِيْءٌ من جميع ذلك، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ ؛ أي مصيرُهم ومُنْقَلَبُهُمْ إلى اللهِ، ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ ؛ ثم يجزيهم في الآخرةِ، ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) ﴾ ؛ أي بما كانوا يعملونَ في الدُّنيا، فَيَنْدَمُ الْمُبْطِلُ، ويَفْرَحُ الْمُحِقُّ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ ؛ أي مَن جاءَ بخصْلَةٍ من الطاعاتِ فله عَشْرُ حسناتٍ، ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ ؛ أي مَن جاءَ بخصْلَةٍ من المعصيةِ فلا يُجزى إلاَّ مثلَها، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾ ؛ بالزيادةِ على مقدار ما يستحقُّون من العقاب، وإنَّما قالَ ذلك لأنَّ الفضلَ بالنِّعَمِ جائزٌ، والابتداءُ بالعقاب لا يجوزُ. وقرأ الحسنُ وسعيدُ بن جبير ويعقوبُ: (فَلَهُ عَشْرٌ) بالتنوينِ (أَمْثَالُهَا) بالرَّفعِ على معنى: فَلَهُ حسناتٌ عشرٌ أمثالُها.

وقد تكلَّمَ أهلُ العلمِ بالحسنات العَشْرِ التي وَعَدَ اللهُ في هذه الآيةِ؛ فقالَ بعضُهم: المرادُ بها التحديدُ بالعشرةِ. وقال بعضُهم: المرادُ بها التضعيفُ دونَ التَّحديدِ بالعشرة؛ كما يقولُ القائل: لإنْ أسديتَ إلَيَّ معروفاً لأُكَافِئَنَّكَ بعشرةِ أمثالهِ.

ثُمَّ اختلفُوا؛ فقالَ بعضُهم: هو كُلُّهُ بفضلٍ وثوَابٍ غير ذلكَ؛ كأنهُ قال تعالى: مَنْ جَاءَ بالْحَسَنَةِ فلهُ عشرُ حسناتٍ من النِّعَمِ والسُّرورةِ زيادةً على ثواب حَسَنَتِهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٠٨٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١٠٩١-١١٠٩٣). وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٦٦٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٢٣؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير معلل بن نفيل وهو ثقة)).

قالُوا: ولا يجوزُ أن تُسَاوَى منْزلةُ التفضيل بِمَنْزِلَةَ الثواب؛ لأن الثوابَ لا بُدَّ أن يُقارِنَهُ التعظيمُ والإجلالُ.

وقال بعضُهم: هذه الحسناتُ العَشْرُ تفضُّلٌ من اللهِ تعالى؛ قالوا: ويجوزُ أن يَتَفَضَّلَ على مَن لا يعملُ مِثْلَ ثواب العامل ابتذالاً منه؛ وتفضل في فعله على مَن لا يستحق عليه شيء.

وعن رسول اللهِ ﷺ: أنَّهُ [إذا حَسُنَ إسْلاَمُ أحَدِكُمْ؛ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا يُكْتَبُ لَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا؛ إلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ؛ إلَى مَا شَاءَ اللهُ. وَكُلّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا؛ يُكْتَبُ لَهُ مِثْلُهَا إلَى أنْ يَلْقَى اللهَ تَعَالَى][(١)].

وعن خُرَيْم بن فَاتِكٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:[الأَعْمَالُ سِتَّةٌ: مُوجِبَتَان؛ وَمِثْلٌ بِمِثْلٍ؛ وَحَسَنَةٌ بِحَسَنَةٍ؛ وَحَسَنَةٌ بعَشْرٍ؛ وَحَسَنَةٌ بسَبْعِمِائَةٍ. فَأمَّا الْمُوجِبَتَان؛ فَهُوَ مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ باللهِ شَيْئاً دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ مُشْرِكٌ باللهِ دَخَلَ النَّارَ. وَأمَّا مِثْلٌ بِمِثْلٍ؛ فَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً؛ فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا. وَأمَّا حَسَنَةٌ بِحَسَنَةٍ؛ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ حَتَّى يُشْعِرَ بهَا نَفْسَهُ وَيَعْلَمُهَا اللهُ مِنْ قَلْبِهِ؛ كُتِبَ لَهُ حَسَنَةٌ. وَأمَّا حَسَنَةٌ بعَشْرٍ؛ فَمَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا. وَأمَّا حَسَنَةٌ بسَبْعِمِائَةٍ؛ فَالنَّفَقَةُ فِي سَبيْلِ اللهِ][(٢)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّدُ: إنَّني وَفَّقَنِي ربي وأرشدَنِي إلى دينِ الحقِّ الذي أدعُو الْخَلْقَ إليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ ؛ أي دِيْناً هو غايةٌ في الاستقامة.

قرأ أهلُ الكوفةِ والشَّام: (قِيَماً) بكسر القاف وفتح الياء مخفَّفاً؛ فمعناهُ: المصدرُ؛ كالصِّغْرِ والكِبَرِ، ولم يقلْ: قَوْماً؛ لأنه مِن قولك: قَامَ يَقُومُ قِيَاماً وقِيَماً. وقرأ الباقونَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣١٧ من حديث أبي هريرة. ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: الحديث (٢٠٥/ ١٢٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١١٣) عن قتادة مرسلاً. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٤ ص٢٠٥: الحديث (٤١٥١)-(٤١٥٥). والحاكم في المستدرك: كتاب الجهاد: الحديث (٢٤٨٧).

بالتشديد. وتصديقُ التشديدِ: ﴿ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[1] ﴿وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[2]. والقيِّمُ: الْمُسْتَقِيْمُ. واختلفَ النُّحَاةُ في نصبهِ؛ فقال الأخفشُ: (هَدَانِي دِيْناً قَيِّماً). وَقِيْلَ: عرَّفَنِي ديناً. وَقِيْلَ: اعْنِي ديناً. وَقِيْلَ: انتصبَ على الإغراءِ؛ أي الْتَزِمُوا ديناً واتَّبعوا ديناً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ ؛ أي دينَ إبراهيم؛ وهو بدلٌ من قوله (دِيْناً). وقولهُ (حَنِيْفاً) أي مَائلاً عن الشِّركِ وجميع الأديان الباطلة مَيْلاً لا رجوعَ فيه، وهو نَصْبٌ على الحال؛ كأنه قال: عَرَّفَنِي دينَ إبراهيم في حال حَنِيْفِيَّتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ ؛ أي ما كانَ إبراهيمُ عليه السلام على دين المشركين. وإنَّما أضافَ هذا الدينَ إلى إبراهيم؛ لأن إبراهيمَ كان مُعَظَّماً في عُيُون العرب، وفي قلوب سائرِ أهل الأديَان؛ إذ أهلُ كلِّ دينٍ يزعمون أنَّهم يُبَجِّلُونَ دينَ إبراهيم عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: إنَّ صلاتِي بعدَ الصَّلواتِ الخمسِ المفروضة؛ (وَنُسُكِي) أي طَاعَتِي، وأصلُ النُّسُكِ: كُلُّ مَا يُتَقَرَّبُ بهِ إلَى اللهِ تَعَالَى، ومنه قولُهم لِلْعَابدِ: ناسِكٌ. وقال ابنُ جبير: (مَعْنَاهُ: (وَنُسُكِي) فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ للهِ رَب الْعَالَمِيْنَ). ويقالُ: أراد بالصلاةِ صلاةَ العِيْدِ، وبالنُّسُكِ الأضْحِيَةَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي) أي وَحَيَاتِي ومَوتِي للهِ رب الخلائقِ كلِّهم. وإنَّما أضافَ الْمَحْيَا والْمَمَاتَ إلى الله وإن لم يكن ذلكَ مِمَّا يُتَقَرَّبُ به إليهِ؛ لأن الغرضَ بالآية التَّبَرُّؤَ إلى اللهِ تعالى من كلِّ حَوْلٍ وقُوَّةٍ والإقرارَ له بالعبوديَّة. وَقِيْلَ: المرادُ بذلك أنَّ الله تعالى هو الْمُخْتَصُّ بأن يُحْيِيهِ ويُميتَهُ؛ لا شريكَ له في ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾ ؛ أي أمَرَنِي بذلك، ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ ؛ أي أوَّلُ مَنِ استقامَ على الإيْمان من أهلِ هذا الزمان. قرأ أهلُ المدينة: (وَمَحْيَايْ) بسكون الياء. وقرأ الباقون بفتحِها كَيْلاَ يجتمعَ سَاكِنَان. وقرأ السلميُّ: (وَنُسْكِي) بإسكان السِّين.

---

(١) التوبة / ٣٦. (٢) البينة / ٥.

وعن أنس ﷺ عن رسول الله ﷺ؛ أَنَّهُ قَرَّبَ كَبْشاً أمْلَحَ أقْرَنَ؛ فَقَالَ:[لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ؛ إنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي للهِ رَب الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ] الآيةُ، ثُمَّ ذبَحَ فَقَالَ: [شَعْرُهُ وَصُوفُهُ فِدَاءٌ لِشَعْرِي مِنَ النَّار، وَجِلْدُهُ فِدَاءٌ لِجِلْدِي مِنَ النَّار، وَعُرُوقُهُ فِدَاءٌ لِعُرُوقِي مِنَ النَّار] فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ هَنِيْئاً مَرِيْئاً؛ هَذا لَكَ خَاصَّةً؟ فَقَالَ: [لاَ؛ بَلْ لأُمَّتِي عَامَّةً إلَى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، أخْبَرَنِي بذلِكَ جِبْرِيْلُ عليه السلام عَنْ رَبي عَزَّ وَجَلَّ].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّد: أغَيْرَ اللهِ أطْلُبُ إلَهاً لِي ولكم (وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) أي هو مَالِكِي ومالِكُكم ومالكُ كلِّ شيء؛ فكيف أطلبُ النفعَ من مَرْبُوبٍ مثلِي ومثلكُم، وأدَعُ سؤالَ ربي يَملكني ويَملككم؛ فهل يجوزُ هذا؟ وهل يحسنُ هذا؟ لا بُدَّ أن يكون جوابهُ: لاَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي لا تعملُ كلُّ نفسٍ طاعةً ولا معصيةً إلاَّ عَلَيْهَا. قال أهلُ الإشارةِ: ولا تكسبُ كلُّ نفسٍ من خيرٍ أو شَرٍّ إلاَّ عليها، أما الشَّرُّ فهو مأخوذٌ به، وأمَّا الخيرُ فهو مطلوبٌ منه صِحَّةُ قصدِهِ وخُلُوِّهِ من الرِّياءِ والعُجْب والافتخار به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ؛ أي ما تحملُ حاملةٌ ثُقلَ أخرى، والمعنى: لا يحملُ أحداً ذنبَ غيرِه، بل كلُّ نفسٍ مأخوذةٌ بجُرْمِهَا وعقوبةِ إثْمِهَا. والوِزْرُ في اللغة: هُوَ الثِّقْلُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ ؛ أي مصيرُكم ومُنْقَلَبُكُمْ، ﴿ فَيُنَبِّئُكُم ﴾ ؛ أي فيجزيكم؛ ﴿ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ؛ في دار الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي جعلكم يا أمَّةَ مُحَمَّدٍ خَلَفاً في الأرض، والْخَلاَئِفُ: جمعُ الْخَلِيْفَةِ، وكلُّ قَرْنٍ خَلِيْفَةٌ للقرن الذين كانوا قبلَهم في الأرضِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ ؛ أي فَضَّلَ بعضَكم في المالِ والمعاشِ والجَاهِ؛ تقديرهُ: إلى دَرَجَاتٍ، ثم حُذفَ (إلى) وانتصبَ (دَرَجَاتٍ). ويقالُ: إنَّ الدرجاتِ مفعولٌ على تقدير: وَرَفَعَكُمْ درجاتٍ، كما يقال: كَسَوْتُ فلاناً ثوباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ ﴾ ؛ أي لِيَختَبرَكُمْ فيما أعطاكُم؛ يختبرُ الغنيَّ بالفقير؛ والفقيرَ بالغنيِّ، فيظهرُ للناس شُكْرُ الشاكرين وصَبْرُ الصابرين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ ؛ أي إذا عَاقَبَ فإنهُ سريعُ العقاب مع أنه مَوْصُوفُ بالْحُلْمِ والإمهال؛ لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ. وَقِيْلَ: أراد بقوله:(سَرِيعُ الْعِقَاب) سريعَ الحساب. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:(وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ) أي غَفُورٌ لِمن تاب من الذنوب، (رَحِيمٌ) بمن ماتَ على التوبة. وقال عطاءُ: (سَرِيْعُ الْعِقَاب لأَعْدَائِهِ، غَفُورٌ رَحِيْمٌ لأَوْلِيَائِهِ)[1]. واللهُ أعلمُ.

آخر تفسير سورة (الأنعام) والحمد لله رب العالمين

تَمَّ الْجُزْءُ الأَوَّلُ مِنْ تَفْسِيرِ كِتَابِ اللهِ الْعَزِيْزِ[2]

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٤٥٥.

(٢) هكذا رسمها الناسخ في المخطوط: الورقة ص١٨٨.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ التَّوْفِيْقُ وَالإِعَانَةُ

سُورَةُ الأَعْرَافِ

سُورَةُ الأَعْرَافِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ حَرْفٍ وَثَلاثُمِائَةِ حَرْفٍ وَعَشْرَةُ أَحْرُفٍ؛ وَثَلاثَةُ آلاَفِ كَلِمَةٍ وَثَلاثُمِائَةٍ وَخَمْسٌ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً؛ وَمِائَتَانِ وَستُّ آيَاتٍ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: في قوله: (المص): (مَعْنَاهُ: أنَا اللهُ أعْلَمُ وَأفْصِّلُ)[2]. وَقِيْلَ: اللاَّمُ افتتاح اسْمِهِ: لَطِيْفٌ؛ والميمُ افتتاح اسْمِه: مَجِيْدٌ وَمَالِكٌ؛ والصادُ افتتاح اسْمِه: صَمَدٌ وصَادِقُ الوَعْدِ وصَانِعُ الْمَصْنُوعَاتِ.

وَقِيْلَ: هي حرفُ اسمِ الله الأعظم. وَقِيْلَ: هي حروفٌ تحوي معانٍ كثيرة. وموضعهُ رَفْعٌ بالابتداء، و(كِتَابٌ) خبرهُ؛ كأنه قالَ: المص حروفُ كتابٍ أنزِلَ إلَيْكَ. وَقِيْلَ: (كِتَابٌ) خبرُ مبتدأ مضمرٍ؛ أي هَذا كتابٌ. وَقِيْلَ: رُفِعَ على التقديم والتأخير؛ يعني: أنزِلَ إلَيْكَ كِتَابٌ؛ وهو القُرْآنُ.

قَوْلُهُ: (فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ) أي فلا يَقَعْ في نفسِكَ شَكٌّ منه؛ خاطبَ به النبيَّ ﷺ وعنَى به الْخَلْقَ كلَّهم؛ أي لا تَرْتَابُوا وتَشُكُّوا. ويقالُ: الْحَرَجُ: الضِّيقُ؛ أي لا يَضِيْقُ صدرُكَ من تأديَة ما أرسِلْتَ به، ولا تَخَافَنَّ من إبلاغِ الرِّسالة، فإنكَ في

---

(١) أما أنها مكية؛ في الدر المنثور: ج ٣ ص٤١٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن الضريس والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس، وأخرجه ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٢٨-١١١٢٩). وينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٣.

أمَانِ اللهِ؛ واللهُ يعصِمُكَ من الناس. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لِتُنذِرَ) أي أنْزلَ إليكَ لِتُخوِّفَ (بهِ) بالقُرْآنِ أهلَ مكة. (وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) أي وليكونَ عِظَةً لِمن اتَّبَعَكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾؛ أي اعملوا بمَا أنْزلَ إلَيْكُمْ مِنْ رَبكُمْ. وحقيقةُ اتِّبَاعِ القُرْآن تصرفُ الناسِ تصريفَ القُرْآنِ لَهم وتدبُّرهم بتدبيرِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا تَتَّبعُوا مِنْ دُونِهِ أوْلِيَاءَ) أي لا تَتَّخِذُوا من دونهِ أوْثاناً، ولا تَتَوَلَّوا أحداً إلا لِوَجْهِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾؛ أي قليلاً ما تَتَّعِظُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ ﴾ أي وكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ اهْلَكْنَا أهلَها بأنواعِ العذاب فَجَاءَهَا بَأسُنَا لَيْلاً. وسَمَّى الليلَ بَيَاتاً؛ لأنه بَيَاتٌ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ هُمْ قَائِلُونَ) أي وقتَ الظَّهيرةِ؛ يعني نهاراً في وقتِ القَائِلَةِ. و(قَائِلُونَ): نَائِمُونَ وقتَ الْهَاجِرَةِ.

وإنَّما خصَّ هذين الوقتين بنُزول العذاب؛ لأنَّهما من أوقاتِ الرَّاحة. وَقِيْلَ: من أوقاتِ الغَفْلَةِ. ومجيءُ العذاب في حَال الراحة أغلظُ وأشدُّ؛ أهلكَ اللهُ قوم شُعَيْبٍ في نِصْفِ النهار، وفي حَرٍّ شديدٍ وهم قَائِلُونَ. وفائدةُ هذه الآية: التهديدُ والوعيد على معنى: إنْ لَمْ تَتَّعِظُوا أتَاكُمُ العذابُ ليلاً أو نهاراً كما أتى الأوَّلين الذين لم يَتَّعِظُوا.

ثم أخبرَ جَلَّ ذِكْرُهُ عن حال مَن أتاهم العذابُ فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ ﴾؛ معناهُ: لم يكن قولُهم ودعاؤُهم حين جاءَهم عذابُنا إلا الاعترافَ بالظلم والشِّركِ؛ أي اعتَبرُوا بهم؛ فكما لم ينفعهُم تضرُّعهم عند رؤيةِ البَأسِ؛ كذلك لا ينفعُكم إذا جاءكم العذابُ تضرُّعكم.

قال سِيْبَوَيْهِ: (إنَّ الدَّعْوَى تَصْلُحُ فِي مَعْنَى الدُّعَاءِ، وَيَجُوزُ أنْ يُقَالَ: اللَّهُمَّ أشْرِكْنَا فِي صَالِحِ دَعْوَى الْمُسْلِمِيْنَ وَدُعَاءِ الْمُسْلِمِيْنَ)(١). فإن قِيْلَ: إنَّ الهلاكَ يكون

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٦٣؛ نقله القرطبي عن النحويين. وفي اللباب: ج ٩ ص١٨؛ قال الحنبلي: ((حكاه الخليل)).

بعد البأس؛ فكيفَ قال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾(١) ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾(٢) ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾؟ قِيْلَ: إنَّهما يَقَعَان معاً كما يقالُ: أعطيتَني فأحسنتَ. ويجوزُ أن يكون التقديرُ: أهْلَكْنَاهَا في حُكْمِنَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ إخبار عن حالهم يوم القيامة. ودخول الفاء أوَّلَ في هذه الآية لتقريب ما بين الْهَلاك وسؤال يوم القيامة. والمعنى: فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أرْسِلَ إلَيْهِمْ: هل بلَّغتكُم الرسلُ الرسالةَ؟ وماذا أجبتُموهم؟ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ: هل بَلَّغْتُمْ قومَكم ما أرسلتُم به؟ وماذا أجابُوكم؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي لَنَجْزِيَنَّهُمْ بما عملوا بعِلْمٍ منَّا؛ معناهُ: إنَّا لَنَسْألُهُمْ لِنَعْلَمَ أنَّ ما نسألُهم لإقامةِ الحجَّة عليهم. قَوْلُهُ: (وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) معناهُ: إنَّا كُنَّا عالِمين بكلِّ شيءٍ من تبليغِ الرِّسالةِ وجواب الأُمَمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي وَزْنُ الأعمالِ يومَ القيامة الحقُّ؛ فلا يُنْقَصُ من إحسان مُحْسِنٍ؛ ولا يُزَادُ على إساءَةِ مُسِيْءٍ. وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: وَالْقَضَاءُ يَوْمَئِذٍ الْعَدْلُ)(٣).

قولُهُ: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ على سيِّئاتهِ فأولئكَ هُمُ الظَّافِرُونَ بالمرادِ، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي رَجَحَتْ سَيِّئاتُهُ على حسناتهِ، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾ عَمَوا حَظَّ أنفسِهم، ﴿ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي بما كانوا بمُحَمَّدٍ ﷺ يَجْحَدُونَ. فَالْخُسْرَانُ: ذهَابُ رَأْسِ الْمَالِ؛ ورأسُ مالِ الإنسان نفسُه؛ فإذا هَلَكَ بسوءِ عمله فقد خَسِرَ نفسَه.

---

(١) الكهف / ٥٩.

(٢) الأنبياء / ٦.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٤٢ و١١١٤٣).

وقد تكلَّموا في ذِكْرِ الموازينِ يومَ القيامة؛ قال ابنُ عبَّاس: (تُوزَنُ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ فِي مِيْزَانٍ لَهُ لِسَانٌ وَكَفَّتَانِ تُوضَعُ فِيْهِ أعْمَالُهُمْ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُؤْتَى بعَمَلِهِ فِي أحْسَنِ صُورَةٍ؛ فَيُوضَعُ فِي كَفَّةِ الْمِيْزَانِ؛ فَتَثْقُلُ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ؛ فَيُوضَعُ عَمَلُهُ فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ مَنَازِلِهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: إلْحَقْ بعَمَلِكَ؛ فَيَأْتِي مَنَازِلَهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَعْرِفُهَا بعَمَلِهِ.

وَأمَّا الْكَافِرُ؛ فَيُؤْتَى بعَمَلِهِ فِي أقْبَحِ صُورَةٍ؛ فَيُوضَعُ فِي كَفَّةِ الْمِيْزَانِ؛ فَيَخِفُّ - وَالْبَاطِلُ خَفِيْفٌ - ثُمَّ يُرْفَعُ فَيُوضَعُ فِي النَّار، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: إلْحَقْ بعَمَلِكَ؛ فَيَلْحَقُ فَيَأْتِي مَنَازِلَهُ فِي النَّار)(١).

وَقِيْلَ: إنَّ المرادَ بالعملِ في هذا الخبرِ أنَّ الله يجعلُ للحسناتِ صورةً حسَنةً؛ وللسيِّئاتِ صورةً قبيحةً، إلاَّ أن عَيْنَ الأعمالِ تُوزَنُ؛ لأنَّ الأعمال أعراضٌ مُنْقَضِيَةٌ لا تُعَادُ. وقال ابنُ عمر: (يُؤْتَى بصُحُفِ الطَّاعَاتِ وَصُحُفِ الْمَعَاصِي، فَتُوزَنُ الصُّحُفُ).

وعن رسول اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: [يُؤْتَى بالْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلَى الْمِيْزَانِ، ثُمَّ يُؤْتَى بتِسْعَةٍ وَتِسْعِيْنَ سِجِلاً؛ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَدَّ الْبَصَرِ؛ فِيْهَا خَطَايَاهُ وَذُنُوبُهُ؛ فَتُوضَعُ فِي كَفَّةِ الْمِيْزَانِ، ثُمَّ تُخْرَجُ بطَاقَةٌ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ بمِقْدَار أنْمُلَةٍ؛ فِيْهَا شَهَادَةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ فَتُوضَعُ فِي الْكَفَّةِ الأُخْرَى. فَيَقُولُ الْعَبْدُ: يَا رَب؛ مَا تَزِنُ هَذِهِ الْبطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ الصَّحَائِفِ؟! فَيَأْمُرُ اللهُ أنْ تُوضَعَ؛ فَإذا وُضِعَتْ فِي الْكَفَّةِ طَاشَتِ الصُّحُفُ وَرَجَحَتِ الْبطَاقَةُ](٢).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٤٢٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس)). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في حشر الناس: الحديث (٢٨٢)؛ قال: ((ذهب أهل التفسير إلى إثبات الميزان بكفتيه، وجاء في الأخبار ما يدل عليه. وقد روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس... وذكره)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١١٤٩). ورواه ابن ماجة في السنن: كتاب الزهد: الحديث (٤٣٠٠) عن عبدالله بن عمر. والبيهقي في شعب الإيمان: الحديث (٢٨٣).

وقال بعضُهم: يُوزَنُ الإنسانُ، كما قال ﷺ: [يُؤْتَى بالرَّجُلِ الأَكُولِ الشَّرُوب الْعَظِيْمِ فَيُوزَنُ؛ فَلاَ يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ؛ إقْرَأوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾][(١)].

وأما ذِكْرُ الموازينِ بلفظ الجماعة؛ فلأنَّ الميزانَ يشتملُ على الكفَّتين والخيوطِ والشاهدين[(٢)]. فإن قِيْلَ: ما الحكمةُ في وزن الأعمال، واللهُ قادرٌ عالِمٌ بمقدار كلِّ شيء قبلَ خَلْقِهِ إيَّاهُ وبعدَه؟ قِيْلَ: لإقامةِ الحجَّة عليهم، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٣)] فأخبرَ بنسخِ الأعمال وإثباتِها مع عِلْمِهِ بها لِما ذكرنا. وَقِيْلَ: الحكمةُ فيه تعريفِ الله العبادَ ما لَهم عندهُ من جزاءٍ على الخيرِ والشرِّ. وَقِيْلَ: جعلهُ الله علامةً للسعادة والشقاوةِ. وَقِيْلَ: لامتحانِ الله عبادَهُ بالإيْمان به في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ ؛ أي مَكَّنَّاكُمْ بالتمليكِ والإقرار ودفع الموانع، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِي الأرضِ مَعَايشَ؛ وهو ما تَعِيْشُونَ به من الرِّزْقِ؛ وهو ما يخرجُ من الأرضِ من الحبُوب والأشجار والثِّمار. وَقِيْلَ: معنى (الْمَعَايشَ): التواصل إلى ما يُعَاشُ به مِن الحراثة والتجارة، وأنواعِ الْحِرَفِ والزراعات. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي شُكْرُكُمْ فيما صُنِعَ إليكم قليلٌ. وَقِيْلَ: معنى قوله: (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايشَ) أي تَعِيشُونَ بها أيَّامَ حياتِكم من الْمَآكِلِ والمشارب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ ؛ أي خَلَقْنَا آدمَ الذي هو أصلُ خِلْقَتِكُمْ، ثم صوَّرناهُ إنساناً، ﴿ ثُمَّ قُلْنَا ﴾ ؛ من بعدِ خَلْقِهِ من الترابِ وتصويرِهِ؛ ﴿ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ ؛ الذين كانوا في الأرضِ مع إبليسَ: ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ ؛ سجدةَ تحيَّةٍ؛ ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ ؛ المأمورون؛ ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ لآدمَ.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب (٦): الحديث (٤٨٩٢) عن أبي هريرة ﷺ وأوله: [إنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ...]. ومسلم في الصحيح: كتاب صفة القيامة: الحديث (١٨/ ٢٧٨٥).

(٢) في المخطوط: (والساهين).

(٣) الجاثية / ٢٩.

وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: ولقد خلقناكُم في بطونِ أمَّهاتِكم نُطَفاً؛ ثم علقاً؛ ثم مُضَغاً؛ ثم عِظَاماً؛ ثم لَحماً، ثم صوَّرناكُم: الحسَنَ والذميمَ؛ والطويلَ والقصيرَ، وصوَّرنا لكُم عُضْواً من العينِ والأنفِ والأذُنِ واليَدِ والرِّجْلِ وأشباهِ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ) قال الأخفشُ: ((ثُمَّ) هَا هُنَا فِي مَعْنَى الْوَاو)[1] أيْ وقُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ الآنَ. قَوْلُهُ تَعَالَى للملائكةِ: (اسْجُدُوا لآدَمَ) قَبْلَ خَلْقِنَا وَتَصْوِيْرِنَا.

وأنكرَ الخليلُ وسيبويه أن تكونَ (ثُمَّ) بمعنى (الواو)، ولكن تكونُ للتراخِي. ويجوزُ أن يكونَ معنى (ثُمَّ) ها هنا التَّراخِي من حيثُ الإخبارُ دون تَرَادُفِ الحال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ ؛ أي مَا مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ، و(لاَ) زائدةٌ في الكلام كما في قولهِ تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أهْلُ الْكِتَابِ﴾[2] أي لِيَعْلَمَ أهلُ الكتاب. وَقِيْلَ: معناهُ: ما دَعَاكَ إلى أنْ لا تَسْجُدَ، وقد عَلِمَ اللهُ ما مَنَعَهُ من السجود، ولكن مسألتُهُ إياه تَوْبيْخٌ لهُ وإظهارٌ أنه مُعَانِدٌ رَكِبَ المعصيةَ. وعن يحيَى بنِ ثعلب أنه قال: (كَانَ بَعْضُهُمْ يَكْرَهُ أنْ لاَ وَيَقُولُ: تَقْدِيْرُهُ: مَنْ قَالَ لَكَ لاَ تَسْجُدْ؟).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ ليسَ هذا الجوابُ عمَّا سألَهُ تعالى من جهةِ اللفظ؛ لأن هذا الجوابَ جوابُ: أيُّكما خَيْرٌ؟ إلاَّ أن هذا جوابٌ من جهةِ المعنى، فإن معناهُ: إنَّما مَنَعَنِي من السجودِ له إلا أنِّي كنتُ أفضلَ منه.

وكان هذا القولُ من اللَّعِيْنِ تَجْهِيْلاً منهُ بخَالِقِهِ؛ كأن قالَ: إنَّكَ فضَّلْتَ الظُّلْمَةَ على النُّور وليسَ ذلكَ من الحكمةِ. فأعلَمَ اللهُ تعالى أنهُ صَاغِرٌ بهذا القول، وليس الأمرُ على ما قاله الْمَلْعُونُ؛ لأنهُ رأى أنَّ جوهرَ النار أفضلُ من جوهرِ الطِّينِ في المنفعةِ، وليس كذلكَ لأن عَامَّةَ الثِّمَار والحبوب والفواكه من الطِّين، وكذلكَ الملابسُ كلُّها لا تخرجُ إلا من الطِّين، وعمارةُ الأرضِ من الطين، وهو موضعُ القَرَار عليهِ لا

---

(١) قاله الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص٢٩٤.

(٢) الحديد / ٢٩.

استغناءَ عنهُ في حالٍ من الأحوال. وأما النَّـارُ فـهي لِلْخـرَاب، وإنْ كـان فيـها بعـضُ المنافعِ.

قال ابنُ عبَّاس: (أوَّلُ مَنْ قَاسَ فَأخْطَـأ الْقِيَـاسَ إبْلِيْـسُ لَعَنَـهُ اللهُ، فَمَـنْ قَـاسَ الدِّيْنَ بِتَبَعٍ مِنْ رَأيِهِ قَرَنَهُ اللهُ مَعَ إبْلِيْس)(١). وكان قياسُ إبليـسَ أنـه قـال: النـارُ خـيرٌ وأفضلُ وأصفَى وأنورَ من الطِّين. وقال ابــنُ سـيرينَ: (أوَّلُ مَـنْ قَـاسَ إبْلِيْـسُ، وَمَـا عُبدتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إلاَّ بالْمَقَايِيْسِ)(٢).

وَقَدْ أخطَأ عَدُوُّ اللهِ حِيْنَ فَضَّلَ النَّارَ عَلَى الطِّيْنِ، بَلِ الطِّيْنُ أفْضَلُ مِنَ النَّار مِنْ وُجُوهٍ كَثِيْرَةٍ؛ أحْسَنُهَا(٣): إنَّ جَوْهَرَ الطِّيْنِ السُّكُونُ وَالْوَقَارُ وَالْحَيَاءُ وَالصَّبْرُ وَالْحُلْـمُ، وَذلِكَ هُوَ الدَّاعِي لآدَمَ بَعْدَ السَّعَادَةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَـهُ إلَـى التَّوْبَـةِ وَالتَّوَاضُـعِ، فَأوْرَثَـهُ الْمَغْفِرَةَ وَالاجْتِبَـاءَ وَالْهِدَايَـةَ وَالتَّوْبَـةَ. وَمِـنْ جَوْهَـرِ النَّـار الْخِفَّـةُ والطَّيْـشُ وَالْحِـدَّةُ وَالارْتِفَاعُ وَالاضْطِرَابُ، وَذلِكَ هُوَ الدَّاعِي لإبْلِيْسَ بَعْدَ الشَّقَاوَةِ الَّتِي سَـبَقَتْ لَـهُ إلَـى الاسْتِكْبَار وَالإصْرَار، فَأوْرَثَهُ الْعَذابَ وَالْهَلاَكَ وَاللَّعْنَةَ وَالشَّقَاءَ.

وَالثَّانِي: أنَّ الطِّيْنَ سَبَبٌ لِجَمْعِ الأشْيَاءِ، وَالنَّـارُ سَـبَبٌ لِتَفَرُّقِـهَا. وَالثَّـالِثُ: أنَّ الْخَبَرَ نَاطِقٌ بِأنَّ تُرَابَ الْجَنَّةِ مِسْكٌ أذفَرُ(٤)، وَلَـمْ يَنْطِقِ الْخَبَرُ أنَّ فِي الْجَنَّـةِ نَـاراً وَفِـي النَّار تراباً. وَالرَّابعُ: أنَّ النَّارَ سَبَبُ عَذاب اللهِ تَعَالَى لأعْدَائِهِ، وَلَيْسَ التُّرَابُ لِلْعَـذاب. وَالْخَامِسُ: أنَّ التُّرَابَ مُسْتَغْنٍ عَنِ النَّار، وَالنَّارُ تَخْرُجُ إلَى الْمَكَانِ وَمَكَانُهَا التُّرَابُ).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٤٢٥؛ قال السيوطي: ((وأخرج أبو نعيم في الحلية والديلمي عن جعفر ابن محمَّد عن جده: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [أوَّلُ مَنْ قَاسَ أمْرَ الدِّين برَأيِهِ إبْلِيسُ، قَـالَ اللهُ لَـهُ: اسْجُدْ لآدَمَ، فَقَالَ: ﴿أنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَار وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾] قال جعفرُ: فمَـن قـاسَ أمـرَ الدين برأيهِ قرنَهُ اللهُ تعالى يوم القيامة بإبليسَ لأنه اتَّبعَهُ بالقياسِ)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٦١).

(٣) في المخطوط: (أخسُّها).

(٤) أذْفَرُ، وَالذَّفَرُ: شدَّة ذكاءِ الريح من طيبٍ أو نتن، وفي صفـة الحـوضِ: وطينـهُ مسـكٌ أذفـرُ؛ أي طيِّبُ الريحِ. لسان العرب: (ذفر).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ ؛ أي من الجنَّةِ. وَقِيلَ: من السَّماءِ إلى الأرضِ، فإنَّ السَّماءَ ليس بموضعٍ للمتكبرينَ. وَقِيْلَ: معناهُ: فَاهْبطْ من الأرضِ؛ أي اخْرُجْ منها وَالْحَقْ بجَزَائِرِ البحار، فإنَّما تسلط بهِ في الجزائرِ فلا تدخلُ الأرضَ إلا كهيئةِ السَّارقِ عليه أطمار يروعُ فيها، حتى يخرجَ من الأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ ؛ أي ليسَ لكَ أن تَتَعَظَّمَ في الأرضِ على بَنِي آدمَ، ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) ﴾ ؛ أي مِن الأذِلاَّءِ. والصَّغَارُ هُوَ الذُّلُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) ﴾ ؛ أي قال إبليسُ حين خَشِيَ أن يُعَاجِلَهُ اللهُ بالعقوبةِ: أمْهِلْنِي وأخِّرْ جزائي إلى يوم يُبْعَثُونَ مِن قبورهم؛ وهيَ النفخةُ الأخيرةُ عندَ قيام السَّاعةِ. أرادَ الخبيثُ أن لا يذوقَ الموتَ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) ﴾ ؛ أي المؤخَّرين المؤجَّلينَ إلى يوم الوقت المعلومِ؛ وهي النفخةُ الأُولى عند موتِ الْخَلْقِ كلِّهم.

وهذا ليسَ بإجابةٍ إلى ما سَأَلَ؛ لأنه سَأَلَ اللهَ الإمهالَ إلى النفخةِ الثانيةِ، فأبَى اللهُ أن يُعْطِيَهُ ذلكَ، ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾(١) يعني إلى النفخةِ الأُولى يَموتُ حينئذٍ أهلُ السَّمواتِ والأرضِ، ويَموتُ إبليسُ معهم. وبين النفخةِ الأُولى والثانيةِ أربعينَ سنةً.

واختلفُوا في أنَّ اللهَ تعالى هل يُجِيْبُ دعوةَ الكافرِ أم لا؟ قال بعضُهم: لا يجيبُ؛ لأنَّ إجابةَ الدُّعاءِ تكون تَعْظِيماً للدَّاعِي؛ ولِهذا يرجُو الإنسانُ أنه مُجَابُ الدَّعوةِ، ولا يُحْسَنُ مِن اللهِ تعالى أن يُعْلِمَ أحداً مدَّةَ حياتهِ لِمَا في ذلك من الإغراءِ بالمَعَاصِي. وكيفَ يجوزُ أن يُجِيْبَ اللهُ تعالى إبليسَ إلى مَا سألَ، ولم يكن سُؤَالُهُ على جهةِ التَّضرُّعِ والْخُشُوعِ والرَّغبةِ إلى اللهِ، وإنَّما سألَ لِيُغْوِي الناسَ ويُضِلَّهُمْ. وقال بعضُهم: يجوزُ إجابةُ دعاءِ الكافر استدراجاً واسْتِضْلالاً لهُ ولغيرِه، ولا تكونُ إجابةُ الكافرِ تعظيماً له بحَالٍ أبداً.

---

(١) الحجر / ٣٧-٣٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ ؛ أي فبما أضْلَلْتَنِي عن الْهُدَى، ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي لأَرْصُدَنَّ على طريق بَنِي آدمَ، وأصُدُّهُمْ عن دِينِكَ المستقيم. وقال الحسنُ: (مَعْنَى: (أغْوَيْتَنِي) لَعَنْتَنِي). وَقِيْلَ: (أغْوَيْتَنِي) خَيَّبْتَنِي، وقد يكونُ الغوَى بمعنى الْخَيْبَةِ. وَقِيْلَ: (أغْوَيْتَنِي) أي أهْلَكْتَنِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أنَّ إبْلِيسَ قَالَ: لآتِيَنَّهُمْ مِنْ قِبَلِ آخِرَتِهِمْ؛ فَلأُخْبِرَنَّهُمْ أنَّهُ لاَ جَنَّةَ وَلاَ نَارَ، وَلاَ بَعْثَ وَلاَ حِسَابَ)[1]. ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ ؛ أي مِنْ قِبَلِ دُنياهم؛ فَلآمُرَنَّهُمْ بجَمْعِ المال مخافةَ الفقرِ وأن لا يؤدوا حقَّهُ، ﴿ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ ؛ أي مِن قِبَلِ دِينهم فَأُبَيِّنَ لَهم ضَلالَتَهم، وإنْ كانُوا على هُدًى شَبَّهْتُهُ عليهم حتى أخرجَهم منهُ، ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ ؛ أي مِن قِبَلِ اللَّذاتِ والشَّهواتِ فأُزَيِّنُهَا لَهم، ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ لِنِعْمَتِكَ.

وقال السُّدِّيُّ: (مَعْنَى: (ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ) أرَادَ الدُّنْيَا أغْوِيْهِمْ إلَيْهَا[2]، (وَمِنْ خَلْفِهِمْ) فمِنَ الآخِرَةِ أشَكِّكُهُمْ فِيْهَا وأبعِدُها عَلَيهم، (وَعَنْ أيْمَانِهِمْ) قَالَ: الْحَقُّ أشَكِّكُهُمْ فِيْهِ، (وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) قالَ: الْبَاطِلُ أخفِيْهِ عَلَيْهِمْ وَأرَغِّبُهُمْ فِيْهِ)[3].

وَقِيْلَ: أرادَ بقولهِ (وَعَنْ أيْمَانِهِمْ) مِن جهةِ الحسنات أغْفَلَهُمْ عنها، (وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) يعني من جهةِ السيِّئات، فإنَّ الحسناتِ تُضاف إلى اليمين، والسيِّئاتِ تُضاف إلى الشمال. وَقِيْلَ: معنى الايةِ: ثم لأَحْتَالَنَّ في إغوائِهم مِن كلِّ وجهٍ. قال قتادةُ: (أتَاكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، غَيْرَ أنَّهُ لاَ يَسْتَطِيْعُ أنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَحْمَةِ رَبكَ، إنَّمَا تَأْتِيْكَ الرَّحْمَةُ مِنْ فَوْقِكَ)[4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٧٤ و١١١٧٥) ولفظه قريب للفظ قتادة.

(٢) عند الطبري: (أدعوهم إليها).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٧٨).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٧٥)، وفيه: (غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع...).

وقال شقيقُ بنُ إبراهيمَ: (مَا مِنْ صَبَاحٍ إلاَّ قَعَدَ لِي الشَّيْطَانُ عَلَى أرْبَعَةِ مَرَاصِدَ: مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِيْنِي، وَعَنْ شِمَالِي. أمَّا مَا بَيْنَ يَدَيَّ؛ فَيَقُولُ لِي: لاَ تَحْزَنْ فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيْمٌ، فَأقُولُ: ذلِكَ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى.

وَأمَّا مِنْ خَلْفِي؛ فَيُخَوِّفُنِي الضَّيْعَةَ عَلَى ذُرِّيَّتِي وَمَنْ خَلْفِي، فَأقُولُ: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رزْقُهَا. وأمَّا مِنْ قِبَلِ يَمِيْنِي؛ فَيَأْتِيَنِي مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ، فَأقُولُ: وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. وأمَّا مِنْ قِبَلِ شِمَالِي؛ فَيَأْتِيْنِي مِنَ اللَّذاتِ وَالشَّهوَاتِ، فَأقُولُ: وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ).

وإنَّما ذكرَ (مِنْ) في قوله: (مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) وذكرَ (عَنْ) في قولـهِ: (وَعَنْ أيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) لأن القدَّامَ والخلفَ يكونُ لابتداءِ الغاية، والغايةُ تذكرُ بحرفِ (مِنْ). وأمَّا جهةُ اليمينِ والشمال فإنَّها تكونُ للانحرافِ، فذكرَها بـ (عَنْ).

فإن قِيْلَ: مِن أينَ عَلِمَ إبليسُ أنه لا يكونُ أكثرُهم شاكرينَ؛ أي أكْثَرُ النـاسِ شاكرينَ؟ قِيْلَ: إنَّهُ ظَنَّ بهم ظَنّاً، فوافقَ ظَنُّهُ مَظْنُونَهُ، كما قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾[1]. وإنَّما ظَنَّ ذلكَ؛ لأنه لَمَّا تَمَكَّنَ من اسْتِزْلاَلِ آدمَ وحوَّاء؛ عَلِمَ أنَّ أولادَهما أضعفُ منهما، فيكون تَمَكُّنُهُ منهم أكثرَ.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ ؛ أي اُخْرُجْ مِن الجنَّةِ. وَقِيْلَ: من السَّمَاءِ، (مَذْءُومًا) أي مَذْؤُماً مَعِيباً، والذامُ والذّيْمُ: شِدَّةُ الْعَيْب، يقال: ذامَتِ الرَّجُلَ ذَوْمَةً وَذَامَةً؛ إذا عِبْتُهُ وَذِمْتُهُ. قولُهُ: (مَدْحُورًا) أي مُبعداً من الخيرِ والرحمة. والدَّحْرُ: الدَّفْعُ على وجهِ الْهَوَانِ وَالذُّلِّ.

وقال ابنُ عبَّاس: (مَذْءُومًا) مَمْقُوتاً[2]. وقال مجاهدُ: (مَذْءُومًا) صَاغِراً. وقال أبو العاليةِ: (مَذْءُومًا) أي مُزْدَراً. وقال عطاءُ: (مَذْءُومًا) أيْ مَلْعُوناً. وقال الكسائيُّ: (الْمَذْمُومُ: الْمَقبُوحُ).

---

(١) سبأ / ٢٠.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٨٥).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ واللاَّمُ في قولهِ: (لَمَنْ) لام القَسَم دخلَتْ على لفظِ الشَّرطِ والجزاء بمعنى التأكيدِ والمبالَغةِ؛ كأنهُ قال تَعَالَى: مَنْ تَبعَكَ لأُبَالِغَنَّ في تعذيبـهِ عذاباً شَديداً، كذلك قَوْلُـهُ تَعَالَى: (لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ اجْمَعِينَ) اي مِنْكَ ومن ذُرِّيَّتِكَ ومن كفَّار ذُرِّيَّةِ آدمَ الطَّيْلاً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ؛ أي اسْكُنْ أنتَ وزوجَتُكَ الجنَّةَ؛ لأن الإضافةَ إليه دليلٌ على ذلكَ، وحذفُ التاءِ أحسنُ؛ لِما فيه من الإيجاز من غيرِ إخلالٍ بالمعنى. وأمَّا الجنَّةُ التي أسْكَنَهُمَا اللهُ فيها؛ فهي جَنَّةُ الْخُلْدِ في أكثرِ أقوال أهلِ العلمِ، بخلاف ما يقولهُ بعضُهم: إنَّهَا كَانَتْ بُستاناً في السَّماءِ غيرَ جنَّةِ الْخُلْدِ. وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى عَرَّفَ الجنَّةَ بالألفِ واللام على جهةِ التَّشريفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ ؛ أي مِن أيِّ شيءٍ شِئْتُمَا مُوسِعاً عليكُمـا، ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكونَ منصوباً؛ لأنَّهُ جوابُ النَّهيِ، ويجوزُ أن يكون مَجْزُوماً عَطْفاً على النَّهيِ، ومعناهُ: فتكونا من الضَّارِّيْنَ أنفُسَكما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ ؛ أي زَيَّنَ لَهم الشيطانُ الأكلَ من الشجرةِ؛ لِيُظْهِرَ لَهما ما سُتِرَ من عَوْراتِهما. والْوَسْوَسَةُ: إلْقَاءُ الْمَعْنَى إلَى النَّفْسِ بصَوْتٍ خَفِيٍّ. والفرقُ بينَ وَسْوَسَ لهُ وَوَسْوَسَ إليهِ: أنَّ معنى وَسْوَسَ لَهُ: أوْهَمَهُ، ومعنى وَسْوَسَ إليهِ: ألْقَى إلَيْهِ.

وإنَّما سُميت العورةُ سَوْأةً؛ لأنه يَسُوءُ الإنسانَ انكِشَافُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلاَّ أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ) قرأ بعضُهم: (مَلِكَيْنِ) بكسرِ اللاَّم، ومعناهُ: إلاَّ أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ تَعْلَمَانِ الخيرَ والشرَّ، وإن لم تكونا ملكين تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ لا تَموتان[1].

---

(١) أدرج الناسخ عبارة الواحدي في المتن سهواً. لأن الواحدي هو علي بن أحمد الواحدي صاحب التفسير، توفي سنة (٤٦٨هـ). والعبارة لا تنسجم والصياغة: (وقال في وسيطِ الواحديِّ:=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي لا تموتان فتفنيَان أبداً، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾[١] أي على شَجَرَةٍ مَن أكلَ منها لَمْ يَمُتْ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾ أي جديدٌ لا يَفْنَى. وعلى قراءةِ مَن قرأ (مَلِكَيْنِ) بكسرِ اللاَّمِ[٢] استدلالاً لهُ بقولهِ تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾.

قِيْلَ: كيفَ أوهَمَهُما أنَّهما إذا أكلاَ مِن تلكَ الشجرةِ تغيَّرت صورتُهما إلى صورةِ الْمَلَكِ، أو يزدادُ في حياتِهما؟ قِيْلَ: أوْهَمَهُمَا أنَّ مِن حكمةِ الله أن مَن أكَلَ منها صارَ مَلَكاً أو ليزيدَ حياتُهُ. وقِيْلَ: إنَّهُ لم يُطْمِعْهُمَا في أن تصيرَ صورتُهما كصورةِ الْمَلَكِ، وإنَّما أطْمَعْهُمَا في أن تصيرَ مَنْزِلَتُهُمَا مَنْزِلَةَ الْمَلَكِ في العُلُوِّ والرِّفْعَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي حَلَفَ لَهُما إنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فيما أقولُ. وإنَّما قال: (وَقَاسَمَهُمَا) على لفظ الْمُفَاعَلَةِ؛ لأنهُ قَابَلَهُمَا بالحلفِ، وهذا كما يقالُ: عَاقَبْتُ اللِّصَّ؛ وناوَلْتُ الرَّجُلَ.

قال قتادةُ: (حَلَفَ لَهُمَا حَتَّى خَدَعَهُمَا، وَقَدْ يُخْدَعُ الْمُؤْمِنُ باللهِ تَعَالَى، وَقَالَ لَهُمَا: إنِّي خُلِقْتُ قَبْلَكُمَا، وَأنَا أعْلَمُ مِنْكُمَا، فَاتَّبعَانِي أرْشِدْكُمَا). وكان بعضُ العلماءِ يقولُ: (مَنْ خَادَعَنَا باللهِ خَدَعَنَا)[٣]. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، وَالْفَاجِرُ خَبٌّ لَئِيمٌ][٤].

=(مَعْنَاهُ: مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إلا أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ لاَ تَمُوتَانِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا لاَ تَمُوتُ الْمَلاَئِكَةُ).

(١) طه / ١٢٠.

(٢) قراءة ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٩٣) عن السدي.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١١٩٥).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ١٩ ص٧٧: الحديث (١٦٦) وفيه يوسف بن سفر: متهم بالكذب. ومن طريق آخر أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٣ ص١١٠: ترجمة الحجاج بن الغراضة عن أبي هريرة. وأخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: الحديث (٤٧٩٠). والترمذي في الجامع: أبواب البر: الحديث (١٩٦٤)؛ وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده حسن مع أن في إسناده بشر بن رافع: ضعيف في الحديث.

وأنشد نفطويه بعضُهم:

إنَّ الْكَرِيْـــمَ إذا تَشَـــاءُ خَدَعْتَــهُ وَتَـرَى اللَّئِيْــمَ مُجَرِّبــاً لاَ يُخْــدَعُ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ ؛ أي حَدَرَهُمَا من أعلَى إلى أسفل؛ لأنَّ الخيرَ عالٍ والشَّرَّ سافلٌ. وقال بعضُهم: معناهُ: قرَّبَهُمَا مما أرادَ من التَّوْرِيَةِ؛ وهي التقريبُ مأخوذٌ من أدْلَى الدَّلْوَ، ويقالُ: فلانٌ يُدْلِي فُلاَناً بالغُرُور؛ أي يَخْدَعُهُ بكلامٍ زُخْرُفٍ باطلٍ.

وقال مقاتلُ: (فَدَلاَّهُمَا بغُرُور) أيْ زَيَّنَ لَهُمَا الْبَاطِلَ. فَدَلاَّهُمَا بغُرُور؛ الْغُـرُورُ مَا تَقَدَّمَ ذكرهُ بقولِهِ لَهُما: (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إلاَّ أنْ تَكُونَا مَلَكَيْـنِ أوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ). وفي بعضِ الرِّواياتِ: أنَّ آدَمَ عليه السلام كَانَ يَقُولُ وَقْتَ تَوْبَتِهِ: مَا ظَنَنْتُ يَا رَب أنَّ أحَداً يَجْرَأ فَيَحْلِفُ باسْمِكَ كَاذِباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ ؛ فيه دليلٌ أنَّهما لَمْ يُبَالِغَا في الأكلِ، ولكن لَمَّا وصلَ إلى جوفِهما تهافَتَ عنهُما لِبَاسُهُمَا، وظَهرَ لِكُلٍّ منهُما عَوْرَةُ صاحبِهِ فاسْتَحيَا، ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ ؛ أي عَمِدَا فأخذا يُلْزِقَانِ عليهما مِن وَرَقِ التِّينِ.

وَالْخَصْفُ: الإلْزَاقُ بَعْضُهُ إلى بَعْضٍ، كما يعملُ الْخَصَّافُ الذي يُرَقِّعُ النَّعْلَ. ومعنى (طَفِقَا) أخذا في العملِ، يقالُ: بَاتَ يفعلُ كذا إذا فعلَهُ ليلاً، وظلَّ يفعلُ كذا إذا فَعَلَهُ نَهاراً، وطَفِقَ يفعلُ كَذا إذا فَعَلَ في أيِّ وقتٍ كانَ.

وعن رسول اللهِ ﷺ أنه قالَ: [إنَّ آدَمَ كَانَ رَجُلاً طِوَالاً كَأنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ كَثِيْرُ شَعْرِ الرَّأسِ، فَلَمَّا وَقَعَ بالْخَطِيئَةِ بَدَتْ سَوْآتُهُ وَكَانَ لاَ يَرَاهَا، فَانْطَلَقَ هَارِباً فِي الْجَنَّةِ، فَعَرَضَتْ لَهُ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ فَحَبَسَتْهُ بشَعْرِهِ، قَالَ لَهَا: أرْسِلِيْنِي! فَقَالَتْ: لَسْتُ مُرْسِلَتَكَ. فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا آدَمُ؛ أمِنِّي تَفِرُّ؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنِ اسْتَحْيَيْتُ][1].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١١٩٧) عن أبي بن كعب، وهو اللفظ في الحديث (١١٢٠١) بإسناد آخر.

وقال ابنُ عبَّاس: (قَالَ اللهُ: يَا آدَمُ، أَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِيْمَا أَبَحْتُ لَكَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْدُوحَةٌ عَنِ الشَّجَرَةِ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ وَعِزَّتِكَ مَا ظَنَنْتُ أنَّ أحَداً مِنْ خَلْقِكَ يَحْلِفُ بكَ كَاذِباً. قَالَ: فَوَعِزَّتِي لأُهْبِطَنَّكَ إلَى الأَرْضِ، ثُمَّ لاَ تَنَالُ الْعَيْشَ إلاَّ بكَدٍّ. فَأُهْبِطَ إلَى الأَرْضِ هُوَ وَحَوَّاءُ، فَعُلِّمَ صَنْعَةَ الْحَدِيْدِ، وَأُمِرَ بالْحَرْثِ، فَحَرَثَ وَزَرَعَ، وَسَقَى وَحَصَدَ، ثُمَّ دَرَسَ وَرَوَى، ثُمَّ طَحَنَ، ثُمَّ عَجَنَ، ثُمَّ خَبَزَ، ثُمَّ أكَلَ. فَلَمْ يَبْلُغْ إلَى الأَكْلِ حَتَّى بَلَغَ مَا شَاءَ اللهُ أنْ بَلَغَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ قال مُحمدُ بن قيس: (نَادَاهُ رَبُّهُ: يَا آدَمُ، لِمَ أكَلْتَ مِنْهَا وَقَدْ نَهَيْتُكَ؟ قَالَ: يَا رَب؛ أطْعَمَتْنِي حَوَّاءُ. قَالَ: يَا حَوَّاءُ؛ لِمَ أطْعَمْتِهِ؟ قَالَتْ: أمَرَتْنِي الْحَيَّةُ[1]. فَقِيْلَ لِلْحَيَّةِ: لِمَ أمَرْتِهَا؟ قَالَتْ: أمَرَنِي إبْلِيْسُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: أمَّا أنْتِ يَا حَوَّاءُ؛ فَكَمَا أدْمَيْتِ الشَّجَرَةَ تَدْمِيْنَ كُلَّ شَهْرٍ، وَأمَّا أنْتِ يَا حَيَّةُ فَأَقْطَعُ قَوَائِمَكِ، فَتَمْشِيْنَ فِي التُّرَاب عَلَى وَجْهِكِ، وَسَيَشْرِخُ رَأْسَكِ كُلُّ مَنْ لَقِيَكِ، وَأمَّا أنْتَ يَا إبْلِيْسُ فَمَلْعُونٌ مَدْحُورٌ)[2].

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا ﴾ ؛ أي ضَرَرْنَاهَا بالمعصيةِ، وهذا اعترافٌ بالخطيئةِ على أنفسِهما، ﴿ وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ بالعقوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ ﴾ ؛ أي قال اهْبطُوا من الجنَّةِ إلى الأرض، ﴿ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ ﴾ ، أي في حال عداوةٍ، ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ ﴾ ؛ أي وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومنفعَةٌ، ﴿ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي إلى مُنْتَهَى آجالِكُم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ ﴾ ؛ أي في الأرض تعيشُون، ﴿ وَفِيهَا تَمُوتُونَ ﴾ ؛ وفي الأرضِ تُقْبَرُونَ، ﴿ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي مِن قبوركُم للبعثِ.

---

(١) في المخطوط: (أطعمتني الحية) وهو تحريف.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٠٥).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ ﴾ ؛ أي أنْزَلَ اللهُ المطرَ مِن السَّماءِ فكانتِ الْكِسْوَةُ منهُ، يعني أنَّ لِبَاسَهُمْ من نبـاتِ الأرض من القُطْنُ والكِتَّان. وهو ماءُ السَّماء، وما يكونُ من الكسـوةِ مـن أصـوافِ الأغنـام، فَقِوَامُ الأنعام أيضاً من نباتِ ماء السَّـماء، كـذا قـال ابـن عبَّـاس رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُمَا: (وقوله: (يُوَارِي سَوْآتِكُمْ) قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَرِيشًا) يَعْنِي مَالاً) هكـذا قـال ابـنُ عبَّـاس ومجاهدُ والضحَّاك والسُّدِّيُّ[١].

ويقالُ: تَرَيَّشَ الرَّجُلُ؛ إذ تَمَوَّل. وقال ابنُ زيـدٍ: (الرِّيْـشُ: الْجَمَـالُ)[٢]. وقـرأ عثمانُ بنُ عفَّان والحسنُ وقتادة: (وَرِيَاشاً) بالألفِ وهـو جَمْـعُ رِيْـشٍ[٣]، مثـلُ ذئـبٍ وذِئابٍ. وقال الأخفشُ: (الرِّيَاشُ: الْخِصْبُ وَالْمَعَـاشُ). وَقِيْـلَ: معنـى الرِّيْـشِ: مـا يُتَأَثَّثُ بهِ في البيتِ من متاعهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ ؛ قـال قتـادةُ والسُّـدِّيُّ: (هُـوَ الْعَمَـلُ الصَّالِحُ)[٤]، ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ ؛ لأنَّهُ يَقِي مِن العذاب والعقـاب، كأنَّـهُ قـالَ: لِبَـاسُ التَّقْوَى خَيْرٌ من الثياب؛ لأنَّ الفاجرَ وإنْ كان حَسَنَ الثياب فـهو بَـادِي العـورةِ. قـال الشاعرُ:

إِنِّــي كَـأَنِّي أَرَى مَـنْ لاَ حَيَـاءَ لَـهُ   وَلاَ أَمَانَـةَ وَسْـطَ الْقَـوْمِ عُرْيَانَـا

---

(١) في جامع البيان: الأثر (١١٢٢١) عن ابن عباس، والأثر (١١٢٢٢) عن مجاهد، والأثر (١١٢٢٥) عن الضحاك، والأثر (١١٢٢٣) عن السدي.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٢٨).

(٣) نقله الطبري في جامع البيان عن زر بن حبيش والحسن البصري: تفسير الآية. وفي الأثر عن الحسن البصري قال: رأيت عثمان بن عفان على منبر رسول الله ﷺ... وذكره: الرقم (١١٢٣٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٣٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْـهُمَا. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٨٤؛ قال القرطبي: (وروى قاسم بن مالك عن عوف عن معبد الجهني...) وذكره.

وقال ابنُ جُرَيجٍ: (لِبَاسُ التَّقْوَى هُوَ الإيْمَانُ)[١]. وقـال مَعْبَدُ الْجُهَنِيُّ: (هُوَ الْحَيَاءُ)[٢]. وَقِيْلَ: هو السَّمْتُ الْحَسَنُ بالوجهِ. وقال وهب: (الإيْمَانُ عَرْيَانٌ؛ وَلِبَاسُهُ التَّقْوَى؛ وَرِيْشُهُ الْحَيَاءُ؛ وَمَالُهُ الْفِقْهُ؛ وَثَمَرَتُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ)[٣]. وَقِيْلَ: لباسُ التقوَى ما يُلْبَسُ من الثِّياب للتَّضَرُّعِ والتَّخَشُّعِ مثلَ الصُّوفِ والثِّياب الْخَشِنَةِ، وهو خيرٌ من لباسِ الْكِبْرِ.

قرأ أهلُ المدينةِ والشَّام والكسائيُّ: (وَلِبَاسَ) بالنصب عطفاً على قوله: (لِبَاساً). وقرأ الباقون بالرَّفعِ على الابتداءِ؛ وخبَرهُ (خَيْرٌ). وجعلـوا (ذلِكَ) صِلَةً في الكلامِ، ولذلك قرأ ابنُ مسعود وأُبَيُّ بنُ كعبٍ: (وَلِبَاسُ التَّقْوَى خَيْرٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناه: إنَّ إنزالَ اللِّباسِ من دلائلِ الله على إثباتِ وحدانيَّته ونعَمِهِ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ، أي لكي يَتَّعظُونَ فيعرفُوا أنَّ ذلك كلَّهُ مِن اللهِ تعالَى.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ ؛ أي لا يَضُرَّنَّكُمْ الشيطانُ بالدعاءِ إلى الغيِّ والمعصيةِ كما اسْتَزَلَّ أبَوَيْكُمْ آدمَ وحوَّاءَ من الجنَّةِ ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ ، فتَسَبَّبَ في نَزْعِ لباسهما لِحملهما على المعصيةِ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ ؛ أي لِيُظْهِرَ لَهما عوراتِهما أنَّ ذلك يُغِيْظُهُمَا، وإنَّما أضافَ الإخراجَ من الجنَّةِ إلى الشيطانِ؛ لأن ذلكَ كان بوَسْوَسَتِهِ وإغوائِه.

واختلفُوا في لباسِهما في الجنَّةِ؛ فقال بعضُهم: كان مِن لِبَاسِ الْجَنَّةِ، عن ابنِ عبَّاس: (أنَّ لِبَاسَهُمَا كَانَ مِنَ الظُّفُرِ؛ أيْ كَانَ يُشْبهُ الظُّفُرَ، فَإنَّهُ كَانَ مَخْلُوقاً عَلَيْهِمَا خِلْقَةَ الظُّفُرِ)[٤]. وقال وهبٌ: (كَانَ لِبَاسُهُمَا مِنَ النُّورِ)[٥]. ومعنى قولِهِ: (لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٣١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٣٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ج ٧ ص١٨٩: الأثر (٣٥٢٢٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٤١) بأسانيد.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٤٢).

الشَّيْطَانُ) أي كونُوا على حَذرٍ من ذلكَ، فإنه عَدُوٌّ لكم. وهذا اللفظُ أبلغُ من أنْ تقولَ: لا تَقْبَلُوا فتنةَ الشيطان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ؛ أي إنَّ الشيطانَ ونَسْلَهُ يَرَوْنَكُمْ وأنتم لا ترونَهم، وإنَّما قالَ هكذا؛ لأنَّا إذا لَمْ نَرَاهُمْ لم نعرفْ قصدَهم بالكيدِ والإغْوَاء حتى نكونَ على حَذرٍ في نَجدَةِ نفوسِنا من وَسَاوسِهِ.

وفي هذا بيانٌ أنَّ أحَداً من البَشَرِ لاَ يَرَى الْجِنَّ، بخلافِ ما يقولُ بعضُهم: إنَّ منَّا مَن يراهُم. وإنَّما لا يراهُمُ البشرُ؛ لأنَّهم أجْسَامٌ رقيقةٌ تحتاجُ في رؤيتِكَ إلى أفضلِ شُعاعٍ، واللهُ تعالى لم يُعْطِنَا من الشُّعاعِ قَدْرَ ما يُمكننا أن نراهم، وأمَّا هم فإنَّهم يَرَونَنَا؛ لأنَّهم يرى بعضُهم بعضاً مع أنَّهم أجسامٌ رقيقةٌ، فلأنْ يرونَا ونحنُ أجسامٌ كثيفة أوْلَى.

وذهب بعضُ الناسِ إلى أنه يجوزُ أن يراهم البشرُ، بأنْ يكشِفُوا أجسامَهم، وقال: وهم مُمَكَّنُونَ من ذلك. وَقِيْلَ: إنَّ هذا لا يصلحُ؛ لأنه لو أمكنَهم أن يَكْشِفُوا أجسامَ أنفسِهم أمكنَهم أن يكشِفُوا أجسامَ غيرِهم. وقال مالكُ بن دينار: (إنَّ عَدُوّاً يَرَاكَ وَلاَ تَرَاهُ لَشَدِيْدُ الْمُؤْنَةِ إلاَّ مَنْ عَصَمَ اللهُ)(١).

وَقِيْلَ: هو زيَّن لآدم فسكن له، ويجري من ابن آدم مَجْرَى الدَّمِ، وأنتَ لا تُقَاومُهُ إلا بعون اللهِ، والشيطانُ يراكَ وأنتَ لا تراهُ، وهو لا يَنْساكَ وأنتَ تنساهُ. وفيه يقولُ بعضهم:

وَلاَ أَرَاهُ حَيْثُمَا يَرَانِي ... وَعِنْدَمَا أَنْسَاهُ لاَ يَنْسَانِي
فَيُبْدِي إنْ لَمْ يَكُنْ سَبَانِي ... كَمَا سَبَى آدَمَ مِنْ جِنَانِ

وقال ذُو النُّون: (إنْ هُوَ يَرَاكَ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَاهُ، فَإنَّ اللهَ يَرَاهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَرَى اللهَ، فَاسْتَعِنْ باللهِ عَلَيْهِ، فَإنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيْفاً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي جعلناهم قُرَنَاءَ للذينَ لا يؤمنونَ بالله.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٤٦٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ كُفَّارَ مكَّة كانوا إذا فَعَلُوا معصيةً يَعْظُمُ قُبْحُهَا نَحْوَ طوافِهِم بالبيتِ عُرَاةً، وتحريْمِهِم ما أحلَّ اللهُ تعالى من البَحِيْرَةِ والسَّائِبَةِ، قَالُوا: وَجَدْنَا عَلَيْـهَا آبَاءَنَا وأسلافَنا، ﴿ وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ ؛أي بهذه الأشياءِ، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَهم يا مُحَمَّد: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ ؛ أي لا يأمرُنا بالمعاصِي، ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ استفهامٌ بمعنى الإنكارِ على جهة إلزامِ الْحُجَّةِ؛ لأنَّهم إنْ قالوا: نقولُ على اللهِ ما لَمْ نَعْلَمْ، فَضَحُوا أنفسَهم، وإنْ قالوا: لا نقولُ على الله مَا لا نعلمُ، لَزِمَتْـهُمُ الْحُجَّـةُ؛ لأنَّهم لم يكن لَهم حُجَّةٌ على ما قالُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ ؛ أي بالعدل والصَّواب، وقال ابنُ عبَّاس: (لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ)[1]، وقال الضَّحاكُ: (بالتَّوْحِيْدِ). ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ؛ قال مجاهدُ والسُّدِّيُّ: (أيْ تَوَجَّهُوا إلَى الْقِبْلَةِ فِي الصَّلاَةِ أدَاءً عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)، وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: إذا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ وَأنْتُمْ فِي مَسْجِدٍ، فَصَلُّوا فِيْـهِ وَلاَ يَقُولَنَّ أحَدُكُمْ: أُصَلِّي فِي مَسْجِدِي، وَإذا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فَلْيَأْتِ أيَّ مَسْـجِدٍ شَـاءَ، وَلْيُصَلِّ فِيْهِ).

وهذه الآية تدلُّ على وُجُوب فعلِ الصَّلاةِ المكتوبة في الجماعةِ، وقد رُوِيَ عن رسول اللهِﷺ أنهُ قَالَ:[مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَلاَ صَلاَةَ لَهُ][2]. وقال ﷺ: [لَقَدْ هَمَمْتُ أنْ آمُرَ رَجُلاً يُصَلِّي بالنَّاسِ، ثُمَّ أنْظُرُ إلَى قَوْمٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجَمَاعَاتِ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ أي مُخْلِصِيْنَ لهُ الطاعةَ والعبادةَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي خَلَقَكُمْ حين خلقكُمْ

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٨٨.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٣٥٣: الحديث (١٢٢٦٦)، وإسناده ضعيف؛ فيه أبو خباب الكلبي، والحديث (١٢٢٦٥) بإسناد صحيح. وأخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب الصلاة: الحديث (٢٠٦٤).

(٣) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: الحديث (١٩٨٧). وأحمد في المسند: ج ٢ ص٥٣١. والبخاري في الصحيح: كتاب الأذان: باب فضل صلاة العشاء: الحديث (٦٥٧).

مؤمناً وكافراً؛ وشَقِيّاً وسَعيداً، فكما خلقَكم فكذلك تعودون إليه يومَ القيامةِ، ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ ؛ وهم المؤمنونَ، ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ ؛ وهم أهلُ الكفرِ، وهذا قولُ ابنِ عبَّاس، كما قالَ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾[1] ثم يعيدُهم يومَ القيامةِ كما بدأ خَلْقَهُمْ مؤمناً وكافراً، فَيَبْعَثُ المؤمنَ مؤمناً؛ والكافرَ كافراً[2].

وقال الحسنُ ومجاهدُ: (مَعْنَاهُ: كَمَا بَدَأَكُمْ فَخَلَقَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئاً، كَذلِكَ تَعُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أحْيَاءً)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي إنَّ أهْلَ الضَّلالةِ اتَّخذُوا الشياطينَ أولياءَ بطاعتِهم فيما دَعَوهُم إليه، ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠ ﴾ ؛ أي يَظُنُّونَ أنَّهم على الْهُدَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ ﴾ ذلك أنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا يطُوفُونَ بالبيتِ عُرَاةً ويقولون: لاَ نطوفُ في الثياب التي أذْنَبْنَا فيها ودَنَّسْنَاهَا بالذنوب، فكانتِ المرأةُ منهم تُطُوفُ بالبيتِ عَرْيَانَةً باللَّيلِ، إلا أنَّها كانت تَتَّخِذُ سُيُوراً مُقَطَّعَةً تُشَدُّ في حِقْوَيْهَا، فكانت السُّيُورُ لا تسترُها سِتْراً تامّاً.

قال المفسِّرون[4]: كانت بنُو عامرٍ في الجاهليَّة يفعلونَ ذلك، كان رجالُهم يطوفون عراةً بالنَّهار، ونساؤُهم ليلاً. وحُكِيَ أنَّ امرأةً كانت تطوفُ عريانةً وهي تقولُ[5]:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلُّهُ ... فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أحِلُّهُ

---

(١) التغابن / ٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٦١).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٧٠) عن الحسن بإسنادين، والأثر (١١٢٧٣) عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٤٧) عن مجاهد، والأثر (١١٢٧٦) عن ابن عباس.

(٥) ينسب إلى ضباعة بنت عامر بن صعصعة من بني سلمة بن قشير. السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص١٣٤.

وكانوا إذا قَدِمُوا منهُ طَرَحَ أحدُهم ثيابَه في رجلِهِ، فإن طافَ وهي عليه ضُرِبَ وانْتُزِعَتْ منهُ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) يعني الثِّيَابَ[١]. وقال مجاهدُ: (يَعْنِي: مَا يُوَارِي عَوْرَتُكُمْ وَلَوْ عَبَاءَةً)[٢].

وقال الكلبيُّ: (كَانَتْ بَنُو عَامِرٍ لاَ يَأْكُلُونَ مِنَ الطَّعَامِ إلاَّ قُوْتاً، وَلاَ يَأْكُلُونَ دَسِماً فِي أيَّامِ حَجِّهِمْ، يُعَظِّمُونَ بذلِكَ حَجَّهُمْ. وَكَانَتْ قُرَيْشُ وَكِنَانَةُ يَفْعَلُونَ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَحْنُ أحَقُّ أنْ نَفْعَلَ ذلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا). ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ ؛ أي الْبَسُوا ثيابَكم عندَ كلِّ مسجدٍ، وكُلُوا اللَّحْمَ والدَّسِمَ، واشربُوا من ألبانِ السَّوائبِ والبَحَائِرِ، (وَلا تُسْرِفُوا) أي لا تُجَاوزُوا تحريْمَ ما أحلَّ اللهُ لكم.

والإسْرَافُ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ؛ فتارةً تكون مجاوزةُ الحلالِ إلى الحرامِ؛ وتارةً تكونُ مجاوزةُ الحدِّ في الإنفاقِ؛ وتارةً تكونُ بأنْ يأكلَ الإنسانُ فوقَ الشِّبَعِ فيؤدِّي به ذلكَ إلى الضَّرر.

ويروى: أنَّ هَارُونَ الرَّشِيْدَ كان لـه طبيبٌ نصرانِيٌّ حاذقٌ، فقال لعليِّ بن الحسين ابن واقدٍ[٣]: ألَيْسَ في كتابكم من علمِ الطب شيءٌ؟ والعلمُ عِلمان: علمُ الأديانِ وعلمُ الأبدانِ، فقالَ لهُ: إنَّ اللهَ تعالى قد جَمَعَ الطبَّ كلَّه بنصفِ آيةٍ من كتابنا. قال: ومَا هِيَ؟ قال: قَوْلُـهُ تَعَالَى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا). فقال النصرانِيُّ: هل يُؤْثَرُ عن رسولِكم شيءٌ من الطب؟ قال: نَعَمْ؛ جمعَ رسولُنا ﷺ الطبَّ في ألفاظٍ يسيرة. قال: وما هيَ؟ قال: قَوْلُهُ: [الْمَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ، وَالْحِمْيَةُ رَأسُ كُلِّ دَوَاءٍ، وَعَوِّدُوا كُلَّ جِسْمٍ مَا اعْتَادَ][٤]. فقال النصرانِي: ما تركَ كتابُكم ولا نبيُّكم لجالينوسَ طِبّاً[٥].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن ابن عباس: الأثر (١١٢٧٧).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٢٨٠).
(٣) علي بن الحسين بن حيان بن عمار بن واقد؛ أبو الحسن، ترجم له الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ج ١١ ص٣٩٤: الرقم (٦٢٧٤)؛ وقال: ثقة.
(٤) في الدر المنثور: ج ٣ ص٤٤٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو محمد الخلال عن عائشة)).
(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص١٩٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي لا يرضَى عملَهم، ولا يُثْنِي عليهم. فلما نَزَلَتْ هذه الآيةُ طَافَ المسلمونَ في ثيابهم، وأكلُوا اللَّحمَ والدسمَ، فعيَّرهُم المشركون بذلك، فأنزلَ اللهُ:

قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: مَن حَرَّمَ الثيابَ التي يَتَزَيَّنُ بها الناسُ، ومَن حَرَّمَ المستلذاتِ من الرِّزْق؟ ويقالُ: أرادَ بالطيِّباتِ: الحلالَ من الرِّزْق، وفي قَوْلِهِ تَعَالَى: (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) أمرٌ للإنسانِ أن يَلْبَسَ أحسنَ ثيابهِ في الأعيادِ والْجُمَعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أنَّ الْمُسْلِمِيْنَ يُشَارِكُونَ الْمُشْرِكِيْنَ فِي الطَّيِّبَاتِ فِي الدُّنْيَا، فَأكَلُواْ مِنْ طَيِّبَاتِ طَعَامِهِمْ؛ وَلَبسُوا مِنْ خِيَارِ ثِيَابهِمْ؛ وَنَكَحُوا مِنْ صَالِحِ نِسَائِهِمْ، ثُمَّ يُخْلِصُ اللهُ تَعَالَى الطَّيِّبَاتِ فِي الآخِرَةِ لِلَّذِيْنَ آمَنُواْ وَلَيْسَ لِلْمُشْرِكِيْنَ فِيْهَا شَيْءٌ)[(١)].

وتقديرُ الآيةِ: قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا مشتركةٌ فِي الدُّنْيَا، خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: هي للمؤمنينَ في الدُّنيا غيرُ خالصةٍ من الْهُمُومِ والأحزانِ والمشقَّة.

وقرأ ابنُ عبَّاس وقتادةُ ونافع: (خَالِصَةٌ) بالرفع؛ أي قِيْلَ: خَالِصَةٌ. وقرأ الباقونَ بالنصب على الحالِ والقطعِ، لأنَّ الكلامَ قد تَمَّ دونَه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ ؛ أي كما فَصَّلْنَا لكم الدلائلَ والأوامرَ والنواهي، هكذا تفصيلُها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي يَفْقَهُونَ أوامرَ اللهِ تعالى.

ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى ما حَرَّمَ عليهم فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ الله تعالى لَمْ يُحَرِّمِ الثيابَ ولا الطيباتِ من الرِّزْق، وإنَّما حَرَّمَ الذُّنُوبَ.

والْفَوَاحِشُ: هي الكَبَائِرُ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا ظَهَرَ مِنْهَا) أي ما عُمِلَ علانيةً، (وَمَا بَطَنَ) يعني سِرّاً. (وَالإِثْمَ) يتناولُ كلَّ ذنبٍ وأنْ يكون فيه حَدٌّ. وفائدةُ ذكر الإثْمِ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٠٠) بأسانيد.

بيانُ أنَّ التحريمَ غيرُ مقصورٍ على الكبائرِ. (وَالْبَغْيَ) يتناولُ الإقدامَ على الغيرِ (بغَيْرِ الْحَقِّ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: وحَرَّمَ عليكم أنْ تُشْركُوا باللهِ، ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ ؛ أي عُذْراً ولا حُجَّةً. ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى ما يصيرُ جامعاً للمحرَّماتِ كلِّها؛ وهو تحريمُ القولِ الذي لا عِلْمَ لقائلهِ به فقالَ: ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وَقِيْلَ: يعني بالفواحشِ: الطوافَ عُرَاةً، ويعني بقولهِ: (مَا ظَهَرَ مِنْهَا) طوافُ الرِّجالِ عُرَاةً بالنَّهارِ، (وما بَطَنَ) طوافُ النِّساءِ بالليلِ عُرَاةً. وَقِيْلَ: أرادَ بقولهِ: (مَا ظَهَرَ مِنْهَا) التعرِّي عن الثيابِ في الطَّوافِ، (وَمَا بَطَنَ) يعني الزِّنا، ويعني بـ (الإِثْمَ) كلَّ المعاصِي. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْبَغْيَ) طلبُ التَّرَأُّسِ على الناسِ بالقَهْرِ والاستطالَةِ عليهم بغيرِ حقٍّ.

وقال الحسنُ: (يَعْنِي بـ (الإِثْمَ) الْخَمْرَ)[1]. قال بعضُهم:

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي ... كَذاكَ الإِثْمُ يَذْهَبُ بِالْعُقُول

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ تخويفٌ ووعيدٌ من اللهِ تعالى لَهم، معناهُ: ولكلِّ أهلِ دينٍ مُهْلَةٌ؛ ولكلِّ وقتٍ مؤقَّتٌ، فإذا انْقَضَتْ مُهْلَتُهُمْ فلا يستأخِرون من بعدِ الأجلِ ساعةً ولا يستقدمونَ في الأجَلِ. وليسَ ذكرُ السَّاعةِ في الآيةِ على وجهِ التحديدِ، فإنَّهم لا يستأخرونَ ولا يستقدمون ساعةً ولا أقلَّ من ساعةٍ، ولكن ذُكِرَتِ السَّاعةُ لأنَّها أقلُّ أسْماءِ الأوقاتِ بين الناسِ.

فإن قِيْلَ: لِمَ قال: (يَسْتَأْخِرُونَ) ولم يَقُلْ: يَتَأَخَّرُونَ؟ قِيلَ: معناهُ: لا يطلبونَ التَّأَخُّرَ عن ذلكَ لأجلِ اليَأْسِ عنهُ. وقرأ ابنُ سيرينَ: (فَإِذا جَاءَ آجَالُهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي ﴾ ؛ معناهُ: يَا بَنِي آدَمَ إمَّا أن يأتيكم رُسُلٌ من جِنْسِكُمْ يقرأونَ عليكم ويَعْرِضُونَ عَلَيْكُمْ

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٠٠.

كِتَابي وكَلامِي، ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ ، اللهَ وأطاعَ الرسولَ، ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ؛ العملَ، ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ حين يخافُ أهلُ النار، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ على ما خَلَّفُوا في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى. وَقِيْلَ: معناهُ: وتكبَّروا عن الإيْمانِ بمُحَمَّد ﷺ والقُرْآن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ ﴾ ؛ أي حَظُّهُمْ مما قضَى اللهُ عليهم في الكتاب؛ وهو سوادُ الوجوهِ وزُرْقَةُ الأعيُنِ؛كما قال تعالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾[1].

وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: مَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَاب)[2]. وقال مجاهدُ: (مَا سَبَقَ مِنَ الشَّقَاوَةِ)[3]. وقال الربيعُ: (يَعْنِي يَنَالُهُمْ مَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الأَرْزَاق وَالأَعْمَال)[4]. فَإذا فَرَغَتْ وَفَنِيَتْ؛ (جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ) أيْ يَقْبضُونَ أرْوَاحَهُمْ؛ يَعْنِي مَلَكَ الْمَوْتِ وَأعْوَانَهُ)[5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ ؛ يعني إذا جاءَتْهم ملائكةُ العذاب يذيقونَهم عذاباً في الآخرةِ كما قالَ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَان وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[6]. ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ ؛ أي فتقولُ لَهم الملائكةُ — وهم خَزَنَةُ جهنَّم: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ ؛ يعنونَ الأصنامَ. يقولون لَهم ذلك تَوْبِيْخاً وتَنْكِيْراً وحسرةً عليهم، ﴿ قَالُوا۟ ﴾ ؛ فيقولُ الكفَّارُ عندَ ذلك: ﴿ ضَلُّوا۟

(١) الزمر / ٦٠.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣١٥).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣١٨).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٣٢).
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٣٤) عن ابن زيد.
(٦) إبراهيم / ١٧.

عَنَّا ﴾ ؛ أي ذهَبَ الأصنامُ عنَّا؛ فلم يَقْدِرُوا لنا على نَفْعٍ ولا دفع ضُرٍّ، ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ أي أقَرُّوا على أنفسِهم، ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا. قال مقاتلُ: (يَشْهَدُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ بَعْدَمَا شَهِدَتْ عَلَيْهِمُ الْجَوَارحُ بمَا كَتَمَتِ الألْسُنُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ﴾ ؛ معناه: قَالَ اللهُ لَهم: ادْخُلُوا النارَ مع أمَمٍ قَدْ خلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ ؛ في الدِّينِ والْمِلَّةِ. ولم يَقُلْ: أخاهَا؛ لأنه عَنَى بها الأُمَمَ والجماعةَ؛ فَلَعَنَتِ المشركونَ المشركين؛ واليهودُ اليهودَ؛ والنصارَى النصارى؛ والْمَجوسُ الْمَجوسَ، ويَلْعَنُ الأتباعُ القادةَ ويقولون: لَعَنَكُمُ اللهُ أنتم عَزَّرْتُمُونَا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا ﴾ ؛ أي تَلاحَقُوا واجتمعوا في النَّار.

قرأ الأعمشُ: (حَتَّى إذا تَدَارَكُوا فِيْهَا). وقرأ النخعيُّ: (حَتَّى إذا ادَّرَّكُوا فِيْهَا) بتشديدِ الدَّال من غيرِ ألفٍ. والمعنى: حتَّى إذا اجتمعُوا في النَّار القادةُ والأتباعُ؛ ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ ﴾ ؛ أي قالَتْ أخرَى الأممِ الْمُكَذِّبَةِ لأوَّل الأمَمِ ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ الْمُقَدَّمُونَ؛ ﴿ أَضَلُّونَا ﴾ ؛ عن الْهُدَى بإلقاءِ الشُّبهة علَينَا؛ ﴿ فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي زِدْهُمْ في عذابهم، واجعل عذابَهم مُضَاعفاً مِمَّا علينَا، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ اللهُ تعالَى: ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ ؛ أي لكلٍّ من الأوَّلين والآخرين ضِعْفٌ من العذاب، ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أنتُم شِدَّةَ ما عليهِم.

ومَن قرأ (وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ) بالياء؛ فمعنَاهُ: لا يعلمُ كلُّ فريقٍ منهم مقدارَ عذاب الفريق الآخر. وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: (قَالَتْ أخْرَاهُمْ لأولاهُمْ) أيْ (أخْرَاهُم) دُخُولاً النَّارَ الأتْبَاعُ (لأوْلاَهُمْ) وَهُمُ الْقَادَةُ)[1]. وقال السُّدِّيُّ: (أخْرَاهُمُ الَّذِيْنَ أتَوا فِي آخِرِ الزَّمَانِ، لأوْلاَهُمْ يَعْنِي الَّذِيْنَ شَرَّعُوا لَهُمْ ذلِكَ الدِّيْن)[2].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ١ ص٣٩١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٣٦).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ أي قالت أوَّلُ الأممِ لآخر الأمَمِ، والمتبوعون للتابعين: لم يكُنْ لكم علينا فَضْلٌ في شيءٍ حتى تطلبُوا من اللهِ أن يزيدَ في عذابنا ويُنْقِصَ من عذابكم، وأنتم كفرتُم كما كفَرْنا، ونحنُ وأنتم في الكُفْرِ سواءٌ، وكذا نكونُ في العذاب سواءٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون هذا من قَوْلِ الأوَّلينَ للآخرين، ويجوزُ أن يكونَ قال اللهُ لَهم ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي الذينَ جَحَدُوا بآياتِنا وتَعَظَّمُوا عن الإيْمان بها؛ لا تفتحُ لأرواحِهم أبوابُ السَّماءِ إذا مَاتُوا هَوَاناً، وتفتحُ للمؤمنينَ كرامةً لَهم. وَقِيْلَ: معناه: لا تفتحُ لأعمالِهم أبوابُ السَّماءِ؛ لأنَّها خَبِيْثَةٌ، بل يَهْوِي بعملهم إلى الأرضِ السَّابعةِ، وتُرْقَمُ في الصَّخرةِ التي تحتَ الأرضين كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَلاَّ إنَّ كِتَابَ الفُجَّار لَفِي سِجِّينٍ. وَمَا أدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾[1] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ) قراءةُ الأكثرينَ بالتَّاء المشدَّدة راجعةٌ إلى جماعةِ الأَبْوَاب. وقرأ بعضُهم بالياءِ والتخفيف؛ لأن تأنيثَ الأبواب ليس بحقيقيٍّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ ؛ أي لا يدخلون الْجَنَّةَ أبَداً كما لا يدخلُ البعيرُ في خُرْمِ الإبرةِ. وهذا تَمثيلٌ في الدَّلالةِ على يَأْسِ الكفَّار من دخولِهم الجنَّة. والعربُ إذا أرادت تأكيدَ النَّفْيِ علَّقَتْهُ بما يستحيلُ كونُه، كما قالَ الشاعرُ:

إذا شَابَ الْغُرَابُ أتَيْتُ أهْلِي وَصَارَ الْقَارُ كَاللَّبَنِ الْحَلِيب

والْخِيَاطُ وَالْمَخْيَطُ بمعنى واحدٍ. وعن ابنِ مسعودٍ ﷺ (أنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْجَمَلِ؛ فَقَالَ: هُوَ زَوْجُ النَّاقَةِ؛ كَأنَّهُ اسْتَجْهَلَ مَنْ سَألَهُ وَتَعَجَّبَ مِنْهُ)[2] . وفي قراءة ابنِ عبَّاس: (حَتَّى يَلِجَ الْجُمَّلُ) بضمِّ الجيمِ وتشديد الميم، وهو حَبْلٌ يسمى القَلْسُ. وقال

---

(١) المطففين / ٦-٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٥٢) بأسانيد.

عكرمةُ: (هُوَ الْحَبْلُ الَّذِي يُصْعَدُ بِـهِ النَّخْـلُ). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي هكذا يُجزَون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ ؛ أي لَهم فراشٌ من النار يضطجِعُون ويقعدُونَ وفوقَهم غوَائِلُ؛ أي غاشِيَةٌ من فوق غاشِيَةٍ، كمـا قـالَ تعالى في موضعٍ آخرَ: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾[١]. وقال ﷺ: [يَلْبَـسُ الْكَـافِرُ لَوْحَيْنِ مِنَ النَّار فِي قَبْرِهِ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ][٢].

و(غوَاشٍ): وأصلُ غوَاشٍ: غوَاشِيُ بإثبَاتِ الْيَاءِ مَعَ الضَّمَّـةِ، فحذفَـتِ الضَّمَّـةُ والياءُ استثقالاً، وأدخلَ الثقل ذهابَ حركتِها ويائِه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ يعني الكافرين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ؛ أي إنَّ الذيـن آمَنـوا بـاللهِ ورسُـولِه، وعمِلُـوا الطاعـاتِ بمقدورهـم وبوسْعِهِمْ. (لاَ نُكَلِّفُ نفْسًـا إلا وُسْعَهَا) أي طاقَتَـها وقدرتَـها، ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ باقونَ دائمون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ ؛ أي نَزَعْنَا مـا في قلوبـهم من غِشٍّ وحَسَدٍ وعَدَاءِ بعضِهم على بعضٍ في الدُّنيـا، والْقَيْنَـا في قلوبـهم التَّـوَادُدَ في الآخرةِ حتى لا يَحْسُدُ بعضُ أهلِ الجنَّة بعضاً أعلى درجةً منه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ ؛ أي مِن تحتِ شجرِهم وغُرَفِهم الأنْـهَارُ في حـال نزعنـا مـا في قلوبهم؛ تكونُ (تجري) في موضعِ الحال.

قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَـانَ وَعَلِـيٍّ وَطَلْحَـةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَمَّار بْنِ يَاسِرٍ وسَلْمَانَ وأبي ذرٍّ، يَـنْزِعُ اللهُ فِـي الآخِـرَةِ مَـا كَـانَ فِـي قُلُوبِهِمْ مِنْ غِشٍّ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِي الْعَدَاوَةِ وَالثِّقَلِ الَّذِي كَـانَ بَعْـدَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ،

---

(١) الزمر / ١٦.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٤٥٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الحسن القطان في الطـوالات وأبـو الشيخ وابن مردويه عن البراء)).

وَالأَمْرُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيْهِ، فَيَدْخُلُونَ إخْوَاناً مُتَقَابلِيْنَ).

قال: (فَأَوَّلُ مَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ تُعْرَضُ لَهُمْ عَيْنَان تَجْرِيَان، فَيَشْـرَبُونَ مِـنْ أحَـدِ الْعَيْنَيْنِ، فَيَذْهَبُ الْهَمُّ مِنْ غِلٍّ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْعَيْنَ الأُخْـرَى، فَيَغْتَسِلُونَ فِيْـهَا فَتَشْـرقُ أَلْوَانُهُمْ، وَتُصْقَلُ وُجُوهُهُمْ، وَيَلْبَسُونَ بَهَاءَ النُّور، وَيُطَيِّبُ اللهُ رِيْحَهُمْ بِهِ)[1].

﴿ وَقَالُواْ ﴾ ؛ فعندَ ذلك يقولون: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ ؛ أي أرشِدْنا إلى ما صِرْنا به ربُّنا واغتسلنَا مِـن العَيْنَيْـنِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ ؛ قرأ ابنُ عامرٍ: (مَا كُنَّا) بغير واو. وقرأ الباقون بـالواو: (وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ إلَى هَذَا الذي أكْرَمَنَا اللهُ به لولاَ أنَّ اللهَ هدَانا إليهِ) وقال ﷺ: [كُلُّ أهْـلِ النَّار يَرَى مَنْزِلَهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَوْلاَ هَدَانَا اللهُ، فَتَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ. وَكُـلُّ أهْـلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَنْزِلَهُ فِي النَّار فَيَقُولُون: لَوْلاَ أنَّ اللهَ هَدَانَا][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ شهادةٌ منهم بإرسالهِ للحـقِّ إليـهم؛ أي جَـاءُوا بـالصِّدْق؛ فصدَّقنـاهُم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ معناه: نادَتْهم الملائكةُ: أنَّ هذه الجنَّةُ التي وُعِدْتُمُوهَا في الدُّنيا بأعمالِكم. وَقِيْلَ: معنى (أورِثتُمُوهَا) أنْزِلْتُمُوهَـا. وفي الخـبر: أنـه يقالُ لَهم يومَ القيامةِ: جُوزُوا الصِّرَاطَ بعَفْوِي؛ وادخلوُا الجنَّةَ برحمتِي لا بأعمالِكُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ ﴾ ؛ وذلكَ حين يستقرُّ أهلُ الجنَّـةِ في الجنَّـةِ؛ وأهلُ النَّار في النارِ؛ ينادي أصحابُ الجنَّةِ أصحابَ النار: أنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَـا من الثَّواب والكرامة حَقّاً، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ من العذاب حَقًّا؟ قَـالُوا نَعَـمْ، فاعترفُوا في وقتٍ لا ينفعُهم الاعترافُ. وفي (نَعَمْ) قراءتان؛ قـراءةُ الكسـائيِّ: (نَعِـمْ) بكسرِ العين في القُرْآنِ، وقرأ الباقون بالفتحِ؛ وهما لُغتان.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٨٠) عن السدي.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٣٨٢) عن أبي سعيد.

وإنَّما سألَ أهلُ الجنةِ أهلَ النارِ؛ لأنَّ الكفارَ كانوا يكذّبون المؤمنين فيما يَدْعُونَ لأنفسِهم من الثواب ولَهم من العقاب، فَلِذا سألَهم المسلمونَ تَبْكِيْتاً لَهم، ليكونَ ذلك حَسْرَةً للكافرين وسُرُوراً للمؤمنينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ رُوِيَ في الخبرِ: [أنَّ مُنَادِياً يُنَادِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ يَسْمَعُهُ الْخَلاَئِقُ كُلُّهُمْ: أنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْمُحْسِنِيْنَ، وَأنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الظَّالِمِيْنَ] أي على الكافِرين. وقرأ بعضُهم: (أنَّ لَعْنَةَ اللهِ) بالتشديدِ ونَصْبِ اللَّعْنَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي عن الدِّيْنِ الذي هو طريقُ اللهِ إلى جَنَّتِهِ، ﴿ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴾؛ أي يطلبونَ لَها غَيْراً أو زَيْغاً بإلقاءِ الشُّبهة التي يُلْبِسُونَ بها على النَّاسِ، ﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ أي هم جَاحِدُونَ بالبعثِ بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ ﴾؛ أي بين الجنَّةِ والنارِ سُورٌ يحجبُ بينَ الفريقين، كما قالَ تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾(١). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ ﴾؛ أي وعلى أعالِي السُّور بابٌ؛ يقال: أعالِي عُرْفٍ وجَمْعُهُ أعْرَافٌ؛ ومنه عُرْفُ الدِّيكِ؛ وعُرْفُ الأضراسِ.

والأعْرَافُ: سُورٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ سُمِّي أعرافاً لأن أصحابَهُ، ﴿ يَعۡرِفُونَ ﴾؛ الناسَ؛ ﴿ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ ﴾؛ يعرفونَ أهلَ الجنَّةِ ببياضِ وجوههم؛ وأهلَ النَّار بسوادِ الوجوهِ.

قال عبدُالله بنُ عبَّاس: (أصْحَابُ الأَعْرَافِ: قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، فَحَالَتْ حَسَنَاتُهُمْ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ النَّارِ، وَحَالَتْ سَيِّئَاتُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَسَنَاتٌ فَاضِلَةٌ يَدْخُلُونَ بهَا الْجَنَّةَ، وَلاَ سَيِّئَاتٌ فَاضِلَةٌ يَدْخُلُونَ بهَا النَّارَ، فَوَقَفُوا عَلَى السُّورِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ يَعْرِفُونَ الْكُلَّ بسِيْمَاهُمْ. فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ عَرَفُوهُ ببيَاضِ وَجْهِهِ

---

(١) الحديد / ١٣.

أغَرّ مُحَجَّلاً مِنْ أثَرِ الْوُضُوءِ؛ ضَاحِكاً مُسْتَبْشِراً. وَمَنْ دَخَلَ النَّارَ عَرَفُوهُ بسَوَادِ وَجْهِهِ وَزُرْقَةِ عَيْنَيْهِ)[١].

وعن أبي مَجْلِزٍ رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: (هُمُ الْمَلاَئِكَةُ)[٢]. فبلغَ ذلك مجاهدَ فقال: (كَذبَ أبو مجْلِزٍ؛ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: (وَعَلَى الأَعْرَافِ رجَالٌ). فبلغَ ذلك أبا مجْلِزٍ؛ فقال: (هُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَالْمَلاَئِكَةُ ذُكُورٌ لَيْسَ بإنَاثٍ؛ صُوَرُهُمْ صُوَرُ الرِّجَالِ).

وَقِيْلَ: قومٌ استوت حسناتُهم وسيِّئاتُهم، فَوُقِفُوا هناكَ حتى يقضيَ اللهُ فيهم ما يشاءُ، ثم يدخلونَ الجنَّةَ بفضلِ رحمتِهِ؛ وهم آخرُ مَن يدخلُ الجنة قد عَرَفُوا أهلَ الجنَّة وأهلَ النار. فإذا أرادَ الله أن يُعَافِيَهُمْ انطلقَ بهم إلى نَهرٍ يقال لَهُ: نَهرُ الْحَيَاةِ؛ كَأَفْتَاتِ الذهَبِ؛ مُكَلَّلٌ باللُّؤلؤ؛ ترابُهُ الْمِسْكُ. فَيُلْقَوا فيه حتى تُصْبحَ ألوانُهم في نحورهم شامةً بيضاءَ يُعْرَفُونَ بها، ثم يُؤْتَى بهم فيدخلونَ الجنَّة، يُسَمَّوْنَ مساكينَ أهلِ الجنَّةِ.

وسَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَنْ أصْحَابُ الأَعْرَافِ؟ قَالَ: [هُمْ رجَالٌ غزَوا فِي سَبيْلِ اللهِ عُصَاةٌ لآبَائِهِمْ؛ فَقُتِلُوا فَأُعْتِقُوا مِنَ النَّار بقَتْلِهِمْ فِي سَبيْلِ اللهِ، وَحُبسُوا عَنِ الْجَنَّةِ بمَعْصِيَتِهِمْ آبَاءَهُمْ، فَهُمْ آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ][٣]. ورويَ عن ابنِ عبَّاس أيضاً أنه قالَ: (هُمْ أوْلاَدُ الزِّنَا). وعن مجاهدٍ: (أنَّهُمْ قَوْمٌ رَضِيَ عَنْهُمْ آبَاؤُهُمْ دُونَ أمَّهَاتِهِمْ، أوْ أمَّهَاتُهُمْ دُونَ آبَائِهِمْ، فَيُحْبَسُونَ فِي الأَعْرَافِ إلَى أنْ يَقْضِيَ اللهُ بَيْنَ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ معناهُ: أنَّ أصحابَ الأعرافِ إذا نَظَرُوا إلى أصحاب الجنَّةِ قالوا لَهم: سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ، فيردُّ أهلُ الجنَّةِ عليهم السَّلامَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَمْ يَدْخُلُوهَا) أي لا[٤] يدخلُ أصحابُ الأعراف الجنَّةَ وهم يطمعونَ في دخولِها، بأنْ يغفرَ اللهُ لَهم

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٤٠١) مختصراً، والأثر (١١٤٠٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٤١٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١٤٠٨) وفيه من لم يُسَمَّ.

(٤) في المخطوط: (دخولها يدخل...) وهو تحريف.

سيِّئاتِهم ويُدخلَهم الجنَّةَ بحسناتِهم. وما جعلَ اللهُ الطمعَ في قلوبهم إلاَّ لكرامةٍ يزيدُهم بها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ معناهُ: وإذا نظرَ أصحابُ الأعرافِ إلى أصحاب النَّار، دَعَوا اللهَ تعالى واستعاذُوا من النَّار وقالوا: رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ في النَّار؛ أي يَدْعُونَ بذلكَ خَوْفاً مِن اللهِ لأجل معاصيهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ أصْحَابَ الأَعْرَافِ يُنَادُونَ الْكِبَارَ مِنَ الْكُفَّار الَّذِيْنَ كَانُوا عُظَمَاءَ فِي الْكُفْر كَالْوَلِيْدِ بْنِ الْمُغِيْرَةِ وَأبي جَهْلٍ وَسَائِرِ رُؤَسَائِهِمْ). يَعْرِفُونَهُمْ بسِيمَاهُمْ يُنَادُونَهُمْ وَهُمْ عَلَى السُّور: يَا وَلِيْدَ ابْنَ الْمُغِيْرَةِ! يَا أبَا جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ! يَا فُلاَنَ ابْن فُلاَن؛ مَا أغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ، وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ؛ أي تَتَعَظَّمُونَ عنِ الإيْمان باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثم ينظرونَ إلى الجنَّةِ؛ فَيَرَوْنَ فيها الضعفاءَ والمساكين مِمَّنْ كان يَسْتَهْزِئُ بهم كفارُ مكَّةَ؛ مثل صُهَيْبٍ وَخَبَّاب وَعَمَّار وسَلْمَانَ وبلاَل وأشباهِهم، فينادُون: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ﴾؛ الضعفاءُ هُمُ، ﴿ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ ﴾؛ أي حَلَفْتُمْ أيُّها المشركون وأنتُم في الدُّنيا، ﴿ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾؛ يا من أقْسَمْتُمْ لا يدخلهم اللهُ الجنَّةَ. قال ابنُ عبَّاس: (فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لأَصْحَاب الأَعْرَافِ: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾).

فإنْ قِيْلَ: كيفَ يصحُّ هذا التأويلُ في الحجاب بينَ الجنَّةِ والنار؛ ومعلومٌ أنَّ الجنةَ في السَّماءِ والنار في الأرضِ؟ قِيْلَ: لَمْ يُبَيِّنِ اللهُ حالَ الحجاب بالمذكور في الآية، ولا قَدْرَ المسافةِ، فلاَ يَمتنعُ أن يكون بينَ الجنَّةِ والنار وإنْ بَعُدَتِ المسافةُ.

وقرأ بعضُهم: (وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْثِرُونَ) بالثَّاءِ؛ أي تجمعونَ المالَ الكثيرَ. وقال مقاتلُ في تفسيرِ هذه الآية: (إذا قَالَ أصْحَابُ الأَعْرَافِ لأَصْحَاب النَّار: مَا أغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ. قَالَ لَهُمْ أصْحَابُ النَّار: وَأنْتُمْ مَا أغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ، وَأقْسَمُوا لَتَدْخُلُنَّ النَّارَ مَعَنَا).

فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى، أوْ تَقُولُ الْمَلاَئِكَـةُ لأَهْـلِ النَّـار: أهَـؤُلاءِ الَّذِيـنَ أقْسَـمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمْ اللهُ برَحْمَةٍ؛ أي لا يصيبُهم برحمتِهِ. ثم يقالُ لأصحاب الأعرافِ: ادْخُلُوا الْجَنَّـةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أنْتُمْ تَحْزَنُونَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا سَـكَنَ أهْـلُ الْجَنَّـةِ الْجَنَّةَ؛ وَسَكَنَ أهْلُ النَّار النَّارَ؛ وَحُرِمَ أهْلُ النَّار الْمَاءَ وَالثِّمَارَ مَعَ مَا هُمْ فِيْهِ مِنْ ألْـوَانِ الْعَذاب، نَادَوا أصْحَابَ الْجَنَّةِ: أن اسْقُونَا شَيْئاً مِنَ الْمَـاءِ، أوْ صُبُّـوا وَأفْرغُـوا عَلَيْنَـا، وَأطْعِمُونَا شَيْئاً مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ مِنْ ثِمَار الْجَنَّةِ). فيجيبُهم أهلُ الجنَّةِ: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ، أي شرابُ الجنَّة وثِمارُهـا. وإنَّما جُعِـلَ شرابُ الكافرين الحميمَ الذي يُصْهَرُ بهِ مـا في بطونِـهم والجلـود، وطعامُـهم الضَّرِيْـعَ وَالزَّقُّومَ.

وَقِيْلَ: إنَّ أهلَ النار ينادون أهلَ الجنَّةِ بعد أن يستغيثُوا فَيُغَاثُوا بمَاءٍ كَالْمُهْلِ، ثم يستغيثُوا بالطعامِ فيغاثوا بالزَّقُّومِ والضَّرِيْعِ، فيُقْبِلُـونَ علـى الصَّـبْرِ فـلا يُغـني عنـهم، فيقولون: سَوَاءٌ علينا أجَزعْنَا أمْ صَبَرْنَا، ثم ينادون حينئذٍ أهلَ الجنة: يا أهلَ الجنَّةِ! يـا أهلَ السَّـعادةِ! منكُـم الآبَـاءُ والأُمَّـهاتُ؛ والأبنـاء والأخـواتُ؛ والجـيرانُ والمعـارف والأصدقاءُ، أفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ حتى تُطْفِئُوا حَرَّ مـا نجِـدُ مـن العطـشِ، أو مِمَّـا رَزَقَكُمُ اللهُ من الطعامِ فَنَأكُلُهُ لعلَّهُ يطفئُ عنَّا الجوعَ. فلا يُؤْذنُ لأهلِ الجنَّة في الجـواب مقـدارَ أربعـينَ سـنةٍ، ثـم يُـؤْذنُ لَـهم في جوابـهم؛ فيقولـونَ: إنَّ اللهَ حَرَّمَـهُمَا عَلَـى الْكَافِرينَ، يَعْنُونَ الماءَ والطعامَ.

وفي الآية بيانُ أنَّ الإنسانَ لا يستغني عن الطعامِ والشراب وإن كان في العذاب، قال أبو الجوزَائِيِّ: سَألْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: أيُّ الصَّدَقَةِ أفْضَلُ؟ قَـالَ: (الْمَـاءُ، أرَأيْـتَ أهْـلَ النَّار لَمَّا اسْتَغَاثُوا بأهْلِ الْجَنَّةِ قَالُوا: أفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ)(١).

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٤٦٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبـو الشـيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ ﴾ ؛ أولُ الآيةِ نَعْتٌ للكافرينَ؛ ومعناهُ: أنَّهم اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوَ أنفُسِهم؛ لاَهِيْنَ لاَعِبِيْنَ. ويقالُ: هم الذين اختَارُوا في دِيْنِهم الباطلَ واللَّعِبَ والفرحَ والْهُزْءَ، (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) أي غَرَّهُمْ ما أصابوهُ من زينةِ الدُّنيا مع ما كانوا فيه من طُولِ الأَمَلِ، وكذلك كانوا يَسْتَهْزِئُونَ بالمسلمينَ، كما رُوِيَ في الخبرِ: أنَّ أبا جَهْلٍ بَعَثَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلاً يَسْتَهْزِئُ بهِ: أنْ أطعِمْنِي من عِنَب جَنَّتِكَ أو شيئاً من الفواكهِ! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: (قل إنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ ؛ (فَالْيَوْمَ) أي يومَ القيامةِ، معناهُ: اليومَ نترُكهم كما تَرَكُوا العملَ للقاءِ يَوْمِهِمْ هَذا. ويقال: معنى قولهِ: (نَنسَاهُمْ) نَتْرُكُهُمْ، (كَمَا نَسُوا) أي كما أعْرَضُوا عن العملِ للقاءِ يومِهم هذا اعراضَ الناسي للشيء. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ في موضعِ الجرِّ عَطْفٌ على (مَا نَسُوا)؛ المعنى: وَبِجَحْدِهِمْ بآياتِنا الدالَّةِ على التوحيدِ ((نَنسَاهُمُ الْيَوْمَ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذا))(١).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ ؛ أي لقد أتَيْنَاهُمْ بالقُرْآنِ الذي أتينَا به آيةً بعد آيةٍ؛ وسورةً بعد سورةٍ عَلَى عِلْمٍ منَّا بأن ذلكَ أقربُ لِلتَّدَبُّرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ ؛ في موضعِ نَصْبٍ على تقديرِ: هَادِياً وذا رَحْمَةٍ، ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي يُصَدِّقُونَ أنهُ مِن عندِ اللهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ معناه: ما ينظرُ أهلُ مكَّة إلا عاقبةَ ما وَعَدَهم اللهُ به في القُرْآن أنه كائنٌ، منه ما يكونُ في الدُّنيا؛ ومنهُ ما يكونُ في الآخرةِ. ويقالُ معناه: هل يَنْظُرُونَ إلى ما يَؤُولُ إليه أمرُهم من البعثِ والعذاب وورُودِ النَّار.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ) أي يوم يأتِي عاقبةُ ما وُعِدُوا فيه؛ وهو يومُ القيامةِ، يَقُولُ الَّذِينَ كفرُوا وتَرَكُوا العملَ له في دار الدُّنيا: قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا

---

(١) ما بين (( )) ليس في الأصل، وهو ضرورة لإتمام المعنى.

بالصِّدْق في أمرِ البعثِ بعدَ الموتِ فكذبناهُم، ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ ﴾ ؛ أي يقولونَ هذا القولَ حين يَرَوْنَ الشُّفعاءِ يشفعونَ للمؤمنين، فيقال لَهم: ليسَ لكم شَفِيْعٌ، فيقولون: هل نُرَدُّ إلى الدُّنيا فنُصدِّقَ الرسلَ، ونعملَ الأعمالَ الصالحةِ؟ فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ . وجوابُ الاستفهامِ بالفاءِ يكونُ نَصْباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ أي غَبَنُوا حَظَّ أنفُسِهم من الجنَّةِ، فَوَرَثَهُمْ المؤمنونَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي بَطَلَ عنهم فلم يَنْفَعْهُمْ، وذهبَ عنهُم آلِهتُهم؛ وهي التي كانوا يَفْتَرُونَ بها على اللهِ تعالى أنَّها شفعاؤُهم. ويقالُ: معناه: وَضَلَّ عَنْهُمْ حينئذٍ افْتِرَاؤُهُمْ على اللهِ تعالَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ؛ وذلكَ: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عيَّرَ المشركينَ بعبادةِ الأصنامِ بقوله: (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) سَألُوا رسولَ اللهِ ﷺ فقالوا: يا مُحَمَّدُ؛ مَنْ رَبُّكَ الذي تدعُونا إليه؟ فأرادُوا بذلك أن يَجْحَدُوا معنى في أسمائهِ، وفي شيء من أفعاله، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةِ، فتحيَّروا وعجَزُوا عن الجواب.

ومعنى الآيةِ: أنَّ خالِقَكم ورازقَكُم هو اللهُ الذي ابتدأ خَلْقَ السَّمواتِ والأرض لا على مثالٍ سابقٍ؛ فَوَحِّدُوهُ يا أهلَ مكَّةَ واعبدوهُ وأطيعوهُ؛ ودعُوا هذه الأصنامَ؛ فإنَّها لم تَخْلُقْ سَماءً ولا أرضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) قال ابنُ عبَّاس: (أوَّلُهَا الأَحَدُ وَآخِرُهَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ). قال الحسنُ: (هِيَ سِتَّةُ أيَّامٍ مِنْ أيَّامِ الدُّنْيَا). ويقالُ: في سِتَّةِ ساعاتٍ من ستة أيَّامٍ من أوَّلِ أيَّامِ الدُّنيا. ولو شاءَ لَخَلَقَهَا في أسرعِ من اللَّحظةِ، ولكنه علَّمَ عبادَهُ التَّأنِّي والرِّفْقَ والتدبيرَ والتثبُّتَ في الأمور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ؛ اختلفَ المفسِّرون في ذلك؛ قال بعضُهم: يطلقُ الاستواءُ كما نَطَقَ به القُرآنُ ولا يكيَّفُ، كما أثْبَتَ اللهُ ولا نُكَيِّفُهُ. وهذا القولُ مَحْكِيٌّ عن مالكِ بنِ أنسٍ، فإنه سُئِلَ عن معنى هذه الآيةِ؛ فقال:

(الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالْجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ).

وقال بعضُهم: معنى (اسْتَوَى): اسْتَوْلَى، كما يقال: اسْتَوَاء الأميرُ على بلدِ كذا؛ أي اسْتَوْلَى عليهِ واحتوَى وأحرزه، ولا يرادُ بذلكَ الجلوسُ. قال الشاعرُ:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاق ... مِنْ غَيْر سَيْفٍ وَدَم مِهْرَاق

أراد بذلكَ بِشْرَ بْنَ مَرْوَانٍ، واستواءَهُ على العراقِ: لا الْمَلِكَ.

وقال بعضُهم: لفظ الاستواءِ في الآيةِ كنايةٌ عن نَفَاذِ الأمْرِ وعِظَمِ القُدْرَةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ثُمَّ أقبلَ على خَلْقِ العرشِ وعَمَدَ إلى خَلْقِهِ، وكذلكَ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾[١] أي عَمَدَ إلى خَلْقِ السَّماءِ.

فإن قِيْلَ: ما معنى دخول (ثُمَّ) في قولهِ تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)، و(ثُمَّ) تكون للحَادِثِ، واستيلاءُ اللهِ تعالى واقتدارهُ ومُلكه للأشياءِ ثابتٌ فيما لَمْ يَزَلْ ولاَ يزالُ؟ قِيْلَ: معناه: ثُمَّ رَفَعَ العرشَ فوقَ السَّمواتِ واستولَى عليهِ[٢]. وإنَّما أدخلَ (ثُمَّ) مُتَّصِلةً في اللفظ بالاستواءِ؛ لأن الدلالةَ قد دَلَّتْ من جهةِ العقل علىأنَّ اقتدارَهُ على الأمور ثابتٌ فيما لم يزل. وهذا مثلُ قولهِ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾[٣] أي حتى يُجَاهِدَ الْمُجَاهِدُونَ منكم ونحنُ عَالِمونَ بهم.

ويقال: معنى (ثُمَّ) هنا بمعنى الواو على طريقِ الجمع والعطف دون التَّراخِي، فإنَّ خَلْقَ العرشِ والاستيلاء عليه كان قَبْلَ خَلْقِ السَّمواتِ والأرض. وقد وردَ في الخبر: [أنَّ أوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللهُ الْقَلَمُ، ثُمَّ اللَّوْحُ، فَأَمَرَ اللهُ الْقَلَمَ أنْ يَكْتُبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ خَلَقَ الْعَرْشَ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ][٤].

---

(١) فصلت / ١١.

(٢) في المخطوط كرر الناسخ السطر السابق كتابة.

(٣) مُحَمَّد/ ٣١.

(٤) في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: الحديث (٢٩٢٨) علقه ابن حجر وسكت عنه. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١٩٠؛ قال الهيثمي: ((عن ابن عباس رواه البزار ورجاله ثقات. وقال:=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ ؛ أي يُغْشِي بظلمةِ الليلِ ضوءَ النَّهار، ولم يقل: ويُغْشِي النهارَ الليلَ؛ لأنَّ الكلامَ دليلٌ عليه، وقد بيَّنَ في آيةٍ أخرى فقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[١]. وقرأ (يُغَشِّي) و(يُغْشِي) بالتشديد والتخفيفِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ ؛ أي يَطْلُبُ سوادُ الليلِ ضوءَ النَّهار سريعاً؛ حتى يَغْلِبَ بسوادهِ بياضَهُ، وكلُّ واحدٍ منهما في طَلَبِ صاحبهِ وتسييرهِ ما بَقِيَتِ الدُّنيا. وَالْحَثُّ: السريعُ في السَّوْقِ من غيرِ فُتُورٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ ؛ أي وخلَقَ منهُ الأشياءَ مُذلَّلاتٍ بالْمَسِيْرِ في ساعاتِ الليلِ والنَّهار، جارياتٍ على مَجَارِيْهِنَّ بمنافعِ بني آدمَ بأمرِ اللهِ وتدبيرهِ وصُنْعِهِ. ومن قرأ (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ) كلَّها بالرفعِ فعلى الابتداء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ ؛ كَلِمَةُ تَنْبِيْهٍ؛ معناهُ: اعْلَمُوا أنَّ خَلْقَ الأشياءِ كلِّها للهِ، وأنَّ الأمرَ - وهو القضاءُ - نافذٌ في خَلْقِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي تعالى اللهُ وهو ثابتٌ لَمْ يَزَلْ ولا يزالُ. ويقالُ: (تَبَارَكَ) تَفَاعَلَ من البركةِ؛ أي البركةُ كلُّها من اللهِ تعالى، واسْمُهُ بَرَكَةٌ لِمن ذكَرَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (رَبُّ الْعَالَمِينَ) أي خالِقُ الْخَلْقِ أجمعين. قال رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ لَمْ يَحْمَدِ اللهَ عَلَى ((مَا عَمِلَ مِنْ)) عَمَلٍ صَالِحٍ وَحَمَدَ نَفْسَهُ، قَلَّ شُكْرُهُ[٢] وَحَبطَ عَمَلُهُ. وَمَنْ زَعَمَ أنَّ اللهَ جَعَلَ لِلْعِبَادِ مِنَ الأَمْرِ شَيْئاً، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أنْزَلَ اللهُ عَلَى أنْبِيَائِهِ لِقَوْلِهِ تعالى: (ألاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)][٣]. قال الشاعرُ:

إلَى اللهِ كُلُّ الأَمْرِ فِي خَلْقِهِ مَعَانِي ... وَلَيْسَ إلَى الْمَخْلُوقِ شَيْءٌ مِنَ الأَمْرِ

=رواه الطبراني ورجاله ثقات مختصراً)). وذكره مطولاً وقال: ((رواه الطبراني وفيه الضحاك ضعفه جماعة ووثقة ابن حبان وقال: لم يسمع من ابن عباس، وبقية رجاله وثقوا)).

(١) الزمر / ٥.

(٢) في المخطوط: (فقد كفر) بدل: (قل شكره) وهو تحريف من الناسخ.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١٤٦٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ ؛ أي ادْعُوهُ علانيةً وسِرّاً، فإنَّ التَّضرُّعَ من الضَّرَاعَةِ وهي إظهارُ شدَّة الحاجةِ. ويقالُ: معنى التَّضَرُّعِ: التَّمَلُّقُ والتَّخَشُّعُ والْمَيْلُ في الجهادِ، يقال: ضَرَعَ يَضْرَعُ ضَرْعاً إذا مالَ بإصْبَعَيْهِ يَميناً وشِمالاً خَوْفاً وذُلاًّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَخُفْيَةً) أي ادْعُوا بالخضوعِ في السِّرِّ دونَ العلانيةِ، فكأنَّ اللهَ تعالى أمرَ في الدعاءِ أن يُجْمَعَ بَيْنَ أن يُخْفِيْهِ وبين أن يَفْعَلَهُ في غايةِ الْخُضُوعِ والانقطاعِ إليه؛ لأنَّ ذلكَ أبعدُ من الرِّياءِ.

وهذا القولُ أصحُّ من الأوَّل لقولهِ ﷺ: [خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ][1]. وعن الحسنِ أنه قالَ: (كَانُوا يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ فَلاَ تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً).

وعنْ عُمَرَ ﷺ قالَ: [كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا رَفَعَ يَدَيْهِ فِي الدُّعَاءِ لاَ يَرُدُّهُمَا حَتَّى يَمْسَحَ بهِمَا وَجْهَهُ][2]. وعن أبي موسَى الأشعريِّ ﷺ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَشْرَفُوا عَلَى وَادٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُكَبِّرُونَ وَيُهَلِّلُونَ وَيَرْفَعُونَ أصْوَاتَهُمْ، فَقَالَ: [إنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أصَمَّ وَلاَ غَائِباً، إنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيْعاً قَرِيْباً؛ وَإنَّهُ مَعَكُمْ][3]. وقال الله عَزَّ وَجَلَّ في مَدْحِ العبدِ الصَّالحِ ورضيَ دُعَاءَهُ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يحبُّ المتجاوزينَ في الدُّعاءِ. وفي الخبرِ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: [إيَّاكُمْ وَالاعْتِدَاءَ فِي الدُّعَاءِ، فَإنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ][5].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص١٧٢. وابن حبان في الإحسان: كتاب الرقاق: باب الأذكار: الحديث (٨٠٩)؛ وقال الشيخ شعيب: إسناده ضعيف.

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الدعوات: باب ما جاء في رفع الأيدي عند الدعاء: الحديث (٣٣٨٦)؛ وقال: صحيح غريب. والحاكم في المستدرك: كتاب الدعاء: الحديث (٢٠١٠) وسكت عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب المغازي: باب غزوة خيبر: الحديث (٤٢٠٥)، وكتاب الدعوات: باب قول لا حول ولا قوة إلا بالله: الحديث (٦٤٠٩).

(٤) مريم / ٣.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ج ٦ ص٥٤: الحديث (٢٩٤٠١ و٢٩٤٠٢) بلفظ: [إنَّهُ=

واختلفُوا في الاعتداءِ في الدُّعاءِ؛ قال بعضُهم: هو أن يَدْعُو بِاللَّعْنِ وَالْخِزْيِ؛ فيقولُ: لَعَنَ اللهُ فُلاَناً؛ أخْزَى الله فلاناً. أو يَدْعُو بما لا يحلُّ فيجاوزُ حدَّ العبوديَّةِ. وقال بعضُهم: هو أن يَسْأَلَ لنفسهِ منازلَ الأنبياء، أو يسألَ اللهَ شيئاً مِن حكمتهِ أنه يفعلهُ في الدُّعاء. وَقِيْلَ: هو أن يقولَ: أسْأَلُكَ بحقِّ جبريلَ وبحقِّ الأنبياءِ أن تُعْطِيَنِي كذا. وَقِيْلَ: هو أن يَدْعُو بالصِّياحِ. وَقِيْلَ: هو أن يعملَ عملَ الفُجَّار ويسألَ مسألَةَ الأبرار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ؛ أي لاَ تُفْسِدُوا فيها بالشِّرْكِ والمعصيَةِ بعدَ إصلاحِ اللهِ إيَّاها ببعثِ الرُّسُلِ إليها، فأمَرُوا فيها بالحلال ونهَوا عنِ الحرام، فَتَصْلُحُ الأرضُ بالطَّاعَةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: لا تَعْصُوا في الأرضِ فيُمْسِكَ اللهُ المطرَ عنها، ويهلكَ الحرثَ بمعاصيكُم. وَقِيْلَ: معناهُ: لا تَجُورُوا في الأرضِ فتخرِّبوها؛ لأنَّ الأرضَ قامت بالعدل، وقد أصلحَها اللهُ بالنِّعمةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ؛ أي وَاعْبُدُوهُ خائفينَ مِن عذابهِ؛ طامعينَ في رحمتهِ وثوابهِ. وقال الربيعُ: (خَوْفاً وَطَمَعاً) أيْ رَغَباً وَرَهَباً. وقال ابنُ جريج: (خَوْفُ الْعَدْلِ وَطَمَعُ الْفَضْلِ). وقال عطيَّةُ: (خَوْفاً مِنَ النِّيْرَانِ وَطَمَعاً فِي الْجِنَانِ). وقال ذُو النون المصريُّ: (خَوْفاً مِنَ الْفِرَاقِ وَطَمَعاً فِي التَّلاَقِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ إنْعَامَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. ويقالُ: إنَّ الْمُحْسِنَ مَن أخلصَ حسناتِهِ مِن الإساءةِ. وإنَّما قال: (قَرِيبٌ) ولم يقل: قريبةٌ؛ لأنَّ الرحمةَ والعَفْوَ والغفرانَ في معنىً واحدٍ، وما لم يكن فيه تأنيثٌ حقيقيٌّ كنتَ بالخيار، إن شئتَ ذكَّرْتَهُ وإن شئتَ أنَّثْتَهُ.

وقال ابنُ جبيرٍ: (الرَّحْمَةُ هُنَا الثَّوَابُ). وقال الأخفشُ: (هِيَ الْمَطَرُ). فيكون القريبُ نعتاً للمعنى دون اللفظِ كقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

=سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ]. وأخرجه أبو داود في السنن: كتاب الطهارة: باب الإسراف في الماء: الحديث (٩٦). وابن ماجة في السنن: كتاب الدعاء: الحديث (٣٨٦٤).

وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾[(١)] ولم يقل: مِنْهَا؛ لأنهُ أرادَ بالقسمةِ الميراثَ والمالَ، وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبَدَأَ بأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وعَاءِ أخِيهِ﴾[(٢)]، والصَّاعُ مُذكَّرٌ إلاَّ أنه أرادَ به السرقةَ والسِّقايةَ. وقال الكسائيُّ: (أَرَادَ إنَّ إتْيَانَ رَحْمَةِ اللهِ قَرِيْبٌ، كقولهِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[(٣)]؛ أيْ لَعَلَّ إتْيَانَهَا قَرِيْبٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾؛ قرأ عاصم (بُشْرًا) بالباءِ المضمُومة والشِّين الْمَجْزُومَةِ؛ يعني أنه يَنْشُرُ بالمطر، يدلُّ عليه قَوْلُهُ: ﴿الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾[(٤)]. وقرأ (بُشُرًا) بضمِّ الباءِ والشِّين على جمعِ (بُشُر)؛ مثل نُذُر ونَذِيْرٍ. وقرأ ابنُ عامرٍ: (نُشْرًا) بالنون المضمُومة وإشكال الشِّين. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: (نَشْرًا) بالنونِ المفتوحة، وجزمِ الشِّين على التخفيفِ. وقرأ مسروقُ: (نَشَرًا) بفتحتين؛ أراد مَنْشُوراً. وقرأ نافعُ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: (نُشُرًا) بالنون المضمومة وضَمِّ الشِّين.

وقرأ بعضُهم: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ) بلفظ الوحْدَان. واختارَ أبو عُبيد لفظَ الجماعةِ، وكان يقولُ: (كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الرِّيَاحِ ذكَرٌ فَهُوَ لِلرَّحْمَةِ، وَمَا كَانَ مِنْ ذِكْرِ الرِّيَاحِ أنْثَى فَهُوَ لِلْعَذَابِ). واحتجَّ بِمَا رويَ عن النبيِّ ﷺ أنهُ كان يقولُ إذا هبَّتْ رِيْحٌ: [اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحاً، وَلاَ تَجْعَلْهَا رِيْحاً][(٥)].

والنَّشْرُ: جمع النَّشُور؛ وَهِيَ الرِّيَاحُ الَّتِي تَهُبُّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ فَتُثِيْرُ السَّحَابَ كَصَبُورٍ وَصَبْرٍ. ومن قرأ (نُشْرًا) بضمَّةٍ واحدةٍ فللتخفيف، كما يقالُ: رُسُلٌ ورُسْلٌ. ومن قرأ (نَشْرًا) بنصب النون على معنى نَنْشُرُ السَّحَابَ نَشْراً. والنَّشْرُ خِلاَفُ الطَّيِّ كَنَشْرِ الثَّوْب بَعْدَ طَيِّهِ، قال الفرَّاءُ: (النَّشْرُ مِنَ الرِّيَاحِ: الطَّيِّبَةُ اللَّيِّنَةُ الَّتِي تُنْشِئُ السَّحَابَ)[(٦)]. ومن قرأ (بُشْرًا) بالباءِ والضمِّ؛ فهو جمعُ بَشِيْرٍ.

---

(١) النساء / ٨.
(٢) يوسف / ٧٦.
(٣) الأحزاب / ٦٣.
(٤) الروم / ٤٦.
(٥) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة: ذكر الرياح: الحديث (٧٣/ ٨٧٣).
(٦) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص٣٨١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) أي قُدَّامَ الْمَطَرِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ ﴾ ؛ أي سُقْنَا السَّحابَ بأمرِ اللهِ إلى أرضٍ ليس فيها نباتٌ، قال ابنُ عبَّاس: (يُرْسِلُ اللهُ الرِّيَاحَ فَتحْمِلُ السَّحَابَ، فَتَمُرُّ بِهِ كَمَا يَمُرُّ الرَّجُلُ النَّاقَةَ وَالشَّاةَ حَتَّى تُدِرَّ ثُمَّ تُمْطِرَ، فَيَخْرُجُ بالْمَطَرِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ) أو لأَحْيَا بلداً مَيِّتاً لا نباتَ فيه. وَقِيْلَ: لا تُمطر السَّماءُ حتى يُرْسِلَ اللهُ أربعةَ أرياحٍ: فَالصَّبَا تُهَيِّجُهُ، والشِّمَالُ تَجْمَعُهُ، والجنوبُ تَدُرُّهُ، والدُّبُورُ تَصْرِفُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ ﴾ ؛ أي بالسَّحاب، وَقِيْلَ: بالبلدِ الميِّتِ الذي لا ماءَ فيه ولا كَلأَ، يَنْزِلُ اللهُ به المطرَ، ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ ﴾ ؛ أي فيخرجُ به أَلْوَانَ؛ ﴿ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ ؛ أي مِثْلَ ذلكَ الإخراجِ الذي ذكرناهُ في إحياءِ الأرضِ الميِّتة،كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى من قُبُورِهِمْ يومَ القيامةِ، ﴿ لَعَلَّكُمۡ ﴾ بما ينالُكم، ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي تَسْتَدِلُّونَ على توحيدِ الله وأنهُ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

وقال ابنُ عبَّاس وأبو هُريرةَ[1]: (إذا مَاتَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي النَّفْخَةِ الأُوْلَى، مُطِرَتِ السَّمَاءُ أرْبَعِيْنَ يَوْماً قَبْلَ النَّفْخَةِ الأَخِيْرَةِ مِثْلَ مَنِيِّ الرِّجَال، فَيَنْبُتُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ مِنْ ذلِكَ الْمَطَرِ كَمَا يَنْبتُونَ فِي بُطُونِ أمَّهَاتِهِمْ، وكَمَا يَنْبُتُ الزَّرْعُ مِنَ الْمَاءِ، حَتَّى إذا اسْتُكْمِلَتْ أجْسَادُهُمْ نُفِخَ فِيْهَا الرُّوحُ، ثُمَّ يُلْقِي عَلَيْهِمْ نَوْمَةً فَيَنَامُونَ فِي قُبورِهِمْ، فَإذا نُفِخَ فِي الصُّور النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ - وَهِيَ نَفْخَةُ الْبُوق- جَلَسُوا وَخَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ، وَهُمْ يَجِدُونَ طَعْمَ النَّوْمِ فِي رُؤُوسِهِمْ، كَمَا يَجِدُ النَّائِمُ إذا اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ، فَعِنْدَ ذلِكَ يَقُولُونَ: يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنا. فَيُنَادِيْهِمْ: هَذا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٤٧٤) عن أبي هريرة، ولم يسنده أو أن السدي أرسله هكذا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ يعني: أنَّ المكانَ الزَّاكِي من الأرضِ يخرجُ رَيْعُهُ بلا كَدٍّ ولا عناءٍ ولا مَشَقَّةٍ فينتفعُ بهِ، ﴿ وَٱلَّذِى خَبُثَ ﴾ ؛ ترابهُ؛ وهي الأرضُ السَّبْخَةُ، ﴿ لَا يَخْرُجُ ﴾ ؛ رَيْعُهَا؛ ﴿ إِلَّا نَكِدًا ﴾ ؛ أي في كَدٍّ وعناءٍ. قال ابنُ عبَّاس: (هَذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْمَعُ الْمَوْعِظَةَ فَيَنْتَفِعُ بها، وَيَنْفَعُهُ الْقُرْآنُ كَمَا يَنْفَعُ الْمَطَرُ الْبَلَدَ الطَّيِّبَ، وَالْكَافِرُ لاَ يَسْمَعُ الْمَوْعِظَةَ وَلاَ يَعْمَلُ عَمَلاً مِنَ الطَّاعَةِ إلاَّ شَيْئاً يَسِيْراً)[1].

والنَّكِدُ في اللُّغةِ: هُوَ الْقَلِيْلُ الَّذِي لاَ يُنْتَفَعُ بِهِ. وَقِيْلَ: معنى قولهِ تعالى: (لاَ يَخْرُجُ إلاَّ نَكِدًا) أي عَسِراً قليلاً بعناءٍ ومشقَّةٍ. وقرأ أبو جعفر: (نَكَداً) بفتحِ الكاف؛ أي بالنَّكَدِ. وَقِيْلَ: هي لغةٌ في نَكِدٍ، ويقرأ (نَكْد) بإسكانِها لغةٌ أيضاً. ويقال: رجلٌ (نَكْداً)[2]؛ إذا كان عَسِراً مُمْتَنِعاً من إعطاءِ الحقِّ على وجه الْبُخْلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ ؛ أي كَمَا صَرَّفْنَا لكم آيةً في إثْرِ آيةٍ؛ هكذا نُبَيِّنُ الآياتِ، ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨ ﴾ ؛ نِعَمَ الله تعالى ويعتبرونَ بآياتهِ وأمثالهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ ؛ وهو نوحُ بن لَمك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو إدْرِيْسُ. وكان نوحٌ نَجَّاراً بعثَهُ الله إلى قومهِ وهو ابنُ خمسين سنةً[3]، ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي وَحِّدُوهُ وأطيعوهُ، ولا تعبدُوا معه غيرَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ ؛ قرأ أبو جعفرٍ ويحيى بن وثَّابٍ والأعمشُ والكسائيُّ: (غَيْرِهِ) بالخفضِ نَعْتاً للإلهِ. وقرأ الباقون بالرفع على معنى: ما لكُمْ إلَهٌ غيرهُ. وَقِيْلَ: على نِيَّةِ التقديمِ وإن كان مؤخَّراً في اللفظِ؛ تقديرهُ: ما لكم غيرُ اللهِ من إلهٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ ﴾ ؛

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٤٧٦).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٣١؛ قال القرطبي: (نصب على الحال؛ وهو العَسِرُ الممتنع من إعطاء الخير).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٣٣.

معناهُ: إنِّي أخَافُ عَلَيْكُمْ إنْ لم تُؤْمِنوا عَذابَ يَوْمِ القيامةِ. وقد يذكرُ الخوفُ ويراد به اليقينُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾؛ أي قالَ الأشرافُ والرُّؤساءُ من قومِهِ: إنَّا لَنَرَاكَ يا نوحُ فِي ذهابٍ مِن الحقِّ بيِّنٍ لنا لمخالفتِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾؛ أي ليس بي ذهابٌ عن الحقِّ فيما أدعُوكم إليهِ، ﴿ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾؛ أي ولكِنْ أرسلَني ربُّ العالمين الذي يَمْلُكُ كلَّ شيءٍ. وإنَّما لم يقل: ليست بي ضلالةٌ؛ لأنَّ معنى الضلالةِ الضَّلالُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾؛ أي أؤَدِّي إليكم ما حَمَّلَنِي اللهُ من الرِّسالةِ. وإنَّما قال: (رِسَالاتِ) لأن الرسالةَ تتضمَّنُ أشياءَ كثيرةً من الأمرِ والنَّهي؛ والتَّرغيب والتَّرهيب؛ والوَعْدِ والوعيدِ، فَذَكَرَ تارةً بلفظٍ يدلُّ على الفعلِ؛ وتارةً بلفظٍ يدلُّ على الوِحْدَانِ.

قرأ أبُو عمرو: (وَأبْلِغُكُمْ) بالتخفيف في جميعِ القُرْآنِ كقولهِ تعالى: ﴿أبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبي﴾[1]، و﴿لِيَعْلَمَ أنْ قَدْ أبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبهِمْ﴾[2]. وقرأ الباقونَ مشدَّداً كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبكَ وَإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾؛ أي أنْصَحُ لكم فيما أدعُوكم إليه وأحذِّرُكم منه. والنُّصْحُ: إخْرَاجُ الْغِشِّ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، يقالُ: نَصَحْتُهُ وَنَصَحْتُ لَهُ؛ وَشَكَرْتُهُ وَشَكَرْتُ لَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي أعلمُ إنْ لم تَتُوبُوا من الشِّركِ أتاكم العذابُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ الألِفُ في أوَّل هذه الآية ألِفُ استفهامٍ، دخلَ على واو العطف على جهةِ الإنكار، فَبَقِيَتِ الواوُ مفتوحةً كما كانت. ومعناها: أوَعَجِبْتُمْ أنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبكُمْ على

---

(١) الأعراف / ٧٩. (٢) الجن / ٢٨. (٣) المائدة / ٦٧.

آدَمِيٌّ منكم مِثْلكُمْ تعرفونَ نَسَبَهُ فيكم، ﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ ؛ أي لِيُعْلِمَكُمْ بموضعِ المَخَافَةِ، ﴿ وَلِتَتَّقُوا ﴾ ؛ الشِّرْكَ والمعاصي، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي ولكي تُطِيْعُوا فتُرحَموا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ ؛ أي فكَذبُوا نوحاً فأنْجَيْنَاهُ من الطُّوفَان والمؤمنينَ الذين كانوا معهُ في السَّفِينةِ، وكانوا نَحْواً من ثمانين إنساناً - كذا قال الكَلبيُّ — أربعينَ رَجُلاً وأربعينَ امرأةً. وَقِيْلَ: سَامُ وَحَامُ وَيَافِثُ وَأزْوَاجُهُمْ، وستَّةُ أناسٍ غيرهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ؛ أي بدلائلِنا وآياتنا كمَا؛ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي قَدْ عَمُوا عن الحقِّ والإيْمان. وواحدُ الـ (عَمِينَ): عَمٍ؛ وهو الذي قد عَمِيَ عن الحقِّ. وَقِيْلَ: معناه: أنَّهم كانوا قَوْماً جَاهِلِيْنَ لأمرِ الله. وَقِيْلَ: (كُفَّاراً). وَقِيْلَ: عَمِينَ عن نُزُولِ الغَرَقِ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ؛ أي وَأرْسَلْنَا إلى عَادٍ؛ وهم قومٌ من أهل اليَمَن، وكان اسمُ مَلِكِهم عَاداً، فنُسبوا إليه، وهو عَادُ بْنُ عَوَصِ بْنِ إرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ[١]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أخَاهُمْ هُودًا) أي أخُوهُمْ في النَّسَب لا في الدِّيْن، وهو هُودُ بْنُ عَبْدِاللهِ بْنِ رَبَاحِ بْنِ الْجَارُودِ بْنِ عَوَصِ بْنِ إرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ. وَقِيْلَ: هو هودُ بن شالخ بن أرفخشد بن سَامُ بن نُوحٍ. وإنَّما أرسلَ اللهُ إليهم منهم؛ لأنَّهم لَهُ أفْهَمُ وإليه أسْكَنُ. ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ الآيةُ ظاهرةُ المعنى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ ؛ أي قالَ الأشرافُ والرُّؤساءُ الذين كَفَرُوا منهم: إنَّا لَنَرَاكَ فِي جَهَالَةٍ. والسَّفَاهَةُ في اللغة: خِفَّةُ الْحِلْمِ وَالرَّأي. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ يعني إنَّهم كَذبُوهُ في دعوَى الرسالةِ ونزول العذاب بهم، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾ ؛ أي ليسَ بي جهالةٌ، ﴿ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن

---

(١) في جامع البيان: الأثر (١١٤٩٠): ((عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح)).

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾؛ إليكم فيما يَأْمُرُكم بـه مـن عبادتـهِ وتوحيـده. وفي الآيـةِ موضعُ أدَبٍ لِخُلُقٍ وَتَعَلُّمٍ مِنَ اللهِ حُسْنُ جوَاب السُّفَهَاءِ؛ لأنَّ هُوداً عليه السلام اقْتَصَرَ عَلَـى دَفْعِ مَا نَسَبُوهُ إلَيْهِ بنَفْيِ مَا قَالُوهُ فَقَطْ، وَلَمْ يُقَابلْهُمْ بشَيْءٍ مِنَ الْكَلاَمِ الْقَبيْحِ، وكذلـكَ فَعَلَهُ نُوحُ عليه السلام؛ فقال: لَيْسَ بي ضَلاَلَةٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾؛ على التوبةِ. وقولهِ: (نَاصِحٌ) أي أدعوكُم إلى التَّوبةِ، وقد كنتُ فيكم قَبْلَ اليومِ أمِيْنـاً، فكيفَ تَتَّهِمُونَنِي اليومَ.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾؛ قد تقدَّم تفسيرُه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾؛ أي وَاذْكُرُوا هذه النِّعمةَ العظيمـةَ بـأن أوْرَثَكُـمُ الأرضَ بعـدَ هلاكِ قوم نُوحٍ.

والْخُلَفَاءُ: جَمْعُ الْخَلِيْفَةِ على غيرِ لفظ الوحْدَان؛ لأن لَفْظَهُ يقتضـي أن يُجمـعَ على خَلاَئِفَ كما يقالُ: صَحِيْفَةٌ وَصَحَائِفُ، إلاَّ أنه مثل ظَرِيْفٌ وظُرَفَـاءُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾؛ أي فضيلةً في الطُّولِ، قال ابنُ عبَّاس: (أطْوَلُـهُمْ مِائَةُ ذِرَاعٍ، وَأقْصَرُهُمْ سُتُّونَ ذِرَاعاً). وقال وَهَبُ: (كَانَ رَأسُ أحَدِهِمْ كَالْقُبَّةِ الْعَظِيْمَةِ، وَكَـانَ عَيْـنُ أحَدِهِـمْ يُفَـرِّخُ فِيْـهَا السِّبَاعُ وَكَذلِـــكَ مَنَـاخِرُهُمْ)[1]. قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾؛ أي نِعَـمَ اللهِ عليكـم واعملـوا بمـا تقتضيـــهِ نِعَمُـــهُ، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾؛ أي لِتَظْفَرُوا بالنَّجاةِ والبقاءِ.

قَوْلُـهُ تَعَـــالَى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ أي قالوا: يَا هُودُ؛ أتَأْمُرُنا أن نَعْبُدَ رَبّاً واحداً، ونتْرُكَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَـا مـن الآلِهَةِ، فقال لَهم: إنْ لم تفعلُوا مـا آمرُكـم بـه أتـاكمُ العـذابُ، قـالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾؛ أي تُخَوِّفُنَـا مـن العـذاب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾؛ أنَّكَ رسولٌ من عندِ اللهِ.

---

(١) هذا التصور الجامح من خيالات القصَّاص، وخرافات الرهبان وأساطيرهم، ولا أصـل لـه مـن رواية صحيحة، والله أعلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ ؛ أي قد وَجَبَ عليكم من رَبكُمْ عذابٌ وسَخَطٌ. وَالرِّجْسُ وَالرِّجْزُ بمعنى واحدٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٖ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ ؛ أي تُخاصِمُونَنِي في آلِهتكُم وأنتم صنعتُموها بأيديكم، ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٖ ﴾ ؛ أي في عبادتِها، ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ ؛ حُصولَ العذاب بكم، ﴿ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أنْ يُهْلِكَكُمُ اللهُ بعذابٍ مِن عندهِ.

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا ﴾ ؛ أي خَلَّصْنَاهُ من العذاب والذينَ معه بنِعْمَةٍ منَّا عليهم؛ وأمَرْناهُم بالخروج من بَيْنِ الكُفَّار قبلَ إنزال العذاب عليهم، ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ؛ أي اسْتَأْصَلْنَاهُمْ بالرِّيحِ الْعَقِيْمِ، فما بَقِيَ منهم أحدٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ أي ما أهْلَكَهُمُ اللهُ إلاَّ وكان في عِلْمِهِ أنهُ لو لَم يُهْلِكْهُمْ ما كانوا مؤمنينَ.

فصلٌ: وكانت قصة عاد وإهلاكهم على ما ذكره السُّدِّيُّ وغيره من المفسرين: (أنَّ عَاداً كانَ مساكنُهم اليمنَ، وكان مساكنُهم الأَسَاف؛ وهي رمالٌ يقال لَها: رَمْلُ عَالِجٍ وَدَهْمَانَ وَنِيْرَانَ، ما بين عُمَانَ إلى حَضْرَمَوْتَ، وكانوا قد فَشَوا في الأرضِ، وقَهَرُوا أهلَها بقوَّتِهم التي أعطاهُم اللهُ إيَّاها، وكانوا يعبدونَ الأوثانَ.

فَبَعَثَ اللهُ إليهم هُوداً نَبيّاً عليه السلام مِن أوسَطِهم في النَّسَب، وأفضَلِهم في الْحَسَب، فأمَرَهم أن يُوَحِّدُوا اللهَ ولا يعبدُوا غيرَهُ، وأن يَكُفُّوا عن ظُلْمِ الناس، فَأَبَوا عليهِ وكَذبُوهُ وقالوا: مَنْ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟! وتَجَبَّروا في الأرضِ وبَطَشُوا بَطْشَةَ الجبَّارينَ، فلما فَعَلُوا ذلك أمْسَكَ اللهُ عنهمُ الْمَطَرَ ثلاثَ سنين حتى جَهَدَهُمْ ذلك.

وكان الناسُ في ذلكَ الزَّمَان إذا أنْزلَ بهم بَلاَءٌ وَجَهْدٌ مَضَوا إلى البيتِ الحرام بمَكَّةَ مُسْلِمُهُمْ وكافِرُهم وسألُوا اللهَ الْفَرَجَ، وكلُّ الناس مُسْلِمُهُمْ وكافِرُهم مُعَظِّماً لِمَكَّةَ حَرَسَهَا اللهُ، عَارفاً بحُرْمَتِهَا. وكان أهلُ مكَّةَ يومئذ الْعَمَالِيْقَ، أبوهُم عِمْلِيْقُ بْنُ لاَوِدِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، وكان رئيسُ العماليقِ يومئذٍ بمكة رَجُلاً يقال لَهُ: مُعَاوِيَةُ بْنُ بَكْرٍ، وكانت أمُّهُ من عَادٍ.

فلمَّا قُحِطَ المطرُ من عَادٍ وجَهدُوا؛ قالوا: جَهِّزُوا منكم وَفْداً إلى مَكَّةَ يَسْتَسْقِي، فَبَعَثُوا قِيلَ بن عنز، ولُقَيمَ بن هزال في سبعينَ رَجُلاً، فلما قَدِمُوا مكةَ نزلوا على مُعَاوِيَةَ بنِ بكرٍ وهو في خارج مكَّةَ، فأنزلَهم وأكرمَهم، وكانُوا أخوالَهُ وأصهارَهُ، فأقامُوا عندَهُ شَهْراً يشربونَ الْخَمْرَ وتغنِّيهم الْجَرَادَتَانِ؛ وهما قَيْنَتان لمعاويةَ.

فلما رأى طُولَ مقامِهم وقد بعثَهُم قومُهم يَتَغَوَّثُونَ من البَلاَءِ الذي أصابَهم؛ شُقَّ ذلكَ عليهِ فقال: إخْوَانِي وأصْهَارِي وهؤلاءِ مقيمونَ عندِي وهم ضَيْفِي، واللهِ لا أدري ما أصنعُ بهم، أسْتَحِي أن آمُرَهم بالخروجِ إلى حاجتهم، فَيَظُنُّونَ أن ذلك لضيقِ مكانِهم عنده، وقد هَلَكَ قومُهم من ورائِهم جَهْداً وعَطَشاً، فشَكا ذلكَ إلى قِيْنَتَيْهِ الجرادتين؟ فقالتَا: قُلْ شِعْراً لِنُغَنِّيْهِمْ بهِ لا يدرونَ مَن قالَهُ، لعلَّ ذلك يُخرِجُهم. فقالَ معاويةُ:

أَلا يا قِيْلَ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنَمْ ... لَعَلَّ اللهَ يَسْقِيْنَا غَمَامَا
فَيَسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِنَّ عَاداً ... قَدْ أمْسَوا لاَ يَبِينُونَ الْكَلاَمَا
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيْدِ فَلَيْسَ نَرْجُو ... بِهِ الشَّيْخَ الْكَبِيْرَ وَلاَ الْغُلاَمَا
وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ بخَيْرٍ ... فَقَدْ أمْسَتْ نِسَاؤُهُمْ أَيَامَى
وَأَنْتُمْ هَا هُنَا فِيْمَا اشْتَهَيْتُمْ ... نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمُ التَّمَامَا
فَقُبِّحَ وَفْدُكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ ... وَلاَ لُقُّوا التَّحِيَّةَ وَالسَّلاَمَا

فلمَّا غنَّتْهُم الجرادتان بهذا، قال بعضُهم لبعضٍ: يا قومِ، لقد أبطأتُم على أصحابكم، فقومُوا وادخلُوا الْحَرَمَ واسْتَسْقُوا، فَتَقَدَّمُوا إلى الحرمِ. فقام قِيلُ بن عنز يستسقي في المسجدِ، فقال: اللَّهُمَّ إنِّي لم أجِيءْ لمريضٍ فأداويهِ، ولا لأسيرٍ فأُفادِيهِ، اللَّهُمَّ أسقنا فإنا قد هلكنا، اللَّهُمَّ اسق عَادَ ما كُنْتَ تسقيهم. وقال قومهُ: اللَّهُمَّ أعْطِ قِيْلاً ما سألَكَ، واجعلْ سؤَالَنَا مع سُؤْلِهِ. فأنشأ اللهُ سحابةً بيضاءَ؛ وسحابةً حمراءَ؛ وسحابةً سوداءَ، ونُودِيَ: يا قِيلُ؛ اخْتَرْ لنفسِكَ ولقومك من هذا السَّحاب ما شِئْتَ. فقالَ: اخترتُ السوداءَ لأنَّها أكثرُ السَّحَاب ماءً. فنودي: اخْتَرْتَ رَمَاداً رمَداً لا يُبقي مِن آلِ عادٍ ولداً ولا شيوخاً إلا صَارُوا هُمَّداً.

ثم سَاقَ اللهُ السَّحابةَ السوداءَ التي اختارها قيلٌ بما فيها من النِّقْمَـةِ والبلاءِ إلى عادٍ، حتى خرجت عليهم من وادٍ لَهم يقال لَهم: الْمُغِيْثُ. فلمَّا رأوها فَرِحُوا وقَالُوا: هَذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾(١) أي كلَّ شيء مَرَّتْ به، فسَخَّرَهَا الله عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا؛ أي دَائِبَةً. فكانت الريحُ تحمل الضَّعْنَ ما بين السَّماءِ والأرض وتَدْمِغُهُمْ الحجارةُ، وكانوا قد حَفَرُوا لأرجُلِهم في الأرضِ وغَيَّبُوهَا إلى رُكَبِهِمْ، فجعلتِ الريحُ تدخلُ تحتَ أقدامِهم، وترفعُ كلَّ اثنين وتضربُ بأحدِهما على الآخر في الهواء، ثم تلقيهما في الوادِي، والباقونَ ينظرُونَ حتى رَفَعَتْهُمْ كلَّهم، ثم رَمَتْ بالتراب عليهم، فكان يُسْمَعُ أنينُهم من تحتِ التُّراب. فَاعْتَزَلَ هودُ ومَن معهُ من المؤمنين في حَضِيْرَةٍ، فما كان يُصِيبُهُمْ من الرِّيحِ إلاَّ ما يُلَيِّنُ جلودَهم وتلذُّ به أنفُسُهم(٢).

وعن عمرو بنِ شُعيبٍ عن أبيهِ عن جَدِّهِ؛ قَالَ: [لَمَّا أَرَادَ اللهُ إِرْسَالَ الرِّيْحِ الْعَقِيْمِ إِلَى عَادٍ، أَوْحَى اللهُ إِلَى الرِّيْحِ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى عَادٍ فَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ، فَخَرَجَتْ عَلَى قَدْرِ مِنْخَرِ ثَوْرٍ حَتَّى رَجَفَتِ الأَرْضُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. فَقَالَتِ الْخُزَّانُ: يَا رَبِّ؛ لَنْ يُطِيْقَهَا وَلَوْ خَرَجَتْ عَلَى حَالِهَا لأَهْلَكَتْ مَا بَيْنَ مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا. فَأَوْحَى اللهُ: أَخْرُجِي عَلَى قَدْرِ خَرْقِ الْخَاتَمِ، فَخَرَجَتْ عَلَى قَدْرِ ذلِكَ]. قَالَ السُّدِّيُّ: (فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ عَلَى عَادٍ الرِّيْحَ الْعَقِيمَ وَدَنَتْ مِنْهُمْ، نَظَرُوا إِلَى الإِبِلِ وَالرِّجَالِ تَطِيْرُ بِهِمُ الرِّيْحُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَتَبَادَرُوا إِلَى الْبُيُوتِ، فَأَخْرَجَتْهُمُ الرِّيْحُ مِنَ الْبُيُوتِ حَتَّى أَهْلَكَتْهُمْ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ)(٣).

وعن عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَأَلَ رَجُلاً مِنْ حَضْرَمَوْتَ: (هَلْ رَأَيْتَ كَثِيْباً أَحْمَرَ تُخَالِطُهُ مُدْرَةٌ حَمْرَاءُ فِيْهِ أَرَاكٌ وَسِدْرٌ كَثِيْرٌ فِي نَاحِيَةِ كَذَا مِنْ حَضْرَمَوْتَ؟) قَالَ: نَعَمْ يَا أَمِيْرَ

---

(١) الأحقاف / ٢٤-٢٥.

(٢) هذه القصة بطولها أخرجها الطبري في جامع البيان: النص(١١٤٩٣). ونقلها الثعلبي في الكشف والبيان:ج٤ ص٢٤٧. وذكرها البغوي في معالم التنزيل:ص٤٧٠-٤٧١: قصة عاد.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٤٩٥).

الْمُؤْمِنِيْنَ؛ وَاللهِ إنَّكَ نَعَتَّهُ نَعْتَ رَجُلٍ قَدْ رَآهُ! قَالَ: (إنِّي لَمْ أرَهُ؛ وَلَكِنِّي حُدِّثْتُ عَنْهُ). قَالَ: يَا أمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ؛ وَمَا شَأْنُهُ؟ قَالَ: فِيْهِ قَبْرُ هُودٍ (عليه السلام))[1].

وعن عبدِالرَّحمنِ بن السَّائِبِ[2]؛ قال: (بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ وَزَمْزَمَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِيْنَ نَبِيّاً، وَإنَّ قَبْرَ هُودٍ وَشُعَيْبَ وَصَالِحَ وَإسْمَاعِيْلَ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ)[3]. وفي بعضِ الأخبار: أنهُ كان إذا هَلَكَ قومُ نَبِيٍّ ونَجَا هو ومَن مَعَهُ، أتَى مَكَّةَ بمن معهُ، فيعبدونَ اللهَ فيها حتَّى يَموتُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾؛ أي وأرسلنَا إلَى ثَمُودَ أخَاهُمْ صَالِحًا في النَّسَبِ. وثَمُودُ: اسْمٌ لِلْقَبِيْلَةِ؛ سُمُّوا بهذا الاسمِ لأنَّهم كانوا على عَيْنٍ قليلةِ الماء، وموضعُهم بالْحِجْرِ بين الشَّامِ والمدينَةِ، والثَّمْدُ: الماءُ القليلُ. وثَمُودُ في كتَاب الله مصروفٌ وغيرُ مصروفٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ألاَ إنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ألا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾[4] فصَرَفَ الأوَّل دون الثانِي، فمَن صَرَفَهُ جعلَهُ اسْماً للحَيِّ؛ فيكونُ مُذكَّراً سُمِّيَ به مذكَّرٌ، ومَن لم يَصْرِفْهُ جعله اسْماً للقبيلةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾؛ أي دلالةٌ فاصِلَةٌ بينَ الحقِّ والباطلِ من ربكم. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾؛ إشارةٌ إلى نَاقَةٍ بعَيْنِها. قال ابنُ عبَّاس: (أتَاهُمْ صَالِحُ (عليه السلام) بنَاقَةٍ مِنَ الصَّخْرَةِ الْمَلْسَاءَ بمَسْألَتِهِمْ، فَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ بدُعَائِهِ، فَانْصَدَعَتْ عَنْ نَاقَةٍ عَشْرَاءَ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا). وفي بعضِ الرِّواياتِ: أخرجَ اللهُ من الصخرةِ ناقةً، خَلْفَهَا سَقْبُهَا[5] الَّذِي وَلَدَتْهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَكُمْ آيَةً) أي علامةً لِنُبُوَّتِي، فتعتبرُوا وتوحِّدُوا ربَّكم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٤٩٢).

(٢) في المخطوط: (عبد الرحمن بن السائط) وهو تحريف، والصحيح عبدالرحمن بن السائب، أخو عبدالله بن السائب، قتل يوم الجمل، ترجم له ابن عبدالبر في الاستيعاب: الرقم (١٤٢٥).

(٣) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٤ ص٢٥٠.

(٤) هود / ٦٨.

(٥) السَّقْبُ: ولَدُ الناقة، أو ساعةَ يولَدُ. ينظر: ترتيب القاموس المحيط: (سقب): ج ٢ ص٥٧٨.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ ؛ أي دعُوها تَرْتَـعُ في أرضِ الْحِجْـر مـن العُشْـب، ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ ؛ أي بقَتْـلٍ او ضَـرْبٍ أو مكروهٍ، ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي مُؤلِم إنْ فعلتُم ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ﴾ أي وَاذْكُرُوا إذِ استخلفَكم في الأرضِ من بعدِ هلاك عَادٍ، ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ ؛ أي وَأَنْزَلَكُمْ في الأرض الْحِجْرَ تَبْنُونَ في سُهولها قصوراً في العَيـصِ(١)، ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ ؛ في طُـول الشِّـتاءِ. وَقِيْـلَ: إنَّـهم لِطُـولِ أعمارهم كانوا يحتاجون أن يَنْحِتُوا مِن الجبال؛ لأن السُّقُوفَ والأبنيةَ كانت تَبْلَى قبـلَ فَنَاءِ أعمـارهم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَاذْكُرُوٓا ءَالَآءَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي احفظُـوا نِعَـمَ اللهِ عليكم﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي ولا تَعْمَلُوا في الأرضِ بالمعاصي والدُّعَاءِ إلى غيرِ عبادةِ الله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ ﴾ ؛ أي قـال الأشرافُ الرُّؤساءُ منهم الذينَ تَعَظَّمُوا عن الإيْمـان بـه﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ لِلَّذِيـنَ اسْـتُضْعِفُوا مِـنَ المؤمنين: أتَعْلَمُونَ أنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ إليكم مِنْ ربهِ؟

وفي هذا ذمٌّ للكافرينَ من وجهين؛ أحدُهما: الاسْتِكْبَار؛ وهو رفعُ النَّفْس فـوقَ قَدْرِهَـا وجُحُـودُ الحـقِّ. والآخـرُ: أنَّـهم اسْتَضْعَفُوا مَـن كـان يَجِـبُ أنْ يُعَظِّمُـوهُ وَيُبَجِّلُـوهُ. وفي؛﴿ قَالُوٓا ﴾ ؛ أي قَـوْلُ قـومِ صـالحٍ: ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ مَدْحٌ لَهم حيث ثَبَتُوا على الحقِّ، وأظهروهُ مع ضَعْفِهِمْ مـن مقاومةِ الكفَّار.

وَقَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا بِالَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي قال رؤساؤُهم الذين تعظَّمُوا عن الإيْمان بصالحٍ عليه السلام: إنَّا بالَّذِي صَدَّقْتُمْ بهِ من رسالتهِ جَاحِدُونَ.

---

(١) العوصُ: ضد الإمكان واليسر. وعوَّص الرجلُ إذا لم يستقم في قولٍ ولا فعـلٍ. لسـان العـرب: (عوص).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ معناه: فَعَقَرُوا النَّاقَةَ التي جعل الله لَهم آيةً ودلالةً على نُبُوَّةِ نَبيِّهِمْ، وقد كان صالحُ عليه السلام قال لَهم: (هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوهَا بسُوءٍ). وإنَّما أضافَها إلى اللهِ على التَّخْصِيْصِ والتَّفْصِيْلِ، كما يقالُ: بَيْتُ اللهِ.

وَقِيْلَ: أُضيفت إلى اللهِ بأنَّها كانت بالتَّكْوِيْنِ من غير اجتماعِ ذكَرٍ وأُنثى ولم تَكُنْ في صُلْبٍ ولا رَحِمٍ، ولم يكن لِلْخَلْقِ فيها سَعْيٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (آيَةً) نُصِبَ على الحال. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَعَتَوْا عَنْ أمْرِ رَبهِمْ) أي تَجاوَزُوا الْحَدَّ في الكفرِ والفساد. ﴿ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ ؛ بهِ من العذاب على قَتْلِ النَّاقَةِ، ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ ؛ أي أخذتْهم الزَّلْزَلَةُ ثُمَّ صَيْحَةُ جِبْرِيْلَ عليه السلام كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ﴾[1]. والصَّاعِقَةُ: هِيَ الاحْتِرَاقُ؛ أي احْتَرَقُوا، ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي مَيْتِيْنَ قد هَمَدُوا رَمَاداً جُثُوماً. والْجُثُومُ: الْبُرُوكُ عَلَى الرُّكَب. وَقِيْلَ: معنى الصَّيحةِ والصاعقةِ واحدٌ، فإن الصاعقةَ اسمٌ لما يُصْعَقُونَ بهِ؛ أي يَموتُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ ؛ معناه: فأعرضَ صالحُ عنهم حين عقَرُوا الناقةَ، وعرفَ أنَّ العذابَ يأتيهم وقال: يَا قَوْمِ لَقَدْ أبْلَغْتُكُمْ رسَالَةَ رَبي وَنَصَحْتُ لَكُمْ في أداءِ الرِّسالةِ إليكم، ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي مَنْ يَنْصَحُ لَكُمْ.

قال ابنُ عبَّاس: (فَخَرَجَ صَالِحُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ؛ وَهُمْ مِائَةٌ وَعَشْرَةٌ؛ حَتَّى إذا فَصَلَ مِنْ عِنْدِهِمْ وَهُوَ يَبْكِي، الْتَفَتَ خَلْفَهُ فَرَأى الدُّخَانَ سَاطِعاً، فَعَرَفَ أنَّ الْقَوْمَ قَدْ هَلَكُوا، وَكَانَ عَدَدُهُمْ ألْفاً وَخَمْسَمِائَةٍ. فَلَمَّا هَلَكُوا رَجَعَ صَالِحُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، فَسَكَنُوا دِيَارَهُمْ حَتَّى تَوَالَدُوا وَمَاتُوا فِيْهَا).

---

(١) فصلت / ١٧.

فإن قِيْلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ) عطفٌ على قوله: (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)؛ فكيف تكونُ الصَّيْحَةُ بعد هلاكِهم؟ قِيْلَ: إنَّ الفاءَ في قوله: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ) للتَّعْقِيْب والإخبار لا لِتَرَادُفِ الحال، وهذا راجعٌ إلى حال عَقْرِهِم الناقةَ، لكنَّ الله ساقَ القِصَّةَ في أمرِهم إلى آخرها، ثم عَطَفَ على ذلكَ ما فعلَهُ صالِحُ للكشفِ عن عُذْرِهِ في مسألةِ إنزال العذاب بهم بعدَ كَثْرَةِ نُصْحِهِ لَهم وإصرارهم على فعلهم. وجوابُ إخوانهِ لا يَمنعُ أنَّ صالِحاً قالَ هذا القولَ بعد هلاكِ القومِ لِيَعْتَبرَ بذلكَ مَن كانَ معهُ من المؤمنينَ.

فَصْلٌ: وقصَّتُهم ما حكاهُ السُّدِّيُّ وغيرهُ: (أنَّ عاداً لَمَّا هلكت عَمَّرَتْ ثمودُ بعدَها، واستُخْلِفُوا في الأرضِ، فَنَزلُوا فيها وكَثُرُوا، وكانوا في سَعَةٍ من عيشِهم، فَعَتَوا على اللهِ، وأفسَدُوا في الأرضِ وعَبَدُوا غيرَ اللهِ، فبعثَ اللهُ إليهم صالِحاً من أوْسَطِهِمْ نَسَباً، فدعاهُم إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حتى شَمَطَ[1] وَكَبرَ ولا يَتْبَعُهُ منهم إلا قليلٌ مستضعفونَ.

فلما ألَحَّ عليهم في الدُّعاء والتَّخويفِ سألوهُ أنْ يُرِيَهُمْ آيةً تكونُ مِصْدَاقاً لقولِهِ، فقال لَهم: أيُّ آيةٍ تريدون؟ فأشارُوا له إلى صخرةٍ منفردة من ناحية الْحِجْرِ، وقالوا لهُ: أخرِجْ لنا من هذه الصَّخرةِ ناقةً جَوْفَاءَ عَشْرَاءَ، فإنْ فَعَلْتَ آمَنَّا بكَ وصدَّقناكَ.

فأخذ عليهم صالِحُ عليه السلام المواثيقَ، فَفَعَلُوا، فصلَّى ركعتين ودَعَا رَبَّهُ، فَتَمَخَّضَتِ الصخرةُ تَمَخُّضَ النَّتُوجِ بولدِها، ثم تَحَرَّكَتْ وانصدعَتْ عن ناقةٍ عَشْرَاءَ جَوْفَاءَ،كما وَصَفُوا وهم ينظرون، ثم نَتَجَتْ سقياءَ مِثْلَهَا في الْعِظَمِ، فلمَّا خرجت الناقةُ قال لَهم صالِحُ: هذه ناقةٌ لها شِرْبٌ ولكم شِرْبٌ يَوْمٍ معلومٍ.

فمكثَتِ الناقةُ ومعها سَقبُها في أرضِ ثمود ترعَى الشَّجَرَ وتشربُ الماءَ، فكانت تَردُ الماءَ غِبّاً، فإذا كان يومُها وضعت رأسَها في بئرٍ يقال لها بئرُ النَّاقَةِ، فما ترفعُها حتى قد شَرِبَتْ كلَّ ما فيها، لا تدعُ قطرةً واحدة، ثم ترفعُ رأسَها فَتَنْفَشِجُ كما تَنْفَحِجُ[2]

---

(١) الشمط: بياضُ شعرِ الرَّأسِ يخالطُ سوادَهُ.

(٢) التَّفَحُّجُ والتَّفَشُّجُ: هو أن يفرِّجَ من رجليه إذا جلس.

لَهم، فيحلبونَ ما شاءُوا من لَبَنِهَا، فيشربون ويدَّخِرُون، ويَمْلأُونَ آنِيَتَهُمْ كلَّها، ثم تصدرُ من على الفَجِّ[1] الذي وردت منهُ؛ لأنَّها لا تعد أن تصدرَ من ماءٍ تردُ لضيقه. قال أبو موسَى الأشعريُّ: أتَيْتُ أرْضَ ثَمُودِ فَذرَعْتُ مَصْدَرَ النَّاقَةِ، فَوَجَدْتُهُ سِتِّيْنَ ذِرَاعاً[2].

وكانوا إذا جاءَ يومُهم وَرَدُوا الماءَ فيشربون ويسقُونَ مواشِيهم، ويدَّخِرون من الماءِ ما يكفيهم اليومَ الثانِي، فكانوا كذلك، وكانتِ الناقةُ إذا رأتْها مواشيهم تَنفِرُ منها، وكانتِ الناقةُ ترعَى في وَادِي الْحِجْرِ، فَكَبُرَ ذلكَ على أهلِ المواشي منهُم، فاجتمَعُوا وتشاوَرُوا على عَقْرِ الناقةِ.

وكان في ثَمُودَ امرأةٌ يقال لها: صَدُوقُ، وكانت جميلةَ الْخَلْقِ غنيَّةً ذاتَ إبلٍ وبقر وغنم، وكانت مِن أشَدِّ الناسِ عداوةً لصالِحٍ ﷺ، وكانت تُحِبُّ عقرَ الناقةِ؛ لأنَّها أضَرَّتْ بمواشيها، فطلبَتْ مِن ابْنِ عَمٍّ لَها يقالُ له: مُصْدَعٌ، وجعلت لهُ نَفْسَها إنْ عَقَرَ الناقةَ، وكانت مِن أحْسَنِ الناسِ وأكثرِهم مالاً، فأجابَها إلى ذلكَ. ثُمَّ طلبَتْ قدار بن سالف، وكان رجلاً أحمرَ أزرقَ قصيراً يزعمون أنه وَلَدُ زنًى، ولكنَّهُ وُلِدَ على فراش سالف، فقالَتْ لهُ: يا قدارُ؛ أزَوِّجُكَ أيَّ بناتِي شِئْتَ على أن تَعْقِرَ الناقةَ، وكان مَنِيْعاً في قومهِ، فأجابَها أيضاً.

فانطلقَ قدار ومُصْدَعٌ فاسْتَغْوَوا غُوَاةَ ثَمُودٍ، فأتاهُم تِسْعَةُ رَهْطٍ، فاجتمعوا على عَقْرِ الناقةِ، فأوحَى اللهُ إلى صالِحٍ: أنَّ قومَكَ سَيَعْقِرُونَ النَّاقَةَ. فقال لَهم صالِحُ بذلك، فقالوا: ما كُنَّا لنفعلَ. ثم تَقَاسَمُوا باللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأهْلَهُ. وقالوا: نَخْرُجُ فيرَى الناسُ أنا قد خَرَجْنَا إلى سَفَرٍ، فنأتِي الغَارَ فنكونُ فيه، حتى إذا كان الليلُ وخرجَ صالِحُ إلى مسجدهِ قَتَلْنَاهُ، ثم رجعنَا إلى الغَار فَكُنَّا فيهِ، فإذا رجعنَا قُلْنَا: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أهْلِهِ وَإنَّا لَصَادِقُونَ؛ أي يعلمونَ أنَّا خرجنَا في سَفَرٍ لنا.

---

(١) الفجُّ: الطريقُ الواسع بين جبَلين، وكلُّ طريقٍ بعُدَ فهو فجٌّ.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٠٧).

وكان صالِحُ عليه السلام لاَ ينامُ في القريةِ، وكان له مسجدٌ خارجَ القريةِ يقال له: مَسْجِدُ صَالِحٍ يبيتُ فيه، فإذا أصبحَ أتاهم وَوَعَظَهُمْ، فإذا أمسَى خرجَ إلى المسجدِ. فانطلَقُوا ودخلُوا الغَارَ، فلما كان بالليلِ سَقَطَ عليهم الغَارُ فقتلَهم، فلما أصبحُوا رآهم رجلٌ فصاحَ في القريةِ فقال: ما رَضِيَ صالِحُ حتى قتَلَهم، فاجتمعَ أهلُ القرية على عَقْرِ النَّاقَةِ)[١].

وقال ابنُ إسْحَق: (إنَّمَا اجْتَمَعَ التِّسْعَةُ الَّذِيْنَ عقَرُوا النَّاقَةَ، فَقَالُوا: هَلُمَّ لِقَتْلِ صَالِحٍ، فَإنْ كَانَ صَادِقاً فَأعْجَلْنَا قَتْلَهُ، وَإنْ كَانَ كَاذِباً ألْحَقْنَاهُ بنَاقتِهِ. فَأتَوهُ لَيْلاً لِيُبَيِّتُوهُ فِي أهْلِهِ، فَدَمَغَتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ بالْحِجَارَةِ)[٢].

وقال بعضُهم: انطلقَ قدار ومُصْدَعُ وأصحابُهما التسعةُ، فرَصَدُوا الناقةَ حين صَدَرَتْ على الماءِ، وقد كَمَنَ بها قدار في أصلِ صَخْرَةٍ على طريقِها، وكَمَنَ لَها مُصْدَعُ في أصلِ صخرةٍ أخرى، فَمَرَّتْ على مُصْدَعٍ فرمَاهَا بسهمٍ، فانتظمَ به عَضَلَةَ سَاقِهَا، ثم خرجَ قدار فعقَرَهَا بالسَّيفِ، فَجَرَتْ تَرْغُو، ثم طَعَنَهَا في لُبَّتِهَا ونحرَهَا، وخرجَ أهلُ البلدِ واقتسموا لَحْمَهَا. فلما رَآها سَقْبُهَا على ذلكَ، هَرَبَ يَرْغُو فَرَغَا ثلاثاً ودموعهُ تنحدرُ حتى أتى الصخرةَ التي خُلِقَ منها، فانفتحَتْ له فَدَخَلَهَا.

فبلغَ صَالِحاً عليه السلام عَقْرُ النَّاقَةِ، فأقبلَ إليهم، فجعلُوا يعتذرون إليهِ ويقولون: إنَّما عَقَرَهَا فلانٌ ولا ذنبَ لنا. فقال صالِحُ: انْظُرُوا؛ هل تُدْرِكُونَ سَقْبَهَا؟ فإنْ أدركتموهُ فعسى أن يُرْفَعَ عنكم العذابُ. فخرجُوا في طلبهِ فلم يجدوهُ، فقالَ صَالِحُ: يا قومِ؛ لكلِّ دعوةٍ أجَلٌ؛ يا قوم تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثلاثةَ أيَّامٍ، ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ.

وقال ابن إسحق: (عَقَرُوا النَّاقَةَ وَسَقْبَهَا، وَألْقَوا لَحْمَهُ وَلَحْمَ أمِّهِ، فَقَالَ لَهُمْ صَالِحُ: أبْشِرُوا بعَذَاب اللهِ وَنِقْمَتِهِ. فَقَالُوا لَهُ: وَمَا عَلاَمَةُ ذلك؟ قَالَ: تُصْبحُونَ غَداً وُجُوهُكُمْ مُصْفَرَّةً، وَبَعْدَ غَدٍ مُحْمَرَّةً، وَبَعْدَ ذلِكَ مُسْوَدَّةً. وَكَانُوا عقَرُوهَا يَوْمَ الأرْبعَاءِ.

---

(١) القصة بكاملها ذكرها البغوي في معالم التنزيل: ص٤٧٣-٤٧٥.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٤٧٦.

فَأَصْبَحُوا يَوْمَ الْخَمِيْسِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ طُلِيَتْ بِزَعْفَرَانٍ؛ صَغِيْرُهُمْ وَكَبِيْرُهُمْ؛ وَذَكَرُهُمْ وَأُنْثَاهُمْ، فَأَيْقَنُوا بِالْعَذَابِ، وَعَلِمُوا أَنَّ صَالِحاً قَدْ صَدَقَ، فَطَلَبُوهُ لِيَقْتُلُوهُ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ وَاخْتَفَى فِي مَوْضِعٍ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَجَعَلُوا يُعَذِّبُونَ أَصْحَابَهُ الَّذِيْنَ آمَنُوا مِنْهُمْ لِيَدُلُّوهُمْ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا أَصْبَحُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَصْبَحَتْ وُجُوهُهُمْ مُحْمَرَّةً كَأَنَّهَا خُضِّبَتْ بِالدِّمَاءِ؛ فَصَاحُوا بِأَجْمَعِهِمْ وَضَجُّوا وَبَكَوا، وَعَرَفُوا أَنَّ الْعَذَابَ قَدْ دَنَا إِلَيْهِمْ، وَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُخْبِرُ الآخَرَ بِمَا يَرَى فِي وَجْهِهِ. ثُمَّ أَصْبَحُوا يَوْمَ السَّبْتِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ كَأَنَّمَا طُلِيَتْ بِالْقَارِ وَالنِّيْلِ، فَصَاحُوا جَمِيْعاً: أَلاَ قَدْ حَضَرَ الْعَذَابُ.

فَلَمَّا أَصْبَحُوا يَوْمَ الأَحَدِ، خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى صَالِحٍ عليه السلام، فَمَضَى بِهِمْ إِلَى الشَّامِ، فَلَمَّا اشْتَدَّ الضَّحُّ يَوْمَ الأَحَدِ، أَتَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ عَظِيْمَةٌ، فِيْهَا صَوْتُ كُلِّ صَاعِقَةٍ، فَانْفَطَرَتْ قُلُوبُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ وَتَقَطَّعَتْ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ كَبِيْرٌ وَلاَ صَغِيْرٌ إِلاَّ هَلَكَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[(١)]).

وعن جابرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِالْحِجْرِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكٍ — يَعْنِي مَوَاضِعَ ثَمُودٍ- قَالَ لأَصْحَابِهِ: [لاَ يَدْخُلَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِيْنَ أَنْ يُصِيْبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَهُمْ] ثُمَّ قَالَ: [لاَ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمُ الآيَاتِ، فَإِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمُ صَالِحٍ سَأَلُوا رَسُولَهُمُ الآيَةَ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمُ النَّاقَةَ، فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ؛ وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ؛ فَتَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمَ وُرُودِهَا] وَأَرَاهُمْ مُرْتَقَى الْفَصِيْلِ حِيْنَ ارْتَقَى، ثُمَّ أَسْرَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ السَّيْرَ حَتَّى جَاوَزُوا الْوَادِي[(٢)].

وعن رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: [أَتَدْرِي مَنْ أَشْقَى الأَوَّلِيْنَ؟] قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: [عَاقِرُ النَّاقَةِ]. ثُمَّ قَالَ: [أَتَدْرِي مَنْ أَشْقَى الآخِرِيْنَ؟]

---

(١) القمر / ٣١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١١٥٠٤ و١١٥٠٧). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٣٠١)؛ وقال: صحيح الإسناد.

قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، قَالَ: [قَاتِلُكَ!](١).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ معناه: وأرْسَلْنَا لُوطاً إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: أتَأْتُونَ السَّـيِّئَةَ؛ وهي إتيانُ الذُّكُور في الأدْبَار. والفَاحِشَةُ: السَّيِّئَةُ الْعَظِيْمَةُ الْقُبْـحِ. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: (مَـا سَبَقَكُمْ بهَا مِنْ أحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) أي لم يفعَلْها أحدٌ قبلَكم.

قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أوَّلُ مَا عَمِلُوا عَمَلَهُمُ الْخَبيْـثَ أنْ خَصِبَـتْ بلاَدُهُمْ فَانْتَجَعَهَا أهْلُ الْبُلْدَان، فَتَمَثَّلَ لَهُمْ إبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَابٍّ، ثُمَّ دَعَا إلَـى دُبُـرِهِ فَنُكِحَ، فَعَبَثُوا بذلِكَ الْعَمَلِ زَمَاناً، فَلَمَّا كَثُرَ فِيْهِمْ عَجَّتِ الأَرْضُ إلَـى رَبـهَا، فَسَـمِعَتِ السَّمَاءُ فَعَجَّتْ إلَى ربهَا، فَسَمِعَ الْعَرْشُ فَعَجَّ إلَى ربهِ، فَأمَرَ اللهُ السَّمَاءَ أنْ تَحصِبَـهُمْ، وَالأَرْضَ أنْ تَخْسِفَ بهِمْ)(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ؛ أي إنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ في أدبارهم شَهْوَةً، وتـتركون إتْيَـانَ النِّسَـاءِ الـتي أبَـاحَ اللهُ لكـم، ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي مُتَجَاوزُونَ عن الحلالِ إلى الحرام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ أي مَا كَانَ جَوَابُهم إذ قَالُوا لَهم ذلك، إلا أنْ قَالُوا؛ أي قال بعضُهم لبعضٍ: أخْرِجُـوا لُوطاً ومَن آمَنَ معهُ مِـنْ بلدِكـم، ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ أي يَتَـنَزَّهُونَ عن فِعْلِنَا ويُقَذِّرُونَنَا. والعربُ تُسَمِّي المدينةَ قريةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ ؛ أي خَلَّصْنَاهُ وابْنَتَيْهِ زعـوراء وريثياء. وأهلُ الرَّجُلِ: هم الْمُخْتَصُّونَ به اختصاصَ القرابَةِ، وقَوْلُهُ: (إلاَّ امْرَأتَـهُ) أي

(١) في مجمع الزوائد: ج ٧ ص١٤؛ قال الهيثمي: (عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا...)، وذكـره بلفظ: [أشْقَى النَّاسِ ثلاَثَةٌ...]، وقال: (وفيه ابن إسحق وهو مدلس)، وفي ص٢٩٩ قـال: (رواه الطبراني وفيه حكيم بن جبير وهو متروك وضعفه الجمهور، وقال أبـو زرعـة: محلـه الصـدق إن شاء الله، وابن إسحق مدلس).

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٤٩٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه إسحق بن بشر وابن عسـاكر عـن ابـن عباس... وذكره بلفظ قريب منه)).

إلاَّ زوجتَهُ كانت على دينِهم، وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي مِن الباقينَ في الْغَبْرَاءِ؛ غَبَرَتْ فِيمَنْ غَبَرَ. ومعناهُ: بقيت في العذاب ولم تذهَبْ معهُ، فهلكَتْ مع القومِ فيمَن هلكُوا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (أمْطِرَتِ الْحِجَارَةُ عَلَى مُسَافِرِهِمْ وَعَلَى الَّذِيْنَ لَمْ يَكُونُوا مَعَهُمْ بالْمَدِيْنَةِ حَتَّى هَلَكُوا، فَأَمَّا الْمَدِيْنَةُ فَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَالِيَهَا سَافِلَهَا). ويقالُ: أمْطِرُوا أوَّلاً بالحجارةِ، ثم خُسِفَتْ بهم الأرضُ.

وأما الأَلِفُ في قولِهِ: (وَأَمْطَرْنَا)؛ قال بعضُهم: يقالُ لكلِّ شيءٍ من العذاب: أمْطَرَتْ بالألفِ؛ وللرَّحمةِ: مَطَرَتْ. وقالَ بعضُهم: أمْطَرَتْ وَمَطَرَتْ بمعنى واحدٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) أي فَانْظُرْ مَن معَكَ في آخرِ أمرِ الكافرين المكذِّبين كيفَ فَعَلْنَا بهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴾ ؛ معناهُ: ولقد أرسلنا إلَى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعَيْبًا. قال الضَّحاك: (كَانَ شُعَيْبٌ أفْضَلَهُمْ نَسباً؛ وَأصْدَقَهُمْ حَدِيْثاً؛ وَأحْسَنَهُمْ وَجْهاً) يقال: إنهُ بَكَى من خِشْيَةِ اللهِ حتى ذهبَ بصرهُ وصار أعمَى. وأما مَدْيَنَ؛ فإنه مَدْيَنُ بنُ إبراهيمَ خليلُ اللهِ، تزوَّجَ رِئْيَاءَ بنتِ لُوطٍ؛ فولدَتْ لهُ وكَثُرَ نسلهُ، فصارَت مَدْيَنَ مدينتُهم أو قبيلتُهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ ﴾ ؛ أي برهانٌ ودلالة من ربكم على نُبُوَّتِي، ﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ ؛ أي أدُّوا حقوقَ الناسِ بالمكيال والميزان على التَّمام، ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ ؛ أي ولاَ تَنْقُصُوا شيئاً من حُقُوقِهِمْ، ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ﴾ أي لا تَعْلُوا فيها بالمعاصِي بعدَ إصلاحِ الله إيَّاها بالْمَحَاسِنِ.

وَقِيْلَ: معناهُ: لا تَظْلِمُوا الناسَ في الأرضِ بعدَ أنْ مَنَّ اللهُ فيها بالعَدْلِ، ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي إيفاءُ الحقوقِ وتركُ الفسادِ في الأرضِ خيرٌ لكم،

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي مُصَدِّقِيْنَ باللهِ ورسُولِهِ. وقد كان لشعيبٍ عليه السلام آيةٌ تَدُلُّ على نُبُوَّتِهِ، كما قالَ تعالى: (قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبكُمْ) إلا أنَّها لم تُذْكَرْ في القُرْآنِ كما أنَّ أكثرَ معجزاتِ نَبيِّنَا ﷺ ((لَيْسَتْ)) مذكورةً في القُرْآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ ؛ أي لاَ تَقْعُدُوا على طريقٍ تُخَوِّفُونَ وتَصْرِفُونَ عن دِينِ اللهِ وطاعته مَنْ آمَنَ باللهِ، وذلك أنَّهم كانوا يُخَوِّفُونَ بالْقَتْلِ كلَّ من قصدَ شُعَيْباً بالإيْمان به. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ ؛ أي تطلبونَ بها غَيْراً وزَيْغاً وعُدُولاً عنِ الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ ؛ أي احفظُوا نِعَمَ اللهِ عليكم إذْ كُنتُمْ قَلِيلاً في العَدَدِ (فَكَثَّرَكُمْ) فَكَثَّرَ عددكم، ويقال: معنى (فَكَثَّرَكُمْ): جعلكم أغنياءَ ذوي قدرةٍ بعد أن كنتم ضعفاءَ فقراءَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي تَفكَّرُوا كيفَ كان آخرُ أمرِ مَن كان قبلَكم من الكفَّار في إهلاكِ الله تعالى لَهم، وإنزال العذاب بهم، فَتَحْذرُوا من سلوكِ مسالِكهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا ﴾ ؛ معناه: وَإنْ كَانَ جماعة مِنكُمْ صدَّقوا بالَّذِي أرْسِلْتُ به، وجماعة لَمْ يصدِّقوا، ﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ ؛ أي حتَّى يقضيَ اللهُ بين المؤمنينَ والكافرين، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ وهو أعْدَلُ القَاضِيْنَ؛ سيجزي كلَّ واحدٍ من الفريقين ما يَسْتَحِقُّهُ على عملِهِ في الدنيا والآخرة. فقضَى اللهُ بهلاكِ قوم شُعيبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ ؛ أي قَالَ الَّذِينَ تَعظَّمُوا عن الإيْمان به: لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أوْ لترجعنَّ إلى دِيننا، ولا ندعُكم في أرضِنا على مُخالفتِنا. ﴿ قَالَ ﴾ ؛ شُعَيْبُ: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ معناه: أتُعِيْدُونَنَا في ملَّتِكم وتجبرُوننا على ذلك وإنْ كرهْنا.

فإن قِيْلَ: كيفَ قالُوا لشعيبٍ: (أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) وشعيبُ عليه السلام لم يكن في مِلَّتِهِمْ قَطْ؛ لأنَّ الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ لا يجوزُ عليهم الكفرُ في حالٍ من الأحوال؟ قِيْلَ: يجوزُ أن يكون المرادُ بهذا الخطاب قومهُ الذين كانوا على ملَّتهم؛ فأدخلوهُ معهم في الخطاب. ويحتملُ أنَّهم توهَّموا أنَّ شعيباً كان على ملَّتهم؛ لأنَّهم لم يَروا منهُ المخالفةَ لَهم إلاَّ في وقتِ ما دعاهُم إلى نُبُوَّتِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ ؛ أي قَدِ اختلَقْنا عَلَى اللهِ الكَذِبَ فيما دعوناكم إليه إنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إذْ خلَّصَنا اللهُ مِنْهَا بالدلالة على بطلانِها وتبيينِ الحقِّ لنا وقبولنا لَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ ؛ قال بعضُهم: معناهُ: ما نعودُ فيها إلاَّ أن يكون في عِلْمِ اللهِ ومشيئته أن نعودَ فيها.

وقال بعضُهم: معناهُ: إلاَّ أن يشاءَ اللهُ أن نُكْرَهَ عليها بالقتلِ، فَنُظْهِرُ كلمةَ الكفرِ مع طمأنينة القلب بالإيمان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ ؛ أي أحاطَ رَبُّنَا بكلِّ شيءٍ عِلْمُهُ، فهو يعلمُ ما هو أصلحُ لنا فيتعبَّدُنا به، وهو يعلمُ بأنَّا هل ندخلُ في مِلَّتِكُمْ أو لا ندخلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ ؛ أي به وَثِقْنَا في الانتصار عليكم، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي اقضِ بيننا وبينهم بما يدلُّ على أنَّا على الحقِّ وهم على الباطلِ، ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ والفَاتِحُ هنا: الْحَاكِمُ بلُغة أهلِ عُمَان؛ يسمَّى فاتِحاً؛ لأنه يفتحُ المشكلاتِ ويَفْصِلُ الأمورَ. ويجوز أن يكون معنى الفَتْحِ: اظْهِرْ أمْرَنا بإهلاكِ العدُوِّ حتى يَنْفَتِحَ ما بيْنَنا وبينهم؛ أي يظهرُ ويكشفُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ معناه: قَالَ الأشراف الَّذِينَ كَذبُوا شعيباً: لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا فيما دعاكُم إليه إنَّكُمْ إذًا بمَنْزِلَةِ مَن ذهَبَ رأسُ مالهِ لإفنائِكم العُمْرَ في تَرْكِ الشَّهواتِ، فتكونون مَغْبُونِيْنَ جاهلينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ ؛ أي الزَّلْزَلَةُ الشَّديدةُ. وقال ابنُ عبَّاس: (رَجفَتْ بهمُ الأَرْضُ وَأَصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيْدٌ، وَرُفِعَتْ لَهُمْ سَحَابَةٌ، فَخَرَجُوا إلَيْهَا يَطْلُبُونَ الرَّوْحَ مِنْهَا، فَلَمَّا كَانُوا تَحْتَهَا سَالَتْ عَلَيْهِمْ بالْعَذَاب وَمَعَهُ صَيْحَةُ جِبْرِيْلَ ﷺ)[١]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي بقُرب دارهم تحتَ الظُّلَّةِ كما قالَ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (جَاثِمِينَ) أي مَيِّتِيْنَ على وُجُوهِهم ورُكَبِهم. وروي: أنَّهم احترَقُوا تحتَ السَّحابةِ، فصاروا مَيِّتِيْنَ بمَنْزلةِ الرَّمَادِ الْجَاثِمِ أَجْسَامٍ مُلْقَاةٍ عَلَى الأَرْضِ.

قال ابنُ عبَّاس: (فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ بَاباً مِنْ جَهَنَّمَ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنْهُ حَرّاً شَدِيْداً، فَأَخَذ بأَنْفَاسِهِمْ فَدَخَلُوا جَوْفَ الْبُيُوتِ، فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ مَاءٌ وَلاَ ظِلٌّ، فَأَنْضَجَهُمُ الْحَرُّ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَةً فِيْهَا رِيْحٌ طَيِّبَةٌ، فَوَجَدُوا بَرْدَ الرِّيْحِ وَطِيْبهَا وَظِلَّ السَّحَابَةِ، فَتَنَادَوا: عَلَيْكُمْ بهَا؛ فَخَرَجُوا نَحْوَهَا، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَحْتَهَا رجَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ وَصِبْيَانُهُمْ؛ أَلْهَبَهَا اللهُ نَاراً عَلَيْهِمْ، وَرَجَفَتْ بهمُ الأَرْضُ؛ فَأُحْرِقُوا كَمَا يَحْتَرِقُ الْجَرَادُ الْمَقْتُولُ وَصَارُوا رَمَاداً، وَهُوَ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ﴾ ؛ يقولُ اللهُ تعالى: الَّذِينَ كَذبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَنْزِلُوا فِي دارهم. ويقالُ معنى (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا) كأنْ لَم يقيموا فيها مقامَ المستغنِي. ويقالُ: معناهُ: كأن لم يَعِيْشُوا ولم يكونُوا. قال الأَصْمَعِيُّ: (الْمَغْنَى: الْمَنْزِلُ؛ وَالْمَغَانِي الْمَنَازِلُ الَّتِي كَانُوا فِيْهَا، يُقَالُ: غَنَيْنَا بمَكَانِ كَذا؛ أيْ نَزَلْنَا فِيْهِ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ الْخُسْرَانَ حَلَّ بهم دونَ المؤمنين، وإنَّما أعادَ ذكرَ (الَّذِينَ كَذبُوا شُعَيْبًا) للتَّغليظِ عليهِم.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٥٠٢: شطر حديث طويل؛ قال السيوطي: ((أخرجه إسحق بن بشر وابن عساكر)).

(٢) الشعراء / ١٨٩.

(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٢٢٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فلمَّا رأى العـذابَ مُقْبلاً عليهم أعْرَضَ عَنْهُمْ بعدَ الإيَاسِ منهُم، وخَرَجَ من بين أظْهُرِهِمْ. وقولهُ: (فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ) أي كيف يَشْتَدُّ جَزَعِي على قَوْمٍ كافرين حَلَّ بهم العذابُ باستحقاقِهم لهُ بعد أن نصحتُهم فلم يقبلُوا. والأَسَى: الْحُزْنُ؛ وَالأَسَى: الصَّبْرُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي وَمَا أرْسَلْنَا فِي مدينةٍ مِنْ رسول فكذبوا إلاَّ عاقَبْنا أهْلَهَا بالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ. فالبَأْسَاءُ: مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الشِّدَّةِ فِي نُفُوسِهِمْ، والضَّرَّاءُ: مَا نَزَلَ فِيْهِمْ مِنَ الضَّرَر فِي أمْوَالِهِمْ. وَقِيْلَ على عَكْسِ هذا، وَقِيْلَ: الْبَأْسَاءُ: الْبُؤْسُ وَالشِّدَّةُ وَضِيْقُ الْعَيْشِ، والضَّرَّاءُ: الْفَقْرُ وَالْجُوعُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) أي لكي يَتَضَرَّعُوا ويَتُوبُوا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ ﴾ ؛ أي ثم حَوَّلْنَا مكانَ الشِّدَّةِ والكَرْبِ العاقبةَ والخِصْبَ والسَّعَةَ حتى كَثُرُوا وكثُرت أموالُهم ومعاشُهم. وإنَّما سُمِّيت الشِّدَّةُ سيئةً؛ لأنَّها تسوءُ الإنسانَ؛ كما الإحسانُ حسنةً؛ لأنه يحسنُ أثرُهُ على الإنسانِ، وإلاَّ فالسيِّئةُ هي الفِعْلَةُ القبيحةُ، واللهُ تعالى لا يفعلُ القبيحَ.

وقال الحسنُ: (عَفَوا) أي سَمِنُوا؛ وَأَرَادَ بِهِ السِّمَنَ فِي الْمَالِ لاَ فِي تَعْظِيْمِ الْجِسْمِ). وقال قتادةُ: (حَتَّى عَفَوا) حَتَّى أشِرُوا وَبَطِرُوا وَلَمْ يَشْكُرُوا رَبَّهُمْ). وأصلهُ من الكَثْرَةِ؛ قال ﷺ: [احْفُوا الشَّوَارِبَ وَأَعْفُوا اللِّحْيَةَ][(١)]. قال الشاعرُ:

عَفَوا مِنْ بَعْدِ إقْلاَلٍ وَكَانُوا ... زَمَاناً لَيْسَ عِنْدَهُمْ بَعِيْرُ

وقال ابنُ عبَّاس: (حَتَّى عَفَوا) أي جَمُّوا[(٢)]. وقال ابنُ زيدٍ: (حَتَّى كَبرُوا كَمَا يَكْبُرُ النَّبَاتُ وَالرِّيْشُ)[(٣)].

---

(١) تقدم؛ وأخرجه البخاري في الصحيح: كتاب اللباس: باب إعفاء اللحى: الحديث (٥٨٩٣). ومسلم في الصحيح: كتاب الطهارة: باب خصال الفطرة: الحديث (٥٢/٢٥٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٥٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٦٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ ؛ أي قالوا: هكذا عادةُ الزَّمانِ؛ أي يسيءُ تارةً ويحسنُ أخرى، وهكذا كانت عادتهُ مع آبائِنا. فثَبَتُوا على دينِهم ولم يقيلوا عنهُ، فاثبتوا أنتم على دِينكم ولا تُقِيْلُوا عنهُ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً ﴾ ؛ أي أخذْنَاهم بالعذاب فَجْأةً، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ أي من حيثُ لا يشعرون بالعذاب. والمعنَى: أخذناهُم بالعذاب وهم في أمْنٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ بنُزولهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ معناهُ: لَوْ أنَّ أهْلَ الْقُرَى الذين أهلكنَاهُم بتكذيبهم الرسُلَ قالُوا: آمنَّا باللهِ وبالرُّسُلِ وَاتَّقَوْا الشِّرْكَ والمعاصي لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ نامِيَةً مِنَ السَّمَاءِ وهي المطرُ؛ وَمِنَ الأَرْضِ وهي النباتُ والثِّمارُ، ﴿ وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ ﴾ ؛ الرسلَ؛ ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُم ﴾ ؛ بالعذاب؛ ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ من المعاصِي.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ الكفايةَ والسَّعَةَ في الرِّزْق من سعادةِ الْمَرْءِ؛ أي إذا كان شَاكِراً. والمرادُ بقولِهِ: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ﴾[1] الكثرةُ التي تكون وبالاً على مَن لا يشكرُ اللهَ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ معناه: أفَأَمِنَ أهْلُ الْقُرَى الْمُكَذِّبَةِ لكَ يا مُحَمَّدُ أنْ يَنْزِلَ بهم عذابُنا ليلاً وَهُمْ نَائِمُونَ في فُرشِهِمْ ومنازِلهم، لا يشعرونَ بالعذاب لغفلتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ معناه: أوَأمِنَ أهْلُ الْقُرَى الْمُكَذِّبَةِ لكَ أنْ يَأْتِيَهُمْ عذابُنا نَهاراً وَهُمْ مشغولونَ بلَهْوِهِمْ ولَعِبِهِمْ. والضُّحَى: صَدْرُ النَّهار عِنْدَ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناه: أبَعْدَ هذا كلِّه أمِنُوا عذابَ اللهِ لَهم من حيثُ لا يعلمونَ. وإنَّما سُمِّي العذابُ مَكْراً على جهةِ الاتِّساعِ والْمَجَاز؛

---

(١) الزخرف / ٣٣.

لأن الْمَكْرَ يَنْزِلُ بالممكور مِن الْمَاكِرِ من حيثُ لا يشعرُ، وأما الْمَكْرُ الذي هو الاحتيالُ للإظهار بخلاف الإضمار؛ فذلك لا يجوزُ على اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٩٩) ﴾.

فإن قِيْلَ: أليسَ الأنبياءُ قد أمِنُوا عذابَ اللهِ وليسوا مِن القوم الخاسرينَ؟ قِيْلَ: معنى الآيةِ: لا يَأْمَنُ عذابَ اللهِ من المذنبين. والأنبياءُ صَلَوَاتُ اللهِ عليهم لا يَأْمَنُونَ عذابَ الله على المعصيةِ؛ ولهذا لا يَعْصُونَ بأنفسِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ ﴾ ؛ قرأ قتادةُ: (أوَلَمْ نَهْدِ) بالنُّون على التعظيمِ، ومعنى الآيةِ: أوَلَمْ يُبَيِّن اللهُ لِلَّذِينَ يخلفون في الأرضِ مِنْ بَعْدِ أهْلِهَا الذين أهلكَهم اللهُ بتكذيبهم الرُّسُلَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:(أنْ لَوْ نَشَاءُ أصَبْنَاهُمْ بذُنُوبهِمْ) أي أوَلَمْ نُبَيِّنْ لَهم مَشِيْئَتَنَا أصبنَاهُم بعقاب ذنوبهم، كما أخذنَا مَن كان قبلَهم بذنوبهم.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ أي نَخْتِمُ عليها عقوبةً لَهم، وليس هو عَطْفاً على (أصَبْنَاهُمْ) لأنه لو عُطِفَ عليهِ لقال: وَلَطَبَعْنَا؛ لأنَّ قولَهُ: (أصَبْنَاهُمْ) على لفظِ الماضي، وكان معنى (وَنَطْبَعُ): وَنَحْنُ نَطْبَعُ. ومعنى الْخَتْمِ على قلوبهم:بأنَّهم لا يُؤْمِنُونَ على جِهَةِ الذمِّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) ﴾ ؛ أي لا يَقْبَلُونَ الوعظَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ ﴾ ؛ أي تِلْكَ الْقُرَى التي أهلكْنَا أهلَها بجُحودِهم لآياتِ الله نَقُصُّ عَلَيْكَ يا مُحَمَّد في القُرْآنِ مِنْ أخبارها كيفَ أهْلِكَتْ؛ لِمَا في ذلك من العِبْرَةِ لمن تَدَبَّرَ حالَهم. ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛أي بالْحُجَجِ والبراهينِ القاطعةِ التي لو اعْتَبَرُوا بها لاهْتَدَوا.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ ؛ قال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: فَمَا أهْلَكْنَاهُمْ إلاَّ وَقَدْ كَانَ مَعْلُومُنَا أنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ أبَداً). وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا لِعُتُوِّهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ فِي الْبَاطِلِ)، ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠١) ﴾ ؛ أي على قلوب الكافرين بك.

ومعنى الآيةِ: (تِلْكَ الْقُرَى) أي هَذِهِ القُرَى التِي ذكَرْتُ لَكَ يا مُحَمَّدُ أمرَها وأمرَ أهلِها، يعني قُرَى قوم نُوحٍ وعَادٍ وثَمُودَ، وقوم لُوطٍ وشُعيبٍ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) قال أبَيُّ بنُ كَعْبٍ: (مَعْنَاهُ: فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا عِنْدَ مَجِيْءِ الرُّسُلِ لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ أنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ ؛ أي مَا وَجَدْنَا لأكثرِ المهلَكين من وَفَاءٍ فيما أُمِرُوا به. تقولُ العربُ: فلانٌ لا عَهْدَ لهُ؛ أي لا وَفَاءَ لهُ بالعهدِ. وهذا العهدُ المذكورُ في الآية يجوز ما أوْدَعَ اللهُ العقولَ من شُكْرِ النِّعمةِ؛ والقيامُ بحقِّ الْمُنْعِمِ؛ ووجوب طاعة الْمُحْسِنِ. ويجوزُ أن يكون ما أخِذ عليهم على ألْسِنَةِ الرُّسُلِ من هذه الأمور.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ أي إنَّا وجَدْنَا أكثرَهم ناقضِينَ للعهدِ؛ تاركِينَ لِما أُمِرُوا به مِن الحلالِ والحرام. وأمَّا دخولُ (أنْ) واللام في مثلِ هذا، فعلى وجهِ التَّأكيدِ كما يقالُ: إنْ ظَنَنْتُ زَيْداً لَقَائِماً، وتريدُ بذلك تأكيدَ الظَّنِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ ؛ معناه: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ أولئِكَ الرُّسُلِ الذين سَبَقَ ذكرُهم مُوسَى بدلائلنا وحُجَجِنَا من العَصَا واليدِ والطَّمْسِ وغيرِ ذلك إلَى فِرْعَوْنَ وأشرافِ قومه. ويعني بالرُّسُلِ الذين بُعِثَ موسى مِن بعدِهم: نُوحاً؛ وهُوداً؛ وصَالِحاً؛ ولُوطاً؛ وشُعَيباً.

واسم (فِرْعَوْنَ) أعجميٌّ لا ينصرفُ؛ اجتمعَ فيه العِجْمَةُ والتَّعْرِيْفُ، وكانوا يُسَمُّونَ كلَّ مَن مَلَكَ مِصْرَ بهذا الاسمِ؛ واسْمُه: الوليدُ بنُ مصعبٍ، وكان من الْقِبْطِ، وعَمَّرَ أكثرَ من أربعمائةِ سنة. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَظَلَمُوا بهَا) أي جَحَدُوا بالآياتِ. وسَماهُ ظُلْماً لأنَّهم جعلوا بَدَلَ وُجُوب الإيْمان بها الكُفْرَ، وذلك من أبْيَنِ الظُّلْمِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٥٠٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي بن كعب. وذكره بلفظ قريب)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ أي فانظر كيف صارَ آخرُ أمرِ المفسِدِينَ في العقاب. قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ طُولُ عَصَا مُوسَى عَشْرَةَ أذرُعٍ عَلَى طُولِهِ، فَكَانَتْ مِنْ آسِ الْجَنَّةِ، وَكَانَ يَضْرِبُ بِهَا الأَرْضَ فَيَخْرُجُ بهَا النَّبَاتُ، وَيُلْقِيْهَا فَإذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى، وَيَضْرِبُ بها الْحَجَرَ فَيَتَفَجَّرُ، وَضَرَبَ بها بَابَ فِرْعَوْنَ فَفَزِعَ مِنْهَا؛ فَشَابَ رَأسُهُ؛ فَاسْتَحْيَا فَخَضَّبَ بالسَّوَادِ، وَأوَّلُ مَنْ خَضَّبَ بالسَّوَادِ فِرْعَوْنُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ وذلك أنَّ موسَى دخلَ على فرعونَ ومعهُ أخوهُ هارونُ، بعثَهُما اللهُ إليه بالرِّسالةِ، فقال موسَى: يَا فِرْعَوْنُ ! إنِّي رَسُولٌ مِنْ رَب الْعَالَمِينَ. فقالَ لهُ فرعون: كَذبْتَ! فقال موسَى: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ ؛ أي جَدِيْرٌ بأنْ لاَ أقُولَ عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ. وقرأ نافع: (عَلَيَّ) بالتشديد؛ أي وَاجِبٌ عَلَيَّ أنْ لاَ أقُولَ عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ أي برهانٍ وحُجَّةٍ من ربكم، ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ أي فَأطْلِقْ بَنِي إسرائيلَ، ولا تَسْتَعْبدْهُمْ لأحْمِلَهُمْ إلى الأرضِ المقدَّسَةِ. وكان فرعونُ وقومه الْقِبْطُ يُكَلِّفُونَ بَنِي إسرائيلَ الأعمالَ الشَّاقَّةَ، مثل حَمْلِ الطِّينِ والْمَاءِ وبناءِ الْمَنَازلِ وأشباهِ ذلكَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ ﴾ ، معناه: قال فرعونُ: إنْ كنتَ جئتَ بعلامةٍ لنبوَّتك، ﴿ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ في أنَّكَ رسولُ اللهِ؛ ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ أي ثُعْبَانٌ بَيِّنٌ لا لَبْسَ فيهِ ولا تشبيهَ على أحَدٍ أنه ثعبانٌ.

فَالثُّعْبَانُ: الْحَيَّةُ الصَّفْرَاءُ الذكَرُ الأَشْعَرُ أعْظَمُ الْحَيَّاتِ؛ لَهَا عُرْفٌ كَعُرْفِ الْفَرَسِ. روي أنَّها: مَلأَتْ دَارَ فرعونَ، ثم فَتَحَتْ فَاهَا وأخذت قُبَّةَ فرعونَ بين فَكَّيْهَا، وتضرَّعَ فرعونُ إلى موسى، وهَرَبَ الناسُ واستغاثُوا بموسَى، فأخذها موسى فإذا هي عَصَا بيدهِ كما كانت.

قال ابنُ عبَّاس والسُّدِّيُّ[1]: (لَمَّا فغَرَتْ فاهَا كَانَ بَيْنَ لِحْيَيْهَا ثَمَانُونَ ذِرَاعاً، وضَعَتْ لِحْيَهَا الأَسْفَلَ فِي الأَرْضِ، وَلِحْيَهَا الأَعْلَى عَلَى سُور الْقَصْرِ، ثُمَّ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ فِرْعَوْنَ لِتَأْخُذَهُ، فَوَثَبَ مِنْ سَرِيْرِهِ وَهَرَبَ، وَهَرَبَ النَّاسُ وَانْهَزَمُوا، وَكَانُوا خَمْسَةً وَعِشْرِيْنَ أَلْفاً.

فَصَاحَ فِرْعَوْنُ: يَا مُوسَى! خُذْهَا وَأَنَا أُؤْمِنُ بربَكَ، وَأَرْسِلُ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيْلَ. فَأَخَذَهَا؛ فَعَادَتْ عَصاً كَمَا كَانَتْ. فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ: هَلْ مَعَكَ آيَةٌ أُخْرَى؟ قَالَ: نَعَمْ؛ ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾؛ أي فَأَدْخَلَ يَدَهُ في جيبهِ؛ ثُم نَزَعَهَا فَإِذا هِيَ بَيْضَاءُ لَهَا شعاعٌ يَغْلِبُ نورَ الشَّمْسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾؛ أي قال الأشرافُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: إنَّ هَذا لَسَاحِرٌ حَاذِقٌ بالسِّحْرِ ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾؛ أي قال الأشرافُ: يريدُ موسَى أن يَسْتَمِيْلَ قلوبَ بني إسرائيلَ إلى نفسهِ، ويَتَقوَّى بهم فيقتُلُكم ويُخرِجُكم من بلادِكم، ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ أي تُشِيْرُونَ في أمرِهِ. كأنَّهم خاطبُوا فرعونَ، ويجوزُ أن يكون قولُهُ: (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ) من مَقَالَةِ فرعونَ لقومهِ، ويعني بقولهِ: (مِنْ أَرْضِكُمْ) أرضَ مِصْرَ. وكانَ بين اليَوْمِ الذي دَخَلَ يوسُفَ فيه مِصْرَ وبينَ اليوم الذي دخلَها موسَى فيه رَسُولاً أربعُمائةِ عَامٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾؛ أي قالُوا لفرعونَ: احْبسْهُ وأخاهُ إلى آخرِ أمرِهما، ولا تعجَلْ بقتلِهما؛ فتكونَ عَجَلَتُكَ حُجَّةً عليكَ، ﴿ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾؛ أي ابْعَثْ الشُّرَطَ في الْمَدَائِنِ التي حولَكَ يحشُرون السَّحَرَةَ إليك[2].

والسِّحْرُ في اللُّغةِ: لُطْفُ الْحِيْلَةِ فِي إظْهَار الأُعْجُوبَةِ، وأصلُ ذلك مِنْ خَفَاءِ الأَمْرِ، ومن ذلك سُمِّي آخر الليلِ سَحَراً لِخَفَاءِ الشَّخْصِ بفَيْءِ ظُلْمَتِهِ، والسَّحْرُ: الرئةُ؛ سُميت بذلك لِخَفَاءِ أمْرِهَا بانْتِفَاخِهَا تَارَةً وَضُمُورِهَا أُخْرَى.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٠٤) عن ابن عباس، والأثر (١١٦٠٥) عن السدي.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٨٩) عن ابن عباس، والأثر (١١٥٩٠) عن مجاهد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾؛ قـال ابـنُ عبَّـاس: (كَانُوا سَبْعِيْنَ سَـاحِراً غَـيْرَ رَئِيْسِـهِمْ، وَكَـانَ اللَّـذان يُعَلِّمَانِـهِمْ مَجوسِيَّيْن مِـنْ أَهْـلِ نِيْنَوَى)[1]. وقال مُحمد بنُ إسحق: (كَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ سَاحِرٍ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَبْلٌ وَعَصَا)[2]. وقال كعبُ: (كَانُوا عِشْرِيْنَ أَلْفاً)[3]. وقال ابنُ المنكدر: (كَـانُوا ثَمَانِيْنَ أَلْفاً). وقال مقاتلُ: (كَانَ رَئِيْسُ السَّحَرَةِ شَمْعُونَ).

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾، فلما اجتمعُوا، ﴿ قَالُوٓاْ ﴾؛ لفرعـونَ: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾؛ أي جُعْلاً ومَـالاً؛ ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾؛ عندي في الْمَنْزِلَةِ. قال الكلبيُّ: (أيْ أوَّلُ مَـنْ يَدْخُلُ عَلَيَّ وَآخِرُ مَنْ يَخْرُجُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ أي قالَتِ السَّحَرَةِ: يَا مُوسَى! إمَّا أنْ تُلْقِيَ ما معكَ من العصَا، وَإمَّا أنْ نلقيَ نحـنُ مـا مَعَنَا من العِصِيِّ والحبال قبلَكَ. ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ﴾؛ ما معكـم مـن الحبـال والعصِـيِّ، ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ ﴾؛ ذلـــكَ؛ ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾؛ أي أخذوا بها أعْيُنَ النَّاسِ، واستَدْعَوا رَهْبَتَهُمْ حتى رَهِبَـهُمُ النـاسُ، ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾؛ في أعيُنِ النَّاسِ.

وكانوا قد جعلوا فيها الزِّئْبَقَ بعدَ أن صوَّرُوها بصورةِ الْحَيَّاتِ، فلَمَّـا أوقَفُوهـا في الشَّمْسِ اضطربت باضطراب ما فيها من الزِّئْبَقِ؛ لأنه لا يَسْتَقِرُّ؛ ومتَى يزدادُ مُكْثُـهُ في الشمسِ زادَتْ حركتهُ، وخُيِّلَ إلى موسَى أنَّ حبالَهم وعصيَّهُم حَيَّـاتٌ كمـا كـانت عصَا مُوسى عليه السلام.

فإن قِيْلَ: كيف يجوزُ مِن موسَى عليه السلام أن يأمرَهم بالإلْقَاءِ؛ وكان إلقـاؤُهم إرادةً منهم مُغَالَبَةَ موسى؛ وذلك كُفْرٌ؛ ولا يجـوزُ علـى الأنبيـاءِ أن يـأمرُوا بـالكفرِ؟ قِيْـلَ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٩٦).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٩٥).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٥٩٨).

معناهُ: ألقُوا إنْ كنتم مُحِقِّيْنَ على زعمِكم. ويجوزُ أن يكـون أمْرَهُـم بالإلقـاءِ لتـأكيدِ مُعْجِزَتِهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ؛ مـن يَـدِكَ؛ فألقاهَا؛ ﴿ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ ؛ أي تَلْتَقِمُ وتَبْتَلِعُ ما كانوا يكذّبونَ أنّها حَيَّاتٌ. والإفْكُ: الكَذِبُ. وقُرِئ: (تَلْقَفْ) بجزمِ الـلاَّمِ خفيفـة. وقـرأ سـعيدُ بـن جبيرٍ: (تَلْقَمُ).

قال ابن عبَّاس: (لَمَّا كَثُرَتْ حَيَّاتُهُمْ جَعَلَتْ عَصَـا مُوسَـى تَـزْدَادُ عِظَماً حَتَّـى سَدَّتِ الأُفُقَ، ثُمَّ فَتَحَتْ فَاهَا فَابْتَلَعَتْ جَمِيْعَ مَا أَلْقَوا مِنْ حِبَالِهِمْ وَعِصِيِّهِمْ، ثُمَّ هَوَتْ بذنبهَا فَعَلَّقَتْهُ برَأسِ قُبَّةِ فِرْعَوْنَ وَهُوَ فِيْهَا، وَفَتَحَتْ فَاهَا لِتَبْتَلِعَهُ، فَصَرَخَ إلَـى مُوسَـى، فَأَخَذَهَا فَإذا هِيَ عَصَا كَمَا كَانَتْ[1]).

ونَظَرَ السَّحَرَةُ فإذا حبالُهم وعصيُّهم قد ذهَبَتْ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ؛ أي ظَهَرَ الحقُّ وبَطَلَ ما كانوا يعملـون مـن السِّحْرِ، وقال النَّضِرُ بن شُمَيلٍ: (فَوَقَـعَ الْحَـقُّ) أي صَدَعَـهُمْ وأفْزَعَـهُمْ، ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ ؛ أي رجعُوا ذلِيْلِيْنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ؛ قـال الأخفـشُ: (مِنْ شِدَّةِ سُرْعَةِ سُجُودِهِمْ؛ كَأنَّهُمْ أُلْقُوا، وَقَدْ كَانُوا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ سُعَدَاءَ شُـهَدَاءَ). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ ؛ فقـال لَـهم فرعـونُ: إيَّـايَ تَعْنُونَ؟ قالوُا: ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ ؛ فَبُـهِتَ فِرْعَـوْنُ ونَـدِمَ علـى مـا نالَهم، فظهرَ للنَّاسِ إنَّهم آمَنُوا باللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ ؛ أي قـال لَـهم فرعون: أصَدَّقْتُمْ برَب مُوسَـى وهـارون قَبْـلَ أنْ آذنَ لَكُـمْ في الأيْمـان، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ ؛ أي إنَّ هذا لشيءٌ وَاطَأْتُمُوهُ عليـه حين يدَّعى النُّبُوَّةَ، ثم تظـهرونَ مخالفتَـه في ابتـداءِ الأمـرِ، حتـى إذا غَلَبَكُـمْ أظـهرتُم

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٠٦) عن ابن إسحق.

موافقتَهُ بعدَ ذلكَ. أرادَ فرعونُ بهذا القول أن يُمَوِّهَ على الناسِ؛ ليصرفَ وجوهَهُم إلى نفسهِ، ثم قال لِلسَّحَرَةِ: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ ؛ ماذا يَنْزِلُ بكم من النَّكَالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ ؛ أي لأُقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُمْ اليمنى وَأَرْجُلَكُمْ اليسرى مِنْ خِلافٍ، ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ على شاطئِ نَهر مِصْرَ على جُذُوعِ النَّخْلِ حتى تَموتُوا من الجوعِ والعطَشِ والألَمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ أي فقالَتِ السَّحَرَةُ: إنَّا لا نُبالِي مِن فِعْلِكَ وعقوبتِكَ، فإنَّ مَرْجِعَنَا إلى اللهِ يومَ القيامةِ، فإن الحياةَ وإن طالَتْ؛ فإنَّها تُختَمُ بالمماتِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ ؛ أي قالَتِ السَّحَرَةُ: ما تعيبُ علينَا ولا تنكرُ علينا إلا لأنَّا صَدَّقْنَا بعلاماتِ توحيدِ رَبِنَا؛ لَمَّا ظَهَرَ لنا أنَّ ذلكَ حقٌّ مِن اللهِ.

ثُم أُلْهِمُوا الدُّعاءَ فقالُوا: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ أي أصْبِبْ عَلَيْنَا صَبْرًا وأنزِلْهُ علينا؛ وَوَفِّقْنَا على الثَّباتِ على الإيْمان إلى وقتِ الوَفَاةِ. قال ابنُ عبَّاس: (فَأَخَذ فِرْعَوْنُ السَّحَرَةَ فَقَطَّعَهُمْ، ثُمَّ صَلَبَهُمْ عَلَى شَاطِئِ نِيلِ مِصْرَ، وَخَلَّى سَبِيْلَ مُوسَى وَهَارُونَ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُمَا)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ ؛ مِن القِبْطِ: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي أتَتْرُكُهُمْ ليغيِّرُوا عليكَ دينَكَ في أرض مِصْرَ ويدعُو الناس إلى مُخَالفَتِكَ؛ فينتقضَ بذلك أمرُكَ ومِلْكُكَ؛ ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ ؛ أي يَدَعَكَ ولا يعبدَكَ؛ ويدعَ أصنامَكَ التي أمَرْتَ بعبادتِها.

قال الحسنُ: (كَانَ فِرْعَونُ يَسْتَعْبِدُ النَّاسَ وَيَعْبُدُ الأَصْنَامَ بنَفْسِهِ)(٢). وقالَ السُّدِّيُّ: (كَانَ يَعْبُدُ هُوَ مَا اسْتَحْسَنَ مِنَ الْبَقَرِ، وَمِنْهُ أخَذَ السَّامِرِيُّ عِبَادَةَ الْبَقَرِ)(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦١٥) عن السدي وابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٢١).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٢٠).

وَقِيْلَ: كان فرعونُ قد صَنَعَ أصناماً صِغَاراً، وأمرَ قومَه بعبادتِها، وقالَ: أنــا رَبُّ هــذهِ الأصْنَامِ الأعْلَى، وهم أربَابُكم.

وقرأ الحسن: (وَمَا تَنقَمُ) بفتحِ القَافِ لُغتان، قال الضَّحاكُ: (مَعْنَاهُ: وَمَا تَطْغَــى عَلَيْنَا). وقال عطاءُ: (مَا لَنَا عِنْدَكَ مِنْ ذنْبٍ تُعَذِّبُنَا عَلَيْهِ إلاَّ أنْ آمَنَّا بآيَاتِ رَبنَــا). وقــرأ الحسنُ: (وَيَذرُكَ) بالرَّفعِ عطفاً على (أتَذرُ). وقرأ ابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ والضحَّاك: (وَآلِهَتُكَ) أي عبادَتُك، فلا يعبدُك.

وَقِيْلَ: أرادَ بالآلِهَةِ الشَّمْسُ، وكان فرعونُ وقومُه يعبدونَها. وقال ابــنُ عبَّــاس: (كَانَ لِفِرْعَوْنَ بَقَرَةٌ يَعْبُدُهَا، وَكَانُوا إذا رَأوْا بَقَرَةً حَسْنَاءَ أمَرَهُمْ أنْ يَعْبُدُوهَــا، فَكَذلِــكَ أخْرَجَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ عِجْلاً). ورُوِيَ: أنه قِيْلَ للحسَنِ: هَلْ كَانَ فِرْعَــوْنُ يَعْبُــدُ شَــيْئاً؟ قَالَ: (نَعَمْ؛ كَانَ يَعْبُد تَيْساً).

قَوْلُهُ تَعَــالَى: ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ ؛ أي قــال فرعــونُ: سنعودُ إلى قَتْلِ أبنائِهم واستخدام نسائِهم عقوبةً لهُ كما كُنَّا نفعلُ وقتَ ولادةِ مُوسَى. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ ؛ أي مُسْتَعْلُونَ عليهم بالقُوَّةِ.

فَشَكَتْ بَنُو إسرائيلَ إلى موسَــى فـــ، ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ ؛ أي استيعنُوا باللهِ على دفعِ بلاء فرعونَ عنكم، واصبرُوا على دِينكم، ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ التي أنتُمْ فيها؛ ﴿ لِلَّهِ يُورِثُهَا ﴾ ؛ أي يُسْــكِنُهَا، ﴿ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ؛ فيورثُكــم هــذه الأرضَ بعــد إهــلاكِ فرعــون وقومـــهِ، ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ أي آخــرُ الأمــر للذيــن يَتَّقُــونَ اللهَ. وَقِيْــلَ: أرادَ بالعاقبةِ الجنةَ في الآخرة. وَقِيْلَ: النصرَ والظَّفَرَ. وَقِيْلَ: السعادة والشهادةَ.

قَوْلُــهُ تَعَـــالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ فِرْعَوْنَ عَادَ إلَى قَتْلِ أبْنَائِهِمْ، وَزَادَ فِي إتْعَابهِمْ فِي الْعَمَــلِ، إذْ كَانَ يَسْتَعْمِلُهُمْ قَبْلَ مَجِيْءِ مُوسَى بضَرْب اللَّبنِ وَالْبنَاءِ، فَلَمَّا أتَاهُمْ مُوسَى غَضِــبَ وَكَلَّفَهُمْ أيْضاً أشَدَّ مِنْ ذلِكَ).

قال وهبُ: (جَعَلَهُمْ أصْنَافاً فِي خِدْمَتِهِ: قَوْمٌ يَحْمِلُونَ السَّوَاري مِنَ الْجِبَالِ؛ وَقَدْ قُرِحَتْ أعْنَاقُهُمْ وَعَوَاتِقُهُمْ وَدَبَرَتْ ظُهُورُهُمْ مِنْ ثِقَلِ ذلِكَ، وَقَوْمٌ قَدْ جُرِحُوا مِنْ ثِقْلِ الْحِجَارَةِ وَالطِّيْنِ لِلْبنَاءِ، وَقَوْمٌ يَبْنُونَ الطِّيْنَ وَيَطْبخُونَ الآجُرَّ، وَقَوْمٌ نَجَّارُونَ، وَقَوْمٌ حَدَّادُونَ. وَأمَّا الضُّعَفَاءُ الَّذِيْنَ لاَ يُطِيْقُونَ الْعَمَلَ؛ فَجَعَلَ عَلَيْهِمُ الْخَرَاجَ يُؤَدُّونَهُ كُلَّ يَوْمٍ، فَمَنْ خَرَجَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ قَبْلَ أنْ يُؤَدِّيَ غُلَّتْ يَمِيْنُهُ إلَى عُنُقِهِ. وَأمَّا النِّسَاءُ فَيَغْزِلْنَ الْكِتَّانَ وَيَنْسِجْنَهُ).

فلما شَكَوا إلى موسى (قَالُوا: أوذِينَا مِنْ قَبْلِ أنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا)، ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ ؛ يعني فرعونَ وقومه، ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي ويجعلَ لكم سَكَناً في أرضِ مصرَ مِن بعدهم. و(عَسَى) كلمةُ إطماعٍ وما أطمعَ اللهُ فيه فهو واجبٌ؛ لأن الكريمَ إذا أطمعَ وإذا وَعَدَ وفَّى، فيصيرُ كأنهُ أوْجَبَهُ على نفسهِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ) ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ ؛ أي فيَرَى عملَكم كيفَ تشكرون صُنْعَهُ، كأنهُ قال: وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ؛ لكي تعملوا بطاعةِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ ؛ أي أخذْنَا قومَ فرعون وأهلِ دِينه بالجوعِ عاماً بعد عامٍ إلى تسعةِ أعوام. وآلُ الرَّجُلِ: خَاصَّتُهُ الَّذِيْنَ يَؤُولُ أمْرُهُ إلَيْهِمْ؛ وَأمْرُهُمْ إلَيْهِ. والسُّنُونُ في كلام العرب: الْجَدْبُ؛ يقال: مَسَّتْهُمُ السُّنُونُ؛ أي الْجَدْبُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ؛أي زيادةٍ في القَحْطِ؛ لأن الثمارَ قوتُ الناس وغذاؤهم، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ ؛ أي لكي يَتَّعِظُوا فَيُؤْمِنُوا، فلم يتَّعظوا. وَقِيْلَ: أراد بقوله: (وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ) الغَلاَءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ ؛ أي إذا جاءَهم الْخِصْبُ والخيرُ قالوا: نحنُ أهلٌ لِهذه الحسنةِ وأحقُّ بها، فمِنْ عادةِ بلادِنا أنَّها تأتِي بالسَّعة والْخِصْب. ولَم يَرَوا ذلك مَنّاً وتفضُّلاً من الله، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ ؛ جُدُوبَةٌ وقحطٌ وبلاء وشدَّةٌ؛ ﴿ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ ؛ أي يَتَشَاءَمُوا بموسى

وأصحابهِ؛ فقالوا: أصابنا هذا البلاءُ من شُؤْمِ هؤلاء. والطِّيْرَةُ في اللغة: الشّأمَةُ كما روي [أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُحِبُّ الْفَأْلَ وَيَكْرَهُ الطِّيْرَةَ][1].

والأصلُ في هذا: أن العربَ كانوا يتفاءلون بالطَّيرِ؛ فإن جاءَهم طائرٌ من جهة اليمينِ وهو السَّانحُ[2]؛ تَبرَّكُوا به، وإن جاءهم من جهة الشِّمال وهو البَارحُ يتشاءَموا به، ثُم كَثُرَ قولُهم في الطيرِ حتى استعملوهُ في كلِّ ما تشاءموا به. ومعنى الآيةِ: (يَطَّيَّرُوا بمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ) أي تَشَاءَمُوا بهم وقالوا: ما أصابنا بلاءٌ حتى رأيناكم.

وقرأ طلحة (تَطَيَّرُوا) بالتاءِ وتخفيف الطَّاء على الفعل الماضي، قال سعيدُ بن جبير: (كَانَ مُلْكُ فِرْعَوْنَ أرْبَعَمِائَةِ سَنَةٍ، فَعَاشَ ثلاثَمِائَةَ سَنَةٍ لاَ يَرَى مَكْرُوهاً، وَلَوْ رَأى فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ جُوعَ يَوْمٍ، أوْ حُمَّى يَوْمٍ، أوْ وَجَعَ سَاعَةٍ لَمَا ادَّعَى الرُّبُوبيَّةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناه: الذي أصابَهم من الخصب والجدب والخير والشرّ كلُّ ذلك من عند اللهِ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ ؛ أنهُ أصابَهم من عند الله. وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: ألاَ إنَّمَا مُصَابُهُمْ عِنْدَ اللهِ). وقال ابنُ جُريجٍ: (الأَمْرُ كُلُّهُ مِنْ قِبَلِ اللهِ).

وَقِيْلَ: معناهُ: ألاَ إنَّما الشؤمُ الذي يلحَقُكم هو الذي وُعدوا به في الآخرةِ لا ما نالَهم من الدُّنيا، فإن القحطَ الذي هم فيه قليلٌ في جنب عقوبةِ الآخرة. وقرأ الحسنُ: (ألاَ إنَّمَا طَيْرُهُمْ عِنْدَ اللهِ) بغيرِ الألف، والمعنى واحدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ ؛ قال الخليلُ: (أصْلُ (مَهْمَا): مَأْمَا ، أبْدِلَتِ الألِفُ الأوْلَى هَآء لِتَخْفِيْفِ اللَّفْظِ). وقال بعضُهم: معنى (مَهْ): أكْفُفْ، ثُم قال: (مَا تَأْتِنَا بِهِ) بمعنى الشرطِ؛ أي ما تأتنا به من علامةٍ يا موسى (لِتَسْحَرَنَا بهَا) أي لِتوهِمَنَا أنّها الحقُّ، ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ أي بمصدِّقين بالرسالةِ.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٣٢ عن أبي هريرة ﷺ.
(٢) في المخطوط: (الصائح).

وكان مُوسَى التَلِيْكَلا رجُلاً حديداً، فدعَا عليهم؛ فأرسلَ عليهم الطوفانَ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ﴾ ؛ اختلفوا في الطُّوفَان ما هو؟ قال الضَّحاك: (الغَرَقُ). وقال عطاءُ ومجاهد: (الْمَوْتُ الْغَالِبُ الشَّائِعُ)[(١)]. وقال وهبُ: (الطُّوفَان: هُوَ الطَّاعُونُ بلُغَةِ أهْلِ الْيَمَنِ). وقال أبو قُلابة: (هُوَ الْجُدَرِيُّ؛ وَهُمْ أوَّلُ مَنْ عُذِّبوا بهِ، وَبَقِيَ فِي النَّاسِ إلَى الآنَ). وقال الأخفشُ: (هُوَ السَّيْلُ الشَّدِيْدُ). وقال مقاتلُ: (هُوَ الْمَاءُ طَغَى فَوْقَ حُرُوثِهِمْ).

وقال بعضُهم: هو كثرةُ المطرِ والريح. والأظهرُ ما قالَهُ ابنُ عبَّاس: (أنَّهُ الْمَطَرُ الدَّائِمُ، أرْسَلَ اللهُ الْمَطَرَ عَلَيْهِمْ لَيْلاً وَنَهَاراً مِنَ السَّبْتِ إلَى السَّبْتِ، حَتَّى خَرَبَتْ أبْنِيَتُهُمْ، وَكَادَ أنْ يَصِيْرَ الْمَطَرُ بَحْراً، فَخَافُوا الْغَرَقَ).

قال ابنُ عبَّاس وسعيدُ بن جبير وقَتادةُ[(٢)]: (لَمَّا آمنتِ السَّحَرَةُ واغْتُلِبَ فرعونُ، وأبَى هو وقومهُ إلا الإقامةَ على الكفرِ والتَّمادي في الشرِّ، أخذهم اللهُ بالسِّنين، ونقصٍ من الثمرات، فلما عالَجهم موسى بالآياتِ الأربع: العَصَا؛ واليدِ؛ والسِّنين؛ ونقصٍ من الثَّمراتِ، دعَا فقالَ: يَا رَب! إنَّ عَبْدَكَ فرعونَ علاَ في الأرضِ وبَغَى وعَتَى، وإن قومَهُ قد نقضوا عهدكَ وأخلفوا وعدكَ، ربي فَخُذْهُمْ بعقوبةٍ تجعلُها لَهم نقمةً ولقومي عِظَةً ولِمن بعدهم من الأمم عبرةً.

فبعثَ اللهُ عليهم الطوفانَ؛ وهو الماءُ أرسله عليهم من السَّماء حتى كادوا يهلَكُون، وبيوتُ بني إسرائيلَ وبيوتُ القِبْطِ مشبكةٌ مختلطة بعضُها ببعضٍ، فامتلأت بيوتُ القِبْطِ ماءً حتى قاموا في الماءِ إلى تراقيهم مَن جَلَسَ منهم غَرِقَ، ولَم يدخلْ بيوتَ بني إسرائيل من الماءِ قطرةٌ واحدة، فأقامَ ذلك عليهم سبعةَ أيَّام.

فقالوا: يا موسَى! ادْعُ لنا ربَّكَ يكشف عنا المطرَ، فنؤمنَ بك ونُرْسِلَ معك بني إسرائيل. فدعا رَبَّهُ فكشفَ عنهم ذلك، وأرسلَ الريح فجفَّفت الأرض، وخرجَ من

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٤٧).

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٥٩) عن سعيد، والأثر(١١٦٦٢).

النباتِ شيءٌ لَم يَرَوْا مثله، فقالوا: هذا الذي كُنَّا نَتَمَنَّاهُ، ومَا كان هـذا الماءُ إلا نعمةً علينا وخصباً، فلا واللهِ لا نؤمنُ بكَ يا موسى، ولا نرسلُ معكَ بني إسرائيل.

فنَقَضُوا العهدَ، وعَصَوا ربَّهم واقاموا على كفرهم شهراً، فبعثَ اللهُ عليهم الجرادَ، وغَشِيَ مصرَ منه أمرٌ عظيم حالَ بينهم وبين الماءِ وغَطَّى الشمسَ؛ ووقعَ على الأرضِ بعضُه على بعضٍ ذراعاً، فأكَلَ جميعَ ما ينبتُ في الأرض؛ وأكلَ الأشجارَ؛ حتى أكلَ الأبوابَ وسُقُوفَ البيوتِ والخشب والثياب والأمتعةَ؛ حتى مساميرَ الحديدِ، ولَم يدخل بيوتَ بني إسرائيل منه شيءٌ، فعجَّلُوا إلى موسى و؛ ﴿قَالُوا﴾: يا أيُّها الساحر! ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وأرادوا بالساحرِ العالِم يُعَظِّمُونَهُ.

فدعَا موسى رَبَّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ الجرادَ بعدَ أن أقامَ في أرضِهم سبعة أيام فلم يَبْقَ في الأرضِ جرادةٌ واحدة، ثُم نظروا فإذا في بعضِ المواضع من نواحي مصر بقيَّةٌ من كَلأ وزرعٍ، فقالوا: هذا يكفينا بقيَّةَ عامِنا هذا، فلا واللهِ لا نؤمنُ لكَ يا موسى ولا نرسلُ معك بني إسرائيل، فأرسلَ الله عليهم القُمَّلَ؛ وهم صِغَارُ الجرادِ يقال له الدباء. وَقِيْلَ: أرسلَ الله عليهم سُوسَ الحنطةِ، فمكثَ في أرضهم سبعةَ أيام، فلم يُبْقِ لَهم عُوداً خضراً إلا أكلَهُ، ولَحَسَ جميعَ ما بقي في أرضِهم.

وقال سعيدُ بن جبير: (الْقُمَّلُ: هو السُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحُبُوب)(١). يقال: إنَّ موسى عليه السلام أتى إلى كثيبٍ من كثب قُرَى مصرَ، وكان كثيباً أهْيَلَ عظيماً، فَضَرَبَهُ بعصاهُ، فانبعثَ قملاً، فأكلَ جميعَ ما على الأرضِ حتى لَحَسَهَا، وكان يدخلُ بين ثيابهم وجلودِهم، فينهشُهم ويأكلُ أشعارَهم وحواجِبَهم وأشعارَ عيونِهم، ومنعَهُم النومَ والقرارَ، وظهر بهم منه الْجُدَرِي، وكان أحدُهم لا يأكلُ لقمةً إلا مملوءة قملاً. فصَرَخُوا إلى موسى: أدعُ لنا رَبَّكَ في هذه المرَّة، ونعطيكَ عهودا ومواثيقَ لَنُؤْمِنَنَّ لكَ ولنرسلنَّ معكَ بني إسرائيل.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٤٩) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

فدعا رَبَّهُ فكشفَ عنهم بعد أن أقامَ سبعة أيام، ثُم قالوا: وما عَسَى ربُّكَ أن يفعلَ بنا وقد أهلكَ كلَّ شيءٍ من نبات أرضنا، فعلى أيِّ شيءٍ نؤمنُ بك؟ إذهب فما استطعتَ أن تفعله فافعلْهُ! فدعا عليهم موسى، فأرسلَ الله عليهم الضَّفَادِعَ، خرجت عليهم من البَحْرِ مثل اللَّيْلِ الدامسِ، فملأتْ بيوتَهم وطُرُقَهُمْ وأطعمتَهم، فلا يكشفُ أحدُهم طعاماً ولا شراباً إلا وَجَدَ فيه الضَّفادعَ.

وكان الرجلُ إذا جلسَ تراكبت عليه الضفادعُ حتى يكون إلى فمهِ، فإذا هَمَّ أن يتكلَّم وَثَبَتِ الضفدعُ إلى فمهِ فانشدخت، وكان أحدُهم إذا اضطجعَ تراكب عليه حتى يكونوا رُكاماً فوق الذراعِ بعضه على بعض، حتى لا يستطيعَ أن ينقلبَ إلى جنبٍ آخر، ولا يقدرُ على القيام، وكان إذا فَتَحَ أحدُهم فَمَهُ ليأكلَ لقمةً وَثَبَتِ الضفدعُ في فمهِ فسبقت اللقمةَ، وكانوا لا يوقدون ناراً إلا امتلأت ضفادعَ، وكان بعضُهم لا يسمعُ كلامَ بعض من كثرةِ صُراخِ الضفادع، وكانوا إذا قَتَلُوا واحداً منها جَافَ ما حولَهُ حتى لا يستطيعون الجلوسَ فيه).

قال عكرمة وابن عباس: (كانت الضفادعُ بَرِّيَّةً، فلما أرسلَها اللهُ على قومِ فرعون سَمعت وأطاعت، فجعلت تقذفُ نفسَها في القِدْر وهي تَغْلِي، وفي التَّنانيرِ وهي تفورُ، فأثابَها اللهُ بحسن طاعتها بالماء، فلما ضاقتِ الأرضُ على قوم فرعون، عَجُّوا وشَكَوا إلى موسى وَبَكَوا؛ وقالوا: يا موسى! هذه المرةَ نتوبُ ولا نعودُ، ونحلف لك لئن دفعتَ عنا هذه الضفادعَ لنؤمننَّ لك، فأخذ عهودَهم ومواثيقهم، ثُم دعا رَبَّهُ فكشفَها عنهم بريحٍ عظيمة نبذتْها في البحرِ، فقال لَهم موسى: وَيْحَكُمْ ! أي لِمَ تُسْخِطُونَ رَبَّكُمْ، أرسِلُوا معي بني إسرائيلَ.

فأَبَوا ونقضوا العهودَ والمواثيق وعادوا لكُفْرهم وتكذيبهم، فدعا عليهم، فأرسلَ اللهُ عليهم الدَّمَ، فَجَرَتْ أنْهارُهم وآبارُهم دماً أحمر عبيطاً، وبنو إسرائيلَ في الماءِ العَذْب الطيِّب، وكان الإسرائيليُّ يستسقي ماءً عذباً صافياً، فإذا أخذهُ القبطيُّ تحوَّلَ دماً، وكانت القبطيَّةُ تقولُ للإسرائيليَّة: مُجِّي الماءَ من فمكِ إلى فمي، فكانت تَمُجُّهُ في فمِها فيصيرُ في فمِ القبطيَّة دماً عبيطاً.

وكان فرعونُ يجمع بين الرَّجُلين على الإناءِ الواحد؛ القبْطِيُّ والإسرائيليُّ، فيكون مما يلِي الإسرائيليَّ ماءً، ومما يلي القبطيَّ دمٌ، وكانا يستقيان من جَرَّةٍ واحدة، فيخرجُ للإسرائيليِّ ماءٌ عذبٌ زُلالٌ صافٍ، ويخرجُ للقبطي دمٌ عَبيطٌ. وكان النيلُ ماؤه طيِّباً، فإذا أخذهُ القبطيُّ عادَ في إنائه وفي فَمِهِ دماً.

فمكثُوا على هذا سبعةَ أيام لا يشربونَ إلا الدَّم؛ حتى ماتَ كثيرٌ منهم، ثُم إن فرعونَ أجْهَدَهُ العطشُ واشتدَّ به، فيأتون بأوراقِ الأشجار الرطبة، فيمصُّها فتصيرُ دماً عبيطاً ومِلْحاً أجَاجاً، فكانوا لا يأكلونَ إلا الدَّمَ، ولا يشربون إلا الدمَ، فقال فرعونُ: أقْسِمُ بإلَهكَ يا موسى! لئن كَشَفْتَ عنا الدَّمَ لنؤمنَنَّ لكَ. فدعا موسى ربَّهُ، فأذهبَ عنهم الدمَ، وعَذُبَ ماؤُهم، فعادوا لكفرهم إلى أن كان من أمرِ الغَرَقِ ما كانَ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ ؛ أي دلالاتٍ واضحاتٍ بعضُها منفصلٌ من بعض، كلُّ آيةٍ من السَّبتِ إلى السبت، وبين كلِّ آيتين شهرٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ ؛ أي مُقِيْمِيْنَ على كفرِهم، فمكثَ موسى في آلِ فرعون بعدما غلبَ السحرةَ عشرين سنة يُرِيْهِمُ الآياتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ؛ معناه: وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ العذابُ الذي تقدَّم ذِكرُهُ من الطُّوفان وغيره. وقال عكرمةُ: (الرِّجْزُ: الدَّمُ؛ لأنَّهُ نَغَّصَ عَيْشَهُمْ). وقال ابنُ جُبير: (هُوَ الطَّاعُونُ).

وَذلِكَ أنَّ مُوسَى أرَى قومَهُ وبني إسرائيل من بعد ما جاءَ قومَ فرعون بالآيات الخمسِ: الطوفانُ وغيره، فلم يؤمِنُوا ولَم يرسلوا معهُ بني إسرائيل، فأرسلَ عليهم الطاعونَ، فهَلَكَ منهم سبعون ألفاً، فقال فرعونُ عند ذلك: (يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ) أي بما تقدمَ به إليك أنه يجيبُ دعاءَك إذا دعوته كما أجابَ دعاءك في إنزالِ هذه الآيات، ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ ؛ أي هذا الطاعونَ. وقرأ سعيد بن جبير ومجاهدُ: (الرُّجْزَ) وهما لغتان كالعَصْو والعُصْو. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ ؛ أي لنصدِّقنَّك، ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ ؛ أي لَنُطْلِقَنَّهُمْ من التسخيرِ والأعمالِ الشاقَّة.

(١) أخرج الطبري هذه المأثورات في (١١٦٥٩-١١٦٧٣).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ ﴾ ؛ أي العـذابَ، ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ ﴾ ؛ وهو الوقتُ الـذي عَلِمَ اللهُ مـن حالِـهم أن صـلاحَ غـيرِهم مقالهم إلى ذلك الوقت؛ يعني وقتَ الغرق، وقولهُ تعالى: ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ يعني ينكثونَ العهدَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ؛ وذلكَ أن الله تعالَى أمَرَ موسى أن يَخْرُجَ ببني إسرائيلَ، فاستعارَ نسوةُ بني إسرائيلَ من نساءِ آل فرعون حُلِيَّهُمْ، وقُلْنَ: إن لنا خروجاً إلى عيدٍ. فخرجَ موسَى ببني إسرائيل في أوَّل الليل، وهم ستمائة ألفٍ من رجلٍ وامرأة وصبيٍّ، فبلغَ الخبرُ فرعونَ، فرَكِبَ ومعه ألفَا ألفٍ ومائتا ألفٍ، فأدرَكَهم فرعـونُ حـين طلعـتِ الشـمسُ، وانتـهى موسـى إلى البحرِ، فضربَ البحرَ؛ فانفلقَ اثنا عشر طريقاً، وكانت بنو إسرائيلَ اثنـا عشـر سِـبْطاً، فعَبَرَ كلُّ سِبْطٍ طريقاً.

فأقبلَ فرعونُ ومَن معهُ، فدخلوا بعدَهم من حيثُ دخلوا، فلما صارُوا جميعاً في البحرِ، أمرَ الله البحرَ فالتطمَ عليهم فغَرِقُـوا، فقـالَ بنـو إسـرائيلَ لِموسـى أنْ يُرِيَـهُمْ فرعونَ، فدعا رَبَّهُ فلفظَهُم البحرُ ولَفَظَ فرعونَ، فنظروا إليه وإلَى مَن معهُ، فـلا يقبـلُ الماءُ غريقاً بعد ذلك أبداً، ورجعَ موسى ببني إسرائيلَ، فسكنُوا الأرضَ أرضَ مصر.

ومعنى قوله: (فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ) أي في البحرِ بلسان العبرانيَّة. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (بأَنَّهُمْ كَذبُوا بآيَاتِنَا) أي بتكذيبهم الآياتِ التِّسْعِ التي أتاهم بها موسى: اليدُ؛ والعصـا؛ والسُّنونُ؛ ونقصُ الثمرات؛ والطوفان؛ والجرادُ؛ والقمـلُ؛ والضفـادعُ؛ والـدمُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ ؛ أي عاقبنـاهم بتعرُّضِـهم لأسـباب الغفلة.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ ﴾ التي كانُوا فيها، ﴿ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾ ؛ معناه: أوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِيـنَ كـانُوا يسـتضعفونَهم القِبْطُ؛ وهم بنو إسرائيل مَشَارقَ الأَرْضِ التي كانوا فيها ومَغَاربَهَا. وقِيْـلَ: أراد بـهذه الأرضِ الأرضَ المقدسة: الأردنُّ وفلسطينَ، ﴿ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ ؛ بـاركَ الله فيهـا

بكثرةِ المياه والأشجار والثِّمار، قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ الْمِيَاهَ كُلَّهَا تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ الصَّخْرَةِ الَّتِي بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ؛ أي وتَمَّتْ عِدَّةُ ربكَ؛ يعني قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَنُرِيدُ أنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾(١) وقوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾(٢). قال ابنُ عبَّاس: (فَأَهْلَكَ اللهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، وَأوْرَثَهُمْ أرْضَ مِصْرَ وَالشَّامَ). وقولهُ: ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ ؛ أي بصبرِهم على دِينهم أن يرجعوا إلى دِين فرعون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴾ ؛ من المكائدِ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ ؛ أي وما كانوا يَبْنُونَ مِن البيوت والقصور والكروم والشَّجر، ويستخدمون بني إسرائيلَ في بنائِها ورَفْعِهَا. قرأ ابنُ عامرٍ وأبو بكر: (يَعْرُشُونَ) بضمِّ الراء، وهما لُغتان فصيحتان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾ ؛ أي أمرناهم بمجاوزتِه ويسَّرناهُ عليهم حين خلفوا البحرَ وراءهم على سلامةٍ، وذلك من أعظمِ نِعَمِ اللهِ تعالى، ﴿ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ ؛ أي يعبدون ويُوَاظِبُونَ على عبادةِ أصنام لَهم؛ وهم أهلُ الرِّقةِ؛ أُناسٌ كفروا بعدَ إبراهيم؛ مَرَّتْ بهم بنو إسرائيل وهم قعودٌ حولَ أصنامِهم، ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا ﴾ ؛ نعبدهُ، ﴿ كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ ؛ يعبدونَها.

وفي هذا بيانُ غايةِ جَهْلِهِمْ وعِنادِهم، فإن اللهَ خَلَّصَهُمْ من عدوِّهم ونَجَّاهم من الغرقِ، وقالوا هذا القولَ حين رأوا هؤلاء القومَ يعبدون الأصنامَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لَهم موسى: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ ؛ صفاتَ اللهِ وما يجوزُ عليه وما لا يجوزُ؛ أي لا يعرفون أن الذي يُتَّخَذُ إلَهاً هو خالقُ الأجسام. ثُم بَيَّنَ أن هؤلاء سيهلكون ويُهلَكُ ما يعبدونه فقال: قَالَ اللهُ تَعَالَى:

---

(١) القصص / ٥.

(٢) الأعراف / ١٢٩.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمۡ فِيهِ ﴾ ؛ أي مُهْلَكٌ ما هم فيه؛ ﴿ وَبَٰطِلٌ ﴾ ؛ وضَلالٌ؛ ﴿ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ ﴾ ، والتَّبَارُ: هو الهلاكُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهًا ﴾ ؛ أي قالَ لَهم: أسِوَى اللهِ أطلبُ لكم ربّاً تعبدونَهُ، ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ ﴾ ، عالَمي زمَانِكم من القِبْطِ وغيرِهم بعدَ ما كُنتم مستعبدِين أذِلَّاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ أي يُوَلُّونكُمْ سُوءَ العذاب ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ ﴾ ؛ أي يَذبَحونَهم ﴿ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ ﴾ ؛ أي يَستَبْقُونَهُمْ للاستخدامِ، ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٌ ١٤١ ﴾ ؛ قرأ حمزةُ والكسائي: (يَعْكِفُونَ) بكسرِ الكاف والباقون بضمِّها وهما لُغتان. وقرأ أهلُ الشَّام (وَإِذْ أنْجَاكُمْ مِنْ آل فِرْعَوْنَ). وقرأ الباقونَ على التكثير (أنْجَيْنَاكُمْ). وقوله تعالى: (يُقَتِّلُونَ أبْنَاءَكُمْ) قرأ نافعُ بالتخفيفِ، وقرأ الباقونَ بالتشديدِ على التَّكثيرِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٍ ﴾ ؛ قال مجاهدُ: (كَانَ اللهُ وَعَدَ مُوسَى أنْ يُعْطِيَهُ التَّوْرَاةَ لِثلاَثِينَ لَيْلَةً؛ يَعْنِي ذا الْقَعْدَةِ وَعَشْراً مِن ذِي الْحِجَّةِ، كَأَنَّهُ قَالَ شَهْراً وَعَشْرَةَ أيَّام)(١).

وقال بعضُهم: أمَرَ اللهُ موسى إلى موضعٍ بَيَّنَهُ له أن يعبدَهُ في ذلك الموضعِ ثلاثين يوماً، يصُومُ النهارَ ويقومُ الليلَ؛ لينزل عليه التوراةُ، فلمَّا صامَ ثلاثين أنْكَرَ خُلُوفَ فَمِهِ، فاسْتَاكَ بعُودِ خَرْنُوبٍ، فقالتِ الملائكةُ: كنا نستنشقُ منك رائحةَ الْمِسْكِ فأفسَدْتَهُ بالسِّواك، فأمَرَهُ اللهُ أنْ يصومَ عشراً بعد ذلكَ الْخُلُوفِ، فذلك قولُهُ (وَأتْمَمْنَاهَا بعَشْرٍ). وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً ﴾ ؛ أي تَمَّ الوقتُ الذي أمَرَ اللهُ بالعبادة فيهِ أربعينَ ليلةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي ﴾ ؛ أي قالَ مُوسَى لهارون قَبْلَ انطلاقهِ إلى الجبلِ الذي أمر بالعبادةِ فيه: قُمْ مَقَامِي فِي قَوْمِي،

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٦٩٦) بأسانيد، والأثر (١١٦٩٨) وفيه قال ابن جريج: قال ابن عباس مثله.

﴿ وَأَصۡلِحۡ ﴾ ؛ فيما بينهم، ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ منهم، ولا ترضَ بعملِهم، وذلك أنَّ موسى كان يشاهدُ كثرةَ خلافِهم حالاً بعد حال، فأوصاهُ في أمرهم. ومن قرأ (هَارُونُ) بالرفعِ فمعناهُ: قال هارونُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ ؛ أي لَمَّا انتهى موسى إلى المكانِ الذي وقَّتْنا له، وأمرناهُ بالسَّيرِ إليه وهو مَدْيَنُ، وقولهُ تعالى: (وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) أي كَلَّمَهُ من غيرِ تَرجُمان ولا سفيرٍ، كما كَلَّمَ الأنبياءَ على ألْسِنَةِ الملائكةِ.

فلما نَاجَاهُ رَبُّهُ استحلَى كلامَهُ، واشتاقَ إلى رُؤية ربهِ وطَمِعَ فيها، فـ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ ؛ أي اعطِني أنظرْ إليكَ، ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ ؛ ولستَ تطيقُ النظرَ إلَيَّ في الدُّنيا، فمَن نظرَ إلَيَّ ماتَ، فقال: إني سمعتُ كلامَكَ واشتقتُ إلى رُؤيتِكَ، ولأَنْ أنظُرْ إليك ثم أموتُ أحَبُّ إلَيَّ مِن أنْ أعيشَ ولا أراكَ، فقال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ ﴾ ؛ أي إلى أعظمِ جَبَلٍ لِمَدْيَنَ وهو جبلُ زُبَير، ﴿ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ ﴾ ؛ أي ظهرَ له من نورِهِ ما شاءَ، ويقالُ ألقَى عليه نُوراً من الأنوار، ﴿ جَعَلَهُۥ دَكّٗا ﴾ ؛ أي كَسَّرَهُ جِبالاً صِغَاراً، تقطَّعَ الجبلُ من هيبةِ الله عَزَّ وَجَلَّ، فصارَ ثَماني فِرَقٍ، أربعُ قِطَعٍ منه وقعنَ بمكَّة: ثَورٌ وثَبِيْرٌ وحِرَاءُ وغَارُ ثَوْر، وأربعُ قِطَعٍ وقَعن بالمدينةِ: أُحُدُ ووَرْوَقُ وَرَضْوَى وَالْمِهْرَاسُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾ ؛ أي سَقَطَ مَغْشِيّاً عليه، ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ مِن غَشْيَتِهِ، ﴿ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ ؛ أي تَنْزيهاً لكَ مِن قَولِي ومِن كلِّ سُوءٍ، ﴿ تُبۡتُ إِلَيۡكَ ﴾ ؛ مِن مسألَتِي للرُّؤية، ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ من أهلِ هذا الزَّمان إنك لا تُرى في الدُّنيا.

وقال الحسنُ: (قَالَ اللهُ تَعَالَى لِمُوسَى: أعْرِضُ رُؤيَتِي عَلَى الْجَبَلِ، فَإنْ لَمْ يَحْمِلْهَا مَعَ عِظَمِهِ وَبَقَائِهِ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ، فَأَنْتَ أيْضاً لاَ تَحْمِلُهَا)[1]. قال: (مَعْنَى قَوْلِهِ

(١) في الدر المنثور: ج ٣ ص٥٤٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس... وذكره)).

(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ) أيْ أوْحَى رَبُّهُ). قَالَ: (وَمَا رَأى مُوسَى رَبَّهُ قَطْ، وَلَكِنْ أوْحَى اللهُ إلَى الْجَبَلِ هَلْ تُطِيقُ رُؤْيَتِي، فَسَاخَ الْجَبَلُ وَمُوسَى يَنْظُرُ)[1].

وَقِيْلَ: إنَّ اللهَ تعالى أبرزَ من العرشِ مقداراً الظُّفُرِ فتَدَكْدَكَ الجبلُ؛ لأن أجسامَ الدُّنيا لا تحتملُ آياتَ القيامة والأجسامَ العُلويَّة، إذ من حُكمِ الدُّنيا أن تفنَى بآياتِ القيامةِ، فلا تحتَملُها الدُّنيا.

وقرأ بعضُهم (دَكَّاءَ) بالهمزِ والمدِّ؛ أي طَارَ أعلى الجبلِ وبقِيَ أسفلهُ دَكّاً، والدَّكَّاُ واحدُ الدَّكَوَاتِ؛ وهي رَوابي الأرضِ التي تكونُ ناشزةً لا تبلغُ أن تكون جَبلاً، وناقَةٌ دَكَّاء اذا لم يكن لها سَنَامٌ. ويحتملُ أن يكون معنى الدَّكِّ دَقُّ الجبلِ على الأرضِ، يقال دَكْدَكْتُ الشيءَ اذا دَقَقْتُهُ. وقرأ عاصمُ (دَكّاً) هَهُنا بالقصرِ والتنوين، والتي في الكهفِ بالمدِّ من غير تنوينٍ، ومدَّهُما حمزةُ والكسائيُّ والباقين مقصورَين مُنَوَّنَين.

وَقِيْلَ: لَمَّا سألَ موسى رَبَّهُ أرسلَ اللهُ الضبابَ والصواعقَ والظُّلمة والرعدَ والبرقَ، فأحاطت بالجبلِ الذي عليه موسَى وأمرَ اللهُ ملائكته يعرضُوا علىموسَى، فقالَ لَهم: اهبطُوا إلى عبدِي موسى الذي أرادَ أنْ يرَانِي، فهَبَطُوا عليه في يدِ كلِّ مَلَكٍ منهم مثلُ النَّخلةِ الطويلةِ ناراً شديدةَ الضوءِ أشدُّ ضوءاً من الشمسِ، ولبَاسُهم كلَهَب النار، كلُّهم يقولون بشدَّة أصواتِهم: سُبُوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْعِزَّةِ أبَداً لاَ يَمُوتُ، وفي رَأسِ كلِّ منهم أربعةُ أوْجُهٍ.

فلما رآهُم موسى فَزِعَ وجعل يُسَبحُ معَهم وهو يبكِي ويقولُ: رب اذكُرنِي ولا تنسَ عبدَكَ، فقال له رئيسُ الملائكةِ: اصْبِرْ لِمَا سألتَ، ثم رفعتِ الملائكةُ أصواتَهم، وارتجَّ الجبلُ واندَكَّ وخرَّ العبدُ موسى صَعِقاً على وجهِهِ، فلما أفاقَ قال: سُبحانَكَ آمنتُ وصدَّقتُ أنه لا يراكَ أحدٌ في الدُّنيا، فإذا كان مَن نظرَ إلى ملائكتِكَ انخلعَ قلبهُ، فما أعظمَكَ يا رب.

وعن سهلٍ: (أنَّ اللهَ تَعَالَى أظْهَرَ مِنْ سَبْعِينَ ألْفِ حِجَابٍ نُوراً قَدْرَ الدِّرْهَمِ فَجَعَلَ الْجَبَلَ دَكّاً).

---

(١) وبمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٧٢١) عن مجاهد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَخرَّ مُوسَى صَعِقاً) قال ابنُ عبَّاس: (مَغْشِيّاً عَلَيْهِ)[١]، وقال قتادةُ: (مَيِّتاً)[٢]، وقولُ ابنِ عبَّاس أظهرُ؛ لأن اللهَ تعالى قال (فَلَمَّا أفَاقَ) ولا يقالُ للمَيْتِ: أفَاقَ من موتهِ، ولكن يقالُ: بُعِثَ من موتهِ، كما قالَ تعالى في حديثِ السَّبعين ﴿ثمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ ؛ أي قال اللهُ: يا موسَى إنِّي اتخذتُكَ صفوةً برسالَتِي التي أرسلنَا إليك وبكلامِي معكَ من غير وحيٍ، ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ ؛ أي اعْمَلْ بما علَّمتُكَ من التوراةِ، ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ ؛ لِمَا أعطيتُك وأكرمتُكَ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي في تسعةِ ألْوَاحٍ من الزُّبرجَدِ الأخضر، وَقِيْلَ: من الياقوتِ الأحمر أعطاها اللهُ موسَى وفيها التوراةُ كنَقْشِ الخاتم، طولُ كلِّ لوحٍ عشرةُ أذرُعٍ.

وقولهُ تعالى: (مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) يعني من أمُور الدِّين، وقولهُ تعالى﴿ مَّوْعِظَةً ﴾ ؛ يعني ما يدعُو إلى الطاعةِ، وزَجْرٍ عن المعصيةِ بالوعد والوعيدِ وأخبار الأُمَم الماضين. وقولهُ تعالى: ﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ معناهُ: لكلِّ أمرٍ من أمور الدِّين من الحلالِ والحرامِ والأمر والنَّهي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ ؛ أي اعْمَلْ بها بجِدٍّ في طاعةِ الله ومواظبةٍ عليها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ ؛ أي أمُرْ قومَك يعملوا بأحسنِ ما بُيِّنَ لهم فيها؛ أي أمِرُوا بالخير ونُهوا عن الشرِّ، وعرَفُوا ما لهم في ذلك، فمُرْهُمْ يأخذُوا بالأحسنِ. ويقالُ: مُرْهُمْ يأخذُوا بالفرائضِ والنوافلِ دون المباحِ الذي لا حَمْدَ فيه ولا ثوابَ. وَقِيْلَ: معناهُ (يَأْخُذُوا) بالناسخِ والمنسوخ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٧٠٩) عن ابن عباس، والأثر (١١٧١١) عن ابن زيد.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٧١٤).

(٣) البقرة / ٥٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) ﴾ ؛ أي سوفَ أُريكُمْ جهنَّم في الآخرةِ هي دارُ الخارجين عن طاعةِ الله، ويقالُ: أرادَ به ما مَرُّوا عليه في سَفَرِهم من منازلِ عادٍ وثمود والقرونِ الذين أهْلِكُوا بالتكذيب.

وقال قتادةُ: (مَعْنَاهُ سَأُدْخِلُكُمُ النَّارَ وَأُرِيكُمْ مَنَازِلَ الْكَافِرِينَ)[١]. وَقِيْلَ: معناهُ سأُريكُم دارَ فرعون وقومِهِ وهي مصرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ؛ أي سأجعلُ جزاءَ المتكبرين الذين لا يُؤمنون بالمعجزةِ الإضْلالَ عن الْهُدَى، وعن معرفةِ ما أودعَ اللهُ في الكتاب يقرؤونَهُ ولا يفهمون ما أرادَ اللهُ به.

وَقِيْلَ: معناهُ: سأصرِفُهم عن الاعتراضِ على آياتِي بالإبطال، وَقِيْلَ: معناه: سأصرِفُ عن نَيلِ ما في آياتِي من العزِّ والكرامةِ، ويعني بالذين يتكبَّرون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ هم الذين يَرَونَ أنَّهم أفضلُ الخلقِ، وأنَّ لهم ما ليسَ لغيرِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ ؛ معناهُ: وإن يَروا كلَّ آيةٍ تدلُّ على وحدانيَّة اللهِ ونُبوَّة الأنبياءِ لا يصدِّقوا بها، ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ ﴾ ؛ أي سبيلَ الإسلامِ، ﴿ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ ؛ ديناً لأنفسهم، يعني هؤلاء المتكبرين. وقرأ حمزةُ ومجاهد والأعمش والكسائيُّ بالفتحِ الاستقامة في الدِّين، والرُّشد بضمِّ الراءِ الاصلاحُ. وقرأ أبو عبدالرحمن: (وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الرَّشَادِ) بالألفِ. وقرأ مالكُ بن دينار: (وَإِنْ يُرَوا) بضمِّ الياء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ؛ يحتملُ أن يكون ذلكَ موضعَ الرفعِ على معنى أمْرَهم ذلك، ويحتملُ أن يكون نَصباً على معنى فعل اللهُ ذلك بهم بتكذيبهم بآياتنا، قال مقاتلُ: (أرَادَ بقَوْلِهِ بآيَاتِنَا التِّسع) كأنه ذهبَ إلى أنه هذا كلُّه خطابُ موسَى. وقال الكلبيُّ: (مَعْنَى (ذلِكَ بأنَّهُمْ كَذبُوا بآيَاتِنَا) بمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ)[٢] وذهبَ إلى أنَّ قولَهُ: (سَأصْرِفُ) خطابٌ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٧٤١).

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٥٦٢؛ قال السيوطي: ((أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سفيان بن عيينة قال: (أنْزَعُ عَنهُمْ فَهمَ الْقُرْآنِ).))

لنبيِّنا ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ ؛ أي عنها لاَهِينَ سَاهِينَ، لا يتفكَّرون فيها ولا يتَّعظُون بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ ؛ أي بالبعثِ بعد الموت، ﴿ حَبِطَتْ ﴾ ؛ بَطُلَتْ، ﴿ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾ ؛ الـتي عَمِلُوها على جهةِ البرِّ، ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ مُوسَى كَانَ وَعَدَ قَوْمَهُ بالانْطِلاَقِ إلَى الْجَبَلِ ثلاَثِينَ يَوْماً، فَلَمَّا تَأخَّرَ رُجُوعُهُ قَالَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ - وَكَانَ رَجُلاً مُطَاعاً-: إنَّكُمْ اتَّخَذْتُمُ الْحُلِيَّ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فَعَاقَبَكُمُ اللهُ بتِلْكَ الْجِنَايَةِ، وَمَنَعَ مُوسَى عَنْكُمْ، فَاجْمَعُوا حَتَّى أحْرِقَهَا؛ لَعَلَّ اللهَ أنْ يَرُدَّ عَلَيْنَا مُوسَى.

فَجَمَعُوا الْحُلِيَّ، وَكَانَ السَّامِرِيُّ صَائِغاً، فَجَعَلَ الْحُلِيَّ فِي النَّارِ وَاتَّخَذ مِنْهُ عِجْلاً وَنَفَخَ فِيْهِ التُّرَابَ الَّذِي كَانَ أخَذهُ مِنْ أثَرِ فَرَسِ جِبرِيلَ، وَكَانَ ذلِكَ الْفَرَسُ فَرَسَ الْحَيَاةِ، مَا وَضَعَ حَافِرَهُ فِي مَوْضِعٍ إلاَّ اخْضَرَّ، فَلَمَّا نَفَخَ فِيْهِ شَيْئاً مِنْ ذلِكَ التُّرَاب صَارَ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ، فَعَبَدُوهُ وَزَفُّوا حَوْلَهُ)[(١)].

وَقِيْلَ: إن السامريَّ حين صاغَ العجلَ جعل فيه خُروقاً تجري فيها الريحُ، فكان يسمعُ من تلك الخروقِ شِبْهُ الْخُوَار، فأوْهَمَ بني إسرائيلَ أنه حيٌّ يَخُورُ.

قال الزجَّاجُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ: (جَسَداً لَهُ خُوَارٌ) أيْ جُثَّةٌ لاَ تَعْقِلُ، لَيْسَ لَهُ رُوحٌ وَلاَ عَقْلٌ وَلاَ كَلاَمٌ إنَّمَا لَهُ خُوَارٌ فَقَطْ). وأما إضافةُ الْخُوَار إلى العجلِ في الآيةِ فهو كما يقالُ: صوتُ الحجرِ، صوتُ الطَّشتِ، وأمَّا الْحُلِيُّ فهو جمعُ الْحِلْيَةِ وهو ما يُتزيَّنُ به من ذهبٍ وفضَّة. وقال عليٌّ ﷺ: (لَهُ جُؤَارٌ) بالجيمِ والهمزِ وهو الصوتُ[(٢)].

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٨٤. واللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٣١٦ نقله عن ابن عباس والحسن وقتادة وجماهير أهل التفسير.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ج ٢ ص١٥٤. واللباب في علوم الكتاب: ج٩ ص٣١٦.

وقولهُ تعـالى: (حَلْيِـهِمْ) قـرأ يعقـوبُ بفتـحِ الحـاء وجـزمِ الـلام، وقـرأ حمـزةُ والكسائي (حِلِيِّهِمْ) بكسرِ الحاء واللامِ وتشديد الياء أتبعا الحـاءَ كسـرةَ الـلامِ، وقـرأ الباقون بضمِّ الحاء وكسرِ اللام وتشديد الياءِ وهما لُغتان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ ؛ معناهُ: ألَـم ينظرُوا إلى العجلِ لا يُكلِّمُهم بما يُجري عليهم نَفعاً ويدفعُ عنهم ضُـرّاً، ولا يُرشِـدُهم طريقاً إلى خيرٍ ليأتوهُ ولا الى شرٍّ لينتهُوا عنه، ولو كان إلَهاً لهداهُم؛ لأنَّ الإلهَ لا يُهمِلُ عبادَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ ؛ يجـوزُ أن يكـون معناهُ: لا يُرشِدُهم الطريقَ الذي يتَّخذونَهُ، ويجوزُ أن يكون ابتداءً على معنى: عَبَـدُوهُ وكانوا بعبادتِهم إياهُ ظالمين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ ؛ أي نَدِمُوا على عبادتِهم العجلَ، ورأوا أنَّهم قد ضَلُّوا عن الحقِّ، ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ ؛ عملنـا؛ ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ ؛ بالعقوبةِ. قال الزجاج: (يُقَالُ لِلنَّادِمِ عَلَى مَا فَعَلَ الْمُتَحَسِّرِ عَلَى مَا فَرَّطَ مِنْهُ: قَدْ سُقِطَ فُلاَنٌ فِي يَدِهِ، وَأسْقِطَ بِمَعْنَى سَقَطَ النَّدَمُ فِي أيْدِيهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ أي رجعَ مُوسَى من الجبلِ إلى قومـهِ شـديدَ الغضـب حَزيناً، ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ﴾ ؛ فَعَلْتُمْ خَلْفِي في غَيبَتِي بعبادةِ العجل، ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: اسْـتَبْطَأتُمْ وعدَ ربكم الذي وعدَ في أربعين ليلةٍ، ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ ؛ مِن يـده الـتي كـانت فيها التوراةُ وألقاها من يدهِ، ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّـاس: (أخَذ رَأسَهُ بيَدِهِ الْيُمْنَى وَلِحْيَتَهُ بيَدِهِ الْيُسْرَى)(١).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾ ؛ أي قَـهَرُونِي واسـتذلُّونِي وهَمُّـوا بقتلِـي، وكـان هـارون أخـاهُ لأبيـهِ وأمِّـهِ ولكنَّـهُ قال (يَا ابْنَ أمَّ) لِترَفُّقِهِ عليه، وعلى هذه طريقةُ العرب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٧٤٨ و١١٧٤٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾ ؛ لا تُفرِّحْهُمْ عليَّ ولا تظُنَّ أنِّي رضيتُ بفعلِ القومِ الظالمين، ﴿ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ ؛ فلا تجعَلني مع عَبَدَةِ العجلِ في الغضب عليَّ، وكان هارونُ أكبرَ من موسى بثلاثِ سنين، وأحبَّ إلى بني إسرائيلَ من موسى.

قرأ ابنُ عبَّاس والكوفيُّون إلاَّ حفصاً (يَا ابْنَ أمِّ) بكسرِ الميم هُنا، وفي طه فحذَفُوا ياءَ الإضافةِ؛ لأنَّ مَبْنَى النداءِ على الحذفِ، وبقِيَتِ الكسرةُ على الميمِ دَليلاً على ياءِ الإضافةِ كقولهِ (يَا عِبَادِ، وَيَا قَوْمِ)، وقرأ ابنُ السُّمَيقِعِ (يَا ابْنَ أمِّي) بإثباتِ الياء، وقرأ الباقون بفتحِ الميمِ على معنى يا ابنَ أمَّاهُ[1].

وقولهُ تعالى (اسْتَضْعَفُونِي) بعبادةِ العجلِ، وقولهُ تعالى: (فَلاَ تُشْمِتْ بي الأَعْدَاءَ)، قرأ مجاهدُ ومالكُ بن دينار: (فَلاَ تَشْمَتْ) بفتح التاءِ والميم[2]، ورفعِ (الأَعْدَاءُ)، والشَّماتَةُ هي سرورُ العدوِّ.

فإنْ قِيْلَ: لِمَ جازَ لموسى أن يجُرَّ برأسِ هارون ولحيتهِ، والانبياءُ لا يجوز لأحدٍ أن يستخفَّ بهم، وكان هارونُ نبيّاً؟ قِيْلَ: إنَّ هذا كان منهُ على جهةِ العِتَاب لا على جهةِ الْهَوَان. وَقِيْلَ: لأنه أجراهُ مجرَى نفسهِ من حيث أنَّهما كانا في النبوَّةِ والأُخوَّةِ كالنفسِ الواحدة، وقد يقبضُ الإنسانُ عند الغَيْظِ على لحيةِ نفسه، ويعُضُّ إبْهامَيْهِ وشَفَتيه، كما رُوي (أنَّ عُمَرَ ﷺ كَانَ إذا حَزَبَهُ أمْرٌ فَتَلَ شَارِبَهُ).

إلاَّ أنَّ هارون خافَ أن يتوهَّم جُهَّالُ بني إسرائيل أنَّ موسى غضبانٌ عليه كغَضَبِهِ على مَن عَبَدَ العجلَ، فقالَ: (ابْنَ أمَّ إنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي...) الآيةَ. وَقِيْلَ: إنَّ موسى فَعَلَ هذا بهارون في حالةِ الغضب التي لا يملكُ الإنسانُ فيها نفسَهُ، وكان ذلك صغيرةً منه، كما ألقَى الألواحَ لشدَّة الغضب، وكان الواجبُ عليه أن يُعَظِّمَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾ ؛ ما كان منهُ من التقصيرِ في ردِّ القوم عن عبادةِ العجلِ، ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ﴾ ؛ أي في جَنَّتِكَ، ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ ؛ أي أرحَمُ بنا مِنَّا، وأرحمُ بنا من أبنائِنا وأمَّهاتنا.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٢٩٠.
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرلآن: ج ٧ ص٢٩١.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين اتَّخذوا العجلَ إلَهاً سيصيبُهم عذابٌ من ربهم في الآخرةِ. والغضبُ من اللهِ: إرادةُ الانتقامِ على ما سَلَفَ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أرادَ به ما أُمِرُوا به من استسلامِهم للفعلِ بقُعودِهم، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ أي كما جَزَينا هؤلاءِ فكذلك نَجزي الكاذبين على اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ ﴾ ؛ قِيْلَ: أرادَ بالسَّيِّئات الشِّركَ وسائرَ المعاصي إذا تابَ صاحبُها عنها، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ ؛ أي سَكَنَ عن موسى الغضبُ وزالت قوَّة غضبهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: سَكَتَ موسَى عن الغضب، وهذا من الْمَقْلُوب، كما يقالُ: أدخلتُ قُلُنْسُوَةً في رأسِي، يريدُ أدخلتُ رأسِي في قُلُنْسُوَةٍ. وقولهُ تعالى: (أَخَذَ الأَلْوَاحَ) بعدَ ما كان ألقَاهَا وبعدَ ما تكسَّرت، وذهَبَ منها ستَّة أسباعِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ ؛ قال عطاءُ: (وَفِيمَا بَقِيَ مِنْهَا وَلَمْ يَذْهَبْ)، ويقالُ: معناه: فيما نَسَخَهُ موسَى مما تكسَّرَ. وقولهُ تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ ؛ أي بيانٌ من الضَّلالة ونجاةٌ، ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ ؛ يخشَون اللهَ ويعملون بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ﴾ ؛ ومعناهُ: واختارَ موسى مِن قومهِ سبعين رجُلاً للوقتِ الذي وقَّتنا لهُ يصحَبُهم مع نفسهِ عند الخروجِ إلى الميقاتِ، فيشهَدُوا عند قومِهم على سماعِ كلامِ الله، فإنَّهم كانوا لا يُصدِّقون موسَى في أنَّ اللهَ كَلَّمَهُ، وكانوا اثنَى عشرَ سِبْطاً، فاختارَ مُوسَى من كلِّ سبط ستَّةً، وخلفَ منهم رجُلين، وقال: إنَّما أُمِرتُ بسبعين فليَرجِعْ اثنانِ منكم، ولَهما أجرُ مَن حَضَرَ، فرجَعَ يُوشَعُ بن يُونا وكالبُ بن يوقَنَّا، وذهبَ موسى مع السبعين الى الجبلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ ؛ أي الزَّلزَلَةُ الشديدةُ عند الجبلِ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ موسَى: ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ﴾ ؛ أنْ حملتَهم إلى الميقاتِ، وأهلَكتَني معهم بقتلِ القبطيِّ، وظنَّ موسى أن الرجفةَ إنَّما أخذتْهم بسبب عبادة بني إسرائيل العجلَ، فقال: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ ثم قال: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ ؛ يعني ما عبادةُ العجلِ إلاَّ بَلِيَّتُكَ إذ صار الروحُ في العجلِ، ﴿ تُضِلُّ بِهَا ﴾ ؛ بالفتنةِ، ﴿ مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ﴾ ؛ أي أنتَ ناصِرُنا وحافظُنا ومتولِّي أمورنا فاغفِرْ لنا ذُنوبَنا وارحمنا ولا تعذِّبنا، ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ .

وَقِيْلَ: إنَّ موسى عليه السلام لَمَّا هلكَ السَّبعون، جعلَ يبكِي ويقولُ: يا رب ماذا أقولُ لبَنِي إسرائيلَ إذا رجعتُ إليهم، وقد أهلكتَ خيارهم؟ فبَعَثَهم اللهُ كما قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[(١)] وقد تقدَّم تفسيرُ ذلك في البقرةِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ ؛ يعني العلمَ والعبادةَ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ؛ أي واكتُبْ لنا في الآخرةِ حَسَنَةً وهي الجنَّةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أي أنَبْنَا ورجَعنا بالتوبةِ، يقالُ: هَادَ يَهُودُ؛ إذا رجعَ، ولَم يُؤخذ اسمُ اليهودِ مِن هذا، وإنما أخِذ من تَهَوَّدَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ﴾ ؛ مِن عبادي مِمَّن هو أهلٌ لذلك، ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ؛ يعني وسِعَتِ البرَّ والفاجرَ. قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ تَطَاوَلَ لَهَا إبْلِيسُ وَقَالَ: أنَا شَيْءٌ مِنَ الأَشْيَاءِ، فَأَخْرَجَهُ اللهُ مِنْ ذلِكَ بقَوْلِهِ: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾) أي سأُوجِبُها للَّذين يتَّقونَ الشِّركَ والمعاصي، ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[(٢)].

فَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: نَحْنُ نَتَّقِي وَنُؤْتِي الزَّكَاةَ وَنُؤْمِنُ بآيَاتِ رَبنَا، فَأَخْرَجَهُمُ اللهُ مِنْهَا بقَوْلِهِ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ ؛

---

(١) البقرة / ٥٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٠٥).

يعني مُحَمَّداً ﷺ سَمَّاهُ أمِّياً لأنه لم يُحسن الكتابةَ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾[١]، وقال ﷺ: [إنَّا أمَّةٌ أمِّيَّةٌ لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسِبُ][٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ ؛ يعني نَعْتَهُ وصفتَهُ وخاتمه الذي بين كَتِفَيهِ ونعتَ أمَّته وشريعتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ أي بالتوحيدِ وشَرائعِ الإسلام؛ ﴿ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ ؛ أي عن كلِّ ما لا يُعرَفُ في شريعةٍ ولا سُنَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ ؛ أي ما اكتسبوهُ من وجهٍ طيِّبٍ، ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ﴾ ؛ ما اكتسبوهُ من وجهٍ خَبيثٍ، ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ يعني ثِقلَهُمْ، قال قتادةُ: (يَعْنِي التَّشْدِيدَ الَّذِي كَانَ عَلَيهِمْ فِي الدِّينِ وَمَا أمِرُوا بِهِ مِنْ قِبَلِ أنْفُسِهِمْ فِي التَّوراةِ، وَقَطْعِ الأَعْضَاءِ الْخَاطِئَةِ).

وقال عطاءُ: (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وبِخَلْعِ الأَنْدَادِ وَمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ أيْ عَنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَقَطْعِ الأَرْحَامِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَ يَعْنِي الْحَلاَلَ الَّتِي كَانَتِ الْجُهَّالُ تُحَرِّمُهَا مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَالْوَصَائِلِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيهِمُ الْخَبَائِثَ يَعْنِي الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَالرِّبَا وَغَيْرَهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ كنايةٌ عن الأمور الشَّديدة التي كانت عليهم، كان إذا أصابَ ثوبَ أحدِهم شيءٌ من النجاسةِ وجبَ قطعهُ، وكان عليهم أنْ لا يعمَلُوا في السَّبتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ ؛ أي فالذين صدَّقُوا بهذا النبيِّ وعَظَّمُوهُ وأعانوهُ بالسَّيفِ على الأعداءِ، ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ ؛ يعني القرآنَ الذي ضِياؤهُ في القلوب كضياءِ النُّور في العيُونِ، ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ ؛ أي الظَّافِرُونَ بالْمُرادِ والبقاءِ.

---

(١) العنكبوت / ٤٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصوم: باب قول النبي ﷺ لا نكتب: الحديث (١٨١٣). ومسلم في الصحيح: كتاب الصيام: الحديث (١٥/١٠٨).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ كُلُّ رَسُولٍ يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ، وبَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ إلَى قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ). ومعنى الآية: قُل يا مُحَمَّدُ إنِّي رسولُ الله إليكم كافَّة أدعُوكم إلى طاعةِ الله وتوحيدِهِ واتِّبَاعِي فيما أدِّيتهُ إليكُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ تعريفُ اللهِ الذي أرسلَهُ إليهم، وقولهُ تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ أي لاَ شريكَ له في الإلَهيَّة، ولا خالقَ ولا رازقَ غيرهُ، ﴿ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ ؛ أي يُحيي الخلقَ من النُّطفة، ويُمِيتُهم عندَ انقضاءِ آجَالِهم، لا يقدرُ على ذلكَ أحدٌ سِوَاهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: يُحيي الأمواتَ للبعثِ، ويُميتُ الأحياءَ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ﴾ ؛ أي صَدِّقُوا باللهِ ورسولِهِ النبيِّ الأُمِّيِّ الذي لاَ يَكتُبُ، فَيُؤْمَنُ من جهتهِ أنْ ((لا))(١) يقرأ الكتُبَ وينقُلَ إليهم أخبارَ الماضِينَ، ولكن يَتَّبعُ ما يُوحَى إليه، وقولهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ ؛ أي باللهِ وكُتُبهِ. ومَن قرأ (وَكَلِمَتِهِ) فهو عِيسَى، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ ﴾ ؛ أي جماعة؛ ﴿ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ يدعون إلى الحق، ﴿ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ ؛ وبهِ يَحكُمون وهم مُؤمِنُو أهلِ الكتاب عبدُاللهِ بن سلام وأصحابهُ.

ورُوي عن ابنِ عبَّاس: (أنَّهم قومٌ من بني إسرائيلَ قِبَلَ المشرق، وخَلْفَ الصِّين عند المطلعِ أخِذُوا من بيتِ المقدس، فرُمِيَ بهم هناكَ متمَسِّكين بالتوراةِ مُشتَاقِينَ إلى الإسلامِ، يعملون بفرائضِ الله، بيُوتُهم مستويةٌ، والأمانةُ فيهم فاشيةٌ، قبُورهم عند أبوابهم، لا تَبَاغُضَ بينهم ولا تَحاسُدَ ولا حِلْفَ ولا خيانةَ ولا كذبَ ولا غشَّ، يعمَلون بالحقِّ فيما بينهم بلا أمير ولا قاضٍ، مرَّ بهم رسولُ الله ﷺ ليلةَ أُسرِيَ به، فعرضَ عليهم الإسلامَ فقبلُوه)(٢).

(١) ما بين (( )) ليس في المخطوط.

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٤٥) عن ابن جريج.

وذكر مقاتلُ: (أنَّ بين الصِّين وبينَهم وادِياً جارياً من رمـلٍ، فيمنـعُ النـاسَ مـن إثيانِهم واخبارِهم، إلاَّ أنَّا لا نسمعُ أخبارَهم إلاَّ من النبيِّ ﷺ أخْبَرَهُ بهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَـلَّ، واخبرهُ به النبيُّ ﷺ ابنَ عبَّـاس. وقـال السـديُّ: (هـم قـومٌ بينَكـم وبينـهم نـهْرٌ مـن شَهْدٍ)[(١)].

قال ابن جُريج: (إنَّ بني إسرائيلَ لَمَّا قَتَلوا أنبياءَهم وكَفَرُوا، تبَرَّأ هؤلاءِ القـومُ منهم وسألوا أنْ يُفرِّقَ اللهُ بينهم وبينهم، ففتحَ الله لهـم نَفَقـاً في الأرض، فصَـارُوا فيـه سَنَةً ونصفاً حتى خرجُوا من وراءِ الصين، فهم هناكَ مُسلمون يُصَلُّونَ إلى قِبْلَتنا)[(٢)].

وقال الكلبيُّ والربيع: (هم قومٌ خلفَ الصِّين على نَهر يجري على الرَّملِ سُـمِّي نَهر أرْدَاف، يُمطَرون باللَّيلِ، يصبحُون بالنهار ويزرَعون، لا يَصِلُ إليهم منَّا أحـدٌ ولا منهم إلينا، وهم على الحقِّ، ذهبَ جبريلُ بالنبيِّ ﷺ إليهم ليلةَ أسريَ به فكلَّمَهم.

فقال جبريلُ: هل تعرفون هذا الذي تُكلِّمونَهُ؟ قالوا: لاَ، قال: هذا مُحَمَّـدٌ ﷺ رسولُ اللهِ النبيُّ الأُمِّي، فآمَنُوا به وقالوا: يا رسولَ اللهِ؛ إنَّ موسَى أوصَانا فقَـالَ: مَـن أدركَ منكُم مُحَمَّداً ﷺ فَلْيُقْرِؤْهُ منِّي السلامَ، فردَّ مُحَمَّـدٌ ﷺ علـى موسَـى وعليـهم السلامَ، ثم أقرَأهم عَشْرَ سُوَرٍ من القرآنِ أُنْزلت بمكَّة، ولم يكُن يومئـذٍ نزلـت فريضـةٌ غـيرَ الصَّـلاة والزكـاةِ، وأمَرَهـم أنْ يُقيمـوا مكانَـهم وأمَرَهـم أنْ يُجَمِّعُـوا ويـتركُوا السَّبتَ)[(٣)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ ؛ أي فُرِّقُـوا بـني إسرائيلَ اثنَتَي عشرة فرقةً، والسِّبْطُ في ولدِ اسحق كالقبيلةِ في ولـدِ إسمـاعيلَ، وإنَّمـا ذكرَ (اثْنَتَي عَشْرَةَ) على لفظِ التَّأنيثِ وإنْ كان السبطُ مذكَّراً؛ لأن الأسباطَ هي الفِرَقُ والجماعاتُ.

فانْ قِيْلَ: كيف قالَ (أسْبَاطاً) بالجمعِ ولا يجمعُ ما بعدَ العشرةِ على لفظِ الجمع، وإنَّما يقالُ: اثنَى عشرَ دِرهماً ولا يقالُ اثنى عشرَ درَاهم؟ قِيْلَ: ذكرَ الزجَّاجُ: (أنَّ قَوْلَهُ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٤٤).
(٢) تقدم؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٤٥).
(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٣٤٨.

(أسْبَاطاً) بَدَلٌ لاَ يُمَيِّزُ، كَأنَّهُ قَالَ: قَطَّعْنَاهُمْ أسْبَاطاً اثْنَتَي عَشْرَةَ). وقرأ أبان بن تغلب ابن زيد عن عاصم (وَقَطَعْنَاهُمْ) بالتخفيف[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ ﴾ ؛ أي أوحينا إليه في التِّيهِ حين طلبَ قومهُ منه الماءَ، ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ حَجَراً يَحْمِلُونَهُ مَعَهُمْ عَلَى حِمَارٍ) وَلِهَذا عُرِّفَ بالألفِ واللامِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ ؛ الانْبجَاسُ: خروجُ الماءِ قَليلاً، والانفجارُ خروجهُ واسعاً، وإنما قالَ (فَانْبَجَسَتْ)؛ لأن الماءَ كان يخرجُ من الحجرِ في الابتداء قليلاً ثم يتَّسِعُ فاجتمعَ فيه صفةُ الانبجاسِ والانفجار، وإنما تفجَّرَ منه اثنَتَا عشرةَ عَيناً؛ لأنَّهم كانوا اثنَتي عشرةَ سِبْطاً، وكان لا يخالطُ كلُّ سبطٍ السبطَ الآخر، ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ ، كلُّ سبطٍ موضعَ شربهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ ﴾ أي ظَلَّلنا عليهم بالنَّهار في التِّيه ليَقِيَهم حرَّ الشَّمس، ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ ؛ فالْمَنُّ الترنجبين، والسَّلوَى طائرٌ يشبهُ السَّمانِي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ أي من خِلاَلِ ما رزقنَاكم من الْمَنِّ والسَّلوَى ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ ؛ أي وما ضَرُّونا بمخالفتِهم أمْرَنا وإعراضِهم عن شُكر النعمة، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ ؛ ولكن ضَرُّوا أنفسَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ ؛ أي قيلَ لهم وقتَ خرُوجِهم من التِّيهِ اسْكُنوا القريةَ أريحا ببيتِ المقدس، ﴿ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ ؛ من نعيمِها، ﴿ وَقُولُوا۟ ﴾ ؛ مَسْألَتُنا؛ ﴿ حِطَّةٌ ﴾ ؛ أي احْطُطْ عنَّا ذُنوبَنا، ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ ؛ بابَ أريحا خاشِعين للهِ خاضِعين، ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ﴾ ؛ ما سَلَفَ من ذُنوبكم باستغفاركم وخضُوعِكم.

---

(١) في أصل المخطوط: أبان بن زيد عن عاصم. والصحيح كما أثبتناه؛ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٠٣. واللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٣٥١.

وقرأ أهلُ المدينة (تُغْفَرْ) بالتاء مضمومةً، وقرأ ابنُ عامر بتاء مضمومةٍ أخرى (خَطِيَّتُكُمْ). وقولُه تعالى: ﴿ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ ؛ أي الذين لا ذنبَ لهم في الدُّنيا نزيدُهم فَضلاً في الآخرةِ ثواباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي غَيَّرَ الذين ظَلَمُوا أنفسَهم القولَ الذي أمِرُوا به، فقالوا إطة سِمْقَانا؛ أي حنطةٌ حمراء، ويقال قالوا حِطَّة، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي عذاباً أنْزَلْتُ بهم ناراً وأحرقَتهم، ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ ؛ بتبديلِهم ما أمِرُوا به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ معناهُ: سَلْ يا مُحَمَّدُ يهودَ المدينةِ عن القريةِ التي كانت بقُرب البحرِ وهي مدينة إيله على ساحلِ البحر بين المدينةِ والشَّام، وهذا سؤالُ توبيخٍ وتقريرٍ وتعريف لهم، لا سؤالَ تعريفٍ من قِبَلِهم، وفي السؤال لهم بيانٌ أنَّ يهود المدينةِ جَرَوا على عادةِ أسلافِهم في التمرُّدِ في المعصيةِ، فكأنَّ اللهَ تعالى أمَرَ نبيَّهُ ﷺ أن يسألَهم ما فعلَ اللهُ بأهلِ تلك القريةِ، أليس قد جعلَهُم اللهُ قردةً بمخالَفتِهم أمرَ اللهِ، فما يُؤمِنُكُمْ في تكذيب مُحَمَّدٍ ﷺ من عذابِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ ؛ أي حيث يتجاوزُونَ الحدَّ بأخذِهم السَّمَكَ في يوم السَّبتِ، وقد أمِرُوا أنْ لاَ يصطَادُوا فيه ويتفرَّغُوا للعبادةِ والطاعة. وقولُه تعالى: ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (أيْ ظَاهِرَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ)(١). وقال الضحَّاكُ: (مُتَتَابعَةً مِثْلَ الْكِبَاشِ الْبيضِ السِّمَان يَوْمَئِذٍ أنْ تُصَادَ)(٢). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ أي لا يكون يومُ السَّبت، كانت الحيتانُ تغوصُ في الماءِ ولا تأتِيهم شُرَّعاً.

وقرأ أبو نُهيك: (إذْ يُعِدُّونَ فِي السَّبْتِ) بضمِّ الياء وكسرِ العين وتشديدِ الدال؛ يُهَيِّؤُنَ الآلَةَ لأخذِهَا. وقرأ ابنُ السُّميقِع (فِي الأَسْبَاتِ) على جمع السَّبتِ. وقرأ بعضُهم (إذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ أسْبَاتِهِمْ شُرَّعاً) فجعلت طائفةٌ من أهلِ هذه المدينة

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٥٤).
(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٤٩٦.

يُلقُونَ الشَّبكةَ في الماءِ في يومِ السَّبت، ويقولون حتى يقعُ فيها السَّمكُ، ثم لا يُخرجُونَ الشَّبكةَ من الماءِ إلاَّ يومَ الأحدِ، وقالوا إنَّما نصطادُ في يومِ الأحدِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ ؛ أي كذلك نُشَدِّدُ عليهم في التَّكليفِ بعصيانِهم وفِسْقِهم.

ووقفَ بعضُ القُرَّاء على قولهِ: (كَذَلِكَ) على معنى لا تأتِيهم في غيرِ يوم السَّبتِ كما تأتِيهم في يومِ السَّبت، ثُم ابتدأ فقالَ (نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسِقُونَ). فإنْ قِيْلَ: كيف عرَّفَ اللهُ الحيتانَ الفَضْلَ من يومِ السَّبت وغيره من الأيَّام ؟ قِيْلَ: لا يمتنعُ أنَّ اللهَ عرَّفَها ذلك أو قوَّى دَوَاعِيَها؛ أي إلى الشُّروعِ في يوم السَّبتِ معجزةً لنبيٍّ ذلك الوقتِ وابتلاءً لأُولئك القومِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ؛ في الآيةِ بيانُ أنه كان في هذه القريةِ فِرْقَةٌ يَعِظُونَ الْمُذنِبينَ، والمعنى: إذ قالت عُصبَةٌ من أهلِ تلك القريةِ للواعظين لِمَ تَعِظُونَ قَوماً اللهُ مُهلِكُم في الدُّنيا أو مُعذِّبُهم عَذاباً شَديداً في الآخرةِ؟ ولَمْ يقولوا هذا كَرَاهَةً للوعظِ ولا رضًى بالمعصيةِ منهم، ولكن قالوا ذلك لِيَأْسِهم عن قَبولِ الوعظِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ ؛ أي قالتِ الفرقةُ الواعظةُ: موعظَتُنا إيَّاهم معذرةٌ إلى اللهِ أن نبتلى بذلك عُذراً عندَ الله. ومن قرأ (مَعْذِرَةً) بالنصب فعلَى معنى يعتذِرُون معذرةً. وقولُهُ تعالى: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ؛ أي ورجاءَ أن يتقوه، فكأن الواعظين لم ييأسوا مِنْ قَبُولِهم الوعظ. وقيل: معناه: لعلهم يتقون صيدَ الحيتان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ؛ أي فلمَّا تركُوا ما وُعِظُوا بهِ، ﴿ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ ؛ أي خلَّصْنا الذين يَنْهَوْنَ عن حبسِ السَّمك في الحظيرةِ يومَ السَّبتِ، ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ ؛ أي شديدٍ، يقالُ بَئِسَ وبَئِس وَبَأْسَ إذا اشْتَدَّ، وبَؤُسَ يَبْؤُسُ بُؤْساً إذا افْتَقَرَ. وقوله تعالى: ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ ؛ أي بفِسقِهم.

ولَم يُذكَر في الآيةِ حالُ الفرقةِ الثالثة، وقد رُوي عن ابنِ عبَّاس أنه قال: (كَانَ الْقَوْمُ ثلاَثَ فِرَق، فَكَانَتِ الْفِرْقَةُ الْوُسْطَى تَعْمَلُ بالسُّوءِ، وَالْفِرْقَةُ الْيُمْنَى تَنْهَى وَتُحَذِّرُهُمْ بَأْسَ اللهِ، وَكَانَتِ الأُخْرَى تَكُفُّ الْسِنَتَهَا وَتُمْسِكُ أَيْدِيَهَا. فَلَمَّا عَمِلَتِ الْوُسْطَى بذلِكَ زَمَاناً، وكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ، وَلَمْ يُنْزَلْ بهِمْ عُقُوبَةٌ، اسْتَبْشَرُواْ وَقَالُواْ مَا نَرَى السَّبْتَ إلاَّ قَدْ حَلَّ لَنَا وَذهَبَتْ حُرْمَتُهُ، وَكَانُوا نَحْواً مِنْ سَبْعِينَ أَلْفاً، وكَانَتِ الْفِرْقَةُ النَّاهِيَةُ نَحْوَ اثْنَى عَشَرَ أَلْفاً، يَقُولُونَ لَهُمْ: لاَ تَعْدُوا، وَلاَ تَأْمَنُواْ مِنْ عَذاب اللهِ، فَلَمْ يَتَّعِظُوا فَأَصْبَحُوا وَقَدْ مَسَخَهُمُ اللهُ قِرَدَةً خَاسِئِينَ، فَمَكَثُواْ كَذلِكَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ عِبْرَةً لِلنَّاظِرِينَ، ثُمَّ مَاتُوا)[1].

قال ابنُ عبَّاس: ((وَأنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) وَلَيْتَ شِعْرِي مَا صَنَعَ اللهُ بالَّذِينَ لَمْ يَنْهَوا)[2]، وقال عكرمةُ: (بَلْ أَهْلَكَهُمُ اللهُ أَيْضاً وَمَا نَجَّا إلاَّ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ، وَهَلَكَ الْبَاقُونَ بظُلْمِهِمْ بالاسْتِحْلاَل وَتَرْكِ الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ). فقال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَ وَاللهِ بالْمُدَاهِنِ مَا نَزَلَ بالْمُسْتَحِلِّ).

وقال الحسنُ: (نَجَتْ فِرْقَتَان، وَهَلَكَتْ فِرْقَةٌ) وأنكرَ القولَ الذي ذُكر له عن ابنِ عبَّاس، وقالَ: (مَا هَلَكَتْ إلاَّ فِرْقَةٌ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَبْلَغَ فِي الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ وَالْوَعْظِ مِنْ ذِكْرِ الْوَعِيدِ، وَقَدْ ذكَرَتِ الْفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ الْوَعِيدَ فَقَالَتْ: لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً) وقول الحسنِ أقربُ إلى ظاهرِ الآية[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ ؛ أي أبَوا أن يرجِعُوا عن المعصيةِ، والعَاتِي هو شديدُ الدُّخول في الفسادِ الْمُتَمَرِّدُ الذي لا يقبلُ الموعظةَ. وقولُهُ تعالى: ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ ؛ أي مَطْرُودِينَ مُبعَدِينَ عن كلِّ خيرٍ، مِن قولهم: خَسَّأتُ الْكَلْبَ إذا قلتُ لَه: اخْسَأْ على الطردِ له. قال ابنُ عبَّاس: (يَا لَهَا مِنْ أَكْلَةٍ مَا أَوْخَمَهَا أَنْ مُسِخُوا قِرَدَةً فِي الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ النَّارُ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٦٧) بمعناه، و(١١٨٦٨ و١١٨٦٩)

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٦٨-١١٨٧٠).

(٣) وذهب ابن عباس من ثَمَّةَ إلى هذا القول، نقله السيوطي في الدر المنثور: ج ٣ ص٥٦٠ عن عكرمة وقال: ((أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر)).

وعن الضحَّاك قال: (أَلْقَى اللهُ فِي فِكْرِ النَّاهِينَ حَتَّى بَاعُوا الدُّورَ وَالْمَسَاكِنَ، وَخَرَجُوا مِنَ الْقَرْيَةِ، فَضَرَبُوا الْخِيَامَ خَارِجاً مِنْهَا، فَأَقْبَلَ الْعَذابُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، فَبَدَأَ الْمَسْخُ مِنَ الرَّأْسِ حَتَّى صَارَتْ لَهُمْ أَذْنَابٌ كَأَذْنَابِ الْقِرَدَةِ، فَكَانَ النَّاهُونَ لاَ يَرَوْنَ أَحَداً يَخْرُجُ مِنَ الْقَرْيَةِ، قَالُوا: لَعَلَّ الْقَوْمَ قَدْ خُسِفُوا أَوْ رُمُوا بِحِجَارَةٍ مِنَ السَّمَاءِ، فَحَمَلُوا رَجُلاً مِنْهُمْ عَلَى سُلَّمٍ فَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، فَإذا هُمْ قِرَدَةٌ لَهُمْ أَذْنَابٌ، فَصَاحَ فَقَالَ: إنَّ الْقَوْمَ قَدْ صَارُوا قِرَدَةً، فَكَسَرُوا الْبَابَ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِمْ مَنَازِلَهُمْ فَإذا هُمْ يَبْكُونَ وَيَضْرِبُونَ بالأَذْنَاب، يُعْرَفُ الرَّجُلُ مِنَ الْمَرْأَةِ، فقَالُوا لَهُمْ: أَلَمْ نَنْهَكُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ؟ فَأَشَارُوا برُؤُوسِهِمْ: بَلَى؛ وَدُمُوعُهُمْ تَسِيلُ عَلَى خُدُودِهِمْ).

قال أنسُ بن مالكٍ عن رسول الله ﷺ: إنَّهُ سُئِلَ: هَلْ فِي أُمَّتِكَ خَسْفٌ؟ قَالَ: [نَعَمْ] قِيلَ: وَمَتَى ذلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: [إذا لَبسُوا الْحَرِيرَ، وَاسْتَبَاحُوا الزِّنَا، وَشَربُوا الْخُمُورَ، وَطَفَّفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، وَاتَّخَذُوا الْقَيْنَاتِ وَالْمَعَازِفَ، وَضَرَبُوا بالدُّفُوفِ، وَاسْتَحَلُّوا الصَّيْدَ فِي الْحَرَمِ].

وقال عكرمةُ: (جِئْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ وَهُوَ يَبْكِي وَالْمُصْحَفُ فِي حِجْرِهِ، فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: هَؤُلاَءِ الْوَرَقَات، فَإذا هِيَ سُورَةُ الأَعْرَافِ، فَقَالَ: أتَعْرِفُ إيلَةَ ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: كَانَ بهَا حَيٌّ مِنَ الْيَهُودِ فِي زَمَان دَاوُدَ، حُرِّمَ عَلَيْهِمْ صَيْدُ الْحِيتَان، وَاخْتَارُوا السَّبْتَ فَابْتُلُوا فِيْهِ، وَحُرِّمَ عَلَيهِمْ فِيْهِ الصَّيْدُ، وَأمِرُوا بتَعْظِيمِهِ إنْ أطَاعُوا أجِرُوا، وَإنْ عَصَوا عُذِّبُوا.

وَكَانَتِ الْحِيتَانُ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ شُرَّعاً بيْضاً سِمَاناً كَأَنَّهَا الْكِبَاشُ تَنْطَحُ، وَيَوْمَ لاَ يَسْبتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ، فَوَسْوَسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، وَقَالَ: إنَّما نُهِيتُمْ عَنْ أخْذِهَا يَوْمَ السَّبْتِ، فَاتَّخَذُوا الْحِيَاضَ وَكَانُوا يَسُوقُونَ إلَيْهَا الْحِيتَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَتَبْقَى فِيْهَا وَلاَ يُمْكِنُهَا الْخُرُوجُ مِنْهَا لِقِلَّةِ الْمَاءِ فَيَأْخُذُوهَا يَوْمَ الأَحَدِ، فَلَمَّا رَأوا الْعَذابَ لاَ يَأْتِيهِمْ أخَذُوا وَأكَلُوا وَعَبُّوا وَكَثُرَ مَالُهُمْ، فَلَعَنَهُمْ دَاوُدُ عليه السلام فَأَصْبَحُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ). وقال قتادة: (صَارَ الشَّبَابُ قِرَدَةً، وَالشُّيُوخُ خَنَازِيرَ)[1].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٦١ و١١٨٦٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بعَذابٍ بَئِيسٍ) أي شَدِيدٍ وَجِيعٍ، قرأ أهلُ المدينةِ بكسرِ الباء وجزمِ الياء من غيرِ همزٍ، وقرأ ابنُ عامر كذلكَ إلا أنَّه بهمزة، وقرأ عاصمُ في روايةِ أبي بكر بالفتحِ وجزم الياء وفتح الهمزة على وزنِ فَيْعَلٍ مثل صَيْقَلٍ؛ وقرأ أهلُ البصرةِ (بَئِيسٍ) بفتحِ الباء وكسرِ الهمزة على وزن فعيلٍ، وقرأ الحسن (بيسٍ) بكسرِ الباء وفتح السِّين على (بيسَ الْعَذَاب)، وقرأ مجاهدُ (بَايِسٍ) على وزن فاعِلٍ، وقرأ أبو إياس بفتحِ البـاء والياء من غيرِ همزٍ، وقرأ الباقون (بَئِيسٍ) على وزن فَعِيلٍ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ ؛ معناهُ: وإذْ عَلِمَ ربُّك، وقد يأتي تَفعَّلَ بمعنى افْعَلْ يقـالُ: أوْعَدَنِـي وتَوَعَّدَنِي ومعناهما واحدٌ، وَقِيْلَ: معنى (تَأذنَ) أقسمَ ربُّكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَـنْ يَسُـومُهُمْ سُـوءَ الْعَـذاب) أي ليبعثنَّ على مَن يبقَى منهم مِن الذين لا يُؤمنون مِن بعدِهم الجزيةَ والقتـلَ فبَعَـثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ وأمَّته فوضَعُوا عليهم الجزيةَ إلى يوم القيامة، وفي هـذه الآيـةِ دلالـةٌ علـى أنَّ اليهودَ لا تُرفع لهم رايةُ عزٍّ إلى يومِ القيامـة. وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون المرادُ به عقوبةَ الآخرةِ وكلُّ آتٍ قريبٌ، ويجوزُ أنْ يكون المرادُ به أنه سريعُ العقاب لِمَن شاءَ أن يُعاقِبَهُ في الدُّنيا. وقولهُ تعـالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾ ؛ أي لِمَن تابَ عن الكُفرِ والمعاصي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ ؛ معنـاهُ: وفرَّقنَـا اليـهودَ في البلادِ تَفريقاً شَديداً استثنَى أمرَهم فليس لهم مكانٌ يجتَمعون فيه، ولا يُمكِنُـهم الْمُقَـامُ في موضعٍ إلاَّ على ذُلٍّ بالقتلِ والجزية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أرادَ بالصَّـالِحين مُؤمِنِي أهلِ الكتاب، وَقِيْلَ: أرادَ بهم الذين وراءَ نَهرِ أرْدَاف، بمعنى الذيـن وراءَ رمـلِ عالِج من قومِ مُوسَى الذين ذكَرْنا أنَّ النبيَّ ﷺ ليلةَ أسْرِيَ بهِ مرَّ بهم، وقد ذكرنا في ما تقدَّم. وقوله تعـالى: (وَمِنْـهُمْ دُونَ ذلِـكَ) أرادَ بـه الكفـارَ منـهم كأنَّـهُ قـال: ومنـهمُ الصَّالِحون ومنهم سِوَى الصالحين. وَقِيْلَ: معناهُ: ومنهم دون ذلك هم في رملِ عـالِج يعني الذين هم في هذه البلادِ من اليهود.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ ؛ أي اختبرناهم بالْخِصَب والجدب، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ ؛ من الكُفرِ إلى الإيمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؛ أي خلَفَ مِن بعد هؤلاءِ الذين قطَّعناهم في الأرضِ ذرِّيةُ سُوءٍ، وهم الذين أدركَهم النبيُّ ﷺ، قال ابنُ الأعرابي[١]: (الْخَلَفُ بفَتْحِ اللاَّمِ الصَّالِحُ، وبإسكانِ اللام الطَّالِحُ)، قال لَبيدٌ:

ذهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أكْنَافِهِمْ وَبَقِيْتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَب

ومنهُ قيلَ لرَدِّ الكلامِ خِلْفٌ، ومنه المثلُ السائر (سَكَتَ ألْفاً وَنَطَقَ خَلْفاً)، قال النَّضِرُ بنُ شُمَيلٍ: (الْخَلَفُ بفَتْحِ اللاَّمِ وَإسْكَانِهَا فِي الْقَرْنِ السُّوءِ، وَأمَّا الْقَرْنُ الصَّالِحُ فَتَحْرِيكُهَا لاَ غَيْرَ، قَالَ الشَّاعِرُ:

إنَّا وَجَدْنَا خَلَفَنَا بئسَ الْخَلْفِ عَبْداً إذا مَا نَاءَ بِالْحِمْلِ خَضَفْ(٢)

وقال مُحمَّد بن جرير: (أكْثَرُ مَا جَاءَ فِي الْمَدْحِ بفَتْحِ اللاَّمِ، وَفِي الذم بتَسْكِينِهَا، وقد تُحرَّكُ في الذمِّ ويُسَكَّنُ في المدحِ. قال حسَّانٌ في المدحِ:

لَنَا الْقَدَمُ الأُوْلَى إلَيْكَ وَخَلْفُنَا لأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ اللهِ تَابعُ

قال: (وَأحْسَبُهُ فِي الذمِّ مَأخُوذٌ مِنْ خَلْفِ اللَّبَنِ إذا حَمِضَ مِنْ طُول تُرْكِهِ فِي السِّقَاءِ حَتَّى يَفْسَدَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: خَلْفُ فَم الصَّائِمِ؛ إذا تَغَيَّرَتْ ريحُهُ وَفَسَدَتْ، فَكَأنَّ الرَّجُلَ الْفَاسِدَ مُشَبَّهٌ بِهِ)[٣]. والحاصلُ أنَّ كُلاً منهما يُستعملان في الشرِّ والخيرِ، إلاَّ أنَّ أكثرَ الاستعمالِ في الخيرِ بالفتح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَرِثُوا الْكِتَابَ) أي التَّوراةِ، والميراثُ ما صارَ للباقي من جهةِ البَادِي كأنه قال فخَلَفَ من بعدِ الهالِكين منهم خَلْفٌ وَرِثُوا الكتابَ. وقولُه تعالى:

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣١٠.

(٢) في لسان العرب: ج ٤ ص١٢٩: (خضف). وخضف: إذا ضرط. والخضيف: الضروط من النساء والرجال.

(٣) قاله الطبري في جامع البيان: مج ٦ ج ٩ ص١٤٢: تفسير الآية (١٦٩) إلا عبارة: (ومنه قولهم: خَلْفُ فم الصائم إذا تغيَّرت ريحهُ وفَسدت)) فإنها غير موجودة في جامع البيان ولها تصرف من سماع الطبراني أو أنها ساقطة من المطبوع من تفسير الطبري.

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ ؛ يعني به أخْذَ الرَّشوةِ في الْحُكمِ؛ لتغيُّر الحـقِّ إلى الباطلِ. وقال بعضُهم: كانوا يحكِمُون بالحقِّ لكن بالرَّشـوة، وإنما سُـمي متـاعُ الدنيـا عَرَضاً لقلَّة بقائهِ كأنه يعرضُ فيزول. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هَذا عَـارِضٌ مُمْطِرُنَـا﴾[1] أرادَ بذلك السَّحابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ؛ أي يقولون مع أخذِهم الرَّشوة أنـه سيُغفَرُ لنا ذلك، وما عمِلناهُ بالليل كُفِّـرَ عنا بالنـهار، ومـا عملنـاهُ بالنـهار كُفِّـرَ عنـا بالليل، ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ ؛ معناهُ: وإنْ عرضَ لهـم ذنـبٌ آخـر عَمِلُوهُ، وفي هذا بيانُ أنَّهم كانوا يُصِرُّونَ على الذنب وأكلِ الحرام، وكانوا يستَغفِرُونَ مع الإصرار، فكيف يُغفرُ لهم.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ ؛ معناهُ: ألَم يُؤخذ عليهم الميثاقُ في التَّوراةِ ألاَّ يقولـوا علـى اللهِ إلا الصِّـدقَ، وكـان في التوراةِ أنَّ مَن ارتكبَ ذنبـاً عظيمـاً لَـم يُغفـر لـه بالتوبـةِ، ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ ؛ فكانوا يدرسون ما في التَّوراةِ، ويذكرون مـا أخـذ عليـهم مـن المواثيـقِ، يقولـون مـع إصرارهم على الذُّنوب: سيُغفَرُ لنا.

وقال الحسنُ: (مَعْنَى الآيَةِ أنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ الدُّنْيَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ حُرِّمَ عَلَيْـهِمْ وَيُمْنَعُونَ كُلَّ حَقٍّ، وَيُنْفِقُونَ فِـي كُـلِّ سَـرَفٍ، وَيَتَمَنَّـونَ مَـعَ هَـذِهِ الأَشْـيَاءِ عَلَـى اللهِ الأَمَانِيَّ، وَيَقُولُونَ: سَيُغْفَرُ لَنَا، وإنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ كَمَا أخَذُوا، ألَمْ يَعْرِفُـوا فِي الْكِتَاب خِلاَفَ مَا هُمْ عَلَيْهِ). وقرأ السلميُّ: (وَادَّارَسُوا فِيْهِ مِثْلَ ادَّارَكُوا)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ؛ أي يتَّقـونَ المعـاصي والشِّرك وأكلِ الحرامِ، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ ؛ ما يَدرُسون في كتابـهم، وَقِيْـلَ: أفلاَ يعقِلُونَ أن الإصرارَ على الذنب ليس من علامةِ المغفور لَهم.

---

(١) الأحقاف / ٢٤ .

(٢) في اللبـاب في علـوم الكتـــاب: ج ٩ ص٣٧٢؛ قـال: ((وقـرأ علـي ﷺ وأبـو عبدالرحمـن السلمي...)) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ معناهُ: والذين يعمَلون بما في كتاب الله، قال مجاهدُ[1]: (هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ يُمْسِكُونَ بالْكِتَاب الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، لاَ يُحَرِّفُونَهُ وَلاَ يَكْتُمُونَهُ، أحَلُّوا حَلاَلَهُ وَحَرَّمُوا حَرَامَهُ، وَلاَ تَتَّخِذُونَهُ مَأْكَلَةً، نَزَلَتْ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ وَأصْحَابِهِ).

وقال عطاءُ: (يَعْنِي أمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأقَامُوا الصَّلاَةَ) أي عَمِلُوا الصالحاتِ، إلاَّ أنَّهُ خَصَّ الصَّلاةَ بالذِّكرِ لعِظَمِ شأنِها، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ ؛ أي نُعطِيهِ أجرَهم في القولِ والعمل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ ؛ معناهُ: واذكُرْ يا مُحَمَّدُ إذْ قَلَعْنَا الجبلَ من أصلهِ فجعلناهُ كالظُّلَّةِ فوقَ رأسِ بني إسرائيل، وكلُّ شيء اقتلعتَهُ فقد نَتَقْتَهُ، ومنه نَتَقَتِ المرأةُ إذا أكثرَتِ الولدَ؛ أي اقتلَعَتْ ما في رَحِمِهَا من ولدِها، وامرأةٌ مِنْتَاقٌ إذا كانت تكثرُ الولدَ.

وقال مجاهدُ: (نَتَقْنَا الْجَبَلَ؛ أيْ قَطَعْنَا الْجَبَلَ). وقال الفرَّاءُ: (عَلَّقْنَا). وقال بعضُهم: أصلُ النُّتُوق وَالنَّتْق أنْ تقطعَ الشيءَ من موضعهِ فترمِي به، وقال أبانُ بن تغلبة: (سَمِعْتُ رَجُلاً مِنَ الْعَرَب يَقُولُ لِغُلاَمِهِ خُذِ الْجُوَالِقَ[2] وَانْتُقْهُ؛ أيْ نَكِّسْهُ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (كَأنَّهُ ظُلَّةٌ). قال عطاءٌ (كَأنَّهُ سَقِيفَةٌ، وَالظُّلَّةُ كُلُّ مَا أظَلَّكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ ؛ أي ظَنُّوا أنه ساقطٌ عليهم لارتفاعهِ فوقَهم، وكان السببُ في رفعهِ فوقَهم أنه لَمَّا شَقَّ عليهم ما كان في التوراةِ من المواثيقِ، وخَافُوا أن لا يُمكِنَهم الوفاءُ به امتَنَعُوا عن التزامهِ، فرفعَ اللهُ الجبلَ فوقَهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ ؛ أي وقُلنا لَهم خذُوا ما آتَيْنَاكُم بقوَّة؛ أي اعملُوا به بجِدٍّ ومواظبةٍ في طاعةٍ، ﴿ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٨٩٦) مختصراً، وهو تفسير قتادة كما في الأثر (١١٩٠٠) والسدي (١١٩٠٢).

(٢) في اللسان: الْجُوَالِقُ والْجُوَالَقُ بكسر اللام وفتحها: وعَاءٌ، والجمع: الْجَوالِقُ بالفتح و(الْجَوالِيقُ).

أيْ ما في الكتاب الذي أعطيناكُم من عِظَةٍ وجزاءٍ لكي تتَّقُوا المعاصيَ، وكان ذَكّاً حين أبَوا أنْ يَقْبَلُوا أحكامَ التَّوراة ويعمَلُوا بما فيها، وكانت شريعةً ثقيلةً فرفعَ اللهُ عليهم جَبَلاً على مقدار عسكَرِهم، وكانوا فَرْسَخاً في فَرْسَخٍ، وَقِيْلَ لَهم: إنْ قَبلْتُمْ ما فيها وإلاَّ لَنُوقِعَنَّهُ عَلَيْكُمْ.

قال الحسنُ: (فَلَمَّا نَظَرُواْ إلَى الْجَبَلِ، خَرَّ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ سَاجِداً عَلَى حَاجِبِهِ الأَيْسَرِ، وَنَظَرَ بعَيْنِهِ الْيُمْنَى إلَى الْجَبَلِ خَوْفاً أنْ يَسْقُطَ عَلَيْهِمْ، فَلِذلِكَ لَيْسَ فِي الأَرْضِ يَهُودِيٌّ إلاَّ وَهُوَ يَسْجُدُ عَلَى حَاجِبِهِ الأَيْسَرِ، وَيَقُولُونَ: هَذِهِ السَّجْدَةُ الَّتِي رُفِعَتْ بهَا عَنَّا الْعُقُوبَةُ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: لَمَّا خلقَ الله آدمَ مَسَحَ ظَهرَهُ، وأخرجَ منه ذُرِّيَّتَهُ كلَّهم كهيئَةِ الذرِّ، واختلفوا في موضعِ الميثاق، فقال ابنُ عبَّاس: (هُوَ بَطْنُ نُعْمَانَ وَادٍ جَنْبَ عَرَفَةَ)[2]، وَقِيْلَ: هي أرضُ الهندِ، وقال الكلبيُّ: (هُوَ مَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ)[3].

وقال السديُّ:(أخْرَجَ اللهُ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَمْ يُهْبطْهُ إلَى الأَرْضِ، فَأَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِهِ ذُرِّيَّتَهُ وَكُلُّ مَنْ هُوَ خَارجٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَأَخْرَجَ مِنْ صَفْحَةِ ظَهْرِهِ الْيُمْنَى ذُرِّيَّةً صِغَاراً بيْضاً مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ، فَقَالَ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ برَحْمَتِي، وَأخْرَجَ مِنْ صَفْحَةِ ظَهْرِهِ الْيُسْرَى ذُرِّيَّةً سُوداً، وَقَالَ لَهُمْ: ادْخُلُوا النَّارَ وَلاَ أبَالِي).

فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أصْحَابُ الْيَمِينِ﴾[4]، ﴿وَأصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ﴾[5]، وركَّب

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩١٤) عن أبي بكر بن عبدالله.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩١٥) عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [أخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنُعْمَانَ] يعني عرفةَ. وفي الأثر (١١٩١٦) قال ابنُ عبَّاس: ((بِنُعْمَانَ هَذَا، وَأشَارَ بِيَدِهِ))، وبإسناد آخر عن ابنِ عباس قال: ((بِنُعْمَانَ هَذَا الَّذِي وَرَاءَ عَرَفَةَ)).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣١٦.

(٤) الواقعة / ٢٧ . (٥) الواقعة / ٨-٩.

فيهم جميعَ العقُول حتى سَمِعُوا كلامَ اللهِ وفَهِمُوا خطابَهُ، فقال لَهم: اعلَمُوا أنه لا إلَـهَ غَيري، ولا ربَّ لكـم سِوَايَ، فـلا تُشـركُوا بـي شـيئاً، وأنّـي مُرسِـلٌ إليكـم رسُـلاً يذكِّرونكم عَهدِي وميثاقي ومنَزِّلٌ عليكم كِتَاباً فتكَلَّموا ألستُ بربكم ؟ فقـالوا: بلَـى، شهدْنا أنّك ربُّنا وإلَهُنا لا ربَّ غيرُكَ. فـأقَرُّوا كلُّـهم طـائعين، وأخـذ بذلـك ميثاقـهُم وكتَبَ آجالَهم وأرزاقَهم ومُصابَهم.

فنظرَ إليهم آدمُ عليه السلام فرأى فيهم الغنِيَّ والفقيرَ، وحسَنَ الصُّـورة وغـير ذلـك، فقال: يا رب لو شِئتَ سوَّيتَ بينهم، قال: ونظرَ إلى الأنبياءِ بينهم يومئذ مثـل السُّـرُجِ، فلما أخذ عليهم الميثاقَ ردَّهم إلى صُلـب آدمَ، فالنـاسُ محبوسـون في أصـلابِ آبائـهم حتى يخرجَ كلٌّ من أخرجَهُ في ذلك الوقتِ، وكلٌّ مَن ثبتَ علـى الإسـلامِ فـهو علـى الفطرةِ الأُولى، وكلٌّ مَن جَحَدَ وكفَرَ، فإنَّما تغيَّرَ عنها، ومنه قولـهُ ﷺ: [كُـلُّ مَوْلُـودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ إمَّا شَاكِراً وإمَّا كَفُوراً][1] فَلا تقومُ الساعة حتى يولدَ كلُّ مَن أخذ ميثاقهُ، لا يزيد فيـهم ولا ينقـصُ منهم.

وتقديرُ الآيَة: وإذْ أخذ ربُّك من ظهور بني آدم ذرِّياتِهم، ولَمْ يذكُـرْ ظـهرَ آدم، وإنَّما أخرجُوا يومَ الميثاق من ظهرهِ؛ لأنه أخرجَ ذرِّيةَ آدمَ بعضُهم من ظهرِ بعض على نحو ما يتولَّدُ الأبناءُ من الآباءِ، فاستغنَى عن ذكرِ ظَهْرِ آدمَ بقولهِ: (مِنْ بَنِي آدَمَ)؛ لأنــه قد عُلِمَ أنّهم كلُّهم بنوهُ، وأخرجُوا من ظهرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدْنَآ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون هذا مِن قول الذينَ أخِـذ عليـهم الميثاقُ. ثُم ابتدأ فقال تعــالى: (شَـهدْنا) ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ ؛ ويجوز أنْ يكونَ تَمامُ الكلامِ عنـد قولـه: (بَلَـى) ثـم يقـولُ الله تعالى: شَهدنا عليكم، وأخَذْنا الميثاقَ كَيْلاَ يقولُوا يومَ القيامةِ: (إنَّا كُنَّا عَنْ هَذا غَافِلِينَ) أي عن هذا الميثاقِ والإقرار.

---

(١) أخرجه الإمام الطبراني في المعجم الكبير: ج ١ ص٢٨٣: الحديث (٨٢٧ و٨٢٨) عـن الأسـود ابن سريع. والإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٣٥٣ عن جابر بـن عبـدالله، واللفـظ لـه. في مجمـع الزوائد: ج ٧ ص٢١٨؛ قال الهيثمي: ((أخرجه أحمد عــن جـابر بـن عبـدالله، وفيـه أبـو جعفـر الرازي وهو ثقة وفيه خلاف، وبقية رجاله ثقات)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ ؛ أي ولِكَيلاَ تقولوا إنما أشركَ آباؤُنا من قبلُ، وكنَّا ذرِّية من بعدِهم فاتَّبعنَاهُم؛ لأنَّا قد جعلنا في عقولِكم ما يمكِّنُكم أنْ تعرفُوا به صحَّةَ ما كان عليه آباؤُكم وفسادَهُ. وقولُهُ تعالى: ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ ؛ أي آباؤُنا المشركون، يقالُ لَهم: لا نُهلِكُكم بما فَعَلَ آباؤُكم، وإنَّما نُهلِكُكم بما فعَلتُم أنتُمْ.

فإن قِيْلَ: كيف يكون الميثاقُ حُجَّةً عليهم - أي على الكفَّار منهم - وهم لا يَذكُرونَ ذلك حين أخرجَهم من صُلب آدمَ ؟ قِيْلَ: لَمَّا أرسَلَ اللهُ الرُّسلَ، فأخبرُوهم بذلك الميثاقِ، وصارَ قولُ الرُّسل حُجَّةً عليهم.

قوله: (ذُرِّيَّاتُهُمْ) قرأ أهلُ مكَّة وأهلُ الكوفة (ذُرِّيَّتَهُمْ) بغيرِ ألف، وقرأ الباقون بالألف على الجمعِ، وقولهُ تعالى: (أنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (أوْ تَقُولُوا إنَّمَا أشْرَكَ) قرأ أبو عمرٍو بالياء، وقرأ الباقون بالتَّاء فيهما.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ ؛ أي هكذا نُبَيِّنُ الآياتِ كما بيَّنَّاها في أمرِ الميثاق، و(نفصِّلُ الآياتِ) ذِكْرُ آيةٍ بعدَ آيةٍ من الموعظة والمعصيَةِ والوعد والوعيدِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ ؛ أي لِكَي يَرْجِعُوا عن الكفرِ إلى الإيمان، والمعنى: ليعلَمُوها مفصَّلةً ولعلَّهم يرجعون.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس وابنُ مسعودٍ: (نَزَلَتْ فِي بَلْعَمَ بْنِ بَاعُورَا)[1]، قال مجاهدُ: (وَيُقَالُ لَهُمْ: بَلْعَمُ بْنُ بَاعِر)[2]، وقال مقاتلُ: (وَيُقَالُ لَهُ أيْضاً: بَلْعَامُ، وكان عابداً من عُبَّاد بني إسرائيلَ، وكان في المدينةِ التي قصدَها موسى عليه السلام، وكان أهلُ تلك المدينةِ كُفَّاراً، وكان عندَهُ اسمُ الله الأعظم، فسألَهُ ملِكُهم أن يدعوَ على مُوسَى بالاسمِ الأعظمِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٤١) عن ابن مسعود بأسانيد كثيرة، والأثر (١١٩٤٢) عن ابن عباس. واسم الرجل: بَلعم بن باعوراء، بلعام بن عامر، أو ابن آبر أو باعر، بألفاظ كثيرة في كتب التفسير.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٤٤).

ليدفعَهُ عن تلك المدينةِ، فقال لَهم: دِينهُ ودِينِي واحدٌ، وهـذا شـيءٌ لا يكـون، فكيـف ادعُو عليهِ وهو نبيُّ الله، ومعه الملائكةُ والمؤمنون، وأنا أعلمُ مِن الله ما أعلمُ، وإني إنْ فعلتُ ذلك ذهبَتْ دُنياي وآخرَتِي، فلم يزالُوا به يفتنونَـهُ بالمـالِ والهدايـا حتـى فَتَنُـوهُ فَافْتَتَنَ.

فرَكِبَ أتاناً له متوجِّهاً إلى جبلٍ ليدعُوَ عليه، فمـا سـارَ علـى الأتـان إلاَّ قليـلاً فربَضَتْ فنَزل عنها، فضربَها حتى كـادَ يُهلِكُـها، فقـامَتْ فرَكِبَـها فربَضَـتْ، فضربَـها فأنطقَها اللهُ تعالى، فقالت: يا بَلْعَمُ ويحَكَ أيـن تذهـبُ؟ ألاَ تـرَى إلى هـؤلاءِ الملائكـة أمَامِي تردُّني عن وجهي؟ فكيف تريدُ أنْ تذهـبَ لتدعـوَ علـى نـبيِّ الله ﷺ وعلـى المؤمنين؟ فخلَّى سبيلَها، وانطلقَ حتى أتى إلى الجبل وحين وصـل إلى الجبـلِ، وجعـل يدعُو فكان لا يدعُو بسُوءٍ إلاَّ صرفَ اللهُ لسانَهُ إلى موسَى، فقال له قومُـهُ: يـا بلعـمُ! إنَّما أنتَ تدعو علينا وتدعُو لهم ؟ فقالَ: هذا واللهِ الذي أملِكهُ، وأنطقَ اللهُ به لسانِي.

ثم امتدَّ لسانهُ حتى بلغَ صدرَهُ، فقالَ لَهم: قد ذهبَ منِّي الآنَ الدُّنيـا والآخـرةُ فلم يَبْقَ إلا المكرُ والحيلة، فسأمكُرُ لكم وأحتالُ، حَلُّـوا النسـاءَ وزيِّنُوهُـنَّ وأعطوهـن الطِّيبَ، وأرسلُوهن إلى العسكر ومُرُوهُنَّ لا تمنعُ امرأةٌ نفسَها من رجلٍ أرادَها، فإنَّـهم إنْ زَنَى منهم رجلٌ واحد كُفِيتُمُوهُمْ، ففعَلُوا.

فلما دخلَ النساءُ العسكرَ مرَّتِ امرأةٌ منهم برجُلٍ من عُظماءِ بني إسرائيل، فقامَ إليها فأخذها بيدهِ حين أعجبتْهُ بحُسنِها، ثم أقبلَ بها إلى موسَى وقالَ له: إنـي لأَظُنُّـكَ أنْ تقولَ هذه حرامٌ؟ قالَ: نَعَمْ هِيَ حَرَامٌ عَلَيْكَ لاَ تَقْرَبْهَا، قال: فـواللهِ لا نطيعُـكَ في هذا! ثم دخلَ بها قُبَّتَهُ فوقعَ عليها، فأرسلَ اللهُ على بني إسرائيل الطاعونَ في الوقتِ.

وكان فِنْحَاصُ بن العيزرا صاحبَ أمرِ مُوسَى، وكان رجُلاً له بسطَةٌ في الْخَلْـقِ وقوَّةٌ في البطشِ، وكان غائباً حين صنعَ ذلك الرجلُ بالمرأةِ ما صنعَ، فجـاء والطـاعونُ يَحُوسُ في بني إسرائيلَ، فأُخبرَ الخبرَ، فأخذ حَرْبَتَهُ وكانت مِن حديدٍ كلُّـها، ثـم دخـلَ عليه القبَّة، فوجدَهما متضاجِعَين فدَقَّهُما بحربتهِ حتى انتظَمَهما بها جميعاً، فخرجَ بهما يحملُهما بالحربةِ رافعاً بهما إلى السَّماء، والحربـةُ قـد أخذهـا بذراعـهِ واعتمـدَ بمرفقِـهِ وأسندَ الحربةَ إلى لِحيته وجعلَ يقولُ: اللَّهُمَّ هكذا نفعلُ بمَن يعصِيكَ، فرُفِعَ الطـاعونُ

من حينئذٍ عنهم. فحُسِبَ مَن هَلَكَ من بني إسرائيلَ في ذلك الطاعون، فوجدُوهم سَبعِينَ ألفاً في ساعَةٍ من نهار وهو ما بين أنْ زَنَى ذلك الرجلُ بها إلى أن قُتِلَ(١).

وقال مقاتلُ: دعَا بَلْعَمُ على موسَى وقومهِ بالاسمِ الأعظم أن لا يدخُلَ المدينةَ(٢)، فاستُجِيبَ له ووقعَ موسى وقومه في التِّيهِ بدعائهِ عليه، فقال: يا رب بأيِّ ذنبٍ وقَعنا في التِّيه؟ قال: بدُعاءِ بَلْعَمَ، قال: يا رب فكما سمعتَ دعاءَهُ فاسمع دُعائي عليه، فدعَا موسى أنِ انْزَعْ عنه الاسمَ الأعظم والإيمان، فَسَلَخَهُ اللهُ مما كان عليه، ونزعَ عنه المعرفةَ، فخرجت منه كحمامَةٍ بيضاءَ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَانسَلَخَ مِنْهَا). إلا أنَّ في هذا ما يمنعُ صحَّته ولا يجوزُ أن يستجابَ دعاؤَهُ.

ورُوي عن عبدِالله بن عمران: أنَّ الآيةَ نزلت في أمَيَّةَ بن أبي الصَّلتِ الثقفيِّ(٣)، وهو رجلٌ كان في وقتِ النبيِّ ﷺ، وكان قد أتاهُ الله العلمَ والحكمةَ، وله أشْعَارٌ في الموتِ والبعث، وكان قد عَلِمَ أنَّ الله يبعثُ نبيّاً في وقتهِ، وكان يرجُو أن يكون ذلكَ النبيَّ، فلما بعثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ ورأى من أمرِهِ ما رأى، عَزَمَ أنْ لا يؤمنَ به حَسَداً لهُ، ومعنى الآيةِ: واقرَأ يا مُحَمَّدُ خَبَرَ الذي آتيناهُ عِلْمَ آياتِنا وفَهْمَ معانيها فصارَ عالِماً بها. والنَّبأُ: الخبرُ عن أمرٍ عظيم، وقولهُ تعالى: (فَانسَلَخَ مِنْهَا) أي خرجَ من العلمِ بها إلى الجهلِ، ومن الْهُدَى إلى الضلالةِ، كما يقالُ: انسلَخَتِ الْحَيَّةُ من جِلدِها.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ؛ أي أتْبعَهُ بالتَّزْيين لذلك الضَّلال، ويقالُ: معنى أتْبَعَهُ: أدْرَكَهُ، يقال: أتْبَعْتُ القومَ إذا لحقتُهم، وتَبِعْتُهُمْ إذا سِرْتُ إليهم. وقولهُ تعالى: ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ ؛ أي كان في عِلْمِ اللهِ أن يكون في ذلك الوقتِ من الغَاوينَ، وَقِيْلَ: صارَ مِن الضَّالِّين. والغَيُّ يُذكر بمعنى الهلاكِ، ويُذكر بمعنى الْخَيْبَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ ؛ أي بالآياتِ بأنْ نُميتَهُ على الْهُدَى ونَعْصِمَهُ عن الكُفرِ ونَحُولَ بينَهُ وبين المعصيةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: لفَضَّلْنَاهُ وشرفناه ورفعناهُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٦٣) عن سالم أبي النضر.
(٢) ذكر مقاتل القصة في التفسير: ج ١ ص٤٢٤-٤٢٥.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٤٩-١١٩٥٠).

منْزلةً بالآياتِ. قال مجاهدُ وعطاء: (مَعْنَاهُ: وَلَوْ شِئْنَا رَفَعْنَا عَنْهُ الْكُفْرَ بالآيَاتِ وَعَصَمْنَاهُ، ﴿ وَلَكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي رَكَنَ إلى الأرض)، وقال مجاهدُ: (سَكَنَ إلَى الأَرْضِ)[1]، وقال مقاتلُ: (رَضِيَ بالدُّنْيَا)[2]، وَقِيْلَ: مَالَ إلى مسافلِ الأمُور، وتَرَكَ معالِيَها.

وأصلُ الإخلادِ البقاءُ والإقامَةُ واللُّزومُ على الدوام، كأنه قال: لَزِمَ الْمَيْلَ إلى الأرض؛ ليُعجِلَ الراحةَ واللَّذاتِ، يقال: فلانٌ مُخَلَّدٌ؛ أي بَطِيءُ الشَّيب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ ؛ أي انْقَادَ لهواهُ، فلم يرفعْهُ بالآياتِ، قال عطاءُ: (أرَادَ الدُّنْيَا وَاتَّبَعَ شَيْطَانَهُ)، وقال بعضُهم: (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) أي امرأتَهُ؛ لأنَّها كانت حَمَلَتْهُ على الخيانةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ ؛ اللَّهْثُ: شِدَّةُ النَّفَسِ عند الإعياءِ، وهو في الكلب طَبْعٌ، فإنَّ كلَّ شيءٍ يَلْهَثُ من إعْيَاءٍ وعطشٍ ما خَلاَ الكلبَ، فإنَّهُ يَلْهَثُ في الأحوال كلِّها، فإنَّكَ إنْ طَرَدْتَهُ وزجرتَهُ يلهثُ، وإنْ تَرَكْتَهُ يلهثُ، فكذلك الكافرُ إنْ وَعَظْتَهُ وزجرتَهُ لَمْ يتَّعِظْ، وإنْ تركتَهُ لَمْ يَعْقِلْ، وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ أنَّ الْكَافِرَ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ الْحِكْمَةَ لَمْ يَحْمِلْهَا، وَإنْ تُرِكَ عَنْهَا لَمْ يَهْتَدِ إلَيْهَا، كَالْكَلْب إنْ كَانَ رَابضاً لَهَثَ، وَإنْ طُرِدَ لَهَثَ)[3].

وَقِيْلَ: هو المنافقُ لا يُنِيبُ إلى الحقِّ دُعِيَ أم لَمْ يُدْعَ، وُعِظ أو لَمْ يُوعَظْ، كالكلب يلهثُ تُرِكَ أو طُرِدَ، وكذلك الكافرُ إنْ وعظتَهُ فهو ضالٌّ، وإنْ تركتَهُ فهو ضالٌّ كالكلب، ونظيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإنْ تَدْعُوهُمْ إلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أدَعَوْتُمُوهُمْ أمْ أنْتُمْ صَامِتُونَ﴾[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ؛ أي ذلك صفةُ المكَذِّبين بآياتنا، ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾ ؛ أي اقْصُصْ عليهم أخبارَ المنافقين؛ ليعتبِرُوا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٧٠).
(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ١ ص٤٢٥.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٧٦) بإسنادين.
(٤) الأعراف / ١٩٣.

بهم فلا يَسلِكُوا مسالِكَهم. وقوله تعالى: : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ ؛ أي رجاءَ أنْ يتفكَّروا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ؛ أي بئْسَ الوصفُ وصفُ القومِ الذين كذبُوا بآياتِنا، وهذا السُّوء إنما يرجعُ إلى فعلِهم لا إلى نفسِ الْمَثَلِ، كأنهُ قال: ساءَ فعلُهم الذي جلبَ إليهم الوصفَ القبيحَ، فأمَّا المثَلُ من اللهِ فحكمةٌ وصواب، و(مَثَلاً) منصوبٌ على التمييز، أي ساءَ المثَلُ مَثَلاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ ؛ أي إنما يَصرِفُونَ أنفُسَهم لمعصيتِهم، واللهُ تعالى لا تضرُّه معصيةُ العاصِين، ولا تنفعهُ طاعةُ المطيعين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ﴾ ؛ أي مَن يُوَفِّقْهُ اللهُ لدينهِ فهو المهتدي مِن الضَّلالة، ﴿ وَمَن يُضْلِلْ ﴾ ؛ خَذلَهُ عن دِينه، ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ ؛ الْمَغْبُونُونَ بعقوبةِ الآخرةِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ ؛ وقال ابنُ عباس: (مَعْنَاهُ: وَلَقَدْ خَلَقْنَا لِجَهَنَّمَ أهْلاً)[1]، ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ ؛ الْخَيْرَ، ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ ؛ الْهُدَى، ﴿ وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ ؛ الْحَقَّ، ﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ ؛ في المأكلِ والمَشْرَب، والذِّهنِ لا في الصُّوَر، ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ ؛ لأنَّ الأنعامَ مطيعةٌ لله تعالى، والكافرَ غيرُ مطيعٍ. وقولهُ تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ ؛ أي عن ما ينفعُهم وعن ما يحِلُّ لهم في الآخرةِ.

وَقِيْلَ: إنَّ اللامَ في قوله: (لِجَهَنَّمَ) لامُ العاقبةِ، يعني أنَّ عاقبَتَهم إلى المصيرِ إلى جهنَّم، وهذا كما قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾[2] أي كان عاقبَتُهم أن صارَ لهم عدوّاً وإلاَّ فهُم التقطوهُ ليكون لهم قُرَّةَ عَيْنٍ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ﴾[3]، ويقال:

---

(١) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٨٤) عن مجاهد.
(٢) القصص/ ٨ . (٣) القصص / ٩ .

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخرَابِ[(١)]

قال الشاعرُ:

أمْوَالُنَـا لِـذوي الْمِـيْرَاثِ نَجْمَعُـهَا وَدُورُنَـا لِخَـرَاب الدَّهْـر نَبْنِيـهَا

وقال آخرُ:

ألاَ كُـلُّ مَوْلُـودٍ فَلِلْمَـوْتِ يُولَـدُ وَلَسْـتُ أرَى حَيّـاً لِحَـيٍّ يُخَلَّـدُ

وقال آخرُ:

ولِلْمَـوْتِ تَغْـذُو الْوَالِـدَاتُ سِـخَالَهَا كَمَـا لِخَـرَاب الدَّهْـر تُبْنَـى الْمَسَـاكِنُ

وعن رسول الله ﷺ في هذه الآيةِ قال: [إنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا ذرَأ لِجَهَنَّمَ مَـا ذرَأ، كَانَ وَلَدُ الزِّنَا مِمَّنْ ذرَأ لِجَهَنَّمَ][(٢)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ ﴾ ؛ سببُ نزولِ هذه الآية: أن ((رجُلاً)) دعا اللهَ في صلاته، ودعا الرحمن، فَقَالَ أبو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ: ألَيس يزعمُ مُحَمَّدٌ ﷺ وأصحابهُ أنَّهم يعبدون رَبّاً واحداً، فما بالُ هذا يعبدُ ربَّين اثنين؟! فأنْزَلَ اللهُ هذه الآيةَ[(٣)].

ومعناها: وللهِ الصفاتُ العُلَى؛ وهي: الرحمنُ؛ والرحيمُ؛ والعزيزُ؛ والجبَّارُ؛ والمؤمنُ؛ والمهيمِنُ؛ والقدُّوس؛ وأشباهُ ذلك من الصفاتِ التي معانيها (فَادْعُوهُ بهَا) أي بالأسماءِ الْحُسنَى، لا ينبغِي أن يقولَ: يا سَخِيُّ؛ يا جَلالُ؛ يا رفيقُ، ولكن لِيَقُلْ: يا جَوَادُ يا سَخِيُّ يا قويُّ يا رحيمُ كما وصفَ بها نَعْتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَذرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أسْمَائِهِ) أي يُكذِّبون، وقال قتادةُ: (يُشْرِكُونَ)، وقال عطاءُ: (يُضَاهُونَ)، وقال ابنُ عبَّاس: (إلْحَادُهُمْ فِي أسْمَاءِ اللهِ أنَّهُمْ عَدَلُوا بهَا عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ، فَسَمَّوا بـهَا أوْثَانَـهُمْ وَزَادُوا فِيْـهَا وَنَقَصُـوا مِنْـهَا، وَاشْـتَقُّوا

---

(١) قال الشاعر:

لَـهُ مَلَـكٌ يُنَـادِي كُـلَّ يَـوْمٍ لِـدُواْ لِلْمَـوْتِ وَابْنُـوا لِلْخَـرَابِ

(٢) الحديث عن عمرو بن العاص؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الرقم (١١٩٨٢).

(٣) ذكره مقاتل في التفسير: ج ١ ص٤٢٦ وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٢٥.

اللاَّتَ مِنَ اللهِ؛ وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ؛ وَالْمَنَاةَ مِنَ الْمَنَّانِ)[١].

قرأ الأعمشُ وحمزة (يَلْحَدُونَ) بفتح الياء والحاءِ هنا وفي النحلِ[٢] وفي حم[٣]، وقرأ الباقون بضمِّ الياء وكسرِ الحاء وهما لُغتان فصيحَتان. والإلحادُ: هو الْمَيْلُ عن القَصْدِ، ورُوي عن الكسائيِّ أنه الذي في النحلِ بفتح الياءِ والحاء، والذي في الأعراف وحم بالضمِّ، وكان يفرِّقُ بين الإلحاد فيقولُ: (الإِلْحَادُ: الْعُدُولُ عَنِ الْقَصْدِ، وَاللُّحُودُ: الرُّكُونُ) ويزعمُ أن الذي في النحلِ بمعنى الرُّكون. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾؛ وعيدٌ لَهم على الكُفرِ والتكذيب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا ذكَرَ اللهُ تَعَالَى (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أمَّةٌ يَهْدُونَ بالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) قَالَ أنَاسٌ مِنْ أصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: ذكَرَ اللهُ هَؤُلاَءِ الرَّهْطَ بالْخَيْرِ الْجَسِيمِ، وَإنْ آمَنُوا بكَ وَصَدَّقُوكَ جَعَلَ اللهُ لَهُمْ أجْرَانِ، وَلَنَا أجْرٌ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ صَدَّقْنَا بالْكُتُب وَبالرُّسُلِ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أمَّةٌ يَهْدُونَ بالْحَقِّ) يَعْنِي أمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، لاَ يَخْلُو الزَّمَانُ مِنْ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ عُلَمَاء أتْقِيَاء يَدْعُونَ النَّاسَ إلَى الْحَقِّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ أي الذين كَذبُوا بدَلائِلنا سنَحُطُّهم إلى العذاب درجةً إلى أن يبلغُوا إلى العذاب، وقال عطاءُ: (سَنُمَكِّنُ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ). وقال الكلبيُّ: (نُزَيِّنُ لَهُمْ أعْمَالَهُمْ فَنُهْلِكُهُمْ). وقال الضحَّاك: (كُلَّمَا جَدَّدُوا لَنَا مَعْصِيَةً جَدَّدْنَا لَهُمْ نِعْمَةً)[٤]. وقال الخليل: (سَنَطْوِي عُمْرَهُمْ فِي اغْتِرَارٍ مِنْهُمْ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٨٩ و١١٩٩٠).

(٢) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل / ١٠٣].

(٣) قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ [فصلت / ٤٠].

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٢٩. واللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٤٠٤.

وقالَ أهلُ المعانِي: الاستدراجُ: أن تندرجَ إلى الشيءِ في خِفْيَةٍ قَلِيلاً قَلِيلاً، ولاَ يُتابَعُ ولا يُجاهَر[١]، يقال: اسْتَدْرِجْ فُلاناً حتى نعرفَ ما صنعَ؛ أي لا تُجاهِرْهُ ولا تُكثِرْ عليه السُّؤالَ دُفعةً واحدةً، ولكن كَلِّمْهُ درجةً درجة وقليلاً قليلاً حتى نعرفَ حقيقة ما فَعلَ. وَقِيْلَ: معنى قوله (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ) سنُذِيقُهم مِن بأسِنا قليلاً قليلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ ؛ أي أمهِلُهم وأطِيلُ لَهم المدةَ، فإنَّهم لا يفُوتُونَنِي ولا يَفُوتُنِي عذابُهم ولا يُعجِزُونَنِي عن تعذيبهم. وقوله: (إنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) إنَّ صُنعِي شديدٌ مُحكَم، وأخْذِي قويٌّ شديد. والكَيْدُ: هو الإصرارُ بالشَّيء من حيث لا يشعرُ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ ؛ قال الحسنُ وقتادة: (وَذلِكَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعَدَ الصَّفَا ذاتَ لَيْلَةٍ يَدْعُو قُرَيْشاً إلَى عِبَادَةِ اللهِ قَبيلَةً قَبيلَةً وفَخْذاً فَخْذاً: يَا بَنِي فُلاَن، يُحَذِّرُهُمْ بَأسَ اللهِ وَعِقَابَهُ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إنَّ صَاحِبَكُمْ قَدْ جُنَّ؛ بَاتَ لَيْلَهُ يُصَوِّتُ إلَى الصَّبَاحِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٢]. ومعناها: أوَلَمْ يتفكَّرُوا بقُلوبهم ليعلَمُوا ويَستَيقِنُوا ما بمُحَمَّدٍ ﷺ من جُنُونٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ ؛ أي ما هو إلاَّ يعلمُ لموضعِ الْمَخَافَةِ ليُتَّقى ولموضعِ الأمنِ ليُبتَغى. وقوله تعالى (مُبِينٌ) أي بَيِّنٌ أمْرُهُ؛ فهلاَّ جالَسَهُ الكفارُ فيطلبوا حقيقةَ أمرِهِ، ويتفكَّروا في دلائلهِ ومُعجزاتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ معناهُ: أوَلَمْ ينظُرُوا في السَّموات والأرض طالِبِينَ لِمَا يدُلُّهم على وحدانيَّة اللهِ تعالى، وعلى صدق رسوله في ما دعاهم إليه. والْمَلَكُوتُ: هو الْمُلْكُ العظيمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ) معناهُ: وما خلقَهُ اللهُ بعدَ السَّمواتِ والأرض، فإن ذلك يدلُّ على وحدانيَّة اللهِ تعالى مثلَ ما تدلُّ السمواتُ والأرض. (مَا) بمعنى الَّذِي.

---

(١) في المخطوط: (لا يتاعب ولا يهاجر).

(٢) عن قتادة؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٩٧).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ ؛ معنـاهُ: أوَلَـم ينظرُوا في أنْ عسـى أنْ يكـون قـد دَنَـا هلاكُـهم بعـد قيـامِ الحجَّـة عليـهم. وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ لم يُؤمِنـوا بـهذا القـرآنِ مـع وضُوحِ دَلالَتِهِ فبأيِّ حديثٍ بعدَهُ يؤمنون، وليس بعدَهُ كتابٌ منزَّل ولا نبيٌّ مرسلٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ ؛ إليـه، وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ ؛ أي ونَدَعُـهم في مُجاوزَتِـهم الحـدَّ في كُفرِهم يتجرَّأون فلا يرجعون إلى الحقِّ، ومَن قرأ (وَنَذرُهُمْ) بالنون وضـمِّ الـراء فـهو على الاستئنافِ، وتُقرأ (وَنَذرْهُمْ) بالجزمِ عطفاً على موضعِ الفاء، والمعنى: مَن يُضْلِلِ اللهُ يذره في طُغيانِهِ عامِهاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ ؛ قال الحسنُ وقتـادة: (سَأَلَتْ قُرَيْشُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ الَّتِي تُخَوِّفُنَا بهَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1]، ومعناها: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) أي أوَانِ قِيَامِهَا ومتى مَثْبَتُـهَا، يقـال: رَسَـي الشـيءُ يَرْسُو إذا ثَبَتَ، ومنه الجبالُ الرَّاسِيَاتُ؛ أي الثابتاتُ، والْمَرْسَى: مُسْتَقَرُّ الشَّيْءِ الثقيل، وقال ابنُ عبَّاس:(سَأَلَتِ الْيَهُودُ مُحَمَّداً ﷺ فَقَالُوا لَهُ: أخْبرْنَا عَنِ السَّاعَةِ إنْ كُنْتَ نَبيّاً فَإنَّا نَعْلَمُ مَتَى هِيَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[2].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ أي عِلْمُ قيامِها عند اللهِ سبحانَهُ، ما لي بها مـن علـم، (لاَ يُجَلِّيـهَا لِوَقْتِـهَا إلاَّ هُـوَ) أي لا يَكشِفُها ويُظهرُها لحينِها إلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وقـال مجـاهدُ: (أيْ لاَ يَـأْتِي بـهَا إلاَّ هُـوَ)، وقال السديُّ: (لاَ يُرْسِلُهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ)[3]. ووجهُ الامتنـاعِ عـن الإجابـةِ عـن بيـان وقتِها، أنَّ العبادَ إذا لم يعرِفُوا وقتَ قيامِها كانوا على حـذر مِـن ذلـك، فيكـون ذلـك أدعَى إلى الطاعةِ وأزجرُ عن المعصيةِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٩٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١١٩٩٩) وذكر أسماء السائلين: حَمْلُ بـن أبـي قشـير، وشمول بن زيد.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٠٦).

وقولهُ تعالى: ﴿ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (ثَقُلَ وَضْعُهَا عَلَى أهْلِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مِن انْتِثَار النُّجُومِ وَتَكْوِيرِ الشَّمسِ وَتَسْيِيرِ الْجِبَالِ). وقال قتادةُ: (ثَقُلَتْ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تُطِيقُهَا لِعِظَمِهَا). وقال السديُّ: (ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أهْلِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَلَمْ يُطِيقُوا إدْرَاكَهَا وَكُلُّ شَيْءٍ خَفِيَ فَقَدْ ثَقُلَ، وَلاَ يَعْلَمُ قِيَامَهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ ؛ أي فُجْأةً لا يعلمون وقتَ قيامِها، فتقومُ والرجلُ يسقِي ماشيتَهُ، والرجلُ يُصلِحُ حوضَهُ، والرجلُ يقيم سلعتَهُ في سُوقِهِ، والرجلُ يخفِضُ ميزانَهُ ويرفعهُ، والرجل يهوِي بلُقمتهِ في فَمِهِ، فما يدركُ أنْ يضعَها في فمهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ ؛ قال الضحَّاكُ ومجاهد: (مَعْنَاهُ كَأنَّكَ عَالِمٌ بهَا)[2]، وقال ابنُ عبَّاس: (هَذا عَلَى تَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ، مَعْنَاهُ: (يَسْأَلُونَكَ كَأنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا) أي بَارٌّ لَطِيفٌ بهم من قوله: ﴿إنَّهُ كَانَ بي حَفِيّاً﴾[3])[4]، وَقِيْلَ: معناهُ كأنَّكَ فَرِحٌ بمسألتِهم إيَّاكَ، وَقِيْلَ: معناهُ: كأنَّكَ حاكمٌ بها، يقالُ: تحَافَيْنَا إلى فلانٍ؛ أي تخاصَمْنا إليه، والحَافِي هو الحاكمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ الفائدةُ في إعادتِه ردُّ المعلوماتِ كلّها إلى اللهِ، فيكون التكرارُ على وجهِ التأكيد، وَقِيْلَ: أرادَ بالأول علمَ وقتِها، وبالثاني علمَ كُنهِهَا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ ؛ أنَّها كائنةٌ وأن عِلمَها عندَ اللهِ، وفي الآيةِ دلالةٌ على بُطلانِ قول مَن يدَّعي العلمَ بمدَّةِ الدُّنيا، ويستدلُّ بما رُوي أنَّ الدنيا سبعةُ آلاف سنة؛ لأنَّه لو كان كذلك كان قيامُ الساعةِ معلوماً، وأما قوله ﷺ: [بُعِثْتُ أنَا وَالسَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ] وَأشَارَ إلَى السَّبَّابَةِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٠٧).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٢١) عن الضحاك، والأثر (١٢٠٢٠) عن مجاهد.
(٣) مريم / ٤٧.
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩٥) وأدرجها الطبراني بالمعنى في هذا النص.

وَالْوُسْطَى[١]، فمعناهُ تقريبُ الوقتِ لا تحديدهُ كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[٢] أي بَعْثُ النبيِّ ﷺ من أشراطِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ أهْلَ مَكَّةَ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ ألاَ يُخْبِرُكَ رَبُّكَ بالسِّعْرِ الرَّخِيصِ قَبْلَ أنْ يَغْلُو فَنَشْتَرِيهِ وَنَرْبَحُ فِيْهِ، وَبالأَرْضِ الَّتِي تُرِيدُ أنْ تُجْدِبَ فَنَرْتَحِلَ عَنْهَا إلَى مَا أخْصَبَ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٣]. ومعناها: قُل يا مُحَمَّدُ لا أقدرُ على نفعٍ أجُرُّهُ إلى نفسِي، ولا على ضُرٍّ أدفعهُ عن نفسِي إلا ما شاءَ اللهُ أنْ يُمَلِّكَنِي بالتمكينِ من ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ ﴾ ؛ أي لو كنتُ أعلمُ جُدوبَةَ الأرضِ وقحطَ المطرِ لادَّخرتُ من السَّنة المخصبَةِ للسَّنة الْجَدِبَةِ، ﴿ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ ﴾ ؛ الفقرُ. وَقِيْلَ: معناهُ: لو كنتُ أعلمُ متى أموتُ لبادرتُ بالأعمالِ الصالحة قبلَ اقترابِ الأجَلِ، فلم أشتغِلْ بغيرِها ولا بي جنونٌ ولا آفةٌ كما يقولون.

وَقِيْلَ: معناهُ: لو كنت أعلمُ متى السَّاعة لبادرتُ بالجواب عن سؤالِكم، فإنَّ المبادرةَ إلى جواب السائل تكون استكثاراً من الخيرِ وما مَسَّنِيَ التكذيبُ منكم. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ ؛ أي ما أنا إلا مُعَلِّمٌ بموضعِ الْمَخَافَةِ لِيُتَّقى ولموضعِ الأمنِ لِيُختَارَ، ﴿ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ ؛ بالبعثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ ؛ أي نفس آدمَ، ﴿ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ ؛ أي خَلَقَ حوَّاءَ من ضِلْعٍ من أضلاعهِ، ﴿ لِيَسۡكُنَ

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: باب (٣٩): الحديث (٦٥٠٣) عن سهل بن سعد. ويشير بإصبعيه فيمدهما، والحديث (٦٥٠٤) عن أنس، والحديث (٦٥٠٥) عن أبي هريرة، وفيه: ((يعني إصبعيه)). ومسلم في الصحيح: كتاب الفتن: الحديث (١٣٣ و١٣٤/ ٢٩٥١) عن أنس من طرق عديدة.

(٢) محمد / ١٨.

(٣) في الدر المنثور: ج ٣ ص٦٢٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي الشيخ وابن أبي حاتم عن ابن عباس.. وذكره بلفظ قريب منه). وينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج٩ ص٤١٤.

﴿إِلَيۡهَاۖ﴾؛ أي ليطمئِنَّ إليها ويستأنسَ بها ويأوي إليها لقضاءِ حاجته منها، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾؛ أي جامَعَها، ﴿حَمَلَتۡ﴾؛ ماءَهُ، ﴿حَمۡلًا خَفِيفًا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾؛ فاستمرَّت بذلكَ الماءِ؛ أي قامت وقعَدَتْ كما كانت تفعلُ قبلُ وهي لا تدري أنه حَبَلٌ أم لا، ولم تَكْتَرِثْ بحملِها، يدلُّ عليه قراءةُ ابنِ عبَّاس: (فَاسْتَمَرَّتْ بِهِ)[1]. وقال قتادةُ: (مَعْنَى (فَمَرَّتْ بِهِ) اسْتَبَانَ حَمْلُهَا)[2]، وقرأ يحيى بن يعمُر: (فَمَرَتْ بِهِ) مخفَّفاً من الْمِرْيَةِ؛ أي شَكَّتْ أحملتْ أم لا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾؛ أي لَمَّا كَبرَ الولدُ في بطنِها وتحرَّكَ وصارت ذاتَ ثُقْلٍ بحملِها وشقَّ عليها القيامُ، أتاها إبليسُ في صورةِ رجُل، فقال: يا حوَّاء ما هذا في بطنِكِ ؟ قالت: ما أدري، قال: إنِّي أخافُ أن يكون بَهيمةً، وذلك أوَّلَ ما حَملت، فقالت ذلك لآدمَ ﷺ، فلَم يزَالاَ في هَمٍّ من ذلك.

ثُم عادَ إبليسُ إليها فقالَ: يا حوَّاء أنَا مِن الله بمَنْزِلَةٍ! فإن دعوتُ اللهَ ربي إنساناً تُسَمِّيهِ بي؟ قالت: نَعَمْ، قال: فإنِّي أدعُو اللهَ، وكانت هي وآدمُ يدعُوَان اللهَ، ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾؛ ولداً حَسَنَ الْخَلْقِ صحيحَ الجوارحِ مثلَنا، ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾؛ لكَ في هذه النعمةِ، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا﴾؛ سَويّاً صحيحاً أتاها إبليسُ فقال لها: عهدي! قالت: ما اسمك ؟ قالَ: الحرثُ ولو سَمَّى نفسَهُ فقال عزرائيلَ لعرفتهُ، ولكنه تسمَّى بغيرِ اسمه فسمته: عبدُ الحرثِ، ورَضِيَ آدمُ فعاشَ الولدُ أيَّاماً حتى ماتَ[3].

وهذا لا يصحُّ؛ لأنَّ حوَّاء وإنْ لم تكن نَبيَّةً فهي زوجةُ نَبيٍّ، وفي الآيةِ ما يدلُّ على ذلك؛ لأن اللهَ تعالى قال: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾؛ ومثلُ هذه

---

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٤١٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٣٢).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٣٨؛ قال القرطبي: (ونحو هذا مذكور في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره. وفي الإسرائيليات كثير وليس لها ثبات، لا يعوِّل عليها من كان له قلبٌ؛ فإن آدم وحواء وإن غرهما بالله الغرور، فلا يلدغ المؤمن من جُحر مرتين، على أنه قد سُطِّر وكتب). وأخرجه الترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٠٧٧)، وقال: (هذا حديث حسن غريب) وإسناده ضعيف.

القبائحِ لا يصحُّ إضافتُها إلى الأنبياءِ، ولأنَّ الله تعالى قالَ: ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ ؛ ولأن الواحدَ مِنَّا لو أتاهُ مَن يبعثهُ على أن يُسَمِّي ولدَهُ عبدَ شمسٍ أو عبدَ العُزَّى أو نحوَ هذا، لَم يَقْبَلْ ذلك، ولو أمكنَهُ أن يعاقبَهُ على ذلك فعلَ، فكيفَ يجوزُ مثل هذا على آدمَ ؟ وقد رفعَ الله قَدْرَهُ بالنبوَّة.

وقال الحسنُ: (معناهُ: إنَّ اللهَ خَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ وجَعَلَهَا سَكَناً لَهُ، وَكَذلِكَ حَالُ الْخَلْقِ مَعَ أزْوَاجِهِمْ، كَأنَّهُ قَالَ: وَجَعَلَ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ زَوْجَهَا، كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أخْرَى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أنفُسِكُمْ أزْوَاجاً﴾)[1].

قال الحسنُ: (انْقَضَتْ قِصَّةُ آدَمَ عِنْدَ قَوْلِهِ (لِيَسْكُنَ إلَيْهَا) ثُمَّ أخْبَرَ اللهُ عَنْ بَعْضِ خَلْقِهِ أنَّهُ تَغَشَّى زَوْجَتَهُ فَحَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ، فَلَمَّا أثْقَلَهَا مَا فِي بَطْنِهَا دَعَوا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَشْكُرَنَّكَ، فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ بعَمَلِهِمَا الَّذِي عَمِلاَهُ بأنْ هَوَّدَاهُ أوْ نَصَّرَاهُ أوْ مَجَّسَاهُ؛ أيْ عَلَّمَاهُ شَيْئاً مِنَ الأدْيَان الْخَبيثَةِ الَّتِي يَدْعُو إلَيْهَا إبْلِيسُ، وَلِهَذا أعْظَمَ اللهُ شَأنَهُ فِي آخِرِ الآيَةِ فَقَالَ (فتَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ)، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بالآيَةِ آدَمَ وَحَوَّاءَ لَقَالَ: عَمَّا يُشْرِكَان). يقالُ: إنَّ حوَّاء كانت تلدُ في كلِّ بطنٍ ذكراً وأنثى، ويقال: ولدَتْ لآدمَ في خمسمائةِ بَطْنٍ ألفَ ولدٍ.

وقُرِئَ (جَعَلاَ لَهُ شِرْكَاً) بكسر الشين على المصدر، وكان من حقِّه أن يُقال على هذه القراءة جعَلاَ لغيرهِ شِرْكاً؛ لأنَّهما لا يُنكران أنَّ الأصلَ للهِ، ويجوزُ أن يكون معناهُ: جعلا له ذا شِرْكٍ فحُذف كما في قولهِ ﴿وَاسْألِ الْقَرْيَةَ﴾[2] أي أهلَ القريةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا ﴾ ؛ معناه أيُشركون في العبادةِ ما لا يقدرُ على خلقِ شيءٍ يستحقُّ به العبادةَ؛ لأن الخلقَ هو الذي يدلُّ على اللهِ، واللهُ تعالى إنما يستحقُّ العبادةَ على الخلقِ لخلقهِ أصُولَ النِّعم التي لا يقدرُ عليها أحدٌ سواهُ، مثل الحياةِ والسَّمع والبصر والعقل، فإذا لم تقدر الأصنامُ على خلقِ شيء لم تحسن عبادتُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ ؛ معناه: الأصنامُ مخلوقة منحوتةٌ، وَقِيْلَ: أرادَ به الأصنامَ والعابدِين جميعاً.

---

(١) الروم / ٢١ (٢) يوسف / ٨٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ ؛ أي لا يستطيعُ الأصنام دفعَ ضُرٍّ عنهم، ولا جلبَ نَفْعٍ إليهم، ﴿ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ ؛ ولا أن تنصُرَ نفسَها بأن تدفعَ عن نفسِها مَن أرادَها بسوءٍ. فإن قِيْلَ: كيف قال: ولا أنفسَهم على لفظِ من يعقِلُ والأصنامُ مواتٌ؟ قِيْلَ: لأن الكفارَ كانوا يصوِّرون منها على صورةِ مَن يعقلُ، ويُجرُونها مجرَى من يعقلُ، فأجرَى عليها لفظَ ما قدَّروا ما هم عليه.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ ؛ أي إن تدعُوا الأصنامَ إلى الهدى لَم تقبلِ الهدى، فإنَّها لا تَهدي غيرَها، ولا تَهتدِي بأنفسِها ولا تردُّ جَواباً، وإنْ دعت إلى الهدى ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ أم صَمَتُّمْ عنهم لا يتَّبعوكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ؛ أرادَ الأصنامَ مملوكةً مخلوقة أشباهُكم، سَمَّاها عِباداً لأنَّهم صوَّرُوها على صورةِ الإنسان، وقولُهُ تعالى: ﴿ فَٱدْعُوهُمْ ﴾ ؛ ليس هو الدعاءَ الأوَّل، ولكن أرادَ فادعُوهم في مهمَّاتكم عند الحاجةِ إلى كشفِ الأسواءِ عنكم.

وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾ ؛ أي صيغتهُ صيغة أمر[1]، ومعناه التعجيزُ؛ أي فَلْيَسْتَجِيبُوا لكم، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ ؛ في أنَّها آلهةٌ.

قوله تعالى: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إن معبودي ينصرُني ويدفعُ كيدَ الكائدين عنِّي، ومعبودُكم لا يقدرُ على نصركم، فإن قدرتُم أنتم على ضرٍّ فاجتمِعُوا أنتم مع الأصنامِ على كيدِ ولا تؤجِّلونِي.

وهذا لأنَّهم كانوا يخوِّفون النبيَّ ﷺ بآلهتِهم، عرَّفَ اللهُ الكفارَ بهذه الآية أنَّهم مفضَّلون على الأصنامِ؛ لأن لهم جوارحَ يتصرَّفون بها وليس للأصنامِ ذلك، فكيف

---

(١) في المخطوط: (صيغته صفة) والمعنى لا يستقيم، والصحيح كما أثبتناه. في اللباب في علوم الكتاب؛ قال ابن عادل: واللام؛ لام الأمر على معنى التعجيز).

يعبدُون مَن هم أفضلُ منهم ؟! فالعجبُ من أنفسِهم عن اتِّباع النبيِّ ﷺ مع ما أيَّدَهُ اللهُ به من الآياتِ والمعجزات والدلائلِ الظاهرة؛ لأنه بشرٌ مثلُهم، ولم يأنفوا من عبادةِ حَجَرٍ لا قدرةَ له ولا تصرُّف، وهم أفضلُ منه في القدرة على التصرُّف.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؛ معناهُ: يتولَّى حِفظَهم، ويكلؤُنِي ويتولَّى أمرِي الذي أنعمَ عليَّ بإنزال القرآن، ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ ؛ أي يتولَّى حِفظَهم، لا يكِلُهم إلى غيرِهِ ولا تضرُّهم عداوةُ مَن عاداهم.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ ؛ الآية قد تقدَّم تفسيرهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ﴾ ؛ أي كما أنَّها لا تُهدي غيرَها فلا تسمعُ الهدى، ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ فاتحةً أعيُنهم نحوَكم يعني الأصنامَ ينظرون إليك، ﴿ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم كانوا يصوِّرُونَها فيجعلون لها أعيُناً وآذاناً وأرجُلاً، فإذا نظرَ الناظرُ اليها خُيِّلَ إليه أنَّها تنظرُ إليه وهي لا تبصرُ، أو كانوا يلطِّخُون أفواهَ الأصنامِ بالخلوف والعسَلِ، وكانت الذبابُ يجتَمِعن عليها، فلا تقدرُ على دفعِ الذُّباب عن أنفُسِها.

وقال بعضُهم: معناهُ: وتراهم كأنَّهم ينظُرون إليك كقوله تعالى ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾[1] أي كأنَّهم سُكارى، وقال مقاتلُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ: (وَإنْ تَدْعُوهُمْ إلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا) أيْ إنْ تَدْعُو يَا مُحَمَّدُ أنْتَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُفَّارَ مَكَّةَ إلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا، (وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ) الْهُدَى).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس والسديُّ: (مَعْنَاهُ: خُذِ الْفَضْلَ مِنْ أمْوَالِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ﴾[2] وَهَذا إنَّمَا كَانَ قَبْلَ فَرْضِ الزَّكَاةِ، فَصَارَ مَنْسُوخاً

(١) الحج / ٢ .
(٢) البقرة / ٢١٩ .

بالزَّكَاةِ)[1]. وقال الحسنُ ومجاهد: (خُذِ الْعَفْوَ مِنْ أخْلاَقِ النَّاسِ فِي الْقَضَاءِ وَالاقْتِضَاءِ وَقَبُولِ عُذْرِهِمْ وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ مَعَهُمْ وَمَا يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ)[2].

وأصلُ العفوِ التركُ من قولهِ تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أخِيهِ شَيْءٌ﴾[3] أي تُرِكَ، والعفوُ عن الذنب تركُ العقوبةِ. ويقالُ: معنى العفو الْمُسَاهَلَةُ في الأمور، يقالُ: خُذْ ما أتاكَ عَفْواً؛ أي سَهْلاً. وعنِ النبيِّ ﷺ: أنَّهُ سَأَلَ جِبْرِيلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ فَقَالَ: حَتَّى أسْأَلَ، فَذهَبَ جِبْرِيْلُ فَقَالَ: [يَا مُحَمَّدُ؛ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ مَنْ ظَلَمَكَ][4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأمُرْ بِالْعُرْفِ) أي بالمعروفِ الذي تعرفُ العقلاء صِحَّتَهُ، وقال عطاءُ: (يَعْنِي لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ). وقولهُ تعالى: (وَأعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) أي عن أبي جهلٍ وأصحابهِ، نَسَخَتْهَا آيَةُ السَّيفِ. ومعنى الإعراضِ عنهم؛ أي أعرِضْ عنهم بعدَ إقامة الحجَّة عليهم، ووقوعِ الإيَاسِ عن قَبولِهم، ولا تُقابلْهم بالسَّفَهِ ولا تُجاوبْهم استخفافاً بهم وصيانةً لقَدرِكَ، فإنَّ مجاوبَةَ السَّفيهِ تضعُ القدرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ ﴾ ؛ معناهُ: إمَّا يُغرِيَنَّكَ بالوسوسةِ عند الغضب فَالْتَجِئ إلى اللهِ واستَغِثْ بهِ،﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ ﴾ ؛ لدُعائِكَ، ﴿ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ ؛ بكَ. والنَّزْغُ هو الإزعاجُ بالحركةِ إلى الشَّرِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين اتَّقَوا الشِّركَ والمعاصي إذا مسَّهُم وسوسةٌ من الشيطان بإلقاء خواطر الشَّرِّ عليهم، فَزِعُوا إلى تذكُّر ما أوضحَ اللهُ من الحجَّة،﴿ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ ؛ عواقبَ أمُورهم، يرجِعون من الهوَى إلى الْهُدَى.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٦٦) عن ابن عباس، والأثر (١٢٠٦٧) عن السدي، والأثر (١٢٠٦٨) عن الضحاك، وأدرجها الطبري في المتن بنص واحد.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٦٥) بمعناه.

(٣) البقرة / ١٧٨ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٧٠ و١٢٠٧١).

قرأ النخعيُّ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو والكسائي (طَيْفٌ)، وقرأ الباقون (طَايفٌ) وهما لُغتان وَقِيْلَ: الطائفُ ما يطوفُ حولَ الشيءِ، والطَّيْفُ: الوسوسةُ والْخَطْرَةُ، وَقِيْلَ: الطائفُ ما طافَ به من الوسوسةِ، والطَّيفُ اللَّمْزُ والْمَسُّ. وقرأ سعيدُ بن جبير (طَيِّفٌ) بالتشديدِ، وقال الكلبيُّ: (طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ: ذَنبٌ)، وقال مجاهدُ: (الْغَضَبُ)(١)، وعن مجاهد: (هُوَ الرَّجُلُ يَهُمُّ بالذنب فَيَذْكُرُ اللهَ فَيَدَعُهُ)، وقال السديُّ: (مَعْنَاهُ: إذا أَذْنَبُوا تَابُوا)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ﴾ ؛ أي وإخْوَانُ المشركين وهم الشياطينُ يدعُونَهم إلى المعاصِي والجهلِ، يقال لكلِّ كافرٍ أخٌ من الشَّياطين يَمُدُّهُ في الغيِّ. قرأ نافعُ (يُمِدُّونَهُمْ) بضمِّ الياء وكسرِ الميم وهما لُغتان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢ ﴾ ؛ أي لا يُقصِرُ إخوانُ المشركين من الوسوسةِ؛ لأنَّهم إذا علِمُوا قَبُولَهم لقولِهم زادُوا في إغوائِهم، وزادَ الكفارُ في طاعتِهم لَهم، فلا يقصِرُون كما يقصِرُ المتَّقون.

وَقِيْلَ: معنى قولهِ تعالى: (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ) يعني إخوان الشَّياطين وهم الضُّلاَّلُ يَمُدُّونَ المشركين في الغَيِّ. قرأ الجحدريُّ (يُمَادُّونَهُمْ)، وقرأ عيسى (ثُمَّ لاَ يَقْصُرُونَ) بفتح الياء وضم الصاد(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ ؛ معناهُ: وإذا لَمْ تَأتِهم يا مُحَمَّدُ بالآيةِ التي سَألوكَهَا تَعَنُّتاً قالُوا: هلاَّ طلَبْتَها من اللهِ فتأتِيَنا بها. وَقِيْلَ: معناهُ: هلاَّ أتيتَ بها من تِلقَاءِ نفسِكَ ؟ قال الحسنُ: (كَانُوا إذا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ كَذبُوا بهَا، وَإذا أبْطَأَتْ عَلَيْهِمُ الْتَمَسُوهَا).

وقولُهُ تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ أي قُل لَهم: ليستِ الآياتُ إلَيَّ، ولكنَّ الله يُوحِي بها عَلَيَّ ما يعلمُ من المصلحةِ، وليس لي أنْ أسألَهُ إنزالَها إلاَّ إذا أذِنَ لِي في سُؤالِها. هذا القرآنُ بَصائِرُ من

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٧٩) بأسانيد.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٨٢) وقال: ((إذا زَلُّوا تَابُوا)).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٥٢.

ربكم، ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ ؛ أي حُجَجٌ من ربكم وهُدًى من الضَّلالةِ ونجاةٌ من العذاب، ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ ؛ يُصَدِّقُونَ أنه مِن اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ قال ابنُ عبَّاس وابنُ مسعود وأبو هُريرة وسعيدُ بن جُبير وسعيد بن المسيَّب والزهريُّ: (إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الصَّلاَةِ)[1]. عن أبي العاليةِ الرباحيِّ قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا صَلَّى، قَرَأَ أصْحَابُهُ خَلْفَهُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ)[2]، وقال بعضُهم: المرادُ بالآيةِ وقتَ نُزولِ القرآنِ، أمَرَهُم اللهُ بالاستماعِ والإنصَاتِ.

وقال الزجَّاجُ: (يُحْتَمَلُ أنْ يَكُونَ مَعْنَى الاسْتِمَاعِ الْعَمَلُ بمَا فِيْهِ)[3]، وعن ابنِ عبَّاس قال: (كَانَ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ يَتَكَلَّمُونَ فِي الصَّلاَةِ وَيَأْمُرُونَ بحَوَائِجِهِمْ، وَيَجِيءُ الرَّجُلُ إلَى الرَّجُلِ فَيَقُولُ لَهُ: كَمْ صَلَّيْتُمْ؟ فَيَقُولُ كَذا، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). والقولُ الأوَّل أصحُّ وأقربُ إلى ظاهرِ الآية؛ لأنه ليس في الآيةِ تخصيصُ زَمانٍ دون زمان، ولا يجبُ علىالقومِ الإنصاتُ لقراءةِ مَن يقرأ في غيرِ الصَّلاة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون الخطابُ في هذه الآيةِ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ به جميعُ الخلقِ، ويجوزُ أن يكون المعنى: واذكُرْ ربَّكَ أيُّها المستمعُ للقرآنِ إذا تُلِيَ عليكَ.

وقولهُ تعالى: (فِي نَفْسِكَ) يعني التفكُّرَ في النفسِ والتعرُّضَ لنِعَمِ اللهِ مع العلمِ بأنه لا يقدرُ عليها أحدٌ سواهُ، وأنه متى شاءَ سَلَبَها منه. والمراد بقوله: (وَدُونَ الْجَهْرِ) المتكلِّم بذكرِ الله على وجهِ الخِيفَةِ بالتضرُّعِ إليه والمخافَةِ منه، ولأن أفضلَ الدُّعاء ما

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٠٩٩) عن ابن عباس، والأثر (١٢١٠٠) عن الزهري، والأثر (١٢١٢٠) عن ابن مسعود.

(٢) في الدر المنثور: ج ٣ ص٦٣٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي العالية... وذكره).

(٣) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٢ ص٣٢٢؛ قال الزجاج: (ويجوز أن يكون (فاستمعوا له وأنصتوا) اعملوا بما فيه ولا تجاوزوا).

كان خَفِيّاً على إخلاصٍ وخضُوعٍ لا يشوبهُ رياءٌ وسُمعَةٌ. وقولهُ تعالى (فِي نَفْسِكَ) إشارةٌ إلى الإخلاصِ.

وَقِيْلَ: المرادُ بقوله (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ) الذكرُ بالكلامِ الخفيِّ، وبقوله (دُونَ الْجَهْرِ) إظهار الكلامِ بالصَّوت العالِي. وقال ابنُ عباس:(مَعْنَى (وَاذْكُرْ رَبَّكَ) يعني القراءةَ في الصَّلاة (تَضَرُّعاً) أي جهراً (وَخِيفَةً) أي سِرّاً (دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ) أيْ دُونَ رَفْعِ الصَّوتِ فِي خَفْضٍ وسُكُونٍ سَمِّعْ مَنْ خَلْفَكَ الْقُرْآنَ).

وقال أهلُ المعاني: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ) أي اتَّعِظْ بالقرآن واعتبرْ بآياته، واذكُر ربَّكَ في ما يأمرُكَ بالطاعةِ (تَضَرُّعاً) أي تَواضُعاً وتخشُّعاً (وَخِيفَةً) أي خِيفَةً من عقابهِ. وقال مجاهدُ: (أمَرَ أنْ يُذْكَرَ فِي الصُّدُور، وَأمَرَ بالتَّضَرُّعِ وَالاسْتِكَانَةِ، وَيُكْرَهُ رَفْعُ الصَّوْتِ وَالنِّدَاءُ وَالصِّيَاحُ فِي الدُّعَاءِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بِالْغُدُوِّ وَالآصَال) أي صلاةُ الغدَاةِ والمغرب والعشاء، والأصيلُ في اللغة: ما بين العصر إلى اللَّيل، وجمعهُ أُصُلٌ، ثم آصَالٌ جَمْعُ الجمعِ، ثم أصَائِلٌ. وَقِيْلَ: يعني (بالْغُدُوِّ وَالآصَال): البكرَ والعِشَاءَ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ ﴾ ؛ زيادةُ تحريضٍ على ذكرِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ كَي لا يَغفلَ الإنسانُ عن ذلك في أوقاتِ العبادة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ ﴾ معناهُ: أن الملائكةَ المقرَّبين الذين أكرَمَهم اللهُ لا يتعَظَّمون عن طاعتهِ إن استكبرتُم أنتم فَهُمْ أفضلُ منكم، وهم الملائكةُ لا يستكبرون عن عبادتهِ وينَزِّهُونَهُ عن ما لا يليقُ به، ﴿ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦ ﴾ ؛ أي يُصَلُّونَ فيَخِرُّونَ له سُجَّداً في صلاتِهم. وقوله تعالى: (عِنْدَ رَبكَ) يريدُ قُربَهم من الفضلِ والرَّحمةِ لا من حيث المكانُ والمسافة.

وعن معاذِ بن جبلٍ عن رسول الله ﷺ أنه قال: [كَانَ جِبْرِيْلُ عليه السلام إذا أقْبَلَ بشَيْءٍ مِنَ الْقُرْآن فِيْهِ سُجُودٌ قَرَأ ثُمَّ يَخِرُّ سَاجِداً وَيَأْمُرُنِي بذلِكَ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ وَاجِبٌ عَلَيْكَ وَعَلَى أمَّتِكَ]. وعن إبراهيمَ قال: (مَنْ قَرَأ آخِرَ الأعْرَافِ إنْ شَاءَ رَكَعَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢١٢٨) مختصراً.

وَإِنْ شَاءَ سَجَدَ). وعن أُبَي بن كعبٍ عن رسول الله ﷺ أنـه قـالَ: [مَـنْ قَـرَأَ سُـورَةَ الأَعْرَافِ جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّار سِتْراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَانَ آدَمُ شَفِيعاً لَهُ][1].

آخر تفسير سورة (الأعراف) والحمد لله رب العالمين

(١) هو جزء من حديث طويل في فضائل القرآن سورة سورة، وهو حديث موضوع.

سُـــورَةُ الأَنْفَـــالِ

سُورَةُ الأَنْفَـال مَدَنِيَّـةٌ، وَهِـيَ خَمْسَـةُ آلاَفٍ وَثَمَـانُونَ حَرْفـاً، وَأَلْـفٌ وَخَمْـسٌ وَتُسْعُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَسَبْعُونَ آيَةً(١).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ ﴾ ؛ أي عن الغَنَائِمِ، ﴿ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ ﴾ ؛ الغنـائمُ؛ ﴿ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ ﴾ ؛ الإضافةُ للغنائمِ إلى اللهِ على جهـةِ التشـريفِ، والإضافـةُ إلى الرسول لأنه كان بيانُ حُكمِها وتدبيرِها إليه؛ لأن الغنائمَ كانت كلُّها لهُ كمـا قـال ﷺ في وبَرَةٍ أخَذهَا سِنَامَ بَعِيرٍ مِنَ الْفَيْءِ: [وَاللهِ مَـا يَحِـلُّ لِـي مِـنْ فَيْئِكُـمْ إلاَّ الْخُمْـسُ، وَالْخُمْسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ](٢).

وَقِيْلَ: لِما سألوهُ عن الغنائمِ؛ لأنَّها كانت حرَاماً علـى مَـن قبلـهم، كمـا قـال عليه السلام: [لَمْ تُحَلَّ الْغَنَائِمُ لِقَوْمٍ سُودِ الرُّؤُوسِ قَبْلَكُـمْ، كَـانَتْ تَـنْزِلُ نَـارٌ مِـنَ السَّـمَاءِ فَتَأْكُلُهَا](٣). وإنما سُميت الغنائمُ أنْفَـالاً؛ لأنَ الأنفـالَ جمـعُ النَّفْـلِ، والنفـلُ الزِّيَـادَةُ، والأنفالُ مما زادَهُ اللهُ هذه الأُمة من الحلالِ، والنافلةُ من الصَّلاةِ ما زادَ على الفـرضِ، ويقال لولدِ الولد: نافلةٌ؛ لأنه زيادةٌ على الولدِ.

---

(١) مدنية بَدريَّةٌ في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء، وقـال ابـن عبـاس: ((هـي مدنيـة إلا سـبع آيات، من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر سبع آيات)). والأصح أنها نزلـت بالمدينة وإن كانت الواقعة بمكة. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج٧ ص٣٦٠. واللبـاب في علـوم الكتاب: ج ٩ ص٢٤٣. والدر المنثور: ج ٤ ص٣.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الجهاد: باب في الإمام يستأثر شيئاً من الفيء لنفسـه: الحديـث (٢٧٥٥)، وإسناده صحيح عن عمر بن عنبسة.

(٣) أخرجه الترمذي في الجامع: التفسير: الحديث (٣٠٨٥)؛ وقال: حسـن صحيـح. وفي الإحسـان ترتيب صحيح ابن حبان: كتاب السير: الحديث (٤٨٠٦).

وعن ابن عبَّاس في سبب نُزول هذه الآيةِ: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ رَغَّبَ أصْحَابَهُ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ: [مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَلَهُ كَذا، وَمَنْ جَاءَ بأسِيرٍ فَلَهُ كَذا] فَلَمَّا هَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ سَارَعَ الشَّبَابُ، وَأقْبَلُوا بالأسَارَى، وَأقَامَ الشُّيُوخُ عِنْدَ الرَّايَاتِ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ مَخَافَةَ أنْ يَغْتَالَهُ أحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَوَقَعَ الاخْتِلاَفُ بَيْنَهُمْ فِي اسْتِحْقَاقِ الْغَنِيمَةِ، فَقَالَ الَّذِينَ ثَبَتُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: قِيَامُنَا أفْضَلُ مِنْ ذهَابِهِمْ، فَلَوْ أعْطَيْتَهُمْ مَا وَعَدْتَهُمْ لَمْ يَبْقَ لَنَا وَلاَ لِعَامَّةِ أصْحَابكَ شَيْءٌ. وقَالَ الآخَرُونَ: نَحْنُ قَتَلْنَا وَأسَرْنَا. وَكَانَ ذلِكَ مُرَاجَعَةً بَيْنَهُمْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَاكِتٌ لاَ يَقُولُ شَيْئاً، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

ومعناها يسألونك عن الأنفال لِمَن هي، ويجوز أن يكون (عن) صلةً في الكلام، والمعنى يَسألونكَ الأنفالَ التي وعدتَهم يومَ بدر، قلِ الأنفالُ للهِ والرسول ليس لكم فيها شيءٌ. قال عُبادة بن الصَّامت: (لَمَّا اخْتَلَفْنَا فِي غَنَائِمِ بَدْرٍ وَسَاءَتْ أخْلاَقُنَا، نَزَعَهَا اللهُ مِنْ أيْدِينَا وَجَعَلَهَا إلَى رَسُولِهِ وَقَسَمَهَا بَيْنَنَا عَلَى سَوَاءٍ)[2]. وَقِيلَ: إنَّ التَّنْفِيلَ المذكورَ في هذه الآيةِ لروايةٍ غَلَطٍ وقعَ من الرَّاوي؛ لأنه لا يجوزُ على النبيِّ ﷺ خَلْفُ الوَعْدِ واسترجاعُ ما جعلَهُ لأحدٍ منهم، والصحيحُ: أنَّهم اختلَفُوا في الغنائمِ من غير تَنْفِيلٍ كان من رسول الله ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا مَعاصِيَهُ واحذروا مخالفةَ أمرِهِ وأمرَ رسولِهِ، (وَأصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ) أي كونوا مُجتَمعين على ما يأمرُكم به اللهُ ورسولُهُ، ﴿ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ؛ في الغنائمِ وغيرِها، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ ، كما تَزعُمون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ صِفَتَهم إذا ذُكر اللهُ عندَهم فَزِعَتْ قلوبُهم عند الموعظةِ. والوَجَلُ: هو الخوفُ مع شدَّة الْحُزن، والمعنى ليس المؤمنُ الذي يخالِفُ اللهَ ورسولَهُ (إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢١٥٣) بأسانيد. وفي الدر المنثور: ج ٤ ص٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل... وذكره)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢١٥٥) بإسنادين صحيحين.

ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ ؛ أي قُرِئت عليهم آياتهُ بالأمر والنَّهي، ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ ؛ يقيناً وبصيرةً بالفرائضِ مع تصديقِهم باللهِ ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي يُفوِّضُونَ أمُورَهم إلى اللهِ لا يَثِقُونَ بغيرِه.

ثُم زادَ في نعتِ المؤمنينَ فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ أي يُقيمونَها بوضُوئِها وركُوعِها وسُجودِها في مواقيتِها، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ ؛ أعطَيناهُم من الأموال، ﴿ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ، في طاعةِ الله، وإنَّما خصَّ اللهُ الصلاةَ والزكاةَ؛ لعِظَمِ شأنِهما وتأكيدِ أمرِهمَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفةِ الذين تقدَّم ذِكرُهم الذين استحَقُّوا هذه الصفةَ صِدْقاً، ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي لَهم فضائلُ ومنازل في الرِّفعةِ في الآخرةِ على قدر أعمالِهم، ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ ؛ لذُنوبهم؛ ﴿ وَرِزْقٌ ﴾ ؛ وثوابٌ حَسَنٌ؛ ﴿ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ في الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ وذلك أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بَلَغَهُ أنَّ عِيرَ قُرَيشٍ أقبلَتْ من الشَّام، وفيهم أبو سُفيان ومَخْرَمَةُ بنُ نوفَل في أربعينَ رجُلاً من قريشٍ تُجَّاراً، فقالَ عليه السلام لأصحابهِ: [هَذِهِ عِيْرُ قُرَيْشٍ قَدْ أقْبَلَتْ، فَاخْرُجُوا إلَيْهَا، فَلَعَلَّ اللهَ أنْ يَنْفِلُكُمُوهَا فَتَنْتَفِعُوا بهَا عَلَى عَدُوِّكُمْ][(١)] . فَيُعِدُّوا على نواضِحِهم ومعهم فارسان لا غيرَ؛ أحدُهما الزُّبير والآخر المقدادُ، فخَرجُوا بغيرِ قوَّة ولا سلاحٍ، وهم ثلاثُمائة وثلاثة عشر رجلاً لا يَرَونَ أنه يكون قتالٌ.

فبلغَ ذلك أبو سُفيان، فأرسلَ من الطريقِ ضَمْضَمَ بنِ عمرو الغفاري يُخبرُ أهلَ مكَّة أن مُحَمَّداً قد اعترضَ لعيرِكم فأدركُوها. فنَزلَ جبريلُ عليه السلام على رسول الله ﷺ فأخبرَهُ بنَفَرِ المشركين يُريدون عِيرَهم، وقالَ: [يَا مُحَمَّدُ إنَّ اللهَ يَعِدُكَ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، إمَّا الْعِيرُ وَإمَّا الْعَسْكَرُ] فأخبرَ بذلك رسولُ الله ﷺ المسلمينَ فسرُّوا بذلكَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٢٠٠). وينظر شرح الطبري في جامع البيان: للأثر (١٢١٩٦) وتفسيره للآية.

وأعجبَهم، فاستشارَ رسولُ الله ﷺ حين عرفَ أنَّهم لا يُخالِفونَهُ، فقالوا لهُ: (وَاللهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَخُوضَ الْبَحْرَ لَخُضْنَاهُ) ثم أخبرَهم أن في المشركين كَثْرَةً فشُقَّ على بعضِهم وقالوا: أَلاَ كُنْتَ أَخْبَرْتَنَا أَنَّهُ يَكُونُ قِتَالٌ، فَنُخْرِجَ سِلاَحَنَا وَقُوَّتَنَا، إنَّمَا خَرَجْنَا فِي ثِيَابنَا نُرِيدُ الْعِيْرَ. فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ وهم بالرَّوحَاءِ[1].

ومعناها: امْضِ على وجهكَ من الرَّوحَاءِ (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ) أي من المدينة (بِالْحَقِّ) أي الأمرِ الواجب، ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾؛ يعني كراهةَ الطبعِ للمشقَّة لا كراهةَ الحقِّ، وَقِيْلَ: معناهُ: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ﴾؛ متكَرِّهِينَ له كما أخرجَكَ ربُّك من بيتِكَ مع تكرُّهِكَ له، ومعنى يُجَادِلُونكَ أي يُخَاصِمُونكَ بقولِهم: هلاَّ أعْلمتَنا القتالَ حتى كنا نستعدَّ له، ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾؛ أي بعد ما ظهرَ لهم أنكَ لا تصنعُ إلا ما أمرَكَ ربُّك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي هُم بما عليهم من شدَّة المشقَّة لقلَّة عددِهم وعُدَّتِهم، وكثرةِ عدُوِّهم كأنَّما يُسَاقُونَ إلى الموتِ، ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾؛ إلى أسباب الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾؛ إمَّا العِيرُ وإما العسكرُ أنَّها لكم، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾؛ وتَمَنَّونَ أن تكون لكم العِيرُ دون العسكر، لأن العسكرَ ذاتُ شوكةٍ وهي السلاحُ، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي يُظهرَ الإسلامَ بوعدهِ الذي أنزلَ في الفُرقَان، ويقال: بأمرهِ لكم بالقتال، ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾؛ أي يُظهرَكُمْ على ذاتِ الشَّوكة فتستأصِلُوهم، ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾؛ بإهلاكِ، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾؛ مُشركُو مكَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾؛ معناهُ: إذ تَسْتَغِيثُونَ أيُّها المسلمون ربَّكم حين رأيتُم قلَّة عددِكم وكثرةَ عدوِّكم، فلم يكن لكم مَفْزَعٌ إلا الدعاءُ لله وطلبُ المعونةِ

(١) ينظر: جامع البيان: الأثر (١٢٢١٠).

منهُ (فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) أي أجابَكم، والاستجابةُ التَّعطِيَةُ على موافقةِ المسألةِ[١].

وقولهُ تعالى: (أنِّي مُمِدُّكُمْ بألْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ) قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ مَعَ كُلِّ مَلَكٍ مَلَكٌ فكَانَ جُمْلَتُهُمْ الْفَيْنِ)[٢]. يقالُ: رَدَفْتُ الرَّجُلَ؛ إذا ركبتُ خلفَهُ، وأَرْدَفْتُهُ إذا أركبتَهُ خلفَكَ. وقال عكرمةُ وقتادة والضحَّاك: (مَعْنَاهُ: بألْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُتَتَابعِينَ يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً)[٣]، وقد يجوزُ أن يقالَ: أرْدَفْتُ الرَّجُلَ إذا جاءَ بعدَهُ، وكذلك رَدِفَهُ. وأما قراءةُ نافع (مُرْدَفِينَ) بفتح الدالِ فمعناه: أرْدَفَهُمُ اللهُ بالمؤمنين، ويقال: أرْدَفْتُهُ وَرَدَفْتُهُ بمعنى تَبِعْتُهُ، قال الشاعرُ:

إذا الْجَوْزَاءُ أرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ... ظَنَنْتُ بآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا

أي جاءَت بعدَها؛ لأن الجوزاءَ تطلعُ بعدَ الثُّريا[٤].

فنَزل جبريلُ في خَمسمائةِ مَلَكٍ على الْمَيْمَنَةِ، ونزلَ مِيكَائِيلُ في خَمسمائةِ مَلَكٍ على الْمَيسَرَةِ في صُورَةِ الرِّجالِ عليهم ثيابٌ بيضٌ وعمائمُ بيضٌ.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ ؛ أي ما جعلَ اللهُ إمدادَ الملائكةِ إلا بشارةً بالنصرِ للمؤمنين، وَقِيْلَ: معناهُ: ما جعلَ الله إخبارَ النبيِّ ﷺ بإمدادِ الملائكة إلا بُشرى بالنصرِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ ؛ أي ولتَسْكُنَ قلوبُكم في الحرب فلا تخافون من عدوِّكم. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ليس

(١) أخرج الإمام مسلم في الصحيح: كتاب الجهاد والسير: باب غزوة بدر: الحديث (٣/ ١٤٠٣-١٤٠٤): عن أنس قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [هَذَا مَصْرَعُ فُلاَنٍ] قَالَ: وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الأَرْضِ هَهُنَا وَهَهُنَا، وَلَمَّا فَرَغَ نَبِيُّ اللهِ مِنْ بَدْرٍ، قَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَيْكَ بِالْعِيرِ، فَنَادَاهُ الْعَبَّاسُ وَهُوَ فِي وَثَاقِهِ: لاَ يَصْلُحُ!! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [وَلِمَ؟] قَالَ: (لأَنَّ اللهَ وَعَدَكَ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ وَقَدْ أعْطَاكَ).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٢٣٤) بإسنادين الآخر بلفظ: (متتابعين).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٢٣٦) عن الضحاك بلفظ: (بعضهم على إثر بعض)، والأثر (١٢٢٣٧) مثله عن مجاهد، والأثر (١٢٢٣٩) عن قتادة.

(٤) جامع البيان: تفسير الآية ٩ من سورة الأنفال. وفي اللسان نسبه ابن منظور لخزيمة بن مالك بن نهد.

النَّصرُ بقلَّة العددِ ولا بكثرتهِ ولا من قِبَلِ الملائكةِ، ولكن النصرَ من عندِ الله، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ ؛ بالنَّقمةِ ممن عصَى، ﴿ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ، في أفعالِه.

وقد اختلفُوا هل قاتلَتِ الملائكةُ يومَ بدرٍ مع المؤمنين أم لاَ ؟ قال بعضُهم: لَم يُقاتِلوا ولكنَّ اللهَ أيَّدَ المؤمنين ليُشجِّع بهم قلوبَهم، ويُلقِي بهم الرُّعبَ في قلوب الكافرين، ولو بعثَهم اللهُ بالْمُحارَبَةِ لكان يكفِي مَلَكٌ واحدٌ، فإنَّ جبريلَ أهْلَكَ بريشةٍ واحدة سَبْعاً من قُرى قومِ لُوط، وأهلكَ بصيحةٍ واحدة جميعَ بلادِ ثمود. وهذا القَولُ أقربُ إلى ظاهرِ الآية.

وقال بعضُهم: إنَّ الملائكةَ قاتَلَتْ ذلك اليوم؛ لأنه رُوي أن أبَا جَهْلٍ قال لابن مسعود: مِنْ أيْنَ كَانَ ذلِكَ الضَّرْبُ الَّذِي كُنَّا نَسْمَعُ وَلاَ نَرَى شَخْصاً ؟ فَقَالَ لَهُ: (مِنَ الْمَلاَئِكَةِ) فَقَالَ أبُو جَهْلٍ: هُمْ غَلَبُونَا لاَ أنْتُمْ!

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ ؛ قال جماعةٌ من المفسِّرين: وذلكَ أنَّهُ لَمَّا أمرَ اللهُ النبيَّ ﷺ بالمسيرِ إلى الكفَّار، سارَ بمن معَهُ حتى إذا كان قَريباً من بدرٍ لَقِيَ رجُلين في الطريق، فسألَهما: [هَلْ مَرَّتْ بكُمَا الْعِيرُ ؟] قالا: نَعَمْ مرَّت بنا لَيلاً، وكان بين يدَي رسولِ الله ﷺ عشرةٌ من المسلمين، فأخَذُوا الرَّجُلين، وكان أحدُهما عبدَ العبَّاس بنِ عبدِ المطَّلب يقال له أبو رافعٍ، والآخرُ عَبداً لعُقبة بن أبي مُعيطٍ يقالُ له أسْلَمَ كانَا يسقِيَان الماءَ، فجاؤُا بهما إلى رسول الله ﷺ، واستخلَى بأبي رافعٍ ودفعَ أسلمَ إلى أصحابهِ يسألونَهُ، فقالَ ﷺ لأبي رافعٍ: [مَنْ خَرَجَ مِنْ أهْلِ مَكَّةَ ؟] فقالَ: ما بَقِيَ أحدٌ إلا وقد خرجَ، فقال ﷺ: [أتَتْ مَكَّةَ الْيَوْمَ بأفْلاَذِ كَبدِهَا] ثُمَّ قَالَ: [هَلْ رَجَعَ مِنْهُمْ أحَدٌ ؟] قال: نَعَمْ؛ أبَيُّ بنُ شَرِيفٍ في ثلاثِمائة من بني زُهرة، وكان خرجَ لمكان العِيرِ، فلما أقبَلت العِيرُ رجعَ، فسمَّاهُ رسولُ الله ﷺ الأخْنَسَ حين خَنَسَ بقومِه، ثُم أقبلَ رسولُ الله ﷺ على أصحابِهِ وهم يَسألُونَ أسلمَ، وكان يقولُ لَهم: خرجَ فلانٌ وفلان، وأبو بكرٍ ﷺ يضربهُ بالعصَا ويقولُ له: كذبتَ بخبرِ الناس، فقالَ ﷺ: [إنْ صَدَقَكُمْ ضَرَبْتُمُوهُ، وَإنْ كَذبَكُمْ تَرَكْتُمُوهُ] فعلمُوا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد عرفَ أمرَهم[1].

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: كتاب المغازي: وقعة بدر: الحديث (٩٧٢٧) عن عكرمة.

فسَارُوا حتى نزَلُوا بدراً بجانب الوادِي على غير ماءٍ، ونزلَ المشركون على جانبهِ الأقصَى على الماءِ، والوادِي بينَهما فبَاتُوا ليلَتَهم تلك، فألقَى اللهُ على المسلمين النَّومَ فنَامُوا، ثم استيقَظُوا وقد أجْنَبُوا وليس معهم ماءٌ، فأتاهُم الشيطانُ فوَسْوَسَ إليهم وقالَ: لهم تزعُمون أنَّكم على دينِ الله وأنتم مُجنِبُونَ تُصَلُّونَ على الجَنابَةِ، والمشركُون على الماءِ.

فأمطَر اللهُ الوادي وكان ذا رَمْلٍ تغيبُ فيه الأقدامُ، فاشتدَّ الرملُ وتلبَّدت بذلك أرضُهم وأوْحَلَ أرضَ عدوِّهم، وبنَى المسلمون في مكانِهم حِيَاضاً واغْتسَلُوا من الجنابةِ وشربُوا وسَقَوا دوابَّهم وتهيَّأوا للقتال، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (إذ يُغَشِّيكُمْ النُّعَاسَ أمَنَةً مِنْهُ) أي واذكرُوا إذ يُلقِي اللهُ عليكم النُّعاسَ، والنُّعاسُ: أولُ النَّومِ قبل أن يثقلَ. وقولهُ تعالى: (أمَنَةً مِنْهُ) أي أمْناً من اللهِ منهم بوعدِ النَّصر أمْناً حتى غَشِيَهم النعاسُ في حال الاستعداد للقتال[1]. قال ابنُ عبَّاس: (النُّعَاسُ عِنْدَ الْقِتَالِ أمْنٌ مِنَ اللهِ، وَفِي الصَّلاَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ).

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو (يَغْشَاكُمُ) واحتجَّا بقولهِ تعالى: ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾[2] فجعلَ الفعلَ للنُّعاس. وقرأ نافعُ (يُغْشِيكُمْ) على أنَّ الفعلَ للهِ تعالى ليكون مُطابقاً لقوله: (وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) واحتجَّ بقولهِ تعالى: ﴿كَأنَّمَا أغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾[3]. وقرأ الحسنُ وأبو رجَاءٍ وعكرمة وأهلُ الكوفة وابنُ عامر ويعقوب (يُغَشِّيكُمْ) بالتشديد لقوله تعالى: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ ؛ يعني المطرَ ليُطهِّرَكم به من الْجَنابَة والحدثِ، ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ ؛ وَسْوَسَةَ الشيطانِ التي كان وَسْوَسَ إليكم بأنَّ عدُوَّكم قد غلبَ على الماءِ، وأنَّكم في مكان تَسُوحُ أقدامُكم في الرملِ. ويقال: أرادَ بالرِّجْزِ الجنابةَ التي أصابَتهم بالاحتلامِ، فإنَّ الاحتلامَ إنَّما يكون من وَسْوَسَةِ الشيطانِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثار (١٢٢٥٨-١٢٢٦١).

(٢) آل عمران / ١٥٤ . (٣) يونس / ٢٧ . (٤) النجم / ٥٤ .

وقرأ سعيدُ بن المسيَّب (لِيُظْهِركُمْ) بالظاء من أظْهَرَكم اللهُ[1]. وقرأ ابنُ محيصن (رُجْزَ) بضمِّ الراء. وقرأ أبو العاليةِ (رجْسَ الشَّيْطَان) بالسين، والعربُ تُعَاقِبُ بين السِّين والزاي فتقولُ: بَزَقَ وبسَقَ، والسِّراط والزِّراط.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ ؛ أي ولِيَشُدَّ على قلوبكم بالصَّبر، ويشجِّعَكم على القتال. وَقِيْلَ: معناهُ: ولِيَربطَ على قُلوبكم بالصَّبر والمطر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي ويُثبتَ بالمطرِ الأقدامَ حتى لا تسُوحَ في الرملِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ويثبتَ بالبصيرةِ وقوَّةِ القلب الأقدامَ؛ لأن الأقدامَ إنما تثبتُ في الحرب بقوَّة القلب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ ﴾ ؛ إذ يُلهِمُ ربُّكَ الملائكةَ النازلين من السَّماء (أنِّي مَعَكُمْ) بالنصر للمسلمين، ﴿ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ؛ بالتَّنبيهِ والإخْطَار بالبَال، ويقالُ: بَشِّرُوهم بالنصر، وَقِيْلَ: أرُوهم أنفسَكُم مَدَداً لهم فإذا عايَنُوكم ثبَتُوا. والوحيُ: إلقاءُ المعنى الى النَّفسِ من وجهٍ خَفِيٍّ.

وعن ابن عبَّاس أنه قالَ: (سَوَّى أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ صُفُوفَهُمْ، وَقَدَّمُوا رَايَاتِهِمْ فَوَضَعُوهَا مَوَاضِعَهَا، فَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بعِيرٍ لَهُ يَدْعُو اللهَ وَيَسْتَغِيثُ، فَهَبَطَ جِبْرِيْلُ عليه السلام فِي خَمْسِمِائَةٍ عَلَى مَيْمَنَتِهِمْ ومِيكَائِيلُ فِي خَمْسِمِائَةٍ عَلَى مَيْسَرَتِهِمْ، فَكَانَ الْمَلَكُ يَأْتِي الرَّجُلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىصُورَةِ رَجُلٍ وَيَقُولُ لَهُ: دَنَوْتُ مِنْ عَسْكَرِ الْمُشْرِكِينَ فَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: وَاللهِ لإنْ حَمَلُوا عَلَيْنَا لاَ نُثْبتُ لَهُمْ أبَداً.

وَأَلْقَى اللهُ فِي قُلُوب الْكَفَرَةِ الرُّعْبَ بَعْدَ قِيَامِهِمْ لِلصَّفِّ، فَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ رَبيعَةَ: يَا مُحَمَّدُ أخرِجْ إلَيْنَا أكِفَّاءَنَا مِنْ قُرَيشٍ نُقَاتِلُهُمْ. فَقَامَ إلَيْهِمْ بَنُو عَفْرَاءَ مِنَ الأَنْصَارِ: عُوذ وَمِعْوَذ وَمَعَاذاً أمُّهُمْ عفْرَاءُ وَأبُوهُمُ الْحَارِثُ، فَمَشَوا إلَيْهِمْ فَقَالُوا لَهُمْ: ارْجِعُوا

---

(١) الوجه الأول: الإبل التي يحمل عليها ويركب، فكأنهم شربوا وسقوا إبلهم وما يركبون عليه. ولكثرة الماء تلبَّدت الأرض بحيث تسوخ فيه الأقدام فثبتت، فجعلهم ظاهرين بثباتهم فيها.

وأما الوجه الثاني: فإن الثعلبي نقل قراءة سعيد بلفظ: (لِيُطْهِركُمْ) وقال بطاء ساكنة من أطهره الله. والله أعلم بأي القراءتين قرأ سعيد وفسَّر. وأثبت قول سعيد كما هو ظاهر عندي في المخطوط.

وَأرْسِلُوا إلَيْنَا أكِفَّاءَنَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَخَرَجَ إلَيْهِمْ عَلِيٌّ وَحَمْزَةُ وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ، قَالَ عَلِيٌّ: فَمَشَيْتُ إلَى الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ وَمَشَى إلَيَّ، فَضَرَبْتُهُ بالسَّيْفِ أطَرْتُ يَدَهُ، ثُمَّ بَرَكْتُ عَلَيْهِ فَقَتَلْتُهُ، فَقَامَ شَيْبَةُ بْنُ رَبيعَةَ إلَى عُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ فَاخْتَلَفَا بضَرْبَتَيْن، ثُمَّ ضَرَبَ عُبَيْدَةُ ضَرْبَةً أخْرَى فَقَطَعَ سَاقَ شَيْبَةَ، ثُمَّ قَامَ حَمْزَةُ إلَى عُبَيْدَةَ بن ربيعة فَقَالَ: أنَا أسَدُ اللهِ وَأسَدُ رَسُولِهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ حَمْزَةُ فَقَتَلَهُ. فَقَامَ أبُو جَهْلٍ فِي أصْحَابهِ يُحَرِّضُهُمْ وَيَقُولُ: لاَ يَهُولَنَّكُمْ مَا لَقِيَ هَؤُلاَءِ، فَإنَّهُمْ عَجِلُوا وَاسْتَحْمَقُوا، ثُمَّ حَمَلَ هُوَ بنَفْسِهِ، ثُمَّ حَمَلَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ عَلَى قُرَيْشٍ فَهَزَمُوهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ ؛ أي سأقذفُ في قلوبهم المخافةَ منكم. علَّمَ اللهُ المسلمين كيف يضربُونَهم، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ ؛ معناهُ على الأعنَاق، وقَال عطيَّة والضحاكُ: (مَعْنَاهُ فَاضْرِبُوا الأَعْنَاقَ)[١]، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإذا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَاب﴾[٢]، وَقَالَ ﷺ: [إنِّي لَمْ أبْعَثْ لأُعَذِّبَ بعَذَاب اللهِ تَعَالَى، إنَّمَا بُعِثْتُ بضَرْب الرِّقَاب وَشَدِّ الْوَثَاق])[٣].

وقال بعضُهم (فَوْقَ) بمعنى (عَلَى)، أي فَاضربُوا على الأعناق، وقال عكرمةُ: (مَعْنَاهُ فَاضْرِبُوا الرُّؤُوسَ). وقال ابن عبَّاس: (فَاضْرِبُوا الأَعْنَاقَ فَمَا فَوْقَهَا) يعني الرُّؤُوسَ والأعناقَ، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْن﴾[٤] أي اثنتَين فما فوقَهما، وإنما أمرَ اللهُ تعالى بضرب الرِّقَاب والأعنَاق؛ لأنَّ أعلَى جلدةِ العنُق هو الْمَقْتَلُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ قال عطيَّة: (يَعْنِي كُلَّ مِفْصَلٍ)[٥]، وقال ابنُ عبَّاس والضحاكُ: (يَعْنِي الأَطْرَافَ)[٦].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٢٦٥) يقول: (اضْرِبُوا الرِّقَابَ).

(٢) محمد / ٤ .

(٣) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٥٩: تفسير الآية ٦ من سورة الأنفال؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير عن القاسم بن عبدالرحمن... وذكره)).

(٤) النساء / ١١ .

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٢٦٧).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٢٧٠) عن ابن عباس، والأثر (١٢٢٧٢) عن الضحاك.

وقال بعضُهم معنى قولهِ تعالى: (فَـاضْرِبُوا فَـوْقَ الأَعْنَـاق) الصَّنَـادِيدُ، وقولـهِ تعالى: (وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) يعني السَّفَلَةَ. إلا أنَّ الأوَّل أصحُّ. وَقِيْلَ: معناه: واضرِبُوا منهم كلَّ عُضوٍ أمكَنَكم، وليس عليكم تُوَقِّي عضوٍ دون عضو.

وعـن أبـي سـعيد الفـاراني أنـه كـان يقـولُ: (أرَادَ اللهُ أنْ لاَ تَتَلَطَّـخَ سُـيُوفُ الْمُسْلِمِينَ بفَرَثِ الْكُفَّار، فَأمَرَهُـمْ أنْ يَضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَيَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَـانٍ). والبَنَانُ في اللغة: هو الأصابعُ وغيرُها من الأعضاءِ التي بها يكون قِوَامُ الإنسانِ صونـاً لمكانه وحياته، مأخوذٌ من قولهم: أبْنَنَ الرجلُ بالمقامِ إذا أقامَ بهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ أي ذلـك الضَّـربُ والقتلُ بأنَّهم شَاقُّوا أوليـاءَ الله ورسـولَهُ، والمشـاقَّةُ أن يصـيرَ أحـدُ العدُوَّيـن في شِـقٍّ والآخرُ في شِقٍّ آخر، كما أن الْمُجَادَلَةَ أن يصيرَ أحدُهما في حدٍّ غيرِ حدِّ الآخر. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ أي ومَن يخـالِفْ أوليـاءَ الله، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ ، لهُ.

وأما إظهارُ التضعيفِ في موضع الجزمِ في قوله (يُشَاقِق) فهو لغةُ أهلِ الحجـاز، وغيرُهم يُدغِمُ أحدَ الحرفين في الآخر لاجتماعِهما من جنسٍ واحد، كما قال تعالى في سورة الحشرِ ﴿وَمَنْ يُشَاقَّ اللهَ﴾ بقَافٍ واحدة.

وقولهُ تعـالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ ؛ معنـاهُ: إن الـذي ذكـرتُ لكـم أيُّـها الكفار من العذاب العاجِل في الدُّنيا فَذُوقُوهُ. ثم بيَّن جلَّ ذِكرهُ أن القتـلَ في الدُّنيـا لا يصيرُ كفارةً لهــم، وأنَّ الله سـيعاقِبُهم في الآخـرة بقولـه: ﴿ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ ، وإنما قال تعـالى في عـذاب الدُّنيـا (فَذُوقُـوهُ)؛ لأن الـذوقَ يتنـاولُ اليسيرَ من الشيءِ، وكلُّ ما يلقَى الكفارُ من ضربٍ أو قتـلٍ في الدُّنيـا فـهو قليـلٌ مـن العذاب يُعَجَّلُ لهم، ومُعظَمُ عَذابهم يؤخَّرُ إلى يومِ القيامة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذابَ النَّار) في فتحِ (أنَّ) وجهان أحدُهما: لأنَّـها في موضعِ الرفع تقديرهُ ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ، وذلِكُمْ أنَّ للكافرينَ. والثاني: لأنَّها في موضـع النصب؛ تقديرهُ: ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَاعْلَمُوا أنَّ للكَافِرِينَ. وَقِيْلَ: واعلَمُوا بأنَّ للكـافرين، فلما حَذفَ الباءَ نُصب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾؛ خطابٌ من اللهِ للمسلمين حين التَقَوا بالعدوِّ يومَ بدر، معناهُ: إذا لقيتُم الذين كفَرُوا مُزَاحَفَةً مستعدِّين لحربهم، فلا تنهَزمُوا حتى تُدبروا. والزحفُ في اللغة: هو الدُّنُوُّ قَلِيلاً قليلاً، والزحفُ التَّدَانِي، يقال: زَاحفتُ القومَ إذا ثَبَتُّ لهم، فكأنَّهُ قال تعالى: إذا واقَعتمُوهم للقتال فَاثبُتوا لَهم. والتَّوليَةُ: جعلُ الشيءِ يَلِي غيرَهُ وهو مُتَعَدٍّ إلى مَفعُولَين، وَوَلَّى دُبُرَهُ إذا جعلَهُ إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾؛ أي ومَن يجعل ظَهْرَهُ إليهم وقتَ القتال، ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾؛ إلا أنْ ينحرفَ ليُقاتِلَ في موضعٍ يراهُ أصلحَ في باب الْمُحَارَبَةِ، وليطلبَ غَرَّةً يطمعُ فيها من العدوِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾؛ أي إلا أنْ يقصدَ الانضمامَ إلى جماعةٍ يَمنعونَهُ من العدوِّ، يعني إذا كَثُرَ العدوُّ للمؤمنين فيه يلجأون، فيحاربون العدوَّ بعد ذلك معهم؛ كان لهم تركُ القتال عند ذلك، ومن ولاَّهُم الدُّبُرَ على سبيلِ الانْهزامِ من غيرِ هذين الوجهَين، ﴿ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، فقدِ احتملَ غَضَباً من اللهِ، ﴿ وَمَأْوَىٰهُ ﴾؛ في الآخرةِ ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾، صارَ إليه.

والتَّحَرُّفُ في اللغة: هو الزَّوَالُ من جهةِ الاستواءِ، والتَّحَيُّزُ: طلبُ حَيِّزٍ يَكْمُنُ فيه.

واختلفَ العلماءُ هل الوعيدُ في هذه الآيةِ مقصورٌ على حرب بدرٍ أم هو عامٌّ في جميعِ الأوقات؟ قال بعضهم: إنه خاصٌّ في حرب بدر؛ لأنه لم يكن يومئذٍ للمسلمين فيه سِواهُم، وكان النبيُّ ﷺ حاضِراً في ذلك الحرب، وكان النصرُ موعوداً إليه يومئذٍ ومع حضُورهِ، وكان لا يعدُّ غيرهُ فئةً، وكان المنهزمُ عن القتالِ يومئذ غيرَ متحيِّزٍ إلى فئةٍ، فأما اليومَ المنهزمُ عن الحرب يكون مُتَحيِّزاً إلى فئةٍ أعظمَ من الْمُحاربين من المسلمين. وقال بعضُهم: إنه عامٌّ في جميعِ الأوقات، ولا يجوزُ الانْهزَامُ عن قتالِ المشركين مع قوَّة القتال، وإلى هذا ذهبَ ابنُ عباس، وذكرَ محمَّد بنُ الحسنِ في السِّيَرِ الكبير (أنَّ الْجَيْشَ إذا بَلَغُوا اثْنَى عَشَرَ أَلْفاً فَلَيْسَ لَهُمْ أنْ يَفِرُّوا مِنْ عَدُوِّهِمْ وَإنْ كَثُرَ

الْعَدُوُّ). واحتَجَّ بما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [خَيْرُ الأَصْحَاب أرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أرْبَعْمِائَةٍ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أرْبَعَةُ آلاَفٍ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ مِنْ قِلَّةٍ][(١)].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: لَم تقتلُوهم يومَ بدرٍ بأنفُسِكم، ولكنَّ الله قَتَلَهم بالملائكةِ. وأضافَ اللهُ قتْلَهم إلى نفسهِ؛ لأن السببَ في قتلِهم كان من اللهِ تعالى، فإنهُ هو الذي أيَّدَ المؤمنين بالملائكةِ حتى شجَّعَ قُلوبَهم، وأنزلَ المطرَ حتى ثبَّتَ به الأقدامَ، وألقَى في قلوب المشركين الرُّعب حتى انْهزَمُوا. وَقِيْلَ: كان المسلمون يقولُون قتَلْنَا فُلاناً وفلاناً، فأرادَ اللهُ تعالى أنْ لا يُعجَبُوا بأنفُسِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ؛ معناهُ: رُوي أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَلِيٍّ ﷺ: [نَاوِلْنِي كَفّاً مِنْ تُرَاب الْوَادِي] فَنَاوَلَهُ قَبْضَةً، فَاسْتَقْبَلَ بهَا وُجُوهَ الْمُشْرِكِينَ فَرَمَاهُمْ وَقَالَ: [شَاهَتِ الْوُجُوهُ وَقُبِحَتْ] فَمَلأَ اللهُ أعْيُنَهُمْ بهَا، فَلَمْ يَبْقَ فِيهِمْ أحَدٌ إلاَّ وَقَدْ شُغِلَ بعَيْنِهِ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فَهَزَمُوهُمْ[(٢)]. فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ) أعلمَ الله أن كفّاً من التُّراب لا يملأُ عيُونَ ذلك الجيشِ برَميَةِ بَشَرٍ؛ لأنه تعالى توَلَّى إيصالَ ذلك إلى أبصارهم من الموضعِ الذي كان فيه النبيُّ ﷺ حتى أصابَ عَيْنَ كلِّ واحدٍ منهم قِسْطٌ من ذلك التُّراب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ ؛أي ولِيُنْعِمَ على المؤمنين بالنَّصر والغنيمةِ والأسَارى نعمةً حسنةً. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي سميعٌ لدُعائِكم، عليمٌ بأفعالِكُم وضمائركم.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الجهاد: باب فيما يستحب من الجيوش والرفقاء والسرايا: الحديث (٢٦١١). والترمذي في الجامع: أبواب السير: الحديث (١٥٥٥)؛ وقال: حسن غريب. وفي مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢٥٨؛ قال الهيثمي: ((رواه أبو داود والترمذي وأبو يعلى، وفيه حبان بن علي وهو ضعيف وقد وثق وبقية رجاله ثقات)). وفي الإحسان ترتيب صحيح ابن حبان: الحديث (٤٧١٧) صححه الشيخ شعيب وقال: ((على شرط الشيخين)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٢٩٥) عن السدي مرسلاً، و(١٢٢٩٣) عن محمَّد بن كعب القرظي.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾؛ أي ذلِكُم الذي ذكرتُ لكم من القتلِ والرَّمي والإبلاءِ الحسَن، (وأنَّ اللهَ) أي واعلَمُوا أنَّ اللهَ، وفي فَتْحِ (أنَّ) من الوجُوهِ مثلُ ما في قوله: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذابَ النَّارِ﴾ وقد بيَّناهُ. وقولهُ تعالى: (مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ) أي مُضْعِفُ كيدِهم. قرأ أهل الكوفة إلاَّ حفصاً وابن يعقوب وابن عامرِ (مُوهِنٌ) بالتخفيف، (كَيْدَ) بالنصب، وقرأ الحسنُ والأعمش وحفصٌ (مُوهِنُ كَيْدِ) مخففاً مضافاً بالخبرِ طَلباً للخفَّة كقوله: ﴿مُرْسِلُو النَّاقَةِ﴾[١] ﴿كَاشِفُو الْعَذابِ﴾[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾؛ هذا خطابٌ للكافرين، وذلكَ أنَّ أبَا جَهْلٍ قالَ يومَ بدرٍ قبلَ القتالِ لَهم: اللَّهُمَّ انصرْ أعزَّ الْجُندَين وأكرَمَ الفئتَين وخيرَ الدِّينَين، اللَّهُمَّ أيُّنا أقطعُ للرحمِ وأفسدُ للجماعةِ فَأحِنْهُ اليومَ. فاستجابَ الله دعاءَهُ على نفسهِ، فأتاهُ بالفتحِ فضربَهُ إبنا عَفراء عوفُ ومعاذ وأجهزَ عليه ابنُ مسعود[٣].

وقال السديُّ والكلبي: (كَانَ الْمُشْرِكُونَ حِينَ خَرَجُوا إلَى بَدْرٍ، تَعَلَّقُوا بأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، وَقَالُوا: اللَّهُمَّ انْصُرْ أعْلَى الْجُنْدَيْنِ وَأهْدَى الْفِئَتَينِ وَأكْرَمَ الْحِزْبَينِ وَأفْضَلَ الدِّينَيْنِ، اللَّهُمَّ أيُّ الْفِئَتَينِ أحَبُّ إلَيْكَ فَانْصُرْهُمْ، اللَّهُمَّ اقْضِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، إنْ تَسْتَنْصِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ النَّصْرُ، فَنُصِرَ مُحَمَّدٌ ﷺ)[٤]. وقال عكرمةُ: (قَالَ الْمُشْرِكُونَ: اللَّهُمَّ لاَ نَعْرِفُ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، فَافْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ بالْحَقِّ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةِ (إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ) أيْ إنْ تَسْتَحْكِمُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْحُكْمُ، وَإنْ تَسْتَقْضُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْقَضَاءُ)[٥].

---

(١) القمر / ٢٧.

(٢) الدخان / ١٥.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٠٦) عن الزهري مرسلاً بإسنادين، وفي الرقم (١٢٣٠٧) عن عبدالله بن ثعلبة.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٠٩) عن السدي.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٠٣).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي وإن تَنتَهُوا عن الشِّرك والمعاصي فهو خيرٌ، ﴿ وَإِن تَعُودُوا۟ ﴾ ؛ إلى القتال، ﴿ نَعُدْ ﴾ ؛ بأنْ نأمُرَ المسلمين بجهادِكم وننصُرهم عليكم. وقال بعضُهم: هذه الآيَةُ خطابٌ للمؤمنين؛ أي استَنْصِرُوا اللهَ وَاسْأَلُوهُ الفتحَ فقد جاءكم الفتحُ والنصر، وإنْ تنتَهُوا عن فعلِكم في الأسارى والفداءِ يومَ بدرٍ فهو خيرٌ لكم، وإنْ تعودُوا إلى فعلِكم بالأسارى نَعُدْ إلى الإنكار عليكم، ﴿ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي وإنْ سُلب عنكم النصرُ حتى لا تُغنِي عنكم جماعتُكم شيئاً، ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ ؛ في العددِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ قرأ نافعٌ وابن عامر بخفضِ (إنَّ) وبفتحِ (أنَّ) بمعنى ولأنَّ الله، وَقِيْلَ: عطفٌ على قولهِ (وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)، وَقِيْلَ: على معنى وَاعْلَمُوا أنَّ الله، وقرأ الباقون (وإنَّ اللهَ) بالكسرِ على الابتداء، واختارَهُ أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأن قراءةَ عبد الله: (وَإنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ)(١) بالنصرِ والمعونة.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي أطِيعُوا اللهَ ورسولَهُ في أمرِ الغَنيمة وغيرِها، ولا تُوَلُّوا عن أمرِ الله، وأنتم تسمعون ما أنزلَ اللهُ تعالى، وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ وَأنْتُمْ تَسْمَعُونَ الْحُجَّةَ فِي وُجُوب طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ).

وأما تخصيصُ المؤمنين بالأمرِ لهم بالطَّاعة وإن كانت هذه الطاعةُ واجبةً على غيرِ المؤمنين كوجوبها على المؤمنين، فلأحَدِ معنَيين: إما إجلالاً لهم ورَفعاً لقدرهم فيدخلُ غيرُهم في الخطاب على جهةِ التَّبعِ لهم، وإما لأنه لم يَعْتَدَّ بغيرِ المؤمنين؛ لإعراضهم عما وجبَ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي لا تكونوا كالذينَ قالوا سَمِعنَا على جهةِ القَبُول، وهم لا يسمعون للقبول، وإنما سَمِعُوا به للردِّ والإعراضِ عنه، ويقالُ: معناه: ولا تكونوا كالَّذين قالوا قَبِلْنَا وهم لا يَقبَلون، ومنه قولهُ [سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ] أي قَبلَ اللهُ حَمْدَ مَن حَمِدَهُ. واختلَفُوا

(١) في جامع البيان: مج ٦ ج٩ ص٢٧٨؛ قال الطبري: ((وقرأ ذلك عامة قرَّاء الكوفيين والبصريين: (وإنَّ اللهَ) بكسر الألف على الابتداء، واعتلوا بأنها في قراءة عبدالله (وإنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ)).

فيمَن نزلت هذه الآيةُ، قال ابنُ جُرَيج: (نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ) وقال الحسنُ: (فِي أَهْلِ الْكِتَابِ). ويقالُ: في مُشرِكي العرب.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أن شرَّ الخليقةِ على وجهِ الأرض الكفَّارُ الذين لا يسمعونَ الْهُدَى، ولا يتكلَّمُون بالخيرِ، ولا يتدبَّرون القرآنَ. وسَمَّاهم صُمّاً بُكْماً؛ لأنَّهم لم ينتفِعُوا بما سَمعوا من دلائلِ اللهِ تعالى، قال الأخفشُ: (كُلُّ مُحْتَاجٍ إِلَى غِذَاءٍ فَهُوَ دَابَّةٌ). ومعنى الآيةِ: إن شرَّ ما دبَّ على وجهِ الأرض من خلقِ الله تعالى الصمُّ البُكْمُ عن الحقِّ، فهُم لا يسمعونهُ ولا يعقلونه. وَقِيْلَ: صُمُّ القُلوب وعُميُها، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ ؛ أي لو عَلِمَ اللهُ فيهم أنَّهم يصلُحون بما نوردُه عليهم من الحجَّة بآياته لأَسْمَعَهُمْ إيَّاها. وَقِيلَ: لأَسْمَعَهُمْ جوابَ كلِّ ما سألوهُ عنه، ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ ﴾ ؛ ولو بيَّن لهم كلَّ ما يختلجُ في أنفُسِهم لتولَّوا عن الهدى، ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ لمعاندَتِهم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: أجِيبُوا اللهَ والرسولَ. وَقِيلَ: معنى الإجابة طلبُ الموافقةِ للدَّاعي على وجهِ الطاعة. وَقِيْلَ: الجمعُ بين الاستجابةِ لله وللرسولِ؛ أي استجِيبُوا للهِ بسَرائِركم وللرسولِ بظوَاهرِكم.

وقولهُ تعالى: (إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) أي إذا دعَاكُم إلى العلمِ الذي يُحييكم في أمرِ الدِّين. وَقِيْلَ: معناه: إذا دعاكم إلى الجهادِ الذي يُحيي أمرَكم. وَقِيْلَ: إذا دعاكم إلى ما يكون سَبَباً للحياةِ الدَّائمة في نعيمِ الآخرة؛ لأنه إذا حصلَ الامتثالُ بأمرِ الله ورسولِه، حصلت هذه الحياةُ الدائمة، وإن لم يحصلِ الامتثالُ أدَّى ذلك إلى العقاب الذي يتمنَّى معه الموتَ. قال القتيبي: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (لِمَا يُحْيِيكُمْ) يَعْنِي الشَّهَادَةَ؛

---

(١) الحج / ٤٦ .

لأنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ فِي الشُّهَدَاءِ ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[(١)]. واللامُ في قوله (لِمَا) بمعنى (إلى).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ ؛ فيه ثلاثةُ أقوال؛ أحدُها: أن معناهُ: يَحُولُ بين المرءِ وأمَلِهِ بالموتِ أو غيره من الآفاتِ، فبادِرُوا إلى الطَّاعاتِ قبلَ الحيلولَةِ، ودَعُوا التسويفَ فإنَّ الأجلَ يَحُولُ دون الأملِ. وقال مجاهدُ: (يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ لاَ يَتْرُكُهُ يَفْهَمُ وَلاَ يَعْقِلُ)[(٢)].

والثاني: أن معناهُ: أنَّ اللهَ تعالى أقربُ إلى ذي القلب مِن قلبه، فإنَّ الذي يَحُولُ بين الشَّيء وغيرِهِ أقربُ إلى ذلك الشيءِ من غيره، كما قالَ تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[(٣)]، وفي هذا تحذيرٌ شديد.

والثالث أن معناهُ: أن اللهَ يُقَلِّبُ القلوبَ من حال إلى حال كما جاء في الدُّعاء:[يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوب][(٤)]. وقال ابنُ جبير: (يَحُولُ بَيْنَ الْكَافِرِ أنْ يُؤْمِنَ، وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِ أنْ يَكْفُرَ). وقال ابنُ عبَّاس والضحاك: (يَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَمَعْصِيَتِهِ، وَيَحُولُ بَيْنَ الْكَافِرِ وَطَاعَتِهِ)[(٥)]. وقال السديُّ: (يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، فَلاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يُؤْمِنَ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَكْفُرَ إلاَّ بإذْنِهِ)[(٦)].

قرأ الحسنُ: (يَحُولُ بَيْنَ الْمَرِّ) بتشديدِ الراء من غير همزٍ، وقرأ الزهريُّ بضمِّ الميمِ والهمزة وهي لغاتٌ صحيحة.

---

(١) آل عمران / ١٦٩ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٣٩).

(٣) ق / ١٦ .

(٤) عن النواس بن سمعان؛ أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص١٨٣. وابن حبان في الإحسان: الحديث (٩٤٣) بإسناد صحيح. وعن أنس أخرجه الترمذي في الجامع: كتاب القدر: باب ما جاء من أن القلوب بين إصبعي الرحمن: الحديث (٢١٤٠)؛ وقال: حسن. وفي الباب عن عائشة وأم سلمة وسبرة بن الفاكه وأبي هريرة.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٣٤) بأسانيد، والأثر (١٢٣٣٥) عن سعيد عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٤٠).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ عطفٌ على قولِهِ: (أنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ). معناهُ: واعلَمُوا أنَّ مَحْشَرَكُمْ في الآخرةِ إلى الله، فيَجزي كلَّ عاملٍ بما عَمِلَ، إنْ كان خَيراً فخيرٌ، وإنْ كان شرّاً فشرٌّ.

وَقِيْلَ: في آخرِ الآية تأويلُ الآيةِ؛ أي الذي يَحُولُ بين المرءِ وقلبهِ قادرٌ على أن يُبَدِّلَ خوفكم أمْناً، وأمْنَ عدُوّكم خَوفاً، فيجعلَ القويَّ ضعيفاً والضعيفَ قوياً، والعزيزَ ذليلاً والذليلَ عَزيزاً، والشُّجاعَ جَباناً، والجبانَ شُجاعاً، يفعلُ ما يشاء وما يريدُ، فأجيبُوا الرسولَ في الجهادِ ولا تخافُوا ضعفكم.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ ؛ نزلَت في عُثمانَ وعليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أخبرَ اللهُ النبيَّ ﷺ بالفتنةِ التي تكون تُسَبِّبها أنَّها ستكون بعدَك يلقاها أصحابُكَ تصيبُ الظالِمَ والمظلومَ، ولا تكون بالظَّلَمَةِ وحدَهم خاصَّة ولكنَّها عامة، وأخبرَ النبيُّ ﷺ بذلك أصحابَهُ، فكانَ بعد وفاةِ النبيِّ ﷺ من الفِتَنِ بسبب عليٍّ وعُثمان ما لا يَخفَى على أحدٍ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ تُصِيبَنَّ) جوابُ الأمر بلفظ النَّهي، كما يقالُ: انْزَلْ مِنَ الدَّابة لا تَطْرَحْكَ أو لا تطرَحنَّك، معناهُ: أنْ تنْزِلَ عنها لا تطرحنَّك، فإذا أثبتَّ النونَ الخفيفةَ والثقيلة كان آكدَ للكلامِ، ومنهُ قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾[(٢)].

والمرادُ بالفتنةِ القتلُ الذي رَكِبَ الناسَ فيه بالظُّلم، وكان أمرُ الله أمراً باتِّقاء تركِ الإنكار على أهلِ المعاصي واتِّقاء الاختلاطِ بأهلِ المعصية، قال ابنُ عبَّاس: (أمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أنْ لاَ يقِرُّوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ أظْهُرِهِمْ، فَيَعُمُّهُمُ اللهُ بالْعَذاب)[(٣)].

---

(١) عن حذيفة بن اليمان قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ [يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ أصْحَابي فِتْنَةٌ يَغْفِرُهَا اللهُ لَهُمْ بِصُحْبَتِهِمْ إيَّاي، يَسْتَنُّ بهِمْ فِيهَا نَاسٌ بَعْدَهُمْ يُدْخِلُهُمُ اللهُ بِهَا النَّارُ]. حكاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٩١: تفسير الآية.

(٢) النمل / ١٨ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٤٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ تحذيرُ شدَّة العقوبةِ لِمَن أهَاجَ الفتنَ، قال ﷺ: [الْفِتْنَةُ رَاتِعَةٌ فِي بلاَدِ اللهِ وَاضِعَةٌ خِطَامَهَا، فَالْوَيْلُ لِمَنْ أهَاجَهَا]، وفي بعضِ الأخبار: [الْفِتْنَةُ نَائِمَةٌ لَعَنَ اللهُ مَنْ أيْقَظَهَا][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ نزلت في الْمُهاجرين خاصَّة؛ أي احفَظُوا معشرَ المهاجرين إذ أنتم قليلونَ في العدَّة مقهُورون في أرض مكَّة، ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ ؛ أي يَخْتَلِسَكُمْ ويذهبَ بكم أهلُ مكَّة، ﴿ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ فآواكم إلى المدينَة وأعانكم يومَ بدر بالملائكةِ، ورزَقَكُم الحلالَ من الغنائمِ؛ لكي تشكُروا اللهَ وتعرِفُوا ذلك منه فتطيعوهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ، نزلَت في أبي لُبَابَةَ بن عبدِ المنذر، فإنَّ بني قُريظةَ قالُوا لرسول الله ﷺ: ابْعَثْ لَنَا خَلِيفَةً مِنْ خُلَفَائِكَ نَنْزِلْ عَلَى حُكْمِهِ، فأبَى رسولُ اللهِ ﷺ أن يَنْزِلُوا إلاَّ على حُكم سعدِ بن مُعاذ، وكانوا يقولونَ: أرسِلْ إلينا أبَا لُبابة، وكَانَ عيالهُ وولدهُ وأهله عندَهم، فَبَعَثَهُ النبيُّ ﷺ إليهم، فقالوا: يا أبَا لُبابة أنَنزلُ على حُكم سعدِ بن معاذ، فأشارَ بيدهِ إلى حَلْقِهِ؛ أي إنَّهُ الذبْحُ فَلاَ تَفْعَلُوا، وَلَم يتكلَّم بلسانهِ، فانزلَ اللهُ هذه الآيَةَ، قال أبو لُبابة: (فَمَا زَالَتْ قَدَمَايَ مِنْ مَكَانِهِمَا حَتَّى عَلِمْتُ أنِّي خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ). فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَاأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ) كما فَعَلَ أبو لُبابة.

فلما نزلت هذه الآيةُ شَدَّ أبو لُبابَةَ نفسَهُ على سَاريَةٍ من سَوَاري المسجدِ، وقالَ (لاَ أذُوقُ طَعَاماً وَلاَ شَرَاباً حَتَّى أمُوتَ، أوْ يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ) فمكثَ سبعةَ أيَّام لا يذوقُ فيها طَعاماً ولا شَراباً حتى خَرَّ مَغشِيّاً عليهِ، ثم تَابَ اللهُ عليه، فجاءَ رسولُ الله

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن: الحديث (١٥ و٣٤٤) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وفيه سعيد ابن سنان، ترجم لـه ابـن حجـر في التـهذيب: الرقـم (٢٤٠٦)؛ قـال: ((الحنفـي متروك رماه الدارقطني وغيره بالوضع)). ومن طريقه أخرجه أبو نعيم في الحلية: ج ٦ ص١٠١ عن أبي الدرداء.

ﷺ فَحَلَّهُ بيدِهِ، فقال أبو لُبابة: (تَمَامُ تَوْبَتِي أنْ أهْجُرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أصَبْتُ فِيهَا الذنْبَ، وَأنْ أتَخَلَّعَ مِنْ مَالِي) فَقَالَ ﷺ: [يُجْزِيكَ الثُّلُثُ أنْ تَتَصَدَّقَ بِهِ][1].

وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى الآيَةِ: لاَ تَخُونُوا اللهَ بِتَرْكِ فَرَائِضِهِ، وَالرَّسُولَ بِتَرْكِ سُنَّتِهِ)[2]. (وَتَخُونُواْ أمَانَاتِكُمْ) أي ولا تَخونُوا أمانَاتِكم، انتصبَ على الظَّرف؛ أي إنَّكم إن فَعَلتُم ذلك فإنما خُنْتُمْ أمانَاتِكم عَطفاً.

ويقالُ: أرادَ بقولهِ: (لاَ تَخُونُوا اللهَ) الخيانةَ من الغنائمِ التي هي عطيَّةُ اللهِ، والخيانةُ للهِ فيها خيانةُ الرسول أيضاً؛ لأنه هو القيِّمُ بقِسْمَتِها، وقولهُ: (وَتَخُونُواْ أمَانَاتِكُمْ) يحتملُ الخيانةَ في الغَنائمِ أيضاً؛ لأنَّهم كلُّهم مُشتَركون فيها، فمَن استبدَّ بشيءٍ منها فقد خَانَ، ويحتملُ الخيانةَ في أثْمَان بعضِ الناس بعضاً من حقُوق أنفسهم، وقال الأخفشُ: (قَوْلُهُ تَعَالَى (وَتَخُونُواْ أمَانَاتِكُمْ) عَطْفاً عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ النَّهْيِ، تَقْدِيرُهُ: وَلاَ تَخُونُوا أمَانَاتِكُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ الإنسان ربَّما يتركُ الجهادَ ويخونُ في الأماناتِ لأجْلِ الأولادِ أو حِرْصاً على المال، وقد رَوَينَا أنَّ أبا لُبابة إنما حَمَلَهُ على ما فَعَلَ مالهُ وأهلُه وولدهُ الذين كانوا في بَنِي قريظةَ؛ لأنه إنما ناصَحَهم لأجلِهم وخانَ المسلمين بسببهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٢٨ ﴾ ؛ أي ثوابٌ جَسِيمٌ في الآخرةِ لمن لَم يَعْصِ اللهَ لأجلِ المالِ والذرِّية.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ ﴾ ؛ أي إن تتَّقُوا اللهَ في الأمانات، فتمتَنِعوا من معاصيهِ بأداءِ فرائضه يجعَلْ لكم نُوراً في قلوبكم تُفرِّقون به بين الحقِّ والباطل. وَقِيْلَ: يجعل لكم فَتْحاً ونَصراً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[3] أرادَ به يومَ عزِّ المؤمنين وخُذلان الكافرين.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٣٥٩). والواحدي في أسباب النزول: ص١٥٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٦٨) بمعناه.

(٣) الأنفال / ٤١.

وَقِيْلَ: معناهُ يجعل لكم مَخْرَجاً ونَجاةً في الدُّنيا والآخرةِ. وقال الضحَّاك: (فُرْقَاناً: أيْ ثَبَاتاً). قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) أي يَمحُ عنكم ذنُوبَكم، ويستُرْ عليكم خطَايَاكم ولا يؤاخِذْكم بها، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي عظيمُ الفضلِ على عباده أسْدَى لهم بالنِّعَم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ ذكَّر اللهُ نبيَّه ﷺ فعقب ما أنعم الله عليه من النصر والظفر يوم بدر وما كان من مكر المشركين في أمره بمكة فقال: (وَإذْ يَمْكُرُ بكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي اذكر تلك الحالة.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ رُؤَسَاءَ قُرَيشٍ اجْتَمَعُوا فِي دَار النَّدْوَةِ يَمْكُرُونَ برَسُول اللهِ ﷺ وَيَحْتَالُونَ لَهُ، مِنْهُمْ عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبيعَةَ؛ وَأبُو جَهْلٍ؛ وَأبُو سُفْيَانَ؛ وَالنَّضِرُ بْنُ الْحَارثِ؛ وَأبُو الْبُحْتُرِيِّ بْنُ هِشَامٍ؛ وَنَبيهُ وَمُنَبهُ؛ وَأبَيُّ بْنُ خَلَفٍ وَربيعَةُ بْنُ الأَسْوَدِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ إبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ كَبيرٍ عَلَيْهِ ثِيَابُ أطْمَارٍ، فَجَلَسَ بَيْنَهُمْ فَقَالُوا: مَا لَكَ يَا شَيْخُ دَخَلْتَ فِي خَلْوَتِنَا بغَيْرِ إذْنِنَا ؟! فَقَالَ: أنَا رَجُلٌ مِنْ أهْلِ نَجْدٍ قَدِمْتُ مَكَّةَ، فَأَرَاكُمْ حَسَنَةً وَجُوهُكُمْ طَيِّبَةً رَوَائِحُكُمْ، فَأحْبَبْتُ أنْ أسْمَعَ حَدِيثَكُمْ فَأقْتَبسَ مِنْكُمْ خَيْراً فَدَخَلْتُ، وَإنْ كَرهْتُمْ مَجْلِسِي خَرَجْتُ، وَمَا جِئْتُكُمْ إلاَّ أنِّي سَمِعْتُ باجْتِمَاعِكُمْ فَأَرَدْتُ أنْ أحْضُرَ مَعَكُمْ، وَلَنْ تَعْدُمُوا مِنِّي رَأياً وَنُصْحاً. فَقَالُوا: هَذا رَجُلٌ لاَ بَأسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ.

فَتَكَلَّمُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَبَدَأ عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ فَقَالَ: أمَّا أنَا فَأرَى أنْ تَأْخُذُوا مُحَمَّداً، فَتَجْعَلُوهُ فِي بَيْتٍ تَسُدُّونَ عَلَيْهِ بَابَهُ؛ وَتَشُدُّونَ عَلَيْهِ وثَاقَهُ؛ وَتَجْعَلُونَ لَهُ كُوَّةً تُدْخِلُونَ عَلَيْهِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ، فَيَكُونُ مَحْبُوساً عِنْدَكُمْ إلَى أنْ يَمُوتَ. فَقَالَ إبْلِيسُ: بئْسَ مَا رَأيْتَ! تَعْمَدُونَ إلَى رَجُلٍ لَهُ فِيكُمْ أهْلُ بَيْتٍ، وَقَدْ سَمِعَ بهِ مَنْ حَوْلَكُمْ فَتَحْبسُوهُ، يُوشِكُ أنْ يُقَاتِلَكُمْ أهْلُ بَيْتِهِ وَيُفْسِدُوا عَلَيْكُمْ جَمَاعَتَكُمْ. فَقَالُوا صَدَقَ واللهِ الشَّيْخُ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبو الْبَخْتَرِيِّ(١) فَقَالَ: أَرَى أَنْ تَحْمِلُوهُ عَلَى بَعِيرٍ فَتَشُدُّوا وثَاقَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ تُخْرِجُوهُ مِنْ أَرْضِكُمْ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يَذْهَبَ حَيْثُ يَشَاءُ. فَقَالَ إبْلِيسُ: بِئْسَ الرَّأْي مَا رَأَيْتَ! تَعْمَدُونَ إلَى رَجُلٍ لَهُ فِيكُمْ أَهْلُ بَيْتٍ، وَقَدْ سَمِعَ بِهِ مَنْ حَوْلَكُمْ أَفْسَدَ عَلَيْكُمْ جَمَاعَتَكُمْ وَمَعَهُ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ، فَتُخرِجُونَهُ إلَى غَيْرِكُمْ فَيَأْتِيهِمْ فَيُفْسِدُ مِنْهُمْ أَيْضاً جَمَاعَةً بمَا يَرَونَ مِنْ حَلاَوَةِ كَلاَمِهِ وَطَلاَقَةِ لِسَانِهِ، وَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ وَتَسْتَمِعُ إلَى حُسْنِ حَدِيثِهِ، ثُمَّ لَيَأْتِيَنَّكُمْ بهِمْ فَيُخرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَيَقْتُلَ أَشْرَافَكُمْ. فَقَالُوا: صَدَقَ واللهِ الشَّيْخُ.

فَتَكَلَّمَ أَبو جَهْلٍ فَقَالَ: أَرَى أَنْ تَجْتَمِعَ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ مِنْكُمْ رَجُلٌ يَأْخُذُونَ السُّيُوفَ، فَيَضْرِبُونَهُ جَمِيعاً ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَإذا قَتَلْتُمُوهُ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ كُلِّهَا، فَلاَ يَدْرِي قَوْمُهُ مَنْ يَأْخُذُونَ وَلاَ يَقُومُونَ عَلَى حَرْبِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا، وَإنَّمَا إذا رَأَوا ذلِكَ قَبلُوا الدِّيَةَ، فَتُؤَدِّي قُرَيْشُ دِيَتَهُ وَاسْتَرَحْنَا. فَقَالَ إبْلِيسُ: صَدَقَ واللهِ الشَّابُّ، وَهُوَ أَجْوَدُكُمْ رَأياً، الْقَوْلُ قَوْلُهُ لاَ أَرَى غَيْرَهُ. فَتَفَرَّقُوا عَلَى ذلِكَ.

فَنَزَلَ جِبريلُ عليه السلام فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بذلِكَ، وَأَمَرَهُ أَنْ لاَ يَبِيتَ فِي مَضْجَعِهِ الَّذِي كَانَ يَبِيتُ فِيْهِ، وَأَمَرَهُ بالْهِجْرَةِ إلَى الْمَدِينَةِ)(٢) وَكَانَ مِنْ أَمْرِ الْغَارِ مَا كَانَ، فذلك قولهُ (وَإذْ يَمْكُرُ بكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ) أي لِيَحبسُوكَ، وهو ما قالَهُ عمرُو بن هشام. ويقالُ: معنى (لِيُثبِتُوكَ) أي يَعتَدُوكَ أو يُخرجوك. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَوْ يَقْتُلُوكَ) ظاهرٌ، وهو ما قالَهُ أبو جهلٍ، وقوله: (أَوْ يُخرِجُوكَ) أي مِن بين أظْهُرهم إلى غيرِهم، وهو ما قاله أبو الْبَحْتَرِيِّ بن هشام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي يُريدون بكَ الشرَّ والهلاكَ، (وَيَمْكُرُ اللهُ) أي يُريد قتْلَهم ببَدرٍ مجازاةً لهم على فعلِهم وسُوءِ صُنعِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالله خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) أي أفضلُ الصَّانِعين وأقوَى المدبرين؛ لأنه لا يمكرُ إلا بحقٍّ وصوابٍ، ومكرُهم باطلٌ وظلم.

---

(١) أبو البختري: هو العاص بن هشام أو ابن هاشم، كما في السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص٢٨٣ و٣١٥ و٣٧٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٣٩٢) من طريق مجاهد عن ابن عباس، وزاذان مولى أم هانئ عن ابن عباس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ يعني النَّضرَ بن الحارثِ، وذلك أنه كان يختلفُ تَاجِراً إلى فارسَ والحِيرَةِ، فيسمعُ سَجَعَ أهلِها وذِكرَهم أخبارَ العَجَمِ وغيرِهم من الأُمَمِ، ويَمُرُّ باليهودِ والنَّصارى فيرَاهُم يقرأون التوراةَ والإنجيلَ، فجاءَ مكَّةَ فوجدَ مُحَمَّداً يقرأ القرآنَ، فقالَ: (قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذا إنْ هَـذا إلاَّ أسَاطِيرُ الأوَّلِينَ) أي أخبارُ الأُمَم الماضيةِ وأسماؤُهم. وكان النضرُ يقول: إن هذا الذي يحدِّثُكم به مُحَمَّد ما هو إلا مثلُ ما أحدِّثُكم به من أحاديثِ الأوَّلين، وكان النضرُ كثيرَ الحديث عن الأمم الخاليةِ(١).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ نزلَتْ في النَّضرِ بن الحارثِ أيضاً، قال: لو شئتُ لقُلْتُ مثلَ هذا، إنْ هذا إلاَّ أساطيرُ الأوَّلين في كُتبهم، ثم قال: اللَّهُمَّ إن كان هذا الذي يقولهُ مُحَمَّدٌ هو الحقُّ من عندِكَ، فأمطِرْ علينا حجارةً من السَّماء، كما أمطَرْتَها على قومِ لُوطٍ، أو ائْتِنَا ببعضِ ما عذبتَ به الأُمَمَ فيه، فَنَزَلَ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بعَذابٍ وَاقِعٍ، لِلْكَافِرينَ﴾(٢) وكان النضرُ من بني عبدِ الدَّار(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٤٠٢) عن ابن جريج، وتمامه في الأثر (١٢٤٠٣) عن السدي، و(١٢٤٠٤) عن سعيد بن جبير.

(٢) المعارج / ١-٢.

(٣) حين تهيمنُ أجواء مشاعر العداءِ والحسد والبُغض على عقل الإنسان تجعل منه قطعةً من الجهلِ، بحيث لا يتفكَّر على سواء، وإلا فإن الإنصافَ يقتضي أن يطالِبَ المرءُ بالحجة والبرهان، ويخاصِمَ بالحجة والبرهان حتى يتأتى الرُّجحان، هذا في الظنون. أما في الأمور المحكمات فما عليه إلا الإجابةُ لمطالبها حالَ السماع وإيضاح أمرها.

في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٣٩٨؛ قال القرطبي: ((حُكي أنَّ ابنَ عباس لقيَهُ رجلٌ من اليهودِ؛ فقال اليهوديُّ: مِمَّن أنتَ؟ قال: مِن قُريش. فقال: أنتَ من القومِ الذين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ...﴾ الآية. فهلاَّ عليهم أنْ يقولوا: إنْ كان هذا هو الحقُّ من عندك فاهدِنا له! إنَّ هؤلاء قومٌ يجهلون. قال ابنُ عباس: وأنتَ يا إسرائيلي، مِن القومِ الذين لم تجفَّ أرجلُهم من بَلَلِ البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه؛ حتى قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنا إلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ فقالَ لهم موسى: ﴿إنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فأطرق اليهوديُّ مُفحَماً)).

فمثل هذا يسخرُ لا ليتَّعِظَ، بل ليهزأ، فكان جوابهُ على ما يستحقُّ فبُكِتَ.

ومعنى الآيةِ: واذكُرْ يا مُحَمَّدُ إذا قالُوا: اللَّهُمَّ... وأنتَ بين أظهُرِهم بمكَّة، فلم يُعذِّبْهم اللهُ حينئذٍ وعَذبَهم من بعدُ، فأُسِرَ النضرُ يومَ بدرٍ وقُتِلَ صَبراً، وكان الذي أسَرَهُ المقدادُ بن الأسودِ. وقولهُ تعالى: (هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ) عناداً وتوكيداً وصِلَةٌ في الكلامِ، و(الْحَقَّ) نُصِبَ بخبرِ كان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس:(قَالَ الْحَارِثُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نوفَل: يَا مُحَمَّدُ، وَاللهِ إنَّكَ فِينَا لَصَادِقٌ وَلاَ نَتَّهِمُكَ، وَلَكِنَّا مَتَى نُؤْمِنُ بكَ غَزَانَا الْعَرَبُ، فَنَزَلَ (وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأنْتَ فِيهِمْ)) أي مُقيماً بين أظهُرِهم، ولَم تُعذبْ أمَّة قط ونبيُّها بين أظهُرِها حتى يخرجَ منها. (وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ) أي وما كان اللهُ لِيُسَلِّطَ عليهم عدُوَّهم (وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) أي يُصَلُّونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ؛ يعني عذابَ الآخرةِ، وعن عبدِالرحمن بن أبزي قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بمَكَّةَ، فَنَزَلَ (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأنْتَ فِيهِمْ) فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الْمَدِينَةِ فَنَزَلَ (وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) وَكَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَقِيَّةٌ بمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا، وَكَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ اللهَ وَيُصَلُّونَ، فَلَمَّا خَرَجَ كُفَّارُ مَكَّةَ إلَى حَرْب بَدْر، وَنَزَلَ قَوْلُهُ: (وَمَا لَهُمْ ألاَّ يُعَذِّبَهُمُ الله وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أيْ يَمْنَعُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ فَعَذبَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْر)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ ﴾ ؛ أي ما كان الكفَّارُ أولياءَ المسجدِ الحرام، قال الحسنُ: (وَذلِكَ أنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: نَحْنُ أوْلِيَاءُ الْمَسْجِدِ الْحَرَام، فَرَدَّ اللهُ ذلِكَ عَلَيْهِمْ). وَقِيْلَ: معناهُ: وما كانوا أولياءَ اللهِ. وقولهُ تعالى:﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ ؛ أي مَا أولياءُ اللهِ، وَقِيْلَ: ما أولياءُ المسجدِ الحرام إلا المتَّقونَ الشِّركَ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ ؛ الكفار، ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ، ذلكَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٤١٢) مختصراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾؛ يعني: إنَّ تقرُّبَ المشركين إلى اللهِ كان بالصَّفِير والتَّصفِيق، كانوا يفعَلون ذلكَ عندَ البيتِ مكانَ الدُّعاءِ والتَّسبيحِ. وَقِيْلَ: كَانُوا يأتُون بأفعالِ الصَّلاة، إلاَّ أنَّهم مع ذلكَ يُصَفِّرُونَ فيها ويُصَفِّقون.

وَالْمُكَاءُ: طائرٌ أبيض يكون في الحجاز يُصَفِّرُ يسمَّى باسم بصوته، ويقالُ: مَكَا يَمْكُو إذا صَفَّرَ. وصَدَى تَصْدِيَةً إذا صَفَّقَ بيدِهِ.

وقال مقاتلُ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ رَجُلاَنِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّار عَنْ يَمِينِهِ وَرَجُلاَنِ عَنْ يَسَارِهِ، فَيُصَفِّرُونَ كَمَا يُصَفِّرُ الْمُكَاءُ، وَيُصَفِّقُونَ بأيْدِيهِمْ؛ لِيَخْلِطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ صَلاَتَهُ وَقِرَاءَتَهُ، وَكَانُوا يَفْعَلُونَ كَذلِكَ بصَلاَةِ مَنْ آمَنَ بِهِ، فَقَتَلَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ). وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ ويقالُ: أرادَ بهذا أنه يُقال لهم يومَ القيامةِ: (فَذُوقُوا الْعَذابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ). وقال أبو جعفر: (سَأَلْتُ أبَا سَلَمَةَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى (إلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً) فَجَمَعَ يَدَيْهِ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِمَا صَفِيراً)[1]. وقال ابنُ عبَّاس: (كَانَتْ قُرَيْشُ يَطُوفُونَ بالْبَيْتِ عُرَاةً، وَيُدْخِلُونَ أصَابعَهُمْ فِي أفْوَاهِهِمْ فَيُصَفِّرُونَ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾؛ نزلَت هذه الآيةُ في الْمُطْعِمِينَ منهم يومَ بدرٍ، وكانوا ثلاثةَ عشَرَ رجُلاً وهم: أبو جَهلٍ وأخوهُ الحارثُ؛ والنَّضرُ بن الحارثِ؛ وأبَيُّ بن خلَفٍ؛ وزَمْعَةُ بنُ الأسوَدِ؛ وعُتبة وشَيبَةُ، كان لكلِّ واحدٍ منهم نوبَةُ يومٍ في الإطعامِ.

ومعنى الآيةِ:إنَّ الذين كفَرُوا يُنفِقُونَ أموالَهم على عداوةِ رسول الله ﷺ لِيَصُدُّوا الناسَ عن دِين اللهِ، فيستقبحُ هذه الإنفاق منهم، ثم يكون إنفاقُهم ندامةً عليهم يومَ القيامة، يُهزَمُونَ ويُقتلون ببدرٍ لا تنفعُهم نفقتهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٤٤٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٤٤٣)، وأدرج فيه: تفسير مجاهد في الأثر (١٢٤٤٥)، وتفسير سعيد بن جبير في الأثر (١٢٤٤٦).

والْحَسْرَةُ: مأخوذةٌ من الكَشْفِ، يقالُ: حَسَرَ رَأسَهُ إذا كَشَفَهُ، والْحَاسِرُ: كاشِفُ الرَّأسِ، فيكونُ المعنى: ثم يَكْشِفُ لهم عن ذلكَ ما يكونُ حَسْرَةً عليهم. قِيْلَ: كان يُطعِمُ كلُّ واحدٍ منهم كلَّ يوم عشْرَ جُزُرٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ بيانُ أنَّ ذلك القتلَ والهزيمةَ لا يُكفِّران ذُنوبَهم، وأنَّهم يُحشرون في الآخرةِ إلى جهنَّم للجزاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ ؛ أي لِيَمِيزَ اللهُ نفقةَ المؤمنين من نفقةِ الكافرين، والعملَ السَّيِّءَ من العملِ الصَّالحِ. وقُرئ (لِيُمَيِّزَ اللهُ) بالتشديد، والمعنى: ليُمَيِّزَ اللهُ ذلك الحشرَ الخبيثَ من الطيِّب؛ أي الكافرَ من المؤمنِ، فيُنْزِلَ الْمُحِقَّ الجنانَ والكافرَ النِّيران.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ ﴾ ؛ أي يجعلَ ما أنفقَهُ المشركون في معصيةِ الله بعضَهُ فوقَ بعضٍ، فيجعلُهُ رُكَاماً فيُكَوِّي بذلك جِبَاهُهم وجنُوبُهم في جهنَّم.

وَقِيْلَ: أرادَ بقولِهِ (فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً) طَرْحَ بعضهِ على بعضٍ، كما يفعلُ بالمتاعِ الخفيف تَحقِيراً له. وَقِيْلَ: معنى (فَيَرْكُمَهُ) أي يجمَعَهُ حتى يصيرَ كالسَّحاب الْمَرْكُومِ وهو المجتَمِعُ الكثيفُ فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ. وقولُهُ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي هم الذين خَسِرُوا أنفُسَهم في الدُّنيا والآخرةِ، وغُشَّتْ صفقَتُهم وخَسِرَتْ تجارَتُهم؛ لأنَّهم اشتَرَوا بأموالِهم عذابَ اللهِ في الآخرةِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ ؛ أي قُل لأبي سُفيان وأصحابهِ إنْ ينتَهُوا عن الشِّرك وقتال مُحَمَّدٍ ﷺ (يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) أي ما قد مَضَى من ذُنوبهم قبلَ الإسلام، ﴿ وَإِن يَعُودُواْ ﴾ ؛ لقتال مُحَمَّدٍ، ﴿ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ، في نصرِ الأنبياء والأولياءِ وهَلاكِ الكفَّار، وإنَّ للكفار النارَ في الآخرة. وأنشدَ بعضُهم[1]:

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٤٠١؛ قال القرطبي: ((هو أبو سعيد أحمد بن محمَّد الزبيري)).

يَسْتَوْجِبُ الْعَفْوَ الْفَتَى إذا اعْتَرَفْ ثُمَّ انْتَهَى عَمَّا أتَاهُ وَاقْتَرَفْ

لقولهِ (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ؛ أي قاتِلُوا كفَّارَ مكَّة حتى لا يكون شِرْكٌ. وَقِيْلَ: حتى لا يكون كافِرٌ بغيرِ عهدٍ؛ لأن الْفِتْنَةَ إنما تكون بأنْ يُتْرَكَ الْكُفَّارُ بلاَ عَهْدٍ، فَإنَّ الْكَافِرَ بغَيْرِ عَهْدٍ يَكُونُ عَزِيزاً فِي نَفْسِهِ يَدْعُو النَّاسَ إلَى دِينِهِ. ويجوزُ أن يكون المرادُ بالفتنةِ كلُّ ما يؤدِّي إلى الفسادِ.

وقولهُ تعالَى: ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي وتكون الطاعةُ كلُّها للهِ، فتجتمع الناسُ على دِين الإسلامِ. وقولهُ تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي فإن انتَهوا عن الشِّركِ فإنَّ اللهَ يجازيهم جزاءَ البصيرِ بأعمالِهم. ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ ؛ أي أعرَضُوا عن طاعةِ الله، ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ ؛ أي نَاصِرُكم، ﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ ؛ نِعْمَ الحافظِ والوَلِيّ، ﴿ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ مُنصِرُكم عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ؛ حتى الْخَيْطَ وَالْمَخِيطَ، قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ خُمُسُ الْغَنِيمَةِ يُقْسَمُ عَلَى عَهْدِ رَسُول اللهِ ﷺ عَلَى خَمْسَةِ أسْهُمٍ، سَهْمٌ للهِ وَرَسُولِهِ، وَوَاحِدٌ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي فِيْهِ الْمُحْتَاجَ وَالضَّعِيفَ وَيَجْعَلُهُ فِي عِدَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ السِّلاَحِ وَنَحْوِهِ، وَسَهْمٌ لِذوي قَرَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَسَهْمٌ لِيَتَامَى الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً، وَسَهْمٌ لِمَسَاكِينِ الْمُسْلِمِينَ، وَسَهْمٌ لابْنِ السَّبِيلِ. ثُمَّ قَسَمَهُ أبُو بَكْرٍ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُول اللهِ ﷺ، عَلَى ثَلاَثَةِ أسْهُمٍ لِلْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَكَذلِكَ فَعَلَ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ)[١].

وبهذا أخذ أبو حَنيفة وأصحابهُ؛ قالوا: إنَّ قولَهُ تعالى (للهِ خُمُسَهُ) لافتتاح الكلامِ باسمه تعالى على طريقِ التبرُّك، لا لأنَّ للهِ نصيباً من الْخُمُسِ، فإنَّ الدُّنيا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٤٩٦) عن ابن عباس مختصراً، وتمامه كما في الأثر (١٢٤٩٢) عن قتادة، والأثر (١٢٤٩٤) عن عطاء، والأثر (١٢٤٩٥) عن أبي العالية الرياحي.

والآخرة كلُّها لهُ سُبحانه، وسـهمُ رسـول الله ﷺ سَقَطَ بموتـهِ؛ لأن الأنبياءَ عليـهمُ السَّلام لا يُورَثُونَ، وبينَهم ذوي القراباتِ كان جعل النبيُّ ﷺ سـهمَهُ[1] في مَـن شـاءَ منهم، ألاَ ترى أنه أعطَى بني هاشم وبنِي المطَّلب، وأحرمَ بني نوفلَ وبـني عبـدِ شمس مع مساواتِها بني عبدِ المطَّلب في القُرْب؛ لأن بـني هاشـم لم يفـارقوهُ في جاهليَّـة ولا إسلامٍ، وإذا بَطَلَ هذان السَّهمان بعدَ رسول الله ﷺ، ورَجَعْنَا إلى السِّهام الثلاثةِ الـتي ذُكرت معَهُما، فقُسِّمَ الخمُسُ على ثلاثةِ أسهُم، ويدخلُ في استحقاقهِ فقراءُ بني هاشم دونَ أغنيائِهم بدلاً عمَّا حُرمُوا من الصَّدقات، وأربعةُ أخماسِ الغَنيمة للغَانِمين[2].

واليَتِيمُ من كلِّ جنسٍ من الحيوان الذي ماتَتْ أمُّهُ، إلا من بَني آدمَ فإنه إذا ماتَ أبوهُ. والمسكينُ الذي أسْكَنَهُ الضعفُ عن النُّهوضِ لحاجتهِ. وابنُ السَّبيلِ المنقطـعُ عـن مالهِ.

وقال بعضُهم: يُقسَمُ الخمُس الآنَ على أربعةِ أسهُم، فينفردُ سـهم قرابـةِ النبيِّ ﷺ، وقال الشافعيُّ: (يُقْسَمُ الْخُمُسُ الآنَ عَلَى خَمْسَةِ أَسْهُمٍ، سَـهْمٌ لِرَسُـولِ اللهِ ﷺ يُصْرَفُ إِلَى الأَهَمِّ فَالأَهَمِّ مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ)، ومِن أصحابهِ مَن قالَ: يصرفُ إلى الخليفةِ، وسهمُ قرابـةِ ذوي النبيِّ ﷺ لأغنيائِـهم وفُقَرائِـهم، وثلاثـةُ أسـهُمٍ لليتـامَى والمساكين وابنِ السَّبيل.

---

(١) في المخطوط: (لبضعة)، ولا تدل على المعنى المراد. والصحيح: سهمه.

(٢) في المسألة آراء: الأول: عن قتادة أنه سئل عن سهم ذي القربى؛ فقال: ((كَانَ طُعْمَةً لِرَسُـول اللهِ ﷺ مَا كَانَ حَيّاً، فَلَمَّا تُوُفِّيَ جُعِلَ لِوَلِيِّ الأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ)). أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثـر (١٢٥٠٦).

والثاني: عن سعيد المقري قال: كتب نجدة إلى ابن عباس يسأله عن ذي القربى، قـال: فكتـب إليه ابن عباس: ((كُنَّا نَقُولُ أنَّا هُمْ، فَأَبَى ذَلِكَ عَلَيْنَـا قَوْمُنَـا، قَـالُوا: قُرَيْـشٌ كُلُّـهَا ذوُو قُرْبَـى)). أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٠٦).

والثالث: أن سهم الرسول ﷺ يبقى لبني هاشم وبني المطلب، لما جاء بأنهم خاصـة النبي ﷺ من قريش، ولأنه ﷺقسم سهم ذوي القربى بـين بـني هاشـم وبـني المطلـب وقـال: [إِنَّـهُمْ لَـمْ يُفَارِقُونِي فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إِسْلاَمٍ، إِنَّمَـا بَنُـو هَاشِـمٍ وَبَنُـو الْمُطَّلِـبِ شَـيْءٌ وَاحِـدٌ] وشَـبَّكَ بَيْـنَ أَصَابِعِهِ. وإسناده صحيح أخرجه النجـدي والنسـائي. والمسـألة خلافيـة والراجـح فيـها الـرأي الثالث، والله أعلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ﴾ ؛ معناهُ: اقبَلُوا ما أمِرتُم به في الغنيمةِ إن كنتُم صدَّقتُم بتوحيدِ الله، وبما أنزَلنا على عبدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ، وقولهُ تعالى: (يَوْمَ الْفُرْقَانِ) أي يومَ بدر فُرِّقَ فيه بين الحقِّ والباطلِ بنصرِ المؤمنين وكَبْتِ الكافرين مع ضَعفِ المسلمين وقِلَّتِهم. وقولهُ تعالى: (يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ) أي يومَ جَمْعِ الكافرين والمؤمنين،﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ ؛ من نصرِ المؤمنين وغيرِ ذلك.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ﴾ ؛ أي اذكرُوا يا أصحابَ مُحَمَّدٍ إذ كُنتم بالعُدوَةِ الدُّنيا؛ أي شَفيرِ الوادِي الذي يَلِي المدينةَ، يقالُ لشَفيرِ الوادِي عَدْوَةٌ وَعِدْوَةٌ، (وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى) يعني المشركينَ بالجانب الآخر من الوَادِي على شفيرِ الأبعدِ من المدينةِ، وهو الجانبُ الذي يَلِي مكَّةَ. وقوله تعالى (وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) أي والقافلةُ الْمُقْبِلَةُ من الشَّام التي كان أبو سُفيان فيها كانت أسفلَ منهم بثلاثةِ أميالٍ كانوا نازلين أسفلَ الوادي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ﴾ ؛ أي إنَّ اللهَ جَمَعَكم مع المشركين وأصحابِ العيرِ في ليلةٍ واحدة بمَنْزِلٍ واحدٍ، ولو تَواعَدْتُم للاجتماعِ هناكَ لاختلَفْتُم في الميعادِ بالعوائقِ التي تعوقُ عن ذلك، وبأنَّكم لو كُنتم تعلمون كثرةَ عددِ المشركين وقلَّةَ عَدَدِكم لم تَحضُروا في ذلك المكان للقتال. وقولهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ؛ أي ولكن قَدَّرَ اللهُ اجتماعَكم في ذلك المكانِ ليَقْضِيَ الله أمْراً كائناً لا محالةَ من إعزاز المسلمين وإعلائِهِ «الإسلام»[(١)] على سائرِ الأديان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ ؛ أي ليَمُوتَ من ماتَ منهم بعد قيامِ الحجَّة عليهم، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ﴾ ؛ ويعيشَ من عاشَ بعد قيامِ الحجَّة عليهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ ؛ بمقالَتِكم، ﴿عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ ؛ بضمائرِكم، يُجازيكم على قدر أعمالِكم.

---

(١) سقطت من المخطوط؛ والسياق يقتضي ذكر الإسلام؛ وسوف يأتي على ذكره في تفسير الآية (٤٤).

قرأ أهلُ مكَّة والبصرة (بالْعِدْوَةِ) بكسر العين، وقرأ الباقون بضمِّها وهما لُغتان مشهورتان كالكِسْوَة والكُسْوَة والرِّشْوَة والرُّشْوَةِ، وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) قرأ نافعُ والبزي وخلَفٌ (حَيِيَ) بيائين مثل (حَيِيَ) على الأصل[1]، وقرأ الباقون بياءٍ واحدة مشدَّدة على الإدغام، ومعنى (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ) أي ليَموتَ من ماتَ عن بيِّنة رآها وعبرةٍ عاينَها، أو حجَّة قامت عليه، وكذلكَ حَيوةُ من يحيَى لوعدهِ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[2].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأى الْعَدُوَّ قَلِيلاً فِي الْمَنَامِ، فَقَصَّ رُؤْيَاهُ عَلَى أصْحَابهِ، فَلَمَّا الْتَقَوا ببَدْرٍ قَلَّلَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ فِي أعْيُنِ الْمُؤْمِنِينَ تَصْدِيقاً لِرُؤْيَا النَّبيِّ ﷺ)، ﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ ﴾ ؛ أي لَجَبنْتُمْ وتأخَّرتُم عن الصَّفِّ ولاختَلَفتُم في أمرِ الحرب، والفَشَلُ هو ضَعْفٌ مع الوَجَلِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ التَّنَازُعُ أنْ يحاولَ كلُّ واحدٍ من الاثنين أن يَنْزِعَ صاحبَهُ مما هو عليه، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾ ؛ أي سلَّمَكم من ذلك، ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي بما في قُلوبكم، عَلِمَ أنَّكم لو عَلِمتُم كثرةَ عددِ المشركين لرَغِبتم عن القتال.

قولُهُ: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قلَّلَ المشركين في أعيُنِ المسلمين ليتجرَّأ المسلمون على قتالِهم، وقلَّلَ المسلمين في أعيُنِ المشركين كَيلاَ يَستَعِدَّ المشركون لِحَربهم كلَّ الاستعدادِ.

رُوي عن عبدِالله بن مسعود أنهُ قال: (قُلْتُ لِرَجُلٍ بجَنْبي: أتُرَاهُمْ تَسْعِينَ رَجُلاً؟ قَالَ: هُمْ قَرِيبٌ مِنَ الْمِائَةِ، فَلَمَّا أسَرْنَا رَجُلاً مِنْهُمْ سَألْنَاهُ عَنْ عَدَدِهِمْ، قَالَ: كُنَّا ألْفاً أوْ تِسعُمِائَةٍ وَخَمْسِينَ)[3].

---

(١) في المخطوط: رسم الناسخ: (سائر مثل حسي على الأصل) وهو تصحيف، والصحيح كما أثبتناه. وضبطت القراءة كما في كتاب الحجة للقراءات السبعة للفارسي: ج ٢ ص٢٩٣، والجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٢٢. (٢) الإسراء / ١٥ .

(٣) عند الطبري والقرطبي وفي الدر المنثور: ((سبعين)). أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٣٩).

وقولهُ تعالى: (لِيَقْضِيَ الله أمْراً كَانَ مَفْعُولاً) قد تقدَّم تفسيرهُ، والفائدةُ في إعادتهِ أنَّ المرادَ بالأوَّل إعلاءُ الإسلامِ على سائرِ الأديان، وبالثاني قتلُ المشركين وأسرُهم يومَ بدر وكلاهما كان كائناً في علمِ الله.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي إذا لقِيتُم جماعةً من الكفَّار فاثبتُوا لقتالِهم، واذكرُوا اللهَ كثيراً في الحرب بالدُّعاء والاستغفار؛ لكي تُفلِحُوا بالظَّفرِ على الأعداءِ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ ﴾ ؛ أي أطِيعُوا اللهَ ورسولَهُ في الثَّباتِ على القتال ولا تختلفُوا فيما بينكم في لقاءِ العدوِّ والتقدُّم إلى قتالِهم فتَجبُنُوا من عدوِّكم، ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ؛ قال قتادةُ: (يَعْنِي ريحَ النَّصْرِ)[(٢)] الَّتِي يَبْعَثُهَا اللهُ مَعَ مَنْ يَنْصُرُهُ كَمَا قَالَ ﷺ: [نُصِرْتُ بالصَّبَا][(٣)].

وَقِيْلَ: معناهُ: وتذهبَ دولَتُكم وقوَّتُكم[(٤)]، وقال مجاهد: (وَتَذْهَبَ نُصْرَتُكُمْ)[(٥)]، وقال السديُّ: (جُرْأتُكُمْ وَحِدَّتُكُمْ وَجَلَدُكُمْ). وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ ؛ أي اصبرُوا على قتالِ المشركين ولا تولُّوهم الأدبارَ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ، بالنصرِ والمعونة.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٢٣؛ قال القرطبي: ((فإن القلبَ لا يسكنُ عند اللقاء ويضطربُ اللسان؛ فأمَرَ بالذكر حتى يثبتَ القلبُ على اليقين، ويثبتَ اللسانُ على الذِّكر، ويقولُ ما قاله أصحابُ طالوتَ: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وهذه الحالةُ لا تكون إلا عن قوَّة المعرفةِ، واتِّقاد البصيرةِ، وهي الشجاعةُ المحمودة في النَّاسِ)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٤٧) بلفظ: ((ريح الحرب)). وعن ابن زيد في الأثر (١٢٥٤٨)؛ قال: ((الريح: النصر)).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح:كتاب الاستسقاء: باب قول النبي ﷺ[نُصِرْتُ بالصَّبَا]: الحديث (١٠٣٥). ومسلم في الصحيح: كتاب الاستسقاء: الحديث (١٧/ ٩٠٠).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل من قول النضر بن شميل والأخفش.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٤٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي قاتِلُوا لوجهِ الله ولا تكونُوا في خروجِكم إلى قتال المشركين كالْمُشركين الذين خرَجُوا من ديارهم إلى قتال المسلمين بَطَراً وهو الطُّغيان في النِّعمة وريَاءِ الناس، والرِّياءُ: هو إظهارُ الجميلِ مع إبطَان القبيح. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي هُم مع بَطَرِهم ورِيَائِهم يَمنعُونَ الناسَ عن دينِ الله.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ بَعْضَ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لأَبي جَـهْلٍ وَأصْحَابِـهِ قَبْلَ وُصُولِهِمْ إلَى بَدْرٍ: ارْجِعُواْ إلَى مَكَّةَ فَقَدْ نَحتَتِ الْعِيرُ، قَالُوا: لاَ حَتَّى تُنْحَرَ الْجَزُورُ وَتُشْرَبَ الْخُمُورُ وَتُغَنِّي الْقَيْنَاتُ، حَتَّى تَسْمَعَ الْعَرَبُ بمَسِيرِنَا. فَنَزَلُواْ ببَدْرٍ وَمَعَهُمُ الْقَيْنَاتُ بالدُّفُوفِ وَيَتَغَنَّيْنَ بهجَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَسَقَاهُمْ كَأسَ الْمَنَايَا مَكَانَ الْخُمُور، وَنَاحَتْ عَلَيهِمُ النَّوَائِحُ مَكَانَ الْقَيْنَاتِ، فَنَهَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أنْ يَكُونُواْ مِثْلَهُمْ، وَأمَرَهُمْ بإخْلاَصِ النِّيَّةِ وَالصَّبْرِ فِي نَصْرِ دِينِهِ وَمُؤَازَرَةِ نَبيِّهِ ﷺ)(١).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي واذكرُوا إذ زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم يومَ بدر، وقالَ: لاَ غَالِبَ لكم اليومَ مِن أحدٍ من الناس فمنَعْتُكُم وكَثْرَتُكم وإنِّي دافعٌ عنكم الشرَّ، ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ؛ أي لَمَّا توافَقَتا رجعَ الشيطانُ القَهْقَرَى على عَقِبَيهِ هَارباً خوفاً مما رأى، ﴿ وَقَالَ﴾ ؛ للمشركين: ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا﴾ ؛ أي الملائكةَ تَنْزِلُ من السَّماء وأنتم، ﴿ لَا تَرَوْنَ﴾ ؛ وكان يعرفُ الملائكةَ ويعرفونَهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ﴾ ؛ أي أخافهُ أنْ يُصيبَنِي معَكم بعذابـهِ، ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ لِمَن استحقَّهُ، قال مقاتلُ: (كَذبَ عَدُوُّ اللهِ، مَا كَانَ بهِ مِنْ خَوْفٍ مِنَ اللهِ، فَإنَّ اللهَ قَدْ أنْظَرَهُ إلَى الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، وَلَكِنَّهُ خَذلَهُمْ عِنْدَ الشِّدَّةِ). ويقالُ: ظنَّ إبليسُ أن الوقتَ الذي أنظرَهُ الله قد حضرَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٥١).

وعن ابنِ عبَّاس: (أنَّ أهْلَ مَكَّةَ لَمَّا وَجَدُوا الْعِيرَ أرَادُوا الرُّجُوعَ، فَتَمَثَّلَ لَهُمْ إبْلِيسُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جَعْثَم مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، فَقَالَ: لاَ تَرْجِعُوا حَتَّى تَسْتَأْصِلُوهُمْ، فَإنَّكُمْ كَثِيرٌ وَهُمْ قَلِيلٌ، وَلاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ، وَإنِّي مُعِينٌ لَكُمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، فَلاَ تَمُرُّونَ بأحَدٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ إلاَّ سَارَ مَعَكُمْ، فَإنَّهُمْ لاَ يُخَالِفُونَنِي.

فَسَارُواْ وَسَارَ إبْلِيسُ مَعَهُمْ، وَلَمْ يَخْرُجْ أحَدٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، فَجَعَلُواْ يَقُولُونَ: يَا سُرَاقَةُ أيْنَ مَا ضَمَمْتَ لَنَا؟ فَيَقُولُ: مُرُونِي، حَتَّى قَدِمُوا بَدْراً، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْقِتَالِ رَأى إبْلِيسُ جِبْرِيلَ فَنَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ رَاجِعاً، وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ: يَا سُرَاقَةُ أيْنَ تَذْهَبُ؟ فَقَالَ: إنِّي أرَى مَا لاَ تَرَوْنَ، فَقَالَ الْحَارِثُ: وَمَا تَرَى إلاَّ جَعَاشِيشَ أهْلَ يَثْرِبَ؟ - وَالْجُعْشُوشُ: الرَّجُلُ الْقَصِيرُ - فَلَمَّا رَأى الْحَارِثُ إبْلِيسَ يَنْطَلِقُ، أهْوَى بِهِ لِيَأْخُذَهُ، فَدَفَعَهُ إبْلِيسُ فَرَمَى بِهِ، ثُمَّ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وقَالَ: - إني - أخَافُ اللهَ، وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ[1].

فَلَمَّا انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ جَعَلُوا يَقُولُونَ: هَزَمَ النَّاسَ سُرَاقَةُ، فَبَلَغَ ذلِكَ سُرَاقَةَ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: بَلَغَنِي أنَّكُمْ تَقُولُونَ أنِّي هَزَمْتُ النَّاسَ! وَالَّذِي نَحْلِفُ بِهِ مَا بَلَغَنِي مَا تَقُولُونَ وَلاَ سَمِعْتُ بمَسِيرِكُمْ حَتَّى بَلَغَنِي هَزِيْمَتُكُمْ، فَجَعَلُواْ يَقُولُونَ لَهُ: أمَا أتَيْتَنَا يَوْمَ كَذا وَكَذا ؟ وَهُوَ يَقُولُ: لاَ؛ وَالَّذِي نَحْلِفُ بِهِ مَا كَانَ مِنْ ذا قَلِيلٍ وَلاَ كَثِيرٍ. فَلَمَّا أسْلَمُوا عَرَفُوا أنَّهُ إنَّمَا كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ).

فإنْ قِيْلَ: كيف يجوزُ أن يتمكَّن إبليسُ مِن أن يخلعَ صورةَ نفسهِ ويلبسَ صورةَ سُراقة؟ ولو كان قادِراً على أن يجعلَ نفسَهُ صورةَ إنسان كان قادراً على أن يجعلَ غيرَهُ إنسَاناً؟ قِيْلَ: إذا صَحَّتْ هذه الروايةُ، فالجوابُ: أن اللهَ خَلَقَ إبليسَ في صُورةِ سُراقة، واللهُ تعالى قادرٌ على خلقِ إنسانٍ في مثلِ صورة سُراقة ابتداءً، فكان قادراً على أن يُصوِّر إبليسَ في مثل صورةِ سُراقة.

---

(١) مجمل ما أسنده الطبري في جامع البيان: الأثر(١٢٥٦٢) عن ابن عباس، و(١٢٥٦٣) عن السدي، و(١٢٥٦٤) عن عروة بن الزبير، و(١٢٥٦٦) عن قتادة، و(١٢٥٧٠) عن الحسن.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ ؛ قرأ الحسنُ: (الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هُمُ الْمُشْرِكُونَ). وَقِيلَ: هم أناسٌ كانوا قد تكلَّموا بكلمةِ الإيمان حين كان النبيُّ ﷺ بمكَّة من دون علم منهم بأمر رسول اللهِ ﷺ فيكون معنى قولهِ: (وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أي شَكٌّ، وهم الذين لا عزيمةَ لهم في الكُفرِ ولا في الإسلامِ، ولم يكونوا أعداءَ النبيِّ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ) قال ابنُ عباس: (لَمَّا نَفَرَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ مَكَّةَ إلَى بَدْرٍ وَلَمْ يُخْلِفُوا بمَكَّةَ أحَداً قَدِ احْتَلَمَ إلاَّ خَرَجُوا بهِ، وَأخْرَجُوا مَعَهُمْ أنَاساً كَانُوا قَدْ تَكَلَّمُوا بالإسْلاَمِ بمَكَّةَ، فَلَمَّا الْتَقوا وَرَأوْا قِلَّةَ الْمُسْلِمِينَ وَكَثْرَةَ الْمُشْرِكِينَ، ارْتَابُوا وَنَافَقُوا وَقَالُوا لأَهْلِ مَكَّةَ: غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ، يَعْنُونَ الْمُسْلِمِينَ غَرَّهُمْ دِينُهُمْ حِينَ خَرَجُوا مَعَ قِلَّتِهِمْ إلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ مَعَ كَثْرَتِهِمْ). فَقُتِلَ هَؤُلاَءِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ وُجُوهَهُمْ وَأدْبَارَهُمْ، كَمَا ذكَرَ اللهُ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ؛ أي ومَن يَثِقْ باللهِ في جميعِ أمُورهِ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ ؛ بنصرهِ على عدوِّهِ ولو كثُرَ عددهُ، ﴿ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ يضعُ الأمورَ مواضِعَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ ؛ أي لو ترَى يا مُحَمَّدُ حين يَقبضُ الملائكةُ أرواحَ الكفَّار ببَدْرٍ يضربُون على وجُوهِهم بالأعمِدَةِ، وعلى أدبارهم يقولون لَهم: ﴿ وَذُوقُوا ﴾ ؛ بعدَ السَّيفِ في الدُّنيا، ﴿ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ؛ أي ذلكَ العذابُ الذي عَايَنْتُمُوهُ بكُفركم وخيانَتِكم، والخيانةُ إذا أضيفَت إلى الإنسان أكِّدت بذكر اليَدِ في العادةِ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي اعلَموا أنَّ اللهَ لا يُعذِّبُ أحداً بجُرمِ أحَدٍ، ولا يعذِّبُ أحداً بغيرِ ذنبٍ. وموضع (أنَّ) نصبٌ بنَزعِ الخافض عَطفاً على قولهِ (بمَا قَدَّمَتْ) تقديرهُ: وبأنَّ اللهَ، وكان الحسنُ إذا قرأ هذه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم: ج ٥ ص١٧١٦: الأثر (٩١٦٨).

السُّورة قال: (طُوبَى لِجَيْشٍ قَائِدُهُمْ رَسُولُ اللهِ، وَمُبَارِزُهُمْ أَسَدُ اللهِ، وَجِهَادُهُمْ طَاعَةُ اللهِ، وَمَدَدُهُمْ مَلاَئِكَةُ اللهِ، وَثَوَابُهُمْ رِضْوَانُ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ أي عَادَةِ هؤلاءِ في كُفرهم، كعَادةِ آل فرعون والذين مِن قبلهم، ﴿ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ، التي أتَتْهُمْ بها الرُّسُلُ، ﴿ فَأَخَذَهُمُ ﴾ ؛ فعَاقَبَهم، ﴿ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ ﴾ ؛ في أخذِ الأعداء، ﴿ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ لِمَن عصاهُ.

والدَّأبُ في اللغة: الْعَادَةُ، يقالُ: فلانٌ يَدْأبُ في كذا؛ أي يُدَاومُ عليه ويُتعِبُ نفسَهُ فيه. وآلُ الرَّجُلِ: الذين يَرجِعُونَ إليه بأوْكَدِ الأسبَاب، ولهذا يقالُ لقرابةِ الرجُل: آلُ الرَّجُلِ ولا يقالُ لأصحابهِ: آلُهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (كَدَأْب آل فِرْعَوْنَ) قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ كَفِعْلِ آل فِرْعَوْنَ)، وقال عطاء ومجاهدُ: (كَنِيَّتِهِمْ)، وَقِيْلَ: كَمِثَالِهم، والمعنى: أنَّ أهلَ بدرٍ من المشركين فَعَلُوا كفِعْلِ آلِ فرعون من الكُفر والتكذيب، ففعلَ اللهُ بهم كما فعلَ بآلِ فرعون من الهلاكِ والعذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ أي لم يفعلِ اللهُ ذلك العقابَ بهم بأنَّ الله لَم يَكُ مُزيلاً نعمةً أنعَمَها على قومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفُسِهم في الدِّين والنِّعَم إلى أحوالٍ لَم يَجُزْ لهم أن يغيِّروا إليها، كما فعلَ أهلُ مكَّة بعد أنْ أطعَمَهم اللهُ من جُوعٍ وآمَنَهُم من خوفٍ، وأرسلَ إليهم رَسُولاً منهم، وأنزلَ إليهم كِتَاباً بلسانِهم. ثم إنَّهم غيَّروا هذه النِّعَم ولم يَشكرُوها ولا عرَفُوها من اللهِ، فغيَّرَ اللهُ ما بهم وأهلكَهم وعاقبَهم ببدر، ويُدخِلُهم النارَ في الآخرةِ.

قال الكلبيُّ: (يَعْنِي بالآيَةِ أهْلَ مَكَّةَ، بَعَثَ إلَيْهِمْ مُحَمَّداً ﷺ، فَغَيَّرُوا نِعْمَةَ اللهِ، وَتَغْيِيرُهَا كُفْرُهَا وَتَرْكُ شُكْرِهَا)، وقال السديُّ: (نِعْمَةُ اللهِ يَعْنِي مُحَمَّداً، أنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ فَكَذبُوهُ وكَفَرُوا بهِ، فَنَقَلَهُ اللهُ إلَى الأنْصَار)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي سميعٌ لجميعِ المخلوقاتِ المسموعات، عليمٌ لمعاناتكم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ ؛ أي عادتِهم في التكذيب بآياتِ اللهِ كعَادَةِ آل فرعون، ﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ من الأُمَم الماضيةِ، ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ الَّتي جاءَتْ بها رُسُلهُم، ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ﴾ ؛ أي وأهلَكْنا، ﴿ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ بالغرَق خاصَّة، ﴿ وَكُلٌّ ﴾ ؛ هؤلاءِ ﴿ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ لأنفسِهم، مُستحقِّين العقوبةَ بسُوءِ أعمالهم.

فإن قِيْلَ: لِمَ كرَّرَ آلَ فرعون ؟ قِيْلَ: المرادُ بالأوَّل أن هؤلاءِ جازَاهُم اللهُ بالقتلِ والأسْرِ، كما جُوزيَ أولئكَ بالغرقِ والهلاك، والمرادُ بالثاني: أن صُنْعَ هؤلاءِ في النِّعم التي أنعمَ اللهُ عليهم كصُنعِ آل فرعون فيما أعطاهم اللهُ من الْمُلْكِ والعزِّ في الدُّنيا، فلما غَيَّرَ كلُّ فريقٍ النعمَ غيَّر اللهُ سبحانه ما بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ أي إن شرَّ ما يدبُّ على الأرضِ الذين جَحَدُوا بتوحيدِ الله ونبوَّةِ رسُلهِ، مُصِرِّينَ على الكفرِ، ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ ﴾ نزلَتْ في يَهودِ بني قُريظةَ، عاهَدَهم النبيُّ ﷺ على أنْ لا يضُرُّوا به ولا يُعِينُوا عليه عدُوّاً، فنَقَضُوا العهدَ وأعانوا أهلَ مكَّة بالسِّلاح على قتالِ النبيِّ ﷺ، ثُم قالوا: نَسِينَا وأخطَأْنا، ثم عاهَدَهم مرَّة أخرى، فرَكِبَ كعبُ بن الأشرفِ إلى أهلِ مكَّة، ووَاثقَهُمْ على حرب رسول الله ﷺ. وقولهُ تعالى: (عَاهَدْتَ مِنْهُمْ) أي معَهُم، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي لا يخَافُونَ اللهَ في نقضِ العهد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فإما تصادِفَهم في الحرب، فافْعَلْ بهم فِعْلاً من القتلِ والعُقوبَةِ والتَّنكيلِ تعرفُ بهم مَن ورائهم من أعدائِكَ. والتَّشْرِيدُ: التَّبْدِيدُ والتَّفْرِيقُ، ويقالُ: معنى (شَرِّدْ بهِمْ) أي أسْمِعْ بهِمْ بلُغَةِ قُريش.

وقال ابنُ عبَّاس: (فَشَرِّدْ بهمْ؛ أيْ نَكِّلْ بهِمْ مَنْ وَرَاءَهُمْ)[1]، وقال ابنُ جُبير: (أنْذِرْ بهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ)[2]. وَقِيْلَ: اقتُلْهُم قَتْلاً، وَقِيْلَ: أثْخِنْ فيهِمُ القتلَ حتى يخافَكَ غيرُهم من أهلِ مكَّة وأهلِ اليَمَن. وقال القُتَيبيُّ: (سَمِّعْ بهِمْ)، وقرأ ابنُ مسعود (فَشَرِّذْ) بالذال المعجَّمة وهما واحدٌ[3]. وقال قُطرب: (التَّشْرِيدُ بالدَّال: التَّنْكِيلُ، وَبالذال: التَّفْرِيقُ)[4]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَعَلَّهُمْ يَذكَّرُونَ) أي لكَي يعتَبروا فلا يَنقضُوا العهدَ الَذي بينَكَ وبينهم مخافةَ أن يحِلَّ بهم مثلَ ما حلَّ ببني قُريظة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ ؛ أي إذا خِفْتَ من قومٍ بينَكَ وبينَهم عهدٌ وخيانةٌ في ذلك العهدِ من غَدْرٍ بالمسلمين، أي عَلِمْتَ أنَّهم يفعلون ذلك بالمسلمين خِفْيَةً من غيرِ أن يظهرَ نقضُ العهدِ، فَانْبذِ العهدَ إليهم على سواءٍ منك ومنهم في العلمِ، ولا تبدَأهم بالقتالِ من قبلِ أن تُعلِمَهُم إعْلاَماً بَيِّناً بأنَّكَ نقضتَ العهدَ.

والمعنى: إمَّا تعلَمَنَّ يا مُحَمَّدُ من قومٍ مُعاهِدين لكَ نَكْثَ عهدٍ ونقضَ عهدٍ يظهرُ لك من آثار الغدر والخيانة كما ظهرَ لكَ من بني قُريظة والنَّضِير، فَانْبذْ إليهم؛ أي فَاطْرَحْ إليهم عهدَهم على سواءٍ؛ أي أخبرْهم وَأعْلِمْهُمْ قبلَ حَربكَ إياهم أنَّكَ فَسَخْتَ العهدَ بينَكَ وبينهم، حتى تصيرَ أنتَ وهم على سواءٍ في العلمِ بأنَّكَ لهم محاربٌ، فيأخذُوا للحرب أهْبَتَهَا وَتَبْرَأ من الغدر. وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي لا يرضَى عملَ الذين يَخُونُونَ بالبَدْأةِ بالقتالِ من غيرِ إعلامٍ بنقضِ العهد.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٥٩١).

(٣) في اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٥٤٧؛ قال: ((قال شهاب الدين: وقد تقدم أن النَّقطَ والشَّكل أمر حادث، أحدثه يحيى بن يعمر، فكيف يوجد ذلك في مصحف ابن مسعود؟!)).

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٣١؛ قال القرطبي: ((حكاه الثعلبي، وقال المهدوي: الذال لا وجه لها، إلا أن تكون بدلاً من الدال المهملة لتقاربهما، ولا يعرف في اللغة (فشَرِّذ).)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي لا تَظُنَّنَّ يا مُحَمَّدُ أن مَن أفلتَ من الكفار من هذه الحرب قد سبقَ إلى الحياةِ. ويقالُ: لا تَحْسَبَنَّ يا مُحَمَّدُ أنَّ أعداءَك من الكفار المشركين ربما يقولُون لكَ بأنْ لا يُظفِرُكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهم، بلِ اللهُ تعالى يُظهِرُكَ عليهم ويُظفِرُكَ.

وقرأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ وحمزةُ وحفص بالياءِ على معنى لا تَظُنَّنَّ هؤلاءِ المشركين إنَّ من ماتَ منهم فقد فاتَ من الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّ اللهَ لا يبعثهُ يومَ القيامةِ ولا يعاقبهُ. وقرأ أهلُ الشام: (أَنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ) بالفتحِ، وتكونُ (لاَ) صلةً تقديرهُ: ولا تحسبَنَّ الذين كفرُوا سبَقُوا أنَّهم لا يُعجِزُونَ؛ أي لا يَفُوتُونَ. وقيل معناهُ: لأَنَّهُمْ، وقرأ عامَّة القُرَّاء بالكسرِ على الابتداء[1].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ؛ أي أعِدُّوا للكفار ما استطعتُم من آلاتِ الحربِ. وعن ابنِ عبَّاس وعقبة بن عامرٍ؛ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ثُمَّ قَالَ: [أَلاَ إنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلاَ إنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، لَهْوُ الْمُؤْمِنِ فِي الْخَلاَءِ وَقُوَّتُهُ عِنْدَ اللِّقَاءِ][2]. وَمَاتَ عُقْبَةُ فَأَوْصَى بتِسْعِينَ قَوْساً مَعَ كُلِّ قَوْسٍ سِهَامُهَا فِي سَبيلِ اللهِ، وَقَالَ عُقْبَةُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ اللهَ لَيُدْخِلُ الْجَنَّةَ الثَّلاَثَةَ سَهْمٌ وَاحِدٌ، صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالْمُهْدِي لَهُ، وَالرَّامِي بِهِ][3] وقالَ ﷺ: [كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بهِ الرَّجُلُ بَاطِلٌ، إلاَّ رَمْيَةً بقَوْسِهِ وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ وَمُلاَعَبَتَهُ أهْلَهُ، فَإنَّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ][4].

---

(١) ينظر: الحجة للقراءات السبعة: ج ٢ ص٣٠٥-٣٠٦.

(٢) رواه المسلم في الصحيح: كتاب الإمارة: باب فضل الرمي والحث عليه: الحديث (١٩١٧/٢١٧). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٥٩٩) مرسلاً، والحديث (١٦٠٠) موصولاً بأسانيد عديدة. وعند أبي داود في السنن: الحديث (٢٥١٤). والترمذي في الجامع: الحديث (٣٠٨٣).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٧ ص٢٩٠: الحديث (٩٣٩). وفي مجمع الزوائد: ج٤ ص٣٢٩؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات)) وهو مخرج عند الترمذي في الجامع: الحديث (١٦٣٧). وابن ماجة في السنن: الحديث (٢٨١١).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٩٤١ و٩٤٢). والترمذي في الجامع: كتاب الجهاد: باب ما جاء في فضل الرمي: الحديث (١٦٣٧ ١٦٣٨) واللفظ له؛ وقال: حديث حسن.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: ارْتَبطُوا الخيلَ لَهم ولقتالِهم؛ أي أعِدُّوا لَهم ذلك لتخويفِ عدُوِّ اللهِ وعدُوِّكم (وَآخَرِينَ مِنْ دُونِـهِمْ) أي مِن دون كُفَّار العرب وأهلِ الكتاب (لاَ تَعْلَمُونَهُمْ) أي لا تَعرفُونَهُمْ. قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي كُفَّارَ الْجِنِّ)[١]، قَالَ ﷺ: [لاَ يَقْرُبُ صَاحِبَ قَوْسٍ جِنِّيٌّ أبَداً]. ويقالُ: إن الجنَّ لا تدخلُ بيتاً فيه قوسٌ ولا سلاحٌ.

قال السديُّ: (أرَادَ بِهِ أهْلَ فَارسَ)[٢]، وقال الحسنُ: (هُمُ الْمُنَافِقُونَ)، وقال الضحَّاك: (هُمُ الشَّيَاطِينُ)، ولا يمتنعُ أن يكون الكلُّ مرادٌ بالآيةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي ما تُنفقوا من شيءٍ في الجهادِ يوفَّ إليكم ثوابهُ، ﴿ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي لا يُنقصُ شيءٌ من حقِّكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ ؛ معناهُ: فإنْ مالَتْ يهودُ بني قريظةَ إلى الصُّلح فمِلْ إليهم وصالِحْهم، فكان هذا قبلَ نُزول براءة، ثم نُسِخَ بقولهِ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[٣] وبقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[٤].

والسِّلْمُ والسَّلْمُ بالخفضِ والنصب، وإنما قال (فَاجْنَحْ لَهَا) لأن السَّلم والْمُسَالَمَةَ بمعنى واحدٍ، فردَّ الكنايةَ إلى المعنى. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛

---

(١) في جامع البيان: الأثر (١٢٦٠٨)؛ قال الطبري: ((وقال آخرون: هم قوم من الجن)). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٣٨؛ قال القرطبي: ((قال رسول الله ﷺ: [هُمُ الْجِنُّ] ثم قال رسولُ الله ﷺ:[إنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَخْبَلُ أحَداً فِي دَار فِيهَا فَرَسٌ عَتِيقٌ]. وقال: هذا الحديث أسنده الحارث بن أبي أسامة عن ابن الملكي عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ. وروي: [إنَّ الْجِنَّ لاَ تَقْرُبُ دَاراً فِيهَا فَرَسٌ، وَإنَّهَا تَنْفِرُ مِنْ صَهِيلِ الْخَيْلِ])). وفي المطالب العالية: ج ٣ ص٣٣٥-٣٣٦: الحديث (٣٦٣٠) كما حكاه القرطبي. وفي مجمع الزوائد: ج٧ ص٢٧؛ قال الهيثمي:((رواهُ الطبراني فيه مجاهيل)).

(٢) أخرجه الطبراني في جامع البيان: الأثر (١٢٦٠٦). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (٩١١٠): ج ٥ ص١٧٢٤.

(٣) التوبة / ٥.

(٤) التوبة / ٢٩.

أي ثِقْ بالله تعالى إنْ نَقَضُوا العهدَ، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ بمقالَتِكم ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ بما تفعلون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ يُرِدِ الذين يطلبُون منكَ الصُّلحَ أنْ يخدَعُوكَ بإظهار الصُّلح لتَكُفَّ عنهم إلى أن يتَقَوَّوا بغيرِكَ، فإنَّ اللهَ كافيكَ في حربِهم وقتالِهم، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي قَوَّاكَ يومَ بدرٍ بنصرهِ وقوَّاكَ بالمؤمنين، وهم الأوسُ والخزرجُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ أي جَمَعَهم على الْمَوَدَّةِ في الإيمان، وقولهُ تعالى: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ أي ما قَدَرْتَ على جمعِ قُلوبهم على الأُلْفَةِ، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ ﴾ ؛ في سُلطانهِ لا يقدرُ أحدٌ أن يَغْلِبَهُ ويمنعَهُ عن مُرادهِ، ﴿ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ يضعُ الأمورَ في موضعِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي كافيكَ اللهُ، ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ نزلَتْ في البيداء في غَزوَةِ بدر. وَقِيْلَ: لَمَّا أسلمَ عمرُ ﷺ نزلَ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[1].

وقال بعضُ المفسِّرين: موضعُ (مَنْ) خفضٌ عطفاً على الكافِ في قولهِ (حَسْبُكَ اللهُ) أي وحسبُ مَنِ اتَّبعَكَ. وقال بعضُهم: موضعهُ رفْعٌ عطفاً على اسمِ الله؛ أي حسبُكَ اللهُ ومَتبوعُكَ مِن المؤمنين. قِيْلَ: إن هذه الآيةَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (ياأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) نزلَتْ في البيداءِ في غزوةِ بدرٍ قبلَ القتال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ ؛ أي رَغِّبْهُمْ في القتالِ، والتَّحريضُ: الترغيبُ في الشيءِ بما يدعُو إليه نحوُ وعدِ الثواب على القتالِ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر(٩١٣٥) عن سعيد بن جبير؛ قال: ((لَمَّا أسلمَ مع النبيِّ ﷺ ثلاثةٌ وثلاثون رجُلاً وستُّ نسوةٍ، ثم أسلمَ عُمر فنَزلت الآيةُ))، قال: وروي عن سعيد بن المسيب نحو ذلك. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٢٨ ذكره الهيثمي عن ابن عباس وقال: ((رواه الطبراني وفيه إسحق بن بشرِ الكاهلي وهو كذابٌ)).

والتنفيلُ عليه، وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ؛ هـذا وعـدٌ مـن اللهِ؛ أي يُقَوِّي واحداً من المسلمين المتَصِرين في الدِّين على عشرةٍ مـن الكفَّـار، ويقـوِّي مائـةً صابرةً محتسبة على ألْفٍ من الكفَّار.

وقولهُ تعالى: ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي ذلك النصـرُ مـن اللهِ لكم على الكفَّار وخُذلانُهم بأنَّكم تفقهونَ أمـرَ اللهِ وتصدِّقُونـه فيمـا وعـدَهُ مـن الثواب، والكفارُ لا يفقهون ذلك ولا يصدِّقونه.

قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبْعَثُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أنْ يُقَاتِلَ الرَّجُلُ مِنْهُمُ الْعَشْرَةَ مِنَ الْكُفَّار، وَالْمِائَةُ مِنْهُمُ الأَلْفَ مِـنَ الْكُفَّـار كَمَـا أمَـرَ اللهُ، فَلَمَّا أمَرَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ بقِتَال الْكُفَّار ببَدْرٍ وَكَانَ فَرَضَ الْقِتَالَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَمَا ذكَرَ اللهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ، شَقَّ ذلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:

قَوْلَهُ: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ ﴾ ؛ أي الآنَ هـوَّنَ اللهُ عليكم القتالَ الذي فرضَهُ عليكم وسهَّلَ الأمرَ عليكم لتَعرفُوا فتَشكُروا، وعَلِمَ في الأزَل أن في الواحدِ منكم ضَعْفاً عن قتال العشرةِ، والمائةِ عن قتالِ الألفِ)[1]. وَقِيْـلَ: عَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً في النُّصرة في أمرِ الدِّين.

قرأ عاصمُ وحمزة وخلَف (ضَعْفاً) بفتح الضاد، وقرأ الباقون بضَمِّها أي عَجْـزاً عما فرضَ عليكم، ومَـن قـرأ (ضَعفـاً) فمعنـاه شـيوخاً وضعافـاً، وقـرأ أبـو جعفـر (ضُعَفَاءَ) بضمِّ الضادِ وفتح العينِ والمدِّ وهمزة من غيرِ تنوينٍ على جمعِ ضَعيـف مثـل شُركاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ ﴾ ؛ أمرَ اللهُ بأنَّ الواحدَ يثبتُ للاثنين وضَمِنَ له النصرَ عليهما. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ ؛ أي بـأمرِ اللهِ، ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثـر (١٢٦٣٤ و١٢٦٣٥) بسـياق آخـر. وابـن أبـي حـاتم في التفسير: الأثر (٩١٣٨ و٩١٤٠).

مُعِينٌ لَهم، قال ابنُ عبَّاس: (مَنْ فَرَّ مِنْ رَجُلَين فَقَدْ فَرَّ، وَمَنْ فَرَّ مِنْ ثَلاثَةٍ لَمْ يَفِرَّ)[1]. وهذا إذا كان للواحدِ المسلم من السِّلاح والقوَّة مثلَ ما لكلِّ واحدٍ من رجُلين من الكافرين، كان فَارّاً، فأما إذا لم يكن، لم يَثْبُتْ حُكم الفرار.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ ﴾ أي يكون له أسْرَى من المشركين فيفاديهم[2] أو يَمُنَّ عليهم، ولكن السَّيفَ حتى يُمكِنَ في الأرضِ لا بد من القتال، فيقتلُ منهم قَتْلاً ذريعاً ليَرتَدِعَ مَن وراءَهم. والإثخانُ في كلِّ شيء: شِدَّتُهُ، يقالُ: أثْخَنَهُ المرضُ إذا اشتدَّ قوتهُ عليه، وكذلك أثْخَنَتْهُ الْجِرَاحُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ خطابٌ للذين أسرَعُوا في أخذِ الغنائمِ وشَغَلُوا أنفُسَهم بذلك عن القتال، وذلك أنَّهم لَمَّا كان يومُ بدرٍ تعجَّلَ ناسٌ من المسلمين فأصَابُوا من الغنائم، ومعناه: تريدون بالقتال المالَ، وسَمَّاهُ عَرَضاً لقِلَّةِ لُبْثِهِ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۗ ﴾ ؛ أي يريدُ منكم العملَ بما تستحقُّون به ثوابَ الآخرةِ، ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ ؛ أي مَنِيعٌ في سُلطانه، ﴿ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ في أمْرِهِ وقضائهِ، فاعملُوا ما أمَرَكم به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي لَولاَ حُكمٌ من اللهِ سبقَ في إباحةِ الغنائمِ لَمسَّكُم فيما استبَحتُم قبلَ الإثخانِ عذابٌ عظيم. وَقِيْلَ: لولا كتابٌ مِن الله سبقَ في أهلِ بدرٍ أن يغفرَ اللهُ لَهم ما تقدَّمَ من ذُنوبهم وما تأخَّرَ. وَقِيْلَ: معناهُ: لولا حكمُ اللهِ في اللَّوحِ المحفوظِ وفي القرآنِ أنه لا يعذِّبُ قوماً حتى يُبيِّن لهم ما يتَّقون لأصابَتْكم عقوبةٌ عظيمة.

---

(١) ينظر اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٥٦٦. وبمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٦٤٢).

(٢) في المخطوط وضع فراغ ورسم فيه: (فيـ يـهم أو يمـن عليـهم) والتقدير كما أثبتناه، حيث يقتضيه السياق والله أعلم.

وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ في هذه الآيةِ: (وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا قَتَلَ أصْحَابُ رَسُول اللهِ ﷺ سَبْعِينَ وَأسَرُوا سَبْعِينَ، اسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ أصْحَابَهُ فِي أمْرِ الأُسَارَى، فَقَالَ أبُو بَكْرٍ ﵁: يَا رَسُولَ اللهِ هُمْ قَوْمُكَ، فَإنْ تَقْتُلْهُمْ يَدْخُلُوا النَّارَ، وَلَكِنْ فَادِهِمْ فَيَكُونَ الَّذِي تَأخُذُ مِنْهُمْ قُوَّةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَعَلَّ اللهَ يُقَلِّبُ قُلُوبَهُمْ. وَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أعْلَمُ قَوْماً كَانُوا أشَرَّ لِنَبِيِّهِمْ مِنْهُمْ فَاقْتُلْهُمْ.

فَأخَذ رَسُولُ اللهِ ﷺ برأيِ أبي بَكْرٍ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمَا مَثَلاً فَقَالَ: [مَثَلُ أبِي بَكْرٍ مَثَلُ إبْرَاهِيمَ ﵇ حَيْثُ قَالَ ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[(١)]، وَمَثَلُ عُمَرَ مَثَلُ نُوحٍ ﵇ حَيْثُ قَالَ ﴿رَبِّ لاَ تَذرْ عَلَى الأرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[(٢)]] ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْفِدَاءَ عَلَى الأُسَارَى.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَكُونَ لَهُ أسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأرْضِ...) إلى آخِرِ الآيَتَيْنِ، قَالَ عُمَرُ: فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ أبُو بَكْرٍ يَبْكِيَان، فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكُمَا؟! حَتَّى الأرْضُ إنْ وَجَدَتْ بُكَاءً لِبُكَائِكُمَا بَكَتْ مَعَكُمَا، فَقَالَ ﷺ: [إنَّمَا أبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أصْحَابُكَ مِنْ أخْذِ الْفِدَاءِ]، ثُمَّ قَرَأ ﵇ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَكُونَ لَهُ أسْرَى﴾)[(٣)].

وعن ابنِ مسعودٍ ﵁ قالَ: (لَمَّا جِيءَ بالأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ ﷺ: [مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلاَءِ؟] فَقَالَ أبُو بَكْرٍ: قَوْمُكَ وَأهْلُكَ اسْتَبْقِهِمْ لَعَلَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَخُذْ مِنْهُمْ فِدْيَةً تَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّار. وَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَذبُوكَ وَأخْرَجُوكَ، قَدِّمْهُمْ وَاضْرِبْ أعْنَاقَهُمْ، وَمَكِّنْ عَلِيّاً مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبْ عُنُقَهُ، وَمَكِّنِّي مِنْ فُلاَنٍ - بسَبَبٍ لَهُ - فَأضْرِبْ عُنُقَهُ، فَإنَّ هَؤُلاَءِ أئِمَّةُ الْكُفْرِ. فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ أنَاسٌ: نَأخُذُ بقَوْلِ أبِي بَكْرٍ، وَقَالَ نَاسٌ: نَأخُذُ بقَوْلِ عُمَرَ، فَقَالَ ﷺ: [إنَّ اللهَ لَيُلَيِّنُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ ألْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وَإنَّ اللهَ لَيَشُدُّ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَإنَّ مَثَلَكَ يَا أبَا بَكْرٍ مَثَلُ عِيسَى قَالَ ﴿إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإنْ تَغْفِرْ

(١) ابراهيم / ٣٦ . (٢) نوح / ٢٦ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٦٥٥ و١٢٦٥٦). وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (٩١٥٠ ٩١٥١).

لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١]، وَمَثَلُكَ يَا عُمَرُ مَثَلُ مُوسَى قَالَ: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[٢]، ثُمَّ قَالَ ﷺ لِلأَسَارَى: [أَنْتُمُ الْيَوْمَ عَالَةٌ فَلاَ يَنْقَلِبَنَّ أَحَدٌ إلاَّ بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبِ عُنُقٍ] ثُمَّ قَالَ ﷺ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ) أي لولاَ حُكمُ اللهِ في أنه يُحلُّ لهم الفديَةَ التي أخذوها من الأسارى. وَقِيْلَ: معناه: لولا ما سبقَ لهذه الأُمَّة من الرحمةِ إذا عَمِلُوا الخطايَا ثم عَرَفُوا بما عَمِلوا وتَابُوا ورجَعُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا) مخاطبةٌ لهم لاَ لرسول الله ﷺ وجِلَّت[٤] أصحابهُ، فإنَّ أبا بكرٍ كان مرادهُ إعزازَ الدِّين وهدايةَ الأنصار، ولأنَّ الله قال: (لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ) ولم يَقُل فيما عزَمتُم وأسررتُم.

قوله: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ ﴾ ؛ الفاءُ في أوَّل هذه الآيةِ للجزاء، المعنى: أحِلَّتْ لكم الغنائمُ فكلُوا. والطَّيِّبُ: الْمُستَلَذُّ، ويوصفُ الحلالُ بذلك على التشبيهِ، فإنَّ المستلذ لا يكون فيه كراهيةٌ في الطَّبعِ، وكذا الحلالُ ما لا يكون فيه كراهيةٌ في الدُّنيا.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ ؛ أي اخْشَوْهُ ولا تفعَلُوا شيئاً لَمْ تُؤمَرُوا به ولم يرَخَّصْ لكم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لِمَا فرَّطَ منكم ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ بكم إذ لم يعذِّبْكم فيما فعلتُم قبل الرُّخصةِ.

---

(١) المائدة / ١١٨ .

(٢) يونس / ٨٨ .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٠ ص١٤٣: الحديث (١٠٢٥٨ و١٠٢٥٩) مطولاً. عن عبيد الله عن عبدالله بن مسعود، والحديث (١٠٢٥٧) عن زر بن حبيش عن عبدالله بن مسعود. والحديث فيه نظر. أما حديث عبيد الله فإنه لم يسمع من أبيه، قاله الهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٦ ص٧٨. وأما حديث زر بن حبيش ففيه موسى بن مطير وهو ضعيف. وحديث عبيد الله حسنه الترمذي وغيره.

(٤) كما في المخطوط: (وجِلَّتْ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا وَضَعَ الْفِدَاءَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الأُسَارَى أرْبَعِينَ أوْقِيَّةً مِنْ ذهَبٍ، وَجَعَلَ عَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ مِائَةَ أوْقِيَّةٍ، قَالَ الْعَبَّاسُ: أتَجْعَلُ عَلَيَّ مِائَةَ أوْقِيَّةٍ وَعَلَى عَدُوِّكَ سُهَيلِ بْنِ عَمْرو أرْبَعِينَ أوْقِيَّةً؟ قَالَ: [نَعَمْ؛ لِقَطْعِكَ الرَّحِمَ وَلِظُلْمِكَ] قَالَ: تَرَكْتَنِي وَاللهِ أسْألُ قُرَيْشاً مَا بَقِيتُ، فَكَيْفَ تَتْرُكُ عَمَّكَ يَسْألُ النَّاسَ بكَفِّهِ؟!

فَقَالَ ﷺ: [وَأيْنَ الذهَبُ الَّذِي أعْطَيْتَهُ أمَّ الْفَضْلِ عِنْدَ مَخْرَجِكَ؟ فَقُلْتَ: إنْ حَدَثَ بي حَدَثٌ فِي وَجْهِي هَذا فَهُوَ لَكِ وَلِعَبْدِاللهِ وَقُثَمٍ وَلِلْفَضْلِ] قَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ؟! قَالَ: [أخْبَرَنِي اللهُ بذلِكَ] فَقَالَ: أشْهَدُ أنَّكَ صَادِقٌ وَأنِّي لَمْ أعْلَمْ أنَّكَ رَسُولُ اللهِ قَطُّ قَبْلَ الْيَوْمِ، وَإنِّي دَفَعْتُ إلَيْهَا الذهَبَ وَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أحَدٌ إلاَّ اللهُ، وَأنَا أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّكَ رَسُولُ اللهِ. فَأسْلَمَ وَأمَرَ ابْنَ أخِيهِ أنْ يُسْلِمَ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(١).

ومعنَاها: يَا أيُّها النبيُّ قُل للعبَّاس وعقيل وغيرهم من الأُسَارَى: إنْ يعلَمِ اللهُ في قلُوبكم رغبةً في الإيمان وإخلَاصاً في النيَّة، يُؤتِكُمْ خيراً مما أخذ منكم من الفديةِ. يجوزُ أن يكون المعنى: يَخلِفُ عليكم في الدُّنيا، ويجوز أن يكون: ويُجازيكُم في الآخرةِ.

وكان العباسُ أحدَ الثلاثة عشر الذين ضَمِنُوا طعامَ أهلِ بدر، فخرجَ معهم بعشرين أوقيَّةً من ذهبٍ ليُطعِمَ بها الناسَ، ولم تبلُغْهُ نوبةُ الإطعامِ حتى أسِرَ وأخِذ وهي معه فأخذُوهَا منه، فلما وضعَ النبيُّ ﷺ على العبَّاسِ الفداءَ مِائَةَ أوقِيَّةٍ قَالَ: (يَا مُحَمَّدُ احْتَسِبْ لِيَ بالْعِشْرينَ أوْقِيَّةً مِنْ فِدَائِي). فَأبَى وَقَالَ: [أمَّا شَيْءٌ خَرَجْتَ تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَيْنَا فَلاَ أتْرُكُهُ لَكَ].

فَلَمَّا أسْلَمَ العباسُ كان إذا قرأ هذه الآيةَ قال: (صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ قَدْ أعْطَانِي خَيْراً مِمَّا أخَذ مِنِّي، أبْدَلَنِي مَكَانَ الْعِشْرِينَ أوْقِيَّةً الَّتِي أخِذتْ مِنِّي عِشْرِينَ مَمْلُوكاً،

(١) من رواية الكلبي؛ أخرجه الواحدي في أسباب النزول: ص١٦٢.

كُلُّ مَمْلُوكٍ يَضْرِبُ بِعِشْرِينَ أَلْفاً فِي التِّجَارَةِ، وَأَعْطَانِي زَمْزَمَ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا جَمِيعَ أَمْوَالِ أَهْلِ مَكَّةَ، أَنْجَزَ لِي أَحَدَ الْوَعْدَيْنِ، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُنْجِزَ لِيَ الْوَعْدَ الثَّانِي، أَنْتَظِرُ الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبِي)(١).

وعن العلاءِ بن الحضرميِّ ﷺ أنَّهُ بَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْبَحْرَيْنِ ثَمَانِينَ أَلْفاً، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: (أَعْطِنِي مِنْ هَذا الْمَال) فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَطَاقَ حَمْلَهُ، فَجَعَلَ الْعَبَّاسُ يَقُولُ: (أَمَّا إِحْدَى اللَّتَيْنِ وَعَدَنَا اللهُ فَقَدْ أَنْجَزَهَا، فَلاَ نَدْرِي مَا يَصْنَعُ بالأُخْرَى). يعني (يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ معناهُ: وإنْ يُردِ الذين أطلَقْتَهم من الأُسارَى خِيَانَتَكَ بأن يُعِيدُوا حَرْباً لك وينصُروا عدُوَّكَ عليك، فقد خَانُوا اللهَ من قَبْلُ بمخالفةِ ما أخذ عليهم من العهُودِ، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ عاهدَ الذين أطلقَهم على أن لا يُعِينُوا عليه فخَانُوه وخالَفُوا، وقوله تعالى (فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ) أي فأمكنَكَ منهم يومَ بدر، وإنْ خانوكَ فَسَيُمَكِّنُكَ منهم ثانياً، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ؛ بكلِّ شيءٍ، ﴿ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ في كلِّ ما يفعلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي إن الذين آمَنوا بتوحيدِ الله وبمُحَمَّدٍ ﷺ والقُرآنِ وهاجَرُوا من مكَّة إلى المدينةِ وجاهَدُوا العدوَّ بأموالِهم وأنفُسِهم في طاعةِ الله.

ثُم ذكرَ اللهُ الأنصارَ فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ ﴾ ؛ النبيَّ والمهاجرين معَهُ أعطَوهُم المأوَى وأنزلُوهم ديارَهم، ﴿ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ ؛ أي أعَانُوهم بالسَّيفِ على الكفَّار، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ ؛ أي أنصارُ بعضٍ في الدِّين والمواريثِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (٩١٧٨ و٩١٧٩) . وينظر: أسباب النزول للواحدي: ص١٦٢. والطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٦٨٠ و١٢٦٨٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٦٨١) عن قتادة مرسلاً. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج٨ ص٥٣؛ قال القرطبي: ((وفي صحيح مسلم: لَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَالٌ مِنَ الْبَحْرَيْنِ قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ: إِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي وَفَادَيْتُ عَقِيلاً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [خُذْ] فَبَسَطَ ثَوْبَهُ وَأَخَذَ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ ﴾ ؛ أي والذين صدَّقُوا من أهلِ مكَّة في ديارهم ولَم يُهاجِرُوا إلى المدينةِ، ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ ؛ أي ليس بينكُم وبينهم ميراثٌ، ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ ؛ وإطلاقُ لفظ الموالاةِ يقتضي التوارثَ في الجملةِ، وإن كان بعضُ أسباب الموالاة أوكدَ من بعضٍ.

قال ابنُ عبَّاس: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَامَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَأنَاسٌ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ لاَ يَرِثُنَا إخْوَانُنَا وَهُمْ عَلَى دِينِنَا مِنْ أجْلِ أنَّهُمْ لَمْ يُهَاجِرُوا؟ فَهَلْ نُعِينُهُمْ عَلَى أمْرٍ إن اسْتَعَانُونَا علَيْهِ؟ فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾.

معناهُ: وإن قاتلَهم الكفارُ ليَردُّوهُم عن الإسلامِ فانصرُوهم، ﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ ؛ إلاَّ أن يقاتِلُوا قوماً، ﴿ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ﴾ ؛ فاستنصرُوكم عليهم فلَم تقاتِلُوهم معهم، بل عليهم أن يكُفُّوا عن طلب النُّصرة منكم لهم عليهم؛ لأنه أمانٌ، وأمانُ واحدٍ من المسلمين يلزمُ كافَّتهم، فيجبُ الإصلاحُ بينهم على غيرِ وجه القتال. وقولُهُ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي بصيرٌ بأعمالِكم، يجازيكم عليها.

قال ابنُ عبَّاس: فَمَكَثُوا عَلَى هَذا مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَمْكُثُوا، ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ ؛ أيْ أنْصَارُ بَعْضٍ فِي الدِّينِ، وَبَعْضُهُمْ أوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي الْمِيرَاثِ. يعنِي أنَّ الكافرَ لا يرثُ المؤمنَ الذي لم يهاجِرْ، بلِ الكافرُ يرثُ من الكافرِ، والمؤمنُ يرثُ من المؤمنِ، فصارت هذه الآيةُ ناسخةً للتي قبلَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ أي إلاَّ تفعلُوا ما أمَرتُكم به ولم تورثُوا الأعرابيَّ الذي لَم يهاجِرْ من المهاجر، ولم تجعلُوا ولايةَ الكافرِ للكافر وولايةَ المؤمن للمؤمنِ، (تَكُنْ فِتْنَةٌ) أي بالْمَيْلِ إلى الضَّلالةِ وفسادٍ في الدِّين، فإن الكفارَ بعضُهم أولياء بعضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ ؛ أي أولئكَ الذين حقَّقُوا إيمانَهم بالهجرةِ وإقامة الجهادِ في سبيلِ الله. وَقِيْلَ: معناهُ: أولئك الذين حقَّقَ اللهُ إيمانَهم بأن أثنَى عليهم ومَدَحَهم في

كتابهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ ؛ لذُنوبهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) ﴾ في الجنَّة بأن يُطعِمَهم طَعاماً يصير كالْمِسْكِ رَشحاً ولا يستحيلُ في أجوافِهم نَجْواً[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾ معناهُ: والذين آمَنُوا من بعدِ المهاجرين السَّابقين، وهاجَرُوا إلى المدينةِ وجاهَدُوا معَكم الكفارَ، فأولئكَ منكم في الدِّين والنُّصرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ ؛ أي أن الأقاربَ بعضُهم أولَى ببعضٍ في الميراثِ من غيرهم، هاجَرُوا أو لم يُهاجِرُوا إذا كانوا مُسلِمِينَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ ﴾ ؛ يجوزُ أنْ يكون المرادُ بالكتاب القُرْآن، ويجوز أن يكون معناهُ في اللوحِ المحفوظ، ويجوز أن يرادَ بالكتاب الْحُكْم، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ﴾[٢] أي حَكَمَ اللهُ، وقولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) ﴾ ؛ أي عليمٌ بكلِّ ما فَرَضَ من المواريثِ وغيرِ ذلك.

قال قتادةُ: (وَذلِكَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ آخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَكَانُواْ يَتَوَارَثُون بالإسْلاَمِ وَالْهِجْرَةِ، وَكَانَ الرَّجُلُ يُسْلِمُ وَيُهَاجِرُ، وَكَانَ لاَ يَرِثُ أخَاهُ)[٣]، فَنَسَخَ اللهُ ذلِكَ بقَوْلِهِ: (وَأوْلُوا الأَرْحَام بَعْضُهُمْ أوْلَى ببَعْضٍ) وَصَارَتِ الْوِرَاثَةُ بالْقَرَابَةِ كَمَا ذكَرَ اللهُ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ][٤].

---

(١) النَّجْوُ: ما يخرجُ من البطنِ و(استنجى) مسح موضع النَّجو أو غسله.

(٢) المجادلة / ٢١ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٧١١) مختصراً. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (٩٢٠٦) عن الزبير بن العوام، وفيه قصة ذلك.

(٤) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الصيد: باب لا يحل القتال بمكة: الحديث (١٨٣٤)، وفي كتاب الجهاد: باب فضائل الجهاد: الحديث (٢٧٨٣)، وباب لا هجرة بعد الفتح: الحديث (٣٠٧٧). ومسلم في الصحيح: كتاب الحج: باب تحريم مكة وصيدها: الحديث (٤٤٥/١٣٥٣).

وعن أُبَيٍّ بن كعبٍ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الأَنْفَال وَالتَّوْبَةِ فَأَنَا لَهُ شَفِيعٌ وَشَهِيدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ النِّفَاق، وَأُعْطِيَ مِـنَ الأَجْـرِ بعَـدَدِ كُـلِّ مُنَـافِقٍ وَمُنَافِقَةٍ، وَرُفِعَ لَهُ بهَا عَشْرُ دَرَجَاتٍ][1].

آخر تفسير سورة (**الأنفال**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) تقدم؛ وأنه لا يصح.

سُـــورَةُ التَّوْبَـةِ

سُورَةُ التَّوْبَةِ مَدَنِيَّةٌ؛ وَهِيَ عَشْرَةُ آلاَفٍ وَأَرْبَعْمِائَةٍ وَثَمَانِيَةٌ وَثَمَانُونَ حَرْفاً، وَأَرْبَعَةُ آلاَفٍ وَثَمَانٌ وَتُسْعُونَ كَلِمَةً، وَمِائَةٌ وثلاثُونَ آيَةً.

قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ ﴾ أي هذهِ مِن اللهِ، فيكون رَفعاً على الابتداءِ، ويجوزُ أن يكون (بَـرَاءَةٌ) رَفعـاً بـالابتداءِ، وخبرهُ: (إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ). والبراءةُ: رفعُ العِصمَةِ، يقالُ: فـلانٌ بـريءٌ مـن فـلانٍ، وبرئَ اللهُ مِنَ المشركين. وإنما ذكرَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ من العهدِ؛ لأنَّ المشركين كـانوا ينقضُونَ العهدَ قبلَ الأجَلِ، ويُضمِرُونَ الغدْرَ، فأمرَ اللهُ بنَبْذِ العهدِ إليـهم، إما بخيانـةٍ مَستُورَةٍ ظهرت أمَارَتُهَا منهم، وإما أن يكون شرطُ النـبيِّ ﷺ لنقضِـهم في العـهدِ أنْ يُقِرَّهُم ما أقرَّهم اللهُ.

فأما تركُ البسملةِ في أوَّل هذه السُّورة، فقد رُوي أنَّ أبيَّ بـن كعـبٍ سُـئِلَ عـن ذلكَ فقال:(لأنَّهَا نَزَلَتْ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُ أوَّلَ كُلِّ سُورَةٍ (بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وَلَمْ يَأْمُرْ فِي سُـورَةِ الْـبَرَاءَةِ بذَلِـكَ، فَضُمَّـتْ إلَـى الأَنْفَالِ لِشَبَهِهَا بهَا)[1] يعنِي أنَّ أمرَ العُهودِ مذكور في الأنفال، وهـذه السُّورة نزلَـتْ بنقضِ العهُودِ. سُئل عليٌّ ؓ عن هذا فقالَ: (لأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَـتْ فِـي السَّـيْفِ، وَلَيْسَ لِلسَّيْفِ أمَانٌ، وَبسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِـنَ الأَمَـانِ، ولأَنَّ الْبَسْـمَلَةَ رَحْمَـةٌ، وَالرَّحْمَةُ أمَانٌ، وَهَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَتْ بالسَّيْفِ وَلاَ أمَانَ فِيْهِ)[2].

---

(١) هـذا الأثـر مـروي أيضـاً عـن ابـن عبـاس رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُمَا؛ قـال: (قلـتُ لعثمـان بـن عفان ؓ: ما حَمَلَكم إلى أن عمَدتم إلى الأنفال وهي المثاني وإلى بـراءةَ وهـي مـن المئـين فقرَنتُـم بينهما ولم تكتبُوا (بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)...). أخرجه الـترمذي في الجـامع: أبـواب التفسـير: الحديث (٣٠٨٦)، وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: سورة التوبة: الحديث (٣٣٢٦). وفي الدر المنثور:=

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ ؛ أي سِيرُوا في الأرضِ على الْمَهْلِ واقْبلُوا وأدبرُوا في الأرضِ إلى أن يمضيَ أربعةٌ. وَقِيْلَ: هو على الخطـاب؛ أي قُل لَهم سيرُوا في الأرضِ مُقبلِينَ ومُدبرِينَ آمِنِينَ غيرَ خائفِين من قَتْلٍ ولا أسْرٍ ولا نَهْبٍ.

ويقالُ: إن قولَهُ: (فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ) بيانُ أن هذا السَّيْحَ المذكورَ في أوَّل هذه السورةِ إنَّما هو بعدَ أربعةِ أشهُر، فإنَّ عهدَ الكفَّار باقٍ إلى آخرِ هذه المدَّة. قال الحسَـنُ: (أمَرَ اللهُ نَبيَّهُ ﷺ أنْ يَنْظُرَ فِي عُهُودِ الْكُفَّار، فَيُقِرُّ مَنْ كَـانَ عَـهْدُهُ أرْبَعَـةَ أشْـهُرٍ عَلَـى عَهْدِهِ أنْ يَمْضِي، وَيَحِطَّ مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ أكْثَرَ مِنْ أرْبَعَةِ أشْهُرٍ، وَيَرْفَعَ عَهْدَ مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ قَبْلَ أرْبَعَةِ أشْهُرٍ فَيَجْعَلَهُ أرْبَعَةَ أشْهُرْ).

واختلَفُوا في هذهِ الأربعـة أشـهُر، قـال بعضُـهم: مـن عشـرين ذِي القِعـدَةِ إلى عِشرين من رَبيع الأوَّل. ورُوي في الخبر: أنَّ مكَّة فُتحت في سـنةِ ثمانٍ مـن الهجـرة، ووَلَّى رسولُ اللهِ ﷺ عتَّابَ بن أسَيدٍ الوقوفَ بالنـاسِ في الموسـمِ، واجتمـعَ في تلـك السَّنة في الوقوفِ المسلِمُون والمشركون[1].

فلمَّا كانت سنةُ تسعٍ ولَّى رسولُ اللهِ ﷺ أبَا بكرٍ وبعثَ معـه عشـرَ آيـاتٍ مـن أوَّلِ براءةَ أو تسعِ آياتٍ، وأمرَهُ أن يقرَأها على أهلِ مكَّة، وينبذَ إلى كلِّ ذِي عهدٍ عهدَهُ

=ج ٤ ص١٢٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه)). وذكره القرطـبي في الجـامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٦٢ عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(١) سبب اجتماعهم ما أخبر به الحسن قال: ((إنَّمَا سُمِّيَ الْحَجُّ الأكْبَرَ مِنْ أجْلِ أنَّـهُ حَـجَّ أبُـو بَكْـرٍ الْحَجَّةَ الَّتِي حَجَّهَا، وَاجْتَمَعَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْحَجَّ الأكْبَرَ)). أخرجـه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٧٧٧).

ووافـق أيضـاً عيـد اليـهود والنصـارى، عـن سمـرة بـن جنـدب ﷺ: ((أن رسـول الله ﷺ قال زمن الفتح: [إنَّهُ عَامُ الْحَجِّ الأكْبَرِ]. قال: اجتمع حج المسلمين وحـج المشـركين في ثلاثة أيام متتابعات، فاجتمع حج المسلمين والمشركين والنصارى واليهود في ثلاثة أيام متتابعـات، ولم يجتمع منذ خلق الله السموات والأرض كذلك قبل العام، ولا يجتمع قبـل العـام حتـى تقـوم الساعة)). في الدر المنثور: ج ٤ ص١٢٨؛ قال السيوطي: (أخرجه الطبراني). وفي مجمع الزوائـد: ج ٧ ص٢٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني ورجاله موثوقون ولكن متنه منكر).

كما وصفَ اللهُ تعالى، فلمَّا خرجَ أبو بكرٍ ﷺ منها إلى مكَّة، نـزلَ جـبريلُ الطَّيْلا فقَـالَ للنبيِّ ﷺ: [لاَ يُبَلِّغُ عَنْكَ إلاَّ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ بَيْتِكَ] فدَعَا عَلِيّاً ﷺ وأمَرَهُ بالذهاب إلَى مكَّةَ، وقال: [كُنْ أنْتَ الَّذِي يَقْرَأ هَذِهِ الآيَاتِ عَلَى أهْلِ مَكَّةَ، وَمُـرْ أبَـا بَكْـرٍ فَلْيُصَـلِّ بالنَّاسِ]. فسارَ حتى لَحِقَ أبا بكرٍ ﷺ في الطريقِ، فأخبرَهُ بذلـكَ فمَضَيَـا، وكـان أبُـو بكرٍ على الموسِمِ.

فلمَّا كان يومُ النحرِ واجتمعَ المشركونَ، قام عليٌّ ﷺ عند جمرةِ العَقَبَةِ وقالَ: (يَا أيُّهَا النَّاسُ؛ إنِّي رَسُولُ رَسُول اللهِ ﷺ إلَيْكُمْ) فَقَالُوا: بِمَ ذَا ؟ فقرأ عليهم (بَـرَاءَةٌ مِـنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ...) إلى آخرِ الآياتِ التي نزلَتْ[١].

وكان الحجُّ في السَّنة التي قرأ عليٌّ ﷺ فيـها هـذه السُّورةَ في العاشـرِ مـن ذي القعدَةِ، ثم صارَ الحجُّ في السَّنة الثانيةِ في ذي الحجَّة، وكان السببُ في تقديـمِ الحـجِّ في سَنَةِ العهدِ ما كان يفعلهُ بنو كِنَانَةَ في النَّسِيءُ وهو التأخيرُ. وذهبَ بعضُ المفسِّـرين إلى أنَّ الأربعةَ الأشهر المذكورة في هذهِ الآيةِ هي: شوَّال وذُو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي غيرَ فَائِتِين عن اللهِ بعدَ الأربعةِ الأشهرِ، فإنَّكم إنْ أجَّلتُم هذه الأشهرَ فلــن تفوتُـوا اللهَ تعـالى. وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ ﴾ ؛ أي معـذِّبَ الكـافرين في الدُّنيا بـالقتل في الآخرةِ بالنار. والإخْزَاءُ: هو الإذلاَلُ على وجهِ الأدْوَن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ؛ أي وإعلامٌ من اللهِ ورسوله إلى الناسِ يـومَ الحـجِّ الأكبرِ وهو يومُ النحرِ، كذا روَى ابنُ عبَّاس، وسُمي يومُ النحرِ يومَ الحجِّ الأكبر؛ لأنه اتَّفقَتْ فيه الأعيادُ على قول أهل الْمِلَلِ. وعن النبيِّ ﷺ: [أنَّهُ يَوْمُ عَرَفَةَ]، قال قيـسُ ابن مَخْرَمَةَ: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فَقَالَ: [أمَّا بَعْدُ؛ فَإنَّ هَـذَا يَـوْمُ الْحَـجِّ الأَكْبَرِ][٢].

---

(١) في هذه القصة غرابة، فضلاً عن الاضطراب في ترتيب أحداثها، وما جاء في الأخبار الصحيحـة يظهر خطأ فهم الخبر من الناقل، أو تزوير المعنى، بما يطول ذكره إن أثبتناه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٧٤٠).

ويروى أنَّ عَلِيّاً ﷺ خرجَ يوم النَّحرِ على بغلةٍ بيضاءَ إلى الجبانة، فجاءَهُ رَجُلٌ فأخَذَ بلِجَامِهَا وسَألَهُ عن يومِ الحجِّ الأكبرِ، فقال: (هُوَ يَوْمُكَ هَذَا، خَلِّ سَبِيلَهُ)[١]. وسُئِلَ عبدُالله بن أبي أوفى عن يومِ الحجِّ الأكبرِ، فقالَ: (سُبْحَانَ اللهِ! هُوَ يَوْمُ النَّحْرِ يَوْمُ يُهْرَاقُ فِيْهِ الدِّمَاءُ وَنَحْلِقُ فِيْهِ الشَّعْرَ وَيُحَلُّ فِيْهِ الْمُحَرَّمُ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَذَانٌ) عطف على قوله: (بَرَاءَةٌ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (أنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) أي أن اللهَ ورسولهُ بريءٌ من المشركين، تقديرهُ: أنَّ اللهَ بريءٌ ورسولهُ أيضاً بَرِيءٌ. ومَن قرأ (وَرَسُولَهُ) بالنصب فعلى معنَى وأن رسولَهُ بريءٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ ؛ أي تبتُم من الشِّرك فهو خيرٌ لكم من الإقامةِ عليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ ﴾ ؛ معناهُ: وإنْ أعرَضتُم، ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ﴾ ؛ فائِتِينَ عن؛ ﴿ ٱللَّهِۗ ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ تكرارٌ للوعيدِ، وعن أبي هُريرةَ ﷺ قال: (كُنْتُ مَعَ عَلِيٍّ ﷺ حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالبَرَاءَةِ إلَى مَكَّةَ) فَقِيلَ لأَبي هُرَيْرَةَ: بمَ إذاً كُنْتُمْ تُنَادُونَ؟ قَالَ: (كُنَّا نُنَادِي: أنَّهُ لاَ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَحُجَّنَّ هَذَا الْبَيْتَ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلاَ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُول اللهِ ﷺ عَهْدٌ فَأجَلُهُ إلَى أرْبَعَةِ أشْهُرٍ، فَإذَا مَضَتْ أرْبَعَةُ أشْهُرٍ فَإنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنْ عَهْدِ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ ﴾ ؛ استثناءٌ من اللهِ تعالى من قوله: (بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) وأرادَ بقولهِ: (إلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ) بني ضَمْرَةَ وهم حَيٌّ من بَني كِنَانَةَ عاهدَهم رسولُ اللهِ ﷺ عامَ الحديبيةِ عند البيتِ، وكان بقِيَ لهم من عهدِهم تسعةٌ من بعدِ يوم النَّحرِ من السَّنة التي حجَّ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٧٤٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٢٧٦٦) الرابع منها والسادس.

فيها أبو بكرٍ ﷺ، وكانوا لم يَنقُضوا شيئاً من عُهودِهم، ولَم يُمالُوا عدُوّاً علـى رسـولِ اللهِ ﷺ، فأمَرَ النبيُّ ﷺ أن -أبقَى- لهم بعهدِهم إلى آخرِ مُدَّتِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي يرضَـى عمـلَ الذيـن يتَّقون نقضَ العهدِ. قرأ عطاءُ (يَنْقُضُوكُمْ) بالضَّادِ المعجمة من نقضِ العهد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ إذا مضَتِ الأشـهرُ الـتي حـرَّمَ اللهُ القتـالَ بالعـهدِ فيـها، (فَـاقْتُلُوا الْمُشْـرِكِينَ حَيْـثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ ؛ يقالُ أرادَ بذلك الأشهُرَ الْحُرُمَ المعروفةَ؛ وهي: رجبُ وذو القعدةِ وذو الحجَّة والمحرَّم، كأنه قالَ: فإذا انسلخَ الأشهرُ الحرُمُ فـاقتلُوا المشـركين حيث وجدتُموهم في الحِلِّ أو في الحرَمِ، وخُذُوهُمْ؛ أي ائسرُوهـم، ﴿ وَٱحْصُرُوهُمْ ﴾ ؛ أي احبسُوهُمْ، ويقالُ: أراد بذلك أنْ يُحالَ بينهم وبـين البَيـتِ؛ أي امنَعوهُـم دخـولَ مكَّة. وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ ؛ أي اقعُدوا القتالَ على كـلِّ طريقٍ يأخذون فيهِ إلى البيتِ أو إلى التجارةِ، وهو أمرٌ بتضييقِ السبيل عليهم.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ معنـاهُ: فـإن تـابُوا عـن الشِّـرك، وقَبلُـوا إقـامَ الصـلاةِ وإيتـاءِ الزَّكـاة فـأطلِقُوهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لِمَا سَلَفَ من شِركهم، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ بهم حين قَبـلَ توبتِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ ؛ معناهُ: وإنْ أحـدٌ مـن المشـركين اسـتأمَنَك ليسـمعَ دعوتَـك واحتِجَاجَكَ بالعدل، فأمِّنْهُ حتى يسمعَ كلامَ اللهِ، فإن أرادَ أن يُسـلِمَ فـرُدَّهُ إلى موضـعِ أمْنِـهِ، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ الأمـانُ لـهم، ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أمـرَ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ ﴾ أي كيف يكونُ لهم عهدٌ، وهم يُضمِرُونَ الغدرَ في عُهودِهم عندَ اللهِ وعندَ رسُولِهِ؛ أي لن يكونَ لهم عـهدٌ يجـبُ الوفـاءُ بـه ، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ ﴾ ؛ في وفَـاءِ العـهدِ فلـم ينقضـوهُ كمـا نقـضَ غـيرُهم،

﴿ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ﴾ ؛ بوفاءِ أجلِهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ لنقضِ العهد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ ؛ أي كيف يكون لهم العهدُ، وقال الأخفشُ: (مَعْنَاهُ: كَيْفَ لاَ يُقَاتِلُونكُمْ وَهُمْ إنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَحْفَظُوا فِيكُمْ قَرَابَةً وَلاَ عَهْداً)، وقال قتادةُ: (الإلُّ: الْحِلْفُ)، قال السديُّ: (هُوَ الْعَهْدُ)[1] وَلَكِنَّهُ كَرَّرَهُ لِمَا اخْتَلَفَ اللَّفْظَانِ وَإِنْ كَانَ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ.

قال مجاهدُ: (الإلُّ هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)[2] وَمِنْهُ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ، فَإنَّ مَعْنَاهُمَا عَبْدُ اللهِ. وَأبو بَكْرٍ لَمَّا سَمِعَ كَلاَمَ مُسَيلَمَةَ قَالَ: (هَذَا كَلاَمٌ لَيْسَ هُوَ إلٌّ)[3] أي لم يتكلَّمْ به اللهُ. وقرأ عكرمةُ (إيْلاً) بالياءِ يعني اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، مثل جِبريل ومِيكَائِيل[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ؛ أي يتكلَّمون بالعهدِ بأفواهِهم، ﴿ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ إلاَّ نقضَ العهدِ، ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ . أي مُتمَادُونَ في الكفرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ؛ أي اختارُوا على القرآنِ عَرَضاً يَسيراً من الدُّنيا، ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ ﴾ فصرَفُوا الناسَ عن طاعةِ الله، فبئْسَ العملُ عملُهم، وذلك أنَّهم نقَضُوا العهدَ الذي بينَهم وبين رسولِ الله ﷺ بأكْلَةٍ أطعمَهُم إيَّاها أبو سُفيان.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٢٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨١٦). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٠٠٢).

(٣) في المخطوط: (وبال) وهو تصحيف. ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية: ص٨٢٧: تفسير الآية. وعند البغوي في معالم التنزيل: ص٥٤٢: تفسير الآية؛ قال: ((إن ناساً قَدِموا على أبي بكر من قومِ مُسيلمة الكذّاب، فاستقرأهم أبو بكرٍ كتابَ مُسيلمة، فقرأوا، فقال أبو بكر: (إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ)؛ أي من الله)).

(٤) في جامع البيان: مج ٦ ج١٠ ص١١٠؛ قال القرطبي: (والإلُّ: اسم يشتمل معان ثلاثة: وهي العهد والعقد، والحلف، والقرابة، وهو أيضاً بمعنى الله. فإذا كانت الكلمة تشتمل هذه المعاني الثلاثة، ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى، فالصواب أن يعمَّ ذلك كما عمَّ بها جل ثناؤه معانيها الثلاثة، فيقال: لا يرقبون في مؤمن الله، ولا قرابة، ولا عهداً، ولا ميثاقاً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ ؛ فإن قِيْلَ: لِمَ أعادَ قولَهُ تعالى: (لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إلاًّ وَلاَ ذِمَّةً) ؟ قِيْلَ: ليس هذا بإعادةٍ؛ لأنَّ الأولَ وَرَدَ في جميعِ الكفَّار الذين نقَضُوا العهدَ، والثاني إنَّما وردَ في طائفةٍ من اليهودِ الذين كانوا ينقضُون العهدَ، فإنَّ هذه الطائفةَ منهم الذين اشتَرَوا بآياتِ الله ثَمناً قليلاً؛ فإنَّهم كانوا يكتُمون صفةَ رسولِ الله ﷺ بشيءٍ من المواكَلَةِ كانوا يأخذونَها من سَفَلَتِهم، وكانوا يأخذون الرِّشَاءَ على الحكمِ الباطلِ، ويغيِّرون أحكامَ اللهِ التي أنزلَها على أنبيائِهم. وقولهُ تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ يعني في نقضِ العهدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ ؛ أي فإن تَابُوا عن الكفرِ وقَبلوا إقامةَ الصَّلاة وإيتاءَ الزَّكاة، فهُم إخوانُكم في دينِ الإسلام، ﴿ وَنُفَصِّلُ ﴾ ؛ ونأتِي بـ، ﴿ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ ؛ آيةً بعدَ آيةٍ، ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أمْرَ اللهِ وأحكامَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ﴾ ؛ أي نقَضُوا أيمانَكم والحلفَ من بعدِ العهُودِ التي عاهدتَهم أنْ لا يُقاتِلُوكَ ولا يُعِينُوا عليكَ ولا على حُلفائِكَ، ﴿ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ ﴾ ؛ الإسلام وعابوهُ، وذلك أنَّهم قالوا: ليس دينُ مُحَمَّدٍ بشيءٍ، ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ ؛ أي رُؤُوسَ الكُفرِ، ﴿ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ ﴾ .

قال ابنُ عباس: (نَزَلَتْ فِي أبِي سُفْيَانَ وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَعِكْرِمَةَ بْنِ أبي جهلٍ وَسَائِرِ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ، وَهُمُ الَّذِينَ هَمُّوا بإخْرَاجِ الرَّسُولِ)(١). وقال مجاهدُ: (هُمْ أهْلُ فَارسَ وَالرُّومُ)(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٣٢ و١٢٨٣٣ و١٢٨٣٧) عن قتادة. وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٠٢٢) عنه أيضاً. والأثر (١٢٨٣١) عن ابن عباس من غير ذكر أسمائهم. وينظر: اللباب في علوم الكتاب: نقله عن ابن عباس أيضاً. ومعالم التنزيل: ص٥٤٢.

(٢) حكاه أهل التفسير؛ ينظر: معالم التنزيل: ص٥٤٣. واللباب في علوم الكتاب: ج ١٠ ص٣٤. ويقوي معناه أثر حذيفة ﷺ قال: ((مَا قُوتِلَ أهْلُ هَذِهِ الآيَةِ بَعْدُ)). أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٣٨). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٠٢٤).

وقولهُ تعالى (إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ) أي لا عهودَ لهم؛ جَمْعُ يَمِينٍ، وقال قطربُ: (لاَ وَفَاءَ لَهُمْ بالْعَهْدِ). وقرأ الحسنُ وعطاء وابنُ عامر (لاَ إِيْمَانَ) بكسر الهمزة؛ أي لا تصديقَ لهم، قال عطيَّة: (لاَ دِينَ لَهُمْ) أي هم قومٌ كفَّار. وَقِيْلَ: معناهُ: لا أمانَ لهم فلا تُؤَمِّنُوهُمْ واقتلُوهم حيث وجدتُّموهم، فيكون مصدرُ أمَّنْتُهُ إيْمَاناً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ ؛ أي ليُرجَى منهم الانتهاءُ عنِ الكُفرِ ونقضِ العهد.

وفي الآية بيانُ أنَّ أهلَ العهدِ متى خالَفوا أشياء مما عاهدوهم عليه فقد نُقِضَ العهدُ، وأما إذا طَعَنَ واحدٌ منهم في الإسلام: فإنْ كان شُرطَ في عُهودِهم أن لا يذكُروا كتابَ اللهِ ولا يذكرون مُحَمَّداً ﷺ بما لا يجوزُ، ولا يَفتِنُوا مُسلِماً عن دينهِ ولا يقطَعُوا عليه طَرِيقاً ولا يُعِينُوا أهلَ الحرب بدلالةٍ على المسلمين، فإنَّهم إذا فعَلُوا ذلك في عهودِهم وطَعَنُوا في القرآنِ وشَتَموا النبيَّ ﷺ، ففيه خلافٌ بين الفقَهاءِ.

قال أصحابُنا: يُعْذَرُونَ ولا يُقتلون، واستدَلُّوا بما روَى أنسُ بن مالك ﷺ: أنَّ امْرَأةً يَهُودِيَّةً أتَتِ النَّبِيَّ ﷺ بشَاةٍ مَسْمُومَةٍ فَأَكَلَ مِنْهَا، فَجِيءَ فَقِيلَ: ألاَ تَقْتُلُوهَا؟ قَالَ: [لاَ][(١)]. ولحديث عائشةَ: أنَّ قَوْماً مِنَ الْيَهُودِ دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ! فَفَهِمَتْ عَائِشَةُ فَقَالَتْ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:[مَهْلاً يَا عَائِشَةُ! فَإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ] فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ ألَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟! فَقَالَ: [بَلَى قَدْ قُلْتُ: عَلَيْكُمْ][(٢)] ولَمْ يقتُلْهم النبيُّ ﷺ بذلك[(٣)]. فذهب مالكُ إلى أنَّ مَن شَتَمَ النبيَّ ﷺ من اليهودِ والنصارى قُتِلَ إلا أن يُسلِمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (ذَلِكَ أنَّ قُرَيْشاً

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الهبة: باب قبول الهدية من المشركين: الحديث (٢٦١٧).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الاستتابة: باب إذا عرَّض الذمي أو غيره بسب النبي ﷺ: الحديث (٦٩٢٧).

(٣) جاء في حديث أنس ﷺ: أنَّ الْيَهُودِيَّ قَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ؛ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! ألاَ نَقْتُلُهُ؟ قَالَ: [لاَ؛ إذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ]. أخرجه البخاري في الصحيح: الحديث (٦٩٢٦).

أعَانُوا بَنِي الوَلِيدِ بْنِ بَكْرٍ وَكَانُوا حُلَفَاءَهُمْ عَلَى خُزَاعَةَ؛ وَخُزَاعَةُ حُلَفَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فَهَزَمُوا خُزَاعَةَ، فَجَاءَ وَفْدُ خُزَاعَةَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وأخْبَرَهُ بالقصَّة، وناشَدُوا حِلْفَهُ فقالَ قائلُهم(١):

يَا رَب إنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدَا ... حِلْفَ أبينَا وَأبيهِ الأتْلَدَا
كُنَّا وَالِداً وَكُنْتَ وَلَداً(*) ... ثُمَّتَ أسْلَمْنَا وَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نَصْراً أبَدَا ... وَادْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدَا ... إنَّ قُرَيْشاً أخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا ... وَبَيَّتُونَا بالْوَتِيرِ هُجَّدَا
نَتْلُوا الْقُرآنَ رُكَّعاً وَسُجَّدَا

فقالَ النبيُّ ﷺ: [لاَ نُصِرْتُ إنْ لَمْ أنْصُرْكُمْ] فقالَ أبو بكرٍ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللهِ أتَنْصُرُهُمْ عَلَى قَوْمِنَا ؟! قَالَ: [لاَ نُصِرْتُ إنْ لَمْ أنْصُرْهُمْ] ثُمَّ أمَرَ النَّاسَ أنْ يَتَجَهَّزُوا إلَى فَتْحِ مَكَّةَ، فَفَتَحَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ.

وَأحَلَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ الْقِتَالَ لِخُزَاعَةَ وَلَمْ يُحِلَّهُ لأحَدٍ غَيْرَهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (ألاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أيْمَانَهُمْ) أي نقضُوا عُهودَهم يعنِي قُريشاً، (وَهَمُّوا بإخْرَاجِ الرَّسُولِ) من مكَّة حين اجتمَعُوا على قتلهِ في دار النَّدوة (وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ) أي هم الذين بدَأوا بنقضِ العهد حين قاتلُوا خزاعةَ حلفاءَ رسول الله ﷺ، ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ ؛ أي تخافُونَ أن ينَالكم مكروهٌ في قتالِهم فتتركوا قتالَهُم، ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ﴾ ؛ تخافوهُ في تركِكم لقتالهم، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ مصدِّقين بعقاب الله وثوابه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ ؛ أي قاتِلُوا أهلَ مكَّة يعذِّبْهم اللهُ بأيدِيكم بالسَّيف، ﴿ وَيُخْزِهِمْ ﴾ ؛ أي يذِلَّهم، ﴿ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ

---

(١) هو عمرو بن سالم؛ في الدر المنثور: ج ٤ ص١٣٨-١٣٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن اسحق والبيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة)) وفيه بعض اختلاف.

(*) في المخطوط: (وَوَالِدٌ لَكُنْتَ وَكُنَّا وَلَدَا) ولا يستقيم المعنى.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾؛ يعني بَني خزاعةَ يومَ فتحِ مكَّة الذين قاتَلَهم بنو بكرٍ، ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ بني خُزاعةَ، فشَفَى اللهُ صدورَ بني خزاعة وأذهبَ غيظَ قُلوبهم؛ أي كَرْبَها ووَجْدَها.

وقولهُ تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾؛ استثناءُ كلام اللهِ؛ أي يتوبُ اللهُ على مَن يشاء من أهلِ مكَّة فيهديهِ للإسلامِ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾؛ بجميعِ الأشياء، ﴿حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾؛ في جميعِ الأمُور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾؛ معناهُ: إنْ ظَنَنتُم أيُّها المؤمنون أنْ تُترَكُوا على الإقرار والتصديق فلا تُؤمَرُوا بالجهادِ، قوله: (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) أي ولَمَّا يرَ اللهُ جهادَكم حين تُجاهدون، ولَمَّا يرَ اللهُ الذين لم يتَّخذوا منكم من الكفار بطَانَةً يُفْشُونَ إليهم سِرَّهم وأمْرَهم. وكان اللهُ تعالى قد عَلِمَ أمْرَهم بالقتال، مَن يقاتلُ مِمَّن لا يقاتلُ، ولكنَّه يعلمُ ذلك عَياناً، وأرادَ العلمَ الذي يُجازَى عليه وهو علمُ الْمُشَاهَدَةِ؛ لأنه يُجازيهم على عمَلِهم لا على عِلْمِهِ فيهم.

والوَلِيجَةُ: المدخَلُ في القومِ مِن غيرهم؛ مِنْ وَلَجَ شَيْءٌ يَلِجُ إذا دَخَلَ. والخطابُ في الآيةِ للمؤمنين حين شَقَّ على بعضِهم القتالُ وكَرِهُوا، فأنزلَ اللهُ هذه الآية (أَمْ حَسِبْتُمْ أنْ تُتْرَكُوا) فلا تُؤمَروا بالجهادِ وتُمتَحَنُوا بهِ؛ ليظهَرَ الصادقُ من الكاذب، والمطيعُ من العَاصِي، وقال قتادةُ: (مَعْنَى وَلِيجَةً أيْ خِيَانَةً)، وقال الضَّحاكُ: (خَدِيعَةً)، وقال ابنُ الأنباريُّ: (الْوَلِيجَةُ: الدَّخِيلَةُ)، وقال عطاءُ: (أولياء)، قال الحسنُ: (كُفْرٌ وَنِفَاقٌ)[(١)]. وَقِيْلَ: الوَلِيجَةُ: الرجلُ من يختص يدخله مودَّةً دون الناس، يقالُ: هو وَلِيجَةٌ وهُم وَلِيجَةٌ، للواحدِ والجمعِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾؛ أي عالِمٌ بأعمالِكم، وفي هذا تهديدٌ للمنافقين وعِظَةٌ للمخلصين.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٥٤). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٠٤٧).

قولهُ تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا أسِرَ الْعَبَّاسُ يَوْمَ بَدْرٍ، أقْبَلَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ يُعَيِّرُونَهُ بالْكُفْرِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَعَوْنِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأغْلَظَ عَلِيٌّ رضي الله عنه الْقَوْلَ لَهُ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: مَا لَكُمْ تَذْكُرُونَ مَسَاوِءَنَا وَلاَ تَذْكُرُونَ مَحَاسِنَنَا؟! فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه: ألَكُمْ مَحَاسِنُ ؟! قَالَ: نَعَمْ؛ إنْ كُنْتُمْ تُجَاهِدُونَ الأَعْدَاءَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَنَحْنُ نَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَنَحْجُبُ الْكَعْبَةَ، وَنَسْقِي الْحَاجَّ، وَنَفُكُّ الأَسِيرَ، فَنَحْنُ أفْضَلُ مِنْكَ أجْراً. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ رَدّاً عَلَى الْعَبَّاسِ)[1]. ومعناها: ما كانَ للمشركين أن يقُوموا بعمارةِ المسجدِ، وأنَّ المساجدَ للهِ. والعمارةُ على وجهين؛ تُذكَرُ ويرادُ بها البناءُ وتجديدُ ما انْهَدَمَ منها، ويؤنَّثُ ويرادُ بها الزيادةُ، ومِن ذلك العُمْرَةُ ومعناها زيارةُ البيتِ، فانتظمت الآيةُ، نهي المشركين عن بناءِ المساجد وعن عمارتِها بالطاعةِ، فإنَّهم إنما يعمرونَها بعبادةِ الأوثان ومعصيةِ الله.

ومَن قرأ (مَسْجِدَ اللهِ) على التوحيدِ أرادَ المسجدَ الحرام خاصَّة وهي قراءةُ ابن كثيرٍ وأبي عمرٍو ومجاهد وسعيد بن جبير وقراءة ابن عبَّاس، وقرأ الباقون (مَسَاجِدَ) بالجمعِ، وإنما قالَ (مَسَاجِدَ) لأنه قِبْلَةُ المساجدِ كلِّها. وقيل لعكرمة: لِمَ تَقْرَأ (مَسَاجِدَ) وإنَّمَا هُوَ مَسْجِدٌ وَاحِدٌ ؟ فقالَ: (إنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ مَسَاجِدِ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ ؛ نُصبَ (شَاهِدِينَ) على الحالِ على معنى: ما كانت لَهم عمارةُ المسجدِ في حالِ إقرارهم بالكُفرِ، وهم كانوا لا يقولون نحنُ كفَّار، ولكن كان كلامُهم يدلُّ على كُفرهم، وهذا كما يقالُ للرجلِ: كلامُكَ يشهدُ أنَّك ظالِمٌ، وهو قولُ الحسنِ، وقال السديُّ: (شَهَادَتُهُمْ عَلَى أنْفُسِهِمْ بالْكُفْرِ، أنَّ الْيَهُودِيَّ لَوْ قُلْتَ لَهُ: مَا أنْتَ ؟ قَالَ: يَهُودِيٌّ، وَيَقُولُ النَّصْرَانِيُّ: هُوَ نَصْرَانِيٌّ، وَيَقُولُ الْمَجُوسِيُّ: هُوَ مَجُوسِيٌّ)[2].

وَقِيْلَ: شهادَتُهم على أنفُسِهم بالكفرِ سجُودُهم لأصنامِهم وإقرارُهم أنَّها مخلوقةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الكفرَ أذهبَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٦١).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٥٦ و١٢٨٥٧).

ثوابَ أعمالِهم وهي التي مِن جنسِ طاعــة المسـلمين. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المرادِ.

ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى مَن يكون أوْلَى بعمارةِ المسجد الحرامِ: قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: إنمـا يعمـرُ مسـاجدَ اللهِ بطاعةِ الله مَن كان في هذه الصِّفة، قوله: (وَأَقَامَ الصَّلاَةَ) يعني إقامَ الصـلاة المفروضـةَ (وَآتَى الزَّكَاةَ) الواجبةَ في مالهِ، وقولهُ تعالى: (وَلَمْ يَخْشَ إلاَّ اللهَ) أي لم يَخَفْ مِن غيرِ الله، ولم يَرْجُ إلا ثوابَهُ. وكلمةُ عسى مِن الله واجبةٌ، والفائدةُ في ذكرِهـا في آخـرِ هـذه الآية ليكونَ الإنسانُ على حذَرٍ من فعلٍ ما يُحبطُ ثوابَ عملهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ ؛ رُوي عن ابنِ عبَّاس أنه قال: (قَـالَ الْعَبَّـاسُ: لَئِـنْ كُنْتُـمْ سَـبَقْتُمُونَا بالإسْلاَمِ وَالْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ، لَقَدْ كُنَّا نَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَنَسْقِي الْحَاجَّ. فَـأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). يعني أنَّ ذلك كان منكُم في الشِّركِ ولا أقْبَلُ ما كانَ في الشـركِ. ورُوي أنَّ المشركين قالُوا: عمارةُ المسجدِ الحرام وقيامٌ على السِّقايةِ خيرٌ ممن آمَنَ وجاهَدَ. وكانوا يفتَخِرون بالحرَمِ، ويستكبُرون به مِن أجل أنهم أهلهُ وعُمَّارُهُ، فـأنزلَ اللهُ هـذه الآيـةَ، وأخبَرَهـم أنَّ عِمارَتَهم المسجدَ الحرامَ وقيامَهم على السِّـقايةِ لا ينفعُـهم عنـدَ اللهِ مـن الشِّرك باللهِ.

وقال الحسنُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَلِيٍّ وَالْعَبَّاسَ وَطَلْحَةَ بْن شَيْبَةَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّار، وَذلِكَ أنَّهُمُ افْتَخَرُوا، فَقَالَ طَلْحَـةُ: أنَـا صَـاحِبُ الْبَيْـتِ، بِيَـدَيَّ مِفْتَاحُـهُ، قَـالَ الْعَبَّاسُ: أنَا صَاحِبُ السِّقَايَةِ، وَقَالَ عَلِيٌّ: أنَا صَاحِبُ الْجِهَادِ. فَـأَنْزَلَ اللهُ هَـذِهِ الآيَـةَ: (أجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)[1] أي أجعلتُم صاحبَ سقايةِ الحـاجِّ وصاحبَ عمارةِ المسجد الحرام كإيمان مَن آمنَ بالله واليومِ الآخر، ﴿ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ وَقِيْـلَ: معنـاهُ: أجعلتُـم سـاقيَ الحـاجِّ وعـامرَ المسـجدِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٦٤) عن محمَّد بـن كعـب القرظـي بتمامـه، وعـن الحسن مختصراً.

الحرام، جعلَ السقايةَ بمعنى السَّاقِي، والعمارةَ بمعنى العامرِ، كقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾(١) أي للمتَّقين.

وقرأ عبدُالله بن الزُّبير وأبي: (أجَعَلْتُمْ سُقَاةَ الْحَاجِّ وَعَمَرَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) على جميعِ السَّاقي والعامرِ(٢). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩)﴾ ؛ أي لا يرشِدُهم إلى الحجَّة ما دامُوا مُصِرِّينَ على الكُفرِ، ولا يرشِدُهم إلى الجنَّة والثواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ ؛ معناهُ: الذين صدَّقُوا بتوحيدِ الله، وهاجَرُوا من أوطانِهم إلى رسول الله ﷺ، وجاهَدُوا العدوَّ في طاعةِ الله أعظمُ درجةً عند اللهِ، وهذا كقولهِ تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾(٣). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾ ؛ معناهُ: إنَّ المهاجرين هم الظَّافِرُون بأمَانِهم من الخيرِ، النَّاجُونَ من النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾ ؛ أي يُبشِّرُهم ربُّهم في الدُّنيا على ألسِنَةِ الرُّسل نجاةً من العذاب في الآخرة، ورضوان عنهم ويبشِّرُهم بجناتٍ، ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١)﴾ ؛ دائمٌ لا يزولُ عنهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ؛ أي دائِمِين فيها أبداً مع كون النَّعيمِ مُقيماً لَهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ ؛ أي ثوابٌ كثير في الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ ؛ نزلَت في المهاجِرين، ومعناهُ: لا تتَّخِذُوا آباءَكم وإخوانكم الذين بمكَّة أولياءَ، تُنصَرون بهم وتنصُرونَهم إنِ اختاروا الكفرَ على

---

(١) طه / ١٣٢ .

(٢) في المحرر الوجيز: ص٨٣٢؛ قال ابن عطية: ((وقرأ ابن الزبير وأبو وَجزَة، ومحمد بن علي، وأبو جعفر القارئ، وقال: وقرأ الضحاك وأبو وجزة وأبو جعفر القارئ: (سُقَايَة).))

(٣) الفرقان / ٢٤ .

الإيمان، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ إنما جعل الظالمين لموالاةِ الكفار؛ لأنَّ الراضي بالكُفرِ يكون كافراً، وعن الضحَّاك: (لَمَّا أمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بالْهِجْرَةِ وكَانُوا قَبْلَ الْفَتْحِ بمَكَّةَ مَنْ آمَنَ وَلَمْ يُهَاجِرْ، لَمْ يَقْبَلِ اللهُ إيْمَانَـهُ إلاَّ بمُهَاجَرَةِ الآبَاءِ وَالأَقْرِبَاءِ أيْ بمُجَانَبَتِهِمْ إذَا كَانُوا كُفَّاراً، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إنْ نَحْنُ اعْتَزَلْنَا مَنْ خَالَفَنَا فِي الدِّينِ، انْقَطَعَ آبَاؤُنَا وَعَشِيرَتُنَا، وَتَذْهَبَ تِجَارَتُنَا وَتَخْرَبَ دِيَارُنَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

وقال الكلبيُّ: (لَمَّا أمَرَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ بالْهِجْرَةِ إلَى الْمَدِينَةِ، جَعَلَ الرَّجُلُ يَقُولُ لأَخِيهِ وَأبيهِ وَامْرَأتِهِ وَأقْرِبَائِهِ: إنَّا قَدْ أُمِرْنَا بالْهِجْرَةِ إلَى الْمَدِينَةِ فَاخْرُجُوا مَعَنَا إلَيْهَا، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْجِبُهُ ذَلِكَ فَيُنَازِعُ إلَيْهِ مَعَهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْبَى أنْ يُهَاجِرَ فَيَقُولُ الرَّجُلُ لَهُمْ: وَاللهِ لاَ أنْفَعُكُمْ بشَيْءٍ وَلاَ أعْطِيكُمْ وَلاَ أنْفِقُ عَلَيْكُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَتَعَلَّقُ بهِ زَوْجَتُهُ وَوَلَدُهُ وَعِيَالُهُ، فَيَقُولُونَ لَهُ: نُنْشِدُكَ اللهَ أنْ لاَ تُضَيِّعْنَا، فَيَرِقُّ وَيَجْلِسُ وَيَتْرُكُ الْهِجْرَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (يَاأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإخْوَانَكُمْ أوْلِيَاءَ) أي أصدقاءُ فتُفْشُونَ إليهم سِرَّكُم وتُؤْثِرُونَ المقامَ معهم على الهجرةِ والجهاد إن استحَبُّوا الكفرَ على الإيمان، ومَن يتولَّهم منكم فيُطلِعُهم على عورةِ الإسلام وأهلِهِ، ويُؤْثِر الْمُكْثَ معهم على الهجرةِ، (فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) أي القَاضُونَ الواضِعُون الولايةَ في غيرِ موضعِها.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ للذين تركُوا الهجرةَ إنْ كان آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانكم ونساؤُكم وقراباتُكم، ﴿ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾؛ اكتسَبتُموها بمكَّة وأصبتُموها، ﴿ وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾؛ أي عدمَ نفاقِها إذا اشتغلتُم بطاعةِ الله، ﴿ وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾؛ ومنازلُ تعجبُكم الإقامة بها بمكَّة، ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ﴾؛ طاعةِ، ﴿ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾؛ بالهجرةِ إلى المدينةِ، ﴿ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾، وأحبَّ إليكم من الجهادِ في طاعة اللهِ، ﴿ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾، أي فانتَظِروا حتى يأتيَ اللهُ بفتحِ مكَّة، ويقال: حتى يأتي اللهُ بعذابٍ عاجل أو آجِلٍ، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي لا يرشدُ الخارجِين عن طاعتهِ إلى معصيتهِ، ولا يهديهم إلى جنَّتهِ وثوابهِ.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ ؛ وذلـك أنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ من مكَّة بَعْدَ مَا فتحَها، وكَانَ افْتِتَاحُها فِي بَقِيَّةِ أيَّام رَمَضَانَ، فَمَكَـثَ بـهَا حَتَّـى دَخَلَ شَوَّالُ مُتَوَجِّهاً إلَى حُنَين، وبَعَثَ رَجُلاً مِنْ بَنِي سُلَيم عَيْناً لَهُ يُقَالُ لَهُ عَبْدُاللهِ بْـنُ أبي حَدْرَدَ، فَأتَى حُنَيناً فكَانَ بَيْنَهُمْ يَسْمَعُ أخْبَـارَهُمْ، فَسَـمِعَ مَـالِكَ بْـنَ عَـوْفٍ يَقُـولُ لأصْحَابهِ: أنْتُمُ الْيَوْمَ أرْبَعَةُ آلاَفِ رَجُلٍ، فإذا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ فَاحْمِلُوا عَلَيهِمْ حَمْلَةَ رَجُـلٍ وَاحِدٍ، فَوَاللهِ لاَ تَضْرِبُونَ بأَرْبَعَةِ آلاَفِ سَيْفٍ شَـيْئاً إلاَّ افْـرَجَ لَكُـمْ. وكَـانَ مَـالِكُ بْـنُ عَوْفٍ عَلَى هَوَازن، وكِنَانَةُ بْنُ عَبْدِ يَالِيلِ عَلَى ثَقِيفٍ، فَأقْبَلَ ابْنُ أبي حَدْرَدَ حَتَّـى أتَـى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأخْبَرَهُ بمَقَالَتِهِمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَوَجِّهاً إلَيهِمْ فِي عَشْـرَةِ آلاَفِ رَجُلٍ، كذا قال الكلبيُّ.

وقال مقاتلُ: (كَانُوا أحَدَ عَشَرَ ألْفاً وَخَمْسَمِائَةٍ)[(١)]، وقال قتادةُ: (خَرَجَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ إلَى حُنَينٍ لِقِتَال هَوَازنَ وثَقِيف فِي اثْنَي عَشَرَ ألْفاً مِنَ الْمُهَاجِرينَ وَالأنْصَـار، وَألْفَينِ مِنَ الطُّلَقَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَالُ لَهُ سَلَمَةُ بْنُ سَلاَمَةَ[(٢)]: يَـا رَسُـولَ اللهِ لاَ نُغْلَبُ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ، فَسَاءَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَلِمَتُهُ وَابْتَلَى اللهُ الْمُسْلِمِينَ بذَلِكَ، فَلَمَّا الْتَقَوا حَمَلَ الْعَدُوُّ عَلَيهِمْ حَمْلَةَ وَاحِدٍ، فَلَمْ يَقُومُوا لَهُمْ حَلْبَ الشَّاةِ أن انْكَشَـفُوا وَتَبعَهُمُ الْقَوْمُ فِي أدْبَارِهِمْ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَأبُـو سُـفْيَانَ بْـنِ الْحَـارثِ يَقُـودُ بـهِ، وَالْعَبَّاسُ أخَذَ بالثَّغْر، وَحَوْلَ رَسُول اللهِ يَوْمَئِذٍ نَحْوٌ مِنْ ثَلاَثِمِائَةِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ وَانْهَزَمَ سَائِرُ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُركِّضُ بَغْلَتَهُ نَحْوَ الْكُفَّار لاَ يَألُ، وَكَانَتْ بَغْلَتُهُ شَهْبَاءَ وَهُوَ يُنَادِي: [يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَيَا مَعْشَرَ الأنْصَار إلَيَّ، أيْنَ أصْحَـابُ الصُّفَّةِ] أيْ أصْحَابُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

---

(١) في تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٢ ص٤٢.

(٢) سلمة بن سلامة بن وقش الأشهلي الأنصاري، الصحابي، شهد العقبة الأولى والعقبـة الآخـرة والمشاهد كلها، واستعمله عمر على اليمامة؛ وتوفي سنة خمس وأربعين بالمدينة وهـو ابـن سـبعين سنة. ترجم له ابن عبدالبر في الاستيعاب: الرقم (١٠٢٦).

وكَانَ الْعَبَّاسُ يُنَادِي: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، أيْنَ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا، هَلُمُّوا فَإنَّ هَذَا رَسُولُ اللهِ. وكَانَ الْعَبَّاسُ صَيِّتاً جَهُورِيَّ الصَّوْتِ، يُروَي أنَّهُ مِنْ شِدَّةِ صَوْتِهِ أنَّهُ أغِيرَ يَوْماً عَلَى مَكَّةَ فَنَادَى وَاصُبْحَاهُ، فَأسْقَطَتْ كُلُّ حَامِلٍ سَمِعَتْ صَوْتَهُ.

فَلَمَّا صَاحَ بِالْمُسْلِمِينَ عَطَفُوا حِينَ سَمِعُوا صَوْتَهُ عَطْفَةَ الْبَقَرِ عَلَى أوْلاَدِهَا، وَقَالَ: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ، وَجَاؤُا عُنُقاً وَاحِداً لِنَصْرِ دِينِ اللهِ، وَأقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى مِنَ السَّمَاءِ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأظْهَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيهِمْ، وَحَمِيَ الْوَطِيسُ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ يَتَطَاوَلُ إلَى قِتَالِهِمْ، ثُمَّ أخَذَ كَفّاً مِنَ الْحَصَى فَرَمَاهُمْ بِهِ وَقَالَ: [شَاهَتِ الْوُجُوهُ، انْهَزَمُوا وَرَب الْكَعْبَةِ] فَوَاللهِ مَا زَالَ أمْرُهُمْ مُدْبراً وَجَدُّهُمْ كَلِيلاً، وَهَرَبَ حِينَئِذٍ آمِرُهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ)[١].

وقال أبي اسحاق: (قُلْتُ لِلْبَرَاءِ[٢]: هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مَعَهُمْ مُوَلِّياً؟ قَالَ: لاَ وَالَّذِي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ، مَا وَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ دُبُراً قَطُّ، وَلَقَدْ رَأيْتُهُ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءَ يَرْكُضُ نَحْوَ الْكُفَّار وَهُوَ يَقُولُ: [أنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ، أنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ] ثُمَّ قَالَ لِلعَبَّاسِ:[نَادِ يَا مَعْشَرَ الأنْصَار، يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ] فَعَطَفَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ مُسْرِعِينَ، فَأنْزَلَ اللهُ جُنْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْمُشْرِكِينَ وَنَصَرَ الْمُسْلِمِينَ)[٣].

قال سعيدُ بن جُبير: (أمَدَّ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِخَمْسَةِ آلاَفِ مَلَكٍ)، وقال الحسن ومجاهدُ: (كَانُوا ثَمَانِيَةَ آلاَفٍ)، قال قتادةُ: (كَانُوا سِتَّةَ عَشَرَ ألْفاً)، وقال سعيدُ بن جبير:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٧٤ و١٢٨٧٥) عن قتادة، والأثر (١٢٨٧٦) عن السدي، والأثر (١٢٨٧٧) عن كثير بن عباس، والأثر (١٢٨٧٨) عن سعيد بن المسيب. والحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الجهاد: الحديث (٧٦/ ١٧٧٥).

(٢) عند البخاري في الصحيح: (قال رجل للبراء: ...) في الحديث (٢٨٦٤ و٢٨٧٤ و٢٩٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد: باب من قاد دابة غيره في الحرب: الحديث (٢٨٦٤). ومسلم في الصحيح: كتاب الجهاد: باب في غزوة حنين: الحديث (٧٨/ ١٧٧٦).

(حَدَّثَنِي رَجُلٌ كَانَ فِي الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ حُنَيْنٍ، قَالَ: لَمَّا الْتَقَيْنَا نَحْنُ وَأَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَقِفْ لَنَا حَلْبَ شَاةٍ، فَلَمَّا كَشَفْنَاهُمْ جَعَلْنَا نَسُوقُهُمْ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى صَاحِبِ الْبَغْلَةِ الشَّهْبَاءِ – يعني – النَّبِيَّ ﷺ تَلَقَّانَا رجَالٌ بيضُ الثِّيَاب حِسَانُ الْوُجُوهِ، فَقَالُوا: شَاهَتِ الْوُجُوهُ ارْجِعُوا، فَرَجَعْنَا وَرَكِبُوا أَكْتَافَنَا فَكَانَتْ ايَّاهَا)[١] يَعْنِي الْمَلاَئِكَةَ.

ورُوِي أن الملائكةَ قاتلت يومئذ، في الخبر: أنَّ رجُلاً من بني نَضْرِ بن معاوية قال للمؤمنين وهو في أيدِيهم: أينَ الخيلُ البُلْقُ؟ والرجالُ عليهم الثياب البيضُ ؟ ما كنَّا نراكم فيهم إلاَّ كهَيئةِ الشَّامة، وما كان قتلُنا إلا بأيديهم، فأخبَرُوا بذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: [تِلْكَ الْمَلاَئِكَةُ][٢].

قالَ: فلما هربَ أميرُ المشركين مالكُ بن عوف انْهزمَ المشركون وولَّوا مُدبرين، وانطلقَ المسلمون حتى أتَوا أوْطَاساً بها عيالُ المشركين وأموالُهم، فبعثَ رسولُ الله ﷺ على المسلمين رجُلاً من الأشعريِّين أمَّرَهُ عليهم يقالُ له أبو عامرٍ، فسارَ معهم إلى أوطَاس فقاتلَ أهلَها حتى هزمَهم اللهُ وسبَى المسلمون عيالَ المشركين، وهربَ مالك ابن عوفٍ حتى أتَى إلى الطائفِ فتحصَّنَ بها، وأخِذَ مالهُ وأهله في مَن أخِذَ، وقُتِلَ أبو عامر ﷺ. ثم أتَى رسولُ الله ﷺ الطائفَ فحاصرَهم بقيَّة ذلك الشهر، فلما دخلَ ذو القعدةِ وهو شهرٌ حرام لا يحلُّ فيه القتالُ، رجعَ رسولُ الله ﷺ إلى الْجُعْرَانَةِ فأحرمَ منها بعُمرةٍ، وقسَّم بها السَّبيَ والمالَ وغنائمَ حُنين وأوطاس.

وتألَّفَ أناسٌ منهم أبو سُفيان بن حربٍ، وسهلُ بن عمرو، والأقرعُ بن حابس، فأعطَاهُم وجعلَ يُعطي الرجلَ منهم الخمسينَ والمائة من الإبلِ، فقالَ طائفةٌ من الأنصار: مَنَّ الرجلُ وآثرَ قَوْمَهُ بالعُجب، إنَّ أسيافَنا تقطرُ من دمائِهم وغنائمُنا تُردُّ عليهم. فبلغَ ذلك رسولُ الله ﷺ فجمعَهم وقالَ: [يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار مَا هَذَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْكُمْ ؟] فَقَالُوا: هُوَ الَّذِي بَلَغَكَ، وَكَانُوا يَكْذِبُونَ، فَقَالَ: [أَلَمْ تَكُونُوا ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بي؟ وَكُنْتُمْ أذِلَّةً فَأَعَزَّكُمُ اللهُ بي؟ وَكُنْتُمْ وَكُنْتُمْ ؟].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٨٢) عن سعيد مختصراً، والأثر (١٢٨٨١) عن عبدالرحمن مولى أم برثن.

(٢) ينظر: معالم التنزيل: ص٥٤٨، وزاد فيه: أن اسم الرجل (شجرة).

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: ائْذَنْ لِي أتَكَلَّمُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [تَكَلَّمْ] قَالَ: أمَّا قَوْلُكَ [كُنْتُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي] بِحَقٍّ كُنَّا كَذَلِكَ، وَأمَّا قَوْلُكَ: [كُنْتُمْ أذِلَّةً فَأَعَزَّكُمُ اللهُ بِي] فَقَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أنَّهُ مَا كَانَ حَيٌّ مِنْ أحْيَاءِ الْعَرَبِ أمْنَعَ لِمَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ مِنَّا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا سَعْدُ أتَدْرِي مَنْ تُكَلِّمْ ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا عُمَرُ أكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ سَلَكَتِ الأنْصَارُ وَادِياً وَسَلَكَتِ النَّاسُ وَادِياً لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأنْصَار، الأنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ] ثُمَّ قَالَ: [يَا مَعْشَرَ الأنْصَار أمَا تَرْضَوْنَ أنْ يَنْقَلِبَ النَّاسُ بالشَّاةِ وَالإبِلِ وَتَنْقَلِبُونَ بِرَسُول اللهِ إلَى بُيُوتِكُمْ؟] قَالُوا: بَلَى رَضِينَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ مَا قُلْنَا ذَلِكَ إلاَّ مَحَبَّةً للهِ وَلِرَسُولِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [إنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذُرَانِكُمْ][(١)]. فلما قَدِمَ النبيُّ ﷺ قامَ خطيباً فقال: [أمَّا خَطِيبُ الأنْصَارِ؛ وَلَوْ قَالَ: كُنْتَ طَرِيداً فَآوَيْنَاكَ، وَكُنْتَ خَائِفاً فَآمَنَّاكَ، وَكُنْتَ مَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَكُنْتَ وَكُنْتَ، لَكَانَ قَدْ صَدَقَ] فَبَكَتِ الأنْصَارُ. بَلِ اللهُ وَرَسُولُهُ أعْظَمُ مَنّاً عَلَيْنَا[(٢)].

وذُكِرَ لنا: أن ضِئْرَ النبيِّ ﷺ التي أرضعَتهُ من بني سَعْدٍ أتَتْهُ يومَ حُنين فسألَهُ سَبَايا حُنين، فقال ﷺ: [إنِّي لاَ أمْلِكُكُمْ وَإنَّمَا أمْلِكُ نَصِيبِي مِنْهُمْ، وَلَكِنِ ائْتِينِي غَداً فَسَلْنِي وَالنَّاسُ عِنْدِي، فَإذَا أعْطَيْتُكِ حِصَّتِي أعْطَاكِ النَّاسُ] فجاءت من الغَدِ، فبسطَ لها ثوبَهُ فقعدَتْ عليه، ثم سألَتْهُ ذلك فأعطاها نصيبَهُ، فلما رأى ذلك الناسُ أعطوها أنصباءَهم[(٣)]. قال الزهريُّ وابن المسيَّب: (إنَّهُمْ أصَابُوا يَوْمَئِذٍ الْفَي سَبِيٍّ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أمَرَ مُنَادِياً فَنَادَى يَوْمَ أوْطَاسٍ:[أنْ لاَ تُوْطَأ الْحُبَالَى حَتَّى يَضَعْنَ، وَالْحَيَالَى حَتَّى تَسْتَبْرِئنَ بِحَيْضَةٍ)[(٤)].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٨٧٤) عن قتادة.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص١٤٢-١٤٣.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٠٢؛ قال: (وقال قتادة: وذكر لنا... وذكره)). وذكر ابن هشام قصة الشيماء في السيرة النبوية: ج ٣ ص١٠٠-١٠١.

(٤) أخرجه ابو داود في السنن: كتاب النكاح: باب في وطء السبايا: الحديث (٢١٥٥) و(٢١٥٧) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال: هو صحيح من حديث أبي سعيد.

ثم إنَّ مالكَ بن عوفٍ قال لأصحابهِ: هل لكم أنْ تُصيبوا من مُحَمَّدٍ مَالاً ؟ قالُوا: نَعَمْ، فأرسلَ إلى النبيِّ ﷺ أنّي أريدُ أن أسلِمَ فمَا تُعطِيني ؟ قالَ: [أعْطِيكَ مِائَةً مِنَ الإبلِ وَرُعَائَهَا] فجاءَ وأسلمَ وأقامَ يوماً أو يومَين، فلمَّا رأى المسلمين ورقَّتَهُمْ وزُهدَهم واجتِهادَهم رَقَّ لذلكَ، فقال له النبيُّ ﷺ: [يَا ابْنَ عَوْفٍ الاَ نَفِي لَكَ بمَا وَعَدْنَاكَ ؟] قَالَ: يَا رَسُولَ الله أمِثْلِي يأخذُ على الإسلامِ شَيئاً؟! ثم أسلمَ أهلُ الطائفِ، وكان مالك بن عوف بعد ذلك ممن أفتتحَ عامَّة الشام[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ) أي لقد أعانكم اللهُ على أعدائِكم في مواضعَ كثيرةٍ من قتالِ بدرٍ وحرب بني قُريظة والنَّضير وحُنَين وفتحِ مكة. قولهُ: (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ) أي وأعانكم يومَ حُنين، وحُنَينُ: اسمُ وادٍ بين مكَّة والطائف، وأضِيفَ اليومُ إلى حُنين لوقوعِ الحرب يومئذٍ بها.

وقولهُ تعالى: (إذ أعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ) إذ سرَّتكُم، والإعجابُ هو السُّرورُ والتعجُّبُ، فلم تُغْنِ عنكم كَثرَتُكم شيئاً ولا دفعت عنكم سوءاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ ؛ أي ضاقتْ عليكم الأرضُ مع سِعَتها من خوفِ العدوِّ، فلم تجدوا موضِعاً للفرار إليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي أعرَضتُم مُنهَزِمِين لا تَلْوُونَ على أحدٍ. والإدبارُ الذَّهابُ إلى الخلفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ ؛ أي أنزلَ أمْنَهُ ورحمتَهُ على رسولهِ، ﴿ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ حتى عادُوا فظفَروا. والسَّكِينَةُ في اللغة اسمٌ لِما يسكنُ إليه القلبُ، وقال الحسنُ: (أرَادَ بالسَّكِينَةِ الْوَقَارَ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ ؛ أي أنزلَ من السَّماء ملائكةً لنصرِكُم، لم تروها بأعيُنِكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ؛ يعني بالقتلِ والأسرِ، ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ ؛ العقابُ، ﴿ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص١٣٣-١٣٤.: قصة إسلام مالك بن عوف النصري.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ ﴾ ؛ أي ثم يتوبُ مِن بعد الهزيمةِ على مَن يشاءُ منهم مَن كان أهْلاً لذلكَ، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ ؛ لِمَا كـان منهم في الشِّرك إذا تابُوا ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ بهم في الإسلام.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ ﴾ ؛ معناهُ: إنما المشـركونَ قَـذَرٌ، وَقِيْـلَ: خَبَـثٌ. والنَّجَسُ: مصدرٌ أُقِيمَ مقامَ الاسمِ لا يُثنَّـى ولا يُجمَـعُ، يقـالُ: رجـلٌ نَجَـسٌ وامـرأةٌ نَجَسٌ، ورجال ونساءٌ نَجَس، ولا يؤنَّثُ ولا يُجمع؛ فلهذا لم يقل إن المشركينَ أنجاسٌ، وسَمَّى المشركَ نَجَساً؛ لأنَّ شِرْكَهُ يجري مجرَى القذر في أنه يُجنَبُ الْجُنُبُ، كما تُتَجَنَّبُ النجاسات؛ أي يجبُ التبرُّؤ من المشركين وقطعُ مودَّتِهم.

والنجاسةُ على ضَربين، نجاسةُ أعيان، ونجاسةُ الذُّنوب، وكان الحسنُ يقول: (لاَ تُصَافِحِ الْمُشْرِكِينَ، فَمَنْ صَافَحَهُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ)[١]، وقال قتادةُ: (سَمَّاهُمُ اللهُ نَجَساً لأَنَّهُمْ يُجْنِبُونَ وَلاَ يَغْتَسِلُونَ، وَيُحْدِثُونَ وَلاَ يَتَوَضَّـؤُونَ، فَمُنِـعَ مِـنْ دُخُـولِ الْمَسَـاجِدِ؛ لأَنَّ الْجُنُبَ لاَ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) أي لا ينبَغِي لهـم أن يقربوهُ للحجِّ والطَّواف بعد هذا العامِ، وهو العامُ الذي حجَّ فيه أبو بَكرٍ ﷺ، ونـادَى عليٌّ ﷺ فيه ببرَاءَةٍ، وهو سنةُ تسعٍ من الهجرة، ثم حجَّ رسولُ الله ﷺ في العامِ الثاني حجَّة الوداعِ في سنة عاشرٍ من الهجرة[٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْـجِدَ الْحَـرَامَ) بيانُ أنَّ المرادَ بالآيةِ إبعادُ المشركين عن المسجدِ الحرام، كما رُوي عن عليٍّ ﷺ أنه كان يُنادي فيهم في ذلك العامِ: [ألاَ لاَ يَطُوفَنَّ بهَذَا الْبَيْتِ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ وَعُرْيَانٌ].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٩٤).

(٢) هذا تأويل الإمام الطبري، وأدرجه المصنف رَحِمَهُ اللهُ في مجال كلام قتادة. وأخرجه الطـبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٨٩)؛ قال: النجس: الجنابة. والأثر (١٢٨٩١).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٩٥) عن قتادة.

قال ابنُ عبَّاس[1]: (فَقَالَ أنَاسٌ مِنْ تُجَّار بَكْر بْنِ وَائِلٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ قِرَاءَةِ عَلِيٍّ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: سَتَعْلَمُونَ يَا أهْلَ مَكَّةَ إذَا فَعَلْتُمْ هَذَا مَاذا تَلْقَوْنَ مِنَ الشِّدَّةِ وَمِنْ أيْنَ تَأكُلُونَ، أمَا وَاللهِ لَتُقَطَّعَنَّ سُبُلُكُمْ، وَلاَ نَحْمِلُ إلَيْكُمْ شَيْئاً. فَوَقَعَ ذلِكَ فِي نَفْسِ أهْلِ مَكَّةَ وَشُقَّ عَلَيْهِمْ، وَألْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوب الْمُسْلِمِينَ حُزْناً وَقَالَ لَهُمْ: مِنْ أيْنَ تَعِيشُونَ وَقَدْ نَفَى الْمُشْرِكِينَ وَقَطَعَ عَنْكُمُ الْمِيرَةَ ؟ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ كُنَّا نُصِيبُ مِنْ تِجَارَاتِهِمْ، فَالآنَ يَنْقَطِعُ عَنَّا الأسْوَاقُ وَالتِّجَارَةُ وَيَذْهَبُ الَّذِي كُنَّا نُصِيبُهُمْ فِيهَا، فَأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةً فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ ﴾) معناهُ: وإنْ خِفتُم فَقراً من إبعادِ المشركين، (فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) بغيرهم، فأخْصَبَتْ تَبَالَةُ[2] وَجَرَشُ وحَملوا إلى مكَّة الطَّعامَ والإدامَ، وأغنَى اللهُ أهلَ مكَّة من تُجَّار بني بكرٍ[3]. ورُوي أن أهلَ نَجْدٍ وصنعاءَ من أهلِ اليمَنِ أسلَمُوا وحملوا إلى مكَّة الطعامَ في البحرِ والبرِّ.

والعَيلَةُ: الفقرِ والصِّفَاق، يقالُ: عَالَى الرجلُ يَعِيلُ عليه، قال الشاعرُ:

وَلاَ يَدْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاؤُهُ ... وَلاَ يَدْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ

أي يفتقرُ. وفي مُصحف عبدِالله (وَإنْ خِفْتُمْ عَائِلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ)[4].

وقولهُ تعالى: ﴿ إِن شَآءَ ﴾ ؛ استثناءٌ، فجاء عِلمُ اللهِ أنه سيكون لئَلا تترُكَ العبادُ الاستثناءَ في أمورهم، ولتنقطعَ الآمالُ إلى اللهِ في طلب الغِنَى منهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي عليمٌ بخلقهِ وما يُصلِحُهم، حكيمٌ فيما حكمَ من أمرهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٨٩٦-١٢٩١٠) وأدرجها الطبراني في هذا النص.

(٢) في المخطوط: (توبالة).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٠٦.

(٤) في المحرر الوجيز: ص٨٣٦؛ قال ابن عطية: ((وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود: ﴿عَائِلَةً﴾ وهو مصدر كالقائلة، من قال يقيلُ، وكالعاقبة والعافية، ويحتمل أن تكون نعتاً لمحذوف تقديره: (حالاً عائلة).)) وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٠٧.

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ؛ معناه: قاتِلُوا اليهودَ والنصارى الذين لا يُؤمنون بآياتِ الله التي أنزلَها على نبيِّه ﷺ. وَقِيْلَ: معنى قولِهِ: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾؛ أي كانوا يَصِفُونَ اللهَ سبحانه بصفةٍ لا تليقُ به، لأن اليهودَ مُثَنِّيَةٌ والنَّصارى مُثَلِّثَةٌ. وقولهُ تعالى: (وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ) أي لا يحرِّمون الخمرَ والخنْزير ونحوَ ذلك مما لم يُقِرُّوا بتحريمِهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ ؛ أي لا يعتقدون دينَ الإسلامِ ولا يخضعون لله بالتوحيدِ، وَقِيْلَ: معنى (دِينَ الْحَقِّ) أي دينَ اللهِ؛ لأن اللهَ هو الحقُّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ؛ يعني اليهودَ والنصارى، ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ ؛ أي حتَّى تؤخذَ الجزيةُ من أيديهم وهم قِيَّامٌ أذِلاَّء، والآخِذُ جالسٌ. ويقال: أرادَ بالقهرِ، كأنه قالَ: عن قَهْرٍ من المسلمين عليهم واعترافٍ منهم للمسلمين بأنَّ أيدِي المسلمين فوقَ أيدِيهم، كما يقالُ: اليدُ لفلانٍ في هذا الأمرِ، ويرادُ به نَفَاذُ أمْرِهِ. ويحتملُ أن يكون المعنى باليدِ إنعامُ المسلمين عليهم بقَبول الجزيةِ عنهم. ويقال: أراد باليدِ القوَّة على معنى أنه ليس على الفقيرِ غيرِ المتموِّل جزيةٌ.

وأما طعنُ المخالف[1] كيف يجوزُ إقرار الكفَّار على كفرِهم بأداءِ الجزية بدَلاً عن الإسلام ؟ فالجواب: أنه لا يجوز أن يكون أخذُ الجزيةِ عنهم رضًى بكُفرِهم، وإنما الجزيةُ عقوبةٌ لهم على إقامتِهم على الكفرِ، وإذا جازَ إمهالُهم بغيرِ الجزية للاستدعاءِ إلى الإيمان كان إمهالُهم بالجزيةِ أولى. قال أبو عُبيد: (يُقَالُ لِكُلِّ مَنْ أعْطَى شَيْئاً كَرْهاً مِنْ غَيْرِ طِيب نَفْسٍ مِنْهُ أعْطَاهُ عَنْ يَدٍ)[2]، قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ أنْ يُعطِيهَا بأيدِيهِمْ يَمْشُونَ بهَا كَارهِينَ، وَلاَ يَجِيئُونَ رُكْبَاناً وَلاَ يُرْسِلُونَ بهَا)[3].

---

(١) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٠ ص٦٨؛ نقل الخلاف عن ابن الراوندي.

(٢) ينظر: معالم التنزيل: ص٥٥٠-٥٥١.

(٣) علقه الطبري في جامع البيان؛ قال: ((وذلك قول ابن عباس من وجه فيه نظر)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي ذلِيلُـونَ ومَقـهُورُونَ، قـال عكرمةُ: (مَعْنَى الصَّغَار هُوَ أنْ تَأْخُذَهَا وَأنْتَ جَالِسٌ وَهُوَ قَائِمٌ)(١)، وقال الكلبيُّ: (هُوَ أنَّهُ إذا أعْطَى الْجِزْيَةَ صُفِعَ فِي قَفَاهُ)(٢)، وَقِيْلَ: هو أنه لا يُقبَلُ فيها رسالةٌ ولا وكالةٌ.

وتؤخذُ الجزية أيضاً من الصَّابئين والسامِريِّ؛ لأن سبيلَهم في أهلِ الكتاب سبيلُ لأهلِ البدَعِ فِينَا، وتؤخذُ الجزية أيضاً من الْمَجُوسِيِّ؛ لأنه قـد قيـلَ إنَّـهم كـانوا أهـلَ كتابٍ فرُفِعَ كتابُهم، وعن سـعيدِ بـن المسيَّب (أنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ أخَـذَ الْجِزْيَـةَ مِـنْ مَجُوسِ الْهَجَرِ، وَأخَذَهَا عُمَرُ ﷺ مِنْ مَجُوسِ أهْلِ السَّوَادِ)(٣).

رُوي أنَّ عمر ﷺ قال: لاَ أدْري كَيْفَ أصْنَعُ بالْمَجُوس. فَقَالَ لَهُ عَبْدُالرَّحْمَـنِ ابْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَقُـولُ:[سُـنُّوا بِـهِمْ سُـنَّةَ أهْـلِ الْكِتَاب غَيْرَ نَاكِحِينَ نِسَاءَهُمْ وَلاَ آكِلِي ذبَائِحِهِمْ](٤).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ الآيةُ؛ أي قالتِ اليهودُ حين قرأ عليهم عزيرٌ التوراةَ عن ظهرِ قلبٍ: إن اللهَ لم يجعلِ التوراةَ في قلـب أحـدٍ إلا وهو ابنهُ! وعن ابنِ عبَّاس ﷺ: (أنَّ جَمَاعَـةً مِـنَ الْيَـهُودِ مِنْـهُمُ النُّعْمَـانُ بْـنُ أوْفَـى، وَشَاسُ بْنُ قَيْسٍ، وَمَالِكُ بْنُ صَيْفٍ أتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا لَهُ: كَيْـفَ نَتَّبعُـكَ وَقَـدْ تَرَكْتَ قِبْلَتَنَا، وَلاَ تَزْعُمُ أنَّ عُزَيْراً ابْنُ اللهِ تَعَالَى! فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٥)

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩١٢). وابن أبي حاتم في التفسـير: الأثـر (١٠٠٤٢) – من تفسير المغيرة في جوابه لرستم لمعنى (الجزية) -.

(٢) أيضاً نقله البغوي في معالم التنزيل: ص٥٥١. قلتُ: وفي هذا القول مبالغة، لا تتفـق وعمومـات الشريعة، بل الغرض من الجزية في مفهوم ودلائل النصـوص الشـرعية في البـاب؛ ينظـر: الجـامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١١٤-١١٥: المسألة الحادية عشرة.

(٣) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: كتاب أهل الكتاب: أخذ الجزية: الأثر (١٠٠٢٦) عن الزهـري. ومجوس أهل هجر: هم أهل البحرين. والكلمة فارسية معناها: عبدة الفـرس. وأخرجـه البيـهقي في السنن الكبرى: كتاب الجزية: باب المجوس أهـل كتـاب: الحديـث (١٩١٦٩) عـن سـعيد بـن المسيب مرسلاً.

(٤) أخرجه عبدالرزاق في المصنـف: كتـاب أهـل الكتـاب: الأثـر (١٠٠٢٥). والبيـهقي في السـنن الكبرى: الحديث (١٩١٦٧). وأصله في صحيح البخاري: كتاب الجزية: باب الجزية والموادعة.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٩١٤). وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٠٤٣).

وقرأ عاصمُ والكسائي ويعقوب (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ) بالتنوين، وقرأ الباقون بغيرِ التنوين، فمَن نوَّنَ قال: لأنه اسمٌ خفيف فوجههُ أن يصرفَ وإنْ كان أعجميّاً مثل نوحٍ وهود ولوطٍ، وقال أبو حاتم والمبرد: اختيار التنوينِ لأنه ليس بصفةٍ والكلامُ ناقصٌ، و(ابْنُ) في موضعِ الخبر وليس بنَعتٍ، وإنما يحذفُ التنوين في النَّعتِ. ومَن تركَ التنوينَ قال لأنه اسمٌ أعجمي. قال الزجَّاج: (يَجُوزُ أنْ يَكُونَ الْخَبَرُ مَحْذُوفاً تَقْدِيرُهُ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ مَعْبُودٌ، عَلَى أنْ يَكُونَ (ابْنُ) نَعْتاً لِلْعُزَيْرِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ هذا قولُ نصارى نَجرَان، وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّهم لا يتجاوَزون في القولِ عن العبادةِ؛ أي المعنى إذ لا بُرهانَ لهم لأنَّهم يعترفون أنَّ اللهَ لا يتخذُ صاحبةً، فكيف يزعُمون أنَّ له ولداً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي يُشَابهُونَ في قول ذلك قولَ أهلِ مكَّة حين قالَ: اللاَّتُ والعُزَّى ومناةُ. وَقِيْلَ: أرادَ يُشَابهُونَ قولَ الكفَّار الذين يقولون الملائكةُ بناتُ اللهِ.

قرأ عاصم (يُضَاهِئُونَ) بالهمزِ[1]، وقرأ العامَّة بغيرِ همزٍ، يقال: ضَاهَيْتُهُ وَضَاهَأْتُهُ بمعنى واحدٍ، وقال قتادةُ والسدي: (ضَاهَتِ النَّصَارَى قَوْلَ الْيَهُودِ مِنْ قَبْلُ، فَقَالَتِ النَّصَارَى: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُضَاهِئُونَ) أي يُشَابهُونَ، يقالُ: امرأةٌ أضْهيَاً إذا شابَهت الرجُلَ في أنَّها لا ثديَ لها ولا تحيضُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي لَعَنَهُمُ اللهُ، كذا قال ابنُ عبَّاس، وقال ابنُ جُرَيجٍ: (مَعْنَاهُ قَتَلَهُمُ اللهُ)، ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي أنَّى يَكْذِبُونَ ويَصْدِفُونَ عن الحقِّ بعد قيام الدلالةِ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ اتخذَ النصارَى واليهود علماءَهم وعُبَّادَهم أرْبَاباً؛ أي أطاعُوهم في معاصِي الله، فجعلَ

---

(١) في جامع البيان؛ قال الطبري: (لغة ثقيف).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩١٨) عن قتادة، والأثر (١٢٩١٩) عن السدي.

اللهُ طاعتَهم عبادتَـهم؛ لأنَّـهم اتَّبعُوهـم وتركُـوا أوامـرَ الله ونواهيـهِ في كتُبـهم، قـال الضحَّاك: (الأَحْبَارُ: الْعُلَمَاءُ)[1] وَاحِدُهُمْ حِبْرٌ وَحَبْرٌ بكَسْرِ الْحَاءِ وَبفَتْحِـهَا، وَالْكَسْـرُ أفْصَحُ، وَالرُّهْبَانُ مِنَ النَّصَارَى: أصْحَابُ الصَّوَامِعِ وَأهْلُ الاجْتِهَادِ فِي دِينِهِمْ. وقولـهُ تعالى: (أرْبَاباً مِنْ دُونِ الله) أي سَـادَةً مـن دون الله يُطيعونـهم في معـاصِي الله. وأما تسميةُ العالِم حَبراً فلكَثرةِ كتابتهِ بالحِبرِ، وَقِيْلَ: لتَبْحِيرهِ المعاني بالبيـانِ الحسَـنِ. وأما الراهبُ فهو الخاشعُ للهِ.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ ؛ أي اتُّخِذَ المسيحُ إلَـهاً. وقولـهُ تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ ﴾ ؛ أي لَم يُؤمَـروا في جميـعِ الكتُب ولا على ألسِنَةِ الرُّسُـلِ إلاَّ بعبـادةِ إلَـهٍ واحـدٍ. وقولـهُ تعـالى: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ أي تنْزيهاً للهِ عن الشِّرك وما لا يليقُ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ ؛ أي يريـدونَ أن يُرَدَّ القرآنُ ودلائـلُ الإسـلام بـالتكذيب بألسِنَتِهم، وقـال الضحَّـاك: (يُرِيـدُ الْيَـهُودُ وَالنَّصَارَى أنْ يَهْلَكَ مُحَمَّدٌ وَأصْحَابُهُ وَلاَ يُعْبَدَ اللهُ بالإسْـلاَمِ)[2] ﴿ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ ﴾ ؛ ويعلِي دِينَهُ وكلماتِهِ ويُظهرَ الإسلامَ وأهلَهُ علـى أهـلِ كـلِّ ديـنٍ، ﴿ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ ذلكَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ ؛ أي هو الذي بَعَثَ مُحَمَّـداً ﷺ بـالقرآن وديـنِ الإسـلام، لِيُظْـهرَهُ على سائرِ الأديان بالحجَّة والغَلَبَةِ، ﴿ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ . واختلفَ العلماءُ في قوله (لِيُظْهِرَهُ) قال ابنُ عبَّاس: (إنَّـهَا عَـائِدَةٌ عَلَـى الرَّسُـول، يَعْنِـي لِيُعِمَّـهُ بشَرَائِعِ الدِّينِ كُلِّهِ فَيُظْهِرَهُ عَلَيْهَا حَتَّى لاَ يَخْفَى عَلَيْـهِ شَـيْءٌ مِنْـهَا)[3]. قـال آخـرون: (الهاءُ) راجعٌ الى دينِ الحقِّ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩٢٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٠٦٦).

(٣) بمعناه أخرجه الطبري في جـامع البيـان: الأثـر (١٢٩٣٥). وابـن أبـي حـاتم في التفسـير: الأثـر (١٠٠٧٠).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ ؛ معناهُ: يا أيُّها الذين آمَنُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ والقـرآن إنَّ كَثيراً من الأحبار وهم من ولدِ هارُون، قوله: (وَالرُّهْبَـان) وهـم أصحـابُ الصَّوامـعِ وهم دونَ الأحبار في العلم، قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَيَأْكُلُونَ أمْوَالَ النَّـاسِ بالْبَـاطِلِ) أرادُوا بـه أخذَ الرِّشَا على الحُكمِ، وما كان لَهم مِنَ الهدايا من سَفَلَتِهم على كِتمَـان بَعْـثِ النبيِّ ﷺ وصفتهِ، هكذا رُوي عن ابـنِ عبَّـاس، وقـال السـديُّ: (الأَحْبَـارُ عُلَمَـاءُ الْيَـهُودِ، وَالرُّهْبَانُ أصْحَابُ الصَّوَامِعِ مِنَ النَّصَارَى)(١).

وأما تخصيصُ الأكلِ في الآية، فلأنَّ مُعظَمَ المقصودِ من التَّمليكِ الأكلُ، فوُضِعَ الأكـلُ موضـعَ الْمِلْـكِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي يَصرِفُونَ الناسَ عن دينِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ ؛ أي يجمَعونَها ويضَعون بعضها فوقَ بعـضٍ، ولا يُنفِقُونَ الكُنُوزَ في طاعةِ الله. وَقِيْلَ: معناهُ: ولا يُنفِقُونَ الفضَّة، وحـذفَ الذهـبَ؛ لأن فِي بيان أحدِهما حكمُ الآخر، كما قالَ تعالى: ﴿وَإذا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّـوا إِلَيْهَا﴾(٢)، والدليلُ على أنَّ هذه الكنايةَ راجعـةٌ إلى الذهـب والفضَّـة جميعـاً أنَّـها لـو رَجعت إلى أحدِهما لبَقِيَ الآخرُ عَارياً عن الجواب، فيصيرُ كلاماً مُنقطعاً لا معنى لـه، وتقديرُ الآيةِ: لاَ يُنفقون منها؛ أي لا يُؤَدُّونَ زَكاتَهما ولا يُخرِجُونَ حقَّ الله منهما، إلاَّ أنه حذفَ (مِنْ) وأرادَ إثباتَها، بدليلِ أنه تعالى قال في آيـةٍ أخـرى (خُـذْ مِـنْ أمْوَالِـهِمْ صَدَقَةً) قال النبيُّ ﷺ: [فِي مِائَتَي دِرْهَم خَمْسُ دَرَاهِـمَ، وَفِـي عِشْـرِينَ مِثْقَـالاً مِـنَ الذَّهَب نِصْفُ مِثْقَالٍ](٣) ولو كان الواجبُ إنفاق جميعِ المال لم يكن لِهذا التقديرِ وجهٌ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩٣٦).

(٢) الجمعة / ١١ .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الزكاة: باب نصـاب الذهـب: الحديـث (٧٦٢٦) عـن علي ﷺ.

وسُمِّي الذهبُ ذهباً؛ لأنه يذهبُ ولا يبقى، وسميت فضةً لأنَّها تَنْفَضُّ؛ أي تُفرَّقُ ولا تبقَى، وحسبُكَ باسمِهِنَّ دلالةً على فَنَائِهما وأنه لا بقاءَ لهما.

وقولهُ تعالى: (فَبَشِّرْهُمْ بعَذَابٍ أَلِيمٍ) أي ضَعِ الوعيدَ لهم بالعذاب موضعَ بشارةِ بالنِّعم لغيرهم؛ وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قالَ: (كُلُّ مَالٍ أدَّيْتَ زَكَاتَهُ فَلَيْسَ بكَنْزٍ وَإنْ كَانَتْ تَحْتَ سَبْعِ أرْضِينَ، وَكُلُّ مَالٍ لَمْ تُؤَدِّ زَكَاتَهُ فَهُوَ كَنْزٌ وَإنْ كَانَ ظَاهِراً)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ ؛ أي يوم يوقدُ على المكنوز في نار جهنَّم فتُكوَى بها جِبَاهُهم وجنُوبُهم وظهورهم عقوبةً، قال ابنُ عباس: (لاَ يُوضَعُ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ عَلَى دِينَارٍ وَلاَ عَلَى دِرْهَمٍ، وَلَكِنْ تُوَسَّعُ جُلُودُهُمْ لِذَلِكَ فَلاَ يَمَسُّ دِينَارٌ دِينَاراً وَلاَ دِرْهَمٌ دِرْهَماً)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ أي يقالُ لَهم: هذا ما جَمعتُم في دار الدُّنيا، ﴿ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، فذُوقوا عقوبةَ ما كنتم تجمعونَ. وسُئل أبو بكر الورَّاق: لِمَ خُصَّتِ الجِبَاهُ والْجنوبُ والظُّهورُ بالكَيِّ ؟ فقال: (لأنَّ الْغَنِيَّ صَاحِبَ الْكَنْزِ إذا رَأى الْفَقِيرَ انْعَصَرَ وَإذَا ضَمَّهُ وَإيَّاهُ مَجْلِسٌ ازْوَرَّ عَلَيْهِ وَوَلاَّهُ ظَهْرَهُ)(٣).

عن ثوبَان مولَى النبيِّ ﷺ أنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَتِ الصَّحَابَةُ: فَأيُّ الْمَالِ نَتَّخِذُ ؟ فَقَالَ عُمَرُ: أنَا أسْألُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَسَألَهُ فَقَالَ عليه السلام: [لِسَاناً ذَاكِراً وَقَلْباً شَاكِراً وَبَدَناً صَابِراً وَزَوْجَةً تُعِينُكَ عَلَى إيْمَانِكَ](٤).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩٣٨ و١٢٩٣٧). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٠٨١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩٦٠) بإسنادين. وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٠٩٢) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ١٠ ص٨٣.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٩٤٥). والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٧٨ و٢٨٢. والترمذي في الجامع: كتاب التفسير: الحديث (٣٠٩٤).

وعن أبي هُريرة قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: [مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لاَ يُؤَدِّي زَكَاتَهُ إلاَّ أحْمِيَ عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُجْعَلُ صَفَائِحَ فَتُكْوَى بهَا جَبينُهُ وَجَنْبَاهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، ثُمَّ يَرَى سَبيلَهُ إمَّا إلَى الْجَنَّةِ وَإمَّا إلَى النَّار.

وَمَا مِنْ صَاحِبِ إبلٍ لاَ يُؤَدِّي زَكَاتَهَا إلاَّ بُطِحَ لَهَا بقَاعٍ قَرْقَرٍ تَسِيرُ عَلَيْهِ، كُلَّمَا مَضَى عَلَيْهِ آخِرُهَا رُدَّ عَلَيْهِ أوَّلُهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ ألْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبيلَهُ إمَّا إلَى الْجَنَّةِ وَإمَّا إلَى النَّار. وَمَا مِنْ صَاحِبِ بَقَرٍ لاَ يُؤَدِّي زَكَاتَهَا إلاَّ بُطِحَ لَهَا بقَاعٍ قَرْقَرٍ تَسِيرُ عَلَيْهِ، كُلَّمَا مَضَى آخِرهُا رُدَّ عَلَيْهِ أوَّلُهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ ألْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يُرَى سَبيلَهُ إمَّا إلَى الْجَنَّةِ وَإمَّا إلَى النَّار.

وَمَا مِنْ صَاحِبِ غَنَمٍ لاَ يُؤَدِّي زَكَاتَهَا إلاَّ بُطِحَ لَهَا بقَاعٍ قَرْقَرٍ تَطَؤُهُ بأظْلاَفِهَا وَتَنْطَحُهُ بقُرُونِهَا لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءَ وَلاَ جَلْحَاءَ، كُلَّمَا مَضَى عَلَيْهِ آخِرُهَا رُدَّ أوَّلُهَا حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، ثُمَّ يَرَى سَبيلَهُ إمَّا إلَى الْجَنَّةِ وَإمَّا إلَى النَّار][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ معناهُ: إن عِدَّةَ الشُّهور التي تتعلَّقُ بها الأحكامُ من الحجِّ والعُمرة والزكاةِ والأعياد وغيرها اثنَا عشرَ شهراً على منازل العُمرة، تارةً يكون الحجُّ والصومُ في الشِّتاء، وتارةً في الصيفِ على اعتبار الأهِلَّة. وقوله تعالى: (فِي كِتَابِ اللهِ) يعني اللَّوحَ المحفوظَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) إنَّما قال ذلكَ؛ لأن اللهَ تعالى أجرَى الشمسَ والقمر في السَّموات يوم خلَقَ السمواتِ والأرض.

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الزكاة: باب إثم مانع الزكاة: الحديث (٢٤ ٢٦/ ٩٨٧) مطولاً. والطبري في جامع البيان: الحديث (١٢٩٤٧) مختصراً. ولقد كرر الناسخ كلمة (غنم) بدلاً من (إبل، وبقر)، وضبطت كما في صحيح مسلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ﴾ ؛ واحدٌ فَرْدٌ وهو رَجَبْ وثلاثةٌ سُرْدٌ[1] متابعةٌ، وهي ذو القعدة وذو الحجّة والمحرَّم، سماها حُرُماً لعِظَم انتهاكِ حُرمَتها، كما خُصَّ الْحَرَمُ بمثلِ ذلك، وكانت العربُ تُعظِّمُها وتحرِّمُ القتالَ فيها حتى أن الرجلَ لو لَقِيَ قاتلَ أبيهِ أو أخيه فيها لم يُهجْهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ ﴾ ؛ أي في أشهرِ الْحُرُمِ بالعملِ بالمعصية وتركِ الطاعة. وَقِيْلَ: باستحلال القتلِ والغارةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ولا تجعلوا حَلاَلَها حَراماً، ولا حرامَها حَلالاً، والذنبُ والظلم فيهن أعظمُ من الظلمِ فيما سواهنَّ. ويقالُ: معناه: فلا تظلِمُوا في الاثني عشرِ الشهر أنفُسَكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: (ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) أي ذلك الحسابُ المستقيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ ﴾ ويجوزُ أن يكون الكافَّة راجعةً إلى المسلمينَ؛ أي قاتِلُوا جميعاً، قَوْلُهُ تَعَالَى: (كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) أي كما يُقاتِلونكم أي جميعاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي معهم بالنُّصرة.

واختلفَ العلماءُ في حُرمةِ القتال في الأشهُر الْحُرُم، فقالَ بعضُهم: لا يجوزُ القتال فيها والغارةُ لأن اللهَ سَمَّاها حُرُماً فيكون قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) دليلاً على جواز القتال فيها على وجهِ الدَّفع.

وذهبَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ إلى أن القتالَ فيها جائزٌ، والمرادُ بقوله: (مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) تعظيمُ انتهاكِ حُرمَتِها بالظلمِ والفساد فيها، وتعظيمُ ثواب الطاعة التي يفعلُ فيها. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) يدلُّ على أنَّ اللهَ أخرجَ هذه الأشهرَ الحرم من أن تكون حُرماً.

---

(١) في المخطوط: (سرادى). والسَّرْدُ: الثقبُ، وفلان يَسْرُدُ الحديثَ: إذا كان جيِّد السياق له. وسَرْدُها: نسجُها؛ وهو تداخل حلقات الدرع بعضها ببعض. وقولهم في الأشهر الحرم: ثلاثةٌ سُرْدٌ؛ أي متتابعة، وهي ذو الحجة وذو القعدة والمحرم، وواحد فَرْدٌ هو رجب. مختار الصحاح: (سرد).

وفي باب الجهادِ دليلاً تقديراً آخر أن أحدَ الجهاد داخلٌ تحت قوله: (فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) وكان اللهُ تعالى مَيَّزَ الجهادَ من الظلمِ الذي هو إقدامٌ على النُّفوس والأموالِ، وقوله تعالى: (كَافَّةً) منصوبٌ على الحال.

قال قتادةُ وعطاء: (كَانَ الْقِتَالُ كَثِيراً فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ، ثُمَّ نُسِخَ وَأُحِلَّ فِيْهِ بِقَوْلِهِ: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) يَعْنِي فِيْهِنَّ وَفِي غَيْرِهِنَّ). وقال الزهريُّ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَرِّمُ الْقِتَالَ فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ، مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ تَحْرِيمِ ذلِكَ حَتَّى نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ، وَأُحِلَّ قِتَالُ الْمُشْرِكِينَ)[١].

وقال سفيانُ الثوريُّ لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْقِتَالِ فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ، قَالَ: (لاَ بَأْسَ بِالْقِتَالِ فِيهِنَّ وَفِي غَيْرِهِنَّ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَزَا هَوَازِنَ وَحُنَيْناً وَ ثَقِيفاً بِالطَّائِفِ وَحَاصَرَهُمْ فِي الشَّوَّالِ وَبَعْضِ ذِي الْقِعْدَةِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ حُرْمَةَ الْقِتَالِ فِيْهَا مَنْسُوخٌ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾؛ أي إنَّما تأخيرُ الشَّهرِ الحرامِ من المحرَّم إلى صَفَرْ، واستباحةِ المحرَّم زيادةٌ في الكفرِ يغلطُ ويخطِئ بالنَّساء سائرُ الكفَّار، ومن قرأ (يَضَلُّ) صفَر مكان المحرَّم، ويحرِّمون المحرَّم عاماً فلا يُقاتِلون فيه، ثم يقاتِلون في صفَرْ، (لِيُوَاطِئُوا عِدةَ مَا حَرمَ اللهُ)؛ أي ليُوافِقُوا في العددِ أربعةَ أشهرٍ، وكانوا يقُولون: هذه أربعةٌ بمنْزلة أربعةٍ. والْمُوَاطَأَةُ الموافقةُ، وأصلُ النَّسِيءِ الحاضِرُ ومنه بيعُ النَّسِيئَةِ، ومنه أَنْسَأَ اللهُ في أجلِ فُلان، ومنه الْمِنْسَأَةُ وهي العصَا يرجُو بها ويؤخِّر.

قرأ قتادةُ ومجاهد وأبو عمرو ونافع غير وَرْشٍ[٣] وعاصم وحمزة والكسائي وخلف وابن عامر (النَّسِيءُ) بالمدِّ والهمزة وهو مصدرٌ كالسَّعِيرِ والحريقِ ونحوهما،

---

(١) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٣٤ عن قتادة وعطاء والزهري.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٣٤.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٣٦؛ قال القرطبي: (قال النحاس: ولم يرو أحد عن نافع فيما علمناه (إِنَّمَا النَّسِيُّ) بلا همز إلا ورشٌ وحده). قاله النحاس في إعراب القرآن: ج ٢ ص١١٧.

ويجوزُ أن يكون مفعُولاً مَصرُوفاً أي فعيلٌ مثل الجريحِ والقتيل والصريعِ، تقديرهُ: إنما الشهرُ المؤخَّر. وقرأ أبو جعفرٍ وورْشٌ (إنَّما النَّسِيُّ) بالتشديدِ من غير همزةٍ، وروَى ذلك ابنُ كثير على معنى الْمَنْسِيِّ أي المتروكِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[1].

وقوله: (يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا)، قرأ أهلُ المدينةِ وابنُ كثير وابن عامرٍ وأبو عمروٍ وأبو بكرٍ بفتح الياء وكسر الضَّاد لأنَّهم هم الضالُّون لقوله: (يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً)، وقرأ الحسنُ وقتادة ومجاهد ويعقوب بضمِّ الياء وكسر الضاد؛ أي يُضِلُّ به الذين كفرُوا الناسَ المقتدِين بهم، وقرأ أهلُ الكوفةِ إلاّ أبا بكر بضمِّ الياء وفتحِ الضاد، وهي قراءةُ ابنِ مسعود لقوله: (زُيِّنَ لَهُمْ)، وقوله تعالى: (يُحِلُّونَهُ عَاماً) أي يُحِلُّونَ النسيءَ.

وقولهُ تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ ؛ أي ليُوافِقُوا، وقيل: ليُشَبهوا، ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ ؛ أي يُحِلُّوا ما حَرَّمَهُ اللهُ من الغارةِ والقتلِ في الشَّهر الحرامِ، وإنما كان يفعلُ هكذا بنو كِنَانَةَ وربَّما كانوا يؤَخِّرون رَجَباً ويبدِّلونَهُ صَفَراً لتكون الشهورُ متواليةً، وقولهُ تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ ؛ أي حُسِّنَ في قُلوبهم قُبْحُ أعمالِهم من تحريمِ ما أحلَّ اللهُ، وتحليلِ ما حرَّم الله، قال الحسنُ: (زَيَّنَتْهَا لَهُمْ أنْفُسُهُمْ وَالشَّيَاطِينُ) ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي لا يُوَفِّقُهم مجازاةً لكُفرِهم. وَقِيْلَ: لا يَهدِيهم إلى الجنَّة والثواب.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ النَّاسِئُ رَجُلاً مِنْ كِنَانَةَ يُقَالُ لَهُ نُعَيم بْنُ ثعلبة وجنادة بنُ عَوْفٍ وَكَانَ يَقُومُ عَلَى النَّاسِ فَيَقُولُ: ألاَ إنَّ آلِهَتَكُمْ حَرَّمَتْ عَلَيْكُمْ صَفَرَ الْعَامَ، فَيُحَرِّمُونَ فِيْهِ الدِّمَاءَ وَالأَمْوَالَ وَيَسْتَحِلُّونَ فِي الْمُحَرَّمِ، فَإذَا كَانَ مِنْ قَابلٍ نَادَى: ألاَ إنَّ آلِهَتَكُمْ حَرَّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمُحَرَّمَ الْعَامَ، فَيُحَرِّمُونَ فِيْهِ الدِّمَاءَ وَالأَمْوَالَ وَيَسْتَحِلُّونَ صَفَرَ لِيُفِيدُوا مِنْهُ)[2].

---

(١) التوبة / ٦٧.

(٢) أصوله أخرجها الطبري في جامع البيان: الآثار (١٢٩٨٠) عن ابن عباس، و(١٢٩٨٣) عن مجاهد، و(١٢٩٨٥) عن قتادة.

وفي بعضِ الرِّوايات: أنه كان يقولُ قبلَ هذا النداءِ: يـا أيُّـها النـاس أنـا الـذي أعابَ ولا خابَ ولا مردَّ لِمَا قضيتُ، فيقولُ له المشركون: لبَّيكَ ربَّنا، ثم يسـألونَهُ أن يُنسِئَهم شَهراً فيقولُ: ألا إن صَفَرَ العامَ حلالٌ يريدُ بـه المحرَّم، وربَّمـا يقـولُ: حـرامٌ، فيحرِّمون المحرَّم صَفراً، وكان إذا قالَ الناسيءُ في المحرَّم: حلالٌ، عقَدُوا الأوتارَ وشَدُّوا الأزجةَ[(١)] وأعلَوا السيوفَ وأغارُوا على الناسِ، وإذا قالَ: حُرِّمَ، حلُّوا الأوتارَ ونزَعُوا الأزجة وأغمَدُوا السيوفَ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أقامَ بالمدينةِ بعد مرجعهِ من الطَّائفِ، ثم أمرَهُ اللهُ بالجهاد لغزوةِ الرُّوم وأمرَهُ بالخروجِ إلى غزوةِ تَبُوك، وذلكَ في زمانِ عُسْرَةٍ وشِدَّةٍ من الحرِّ حين طابَتْ ثمارُ أهلِ المدينة فأمَرَ النبيُّ ﷺ بالخروجِ إلى الجهادِ فكـانوا يتثاقَلون من الخروجِ ويحبُّون الظِّلالَ والثمارَ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ.

ومعنَاها: ما لكُم إذا قيلَ لكم اخرجُوا إلى جهادِ المشـركين تثـاقَلْتُمْ إلى الأرضِ وتكَاسَلْتُمْ واطمأنَنْتُم إلى أوطـانِكم، ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ ؛ استفهامٌ يعني الإنكارَ؛ أي آثرْتُم[(٣)] عملَ الدُّنيا على عملِ الآخـرة، وآثرتـم الحيـاةَ في الدُّنيا على الحياةِ في الآخرة، ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي ما منفعةُ الدُّنيا في الآخرةِ وفي ما يتمتَّعُ به أولياءُ الله في الجنَّة إلا يسـيرٌ لأن الدُّنيـا تضمحلُ ويفنَى أهلُها، والآخرةُ دار القَرَار.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾ ؛ أي إلاَّ تَخْرُجُوا مـع نبيِّكـم في الجـهادِ يعذِّبكـم عـذابَ الاسـتئصال،

---

(١) الزُّجُّ: زُجُّ الرُّمحِ؛ والسهمِ، والجمع: الزِّجَاجُ. قال الأزهـري: زُجُّ الرمـح: الحديـدُ الـتي تركَـبُ سافلَةَ الرمحِ، والسِّنانُ: التي تركب عاليتَهُ، والزُّجُّ يُركَزُ به الرمحُ في الأرضِ، والسِّنان يُطعـن بـه. ويقال لنصلِ السهم: زُجٌّ. قال خالدُ بن كلثوم: كانوا يستقبلون أعداءَهم إذا أرادوا الصلح بأزجَّةِ الرِّماحِ، فإن أجابوهـم وإلا قلَبُوا الأسنَّة وقاتلوهـم. ينظر: تهذيب اللغة: ج ١ ص٢٤٤ (زج).

(٢) نقله أهل التفسير عن الكلبي؛ ينظر: المحرر الوجيز: ص٨٤٥.

(٣) في المخطوط: (اخترتم) وهو غير مناسب، فأثبتناه كما يقتضي سياق الكلام.

ويستبدِلْ قوماً غيرَكم أي أطوعَ للهِ منكم، ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي ولا تنقُصوا من مُلكِهِ شيئاً بقُعودِكم عن الجهادِ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ من العذاب والإبدال، ﴿ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ ﴾ ؛ وذلك أنَّ كفارَ مكَّة لَمَّا أرادُوا قتلَ النبيِّ ﷺ أخبرَهُ جبريلُ بذلك وأمرَهُ بالخروجِ، فقالَ النبيُّ ﷺ لعليٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: [نَمْ مَكَانِي عَلَى الْفِرَاشِ] وخرجَ مع أبي بكرٍ ﷺ إلى غار جبَلِ ثور -وهو جبلٌ بأسفلِ مكَّة- ومشَى رسولُ اللهِ ﷺ على أطرافِ أصَابعهِ حتى حَفِيَتْ، فلمَّا رآهُ أبو بكرٍ ﷺ وجعلَ يستندُ به حتى أتَى فمَ الغار، وكان الغارُ مَقرُوناً بالْهَوَامِّ، فلما أرادَ رسولُ اللهِ ﷺ دخولَ الغار قال له أبو بكرٍ ﷺ: مَكَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ حَتَّى أسْتَبْرِئَ الْغَارَ. فدخلَ واستبرأهُ وجعلَ يُسَوِّي الْجُحْرَةَ بثيابهِ خِشيَةَ أن يخرجَ منها شيءٌ يؤذِي رسولَ الله ﷺ فبَقِيَ جُحْرَانِ فوَضَعَ عَقِبَهُ عليهما ثم قال: إنْزِلْ يَا رَسُولَ اللهِ، فنَزلَ فكانا في الغار ليلتَهما.

فدخلَ الكفَّارُ على عليٍّ ﷺ فقالوا لَهُ: يا عليُّ أين مُحَمَّدٌ؟ فقالَ: لاَ أدْرِي أيْنَ ذهَبَ، فطلبوهُ من الغدِ واستأجَرُوا رجُلاً يقال له كَرْزُ بن علقمةَ الجرَّاح، فقَفَا لهما الأثرَ حتى انتهَى بهم إلى جبلِ ثور، فقالَ: انتهينا إلى هنا وهذا أثرهُ فما أدري أينَ أخذَ يَميناً أو شمالاً أو صعدَ الجبلَ، فصَعَدُوا الجبلَ يطلبونَهُ، وأعمَى اللهُ عليهم مكانَهُ فلم يهتَدُوا إليه.

فقامَ رجلٌ منهم يبولُ مستقبلاً رسولَ اللهِ ﷺ وأبَا بكرٍ بعورتهِ، فقال أبو بكرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أرَاهُ إلاَّ قَدْ أبْصَرَنَا، فقَالَ ﷺ [لَوْ أبْصَرَنَا مَا يَسْتَقْبلُنَا بعَوْرَتِهِ]. وأقبلَ شبابُ قريشٍ من كلِّ بطنٍ، معهم عِصِيُّهم وقِسيُّهم حتى رَأوا بابَ الغار، وكان ﷺ مرَّ على ثُمامَةٍ وهي شجرةٌ صغيرة ضعيفة فأمرَ أبا بكرٍ أن يأخُذَها معه، فلما سارَ إلى باب الغار أمرَهُ أن يجعلَها على باب الغار، وألْهَمَ اللهُ العنكبوتَ فنسجَتْ حتى ستَرت وجهَ النبيِّ ﷺ وصاحبَهُ، وبعثَ اللهُ حمامَتين وحشِيَّتين فأقبَلتا حتى وقعتَا على باب الغار بين العنكبوتِ وبين الشجرة، فلما رأى المشركون الشجرةَ والحمامةَ ونسجَ العنكبوتِ علِمُوا أنْ ليس في الغار أحدٌ، وكان أبو بكرٍ يقولُ: يَا

رَسُولَ اللهِ قَدْ أتِيْنَا وَمَا أنَا إلاَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَإنْ قُتِلْتَ أنْتَ تَهْلَكُ هَذِهِ الأُمَّةُ فَلاَ يُعْبَدُ اللهُ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ، فقال: [لاَ تَحْزَنْ يَا أبَا بَكْرٍ إنَّ اللهَ مَعَنَا].

ثم نزلَ المشركون من الجبلِ، ولم يقدِرُوا على رسول الله ﷺ، فمكثَ رسولُ اللهِ ﷺ بالغار ثلاثةَ أيَّام وليالِيهنَّ، وكان عبدُالله بن أبي بكرٍ يأتِيهما بأخبار أهل مكَّة، فلما أمِنَا طلبَ ((القوم)) وكان رسولُ اللهِ ﷺ أمِرَ بالهجرة إلى المدينةِ، فاستأجرَ رجُلاً يقالُ له عبدُالله بن أرَيقِطْ يَهدِيهم الطريقَ إلى المدينةِ فخرجَ بهما إلى المدينةِ، فسَمِعَ سُراقَةُ بن مالك بن مقسم الكِنَانِي بخرُوجهِ إلى المدينةِ، فلَبسَ لأمَتَهُ وركِبَ فرسَهُ يتَّبعُ آثارَهم حتى أدركَ رسولَ اللهِ ﷺ، فدعَا عليه رسولُ الله ﷺ فَسَاخَتْ قوائمُ فرسهِ، فقالَ: يَا مُحَمَّدُ أدْعُ اللهَ أنْ يُطْلِقَ عَلَيَّ فَرَسِي فَأرُدُّ عَنْكَ مَنْ أرَى مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ ﷺ: [اللَّهُمَّ إنْ كَانَ صَادِقاً فَأطْلِقْ فَرَسَهُ] فرجعَ سُراقة وقَدِمَ أبو بكرٍ رضي الله عنه مع النبيِّ ﷺ حتى أتيَا المدينة. هكذا رُويَ وفي هذا قصَّةٌ طويلةٌ(١).

ومعنى الآية: ألاَّ تنصرُوا مُحَمَّداً ﷺ في الخروجِ معه إلى تَبُوكٍ فاللهُ ينصرهُ كما نصرَهُ إذ أخرجَهُ الكفارُ من مكَّة وهو ثانِيَ اثنين؛ أي لم يكن معَهُما غيرُهما، وقولهُ تعالى (ثَانِيَ اثْنَيْنِ) نُصِبَ على الحال؛ أي وهو أحدُ اثنين. وقولهُ تعالى: ﴿ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ ؛ أرادَ به غارَ ثَوْرٍ حين خرجَا إليه. والغارُ النُّقْبُ الذي يكونُ في الجبلِ، وقولهُ تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ؛ معناهُ: إذا يقولُ رسولُ الله ﷺ لأبي بكرٍ: لا تحزَنْ على قَتلِي وذهاب الإسلامِ إنَّ اللهَ يحفظُنا ويدفعُ شرَّ المشركين عنَّا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي أنزلَ طُمَأنِينَةً على رسولهِ حتى سَكَنَ واطمأنَّ. ويقالُ: أنزلَ سَكِينَتَهُ على صاحبهِ أبي بكرٍ رضي الله عنه، فإنَّ النبيَّ ﷺ كان لنا سَكَناً، وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ ؛ معناهُ: أعانَ مُحَمَّداً ﷺ وقَوَّاهُ يومَ بدرٍ والأحزاب وحُنين بجنودٍ لم تُعاينُوهَا وهم الملائكةُ.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٤٣-١٤٦. والمحرر الوجيز: ص٨٤٦-٨٤٧. وجامع البيان: تفسير الآية: الآثار (١٢٩٩٥-١٣٠٠٠). وأصلها في الصحيح عند البخاري: كتاب فضائل الصحابة، وصحيح مسلم، والجامع الترمذي، وفي السيرة النبوية.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَعَـلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰۗ ﴾ ؛ أي وجعلَ كلمةَ الشِّـركِ مغلوبـةً مذمومـة، وجعـلَ أهلَـها أذِلَّـةً أسْـفَلِينَ، وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ ﴾ ؛ أي وجعلَ كلمةَ التوحيدِ هـي الكلمـةُ العاليـة الممدُوحَةُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي مَنِيـعٌ بالنِّقمـة ممـن عصَاهُ وما حكَمَ به من أمرِهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ ؛ أي انفِرُوا إلى الجهادِ في سبيل اللهِ شَباباً وشُيوخاً. وَقِيْلَ: مُوسِرينَ ومُعْسِرينَ. وَقِيْـلَ: مشَـاغِيلَ وغـير مشـاغيل. وَقِيْـلَ: نُشَّاطاً وغيرَ نُشَّاطٍ، أي خفَّت عليكم الحركـةُ أو ثقُلَـت. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ في طاعـةِ الله، ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ ؛ الجهـادُ، ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ مـن القعـودِ عنـه، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أنَّ اللهَ صادقٌ في وعدِهِ ووعيدِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ ﴾ ؛ اسمُ كـانَ مضمـرٌ تقديرهُ: لو كان المدعوُّ إليه عَرَضاً قَرِيبـاً؛ أي غَنِيمَـةً وسَـفَراً سَـهلاً لاتَّبَعُـوكَ؛ أي لـو عَلِمُوا أنَّهم يُصِيبُونَ مَغْنَماً لخرَجُوا معكَ، نزلَ هذا فيمَن تخلَّف من غـزوةِ تبـوك مـن المنافقين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ ﴾ ؛ أي لكن بعُدَت عليهم المسافةُ إلى الشَّام، ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا ﴾ ؛ في اعتذارهم إليكم لو كان لنـا سَعَةٌ في الزادِ والمـال، ﴿ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ ؛ في غزَاتِكـم، ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ بالأيمان الكاذبةِ والقعود عـن الجـهادِ، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أنَّ لهم سَعَةً في المالِ والزادِ وإنَّهم لكَاذِبون في هذا الاعتذار، وَقِيْلَ: معنى قولـهِ: (وَسَـفَراً قَاصِداً) أي مَوضِعاً قريباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ﴾ ؛ أي تجاوزَ اللهُ عنكَ يا مُحَمَّدُ لِمَ أذِنتَ لهم في القعودِ عن الجهاد حتى يظهرَ لكم الذين صدَقوا في الاعتذار، ﴿ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ في عُذرهم، قدَّمَ اللهُ العفـوَ على العتاب حتى يسكُنَ قلبهُ ﷺ، ثُم قالَ بعدَ العفوِ: (لِمَ أذِنْـتَ لَـهُمْ)، ولـو أنَّ اللهَ

أخبرَهُ بالذنب قبلَ أن يُخبرَهُ بالعفوِ لكان يخافُ على النبيِّ ﷺ مِن هَيبَتِهِ قولُهُ: (لِمَ أذِنتَ لَهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَسْتَـْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ أي لا يستأذِنُكَ المؤمنون في القعودِ عن الجهادِ. وقولُه: (أنْ يُجَاهِدُوا) معناهُ: أنْ لاَ يُجاهدوا، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بالمخلِصين المطِيعين فيُميِّزَهم عن المنافقين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ ؛ أي إنما يستأذِنُكَ في القعودِ عن الجهاد الذين لا يُصَدِّقون باللهِ وبيومِ البعث، ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ أي شكَّت واضطرَبت، ﴿ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ شَكِّهم يتحيَّرون. والرَّيبُ: الشكُّ مع اضطراب القلب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ ؛ أي لو أرادَ اللهُ لهم الخروجَ معك إلى العدوِّ لاتَّخذوا له أهبَةً، ﴿ وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ ؛ أي لكن لَمْ يُرِدِ اللهُ خروجَهم معك، لأنَّهم لو خرَجُوا لكان يقعُ خروجُهم على وجهِ الإضرار بالمسلمين وذلك كفرٌ ومعصية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ ؛ أي حَبَسَهم، يقالُ: ثبَّطَهُ عن الأمرِ إذا حَبَسَهُ عنه، ﴿ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي اقعدُوا مع النِّساء والصبيان. ويجوز أن يكون القائلُ لَهم النبيُّ ﷺ بأمر الله، ويجوزُ أن يكون قد قالَ بعضُهم لبعضٍ. وَقِيْلَ: قال لَهم الشيطانُ وَوَسْوَسَ لَهم.

ثم بيَّن اللهُ أن لا منفعةَ للمسلمين في خروجِهم، بل عليهم مضرَّة لهم، فقال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ ؛ أي لو خرَجُوا فيكم ما زادوكم الا شرّاً وفَساداً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ ﴾ ؛ أي لأسرَعوا فيما بينِكم، ﴿ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ ؛ أي يطلُبون فسادَ الرأي وعيوبَ المسلمين، ويقالُ: سارُوا فيكم بالنميمة، والإيْضَاعُ: الإسراعُ في السَّيرِ، يقالُ: أوْضَعَ البعيرَ إيْضَاعًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي وفِيكم قائِلون منهم ما يسمَعون منهم، ويقالُ: في عَسْكرِكُم عيونٌ لهم ينقُلون إليهم ما يسمَعون عنكم،﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ يُجازيهم على سوءِ أفعالهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي وقد طلبَ هؤلاءِ المنافقون صدَّ أصحابك عن الدين، وردَّهم إلى الكفرِ، وتحويلِ الناس عنكَ قبل هذا اليوم، كفعلِ عبدِالله بن أُبَيّ يومَ أحُد، وقولهُ تعالى: ﴿ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ ؛ أي اختَالُوا فيكَ وفي إبطالِ دِينِكَ بالتحويلِ عنكَ، وتشتُّتَ أمركَ وكلمتك من قبل غزوةِ تبوك، فقَلَّبوا لكَ الأمُور ظَهراً لبطنٍ، ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ ؛ أي حقُّ الإسلام، وأظهرَهُ الله على سائر الأديان، ﴿ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ لذلكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَظَهَرَ أمرُ اللهِ﴾ ؛ أي دينُ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ ؛ نزلَ في جَدِّ بن قيس من المنافقين، دعاهُ النبيُّ ﷺ إلى الخروجِ إلى العدوِّ وحرَّضَهُ على الجهادِ، فقالَ لِجَدِّ بن قيسٍ: [هَلْ لَكَ فِي جِلاَدِ بَنِي الأَصْفَرِ، فَتَتَّخِذَ منهم سَرَارِي وَوُصَفَاءَ] يعني الرُّوم.

وكان الأصفرُ رجُلاً من الحبشةِ مَلَكَ الرُّوم، وغلبَ على ناحيةٍ منها، فتزوجتِ الحبشةُ من الرُّوم، فولَدَت لهم بنات أخَذْنَ من بياضِ الرُّوم وسوادِ الحبشة، فكُنَّ صُفْراً لُعْساً لم يُرَ مثلُهنَّ، فقال له جدُّ بن قيسٍ: ائْذَنْ لِي يا رسولَ اللهِ أنْ أقِيمَ، ولا تُفْتِنِّي ببناتِ الأصفر، فقد عرفَ قَومِي عُجْبِي بالنِّساء، وإنِّي أرَى المرأةَ تُعجِبُنِي فما أملكُ نفسي حتى أضعَ يدِي على الْمُحَرَّمِ، فلما سمعَ النبيُّ ﷺ قولَهُ أعرضَ عنه وقالَ: [أذِنْتُ لَكَ][1].

وقولهُ تعالى: (وَلاَ تَفْتِنِّي) أي ائْذَنْ لي في التخلُّف ولا تَفتِنِّي ببناتِ الأصفر، قال قتادةُ: (مَعْنَاهُ وَلاَ تُؤَثِّمْنِي)[2]، وقولهُ تعالى﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ أي ألاَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٣٠٤٧-١٣٠٥٠). وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٥٨. وفي المحرر الوجيز: ص٨٥١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٠٥٢).

في الإثم والشِّركِ وقعُوا بنفاقِهم ومخالفتهم أمـرَكَ في تـركِ الجهاد، ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي إنَّهم يدخلون جهنَّم لا محالةَ؛ لأن الشيءَ إذا كان مُحيطاً بالإنسانِ فإنه لا يفوتهُ.

روي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: [مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟] قَالُوا: جَدُّ بْنُ قَيْسٍ، غَيْرَ أنَّهُ بَخِيلٌ. قَالَ ﷺ: [وَأيُّ دَاءٍ أدْوَى مِنَ الْبُخْلِ ؟! بَلْ سَيِّدُكُمْ الْفَتَى الأبْيَضُ الْجَعْدُ بِشْرُ ابْنُ الْبَرَاءِ بْنُ مَعْرُورٍ][1] فَقَالَ فِيْهِ حسَّانُ الشِّعرَ[2]:

وقَالَ رَسُولُ اللهِ وَالْحَقُّ قَوْلُهُ ... لِمَنْ قَالَ مِنَّا: مَنْ تَعُدُّونَ سَيِّدَا؟

فَقُلْتُ لَهُ: جَدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى الَّذِي ... بِبُخْلِهِ فِينَا وَإنْ كَانَ أنْكَدَا

فَقَالَ: وَأيُّ الدَّاءِ أدْوَى مِنَ الَّذِي ... رَمَيْتُمْ بِهِ لَوْ عَلَى بِهِ يَدَا؟!

وَسُوِّدَ بِشْرُ بْنَ الْبَرَاءِ لِجُودِهِ ... وَحَقٌّ لِبِشْرِ بْنِ الْبَرَا أنْ يُسَوَّدَا

إذَا مَا أتَاهُ الْوَفْدُ أذْهَبَ[3] مَالَهُ ... وَقَالَ: خُذُوهُ، إنَّنِي عَائِدٌ غَدَا

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ ؛ أي إنْ تُصِبْكَ يا مُحَمَّدُ حَسَنَةٌ من فتحٍ وغنيمة تَسُؤْهُمْ تلكَ الحسنةُ وتحزنهم يعني المنافقين، ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ ؛ أي قَتْلٌ وهزيمة ونَكْبَةٌ، ﴿ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي أخَذْنَا حِذْرَنا بالتخلُّف عنهم من قبلِ هذه المصيبة، ﴿ وَيَتَوَلَّوا۟ ﴾ ؛ عنكَ، ﴿ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ مسرورون بما أصابَك من الشدَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ للمنافقين: لن يُصِيبَنا إلاَّ ما كتبَ اللهُ علَينا في اللَّوحِ المحفوظ، قال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: أنَّا لَسْنَا مُهْمَلِيْنَ بَلْ جَمِيعُ مَا يُصِيبُنَا مِنْ خَيْرٍ أوْ شَرٍّ فَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ)، ويقالُ: معناهُ: قُل لن يُصيبَنا في عاقبةِ الأمرِ إلاَّ ما كتبَ اللهُ لنا من الفتحِ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب معرفة الصحابة: الحديث (٥٠١٨)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٥٩ ذكر القرطبي بعضه.

(٣) في المخطوط: (أنهب) بدل (أذهب).

والنُّصرة على الكفَّار، فإنْ أصابَتنا الهزيمةُ في الحال فإن أمورَ العبادةِ لا تجري إلا على تدبيرٍ قد أحكِمَ وأبرمَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (هُوَ مَوْلاَنَا) أي وَلِيُّنَا يحفظُنا وينصُرنا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾؛ معنى التوكُّل على اللهِ: تفويضُ الأمرِ إليه مع ثِقَةٍ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾؛ أي هل تنتَظِرُون بنَا إلا النصرَ على الكفَّارِ والظَّفَرَ بهم، أو القتلَ على وجهِ الشَّهادة في الدُّنيا مع ثواب الآخرة، ونحن ننتظرُ بكم أحدَ الشرَّين: إما أنْ يُصيبَكم الله بعذاب الاستئصال مِن عنده، أو بأنْ ينصُرَنا عليكم فنَقتُلَكم بأسيافِنا، فانتظِرُوا ما قلتُ كي ننتظرَ نحن بكم عذابَ الاستئصالِ والنُّصرة عليكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ ﴾؛ معناهُ: إنْ أنفقتُم في الجهادِ طَائِعين من قِبَلِ أنفُسِكم أو مُكرَهين مخافةَ القتلِ لن يتقبَّل منكم ما أسرَرتُم من الكفرِ والنفاق، وقد يُذكر لفظ الأمرِ ويراد به الشرط الجزاءُ كما قال الشاعر:

أسِيئِي بنَا أوْ أحْسِنِي لاَ مَلُومَةٌ ... لَدينَا وَلاَ مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ

معناهُ: إنْ أحسَنتِ بنا أو أسَأتِ فأنتِ غيرُ ملومةٍ(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ تعليلُ نفي قَبول صَدَقتِهم؛ لأن النفاقَ يحبطُ الطاعةَ، ويمنعُ من استحقاق الثواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾؛ ما منَعَهم عن إيجاب الثواب لهم على نفقاتِهم إلا كفرُهم باللهِ وبرسوله، ومعنى (نَفَقَاتُهُمْ) أي صدقاتُهم. قرأ حمزةُ والكسائي وخلف (يُقْبَلَ) بالياءِ لتقديم الفعل، وقرأ الباقون بالتاء.

---

(١) من شواهد الطبري في جامع البيان: تفسير الآية. والبيتُ لكثير عزة، يعبر فيه عن الثبات في الأمر على حاله والعهد الذي هو عليه.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ ؛ أي مُتثَـاقِلون لأنَّهم لا يرجون بأدائِها ثواباً ولا يخافونَ بتركِها عقاباً، والمعنـى أنَّـهم يُصلُّـون مُـرَاءَاةَ النـاس، ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ وكذلـك يُنفقـون في الزكـاةِ وغيرِها لأجلِ التَّستُّرِ بالإسلام، لا لابتغاءِ ثواب الله. وكُسَالَى جمعُ كَسْلاَنٍ كما يقـالُ سُكَارَى وسَكرَانٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ﴾ ؛ أي لا تُعجِبُـكَ يـا مُحَمَّدُ كثرةُ أموالِهـم ولا أولادِهـم في الحيـاة الدُّنيـا، ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ وفي الآخرةِ، قال الحسنُ: (لاَ تَسرُّكَ أمْوَالُـهُمْ وَلاَ أوْلاَدُهُـمْ، إنَّمَا يُريدُ اللهُ لِيُشَدِّدَ عَلَيْهِمْ فِي التَّكْلِيفِ بأنْ يَأْمُرَهُمْ بالإنْفَاق فِي الزَّكَاةِ وَالْغَزْو وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ مِنَ الْمَكَارِهِ الَّتِـي تَشُـقُّ عَلَيْـهِمْ؛ لأَنَّـهُمْ لاَ يَرْجُـونَ بذَلِـكَ ثَوَابـاً فِـي الآخِـرَةِ، وَيَكُونُونَ مُعَذَّبِينَ بالإنْفَاق إذ كَـانُوا يُنْفِقُونَـهَا عَلَـى كَـرْهٍ مِنْـهُمْ). وَقِيْـلَ: أرادَ بقولـهِ (لِيُعَذِّبَهُمْ بهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي ما ينالُهم من المصائب في أموالهم لا تكـون كفَّـارةً لذنوبهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ ؛ أي تخرجَ أنفسُهم علـى الكفـرِ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي في حالِ كونِـهم كـافِرين. والزَّهْـقُ خـروجُ الشيءِ بصعوبةٍ وأصلهُ الهلاكُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ ؛ معنـاهُ: أنَّ هؤلاء المنافقين يَحلِفون للمؤمنين أنَّهم على دِينهم، يقولُ الله تعالى: (وَمَا هُمْ مِنْكُـمْ) أي لَيسُـوا علـى دِينكـم، ﴿ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي يخـافُون مـن المسلمين، فأظهرُوا الإسلامَ وأسَرُّوا النفاق.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ معناه: لو يَجِدون حِرْزاً يَلْجَأونَ إليه ويتحصَّنون فيـه، أو غِيرَانـاً في الجبالِ أو سَرَباً في الأرضِ، أو قَوماً يمكنُهم الدخولُ فيما بينهم يحفظونَـهم عنكـم، لصَبَوا إليهم وهم يجْمَحُونَ؛ أي يسبقون ويُسرعون إسراعاً لا يردُّ وجوهَـهم بشـيءٍ. يقالُ: فرسٌ جَمُوحٌ إذا ذهبَ في عَدْوِهِ لم يرده اللِّجَامُ، قال عطـاءُ في معنـى قولـهِ لَـوْ

يَجِدُونَ مَلْجَأً: (أيْ مَهْرَباً)(١)، وقال ابنُ كَيسان: (قَوْماً يَأْمَنُونَ فِيهِمْ).

قرأ عبدُالرحمن بنُ عوفٍ (أوْ مُغَارَاتٍ) بضمِّ الميمِ، وقولُـهُ تعـالى: (أوْ مُدَّخَـلاً) قال الكلبيُّ: (نفَقاً فِي الأَرْض كَنَفَقِ الْيَرْبُوعِ)(١) وَقِيْلَ: معناهُ: موضعُ دخول يدخُلـون فيه. وقرأ الحسنُ (مَدْخَلاً) بفتح الميمِ وتخفيف الـدال، وقـرأ أبَـيٌّ (مُنْدَخَـلاً) بإثبـات النُّون. وقولهُ تعالى: (لَوَلَّوْا إلَيْهِ) قـرأ الأشـهبُ العُقَيلِـيُّ (لَوَالَـوْا إلَيْـهِ) بـالألف مـن الْمُوَالاَتِ(٢)؛ أي تابَعُوا وسارَعوا .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ؛ أي مِـن المنـافقين مـن يَعِيبُكَ في الصَّدقات، ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا﴾ ؛ الصدقةَ مقدارَ مُرادِهم، ﴿ رَضُواْ﴾ ؛ بالقسمةِ، ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ﴾ ؛ لا يَرضُون بالقسمةِ.

نزلَتْ هذه الآيةُ في أبي الجوَّاظ وغيرهُ من اللمَّازينَ من المنافقين، كمـا رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَقسِمُ الصدقاتِ فقال أبو الجوَّاظ: ما ترَون صاحِبَكم يقسـمُ صدقـاتِكم في رُعاة الغنمِ، فقال ﷺ: [لاَ أبَا لَكَ، أمَا كَـانَ مُوسَـى عليه السلام رَاعِيـاً ! أمَـا كَـانَ دَاوُدُ عليه السلام رَاعِياً !] فذهبَ أبو الجوَّاظ، فقالَ ﷺ: [احْذَرُوا هَـذَا وَأصْحَابَـهُ] فـأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ(٣).

وعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ يَقْسِمُ قَسْـماً إذ جَـاءَهُ ابْـنُ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ فَقَالَ: اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: [وَيْلَكَ مَـنْ يَعْـدِلُ إذا لَـمْ أعْدِلْ؟!] فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: ائْذَنْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ أضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَالَ ﷺ: [دَعْهُ فَـإنَّ لَهُ أصْحَاباً يَحْتَقِرُ أحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِ وَصَوْمَهُ مَعَ صِيَامِهِ، يَمْرُقُـونَ مِـنَ الدِّيـنِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمْيَةِ](٤).

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٥٦٤.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ص٨٥٤. واللباب في علوم الكتاب: ج ١٠ ص١١٩.

(٣) عزاه البغوي في معالم التنزيل: ص٥٦٥ إلى الكلبي.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب استتابة المرتدين: باب من ترك قتال الخوارج: الحديث (٦٩٣٣). واسم ذي الخويصرة: حرقوص بن زهير؛ قيل: إنه أصل الخوارج. ينظر: فتح الباري: شرح الحديث.

قرأ الحسنُ ويعقوب (يَلْمُزُكَ) بضمِّ الميم، وقرأ الأعمش (يُلَمِّزُكَ) بضم الياء وتشديدِ الميم، يقالُ: لَمَزَهُ وَهَمَزَهُ إذا أعابَهُ، ورجلٌ هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ، وقال عطاءُ: (مَعْنَى يَلْمِزُكَ أيْ يَغْتَابُكَ)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾؛ قرأ إيادُ بنُ لَقيط[2] (إِذَا هُمْ سَاخِطُونَ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾؛ أي لو رَضُوا ما رزقَهم اللهُ وما يُعطِيهم رسولهُ من العطيَّة والصدقةِ، ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾؛ أي كَافِينَا اللهُ سيُعطينا اللهُ من رزقِهِ، وسيُعطينا رسولهُ مما يكون عندَهُ من السَّعة والفضلِ وَقَالُوا: ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ ﴾؛ أي فيما عندَهُ من الثواب، ﴿ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾؛ لكانَ خيراً لهم وأعْوَدَ عليهم، إلا أنه حذفَ الجواب؛ لأن الحذفَ للجواب في مثل هذا الموضعِ أبلغُ من الإثبات؛ لأنَّكَ إذا حذفتَ الجواب ذهبَتْ فيه النفسُ كلَّ مذهبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس والحسن وجابر بن زيد والزهريُّ ومجاهد: (الْفَقِيرُ الْمُتَعَفِّفُ الَّذِي لاَ يَسْأَلُ النَّاسَ، وَالْمِسْكِينُ الَّذِي يَسْأَلُ). ومعنى الآية: إنَّما الصدقاتُ لهؤلاءِ المذكورين لا للمنافقين.

قال ابنُ عبَّاس: (الْفُقَرَاءُ هُمْ أصْحَابُ الصُّفَّةِ، صُفَّةُ مَسْجِدِ رَسُول اللهِ ﷺ، كَانُوا نَحْوَ أرْبَعِمِائَةِ رَجُلٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَنَازلُ فِي الْمَدِينَةِ وَلاَ عَشَائِرُ، فَأَوَوْا إلَى صُفَّةِ مَسْجِدِ رَسُول اللهِ، يَلْتَمِسُونَ الرِّزْقَ بالنَّهَار وَيَأْوُونَ إلَيْهِ باللَّيْلِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أتَاهُمْ بهِ إذا أمْسَوا). قَالَ: (وَالْمَسَاكِينُ هُمُ الطَّوَّافُونَ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٣٤١) قال: ((الطَّعنُ عَلَيْكَ فِي الصَّدَقَاتِ))

(٢) في تفسير القرآن العظيم: ج ٦ ص١٨١٦: النص (١٠٣٤٥)؛ قال ابن أبي حاتم: ((بسنده عن أبي الفضل قال: سمعت زياد بن لقيط يقرأ. قال: قلت لسهل بن عثمان: لعله إياد بن لقيط، فأبى أن يدع قوله: زياد)).

(٣) في الدر المنثور: ج ٤ ص٢٢٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو الشيخ عن إياد بن لقيط)).

فعلى هذا المسكين أفقرُ من الفقير، ومن الدليلِ على ذلك أنَّ الله قالَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ثم قال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾(١)، ومعلومٌ أن الجاهلَ بحال الفقير لا يحسبهُ غنياً إلاَّ وله ظاهرٌ جميل ويدهُ حَسَنةٌ، وقال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ﴾(٢). قيل في التفسير: الذي قد لَصَقَ بالتُّراب وهو جائعٌ عارٍ ليس بينه وبين التراب شيءٌ يَقيه. وقال أبو العبَّاس ثعلب: (حُكِيَ عَنْ بَعْضِ أهْلِ اللُّغَةِ أنَّهُ قَالَ: قُلْتُ لأَعْرَابيٍّ: أفَقِيرٌ أنْتَ ؟ قَالَ: لاَ؛ بَلْ مِسْكِينٌ. وأنشدَ الأعرابيُّ:

أمَّا الْفَقِيرُ الَّتِي كَانَتْ حُلُوبَتُهُ وَفْقَ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ(٣)

فَسَمَّاهُ فَقِيراً مَعَ وُجُودِ الْحُلُوبَةِ)(٤). وقال محمَّد بن مَسلمة: (الْفَقِيرُ الَّذِي لاَ مِلْكَ لَهُ) قال: (وَكُلُّ شَيْءٍ مُحْتَاجٍ إلَى شَيْءٍ فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إلَيْهِ)، واحتجَّ مَن قال: إن الفقيرَ أفقرُ من المسكينِ بقوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾(٥) فأضافَ السفينةَ إليهم، وهذا لا دلالةَ فيه لأنه رُوي أنَّهم كانوا فيها أُجَراءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ ، يعني السُّعَاةَ الذين يجلبون الصَّدقةَ، ويتولَّون قبضَها من أهلِها، يُعطون منها سواءٌ كانوا أغنياءَ أم فقراء، واختلَفُوا في قَدْرِ ما يُعطَون، قال الضحَّاك: (يُعْطَوْنَ الثُّمُنَ مِنَ الصَّدَقَةِ)(٦)، وقال مجاهدُ: (يَأْكُلُ الْعُمَّالُ مِنَ السَّهْمِ الثَّامِنِ)(٧)، وقال عبدُالله بن عمرو بن العاص: (يُعْطَوْنَ عَلَى قَدْرِ عَمَالَتِهِمْ)(٨)، وقال الأعمشُ: (يُعْطَوْنَ بقَدْرِ أجُورِ أمْثَالِهِمْ وَإنْ كَانَ أكْثَرَ مِنَ الثُّمُنِ)، وقال مالكُ وأهلُ العراق: (إنَّمَا ذلِكَ لِلإمَامِ وَاجْتِهَادِهِ يُعْطِيهِمُ الإمَامُ قَدْرَ مَا رَأى)، وعن ابنِ عمر: (يُعْطَوْنَ بقَدْرِ عَمَلِهِمْ)، وعند الشافعيِّ: (يُعْطَوْنَ ثُمُنَ الصَّدَقَاتِ).

---

(١) البقرة / ٢٧٣ . (٢) البلد / ١٦ .

(٣) السَّبَدُ: الوَبَرُ، وقيل: الشَّعر، والعرب تقولُ: ما له سبَدٌ ولا لَبَد، أي ما له ذو وبرٍ ولا صوف متلبد، ويُكنى بهما عن الإبلِ والغنم.

(٤) ينظر: لسان العرب: مادة (فقر): ج ١٠ ص٢٩٩. ونقله المنذري عن ابن فَهْمٍ؛ ينظر: تهذيب اللغة للأزهري: ج ٩ ص١٠٣: مادة (فقر). (٥) الكهف / ٧٩ .

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٠٩٢).

(٧) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٠٩٣).

(٨) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٠٩٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ هم قومٌ كان يُعطيهم النبيُّ ﷺ يتألَّفهم على الإسلامِ، كانوا رُؤساءَ في كلِّ قبيلةٍ، منهم أبو سُفيان بن حربٍ من بني أميَّة، والأقرعُ بن حَابسٍ، وعقبةُ بن حصن الفزَّاري وغيرُهما من بني عامرِ بن لُؤي، والحارثُ بن هشامٍ المخزوميُّ، وسهيلُ بن عمرو الجمحيُّ من بني أسَدٍ، والعباسُ بن المرداسِ من بني سُليم، فلما توُفِّيَ رسولُ الله ﷺ جاءَ المؤلَّفة قلوبُهم إلى أبي بكرٍ وطلَبُوا منه سَهمَهم، فأمَرَهم أن يكتبُوا كِتَاباً، فجَاؤُا بالكتاب إلى عُمر ﷺ ليشهدَ، فقال عمر: إيْشْ هَذَا ؟ قَالُوا: سَهْمُنَا، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ:﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] إنَّ الإسْلاَمَ أجَلُّ أنْ يُرْسَى عَلَيْهِ. ثم أخذَ عمرُ كتابَهم ومَزَّقَهُ وقالَ: إنَّمَا كَانَ النَّبِيُّ يُعطِيكُمْ يَتَأَلَّفُكُمْ عَلَى الإسْلاَمِ[2]، فَالْيَوْمَ فَقَدْ أعَزَّ اللهُ الإسْلاَمَ، فَإنْ ثَبَتُّمْ عَلَى الإسْلاَمِ وَإلاَّ فَبَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ السَّيْفُ. فَرَجَعُوا إلَى أبي بَكْرٍ وَقَالُوا: أنْتَ الْخَلِيفَةُ أمْ هُوَ ؟! فَقَالَ: هُوَ إنْ شَاءَ! فَبَطَلَ سَهْمُهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ ؛ معناهُ عندَ أكثرِ الناس في فِكَاكِ الرِّقاب وهم الْمُكَاتَبُونَ، وذهبَ مالكٌ إلى أنَّهم رقابٌ يُبتَاعُونَ من الزَّكاة ويُعتَقُونَ، فيكون ولاؤُهم لجميعِ المسلمين دون المعتِقين، قال: (وَلاَ يُعْطَى الْمُكَاتَبُ مِنَ الزَّكَاةِ وَلاَ مِنَ الْكَفَّارَاتِ شَيْئاً).

وقد رُوي أنَّ رجُلاً جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: عَلِّمْنِي عَمَلاً يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ؟ قَالَ:[فُكَّ الرَّقَبَةَ وَاعْتِقِ النَّسْمَةَ] قَالَ: أوَلَيْسَا سَوَاءً ؟ قَالَ: [لاَ؛ فَكُّ الرَّقَبَةِ أنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا][3]، فاقتضَى قوله تعالى (وَفِي الرِّقَاب) المعوضة في العِتْق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ ؛ يعني الْمَدْيُونِينَ الذين لا يكون لهم فضلُ نصاب على الدَّين؛ لأنَّ المالَ وإنْ كان في أيدِيهم فهو مستحَقٌّ أيدِيهم، وقال مجاهدُ

---

(١) الكهف / ٢٩ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٣٧٦). والطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١٠٧) مختصراً.

(٣) أخرجه الدارقطني في السنن: كتاب الزكاة: باب الحث على إخراج الصدقة: ج ٢ ص١٣٥: الحديث (١). وفي موارد الضمآن إلى زوائد ابن حبان: الحديث (١٢٠٩) وإسناده صحيح. وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٢٤٠؛ قال الهيثمي: ((رواه الإمام ورجاله ثقات)). وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٩٩.

والزهري: (إنَّمَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِلْمَدْيُونِينَ إذا كَانَ الدَّيْنُ قَدْ لَحِقَهُ بغَيْرِ إسْرَافٍ وَلاَ مَعْصِيَةٍ)[١]، وقال قتادةُ: (الْغَارِمُونَ هُمْ قَوْمٌ لَحِقَهُمْ دُيُونٌ فِي غَيْرِ تَبْذِيرٍ وَلاَ فَسَادٍ)، وعن مجاهدٍ: (أنَّ الْغَارمَ مَنِ احْتَرَقَ بَيْتُهُ، أوْ ذهَبَ السَّيْلُ بمَالِهِ، أوْ ادَانَ عَلَى عِيَالِهِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ؛ أرادَ به المجاهدِين إذا انقطَعُوا عن أزوادِهم وراحِلَتِهم، وقال أبو يوسف: (هُمُ الْفُقَرَاءُ الْغُزَاةُ)، وأما إذا كان الغازي غنِيّاً اختلَفُوا فيه، فقال أبو حنيفةَ وأبو يوسف ومحمَّد: (لاَ يُعْطَى الْغَازي الْغَنِيُّ)، وقال الشافعيُّ ومالك: (يُعْطَى الْغَازي الْغَنِيُّ) وحُجَّتُهما قوله ﷺ: [لاَ تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إلاَّ لِخَمْسَةٍ: رَجُلٌ عَمِلَ عَلَيْهَا، وَرَجُلٌ اشْتَرَاهَا بمَالِهِ، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ جَارٌ مِسْكِينٌ فَتُصُدِّقَ عَلَى الْمِسْكِينِ فَأهْدَى إلَيْهِ جَارُهُ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبيلِ][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ ؛ هو المسافرُ المنقطع عن مالِهِ، سُمِّي بذلك لملازمتِهِ السَّبيل، كما يقالُ: ابنُ الغَنِيِّ وابنُ الفقيرِ، قال مجاهدُ والزهري: (لاِبْنِ السَّبيلِ حَقٌّ فِي الزَّكَاةِ وَإنْ كَانَ غَنِيّاً)[٤] قال قتادةُ: (ابْنُ السَّبيلِ هُوَ الضَّيْفُ)[٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي فَرَضَ اللهُ هذه الأشياءَ فريضةً، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ؛ بمصالحِ عباده، ﴿ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ في أفعالهِ. والفَرْضُ في ذكرِ الأصناف في هذه الآية بيانُ أنه لا يجوزُ إخراج الصَّدقة منهم إلى غيرِهم؛ لأن الحاجةَ في جميعِ الأصناف المذكورين في هذه الآيةِ موجودةٌ، ولأن مَن عليه الزكاةُ إذا حَمَلَ الزكاةَ بنفسهِ إلى الإمامِ لم يكن لأحدٍ مِن العمَّال في ذلك نصيبٌ. وقال الشافعيُّ: (تُقْسَمُ الصَّدَقَةُ عَلَى الأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي الآيَةِ، إلاَّ أنْ يُفْقَدَ صِنْفٌ فَيُقْسَمُ عَلَى الْبَاقِينَ). وَقِيْلَ: يقسمُ على أصلهِ على سبعةِ أصنافٍ؛ لأن

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١٢٥) عن مجاهد، والأثر (١٣١١٦) عن الزهري.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١١٤) بإسنادين.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣١٢٢) مرسلاً عن عطاء، والحديث (١٣١٢٣) عن أبي سعيد الخدري.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١٢٥).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١٢٧).

المؤلَّفة قد سقطُوا، قال: (وَيُعْطَى كُلٌّ مِنْهُمْ مِنَ الثَّمَانِيَةِ ثُلُثَهُ مِنْ أهْلِ كُلِّ صِنْفٍ، فَإنْ أعْطَى اثْنَيْنِ ضَمِنَ ثُلُثَ سَهْمٍ).

واختلف العلماءُ في المقدار الذي إذا ملكَهُ رجلٌ دخلَ في حدِّ الغِنَى، وخرجَ من حدِّ الفقر، قال بعضُهم: إذا كان عندَ أهلهِ قوتُ يومِهم، واستدلَّ بقول النبيِّ ﷺ: [مَنْ سَأَلَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، فَإنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ] قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا ظَهْرُ الْغِنَى ؟ قَالَ: [أنْ تَعْلَمَ أنَّ عِنْدَ أهْلِهِ مَا يُعَيِّشُهُمْ وَيُغَدِّيهِمْ][(١)].

وقال بعضُهم: اذا مَلَكَ أربعين دِرْهماً أو عِدْلَها من الذّهب، واستدلَّ بما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [مَنْ سَأَلَ مِنْكُمْ وَعِنْدَهُ أوْقِيَّةٌ أوْ عِدْلُهَا مِنَ الذَّهَب فَقَدْ سَأَلَ إلْحَافاً]، وكانت الأُوْقِيَّةُ يومئذٍ أربعين درهماً[(٢)].

وقال بعضُهم: إذا مَلَكَ خَمسين درهماً أو عِدْلَهَا من الذهب لِمَا رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [لاَ يَسْألُ عَبْدٌ مَسْألَةً وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ إلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي وَجْهِهِ كُدُوحٌ أوْ خُدُوشٌ] قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا غِنَاهُ ؟ قَالَ: [خَمْسُونَ دِرْهَماً، أوْ عِدْلُهَا مِنَ الذَّهَب][(٣)].

والصحيحُ: أنَّ مَن مَلَكَ مِائتي درهمٍ أو عِدْلِها من فرضٍ أو غيرهِ فاضِلاً عن ما يحتاجُ إليه مِن مسكَنٍ وخادمٍ وأثاثٍ وفرَسٍ، لم تَحِلَّ له الصدقةُ لقولهِ عليه السلام: [إنِّي اُمِرْتُ أنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أغْنِيَائِكُمْ وَأرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ][(٤)] فجعلَ الناسَ فريقين، ولا خلاف أن الذي يملِكُ مِائتي درهمٍ يكون غنيّاً، فوجبَ أن لا يكون داخِلاً في الفُقَراء، ولو كان الاعتبارُ بالضَّرورة لكان الذي له غداءٌ دون العَشَاءِ أو عَشَاءٌ دون الغَدَاءِ لا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص١٨٠-١٨١. وأبو داود في السنن: كتاب الزكاة: باب من يعطى من الصدقة: الحديث (١٦٢٩). والطبراني في الكبير: الحديث (٥٦٢٠) وإسناده صحيح. وفي الإحسان ترتيب صحيح ابن حبان: الحديث (٥٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الزكاة: باب من يعطى من الصدقة: الحديث (١٦٢٧). والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب قسم الصدقات: الحديث (١٣٤٨٧).

(٣) ينظر ما قبله.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص١٧٢.

تحلُّ له الصدقةُ، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ قال: [لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإنْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ][1] والفرَسُ في الكثيرِ الأحوال يُساوي أكثرَ من أربعين دِرهمًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ الْجَمَاعَةَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ جَلاَّسُ بْنُ سُوَيدٍ وَمَخْشِيُّ بْنُ حُمَيِّرٍ[2] وَأبُو يَاسِرِ بْنِ قَيْسٍ وَسِمَاكُ بْنُ يَزِيدٍ وَعُبَيْدُ بْنُ هِلاَلٍ وَرُفَاعَةُ بْنُ التَّابُوتِ[3] كَانُوا يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَيَقُولُونَ فِيْهِ مَا لاَ يَجُوزُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ تَفْعَلُوا فَإنَّا نَخَافُ أنْ يَبْلُغَهُ الْخَبَرُ، فَقَالَ الْجَلاَّسُ: بَلْ نَقُولُ مَا شِئْنَا ثُمَّ نَأْتِيهِ فَيُصَدِّقُنَا فِي مَا نَقُولُ، فَإنَّ مُحَمَّداً أذُنٌ سَامِعَةٌ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[4]. ومعناها: ومِن هؤلاء المنافقين مَن يُؤْذِي النبيَّ ﷺ، ويقولون هو صاحبُ أذُنٍ يُصغِي إلى كلِّ أحَدٍ، ويقبلُ كلَّ ما قيلَ له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي قِيلَ: هو مستمعٌ بخيرٍ لا مستمعٌ بشَرٍّ، وَقِيْلَ: معناهُ: هو يستمع إلى ما هو خيرٌ لكم وهو الوحيُ. وقرأ الحسنُ: (هُوَ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ) كلاهُما بالتنوينِ والضمِّ، معناهُ: إنْ كان كما قُلتم فهو خيرٌ لكم يقبَلُ عُذرَكُم. وقرأ نافع: (قُلْ أذْنٌ) بجزمِ الذال وهو لغةٌ في الأذن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أي يُصدِّقُ بما أنزلَ عليه، والإيمانُ باللهِ لا يعملُ إلا بالحقِّ، ويؤمِنُ للمؤمنين أي يُصدِّقُ المؤمنين في ما يُخبرونَهُ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص١٣١: الحديث (٢٨٩٣). وأصله عند الإمام أحمد في المسند: ج١ ص٢٠١. وأبي داود في المسند: الحديث (١٦٦٥ و١٦٦٦)، وقد تقدم.

(٢) مَخْشِيُّ بنُ حُمَيِّرٍ الأشجعي: حليفُ لبني سلمة من الأنصار، كان من المنافقين وأرجفَ يوم تبوك، ثم تاب وحسنت توبته، وسمي عبدالرحمن، وسأل الله أن يقتله شهيداً، قتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر. ترجم له ابن عبدالبر في الاستيعاب: الرقم (٢٣٧٩). وفي المخطوط: (مخشي ابن خويلد) وهو تصحيف.

(٣) أو رافع بن تابوت، في الإصابة: ج ٢ ص٤٨٨: الترجمة (٢٦٦٣) رفاعة بن ثابت، وهو غير رفاعة بن تابوت المنافق.

(٤) القصة ذكرها أهل التفسير باختصار وبألفاظ يكمل بعضها بعضاً، ينظر: جامع البيان: الأثر (١٣١٤٩-١٣١٥٥). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٣٠٠).

واختلَفُوا في الـ (لام) التي للمؤمنين، فقال بعضُهم هي زائدةٌ كما في قولهِ تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾(١) معناهُ: ردِفكُمْ. قال بعضُهم: إنما ذُكر اللام للفرق بين التَّصديق والإيمان، فإنه إذا قِيْلَ: ويُؤمِنُ للمؤمنين لَم يُقبل غيرُ التصديق، كما في قولـه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾(٢) أي بمُصَدِّق، وقوله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾(٣) أي لن نصدِّقكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ ﴾ ؛ قرأ الحسنُ والأعمش وحمزة بالخفضِ على معنى: أذُنُ خَيْرٍ وأذُن رحمةٍ، وقرأ الباقون: (وَرَحْمَةٌ) بالرفعِ يعني: هو رحمةٌ، جعلَ اللهُ النبيَّ ﷺ رحمةً لهم؛ لأنَّهم إنما نالُوا الإيمانَ بدُعائهِ وهدايته. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ وعيدٌ مِن الله لهؤلاء المنافقين على مقَالتِهم. قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا نُزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ جَاؤُا إلَى النَّبيِّ ﷺ يَحْلِفُونَ أنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ:

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ؛ ولم يقُل يرضُوهُما؛ لأنه يُكرَهُ الجمعُ بين ذكرِ اسم الله وذكر اسم رسولهِ في كِنَايَةٍ واحدةٍ، كما رُوي أنَّ رَجُلاً قَامَ خَطِيباً عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى. فَقَالَ ﷺ: [بئْسَ الْخَطِيبُ أنْتَ! هَلاَّ قُلْتَ: وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ؟](٤). وقال النبيُّ ﷺ: [لاَ تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلاَنٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شَاءَ فُلاَنٌ](٥) فكرِهَ الجمعَ بين الله وبين غيره في الذكرِ تعظيماً لله. والضميرُ في قوله (يُرْضُوهُ) إلى الواحدِ؛ لأنَّ رضَى اللهِ مُتَضَمِّنٌ رضَى رسولهِ. وقولُهُ: ﴿ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ إنْ كانوا مصدِّقين بقُلوبهم غيرَ مُنافِقين كما يدَّعون، فطلَبُهم رضَى اللهِ أوْلَى من طلَبهم رضَاكُم.

---

(١) النمل / ٧٢ . (٢) يوسف / ١٧ . (٣) التوبة / ٩٤.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٥٦. ومسلم في الصحيح: كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة: الحديث (٤٨/ ٨٧٠).

(٥) عن حذيفة رفعه؛ أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب لا يقال خبثت نفسي: الحديث (٤٩٨٠). وابن ماجة في السنن: كتاب الكفارات: باب النهي أن يقال: الحديث (٢١١٨)، وإسناده صحيح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ﴾ ؛ معناهُ: ألَمْ يُخبرْهُم الرسولُ ﷺ أنه مَن خالفَ اللهَ ورسوله في الدِّين فيجعلُ نفسَهُ في حدٍّ، واللهَ ورسولَهُ في حدٍّ فله نارُ جهنَّم، ودخلت (أنَّ) مؤكّدة وهي إعادة أن الأُولى؛ لأنه لما طالَ الكلامُ كانت إعادتُها أوكَدَ. ومَن قرأ بالكسرِ فهو على الاستئناف. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي ذلك الهوَانُ الشديدُ الدائم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ ﴾ ؛ الكثيرُ من المفسِّرين على (أنَّ) اخبار مِن المنافقين أنَّهم يحذَرُون أنَّ الله نَزَّلَ عليهم سورةً تُخبرُ عن ما في قلوبهم من النِّفاقِ والشِّركِ، فإنَّ بعض المنافقين كانوا يَعلَمُونَ نبوَّةَ النبيِّ ﷺ، ولكنهم كانوا يَكفُرُونَ عند أهلِ الشِّرك عِناداً وحَسَداً، وبعضُهم كانوا عندَ أنفُسِهم شاكِّين غيرَ مُستبصِرينَ، وكانوا يخافون إذا أذنَبُوا ذنباً أنْ يَنْزلَ على النبيِّ ﷺ من القُرآن ما يكشفُ عن نفاقِهم، وفي الآيةِ ما يدلُّ على هذا وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: (مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ) أي مُظْهرٌ ما تخافون من ظهور النِّفاق، وعن هذا سُمِّيت هذه السورةُ (سُورَةُ الْفَاضِحَةِ)؛ لأنَّها فضَحَتِ المنافقين، وتُسمَّى أيضاً (الْحَافِرَةُ)؛ لأنَّها حفَرَتْ عن قلوب المنافقين.

وقولُهُ تعالى: ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ تَهديدٌ وإنْ كان لفظُ الأمرِ، كما في قوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[1]، وذهبَ الزجَّاجُ إلى أنَّ قولَهُ: (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ) لفظةُ إخبارٍ ومعناهُ: الأمرُ كلُّه، كأنه قالَ: لِيحذَر، وهذا كما قال: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ فِي مَسِيرِهِ رَاجِعٌ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوك، وَثَلاَثَةُ نَفَرٍ يَسِيرُونَ بَيْنَ يَدَيهِ، فَجَعَلَ رَجُلاَن يَسْتَهْزِئَانِ برَسُولِ اللهِ وَيَقُولُونَ: إنَّ مُحَمَّداً قَالَ: نَزَلَ فِي أصْحَابنَا الَّذِينَ يَحْلِفُوا كَذا وَكَذا، وَالثَّالِثُ يَضْحَكُ مِمَّا يَقُولُونَ وَلاَ يَتَكَلَّمُ بشَيْءٍ.

---

(١) فصلت / ٤٠ . (٢) البقرة / ٢٢٨ .

فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام على النَّبِيِّ ﷺ وَأَخْبَرَهُ بِمَا يَقُولُونَ، فَدَعَا عليه السلام عَمَّاراً وَقَالَ: [إنَّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ بكَذا وكَذا، وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ: إنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، إنْطَلِقْ إلَيْهِمْ وَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَتَحَدَّثُونَ، وَقُلْ لَهُمْ: أحْرَقْتُمْ أحْرَقَكُمُ اللهُ] فَفَعَلَ ذلِكَ عَمَّارُ، فَجَاؤُا إلَى النَّبِيِّ ﷺ يَعْتَذِرُونَ وَيَقُولُونَ: كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فِيْمَا يَخُوضُ فِيْهِ الرَّكْبُ إذا سَارَ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ.

وعن الحسن وقتادة: (أنَّهُمْ كَانُوا فِي غَزْوَةِ تَبُوكٍ، فَقَالُوا: أيَطْمَعُ هَذا الرَّجُلُ أنْ يُفْتَحَ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ؟ هَيْهَاتَ مَا أبْعَدَهُ عَنْ ذلِكَ! فَأَطْلَعَ نَبِيَّهُ عَلَى ذلِكَ)[١]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ منه ألِفُ استفهامٍ، معناهُ: النِّيَّةُ لهم على ما كانوا يفعلونَهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ ﴾ ؛ أي لا تعتَذِرون عن مَقالَتِكم، ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ ؛ أي قد أظهَرتُم الكفرَ بعد إظهاركم الإيمانَ، فإنَّهم قطُّ لم يكونوا مُؤمِنين، ولكن كانوا مُنافِقِينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً ﴾ ؛ وفيه قراءتان، هذه بالضَّمِّ على ما لَم يُسَمَّ فاعلهُ، والثانية: (إنْ نَعفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً) بالنصب، قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: إنْ يَعفُ عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بشَيْءٍ وَلَكِنَّهُ يَضْحَكُ وَهُوَ مَخْشِيُّ بنُ حُمَيْرٍ[٢]، يُعَذِّب الرَّجُلاَن اللَّذان كَانَا يَتَكَلَّمَان بالْهَمْزِ)[٣] ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي كافِرين في السِّرِّ، وكلُّ معصيةٍ جُرْمٌ إلاَّ أنَّه أرادَ بالْجُرْمِ ههنا الكفرَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١٥٣) عن قتادة.

(٢) ينظر: معالم التنزيل: ص٥٦٩. وفي المخطوط صحف الناسخ الاسم فقال: (جهين بن حميد). ترجم له ابن عبدالبر في التمهيد: ج ٣ ص٤٣٧: الرقم (٢٣٧٩)، وقال: (مخشي بن حمير الأشجعي حليف لبني سلمة من الأنصار، كان من المنافقين، وسار مع النبي ﷺ إلى تبوك حين أرجفوا برسول الله ﷺ وأصحابه، ثم تاب وحسنت توبته، وسمي عبدالرحمن، وسأل الله أن يقتله شهيداً، لا يعلم مكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر).

(٣) أخرجه أبو حاتم الرازي في التفسير: الأثر (١٠٤٠٣) مختصراً. والطبري في جامع البيان: الأثر (١٣١٥٦) عن ابن إسحق وسماه. ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص١٦٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ ﴾ ؛ أي بعضُهم مُضَافٌ إلى بعضهم لاجتماعِهم على الشِّرك والاستهزاءِ بالمسلمين، كما يقالُ: أنا مِن فلان وفلانٌ منِّي؛ أي أمْرُنا واحدٌ وكَلِمَتُنَا واحدةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ ﴾ ؛ أي بالكُفرِ والمعاصي، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ أي عن الإيمان والطاعة. وقولهُ تعالى: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ ﴾ ؛ قال الحسنُ ومجاهد: (أيْ يُمْسِكُونَهَا عَنِ النَّفَقَةِ فِي الْجِهَادِ)، وَقِيْلَ: عنِ الزَّكَوَاتِ المفروضةِ، وقال قتادةُ: (عَنِ الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ ﴾ ؛ أي تركُوا أمْرَ اللهِ وأعرَضُوا عنه حتى صارَ كالمنسيِّ عندَهم بإعراضِهم عنه، فتركَهم اللهُ من رحمتِهِ حتى صارُوا كَالْمَنْسِيِّينَ عندَهُ، وإنْ كان النِّسيانُ مما لا يجوزُ على اللهِ إلاَّ أنه قال (فَنَسِيَهُمْ) لمزاوجةِ الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾[1]، قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[2]، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي هم المتمرِّدون في الكفرِ والفسقِ وفي كلِّ شيء، والْمُتَمَرِّدُ فيه وإنْ كان النفاقُ أعظمَ من الفسقِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ ؛ في الآيةِ جمعٌ بين المنافقين وبين الكفَّار في التسميةِ، وإنْ كان المنافقون همُ الكفار؛ لتكون الآيةُ دالَّةً على أنَّ المنافقين يلحَقُهم الوعيدُ من جِهَتَين، من جهةِ الكُفرِ والنِّفاقِ.

وجهنَّم من أسماءِ النار يقول العربُ للبئرِ البعيدة القعرِ: جِهْنَامٌ، فيجوزُ أن تكون جَهَنَّمُ مأخوذةٌ من هذه اللَّفظةِ لبُعدِ قَعرها. وقولهُ تعالى: ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْۚ ﴾ ؛ أي كفايَتُهم على ذنوبهم؛ لأن فيها جزاءَ أعمالِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ ﴾ ؛ أي أبعدَهم من الثواب والمدح في الدُّنيا، وعن الثواب والرحمة في الآخرةِ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي عذابٌ دائم.

---

(١) البقرة / ١٩٤ . (٢) الشورى / ٤٠ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ﴾ ؛ أي وعدَ اللهُ أهلَ زمانِكم على الكفرِ والنِّفاقِ نارَ جهنَّم، كما وعدَ الذين من قبلِكم كانوا أشدَّ منكم قوَّةً في البَدَنِ وأكثرَ أموالاً وأولاداً، ﴿ فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ ﴾ ، فانتفعُوا بنصيبِهم وحظِّهم في الدُّنيا، ولم ينفعْهم ذلكَ حين نزلَ بهم عذاب الله، فكذلك أنتم، والْخَلاَقُ هو النصيبُ من الخيرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ ﴾ ؛ أي فاستمتَعتُم أنتم بنصيبِكم من الدُّنيا وخُضتم فيها، ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾ ؛ أي خُضتم في الكفرِ والاستهزاء بالمؤمنين كما خاضَ الأوَّلون.

وقولهُ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفَةِ حبطَتْ أعمالُهم التي عَمِلوها على جهةِ البرِّ مثلُ الإنفاقِ في وجُوهِ الخيرِ ومثلُ صِلَةِ الرَّحمِ حَبطَتْ، ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ حتى لا يستحقُّوا بها الإكرامَ والتعظيمَ في الدُّنيا، و، حَبطَتْ في، ﴿ وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ الذين خَسِروا أنفُسَهم وأهلِيهم يومَ القيامةِ، والْخُسْرَانُ هو ذهابُ رأسِ المالِ من دون أصلهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ ﴾ ؛ معناهُ: ألَمْ يأتِ المنافقين والكفارَ خبرُ مَن قبلِهم كيف أهلكَهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حين تَمرَّدُوا في الكُفرِ، واستهزَأوا بالمؤمنين وهم قومُ نوحٍ، أهلكَهم اللهُ بالغرقِ، وعَادٌ قومُ هودٍ أهلكَهم اللهُ بالريحِ، وثمُودُ أهلكَهم اللهُ بالصَّيحةِ والرَّجْفَةِ وهم قومُ صالحٍ، وقومُ إبراهيمَ أهلكَهم اللهُ نَمْرُودُهم بالبَعُوضِ وسائرِ قومه بالْهَدْمِ، وأصحابُ مَدْيَنَ قومُ شُعَيبٍ أهلكَهم اللهُ بالصَّيحَةِ وعذاب الظُّلَّةِ، ومَدْيَنُ بئْرُ مَدْيَنَ بنُ إبراهيم نُسبَتِ القريةُ إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾ ؛ أي الْمُنْقَلِبَاتُ وهي قرياتُ قومِ لُوطٍ أهلكَهم اللهُ بالخسفِ، وقلَبَ مَدَائِنَهُمْ عليهم. ويقالُ: أرادَ بالْمُؤْتَفِكَاتِ كلَّ مَن انقلبَ أمرُهم عليهم من الخيرِ إلى الشرِّ. يقالُ: الهالكُ انقلبَت عليه الدُّنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي بالْحُجَجِ والبراهين، ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي لَمَّا كذبوا الرُّسلَ وكفَروا

بالآيات أهلكَهم، ولم يكن ذلك ظُلماً؛ لأنَّهم استحَقُّوا ذلك بعمَلِهم فكانوا هُمُ الظالمين لأنفُسِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ ؛ أي بعضُهم أنصارُ بعضٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ أي بالتَّوحيدِ واتِّباعِ مُحَمَّدٍ ﷺ وشرائعه، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ ؛ عن ما لا يعرفُ في شريعةٍ ولا سُنة، ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ الْخَمْسَ بشَرائطِها، ﴿ وَيُؤْتُونَ ﴾ ؛ ويؤدُّون، ﴿ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ؛ الواجبةَ في أموالِه، ﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ ﴾ ؛ في الفرائضِ، ﴿ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ ؛ في السُّنَنِ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ ؛ أي يُنعِمُ عليهم في الآخرةِ، والرحمةُ هي النِّعمةُ على المحتاجِ.

وعن بعضِ أهلِ الإشارة: سيرحَمُهم في خمسةِ مواضع: عند الموتِ وسكَراتِه، وفي القبرِ وظُلُماتِهِ، وعند قراءةِ الكتاب وحسَراتِهِ، وعند الميزان وندَامَتِه، وعند الوُقوفِ بين يَدَي اللهِ ومسؤُولاَتِهِ. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ أي غالبٌ في مُلكِه وسُلطانِه، تجري أفعالهُ على ما توجبهُ الحكمة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ أي بساتينَ تجري من تحتِ شجَرِها وغُرَفِها أنهارُ الماءِ والعسَلِ والخمرِ واللَّبن، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ؛ أي مُقيمين دائمين فيها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ﴾ ؛ أي مساكِنَها ظاهرةً عامِرةً يطيبُ بها العيش، قال الحسنُ: (هِيَ مَسَاكِنُ بَنَاهَا اللهُ مِنَ اللَّآلِئِ وَالْيَوَاقِيتِ الْحُمْرِ وَالزُّبُرْجَدِ الأَخْضَرِ).

وقوله: (فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) أي في بساتين إقامَة، قال ابنُ عبَّاس: (جَنَّاتُ عَدْنٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَالْجَنَّاتُ حولَها مُحْدِقَةٌ بها وَهِيَ مُغْطَاةٌ مُنْذُ خَلَقَهَا اللهُ حَتَّى يَنْزِلَهَا أهْلُهَا النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ). وعن مجاهدٍ قال: (قَالَ عُمَرُ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: هَلْ تَدْرُونَ مَا جَنَّاتُ عَدْنٍ؟ قُصُورٌ فِي الْجَنَّةِ مِنْ ذهَبٍ، لِكُلِّ قَصْرٍ خَمْسُمِائَةِ أَلْفِ بَابٍ، عَلَى كُلِّ بَابٍ نَحْوَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ أَلْفاً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، لاَ يَدْخُلُهَا إلاَّ نَبِيٌّ، وَهَنِيئاً لِصَاحِبِ هَذا الْقَبْرِ، وَأَشَارَ إلَى قَبْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَدَّقَ، وَهَنِيئاً لأَبي بَكْرٍ أوْ شَهِيدٍ، وَإنِّي لَعُمَرُ الشَّهَادَةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ؛ أي رضَى الرب عنهم أكبرُ وأعظم من هذا النعيم كلِّه لأنهم إنَّما نالُوا ذلك كله برضوان الله عَزَّ وَجَلَّ، والرِّضْوَانُ: إرادةُ الخيرِ والثواب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ أي ذلك الذي ذكرتُ هو الحياةُ الوافرة، نَجَوا من النار وظَفَرُوا بالجنَّة.

وعن الحسنِ في قولهِ تعالى: (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ) أي سرورٌ في الآخرةِ برضوان اللهِ عنهم يكون أكثرُ من سُرورهم بهذا النَّعيم كُلِّه. وعن رسول الله ﷺ: [إذا أنْزَلَ اللهُ أهْلَ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، قَالَ: ألاَ أعْطِيكُمْ مَا هُوَ أكْبَرُ مِنْ هَذا كُلِّهِ؟ فَيَقُولُونَ: بَلَى يَا رَب وَمَا أكْبَرُ مِنْ ذلِكَ ؟ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أحِلُّ عَلَيْكُمْ رضْوَانِي فَلاَ أسْخَطُ عَلَيْكُمْ أبَداً](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي جاهِدِ الكفَّارَ بالسَّيفِ والمنافقين باللِّسان، واغْلُظْ على الفريقين جميعاً، ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ ﴾ ، ومصيرُهم في الآخرةِ،﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ الموضعُ الذي يَصِيرُونَ إليه، وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ بالْقِتَالِ، والْمُنَافِقِينَ بالْحُدُودِ، فَإنَّهُمْ كَثِيرُو التَّعَاطِي لِلأَسْبَابِ الْمُوجِبَةِ لِلحُدُودِ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ أبَي وَالْجَلاَّسِ بْنِ سُوَيدٍ وَعَامِرِ ابْنِ النُّعْمَانِ وَغَيْرِهِمْ، كَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلاً، خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يَوْم بتَبُوكَ وَسَمَّاهُمْ رجْساً، فَقَالَ الْجَلاَّسُ: لَئِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقّاً عَلَى إخْوَانِنَا فَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ، فَسَمِعَهُ عَامِرُ بْنُ قَيْسِ، فَقَالَ: أجَلْ وَاللهِ إنَّ مُحَمَّداً لَصَادِقٌ وَلأَنْتُمْ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣١٨٢). والبخاري في الصحيح: كتاب التوحيد: باب كلام الرب مع أهل الجنة: الحديث (٥٧١٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الجنة: باب إحلال الرضوان على أهل الجنة: الحديث (٩/ ٢٨٢٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٣١٨٨).

فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الْمَدِينَةِ أخْبَرَهُ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ بِمَا قَـالَ الْجَـلاَّسُ، فَقَالَ الْجَلاَّسُ: يَكْذِبُ عَلَـيٌّ يَـا رَسُـولَ اللهِ! فَأمَرَهُمَـا رَسُـولُ اللهِ أنْ يَحْلِفَـان عَلَـى الْمِنْبَرِ، فَحَلَفَا جَمِيعاً، فَرَفَعَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ يَدَهُ إلَى السَّمَاءِ، فَقَـالَ: اللَّـهُمَّ أنْـزِلْ عَلَـى نَبيِّكَ وَبَيِّنِ الصَّادِقَ، فَقَالَ ﷺ: [آمِينَ] فَأنْزَلَ اللهُ هَـذِهِ الآيَـةَ)[1]. ومعناهـا: يحلِفـان المنافقون باللهِ ما تكلَّموا بكَلِمةِ الكُفرِ ولقد تكلَّموا بها وأظهَرُوا الكفرَ بعـدَ إظـهارهم الإسلامَ. وَقِيْلَ: كفرُوا بقولِهم ذلك بعدَ ما كانوا أسلَمُوا على زَعمِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ ؛ أي قصَـدُوا إلى مـا لم يَصِلـوا إلى ذلك، والْهَمُّ بالشَّيءِ في اللُّغة: مقاربته دون الوقُوعِ فيه، قِيْلَ: إنَّهم كـانوا هَمُّـوا بقتـلِ الذي أنكرَ عليهم قولَهم. وَقِيْلَ: معنى الآية: أنَّ رسولَ الله ﷺ خـرجَ إلى غـزوةِ بَـني الْمُصْطَلِقِ، وقد جَمَعُوا له ليُقاتِلوا، فالتَقَوا على مائِهم فهزَمَهم اللهُ وسَبَى رسـولُ الله ﷺ أبناءَهم ونساءَهم ورجعَ، فلما نَزَلَ مَنْزِلاً في الطريقِ اختصمَ رجلٌ مـن أصحـاب عبدِالله بن أبَيٍّ ورجلٌ من المخلصِين غفَّاري يقالُ له جَهْجَاهُ، فلطمَ الغفاريُّ صـاحبَ عبدِالله بن أبَي، فغضبَ عبدُالله وقـالَ: مَـا صَحِبْنَـا مُحَمَّـداً إلاَّ لِتُلْطَـمَ، ثـم نظـرَ إلى أصحابهِ قال: لقد أمرتُكم أن تكفُّوا طعامَكم عن هذا الرجلِ ومَن معه حتـى يتفرَّقـوا فلم يفعلوا، واللهِ لئن رجَعنا الى المدينةِ ليُخْرِجَنَّ الأعـزُّ منـها الأذلَّ، فقـال الغفـاريُّ: أتَقُولُ مِثْلَ هَذا ؟! وَاللهِ لَئِنْ شِئْتُ لأَلْطُمَنَّكَ، قال عبدُالله: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأكُلْكَ! فقـال زيدُ بن أرقم وكان غُلاماً حديثَ السنِّ: يَا عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّ رَسُولِهِ، أتَقُولُ هَذا؟! وَاللهِ لأُبَلِّغَنَّ رَسُولَ اللهِ مَا قُلْتَ.

ثم انطلقَ إلى النبيِّ ﷺ وأعلمَهُ وعنده عمرُ ﷺ، فقال عمرُ: يَـا رَسُـولَ اللهِ مُـرْ عَبَّادَ بْنَ قَشْ فَيَقْتُلَهُ، فَقَالَ: [يَا عُمَرُ إذاً يُحَدِّثُ النَّاسُ أنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أصْحَابَهُ] فبلغَ عبدَالله بن أبَي ما قالَ زيدُ بـن أرقـم، فمشَـى إلى النـبيِّ ﷺ ومعـه أشـرافُ الأنصـار يصَدِّقونه ويكذِّبون زيداً ويقولون: يُخْشَى أنْ يَكُونَ زَيْـدٌ قَـدْ وَهِـمَ، وكـان أبـنُ أبَـيٍّ يحلفُ باللهِ ما قالَ ذلك، فقالَ أسَيْدُ: يَا رَسُولَ اللهِ ارْفِقْ بعَبْدِاللهِ، فَوَاللهِ لَقَـدْ جَـاءَ اللهُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣١٩٠ و١٣١٩١).

تَعَالَى بكَ وَإنَّ قَوْمَهُ لَيَتَوَّجُونَهُ، فَهُوَ يَرَى أنَّكَ سَلَبْتَهُ مُلْكاً عَظِيماً. فَسَاءَ رَسُولَ اللهِ يَوْمَهُ ذلِكَ حَتَّى أمْسَى، وَلَيْلَتَهُ حَتَّى أصْبَحَ وَنَزَلَ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ فِي قَوْلِ ابْنِ أبَيٍّ (وَهَمُّوا بمَا لَمْ يَنَالُوا) وَنَزَلَ (للهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[١].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ ﴾ ؛ معناهُ: وما طَعَنُوا على النبيِّ ﷺ وأصحابهِ إلاَّ أنْ أغنَاهم اللهُ من فضلهِ وأغناهم رسولهُ، وذلك أن رسولَ اللهِ ﷺ قَدِمَ إلى المدينةِ وكان أهلُها من شدَّة العيشِ لا يركبون الخيلَ، ولا يحوزُونَ الغنيمةَ، فلما قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ استغنَوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ ﴾ ؛ أي إنْ يتُوبوا من النِّفاق يكن خيراً لَهم في الدُّنيا والآخرة، ﴿ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ وإنْ يُعرضوا عن التوبةِ يُعذِّبْهمُ اللهُ في الدنيا بالقتلِ، ويقالُ: بإظهار حالهم في الآخرةِ بالنار، ﴿ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي وما لهم في الأرضِ مِن حافظٍ يحفظُهم، ولا دافعٍ يدفعُ عنهم عذابَ اللهِ، قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ الْجَلاَّسُ بْنُ سُوَيدٍ: يَا رَسُولَ اللهِ أسْمَعُ اللهَ قَدْ عَرَضَ عَلَيَّ التَّوْبَةَ، صَدَقَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ فِيْمَا قَالَ لَكَ، وَأنَا أسْتَغْفِرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأتُوبُ إلَيْهِ. فَقَبلَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ تَابَ وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ عَاهَدَ اللهَ وَهُوَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ، كَانَ لَهُ مَالٌ بالشَّام فَأبْطَئَ عَلَيْهِ، فَجَهدَ لِذلِكَ جُهْداً شَدِيداً، فَحَلَفَ باللهِ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ يَعْنِي الْمَالَ الَّذِي لَهُ بالشَّام لَنَصَّدَّقَنَّ مِنْهُ، وَلَنَصِلَنَّ الرَّحِمَ وَلَنُؤَدِّيَنَّ مِنْ حَقِّ اللهِ، وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُقِيمِينَ لِفَرَائِضِ اللهِ، فَآتَاهُ اللهُ الْمَالَ الَّذِي كَانَ لَهُ بالشَّامِ، فَبَخِلَ بمَا وَعَدَ وَلَمْ يَفْعَلْ مَا عَاهَدَ اللهَ عَلَيْهِ)[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: تفسير الآية ٨ من سورة المنافقين: الحديث (٢٦٤٨١).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٠٣) من طريقين.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٠٤).

وعن أبي أمامة الباهلي: أنَّ ثَعْلَبَةَ بْنَ حَاطِبٍ جَاءَ إِلَى رَسُول اللهِ فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ أدْعُ اللهَ أنْ يَرْزُقَنِي مَالاً، فَقَالَ لَهُ: [وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ! قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لاَ تُطِيقُهُ] ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أدْعُ اللهَ أنْ يَرْزُقَنِي مَالاً، فَقَالَ: [وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ! أمَا تَرْضَى أنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلَ نَبِيِّ اللهِ] فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ لَوْ سَأَلْتَ اللهَ أنْ يُسَيِّلَ عَلَى الْجِبَال ذهَباً وَفِضَّةً لَسَالَتْ، يَا رَسُولَ اللهِ أدْعُ اللهَ أنْ يَرْزُقَنِي مَالاً، فَوَاللهِ لَئِنْ آتَانِي اللهُ مَالاً لأُوتِيَنَّ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَقَالَ ﷺ: [اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالاً] ثلاَثَ مَرَّاتٍ.

فَاتَّخَذ غَنَماً فَنَمَتْ حَتَّى ضَاقَتْ بِهَا أزِقَّةُ الْمَدِينَةِ فَتَنَحَّى بِهَا، وَكَانَ يَشْهَدُ الصَّلَوَاتِ مَعَ رَسُول اللهِ ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَيْهَا، ثُمَّ نَمَتْ حَتَّى تَعَذرَتْ بِهَا مَرَامِي الْمَدِينَةِ فَتَنَحَّى بِهَا، وَكَانَ يَشْهَدُ الْجُمَعَ مَعَ رَسُول اللهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَيْهَا، ثُمَّ نَمَتْ فَتَرَكَ الْجُمَعَ وَالْجَمَاعَاتِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ (١) اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلَيْنِ عَلَى الصَّدَقَاتِ، رَجُلاً مِنَ الأنْصَار وَرَجُلاً مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، وَكَتَبَ لَهُمَا الصَّدَقَةَ وَأسْنَانَهَا وَأمَرَهُمَا أنْ يَأْخُذا مِنَ النَّاس، فَأتَيَا ثَعْلَبَةَ، قَالَ لَهُمَا: خُذا مِنَ النَّاسِ فَإذا فَرَغْتُمَا فَمُرَّا عَلَيَّ، فَفَعَلاَ فَقَالَ: مَا هَذِهِ إلاَّ أخْتُ الْجِزْيَةِ! فَانْطَلَقَا إِلَى رَسُول اللهِ ﷺ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

فَرَكِبَ عُمَرُ رَاحِلَتَهُ، وَمَضَى إِلَى ثَعْلَبَةَ، وَقَالَ: وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ! هَلَكْتَ قَدْ أنْزَلَ اللهُ فِيكَ كَذا وَكَذا، فَأقْبَلَ ثَعْلَبَةُ يَبْكِي وَيَحْثُو التُّرَابَ عَلَى رَأسِهِ وَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ صَدَقَتِي، فَلَمْ يَقْبَلِ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَتَهُ حَتَّى قُبضَ، ثُمَّ أتَى إِلَى أبِي بَكْرٍ ﷺ فَلَمْ يَقْبَلْ صَدَقَتَهُ، ثُمَّ أتَى عُمَرَ ﷺ فَلَمْ يَقْبَلْ صَدَقَتَهُ، فَمَاتَ فِي خِلاَفَةِ عُثْمَانَ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ عُثْمَانُ صَدَقَتَهُ(٢).

---

(١) التوبة / ١٠٣.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٠٥)، وفيه أبو عبدالملك علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف من جهة حفظه. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٤٠٨).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي أعقبَهم ببخلُهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم جَزَاءِ البُخلِ. وَقِيْلَ: معناهُ: فجازَاهم ببُخلهم نِفَاقاً في قُلوبهم بما أخلَفُوا اللهَ؛ أي بإخلافِهم بما وعَدُوا من التصدُّق وكذِبهم فيما قالوا. وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: أوْرَثَهُمُ اللهُ النِّفَاقَ فِي قُلُوبهِمْ بأنْ حَرَمَهُمُ التَّوْبَةَ كَمَا حَرَمَ إبْلِيسَ). قالوا: وإنَّما أرادَ اللهُ بهذا بأنَّ اللهَ تعالى دلَّنا على أنه لا يتوبُ، كما دلَّنا حالُ إبليس لأنه لا يتوبُ؛ لأن اللهَ سَلَبَ عنه قدرةَ التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ) معناهُ على قول الحسنِ وقتادة: (إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَ اللهَ) أي يلقَون اليومَ الذي لا يملكُ فيه الحكمَ والضرَّ والنفعَ إلا اللهَ، وفي هذه الآيةِ دلالةٌ على أن مَن نَذرَ نذراً فيه قربةٌ يجوز أن يقولَ: إنْ رزقَني اللهُ ألفَ درهمٍ فعليَّ أنْ أتصدَّقَ بخمسمائةٍ لَزمَهُ الوفاءُ به، وفيها دلالةُ جواز تعليق النذر بالشَّرط نحوَ أن يقولَ: إنْ قَدِمَ فلانٌ فلِلَّهِ علَيَّ صيامٌ وصدقة، وإنْ ملكتُ عَبداً، أو هذا العبدَ فعلَيَّ أنْ أعتِقَهُ، وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [ثلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإنْ صَلَّى وَصَامَ: مَنْ إذا حَدَّثَ كَذبَ، وَإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وَإذا عَاهَدَ غَدَرَ][(١)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ ألم يعلم المنافقون أنَّ اللهَ يعلمُ ما يُسِرُّونَ من الكفرِ، وما يُناجُونَ فيه فيما بينهم، وأنَّ الله عالِمٌ بكلِّ شيء خفِيٍّ على العبادِ، وهذا استفهامٌ بمعنى التوبيخ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ خطَبَ ذاتَ يَوْمٍ حِينَ أرادَ الْخُروجَ إلَى غَزْوَةِ تَبُوكٍ يَحُثُّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ، وَقَالَ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢١٣). وأصله في الصحيحين:[أربع]؛ أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الإيمان: باب علامة المنافق: الحديث (٣٤). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب خصال المنافق: الحديث (١٠٦/ ٥٨).

[اجْمَعُوا صَدَقَاتِكُمْ] فَجَاءَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ بأَرْبَعَةِ آلاَفِ دِرْهَمٍ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: [أكْثَرْتَ! هَلْ تَرَكْتَ لأَهْلِكَ شَيْئاً ؟] قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَانَ لِي ثَمَانِيَةُ آلاَفٍ، فَأَمْسَكْتُ أرْبَعَةً لِنَفْسِي وَعِيَالِي وَهَذِهِ أرْبَعَةُ آلاَفٍ لأُقْرِضَهَا رَبِي، فَقَالَ ﷺ [بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيمَا أمْسَكْتَ وَفِيمَا أعْطَيْتَ] فَبَارَكَ لَهُ حَتَّى بَلَغَ مَالَهُ حِينَ مَاتَ، وَطَلَّقَ إحْدَى نِسَائِهِ فِي مَرَضِهِ وَصَالَحُوهَا عَنْ رُبُعِ ثَمَنِهَا عَلَى ثَمَانِينَ ألْفاً.

وَبَعْدَهُ جَاءَ عُمَرُ ﷺ بنَحْوٍ مِنْ ذلِكَ، وَجَاءَ عُثْمَانُ ﷺ وَصَدَقَتُهُ، وَجَاءَ عَاصِمُ ابْنُ عَدِيٍّ الأنْصَارِيُّ بسَبْعِينَ وسْقٍ مِنْ تَمْرٍ، وَجَاءَ أبو عَقِيلٍ بصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَيْلَتِي كُلُّهَا أجُرُّ بالْحَرِيرِ حَتَّى أصَبْتُ ثُلُثَ صَاعَيْنِ، أمَّا أحَدُهُمَا فَأَمْسَكْتُهُ لِعِيَالِي، وَأمَّا الآخَرُ فَأُقْرِضُهُ رَبِي، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَشُدَّهُ فِي الصَّدَقَةِ. فَطَعَنَ فِيهِمُ الْمُنَافِقُونَ وَقَالُوا: وَاللهِ مَا جَاءَ هَؤُلاَءِ بصَدَقَاتِهِمْ إلاَّ رِيَاءً وَسُمْعَةً، وقَالُوا فِي أبي عَقِيلٍ: إنَّهُ جَاءَ لِيُذكِّرَ بنَفْسِهِ وَيُعْطَى مِنَ الصَّدَقَةِ أكْثَرَ مِمَّا جَاءَ بهِ، وَإنَّ اللهَ أغْنَى عَنْ صَاعِ أبي عقِيلٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(١). ومعنَاها: الذين يَعِيبُونَ الْمُطَّوِّعِينَ من المؤمنين في الصَّدقاتِ وهم المنافقون عَابُوا عمرَ وعثمانَ وعبدَالرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إلاَّ جُهْدَهُمْ) أي ويُعيبون على الذين لا يَجِدون إلاَّ جُهدَهم؛ أي طاقتَهم من الصَّدقاتِ، عابُوا الْمُكْثِرَ بالرِّياءِ، والْمُقِلَّ بالإقْلال. والْجُهْدُ بالضمِّ والنصب لُغتان بمعنى واحد، ويقالُ: الْجَهْدُ بالنصب المشقَّة، والْجُهْدُ بالضمِّ الطاقةُ، وَقِيْلَ: الْجَهدُ بالعملِ والْجُهد في القوَّة، قرأ عطاءُ والأعرج (جَهْدَهُمْ) وهما لُغتان مثل الوُجْدِ والوَجدِ، فالضمُّ لغةُ أهلِ الحجاز، والفتح لغة أهلُ نَجْدٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي يستهزؤن بهم، ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي يُجازيهم جزاءَ سخريتهم، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي وجيعٌ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٣٣) وهو إدراج للأحاديث (١٣٢٢٠-١٣٢٣٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ﴾ ؛ وذلك لَمَّا نزلت هذه الآيةُ التي قبلَ هذه أتى المنافقون إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يَا رَسُولَ اللهِ اسْتَغْفِرْ لَنَا، فَكَانَ الطَيْلاٌ يَسْتَغْفِرُ لِقَوْمٍ مِنْـهُمْ عَلَى ظَاهِرِ إسْلاَمِهِمْ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ بِنِفَاقِهِمْ، وَكَانَ إذا مَاتَ أحَدٌ مِنْهُمْ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ الدُّعَاءَ وَالاسْتِغْفَارَ لِمَيِّتِهِمْ، فَكَانَ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ عَلَى أنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، فَأَعْلَمَهُ اللهُ بأنَّهُم مُنَافِقُونَ، وَأخْبَرَ أنَّ اسْتِغْفَارَ النَّبِيِّ ﷺ لاَ يَنْفَعُهُمْ، فذلك قولُهُ: (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) وهذه اللفظةُ لفظَةُ الأمرِ، ومعناهُ الخبر؛ أي إنْ شِئْتَ استغفرتَ لهم، وإنْ شئتَ لا تستغفِرْ، فإنَّكَ إن استغفرتَ لهم سبعين مرَّة لن يغفرَ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ ﴾ ؛ في بيانِ العلَّة التي لأجلِها لا ينفعُهم استغفار الرسول ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠ ﴾ ؛ أي لا يوفِّقُهم ولا يرشدهم إلى جنَّتِهِ وثوابِهِ وكرامته، وأما تخصيصُ (سَبْعِينَ مَرَّةً) بالذكرِ فهو لتأكيدِ نفي المغفرةِ بهذا؛ لأن الشيءَ إذا بُولِغَ في وصفِهِ أُكِّدَ بالسَّبع والسبعين، وهذه كما يقولُ القائل: لو سألتَني حاجتَكَ سبعين مرَّةً لم أقضِها، لا يريدُ أنه إذا أزادَ على السَّبعين قضَى حاجتَهُ، ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: [لَوْ عَلِمْتُ أنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ لَغُفِرَ لَهُمْ لَزِدْتُ عَلَيْهَا][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي فرحَ المخلَّفون عن غزوةِ تبوك بقعُودِهم لمخالفةِ رسول الله ﷺ، وقيل بقعودِهم عن الجهاد بعد النبيِّ ﷺ،وقرأ عمرُو بن ميمون (خَلْفَ رَسُولِ اللهِ) والمخلَّفُ ما يتركُ الإنسانُ خَلْفَهُ، والمتخلِّفُ الذي يتأخَّرُ بنفسه، والخلافُ قد يكون بمعنى المخالَفةِ، وقد يكون بمعنَى خلف، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَإذاً لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إلاَّ قَلِيلاً﴾[2]، ويقرأ خلافك على المعنيَين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي كَرِهوا أن يقاتِلُوا المشركين مع رسولِ الله ﷺ بأموالِهم وأنفسِهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٥٠٧).

(٢) الاسراء / ٧٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ﴾ ؛ أي قالَ بعضُهم: لا تخرجُوا فإن الحرَّ شديدٌ والسفرَ بعيدٌ، وكانوا يُدعَون إلى غزوةِ تبوك في وقتِ نُضْجِ الرُّطَب وهو أشدُّ ما يكون من الحرِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ ؛ أي قُل لَهم نارُ جهنَّم التي استحقُّوها بتركِ الخروج الى الجهاد أشدُّ حرّاً من هذا الحرِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي لو كانوا يفقَهُون أوامرَ اللهِ ووعدَهُ ووعيدَه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ أي فليضحَكُوا قليلاً لأنَّ ذلك لا يبقى، وليَبْكُوا كثيراً في الآخرةِ في النار، وهذا اللفظُ أمْرٌ، ومعناهُ الخبر. وَقِيْلَ: تقديرهُ: فليضحَكُوا قليلاً فيبكون كثيراً، قال أبو موسى الأشعري: (إنَّ أهْلَ النَّار لَيَبْكُونَ الدُّمُوعَ فِي النَّار حَتَّى لَوْ جَريَتِ السُّفُنُ فِي دُمُوعِهِمْ لَجَرَتْ، ثُمَّ إنَّهُمْ لَيَبْكُونَ الدَّمَ بَعْدَ الدُّمُوع).

قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ أهْلَ النِّفَاق لَيَبْكُونَ فِي النَّار عُمْرَ الدُّنْيَا، فَلاَ يَرقُّ لَهُمْ دَمْعٌ وَلاَ يَكْتَحِلُونَ بنَوْمٍ)، قال ﷺ: [يُرْسِلُ اللهُ الْبُكَاءَ عَلَى أهْلِ النَّار فَيَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ، ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّى يُرَى وُجُوهَهُمْ كَهَيْئَةِ الأُخْدُودِ]، وقال النبيُّ ﷺ: [لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ ؛ معناهُ: إنْ رجعَك اللهُ من تبوك، إلى طائفةٍ من المنافقين بالمدينة فاستأذنُوكَ للخروجِ معك الى غزوةٍ أخرى فقل: لن تَخرجُوا معي أبداً إلى الجهادِ، ولن تقاتِلُوا معي عدُوّاً، ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ؛ أي في غزوةِ تبوك، ﴿ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي مع النِّساءِ والصبيان، هذا قولُ الحسنِ.

والْخَالِفُ الذي يبقَى بعد الشَّاخِصِ، وَقِيْلَ: هو الذي يبقَى لنقصٍ يكون فيه. وعن ابنِ عبَّاس أن معنى الْخَالِفِين: (الْمُتَخَلِّفِينَ بغَيْر عُذْرٍ)، وَقِيْلَ: إنَّ هذا مأخوذٌ من قولِهم خَلَفَ اللَّبَنُ إذا فَسَدَ، والخَالِفُ الفاسدُ، وقيل الخالِفون خُسَّاسُ الناس

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع: كتاب الزهد: الحديث (٢٣١٣)، وقال حديث صحيح.

وأدنياؤهم، ويقال فلان خَالَفَهُ أهلهُ إذا كـان دونـهم، وَقِيْـلَ: مـع الخـالِفين أي أهـلِ الفساد من قولِهم يَنْبذٌ خَالِفٌ أي فاسدٌ، وخلَفَ اللبنُ خُلُوفـاً إذا حَمِـضَ مِـن طُـول وضعهِ في السقاءِ، وخَلَفَ فمُ الصَّائمِ اذا تغيَّرت رائحتهُ. وقرأ مـالكُ بـن دينـار (مَـعَ الْخَلِفِينَ) بغيرِ ألف، وقال الفرَّاء: يقالُ عبدٌ خَالِفٌ وصاحبٌ خَالِفٌ إذا كان مُخَالفاً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ ؛ أي لا تُصَلِّ على أحدٍ ماتَ من المنافقين أبداً، ولا تَقُمْ على قبرِ أحدٍ منهم لتدفِنَهُ وتدعـو له، ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ وجحدوا بالله ورسوله بقلوبهم، ومـاتوا علـى الكفرِ والنفاق، وقال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا مَرِضَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبِي سَلُول بَعَثَ إلَـى رَسُـول اللهِ ﷺ لِيَأْتِيَهُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ طَلَبَ مِنْهُ أنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ إذا مَاتَ، وَأنْ يَقُومَ عَلَى قَبْرِهِ، وَأنْ يُكَفِّنَهُ فِي قَمِيصِهِ الَّذِي يَلِي جِلْدَهُ، فَقَبلَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا مَاتَ عَبْـدُاللهِ انْطَلَـقَ ابْنُهُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَدَعَاهُ إلَى جِنَازَةِ أبيهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَا اسْمُكَ؟] قَالَ: الْحَبَّابُ بْنُ عَبْدِاللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أنْتَ عَبْدُاللهِ بْنُ عَبْدِاللهِ، إنَّ الْحَبَّابَ هُوَ الشَّيْطَانُ].

ثُمَّ انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ، فَلَمَّا قَامَ ﷺ لِيُصَلِّـيَ عَلَيْـهِ، قَـالَ عُمَـرُ ﷺ: يَـا رَسُولَ اللهِ أتُصَلِّي عَلَى عَدُوِّ اللهِ الْقَائِلِ يَوْمَ كَذا وَكَذا ؟! فَقَالَ: [دَعْنِي يَا عُمَرُ] فَعَادَ عُمَرُ لِمَقَالَتِهِ، فَقَالَ ﷺ: [دَعْنِي يَا عُمَرُ] فَعَادَ لِمَقَالَتِهِ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: [قَدْ خُيِّرْتُ فِـي ذلِكَ، وَلَوْ عَلِمْتُ أنِّي إذا اسْتَغْفَرْتُ لَهُ أكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً غُفِرَ لَـهُ لَفَعَلْـتُ] وَقَـالَ: [تَأخَّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ] قَالَ عُمَرُ: فَعَجِبْتُ مِنْ جُرْأتِي عَلَـى رَسُـول اللهِ ﷺ فَـأنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ (وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أبَداً) يعني بعدَ ما صلَّيتَ علـى عبـدِالله بـن أبي.

ورُوي أنَّ عَبْدَاللهِ بنَ أبَيٍّ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ بَعَـثَ إلَـى النَّـبِيِّ ﷺ يَسْـألُهُ أحَـدَ ثَوْبَيْهِ يُكَفَّنُ فِيهِ، فَبَعَثَ إلَيْهِ بأحَدِهِمَا، فَقَالَ: مَا أريدُ إلاَّ الَّذِي يَلِي جِلْدَكَ مِـنْ ثِيَـابك، فَوَجَّهَ إلَيْهِ بذلِكَ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذلِكَ، فَقَالَ ﷺ: [إنَّ قَمِيصِي لَنْ يُغْنِـي عَنْـكَ مِـنَ اللهِ شَيْئاً، وَعَسَى أنْ يُسْلِمَ بسَبَب هَذا الْقَمِيصِ خَلْقٌ كَثِيرٌ] فَأسْلَمَ ألفٌ من الخوارجِ! لَمَّـا

راْوْهُ يطلبُ الاستشفاعَ بثوب رسولِ الله ﷺ[(١)].

قال ابنُ عبَّاس:(اللهُ أعْلَمُ أيُّ صَلاَةٍ كَانَتْ تِلْكَ وَمَا خَادَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إنْسَاناً قَطُّ)، وقال مقاتلُ: (إنَّ النَّبيَّ ﷺ أرَادَ أنْ لاَ يُصَلِّيَ عَلَى عَبْدِاللهِ بْن أبَيٍّ، جَاءَ إلَيْهِ ابْنُـهُ فَقَالَ: أنْشُدُكَ باللهِ أنْ لاَ تُشَمِّتْ بيَ الأَعْدَاءَ، وَكَانَ ابْنُهُ مُؤْمِنـاً حَقّـاً، فَـأنْزَلَ اللهُ هَـذِهِ الآيَةَ، فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ). وعن رسولِ الله ﷺ: أرَادَ أنْ يُصَلِّيَ عَلَيْـهِ فَأخَذَ جِبْرِيلُ بثَوْبهِ، فَقَالَ: (وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أبَداً).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي مـاتُوا علـى الكفـرِ والنفاق، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ ما صلَّى رسولُ الله ﷺ بعدَها على منافقٍ ولا قامَ على قبرِهِ حتى قُبضَ، وكلَّم رسولُ الله ﷺ في ما فعل بعبدِالله بن أُبَي، فقالَ: [وَمَـا يُغْنِـي عَنْهُ قَمِيصِي وَصَلاَتِي مِنَ اللهِ، واللهِ إنِّي كُنْتُ أرْجُو أنْ يُسْلِمَ بِهِ ألْفٌ مِنْ قَوْمِهِ][(٢)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ ؛ أي لا تعجبْكَ كثرةُ أموالهم وأولادِهم في الدُّنيا، إنما يريـدُ الله أن يعذِّبَهم بها، ويخرجَ أرواحَهم بصعوبـةٍ، ﴿ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ هـذا على التقديمِ والتأخير في الآيةِ على ما تقـدُّم ذكـرِهِ، فأمـا التـأويلُ علـى نَظْـمِ الآيـةِ، فمعناهُ: إنما يريدُ الله أن يعذِّبَهم بها في الدُّنيا بالتشـديدِ عليـهم في التكليـف بالإنفـاقِ والأمرِ بالجهاد.

فإنْ قِيْلَ: لِمَ أعادَ قولَهُ (وَلاَ تُعْجِبْكَ أمْوَالُهُمْ وَأوْلاَدُهُـمْ)؟ قِيْـلَ: فيـه قـولان: أحدُهما بشدَّة التحذيرِ عن الاغترار بالأموال والأولاد، والثاني: أنه أرادَ بالأول قَوْماً من المنافقين، وأرادَ بالثاني قوماً آخَريـن منـهم، كمـا يقـالُ: لا تعجِبْـك أمـوالُ زيـدٍ وأولادهُ، ولا تعجبك أموالُ عمرٍو وأولادهُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٥٥-١٣٢٦٢). وأصل هذه الأحـاديث أخرجـه البخاري في الصحيح: كتاب التفسـير: بـاب استغفر لهـم أو لا: الحديـث (٤٦٧٠). ومسـلم في الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: الحديث (٢٥/ ٢٤٠٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٦١) مرسلاً من حديث قتادة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي إذا أنزلت من القرآن قِطْعَةٌ مشتملةٌ على آياتٍ أحاطَت بها أن آمِنُوا باللهِ أي صدِّقوا وداومُوا على الإيمان وجاهِدُوا الكفارَ مع رسول الله ﷺ استأذنكَ في القعودِ عن الجهاد ذوُو السَّعةِ والغِنَى منهم، ﴿ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا ﴾ ؛ دَعْنا وَاذنْ لنا، ﴿ نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ عن الجهادِ. والطَّوْلُ في الحقيقة هو الْفَضْلُ الذي يتمكَّن به من مُطاوَلةِ الأعداءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ ؛ أي رَضِيَ المنافقون بأنْ يكونوا في تخلُّفِهم عن الجهادِ مع النساءِ المتخلِّفات في الحيِّ بعد غزوةِ أزواجهنَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ يعني الطبعُ في اللغة جعلُ الشيءِ كالطَّابعِ نحو طَبْعِ الدِّينار والدرهم، ويجوز أنْ يكون الطبعُ على القلب علامةً يَقْفِلُ اللهُ بها قلبَ الكافرِ المعاند ليعلمَ من يطَّلعُ عليه من الملائكةِ أنه لا يجتهدُ في طلب الحقِّ، فهُم لا يفقهون أوامرَ اللهِ ونواهيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ لكن الرسولُ مُحَمَّد ﷺ والذين آمَنُوا معه، وهم أهلُ اليقين من الصحابةِ، جاهَدُوا بأموالهم وأنفسِهم على ضدِّ ما فَعَلَ المنافقون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون معناه: أولئكَ لهم الحسَناتُ المقبولات، فإن الخيرات منافعُ تسكنُ النفس إليها، ويجوز أن يكون معناهُ: الزَّوجاتُ الحسنات في الجنَّة، كما قال اللهُ فيهن ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾[1] واحدةُ الخيرات خَيْرَةٌ، وهي الفاضلةُ في كلِّ شيء، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي الظَّافرون بالْمُرادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ أي أعدَّ اللهُ لهم في الجنَّة بساتين تجري من تحتِها وشجرِها ومساكنها الأنهارُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ؛ أي مُقيمين دائمين فيها لا يَموتون ولا يُخرَجون منها، ﴿ ذَٰلِكَ

---

(١) الرحمن / ٧٠ .

ﮋ ﭐﻟۡﻔَﻮۡﺯُ ﭐﻟۡﻌَﻈِﻴﻢُ ﴿٨٩﴾ ﮊ ؛ أي هو النجاةُ الوافرة، فازُوا بالجنَّة ونعيمِها، ونَجَوا من النار وجَحيمِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ ﴾ ؛ قرأ ابنُ عبَّاس والضحاك ومجاهد: (الْمُعْذِرُونَ) بالتخفيفِ وهم الذين اعتذرُوا؛ أي جاؤُا بالعُذْر، وأمَرَهم رسولُ الله بالتخلُّف بعُذرهم وهم من المخلَّفين، وَقِيْلَ: الْمُعْذِرُونَ بالتخفيفِ المبالِغُون في العُذر، كان ﷺ يقول: [لَعَنَ اللهُ الْمُعَذِّرُونَ][1] بالتشديدِ يعني الذين يقبلون في التخلُّف بلا علَّة يُوهِمُونَ أنَّ لهم عذراً، ولا عُذرَ لهم، والتعذيرُ التقصيرُ في الشيءِ مع طلب العُذر.

وأما القراءةُ المشهورة (الْمُعَذِّرُونَ) بالتشديد فمعناها ما تقدَّم يعني الْمُقَصِّرِينَ، قال الفرَّاء: (أصْلُهُ الْمُعْتَذِرُونَ، فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الذالِ وَنُقِّلَتْ حَرَكَةُ التَّاءِ إلَى الْعَيْنِ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ ﴾ ؛ قرأ العامَّة (كَذبُوا) مخففاً يعني المنافقين قعدَت طائفةٌ منهم من دون أنْ يعتذروا، وقرأ أبَي والحسن: (كَذَّبُوا) بالتشديد، وقوله تعالى: ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ يجوز أن تكون الفائدةُ في دخولِ (مِنْ) بيانُ أنَّ منهم مَن يسلَمُ، ومنهم من يموتُ على كُفرهِ ونفاقهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ ﴾ ؛ أي ليس على الْمَرْضَى والشُّيوخ الكبار، ولا على المرضَى الذين لا يقدِرون على الخروج إلى الجهادِ، ولا على الذين لا يكون عندَهم نفقةٌ يُنفِقونَها في الجهادِ وهم الفقراءُ، ليس عليهم مَأْثمٌ في القعودِ عن ذلك إذا كان قعودُهم على وجهِ النُّصحِ للهِ ورسوله، وهو إنْ سَعَوا في

---

(١) في الدر المنثور: ج ٤ ص٢٦٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن الأنباري في الأضداد عن ابن عباس)).

(٢) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص٤٧٧ وذكره بمعناه.

إصلاحِ ذات البَينِ وما يرجعُ على الجهادِ، ولا يكون قعودُهم للتثريب على المسلمين وإفسادِ شيءٍ من أمرهم. والنُّصْحُ: إخراجُ الغِشِّ عن العملِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ ؛ أي ما على الْمُطِيعِينَ الموحِّدين من سبيلٍ في العقاب، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ ؛ لذنوبهم، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ إذ أرْخَصَ لهم في القعودِ بالعُذر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ ؛ أي وليس على الذين إذا ما أتَوكَ لتَحمِلَهم إلى الجهادِ بالنَّفقةِ، ﴿ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، فهؤلاءِ ليس عليهم حرجٌ في القعودِ عن الجهاد، قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي سَالِمِ بْنِ عُمَيرِ وَعَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ وَعَمْرو بْنِ الْحَضْرَمِيِّ وَعُبَيْدِاللهِ ابْنِ كَعْبٍ وَعَبْدِ بْنِ مُغَفَّلٍ وَمَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ وَصَخْرِ بْنِ سَلَمَةَ الَّذِي كَانَ وَقَعَ عَلَى امْرَأَتِهِ فِي رَمَضَانَ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يُكَفِّرَ، وَنَفَرٌ مِنْ بَنِي مُزَيْنَةَ مِنْ أهْلِ الْحَاجَةِ، أتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ نُدِبْنَا لِلْخُرُوجِ مَعَكَ، فَاحْمِلْنَا لِنَغْزُو مَعَكَ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ رَسُول اللهِ ﷺ مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ: [لاَ أجِدُ مَا أحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ] فَتَوَلَّوا وَهُمْ يَبْكُونَ)[1] فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ وقال الحسنُ: (نَزَلَتْ فِي أبي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ وَجَمَاعَةٍ مِنَ الأشْعَرِيِّينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ﴾ معناهُ: إنَّما السبيلُ في العقاب على الذين يَستأْذِنُونكَ في القُعودِ عنكَ وهم أغنياءُ، ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ ؛ أي مع النِّساءِ، ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ مُجَازَاةً لهم على فِعلِهم، ﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ أوامرَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٢٨٤). وفي الدر المنثور: ج ٤ ص٢٦٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن إسحق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الزهري)) بطرق وذكره. وقال أيضاً: ((أخرجه ابن مردويه عن مجمع بن الحارثة... وذكره)) وتنوع ذكر أسمائهم.

قولهُ: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي يَعْتَذِرُ المنافقون إليكم إذا انصرَفتُم إليهم من هذهِ الحرب في قعُودِهم على الجهاد، ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ ﴾ ؛ فإنه[1] بصير بكم وهو اللهُ تعالى، ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ ؛ لن نُصَدِّقَكُمْ، ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ ؛ قد أخبرنا الله من أسراركم أنه ليس لكم عذرٌ، ﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي يُظهرُ، ﴿ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم ﴾ ؛ ما غابَ عن العبادِ، وما عَمِلَهُ العبادُ فيَجزِيكم، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ من الخيرِ والشرِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي سيحلفُ المنافقون باللهِ في ما يعتذِرُون إليكم إذا رجعتُم إليهم لتُعرضُوا عنهم، ﴿ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ ؛ فلا تُعاقِبُوهم على جهةِ الْهَوَان لهم، ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ ؛ أي هم النَّتَنُ الذي يجبُ الاجتناب عنه فاجتنِبُوهم، ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ ومصيرُهم جهنَّمُ، ﴿ جَزَآءَۢ ﴾ ؛ لهم على فعلِهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي يحلِفُون لكم في الاعتذار لترضَوا عنهم أنتُم من دون أنْ يطلبُوا رضَى اللهِ، ﴿ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ﴾ فإن أنتَ رضيتَ يا مُحَمَّدُ والمؤمنون بحلفِهم الكاذب، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي عن الخارجِين عن طاعةِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ ؛ أرادَ بالأعراب أسَداً وغَطفَانَ، بيَّن اللهُ أنَّهم في كفرهم ونفاقِهم أشدُّ من مُنافِقي أهلِ المدينة. وَقِيْلَ: معناهُ: أهلُ البَدْو أشدُّ كُفراً ونفاقاً من أهلِ الحضَر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ أي أحرَى وأولَى ألاَّ يعلَمُوا حدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسولِهِ؛ لأنَّهم أبعدُ من سماعِ التَّنْزيلِ وإنذار الرسول ﷺ، ولهذا قِيْلَ: إن مَن بَعُدَ من الأمصار ونَأى من حضرةِ العُلماءِ كان أجهلَ بالأحكامِ والسُّنن ممن جالسَهم ويسمعُ منهم، ولهذا لا إمامةَ لأعرابيٍّ في الصلاةِ.

---

(١) في المخطوط رسمها الناسخ بشكل قريب من (أي) و(أن) والمناسب ما أثبتناه والله أعلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾ معناه: ومِن الأعراب من يتَّخذُ ما ينفقُ في الجهاد يحسبهُ غَرماً، ولا يحتسبُ فيه الأجرَ ولا يرجو الثوابَ به، إنما ينفقُ خَوفاً أو رياءً، وينتظرُ بكم الموتَ والهلاك، ودوائرَ الزَّمانِ وصُرُوفَهُ، يعني أنَّهم ينتظرون أنْ ينقلبَ الزمانُ عليكم بموتِ رسول الله ﷺ وظهورِ المشركين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ ؛ أي عاقبةُ السَّوْءِ والهلاكِ، وإنما يتنظرُون بكم ما نَزَلَ بهم، والسَّوءُ بفتح السِّين المصدرُ، وبالضَّمِّ الاسمُ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المراد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ ؛ معناهُ: من الأعراب من يصدِّقُ باللهِ واليوم الآخر في السرِّ والعلانية، قِيْلَ: إنَّ المرادَ من هذه الآية أسْلَمَ وغفَّار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي يتخذُ نفقتَهُ في الجهادِ تقرُّباً إلى اللهِ تعالى في طلب المنْزلةِ عنده والثواب، وقوله تعالى: ﴿ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي يطلبُ بذلك دعاءَ الرسولِ ﷺ بالمغفرةِ وصلاحِ الدُّنيا والآخرة، كما يطلبُ المنْزلةَ عندَ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ ؛ هذه كلمةُ تنبيهٍ؛ أي سيقرِّبُهم الله بهذا الإنفاق إذا فعلوهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ ؛ أي في حَسَنَتِهِ وثوابهِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لذنوب العبادِ، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ لِمَن تابَ وأطاعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ ؛ أرادَ بالسَّابقِين الذين سَبَقوا إلى الإيمان، وهم الذين صَلَّوا إلى القِبلَتَين وشَهِدُوا بَدْراً، وقال الشعبيُّ: (هُمُ الَّذِينَ بَايَعُوا بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ بالْحُدَيْبِيَةِ)، وَقِيْلَ: هم الذينَ أنفقُوا قبلَ الهجرةِ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾[١].

---

(١) الحديد / ١٠ .

وإنَّما مَدَحَ السابقين لأن السابقَ إمامٌ للتالي، وقولهُ تعالى: (وَالأَنْصَـار) عطـفٌ على المهاجرين، وقرأ بعضُهم (وَالأَنْصَارُ) بالرفعِ عطفاً على السَّابقين، وعن عمر ﷺ: (وَالأَنْصَار الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ) بغيرِ الواو[1]، وسمعَ رجُلاً قـرأ (وَالَّذِيـنَ) بـالواو فقـالَ: (مَنْ أقْرَأكَ هَذِهِ الآيَةَ ؟ قَالَ: أبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، قَالَ: لاَ تُفَارِقْنِي حَتَّـى أذهَـبَ بـكَ إلَيْـهِ، فَلَمَّا أتَاهُ قَالَ لَهُ: يَا أبَيُّ أقْرَأتَهُ هَذِهِ الآيَةَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ عُمَـرُ ﷺ: كُنْـتُ أظُـنُّ أنَّـا ارْتَفَعْنَا رفْعَةً لاَ يَبْلُغُهَا أحَدٌ بَعْدَهَا، فَقَالَ أبَيٌّ: تَصْدِيقُ هَذِهِ الآيَـةِ أوَّلُ سُـورَةِ الْجُمُعَـةِ ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِـهِمْ﴾[2] وَأوْسَـطُ سُـورَةِ الْحَشْرِ ﴿وَالَّذِيـنَ جَـاءُوا مِـنْ بَعْدِهِمْ﴾[3])[4].

وقوله تعالى: (بِإِحْسَانٍ) والإحسانُ هو فعلُ الحسَنِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ ؛ أي رَضِـيَ اللهُ عنـهم بإحسـانِهم، ورَضُـوا عنـه بــالثَّواب والكرامةِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَعَـدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْـرِى تَحْتَهَـا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ في هذا الموضعِ بغيرِ (مِنْ) إلا ابنَ كثير فانـه يقـرأ (مِنْ تَحْتِهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ﴾ ؛ أي ومِن حـول مَدينَتِكم من الأعراب مُنافقون، قِيْلَ: إنَّهم مُزَينَةُ وجُهَيْنَةُ. وقولهُ تعـالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ؛ أي ومِن أهلِ مَدينتكم مُنافقون. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ أي أقـاموا وثَبَتُـوا علـى النفـاق، ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ﴾ ؛ يـا مُحَمَّـدُ بأعيانِــهم، ﴿ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ ؛ ونعلــمُ نِفَاقَــهم، ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ ؛ أرادَ العــذابَ الأول الفَضِيحَةَ والإخراجَ من المسجدِ، والعذابَ الثاني عذابَ القبرِ.

رُوي أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ خَطِيباً يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَالَ: [يَا فُلاَنُ أخْرُجْ فَإنَّكَ مُنَافِقٌ، يَا فُلاَنُ أخْرُجْ فَإنَّكَ مُنَافِقٌ] فَأخْرَجَهُمْ بأسْمَائِهِمْ. وَكَانَ عُمَرُ ﷺ لَمْ يَشْـهَدِ الْجُمُعَـةَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٣٠٤).

(٢) الآية/ ٣ . (٣) الآية / ١٠.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٣٠٥).

لِحَاجَةٍ لَهُ، فَلَقِيَهُمْ وَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاخْتَبَأَ عَنْهُمُ اسْتِحْيَاءً؛ لأَنَّهُ لَمْ يَشْهَدِ الْجُمُعَةَ، وَظَنَّ النَّاسُ قَدِ انْصَرَفُوا، وَاخْتَبَؤُا هُمْ عَنْ عُمَرَ ﷺ وَظَنُّوا أنْ قَدْ عَلِمَ بِأَمْرِهِمْ. فَدَخَلَ عُمَرُ الْمَسْجِدَ وَإذا هُوَ بِالنَّاسِ لَمْ يُصَلُّوا، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا عُمَرُ قَدْ فَضَحَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ.

وقال الحسنُ: (أرَادَ بالْعَذاب الأَوَّل السَّبْيَ وَالْقَتْلَ، وَبالثَّانِي عَذابَ الْقَبْرِ)[1]، وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾؛ أرادَ به عذابَ جهنَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾؛ أي في المدينة قَومٌ آخَرون أقَرُّوا بذنوبهم، خَلطوا عَملاً صالحاً بعملٍ سيِّء؛ أي تخلَّفوا عن الغزو ثم تابوا، ويقال: خرجُوا إلى الجهادِ مرَّةً وتخلَّفوا مرة، فجمَعُوا بين العملِ الصالح والعمل السيِّء، كما يقالُ: خَلَطَ الدنانيرَ والدراهمَ؛ أي جمعَها، وخلطَ الماءَ واللَّبنَ؛ أي أحدَهما بالآخرِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾؛ أي يتجاوزَ عنهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾؛ لِمَا سلفَ من ذُنوبهم ﴿ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾؛ بهم إذ قَبلَ توبتَهم. وإنما ذكرَ لفظ (عَسَى)؛ ليكون الإنسانُ بين الطمعِ والإشفاق، فيكون أبعدَ من الاتِّكالِ والإهمالِ.

قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي لُبَابَةَ بْنِ الْمُنْذِرِ وَأوْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ وَوَدِيعَةَ ابْنِ حُذامٍ وَغَيْرِهِمْ، وَكَانُوا عَشْرَةَ أنْفُسٍ، تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكٍ، فَلَمَّا بَلَغَهُمْ مَا أنْزَلَ اللهُ عَنِ الْمُتَخَلِّفِينَ نَدِمُوا عَلَى صَنِيعِهِمْ، فَرَبَطَ سَبْعَةٌ مِنْهُمْ أنْفُسَهُمْ عَلَى سَوَارِي الْمَسْجِدِ، وَأقْسَمُوا أنْ لاَ يَحُلُّوا أنْفُسَهُمْ حَتَّى يَكُونَ الرَّسُولُ ﷺ الَّذِي يَحُلُّهُمْ، وَكَانُوا لاَ يَخْرُجُونَ إلاَّ لِحَاجَةٍ لاَ بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا.

---

(١) أخرجه الطبري في المعجم الأوسط: ج ١ ص٤٤٢: الحديث (٧٩٦). والطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٣٠٩). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٣٣؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط وفيه العنقري وهو ضعيف)). وليس عندها عبارة: (وقال الحسن).

وَكَانُوا عَلَى ذلِكَ حَتَّى قَدِمَ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأُخْبِرَ بِأَمْرِهِمْ، فَقَالَ ﷺ: [وَأَنَا لاَ أحُلُّهُمْ حَتَّى أُؤْمَرَ بِهِمْ] فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فَعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أنَّ (عَسَى) مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ، وَأمَرَ بِحَلِّهِمْ وَانْطَلَقُوا إلَيْهِ، وَقَالُوا: هَذِهِ أمْوَالُنَا الَّتِي خَلَّفَتْنَا عَنْكَ، فَخُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهَا عَنَّا، فَقَالَ ﷺ: [مَا أُمِرْتُ فِيْهَا بِشَيْءٍ][1] فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ ؛ ظاهرُ الآيةِ يقتضي رجوعَ الكنايةِ في قولهِ: (خُذْ مِنْ أمْوَالِهِمْ) أي المذكُورين، وقيلَ: وهمُ الذين اعترَفُوا بذنوبهم، إلاَّ أنَّ كُلَّ حُكمٍ حَكَمَ اللهُ ورسولهُ في شخصٍ مِن عبادهِ، فذلك الحكمُ لازمٌ في سائرِ الأشخاصِ، إلاَّ ما قامَ دليلُ التخصيصِ به.

وَقِيْلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (خُذْ مِنْ أمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) ابتداءُ ذُكِرَ لجميعِ المسلمين لدلالةِ الحالِ على ذلك وإنْ لم يتقدَّم ذكرُ المسلمين كقوله تعالى: ﴿إنَّا أنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2] يعني القُرآنَ. ومعنى الآية: تُطهِّرُهم عن الذنوب وتُزكِّيهم بها؛ أي تُصلِحُ أعمالَهم. وَقِيْلَ: معناهُ: تُطهِّرُهم أنتَ بها من دَنَسِ الذُّنوب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ؛ أي استغفِرْ لهم وادْعُ لهم، ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ﴾ ؛ أي إنَّ دعاءَكَ واستغفارَكَ طمأنينةٌ، ﴿ لَّهُمْ﴾ ؛ في أنَّ الله يقبَلُ توبتَهم، ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ ؛ بمقالتِهم، ﴿ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ بنيَّاتِهم وثوابهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ ؛ استفهامٌ بمعنى التَّنبيهِ، وقبولُ التوبةِ إيجابُ الثواب عليها، وقولهُ تعالى (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) أرادَ به أخذَ النبيِّ ﷺ والأئمَّةِ بعدَهُ؛ لأن أخذهم لا يكون إلاَّ بأمر الله، وكأنَّ اللهَ هو الآخذ، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ ؛ أي المتجاوزُ عن مَن تابَ، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ عن مَن ماتَ على التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ؛ أي اعملُوا عملَ مَن يعلمُ أنَّ اللهَ يرى عملَهُ ويتجاوزُ به، ظاهرُ المعنى. قَوْلُهُ تَعَالَى:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٣٢١).

(٢) القدر / ١ .

﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ معناهُ: مِن أهلِ المدينة قومٌ آخرون مُرْجُونَ لأمر الله إمَّا يُعذِّبُهم بتخلُّفِهم عن الجهادِ، وإمَّا يتجاوزُ عنهم بتوبَتِهم عن الذنوب، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾؛ بهم ﴿ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ يحكمُ في أمرِهم ما يشاءُ. و(إمَّا) في الكلامِ بوقوع أحدِ الشَّيئين، واللهُ تعالى عالِمٌ بما يصيرُ إليه أمرُهم، إلاّ أنَّ هؤلاء العبادَ خُوطِبُوا بما يتفاهَمُون فيما بينهم ليكون أمرُهم عندَكم على هذا، أي على الخوفِ.

قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا وَهُمْ: كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، وَمَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعُمَرِّيُ، وَهِلاَلُ بْنُ أمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، وَهُمْ مِنَ الأَنْصَار تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكٍ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: أنَا أفْرَهُ أهْلِ الْمَدِينَةِ جَمَلاً فَمَتَى مَا شِئْتُ لَحِقْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأقَامَ حَتَّى مَضَتْ عَلَيْهِمْ ثَلاَثَةَ أيَّام ثُمَّ آيَسَ أنْ يَلْحَقَهُمْ وَنَدِمَ عَلَى صَنِيعِهِ، وَأقَامَ صَاحِبَاهُ مَعَهُ، وَنَدِمَا لَكِنْ لَمْ يَفْعَلاَ مَا فَعَلَهُ أبُو لُبَابَةَ وَأوْسُ وَوَدِيعَةُ.

فَفَقَدَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ نُزُول هَذِهِ الآيَةِ، وَنَهَى النَّاسَ عَنْ أنْ يُجَالِسُوهُمْ أوْ يُوَاكِلُوهُمْ أوْ يُشَارِبُوهُمْ، وَأرْسَلَ إلَيْهِمْ أن اعْتَزِلُوا نِسَاءَكُمْ، وَأرْسَلَ إلَى أهْلِيهِنَّ، فَجَاءَتِ امْرَأةُ هِلاَل فَقَالَتْ: إنَّ هِلاَلاً شَيْخٌ كَبِيرٌ وَإنْ لَمْ آتِهِ بطَعَام هَلَكَ، فَقَالَ ﷺ: [وَإيَّاكِ أنْ يَقْرَبَكِ] قَالَ كَعْبٌ: فَمَرَرْتُ عَلَى أبي قَتَادَةَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ، وَكَلَّمْتُهُ فَأبَى أنْ يُكَلِّمَنِي، فَاسْتَعْبَرْتُ وَقُلْتُ: أمَا وَاللهِ إنَّكَ لَتَعْلَمُ أنِّي أحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ. قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ. فَمَضَى عَلَى هَذَا خَمْسُونَ يَوْماً، فَلَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بمَا رَحُبَتْ أنْزَلَ اللهُ (هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)[١].

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب التوبة: باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه: الحديث (٥٣/ ٢٧٦٩)؛ عن عبدالله بن كعب عن أبيه.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ بَنِي عَمْرو بْن عَوْفٍ قَالُوا فِيْمَـا بَيْنَـهُمْ: تَعَـالَوا نَبْنِي مَسْجِداً يَكُونُ مُتَحَدَّثَنَا وَمَجْمَعَ رَأينَا بأنْ نَأْتُوا إلَى رَسُول الله وَنَسْتَأْذِنُوهُ أنْ نَبْنِـي مَسْجِداً لِذوي الْعِلَّةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ. فَأذِنَ لَهُمْ فَبَنَوا مَسْجِداً، وَكَانَ يَؤُمُّهُمْ فِـي ذلِـكَ الْمَسْجِدِ مَجْمَعُ بْنُ الْحَارِثَةِ، وكَانَ قَارِئاً لِلْقُرْآن فَـأنْزَلَ اللهُ هَـذِهِ الآيَـةَ)[1]. ومعناهـا: والذين اتَّخَذُوا مسجداً للضِّرار والكُفرِ والتفريقِ بين المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ الله وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْـلُ) أي وانتِصَـاراً لِمَـن حاربَ اللهَ ورسولَهُ، وهو أبو عـامرِ الراهـب كـان حـاربَ النـبيَّ ﷺ قبـلَ بنـاءِ هـذا المسجدِ، ومضَى إلى هِرَقْلَ مَلِكِ الرُّوم يستعينُ به علـى النـبيِّ ﷺ وأصحابـهِ، فسـماهُ رسولُ الله ﷺ فاسِقاً، قال: [لاَ تُسَمُّوهُ الرَّاهِبَ]، وَدَعَا عَلَيْهِ رَسُـولُ اللهِ ﷺ فَمَـاتَ كَافِراً بقِنِسْرِينَ مَوْضِعٌ بالشَّام[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ ؛ معناهُ: ليحلفَ المنـافقون أنَّا لم نُردْ ببناءِ هذا المسجدِ إلا الخيرَ، وهم كَذبَةٌ في حلفِهم لقولهِ تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ ما بَنَوْهُ للخيرِ.

روي أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ مُهَاجِراً أقْبَلَ إلَيْهِ أبُـو عَـامِرٍ هَـذا الْمَذْكُـورُ فَقَالَ لَهُ: مَا هَذا الَّذِي جِئْتَ بهِ ؟ قَالَ: [الْحَنِيفِيَّةُ دِينُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ] قَالَ أبُـو عَامِرٍ: وَأنَا عَلَيْهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [فَإنَّكَ لَسْتَ عَلَيْهَا] قَالَ: بَلَـى؛ وَلَكِنَّـكَ أدْخَلْـتَ فِي الْحَنِيفِيَّةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَا فَعَلْتُ ذلِكَ، وَلَكِنْ جِئْـتُ بِـهَا بَيْضَـاءَ نَقِيَّةً] فَقَالَ أبُو عَامِرٍ: أمَاتَ اللهُ الْكَاذِبَ مِنَّا طَرِيداً وَحِيداً غَرِيباً، فقال ﷺ: [آمِـينَ] فَسَمَّاهُ أبُو عَامرِ الفَاسِقِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن عبدالله بن عباس وغيره: الحديث (١٣٣٦١-١٣٣٦٣).

(٢) أخرج القصة الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٣٦٣-١٣٣٦٤). وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٠٦٦).

فَلَمْ يَزَلْ أبو عَامِرٍ كَذلِكَ إلَى أنْ هُزِمَتْ هَوَازِنُ، فَخَرَجَ هَارِباً إلَى الشَّامِ فَأرْسَلَ إلَى الْمُنَافِقِينَ أنِ اسْتَعِدُّوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَسِلاَحٍ وَابْنُوا لِي مَسْجِداً، فَإنِّي ذاهِبٌ إلَى قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ، وَآتٍ بِجُنْدٍ مِنَ الرُّومِ وَأخْرِجُ مُحَمَّداً ﷺ وَأصْحَابَهُ. فَبَنَوا مَسْجِداً إلَى جَنْبِ مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ الَّذِينَ بَنَوْهُ اثنَى عَشَرَ رَجُلاً.

فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْهُ أتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَجَهِّزٌ إلَى تَبُوكَ، فَقَالَوا: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ إنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِداً لِذوي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ وَاللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ، وَإنَّا نُحِبُّ أنْ تَأتِيَهُ فَتُصَلِّيَ لَنَا فِيْهِ وَتَدْعُوَ لَنَا بالْبَرَكَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [إنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَحَالِ شُغْلٍ، وَلَوْ قَدِمْنَا لأتَيْنَاكُمْ إنْ شَاءَ اللهُ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيْهِ].

فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ تَبُوكٍ أتَوْهُ فَسَألُوهُ إتْيَانَ مَسْجِدِهِمْ، فَدَعَا بقَمِيصِهِ لِيَلْبَسَهُ وَيَأْتِيَهُمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ وَأعْلَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِخَبَرِهِمْ وَمَا هَمُّوا بِهِ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَالِكَ بْنَ الدُّهْشَمِ وَمَعَنَ بْنَ عَدِيٍّ وَعَامِرَ بْنَ السَّكَنِ وَالْوَحْشِيُّ قَاتِلَ حَمْزَةَ، وَقَالَ لَهُمْ: [انْطَلِقُوا إلَى هَذا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أهْلُهُ فَاهْدِمُوهُ وَحَرِّقُوهُ] فَخَرَجُوا سِرَاعاً، فَأخَذُوا سَعْفاً مِنَ النَّخْلِ، وَأشْعَلُوا فِيْهِ النَّارَ وَهَدَمُوهُ، وَأمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يُتَّخَذَ كِنَاسَةً يُلْقَى فِيْهِ الْقِمَامَةُ وَالْجِيَفُ، وَمَاتَ أبُو عَامِرٍ بالشَّامِ وَحِيداً غَرِيباً[(١)].

وقال عكرمةُ: (سَألَ عُمَرُ ﷺ رَجُلاً مِنْهُمْ: مَاذا أعَنْتَ فِي هَذا الْمَسْجِدِ، قَالَ: أعَنْتُ فِيْهِ بسَارِيَةٍ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: أسْرِ بهَا فِي عُنُقِكَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ). ورُوي: (أنَّ بَنِي عمرو بن عوفٍ بَنَوا مَسجِداً وَسَألُوا عُمَرَ ﷺ أنْ يصلِّي بِهِمُ الْجَمَاعَةَ مُجَمِّعُ بْنُ الحارثة فَقَالَ: لاَ؛ وَلاَ نِعْمَةَ عَيْنٍ، ألَيْسَ بإمَامِ مَسْجِدِ الضِّرَارِ، فَقَالَ لَهُ مُجَمِّعٌ: يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لاَ تَعجَلْ عَلَيَّ، فَوَاللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ فِيْهِ وَإنِّي لاَ أعْلَمُ مَا أضْمَرُوا عَلَيْهِ، وَلَوْ عَلِمْتُ مَا صَلَّيْتُ مَعَهُمْ، وَكُنْتُ غُلاَماً وَهُمْ شُيُوخٌ لاَ يَقْرَءُونَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئاً، فَصَلَّيْتُ بهِمْ وَلاَ أعْلَمُ مَا فِي نُفُوسِهِمْ، فَعَذَرَهُ عُمَرُ ﷺ وَصَدَّقَهُ، وَأمَرَهُ بالصَّلاَةِ فِي

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٣٦١) مرسلاً عن الزهري ويزيد بن رومان وعبدالله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة، والحديث (١٣٣٧١) عن ابن زيد، و(١٣٣٧٢).

مَسْجِدِ قُبَاءٍ)[١]. قَرَأَ أهلُ المدينة والشامِ الذين اتَّخذوا بغير (واو) وكذلك هو في مصَاحفِهِم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ ؛ أي لا تُصَلِّ في مسجدِ هؤلاء المنافقين أبداً، ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ ؛ يعني مسجدَ قُبَاء أُسِّسَ لوجهِ الله منذ أوَّل يوم بُنِيَ، ويقال: هو مسجدُ النبيِّ ﷺ أحقُّ أن تصلِّي فيه، ولا يمتنعُ أن يكون المرادُ المسجدِ الذي أُسِّسَ على التَّقوَى كِلاَ المسجدَين، مسجدُ النبيِّ ﷺ ومسجد قُبَاءٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ ؛ في مسجدِ قُبَاءٍ رجالٌ يُحِبُّونَ أن يتطهَّرُوا. قال الحسنُ: (مَعْنَاهُ يَتَطَهَّرُونَ مِنَ الذُّنُوب بالتَّوْبَةِ).

والمشهورُ أن المرادَ بالتطهيرِ في هذه الآيةِ الاستنجاءُ بالماء كما رُوي: أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ وَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبَاب قِبَاءٍ وَقَالَ: [يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ أحْسَنَ الثَّنَاءَ عَلَيْكُمْ فِي طُهُوركُمْ، فَبمَ تَطَّهَّرُونَ؟] قَالُوا: إنَّا نُتْبعُ الأَحْجَارَ بالْمَاءِ[٢]؛ أي نستجمرُ بالحجرِ ثم نستنجي بالماءِ، فقرأ عليهم النبيُّ ﷺ هذه الآيةَ، وسَنَّ النبيُّ ﷺ الاستنجاءَ بالماءِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي أثنَى على المطَّهَّرين من الذُّنوب، والمتطهِّرين بالماءِ من الأدناسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ ؛ الأَلِفُ في أوَّل الآيةِ أَلِفُ استفهامٍ دخلَتْ في الكلامِ للإنكار، وقولهُ تعالى (جُرُفٍ هَارٍ) أي على طَرَفِ الْهُوَّةِ، وقوله (هَارٍ) ساقِطٍ، وأصلهُ هَايرٍ، إلا أنه حذفَ الياء.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٢٥٥. وهو مُجمع بن جارية بن عامر الأنصارين توفي في آخر خلافة معاوية. قال ابن إسحق: (كان المجمع بن جارية غلاماً حدَثاً قد جمَعَ القرآنَ على عهدِ رسول الله ﷺ، وأبوه جارية ممن اتخذَ مسجدَ الضِّرار). ترجم له ابن عبدالبر في التمهيد: ج ٣ ص٤١٨: الرقم (٢٣٣٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٣٩١) عن قتادة، والحديث (١٣٣٩٢) عن محمَّد ابن عبدالله بن سلام، والحديث (١٣٣٩٣) عن عويم بن ساعدة. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٠٧٩).

والْجُرُفُ: ما تَمُرُّ به السيولُ من الأوديةِ فتسيرُ جانبَهُ وتنثرهُ، ولو وقفَ الإنسانُ عليه لسقطَ وانْهَارَ، وشَفَا الشَّيءِ حَرْفُهُ وهو مقصورٌ يكتبُ بالألفِ وتَثْنِيَتُهُ شِفْوَان.

قرأ نافعُ وأهل الشام بضمِّ الهمزةِ والنون على غيرِ تسمية الفاعلِ، وقرأ الباقون بفتحِهما. قَوْلُهُ تَعَالَى: (عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ)، قرأ ابنُ عمر (تَقْوًى) منوَّن، وقوله تعالى (جُرُفٍ) قرأ ابنُ عامر وحمزةُ وأبو بكر وخلَف بالتخفيفِ، وقرأ الباقون بالتَّثقيلِ وهما لُغتان، وهي البَرُّ التي لم تُمطَرْ، وقال أبو عُبيد: (بَنَى الْهُوَّةَ وَالرَّمْلَ) والشيءُ الرَّخْوُ وما يجرفهُ السَّيلُ في الأودِيَةِ، والهايرُ الساقطُ الذي يتداعَى بعضه على إثْرِ بعضٍ كما يتهاوَى الرملُ، والشيء الرَّخْوُ، وفي مُصحف أُبَيّ (فَانْهَارَتْ بِهِ قَوَاعِدُهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ)(1). قال قتادةُ: (ذكِرَ لَنَا أنَّهُ حُفِرَتْ بُقْعَةٌ مِنْهَا فَرُؤِيَ الدُّخَانُ يَخْرُجُ مِنْهَا)(2)، وقال جابرُ بن عبدِالله: (رَأيْتُ الدُّخَانَ يَخْرُجُ مِنْ مَسْجِدِ الضِّرَارِ)(3).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ ﴾ ؛ أي انْهَارَ الْجُرُفُ بالبناءِ؛ أي هارَ به؛ أي كما أنَّ مَن بنَى على جانب نَهْرٍ صفة ما ذكرنا انْهَارَ بنــاؤهُ في النَّـهْرِ، فكذلك بناءُ أهلِ النِّفاق مسجد الشِّقاق كبناءٍ على جُرُفٍ جهنَّم يتهوَّرُ بأهلهِ فيها. وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ أي لا يوفِّقُهم ولا يَهدِيهم الى جنَّتهِ وثوابهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ ﴾ ؛ أي لا يزالُ بنيانُهم مسجدَ الضرار حيرةً متردِّدة في قلوبهم، ويقال شَكّاً واضطِرَاباً، يعني أن شَكَّهم لا يزالُ وإن زيلَ ذلك البناءُ، بل يبقى ذلك في قلوبهم حتى خابَ أمَلُهم، اشتدَّ أسَفُهم بأنْ بعثَ رسولُ الله ﷺ عامر بن قيس وَوَحشياً مولَى مُقَطِّمِ بن عدِيٍّ فخرَّباهُ وهدَماهُ، ثم أمرَ الأنصارَ بإلقاءِ الجِيَفِ والعَذْرَاتِ الكِنَاسَاتِ فيه، إذ لم يُبْنَ لله تعالى، فبَقِيَ ذلك حسرةً وندامة في قلوب المنافقين حتى تقطَّع قلوبُهم؛ أي حتى يموتَ على ذلك.

---

(١) في جامع البيان: الأثر (١٣٤٠٥) عن ابن عباس.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٤٠٧).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٤٠٩).

ويقالُ: معناهُ: لا يزالون شاكّين حتى يموتُوا، فإذا ماتُوا صاروا إلى اليقين حيث لا ينفعُهم اليقين، قال السديُّ: (مَعْنَاهُ: لاَ يَـزَالُ هَـدْمُ بُنْيَانِـهِمْ الَّـذِي بَنَـوْهُ رِيبَـةً فِـي قُلُوبِهِمْ؛ أيْ حَزَازَةً وَغَيْظاً فِي قُلُوبِهِمْ؛ أيْ أنْ تَصَدَّعَ قُلُوبُهُمْ فَيَمُوتُوا).

وقرأ الحسنُ ويعقوب أي (إنْ) مخففاً على الغايةِ، يـدلُّ عليـه تفسيرِ الضحَّاك وقتادة، ولا يزالون في شَكٍّ منه إلى أن يَموتُوا فيستيقِنوا ويتبيَّنوا، قرأ شيبةُ وابن عـامر وحمزة وحفص (تَقَطَّعَ) بفتح التاءِ وتشديد الطاءِ المعنـى تتقطـعُ، ثـم حُذفـت إحـدَى التائين، وقرأ ابنُ كثير ومجاهد ونافعٌ وعاصم وأبو عمر والكسائي (تُقَطَّعَ) بضم التـاء وتشديد الطاء على غيرِ تسمية الفاعل، وقرأ يعقوب (تُقْطَعَ) بضم التاء خفيفة الطـاء من القطعِ. وروي عن ابنِ كثير بفتحِ التاء خفيفـة، (قُلُوبَـهُمْ) نصبـاً أي بفعـلِ ذلـك أنتَ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ أي عليمٌ بأعمالِكم، حكيـمٌ في ما حَكَمَ من هدمِ مسجدهم وأظهرَ نفاقَهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ اللهَ طلبَ المؤمنين أن يعدُّوا أنفسَهم وأموالَهم ويخرجـوا إلى الجهادِ في سبيل الله ليُثيبهم الجنةَ على ذلك.

فإن قِيْلَ: كيف يصحُّ شـراءُ الجنَّـة علىذلـكَ وهـي مملوكـةٌ لله تعـالى؟ وكيـف يشتري أحدٌ ملكه يملكهُ؟ قِيْلَ: إنما ذكر هذا على وجـهِ التلطُّـف للمؤمنـين في تـأكيدِ الجزاء كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[1] فذكـرَ الصدقـةَ بلفظِ القَرْضِ للتحريضِ على ذلك والترغيب فيه، إذِ القـرضُ يوجـب ردَّ المفلـسِ لا محالةَ، وكأن اللهُ عَامَلَ عبادَهُ معاملةَ مَن هو غيرُ مالكٍ، وعن جعفر الصَّادق أنـه كـان يقولُ: (يَا ابْنَ آدَمَ اعْرِفْ قَدْرَ نَفْسِكَ، فَإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَرَّفَكَ قَدْرَكَ وَلَـمْ يَـرْضَ أنْ يَكُونَ لَكَ ثَمَنٌ غَيْرُ الْجَنَّةِ).

(١) البقرة / ٢٤٥ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ ؛ فيه بيانُ عرضِ الذي لأجلهِ اشترَاهُم، وهو أن يُقاتِلوا العدوَّ في طاعةِ الله، ومعناهُ: فيَقْتُلُونَ المشركين، ويقتلهم المشركون، وعلى هذا أكثرُ القرَّاء، حمزةُ والكسائي (فَيُقْتَلُونَ) بالرفع، (وَيَقْتُلُونَ) بالنصب، واختارَ الحسنُ هذه القراءةَ لأنه إذا قُرئ هكذا كان تسليمُ النفسِ إلى الشِّراء أقربُ، وإنما يستحقُّ البائعُ تسليمَ الثمن إليه تسليمَ المبيع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ ؛ نُصِبَ على المصدر؛ أي أوجبَ اللهُ لهم الجنَّةَ ووعدَهم وعدَ حقٍّ منه لَهم. وإنَّما قال (حَقّاً) للفصلِ بين الوعدِ الذي حجرهُ على وجهِ الجزاء لهم على العملِ، وبين الوعدِ ينجزهُ للتصديقِ على وجه التفضيل لا الجزاءِ لهم على العملِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ ؛ أي أوجبَ اللهُ الجنةَ للمؤمنين في جميعِ كتُبهِ التي أنزلَها اللهُ على أنبيائهِ عليهمُ السلام، قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ليس أحدٌ أوفَى من اللهِ في وعدهِ وشَرطِه، وعَدَكم وعداً ولا يخلفُ لوعدهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ ؛ أي ببيعكم أنفسَكم من اللهِ، فإنه لا يشري أرفعُ من اللهِ سبحانهُ، ولا ثمنَ أعلى من الجنَّة. وَقِيْلَ: إنَّ هذا أنزل في الذين بايَعُوا رسولَ الله ﷺ بيعةَ الرضوانِ تحتَ الشجرةِ، ثم صارَ عامّاً في كلِّ مَن يعملُ مثلَ عَملِهم.

قال محمَّد بن كعب: (لَمَّا بَايَعَتِ الأَنْصَارُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ بمَكَّةَ وَهُمْ سَبْعُونَ نَقِيباً، قَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ لِرَسُول اللهِ ﷺ اشْتَرِطْ لِرَبكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ، فَقَالَ: [اشْتَرِطُ لِرَبي أنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بهِ شَيْئاً، وَأشْتَرِطُ لِنَفْسِي أنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ عَنْهُ أنْفُسَكُمْ وَأمْوَالَكُمْ] قَالُوا: وَإذا فَعَلْنَا ذلِكَ فَمَا لَنَا؟ قَالَ: [الْجَنَّةُ]، قَالَ: رَبحَ الْبَيْعُ لاَ نُقِيلُ وَلاَ نَسْتَقِيلُ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أنفُسَهُمْ وَأمْوَالَهُمْ بأنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ) ثُمَّ هَدَاهُمُ اللهُ بقَوْلِهِ (فَاسْتَبْشِرُوا ببَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بهِ)).

قال الحسنُ: (اسْمَعُوا إلَى بَيْعَةٍ رابحَةٍ بَايَعَ اللهُ بهَا كُلَّ مُؤْمِنٍ، وَاللهِ مَا عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ إلاَّ وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْبَيْعَةِ). قال: (وَمَرَّ أعْرَابيٌّ عَلَى النَّبيِّ ﷺ وَهُوَ

يَقْرَأ هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ: كَلاَمُ مَنْ هَذا؟ فَقَالَ:[كَلاَمُ اللهِ تَعَالَى] وقَالَ: بَيْعٌ وَاثِقٌ مُرْبِحٌ لاَ نُقِيلُهُ وَلاَ نَسْتَقِيلُهُ، فَخَرَجَ إلَى الْعَدُوِّ فَاسْتُشْهِدَ). وأنشدَ الأصمعيُّ لجعفرَ ﷺ:

أُثَامِنُ بِالنَّفْسِ النَّفِيسَةِ رَبَّهَا وَلَيْسَ لَهَا فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ ثَمَنْ
بِهَا تُشْتَرَى الْجَنَّاتُ إنْ أنَا بعْتُهَا بشَيْءٍ سِوَاهَا إنَّ ذلِكُمْ غُبْنْ
لَئِنْ ذهَبَتْ نَفْسِي بدُنْيَا أصَبْتُهَا لَقَدْ ذهَبَتِ نَفْسِي وَقَدْ ذهَبَ الثَّمَنْ

وكان جعفرُ الصادق يقول: (أيَا مَنْ لَيسَتْ لَهُمْ عَنْهُ إنَّهُ لَيْسَ لأَبْدَانِكُمْ بثَمَنٍ إلاَّ الْجَنَّةُ، فَلاَ تَبيعُوهَا إلاَّ بهَا). وأنشدَ أبو علي الكوفي :

مَنْ يَشْتَرِي قُبَّةً فِي عَدْنٍ عَالِيَةً فِي ظِلِّ طُوبَى رَفِيعَاتٌ مَبَانِيهَا
دَلاَّلُهَا الْمُصْطَفَى وَاللهُ بَائِعُهَا مِمَّنْ أرَادَ وَجِبْرِيلُ مُنَادِيهَا

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ أي النجاةُ العظيمةُ والثوابُ الوافر؛ لأنَّها نَيْلُ الجنَّة الباقيةِ بالنفسِ الفانية.

وقولُهُ تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ ؛ في الآيةِ قَولان: أحدُهما: أن قولـه (التَّائِبُونَ الْعَابدُونَ) رُفِعَ بالابتداء، كأنهُ قال: التائبون العابدون... إلى آخر الآيةِ لَهم الجنةُ أيضاً؛ أي مَن قعدَ عن الجهادِ غيرَ مُؤَازرٍ ولا قاصدٍ تركه، وهو على هذه الصِّفة في هذهِ الآية فله الجنَّة.

والقولُ الثاني: أنّ قولَهُ (التَّائِبُونَ) يدلُّ على المقاتِلين، كأنه قال: المقاتِلُون التائبون العابدون، ويجوزُ أنْ يكون قولُهُ: (التَّائِبُونَ) رفعاً على المدحِ، أي هم التائبون من الشِّرك والذُّنوب، المطيعون للهِ (الْحَامِدُونَ) الذين يحمَدون اللهَ تعالى على كلِّ حالٍ، (السَّائِحُونَ) الصَّائِمُونَ[1].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن أبي هريرة: الحديث (١٣٣٤٩ و١٣٣٤٠)، و(١٣٤٤٣) عن ابن عباس بأسانيد. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٠٢٨).

كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: [سِيَاحَةُ أُمَّتِي الصَّوْمُ][1] وإنما سُمي الصَّائم سَائحاً تشبيهاً بالسائحِ في الأرض؛ لأن السائحَ ممنوعٌ من الشَّهوات، فكذلك الصائمُ.

قال الحسنُ: (أَرَادَ بالسَّائِحِينَ صَوَّامِي شَهْرِ رَمَضَانَ)[2]، وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [السَّائِحُونَ الصَّائِمُونَ][3]. وسُئل سعيدُ بن جبير عن السائحين فقالَ: (هُمُ الصَّائِمُونَ)[4]، وقال الشاعرُ:

بَـرّاً يُصَلِّـي لَيْلَـهُ وَنَـهَارَهُ ... يَظَـلُّ كَثِـيرَ الذِّكْـرِ للهِ سَـائِحَا

أي صَائماً.

وقال الحسنُ أيضاً: (السَّائِحُونَ الَّذِينَ يَصُومُونَ عَنِ الْحَلاَلِ وَأمْسَكُوا عَنِ الْحَرَامِ، وَهَهُنَا وَاللهِ أقْوَامٌ رَأيْنَاهُمْ يَصُومُونَ عَنِ الْحَلاَلِ، وَلاَ يُمْسِكُونَ عَنِ الْحَرَامِ، وَاللهُ سَاخِطٌ عَلَيْهِمْ)، وقال عطاءٌ: (السَّائِحُونَ هُمُ الْغُزَاةُ وَالْمُجَاهِدُونَ)[5]. وسئل عكرمةُ عن قولهِ تعالى: (السَّائِحُونَ) فقال: (طَلَبَةُ الْعِلْمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ) أي الذين يؤدُّون ما فرضَ اللهُ عليهم من الرُّكوع والسجودِ المفروضة، وقولهُ تعالى: (الآمِرُونَ بالْمَعْرُوفِ) أي الآمِرون بالإيمان والنَّاهون عن الشِّرك. وَقِيْلَ: معناهُ: الآمِرُون بكلِّ معروفٍ، والناهون عن كلِّ منكرٍ.

وإنما ذُكر الناهون بالواو وبخلاف ما سبقَ؛ لأن النهيَ عن المنكرِ لا يكادُ يُذْكَرُ إلا وهو مقرونٌ بالأمرِ بالمعروف، فدخلَ الواوُ ليدُلَّ على المقارنةِ. والمعروفُ: هو السُّنة، والمنكرُ: هو البِدْعَةُ.

---

(١) في الأصل المخطوط يكرر الناسخ صفحة سابقة من التفسير، ولا يشير إلى تكرارها سهواً منه، وهي من قوله: (واستأذنوه أن يبنوا مسجداً لذي العلة... وحرقوها وخرجوا سراعاً).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٤٤٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٤٣٩-١٣٤٤٠).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٤٤٤).

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٢٧٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ ؛ عُطِفَ على ما تقدَّم. وَقِيْلَ: المرادُ بهم جميعُ المذكورين من أوَّل الآيةِ إلى هذا الموضع، وهذه الصِّفة من أتَمِّ ما يكون من المبالغةِ في وصفِ العباد بطاعتهِ لله، والقيام بأوامره والانتهاءِ عن زواجره؛ لأن اللهَ تعالى بيَّن حدودَهُ في الأمرِ والنهي وفي ما نَدَبَ إليه فرغَّب فيه أو خيَّر فيه، وبيَّن ما هو الأَولى في مجرَى طاعةِ الله تعالى، فإذا قامَ العبدُ بفرائضِ الله وانتهَى إلى ما أرادَ الله منه كان من الحافظِين لحدودِ الله، كما رُوي عن خلفِ بن أيُّوب: أنَّهُ أمَرَ امْرَأتَهُ أنْ تُمْسِكَ إرْضَاعَ وَلَدِهِ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ وَقَالَ: قَدْ تَمَّتْ لَهُ سَنَتَان، قِيْلَ لَهُ: لَوْ تَرَكْتَهَا حَتَّى تُرْضِعَهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، قَالَ: فَأيْنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ الله). قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ أي بشِّرهُم بالجنةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَألَ عَنْ أبَوَيْهِ أيُّهُمَا أحْدَثُ عَهْداً بهِ؟ فَقِيلَ: أمُّكَ، فَقَالَ: [هَلْ تَعْلَمُونَ مَوْضِعَ قَبْرِهَا؟ لَعَلِّي آتِيهِ فَأسْتَغْفِرُ لَهَا، فَإنَّ إبْرَاهِيمَ عليه السلام اسْتَغْفَرَ لأبَوَيْهِ وَهُمَا مُشْرِكَان] فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَنَحْنُ أيْضاً نَسْتَغْفِرُ لآبَائِنَا وَأهْلِينَا. فَانْطَلَقَ ﷺ حَتَّى أتَى الْقَبْرَ، فَإذا هُوَ بجِبْرِيلَ عليه السلام عِنْدَ الْقَبْرِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صَدْرِ النَّبيِّ ﷺ فَقَرَأ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةَ)[١].

قال أبو هريرةَ رضي الله عنه: قَالَ النَّبيُّ ﷺ: [اسْتَأْذنْتُ رَبي أنْ أسْتَغْفِرَ لِوَالِدَيَّ فَلَمْ يَأذنْ لِي، وَاسْتَأْذنْتُ أنْ أزُورَ قَبْرَهُمَا فَأذِنَ لِي][٢]. ومعنى الآيةِ: ما ينبغِي وما يجوزُ للنبيِّ والذين آمَنُوا أن يطلبُوا المغفرةَ للمشركين، ولو دعَتهُم رقَّةُ القرابةِ إلى الاستغفار لَهم، ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿113﴾ ﴾ ؛ أي من بعدِ ما ظهرَ لهم أنَّهم أصحابُ النار بأنَّهم ماتُوا على الكفرِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٤ ص٣٠٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٤٣٧٢). ومسلم في الصحيح: كتاب الجنائز: باب استئذان النبي ﷺ: الحديث (١٠٨/ ٩٧٦).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ ؛ أي ما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدَها أبوهُ لـه أن يُسْلِمَ، ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ ﴾ ؛ لإبراهيمَ، ﴿ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ ﴾ ؛ بأنْ لم يُؤمِنْ حتى ماتَ على الكفرِ، ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ ؛ أي مِن أبيهِ ومن دِينه.

ويقالُ: إنما هذه الموعدةُ إنما كانت مِن ابراهيمَ لأبيهِ، فإنه كان قالَ لأستغفِرَنَّ لكَ ما دمتَ حيًا، ولم يكن اللهُ تعالى أعلمَ إبراهيم أنه لا يغفرُ للمشركين، يدلُّ عليه قراءةُ الحسنِ (إلاَّ مِنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ ؛ الأوَّاهُ: التَّوَّابُ. قال ابنُ مسعود (هُوَ الدَّعَّاءُ)[٢]، وقال الحسنُ وقتادة:(هُوَ الرَّحِيمُ الرَّفِيقُ)، ويقالُ: هو المؤمنُ بلُغَة الحبشةِ، إلا مَن قال إنه لا يجوزُ أن يكون في القرآنِ شيءٌ غير عربيٍّ، قال: هذا موافقٌ من العربيةِ بلُغة الحبشة. وَقِيْلَ: الأوَّاهُ الفقيهُ، وقال كعبُ: (هُوَ الَّذِي إذا ذكِرتْ عِنْدَهُ النَّارُ قَالَ: آهِ)[٣]، وَقِيْلَ: هو المتأوِّهُ شفَقاً وفرَقاً، المتضرِّعُ نفْساً ولُزوماً للطاعةِ، وأما الحليمُ فهو الذي لا يعجِّلُ بعقوبةِ الجاهلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أنْزَلَ الْفَرَائِضَ وَعَمِلَ بهَا النَّاسُ، ثُمَّ أنْزَلَ بَعْدَ ذلِكَ مَا نَسَخَهَا وَقَدْ مَاتَ نَاسٌ وَهُمْ يَعْمَلُونَ بالأَمْرِ الأَوَّل مِثْلَ الصَّلاَةِ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَشُرْب الْخَمْرِ وَنَحْو ذلِكَ، وَمَاتَ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ عَلَى الْقِبْلَةِ الأُولَى، فَذكَرَ الْمُؤْمِنُونَ ذلِكَ لِلنَّبيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ)[٤].

---

(١) (أباه) بالباء الموحدة، ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ١٠ ص٢٢٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٤٩٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٣٥١٥).

(٤) في معالم التنزيل: ص٥٨٦؛ نقله البغوي عن مقاتل والكلبي. وينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ج ١ ص٧٤.

ومعناها: وما كان اللهُ ليُضِلَّ عملَ قومٍ ويُنْزِلَ قوماً مَنْزِلَةَ الضَّلال بعدَ إذ هدَاهُم للإيمان حتى يُبَيِّنَ لهم ما يتَّقون من المعاصي، ويقال: حتى يُبَيِّنَ الناسخَ من المنسوخ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ؛ من النَّاسخِ والمنسوخ، وبكل ما فيه مصلحة الخلقِ، ﴿ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الله لَمَّا أمرَ المسلمين بقتال المشركين كافَّة، وكان في المشركين ملوكٌ لا يطمعُ المسلمون بهم لشوكَتِهم وعزِّهم، أخبرَ اللهُ تعالى أن للهِ ملكَ السَّموات والأرض، يُحيي من يشاءُ ويُميت من يشاء، ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ ؛ يُواليكم، ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ ينصركم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ ؛ معناه: وقد تجاوزَ اللهُ من تولِّي النبيِّ ﷺ إذنَهُ للمنافقين بالتخلُّف، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿عَفَا الله عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾، وتجاوزَ عن ذنوب المهاجرين والأنصار.

وَقِيْلَ: أراد بذلك قوماً منهم تخلَّفُوا عن رسول الله ﷺ ثم خرَجُوا فأدركوهُ في الطريقِ. وقولهُ تعالى: (الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) صفةُ مدحٍ لأصحاب النبيِّ ﷺ باتِّباعِهم إياهُ في وقت الشِّدةِ في غزوة تبوك، وكانت بهم العُسْرَةُ في النفقةِ والرُّكوب والحرِّ والخوف، وكانت الدابةُ الواحدة بين جماعةٍ يتعقَّبون عليها، وكانت التمرةُ تُشَقُّ بالنِّصف فيأكلُها الرجُلان كل واحدٍ نصفها، وربما كانت جماعةٌ يَمُصُّونَ تمرةً واحدة، ويشربون عليها، وربما كانوا يَنحَرُونَ الإبلَ فيشربون من ماءِ كرُوشِها في الحرِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ ؛ أي من بعد ما كادَ تَميلُ قلوبُ طائفةٍ منهم عن الخروجِ والجهاد، ويقال من بعدِ ما كادوا يرجِعون عن غزوتِهم من الشدَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ ؛ أي ثم خفَّفَ عنهم ما أخلفهم عن الحرب حتى كادُوا يعقلون عن أنفُسِهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْلِ﴾... إلى أن قالَ: ﴿عَلِمَ أَنْ

لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[١] أي خفَّفَ عنكم، وكقوله: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[٢] أي خفَّف عنكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ ؛ أي تابَ على الثلاثةِ، وهم كعبُ بن مالك، ومُرَارةُ بن الربيع، وهلالُ بن أميَّة الذين خُلِّفوا عن قبول توبتِهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ؛ منعَ سِعتَها بامتناعِ الناس من مكالمتهم، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ؛ أي قلوبهم حين كتبَ قيصرُ إلى كعب ابن مالك: بَلَغَنِي أنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، فَالْحَقْ بنَا فَإنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنْزِلٌ وَكَرَامَةٌ، فَقَالَ كَعْبٌ: (مِنْ خَطِيئَتِي أنْ يَطْمَعَ فِيَّ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ الْكُفْرِ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ ؛ أي عَلِموا وأيقنُوا ألاَّ مَفَرَّ من عذاب الله إلا إليه بالتوبةِ، وقولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ ؛ أي قَبلَ توبتَهم، ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ ؛ أي ليرجِعُوا عن مثلِ صنيعهم. ويقالُ: ليتوبَ الناسُ من بعدِهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ ؛ أي المتجاوزُ عن ذنوب المؤمنين، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ ؛ بعبادهِ التَّائبين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي يا أيُّها الذين آمَنوا اخشَوا اللهَ ولا تعصوهُ، وكونوا مع النبيِّ ﷺ ومع الذين صدَقت نيَّاتُهم، واستقامَتْ قلوبُهم وأعمالُهم في الشدَّة والرَّخاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي ما جازَ لأهلِ المدينةِ ومَن حولَهم من الأعراب أن يتخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في الجهادِ، وهذا نَهيٌ وردَ بلفظِ النَّفي، ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ؛ أي لا ينبغِي أن يكونوا بأنفُسِهم آثرَ وأشفقَ عن نفسِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بل عليهم أن يجعَلُوا أنفُسَهم وقايةً للنبيِّ ﷺ لِمَا أوجبَ له من الحقُوقِ عليهم بدعائهِ لهم إلى الإيمانِ حتى اهتدَوا به ونَجَوا من النار.

---

(١) المزمل / ٢٠ . (٢) البقرة / ١٨٧ .

(٣) تقدم عزوه إلى صحيح مسلم. وأخرجه الطبري من حديث طويل أيضاً: الرقم (١٣٥٣٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ؛ أي ذلك الزجرُ بأنَّهم في التخلُّف عن الجهاد، لا يصيبُهم عطشٌ ولا تعب في أبدانِهم، ولا شدَّةُ مجاعةٍ في طاعة اللهِ، ولا يجاوزُون مكاناً فيظهرون فيه من سهلٍ أو جبل مجاوزتُهم ذلك المكان، فإنَّ الإنسان يُغيظُهُ أن يطأ أرضَهُ غيرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) ﴾ ؛ أي لا يُبْطِلُ ثوابَ مَن أحسنَ عملاً من جهادٍ وغيره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ ؛ أي لا يُنفقون في الجهادِ نفقةً صغُرَتْ أو كَبُرتْ، ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ ؛ من الأوديةِ في طلب الكفَّار، ﴿ إِلَّا كُتِبَ ﴾ ؛ ذلك، ﴿ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ﴾ ؛ مِن أعمالهم التي، ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾ ؛ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعُيُوب وَبَيَان نِفَاقِهِمْ، قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: وَاللهِ لاَ نَتَخَلَّفُ عَنْ غَزْوَةٍ يَغْزُوهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلاَ سَرِيَّةٍ أبَداً، فَلَمَّا أمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذلِكَ بالسَّرَايَا إلَى الْغَزْو، وَنَفرَ الْمُؤْمِنُونَ جَمِيعاً وَتَرَكُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ بالْمَدِينَةِ، أنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي ذلِكَ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناها: أنه ليس للمؤمنينَ أن ينفِرُوا كافَّة ويَخْلِفُوا رسولَ الله وحدَهُ ليس عنده أحدٌ من المسلمين يتعلَّمُ منه الحلالَ والحرامَ والشرائعَ والأحكام، ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ ؛ أي فهلاَّ خرَجَ مِن كلِّ جماعةٍ طائفةٌ إلى الجهادِ، وتبقى طائفةٌ مع رسول الله ﷺ؛ ليسمعَ الذين تخلَّفُوا عند النبيِّ ﷺ الوحيُ، إذا رجعت السَّرايا علَّمُوهم ما عَلِموا فيستَوُون جميعاً في العلمِ في معرفة الناسخِ والمنسوخ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ ؛ أي لِيُنذِرَ الذين تخلَّفوا مع رسولِ الله ﷺ قومَهم الذين نَفَروا إذا رجعُوا إليهم من

غُزاتِهم، ويخبرُوهم بما نزلَ بعدَهم من القرآنِ، لكي يحذرُوا كلُّهم فلا يعملون شيئاً بخلافِ ما أنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ ؛ أي قاتِلُوا الأدنى فالأدنى من عدوِّكم مثل بني قريظة والنضير وخيبر؛ أي ابدأوا بمَن حولكم، ثم قاتِلُوا سائرَ الكفَّار، لأن الاشتغالَ بقتال مَن بعدَهم من المشركين مع تركِ قتالِ مَن قَرُبَ لا يُؤْمَنُ معه هجومُ مَن قَرُبَ على ذرَاري المسلمين ونسائِهم وبلادهم إذا خَلَتْ مِن المجاهدين، قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) أي ليكن منكم قولٌ غليظ وشدَّة عليهم في الوعدِ؛ كَيْلاَ يطمعَ فيكم أحدٌ من أهلِ الكفر، ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ ؛ في النصرِ على عدوِّهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ ؛ معناهُ: إذا ما أنزلت سورةٌ من القرآن، فمِنَ المنافقين مَن يقولُ: أيُّكم زادته هذه السُّورة إيماناً؟! إنَّما كان بعضُهم يقولُ لبعضٍ على جهة الْهُزْءِ. ويقالُ: كانوا يقولون للمستضعَفين من المسلمين: أيُّكم زادتهُ هذه الآية يقيناً وبصيرةً؟ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ ؛ وهم المخلِصُون من أصحاب رسول الله ﷺ زادتْهم تصديقاً مع تصديقِهم، ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ أي يفرَحُون بكلِّ ما يَنْزلُ من القرآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: وأما الذين في قلوبهم شَكٌّ ونفاق فزادَتْهم السورةُ شَكّاً إلى شَكِّهم وكُفراً إلى كُفرهم، لأنَّهم كلما كَفَرُوا بسورةٍ ازدادوا كُفراً، والمؤمنون كلَّما صدَّقوا بسورةٍ ازدادوا تصديقاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ إذ هم لشَكِّهم فيما أنزلَهُ اللهُ من السورةِ إلى أن ماتُوا على الكفرِ.

وإنما سَمَّى اللهُ النفاقَ مرَضاً؛ لأن الحيرةَ في القلب مرضٌ في القلب، كما أن الوجعَ في البدنِ مرضٌ في البدنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ ؛ معناه: أوَلاَ يرَى المنافقون أنَّهم

يُخسَرُون بالدُّعاء إلى الجهادِ في كلِّ عامٍ مرَّة أو مرَّتين، ويقال: يهلَكُون بهَتْكِ أسرَارهم، ثم يُظْهِرُ اللهُ من سوء نِيَّاتِهم وخُبْثِ سرائرهم(١). ويقالُ: كانوا ينقضون عهدَهم في السَّنة مرةً أو مرتين فيُعاقَبون، ثم لا يتوبُون عن نفاقِهم ولا يذكرون بما صنعَ اللهُ بهم بنقضِهم العهدَ. وقرأ حمزةُ ويعقوب: (أوَلاَ تَرَوْنَ) بالتاء خطاباً للنبيِّ ﷺ والمؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ؛ إذا نزلت سورةٌ فيها عيبُ المنافقين فخاطَبَهم النبيُّ ﷺ وعرَّض لهم في خُطبتِهِ، نظرَ بعضُ المنافقين إلى بعضٍ، ﴿ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ ، من المخلِصين إذا هو قائمٌ فخرجَ من المسجدِ، فإذا كان لا يراهُ أحدٌ خرجَ من المسجدِ وانصرفَ، وإن علِمُوا أنَّ أحداً يرَاهُم قاموا وثبَتُوا مكانَهم حتى يفرغَ النبيُّ ﷺ من خطبتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ﴾ ؛ أي انصرفُوا عن الإيمان والعملِ بترك ما يستمعون، ويقال: انصرَفُوا عن المكان الذي سَمِعُوا فيه، ﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ ؛ باللطف الذي يُحْدِثُهُ للمؤمنين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ ؛ أي ذلك الصرفُ بأنَّهم قومٌ لا يفقَهون ما يريدُ الله بخطابهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ ؛ هذا خطابٌ لأهلِ مكَّة، والمعنى: لقد جاءَكم رسولٌ من أهلِ نَسَبكم ولسانكم، شريفُ النَّسَب تعرفونَهُ وتفهمون كلامَهُ. وإنما قالَ ذلك؛ لأنه أقربُ إلى الألفةِ. وَقِيْلَ: إن هذا خطابٌ لجميعِ الناس، معناه: جاءَكُم آدميٌّ مثلُكم، وهذا أوكدُ للحجَّة عليكم؛ لأنَّكم تفهمون عن مَن هو من جنسِكم.

وقرأ ابنُ عبَّاس والزهري (مِنْ أنْفَسِكُمْ) بفتحِ الفاء؛ أي من أشرَفِكم وأفضَلِكم، مِن قولِكَ: شيءٌ ذو نَفَسٍ(٢)، وقال: كان مِن أعلاكُم نسَباً، قَوْلُهُ تَعَالَى: (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) أي شديدٌ عليه عَنَتُكُمْ وإثمُكم، العَنَتُ: الضِّيقُ والمشقَّةُ.

---

(١) في المخطوط: (شرارهم).

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ١٠ ص٢٤٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ ؛ أي حريصٌ على إيمانِكم وهُداكم أنْ تُؤمِنُوا فتَنجُوا من العذاب وتفوزُوا بالجنَّة والثواب، والحِرْصُ: شدَّةُ الطَّلَب للشيء مع الاجتهادِ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ كلامٌ مستأنفٌ؛ أي وهو شديدُ الرحمةِ لجميع المؤمنين، رفيقٌ لِمَن اتَّبعَهُ على دينهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ ؛ أي فإنْ أعرَضُوا عنكَ وعن الإيمان بكَ، فقُلِ اللهُ تعالى حَسْبِي لا إلهَ إلاَّ هوَ؛ أي لا ناصرَ ولا مُعِينَ غيرهُ، (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) أي بهِ ثِقَتِي، وإليه فوَّضتُ أمرِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) أي خالِقُ السَّريرِ العظيمِ الذي هو أعظمُ مِن السَّمواتِ والأرض، وإنَّما خُصَّ العرشُ بذلك؛ لأنه إذا كان ربُّ العرشِ العظيمِ مع عَظَمَتِهِ، كان ربُّ ما دونَهُ في العِظَمِ. وَقِيْلَ: إنما خصَّ العرش؛ تشريفاً للعرشِ وتعظيماً لشأنهِ. وقرئ في الشواذ (الْعَظِيمُ) بالرفعِ على نَعْتِ الربِّ[1].

آخر تفسير سورة (براءة) والحمد لله رب العالمين.

(١) في جامع البيان: الحديث (١٣٥٨٧) بأسانيد؛ أخرج الطبري بسنده عن أبي بن كعب؛ قال: (آخر آية نزلت من القرآن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ إلى آخر الآية، فقال: أحدث القرآن عهداً بالله الآيتان ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ إلى آخر السورة).

سُــورَةُ يُــونُس

سُورَةُ يُونُسَ مَكِّيَّةٌ[1]، وَهِيَ مِائَةٌ وَتِسْعُ آيَاتٍ، وَسَبْعَةُ آلاَفٍ وَخَمْسُمِائَةٍ وَسَبْعَةٌ وَسِتُّونَ حَرْفاً، وَأَلْفٌ وَثَمَانُمِائَةٍ وَاثْنَانِ وَثَلاَثُونَ كَلِمَةً. وَعَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يُونُسَ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بيُونُسَ وَكَذبَ بهِ، وَبعَدَدِ مَنْ غَرِقَ مَعَ فِرْعَوْنَ].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر ﴾ ، قال ابن عباس: (مَعْنَاهُ: أنَا اللهُ أرَى) وعنه: (أنَّهُ مِنْ حُرُوفِ الرَّحْمَنِ). وقيل: أنا الربُّ لا ربَّ غيرهُ. وقولُه تعالى: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾ ؛ أي هذهِ آياتُ الكتاب، وإنَّما أضافَ السورةَ إلى القُرآنِ؛ لأنَّها بعضُ الكتاب، كما تضافُ السورة لأنَّها بعضهُ.

وأما وصفُ القرآن بأنه حكيمٌ؛ فلأنَّ القرآنَ كالناطقِ بالحكمة بما فيه بين التمييزِ بين الحقِّ والباطلِ. ويقالُ: معنى الحكيمِ الْمُحْكَمُ بالحلالِ والحرام والأمرِ والنهي، يقالُ: أحكمتُ الشيءَ فهو مُحْكَمٌ وحكيمٌ، كما يقالُ: أكرمتُ الرجلَ فهو مُكْرَمٌ وكَرِيمٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ معناهُ: أعَجِبَتْ قريشُ أنْ أوحَينا إلى رجُلٍ مثلهم من أهلِ نسَبهم أنْ خَوِّفِ الناسَ بالعذاب، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الكفار

---

(1) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٣٠٤؛ قال القرطبي: ((مكيَّة في قولِ الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابنُ عباس: إلاَّ ثلاثَ آياتٍ من قولهِ تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ...﴾ إلى آخرهِنَّ)). وقال مقاتلُ: ((غيرَ آيتينِ، وهما قولهُ تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ...﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾)). ينظر: تفسيره: ج ١ ص٨٠.

كانوا يقولُون: لم يجدِ اللهُ رسولاً يبعثه إلينا إلاّ يتيمَ أبي طالبٍ. ويقالُ: كانوا يَعجَبون من البعثِ بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبهِمْ) أي أعمالهم الصالحةَ التي قدَّمُوها لأنفسِهم سَلَفَ خيرٍ عند ربهم يستوجبون بها المَنْزلةَ الرفيعةَ في آخرتهم عند ربهم، وعن ابنِ عبَّاس أنه قال: (قَدَمَ صِدْقٍ: شَفَاعَةُ بَيْنَهُمْ لَهُمْ هُوَ إمَامُهُمْ إلَى الْجَنَّةِ وَهُمْ بالأَثَرِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾ ؛ أي قال كفَّار مكة: إنَّ هذا القرآنَ لسِحرٌ مُبينٌ، وقرأ أهلُ الكوفة وابن كثير (لَسَاحِرٌ) بالألفِ يعنُونَ مُحَمَّداً ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ؛ولو شاءَ لخلقَها في أقلّ من لحظةٍ، ولكنَّهُ خلقَها للترتيب؛ ليكون حدوثُ شيءٍ بعدَ شيءٍ على الترتيب أبلغَ للملائكةِ في التفكُّر بها من حُدوثِها كلِّها في حالةٍ واحدة، وقد تقدَّم تفسيرُ الاستواءِ، ودخلت (ثُمَّ) على الاستواءِ وهي في المعنى داخلةٌ على الترتيب، كأنَّهُ قال: ثُمَّ يُدبرُ الأمرَ وهو مستوٍ على العرشِ، فإنَّ تدبيرَ الأمُور كلها يَنْزلُ من عندِ العرش، ولهذا تُرْفَعُ الأيدِي في قضاءِ الحوائج نَحوَ العرشِ. والاستواءُ: الاستيلاءُ، ولم يَزَلِ اللهُ سبحانه مُستَولياً على الأشياءِ كلِّها، إلا أن تخصيصَ العرشِ لتعظيم شأنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ ؛ أي يقضِي القضاءَ إلى الملائكةِ من رسُلهِ ولا يُشركُه في تدبيرِ أحدٌ من خلقهِ. وعن عمرو بن مُرَّة ((عن عبدالرحمن بن سابط))[1] قال: [يُدَبرُ أمْرَ الدُّنْيَا بأمْرِ اللهِ أرْبَعَةٌ: جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ وَإسْرَافِيلُ. أمَّا جِبْرِيلُ فَعَلَى الرِّيَاحِ وَالْجُنُودِ، وَأمَّا مِيكَائِيلُ فَعَلَى الْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ، وَأمَّا مَلَكُ الْمَوْتِ فَوُكِّلَ بقَبْضِ الأَرْوَاحِ، وَأمَّا إسْرَافِيلُ فَهُوَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ بمَا يُؤْمَرُونَ بهِ][2].

---

(١) سقط من المخطوط، وصححناه من شعب الإيمان للبيهقي.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في الإيمان بالملائكة: الحديث (١٥٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ﴾ جوابُ قولِ الكفَّار أنَّ الأصنامَ شُفعاؤُنا عندَ اللهِ، فبيَّن اللهُ تعالى ما مِن مَلَكٍ مقرَّبٍ، ولا نبيٍّ مُرسَلٍ يشفعُ لأحدٍ إلا مِن بعد أنْ يأذنَ اللهُ لمن يشاء ويرضَى، فكيف تشفعُ الأصنام التي ليس لها عقلٌ وتمييز.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ ﴾ ؛ أي الذي يفعلُ ما هو المذكور في هذه الآيةِ من خَلْقِ السَّموات والأرضِ وتدبير الخلق هو اللهُ خالقكم ورازقُكم، ﴿ فَٱعۡبُدُوهُۚ ﴾ ؛ ولا تعبدُوا الأصنامَ فإنَّها لا تستحقُّ العبادةَ، وقولهُ تعالى: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي هل تتَّعِظُونَ بالقرآن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ ﴾ ؛ أي إلى اللهِ سبحانه رجوعُكم جميعاً، وانتصبَ قولهُ: (جَمِيعاً) على الحال، وقوله: (وَعْدَ اللهِ) نُصبَ على المصدر؛ أي وعدَ اللهُ وَعداً، والمعنى وعدَ الله البعثَ بعدَ الموتِ وَعداً حقّاً كائناً لا شكَّ فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ؛ أي يخلقُكم في بطون أمَّهاتِكم نُطَفاً، ثم عَلَقاً ثم مُضغَةً ثم عظاماً، ثم يخرجُكم نَسْماً للتَّمامِ، ثم يُميتكم عند انقضاءِ آجالكم ثم يبعثُكم بعد الموتِ، وفي هذا بيانُ أن خلقَ الشيءِ على الترتيب حالٌ بعد حالٍ أدلُّ على الترتيب من خلقهِ جُملةً واحدة في ساعةٍ واحدة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ ؛ فيه بيانُ أن البعثَ للجزاءِ؛ لنَجزيَهم بالعدل لئَلاَّ ننقصَ من ثواب محسن، ولا نزيدُ على عقاب مُسِيءٍ، بل يُجازي كُلاً على قَدر عمله كما قال (جَزَاءً وِفَاقاً)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴾ ؛ أي من ماءٍ حارٍّ قد انتهى حرُّهُ، ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ ﴾ ؛ وجيعٌ يخلُصُ وجعُهُ إلى قلوبهم، ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ بالكتب والرسُل.

(١) النبأ / ٢٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ ؛ أي هو الذي جعل الشمسَ ضياءً للعالَمين بالنهار، والقمرَ نوراً بالليلِ.

رُوي في الخبرِ: أنَّ وجوهَهما إلى العرشِ وظهُورَهما إلى الأرضِ، يُضيء وجوهَهما لأهلِ السموات السَّبع، وظهورهما لأهلِ الأرضين السبع، كما قال (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً)[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقَدَّرَهُ) أي قدَّرَ القمرَ منازلَ وهي ثمانٍ وعشرون منْزلةً في كلِّ شهرٍ. وقيل معناه: (وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ) لا يجاوزُوها ولا يقصرُوها، وَقِيْلَ: جعل (قَدَّرَ) لهما يعدى إلى مفعولين، ويجوز أن يكون المعنى وقدَّرَهما، إلا أنه حذفَ التثنيةَ للاختصار والإيجاز، كما قال تعالى: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي ما خلقَ اللهُ الشمسَ والقمر، إلا لتعلَمُوا الحسابَ وتعتَبروا بهما، وتستدلُّوا بطلوعِها وغروبِها على صانعِهما.

وقوله: (لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) أي لتعلَمُوا بالشمسِ حسابَ السنين وحسابَ الشُّهور والليالي والأيامِ على ما تقدَّمَ أن القمرَ يقطعُ في الشهرِ ما تقطعهُ الشمس في السَّنة، ويعني بقولِهِ: (وَالْحِسَابَ) حسابَ الأشهُرِ والأيام والساعاتِ، وقولهُ تعالى: (مَا خَلَقَ اللهُ ذلِكَ إلاَّ بالْحَقِّ) ردَّهُ إلى الفعلِ والخلق والتدبيرِ، ولو أرادَ الأعيانَ المذكورة لقال: تِلْكَ إلا بالحقِّ، ثم يخلقهُ باطلاً، بل إظهارُ الصَّنعةِ، ودلالتهُ على قدرتهِ وحكمته.

---

(١) نوح / ١٦ .

(٢) التوبة / ٦٢. في معاني القرآن: ج ١ ص٤٥٨؛ قال الفراء: (ولم يقل: وقدَّرَهما. فإنْ شئتَ جعلتَ تقدير المنازل للقمرِ خاصة؛ لأن به تُعلم الشهور. وإن شئتَ جعلت التقديرَ لهما جميعاً، فاكتفى بذكرِ أحدهما من صاحبه).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾؛ أي نُبَيِّنُ علاماتِ وحدانيَّة اللهِ تعالى بأنه بعدَ آيةٍ (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) تفصيلَ الآياتِ. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص (يُفَصِّلُ) بالياء، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لقولهِ قبلَهُ (مَا خَلَقَ) فيكون متَّبعاً له، وقرأ الباقون بالنُّون على التعظيمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾؛ معناهُ: إنَّ في اختلافِ ألوان الليلِ والنهار وتقلُّبها بذهاب الليل وجِيئَةِ النهار، وذهاب النهار وجيئةِ الليل، وفيما خلقَ اللهُ في السَّموات من الشمسِ والقمر والنجومِ والسَّحاب والرياح، والأرضِ من الجبال والشجر والبحار والأنهار والدواب والنبات، لعلاماتٍ لقوم يتَّقون اللهَ ويخشَون عقوبتَهُ.

فلم يؤمِنوا بهذه الآياتِ ولم يصدِّقُوا، فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

قولَهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ۝٧ ﴾؛ معناهُ: إن الذين لا يخشَون عقابَ الله، وتنعَّموا بالحياة الدُّنيا، فلا يعمَلون إلا بها ولا يرجُون إلى ما ورائِها (وَاطْمَأَنُّوا بِهَا) أي سَكَنوا إليها وآثرُوها على عملِ الآخرة، والذين هُم عن دلائلِ توحيدنا غافلون تاركون لها مكذِّبون بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾؛ أي أهلُ هذه الصِّفة مصيرُهم إلى النار، ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨ ﴾؛ يعمَلون في دار الدُّنيا. وقد يُذكر الرجاءُ بمعنى الخوفِ كما قال اللهُ ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً﴾[1] أي لا تخافُون للهِ عَظَمَةً، ويجوزُ أن يكون المعنى: لا يرجون لقاءَنا؛ أي لا يرجون جزاءَنا، فجعل لقاءَ جزائهِ بمنْزلة لقائهِ.

(١) نوح/ ١٣ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ ﴾ ؛ أي إن الذين صدَّقوا بمُحَمَّدٍ والقرآن وعمِلُوا الصالحاتِ يُرشِدُهم ربُّهم على الصِّراط إلى الجنَّة بنُور إيمانِهم. وَقِيْلَ: يرشدُهم إلى منازلهم في الجنة. وَقِيْلَ: يُثَبِّتُهُمْ على الإيمان.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ ﴾ ؛ أي تجري الأنهارُ بين أيدِيهم وهم في الغُرَفِ يتطلَّعون عليها كما قال عَزَّ وَجَلَّ حاكياً عن فرعون ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْـهَارُ تَجْـرِي مِـنْ تَحْتِـي﴾[١]. ويجـوزُ أن يكون معناه: تجري من تحتِ شَجَرِهم وبساتينهم في جناتٍ تنعمون فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا ﴾ ؛ أي قولُهم ودعـاؤهم في الجنَّـة: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ ، فإذا سَمِعَ الخدَّام ذلك من قولِهم أتوهم بما يشتهون، قال ابن جُريج: (يَمُرُّ الطَّيْرُ عَلَى الرَّجُلِ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ فَيَشْتَهِيهِ، فَيُسَبحُ اللهَ تَعَالَى، فَيَقَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَأْكُلُ مِنْهُ مَا شَاءَ، فَإذا فَرَغَ قَالَ: الْحَمْدُ للهِ)[٢]. ويقالُ معنى قولهِ: (دَعْوَاهُـمْ فِيـهَا) أي مُفْتَتَحُ كلامِهم التسبيحُ، ومختَتَمُ كلامهم التحميدُ، لاَ أن يكون الحمدُ آخرَ كلامِـهم حتـى لا يتكلمون بعدَهُ بشيءٍ.

قال طلحةُ بن عبدِالله: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْل: سُبْحَانَ اللهِ، فَقَالَ: [هُوَ تَنْزِيهُ للهِ مِنْ كُـلِّ سُـوءٍ][٣]. وسُـئِلَ عَلِـيٌّ ﷺ عَـنْ ذلِـكَ فَقَـالَ: (كَلِمَـةٌ رَضِيَـهَا اللهُ لِنَفْسِهِ)[٤]. وقال الحسنُ: (بَلَغَنِي أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ حِينَ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: [إنَّ أهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ الْحَمْدَ وَالتَّسْبيحَ، كَمَا تُلْهَمُونَ أنْفُسَكُمْ].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ ﴾ ؛ أي يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، وتحييهم الملائكة بالسـلام،

---

(١) الزخرف / ٥١ .

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٦١٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الرقم (١٣٦٢٤) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٦٢٣).

وتأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام، كما في قولهِ تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾[١] قرأ بلالُ بن أبي بُردة وابن محيصن (إنَّ الْحَمْدَ للهِ) بكسرِ (إنَّ) وتشديدِ النون ونصب (الْحَمْدَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ هذه الآية نزلَت في النَّضْرِ بن الحارثِ حين قال ﴿اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ...﴾ الآية[٢] ثم صارت عامَّة في كلِّ مَن يستعجلُ العقابَ الذي يستحقُّه بالمعاصي.

معناهُ: ولو يعجلُ الله للناسِ الشرَّ كما يعجِّلُ الخيرَ إذا دعَوا بالرَّحمة والرزقِ والعافية لَمَاتُوا وهَلَكُوا. وَقِيْلَ: المرادُ بهذه الآية دعاءُ الإنسان على نفسهِ وولَدِه وقومِهِ، مثلُ قول الرجلِ إذا غَضِبَ على ولدِهِ: اللهُمَّ لا تُباركْ فيه وَالْعَنْهُ، وقولهُ لنفسهِ: لا رفعني اللهُ من بينكم، والمعنى على هذا: ولو يعجِّلُ الله للناسِ إجابةَ دعائهم في الشرِّ كاستعجالهم الإجابةَ في الخيرِ (لَقُضِيَ إلَيْهِمْ أجَلُهُمْ) أي لفَرَغَ من عذابهم وماتُوا جميعاً. وقال شهرُ بن حَوْشَبْ: (قَرَأتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْمَلَكَيْنِ الْمُوَكَّلَيْنِ: لاَ تَكْتُبَا عَلَى عَبْدِي فِي حَالِ ضَجَرِهِ شَيْئاً).

وقرأ ابنُ عامرٍ ويعقوب (لَقَضَى) بفتح القاف والضاد (أجَلَهُمْ) بفتح اللام، وقرأ الأعمشُ (لَقَضَيْنَا) وقرأ العامة (لَقُضِيَ) بضمِّ القاف وكسرِ الضاد، ورفعِ قوله (أجَلُهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ أي نتركُ الذين لا يخافون البعثَ في ضلالتِهم وكُفرِهم يتحيَّرون ويتردَّدون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ ؛ نزلت هذه الآيةُ في هِشَامِ بن المغيرةِ المخزوميِّ، ومعناهُ: إذا أصابَ الإنسانَ الشدَّةُ والمرضُ دعانا لكشفهِ وهو مضطجِعٌ لِمَا به من المرضِ أو قاعِداً إذا هانت العلَّة، أو

(١) الأحزاب / ٤٤.
(٢) الأنفال / ٣٢ .

قائماً إذا بَقِيَ أثرُ العلَّة، أو كان في شدة معيشة أو غيرها، ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ ﴾ ؛ رفعنَا ما كان به من الشدَّة استمرَّ على الإعراض عن شُكرنا ما أنعَمنا عليه في كشفِ الضرِّ عنه، ﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ ؛ قَطّ؛ أي كأنَّهُ لم يَمَسَّهُ ضُرٌّ، وكأنْ لم نكشف الضرَّ عنه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ في الشِّركِ من الدعاء في الشدَّة، وتركِ الدعاء في الرَّخاءِ، فاغترُّوا بما زُيِّنَ لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ ؛ أي ولقد أهلَكنا الأُممَ الماضيةَ من قبلِكم حين كفَرُوا، ﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ بالدلالاتِ الواضحاتِ، ﴿ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ اللهَ تعالى إنما أهلكَهم؛ لأنه كان المعلومُ من حالهم أنه لو أبقَاهم أبداً لأدبروا ولم يُؤمِنوا، ولو كان في بقائِهم صلاحٌ لهم ولغيرِهم لأبقَاهم. وقولهُ تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ أي هكذا نَجزي القومَ المشركين، نُهلِكُهم كما أهلَكنا الأوَّلين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي ثم أسكنَّاكم الأرضَ من بعد الأوَّلين لنُجازيكم على ما تعمَلون من الخيرِ والشرِّ، ونشاهدُ هل تعتَبرون بما صُنِعَ بالأوَّلين أم لا ؟ وهذا على التهديدِ؛ أي إنْ عامَلتُكم مثل معاملَتِهم أهلكْتُكم كما أهلكتُهم.

وإنما قال (لِنَنْظُرَ)؛ لأنه سبحانهُ يعامِلُ العبدَ معاملةَ المختبر الذي لا يعلمُ الشيءَ حتى يكون مظاهرة في العدل، وأنه إنما يُجَازي العبادَ على أعمالهم لا على علمِهِ فيهم، قال رسولُ الله ﷺ: [إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ][1]، قال قتادةُ: (وَذكِرَ لَنَا أنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ: صَدَقَ رَبُّنَا مَا جَعَلَنَا

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ٢٤ ص١٨١: الحديث (٥٧٧-٥٨٩) عن خولة بنت قيس، وفيه: [إنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أخَذَهَا بِحَقِّهَا بَارَكَ اللهُ لَهُ فِيهَا، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِي مَالِ اللهِ وَرَسُولِهِ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ لَهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]، وإسناده حسن صحيح. وأخرجه ابن حبان في موارد الضمآن: الحديث (٨٠٢)، وفي الصحيح: كتاب الجنائز: الحديث (٢٨٩٢).

خلْقاً إلاَّ لِيَنْظُرَ إلَى اعْمَالِنَا، فَأَدُّوا اعْمَالَكُمْ خَيْراً باللَّيْلِ وَالنَّهار وَالسِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ)[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ ؛ معناهُ: وإذا قُرِئَ على أهلِ مكة آياتُنـا المنَزَّلـة في القـرآن، قـال الذين لا يخشَون عِقابَنا ولا يطمَعون في ثوابنا ولا يُقِرُّونَ بالبعثِ: ائْتِ يا مُحَمَّدُ بقرآنٍ ليس فيه عيبُ آلِهتنا ولا ذكرٌ في البعثِ والنُّشور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (اوْ بَدِّلْهُ) أي قالوا أو بَدِّلْ هذهِ بغيرِهِ، قُل يا مُحَمَّدُ (مَا يَكُونُ لِـي انْ اُبَدِّلَهُ) أي ما يجوزُ وما ينبغي لي أن اُغَيِّرَهُ من قِبَلِ نفسي، ما أقولُ أو ما أعمـلُ إلا ما يوحَى إلَيَّ من القرآن، ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ﴾ ؛ أعلمُ، ﴿ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ ؛ فبدَّلـتُ القرآنَ أنه يكون عليَّ، ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ: لـو شاءَ اللهُ ما قرأتُ القرآنَ عليكم بأن كان لا يُنزِّلهُ عَلَيَّ، ﴿ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ ؛ أي ولا أعلمَكم اللهُ به؛ أي لو شاءَ الله أنْ لا يُشعِرَكم، وفي قراءةِ الحسن (وَلاَ أدْرَاكُمْ بهِ) أي ولا أعلَمَكم به. وقولهُ تعـالى: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي ومكثتُ فيكم دَهْراً قبلَ إنزالِ القرآن، ولم أقُلْ مِـن هـذا شيئاً، فليـس عليكـم ذهـنُ الإنسانيَّة أنه ليس من تِلْقَاءِ نفسِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ استفهامٌ بمعنى الإنكار له: أنَّ الله خالقُ السمواتِ والأرض وهو عالِمٌ بما فيها، يعلمُ أن ليـس فيـهما إلَـهٌ ينفَـعُ ويضـرُّ غيرهُ، فتخبرونه أنتم بشيءٍ لا يعلمهُ، فيعلم بأخباركم، وهذا نفـيٌ للعلـمِ، والمـرادُ بـه نفيُ ما قالوه: من أن شفاعةَ الأصنامِ ((تنفعهم)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ اي لا أجدُ ممـن اختلقَ على اللهِ كذباً بأنْ جعلَ شريكاً له أو ولَداً إذا ادَّعَى النبوةَ بغيرِ حـقٍّ، أو قـالَ: أمِرْنا بعبادةِ الأصنام فنتقرب بعبادتِها إليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ ؛

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٦٣٠)، وله قصة في الأثر (١٣٦٣٨).

أي بأنبيائهِ ورسُلهِ وكتُبهِ، وقولُـهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي لا يوصِلُهم إلى مُرادِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾؛ أي وإنَّ أهلَ مكَّة يعبُدون مِن دون اللهِ الأصنامَ التي لا يضرُّهم إنْ تَركُوا عبادتَـها ولا ينفعُهم إنْ عبَدُوها، ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾؛ فإنهُ الـذي أذِنَ لنـا في عبادتِها وأنه يستشفعها فينا، وأرادُوا بذلـك شفاعةَ الأصنـامِ في مصـالحِ دُنيـاهم؛ لأنَّهم كانوا لا يُقِرُّونَ بالبعثِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ هذا لا يكون أبداً. ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي تَنْزيهاً للهِ عن كلِّ صفةٍ لا تليقُ بذاتهِ، وارتفعَ وتَبَرَّأ عمَّا يُشرِكون بهِ مِن الأصنامِ والأوثان.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾؛ اختلـفَ الناسُ في المرادِ بهذه الآيةِ، قال بعضُهم: أرادَ بذلـك أنَّ النـاسَ كـانوا أُمَّـةً واحـدةً في وقتِ آدمَ عليه السلام، ثم اختلَفُوا بأنْ كَفَّرَ بعضُهم بعضاً، وأوَّلُ مَن اختلفَ قابيلُ وهـابيل. ويقال: أرادَ به الناسَ كلَّهم وُلِدُوا على الفطرةِ، ثم اختلَفُوا بأنْ غـيَّر بعضُـهم الفطـرةَ ولم يغيِّرْ بعضهم، بل ثبتَ عليها.

وقال بعضهم: أرادَ بذلك أنَّهم كانوا أمـةً واحـدةً علـى عـهدِ إبراهيـم ونـوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ كلُّهم كانوا كافِرين، فتفرَّقوا بين مؤمنٍ وكافر. ويقال: أرادَ بالناسِ ههنا العربَ، كانوا على الشِّركِ قبلَ مبعثِ النبيِّ ﷺ ثم اختلَفُوا بعدَهُ، فآمَنَ بعضُهم وكفـرَ بعضُهم. فالقولُ الأوَّلُ أقربُ إلى ظاهرِ الآية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ لو كان لكم من اللهِ سبقٌ ببقاءِ التكليف على الناسِ أي وقت معلوم سواءً أطاعوهُ أو عصَوهُ لِمَا عَلِمَ من المصلحةِ لهم ولغيرِهم في ذلك، لعجَّلَ لهم العذابَ عند العصيان، فاضطرَّهم إلى معرفةِ الحقِّ فيما اختلفوا فيه. وقـرأ عيسَـى بـن عُمر (لَقَضَى بَيْنَهُمْ) بالفتحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي يقولُ كفارُ مكةَ: هَلاَّ أنزلَ على مُحَمَّدٍ آيةٌ من ربه، يعنُون الآيةِ التي كانوا يقترحونَها على سوى الآيات التي أنزل اللهُ تعالى (فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ) أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ نزول الآياتِ لله تعالى لو عَلِمَ الإصلاحَ في زيادةِ الآيات لأَنزَلَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ ؛ أي فانتَظِروا عقابَ اللهِ بالقتلِ في الدُّنيا والنار في الآخرة، ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ بهلاكِكُم بما أوعدَ اللهُ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ﴾ ؛ معناهُ: إذا أعطَينا الناسَ ما يُسَرُّونَ به من العافيةِ والنِّعمَةِ والرحمةِ والمطر من بعدِ فَقْرٍ وبلاء ومَرَضٍ وقحطٍ وشدَّةٍ أصابَتهُم، إذا لَهم مكرٌ في آياتِنا بالاحتيالِ في دفْعِها والتكذيب بها، كانوا لا يقولون: هو رزْقُ اللهِ ورحمتهُ، و(إذا) تنوب عن جواب الشرط كما ينوبُ الفعلُ، والمعنى إذا مَسَّتْهُمْ راحةٌ ورخاء بعد شدَّةٍ وبلاء. وَقِيْلَ: مطرٌ بعد قحطٍ إذا لهم كفرٌ وتكذيب. قال مقاتل: (لاَ يَقُولُونَ هَذا رزْقُ اللهِ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ: سُقِينا بنَوْءِ كَذا) وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ ؛ أي أسرعُ جزاءً على المكرِ وأقدرُ على ذلكَ، يسمَّى الجزاءُ باسمِ الْمَجْزِيِّ عليه. وَقِيْلَ: معناهُ: قُلِ اللهُ أعجلُ عقوبةً وأشدُّ أخذاً وأقدرُ على الجزاءِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي الكِرَامُ الكَاتِبين، يكتبُون ما تَمكُرون أنتم. قرأ الحسنُ ومجاهد وقتادة ويعقوب (مَا يَمْكُرُونَ) بالياء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ أي هو الذي يسهِّلُ عليكم السَّيرَ ويحفَظُكم إذا سافَرتُم في البَرِّ على الدواب، وفي البحرِ على السُّفُن، فالسيرُ في البحرِ مضافٌ إلى اللهِ على الحقيقةِ؛ لأنَّ سَيْرَ السفينةِ لا يكون إلا بجَرْيِ الماء، وبالريحِ للسَّفينة.

---

(١) الواقعة / ٨٢ .

وأما السيرُ في البرِّ فإضافتهُ إلى اللهِ تعالى على معنى تسخيرِ الْمَرْكُوب، وتسييرِهِ بإمساكهِ بقُدرَةِ الله تعالى أيضاً. قرأ ابنُ عامرٍ وأبو جعفر (يَنشُرُكُمْ)، والسَّيْرُ من النَّشْرِ؛ أي نَبُثُّكُمْ في البرِّ والبحرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ؛ أي حتى إذا كُنتم في السُّفن، وقد يكون الفُلْكُ واحداً، وقد يكون جَمعاً، فمَن جعلَهُ واحداً فجمعهُ أفلاكٌ، ومَن جعلَهُ جَمعاً فواحدُ فَلَكٍ، كما يقالُ أسَدٌ وَأسْدٌ.

وقولهُ تعالى: (وَجَرَيْنَ بهِمْ) أي السُّفنُ جَرَيْنَ بأهلِها بريحٍ لَيِّنَةٍ ساكنةٍ، وفرِحُوا بسُكون ريحِها وأعجِبُوا، قال الزجَّاجُ: (ابْتِدَاءُ الْكَلاَمِ خِطَابٌ، وَبَعْدَ ذِلِكَ إخْبَارٌ عَنْ مَعَانِيهِ؛ لأَنَّ مُخَاطَبَةَ اللهِ لِعِبَادِهِ لاَ تَكُونُ إلاَّ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ، وَذلِكَ بمَنْزِلَةِ الإخْبَار عَنِ الْغَائِب)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ؛ أي ركوبُهم الموجَ من كلِّ جانبٍ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ ؛ أي أيْقَنُوا أنه قد دَنَا هَلاكُهم، تقولُ العرب لكلِّ مَن وقعَ في الهلاكِ، أو بليَّة عظيمةٍ: أُحِيطَ بفُلاَنٍ؛ أي أحاطَ به الهلاكُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ أي دَعَوا اللهَ ليكشِفَ ذلك عنهم، مُخلصين له الاعتقادَ، لا يدعُون عند الشدَّة غيرَهُ، قال الحسنُ: (لَيْسَ هُوَ إخْلاَصُ الإيْمَان، وَلَكِنَّهُ لِعِلْمِهِمْ بأنَّهُ لاَ يُنْجِيهِمْ مِنْ تِلْكَ الشِّدَّةِ إلاَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ ﴾ ؛ أي مِن هذه الرِّيح الشديدةِ والغرق، ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ لكَ على نعمائِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ فلما أنْجَاهُم من البحرِ إذا هم يتطاوَلون على أنبياءِ الله وأوليائهِ، ويعمَلُون بالمعاصِي

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص١١. وفي المطبوع اختصر العبارة أو سقطت منه. وعبارة الإمام الطبراني أتم وأوضح في المعنى.

والفساد، والدعاءِ إلى غيرِ عبادة الله. والبَغْيُ في اللغة: التَّرَامِي إلى الفسادِ، يقالُ: بغَى الجرحُ بَغْياً إذا ترامَى إلى الفسادِ، وبَغَتِ المرأةُ إذا فسَدَتْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ﴾ أي إنَّما ظُلْمُكم وتطاولُكم يعودُ ضَررهُ عليكم، ويرجعُ وَبَالُـهُ إليكـم، وقولـهُ تعـالى: (مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي هو تَمَتُّعٌ قليلٌ في الدُّنيا، ومتاعٌ يَذْهَبُ ويَفْنَى، ويجوزُ أن يكون قولهُ: (مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) خبرٌ لقولهِ (إنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أنْفُسِكُمْ) أي لا يتهيَّأُ لكـم إلاَّ أن يبغِي على بعـضٍ في مـدَّة يسـيرةٍ مـن الدُّنيـا مـع سـرعةِ انقضائـها، ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ ؛ بعد الموتِ، ﴿ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ وقرأ حفـص (مَتَاعَ) بالنصب على المصدر.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّما صفةُ حياةِ الناسِ الدُّنيا وهي الحياةُ الأُولى، صفةُ ما أنزلَ اللهُ فينبتُ به أنواعَ النباتِ، واختلطَ بعضهُ إلى بعضٍ؛ لأن المطرَ يختلطُ بالنباتِ ويدخلُ في خلالهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ ؛ أي مما يصيرُ إلى النـاسِ مـن الحبوب والثمار، وبعضه عَلَفاً للدَّواب من العشب والكَلإ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ ؛ أي زيَّنَـها مـن النباتِ، والزُّخْرُفُ: حُسْنُ الشَّيءِ، وقولهُ (وَازَّيَّنَتْ) أي تزيَّنت بنباتِـها وأثمارهـا مـن الأحمرِ والأصفر والأخضر وسائرِ الألوان التي لا غايةَ لها في الْحُسْنِ بعدَها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ ؛ حسِـبَ أهلُـها إدراكَ الانتفاعِ بها. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا ﴾ ؛ أي أتَاها عقابُنا في ليلٍ أو نهار، إما ببَردٍ أو بصواعقَ محرقةٍ أو غيرها، ويسمَّى العقـابُ أمراً؛ لأنَّ أفعالَ الله سبحانهُ تضافُ إليـها بلفـظِ الأمـر؛ لأنَّ ذلـك أدلُّ علـى سُـرعَةِ السُّكون من غيرِ استبطاءٍ ولا تَعَبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ ﴾ ؛ أي كأنْ لم يكن بذلكَ المكانِ شيءٌ من الخضرِ والحسن والنباتِ، والْمَغْنَى: هو الموضعُ الذي يقام فيه ويعمـر، والمغـانِي: المنازلُ التي يعمِّرها الناس بالنُّزول بها، كما يقالُ غَنِينا بمكانِ كذا إذا نُـزَادُ بـه، ووجـهُ

تشبيه الحياةِ الدنيا بالمطرِ الذي يُنْزَلُ فينبت به النباتُ، ثم يقضي فينقطعُ أنه كما لا يبقَى من ذلك شيءٌ من ذلك النباتِ، كذلك المتمسِّكُ بالدنيا أقوَى ما ينتهِي إليه أمرُ دنياه يأتيهِ الموتُ.

وقرأ ابنُ مسعودٍ وتزيَّنت، وقرأ أبو عُثمان الشهدي والضحَّاك (وَازْأَنَتْ) على وزن (احْمَارَّتْ)، وقرأ أبو رجاء والشعبيُّ والحسن (وَازَّيَّنَتْ) على مثال (افْعَّلَتْ) مقطوعةُ الألف ساكنة الزاي، قال قطربُ معناه: (أتَتْ بالزِّينَةِ) كما يقالُ: اذكَرَتِ المرأةُ وَآنَثَتْ إذا أتَتْ بالذُّكور والإناثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي كما فصَّلنَاكم، فكذلكَ نُبيِّنُ الآياتِ في القرآن، ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾؛ في أمرِ الدُّنيا والآخرة، وإنما خَصَّ بذلك من يتفكَّرُ؛ لأن الغافلَ عن ذلك والمتغافِلَ لا يكادُ ينتفع بهذه الأمور، بل هو كالأنعامِ وأضَلُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَاللهُ يَدْعُو إلَى عَمَلِ الْجَنَّةِ)، وقالَ: (اللهُ السَّلاَمُ، وَدَارُهُ الْجَنَّةُ) ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾؛ أي يُكْرِمُ مَن يشاءُ بالكرامةِ وبالهدايةِ إلى دينِ القيم، قائمٌ برضاءِ الله وهو الإسلامِ، ويقالُ: معنى دار السَّلام الدار التي يسلمُ أهلُها عن الآفاتِ والأمراض والهرَمِ والموت، والسَّلامُ بمعنى كالرِّضاع والرِّضاعةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾؛ أي للَّذين أحسَنُوا العملَ في الدُّنيا لَهم الْحُسنَى وهي الجنةُ ولذاتُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَزِيَادَةٌ) رُوي عن أبي بكرٍ ﷺ أنه قالَ حين تَلاَ هذه الآية: (أتَدْرُونَ مَا الزِّيَادَةُ؟ قَالُواْ: مَا هِيَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: الْحُسْنَى الْجَنَّةُ وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إلَى وَجْهِ اللهِ تَعَالَى)[1].

وعلى هذا القولِ حذيفةُ وأبو موسى وصُهيب[2] وعبادةُ بن الصَّامت وكعبُ ابن عَجْرَةَ وعامرُ بن سعيد والحسنُ وعكرمة وأبو الجوزَاءِ والضحَّاكُ والسديُّ وعطاء

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٣٤١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٦٥٠)، وقال: (وقتادة).

ومقاتل، وهو قولُ أبي بكرٍ الصدِّيق ﷺ يدلُّ عليه قولهُ ﷺ: [إذا دَخَلَ أهْـلُ الْجَنَّـةِ نُودُوا: أنْ أهْلَ الْجَنَّةِ إنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِداً لَمْ تَرَوْهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ ؟! ألَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُزَحْزِحْنَا عَنِ النَّارِ وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ وَيَنْظُـرُونَ إلَيْـهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَوَاللهِ مَا أعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئاً أحَبَّ إلَيْهِمْ مِنْهُ][1].

وقال ابنُ عبَّاس: (لِلَّذِينَ أحْسَنُوا الْحُسْنَى؛ أيْ لِلَّذِينَ شَهِدُوا أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ الْجَنَّةَ)، وروى عطيَّة: (أنَّ الْحُسْنَى هِـيَ الْوَاحِـدَةُ مِـنَ الْحَسَـنَاتِ بوَاحِـدَةٍ، وَالزِّيَـادَةُ التَّضْعِيفُ عَشْرُ أمْثَالِهَا إلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ)[2].

وَقِيْلَ: الْحُسْنَى النُّصْرَةُ، وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَـاضِرَةٌ، إلَى رَبِهَا نَاظِرَةٌ﴾[3]، وعن عليٍّ ﷺ قالَ: (الزِّيَادَةُ غُرْفَةٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِـدَةٍ، لَـهَا أرْبَعَـةُ أبْوَابٍ)[4]، ويقالُ: الزيـادة رضَـا الـرب، كمـا رُوي أنَّ أهـلَ الجنَّـة يُؤتَـونَ بـالتُّحَفِ والكراماتِ ويقولُ لَهم رسولُ رب العزَّة (إنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لَكُمْ: قَدْ رَضِيتُ عَنْكُمْ فَهَلْ رَضِيتُمْ عَنِّي ؟).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي لا يَعلُو وجوهَهم ولا يلحقُها سـوادٌ وهـو كُسُـوفُ الوجـهِ (وَذِلَّةٌ) أي ولا هَـوَانٌ ولا حَـزَنٌ، ولا يكـون نعيـمُ الجنـة كنعيـمِ الدُّنيـا، ولا يشـوبهُ التنغيصُ ولا التنكيد. والرَّهَقُ في اللغة هو الرُّهُـوقُ ومنـه قولُـهم للصـبيِّ إذا قـاربَ البلوغ: مُرَاهِقٌ؛ أي قاربَ أن يبلغَ الاحتلامَ. والْقَتَرُ: غَبَرَةٌ فيـها سـوادٌ. وقـرأ الحسـنُ (قَتْرٌ) بإسكانِ التاء، وهما لُغتان. وباقي الآية ظاهرُ المعنى.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٧٣١٤). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: بـاب إثبات رؤية المؤمنين: الحديث (٢٩٦/ ١٨٠). وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٠٣٤٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان بمعناه عن ابن عباس في الرقم (١٣٦٧٢)، وعن الحسن في الرقم (١٣٦٧٤).

(٣) القيامة / ٢٢و٢٣ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٦٧١). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٠٣٤٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ ؛ معناهُ: والذين أبَوا طاعةَ اللهِ في ما أمَرَهم به ونَهاهُم عنه، يجازيهم اللهُ بما يستحقُّونه على العقوبةِ، ولا يجازيهم بأكثرَ من الاستحقاق، بخلافِ الطاعة فإنه تعالى قد يتفضَّلُ على الْمُطِيعِ بزيادة الأجر، فإنه كان يجوزُ أن يتَّصِلَ ابتداءً بتلك الزيادةِ، والجزاءُ مرفوعٌ بإضمار، كقوله ﴿فَفِدْيَةٌ﴾[١] أي فعَلَيْهِ ذلكَ، ويجوزُ أن يكون مَرفوعاً بالابتداءِ خبرُ (بِمِثْلِـهَا) أي مثلِ، الباءُ فيه زائدةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ ؛ أي يَعْلُوهُـمْ كَآبَـةٌ وكسُـوفٌ وهـوانٌ؛ لأن العقابَ لا يكون عقاباً بمجرَّد الألَـم، وإنما يكـون عِقاباً بما يُقَارِنُـهُ بإرادة الإذلال والإهانةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ؛ أي ما لَهم من حافظٍ يدفعُ عنهم عقابَ الله. وقولهُ تعالى (مِنْ عَاصِمٍ) مِنْ هَهُنا صلةٌ.

وقوله: ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ ؛ أي كأنَّما ألبسَتْ وجُوهم قِطَعاً من اللَّيل، أكثرُ القراءةِ على فتحِ الطَّاء وهو جمعُ قِطْعَةٍ، ويكون (مُظْلِماً) على هذهِ القراءة نَصباً على الحال، والقطـعُ دونَ النعـتِ كأنَّـه أرادَ قِطَعـاً مـن الليـلِ المظلم، فلما حذفَ الألفَ واللام نُصب على القطعِ. ويجوزُ أن يكون حالاً؛ أي قِطَعاً من الليلِ في حال الظُّلمة.

وقرأ ابنُ كثير والكسائي ويعقوب (قِطْعاً) ساكنةَ الطَّاء؛ أي بَعْضاً كقولهِ تعالى: ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾[٢] ويكون (مُظْلِماً) نعتاً للقطـعِ، وقولـهُ تعـالى: ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أهْلِ الشِّرْكِ). وقولُـهُ: (جَـزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا) أي قِصَاصُ الشِّركِ باللهِ النارُ، ليس في النار زيادةٌ على جزاءِ الْمِثْلِ، إذ لا ذنبَ أعظمُ من الشِّرك، ولا عِقَابَ أشدُّ من النار، كما قال تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقاً﴾[٣]. وقـال

(١) البقرة / ١٩٦ .

(٢) الحجر / ٦٥ .

(٣) النبأ / ٢٦ .

ﷺ: [أوْقِدَ عَلَى النَّار الْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أوْقِدَ عَلَيْهَا الْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أوْقِدَ عَلَيْهَا الْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإنَّ لَوْنَهَا أشَدُّ سَوَاداً مِنَ الْقَبْرِ فِي عَيْنَيْنِ خَضْرَاوَيْنِ، وَاهْلُهَا سُودٌ، فَكَذلِكَ طَعَامُهَا وَشَرَابُهَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لَو اطَّلَعَ رَجُلٌ مِنْ اهْلِهَا عَلَى الأَرْضِ لأَسْوَدَّتْ بهَا الأَرْضُ مِنْ شِدَّةِ سَوَادِهِ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي يوم نَجْمَعُهم جميعاً من قُبورهم إلى الْمَحْشَرِ للفصْلِ بينهم. ونَحْشُرُ في اللغة: جَمْعُ الحيوانِ من كلِّ مكانٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ ؛ أي نقولُ للذين أشركُوا في عبادتِهم مع اللهِ غيرَهُ، وأشرَكُوا في أموالِهم كما أخبرَ اللهُ عنهم بقولِه: ﴿هَذا للهِ بزَعْمِهِمْ وَهَذا لِشُرَكَائِنا﴾[(٢)].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ ؛ أي يقالُ لَهم: قِفُوا أنتم وآلهتكم، وهذه كلمةُ تَهديدٍ، كما يقالُ للغيرِ: مَكَانَكَ؛ أي الْزَمْ مكانَكَ حتى تنتظرَ ماذا حلَّ بكَ بسوءِ صَنِيعكَ، وحتى نفصِلَ بينكَ وبين خصمِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي ففرَّقنا بين الكفار وبين آلهتِهم في القولِ بالاختلاف الذي يكون بينهم، وليس هذا من الإزالة ولكنه من قولك: أزَلْتُ الشيءَ عن مكانهِ أزِلْهُ أزيلاً، والترسل الكثيرةُ من هذا الباب، والمزايَلَةُ المفارقةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إن اللهَ يسألُ الأصنامَ التي عبَدُوها: هل أمرتُم هؤلاءِ بعبادتِكم ؟ فيقولون للذين كانوا يعبدُونَها ردّاً عليهم: (مَا كُنْتُمْ إيَّانَا تَعْبُدُونَ) بأمْرِنا ولم نعلَمْ بعبادتِكم، ولم يكن فينا روحٌ فنفعلَ بعبادِتكم، فيقولُ الكفار: بَلَى قد عبدْناكم، وأمرتُمونا فأطعنَاكم، فتقولُ الأصنام، كما قال تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ ؛ أي كفَى باللهِ فاصِلاً للحُكم بيننا وبينكم، ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ لا نعلمُ شيئاً

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب صفة جهنم: الحديث (٢٥٩١) وضعفه، وقال: ((حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح، ولا أعلمُ أحداً رفعَهُ غير يحيى بن أبي بكر عن شريك)).
(٢) الأنعام / ١٣٦.

من ذلك. والفائدةُ في اختصار الأصنام أن يُظهرَ اللهُ للمشركين ضَعْفَ معبُودِهم، وليزيدَهم ذلك حسرةً على عبادتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ ؛ من قرأ (يَبْلُو) بالياءِ فالمعنى فنخبرُ كلَّ نفسٍ ما قدَّمت من خيرٍ أو شر، ومن قرأ (تَبْلُو) بالتاء فالمعنى تقرأ كل ((نفسٍ)) كتابَ عمَلِها. ويجوزُ أن يكون معناهُ: تَتَّبعَ كلُّ نفسٍ جزاءَ عملها، و(هُنَالِكَ) من الظُّروف، أصلهُ هُنَاكَ، واللامُ زائدةٌ والكاف للمخاطَبةِ، وكُسِرت اللامُ لسكونِها وسكونِ الألِف.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي رُدُّوا إلى جزاءِ الله وإلى الموضعِ الذي لا يملكُ الحكمَ فيه أحدٌ إلا اللهَ، والحقُّ هو الذي يكون معنى اللفظِ حاصلاً فيه على الحقيقةِ، واللهُ تعالى حقٌّ لأنَّ الإلهيَّة حاصلةٌ له على الحقيقةِ؛ لاقتدارهِ على جميعِ الأشياء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ وبَطَلَ عنهم ما كانوا يختَلِقُون من الكذب بالأصنامِ أنَّها آلهةٌ وأنَّها تشفعُ عندَ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي قل لكفَّار مكَّة: مَن يرزُقكم من السَّماء المطرَ؛ و؛ مِنَ ﴿ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ النباتَ والثمارَ، ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ﴾ يقدرُ على أن يخلُقَ لكم، ﴿ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ ؛ أي مَن يُخرجُ الحيَّ مِن النُّطفةِ، ﴿ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ ؛ أي مَن يخرجُ النطفةَ من الحيِّ، والفرخَ من البيضةِ، والبيضةَ من الفرخِ، والسُّنبلةَ من الحبَّة، والحبةَ من السُّنبلةِ، ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ ؛ أمرَ العبادَ على وجهِ الحكمة، ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ ، فيعرفُون باللهِ تعالى هو الذي يفعلُ هذه الأشياءَ، وأنَّ الأصنامَ لا تقدرُ على شيءٍ من هذا، ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ فقُل لَهم يا مُحَمَّد: أفَلا تخافون من عقاب الله، ولِمَ تعبدون الأصنامَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي الذي يرزقُكم من السَّماء والأرضِ، ويُخرجُ الحيَّ مِن الميت، ويُخرج الميتَ من الحيِّ، ويدبرُ الأمرَ، وهو ربُّكم الحقُّ دون الأصنامِ الباطلة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ ؛ أي فما

يردُّكم عن عبادةِ الله وهو الحقُّ إلى عبادةِ الأصنام الباطلةِ إلا الضَّلالَ، ومِن أين ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ عن الإيمانِ باللهِ وإخلاصِ الطاعة له بعدَ المعرفةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي كما وجبَت كلمةُ العذاب فيهم، وجبَ على كلِّ مَن تمرَّدَ بالكفر، وقوله: (أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) يجري مجرَى التَّعليلِ، كأنَّه قالَ بإصرارهم على الكُفرِ؛ لأنه كلما كان تمرُّدهم أكثرَ، كانوا في الكفرِ أشدَّ ضلالةً، وإلا فقد آمَنَ كثيرٌ من الكفار، وقال ابنُ عبَّاس: (وَجَبَتْ كَلِمَةُ الْعَذَاب عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي صُلْب آدَمَ عليه السلام).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّد: هل مِن شركائِكم الذين أشركتُم مع اللهِ في العبادة من ينشئُ الخلقَ من النُّطفةِ بعد أنْ لم يكن، ويجعلُ فيه الروحَ؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ يُعِيدُهُ) فيه اختصارٌ؛ لأنَّ الإعادةَ ردُّ الشيء إلى الحالةِ الأُولى، ولا يكون ذلك إلا بعد فَنَاءٍ، فيكون تقديرُ الآية: مَنْ يَبْدَأ الخلقَ من النطفةِ، ثم يُفْنِيهِ، ثم يعيدهُ في الآخرةِ. ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي مِن أين تُصرَفُون عن الإيمانِ بالله وإخلاصِ الطاعة له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ ﴾ ؛ أي قل هل مِن آلهتِكم مَن يهتدي إلى الرُّشدِ، وما فيه صلاحٌ لَهم، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّۗ ﴾ ؛ أي الرَّشَادِ وما فيه صلاحُ الإنسانِ، يقالُ: هُدِيتُ إلى الحقِّ، وهُدِيتُ لِلحَقِّ بمعنًى واحد.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ ﴾ معناهُ: أفمَن يدعو إلى عملِ الحقِّ أحقُّ أن يطاعَ ويُعملَ بأمرِهِ، أمَّن لا يهتدِي طريقاً إلا أن يُحمل فيُذهبَ به حيث يرادُ، يعني الأصنامَ، كأنه قالَ: إن ((الأصنام)) التي يعبدونَها مِن دون الله لا تهتدي بأنفُسِها إلا أنْ يهدى بها عند غيرِها[1].

واختلفَ القُرَّاء في قولهِ: (أمَّنْ لاَ يَهدِّي)، وأجودُها قراءَتان: (يَهَدِّي) فتح الهاء، و(يَهِدِّي) بكسرِ الهاء، والأصلُ في ذلك يهتَدِي أدغمت التاءُ في الدَّال، وطُرِحَ فتحُها على الهاءِ، وكُسرت الهاءُ لالتقاء السَّاكِنَين.

---

(١) في المخطوط: (إلا أن بهديها عند غيرها).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أيُّ شيءٍ لكم في عبادةِ الأوثان؟ فكيفَ تقضون لأنفُسِكم، فتعبدُون مَن لا يستحقُّ العبادةَ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ﴾ ؛ أي ما يعبدُ أكثرهم الأصنامَ إلاَّ تقليداً لآبائِهم وقبائلِهم بظَنٍّ يظنُّونه في غيرِ يقين، يعني أنَّ رؤَساءَهم قالت لَهم: إن الأصنامَ تشفعُ لهم عند اللهِ، وأما السَّفَلَةُ فلا يعلمون إلا ما قالت رُؤَساؤهم.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ ؛ أي إنَّ الظنَّ في موضعٍ يمكن الوقوفُ فيه على العلمِ لا يُغني عن الحقِّ شيئاً؛ لأنه لا يكون ذلك بمنْزلة مَن عرفَ شيئاً باليقينِ ثم تركَ ما عرفَ بالظنِّ، فإن عِلْمَهُ بالظنِّ لا يُغني عن عملِ الحقِّ شيئاً، وعبادةُ الصَّنم بالظنِّ لا تُغني من عذاب الله شيئاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ وعيدٌ لهم على كُفرِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ؛ هذا جوابٌ عن دعواهم على النبيِّ ﷺ الافتراءَ على اللهِ وقولِهم: إئْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّلْهُ، معناه: إن القرآنَ كلامُ اللهِ في أعْلاَ طبَقاتِ البلاغةِ بحُسنِ النظام، فليس هذا مما يقدر أحدٌ أن يفتريَهُ على اللهِ، ﴿ وَلَكِن تَصْدِيقَ ﴾ ؛ الكتُبَ المنَزَّلة، ﴿ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، من التوراةِ والإنجيل والزَّبُور؛ لِمَجيئهِ شاهداً لها بالصِّدق، وبكونه مُصَادقاً بما تضمَّنته تلك الكتبُ من البشارةِ.

ويجوزُ أن يكون معنى التصديق لما (بَيْنَ يَدَيْهِ) أي التصديقُ بما بين يدَي القرآنِ من البعث والنُّشور والحساب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ ﴾ ؛ معناه: وتبيينَ المعاني المختلفةِ من الحلال والحرام والأمر والنهي، ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ؛ أيْ لاَ شكَّ فيه أنه حقٌّ، ﴿ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ ؛ معناهُ: بل يقولون: إنَّ مُحَمَّداً اختلقَ هذا القرآنَ من تِلْقَاءِ نفسهِ! قل يا مُحَمَّدُ: إن كان هو اخْتَلَقَهُ فَأْتوا بسورةٍ من مثل ((سُوَر)) القرآن، فإنَّما قال ذلكَ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ نَشأ بين أظهُرهم وتعلَّمَ اللغةَ منهم، فإذا لم يَأْتوا مع حرصِهم على تكذيبهِ وإبطالِ أمره، دلَّ أنَّ مِثْلَهُ غيرُ

مقدورٍ للبشرِ. ومعنى الآية: فلو قَدَرَ هو على افتراءِ القرآن لقَدَرتُم أنتم على الإتيانِ بسُورةٍ مثلِهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي استَعِينُوا على الإتيان بسورةٍ مثل القرآن بكلِّ مَن قدرتُم عليه، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أن مُحَمَّداً اخْتَلَقَهُ من تلقاءِ نَفسه، فَإِنَّ الْعَادَةَ لَمْ تَجْرِ بِأَنْ يَسْتَبِدَّ إنْسَانٌ بِالافْتِرَاءِ عَلَى كَلاَمٍ لاَ يَقْدِرُ أحَدٌ أنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ.

فلمَّا قرأ عليهم النبيُّ ﷺ هذه الآيةَ فلم يُجيبوا، فأنزلَ اللهُ:

قولُهُ تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ﴾ ؛ أي بل كذبوا بما لم يُدركوا من كيفيَّة ترتيبِهِ ونَظْمِهِ، وما فيه من الجنَّة والنار والبعثِ والقيامة والثواب والعقاب، ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ ؛ أي ولَم يَأْتِهِمْ بعدُ حقيقةِ ما وُعِدُوا في الكتاب مما يَؤُولُ إليه أمرُهم من العقوبةِ والعذاب على التكذيب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ أنبياءَهم من البعثِ، ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ يعني أنَّ عاقِبَتَهم العذابُ والهلاكُ بتكذيبِهم، كذلك يكون عاقبةُ هؤلاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي وَمِنَ الْيَهُودِ مَنْ يُؤْمِنُ بالْقُرْآنِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُصِرُّ عَلَى كُفْرِهِ فَلاَ يُؤْمِنُ بهِ)، ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ باليهودِ مَن يؤمنُ ومَن لا يؤمنُ، وقال مقاتلُ: (نَزَلَتْ فِي أهْلِ مَكَّةَ). وَقِيْلَ: في الآيةِ إشارةٌ إلى أنه لولاَ أنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ أنَّ منهم مَن سيُؤمِنُ في المستقبلِ لأهلكَهم جميعاً في الحال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ ؛ أي إنْ كذبَكَ قومُكَ في ما أتيتَهم به فقل: لِي جزاءُ عمَلِي، ولكم جزاءُ أعمَالِكم، ﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ ﴾ ؛ من جزاءِ عملِي، ﴿ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ من جزاءِ أعمَالِكم، وكان هذا القولُ مع النبيِّ ﷺ على جهةِ حُسنِ العِشْرَةِ معهم لا لأنه كان

شَاكّاً في جزاءِ عملِه وجزاء عملهم، وقال الكلبي ومقاتلُ: (هَذِهِ الآيَـةُ مَنْسُـوخَةٌ بآيَـةِ الْجِهَادِ)[١].

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي يَهُودِ الْمَدِينَةِ، كَـانُوا يَبْلُغُـونَ مَكَّـةَ فَيَأْتُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَيَسْأَلُونَهُ وَيَسْتَمِعُونَ قِـرَاءَتَـهُ فَيُعْجِبُـهُمْ ذلِـكَ وَيَشْتَهُونَهُ؛ ثُـمَّ تَغْلِبُ عَلَيْهِم الشَّقَاوَةُ فَلاَ يُؤْمِنُونَ بهِ). والمعنى: ومِنهم مَن يستمعُ إليك وهو في المعنى كأنَّهُ متفكِّرٌ في ما تقولُ وهو غيرُ متفكِّر فيهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ نظرَ مَن هو في الظاهرِ مستمعٌ إلى كلامِكَ، وطـالبٌ الانتفـاعَ به، وليس في الحقيقةِ كذلكَ، قوله: (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ) أي كمـا لا يقـدرُ أنْ يسـمعَ كلامَكَ الصمُّ، فكذلك لا يقدرُ على أن ينتفع مِنْ كلامِـكَ غـيرَ طـالبِ الانتفـاعَ بـه، وكما أنَّكَ لا تقدرُ على أن تُبْصِرَ العُمْيَ، فكذلك لا تقدرُ على أنْ تنفعَ بما يـأتي مـن الأدلَّة مَن ينظرُ ولا يطلبُ الانتفاعَ بها. وفي الآية ما يدلُّ على تفضيـلِ السَّمعِ علـى البصر؛ لأنه تعالى ذكَرَ مع الصم فُقدان العقل، ولم يذكر مع العمَى إلا فقدانَ البصرِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾؛ أي لا ينقـصُ مـن حسناتِهم، ولا يزيدُ في سيِّئاتِهم ما يمنعهم الانتفـاعَ بكلامـهِ وأدلَّتـهِ، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ بأنْ لا يطلُبوا الانتفاعَ به ويُعرِضَوا عن التفكُّرِ فيه، أخبرَ اللهُ في هذه الآيةِ أن تقديرَ الشَّقاوَةِ عليهم لم يكن ظُلماً منـه؛ لأنـه يتصـرَّفُ في مُلكـهِ كيف يشاءُ، وهم إذا كسَبُوا المعاصي فقد ظلَمُوا أنفُسَهم؛ لأن الفعـلَ منسـوبٌ إليـهم وإنْ كان القضاءُ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾؛ أي ويوم يجمَعُهم في الموقف كـأنْ لم يلبثُـوا في الدُّنيـا إلا قـدرَ سـاعةٍ مـن

---

(١) عن الكلبي ومقاتل وابن زيـد؛ نقلـه القرطـبي في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ٨ ص٣٤٦. وفي جامع البيان: تفسير الآية؛ قال الطبري: ((وقيل: إن هذه الآية، نسخها الجهاد والأمر بالقتال)).

النَّهار، وفي هذا بيانُ أن الْمُكْثَ في الدُّنيا وإنْ طالَ، كان في جَنْب الآخرةِ بمنْزلة ساعةٍ من النَّهار. قوله تعالى: (يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) أي يعرفُ بعضُهم بعضاً، ويكون في معرفةِ بعضِهم لبعضٍ حَسْرَةٌ على مَن ضَلَّ بقيام الحجَّة عليهم.

وقال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ حِينَ يَخْرَجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ ثُمَّ تَنْقَطِعُ الْمَعْرِفَةُ)، وَقِيْلَ: معناهُ: كأنْ لَم يلبَثُوا في قبورهم إلا ساعةً من نهارهم، وقال الضحَّاك: (قَصُرَ عِنْدَهُمْ مِقْدَارُ الْوَقْتِ الَّذِي بَيْنَ مَوتِهِمْ وَبَعْثِهِمْ، فَصَارَ كَالسَّاعَةِ مِنَ النَّهَارِ لِهَوْلِ مَا اسْتَقْبَلُوا مِنْ آخِرِ الْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ، يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ بتَوْبِيخِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، يَقُولُ كُلُّ كَافِرٍ لآخَرَ: أنْتَ أضْلَلْتَنِي يَوْمَ كَذا، وَأنْتَ أوْرَثْتَنِي دُخُولَ النَّار بِمَا عَلَّمْتَنِي وَزَيَّنْتَهُ لِي). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي غُبنَ الذين كذبوا بالبعثِ بعد الموت بذهاب الدُّنيا والآخرة عنهم، ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ ؛ في الآيةِ وعدٌ مِن الله لنَبيِّهِ ﷺ أن ينتقمَ له منهم، منهُ في حياتهِ أو بعدَ مَماتهِ، قال المفسِّرون: كانت وَقْعَةُ بَدْرٍ مما أراهُ الله في حال حياته مما أوعدَ المشركين من العذاب (أوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ) قبلَ أن نُريكَ، (فَإلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) بعدَ الموتِ فيجزيَهم بأعمالِهم.

قال الزجَّاج: (أعْلَمَ اللهُ أنَّهُ إنْ لَمْ يَنْتَقِمْ مِنْهُمْ فِي الْعَاجِلِ انْتَقَمَ مِنْهُمْ فِي الآجِلِ)(١). وقولهُ تعالى: (فَإلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) أي لا يفُوتُوننا ولا يُعجِزُوننا. وعن ابنِ عبَّاس قال: (نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام عَلَى النَّبيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ: إنَّ رَبي أمَرَنِي أنْ لاَ أفَارِقَكَ الْيَوْمَ حَتَّى تَرْضَى، فَهَلْ رَضِيتَ؟ قَالَ: [نَعَمْ؛ أرَانِي بَعْضَ مَا أوْعَدَهُمْ فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى ذلِكَ]). وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ مِن محاربَتِكَ وتكذيبكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ ؛ أي لكلِّ أمَّةٍ من الأمم رسولٌ يدعُوهم إلى ما أمَرَهم اللهُ به ونَهاهم عنه، ويبشِّرُهم بالجنةِ ويخوِّفُهم بالنار، ﴿ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ ﴾ يومَ القيامةِ شاهدٌ عليهم بأعمالهم ﴿ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٢٠، والمعنى أتم وأوضح.

يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ بالعدلِ فيُوَفَّى كلُّ إنسانٍ جزاءَ عمله لا يُنقَصُ من ثواب مُحْسِنٍ، ولا يزادُ على عقاب مُسِيءٍ.

كما رُوي في الخبر: [أنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلِي بكِتَابي فِيْهِ حَلاَلِي وَحَرَامِي؟ فَيَقُولُونَ: مَا أتَانَـا رَسُـولٌ وَلاَ كِتَـابٌ! ثُـمَّ يُؤْتَـى بالرَّسُول الَّذِي أرْسِلَ إلَيْهِمْ فَيَقُولُ: بَلْ يَا رَب قَدْ أبْلَغْتُهُمْ كِتَابَكَ وَرِسَـالَتَكَ. فَيَقُـولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ: نَحْنُ نَشْهَدُ قَدْ أبْلَغَهُمْ رِسَالَتَكَ وَكِتَابَكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا هَؤُلاَءِ خَلْقُكَ يَشْهَدُونَ لَكَ بمَا شِئْتَ! فَيَخْتِمُ اللهُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَيَأْذنُ لِجَوَارحِهِمْ فِي الْكَلاَمِ، فَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي يقولُ الكفَّارُ: وَقِّتْ لنا وَقتاً بمجيء هذا الوعدِ الذي وَعَدتَنا به من العـذاب إنْ كنـتَ من الصَّادقين أنَّ العذابَ ينْزلُ بنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي قل يـا مُحَمَّدُ: لا أقدِرُ لنفسي على دفعِ ضُرٍّ وجـرِّ نفـعٍ إلا مـا شـاءَ اللهُ أن يقـدرَ لي عليـه، فكيف أقدرُ لكم. ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ ؛ أي وقـتٌ مضـروب، ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ بعد الأجَلِ ولا يتقدَّمون.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّدُ: إنْ أتاكُم عـذابُ الله لَيـلاً أو نـهاراً مـا الذي يستعجلُ من العذاب المشركونَ، أي كيف يَصنعون وكيف يقبَلُ منكـم إيمـانكم وهو إيمانُ الإلجاءِ إذا نزلَ بهم العذابُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾ ؛ الألِفُ في أوَّل هذه الآيـة ألِـفُ استفهامٍ، ذُكرت على جهةِ الإنكار، والمعنى إذا نزلَ عليكم العذابُ آمَنتُم بـه؟ قـالوا: نعَمْ، قل لَهم يا مُحَمَّدُ: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ ؛ تؤمنون ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛

---

(١) سيأتي إن شاء الله في تفسير الآية (٢٠-٢٢) من سورة فصلت.

وهو العذابُ الدائمُ الذي لا ينقطعُ، ﴿ ثُمَّ قِيلَ ﴾ ، أي يقولون، ﴿ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي تعملون في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ ؛ ويستخبرُونكَ يا مُحَمَّدُ: أحقٌّ ما تَعِدُنا من العذاب والبعث بعد الموت؟ ﴿ قُلْ ﴾ ؛ نعَمْ واحْلِفْ عليه ﴿ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ ؛ إنه صدقٌ وكائن، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ اللهَ عن إحلال العذاب بكم، ويحتملُ أن يكون المرادُ بقوله تعالى (أحَقٌّ) هو دينُ الإسلام ؟ قال الزجَّاج: (مَعْنَى قَوْلِهِ: (إي ورَبي): نَعَمْ إنَّهُ لَحَقٌّ؛ أيْ إنَّ الْعَذابَ نَازلٌ بكُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ ؛ أي لو أنَّ كلَّ إنسان ظالمٍ كان له ما في الأرض جَميعاً لافتدَى به من عذاب الله، ثم لا ينفعهُ ذلك ولا يُقبَلُ منه. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأسَرُّوا النَّدَامَةَ) أي أسَرَّ القادةُ[1] الندامةَ عن الأتباع حين رأوا العذابَ، والمعنى: أخْفَى الرؤساءُ في الكفرِ الندامةَ عن الذين أضَلُّوهم وسَتَروها عنهم، هذا قولُ عامَّة المفسِّرين.

وقال أبو عُبيد: (الإسْرَارُ مِنَ الأَضْدَادِ، يُقَالُ: أسْرَرْتَ الشَّيْءَ إذا أخْفَيْتَهُ، وَأسْرَرْتُهُ إذا أعْلَنْتَهُ) قَالَ: (مِنَ الإعْلاَنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأوا الْعَذابَ) أيْ أظْهَرُوهَا). قِيْلَ: معناهُ: وأخلَصُوا الندامةَ، والإسرارُ الإخلاصُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ ؛ أي قُضِيَ بين الخلائقِ كلِّهم بالعدل، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ بأنْ لا[2] يُزادَ على عذاب الْمُسيءِ على قدره المستحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ ؛ لا يقدرُ أحدٌ على منعهِ من إحلال العقاب بمملُوكِه، ﴿ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ؛ بإحلال العقاب بالْمُجرمين، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

---

(١) في المخطوط: (العادة) وهو تصحيف.

(٢) (لا) سقطت من المخطوط.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ ؛ يعني قُريشاً، والموعظةُ القرآنُ، والمواعَظَة التي تدعو إلى الصلاح، (وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُور) أي دواءٌ لذوي الجهلِ، والقرآنُ مزيلٌ للجهل وكاشفٌ لعَمَاءِ القلوب، ﴿ وَهُدًى ﴾ ؛ وبيانٌ من الضَّلالةِ، ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي ونِعمَةٌ من اللهِ لأصحاب النبيِّ ﷺ.

ومعنى الْمُوعِظَةُ الإيَابَةُ بما يدعو إلى الصَّلاحِ بطريق الرَّغبَةِ والرهبةِ. ومعنى الشِّفَاءِ ما يجدهُ مَن يستدلُّ إعجازَ القرآن من الرُّوح بزوال الشِّركِ والتشبيه، وهو شرحُ الصَّدر الذي ذكرَهُ الله بقولِهِ: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِهِ﴾[(١)]. ومعنى (الْهُدَى) بيانُ الشَّرائعِ من الحلال والحرام والفَرضِ والنَّدب والإيابة. وأما الرَّحْمَةُ فهي الإنعامُ على المحتاج بدليلِ أن مَلِكاً لو أهدَى إلى مَلِكٍ لم يكن له منهُ رحمةً عليه، وأما تخصيصُ المؤمنين بالرحمةِ؛ فلأنَّهم همُ الذين ينتفِعون بنِعَمِ الدِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس ومجاهد والحسنُ وقتادة: (فَضْلُ اللهِ الإسْلاَمُ، وَرَحْمَتُهُ الْقُرْآنُ)[(٢)] وهذا قولُ عامَّة المفسِّرين. وعن أبي سعيدٍ الخدري قالَ في معنى هذهِ الآية: (فَضْلُ اللهِ الْقُرْآنُ، وَرَحْمَتُهُ جَعْلُكُمْ مِنْ أهْلِهِ)[(٣)] والمعنى: قل يا مُحَمدُ لأصحابكَ: بالقُرآن الذي أكرمَكَ اللهُ به والإسلامِ الذي وفَّقكم له فافْرَحُوا، ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ يجمعُ اليهود والمشركون من الأموالِ.

وقرأ بعضُهم (فَلْتَفْرَحُوا) و(تَجْمَعُونَ) كِلاهما بالتاءِ المخاطبة. وعن محمَّد بن كعبٍ القرظي قال: (إذا عَمِلْتَ عَمَلاً رَجَاءَ ثَوَاب اللهِ فَافْرَحْ، فَإنَّهُ خَيْرٌ لَكَ مِمَّا يَجْمَعُ أهْلُ الدُّنْيَا).

---

(١) الزمر / ٢٢ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٦٩٩) عن قتادة، والأثر (١٣٧٠٠) عن مجاهد، والأثر (١٣٧٠٣) عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٦٩٦).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ ؛ أي قُـل يـا محمَّد لأهلِ مكَّة: أرأيتُم ما أنزلَ الله لكم في الكتاب من رزقٍ جعلَهُ لكم حَـلالاً طيِّبـاً مـن الأنعـامِ والحـرث، ﴿ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ ؛ أي جعلتُـم البَحَـائِرَ والسَّوَائِبَ حَلالاً للرِّجال منفعةً، وحَراماً على النساءِ، وجعلتُـم لآلهتِكـم مـن الحـرثِ نَصيباً فحرَّمتموهُ على النساءِ، وأحللتمـوهُ للرجـال، واللهُ سـبحانه لم يحـرِّمْ شـيئاً مـن ذلـكَ، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لـهم يـا مُحَمـدُ: ﴿ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ ؛ أمَرَكـم بتحريمِـهِ، ﴿ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ تختَلِقُون الكذبَ، يعني: بَيِّنُوا الحجةَ في ذلـك، وإلاّ فأنتم تُفتَرُونَ على ربكم.

ثم أوعدَهم على الكذب فقال: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي ما ظَنُّ الذين يَكْذِبُونَ على اللهِ في التحليل والتحريم ماذا يفعـلُ بهم يومَ القيامةِ، أتَظنُّون أن اللهَ لا يعاقبُهم على افترائِهم عليه؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ أي لَذُو مَنٍّ عليهم بتأخيرِ العذاب عنـهم، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ نِعَمَ اللهِ.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ ؛ أي ومـا تكـونُ في أمـرٍ مـن الأمُور، وقال الحسنُ: (مِنْ شَأْنِ الدُّنْيَا وَحَوَائِجِكَ فِيهَا، وَمَـا تَتْلُـوا مِنْـهُ، أيْ مِـنَ اللهِ نَازلٍ مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ يُوحَى إلَيْكَ مِنْ سُورَةٍ أوْ آيَةٍ تَقْرَأ عَلَى أمَّتِكَ).

والخطـابُ للنـبيِّ ﷺ وأمَّتُـهُ داخلـون فيـه؛ لأنَّ خطـابَ الرئيسِ خطـابٌ لــه ولأتباعهِ، يدلُّ على ذلك قولهُ: (وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً) أي مـا تعمَلون أنتم جميعاً يا بَنِي آدمَ عامَّة ويا أمَّةَ مُحَمَّدٍ من خيرٍ أو شرٍّ، إلاّ كُنَّا على أمركـم وتِلاوَتِكم وعمَلِكم شُهوداً إذ تدخلون فيه. قال الفرَّاء: (مَعْنَاهُ يَقُولُ: اللهُ تَعَالَى شَاهِدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ)[1] وَالْمَعْنَى الاَ يَعْلَمُهُ فَيُجَازيكُمْ بـهِ. والإفَاضَـةُ الدخـولُ في العمـلِ، وقال ابنُ الأنباريِّ: (إذ تَنْدَفِعُونَ فِيهِ) وقال ابنُ عبَّاس: (إذ تَأْخُذُونَ فِيهِ).

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص٤٧٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي ما يغيبُ وما يبعُد، ﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ ، من وزن نملةٍ حمراء صغيرةٍ من أعمال العباد، ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ ولا أخفَّ من الوزنِ من الذرَّة، ﴿ وَلَآ أَكْبَرَ ﴾ ، ولا أثقلَ منه، ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ ، إلاّ وهو مع علم الله تعالى ومكتوبٌ في اللوحِ المحفوظ. والعُزُوبُ البُعْدُ والذهابُ، ويَعْزُبُ بضمِّ الزاي وكسرِها لُغتان. قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِثْقَالِ ذرَّةٍ) أي وَزْنَ ذرَّة، ومثقالُ الشيء ما وَازَنَهُ.

قال الفرَّاءُ: (مَنْ نصَبَ قَوْلَهُ تَعَالَى: (أصْغَرَ) و(أكْبَرَ) فَإنَّمَا أرَادَ الْخَفْضَ يُتْبِعْهُمَا الْمِثْقَالَ وَالذرَّةَ، إلاَّ أنَّهُمَا لاَ يَنْصَرِفَانِ؛ لأنَّهُمَا عَلَى وَزْنِ أفْعَلَ اتِّبَاعُ مَعْنَى الْمِثْقَالِ؛ لأنَّكَ لَوْ لَقِيتَ مِنَ الْمِثْقَالِ مَنْ كَانَ رَفْعاً وَهُوَ كَقَوْلِهِ: مَا أتَانِي مِنْ أحَدٍ عَاقِلٍ وَعَاقِلٌ، وَكَذلِكَ: مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِهِ وَغَيْرُهُ)[١].

وَقِيْلَ: رُفع على الابتداءِ، وخبرهُ (إلاَّ فِي كِتَابٍ) فمَن قرأ (وَلاَ أصْغَرَ وَلاَ أكْبَرَ) بالنصب فالمعنى: وما يعزبُ عن ربك مِن مثقال ذرَّة، ولا أصغرَ من ذلكَ ولا أكبرَ. ومَن رفع فالمعنى: وما يعزبُ عن ربكَ مِثقالُ ذرَّةٍ، ولا أصغرُ ولا أكبر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ معناه: ألا إنَّ أولياءَ الله تولاَّهم اللهُ بحفظهِ وحيَاطَته، لا خوفٌ عليهم يومَ القيامةِ ولا هم يَحْزَنُونَ على ما اختَلَفوا في الدُّنيا، وقولهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ تفسيرُ أولياءِ الله؛ أي الذين يؤمِنون بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن، ويتَّقون الشِّركَ والفواحشَ، وعن رسول الله ﷺ: أنَّهُ سُئِلَ عَنْ أوْلِيَاءِ اللهِ فَقَالَ: [هُمُ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ][٢]، وعنه ﷺ قال: [هُمُ الَّذِينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ][٣] يعني إذا رآهمُ العامَّة ذُكِرَ من أجل سِيمَاهُم في وجوهِهم.

---

(١) في معاني القرآن: ج ١ ص٤٧٠: تفسير الآية.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٧٢٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٣٧٢٤) بأسانيد عديدة مرسلة، وأصله في الرقم (١٣٧٢١) عن ابن عباس قال: ((الذين يذكر الله لرؤيتهم)).

وسُئل عيسى عليه السلام عنهم فقال: (هُمُ الَّذِينَ نَظَرُوا إلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إلَى ظَاهِرِهَا، وَنَظَرُوا إلَى آجِلِهَا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إلَى عَاجِلِهَا، فَأَحْيَوا ذِكْرَ الْمَوْتِ وَأَمَاتُوا ذِكْرَ الْحَيَاةِ، يُحِبُّونَ اللهَ وَيُحِبُّونَ ذِكْرَهُ).

قولُهُ: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ ؛ معناهُ: لَهم البُشرى في الحياةِ بالقرآن، وفي الآخرةِ بالجنَّة. ويقالُ: أرادَ بالبشرى في الدُّنيا بشَارَةَ الملائكةِ ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا...﴾ الآيَة[1].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ بَعْدِي إلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ] قيل: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ ؟ قَالَ عليه السلام: [الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ لِنَفْسِهِ][2] وقرأ له: [وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ، فَمَنْ أرِيَ ذلِكَ فَلْيُخْبِرْ بهَا][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لا خلفَ في وعدِ الله، وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي ذلِكم الذي وعدَكم اللهُ هو الثوابُ الوافِرُ والنجاةُ الوافرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ ؛ أي لا يحزُنكَ يا مُحَمَّدُ تكذيبُهم إيَّاكَ وتَهديدُهم لكَ بالقتلِ، وفيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ على كُفرهم وتكذيبهم ونِسبَتِهم له إلى الافتراءِ على ربه، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ؛ استئنافُ كلامٍ، ولذلك كُسرت (إنَّ)، والمعنى: فإنَّ القوةَ لله جميعاً يمنعُهم عنكَ بعزَّتهِ، ولا يتعذرُ أحدٌ الا بإذنه وهو ناصِرُكَ وناصرُ دينِكَ، و﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ لمقالةِ الكفَّار ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ بضمائرهم. ولا يجوزُ أن يقرأ (أنَّ الْعِزَّةَ) بالنصب لاستحالةِ أن النبيَّ ﷺ كان يحزنهُ قولُ الكفار بأنَّ العزةَ لله جميعاً.

---

(١) فصلت / ٣٠.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٣٠٥١) عن حذيفة بأسانيد. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١٧٣؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني والبزار ورجال الطبراني ثقات)).

(٣) أصله في صحيح البخاري: كتاب الرؤيا: باب رؤيا الصالحين: الحديث (٦٩٨٣)، وباب من رأى النبي ﷺ: الحديث (٦٩٩٤) عن أنس بن مالك. وفي مجمع الزوائد: ج٧ ص١٧٢؛ قال الهيثمي: ((رواه أبو يعلى والطبراني ورجاله رجال الصحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي له مَن فيهما من الخلقِ على مَن لا يعقلُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ ؛ أي ما يتَّبعون شركاءَ على الحقيقةِ والمعرفة، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ ؛ أي ما يدَّعونَهم إلا بالظنِّ بتقليد آبائِهم وقول بعضهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[1] ويظنُّون أنَّها تشفعُ لهم يومَ القيامةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي ما هُم إلا يكذِبون في قولِهم إنَّها تشفعُ لهم عند اللهِ.

قولُهُ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ؛ أي هو الذي جعلَ لكم الليلَ لتنَامُوا فيه وتستريحوا عمَّا لَحِقَكم من النَّصَب بالنهار، وخلقَ النهار مُضيئاً للذهاب والمجيء وطلب المعيشةِ، وسَمَّاهُ مُبصراً؛ لأنه يُبصر فيه كما قال رُؤبة: (قَدْ نَامَ لَيْلِي، وَتَجَلَّى هَمِّي). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ ؛ أي في ذلك[2] للدلالاتِ، ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ دلائلَ الله، ويتفكَّرون فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ ؛ أي قال الكفارُ: اتَّخذ اللهُ وَلَداً، فإن المشركين قالُوا: الملائكة بناتُ الله، واليهود قالوا: عزيرٌ ابن الله، والنصارى قالوا: المسيحُ ابن الله، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أي تَنْزِيهاً له عن الولدِ، والشَّريكِ، ﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ ، هو غنيٌّ عن اتخاذِ الولد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ مَن كان له مُلْكُ السَّموات والأرضِ وما بينهما، فما حاجتهُ الى اتِّخاذ الولدِ ؟! وإنما يتخذُ الولدَ ذو الضَّعْفِ ليتقوَّى به، ويستعينَ به على بعضِ أمُورِهِ، وذو الوَحشَةِ ليستأنسَ به، ومَن يخافُ الموتَ على نفسهِ، فيتَّخذُ الولدَ ليخلُفَهُ في أملاكهِ بعد موته، واللهُ تعالى

---

(١) الزمر / ٣.

(٢) في المخطوط: (ذكرك).

لا يجوز عليه السُّرور ولا المنافعُ والمصارف(١)، ولا يلحقهُ الموت، فهو غَنِيٌّ عن اتخاذِ الولد.

ثم طالبَ الكفارَ بالحجَّة والبرهان، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ ﴾ ؛ أي ما عندَكم من حجَّةٍ وبرهان على هذا القول، ثم أنكرَ عليهم ذلك تَبْكِيتاً لهم فقال تعالى: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ وهذا على حجَّة الإنكار والردِّ عليهم؛ أي لِمَ تقولون على اللهِ ما لاَ علمَ لكم به ولا حجَّةَ لكم عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ أي قُل يا مُحَمَّد إن الذين يختلقون كَذِباً؛ يكذِبُون به على اللهِ تعالى لا يُفلِحُونَ في الدُّنيا بالحجَّة ولا بالآخرةِ في الثواب، ولا يسعَدون في العاقبةِ وإن اغترُّوا بطول السَّلامة(٢). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ رُفع على معنى ذلكَ متَاعٌ في الدُّنيا يتمتَّعون به قليلاً ثم ينقضِي. وَقِيْلَ: لَهم متاعٌ في الدُّنيا يتمتَّعون به أيَّاماً يسيرةً، ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ ﴾ ؛ الغليظَ الذي لا ينقطعُ، ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ، أي بكُفرِهم بالله ورسولِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ ؛ أي إقرَأ عليهم خبرَ نوحٍ، ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم ﴾ ؛ ثَقُلَ عليكم وعَظُمَ، ﴿ مَّقَامِى ﴾ ، ومُكثِي فيكم، ﴿ وَتَذْكِيرِى ﴾ ؛ وعِظَتِي لكم ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ؛ به وَثِقْتُ واليه فوَّضتُ أمْرِي، وذلك حين قالُوا له: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ ؛ أي اعزمُوا على أمركم مع شركائِكم. وَقِيْلَ: معناهُ: فاعزِمُوا على أمركم، وادعُوا لآلهتِكم واستَعِينوا بهم، وأجْمِعُوا على أمرٍ واحد. ومَن قرأ (فَاجْمَعُوا) بنصب الميم فهو من الْجَمْعِ.

---

(١) هكذا رسمها الناسخ في المخطوط بوضوح، ولعلها (والمضارُّ). والله أعلم.
(٢) في المخطوط رسمها الناسخ من غير نقط: (واعروا بطور السلامة).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ ؛ أي يكُن أمرُكم عليكم ظاهِراً مُنكَشفاً لا يسترهُ شيء. والغُمَّةُ مأخوذةٌ من الغَمامَةِ، ويقالُ: الغُمَّةُ الغَمُّ؛ أي لا يكون أمرُكم غَمّاً عليكم وفرِّجوا عن أنفسكم، ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي امْضُوا بما تقصِدُون من القتلِ ولا تُمهَلون.

قال الزجَّاجُ: (الْوَاوُ فِي قَوْلِهِ (وَشُـرَكَاءكُمْ) بِمَعْنَى مَعَ)[١] والمعنى فاجْمِعوا أمرَكم مع شركائِكم ثم لا يكون أمرُكم عليكم مبهماً، يعني ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً لا تسترون معاداتي، ثُمَّ امضُوا إليَّ بمكرُوهِكم وما توعدونني به. معنى قضاءِ الشيء امضاؤهُ والفراغُ منه، وهذا أحدُ معجزاتِ نوحٍ عليه السلام؛ لأنه كان وَحيداً، وقد قَرَعَهم بالعجزِ عن الوصولِ اليه وإلى قتلِه، فلم يقدِرُوا عليه بسُوءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ ؛ معناهُ: فإنْ أعرَضتُم عن الإيمانِ بما جئتكم به لم يضُرَّني إعراضُكم، فإنِّي لا أطلبُ منكم أجراً ولا أدعُوكم إلى الإيمانِ لمطمعٍ مني في مالِكم، وما دعاني فيما أدعوكم عليه إلا الإيمان بالله، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ ﴾ ؛ أي وقد أمَرني، ﴿ أَنْ أَكُونَ مِنَ ﴾ ؛ أي مع؛ ﴿ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ على دِينهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ ؛ أي فنجَّيناهُ ومَن معه من المؤمنين من الغرَقِ في السفينةِ، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾ ؛ أي جعلَ اللهُ الذين نَجَوا مع نوحٍ عليه السلام من الغرَق خَلفاً ومَكاناً في الأرضِ مِن قومٍ أهلِكُوا بالتكذيب، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[٢] وذلك أنَّ الناسَ كانوا من ذرِّيته بعد الغرقِ، وهَلَكَ أهلُ الأرضِ جميعاً بتكذِيبهم لنوحٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ ؛ أي بدلالَتِها حسّاً، ﴿ فَٱنظُرْ ﴾ ؛ يا مُحمَّدُ، ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي كيف صارَ آخِرُ أمرِ الذين أنذرَتْهم الرسلُ فلم يؤمنوا، وهذا تَهديدٌ لقومِ النبيِّ ﷺ عن تكذيبهِ

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٢٣.
(٢) الصافات / ٧٧ .

حتى لا يَنْزِلَ بهم مثل ما نزلَ بقومِ نوحٍ، وتسليةُ للنبيِّ ﷺ ليصبرَ على أذاهُم كما صبرَ نوحُ عليه السلام على أذى الكفَّار مع قلَّة مَن معه من المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ ؛ أي ثم بعثنا مِن بعدِ نوحٍ رسُلاً مثلَ هودٍ وصالحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ وشُعيب وغيرهم إلى قومهم، ﴿ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ بالْحُجَجِ والبراهينَ، ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ ؛ ليُصَدِّقوا، ﴿ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ ﴾ ؛ في الابتداءِ، والمعنى: فما كان الذين بُعِثَ إليهم الرسلُ ليُؤمِنوا بما كذبوا، ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ يعني قومَ نُوحٍ عليه السلام؛ أي لَمْ يصدِّقوا به، كما كذبَ قومُ نوحٍ، وكانوا مِثلَهم في الكفرِ والعنفِ. قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يُريدُ اللهُ تَعَالَى طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَعْمَاهَا فَلاَ يُبْصِرُونَ سَبيلَ الْهُدَى). وما بعدها من الآيات:

ظاهر التفسير ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ ؛ أي قالوا لموسى عليه السلام: أجِئتَنا لتصرفَنا عما وجَدنا عليه آباءَنا، واللَّفْتُ هو الصَّرْفُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي ويكون لك ولِهارون السلطانُ والْمُلْكُ والشرف في أرضِ مصرَ، ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي بمصدِّقين. وإنما سَمَّى الْمُلْكَ كبرياءً؛ لأنه أكبَرُ ما يطلبُ من أمر الدُّنيا، والكبرياءُ استحقاق صفة الكِبْرِ في أعلَى المراتب، فلهذا لا يجوزُ أن يوصفَ به أحدٌ غيرُ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي بكلِّ حاذقٍ بالسِّحر، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ قالَ هذا لَهم على وجهِ التعجيزِ لَهم، إنَّكم لا تقدِرون على إبطالِ أمْري، فيكون هذا

أمرُ تعجيزٍ كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[١] ولا يجوزُ أنْ يكون هذا أمراً بالسِّحر، إذ عملُ السحرِ كفرٌ، والأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ لا يأمُرونَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ ؛ معناهُ: فلما ألقتِ السَّحَرَةُ ما جاؤُا به، قال لهم موسى: الذي جِئتُم به السحرُ والخداع؛ أي الذي جئتم به سِحْرٌ. ووقفَ بعض القرَّاء على (مَا جِئْتُمْ) ثم قال: (السِّحْرُ) على معنى: أيُّ شيءٍ جئتُم بهِ أهُوَ السحرُ؟ على جهةِ التوبيخ لهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾ ؛ أي يُبْطِلُ عملَ السَّحرة حتى يُظهِرَ الحقَّ من الباطلِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي لا يرضَى عملَ السَّاحِرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ أي ينصرُ دينَهُ الحقّ بالوعدِ الذي وعدَهُ لموسى كما قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[٢] الى آخرِ الآية. ويجوزُ أن يكون معنى الكلمات: ما كتبَهُ اللهُ تعالى في اللوحِ المحفوظ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ ؛ أي ما صدَّقَ بموسى وبما جاءَ به إلا ذريَّته من قومِ فرعون، وهم قومٌ كان آباؤُهم من القِبْطِ وأمَّهاتُهم من بني إسرائيل، فآمَنوا بموسى واتَّبعُوا أمَّهاتهم وأخوالَهم، ولم يُسلِمْ آباؤُهم الذي كان موسى عَلَيْهِ السَّلاَمُ مبعوثاً اليهم.

وقال الحسنُ: (أرَادَ بقَوْلِهِ تَعَالَى (إلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِ مُوسَى) كَانَ فِرْعَوْنُ أجْبَرَهُمْ عَلَى تَعَلُّمِ السِّحْرِ وَجَعَلَهُمْ مِنْ أصْحَابِ نَفْسِهِ، فَلَمَّا أسْلَمَتِ السَّحَرَةُ وَآمَنُوا بمُوسَى اتَّبَعَهُمْ هَؤُلاَءِ الذُّرِّيَّةُ فِي الإيْمَانِ). وكان يقولُ: (لَمْ يُؤْمِنْ مِنَ الْقِبْطِ أحَدٌ إلاَّ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَكْتُمُ إيْمَانَهُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ).

قولهُ: (عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ) معناهُ على القول الأول: آمنت به ذريَّتهُ على خوفٍ من فرعون وآبائِهم وقومِهم. وعلى القول الثاني: على خوفٍ من

(١) البقرة / ٢٣ .

(٢) القصص / ٣٥ .

فرعون وأشرَافِهم ورُؤسائهم أن يعلَمَ الأشرافُ أمرَهم فيُخبروا فرعونَ فيقتُلَهم ويعذبَهم أو يصرفَهم عن دينهم. وقال الزجَّاج: (إنَّمَا قَالَ (فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ) لأَنَّ فِرْعَوْنَ ذا أصْحَابٍ يَأتمِرُونَ بِهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لَمُسْتَكْبِرٌ في أرضِ مصر، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ في الكفرِ والمعاصي، والإسرافُ: هو التجاوزُ عن الحدِّ في كلِّ شيءٍ. وعن محمَّد بن المنكدر قالَ: (عَاشَ فِرْعَوْنُ ثلاثَمِائَةً وَاثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً لَمْ يَرَ مَكْرُوهاً، وَدَعَا مُوسَى عليه السلام ثلاثِينَ سَنَةً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ ﴾ ؛ أي قالَ موسى لبنِي إسرائيل: يا قومِي إنْ كُنتم صدَّقتُم باللهِ كما تقولون فأسْنِدُوا أمُورَكم إليه، ﴿ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ، إنْ كنتم مُخلصين مُستَسلِمين لأوامرِهِ، وذلك حينَ قالوا لِمُوسى: ﴿أوذِينَا مِنْ قَبْلِ أنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[1] . وقِيلَ: إنَّ موسى خاطبَ بالخطاب المذكور في هذه الآيةِ الذريَّةَ التي آمَنت على خوفٍ من فرعون وملئِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ ؛ أي قالَ موسى أسْنَدْنا أمورَنا إلى اللهِ ووَثِقْنا به، ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي لا تُظهِرْهُم علينا فيَظنُّوا أنَّهم على الحقِّ، فيكون ذلك فتنةً لهم ولغيرِهم. ويقال: يعني لا يمكِنُهم أن يُنْزِلُوا بنَا أمراً لا نطيقُ الصبرَ عليه فننصرفَ به عن الدِّين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي خَلِّصْنَا بطَاعتِكَ من استعبادِهم إيَّانا، فاستجابَ اللهُ دعاءَهم كما ذكرَ من بعدُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ ؛ وذلك أنَّ فرعونَ لَمَّا أتاهُ موسَى بالرسالةِ أمرَ بمسَاجدِ بني إسرائيل فكُسِّرت كلُّها وخُرِّبت، ومنعُوهم من الصَّلاةِ علانيةً، فأنزلَ الله هذه الآيةَ، وأمِرُوا أن يتَّخِذُوا

---

(١) الأعراف / ١٢٩.

مساجدَ في بُيوتِهم ويصَلُّون فيها خَوفاً من فرعون. والمعنى: وأوحَينا إليهما أن اتَّخِـذا لقومِكما بمِصْرَ بيُوتاً، يقال: بَوَّأَهُ إذا عدَّ لغيرِهِ بَيتاً، وتبَوَّأَ إذا اتخذ لنفسهِ بيتاً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ ؛ أي اجعَلُوهـا مُصَلَّـى، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ ، فصَلُّوا فيها مُستَتِرين مِـن فرعـون وقومـِهِ. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: واجعلوا بُيوتَكم مساجدَ. وقال الحسنُ: (وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ نَحْوَ الْقِبْلَةِ وَجِبَالِ الْكَعْبَـةِ) قال: (وَكَانَتِ الْكَعْبَةُ قِبْلَةَ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[1].

وَقِيْلَ: إنَّما لم يذكرِ اللهُ الزكاةَ في هذه الآيةِ؛ لأن فرعونَ قـد استعبَدَهم وأخـذ أموالَهم فلم يكن لهم ما يجبُ الزكاة فيـهِ. قولـه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧﴾ ؛ أي وبشِّرهُم بالثواب في الآخرة، وبالنَّصرِ في الدُّنيا آجِلاً وعاجلاً.

قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ؛ أي قالَ موسى: إنكَ أعطيتَ فرعـونَ ومـلأَهُ زينـةً؛ أي زهـرةً مـن المركَب والْحِلِيِّ والثياب، وأموالاً كثـيرةً مـن الدراهـم والدنانـير والعُـروض. قولـهُ: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾ ؛ أي ربَّنا أعطيتَهم الزينةَ والأمـوالَ ليكـون عاقبـةُ أمرهم أن يُضِلُّوا عن سـبيلِكَ فـلا يُؤمِنـوا، وهـذه الـلامُ لامُ العاقبـة كمـا في قولـه: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾[2].

قولهُ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ ؛ معنى الطَّمْسِ على الأموال تغييرُهـا عن جِهَتِها إلى جهةٍ لا ينتفعُ بها، وحقيقةُ الطَّمْسِ ذهابُ الشـيءِ عـن صُورتـهِ بمَحْـقِ الأثرِ. قال مجاهد وقتادة: (فَغَيَّرَ اللهُ أمْوَالَ فِرْعَوْنَ حَتَّى صَارَتْ دَرَاهِمُـهُمْ وَدَنَانِـيرُهُمْ حِجَارَةً أنْصَافاً وَأثْلاَثاً وَأرْبَاعاً، وَكَذلِكَ سَائِرُ أمْوَالِهِمْ حَتَّـى السُّـكَّرَ وَالْفَوَاكِـهَ). قـال قتادةُ: (بَلَغَنَا أنَّ حُرُوثاً لَهُمْ صَارَتْ حِجَارَةً)[3]. وقالَ عطاء: (لَمْ يَبْقَ لَـهُمْ مَعْـدِنٌ إلاَّ طَمَسَ اللهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ أحَدٌ).

---

(١) الأقوال في هذا الباب نقلها الطبري في جامع البيان عن ابن عبـاس في الأثـر (١٣٧٧٩)، وعـن مجاهد في الأثر (١٣٧٨٣). (٢) القصص / ٨ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٧٩٣).

قولهُ: ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ معناه: واربطْ على قلوبهم بالصبرِ حتى لا يتحوَّلوا عن بلادِهم إلى بلاد الخصب فيبقون في هذهِ العقوبة أبداً. وَقِيْلَ: معناهُ: امنَعهُم عن الإيمان بكَ، والمعنى اطْبعْ عليها حتى لا تَلِينَ ولا تشرحَ الايمان. قولهُ: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُواْ ﴾ ؛ قال الزجَّاجُ والفراء: (هَذا دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ أيْضاً)[1]، والتأويلُ فلا آمنوا، ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ يعني الغرقَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا ﴾ ؛ أي قَالَ اللهُ تَعَالَى لموسى وهرون: قد أجبتُ دعوتَكما، وذلك أنَّ موسى كان يدعُو بالدُّعاء المذكور في الآية، وكان هرون يُؤَمِّنُ على دُعائهِ، فسمَّاها اللهُ دَاعِينَ، قوله (فَاسْتَقِيمَا) أي فاستقيما في دُعاءِ الناسِ إلى الإيمان، ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ لأن سبيلَهم كان الغَيَّ والضلالَ، وخفَّفَ ابنُ عبَّاس (تَتْبَعَانِ) من تَبعَ يَتْبَعُ، والنون الشديدةُ إنما دخلت مؤكِّدةً للنهي.

قولهُ: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾ ؛ يعني بحرَ الْقَلْزَم وهو بقُرب نيلِ مصرَ، جعلَهُ الله لهم يُبْساً حتى جاوزوهُ، ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا ﴾ ؛ ليَبغُوا عليهم، ﴿ وَعَدْوًا ﴾ ، ويظلِمُوهم. قولهُ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾ ؛ حتى إذا ألجمَ فرعونَ الغرقُ من إيمان الإنجاء فلم ينفعْهُ ذلك، فلما، ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ قال لهُ جبريلُ: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ ؛ أي تؤمِنُ عند الغرقِ، ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ بالكفرِ والمعاصي في وقتِ الْمُهْلَةِ.

رُوي عن ابنِ عباس: (أنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَوْ رَأيْتَنِي وَفِرْعَوْنُ يَدْعُو بكَلِمَةِ الإخْلاَصِ وَأنَا أدُسُّهُ فِي الْمَاءِ وَالطِّينِ لِشِدَّةِ غَضَبِي عَلَيْهِ مَخَافَةَ أنْ يَتُوبَ فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [يَا جِبْرِيلُ وَمَا شِدَّةُ غَضَبِكَ؟] قَالَ: يَا مُحَمَّدُ لِقَوْلِهِ أنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى وَهِيَ كَلِمَتُهُ الأَخِيرَةُ، وَإنَّمَا قَالَهَا حِينَ انْتَهَى إلَى الْبَحْرِ، وَكَلِمَتُهُ

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص٤٧٧. والزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٢٦.

الأُوْلَى: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، وَكَانَ بَيْنَ الأُوْلَى وَالأُخْرَى أرْبَعِينَ سَنَةً)(١).

وهذه الروايةُ صحيحةٌ إلاَّ قولهُ: (مَخَافَةَ أنْ يَتُوبَ فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ) لأنه لا يخلُو إما أن يكون التكليفُ ثابتاً في ذلكَ الوقتِ أو غيرَ ثابتٍ، فإنْ كان ثابتاً لم يَجُزْ على جبريل عليه السلام أنْ يَمنَعَهُ من التوبةِ، ولو منعَهُ من التكلُّم باللسانِ لكانت ندامةُ فرعون بالقلب كافيةً في توبتهِ؛ لأن الأخرسَ إذا تابَ بالندمِ بقلبهِ وعَزَمَ على تركِ المعاودةِ إلى القبيح كانت توبتهُ صحيحةً.

وإنْ لم يكن التكليفُ ثابتاً في ذلك الوقتِ لم يكن للمنعِ عن التوبة معنى بوجهٍ من الوجُوهِ، وإنما لا يُقْبَلُ الإيمانُ في وقتِ الإلجاءِ؛ لأنَّ الذي يؤمِنُ في تلك الحالةِ يعلمُ أنه لو حاولَ خلافَ ما يُؤمَرُ به حِيلَ بينه وبينه، فلا يكون مُثاباً بإعلاءِ ذلك الإيمان معرفته من طريق الضرورةِ دون الاجتهاد.

قوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ ؛ أي فاليومَ نُلقيكَ على نَجْوَةٍ من الأرض، وهي المكانُ المرتفع؛ أي ببَدَنِكَ أي بدِرْعِكَ، قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ فِرْعَوْنُ قَصِيراً طُولُهُ سِتَّةُ أشْبَار، وَكَانَتْ لِحْيَتُهُ قَرِيباً مِنْ قَامَتِهِ، وَكَانَتْ لَهُ دِرْعٌ سَلاَسِلُهَا مِنْ ذهَبٍ يَعْرِفُهَا جَمِيعُ بَنِي إسْرَائِيلَ، فَسَألَتْ مُوسَى بَنُو إسْرَائِيلَ فَدَعَا اللهَ فَأَخْرَجَهُ ببَدَنِهِ حَتَّى وَارَاهُ، وَعَرَفُوا الدِّرْعَ فَطَابَتْ أنْفُسُهُمْ بتِلْكَ).

ويقال: كان في بَنِي إسرائيل من لا يصدِّقُ بهلاك فرعون، ولذلك سألَ موسى عليه السلام أن يُلقِيَهُ اللهُ على نَجْوَةٍ من الأرضِ ببدنهِ؛ أي وحدَهُ دون قومهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: نُنْجِيكَ من الماءِ ببدنك دون رُوحِكَ، فأما روحُكَ فتُعذبُ على كلِّ حال. قوله: ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ ؛ أي لِمَن بعدكَ من الكفَّار آيةً في النَّكَال، لئَلاَّ تقول لأحدٍ بعدَكَ مثلَ مقالَتِكَ، وتعرفوا أنَّكَ لو كُنتَ إلهاً ما غَرِقْتَ. قوله: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ يعني لغافِلُون عن التفكُّرِ في دلائلنا.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان مختصراً وبالفاظ في الرقم (١٣٨١٦ و١٣٨١٨) عن ابن عباس، و(١٣٨١٧) عن أبي هريرة. وأخرجه الترمذي في الجامع: كتاب التفسير: الحديث (٣١٠٨) وحسنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ ؛ أي ولقد أنزلنَا بني إسرائيلَ في موضعِ خَصْبٍ وأمْنٍ، وهي أرضُ مصرَ ما بين أردن وفلسطين، ويقال: هي الأرضُ المقدَّسة التي وَرثوها من أبيهم إبراهيمَ عليه السلام، وسَمَّاها مَنْزِلَ صِدْق؛ لأن فَضْلَها على سائرِ المنازل كفضْلِ الصِّدق على الكذب. وَقِيْلَ: هم بنُو قريظةَ والنضير أنزلناهم مبوًّا صِدْقٍ بين المدينة والشَّامِ من أرضِ يثربَ، ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ؛ أي من النَّخلِ وما فيها من الرُّطَب والتمرِ.

قولهُ: ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ ؛ معناهُ أنَّهم لم يزالوا مُؤمنين بمُحَمَّدٍ ﷺ يجدونَهُ مكتوباً عندَهم في التوراةِ والإنجيل لم يختلفوا في ذلك، بعثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ فآمَنَ به بعضُهم وكفرَ به بعضهم.

ومعنى الآيةِ: ما اختَلفُوا في تصديقِ النبيِّ ﷺ وإنه نبيٌّ حتى جاءَهم العلمُ، قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُ الْقُرْآنَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ)، وقال الفرَّاء: (الْعِلْمُ مُحَمَّدٌ ﷺ)[١] لأَنَّهُ كَانَ مَعْلُوماً عِنْدَهُمْ بنَعْتِهِ، وَذلِكَ أنْ لَمَّا جَاءَهُمُ اخْتَلَفُوا فِيْهِ وَفِي تَصْدِيقِهِ فَكَفَرَ بِهِ أكْثَرُهُمْ).

قولهُ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ، ﴿ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، بتمييزِ الْمُحِقِّ من الْمُبْطِلِ، ويُجازي كُلاً منهم بما يستحُقّه، ﴿ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ فيُدخِلُ المصدِّقين بكَ الجنةَ، ويُدخِلُ المكذِّبين النارَ.

قولهُ: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ ؛ قال أكثرُ أهلِ العلم: هذا خطابٌ لرسول الله ﷺ والمرادُ به غيرهُ من الشُّكَّاكِ، ومثل ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾[٢] الخطابُ للنبيِّ ﷺ والمرادُ به غيرهُ بدليلِ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[٣]، ولم يقُل بما تعملُ، قال الزجَّاج: (إنَّ اللهَ يُخَاطِبُ النَّبِيَّ ﷺ وَذلِكَ

---

(١) في معاني القرآن: ج ١ ص٤٧٨؛ قال الفراء: (و﴿الْعِلْمُ﴾ يعني محمداً ﷺ وصفته).

(٢) الأحزاب / ١ .

(٣) النساء / ٩٤ .

الْخِطَابُ شَامِلٌ لِلْخَلْقِ، فالمعنى: فإن كنتُم في شكٍّ فاسألُوا)[(١)].

وقال ابنُ عبَّاس: (لَمْ يُرِدْ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَشُكَّ فِي اللهِ وَلاَ فِي مَا أَوْحَى إِلَيْهِ، لَكِنْ أَرَادَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ فِي أَمْرِهِمْ أَنْ يَسْأَلُوا لِئَلاَّ يُنَافِقُوا كَمَا شَكَّ الْمُنَافِقُونَ). وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ: (وَذلِكَ أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُوا: إنَّ هَذا الْقُرْآنَ الَّذِي يَجِيءُ إلَى مُحَمَّدٍ مَا يُلْقِيهِ الشَّيَاطِينُ إلَيْهِ! فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

وَأَرَادَ بالَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتَابَ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ وَأَصْحَابِهِ، فَإِنَّهُمْ يَسْتَخْبِرُونَكَ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [لاَ أَسْأَلُ أَحَداً وَلاَ أَشُكُّ فِيْهِ بَلْ أَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَقُّ][(٢)] وكان النبيُّ ﷺ أعلمَ باللهِ تعالى وأشدَّ يقيناً من أنْ يسألَهم، وإنَّما التقديرُ: فإن كنتَ في شكٍّ أيُّها السامعُ مما أنزلنا على نبيِّكَ. ومِن عادةِ العرب أنَّهم يُخاطِبون الرجلَ بشيءٍ يريدون به غيرَهُ كما قالوا: إيَّاكِ أعْنِي واسمعي يا جارةُ.

وكانت الناسُ على عهدِ النبيِّ ﷺ ثلاثَ مراتب: مؤمنٌ؛ وكافر؛ وشاكٌّ، فخاطبَ الله بهذه الآية الشاكَّ أمَرَهُ بسُؤال الذين يقرَءُون الكتابَ من قَبْلِهِ عن النبيِّ ﷺ المبَشَّر به حتى إذا وافقت صفتهُ في الكتاب المنَزَّل له قَبلَ القرآن صفةَ النبيِّ ﷺ على الشَّاكِّ هو المبشَّر به.

قولُه: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾؛ أي الشَّاكِّين في الحقِّ، وما في الآيةِ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ معناهُ: إن الذين أخبرَ اللهُ عنهم أنَّهم لا يؤمنون، ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾؛ فيَصيرون مُلجَئِين إلى الإيمانِ، فلم يُقبَلْ منهم الإيمانُ حينئذٍ.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٢٧.

(٢) في الدر المنثور: ج ٤ ص٣٨٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق وابن جرير عن قتادة)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٨٤١).

قولـهُ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ ؛ أي هـلاً كـانت قريـةٌ آمَنت عندَ نزول العـذاب فنفعَـها إيمانُـها وقُبِـلَ منـهم، ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ ؛ لَمَّا آمنوا وعَلِمَ اللهُ منهم الصدقَ صرفَ عنهم عذابَ الهونِ، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ ؛ آجالِهم المضروبةِ لهم.

وعن ابنِ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ (فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إيْمَانُـهَا إلاَّ قَـوْمَ يُونُسَ)[1] والْمَعْنَى: لَمْ أفْعَلْ هَذا بأُمَّةٍ قَطُّ إلاَّ قَـوْمَ يُونُـسَ لَمَّـا آمَنُـوا كَشَـفْنَا عَنْـهُمْ، فَتَكُونُ (لَوْلاَ) مَعْنَاهَا النَّفْيُ. وقال قتادةُ: (لَمْ يَكُنْ هَذا مَعْرُوفاً لأُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ كَفَرَتْ، ثُمَّ آمَنَتْ عِنْدَ نُزُولِ الْعَذاب فَكُشِفَ عَنْهُمْ إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ كُشِفَ عَنْهُمُ الْعَذابُ بَعْدَ أنْ تَدَلَّى عَلَيْهِمْ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَتَّعْنَاهُمْ إلَى حِينٍ) آجالِهم، وذلكَ: أن يونُسَ عليه السلام بعثَهُ اللهُ إلى قومِهِ، فدعاهم إلى طاعةِ الله وتركِ الكُفرِ فأَبَوا، قالَ: رَب فَدَعَوْتُهُمْ فَأَبَوا، فـأوحَى اللهُ إليه: أن ادْعُوهُمْ فَإنْ أجَابُوكَ، وَإلاَّ فَأعْلِمْـهُمْ بـأنَّ الْـعَذابَ يَأْتِيـهِمْ إلَـى ثلاَثَـةِ أيَّـام. فدعاهُم فلم يُجيبوا، فأخبرَهم بالعذاب وخرجَ مِن بينهم، فقالُوا: ما جَرَّبْنَا عليه كَذِباً مُذْ كانَ، فاحتَالُوا لأنفُسِكم.

فلمَّا كان اليومُ الثالث رَأَوا حُمْرَةً وسَوَاداً من السَّـماء كهيئـة النـار والدُّخـان، فجعلوا يطلبُون يونُسَ فلم يجدوا، فلما يَئِسُوا من يونُسَ وجعل يحطُّ السوادُ والحمرة، فقال قائلٌ منهم: فإنْ لم تَجِدُوا يونسَ فإنَّكم تجدوا ربَّ يونس، فادعوهُ وتضرَّعُوا إليه.

فخرَجُوا إلى الصحراءِ، وأخرَجُوا النسـاءَ والصبيـان والبـهائمَ، وعَجُّـوا إلى اللهِ مُؤمِنِين به، وارتفعتِ الأصواتُ، وقرُبَتْ منهم الحمرةُ والدُّخان حتـى غَشِـيَ السـوادُ سُطوحَهم وبلَغَهم حرُّ النار، فلما عَلِمَ اللهُ منهم صدقَ التوبةِ رفعَ عنهم العذابَ بعـد ما كان غَشِيَهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٨٤٤).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٨٤٥) مطولاً.

قوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ ﴾ ؛ أي لو شاء ربُّك يا مُحَمَّدُ لآمَنَ أهلُ الأرضِ كلُّهم. وَقِيْلَ: معناهُ: لو شاءَ ربُّكَ لأن يُجبرَ النـاسَ على الإيمانِ لآمَنَ مَن في الأرضِ كلهم جميعاً، كما آمَنَ قومُ يونس.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أفأنتَ تريدُ إكراهَ الناسِ على الإيمانِ إن لم يُرِدِ اللهُ إكراهَهم عليهِ مـع أنـه قـادرٌ على إكراهِهم عليه، فلا ينبغِي لكَ أن تريدَ هذا، وأنت غيرُ قادرٍ على إكراهِهم عليـه. وَقِيْلَ في سبب نزول هذه الآية: أنَّ النبي ﷺ كان حَريصـاً علـى أنْ يُسلِمَ عمُّـه أبـو طالبٍ وقومه، فأعلمَهُ الله بهذه الآيةِ أنَّ إسلامَهم ليس بيدِهِ.

قولـه: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ أي بتوفيقـــهِ، ويقال: إلا بأمره وقد أمـرَ اللهُ الكـلَّ بالإيمـان، وَقِيْـلَ: معنـاهُ: إلا بتمكـينِ الله. قَوْلُـهُ تَعَـالَى:﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّـاس: (السُّخْطَ)[1]، قال أبو الحسنِ: (الْعَذابَ عَلَى الَّذِيـنَ لاَ يَعْقِلُـونَ) أي علـى الذيـن لا ينتفِعون بعقولِهم، وقال الحسنُ: (يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بالْكُفْرِ وَيَذُمُّهُمْ عَلَيْهِ).

قولـهُ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ ؛ أي قُـل لهـم يـا مُحَمَّـدُ تفكَّروا فيما في السمواتِ والأرض من الآياتِ والدَّلالاتِ نحو مَسِيرِ الشمسِ والقمـر والنُّجومِ في مَجَاريها في أوقاتٍ معلومة على الدَّوام، ووقوفِ السَّـماء بغـير عَمَـدٍ ولا علاقةٍ، وخروجِ النِّتاجِ من الأُمَّهات، وانظروا إلى الجبال والشَّجر وغـير ذلـك، وكـلُّ هذا يقتضي مُدَبرَ الأمـر يُشـبهُ الأشـياءَ ولا تشـبهه، ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ . ثم قالَ حين لم يتفكَّروا:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ ﴾ معناهُ: ما تنفعُ الآياتُ، ولا تدفعُ عمَّن سبقَ في علمِ الله أنه لا يؤمنُ، فهل ينظرون إلا أن يصيبَهم مثل ما أصابَ الأُمَمَ قبلَهم من العذاب، يقال: أيَّامُ فلان؛ ويـرادُ بـه أيـام

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٨٥٨).

دولته ومحنتَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ فَانتَظِرُوٓا۟ ﴾ ؛ أي انتظِرُوا حلولَ العذاب الذي أوعدَكم به ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ، لذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ؛ معناهُ: ثم نُنَجِّي رسُلَنا والمؤمنين من العذاب الذي يحلُّ بالكفَّار. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ أي كما نُنجِي الرسُلَ من العذاب كان علينا أن ننجِي المؤمنين كلهم من العذاب الذي ينْزِلُ بالكفَّار.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي قُل لَهم: يا أهلَ مكَّة إنْ كُنتم في شكٍّ من دِينِي الذي أتيتُكم به، فأنا مستيقنٌ فلا أشكُّ في بُطلان دِينكم، فلا أعبدُ الذين تعبدُون من دون الله بشَكِّكُم في دِيني، ﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ ؛ أي يُمِيتُكم ويُعِيدُكم، ولا أعبدُ الذي لا يقدر على الضرِّ والنفعِ والإحياء والإماتةِ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ؛ أي وأمِرْتُ أن أخْلِصَ دِيني وعَمَلي للهِ، والمرادُ بإقامةِ الوجه الإقبالُ على ما أُمِرَ به من أمُور الدِّين، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ . وَقِيْلَ: أرادَ بذلك إقامةَ الصلاةِ. والحنيفُ: هو المستقيمُ في الدِّين. وَقِيْلَ: هو العادلُ عن الأديانِ الباطلة إلى دِين الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ ؛ أي ما لا ينفعُكَ إنْ دعوتَهُ، ولا يضرُّكَ إنْ تركتَ عبادتَهُ، ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ ، فإن دعوتَ غيرَ اللهِ إلهاً، ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ الضَّارِّين لنفسِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ يُردِ اللهُ بك ضُرّاً فلا يقدرُ أحدٌ على دفع ذلك الضرر إلا هو، ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ ؛ بنعمةٍ وأمر تُسرُّ به، ﴿ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ ؛ مانع لعطيَّتِه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يختَصُّ بالفضلِ مَن يشاءُ، ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ على ما توجِّهُ الحكمةُ على ما يستحقُّون بأعمالِهم، ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ﴾ ؛ لذُنوب العبادِ، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ بمَن ماتَ على التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ؛ **أي قُل يا مُحَمَّدُ للناسِ كلهم: قد جاءَكم الحقُّ من ربكم؛ أي الكتابُ والرسول،** ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ ؛ **بالكتاب والرسول،** ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ ؛ **أي يرجعُ نفعُ هدايتهِ إليه،** ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ؛ **فإنَّما يكونُ وبالَ ضلالهِ على نفسه،** ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ ؛ **أي لستُ بحفيظٍ عليكم، أدفعُ عنكم الضرَّ، وأطلبُ إليكم النفعَ شِئتُم أو أبيتُم.**

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ ؛ **أي اتَّبعْ يا مُحَمَّدُ ما تؤمرُ به في القرآن،** ﴿وَٱصْبِرْ﴾ ؛ **على أذاهم،** ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ ؛ **يقضِي الله بينَكَ وبينهم،** ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ ؛ **أعدَلُ القَاضِين؛ لأنَّ الحاكمَ لا يكون إلا بالصَّلاحِ والسَّدادِ، وكان حكمهُ أنْ أمرَ النبيَّ ﷺ بقتالِهم.**

آخر تفسير سورة (**يونس**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ هُودٍ

سُورَةُ هُودٍ كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ[1] إلاَّ فِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَي النَّهَارِ﴾ إلَى آخِرِ الآيَتَيْنِ، فَإنَّهُمَا نَزَلَتَا فِي الْمَدِينَةِ. وَمَنْ قَرَأ سُورَةَ هُودٍ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بهُودٍ وَكَذبَ بهِ، وَنُوحٍ وَشُعَيْبَ وَصَالِحٍ وَإبْرَاهِيمَ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ مِنَ الشُّهَدَاءِ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ أنَا اللهُ الرَّحْمَنُ). وقولُهُ: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: (كِتَابٌ) بدلٌ من قولِهِ (الر) لأنه خبرهُ، كأنه قالَ: هذه الحروفُ كتابٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أحْكِمَتْ آيَاتُهُ) اي أحكِمَتْ بالأمر والنهي،﴿ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ﴾ ؛ بالثواب والعقاب، وقال قتادة: (أحْكِمَتْ عَنِ الْبَاطِلِ بالْحُجَجِ وَالدَّلاَئِلِ، ثُمَّ فُصِّلَتْ بأنْ أنْزِلَتْ شَيْئاً فَشَيْئاً)[2]. وقال الكلبيُّ: (كِتَابٌ أحْكِمَتْ آيَاتُهُ لَمْ يُنْسَخْ بكِتَابٍ، كَمَا نُسِخَتِ الْكُتُبُ وَالشَّرَائِعُ بهِ، (ثُمَّ فُصِّلَتْ) بُيِّنَتْ بالأحْكَامِ مِنَ الْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ). وقولهُ:﴿ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ ؛ أي مِن عند حكيمٍ في خَلقهِ وتدبيرهِ، خبيرٍ بمَن يصدِّقُ ويكذِّبُ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ ﴾ ؛ أي أحْكَمَ اللهُ القرآنَ بالْحُجَجِ لِئَلاَّ يُطيعوا إلاَّ اللهَ. وَقِيْلَ: معناهُ: أمَرَكم أنْ لا تعبُدوا غيرَهُ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٤ ص٢٩٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه النحاس في تاريخه وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٨٦٣).

إنِّي لكم من اللهِ مُعَلِّمٌ بموضعِ المخافة لتَحذرُوا، وموضعِ الخيرِ لتطلُبوا، ونذيرٌ بمعنى مُنْذِر، كما في قولهِ ﴿أليمٌ﴾ يعني مؤلِم.

قولهُ: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ؛ أي وأمركم أن تطلبُوا المغفرةَ من ربكم، واجعلُوها غرَضَكم وتوصَّلوا إليها بالتوبةِ وهي الندمُ على القبيحِ، والعزمُ على تركِ المعاودة إليه. وَقِيْلَ: معناهُ: وأنِ استغفروا ربَّكم بالتوبةِ عما سلَفَ من ذُنوبكم، ثم توبُوا إليه عمَّا يقعُ منكم من الذنوب في المستقبلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ ؛ (يُمَتِّعْكُمْ) جُزِمَ على جواب الأمر؛ أي إنْ فعلتُم ذلك أنعمَ اللهُ عليكم نِعَماً سابغةً حِسَاناً تستبقون بها إلى آجَالِكم التي قدَّرَها اللهُ لكم، فلم يستَأْصِلكم كما استأصلَ الأُمَم المكذِّبة به قبلَكم. قال القتيبيُّ[(١)]: (أصْلُ الإمْتَاعِ الإطَالَةُ)[(٢)] يقالُ: جبلٌ مَاتِعٌ، وقد مَتَعَ النهارُ إذا طالَ، فمعنى يُمَتِّعْكُمْ يُعَمِّرْكُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ ؛ أي مَن كان ذا فَضْلٍ في دينهِ فضَّلَهُ اللهُ في الآخرةِ بالثواب على عمله. وَقِيْلَ: يعطِي كلَّ ذِي عمَلٍ صالحٍ أجرَهُ وثوابه. وقال ابنُ عبَّاس: (يُعْطِي كُلَّ مَنْ فَضَلَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَضْلَهُ؛ يَعْنِي الْجَنَّةَ وَهِيَ فَضْلُ اللهِ، يَعْنِي أنَّ مَنْ زَادَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ). وعن ابن مسعود قال في هذه الآيةِ: (مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ، وَإنْ لَمْ يُعَاقَبْ بِتِلْكَ السَّيِّئَةِ فِي الدُّنْيَا أخِذ مِنْ عَشْرِ حَسَنَاتِهِ وَاحِدَةٌ وَبَقِيَتْ لَهُ تِسْعٌ) ثُمَّ قَالَ:(هَلَكَ مَنْ غَلَبَتْ آحَادُهُ أعْشَارَهُ)[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ ؛ أي إنْ أعرَضُوا عنِ الإيمانِ والتوبة، ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣﴾ ؛ أي عظيمِ الشَّأنِ وهو يومُ القيامةِ، وإنما

(١) القُتَيبيُّ: هو ابن قُتيبة عبدالله بن مسلم، توفي سنة (٢٧٦) من الهجرة.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص٤؛ قال القرطبي: (وأصل الإمتاعِ الإطالةُ، ومنه أمتَعَ اللهُ بكَ ومتَّعَ). وينظر قول ابن قتيبة في غريب الحديث: ج ١ ص٥٩٧.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٨٧٢).

ذكرَ الخوفَ في هذا الموضعِ؛ لأن الخطابَ من الرسول ﷺ، والخوفُ عليه جائزٌ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾؛ على إعادَتِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ﴾؛ قال ابنُ عبَّـاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الأَخْنَسِ بْنِ شُرَيْقٍ، كَانَ حِينَ يُجَالِسُ النَّبِيَّ ﷺ وَيُظْـهِرُ لَـهُ أمْـراً حَسَناً، وَكَانَ حَسَنَ الْمَنْظَرِ، وَكَانَ حَسَنَ الْحَدِيثِ، إلاَّ أنَّهُ كَانَ يُضْمِرُ فِي قَلْبِهِ خِـلاَفَ مَا يُظْهِرُ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي أمْرِهِ هَذِهِ الآيَةَ)(١).

يقالُ: إنَّ طائفةً من المشركين بَلَغَ بهم الجهلُ إلى أنْ قالُوا: إنَّا اذا أغلَقنا أبوابَنـا، وأرخَينا سُتُورَنا، واسْتَغْشَيْنَا ثِيابَنا، وثَنَيْنَا صُدورَنا على عداوةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كيـف يعلـمُ بنا؟ فَأَنْبَأَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ عَمَّا كَتَمُوهُ. ومعنى الآيةِ: ألا إنَّهم يَثْنُونَ صدورَهم على الكفرِ وعداوةِ النبيِّ ﷺ؛ ليكتُموا منه ما في صدورهم من عداوتهِ بإظهار المحبَّة. ويقال: معنى (يَثْنُونَ) يعرضون بصدورهم عن النبيِّ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾؛ معناه: ألا حين يَتَغَطُّونَ بثيابهم يعلمُ الله ما يُسِرُّونَ بقلوبهم وفيما بينهم وما يُظـهرون من محبَّة أو غيرها، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي عالِمٌ بالقلوب التي في الصُّدور، لأن الصدورَ مواضعُ القلوب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾؛ أي ما من حيوان يدبُّ، قال الزجَّاج: (الدَّابَّةُ اسْمٌ لِكُلِّ حَيْوَانٍ مُمَيِّزٍ وَغَيْرِهِ، ذكَراً كَانَ أوْ أنْثَى).

وفي الآيةِ بيانُ أن اللهَ عالِمٌ بالقلوب كلِّها، وذلك أنه إذا كان ضَامِنـاً رزقَ كـلِّ دابةٍ في الأرض، فليس يرزقُها إلاَّ وهو يعلمُ صغيرَها وكبيرها، من الذرِّ فما فوقَها وما دونَها، وإذا عَلِمَها فقد عَلِمَ مستقرَّها ومستودَعَها، المستقرُّ موضعُ قَرَارها وهو الموضعُ الذي تَأْوي إليه، والمستودَعُ هو الموضعُ الذي تُودَعُ فيه، قِيْلَ: إنه الرَّحِـمُ، وَقِيْـلَ: هـو الموضعُ الذي تُدْفَنُ فيه.

---

(١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: تفسير الآية. والجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص٥.

وقال قتادةُ ومجاهد: (أمَّا مُسْتَقَرُّهَا فَفِي الرَّحِمِ، وَأمَّا مُسْتَوْدَعُهَا فَفِي الصُّلْبِ) ﴿ كُلٌّ ﴾ ؛ ذلكَ عندَ اللهِ، ﴿ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ يعني اللوحَ المحفوظ، والمعنى: أن ذلك ثابتٌ في علمِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) قال المفسِّرون: فَضْلاً لا وجُوباً، واللهُ تَكَفَّلَ بذلك بفضلِهِ. قال أهلُ المعانِي (عَلَى) ههُنا بمعنى (من)، المعنى: إلاَّ مِنَ اللهِ رزقُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: (كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) أي رزقُ كلِّ دابَّةٍ وأجلُها مكتوبٌ في اللوحِ.

قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ مِمَّا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى لَوْحاً مَحْفُوظاً مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، دَفَّتَاهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، عَرْضُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كِتَابُهُ نُورٌ وَقَلْبُهُ نُورٌ، يَنْظُرُ اللهُ تَعَالَى فِيْهِ كُلَّ يَوْمٍ ثلاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ نَظْرَةً، يَخْلُقُ بكُلِّ نَظْرَةٍ وَيُحْيِي وَيُمِيتُ وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)، قال أبو رَوقٍ: (أعْلاَهُ مَعْقُودٌ بالْعَرْشِ، وَأسْفَلُهُ فِي حِجْرِ مَلَكٍ كَرِيمٍ يُسَمَّى مَاطُوتُون)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ ؛ يعني قبلَ أنْ خَلَقَ السموات والأرضَ، قال ابنُ عبَّاس: (خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أيَّامٍ، أوَّلُهَا يَوْمُ الأَحَدِ وَآخِرُهَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَوْ أرَادَ سُبْحَانَهُ خَلْقَهَا فِي أقَلَّ مِنْ لَحْظَةٍ لَفَعَلَ).

قولهُ تعالى: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) فيه بيانُ أنَّ السموات والأرضَ ليستَا بأوَّلِ خَلْقٍ، وأنه تقدَّمَهما خلقُ شيءٍ آخر، وفيه بيانُ زيادةِ القَدْرِ؛ لأن العرشَ مع كونهِ أعظمَ مِن السمواتِ والأرضِ كان على الماءِ، ولم يكن ذلك الماءُ على قَرارٍ، ولكنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أمسكَهُ بقُدرتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ؛ أي ليَبلُوكم فينظرَ أيُّكم أحسنُ عملاً، فيُثِيبُ المطيعَ المعتبرَ بما يرَى من آياتِ السموات والأرضِ، ويعاقِبَ أهلَ العنادِ.

---

(١) هكذا رسمها في المخطوط، ولم أقف على النص في كتب التفسير.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ولئن قُلتَ يا مُحَمَّدُ للكفار: إنَّكم مبعُوثون من بعدِ الموتِ، ليقولُنَّ الذين كفرُوا: ما هذا إلا تَموِيةٌ ليس له حقيقةٌ، وقد أقَرُّوا أنَّ الله خالقُ السمواتِ والأرض، ويُمسِكُها بغيرِ عَمَدٍ، لا يعجزهُ شيءٌ فكيف يشكُّون في البعثِ بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ ؛ معناهُ: ولئن أخرنا العذاب عن الكفار، ﴿ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ ﴾ ، ليقولون: ﴿ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ ، ما منعناهُ، قال ابنُ عبَّاس ومجاهد: (يَعْنِي إلَى أجَلٍ وَحِينٍ)، والأُمَّة ههنا المدةُ، ليقولُنَّ ما يحبسُ هذا العذابَ عنَّا إن كان ما يقولهُ مُحَمَّدٌ حقّاً، يقول اللهُ تعالى: ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ ؛ العذابُ، ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ ؛ لا يقدرُ أحدٌ على صَرفهِ عنهم.

فالمعنى: أنَّهم لَمَّا قالوا: ما يحبسُ العذابَ عنَّا على وجهِ الاستهزاء، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (ألاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ) يعني إذا أخذتْهم سيوفُ النبيِّ ﷺ وأصحابهِ لم تُغْمَدْ عنهم حتى تعلُو كلمةُ الإخلاصِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي نَزَلَ بهم جزاءُ استهزائِهم وهو العذابُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ ﴾ لا يصبرُ على سَلْب تلك النعمةِ، ويصيرُ أيْئَسُ شيء أقنطهُ من رحمةِ الله، قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ)، وَقِيْلَ: في عبدِالله بن أبي أمَيَّة المخزوميِّ(١). والرحمةُ ههنا الرِّزْقُ، وقوله: ﴿ كَفُورٌ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي لا يشكرُ نِعَمَ اللهِ قبلَ أن تُسلَبَ عنه، ولا يصبرُ بعد أنْ سُلِبَتْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ﴾ ؛ أي ولئن أذقنا الكافرَ النِّعَمَ الظاهرةَ بعد المضرَّة الظاهرةِ التي أصابتْهُ، ليقولَنَّ الكافرُ: ذهبَ الشدائدُ والضرُّ والفاقةُ والآلامُ عَنِّي، ويفرحُ بذلك ويَبْطَرُ ويَفْجُرُ به على الناسِ من دون أنْ يشكُرَ اللهَ على كشفِ الشدائد عنه.

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص١٠-١١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي بَطِرٌ مُفَاخِرٌ أوليائي بما وسَّعتُ عليه. وإنما نُصِبَ اللام في قوله (لَيَقُولَنَّ ذهَبَ السَّيِّئَاتُ) لأنه في موضعِ الوحْدَان، وقوله: (لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ) بضَمِّ اللام في موضعِ لفظ الجماعةِ، وقولهُ تعالَى: (لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)(١) بنَصب اللام أيضاً؛ لأن الفعلَ مقدَّمٌ على الاسمِ فذُكِرَ بلفظ الوحْدَان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ استثناءٌ ليس من الأوَّل، معناهُ: لكن الذين صَبَرُوا على الشدائدِ، وعَمِلوا الصالحاتِ فيما بينهم وبين ربهم أولئك لهم مغفرةٌ لذُنوبهم وثوابٌ عظيم على طاعتِهم وصبرِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ ﴾ ؛ سببُ نزول هذه الآيةِ: أنَّ المشركين كانُوا يقولون للنبيِّ ﷺ: لو تركتَ سبَّنَا وسبَّ آلهتنا جالَسنَاكَ، وكانوا يُؤذونَهُ ويقولون: لولا أنزل على مُحَمَّدٍ كَنْزٌ من السَّماءِ فيعشُ به وينفعهُ، أو جاءَ معه مَلَكٌ يشهدُ له ويُعينُهُ على الرسالةِ.

وَقِيْلَ: إن المشركين قالوا للنبيِّ ﷺ: لو أتَيتَنا بكتابٍ ليس فيه سبُّ آلهتِنا حتى نؤمنَ بكَ ونتَّبعَكَ، وقال بعضُ المتكبرين: هَلاَّ ينْزِلُ عليك يا مُحَمَّدُ مَلَكٌ يشهدُ لكَ بالصدق، أو تُعطَى كَنْزاً تستَغني أنتَ وأتباعُكَ ؟ فَهَمَّ رسولُ الله ﷺ أن يدعَ سَبَّ آلهتِهم فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ. ولا يجوزُ أن تكون كلمة (لَعَلَّ) في أول هذه الآية على جهة الشَّكِّ، وإنما الغرضُ تثبيتُ النبيِّ ﷺ في ما أُمِرَ به؛ كيلا يلتفتَ على قولِهم، وكي لا ييأسُوا عن تركِ أداء الرسالة.

فلما قالوا للنبيِّ ﷺ: (لَوْلاَ أنْزلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ). يقولُ الله للنبيِّ ﷺ: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ ﴾ ؛ أي عليكَ أن تُنذِرَهم وتُخوِّفَهم وتأتِيَهم بما يُوحَى إليكَ

(١) الروم / ٥٨ .

من الآياتِ، وليس عليك أن تأتِيَ بشهوَاتِهم وما يفرَحُون مـن الآيـاتِ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ من مقالَتِهم وغيرِ ذلك، ﴿ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي حفيظٌ.

والفرقُ بين ضَائِقٍ وَضَيِّقٍ، أن الضائقَ يكونُ بضيقٍ عَارضٍ، والضَّيِّقُ قصورُ الشيءِ عن مقدار غيرِه أنْ يكونَ فيه، وموضعُ (أنْ يَقُولُوا) حذفُ الباء(١) تقديرُهُ: ضَائِقٌ به صدرُكَ بأنْ يقُولوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ ؛ معناهُ: بل يقولُ الكفَّار: اختلقَ مُحَمَّدٌ القرآنَ من تلقاءِ نفسه، قُل لَهم يا مُحَمَّد: إنْ كان هذا مُفْتَرَى على اللهِ فَأْتُوا بعشرِ سُوَرٍ مثله مُفتَرياتٍ مختلفاتٍ، فإنَّ القرآنَ نزل بلُغتكم، وأنا نشأتُ بين أظهُركم، فإن لم يُمكنكم أن تأتوا بمثلِ القرآن فاعلموا أنه من عندِ الله، ﴿ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، أي استعينوا بكلِّ أحدٍ يقدرُ على الإتيانِ بعشرِ سُوَرٍ مثله مفتريات، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ في مقالَتِكم أنَّ مُحَمَّداً اختلقَهُ.

وذهبَ بعض المفسِّرين: إلى أن المرادَ بالسُّوَر العشرِ: من سُورةِ البقرة إلى هذه السُّورة، والأَوْلى أن يُقال: إن المرادَ فاتوا بعَشرِ سُور مثلِ سُوَر القرآنِ أيَّ سُورةٍ كانت، لأن سُورةَ هُودٍ مكِّية، وسورة البقرةِ وما بعدها مدَنِيَّاتٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والمسلمين؛ أي فإن لم يُجِبْكَ هؤلاءِ الكفَّارُ إلى الإتيانِ بمثل القرآن، فاعلَمُوا أنَّ هذا القرآنَ أنزلَهُ جبريلُ بعلمِ الله وأمرِه. ويجوز أن يكون بعلمِ الله؛ أي بما أنزلَ اللهُ فيه من غَيْبٍ.

ويجوز أن يكون معناهُ: فإنْ لم يستجيبوا لكُم؛ أي فإن لم يُجِبْكُمُ الذين دعوتُموهم إلى المعاونةِ إلى الإتيان بمثل هذا القرآن، فقد قامت عليكم الحجَّةُ، فاعلَمُوا أنَّما أنْزِلَ بعلمِ الله، واعلموا أنَّما أنزلَهُ إلاَّ هو، ولَا يُنْزِلُ الوحيَ أحدٌ غيرُهُ، فهل أنتم مُخلِصُون للهِ في التوحيد والعبادةِ.

---

(١) في المخطوط: (خفضُ الياءِ) وهو تحريف؛ لا يتناسق مع سياق الكلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ في الآيةِ وجهَان:

أحدُهما: أنَّ المرادَ بالآيةِ إذا أتَى بالأعمالِ التي تكون حَسَنَةً في العقلِ مثل صِلَةِ الرَّحمِ والتصدُّقِ وإعانةِ المظلوم، فإن اللهَ يجازيهِ على هذه الأعمالِ في الدُّنيا بأن يُمَكِّنَهُ مما حولَهُ ويعطيهِ ما يسعَى لطلبهِ وافراً عليه ويُقِرُّ عَيْنَهُ بذلك.

والثاني: أنَّ المراد بها المنافقُ إذا خرجَ للغزو مع المسلمين وهو يريدُ الغنيمةَ دون الثواب ونصرةِ الدِّين، يجزيهِ الله على غَزوهِ بأن أمرَ بإعطائهِ سَهْمَهُ من الغنيمةِ لا يُبْخَسُ عنه شيءٌ من سهمهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين عَمِلوا لغيرِ الله من الكفار والمنافقين ليس لهم في الآخرةِ إلا النارُ، ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ ؛ من الأعمال الحسَنة؛ لأنَّهم لم يرَوا لها ثواباً، ﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ من خيرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ ؛ اختصارٌ معناهُ: أفمَن كان على بَيِّنَةٍ من ربه، ويتلوهُ شاهدٌ منه كالذِي يريدُ الحياةَ الدُّنيا وزينَتها، وأرادَ بالبيِّنة البرهانَ الذي هو من اللهِ، وكان النبيُّ ﷺ على بُرهانٍ وحُجَّةٍ من ربه، ويقرأ عليه القرآنَ شاهدٌ من اللهِ وهو جبريلُ عليه السلام، هكذا قالَ أكثرُ المفسِّرين أنَّ المرادَ بقولهِ: أفَمَنْ كان على بيِّنة من ربهِ هو النبيُّ ﷺ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ ؛ أي ومِن قبلِ القرآن كان جبريلُ يقرأ على موسَى التوراةَ إمَاماً يُقتَدى به، ونعمةً من اللهِ لِمَن آمَنَ به، و(إمَاماً) بالنصب على الحال، (وَرَحْمَةً) أي ذا رحمةٍ، وَقِيْلَ: أرادَ بقوله (أفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ) جميعَ المؤمنين، وأرادَ بالشَّاهدِ النبيَّ ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ ؛ يعني أصحابَ النبيِّ ﷺ ومَن صَدَّقَهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ ؛ أي مَن يكفُرْ بالنبيِّ ﷺ من أصنافِ الكفَّار واليهودِ والنصارى وغيرهم، فالنارُ مصيرهُ التي

وعدَ اللهُ في الآخرة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ ؛ أي لا تكن في شكٍّ من القرآن، وظاهرٌ أنَّ هذا الخطابَ للنبيِّ ﷺ إلاَّ أن المرادَ به جميعُ الناس. وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ ؛ يعني القرآن، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يصدِّقون في أنَّ القرآنَ من عندِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ أي ليس أحدٌ أظلمَ لنفسهِ من الكاذب على ربه بأن زعمَ أن له ولَداً وشَريكاً، ﴿ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ، معناهُ: أولئكَ الكاذبون يُسَاقُونَ يوم القيامةِ إلى ربهم، ويُوقَفون في المقاماتِ التي يطالَبون فيها بأعمالِهم، ويُسألون فيها، ويُجازَوْنَ عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس ومجاهد: (الأَشْهَادُ هُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَالأَنْبِيَاءُ)[1]، وقال قتادةُ: (يَعْنِي الْخَلاَئِقَ)[2]، وقال مقاتلُ: (هُمُ النَّاسُ).

والأَشْهَادُ جمعُ شَاهِدٍ مثل نَاصِرٍ وأنْصَارٍ وصَاحِبٍ وأصحابٍ، ويجوزُ أن يكون جمعُ شَهِيدٍ مثل شريفٍ وأشرَافٍ. والمعنى: يقولُ الأشهادُ يومَ القيامة من الملائكةِ والنبيِّين والعلماءِ وعامَّة المؤمنين، ويُشيرون الى الكفار فيقولون: (هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبهِمْ) فيُفضَحُ الكفارُ على رُؤوسِ الأشهادِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون من قولِ الأشهادِ، ويجوز أنْ يكون من قولِ الله، وأرادَ بالظَّالمين المشركين، واللَّعْنَةُ: الإبعادُ من الخيرِ.

وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [يَدْنُو الْمُؤْمِنُ مِنْ ربهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يُقَرِّرُهُ بذُنُوبهِ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: رَب أعْرِفُ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: رَب أعْرِفُ، فَيَسْأَلُهُ عَنْ مَا شَاءَ أنْ يَسْأَلَهُ، قَالَ: فَإنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأنَا أغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ يُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ بيَمِينِهِ. وَأمَّا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٩٦٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٩٦٧).

الْكُفَّارُ فَيُنَادَى عَلَيْهِ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذبُوا عَلَى رَبهِمْ، الاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ ؛ أوَّلُ الآيةِ نعتٌ للظالمين، والمعنى: الذين يسببون للصدِّ من دون اللهِ وطاعته، ويبغُون للهِ سبيل الإسلام زَيغاً وعِوَجاً، يتأوَّلون القرآنَ على خلافِ تأويلهِ، ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ، أعادَ كلمةَ (هُمْ)؛ تأكيداً لشأنِهم في الكفرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ معناهُ: أولئك ليسُوا بغائِبين عن اللهِ في الأرضِ، ولا مهربَ لهم من عذابهِ حتى يجزِيَهم بأعمالِهم الخبيثة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ ﴾ أي لا يقتصرُ لهم على عقاب الكُفر، بل يُعاقبون على الكفرِ، وعلى الصدِّ عن سبيل اللهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: كلَّما مضَى ضِعفٌ من العذاب جاءهم ضِعْفٌ من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ ؛ أي كان يَثْقُلُ عليهم سماعُ الحقِّ من شدَّة عداوتِهم للنبيِّ ﷺ، ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ لأنَّهم صُمٌّ عن الحقِّ عُمْيٌ لا يُبصرون ولا يهتدون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ أي أهلكُوا أنفسَهم في الآخرةِ، وذُكرَ الهلاكُ بلفظِ الْخُسران؛ لأن الخسرَان هو ذهابُ رأس المال، ورأسُ مال الإنسان نفسهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي ذهبَ عنهم الانتفاعُ بأعمالهم التي كانوا يكذِبون بها على اللهِ كما قالوا في الدُّنيا، وَقِيْلَ: معناهُ: ذهبَ عنهم الأصنامُ التي كانوا يعبدونَها في الدُّنيا، يَفْتَرُونَ بقولهم إنَّها آلهةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٦٨٥)، وكتاب التوحيد: الحديث (٧٥١٤). ومسلم في الصحيح:كتاب التوبة: الحديث(٥٢/٢٧٦٨). وهذا أول موضوع يذكر فيه البخاري ومسلم، وعلىما يبدو أنه إدراج من الناسخ وليس في الأصل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ ؛ قيل: معنى (لاَ جَرَمَ): لا بدَّ، ويقال: لا محالة، ويقال: حقاً، قال سيبويه: (لاَ جَرَمَ بمَعْنَى حَقّاً)[1]. وقال الزجَّاج: (لاَ بَقَاءَ لِمَا ظَنُّوا أنَّهُ يَنْفَعُهُمْ) كأنه قالَ: لا ينفعُهم ذلك جرَمَ، ﴿ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي كَسْبُ ذلك الفعلِ لهم الخسران، وجَرَمَ معناه: كَسَبَ، وذلك كقولهِ: ﴿لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ الإخْبَاتُ: الْخُشُوعُ والتواضعُ والطُّمَأنِينَةُ؛ أي تواضَعُوا وخَشَعوا لربهم. وقال مجاهد: (اطْمَأنُّوا)، وقال قتادة: (أنَابُوا). وهذه الآيةُ نازلةٌ في أصحاب النبيِّ ﷺ، وما قبلَها نازلٌ في المشركين.

ثم ضربَ اللهُ مثلاً في الفريقين فقال:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ ﴾ ؛ يعني الكفارَ، ﴿ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ ﴾ ؛ يعني المؤمنينَ؛ لأنَّهم سَمِعوا الحقَّ وأبصروهُ واتَّبعوهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ﴾ ؛ أي هل يستوي الأعمَى والأصمُّ والبصير والسميع عند عاقلٍ، كما لا يَستويان عندَ أحدٍ من العُقلاء، فكذلك لا يستوي حالُ المؤمن والكافرِ عندَ الله في الدُّنيا والآخرة، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي أفلا تتَّعظون بأمثالِ القرآن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ ابتدأ بذكرِ أوَّل رسولٍ جاءَ بالشريعةِ بعد آدمَ عليه السلام وهو نوحٌ عليه السلام، أوَّلُ مَن جاءَ بتحريمِ الأُمَّهات والأَخواتِ، وقولهُ تعالى: (إنِّي لَكُمْ) مَن فتحَ الألِفَ كان التقديرُ: أرسَلنا نُوحاً بأنِّي لكم، ومَن كسرَ فتقديره ليقول: إنِّي لكم.

---

(١) قال سيبويه معناه في كتاب سيبويه: ج ٣ ص١٣٨. وفي معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٣٧؛ قال الزجاج: (ومعنى (لا) نفي لما ظنُّوا أنه ينفعهم، كأن المعنى: لا ينفعهم ذلك جرمَ أنهم في الآخرة هم الأخسرون).

(٢) المائدة / ٢.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي وليقُولوا لاَ تعبُدوا إلا اللهَ فإنه لا إله إلا هو، ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي إنِّي أعلمُ أن يكون عليكم إنْ لم تُؤمنوا عذاب يوم أليم، وإنما وصفَ اليومَ بالألَم؛ لأن أسبابَ الألَمِ تقعُ فيه، فنسَبَ الألَم إليه.

وقوله: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ ؛ أي قالَ الرُّؤساء والأشرافُ الذين كفَروا من قوم نوحٍ: ما نراكَ يا نوحُ إلا بَشَراً مثلَنا في الصورةِ والخفَّة، فلِمَ صِرْتَ أولى أن تكون نَبيّاً ورَسُولاً للهِ منَّا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ ؛ ما نراكَ آمَنَ بكَ إلاّ الذين هم أسَافِلُنا وأخَسُّنا، قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُونَ الْمَسَاكِينَ الَّذِينَ لاَ عُقُولَ لَهُمْ وَلاَ شَرَفَ وَلاَ مَالَ) والرَّاذِلُ الدُّونُ من كلِّ شيءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ ؛ أي مَن قرأ (بَادِئَ) بالهمزِ فمعناهُ: أنَّهم اتَّبعوكَ بأوَّلِ الرأيِ من دون تفكُّرٍ ونظرٍ، مِن قولهم: بَدَأتُ الأمْرَ؛ أي ابتدأتهُ، ويجوزُ أن يكون المعنى: بَادِيَ الرؤية؛ أي بأوَّلِ ما تقعُ الرؤية عليهم يعلمُ أنَّهم أراذِلُنا، وقد يكون الرأيُ بمعنى الرُّؤيةِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾[1] أي رُؤية العينِ. ومن قرأ (بَادِيَ) بغير همزٍ فمعناه: ظاهرَ الرأيِ وهم يعرِفون الظاهرَ ولا تميِيزَ لَهم.

ويجوزُ أن يكون معناه: اتَّبعوكَ في الظاهرِ، وباطنُهم على خلافِ ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ ﴾ ؛ أي ما نرَى لكَ ولقومِكَ علينا من فَضْلٍ، فإنّ الفضلَ يكون بكثرةِ المال، وشرفِ النَّسب والمنْزلة في الدُّنيا، ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ فيما تقولونَهُ على اللهِ، وفيما تدْعُون إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ ؛ أي قالَ لهم نوحُ: أخبروني إنْ كنتُ على بُرهان وحُجَّة من ربي، ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً ﴾ ؛ نعمةً، ﴿ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ ؛ وهي النبوَّةُ، ﴿ فَعُمِّيَتْ ﴾ ؛ فخفِيت، ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ ، هذه النعمة

---

(١) آل عمران / ١٣ .

التي ظهرَتْ لِمَــن اتَّبعونـي فلـم تُبصِروهـا لتفـاوُتِكم، ﴿ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا ﴾ ، أمكَنّنـا أن نجعلَكـم قـابلين لهـا، ﴿ وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ هـذا ممـا لا يكـونُ. قـال قتادةُ:(وَاللهِ لَوِ اسْتَطَاعَ نَبِيُّ اللهِ الْزَمَهَا قَوْمَهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ ذلِكَ)(١).

فإن قِيْلَ: فهَلاَّ قال فَعَمِيتُمْ عَنْهَا وهم الذين كانوا عموا؟ قُلْنَا: قد بيَّنا إنه وَضع ذلك موضع: فخَفِيت عليكم، ثم لا فرقَ بين اللفظين كما لا فرقَ بين قولِهم: أدخلتُ الخاتمَ في الإصبع، وأدخلتُ الإصبعَ في الخاتم. ومن قرأ (فَعُمِّيَتْ) بضمِّ العين وتشديد الميم، فالمعنى: ألَيْسَتْ عليكم نُبُوَّتِي؟.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ ﴾ ؛ اي لا اسـألُكم علـى دُعائي لكم إلى اللهِ مالاً، فتخشَون العـدمَ في أموالكـم بإجـابَتي، ﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ أي ما ثوابي إلا على اللهِ يُعطيني في الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ ﴾ ؛ قال ابنُ جريج: (إنَّهُمْ سَأَلُوهُ طَرْدَ الَّذِينَ آمَنُوا لِيُؤْمِنُوا بهِ أنَفَةً مِنْ أنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ، فَقَالَ: لاَ يَجُـوزُ لِـي طَرْدُهُـمْ بقَوْلِكُـمْ وَازْدِرَائِكُـمْ)، ﴿ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ ﴾ ؛ مـا وعدَهـم، ﴿ رَبِّهِمۡ ﴾ ؛ فيجزيهم بأعمالهم، ويقال: فيُخـاصِمُونِي عنـدَهُ إنْ طردتُـهم، ﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أوامرَ اللهِ وما فيه إصلاحُكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ ﴾ ؛ معناهُ: يـا قـومِ مَن يمنَعُني من العقاب النازل في يومِ القيامة إنْ طردتُ مَن آمن بي، وآويتُ مَن كفـرَ، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ تتَّعظون بما أقولُ لكم فتؤمنون.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ ؛ أي لا أرفعُ نفسي فوقَ منْزلتي، فأقولُ إنَّ عندي مقدوراتِ اللهِ، فـأخصُّ بذلـك مـن أشـاءُ، وأمنعه ممن أشاء. وقولهُ تعالى: (وَلاَ أعْلَمُ الْغَيْبَ) أي ولا أدَّعي علمَ الغيب فـإني لا أعلمُ إلا ما علَّمَني اللهُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٣٩٨٦).

ويقال: إنَّهم لما قالوا لنوح الطَّيْلا: إن هؤلاءِ إنما آمَنوا بكَ، واتَّبعوكَ في ظاهرِ ما ترى منهم، أجابَهم نوحُ بهذا، فقال: لا أقولُ لكم عندِي خزائنُ اللهِ، يعني غُيُوبَ اللهِ التي يعلمُ منها ما تُضمِرهُ الناس، فلا أعلمُ الغيبَ، ولا أعلمُ ما يُسِرُّونَهُ في أنفسهم، فسَبيلي قَبُولُ إيمانِهم الذي ظهرَ لي، ومضمراتُهم لا يعلمها إلاّ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ ؛ هذا جوابٌ لقولهم: ما نراكَ إلا بَشَراً مثلنا؛ أي لا ادَّعي أنِّي مَلَكٌ نزلتُ إليكم من السَّماء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ﴾ ؛ أي لا أقولُ للذين تحتقِرُ أعينُكم وتستصغرُ: لن يؤتيكم اللهُ صَلاحاً في الدُّنيا وفَلاحاً في الآخرةِ، يعني المؤمنين الذين قالوا: هم أراذِلُنا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي إن طردتُّهم تكذيباً، الظاهرُ إيمانُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ ؛ أي قالوا: يا نوح قد خاصَمْتنا فيما دعوتَنا إليه من دِين غيرِ آبائنا، فأكثرتَ خصُومتَنا ودُعاءَنا، فلا نقبلُ منكَ، ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ ، أي بما تعِدُنا أنَّ الله يُعذِّبنا على الكفر، ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أرادَ بهذا القول أن يُلْبسُوا على ضُعفائِهم أنَّ نوحاً عاجزٌ عن إنزالِ العذاب بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾ ؛ أي إن العذابَ ليس بيَدِي، ولكنَّ اللهَ هو الذي يقدرُ عليه، فيُنْزلُهُ عليكم إنْ شاءَ، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ من إنزال العذاب بكم، عن أبي هُريرة ﷺ أنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ نُوحاً الطَّيْلا كَانَ إذا جَادَلَ قَوْمَهُ ضَرَبُوهُ، فَإذا أفَاقَ قَالَ: اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي؛ فَإنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ][(1)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: قال لَهم: لا ينفعُكم دُعائِي، وتحذيرِي إيَّاكم إنْ أردتُ أنْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: تفسير الآية (٤٠) عن عبيد بن عمير الليثي في الرقم (١٤٠٠٩).

أحذِّركم من عذاب الله إنْ كان اللهُ يريدُ أن يُضِلَّكم عن الْهُدَى مجازاةً بعملِكم، فإن إرادةَ اللهِ فوق إرادَتِي، ويكونُ ما يريدُ لا ما أريدُ.

فإن قِيْلَ: كيف يجوزُ أن تكون إرادةُ إبليس موافقةً لإرادةِ الله، وإرادةُ نوحٍ مخالفةً لإرادة الله؟ فالجواب: إنَّ اللهَ تعالى شاءَ لأُولئك القومِ الكفرَ، وشاءَ لنوحٍ أن يسألَهم الإيمانَ، وشاءَ لإبليس أن يسألَهم الكفرَ، فالكلُّ بمشيئةِ الله تعالى. ويقالُ: معنى قولهِ: (إنْ كَانَ الله يُرِيدُ أنْ يُغْوِيَكُمْ) إن كان اللهُ يريد أن يُهلِكَكم، وينحِّيَكم من رحمتهِ بكُفرِكم، كما قال: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾[1] أي هَلاكاً وعذاباً، والغَيُّ قد يكون بمعنى الْخَيْبَةِ، كما قال الشاعرُ:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لاَئِمَا[2]

أي ومَن يَخِبْ، يقالُ: غوَى الرجلُ يَغْوِي غَيّاً؛ إذا فسدَ عليه أمرهُ، أو فسدَ هو في نفسهِ، ومنه ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[3] أي فَسَدَ عليه عيشهُ في الجنَّة، وهذا يُؤَوَّلُ أيضاً إلى معنى الْخَيْبَةِ فيها فسادُ العيشِ.

وذكرَ الحسنُ في معنى الآية: (لاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي الْيَوْمَ إذا نَزَلَ بكُمُ الْعَذابُ، فَاسْتَدْرِكُوا أمْرَكُمْ قَبْلَ نُزُولِ الْعَذاب لِتَنْتَفِعُوا بنُصْحِي). قَوْلُهُ تَعَالَى: (هُوَ رَبُّكُمْ) أي مَالِكُكم يقدرُ على إنزالِ العذاب بكم، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي إليه مصيرُكم بعد الموتِ فيجزيَكم بأعمالكم.

وهذه الآيةُ مما يحتجُّ بها أنَّ الشرطَ إذا اعترضَ على الشرطِ مِن غير أن يتخلَّلَهما الجوابُ، كان الشرطُ الثاني مُقدَّماً على الأوَّل في المعنى، حتى لو قالَ قائلٌ: إنْ دخلتَ الدارَ، إنْ كلَّمتَ زيداً فعبدِي حرٌّ، لا يحنَثُ حتى يكلِّمَ ثم يدخلَ. فيكون تقديرُ الآية: ولا ينفعُكم نُصحِي إنْ كان اللهُ يريد أن يُغوِيَكُمْ إن أردتُ أن أنصَحَ لكم.

---

(١) مريم / ٥٩ .

(٢) ينظر: لسان العرب: ج ١٠ ص١٤٩: (غوي).

(٣) طه / ١٢١ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ قومَهُ يقولون: إنَّ نُوحاً قد تَقَوَّلَ على اللهِ الكذبَ، فأمَرَ اللهُ نوحاً أن يُجيبَهم بالقول اللَّيِّنِ بعدَ المبالغةِ في إقامة الحجَّة عليهم، فيقولُ لَهم: (إن افْتَرَيْتُهُ) أي تَقَوَّلْتُ الكذبَ على اللهِ فعليَّ عقوبةُ إجرَامِي، ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، وأنا بريءٌ من عُقوبَةِ جُرمِكم. ويقالُ: معنى الآيةِ: أم يقولُ أهلُ مكَّة إنَّ مُحَمَّداً ﷺ قد افترَى قصَّةَ نوحٍ (قُلْ إنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إجْرَامِي) والإجرامُ يستعمل في كَسْبِ الإثم خاصَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ أي وأوحَى اللهُ إلى نوحٍ: أنه لن يصَدِّقَ من قومِكَ سِوَى مَن صدَّقَ، ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ فلا تَغْتَمَّ بالْحُزْنِ عليهم، والابْتِئَاسُ: هو الغَمُّ على وجهِ الاستكانةِ للحُزنِ على الشَّأن. فقيل: إنما دعَا نــوحُ عليه السلام بقولـهِ: ﴿رَب لاَ تَـذرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[1] بعدَ هذا الوحيِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ ؛ أي اصْنَعِ السَّفينة بحفظِنا لكَ حفظَ الرَّاعِي لغيرِهِ لدفع الضَّرَر عنه، وذكرَ الأعيُنَ لتأكيدِ الحفظ. ويقالُ: معناهُ بأعيُن الملائكةِ الذين يُعرِّفونكَ كيف تُصنَعُ السفينةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَوَحْيِنَا) أي وبأمرنا إيَّاك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ؛ أي لاَ تُراجِعْني الكلامَ في نَجاةِ الذين ظلَمُوا أنفسهم بالكفرِ، ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ بالطُّوفَان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ أي لما أخذ نوحٌ في علاجِ السَّفينة. ويُروى أنه استأجرَ أجَراءَ ينحِتُون معه، وكلَّما مرَّ ملأٌ من قومهِ هَزِئُوا به لمعالجتِهِ السفينةَ؛ لأنَّهم كانوا يَرَونه يعملُ السفينةَ مع أنَّه لم يكن بقُربهِ ماءٌ، وكان من لَدُنْ آدم عليه السلام إلى نوحٍ يُسْقَوْنَ من ماءِ المطر، فلا بحرَ ولا نَهرَ جَارٍ، فكانوا يقُولون: انظروا إلى هذا الشَّيخِ الضالِّ يصنعُ هذه السفينةَ يخوِّفُنا بالغرقِ،

---

(١) نوح / ٢٦ .

ويجعلُ للماءِ أكَافاً[1] فأين الماءُ؟! وكانوا يقولون في كلامِهم: فَرَغْتَ مِن أمرِ النبُوَّة، وأخذتَ في أمرِ النِّجارةِ! وكانوا يَرَونَهُ ينجرُ الخشبَ، وهي شبهُ البيتِ العظيم، فإذا سألوهُ عن ذلكَ، قال أعملُ سفينةً تجري في الماءِ، ولم يكن هناكَ قبل ذلك سفينةٌ، فكانوا يتضاحَكون ويعجَبُون من عملِهِ.

و ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لَهم نوحٌ : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا ﴾ ؛ الآنَ، ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ ؛ عندَ نزول العذاب، ﴿ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أنتمُ الساعةَ؛ أي إن كُنتم تسخَرون منَّا لِمَا تَروْنَ من صَنْعَةِ الفُلْكِ، فإنَّا نعجبُ من غفلَتِكم عما أضَلَّكم، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ من أحقُّ بالسُّخريِّ مِنَّا ومنكم، وتعلمون، ﴿ مَن ﴾ ؛ الذي، ﴿ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ ؛ في الدُّنيا، ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ ، وينْزِلُ عليه، ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ دائمٌ في الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ اللهَ أوْحَى إلَيْهِ أنَّ مَوْعِدَكَ أنْ يَخْرُجَ الْمَاءُ مِنْ آخِرِ مَكَانٍ فِي دَاركَ وَهُوَ تَنُّورُ الْخَابزَةِ، تَنُّورُ آدَمَ عليه السلام كَانَ يَوْمَ حَجَّ نُوحٌ عليه السلام رَأى تَنُّورَ آدَمَ عليه السلام فَحَمَلَهُ مَعَهُ، وَوَهَبَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ).

ثُمَّ قَالَ لَهُ: إذا رَأيْتَ الْمَاءَ قَدْ فَاضَ مِنْهُ فَاحْمِلْ فِي السَّفِينَةِ مَا أمِرْتَ بهِ مِنْ أجْنَاس الْحَيْوَان، ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ ؛ و احمِلْ؛ ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ ؛ بالعذاب وهي امرأتُهُ الكافرة وابنهُ كنعان استثنَاهما اللهُ من جُملة أهلِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ ؛ أي احمِلْ مَن آمنَ معكَ أيضاً في السَّفينة، وقال ابنُ عبَّاس وعكرمة والزهريُّ: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَفَارَ التَّنُّورُ) أي انْبَجَسَ الْمَاءُ

---

(١) إكَافُ الحمار وَوِكَافُهُ، والجمع (أكُفٌ). وقد (آكَفَ) الحمار و(أوْكَفَهُ) أي شدَّ عليه الإكافَ. وفي تهذيب اللغة: ج ١٠ ص٢١٣؛ قال الأزهري: (رُويَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [خِيَارُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ أصْحَابُ الوَكَفِ] قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ أصْحَابُ الوَكَفِ؟ قَالَ: [قَوْمٌ تَكَفَّأُ عَلَيْهِمْ مَرَاكِبُهُمْ فِي الْبَحْرِ]). وقال: (يُقَالُ: فُلاَنٌ عَلَى وَكَفٍ مِنْ حَاجَتِهِ، إذَا كَانَ لاَ يَدْرِي عَلَى مَا هُوَ مِنْهَا... لأَنَّ التَّكَفِّي الْمَيْلُ).

عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ)[١]. وقال عليٌّ ﷺ: (وَفَارَ التَّنُّورُ؛ أيْ طَلَعَ الْفَجْرُ)[٢].

وقولهُ تعالى: (جَاءَ أَمْرُنَا) أي عذابُنا، وقولهُ تعالى: (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) أي احمِلْ في السفينةِ من كلِّ زوجين اثنين، الذكَرُ زوجٌ والأُنثى زوجٌ، وهو قولُ الحسنِ ومجاهد وقتادة؛ قالوا: (ذكَراً وَأنْثَى).

فلما فارَ الماءُ من التَّنور أرسلَ اللهُ السماءَ بمطرٍ شديد، فأقبلتِ الوحوشُ حين أصابَها مطرُ السماءِ إلى نوح وسُخِّرت، فحَمل في السفينةِ من كلِّ طيرٍ زَوجين، ومن كلِّ وحشٍ زوجين، وكلِّ دابَّة وبَهيمة زَوجين، ومن كلِّ سَبُعٍ زوجين، وحمَلَ من البقرِ والغنم خمسةَ أزواجٍ.

وبعثَ اللهُ جبريلَ فقطعَ فِقَارَ العقرب، وضربَ فمَ الحيَّة فحملَها في السَّفينة، وكانت السماءُ تُمْطِرُ، وكان هو عندَ قومهِ يحذِّرُهم حتى ابتلَّت أقدامُهم، وصارَ الماءُ إلى الكعبَين، ثم حذرَهم حتى صارَ الماءُ إلى نصفِ الساق، ثم حذرَهم حتى صارَ إلى الرُّكَب وإلى الْحِقْوَيْن، كلُّ ذلك يحذِّرُهم ويُنذِرهم، وكان يَنُوحُ ويَبكِي عليهم. وقال ابنُ عبَّاس: (سُمِّيَ نُوحاً؛ لأَنَّهُ كَانَ يَنُوحُ عَلَى الإسْلاَمِ حَيْثُ لَمْ يُقِرَّ بِهِ قَوْمُهُ).

فلمَّا بلغَ الماءُ الشَّدْوَةَ قالَ: غَرِقَ قَومِي، ثم قال لابنهِ كنعانُ: (يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا) فكثُرَ الماءُ حتى صار فوقَ الجبالِ خمسةَ عشر ذِراعاً بالذراع الأول، وكان للسفينةِ ثلاثةُ أبوابٍ بعضُها أسفل من بعضٍ، حملَ في الباب الأسفل السِّباع والهوامَّ، وفي الباب الأوسط الوحْشَ والبهائِمَ، وفي الباب الأعلَى بني آدمَ، وكانوا ثمانين إنساناً، أربعين رجُلاً وأربعين امرأةً، سِوَى التي غَرقَتْ، وثلاثةَ بنين: سَامٌ وحَامٌ وَيَافِثُ، ونساؤُهم وإثنان وسَبعُون إنساناً فيهم الْخَضِرُ وهو ابنُ بنتِ نوحٍ.

واختلَفُوا في مقدار السفينة، قال الحسنُ: (كَانَ طُولُهَا أَلْفاً وَمِائَتَي ذِرَاعٍ، وَعَرْضُهَا سِتُّمِائَةِ ذِرَاعٍ)[٣]، وقال ابنُ عبَّاس: (كَانَ طُولُهَا ثَلاَثَمِائَةِ ذِرَاعٍ وَعَرْضُهَا خَمْسِينَ ذِرَاعاً، وَارْتِفَاعُهَا ثَلاَثِينَ) وهو قولُ قتادةَ قال: (وَكَانَ لَهَا بَابَانِ فِي عَرْضِهَا).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠١٤) عن ابن عباس، والأثر (١٤٠١٦) عن عكرمة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠١٧) بأسانيد.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٠٧).

وقولهُ تعالى: (وَأهْلَكَ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) أي واحمِلْ أهلَكَ، يعني ولدَهُ وعياله، (إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) يعني امرأتَهُ وأهله وابنهُ كنعان، و(مَنْ آمَنَ) يعني واحمِلْ مَن آمنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي إلا نفرٌ قليل، قِيلَ: ثمانون إنساناً، وَقِيْلَ: ثلاثةُ بنين وثلاثُ كَنَائِن، الكَنَائِنُ: زوجاتُ البَنِين، وقال ابنُ جريج: (كَانُوا ثَمَانِيَةَ أنْفُسٍ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ ﴾ ؛ أي قال لَهم نوحُ: اركبُوا في السفينةِ، وقولهُ (بسْمِ اللهِ) يجوزُ أن يكون متَّصلاً بقولهِ (ارْكَبُوا) أي ارْكَبُوا بسمِ الله، ويجوزُ أن يكون متَّصلاً بقوله (مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا) أي بسمِ الله إجراؤُها وإرسَاؤُها.

وقال الضحَّاك: (كَانُوا إذا أرَادُوا أنْ تَجْرِيَ السَّفِينَةُ قَالُوا: بسْمِ اللهِ، فَجَرَتْ، وإذا أرَادُوا أنْ يُرْسُوهَا قَالُوا: بسْمِ اللهِ، فَرَسَتْ)، ومَن قرأها (مَجْرَاهَا) بنصب الميم فهو عبارةٌ عن الموضعِ الذي تُجْرِي فيه، ولَم يقرأ أحدٌ (مُرْسَاهَا) الا بضَمِّ الميم، ومَن قرأ (مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا) فهو نعتُ (اللهِ)، والمعنى بسمِ الله الْمُجْرِي لها حيث يشاءُ، ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ ؛ يعني: السفينة تجري بهم في موج كالجبال العظيمةِ، ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ ؛ كنعان وكان كافراً، ﴿ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ ؛ عنهُ ولَمْ يركب معه، وَقِيْلَ: معناهُ: وكان في معزلٍ من دين أبيه: ﴿ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾ ؛ في السَّفينة بشرطِ الإيمان، ولذلكَ قال: ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي على دِينهم فتغرقَ معهم، وقال الحسنُ: (إنَّمَا دَعَاهُ إلَى رُكُوب السَّفِينَةِ؛ لأَنَّ ابْنَهُ كَانَ يُظْهِرُ لَهُ الإيْمَانَ نِفَاقاً، وَكَانَ يَحْسَبُهُ مُؤْمِناً).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٣٤).

واختلفَتِ القراءةُ في قولِه (يَا بُنَيِّ ارْكَب مَعَنَا): قرأ بعضُهم بكسرِ الياء على الإضافة وهو الأجودُ؛ لأن الأصلَ يا بني ثلاثُ ياءَاتٍ، ياءُ التصغيرِ وياءُ الفعلِ[1] وياءُ الإضافة، فحُذفت ياءُ الإضافة، وتُركت الكسرةُ دليلاً على الإضافة، وأدغِمَت إحدى اليائين في الأخرى[2]. وقرأ بعضُهم (يَا بُنَيَّ) بفتحِ الياء على أن أصلَها: يا بُنَيَّا بالألف، كما تقولُ العرب: يا غُلاَمَا أقْبِلْ، تريدُ يا غُلامِيَ أقْبِلْ، فتُبدَلُ الألفُ من ياءِ الإضافة على وجهِ النُّدْبَةِ والتَّفْجِيعِ، وكان الأصلُ يا بُنَيَّا ثم حُذفت الألف لسكونِها وسكونِ الراء من قولِهِ (ارْكَبْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ﴾ ؛ أي قال ابنُ نوحٍ: سأذهبُ وأرجع إلى مأوًى من الجبلِ حَريزٍ يَمنعُنِي من آفاتِ الماء، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ له نوحُ عليه السلام: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ ﴾ ؛ بالنجاةِ، وتقديرُ الكلامِ: لا عاصمَ اليومَ من عذاب الله إلا اللهُ تعالى، وقال بعضُهم: لا عاصمَ اليومَ من عذاب الله إلا مَنْ رَحِمَهُ اللهُ، وهو نوح عليه السلام فإنَّه قد جعلَ اللهُ إليه إركابَ المؤمنين في السفينةِ، وَقِيْلَ: معناهُ: لا معصومَ اليوم إلا من رَحِمَهُ اللهُ، كما قال الحطيئة:

دَعِ الْمَكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

الْمَطْعُومُ[3] الْمَكْسُوُّ، ومنه يقالُ: سِرٌّ كَاتِمٌ أي مكتومٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ ﴾ ؛ أي بين كنعانَ ونوحٍ، وَقِيْلَ: بين كنعان والجبلِ، ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

---

(١) في المخطوط: (ولام الفعل) وهو تحريف من الناسخ، والصحيح: (ياء الفعل).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص٣٩؛ قال القرطبي: (وأصل (يا بني) أن تكون بثلاث ياءات: ياء التصغير، وياء الفعل، وياء الإضافة، فأدغمت ياء التصغير في لامِ الفعل، وكسرت لامُ الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين، أو لسكونها وسكون الراء في هذا الموضع، وهذا أصل قراءة من كسر الياء، وهذا أيضاً أصل قراءة من فتح؛ لأنه قلب ياء الاضافة ألفاً لخفة الألف، ثم حذف الألف لكونها عوضاً من حرف يحذف، أو لسكونها وسكون الراء).

(٣) في المخطوط: (الْمُطعِمُ) والمناسب كما أثبتناه.

قولهُ: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ ؛ أي قِيْلَ بعدَ ما تناهى أمرُ الطُّوفان، وذلك لِمَا روى ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أنَّ السَّمَاءَ مَطَرَتْ أرْبَعِينَ يَوْماً اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَخَرَجَ مَاءُ الأَرْضِ أرْبَعِينَ يَوْماً اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَسَارَتْ بهِمُ السَّفِينَةُ فَطَافَتْ بهِمُ الأَرْضَ كُلَّهَا فِي خَمْسَةِ أشْهُرٍ لاَ تَسْتَقِرُّ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى أتَتِ الْحَرَمَ فَلَمْ تَدْخُلْهُ، وَطَافَتْ بالْحَرَمِ أسْبُوعاً، وَرُفِعَ الْبَيْتُ الَّذِي بَنَاهُ آدَمُ إلَى السَّمَاءِ، وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، جُعِلَ الْحَجَرُ الأَسْوَدُ عَلَى أبي قُبَيْسٍ، وأوْدِعَ فِيْهِ، ثُمَّ ذهَبَتْ بهِمُ السَّفِينَةُ فِي الأَرْضِ حَتَّى انْتَهَتْ بهِمْ إلَى الْجُودِيِّ وَهُوَ جَبَلٌ بأرْضِ الْمَوْصِلِ، فَاسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ بَعْدَ خَمْسَةِ أشْهُرٍ). ويقالُ: رَكِبَ نوحُ في السفينةِ لعشرٍ مضَين من رجب، وخرجَ منها يومَ عاشوراء، فذلك خمسةُ أشهر.

فلما استقرَّت السفينةُ على الْجُودِيِّ كشفَ نوح الطبقَ الذي فيه الطيرُ، فبعثَ الغرابَ ليأتيه بالخبرِ فأبصرَ جيفةً، فوقعَ عليها وأبطأ على نوحٍ ولم يأتِه، فأرسلَ الْحَدْأةَ على إثرِهِ فأبطأت عليه ولم تأته، فدعَا على الغراب أن يكون طويلَ العمر في مخافةٍ وشَقاء. ثم أرسلَ الحمامة بعد الحدأة بسبعٍ فلم تجِدْ مَوقِعاً فرجعت، فبسطَ لها نوحُ ﷺ كفَّهُ فوقعت عليهِ، ثم مكثَ نوح ما شاءَ الله، ثم أرسلَها مرَّة أخرى فجاءت بعدَ ذلك فوقعت على الأرضِ وغابَت رجلاَها في الطِّين، فعرفَ نوحٌ أن الأرضَ قد ظَهرت، فدعَا بها فقالَ: كونِي آنَسَ طيرٍ وأنعمَهُ وأكيَسَهُ.

وقوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ) أي انْشِفِي الماءَ الذي خرجَ منكِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيَا سَمَاءُ أقْلِعِي) أي كُفِّي عن الصَّب، يقال: أقلعَتِ السماءُ إذا استمسكَ المطرُ حتى لم يبقَ له أثرٌ، وأقلعَتِ الْحُمَّى عن فلانٍ إذا تركتْهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾ ؛ أي ونَشِفَ الأرض ماؤُها، ويقال غاضَ الماءُ يَغِيضُ إذا غارَ في الأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ ؛ أي وقعَ هلاكُ الكفار على التَّمامِ، هَلَكَ مَن هلكَ، ونَجا مَن نَجَا. قال ابنُ عبَّاس: (نَشَّفَتِ الأَرْضُ مَاءَهَا الَّذِي خَرَجَ مِنْهَا، وَذَهَبَ مَاءُ السَّمَاءِ إلَى الْبُحُورِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ (يَا أرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ)).

قولهُ: ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ ؛ أي استوَتِ السفينةُ على الجوديِّ شَهراً، وهو جبلُ بالجزيرةِ، ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون معناه: قَالَ اللهُ تَعَالَى: (بُعْداً) أي سخطٌ من رحمة الله للقوم الكافرين، ويجوز أن يكون هذا مِن قول أهلِ السفينة حين نَجَوا من الغرق، وخرَجُوا من السفينةِ، قالوا: (بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أي أبعَدَهم اللهُ من رحمتهِ في الآخرة أيضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ ؛ أي قَومِي، ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ ﴾ ؛ بنجاةِ قومي، ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ الصِّدقُ لا شكٌّ فيه، ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ في قولِكَ وفعلِكَ، وكان دعاءُ نوحٍ عليه السلام بهذا الدُّعاء حين حَالَ الموجُ بينَهُ وبين ابنهِ كنعان. ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ ؛ معناهُ: قال اللهُ: يا نوحُ إنَّهُ ليس من أهلِكَ الذين وعدتُكَ أن أنْجِيَهُمْ، إنما أهلُكَ دِينُكَ، وإنَّ ابنَكَ كافرٌ ليس على دينِكَ، فانقطعَتِ العصمةُ بينَكَ وبينه بكُفرِهِ وإيمانِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) أي إنَّ سؤَالَكَ إيَّايَ أنْ أنْجِي كافراً عَمَلٌ غيرُ صالحٍ، قرأ الكسائيُّ ويعقوب (عَمِلَ) بكسرِ الميم وفتح اللام (غَيْرَ) منصوب؛ أي إنه عَمِلَ بالشِّركِ والتكذيب، وقرأ الباقون بالرَّفعِ والتنوينِ (غَيْرُ) بالرفع؛ أي إنه ذُو عَمَلٍ غير صالح. وَقِيْلَ: إنَّ سُؤَالَكَ إيَّاي نجاةَ ولدِكَ الذي ليس من أهلِكَ سؤالٌ غيرُ مُرْضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ؛ قرأ ابنُ كثير بتشديد النُّون وفتحِها، وقرأ أهلُ المدينة والشام بتشديد النونِ وكسرِها، والمعنى واحدٌ؛ أي لا تسألْنِي ما ليسَ لك به علمٌ أنه صوابٌ وأنا أفصِلهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي إنِّي أعِظُكَ أن تسألَني سؤالَ الجاهلِ، ولكن سَلْنِي سؤالَ العالِم بي. والوَعْظُ في اللغة: هو الزَّجْرُ عن القبيحِ، وكان نداءُ نوح (رَب إنَّ ابْنِي مِنْ أهْلِي) نداءَ تعظيمِ لله تعالى على ظنٍّ أنَّ ابنَهُ من أهلِ دينه. وقولهُ تعالى (إنَّهُ لَيْسَ مِنْ أهْلِكَ) نداءُ تنبيهٍ على أنه ليسَ مِن أهلِ دينه، ولا من أهلِ أن يلطفَ به.

واختلَفُوا في هذا الابنِ، فقالوا: إنه لَمْ يكن ابنَ نوحٍ لقوله تعالى: (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) أي مِن ولدِكَ وهو قولُ مجاهد والحسنِ، والمعنى على قولِهما إنهُ وُلِدَ لغيرِ رُشدهِ.

قال قتادةُ: (وسُئِلَ الْحسَنُ عَنْهُ فَقَالَ: (وَاللهِ مَا كَانَ ابْنَهُ)، وَقَرَأَ ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[(١)]! فَقُلْتُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَكَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ ابْنِي) وَقَالَ: (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ) وَأَنْتَ تَقُولُ: لَمْ يَكُن ابْنَهُ! وَإِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ لاَ يَخْتَلِفُونَ فِي أَنَّهُ كَانَ ابْنَهُ، فَقَالَ الْحَسَنُ: (وَمَنْ يَأْخُذُ دِينَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب ؟! إِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ)[(٢)]. وقال ابنُ جريج: (وَنَادَاهُ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ ابْنُهُ، وَكَانَ وُلِدَ على فِرَاشِهِ)[(٣)]. وقال بعضُهم: إنما كان ابنَ امرأتهِ، واستدَلُّوا بقولهِ (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) ولَم يقُل إن ابني منِّي، وهو قولُ أبي جعفر الباقر.

وقال أكثرُ المفسِّرين: إنه كان ولدَهُ مِن صُلبهِ، وقولهُ تعالى: (لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) أي الذي وعدتُكَ أن أُنْجِيَهُمْ، قالُوا: ومَا بَغَتِ امرأةُ نَبِيٍّ قط، وإنَّما خيانتُهما في الدِّين لا في الفراشِ، ولأنَّ الله تعالى يعصِمُ أنبياءَهُ صلواتُ اللهُ عَلَيْهِمْ أن يقعَ مِن نسائهم ما يُلحِقُ بهم عَيْباً في الدُّنيا، وإنْ كان قد يقعُ منهنَّ ما يكون عَيْباً في أمرِ الآخرة، وفي الحديثِ: [مَا بَغَتِ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ، وَكَانَتْ خِيَانَتُهَا لَهُ أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ لِلنَّاسِ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ وَكَانَتْ تَدُلُّ عَلَى الأَضْيَافِ] وهذا قولُ ابنِ عبَّاس وعكرمةُ وسعيد بن جبيرٍ والضحَّاك[(٤)].

وقال أبو معاوية البجلي: (قَالَ رَجُلٌ لِسَعِيدِ بْن جُبَيْرٍ: قَوْلُهُ (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) هَلْ كَانَ ابْنَ نُوحٍ؟ فَسَبَّحَ اللهَ طَوِيلاً، قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، يُحَدِّثُ اللهُ مُحَمَّداً نَبِيَّهُ وَيَقُولُ إِنَّهُ ابْنُهُ وَتَقُولُ أَنْتَ لَيْسَ ابْنَهُ ! كَانَ ابْنَهُ وَلَكِنْ كَانَ مُخَالِفاً فِي النِّيَّةِ وَالْعَمَلِ

---

(١) التحريم / ١٠ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٦٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٦٤) بأسانيد عديدة.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٧٠) عن ابن عباس، والأثر (١٤٠٧١) عن سعيد ابن جبير مختصراً.

وَالدِّينِ، فَمَنْ ثَمَّ قَالَ: (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ))[1]. وهذا القولُ أولَى بـالصواب، وأليـقُ بظاهرِ الكتاب.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ ﴾ ؛ أي قال نوح: إني أمتنعُ بك أن أسالكَ ما ليس لي به علمٌ أنه صـوابٌ، ﴿ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي ﴾ خَطِيئَتِي هذهِ وهي هذا السؤالُ، ﴿ وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧ ﴾ بالوِزْر والعقوبةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ ﴾ ؛ أي قالَ اللهُ لنوحٍ: فاهبطْ من السَّـفينة إلى الأرضِ بـأَمْنٍ وسـلامةٍ مـن الآفاتِ، (وَبَرَكَاتٍ) أي وخيَراتٍ ثابتة عليك وعلى الذين معـك مِـن المؤمنـين. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨ ﴾ ؛ أي وأمَـمٌ سنمتِّعُهم عليهم بعدَكَ في الدُّنيا ثم يَمسُّهم في الآخرةِ منَّا عذابٌ أليم، وهم الكـافرون وأهلُ الشَّقاوةِ.

فهبطَ نوحُ ومَن معه من الجوديِّ، ولم يكن لواحدٍ منهم نَسْلٌ إلا لنوحٍ وأولادِهِ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ)[2]، وعن محمَّد بن كعبٍ قـال: (دَخَـلَ فِي السَّلاَمِ وَالْبَرَكَةِ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَدَخَلَ فِـي الإمْتَـاعِ وَالْعَـذاب كُلُّ كَافِرٍ وَكَافِرَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[3]. وفي الآيةِ دلالةٌ على ذلك؛ لأن لفظَ الأُمَمِ يـدلُّ على الجماعاتِ الكثيرة، ولم يكن مع نوحٍ في السفينة إلا قليلٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ ﴾ ؛ أي تلـك القصَّـةُ التي ذكرتُها لكَ يا مُحمَّدُ قصةُ نوحٍ من الأمور الغائبة عنـكَ، ﴿ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ ﴾ ، القرآنِ وهذا مِنَّةٌ مـن اللهِ تعـالى، ﴿ فَٱصۡبِرۡۖ ﴾ ؛ علـى أذى الكفَّار، كما صبرَ نوحُ على أذاهم، واصبر على القيامِ بأمرِ الله وتبليـغِ الرِّسـالةِ، ومـا تلقَـى مـن أذى قومِـكَ كمـا صـبرَ نـوحُ علـى أذى قومـهِ، ﴿ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٧٣).

(٢) الصافات / ٧٧ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٠٨٩).

لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ أي آخرَ الأمرِ بالسَّعادة والظَّفر والنصرِ للمتقين، كما كانت لنوحٍ ومَن آمَنَ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾؛ أي وأرسَلنا إلى عادٍ أخاهم هُوداً في النَّسب، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ أي وَحِّدُوهُ دونَ الأصنامِ فإنَّها ليست بآلِهَةٍ، وما أنتُم إلا كاذبون في قولِكم إنَّها آلهةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي لاَ أسألُكم على ما أؤَدِّي إليكم من الرِّسالة مَالاً فتتَّهمُوني أنِّي أبتغِي بذلك كسبَ مالٍ أو تخشَون أن ألزمَكم غَرَماً في مالِكم، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾؛ أي ما ثوابي إلا على الذي خلقَني، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾؛ أن الأمرَ على ما أقولُه. وأصلُ الفَطْرِ الشَّقُّ، وسمي الخلقُ فَطراً لأنه يظهرُ به المخلوق كما يظهرُ الشيء بالشَّقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾؛ أي استغفِرُوا ربَّكم من الكفرِ والذنوب ثم ارجعُوا إليه بالنَّدم والعزمِ على تركِ العَوْدِ في الذُّنوب، ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم﴾؛ بالمطرِ، ﴿مِّدْرَارًا﴾؛ دائماً مُتواتراً، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾؛ في أبدانِكم وأموالكم، ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾؛ التي لكم، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾؛ عمَّا أدعُوكم إليه مُذنِبين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾؛ أي حُجَّةٍ، وقد جاءَهم بمعجزةٍ إلا أنَّهم لم يعتقِدُوها حجَّةً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾؛ أي قالُوا: ما نحنُ بتاركِي عبادةِ آلهتنا بقولِكَ، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ أي بمصدِّقين فيما تقولُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾؛ أي قالُوا ما نقولُ فيكَ إلا أنه أصابَكَ بعضُ آلهتنا بجُنونٍ فَخَبَلَ عقلُكَ لسَبكَ إيَّاها، وكان القومُ يعلمون وكلُّ أحدٍ أنَّ الذي يعقلُ ويُميِّزُ لو أرادَ أن يصيبَ غيره بجُنونٍ لم يقدِرْ على ذلكَ، فكيف تقدرُ الأصنامُ التي لا عقلَ لها ولا تمييزَ ؟! والاعْتِرَاءُ افْتِعَالٌ من عَرَاهُ يَعْرُوهُ إذا مَسَّهُ وأصَابَهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ﴾ ؛ أي قالَ هودُ: إنِّي أُشهدُ اللهَ على نفسِي، واشهَدُوا أنتم أيضاً أنِّي بريءٌ مما تُشركون مع اللهِ في العبادة، ولم يكن إشهادهُ إيَّاهم للاحتجاجِ بقولِهم، وإنما هو للاحتجاجِ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي إنْ قدِرتُم على قَتلِي أنتم وآلهتُكم، أو على إنزالِ السُّوء، فافعَلُوا ولا تُمهلوني طَرفَةَ عَينٍ، ولم يقُل هذا على جهةِ الأمرِ لهم، وإنما قال لبيانِ عَجزِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمۚ ﴾ ؛ أي فوَّضتُ أمري إلى خالِقِي وخالِقُكم متمسِّكاً بطاعتهِ وتاركاً لمعصيتهِ، وهذا هو حقيقةُ التوكُّل على اللهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾ ؛ أي ما مِن أحدٍ إلا وهو في قَهْرِ اللهِ وتحت قُدرَتِه، وإنما جعلَ الأخذ بالناصيةِ كنايةً عن ذلك؛ لأنَّكَ إذا أخذتَ بناصيةِ غيركَ فقد قَهَرْتَهُ وأذلَلْتَهُ، والنَّاصِيَةُ مَقْدَمُ شَعْرِ الرأسِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي هو في تدبيرِ عباده لا يفعلُ إلا الحقَّ، فإنه عادلٌ لا يَجُورُ، ويقالُ: إن معناهُ: أن طريقَ العبادةِ على الله كما قال تعالى ﴿إنَّ رَبَّكَ لَبالْمِرْصَادِ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ ﴾ ؛ أي فإنْ تولَّوا عن الإيمان فما هو تقصيرٌ مني في إبلاغِ الرسالة، ولكن لسُوءِ اختيارِكم، ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ ؛ أطوعَ له منكم؛ أي يهلِكُكم بعذاب استئصال، قد يستخلِفُ بهلاكِكُم قوماً غيرَكم أطوعَ له منكم، ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ ﴾ ؛ أي لا تَقدِرُون على أن تُنقِصُوا شيئاً من مُلكهِ وهو سبحانهُ لا يجوزُ عليه المضَارُّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي هو شاهدٌ على أعمالِ العباد للمجازاةِ، لا يخفَى عليه شيءٌ منها.

---

(١) الفجر / ١٤ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ ؛ أي لمـا جاءَ أمْرُنا بعقاب قوم هُودٍ بالرِّيحِ العَقِيم، نَجَّينَا هُوداً والمؤمنين به من ذلكَ العقـاب، ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ يُحتمل أن يكـون المـرادُ: أنْ نَجَّاهُمْ مِن الريحِ العقيم، إلا أنه أعادَ ذِكْرَ النجاةِ للتأكيدِ وتفخيم الحـال. ويحتمـلُ أن يكون معناهُ: كما نَجَّينَا المؤمنين مِمَّا عُذِّبَ بـه عـادٌ في الدُّنيـا، فكذلـك نَجَّينَـاهم مـن عذاب الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ ﴾ ؛ أي كذبوا بدلائلِ اللهِ الدالَّة على وَحْدَانِيَّتِهِ وصِدْقِ أنبيائهِ، وعَصَوا هُوداً ومَن قبلَهُ ومَـن بعـدَهُ؛ لأنه الْعَلِيْهُ أرْسِلَ بتصديق مَن قبله وبالبشارةِ لمن بعده، فلما كذبوهُ فقد كذبوا الرُّسُـلَ كلَّهم. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي أمـرَ كـلِّ طَـاغٍ عَاتٍ مُعرضٍ عن اللهِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ ؛ أي أتبعُوا بعدَ الهلاكِ في هذه الدُّنيا بالإبعادِ عليهم باللَّعْنِ، فلَعَنَتْهُمُ الملائكةُ والناس ما دامَتِ الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي ويومَ القيامةِ يُبعَدُونَ من رَحمـةِ الله كمـا أبعدوا في الدُّنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ ؛ أي جَحَـدوا، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي أبعدَهم الله مـن رحمتـهِ إبعـاداً. وفي هـذا تـهْدِيدٌ للكفار، كأنَّهُ تعالى قالَ: انظُروا يا أهـلَ مكَّـة كيـف فعلَـتْ عـادٌ وكيـف فُعِـلَ بـهم، فاحذرُوا أنْ يُصيبَكم مثلَ ما أصابَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ ؛ في النَّسَـب، ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي أنشأَ آباءَكم كما قـالَ في آيةٍ أخرى ﴿خَلَقَكُمْ مِـنْ تُـرَابٍ﴾[1]، ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ ؛ أي المرادُ أن تكونـوا عُمَّارَ الأرضِ وسُكَّانَها، فمكَّنَكم مـن عِمارَتِـها وأحوجَكـم إلى المسكن فيـها. وقـال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: أعْمَرَهَا لَكُمْ مُدَّةَ أعْمَارِكُمْ)[2] مِنَ الْعُمْـرَى، وَهِـيَ الْهِبَـةُ الَّتِي يَهَبُـهَا الرَّجُلُ لِغَيْرِهِ عَلَى أنْ تَكُونَ لِلْمَوْهُوب لَهُ مُدَّةَ حَيَاتِهِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلَى الْوَاهِبِ.

---

(١) الروم / ٢٠، وغيرها.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤١١١) بمعناه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ؛ أي استغفروهُ من الشِّرك والذنوب، ثم دُومُوا على التوبةِ، ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ ؛ ممن تقرَّبَ إليه، ﴿مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ ؛ لِمَن دعاهُ وأطاعَهُ. وأراد بالقُرب الإسراعَ بالرَّحمة والإجابَةِ؛ لا قُرب المسافةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ﴾ ؛ أي قد كُنَّا نَرجُو فيكَ الخيرَ قبلَ هذا اليوم لِمَا كان فيكَ من الخلائق الحسَنة والشمائلِ المرْضِيَّة، والآنَ قد دعوتَنا إلى غيرِ دين آبائِنا قد يَئِسنَا منكَ، ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ؛ الألفُ ألِفُ استفهامٍ بمعنى الإنكار. وقولهُ تعالى ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ ؛ أي لو أجبنَاكَ إلى ما تدعُونا إليه لأجبنَاكَ على شَكٍّ ظاهرٍ، فإنَّا لا نعلمُ صِدقَكَ فيما تقولُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ ؛ أخبِرُوني، ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ ؛ برهانٍ وحجَّة، ﴿مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ ؛ نعمةً وهي النبوَّةُ، ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ ، فمَن يمنعُ عذابَ الله عنِّي إنْ عصيتهُ مع نعمتهِ عليَّ، ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ ؛ إنْ عصيتُ اللهَ في اتِّباع دينِكُم إلا خُسران الدُّنيا والآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ ؛ أي دلالةً ومُعجِزةً على صِدْقِ قَولِي حيث أخرجتُها لكم بإذن الله ناقةً عَشراءَ من صخرةٍ ملسَاءَ كما سألتُم، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ ؛ وقد تقدمَ ذلك في سورةِ الأعراف.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ ؛ أي لما جاءَ أمرُنا بالعذاب نَجَّينا صَالحاً من ذلك، ونَجَّينا الذينَ آمَنُوا معهُ بنعمةٍ منَّا، ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ ، الْخِزْيُ: هو الذل الذي يُستَحَى منهُ، وهو ما نَزَلَ بهم في كلِّ يومٍ من عَلامَةِ الأشقياءِ من اصْفِرَار وجُوهِهم في اليومِ الأوَّل، واحْمِرَارها في اليومِ الثاني، واسوِدَادِها في اليومِ الثالث، وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ

هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ؛ أي هو القادرُ على أخذِ أعدائه، العزيزُ المنتَقِم مِمَّن عصاهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ ؛ معناهُ: الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكفرِ، وَقِيْلَ: الذين ظلَمُوا الناقةَ. والصَّيحَةُ: جِبريلُ عليه السلام صَاحَ بهم صيحةً هائلةً عند صباحِ اليوم الرابعِ، لَم تحتَمِلها قلوبُهم فهلَكُوا.

وإنَّما قالَ في هذهِ الآية: (وَأَخَذَ)، وفي آيةٍ أخرى: (وَأَخَذَتْ)؛ لأنَّ الصيحةَ والصِّياحَ واحدٌ، فردَّ الكنايةَ مرَّة إلى الصِّياحِ ومرَّة إلى الصَّيحَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي مَيِّتِينَ قد هَمَدُوا رَمَاداً جُثُوماً على الرُّكَب. ويقال: أصبَحُوا في بلادِهم جَاثِمين على وجُوهِهم على الطَّرفِ. وقولهُ تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ ؛ أي كأنْ لم يكونُوا في الأرضِ قَطُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ ؛ أي بربِّهم، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي أبعَدَهم اللهُ من رحمتِهِ. وقرئ (لِثَمُودٍ) بالكسرِ لقُربها من قولهِ (ألاَ إنَّ ثَمُودَ)، فمَن صرفَهُ جعله اسماً، ومَن لم يصرِفْهُ جعله اسماً للقبيلةِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ جِبرِيلَ وَمَنْ مَعَهُ اثْنَي عَشَرَ مَلَكاً جَاؤُا إلَى إبْرَاهِيمَ لِيُبَشِّرُوهُ بإسْحَقَ مِنْ زَوْجَتِهِ سَارَةَ).

فلما دخلُوا عليه، ﴿ قَالُواْ سَلَامًا ﴾ ؛ أي سلَّمُوا عليه سَلاماً، وَقِيْلَ: قالوا: نُسَلِّمُ سَلاماً، وهو نَصْبٌ على المصدر، وقولهُ: ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ ؛ أي أجابَهم إبراهيمُ بأن قالَ: عليكم سَلامٌ. وإنما لم يقل عليكُم سَلاماً بالنصب؛ لأنه لو كان كذلكَ لكان يُتوَهَّمُ أن إبراهيمَ عليه السلام حكَى قولَ الملائكةِ أنَّكُم سلَّمْتُم سلاماً، فخالَفَ بينهما ليكون قولهُ جَواباً لَهم. ومَن قرأ بكسرِ السِّين، فالسِّلْمُ والسَّلامُ بمعنى واحدٍ، كحَلٍّ وحَرَمٍ مثل حلالٍ وحرام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾؛ أي ما لَبث إبراهيمُ أن جاءَ بعِجْلٍ مَحْنُوذٍ؛ أي مَشْويٍّ، قال ابنُ عبَّاس: (الْحَنِيذُ: النَّضِيجُ)[1] وهو قولُ مجاهد وقتادة[2]، والْحِنذُ: إشْوَاءُ اللَّحم بالحجارةِ الْمُحَمَّاةِ في شَوْءٍ مِن الأرضِ، وهو مِن فِعْلِ الباديةِ، وقال مقاتلُ: (إنَّمَا جَاءَهُمْ بعِجْلٍ لأنَّهُ كَانَ أكْثَرُ مَالِهِ الْبَقَرَ)[3].

وقال الحسنُ: (إنَّمَا جَاءَهُمْ بالطَّعَام لأَنَّهُمْ جَاؤُهُ عَلَى صُورَةِ الآدَمِيِّينَ، عَلَى هَيْأَةِ الأَضْيَافِ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أحَبَّ إلَيْهِ مِنَ الضِّيفَان، وَلَوْ جَاؤُهُ عَلَى صُورَةِ الْمَلاَئِكَةِ لَمْ يَكُنْ يُقَدِّمُ إلَيْهِمْ ذلِكَ لِعِلْمِهِ باسْتِغْنَاءِ الْمَلاَئِكَةِ عَنِ الطَّعَامِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾؛ أي لَمَّا وضعَ الطعامَ بين أيديهم، فرآهُم لا يَمُدُّونَ إليه أيديَهم أنْكرَهم، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ﴾؛ أضمرَ في نفسهِ، ﴿خِيفَةً﴾؛ خَوْفاً منهم، وكان أهلُ ذلك الزمان إذا لم يأكُلْ بعضُهم من طعام بعضٍ خَافُوا من غَائِلَتِه. فلما عَلِمتِ الملائكةُ خوفَهُ منهم، ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾؛ منَّا يا إبراهيمُ، ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾، أي إنَّ اللهَ أرسَلنا، ﴿إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾؛ لنُهلِكَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾؛ معناهُ: وامرأتهُ سَارَةُ كانت قائمةً معه على رؤُوسِهم بالخدمةِ، ويقالُ: كانت قائمةً من وراءِ السِّترِ في حالِ محاورة إبراهيمَ مع الملائكةِ، ويقال: إنَّ سارةَ بنتُ عمِّ إبراهيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَضَحِكَتْ) أي ضَحِكَتْ من سُرورها بالسَّلام، فزَادُوها بشَارةً بإسحقَ ، وقال السديُّ: (إنَّ إبْرَاهِيمَ قَالَ لَهُمْ: ألاَ تَأْكُلُونَ؟! قَالُوا: إنَّا قَوْمٌ لاَ نَأْكُلُ إلاَّ بالثَّمَنِ، قَالَ: كُلُوا وَأدُّوا ثَمَنَهُ، قَالُوا: وَمَا ثَمَنُهُ؟ قَالَ: أنْ تَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أوَّلِهِ وَتَحْمَدُوهُ فِي آخِرِهِ. فَنَظَرَ جِبْرِيلُ إلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ وَقَالَ: حَقٌّ لِهَذَا أنْ يَتَّخِذَهُ اللهُ خَلِيلاً، فَضَحِكَتِ امْرَأتُهُ وَقَالَتْ: عَجَباً لأَضْيَافِنَا نَخْدِمُهُمْ بأَنْفُسِنَا تَكْرِمَةً لَهُمْ وَهُمْ لاَ يَأْكُلُونَ طَعَامَنَا!)[4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤١٢٤).
(٢) جامع البيان: الأثر (١٤١٢٥) عن مجاهد، والأثر (١٤١٢٦) عن قتادة.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٢ ص١٢٥.
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤١٣٧ و١٤١٤٨).

وقال قتادةُ: (ضَحِكَتْ لِغَفْلَـةِ قَـوْمِ لُـوطٍ، وَقُـرْبِ الْعَـذَابِ مِنْـهُمْ)[١]. وَقِيْـلَ: ضَحِكَتْ سُروراً بالأَمْنِ منهم لَمَّـا قـالوا: لاَ تَخَـفْ، وقـال عكرمـةُ: (ضَحِكَـتْ أيْ حَاضَتْ)[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾؛ قرأ ابنُ عامر وحمـزة ويعقـوب بـالنصب علـى معنـى: وَوَهَبْنَـا لهـا مـن وراءِ اسـحقَ يعقوبَ، وَقِيْلَ: بنَزعِ الخافضِ؛ أي وبشَّرناها من وراءِ اسحقَ بيعقوب، فلمـا حُذفـت الباء نُصِبَ.

وقال الزجَّاج: (لاَ يَجُوزُ أنْ يَكُونَ ذلِكَ فِي مَوْضِعِ الْخَفْضِ عَلَى ذلِكَ؛ لأَنَّهُ لاَ يَجُوزُ الْفَصْلُ بَيْنَ الْجَارِّ وَالْمَجْرُور وَبَيْنَهُمَا وَاوُ الْعَطْفِ إلاَّ بإعَادَةِ حَرْفِ الْجَرِّ؛ لأَنَّـهُ لاَ يَجُوزُ أنْ يُقَالَ: مَرَرْتُ بزَيْدٍ فِي الدَّار وَالْبَيْتِ وَعَمْرٍو، حَتَّى يَقُولَ: وَبعَمرٍ)[٣].

وقولهُ (فَبَشَّرْنَاهَا بإسْحَقَ) قال المفسِّرون: كان إبراهيمُ قد وُلِـدَ لـه مـن هَـاجَرَ وكَبرَ وشَبَّ، فتمَنَّت سارةُ أن يكون لها ابنٌ وآيَسَتْ من ذلك لكبَرِ سِنِّها، فبُشِّرت على كِبَرِ السنِّ بولدٍ يكون نبيّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمِنْ وَرَاءِ إسْـحَقَ يَعْقُـوبَ) قـال الزجَّـاج: (بَشَّـرُوهَا أنَّـهَا تَلِـدُ اسْحَقَ، وَأنَّهَا تَعِيشُ إلَى أنْ تَرَى وَلَدَ وَلَدِهِ، وَوَرَاءَ هَهُنَا بمَعْنَى بَعْدَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾؛ لا يجوزُ أن يكون هذا على جهةِ الإنكار، فإن (يَا وَيْلَتَا) كلمةٌ تستعمِلُها النساءُ عند وقوعِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤١٣٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١٠١٢) عن ابن عباس.

(٣) في إعراب القرآن: ج ٢ ص١٧٦؛ قال النحـاس: ((قـال الفـراء: ولا يجـوز الخفـض إلا بإعـادة الخافض. قال سيبويه: ولو قلتَ: مررتُ بزيدٍ أولَ أمسِ عمرو، كان قبيحاً خبيثاً، لأنـك فرَّقـتَ بين المجرور وما يشاركه وهو الواو كما تفـرق بـين الجـار والمجـرور)). ومعنـاه في معـاني القـرآن وإعرابه: ج ٣ ص٥١؛ قال الزجاج: (ومَن زعَمَ أن يعقوب في موضع جـر فخطـأ زعمـه، ذلـك لأن الجار لا يفصل بينه وبين المجرور، ولا بينه وبـين الـواو العاطفـة، لا يجـوز: مـررت بزيـد في الدار، والبيتِ عمرو ولا في البيت عمرو، حتى تقول: وعمرو في البيت).

أمرٍ فظيع، فاستعملَتها في هذا الموضعِ على جهة التعجُّب، ولهذا قالت: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾. وأصلهُ: يَا وَيْلَتِي فأبدل من الياءِ الألف لأنه أخفُّ من الياءِ والكسرِ.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانَتْ سَارَةُ بِنْتَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً، وَكَانَ زَوْجُهَا ابْنَ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ، فَتَعَجَّبَتْ بِأَنْ يَكُونَ بَيْنَ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ وَلَدٌ)[1]، قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهَذا بَعْلِي شَيْخاً) أي هذا الذي يعرفونهُ بَعْلِي، ثم قالت (شَيْخاً) أي انتبهوا له في حال شيخوختهِ فهو نُصِبَ على الحال، وذهبَ الكوفيُّون إلى أنه نُصِبَ على القطعِ عن المعرفة إلى النَّكرة كما يقالُ: خرجَ زيدٌ راكباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ ﴾ ؛ أي قالت الملائكةُ: أتعجَبينَ من قُدرة اللهِ وأنت عارفةٌ أنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء؟ قال السديُّ: (أخَذ جِبْرِيلُ عُوداً يَابساً فَدَلَكَهُ بَيْنَ إصْبعَيْهِ فَإذا هُوَ أخْضَرُ يَهْتَزُّ، فَعَرَفَتْ أنَّهُ مِنَ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ ﴾ ؛ معناهُ: نعمةُ اللهِ عليكم في الدِّين والدنيا وخيراتهِ التامَّة عليكم يا أهلَ البيتِ بيتِ إبراهيم عليه السلام، ﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ ﴾ ؛ لأعمالِكم، ﴿ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي كريمٌ يُكرِمُكم بالنِّعَم، الكريمُ هو الذي يَبْتَدِئُ بالنعمةِ قبلَ الاستحقاق، والْمَجِيدُ الْمَاجِدُ وهو ذو الشَّرَفِ والمجدِ والكرَمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ ﴾ ؛ أي الخوفُ والفَزَعُ، ﴿ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ ؛ بإسحقَ جعلَ، ﴿ يُجَٰدِلُنَا ﴾ ، يجادِلُ رسُلَنا، ﴿ فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

واختلَفُوا في هذهِ المجادلة، فقال بعضُهم: سألَ عن سبب تعذيب اللهِ لهم سؤالَ مُستَقْصٍ حتى قالَ: إنَّ اللهَ أمرَ باستئصالِهم وبتخويفِهم بالعقاب، وحتى قال: إنَّ فيها لُوطاً. وقال بعضُهم: أراد بالمجادلةِ الدُّعاءَ والتضرُّعَ وشدةَ الحرصِ على نجاة القومِ رجاءَ إيمانِهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤١٥٠) عن ابن إسحق.

كما رُوي أنَّ إبراهيمَ عليه السلام قامَ من الليلِ يُصلِّي وهـو يقـولُ: يـا رب أتُـهلِكُ قومَ لوطٍ؟ قِيْلَ: يا إبراهيمَ ليس فيهم مؤمنون، قال: يا رب فإن كان فيهم خمسونَ أهلُ بيتٍ مُؤمنون أتُهلِكُهم ؟ قِيْلَ: لا، قال: فأربعونَ؟ قِيْلَ: لاَ، فَلَمْ يزل يُرَدِّدُ حتـى قِيْـلَ: إنْ كان فيهم خمسةُ أبياتٍ مؤمنين رفَعنا عنهم البلاءَ[1]. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَمَـا وَجَدْنَـا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

قِيْلَ: لَمَّا جادَلَهم إبراهيمُ عليه السلام قالت له الرُّسُل: يا إبراهيم أعْرِضْ عـن هـذا الجدال، إنه قد جاءَ أمرُ ربكَ بعذابهم، وإنَّهم آتِيهم عذابٌ غير مردودٍ، قولـه: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ ؛ أي وَقُورٌ بَطِيءُ الغضب، والحليمُ: الْمُحْتَمِلُ للأذى مع قُدرتهِ على العقوبةِ والمكافأة، ﴿ أَوَّٰهٌ ﴾ ؛ بالدعاء، ويقال: الرحيمُ، ويقال: المتأوِّهُ خوفـاً وأسَـفاً على الذُّنوب، و﴿ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ هو الراجعُ إلى اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ ؛ أي عـن جِدَالِـكَ، ﴿ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بهلاكـهم، ﴿ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ غـيرُ مُنصَرِفٍ عنهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ ؛ يعني لَمَّا جاءت الملائكةُ لوطاً ساءَهُ مجيئُهم، وضاقَ بهيأتـهم قلبُـه[3]؛ فإنَّـهم جـاؤهُ في صورةِ الغُلمَان الْمُرْدِ الحِسَان، وكان قد عَلِمَ عـادةَ قومـهِ، فخـافَ عليـهم مـن صنـع قومه، ﴿ وَقَالَ﴾ ؛ في نفسِه: ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي شديدٌ لازم شرُّهُ كالمعصُوب بالعُصبةِ، كأنَّهُ قال: هذا يومٌ الْتَفَّ الشـرُّ فيـه بالشـرِّ، وأمـا ضِيـقُ الـذرْعِ فيوضعُ موضعَ ضيقِ الصَّدر، يقال: ضاقَ فلانٌ بأمرِهِ ذرْعاً إذا لم يجـد مـن الْمَكْـرَهِ في ذلك مَخلصاً.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٤١٥٨-١٤١٦٤). وابن أبي حاتم في التفسـير: الأثـر (١١٠٤٠).

(٢) الذاريات / ٣٦ .

(٣) في المخطوط: (قبله) وما أثبتناه يناسب معنى السياق.

قِيْلَ: معناهُ: ضَاقَ بهم وسْعاً. وكان لوطُ ضَاقَ وسعَهُ بهم أنْ يحفَظَهم. وفي الخبرِ: أنه جعلَهم فيما بين مَواشِيهم، فلما كان في وقتِ غفلةِ الناس حَمَلَهُم إلى دارِهِ، فذهبت امرأتهُ الخبيثة وأخبرَتْهم، وقالَتْ لَهم: إنه قد نزلَ عند لُوطٍ أضيافٌ لم يُرَ قط أحسَنَ وُجوهاً منهم، ولا أطيبَ رِيحاً، ولا أنظفَ ثياباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ وذلك أنَّ امرأةَ لوط لَمَّا أخبرَتْهم بأضيافهِ، جاؤُا إلى دارهِ يُسرِعُونَ إليه، ويُهَرْوِلُونَ هَرْوَلَةً، والإهْرَاعُ: مَشْيٌ بين مِشيَتَين، ومِن قبلِ ذلك كانوا يعمَلون المعاصِي، وهي ما كانوا يعمَلون من الفاحشةِ مع الذُّكور، فإنَّهم كانوا يعمَلون ذلك مِن دون أن يُخْفِي بعضٌ عن بعضٍ.

﴿ قَالَ ﴾ : لَهم لوطُ عليه السلام: ﴿ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ ﴾ ؛ عَرَضَ عليهم بناتهُ نِكَاحاً، وأظهرَ من نفسهِ في صونِهم ما لا شيءَ أبلغُ منه، أظهرَ الكرامةَ في باب الأضيافِ، فذكَرَ بناتهُ ليدلَّ بذلك على التشديدِ في دَفعِهم عمَّا أرَادُوا. فكان يجوزُ في ذلك الوقتِ تزويجُ الْمُسْلِمَةِ من الكافرِ، كما كان يجوزُ في شَريعتنا في ابتداءِ الإسلام، فإنَّ النبيَّ ﷺ زَوَّجَ ابنتَهُ من ابنِ العاص بن الرَّبيع. ويقالُ: أرادَ بقولهِ (بَنَاتِي) بناتَ قومهِ؛ لأن النبيَّ يكون للقومِ بمنْزِلةِ الوالدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا عقابَ الله، ولا تُلزِمُونِي عَيباً في ضَيفِي، ﴿ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ ﴾ ؛ في نفسهِ فيَنْزَجِرُ عن هذا الأمرِ، ويزجرُكم عنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ ﴾ ؛ أي مَيلَنا إلى الغِلمَان دون النِّساء، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً ﴾ ؛ أدفعُكم بها عن أضيَافِي، ويُمكِنُنِي، ﴿ أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ ﴾ ؛ إلى قبيلةٍ أستغيثُ بها على دَفعِكم لَمَنَعْتُكُمْ أشدَّ المنعِ عما تُحاولون.

وعن رسولِ الله ﷺ قال: [رَحِمَ اللهُ أخِي لُوط لَقَدْ آوَى إلَى رُكْنٍ شَـدِيدٍ][1] أي التجأ إلى اللهِ وملائكته، وقال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا عَلِمَ جِبْرِيلُ وَالْمَلاَئِكَةُ خَوْفَ لُوطٍ مِنْ تَهْدِيدِ قَوْمِهِ، وَقَدْ كَانَ لُوطُ أغْلَقَ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَـى الْمَلاَئِكَـةِ وَهُـوَ يُنَاشِـدُ قَوْمَهُ، قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: يَا لُوطُ إنَّ رُكْنَكَ لَشَدِيدٌ، وَإنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ ﴾ ؛ فـافتحِ البـابَ ودَعْنا وإيَّاهم، ففتحَ البـابَ فدخَلُـوا، فقـامَ جـبريلُ في الصُّـورةِ الـتي يكـون فيـها في السَّماء، فنَشَرَ جناحَهُ وضربَ بـه وُجوهَـهم فطَمَـسَ أعيُنَـهم وأعمَـاهُم، فصـارُوا لا يعرفون الطريقَ ولا يهتَدُون إلى بُيوتِهم.

فقالَ لوطُ عليه السلام متَى مَوعِدُ هَلاكِهم ؟ قالوا: الصُّبْـحَ، قـالَ: أريـدُ أسـرعَ مـن ذلك، فقالوا: أليس الصُّبح بقريبٍ؟ وذلـك قولـهُ تعـالى: ﴿وَلَقَـدْ رَاوَدُوهُ عَـنْ ضَيْفِـهِ فَطَمَسْنَا أعْيُنَهُمْ﴾[3].

ثُم قالوا له: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ ؛ وفيه قراءتان (فَأسْـرِ) بـالهمز والوصـلِ، يقال سَرَى وأسْرَى بمعنى واحدٍ، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بِقِطۡعٍ مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ ؛ أي في آخـرِ الليل عند السَّحَرِ والهدوءِ، وقال الضحَّاك: (بقِطْعٍ أيْ ببَقِيَّةٍ)، وقـال قتـادةُ: (بَعْـدَ مَـا مَضَى صَدْرُهُ)، ﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ ﴾ .

قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو (امْرَأتُكَ) رفعاً على الاستثناءِ مـن الإلتفـات؛ أي ولا يلتَفِت أحدٌ إلا امرأتُكَ، فإنَّها تلتفِتُ فتهلَكُ. وقرأ الباقون بالنصب على الاستثناء من الإسراءِ؛ أي فَاسْرِ بأهلِكَ إلا امرأتَكَ فلا تَسْرِ بها وخلِّفها مـع قومِـها. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث(١٤٢٠٢) بأسانيد ثمانية عن أبي هريـرة رضي الله عنه. والإمـام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٨٤. والترمذي في الجامع: سورة يوسـف: الحديـث (٣١١٦) مكـرراً وحسنه. والحاكم في المستدرك: ذكر لوط النبي: الحديث (٤١٠٨)، وقـال: صحيـح علـى شـرط مسلم.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٢١١) عن وهب بن منبه.

(٣) القمر / ٣٧ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ﴾ ؛ أي قـالت الملائكـةُ: إن وقـتَ هلاكِـهم، ﴿ ٱلصُّبْحُ ﴾ ؛ فقالَ لوط: الآنَ يا جبريلُ، وإنما ذلـكَ لضيـق صـدره منـهم وشـدَّة غَيظِه، فقالَ جبريلُ:﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ وفي هذا بيانُ أنَّ اللهَ لا يُـهلِكُ أحداً قبلَ انقضاءِ مدَّتهِ، وإنْ ضَاقَتْ صدورُ أوليائهِ عنه.

وعن ابنِ عبَّاس: (أنَّ جِبْرِيلَ لَمَّا قَالَ لِلُوطٍ: فَاسْرِ بأَهْلِكَ بقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ، قَالَ لُوطُ: يَا جِبْرِيلُ كَيْفَ أَصْنَعُ وَأَبْوَابُ الْمَدِينَةِ قَدْ أغْلِقَتْ، فجَمَعَ لَهُ جِبْرِيلُ أهْلَهُ وَبَقَـرَهُ وَغَنَمَهُ وَمَالَهُ، وَاحْتَمَلَهُمْ عَلَى جَنَاحِهِ حَتَّى أخْرَجَهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَانْطَلَقَ بهِمْ مُتَوَجِّهاً إلَى صَغَرْ، وَهِيَ عَلَى أرْبَعَةِ فَرَاسِخَ مِنْ مَدَائِنِ لُوطٍ، وَهِـيَ إحْـدَى الْقُـرَى الْخَمْـس: سَدُومُ وَدَادَ وَمَاو وَعَامُورا وَصَغَرْ، وَلَمْ يَكُنْ أهْلُ صَغَرْ يَعْمَلُونَ عَمَلَهُمْ، وَكَانَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ ألْفُ مُقَاتِلٍ، فَمَا سَارَ لُوطُ فَرْسَخَيْنِ حَتَّى سَمِعَ الصَّيْحَةَ)[١].

كما رُوي أنَّ جبريل عليه السلام جعلَ جناحه في أسفلِها فرَفَعها من الأرضِ السَّـابعة إلى السَّماءِ حتى سَمِعَ أهلُ السَّماء نباحَ الكلاب وصيـاحَ الدِّيَكـة، ثـم قلَبَـها وجعـلَ أسفلها أعلاَها، وأعلاها أسفلَها، وأقبلَت تهوي من السَّماءِ إلى الأرض، فذلـكَ قَوْلُـهُ تَعَـــالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ ؛ قال وهبُ: (لَمَّا رُفِعَتْ إلَى السَّمَاءِ أمْطَـرَ اللهُ عَلَيْـهَا حِجَـارَةَ الْكِبْرِيتِ بالنَّار، ثُمَّ قُلِبَتْ عَلَيْهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) قِيْلَ: أمطرَ اللهُ الحجـارةَ علـى شُذاذِهم ومُسافرِيهم. واختلَفُوا في السِّجِّيلِ، فقيل: هو فارسيةٌ مُعرَّبَـة، وفيـه بيـانُ أن تلك الحجارةَ كانت شديدةً صَلِبَةً، نحو ما يُطبَخُ من الطِّين فيصيرُ كالآجُرِّ وأصلبَ منه، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾[٢]. وقال بعضُـهم: هـو مـن سجيل وهو الإرسَالُ، فيكون معناهُ: حجارةٌ مُرسَلَةٌ، ويقال: السِّجِّيلُ: سَـماءُ الدنيـا، وقيل: السجِّيلُ وَالسِّجِّينُ: الشديدُ من الحجَرِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٢٠٩) عن قتادة مختصراً.
(٢) الذاريات / ٣٣ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛أي بعضُهم فوقَ بعضٍ. وقولُهُ: ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ ؛ أي مُعَلَّمَةً بعَلامةِ المعاقِبين، وكانت مخطَّطة بالسَّوادِ والْحُمْرَةِ والبَياض. وَقِيْلَ: كان مكتوبٌ على كلِّ حجَرٍ اسمَ مَن هَلَكَ بهِ. وقولهُ تعالى: ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي أعلَمَتها الملائكةُ في السَّماء بأمرِ الله.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي وما تلكَ الحجارةُ من ظالِمي أمَّتِكَ ببعيدٍ. وعن ابنِ عبَّاس أنه قال: (لاَ وَاللهِ لاَ تَذْهَبُ اللَّيالِي وَالأَيَّامُ حَتَّى تَسْتَحِلَّ هَذِهِ الأُمَّةُ أدْبَارَ الرِّجَال كَمَا اسْتَحَلُّوا النِّسَاءَ، وَلاَ تَذْهَبُ الأَيَّامُ وَاللَّيَالِي حَتَّى يُصِيبَ طَوَائِفَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ حِجَارَةٌ مِنْ عِنْدِ رَبك).

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ ؛ أي وإلى ولَدِ مِديَنَ بنِ إبراهيم أخاهُم في النَّسب، ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ ؛ أي ولا تَنقُصُوا حقوقَ الناسِ عند الكَيْلِ والوزنِ عليهم بالتَّطفيفِ، ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ ؛ أي إنِّي أراكُم في الخصْب والرُّخْصِ ما أوفيتُم للناسِ حقوقَهم. وَقِيْلَ: معناهُ: إنِّي أراكم في كثرةِ الأموال، وأنتم مُستغنون عن نُقصَان الكَيْلِ والوزن، ﴿ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي عَذاباً يُحيطُ بكم فلا يفلتُ منكم أحد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ؛ أي بالعدل، ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ ؛ أي ولا تُنقصوهم حُقوقَهم، ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي لا تضطَربوا في الأرضِ بالقبيح مُفسدِين بالمعاصِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ ﴾ ؛ معناهُ: ما أبقاهُ الله خيرٌ لكم من الحلالِ بعد إتْمَامِ الكيلِ والوزن خيرٌ لكم مما حرَّمَ عليكم من البخْسِ والتطفيفِ إنْ كنتم مصدِّقين ما أقولُهُ لكم. ويقالُ: أراد بالبقيَّة طاعةَ الله، فإنَّها هي التي يبقَى ثوابُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي لم أوكَّلْ بحفظِكم فأُقاتِلَكم وامنعَكم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ﴾ ؛ أي قالوا يا شعيبُ: أكثرةُ صَلواتِكَ التي تفعَلُها تأمُرُكَ أن نتركَ عبادةَ ما يعبدُ آباؤنا، وتأمُركَ أن تأمُرَنا بأنْ لا نفعلَ في أموالنا ما نشاءُ، وقال عطاء: (مَعْنَى قَوْلِهِ: أصَلاَتُكَ؛ أيْ دِينُكَ يَأمُرُكَ، فَكَنَّى عَنِ الدِّينِ بالصَّلاَةِ؛ لأنَّهَا مِنْ أمْرِ الدِّينِ، وَكَانَ شُعَيْبُ كَثِيرَ الصَّلاَةِ، فَلِذلِكَ قَالُوا هَذا).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ السفيه الجاهل، فذكروا الحليم الرشيد على جهةِ الاستهزاء، هكذا رُوي عن ابنِ عبَّاس، ويقال: قالوا ذلك علَى جهةِ التحقيقِ إنكَ لأنتَ الحليمُ الرشيد في قومِكَ، فكيف تنهَانا عن عبادةِ ما يعبدُ آباؤنا وعن أن نفعلَ في أموالِنا ما نشاءُ من البَخْسِ والتَّطفِيفِ، كأنَّهم استبعَدُوا أن يكون آباؤُهم قد أخطَأُوا في دِينِهم ورباهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ ؛ أي قال لَهم شعيبُ: أخبروني إنْ كنتُ على دلالةٍ واضحةٍ من ربي، ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ ؛ قِيْلَ: أرادَ النبوَّةَ فإنَّها أعظمُ رزقِ الله تعالى. وَقِيْلَ: أراد به المالَ الحلالَ. قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ شُعَيْبُ عليه السلام كَثِيرَ الْمَالِ كَثِيرَ الصَّلاَةِ)، وَقِيْلَ: معنى قولهِ (رزْقاً حَسَناً) أي عِلْماً ومعرفةً. وأما جوابُ قولهِ (إنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبي وَرَزَقَنِي) المالَ الحلال اتبعهُ الضلالَ فأبْخَسُ وأطَفِّفُ، أشُوبَ الحلالَ بالحرامِ كما تفعلون به.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ ؛ أي ما أريدُ أن تترُكوا ما نَهيتُكم عنه لأعملَ أنا به فانتفعَ، والمعنى لستُ أنْهاكُم عن شيءٍ ثم أدخلُ فيه، ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ ؛ أي ما أريدُ إلا الإصلاحَ في أمرِ الدين والمعاشِ بقدر استطاعَتي، ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي ما توفيقي للصَّلاح إلا مِنَ اللهِ، والتوفيقُ من اللهِ: هو كلُّ فِعْلٍ يَتَّفِقُ مَعَ الْعَبْدِ عِنْدَ اخْتِيَار الطَّاعَةِ وَالصَّلاَحِ، وَلَوْلاَهُ لَكَانَ يَخْتَارُ خِلاَفَ ذلِكَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ؛ أي فوَّضتُ أمري إلى اللهِ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي أرجِعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ ؛ أي يا قومِ لا يكسِبَنَّكم عدَاوتِي أنْ لا تُؤمِنُوا فيصِيبُكم مثلُ ما أصابَ قومَ

نوحٍ من الغرَق، ﴿ أَوْ قَوْمَ هُودٍ ﴾ ؛ من الرِّيح العقيم، ﴿ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ﴾ ؛ من الصَّيحَةِ، ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ أي قد بلَغكم ما أصابَهم وهم أقربُ إليكم ممن تقدَّمَهم. يجوزُ أن يكون المراد بذلك قُربَ زمانِهم، ويجوز أن يكون المرادُ به قربَ ديارهم منهم، وكلٌّ ذلك أقربُ إلى الاعتبار.

قولُهُ: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ ؛ اي استَغفِرُوهُ من الشِّركِ والذنوب، ثم تُوبُوا إليه بإخلاصٍ، ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ ﴾ بعبادهِ، ﴿ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ مُتَوَدِّدٌ بالنِّعم وقَبول التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ ؛ أي ما نَفْهَمُ كثيراً مما تقولُ، قال ابنُ الأنباريِّ: (مَعْنَاهُ مَا نَفْقَهُ صِحَّةَ كَثِيرٍ مِمَّا تَقُولُ، يَعْنُونَ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ، وَمَا يَأْمُرُهُمْ بهِ مِنَ الزَّكَاةِ وَتَرْكِ الْبَخسِ، وَالْفِقْهُ فِي اللُّغَةِ هُوَ اسْتِدْرَاكُ مَعْنَى الْكَلاَمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ ؛ قالَ ابنُ عبَّاس:(أرَادُوا بالضَّعْفِ أنَّهُ ضَرِيرُ الْبَصَرِ)[(١)]، وقال ابنُ جبير: (مَعْنَاهُ إنَّا لَنَرَاكَ أعْمَى)[(٢)]، وقد رُوي أنه كان قد ذهبَ بصرهُ من كثرةِ بُكائهِ من خِشيَةِ اللهِ تعالى. وفي بعضِ الرِّوايات: أنه عَمِيَ ثلاثَ مرَّات، وكان اللهُ تعالى يرُدُّ عليه بَصَرَهُ حتى أوحَى إليه: يا شعيبُ ما هذا البكاءُ ؟ قال: شَوقاً إليك يا رب. وسُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عَنْ شُعَيْبٍ قَالَ: [ذاكَ خَطِيبُ الأَنْبيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أجْمَعِينَ][(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ ؛ أي ولو لا عَشِيرتُكَ لقَتلنَاكَ بالحجارةِ، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي إنا لا نَدَعُ قتلَكَ لعزَّتِكَ علينا، ولكن لأجلِ قومِكَ. والمعنى: لستَ تَمتَنِعُ علينا أنْ نقتُلَكَ لولا ما نُراعِي من حقِّ عَشيرَتِكَ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١١٦٠) عن ابن عباس. والطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٢٧١) عن سعيد بن جبير.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٢٦٩).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان:الأثر(١٤٧٢١):قال سفيان:(وكان يقال له خطيب الأنبياء).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي إنَّكم تزعُمون أنَّكم تتركون قَتلِي إكراماً لرَهْطِي واللهُ تعالى أوْلَى بأن يُتَّبَعَ أمرهُ؛ أي إنَّكم تركتم قَتلِي لأجلِ عشيرتِي، ولا تتركونَهُ لأجلِ اللهِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ ؛ أي نَبَذْتُمْ أمرَ اللهِ وراءَ ظُهوركم، والظِّهْرِيُّ: ما نَبَذهُ الإنسانُ وراءَ ظَهرهِ، ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ أي عليمٌ، لا يَعْزِبُ عنه عِلمُ شيءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ﴾ ؛ أي اعملُوا على دِينِكم إنِّي عاملٌ على دِيني، وهذا على سبيلِ التَّهديد والوعيدِ، والْمَكَانَةُ والمكانُ بمعنى واحد. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ ؛ أي يُذِلُّهُ ويُهينُهُ، وَ تعلمُون ﴿ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ﴾ ، على اللهِ، ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ أي انتَظِروا إنِّي منتظرٌ معكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ أي نَجَّينا شُعيباً من ذلك العذاب، ونَجَّينَا الذين آمَنوا معه برحمةٍ منَّا، ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ ؛ يعني من قومِ شُعيب.

يقال: إنَّ جبريل صاحَ بهم صيحةً، فخرجت أرواحُهم من أجسادِهم، ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي ميِّتين سَاقِطِين صَرْعَى. وَقِيْلَ: بل وَاقِفِين على رُكَبهم، ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ ؛ أي كأنْ لم يكونوا في الأرضِ قطُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ألاَ سُحْقاً وهلاكاً لقومِ شُعيب كما هلَكت ثمُودُ، وإنما شبَّهَهم بثَمُودَ؛ لأن الصيحةَ كانت سَبباً في هلاكِ الفريقين جميعاً.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ مَدْيَنَ أصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيدٌ، وَلَمْ تَتحَرَّكِ الرِّيحُ لَيْلاً وَلاَ نَهاراً، فكَانَ يُحرِقُهُمْ باللَّيْلِ حَرُّ الْقَمَر، وَبالنَّهَار حَرُّ الشَّمْس، فَنَشَأَتْ لَهُمْ سَحَابَةٌ كَهَيْئَةِ الظُّلَّةِ فِيْهَا عَذابُهُمْ، فَأتوهَا يَسْتَظِلُّونَ تَحْتَهَا وَيَطْلُبُونَ الرَّوْحَ، فَسَالَ عَلَيْهِمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَرَجفَتِ الأَرْضُ مِنَ الْعَذاب وَأحْرَقَتْهُمُ السَّحَابَةُ، وَذلِكَ قَوْلُهُ

تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١)).

قال: (وَلَمْ يُعَذبْ أُمَّتَان بعَذابٍ وَاحِدٍ إلاَّ قَوْمَ شُعَيْبَ وَصَالِح، فَأَمَّا قَوْمُ صَالِحٍ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مِنْ تَحْتِهِمْ، وَأَمَّا قَوْمُ شُعَيْبٍ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مِنْ فَوْقِهِمْ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ ؛ أي أرسَلنا مُوسَى بدَلائِلنا، والآيـةُ العلامـةُ الـتي فيـها العِـبرَةُ، وقولـهُ تعـالى: (وَسُـلْطَانٍ مُبِينٍ) أي وحجَّة بيِّنَةٍ مسلَّطة علـى إبطَـال الفاسـد. وقولـهُ تعـالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ ؛ وأشرافِ قَومِهِ، ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ ؛ أي اتَّبعوا قولَـهُ وتركُـوا أمـرَ اللهِ، ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ ؛ أي مـا هـو بصَـائبٍ، إلا أنَّـهم اتبعـوا وخالَفُوا أمرَ موسى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ ؛ أي يَمشِي أمامَ قومِهِ يومَ القيامةِ حتى يهجُمَ بهم على النار، وإنما يمشِي أمامَ قومِهِ يومَ القيامـة لأنَّـهم اتبعوهُ في الدنيا حتى هدَاهُم إلى طريقِ النار، فكذلكَ يمشي بهم في الآخرةِ حتى يدخلَ بهم النارَ.

وأما عطفُ الماضي الذي هو (فَأَوْرَدَهُمْ) على المستقبلِ فهو على معنى فهو إذا قَدِمَهُمْ أوردَهم النارَ. وإنما تقدَّمهم ولم يقل يسبقُ؛ لأن قولَهُ يسبقُ قومَهُ لا يدلُّ علـى أنه يَمشِي بين أيديهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ فيـه إلى النـار، والـوِرْدُ في الحقيقة إنما يستعملُ في الماءِ كما قالَ تعالى: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ)(٢)، ولكنْ لَمَّـا كـان فرعونُ وقومه في الآخرةِ يكونون عَطَاشَى ويَرِدُونَ على ما بهم من العطـشِ اسـتعملَ فيهم هذه اللَّفظة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ؛ أي وأتْبَعَـهُم اللهُ في الدنيا لعنةً بإبعادِهم عن الرَّحمة بالغرقِ (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) لَهم لعنـةٌ أخـرى وهـي النـارُ،

(١) الشعراء / ١٨٩ .

(٢) القصص / ٢٣ .

﴿ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝٩٩ ﴾ ؛ بئْسَتِ اللعنةُ على إثْـرِ اللعنـة، تَرَادَفَـتْ عليـهم اللَّعَنَاتُ الغرَقُ في الدنيا والنارُ في الآخرةِ.

والرِّفْدُ في اللغة: هو العَوْنُ في الأمرِ إلا أن العطيـةَ تُسـمَّى رِفْـداً لما فيـها مـن العَوْن، كأنَّهُ قالَ: بئْسَ العطاءِ ما أعطَى. وقال بعضُهم: هذا من الْمَقْلُـوب؛ أي بئْـسَ الرِّدْفُ الْمَرْدُوفُ، فالرِّدْفُ: لَعْنَةُ اللهِ إياهم، والمردوفُ لَعْنَةُ الأنبياءِ والمؤمنين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ ﴾ ؛ أي ذلِـكَ الـذي ذكرتُ يا مُحَمَّدُ من أخبار الأُمَمِ الماضيةِ ينْزِلُ به عليكَ جبريلُ عليه السلام نقصُصهم عليكَ مرَّةً بعد مرةٍ، مأخوذٌ من إتبَاعِ الشيءِ الشيءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ ﴾ أي منها قائمُ الأبنية وقـد بـادَ أهلهُ كما قالَ تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾[1]، والحصيدُ ما هَلَكَ بأهلهِ فلا يبقَى له مكان ولا أثرَ نحو مدائنِ قومِ لوط حُصدت من الأرضِ السُّفلَى. والمعنى منها قائمٌ بقيَت حيطانهُ ومنها حصيدٌ مخسوفٌ به قد اُمْحِيَ أثرهُ، قال ابنُ عبَّاس: (قَائِمٌ يَنْظُـرُونَ إلَيْهِ وإلَى مَا بَقِيَ مِنْ أثرهِ، وَحَصِيدٌ قَدْ خَربَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ أثرٌ شَبيهٌ بالزَّرْعِ إذا حُصِدَ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ ﴾ ؛ أي مـا ظلَمنَـاهم بإهلاكِهم، ولكن ظلَمُوا أنفُسَهم بسوءِ اختيارهم، ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ﴾ ؛ أي فما نفعَتهُم آلهتُهم، ﴿ ٱلَّتِى يَدْعُونَ ﴾ ؛ التي كانوا يعبُدونـها، ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١ ﴾ ؛ أي تخْسِيرٍ ومنـهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2] أي خَسِرَتْ يداهُ وخَسِرَ هو.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ ﴾ ؛ معنـاهُ: كما أخذ ربُّكَ فرعون ومَن تَقدَّمَهُ من الكفار، فكذلك أخْذُ ربكَ إذا أخذ القُرى وهي كافرةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى. وقولهُ تعـالى: (وَهِيَ ظَالِمَةٌ) من صِفَةِ القُرَى وهي في الحقيقـةِ لأهلِـها وسُـكانِها، ونحـو هـذا قولـه ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾[3].

---

(١) الحج / ٤٥ (٢) المسد / ١ . (٣) الأنبياء / ١١ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ؛ أي إنَّ في ذلك لعِبرَةً لمن خافَ عذابَ الآخرةِ فلا يَقتَدِي بهم، وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾ ؛ معناهُ: إن يومَ القيامة يومُ يُجْمَعُ فيه الأوَّلون والآخِرون، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ أي يشهدُه أهلُ السموات والأرض. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ وقد عَدَّهُ الله، وعَلِمَ أن صلاحَ الخلقِ في إدامة التكليفِ عليهم إلى ذلك الأجَلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ؛ مَن قرأ (يَأْتِي) بإثبات الياء فعلَى الأصلِ، ومعناهُ: يوم يأتِي ذلك اليومُ لا تَكَلَّمُ نفسٌ في الشَّفاعةِ إلا بأمرِ الله، ويقالُ: لا يجبرُ أحدٌ أن يتكلَّم بالاحتجاجِ وإقامة العُذر من مَشِيئَةِ اللهِ إلا بإذنه، ومَن قرأ (يَأْتِ) بغيرِ ياء فهي لُغة هُذيلٍ، وهكذا في مُصحَفِ عُثمان، ومنه يقولُ العرب: لاَ أَدْرِ ولا أمْضِ، فيحذفُ الياءَ ويجتزئُ بالكسرِ، قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ أي مِن الناس شَقِيٌّ وسعيدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي فأمَّا الذين كُتبت عليهم الشقاوةُ ففي النار، وقال بعضُهم: شَقُوا بفِعلِهم، وقال بعضُهم: شَقُوا في بطُون أمَّهاتِهم، فما شَقِيَ أحدٌ بفعلٍ إلا بعدَ ما شَقِيَ في بطنِ أمه، وما شَقِيَ في بطنِ أمه إلا بعدَ سابقِ علمِ الله فيه، وإنما يلحقهُ اللَّومُ بالشقاوة المحتومةِ لا بالشقاوة المعلومة، وكذلك السعادةُ على هذه الجملة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ الزفيرُ شدَّةُ الأنِين في الصَّدر، والشهيقُ الأنِينُ الشديدُ المرتفع نحوَ الزَّعْقَةِ التي تكون من شدَّةِ الكَرْب والحزن، وربَّما يتبعُها الغَشْيَةُ، ومن هذا قالوا: إن الزفيرَ أوَّلُ صوتِ نَهيق الحمار، والشهيقُ آخر صوت نَهيقهِ، وسُمي رأسُ الجبلِ شاهقاً لارتفاعهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ؛ أي دَائمين في النار. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ ؛ قال بعضُهم: أرادَ بذلك مقدارَ سماء الدُّنيا وأرضها، وذلكَ أنَّ العربَ إذا أرادت التأكيدَ والتبعيد قالت: ما دامتِ السمواتُ

والأرض، وما لاحَ كوكبٌ، وما أضاءَ القمرُ، وما اختلفَ الجديـدان، لا يريـدُ بذلـك الشرطَ، وإنما يريد بذلك التأكيدَ والتبعيدَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ ﴾ ؛ أي سِوَى ما شاءَ ربُّكَ من الْخُلُودِ بعـدَ مُضِيٍّ مقدار سماء الدُّنيا وأرضها. وقال بعضُهم: معنى الآية: ما دامَت سمـاءُ الدُّنيـا وأرضها، وسماءُ الجنَّة وأرضها، وقوله: (إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ) مذكورٌ على وجـه التـأبيدِ أيضاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ أي يفعلُ ما شاءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ ﴾ ؛ مَـن قـرأ (سُـعِدُوا) بضـمِّ السـين فمعناهُ: رُزِقُوا السعادةَ، ومِمَّن قرأ ذلك أهلُ الكوفة، قولهُ: ﴿ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي أعطَاهم النعيمَ عطاءً غير مجذوذٍ أي غير مقطوعٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾ ؛ أي فـلا تكـن أيُّـها الشـاكُّ في مِرْيَـةٍ، ﴿ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ ﴾ ؛ من دون الله أنه بـاطلٌ، والْمِرْيَـةُ هـي الشـكُّ مع ظـهور دلائـل التُّهمـةِ، وقولـهُ تعـالى: ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ ﴾ ؛ معناهُ: ما يعبـدون إلا علـى جهـةِ التقليـد لآبائـهم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ أي حظَّهم من العذاب غيرَ منقوصٍ عن مقـدار مـا استحَقُّوا؛ آيسَهم الله بهذا القول عن العفوِ، وَقِيْلَ: أرادَ بالنصيب الأرزاقَ والآجـال، وما قُدِّرَ لهم في دُنياهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ ﴾ ؛ أي ولقـد أعطينا موسى الكتابَ، فصـدَّق بـه بعضُـهم، وكـذب بـه بعضـهم، ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ ﴾ ؛ أي لولاَ وعدُ الله سبقَ بإبقاء التكليـفِ عليـهم إلى ذكرِ الوقت لقضى بتعجيلِ العقاب لمن استحقَّ العقابَ في الدُّنيا، وبتعجيلِ الثواب لمن استحقَّ الثوابَ في الدنيا. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ أي وإنَّهم لفِي شكٍّ من القرآنِ يريبُهم أمرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ ﴾ ؛ معناهُ: وإنَّ كُلاًّ من الفريقَين المصدِّق والمكذِّب يجتمعان يومَ القيامة فيُوفِّيهم ربُّكَ، ﴿ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ؛ على التمامِ، ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ وبما يستحقُّون من الجزاءِ خَبيرٌ.

قرأ ابنُ كثير ونافع (وَإنْ كُلاًّ لَمَا) كلاهما بالتخفيفِ، وقرأ أبو بكر عن عاصم (وَإنْ) مخفَّفة (لَمَّا) مشدَّدة، والباقون كلاهما بالتشديدِ، فحُجة أبو عمرو والكسائي أن اللامَ في قوله (لَمَّا) لامُ التأكيدِ دخلت في خبرِ إن، واللامُ التي في (لَيُوَفِّيَنَّهُمْ) لامُ القسمِ، تقديره: واللهِ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ، دخلت (مَا) للفصلِ بين اللاَّمَين.

وأما حُجة نافع وابن كثير في نصبهِ (كُلاًّ) ما قال سيبويه: إنَّهُ سَمِعَ مِنَ الْعَرَب مَنْ يَقُولُ: إنْ عَمراً لَمُنْطَلِقٌ، فَيُخَفِّفُونَ إنْ وَيُعْمِلُونَهَا، وأنشدَهُ الشاعرُ[1]:

وَوَجْهُهُ حَسَنُ النَّحْرِ ... كَأنْ ثَدْيَيْهِ حُقَّانِ

والمعنى على قراءةِ أبي عمرو (وَإنَّ كُلاًّ) من السعيدِ والشقيِّ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ربُّك أعمالَهم، و(مَا) زائدةٌ في قولهِ (لَمَّا)، ومَن خفَّف (إنْ) كان معناه معنى المشدَّدة، تقول: إنْ زَيْداً لَقَائِمٌ، وَإنَّ زَيْداً لَقَائِمٌ، تريدُ إثباتَ قيامهِ، فإذا قُلتَ: إنْ زَيْدٌ قَائِمٌ، فمعناهُ: مَا زَيْدٌ قَائِمٌ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[2] بتخفيفِ (لَمَا)، تقدير لعلَّها حافظٌ، ومن خفَّف (إنْ) وشدَّدَ (لَمَّا) فتأويلهُ الجحدُ والتحقيق؛ أي ما كلٌّ إلا لَيُوَفينَّهم، ونُصبَ (كُلاًّ) على هذا التأويلِ بـ (لَيُوَفِّيَنَّهُمْ) لا بـ (أنْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ ؛ أي استقِمْ يا مُحَمَّدُ في التمسُّكِ بطاعةِ الله تعالى كما أُمِرْتَ وَ ليستقم، ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ ؛ من الشِّركِ، ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ ؛ بمجاوزةِ أوامرِ الله تعالى، ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ؛ من الخيرِ والشرِّ، ﴿ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

---

(١) في جامع البيان؛ حكاه الطبري:

وَوَجْهُهُ مُشْرِقُ النَّحْرِ ... كَأنْ ثَدْيَيْهِ حُقَّانِ

(٢) الطارق / ٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ؛ أي لا تميلُوا إلى الذين ظَلموا بالأنس بهم والمحبَّة والرضا بفِعلِهم، قال السديُّ: (وَلاَ تُدَاهِنُوا الظَّلَمَةَ)، وقال أبو العاليةِ: (لاَ تَرْضَوا بأعْمَالِهِمْ)[١]، وقال عكرمةُ: (هُوَ أنْ يُحِبَّهُمْ)، وقال قتادةُ: (وَلاَ تَلْحَقُوا الْمُشْرِكِينَ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أي فتُصيبَكم كما تصيبُهم، ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ من أعوانٍ يدفعون عنكم عذابَ الله، ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ على أعدائِكم؛ لأنَّ الله تعالى إنما ينصرُ المطيعِين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ ؛ أي وقتَ الغَداةِ والعصرِ، ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ ؛ أي ساعةً بعد ساعةٍ من الليل، يعني صلاةَ المغرب والعِشَاء. والزُّلْفَى جَمْعُ الزُّلْفَةِ؛ وهي الساعةُ القريبة من أوَّل الليل.

ويقالُ: إن صلاةَ الظُّهر داخلةٌ في قوله (طَرَفَي النَّهَار)؛ لأنَّها لا تقامُ إلا بعدَ الزوال، فإذا زالتِ الشمسُ فقد دخلَ الطرفُ الآخر خُصوصاً إذا اعتبرَ النهارُ من طلوعِ الفجر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ ؛ أي إن الصلواتِ الخمس يُذهِبْنَ الصغائرَ، كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ][٣]. وَقِيْلَ: إنَّ التوبةَ تُكفِّرُ عقابَ السيِّئات، وَقِيْلَ: أرادَ بالحسناتِ: سُبحان الله؛ والحمدُ للهِ؛ ولا إلهَ إلا اللهُ؛ واللهُ أكبر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ أي ذلك الخطابُ تذكيرٌ للذاكِرين الذين يذكُرون أوامرَ اللهِ ويأخذون بها، ويذكرون نَواهِيَهُ فيجتنبون معاصيه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٣٣٤) بأسانيد.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٣٣٦) بلفظ: ((وَلاَ تَلْحَقُوا بالشِّرْكِ، وَهُوَ الَّذِي خَرَجْتُمْ مِنْهُ)).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٤٨٤. ومسلم في الصحيح: كتاب الطهارة: باب الصلوات الخمس: الحديث (١٦/ ٢٣٣). والترمذي في الجامع: أبواب الصلاة: باب في فضل الصلوات الخمس: الحديث (٢١٤؛ وقال: حديث حسن صحيح.

وعن ابنِ عبَّاس قال: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَـةُ فِـي رَجُـلٍ يُقَـالُ لَـهُ عُمَـرَ بْـنَ عَرَفَـةَ الأَنْصَارِيّ، أَتَتْهُ امْرَأَةٌ تَبْتَاعُ تَمْراً فَأَعْجَبَتْهُ، فَقَالَ: إنَّ فِي الْبَيْتِ تَمْراً أَجْوَدَ مِنْهُ، فَانْطَلِقِي مَعِي حَتَّى أَعْطِيكِ مِنْهُ.

فَانْطَلَقَتْ مَعَهُ، فَلَمَّا دَخَلَتِ الْبَيْتَ وَثَبَ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً مِمَّا يَفْعَلُهُ الرَّجُلُ بالْمَرْأَةِ إلاَّ وَقَدْ فَعَلَهُ، إلاَّ أنَّهُ لَمْ يُجَامِعْهَا - يَعْنِي أنَّهُ ضَمَّهَا وَقَبَّلَهَا وَحَذفَ شَـهْوَتَهُ - فَقَالَتْ لَهُ: اتَّقِ اللهَ، فَتَرَكَهَا وَنَدِمَ، ثُمَّ اغْتَسَلَ وَأَتَى إلَى رَسُول اللهِ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ رَاوَدَ امْرَأَةً عَنْ نَفْسِهَا، وَلَمْ يُبْقِ شَيْئاً مِنْ مَا يَفْعَلُـهُ الرَّجُـلُ بالنِّسَـاءِ غَيْرَ أنَّهُ لَمْ يُجَامِعْهَا ؟

فَقَالَ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ لَوْ سَتَرْتَ عَلَى نَفْسِكَ! وَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئاً، فَقَالَ: [مَا أدْرِي، مَا أدْرِي عَلَيْـكَ حَتَّـى يَـأْتِيَ فِيـكَ شَـيْءٌ] فَحَضَـرَتْ صَلاَةُ الْعَصْرِ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الصَّلاَةِ، نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام يُنَبِّؤُهُ بهَذِهِ الآيَةِ، فَقَرَأهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُـولَ اللهِ أخَـاصٌّ لَـهُ أمْ عَـامٌّ؟ فَقَـالَ: [بَـلْ عَـامٌّ لِلنَّـاسِ كُلِّهِمْ](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ ؛ أي فهَلاَّ كان مِن القرون الماضية، وَقِيْلَ: ما كان من القُرون مِـن قبلِكـم ذو تَميـزٍ، ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ عن المعاصِي؛ أي ولِمَاذا أطبَقُـوا كلُّـهم علـى المعصيـةِ حتـى استحَقُّوا بذلك عذابَ الاستئصالِ، والبَقِيَّةُ في اللغة: ما يُمْدَحُ به الإنسانُ، يقال: فلانٌ في بَقِيَّةٍ، وفي بني فُلان بَقِيَّةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ ؛ كانوا ينـهَون عـن الفسـادِ، وهـم الأنبيـاءُ عَلَيْـهِمُ السَّـلاَمُ والصـالحون، فأنجَينَـاهُم مـن العـذاب. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ ؛ أي أقبَلُوا على ما خُوِّلوا مِـن دُنيـاهم،

(١) أخرجه الطـبراني في الجـامع الكبـير: ج ٢٠ ص١١٣: الحديـث (٢٧٧ و٢٧٨). والـترمذي في الجـامع: كتـاب التفسـير: الحديـث (٣١١٢-٣١١٥). والطـبراني في الكبـير: ج ١٠ ص٢٣١: الحديث (١٠٥٦٠ مختصراً. والبخاري في الصحيح: كتاب مواقيت الصلاة: باب صلاة الكفـارة: الحديث (٥٢٦).

واستَغنوا بذلك عن طاعةِ الله، فلم يَنْهَوا عن الفسادِ، وعَتَوا عن أمر الله، وآثَرُوا الدُّنيا وبَطَرُوا، ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ أي وكانوا مُذنِبين بتركِ الأمرِ بالمعروف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ أي لم يكن ليُهلِكَ أهلَ القرى بظُلمٍ منهُ عليهم إذا كان أهلُها مصلحين، ولكن إنَّما كان أهلكَهم بظُلمِهم لأنفسهم. وعن ابنِ عبَّاس ﷺ أنَّ معناهُ: (مَا كَانَ لِيُهْلِكَ أهْلَ الْقُرَى بشِرْكِهِمْ وَهُمْ مُصْلِحُونَ، يَتَعَاطَوْنَ الْحَقَّ بَيْنَهُمْ، أيْ لَيْسَ مِنْ سَبيلِ الْكُفَّار إذا قَصَدُوا الْحَقَّ فِي الْمُعَامَلَةِ، وَتَرْكِ الظُّلْمِ أنْ يُنْزِلَ اللهُ بهمْ عَذاباً يُهلِكُهُمْ). والمعنى: ما كان اللهُ ليُهلِكَهم بشِرْكِهم، وهم مُصلِحون ما بينهم لا يتظالَمون ويتعاطَون الحقَّ بينهم، وإنما يهلِكُهم إذا تظالَموا؛ لأنَّ مكافأةَ الشِّركِ النارُ؛ أي إنما يُهلِكُهم بزيادةِ المعصية على الشِّرك، كما في قوم لُوطٍ وقومِ صالح وقومِ موسى وغيرِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ؛ أي لجعلَهم كلُّهم على دينِ الإسلام، ولكن عَلِمَ أنَّهم كلُّهم ليسوا بأهلٍ لذلك، وَقِيْلَ: لو شاءَ لأَلْجَأَهُمْ إلى الإيمانِ لآمَنُوا كلُّهم ضرورةً، ولكن لو فَعَلَ ذلك لزَالَ التكليفُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ؛ أي في الدِّين على أدْيانٍ شتَّى من يهودِيٍّ ونصرانِيٍّ ومجوسي وغيرِ ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ ؛ إلا مَن عَصَمَهُ اللهُ من الباطلِ والأديان المخالفةِ بأنْ لَطَفَ به، ووفَّقَهُ للإيمان المؤدِّي إلى الثواب، فهو ناجٍ من الاختلاف بالباطلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ ؛ أي وللرَّحمةِ خلقَهم؛ أي لكي يُؤمِنُوا فيرحَمَهم. وَقِيْلَ: معناهُ وللاختلافِ خلقَهم، فتكون اللامُ في هذا لامَ العاقبةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ ؛ أي من كفَّار الجنِّ وكفار الإنس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ ؛ أي كلُّ القِصَصِ وكلُّ ما يحتاجُ إليه نبيِّنهُ لكَ من أخبار الرُّسل ما يطيبُ ويسكنُ به قلبُكَ ويزيدُكَ يَقِيناً ويقوِّي قلبَكَ. وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كان ضَاقَ صدرهُ بما يكون من أذى قومهِ في الله، فقَصصَ اللهُ عليه شيئاً من أخبار الرُّسل المقدِّمين مع أمَمِهم لنثبتَ به

فُـؤادَكَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ﴾ ؛ أي في هـذه السُّـورة الصِّدق من أقاصيصِ الأنبياء وللوعظِ وذكر الجنَّة والنار.

وخُصَّت هذه السورةُ بمجيءِ الحقّ فيها تَشريفاً لها ورَفعـاً لمنْزلَتِـها. وقِيْـلَ: أرادَ بقولهِ (فِي هَذِهِ) الدُّنيـا، والموعظـةُ: تعريـفُ القبيـحِ للزَّجـر عنـه، وتعريـفُ الحسَـنِ للترغيب فيه، وَ؛ هي؛ ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ ؛ الذِّكرى، ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ أي اثبتُوا على ما أنتم عليه كثباتِ الرَّجُل علـى مكانـهِ، وهـذا علـى وجـهِ التـهديد، ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ؛ ما يَعِدُكم الشـيطانُ، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ؛ مـا وَعَـدَ اللهُ بنـا ونزول ما وعدَ الله بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي له ما غابَ عن البلادِ في السَّموات والأرض، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ ؛ أمـرُ العبـادِ، كُلُّـهُ؛ فأطِعْـهُ وفوِّضْ أمركَ إليه، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ أي يَجزي المحسِنين بإحسانهِ، والمسيءَ بإساءَتهِ. وقرأ (يَعْمَلُونَ) بالياءِ علـى معنـى قُـل لَهم ذلك.

عن رسول الله ﷺ قالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ هُودٍ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ نُوحاً وَهُوداً وَشُعَيباً وَلُوطاً وَصَالِحاً وَإبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، وَمَنْ كَذبَـهُمْ عَشْـرَ حَسَـنَاتٍ، وَكَانَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ السُّعَدَاءِ].

تم تفسير سورة (**هود**) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ يُوسُفَ

سُورَةُ يُوسُفَ عليه السلام مِائَةٌ وَإِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً، وَأَلْفٌ وَتِسْعُمِائَةٍ وَسِتَّةٌ وَسِتُّونَ كَلِمَةً، وَتِسْعَةُ آلاَفٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَسِتٌّ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه أنَّهُ قَالَ: [عَلِّمُوا أرِقَّاءَكُمْ سُورَةَ يُوسُفَ، فَأَيُّهَا مُسْلِمٌ قَرَأهَا وَعَلَّمَهَا أهْلَهُ أوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ، هَوَّنَ اللهُ عَلَيْهِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وَأعْطَاهُ مِنَ الْقُوَّةِ أنْ لاَ يَحْسُدَ مُسْلِماً](1) وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُه، قولهُ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ ﴾ ؛ قِيْلَ: معناهُ: هذه الآياتُ الكتاب المبين، وَقِيْلَ: معناهُ: سورةُ يوسف آياتُ الكتاب على القول الذي يقولُ: إن (الر) اسمُ السورةِ. وقولهُ تعالى: (الْمُبِينِ)؛ لأنه يُبَيِّنُ الهدَى والرُّشدَ، وَقِيْلَ: البَيِّنُ حلاله وحرامهُ وحدوده وأحكامهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ ؛ أي أنزَلنا القرآنَ على مجاري كلام العرب في مخاطباتِهم، ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي لكي يُدركُوا معناهُ ويَفهَموا ما فيهِ، ولو نزلَ بغيرِ لغة العرب لم يعلموهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ؛ أي نحن نُبَيِّنُ لكَ أحسنَ البيناتِ، والقاصُّ هو الذي يأتِي بالقصةِ على حقيقتِها.

---

(١) في تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص٤٤٨؛ قال ابن كثير: ((رواه الثعلبي وغيره))، وذكر مسنده وقال: ((وهذا من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكلية. وقد ساق له الحافظ ابن عساكر متابعاً...)) وقال: ((فذكر نحوه وهو منكر سائر طرقه)).

واختلفَ العلماءُ لِمَ سُميت بأحسَنِ القصصِ من بين الأقاصيص، فقيل: سماها أحسن القصص؛ لأنه ليس قصَّةٌ في القرآنِ تتضمَّنُ من العبرةِ والحِكَمِ والنكت ما يتضمَّنُ هذه القصة. وَقِيْلَ: سماعاً أحسنَ القصصِ لامتداد الأوقات في ما بين مبتدَأها إلى مُنتهاها. قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ بَيْنَ رُؤْيَا يُوسُفَ وَمَسِيرَاتِه وَإِخْوَانِهِ أَرْبَعُونَ سَنَةً).

وَقِيْلَ: سَمَّاها أحسنَ القصصِ؛ لأنّ فيها ذِكرَ الأنبياءِ والملائكة والصالحين، والإنسِ والجنِّ والأنعام والطير، والملك والمماليكِ والبحار، والعلماءِ والجهَّال، والرجال والنساءِ وحِيَلِهنَّ ومَكرِهن، وفيها أيضاً ذكرُ التوحيدِ والفقه والسيَر، وتعبيرِ الرُّؤيا والسياسَة والمعاشَرة والتدبير والمعايش، فصارَتْ أحسنَ القصصِ لما فيها من المعانِي الجزيلةِ والفوائد الجليلةِ التي تصلُح للدنيا. وَقِيْلَ: أحسنُ القصصِ بمعنى أعجَب[1].

وَقِيْلَ: أرادَ بأحسنِ القصص جميعَ القصصِ التي في القُرآن، فإنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ في القرآنِ أخبارَ الأُمم الماضية، وحالَ رسُلِهم عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وذكرَ جميعَ ما يحتاجُ العباد إليه إلى يومِ القيامة بأعذب لفظٍ في أحسنِ نَظْمٍ وترتيبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذا الْقُرْآنَ) أي أوحَينا إليك هذا القرآنَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي وقد كُنتَ من قبلِ نُزول جبريل عليكَ بالقرآنِ غَافِلاً عن قصَّة يوسُفَ وعن الحكمةِ فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾؛ الآيةُ متَّصلةٌ بما قبلَها، فإنَّ معناهُ: نحن نقصُّ عليكَ أحسنَ القصص، إذ قالَ يوسفُ لأبيهِ. قرأ طلحة بن مصرف (يُوسِفُ) بكسرِ السين، ثم قرأ ابنُ عبَّاس (يَا أَبَتَ) بفتح التاء في جميعِ القرآن، وأصلهُ على هذا يا أَبَتَا، ثم حُذفت الألف، وأبقى فتحةً دلالةً عليها، قال رُؤبة:

تَقُولُ بِنْتِي قَدْ أَنَى أَنَاكَا ... يَا أَبَتَا عَلَّكَ أَوْ عَسَاكَا

(١) أدرج الناسخ هنا عبارة: (كذا في تفسير الثعلبي). وقد نقله الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٥ ص١٩٧.

وقرأ الباقون (يَا أَبَتِ) بالكسرة على الإضافةِ يقدِّرُها بعدَها، وَقِيْلَ: كُسرت؛ لأنَّها أُجريت مجرَى التأنيثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً) قال المفسِّرون: رأى يوسفُ عليه السلام هَذِهِ الرُّؤيا وهو ابنُ اثنى عشرَ سنةً، قال ابنُ عبَّاس: (وذلِكَ أَنَّهُ قَالَ لأَبِيهِ: يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً نَزَلَتْ مِنْ أَمَاكِنِهَا فَسَجَدَتْ لِي، وَ رَأَيْتُ ﴿ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ ؛ نَزَلاَ مِنْ أَمَاكِنِهِمَا فَسَجَدَا لِي، وَأَرَادَ بذلِكَ سَجْدَةَ التَّحِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا يَقُومُ الْمَلاَئِكَةُ بالسُّجُودِ لآدَمَ عليه السلام).

قال: (وَكَانَتِ الرُّؤْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، وَكَانَ تَأْوِيلُ رُؤْيَاهُ عِنْدَ يَعْقُوبَ: أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ هُوَ فِي حَالَتِهِ، وَأَنَّ أَمَّ يُوسُفَ وَهِيَ رَاحِيلُ كَانَتْ قَدْ مَاتَتْ، وَأَنَّ الأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً إِخْوَةُ يُوسُفَ وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ أَخاً، وإِنَّهُمْ كُلُّهُمْ سَيَخْضَعُونَ لِيُوسُفَ). وَإِنَّمَا تَأَوَّلَهَا يَعْقُوبُ عَلَى ذلِكَ؛ لأَنَّهُ لاَ شَيْءَ أَضْوَأَ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَيَهْتَدِي بضَوْئِهِمَا أَهْلُ الأَرْضِ، ثُمَّ لاَ شَيْءَ بَعْدَهُمَا أَضْوَأَ مِنَ الْكَوَاكِبِ، فَدَلَّتْ رُؤْيَاهُ عَلَى أَنَّ الَّذِي يَخْضَعُونَ لَهُ أَئِمَّةُ الْهُدَى الَّذِينَ يَهْتَدِي النَّاسُ بهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ ثانياً ليس بتكرار؛ لأنه أرادَ بالرُّؤية الثانية رؤيةَ سُجودِهم له، وإنما حُملت الآية على الرؤيا لا على رؤيةِ العينِ؛ لأنا نعلمُ أن الكواكبَ لا تسجدُ حقيقةً للآدميِّين، ولهذا قال يعقوبُ: (لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ).

وعن ابنُ عبَّاس أَنَّهُ قَالَ: (لَمَّا قَصَّ يُوسُفُ رُؤْيَاهُ عَلَى أَبيهِ نَهَرَهُ وَزَجَرَهُ لِئَلاَّ يَفْطَنَ إِخْوَتُهُ، وَقَالَ لَهُ فِي السِّرِّ: إذا رَأَيْتَ رُؤْيَا بَعْدَهَا لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ). فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ ﴾ ؛ لأن رؤيا الأنبياء وحيٌ، يعلم يعقوب أن الإخوة إذا سمعوا بها حسَدوهُ فأمرَهُ بالكتمان، وإنما كان قَصَّهَا على يعقوبَ فقط، وهذا القولُ أقربُ إلى ظاهرِ الآية، أي لا تُخبرهُم بذلك لئَلاَّ يحمِلُهم الحسدُ إلى قصدِكَ بسوءٍ، ومن الخضوعِ له على إنزالِ التثريب عليه والاحتيالِ لهلاكه، والكَيْدُ: هو طلبُ الشرِّ بالإنسان على جهةِ الغَيظِ عليه.

اختُلِفَ فيما عناهُ في هذه اللامِ التي في قولهِ تعالى: (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً) قال بعضُهم: معناهُ: فيَكِيدُوكَ واللامُ صِلَةٌ كقولهِ تعالى: ﴿لِرَبِهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[1]، وقال بعضُهم: هو مثلُ قولِهم: نصَحتُكَ ونَصحتُ لكَ وأشباههِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ؛ أي إنَّ الشيطان عدوٌّ ظاهرُ العدوان لبني آدمَ، فلا تذكُرْ رؤياكَ لإخوتِكَ؛ لئلا يحملُهم الشيطان على الحسَدِ وإنزال الضُّرِّ بكَ.

وهذا أصلٌ في جواز تركِ إظهار النِّعمة عند مَن يُخشى حسدهُ وكَيدهُ، وإنْ كان الله تعالى قال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِكَ فَحَدِّثْ﴾[2]، وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال: [اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بالْكِتْمَان، فَإنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ ؛ أي مثلَ ما رأيتَ من سُجودِ الشمسِ والقمر والكواكب، كذلكَ يصطَفِيكَ ربُّكَ ويختارُكَ، ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ ؛ قِيْلَ: معناهُ: من تأويلِ الرُّؤيا لأنَّ فيه أحاديثَ الناسِ عن رُؤياهم. وَقِيْلَ: معناهُ: أفْهَمَكَ عواقبَ الأمُور والحوادث. ويقالُ: يعلِّمُكَ الشرائعَ التي لا تُعْلَمُ إلا من قِبَلِ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ ؛ أي يُتِمُّ نِعمتَهُ عليك بالنبوَّة كما أتَمَّ النعمةَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ ؛ أي يُتِمَّ النعمةَ أيضاً على أولادِ يعقوبَ بكَ؛ لأن ذلك يكون سرَّ حالِهم؛ أي تكون النبوَّةُ فيهم، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، في أفعالهِ.

---

(١) الأعراف / ١٥٤ . (٢) الضحى / ١١ .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٠ ص٧٨: الحديث (١٨٣) عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل. وفي الأوسط:ج٣ ص٢٢٦: الحديث (٢٤٧٦). وفي المعجم الصغير: ج ٢ ص٢٩٢: الدحيث (١١٨٦). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٩٥: البر والصلة: باب كتمان الحوائج؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه سعيد بن سلام العطاء، قال العجلي: لا بأس به. وكذبه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات، إلا خالد بن معدان لم يسمع من معاذ)). وللحديث شواهد كثيرة.

وفي بعض التفاسير: أنَّ يعقوب عليه السلام كان خطبَ إلى خالهِ ابْنَتَهُ راحيلَ على أن يخدمَهُ سبعَ سنين فأجابَهُ، فلما حلَّ الأجَلُ زوَّجَهُ ابنتَهُ الكبرى لأيَا، فقالَ يعقوبُ لخالهِ: لَمْ يكن هذا على شَرطِي، قال: إنَّا لا نُنكِحُ الصغيرةَ قبلَ الكبيرةِ، فهَلُمَّ فَآخُذْ منِّي سبعَ سنين أخرى وأزوِّجُكَ راحيلَ، وكانوا يجمعون بين الأختين، فرعَى يعقوبُ سبعَ سنين أخرى وزوَّجه راحيل، ودفعَ لكلِّ واحدةٍ من ابنتيه أمَةً تخدمها فوهبتاهما ليعقوبَ عليه السلام فولَدت لأيَا أربعةَ بَنين: روبيل[1] وسَمعون ويهودَا ولاَوي، وولَدت راحيل: يوسُفَ وبنيامين، وولدت الأَمَيَان: بنيامين وهابيل ودان ويسائيل وجادوان وآشير. فجملة بَنيهِ اثنا عشرَ ولداً سِوَى البنتين.

فإن قالَ قائلٌ: إنْ كان يعقوبُ عَلِمَ أنَّ الله يجتبي يوسُفَ ويعلِّمهُ مِن تأويلِ الأحاديث، فلِمَ إذاً قال: (لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ)؟ وكيفَ قالَ لَهم: (وَأخَافُ أنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) مع علمهِ أنَّ الله سيبعثهُ رَسُولاً؟

والجوابُ: أنه عليه السلام كان عَالِماً من طريقِ القطعِ أنَّ الله سيُبلِغُهُ هذه المنْزلة، ولكن كان مع ذلك يخافُ من وصُول الْمَضَارِّ إليه بكَيدِهم، وإنْ لم يخَفِ الهلاكَ. وأرادَ بقولهِ: (أنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) الزجرَ لهم عن التَّهاوُن في حفظهِ، وإنْ كان يعلمُ أن الذئبَ لا يَصِلُ إليه، ولذلك لَمْ يصدِّقهم في قولِهم: (فَأَكَلَهُ الذئبُ)، بل حاجَّهم بما يظهرُ به كَذِبُهم.

وَقِيْلَ: أرادَ بقوله (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) التخلُّصَ من السِّجنِ، كما خلَّصَ اللهُ إبراهيمَ عليه السلام من النار، وإسحقَ من الذبحِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾؛ معناهُ: لقد كان في خَبَرِ يُوسُفَ وإخوَتهِ عبرةٌ للسَّائلين عنهم. وقرأ ابنُ كثير (آيَةٌ) كأنَّهُ جعلَ شأنَهُ كُلَّهُ آيةً للسائلين[3]، وذلك أنَّ اليهودَ سألت النبيَّ ﷺ عن قصَّة يوسُفَ،

---

(١) وربما (روسيل).

(٢) في جامع البيان: مج ٧ ج١٢ ص٢٠١: النص (١٤٤٥٣)؛ أخرج الطبري عن عكرمة قال: (فنعمتهُ على إبراهيم أن نجاه من النار، وعلى إسحق أن نجاه من الذبح).

(٣) ذكره الطبري في جامع البيان: مج ٧ ج١٢ ص٢٠١؛ قال: (وروي عن مجاهد وابن كثير أنهما قرءا على التوحيد).

فأخبَرَهم بها كما في التَّوراة، فعَجِبوا منهُ وقالوا: مِن أين لكَ هـذا يـا مُحَمَّـدُ ؟ قـالَ: [عَلَّمَنِيَهُ رَبي]. وَقِيْلَ: معناهُ: للسَّائلين أي لِمَن سألَ عن أمرِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ ؛ هـذه لامُ القَسَمِ، تقديرهُ: واللهِ ليُوسُفُ وأخوهُ بنيامين أحَبُّ إلى أبينا منَّا، ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ ؛ أي جماعةٌ وكانوا عشرةً، سُموا عصبةً؛ لأن بعضَهم يتعصَّبُ لبعضٍ[1]، ويُعِينُ بعضُهم بعضاً. والعُصبَةُ: ما بين الواحدِ إلى العشرةِ، وَقِيْلَ: إلى الخمسةَ عشر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي من الْخَـاطِئِين في تَرْكِ العدل في المحبَّة بينَنا لَفِي خطأ بَيِّنٍ من التدبير باختياره الصغـيرين، ولا منفعـةَ لـه فيهما علَينا مع أنَّا نسعى في منافعه ونرعَى له غَنَمَهُ ونتعهَّدها.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ ؛ اختلَفُوا في قائلِ هذا القول، قال وهب: (قَائِلُهُ سَمْعُون)، وقال مقاتلُ: (قَالَهُ روبيـل)، وقوله تعالى (أو اطْرَحُوهُ أرْضاً) يعنون أبْعِدُوهُ على وجهٍ يقعُ به اليأسُ مـن اجتماعـهِ مع أبيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أبيكُمْ) أي يَخلُ لكم وجههُ عن يوسُفَ، ويخلصُ محبَّتُهُ لكم، ﴿ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي تَتُوبُوا بعدَ ذلك مـن هذا الذنب، ويصلحُ حالتكم مع أبيكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ ؛ قال أكثر المفسِّرين: القائلُ بهذا هو يَهُودَا، وكان أعقلَهم وأشدَّهم قوةً، والمعنى أنه قالَ لهم اطرحوهُ في قعرِ البئر، ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ ؛ على الطريقِ. والغَيَابَةُ: هو الموضعُ الذي غابَ عن بصرِكَ، والْجُبُّ: هو البئرُ التي لم يُطْوَ بالحجارةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: قال لَهم: إنْ كُنتم لا بدَّ فَاعِلِين به أمراً فَاعْدِلُوا إلى هذا الأمـرِ، وإلاَّ فـاتركُوا كـلَّ ذلـك. والظـاهرُ مـن قولـهِ

---

(١) في المخطوط: (يبغض بعضاً) وهو تصحيف.

(الْجُب) أنه جُبٌّ مُشار إليه معروفٌ، قال وهب: (هُوَ بأَرْضِ الأُرْدُنِّ عَلَى ثَلاَثَةِ فَرَاسِخَ مِنْ مَنْزِلِ يَعْقُوبَ).

فلمَّا أبْرمُوا هذا التدبيرَ وعزَمُوا عليهِ تلطَّفوا بالوصُول إلى مُرادِهم، وجَاؤُا إلى أبيهم، فقالوا كما قالَ اللهُ: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي مَا لَكَ لا تَأمَنَّا عليه، فتُرسِلَهُ معنا وإنَّا له لناصحون في الرَّحمةِ والبرِّ. قولهُ: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ ؛ أي يذهبُ ويجيء وينشطُ؛ ويقرأ كلاهما بالنُّون والياءِ.

والرَّتْعُ: هو التردُّدُ يَميناً وشِمالاً للاتساعِ في الملاذِ. ومن قرأ (يَرْتَعْ) بالياء فهو من يَرْتَعُ؛ أي يرعَى ماشيتَهُ، واللَّعِبُ: هو الفعلُ الذي يطلبُ منه التَّفْريحُ من غير عاقبةٍ محمودة، وهو على وَجهين: مباحٌ ومحظور، كما قالَ عليه السلام: [كُلُّ لَعِبٍ حَرَامٌ إلاَّ ثَلاثَةٌ: مُلاَعَبَةُ الرَّجُلِ أهْلَهُ، وَنَبْلُهُ بقَوْسِهِ، وَتَأدِيبُهُ فَرَسَهُ][1] ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ عن الأَسْوَاءِ؛ وعن كلِّ ما يخافُ عليه.

قولهُ: ﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ ﴾ ؛ أي يحزُنُني ذهابُكم به؛ لأنه يُفارقُني فلا أراهُ، ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ ذكرَ شَيئين: الحزنُ لذهابهم، والخوفُ عليه أن يجده الذِّئبُ وحدَهُ وقتَ غَفلَتِهم عنه فيأكلَهُ. وكان يعقوبُ قد رأى في منامهِ كأنَّ ذِئباً قد عَدَا علَى يُوسفَ، فكان خَائفاً عليه، فمِن ذلك قالَ: (أخَافُ أنْ يَأكُلَهُ الذِّئْبُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ ؛ أي ونحن جماعةٌ ترَى الذِّئبَ قد قصَدَ، ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي لعَاجِزُون، والْخُسْرَانُ هنا العجزُ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢ ص١٩٣: الحديث (١٧٨٥). وفي الأوسط: ج ٨ ص٩٠: الحديث (٧١٧٩) من حديث عمر بإسناد ضعيف. وفي مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢٦٩؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط والكبير والبزار ورجال الطبراني رجال الصحيح، ما خلا عبدالوهاب بن بخت وهو ثقة)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾؛ أي فأرسَلَهُ معهم، فلَمَّا ذهبوا به اتَّفَقَـتْ دَوَاعِيهم أن يجعلوهُ في الْجُب، قال السديُّ: (خَرَجُوا بِهِ مِنْ عِنْدِ أبيهِمْ وَهُمْ مُكْرِمُونَ لَهُ، فَلَمَّا صَارُوا فِي الْبَرِّيَّةِ أظْهَرُوا لَهُ الْعَدَاوَةَ، فَجَعَلَ أخٌ لَهُ يَضْرِبُهُ، فَيَسْتَغِيثُ بالآخَرِ فَيَضْرِبُهُ، لاَ يَرَى فِيْهِمْ رَحِيماً، فَضَرَبُوهُ حَتَّى كَادُوا يَقْتُلُونَهُ.

فَجَعَلَ يَصِيحُ وَيَقُولُ: يَا أبَتَاهُ لَوْ تَعْلَمُ مَا صُنِعَ بابْنِكَ ؟ فَقَالَ لَهُمْ يَهُودَا: ألَيْسَ قَدْ اعْطَيْتُمُوهُ مَوْثِقاً ألاَّ تَقْتُلُوهُ ؟ فَانْطَلَقُوا بهِ فِي الْجُب فَدَلُّوهُ فِيْهِ، فَتَعَلَّقَ بشَفِيرِ الْبِئْرِ، فَرَبَطُوا يَدَيْهِ وَنَزَعُوا قَمِيصَهُ وَقَالَ: يَا إخْوَتَاهُ رُدُّوا عَلَيَّ قَمِيصِي أتَوَارَى بهِ، فَقَالُوا: أدْعُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً يُلْبسُوكَ وَيُؤْنِسُوكَ، فَدَلَّوهُ حَتَّى إذا بَلَغَ نِصْفَ الْبِئْرِ ألْقَوْهُ وَأرَادُوا أنْ يَمُوتَ، وَكَانَ فِي الْبِئْرِ مَاءٌ فَسَقَطَ فِيْهِ، وَآوَى إلَى صَخْرَةٍ فَقَامَ عَلَيْهَا وَجَعَلَ يَبْكِي، فَنَادَوا فَظَنَّ أنَّ الرَّحْمَةَ أدْرَكَتْهُمْ فَأجَابَهُمْ، فَأرَادُوا أنْ يَرْضَخُوهُ بالْحِجَارَةِ لِيَقْتُلُوهُ فَمَنَعَهُمْ يَهُودَا، وَكَانَ يَهُودَا يَأْتِيهِ بالطَّعَامِ)[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾؛ قال المفسِّرون: أوحَى اللهُ إلى يوسفَ في البئرِ تَقْوِيَةً لقلبهِ: لَتَصْدُقَنَّ رُؤْيَاكَ، وَلَتُخْبرَنَّ إخْوَتَكَ بصُنْعِهِمْ هَذا بَعْدَ الْيَوْمِ،﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾؛ بأنَّ يوسفَ في وقتِ إخبارِكَ إيَّاهم بأمرهم، وكان فيما أُوحي إليه: أنِ اصبر على ما أصابَكَ واكْتُمْ حالَكَ، فإنَّكَ تُخبرُهم بما فعَلُوا بكَ.

وعن ابنِ عبَّاس قال: (كَانَ يَوْمَئِذٍ ابْنَ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَبَقِيَ فِي الْجُب ثَلاَثَةَ أيَّامٍ). وفي بعضِ الرواياتِ: أنه لَمَّا أُلقِيَ في الْجُب جعلَ يقول: يا شاهداً غيرَ غائبٍ، ويا قريباً غيرَ بعيدٍ، ويا غالباً غيرَ مغلوبٍ: اجعَلْ لي من أمْرِي فَرَجاً ومَخرجاً، فأوحَى اللهُ إليه وهو في البئرِ: اصبرْ على ما أصابَكَ واكْتُمْ حالَكَ، فإنَّكَ تخبرُ إخوانَكَ في وقتٍ عن ما فعَلُوا بكَ في وقتِ إخباركَ إيَّاهم بأمرِهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٤٧٧).

ثم عَمَدوا إلى سَخْلَةٍ فذبَحوها، وجعلوا دَمَها على قميص يوسف، ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءً يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي يتبَاكون، ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ ﴾ أي نتسابقُ في الرَّمي، وَقِيلَ: نُسابِقُ في الاصطياد، ﴿ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ ؛ ليحفظَهُ، ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا ﴾ ؛ أي بمُصَدِّق لنا في أمرِ يوسف لفَرطِ محبَّتِكَ له وتُهمَتِكَ إيانا فيه، ﴿ وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ محل الصدقِ عندكَ في غير هذا الحديثِ.

ثم أرَوهُ قميصَهُ ملطَّخًا بالدم، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ ﴾ ؛ أي بدَمِ كذبٍ، فلمَّا نظرَ يعقوبُ إلى القميصِ قالَ: ما عهدتُ ذِئْباً حَليماً مثلَ هذا الذئب! فكَيْفَ أكلَ لحمه ولم يخرِّقْ قميصَهُ؟! ولو أنَّهم كانوا مزَّقوا قميصَهُ حين لطَّخوهُ بالدمِ، كان ذلك أبعدَ عن التُّهمةِ عنهم[1]، ولكن لا بدَّ في المعاصي أن يقترنَ بها الخزنان، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ يعقوبُ: كَذبْتُمْ، ﴿ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ ﴾ أي زيَّنت لكم أنفسُكم في هلاكِ يوسف فضيَّعتموهُ. ويقالُ: إن يعقوب كما قال لَهم: لو أكلَهُ الذئبُ فشَقَّ قميصَهُ ! قالوا: لو قتلَهُ اللصوصُ لَمَا تركُوا قميصَهُ، هل يريدون إلا الثيابَ والمتاعَ، فسَكتوا متحيِّرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ ﴾ ؛ أي فصبرٌ جَميلٌ أوْلَى من الجزَعِ، والصبرُ الجميل هو الذي لا شَكوَى فيه، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي معناهُ: أستعينُ باللهِ على الصبرِ في ما يقولون.

ورُوي: (أنَّ شُرَيْحاً كَانَ جَالِساً لِلْقَضَاءِ، فَجَاءَتْهُ امْرَأةٌ تَبْكِي وَتَشْكُو، فَقِيلَ لَهُ: يُوشِكُ أنْ تَكُونَ هَذِهِ مَظْلُومَةً، فَقَالَ شُرَيْحُ: قَدْ جَاءَ إخْوَةُ يُوسُفَ أبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ وَهُمْ كَذبَةٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ ﴾ ؛ أي جاءَت قافلةٌ من المسافرين بعد أن مكثَ يوسفُ عليه السلام في الْجُب ثلاثةَ أيَّام. يُروى أنَّهم جاءوا من قِبَلِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٤٩٢) عن الشعبي قال: ((ذبَحُوا جَدْياً وَلَطَّخُوهُ مِنْ دَمِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ يَعْقُوبُ إلَى الْقَمِيصِ صَحِيحاً، عَرَفَ أنَّ الْقَوْمَ كَذبُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: إنْ كَانَ هَذَا الذِّئْبُ لَحَلِيماً، حَيْثُ رَحِمَ الْقَمِيصَ وَلَمْ يَرْحَمْ ابْنِي! فَعَرَفَ أنَّهُمْ قَدْ كَذبُوهُ)).

مَدْيَنَ يريدون مُعَرِّفاً خطرَ الطريقِ، فتحيَّرُوا وجعلوا يَهيمُونَ حتـى وقَعُـوا في الأرضِ التي فيها الْجُبُّ، فأرسَلَ كلُّ قومٍ منهم واردَهم، والواردُ الذي يُقَوِّمُ القومَ لطلبِ الماء، فوافَقَ الْجُبُّ مَالِكَ بْنَ ذعَرٍ وهو رجلٌ من العرب من أهل مَدينَ، ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ في البئرِ، فتعلَّقَ بها يوسفُ، فلم يَقدِرُوا على نَزْعِـهِ، فنَظَـرُوا فـرأوا غُلامـاً قـد تعلَّـقَ بالدَّلْوِ، فنادَى أصحابَهُ فَـ ﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ ، قـال: مَـا ذاكَ يـا مـالِكُ؟ قال: غلامٌ أحسنَ ما يكون من الغِلمَان. فاجتمَعُوا عليه وأخرَجوهُ.

قال كعبٌ: (كَانَ يُوسُفُ حَسَنَ الْوَجْهِ جَعِدَ الشَّعْرِ ضَخْمَ الْعَيْنِ مُسْتَوِيَ الْبَطْـنِ صَغِيرَ السُّرَّةِ، وَكَانَ إذا تَبَسَّمَ رَأَيْتَ النُّورَ فِي ضَوَاحِكِهِ، لاَ يَسْتَطِيعُ أحَدٌ وَصْفَهُ، وَكَانَ حُسْنُهُ كَضَوْءِ النَّار وَكَانَ يُشْبهُ آدَمَ يَوْمَ خَلَقَـهُ اللهُ تَعَـالَى قَبْـلَ أنْ يُصِيـبَ الْمَعْصِيَـةَ). ويقال: إنه وَرِثَ ذلك الجمالَ من جدَّتهِ سارة، وكانت قد أُعطيت سُدُسَ الْحُسْنِ.

وقولهُ تعالى: (قَالَ يَا بُشْرَى هَذا غُلاَمٌ) من قرأ (يَا بُشْـرِي) أي بيـاء الإضافـة، فهو خطابٌ للفرَحِ على القلب، كما قالَ: يا فَرَحِي يا طُوبَايَ ويَـا أسَـفِي. ومـن قـرأ بغيرِ ياء الإضافة فمعناهُ تبشيرُ الأصحاب، كما يقالُ: يا عَجَبًا ويرادُ به يـا أيُّـها القـومُ اعجَبُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ ؛ أي أسَرَّ الذين وجَدُوا يوسُفَ من رُفَقَائِهم ومِـن القافلـة مخافـةَ أن يَطلُـبَ أحـدٌ منـهم الشِّـركَةَ معـهم في يوسـف ، قولـهُ: (وَأسَرُّوهُ بضَاعَةً) نُصِبَ على المصدر؛ أي قالوا في ما بينَهم: إنَّا نقولُ إن أهـلَ المـاءِ استَبضَعُوكَ بضاعةً، ويجوزُ أن يكون (بضَاعَةً) نَصباً علـى الحـالِ علـى معنـى أنَّـهم كَتَمُوهُ حين أعقَدُوا التجارةَ فيه.

ويقال: إن قولَهُ (وَأسَرُّوهُ بضَاعَةً) راجعٌ إلى إخوَةِ يوسـف، فإنـه رُوي أنَّـهم جَاؤُا بعدَ ثلاثةِ أيَّام فلم يجِدُوا في البئرِ، فنظَرُوا فإذا القومُ نُزُولٌ بقُرب البئرِ، فإذا هـم بيوسُفَ، فقالوا لَهم: هذا عبدٌ آبقٌ منذُ ثلاثةِ أيام، وقالوا لِيُوسُفَ: لئِـنْ أنكـرتَ أنَّـكَ عبدٌ لنا فلَنَقتُلَنَّكَ، وقالوا للقومِ: اشتَرُوا مِنَّا فذلك معنى قولهِ (وَأسَرُّوهُ بضَاعَةً) بـأن طلَبُوا من يوسُفَ كتمانَ نسَبهِ، إلا أنَّ القولَ الأوَّلَ أقربُ إلى ظاهرِ الآيَة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي بيوسُفَ، وهذا يجرِي مجرَى الوعيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ ؛ أي بَاعوهُ إخوتُهُ من مالكِ بن دُعْرٍ بعشرينَ دِرهَماً، فأصابَ كلٌّ منهم دِرهَمين فلم يأخُذْ يهُودَا نصيبَهُ، وأخذهُ الباقون، وقال الضحَّاكُ: (بَاعُوهُ باثْنَي عَشَرَ دِرْهَماً). وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ (بثَمَنٍ بَخْسٍ) أيْ بثَمَنٍ حَرَامٍ؛ لأنَّهُ سَمَّى الْبَخْسَ حَرَاماً، وَسَمَّى الْحَرَامَ بَخْساً؛ لأنَّهُ لاَ بَرَكَةَ فِيْهِ). وقال الكلبيُّ: (بَاعُوهُ باثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ دِرْهَماً). وقولُهُ تعالى: (مَعْدُودَةٍ) أي قليلةٍ، وذِكْرُ العددِ عبارةٌ عن القلَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي لم يكُن لَهم فيه رغبةٌ ولا في ردِّهِ على أبيهِ، ولم يعلَمُوا منْزلتَهُ من اللهِ تعالى، يعني: أنَّ إخوةَ يوسُفَ كانوا في يوسف من الزَّاهدِين؛ لأنَّهم لم يعرفُوا كرامتَهُ على اللهِ تعالى. وَقِيْلَ: كانوا في يُمْنِهِ من الزَّاهدين أن عرضهم أن يُغَيِّبُوهُ عن أبيهِ، وكتَمَ يوسفُ شأنه مخافةَ أن يقتلَهُ إخوتهُ، و(شَرَوْهُ) أي باعوهُ، قال الشاعرُ:

وَشَرَيْتُ بُرْداً لَيْتَنِي ... مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَهْ

أي بعتُ بُرْداً وهو غلامهُ.

ثم انطلقَ مالك بن دُعْر وأصحابهُ بيُوسُفَ ومعهم إخوتهُ يقولون: استَوثِقُوا منه فإنه آبقٌ سارقٌ كاذب، وقد بَرِئْنَا إليكم من عُيوبهِ. فحمله مالِكُ بن دُعر على ناقتهِ وسارَ به نحو مِصْرَ، وكان طريقُهم على قبرِ أمهِ، فلما بلغَ قبرَ أمه أسقطَ نفسه من الناقةِ وهو يبكِي ويقولُ: يا أماهُ ارفَعِي رأسَكِ من الثَّرى، وانظُرِي إلى ولدكِ يوسفَ وما لَقِيَ بعدَكِ من البلايَا، يا أماهُ لو رأيتِي ضَعفِي وذُلِّي، يا أماه لو رأيتِني، نزَعُوا قميصي وشدُّونِي، وفي الْجُب ألقونِي وعلى حرِّ وجهي لطَمُونِي، وبالحجارةِ رجَمونِي.

ثم فقدَهُ مالك بن دُعر فصاحَ في القافلةِ: ألاَ إنَّ الغلامَ رجعَ إلى أهلهِ، فطلبوهُ فوجدوه، فقال له رجلٌ منهم: يا غلامُ قد أخبَرَنا مواليكَ أنك آبقٌ سارقٌ، فلم نصدِّقْ حتى رأيناكَ، فقال: واللهِ ما آبقْتُ، ولكنَّكم مرَرتُم على قبرِ أمِّي، فلم أتمالَكْ أن رميتُ نفسي عليه، فرفعَ يده فلطَمَ وجهَهُ حتى حمله على ناقتهِ.

وذهَبُوا به حتى قَدِمُوا مصرَ، فأمرَهُ مالك بن دُعر حتى اغتسلَ ولَبسَ ثوباً حَسَناً، وعرضَهُ على البيعِ، فاشتراهُ قطفيرُ بن رُوَيحِب لامرأته، قال وهب: (تَرَافَعَ النَّاسُ فِي ثَمَنِهِ وَتَزَايَدُوا حَتَّى بَلَغَ ثَمَنُهُ وَزْنَهُ مِسْكاً وَوَرِقاً، فابتاعَهُ قطفيرُ بهذا الثمنِ وأتى به إلى منْزله)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ ﴾ ؛ واسمُها رَاعِيل: ﴿ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ ﴾ ؛ أي أحْسِنِي طولَ مُقامهِ عندَنا، ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ ؛ في أمُورنا ونبيعُ فنربح في ثمنِه، ﴿ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ ﴾ ؛ نسبناه، وكان العزيزُ عقيماً، أو حصُوراً لا يولَدُ له، إنما قالَ لِمَا رأى على يوسُفَ من الجمالِ والعقلِ والهدايةِ إلى الأمُور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ أي كما خلَّصناهُ من البئر وإخوته كذلك مكَّنَّاهُ فيها حتى بلَغَ ما بلغَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ﴾ ؛ أي لنُعلِّمَهُ من ضُروب العلوم، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ ﴾ أي لا يقدرُ أحدٌ منكم دفعِ ما أرادَ من أمرهِ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أن اللهَ غالبٌ على أمرهِ وهم المشركون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا بَلَغَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سنَةً آتَيْنَاهُ النُّبُوَّةَ وَالفِقْهَ، وَجَعَلْنَاهُ حَكِيماً عَلِيماً)، قال: (وَالأَشُدُّ مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ إلَى ثَلاَثِينَ سَنَةً)[2]. ويقال: أقصاهُ اثنان وستُّونَ سنةً، فأما الاستواءُ فهو أربعونَ سَنةً. وقال الحسنُ: (أعْطِيَ يُوسُفُ الرِّسَالَةَ عِنْدَ هَذِهِ الْحَالَةِ، وَكَانَ أعْطِيَ النُّبُوَّةَ مِنْ قَبْلُ).

ويقال: معناه: وآتيناهُ حُكماً وعلماً بين الناسِ، فإذا الناسُ كانوا تحاكَمُوا إلى العزيزِ، أمرَهُ أن يحكمَ بينهم؛ لِمَا رأى من عقلهِ وأمانته وعلمه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي كما جَزَينا يوسُفَ على صبرهِ على الْمِحَنِ، كذلك نَجزِي الْمُحسِنِين في أقوالِهم وأفعالهم.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص١٥٨.

(٢) ذكره الطبري في جامع البيان: تفسير الآية: الأثر (١٤٥٥١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ ؛ أي رَاوَدَتْـهُ امـرأةُ العزيزِ واسْمُها زُلَيْخَا، وكان يوسفُ من أحسـن البشر، وكـان كضَـوءِ النَّـهار ونـور الشَّمسِ، وكان بحيث لا يستطيعُ آدميٌّ أن يصِفَـهُ، فراودَتـهُ أي طالَبَتـه لِمُرادِهـا منه، ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ ﴾ ؛ عليهِ وعليها وطلَبـت منـه أن يُواقِعَـها، قولـهُ (وَغَلَّقَـتِ الأَبْوَابَ) قال المفسِّرون أغلقَت سبعةَ أبوابٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ ﴾ ؛ أي هَلُمَّ إلى ما هُيِّءَ لك، قرأ ابنُ كثير (هَيْتُ لَكَ) بفتح الهاء وضمِّ التاء، وقرأ أهلُ المدينة والشـام بكسـرها وبفتـح التـاءِ، وقرأ الباقون بفتح الهاءِ والتاء، وهي قراءةُ النبيِّ ﷺ، ومعناهُ جميعاً: هَلُـمَّ وأقبـلْ، قـال مجاهدُ: (تَدْعُوهُ إِلَى نَفْسِهَا وَهِيَ كَلِمَةُ حَثٍّ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ ﴾ ؛ أي أعوذ بـاللهِ أن أفعـلَ مـا لا يجـوزُ لِـي فِعْلهُ. وَقِيْلَ: اعتصمُ باللهِ عن فعلِ ما تدعُنِّي إليـه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ ؛ ذهـبَ أكـثرُ المفسِّـرين إلى أنَّ معنـاهُ: إنَّ زوجَـكِ سـيِّدي أحسـنَ تربيَـتي ومنْزِلَتِي مدَّةَ مُقامِي عندَهُ، لا أخونهُ في أهلهِ.

سَمَّاهُ رَبّاً للرقِّ الذي كان ثبتَ له في الظاهرِ عليه. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: إن اللهَ تعـالى ربي أحسنَ إِلَيَّ بتخليصِي من البئرِ وما قصدَنِي قَومِي مـن الهـلاكِ، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يَأْمَنُ ولا ينجُو من عذاب الله الذين يظلِمُون أنفسهم، أراد بهم الزُّنَاةَ، ويجوزُ أن يكون أرادَ لـو فَعَـلَ مـا دَعَتْـهُ إليـه لكـان ظَالِمـاً لزَوجِـها في أهلهِ.

وفي قولهِ (هَيْتَ) خلافٌ من فتحِ التاء فلِسُكونِها وسكونِ الياء قبلَها نحوُ: كيفَ وأينَ، ومَن ضَمَّ التاءَ فعلى أنَّها مبنيَّةٌ على الضمِّ نحو حيثُ ومنذ، ومَن قرأ بفتحِ الهـاء وكسرِ التاء فلأنَّ الأصلَ في التقاءِ السَّاكِنَين حركةُ الكسرِ، ويجوز أن يكون مبنيّاً علـى الكسرِ مثل أمسِ وجَيْرِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيـان: الأثـر (١٤٥٦٤) بمعنـاه، وابـن أبـي حـاتم في التفسـير: الأثـر (١١٤٦٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ ؛ قال الحسنُ: (أمَّا هَمُّهَا فَأحَبُّ هَمٍّ وَهُوَ الْعَزْمُ عَلَى الْفَاحِشَةِ، وَأمَّا هَمُّهُ فَهُوَ مَا طُبعَ عَلَيْهِ الرِّجَالُ مِنْ شَهْوَةِ النِّسَاءِ مِنْ دُونِ عَزْمٍ عَلَى الزِّنَا).

واختلفَ أهلُ العلمِ في ذلك، فرُوي عن ابنِ عبَّاس أنه سُئِلَ: مَا بَلَغَ مِنْ أمْرِ يُوسُفَ؟ قَالَ: (حَلَّ الْهِمْيَانَ[1] وَجَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الْخَاتِنِ)[2]. وعن ابن أبي مليكة قال: سَألْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: مَا بَلَغَ مِنْ أمْرِ يُوسُفَ ؟ قَالَ: (اسْتَلْقَتْ لَهُ عَلَى قَفَاهَا وَقَعَدَ بَيْنَ رجْلَيْهَا يَنْزِعُ ثِيَابَهُ)[3] وهو قولُ سعيدِ بن جُبير والضحَّاك والسديُّ.

ورُوي عن ابنِ عبَّاس: (أنَّه لَمَّا راوَدت يوسُفَ جعلت تذكرُ محاسنَهُ وتشوِّقه إلى نفسها، فقالت: يا يوسفُ ما أحسنَ ماء عينيكَ؟ قال: هو أوَّلُ ما سِيلَ على الأرضِ من جسَدِي، قالت: ما أحسنَ وجهَكَ؟ قال: هو للتُّراب يأكلهُ، قالت: ما أحسنَ شَعْرَك، قال: هو أوَّلُ سَتْرٍ من بدَنِي، قالت: ما أحسنَ صُورَتَكَ، قال: ربي صوَّرَنِي، قالت: يا يوسفُ صورةُ وجهكَ انْحَلَتْ جسمي، قال: إن الشيطانَ يُعِينُكِ على ذلكَ، قالت: فراشُ الحريرِ قد بسطتهُ قم فاقضِ حاجَتِي، قال: إذن يذهبُ نصيبي من الجنَّة، قالت: أدخل في السترِ معي، قال: ليس بشيءٍ يستُرنِي من ربي.

فلم تزَلْ تدعوهُ إلى اللذة، ويوسف شابٌّ مستقبلٌ يجد من شبق الشباب ما يجدُ الرجل، وهي حسناءُ جميلة حتى لانَ لها لما يرى من كَلَفِها به وهمَّ بها)[4].

فهذه أقاويلُ أجِلَّةِ أهلِ التفسير، وقال جماعةٌ من المتأخِّرين: (لاَ يَلِيقُ هَذا بالأنْبيَاءِ) وأوَّلوا الآيةَ، قال بعضُهم: هَمَّ بالفرار، وهذا لا يصحُّ لأن الفرارَ مذكَّرٌ، وَقِيْلَ: هَمَّ بضَربها ودَفعِها ومخاصمتها، وقال بعضُهم معنى قوله: (وَهَمَّ بهَا) تمنَّاهَا أن تكون له زوجةً.

---

(١) الهميان: شداد السروايل.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٥٨٦) و(١٤٥٩٢) عن سعيد بن جبير وابن عباس. وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١٤٧٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٥٨٦) بأسانيد عديدة، والأثر (١٤٥٩٠).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٥٨٤) و(١٤٥٨٥) عن السدي. وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١٤٧٥).

وقال أهلُ الحقائق: الْهَمُّ هَمَّان: همٌّ مقيمٌ ثابت، وهو إذا كان معه عَـزْمٌ وعقـدٌ ونيَّة ورضًى مثل هَمِّ امرأةِ العزيزِ، فالعبدُ مأخوذٌ به، وهَمٌّ عارضٌ وارد وهو الْخَطْـرَةُ والفكرةُ وحديث النَّفسِ من غـيرِ اختيـارٍ ولا عَـزْمٍ مثـل هـمِّ يوسـف، والعبـدُ غـير مأخوذٌ به.

وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [إنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَـنْ أُمَّتِـي مَـا حَدَّثَـتْ بـهِ أنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أوْ يَفْعَلُوا بهِ][١]. عن ابن عبَّاس قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَـا مِنْ أحَدٍ يَلْقَى اللهَ قَدْ هَمَّ بخَطِيئَةٍ قَدْ عَمِلَـهَا، إلاَّ يَحْيَـى بْـنَ زَكَرِيَّـا فَإنَّـهُ لاَ يَـهِمُّ ولَـمْ يَفْعَلْ][٢].

وقال بعضُهم في قولهِ (وَلَقَدْ هَمَّتْ بهِ وَهَمَّ بهَا) قال أبو العبَّاس أحمدُ بن يحيـى ثعلب: (هَمَّتِ الْمَرْأةُ بالْمَعْصِيَةِ مُصِرَّةً عَلَى ذلِكَ، وَهَمَّ يُوسُفُ بالْمَعْصِيَةِ وَلَمْ يَأْتِهَا). وَقِيْلَ: هَمَّت المرأةُ عازمةً علـى الزنـى، ويوسـفُ عارَضَـهُ مـا يعـارضُ الشـبابَ مـن خَطَراتِ القلب وحديث النَّفس، فلم يلزمه، وهذا الْهَمُّ ليـس ذنبـاً إذ الرجـلُ الصـائم يخطرُ بقلبهِ شرابُ الماءِ البارد، فإذا لم يشرب كان غيرَ مُؤَاخَذٍ بما يحسُّ في نفسهِ فيه.

وقال الزجَّاج: (وَهَمَّ بهَا وَجَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الرَّجُـلِ مِـنَ الْمَـرْأةِ، إلاَّ أنَّ اللهَ تَعَالَى تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بأنْ أرَاهُ الْبُرْهَانَ، ألاَ تَرَاهُ قَالَ: وَمَا أبَرِّئُ نَفْسِي)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ اختلَفُوا في هــذا البرهـان، قـال ابنُ عبَّاس والحسنُ وابن جبير ومجاهد: (رَأى صُـورَةَ يَعْقُـوبَ عَاضّـاً عَلَـى أنَامِلِـهِ)[٤]،

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٤ ص٣٨٨: الحديث (٣٦٦١) عـن أبـي هريـرة ﷺ. والإمـام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٥٥ و٤٢٥ و٤٧٤. والبخاري في الصحيح: كتاب العتق: بـاب الخطـأ والنسيان: الحديث (٢٥٢٨)، وفي الإيمان: باب تجاوز الله عن حديث النفس: الحديث (٦٦٦٤). وأبو داود في السنن: كتاب الطلاق: باب ما جاء فيمن يحدث نفسه: الحديث (٢٢٠٩).

(٢) في الدر المنثور: ج ٤ ص٤٨٨؛ قـال السـيوطي: ((أخرجـه أحمـد والحكيـم الـترمذي في نـوادر الأصول والحاكم وابن مردويه)) وفي ص٤٨٦؛ قال: ((أخرجه عبدالرزاق وأحمد في الزهد وعبد ابن حميد وابن أبي حاتم)). وقد تقدم.

(٣) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٨٢.

(٤) أخرجـه الطـبري في جـامع البيـان: الأثـر (١٤٦٠٠) عـن سـعيد، و(١٤٦٠٢) عــن مجـاهد، و(١٤٦٠٧) عن الحسن.

وقال قتادةُ: (سَمِعَ صَوْتاً: يَا يُوسُفُ إنَّهُ فِعْلُ السُّفَهَاءِ، وَأنْتَ مَكْتُوبٌ فِي دِيوَانِ الأَنْبيَاءِ)[1].

ويقالُ: خرج كَفٌّ بينَهما بلا جسدٍ مكتوبٌ فيه ثلاثةُ أسطُرٍ؛ إحداها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾[2] والثاني: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾[3]، والثالثُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾[4].

وعن محمَّد بن كعبٍ القُرظي قال: (مَعْنَى (لَوْلاَ أنْ رَأى بُرْهَانَ رَبهِ): لَوْلاَ مَا عَلِمَهُ مِنْ قَبيحِ الزِّنَى، وَوُجُوب الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِ)[5] وَهَذا كُلُّهُ مَحْذُوفُ الْجَوَاب، وَجَوَابُهُ: لَوْلاَ ذلِكَ لَعَزَمَ عَلَى الْقُبْحِ، وَعَمِلَ عَلَى مقتضى شَهْوَتِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ ﴾ ؛ أي كما مكَّنَّا له في الأرضِ، كذلك أريناهُ البرهانَ (لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ) أي الخيانةَ (وَالْفَحْشَاءَ) يعني الزِّنَى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ الذين أخلَصُوا دِينَهم للهِ، ومَن قرأ بفتحِ اللام فمعناهُ: مِن عِبادنا الذين أخلَصْناهم واصْطَفَيناهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ ﴾ ؛ قال السديُّ: (ذلِكَ أنَّ زُلَيخَا قَالَتْ لِيُوسُفَ حِينَ أغْلَقَتِ الْبَابَ: مَا أحْسَنَ شَعْرَكَ ﷺ إلَى آخِرِ الْكَلاَمِ) وَقَدْ تَقَدَّمَ ذلِكَ حَتَّى هَمَّ بهَا، فَلَمَّا رَأى الْبُرْهَانَ قَامَ مُبَادِراً إلَى الْبَاب هَارِباً، فَاتَّبَعَتْهُ الْمَرْأةُ فَأدْرَكَتْهُ، فَلَمَّا أحَسَّتْ بقُوَّتِهِ مَزَّقَتْ آخِرَ قَمِيصِهِ مَانِعَةً لَهُ مِنَ الْخُرُوجِ. والقَدُّ قطعُ الشيءِ بأسرهِ طُولاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ ﴾ ؛ صَادفا زوجَها عند الباب جَالساً، فلمَّا رأتْهُ هَابَتْهُ، و﴿ قَالَتۡ ﴾ سابقةً بإلقاءِ الذنب على يوسف: ﴿ مَا جَزَآءُ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١٤٨٣ و١١٤٨٤).

(٢) البقرة / ٢٨١. (٣) الإسراء / ٣٢.

(٤) الانفطار / ١٠-١١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١١٤٨٩).

مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ؛ يعني الزِّنى، ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ ؛ أن يُودَعَ في السجنِ، أَوْ؛ يُعَذبَ، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ ؛ يعني الضَّربَ الوجيعَ.

فلمَّا قالت المرأةُ ذلك، لَمْ يجِدْ يوسُفُ بُدّاً من تبرئةِ نفسه، ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ ؛ أي طالَبَتني بمُرادِها من نفسي فأبَيتُ وفرَرْتُ منها، فأدركَتْني وشقَّتْ قَميصِي، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ ،وكان مع زوجِها بالباب، ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ، ابنُ عمٍّ لها حكيم، فقال ابنُ عمِّها: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ ؛ إنْ كان شُقَّ القميصُ مِن قُدَّامِه، ﴿فَصَدَقَتْ﴾ ؛ فهي صادقةٌ، ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ، وإنْ كانَ من خَلْفِهِ فهو صادقٌ، وقال الضحَّاك: (كَانَ الشَّاهِدُ صَبِيّاً فِي الْمَهْدِ فَأَنْطَقَهُ اللهُ تَعَالَى)[1]. قِيْلَ: كان ذلك الصبيُّ ابنَ خالِ المرأة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ ؛ أي فلمَّا رأى ابنُ عمِّها قُدَّ القميصُ من خلفٍ، ويقال: فلمَّا رأى زوجُها ذلك، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ ؛ أي قولُها (مَا جَزَاءُ مَنْ أرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءً) من مَكرِكُنَّ، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ .

ثم قالَ ليوسُفَ بعدَما ظهرَتْ براءتهُ: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ ؛ يعني أمْسِكْ ذِكرَهُ حتى لا ينتشرَ في البلدِ وفي ما بين الناس، ثم أقبلَ عليها وقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ ؛ فإن الخطابَ كان منكِ القَيتِهِ على يوسف.

وقد احتجَّ مالكُ والحسنُ بن حي[2] في الحكم بالعلامة بهذه الآيةِ: أنَّ اللُّقَطَةَ إذا ادَّعَاهَا مُدَّعٍ وَوَصَفَهَا وَجَبَ عَلَى الْمُلْتَقِطِ انْ يَدْفَعَهَا إِلَيْهِ عَلَى مَذْهَبِهِمَا. ولا حجَّةَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٦٣٠).

(٢) الحسن بن حيّ؛ هو: ابن صالح بن صالح بن حي، وهو: حيَّان بن شُفَي بن هُني بن رافع الهمداني الثوري. قال البخاري: (يقال: حي لقبٌ). واختلف القول فيه؛ قال عنه أحمد: (الحسن ابن صالح صحيح الرواية، متفقه، صائن لنفسه الحديث والورع)، وقال يحيى بن معين: (ثقة، مأمون، مستقيم الحديث، يكتب رأي مالك، والأوزاعي، والحسن بن صالح هؤلاء ثقات). ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (١٣٠٧): ج ٢ ص٢٦٤-٢٦٨.

لهما في هذه الآيةِ، إذ لا خلافَ بين الفُقهاءِ أن الأملاكَ والأيدي لا تستَحقُّ بالعلاماتِ، فإنَّ العطَّارَ والدباغَ إذا اختلفَا في عِطْرٍ في أيدِيهما لم يكن العطارُ أوْلَى به من الدَّباغِ، وكذلك الاسكافِيُّ والصَّيرَفِيُّ إذا اختلفَا في حذاءٍ في يدِ الصيرفِيِّ لم يستحقُّهُ الاسكافِيُّ؛ لأن ذلك من صِناعتهِ.

وعن مجاهد: (أنَّ امْرَأتَيْنِ اخْتَصَمَتَا إلَى شُرَيْحٍ فِي وَلَدٍ لَهُنَّ، فَقَالَ شُرَيْحُ: أَلْقُوهَا مَعَ هَذِهِ، فَإنْ هِيَ رَدَّتْ وَفَرَّتْ وَاسْتَفَزَّتْ فَهِيَ لَهَا، وَإنْ هَرَبَتْ وَفَرَّتْ فَلَيْسَتْ لَهَا)[١]. وكان ذا القولِ من شُريح على جهةِ ما يغلبُ في الظنِّ ليميِّز المبطلَ من المدعِيَين فنحكمُ عليه بالإقرار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (هُنَّ أرْبَعُ نِسْوَةٍ: امْرَأةُ سَاقِي الْمَلِكِ، وَامْرَأةُ خَبَّازِهِ، وَامْرَأةُ صَاحِب سِجْنِهِ، وَامْرَأةُ صَاحِب دَوَابِهِ، قُلْنَ فِي امْرَأةِ الْعَزِيزِ: إنَّهَا تَدْعُو عَبْدَهَا إلَى نَفْسِهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ ؛ قد خرَقَ حبُّهُ حجابَ قلبِها فلا يعقلُ غيره، ويقال: قد أحبَّتهُ حتى دخلَ حُبُّهُ شِغَافَ قَلبها. والشِّغَافُ: جلدةٌ تشتملُ على القلب، يقالُ: شَغَفَهُ إذا رماهُ فأصابَ ذلك الموضعِ منه كما يقالُ كَبَدَهُ إذا أصابَ كَبدَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (حُبّاً) نُصِبَ على التمييزِ كأنَّهُنَّ قُلنَ: أصابَ حبُّه وسطَ قلبها وسويداءَ قلبها. وقرأ أبو رجاءٍ والشعبي: بالعينِ المهملة، ومعناه ذهبَ بها الحبُّ كلَّ مذهبٍ، مشتقٌ من شِعَافِ الجبالِ أي رُؤوسها[٢]. قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ ﴾ ؛ أي في الخطأ البيِّن.

---

(١) هكذا النص في المخطوط، وهو غير واضح، ولم أقف عليه.

(٢) قال الرازي: (شَعَفَهُ الْحُبُّ يَشْعَفُهُ، بفتح العين فيهما (شَعَفاً) بفتحتين: أحْرَقَ قلبَهُ، وقيل: أمرضَهُ. وقرأ الحسن: ﴿قَدْ شَعَفَهَا حُبّاً﴾ قال: بطنها حباً). مختار الصحاح: ش ع ف: ص٣٤٠. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص١٧٦؛ نقله القرطبي؛ قال: (قال النحاس...). وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٦٤٤.

قال ابنُ عبَّاس: (فَجَعَلْنَ يُفْشِينَ هَذا فِي الْمَدِينَةِ، فَبَلَغَ ذلِكَ زُلَيْخَا) فهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ ؛ أي فلما سَمِعت بكلامَ هؤلاء النِّسوة وذمِّهن لها أرسَلت إليهنَّ، فدَعَتهُنَّ لوليمةٍ أعدَّتْها لهن، ويقال: إنما سُمي قولُ النسوةِ مَكْراً؛ لأنَّها كانت أطلَعَتْهُنَّ واستكتَمَتْهن فأفشَينَ سِرَّها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ ؛ أي أصلَحت وهيَّأَتْ لهن أمكنةً يقعُدن عليها، ووسائدَ يتَّكِينَ عليها، وفي قراءة ابنِ عباس (مُتْكاً) بالتخفيف بغير همز، قال: (وَالْمُتْكُ: الأُتْرُجّ)(١).

قال وهبُ: (دَعَتْ أرْبَعِينَ امْرَأةً، وَأعَدَّتْ لَهُنَّ أتْرُجاً وَبطِّيخاً). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ؛ لتقطعَ بها الفواكِهَ والأُترج على ما جَرت به العادةُ، ويقال: كانت وضَعت لَهُنَّ خُبزاً ولَحماً وهذه الفواكه، ﴿وَقَالَتِ﴾ ؛ ليوسُف: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ ؛ وذلك أنَّها كانت قد أجْلَسَتهُ في مجلسٍ غير الذي كُنَّ جلسنَ فيه. قال عكرمةُ: (وَكَانَ فَضْلُ يُوسُفَ عَلَى النَّاسِ فِي الْحُسْنِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْر عَلَى النُّجُومِ).

وعن أبي سعيدٍ الخدري قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَرَرْتُ لَيْلَةَ أسْرِيَ بي فَرَأيْتُ يُوسُفَ عليه السلام، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذا ؟ فَقَالَ: يُوسُفَ] قَالَ: كَيْفَ رَأيْتَهُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ](٢). ورُوي أن يوسف عليه السلام كان إذا مشَى في أزقَّة مصرَ يُرى نورُ وجههِ على الجِدَارَاتِ كما ترى نورَ الشمسِ والماء على الجدار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ) فخرجَ عليهن، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ ؛ أي عَظُمَ عندَهُن، و؛ بلغَ من شَغْلِ قُلوبهن برؤيته ما، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ؛ بالسَّكاكين. قال قتادةُ: (قَطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ حَتَّى الْقَيْنَهَا وَهُنَّ لاَ يَشْعُرْنَ)، ويقالُ: معنى (أكْبَرْنَهُ) أي حِضْنَ، ويقال: معنى (أكْبَرْنَ) آمَنَّ. قِيْلَ: أنَّهن كُنَّ يقطِّعن أيديهن وهن

(١) المتك: مخففاً غير مهموز هو الأترج. وبالضم أو الفتح يقال: الأترنج؛ وهو كل شيء يقطع بالسكين و غيره من الفواكه. والترنج ثمرة حامضة أكبر من الليمون وفيها استطالة، ورائحتها قوية وقشرها أصفر.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٦٤٤. وابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب: ج ١١ ص٨٤.

يحسَبن أنَّهن يُقَطِّعنَ الأُترُجَ، ولم يجدن الألَمَ لاشتغال قُلوبهن برؤيةِ يوسف. قال وهب: (وَبَلَغَنِي أنَّ سَبْعاً مِنَ الأَرْبَعِينَ مِمَّنْ كُنَّ فِي ذلِكَ الْمَجْلِسِ وَجَدْنَ بِيُوسُفَ عليه السلام).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ ؛ أي قُلن معاذ اللهِ أن يكون هذا آدَمِيّاً، ﴿ إِنْ هَٰذَآ ﴾ ، بل هو، ﴿ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ من السَّماء، فشبَّهنَهُ بالْمَلَكِ وهُنَّ لا يَرَينَ الْمَلَكَ، ولكنَّ الناسَ إذا وصَفُوا بالْحُسْنِ شَبَّهوا بالْمَلَكِ. ومعنى (حَاشَ للهِ) أي تَنْزِيهاً للهِ، وفي قراءةِ الحسن (إنْ هَذا إلاَّ مَلِكٌ كَرِيمٌ) بكسر اللامِ، ويُقرأ (مَا هَذا بشِرِي) أي بعبدٍ مُشترى، وليست هذه القراءة بشيء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ ؛ أي قالت زُلَيخا: فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيْهِ فِي حُبهِ وشَغَفي به، وذا إشارةٌ إلى يوسُفَ ولكن مخاطبة لهن، ثم أقَرَّت لهن فقالت: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ ؛ أي دَعَوتُهُ إلى مُرادِي فامتنعَ بالعفَّة، ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ ﴾ ما أدعوهُ إليه، ﴿ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ في السِّجنِ، ﴿ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي الأذِلاَّء فيه مع السُّرَّاق، وجعلت تقول هذا القول منها قبالته وهو جالسٌ يسمع.

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا قَالَتْ زُلَيْخَا هَذا الْقَوْلَ، قَالَ هَؤُلاَءِ النِّسْوَةُ لِيُوسُفَ: أطِعْ مَوْلاَتَكَ) فَقَالَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ أي قالَ يوسفُ: يا رب نزولُ السجنِ أحبُّ إلَيَّ مما يَدعُونَني إليه من قبيحِ الفعلِ، والسِّجنُ أسهلُ عليَّ من المعصيةِ. ومَن قرأ (السَّجْنُ) بفتح السين فهو المصدرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ ؛ أي وإلاَّ تَلْطُفْ بي بما يصرفُ عنِّي كيدَهُن أمِلْ إليهنَّ بهَوَاي، ﴿ وَأَكُن مِّنَ ﴾ ؛ بمنْزلة، ﴿ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ، في فِعْلي. وفي هذا دليلٌ على أنَّ النسوةَ طلَبن منه مثلَ ما طلبَتِ امرأةُ العزيزِ، فإنه روي أنَّهن لَمَّا رأينَ يوسف استأذنَّ امرأةَ العزيز أن تَخْلُو كلُّ واحدةٍ منهن بهِ، وتدعوهُ إلى امرأة العزيزِ وإلى طاعتِها، فلمَّا خَلَونَ به دَعَتْهُ كلُّ واحدة منهن إلى نفسِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ ؛ أي فأجابَهُ ربُّه في دعائهِ فصرفَ عنه كيدَهن، وعصَمَهُ من الفواحشِ، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ لدعاءِ عباده، العليمُ بضمائرهِم ونياتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي بَدَا للعزيزِ وأصحابه من بعدِ ما رَأوا العلاماتِ من شقِّ القميصِ وقطعِ الأيدِي وقضاء ابنِ عمِّها عليها، أن يحبسَهُ إلى مدَّة حتى تنقطعَ مقالةُ الناسِ، ويأتِي على هذا الحديثِ مدَّة، فحبَسهُ بعد ظهور عُذرهِ خمسَ سنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ ؛ رُوي: أنه دخلَ على يوسُفَ بعدَ دخولهِ الخمسَ سنين عَبْدَان للملكِ، وهو صاحبُ شرابهِ وصاحبُ طعامهِ، غَضِبَ عليهما الملكُ، واتَّهَمَ صاحبَ الطعامِ أنه يريدُ أن يَسُمَّهُ، وصاحبَ الشَّراب بأنه مَالأَهُ على ذلك، وذلك أنَّ أعداءَ الملكِ أرادوا الْمَكْرَ بالملكِ واغتيالهِ، فطَلَبوا هذين وضَمِنُوا لهما مَالاً ليَسُمَّا طعامَ الملكِ وشرابَهُ، فأبَى السَّاقِي وقَبلَ الخبَّازُ الرِّشْوَةَ فسَمَّ الطعامَ.

فلَمَّا حضرَ وقتهُ قال السَّاقِي: أيُّها الملكُ لا تأكُلْ فإنه مسمومٌ، وقال الخبازُ: أيُّها الملكُ لا تشرب فإنه مسمومٌ. فقال الملكُ للسَّاقي: اشْرَبْ، فَشَرِبَ فلم يضُرَّهُ، وقال للخباز: كُلْ من طَعامِكَ فأَبَى، فجرَّبَهُ الملكُ على دابَّة فأكلت من الطعامِ فمَاتتْ، فأمرَ الملكُ بحبسِهما.

وكان يوسفُ قد قالَ لأهلِ السِّجن لَمَّا دخله: إنِّي أعَبرُ الأحلامَ، فقال أحدُ هَذين القيمين لصاحبهِ: هلُمَّ فلنُجَرِّبْ هذا العبدَ العَبْرَانِيَّ برُؤيا له، فسألاهُ من غيرِ أن يكونا رأيا شيئاً. قال ابنُ مسعود: (مَا رَأَيَا شَيْئاً إنَّمَا كَانَا تَحَالَمَا عَلَيْهِ لِيُجَرِّبَا عِلْمَهُ)[1].

وقال قومٌ: كانَا رأيَاها على حقيقةٍ ويقين، فقالَ السَّاقي: أيُّها العالِمُ إنِّي رأيتُ كأنِّي في بُستانٍ وإذا بكَرَةٍ عليها ثلاثةُ عناقيد فجنَيتُها، وكأنَّ كأسَ الملكِ بيدي

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٧٤٥).

فعصَرتُهم فيه وسقَيتُ الملكَ فشَربهُ، وقال الخبَّازُ: إنِّي رأيتُ كأنَّ فوقَ رأسي ثلاثَ سِلاَلٍ من خُبْزٍ وألوانِ الأطعمَةِ فإذا سِبَاعُ الطيرِ تَنْهَشُه.

وإنما سُمي العنبُ باسمِ الخمر لأن الشيءَ يُسمَّى بما يؤُولُ إليهِ، وقال الضحَّاك: (الْخَمْرُ هُوَ الْعِنَبُ)[١] بعَيْنِهِ بلُغَةِ عُمَانَ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ (إنِّي أرَانِي أعْصِرُ عِنَباً). قال الأصمعيُّ: (أخْبَرَنِي الْمُعْتَزُّ أنَّهُ لَقِيَ أعْرَابياً مَعَهُ عِنَبٌ، فَقَالَ: مَا مَعَكَ ؟ قَالَ: خَمْرٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي أخبرنا بتفسيرهِ وتعبيره، وما يؤولُ إليه أمرُ هذه الرُّؤيا، ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي العالِمين الذين أحسَنُوا العلمَ. وَقِيْلَ: من الْمُحسِنين إلينا إنْ قلتَ ذلك وفسَّرتَ رُؤيانا. وعن الضحَّاك في قولهِ تعالى: (إنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) قال: (كَانَ إحْسَانُهُ إذا مَرِضَ رَجُلٌ فِي السِّجْنِ قَامَ عَلَيْهِ، وَإذا أضَاقَ وَسَّعَ عَلَيْهِ، وَإذا احْتَاجَ سَألَ لَهُ)[٢]. وقيل: إحسَانهُ أنه كان يُداوي مَريضَهم، ويُعزِّي حَزينَهم.

قال[٣]: (فَكَرِهَ يُوسُفُ أنْ يُعَبرَ لَهُمَا لِمَا عَلِمَ فِيْهِ مِنَ الْمَكْرُوهِ عَلَى أحَدِهِمْ، فَأعْرَضَ عَنْ سُؤَالِهِمَا وَأخَذ فِي غَيْرِهِ) و﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ ؛ أي لا يأتيكُما طعامٌ تُطعمَانِهِ وتأكُلانهِ إلاَّ نبَّأتُكما بتفسيرهِ ولَونهِ أيَّ طعامٍ أكلتمُوهُ، قالاَ له: هذا مِن فعلِ الكَهَنةِ، قال: ما أنا بكاهنٍ وإنما: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ ﴾ ؛ أي شَريعةَ آبائي، ﴿ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ وباقِي الآيةِ ظاهرُ المعنى.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٧٤٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٧٥٣).

(٣) القائل هو الضحاك؛ لما سبق.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ يوسف عليه السلام رأى أهلَ السِّجن وبين أيدِيهم أصنامٌ يعبُدونَها، فدعَاهم إلى الإسلام وألزَمَهم الحجَّةَ، فقالَ لَهم: أربابٌ متفرِّقون شتَّى لا تضرُّ ولا تنفعُ خيرٌ أمِ اللهُ الواحد القهَّارُ الذي لا ثانِي له ؟

ثم بيَّن عجزَ الأصنامِ وضَعفَها فقال: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ﴾ ؛ آلِهة من غيرِ أن يكون لتلكَ التسميةِ حقيقةٌ، ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ أي من حجَّة وبرهان، ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ ﴾ أي ما القضاءُ والأمر والنَّهيُ إلا للهِ، ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾ . قوْلُهُ تعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ ؛ أي الذي أدعُوكم إليه هو الدِّينُ القائمُ الذي يرضاهُ لا عِوَجَ فيه، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ ﴾ ؛ معنى الآيةِ: أما أحدُكما وهو السَّاقي، فيَسقِي سيِّدَهُ يعني الملِك خَمراً، وأما العناقيدُ الثلاثة التي رَآها فإنَّها ثلاثةُ أيام يبقَى في السجن، ثم يخرجهُ الملكُ ويعود في ما كان عليه، وأما الآخَرُ فيُصلَبُ والسِّلالُ التي رَآها فإنَّها ثلاثةُ أيَّام يبقَى في السجنِ، ثم يخرجهُ الملك في اليومِ الرابع فيَصلِبَهُ فتأكلُ الطيرُ من رأسهِ.

فقال الخبَّازُ: إنِّي لَمْ أرَ شيئاً، فقال لَهما يوسفُ: ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي فَرَغَ من الأمرِ الذي سألتُما عليه فهو كائنٌ، رأيتُما أو لَم ترَيَا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي قالَ يوسفُ للذي عَلِمَ أنه ناجٍ منهما، وهو صاحبُ الشَّراب: اذكُرني عندَ سيِّدِكَ الملِك أنِّي مظلومٌ، عَدَا عليَّ إخوَتِي فبَاعُوني وأنا حرٌّ، وحُبستُ في السجنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ أي أنسَى الشيطانُ السَّاقي أنْ يذكُرَ يوسف عندَ الملكِ؛ أي شَغَلَهُ عن ذلك بما كان يدعوهُ إليه من اشتغالهِ برُكوب سَوْأتِهِ وخدمتهِ للملك. وَقِيْلَ: معناهُ أنسَى الشيطانُ يوسف ذِكْرَ ربهِ حتى

التمسَ من النَّاجي منهما أن يذكُرَهُ عند ربه، وكان مِن حقِّه أن يتوكَّل على اللهِ في ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ والبِضْعُ مابين الثَّلاث إلى التسع.

وفي الخبر: أنه يبقَى في السجنِ بعد هذا القول سبعَ سنين. وعن الحسن: عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [رَحِمَ اللهُ أخِي يُوسُفَ لَوْ أنَّهُ ذكَرَ رَبَّهُ، وَلَمْ يَسْتَغِثْ بالْمَلِكِ لَمْ يَلْبَثْ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ] قال: ثُمَّ بَكَى الْحَسَنُ وَقَالَ: (نَحْنُ إذا نَزَلَ بنَا أمْرٌ فَزِعْنَا إلَى النَّاسِ)(١).

وقالَ مالكُ بن دينار: (لَمَّا قَالَ يُوسُفُ لِلسَّاقِي: اذكُرْنِي عِنْدَ رَبكَ، قِيْلَ لَهُ: يَا يُوسُفُ اتَّخَذْتَ مِنْ دُونِي وَكِيلاً، لأُطِيلَنَّ حَبْسَكَ، فَبَكَى يُوسُفُ وَقَالَ: يَا رَب أنْسَى قَلْبِي كَثْرَةُ الْبَلْوَى)(٢).

ويُحكى: أنَّ جبريل عليه السلام دخلَ على يُوسف السجنَ، فلمَّا رآهُ يوسف عَرَفَهُ وقال: يا أخَا المنذِرين، ما لِي أراكَ بين الخاطِئين؟ فقالَ له جبريلُ: ربُّكَ يُقرؤُكَ السلامَ ويقول لكَ: ما استَحيَيتَ منِّي إذِ استشفَعتَ بالآدميِّين! فَوَعِزَّتِي لألبثَنَّكَ في السجنِ بضعَ سنين، قال يوسفُ: أهو عنِّي في ذلك راضٍ ؟ قال: نعم، قال: إذاً لا أبالِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ ؛ رُوي أن يوسفَ مَرِضَ في السجنِ، فأمرَ اللهُ جبريلَ أن يَعُودَهُ، فعاده فعرفَهُ لكثرةِ اختلافه إلى آبائهِ، فقال له جبريلُ: يا طاهرَ بن الطاهر، ربُّ العزَّة يقولُ لكَ: مَن حبَّبَكَ إلى أبيكَ من بين إخوتِكَ ؟ قالَ: هو، قال: فمَن أنقذكَ من أيدِي إخوتِكَ ؟ قالَ: هو، قال: فمَن سهَّلَ لكَ السَّيارةَ في الأرضِ القِفْرِ حتى أخرَجوكَ من قعر البئرِ ؟ قال: هو.

ثم نَشَرَ جبريلُ جناحه، وأشارَ إلى الأرضِ فانفرَجَت، قال: يا يوسفُ انظر ما ترَى ؟ قال: أرَى هو، ثم أشارَ إلى الأرضِ ثانية فانفرَجت كلها حتى نظرَ يوسفُ إلى

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٤٧٧٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٧٧٦).

الصخرةِ التي عليها الأرضُون، فقال جبريلُ: ما ترَى؟ قال: صخـرةٌ عليـها دُرَّةٌ، قـال: فما ترَى في فمِ الدُّرَّةِ؟ قال: أرَى طعاماً، قال ربُّ العزة يقول لكَ: أنا أذكُرُ هذه الدرَّة في هذا الموضعِ ثم أنساكَ على وجهِ الأرض؟ أما استحيَيتَ مني حتى تقولَ لعبدِ مَلِكٍ اذكُرني عندَ ربك، ولم تقُل يا رب، فعندَ ذلـك قـال يوسـفُ: يـا رب فاسـألُكَ بمَنِّـكَ القديمِ، وفضلِكَ العميمِ إلاّ غفرتَ لي، قـال: يـا يوسـفُ أغفِـرُ لـكَ وأخرِجُـكَ مـن السجنِ، ثم كان من رُؤيا الملكِ ما كان.

ومعنى الآيةِ: أن الملِكَ واسمه زيَّان بن الوليدِ رأى في النومِ سبعَ بقَراتٍ سِمَانٍ خرجنَ من نهرٍ من أنْهار مصـرَ، فخـرجَ مـن بعدِهـنَّ سـبعُ بقَـراتٍ عِجَـافٍ، فـابتلعَ العجافُ السِّمانَ فدخلن في بُطونِهنَّ ولم يزد[1] منهنَّ شيئاً، فعَجِبَ منهُنَّ، ورأى سـبعَ سُنبلات خُضْرٍ وسبعَ سُنبلات أخَرَ يابساتٍ، الْتَـوَتِ اليابسـاتُ علـى الْخُضْـرِ فقلَـبن خُضرَتَهُنَّ ولم يسير عليهن شيءٌ منهن.

فأرسلَ الملِكُ في هذه الرُّؤيا إلى السَّحَرةِ والكَهَنة، فجمَعَهم ثم قصَّ عليهم ذلك وقـال لهـم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي قـالتِ الكهنـةُ والسَّحرة: هذه الرُّؤيا أبـاطيلُ الأحـلامِ كاذبَـةٌ، ومـا نحـنُ بتـأويلِ الأحـلامِ المختلفـة بعالِمين، ليس لها عندَنا تأويلٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ قالَ صاحبُ الشَّراب الذي نَجَا من السِّجنِ والقتل وتذكَّر بعـد سِنين، ويقالُ: هذا بعدَ انقراضِ أمَّة، والأمَّة في اللغة هـي المـدَّة الكثـيرةُ كمـا أنَّـها في الجماعةِ الجماعةُ الكثيرة. ومَن قرأ (بَعْدَ أمَةٍ) فمعناهُ: بعدَ نسيانٍ.

وقولهُ تعالى: (أنَا أنبئُكُمْ) قولُ صاحب الشَّراب لَمَّا عجـزَ الكهنـةُ عـن تـأويلِ رُؤيا الملكِ، جاءَ ووقفَ بين يديه فخاطبَهُ بلفظِ الجماعة كما يخاطَبُ الملكُ، وقال: أنـا أخبرُكم بتعبيرِ هذه الرُّؤيا، فأرسِلُون إلى السِّجن. ثم قالَ: إنَّما كنتُ عصَيتُ فحبَستَني

---

(١) في المخطوط: (ولم يسير منهن) وهو تصحيف.

أنا وخبَّازُكَ، فرَأينا فيها رُؤْيا فقصَصْنَاها على رجُلٍ في السجنِ عالِمٍ صالح صادق، فأخبرَنا بها فكان كما أخبرَ، فأرسِلُون إليه. فأرسلوهُ فدخلَ السجنَ وقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ ؛ وحذفَ كلمةَ النداءِ اختصاراً، والصِّدِّيقُ: الذي يَجرِي على عاداتِه في الصِّدق والتصديق بالحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾ ؛ خرَجْنَ من نهرٍ بيتٍ تبعَهُنَّ ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ ﴾ ؛ بقراتٍ، ﴿ عِجَافٌ ﴾ ؛ هالِكات من الهزال، و في ﴿ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ ؛ التوَينَ على الْخُضْرِ وغلَبْنَ خُضرَتَهن. قولهُ تعالى: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي لإنْ أرجِعَ بتأويلِ ذلك إلى الملِك والناسُ يعلمونَهُ.

فقال له يوسفُ: أما سبعُ بقراتٍ سِمَانٍ فهي سبعُ سنين خَصْبَةٍ، وأما سبعُ بقرات عِجَافٍ فهي السُّنون السَّبع الْجَدْبَةِ، وأما سبعُ سُنبلات يابساتٍ فهو القحطُ والغَلاءُ في السِّنين الجدبَة، ثم علَّمَهُ يوسفُ عليه السلام كيف يصنَعون، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ ؛ أي على ما هو عادتُكم في الزراعةِ، وَقِيْلَ: معنى قوله (دَأباً) بجِدٍّ واجتهادٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي فما حصَدتُم من الزَّرعِ، فاتركوهُ في سُنبُلِهِ ولا تدرسوهُ، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ من ذلك في كلِّ سَنة، وإنما أمَرَهم بهذا؛ لأن الحنطةَ إذا كانت في سُنبلها كانت أبقَى منها اذا دُرسَتْ، فإنَّها إذا دُرست تآكلَت، وفسَدت بمُضِيِّ المدَّة عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ ؛ أي قَحْطَةٌ ضيِّقةٌ على الناس، تأكلون فيها ما ادَّخرتُم من زُروعِ السِّنين الخصبَة، ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ إلاَّ شيئاً قليلاً تُحصِنُونَهُ في موضعٍ من المواضع، ونسبَ الأكلَ إلى السِّنين القحطِ على التوسُّع؛ لأن الأكلَ كان يقعُ فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ هذا خبرٌ من يوسف عليه السلام عما لم يكن في رُؤيا الملِك، ولكنه من علمِ الغيب الذي آتاهُ الله إياه، كما قال قتادةُ: (زَادَهُ اللهُ عِلْماً سَنَةً لَمْ يَسْأَلُوهُ عَنْهَا).

والمعنى: أنَّ يوسف عليه السلام قالَ له: ثم يأتِي من بعدِ هذه السنين الأربعَةَ عشرةً، سنةٌ فيها يغاثُ الناس. يجوز أن يكون هذا من الغَوْثِ؛ أي يُغيثُ اللهَ في تلك السَّنة عبادَهُ فتزكُوا فيها زرُوعَهم وفَواكههم وأعنَابُهم. ويجوز أن يكون من الغَيْثِ وهو المطرُ؛ أي آتَاهُم اللهُ بالأمطار والخصب في تلك السَّنة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) قرأ أهلُ الكوفة إلاَّ عَاصِماً بالتَّاء؛ لأن الكلامَ كلَّه خطابٌ، وقرأ الباقون بالياءِ ردَّهُ إلى الناسِ، قال أكثرُ المفسِّرين: يَعْصِرُونَ العِنَبَ خَمراً، والزيتونَ زَيْتاً، والسمسُمَ دُهناً، وهنا أراد يعصِرون الأعنابَ والأثمارَ والحبوب من كثرةِ الغيثِ والخير. وَقِيْلَ: معناهُ: يَنْجُونَ من البلاءِ والشدَّة، والعُصْرَةُ النجاةُ والملجأُ، قال الشاعر[1]:

صَادِياً يَسْتَغِيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ الْمَنْجُودِ

ومَن قرأ (يُعْصَرُونَ) بضمِّ الياء ونصب الصاد، فمعناهُ يُعْصَرُونَ من قولِهِ ﴿وَأنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾[2].

فلمَّا رجعَ الرسولُ إليه وأخبرَهُ بمقالتهِ، قالَ الملِكُ: ائتُونِي بهِ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ ﴾ ؛ قال له: إن الملِكَ يدعُوك، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ له يوسفُ: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ؛ سيِّدِكَ الملك، ﴿ فَسْـَٔلْهُ ﴾ ؛ حتى يسألَ، ﴿ مَا بَالُ ﴾ ، عن شأن، ﴿ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ؛ أكُنَّ صادقاتٍ على يُوسُفَ أم كاذباتٍ عليه، وليَعلمَ صحَّةَ بَراءَتِي، وأنِّي مظلومٌ بالحبسِ، وأبَى أن يخرُجَ مع الرسول، ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ ، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ صَبْرِ أخِي يُوسُفَ وَكَرَمِهِ، وَلَوْ كُنْتُ أنَا الَّذِي دُعِيتُ إلَى الْخُرُوجِ لَبَادَرْتُهُمْ إلَى الْبَاب، وَلَكِنَّهُ أحَبَّ أنْ يَكُونَ لَهُ الْعُذْرُ][3].

(١) أبو زبيد الطائي: حرملة بن المنذر الطائي، من المعمَّرين أدرك الإسلام، واستعمله عمر بن الخطاب على صدقات قومه طيء، اعتزل علي ومعاوية مع صديقه الوليد بن عقبة بن أبي معيط، توفي في الرقة (٤١هـ).

(٢) النبأ / ١٤ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٤٨٣٣) بأسانيد عديدة عن أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث (١٤٨٣٤) عن عكرمة مرسلاً. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١١٦٨٥). وهو في المسند: ج ٢ ص٣٤٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ ﴾ ؛ فيه إضمارٌ، تقديرُ الكلامِ: فرجعَ الرسولُ إلى الملِك فأعلمَهُ بذلكَ، فأرسلَ الملكُ إلى النسوةِ فأحضرَهنَّ، ثم قالَ لهن: (مَا خَطْبُكُنَّ) أي ما شأنكن إذ طلبتُنَّ يوسف عن نفسهِ، ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ ؛ هذا جوابُ النسوةِ للملك بكلمة التَّنْزيهِ، نزَّهنَ يوسفَ عن ما اتُّهِمَ بهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ ﴾ ؛ أي من قبيحٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي تَبَيَّنَ وظهرَ الحقُّ ليوسفَ، ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي دعوتهُ إلى نفسي، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ في قولهِ إنه لَم يُراودْني.

قال ابنُ عبَّاس: (فَرَجَعَ صَاحِبُ الشَّرَاب إِلَى يُوسُفَ فَأَخْبَرَهُ بذلِكَ، فَقَالَ يُوسُفُ: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ، الَّذِي فَعَلْتُ مِنْ رَدِّي رَسُولَ الْمَلِكِ إلَيْهِ فِي شَأْن النِّسْوَةِ) ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ العزيزُ، ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ في زوجتهِ في حال غَيبَتِه عنِّي.

قال أهلُ الوعظ: فقال جبريلُ: بل ولاَ هَمَمْتَ بها، فقال يوسفُ: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ ﴾ ؛ فإن صحَّت هذه الروايةُ كان المعنى: وما أُبَرِّئُ نفسي من الْهَمِّ؛ أي ما أُزَكِّيها، وتزكيةُ النفسِ مما يُذمُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ؛ أي بالقبيحِ، وذلك لكثرةِ ما تَشتَهيهِ وتسارعُ إليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ ؛ أي إلا ما عَصَمَني ربي بلُطفِه، و(ما) بمعنى (من)،كقولهِ ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾(١)، وفي هذا دليلٌ أنَّ أحداً لا يمتنعُ من المعصيةِ إلا بعصمةِ الله، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي غفورٌ لذنوب المذنِبين، رحيمٌ بهم بعد التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ ﴾ ؛ أي قالَ الملكُ: ائتُوني بيوسُفَ أجعلْهُ خالصاً لنفسِي أرجعُ إليه في تدبيرِ مملكَتِي، وأعملُ على إشارته، فلما جاءَهُ الرسولُ قال: أجِب الملكَ، قال: الآنَ.

---

(١) النساء/ ٣ .

فخرجَ يوسفُ، ﴿ فَلَمَّا ﴾ ، دخلَ على الملكِ، ﴿ كَلَّمَهُۥ ﴾ ، قال: اللَّهُمَّ إنِّي أسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَأعُوذ بكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ غَيْرِهِ، ثم سَلَّمَ عليه يوسف بالعربيَّة، فقال له: وما هذا اللسانُ؟ قال: لسانُ عَمِّي إسماعيل، ثم دعَا له بالعبرانيَّة، فقال لـه: وما هذا اللسانُ ؟ قال: لسانُ آبائِي. فأُعجِبَ الملكُ ما رأى منه.

وكان يوسفُ يومئذٍ ابنُ ثلاثين سَنة، فلما رأى الملك حَدَاثَةَ سِنِّهِ قال لِمَن عندَهُ: إنَّ هذا عَلِمَ تأويلَ رُؤيَايَ، ولَم تُعْلَمْهُ السحرةُ ولا الكهنة، ثم أجلسَهُ وقال له: إنِّي أحبُّ أن أسمعَ تأويلَ رُؤيَايَ شِفَاهاً منك.

قال: أيُّها الملكُ، رأيتَ سبعَ بقراتٍ سِمَانٍ حِسَانٍ كشفَ لكَ عنهُنَّ النيلُ، خرجنَ عليكَ من شاطئهِ، فبينما أنتَ تنظرُ إليهن، ويُعجِبُكَ حُسْنُهُنَّ إذ نَضَبَ النيلُ وغَارَ ماؤهُ، فخرجَ من حَمْأتِهِ وَوَحَلِهِ سبعُ بقراتٍ عِجَافٍ شُعْثٍ غير مقلصات البُطون، ليس لهن ضُروعٌ ولهن أضراسٌ وأنياب وأكُفٌّ كَأكُفِّ الكلاب، فاختطفن بالسِّمان فافترسُوهنَّ افتراسَ السَّبُعِ، فأكلنَ لُحومَهن ومزَّقْنَ جُلودَهن ومَشْمَشْنَ مُخَّهُنَّ وحطَّمن عِظَامَهُنَّ.

فبَينا أنتَ تتعجَّبُ إذ بسبعِ سنبلات خُضْرٍ وسبع أخر سُود في منبتٍ واحد وأصولُهن في الماءِ، إذ هبَّت ريحٌ فجعلت اليابساتِ السودِ على الْخُضْر المثمِرات، فأشعلَت فيهن النارَ فأحرقتهن، فهذا ما رأيتَ من الرُّؤيا. فقال الملكُ: واللهِ إن هذه الرؤيا وإنْ كانت عَجَباً، فإن الذي سمعتُ منك أعجَبُ، فما ترى فيها؟ فقال تأويلُها كذا وكذا كما قد تقدَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ ، أي قالَ له الملكُ: إنَّك اليومَ لدينا مُتَمَكِّنٌ من فعلِ ما تريدُ، نافذُ القولِ والأمرِ، قد ظهَرت أمَانَتُكَ، وظهرَ كَذِبُ النساءِ عليكَ، ولم تظهرْ منكَ خيانةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي قال يوسفُ: اجعلْنِي على خزائنِ أرضِكَ، واجعَلْ تدبيرَها إلَيَّ، وأرادَ بذلك الخزائنَ التي يُجمع فيها طعامُ الأرضِ وأموالُها التي كان مصيرُها إلى الملكِ، وكانت أرضُ مصر أربعين فَرسخاً في أربعين فرسخاً. وإنما قال يوسف ذلك لصلاحِ الْخَلْقِ؛

لأن الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ بُعِثُوا لإقامةِ العدلِ ووضعِ الأشياء مواضِعَها، فعَلِمَ يوسف أنه لا أحدَ أقْوَمُ بذلك منهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) أي حافظٌ للخزائنِ، عالِمٌ بوَضعِـها مواضعـها، وَقِيْلَ: لجميـعِ ألْسُـنِ الغربـاء الذيـن يـأتونك، فإنـه كـانَ يتكلَّـمُ بـالعربيِّ والعـبرانِي والسريانِي والقِبْطي.

وقيل عالِمٌ بساعات حاجاتِ الناس، وذلك أنْ أمَرَ الخبَّـازين أن يجعلـوا غـداءَ الملكِ نصفَ النهار، فمَن ثَمَّ جعلَ الملوكُ غداءَهم نصفَ النهار، فلما كانت الليلةُ التي وقعَ فيها الجوعُ أوَّل السنين الْجَدْبَةِ، أمَرَ الخبَّازين أن يجعلُوا غَدَاءَهُ مع عشَائهِ ففعلـوا، فوقَعَ الجوعُ في نصفِ الليل، فهتفَ الملكُ: يا يوسفُ الجوعَ الجوعَ، فقرَّب إليه طعامَهُ. وفي الآية دليلٌ على أنه يجوزُ للإنسان أن يمدحَ نفسه بالأفضلِ عند مَن لا يعرفـهُ، وأنَّ المرادَ بقولِهِ تعالى: (فَلاَ تُزَكُّوا أنفُسَكُمْ)[1] النهيُ من تزكيةِ النفس للفَخْرِ والسُّمعة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ ؛ أي كما برَّأنا سَاحَتَهُ وخلَّصناهُ من الحبس، كذلك مَكَّنَا له في أرضِ مصر (يَتَبَوَّأُ مِنْـهَا) أي يَنْزِلُ بها حيثُ يشاء، ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ .

ورُوي أن الملكَ تَوَّجَهُ وأعطاهُ سَيْفَهُ ووضعَ له سَريراً من ذهــبٍ مُكَلَّـلاً بـالدُّرِّ والياقوتِ، ثم أمرَ بأن يجلسَ عليه، فجلسَ ولَزِمَ الملكُ بيته وفوَّضَ إليــه كـلَّ أمُـورهِ، وذلَّت له سائرُ الملوكِ، فلَطَفَ يوسفُ بالناسِ وأقامَ فيهم العــدلَ وأخـذ يدعوهــم إلى الإسلامِ، فأحبَّهُ الناسُ كلهم وآمَنَ كثيرٌ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ على إحسانِهم. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ؛ أي ولثوابُ الآخرةِ خيرٌ من ثــواب الدُّنيا للذين آمَنُوا بالله وكتُبهِ، ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ، الكفرَ والفواحشَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ ؛ وهــم عشـرةٌ، جـاؤُا من بعدِ أبيــهم في سِنِيِّ القحـطِ لطلـب الطعـام كمـا يجـيءُ غـيرهم، فدخَلُـوا عليـه

(١) النجم / ٣٢ .

وكلَّموهُ بالعبرانية، وعليه ثيابُ حرير وطَوْقُ ذهَبٍ، وهو جالسٌ على سرير مُلكهِ، ﴿ فَعَرَفَهُمْ ﴾ ؛ أنَّهم إخوتَهُ، ﴿ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ، وكانوا لا يعرفونَهُ لطُول العهدِ؛ لأنَّهم كانوا رَأوْهُ صَغيراً، ولم يظُنُّوا أنه يصيرُ مَلِكاً، فأمَارَهُمْ وأحسنَ إليهم، وفاوضَهم في الحديثِ حتى حدَّثوهُ بحديث أبيهم، وقالوا: إنَّ لنا أباً شَيخاً كبيراً وكُنا اثني عشرَ، فهلكَ واحدٌ منَّا في الغنَمِ ووجدنا قميصَهُ وعليه دمٌ فأتينا به آبانا، وله أخٌ وهو آثَرُ إلى أبينا مِنَّا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ﴾ ؛ لهم: ﴿ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ؛ أي لَمَّا أعطاهم الْمِيرَةَ وكالَ لهم كَيلَهم، قال لَهم: (ائْتُونِي بأَخٍ لَكُمْ مِنْ أبيكُمْ) ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ ﴾ ؛ أعطِي الناسَ حُقوقَهم على التمام، ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ للأمور منَازلَها، ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ مرَّة أخرى.

قولهُ: ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ ؛ أي قالُوا: سَنَطْلُبهُ من أبيهِ، ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ، أن سنَجِيء به، وخافَ يوسفُ أن لا يكون عند أبيهم من الرِّزقِ ما يرجِعُون به إليه مرَّة أخرى.

فأمَرَ أن يجعلَ دراهِمَهم في أوعِيَتهم من غير علمٍ لَهم، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ ﴾ ؛ أي قالَ يوسفُ لِخُدَّامِهِ مِن مماليكهِ: اجعَلُوا دَراهِمَهم ودنانيرَهم التي جَاؤُا بها في رحالِهم، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ ﴾ ، لكي يعرفُوا هذه الكرامةَ مِنِّي. ويقال: كي يعرِفُوا أنَّها دَرَاهِمي، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ، فيرجِعُوها فيردُّوها عَلَيَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ ؛ في المستقبلِ إن لم تُرسِلْ معنا بنيامين، ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ ؛ لنَا ولَهُ. ومن قرأ (يَكْتَلْ) بالياء أي يكتل اخونا، يأخذ لنفسهِ حِمْلاً، ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ حتى نَرُدَّهُ عليكَ. ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ ﴾ ؛ يوسُفَ، ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ فضيَّعتموهُ وغيَّبتموهُ عني، ولئن أرسلتُ معكم بنيامين، ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ ، أي فعلَى اللهِ أتوكَّلُ، فإنَّ حِفْظَ

اللهِ خيرٌ من حفظِكم. ومن قرأ (حَافِظٍ) أي خيرُ حافظٍ، وكُلاًّ نُصب على التميز، ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾. قال كعبٌ: (لَمَّا قَالَ يَعْقُوبُ: واللهُ خَيْرٌ حَافِظاً، قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَعِزَّتِي لأَرُدَّنَّ عَلَيْكَ كِلاَهُمَا بَعْدَ مَا تَوَكَّلْتَ عَلَيَّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي لما فتَحُوا أوعِيَتهم وجدوا دراهِمَهم رُدَّتْ إليهم، ﴿ قَالُواْ ﴾ ؛ لأبيهم: ﴿ يَاأَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ ؛ أي ما نظلِمُ ولا نكذبُ في ما أخبرنَاكَ به أنَّ مَلِكَ مصرَ أكرَمَنا والطفنا، وهذا إذا كان قولهُ: (مَا نَبْغِي) من البغيِ، فأما إذا كان من الطلب، فمعناهُ الاستفهامُ دون الجحدِ، وموضع (مَا) نَصْبٌ تقديرهُ أيُّ شيءٍ نريدُ، وفي قراءةِ عائشةَ عن النبيِّ ﷺ: [مَا نَبْغِي مَعْنَاهُ مَا نَطْلُبُ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ ؛ ابتداءُ كلام معناهُ: دراهمنا وهي ثمنُ الطعامِ الذي اشتريناهُ بمصرَ رُدَّتْ إلينا، وقولهُ تعالى: ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ ؛ أي نَمْتَارُ لأهلنا، بقولهِ مَارَ فُلانٌ لأَهْلِهِ إذا حَمَلَ إليهم قُوتَهم من غيرِ بلدةٍ. ومَن قرأ (نُميرُ) بضم النون، أي نجعلهم أصحابَ مِيرَةٍ، ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ ؛ مِن أن يضيعَ، ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ ؛ إذا كان هُوَ مَعنا، وسُمي الْحِمْلُ كَيْلاً؛ لأنه يُكَالُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي هَيِّنٌ سريع لا حَبْسَ فيه إنْ أرسَلتَهُ معَنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لهم يعقوبُ: ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ ﴾ ؛ بنيامين، ﴿ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقاً ﴾ ؛ أي تُعطوني عَهْداً وثيقاً، ﴿ مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ ؛ لتَرُدُّنَّهُ عليَّ، ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ ، يُنْزلُ بكُم أمِينُ السَّماءِ والأرض لا تَقدِرُون على دفع ذلك، ﴿ فَلَمَّآ آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ ؛ أي لما حلَفوا، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لَهم يعقوبُ: ﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي شهيدٌ حفيظ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ يَابَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ قال ابنُ عبَّاس: (خَافَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ الْعَيْنَ لِجَمَالِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، وَكُلُّهُمْ بَنُو أبٍ

(١) في المحرر الوجيز: ص١٠٠٦؛ قال ابن عطية: ((قال المهدوي: ورَوتها عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ)).

وَاحِدٍ)(١). ثم رجعَ إلى علمـهِ، ﴿ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ ﴾ ؛ أي ما القضاءُ إلا للهِ، ﴿ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ ﴾ ؛ إليهِ فوَّضتُ أمري وأمْرَكم مع التمسُّك بطاعتهِ والرضا بقضائه، ﴿ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧ ﴾.

واختلفَ العلماءُ في أمرِ العَيْنِ، فقالَ بعضُهم: هي حَقٌّ، واستدلُّوا بما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ عَوَّذَ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَرَقَّى لَهُمَا مِنَ الْعَيْنِ(٢) وَقَالَ [وَأُعِيذُكُمَا باللهِ مِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ](٣)، وَقَالَ ﷺ: [وَالْعَيْنُ حَقٌّ](٤). وقال بعضُهم: إنه يَمْتَدُّ من عينِ الناظر أجزاء، فتتصلُ(٥) بما يَستَحسِنهُ فتؤثِّرُ فيه كتأثيرِ اللَّسْعِ من النار والسُّمِّ.

وأنكرَ بعضُ العلماءِ الإصابةَ بالعينِ؛ لأنه لا شُبهةَ في أنَّ الأمراضَ والأسقامَ لا تكون إلا مِن فعلِ اللهِ؛ لأن الإنسانَ لا يقدرُ على ذلكَ. وفي قولهِ: (وَمَا أغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ) بيانُ أنه لا ينفعُ حَذرٌ مِن قَدَر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم ﴾ ؛ أي لَمَّا دخلُوا مصرَ من أبوابٍ متفرِّقةٍ، وكان لمصرَ أربعةُ أبوابٍ، فدخلُوها من أبوابها كلِّها كما أمَرَهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ ﴾ ؛ أي ما كان يُغنِي يدفعُ عنهم شيئاً من قضاءِ الله، يعني: لو قَدَّرَ اللهُ أن تُصِيبَهم العينُ لأصَابَتهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ ﴾ ؛ وهي دخولُهم مصرَ من أبوابٍ متفرِّقة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ ﴾ ؛ أي إن يعقوبَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٨٩٧).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٤ ص١١٣ عن أسماء بنت عميس رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، في ابني جعفر بن أبي طالب ﷺ: الحديث (٣٧٥-٣٧٧). وأخرجه مسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب استحباب الرقية: الحديث (٦٠/ ٢١٩٨).

(٣) أصله عند البخاري في الصحيح: كتاب أحاديث الأنبياء: الحديث (٣٣٧١). وأخرجه أبو داود في السنن: كتاب السنة: باب في القرآن: الحديث (٤٥٣٧).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب العين: باب الوضوء من العين: ج ٢ ص٩٣٨. والإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٣٨٦. والطبراني في المعجم الكبير: ج ٦ ص٨٢: الحديث (٥٥٨٠) وإسناده صحيح.

(٥) في المخطوط: (أمر بنصل) وهو تصحيف.

لَذُو يَقِينٍ ومعرفةٍ بالله وبأمر الدِّين لتَعليمِنَا إياهُ أن لا يصيبَ أحداً شيءٌ إلا بقضاءِ الله، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ ؛ أي ضَمَّ أخاهُ بنيامين إلى نفسهِ، وَقِيْلَ: أذِنَ له بالدُّخول عليه، وجَلَسَ إخوتهُ بالباب، فلما دخلَ عليه قالَ: ما اسْمُكَ؟ قال: بنيَامِينَ، قال: مَا اسمُ أمِّكَ؟ قال: رَاحِيل، قال: فهَلْ لكَ والدٌ؟ قال: نَعَمْ، قالَ: هل لكَ إخوةٌ من أبيكَ؟ قالَ: عشرةٌ، فقال: هل لكَ أخٌ من أمِّكَ؟ قال: كانَ لِي أخٌ من أمِّي هَلَكَ، قال: أحِبُّ أنْ أكون أخاكَ بدلَ أخِيكَ الهالِكَ؟ فقال: أيُّها الملِكُ ومَن يجدُ أخاً مثلكَ؟ لكن لَمْ يَلِدْكَ يعقوبُ ولا راحيلُ.

فخَنقَتْ يوسفُ العبرةُ، فبكَى ثم وثبَ إليه فاعتنقَهُ، و﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴾ ؛ وبكَى كلُّ واحدٍ منهما، ثم أعلَمَهُ يوسف أنه سَيحتَالُ في إحباسهِ عنده، ثم أذِنَ لإخوتهِ بعدَ ذلك في الدُّخول عليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي لا تَحْزَنْ بما كانوا يعمَلون بي وبكَ مِن حَسدِنا، وصَرْفِ وجهِ أبينَا عنَّا. فقد جمعَ اللهُ بيني وبينكَ، وأرجُو أن يجمعَ اللهَ بيننا وبين يعقوب، ثم أوْفَى يوسفُ لإخوتهِ الكيلَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ ؛ أي فلمَّا كَالَ لَهم، أمَرَ أصحابَهُ المختصِّين به أن يجعَلُوا الصاعَ في رَحْلِ أخيهِ بنيامين، وسُمِّيَ الصاعُ سقايةً؛ لأنه كان قبلَ ذلك مما يَسْتَقِي به الملِكُ الخمرَ وكان من ذهبٍ. وقال ابنُ عبَّاس: (كَانَ قَدَحاً مِنْ زُبُرْجَدٍ). وَقِيْلَ: كان من فضَّةٍ مُمَوَّهٍ بالذهَب، وكان الشُّربُ في مثلِ ذلك الإناء جَائزاً في شَريعَتِهم، فلما كان في أيَّام القحطِ أمَرَ الملِكُ أن يُكالَ به الطعامُ للناسِ.

قِيْلَ: فلمَّا قال يوسفُ لبنيامين: إنِّي أنا أخُوكَ، قال له: فإنِّي لا أفارقُكَ أبداً، قال يوسفُ: قد علمتُ اغتِمامَ وَالِدي لي، فأخافُ إنْ حبَستُكَ معي ازدادَ غَمُّهُ، ثم لا يُمكِنُني حَبْسُكَ إلاَّ بأنْ أشَهِّرَكَ بأمرٍ فظيع، قال: لاَ أبالِي فافعَلْ ما شئتَ.

قال: فإنِّي أدُسُّ صَاعِي هذا في رَحلِكَ، ثم أنَادِي عليكَ بالسَّرقة ليتهيَّأ لِي حَبسُكَ معي، ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾، أي فلما رَحَلَت إخوةُ يوسفَ نادَى مُنَادٍ: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾؛ وكان النداءُ على ظنٍّ مِن هؤلاءِ الموكَّلين بالصاع أنَّهم كذلكَ.

ولم يكن هذا النداءُ بأمر يُوسف ولا يعلمهُ؛ لأن الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ لا يَأمُرُونَ بالكذب، ومَن قالَ: إنَّ هذا النداءَ كان بأمرِ يُوسُفَ، فيحتملُ أنْ يكون معناهُ: إنَّكم لسَارِقُونَ يُوسُفَ على أبيهِ حين غيَّبتموهُ عنه. والعِيرُ اسمٌ لقافلةِ الْحَمِيرِ دُون قافلةِ الإبلِ، ثم كثُرَ استعمالهُ في كلِّ قافلةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾؛ أي قالَتْ إخوةُ يوسُفَ وَأقبَلُوا على المنادِي وأصحابِهِ: ماذا تَطلبُون أتنسِبُونا إلى السَّرقَةِ، ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ ﴾؛ أي نَطلُبُ، ﴿ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾؛ والصُّوَاعُ والصَّاعُ واحدٌ وهو السِّقايَةُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾؛ مِن الطَّعام، ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾؛ أي كَفِيلٌ، قالَ هذا القولَ المؤذِّنُ، وقال لَهم أيضاً: إنَّ الملِكَ قَدِ اتَّهَمَنِي، وأخافُ عقوبتَهُ وسقوطَ مَنْزلَتِي عندَهُ إنْ لم أجدِ الصَّاعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي حلَفُوا باللهِ وقالوا: لقد علِمتُم ما جِئنَا لنُفسِدَ في أرضِ مِصْرَ بالسَّرقة من النَاسِ، ﴿ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾؛ ما تَظُنُّونَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾؛ أي ما جزاءُ مَن سَرَقَ إنْ كنتم كاذبين، ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ السارقُ، ﴿ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ ﴾ أخذ عَبداً لسَرقته، ﴿ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ استِرقاقُه، ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ أي هكذا جزاءُ السَّارقين في أرضِنا وهي سُنَّةُ يعقوبَ عليه السلام، حَكَمُوا على أنفُسِهم بما كان يطلبُ يوسُفَ من احتباسِ أخيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾، أي فبدأ يوسفُ بتفتيشِ أوعِيَتهم قبلَ وعاءِ أخيه، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾؛ فلَمَّا فَتَّشَ وعاءَ أخيهِ وجدَ الصَّاعَ، فلما رأى إخوةَ يوسُفَ ذلك، تحيَّرُوا ونكَّسُوا رُؤوسَهم، وقالوا

لبنيامين: يَا ابْنَ المشؤومةِ وأخُو المشؤومِ! ما الذِي حَمَلَكَ على أن تسرُقَ صُواعَ الملكِ فتَفضَحَنا وتُزْري بأَبيكَ يعقوبَ، فجعلَ يحلِفُ باللهِ ما سرقتهُ ولا عِلْمَ لِي بمن وضعَهُ.

فلم يقبَلُوا منهُ وقالوا له: فمَن وضعَهُ في متَاعِكَ ؟ قال: الذِي وضعَ بضاعَتَكم في رحالِكم في المرَّة الأولى، فقالُوا فيما بينهم: لعلَّ هذا الملكُ يريد بنَا أمراً، فبينما هُم في الخصومةِ إذ أقبلَ فتى يُوسف فأخذ برَقبَةِ بنيامينَ وذهبَ به إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ كذلك صَنَعنا ليوسُفَ حتى أخذ أخاهُ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ يوسُفَ كان مأذُوناً له من جهةِ الله في هذه الحيلةِ ليُضاعِفَ الثوابَ ليعقوبَ على فَقدِهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا كَانَ لِيَأْخُذ أخَاهُ فِي دِيـنِ الْمَلِكِ) ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي ما كان ليأخُذ أخاهُ في قضاءِ الملك، لأن من حُكمِ الملكِ في السَّارق أن يُضرَبَ ويَغرَمَ ضِعفَي ما سَرَقَ، فلم يكن يوسفُ يتمكَّنُ من حبسِ أخيه عندَهُ في حُكمِ الملكِ لولا ما كادَ اللهُ له تلطُّفاً حتى وجدَ السبيلَ في ذلك، وهو ما جرَى عليه السِنَةُ إخوتهِ أنَّ جزاءَ السارقِ الاسترقاقُ، فأمِرُوا به وكان ذلك مُراده، وهو معنى قولهِ (إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللهُ) وكان ذلك بمشيئةِ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ ؛ أي في العلمِ كما رفعَنا درجةَ يوسف، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي فوقَ كلِّ عالِم عالِمٌ حتى ينتهِي العلمُ إلى اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ ﴾ ؛ لأبيهِ وأمِّه، ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي قالَ إخوةُ يوسف: إنْ يسرقْ بنيامينُ سقايةَ الملكِ (فَقَدْ سَرَقَ أخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) يَعْنُونَ يوسف، وذلك أنَّ عمَّةَ يوسف كانت تُحِبُّهُ وهو صغيرٌ، وكان يعقوبُ لا يتركهُ عندَها، فاحتَالَتْ وجاءَتْ بمِنْطَقَةِ أبيها إسحقَ فشَدَّتْها على وسط يوسُفَ تحتَ القميصِ، ثم قالت: فقد سَرَقَ مِنْطَقَةَ أبي فأنا آخذهُ بذلكَ. فهي التي أرادَ إخوتهُ بإضافتِهم السرقةَ إليه.

وعن مجاهدٍ: (أنَّ يُوسُفَ جَاءَهُ سَائِلٌ يَوْماً، فَسَرَقَ بَيْضَةً مِنَ الْبَيْتِ فَنَاوَلَهُ إيَّاهَا، فَعَيَّرُوهُ بذلِكَ). وَقِيْلَ: كان يُخبِئُ الطعامَ من المائدةِ للفُقراء، وَقِيْلَ: جاءَ سائلٌ ولم يكن في المنْزل معه أحدٌ، فأعطاهُ جَدْياً من غيرِ أمرِ أبيه فهذه سَرقتهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ ؛ أي أخَّرَ هذه الكلمةَ في نفسهِ، ولم يُظهِرْ لَهم جَواباً، بل ﴿ قَالَ ﴾ ؛ في نفسهِ: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ ؛ أي صُنعاً من يوسُف بما قدَّمتُم عليه من ظُلْمِ أخيكم وعُقوقِ أبيكم، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ به يُوسُفَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ ؛ رُوي أنَّ يَهُودَا كان أشدَّ بني يعقوبَ غَضباً، وكان إذا غَضِبَ صاحَ فلا تسمَعُ صوتَهُ حَامِلٌ إلاَّ وضَعَتْ، وكان إذا غَضِبَ تقومُ كلُّ شعرةٍ من جسدهِ وتنتفخُ، فلا يسكنُ غضبهُ حتى يَمَسَّهُ واحدٌ من آلِ يعقوب.

فقال يَهُودا لبعضِ إخوَتهِ: انظرُوا كَمْ سُوقاً بمصْرَ؟ فنَظَروا فإذا هي عشرةٌ، فقالَ لإخوته: اكفوني مِن هذه الأسواق حتى أكفِيكُمْ من الملكِ، ثم قالَ: تباعَدُوا منِّي، فأمرَ يوسفُ ابناً له صَغيراً، فقال: اذهَبْ فمُسَّ ذلك الرجلُ، فدَنَا منه فمَسَّهُ فذهبَ غضبهُ، ثم هَمَّ أن يصيحَ ثانيةً، فقامَ إليه يوسفُ فَرَكَضَهُ برجلهِ ليُرِيَهُ أنه شديدٌ، ودفعَهُ ثم أخذ بتَلاَبيبهِ فجَذبَهُ فوقعَ في الأرضِ. ثُم قال: إنَّكم تُرونَ مَعْشَرَ العبرانيِّين أنَّ أحداً ليس مِثلَكم في الشدَّة.

فقال يَهُودَا لإخوتهِ: هل مَسَّنِي أحدٌ من آل يعقوبَ؟ قالوا: لاَ، وذلَّ يهودا عند ذلكَ، وقال: يا أيُّها العزيزُ إنَّ له أباً شَيخاً كَبيراً في السنِّ، فذكَروا هذا على جهةِ الاستِرحَامِ.

وَقِيْلَ: معناهُ: كبيرَ القَدْر لا يحسبن، أين مِثلهُ؟ فخُذْ أحدَنا مكانه عَبداً. وَقِيْلَ: وفي هذا دليلٌ أنه كان يجوزُ لإنسان أن يُرقَّ نفسه لغيرهِ، وقد نُسِخَ هذا بشريعةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ إلى كلِّ مَن يأتيكَ وقد أوفيتَ لنا الكيلَ، ورَدَدتَّ علينا بضَاعَتنا وقضَيتَ حاجَتنا، فإنْ رَدَدْتَّ معَنا أخانا كان أعظمَ مِنَّةٍ علينا مِن جميعِ ما سبقَ.

---

(١) هنا أدرج الناسخ عبارة: (وهنا كذا في تفسير عبدالصمد) وستأتي ترجمة عبدالصمد إن شاء الله وهو متأخر عن الإمام الطبراني.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ﴾ ؛ يوسفُ: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ وهذا نُصِبَ على المصدرِ؛ أي أعوذُ باللهِ، ﴿ أَن نَّأْخُذَ ﴾ ؛ أي أن آخُذ بالسَّرقة، ﴿ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ ؛ إذا فَعَلنا ذلك كُنَّا ظَالِمين، نحبسُ مَن لم نجِدْ متَاعَنا عندَهُ. يجوزُ أن يكون أرادَ إنَّا، ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ، عندكم وفي حكمكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ ؛ أي لَمَّا يَئِسوا من يوسُفَ أن يَرُدَّ أخَاهم عليهم انفَرَدُوا مُتناجِينَ فيما بينهم يتشاوَرُون كيفَ يرجِعون إلى أبيهم وماذا يقُولون له. والتَّنَجِّي مصدرٌ يُعَبرُ بِهِ عن الواحدِ والجميع، وقد يُجْمَعُ النَّجِيُّ أنْجِيَةً، قال الشاعرُ[(١)]:

إنِّـى إذا مَـا الْقَـوْمُ صَـارُواْ أَنْجِيَـهْ وَاخْتَلَفَـتْ أَعْنَاقَـهُمْ الأَرْشِـيَهْ

هُنَـاكَ أَوْصِـي وَلاَ يُوصَـى بيَـهْ[(٢)]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي قالَ لهم رُوبيل وهو أكبرُهم في السنِّ: ألَمْ تعلَمُوا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم عَهْداً من اللهِ لَتَرُدُّنَّهُ عليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ ؛ أي وتعلَمُون تفريطَكم في يوسف، ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي أرضَ مصرَ، ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ في البَرَاح، ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾ ؛ في موتٍ، أو وصُولٍ إلى أخِي فأرُدُّهُ إلى أبيهِ ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ لا يحكمُ إلا بالحقِّ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج٩ ص٢٤١. واللباب في علوم الكتاب: ج ١١ ص١٧٨:

إنِّـي إذَا مَـا الْقَـوْمُ كَـانُوا أَنْجِيَـهْ وَاضْطَـرَبَ الْقَـوْمُ اضْطِـرَابَ الأَرْشِـيَهْ

هُنَاكَ أَوْصِينِي وَلاَ تُوصِي بيَـهْ

والشاعر هو سُحيم بن وثيل اليربوعي يصفُ قوماً أتعبَهم السيرُ والسفر فرقدوا على ركابهم واضطربوا عليها، وشدَّ بعضهم على ناقتِهِ حذارَ سُقوطه. والأرشية: هي الحبَالُ التي يُستَقى بها، والمراد أنه ثابتُ الجاشِ.

(٢) هكذا الشعر في المخطوط، وتختلف روايته عما في الجامع لأحكام القرآن.

ثُم قالَ لإخوتهِ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى:

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ ؛ صُوَاعَ الملكِ. وقرأ ابنُ عبَّاس (سُرِّقَ) بضـمِّ السـين وتشـديدِ الـراء، ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ ؛ إخبارٌ عن ظاهرِ وجودِ الصَّاعِ في رَحْلِ بنيامين أنه هو الآخذُ لـه، ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي ما كُنَّا ندري باطنَ الأمرِ في السَّـرقة أنه سَرَقَ أو كُذِبَ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ ؛ أي اسألْ مَن شِـئتَ مـن أهلِ القرية التي كُنَّا فيها وهي مصرَ، فإنَّ هذا أمرٌ شائع فيهم، يُخـبرْكَ بـه مَـن سـألتَهُ. وسَمَّى مصرَ قريةً؛ لأن العربَ تُسمِّي الأمصارَ والمدائنَ قُرَى. وَقِيْلَ: أرادَ بالقريةِ قريةً من قُرَى مصرَ وهي التي ارتَحَلُوا من مصرَ إليها.

قوله: ﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ ؛ أي واسألْ أهلَ القافلةِ التي رجَعنا منهم، وكان قد صَحِبَــهم قـومُ كنعـان. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ أي لصَادِقون فيما نقولُ لكَ. فقالَ لَهم يعقوبُ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى:

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ ﴾ ؛ أي قالَ: إنَّ ابنِي لا يسرقُ، وإنَّما سهَّلَت لكم أنفسُكم أمراً إذا قُلتـم فيـه سَـرَقَ، فـأمري صبرٌ جميل لا جَزَعَ فيهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ ﴾ ؛ أي بيوسُفَ وبنيـامينَ وروبيل، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ؛ بعبـادِهِ، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ في تدبـيرِ أمرِ خَلْقِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي أعْـرَضَ عنـهم لشـدَّة الحـزن، ﴿ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ؛ أي أقْبـلْ أيُّــها الأسَــفُ فقــد حــانَ وقتُــكَ، والأسَــفُ والحزنُ واحدٌ. وَقِيْلَ: الأسَـفُ أشـدُّ مـن الحـزن. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ ، من شدَّة البُكاءِ وإلاَّ فالحزنُ لاَ يُبَيِّضُ العينَ، والدمـعُ ممـا لا يمكـن

الاحترازُ عنه كما قالَ ﷺ: [الْقَلْبُ يَحْزَنُ وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي مُمسِكٌ للحُزنِ يتردَّدُ حزنهُ في جَوفهِ، وقال عطاءُ: (الْكَظِيمُ الْحَزِينُ)، وقال الضحَّاك: (كَمِيدٌ)، وقال ابنُ عبَّاس: (مَهْمُومٌ) قال مقاتلُ: (لَمْ يُبْصِرْ بعَيْنَيْنِ سِتَّ سِنِينَ حَتَّى كَشَفَهُ اللهُ بقَمِيصِ يُوسُفَ)[(٢)]، قِيْلَ: بلغَ من حُزنِ يعقوبَ حزن سَبعين ثكلَى[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي قالَ أولادُ يعقوبَ: واللهِ لا تزالُ تذكرُ يوسفَ حتى تكون دَنفاً[(٤)] أو تَموت، والْحَرَضُ الذائِبُ البَالِي. وعن الحسنِ: (حَتَّى تَكُونَ حُرُضاً) بضَمَّتَيْنِ، أرَادَ كَالأشْنَانِ الْمَوْقُوفِ. وقال الربيعُ: (الْحَرَضُ يَابسُ الْجِلْدِ عَلَى الْعَظْمِ). وَقِيْلَ: هو الضَّعيفُ الذي لا حِرَاكَ بهِ.

وإنما أضمرَ (لاَ) في قولهِ (تَفْتَؤُ) لأنَّ العربَ تقولُ: واللهِ تدخلُ هذا الدارَ، تريدُ بذلك نفيَ الدخول، فإذا أرادَتْ للإثباتِ قالت: لَتَدْخُلُنَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي قالَ يعقوبُ: إنَّما أشكُو غمِّي وحُزْني إلى اللهِ. والْبَثُّ: هو تفريقُ الحزنِ الذي لا يكادُ يصبرُ عنه صاحبهُ حتى يَبُثُّهُ.

ورُوي أنَّ رجُلاً قالَ ليعقوب عليه السلام: مَا الذي أذهبَ بصرَكَ؟ قال: حُزْني على يوسُفَ، قال: فما الذي قَوَّسَ ظَهرَك ؟ قال: حُزني على أخيهِ. فأوحَى اللهُ إليه: يا

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: باب قول النبي ﷺ [إنَّا بكَ لَمَحْزُونُونَ]: الحديث (١٣٠٣). ومسلم في الصحيح: كتاب الفضائل: باب رحمته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبيان: الحديث (٦٢/ ٢٣١٥).

(٢) في تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٢ ص١٦١ ذكره مختصراً.

(٣) نقله الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٠٥٥) عن عبيدالله بن أبي جعفر.

(٤) الدنف: الشيء البالي التالف. وفي إعراب القرآن: ج ٢ ص٢١٣؛ قال النحاس: (حَرَضَ: إذا بَلِيَ وسَقِمَ). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص٢٥١؛ قال القرطبي: (وأصل الْحَرَضِ: الفسادُ في الجسم أو العقلِ من الحزن أو العشق، أو الهرَم).

يعقوبُ أتَشْكُونِي؟ وعِزَّتِي لا أكشفُ ما بكَ حتى تَدعُوَنِي، فقال عند ذلك: (إنَّمَا أشْكُو بَثِّي وحُزْنِي إلَى اللهِ) فأوحَى اللهُ إليه: وعِزَّتِي وجَلالِي لو كانَا مَيِّتَينِ لأحيَيتُهما لكَ حتى تنظُرَ إلَيهما.

وَقِيْلَ: إنَّ رجُلاً دخلَ عليه فقالَ له: يا يعقوبُ ما لِي أراكَ قد انْهَشَمْتَ وَفَنَيْتَ؟ قال: هَشَّمَنِي وَأفْنَانِي ما ابتلانِي اللهُ به من هَمِّ يوسُفَ، فأوحَى اللهُ إليه: أتَشْكُونِي إلى خَلقِي؟ فقالَ: يا رب خطيئةٌ أخطَأتُها فَاغفِرْها لِي، فقال: قد غفرتُها لكَ، فكان بعدَ ذلك إذا سُئلَ قال: (إنَّمَا أشْكُو بَثِّي وحُزْنِي إلَى اللهِ).

قال وهبُ بن منبه: (أوحَى اللهُ إلى يعقوبَ: أتدري لِمَ عاقبتُكَ وحبستُ عنك يوسف ثمانين سنةً؟ فقالَ: لاَ، قال: لأنَّكَ شويتَ وقتَّرْتَ على جاركَ وأكلتَ ولم تُطعِمْهُ!)[1]. ويقالُ: إن سببَ ابتلاءِ يعقوب، أنه كان له بقرةٌ وكان لها عِجْلٌ، فذبحَ عِجلَها بين يديها وهي تخورُ، فلم يَرحَمْها يعقوبُ فأخذهُ الله به وابتلاهُ بفقدِ أعزِّ أولادهِ من وسيطِ الواحد!

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾؛ أي أعلمُ أن رُؤيا يوسف صادقةٌ وإنَّا سنسجدُ له. وَقِيْلَ: أعلمُ أن يوسف حيٌّ لم يَمُتْ؛ لأنه رويَ أن مَلَكَ الموتِ دخلَ على يعقوبَ، فقال له يعقوبُ: هل قبضتَ روحَ ولَدي يوسف في الأرواحِ؟ قال: لاَ وستراهُ عاجلاً[2].

فعندَ ذلك قال يعقوبُ لأولادهِ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾؛ أي اذهبُوا واستَخْبِرُوا واطلبُوا يوسف وأخاهُ، وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: فالْتَمِسُوا يُوسُفَ وَأخَاهُ)، ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي لا تقنَطُوا من فَرَجِ اللهِ، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾؛ وسُئل ابنُ عبَّاس عن الفرقِ بين التَّحْسِيسِ وَالتَّجْسِيسِ، فقالَ: (التَّحَسُّسُ فِي الْخَيْرِ، وَالتَّجَسُّسُ فِي الشَّرِّ).

---

(١) أدرج الناسخ عبارة: (كذا في تفسير الثعلبي). وهو في تفسير الكشف والبيان للثعلبي: ج ٥ ص٢٤٩.

(٢) أدرج الناسخ عبارة: (كذا في تفسير عبد الصمد).

ورُوي أن يعقوبَ كتبَ كتاباً إلى عزيزِ مصرَ: بسمِ الله الرَّحمنِ الرحيم: من يعقوبَ بن اسحقَ بن إبراهيم إلى عزيز مصرَ، أمَا فإنَّا أهلُ بيتٍ موكَّل بنا البلاءُ، ابتلَى اللهُ جَدِّي بأن طُرِحَ في النار فجعلَها اللهُ عليه بَرْداً وسَلاَماً، وابتَلَى عمِّي إسماعيلَ بالذبْحِ، ففداهُ الله بكَبْشٍ عظيمٍ، وابتلَى أبي بالعمَى، وابتُليتُ أنا بغَيْبَةِ ابنِي يوسُفَ فذهبَ بصَرِي، وزعمتَ أنَّ ابني سَرَقَ، وما ولدتُ سَارقاً، فخَلِّ سبيلَ ابني وإلا فإن اللهَ يفعلُ ما يشاء.

ثم دفعَ الكتابَ إلى أولادهِ وقال لَهم: إذا دخلتُم عليه فقولوا: يَا أيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأهْلَنَا الضُّرُّ، فذلكَ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ ؛ أي فلمَّا دخَلُوا في المرَّة الثالثةِ قالوا: يا أيُّها العزيزُ مسَّنَا وأهلَنا الشدَّةُ من القحطِ، ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ ؛ أي قليلةٍ كاسِدَة، والْمُزْجَاةُ: هي الشيءُ اليسير الذي يدافَعُ بهِ. روي أنَّهم جاؤُا بمتاعِ الأعراب مثل الأَقْطِ والْجُبْنِ والسَّمْنِ والصوفِ، وَقِيْلَ: جاؤُا بدراهم رَديئةٍ لا تنفَقُ في الطعامِ، وقال الضحاك: (النِّعَالُ وَالأَدْمُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ ؛ أي وفِّر لنا الكيل، كما كنت توفر في السنين الماضية، ولا تنظر الى قلة بضاعتنا في هذه السنة، وتصدق علينا بنقصان السعر.

وقال سفيان بن عيينة: (سَأَلُوا الصَّدَقَةَ وَهُمْ أنْبِيَاءُ، وَكَانَتْ حَلاَلاً لَهُمْ، وَإنَّمَا حُرِّمَتْ عَلَى النَّبيِّ ﷺ)(١)، وكره مجاهد أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علينا، فان الصدقة إنما هي ممن يبتغي الثواب، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي على صدقاتهم بأفضل منها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ رُوي أنَّهم لما دفعُوا الكتابَ إليه وقرأهُ، أرعدَ حتى سقطَ الكتابُ من يدهِ، ثم انتحبَ انْتِحَابَةً كادَ أن يتقطَّعَ منها قلبهُ، وقال لَهم عند ذلكَ: هل

(١) ذكره الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٠٩٤).

علمتُم ما فعلتم بيوسُفَ وأخيهِ، وقصَّ عليهم جميعَ ما عمِلوهُ به من إلقائِهم إياهُ في الْجُب، وبَيعِهم له وقولهم: إنْ يَسرقْ فقد سرقَ أخٌ له من قبلُ، وفعلهم بأخيهِ حتى صارَ ذليلاً فيما بينهم. وأرادَ بقولهِ (إذْ أنْتُمْ جَاهِلُونَ) جهالةَ الصِّبا، وَقِيْلَ: أرادَ إذ أنتم شبابٌ أحداث لا تعرفون أمُورَ الدينِ.

فلما قصَّ عليهم ذلك، ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ ﴾ ؛ بصبرنا على الشدَّة، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ ﴾ ؛ المعاصيَ، ﴿ وَيَصۡبِرۡ ﴾ ؛ على الشدائدِ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ﴾ ؛ أي ثوابَ ﴿ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا ﴾ ؛ أي فضَّلَكَ بما أنعمَ عليكَ، ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ ﴾ ؛ أي وقد كُنَّا عاصين للهِ في ما فَعَلنا، وهذا يدلُّ على أنَّهم نَدِموا على ما فعلوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾ ؛ أي لا تَعْيِيرَ عليكم اليومَ؛ أي لا أذكرُ لكم ذنبَكم بعد هذا اليومِ. وقال ابنُ عبَّاس: (لاَ لَوْمَ عَلَيْكُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢ ﴾ ؛ بعبادهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي ﴾ ؛ أي قالَ لَهم: اذهبوا بقمِيصي هذا فألقوهُ على وجهِ أبي يرجعُ، ﴿ يَأۡتِ بَصِيرٗا ﴾ ؛ كما كانَ، قال الضحَّاك: (كَانَ ذلِكَ الْقَمِيصُ مِنْ نَسْجِ الْجَنَّةِ). وقولهُ تعالى: ﴿ وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣ ﴾ ؛ رُوي أنَّهم كانوا نحو سَبعين إنساناً.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ ﴾ ؛ رُوي أنه لَمَّا خَرجت القافلةُ من العريش وهي قريةٌ بين مصرَ وكنعان، بينهم وبين يعقوب ثمانية أيَّام، ﴿ قَالَ أَبُوهُمۡ ﴾ ، قال يعقوبُ لولدِ وَلَدِه، وكان أولادُه كلُّهم بمصرَ: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ ﴾ . رُوي أن الريحَ حَملت رائحةَ يوسف إلى أبيهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ ﴾ ، تُسَفِّهُونِي في الرأيِ لقُلتُ إنه حيٌّ.

وقال الخليلُ: (الْفَنْدُ إنْكَارُ الْعَقْلِ مِنْ هَرَمٍ، يُقَالُ شَيْخٌ مُفْنِدٌ، وَلاَ يُقَالُ عَجُوزٌ مُفْنِدَةٌ؛ لأنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي شَبيبَتِهَا ذاتَ رَأيٍ فَتُفْنِدُ). وقال ابنُ عبَّاس: (تُفَنِّدُونِ

تُجَهِّلُون)[١]، وعن مجاهد: (لَوْلاَ أنْ يَقُولُوا ذهَبَ عَقْلُـكَ)[٢]، وقـال الضحَّـاك وابـنُ جبير: (لَوْلاَ أنْ تُكَذِّبُون)، وَقِيْلَ: لولا أنْ تقولوا إنِّي شيخٌ خَرِفٌ، وقـال أبـو عُبيـدة: (تُضَلِّلُون)، والفَنَدُ الْفَسَادُ، قال الشاعرُ[٣]:

يَـا صَـاحِبَيَّ دَعَـا لَوْمِـي وَتَفْنِيـدِي ... فَلَيْـسَ مَـا فَـاتَ مِـنْ أمْـري بمَـرْدُودِ

وفي بعضِ الرِّوايات: أنَّ ذلك القميصَ كان من الجنَّة، وكان اللهُ ألبسَهُ إبراهيـمَ حينَ ألقي في النارِ فصارت عليه بَرْداً وسلاماً، ثم كساهُ إبراهيمُ اسحقَ وكساهُ يعقـوبَ، وكان يعقوبُ أدرجَ ذلك القميصَ في قصبةٍ وعلَّقه على يوسف لما كان يخافُ عليه من العينِ. وأمرَهُ جبريلُ أن أرسِلْ إليه قميصكَ هذا فإن فيه ريحَ الجنَّة، لا يقعُ على مُبتلَـى أو سَقيمٍ إلا عُوفِيَ، فلذلك أصابَ يعقوب ريحه مـن بعـد ثمانيـةِ أيَّـام، ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ ؛ البشيرُ هو يَهُودَا، وذلك أن يهودَا قال ليوسف: أنا ذهبتُ بالقميصِ وهو ملطَّخٌ بالدمِ إليه، فأنا أذهبُ بالقميصِ إليه فأُخبرهُ بـأنَّكَ حـيٌّ وأفَرِّحُـهُ كمـا أحزنتـهُ، فكـان هـو البشيرُ، فحملَ القميصَ وخرجَ حاسراً حافياً، وكان معه سبعةُ أرغفةٍ لم يشـوَّقْ أكلَـها حتى بلغَ كنعان، وكانت المسافةُ ثمانين فرسخاً، فلمـا أتـاهُ ألقـاه علـى وجهـهِ فـارتدَّ بصيراً.

قال الضحَّاك: (رَجَعَ بَصَرُهُ بَعْـدَ العَمـي، وَقُوَّتُـهُ بَعْـدَ الضَّعْـفِ، وَشَـبَابُهُ بَعْـدَ الْهَرَمِ، وَسُرُورُهُ بَعْدَ الْحُزْنِ)، ثم قال يعقوبُ للبشيرِ: على أيِّ دينٍ تركـتَ يوسـف ؟ قال: على الإسلامِ، قال: الآنَ تَمَّتِ النعمـةُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي ألَـمْ أقُـلْ لكـم إن يوسُـفَ حـيٌّ، وكنتم لا تعلمون ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥١١٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥١٢٠).

(٣) هانئ بن شكيم العدوي، ينظر: جامع البيان: تفسير الآية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ ﴾ ؛ أي ادْعُ اللهَ أن يغفرَ لنا ذنُوبَنا، ﴿ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ أي مسيئين عاصِين لله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ ﴾ ؛ رُوي أنه قال لَهم يوسف: أدعُو لكم ربي ليلةَ الجمعة آخرَ السَّحَر، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ﴾ ؛ لعبادهِ، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ لَهم، ويقال: إنَّهم التَمَسُوا منه أن يستغفرَ لهم على الدوامِ، وأن يجعلَهم في ورْدِهِ في الدُّعاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾ ؛ رُوي أن يوسف كان يبعثُ إلى يعقوبَ بمائتي راحلةٍ، وسألَهُ أن يأتيَهُ بأهلهِ أجمعين، فتهيَّأ يعقوبُ للخروجِ، فلما دنَا من مصرَ، وكان يوسف قد خرجَ في أربعةِ آلاف من الجند، فلما رأى يعقوب الخيلَ قال: ما هذا ؟

قال: هو ابْنُكَ، فلما دنَا كلٌّ واحد من صاحبهِ، ابتدأ يعقوبُ بالسلامِ فقال: السلامُ عليكَ يا مُذهِبَ الأحزان، ثم عانقَ كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَهُ وبَكَيا. فقال يوسفُ: يا أبَتِ بكيتَ عليَّ حتى ذهبَ بصَرُكَ ؟ قال: نعم، قال: يا أبَتِ حزنتَ عليَّ حتى انحنيتَ ؟ قال: نعم، قال: يا أبتِ أما علمتَ أن القيامةَ تجمَعُنا؟ قال: إنِّي خشيتُ أن يُسلَبَ دِينُكَ فلا نجتمعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ) أي ضمَّهُما إلى نفسهِ وأنزلَهما عندَهُ، قال عامَّةُ المفسِّرين: يعني أباهُ وخالتَهُ؛ لأن أمَّهُ كانت قد ماتتْ قبلَ ذلك، وكان موتُها نفاسها ببنيامين، ولأن بنيامين بلغةِ العبرانية ابنُ الوجيعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ من العدُوِّ والقحطِ والأسْوَاءِ كلِّها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ ؛ أي رفعَهُما معه على سريرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ ﴾ ؛ أي سجدَ له أبوهُ وخالته وإخوتهُ الأحدَ عشر سجودَ تحيَّةٍ وتشريف، وكان في ذلك الزمان يسجدُ الوضيعُ للشريفِ، وقد تقدَّمَ نَسْخُ هذا السجودِ في سورة البقرةِ، وعن عمرَ ﷺ: (أنَّهُ خَرَجَ إلَى بَعْضِ

الْقُرَى، فَخَرَجَ إلَيْهِ رَئِيسُ أهْلِ الْقَرْيَةِ فَسَجَدَ لَهُ، فَقَالَ: مَا هَذا ؟! قَالَ: شَيْءٌ نَصْنَعُهُ للأُمَرَاءِ وَالْخُلَفَاءِ، فَقَالَ: اسْجُدْ لِرَبكَ الَّذِي خَلَقَكَ).

ويقالُ في معنى هذا: إنَّهم سَجَدوا شُكراً للهِ على ما أنعمَ اللهُ عليهم من اجتماعِهم على أيسَرِ الأحوال. ويجوزُ أن يكون معنى السجودُ الْمَيَلاَنُ والانحناءُ، عن ابنِ عبَّاس: (أنَّ مَعْنَاهُ: وَخَرُّوا للهِ سُجَّداً)، وقولهُ (لَهُ) كنايةٌ عن اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ ﴾ ؛ أي هذا السجودُ تصديقُ رُؤيَايَ التي رأيتُها من قبلُ، ﴿ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ ﴾ أي أحسنَ إليَّ، ﴿ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ ﴾ ؛ هذا ثناءٌ منه على اللهِ تعالى بإنعامهِ عليه؛ إذ خَلَّصَهُ ونَجَّاهُ من العبوديَّة، ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾ ، وجاءَ بأبيهِ وإخوته من الباديةِ إليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾ ؛ بالحسدِ، ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾ ؛ أي لطيفٌ في تدبيرِ عباده وبلُطفهِ جمعَ بيننا على أحسنِ الأحوال، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ ؛ بمصالِح عبادهِ، ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠ ﴾ في تدبيرِهم.

واختلَفُوا في المدَّة التي كانت بين رُؤيا يوسف وبين تَصديقِها، قال سلمانُ ﷺ: (أرْبَعُونَ سَنَةً)[1]، وقال ابنُ عبَّاس: (اثْنَان وَعُشْرُونَ سَنَةً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ ؛ يعني مُلْكَ مصرَ أربعين فرسخاً في أربعين فرسخاً، ﴿ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ﴾ ؛ أي تعبيرِ الرُّؤيا وتأويل كُتب الدين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ نُصِبَ على النداء؛ أي يا فاطرَ السماءِ والأرض مُنشِئُهما على غيرِ مثال، ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ ؛ أي تتَولَّى حِفظِي وصيانتي، ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا ﴾ ؛ أي الطُف بي لُطفاً أثبتُ به على الإيمانِ إلى أن يلحقَني الموت، ﴿ وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١ ﴾ ؛ يعني يلحقهُ بآبائه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(١٥١٧٣ و١٥١٧٥) بأسانيد عن سلمان الفارسي.

وأما ما كان من أمرِ زُليخا فإنه لما ماتَ العزيزُ وبَقِيت أرملةً، قالت: أنا مِن يوسف على رجاءٍ، وأمري كلَّ يوم إلى نقص؛ وذلك بمَعصيَتي لآلهِ يوسف، فكيف لا أقومُ إلى هذا الصَّنم المشؤومِ فأجعلهُ جُذاذاً، والْحَقُ بيوسف وأسلِمُ على يدهِ؟ لعلَّ إلَهَهُ يرحَمُني ويقضي حاجَتي، فقامت وكسرت صنمَها وجاءت إلى طريق يوسف، فوقفت له في يومِ ركُوبهِ فأقبلَ مع الأعلامِ والرايات مكتوبات عليها: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أدْعُوا إلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فلمَّا صارَ يوسف بحذاءِ زُليخا نادت: سُبحان من يعلي العبيد ويجعلَهم مُلوكاً بطاعتهِ، ويذِلُّ الموالِي ويجعلهم عبيداً بمعصيتهِ. فسَمِعَ ذلك يوسف فقال: علَيَّ بصاحبةِ هذا الكلامِ، فأُتِيَ بها إليه فقال: مَن أنتِ ؟ قالت: زُليخا أمَا تعرفُني؟! قال: لا، قالت: قد أنكرتَني؟ قال: أشدَّ الإنكار، قالت: أنا الذي راودتُكَ عن نفسك فاستعصمتَ بإلهِ السَّماء، فرفعَكَ ووضعَنِي؛ وأعزَّكَ وأذلَّني؛ وأغناكَ وأفقرَني، فعلمتُ أني في باطلٍ وغُرورٍ، فكسرتُ صنمِي وجئتُكَ طائعةً مؤمنةً أقولُ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، لِيَرْحَمَنِي، فوقعت رحمتُها في قلبهِ، فقالَ: سَلِي حاجتَكِ، قالت: أتفعلُ ؟ قال: نعم، قالت: لي ثلاثُ حوائجَ يا يوسف قد ذهبَ بصَري فادعُ اللهَ أن يرُدَّ عليَّ لأنظُرَ إلى جمالِ وجهك، فدعا اللهَ فردَّ عليها بصرَها فأقبلت تنظرُ إلى يوسف، ثم قالت: وادعُ اللهَ أن يَرُدَّ علي حُسني وجَمالي، فدعَا اللهَ فردَّه عليها ذلك.

فلما نظرَ يوسفُ إليها نكَّسَ رأسه وقال: أما تسألِي الثالثةَ يا رأسَ الفتنةِ؟ قالت: تتزوَّجُ بي حلالاً؟ قال لها: قُومِي يا رأسَ الفتنةِ هذه حاجةٌ ليس في نفسي قضاؤُها، قالت: أما أنا فلا أقنطُ من رحمةِ الله، فنَزل جبريلُ على يوسف وقال: إن اللهَ يأمرُكَ أن تتزوجَ بها، فجعلت تحمدُ اللهَ وتشكرهُ فتزوَّجَها، فلما دخلَ بها وجدَها عذراءَ، فولَدَت له وَلَدَين، وأقامَ يعقوبُ عند يوسف ثماني عشرةَ سنةً، ومات قبل يوسف بسنتين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ ﴾ ؛ أي ذلكَ الذي ذكرتُ لكَ يا مُحَمَّد من قصَّة يوسف وإخوته من أخبار ما غابَ علمهُ عنكَ نوحيه إليك. قولُهُ: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ ﴾ ؛ أي وما كنتَ عندهم إذ

عزَمُوا أمرَهم على إلقاءِ يوسف في الْجُب، ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ به، وكان مَكرُهم إلقاءَهم إياه في البئرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ أي وما أكثرُ الناسِ بمؤمنين بالقرآن والرسول ولو حرصتَ يا مُحَمَّدُ على دعائِهم إلى الإيمان وجهدتَ كلَّ الجهد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ؛ أي وما تسألُهم يا مُحَمَّدُ على دعائِهم إلى الله من جُعْلٍ في مالِهم فيصدُّهم ذلك عن الإيمان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ أي ما القرآنُ إلا موعظةٌ للعالَمين.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ أي فكَم من آيةٍ دالَّة على وحدانيَّة اللهِ مما في السَّموات من الشمسِ والقمر والنجوم، وما في الأرضِ من الأشجار والجبال والنبات وغيرِ ذلك من الحيوانات، يرَونها ويشاهدونها ثم لا يستدلُّون بذلك على أنَّ لها مُدبراً حكيماً عليماً قادراً لا يشبههُ شيء من المخلوقاتِ. ويقال: أرادَ بالآياتِ التي في الأرضِ آيات عادٍ وثمود وقومِ لوط وغيرهم، كان أهلُ مكة يَمُرُّونَ عليها في أسفارهم ولا يتَّعظون بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ أي ما يُصَدِّقُ أكثرُهم بلسانِهم إلا وهم مُشركون به غيرَهُ؛ لأنَّهم يؤمنون من وجهٍ، كما قال تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[1] ويُشركون من وجهٍ وهو عبادتُهم الأصنامَ، وقال الحسنُ: (الْمُرَادُ بهَذِهِ الآيَةِ أهْلُ الْكِتَاب مَعَهُمْ إيْمَانٌ مِنْ وَجْهٍ وَشِرْكٌ مِنْ وَجْهٍ، فَإنَّ مَعَ الْيَهُودِ إيْمَاناً بمُوسَى وَكُفْراً بمُحَمَّدٍ ﷺ).

قولُهُ: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي أفأمِنَ الكفارُ أن يغشاهم العذابُ من اللهِ، ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ بنُزول العذاب.

---

(١) الزخرف / ٨٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾ ؛ أي هذه الدَّعوةُ دِيني، وإنما قالَ: (هَذِهِ) لأن السبيلَ يذكَّر ويُؤنَّثُ، ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ ؛ على معرفةٍ منِّي بـالله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ ؛ معناهُ: يدعُو إلى اللهِ، ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أي وقُل: سبحانَ اللهِ، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي لستُ معَهم على دِينهم.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أي وما أرسَلنا مِن قبلِكَ يا مُحَمَّدُ إلا رجَالاً منسُوبين إلى القُرى مثلكَ يُوحَـى إليـهم كما يوحَى إليكَ، قال الحسنُ: (لَمْ يُرْسِلِ اللهُ امْرَأةً وَلاَ رَسُولاً مِنْ أهْلِ الْبَادِيَةِ؛ وَذلِكَ لأنَّ أهْلَ الأَمْصَار يَكُونُونَ أثْبَتَ عُقُولاً مِنْ أهْلِ الْبَادِيَةِ، وَأشَدَّ أحْلاَماً مِنْهُمْ).

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ يعـني أفلَـم يسير أهـلُ مكـة في الأرضِ، ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ﴾ ؛ فـيَرَوا آثـارَ ديــار، ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ من الكفَّار فيخافون ما ينْزِلُ بهم من عذاب الله وما نزلَ بأولئِكَ.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ يعني قولهُ (دَارُ الآخِرَةِ) الجنَّة (خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوا) الكفـرَ والفواحـشَ (أفَـلاَ يَعْقِلُـونَ) معناهُ: أفليسَ لهم ذهنُ الإنسانية أنَّ الآخرةَ الباقيةَ خـيرٌ مـن الدنيـا الفانيـة، وأضـافَ الدارَ إلى الآخرةِ على سبيلِ إضافة الشيء إلى نفسه كما يقالُ يومُ الجمُعة.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ ؛ أي حتى إذا يَئِسَ الرسلُ عن إجابة الأُمَم وأيقنـوا أن القـومَ، (قَـد كُذِبُـوا)؛ تكذيبـاً لا يرجعـون عنـه، ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ﴾ ؛ بـإهلاكِ قومـهم، ومـن قـرأ (كُذِبُوا) بالتخفيف فمعناهُ: وظنَّ المرسَلُ إليهم أن الرُّسُلَ قد كذبُوهم في ما أوعَدُوهم من العذاب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ أي لا يُرَدُّ عذابُنا عن الكافرين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ؛ أي لقــد كان في قَصَصِ مَن تقدَّم من الأنبياءِ عبرةٌ لذوي العقولِ من النـاس. وَقِيْـلَ: إن قصـةَ يوسف وإخوته عبرةٌ لمن أرادَ أن يعتبرَ فيصبر على البلاءِ والْمِحَنِ، كما صبرَ يعقـوبُ

ويوسف حتى خَتَمَ اللهُ لهما بالْمُلْكِ والعُلُوِّ، والفرَجِ من الأحزان، ولا يَحْسُدُ أحداً كما حَسَدَ إخوة يوسف، فلم يُغْنِ عنهم كَيدُهم شيئاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ؛ أي ما كان القرآنُ حديثاً يُختلَقُ ولكن كان تَصديقاً للكُتب التي بين يديهِ من التوراة والإنجيل وغيرهما، ومَن قرأ (تَصْدِيقُ) بالرفع فعلى إضمار هو.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ؛ أي وبيانَ كلِّ شيءٍ يحتاجُ الناس إليه في دِينهم، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ ؛ ودلالةً ونجاةً من العذاب الأليم لقوم يصدِّقون بمُحَمَّدٍ والقرآنِ.

آخر تفسير سورة (يوسف) والحمد لله رب العالمين

آخر المجلد الثالث

من التفسير الكبير للإمام الطبراني

فهرس المجلد الثالث

سورة الأنعام	
الآيات	الصفحة
١-٣٤	٥
٣٥-٧٠	٢٤
٧١-١١٣	٤٨
١١٤-١٦٥	٧٨
سورة الأعراف	
الآيات	الصفحة
١-٢٧	١١٥
٢٨-٥٠	١٣٢
٥١-٩٠	١٤٦
٩١-١٦٠	١٧٢
١٦١-٢٠٦	٢٠٥
سورة الأنفال	
الآيات	الصفحة
١-٢٨	٢٣٥
٢٩-٧٥	٢٥٤
سورة التوبة	
الآيات	الصفحة
١-٢٩	٢٨٣
٣١-٦٠	٣٠٦
٦١-٩٣	٣٢٩
٩٤-١٢٩	٣٤٩
سورة يونس	
الآيات	الصفحة
١-٤٥	٣٧١
٤٧-١٠٩	٣٩٤

سورة هود	
الآيات	الصفحة
١-٥٧	٤١٥
٥٧-١٢٣	٤٤١
سورة يوسف	
الآيات	الصفحة
١-٥٠	٤٦٤
٥١-١١١	٤٩١

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإمَامِ الْحَافِظِ العَلاَّمَةِ أبي الْقَاسِمِ
سُلَيمَانِ بْنِ أحْمَدَ بنِ أيُّوبَ الطَّبَرَانِيِّ
(٢٦٠-٣٦٠) مِن الهجْرَةِ

ضَبَطَهُ عَلَى أَصْلِهِ وَخَرَّجَ أحَادِيثَهُ وعَلَّقَ عَلَيْهِ
هِشَامُ بْنُ عَبدِالكَرِيمِ البَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

المجلد الرابع

دار الكتاب الثقافي
الأردن-إربد

بسم الله الرحمن الرحيم

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٨ / ١/٩٢)

٢٢٢
الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (٢٦٠-٣٦٠هـ)
التفسير الكبير: تفسير القرآن العظيم/ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)؛ تحقيق هشام عبدالكريم البدراني الموصلي.- إربد : دار الكتاب الثقافي ، ٢٠٠٨.
صدر على شكل ستة أجزاء
(...) ص.
ر.أ (٩٢ / ١ / ٢٠٠٨).

الواصفات:/ التفاسير//القرآن//القرآن الكريم/

• تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

ردمك ISBN 978-9957-492-02-1

دار الكتاب

دار الكتاب الثقافي
للطباعة والنشر والتوزيع
الأردن / إربد
شارع إيدون إشارة الإسكان
تلفون
(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٦١٦١٦)
فاكس
(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٥٠٣٤٧)
ص.ب (٦٢٠٣٤٧-٢١١)

Dar- AlKitab
PUBLISHERS
Irbid - Jordan
Tel:
(00962-2-7261616)
Fax:
(00962-2-7250347)
P. O. Box: (211-620347)
E-mail:
Dar_ Alkitab1@hotmail.Com

دار المتنبي

دار المتنبي للنشر والتوزيع
الأردن – إربد – تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)

سُــورَةُ الرَّعْــد

سُورَةُ الرَّعْدِ مَكِّيَّةٌ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ إلاَّ آيَتَيْنِ ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ﴾ وقوله تعالى:﴿قُلْ كَفَى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ إلَى آخِرِهَا، وَقَالَ قَتَادَةُ:(هِيَ كُلُّهَا مَدَنِيَّةٌ). وَعَدَدُ حُرُوفِهَا ثَلاثَةُ آلافٍ وَخَمْسُمِائَةٍ وَسِتَّةُ أحْرُفٍ، وكَلِمَاتُهَا ثَمَانمِائَةٍ وَخَمْسٌ وَخَمْسُونَ كَلِمَةً، وَآيَاتُهَا ثَلاَثٌ وَأرْبَعُونَ آيَةً. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [وَمَنْ قَرَأ سُورَةَ الرَّعْدِ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بوَزْنِ كُلِّ سَحَابٍ مَضَى، وَكُلِّ سَحَابٍ يَكُونُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُوقِنِينَ بعَهْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى المر: أنَا اللهُ أعْلَمُ وَأرَى). وقولهُ تعالى: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) أي هذهِ آياتُ القرآن، وقولهُ تعالى: (وَالَّذِي أنزلَ إلَيْكَ مِنْ ربكَ الْحَقُّ) هو القرآنُ أيضاً، وقال قتادةُ: (الْمُرَادُ بقَوْلِهِ (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَاب) الآيَات الَّتِي أنْزلَتْ قَبْلَ الْقُرْآن مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ وَسَائِرِ الْكُتُب، وَالْمُرَادُ بـ (الَّذِي أنْزلَ إلَيْكَ) الْقُرْآنُ)[2]، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾ ؛ أي هو الذي رَفَعَ السَّموات، وأقامَها واقفةً على غيرِ عَمَدٍ تُرونَها أنتم كذلكَ بلا عَمَد، هكذا قال أكثرُ المفسِّرين، وعن ابنِ عباس في روايةٍ (بعَمَدٍ لاَ تُرَوْنَها، كَأنَّهُ قَالَ: بغَيْرِ عَمَدٍ

---

(١) في تخريج الكشاف للزيلعي؛ قال: (أخرجه الثعلبي من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب، وابن مردويه والواحدي بإسناد واه).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٢٤٦ و١٥٢٤٨).

مَرْئِيَّةٍ)[1]. والأولُ أقربُ إلى الصحَّة؛ لأنه لو كان للسَّماء عِمَادٌ لكُنَّا نرى ذلك العمادَ، لأن مثلَ السموات في ثُقلِها وارتفاعها وعِظَمها لا يُقِلُّها عمادٌ إلاّ وقد يكون ذلك العمادُ جَسيماً عظيماً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ ﴾ ؛ تقديرهُ: اللهُ الذي رفعَ السموات بغيرِ عَمَدٍ، ثم سخَّرَ الشمسَ والقمرَ وهو مستوٍ على العرش، لأنَّ استيلاءَ الله على الأشياءِ قدرتهُ عليها، وقدرةُ الله لا تكون مُحدَثَةً. وتسخيرُ الشمسِ والقمر إجراؤُهما لمنافعِ بني آدم، ومعنى السَّخْرِ أن يكون الشيءُ مَقهوراً لا يملكُ لنفسهِ ما يخلِّصُه من القهر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ﴾ ؛ إلى وقتٍ معلوم وهو وقتُ فَنَاءِ الدُّنيا، فإذا انْفَنَتْ الُّدنيا كُوِّرَتِ الشمسُ وانكَدَرت النجومُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ ؛ أي يقضِي القضاءَ، ويبعثُ الملائكةَ بالوحي، ويُنْزِلُ الرزقَ والأقضيةَ، قَوْلُـهُ تَعَالَى: (يُفَصِّلُ الآيَاتِ) أي يأتِي بآيةٍ في إثْرِ آيةٍ ليكون أمكنَ للاعتبار والفكر. وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي لِتَسْتَيْقِنُوا بالبعثِ وبما وعَدَكم اللهُ به من الثواب والعقاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ ؛ بسَطَها طُولاً وعَرضاً، ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ ؛ أي خَلَقَ فيها جِبالاً ثوابتَ أوتاداً لها، ولو أرادَ أن يُمسِكَها من غير رواسي لفعلَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنۡهَٰرٗاۖ ﴾ ؛ أي وأجرَى فيها أنهاراً. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ ﴾ ؛ أي وخلَقَ من جميعِ الثمرات من كلِّ شيءٍ لَونَين اثنين، وجعلَ فيها الحلوَ والحامضَ، والأسود والأبيضَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ ﴾ ؛ أي يأتِي بالليلِ ليَذهَبَ بضياءِ النهار، فتسكُنَ الناسُ بالليل، ويأتِي بضياء النهار ليمحُوَ ظلامَ الليلِ فتصرفَ الناسُ فيه معايشَهم، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ في صُنعِ الله، فيستدِلُّون بذلك على توحيدهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٢٤٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ ؛ منها الجبلُ الصَّلبُ، ومنها الأرضُ الْجُرُزُ التي لا يمكن النباتُ عليها إلا بالمشقَّة، ومنها الأرضُ النَّجِسَةُ، ومنها الأرض الطيِّبة، وهذه الأراضي في ذلك متجاوراتٌ ملتزقَةٌ، ﴿ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ ﴾ ؛ أي وبساتين من كُرُوم، ﴿ وَزَرْعٌ ﴾ ؛ ويجوزُ في القراءةِ (وَجَنَّاتٍ) على معنى: وجعلَ فيها جناتٍ، ومَن قرأ (وَزَرْعٌ) بالضمِّ فهو عطفٌ على القِطَعِ لأن الزرعَ لا يكون في الجنَّات، وقرأ العامَّة (وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ) بالكسر على المجاورة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ ؛ أي مجتمعٌ أصولُها في أصلٍ واحد، ونخيلٌ متفرِّق أصولُها، والصِّنْوَانُ جمعُ الصِّنْوِ، ويعني الصِّنوانُ أن يكون أصلٌ واحد تخرجُ منه النَّخلتان والثلاث والأربع كما وردَ في الحديثِ: [عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أبيهِ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾ ؛ إما المطرُ وإما النهرُ، ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ ، بعض أكلِها أفضلُ من بعضٍ في الطَّعم حتى يكون بعضُها حُلواً، وبعضها حامضاً، وبعضها مُرّاً، والترابُ واحدٌ، وألوانُ الثمر وطعمُها مختلفة، وذلك من الدليلِ على وحدانيَّة اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه الْمُحْدِثُ لها، واللهُ تعالى قديرٌ حكيم قد أحدَثَها على علمٍ منه بها،

وقال مجاهدُ: (هَذا مِثْلُ بَنِي آدَمَ، أصْلُهُمْ تُرَابٌ وَاحِدٌ، ثُمَّ مِنْهُمْ صَالِحٌ وَخَبِيثٌ، وَكَامِلُ الْخِلْقَةِ وَنَاقِصُ الْخِلْقَةِ، وَسَيِّءُ الْخُلُق)، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ ؛ أي لعلاماتٍ دالاَّتٍ على وحدانيَّة الله، ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤ ﴾ ؛ إنَّ في ذلك من اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ؛ معناهُ وإنْ تعجَبْ يا مُحَمَّدُ من تكذيب أهلِ مكة وإشراكِهم بالله مع ما

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٠ ص٧٢: الحديث (٩٩٨٥) عن ابن عباس، وج ١٠ ص٢٩١: الحديث (١٠٦٩٨) عنه. وفي مجمع الوزائد: ج ٣ ص٧٩: باب تعجيل الزكاة؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط وفيه إسماعيل المكي وفيه كلام كثير وقد وثق)). وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٧٨٥٨). وابن حبان في صحيحه: كتاب الزكاة: الحديث (٣٢٧٣) عن العباس، وإسناده صحيح، قاله الشيخ شعيب حفظه الله.

تقدَّمَ من الدلائلِ على توحيد اللهِ قولُهم عجبٌ عند العقلاءِ العارفين حيث قالوا: إذا كُنَّا تراباً أَنُبْعَثُ وتُرَدُّ فينا الروحُ بعدَ الموتِ والبلاء ؟! وإنما سُمي قولُهم (إذا كُنَّا تُرَاباً) أعجبَ؛ لأن البعثَ أسهلُ في القدرةِ مما بيَّن اللهُ لَهم؛ إذِ البعثُ إعادةٌ إلى ما كانَ، والإعادةُ أسهل في طِبَاعِ الآدميِّين من الإنشاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ ﴾ أي تَغُلُّ أيْمَانُهم إلى أعناقِهم السلاسِلُ في النار، ويكون يسارُهم وراءَ ظهُورهم وهم مُصْفَدُونَ من قُرونهم الى أقدامِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ ؛ أي يستعجِلُونكَ بالعذاب الذي توعِدُهم به على وجهِ التكذيب والاستهزاءِ قبلَ الثواب الذي تعِدُهم على الإيمان، يعني مُشركي مكَّة سألُوا رسولَ اللهِ ﷺ أن يأتِيَهم العذابُ استهزاءً منهم بذلك، فقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ ﴾ ؛ العقوباتُ من الله في الأمَمِ الماضية، والْمَثُلَةُ العقوبةُ في اللغة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ ﴾ ؛ أي لذُو تَجاوُزٍ على الناس على ظُلمِهم لأنفسهم، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ لِمَن استحقَّهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ ﴾ ؛ أي ويقولُ الذين كفَرُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن: هَلاَّ نُزِّلَ عليه آيةٌ من ربه لنُبوَّتهِ، يعنون الآياتِ التي كانوا يقترحونَها عليه نحو ما ذكرَ اللهُ تعالى من قولِهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾[٢] الى آخرِ الآيات.

يقولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ ﴾ ؛ أي أنتَ يا مُحَمَّد مُعَلِّمٌ بموضعِ الْمَخَافَةِ، وليس إنزالُ الآيات إليكَ، وإنما هو إلى اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلِّ

---

(١) الأنفال / ٣٢ .   (٢) الإسراء / ٩٠.

قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ؛ مَن جعل هذه الواوَ للجمعِ فوصَلَها بما قبلَها كان تقدير الكلام: إنما أنتَ منذرٌ وهادٍ لكلِّ قومٍ. ومَن قطعَ هذه الواوَ كان المعنى: لكلِّ قومٍ هادٍ؛ أي نبيٌّ مثلُكَ يهديهم. وقال سعيدُ بن جبير والضحَّاك: (الْهَادِي هُوَ اللهُ)، والمعنى: أنتَ منذرٌ تُنذِرُ، واللهُ هادي كلِّ قومٍ، يهدِي من يشاءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ ؛ يعني من عَلَقَةٍ أو مُضْغَةٍ أو ذكرٍ أو أنثى أو كاملِ الْخَلْقِ أو ناقصِ الخلقِ أو واحدٍ أو اثنين أو أكثرَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ﴾ ؛ أي وما تنقصُ من الأشهرِ التسعةِ في الحملِ وما تزدادُ عليهما، فإن الولدَ قد يولدُ في ستَّة أشهر فيعيشُ، ويولدُ لسنتَين فيعيشُ، وقال الحسنُ: (وَمَا تَنْقُصُ بالسَّقْطِ، وَمَا تَزْدَادُ بالتَّمَامِ)[١]. والغَيْضُ هو النُّقصان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾﴾ ؛ أي بحَدٍّ لا يجاوزهُ ولا ينقص منه، ويدخلُ الولد فيه لأنه قد قَدَّرَ أجلَ حياتهِ وموته، وصحَّته ومرَضهِ، ونقصان عقلهِ وكماله، وقَدَّرَ له ما جرَى من رزقٍ وما سيكونُ منه من طاعةٍ ومعصية وولدٍ وغير ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ ؛ أي عالِمُ ما غابَ عن العبادِ، وما عَلِمَهُ العبادُ. وَقِيْلَ: الغيبُ ما يكون، والشَّهادة ما كان. الكبيرُ: السيد الكامل المالِكُ المقتدرُ على كلِّ شيء، الْمُتَعَال عمَّا يقول المشركون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ ؛ أي سواءٌ من أخفَى القولَ وكَتَمَهُ، ومن جهرَ به وأظهرَهُ، فالسِّرُّ والجهرُ عند الله سواءٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ ؛ أي ومن هو مُستَتِرٌ مُتوارٍ بالليلِ، (وسَاربٌ بالنَّهار) أي ظاهرٌ في الطُّرقات، عِلْمُ الله فيهم سواءٌ.

قال الزجاجُ: (مَعْنَى الآيَةِ: الْجَاهِرُ بنُطْقِهِ، وَالْمُضْمِرُ فِي نَفْسِهِ، وَالظَّاهِرُ فِي الطُّرُقَاتِ وَالْمُسْتَخْفِي فِي الظُّلُمَاتِ، عِلْمُ اللهِ فِيْهِمْ جَمِيعاً سَوَاءٌ). ومعنى السَّارب:

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٥٣٣١) بالفاظ عديدة.

الظاهرُ بالنهار في سِرْبِهِ؛ أي في طَرِيقهِ وتصرُّفه في حوائجهِ، وعن قُطرب في: (مُسْتَخْفٍ باللَّيْلِ: أيْ ظَاهِرٍ، وَسَاربٌ بالنَّهَار: أيْ مُسْتَتِرٌ) يقالُ: سَرَبَ الوحشُ إذا دخل في كِنَاسِهِ، والأولُ أبْيَنُ وأبلغُ في وصفِ عالِمِ الغيب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾ ؛ أي للإنسان مُسَاوياتٌ، والكنايةُ في قولهِ تعالى (له) رُدَّ على من أسَرَّ القولَ ومَن جَهَرَ به وهم الآدميُّون. وقال بعضُهم: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ) أي للهِ تعالى ملائكةٌ يتعاقَبُون بالليلِ والنهار، فإذا صعَدت ملائكةُ الليلِ أعقبَتها ملائكةُ النَّهار، وإذا صعَدت ملائكةُ النهار أعقبَتها ملائكةُ الليلِ.

وقولهُ تعالى: (مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) يعني من قُدَّامِ هذا المستخفِي بالليل والسَّارب بالنهار، ومِنْ خَلفِهِ؛ أي وراءِ ظهره ملائكةٌ يحفظونهُ من بين يديهِ ومِن خلفهِ، فإذا جاءَ القَدَرُ خَلَّوا عنه.

واختلَفُوا في الْمُعَقِّبَاتِ، قال بعضُهم: الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ؛ وهم أربعةٌ: ملَكان بالليلِ وملَكان بالنَّهار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ ؛ أي بأمرِ الله حتى ينهوا به إلى المقادير، فيُخَلُّوا بينه وبين المقادير، قال كعبُ الأحبار: (لَوْلاَ أنَّ اللهَ وَكَّلَ بكُمْ مَلاَئِكَةً يَذُبُّونَ عَنْكُمْ فِي مَطْعَمِكُمْ وَمَشْرَبكُمْ وَعَوْرَاتِكُمْ لَخَطَفَتْكُمُ الْجِنُّ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ ؛ أي لا يسلبُ قوماً نعمةً حتى يعمَلُوا المعاصِي، يعني بهذا أهلَ مكَّة، بعثَ فيهم رسولاً منهم، وأطعَمَهم من جوعٍ، وآمَنَهم من خوفٍ، فلم يعرفُوا هذه النعمةَ وغيَّرُوها وجعلُوها لأهلِ المدينة[2].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٣٧٠). وفي الدر المنثور: ج ٤ ص٦١٤؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير عن كعب الأحبار ﷺ).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص٢٩٤؛ قال القرطبي: (أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غير الله بالمنهزمين يوم أحُد بسببِ تغيير الرماة لأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة؛ فليس= معنى= =الآية أنه ليس ينزلُ بأحدٍ عقوبةٌ إلا بأن يتقدَّم منه ذنبٌ، بل قد تنزلُ المصائب بذنوبِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ ﴾ ؛ أي إذا أرادَ اللهُ إنزالَ عذابٍ على قومٍ فلا دافعَ له، ﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ يتولاَّهم وينصرُهم، ويقال: من مَلْجَأ يلجَؤُون إليه، والْمَوْئِلُ هو الْمَلْجَأُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ ؛ أي خَوْفاً للمسافرِ أن يُؤذيهِ ويُبلَّ ثيابَهُ وطريقه فلا يمكنه السيرُ، وطمَعاً للمقيمِ أن يسقي حرثَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي يخلقُ السحابَ الثِّقالَ بالمطرِ فيُجريَهُ في الجوِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ ؛ رُوي أن الرَّعْدَ اسمُ ملَكٍ يزجرُ السحابَ يؤلفُ بعضه إلى بعضٍ، وتسبيحهُ زَجْرُهُ للسحاب، قال عكرمةُ: (هُوَ كَالْحَادِي لِلإبلِ).

وعن ابنِ عبَّاس قال: (أقْبَلَتِ الْيَهُودُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا أبَا الْقَاسِمِ نَسْألُكَ عَنْ أشْيَاء، فَإنْ أصَبْتَ فِيْهَا اتَّبَعْنَاكَ وَآمَنَّا بك، قَالَ: [اسْألُوا] قَالُوا: أخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ، قَالَ: [مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُوَكَّلٌ بالسَّحَاب، مَعَهُ مَخَاريقُ يَسُوقُ بهَا السَّحَابَ حَيْثُ يَشَاءُ اللهُ] قَالُوا: صَدَقْتَ، فَمَا الَّذِي يُسْمَعُ ؟ قَالَ: [زَجْرُ السَّحَاب إذا زَجَرَهُ الْمَلَكُ] قَالُوا: صَدَقْتَ)[1].

وقال عطيَّةُ: (الرَّعْدُ مَلَكٌ وَهَذا تَسْبيحُهُ، وَالْبَرْقُ سَوْطُهُ الَّذِي يَزْجُرُ بهِ السَّحَابَ، يُقَالُ لِذلِكَ الْمَلَكِ: رَعْدٌ، وَلِصَوْتِهِ: رَعْدٌ). وقالَ أبو هريرةَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا سَمِعَ الرَّعْدَ قَالَ: [سُبْحَانَ مَنْ يُسَبحُ الرَّعْدُ بحَمْدِهِ][2]، وكان ابنُ عبَّاس إذا سَمِعَ الرعدَ قالَ: (سُبْحَانَ الَّذِي سَبَّحْتَ لَهُ).

=الآية أنه ليس ينزلُ بأحدٍ عقوبةٌ إلا بأن يتقدَّم منه ذنبٌ، بل قد تنزلُ المصائب بذنوبِ الغير؛ كما قال ﷺوقد سُئِلَ: أنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: [نَعَمْ، إذا كَثُرَ الْخَبَثُ]).

(١) في الدر المنثور: ج ٤ ص٦٢٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد والترمذي وصححه، والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل...)) وذكره شطر حديث طويل.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٥٣٧٩).

قال ابنُ عبَّاس: (مَنْ سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ فَقَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيْفَتِهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. فَإنْ أصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ فَعَلَيَّ دِيَتُهُ)[1]. وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ كَانَ إذا سَمِعَ الرَّعْدَ وَالصَّوَاعِقَ قَالَ: [اللَّهُمَّ لاَ تَقْتُلْنَا بِغَضَبكَ، وَلاَ تُهْلِكْنَا بعَذابكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذلِكَ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ ؛ يعني ويُسَبحُ الملائكةُ من خِيْفَةِ اللهِ وخِشيَتِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يرسلُ النِّيرانَ التي تسقطُ من الغيُوم فيحرقُ ما تقع عليه نيران البرق، فيُهلِكُ بها من يشاءُ من خلقهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي الكفارُ يخاصِمون في اللهِ وفي إثبات شريكٍ معه، ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي شديدُ القوَّة والعقوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي له كلمةُ الإخلاص، شهادةُ أن لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أي آلِهتُهم، ﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ ما يستجيب ﴿ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ ﴾ يدعوهُ لعطشهِ مُشِيراً مُرِيداً بإشارتهِ أن، ﴿ لِيَبْلُغَ ﴾ الماءُ، ﴿ فَاهُ وَمَا هُوَ ﴾ أي وليس الماءُ، ﴿ بِبَٰلِغِهِۦ ﴾ ومن الْمُحَالِ أن يُجيبه بإشارتهِ، وإنْ كان الماءُ في بئرٍ، أو ماءٍ على بُعْدِ نهرٍ أبعدُ في الإحالة، وكما لا يبلغُ الماءُ فَمَ هذا الرجلِ ولا يجيبهُ وإن ماتَ من العطش،كذلك لا ينفعُ الصَّنم لِمَن عبدَهُ بوجهٍ من الوجوهِ، قال عطاءُ: (مَعْنَاهُ كَالرَّجُلِ الْعَطْشَانِ الْجَالِسِ عَلَى شَفِيرِ الْبئْرِ، يَمُدُّ يَدَهُ فِي الْبئْرِ فَلاَ يَبْلُغُ الْمَاءَ وَلاَ الْمَاءُ يَرْتَفِعُ إلَى يَدِهِ)[3]، ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ عن الصواب وذهابٍ عن الحقِّ؛ لأن الأصنامَ لا تسمعُ ولا تقدر على الإجابةِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٤ ص٦٢٢؛ قال السيوطي:(أخرجه أبو سعيد بن منصور وابن المنذر).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٢ ص٢٤٢: الحديث (١٣٢٣٠). والترمذي في الجامع: أبواب الدعوات: الحديث (٣٤٥٠) بـ (الحجاج بن أرطاة) مدلس، وشيخه (أبو مطر) مجهول. والحاكم في المستدرك: كتاب الأدب: الحديث (٧٨٤٢) وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٤٠٢) عن علي ﷺ.

قولـــهُ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي وللهِ يسجدُ ويُصَلِّي ويعبـدُ مَـن في السَّموات والأرض والملائكة، ومَن دخلَ الإسلامَ طَوْعاً يسجدُ له طائعاً، والْمُكْرَهُ هو الذي قُوتِلَ وسُـبِيَ وأجبرَ علىالإسلام، ويقـالُ: أرادَ بقولـه (طَوْعـاً) أهـلَ الإخـلاص، و(كَرْهـاً) أهـلَ النفاق، قوله (وَظِلاَلُهُمْ بالْغُدُوِّ) يعني إذا سجدَ الإنسانُ سَجَدَ معه ظِلُّهُ، قال الحســنُ: (أمَّا ظِلُّ الْكَافِرِ فَيَسْجُدُ للهِ، وَأمَّا هُوَ فَلاَ يَسْجُدُ، فَبئْسَ وَاللهِ مَا يَصْنَعُ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّة: مَن ربُّ السموات والأرض ؟ فَإن أجابُوكَ وقالوا: هو اللهُ، وإلاّ فقُل: اللهُ ربُّهما، و﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَــهم: ﴿ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ أي أربَابـاً، ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ ؛ فكيف يَملِكون لكم النفعَ والضر.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ ؛ أي قُـل لَـهم: هـل يستوي أعمَى القلب الذي يعدلُ عن عبادةِ الخالق ؟ هل يستَوِي مـع البصـير بقلبـه، العالِم بأنه تعالى إلَهُهُ ووليُّهُ والقادرُ على نفعهِ ودفـع الضُّـرِّ عنـهُ، ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ ؛ فيه تشبيهُ الكفرِ بالظُّلمات، وتشبيهُ الإيمان بالنُّور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ ﴾ ؛ معناه: أجَعَلَ الكفارُ لله شُركاءَ، خلَقَت شركاؤُهم شيئاً كمــا خَلَـقَ اللهُ، ﴿ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ فلـم يعرفُوا خلقَ الشركاء من خلقِ اللهِ فأشركُوها معـه في العبـادةِ، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ بلا شريكٍ، فإذا لم يكن الخلقُ إلا من واحدٍ لم يكن الخالقُ إلا واحداً، فـهو الذي يستحقُّ العبادةَ بلا شريكٍ، ﴿ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ الغالبُ لكلِّ شيء، لا يقهَرهُ أحدٌ.

ثم ضربَ اللهُ مثلاً للحـق والبـاطل، وقـال تعـالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ ؛ أنزلَ مطراً فسَالَتْ أودِيةٌ من ذلك المطـر بقـدر الأوديـة، فما كان منها كبيراً سالَ بقدرهِ، وما كان صَغيراً سالَ بقَدرهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱحْتَمَلَ

---

(١) أخرجه الطبري بمعناه في جامع البيان: الأثر (١٥٤١٣) عن مجاهد.

﴿ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي عالياً مُرتفعاً على الماءِ، والسَّيلُ ما يسيلُ من الموضعِ المرتفع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ ؛ أي ومما تطرَحون في النار من الذهب والفضَّة لِطلب حِلْيَةٍ تلبَسونها زَبَدٌ؛ أي خَبَثٌ مثلُ زبَدِ الماءِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ ؛ أرادَ به الحديدَ والرصاص وما يشاكِلهُ مما يوقَدُ عليه في النار؛ لاتِّخاذ المتاعِ له زَبَدٌ؛ أي خَبَثٌ مثل ذلك الماءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ ؛ أي هكذا يضربُ الله مَثَلَ الحقِّ والباطل، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ ؛ أما زبَدُ هذه الأشياء، فيذهبُ ناحيةً لا ينتفعُ به، فإن زبدَ الماء يتعلَّقُ بأصول الأشجار وجَنَبَاتِ الوادي. والْجُفَاءُ: ما رَمَى به الوادِي، وجُفَاهُ في جَنَبَاتِهِ، يقال: أَجْفَأَتِ القِدْرُ زبَدَها إذا قذفَتْ به، وكما أنَّ زبَدَ الماءِ يذهبُ بحيث لا ينتَفعُ به، كذلك خبَثُ الذهب والفضة والحديد، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ ؛ للناسِ في أمرِ دِينهم، كما ضربَ لكم المثلَ، قال قتادةُ: (هُنَّ ثَلاَثَةُ أمْثَال ضَرَبَهَا اللهُ فِي مَثَلٍ وَاحِدٍ، يَقُولُ: كَمَا أنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَسَالَتْ أوْدِيَةٌ بقَدَرِهَا، الصَّغِيرُ عَلَى الصَّغِيرِ عَلَى مِقْدَارِهِ، وَالْكَبِيرُ عَلَى مِقْدَارِهِ، كَذلِكَ أنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ، فَاحْتَمَلَ الْقُلُوبَ عَلَى قَدَرِهَا، ذا الْيَقِينِ عَلَى قَدْر يَقِينِهِ، وَذا الشَّكِّ عَلَى قَدْر شَكِّهِ).

قَالَ: (ثُمَّ شَبَّهَ خَطَرَاتِ وَوَسَاوسَ الشَّيْطَان بالزَّبَدِ يَعْلُو عَلَى الْمَاءِ، وَذلِكَ مِنْ خَبَثِ الْبَرِّيَّةِ لاَ عَيْنِ الْمَاءِ، كَذلِكَ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ مِنْ وَهْمٍ وَشَكٍّ فَهُوَ ذاتُ النَّفْسِ لاَ مِنَ الْحَقِّ).

قَالَ: (ثُمَّ بَيَّنَ أنَّ الزَّبَدَ يَذْهَبُ جُفَاءً؛ أيْ هَبَاءً بَاطِلاً وَيَبْقَى صَفْوُ الْمَاءِ، كَذلِكَ يَبْطُلُ الشَّكُّ وَسُوءُ الْخَطَرَاتِ وَيَبْقَى الْجَوفُ كَمَا هُوَ، وَكَذلِكَ مَا يُوقَدُ عَلَيْهِ فِي النَّار لِمَنَافِعِ النَّاسِ يَبْطُلُ زَبَدُهُ وَخَبَثُهُ وَيَبْقَى خَالِصُهُ وَصَفْوُهُ، كَذلِكَ الْبَاطِلُ يَذْهَبُ وَيَبْقَى الْحَقُّ)[١].

---

(١) ينظر: جامع البيان: الأثر (١٥٤٢١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ؛ فيه بيانُ الذي يبقى مما تقدَّم ذِكرهُ فهو مثلٌ لِمَن يستجيبُ لربه، والذي يذهبُ جُفاءً هو مَثلٌ لِمَنْ لا يستجيبُ. والمرادُ بـ (الْحُسْنَى) في الآيةِ الْجَنَّةَ ونعيمها.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ ﴾ ؛ أي الذين لم يستجيبُوا لربهم إلى الإيمان، ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ؛ من الذهب وسائر الأموال، ﴿ وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ ﴾ ؛ وضِعفُهُ معه، ﴿ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ﴾ ؛ لفَادَوا به أنفُسَهم من عذاب الله يومَ القيامةِ لو قُبلَ منهم ذلكَ ولكن لا يُقْبَلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ ؛ أي شدَّتهُ، والمناقشةُ فيه، قال إبراهيمُ النخعي: (هُوَ أنْ يُؤَاخَذُوا بذُنُوبِهِمْ كُلِّهَا مِنْ دُون أنْ يُغْفَرَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْهَا)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ أي مَصيرُهم في الآخرةِ جهنَّمُ، ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي المأوَى، يتقلَّبون في النار ويقعُدون ويضطَجِعون عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ معناه: أفمَن يعلمُ إنما أنزل إليك مِن القرآن أنه الحقُّ فآمَنَ به، كمَن هو كافرٌ يعلَمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي ذوُو العقول.

ثم وصَفَهم فقالَ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ يريدُ بالعهدِ الذين عاهَدتُم عليه في صُلب آدمَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ ؛ قِيْلَ: المرادُ به مواصلَةُ المؤمنين فيما بينهم بالموالاةِ وصِلَةِ الرَّحِم بالبرِّ والشَّفقة، وَقِيْلَ: أرادَ بذلك الإيمانَ بمُحَمَّدٍ ﷺ وجميع الرسُل، ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ ؛ أي عقابَ ربهم، ﴿ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي يخافون أن يؤاخَذُوا بالعقاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ معطوفٌ على قولهِ (الَّذِينَ يُوفُونَ بعَهْدِ اللهِ) ومعناهُ: الذين صَبَروا على أداءِ الفرائض واجتناب المحارم

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٤٢٨).

ومُقَاسَاةِ شدائدِ الدُّنيا لطلب ثواب الله ورضاهُ، ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ المفروضةَ، ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ؛ أي أخرَجُوا من أموالهم جميعاً الصَّدقاتِ المفروضات خِفْيَةً وجهراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ، وإنما يكون دَرْؤُهم بالحسنةِ السيئةَ على وجهين، أحدُهما: العِلْمُ والوعظُ بالكلام الحسَنِ، والثاني: أن يقاتِلُوهم ويقبضُوا على أيديهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفة لهم الدارُ التي أعقَبَتها لهم أعمالُهم وهي الجنَّة. ثم بيَّن اللهُ صفةَ الجنة فقال: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَهِيَ وَسَطُ الْجَنَّةِ، وَهِيَ مَعْدِنُ الأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ ؛ أي ويدخلُها مَن صلُحَ من آبائهم وأزواجِهم ودُرِّياتِهم، ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ يعني من أبواب البساتين يقولون لَهم: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ على شدائدِ الدُّنيا، وعلى المشقَّة في طاعةِ الله، فنِعْمَ الدارُ التي أعقَبَتْها لهم أعمالُهم، قال ابنُ عبَّاس: (لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ عَدْنٍ جَنَّةٌ مِنْ دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ لَهَا أَلْفُ بَابٍ مِصْرَاعُهُ مِنَ الذهَبِ، يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَابٍ مَلَكٌ يَقُولُونَ: سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بمَا صَبَرْتُمْ، ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ ؛ أي الذين يترُكون فرائضَ الله من بعدِ تأكيد العهدِ عليهم، ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ بالظُّلم والدعاءِ إلى غير عبادة الله، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ ؛ أي ما يُبعِدُهم من رحمةِ الله، ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ وهو النارُ في الآخرةِ، وعن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [أعْجَلُ الْخَيْرِ ثَوَاباً صِلَةُ الرَّحِمِ، وَأعْجَلُ الشَّرِّ عِقَاباً الْبَغْيُ وَالْيَمِينُ الغَمُوسُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاَقِعَ][1].

---

(١) ذكره أهل اللغة في غريب الحديث، ينظر: كتاب الغريبين للهروي: (بلقع).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ﴾ ؛ أي يوسِّعُ الرزقَ في الدُّنيا على مَن يشاءُ، ويضيِّقُ على مَن يشاءُ، ﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ يعني مُشركي مكَّة أشِرُوا وبَطِرُوا، ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ﴾ ؛ جنب نعيم، ﴿ ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ﴾ ؛ شيءٌ قليل، ﴿ مَتَٰعٞ ٢٦ ﴾ ؛ كمتاع يتمتَّعُ به ثم يفنَى ويذهبُ، قال ﷺ: [وَمَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ كَمِثْلِ مَا جَعَلَ أحَدُكُمْ إصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بمَ يَرْجِعْ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ أي يقولون على جهة التَّعَنُّتِ: ﴿ لَوۡلَآ ﴾ ؛ هَلاَّ، ﴿ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ﴾ ؛ على مُحَمَّدٍ، ﴿ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ ﴾ ؛ يعني الآياتِ التي يَقترِحونَها عليه، ﴿ قُلۡ ﴾ يا مُحَمَّدُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ عن ثوابهِ وكرامته، ﴿ وَيَهۡدِيٓ ﴾ ، لدِينه مَن أقبَلَ، ﴿ إِلَيۡهِ ﴾ ؛ إلى اللهِ و، ﴿ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ﴾ ؛ رجَعَ عن الكفر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ ؛ معناهُ: الذين آمَنوا بمُحَمَّدٍ ﷺ والقُرآن، تسكنُ قلوبُهم إلى ما وعدَهم اللهُ به من ثواب، ﴿ أَلَا بِذِكۡرِ ﴾ ؛ بوَعدِالله، ﴿ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ ﴾ ، أي لهم العيشُ الطيِّبُ والكرامةُ والغِبطَةُ، ﴿ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩ ﴾ ؛ حُسْنُ المرجعِ، وقال مجاهدُ: (طُوبَى اسْمُ الْجَنَّةِ بلُغَةِ الْحَبَشَةِ)، وعن أبي هريرة: (اسْمُ شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ سَاقُهَا مِنْ ذهَبٍ، وَوَرَقُهَا الْحُلَلُ، وَثَمَرُهَا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ وَأغْصَانُهَا مُتَدَلِّيَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَيْسَ مَنْزِلٌ إلاَّ وَفِيْهِ غُصْنٌ مِنْ أغْصَانِهَا، وَتَحْتَهُ كُثُبَانُ الْمِسْكِ وَالْعَنْبَر وَالزَّعْفرَانِ، لَوْ رَكِبَ رَجُلٌ قُلُوصاً، ثُمَّ دَارَ بالشَّجَرَةِ لَمْ يَبْلُغِ الْمَكَانَ الَّذِي ارْتَحَلَ مِنْهُ حَتَّى يَمُوتَ الْقُلُوصُ هَرَماً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ ﴾ ؛ أي هكذا أرسَلناك إلى أمَّة قد مَضَتْ من قبلِها أمَمٌ أرسَلنا فيهم الرُّسل، ﴿ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ ؛ يعني القرآنَ، ﴿ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة فإنَّهم كانوا يقولون ما نعرفُ الرحمنَ إلا مُسَيْلَمَةَ، وكانوا يُسمُّونَهُ رحمانَ اليمامة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ قل لَهم: الرَّحْمَنُ رَبي لا إلهَ إلا هو، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي وإليه أتوبُ من ذنُوبي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ عبدَالله بن أمية المخزومي، وجماعةً من كفَّار مكة قالوا: يا مُحَمَّدُ سَيِّرْ لنا جبالَ مكَّة، فأذهِبْها حتى تنفسحَ فيها فإن أرضَنا ضيِّقة، ثم اجعَلْ لنا فيها عُيوناً وأنهَاراً، وقرِّبْ أسفارَنا فيما بيننا وبين الشَّام فإن السفرَ بعيدٌ، وافعَلْ كما فعلَ سُليمان بالرياحِ بزَعمِكَ، فأنزَلَ اللهُ هذه الآيةَ.

ومعناها: (وَلَوْ أنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ) أذهِبَتْ به الجبالُ عن وجهِ الأرض قُطِّعت به الأرضُ مسيرةَ شهرٍ في يومٍ أو أحيي به الموتى فتكلَّموا، لكان هذا القرآنُ لِمَا فيه من الدَّلالاتِ الكثيرةِ على صحَّة هذا الدِّين، ولو أمكن أن نجعلَ هذه الأمُورَ لشيء من كُتب الله لأمكنَ بهذا القرآن.

وأما حذفُ جواب (لَوْ) في هذهِ الآية فهي على وجهِ الاختصار؛ لأنَّ في الكلامِ دليلاً عليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي بلِ اللهُ هو المالِكُ لهذه الأشياءِ، القادرُ عليها، ولكن لا يَختار إلا ما فيه مصلحةُ العبادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ؛ معناهُ: أفلَمْ يعلمِ الذين آمَنوا، ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ؛ إلى الإيمان بالإلجاءِ إليه أن اللهَ تعالى قادرٌ على ذلك، ولكن لو فَعَلَ لَبطَلَ الامتحانُ والتكليف، والإياسُ بمعنى العلمِ في لُغة النخعِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ ؛ أي ولا يزالُ الذين كفَروا في عقوباتٍ مِن قِبَلِ اللهِ يزجرُهم عن الكفرِ، ويحُثُّهم على التمسُّك بدين اللهِ، كما نَزَلَ بقريش من القحطِ، وبقوم فرعونَ من الشدائدِ.

---

(١) في معاني القرآن: ج ٢ ص٦٤؛ قال الفراء: (وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس؛ قال: ييأس في معنى يعلم، لغة للنَخَع). وأخرجه الطبري من وجه في جامع البيان: الأثر (١٥٤٩٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ ؛ راجعٌ إلى القَارعةِ، والقَارعَـةُ: هي النَّازلَةُ والشدائدُ التي تنْزِلُ بأمرٍ عظيـم، ويقـالُ: أراد بالقارعـةِ سَـرَايا النبيِّ ﷺ، وبقوله (أَوْ تَحُلُّ قَريبـاً) معنـاه: أو تَـنْزِلُ أنـتَ يـا مُحَمَّـدُ مـع أصحـابكَ قريبـاً مـن مكَّة تقاتِلُهم علـى الدِّيـن، ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي وقـتُ إهـلاكِ الكفَّـار، وَقِيْلَ: فتحُ مكَّة، وَقِيْلَ: ما وعـدَ اللهُ مـن عذابـهم في الآخـرة، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ ما وعدَ من عقاب الكفار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ؛ أي ولقدِ استُهزئَ بالأنبياءِ من قبلِكَ كما استهزَأ بكَ قومُكَ، ﴿ فَأَمْلَيْتُ ﴾ فأمهلتُ، ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بعد استهزائِهم بالرُّسل، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ بذُنوبهم، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ فانظُرْ كيف كان عاقبةُ ما حلَّ من عقاب الله بـهم، فـلا يكـن في صـدركَ حـرجٌ مـن استهزائِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ؛ بالتدبيرِ ويعلمُ ما كسبَت ويجازيها عليه، كمَن لا يعلمُ ذلك ولا يقدرُ على المجازاةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ ؛ في العبـادةِ بـين الأصنـام، ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ ؛ هؤلاء الشُّركاء بأسمائهم التي تستحقُّها، وسَمُّوا منفعتَها وتدبيرَهـا؛ لأن لها شركةً مع اللهِ، كما يوصَفُ الله بالخالقِ والرازق والمحيي والمميت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي أتُخـبرونَ اللهَ بما لا يصحُّ أن يكون مَعلوماً وهو كون الأصنامِ مستحقَّةً للعبـادةِ، وهـذا علـى وجـه الإنكار، وقولهُ تعـالى: ﴿ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ ؛ إنكـارٌ أيضـاً معنـاهُ: أسَـمَّيتم الأصنامَ آلهة بظاهرِ كتابٍ من كتُب الله، وَقِيْلَ: أسَـمَّيتمُوهم آلهـةً بحجَّـةٍ ظـاهرةٍ، بـل سَمَّيتموهم بقولٍ باطل ليس لكم دليلٌ عليه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ ﴾ ؛ أي زُيِّـنَ لهـم قولُـهم وفعلُهم في عبادةِ غيرِ الله، وتكذيب مُحَمَّـدٍ ﷺ والقـرآن. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ؛ من قرأ بفتحِ الصَّاد فالمعنى صَرَفوا الناسَ عن دينِ الله، ومَـن قـرأ

برفعها فالمعنى صَدَّهم رؤساؤهم عن دينِ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ الأسقامُ والقتلُ والأسرُ، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ ؛ أي أغلظُ من عذاب الدُّنيا، ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ يَقِيهم من عذاب الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ ؛ أي صفةُ الجنة التي وُعِدَ المتَّقون الكفرَ والمعاصي: أنَّها تجري من تحتها الأنهارُ، ثمرُها دائمٌ، لا كجِنَان الدُّنيا تظهرُ بظهور ورَقِها في حالٍ دون حالٍ، وظِلُّها أيضاً دائمٌ ليس فيه شمسٌ ولا أذىً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾ ؛ أي دارُ المتَّقين الجنةُ في العاقبةِ، ﴿ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، ودارُ الكافرين في العاقبةِ النارُ، وفي الحديثِ: [أنَّ الرَّجُلَ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ تُقْسَمُ لَهُ شَهْوَةُ مِائَةِ رَجُلٍ مِنْ أهْلِ الدُّنْيَا، فَإذا أكَلَ سُقِيَ شَرَاباً طَهُوراً، فَتَصِيرُ رَشْحاً تَخْرُجُ مِنْ جَسَدِهِ أطْيَبَ مِنْ ريحِ الْمِسْكِ، ثُمَّ تَعُودُ شَهْوَتُهُ إلَى مَا كَانَتْ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ؛ وذلك أن عبدَاللهِ بن سلام، ومَن أسلمَ معه من أهلِ الكتاب، قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا شَأْنُ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ فِي الْقُرْآنِ قَلِيلٌ وَهُوَ فِي التَّوْرَاةِ كَثِيرٌ ؟ فَنَزَلَ ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾[2] ونزل ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بمَا أنزِلَ إلَيْكَ﴾ مِن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ وغيرِ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ ؛ أي ومِن اليهود والنصارَى من ينكرُ بعضَ ((ما في)) القرآن، وإنَّهم كانوا يُقِرُّونَ بصحَّة ((قصة)) يوسف

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٣٧١ عن زيد بن أرقم ﷺ يقول: قال لي رسول الله ﷺ... وذكره.

(٢) الاسراء / ١١٠ .

وغيرِها مما لا يكون فيه نسخُ شريعَتِهم، وكانوا يُنكِرُونَ مِن القرآن ما لا يوافقُ مذهَبَهم ودينَهم[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ ﴾ ؛ الخلائق ﴿ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ رجُوعِي في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّآ ﴾ ؛ أي كما أنزلنا على الأنبياء المتقدمين بلسانهم كذلك أنزلنا اليك القرآن حُكماً عربياً، والْحُكْمُ: هو الفصل بين الشيئين على ما توجبه الحكمة، وقد يكون الحكم بمعنى الحكمة، كما في قوله تعالى ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾[٢] أي الحكم والنبوة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ ؛ أي دين اليهود وقبلتهم ﴿ بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ ؛ أي دين الله دين ابراهيم وقبلته الكعبة ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ ؛ أي من ناصر ينصرك، ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي لا دافع يدفع العقاب عنك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُعَيِّرُونَ النَّبيَّ ﷺ بتزَوُّجِ النِّسَاءِ حَتَّى قَالُوا: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبيًّا لَشَغَلَتْهُ النُّبُوَّةُ عَنْ تَزْويجِ النِّسَاءِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). والمعنى: ولقد أرسَلنا رسُلاً من قبلِكَ، وجعلنا لهم نِسَاءً أكثرَ من نسائِكَ، وأولاداً أكثرَ من أولادك، كان لداودَ عليه السلام مائة امرأةٍ، ولسُليمان ثلاثمائة امرأةٍ مهرية وستُّمائة سريَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي هل يملِكُ أحدٌ من الرُّسل أن يأتي بآيةٍ إلا بإذنِ الله، فإنه سبحانهُ هو المالكُ للآياتِ لا يقدرُ أن يأتي أحدٌ شيئاً منها إلا بإذنهِ.

---

(١) في إعراب القرآن: ج ٢ ص٢٢٥؛ قال النحاس: (أي الذين تحزَّبوا على عداوةِ رسول الله ﷺ والمؤمنون ينكرون ما لم يوافقهم، وقيل: الذين أوتوا الكتاب واليهود والنصارى يفرحون بالقرآن؛ لأنه مصدق بأنبيائهم وكتبهم وإن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ).

(٢) مريم / ١٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي لكلِّ مدَّةٍ من آجَال العباد في الحياةِ والفَناءِ كتابٌ قد كتبَ اللهُ ذلك للملائكةِ؛ ليدُلَّهم به علـى علمـهِ بالأشـياء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ ؛ قال ابـنُ عبـاس: (يَمْحُـو اللهُ مَـا يَشَاءُ مِنْ دِيوَانِ الْحَفَظَةِ مَا كَتَبُوهُ مِنْ أعْمَالِ الْعِبَادِ مَا لاَ جَزَاءَ لَهُ، وَيَتْرُكُ مَا لَهُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ). وقَال الضحَّاكُ: (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْقُرْآنِ فَيَنْسَخُهُ، وَيُثْبِـتُ مَـا يَشَـاءُ فَلاَ يَنْسَخُهُ)، وعن الحسنِ: (يَمْحُو أجَلَ مَنْ حَانَ أجَلُهُ، وَيَدَعُ أجَلَ مَنْ لَمْ يَحِنْ أجَلُهُ مَيِّتاً)[١]. وَقِيْلَ: يَمحُو اللهُ ما يشاءُ من الطاعاتِ بإحباطِـها بالمعـاصي، ومـن المعـاصِي بتكفيرِها بالطاعاتِ.

وقدِ اختلَفُوا: هل يدخلُ في الْمَحْوِ والإثباتِ السعادةُ والشقاوة، والموتُ الحيـاة أم لا ؟ قال ابنُ عبَّاس: (لاَ يَدْخُلُ)، وقال عمرو بن مســعود: (تَدْخُـلُ فِيْـهِ السَّـعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ)، وكان من دُعاء عمرَ: (اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ كَتَبْتَنَا سُعَدَاءَ فَأثْبِتْنَا، وَإنْ كُنْتَ كَتَبْتَنَا أشْقِيَاءَ فَامْحُنَا وَاكْتُبْنَا سُعَدَاءَ، فَإنَّكَ تَمْحُو وَتُثْبِتُ مَا تَشَاءُ وَعِنْدَكَ أمُّ الْكِتَابِ)[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي أصـلُ الكتـاب، قِيْلَ: إنه اللوحُ المحفوظ كَتَبَ اللهُ فيه كلَّ شيء قبلَ أن يَخلُقَ العبادَ، ولا يُزَادُ فيه شـيءٌ ولا ينقص منه شيء.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ ؛ أي فإما نُرِيَنَّكَ يا مُحَمَّدُ بعضَ الذي نَعِدُهم من نصر المؤمنـين علـى الكفَّـار، أو نَقبضُـكَ إلينا قبلَ أن يكون ما نَعِدُهم من العذاب في حياتك، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ ؛ أي بلاغُ ما أُنـزِلَ إليـك، ﴿ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ وعلينـا حسـابُ مـا يعمَلـون، والجزاءُ عليه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ ؛ قـال ابــنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ أوَلَمْ يَرَ أهْلُ مَكَّةَ أنَّا نَنْقُصُ الأَرْضَ مِنْ أطْرَافِهَا بفَتْحِ دِيَارِهِمْ لِلنَّبيِّ ﷺ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٥٤٥).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٥٣٢).

وَالْمُسْلِمِينَ)، وقال الحسنُ: (أَرَادَ بنَقْصِ أطْرَافِ الأَرْضِ ذهَابَ فُقَهَائِـهَا وَخِيَارَ أهْلِهَا). قال: (وَمَثَلُ الْعُلَمَاءِ مَثَلُ النُّجُومِ إذَا بَدَتْ اقْتَدَوْا بِـهَا، وإذا أظْلَمَتْ سَكَنوا، وَمَوْتُ الْعَالِمِ ثُلْمَةٌ فِي الإسْلاَمِ، لاَ يَسُدُّهَا شَيْءٌ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾؛ أي واللهُ يحكمُ بفتْحِ البُلدانِ لا يتعقَّبُ أحدٌ حُكمَهُ بالردِّ، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾؛ إذا حاسبَ محاسبةً سريعُ الحساب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي قد مَكَرَ الذين من قبلِ هؤلاء الكفار بأنبيائهم صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وبِمَنْ آمَن به، ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؛ وعندَ اللهِ جزاءُ مكرِهم جميعاً، فإنَّ ما يفعلهُ الله من إيصالِ المكروه يثبتُ، ومكرهم يضمحلُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ من خيرٍ أو شرٍّ فيُجازيها عليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ﴾؛ تهديدٌ لهم أنَّهم إذا جَهلوا اليومَ عاقبةَ أمرِهم فسيعلمون إذا صاروا إلى الآخرةِ، ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾؛ المحمودةِ، لهم أمْ للمؤمنين؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾؛ أي ويقولُ الذين كفَرُوا من اليهود وغيرِهم: يا مُحَمَّدُ لستَ مُرسَلاً من اللهِ، ومَن يشهدُ لكَ على رسالَتِكَ، ﴿قُلْ﴾؛ لَهم يا مُحَمَّدُ: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ على أنِّي مرسَلٌ إليكم، شهادةُ الله على أنِّي نَبيُّهُ من المعجزاتِ لا شاهدَ أعدلَ من ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾؛ كان ابنُ عباس يقرأ (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ)[1] بالنصب ويقولُ: (هُوَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وَأَصْحَابُهُ، كَانَ عِنْدَهُمْ فِي

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٥٧٦) بإسناد ضعيف.

التَّوْرَاةِ نَعْتُ النَّبِيِّ ﷺ وَصِفَتُهُ)[(١)] وكان يقولُ:(هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ بالْمَدِينَـةِ؛ لأَنَّ هَـؤُلاَءِ أَسْلَمُوا بالْمَدِينَةِ).

وكان ابنُ مسعودٍ يقرأ (وَمِنْ عِنْدِهِ) بالخفضِ على معنى أنَّ القرآنَ مِن عندِ الله، وكان يقولُ: (هَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ أَسْلَمَ بالْمَدِينَةِ) وقُرِئ (وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الْكِتَابُ) بخفض (مِن) وضمِّ العين وكسرِ اللام من علم، هكذا رُوِي عن سـعيدِ ابن جُبير[(٢)].

آخر تفسير سورة (**الرعد**) والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٥٨١) عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٥٨٧).

سُورَةُ إبْرَاهِيمَ

سُورَةُ إبْرَاهِيمَ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاثَةُ آلافٍ وَأرْبَعُمِائَةٍ وَأرْبَعَةٌ وَثَلاثُونَ حَرْفاً، وَثَمَانُمِائَةٍ وَإحْدَى وَثَلاثُونَ كَلِمَةً، وَاثْنَتَانِ وَخَمْسُونَ آيَةً عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرُها، وقولهُ تعالى: (كِتَابٌ) خبرُ مبتدأ محذوفٍ، ويجوز أن يكون خبرَ (الر) ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ؛ أي مِن ظُلماتِ الكفرِ إلى نور الإيمان، ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ بأمر ربهم أمَرَكَ أن تَدعُوَهم إلى الإيمان، وتزجُرَهم عن الكفرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي الى دينِ العزيزِ الحميد الذي لا يمكنُ أن يُغلَبَ ويقهرَ، والحميدُ المستحقُّ للحمدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ مَن قرأ برفعِ الهاء فعلى الابتداءِ، ومَن قرأ بالخفضِ جعلَهُ بدَلاً من الحمدِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ الويلُ كلمةٌ تستعمَلُ في الشدَّة، ويقالُ: هو وادٍ في جهنَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ؛ أي يختارُونها عليها، ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي يُعرِضُونَ عن طاعةِ الله من الصدِّ وهو الإعراضُ، ويجوز أن يكون معناهُ: ويَمنَعُونَ الناسَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ ؛ أي ويطلبُونَ بدينِ الله العِوَجَ، والعِوَجُ بكسرِ العين في الدِّين، وبفتحِها في العصا، وقولهُ تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي في ذهابٍ عن الحقِّ بعيدٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي بلُغَتِهم ليبيِّن لهم ما أُمِرُوا به ونُــهوا عنـه، فيفـهَمُوا ويتعلَّمـوا، ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ مَـن كـان أهْـلاً لذلـك، ﴿ وَيَهْدِى ﴾ ؛ لدينــهِ، ﴿ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ ؛ أي بدَلائِلنـا وحُجَجِنـا التي دلَّت على صحَّــةِ نُبوَّتـهِ مثـلُ العصـا واليـدِ وغيرهمـا، ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ . قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي بنَعِيمِ اللهِ، وَقِيْلَ: بوقائعِ اللهِ في الأيَّامِ السالفةِ من قوم نُوحٍ وعادٍ وثمود. وَقِيْـلَ: بنَعِيـمِ اللهِ ونِقَمِهِ، والمعنى: عِظْهُمْ بالترغيب والترهيب والوعدِ والوعيد.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ في ذلك التذكيرِ لدلالاتٍ على قدرةِ اللهِ لكـلِ صبَّـار شَكُورٍ علـى طاعتـهِ، وعـن معصيتهِ، وشكُورٍ لأَنعُمِ اللهِ، والشُّكرُ هو إظهارُ النعمةِ على جهةِ الاعترافِ بها.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ هذه الآيةُ قد سبقَ تفسيرُها في سورةِ البقرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ ؛ هذه عطـفٌ علـى قولـهِ (إذْ أنْجَـاكُمْ) كأنه قالَ: اذكرُوا نعمةَ اللهِ عليكم إذ أنْجَاكُم، وإذ تأذنَ ربُّكم، وهذا إخبارٌ عن ما قالَ موسى لقومهِ؛ أي أعلمَكم في الكتاب، ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ نعمَـتي ﴿ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ نعمةً، ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ ؛ نِعمَتي، ﴿ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ لِمَن كفرَ.

قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى الآيَةِ: لَئِنْ وَحَّدْتُمُونِي وَأطَعْتُمُونِي، لأزيدَنَّكُـمْ نِعْمَـةً)، قال قتادةُ: (حَقٌّ اللهِ أنْ يُعْطِي مَنْ سَأَلَهُ، وَيَزِيدَ مَنْ شَكَرَهُ)، وقولهُ تعالى (وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ) أي جَحَدتُّم حقِّي وحقَّ نِعمَتي إنَّ عذابي لشديدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ؛ بنعمتهِ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ ﴾ ؛ عن طاعتِكم، لم يأمُرْكم بطاعته لحاجتهِ إليها وهو الـ ﴿ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ لِمَن وَحَّدَهُ وأطاعَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ الخطابَ في هذه الآية لأُمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقِيْلَ: هو خطابُ موسى لقومهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ) يعني قومَ شُعيب وغيرهم، ﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ، لا يعلمُ عددَهم إلاّ الله، ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي بالدَّلائل الواضحاتِ ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (عَضُّوا أنَامِلَهُمْ غَيْظاً عَلَى الرُّسُلِ فِيْمَا ادَّعَوا مِنَ النُّبُوَّةِ)، وقال مجاهدُ: (هَذا كِنَايَةٌ عَنِ الْجَحْدِ وَالتَّكْذِيب)[1]. وَقِيْلَ: معناهُ: وضعَ الكفارُ أيدِيَهم على أفواهِ أنبيائهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ ﴾ ؛ بسببٍ من التوحيد، ﴿ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ ظاهرِ الشكِّ، والرَّيْبُ الشكُّ مع التُّهمَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ ؛ أي في توحيدِ الله شكٌّ، وهذا إنكارٌ من الرسُل عليهم؛ أي لا شكَّ في توحيدِ الله، ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي خالِقِهما فكيف يشُكُّون فيه ودلائلُ وحدانيَّته ظاهرةٌ، ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ ؛ إلى دينهِ، ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ؛ في الجاهليَّةِ، ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ منتهَى آجَالِكم، فلا يعذِّبُكم بعذاب الاستئصال.

وأما دخولُ (مِنْ) في قولهِ (مِنْ ذُنُوبكُمْ) فيجوزُ أن تكون للجنس، كما في قوله ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[2]، ويجوزُ أن تكون للتبعيضِ؛ أي ليغفرَ لكم بعضَ ذُنوبكم، فادْعُوا اللهَ وارغَبُوا إلَيه في مغفرةِ الذُّنوب كلِّها.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٦١٦).
(٢) الحج / ٣٠ .

قولهُ: ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ؛ أي قالت الأُمَمُ لرُسُلِهم: هل أنتم إلاّ آدميُّون مثلُنا لا فضلَ لكم علينا، ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا ﴾ ؛ تمْنَعُونَا، ﴿ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ ؛ من الأصنامِ، ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ فأْتُوا بحجَّة واضحةٍ بيِّنة، يعنون الآياتِ التي كانوا يقترحونَها على أنبيائهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ؛ كما قُلتم، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ؛ كما أنعمَ علينا بأن أرسَلَنا، ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ ولا نملكُ الآياتِ التي تقترحون علينا ونحن بشرٌ مثلكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ظاهرُ المعنى.

قالَتِ الكفارُ لَهم: فتوكَّلوا أنتم على اللهِ حتى تَروْنَ ما يفعلُ بكم، قالت الرُّسل: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ ؛ أي حسبُنا، والهدايةُ من اللهِ هي الدلالةُ على الحقِّ والرشدِ، ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ ؛ على أذاكُم، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ والتوكُّلُ هو التمسُّكُ بطاعةِ الله مع الرِّضا بقضائهِ وتدبيره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ ﴾ ؛ أي قالت الكفارُ لرُسُلِهم: لا نُساكِنُكم على مخالفتِكم ديننا ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ وقد ذكرنا في قصَّة شعيب، ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ ، فأوحَى اللهُ إلى الرُّسُلِ: ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ، أي الكفار، ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ أرضَهم وديارهم، ﴿ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ ؛ من بعد هلاكِهم، وهذا نِهايةُ ما في الإنعامِ، فإن هذا جزاءُ مَن توكَّلَ على اللهِ، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ جزاءٌ، ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ ؛ مقامَ العبادِ عندي، ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ وخاف وعيدي بالعقاب ولِمَن عصانِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي سألَتِ الرُّسل ربَّهم أن يحكُمَ بينهم وبين الكفار؛ لأن الفتحَ ها هنا بمعنى الْحُكْمِ، يقال للحاكِم: الفتَّاحُ، فلما فزِعَتِ الرسلُ إلى ربهم بانجاز الوعد، فتحَ لهم ما طلبوهُ فخابَ كلُّ جبارٍ عنيد.

والجبارُ: هو الطالبُ للخير والعُلُوِّ فوقَ كلِّ عُلُوٍّ، والعنيدُ: هــو الدافـعُ للحـقِّ علىجهةِ الاستنكار، وقال قتادةُ: (الْعَنِيدُ: الْمُعْرِضُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ)[1]، وقــال مجـاهدُ: (هُوَ الْمُجَانِبُ لِلْحَقِّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ معناهُ أمامَ هذا الجبَّار بعدَ الموتِ جهنَّمُ، والوراءُ يكون من خَلْفٍ وقُدَّامٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي يُسقَى من ماءٍ يَسِيلُ من جُلودِ أهلِ النَّار من القيحِ والدَّم، قال ابــنُ عبَّـاس: (فِـي جَهَنَّمَ أوْدِيَةٌ، فِي تِلْكَ الأَوْدِيَةِ صَدِيدُ أهْلِ النَّار وَقَيْحُهُمْ وَدِمَاؤُهُمْ، فَيُسْقَوْنَ مِنْ ذلِـكَ الصَّدِيدِ قَدْ نَتَنَ رِيحُهُ) ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ ﴾ ؛ شاربهُ، والملَكُ يضربهُ بالمقامعِ ويقولُ لـه: اشرب، فيقولُ: لاَ أطِيقهُ، فيضربهُ حتى يشربَهُ جرعةً جرعةً، ولا يكاد يسيغهُ من نتنــه وحرِّه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ ؛ لا يقدرُ أن يبتلعَهُ، والإسَاغَةُ هـو دخولُ المشروب في حَلقهِ مع قَبُولِ النفسِ له، وفي الحديــثِ عـن النـبيِّ ﷺ أنَّـهُ قـالَ: [يُقَرَّبُ إلَيْهِ فَيَكْرَهُهُ، فَإذا أُدْنِيَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ، وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأسِهِ فِيْهِ، فَـإذا شَـرِبَهُ قَطَّعَ أمْعَاءَهُ، فَتَخْرُجُ أمْعَاؤُهُ مِنَ الْجَانِب الآخَـرِ][2] كمـا قـال تعـالى: ﴿وَسُـقوا مَـاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أمْعَاءَهُمْ﴾[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ؛ أي ويأتيهِ غَمُّ الموتِ من قدامه، ومـن كـلِّ مكـان كـان فيـه يمـوتُ بـدون ذلـك في الدُّنيـا، قـال ابـنُ عبَّـاس: (يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ تَحْتِ كُـلِّ شَـعْرَةٍ فِـي جَسَـدِهِ)[4]. قِيْـلَ: وتأتيـهِ النـيرانُ مـن كـلِّ جـانبٍ، ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ، فيسـتريحُ مـن العـــذاب، ﴿ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي ومن بعدِ ذلك عذابٌ شديد أشدُّ مما تقدَّمَ لا ينقطعُ ولا يَفْتُرُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٦٢٤).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٨ ص٩٠ عـن أبـي أمامـة: الحديـث (٧٤٦٠). والطـبري في جامع البيان: الحديث (١٥٦٣١). والترمذي في الجامع: الحديث (٢٥٨٣)، وقال: حديث غريب.

(٣) محمد / ١٥ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٦٣٣) عن إبراهيم التيمي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ ؛ أي مثَلُ أعمالِ الذين كفرُوا بربهم في انتفاعهِ بها كرمادٍ اشتدَّتْ به الريحُ في يومٍ ذي عَاصِفٍ، يقولُ: كما لا يقدرُ أحدٌ على الانتفاعِ على جمعِ ذلك الرَّماد إذا ذرَّتْهُ الريحُ الشديدة، فكذلك هؤلاءِ الكفَّار؛ ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ ؛ أي لا يقدرون على الانتفاعِ بشيءٍ من الأعمالِ التي عَمِلُوها على جهةِ البرِّ مثلَ صِلَةِ الرَّحِمِ ونحوِها. وأما الكفرُ والمعاصي فلا يكون كرَمادٍ اشتدَّتْ به الريحُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي ذلك الذي ذُكِرَ هو الذهابُ عن التنفُّعِ البعيدِ عن الحقِّ والهدَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي ألَم تعلَمْ - يا محمَّدُ - أنَّ اللهَ خلقَ السموات والأرضَ على ما توجِبُ الحكمةُ وتقتضيه المصلحةُ، والحقُّ هو وضعُ الشيءِ موضعِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ ؛ أيُّها الكفار؛ أي يهلِكْكم، ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ ويخلُقُ قوماً آخرين أطوعَ للهِ منكم، ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ، أي وليس ذلك على اللهِ بشديدٍ ولا متعَذِّر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي إذا كان يومُ القيامةِ بَرزَ الناسُ من قُبورهم للمُسَائلَةِ والمحاسبةِ، فيُسألون عن أعمالهم ويُجَازَوْنَ عليها، ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ ﴾ ؛ أتباعُ الظَّلَمَةِ والعُصاة، ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ ﴾ ؛ وهم الرؤساءُ والقادة: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ ؛ في المعصيةِ والظُّلم في الدُّنيا، ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ ﴾ ؛ دافِعُونَ، ﴿ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ . فيقولُ لهم رؤساؤهم: ﴿ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ أي ما نخلصُ به من هذا العذاب، ﴿ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾ ؛ إليه؛ أي لا مَطْمَعَ لنا في ذلك، فكيف تطمَعون في مثلهِ من جِهَتنا؟ ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي لا حِيلَةَ لنا سواءٌ أجزِعْنَا أم صَبَرنا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ مِنْ هذا العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ هذا إخبارٌ عن خُطبةِ الشيطانِ، وذلك أنه إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنةَ، وأهلُ النار النارَ،

قامَ إبليسُ خَطيبًا على مِنبَرٍ من نار، فقال: يا أهلَ النار إنَّ اللهَ وعدَكم وعداً، وكان حقّاً وعدُه، ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ ﴾، أنا، ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ الإكراهِ على المعصية، ولا حجَّة على ما قلتُ، ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾؛ إلى طاعَتي بالوَسْوَسَةِ، ﴿ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾؛ بسوءِ اختيارِكم، ﴿ فَلَا تَلُومُونِى ﴾؛ على ما حَلَّ بكم من العقاب، ﴿ وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾؛ فإنِّي لَمْ أجبرْكُمْ على المعصيةِ، ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾؛ أي بمُغيثِكم، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾؛ ولا أنتم بمُغيثِيَّ، والإصْرَاخُ في اللغة: هو الْمُسْتَغِيثُ إغاثَةً بهِ. ويُحكى أنَّ أعرابياً أتى على رجُلٍ يقرأ هذه الآيةَ، فقال: قَاتَلَهُ اللهُ مَا أفْصَحَهُ!

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾؛ إخبارٌ عن كلامِ إبليس، ومعناهُ: إنِّي كفرتُ من قَبْلُ بالذي أشركتُمونِ به في الطاعةِ من قبلِ أن أشركتُموني به؛ أي كفرتُ بربي من قبلِ ما عدلتُموني بهِ. ويقال: معناهُ: إنِّي كفرتُ الآنَ بما كان من إشراكِكُمْ إيَّاي في الطاعةِ إذ أطعتُموني وجعلتُموني كأنِّي ربٌّ، فصيَّرتُموني شَريكاً لربكُم، وأنا أكفرُ اليوم بشِركِكُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي قَالَ اللهُ تَعَالَى: إن الظالِمين من إبليسَ وغيرِه لهم عذابٌ وَجيعٌ يخلصُ وجعهُ إلى قُلوبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾؛ أي في جنَّات تجري من تحت قُصورها وأشجارها الأنهارُ، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي يُحَيِّي بعضُهم بعضاً بالسَّلام، ويرسلُ اللهُ الملائكة إليهم بالسَّلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾؛ أي ألَم تعلَمْ يا مُحَمَّدُ كيف وصفَ اللهُ شبهاً كلمةً طيِّبةً وهي كلمةُ التوحيدِ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ والإقرَارُ بالنبُوَّة؛ كشجرةٍ طيِّبةِ الثمرِ، وهي النخلةُ التي لا شيءَ أحلَى من ثمرِها وهو الرُّطَبُ، كما لا كلامَ أحسنَ من كلمةِ الرب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ فيه شَبَّهَ ثباتَ الإيمان وما فيهِ من الأدلَّة، بقَرَار النخلةِ التي أصلُها ثابتٌ على نِهاية الثباتِ في تَمَكُّنِ

فرعها في الأرضِ، بل المعرفةُ في قلب المؤمن أثبتُ من عروق النخلة؛ لأن النخلةَ تُقلَعُ، ومعرفةُ العارفِ لا يقدر أحدٌ من الناسِ أن يُخرجَها من قلبهِ.

وقولهُ تعالى: (وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) تُؤتِي أكلَها، فيه تشبيهُ أعمال المخلِصين التي هي فروعُ الإيمان في أنّها ترتفعُ وتعلُو إلى جانب السَّماء؛ لأن الأعمالَ لا تصلحُ إلا بالإيمان، والأصلُ هو الإيمانُ، والفروعُ هو الأعمالُ الصالحة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ ؛ فيه تشبيهُ ما يحصلُ من الثواب الدائم الذي لا منزلةَ أعلَى منه، وقولهُ تعالى: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ ؛ أي بعِلْمِهِ وقُدرتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ ؛ أي يُبيِّنُ اللهُ الأشياءَ للناسِ في صفة التوحيدِ والدين، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ لكي يتَّعِظُوا ويؤمنوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ ؛ يعني كلمةَ الشِّرك، ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ ؛ يعني شجرةَ الْحَنْظَلِ ليس فيها حلاوةٌ ولا منفعة ولا رائحة طيِّبة، بل تضرُّ مَن تناولَها، فكذلك كلمةُ الكفرِ تضرُّ صاحبَها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي اقتُلِعَتْ، معناهُ: كما أنه ليس لشجرةِ الحنظل أصلٌ تثبتُ عليه وتَقَرُّ، ولكن تُقلع وتؤخذ حبَّتهُ من أصلهِ، فكذلك الكفرُ يُبْطِلُهُ الله ويستأصلُ أهلَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ فإن الريحَ تقلَعُها وتذهبُ، كذلك ليس لكلمةِ الكفر حجَّةٌ يحتجُّ بها صاحبها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ؛ أي يُثبتُ اللهُ الذين آمَنوا بقولٍ ثابت وهو: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ في الحياةِ الدُّنيا، وفي الآخرةِ يعني القبرَ، كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [إنَّ الْمُؤْمِنَ إذا دَخَلَ قَبْرَهُ وَأتَاهُ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ وَقَالاَ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبيُّكَ ؟ فَيُثَبِّتُهُ اللهُ فَيَقُولُ: اللهُ رَبي؛ وَالإسْلاَمُ دِينِي؛ وَمُحَمَّدٌ نَبيِّي. فَيَقُولاَن: صَدَقْتَ هَكَذا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلَى النَّار، فَيَقُولاَن لَهُ: هَذا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ كَفَرْتَ بربكَ، فَإذا آمَنْتَ بربكَ فَهَذا مَنْزِلُكَ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلَى الْجَنَّةِ وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ.

وَإنْ كَانَ كَافِراً أوْ مُنَافِقاً فَيَقُولاَن لَهُ: مَا تَقُولُ لِهَذا الرَّجُلِ ؟ فَيَقُولُ: لاَ أدْري، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ كَذا وَكَذا. فَيَقُولاَنِ لَهُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ اهْتَدَيْتَ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ

إِلَى الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذا لَكَ لَوْ آمَنْتَ، فَأَمَّا إذا كَفَرْتَ فَإِنَّ اللهَ بَدَّلَكَ بِهِ هَذا، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّار، ثُمَّ يَقْمَعُهُ بالْمِطْرَاق قَمْعَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللهِ كُلُّهُمْ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ، فَلاَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ شَيْءٌ إلاَّ لَعَنَهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّار يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ رِيحِهَا وَسَمُومِهَا، وَيُقَالُ لَهُ: نَمْ نَوْمَةَ اللَّدِيغِ، ثُمَّ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ عَلَيْهِ أَضْلاَعُهُ] فَذلِكَ قولُهُ (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الاخِرَةِ)[1] ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ ﴾ ؛ أي ويهلِكُهم، ﴿ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ من التَّثبيتِ والإضلال، لا مانعَ له مما يفعلهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرًا ﴾ ؛ فيه تعجيبٌ للنبيِّ ﷺ من صُنعِ المشركين، فإنَّهم بدَّلوا نعمةَ الله بالكُفر، ثم لم يقتَصِروا على هذا في أنفسهم حتى أضلُّوا قومَهم، ﴿ وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي دارَ الهلاكِ وهي: ﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ ﴾ ؛ أي يدخُلونَها يومَ القيامةِ، ﴿ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ قرارُ من يكون قرارهُ النار، وقوله تعالى: (جَهَنَّمَ) بنَصب (يَصْلَوْنَهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ ؛ أي أمثَالاً ونُظَرَاءَ، ﴿ لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ ﴾ ؛ أي كان عاقبَتُهم الضلالَ عن دينِ الله، ﴿ قُلۡ تَمَتَّعُواْ ﴾ ؛ قليلاً في الدنيا، ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ في الآيةِ أمرٌ للنبيِّ ﷺ بأن يأمُرَ المؤمنين بما يؤدِّيهم إلى النعيمِ المقيم، وقولهُ تعالى: (يُقِيمُوا الصَّلاَةَ) أي يُؤَدُّونَها لمواقيتها بشَرَائِطها.

واختلَفُوا في جزمِ (يُقِيمُوا) قِيْلَ: لأنه جوابُ الأمر، وقال بعضُهم: تقديره: قُل لعباديَ الذين آمَنوا أقِيمُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ؛

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: الحديث (١٣٦٩) مختصراً. وأبو داود في السنن: كتاب السنة: الحديث (٤٧٥٠-٤٧٥٣). والطبري في جامع البيان: الحديث (١٥٧٠٧) بأسانيد. وعن أبي هريرة أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٥٧٠٨ و١٥٧٠٩).

مِـن الأمـوال في وجـه الـبرِّ مِـن الفرائـض والنوافـل، سِـرّاً في النوافـل، وعلانيـةً في الفرائض، ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ ؛ يومَ لا يُقبَلُ البدلُ للتخلُّصِ مِـن النار، ﴿ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي ولا مَودَّةٌ يكون فيها تخليصُ أحدهما للآخر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ ؛ يعني المطرَ، ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ ؛ أي من الثمار ما تنتفعون بـه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ ﴾ ؛ أي السُّفُنَ، ﴿ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ، وتجري حيث تشـاؤُون، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ ﴾ ؛ أي سـخَّرَها لكـم إلى يـومِ القيامـة، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ بأن أتـى بـهما متعـاقِبَين لينصـرفَ النـاسُ في معايشـهم بالنـهار ويهدأوا بالليلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ ﴾ ؛ من العاقبةِ وغير ذلـك، ومَن قرأ (مِنْ كُلٍّ) بالتنوين فالمعنى: أعطاكُم من كلٍّ ما تقدَّمَ ذِكرهُ من النِّعَمِ، ثم قـالَ (مَا سَأَلْتُمُوهُ) أي لَم تسألوهُ، بلِ ابتدأكم بذلك تفضُّلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ ﴾ ؛ أي إنعَامهِ، والنِّعمـةُ ها هنا اسمٌ أقيمَ مقامَ المصدر، ولذلك لم يُجمع، (لاَ تُحْصُوهَا) أي تأتُوا على جميعِـها بالعدِّ. وَقِيْلَ: لا تحفَظُوها ولا تطيقوا عدَّها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: إن الإنسانَ مع هذه النِّعَمِ لظلومٌ لنفسهِ كفَّارٌ لنِعَمِ ربهِ. والإنسانُ: اسمُ جنسٍ لكن يُقصد به في هذا الموضعِ الكافرُ خاصَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ ؛ أي واذكُرْ إذ قالَ إبراهيمُ بعدَ ما بَنَى البيتَ: رب اجعل مكَّة آمِناً يـأمَنُ فيـها النـاسُ والوحـش، فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ حتى اجتمعَ فيه الناسُ مع شدَّة العداوةِ بينهم، وتَدْنُوا الوحـوشُ فيه من الناسِ فتأمَنُ منهم. وإنما عَـرَّفَ البلـدَ في هـذه الآيـةِ ونكَّرَهـا في البقـرة؛ لأن النَّكِرَةَ إذا أُعيدت تعرَّفت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي وَالْطُفْ بي وَبَنِيَّ لُطفاً نتجنَّبُ به عبادةَ الأصنامِ، ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ يعني الأصنامَ، وأضافَ الإضلالَ إلى الأصنامِ وإنْ لم تكن تفعلُ شيئاً؛ لأنَّهم ضَلُّوا بعبادتِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أي فمَن تَبعَنِي على دِيني فإنه منِّي ومعي، ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ ؛ خالَفني في دِيني، ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي غفورٌ لذُنوبهم، رحيمٌ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ ؛ أي قالَ إبراهيمُ: إنِّي أسكنْتُ بعضَ ذُرِّيَتِي، وهو إسماعيلُ مع أمِّه هَاجَرَ، بوادٍ جَدْبٍ لا يُنبتُ شيئاً، وأرادَ به وادِي مكَّة وهو الأبْطَحُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ ؛ أي عندَ المسجدِ الحرام، سَمَّاهُ الْمُحَرَّمَ لأنه لا يستطيعُ أحدٌ الوصولَ إلا بالإحرامِ. وَقِيْلَ: أرادَ به حُرمَةَ الاصطيادِ والقتلِ، كما رُوي في الخبرِ: [أنَّ مَكَّةَ حَرَامٌ لاَ يُخْتَلَي خَلاَؤُهَا، وَلاَ يُعْضَدُ شَوْكُهَا، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا][(١)].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ أي أسْكنتُهم عندَ بيتكَ الْمُحَرَّمِ ليُقِيمُوا الصلاةَ بحرَمِ مكَّة، ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي تُسرِعُ إليهم، قال مجاهدُ: (لَوْ قَالَ إبْرَاهِيمُ: أفْئِدَةَ النَّاس، لَزَاحَمَتْهُمُ الرُّومُ وَفَارسُ، وَلَكِنْ قَالَ: أفْئِدَةً مِنَ النَّاس)، وقال ابنُ جُبير: (لَوْ قَالَ إبْرَاهِيمُ: أفْئِدَةَ النَّاس، لَحَجَّتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسُ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: أفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ فَهُمُ الْمُسْلِمُونَ)[(٢)].

وقُرئ (تَهْوَى) بنصب الواو من هَوَى يَهْوَى إذا أحبَّ، إلاَّ أن القراءةَ المعروفة بالكسرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

---

(١) أخرجه البخاري بمعناه في الصحيح: كتاب العلم: الحديث (١٠٤). ومسلم في الصحيح: كتاب الحج: الحديث (٤٤٦/ ١٣٥٤).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٦٩٠. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص٣٧٣.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ ؛ أي مـا تُسِـرُّ أنفسُنا وما تُظهِرُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ يحتملُ أن يكون من كلامِ إبراهيمَ، ويحتملُ أن يكون قَولاً من اللهِ معترضٌ بين الكلامَين، كأنه صدَّقَ إبراهيمَ فإنه لا يخفَى على اللهِ من شيءٍ.

ثم رجعَ إلى قـول إبراهيـم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ ؛ رُوي أنَّ إبراهيمَ كان ابن مائة سَنة يومَ وُلد له إسحاق، وكانت سـارةُ يومئذٍ بنتَ تسعٍ وتسعين سَنةً، وكان إسماعيلُ أكبرَ مـن إسحق بثلاثـةِ عشـرة سَنة. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي قابلُ للدُّعاءِ.

وقولهُ: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ، أي مُداوماً على إقامةِ الصَّـلاة، وَ اجعل؛ ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ ؛ مَن يقيمُ الصلاةَ، ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي أجِبْ دُعائِي، ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ ؛ قال بعضُهم: أرادَ آدمَ وحـوَّاء؛ لأن اللهَ تعالى كان نَهَاهُ عن الاستغفار لأبيه من بعدِ ما تبيَّن له أنَّهُ عدُوٌّ للهِ.

وقال بعضُهم: أرادَ أبوَيه الأدنيَين، فكان إبراهيم يسـتغفرُ لأبويـه عـن مَوعِـدَةٍ وعـدَ بـها إيـاه. وقـرأ بعضـهم (وَلِوَالِدَتِـي) لأن أمَّـهُ كـانت مسـلمةً. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي يوم يحاسَبُ الخلقُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ؛ أي لا تظُنَّنَّ اللهَ يا مُحَمَّدُ غافلاً عن أعمال الظَّالمين ومجازَاتِهم على مـا يعملـون، ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (إذا سِيقُوا إلَـى النَّـار شَخَصَتْ أبْصَارُهُمْ إلَيْهَا)، وقال الحسنُ: (تَشْخَصُ أبْصَارُهُمْ إلَى إجَابَةِ الدَّاعِـي حِيـنَ يَدْعُوهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ، لاَ يُغْمِضُونَ أعْيُنَهُمْ مِنْ هَوْلِ ذلِكَ الْيَوْمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ ؛ أي مُسرعين نحوَ البلاءِ الـذي ينْزلُ بهم، والإهْطَاعُ: الإسْرَاعُ، وقـال مجـاهدُ: (مُـهْطِعِينَ؛ أيْ مُدِيْمِـينَ النَّظَـرَ)، قـال الخليلُ: (الْمُهْطِعُ: الَّذِي قَدْ أقْبَلَ عَلَى الشَّيْءِ بنَظَرِهِ وَلاَ يَرْفَعُ عَيْنَيْهِ عَنْهُ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ) أي رَافِعِي رؤوسِهم إلى ما يَرون في السَّماء من الانفطـار، وانتشـار الكواكب، وتكويرِ الشَّمس ونحوِ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يُغمِضُونَ أعيُنَهم من الهولِ والفزَعِ، وقولهُ تعالى: (وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) أي قلوبُهم خاليةٌ من خيرٍ، وَقِيْلَ: مجوَّفَةٌ لا عقولَ فيها، قال السديُّ: (هَوَتْ أفْئِدَتُهُمْ بَيْنَ مَوْضِعِهَا وَبَيْنَ الْحِنْجَرَةِ، فَلاَ هِيَ عَائِدَةٌ إلَى مَوْضِعِهَا، وَلاَ هِيَ خَارِجَةٌ مِنْهَا).

ثم عادَ إلى خطاب النبيِّ ﷺ فقال: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ ؛ أي أعلِمْهُم بموضعِ المخافة يوم يأتيهم العذابُ وهو يومُ القيامةِ، ﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ﴾ ؛ أي الكفارُ: ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ؛ أعِدْنَا إلى حالِ التكليفِ، ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ ؛ واستَمْهَلوا مدَّةً يسيرةً كي يُجيبوا الدعوةَ ويتَّبعُوا الرسُلَ، فقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ ؛ أي حَلَفْتُمْ من قبلِ هذا في الدُّنيا، ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ من الدُّنيا الى الآخرةِ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ أي سكَنتُم في مساكنِ عادٍ وثمودَ، ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ ؛ أي ظهرَ لكم كيفَ كفَرُوا باللهِ ورسُلِهِ، وكيفَ عاقَبَهم اللهُ، والمعنى: كان ينبغِي أن يَنْزَجِرُوا أو يَرْتَدِعُوا الكفرَ اعتباراً بمساكنِهم بعدَ ما تبيَّن لكم كيف فعلنا بهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي وبيَّنَّا لكم الأمثالَ في القرآنِ الْمُنبِهِ على التفكُّرِ، فلم يعتَبروا بتلكَ الأمثال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ ﴾ ؛ أي قد مكَرت الأُمَمُ الماضيةُ بأنبيائِهم ما أمكنَهم من المكرِ، واللهُ تعالى عالِمٌ بمكرِهم، ﴿ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ ؛ جزاءُ، ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ مَن قرأ (لِتزُولَ) بكسر اللام فالمعنى: وإنْ كان مكرُهم قصداً منهم إلى أن تزولَ منه الجبالُ، ثم لا تزولُ منه الجبال، فكيف يزولُ منه الدِّينُ الذي هو أثبتُ من الجبالِ.

---

(١) النحل / ٣٩ .

وَقِيْلَ: معناه الجحدُ، كأنه قال: وما كان مكرُهم ليزولَ منه دينُ الإسلام وثُبوته كثُبوتِ الجبال، واستحقرَ مكْرَهم. ومن قرأ (لَتَزُول) بفتح اللامِ فمعناهُ: وإنَّ مكرَهم قد بلغَ منتهاهُ حتى تزولَ منه الجبالُ، فلا يضرُّ ذلك أنبياءَ الله ورسُلَهُ، فإن اللهَ وعدَ رسُلَهُ النصرَ، لقولهِ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ ؛ أي لا تَظُنَّنَّ اللهَ يا مُحَمَّدُ مُخْلِفَ رُسُلِهِ ما وعدَهم من النصرِ وإظهار الدِّين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ ؛ لا يعجزهُ شيءٌ، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ ؛ ذو نِقْمَةٍ ممن عصاهُ وكفرَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ؛ تبديلُها أنْ يُزادَ فيها وينقصَ منها، وتستوي جبالُها وأوديتها، وتُمَدَّ الأدِيْم العُكَاظِيّ[(٢)] أرضاً بيضاءَ كالفِضَّة، وتبديلُ السَّموات انفطارُها وانتشارُ كواكبها وتكويرُ شَمسِها وخسوفُ قمرِها[(٣)].

وذهب بعضُهم: إلى أنَّ الآيةَ على ظاهرها، وأن هذه الأرضَ تُبدَّلُ يومئذٍ بأرضٍ أخرى، كما رُوي عن عائشةَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَرَأ عَلَيَّ هَذِهِ الآيَةَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فَأَيْنَ تَكُونُ النَّاسُ؟ قَالَ: [عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ] يعني الصِّراطَ[(٤)]، وأما السمواتُ على هذا القول، فإنها تُطْوَى وتبدَّلُ سماءَ أخرى، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[(٥)]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ ؛ أي وبرزُوا من قبورهم للمحاسَبة.

---

(١) الفتح / ٢٢٨ .

(٢) أدِيمٌ عُكَاظِيٌّ: منسوبٌ إلى عُكَاظ، وهو مِمَّا حُمل إليها فبيعَ بها. وعُكاظ اسمُ سوقٍ من أسواق الجاهلية المشهورة كانت بقُرب مكَّة. وعبارة المخطوط هنا فيها نقص وبعض تحريف، وتم ضبطها وتصويبها كما في جامع البيان للطبري: الحديث (١٥٨٧٤).

(٣) في أصله معنى حديث أخرجه ابن أبي ماجة في السنن: كتاب الفتن: الحديث (٤٠٨١)، ضعفه البعض وصححه آخرون.

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب صفات المنافقين: باب في البعث والنشور: الحديث (٢٩/ ٢٧٩١). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣١٢١). والطبري في جامع البيان: الحديث (١٥٨٥١) بأسانيد واللفظ له.

(٥) الأنبياء / ١٠٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي وترَى يا مُحَمَّد الذين أجرَمُوا يومَ القيامةِ (مُقَرَّنِينَ) أي مجمُوعِين مع الشياطين (فِي الأَصْفَادِ) أي في الأغلالِ والسَّلاسلِ، كما رُوي في الخبر: [أنَّهُ يُقْرَنُ كُلُّ كَافِرٍ مَعَ شَيْطَانِهِ فِي غِلٍّ مِنْ حَدِيدٍ وَقَيْدٍ مِنْ حَدِيدٍ]. والأصفادُ الأغلال، واحدها صِفْدٌ وصِفَادٌ. وَقِيْلَ: الأصفادُ الأغلال والقيُودُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ ؛ أي قَميصُهم من نارٍ سَوداء كالقَطْرَانِ، وهو الذي تُهْنَأُ[1] به الإبل، ومَن قرأ (مِنْ قِطْرٍ) فالمعنى: من نُحاسٍ مُذابٍ قد بلغَ النهاية في الحمايةِ. وتحتملُ أنَّهم يُسَرْبَلُونَ سَرْباً؛ لأن أحدَهما من القِطْرِ، والآخر من القِطْرَانِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي يعلُو وجوهَهُم النارُ، وذلك أنَّ بين الكافرِ وشَيطانهِ حَجَراً من الكبريتِ يشتعلُ في وجههِ، ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ ؛ ليجزيَ الذين أساؤُا بما عمِلُوا، ويجزي الذين أحسَنُوا بالْحُسْنَى، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ إذا حاسبَ فحسابه سريعٌ؛ لأنه لا يحاسِبُ بعقدٍ وإشارة، ولا يتكلَّمُ بلسَانٍ، وإنه يكلِّمُ الجميعَ في وقتٍ واحد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ ؛ أي هذا القرآنُ ذِكْرٌ بالغٌ وموعظة كافيةٌ للناسِ، وليُخوَّفوا بذكرِ العقابِ، ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي ليَتَّعِظَ ذوُو العقولِ من الناسِ، فيوصلَهم ذلك إلى الجنةِ، ويخلِّصَهم من النار.

عن أُبَيٍّ بن كعبٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إبْرَاهِيمَ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ عَبَدَ الأَصْنَامَ، وَبعَدَدِ مَنْ لَمْ يَعْبُدْهَا][2].

آخر تفسير سورة (**إبراهيم**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) تهنأ به: تُدْهَنُ؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٨٦٠) عن الحسن قال: ((يعني الْخَضْخَاض هِنَاءُ الإبل)).

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٥ ص٣٠٤، بإسناد واهٍ.

سُورَةُ الْحِجْرِ

سُورَةُ الْحِجْرِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ آيَـةً بـلاَ خِـلاَفٍ، وَأَلْفَـانِ وَسَبْعُمِائَةٍ وَسِتُّونَ حَرْفاً، وَسِتُّمِائَةٍ وَأَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ كَلِمَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُ الر، ومعنَى (تِلْـكَ آيَـاتُ الْكِتَابِ) أي هذه آياتُ الكتاب الذي وعدتُ إنزالَهُ عليـكَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ ﴾ أي مبيِّنٌ للحلال والحرام، مميِّزٌ بين الحقِّ والباطلِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ﴾ ؛ أي ربَّما يأتِي على الكفار يوم يتمَنَّون أن لو كانوا مُسـلمين، وذلـكَ في الآخـرةِ إذا صـارَ المسلمون إلى الجنَّة والكفارُ إلى النار.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ اللهَ تَعَالَى إذا أدْخَلَ أهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّـةَ وَأهْـلَ النَّـار النَّارَ، احْبسَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الصِّرَاطِ، فَيَقُولُ الْمُنَافِقُونَ لَـهُمْ: نَحْنُ حُبسْنَا بكُفْرِنَا وَنِفَاقِنَا، فَمَا نَفَعَكُمْ إيْمَانُكُمْ بمُحَمَّدٍ؟ فَعِنْدَ ذلِكَ يَصِيحُـونَ صَيْحَـةً لَمَّا عَيَّرَهُمُ الْمُنَافِقُونَ، فَيَسْمَعُهَا أهْلُ الْجَنَّةِ، فَيَقُومُونَ إلَى آدَمَ ثُـمَّ إلَى إبْرَاهِيـمَ، ثُـمَّ إلَى مُوسَى، ثُمَّ إلَى عِيسَى يَطْلُبُونَ الشَّفَاعَةَ لَهُمْ، فَيُحِيلُونَهُمْ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَيَشْفَعُ لَهُمْ، وَذلِكَ هُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ، فَيُدْخِلُهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ، فَإذا نَظَرَ الْمُنَافِقُونَ إلَيْـهِمْ تَمَنَّـوا أنْ لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ ﴾ ؛ أي اترُكـهم يـا مُحَمَّد يأكُلوا في الدُّنيا كالأنعامِ، ويتلذذُوا قَليلاً، ويُشغِلْهم الأملُ الطويـل عـن طاعـةِ الله، ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣ ﴾ ، فسيعلمون ماذا ينْزلُ بهم من العذاب، وعن رسـول

اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: [إنَّ أخْوَفَ مَا أخَافُ عَلَى أمَّتِي شَيْئَين: طُولَ الأَمَلِ وَاتِّبَاعَ الْـهَوَى، فَأمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ، وَأمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ](١).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي أجلٌ ينتهون إليه لا يُهلِكُهم اللهُ حتى ينتهون إليه، لا يهلِكُ أمَّة قبل أجلِها الذي كتبَ لها، ولا تؤخَّرُ عن أجلِها طرفةَ عين، فلا يفترُ هؤلاء الكفار بتأخيرِ وقت إهلاكهم، فإنه إذا جاءَ الوقتُ الذي كتبَ اللهُ هلاكَهم فيه، لم يتأخَّروا عنه كما لا يتقدمون عليه.

وفي هذا بيانُ أنه لا يموتُ أحدٌ ولا يقتَلُ إلاّ لأجَلهِ الذي جعلَهُ الله له، ولا يعترضُ على هذا بقول مَن قالَ: يجبُ أن لا يكون القاتلُ ظالماً للمقتول؛ لأنه لو لم يقتلْهُ كان يموتُ في ذلكَ الوقتِ! قُلنا: كان يموتُ من غير ألَمِ القتلِ، فكان القاتلُ بإيصال ذلك الألَمِ إليه ظَالماً له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي قالَ الكفارُ مِن أهلِ مكَّة وهم: عبدُالله بن أمَيَة المخزومي وأصحابهُ؛ قالوا للنبيِّ ﷺ: يا أيُّها الذي نزلَ عليه الذِّكرُ في دعواهُ وفي زعمهِ إنَّكَ لَمجنون في دعواكَ أنه نَزَلَ عليكَ هذا. فإنَّهم كانوا لا يُقِرُّونَ بأن القرآنَ أنزلَ عليه، وقولهُ تعالى: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾؛ أي هَلاَّ تأتِينَا بالملائكةِ من السَّماء يشهَدُون أنَّكَ رسولُ اللهِ، ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾؛ فيما تدَّعي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾؛ جوابٌ من اللهِ لَهم يقولُ: ما تُنَزَّلُ الملائكةُ من السَّماء إلا بالرِّسالةِ والعقاب والموتِ، كلُّ ذلك حقٌّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي وما كانوا إذاً مؤَجَّلين إذا نزلت عليهم الملائكةُ، بل يُستَأصَلُونَ بالعذاب حينئذٍ، إلا مَن يكون له المعلومُ من حالهِ أنه يؤمنُ.

---

(١) في كنز العمال: الحديث (٤٣٧٦٤) عزاه المتقي الهندي إلى ابن النجار عن جابر، وابن عساكر عن علي موقوفاً، وقال: فيه يحيى بن مسلمة حدَّث بالمناكير. والحديث (٤٣٧٦٥) عزاه إلى الحاكم في تاريخه والديلمي عن جابر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ؛ الذي جعلناهُ مُعجِزاً لا يقدرُ على الإتيان بمثلهِ، فهو محفوظٌ من الزِّيادة والنقصان، ويقال: هو محفوظٌ من كَيْدِ المشركين بالإبطال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ ؛ أي ولقد أرسَلنا رسُلاً من قبلِكَ في الأُمَم الأوَّلين، والشِّيَعُ: جمعُ شِيعَةٍ، والشِّيعَةُ: الأُمَّةُ والفِرقَةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ ؛ في إنكار التوحيد والبعثِ، كما يفعلُ بكَ قومُكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ؛ بأن تُسمِعَهم ويُفهِمَهم ثم لا يؤمنون بهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: كذلك نسلكُ الاستهزاءَ في قلوب الْمُجرمين حتى يَمتَنِعُوا عنه. والسَّلْكُ: إدخالُ الشيءِ في الشيء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ بعذاب الاستئصالِ عندَ مُعاندَتِهم في التكذيب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ ؛ أي لو فَتَحنا على هؤلاءِ الكفار بَاباً من السَّماء ينظُرون إليه، فظَلُّوا يصعَدُون إليه وينْزِلُونَ عنه، لَم يؤمنوا وقالُوا: (إنَّمَا سُكِّرَتْ أبْصَارُنَا) أي غُطِّيَتْ أبصارُنا وأغْشِيَتْ عن حقيقةِ الرُّؤيةِ، ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ ؛ نحن قومٌ قد سُحِرْنَا، وتُخَيَّلُ لنا هذه الأشياءُ على خلافِ حقَائِقِها، كما قالوا حين انشقَّ القمرُ وعاينوهُ: هَذا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ.

ومَن قرأ (سُكِرَتْ) بالتخفيفِ فهو من السُّكْرِ، وقراءةُ التشديدِ؛ لتكثير الفعلِ والمبالغة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ ؛ وهي منازلُ الشَّمسِ والقمر والكواكب التِّسعة، وهي اثنَا عشرَ بُرجاً: أوَّلُها الْحَمَلُ والثورُ إلى آخرها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ ؛ أي زيَّنا السماءَ بالكواكب للناظِرين إليها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ ؛ أي حَفِظْنَا السماءَ أن يدخُلَ فيها شيطانٌ يمكنه الاستماعُ إلى كلامِ الملائكة.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانَتِ الشَّيَاطِينُ لاَ تُحْجَبُ عَنِ السَّموَاتِ كُلِّهَا، وَكَانُواْ يَقْعُدُونَ فِي السَّمَاءِ مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ، فَيَسْتَمِعُونَ إلى مَا هُوَ كَائِنٌ فِي الأَرْضِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، فَيَنْزِلُونَ بِهِ عَلَى كَهَنَتِهِمْ، فَيَتَكَلَّمُ بهِ الْكَهَنَةُ لِلنَّاسِ، حَتَّى بُعِثَ عِيسَى ﷺ فَمُنِعُواْ مِنْ ثَلاَثِ سَمَوَاتٍ، وَكَانُوا يَصْعَدُونَ إلَى أرْبَعِ سَمَوَاتٍ إلَى أنْ بَعَثَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمُنِعُواْ مِنَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَحُرِسَتِ السَّمَاءُ بِالنُّجُومِ وَالْمَلاَئِكَةِ، فَمَا مِنْهُمْ أحَدٌ يُرِيدُ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ إلاَّ رُمِيَ بشِهَابٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِي عَلَى نَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْبَلُ)[١]. فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي نجمٌ مُضِيءٌ حارٌّ يتوقدُ لا يخطؤهُ، والشِّهَابُ: هو الكوكبُ الْمُنْقَضُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾؛ أي بسطناها، ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾؛ أي جبَالاً ثوابتَ أوتاداً لها، ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا ﴾؛ أي في الجبال، ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾؛ من كلِّ ما يوزَنُ مثل الذهب والفضة والحديد والصُّفر والنُّحاس والرصاصِ. ويجوز أن يكون المعنى: وأنبَتْنَا في الأرضِ من كلِّ شيءٍ من النباتِ والثمار مقدورٍ مقسومٍ لا يجاوزُ ما قَدَّرَهُ اللهُ على ما تقتضيه الحكمةُ. وأما تخصيصُ الموزون فلأنَّ ما يُكَالُ من الحبوب يعاقبهُ الوزن أيضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ﴾ أي جعلنا لكم في الأرض معايشَ مما تأكُلون وتشربُون وتلبَسون، وقولُهُ تعالى: ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي وجَعلنا لِمَن لستُمْ له برَازِقِينَ معايشَ من الدواب وغيرِها، وجاءت (مَنْ) لغيرِ الناس كقوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾[٢] الآيةُ. وَقِيْلَ: المعنى: وجعَلنا لكم مَن لستُم له برَازِقين، كأنه قال: جعلنا لكم فيها معايشَ، وجعلنا لكُم العبيدَ والدوابَّ، وكفيناكُم مُؤْنَةَ أرزَاقِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾؛ أي ما مِن شيءٍ تحتاجون إليه من النَّباتِ والثمار والأمطار، إلاّ ومفاتيحَهُ إلَينا وهو في مَقدُورنا. قَوْلُهُ

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص١٠؛ نقله القرطبي عن الكلبي عن ابن عباس.
(٢) النور / ٤٥ .

تَعَالَى: ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي ما نُنَزِّلُ الرزقَ والمطرَ إلا بمقدارٍ معلومٍ تقتضِي الحكمةُ إنزالَهُ، ويعلمُ الْخُزَّانُ مقاديرَهُ، كما رُوي في الخبرِ: [مَعَ كُلِّ قَطْرَةٍ مَلَكٌ يَضَعُهَا فِي مَوْضِعِهَا، إلاَّ يَوْمَ الطُّوفَانِ فَإِنَّــهُ طَغَـى الْمَـاءُ يَوْمَئِـذٍ عَلَـى خُزَّانِهِ، فَلَمْ يَحْفَظُوا مَا خَرَجَ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ][1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ ؛ أي ذاتَ لُقَـاحٍ تـأْتِي بالسَّـحاب وتُلْقِحُ الشَّجرَ، فالريحُ هي الْمُلَقِّحَةُ للسَّحاب؛ أي الْمُحَمِّلَةُ للسحاب المطرَ، قال ابـنُ مسعود: (يَبْعَثُ اللهُ الرِّيحَ فَتَلْقَحُ السَّحَابَ، ثُمَّ تَمُرُّ بــهِ فَيَـدِرُّ كَمَـا تُـدِرُّ النَّعْجَـةُ، ثُـمَّ يُمْطِرُ)، وعنهُ أيضاً قال: (خَلَقَ اللهُ الْمَاءَ فِي الرِّيحِ فَتُفرِغُهُ الرِّيحُ فِي السَّحَابِ ثُمَّ تَمُرُّ بِهِ)[2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ ﴾ ؛ يعني المطرَ، ﴿ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي لستُم لذلك الماءِ بخَازنِينَ ولا مفاتيحهُ بأيدِيكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي نُحيي بالبعثِ في الآخرة، ونُميتُ في الدنيا ونحن الوارثون لِمَا في السَّـموات والأرضِ بعـدَ موتِ أهلها، ومعنى الإرْثِ: الخلائقُ كلُّهم يَموتُونَ ولا يبقَى إلا اللهُ عَزَّ وَجَــلَّ، ومـا يبقَى للحيِّ بعد الميْت يُسمَّى مِيرَاثاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي علِمْنَا الأوَّلين منكم وعلِمْنا الآخِريــن، وَقِيْـلَ: ولقـد علِمْنـا السَّـابقين منكـم إلى الطاعةِ، ولقد علمنا المتأخِّرين عن الطاعةِ.

وعن ابنِ عبَّاس قال: (كَانَتِ امْرَأةٌ حَسْنَاءُ تُصَلِّي خَلْفَ رَسُول اللهِ ﷺ فِي آخِرِ النِّسَاءِ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَتَقَدَّمُ فِي الصَّفِّ الأَوَّل لِئَلاَّ يَرَاهَا، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَكُونُ فِي آخِرِ الصَّفِّ، فَإذا رَكَعَ تَقُولُ هَكَذا، وَنَظَرَ إلَيْهَا مِنْ تَحْتِ إبْطِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن الحكم بن عتيبة بلاغاً.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٩٤٦) عن ابن مسعود بأسانيد.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٩٧٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ ؛ أي يجمَعُهم للجزاءِ والحساب، ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ ؛ في أفعالهِ، ﴿ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ بما يستحقُّه كلٌّ واحدٍ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ يعني آدمَ، والصَّلْصَالُ: هو الطِّينُ اليابسُ الذي لَم تُصِبْهُ نارٌ، فإذا ضَرَبْتَهُ صَلَّ؛ أيْ صَوَّتَ، وإذا مَسَّهُ النارُ فهو فَخَّارٌ. والْحَمَأُ: جَمْعُ الْحَمَأةِ، وَهُوَ الطِّينُ الْمُتَغَيِّرُ إلَى السَّوَادِ. والْمَسْنُونُ: مُتَغَيِّرُ الرَّائِحَةِ إلَى النَّتَنِ من قوله ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾(١) وهو الذي أتت عليه السُّنون.

وذلك أن آدمَ كان في الأصلِ تُراباً ثم عُجِنَ ذلك الترابُ بالماءِ فصارَ طِيناً، ثم صارَ حَمَأً مَسْنُوناً ثم صُوِّرَ، وتُركَ مصوَّراً حتى يَبسَ فصارَ صَلْصَالاً، فمكثَ أربعين سنةً ثم صارَ بَشَراً، لَحماً ودماً وعظماً، ثم نُفِخَ فيه الروحُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ قِيْلَ: إن الْجَانَّ أبو الجنِّ وهو إبليسُ، فمَن أسلَمَ من ولدهِ فهو جِنِّيٌّ، ومَن كفرَ فهو شيطانٌ، وقوله تعالى: (مِنْ قَبْلُ) أي من قبل آدمَ، وقال الكلبيُّ: (الْجِنُّ وَلَدُ الْجِنِّ وَلَيْسَ هُوَ بإبْلِيسَ، إنَّمَا إبْلِيسُ أبُو الشَّيَاطِينِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ نَارِ السَّمُومِ) أي مِن نارٍ حارَّة، قال ابنُ مسعود: (سَمُومُكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنَ السَّمُومِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ الْجَانُّ)(٢)، ويقالُ: السَّمُومُ نارٌ صافية لا دخانَ لها، ومِن هذا سُمِّيت الريحُ المحرقة الحارَّة سَموماً. وأما الْمَارِجُ الذي ذكرَهُ الله تعالى في قولهِ ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾(٣) فمعنى الْمَارِجِ ما اختلطَ من لَهَب النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ، ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ ؛ أي جمعتُ خَلقَهُ باليدين

---

(١) البقرة / ٢٥٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٠٠٠). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٢٣٨٢)

(٣) الرحمن / ١٥ .

والرجلين والعينَين وسائرِ الأعضاء، ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ، وأدخلتُ فيه روحاً فصارَ بشراً بعدَ ما كان طِيناً يابساً، ﴿ فَقَعُواْ لَهُۥ ﴾ ؛ على وجُوهِكم، ﴿ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي خاضعين له بالتحيَّة، ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ لآدمَ سجودَ تحيَّة له، وعبادةً للهِ، وقولُهُ تعالى: (أجْمَعُونَ) يدلُّ على اجتماعِهم في السُّجود في حالةٍ واحدة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي امتنعَ من السُّجود لآدمَ، ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ ﴾ ؛ أي كيفَ ينبغي أن أسجُدَ له، وأنا أشرفُ منه أصلاً وهو، ﴿ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ، من طينٍ يتصَلصَلُ مجوَّف محتاجٌ إلى الطعام والشراب، وهو من حَمَأ، والْحَمَأُ ظلمةٌ وسواد، والْمَسْنُونُ من الحمأ مُنْتِنٌ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ اللهُ تعالى: ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ ؛ أي من الجنَّة، وَقِيلَ: من الأرضِ، فألْحقَهُ بجُزُر البحار، ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي مطرودٌ من الرحمةِ، مُبْعَدٌ من الخير، ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ﴾ ؛ مع هذا، ﴿ ٱللَّعْنَةَ ﴾ ؛ لَعْنَةَ اللهِ ولعنةَ الخلائق، ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ يومِ الجزاء وهو يومُ القيامةِ، وهو أوَّلُ من عصَى اللهَ من أهل السَّموات والأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي أجِّلنِي إلى يوم يبعَثُ الخلائقُ، أرادَ الخبيثُ أن لا يذوقَ الموتَ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ اللهُ تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي وقتِ النَّفخَةِ الأُولى حين يُصعَقُ مَن في السمواتِ ومن في الأرض، وبين النفخة الأُولى والثانية أربعون سنةً.

وهذا لم يكن إجابةً من اللهِ لإبليس إلى ما سألَ؛ لأنه لم يكن أجلهُ ما دون آخرِ التكليف ثم أجَّله إليه، ولكن كان في علمِ الله أنه لم يسألْ لكان أجلهُ يمتَدُّ إلى آخرِ التكليف، فيكون هذا جوابَ إهانةٍ لا جواب له.

فلما لم يعطَ الخبيثُ ما سألَ من النَّظْرَةِ، ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ ؛ أي خَيَّبْتَنِي من جنَّتك ورحمتك، ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ لبَنِي آدمَ، ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ من الشهوات واللذاتِ حتى يختارُوها على ما عندَكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ مَن قرأ بكسرِ اللام فمعناه: الذين أخلَصُوا الطاعةَ لكَ، ومَن نصبَها فمعناهُ: الذين أخلَصتَهم لنفسِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي افعَلْ ما شِئْتَ، فإن طريقكَ عليَّ لا تَفوتُني، وهذا تَهديد لإبليسَ، وَقِيْلَ: معناهُ: علَيَّ مَمَرُّ مَنْ أطاعكَ وعلَيَّ مَمَرُّ من عصَاكَ، كما قالَ: ﴿إنَّ رَبَّكَ لَبالْمِرْصَادِ﴾[1]، وَقِيْلَ: معناهُ: إن هذا دينٌ مستقيم عليَّ بيانهُ والهداية إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ ؛ أي لا تقدرُ أن تحمِلَهم على المعصيةِ وتُكرهَهم عليها، ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ، ولكن مَن يتَّبعُكَ فإنما يتَّبعُكَ باختيارهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي لموعِدُ إبليس ومَن تَبعَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾ ؛ بعضُها أسفلَ من بعض، وكلُّ طَبَقٍ منها أشدُّ حرّاً مِن الذي فوقَهُ سبعين ضِعْفاً، والبابُ الأوَّلُ أهونُ حرّاً، ولو أن رجُلاً بالمشرقِ فكُشِفَ عنها بالمغرب لخرجَ دماغهُ من مِنْخَرَيهِ من شدَّة حرِّها.

والطبقُ الأول: جهنَّم، فيه أهلُ القِبلَةِ مِن أهلِ الكبائر إذا ماتوا غيرَ تائبين. الثانِي: لَظَّى، وفيه النَّصارَى. والثالثُ: الْحُطَمَةُ، وفيه اليهودُ. الرابعُ: السَّعِيرُ، وفيه الْمَجُوسُ. الخامسُ: سَقَرُ؛ وفيه المشركين وأهلِ الأهواء المختلفة، السادسُ: الْجَحِيمُ، وفيه الصَّابئُونَ والزنادقةُ، السابعُ: الْهَاويَةُ، وفيه المنافقونَ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي المتَّقين للمعاصي بالإيمان والطَّاعة في بساتينَ وأنْهارٍ ظاهرةٍ تنبُع مثلَ الفَوَّارَاتِ، وتجري بلا أخدودٍ، يقالُ لهم يومَ القيامة: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ ؛ ادخلُوا الجنةَ بسلام؛ أي سلام من الآفَاتِ، وَقِيْلَ: بتحيَّة من اللهِ، ﴿ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ، من كلِّ ما تكرَهُون.

---

(١) الفجر / ١٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ ؛ أي نزَعنا ما في صدور أهل الجنَّة من أسباب العداوةِ من الحقد والحسَدِ والتباغُض، ﴿ إِخْوَانًا ﴾ ؛ أي حتى يصيروا بمنْزلة الإخوان، ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ ﴾ ؛ من ذهبٍ، ﴿ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ في الزيادةِ تسيرُ بهم سُرُرُهم في الجِنَان، بعضُها إلى بعض، والسُّرُرُ جمع سَرير. وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه قالَ: (إنِّي لأَرْجُو أنْ أكُونَ أنَا وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابلِينَ))[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ ؛ أي لا يُتعِبُون أنفسَهم في طلب العيش، ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ ولا يخافون الإخراجَ منها أبداً، شبابٌ لا يَهرَمُون؛ أصحاءٌ لا يَسقَمُون؛ أحياءٌ لا يموتون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي أخبرْ عِبادي أنِّي أنا الغفورُ لذنوب مَن تابَ، الرحيمُ لِمَن ماتَ على التوبةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ لِمَن استحقَّهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي أخبرهُم عن أضيافِ إبراهيمَ وهم الملائكةُ، إلاّ أنه قالَ (عن ضَيْفِ) لأن الضيفَ مصدرٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي قالَ لهم إبراهيم حين لم يَطعَمُوا من طَعَامِهِ: إنَّا منكم فَزِعُونَ، والوَجَلُ: هو الفزعُ، ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ ﴾ ؛ أي لا تَخَفْ، ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ بمولودٍ إذا وُلِد كان غُلاماً، وإذا بَلَغَ كان عَليماً، ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾ ؛ بالولدِ، ﴿ عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾ ؛ بالشَّيب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ قالَ هذا على جهة التعجُّب. وَقِيْلَ: أراد فتُبشِّرون بهذا من عندِ الله، أو من تلقاءِ أنفُسِكم. ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي بأمرِ الله، فإنَّ أمرَ اللهِ لا يكون إلا حقّاً، ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٠٢٦ و١٦٠٢٨ و١٦٠٢٩).

﴿ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ من رحمةِ الله، ثم ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لَهم: كيف أقنطُ من رحمةِ الله، ﴿ وَمَن يَقْنَطُ ﴾ ؛ منها، ﴿ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي ما شأنُكم أيُّها المرسَلون؛ لأنَّهم رسُل اللهِ، ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ ﴾ ؛ أي لهلاكِ، ﴿ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ وهم قومُ لوطٍ.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ ؛ أي إلاّ خاصَّةَ الذين آمَنوا به، ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ من الهلاكِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ استثناءٌ من الهاءِ والميم، وكانت امرأتُه منافقةً واسمها وَاعِلَة، فقُدِّرَ عليها الهلاكُ، والغابرُون هم الباقون في موضعِ العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي لما جاءَ الملائكةُ آلَ لوطٍ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لهم لوطُ: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ وإنما قالَ لهم ذلك؛ لأنَّهم جاؤهُ على هيئةٍ وجَمال لم يكن قد شاهدَ مِثلَهم في الجمال، وكان يعلمُ طلبَ قومه لأمثالهم، فخافَ عليهم منهُم فقال: إنَّكم قومٌ أنْكِرُ مجيئَكم إلَيَّ في هذه الديار[1] ﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي بالعذاب الذي يكونُ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ بأمرِ من اللهِ، ﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ في ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ ؛ أي ببَعضٍ من اللَّيلِ عند السَّحَر، ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ ؛ أي كُن فيمَن يسيرُ خلفَهم؛ كي لا ينالَهم العذابُ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي لا يتخلفْ في موضعِ الهلاك، وَقِيْلَ: لا يلتفِتْ إلى شيءٍ يخلِّفهُ؛ أي لا يعرِجْ على شيءٍ، ﴿ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ بالمضيِّ إليه وهو صفد[2] .

---

(١) في المخطوط: (هذه الدثار) وهو تصحيف.

(٢) صَفَد: قرية من قرى لوط. قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ ؛ أي وأوحَينا إليه ذلك الأمرَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ ﴾ ؛ في موضعِ نصبٍ بدل مِن قوله (ذلِكَ الأَمْرَ)، وَقِيْلَ: في موضع خفضٍ؛ لأن المعنى بأنَّ دابرَ هؤلاءِ مقطوعٌ، وقَطْعُ الدَّابرِ هو الإتيان على آخرهم بالهلاكِ حتى لا يبقَى منهم أحدٌ. وقولهُ تعالى: ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي مُستَأصَلون عندَ الصَّباح، ولا يبقَى لهم نسلٌ ولا عَقِبٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي أهلُ مدينة قومِ لوط وهي سَدُوم، يبَشِّرُ بعضُهم بعضاً بأضيافِ لوط لعمَلِهم الخبيثِ، فإنَّهم كانوا يُجَاهِرُونَ بهذه الفاحشةِ، وقال لَهم لوطُ: ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ؛ في الحرامِ، ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ ولا تُذِلُّون في أمري، ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي عن ضيافةِ الغُرباء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ ﴾ ؛ أزَوِّجُكُموهُنَّ، ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ ؛ لا بدَّ، ﴿ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ مثلَ هذا الفعلِ، وذلك أنه لم يَجِدْ ما يتَّقِي به أضيافَهُ أبلغَ من عَرضِ بناته عليهم للتزويجِ، وافتداءِ ضَيفِه ببناتهِ في الشَّفاعة، وقد كان عَلِمَ أنَّهم لا يرغبون في التزويجِ. وَقِيْلَ: أرادَ بقولهِ (بَنَاتِي) بناتِ قَومِي؛ لأن نساءَ أمَّة كلِّ نبيٍّ بمنْزلةِ بناتهِ في نفقته عليهنَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ هذا قسَمٌ بحياةِ نبيِّنا مُحَمَّد ﷺ، ولم يُقسِمْ بحياةِ أحَدٍ غيرِه، تقديرهُ: لعَمرُكَ قَسَمِي، إلاَّ أنه حُذفَ الخبرَ، وجوابهُ: إنَّهم لَفِي غَفلَتِهم يتحيَّرون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي وقتَ الإشراق، وذلك أنَّ الملائكةَ قلَعُوا مَدائِنَهم وقتَ الصُّبح، فرفعُوها إلى قريبٍ من السَّماء، ثم قلَبُوها عند طلوعِ الشمس، وصاحَ بهم جبريلُ حينئذٍ، ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ ، وقد تقدَّم تفسيرُ باقي الآيةِ في سُورة هودٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي في إهلاكِ قومِ لوط لآياتٍ للمتفرِّسين، والمتوسِّمُون هم النُّظَّارُ المثبتون في نَظَرِهم حتى يعرفوا حقيقةَ السِّمَةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ قَرياتِ قومِ لوط

لبطَريقٍ واضحٍ ولا يندرسُ ولا يَخفَى على طريقِ قُومِكَ إلى الشَّام، والمعنى أن الاعتبارَ بها ممكنٌ. وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي لدلالةً للمؤمنين الذين يصدِّقون بذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي وقد كان أصحابُ الأَيْكَةِ وهو قومُ شُعَيبٍ لَظَالمين بكُفرِهم، والأَيْكَةُ: الشَّجرُ الملتف الكبيرُ، وكان شُعيب بُعِثَ إلى قَومَين، إلى أهلِ مدينَ كانوا يطفِّفون الكيلَ والوزنَ فأُهلِكوا بالصَّيحة، وبُعث إلى أصحاب الأيكةِ فأُهلِكُوا بالظُّلَّةِ.

ويقالُ: إن مَدينَ والأيكة واحدٌ، كانت الأيكةُ عند مِدين، فخرَجُوا من مدين إليها يطلبون الرُّوح عندَها، فأخذهم عذابُ يوم الظُّلةِ، واضطرمَ المكانُ عليهم ناراً فهلَكوا عن آخرهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي بالعذاب، ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي إن قريَات لُوطٍ ومواضعِ شُعيب لعلَى طريقٍ مُبين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أي ولقد كذبَ قومُ صالحٍ ومَن تقدَّم من المرسَلين، والْحِجْرُ ديارُ ثَمُودٍ، وإنما سُمُّوا أصحابَ الحجرِ؛ لأن الحجرَ اسمٌ لوادٍ كانوا يسكُنون عندَهُ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ ؛ يريدُ الناقةَ، ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

قوله: ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ أي يَنقُبُونَ بيوتَهم في الجبال آمِنِينَ من الموتِ لطُول أعمارهم، وقِيْلَ: من الحرِّ وسقُوطِ السَّقفِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ أي وقتَ الصُّبح صاحَ بهم جبريلُ فهلَكوا، ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم ﴾ ؛ من عذاب الله، ﴿ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ من الأموال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ؛ أي للحقِّ وإظهار الحق لم نخلُقهما عَبَثاً، ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ ؛ يعني القيامةَ لِمُجازَاةِ الناسِ كلِّهم، ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي أعرضْ عن مُجازَاةِ المشركين وعن مجاوبَتِهم، فإنَّ مجاوبةَ السَّفيه سَفَهٌ، قال مجاهدُ: (هَذا مَنْسُوخٌ بآيَةِ

الْقِتَال). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي الخالقُ للإنسان، العالِمُ بتدبيرِ خَلقِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي أكرَمناكَ يا مُحَمَّدُ بسبعٍ من الْمَثَانِي، قِيْلَ: هي السبعُ الطِّوالُ، وهي السورُ السبع من أوَّلِ البقرةِ إلى الأنفالِ والتوبةِ، وهما جميعاً سورةٌ واحدة، وسُميت هذه السورةُ مَثَانِيَ؛ لأنَّهُ ثُنِّي فيها الأقاصيصَ، والأمر والنهيَ، والوعيد، والْمُحكَمَ، والمتشابهَ.

وقال ابنُ عبَّاس: (السَّبْعُ الْمَثَانِي فَاتِحَةُ الْكِتَاب)[١] هكذا رُوي عن رسول الله ﷺ، حيث قال: [مَا أنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ وَالزَّبُور مِثْلَ فَاتِحَةِ الْكِتَاب، وَإنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي][٢].

وإنما سُمِّيت هذه السورةُ مَثَانِيَ؛ لأنَّها تُثْنَى في كلِّ صلاةٍ. وإنما خَصَّ هذه السورةَ من جُملةِ القرآن تَعظيماً لها؛ لأن كمالَ الصلاةِ متعلِّقٌ بها، كما خصَّ جبريلَ وميكائيل من جُملة الملائكةِ تَعظيماً لهما. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) أي وآتيناكَ القرآنَ العظيمَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي لا تَنْظُرَنَّ بعَينِ الرَّغبةِ إلى ما أعطَينا من الأموال رجَالاً من بني قُريظة والنَّضير وغيرهم من قُريش، فإنَّ ما نُعطيكَ من النبوَّةِ والقرآن أعظَمُ مما أعطَيناهم من الأموال، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ بما أنعمْنا عليهم من ما لَم نُنعِمْ به عليكَ.

ويقالُ: لا تحزَنْ على هلاكِهم إن لَم يُؤمِنوا، وهذا القولُ أقربُ؛ لأن النبيَّ ﷺ كان لا يجوزُ أن يَحْسِدَ أحداً بما أنعمَ اللهُ به عليهِ من نَعيم الدُّنيا، وإنما كان يحزنُ على إصرارهم على الكُفرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦١٠٣ و١٦١٠٤) عن ابن مسعود ﷺ، والأثر (١٦١٠٥) عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٦١٣١). والترمذي في الجامع الصحيح: أبواب التفسير: الحديث (٣١٢٥)، وفي أبواب فضائل القرآن: الحديث (٢٨٧٥)، وقال: حسن صحيح.

تواضَعْ، وألِنْ جناحَكَ للمؤمِنين؛ لكي يتَّبعْكَ الناسُ على دِينِكَ، ولا ينفِرُوا من عندِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ أي الْمُعَلِّمُ بموضعِ المخافة، الْمُبينُ لكم بلُغةٍ تصدِّقونَها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى)[1]. سَمَّاهم مُقتَسِمِينَ؛ لأنَّهم اقتَسَموا كُتُبَ اللهِ تعالى، فآمَنُوا ببعضِها وكَفَرُوا ببعضِها، وهُمُ، ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي فرَّقوهُ فآمَنُوا ببعضهِ وهو ما وافقَ دينَهم، وكفَرُوا ببعضهِ وهو ما خالفَ دينهم،

وقال بعضُهم: رهطٌ من أهلِ مكَّة، قال مقاتلُ: (سِتَّةَ عَشَرَ رَجُلاً بَعَثَهُمُ الْوَلِيدُ ابْنُ الْمُغِيرَةِ أَيَّامَ الْمَوْسِمِ، فَاقْتَسَمُوا الأَعْقَابَ[2]، وَقَعَدُوا عَلَى طَرِيقِهَا، فَإذا جَاءَ الْحُجَّاجُ قَالَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ: لاَ تَغْتَرُّوا بهَذا الْخَارِجِ مِنَّا الْمُدَّعِي النُّبُوَّةَ فَإنَّهُ مَجْنُونٌ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى عَلَى طَرِيقٍ أُخْرَى: إنَّهُ كَاهِنٌ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: شَاعِرٌ، وَالْوَلِيدُ قَاعِدٌ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ نَصَّبُوهُ حَكَماً، فَإذا سُئِلَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: صَدَقَ أُولَئِكَ يَعْنِي الْمُقْتَسِمِينَ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) هم هؤلاءِ المقتَسِمين جزَّءُوا القرآنَ، فقالَ بعضُهم: سحرٌ، وقال بعضهم: كَذِبٌ، وقال بعضُهم: شِعرٌ، وقال بعضُهم: أساطيرُ الأوَّلين، وقال بعضُهم: مُفترَى. ومعنى التَّعْضِيَةِ: التفريقُ، يقالُ: عَضَيْتُ الشيءَ إذا فرَّقتَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ أي في الآخرةِ، ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ مِن تفريقِ القرآن، وصَرفِهم الناسَ عن دينِ مُحَمَّد ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: سورة الحجر: الحديث (٤٧٠٥ و٤٧٠٦) عن ابن عباس قال: ((آمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى)).

(٢) الأعقاب: ما بعد مكة من الطرق يفد منها الناس.

(٣) تفسير مقاتل: ج ٢ ص٢١١، وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٥٨.

وعن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ وفي هذهِ الآية قالَ: [فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ قَوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ](١) وَقَالَ عبدُالله: (وَالَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ وَيَسْأَلُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَاذا عَمِلْتَ ؟ يَا ابْنَ آدَمَ مَاذا أَجَبْتَ الْمُرْسَلِينَ)(٢).

واعترضت الْمُلْحِدَةُ على هذه الآيةِ، وعلى قولهِ تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾(٣) وحكَمُوا عليهم بالتناقُضِ!

والجوابُ: إنه لا يقالُ لهم هل عملتم(٤) كذا؛ لأنه أعلَمُ بذلكَ منهم، ولكن نقولُ لَهم: لِمَ عملتم كذا، وقال قطربُ: (السُّؤَالُ عَلَى ضَرْبَيْنِ: سُؤَالُ اسْتِعْلاَمٍ وَاسْتِخْبَار، وَسُؤَالُ تَقْرِير وَتَوْبِيخٍ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ يَعْنِي لاَ يَسْأَلُهُمْ سُؤَالَ اسْتِخْبَار؛ لأَنَّهُ عَالِمٌ قَبْلَ أنْ يَخْلِقَهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) سُؤَالُ تَقْرِيرٍ وَتَقْرِيعٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي أظهرْ أمرَكَ بمكَّة واترُكهم حتى يجيءَ أمرُ الله بقتالهم، وكان ﷺ مُستَخفياً بمكَّة قبلَ نزول هذه الآيةِ، لا يظهرُ شيئاً مما أنزلَ الله عليه، فلما نزلت هذه الآيةُ أظهرَ النبيُّ ﷺ أمرَهُ وأعلنه بمكَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ بك، ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ وهم خمسةُ نَفرٍ أهلكَهم اللهُ في يومٍ واحد، منهم العاصُ بن وائلٍ، نزلَ شِعباً من ذلكَ الشِّعاب، فلمَّا وضعَ قدمَهُ على الأرضِ قال: لُدِغْتُ، فطلَبُوا فلم يجدوا شيئاً، فانتفخَت رجلهُ حتى صارَت مثل عنقِ البعيرِ فماتَ مكانَهُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٦١٦٢). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣١٢٦) وضعفه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦١٦٥).

(٣) الرحمن / ٣٩ .

(٤) في المخطوط: (علمتم) وهو تحريف، والصحيح كما أثبتناه؛ لأنه مقتضى السياق.

ومنهم الحارثُ بن قيسٍ أكلَ حُوتاً مالحاً فأصابَهُ عطشٌ شديد فلم يزل يشربُ حتى انقدَّ مكانه فماتَ.

ومنهم الأسودُ بن عبدِالمطلب بن الحارث، قعدَ إلى أصل شجرةٍ، فجعلَ جبريل يضربُ رأسَهُ على الشَّجرة حتى ماتَ، وكان يستغيثُ بغُلامهِ، فقال غلامهُ: لا أرَى أحداً صنعَ بكَ شيئاً غيرَ نفسِكَ.

ومنهم الأسودُ بن عبدِ يَغوث خرجَ من أهلهِ فأصابه السَّمُومُ فاسودَّ حتى صارَ حَبَناً[(١)]، وأتى أهلَهُ فلم يعرفوهُ فأغلقوا دونه البابَ حتى ماتَ.

ومنهم الوليدُ بن المغيرةِ خرجَ يتبَختَرُ في مِشْيَتِهِ حتى وقفَ على رجُلٍ يعملُ السِّهامَ، فتعلَّقَ سهمٌ بثوبهِ فجعل رداءَهُ على كَتِفِهِ فأصابَ السهمُ أكحلَهُ فقطعه، ثم لَم ينقطعْ عنه الدمُ حتى ماتَ، فذلك قوله (إنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) أي بكَ وبالقرآن[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ أي ولقَدْ نعلمُ يا مُحَمَّد أنَّكَ يضيقُ صدرُكَ بما يقولون من التكذيب بأنَّكَ شاعرٌ وساحر وكاهن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي فصَلِّ بأمرِ ربكَ، واحمدْهُ بالثَّناءِ عليه، ﴿ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ أي مِنَ العابدين لله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ أي استقِمْ على عبادةِ ربكَ وطاعتهِ حتى يأتيكَ الموتُ، سَمَّاهُ يَقيناً؛ لأنه مُوقِنٌ به.

وعن رسول الله ﷺ: [مَا أُوْحِيَ إلَيَّ أنْ أجْمَعَ الْمَالَ وَأكُونَ مِنَ التَّاجِرِينَ، وَلَكِنْ أُوْحِيَ إلَيَّ أنْ أُسَبحَ بحَمْدِ رَبي وَأكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ][(٣)]، وقال الضحَّاكُ:

---

(١) الْحَبَنُ: انتفاخُ البطنِ من داء.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٦١٧٦-١٦١٧٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ج ٢ ص١٣١ عن أبي مسلم الخولاني مرسلاً. وفي الدر المنثور: ج ٤ ص١٠٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم في التاريخ وابن مردويه والديلمي عن أبي مسلم الخولاني)). والبغوي في معالم التنزيل رواه بسنده عنه أيضاً موصولاً عن جبير بن نفير ﷺ.

(مَعْنَى قَوْلِهِ (فَسَبحْ بِحَمْدِ رَبكَ) أيْ قُلْ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، (وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) أيِ الْمُصَلِّينَ، فكَانَ ﷺإذا حَزَّ بهِ أمْرٌ فَزِعَ إلَى الصَّلاَةِ)[١].

وعن أبَي بن كعبٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : [مَـنْ قَـرَأَ سُـورَةَ الْحِجْـرِ كَـانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَـنَاتٍ بعَـدَدِ الْمُـهَاجِرِينَ وَالأَنْصَـار، وَبعَـدَدِ الْمُسْـتَهْزِئِينَ برَسُـولِ اللهِ ﷺ][٢].

آخر تفسير سورة (الحِجر) والحمد لله رب العالمين

(١) علقه ابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٠٨٢. والبغوي في معالم التنزيل: ص٧٠٤.

(٢) تقدم.

سُورَةُ النَّحْلِ

سُورَةُ النَّحْلِ مَكِّيَّةٌ[١]، وَهِيَ سَبْعَةُ آلاَفٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَسَبْعَةُ أحْرُفٍ، وَألْفَانِ وَثَمَانُمِائَةٍ وَأرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَمِائَةٌ وَثَمَان وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا لَمْ يُحَاسِبْهُ اللهُ بالنَّعِيمِ الَّذِي أنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا][٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾[٣] قَالَ الْكُفَّارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إنْ يَزْعُمْ أنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَرُبَتْ، فَأَمْسِكُوا عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ حَتَّى نَنْظُرَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَمَّا رَأوا أنَّهُ لاَ يُنْزِلُ شَيْئاً قَالُوا: مَا نَرَى شَيْئاً، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾[٤]، فَانْتَظَرُوا قُرْبَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا امْتَدَّتِ الأَيَّامُ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ مَا نَرَى شَيْئاً تُخَوِّفُنَا بِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أتَى أمْرُ اللهِ﴾ فَوَثَبَ النَّبِيُّ ﷺ لاَ يَشُكُّ أنَّ الْعَذابَ قَدْ أتَى، فَقَالَ اللهُ ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يَعْنِي الْعَذابَ، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ)[٥].

---

(١) في التفسير: ج ٢ ص٢١٣؛ قال مقاتل بن سليمان: ((مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا غَيْرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإنْ عَاقَبْتُمْ﴾ [الآية ١٢٦-١٢٨ آخر السورة]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ [الآية/ ١١٠]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَفَرَ باللهِ بَعْدَ إيْمَانِهِ...﴾ [الآية / ١٠٦] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا...﴾ [الآية/ ٤١]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً...﴾ [الآية / ١١٢]. فَإنَّ هَذِهِ الآيَاتِ مَدَنِيَّاتٌ)) واختلفوا في ذلك، واتفقوا على أنها تسمى سورة النعَمِ بسبب ما عُدِّدَ فيها من النعم.

(٢) ذكره الزيلعي في (تخريج أحاديث الكشاف) وعزاه للثعلبي عن أبي أمامة عن أبي بن كعب. وابن مردويه والواحدي في الوسيط. وهو حديث لا يصح.

(٣) القمر / ١ .   (٤) الأنبياء / ١.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦١٩٦) من طريق ابن جريج مختصراً.

وأما ذِكرُ لفظِ الإتيان في هذا؛ فلأنَّ أمرَ اللهِ في القُرب بمنْزلَةِ ما قـد أتـى، كما قالَ تعـالى: ﴿وَمَا أمْـرُ السَّـاعَةِ إلاَّ كَلَمْـحِ الْبَصَـرِ أوْ هُـوَ أقْـرَبُ﴾[١]. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾ ؛ أي تنزيهاً له تعالى بصفات المدحِ عمَّا يشركون بهِ من الأصنامِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ ؛ أي يـنَزِّلُ الملائكـةَ بالوحي، ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ ؛ قرأ الأعمـشُ (يَـنْزِلُ) بفتـح اليـاء وجـزم النون وكسرِ الزَّاي، قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي بالْمَلاَئِكَةِ جِبْرِيلَ وَحْدَهُ)، ويسمَّى الوحيُ رُوحاً؛ لأنَّهُ تَحْيَا به القلوبُ والحقُّ، ويموتُ الكفرُ والباطلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ ؛ أي أنْ أعلِمُوا بالتَّخويفِ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ، ﴿فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ ؛ أي فـاتَّقوا المعـاصيَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (أنْ أنذِرُوا) في موضعِ النصب بنَزعِ الخافضِ؛ أي بأنْ أنذِرُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ؛ أي ليُستَدَلَّ بهما علـى توحيدِ الله، وليُعمَلَ بالحقِّ، ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾ ؛ مِن أن يكون لـه شريكٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَ فِي أبَيِّ بْنِ خَلَفِ الْجُمَحِيِّ حِينَ قَالَ ﴿مَنْ يُحْـيِ الْعِظَـامَ وَهِـيَ رَمِيمٌ﴾[٢]). والمعنى: خلَقَ الإنسانَ من نُطفَةٍ مُنْتِنَةٍ وأنعمَ عليه حَـالاً بعـد حـالٍ إلى أن أبلغَهُ الحالةَ التي تخاصِمُ عن نفسهِ، فيُنكِرُ إعادتَهُ بعد موتهِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ ؛ أي وخلَـقَ لكـم الأنعـامَ، وهـي ذواتُ الْحِقَافِ والأظْلاَفِ دون الحوَافِرِ. وقولهُ تعـالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ ؛ أي ما يُدَفِّيكُمْ من أصوافِها وأوبَارها من الأكْسِيَةِ ونحوها، ومِن القَلاَنِـسِ واللُّحَـافِ، ومنافعُ أخَرَ من ألبانِها ونَسْلِها، والرُّكـوب والحمـل عليـها، والفُـرُشِ والبيـوت مـن أصوافِها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ ؛ يعني لُحومَها.

---

(١) النحل / ٧٧ .

(٢) يس / ٧٨ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي ولكم فيها منظرٌ حَسَنٌ، يقالُ: هـذه مَوَاشِـي فـلان، فيكـون لـه في ذلـك جمالٌ، قـال قتادة: (وَذلِكَ أعْجَبُ مَا يَكُونُ إذا رَاحَتْ عِظَاماً ضُرُوعُهَا طِوَالاً أسْنِمَتُهَا)[١]، وقولُـهُ تعالى: (حِينَ تُرِيحُونَ) أي حين تُريحونَها في العَشِيِّ مِن مراعيها إلى مَبَارِكِهَا التي تَـأْوي إليها، (وَحِينَ تَسْرَحُونَ) أي تَخرُجون بها بالغَدَاةِ من مَرَاحِهَا إلى مَسَارحِهَا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾ ؛ أرادَ به الإبلَ تحملُ أمتِعتَكم وزادَكم، وما يَثْقُلُ عليكم إلى بلدٍ قصدتُموه للحجِّ إلى مكَّة، أو تجارةٍ إلى سائر البُلدان، لولاَ الإبلُ لكان لا يمكِنُكم بلوغُ تلكَ البلدِ إلا بجَـهْدٍ ومشَـقَّة. وقولُـهُ تعـالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي مُتَفَضِّلٌ مُنْعِمٌ عليكم.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ ؛ أي وخلَـقَ لكم الخيلَ والبغالَ والحميرَ؛ لتَركَبوهـا وتـتزَيَّنوا بـها زينـةً، فيحصـلُ لكـم منافعُـها، وحُسْنُ منظَرِها للناس، كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَـا﴾[٢]. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي يخلقُ أشـياءَ لا تَعرِفُونَـها لم يُسَـمِّها لكم.

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [إنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ أرْضاً بَيْضَاءَ مِثْلَ الدُّنْيَـا ثَلاَثِينَ مَرَّةً مَحْشُوَّةً خَلْقاً مِنْ خَلْقِ اللهِ، لاَ يَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ يُعْصَى طَرْفَةَ عَيْنٍ] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أمِنْ وَلَدِ آدَمَ هُمْ؟ قَالَ: مَا يَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ ؟] قَالُوا: فَأَيْنَ إبْلِيسُ عَنْهُمْ ؟ قَالَ: مَا يَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ خَلَقَ إبْلِيسَ] ثُمَّ قَرَأ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿وَيَخْلُـقُ مَـا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٣].

---

(١) في الجامع لأحكام القـرآن: ج ١٠ ص٧١؛ حكـاه القرطـبي بلفـظ: ((وَلأنَّـهَا إذَا رَاحَـتْ تُوَفِّـرُ حُسْنَهَا وَعِظَمَ شَأْنِهَا وَتَعَلَّقَتِ الْقُلُوبُ بهَا؛ لأنَّـهَا إذْ ذَاكَ أعْظَـمُ مَـا تَكُـونُ أسْـنِمَةً وَضُرُوعـاً)). واللفظ في المتن أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٢١٣).

(٢) الكهف / ٤٦ .

(٣) بمعناه في الدر المنثور: ج ٥ ص١١٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويـه عـن ابـن عبـاس =

وهذه الآيةُ مما يُستَدلُّ بها على كراهيةِ لحم الخيلِ على مَذهب أبـي حنيفـة؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في الأنعامِ (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) ولم يذكُرْ في آيةِ الخيـل والبغـال إلا الركـوبَ والزينةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ ؛ أي وعلى اللهِ بيانُ الهدى والضَّلالة ليُتَّبَعَ الهدى وتُجْتَنَبَ الضَّلالةُ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[1]، وقال تعـالى: ﴿فَأَلْهَمَـهَا فُجُورَهَـا وَتَقْوَاهَـا﴾[2]. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (وَمِنْهَا جَائِرٌ) أي مِن الطُّرُقِ ما هو عادلٌ عنِ الحقِّ، قال: يعـني اليهوديَّـةَ والنصرانيـة والمجوسية، وقال ابنُ المبارك: (يَعْنِي الأَهْوَاءَ وَالْبـدَعَ). قولـهُ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ إلى جنَّتهِ وثوابهِ، ولأرشدَكم كلَّكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ ؛ مثل الـبرَكِ والغُـدْرَان، وَ لكـم، ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ تَرْعَـونَ أنعامَكم، يعني الكَلأ والأشجارَ التي ترعاهُ الإبلُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ تسـخيرَ الليـلِ والنَّـهار، مَجيءَ كلِّ واحدٍ منهما عقِبَ الآخرِ بتقدير اللهِ؛ لينصرفَ الناسُ في معايشِهم بالنَّهار، ويَسكنُوا بالليلِ، وتسخيرَ الشمسِ والقمر والنُّجوم مجيئهُ بها في أوقاتٍ معلومة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي وسخَّرَ لكم مـا خَلَـقَ في الأرضِ من الدواب والأشجار وغيرها، ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ﴾ ، ومناظِرهُ وصُـورَهُ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ دلائلَ اللهِ.

=وذكره)). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٨٠ عزاه القرطبي قال: ذكره الماوردي.

(١) الانسان / ٣ .

(٢) الشمس / ٨ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ ؛ يعني السَّمكَ، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ؛ وهو العرضُ لاستخراجِ اللُّؤلؤ والْمَرْجَانِ لتلبسَهُ نساؤُكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ ؛ أي وترَى السُّفن في البحرِ مقبلةً ومُدبرةً تشقُّ الماءَ يَميناً وشِمالاً، يقالُ: مَخَرَتِ السفينةُ البحرَ، إذا جَرَتْ جَرْياً شقَّت الماءَ شَقّاً، والْمَخْرُ صوتُ هُبُوب الرِّيح، والسفينةُ تجري بالرِّيح، فسُمِّيت السفينةُ مَوَاخِرَ، والواحدة مَاخِرَةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ يعني لتَركَبوهُ للتِّجارةِ، فتطلبوا الربحَ من فضلِ الله لكي تشكُروا نِعَمَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ ؛ أي وجعلَ فيها جِبَالاً عاليةً يابسةً لئَلاَّ تحركَ بكم الأرضُ، وَ؛ أجرَى فيها، ﴿ وَأَنْهَٰرًا ﴾ ، مثلَ النِّيلِ والفُرات ودِجلَةَ وسِيحُونَ وجيحُون، وَ جعلَ فيها، ﴿ وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ، طُرُقَ منافعكم؛ لكي تَهتَدُوا إلى الموضعِ الذي تقصدونَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي جعلَ في الأرضِ أعْلاَماً للمسافرين من الجبالِ وغيرِ ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) معناهُ: إنَّ مَن يسيرُ بالليلِ فإنَّما يهتدِي إلى الطُّرُقِ في البرِّ والبحرِ بالنُّجوم مثل الثُّريا وبنات نَعْشٍ والفرقَدين، يهتدي بها إلى القِبلة والطُّرق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ أي أفَمَن يخلقُ هذه الأشياءَ وهو اللهُ تعالى كمَن لا يقدرُ أن يخلقَ شيئاً وهي الأصنامُ، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ أنَّهما لا يَستويان في استحقاقِ العبادة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ ؛ يعني إذا أردتُّم أن تُعَرِّفوا بفاضلِ نِعَمِ الله عليكم في الخلقِ والرِّزق والتمكُّن من الأمور في الدُّنيا لم تقدرُوا على إحصاءِ هذه النِّعم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ ﴾ ؛ لذنوب عباده إذا تابُوا، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ بهم بالإمهالِ إلى وقت التَّوبة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ؛ يعني الأصنامَ، ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ واللهُ تعالى هو الخالقُ لَها. قولهُ: ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ ؛ يعني الأصنامَ، والمعنى: كيفَ تخلقُ شيئاً، وهي أمواتٌ لا روحَ لها.

وإنما جَمَعَ بين قولهِ (أمْوَاتٌ) وبينَ قولهِ (غَيْرُ أحْيَاءٍ) لأنه يقالُ: فلانٌ ميِّتٌ وإنْ كان حيّاً، إذا كان لا يُنتَفَعُ بهِ، فكأنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ أنه لَم يُسَمِّ الأصنامَ أمواتاً من حيث أنه لا ينتفعُ بها، ولكن لأنه لا حياةَ فيها، فكيف يعبُدون ما لا يَخلقُ وما لا يـرزقُ ولا ينفع، وهو مع ذلك مِن الأمواتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي ومـا تشـعرُ الأصنامُ متى يُبْعَثُ الناسُ من القبور فيُحاسَبون، فكيف يرجُو الكفارُ الجزاءَ من قِبَـلِ الأصنامِ، و(أيَّانَ) كلمةُ اختصار أصلُها (أيَّ) و (آنَّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ؛ وهو عزَّ وجَـلَّ، ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ ؛ للحـقِّ، ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ وهـم مُتَعَظِّمُـونَ عن قَبول الحقِّ أنَفَةً مِن اتِّباعهِ واتِّباعِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ؛ أي حقّاً إنَّ اللهَ يعلمُ سِرَّهم وعلانِيَتَهم، ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

قولهُ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ ؛ أي إذا قِيْلَ لهـؤلاءِ الكفـار: مـا الذي يدَّعِي مُحَمَّدٌ ﷺ أنه يَنْزلُ عليهِ مِن اللهِ، ﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي الذي تذكُـرون أنـه مُـنْزِلُ كـلامِ الأولـين، ومـا يسـطِّرون في كتُبـهِم مـن الأخبـار والأقاصيص.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ ﴾ ؛ أي آثامَـهم، ﴿ كَامِلَةً ﴾ ، أي وافـرةً، ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ؛ ليَحملُـوا، ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ ﴾ ؛ أي آثـامِ، ﴿ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾ ، يصرفونَهم عن مُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن، ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ، بلا عِلْـمٍ ولا حجَّة، يعني يكونُ عليهم إثـمُ إضلالِـهم غـيرَهم لا أن يحملـوا ذنـوبَ غـيرِهم، كمـا

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(١). وقولـه تعـالى: ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ ظاهر المعنى.

وقولهُ تعـالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ ؛ أي قد مَكَرَ الذين من قَبْلِ هؤلاءِ بأنبيائهم، كما مَكَرَ هـؤلاء المقتَسِمون الذين اقتَسَمُوا أعقابَ مكَّة؛ ليصُدُّوا الناسَ عن دينِ الله، فأتى اللهُ بُنيَـانَ أولئكَ مِـن القواعـدِ بـالعذاب، ﴿ فَخَرَّ ﴾ ، فوقـعَ، ﴿ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ ؛ الهـدمُ والاستئصالُ، ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ بإتيـان العذاب منهُ.

وقد اختَلفُوا في هؤلاءِ الذي خَرَّ عليهم السقفُ، قال بعضُهم: هـو نمـرُودُ بـن كَنعان الذي بَنَى صَرْحاً طولهُ خمسةُ آلافٍ وخمسون ذِرَاعاً، وعرضهُ عرضُ ثلاثةِ آلاف وخمسون ذِرَاعاً؛ ليصعدَ إلى السَّماءِ، فوقعَ الصرحُ على الذي كـانوا فيـه، وأهلَـكَ اللهُ نمرودَ بالبَعُوضِ. وقال بعضُهم: هذا على وجهِ الْمَثَلِ، فكأنـه جعـلَ أعمالَـهم بمـنْزلِ البَانِي بناءً سَقَطَ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ﴾ ؛ تُشركُونهم معي في العبـادةِ، وقولـهُ تعـالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ ؛ أي قالَ المؤمنون: ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ إنَّ الذُّلَّ اليومَ والهوانَ على الكافرين، ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ تقبضُ أرواحَهم في حالِ ظُلمِهم لأنفسِهم بالكفر، ﴿ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ ﴾ ، واستَسـلَمُوا وانقادوا للمذلَّةِ والهوان، يقولون: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ﴾ ؛ أي مِـن معصيـةٍ في الدُّنيـا، فيقـول المؤمنـون: ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ ؛ قـد فَعَلتُـمْ ذلــكَ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ وتقـولُ لهـم خَزَنَـةُ جـهنَّمَ، ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ عن توحيدِ الله وعبادته.

---

(١) الأنعام / ١٦٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ أهْلَ مَكَّةَ لَمَّا بَعَثُوا إلَى أعْقَاب مَكَّةَ رجَالاً؛ لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنْ دِينِ اللهِ، بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ رجَالاً مِنْ أصْحَابهِ: عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُه، فَكَانَ وَافِدُ النَّاسِ إذا قَدِمَ فَرَدَّهُ الْكُفَّارُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنِ الإيْمَان، سَأَلَ أصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ: (مَاذا أنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرا) أيْ أنْزَلَ حَقّاً وَصَوَاباً).

وعلى هذا انتصبَ قولهُ (خَيْراً)، وإنما ارتفعَ قولهُ في جواب المقتسِمين من كفَّار مكَّة (أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) لأنَّهم كانوا لا يُقِرُّونَ بإنزالـهِ، بـل كـانوا يقولُـون علـى جهـةِ التكذيب هو أساطيرُ الأولين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ ؛ أراد بالحسَنَةِ الثناءَ والمدحَ على ألْسِنَةِ المؤمنـين، وَقِيْـلَ: للَّذيـن قـالوا لا إلـهَ إلا اللهُ يُضَعَّـفُ لَـهُ بعَشْـر، ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ؛ يعني الجنَّةَ خيرٌ مما يصِلُ إليهم في الدُّنيـا، ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

ثُـم فسَّـرَ دارَ المتَّقـين فقـال: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ ؛ أي بسـاتِينُ إقامـةٍ، ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ، يـومَ القيامـة ، ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ﴾ ؛ أي مـن تحـت أشـجَارها، ﴿ الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ ﴾ ؛ كذلـك تكـون مجـازاةُ الله، ﴿ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ للشِّرك والمعاصِي.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ؛ عنـد قبـضِ أرواحِـهم، ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ ؛ أي زَاكِيَةً أعمالُهم متمسِّكِين بما أمِرُوا به مجتَنِبينَ لِمَا نُـهُوا عنـه، طَيِّبـةً أرواحُهم بما يُبَشَّرُونَ به من الجنَّة، ﴿ يَقُولُونَ ﴾ ؛ أي يقولُ لهم الملائكـة: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ؛ أي مـا ينظـرُ أهـلُ مكَّـة في تكذيبـهم للرَّسـول واستبطائهم العـذابَ، إلاّ أن تأتيَـهم الملائكـةُ لقبـضِ أرواحِهم، ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ ؛ بعذاب الاستئصال، ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ هؤلاءِ الكفار من تكذيب الرُّسل مثلَ ما فَعَلَ هؤلاءِ فعذبَهم اللهُ ﴿ وَمَا

ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ؛ بذلك، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ ؛ ظلَمُوا أنفُسَهم حيث فعَلُوا ما استوجَبُوا به العذابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ ؛ أي عقابُ ما عَمِلوا، أرادَ بالسَّيِّئات العقابَ كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾(١) ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾ ؛ أي وحلَّ بهم ما كانوا يستَهزِئُون به من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ ؛ هذا نظيرُ الآيةِ التي في الأنعام ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾(٢) قد تقدَّمَ تفسيرهُ، يعني كفارَ أهلِ مكَّة.

وقولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ؛ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ من تكذيب الأنبياء مثلَ ما فعلَ هؤلاءِ، فلم يكن ذلك حجَّةً لَهم، ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ ؛ عنِ الله بلُغَةٍ يَعرفونَها. وقال بعضُهم: إنما قالوا هذا القولَ استهزاءً وسخرية كما قال قومُ شعيب: أتنهَانَا عمَّا كان يعبدُ آباؤنا.

قولهُ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ ؛ كما بعثناكَ رسُولاً في هؤلاءِ، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ ؛ أي اجتَنِبوا الشيطانَ وعبادةَ كلِّ ما تعبدون مِن دون الله، ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي الكفرُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ؛ أي في أرضِ الذين عاقَبَهم اللهُ، ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ ؛ أي كيف صارَ عاقبةُ مَكرِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ ؛ أي إنْ تطلُبْ يا مُحَمَّد من جهتك هُداهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ ؛ أي يحكمُ عليه بالضَّلالة، ومَن يُضْلِلْهُ اللهُ فلا يهدِي ولا يهتدي، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾ ؛ أي مَن يدفعُ عنهم العذابَ.

---

(١) الشورى / ٤٠ . (٢) الآية / ١٤٨ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ ؛ أي حلفَ الكفارُ باللهِ مجتهدين في اليمين: أنه لا يبعثُ اللهُ مَن يموتُ، وقولُه تعالى: ﴿ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ ؛ أي قُلْ: بلَى، وَقِيْلَ: إنَّ اللهَ تولَّى الجوابَ بنفسِهِ، كأنه قال: لِيَبْعَثُهُمْ بعدَ الموتِ وَعْداً عليهِ.

انتصبَ قوله (حَقّاً) على المصدر؛ أي وَعَدَ وَعْداً حَقّاً كأنَّما أوجبَهُ على نفسِهِ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أنه حقٌّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ ؛ معناهُ: يبعثُهم لكي يُبَيِّنَ لهم ما يختلِفون فيه من الدِّين ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ في الدُّنيا بأنْ لا جنةَ ولا نارَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي إنَّما أمْرُنا في البعثِ وغيرِهِ إذا أرَدْنا أن نقولَ له: كُنْ؛ فيكونُ. مَن رفعَ (فَيَكُونَ) معناهُ: فهو يكونُ، ومَن نصبَ فعلى جواب كُنْ، وَقِيْلَ: عَطفاً على (أنْ يَقُولَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَمَّار بْنِ يَاسِرٍ وَصُهَيْبٍ وَبلاَلٍ وَأصْحَابِهِ الَّذِينَ هَاجَرُواْ إلَى الْمَدِينَةِ مِنْ بَعْدِ مَا عَذبَهُمْ أهْلُ مَكَّةَ).

والمعنَى: والذين هَجَرُوا أوطانَهم في طاعةِ اللهِ، وسَارُوا إلى النبيِّ ﷺ من بعدِ ما ظلَمَهم الكفارُ، ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ ، أرضاً كَريمَةً وهي المدينةُ بدلَ أوطانِهم، ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ ؛ لَهم مما أعطينَاهم في الدُّنيا، ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ يعلمُ الكفَّار.

ثُم وَصَفَهم فقال: ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ ؛ يعني على الشَّدائدِ والعباداتِ، وصَبَروا عنِ الْمُحَرَّمَاتِ، ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ في طلب الدِّين والدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ نزلت جواباً لأهلِ مكَّة حين قالوا: لو أرادَ اللهُ أن يبعثَ إلينا رسُولاً لبعَثَ رسولاً من الملائكةِ لا

رجُلاً منَّا. ومعنى الآيةِ (وَمَا أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ) يا مُحَمَّدُ إلى الأمَمِ الماضيةِ إلا رجَالاً أوحَينا إليهم كما أوحَينا إليكَ، ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ ﴾ ؛ يا أهلَ مكَّة، ﴿ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ ؛ أي الكتاب، ﴿ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أنَّ الرسُلَ كانت من البشَرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾ ؛ راجعٌ إلى قولهِ تعالى (نُوحِي إلَيْهِمْ). وَقِيْلَ: في هذا إضمارٌ كأنه قالَ: وأرسلنَاهم بالبيِّناتِ والزُّبُر. والبيناتُ: هي الدلالاتُ الواضِحَاتُ، والزُّبُرُ: جمعُ الزَّبُور وهو الكتابُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ ؛ أي القرآنَ، ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ الحلالَ والحرامَ والحقَّ والباطل، ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ فيهِ فيُؤمِنُوا به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي أهْلَ مَكَّةَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ؛ يَعْنِي الشِّرْكَ)، وَقِيْلَ: معناهُ: أفأَمِنَ الذين مَكَروا في تكذيبِ الرُّسلِ وأذى المسلمين أنْ يخسفَ اللهُ بهم كما خسَفَ بقارون، ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ ﴾ ؛ موضعُ، ﴿ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي لا يعلمونَ، ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ ؛ أي في أسفارِهم وتجارتِهم وتصرُّفِهم، ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ اللهَ على ما يريدُ إحلالَهُ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ ؛ أي على تَنَقُّصٍ إما بقَتلٍ أو بموتٍ؛ الأوَّلُ فالأولُ حتى يهلَكُوا عن آخرهم، رُوي عن عمرَ ﷺ أنه قالَ: (مَا كُنْتُ أدْري مَا مَعْنَى (عَلَى تَخَوُّفٍ) حَتَّى سَمِعْتُ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

تَخَوَّفَ السَّيْرُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِدًا كَمَا تَخَوَّفَ عُودُ النَّبْعَةِ السَّفَنُ[1]

وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: أنْ يُخَوِّفَهُمْ بأنْ يُهْلِكَ قَرْيَةً لِتَنْزَجِرَ قَرْيَةٌ أخْرَى). وقولهُ تعالى: ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي شديدُ الرَّحمة بتأخيرِ العذاب عن الكفَّار، أو شديدُ الرحمةِ على مَن تابَ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ ؛ أي من شَخْصٍ قائم من شَجر أو إنسان أو نحوِ ذلك، ﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ ؛ أي

---

(١) اختلف في نسبته إلى قائله. والأثر أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٣٣١).

يتَمَيَّلُ ظِلالُهُ عن اليمين والشَّمائلِ، إذا طلعَتِ الشمسُ وإذا غربت، ﴿ سُجَّدًا لِلَّهِ ﴾ ؛ أي مَيَلانُهَا أو دوَرَانُها من موضعٍ إلى موضعِ سجودُها، فيسجدُ الظلُّ غدوةً إلى أن يفيءَ الظلُّ، ثم يسجدُ أيضاً إلى الليلِ. وفي هذا دليلُ توحيدِ الله تعالى، قال الحسنُ: (أمَّا ظِلُّكَ فَيَسْجُدُ للهِ، وَأمَّا أنْتَ فَلاَ تَسْجُدُ). قولُهُ: ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ أي صَاغِرُون ذليلُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ ﴾ ؛ أي ما دبَّ على الأرضِ، ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي ويخضع الملائكة وهم لا يتعظَّمون عن الخضوعِ له، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ ؛ أي يخافونَ عقابَ ربهم من فوقِهم. وَقِيْلَ: يخافون ربَّهم خوفَ المقهور من القاهر، فذكَرَ لفظَ فَوْقِ على هذا المعنى.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ يعني الملائكةَ لا يعصُونَ اللهَ ما أمَرَهم. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [إنَّ للهِ مَلاَئِكَةً فِي السَّمَاءِ السَّابعَةِ سُجُوداً مُنْذُ خَلَقَهُمُ اللهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، تَرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ مَخَافَةِ اللهِ، وَتَجْرِي دُمُوعُهُمْ وَتَضْطَرِبُ أجْنِحَتُهُمْ، لاَ تَقْطُرُ مِنْ دُمُوعِهِمْ قَطْرَةٌ إلاَّ صَارَتْ مَلَكاً قَائِماً، فإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَقَالُوا: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ][1].

وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ في هذه الآيةِ: (مَنْ سَجَدَ هَذِهِ السَّجْدَةَ إيْمَاناً وَتَصْدِيقاً، أعْطَاهُ اللهُ بعَدَدِ الْمَلاَئِكَةِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُوم، وَقَطْرِ الْمَطَرِ وَنَبَاتِ الأَرْضِ وَتُرَابِهَا وَرَمْلِهَا وَمَدَرِهَا، وَبعَدَدِ مَا دَبَّ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ حَسَنَةً حَسَنَةً).

وقولهُ تعالى: ﴿ ۞وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون قولهُ (اثْنَيْن) تأكيداً لما سَبَقَ، ويجوزُ أن يكون المعنى: لا تتَّخذوا اثنين إلَهين إنما اللهُ إلهٌ واحد، ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي فَاخْشَوْنِ ولا تَخْشَوا أحَداً غيري، ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

---

(١) في كنز العمال: الرقم (٢٩٨٣٧)؛ ذكره الهندي وعزاه إلى الديلمي عن ابن عمر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ ﴾ ؛ أي دَائِماً، وقوله تعالى (وَاصِباً) انتصبَ على القطعِ وإنْ كان فيه الوصفُ، والوَصَبُ: شدَّةُ التَّعَبِ؛ لأن اللهَ هو المستحقُّ أن يُعبَدَ في جميعِ الأوقات. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ إنكارٌ عليهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

وقولُهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي فإليه تتضرَّعون في كشفهِ، والْجُؤَارُ في اللغة: رفعُ الصَّوتِ، فكأنَّهُ قالَ: فإليه تَضُجُّونَ وتَصِيحُونَ. ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ عادَ فريقٌ منكم إلى الشِّرك، ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ ﴾ ؛ أي ليجْحَدوا نعمةَ اللهِ في كشف الضرِّ عنهم. ثم أوْعَدَهُمْ فقالَ: ﴿ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي فتمتَّعوا في الدُّنيا، فسوف تعلمونَ ما يحلُّ بكم من العقاب.

قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْۗ ﴾ ؛ أي ويجعلون للأصنامِ التي لا تعلمُ نصيباً مما رزقناهم، وهو ما كانوا يجعلونَ لها من السَّائبة والبَحِيرَةِ والْحَامِ وبعضِ الحرث. ويجوز أن يكون: (لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ) راجعاً إلى الكفار على معنى أنَّهم لا يعلَمون أنَّها تنفعُهم ولا تضرُّهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ قَسَمٌ بأن اللهَ يسألُهم في الآخرةِ عن افترائهم فيما جعلوهُ للأصنامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ ﴾ ؛ معناه: إنَّهم يقولون: إن الملائكةَ بناتُ الله، وقوله تعالى (سُبْحَانَهُ) تَنْزيهاً للهِ تعالى عما لا يليقُ به. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي ما يختارُون لأنفسِهم من البنين دونَ البناتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ ؛ أي ظهرَ أثرُ كراهةِ الحزن على وجههِ من ذلك، يقال لِمَن لَقِيَ مكروهًا: قَدِ اسْوَدَّ وجههُ غَمّاً وحُزناً وخَجلاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي ممتلئ غيظاً وغمّاً يترَدَّدُ حزنهُ في جوفهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ ﴾ ؛ أي يختفي من المبشِّرين له بذلكَ ومن جُلسائهِ من كراهةِ ما بُشِّرَ به من الأنثى، ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ

هُونٍ ﴾ ؛ أي أيحفظُ المبشَّرَ به على هَوْنٍ ومشقَّة، والْهَوْنُ: الْهَوَانُ، ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ ﴾ أي يدفنهُ، ﴿ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ ؛ حَيّاً كما كـان في عـادةِ العـرب كـان إذا وُلـد لأحدهـم أنثى حفرَ لها حفرةً وألقاهَا فيها ودفنَها حتى تموتَ، وهي الْمَوْءُودَةُ.

وأما لفظُ التذكير في قوله (أَيُمْسِكُهُ عَلَى) فإنه راجعٌ إلى المبشَّر بهِ. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي ألاَ ساءَ ما يقضُونَ من اختيار البنين لأنفُسِهم، وإضافةِ البنات إلى اللهِ وقَتلِ الْمَوْءُودَةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ ؛ أي لَـهم صفـةُ السُّوءِ مـن احتياجـهم إلى الولـدِ، وكراهيتـهم الإنـاثَ خـوف العـار، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ؛ أي الصفةُ العليا وهي الألوهية والربُوبيَّة لم يلد ولم يولَدْ ولم يكن له كُفُـواً أحدٌ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي الغـالبُ الـذي لا يقـدرُ أحدٌ أن يغلبَهُ، الحكيمُ في أمرهِ وتدبيره.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ ؛ أي بعقـاب معاصيـهم عَـاجلاً، ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي علـى الأرض، ﴿ مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ ؛ أي يُمهلُهم، ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ أي إلى وقتٍ ضَرَبَهُ لامهالهم، ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ ذلـكَ الوقـتُ، ﴿ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ لا يتقدَّمـون ساعةً ولا يتأخَّرون.

فإن قِيْلَ: كيف قال (مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ) مع عِلمنا أن في الناسِ من هو غيرُ ظالِمٍ، قيل: معناه: (ما تركَ عليها من دابَّة ظالمةٍ). وَقِيْلَ: معناهُ: ولو يؤاخِذُ الله الناسَ بظُلمِهم عَاجلاً لانقطعَ النسلُ؛ لأنه لا أحدَ إلا وقد كـان في آبائـهِ وأجـداده مـن هـو ظالِمٌ.

فإن قِيْلَ: في الآية تعميمُ الناسِ والدواب في الهلاكِ؛ فأيُّ شيء يوجـبُ هـلاكَ الدواب ؟ قِيْلَ: إن الدوابَّ إنما خلقَها اللهُ لمنافعِ الناس، فإذا هلكت الناس بمنع المطـرِ عنهم، لم يبقَ في الأرضِ دابَّة إلا وهلكَت، وإذا هلكَ الناسُ بوجهٍ من الوجـوه لم تبـقَ الدوابُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ ؛ لأنفسِهم. في الآيةِ إعادةُ ذكر جَهلِ الكفَّار أنَّهم يجعلون للهِ ما يكرَهون لأنفسِهم وهو البناتُ، ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ﴾ ؛ مع ذلك، ﴿ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ ؛ أي أن لهم الجنَّة في الآخرةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ ؛ أي حقّاً، وَقِيْلَ: لا بدَّ ولا محالةَ أن لهم النارَ، ﴿ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي مقدَّمون إلى النار، والفَارطُ في اللغة: هو القادمُ إلى الماءِ، ومنه قولهُ ﷺ: [وَأَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ](1) أي سَابقُكم.

ومَن قرأ (مُفْرِطُونَ) بكسرِ الراء، فهُم الذين أفرَطُوا في الذنوب والمعاصي، ومَن قرأ (مُفَرِّطُونَ) بالتشديدِ فهو من التَّفريطِ وهو التقصيرُ(2).

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ؛ تسليةٌ للنبيِّ ﷺ أي كما أرسلناكَ إلى هؤلاءِ أرسلنا إلى أمَم من قبلِك، فزيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم في الكفرِ والتكذيب، ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ﴾ ؛ في الدُّنيا يتبَعون إغواءَهُ، ويقال: (هُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي يقالُ لهم يومئذٍ: هذا وليُّكم، فيَكِلُكُم الله يومئذ إلى مَن لا يملكُ دفعَ العذاب عن نفسهِ، فكيف يدفعُ عنهم العذابَ، ومَن كان الشيطانُ وليُّه دخلَ النارَ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ ؛ أي لتُبيِّن لهم الحقَّ من الباطلِ، وَ أنزلناهُ، ﴿ وَهُدًى ﴾ ، دلالةً، ﴿ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي للمؤمنين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ ؛ يعني المطرَ، ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ؛ أي يُبسِها، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أدِلَّةَ اللهِ، ويتفكَّرون فيها.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢ ص١٦٨: الحديث (١٦٨٨) عن عبدالملك بن عمير بن جندب ﷺ. والإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٣١٣. والبخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: باب في الحوض: الحديث (٦٥٨٩). ومسلم في الصحيح: كتاب الفضائل: باب في إثبات حوض نبينا ﷺ: الحديث (٢٥/ ٢٢٨٩).

(٢) في إعراب القرآن: ج ٢ ص٢٥٣: قال النحاس: (المبالغون المتجاوزون في الشر). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص١٢١؛ قال القرطبي: (وقرأ أبو جعفر المقرئ: ﴿مُفَرِّطُونَ﴾ بكسر الراء وتشديدها، أي مضيِّعون أمرَ الله، فهو من التفريطِ بالواجب).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ ؛ مِن دون أن يظهرَ فيه لونُ الدمِ ولا رائحة الفَرْثِ، ﴿ سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي مُتيسِّرَ الجري في الحلق، لا يغُصُّ به شاربهُ. وإنما لم يقل في بطونِها؛ لأن الأنعامَ والنَّعيمَ واحدٌ، فكأنه ردَّ الكنايةَ إلى النَّعيمِ. وفي قوله تعالى(نُسْقِيكُمْ) قرآءَتان: فتحُ النون وضمُّها، يقال سَقَى وأسْقَى بمعنى واحدٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ ؛ أراد بالسَّكَرِ الْمُسْكِرَ؛ وهو من العِنَب الخمرُ، ومن النَّخيلِ نقيعُ التَّمر إذا غلَى واشتدَّ، نزلَتْ هذه الآيةُ وهُمَا لهم حلالٌ يومئذٍ، هكذا قال ابنُ عبَّاس، والرِّزْقُ الحسَنُ: ما أُحِلَّ منها مثل الْخَلِّ والزبيب والتَّمر.

وسُئل بعضهم عن هذهِ الآيةِ فقال: (السَّكَرُ مَا حُرِّمَ مِنْ ثَمَرِهَا، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا حَلَّ مِن ثَمرِهَا)[1]. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ دلائلَ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ ؛ أي والْهَمَ ربُّكَ النحلَ وعرَّفَها ووفَّرَ عليها ودعَاها إلى ما هو مذكورٌ في هذه الآيةِ، وسَمَّى الإلهامَ وَحياً؛ لأن الوحيَ هو ظهورُ المعنى للنَّفسِ على وجهٍ خَفِيٍّ، وقد أَلْهَمَ اللهُ كلَّ دابةِ التماسَ منافعها واجتنابَ مضارِّها، إلاَّ أنَّ أمرَ النحلِ أعجبُ؛ لأن فيها مِن لطيفِ الصَّنعة ما فيه أعظمُ مُعتَبرٍ، فإنَّ اللهَ أَلهمَها اتخاذ المنازل والمساكنَ، وأنْ تأكُلَ من كلِّ الثمرات لمنافعِ بني آدم، وأنْ لا تقذفَ ما أكلتْهُ بعد ما صارَ عَسَلاً إلا على حَجَرٍ صافٍ أو مكان نَظِيفٍ لا يخالطهُ طين ولا ترابٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ ﴾ ؛ فهي تتخذُ من الجبالِ بُيوتاً إذا لم تكن لأحدٍ، وقولـهُ تعالى: ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ يعني مما يَبنِي

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٣٨٨) بأسانيد عن ابن عباس. وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٢٥٥٩). والحاكم في المستدرك: تفسير سورة النحل: الأثر (٣٤٠٦) وقال: حديث صحيح.

الناسُ لها من خلاَياها ومساكنِها، ولولا التسخيرُ وإلهام الله ما كانت تأوي إلى ما يُبنى لها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ؛ أي من ألوان الثمر كُلِّه، ﴿ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ ﴾ ؛ أي طُرُقَ ربكِ لطلب الرَّعي، وقوله تعالى (ذُلُلاً) يجوز أن يكون من نَعْتِ السُّبُلِ؛ أي لا يتوعَّرُ عليها مكان سلكَتْهُ، وهي ترعَى الأماكنَ البعيدة ذات العاص[1]، قد ذلَّلَ اللهُ لها مسالِكَها أي سهَّلها. وقال ابنُ عباس: (ذُلُلاً نَعْتُ النَّحْلِ؛ أيْ مُطِيعَةً بالتَّسْخِيرِ وَإخْرَاجِ الْعَسَلِ مِنْ بُطُونِهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ ؛ يعني العسَلَ يلقيهِ النحلُ أبيضَ وأصفرَ وأحمر، يقالُ: إنه يَخرجُ من شبابها الأبيضُ، ومِن كهولِها الأصفرُ، ومن شُيوخها الأحمرُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ ﴾ ؛ أي في ذلكَ الشراب شفاءٌ للأوجاعِ التي شفاؤُها فيه، كذا قال السديُّ[2].

وليس إذا كان في الناسِ من يضرهُ العسل لمعنى في نفسهِ ما يوجبُ أن يخرجَ العسلُ من كونهِ شفاءً للناس، فإنَّ اللهَ جعلَ الماءَ حياةً لكلِّ شيء، وربَّما يكون الماءُ سَبباً للهلاكِ، لكن الاعتبارَ للأعمِّ، وقال قتادةُ: (فِيْهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ مِنَ الأَدْوَاءِ)[3]، وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: [كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَالْعَسَلَ][4]، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ ﴾ ؛ أي خلقَكم في بُطون أمَّهاتكم طَوراً بعد طورٍ حتى أخرجَكم وربَّاكم إلى أن يقبضَ أرواحكم عندَ آجالِكم، ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ ؛ حتى يعودَ في كِبَرِهِ وهرمهِ في نُقصان قوَّته ونقصان عقلهِ إلى مثل حال الطُّفولة.

---

(١) هكذا رسمها الناسخ في الأصل المخطوط.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٢٥٧٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٤٢١).

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأطعمة: باب الحلوى والعسل: الحديث (٥٤٣١). ومسلم في الصحيح: كتاب الطلاق: باب وجوب الكفارة: الحديث (٢١/ ١٤٧٤) وفيه قصة وروده.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ ؛ أي لكي يصيرَ كالصبيِّ الذي لا عقلَ له، وقال السديُّ: (أرْذلُ الْعُمُرِ الْخَرَفُ)[1]، وقال قتادةُ: (تِسْعُونَ سَنَةً) وعن عليٍّ رضي الله عنه: (أنَّ أرْذلَ الْعُمُرِ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً)[2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ ؛ أي عليمٌ بكلِّ شيء، قادرٌ على تحويلِ الأحوال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ ؛ أي في المال والْخَدَمِ والنِّعَمِ، وجعل بعضَكم سادةً وبعضَكم مَماليكَ، ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ ؛ أي فمَا أربابُ الأخدامِ وفُضِّلوا، ﴿بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ؛ أي المماليكِ، ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ ، فيُسَوُّونَهُمْ معَ أنفُسِهم في الملكِ.

فإذا لم تَرْضَوا في الحكمةِ أن يشركَكم مماليكُكم أيبطلوا فضلكم ؟ فكيف يرضَى اللهُ مِن خلقهِ أن يجعلوا له شَريكاً في الملكِ من خَلقِهِ، وهذا مثلٌ ضربه الله للمُشركين فقال: إذا لَم يكن عبيدُكم معكم سواءً في المِلك فكيف يجعلون عبادِي معي سواء؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ ؛ أي أتَصِفُونَ نعمةَ الله إلى غيرِهِ وتشكرونَهُ عليها فتجْحَدون نعمةَ الله، فإنَّ مَن أضافَ النعمةَ إلى غير الْمُنْعِمِ وشكرَ عليها فقد جحدَ النِّعمةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ؛ أي جعلَ لكم من جِنسِكم نساءً، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ ؛ أي من نسائِكم؛ ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ ، قِيْلَ: إن الحفدةَ الأختان، وَقِيْلَ: ولَدُ الولدِ، وَقِيْلَ: الخدَمُ، وحقيقةُ الحفَدة مَن يعاون على ما يحتاجُ، سرعة من الْحَفْدِ والإسراعِ، ويقال لكلِّ من أسرعَ في الخدمةِ والعملِ: حَفَدَةٌ، ومنه قولهم في دُعاء الوتر (نَسْعَى وَنَحْفِدُ) أي نُسرِعُ في طاعتكَ.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٢٥٧٧).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٤٢٥).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ﴾ ؛ أي مـن المـلاذِّ والحـلال، وقولهُ تعالى: ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ أي أفبالأصنـام يؤمنـون، ﴿ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي يجحَدون بإضافتِها إلى غيرِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي ويعبدون الأصنامَ التي لا تملكُ لهم رزْقاً من السَّموات بـإنزال الغَيْـثِ، ولا مِن الأرض بإنباتِ النبات شيئاً قليلاً ولا كثيراً، ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يَملِكون، وليست لهم استطاعةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ ﴾ ؛ أي لا تجعَلُوا للهِ الأشباهَ؛ لأنـه لا يشبهُ شيئاً ولا يشبههُ شيءٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ أي إن اللهَ يعلـمُ مـا يكـون قبـلَ أن يكـون، وأنتُـمْ لا تعلمـون قَـدْرَ عظمَـتي حيـث أشركتمُونِي وعجَّزتُمونِي أن أبعثَ خَلقِي.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ ؛ أي ضربَ اللهُ المثلَ بعبدٍ مَملوكٍ لا يقـدرُ علـى شـيءٍ، ﴿ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًاۖ ﴾ ؛ وهو الحرُّ، فهو ينفـق منـه خِفيـةً وعلانيـة؛ ﴿ هَلْ يَسْتَوُۥنَۚ ﴾ ؛ في المثلِ، كما أن الحرَّ الذي يملكُ وينفقُ سِرّاً وعلانيةً، والذي لا يملكُ شيئاً ينفقهُ، لا يستويان في المثلِ، كما لا يستوي المنعِمُ الذي جاءَت مـن قِبَلِـهِ النعمـةُ، والأصنام المواتُ التي لا تقدر على النعمةِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ ﴾ ؛ أي قُـلِ الحمدُ للهِ الذي أوضحَ لنا السـبيل والطريـقَ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ ؛ الكفـارُ، ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي وضربَ اللهُ المثلَ برَجُلين؛ أحدُهما أخرَسُ لا يقدرُ على شيءٍ من الكلام، ويقال: الأبْكَمُ هو الذي وُلد أصـمَّ لا يسـمعُ ولا يفـهمُ ولا يمكنـه أن يفـهمَ غـيره، ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ ﴾ ؛ أي ثقيلٌ على وليِّهِ وصاحبِهِ، ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ ؛ لا يهتدِي إلى منفعةٍ ولا إلى خيرٍ، ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِۙ ﴾ ؛ ناطقٌ

متكلِّم آمِرٌ بالعدل، تامُّ التمييز، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٧٦﴾ ؛ أي دِين مستقيم، وهذا مَثَلٌ للمؤمنِ والكافر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٧٧﴾ ؛ قِيْلَ: هذه الآيةُ نزلت جَواباً عن سؤال قُريش: متى الساعةُ؟ وهي ظاهرةُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ؛ أي أخرَجَكم جاهِلين، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ﴾ ؛ أي خلقَ لكم الحواسَّ التي بها تعلَمون نعمتَهُ وقدرتَهُ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٨﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ ؛ أي ألَمْ يروا إلى الطير مذلَّلات في الهواءِ ما يُمسِكُهنَّ حتى يسقُطنَ على الأرض إلا اللهُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ ؛ أي دلالاتٍ على وحدانيَّة الله، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٧٩﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ؛ أي بيوتِ الْمَدَر والحجَر مواضعَ تسكُنون فيها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ ؛ وهي الخيَامُ، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ﴾ ، تَخُفُّ عليكم نقلُها وحملها من مكانٍ إلى مكان، يومَ سفرِكم ويومَ إقامتكم، ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ ؛ وجعلَ لكم من أصوافِ الضَّأن، وأوبَار الإبل، وأشعَار الماعز، ﴿أَثَٰثًا﴾ ؛ أي مَتاعاً للبيتِ من الفُرُشِ والأكْسِيَةِ والبُسُطِ، ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ٨٠﴾ ؛ أي منفعةً تنتفعون بها إلى حين آجَالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ ؛ أي أشياءَ تستظِلُّون بها مثلَ الأشجار ونحوها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ ؛ وهي الكهوفُ والغِيرَانُ يدخلُها الناس ليسكنوا فيها من الحرِّ والبرد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ؛ أي جعلَ لكم سَرابيلَ يعني القَمِيصَ من القُطنِ والكتَّان والصوف يدفعُ عنكم الحرَّ في الصيفِ

والبردَ في الشتاء. ولم يذكرِ البردَ في الآية؛ لأنه لَمَّا ذكرَ الحرَّ فقد دلَّ به على ما في مقابلتهِ من البرد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ ؛ أرادَ به الدُّروعَ من الحديدِ يتَّقون بها في الحرب سلاحَ العدوِّ، يعني الطعنَ والضرب والرميَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ في سائرِ الأشياء،كما أتمَّها عليكم في هذه الأشياءِ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ لكي تُسلِمُوا، قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) أيْ لَعَلَّكُمْ يَا أهْلَ مَكَّةَ تَعْلَمُونَ أنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى هَذا غَيْرُ اللهِ فَتُؤْمِنُوا بهِ وَتُصَدِّقُوا رَسُولَهُ). وفي قراءةِ ابن عبَّاس (لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ)(١) بنصب التاء من الجراحاتِ إذا لبستُم الدروعَ من الحديدِ، ومن الحرِّ والبرد إذا لبستُم القميصَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ أي إنْ أعرَضُوا عن الإيمان، فإنما عليكَ يا مُحَمَّدُ البلاغُ الظاهر، وهو أن تُبَلِّغَ الرسالةَ، وتُبَيِّنَ الدلالةَ، فلما ذكَرَ لَهم النبيُّ ﷺ هذه النِّعَمَ، قالوا: أنعِمْ يَا مُحَمَّدُ هَذِهِ كُلُّهَا مِنَ اللهِ ؟

ثُمَّ قَالُوا: شَفَاعَةُ آلِهَتِنَا، فأنزلَ اللهُ تعالى قولَهُ: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي يعرفون أنَّ هذه النعمَ كلَّها من اللهِ، ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ ، بإضافتها إلى الأوثان، ويشكرونَ الأوثانَ عليها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي كلُّهم يكفرون باللهِ وبنعمته، فذكر الأكثرَ والمراد به الجميعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ ؛ يعني يومَ القيامةِ تشهدُ الأنبياء علىأمَمِهم بما فعلوا من التصديق والتكذيب، وتشهد العدولُ مِن كلِّ عصرٍ علىأهلِ عصرهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؛ أي لا يُؤذنُ لهم بعدَ شهادةِ الرُّسل في الاعتذار، ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ ولا ينفعُهم الاعتذارُ يومئذٍ ولا يُجابُونَ إلى الردِّ إلى الدُّنيا.

---

(١) أخرجها الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٤٨١) بإسنادين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي إذا رأوْهُ بـالدخول فيـه، فـلا نرفعـهُ عنـهم في وقـتٍ ونشـدِّدُ في وقـتٍ، ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ ولا يؤجَّلون بتأخيرِ العذاب إلى وقتٍ آخرَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ ؛ أي إذا رأى الذيـن أشـرَكوا الأصنامَ مـع اللهِ في العبـادةِ، ﴿ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ ، يعـني الأصنـامَ، ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ الأصنـام، ﴿ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ﴾ ؛ الـتي أشـرَكناها معكَ في العبادةِ، فألقى الأصنامَ ﴿ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ في أنَّا آلهةٌ وفي أنَّا أمَرناكم بالعبادةِ، ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾ ، واستَسـلَمُوا كلُّهم لأمرِ الله يومئذ، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ . والفائدةُ في إعادةِ الأصنام يومئذ: أنْ يُعَيِّرَهم اللهُ بها، وأن يُعذِّبَهم بها في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ الذين كَفَروا باللهِ ورسُلِه، وصَدُّوا عن سـبيلِ الله بامتناعهم عنهُ ومنعِ الناس عنه، زدناهُمْ عذاباً فوقَ العذاب، قال ابنُ مسعود: (زِيـدُواْ عَقَاربَ لَهَا أنْيَابٌ كَالنَّخْلِ الطِّوَال)، وَقِيْلَ: زيدُوا حيَّاتٍ كأمثال الفِيلَةِ. وَقِيْلَ: تجـري فوق رؤُوسِهم أنْهَارٌ من نُحاسٍ ذائبٍ إذا وقعَ على كفِّ الرجـلِ اشـتعلَ الجسـدُ منـه ناراً، فليس فيها عذابٌ أشدُّ منه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ فيـه بيانُ أنَّ كلَّ عصرٍ لا يخلو مـن شـهيدٍ علـى النـاس، ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ ؛ يـا مُحَمَّـدُ، ﴿ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ يعني قومَـهُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؛ أي القرآنَ، ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ من أمورِ الدِّين، ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ ﴾ وبشارةً، ﴿ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ ؛ يعـني بـالعدلِ في الأفعال، والإحسان في الأقوال، ولا يفعـلُ إلا مـا هـو عـدلٌ، ولا يقـولُ إلا مـا هـو حسَنٌ، قال ابنُ عبَّاس: (الْعَدْلُ شَهَادَةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَالإحْسَانُ أدَاءُ الْفَرَائِضِ)[1].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٦٤٩٨ و١٦٤٩٩).

وَقِيْلَ: العدلُ هو الإنصافُ، ويدخل فيه إنصافُ المرءِ من نفسه لغيرهِ في الحقوق والأمانات، ومن نفسهِ لنفسه فيما يكون حَقّاً عليه من شُكر نِعَمِ اللهِ، وأن لا يَعبدَ غيره، وأن لا يصفَ اللهَ بما لا يليقُ به من الصفاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالإِحْسَانِ) يدخلُ في ذلك المتفضّلُ على الغير، إما بالمال، وإما بالمعاشرة الجميلة من قولٍ أو فعلٍ، أو إكرام أو بحسَبٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ؛ أي صلةِ الأرحام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ ﴾ ؛ فالفحشاءُ: الزِّنى، والمنكرُ: الشِّركُ، والبَغيُ: الظُّلمُ والكِبْرُ. وَقِيْلَ: الفحشاءُ: ما عَظُمَ قبحهُ من قولٍ أو فعلٍ، سرّاً كان أو علانيةً، والْمُنْكَرُ: ما يظهرُ للناسِ، فيجبُ إنكارهُ، والبغيُ: الاستطالَةُ والظلمُ.

وقيل في معنى الآيةِ: إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدل: بالتوحيدِ، والإحسان: الإخلاصُ، وَقِيْلَ: الإحْسَانُ أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ. وَقِيْلَ: الإحسان العفوُ عن الناسِ، وَقِيْلَ: العدلُ: استواءُ السرِّ والعلانيَةِ، والإحسان: أن تكون سَريرتهُ أحسنَ من علانيتهِ، والفحشاء والمنكر: تكون علانيتهُ أحسنَ من سَريرتهِ.

رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قرأ على الوليدِ: (إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالْعَدْلِ وَالإحْسَانِ وَإيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) فقالَ: يَا ابْنَ أخِي أعِدْ عَلَيَّ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ فَقَالَ: إنَّ لَهُ لَحَلاَوَةً وَإنَّ عَلَيْهِ لَطَلاَوَةً، وَإنَّ أعْلاَهُ لَمُورِقٌ وَإنَّ أسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَمَا هُوَ بقَوْلِ الْبَشَرِ[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ يأمرُكم بثلاثٍ أن تفعَلوهُنَّ، وينهاكم عن ثلاثٍ؛ لتَنتَهُوا عنهنَّ لعلكم تتَّعظون بما تُؤمَرون، وتَحْتَرِزُونَ عن التقصيرِ.

---

(١) حكاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص١٦٥؛ وقال: ((وذكر الغزْنَويُّ أن عثمان ابن مضعون هو القارئ)). وقصة عثمان بن مضعون أسندها ابن أبي حاتم في التفسير: الرقم (١٢٦٣٣ و١٢٦٣٤) عن ابن عباس ولم يذكر فيها قول الوليد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ ؛ أي أتِمُّـوا العـهودَ الـتي بينكم وبين الناسِ إذا حلَفتُم باللهِ تعالى، ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ ؛ العـهودَ، ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ ؛ توثِيقِـها باسـمٍ، ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ ﴾ ؛ قُلتـم: ﴿ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ ؛ شـهيداً عَليكـم بالوفـاءِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ مِـن النَّقضِ والوفاءِ فيَجزيَكم عليه. وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ الرجلَ إذا قال: عليَّ عهدُ اللهِ إنْ فعلتُ كذا كان يَميناً؛ لأنه تعالى ذكرَ العـهدَ في أوَّل الآيـةِ، ثـم عَقَّبَـهُ بقولـه: (وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا).

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ ؛ أي لا تكُونوا في نقضِ العهود كالتي نَقضَتْ غزْلَها من بعدِ إبرامٍ وإحكامٍ، وهي امـرأةٌ من قُريش أمُّ أخنسَ بنِ شُريق تُعرَفُ بـ (رَيْطَةِ الْحَمْقَاء)، كانت تغـزلُ مـن الصُّـوف والشعرِ والوبَرِ بمغزَلٍ عظيمٍ مثلَ طُـولِ الـذِّراع وصنَّـارَةٍ في رأس المغـزل مثـل طُـول الإصبَعِ وفُلكَةٍ عظيمةٍ، فإذا غَزَلَتْهُ وأبرمَتْهُ أمَرَت جاريَتها فنقَضتْهُ[1]. والأَنْكَاثُ: جمـعُ نَكْثٍ، وهو ما تَنَقَّضَ من غزل الشَّعر والقُطْنِ ونحوهما، والمعنى: لا تكونوا في نقـضِ الإيمان كهذه المرأةِ، غزَلَتْ غزْلاً، وأحكمَتْهُ ثم نقضتهُ فجعلته أنْكَاثـاً، والأنكـاثُ: مـا يُقطع من الخيوطِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ ؛ أي تتَّخـذون عـهُودَكم دَخَلاً وخديعةً وغِشًا وخيانةً بينكـم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ ؛ أي لأنْ تكون جماعةٌ هي أعزُّ وأكثرُ مـن جماعـة، قـال مجـاهدُ: (إنَّـهُمْ كَـانُوا يُحَالِفُونَ الْحُلَفَاءَ فَيَجِدُونَ أكْـثَرَ مِنْـهُمْ وَأعَـزَّ، فَيَنْقُضُـونَ حِلْـفَ هَـؤُلاَءِ، وَيُحَـالِفُونَ الأَكْثَرَ، فَنَهَاهُمُ اللهُ عَنْ ذلِكَ)[2].

---

(١) هي رَيْطَةُ بنتُ عمرو بن كعبِ بن ئيم بن مُرَّة. ينظر: تفسير مقاتل بن سـليمان: ج ٢ ص٢٣٥. وفي اللباب في علوم الكتاب: ج ١١ ص١٤٨-١٤٩ نقله عن الكلبي ومقاتل. وذكره مختصراً ابن أبي حاتم في التفسير: الرقـم(١٢٦٤١-١٢٦٤٣) والقرطبي في الجامع لأحكـام القـرآن: ج ١٠ ص١٧١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٥١٨).

وحاصلُ التأويلِ النهيُ عن أن تَحْلِفَ على شيءٍ وهو مُنْطَوٍ على خلافِهِ، وأن يَغُرَّ غَيْرَهُ يَمِينُهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ﴾ ؛ أي إنما يُخبرُكم بأمْرِهِ إياكم بالوفاءِ بالعهد، ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا من الحقِّ والباطلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ؛ أي أهلَ مِلَّةٍ واحدة ودِينٍ واحد، ﴿ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ بتوفيقهِ فَضلاً منه، ﴿ وَلَتُسْـَٔلُنَّ ﴾ ، يوم القيامة، ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ من الخيرِ والشرِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ ؛ أي مَكْراً وخديعةً، ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ ﴾ ؛ فتزلُّوا عن طاعةِ الله كما تَـزلُّ قدمُ الرجلِ، ﴿ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ جعلَ اللهُ زلَّةَ القدَمِ عبارةً عن سُخطِ الله، وثَبَاتَ القَدَمِ عبارةً عن رضَى اللهِ.

وَقِيْلَ: معنى قولهِ تعالى: (فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبوتِهَا) أي فتهلَكُوا بعد أنْ كنتم آمنين، وقال ابنُ عبَّاس: (فَـتَزِلَّ عَـنِ الإيْمَـانِ بَعْـدَ الْمَعْرِفَـةِ)(١). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ ﴾ ؛ يعني العذابَ، ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي بما منَعتُم الناسَ عن دينِ الله، ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ؛ أي لا تختَاروا الحِلْفَ باللهِ كَذِباً عَرَضاً يَسيراً من الدُّنيا، ولكن أوْفُوا بها، ﴿ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي فإنَّ ما عندَ اللهِ من الثواب في الآخرة على الوفَاءِ هو خير لكم مما عِندَكـم، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ ثوابَ اللهِ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص١٧٣؛ قال القرطبي: ((مبالغةٌ في النـهي لعِظَـمِ موقعـهِ في الدين وتردُّده في معاشراتِ الناس؛ أي لا تعقدوا الأيمانَ بالانطواءِ على الخديعـةِ والفسـاد فـتزلَّ قدمٌ بعد ثُبوتها؛ أي عن الإيمان بعد المعرفة بالله. وهـذه اسـتعارةٌ للمسـتقيمِ الحـال يقـعُ في شـرٍّ عظيم ويسقطُ فيه؛ لأن قدمَ الإنسان إذا زلَّت نقلت الإنسانَ مـن حـال الخـيرِ إلى حـال الشـرِّ)). وقلتُ: فالدعوة صريحةٌ إلى حُسـنِ النوايـا وتحسينها في التعـامل وعقـدِ العـهود وأخـذ المواثيـق وإعطائها، ويا ليتَ كثيراً من الناس يعلمون، لصَلُحَ الحال لا محالة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾ ؛ أي يَفْنَى ولا يبقَى، ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ من الثواب في الآخرةِ على الوفاء، ﴿ بَاقٍ ﴾ ، هو خيرٌ لكم مما عندَكم يدومُ ويبقى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ ﴾ ؛ قرأ ابنُ كثيرٍ وعاصم بالنُّون، وقرأ الباقون بالياءِ، ومعناهُ: الذين صَبَروا على الوفاءِ وعلى الطاعةِ، ﴿ أَجْرَهُم ﴾ ؛ بالطاعاتِ، ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ دون إسرَارِها، ويعفُو عن سيِّئاتِها.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ رَجُلاً مِنْ حَضْرَمَوْتَ يُقَالُ لَهُ عِيدَانُ بْنُ الأَشْوَعِ[1] قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ الأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ الْكِنْدِيَّ جَاوَرَنِي فِي أرْضِي فَاقْتَطَعَهَا، فَقَالَ ﷺ: [لِيَشْهَدْ لَكَ أحَدٌ] قَالَ: إنَّ الْقَوْمَ كُلَّهُمْ يَعْلَمُونَ أنِّي صَادِقٌ، وَلَكِنَّهُ أكْرَمُ عَلَيْهِمْ مِنِّي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلأَشْعَثِ: [مَا يَقُولُ صَاحِبُكَ؟] قَالَ: الْبَاطِلَ وَالْكَذِبَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [أتَحْلِفُ ؟] قَالَ: نَعَمْ، فَهَمَّ بالْحَلْفِ.

فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ: (وَلاَ تَشْتَرُوا بعَهْدِ الله ثَمَناً قَلِيلاً...) إلَى آخِرِ الآيَتَيْنِ. فَقَرَأهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الأَشْعَثِ فَقَالَ: أمَّا مَا عِنْدِي فَيَنْفَدُ، وَأمَّا مَا بصَاحِبِي فَيُجْزَى بأَحْسَنَ مَا كَانَ يَعْمَلُ، اللَّهُمَّ إنَّهُ صَادِقٌ فِي مَا قَالَ، لَقَدِ اقْتَطَعْتُ أرْضَهُ، وَاللهِ مَا أدْرِي كَمْ هِيَ، وَلَكِنْ يَأْخُذُ مَا شَاءَ مِنْ أرْضِي وَمِثْلَهَا مَعَهَا بمَا أكَلْتُ مِنْ ثَمَرِهَا. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ بَعْدَ ذلِكَ فِي الأَشْعَثِ[2]:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ؛ أي مَن عَمِلَ صالحاً فيما بينه وبين ربهِ وأقرَّ بالحقِّ وهو مع ذلك مؤمنٌ ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ، قِيلَ: المرادُ بها القَنَاعَةُ بما يُؤتَى من الرِّزق الحلال، كما رُوي عن وهب بن مُنبه أنه قالَ: (الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ الْقَنَاعَةُ بمَا رُزِقَ).

---

(١) في الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٤ ص٧٦٠: الترجمة (٦١٤٩).

(٢) في الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٢ ص٤٧١: ربيعة بن عيدان: الرقم (٢٦١٩)؛ قال ابن حجر: ((رواه الطبراني من طريق عبدالملك بن عمير عن علقمة بن وائل عن أبيه... وذكره)) ثم قال: ((وأصله في مسلم من حديث علقمة دون تسميتهما. وله طرق)).

وَقِيْلَ: هي أنْ يكون صدرهُ مُنفَرجاً بما يعتقدهُ من دلائلِ الله تعالى، وبما يعرفهُ من وجوب مفارقةِ المعاصي، فيصيرُ قليلَ الْهَمِّ في أمور دنياهُ. وَقِيْلَ: الحياة الطيِّبة الجنةُ؛ لأنه لم يَطِبْ لأحدٍ حياةٌ إلاّ فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ أي إذا أردتَ قراءةَ القرآن، ونظيرهُ ﴿إذا قُمْتُمْ إلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[1]، وقولهُ تعالى: ﴿وَإذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾[2].

وفائدةُ الأمرِ بالاستعاذةِ قبلَ القراءةِ نَفْيُ وَسْوَاسِ الشَّيطانِ عند القراءة، وقد أجمعتِ الفقهاءُ على أنَّ الاستعاذةَ قبلَ القراءة إلاَّ ما رُوي عن أبي داود بن عليّ ومالك أنَّهم قالوا: (الاسْتِعَاذةُ بَعْدَ الْقِرَاءَةِ) أخذُوا بظاهرِ الآية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ الشيطانَ ليس له سَلْطَنَةٌ على المؤمنِ إلا في الوسوسةِ، ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ ، على الذين يقبَلون دُعاءَهُ، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ ﴾ ؛ باللهِ، ﴿ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ فإنَّهم جعلُوا له سُلطاناً على أنفُسِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ ؛ أي اذا نسَخنا آيةً أو أتَينا مكانَها أخرى، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ ؛ أي بمصالح العبادِ، يُنَزِّلُ في كُلِّ وقتٍ ما هو الأصلحُ لَهم، ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ ؛ أي قالت كفارُ قريش: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ ﴾ يا مُحَمَّدُ، ﴿ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ كاذبٌ في الناسخِ والمنسوخِ، مختلِقٌ من تلقاءِ نفسِكَ! وذلك أن المشركين قالوا: إنَّكَ يا مُحَمَّدُ تَسْحَرُ أصحابَكَ، وتأمرُهم اليومَ بأمرٍ وتنهاهم عنه غداً! قال اللهُ: ولكنَّ أكثرَهم لا يعلَمُون صدقَ رسولِ الله ﷺ ولا حقيقةَ القرآنِ.

---

(١) المائدة / ٦ .

(٢) الأنعام / ١٥٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي قل نَزَّلَ القرآنَ جبريلُ من ربكَ، ﴿ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ؛ ويُقَوِّيَهم لإيمانِهم؛ ليزدَادُوا تَصديقاً ويقيناً، ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ كَانُوا يَقُولُونَ: إنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وإنَّمَا يُعَلِّمُ النَّبِيَّ بَشَرٌ، أرَادُوا بذلِكَ جَبْراً وَيَسَاراً كَانَا عَالِمَيْنِ نَصْرَانِيَّيْنِ، وكَانَ ﷺ يُحَدِّثُهُمَا وَيُعَلِّمُهُمَا، وَكَانَا يَقْرَءآن كِتَابَهُمَا بالْعَرَبيَّةِ، وَكَانَا قَدْ أسْلَمَا)[1]. وَقِيلَ: كانوا يَعْنُونَ بقولِهم (بَشَرٌ): سلمانَ الفارسيَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ﴾ ؛ أي لسانُ الذي يَميلُونَ إليه ويزعُمون أنَّهُ يُعلِّمُكَ أعْجَمِيٌّ، ﴿ وَهَـٰذَا ﴾ ؛ القرآنُ الذي يقرَءُونَه، ﴿ لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ فكيف يقدرُ الأعجميُّ على تعليم مثلهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ إلى ثوابهِ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ وجيعٌ في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنما يكذبُ على اللهِ مَن لا يؤمنُ بدلائلهِ، بَيَّنَ اللهُ أن الذين نَسبوهُ إلى رسولِ الله ﷺ من الافتراءِ هم أحقُّ به.

وقولُهُ تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون مَن كَفَرَ رفعا على البدلِ من (الْكَاذِبينَ)، ويجوز أن يكون كَلاماً مبتداً، وقولهُ تعالى (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ) خبرٌ له أو خبرٌ لقولهِ (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بالْكُفْرِ صَدْراً). والمرادُ بقولهِ (إلاَّ مَنْ أكْرِهَ): عَمَّارُ بنُ يَاسِرٍ.

رُوي: أنَّ الْمُشْرِكِينَ أخَذُوهُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَعَذبُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ وَذكَرَ آلِهَتَهُمْ بخَيْرٍ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلِكَ تَرَكُوهُ، فَأتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَمْسَحُ الدُّمُوعَ مِنْ عَيْنَيْهِ،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٥٥٢-١٦٥٥٧).

فَأَخْبَرَهُ الْقِصَّةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: [كَيْفَ وَجَدْتَ قَلْبَكَ ؟] قَالَ: مُطْمَئِناً بالإِيْمَانِ، فَقَالَ ﷺ: [إنْ عَادُوا فَعُدْ][(1)].

وقوله عليه السلام: [إنْ عَادُوا فَعُدْ] على جهةِ الإباحة والرُّخصة دون الإيجاب، فإنَّ الْمُكْرَهَ على الكفرِ إذا صبرَ حتى قُتِلَ كان أعظمَ لأجرِهِ، والإكراهُ السماح لإجراءِ كلمة الكُفرِ على اللِّسان، وهو أن يخافَ التلفَ على نفسهِ، أو على عُضوٍ من أعضائهِ إن لم يفعل ما أُمِرَ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾، أي فَسَحَ صدرَهُ للكفرِ بالقَبُولِ وأتى به على الاختيار، ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ قِيْلَ: إنَّها نزلت في أبي سَرْحٍ القرشي رجعَ إلى الشركِ، وباحَ بالكفرِ ولَحِقَ بمكَّةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾؛ أي ذلك العذابُ بأنَّهم اختارُوا الحياةَ الدُّنيا على ثواب الآخرة، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾؛ إلى جنَّتهِ وثوابه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ ﴾؛ أي حَقّاً ﴿ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾؛ أي خَسِروا أنفُسَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ﴾؛ نزلت في قومٍ بمكَّة بعدَ هجرةِ النبيِّ ﷺ إلى المدينةَ، ثم إنَّهم هاجَرُوا إلى المدينةِ من بعدِ ما عذبَهم أهلُ مكة، ﴿ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ ﴾؛ مع النبيِّ ﷺ فصَبَروا على الجهادِ، فوعَدَهم اللهُ المغفرةَ لِمَا كان فيهم من التخلُّفِ عن الهجرةِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص١٧٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٦٥٦٣). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٤١٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

وذلك أنَّهم كانوا مُستضعَفين بمكَّة وكانوا مؤمنين، فعذبَهم أهلُ مكة حتى ارتدُّوا عن الإسلام ليَسْلَمُوا من شرِّهم، ثم هاجَرُوا مِن بعدِ ما فُتنوا؛ أي من بعدِ ما عُذِّبوا، ثم جاهَدُوا مع النبيِّ ﷺ وصَبَروا على الجهادِ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا ﴾ ؛ تلك الفتنةِ وتلك الفِعْلَةِ التي فعلُوها من التلفُّظِ بكلمة الكفرِ، ﴿ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ وقرأ ابنُ عامرٍ (فَتَنُوا) بفتحِ الفاء؛ أي فَتَنُوا أنفسَهم بإظهار ما أظهَرُوا للفتنةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون (يَوْمَ) منصوباً بنَزعِ الخافض أي في يومِ تأتِي كلُّ نفسٍ، ويجوزُ أن يكون المعنى: واذكُرْ يومَ تأتِي كلُّ نفسٍ، وهو يومُ القيامةِ، يجادلُ فيه كلُّ إنسان عن نفسهِ، ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ ﴾ ؛ بَرَّةٍ أو فاجرةٍ، ﴿ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ ، جزاءَ ما عمِلَتْ من خيرٍ أو شرٍّ، لا ينقصُ من ثواب محسنٍ، ولا يزادُ على عقاب مُسِيء.

واختلَفُوا في الْمُجَادَلَةِ المذكورةِ في الآية، قال بعضُهم: هو قولُ الكفَّار: مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ، وقولُهم: رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا. ومعنى الآية: إنَّ كلَّ أحدٍ لا تَهُمُّهُ إلا نفسهُ، فهو يخاصِمُ ويحتجُّ عن نفسه، لا يتفرَّغُ إلى غيرِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ ﴾ ؛ يعني مكَّةَ كان أهلُها آمِنِينَ لا يُهَاجُ أهلُها ولا يُغَارُ عليها، بخلافِ قُرَى سائر العرب، لأن العربَ كانت لا تقصدُ مكَّة احتراماً لِحَرَمِ اللهِ، وقولُهُ تعالى: (مُطْمَئِنَّةً) أي قارَّةً بأهلِها لا يحتاجون إلى الانتجاعِ ولا الانتقال، كما يحتاجُ إليه سائرُ العرب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ ﴾ ؛ أي كان الرزقُ واسِعاً على أهلِ مكَّة يُحمَلُ إليهم من البَرِّ والبحر، كما قالَ تعالى ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[(١)]، ﴿ فَكَفَرَتۡ ﴾ ؛ فكفَرَ أهلُ مكَّة، ﴿ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ ﴾ ، حين كذبُوا مُحَمَّدٍ ﷺ وخالفوهُ، وكذبُوا بالقرآن بعدَ قيام الحجَّة عليهم، ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ ﴾ ، فعاقَبَهم اللهُ سبعَ سنين بالقَحْطِ، وخوَّفَهم من النبيِّ ﷺ ومن عساكرِهِ وسراياهُ، ﴿ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ، من تكذيبِهِ.

(١) القصص / ٥٧ .

رُوي أنه بَلَغَ بهم من الجوعِ ما لا غايةَ بعدَهُ حتى أكلُوا العظامَ الْمُحْرَقَة والْجِيَفَ والكلابَ، وكان ذلك بدعاءِ النبيِّ ﷺ: [اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ سِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ][1] فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ حتى صارَ أمرُهم إلى هذه الحالةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ ؛ أرادَ بهِ مُحَمَّداً ﷺ، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ ؛ الذي تقدَّمَ ذِكرهُ من الجوعِ والخوف، ﴿ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ وكانوا ظَالِمين لأنفسهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ أي كُلُوا يا معشرَ المؤمنين مما رزَقَكم اللهُ حَلالاً طيِّباً إلى آخرِ الآيتين، قد تقدَّمَ تفسيرهُما في سورة البقرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ ؛ أي ولا تقولُوا الكذبَ لِمَا تصفهُ ألسِنتُكم بالحلِّ والحرمةِ، فتُحِلُّوا الميتةَ، وتُحَرِّمُوا بعضَ الزَّرعِ والأنعامِ، كما تقدَّم ذِكرهُ في سورةِ الأنعام. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ ؛ أي لتَكْذِبُوا على اللهِ بقَولِكم إنَّ هذا من عندِ الله.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ أي لا يَظْفَرونَ بالْمُرادِ، ولا يَنْجُونَ يومَ القيامةِ، إنما لهم في الدُّنيا ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ ؛ ثم يتعقَّبُهم، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أرادَ به ما بَيَّنَهُ اللهُ في سورةِ الأنعامِ، وقد تقدَّمَ هناك، وفيه بيانُ أن التحريمَ الذي كان في اليهودِ كان من قِبَلِ اللهِ، وأنه مخالفٌ للتحريمِ الذي كان في كفَّار مكة. وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأذان: باب يهوي بالكبير حين يسجد: الحديث (٨٠٤). ومسلم في الصحيح: كتاب المساجد وموضع الصلاة: باب استحباب القنوت: الحديث (٢٩٥/ ٦٧٥).

ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ ؛ أي وما ظلَمناهم بتحريم ذلك، فإنَّ تحريْمَها كان عقوبةً لهم، ولا تكون العقوبةُ ظُلماً، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ؛ بمخالفتِهم أمرَ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ مَن ارتكبَ المعاصي، وخالفَ أمرَ اللهِ، واستعملَ الجهالةَ في ارتكابهِ، لَمْ يَمْنَعْهُ ذلك من التوبةِ، فإنه إذا تابَ وأصلحَ في المستقبلِ، مَحَا اللهُ عنه كلَّ السيئاتِ، قال ابنُ عبَّاس: (كُلُّ سُوءٍ يَعْمَلُهُ ابْنُ آدَمَ فَهُوَ جَاهِلٌ فِيْهِ، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أنَّ ارْتِكَابَهُ رُكُوبَ سَيِّئَةٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ إبراهيمَ كان هو القُدْوَةَ للناس بالخيرِ، وسُمِّيَ الإمامُ (أمَّةً)؛ لأنه يجمعُ خِصَالَ الخيرِ، ويقالُ للرجلِ الْمُنْفَرِدِ بدِينٍ لا يشركهُ فيه غيره: أمَّةٌ، ويقالُ للعالِمِ: أمَّةُ، والأُمَّةُ: الرجلُ الجامعُ للخيرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَانِتاً للهِ حَنِيفاً) القَانِتُ: هو الدائمُ على الطاعةِ، والقُنُوتُ: هو الدوامُ على الطاعةِ، والقَانِتُ: هو المطيعُ، والحنيفُ قد تقدَّم تفسيرهُ، ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ؛ كما ادَّعاهُ كفارُ قريش، فإنَّهم يدَّعون أنَّهم يتبعون دينَ إبراهيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ ؛ أي كان إبراهيمُ شَاكرًا لنِعَمِ اللهِ عليه، وانتصبَ قولهُ (شَاكِراً) على البدَلِ من قولهِ (أمَّةً قَانِتاً). وقوله: ﴿ ٱجْتَبَٰهُ ﴾ ؛ أي اصْطَفَاهُ بالنبوَّةِ واختارَهُ، ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ ؛ أي إلى دينِ الإسلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي الذِّكْرَ الْحَسَنَ)، وقال الحسنُ: (هِيَ النُّبُوَّةُ)، وقال مجاهدُ: (لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ)(١) وقال مقاتلُ: (يَعْنِي الصَّلاَةَ عَلَيْهِ مَقْرُونَةً بالصَّلاَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ ؛ أي مع الْمُرْسَلِينَ في الجنَّة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٥٩٤).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ ؛ أي أمَرْنَاكَ يا مُحَمَّدُ باتِّباعِ مِلَّةِ إبراهيمَ في مُجانَبةِ الكفَّـار، كما كان إبراهيمُ يَتَجَنَّبُهم.

فإنْ قِيْلَ:كيف يجوزُ أن يُوصِي الفاضلَ بمتابعةِ المفضُول، ونبيُّنا مُحَمَّـد ﷺ كـان أفضلَ الأنبياءِ ؟ فكيفَ أمرَهُ الله بمتابعةِ إبراهيمَ عليه السلام ؟ قِيْلَ: إنَّ إبراهيمَ عليه السلام كان قد سَبَقَ إلى اتِّباعِ الحقِّ، ولا يكون في سَبْقِ المفضولِ إلى اتِّباعِ الحقِّ عيبٌ على الفـاضلِ في اتِّباعهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ وهـم اليـهودُ، وذلك أنَّ موسى قال لبَني إسرائيلَ: تفرَّغُوا إلى اللهِ في كـلِّ سـبعةِ أيَّـام يومـاً واحـداً، فاعبدوهُ في يومِ الجمعةِ، ولا تعملُوا فيه شيئاً من أمُـور الدُّنيـا، وسـتَّة أيـامٍ لمعايشِـكم وصنائعِكم، فأَبَوا أن يقبَلُوا ذلكَ منهُ، وقالوا: لاَ نبتَغِي إلاَّ اليومَ الـذي فـرَغَ فيـه مِـن الخلقِ، يعنون السَّبت، فجعلَ ذلك عليهم فيهِ، وقالت جماعةٌ منهم: بل أعظمُ الأيَّامِ يومُ الأحَدِ؛ لأنه اليومُ الذي بدأ اللهُ فيه بخلقِ الأشياءَ، فاختارُوا تعظيمَ غيرِ مـا فَـرَضَ اللهُ عليهم؛ أي ترَكُوا تعظيمَ يومِ الجمعة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ ؛ أي أدعُ إلى سـبيلِ ديـن الله (بالْحِكْمَـةِ) يعـني بـالنبوَّةِ، (وَالْمَوْعِظَـةِ) يعـني القـرآنَ، وَقِيْـلَ: التخويفُ بالعذاب على جهةِ إظهار الشَّفقة عليهم ليكون ذلـك أقـربَ إلى إجابتـهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ ؛ أي بالرِّفقِ واللُّطفِ، وذِكـرِ أحسـنِ ما عنده من الحجَجِ، وأعرضْ عن أذاهُم، ولا تقصِّر في أداءِ الرسالة والدُّعاء إلى الحقِّ، قِيْلَ: إن هذه الآيةَ نسَـخَتها آيـةُ السَّـيف. وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ أي هو أعلـمُ بمَـن يقبـلُ الهـدى ومَن لا يقبلهُ، فيجزي كُلاً على ما عَمِلَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ ﴾ ؛ وذلـك أنَّ حمزةَ ابنَ عبدِالمطَّلب وأصحابه الذين قُتلـوا يـومَ اُحُـد مَثَّـلَ بـهم المشـرِكون، عَمَـدُوا

إلى حمزةَ فشَقُّوا بطنَهُ، وأخذت منه هندُ بنت عتبة كَبدَهُ، فجعلت تلوكُها ثم تطرحُها، وقطَعُوا مذاكيرَهُ وجدَعُوا أنفه وأذُنيه، ومثَّلوا به أشدَّ الْمُثْلَةِ، وكذلك سائرُ شهداء أحُد مَثَّلَ بهم المشركون، بقَرُوا بطونَهم، وقطعُوا مذاكيرَهم.

فلما نَظَرَ رسولُ الله ﷺ إلى عمِّه حمزةَ لم ينظُرْ إلى شيءٍ قَطُّ أوجعَ إلى قلبهِ منه، فقال: [رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ، فَإنَّكَ كُنْتَ فَعَّالاً لِلخَيْرِ، وَصَّالاً لِلرَّحِمِ، وَاللهِ لَئِنْ أظْفَرَنِي اللهُ بهمْ لأَقْتُلَنَّ بكَ سَبْعِينَ مِنْهُمْ، وَلأُمَثِّلَنَّ سَبْعِينَ مِنْهُمْ] وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لَئِنْ أمْكَنَنَا اللهُ مِنْهُمْ لَنُمَثِّلَنَّ بالأَحْيَاءِ فَضْلاً عَنِ الأَمْوَاتِ. فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ (وَإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ)﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾؛ فقالَ ﷺ: [أصْبِرُ وَلاَ أمَثِّلُ] وكفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ[1]، فنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾؛ أي ما صبرُكَ إلاّ بمعونةِ الله وتوفيقه، ولا تقدرُ على الصَّبرِ في الحزن الذي لَحِقَكَ بسبب الشُّهداء، إلا أنْ يُسَهِّلَ اللهُ عليكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾؛ أي لا تحزنْ على الكفَّار إذا امتنعُوا من الاستجابةِ لكَ. وَقِيْلَ: لا تحزنْ على الشُّهداء، فإن اللهَ أنزلَهم منَازلَهم في الجنَّة، لو رأيتَهم في الكرامةِ التي أكرَمَهم اللهُ بها لَغَبطْتَهُمْ عليها. قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾؛ أي لا يَضِيقُ صَدرُكَ من مَكرهم، فيكون ذلك شَاغلاً عن ما كُلِّفْتَهُ من الدُّعاء إلى سَبيل ربكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾؛ أي مع المتَّقِينَ الْمُحسِنِينَ، وهم المسلمون يَنصرُهم ويُظهِرُهم على الكفار ويُعِينُهم عليه.

آخر تفسير سورة (**النحل**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الدارقطني في السنن: ج ٤ ص١١٨: كتاب السير: الحديث (٤٧).

سُورَةُ الإسْرَاءِ

سُورَةُ بَنِي إسْرَائِيلَ مَكِّيَّةٌ، إلاَّ ثَمَان آيَاتٍ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونكَ عَنِ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾، فَإنَّهَا مَدَنِيَّاتٌ، وَهِيَ سِتُّ آلاَفٍ وَأرْبَعُمِائَةٍ وَسِتَّةٌ وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَألْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ وَثَلاَثٌ وَثَلاَثُونَ كَلِمَةً، وَمِائَةٌ وَإحْدَى عَشْرَةَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [وَمَنْ قَرَأهَا فَرَقَّ قَلْبُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْوَالِدَيْنِ، أعْطِيَ مِنَ الْجَنَّةِ قِنْطَارَيْنِ مِنَ الأَجْرِ!] وَالْقِنْطَارُ ألْفٌ وَمِئَتَا أوْقِيَّةٍ، وَالأوْقِيَّةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ ؛ أي سُبحان الذي أسْرَى بعبدهِ مُحَمَّدٍ ﷺ في ليلةٍ واحدة من مَسجِدِ مكَّة إلى مسجدِ بيتِ المقدس.

وسُمِّي مسجدُ بيتِ المقدس المسجدَ الأقصى؛ لأنه لم يكن وراءَهُ مسجدٌ يُعْبَدُ اللهُ فيه. وقيل: لأنه أبعدُ المساجدِ التي تُزار، قالَ ﷺ: [أنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحِجْرِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ، إذْ أتَانِي جِبْرِيلُ بالْبُرَاقِ...] وذكرَ حديث المعراجِ[2].

---

(١) تقدم أنه حديث لا يصح.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٠٥؛ قال القرطبي: ((ثبتَ الإسراءُ في جميع مصنَّفات الحديث، ورُوي عن الصحابةِ في كلِّ أقطار الإسلام، فهو من المتواترِ بهذا الوجه. وذكرَ النقاشُ عمَّن رواه عشرين صحابيّاً)). وفي الصحيح أخرجه البخاري: كتاب الصلاة: باب كيف فرضت الصلاة: الحديث (٣٤٩). والطبري في جامع البيان: الحديث (٧/ ١٦٦ و٩/ ١٦٦) بطوله.

وقال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أسْرِيَ بهِ مِنْ بَيْتِ أمِّ هَانِئ بنْتِ أبي طَالِبٍ أخْتِ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ، وَالْحَرَمُ كُلُّهُ مَسْجِدٌ). وعن الكلبي عن أبي صالح عن أمِّ هانئ أنَّها كانت تقولُ: (مَا أسْرِيَ برَسُولِ اللهِ ﷺ إلاَّ وَهُوَ فِي بَيْتٍ)، قال مقاتلُ: (كَانَ الإسْرَاءُ قَبْلَ الْهجْرَةِ بسَنَةٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) صفةُ بيتِ المقدس، بارَكَ الله فيما حولَهُ بالأشجار والأثمار والأنهار حتى لا يحتَاجُون إلى أنْ يُجلَبَ إليهم من موضعٍ آخر. وَقِيْلَ: يَعْنِي (بَارَكْنَا حَوْلَهُ): جعلنَاهُ مَوضعاً للأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، وفيه مَهبطُ الملائكةِ، وفيه الوحيُ، وفيه الصَّخرةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ ؛ أي من عَجائب قُدرَتِنا، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ لمقالةِ قُريشٍ وإنكارهم ﴿ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾ ؛ بهم وبأعمالهم.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أسْرِيَ بي وَأنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَان، جَاءَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام وَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ قُمْ، فَقُمْتُ فَإذا جِبْرِيلُ مَعَهُ مِيكَائِيلُ، فَقَالَ لِي: تَوَضَّأْ، فَتَوَضَّأْتُ، ثُمَّ قَالَ لِي: انْطَلِقْ يَا مُحَمَّدُ، فَقُلْتُ: إلَى أيْنَ ؟ فَقَالَ: إلَى رَبكَ. فَأخَذ بيَدِي وَأخْرَجَنِي مِنَ الْمَسْجِدِ، فَإذا بالْبُرَاق دَابَّةٌ فَوْقَ الْحِمَار وَدُونَ الْبَغْلِ، خَدُّهُ كَخَدِّ الإنْسَان، وَذنَبُهُ كَذنَب الْبَعِير، وَأظْلاَفُهُ كَأظْلاَفِ الْبَقَر، وَصَدْرُهُ كَأنَّهُ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ، وَظَهْرُهُ كَأنَّهُ دُرَّةٌ بَيْضَاءُ، عَلَيْهِ رَحْلٌ مِنْ رحَال الْجَنَّةِ، خَطْوُهُ مُنْتَهَى طَرْفِهِ. فَقَالَ لِي: ارْكَبْ، فَلَمَّا وَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ شَمَسَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: مَهْلاً يَا بُرَاقُ؛ أمَا تَسْتَحِي! فَوَاللهِ مَا رَكِبَكَ نَبِيٌّ أكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذا، هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ. فَارْتَعَشَ الْبُرَاقُ، وَتَصَبَّبَ عَرَقاً حَيَاءً مِنْ رَسُول اللهِ ﷺ، ثُمَّ خَفَضَ حَتَّى لَزَقَ بالأرْضِ، فَرَكِبْتُهُ وَاسْتَوَيْتُ عَلَى ظَهْرِهِ.

قَامَ جِبْرِيلُ نَحْوَ الْمَسْجِدِ الأقْصَى يَخْطُو مَدَّ الْبَصَر، وَالْبُرَاقُ يَتْبَعُهُ لاَ يَفُوتُ أحَدُهُمَا الآخَرَ حَتَّى أتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِس، فَإذا بالْمَلاَئِكَةِ قَدْ نَزَلُوا مِنَ السَّمَاءِ يَتَلَقَّوْنِي بالْبشَارَةِ وَالْكَرَامَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَلَمَّا وَصَلْتُ بَابَ الْمَسْجِدِ أنْزَلَنِي جِبْرِيلُ، وَرَبَطَ الْبُرَاقَ بالْحَلَقَةِ الَّتِي كَانَتْ تَرْبطُ بهَا الأنْبيَاءُ، وَكَانَ لِلْبُرَاق خِطَامٌ مِنْ حَرِير الْجَنَّةِ، فَصَلَّيْتُ فِي الْمَسْجِدِ رَكْعَتَيْنِ، وَالْمَلاَئِكَةُ خَلْفِي صُفُوفاً يُصَلُّونَ مَعِي.

ثُمَّ أخذ جِبْرِيلُ بِيَدِي، وَانْطَلَقَ بي إِلَى الصَّخْرَةِ فَصَعَدَ بي عَلَيْهَا. وَإِذا مِعْرَاجٌ أَصْلُهُ عَلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَرَأسُهُ مُلْتَصِقٌ بالسَّمَاءِ، إِحْدَى عَارِضَيْهِ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاء وَالأُخْرَى زُبُرْجُدَةٌ خَضْرَاءُ، وَدَرَجُهُ زُمُرُّدٌ مُكَلَّلٌ بالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، فَاحْتَمَلَنِي جِبْرِيلُ حَتَّى وَضَعَنِي عَلَى جَنَاحَيْهِ، ثُمَّ صَعَدَ بي ذلِكَ الْمِعْرَاجَ حَتَّى وَصَلَ بي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

فَقَرَعَ الْبَابَ فَقِيلَ: مَنْ هَذا ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قَالُوا: مَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. فَفَتَحُوا الْبَابَ فَدَخَلْنَا، فَقَالُوا: مَرْحَباً وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَلَىآدَمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذا ؟ قَالَ: أَبُوكَ آدَمُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: مَرْحَباً بكَ، بالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى أتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَفَتَحُوا لَنَا وَقَالُوا: مَرْحَباً برَسُول اللهِ ﷺ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ رَسُولُ اللهِ، فَأَتَيْتُ عَلَى عِيسَى وَيَحْيَى فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذان؟ قَالَ: عِيسَى وَيَحْيَى ابْنَا الْخَالَةِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمَا، فَقَالاَ: مَرْحَباً بالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقَالُوا: مَنْ هَذا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ وَمَعِي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَفَتَحُوا وَقَالُوا: مَرْحَباً بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَلَى يُوسُفَ عليه السلام فَقَالَ: مَرْحَباً بالأَخِ الصَّالِحِ .

ثُمَّ أتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابعَةَ فَكَانَ مِنَ الاسْتِفْتَاحِ وَالْجَوَاب مِثْلَ مَا تَقَدَّمْ، فَوَجَدْتُ إِدْرِيسَ فَقَالَ لِي: مَرْحَباً بالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. وَفِي السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ وَجَدْتُ هَارُونَ فَقَالَ لِي كَذلِكَ، وَفِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ وَجَدْتُ مُوسَى فَقَالَ لِي كَذلِكَ، وَفِي السَّمَاءِ السَّابعَةِ وَجَدْتُ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِي: مَرْحَباً بالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِنَّ نَبقَهَا مِثْلَ قِلاَل هَجَرٍ، وَوَرَقُهَا كَأذان الْفِيَلَةِ، وَرَأيْتُ أرْبَعَةَ أنْهَارٍ تَجْرِي مِنْ أصْلِهَا، فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ الأَنْهَارُ؟ فَقَالَ: النَّهْرَان الْبَاطِنَان فِي الْجَنَّةِ، وأمَّا النَّهْرَان الظَّاهِرَان فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ، وَفِيهَا مَلاَئِكَةٌ لاَ يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إلاَّ اللهُ، وَمَقَامُ جِبْرِيلَ فِي وَسَطِهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَيْهَا فَقَالَ لِي جِبْرِيلُ: تَقَدَّمْ، فَقُلْتُ: تَقدَّمْ أنْتَ يَا جِبْرِيلُ! فَقَالَ: بَلْ تَقَدَّمْ أنْتَ يَا مُحَمَّدُ؛ فَأنْتَ أكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنِّي.

قَالَ: فَتَقَدَّمْتُ وَجِبْرِيلُ عَلَى إثْرِي حَتَّى انْتِهَائِي إلَى حِجَابٍ مِنْ ذهَبٍ، فَحَرَّكَهُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذا ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ وَمَعِي مُحَمَّدٌ، فَأَخْرَجَ الْمَلَكُ يَدَهُ مِنْ تَحْتِ الْحِجَابِ، فَاحْتَمَلَنِي وَتَخَلَّفَ جِبْرِيلُ، فَقُلْتُ: إلَى أيْنَ؟ فَقَالَ: وَمَا مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ، وَإنَّمَا أذِنَ لِي فِي الدُّنُوِّ مِنَ الْحِجَابِ لإكْرَامِكَ وَإجْلاَلِكَ. فَانْطَلَقَ بي الْمَلَكُ فِي أسْرَعِ مِنْ طُرْفَةِ عَيْنٍ إلَى حِجَابٍ آخَرَ، فَحَرَّكَهُ فَقَالَ الْمَلَكُ: مَنْ هَذا ؟ فَقَالَ: هَذا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعِي، فَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنَ الْحِجَابِ، فَاحْتَمَلَنِي حَتَّى وَسِعَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَلَمْ أزَلْ كَذلِكَ مِنْ حِجَابٍ إلَى حِجَابٍ حَتَّى سَبْعِينَ حِجَاباً، غِلَظُ كُلِّ حِجَابٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمَا بَيْنَ الْحِجَابِ إلَى الْحِجَابِ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، ثُمَّ احْتُمِلْتُ إلَى الْعَرْشِ]. فانتهَى رسولُ اللهِ ﷺ إلى حيثُ شاءَ اللهُ، ورأى من العجائب والقدرة ما شاءَ اللهُ.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [أمِرْتُ بخَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ، فَأقْبَلْتُ حَتَّى أتَيْتُ مُوسَى، فَسَألَنِي: بمَ أمِرْتَ؟ فَقُلْتُ: بخَمْسِينَ صَلاَةً، فَقَالَ: إنَّ أمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذلِكَ، فَارْجِعْ إلَى رَبكَ فَاسْألْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ، فَقَالَ: فَرَجَعْتُ إلَى رَبي فَحَطَّ عَنِّي خَمْساً، فَأقْبَلْتُ حَتَّى أتَيْتُ مُوسَى فَذكَرْتُ لَهُ ذلِكَ، فَقَالَ لِي: ارْجِعْ فَاسْألْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ فَحَطَّ عَنِّي خَمْساً أخْرَى، فَلَمْ أزَلْ كَذلِكَ يَقُولُ لِي مُوسَى: ارْجِعْ وَاسْألْهُ التَّخْفِيفَ، وَأنَا أرْجِعُ حَتَّى بَقِيَتْ خَمْسُ صَلَوَاتٍ، فَقَالَ لِي مُوسَى: اسْألْهُ التَّخْفِيفَ، فَقُلْتُ لَهُ: لَقَدْ رَجَعْتُ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبي، فَنُودِيتُ: أنْ قَدْ أمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَلَى عِبَادِي وَجَعَلْتُ كُلَّ حَسَنَةٍ بعَشْرِ أمْثَالِهَا][(١)].

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي آخِرِ اللَّيْلِ إلَى مَكَّةَ وَأخْبَرَ قُرَيْشاً كَذبُوهُ، ثُمَّ سَألُوهُ عَنْ صِفَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَمَا كَانَ عَنْ يَمِينِهِ حِينَ دَخَلَ، وَمَا كَانَ عَنْ يَسَارِهِ حِينَ خَرَجَ، وَمَا اسْتَقْبَلَهُ، فَأخْبَرَهُمْ بصِفَاتِهَا كُلِّهَا، وَقَالَ: [مَرَرْتُ عَلَى

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٠٨؛ قال القرطبي: (وهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسراء خاصة عن الصحيحين، ذكرها أبو الربيع سليمان بن سبع بكمالها في كتاب (شفاء الصدور) له).

عِير بَنِي فُلاَن، وَهِيَ بالرَّوْحَاءِ وَقَدْ أضَلُّوا بَعِيراً لَهُمْ وَهُمْ فِي طَلَبِهِ] قَالُوا: فَأَخْبِرْنَا عَنْ عِيرِنَا نَحْنُ، قَالَ: مَرَرْتُ بهَا بالتَّنْعِيمِ، قَالُوا: فَمَا عِدَّتُهَا وَأحْمَالُهَا وَهَيْئَتُهَا؟ قَالَ: [كَذا وَكَذا، وَفِيهَا فُلاَنٌ، وَتَقَدَّمَهَا جَمَلٌ أوْرَقُ عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ مَخِيطَانَ، تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ].

قال: فَخَرَجُوا يَشْتَدُّونَ نَحْوَ الثَّنِيَةِ وَهُمْ يَقُولُونَ: لَقَدْ وَصَفَ مُحَمَّدٌ شَيْئاً فَسَنُكَذِّبُهُ، فَلَمَّا أتَوا كِدَاءَ جَلَسُوا عَلَيْهَا، فَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ مَتَى تَطْلُعُ الشَّمْسُ فَيُكَذِّبُوهُ، إذْ قَائِلٌ مِنْهُمْ يَقُولُ: هَذِهِ وَاللهِ الشَّمْسُ قَدْ طَلَعَتْ، وَقَالَ آخَرُ: وَهَذِهِ الْعِيرُ قَدْ طَلَعَتْ يَقْدِمُهَا بَعِيرٌ أوْرَقُ، فِيهَا فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يُفْلِحُوا).

وَسَعَى نَاسٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إلَى أبي بَكْرٍ وَقَالُوا: هَذا صَاحِبُكَ يَزْعُمُ أنَّهُ قَدْ أسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إلَى الشَّامِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَرَجَعَ قَبْلَ الصُّبْحِ، قَالَ: (فَكَيْفَ لاَ أصَدِّقُهُ عَلَى ذلِكَ ؟!) قَالُوا: أتُصَدِّقُهُ أنَّهُ ذهَبَ إلَى الشَّامِ ؟ فَقَالَ: (إنْ كَانَ قَالَ ذلِكَ فَقَدْ صَدَقَ) قَالُوا: أتُصَدِّقُهُ أنَّهُ ذهَبَ إلَى الشَّامِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَرَجَعَ قَبْلَ الصُّبْحِ؟ قَالَ: (فَكَيْفَ لاَ أصَدِّقُهُ عَلَى ذلِكَ) فَسُمِّيَ أبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ. وأما المشركون فقالوا: ما سَمعنا بهذا قطّ، إنْ هذا إلا سحرٌ مبين[1].

فإنْ قِيْلَ إنما قالَ اللهُ (أسْرَى بعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) فلِمَ قُلتم أسرى به إلى السَّماء ؟ قُلنا: الأخبارُ في ذلك متواترةٌ ظاهرة، وما ذكَرَهُ في سورةِ النجم دليلٌ على صحَّة ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ؛ أي أعطَينا موسَى التوراة وجعلناهُ دلالةً لبني إسرائيل، ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ﴾ ؛ رَبّاً، ولا تتوكَّلوا على غَيري، ومَن قرأ (ألاَّ تَتَّخِذُوا) بالتاءِ، فهو على الخطاب بعد الغَيبَةِ مثلُ ﴿الْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِينَ﴾ ثم قالَ: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص١٨٦-١٨٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم... وذكره)). وذكره ابن أبي حاتم مطولاً في التفسير: ج ٧ ص٢٣٠٩: الأثر (١٣١٨٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي يا ذرِّيةَ مَن حَمَلنا مع نُوحٍ، والناسُ كلُّهم ذريةُ نوحٍ، ثم اثنى على نوحٍ فقال: (إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) لنِعَمِ اللهِ، كان إذا أكلَ أو شَرِبَ أو اكتسَى أو احتذى قال: الْحَمْدُ للهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ؛ أي أخبرناهُم في التوراةِ، ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ ؛ أي لتعْصُنَّ كرَّتَين بقتلِ النُّفوس، وتخريب الديار، وأخذِ الأموال، ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ ولتظلمُنَّ ظُلماً عظيماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ؛ أي سلَّطنا عليكم عِبَاداً لنا ذوي عُدَّة في القتال، ﴿ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (وَهُمْ بَخِتْنَصَّرَ وَأصْحَابُهُ الْمَجُوس، سَلَّطَهُمُ اللهُ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ حِينَ عَصَتْ فِي أوَّلِ الْفَسَادَيْنِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ بَخِتْنَصَّرَ ارْبَعِينَ الْفاً مِمَّنْ كَانَ يَقْرَأ التَّوْرَاةَ، وَدَخَلَ دِيَارَهُمْ وَطَلَبَهُمْ طَلَباً شَدِيداً حَتَّى كَانُوا يَنْظُرُونَ فِي الأَزِقَّةِ وَالْبُيُوتِ، هَلْ بَقِيَ أحَدٌ لَمْ يَقْتُلُوهُ، وَاسْتَأْسَرُوا مَنْ بَقِيَ بَعْدَ الأَرْبَعِينَ الْفاً، وَمَضَوا بهِمْ إلَى بلاَدِهِمْ، فَمَكَثَ الأَسَرَاءُ فِي أيْدِيهِمْ تِسْعِينَ سَنَةً حَتَّى مَاتَ بَخِتْنَصَّرَ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي وَعداً كَائناً لا محالةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي جعَلنا لكم الدولةَ والرجعةَ عليهم، ﴿ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾ ؛ أي واعطيناكم أمْوَالاً وبنين، ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي أكثرَ عَدَداً ينفِرُون إليهم.

وذلك انَّ رجُلاً من أهلِ الكتاب يقالُ له: كُورشُ غزَا أرضَ بابل، وهي بلادُ بَخِتْنَصَّرَ، فظهرَ عليهم فقتَلَهم وسكنَ ديارَهم، وتزوَّجَ امرأةً مِن بني إسرائيلَ أختُ مَلكِ بني إسرائيلَ، فطلَبت من زوجِها أن يَرُدَّ قومَها إلى أرضِهم ففعلَ، فمكثَ في بيتِ المقدس مِائتين وعشرين سنةً، وقامت بينهم الأنبياءُ، ورجَعُوا الى أحسنَ ما كانوا عليهِ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ) .

وعن حذيفةَ بن اليمان قالَ: قال رسولُ الله ﷺ في هذهِ الآيةِ: [إنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ لَمَّا اعْتَدَوا وَقَتَلُوا الأَنْبيَاءَ، بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَلِكَ الرُّومِ بَخِتْنَصَّرَ، فَسَارَ إلَيْهِمْ

حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَحَاصَرَهُمْ وَفَتَحهَا، فَقَتَلَ عَلَى دَمِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا أرْبَعِينَ ألْفاً – وَقِيْلَ: سَبْعِينَ ألْفاً – وَسَبَى أهْلَهَا، وَسَلَبَ حُلِيَّ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ ابْنُ دَاوُدَ قَدْ بَنَاهُ مِنْ ذهَبٍ وَيَاقُوتٍ وَزَبَرْجَدٍ، وَعَمُودُهُ ذهَبٌ، أعْطَاهُ اللهُ ذلِكَ وَسَخَّرَ الشَّيَاطِينَ لَهُ يَأتُونَهُ بهَذِهِ الأَشْيَاءِ.

ثُمَّ سَارَ بَخْتَنَصَّرَ بالأَسَارَى حَتَّى نَزَلَ بَابلَ فَأقَامَ بَنُو إسْرَائِيلَ فِي مُدَّتِهِ سَنَةً تَتَعَبَّدُ الْمَجُوسَ وَأبْنَاءَ الْمَجُوسِ، ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعَالَى رَحِمَهُمْ فَسَلَّطَ مَلِكاً مِنْ مُلُوكِ فَارس يُقَالُ لَهُ كُورشُ وَكَانَ مُؤْمِناً، فَسَارَ إلَيْهِمْ فَاسْتَنْقَذ بَنِي إسْرَائِيلَ مِنْهُمْ، وَاسْتَنْقَذ حُلِيَّ بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى رَدَّهُ إلَيْهِ، فَأقَامَ بَنُو إسْرَائِيلَ مُطِيعِينَ اللهَ زَمَاناً، ثُمَّ عَادُوا إلَى الْمَعَاصِي، فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَلِكاً آخَرَ وَحَرَقَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَسَبَاهُمْ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَإذا جَاءَ وَعْدُ أولاَهُمَا) يعني أولى الْمَرَّتَين، واختلَفُوا فيها، فعلى قول قتادة: (إفْسَادُهُمْ فِي الْمَرَّةِ الأُوْلَى مَا تَرَكُوا مِنْ أحْكَامِ التَّوْرَاةِ، وَعَصَوا رَبَّهُمْ وَلَمْ يَحْفَظُوا أمْرَ نَبيِّهِمْ مُوسَى، وَرَكِبُوا الْمَحَارمَ).

وعن ابنِ مسعود ﷺ: (أنَّ الْفَسَادَ الأَوَّلَ قَتْلُ زَكَرِيَّا)[2]، وَقِيْلَ: قَتْلُهُمْ شَعْيَا نَبيُّ اللهِ فِي الشَّجَرَةِ، قال ابنُ اسحق: (إنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ أخْبَرَهُ أنَّ زَكَرِيَّا مَاتَ مَوْتاً وَلَمْ يُقْتَلْ، وَإنَّمَا الْمَقْتُولُ شَعْيَا)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا) يعني جَالُوتَ وجنودَهُ، وقال ابنُ اسحق: (بَخْتَنَصَّرُ الْبَابليُّ وَأصْحَابُهُ، أوْلِي بَأسٍ شَدِيدٍ؛ أيْ ذوي بَطْشٍ شَدِيدٍ فِي الْحَرْب، فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَار؛ أيْ طَافُوا وَدَارُوا). وقال الفرَّاء: قتلوكم بين بيوتكم[4]، قال حَسَّانُ[5]:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٦٦٤٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٦٤٧) عن ابن عباس وعن ابن مسعود.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٠٦ ذكره القرطبي.

(٤) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص١١٦.

(٥) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢١٦.

وَمِنَّا الَّذِي لاَقَى بسَيْفِ مُحَمَّدٍ فَجَاسَ بِهِ الأَعْدَاءَ عَرْضَ الْعَسَاكِرِ

وَقِيْلَ: (فَجَاسُوا) أي طلَبُوا مَن فيها كما تُجَاسُ الأخبارُ.

وقولهُ تعالى: (فَإذا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ) أي المرَّة الآخرة، وهو قصدُهم قتلَ عيسى حين رُفِعَ، وقتلُهم يحيى بن زكريَّا عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ، فسلَّطَ الله عليهم طَطُوسُ بن استيباتيُوس فَارسَ وَالرُّومَ حِينَ قَتَلُوهُمْ وسَبَوهم، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ) .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ أي منفعةُ إحسَانِكم راجعةٌ إليكم، ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ ؛ أي فإلى أنفسِكم، ولم يقل فإليها على جهةِ المقابلة للكلامِ الأول، ومثلُ هذه الحروفِ قد تُقام بعضُها مقامَ بعضٍ، كما في قولهِ تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[1] أي إليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ ؛ أي وعدَ المرَّة الآخرة في الفسادِ، ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ ؛ بالقتلِ والسَّبي، ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ ؛ أي مسجدَ بيتِ المقدس، ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ ﴾ ؛ دخلَهُ بَخْتِنَصِّر وأصحابُهُ، ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي وليُخَرِّبوا ما علَوا عليه تخريباً، والتَّبارُ والرَّماد والهلاكُ بمعنى واحدٍ.

ذلك أن اللهَ سلَّطَ عليهم بعدَ مائتين وعشرين سنةً ططوس بن استيباتوس الرومي، فحاصَرَهم وقَتَلَ منهم مائةَ ألفٍ وثمانين، وخرَّبَ بيتَ المقدس، وذلك بعدَ قَتلِهم يحيى عليه السلام، فلم يزَلْ كذلك خَراباً إلى أن بناهُ المسلمون، فلم يدخلْهُ رُوميٌّ بعدَ ذلكَ إلا خائفاً، كما قالَ تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أنْ يَدْخُلُوهَا إلا خَائِفِينَ﴾[2] .

وذهبَ بعضُهم إلى أن بَخِتْنَصَّرَ غَزَا بني إسرائيلَ مرَّتين، ففتحَ مدينَتهم في المرَّة الأولى، وجَاسُوا خلالَها يَقتُلون فيهم، فتابَتْ بنو إسرائيلَ إلى اللهِ تعالى فأظهرَهم الله تعالى على بختنصِّر فردَّ عنهم، ثم بعثَ الله إلى بني اسرائيلَ (أرْضِيًّا) النبيَّ عليه السلام، فقامَ

---

(١) الزلزلة / ٥ .

(٢) البقرة / ١١٤ .

فيهم بوحيِ الله تعالى، فضربوهُ وقيَّدوه وحبسوهُ، فسلَّطَ الله عليهم بختنَصَّر مرَّةً أخرى ففعلَ ما فعلَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ ؛ أي بعدَ استقامةِ منكم، ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ ﴾ ؛ لمعصيةٍ، ﴿ عُدْنَا ﴾ ؛ إلى العقوبةِ، قال قتادةُ: (فَعَادُواْ فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ مُحَمَّداً ﷺ، فَعَادَ اللهُ عَلَيْهِمْ بالْعُقُوبَةِ بإذْلاَلِهِمْ بأَخْذِ الْجِزْيَةِ وَالْقَتْلِ، فَهُمْ يُعْطُونَ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي مُحْتَبَساً من قولِكَ: حصَرتهُ فهو محصورٌ إذا حبستَهُ، وَقِيْلَ: فِرَاشاً ومِهَاداً تَشْبيهاً بالحصيرِ الذي يُبسَطُ ويُفرَشُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ ؛ أي يَهدي للحالةِ التي هي أقوَمُ الحالاتِ، والطريقةِ التي هي أصوبُ، وَقِيْلَ: يُرشِدُ إلى الكلمةِ التي هي أعدلُ الكلماتِ، وهي كلمةُ التوحيد والطاعةِ لله تعالى والإيمان به وبرُسلهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ ثواباً عظيماً وهو الجنَّةُ، ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ الذين لا يُؤمنون بالآخرةِ يُبشِّرُهم بعذابٍ أليم وهو النارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ ؛ أي يدعُو على نفسهِ وعلى ولَدهِ بالسُّوء عندَ الضَّجَرِ والغضب، فيقولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ اللهم أهلِكْهُ ونحوُ ذلك، كدُعائِه ربَّهُ بأن يهَبَ له العافِيةَ والنِّعمةَ، ويرزقه السلامةَ في نفسهِ وماله وولدهِ، فلو استجابَ اللهُ له إذا دعاهُ باللعنِ والهلاك، كما يستجابُ له إذا دعاهُ بالخير لَهلَكَ، ولكنَّ اللهَ تعالى بفضلهِ لا يستجيبُ لـه، ونظيرُ هـذا ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بالْخَيْرِ لَقُضِيَ إلَيْهِمْ أجَلُهُمْ﴾[2].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٦٨٢ و١٦٦٨٤).

(٢) يونس / ١١ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي عَجُولاً في الدُّعاء بما يكرَهُ أن يستجابَ لهُ، وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ ضَجُوراً لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ)[١]. وَقِيْلَ: أرادَ به آدمَ ﷺ لَمَّا نُفِخَ فيه الروحُ فبلغَ إلى رجليه، قصدَ القيامَ قبلَ أن يجريَ فيه الروحُ فسقطَ، فقيل له: لاَ تَعْجَلْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ ؛ أي عَلامَتَين تدُلاَّن على قُدرةِ خالِقِهما، ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ ؛ أي ضوءَ القمَر، قال ابنُ عبَّاس: (أرَادَ بِهِ السَّوَادَ الَّذِي فِي الْقَمَرِ، وَذلِكَ أنَّ اللهَ خَلَقَ الْقَمَرَ أوَّلَ مَا خَلَقَهُ عَلَى صُورَةِ الشَّمْسِ، وَكَانَتِ شَمْسٌ بِاللَّيْلِ وَشَمْسٌ بِالنَّهَارِ، وَكَانَ لاَ يُعْرَفُ اللَّيْلُ مِنَ النَّهَارِ، فَأمَرَ اللهُ جِبْرِيلَ فَمَسَحَ بجَنَاحَيْهِ شَمْسَ اللَّيْلَ فَذهَبَ ضَوْءُهَا، وَبَقِيَ عَلاَمَةُ جَنَاحِهِ وَهُوَ السَّوَادُ الَّذِي يَرَوْنَهُ فِي جَوْفِ الْقَمَرِ)[٢].

وقال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أيضاً: (جَعَلَ اللهُ نُورَ الشَّمْسِ سَبْعِينَ جُزْءاً، وَنُورَ الْقَمَرِ سَبْعِينَ جُزْءاً، فَأمْحِيَ مِنْ نُورِ الْقَمَرِ تِسْعَةٌ وَسِتُّونَ جُزْءاً فَجَعَلَهَا مِنْ نُورِ الشَّمْسِ، فَصَارَ ضَوْءُ الشَّمْسِ مِائَةً وَثَلاَثِينَ جُزْءاً، وَالْقَمَرُ جُزْءاً واحداً)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ ؛ وهي الشَّمسُ مُبصِرَةٌ مُضيئَةٌ مُنِيرةٌ، ﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ أي لتَسكنُوا بالليلِ، وتطلبُوا معايشَكم بالنهار، إلاَّ أنه حذفَ لتَسكنُوا بالليلِ؛ لأنه ذكرَهُ في موضعٍ آخر، ﴿ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ ؛ أي جعَلنا ذلك لتَعلَمُوا حسابَ الشُّهور والأيَّامِ ومواقيتَ الصلاةِ والصيام والحجِّ، يعني بمَحْو آيةِ الليلِ، ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ ﴾ ؛ من الأمرِ والنهي والحلال والحرامِ، ﴿ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي بيَّنَّاه في القرآن؛ ليكونَ أقربَ إلى

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٦٩٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٦٧٠٤) بأسانيد وألفاظ، وله طرق عن علي ﷺ ومجاهد وابن كثير.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٧٣٨.

معرِفَتكم، وبيَّنَّاهُ تبييناً؛ لئلا يلتبسَ بغيرِهِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ ؛ أي ألزمناهُ عملَهُ من خيرٍ أو شرٍّ في عنُقهِ، فجعلنا جزاءَ عملهِ لازماً له، كما يقالُ: هذا الحقُّ في عُنقِ فلان وفي ذمَّتهِ، قال مجاهدُ: (مَكْتُوبٌ فِي وَرَقَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي عُنُقِهِ شَقِيٌّ أوْ سَعِيدٌ). روى الحكمُ عن مجاهدٍ: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ وَفِي عُنُقِهِ مَكْتُوبٌ شَقِيٌّ أوْ سَعِيدٌ)[2].

وفي الآية تشبيهُ العملِ بالطائرِ الذي يجيءُ من ناحية اليمينِ فيُتبَرَّك[3] بهِ، والذي يجيءُ من ذاتِ الشِّمال فيُتشاءَمُ به، وأما الإضافةُ إلى العُنقِ دون سائرِ الأعضاء؛ فلأنَّ ما يتزيَّن به من طَوقٍ أو ما يشين من غِلٍّ[4] فإنما يضافُ إلى الأعناق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي يرفعُ اللهُ يوم القيامةِ كتابَهُ يرَى فيه جزاءَ أعمالهِ، قرأ الحسنُ ومجاهد: (وَنُخْرَجُ) على ما لَم يسَمَّ فاعلهُ، على معنى: ونخرجُ له الطائرَ كتاباً. وانتصبَ قولُهُ (كِتَاباً) على الحالِ.

وقرأ أبو جعفرٍ: (وَيُخْرِجُ) بالياء مسمَّى الفاعل؛ أي ويَخرُجُ له الطائرُ يومَ القيامةِ. وقرأ يحيى بن وثَّاب (وَيُخْرِجُ) بضمِّ الياء وكسر الراء، المعنى: ويخرِجُ اللهُ له كتاباً، وقرأ الحسنُ ومجاهد:(أَلْزَمْنَاهُ طَيْرَهُ) بغيرِ ألف، وقال أهلُ المعاني: أرادَ بالطائر ما قضَى عليهِ أنه فاعلهُ، وما هو صائرٌ إليه من شقاوةٍ أو سعادة[5]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُلَقَّاهُ مَنشُوراً) قرأ أبو جعفر بضمِّ الياء وفتحِ اللام وتشديدِ القاف، يعني يَلقى الإنسانُ ذلك

---

(١) والتبيان للقرآن بالسُّنة؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى:﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فالمراد بالتفصيل هنا هو البيان كما جاء في سُنة النبي مُحَمَّد ﷺ؛ لئلا يلتبس بغيره مما تنتجه عقول البشر وتخيلاتهم، فيختلط على الناس بمراد الله وقصده فيما أمر به وشرع. والله أعلم.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٧١٣).

(٣) في المخطوط: (فيترك).

(٤) هكذا في المخطوط: (غل) وأظنها عمل.

(٥) ذكره البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص٧٣٧-٧٣٨.

الكتابَ الذي يؤتى، وقرأ الباقون بالتخفيفِ؛ أي يراهُ مَنشورةً فيه حسناتهُ وسيئاته.

قال ابنُ عباس: (يُعْطَى الْمُؤْمِنُ كِتَاباً بيَمِينِهِ وَهِيَ صَحِيفَتُهُ، يَقْرَأ فِيهَا حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ فِي بَطْنِهَا: عَمِلْتَ كَذا، وَقُلْتَ كَذا فِي سَنَةِ كَذا، فِي شَهْر كَذا، فِي يَوْم كَذا، فِي سَاعَةِ كَذا، فِي مَكَان كَذا. فَإذا انْتَهَى إلَى أسْفَلِهَا قِيلَ لَهُ: قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ، إقْرَأ مَا فِي ظَاهِرِهَا، فَيَقْرَأ حَسَنَاتِهِ فَيَسُرُّهُ مَا يَرَى فِيْهَا، وَيُشْرِقُ لَوْنُهُ عِنْدَ ذلِكَ ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ، إنِّي ظَنَنتُ أنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ﴾[١]).

قال: (وَيُعْطَى الْكَافِرُ كِتَابَهُ بشِمَالِهِ، فَيَقْرَأ حَسَنَاتِهِ فِي بَاطِنِهَا، فَيَجِدُ عَمِلْتَ كَذا فِي سَنَةِ كَذا، فِي شَهْرِ كَذا، فِي يَوْمِ كَذا، فِي سَاعَةِ كَذا. فَإذا انْتَهَى إلَى آخِرِهَا قِيلَ لَهُ: هَذِهِ حَسَنَاتُكَ قَدْ رُدَّتْ عَلَيْكَ، إقْرَأ مَا فِي ظَاهِرِ كِتَابكَ، فَيَرَى مَا فِي ظَاهِرِ كِتَابهِ كُلَّ سَيِّئَاتِهِ، كُلَّ صَغِيرَةٍ وكَبيرَةٍ، فَيَسْوَدُّ وَجْهُهُ وَتَزْرَقُّ عَيْنَاهُ، وَيَقُولُ عِنْدَ ذلِكَ ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أوتَ كِتَابيَهْ، وَلَمْ أدْر مَا حِسَابيَهْ﴾[٢]).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اَقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾ ؛ أي يقالُ له: اقْرَأ كِتَابَكَ، قال الحسنُ: (يَقْرَؤُهُ أمِّيّاً كَانَ أوْ غَيْرَ أمِّيٍّ)، وقال قتادةُ: (يَقْرَؤُهُ يَوْمَئِذٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَارِئاً)[٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي مُحَاسِباً، وإنما جُعل محاسباً لنفسهِ؛ لأنه إذا رأى أعمالَهُ كلَّها مكتوبةً، ورأى خيرَ أعمالهِ مكتوباً لم ينقُصْ من ثوابهِ شيءٌ، ولم يُزَدْ على عقابهِ شيءٌ كفاهُ ذلك في الحساب، وكان الحسنُ يقول: (يَا ابْنَ آدَمَ لَقَدْ عَدَلَ عَلَيْكَ مَنْ جَعَلَكَ لِنَفْسِكَ حَسِيباً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي منفعةُ هدايتهِ راجعةٌ إليه، ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي ومَن ضلَّ في الدُّنيا، فإنَّ وَبَالَ ضلالهِ راجعٌ إليه، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ؛ أي لا يَحْمِلُ أحدٌ حِمْلَ غيرهِ، فلا يؤخَذُ بذنب غيره، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ إقامةً للحجَّة، وقطعاً للعُذر.

---

(١) الحاقة / ١٩ و٢٠ . (٢) الحاقة / ٢٥و٢٦.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٧١٩).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ ؛ أي إذا أرَدنا الحكـمَ بـهَلاكِ قريـةٍ، (أمَرْنـا مُتْرَفِيـهَا) جَبَابرَتَـهَا ورُؤسـاءَهـا بالطاعـةِ فعَمِلُـوا بالمعاصي، وهذا كما يقالُ للرجُلِ: أمَرتُكَ فَعَصَيتَنِي، يعني أمرتُكَ لتُطيعَنِي فخالَفتَني.

وإنما ذكرَ الرؤساءَ دون المتبوعـين؛ لأن غـيرَهم تَبـعٌ لَـهم، فيكـون الأمـرُ لهـم بالطاعةِ أمرٌ للأتباعِ. وقرأ مجاهدُ وأبو رجاء (أمَّرْنَـا) بالتشـديدِ؛ أي جعَلنـا لهـم إمْـرَةً وسُلطاناً. وقولهُ تعالى: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ ﴾ ؛ أي وجبَ عليـها القـولُ بـالعذاب، ﴿ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي أهلَكناها هَلاكاً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ ؛ أي أهلكنـا قرونـاً كثيرة بعد نوح، قال ابنُ عباس: (الْقَرْنُ مِائَةٌ وَعُشْرُونَ سَنَةً)[1]، وقـال المـازنِيُّ: (مِائَـةُ سَنَةٍ)[2]، وقولهُ تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ ؛ أي مَن كان هَمُّهُ مَقصوراً على طلب الدُّنيا دونَ الآخرةِ، نحوُ أن يكون يريـدُ بالجـهادِ الغنيمةَ وبعمَلِهِ الذي فرضَهُ اللهُ عليه في الدُّنيا ويَغنَمُهَا خاصَّةً، عجَّلنا له في الدُّنيـا مـا نشاءُ مِن عَرَضِ الدُّنيا لا ما يشاءُ العبد، ولِمَن يريـدُ أن يُعطِيَـهُ لا لكـلِّ مَـن يطلـبُ، فأدخلَ اللهُ تعالى في إعطاءِ المراد من العاجِلَة استثناءً من استثناءٍ في العطيَّة، واستثناءً في المعطِين؛ لئلاَّ يَثِقُ الطالِبون للدُّنيا بأنَّهم لا محالةَ سينَالون بسَعيهم ما يريدون.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ أي بـهذا الـذي لم يُـردِ اللهَ بعمَلِـهِ، ﴿ يَصْلَىٰهَا ﴾ ؛ أي يدخلُـها، ﴿ مَذْمُومًا ﴾ ؛ بـذمِّ نفسـهِ ويَذمُّـهُ النـاسُ، ﴿ مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي مَطرُوداً مُبعَداً من كلِّ خيرٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ؛ شَـرطَ اللهُ تعالى في ذلك ثلاثةَ شرائطَ: أحدُها: أنْ يريدَ بعملهِ ثوابَ الآخـرةِ بـالإخلاصِ في النيَّة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٧٣٧) عن ابن أبي أوفى.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٧٣٨).

والثانِي: أن يسعَى في العملِ الذي يستحقُّ به ثوابَ الآخرةِ. والثالثُ: أن يكون مُؤمناً؛ لأنه إذا كان كَافراً لا ينتفعُ بشيءٍ من عملهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي تُضعَّفُ لهم الحسناتُ، وتُمْحَى عنهمُ السَّيئاتُ، وتُرفَعُ لهم الدرجاتُ، وقال مجاهدُ: (شُكْرُهُ أنْ يُثِيبَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ لَهُ، وَيَعْفُوَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ ﴾ ؛ أي كلٌّ واحدٍ من الفريقَين ممن يريدُ الدنيا، وممن يريدُ الآخرةَ نُمِدُّهُ من رزق ربكَ، ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ ﴾ ؛ رزقُ، ﴿ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي مَحْبُوساً من البرِّ والفاجر. وفي هذا بيانُ أنَّ نِعَمَ الدنيا مشتركةٌ بينهم، بخلافِ نِعَمِ الآخرةِ التي هي خاصَّةٌ للمتَّقين، ألاَ ترَى أن سائرَ نِعَمِ اللهِ من الشَّمسِ والقمرِ؛ والهواءِ والماءِ؛ والنباتِ والحيواناتِ؛ والأغذيَةِ والأدويةِ؛ وصحَّة الجسمِ والعافيةِ؛ وغيرِ ذلك شاملةٌ للمؤمنِ والكافرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ ﴾ ؛ أي انظُرْ يا مُحَمَّدُ كيف فضَّلنا بعضَهم على بعضٍ في الرِّزق في الدُّنيا بالمال والخَدَم، منهم الْمُقِلُّ ومنهم الْمُكْثِرُ، هذا في الدُّنيا، ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي ولدرجاتُ الآخرةِ أكبرُ من درجاتِ الدُّنيا، وفضائلُ الآخرة وثوابُها أرفَعُ مما فُضِّلوا في الدنيا، فينبغي أنْ يكون سَعيُهم للآخرةِ أكثرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ الخطابَ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ به كافَّةُ المكلَّفين كما في قولهِ تعالى: ﴿لَئِنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1]. وَقِيْلَ: هو خطابٌ للإنسان، كأنَّهُ قالَ: لا تجعَلْ أيُّها الإنسانُ مع مَن له العَطَايا عاجِلاً وآجلاً إلَهاً آخر، ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ ؛ فتبقَى في جهنم، ﴿ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ لا ناصِرَ لكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ ﴾ ؛ برّاً بهما وعَطْفاً عليهما، وقولهُ تعالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ

---

(١) الزمر / ٦٥ .

كِلَاهُمَا﴾ ؛ أي إنْ عاشَا عندَكَ أيُّها الإنسانُ حتى يَكبُرَا، وقرأ حمزة والكسائي (يَبْلُغَانِ)؛ لأن الوالدين قد ذُكر قبلَهُ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ ؛ تقذُّراً حين ترَى منهما شيئاً من الأذى، بل أمِطْ عنهما كما كانا يُميطَان عنكَ في حالةِ الصِّغَرِ، والأُفُّ هو وسَخُ الأظفار، والتُّفُّ وسخُ الأُذن، والمعنى: لا تتأذى بهما، كما لم يكُونَا يتأذيان بكَ، قال ﷺ: [لَوْ عَلِمَ اللهُ شَيْئاً مِنَ الْعُقُوقِ أدْنَى مِنْ أفٍّ لَحَرَّمَهُ، فَلْيَعْمَلِ الْعَاقُّ مَا شَاءَ أنْ يَعْمَلَ، فَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ. وَلْيَعْمَلِ الْبَارُّ مَا شَاءَ أنْ يَعْمَلَ، فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ؛ أي لا تَزجُرهما بإغْلَاظٍ وصِيَاحٍ في وجُوهِهما، ولا تُكلِّمْهُما ضَجِراً، ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ ؛ أي يكون فيه كرامةٌ لهما كقول العبدِ الْمُذنِب للسيِّد الغليظِ، كذا قال ابنُ المسيَّب، وقال عطاءُ: (لاَ تَشْتُمْهُمَا وَلاَ تُبْكِيهِمَا، وَقُلْ لَهُمَا: يَا أبَتَاهُ، يَا أمَّاهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ ؛ أي وكُن لهما مُتضرِّعاً مُتَذلِّلاً، فإنَّ خَفْضَ الْجَنَاحِ عبارةٌ عن الخضُوعِ، والمبالغةِ في التذلُّلِ والتواضعِ، وعن عطاء أنه قالَ: (جَنَاحُكَ يَدُكَ، فَلاَ يَنْبَغِي لَكَ أنْ تَرْفَعَ يَدَيْكَ عِنْدَ أبَوَيْكَ، وَلاَ أنْ تُحِدَّ بَصَرَكَ عَلَيْهِمَا تَعْظِيماً لَهُمَا).

وعن عُروة بن الزُّبير قال: (مَا أبَرَّ وَالِدَهُ مَنْ أحَدَّ النَّظَرَ إلَيْهِ). وَقِيلَ: خفضُ الجناحِ عبارةٌ عن السُّكون، قرأ الحسنُ وسعيد بن جبير وعاصم: (جَنَاحَ الذِّلِّ) بكسرِ الذال؛ أي لا تَستَصْعِبْ معَهُما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ ؛ وهذا أمرٌ بالدُّعاء لهما بالرحمةِ والمغفرةِ إذا كانا مُسلِمين، والمعنى: رب ارحَمهُما مثلَ رَحمتِهما أيَّايَ في صِغَري حتى ربَّيانِي، وقال قتادةُ: (هَكَذا عُلِّمْتُمْ، بهَذا أُمِرْتُمْ)[2].

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: الرقم (٥٠٦٣ من حديث الحسين بن علي. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٤٣؛ قال الطبري: ((روي من حديث علي بن أبي طالب)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٧٦٩).

قال ﷺ: [رضَا اللهِ مَعَ رضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُ اللهِ مَعَ سَخَطِ الْوَالِدَيْن][1]، وقال ﷺ: [مَنْ أمْسَى مَرْضِيّاً لِوَالِدَيْهِ وَأصْبَحَ، أصْبَحَ لَهُ بَابَان مَفْتُوحَان إلَى الْجَنَّةِ، وَإنْ كَانَ وَاحِداً فَوَاحِدٌ. وَمَنْ أمْسَى مُسْخِطاً لِوَالِدَيْهِ وَأصْبَحَ، أصْبَحَ لَهُ بَابَان مَفْتُوحَان إلَى النَّار، وَإنْ كَانَ وَاحِداً فَوَاحِدٌ] فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ فَإنْ ظَلَمَاهُ ؟ قَالَ: [وَإنْ ظَلَمَاهُ؛ وَإنْ ظَلَمَاهُ؛ وَإنْ ظَلَمَاهُ] ثلاَثَ مَرَّاتٍ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ أي هو أعلَمُ بما في قُلوبكم من الرَّحمة عليهما، والمعنى: ربُّكم أعلمُ بما تُضمِرون من البرِّ والعُقوق، فمَن نَدرَتْ منه نادرةٌ وهو لا يُضمِرُ عُقوقاً غفَرَ اللهُ له ذلكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ ﴾ أي إن تكونُوا مُطيعِينَ للهِ تعالى، ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي للرَّاجِعين من الذُّنوب إلى طاعةِ الله، النادمِين على المعاصي والزَّلاَّتِ. والأوَّابُ: هو الذي يتوبُ مرَّةً بعدَ مرةٍ، كلَّما أذنبَ بادرَ إلى التوبةِ. وعن مجاهدٍ: (أنَّ الأَوَّابَ: هُوَ الَّذِي يَذْكُرُ ذنْبَهُ فِي الْخَلاَءِ فَيَسْتَغْفِرُ مِنْهُ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (أرَادَ بذِي الْقُرْبَى قَرَابَةَ الإنْسَان، وَحَقُّهُ مَا يَصِلُ بهِ رَحِمَهُ). وقال بعضُهم: أرادَ به قرابةَ النبيِّ ﷺ، وحقُّهم هو الحقُّ الذي يجب لهم من الْخُمْسِ. والتأويلُ الأول أقربُ إلى ظاهر الآية؛ لأن ذكرَ القرابةِ معطوفٌ على ذكرِ الوالدَين، وذلك عامٌّ في جميعِ الناس. قَوْلُهُ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٣ ص١٣٤: الحديث (٢٢٧٦) عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: [طَاعَةُ اللهِ طَاعَةُ الْوَالِدَيْن...]. وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٣٦؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه وهو لين وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح)). وأخرجه الترمذي في الجامع: أبواب البر والصلة: الحديث (١٨٩٩) وحسنه. حبان في الإحسان: الحديث (٤٢٩) وإسناده صحيح.

(٢) بهذا اللفظ ذكره أهل التفسير؛ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٤٥ عن ابن عباس. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في البر والصلة: ج ٦ ص٢٠٦: الحديث (٧٩١٥ و٧٩١٦). وأوله: [مَا مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ أبَوَان...]. وعزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى ابن عساكر وضعفه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٧٨٣).

تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ؛ أي وآتِ المسكين وابنَ السَّبيل حقَّهم الذي وجبَ لهم من الزَّكاة والعُشر وغيرِهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ التبذيرُ: تفريقُ المال في المعصيـة، قال مجاهدُ: (لَوْ أنْفَقَ دِرْهَماً أوْ مُدّاً فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى كَانَ مُبَـذِّراً، وَلَـوْ أنْفَـقَ فِـي مِثْلِ أبي قُبَيْسٍ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى لَـمْ يَكُـنْ مُبَـذِّراً). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ ؛ أي أتباعَ الشَّـياطين، يَتبعونـهم ويَجْـرُونَ علـى سُـنَنِهم، وَقِيْلَ: يُقْرَنُونَ بالشَّياطينِ في النار، ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ ؛ معنـاه: إنْ أعرضتَ عن هؤلاءِ الذين أوصَيناكَ بهم من ذوي القُربَى والمساكينِ انتظارَ رزقٍ يأتيكَ من اللهِ تعالى؛ لأنَّكَ لا تجدُ ما تصِلُهم، وكنـتَ مُنتظـراً لـرزق ربـكَ ترجـوهُ مـن اللهِ لتُعطِيهم منـهُ، ﴿ فَقُل لَّهُمْ ﴾ ؛ عنـدَ ذلـك، ﴿ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ سَـهلاً لَيِّناً، نحوَ أن تَعِدَهم عدةً حسنةً وبقول: افْعَلُ؛ وكرامةً ليس عندي اليومَ شيءٌ، وسوف أعطِيكُم؛ وأقضِي حقَّكُم إذا ادركتُ الغُلَّةَ، ووصَلَ إلَيَّ مالِي الذي في موضعِ كذا. أو تقولَ: يرزُقنا الله وإيَّاكم من فضلهِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ ؛ أي تَبْخَـلُ بـالمنعِ مـن حقُوقِهم الواجبة لهم، ومرادهُ: الذي يتركُ الإنفاقَ يكـون بمَنْزلـة مَـن غُلَّـتْ يـداهُ إلى عُنقهِ، فلا يعطِي من مالهِ شَيئاً في الخير، وسُمِّي البخلُ بمثل هـذه الصِّفـات، يقولـون: فلانٌ قصيرُ البَاعِ، وإذا كان كَريماً قالوا: طويلَ البـاعِ، وقـال ﷺ لنسـائهِ: [أسْـرَعُكُنَّ لَحَاقاً أطْوَلُكُنَّ يَداً] فَكَانَتْ زَيْنَبُ بنْتُ جَحْشٍ؛ لأنَّهَا كَانَتْ أكْثَرَهُنَّ صَدَقَةً[1] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ ؛ أي لا تُخرجْ جميـعَ مـا في يـدِكَ مع حاجتِكَ وحاجة عيالك إليه، ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ ذا حَسرَةٍ تلومُ

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل زينب: الحديث (١٠١/٢٤٥٢).

نفسَكَ وتُلامُ، وتبقَى الحسرَةُ على ما تُخرجهُ من يدِكَ، والحسرةُ: الغَمُّ لانْحِسَارِ مَا فَاتَ، وحَسَرَ عن ذراعهِ يَحْسُرُ حَسْراً إذا كَشَفَ عنه.

وقد قِيْلَ: إنَّ المرادَ بالخطاب في هذه الآية غيرُ النبيِّ ﷺ؛ لأنه ﷺ لم يكن يدَّخِرُ شيئاً لِغَدٍ، وكان يجوعُ حتى يشُدَّ الحجرَ على بطنهِ، وقد كان كثيرٌ من فُضَلاءِ الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يُنفقون جميعَ أمْلاكِهم في سبيلِ الله تعالى، مِثْلَ ما فعلَـهُ أبـو بكـرٍ ﷺ حتى يبقَى في عباءة، فلم يُعنِّفْهمُ النـبيُّ ﷺ، ولم يُنكِـرْ عليـهم لصحَّـةِ يقينـهم وشـدَّةِ بصائرهم.

وإنما نَهَى اللهُ تعالى عن الإفراطِ في الإنفاقِ مَن خِيفَ عليه الحسرةَ على ما يخرجهُ من يدهِ، كما رُوي: أنَّ رَجُلاً أتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ بمِثْلِ بَيْضَةٍ مِنْ ذهَـبٍ، فَقَـالَ: وَجَدْتُهَا فِي مَعْدِنٍ كَذا وَلاَ أمْلِكُ غَيْرَهَا، فَتَصَدَّقَ بهَا، فَأَخَذَهَا رَسُـولُ اللهِ ﷺ وَرَمَاهُ بهَا حَتَّى لَوْ أصَابَهُ بهَا لَشَجَّهُ، ثُمَّ قَالَ: [إنَّ أحَدَكُمْ لَيَتَصَدَّقُ بجَمِيـعِ مَالِـهِ، ثُـمَّ يَقْعُـدُ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ][1]. ومن الدليلِ أنَّ النبي ﷺ لَم يكن دَاخِلاً في هذا الخطـاب: أن اللهَ تعالى قال (مَلُوماً مَحْسُوراً) ومعلومٌ أنه ﷺ لم يكن يتحسَّرُ على ما كان يملِكهُ.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الخطابَ للنبيِّ ﷺ، وأن سببَ نُزول هذه الآية ما رُوي: أنَّ امْرَأةً بَعَثَتِ ابْنَهَا إلَى النَّبيِّ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: قُلْ: إنَّ أمِّي تَسْتَكْسِيكَ دِرْعاً، فَإنْ قَالَ لَكَ حَتَّى يَأْتِينَا شَيْءٌ، فَقُلْ لَهُ: فَإنَّهَا تَسْتَكْسِيكَ قَمِيصَكَ، فَفَعَلَ الابْنُ كَمَا قَالَتْ أمُّهُ، فَنَزَعَ النَّبيُّ ﷺ قَمِيصَهُ وَدَفَعَهُ إلَيْهِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ قَمِيصٌ يَخْـرُجُ فِيْـهِ إلَـى الصَّـلاَةِ، فنَزلت هذه الآيةُ[2] بما فيها من الدلالةِ بالنَّهي عن الإمساكِ، فيكون التحسُّرُ على هـذا القولِ لتأخُّرِ خروجهِ إلى الصلاةِ بسبب القَميصِ.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتـاب الزكـاة: بـاب الرجـل يخـرج مـن مالـه: الحديـث (١٦٧٣). والدارمي في السنن: كتاب الزكاة: باب النـهي عـن الصدقـة بجميـع مـا عنـد الرجـل: الحديـث (١٦٥٩).

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول: ص١٩٤ عن جابر ولم يذكر له إسناداً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ؛ أي يوسِّـعُ الرزقَ لمن يشاءُ، ويُضيِّقُ على من يشاءُ، علـى مـا يـرَى فيـه المصلحـةَ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ وهذا كمـا قـالَ اللهُ تَعـالَى: ﴿وَلَـوْ بَسَـطَ اللهُ الـرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ ؛ أي خَشيَةَ الفقـرِ والإقْتَـار، ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ ، نزلَ في جماعةٍ كانوا يدفِنون بنَاتِهم خشـيةَ الفَاقَـةِ، ولئَـلاَّ يحتاجُوا إلى النفقةِ عليهم، وكان ذلك مُستفيضاً شَائعاً بينهم وهي الْمَوْءُودَةُ التي ذكرَها اللهُ تعالى في قوله ﴿وَإِذا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾(٢).

وقوله تعالى: (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) أي إنَّ رزقَكم ورزقَ بناتِكم على اللهِ، وإنْ كان لسببٍ يجري على أيدِيكم، فإنَّ اللهَ تعـالى لـو لَـم يُقوِّكُـم علـى الاكتسـاب ولَـم يُمكِّنكُم من تحصيلِ النفقة لم تتمكَّنوا من تحصيلٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ دفنَـهـم أحياءً كان ذنباً عظيماً في العقوبةِ، يقال: خَطِأ الرجُل يَخْطَأ خطأ مثل اثِـمَ يـأثَمُ إثمـاً، وقرأ ابنُ عامر (خَطَأً) بفتحِ الخاء على أنه مصدرُ اخْطَأ، فيكون المعنـى علـى هـذا أنَّ قَتلَهم كان غيرَ صوابٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ ؛ الفَاحِشَةُ ما تفـاحَشَ قُبحهُ وتعظَّمَ، فكان الزنى قبيحاً في الفعلِ قبل ورُودِ السمعِ؛ لأن فيه قطـعَ الأنسـاب وما يتعلَّقُ به من الْمُحَرَّمَاتِ، وإبطالِ حقِّ الولد على الوالدِ.

قال ﷺ: [وَفِي الزِّنَى سِتُّ خِصَال: ثَلاَثٌ فِي الدُّنْيَا، وَثَلاَثٌ فِي الآخِرَةِ. فَأَمَّا اللَّوَاتِي فِي الدُّنْيَا: فَيُذْهِبُ نُورَ الْوَجْهِ وَيَقْطَعُ الرِّزْقَ وَيُسْرِعُ الْفَنَاءَ. وأمَّا اللَّوَاتِـي فِـي

---

(١) الشورى / ٢٧ .

(٢) التكوير / ٨ .

الآخِرَةِ: فَغَضَبُ الرَّبِّ وَسُوءُ الْحِسَابِ وَالدُّخُولُ فِي النَّارِ][(١)]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي بئْسَ الزِّنَى طَريقاً لمن يسلكهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي لا تقتُلوا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ قتلَها إلا بحقٍّ تستحقُّ قتلَها بهِ، وهو أن يَقتُلَ نفساً بغيرِ حقٍّ، أو يَزنِيَ وهو مُحصَنٌ، أو يرتدَّ عن الإسلامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ ؛ أي مَن قُتلَ بغيرِ حقٍّ، فقد جَعلنا لوارثهِ حجَّةً في كتاب الله تعالى في إيجاب القَوَدِ على القاتلِ، وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ: (الْمُرَادُ بهَذا السُّلْطَان: أنَّ لِلْوَلِيِّ أنْ يَقْتُلَ إنْ شَاءَ، أوْ أخَذ الدِّيَةَ، أوْ عفَى)[(٢)]. ويجوزُ أن يكون المرادُ بالسُّلطان السلطانَ الذي يلِي الأمرَ والنهيَ يجب عليه أن يُعِينَ وليَّ القتيلِ حتى يطلبَ قاتلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ﴾ ؛ السَّرَفُ: أن يقتُلَ غيرَ القاتلِ كما يفعلهُ العربُ. وَقِيْلَ: معناهُ: ولا تُمثِّلُوا بالقاتلِ في القتلِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ يعني وليَّ المقتول، حكمَ اللهُ له بذلك، وأمرَ المؤمنين أن يُعينوهُ، ويجبُ أيضاً على الإمامِ أن يُدفَعَ إليه القاتلُ. ويقالُ: معناه: إن المقتولَ كان منصُوراً بالثَّواب وبإيجاب القَصَاصِ لِوَلِيِّهِ، وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [إنَّ مِنْ أعْتَى النَّاسِ عَلَى اللهِ ثلاثَةٌ: رَجُلٌ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ، أوْ قَتَلَ بدَخَنٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أوْ قَتَلَ فِي حَرَمِ اللهِ][(٣)].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: في تحريم الفروج: الحديث (٥٤٧٥)؛ وقال: هذا إسناد ضعيف. وحكاه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب عن علي ﷺ: الرقم (٤٣٧٠). وفي كشف الخفا: ج ١ ص٣٨٩: الحديث (١٤٢٥)؛ قال العجلوني: ((قال في المقاصد: رواه الديلمي والقضاعي وابن ماجة عن ابن عمر ورفعه)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٨١٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٦٨٢٦) عن قتادة ولم يسنده. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١٤٧؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح. عن أبي شريح الخزاعي)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ؛ أي إلا بما يؤدِّي إلى حفظِهِ وصيانته وتَمييزِهِ، وإنما خَصَّ اليتيمَ بذلك؛ لأن الطمعَ في مالِهِ أكثرُ، وهو إلى الحفظِ أحوَجُ لِعَجْزِهِ عن حفظِهِ بنفسه. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ ؛ أي حتى يُكمِلَ ثمانيَ عشرةَ سَنة. وَقِيْلَ: معناهُ: حتى يبلُغَ وقتَ الْحُلُمِ ويكمل عقله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي وأوْفُوا بعهدِ الله إليكم في أموال اليتَامى، وكلُّ ما أمرَ اللهُ به ونَهى عنهُ فهو من العهدِ، (إنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً) عنه للجزاءِ، فحُذِفَ استكفاءً بدلالةِ الحال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ ؛ أي أتِمُّوهُ ولا تَبْخَسُوهُ، ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ ؛ أي بميزان العدل، قرأ أهلُ الكوفة (بالْقِسْطَاسِ) بكسر القافِ وهما لُغتان[(١)]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي ذلكَ الذي أمَرتُكم به خيرٌ لكم وأحسنُ عاقبةً، والتَّأويلُ: هو الذي إليه مرجعُ الشيءِ من قولِهم آلَيَؤُولُ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ؛ أي لا تَقُلْ ما ليسَ لك به علمٌ، وقال قتادة:(لاَ تَقُلْ: سَمِعْتُ وَرَأيْتُ، وَلَمْ تَرَ وَلَمْ تَسْمَعْ، وَعَلِمْتُ وَلَمْ تَعْلَمْ)[(٣)].

والقَفْوُ في اللغة: اتِّباعُ الأمرِ كأنه يتبَعُ الأثرَ، ومنه القِيَافَةُ، كانت العربُ يتَّبعون فيها أثرَ الآباءِ، ويقولُ: قفوتُ الشيءَ أقْفُوهُ؛ إذا اتَّبَعْتَ أثَرَهُ، والمعنى على هذا: لا تُتْبِعَنَّ لسانَكَ مِن القول ما ليس لكَ به علمٌ.

---

(١) في جامع البيان: مج ٩ ج ١٥ ص١٠٨؛ قال الطبري: (وفيه لغتان: القِسْطَاسُ، بكسر القاف، والقُسْطاس بضمها، مثل القِرطاس والقُرطاس، وبالكسر يقرأ عامة أهل الكوفة، وبالضم يقرأ عامة أهل المدينة والبصرة، وقد قرأ به أيضاً بعض قرَّاء الكوفيين، وبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب؛ لأنهما لغتان مشهورتان).

(٢) أي العاقبة والصواب، وما يؤول إليه الأمرُ، ونُصِب على التفسير كقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مَرَدًّا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٨٣٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ ﴾ ؛ يعني إنَّ المرءَ مسؤُولٌ يومَ القيامةِ عمَّا يفعلهُ بهذه الجوارحِ مِن الاستماع لِمَا لا يحلُّ، والنظر الى ما لا يجوزُ، والارادةِ لِمَا يَقْبُحُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي كلُّ هذه الجوارحِ والأعضاء، ولَم يقُل تلكَ، قال الشاعر[(١)]:

ذُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى وَالْعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَّامِ

ويجوزُ أن يكون راجعاً إلى أصحَابها وأربَابها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ ؛ أي بَطَراً وكِبْراً وخُيَلاءً، والْمَرَحُ: شدَّةُ الفَرحِ، ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ بقدَمَيكَ وكِبْرِكَ، ﴿ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ ﴾ ؛ بعظَمَتِكَ، ﴿ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي لا تُطاولُ الجبالَ فاستقصِرْ نفسَكَ عندما ترَى من سَعَةِ الأرضِ وبسطِها وعِظَمِ الجبال وطُولِها. من قرأ (مَرَحاً) بنصب الراء فهو المصدرُ، ومَن قرأ بكسرِ الراء فهو اسمُ الفاعلِ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي كُلُّ ما تقدَّمَ مِن قولِهِ تعالى (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ) إلى هذا الموضعِ كان سَيِّئَةً لا حسنةَ فيه، وهذا على قراءةِ مَن قرأ (سَيِّئَةً) بالنصب، وقرأ ابنُ عامر والكوفيُّون (سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِكَ) على الإضافةِ بمعنى: هذا الذي ذكرتهُ مِن قوله تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ) إلى هذه الآيةِ ذكرُ الحسَنِ[(٣)]، والسَّيِّءُ وقولهُ تعالى (مَكْرُوهاً) على

(١) الشاهد لجرير في ديوانه. ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٢ ص٢٧٢: الشاهد (٢٧٠).

(٢) في إعراب القرآن: ج ٢ ص٢٧٢؛ قال ابن النحاس: (وحكى يعقوب القارئ ﴿مَرِحاً﴾ بكسر الراء على الحال. قال الأخفش: كسر الراء أجود؛ لأنه اسم الفاعل). وفي معاني القرآن: ج ٢ ص٦١٢-٦١٣؛ قال الأخفش: (والمكسُورة أحسَنُهما). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٦١؛ قال القرطبي: (قراءة الجمهور بفتح الراء. وقراءة فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بناء اسم الفاعل. والأول أبلغ).

(٣) القراءة (سَيِّئُهُ) بضم الهمزة والهاء والتذكير، وترك التنوين تشير إلى جميع ما تقدم في الآية، ومن الحسن والسيء، فأضاف السيء إلى ضمير ما تقدم، وتعضدها القراءة (كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ سَيِّئَاتُهُ) بالجمع، مضافاً للضمير وقراءة أبي (خَبِيثُهُ). والمعنى أن كل ما تقدم ذكرهُ مما أمرتم به ونهيتم عنه كان سَيِّئُهُ وهو ما نهيتم عنه خاصة أمراً مكروهاً.

قراءة من قرأ سَيِّئَةً بالنصب بدل من سَيِّئُهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ ﴾ ؛ أي ذلـك الـذي سبقَ ذِكرهُ من هذه الأشياءِ مما أوحَى إليكَ ربُّكَ من صواب القـول والعمـل، ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ؛ هذا خطـابٌ لكـلِّ مؤمـنٍ، كأنَّـهُ قـال: ولا تجعَـلْ أيُّـها الإنسانُ، ﴿ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ ؛ تَلُـومُ نفسَـكَ، ﴿ مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي مَطْرُوداً من رحمةِ الله تعالى.

قال الكلبيُّ وابنُ عبَّاس: (هَذِهِ الثَّمَانِي عَشْرَةَ آيَةً مِنْ قَوْلِهِ تَعَـالَى: (وَلا تَجْعَـلْ مَعَ اللهِ إلَهًا آخرَ...) إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى (كُلُّ ذلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِـكَ مَكْرُوهـاً) كَـانَتْ فِي الْوَاحِ مُوسَى ؑ حِينَ كَتَبَهَا اللهُ لَهُ، وَقَدْ أنْزَلَهَا عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَهِيَ فِي الْكُتُب كُلِّهَا مَوْجُودَةٌ لَمْ تُنْسَخْ قَطُّ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ ﴾ ؛ خطـابٌ للمشركين الذين زعَموا أن الملائكةَ بناتُ اللهِ مُنكِراً عليهم، تعالى اللهُ عن ذلـكَ عُلُـوّاً كَبيراً، والمعنى: أفخَصَّكم ربكم بالبنين، فأخلصَ لكم البنينَ دونَـهُ وجعـل البنـاتِ مشتركةً بينَكم وبينَهُ، فأخلَصَكم بالأجَلِّ وجعلَ لنفســه الأَدْوَنَ، ولا يكـون هـذا مـن الحكمةِ أن يَخُصَّ الحكيمُ عَدُوَّهُ بالأشرفِ ويختارُ لنفسه الأَدْوَنَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ في الكُفرِ والفِرْيَةِ على اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ ؛ أي بَيَّنَّا في هـذا القـرآن مـن الأمثـال والعِبَرِ ليتَّعِظُـوا بـها، ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ ؛ تصريـفُ الأمثــال، ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي تَبَاعُداً عن الإيمان. قرأ الأعمشُ وحمزة (لِيَذْكُرُوا) مخففاً.

قَوْلُــهُ تَعَـــالَى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: لو كانَ مـع اللهِ آلِهَـةٌ كمـا تقولـون أنتـم إذاً لطَلَبُوا ما يُفرِّقُهم إلى مالكِ العرشِ لعُلُـوِّهِ عليـهم وكونـهِ أفضـلَ منـهم، وهـذا قـولُ

---

(١) أخرجه الطبري مختصراً في جامع البيان: الأثر (١٦٨٤٤). وعـزاه السـيوطي إليـه كمـا في الـدر المنثور: ج ٥ ص٢٨٧.

مجاهدٍ. وذهب أكثرُ المفسِّرين إلى أنَّ المعنى: لطَلَبُوا مُغَالَبَتَـهُ، وَابْتَغَـوا طَرِيقـاً لِيَقْـهَرُوهُ، كَفِعْلِ الْمُلُوكِ يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مُغَالَبَةَ صَاحِبِهِ لِيَصْفُو لَهُ الْمُلْكُ. وقرأ ابنُ كثير (كَمَـا يَقُولُونَ) بالياءِ على معنى: كما يقولُ المشركون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ قرأ الأعمشُ وحمزةُ والكسائي (عَمَّا تَقُولُونَ) بالتاء، وقرأ الباقون بالياءِ. ومعنى الآيةِ: تَنْزِيهاً للهِ عن كلِّ ما لاَ يليقُ بهِ من الولدِ والشَّريكِ؛ أي يُرَفَّعُ عما يقولون من إضافةِ البنـاتِ إلى اللهِ تعالى. وقولهُ تعالى (عُلُوّاً كَبيراً) أي تَعظِيماً كَبيراً، ولم يقل تَعَالِياً؛ لأن المصدرَ قد يُذكَرُ لا على لفظِ الأوَّل كما في قولهِ تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ ؛ قرأ أبو عمرٍو وحمزةُ والكسائي بالتاء، وقرأ غيرُهم بالياءِ. قال إبراهيمُ النخعيُّ وجماعةٌ من المفسِّرين:(إنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَبَّحَ للهِ حَتَّى صَرِيرُ الْبَاب)، ولِـهذا قَـالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾ ؛ أي لا تَعلَمُونَ، قال الحسنُ والضحَّاك: (يَعْنِي كُلُّ شَيْءٍ فِيْـهِ الـرُّوحُ)[2]، وقـال قتـادةُ: (يَعْنِـي الْحَيْوَانَـاتِ)، وقـال عكرمـةُ: (وَالشَّجَرُ يُسَبحُ وَالاسْطِوَانَةُ تُسَبحُ).

وَقِيْلَ: إن الترابَ يسبحُ ما دام يَابساً، فإذا ابْتَلَّ تركَ التسبيحَ! وإنَّ الماءَ يُسَبحُ ما دامَ جَارياً، فإذا ركَدَ تركَ التسبيحَ! وإنَّ الورقَ ما دامَ على الشَّجرِ يسبحُ، فـإذا سـقطَ تركَ التسبيحَ! وإنَّ الثوبَ يسبحُ ما دامَ جَديداً، فإذا توَسَّخَ تركَ التسبيحَ! وإنَّ الوحشَ إذا صاحَتْ سبَّحَتْ، فإذا سكَتَتْ تَركَتِ التسبيحَ.

وعن أنسٍ ﷺ قالَ: [كُنَّا عِنْدَ رَسُول اللهِ ﷺ، فَأَخَذ كَفّاً مِنْ حَصَى فَسَـبَّحَ فِـي يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى سَمِعْنَا التَّسْبيحَ، فَصَبَّهُنَّ فِي أيْدِينَا فَمَا سَبَّحْنَ فِـي أيْدِينَـا][3].

---

(١) المزمل / ٨ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٨٥٣).

(٣) في مجمع الزوائد: ج ٥ ص١٧٩؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن أبـي حميـد وهو ضعيف، وله طريق أحسن من هذا في علامات النبوة. وإسناده صحيـح)) وذكـره عـن أبـي ذر ﷺ: في ج ٨ ص٢٩٨: كتاب علامات النبـوة: بـاب تسـبيح الحصـى؛ قـال الهيثمـي: ((رواه الـبزار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات. ورواه الطبراني في الأوسط وزاد عليه في إحدى طريقيه)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي حَليماً لا يَعْجَلُ بعقاب الكفَّار، غَفُوراً يَسْتُرُ الذنوبَ على عبادهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾؛ نزلَ في قومٍ من المشركين كادوا[1] يُؤْذُونَ النبيَّ ﷺ إذا قرأ القرآنَ، قال الكلبيُّ: (هُمْ أبو سُفْيَانَ وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَرِثِ وَأبو جَهْلٍ وَأُمُّ جَمِيلٍ امْرَأَةُ أبي لَهَبٍ، حَجَبَ اللهُ رَسُولَهُ عَنْ أبْصَارهِمْ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَكَانُواْ يَأْتُونَهُ وَيَمُرُّونَ بِهِ وَلاَ يَرَوْنَهُ).

وعن سعيدِ بن جُبير قال: (لَمَّا نَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ﴾ جَاءَتِ امْرَأةُ أبي لَهَبٍ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَمَعَهُ أبو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ تَجَنَّبْتَ عَنِ امْرَأةِ أبي لَهَبٍ لِئَلاَّ تُسْمِعَكَ، فَإنَّهَا امْرَأةٌ نَدِيَّةٌ، فَقَالَ ﷺ: [إنَّهُ سَيُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا] فَجَاءَتْ أُمُّ جَمِيلٍ وَلَهَا وَلْوَلَةٌ وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ[2]، وَهِيَ تَقُولُ: هَذا مِمَّا أبَيْنَا وَدِينِهِ قَلَيْنَا وَأمْرِهِ عَصَيْنَا.

وَرَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ وَأبو بَكْرٍ إلَى جَنْبِهِ. فَقَالَ أبو بَكْرٍ ﷺ: لَقَدْ أقْبَلَتْ هَذِهِ وَأنَا أخَافُ أنْ تَرَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: إنَّهَا لَنْ تَرَانِي، وَقَرَأ (وَإذا قَرَأتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً). قَالَ: فَجَاءَتْ حَتَّى قَامَتْ عِنْدَ أبي بَكْرٍ وَلَمْ تَرَ النَّبيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا أبَا بَكْرٍ بَلَغَنِي أنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي، فَقَالَ: لاَ وَرَب الْبَيْتِ مَا هَجَاكِ، فَانْدَفَعَتْ رَاجِعَةً، فَقَالَ أبو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ أمَا رَأتْكَ ؟ قَالَ: [لا]. قال: لِمَ؟ قَالَ: [نَزَلَ مَلَكٌ بَيْنِي وَبَيْنَهَا يَسْتُرُنِي حَتَّى ذهَبَتْ][3].

---

(١) هكذا في الأصل المخطوط: (كادوا) ولعلها (كانوا).

(٢) الْفِهْرُ: الحجر ملء الكف. وقيل: هو الحجر مطلقاً.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: باب أم جميل عميت عن رؤية رسول الله ﷺ: الحديث (٣٤٢٨) عن أسماء بنت أبي بكر؛ وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب التاريخ: الحديث (٦٥١١) عن ابن عباس. قال الشيخ شعيب: حديث حسن بشواهده.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (حِجَاباً مَسْتُوراً) أي سَاتِراً لَـهم عـن إدراكـهِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ ؛ أي منعناهم عن تدبُّـر كـلام النـبيِّ ﷺ في وقتٍ مخصوصٍ، وهو الوقتُ الذي أرادوا إيذاءَهُ فيـهِ، ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ، ففِـي ذلك الوقتِ صرَفنا آذانَهم عن الاستماعِ إليه، والمعنى: طبَعنا على قُلوبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ ﴾ ؛ يعـني إذا قُلـتَ: لاَ إلـهَ إلاَّ اللهُ، وأنتَ تَتلُو القـرآنَ، ﴿ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ ، قـال ابـنُ عبَّـاس: (كَارِهِينَ أنْ يُوَحِّدُوا اللهَ)، وقال قتادةُ: (إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّـا قَـالَ: لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ، أنْكَـرَ ذلِكَ الْمُشْرِكُونَ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمْ)(١). والمعنى: انصَرَفُوا عنكَ هاربين؛ كراهةً لما يسمعونَهُ من توحيدِ اللهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أي نحـنُ أعلمُ بما يستَمعون إليه من قراءةِ القرآن، أنَّهم لماذا يسـتَمِعون وأنَّ قَصدَهـم بـه الأذى دون طلب الحقِّ، فيسـمعون إلى قِـرَاءَتِـكَ، ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ ؛ في أمـركَ يتنـاجَوْنَ، فيقولُ بعضهم: هذا كاهنٌ، ويقول بعضُهم: هذا ساحرٌ، ويقول بعضهم: هذا مجنـونٌ، ويقول بعضُهم: هذا شاعرٌ.

وَقِيْلَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ امَرَ عَلِيّاً ﷺ أنْ يتَّخِـذ طَعامـاً، فيدعُـو إليـه أشـرافَ قُريش من المشركين، ففعلَ ذلكَ، ودخلَ رسولُ اللهِ ﷺ وقرأ عليهم القرآنَ، ودعـاهُم إلى التوحيدِ، فكانوا يستَمِعون ويقولون فيما بينهم مُتَنَاجِينَ: هو سـاحرٌ، وهـو مجنـون مسحورٌ.

فأخبرَ اللهُ تعالى نَبيَّـهُ بذلـكَ، وأنـزلَ عليـه (نَحْـنُ أعْلَـمُ بِمَـا يَسْـتَمِعُونَ بِـهِ إذْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ وَإذْ هُمْ نَجْـوَى) أي يتنـاجَون بينـهم بـالتكذيب والاسـتهزاءِ، ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أي أولئك المشـركون: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ أي مغلوبَ العقلِ قد سُحِرَ، وأزيلَ عن حدِّ الاستواءِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٨٦٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ ؛ أي كيف وصَفُوا لكَ الأشباهَ، فشبَّهوكَ بالمجنون والكاهنِ والساحر، ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ ؛ عن الحقِّ، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ مَخرَجاً عن الضَّلال إلى الهدَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ﴾ ؛ أي إذا صِرْنا عِظَاماً باليَةً وصِرنا تُراباً، ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ؛ لنُبعَثُ بعدَ ذلكَ؛ ﴿ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أيْ أنُبْعَثُ بعدَ ذلكَ؟ وهذا استفهامُ إنكارٍ وتعجُّبٍ منهم. والرُّفَاتُ في اللغة: كلُّ شيءٍ يُحطَّمُ ويُكسَّرُ، قال ابنُ عبَّاس: (يَقُولُونَ: إذا ذهَبَ اللَّحْمُ وَالْعُرُوقُ وَتَفَتَّتَ عِظَامٌ قَدْ بَلَتْ، فَإذا مَسَّيْتَهُ بَيْنَ يَدَيْكَ انْسَحَقَ، أنُبْعَثُ بَعْدَ ذلِكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ ﴾ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: كونُوا حجارةً إنْ قَدرتُم عليها، أو أشدَّ منها بأن تكُونوا حَديداً، أو أقوَى من الحديدِ؛ ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ ؛ أو أيَّ شيءٍ من الخلقِ نحوَ السَّموات والأرضِ والجبالِ، فإنِّي أعيدكم لا محالةَ إلى ما كُنتم عليهِ من قَبْل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ أي إذا قُلْتَ لهم ذلكَ فسيقولون لكَ: مَن يُعيدُنا؟ ﴿ قُلِ ﴾ ؛ لَهم: يُعيدُكم، ﴿ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ؛ لأنَّ مَن قَدَرَ على البناءِ كان على الهدمِ أقدرَ، ومَن قدر على ابتداءِ الشيء كان على إعادتهِ أقدرَ.

قولهُ: ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ ؛ أي فسيُحرِّكون إليكَ رُؤوسَهم تعجُّباً لقولِكَ، والإنْغَاضُ: تحرُّكُ الرأسِ بالارتفاع والانخفاضِ على جهة الاستهزاءِ والاستبطاء، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾ ؛ أي متى تكون الإعادةُ، ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي قل عسى أن تكون الإعادةُ قريبةً، و(عَسَى) مِن الله واجبةٌ، ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ ؛ في النَّفخةِ الثانية، فتجيبون دَاعِيَ اللهِ حامِدين لله، قال سعيدُ بن جبير: (يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ وَبحَمْدِكَ، وَلاَ يَنْفَعُهُمْ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ؛ لأنَّهُمْ حَمَدُوا حِينَ لاَ يَنْفَعُهُمُ الْحَمْدُ).

قولهُ: ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي تظُنون أنَّكم لم تلبثُوا في الدُّنيا إلا قَليلاً لسُرعةِ انقلاب الدُّنيا إلى الآخرةِ، كما قال الحسنُ: (كَأنَّكَ بالدُّنْيَا وَلَمْ تَكُنْ، وَبالآخِرَةِ وَلَمْ تَزَلْ).

ومِن المفسِّرين مَن قالَ: هذه الآية خطابٌ للمؤمنِين؛ لأنَّهم يستَجيبون للهِ بحمده على إحسانهِ إليهم، كما قالَ ﷺ: [كَأَنِّي بأَهْلِ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَهُمْ يَنْفِضُونَ التُّرَابَ عَنْ رُؤُوسِهِمْ وَيَقُولُونَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ؛ وذلك أنَّ المشركين كانوا يُؤْذُونَ الصَّحابةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ بالقولِ والفعلِ بمكَّة، فشكَوا ذلكَ إلى رسول الله ﷺ وقالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذنْ لَنَا فِي قِتَالِهِمْ، فَقَالَ: [إنِّي لَمْ أؤْمَرْ فِيهِمْ بشَيْءٍ][(٢)] وكان ذلك قبلَ أن يُؤمَرَ بالجهادِ.

والمعنى: قُل للمؤمنين يقولون للكفَّار، والمقالَةُ التي هي أحسَنُ من الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكرِ على وجه الرِّفق، ويقولون لَهم: يَهدِيكُمُ اللهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي يُغْري المشركين على المسلمين، فيوقعُ العداوةَ بينهم ويفسِدُ نيَّتهم، ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ مُظْهِراً للعداوةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أي بأحوالِكم، ﴿ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ ؛ بأن يُنَجِّيكُمْ من كفَّار مكَّة وينصُرَكم عليهم، ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ ؛ أي يُسلِّطهم عليكم، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي حَفيظاً وكفيلاً؛ أي ما وُكِّلَ إليكَ إيمانُهم، إنْ شاءَ اللهُ تعالى هدَاهُم، وإنْ شاءَ خذلَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ لأنه خلقَهم فهدَى بعضَهم وأضلَّ بعضهم على علمٍ منه بهم، لم يَخْتَرْ بعضَ الملائكةِ والأنبياء لِمَيْلِهِ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٠١؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك ﷺ)) وقال: ((أخرجه الحكيم الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وأبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر)). وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٧ ص٢٣٣٤: الرقم (١٣٣٠٩). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في الإيمان بالله: الحديث (١٠٠) وإسناده ضعيف.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٧٦-٢٧٧؛ قال القرطبي: ((ذكره ثعلب والماوردي وابن عطية والواحدي)). وقال: ((قاله الكلبي)).

إليهم، وإنما اختارَهم لعِلمهِ بباطنهم، وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ ﴾.

قال قتادةُ: (اتَّخَذ اللهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً، وَجَعَلَ عِيسَى كَلِمَتَهُ وَرُوحَهُ، وَآتَى سُلَيْمَانَ مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ، وَغفَرَ لِمُحَمَّدٍ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبهِ وَمَا تَأَخَّرَ)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾؛ يعني كِتَابَهُ الذي أعطاهُ إياه، وهو مِائةٌ وخمسون سورةً، ليس فيها حُكمٌ ولا فريضة، وإنما هو ثناءٌ على اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾؛ أي قالَ المفسِّرون: ابتلَى اللهُ كفارَ مكَّة بالقحطِ سنينَ، فشكَوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزلَ اللهُ هذهِ الآيةَ؛ أي قُل للمشركين: ادعُوا الذين زعمتُم أنَّهم آلهةٌ، ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ ﴾ أي البُؤْسِ والشدَّةِ، ﴿ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ التحويلُ: النَّقْلُ من حالٍ الى حال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾؛ معناهُ: أولئكَ الذين يدْعون إلى اللهِ في طلب الجنَّة، ويطلُبون التقرُّبَ إليه، فكيف تَعبُدونَهم أنتم. والوسيلةُ: القربَةُ إلى اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) أي أقربُ إلى اللهِ بالوسيلة، يعني يتقرَّبون إليه بالعملِ الصالح، وعن ابن مسعودٍ في تفسيرِ هذه الآية: (أنَّ قَوْماً مِنَ الإنْسِ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَوْماً مِنَ الْجِنِّ، فَأَسْلَمَ الْجِنُّ وَبَقِيَ الإنْسُ عَلَى كُفْرِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[2].

وقولهُ تعالى: (يَبْتَغُونَ إلَى رَبهِمْ الْوَسِيلَةَ) أي يطلبُون أن يعلَمُوا أيُّهم أقربُ إلى اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ ﴾؛ أي يريدون جنَّتَهُ، ﴿ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾؛ أي مما يجبُ أن يُحذرَ عنهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾؛ يعني بالموتِ أو معذِّبوها بعذاب الاستئصال، ومعنى (وَإنْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٨٨٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٨٩٠).

مِنْ قَرْيَةٍ): وما مِنْ قريةٍ، قال ابنُ مسعودٍ: (إذا ظَهَرَ الزِّنَى وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ أَذِنَ اللهُ فِي هَلاَكِهَا)(١)، وقال مقاتلُ: (أمَّا الصَّالِحَةُ فَبالْمَوْتِ، وَأمَّا الطَّالِحَةُ فَبالْعَذاب)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي قضاءً من اللهِ، كما يسمَعون ليس منه بدٌّ، وَقِيْلَ:كان ذلك في اللَّوحِ المحفوظِ مَكتوباً، فإنه مكتوبٌ فيه كيفَ يُهلِكهم اللهُ، ومتى يُهلِكهم، وبأيِّ عذابٍ يُهلكهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ وذلكَ أنَّ قُريشاً قالت للنبيِّ ﷺ: حَوِّلْ لَنا الصَّفَا ذهباً، وَنَحِّ الْجِبَالَ عَنَّا لنَنْفَسِحَ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ؛ أي إنْ حوَّلتهُ فلم يؤمنوا لَمْ أمهِلْهُمْ لسُنَّتِي في مَن قبلَهم.

وموضع (أنْ) الأُولى نُصِبَ بتكذيب الأوَّلين برفعِ المنعِ عليه، وموضعُ (أنْ) الثانية رَفعٌ تقديره: وما مَنَعَنَا الإرسالَ بالآياتِ إلا تكذيب الأوَّلين بها، وهذا اللفظُ أغنَى عن لفظ المنعِ على طريق المجاز؛ لأن المنعَ لا يجوزُ على اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ ؛ أي أخرَجنا لثمودَ الناقةَ ليُبصِرُوا بها الْهُدَى من الضَّلالة، والسعادةَ من الشقاوةِ، ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ ؛ أي جحَدوا بها وعقَرُوها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي العِبَرَ والدلالاتِ إلا تَخْويفاً للعبادِ ليُؤمِنُوا، فإذا لم يفعَلُوا عُذِّبُوا.

قال قتادةُ: (يُخَوِّفُ اللهُ الْخَلْقَ بمَا شَاءَ مِنْ آيَةٍ لَعَلَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ أوْ يَرْجِعُونَ، ذُكِرَ لَنَا أنَّ الْكُوفَةَ رَجَفَتْ عَلَى عَهْدِ عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: يَا أيُّهَا النَّاسُ إنَّ اللهَ يَسْتَعْتِبُكُمْ فَاعْتِبُوهُ)(٣). وعن الحسنِ في قوله: (وَمَا نُرْسِلُ بالآيَاتِ إلاَّ تَخْوِيفاً) قال: (الْمَوْتُ الذريعُ)(٤).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٩٠٢).

(٢) في تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٢ ص٢٦٢؛ قال: ((أما الصالحة؛ فلهلاكها بالموت. وأما الطالحة؛ فيأخذها العذاب في الدنيا)).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٩١١).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٩١٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ ؛ عِلْماً وقدرةً فَهُمْ في قبضتِهِ لا يقدرون على الخروجِ عن مَشِيئته، وهو مانعُكَ منهم وحافظُكَ، فلا تَتَهيَّب وتخافُ منهم، وامْضِ بما أمِرْتَ به من تبليغِ الرِّسالةِ، وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: أحَاطَ بالنَّاسِ؛ أيْ أهْلَ مَكَّةَ أنَّهَا سَتُفْتَحُ لَكَ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ ؛ قال أكثرُ المفسِّرين: يعني ما ذُكِرَ في أوَّلِ هذه السُّورة من الإسراءِ في ليلةٍ واحدة من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصَى على معنى أنَّها شدَّةٌ من التكليفِ، كما رُوي أنَّ المشركين استعظَمُوا ذلك وكذبوهُ، فيكون معنى الرُّؤيا رؤيةَ العينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ ﴾ ؛ أي وما جعَلنا الشجرةَ الملعونةَ إلاَّ فتنةً للناس، والشجرةُ الْمَلْعُونَةُ: شجرةُ الزَّقُّومِ، يقولُ العرب: لكُلِّ طعامٍ منارٌ معلوم، وسَمَّوها فتنةً؛ لأنَّهم قالوا: إنَّ النارَ تأكلُ الشجرةَ، فكيف تنبتُ الشجرة في النار ؟!

وقال ابن الزِّبْعَرَى: (مَا نَعْلَمُ الزَّقُّومَ إلاَّ التَّمْرَ وَالزُّبْدَ) فَهَذا الْكَلاَمُ مِنْهُمْ هُوَ فِتْنَتُهُمْ؛ أيْ فُتِنُوا بذلِكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي نُخوِّفُهم بما نُرسِلُ الآياتِ، فما يزدادون إلا تجاوُزاً عن الحدِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ ، قد تقدَّمَ تفسيرُ ذلك. وقولهُ تعالى: ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي قالَ إبليسُ: أأسجدُ لآدم وهو مخلوقٌ من طينٍ؟ وهذا استفهامٌ بمعنى الإنكار، ونُصِبَ (طِيناً) على الحالِ.

قال اللهُ تعالى حَاكياً عن إبليس: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ أي قالَ إبليس: أخبرني عن هذا الذي كرَّمتهُ عليَّ، لِمَ كرَّمتَهُ عليَّ، وقد خلَقتَني من نارٍ وخلقتَهُ من طينٍ ؟! اعتقدَ إبليس أنَّ النارَ أكرَمُ أصلاً من الطينِ.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٢٦٣: تفسير الآية.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ لَبِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي لأَستَأصِلَنَّ دُرِّيتَهُ بإغوائِهم، إلاَّ قليلاً منهم وهمُ الذين عصَمتَهم مني، تقولُ العرب: احْتَنَكَتِ السَّنَةُ أمْوالَنَا؛ أي استَأصَلَتْهَا، قال الشاعر[(١)]:

أشْكُو إلَيْكَ سَنَةً قَدْ أجْحَفَتْ وَاحْتَنَكَتْ أمْوَالَنَا وَاجْتَلَفَتْ

وَاحْتَنَكَتْ حَلَقَتْ، وَاحْتَنَكَتِ الْجَرَادُ مَا عَلَى الأَرْضِ[(٢)]. وَقِيلَ: معنى (لأَحْتَنِكَنَّ) أي لأقتَطِعَنَّ دُرِّيتَهُ إلى المعاصي، يقالُ: احْتَنَكَ فلانٌ ما عندَ فلان من مال، إذا اقتطعَهُ. وَقِيلَ: معناهُ: لأقُودَنَّ دُرِّيَّتَهُ إلى المعاصِي وإلى النار، مِن قولهم: حَنَكَ دَابَّتَهُ يَحْنِكُهَا من الأسْفَلِ بحَبْلٍ يَقُودُهَا بهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي فمَن تَبعَكَ من ذُرية آدمَ فإنَّ جهنمَ جزاؤُكم جزاء وافراً مُكَمَّلاً. قولُهُ:﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ ؛ أي اسْتَنْزِلْ واستَخِفَّ واستَجْهِلْ مَن استطعتَ منهم بدُعائِكَ في المعصيةِ، مِن قولهم: صَوَّتَ فلانٌ، إذا دعاهُ، ويقال: أراد بالصوتِ صوتَ الغناءِ والمزامير، وهذا لعَلَى وجهِ التهديدِ وإنْ كان في صورَةِ الأمرِ كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[(٣)] وكقولهم: أجْهِدْ جُهْدَكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ ؛ أي صِحْ بخَيْلِكَ ورَجْلِكَ احْثُثْهُمْ على الإغواءِ، يقالُ: أجْلَبَ على العدوِّ، إذا جمعَ عليهم الخيولَ، والمعنى على هذا: إجمعْ عليهم كلَّ ما تقدرُ من مكائدٍ، وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: اسْتَعِنْ عَلَيْهِمْ بركَاب جُنْدِكَ وَمُشَاتِهِمْ)[(٤)]. والْجَلْبُ هو قَوْدُ الشيءِ وسَوقُهُ بالصوتِ، يقالُ للغنَمِ: جَلَبٌ

---

(١) أصلها أبيات ثلاثة من مشطور الرجز، كما في تفسير الطبري والقرطبي؛ قال الشاعر:

أشْكُو إلَيْكَ سَنَةً قَدْ أجْحَفَتْ جُهْداً إلَى جُهْدٍ بنَا وَأضْعَفَتْ

وَاحْتَنَكَتْ أمْوَالَنَا وَاجْتَلَفَتْ

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٨٧؛ قال القرطبي: (روي عن العرب: احْتَنَكَ الجرادُ الزرعَ، إذا ذهبَ به كلِّهِ).

(٣) فصلت / ٤٠ .

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٢٤٦.

وجَلُوبَةٌ؛ أي جلبت من موضعٍ إلى آخر، قال الحسنُ: (كُلُّ رَاكِبٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ فَهُوَ مِنْ خَيْلِ إبْلِيسَ، وَكُلُّ مَاشٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ فَهُوَ مِنْ رَجْلِ الشَّيْطَانِ)، وقرأ حفصٌ (وَرَجِلِكَ) بنصب الراء وكسرِ الجيم وهما لُغتان، أتبَعَ كسرةَ الجيمِ كسرةَ اللامِ، وهذا على طريقِ الإهانةِ لإبليسَ، لا أنَّ له خَيْلاً ورَجِلاً، كما يقولُ الرجل لغيرِهِ: اجْمِعْ خَيْلَكَ وَرَجِلَكَ وَمَا أمْكَنَكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ ؛ شِركَتهُ في الأموالِ أن يجعَلُوا شيئاً من أموالهم لغيرِ الله، كما جعَلُوا من الحرثِ والأنعامِ، وشِركَتهُ في الأولادِ أن سَمَّوا أولادَهم: عبدَ يَغُوث، وعبدَ شمسٍ، وعبدَ الحرب. وقال بعضُهم: شِركتهُ في أولادِهم أولاد الزِّنَى، كذا قال مجاهدُ والضحَّاك. ويقالُ شركتهُ في الأموالِ كلُّ ما أخذ من حرامٍ وأنفِقَ في حرامٍ، وشركتهُ في الأولادِ الذي يُهَوِّدَاهُ أبَوَاهُ ويُنَصِّرانِهِ ويُمَجِّسانِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي مَنِّيهِمْ بما شِئتَ من الغُرور: من طول الحياةِ، والتَّشكيكِ في البعثِ، وما تكون مواعيدُ الشَّيطان إلا غُروراً؛ أي تَزييناً بَاطِلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ﴾ ؛ أي "إلاَّ"[1] في الوسوَسة، فإما أن يَمنعَهم عن الطاعةِ، أو يحملَهم على المعصيةِ فلا، وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ أولِيائي ليس لك عليهم حجَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي حَافِظاً لأوليائهِ يعصِمُهم عن القبولِ من إبليس؛ لأن الوكيلَ بالشيءِ يكون حَافظاً له.

ثُم ذكَرَ سبحانهُ نِعَمَهُ على عبادهِ فقال:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ ؛ أي ربُّكم الذي يسوقُ لكم، ويُجري لكم السُّفنَ في البحرِ، ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓۚ﴾ ؛ أي لتطلبُوا ما كان مصلحةً لكم في دُنياكم وآخِرَتِكم من التِّجارة وغيرِها، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ حين أنعمَ عليكم بهذه النِّعم.

---

(١) (إلا) سقطت من المخطوط.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ؛ أي يُخَلِّصُكم من الشدَّة في البحرِ عند عَصْفِ الرياحِ وترادُفِ الأمواجِ، وخِفتُم الغرقَ، ضلَّ مَن تدعون من الأصنامِ عن تخليصِكم؛ أي بَطَلَ وزَالَ، ولا يرجُون النجاةَ إلا من اللهِ.

قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: إذا مَسَّكُمُ الضرُّ فِي الْبَحْرِ نَسِيتُمُ الأَنْدَادَ وَالشُّرَكَاءَ، وَتَرَكْتُمُوهُمْ وَأخْلَصْتُمْ للهِ)، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ ، فَلَمَّا أجَابَ دُعَاءَكُمْ وَنَجَّاكُمْ مِنَ الْبَحْرِ، وَأخْرَجَكُمْ إلى البَرِّ ونجاكم، ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ ؛ عن الإيمانِ والطاعةِ، ورجعتُم إلى ما كنتم عليهِ، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ ؛ لنِعَمِ اللهِ تعالى، وأرادَ بالإنسانِ الكافرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ ؛ معناهُ: أفأَمِنتُمْ بعدَ ذلك أن نَخسِفَ بكمُ الأرضَ كما فُعِلَ بقارونَ، ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ؛ أي حجارةً تُمطِرُ من السَّماءِ عليكم، كما أمطَرتْ على قومِ لوط، قال القُتَيْبِيُّ: (الْحَاصِبُ: الرِّيحُ الَّتِي تَرْمِي بالْحَصْبَاءِ) وهي الحصَى الصِّغار[1]، يقال: حَصَبَهُ بالحجارةِ، إذا رمَاهُ بها مُتتابعاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ ؛ أي حَافِظاً يحفظُكم من عذاب الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ؛ أي أمْ أمِنتُم أن يُعيدَكم اللهُ في البحرِ مرَّةً أخرى، ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ ؛ أي ريحاً شديدةً تَقْصِفُ الفُلْكَ، قال أبو عُبيدة: (الْقَاصِفُ هِيَ الرِّيحُ الَّتِي تَقْصِفُ كُلَّ شَيْءٍ؛ أيْ تَدُقُّهُ وَتُحَطِّمُهُ). وقال القتيبيُّ: (هِيَ الَّتِي تَقْصِفُ الشَّجَرَ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ ؛ أي بكُفركم، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ ؛ أي لا تجِدُوا لكم من يَتْبَعُنَا فيطالِبُنا بدمائِكم، والتَّبيعُ: مَنْ يَتْبَعُ غَيْرَهُ لأمرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ؛ أي فضَّلناهم بالعقلِ والنُّطقِ والتمييزِ، وعامَلناهم معاملةَ الإكرامِ بالنعمة، وجعلناهم يهتَدُون إلى مَعايشِهم. قَوْلُهُ

---

(١) نقله القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٩٣.

تَعَالَى: ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ؛ أي في البرِّ على الدواب، وفي البحرِ على السُّفن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ؛ أي لَذِيذِ المطاعمِ والمشارب، قال مقاتلُ: (السَّمْنُ وَالزُّبْدُ وَالتَّمْرُ وَالْحَلْوَاءُ وَالْعَسَلُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي فضَّلنَاهم على كثيرٍ من حيواناتِ البرِّ والبحرِ، ومِن تفضيلهم أنَّهم يأكُلون بالأيدِي، وغيرُهم من الحيواناتِ يأكلون بالأفواهِ. ويقالُ: إنَّ ابنَ آدم يَمشِي مُنتَصِباً قائماً وسائرُ الحيواناتِ تَمشِي مُنْكَبَّةً.

ولم يقُل في الآية: عَلَى كلِّ مَنْ خلَقْنَا؛ لأن اللهَ فضَّلَ الملائكةَ كما قالَ تعالى: ﴿وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[1] ولكنَّ ابنَ آدمَ مُفضَّلٌ على سائرِ الحيواناتِ، وقال عطاءُ في هذه الآيةِ: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ بتَعْدِيلِ الْقَامَةِ وَامْتِدَادِهَا)، وقال مُحمَّدُ بن كعبٍ: (بأَنْ جَعَلَ مُحَمَّداً ﷺ مِنْهُمْ). وَقِيلَ: بحُسنِ الصُّورة، وَقِيلَ: الرِّجالُ باللِّحَا والنِّساءُ بالذوائب.

وَقِيْلَ: بتسلِيطهم على غيرِهم من الخلائق، وبتسخيرِ الخلائق لَهم. وعن النبيِّ ﷺ في تفسيرِ الآية قال: [الْكَرَامَةُ الأَكْلُ بالأَصَابعِ][2]. وقولُهُ: (وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) يعني الثِّمارَ والحبوبَ، وكلَّ طعامٍ لَيِّنٍ، ورزَقَ الدوابَ التِّبنَ والحشيشَ والشَّوكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ ؛ يعني يومَ القيامةِ وهو منصوبٌ على معنى: واذْكُرْ يومَ ندعُو كلَّ أناسٍ بإمامِهم؛ أي نَبيِّهِمْ، فيقالُ: هاتُوا

---

(١) النساء / ١٧٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٩٨٦) من قول ابن جريج. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٩٤؛ قال القرطبي: ((وروي عن ابن عباس؛ ذكره المهدوي والنحاس؛ وهو قول الكلبي ومقاتل؛ وذكره الماوردي)). وقاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٢٦٦. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الرقم (١٣٣٤٤) عن ابن عباس. أما أنه حديث؛ ففي الدر المنثور: ج ٥ ص٣١٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه الحاكم في التاريخ والديلمي عن جابر ﷺ)).

متَّبِعِي إبراهيمَ، هاتوا مُتَّبعي موسَى، هاتوا متَّبعي عيسَى، هاتوا متَّبعي مُحَمَّدٍ ﷺ، فيقومُونَ يأْخذُونَ كُتبَهم بأيمانِهم.

ثم يقالُ: هاتُوا متَّبعي الشيطان رؤساءَ الضَّلالةِ، هاتوا مُتَّبعي الطاغوتِ، فيقُومون ويُعطَونَ كُتبَهم بشمائِلِهم. ويقالُ: يُدعَى كلُّ أناسٍ بعَملِهِ، فيقالُ: أين صاحبُ هذا الكتاب ؟ أين فلانُ بن فلان الْمُصَلِّي؟ وأين فلانُ بن فلان الصَّوَّام؟ إلى أن يُنادِي بالعازفِ والدفَّافِ والرَّقاصِ، فيُدعَى كلُّ أناسٍ بعملِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ ؛ أي مَن أعطِيَ كتابَهُ الذي فيه ثوابُ عملِهِ بيمينه، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ ﴾ ؛ يفرَحُون ويُسَرُّونَ بما يقرَأون، وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ ولا يُنقَصُونَ من ثواب أعمالهم مقدارَ الفَتِيلِ، وهو القِشْرُ الذي في شِقِّ النَّواةِ، ويقالُ: هو الوَسَخُ الذي تَفْتِلُهُ بين إصبعَيكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي مَن كان في هذه الدُّنيا التي هو مُشَاهِدٌ لها أعمَى عن الحجَّة، لا يتفكَّرُ بقلبهِ في ملَكوتِ السَّموات والأرضِ، فهو في الآخرةِ التي هي غائبةٌ عن عَينَيهِ أشدُّ عمًى، وأخطأُ طَريقاً. ويقالُ: معناهُ: مَن كان في هذه الدُّنيا ضَالاًّ عن الحقِّ فهو في الآخرةِ أشدُّ تَحَيُّراً وذهَاباً عن طريقِ الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾ ؛ وذلك أنَّ ثقيفاً أرسَلُوا وَفدَهُم إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينةِ، فقالُوا: يَا مُحَمَّدُ نَحْنُ أخْوَالُكَ وَأصْهَارُكَ وَجِيرَانُكَ، وَجِيرَانُ أهْلِ نَجْدٍ لَكَ سِلْماً وَصِرْهُمْ عَلَيْكَ حَرَناً، إنْ سَالَمْنَا سَالَمَ مَنْ بَعْدَنَا، وَإنْ حَارَبْنَا حَارَبَ مَنْ بَعْدَنَا، فَقَالَ ﷺ: [مَاذا تُريدُونَ ؟] قَالُوا: نُبَايعُكَ عَلَى أنْ تُعْطِيَنَا ثَلاَثَ خِصَالٍ: أنْ لاَ نَنْحَنِي - يَعْنُونَ فِي الصَّلَوَاتِ - وَأنْ لاَ تُكْسَرَ أصْنَامُنَا بأيْدِينَا، تُمَتِّعُنَا بالأَصْنَامِ سَنَةً.

فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: [لاَ خَيْرَ فِي دِينٍ لاَ صَلاَةَ فِيْهِ وَلاَ رُكُوعَ وَلاَ سُجُودَ، وَأمَّا قَوْلُكُمْ عَلَى أنْ لاَ تَكْسِرُوا أصْنَامَكُمْ بأيْدِيكُمْ فَذلِكَ لَكُمْ، وَنَحْنُ نَبْعَثُ لَهَا مَنْ يَكْسِرُهَا، وأمَّا الأَصْنَامُ فَأنَا غَيْرُ مُمَتِّعُكُمْ بهَا] فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ فَإنَّا نُحِبُّ أنْ

تَسْمَعَ الْعَرَبُ أنَّكَ أعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ غَيْرَنَا، فَإنْ خِفْتَ أنْ تَقُولَ الْعَرَبُ أعْطَيْتَهُمْ مَا لَمْ تُعْطِنَا، فَقُلِ اللهُ أمَرَنِي بذلِكَ! فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ لاَ؛ رَجَاءَ أنْ يُسْلِمُوا، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (وَإنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ)[١] أي يَصرفُونَكَ عن الذي أمَرنَاكَ من كَسْرِ آلِهتِهم وعَيب دِينِهم؛ لتَفتَرِيَ علينا غيرَ الذي أمرنَاكَ به، فلو فعلتَ ما أرادوهُ، ﴿ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي صَفِيّاً لمبايَعتِكَ إيَّاهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي لقد كِدْتَ تَميلُ إليهم، قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي حِينَ سَكَتَّ عَنْ جَوَابهِمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ ؛ أي إنَّكَ لو مِلْتَ إليهم لأذقناكَ ضِعْفَ عذاب الدُّنيا، وضعفَ عذاب الآخرة، يريدُ عذابَ الآخرةِ ضِعْفَ ما يُعذبُ به غيرهُ، ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي مَانِعاً يَمنعُنَا من تعذيبكَ، قال ابنُ عبَّاس: (وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مَعْصُومٌ، وَلَكِنْ هَذا تَخْوِيفاً لأُمَّتِهِ؛ لِئَلاَّ يَرْكَنَ أحَدٌ منَ الْمُؤْمِنِينَ إلَى أحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ أحْكَامِ اللهِ تَعَالَى وَشَرَائِعِهِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [اللَّهُمَّ لاَ تَكِلْنِي إلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلاَ أدْنَى مِنْ ذلِكَ][٢].

وذهبَ السديُّ في هذه الآياتِ: (إلَى أنَّ قُرَيْشاً قَالَتْ لِلنَّبيِّ ﷺ: إنَّكَ تَرْفُضُ آلِهَتَنَا كُلَّ الرَّفْضِ، فَلَوْ أنَّكَ تَأْتِيهَا وَتَلْمِسُهَا وَتَبْعَثُ بَعْضَ وَلَدِكَ فَيَمْسَحُهَا، كَانَ أرَقَّ لِقُلُوبنَا وَأحْرَى أنْ نَتَّبعَكَ! فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَبْعَثَ بَعْضَ وَلَدِهِ فَيَمْسَحَهَا، فَنَهَاهُ اللهُ عَنْ ذلِكَ)[٣]. ويقال: إنَّهم قالوا: أطْرُدْ سِقَاطَ الناسِ ومواليهم، هؤلاءِ الذين

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٩ ص٥٤: الحديث (٨٣٧٢) عن الحسن عن عثمان بن أبي العاص. وأبو داود في السنن: كتاب الخراج: باب ما جاء في خبر الطائف: الحديث (٣٠٢٥) مختصراً. والطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٠٠٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. والواحدي في أسباب النزول: ص١٩٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٠٠٧) عن قتادة مرسلاً.

(٣) بمعناه أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الرقم(١٣٣٥٠) عن ابن عباس، و(١٣٣٥١) عن ابن جبير، و(١٣٣٥٢) عن الزهري، و(١٣٣٥٣) عن ابن نفير، و(١٣٣٥٤) عن محمَّد بن كعب=

رائحتُهم كرائحةِ الضَّأْنِ حتى نتَّبعَكَ، فَهَمَّ رسولُ الله ﷺ أن يفعلَ رجاءَ أن يُسلِمُوا، فأنزلَ اللهُ هذه الآياتِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المدينةَ، حسَدَتْهُ اليهودُ قالوا لـه: يَا مُحَمَّـدُ أَنَبِيٌّ أَنْـتَ؟ فَقَالَ: [نَعَمْ] قَالُوا لَهُ: وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَذِهِ بِـأَرْضِ الأَنْبِيَـاءِ، وَإِنَّ أَرْضَ الأَنْبِيَـاءِ الشَّامُ، كَانَ بهَا إبْرَاهِيمُ وَعِيسَى، فَإِنْ كُنْتَ نَبِيّاً فَأْتِ الشَّامَ، فَإِنَّ اللهَ سَيَمْنَعُكَ بِـهَا مِـنَ الرُّومِ إنْ كُنْتَ رَسُولَهُ، وَهِيَ الأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ وَأَرْضُ الْمَحْشَرِ. فَـهَمَّ رَسُـولُ اللهِ ﷺ أنْ يَخْرُجَ إلَى الشَّامِ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ بهَذِهِ الآيَةِ[1]. ومعناها: وقد كَادُوا لَيَستَفِزُّونَكَ مـن أرضِ المدينة لِيُخرِجُوكَ منها إلى الشَّامِ، ﴿ وَإِذًا ﴾؛ لـو أخرجُـوكَ، ﴿ لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾؛ أي الاَّ مـدَّةً يسيرةً حتـى يُهلِكَـهم اللهُ. ومـن قـرأ (خِلاَفَكَ) فمعناهُ: في مُخالَفَتِكَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾؛ نَصْبٌ علـى المصدرِ؛ أي سَنَّ لَهم سُنَّةَ مَن قد أرسَلنا، فإن سُنَّةَ اللهِ قـد جـرت في مَـن قبلِـكَ مـن الرُّسل بأنَّ أمَمَهم إذا أخرجُوهم من مواضِعِهم لم يلبَثُوا إلا قليلاً، والسُّنَّةُ: هي العـادةُ الجاريةُ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾؛ أي لا يقدرُ أحـدٌ علـى تحويلِ السُّنة التي أجرَاها اللهُ.

وقال مجاهدُ وقتادة: (هَمَّ أهْلُ مَكَّةَ بإخْرَاجِ النَّبيِّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ حِينَ شَاوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَوْ فَعَلُوا مَا أُمْهِلُوا، وَلَكِنَّ اللهَ كَفَّـهُمْ عَـنْ إخْرَاجِـهِ حَتَّـى أمَـرَهُ بـالْخُرُوجِ).

=القرظي. وأولى هذه الأقوال ما نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٠٠؛ قـال: ((ما كان منه هَمٌّ بالركون إليهم، بل المعنى: لولا فضل الله عليك لكان منك حيل إلى موافقتهم، ولكن ثَمَّ فضل الله عليك فلم تفعل؛ ذكره القشـيري. وقـال ابـن عبـاس: كـان رسـول الله ﷺ معصوماً، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشـركين في شـيء مـن أحكـام الله وشرائعه)).

(١) نقلـه الزاحـدي في أسبـاب الـنزول:ص١٩٦. والقرطـبي في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج١٠ ص٣٠١. وابن عادل الحنبلي في اللباب: ج١١ ص٣٥٢؛ وقال: هذا قول الكلبي.

والقَلِيلُ: مَا لَبِثُوا بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ حَتَّى أهْلَكَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ، غيرَ أن التأويلَ الأول أصحُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ ؛ قال ابنُ مسعودٍ ﷺ: (مَعْنَاهُ: أقِمِ الصَّلاَةَ لِغُرُوبِ الشَّمْسِ)[1] والصلاةُ المأمور بها على هذا هي المغربُ، والغَسَقُ بُدُوُّ الليلِ، وعن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في إحدى الرِّوايَتين عنه مثلُ قول ابن مسعود[2]، وفي الروايةِ الثانية وهو قولُ الحسنِ ومجاهد وقتادةُ: (إنَّ دُلُوكَهَا زَوَالُهَا)[3] وَالصَّلاَةُ المأمور بها على هذا الظهرُ والعصرُ والمغربُ والعشاءُ. فالغَسَقُ على هذا القولِ هو اجتماعُ ظُلمَةِ الليلِ.

قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ۝٧٨﴾ ؛ صلاةُ الفجرِ تشهدُها ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهار يُصلُّونها مع المسلمين. وإنما سُميت صلاةُ الفجرِ قُرْآناً؛ لأن القراءةَ فيها طولٌ، ولأن القراءةَ فريضةٌ من الرَّكعتين، وفي هذا بيانُ أن الصلاةَ لا تكون إلا بقراءةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (فَصَلِّ بالْقُرْآنِ). والتَّهَجُّدُ هو التَّيَقُّظُ بَعْدَ النَّومِ، ويقالُ: تَهَجَّدَ إذا نامَ، وتَهَجَّدَ إذا استيقظَ، والمعنى: أقِمِ الصلاةَ بالليلِ بعد التيقُّظِ من النومِ، ويقال: الْمُتَهَجِّدُ القائمُ إلى الصلاةِ من النوم، وقيل له: مُتَهَجِّدٌ لانتفاءِ التجدُّدِ عن نفسهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (نَافِلَةً لَكَ) أي تطَوُّعاً، وَقِيلَ: فضيلةً لكَ لرفعِ الدرجات لا للكفَّارات، فإنه ﷺ قد غُفِرَ له من ذنبهِ ما تقدَّمَ وما تأخَّرَ، وليست لنا بنافلةٍ، لكَثرَةِ ذُنوبنا وإنما هي كفارةٌ لغيرِ النبيِّ ﷺ، هكذا قال مجاهدٌ[4]. وقد رُوي ما يدلُّ على أنَّها نافلةٌ لغيرِ النبيِّ ﷺ وهو ما روَى أبو أمامة عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [الْوُضُوءُ يُكَفِّرُ مَا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٠١٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٠١٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٠٢٢) عن ابن عباس، و(١٧٠٢٥) عن الحسن، و(١٧٠٢٨) عن قتادة، و(١٧٠٢٩) عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٠٥٨).

قَبْلَهُ، وَتَصِيرُ الصَّلاَةُ نَافِلَةً] قِيلَ لَهُ: أَنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلاَ مَرَّتَيْنِ وَلاَ ثَلاَثٍ وَأَرْبَعٍ وَلاَ خَمْسٍ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي المقامَ الذي تُحْمَدُ عاقبتهُ، وهو المقامُ الذي يُعطيهِ اللهُ النبيَّ ﷺ فيه لواءُ الْحَمْدِ تجتمعُ تحته الملائكةُ والأنبياء، فيكون النبيُّ ﷺ أوَّلَ شافعٍ وأوَّلَ مُشفَّعٍ، قال ابنُ عبَّاس: (وَعَسَى مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ). ويعني بقولهِ (مَقَاماً مَحْمُوداً) أي يُعطِيكَ اللهُ يومَ القيامة مقاماً يحمدُكَ فيه الأوَّلون والآخِرون شرفٌ به على جميعِ الخلائق، والمقامُ المحمود مقامُ الشَّفاعَة، ومعنى (يَبْعَثُكَ) يُقِيمُكَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ ﴾ ؛ أي أدخِلني المدينةَ وأخرجني من مكَّة. وَقِيْلَ: أدخِلني في ما أمَرتَني بـه، وأخرجني من ما نَهيتني عنهُ. وَقِيْلَ: أدخِلني مُدخَلَ صدقٍ في جميع الأمور، وأخرجني مُخرَجَ صدقٍ من جميعِ الأمور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أي واجعَلْ لي من عندكَ قوَّةً أمتنعُ بها عن مَن عادَانِي. وقِيْلَ: حجَّةً أتقوَّى بها على إبطالِ سائرِ الأديان الباطلة.

وعن محمَّد بن المنكدر قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ دَخَلَ الْغَارَ: [أدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ]. وقال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ أخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ مِنْ مَكَّةَ آمِناً مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَأدْخِلْنِي مَكَّةَ مُدْخَلَ صِدْقٍ ظَاهِراً عَلَيْهَا بالْفَتْحِ)، وقال عطيةُ عن ابنِ عبَّاس:(أدْخِلْنِي الْقَبْرَ مُدْخَلَ صِدْقٍ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَأخْرِجْنِي مِنْهُ مُخْرَجَ صِدْقٍ عِنْدَ الْبَعْثِ). وَقِيْلَ: المعنى: أدخلني حيث ما أدخلتَني بالصِّدق، وأخرجني منه بالصِّدق، أي لا تجعلني مِمَّن يدخلُ بوجهٍ ويخرجُ بوجهٍ آخرَ، فإنَّ ذا الوجهَين لا يكون أميناً عند الله.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٢٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه الطيالسي وابن نصر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب والخطيب في تاريخه عن أبي أمامة... وذكره بمعناه)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ معنى: الحقُّ هو ما جاءَ به النبيُّ ﷺ من الشَّرائعِ والإسلامِ، وما جاءَ بـه مـن القُـرآن، وقال السديُّ: (الْحَقُّ الإِسْلاَمُ، وَالْبَاطِلُ الشِّرْكُ). ومعنى (زَهَقَ): بَطَلَ واضْمَحَلَّ.

قال ابنُ مسعودٍ وابن عبَّاس: (لَمَّـا افْتَتَـحَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ مَكَّـةَ، وَجَـدَ حَـوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ صَنَماً، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِمِخْصَرَةٍ فِي يَدِهِ وَيَقُـولُ: [جَـاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً] فَكَانَ الصَّنَمُ يَنْكَبُّ لِوَجْهِهِ، وَكَـانَ أهْـلُ مَكَّـةَ يَتْبَعُونَهُ وَيَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ: مَا رَأيْنَا رَجُلاً أسْحَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ)[1].

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أي شفاءٌ للمسلمين في الدُّنيا والآخرةِ، يتبرَّكون بقراءَتِهِ على أنفُسِهم، ويستَعينون به على دفعِ الأسقام والبلاَيا. وَقِيْلَ: شفاءٌ للقلوب يزولُ به الجهلُ منها كما يشفَى المريض.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) أي نعمةٌ مِن الله تعالى عليهم، وكـونُ القـرآن شفاءً؛ أي يُزيلُ عمَى الجهلِ وحيرةَ الشـكِّ، فـهو شـفاءٌ مـن داءِ الجـهلِ. وقـال ابـنُ عبَّاس: (يُرِيدُ شِـفَاءً مِـنْ كُـلِّ دَاءٍ)، ويؤيِّـدُ هـذا مـا رُوي أنَّ النـبي ﷺ قـال: [مَـنْ لَـمْ يَسْتَشْـفِ بـالْقُرْآنِ فَـلاَ شَـفَاهُ اللهُ][2]. قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ أي لا يُزَادُ الكفارُ عند نزولِ القرآن إلا خَسَاراً لأنه لا ينتفِعُ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ ؛ أي أنعَمنا عليـه بكشـفِ الضُّـرِّ وتبديلِ البُؤسِ بالنعمةِ، ﴿ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ ؛ أي أعرضَ عن شُـكرِهِ وتبـاعَدَ عن ذلك بنفسهِ، وقولهُ تعالى: (وَنَأى بجَانِبِهِ) أي تعَظَّمَ وتكبَّر وبعَّدَ نفسَـهُ عـن القيـامِ بحقوق النِّعَمِ. يريدُ بالإنسانِ، قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُ بالإنْسَانِ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ).

---

(١) أخرجه الطـبراني في المعجـم الكبـير:ج١٠ ص٢٢٢: الحديـث(١٠٥٣٥). وفي الأوسـط: ج ٣ ص١٥٩: الحديث (٢٣٢٤). وفي الصغير: الحديث (٢١٠) من حديث ابن مسعود، وأصله عنـد البخاري ومسلم.

(٢) عزاه المتقي الهندي في كنز العمال: الرقم (٢٨١٠٦) إلى الدارقطني في الإفـراد عـن أبـي هريـرة، وإسناده ضعيف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي إذا أصابتْهُ شدَّةٌ كان قَنُوطاً من رجاءِ الفَرَجِ من اللهِ، لا يَثِقُ بفضلِ الله تعالى على عبادهِ فيطمعُ في كشفِ تلك البليَّةِ من جهتهِ، وهذه صفةُ الكافرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ ؛ أي على طَبْعِهِ الذي جُبلَ عليه، وَقِيْلَ: على عادتهِ التي ألِفَها، وفي هذا تحذيرٌ من الفسادِ المسكون إليهِ، وَقِيْلَ: على فِئَتِهِ، وَقِيْلَ: على طريقتهِ التي تشابهُ كلَّ أخلاقهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ اللهَ يعلمُ أيَّ الفريقَين على الهدى وأيُّهما على الضلالةِ من المؤمنين والكفَّار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ؛ اختلَفُوا في الذي سألُوا عنه النبيَّ ﷺ، قال بعضُهم: سألوهُ عن جبريلَ قد سَمَّاهُ اللهُ روحاً في قولهِ تعالى ﴿وَكَذلِكَ أوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنَا﴾[١]، وعن عليٍّ ﷺ قالَ: (إنَّ الرُّوحَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ لَهُ سَبْعُونَ ألْفَ وَجْهٍ، فِي كُلِّ وَجْهٍ سَبْعُونَ ألْفَ لِسَانٍ يُسَبحُ اللهَ تَعَالَى بكُلِّ لِسَانٍ مِنْ هَذِهِ الألْسِنَةِ، فَسَألُوهُ عَنْ ذلِكَ الْمَلَكِ)[٢].

وعن عبدِالله بن مسعود قال: (كُنْتُ أمْشِي مَعَ النَّبيِّ ﷺ، فَمَرَّ بقَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اسْألُوهُ عَنِ الرُّوحِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ تَسْألُوهُ، ثُمَّ أتَاهُ نَفَرٌ مِنْهُمْ فَقَالُواْ لَهُ: يَا أبَا الْقَاسِمِ مَا تَقُولُ فِي الرُّوحِ ؟ فَسَكَتَ، ثُمَّ قَامَ فَاشْتَدَّ بيَدِهِ عَلَى جَبْهَتِهِ، فَعَرَفْتُ أنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ وَحْيٌ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَيَسْألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...) الآيَة)[٣].

وعن ابن عبَّاس: (أنَّ الْيَهُودَ اجْتَمَعُوا فَقَالُوا لِقُرَيْشٍ: سَلُوا مُحَمَّداً فِي ثَلاَثٍ، فَإنْ أخْبَرَكُمْ باثْنَيْنِ وَأمْسَكَ عَنِ الثَّالِثَةِ فَهُوَ نَبيٌّ، سَلُوهُ عَنْ فِتْيَةٍ مَضَوا فِي الزَّمَانِ، وَعَنْ رَجُلٍ بَلَغَ مَشَارقَ الأرْضِ وَمَغَاربَهَا، وَاسْألُوهُ عَنِ الرُّوحِ. فَسَألُوهُ عَنْ ذلِكَ، فَأنْزَلَ اللهُ

---

(١) الشورى / ٥٢ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧١٠٩) وهو منقطع عن علي فيه مجهول.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: سورة (١٧): الحديث (٤٧٢١).

تَعَالَى فِي الْفِتْيَةِ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾(١)...إِلَىآخِرِ الْقِصَّةِ، وَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾(٢)... إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي الرُّوحِ (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...) الآيَةُ، وإِنَّمَا سَأَلَتْهُ الْيَهُودُ عَنِ الرُّوحِ لأَنَّهُ لَيْسَ فِي التَّوْرَاةِ قِصَّتُهُ وَلاَ تَفْسِيرُهُ، وَلَيْسَ فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ اسْمِهِ الرُّوحُ)(٣).

وقال سعيدُ بن جبير: (لَمْ يَخْلُقِ اللهُ خَلْقاً أَعْظَمَ مِنَ الرُّوحِ غَيْرَ الْعَرْشِ، لَوْ شَاءَ أَنْ يَبْلَعَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضَ السَّبْعِ وَمَنْ فِيْهِمَا بِلُقْمَةٍ فَعَلَ، صُورَةُ خَلْقِهِ عَلَى صُورَةِ الْمَلاَئِكَةِ، وَصُورَةُ وَجْهِهِ عَلَى وَجْهِ الآدَمِيِّينَ، وَلَوْلاَ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَلاَئِكَةِ سِتْراً مِنْ نُورٍ لاحْتَرَقَتِ السَّمَوَاتُ مِنْ نُوره).

ويقالُ: أرادَ بالرُّوحِ روحَ الحيوانِ وهو ظاهرُ الكلامِ، وفي روحِ الحيوان خِلافٌ بين العلماءِ، وكلُّ حيوانٍ فهو روحٌ وبَدَنٌ، وروحُ الحيوان جسمٌ رقيق على بُنيَةٍ حيوانيَّة، في كلِّ جُزءٍ منها حياةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبي) أي من الأمرِ الذي لا يعلمهُ إلا ربي، وإنما لم يُجِبْهُمْ عن ذلك؛ لأن اليهودَ هم الذين سألوهُ عن الروحِ، وكان في كتابهم أنه إنْ أجابَهم عن الروحِ فليس بنبيٍّ! فلم يُجِبهُم تصديقاً لِمَا في كتابهم، وكانت المصلحةُ في هذا أن لا يُعرِّفَهم الروحَ من جهة النصِّ، بل يكلِّمُهم في تعريفهِ إلى ما في عقولهم، لِمَا في ذلك من الرياضةِ باستخراج الفائدة.

وقال بعضُهم: هو الدمُ! ألا ترَى أنه مَن نَزَفَ دمهُ ماتَ، والْمَيْتُ لا يَفْقُدُ من جسمهِ إلا الدمَ. وزعمَ قومٌ: أن الروحَ هو استنشاقُ الهواءِ، ألا ترَى أن المخنوقَ ومَن مُنِعَ استنشاقُ وشَمُّ الهواءِ يموتُ.

وقال بعضُ الحكماء: إن اللهَ خَلَقَ الروحَ من ستَّة أشياء: من جوهرِ النُّور والطِّيب والهواءِ لبقاء الحياةِ والعلمِ والعلُوِّ، ألا ترَى أنه ما دامَ في الجسدِ كان الجسدُ

---

(١) الكهف / ٩ .

(٢) الكهف / ٨٣ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧١٠٦) بأسانيد.

نورانياً تبصرُ العينان، وتسمَعُ الأذنان، ويكون طَيِّباً، فإذا خرجَ انـتنَّ الجسـدُ، ويكـون باقياً فإذا زَايَلَتْهُ الروحُ صارَ فانياً، ويكون حَيّاً وبخروجهِ ميتاً، ويكون عالِماً فإذا خـرجَ منه الروحُ صار سُفْلِيّاً بالياً.

والاختيارُ من هذه الأقوال: أنه جسمٌ لطيف يوجَدُ فيه الحياةُ! بدليلِ قولهِ تعالى في صفةِ الشُّهداء: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ﴾[١] والأرزاقُ والفَرَحُ مـن صفـةِ الأجسامِ، والمرادُ بهذا أرواحُهم؛ لأن أجسادَهم قد بَلِيَـتْ في الـتراب، وكذلـك قولـهُ ﷺ: [إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ تُعَلَّقُ فِي شَجَرَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ تَحْـتَ الْعَرْشِ][٢] وهذا لا يكون إلا في جسمٍ، ولا يتأتّى ذلـك في الأعـراضِ كمـا زَعمـت المعتزلةُ والنجارية[٣]: أن الروحَ عرَضٌ، وهو مردودٌ بما ذكرناهُ.

وعن ابن عبَّاس: (أَنَّ الرُّوحَ إذا خَـرَجَ مَـاتَ الْجَسَـدُ، وَصَـارَ الـرُّوحُ صُـورَةً أخْرَىلاَ تُطِيقُ الْكَلاَمَ؛ لأَنَّ الْجَسَدَ جُرْمٌ، وَالرُّوحُ يُصَوِّتُ مِـنْ جَوْفِـهِ وَيَتَكَلَّـمُ، فَـإذا فَارَقَ الْجَسَدَ صَارَ الْجَسَدُ صِفْراً[٤]، وَصَارَ الرُّوحُ صُورَةً أخْرَى يَنْظُرُ النَّاسُ سُـكُونَهُ، وَيَغْسِلُونَهُ وَيَدْفِنُونَهُ وَلاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَتَكَلَّمَ، كَمَا أنَّ الرِّيحَ إذا دَخَـلَ فِـي مَكَـانٍ ضَيِّـقٍ سَمِعْتَ لَهُ دَوِيّاً، فَإذا خَـرَجَ مِنْـهُ لَـمْ تَسْـمَعْ لَـهُ صَوْتـاً، وَكَذلِـكَ الْمَزَامِـيرُ، فَـأَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ يَنْظُرُونَ إلَى الْجَنَّةِ وَيَجِدُونَ رِيحَهَا، وَأرْوَاحُ الْكُفَّارِ يُعَذبُونَ فِي قُبُورِهِمْ).

وهذا الذي ذكرناهُ كلُّه في تفسيرِ الـروح عنـد التحقيـق مـنَ التكلُّـفِ؛ لأن اللهَ سُبحانهُ أبْهَمَ علمَ ذلكَ، قال عبدُاللهِ بن يزيـد: (مَـا بَلَـغَ الإنْـسُ وَالْجِـنُّ وَالْمَلاَئِكَـةُ وَالشَّيَاطِينُ عِلمَ الرُّوحِ، وَلَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا يَدْرِي مَا الرُّوحُ، وَلَمْ يُخْبِرِ اللهُ

(١) آل عمران / ١٦٩-١٧٠.

(٢) أخرجه الطبري في المعجم الكبير: ج ١٩ ص٦٢: الحديث (١١٩-١٢٥) عن كعب بن مالك بإسناد صحيح، وأخرجه أصحاب السنن.

(٣) النجارية: فرقة من فرق الجبرية الاثنتي عشرة، ومن أفكـارهم زعمـهم ((أن الله يعـذّبُ النـاس على فعلهِ لا على فعلِهم)). ينظر: الجامع لأحكام القـرآن: ج ٤ ص١٦٣: تفسير الآيـة (١٠٣) من سورة آل عمران.

(٤) الصِّفْرُ: بالكسر: الخالي، يقال: بيتٌ صِفرٌ من المتاع، ورجلٌ صِفرُ اليدين.

أحَداً مِنْ خَلْقِهِ بهِ، وَلَمْ يُعْطِ أحَداً عِلْمَهُ مِنَ عِبَادِهِ، فَقَالَ: (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبي) أيْ مِنْ عِلْمِ رَبي وإنَّكُمْ لاَ تَعْلَمُونَهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي وما أوتِيتُم من العلمِ المنصوصِ عليه، إلا قليلاً من كثيرٍ بحسب حاجَتِكم إليه، قُلْ: فالروحُ من المتروكِ الذي لا يصلحُ النصُّ عليه لأمورٍ من الحكمة تقتضِي تركَهُ. والخطابُ لليهودِ، وذلكَ أن رسولَ اللهِ ﷺ لَمَّا قرأ هذه الآيةَ على اليهودِ، قالوا: أوْتِينَا التوراةَ وفيها الحكمةُ، ومَن يؤتَ الحكمةَ فقد أوتِيَ خَيراً كثيراً، فأعلَمَهم اللهُ أنَّ علمَ التوراةِ قليلٌ في علمِ الله تعالى ﴿وَلَوْ أنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾(١).

قولهُ: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أي لو شِئْنا لَمَحَوْنا القرآنَ من القلوب والكتُب، وأنسَيْنَا ذكرَهُ كَيلاَ يوجدَ له أثرٌ، ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ تتوكَّلُ عليه في ردِّ شيءٍ منهُ، وقولهُ تعالى: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي لكِنْ لا نشاءُ ذلك إلا رحمةً من ربك، فأثبتَ ذلك في قلبكَ وقلوب المؤمنين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي حيث اختارَكَ للنبوَّةِ، واصطفاكَ للرسالةِ، وخصَّكَ بالوحيِ والقرآن، وجعلَكَ سيِّدَ ولدِ آدمَ، وختمَ بكَ الأنبياءَ، وأعطاكَ المقامَ المحمودَ.

وعن رسول الله ﷺ: أنَّهُ خَرَجَ وَهُوَ مَعْصُوبُ الرَّأسِ مِنْ وَجَعٍ، فَصَعَدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمَدَ اللهَ وَأثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: [يَا أيُّهَا النَّاسُ، مَا هَذِهِ الْكُتُبُ الَّتِي تَكْتُبُونَ ؟ أكِتَابٌ غَيْرُ كِتَاب اللهِ، كُلُّ مَنْ كَتَبَ كِتَاباً غَيْرَ كِتَاب اللهِ يُوشِكُ أنْ يَغْضَبَ اللهُ عَلَيْهِ لِكِتَابهِ، وَلاَ يَدَعُ وَرَقاً وَلاَ قَلْباً إلاَّ أخِذ مِنْهُ] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ فَكَيْفَ بالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: [مَنْ أرَادَ اللهُ بهِ خَيْراً بَقِيَ فِي قَلْبهِ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ](٢).

---

(١) لقمان / ٢٧ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٣٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا)).

وعن عبدِالله بن مسعودٍ: (إنَّ أوَّلَ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الأَمَانَةُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الصَّلاَةَ، وَلَيُصَلِّيَنَّ أقْوَامٌ ولاَ دِينَ لَهُمْ، وَإنَّ هَذا الْقُرْآنَ لَيُصْبحَنَّ وَمَا فِيكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ) فَقَالَ رَجُلٌ: كَيْفَ يَكُونُ ذلِكَ يَا أبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ وَقَدْ أثْقَنَّاهُ فِي قُلُوبِنَا، وَأثْبَتْنَاهُ فِي مَضَاجِعِنَا، نُعَلِّمُهُ آبَاءَنَا وَأبْنَاءَنَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: (يَسْرِي بهِ فِي لَيْلَةٍ فَيَذْهَبُ مَا فِي الْمَصَاحِفِ وَمَا فِي الْقُلُوب. وقرأ عبدُالله: (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالَّذِي أوْحَيْنَا إلَيْكَ))[1].

وعن عبدِالله قالَ: (أكْثِرُوا الطَّوَافَ بالْبَيْتِ قَبْلَ أنْ يُرْفَعَ وَتَنْبنِي النَّاسُ مَكَانَهُ، وَأكْثِرُوا مِنْ تِلاَوَةِ الْقُرْآنِ قَبْلَ أنْ يُرْفَعَ) فَقِيلَ: هَذِهِ الْمَصَاحِفُ تُرْفَعُ، فَكَيْفَ بمَا فِي صُدُورِ الرِّجَالِ؟ قَالَ: (يَسْرِي عَلَيْهِ لَيْلاً فَتُصْبحُوا مِنْهُ فُقَرَاءَ، وَتَنْسَوْنَ قَوْلَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَتَقَعُونَ فِي قَوْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأشْعَارِهِمْ)[2].

وعن عبدِالله بن عَمروٍ قال: (لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَرْتَفِعَ الْقُرْآنُ مِنْ حَيْثُ نَزَلَ بهِ، لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: مَا بَالُكَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَب مِنْكَ خَرَجْتُ وَإلَيْكَ أعُودُ، أتْلَى وَلاَ يُعْمَلُ بي)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ ؛ هذا تكذيبٌ للنَّضرِ بن الحارثِ حين قالَ: لو نشاءُ لقُلنا مثلَ هذا، والمعنى: قُل لو اجتَمَعوا على أن يأتُوا بمثلهِ في حُسنِ النَّظْمِ، وجودَةِ اللفظِ، وجمعِ المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرةِ لا يأتُونَ بمثلهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي أعْوَاناً، وأما رَفْعُ (لاَ يَأْتُونَ)؛ فلأنَّ جوابَ القسَمِ غالبٌ على جواب (أنْ) لوقوعه في صدر الكلام.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٢٥-٣٢٦؛ قال القرطبي: ((أخرج أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه)) وذكره وقال: ((هذا إسناد صحيح)). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٣٣٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان)).

(٢) ينظر ما قبله. وينظر: جامع البيان: تفسير الآية والأثر (١٧١١٣).

(٣) في الدر المنثور: ج ١٠ ص٣٣٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه محمَّد بن نصر في كتاب الصلاة)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ؛ أي من التخويفِ والتَّرغيب، ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ وامتنعَ أكثرُهم؛ أي أكثرُ أهلِ مكَّة إلا جُحوداً وإنْكاراً للحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾ رَوى عكرمةُ عن ابنِ عبَّاس: (أنَّ عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنَا رَبيعَةَ، وَأبَا سُفْيَانَ، وَالنَّضرَ بْنَ الْحَارثِ، وأبَا جَهْلٍ بْنَ هِشَام، وَالأَسْوَدَ بْنَ الْمُطَّلِب، وَرَبيعَةَ بْنَ الأَسْوَدِ، وَالْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ، وَأبَا جَهْلٍ، وَأبَيَّ بْنَ خَلَفٍ، وَالْعَاصَ بْنَ وَائِلٍ وَغَيْرَهُمْ، اجْتَمَعُوْا بَعْدَ غُرُوب الشَّمْسِ عِنْدَ ظَهْرِ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إبْعَثُوا إلَى مُحَمَّدٍ، وَكَلِّمُوهُ وَخَاصِمُوهُ. فَبَعَثُوا إلَيْهِ أنَّ أشْرَافَ قَوْمِكَ قَدِ اجْتَمَعُوا لَكَ لِيُكَلِّمُوكَ.

فَجَاءَ إلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيعاً يَظُنُّ أنَّهُ بَدَا لَهُمْ فِي أمْرِهِ شَيْءٌ، فَجَلَسَ إلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ وَاللهِ مَا نَعْلَمُ رَجُلاً مِنَ الْعَرَب أدْخَلَ عَلَى قَوْمِهِ مَا أدْخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ، لَقَدْ شَتَمْتَ الآبَاءَ، وَعِبْتَ الدِّينَ، وَسَفَّهْتَ الأَحْلاَمَ، وَشَتَمْتَ الآلِهَةَ، وَفَرَّقْتَ الْجَمَاعَةَ. فَمَا أمْرٌ قَبِيحٌ إلاَّ وَقَدْ جِئْتَهُ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، فَإنْ كُنْتَ إنَّمَا جِئْتَ بهَذَا الْحَدِيثِ تَطْلُبُ مَالاً، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أكْثَرَنَا مَالاً، وَإنْ كُنْتَ تَطْلُبُ بِهِ الشَّرَفَ فِينَا سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإنْ كَانَ هَذا الَّذِي بكَ تَابعٌ مِنَ الْجِنِّ، بَذلْنَا أمْوَالَنَا فِي طَلَب الطِّب لَكَ حَتَّى نُبْرِيَكَ مِنْهُ!

فَقَالَ ﷺ: [مَا بي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُكُمْ بهِ لِطَلَب أمْوَالِكُمْ وَلاَ الشَّرَفَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَنِي رَسُولاً وَأنْزَلَ عَلَيَّ كِتَاباً، وَأمَرَنِي أنْ أكُونَ لَكُمْ بَشِيراً وَنَذِيراً، فَبَلَّغْتُكُمْ رسَالَةَ رَبي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أصْبرُ عَلَى مَا أمَرَ اللهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ].

فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ فَإنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابلٍ مِنَّا مَا عَرَضْنَا عَلَيْكَ، فَقَدْ عَلِمْتَ أنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاس أحَدٌ أضْيَقَ بلاَداً وَلاَ أقَلَّ مِنَّا، فَاسْألْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي بَعَثَكَ إلَيْنَا أنْ يُسَيِّرَ عَنَّا هَذِهِ الْجِبَالَ الَّتِي ضَيَّقَتْ عَلَيْنَا، وَيَبْسُطَ لَنَا بلاَدَنَا وَيُجْرِيَ لَنَا فِيهَا أنْهَاراً كَأرْضِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، وَلْيَبْعَثْ لَنَا مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِنَا، وَلْيَكُنْ مِمَّنْ يَبْعَثُ لَنَا قُصَيُّ بْنَ

كِلاَبٍ فَإِنَّهُ كَانَ شَيْخاً صَدُوقاً، فَنَسْأَلُهُمْ عَنْ مَا تَقُولُ: أَحَقٌّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ ؟ فَإِنْ صَنَعْتَ لَنَا مَا سَأَلْنَاكَ وَصَدَّقُوكَ صَدَّقْنَاكَ، وَعَرَفْنَا بذلِكَ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ اللهِ بأَنَّهُ بَعَثَكَ رَسُولاً كَمَا تَقُولُ. فَقَالَ ﷺ: [مَا بهَذا بُعِثْتُ، إنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ بمَا بَعَثَنِي].

قَالُوا: وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ هَذا فَاسْأَلْ رَبَّكَ يَبْعَثْ مَلَكاً يُصَدِّقُكَ، وَيُعِينُكَ عَمَّا نَرَى بكَ، فَإِنَّكَ تَقُومُ فِي الأَسْوَاقِ تَتَلَمَّسُ الْمَعَاشَ. فَقَالَ ﷺ: [مَا أنَا بالَّذِي يَسْأَلُ اللهَ هَذا، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي بَشِيراً وَنَذِيراً].

قَالُوا: فَأَسْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً، كَمَا زَعَمْتَ أنَّ اللهَ مَا شَاءَ فَعَلَ! فَقَالَ ﷺ: [ذلِكَ إلَى اللهِ، إنْ شَاءَ فَعَلَهُ بكُمْ] فَقَالُوا: قَدْ أعْذرْنَا إلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، أمَا وَاللهِ مَا نَتْرُكُكَ وَمَا فَعَلْتَ بنَا حَتَّى نُهْلِكَكَ أوْ تُهْلِكَنَا. وَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تَأْتِيَ باللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبيلاً.

فَلَمَّا قَالُوا ذلِكَ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَامَ مَعَهُ عَبْدُاللهِ بْنُ أمَيَّةَ الْمَخْزُومِيُّ، وَهُوَ ابْنُ عَمَّتِهِ عَاتِكَةَ بنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِب، فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ عَرَضَ عَلَيْكَ قَوْمُكَ مَا عَرَضُوا فَلَمْ تَقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أمُوراً لأَنْفُسِهِمْ؛ لِيَعْرِفُوا بهَا مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللهِ فَلَمْ تَفْعَلْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أنْ تُعَجِّلَ لَهُمْ مَا خَوَّفْتَهُمْ بهِ مِنَ الْعَذاب فَلَمْ تَفْعَلْ، فَوَاللهِ لاَ أؤْمِنُ بكَ أبَداً حَتَّى تَتَّخِذ سُلَّماً إلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ تَرْقَى فِيْهِ وَأنَا أنْظُرُ حَتَّى تَلِجَ بَابَهَا، أوْ تَأْتِيَ مَعَكَ بنُسْخَةٍ مَنْشُورَةٍ، وَنَفَرٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَشْهَدُونَ أنَّكَ نَبيٌّ كَمَا تَقُولُ، وَايْمِ اللهِ لَوْ فَعَلْتَ ذلِكَ لَظَنَنْتُ أنِّي لاَ أصَدِّقُكَ.

ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى مَنْزِلِهِ حَزِيناً لِمَا نَالَهُ مِنْ سَفَاهَةِ قَوْمِهِ وَتَبَاعُدِهِمْ مِنَ اللهِ، فَقَالَ أبُو جَهْلٍ حِينَ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إنَّ مُحَمَّداً قَدْ أتَى إلَى مَا تَرَوْنَ مِنْ عَيْب دِينِنَا وَشَتْمِ آبَائِنَا وَتَسْفِيهِ أحْلاَمِنَا وَتَتْبيب آلِهَتِنَا، إنِّي أعَاهِدُ اللهَ لأَجْلِسُ لَهُ بحَجَرٍ غَداً قَدْرَ مَا أطِيقُ حَمْلَهُ، فَإذا سَجَدَ فِي صَلاَتِهِ رَضَخْتُ بهِ رَأسَهُ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً))(١).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٣٧-٣٣٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن إسحق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس)) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧١٣١).

قرأ أهلُ الكوفةِ (تَفْجُرَ) مخففة بفتحِ التاء وضمِّ الجيم، واختارَهُ أبـو حـاتم؛ لأن الينبوعَ واحدٌ، وقرأ الباقون بالتشديدِ، ولم يختلِفُوا في الثانِي أنه مشدَّدٌ لأجلِ أنَّها جمعٌ.

وذلك أنَّهم لَمَّا عجَزُوا عن الإتيانِ بسُـورَةٍ مثـل القـرآن وانقطعَـتْ حُجَّتـهم، جعلوا يقتَرحُون من الآياتِ ما ليس لَهم، مع أن الذي أتَاهُم بـه رسـولُ الله ﷺ مـن القُرْآن، وانشقاقِ القمرِ، وغيرِ ذلك من دلائلِ النبوَّة، كان أبلغَ في الدلالةِ مما اقـترحوهُ من تفجيرِ الينبُوعِ وغيرِ ذلك. والْيَنْبُوعُ: عَيْنٌ تفورُ بالمـاءِ، وأرادَ بقولـهِ (مِـنَ الأَرْضِ) أرضَ مكَّة.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ﴾ ؛ فتُشَـقِّقَ، ﴿ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ في وسطِ ذلك البُستَان تَشْقِيقاً. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ ؛ مَـن قـرأ بسُـكون السِّـين؛ أي قِطَعاً، فجَمعُ الكثيرِ كسِدرَةٍ وسُدْرٍ، وَقِيْلَ: أراد جَانِباً. ومن قرأ (كِسَفاً) بفتـحِ السـين فهو جمعُ القليلِ؛ أي جمعُ كُسْفَةٍ، يقالُ: أعْطِنِي كُسْفَةً من هذا الثـوبِ؛ أي قطعـةً منـه، والكُسُوفُ هو انقطاعُ النُّور.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ قـال قتـادةُ والضحَّاك: (عَيَاناً)، والمعنى: تأتِي بهم حتى نرَاهُم مقابلةً ونُشاهِدُهم، ويشهَدُون على صدقِ دعوَاكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ ؛ أي من ذهَبٍ، والزُّخْـرُفُ في الأصلِ هو الزِّينَةُ كما في قولِهِ تعالى ﴿حَتَّى إذا أخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾[1] أي بزينَتِها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ معناهُ: أو تصعدُ، ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ ؛ أي لن نصدِّقَك مع ذلك، ﴿ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا ﴾ ؛ تأتِينا بكتابٍ من الله، ﴿ نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ ؛ أنَّك رسولٌ من اللهِ إلينا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحمَّد: تَنْزِيهاً لرَبي عـن المقابَلةِ التي وصَفتُمْ، فإنَّ العارفَ باللهِ يعلمُ أنه لا يجوزُ المقابَلةُ على اللهِ. قَوْلُهُ تَعَـالَى:

---

(١) يونس / ٢٤ .

﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ أي ما كنتُ إلا بَشراً رَسُولاً كسائرِ الرُّسل، فلا أقدرُ على الإتيانِ بالآيات المقترَحة، كما لم يقدِرْ عليها مَن قبلِي من الأنبياءِ.

قرأ ابنُ مسعودٍ (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذهَبٍ) قال مجاهدُ: (كُنْتُ مَا أدْري مَا الزُّخْرُفُ حَتَّى رَأَيْتُهُ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ سُبْحَانَ رَبي)، قرأ أهلُ مكَّة والشام: (قَالَ سُبْحَانَ رَبي) يعني مُحَمَّداً ﷺ.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي ما صَرَفَ الناسَ إذ جاءَهم الْهُدَى إلاّ شبهةً أدخلُوها على أنفُسِهم، يعني قولَهم (أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً) وهذه شبهةٌ ضعيفة، ويعجَبُ منهم في غيرِ التعجُّب، ومرادُهم هَلاَّ بعثَ اللهُ بشَراً رسولاً؟ فأجابَهم اللهُ بقولِهِ تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ ؛ أي لو كان في الأرضِ ملائكةٌ يَمشُونَ على أقدامِهم مُقيمين في الأرض كما أنتم مُقيمون فيها، ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا ﴾ من جنسِهم، ﴿ رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ كما أرسَلنا إليكم بشَراً من جِنسِكم رسُولاً، لأن المَلَك إنما يُبعَثُ إلى الملائكةِ.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ ؛ فإن اللهَ يشهدُ لِي بالنبوَّة في القرآن، وأنتم تُنكِرُونَ نُبُوَّتِي، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ بأحوالِهم.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ ؛ أي من يُوَفِّقْهُ اللهُ لدينهِ بالطاعة فهو المهتدي، ﴿ وَمَن يُضْلِلْ ﴾ ؛ أي مَن يخذُلْهم عن دينهِ، ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ﴾ يَهدُونَهم من دون الله. قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا ﴾ ؛ عما يسُرُّهم، ﴿ وَبُكْمًا ﴾ ؛ عما ينفعُهم، ﴿ وَصُمًّا ﴾ ؛ عما يَمنَعُهم.

وَقِيْلَ: يُحشَرون في أول الحشر عُمياً وبُكماً وصُمّاً على هذه الصفةِ، ثم تزولُ هذه الصفات عنهم فيَرَونَ ويتكلَّمون ويسمعون كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَرَأَى

الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا﴾[1] وقال ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾[2] وقال ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾[3]. ويقالُ: إنه لَمْ يُرِدْ بالحشرِ في هذه الآية الحشرَ عن القبرِ، وإنما أرادَ به الحشرَ عن موضعِ الْمُحاسَبَة، فإنَّهم يُسحَبُونَ عن ذلك الموضعِ على وجُوهِهم على هذه الصِّفاتِ. وعن أنس: أنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ: [إنَّ الَّذِي أمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُمْشِيهِ عَلَى وَجْهِهِ][4].

وعن أبي هريرة قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلاَثَةِ أصْنَافٍ: صِنْفٌ مُشَاةٌ، وَصِنْفٌ رُكْبَانٌ، وَصِنْفٌ عَلَى وُجُوهِهِمْ] قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ قَالَ: [إنَّ الَّذِي أمْشَاهُمْ عَلَى أرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ، يَتَّقُونَ بوُجُوهِهِمْ كُلَّ حَدَبٍ وَشَوْكٍ][5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ أي مَصيرُهم إليها. وقولهُ تعالى: ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ أي كلَّما سَكَنَ لَهبُها من جانبٍ زدناها اشْتِعَالاً من جانبٍ آخر، يقالُ للنار اذا سَكَنَ لَهبُها: خَمَدَتْ، فإذا أُطْفِئَتْ ولَمْ يبقَ فيها شيءٌ من النار قِيْلَ: هَمَدَتْ، وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (خَبَتْ) أيْ سَكَنَتْ)[6]، وقال مجاهدُ: (طُفِئَتْ)، وقال قتادةُ: (لاَنَتْ وَضَعُفَتْ)، وقولهُ تعالى: (زِدْنَاهُمْ سَعِيراً) أي وَقُوداً.

ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى لماذا يزدَادُون سَعيراً، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ؛ أي ذلك العذابُ جزاءُ كُفرهم بدلائِلنا، وإنكارهم للبعثِ، وهو قولُهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ .

---

(١) الكهف / ٥٣ . (٢) الفرقان / ١٢ . (٣) الفرقان / ١٣ .

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: سورة الفرقان: الحديث (٤٧٦٠)، وطرقه في الحديث (٦٥٢٣). ومسلم في الصحيح: كتاب صفات المنافقين: باب يحشر الكافر على وجهه: الحديث (٥٤/ ٢٨٠٦).

(٥) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح: أبواب التفسير: الحديث (٣١٤٢)؛ وقال: ((حديث حسن)) وفيه علي بن زيد بن جدعان؛ ضعيف.

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧١٣٦) و(١٧١٤٠) عن الضحاك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ ؛ في صِغَرِهم وضَعْفِهم، ونظيرُ هذا قولـه ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ﴾[1] وقولهِ تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[2] ولأنَّ مَن قَدَرَ على خلقِ الأكبر عُلِمَ أنه قادرٌ على خلقِ الأصغرِ، فإذا قدرَ على خَلقِ أمثالهم قدرَ على إعادَتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ؛ أي جعلَ لإعادَتِهم وقتاً لا شكَّ فيه أنه كائنٌ، ﴿ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ جُحوداً مع وضُوحِ الدلالة والحجَجِ.

وقولـهُ تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ جوابٌ لقولِهم: (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً) المعنى: لو أنتم تَملِكُون مقدورات رحمةِ ربي إذاً لأمسَكْتُم لأنفُسِكم مخافةَ أن يَفْنَى بالإنفاق ولا يبقَى لكم، وقوله تعالى: (خَشْيَةَ الإنفَاقِ)، أي خشيةَ الفقرِ والحاجة، وَقِيْلَ: خشيةَ أن يُنفِقُوا فيَفتَقِرُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ ؛ أي تِسْعَ دلالاتٍ واضحات، قال ابنُ عبَّاس: (هِيَ الْعَصَا وَاللِّسَان، فَإنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ فَرَفَعَهَا اللهُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[3] وَالْبَحْرُ وَالْيَدُ، وَالآيَاتُ الْخَمْسُ: وَهِيَ الطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالدَّمُ)[4]. وقال محمَّد بنُ كعبٍ: (هَذِهِ الْخَمْسُ وَالْعَصَا وَاللِّسَان وَانْفِجَار الْمَاءِ مِنَ الْحَجَرِ، وَالطَّمْسِ كَمَا قَالَ ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾[5])[6]. وَقِيْلَ: هي الخمسُ والعصى ويدهُ والسُّنون ونقصٌ من الثمراتِ.

---

(١) النازعات / ٢٧ . (٢) غافر / ٥٧ . (٣) طه / ٢٧-٢٨ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧١٤٥).

(٥) يونس / ٨٨ .

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧١٤٧).

قال محمَّد بن كعبٍ في الطَّمس: (كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ مَعَ أهْلِهِ فِي فِرَاشِهِ، وَإذا قَدْ صَارَا حَجَرَيْنَ، وَأنَّ الْمَرْأةَ الْقَائِمَةَ تَخْبزُ وَقَدْ صَارَتْ حَجَراً، وَأنَّ الْمَرْأةَ فِي الْحَمَّامِ وَأنَّهَا لَحَجَرٌ، وَكَانَتْ تَنْقَلِبُ الْفَوَاكِهُ وَالْفُلُوسُ وَالدَّرَاهِمُ وَالدَّنَانِيرُ أحْجَاراً).

ورُوي: أنَّ يَهُودِيّاً قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ حَتَّى نَسْألَ هَذا النَّبِيَّ، فَأتَيَاهُ فَسَألاَهُ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) قَالَ: [لاَ تُشْرِكُواْ بِاللهِ شَيْئاً، وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلاَ تَسْحَرُوا، وَلاَ تَمْشُواْ بِبَرِيءٍ إلَى سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَلاَ تَقْذِفُواْ الْمُحْصَنَةَ، وَلاَ تَفِرُّوا مِنَ الزَّحْفِ، وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً يَا يَهُودُ أنْ لاَ تَعْدَوا فِي السَّبْتِ] فَقَبَّلُوا يَدَهُ وَقَالُوا: نَشْهَدُ أنَّكَ نَبِيٌّ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والمرادُ به غيرهُ؛ لأنه ﷺ كان يقعُ له العِلمُ من عندِ الله، فكان لا يحتاجُ في معرفةِ ذلك إلى الرُّجوعِ إلى أهلِ الكتاب، فكأنَّهُ تعالى قال: فاسأل أيها السامعُ وأيها الشَّاكُّ بني إسرائيلَ إذ جاءَهم موسى بالبيِّنات، قال ابنُ عباس: (فَاسْألْ بَنِي إسْرَائِيلَ، يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ أي إنِّي لأَظُنُّكَ يا موسى قد سُحِرتَ فلذلك تدَّعي النبوة، وَقِيْلَ: هذا مفعولٌ بمعنى فاعلٍ كأنه قالَ: إنِّي لأَظُنكَ ساحراً، وَقِيْلَ: المسحورُ المخدوع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي قالَ موسى لفرعونَ: لقد عَلِمتَ يا فرعون أنَّ هذه الآيات لا تدخلُ في مقدور العبادِ، فلَمْ يُنْزِلها إلا ربُّ السموات والأرض، ﴿ بَصَآئِرَ ﴾ ؛ أي حُجَجاً للناسِ يُبصِرُونَ بها في أمرِ دينهم، ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ وإنِّي لأعلَمُ يا فرعون إنَّكَ هالكٌ، يقال: ثَبَرَ الرجلُ فهو مَثْبُورٌ؛ أي هالكٌ، والظنُّ قد يُذكَرُ بمعنى اليقينِ على ما تقدَّمَ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٨ ص٦٩-٧٠: الحديث (٧٣٩٦). والترمذي في الجامع: أبواب الاستئذان: باب ما جاء في قبلة اليد: الحديث (٢٧٣٣)؛ وقال: حسن صحيح.

وقرأ الكسائيُّ(لَقَدْ عَلِمْتُ) بضمِّ التاء، وهي قراءةُ عليٍّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ) وقالَ: (وَاللهِ مَا عَلِمَ عَدُوُّ اللهِ، وَلَكِنْ مُوسَى هُوَ الَّذِي عَلِمَ)[(١)] فبلغَ ذلك ابنَ عبَّاس فقالَ: (إنَّهُ ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ تَصْدِيقاً لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[(٢)]). وقراءةُ النصب أصحُّ وأشهر، وليست قراءةُ الضمِّ مشهورةً عن عليٍّ ﷺ ولا ثابتة، وإنما روَاها عنه رجلٌ مجهول لا يُعرَفُ، ولا تَمسَّكَ بها أحدٌ من القرَّاء غيرَ الكسائيِّ.

وقولهُ تعالى: (مَثْبُوراً) قال ابنُ عبَّاس: (مَغْلُوباً)[(٣)]، وقال مجاهدُ: (هَالِكاً)[(٤)]، وَقِيْلَ: مُخَبَّلاً لا عقلَ لكَ، وَقِيْلَ: بَعِيداً من الخيراتِ، وَقِيْلَ: سِلاَخاً[(٥)] في القطيفةِ، قال مجاهدُ: (دَخَلَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِ قَطِيفَةٌ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَرَأى فِرْعَوْنُ ثُعْبَاناً فَفَزِعَ وَأَحْدَثَ فِي الْقَطِيفَةِ)[(٦)].

وروَى أبو سعيدٍ الجوهريُّ قال: (كُنْتُ قَائِماً عَلَى رَأسِ الْمَأْمُون وَهُوَ يُنَاظِرُ رَجُلاً وَهُوَ يَقُولُ: يَا مَثْبُور، ثُمَّ أقْبَلَ إلَيَّ فَقَالَ: مَا مَعْنَى (مَثْبُوراً)؟ قُلْتُ: لاَ أدْرِي، فَقَالَ: حَدَّثَنِي الرَّشِيدُ قَالَ: حَدَّثَنِي الْمَهْدِي قَالَ:كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ أمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُور، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لِرَجُلٍ: يَا مَثْبُورُ، فَقُلْتُ: يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا مَعْنَى يَا مَثْبُورُ؟ قَالَ مَيْمُونُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً) مَا مَثْبُوراً ؟ قَالَ: نَاقِصُ الْعَقْلِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي فأرادَ فرعونُ أن يُزعِجَ بني إسرائيلَ، ويُخرجَهم من أرضِ مصرَ قَهْراً. والاسْتِفْزَازُ: هو الخوفُ بالشدَّة، ويجوز أن يكون المرادُ به أنه قصدَ قتلَهم،﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛

---

(١) في جامع البيان: تفسير الآية؛ قال الطبري: ((وروي عن علي)) وذكره.

(٢) النمل / ١٤ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧١٥٩).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧١٦).

(٥) سلاخه: إذا انتشرَ بُسْرُهُ، فكأنه أحدثَ في قطيفتهِ. ينظر: لسان العرب (سلخ).

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٣٧.

أي أمَرْنا موسى وقومَهُ بالخروجِ من مصرَ، فتَبعَهُ فرعونُ وقومهُ، فجعلنَا في الماءِ طريقاً يَابساً، فجاوزَ موسى وقومهُ البحرَ، فَتَبعَهُمْ فرعونُ وقومهُ، فأطبَقنا الماءَ عليهم حتى غَرقوا كلُّهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ ؛ من بعدِ هلاك فرعون، ﴿ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ الشَّامَ وأرضَ مصرَ، وأورثَ بني إسرائيلَ مساكِنَهم وديارَهم، وفي هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ أنه يفعلُ به وبالمشركين ما فعلَ بموسَى وعدُوِّهِ، فأظهرَ اللهُ النبيَّ ﷺ على المشركين، وردَّهُ إلى مكَّةَ ظَافراً عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ يعني يومَ القيامةِ جِئنَا بكم جَميعاً؛ أي أتينا بكم مِن كلِّ قبيلةٍ، واللَّفِيفُ: الجماعاتُ من قبائلَ شتَّى، وَقِيْلَ: جئنا بكم مُختَلِطِينَ لا تتعارَفُون، والمعنى: جِئنا بكم من قُبوركم إلى الْمَحْشَرِ أخلاطاً، يعني جميعَ الخلقِ، المسلمَ والكافرَ والبَرَّ والفاجرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ ؛ يعني القرآنَ، ويجوز أن تكون الهاءُ كنايةً عن جبريلَ، فإن اللهَ أنزلَهُ بالقرآن، ونـزَلَ هو به. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ أي بَشيراً لِمَن أطاعَ بالجنَّة، ومخوِّفاً بالنُّذر للكفار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ ؛ معناه: وأنزلنا قُرآناً فرَّقناهُ شيئاً بعد شيءٍ، فإنه كان ينْزِلُ منه شيءٌ، ثم يَمكثُون ما شاءَ اللهُ، ثم ينْزِلُ منه شيءٌ آخر، وكان بين أوَّلِهِ وآخرِهِ عشرون سَنة. وقولهُ تعالى: ﴿ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ ؛ أي على تَثبُّتٍ وتوقُّفٍ ليَفهموهُ بالتأمُّلِ، ويعمَلُوا ما فيه بالتفكُّرِ، وهو معنى قولِهِ تعالى ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ تأكيداً لأنزلنَاهُ مرَّةً بعدَ مرةٍ لعِظَمِ شأنهِ.

---

(١) المزمل / ٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّةَ: آمِنُوا بالقرآنِ أو لا تُؤمِنُوا، وهذا وعيدٌ لَهم؛ أي إنْ آمَنتُم وإنْ لَم تُؤمِنُوا، فاللهُ غنِيٌّ عنكم وعن إيمانِكم، وإيمانُكم لا ينفعُ غيرَكم، وكفرُكم لا يضرُّ سِوَاكُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي مِن قبلِ نُزول القرآن، والمرادُ بهم مُؤمِنو أهلِ الكتاب، ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ القرآنُ، ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ ؛ أي يقعُون على وجُوهِهم ﴿ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ ، للهِ، والمرادُ بالأذقان الوجوهَ، كذا قال ابنُ عبَّاس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي يقولُون في سُجودِهم: تَنْزيهاً للهِ عما لا يليقُ به، وقد كان وعدُ ربنا كائناً لا محالةَ. وهؤلاءِ الذين سجدوا كانوا يسمَعُون أنَّ اللهَ يبعثُ نَبيّاً من العرب وينزِّلُ عليه كِتَاباً، فلما سَمعوا القرآنَ سَجَدوا للهِ وحمدوه على إنجاز الوعدِ ببعثِ الرسولِ والكتاب، وقالوا: قد كان وعدُ ربنا مَفعُولاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ ؛ أي يسقُطون على الوجوهِ يَبكُونَ في السُّجودِ، ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ ؛ البكاءُ في السُّجودِ، ﴿ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ إلى خُشوعِهم؛ لأن مخافتَهم الله داعيةٌ إلى طاعتهِ، والإخلاصِ في عبادتهِ.

وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ البكاءَ في الصَّلاة من خوفِ الله لا يقطعُ الصلاةَ؛ لأن اللهَ مدَحَهم عليه. وعن رسولِ الله ﷺ [أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي، فَيُسْمَعُ لِصَدْرِهِ أزيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ][(١)]. وعن عبدِالله بن شدَّاد قالَ: (كُنْتُ أُصَلِّي خَلْفَ عُمَرَ ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ، وَكَانَ يَقْرَأُ سُورَةَ يُوسُفَ حَتَّى إذا بَلَغَ ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾[(٢)] سَمِعْتُ نَشِيجَهُ، وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٥ و٢٦. وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب البكاء في الصلاة: الحديث (٩٠٤). والنسائي في السنن: كتاب السهو: باب البكاء في الصلاة: ج ٣ ص١٣ صحيح.

(٢) الآية / ٨٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ ؛ فقالَ ابنُ عبَّاس: (تَهَجَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ لَيْلَةٍ بمَكَّةَ، فَجَعَلَ يَقُولُ في سجودهِ: [يَا اللهُ يَا رَحْمَنُ]. فَقَالَ أبُو جَهْلٍ: إنَّ مُحَمَّداً يَنْهَانَا أنْ نَعْبُدَ الْهَيْنِ وَهُوَ يَدْعُو إلَهاً آخَرَ مَعَ اللهِ يُقَالُ لَهُ الرَّحْمَنُ! وَهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ الرَّحْمَنَ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[١].

ومعناها: قل يا مُحَمَّدُ: أدعوا اللهَ يا معشرَ المؤمنين، أو ادعُو الرَّحْمَنَ، إنْ شِئتُم فقُولُوا: يا رَحْمَنُ، وإنْ شِئتُم فقولوا: يَا اللهُ يا رَحْمَنُ؛ ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ ﴾ ، أيُّ أسماءِ الله تدعوهُ بها، ﴿ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ، فأسْماؤهُ كلُّها حَسنةٌ فادعوهُ بصفاتِه. وقوله تعالى: (أيّاً مَا تَدْعُوا) قال بعضُهم: (مَا) في هذا صِلَةٌ، ومعناها التأكيدُ، تقديرهُ: أيّاً تدعون، ومِثلهُ: عمَّا قليلٍ، وخُذ مَا هُنالِكَ، و﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ﴾[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ بمَكَّةَ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا صَلَّى بأصْحَابهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بالْقُرْآن، فَإذا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ، وَلَعِبُوا وَصَفَّقُوا وَصَفَّرُوا وَلَغَطُوا، كُلُّ ذلِكَ لِيُغْلِطُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانُوا بِهِ يُؤْذُونَهُ، وَإذا خَافَتَ بالْقِرَاءَةِ لَمْ يَسْمَعْهُ أصْحَابُهُ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٣]. أي لا تجهَرْ بقِراءَتِكَ في الصَّلاةِ فيسمَعُها المشركون فيُؤذونكَ، ولا تُخافِتْ بها فلا يسمعُها أصحابُكَ. وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: وَلاَ تَجْهَرْ بقِرَاءَتِكَ فِي الصَّلاَةِ كُلِّهَا وَلاَ تُخَافِتْ بهَا فِي الصَّلاَةِ كُلِّهَا، وَلَكِنِ اجْهَرْ بهَا فِي بَعْضِ الصَّلَوَاتِ، وَخَافِتْ بهَا فِي بَعْضِ الصَّلَوَاتِ).

وَسَألَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أبَا بَكْرٍ عَنْ قِرَاءَتِهِ بِاللَّيْلِ، فَقَالَ: (أخَافِتُ بِهَا كَيْ لاَ أوْذِي جَارِي، أنَاجِي رَبي وَقَدْ عَلِمَ بحَاجَتِي، فَقَالَ ﷺ [أحْسَنْتَ] وَسَألَ عُمَرَ ﷺ عَنْ قِرَاءَتِهِ باللَّيْلِ فَقَالَ: أرْفَعُ صَوْتِي أوْقِظُ الْوَسْنَانَ وَأطْرُدُ الشَّيْطَانَ، فَقَالَ: [أحْسَنْتَ] فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ لأبي بكر: [زدْ فِي صَوْتِكَ] وقال لعُمر: [انْقُصْ مِنْ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧١٩٤).
(٢) آل عمران / ١٥٩.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٢٠٨) بإسنادين. والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٧٢٢).

صَوْتِكَ][1] ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ . وعن ابن عباس أن معنى الآية: (لاَ تُصَلِّ مُرَاءَاةً لِلنَّاسِ وَلاَ تَدَعْهَا مَخَافَةً لِلنَّاس)[2]. وسئل رسول الله ﷺ عن أحسنِ الناس قراءةً؟ فقال: [الَّذِي إذا سَمِعْتَ قِرَاءَتَهُ رَأَيْتَ أنَّهُ يَخْشَى اللهَ تَعَالَى][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ ؛ فيرثه؛ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ ، يعاونه عليه، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ ، أي من أهل الذل وهم اليهود والنصارى، يودون إخراج رؤوسهم ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه. وقال مجاهد: (مَعْنَاهُ: لَمْ يُحَالِفْ، وَلَمْ يَبْتَغِ نَصْرَ أحَدٍ)[4] والمعنى أنه عَزَّ وَجَلَّ لا يحتاج إلى موالاة أحد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولي والنصير.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ أي عظِّمهُ عظمَةً تامة عن أن يكون له شريك أو ولي وصِفْهُ بأنه أكبر من كل شيء، وأنه القادر الذي لا يُعجِزهُ شيءٌ، العالِمُ الذي لا يخفى عليه شيء، الغنيُّ عن كل شيء. معتقداً لذلك بقلبك، عاملاً على أمره فيما أمركَ. وعن رسول الله ﷺ [أنَّهُ كَانَ إذا أفْصَحَ الْوَلَدُ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَّمَهُ هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً...﴾ الآية][5].

وروي أنَّ رَجُلاً جَاءَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إنِّي كَثِيرُ الدَّيْنِ كَثِيرُ الْهَمِّ، فَقَالَ: [إقْرَأ آخِرَ سُورَةِ بَنِي إسْرَائِيلَ ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أو ادْعُوا الرَّحْمَنَ...﴾ إلَى آخِرِ السُّورَةِ، ثُمَّ قُلْ: تَوَكَّلْتُ عَلَى الَّذِي لاَ يَمُوتُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ][6].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٢١١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٢١٨).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٧ ص١١٥ عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، بلفظ: [مَنْ إذا قَرَأ رَأيْتَ أنَّهُ يَخْشَى اللهَ].

(٤) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٥٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم)) وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٢٢١).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٢٢٢) عن قتادة مرسلاً. وعبدالرزاق في المصنف عن عبدالكريم بن أبي أمية، وعنه عن عمير بن شعيب ووصله ابن السني عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال السيوطي في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٥٣.

(٦) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٥٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو يعلى وابن السني)) وذكره بمعناه وكثير من لفظه عن أبي هريرة.

وعن ابن عباس أنه قال: ((مَنْ قَرَأَ سُورَةَ بَنِي إسْرَائِيلَ فِي سَفَرٍ أوْ حَضَرٍ إيْمَاناً وَاحْتِسَاباً ضَرَبَ اللهُ عَلَيْهِ سُوراً مِنْ حَدِيدٍ مِنَ الْغَرَق وَالْحَرْق وَالْبَرْق)). وعن عبدالحميد أنه قال: ((مَنْ قَرَأَ آخِرَ بَنِي إسْرَائِيلَ، كَتَبَ اللهُ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضِينَ السَّبْعِ، وَالْبحَار وَالْجِبَال)).

آخر تفسير سورة (**الإسراء**) والحمد لله رب العالمين

انتهى الجزء الثاني من المخطوط وفيه كتب الناسخ فاصلة

الجزء الثالث من تفسير القرآن العظيم

إلى مؤلفه الفاضل الهمام

شيخ الإسلام الطبراني الكبير نفع الله به جميع العالمين

بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

وَبِهِ التَّوْفِيْقُ وَالإِعَانَةُ

سُورَةُ الْكَهْفِ

سُورَةُ الْكَهْفِ مَكِّيَّةٌ غَيْرَ آيَتَيْنِ مِنْهَا ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ إلَى آخِرِهِمَا، وَعَدَدُ حُرُوفِهَا سِتَّةُ آلاَفٍ وَثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ حَرْفاً، وَكَلِمَاتُهَا أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ وَسَبْعٌ وَسَبْعُونَ كَلِمَةً، وَآيَاتُهَا مِائَةٌ وَعَشْرُ آيَاتٍ عِنْدَ الْكُوفِيِّيْنَ، وَأَحَدَ عَشَرَ عِنْدَ الْبَصْرِيِّيْنَ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؛ أي الذي أنزلَ على عبدهِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْقُرْآنَ؛ ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي لَم يجعلْهُ مُلْتَبِساً لا يُفْهَمُ، ومِعْوَجّاً لا يَسْتَقِيْمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَيِّمًا ﴾ ؛ أي مُستقيماً عَدْلاً؛ أي مُستوياً قيما على الكُتُبِ كلِّها ناسخاً لشرائعِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ ؛ أي لِيُنْذِرَ العبدُ الذي أنزل عليه الكتابُ بَأْساً شَدِيداً؛ أي لينذرَ الكفَّارَ عذاباً شديداً من عندِ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾ أي ثواباً حَسَناً في الجنة؛ ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي مُقيمين في ذلك الأجْرِ خالدين فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ وهم قريشٌ واليهودُ والنصارى، فإنَّ قُريشاً قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ، واليهودُ قالوا: عُزَيْرٌ ابنُ الله، والنصارى قالوا: المسيحُ ابن الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ ﴾ ؛ أي هم وآباؤهم كلُّهم مقلِّدين ليس لَهم على ذلك بيانٌ ولا حُجَّةٌ، بل قالوا جَهْلاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَبُرَتْ

كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ ؛ أي كَبُرَتْ مقالتُهم تلكَ كلمةً تخرجُ من أفواهِهم ما؛ ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ و(كلمةً) نَصْبٌ على التميـيزِ، وإنَّما كَـبُرَتْ هذه الكلمةُ؛ لأن صاحبَها يستحقُّ بها العذابَ، ومِن ذلك سُميت الكبيرةُ كبـيرةً؛ لأن عقابَها يزيدُ على استطاعة صاحبها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ ؛ فيه نَـهْيٌ للنبيِّ ﷺ من إهلاكِ نفسه حُزناً عليهم بسبب إعراضِـهم عـن الإيْمـان لشـدَّة شـفقتهِ عليهم، وحقيقةُ الأسفِ الحزنُ على من فاتَ.

ومعنى الآية: فلعلَّكَ قاتلٌ نفسَكَ، يقال بَخَعَ الرجلُ نفسَهُ إذا قتلَها غيظـاً مـن شدَّةِ حُزنه على الشـيءِ أو وَجْـدِهِ بالشـيءِ، وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: (عَلَـى آثَـارِهِمْ) أي مِـن بعدهم، يعني مِن بعدِ تولِّهم وإعراضهم عنكَ إن لَم يؤمنوا، ﴿ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ ؛ يعني القُرْآنَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي حُزناً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ ؛ أي جعلنا جميـعَ مـا على الأرضِ مِن الأشجار والثِّمار والنباتِ والمياه والذهب والفضةِ والحيوان لهم منها زينةً للأرض، وجعلناها محفوفةً بالشَّهواتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي لنـأمرَهم فننظُـرَ أيُّهُم أعملُ بطاعةِ اللهِ هذا أم هذا. قال الحسنُ: (أيُّهُمْ أزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَأتْرَكُ لَـهَا)[1]. وقال مقاتلُ: (أيُّهُمْ أصْلَحُ فِيْمَا أوْتِيَ مِنَ الْمَال، وَيُحْسِنُ الْعَمَلَ، وَيَزْهَدُ فِي مَا زُيِّنَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا).

ثُم بيَّن اللهُ تعالى أنه يعـني ذلـكَ كلَّـه؛ فَقَـالَ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي يجعلُ ما عليها من الحيوانِ والنَّبات تُراباً يابساً مسـتوياً على الأرضِ، والْجُرُزُ الأرضُ التي لا ماءَ فيها ولا نباتَ، ويقالُ: سَنَةٌ جُرُزاً إذا كانت حرَّةً. قال عطاءُ: (يُرِيْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْعَلُ اللهُ الأَرْضَ جُرُزاً لاَ مَاءَ فِيْهَا وَلاَ نَبَاتَ).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٦١؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسـن)). وأخرجـه ابن أبي حاتم في التفسير: الرقم (١٢٧٠٦).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي لَم يكونوا بأعجبَ، فقد كان مِن آياتنا ما هو أعجبُ من ذلك. قال الزجَّاجُ: (اعْلَمَ اللهُ أنَّ قِصَّةَ أهْلَ الْكَهْفِ لَيْسَـتْ بعَجِيْبَـةٍ؛ لأَنَّ خَلْـقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا أعْجَبُ مِنْ قِصَّةِ أصْحَاب الْكَهْفِ).

والكهفُ: الغَارُ فِي الْجَبَلِ، والرَّقِيْمُ: قِيْلَ: هو وادٍ دونَ فلسطين، وهو الـوادي الذي فيه أصحابُ الكهفِ، وَقِيْلَ: الرقيمُ لوحٌ من حجارةٍ، وَقِيْلَ: من رصاصٍ كتبـوا فيه أسماءَ أهلِ الكهف وقصَّتَهم ثُم وضعوهُ على باب الكهفِ وهو على هذا التأويل بمعنى الْمَرْقُومِ؛ أي المكتوب، والرقيمُ: الْخَطُّ والعلامةُ، والرقيمُ: الكتابةُ.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ قُرَيْشاً بَعَثُوا خَمْسَةَ رَهْطٍ إلَى الْيَهُودِ يَسْأَلُونَهُمْ عَـنْ أمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا لَهُمْ: إنَّهُ يَزْعُمُ أنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَاسْمُهُ مُحَمَّدٌ، وَهُوَ فَقِـيرٌ يَتِيـمٌ وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمٌ، وَإنَّا نَزْعُمُ أنَّهُ يَتَعَلَّمُ مِنْ مُسَيْلَمَةَ، فَإنَّهُ يَقُـولُ: أنَـا مُرْسَـلٌ مِـنْ عِنْـدِ الرَّحْمَنِ، وَنَحْنُ لاَ نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إلاَّ رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ - يَعْنُونَ مُسَيْلَمَةَ -.

فَلَمَّا أتَى هَؤُلاَءِ الرَّهْطُ الْمَدِيْنَـةَ، أتَـوا أحْبَـارَ الْيَـهُودِ وَعُلَمَائِـهُمْ فَسَـأَلُوا عَنْـهُ وَوَصَفُوا لَهُمْ صِفَتَهُ وَخَاتَمَهُ، قَالُوا: نَحْنُ نَجِدُهُ فِـي التَّـوْرَاةِ كَمَـا وَصَفْتُمُـوهُ، وَلَكِـنْ سَلُوهُ عَنْ ثَلاَثِ خِصَالٍ، فَإنْ كَانَ نَبِيّاً أخْبَرَكُمْ بخَصْلَتَيْنِ، وَلَمْ يُخْبرْكُمْ بالثَّالِثَـةِ ؟ فَإنَّـا سَأَلْنَا مُسَيْلَمَةَ عَنْ هَذِهِ الْخِصَالِ فَلَمْ يَدْرِ مَا هِيَ، وَأنْتُمْ سَلُوهُ عَـنْ خَـبَرِ ذِي الْقَرْنَيْـنِ، وَعَنِ الرُّوحِ، وَعَنْ أصْحَابِ الْكَهْفِ.

فَرَجَعُوا وَأخْبَرُوا قُرَيْشاً بذلِكَ، فَسَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: سَأُخْبرُكُمْ غَداً، وَلَمْ يَقُلْ إنْ شَاءَ اللهُ. فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ جِبْرِيْلُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَشَقَّ ذلِكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ نَـزَلَ جِـبْرِيْلُ بـهَذِهِ الآيَـةِ ﴿وَلاَ تَقُولَـنَّ لِشَـيْءٍ إنِّـي فَـاعِلٌ ذلِـكَ غَـداً، إلاَّ أنْ يَشَـاءَ اللهُ﴾(١))(٢).

---

(١) الكهف / ٢٣.

(٢) في السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص٣٢١ ذكره في معناه. وذكـره السـيوطي في الـدر المنثـور: ج ٥ ص٣٧٦ عن مجاهد؛ وقال: ((أخرجه ابن المنذر)).

ثُم أخبرَهُ عن أصحاب الكهف وحديثِ ذي القرنين وخبرِ أمر الرُّوح، وحدَّثـهُ أن مدينةً بالروم كان فيها ملكٌ كافر يدعـو إلى عبـادةِ الأوثـان والنِّيران، ويقتـلُ مَـن خَالَفَهُ، وفي المدينةِ شابٌ يدعو إلى الإسلامِ سرّاً، فتابعهُ فتيةٌ من أهلِ المدينة، فَفَطِنَ بهم الملكُ فأخذهم، ودفعَهم الى آبائهم يحفظونَهم، فمرُّوا بغلامٍ راعٍ، فبايَعَهم ومعهُ كلبُـهم حتى إذا أتَوا غاراً فدخلوهُ، وألقَى اللهُ عليهم النَّومَ سنين عدداً، والملكُ طالبٌ لَهم لَم يقِفْ على أمرِهم، وعَمِيَ عليه خبرُهم، فسدُّوا بـابَ الكـهف ليموتـوا فيـه إن كـانوا هنالكَ.

ثُم عَمَدَ رجلٌ إلى لوحِ رصاص، فكتبَ فيه أسماءَهم وأسماءَ آبائهم ومدينتَهم، وأنَّهم خرجُوا فراراً من دِين ملكِهم في شهرِ كذا في سـنة كـذا والزقَـهُ بالسـدِّ، وكـان السدُّ في داخلِ الكهفِ، وذكر القصةَ إلى آخرِها، فهذا اللـوحُ الرصـاص هـو الرَّقِيْـمُ. فأخبرَ النبيُّ ﷺ قُريشاً بذلك، فلما أتَوا النبيَّ ﷺ قولَ اليهودِ أخـبرَهم بخصلَتـين ولَـم يخبرهم بالثالثةِ، قال كفارُ قريشٍ:﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾[1].

وقال محمَّدُ بن اسحق: (كثُرَتْ في أهلِ الإنجيلِ الخطايـا، وطَغَـتِ الملـوكُ حتـى عبدُوا الأصنامَ والأوثان، وفيهم بقايا على دينِ المسيحِ بن مريم متمسِّكون بعبـادةِ الله وتوحيده. وكان ممن فعلَ ذلك ملكٌ مِن ملوكهم يقالُ له دقيانوس[2]، وكان قـد عَبَـدَ الأصنامَ وذبَحَ للطواغيت، فسارَ حتى دخل مدينةَ أهلِ الكهف وهي أفسوس.

فلما دخلَها عَظُمَ على أهلِ الإيْمان، واستَخْفَوْا منهُ وهربوا إلى كلِّ ناحيةٍ، فأراد دقيانوسُ أن يُجْمَعَ له أهلُ الإسلامِ، واتخذ شُرَطاً من الكُفَّار من أهلها وأمرَهم باتبـاعِ المسـلمين، وأحصرَهـم فجعلـوا يتبَعُـون المسـلمين حتـى أخذوهـم ومَضَـوا بـهم الى دقيانوس، فخيَّرهم بين القتلِ وبين عبادة الأوثان، فمنهم مَن رَغِبَ في الحيـاةِ، ومنـهم من قالَ: لا أعبدُ غيرَ الله؛ فَقَتَلَهُ.

---

(١) القصص / ٤٨.

(٢) عند الطبري في جامع البيان: (دَقْيَنُوس)

فلما رأى ذلك أهلُ الإيْمانِ جعلوا يصبرون للعذاب والقتل، فقتلَهم وقطعَ لحومَهم، وربطها على سور المدينة ونواحيها كلِّها، وعلى كلِّ بابٍ من أبوابها حتى عَظُمَتِ الْمِحْنَةُ على المسلمين. فلما رأى الفتيةُ ذلكَ قاموا وصَلَّوا واشتغلوا بالتسبيحِ والدُّعاءِ إلى اللهِ، وكانوا من أشرافِ الرُّوم، وكانوا ثمانية نَفَرٍ، فَبَكَوا وتضرَّعوا وجعلوا يقولون: رَبُّنَا ربُّ السمواتِ والأرض لن ندعوَ من دونه إلَهاً لقد قُلنا إذاً شَطَطاً، اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنةِ وارفعها عنهم.

فبينَا هم كذلكَ إذ دخلوا عليهم الشُّرَطُ إلى مُصَلاَّهُمْ فوجدوهم سُجوداً يبكون ويتضرَّعون إلى اللهِ ويسألونَهُ أن ينجيَهم من دقيانوس وفِتْنَتِهِ، فقالوا لَهم: ما خلفكم من أمرِ الملك، انطلِقُوا اليه.

ثُم خرجوا مِن عندهم الى دقيانوس وأخبروهُ بخبرهم، وقالوا: أنتَ تجمعُ الجمعَ وهؤلاء الفتية يعصونَ أمرك، فأرسَلَ إليهم الشُّرَطَ فأتوا بهم تفيضُ أعينُهم من الدَّمعِ، معفورةً وجوهُهم بالتراب، فقال دقيانوس: ما منعَكُم أن تشهدوا الذبحَ للأصنامِ، وتعبدُوها وتجعلوا أنفسَكم كغيرِكم، إختاروا إمَّا تعبدوا الأصنامَ مثل الناسِ، وإما أن نَقْتُلَكُمْ.

فقال مكسلمينا[1]: إن لَنَا إلَهاً تَملأُ السموات والأرضِ عظمتهُ، لن ندعوَ من دونِهِ إلَهاً أبداً، ولن نفعلَ هذا الذي تدعونا إليهِ، ولكنَّا نعبدُ اللهَ ونسبحهُ ونحمدهُ خالصاً من أنفسنا، إياهُ نعبدُ وإياه نسأل النجاةَ، وأما الأصنامَ فلا نعبدُها أبداً، إصنَعْ بنا ما بدَا لكَ)[2].

وقال الضحاك: (قال أصحابُ مكسلمينا كلهم لدقيانوس مثلَ هذه المقالة، فقال دقيانوسُ: إنِّي سأؤخِّرُكم، وأمهلِكُم حتى تراجعوا عقولَكُم، واجعلُ لكم مدَّة تتشاورون فيها، فإن أبيتُمْ طاعتي وخالفتم أمري وقعَتْ بكم العقوبةُ، وما منعَنِي أن أعَجِّلَ قتلَكم إلاّ أنّي أراكم شَبَاباً جديداً شبابكم، فلا أحبُّ أن أهلِكَكم حتى أجعلَ

---

(١) في جامع البيان: النص (١٧٢٧٠)؛ قال الطبري: ((وهم ثمانية نفر: رئيسهم مكسلمينا، وهم أبناء عظماء المدينة)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٢٦٩ و١٧٢٧٠).

لكم مدَّة تنظرون فيها ما يصلحُ لكم، ثم أمَرَ بحليةٍ كانت عليهم مِن ذهب وفضة فَنُزِعَتْ عنهم وأمرَ بإخراجهم من عنده. فعَمَدَ كلُّ واحدٍ منهم إلى بيتِ أبيه واخذ لـه منه زاداً، وخرجوا هاربينَ فمرُّوا بكلبٍ، فتبعَهم فطردوهُ ثُم تبعهم، ففعلوا ذلك مِراراً، فقال لَهم الكلبُ: ما تَخشونَ منِّي أنا أحبُّ أحبابَ الله، فمتى نِمتُم كنتُ أحرسُكم).

وقال ابنُ عباس: (كانوا سبعةً هربوا ليلاً، فمرُّوا براعٍ ومعهُ كلبٌ، فتَبعَهم على دِينهم، فوصلوا إلى كهفٍ قريب من البلد فلبثوا فيه، ليس لَهم عملٌ إلاَّ الصلاةُ والصيام والتسبيحُ والتكبير والتحميدُ، وجعلوا نفقتَهم على يدِ واحد منهم يقالُ له: يَمليخا، فكان يشتري لَهم متاعَهم من المدينة سرّاً، وكان مِن أجمَلِهم وأجلدِهم، وكان إذا أرادَ أن يدخل المدينة يضعُ ثياباً كانت عليه حِسَاناً، ويأخذ ثياباً كثياب المساكين الذين يسألونَ الناس، ثُم يأخذ ورقةً ويشتري طعاماً، ويتجسَّسُ الأخبارَ، ويسمعُ هل يُذْكَرُ هو وأصحابهُ، ثُم يعودُ إلى أصحابهِ، فلَبثُوا كذلكَ ما لبثوا.

ثُم إنَّ دقيانوس الجبار شدَّدَ على مَن بقي من المسلمين، وأمرَهم بالذبحِ للطواغيت، وكان يَمليخا حينئذ هناك متنكِّراً، فسمعَ بأنَّ دقيانوس يطلبُ الفتيةَ ويسألُ عنهم، فرجعَ يَمليخا هارباً إلى أصحابهِ وهو يبكي ومعهُ طعامٌ قليل، فأخبرَهم أنَّ دقيانوس يسألُ عنهم، ففَزِعُوا ووقفوا سُجُوداً يتضرَّعون إلى اللهِ، يتعوَّذون به مِن فِتْنَتِهِمْ، وذلكَ عند غروب الشَّمس فبينا هم كذلكَ إذ ضربَ اللهُ على آذانِهم في الكهفِ، وكلبُهم باسطٌ ذراعيهِ بباب الكهف، فأصابَهم ما أصابَهم وهم مؤمنونَ موقنون، ونفقتُهم عندَ رؤوسهم.

فلما كان من الغدِ إلتمسَهُم دقيانوس فلم يجدهم فغَضِبَ غضباً شديداً، وأرسلَ إلى آبائهم فسألَهم عنهم، وقالَ: أخبروني عن أبنائِكم الْمَرَدَةَ الذين عَصَونِي، فقالوا: ما ندري أينَ ذهبوا، ولقد أخذُوا أموالَنا وهربوا، وليس لنا في ذلك ذنبٌ لأنَّا لَم نعصِكَ فلا تُعاقِبْنا فيهم. فخلَّى سبيلَهم وجعلَ لا يدري ما يصنعُ بالفتية، فبلغَهُ الخبرُ أنَّهم ارتفعوا الجبلَ فالتمَسَهم هناك حتى وجدُوا الكهفَ، فألقَى اللهُ في نفسهِ أن يأمُرَ بالكهفِ فيُسَدَّ عليهم.

قال دقيانوس: سدُّوا بابَ الكهفِ، ودعوهم فيه يَموتون جُوعاً وعطشاً، وليكن كهفُهم الذي اختاروه قَبْراً لَهم، وهو يظنُّ أنَّهم أيقاظٌ يعلمون ما يُصْنَعُ بهم، وقد توفَّى اللهُ أرواحَهم في النومِ وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بباب الكهف وقد غَشِيَهُ ما غشِيَهم، يُقَلَّبُونَ ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمال، وبقيَ دقيانوس ما بقِيَ، ثُم ماتَ وقرونٌ بعده كثيرة وجاءت ملوكٌ بعدَ ملوكٍ).

وقيلَ: إنَّ دقيانوس لَمَّا أتى إلى كهفِهم يطلبُهم كان كلَّما أرادَ رَجُلٌ أن يدخُلَ عليهم الكهفَ أُرْعِبَ، فلم يُطِقِ الدخولَ، فجعلوا يقولون لو قدرنا أن ندخلَ عليهم لقِينَاهُم فلم يستطِعْ أحدٌ الدخولَ إليهم، قال: سُدُّوا عليهم بابَ الكهف فيموتون جوعاً وعطشاً، ففعلوا ذلك.

فلما مضَى على ذلكَ قرونٌ وأزمان جاءَ راعي غَنَمٍ إلى الكهفِ بغَنَمِهِ فأدركهُ المطرُ عندَ الكهفِ، ففتحَ الكهفَ ليدخل غنمه فيه مِن المطرِ فوجدهم هناك، فَرَدَّ اللهُ عليهم أرواحَهم، فجلسُوا فرحِينَ مستبشرين، وظنُّوا أنَّهم أصبحُوا مِن ليلتهم، فقاموا إلى الصَّلاة فصلَّوا، لا تُرى في ألوانِهم ولا في أجسامهم شيء يكرهونَهُ، وهم يحسبونَ أنَّ دقيانوس في طلبهم.

ثُم قالوا ليمليخا: ما الذي قالَ الناسُ في شأننا بالأمسِ ؟ فقالَ: سمعتُ أنَّهم يلتمسونَكُم، فقال مكسلمينا: يا إخوتاهُ؛ إعلمُوا أنَّكم ملاقُو اللهَ فلا تكفروهُ بعد إيْمانِكم إذا طلبَكم غداً، فقالوا ليمليخا: إذهب إلى المدينة استمِعْ لنا الأخبارَ، وما الذي يذكرهُ الناسُ فينا عندَ دقيانوس.

فدخلَ المدينةَ مُستخفياً يصدُّ عن الطريق؛ لئلاَّ يراهُ من الناس أحدٌ يعرفه فيُعلِمَ دقيانوس، ولَم يعلمْ يَمليخا أنَّ دقيانوس وقومَهُ قد هلَكُوا منذُ ثلاثِمائة سنة، فرأى يَمليخا على باب المدينة علامةَ أهلِ الإيْمان فعَجِبَ، وجعلَ ينظرُ يَميناً وشِمالاً مُستخفياً، ثُم ذهبَ إلى الباب الثانِي فرأى عليه كذلكَ، فخُيِّلَ إليه أنَّ المدينةَ ليست بالتي كانَ يعرفُ.

ثُم رأى أناساً كثيراً يتحدَّثون لَم يكن يراهم قبلَ ذلك، فخُيِّلَ إليه أنه حيرانٌ، وجعل يقولُ لعلَّ هذه غشيةٌ، ثُم سَمع الناسَ يتحدَّثون بحديث أهلِ الإسلام،

ويحلِفُون بالله، ويذكرون عيسَى بن مريَم، فقال: لعلَّ هذه مدينةٌ أخرى، فقامَ كالحيران، فرآهُ إنسانٌ فسألَهُ ما هذه المدينة؟ فقالَ: هذه أفسوسُ، فقال: ذاهبُ العقل.

ثُم دخلَ السُّوق ليشتري طَعاماً فأخرجَ الوَرقَ الذي معهُ فأعطاها رَجُلاً وقال: بعنِي بهذه طعاماً، فعجِبَ الرجلُ من نقشِها وضربها، ثُم أعطاها رجلاً مِن أصحابهِ لينظرَ إليها، ثُم جعلوا يتطارحونَها بينَهم من رجلٍ إلى رجل، فقالوا: هذا أصابَ كنْزاً من كُنوز الأوَّلين، فإما أنْ تُشاركنا فيه، ونُخفِي أمركَ وإلاَّ سلَّمناك إلى السُّلطان يقتلُكَ؟

فقال في نفسهِ: قد وقعتُ في الذي كنت احذرُ منه، فجعل يَمليخا لا يدري ما يقولُ لَهم، وفَزِعَ حتى أنهُ ما أطاقَ يخبرهم بشيءٍ، فلمَّا رأوهُ لا يتكلَّمُ أشاعوا خبرَهُ، وجعلوا يقودونَهُ في سِكَكِ المدينة وهم يقولون: هذا رجلٌ وجدَ كنْزًا، فاجتمعَ عليه أهلُ المدينة فجعلوا ينظرونَ إليه ويتعجبون، ويقولون: ما هذا الرجلُ مِن أهل المدينة، وما رأيناهُ فيها قط ولا نعرفهُ ؟ ولو قال لَهم: أنا مِن هذه المدينة لَم يصدِّقوه، وكان متيقِّناً أنَّ أباهُ وإخوته في المدينةِ، وأنه يسألونه مِن جملةِ الناس إذا سَمعوا بخبرهِ.

ثُم إنَّهم انطلقُوا به إلى رئيسِ المدينة ومدبري أمرِها وهما رجلان صالحان، اسمُ أحدهما آرنوس والآخر أسطوس، وظنَّ يَمليخا حين مَضَوا به أنَّهم يَمضون به إلى دقيانوس، فرفعَ رأسَهُ إلى السماءِ وقال: اللَّهُمَّ إلهَ السماءِ والأرض أفْرِغِ اليومَ عليَّ صبراً، وأولِج معي رُوحاً تؤيِّدُنِي به عندَ هذا الجبَّار.

فلما انتهوا به إلى الرَّجُلين الصالحين سَكَنَ خوفهُ، فأخذ الرجلان الوَرقَ، فنظرا إليه وعَجِبَا منهُ، وقالاَ: يا فَتَى أينَ الكَنْزُ الذي وجدتَهُ؟ هذا الوَرقُ يشهدُ عليكَ أنكَ وجدت كَنْزاً، فقال يَمليخا: واللهِ ما وجدتُ كَنْزاً، ولكن هذا وَرقُ آبائي، ونقشُ هذه المدينة وضربُها، ولكن لا أدري ما شأنِي ولا أدري ما أقولُ لكم.

فقال أحدُهما: مِمن أنتَ ؟ فقال: أمَّا أنا فكنتُ أرى أنِّي مِن أهلِ هذه المدينة، فقال لهُ: مَن أبوكَ؟ ومَن يعرفُكَ بها؟ فأتاهم باسمِ لأبيه فلم يعرفوهُ، فقال لهُ أحدهما: أنتَ رجلٌ كذاب لا تُخبر بالحقِّ، فلم يدر يَمليخا ما يقولُ، فقال رجلٌ: هذا

مجنونٌ، وقال آخرُ: إنه ليس بمجنون يجنِّنُ نفسَهُ حتى تطلقوهُ، ونظرَ اليه آخر شِزْراً وقال: أتظنُّ أنَّا نصدِّقُكَ ونطلِقُكَ؟ فإن هذه الوَرقَ لضربهُ أكثرُ من ثلاثِمائة سنةٍ، وأنت غلامٌ شاب وليس عندنا مِن هذا الضرب درهمٌ ولا دينار.

فقال يَمليخا: أتعرِفُونَ شيئاً أسألُكم عنه؟ قالوا: سَلْ؛ قال: ما فعلَ دقيانوس، قالوا لا نعرفُ اليومَ على وجه الأرضِ ملكٌ يسمَّى دقيانوس، ولَم يكن إلاّ ملكٌ قد هَلَكَ منذُ زمان طويلٍ، وهلكَتْ بعده قرونٌ كثيرة، فقال يَمليخا: واللهِ لقد كُنا فِتْيَةً وإنهُ أكرَهَنا على عبادةِ الأوثان، فهربنا منهُ عشيَّةَ أمس فَنِمْنَا، فلما انْتَبَهْنَا خرجتُ لأشتريَ لأصحابي طعاماً وأتجسَّسُ الأخبارَ، فإذا أنا كما تَرَوْنَ، فانطلِقُوا معي إلى الكهفِ أريكم أصحابي.

فلما سَمع أرنوس ما يقولُ يَمليخا قالَ: يا قومِ لعلَّ هذا آيةٌ من آياتِ اللهِ جعلَها اللهُ لنا على يدَي هذا الفتى، فَامْضُوا بنا معهُ يُرينا أصحابَهُ. فمَضَوا معَهُ ومضى جميعُ أهلِ المدينة، فلمَّا سَمع الفتيةُ الذين في الكهفِ الأصواتَ وجَلَبَةَ الخيلِ مصعدة نَحوهم، وقد كان أبطأ عليهم يَمليخا، ظنُّوا أنه دقيانوس جاءَ في طلبهم، فسبَقَ يَمليخا القومَ وجاءَ إليهم فسألوهُ عن شأنهِ فأخبرَهم بالخبرِ كله، فعرفوا أنَّهم كانوا نِيَاماً بأمرِ الله ذلك الزَّمان كله، وإنَّما أُوقِظُوا؛ ليكونُوا آيةً للناس وتصديقاً للبعثِ، وليعلمُوا أنَّ الساعةَ لا ريبَ فيها، فلما فَرَغ يَمليخا من كلامهِ قَبَضَ اللهُ رُوحَهُ وأرواحَهم، وعَمِيَ على أولئكَ القومِ بابُ الكهفِ فلم يهتدوا إليه[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ ؛ أي اذْكُرْ لقومِكَ إذْ أوَى الْفِتْيَةُ يعني الشباب ؛ ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ ؛ نَنْجُوا بها من قومنا، ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ ، أي اجْعَلْ لنا طريقاً ومَخرجاً يوفِّقُنا إليكَ، وارشِدْنا إلى ما يقرِّبنا إليكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي أنَمناهُم في الكهفِ سنين معدودةً وهم أحياء يتعشَّون، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ ؛ أي

(١) أخرج الطبري قصة أصحاب الكهف في جامع البيان: النصوص(١٧٢٦٨-١٧٢٧٣).

أيقظناهم من نومهم؛ ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي ليعرف غيرُهم أنه ليس فيهم من يعرفُ مقدارَ السِّنين التي نَامُوا فيها؛ والمرادُ بأحدِ الحِزْبَين: الفتيةُ، والآخرُ ناسُ ذلك الزمان، وقيلَ: أراد بأحدِ الحزبين: المؤمنينَ، والحزبُ الآخر: الكافرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي نُبَيِّنُ لَكَ خبرَهم بالصِّدق؛ ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ ؛ أي شبابٌ؛ ﴿ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي ثَبَّتْنَاهُمْ على الإيمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ ﴾ ؛ أي ألْهَمْنَا قلوبَهم الصبرَ، وشجَّعناها حين قاموا بحضرة الكفَّار؛ يعني بين يَدَي دقيانوس الذي كان يَفْتِنُ أهلَ الإيْمان حتى قالوا بين يديه؛ ﴿ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي كَذِباً وجُوراً، والمعنى إنْ عَبَدْنَا غيرَ الله ودَعَوْنَا معهُ إلَهاً آخر، قُلْنا قَوْلاً ذا شَطَطٍ؛ أي مُتَجَاوزاً للحقِّ في غايةِ البُطلان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ ؛ أي قالُوا: هؤلاء قومُنا عَبَدُوا مِن دون الله؛ ﴿ ءَالِهَةً ﴾ ؛ أي عبدُوا الأصنام؛ يَعْنُونَ الذين كانوا في زَمَن دقيانوس، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ ؛ أي هَلاَّ يأتون على عبادتِهم لَها ببُرْهَانٍ واضحٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي فَمَنْ أظلمُ لنفسهِ ممن اختلقَ على اللهِ كَذِباً بأن جعلَ معه شريكاً في العبادةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ ؛ أي قال بعضُهم لبعضٍ، قيلَ: إن القائلَ بهذا يَمليخا وهو رئيسُ أصحاب الكهف؛ قال لأصحابهِ: إذ فارقْتُموهم وتَنَحَّيْتُمْ عنهُم جانباً؛ أي عن عبادةِ الأصنام ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ ، وهذا آخرُ الكلام ثُم قال: ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ؛ يعني إلاَّ الله فلا تعتزلوهُ أي فلا تعتزلوا عبادتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ ؛ أي فصيرُوا إلى الكهفِ، واجعلوهُ مأواكم؛ ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم ﴾ ؛ أي يبسِطْ لكم؛ ﴿ مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ ؛ نعمتهِ؛

﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ ما تَرْتفِقُونَ به هناك في معايشِكم يكون مخلِّصاً لكم مِن ظُلم هؤلاء الكفَّار. قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: وَيُسَهِّلْ عَلَيْكُمْ مَا تَخَافُونَ مِنَ الْمَلِكِ وَظُلْمِهِ). يقال: فيه (مَرْفَقاً) بكسر الميم وفتح القاف، وفتحِ الميم وكسرِ الفاء، وكذلكَ في مِرفق اليدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ، قرأ أهلُ الكوفة (تَزَاوَرُ) بالتخفيف على حذفِ إحدَى التَّائين، وقرأ أهلُ الشام ويعقوبُ (تَزْوَرُّ) بوزن تَحْمَرُّ، وكلُّها بمعنى واحد أي تَمِيلُ، وفيه بيانُ أن الكهفَ الذي أوَوا إليه كان بابهُ نحوَ القُطْب الذي يقربُ بباب نعشٍ، وكانت الشمسُ تَطْلُعُ مزوارةً على باب الكهف عند الطلوعِ وعند الغروب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ ؛ أي ناحيةَ اليمين، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ ؛ أي تَعْدِلُ عنهم. قال الكلبيُّ: (إذا طَلَعَتْ مَالَتْ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ يَمِيْنِ الْكَهْفِ، وَإذا غَرَبَتْ تَمُرُّ بهِمْ ذاتَ الشِّمَال يَعْنِي شِمَالَ الْكَهْفِ لاَ تُصِيْبُهُ، وَكَانَ كَهْفُهُمْ فِي أرْضِ الرُّومِ، أعْلَمَ اللهُ أنَّهُ يُمِيْلُ عَنْهُمْ الشَّمْسَ طَالِعَةً وَغَاربَةً، لاَ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فَتُؤْذِيهِمْ بحَرِّهَا وَتُغَيِّرَ أَلْوَانَهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ ؛ أي في مُتَّسَعٍ من الكهفِ، هَيَّأ اللهُ لَهم مكاناً واسعاً لا يصيبُهم فيه حَرٌّ ولا سَمومٌ، ولا يتغيرُ لَهم ثوبٌ ولا لون ولا رائحةٌ، ولكن كان ينالُهم فيه نسيمُ الرِّيح وبردُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: (تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمَال) القَرْضُ من قولِهم: قَرَضْتُهُ بالْمِقْرَاضِ؛ إذا قَطَعْتُهُ، كأنهُ قال: تقطعُهم ذاتَ الشمال. وَقِيْلَ: تعطيهم اليسيرَ مِن شُعاعها عند الغروب، كأنه شبَّهَهُ بقرضِ الدراهم التي تُعطى ثُم تستردُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي إبقاؤُهم طولَ السنين التي ذكرَها اللهُ نياماً لا يستطيعون يستيقظون من دون طعامٍ ولا شراب، ﴿ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ ظاهر المعنى.

قولهِ تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ ؛ تظنُّهم يا مُحَمَّدُ منتبهين وهو نائمونَ، وإنَّما كان يحسَبُهم الرَّائي منتبهينَ؛ لأنَّهم كانوا نياماً وهم مفتوحُو الأعيُنِ، وكانوا يتنفَّسُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ ؛ قرأ الحسنُ (وَنُقْلِبُهُمْ) بالتخفيفِ، والمعنى نقلبُهم تارةً عن اليمينِ إلى الشمال؛ وتارةً عن الشمال إلى اليمين، كما نقلبُ النائمَ؛ لئَلاَّ تأكُلَ الأرضُ أجسامَهم. ذكرَ قتادةُ: (أنَّ لَهُمْ فِي عَامٍ تَقْلِيبَيْنِ)(١)، وعن ابنِ عبَّاس: (فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ ؛ أي على باب الفجوة أنامَهُ الله كذلكَ، والوَصِيْدُ مِن قولِهم: أوْصَدْتُ البَابَ، وأصَدْتُهُ إذا أغلقتهُ، وقد يقالُ لذلكَ الأصِيْدُ أيضاً، وَقِيْلَ: الوَصِيْدُ فناءُ الكهفِ. وقال سعيدُ بن جُبير: (الْوَصِيْدُ: التُّرَابُ)(٢). وقال السديُّ: (الْوَصِيْدُ: الْبَابُ). وقال عطاءُ: (عَتَبَةُ الْبَاب).

وكان لونُ الكلب أحمرَ، كذا قال ابنُ عبَّاس، وقال مقاتلُ: (كَانَ أصْفَرَ يَضْرِبُ إلَى الْحُمْرَةِ) وَقِيْلَ: كان كلونِ الحجَرِ، وَقِيْلَ: كلونِ السَّماء. قال عليٌّ ﷺ: (كَانَ اسْمُهُ رَيَّان). وقال ابنُ عبَّاس: (قِطْمِيْرُ)(٣). وقال سفيانُ: (اسْمُهُ حِمْرَانُ). وقال عبدُالله بن سلام: (اسْمُهُ نَشِيْطٌ). روي عن بعضِهم أنه مما أخذ على الكلب أن لا يضرَّ بأحدٍ يقرأ: وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالْوَصِيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ ؛ أي لو اطَّلَعْتَ عليهم يا مُحَمَّدُ لَوَلَّيْتَ منهم فِراراً لِما ألبَسَهم اللهُ تعالى من الْهَيْبَةِ حتى لا يصلَ اليهم أحدٌ حتى يبلغَ الكتابُ أجَلَهُ فيهم وينتبهوا من رقدتِهم. وَقِيْلَ: لأنَّهم كانوا في مكانٍ مُوحِشٍ من الكهفِ، وَقِيْلَ: لأن أعيُنَهم مفتحةً كالمستيقظ الذي يريدُ أن يتكلَّمَ وهم نيامٌ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٢٩٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٣٠٢).

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٧٠.

وعن ابنِ عبَّاس قال: (غَزَوْنَا مَعَ مُعَاوِيَةَ نَحْوَ الرُّومِ فَمَرَرْنَا بالْكَهْفِ الَّذِي فِيهِ أَصْحَابُ الْكَهْفِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَوْ كَشَفَ لَنَا عَنْ هَؤُلاَءِ فَنَظَرْنَا إلَيْهِمْ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ لَكَ؛ قَدْ مَنَعَ اللهُ ذلِكَ عَنْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، فَقَالَ: لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً؛ ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾؛ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لاَ أنْتَهِي حَتَّى اعْلَمَ عِلْمَهُمْ، فَبَعَثَ أنَاساً فَقَالَ: اذهَبُوا وَانْظُرُوا، فَفَعَلُوا فَلَمَّا دَخَلُوا الْكَهْفَ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِيحاً فَأَخْرَجَتْهُمْ مِنَ الْكَهْفِ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي وكذلك أيقظناهُم، كما أنمناهُم ليتحدَّثوا ويسألوا بعضَهم بعضاً، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾؛ وهو رئيسُهم وسُمِّي مكسلميا: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؛ في نومِكم في الكهفِ؛ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا﴾؛ فلما نظَرُوا إلى الشَّمسِ، وقد بَقِيَ منها شيءٌ؛ قالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ تَوَقِّياً من الكذب، فلما نظَرُوا إلى أظفارهم وأشعارهم علموا أنَّهم لبثُوا أكثرَ من يومٍ؛ فـ: ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي فابعثوا يَمليخا، والوَرِقُ الفِضَّةُ مضروبةً كانت أو غيرَ مضروبةٍ، وأما المدينةُ فهي أفسوس، وَقِيْلَ: طرسوسُ، كان اسْمُها في الجاهليةِ: أفسوس، فلما جاءَ الإسلامُ سَمُّوها طرسوسُ. ومعنى الآيةِ: فابعثُوا أحدَكُم بدراهمكم هذه إلى السُّوق؛ ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾؛ أي أحَلُّ ذِبحَةً؛ لأن عامَّتَهم كانوا مَجُوساً، وفيهم مؤمنون يُخفون إيمانَهم، وَقِيْلَ: أطيبَ خُبزاً وأبعدَ عن الشُّبهة، لأن مَلِكَهم كان يظلمُ الناسَ في طعامهم، وكانوا يحسبون أن ملكَهم دقيانوس الكافرُ. وقال عكرمةُ معناه: (أكْثَرَ وَأفْضَلَ) في معنى أنَّ الزكاةَ هو الزيادةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾؛ أي بقُوتٍ وطعام. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي يتوقَّف في الذهاب والْمَجيءِ، وفي دخولِه المدينة حتى لا تعرفَهُ الكفارُ؛ ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾؛ أي لا يخبرنَ أحدٌ من أهلِ المدينة بمكانكم.

---

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ١٢ ص٤٤٨. وهو في معالم التنزيل: ص٧٧٢.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ ؛ أي إنـهم إنْ علِمُـوا مكانكم رجموكُم بالحجارةِ حتـى يقتلوكـم، وَقِيْـلَ: يشـتموكُم ويؤذوكـم، وكـان مـن عادتِهم القتلُ بـالرَّجمِ وهـو أخبـثُ القتـلِ. وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ ؛ أي إلى دِينـهم وهـو الكفـرُ؛ ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ إن عُدْتُمْ إلى دِينهم، ولَم تظفَرُوا الخيرَ في الدُّنيا والآخرة.

فإن قيلَ: أليسَ لو أكرهوهم، وأظهَرُوا الكفرَ لَم يكن في ذلك مَضرَّةٌ عليـهم ؟ قِيْلَ: يجوزُ أنه لَم يكن في شريعةِ الإسلام جوازُ إظهار كلمة الكفر على وجه التُّقيةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ؛ أي أطْلَعْنَا عليهم، وذلك أنَّهم لَمَّا بَعَثُوا بورقِهم على يدِ يَمليخا ومضَى إلى السُّوق، فـإذا ملكُهم مسلمٌ قد أظهرَ علامات الإسلامِ فتعجَّبَ من تغيُّرِ الأمرِ، وقال لخبَّاز: بعني من طعامِكَ بهذا الوَرِقِ، فلما رأى الخبازُ دراهمَه أنكرَها وقال: مِن أيـنَ لـك هـذه وقـد ضُربت منذ ثلاثِمائة سنةٍ ؟ فإما أن تعطيَني من هـذا الكَـنْزِ، أو أرفعُـكَ إلى الْمَلِـكِ ؟ فأنتَ وجدْتَ كَنْزاً.

فحملَهُ إلى الملكِ فلم يجدْ بُداً من أن يذكرَ للملكِ قصَّتَهم، فجاءَ الناسُ معهُ إلى باب الكهف، فدخل هُوَ قَبْلَهم، وأخبَرَ أصحابَهُ بأنَّ الملِكَ أتاهُم إذ ظهرَ القومُ عليـهم فسألوهُ عن أمرِهــم، فقَصُّــوا عليـهم قصَّتَـهم، فنَظَـرُوا فـإذا اللَّـوحُ الرَّصـاصُ وفيـه أسماؤُهم وفرارُهم من دقيانوسِ.

فقالَ الملِــكُ: هـؤلاء قـومٌ هلَكُـوا في زمـانِ الكـافرِ، فأحيـاهُم اللهُ في زمـانِي، وحَسَبُوا المدَّةَ، فوجدُوها ثلاثمائة سنةٍ وتسـعَ سـنين، فبينـا هـم كذلـكَ يحدِّثونَـهم إذ دخلُوا المكانَ، وقد ضربَ اللهُ على آذانِهم بالنَّومِ، هكذا رويَ عنِ ابن عبَّاس.

وذهبَ عكرمةُ إلى أنَّ القومَ دخلُوا المكانَ وقد ضربَ اللهُ علـى آذانِـهم، فـهذا معنى قولهِ (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ) وقولهِ تعالَى: (لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ) أي ليعلَمَ الملكُ وقومـه وغـيرُهم أن البعـثَ بعـد المـوتِ كـائنٌ، ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ﴾ ؛ القيامـة، ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ ؛ لا شك فيها.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ؛ قِيلَ: كان التنازعُ في أنْ قالَ بعضُهم لبعضٍ إنَّهم قد ماتوا في الكهفِ، وقال بعضُهم: بل ناموا كما نامُوا مِن قبلُ، وسيوقظُهم اللهُ من بعد.

وَقِيلَ: كانوا يتنازعون في البنَاءِ كما قالَ تعالَى: ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا﴾ ؛ أي قال بعضُهم: نَبْنِي عليهم بُنياناً كما تُبْنَى المقابرُ؛ كي يستُرُوهم عن الناسِ، وقال بعضُهم: بل نَبْنِي في هذا الموضعِ مَسْجِداً يُعْبَدُ اللهُ فيه، وهو قولُ الذين غَلَبُوا على أمرهم وهم رؤساؤُهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ ؛ أي أعْلَمُ بلَبْثِهِمْ ورُقَادِهم وأحوالِهم؛ لأنَّ قومَ الملكِ تنازَعُوا في قدر مَكْثِهم في الكهفِ، وفي عددهم وفي ما يفعلونَ بعدَ ذلك.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ؛ أي وذلكَ أنَّ أهلَ الكتاب الذين سألُوا رسولَ اللهِ ﷺ عن أهلِ هذه الصفةِ يختلفون في عدَدِهم. رويَ أنَّ السيدَ والعاقبَ وأصحابَهما من النَّصارَى وأهلِ نجرانَ كانوا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، وذكروا أصحابَ الكهفِ، فقال السيدُ: كانوا ثلاثةً رابعُهم كلبُهم، وقال العاقبُ: كانوا خمسةً سادسُهم كلبهم، ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ ؛ أي ظَنّاً من غيرِ يقينٍ كأنَّهم يرجُمون بالغيب بالقول فهُمْ بالغيبةِ عنهم، وقال المسلمونَ: كانوا سبعةً وثامِنُهم كلبُهم. ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

وقال بعضُهم: هذه الواوُ واو الثَّمانية، وذلك أن العربَ تقولُ: واحدٌ اثنان ثلاثةٌ أربعة ستَّة سبعة وثمانية؛ لأن العددَ عندهم سبعةٌ، كما هو اليومُ عندنا عشرة، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ إلى قولِهِ ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1] وقولُهُ في صفةِ أهلِ الجنَّة ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[2] وقولُهُ في أزواجِ النبيِّ ﷺ ﴿وَأَبْكَارًا﴾[3].

---

(١) التوبة / ١١٢ . (٢) الزمر / ٧٣ .

(٣) التحريم/ ٥ . في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٨٢؛ قال القرطبي: ((وقالت فرقة منها ابن خالويه: هي (واو) الثمانية. وحكى الثعالبي عن أبي بكر بن عياش: أن قريشاً كانت تقول في=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ ؛ أي قُل ربي أعلمُ كَمْ كان عددُهم، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا ﴾ ؛ عَنَى به رسولَ اللهِ ﷺ؛ لأنه تعالَى أخبرَهُ بعدَّتِهم، وأمرَهُ أن لا يُمَارَ في معرفةِ مَن ادَّعى عددَهم إلاّ بأن بيَّن لهُ أنه يقولهُ بغيرِ حُجَّةٍ، ولا خبرَ عنده من اللهِ، فإنَّ هذا العلمَ ليس عند أهلِ الكتاب، وهذا هو المرادُ الظاهر.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي لا تَسْتَفْتِ في أصحاب الكهف من اليهود وأهل الكتاب أحداً، فالخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ به أُمَّتُهُ، فإنهُ مستغنياً بإخبار الله إياه عن أن يستفْتِيهم. وعن ابنِ عبَّاس أنهُ قال: (أنَا مِنَ الْقَلِيْلِ الَّذِي يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ كَانُوا سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ)[1]، وَإنَّمَا عَرَفَهُ سَمَاعاً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ ؛ أي لا تَقُلْ إنِّي فاعلٌ شيئاً حتى تَقْرُنَ به قولَكَ إنْ شاءَ اللهُ، فلعلَّكَ لا تبقَى إلى الغدِ، ولا تقدرُ عليه من الغدِ.

قال المفسِّرون: لَمَّا سألَ اليهودُ النبيَّ ﷺ عن خبرِ الفِتْيَةِ وَعَدَهُمْ أن يُخبرَهُمْ غداً، ولَم يقُلْ إن شاءَ اللهُ، فحُبِسَ عنه الوحيُ حتى شُقَّ عليه، وأنزلَ هذه الآية يأمرهُ بالاستثناءِ بمشيئة اللهِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ: (مَعْنَاهُ إذا نَسِيْتَ الاسْتِثْنَاءَ ثُمَّ ذكَرْتَهُ فَاسْتَثْنِ)، وقال سعيدُ بن جبير: (إذا قُلْتَ لِشَيْءٍ: إنِّي فَاعِلُهُ غَداً؛ وَنَسِيْتَ الاسْتِثْنَاءَ بمَشِيْئَةِ اللهِ، ثُمَّ تَذكَّرْتَ، فَقُلْ: إنْ شَاءَ اللهُ، وَإنْ كَانَ بَعْدَ يَوْمٍ أوْ بَعْدَ شَهْرٍ أوْ سَنَةٍ).

=عددها: ستة سبعة وثمانية، فتدخل الواو في الثمانية. وحكى نحوه القفال فقال: إن قوماً قالوا العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنفت خبر آخر بإدخال الواو)).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٣١٩). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٣٧٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق والفريابي وابن سعد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق)).

(٢) قاله الطبري في جامع البيان: ج ٩ ص٢٨٥.

وعن ابنِ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: إذا حَلَفْتَ عَلَى شَيْءٍ وَنَسِيْتَ الاسْتِثْنَاءَ، ثُمَّ ذَكَرْتَ فَاسْتَثْنِ مَكَانَكَ وَقُلْ: إنْ شَاءَ اللهُ وَلَوْ كَانَ إلَى سَنَةٍ مَا لَمْ تَحْنَثْ)[١]. وقال الحسنُ: (لَهُ أنْ يَسْتَثْنِيَ فِي الْيَمِيْنِ مَا لَمْ يَقُمْ مِنَ الْمَجْلِسِ).

وقال إبراهيمُ وعطاء والشعبيُّ: (لاَ يَصِحُّ الاسْتِثْنَاءُ إلاَّ مَوْصُولاً بالْكَلاَمِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى هَذا الْقَوْلِ: وَإذا ذكَرْتَ إذا نَسِيْتَ شَيْئاً فَادْعُ اللهَ حَتَّى يُذكِّرُكَ). وقال عكرمةُ: (مَعْنَاهُ: وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذا غَضِبْتَ).

قال وهبُ: (مكتوبٌ في الإنجيلِ: يا ابنَ آدمَ اذكرنِي حين تغضبُ أذكُرْكَ حين أغضبُ). وقال الضحَّاك والسُّدي: (هَذا فِي الصَّلاَةِ لِقَوْلِهِ ﷺ: [مَنْ نَسِيَ صَلاَةً أوْ نَامَ عَنْهَا؛ فَلْيُصَلِّهَا إذا ذكَرَهَا])[٢].

قَوْلُهُ: ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي قُلْ عسى أن يعطيَنِي ربي مِن الآياتِ والدلالاتِ على النبوَّة ما يكونُ أقربَ في الرُّشد، وأدلَّ من قصَّة أصحاب الكهف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ يعني مِن يوم دخلُوا الكهفَ إلى أنْ بعثَهم اللهُ وأطْلَعَ عليهم الخلقَ. قال الفرَّاء[٣] والزجَّاج والكسائيُّ: (التَّقْدِيْرُ: سِنِيْنَ ثلاَثمِائَةٍ؛ لأنَّ التَّفْسِيْرَ لاَ يَكُونُ بلَفْظِ الْجَمْعِ). وقال أبو عليٍّ الفارسي: (سِنِيْنَ بَدَلٌ مِنْ ثلاَثمِائَةٍ). وقرأ حمزةُ: (ثلاَثمِائَةِ سِنِيْنَ) مُضَافَةً غير مُنَوَّنَةٍ. وقال الضحَّاكُ: (نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَبثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثلاَثمِائَةٍ، فَقَالُوا: أيَّاماً أوْ شُهُوراً أوْ سِنِيْنَ؟ فَقِيْلَ: سِنِيْنَ) ولذلكَ لَم يقُلْ سنةً[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٣٢٩). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٣٧٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه)).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٢٨٢. والبخاري في الصحيح: كتاب مواقيت الصلاة: باب من نسي صلاة: الحديث (٥٩٧) عن أنس.

(٣) في معاني القرآن: ج٢ ص١٣٨؛ قال الفراء: ((وقرأ كثير من القراء (ثلاَثمِائَةِ سِنِيْنَ) يريدون: لبثوا في كهفهم سنين ثلاثمائة فينصبونها بالفعل)).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٣٣٩). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٣٧٩؛ قال=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ ؛ أي لقَدْر ما لبثوا؛ ﴿ لَهُۥ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لهُ العلمُ بكلِّ مستورٍ عن الخلق في السَّموات والأرض وفي قعرِ البحار. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ ؛ أي اذْكُرْ بذلكَ الناسَ فهو مِن خَفِيِّ صفاتهِ، وَقِيْلَ: معناهُ: ما أبصرَ اللهُ بكلِّ موجودٍ! وما أبصرَهُ بكلِّ مسموعٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ ﴾ ؛ أي ما لأهلِ السَّموات والأرضِ مِن دون اللهِ مِن وليٍّ ولا ناصرٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي لا يشركُ في حُكمهِ أحداً غيرَهُ. وقرأ ابنُ عامرٍ: (وَلاَ تُشْرِكْ) على المخاطبةِ؛ أي لا تُشْرِكْ أيُّها الإنسانُ على النَّهي[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي اقْرَأ عليهم القُرْآنَ وعرِّفْهم أنهُ الحقُّ؛ ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ ؛ ولا خَلَفَ لخبرهِ ولا مغيِّرَ لهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي مَلْجَأً أو مَعْدَلاً تَهربُ إليه، مِن قولِهم: لَحَدْتُ إلَى كَذا؛ إذا مِلْتَ إليه، ومنهُ اللَّحْدُ؛ لأنهُ يُمال بهِ إلى ناحيةِ القبرِ، ومنه الإلحادُ في الدِّين الْمَيَلاَنُ عليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ ؛ نزلَتْ هذه الآيةُ في سَلمان الفارسيِّ وصهيب بن سِنان وعمَّار بن ياسرٍ وخبَّاب وعامر بن فُهيرة وغيرِهم من الفقراءِ، كانوا عندَ النبيِّ ﷺ وكان مع سَلمان شَمْلَةٌ قد عَرِقَ فيها إذ دخلَ عُيينة بن حصنٍ الفزَاريِّ، فقال: يا مُحَمَّدُ إنَّ رؤوسَ مُضَرَ وأشرافَها، وإنهُ واللهِ ما يَمنعُنا من الدُّخول عليكَ إلاّ هذا - يعني سلمانَ وأصحابَهُ - ولو أنَّا إذا دخلنا عليكَ أخرَجْتَهم عنا لاتَّبعناكَ، إنه ليؤذِينا ريحهُ أما يؤذيكَ ريحهُ؟ فأنزلَ اللهُ في سلمان وأصحابهِ هذه الآيةَ[2]. ومعناها: واحبسْ نفسكَ أيُّها النبيُّ مع الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وتعظيمَهُ.

=السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم).

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٨٨، قال القرطبي: (وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدري: (وَلاَ تُشْرِكْ) بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبي ﷺ).

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص٢٠١. وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٣٨٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي بريدة)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي لا تَصْرِفْ بصرَكَ عنهم لفقرِهِم إلى غيرِهم من ذوي الهيئاتِ والزِّينة. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي مجالسةِ أهل الشَّرف والغِنَى (تريدُ) ههنا في موضعِ الحال أي مُريداً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ يريدُ عُيَيْنَةَ وأبناءَهُ، أي لا تطِعْهم في تنحيةِ الفُقراءِ عنكَ ليجلسوا إليك، ومعنى: (أغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) أي جعلنَاهُ غافلاً عن القُرْآن والإسلام. قَوْلُـهُ تَعَالَى: (وَكَانَ أمْرُهُ فُرُطاً) أي ضَيَاعاً ونَدَماً، وَقِيْلَ: هلاكاً، وَقِيْلَ: مُخالفاً للحق، وَقِيْلَ: بَاطلاً، وَقِيْلَ: معناه: ضَيَّعَ أمرَهُ وبطلَ أيامه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ أي قُلِ القُرْآنُ والدلالاتُ على وحدانيَّة الله ونبوَّة رسولهِ هو الحقُّ من ربكم، و(الحقُّ) مرفوعٌ على الحكاية، وَقِيْلَ: خبرُ مبتدأ مُضمَرٍ؛ أي هو الحقُّ، والمعنى: وقُلْ يا مُحَمَّدُ لِهؤلاء الذي أغفَلْنا قلوبَهم عن ذِكرنا: أيُّها النَّاس الذي أنذركم به (الْحَقُّ مِنْ رَبِكُمْ)، لَم أتكلَّمْ به مِن قِبَلِ نفسِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ ؛ تهديدٌ بلفظِ الخبر، والمعنى: فمَن شاءَ فيؤمن، ومن شاء فيكفرُ، ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ ؛ فقد أعدَّ لكم ناراً على كُفركم أحاطَ بكم سرادقها؛ قال ابنُ عبَّاس: (السُّرَادِقُ: حَائِطٌ مِنَ النَّار يُحِيْطُ بهِمْ).

وَقِيْلَ: دخانٌ يحيطُ بهمْ قَبْلَ أن يَصِلُوا إلى النار. وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: (سُرَادِقُ النَّار أرْبَعَةُ جُدُر، غِلَظُ كُلِّ جِدَار مَسِيْرَةُ أرْبَعِيْنَ سَنَةً، فَهَذِهِ الْجُدُرُ مُحِيْطَةٌ بهمْ)(١). وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى الآيَةِ: فَمَنْ شَاءَ اللهُ لَهُ الإيْمَانَ آمَنَ، وَمَنْ شَاءَ لَهُ الْكُفْرَ كَفرَ).

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند مرفوعاً إلى النبي ﷺ: ج ٣ ص٢٩. وكذا رواه الترمذي في السنن: باب ما جاء في صفة شراب أهل النار: الحديث (٢٥٨٤). والحاكم في المستدرك: كتاب الأهوال: الحديث (٨٨١١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ ﴾ ؛ معناهُ: وإنْ يستغيثُوا من شدَّة الحرارةِ يُغاثوا بماءٍ كَعَكَرِ الزَّيت[1] أسودَ غليظ، وَقِيْلَ: إن الْمُهْلَ هو الصُّفْرُ المذابُ، ويقالُ: هو القيحُ والدم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ ؛ أي إذا قَرُبَ البشر منه أنضجَ الوجهَ بحرارتهِ، وأسقطَ فَرْوَةَ وجههِ ولحمَهُ فيه، ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ ﴾ ؛ النارُ؛ ﴿ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي ساءَتْ مُتَّكأً لَهم، مأخوذٌ من المِرْفَقِ؛ لأنَّهم يتَّكِؤنَ على مرافِقِهم، وَقِيْلَ: معناهُ: وساءَتْ مَنْزلاً ومَقَرّاً، وَقِيْلَ: مُجتمعاً مأخوذٌ من المرافقةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي لا يبطلُ ثوابُ من أخلصَ للهِ، ويجوزُ أن يكون معناهُ: إنا لا نضيعُ أجرَ مَن أحسنَ منهم، بل يجازيهم.

ثُم ذكرَ جَزَاءَهُمْ فقالَ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ أي بساتينُ إقامةٍ، وقد ذكرنا صفاتِ جنَّات عَدْنٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ ؛ أي يُلْبَسُونَ في الجِنَانِ ذلك.

قال الزجَّاج: (أسَاورُ: جَمْعُ أسْورَةٍ، وأسْورةٌ جَمْعُ سِوَار)[2]؛ وَهُوَ زِيْنَةٌ يُلْبَسُ فِي الزَّنْدِ مِنَ الْيَدِ، مِنْ زِيْنَةِ الْمُلُوكِ يُسَوَّرُ فِي الْيَدِ وَيُتَوَّجُ عَلَى الرَّأسِ. قال ابنُ جبير: (عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثَلاَثَةٌ مِنَ الأَسَاور، وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَوَاحِدٌ مِنْ ذهَبٍ وَوَاحِدٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَيَاقُوتٍ).

وعن النبيِّ ﷺ أنهُ قال: [لَوْ أنَّ أدْنَى أهْلِ الْجَنَّةِ حِلْيَةً عُدِلَتْ حِلْيَتُهُ بحِلْيَةِ أهْلِ الدُّنْيَا جَمِيْعِهَا لَكَانَ مَا يُحَلِّيْهُ اللهُ بهِ فِي الآخِرَةِ أفْضَلَ مِنْ حِلْيَةِ أهْلِ الدُّنْيَا جَمِيْعِهَا][3].

---

(١) الْعَكْرَةُ: بوزن الضَّرْبَةُ الكَرَّةُ، واعْتَكَرَ اختلطَ. والعَكَرُ بفتحتين: دُرْدِيُّ الزَّيتِ وغيرِهِ، وهو ما يبقَى في الأسفلِ.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٢٣١.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٨٨٧٣). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٣٨٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في البعث عن أبي هريرة)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ؛ الْخُضْـرُ: جمـعُ أخضرَ، وهو أحسنُ ما يكون من الثِّياب، والسُّنْدُسُ: الدِّيْبَاجُ الرقيقُ الفـاخر، وَقِيْـلَ: هو الحريرُ؛ وواحدُ السُّندس سُنْدُسَةٌ، والاسْتَبْرَقُ الدِّيباجُ الغليظُ الذي له بريقٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ ؛ أي في الجِنَـان؛ ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ ؛ أي على السُّرُر في الْحِجَال وهي من ذهَبٍ مكَلَّلٍ بـالدُّرِّ واليـاقوتِ؛ ﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ ﴾ ؛ جزاءُ أعمالِهم؛ ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي مُتَّكَأً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ الآيـةُ، هـذا مثـلٌ ضَرَبَـهُ اللهُ لعبـادهِ؛ ليستدعيَهم إلى طاعتهِ، ويزجرَهم عـن كُفـران نعمتـهِ، والمعنـى: واضـربْ لَـهم مثـلاً رَجُلين.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا أخَوَيْنِ فِي بَنِي إسْـرَائِيْلَ؛ تُوُفِّـيَ أبُوهُمَـا وَتَـرَكَ ثَمَانِيَـةَ آلاَفِ دِيْنَار، وَكَانَ أحَدُهُمَا مُسْلِماً وَالآخَرُ كَافِراً، وَأصَـابَ كُـلُّ وَاحِـدٍ مِنْـهُمَا أرْبَعَـةَ آلاَفِ دِيْنَار، فَالْمُسْلِمُ أنْفَقَهَا فِي سَبيْلِ حَتَّى أنْفَدَهَا فَـأوْجَبَ اللهُ لَـهُ الْجَنَّـةَ، وَالْكَـافِرُ اشْتَرَى بهَا بَسَاتِيْنَ، فَاحْتَاجَ الْمُسْلِمُ إلَيْهِ فَأتَاهُ يَتَعَرَّضُ إلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ: أيْنَ مَالُكَ ؟ فَقَالَ لَهُ: أنْفَقْتُهُ فِي سَبيْلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ الْكَافِرُ: لاَ أعْطِيْكَ حَتَّى تَتَّبعَ دِيْنِي، ثُمَّ أخَذ بيَدِ أخِيْهِ فَأدْخَلَهُ بَسَاتِيْنَهُ، وَجَعَلَ يَطُوفُ بهِ فِيْهَا وَيَقُولُ لَهُ: مَا أظُنُّ أنْ تَبيْـدَ هَـذِهِ أبَـداً، فَذلِـكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (جَعَلْنَا لأحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أعْنَابٍ) أي جعلَ للكافرِ منهُما بسـاتينَ مـن كُرُومٍ، وجعلَ حَوْلَ البساتينِ نَخيلاً وجعلنا بينَ البساتينِ زَرْعاً؛ أي يزرعهُ)[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي كِـلاَ البساتين أخرجَتْ ثمرها ولَم تنقُصْ منه شيئاً كأنْ ما أن يذهبُ صنفٌ مـن الثمـار إلاّ أثمرَ صنفٌ آخر، وإنَّما قال: آتتْ؛ ولَم يقل آتَتَا؛ لأن المعنى أعطَتْ كـلُّ واحـدةٍ مـن الجنَّتين، ولفظُ كِلْتَا واحدةٌ؛ لأن الألِفَ في كلتا ليسَتْ ألِفَ تثنيةٍ، كأنه قالَ: كلُّ واحدةٍ منهُما آتتْ أكُلها.

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٣٩ و٤٠٠. وفي الـدر المنثـور: ج ٧ ص٩٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق وابن المنذر عن عطاء)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أي فجَّرنا وسطَ البساتين نهراً نسقيها، ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ ؛ أي كان لِهذا الكافرِ ذهبٌ وفضة ومن كل المال، وقيل: من قرأ: (ثُمُرٌ) بضم الثاء، فمعناه صنوف من الأموال: الذهب والفضة وغيرهما، يقالُ: أثْمَرَ الرجلُ إذا كثُرَ مالهُ. ومن قرأ بنصب الثَّاء كان معناهُ ثمرة البساتين، والأولُ هو الأقربُ لأن قولَهُ (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا) يدلُّ على الثِّمار، فاقتضَى أن يكون الثمرُ غير ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾ ؛ أي لأخيهِ المسلم؛ ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ ؛ أي يراجعهُ بالكلامِ ويفاخرهُ: ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ يعني خَدَماً وحَشَماً وولداً، يتطاولُ بذلك على أخيهِ، ورأى تلك النعمةَ مِن قِبَلِ نفسهِ لا من قِبَلِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي دخلَ الكافرُ بستانهُ وهو ظالِم لنفسهِ بالكفر وتركِ الشُّكر؛ ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ أي ما أظنُّ أن تَفْنَى هذه أبداً. قال المفسِّرون: أخذ بيدِ أخيهِ المسلم فأدخلَهُ جنَّته، وطافَ به فيها، وأراهُ إياها وجعلَ يعجبه منها، ويقولُ ما أظنُّ أنْ تَفْنَى هذه أبداً، ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ ؛ أنكرَ البعثَ والثواب والعقابَ، وأخبرَ أخاهُ بكفرهِ وإنكاره للقيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ يعني لَئِنْ كان البعثُ حقّاً، ورُدِدْتُ إلَى ربي على زعمِكَ لأجدنَّ في الآخرةِ خيراً منها مرجِعاً ومنْزِلاً، ولَم يعطني اللهُ هذه في الدُّنيا إلاّ ولي عنده أفضلُ منها لكرامتِي عليه، فمعناه الجنَّتَين التي تقدَّم ذِكرُهما[١]، وفي هذا بيانُ أن هذا الكافرَ لَم يكن قاطعاً لنفْي الْمَعَادِ، ولكن كان شَاكّاً فيه، والشاكُّ في الْمَعَادِ كافرٌ.

---

(١) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٢ ص٤٨٨؛ قال ابن عادل: (معناه: ولئن رددت إلى ربي على زعمك، يعطيني هنالك خيراً منها. والسبب في وقوع هذه الشبهة أنه تعالى لَمَّا أعطاه المال والجاه في الدنيا، ظن أنه إنما أعطاه ذلك لكونه مستحقاً له؛ والاستحقاق باق بعد الموت، فوجب حصول الإعطاء، والمقدمة الأولى كاذبة؛ فإن فتح باب الدنيا على الإنسان، يكون في أكثر الأمر للاستدراج).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ ؛ أي أجابَهُ صاحبه المسلمُ مُنكراً بما قالَ وهو يخاطبهُ: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ ؛ أي بالذي خلقَ أصْلَكَ من ترابٍ؛ ﴿ ثُمَّ ﴾ ؛ خلَقَكَ؛ ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ؛ أبيكَ؛ ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي أكْمَلَكَ وجعلَكَ معتدلَ الخلقِ والقامَةِ، وجعلكَ بشراً سويّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ ؛ معناهُ: أمَّا أنا فلا أكفرُ بربي، لكن هو اللهُ ربي؛ تقديرهُ: لَكِنْ أنَا هو اللهُ ربي، وَقِيْلَ: فيه تقديمٌ وتأخير تقديرهُ: لكنَّ اللهَ هو ربي؛ أعلَمَ بذلك أخاهُ الكافر بأنه مُوَحِّدٌ مسلمٌ.

ومن قرأ : (لَّكِنَّا) فالمعنى لكِنْ أنا(١)؛ إلاَّ أنهُ حُذفت الهمزةُ، وأبقيت حركتها على السَّاكن الذي قبلَها، فالتقى نُونَان فأُدغمت إحداهُما في الأُخرى(٢). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المرادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ معناه: أنَّ المسلمَ قال للكافر: هَلاَّ قُلْتَ حين دخلتَ ما شاءَ اللهُ! أي الأمرُ بمشيئة اللهِ، وما شاءَ اللهُ كانَ يعني إنْ شاءَ اللهُ خرابَ هذه الجنَّة وإهلاكَها كان ذلك بمشيئة الله، ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لا يَقْوَى أحدٌ على ما في يدهِ من مُلْكٍ ونعمة إلاّ باللهِ، ولا يكون له ما شاءَ الله، ولا قوةَ في بدنهِ ومُلْكِهِ إلاّ باللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أن المسلمَ قال للكافرِ: إن كنتُ أنا أقلَّ منك مالاً وعشيرةً فأنا راضٍ بما قُسِمَ لِي، قَوْلُهُ تَعَالَى: (أقَلَّ) منصوبٌ؛ لأنه مفعولُ (تَرَنِي). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (أَنَا) عمادٌ، ومَن قرأ (أقَلُّ) بالرفع فعلَى معنى (أنَا) مبتدأ و(أقَلُّ) خبرٌ في موضعِ المفعول.

---

(١) في المخطوط: أدرج الناسخ حرف (إلاّ) ويبدو أنه وَهِمَ.

(٢) في إعراب القرآن: ج ٢ ص٢٩٥؛ قال ابن النحاس: (﴿لَّٰكِنَّا﴾ مذهب الكسائي والفراء المازني: أن الأصل (لكنْ أنا) فالقيت حركة الهمزة على نون (لكن)، وحذفت الهمزة، وأدغمت النون في النون. والوقف عليها (لَكِنَّا) وهي ألف أنا لبيان الحركة، ومن العرب من يقول: أنَهْ). وينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص١٤٤.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ ؛ أي لعـلَّ الله يؤتيَني في دار البقاء بُستاناً خيراً مـن بسـتانِكَ في الدُّنيـا، ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ ؛ علـى بستانِكَ؛ ﴿ حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي ناراً مِن السَّماء فتُحرقها، وسُمِّي العـذابُ حُسْبَاناً على معنى أنه يرسل عليها بحساب ما كسبت يدك.

وقال النضرُ بن شميل: (الْحُسْبَانُ الْمَرَامِـي) أي يرسـلُ عليـها مَرَامِـي عذابـهِ إمـا بـردٌ، وإمـا حجـارةٌ وغيرهمـا بمـا شـاء مِـن أنـواعِ العـذاب، ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي أرْضاً ملساءَ لا نبـاتَ عليـها. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ ؛ أي غـائِراً في الأرضِ يعـني النـهرَ الـذي في خلالِـها، ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي لا يَبْقَى لهُ أثرٌ يطلبهُ بوجهٍ من الوجـوه، لا تنالـهُ الأيـدي ولا الأرشيةَ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ ؛ أي هَلَـكَ مالـهُ وبسـتانه، يقـالُ: أحِيْـطَ القومُ إذا هَلَكُوا، ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ ؛ الكافرُ، ﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ ؛ أي يضـربُ بـإحْدَى يديهِ على الأخرى، وتقليبُ الكفَّين يفعلـهُ النـادمُ كثـيراً، وصـارَ عبـارةً عـن النَّـدَمِ، ﴿ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ ؛ أي في جنَّتـه، ﴿ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ ؛ أي سـاقطةٌ على سقوفِها؛ ﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ فنَدِمَ حيـث لا ينفعـهُ النـدم، ولَم يكن تندُّمه على إشراكهِ إيْماناً منهُ؛ لأنه لَم يَقُلْهُ تحقيقاً للتَّوبة، ولكن كـان يتأسفُ على هلاكِ مالهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لَـم تَنْصُـرْهُ الفئةُ الذين افتخرَ بـهم في قولـهِ (وَأعَـزُّ نَفَـراً) ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ بـأن استَرَدَّ بدلَ ما ذهبَ منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ في ذلك الموطنِ عَلِمَ الكـافرُ أن الوَلاَيَـةَ بالنصرِ لله الحقِّ، فهو الذي يَملكُ النصرَ، هذا معنى قـراءةِ (الولاَيَـةُ) بخفـضِ الـواو، وأما (الْوَلاَيَةُ) بفتحِ الـواو فـهو نقيـضُ العـداوةِ، وَقِيْـلَ: إن معنـى قـراءةِ (الْوِلاَيَـةُ)

(١) المعنى لا تناله الدلاءُ فلا تلحقه أيديهم ولا الرشاء التي يسقون بها.

بالكسر: الإمارةُ والسُّلطانُ، يعني في يوم القيامة الولايةُ لله. ومن قرأ بفتحِها فهو مِن الْمُوَالاَةِ كقولهِ تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[١] يعني: إنَّهم يؤمنونَ بالله يومئذٍ، ويتبرَّءُون مما كانوا يعبدونَ من دون الله[٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى (الْحَقِّ) مَن قرأ بالكسرِ فهو نعتٌ لله، ومَن رفعَهُ فهو نعتٌ للولايةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ ؛ أي هو خيرُ مَن أثابَ وجازى على العملِ؛ ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ ،أي خيرُ مَن أعقبَ عاقبةً،وَقِيْلَ: عاقبةُ طاعتهِ خيرٌ من عاقبةِ غيره. قال ابنُ عبَّاس: (هَذان الرَّجُلاَن ذكرَهُمَا اللهُ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إن ﴿لِي قَرِينٌ﴾[٣] إلَى قَولهِ تعالَى ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾[٤]).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ ؛ أي اضربْ يا مُحَمَّدُ لِهؤلاء المتكبرين المترَفين مِن قومِكَ الذين سألوكَ طردَ فقراءِ المؤمنين صفةَ الحياة الدُّنيا في بقائها وفنائِها؛ كَمَاءٍ أنزَلْنَاهُ ﴿ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ ؛ فنَجعَ[٥] في النَّباتِ حتى خالطَهُ،وأخذ النباتُ زُخْرُفَهُ فصار أجناساً مختلفةً بعضُها مخلَّطٌ ببعضٍ؛ ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ ﴾ ؛ متفتِّتاً، والهشيمُ ما تَكسَّرَ وَانْحطَمَ، ثم فرَّقتْهُ الرياحُ، وطارت به كما يطيرُ بأشياءٍ خفيفة فلا يبقَى له أثرٌ، كذلك الدُّنيا يفنى منها كلُّ شيء كما لا يبقَى من الهشيمِ شيءٌ؛ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

---

(١) البقرة / ٢٥٧ .

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٤١١؛ قال القرطبي: (وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي (الوِلاَيَةُ) بكسر الواو، الباقون بفتحها، وهما بمعنى واحد كالرِّضاعة والرَّضاعة. وقيل: الوَلاية بالفتح من الموالاة؛ كقوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وبالكسر يعني السُّلطان والقدرة والإمارة؛ كقولـه: ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ﴾ أي لـه الملكُ والحُكم يومئذ، أي لا يردُّ أمره إلى أحد، والْمُلك في كل وقت لله، ولكن تزولُ الدعاوى والتوهُّمات يوم القيامة).

(٣) الصافات / ٥١ .

(٤) الصافات / ٥١-٥٥: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أءِنَّا لَمَدِينُونَ. قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ. فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾.

(٥) نَجعَ: دَخلَ فَأَثَّرَ. وماءٌ نَجُوعٌ: نَمِيرٌ. والنُّجْعَةُ طلبُ الكَلأ. ترتيب القاموس المحيط: (نجع).

مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي لَم يزل قادراً على خَلْقِ الأشياء. قالتِ الحكماءُ: شبَّهَ اللهُ الدنيا بالماءِ؛ لأن الماءَ لا يستقرُّ في موضعٍ، كذلك الدُّنيا لا تُبقِي على أحدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي مما ينتفعُ به في الدُّنيا لا في الآخرةِ؛ ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ قِيْلَ: إنَّها الصلواتُ الخمسُ[1]، وَقِيْلَ: جميعُ الطاعاتِ. وسُمِّيت الباقياتُ لبقاء ثوابها للإنسانِ، بخلاف الأموالِ والأولاد التي لا تبقَى.

وقال ابنُ عبَّاس وعكرمةُ ومجاهد: (هِيَ قَوْلُ الْعَبْدِ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ). يدلُّ عليه ما رُويَ عن أبي الدَّرداءِ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخَذ غُصْناً فحرَّكَهُ حتى سقطَ ورقُهُ، فقالَ: [إنَّ الْمُسْلِمَ إذا قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ هَذا، خُذْهُنَّ إلَيْكَ يَا أبَا الدَّرْدَاءِ قَبْلَ أنْ يُحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُنَّ، فإنَّهنَّ مِنْ كُنُوز الْجَنَّةِ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ][2].

وعن أنسٍ ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: [خُذُوا حَسْبَكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ؛ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ، فَإنَّهُنَّ الْمُقَدِّمَاتُ؛ وَهُنَّ الْمُنْجِيَاتُ؛ وَهُنَّ الْمُعَقِّبَاتُ؛ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ][3]. وقال عثمانُ بن عفَّان وابنُ عمرَ وسعيدُ بن المسيَّب: (هُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ؛ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيْمِ).

---

(١) نسبه الطبري في جامع البيان: ج ٩ ص٣١٥: لابن عباس وسعيد بن جبير وأبي ميسرة وإبراهيم.

(٢) في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٩٠؛ قال الهيثمي: ((رواه ابن ماجة باختصار والطبراني بإسنادين في أحدهما عمر بن راشد اليمامي وقد وثق على ضعفه، وبقية رجاله رجال الصحيح)).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب الدعاء والتكبير: الحديث (١٩٨٥)؛ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ورواه ابن أبي شيبة في المصنف: باب ما قالوا في الرجل إذا بخل بماله: الحديث (٢٩٧٢٠).

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ قَالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [اسْتَكْثِرُواْ مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ] قِيْلَ: مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [التَّكْبِيْرُ؛ وَالتَّهْلِيْلُ؛ وَالتَّسْبِيْحُ؛ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيْمِ][(١)]. وعن أبي هريرة ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [إنْ عَجَزْتُمْ عَنِ اللَّيْلِ أنْ تُكَابدُوهُ، وَعَنِ الْعَدُوِّ أنْ تُجَاهِدُوهُ، فَلاَ تُعْجَزُوا عَنْ قَوْل: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ. فإنَّهَا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ][(٢)].

وَقِيْلَ: هِيَ كلُّ عملٍ صالح يُثاب عليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: (خَيْرٌ عِنْدَ رَبكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أمَلاً) أي أفضلُ ثواباً، وأفضلُ أملاً من المالِ والبنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ ؛ أي واذكر يومَ نُسَيِّرُ الجبالَ، ويجوزُ أن يكونَ المعنى وخيرٌ أمَلاً يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ، وتَسَيُّرُ الجبال وتسييرُها: قلعُها، فإنَّ الله تعالى يقلعها عن وجهِ الأرضِ يومئذٍ، فيسيِّرُها في الهواءِ، كما يسيِّرُ السحابَ في الدُّنيا، ثم يَجعلُها هباءً منثوراً فتعودُ في الأرضِ حتى لا يبقَى شيءٌ، ولذلك قالَ تعالَى (وَتَرَى الأرْضَ بَارِزَةً) أي ظاهرةً مستويةً لا يسترُ شيءٌ شيئاً، ولو كان يبقَى شيءٌ من الجبالِ والأشجار والنبات لَم تكن الأرضُ بارزةً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾ ؛ يعني المؤمنينَ والكافرين، أي بعثناهُم من قبورهم، ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي لَم نترُكْ منهم أحداً في قبرِهِ نسياناً ولا غفلةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ؛ أي معناهُ: أن الناسَ كلَّهم يعرضون على اللهِ تعالى مصفُوفِين، كلُّ زُمرةٍ وأمَّة صَفٌّ، فيكونون صَفّاً بعد صفٌّ كصفوفِ الصلاة إلاّ أنّهم صفٌّ واحد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ؛ أي أعدناكم كما خلقنَاكم أوَّلَ مرة. وقال ابنُ عبَّاس: معناه (حُفَاةً عُرَاةً لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ مِمَّا اكْتَسَبُوهُ فِي الدُّنْيَا كَمَا فِي أوَّلِ الْخَلْقِ).

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٧٥. وابن حبان في الإحسان: كتاب الصلاة: باب النوافل: الحديث (٢٥٠٥). والحاكم في المستدرك: كتاب الدعاء والتكبير: باب الباقيات الصالحات: الحديث (١٩٣٢)، وقال: هذا أصح إسناد المصريين ولم يخرجاه.

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٩٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه)).

قال ﷺ: [يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ قُبُورِهِمْ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً] فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَاسَوْأَتَاهُ يَا رَسُولَ اللهِ ! أمَا يَسْتَحْيِي بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ؟ فَقَالَ ﷺ: [لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ][1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي بل زعمتُم في الدُّنيا أن لن نجعلَ لكُم أجَلاً للبعثِ، وهذا خطابٌ لِمنكري البعثِ خاصَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ ؛ أي كتابُ كلِّ إنسانٍ في يده، بعضُهم في اليمين وبعضُهم الشِّمال، ﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ؛ أي المذنبينَ وهم المشركونَ؛ ﴿ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ ؛ أي خائفينَ مما في الكتاب، يَدْعُونَ على أنفسِهم بالويلِ والثُّبور؛ ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (الصَّغِيْرَةُ التَّبَسُّمُ، وَالْكَبِيْرَةُ الضَّحِكُ)[2]. وقال ابنُ جُبيرٍ: (الصَّغِيْرَةُ الْمَسِيْسُ وَالتَّقْبِيْلُ، وَالْكَبِيْرَةُ الزِّنَا). والمعنى لا يتركُ صغيرةً ولا كبيرة من أعمالِنا إلاَّ أثبتَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ ﴾ ؛ أي وجدُوا جُزْءَ ما عملُوا مكتوباً مثبَّتاً في الكتاب، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي لا ينقصُ من حسناتِ أحدٍ، ولا يزيدُ في سيِّئات أحدٍ، ولا يعاقبُ بغيرِ جُرْمٍ. وروي أنَّ الفضيلَ بن عِيَاضٍ كان إذا قرأ هذه الآيةَ قال: (صَحَوا واللهِ مِنَ الصِّغَار قَبْلَ الْكِبَار).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ ؛ تقدَّم أيضاً، الخلافُ في أنه من الملائكةِ أم من الجنِّ، بَنِي الجان، والصحيحُ أنهُ من بَنِي الجانِّ جنسٌ غير جنسِ الملائكة؛ لأنَّ الملائكةَ رُسُلُ اللهِ، ولا يجوزُ على رسولٍ مِن رُسُلِ اللهِ أن يكفرَ، ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ ؛ أي خرجَ عن طاعةِ ربهِ، وَقِيْلَ: ردَّ أمرَ ربهِ، ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ ؛ هذا استفهامٌ بمعنى الإنكار، يقولُ:

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى: كتاب الجنائز وتمني الموت: الحديث (٢٢١٠/ ٣).

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٤٠١؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه)).

كيفَ تطيعونهُ وقد فَسَقَ، ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ ، وهـو اليـومُ عـدوٌّ لكـم، ﴿ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ ما استبدلَ الظَّالِمون عن رب العزَّة إبليسَ لَعَنَهُ اللهُ حيث تركوا طاعةَ مَن خَلَقَهم، وأنعمَ عليهم، ويجازيهم جنةَ الْخُلْدِ، وأطاعوا مَن يؤدِّيهم إلى العقاب الدائم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَذُرِّيَّتَهُ). قال قتادةُ والحسن: (يَعْنِي أوْلاَدَ إبْلِيسَ؛ وَهُمْ يَتَوَالَدُونَ، كَمَا يَتَوَالَدُ بَنُو آدَمَ)، قال مجاهدُ: (فَمِنْ ذُرِّيَّةِ إبْلِيْـسَ وَلْـهَانُ؛ وَهُـوَ صَـاحِبُ الطَّـهَارَةِ وَالصَّلاَةِ، وَزَلْيَنُورُ صَاحِبُ رَايَةِ إبْلِيْسَ لِكُلِّ سُـوق، وَدِثْـيْرُ صَـاحِبُ الْمَصَـائِب يَـأْمُرُ بضَرْب الْوَجْهِ وَالدُّعَاءِ بالْوَيْلِ وَالثُّبور وَغَـيْر ذلِـكَ، وَالأَعْـوَرُ وَهُـوَ صَـاحِبُ أبْـوَاب الزِّيَادَةِ، وَمَنْبُوطُ وَهُوَ صَاحِبُ الأَخْبَار يَأْتِي بهَا فَيُلْقِيهَا فِي أفْوَاهِ النَّاسِ فَلاَ يُوجَدُ لَـهَا أصْلٌ، وَدَاسِمُ هُوَ الَّذِي إذا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَلَمْ يُسَلِّمْ وَلَمْ يَذْكِرِ اسْمَ اللهِ ضَـرَّهُ فِـي الْمَتَاعِ مَا لَمْ يُرْفَعْ وَلَمْ يُوضَعْ فِي مَوْضِعِهِ، وَإذا أكَلَ وَلَمْ يَذْكِـرِ اسْـمَ اللهِ أكَـلَ مَعَـهُ. وَمِنْ أوْلاَدِ إبْلِيْسَ الْهَفَّافُ وَمُرَّةُ، وَبهِ كَانَ يُكْنَى أبَا مُرَّةَ). وقال ابنُ زيـدٍ: (إنَّ إبْلِيْـسَ أبُو الْجِنِّ، كَمَا أنَّ آدَمَ أبُو الإنْسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لإبْلِيْسَ: إنِّي لاَ أخْلُقُ لآدَمَ ذُرِّيَّـةً إلاَّ جَعَلْتُ لَكَ مِثْلَهَا، فَلَيْسَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أحَدٌ إلاَّ بشَيْطَانٍ قُرِنَ بهِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ يعـني إبليـسَ وذريَّتـه، والمعنـى: مـا اطْلَعْتُـهُمْ علـى خلـقِ السَّـموات والأرض، ولا أحضرتُهم، ولَم يكونوا موجوديـنَ يـوم خَلَقْـتُ السَّـمواتِ والأرض، ولا أشـهدتُ بعضَهم خلقَ بعضٍ، ولا أعطيتُهم العلمَ وكيفيَّة خلقِ الأشياء، ولو كنتُ مِمن يستعينُ بأحدٍ لما أستعنتُ بالمضِلِّين، فكيفَ والاستعانةُ علـيَّ مسـتحيلةٌ إذا أردتُ خلـقَ شـيء كانَ. والمعنى أنَّكم اتبعتُم الشيطانَ، كاتِّباع مَن يكونُ عنده عِلمُ باطن الأشياءِ، وأنا مـا أشهدتُهم خلقَ السَّموات والأرضِ ولا خلقَ أنفُسِهم.

---

(١) هذه الآثار ذكرها الطبري في جامع البيان: ج ٩ ص٣٢٥-٣٢٦. وفي الدر المنثور: ج٥ ص٤٠٣ عزاها السيوطي لابن أبي الدنيا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي ما كنتُ مُتَّخِذ الشياطينِ الذين يُضِلُّونَ الناسَ أعواناً يعضِدُونني. ومَن قرأ (وَمَا كُنْتَ) بالفتحِ، فالمعنى: وما كنتَ يا مُحَمَّدُ لِتَتَّخِذ[1] المضلِّين انصاراً.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ ؛ معناهُ: يومَ القيامةِ يقولُ الله للمشركين: نَادُوا شُرَكَائِي الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أنَّهم شُركاؤهم للأصنامِ والشياطين وذريَّته؛ ليدفعُوا عنكم العذابَ، ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي جعلنا بينَ العابدِ والمعبود من العذاب ما يُوبقُهُمْ؛ أي ما يُهلِكُهم، وَقِيْلَ: معناهُ: وجعلنا بينَهم وبين المؤمنين؛ أي بين أهلِ الْهُدى وأهلِ الضَّلالة مَوْبقاً.

قال عبدُالله بنُ عمرَ: (هُوَ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ مِنَ الصَّدِيْدِ وَالْقَيْحِ وَالدَّمِ، يُفَرِّقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهِ وَمَنْ سِوَاهُمْ)[2]. وقال عكرمةُ: (هُوَ نَهْرٌ مِنَ النَّار يَسِيْلُ نَاراً، عَلَى حَافَّتَيْهِ حَيَّاتٌ مِثْلَ الْبِغَالِ). وقال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ: وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَهْلِكاً)، وقال الحسنُ: (عَدَاوَةً)، ويقالُ: أوْبَقَهُ اللهُ؛ أي أهْلَكَهُ، وَوبقَ أي هَلَكَ. قرأ حمزةُ (وَيَوْمَ نَقُولُ) بالنُّون.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ ؛ أي ورأى المشركونَ النارَ مسيرةَ أربعين سنةٍ، وايقنُوا أنَّهم داخلُوها، ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ مَعْدِلاً يعدلون إليه، لأنَّها أحاطَتْ بهم من كلِّ جانب، والمواقعةُ مُلاَمَسَةُ الشَّيءِ بشدَّةٍ، ومنه وقائعُ الحروب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ؛ أي بَيَّنَّا لَهم من كلِّ مثلٍ يحتاجون إليه في أمرِ دِينهم، ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ ؛ أي الكافرُ، ﴿ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ في تكذيب الرُّسل، وما جاءُوا به من الآياتِ. قِيْلَ: أرادَ بالإنسانِ النضرَ بنِ الحارثِ وجدالَهُ في القُرْآنِ. وقال الكلبيُّ: (يَعْنِي

---

(١) في المخطوط رسمها غير واضح، ومن المحتمل أن تكون (لتجد) والراجح ما أثبتناه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٤٤٦).

أُبَيُّ بْنَ خَلَفٍ) ويقالُ: معناه: ما ليسَ بشيءٍ مِن الملائكة والجنِّ والشياطين، وسائر الأصناف أجدَلُ من الإنسان. وعن رسول الله ﷺ قالَ: [مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدىً كَانُوا عَلَيْهِ إلاَّ أعْطُوا الْجَدَلَ][1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي ما منع أهلُ مكة أن يُؤمِنوا (إذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى) يعني مُحَمَّداً ﷺ جاءَهم مِن اللهِ بالرَّشَادِ، (وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ) أي يتوبُوا من الكفرِ، ما منعَهم من ذلك إلاَّ طلبُ أن يأتيَهم سُنَّةُ الأَوَّلِيْنَ؛ وهو أنَّهم إذا لَم يؤمنوا جاءَهم العذابُ مِن حيث لا يشعرونَ، أو مقابلةً من حيث يَرَوْنَ. وهذه الآيةُ فيمَنْ قُتِلَ من المشركين ببَدْرٍ وأُحُدٍ؛ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً) أي عَيَاناً مقابلةً. وقرأ أهلُ الكوفة (قُبُلاً) بضمِّ القافِ والباء، جمعُ قَبيْلٍ؛ أي صنوفٍ من العذاب، وضُروبٍ منه مختلفةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، ﴿ وَيُجَٰدِلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالْبَٰطِلِ ﴾ ؛ أي يخاصِمُ الذين كفرُوا بالكتاب والرُّسل بالحجَّة الباطلةِ، ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ ﴾ ؛ أي ليُبْطِلُوا بها الإسلامَ والقُرْآنَ. قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي الْمُسْتَهْزِئِيْنَ وَالْمُقْتَسِمِيْنَ وَأتْبَاعَهُمْ)، يقالُ: دُحِضَتْ حُجَّتُهُ إذا بطَلَتْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي اتَّخذُوا القُرْآنَ وما خوِّفوا به مِن النار يومَ القيامة هُزُواً.

وقولُهُ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ أي ليسَ أحدٌ أظلمَ ممن وُعِظَ بالقُرْآن، وما فيه مِن الوعيدِ، ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ ؛ أي تَهاون بها ولَم يتفكَّرْ فيها. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ؛ أي ونسِيَ ذِكْرَ ما عملت يداهُ وتغافلَ عن ذكرهِ، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ ؛ أي أغْطِيَةً؛ لئلاَّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٥٢. والترمذي في الجامع: كتاب التفسير: باب ومن سورة الزخرف: الحديث (٣٢٥٣). وابن ماجة في السنن: كتاب السنن: باب اجتماع البدع والجدل: الحديث (٤٨/ ٤). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: باب ما ضل قوم بعد هدى: الحديث (٣٧٢٦). والطبراني في الكبير: الحديث (٨٠٦٧).

يفقَهُوا الْهُدَى، وَ جعلنا ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرًاۖ﴾ ؛ لئَلاَّ يستَمِعوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾ ؛ أي إن تَدْعُهُمْ إلى الْقُرْآنِ وإلى الرحمةِ وإلى الإيْمَانِ فلن يهتدُوا، أخبرَ اللهُ أن هؤلاءِ طَبَعَ اللهُ على قلوبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ ؛ أي الغافرُ السَّاتِرُ على عبادهِ، والرحمةُ حين لا يُعَجِّلُهُمْ بالعقوبةِ، ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم﴾ بعقاب، ﴿بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ ؛ في الحال؛ ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٌ﴾ ؛ أي لعذابهم أجَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ، ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلًا ۝٥٨﴾ ؛ أي مَلْجَأً وَمَنْجاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ ؛ أي القُرَى الماضية، قُرى عَادٍ وثَمود لَمَّا أشركوا، والمرادُ أهلُ القرى، ﴿وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدًا ۝٥٩﴾ ؛ أي لوقتِ إهلاكهم أجَلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ ؛ أي وَاذْكُرْ إذ قالَ موسى لفتاهُ يوشعَ بنَ نون، قال ابنُ عبَّاس: (وقصَّةُ ذلكَ: أن موسى عليه السلام قامَ خطيباً في بني إسرائيلَ، فسُئِلَ أيُّ الناسِ أعلمُ؟ فقال: أنَا، فبعثَ اللهُ عليه فقالَ: إن لِي عبداً بمجمعِ البحرينِ هو أعلمُ منكَ، قال موسى: يا رب كيفَ لِي بهِ، يا رب دُلَّنِي عليهِ.

فقال: تأخذُ معكَ حُوتاً وتَمضي إلى شَاطِئِ البحر، فحيث ما فقدتَ الحوتَ فهو ثَمَّ، فأخذ حوتاً من السَّمكِ، وجعلهُ في مكتلٍ وانطلَقَ معه بفتاهُ يوشعَ بن نون إلى شاطئِ البحرِ، فأوَيَا إلى صخرةٍ عندَها ماءٌ يسمى ماءُ عينِ الحياة، فجلسَ يوشعُ يتوضَّأُ من تلكَ العينِ، فانتضحَ من ذلك الماءِ على الحوتِ فحَيِيَ، فوثبَ في الماءِ، وَاتَّخَذ سَبيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً؛ أي اتخذ الحوتُ طريقاً في البحرِ مسْلَكاً يَابساً).

وَقِيْلَ: معنى قولهِ (سَرَباً) أي ذاهِباً، فقامَ يوشعُ حين رأى ذلك مِن الحوت، وذهبَ إلى موسى ليخبرَهُ بذلك، وذهبَا يومَهُما ذلكَ حتى صلَّيا الظهرَ مِن الغدِ، فتَعِبَ موسى، فقَالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذا نَصَباً؛ أي تَعَباً.

ومعنى الآية: وإذ قالَ موسى لفتاهُ لا أزالُ أمضِي حتى أبلُغَ مجمعَ البحرينِ الموضعَ الذي يلتقِي فيه بحرُ فارسَ والرومِ أو أمضِيَ سنينَ كثيرة، والْحُقَبُ جمعُ

أحْقَابٍ، والأحقابُ جمع الحِقْبِ، والْحِقْبُ ثَمَانُونَ سنةً، وَقِيْلَ: سبعونَ سنةً بلُغة قريشٍ، وسُمي يوشعُ فَتَاهُ؛ لأنه كان يخدمهُ ويلازمهُ في الْحَضَرِ والسَّفرِ للتعلُّم منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ ؛ أي الموضعَ الذي يجتمعُ فيه ماء البحرينِ نَسِيَ صاحبُ موسى أن يخبرَهُ بخبرِ الحوت. قال المفسِّرون: وكان حُوتاً في زَنْبِيْلٍ، وكانا يأكُلان منه عندَ الغدَاءِ والعشاءِ، فلما أتَيَا إلى الصخرةِ على ساحلِ البحر وضعَ فتاهُ الزنبيلَ فأصابَ الحوتَ من الماءِ الذي ذكرناهُ شيءٌ فتحرَّكَ في الزنبيلِ فانسربَ في البحرِ، قد قيلَ لِموسى: تزوَّدْ معكَ حُوتاً مالِحاً فحيثُ تفقدُ الحوتَ فهناك تجدُ الرجلَ العالِمَ.

فلما انتهيَا إلى الصخرةِ، قال موسَى لفتاهُ: امْكُثْ هنا، وانطلقَ لحاجتهِ فجرى الحوتُ في البحر، فقال فتاهُ: إذا جاء نبيُّ اللهِ أخبرتهُ بذلك، فأنساهُ الشيطان، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ ؛ وإنَّما نَسِيَ يوشعُ أن يذكرَ قصَّتَهُ لِموسى، وأضافَ النسيانَ إليهما توسُّعاً لأنَّهما تزوَّدا، فصارَ كما يقالُ: نسيَ القومُ زادَهم، وإنَّما نسيَهُ أحدُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي جعلَ الحوتُ يضربُ بذنبهِ في البحر فلا يضربُ شيئاً وهو ذاهبٌ إلاّ يَبسَ موضعهُ كهيأة السَّرَب. قال قتادةُ: (جَعَلَ لاَ يَسْلِكُ فِيهِ طَرِيْقاً إلاَّ صَارَ الْمَاءُ جَامِداً)[١]، وقال الربيعُ: (انْجَابَ الْمَاءُ عَلَى مَسْلَكِ الْحُوتِ فِي الْمَاءِ فَصَارَ كُوَّةً لَمْ يَلْتَمَّ).

والسَّرْبُ في اللُّغة: الْمَحْفُورُ في الأرض، وعن أبَيٍّ بن كعبٍ قالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [انْجَابَ الْمَاءُ عَنْ مَسْلَكِ الْحُوتِ، فَصَارَ كُوَّةً لَمْ يَلْتَمَّ، فَدَخَلَ مُوسَى الْكُوَّةَ عَلَى إثْرِ الْحُوتِ، فَإذا بالْخَضِرِ][٢]. وَقَالَ ابنُ عبَّاس: (جَعَلَ الْحُوتُ لاَ يَمَسُّ شَيْئاً مِنَ الْمَاءِ إلاَّ يَبسَ حَتَّى صَارَ صَخْرَةً)[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٤٧٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٤٧٤). وذكره ابن كثير في التفسير: ج ٣ ص٩١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٤٧٧).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ ؛ أي لَمَّـا جـاوزَ بين البحرين، قال موسَى ليوشـع: آتِنَـا بمـا نتغـدَّى بـهِ، ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي تَعَباً ومَشَقَّةً، فلما قال لهُ موسى ذلكَ؛ تَذكَّرَ قصَّةَ الحـوتِ؛ فـ ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لـه: ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾ ؛عنـد رأسِ البحـر؛ ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ ؛ ما رأيتُ هناكَ من أمرِ الحوت أنْ أذكـرَهُ لـك يـا نـبيَّ اللهِ ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ ﴾ ؛ أي وما شَغَلَنِي عن ذكرهِ لـكَ، ﴿ إِلَّا ﴾ ، وَسْوَسَـةُ، ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ ، الحوتُ، ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي شيئاً عَجَباً وهو أن الماءَ إنْجَابَ عنهُ، وبقيَ كالكوَّةِ لَم يَلْتَمَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ ؛ أي قال موسَـى: ذلـكَ الـذي كُنَّـا نطلبُ دلالةً لنا مِن اللهِ تعالى على موضعِ الْخَضِرِ ومرتـدَّة مـن العلامـةِ، ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي رَجَعَا وعادَا في الطريق الذي جـاءَ منـه يقُصَّـان آثارَهما قَصَصاً، والقَصُّ اتِّباعُ الأثرِ، ومنهُ قوله ﴿قُصِّيهِ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ ؛ وهو الْخَضِرُ. قال ابـنُ عبَّـاس: (وَذلِكَ أنَّهُمَا لَمَّا انْتَهَيَا إلَى الصَّخْرَةِ جَعَلَ يُوشَعُ يُرِي مُوسَى مَكَانَ الْحُوتِ وَأثَرَهُ فِي الْمَاءِ، وَكَانَ مُوسَى يَتَعَجَّبُ مِنْ ذلِكَ إذ وَقَعَ مُوسَى عَلَى رَجُلٍ قَـائِمٍ يُصَلِّـي، فَـانْتَظَرَ حَتَّى فَرَغَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ).

وإنَّما سُمي الْخَضِرُ؛ لأنَّهُ إذا صلَّى في مكـان اخضَـرَّ مـا حولـهُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ ؛ أي أكرَمْناه بـالنبوَّةِ، ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ ببواطنِ الأمُور. قال ابنُ عبَّاس: (أعْطَاهُ عِلْماً مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ).

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي مِمَّـا يـهديني إلى الصـواب، ويجـوزُ أن يكـونَ معنـى رشـداً، يُرْشِدُنِي به، والرُّشْدُ والرَّشَدُ لُغتان. قال قتادةُ: (لَوْ كَانَ أحَدٌ مُكْتَفِياً عَنِ الْعِلْمِ لاكْتَفَى نَبِيُّ اللهِ مُوسَى عليه السلام، وَلَكِنَّهُ قَالَ: هَلْ أتَّبعُكَ عَلَى أنْ تُعَلِّمَنِي). قال الزجَّاجُ: (فِي فِعْلِ

---

(١) القصص / ١١ .

مُوسَى عليه السلام - وَهُوَ مِنْ كِبَارِ الأَنْبِيَاءِ - مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ وَالرِّحْلَةِ دَلِيْلٌ عَلَى أنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ أنْ يَتْرُكَ طَلَبَ الْعِلْمِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ بَلَغَ نِهَايَتَهُ، وَأنْ يَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ أعْلَمُ مِنْهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي قال الْخَضِرُ لِموسى: إنَّكَ ترى منِّي شيئاً لا تصبرُ عليه، ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ ظاهرهُ مُنْكَراً، والأنبياءُ والصالحون لا يصبرونَ على ما يرونَهُ منكراً، ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ ؛ على ما أراهُ منكَ، ﴿ وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ تأمرُنِي بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي قال الخضرُ لِموسى فإنْ اتَّبعتَنِي فلا تسألنَّ عن شيءٍ أنكرتَ فعلَهُ، ولا تعجَلْ في المسألةِ عنهُ حتى أبيِّنَ لك الوجهَ فيه وأفسرَهُ لك، لأنه قد غابَ علمهُ عنكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ ؛ أي فمَضَيا حتى إذا رَكِبَا في السفينةِ خرَقَهَا الخضرُ، وذلك أنَّهما لَمَّا مشَيَا على الساحلِ مرَّت بهما سفينةٌ، فكلَّمُوهم أن يحملوهما بغيرِ أجرة. قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِيْنَةِ أخَذ الْخَضِرُ بيَدِهِ فَأساً، أوْ مِنْقَاراً وَأكَبَّ عَلَى السَّفِيْنَةِ يَخرقُهَا، فَقَالَ لَهُ أهْلُ السَّفِيْنَةِ: نَنْشُدُكَ اللهَ أنْ لاَ تَخرِقهَا، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَاللهِ لاَ يَحِلُّ لَكَ هَذا، فَإنَّكَ تُغْرِقُهُمْ، فَلَمْ يُكَلِّمْهُ الْخَضِرُ حَتَّى خَرَقَ السَّفِيْنَةَ).

قِيْلَ: إنهُ قَلَعَ لوحين مما يلِي الماءَ، فحشَاهما موسى بثوبهِ و﴿ قَالَ ﴾ ؛ منكراً عليهِ: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي مُنْكَراً، ثم تَنَحَّى موسى فجلسَ، وقالَ: ما أصنعُ في اتِّباع هذا الرجلِ الذي يظلمُ الناسَ؟! كنتُ في بني اسرائيلَ أقرأ عليهم التوراةَ بُكْرَةً وعشيَّة ويقبَلُون منِّي، فتركتُ ذلكَ وصَحِبْتُ هذا الظالِمَ...

فقال له الخضرُ بعد ما أخرجَ أهلُ السفينةِ متاعهم إلى الساحلِ: أتدري ما تحدث به نفسك؟ قال: ما هو؟ فأخبره بما حدَّث به نفسه، ثم ﴿ قَالَ ﴾ ؛ له الخضرُ:

﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي لِمَا تركتُ من عهدِك ووصيَّتِك، وَقِيْلَ: أرادَ به النسيانَ الذي هو ضدُّ الذِّكر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أمْرِي عُسْراً) أي لا تُكلِّفْني مشقَّةً، وعامِلني باليُسْرِ لا بالعسر، ولا تضيِّقْ عليَّ في صُحبتِي إياكَ. وأصلُ الرَّهَقِ: الْغَشَيَانُ، يقالُ: رَهَقَ الفارسُ فلاناً إذا غَشِيَهُ فأدركَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ ؛ قال سعيدُ بن جبير: (وَجَدَ الْخَضِرُ غُلْمَاناً، فَأَخَذ غُلاَماً وَضِيْءَ الْوَجْهِ). قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ مِنْ أحْسَنِهِمْ وَأصْبَحِهِمْ، فَأَخَذَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَأصْرَعَهُ وَأضْجَعَهُ، ثُمَّ ذبَحَهُ بالسِّكِّيْنِ، وَكَانَ غُلاَماً لَمْ يَبْلُغِ الْحِنْثَ).

وَقِيْلَ: إنهُ اجتذبَ رأسَهُ فقلعَهُ، وَقِيْلَ: نزعَ رأسَهُ من جسدهِ، وَقِيْلَ: رفصَهُ برجلهِ فقتلَهُ، وَقِيْلَ: ضربَ رأسَهُ فقتلَهُ، وكان اسمُ الغلامِ خشيود، وَقِيْلَ: جيشور. و﴿ قَالَ ﴾ لهُ موسى حين رأى ذلكَ منهُ: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ ؛ أي أقَتَلْتَ نفساً بريئةً من الذُّنوب، لَم تجب ما يوجبُ قتلَها. ومن قرأ (زَاكِيَةً) فمعناهُ: طاهرةٌ من الذُّنوب لَم تبلغِ الْحُلُمَ، ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي قَطِيعاً مُنْكَراً لا يعرفُ في شَرْعٍ.

وقد اختلفُوا في هذا الغلامِ أنَّهُ كان بالِغاً أم لَم يكن بالغاً، إلاَّ أن قولَهُ (بغيرِ نفسٍ) فيه دليلٌ على أنه بالغاً، لأن غيرَ البالغِ لا يُقْتَلُ، وإن قَتَلَ غيرَهُ، وكان هذا الغلامُ يقطعُ الطريقَ، ويلجأُ إلى أبويهِ فيحلفان دونَهُ، وعن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ: [إنَّ الْغُلاَمَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبعَ كَافِراً][(١)].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً) أي مُنْكَراً عظيماً. قال القتيبي: (النُّكْرُ أبْلَغُ مِنَ الإمْرِ فِي الإنْكَارِ؛ لأَنَّ قَتْلَ النَّفْسِ أشَدُّ مِنْ خَرْقِ السَّفِيْنَةِ)، وقالَ الزجَّاجُ: (الإمْرُ

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب القدر: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة: الحديث (٢٩/ ٢٦٦١).

أبْلَغُ فِي الإنْكَار؛ لأَنَّ خَرْقَ السَّفِينَةِ يُوجِبُ غَرَقَ أهْلِهَا، وَذلِكَ أعْظَمُ مِنْ قَتْلِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾؛ أي بعدَ هذه الكرَّةِ، ﴿ فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾؛ إنْ طلبتُ صحبتَكَ، ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾؛ أي بَلَغْتَ من عندي إلى وقتِ العُذْرِ. رويَ عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [رَحِمَ اللهُ أخِي مُوسَى اسْتَحْيَا، فَقَالَ إنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي، وَلَوْ ثَبَتَ مَعَ صَاحِبِه لأَبْصَرَ الأَعَاجِيْبَ](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ لَدُنِّي) قرأ العامَّةُ بتشديدِ النون وهو الأجودُ؛ لأنَّ أصلَ (لَدُنْ) الإسكانُ، فإذا أضفتَها إلى نفسِكَ رُدَّتْ نوناً ليسلمَ سكونُ النون الأُولَى، كما يقولُ عن زيدٍ وَعَنِّي. ومَن قرأ بتخفيفِها قال (لَدُنِ) اسمٌ غير متمكّن، فيجوزُ حذفُ النونِ منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾؛ قيلَ هي قريةُ أنطاكيَّة، قَوْلُهُ تَعَالَى: (اسْتَطْعَمَا أهْلَهَا) أي سَألاَ لَهم الطعامَ، ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾؛ قال ﷺ: [وَكَانُوا أهْلَ قَرْيَةٍ لِئَاماً](٢).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾؛ أي جِدَاراً مَائلاً مُشْرِفاً على الانْهدامِ يكادُ يسقطُ بسرعةٍ. قال وهبُ: (كان جِداراً طولهُ في السَّماءِ مائةُ ذراعٍ) وأمَّا قولهُ (يُرِيْدُ أنْ يَنْقَضَّ) هذا من مَجَاز كلام العرب؛ لأن الجدارَ لا إرادةَ لهُ، وإنَّما معناه: قَرُبَ وَدَنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَقَامَهُ). قال ابنُ عبَّاس: (هَدَمَهُ ثُمَّ أعَادَ بنَاءَهُ). وقال ابنُ جبير:(مَسَحَ الْجِدَارَ وَرَفَعَهُ بيَدِهِ فَاسْتَقَامَ). وَقَوْلُهُ تَعَالَى:(فَأَبَوْا أنْ يُضَيِّفُوهُمَا) قرأ أبو رجاءٍ (يُضِيْفُوهُمَا) مخفَّفة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص١١٨. ومسلم في الصحيح مطولاً: كتاب الفضائل: باب من فضائل الخضر: الحديث (١٧٠/ ٢٣٨٠).

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٤٢٧؛ قال السيوطي:(أخرجه الديلمي عن أبي بن كعب).

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [كَانُوا أهْلَ قَرْيَةٍ لِئَاماً]، وقال قتادةُ في هذه الآيةِ: (شَرُّ الْقُرَى الَّتِي لاَ تُضَيِّفُ الضَّيْفَ، وَلاَ تَعْرِفُ لابْنِ السَّبيْلِ حَقَّهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي قالَ لهُ موسى: لاتَّخذتَ على إقامتِكَ للجدار جُعلاً[1]. وقُرِئَ (لَتَخِذْتَ) ومعناهُ معنى الأول[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ ؛ أي هذا الكلامُ والإنكارُ على تركِ الأجر هو الْمُفَرِّقُ بيننا، لأنَّكَ قد حكمتَ على نفسكَ، وَقِيْلَ: معناهُ هذا فراقُ بيننا؛ أي فراقُ إيصالنا، والبَيْنُ مِن الأضدادِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي سأخبرُكَ بتأويلِ الأشياء التي رأيتَها منِّي فلم تصبرْ عليْها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ يعني السفينةَ التي كانت لفقراءٍ يعملونَ في البحر لَم يكن لَهم مالٌ غيرُها، وكانوا يعملونَ عليها، ويأخذونَ إجرَتَها، ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ؛ بالخرق، ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ يقال له جَلَنْدُ، ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ ؛ صحيحةٍ، ﴿ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ وقد يذكرُ (وَرَاءَ) بمعنى أمامَ، وفيه دليلٌ أن للوصيِّ أنْ يعيبَ مالَ اليتيمِ إذا رأى فيه مصلحةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ ؛ أي الغلامُ الذي قَتَلَهُ كان كافراً، وكان أبواهُ مؤمنين، ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ فلذلكَ قَتَلَهُ، وكان قد أعلمَهُ اللهُ بذلك، قال ﷺ: [إنَّ الْغُلاَمَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبعَ كَافِراً، وَلَوْ عَاشَ لأَرْهَقَ أبَوَيْهِ طُغْيَاناً وَكُفْراً][3].

---

(١) الْجُعْلُ - بالضم-: ما جُعل للانسان من شيءٍ على إنجازه عمل أو قيامه بفعل.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١١ ص٣٢؛ قال القرطبي: (وهي قراءة ابن مسعود والحسن وقتادة، وهما لغتان بمعنى واحد من الأخذ).

(٣) تقدم. وأدرج الناسخ هنا: (رواه مسلم في الصحيح).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾؛ أي فأرادَ اللهُ أن يبدلَهما ولَداً خيراً منهُ صلاحاً وطهارةً، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَقْرَبَ رُحْماً) أي وأوْصَلَ للرَّحم وأبرَّ بوالديهِ. قال ابنُ عبَّاس: (أبْدَلَهُمَا اللهُ بهِ جَاريَةً تَزَوَّجَهَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَوَلَدَتْ سَبْعِيْنَ نَبيّاً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾؛ أي في القريةِ المذكورة، وكان اسمُ اليتيمين: أصْرَماً وَصَرِيْماً، ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قِيْلَ: إنه كان مَالاً، وَقِيْلَ: كان عِلماً.

وعن ابنِ عبَّاس: (أنه كانَ لَوحاً من ذهبٍ وفيهِ: بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ؛ لاَ إلَهَ إلاّ اللهُ؛ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، عَجِبْتُ لِمن أيقنَ بالموتِ كيف يفرحُ، ولِمن أيقنَ بالنار كيف يضحكُ، وعجبْتُ لِمن أيقنَ بالقَدَر كيف يحزنُ، وعجبتُ لِمن يرى الدُّنيا وتقلُّبَها بأهلِها كيف يطمئنُّ إليها)[١]. وَقِيْلَ: كان ذهباً وفضَّةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾؛أي كان ذا أمانةٍ، كان يقالُ له: كاشح، وَقِيْلَ: إنه كان مِن الأنبياءِ. قال سعيدُ بن جُبير عن ابنِ عبَّاس: (حُفِظَا بصَلاَحِ أبيهِمَا وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهُمَا صَلاَحاً)[٢]. قال جعفرُ بن محمَّد: (كَانَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الأَبِ الصَّالِحِ سَبْعَةُ آبَاءٍ).

وعن محمَّد بنِ المنكدر قال: (إنَّ اللهَ تَعَالَى لَيَحْفَظُ بالرَّجُلِ الصَّالِحِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ وَأهْلَ دُوَيْرَتِهِ، وَأهْلَ دُوَيْرَاتٍ حَوْلَهُ وَأسْرَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيْهَا، فَمَا يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللهِ مَا دَامَ فِيْهِمْ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾؛ أي فأرادَ ربُّكَ بالأمرِ تسويةِ الجدار إلى أن يَكْبُرَا ويعقلاَ، ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً ﴾؛ أي نعمةً؛ ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ وهذا نُصِبَ على المصدريَّة؛ أي رَحِمَهما اللهُ بذلك رحمةً.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٥٣٩) عن الحسن.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٥٤٣).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١١ ص٣٨ نقله القرطبي أيضاً عن جعفر بن محمد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ ؛ وإنَّما فعلتهُ بأمرِ الله تعالى، ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ وأصلهُ تَسْتَطِعْ؛ إلاّ أن الطاءَ والتاء من مَخرجٍ واحد، فحذفَ التاء لَمَّا اجتمعا لتخفيفِ اللفظ.

وروِيَ أن الخضرَ لَمَّا أرادَ أن يُفارقَ موسى أوصاهُ، قال يا موسَى: أفْرِغ عن اللَّجَاجَةِ ولا تَمشِ في غيرِ حاجة، ولا تضحَكْ من غير عجبٍ، ولا تعيِّرِ المذنبين بخطاياهم، وابْكِ على خطيئتك يا ابنَ عمرانَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ يعني يسألُكَ اليهودُ يا مُحَمَّدُ عن خبرِ ذي القرنين (قُلْ سَأَتْلُو) سأقرأ عليكم خبرَهُ. قال مجاهدُ: (مَلَكَ الأَرْضَ أرْبَعَةٌ: مُؤْمِنَانِ وَكَافِرَانِ، فَالْمُؤْمِنَانِ سُلَيْمَانُ وَذُو الْقَرْنَيْنِ، وَالْكَافِرَانِ النَّمْرُودُ وَبَخْتَنَصَّرُ).

واختلفُوا في تسميتهِ بذِي القرنين، فقال بعضُهم: لأنه مَلَكَ فارسَ والرُّوم، وَقِيْلَ: لأنه دَعَا قومَهُ إلى التوحيدِ، فضربوهُ على قرنهِ الأيسر، وَقِيْلَ: على قَرْنَيْهِ، وَقِيْلَ: لأنه دخلَ النورَ والظلمة، وَقِيْلَ: لأنه بَلَغَ قُطْرَي الأرضِ، وكان اسمهُ اسْكَنْدَرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي مَكَّنَّاهُ في الأرضِ، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي من كلِّ شيء تستعينُ به الملوكُ على فتحِ المدائن ومحاربةِ الأعداء، (سَبَباً) أي بلاداً إلى حيث أرادَ، وَقِيْلَ: قَرَّبْنَا له أقطارَ الأرضِ، كما سَخَّرْنَا الريحَ لسليمان. وقال عليٌّ ﷺ: (سَخَّرَ اللهُ لَهُ السَّحَابَ فَحَمَلَهُ عَلَيْهَا وَمَدَّ لَهُ فِي الأَسْبَاب، وَبَسَطَ لَهُ النُّورَ، وَكَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ عَلَيْهِ سَوَاءً) وهذا معنى تَمَكُّنِهِ في الأرضِ، وهو أنه سَهَّلَ عليه المسيرَ فيها، وذلَّلَ له طُرُقَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي طريقاً تؤدِّيه إلى مغرب الشَّمس. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ ؛ أي إلى قوم لَم يكن بينَهم وبين مغرب الشَّمس أحدٌ؛ لأنه لا يُمكنه أن يبلُغَ موضعَ غروب الشَّمس. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ ؛ أي رآها تغربُ في الماءِ، وَقِيْلَ: في عينٍ ذات حَمَأةٍ وهي الطينُ الأسودُ الْمُنْتَنُ.

وتقرأ (حَامِيَةٍ) أي حارَّةٍ، وهي قراءةُ العبادلةِ الثلاثةِ- عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ - وابنُ عامرٍ وأهلُ الكوفةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ ؛ أي عند العين، ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ قِيْلَ: في هذا دليلٌ أن ذا القرنين كان نبياً؛ لأن الانسانَ لا يعلمُ أمرَ الله إلاّ بالوحيِ، ولا يجوزُ الوحيُ إلاّ إلى الأنبياءِ، وَقِيْلَ: كان معه نبيٌّ، فأوحَى اللهُ إلى ذلك النبيِّ، وفي الجملةِ لا يُمكن إثباتُ النبوَّة إلاّ بدليلٍ مقطوع به.

ورويَ عن النبيِّ ﷺ أنه سُئِلَ عن ذي القرنين قال: [هُوَ مَلِكٌ يَسِيْحُ فِي الأَرْضِ][1]، قال ابنُ الأنباريِّ: (إنَّهُ كَانَ نَبيّاً، فَإنَّ اللهَ قَالَ لَهُ كَمَا قَالَ لِلأَنْبيَاءِ، إمَّا بتَكْلِيْمٍ أوْ بوَحْيٍ، وَمَنْ قَالَ لَمْ يَكُنْ نَبياً، قَالَ مَعْنَى قَوْلِهِ الْهَمْنَا كقولهِ ﴿وَأوْحَيْنَا إلَى أمِّ مُوسَى﴾[2] أي ألْهَمْنَاها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي قُلنا له إما أن تَقْتُلَهُمْ على الكفرِ إن أبَوا الإسلامَ، وإما أن تأسِرَهم فتعلِّمَهم الهدى وتبصِّرَهم الرشادَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ ؛ أي من أسرفَ، ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾ ؛ أي نقتلهُ، وكلُّ مَن أشركَ فقد ظلمَ نفسه، ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ في الآخرةِ بعد قتلي إيَّاهُ، ﴿ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ يعني في النار أنكَى من القتلِ وأعظم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ؛ أي فلَهُ في الآخرة جزاءَ الْحُسنَى أي الجنةُ بالطاعةِ التي عملَها في الدنيا. وقرأ أهلُ الكوفةِ (جَزَاءً) نصباً وهو مصدرٌ وقعَ موقعَ الحالِ؛ أي فلهُ الْحُسْنَى مَجْزيّاً بها. قال ابنُ الأنباريِّ:(جَزَاءً نصباً على المصدرِ؛ أي فَيُجزَى الْحُسْنَى جَزَاءً). قولهُ: ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي سنأمرهُ في الدُّنيا بما نُيَسِّرُ عليهِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٤٣٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ بلفظ: [مَلِكٌ مَسَحَ الأَرْضَ مِنْ تَحْتِهَا بالأَسْبَابِ]).

(٢) القصص / ٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ أي سَلَكَ طريقاً آخرَ نحو المشرق. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ أي حتى إذا انتهَى إلى آخرِ العمارة من جهةِ المشرق وجدَ عند الشمسِ قوماً لَم يكن لَهم جبلٌ ولا شجرٌ ولا شيء يستُرهم عن الشمسِ. قال لكلبيُّ: (مَعْنَاهُ حُفَاةٌ عُرَاةٌ يَفْتَرِشُ أحَدُهُمْ أذُنَهُ وَيَلْبَسُ الأُخْرَى).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي وجدَ قوماً كذلك. قيلَ: الذين كانوا عند مغرب الشَّمس، وَقِيْلَ: معناهُ: كما بَلَغَ مغربَ الشمسِ وكذلك بَلَغَ مطلعَها، ثم استأنفَ وقال (وَقَدْ أحَطْنَا بمَا لَدَيْهِ خُبْراً) أي عِلْماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ ؛ أي ثُم أتبعَ سبباً ثالثاً مما يبلغهُ قُطراً من أقطار الأرض، وَقِيْلَ: أتْبَعَ سَبَباً: حتى إذا بلغَ طريقاً من المشرقِ نحو الرُّومِ، وحتى إذا بلغَ بين الجبلين الذين جعلوا الرَّدْمَ بينهما، وهما السدَّان.

قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: (السَّدَّيْنِ) بفتح السِّين، وقرأ الباقون بضمِّها، وهما لُغتان، ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ الجبلين، ﴿ قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾ أي لا يكادون يفقهونَ قولَ غيرِهم، ولا يعرفون لُغة غيرهم.

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف (يُفْقَهُونَ) بضمِّ الياء وكسر القاف، ومعناهُ: لا يكادون يفقهونَ أحداً قولاً. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (لاَ يَفْقَهُونَ كَلاَمَ أحَدٍ، وَلاَ أحَدٌ يَفْهَمُ كَلاَمَهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي قالوا بإشارةٍ أو ترجُمان؛ لأنه قد تقدَّم أنَّهم لا يفقهونَ قولاً، إن يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ، وهما قبيلتان من أولادِ يافث بن نوحٍ مُفْسِدُونَ فِي الأرْضِ؛ أي يفسدونَ أموالَ الناسِ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ بغيٍ وظُلْم. قال الكلبيُّ: (كَانُوا يَخْرُجُونَ إلَى أرْض هَؤُلاَءِ الَّذِيْنَ شَكَوهُمْ إلَى ذِي الْقَرْنَيْنِ أيَّامَ الرَّبيْعِ فَلاَ يَدَعُونَ فِيْهَا شَيْئاً أخْضَرَ إلاَّ أكَلُوهُ، وَلاَ يَابساً إلاَّ احْتَمَلُوهُ).

وعن عبدِالله قالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ يَأْجُوج وَمَأْجُوجَ، قَالَ: [يَأْجُوجُ أُمَّةٌ وَمَأْجُوجُ أُمَّةٌ، كُلُّ أُمَّةٍ أرْبَعُمِائَةِ أَلْفٍ، لاَ يَمُوتُ أحَدُهُمْ حَتَّى يَنْظُرَ إلَى أَلْفِ ذكَرٍ مِنْ صُلْبِهِ كُلُّهُمْ قَدْ حَمَلَ السِّلاَحَ] قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! صِفْهُمْ لَنَا؟ قَالَ: [هُمْ ثَلاَثَةُ أصْنَافٍ: صِنْفٌ مِنْهُمْ طُولُ الرَّجُلِ مِنْهُمْ مِائَةٌ وَعُشْرُونَ ذِرَاعاً، وَصِنْفٌ طُولُهُ وَعِرْضُهُ سَوَاءٌ عُشْرُونَ وَمِائَةُ ذِرَاعٍ أيْضاً، وَهُمُ الَّذِيْنَ لاَ يَقُومُ لَهُمْ جَبَلٌ وَلاَ حَدِيْدٌ، وَصِنْفٌ مِنْهُمْ يَفْتَرِشُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إحْدَى أذُنَيْهِ وَيَلْتَحِفُ بالأُخْرَى لاَ يَمُرُّونَ بفِيْلٍ وَلاَ جَمَلٍ وَلاَ وَحْشٍ وَلاَ خِنْزِيْرٍ إلاَّ أكَلُوهُ، لَهُمْ مَخَالِبُ فِي أيْدِيهِمْ وَأضْرَاسٌ كَأَضْرَاسِ السِّبَاعِ، وَأنْيَابٌ يُسْمَعُ لَهَا حَرَكَةٌ كَحَرَكَةِ الْجَرَسِ فِي حُلُوقِ الإبلِ، وَلَهُمْ مِنَ الشَّعْرِ فِي أجْسَادِهِمْ مَا يُوَارِيْهِمْ، وَمَا يُتَّقَى مِنْهُ الْحَرُّ وَالْبَرْدُ، يَعْوُونَ عَوِيَّ الذِّئَابِ، وَيَتَسَافَدُونَ كَتَسَافُدِ الْبَهَائِمِ إذا الْتَقَوْا](١).

قال وهبُ: (يَشْرَبُونَ مَاءَ الْبَحْرِ وَيَأْكُلُونَ دَوَابَّهَا، وَيَأْكُلُونَ الْخَشَبَ وَالشَّجَرَ، وَمَنْ ظَفَرُوا بِهِ مِنَ النَّاسِ أكَلُوهُ). وقال كعبٌ: (هُمْ زِيَادَةٌ فِي وَلَدِ آدَمَ، وَذلِكَ أنَّ آدَمَ احْتَلَمَ ذاتَ يَوْمٍ فَامْتَزَجَتْ نُطْفَتُهُ فِي التُّرَابِ، فَخَلَقَ اللهُ مِنْ ذلِكَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، فَهُمْ مُتَّصِلُونَ بنَا مِنْ جِهَةِ الأَب دُونَ الأُمِّ).

وقال ابنُ عبَّاس: (هُمْ عَشْرَةُ أجْزَاءٍ وَوَلَدُ آدَمَ كُلُّهُمْ جُزْءٌ). وَقِيلَ: إن التُّرْكَ منهم إلاّ أن أولئكَ أشدُّ فساداً من التُركِ، فتباعدُوا عن الناس، كما ينعزلُ اللُّصوصُ. ويأجوجُ ومأجوج اسْمان أعجميَّان لا ينصرفان؛ لأنَّهما معرفةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي قالوا هل نجعلُ لكَ بعضاً من أموالِنا ضربتهُ في كلِّ سنةٍ على أن تجعلَ بيننا وبينهم حاجزاً وسدّاً. والرَّدْمُ هو السدُّ، وردمْتُ البابَ؛ أي سَدَدْتُهُ، والْخَرْجُ والخراجُ واحدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ ؛ أي قال لَهم ذو القَرنين: مَا مَكَّنِّي اللهُ مِن الإتساعِ في الدُّنيا خيرٌ من خَراجِكم الذي تبذلونه لِي، يريدُ ما أعطانِي اللهُ وملَّكَني أفضلُ من عطيَّتِكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾ ؛ أي الرِّجالِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٥٨٨) عن أبي الزهاري وشريح بن عبيد مختصراً.

والآلاتِ، ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ ؛ الرَّدْمُ أشدُّ الحجاب، وهـو أكـبرُ من السدِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ ؛ والزُّبَرَةُ القطعةُ العظيمـة، فـأتَوهُ بـها فبناه، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ ﴾ ؛ أي حتـى إذا مَـلأَ مـا بـين الجبلـين، وسَمَّاهُما صَدَفَيْنِ؛ لأنَّهما يتصادفان، أي يتقابَلان، فلما وضعَ بينهما الحديـدَ وجعـلَ "بين" كلَّ قطعتَي حديدِ حطباً حتى ملأ ما بين الجبلـين، فـأمرَ بالنـار فأُرسِلت فيـه، و ﴿ قَالَ ﴾ للحدَّاديـن: ﴿ ٱنفُخُواْ ﴾ ؛ بالمنافيخ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ﴾ ؛ أي حتى إذا صارَ الحديدُ كالنار، ﴿ قَالَ ءَاتُونِيٓ ﴾ ؛أي أعطونِـي قِطْـراً، ﴿ أُفْرِغْ عَلَيْـهِ قِطْـرًا ﴾ ؛ وهو النحاسُ الذائب أصبُّهُ على الحديـدِ والحطـب فيتقطَّـرُ كمـا يتقطرُ الماء، ففعلَ حتى إذا جعلَ بعضه في بعضٍ، فصـارَ الجميـعُ شـيئاً واحـداً جبـلاً صَلْداً من حديدٍ ونُحاس. قيل إنه حفر له الأساس حتى بلغ الماء، ثـم جعـل عرضـه خمسين فرسخًا ثم ملأه وشرفه[1].

قولهُ تعـالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ ؛ أي ما قدَرُوا أن يَعْلُوهُ لارتفاعهِ ومَلاستِهِ، وما قـدَرُوا أن ينقبُـوهُ مـن أصلـهِ؛ لشـدَّتهِ وصلابتهِ.

وعن أبي هريرةَ: [انَّ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ يَحْفُرُونَ كُلَّ يَوْمٍ، ثُمَّ يَقُولُـونَ: نَرْجِـعُ إلَى غَدٍ وَنَجِيْءُ أيْضاً نَحفِرُهُ، فَيَأتُونَهُ غداً وَقَدْ اعَادَهُ اللهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ انْ يَحْفِرُوهُ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ ؛ أي قال لَهم ذُو القرنينِ لَمَّـا فَـرَغَ من بنائهِ، هذا التمكينُ الذي أدركتُ به السدَّ رحمةٌ مِن ربي مِن حيثُ الْهَمني وقوَّانِـي، ونعمةٌ مِن ربي عليكـم، ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ ؛ أي وقـتُ اشـتراطِ

---

(١) الشَّرَفُ: العلُوُّ والمكان العالي؛ وجبَلٌ مُشرِفٌ أي عـالٍ. وأشـرفُ المكـانِ أعـلاهُ. وأشـرفَ عليـهِ اطَّلعَ عليه من فوق.

(٢) من حديثه مختصراً؛ أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٥١٠-٥١١. والـترمذي في الجـامع: كتاب التفسير: سورة الكهف: الحديث (٣١٥٣).

السَّاعة جعلَ السدَّ كَسْراً. ومن قرأ (دَكّاً) فمعناهُ أرْضاً منبسطةً، يقالُ: نَاقَةٌ دَكَّاءٌ إذا لَم يكن لَها سِنَامٌ، ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾؛ أي كان تقديرهُ لِخروجهم صِدْقاً كائناً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾؛ أي تركنا يأجوجَ ومأجوجَ يومَ انقضاءِ أمر السدِّ يَموجُونَ في الدُّنيا مختلطِين لكثرَتِهم، يقالُ: مَاجَ الناسُ إذا دخلَ بعضُهم في بعضٍ حيَارَى كمَوْجِ الماءِ، فيخرجون على الناسِ فيشرَبُون الماءَ، يأكلونَ الدوابَّ، ومَن ظَفَرُوا به من الناسِ أكلوهُ، فاذا كَثُرَ فسادُهم في الأرضِ بعثَ اللهُ عليهم بعثاً فيقتلهم فيموتون كموتِ الجرادِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾؛ يعني النفخةَ الثانيةَ التي تكون للحَشْرِ يُحْشَرُ بها الناسُ من قبورهم، ويُجمَعُون جَمعاً في الموقفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ﴾؛ أي وأظْهَرْنَا جهنَّمَ يومَ القيامةِ للكافرينَ حتى يَرَوا فيها جزاءَ أعمالِهم مُعَايَنَةً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي ﴾؛ أي أظْهَرْنَا جهنَّمَ حتى شاهَدَها الناسُ الذين كانت أعينُ قلوبهم فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي لِما تراءى لها من الرَّين والغشاوةِ، ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾؛ أي كان يثقلُ عليهم ذِكْرُ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾؛ أي أيَحْسَبُ الكفارُ أن ينفعَهم اتِّخاذُهم عبادي مثلَ المسيحِ والملائكة الذين عبدُوهم مِن دوني أرْبَاباً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾؛ أي جعلناها مَنْزِلاً ومأوىً لَهم، ومعدَّةً عندنا، كما يُهَيَّأُ المنْزل للضَّيف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ ﴾؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّدُ: هل نُخبرُكم بالأَخْسَرِيْنَ أعْمَالاً في الآخرةِ يعني كفارَ أهلِ الكتابِ واليهودَ والنصارى؟ وقال عليٌّ ﷺ: (هُمُ الرُّهْبَانُ وَالْقِسِّيْسُونَ حَبَسُوا أنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ) وَقِيْلَ: هم جميعُ اليهودِ والنَّصارى، ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾؛ أي بَطَلَ

عملُهم واجتهادُهم في الدِّيـن، ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ أي وهم يظنُّونَ أنَّهم يعملون صالِحاً.

ثُم بيَّنَ مَن هم فقال: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ ﴾ ؛ أي جَحَدُوا دلائلَ توحيـدِهِ، وأنكـرُوا البعـثَ بعـد المـوتِ، ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ ؛ أي بَطَلَتْ حسناتُهم التي عَمِلُوها مثل صِلَـةِ الرَّحـم، والإحسـانِ إلى النـاس، فـلا يَـرَوْنَ سعيَهم مع الكفرِ شيئاً، ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ ﴾ ؛ ولا يكون لَهم عنـد اللهِ، ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ قَدْراً ولا مَنْزِلَةً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ ؛ أي ذلـك الإحبـاطُ جزاؤهـم، ﴿ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ أي واتِّخـاذهم القُـرْآنَ ونبـوَّة أنبيائي هُزُواً؛ يستهزؤن بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ الْفِرْدَوْسُ في اللُّغة: جَنَّةٌ ذاتُ كُرُوم. قـالَ رسـولُ اللهِ ﷺ: [الْجَنَّـةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مَـا بَيْـنَ السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ، الْفِـرْدَوْسُ أعْلاَهَـا، مِنْـهَا تَتَفَجَّرُ الأَنْهَارُ الأَرْبَعَةُ، فَإذا سَـأَلْتُمُ اللهَ فَاسْـأَلُوهُ الْفِـرْدَوْسَ](١). وقـال ﷺ: [جَنَّـاتُ الْفِرْدَوْسِ أرْبَعٌ: جَنَّتَان مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيْهِمَا مِنْ فِضَّةٍ، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذهَبٍ آنِيَتُـهُمَا وَمَا فِيْهِمَا مِنْ ذهَبٍ](٢).

وَقِيْلَ: خلقَ اللهُ الفردوسَ بيدِهِ يفتحُها كلَّ يوم خمـسَ مـرَّات، فيقـولُ: ازْدَادِي حُسْناً وَطِيْباً لأَوْلِيَائِي. وقال قتادةُ: (الْفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ وَأفْضَلُهَا وَأرْفَعُهَا)(٣) وقـال

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٦٣٩). والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣١٦ عن عطاء بن يسار عن عبادة بن الصامت. وابن ماجة في السـنن: كتـاب الزهـد: الحديـث (٤٣٣١) عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٦٤٢) عن الحارث بن عمير عـن أبيـه، والحديـث (١٧٦٤٣) عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه. وهـو طريـق ابـن أبـي شـيبة في المصنـف: الحديث (٣٤٠٩٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٦٣٤).

أبو أسَامَةَ: (الْفِرْدَوْسُ سُرَّةُ الْجَنَّةِ)[١]. وقال كعبٌ: (لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ جَنَّةٌ أرْفَعُ مِنَ الْفِرْدَوْسِ، فِيهَا الآمِرُونَ بالْمَعْرُوفِ، والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ أي مُقيمين فيها لا يطلبونَ عنها تَحويلاً. قال ﷺ: [إنَّ الْفِرْدَوْسَ أرْفَعُ مَوْضِعٍ فِي الْجَنَّةِ وَأحْسَنُهُ][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ ؛ الآيةُ، وذلكَ أنه لَمَّا نزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾[٤] وقالَتِ اليهودُ والنصارى: أوْتِيْنَا عِلماً كثيراً، أوْتِيْنَا التوراةَ فيها عِلْمُ كلِّ شيء، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ؛ أي لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِعِلْمِ ربي وحكمتهِ، فيكتبُ من البحر كما يكتبُ من المدادِ، ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ ﴾ وتكسَّرَتِ الأقلامُ، ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ ؛ أي بمثل البحرِ، ﴿ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ لِهذا البحرِ. ويقالُ أرادَ بـ (كَلِمَاتِ رَبي) معانِيَ القُرْآنِ والأحكامِ المستنبطةِ منه، والْمَدَدُ شيءٌ بعدَ شيءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ: إنَّمَا أنَا بَشَرٌ آدَمِيٌّ مثلُكم. قال ابنُ عبَّاس: (عَلَّمَ اللهُ نَبِيَّهُ التَّوَاضُعَ لِئَلاَّ يَتَبَاهَى[٥] عَلَى خَلْقِهِ، فَأمَرَهُ اللهُ أنْ يُقِرَّ عَلَى نَفْسِهِ بأنَّهُ آدَمِيٌّ كَغَيْرِهِ إلاَّ أنَّهُ أكْرِمَ بِالْوَحْيِ[٦]، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لا شريك له، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ أي يَخْشَى لقاءَ ربه ويخافُ البعثَ في المصيرِ إليه، ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ ؛ أي خالِصاً لا يرَى في عبادةِ الله أحداً، ﴿ وَلَا يُشْرِكْ ﴾ ؛ مع اللهِ غيرَهُ في العبادةِ.

وقال سعيدُ بن جبير: معناه (وَلاَ يَرَى) ﴿ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ وعن عطاء عن ابن عباس قال: (قال: وَلاَ يُشْرِكْ بعِبَادَةِ رَبهِ أحَداً، ولَم يقُلْ: و لا يشركْ بهِ؛

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٦٣٥).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٦٣٦).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٦٤٥)، بإسنادين.
(٤) الاسراء / ٨٥ .
(٥) في المخطوط: (___ ها) فرسمت الـ (ها) بعد الفراغ، والتقدير أنه يراد به: (يتباها).
(٦) ذكره ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٢ ص٥٧٩ مختصراً.

لأنه أرادَ العملَ الذي يعملهُ للهِ، ويحبُّ أن يُحمدَ عليهِ). قال الحسنُ: (هَذا فِي مَنْ أشْرَكَ بعَمَلِهِ يُرِيْدُ اللهَ بِهِ وَالنَّاسَ).

وعن عُبادة بن الصامتِ: قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: [مَنْ صَلَّى صَلاَةً يُرَائِي بهَا فَقَدْ أشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ صَوْماً يُرَائِي بهِ فَقَدْ أشْرَكَ] وقرأ هذه الآية (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ ربهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بعِبَادَةِ رَبهِ أحَداً)[١].

وعَن أبي هريرةَ وأبَيٍّ بنِ كعب عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْكَهْفِ فَهُوَ مَعْصُومٌ إلَى ثَمَانِيَةِ أيَّامٍ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ يَكُونُ فِيْهَا، وَمَنْ قَرَأ الآيَةَ الَّتِي فِي آخِرِهَا حِينَ يَأْخُذُ مَضْجَعَهُ كَانَ لَهُ نُورٌ يَتَلأْلأُ إلَى مَكَّةَ، حِشْوُ ذلِكَ النُّور مَلاَئِكَةٌ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ مِنْ مَضْجَعِهِ. وَإنْ كَانَ مَضْجُعُهُ بمَكَّةَ فَتَلاَهَا كَانَ لَهُ نُورٌ يَتَلأْلأُ مِنْ مَضْجَعِهِ إلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُور، حِشْوُ ذلِكَ النُّور مَلاَئِكَةٌ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ].

وقال ﷺ: [وَمَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أوَّل سُورَةِ الْكَهْفِ ثُمَّ أدْرَكَ الدَّجَّالَ لَمْ يَضُرَّهُ][٢]. وقال ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَهُوَ مَعْصُومٌ إلَى سِتَّةِ أيَّامٍ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ تَكُونُ، فَإنْ خَرَجَ الدَّجَّالُ عُصِمَ مِنْهُ][٣].

آخر تفسير سورة (**الكهف**) والحمد لله رب العالمين

(١) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٦٥٦).

(٢) ذكره البغوي مختصراً في معالم التنزيل: ص٧٩٦. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٦ ص١٤٤.

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٦ ص١٤٤.

سُورَةُ مَرْيَم

سُورَةُ مَرْيَمَ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاَثَةُ آلاَفٍ وَثَمَانِمِائَةِ حَرْفٍ، وَتِسْعُمِائَةٍ وَاثْنَتَان وَسِتُّونَ كَلِمَةٍ، وَثَمَانٍ وَتِسْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (أوَّلُ هَذِهِ السُّورَةِ ثَنَاءٌ أثْنَى بِهِ الرَّبُّ عَلَى نَفْسِهِ، وَالْكَافُ مِنَ كَافٍ، وَالْهَاءُ مِنْ هَادٍ، وَالْيَاءُ مِنْ حَكِيْمٍ، وَالْعَيْنُ مِنْ عَلِيْمٍ، وَالصَّادُ مِنْ صَادِقٍ وَصَمَدٍ)[1]. وَقِيْلَ: معناهُ: كافٍ لخلقهِ هادٍ لعبادهِ، يده فوقَ أيديهم، عالِمٍ ببَريَّتهِ، صادقٍ في وعدهِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي بهذا اذكر رحمةَ ربك على زكريَّا، أو ما يُتْلَى عليكم ذكرُ رحمةِ ربكَ، و(عَبْدَهُ) منصوبٌ بالرحمة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي إذ دعا ربَّهُ سِرّاً في جوفِ اللَّيلِ مُخلصاً لَم يطَّلِعْ عليه إلاَّ اللهُ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ ؛ أي ضَعُفَ منِّي.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٧٦٥٨-١٧٦٨١).

(٢) يلاحظ هنا: أن القرآن كلام عربي اللغة والأسلوب؛ خاطب الله به الناس بما تدل عليه اللغة بأفرادها واستعملته العرب بلسانها، وأصل الكلام عند العرب ما دلَّ على معنى، والحروف بأفرادها لا تدل على معنى إلا إذا اجتمعت وغدت كلمة، وهي اسم وفعل وحرف جاء لمعنى حين يقرن مع غيره. لهذا لا نجد أن اللغة تدل على ما ذكر من أن الكاف تدل على الكبير أو الكافي أو غير ذلك من الحروف ما أشاروا إلى احتمال دلالتها. ويبقى مثل هذا عرضة للتأمل ويفتقر إلى الجزم، وهو ضرب من التفكر العقلي المحض. والله أعلم.

قال قتادةُ: (شَكَا ذهَابَ أضْرَاسِهِ)، والوَهَنُ في اللغة: نُقْصَانُ الْقُوَّةِ، ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ؛ يقولُ: شِخْتُ وَضَعُفْتُ، ومن الموتِ قَرُبْتُ. والاشتعالُ: انتشارُ شُعَاعِ النَّار، واشتعالهُ في الشَّيْب من أحسنِ الاستعارةِ؛ لأنه ينتشرُ في الرأسِ، كما ينتشرُ شُعاع النار. قَوْلُهُ تَعَالَى: (شَيْباً) نُصِبَ على المصدر، وهذا يدلُّ على أن أفضلَ الدُّعاء دعاءُ السرِّ، كما قال ﷺ: [خَيْرُ الدُّعَاءِ الْخَفِيُّ، وَأفْضَلُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمْ أَكُنْۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي كنتَ تُجيبُنِي إذا دعوتُكَ، وقد عوَّدْتَنِي الإجابةَ في ما مضى فلِمَ لا تُجيبُنِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي ﴾ ؛ أي خِفْتُ العصبةَ وبَنِي العمِّ أن يرثُوا عِلمي دون مَن كان مِن نَسْلِي، ويقالُ: خِفْتُهُمْ على الدِّين من ورائي؛ لأنَّهم كانوا من أشرار بني إسرائيل. قرأ يحيى بن يعمر: (خَفَّتِ) بفتحِ الخاء وتشديدِ الفاء، و (الْمَوَالِيْ) بسكون الياء، يعني ذهَبَتِ الموالِي.

وقلتُ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ وَرَائِي) أي بعدَ موتِي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ ؛ أي عَقِيماً من الولدِ، والرجلُ العَاقِرُ: الذي لا يولَدُ لهُ. وامرأتهُ هي أختُ أمِّ مريَم بنت عمرانَ بن ماثان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي أعطِنِي مِن عندك ولداً، ﴿ يَرِثُنِي ﴾ ، يَرِثُ نبوَّتِي ومكانِي ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ ؛ العلمَ والنبوَّةَ، أرادَ بذلك يعقوبَ بنِ ماثان وهم أخوالُ يَحيى، وبنو ماثان كانوا رؤساءَ بني إسرائيل، وليسَ يعقوبُ هذا أبو يوسفَ. قرأ أبو عمرو والكسائي: (يَرِثْنِي وَيَرِثْ)

---

(١) الحديث عن سعد بن أبي وقاص؛ أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص١٧٢ و١٧٨ و١٨٠. وابن حبان في موارد الضمآن: كتاب الرقائق: باب الذكر: الحديث (٢٣٢٣)؛ بلفظ: [خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ، وَخَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي]. وإسناده ضعيف؛ فيه محمَّد بن عبدالرحمن بن أبي لبيبة. في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٨١؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه محمَّد بن عبدالرحمن وقد وثقه ابن حبان، قلتُ: وضعفه ابن معين، وبقية رجاله رجال الصحيح)).

بالجزمِ فيهما على جواب الدُّعاء، وقرأ الباقون برفعهما على الحالِ والصِّفة. وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَلِيّاً) أي وَالِياً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾؛ أي وَفِّقْهُ للعملِ حتى يصيرَ مِمَّن ترضاهُ. وقال أبو صالِح: (مَعْنَاهُ: وَاجْعَلْهُ رَب نَبِيّاً كَمَا جَعَلْتَ أَبَاهُ). وَقِيْلَ: إجْعَلْهُ صالِحاً تقيّاً بَرّاً مرْضِيّاً.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين أنَّ معنى قَوْلَهُ تَعَالَى (يَرِثُنِي) أي يرثُ مالِي، إلاَّ أنَّ حملَ الآية على ميراثِ العلم أولَى؛ لأن الأنبياءَ كانوا لا يَشُحُّونَ بالمالِ، ولا يتنافسونَ على مصيرِ المال بعد موتِهم إلى مستحقِّهِ؛ ولأنه قال (وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) ولَم يُرِدْ بذلكَ المالَ، ولأنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: [إنَّا - مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ - لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ][١] وإنَّما دعاءُ زكريا بالولدِ لِيَلِيَ أمورَ الدِّين بعدَهُ؛ لخوفهِ من بَنِي أعمامهِ أن يبدِّلوا دِيْنَهُ بعدَ وفاته، وخافَ أن يستولُوا على علومهِ وكُتُبهِ فيحرِّفونَها، ويواكلونَ الناس بها، ويفسدون دِيْنَهُ، ويصدُّون الناسَ عنه.

قولُه: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾؛ معناهُ: إنَّ اللهَ استجابَ لهُ فأوحى إليه: (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ) أي نُفَرِّحُكَ (بغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى)؛ لأنَّ الله أحيَا به الإيْمانَ والحكمةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾ قال الكلبيُّ وقتادةُ: (مَعْنَاهُ: لَمْ نُسَمِّ أحَداً قَبْلَهُ يَحْيَى)[٢]، قال ابنُ جبير وعطاء: (لَمْ نَجْعَلْ لَهُ شَبِيْهاً وَلاَ مِثْلاً؛ لأنَّهُ لَمْ يَعْصِ وَلاَ يَهِمُّ بمَعْصِيَةٍ). وَقِيْلَ: لَم تلِدِ العواقرُ مِثْلَهُ.

وإنَّما قالَ (مِنْ قَبْلُ) لأنهُ تعالى أرادَ أن يَخْلُقَ بَعْدَهُ أفضلَ منه وهو مُحَمَّدٌ ﷺ، وَقِيْلَ: إن اللهَ تعالى لَم يُرِدْ بهذا القول جمعَ الفضائلِ كلِّها ليحيَى، وإنَّما أرادَ في بعضِها؛ لأن الخليلَ والكليمَ كانا قبلَهُ، وكانا أفضلَ منهُ.

---

(١) الحديث بألفاظ كثيرة وأسانيد عديدة، وأخرجه الإمام مالك في الموطأ عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كتاب الكلام: باب ما جاء في تركة النبي ﷺ: الحديث (٢٧). والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص١٤٥ و٢٦٢. والبخاري في الصحيح: كتاب الفرائض: الحديث (٦٧٢٧ و٦٧٣٠). ومسلم في الصحيح: كتاب الجهاد: الحديث (١٧٥٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٧٠٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ ؛ أي قال زكريَّا لجبريلَ: يا سيِّدي مِن أين يكونُ لِي ولدٌ، ﴿ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ مِن الولد، ﴿ وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي حالَ اليأسِ والجفف.

روي أنهُ كانَ له يومئذ بضعٌ وستُّون سنةً، والعِتِيُّ هو الذي غيَّرَهُ طولُ الزمان إلى اليأسِ[1]. قال قتادةُ: (وإنَّمَا قَالَ ذلِكَ لِنُحُول عَظْمِهِ) يقالُ: رجلٌ عَاتٍ اذا كان قاسيَ القلب غيرَ ليِّن. وقرأ حمزةُ والكسائي: (عِتِيًّا) بكسرِ العين وهُما لُغتان، وقد تقدَّم أن هذا القولَ من زكريا لَم يكن على جهةِ الإنكار، ولكن أحبَّ مِن أيِّ وجهٍ يكونُ أبردُّهِمَا إلى الشَّباب، أو يرزقهُما الولدَ وهما على هذه الصفةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ ؛ أي قال لهُ جبريل: هكذا قَالَ رَبُّكَ، كما قلتُ لكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، ﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ ﴾ ؛ أي من قبل يحيى، ﴿ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ وكنتَ معدوماً. قرأ حمزةُ والكسائيُّ: (وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ) بالنون والألف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ ﴾ ؛ أي قالَ زكريا: يا رب اجعل لِي علامةً أعلمُ بها وقوعَ ما بُشِّرْتُ بهِ؛ لأتعجَّلَ الْمَسَرَّةَ، ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ ﴾ ؛ علامتُكَ، ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ ﴾ ، أي لا تقدر أن تكلم الناسَ، وأنت سَوِيٌّ لا خَرَسَ بلسانِكَ ولا آفةَ، فإنه كان يقرأ الزَّبُورَ ويدعو اللهَ ويُسَبِّحُهُ، ولكنه اعتقلَ كلامَهُ عن كلامِ الناس. وقوله (سَوِيّاً) أي صَحيحاً سالِماً من غيرِ بأسٍ ولا خَرَسٍ، و (سَوِيّاً) منصوبٌ على الحال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ ﴾ ؛ أي خَرَجَ عليهم من مُصَلاَّهُ مُتَغَيِّرَ اللونِ، وهم ينتظرونه فأنكروهُ وقالوا: ما لكَ يا زكريا ؟ ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ ؛ أي أشارَ إليهم وأوْمَأ، ويقالُ: كتبَ بيدهِ ﴿ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي صَلُّوا لله غَدْوَةً وعَشِيَّةً، والسُّبْحَةُ الصلاةُ، فلما كان وقتُ حملِ

---

(١) في جامع البيان: الأثر (١٧٧١١)؛ قال الطبري: ((قال قتادة: كَانَ ابنَ بضعٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً)).

امرأتهِ ومنع من الكلامِ، خرج إليهم يأمرهم بالصلاة إشارةً، ثم تكلم بعد ثلاث، وأتى امرأته على طُهْرٍ، فحملت بيَحْيَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ ؛ أي قال اللهُ ليَحْيَى بعدَ ما بَلَغَ البلغ الذي يجوزُ أن يخاطَبَ: (خُذِ الْكِتَابَ بقُوَّةٍ) أي اعمل بما في التَّوراةِ بجِدٍّ ومواظبةٍ وعزيْمَةٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي أعطيناهُ الحكمةَ، وهي الفَهْمُ لكتاب الله صَبيّاً، وكان يحيى عليه السلام على هَيْأَةِ الصبيان، ولهُ عقلُ البالغينَ. و قال ابنُ عبَّاس: (وَآتَيْنَاهُ النُّبُوَّةَ فِي صِبَاهُ وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثِ سِنِيْنَ)[1]. وروي أنهُ مَرَّ بالصِّبيانِ وهو صغيرٌ، فقالوا: تَعَالَ نلعبُ، فقال: مَا لِلَّعِب خُلِقْنَا[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ﴾ ؛ أي وآتَيْنَاهُ تَحَنُّناً على قومِهِ، وَرِقَّةَ قلبٍ عليهم؛ ليدعوَهُم إلى طاعة ربهم، وقولهُ (وَزَكَاةً) أي عَمَلاً صالحاً وإخلاصاً، وَقِيْلَ: معناهُ: جعلناهُ طاهراً من الذُّنوب. وَقِيْلَ: معناه: (وَحَنَاناً مِن لَدُنَّا) أي جعلناهُ رحمةً من عندنا لأبويهِ (وَزَكَاةً) أي صدقةً عليهما. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي مُطيعاً مُخلصاً بجميعِ كل ما يرضاهُ الله مِن عبادهِ. قال المفسِّرون: وكانَ من تقواهُ أنه لَم يعمل خطيئةً ولا هَمَّ بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ ؛ أي لَطيفاً بوالديه، مُحسناً إليهما، ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي لَم يكن مُتَكَبراً على مَن في دِينه، ولا عاصياً لربهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ ؛ أي سلامةٌ وسعادة مِنَّا عليه حين وُلِدَ وحين يَموتُ، ﴿ وَيَوْمَ ﴾ ، وحين؛ ﴿ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ من القبرِ. قال عطاءُ: (يُرِيْدُ سَلاَمَةً لَهُ مِنَّا).

قال سفيان بن عُيينة: (أَوْحَشُ مَا يَكُونُ الْخَلْقُ فِي ثَلاَثَةِ مَوَاطِن: يَوْمَ وُلِدَ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجاً مِمَّا كَانَ فِيْهِ، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيَرَى قَوْماً مَا لَمْ يَكُنْ عَايَنَهُمْ، وَأَحْكَاماً لَمْ

---

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٢٤.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٧٣٧).

يَعْهَدْهَا، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى نَفْسَهُ فِي مَحْشَرٍ لَمْ يَرَهُ، فَخَصَّهُ اللهُ بِالْكَرَامَةِ وَالسَّلاَمَةِ وَالسَّلاَمِ فِي الْمَوَاطِنِ الثَّلاَثَةِ)[١].

وعن الحسن: (أَنَّ يَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ الْتَقيَا، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: اسْتَغْفِرْ لِي فَأَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي، وَقَالَ يَحْيَى: اسْتَغْفِرْ لِي فَأَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي، فَقَالَ عِيسَى: بَلْ أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي، أَنَا سَلَّمْتُ عَلَى نَفْسِي، وَأَنْتَ سَلَّمَ اللهُ عَلَيْكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي اذكُرْ يا مُحَمَّدُ في القُرآن خَبَرَ مريَمَ؛ لتعتبرَ الناسُ بدِينها وصلاحِها، والمعنى اذكُرْ خبرَها لأهلِ مكَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى (إِذِ انتَبَذتْ) أي تَنَحَّتْ من أهلِها، وتفرَّدت مِمَّن كانوا معَها في الدار إلى مكانٍ في جانب الشَّرق، جلست فيهِ؛ لأنَّها كانت في الشِّتاء، فجلست في مَشْرَقَةِ الشمس.

وقال عكرمةُ: (أَرَادَتِ الْغُسْلَ مِنَ الْحَيْضِ، فَتَحَوَّلَتْ إلَى مَشْرَقَةِ دَارِهِمْ لِلْغُسْلِ) ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ ؛ أي مِن دون أهلِها سِتْراً لئلاً يروهَا، فَـ؛ بينما هي في مشرقة الدار تغتسلُ من الحيض، ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ ، أي دخلَ عليها جبريل عليه السلام بعد ما فرغت من الاغتسال في صورة شابٍّ أمردَ حسنِ الوجه جَعْدَ الشعر، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ وإنَّما أرسلَ اللهُ جبريلَ في صورة البشرِ؛ لتثبت مريَمَ وتقدرَ على استماعِ كلامه.

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا رَأَتْ مَرْيَمُ جِبْرِيلَ تَقَصَّدَ نَحْوَهَا نَادَتْهُ مِنْ بَعِيدٍ)[٢]، ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي إنْ كنتَ تقيّاً مُخلصاً مطيعاً، فستنتهي لتعوذِي بالله منكَ، وَقِيْلَ: إنَّ تقيّاً كان رجُلاً من أمثلِ الناس في ذلك الزمان، فقالت: إن كنتَ في الصلاحِ مثل التقيِّ، فإنِّي أعوذُ بالرَّحمنِ منكَ،

---

(١) في جامع البيان: مج ٩ ج ١٦ ص٧٤؛ قال الطبري: ((وقد ذكر ابن عيينة في ذلك ما حدثني أحمد بن منصور الفيروزي؛ قال: أخبرني صدقة بن الفضل قال: سمعت أبو عطية يقول: ... وذكره)).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٧٩٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا) أي جبريلَ عليه السلام، خُصَّ بالإضافةِ إلى اللهِ تعالى تشريفاً له، وسُمِّي روحاً؛ لأن الناسَ يَحْيَوْنَ بما جاء في أديانِهم، كما يحيون بأرواحِ أبدانِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ أي لأهبَ لك بأمرِ الله ولداً صالحاً طاهراً من الذنوب. ومن قرأ: (لِيَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً) فالمعنى لِيَهَبَ اللهُ لكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴾ ؛ أي مِن أينَ يكون لِي ولدٌ، ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ ؛ ولَم يقربني زوجٌ، ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ولَم أكن فاجرةً زانية، والباغيةُ هي الطالبةُ للزِّنَى. قال ابنُ عبَّاس: (قَالَتْ مَرْيَمُ لَيْسَ لِي زَوْجٌ، وَلَسْتُ بزَانِيَةٍ، وَلاَ يَكُونُ الْوَلَدُ إلاَّ مِنَ الزَّوْجِ أو الزِّنَى).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ ؛ أي قالَ لَها جبريلُ، كما قلتُ لكِ قالَ ربُّك: ﴿ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ ؛ أي خَلْقُهُ عليَّ هيِّنٌ من غير هاتين الجهتين، كخلقِ آدمَ، لا أبَ ولا أمَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ ؛ أي لنجعلَهُ دلالةً على قدرتِنا ورحمةً للخلقِ، وَقِيْلَ: ورحمةً لِمن اتَّبعَهُ على دِينه وصِدقه وكان خلقهُ، ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي مَحكوماً به مَفروغاً منه، سابقاً في علمِ الله أن يقعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّها لَمَّا سَمعت كلامَ جبريل اطمأنَّتْ إلى قولهِ، فدَنَا منها ونفخَ في جيبها، فوصلت تلك النفخةُ إلى بطنِها فحملت بعيسَى عليه السلام. وَقِيْلَ: نفخَ جبريلُ بها من بعيدٍ فوصلت النفخةُ إليها فحملَتْ. فلما ظهرَ حملُها انْتَبَذتْ أي خرجت وانفردَتْ، وتَنَحَّتْ بولادتِها إلى مكانٍ بعيد من الناسِ. والانْتِبَاذُ: مأخوذٌ من نَبَذْتُ الشيءَ إذا رميتُ بهِ، وجلسَ نُبْذةً أي ناحيةً، والقاصِي والقصِيُّ خلافُ الدَّانِي.

واختلفوا في مُدَّةِ حَملِها، فقال بعضُهم: تسعةُ أشهرٍ كحمل سائرِ النِّساء على ما جرت به العادةُ، وقال: بعضُهم ثمانية أشهرٍ، وكان ذلك آيةً أخرى؛ لأنه لَم يعِشْ

مولودٌ وُضِعَ لثمانيةِ أشهر غيرُ عيسى ﷺ، وقال بعضُهم: ستةُ أشهر، وَقِيْلَ: ثلاث ساعات، وَقِيْلَ: ساعةٌ واحدة.

وقال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (مَا هُوَ إلاَّ أنْ حَمَلَتْ فَوَضَعَتْ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَمْلِ وَالإنْبَاذِ إلاَّ سَاعَةٌ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَذْكُرْ بَيْنَهُمَا فَصْلاً). وقال مقاتلُ: (حَمَلَتْهُ فِي سَاعَةٍ وَصُوِّرَ فِي سَاعَةٍ، وَوَضَعَتْهُ فِي سَاعَةٍ حِيْنَ زَالَتِ الشَّمْسُ مِنْ يَوْمِهَا وَهِيَ بِنْتُ عَشْرِ سِنِيْنَ، وَقَدْ حَاضَتْ حَيْضَتَيْنِ قَبْلَ أنْ تَحْمِلَ بعِيْسَى ﷺ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَكَاناً قَصِيّاً) أي مَكاناً بعيداً. قال ابنُ عبَّاس: (أقْصَى الْوَادِي فِرَاراً مِنْ قَوْمِهَا أنْ يُعَيِّرُوهَا بولاَدَتِهَا مِنْ غَيْرِ زَوْجٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾ ؛ أي الْجَأَهَا، ويقالُ: جاءَ بها وأجَاءَهَا بمعنى واحدٍ، كما يقالُ ذهبَ بهِ وأذهبَهُ. والْمَخَاضُ: وَجَعُ الولادةِ، وَقِيْلَ: تَحَرُّكُ الولدِ للولادة، وَقِيْلَ: الحملُ. وقرأ عبدُالله: (فَآوَاهَا الْمَخَاضُ). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ ؛ وكانت نخلةً يابسة في الصحراءِ ولَم يكن لَها سَعَفٌ أي لا رأسَ لَها، وَقِيْلَ: كان جِذْعاً ميتاً قد أتِي به لبناء بيتٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ أي لَم أخْلَقْ، وَقِيْلَ: شيئاً متروكاً لا يُذكر، والنَّسْيُ في كلام العرب: الشيءُ الحقير الذي إذا أُلْقِيَ نُسِيَ، ولَم يُلْتَفَتْ إليه. قال السديُّ: (إنَّما تَمَنَّتْ مَرْيَمُ الْمَوْتَ اسْتِحْيَاءً مِنَ النَّاسِ، خَافَتِ الْفَضِيْحَةَ)(١).

وَقِيْلَ: للحال الذي دُفِعَتْ إليها من الولادةِ، والصحيحُ: أنَّها إنَّمَا تَمَنَّتْ لعلمِها بأنَّ الناسَ سيرمُونَها بالفاحشةِ فيأثمون بسببِها، فتَمَنَّتْ أن تكون ماتت قبلَ أن تقولَ الناسُ بسببها قولاً يُسْخِطُ اللهَ تعالى. قرأ حمزةُ وحفص (نَسْياً) بفتح النون وهما لُغتان.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٧٨٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي﴾؛ قال ابنُ عبَّاس والسديُّ والضحَّاك وقتادةُ: (إنَّ الْمُنَادِي مِنْ تَحْتِهَا هُوَ جِبْرِيْلُ ﷺ، كَأنَّهُ كَانَ فِي مَكَانٍ أسْفَلَ مِنْ مَكَانِهَا، فَنَادَاهَا ألاَّ تَحْزَنِي يَا مَرْيَمُ عَلَى وِلاَدَةِ عِيْسَى، فَقَدْ أحْسَنَ اللهُ لَكِ الاخْتِيَارَ، وَجَعَلَ تَحْتَكِ سَرِيّاً). قَالَ السديُّ: (هُوَ النَّهْرُ الصَّغِيْرُ، سُمِّيَ سَرِيّاً؛ لأنَّهُ يَسْرِي لِجَرَيَانِهِ)[(١)].

وقال الحسنُ: (هُوَ عِيْسَى، وَهُوَ وَاللهِ السَّرِيُّ مِنَ الرِّجَالِ)[(٢)]. وهذا التأويلُ على قراءةِ مَن قرأ (مِنْ تَحْتِهَا) بكسر الميم والتَّاء، وهي قراءةُ نافع وحمزة والكسائي وحفص، وقرأ الباقون بالفتحِ وهو عيسَى ﷺ لَمَّا خرجَ من بطنِ أمِّهِ ناداها ألاَّ تَحْزَنِي، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾؛أي نَهراً صغيراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (ضَرَبَ جِبْرِيْلُ، وَقِيْلَ: عِيْسَى ﷺ برِجْلِهِ الأَرْضَ فَظَهَرَتْ عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ، وَجَرَى تَحْتَ النَّخْلَةِ، فَحَيَتْ بَعْدَ يُبْسِهَا فَأوْرَقَتْ وَأثْمَرَتْ وَرَطِبَتْ). ومعنى الآية: حَرِّكِي وخُذِي إليكِ جذعَ النخلةِ. والباءُ فيه زائدةٌ، تقولُ العرب: هَزَّهُ وهَزَّ بهِ، وخُذْ بالخطامِ وخُذِ الْخِطَامَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾؛ قرأ يعقوبُ (يُسَاقِطْ) بالياء، يعني الجذعَ، وقرأ حفصٌ بالتاء وضمِّها وتخفيف السِّين وكسرِ القاف. وقرأ حمزةُ (تَسَاقَطُ) بفتح التاء والقافِ مخفَّفاً، وقرأ الباقونَ بفتحِ التاء وتشديد السين؛ أي يَتَسَاقَطُ، فأُدغمت الياءُ في السين. معناهُ: يُسْقِطُ عليكِ النخلةُ، والرطبُ الْجَنِيُّ: هو الْجَنِيُّ من الثمرةِ الرطبة الطريَّة. ونُصب (رُطَباً) على التفسيرِ. ومن قرأ (تُسَاقِطْ) بالضم انتصبَ على المفعول.

---

(١) في كتاب الغريبين: ج ٣ ص٨٩٢: (سرى): قال الهروي: (أي جَدْوَلاً ونَهَراً وسُمِّيَ النهرُ سَرِيّاً؛ لأنَّ الماءَ يَسرِي فيه أي يَمُرُّ جَارياً). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١١ ص٩٤؛ قال القرطبي: (قال الجمهور: أشار لها إلى الجدول الذي كان قريباً من النخلة. قال ابن عباس: كان ذلك نهراً قد انقطع ماؤه، فأجراه الله تعالى لمريم، والنهر يسمى سرياً؛ لأن الماء يسري فيه).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٨٢٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ ؛ أي فكُلِي من الرُّطب، واشرَبي من النهرِ، وقَرِّي عَيْناً بولدِكِ عيسى، وطيبي نفساً؛ أي يقالُ: قَرَّتْ عَيْنُهُ؛ أي بَرَدَتْ بردَ السرور بما ترى، ويقالُ: سَكَنَتْ سكونَ السُّرور برؤيةِ ما تحبُّ، فالأولُ مِن القَرِّ؛ والثانِي من القَرَار. وانتصبَ (عَيْناً) على التفسير الْمُحول، كما يقالُ: طِيْبِي نَفْساً؛ أي طابَتْ نفسُكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ ؛ أي فإما تَرَينَّ من الآدميِّين أحداً، فسألَكِ عن الولدِ أو لاَمَكِ عليه، ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ ؛ أي صَمْتاً، وكذلكَ كان يقرؤُها ابنُ مسعود وأنسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (صَمْتاً؛ أيْ أوْجَبَتْ عَلَى نَفْسِهَا أنْ لاَ تَتَكَلَّمَ)[1].

وقال قتادةُ: (صَامَتْ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْكَلاَمِ) ولِهذا قالَتْ: ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي آدمِيّاً، وكان قد أذِنَ لَها أن تتكلمَ بهذا القدر ثم سكتت. قال ابنُ مسعود ﷺ:(أمِرَتْ بالصَّمْتِ؛ لأنَّهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا حُجَّةٌ عِنْدَ النَّاس فِي شَأنِ وَلَدِهَا، فَأمِرَتْ بالْكَفِّ عَنِ الْكَلاَمِ يَكْفِيْهَا وَلَدُهَا الْكَلاَمَ بمَا يُبْرِئُ سَاحَتَهَا)[2]. وفي الآيَةِ دلالةٌ أنَّ الصمتَ كان قُرْبَةً في زمانِهم، ولولا ذلكَ لَمَا نذرتْهُ مريَمُ، ثم نُسِخَ ذلكَ بنهيِ النبيِّ ﷺ عن صومِ الصَّمت. ويروى أنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ صَمْتِ يَوْمٍ إلَى اللَّيْلِ[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ روي أنَّها أتَتْ بعيسى تحملهُ إلى قومِها بعد أن طَهُرَتْ من نِفَاسِهَا؛ أي بعد أربعينَ يوماً، فتكلَّمَ عيسى في الطريقِ وهو ابنُ أربعينَ يوماً، فقالَ: يا أمَّاهُ أبْشِرِي فإنِّي عبدُ اللهِ ومسيحُهُ، فلما دخلت على قومِها بَكَوا وحزِنُوا، وكانوا أهلَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٨٣١-١٧٨٣٤).

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٠٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم عن حارثة بن مقرب ... وذكره)).

(٣) رواه الدارقطني في السنن: ج ٤ ص١٦٢.

بيتِ صالح، و (قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً) أي مُنْكَراً عظيماً لا يُعْـرَفُ منـكِ، ولا من أهلِ بيتكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّـاس: (هَارُونُ رَجُلٌ صَالِحٌ مِنْ بَنِي إسْـرَائِيْلَ نُسِبَتْ إلَيْـهِ) والمعنَـى: يـا شَـبِيْهَةَ هـارون في العبادةِ. رويَ أن أهلَ الكتاب قالوا: كيفَ يقولـون إنَّ مريـم أختَ هـارون وبينـهُما ستُّمائة سـنةٍ، فذُكِـرَ ذلـك للنبيِّ ﷺ، فقـال: [إنَّـهُمْ كَـانُوا يُسَـمُّونَ باسْـمِ الأَنْبِيَـاءِ وَالصَّالِحِيْنَ][1].

فعلـى هـذا يجـوزُ أنَّ أخـا مريَـم كـان يسـمَّى هـارون. وقـال السـديُّ: (هُـوَ هَارُونُ أخُو مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ، نُسِبَتْ إلَيْهِ؛ لأنَّـهَا مِـنْ وَلَـدِهِ كَمَـا يُقَـالُ يَـا أخَـا بَنِي فُلاَن)[2]. وَقِيْلَ: كان رجُلاً فاسقاً معروفاً بالفِسْقِ فنُسبت إليه. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (مَـا كَانَ أبُوكِ امْرَأ سَوْءٍ) قال ابنُ عبَّـاس: (يُرِيْـدُ زَانِيـاً)، ﴿ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ ﴾ ؛ جِنَّـةً؛ ﴿ بَغِيّٗا ٢٨ ﴾ ؛ أي ما كانت بغيًّا، فمِن أينَ لكِ هذا الولد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ ﴾ ؛ أي أشـارَتْ إلى عيسَـى ﷺ وهـو يرضـعُ بـأن كَلِّمُـوهُ، فَعَجِبُـوا مِـن ذلـك و ﴿ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ ﴾ ؛ أي في الْحِجْرِ رضيعاً، والْمَهْدُ هَهُنَا حِجْرُ أمِّهِ، وَقِيْـلَ: هـو الْمَـهْدُ بعينهِ. قال أبو عبيدةَ: (كَانَ هَهُنَا زَائِدَةٌ لاَ مَعْنَى لَهَا). والمعنىكيفَ نُكَلِّمُ صبياً في المهدِ، ويجوزُ أن تكون (مَنْ) في موضعِ الشَّرط والجـزاء، والمعنـى مَـن يكـن في المـهدِ صبيّـاً فكيفَ نُكَلِّمُهُ، والماضي بمعنى المستقبل في باب الجزاء، ويجوزُ أن يكون (صَبِيّـاً) نُصِـبَ على الحال؛ أي كيفَ نُكَلِّمُ مَن في المهدِ صبياً؛ أي في هذه الحالةِ.

قال السديُّ: (فَلَمَّا أشَارَتْ إلَى عِيْسَى ﷺ غَضِبُوا وَقَالُوا: لَسُخْرِيَتُهَا بنَـا أشَـدُّ مِنْ زِنَاهَا. فَلَمَّا سَمِعَ عِيْسَى كَلاَمَهُمْ، تَرَكَ الرَّضَاعَ وَأقْبَلَ بوَجْهِهِ عَلَيْـهِمْ وَ ﴿ قَالَ إِنِّي

---

(١) رواه مسـلم في الصحيـح: كتـاب الآداب: بـاب النـهي عـن التكـني بـأبي القاسـم: الحديـث (٩/ ٢١٣٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٨٥٢).

عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [1]؛ يعنِي علَّمَني التوراةَ والزبورَ. وقال مقاتلُ: (عَلَّمَهُ اللهُ الإنْجِيْلَ فِي بَطْنِ أمِّهِ) ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ ؛ أي حَكَمَ لِي بالنبوَّةِ في ما مضَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ ؛ أي مُعَلِّماً للخيرِ، نَفَّاعاً ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ ؛ حيثُما كنتُ أدعُوا إلى اللهِ تعالى، وإلى توحيدِهِ وعبادته، ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ ؛ أي أمَرَنِي بإقامةِ الصَّلاة وإيتاءِ الزكاة، ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ ؛ أي وجعلَنِي بَرّاً بوالدتِي. قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا قَالَ عِيْسَى عليه السلام: بوالِدَتِي، عَلِمُوا أنَّهُ شَيْءٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى)، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ ؛ أي متعظِّماً، أقْتُلُ وأضربُ على الغضب، ولا شقيّاً عاصياً لربهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ معناهُ: والسلامُ عَلَيَّ يومَ وُلِدْتُ حتى لَم يضرَّنِي شيطانٌ، وَيَوْمَ أمُوتُ وَيَوْمَ أبْعَثُ حَيّاً من القبرِ.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ للإنسانِ أن يصفَ نفسَهُ بصفاءِ الخيرِ إذا أرادَ تعريفَها إلى غيرِهِ، ولَم يُرِدِ الافتخارَ، وهو مثلُ قولِ يوسفَ عليه السلام للملكِ ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[2]. قال ابنُ عبَّاس: (إنَّمَا كَلَّمَهُمْ عِيْسَى عليه السلام بهَذا الْكَلاَمِ لاَ غَيْرِهِ، ثُمَّ سَكَتَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى بَلَغَ مِقْدَارَ مُدَّةِ مَا يَتَكَلَّمُ الصِّبْيَانُ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ ؛ أي ذلكَ الذي قالَ إنِّي عبدُ اللهِ عيسَى بنُ مريَمَ قَوْلَ الْحَقِّ، مَن قرأ بنصب (قَوْلَ) فالمعنى: قولَ الحقِّ، ومَن رفعَهُ فالمعنى: هو قولُ الحقِّ، أو كلمةُ الحقِّ، والحقُّ هو الحقُّ تعالى. ومعنى قراءةِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٨٥٩).

(٢) يوسف / ٥٥ .

(٣) في الدر المنثور: ج ٩ ص٥٠٩-٥١٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن عساكر عن طريق مجاهد)).

النصب أقولُ قولَ الحقِّ، ﴿ ٱلَّذِى فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي يَشُكُّونَ فيختلفون، فإنَّهم اختلفوا - يعني النصَارَى - فقائلٌ منهم يقولُ: هو اللهُ، وقائلٌ يقولُ: هو ابنُ اللهِ، واليهودُ تقول: وُلِدَ لغيرِ رشدةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۢ ﴾ ؛ أي ما ينبغِي للهِ أن يتخذ ولداً وليس ذلك مِن صفاتهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ ﴾ ؛ أي تنْزيهاً له عن الولدِ والشريك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي كيفَ يَتَّخِذُ ولداً مَن إذا شاءَ أمراً كان كما خلقَ عيسى بلا أبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ هذا إخبارٌ عن عيسى أنهُ قال ذلك. من قرأ بفتحِ الهمزة فالمعنَى: وأوصانِي أنَّ اللهَ ربي وربُّكم، أو قضَى أنَّ اللهَ ربي وربُّكم، ومَن كسرَها فعلى الاستئنافِ، ويجوزُ أن يكون عطفاً على (إنِّي عَبْدُ اللهِ). والصراطُ المستقيمُ هو الدِّينُ المستمرُّ في جهةٍ واحدة، وَقِيْلَ: معناهُ: هذا الذي أخبرَكم أنَّ اللهَ أمرَنِي به هو الطريقُ المستقيم الذي يؤدِّي إلى الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ ﴾ ؛ ويعني بالأحزاب: النصارَى، كانوا أحزَاباً متفرِّقين في أمرِ عيسى عليه السلام، فبعضُهم يقول: اللهُ، وبعضُهم يقولُ: هو ابنُ اللهِ، وبعضُهم يقولُ: ثالثُ ثلاثةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي فَوَيْلٌ لِلَّذِيْنَ تحدَّثوا في عيسَى مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ يشهدهُ الخلائقُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا ﴾ ؛ أي ما أسْمعُهم وما أبصرُهم يومَ القيامةِ؛ أي يشاهدون من الغيب ما يُسْمَعُ ويُبْصَرُ بلا شكٍّ ولا مِرْيَةٍ. قال قتادةُ: (سَمِعُوا حِيْنَ لَمْ يَنْفَعْهُمُ السَّمْعُ، وَأبْصَرُوا حِيْنَ لَمْ يَنْفَعْهُمُ الْبَصَرُ)[1]. وقال

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٨٨٢). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٥١١ح قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم)).

الحسنُ: (لَئِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا عُمْياً وَصُمّاً عَنِ الْحَقِّ، فَمَا أبْصَرَهُمْ وَأسْمَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي لكنَّهم في الدُّنيا في كُفْرٍ بَيِّنٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ ؛ أي خَوِّفْ يا مُحَمَّدُ أهلَ مكَّة يومَ يَتَحَسَّرُ الْمُسِيْءُ هَلاَّ أحسنَ العملَ، والْمُحْسِنُ هلاَّ ازدادَ مِن الأحسنِ. وقال أكثرُ المفسِّرين: يعني الْحَسْرَةَ يومَ يُذْبَحُ الموتُ بين الفريقين، فلو ماتَ أحدٌ فرَحاً لَما ماتَ أهلُ الجنَّة، ولو ماتَ أحدٌ حُزناً لَمَا ماتَ أهلُ النار.

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّار، فَيُقَالُ: يَا أهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذا ؟ فَيُشْرِفُونَ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ؛ هَذا الْمَوْتُ. فَيُقَالُ لأَهْلِ النَّار كَذلِكَ، فَكُلُّهُمْ قَدْ عَرَفَهُ، فَيُذْبَحُ، وَيُقَالُ: يَا أهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بلاَ مَوْتٍ، وَيَا أهْلَ النَّار خُلُودٌ بِلاَ مَوْتٍ] ثُمَّ قَرَأ رَسُولُ اللهِ ﷺ (وَأنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ)(١). قال مقاتلُ: (لَوْلاَ مَا قَضَى اللهُ مِنْ تَخْلِيْدِ أهْلِ النَّار وَتَعْمِيْرِهِمْ فِيْهَا، لَمَاتُواْ حَسْرَةً حِيْنَ رَأوْا ذلِكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إذْ قُضِيَ الأمْرُ) أي قُضِيَ لَهم العذابُ في الآخرة، وهم في الدُّنيا في غفلةٍ. وقال السديُّ: (إذْ قُضِيَ الأَمْرُ؛ أيْ ذُبحَ الْمَوْتُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ فِي الدُّنْيَا عَمَّا يُصْنَعُ بالْمَوْتِ ذلِكَ الْيَوْمِ) ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ بما يصنعُ بالموتِ ذلكَ اليوم.

ويقالُ: معنى قولهِ تعالى (وَأنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ) هو يومُ يأتيهم مَلَكُ الموتِ يقبضُ أرواحَهم، فإذا وقعتِ المعاينةُ قال عندَ ذلك: رَب ارْجِعُونِي، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إذا جَاءَ أحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَب ارْجِعُونِي، لَعَلِّي أعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الرقائق: باب صفة الجنة والنار: الحديث (٦٥٤٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الجنة وصفة نعيمها: باب النار يدخلها الجبارون: الحديث (٤٠/ ٢٨٤٩).

تَرَكْتُ﴾(١) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) أي وَهُمْ في الدُّنيا في غفلةٍ، وهم لا يؤمنونَ بالقُرْآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي نُمِتْ سكَّانَها فنرثُها، وهذا كقولهِ تعالى ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾(٢)؛ لأنَّهم إذا ماتُوا انقطعَ مُلْكُ العبادِ عنِ الأرض. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي بعدَ الموتِ، فنجزيَهم بأعمالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي واذكُرْ في القُرْآنِ لقومِكَ قصَّةَ إبراهيمَ؛ إنهُ كثيرُ التصديقِ بالحقِّ مُوقِناً صَدُوقاً رَسُولاً نبياً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ ؛ أي لِمَ تعبدُ مِن دون الله مَا لاَ يسمَعُ إنْ دعوتَهُ، ولا يُبْصِرُ إن عبدتَهُ، يعني الصنمَ، ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ من عذاب الله، ولا يدفعُ عنك ضرّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ ؛ أي من العِلْمِ باللهِ والمعرفة، وإنَّ مَنْ عبدَ غيرَ الله عَذبَهُ، ﴿ فَٱتَّبِعْنِىٓ ﴾ عَلَى دِينِي ﴿ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي أرشِدُكَ إلى دِينٍ مستقيم.

قولهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ ؛ أي لا تُطِعْهُ فيما زَيَّنَ لكَ من الكفرِ والمعاصي، ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي كثيرَ العصيان للهِ تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ؛ أي عذابٌ مِنَ اللهِ بطاعتك للشيطانِ، ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي قَرِيْناً في النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ ؛ أي قالَ له أبوهُ مُجِيباً له: أمُعْرِضٌ وتاركٌ أنتَ عبادةَ آلِهتي يا ابراهيمُ، ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ ؛ عن

---

(١) المؤمنون / ٩٩-١٠٠ . (٢) الحجر / ٢٣ .

مقالتِكَ، وتسكُتَ عن شَتْمِ آلِهتي وعيبِها، ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ ؛ أي لأرمينَّكَ بالشَّتمِ والعيب، وَقِيْلَ: لأقتلنَّكَ رَجْماً، ﴿ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي تَبَاعَدْ عنِّي دهراً طويلاً.

وقال الحسنُ وقتادة: (مَعْنَى مَلِيّاً؛ أي سالِماً سويّاً مِن قبلِ أن يلحقكَ مكروهٌ منِّي)، وأصلُ الْمَلاَوَةِ الزمانُ الطويل من الدهرِ، يقالُ: أقامَ في موضع كذا مَلِيّاً، والْمَلَوَان: الليلُ والنهارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ ؛ أي قالَ إبراهيمُ لأبيهِ: سَلِمْتَ منِّي لا أصيبُكَ بمكروهٍ، وذلك أنهُ لَم يؤمِن بقتالهِ على كُفرهِ، هذا سلامُ توديعٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾ ؛ أي سأسألُ اللهَ لكَ توبةً تنالُ بها مغفرتَهُ، ويرزقكَ التوحيدَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي لَطِيْفاً رَحِيماً، وَقِيْلَ: عالِماً يستجيبُ لِي إذا دعوتُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي أتنحَّى عنكم وأفارقُكم، وأعتزلُ ما تدعون من دون اللهِ يعني الأصنامَ، فاعتزلَهم وهاجرَ إلى الأرضِ المقدسة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي مَحْرُوماً خَائِباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي فلما خرجَ إلى ناحيةِ الشَّام، وتركَهم وتركَ أصنامَهم آنسْنَا وحشتَهُ بأولادٍ كِرَامٍ على اللهِ تعالى، ووَهَبْنَا لَهم نِعَماً كثيرةً، وأكرمناهم بالثَّناءِ الحسَنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ ؛ أي وهبنا لَهم المالَ والولدُ، وبسَطْنا لَهم في الرِّزق. وقال بعضُهم: يعني الكتابَ والنبوَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي ثناءً حَسَناً في الناس، مرتفعاً سائرًا في الناسِ، فكلُّ أهلِ الْمِلَلِ والأديانِ يُحْسِنُونَ الثناءَ عليهم، ويتولَّون إبراهيمَ ودِينَهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ ﴾ أي واذْكُرْ في القُرْآنِ خَبَرَ موسى إنه كان مُخلصاً للهِ تعالى بالعبادةِ والتوحيد، وكان رسُولاً رفيعاً. ومَن قرأ (مُخْلَصاً) بفتحِ اللام فمعناهُ: أخْلَصْنَاهُ واجبيناهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ ؛ قِيْلَ: إن النداءَ هو قولُ اللهِ تعالى له يا موسى ﴿إنِّي أنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[(١)]، والطُّورُ: هو جبلٌ بالشامِ، نادهُ اللهُ تعالى من ناحيةِ اليُمنى، يعني يَمين موسى، والمعنى أن موسَى سَمع[(٢)] النداءَ عن يَمينـهِ، ولا يكون للجبلِ يَمينٌ ولا يسار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ ﴾ ؛ أي جعلنا محلَّـهُ مِنَّـا، محل مَن قربه مولاهُ من مجلسِ كرامته، والنَّجِيُّ هو المختصُّ بإدراكِ كـلامِ مُكَلِّمِـهِ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (قَرَّبَ اللهُ تَعَـالَى مُوسَـى إلَـى أعْلَـى الْحُجُـب حَتَّـى سَـمِعَ صَرِيْـرَ الْقَلَمِ)[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣ ﴾ وذلكَ حين سألَ موسى رَبَّهُ فقال ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أهْلِي، هَارُونَ أخِي﴾[(٤)] فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ ﴾ ؛ هـو إسماعيلُ بن إبراهيمَ، ومعنى صادِقَ الوعدِ؛ أي أنه كان إذا وَعَدَ أنْجزَ. قال ابنُ عبَّاس: (إنَّهُ وَعَدَ رَجُلاً أنْ يَنْتَظِرَهُ حَتَّى رَجَعَ إلَيْهِ، فَأقَامَ مَكَانَهُ يَنْتَظِرُهُ حَتَّى حَالَ الْحَوْلُ وَرَجَـعَ إلَيْهِ الرَّجُلُ). ﴿ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ ﴾ ؛ إلَى جُرْهُمَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ ؛ قِيْـلَ: أرادَ بـالأهلِ أمَّتَهُ، وأهلَ أمَّتِهِ، ونظـيره ﴿وَأمُـرْ أهْلَـكَ بـالصَّلاَةِ﴾[(٥)] أي قومَـكَ، ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥ ﴾ ؛ أي صَالحاً زكِيّاً.

---

(١) القصص / ٣٠ .

(٢) في أصل المخطوط: (سمي) والصحيح ما أثبتناه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٩٠٩).

(٤) طه / ٢٩-٣٠ . (٥) طه / ١٣٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ اسمُ ادريسَ أخنُوخَ، وهو جدُّ أبي نوحٍ، وسُمي إدريس لكثرةِ دَرْسِهِ الكتبَ، وكان خيَّاطاً وهو أولُ من خطَّ بالقلمِ، وهو أولُ من خاطَ الثيابَ ولبس المخيطَ، وأولُ من نَظَرَ في علمِ النُّجوم والحساب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً) أنزلت عليه ثلاثونَ صحيفةً، وهو أولُ من لَبسَ القطنَ، وكانوا قَبْلَ ذلك يلبسونَ جلود الضَّأن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ رُوي عن أنسِ بن مالك، وأبي سعيدٍ الخدريِّ ومجاهد: (أَنَّهُ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ)[١]، وقال ابنُ عبَّاس والضحَّاك: (إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ). وَقِيْلَ: معناهُ: ورفعناهُ في العلمِ والنبوَّة إلى درجةٍ عالية. وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: [لَمَّا عُرِجَ بي رَأَيْتُ إِدْرِيْسَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ][٢].

وكان سببُ رفعهِ على قولِ ابنِ عبَّاس: (أنهُ سارَ ذات يومٍ في حاجتهِ فأصابَهُ وَهَجُ الشمس، فقال: يا رب إنِّي مشيتُ يوماً واحداً، فكيفَ بمن حملَها خمسمائةَ عامٍ في يوم واحد، اللَّهُمَّ خَفِّفْ عنهُ مِن ثقلِها واحمِلْ عنهُ حرَّها، فلما أصبحَ الملكُ الْمُوَكَّلُ بها وجدَ خِفَّةً في حرِّها بخلافِ ما يعرفُ، فقالَ: يا رب ما الذي قضيتَ ؟ فقال: إنَّ عبدي إدريسَ سألَني أن أخفِّفَ عنكَ حملَها وحرَّها فأجبتهُ، فقال: يا رب اجْمَعْ بيني وبينَهُ صبحةً فأذِنَ له حتى أتى إلى إدريسَ، فسألَهُ عن ذلك فأخبرَهُ أنه دعا له شفقةً عليهِ، ثُم حملَهُ مَلَكُ الشمسِ على جناحِهِ، ورفعه إلى السَّماء بإذنِ الله تعالى).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ ؛ معناهُ: إن الذينَ ذكرتُهم هم الذينَ أكرمَهم اللهُ بالنبوَّة والإسلام من ذريَّة آدمَ، وإنَّما قَرَنَ ذكرَ نَسَبهِمْ مع أنَّ كلَّهم كانوا لآدمَ لِيُبَيِّنَ مراتبَهم في شرفِ النسب، فإنهُ كان

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٩٢٤). وأخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب الإسراء برسول الله ﷺ: الحديث (٢٥٩/ ١٦٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٢٦٠. والترمذي في السنن: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة مريم: الحديث (٣١٥٧).

لإدريسَ شرفُ القُرْب من آدمَ، وكان إبراهيمُ من ذريَّة نوحٍ، وكان إسماعيل واسحقُ من ذريَّة إبراهيمَ، وكان موسى وهارون وزكريَّا ويحيى وعيسَى من ذريَّة إسرائيلَ، فقولهُ: (مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ) يعني إدريسَ ونوح، ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ ؛ في السفينةِ يعني إبراهيمَ؛ لأنه من ولدِ سَامِ بن نوحٍ، ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ؛ يعني إسماعيلَ وإسحق ويعقوبَ، وقوله: ﴿ وَإِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ؛ يعني أنَّ من ذريَّة إسرائيل: موسَى وهارون ومَن ذكرناهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾ ؛ أي هؤلاء كانوا مِمَّن أرشدنا واصطفينا لإداءِ الرِّسالة، ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ؛ التي أنزلت عليهم، ﴿ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي وَقَعُوا يسجدونَ للهِ تعالى، ويبكونَ من مخافةِ اللهِ، والسُّجَّدُ: جمعُ ساجدٍ، والبُكِيُّ جمعُ بَاكٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ ؛ أي فخَلَفَ مِن بعد هؤلاء الأنبياءِ المذكورين والصالحينَ (خَلْفٌ) أي قومُ سُوءٍ وهم اليهودُ والنصارى ومَن لَحِقَ بهم. يقالُ في الرداءةِ: خَلْفٌ بإسكانِ اللام، وفي الصَّلاَحِ: خَلَفٌ بفتحِ اللام.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (أضَاعُوا الصَّلاَةَ) أي أخَّرُوها عن مواقيتِها لغيرِ عُذر، وَقِيْلَ: تَرَكُوها أصلاً. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ) يعني المعاصِيَ وشربَ الخمرِ، واشتغَلُوا بالملذات في ما حُرِّمَ عليهم، وآثَرُوها على طاعةِ الله تعالى. قال وهبٌ: (شَرَّابُونَ الْقَهَوَاتِ؛ لَعَّابُونَ بالْكِعَاب؛ رَكَّابُونَ الشَّهَوَاتِ؛ مُتَّبِعُونَ الْمَلَذاتِ؛ تَارِكُونَ الْجَمَاعَاتِ؛ مُضَيِّعُونَ الصَّلَوَاتِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ مسعودٍ وعطاء: (هُوَ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ بَعِيْدُ الْقَعْرِ)[1]، قال ابنُ عبَّاس: (الْغَيُّ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَسْتَعِيْذُ أوْدِيَةُ جَهَنَّمُ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٢٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه الفريابي وسعيد بن منصور وهناد وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث من طرق)).

مِنَ حَرِّهِ، أُعِدَّ لِلزَّانِي وَشَارب الْخَمْرِ وَآكِلِ الرِّبَا وَأَهْلِ الْعُقُوقِ وَلِشَاهِدِ الزُّور، وَلِامْرَأَةٍ أَدْخَلَتْ عَلَى زَوْجِهَا وَلَداً مِنْ غَيْرِهِ).

وَقِيْلَ: الغَيُّ وَادٍ في جهنَّمَ يسيلُ قيحاً ودَماً أعِدَّ للغاوينَ، فسُمي غَيّاً؛ لأنهُ جزاءُ الْغَيِّ، كما قالَ تعالى ﴿يَلْقَ أثاماً﴾ [1] أي جزاءَ الإثمِ. وقال كعبٌ: (الْغَيُّ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ أَبْعَدُهَا قَعْراً وَأَشَدُّهَا حَرّاً، فِيْهِ بِئْرٌ يُسَمَّى بَهْغَمُ، كُلَّمَا خَبَتْ جَهَنَّمُ فُتِحَ لَهَا بَابٌ إلَى تِلْكَ الْبِئْرِ فَتُسْعَرُ بِهِ جَهَنَّمُ).

قولـه تعـالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ معناه: إلاَّ التائبينَ منهم، ويجوزُ أن يكون نَصْباً استثناءً من غيرِ الأوَّل على معنى لكِنْ مَنْ تابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ولا ينقصونَ من حسناتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ؛ أي بساتينَ إقامةٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (بالْغَيْب) يعني أنَّهم غابُوا عن ما فيها، وانتصبَ قولـهُ (جَنَّاتِ)؛ لأنه بدلٌ من الجنةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي مُوعُودهُ آتِياً كائناً، وإنَّما لَم يقل آتِياً؛ لأن كلَّ ما أتاكَ فقد أتيتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ ؛ أي لا يسمعونَ في الجنَّةِ كَلاماً ساقطاً، ولا يسمعونَ إلاَّ سلاماً، يُسَلِّمُ بعضُهم على بعضٍ، والسَّلاَمُ هو الكلامُ الذي لا لغوَ فيهِ ولا إثمَ. وَقِيْلَ: معناه: لا يسمعونَ في الجنةِ كلاماً بَاطلاً وفحشاءَ وهدرًا وفُضولاً من الكلامِ. وقال مقاتلُ: (يَمِيْناً كَاذِبَةً وَلاَ يَسْمَعُونَ إلاَّ سَلاَماً، يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَيُرْسِلُ إلَيْهِمْ الرَّبُّ بالسَّلاَمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾ ، قال المفسِّرون: ليس في الجنَّةِ بُكْرَةٌ وعشيَّةٌ، ولكنَّهم يؤتون رزقَهم على مقدار ما يعرفون من الغَدَاءِ والعشاءِ، قال قتادةُ: (كَانَ الْعَرَبُ إذا حَصَلَ لأَحَدِهِمْ الْغَدَاءُ وَالْعَشَاءُ أعْجِبَ بهِ، فأخبرَ

---

(١) الفرقان / ٦٨ .

اللهُ تعالى أنَّ لَهم في الجنَّةِ رزْقَهم بكرةً وعشيّاً على قدر ذلك الوقتِ)[١]؛ أي يُجْمَعُ لَهم الطعامُ في هذين الوقتين كما يكونُ في الدُّنيا، ويأكلونَ فيما عدَا هذين الوقتين ما يشتهون كما في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾؛ أي هذه الجنةُ التي وصَفَها اللهُ تعالى هي التي نورثُ من اتَّقَى معصيةَ الله، وعَمِلَ بالطاعةِ والإيْمان. قَوْلُهُ تَعَالَى: (نُورثُ) أي نُعطي، وإنَّما قال (نُورثُ)؛ لأن اللهَ تعالى أوْرَثَهم من الجنةِ مساكنَ أهلِ النار لو اطَّلَعُوا[٢]. وَقِيْلَ: لأنه تَمليكٌ في حالٍ مبتدأ بعدَ انقضاءِ أجَلِ الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾؛ وذلك أن جبريلَ عليه السلام أبْطَأ على النبيِّ ﷺ بالوحيِ، فلمَّا أتاهُ قالَ لهُ: [مَا زُرْتَنَا حَتَّى اسْتَبْطَأْنَاكَ]. وَقِيْلَ: قَالَ لَهُ: [مَا يَمْنَعُكَ يَا جِبْرِيْلُ أنْ تَزُورَنَا أكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا]. فأنزلَ اللهُ عُذْرَ جبريلَ[٣]، والمعنى: قُلْ لهُ وما نَتَنَزَّلُ مِن السَّماء إلاَّ بأمْرِ ربكَ. وَقِيْلَ: اسْتَبْطَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيْلَ، ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ لَهُ: [يَا جِبْرِيْلُ أبْطَأْتَ عَلَيَّ حَتَّى سَاءَ ظَنِّي فَاشْتَقْتُ إلَيْكَ] فقَالَ لَهُ: إنِّي كُنْتُ إلَيْكَ أشْوَقَ، وَلَكِنِّي عَبْدٌ مَأْمُورٌ، إذا بُعِثْتُ نَزَلْتُ، وَإذا حُبِسْتُ احْتَبَسْتُ. فَأَنْزَلَ اللهُ هذه الآيَةَ (وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بأمْرِ رَبكَ)[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي لهُ ما بينَ أيدينا من أمرِ الدُّنيا وما خلفَنا من الآخرةِ، وَمَا بَيْنَ ذلِكَ؛ يعني: ما بينَ النَّفختَين وبينَهُما

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٩٤٢).

(٢) في معالم التنزيل: ص٨٠٧؛ قال البغوي: (يورث عباده المؤمنين المساكنَ التي كانت لأهل النار لو آمنوا).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب تفسير القرآن: باب ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾: الحديث (٤٧٣١).

(٤) في الدر المنثور: ج٥ ص٥٣٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن أنس...) وساق الحديث بلفظ قريب منه، وقال: (أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة... وذكره. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي. وجمع الطبراني الألفاظ للأسانيد الثلاثة).

أربعون سَنةً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي وما كان ربُّكَ ليَتْرُكَكَ، وإن تأخرَ عنك رسولهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ ؛ أي إصبرْ على أمرهِ ونَهْيهِ حتى الموتِ، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي شَبيهاً ومِثْلاً يُعْبَدُ، وَقِيْلَ: هل تَعْلَمُ مَن يستحقُّ الإلهيَّةَ سواهُ، وَقِيْلَ: هل تعلمُ أحداً يُسَمَّى اللهَ غيرَهُ، وَقِيْلَ: هل تعلمُ مِن أحدٍ سُمِّيَ ربَّ السَّمواتِ والأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ الْجُمْحِيُّ، قَالَ هَذا الْقَوْلَ إنْكَاراً لِلْبَعْثِ). وقَوْلُهُ تَعَالَى: (لَسَوْفَ أخْرَجُ حَيّاً) أي أخْرَجُ من القبرِ حيّاً؛ استهزاءً وتكذيباً منه للبعثِ.

قولهُ تعالى: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ قرأ نافعُ وابن عامر وعاصم: (أوَلاَ يَذْكُرُ) بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديدِ وهو الاختيارُ؛ أي أوَلاَ يَتَّعِظُ ويتفكَّرُ، وعلى القراءةِ الأُولى (يَذْكُرُ) بالتخفيفِ ضد النِّسيان، والمعنى: أوَلاَ يَتَّعِظُ الإنسانُ أنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نطفةٍ، ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ موجُوداً، فيُستَدلُّ بالابتداءِ على الإعادة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ ؛ يعني المنكرينَ للبعثِ، أقْسَمَ اللهُ تعالى على نفسهِ لنَحْشُرنَّهُمْ مِن قبورهم مع الشياطين الذين أضَلُّوهم، ﴿ ثُمَّ ﴾ لَنَجْمَعَنَّهُمْ، ﴿ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ بَاركِيْنَ على الرُّكَب؛ لأن المحاسبةَ إنَّما تكونُ بقُرْب جهنَّمَ، يُقْرَنُ مع كلِّ كافرٍ شيطانٌ في سِلْسِلَةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي ثُم لَنُخرجَنَّ مِن كلِّ فرقةٍ وجماعة أيُّهم أشدُّ على الرَّحمن تَمرُّداً وجُرْأةً وفُجُوراً وكُفْراً بدءاً بالأعْتَى فالأعتَى، والأكثرُ جُرماً. قالَ قتادةُ: (الْمَعْنَى: لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ قَرْيَةٍ وَأهْلِ دِيْنٍ قَادَتَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ فِي الشَّرِّ).

والشِّيْعَةُ: الْجَمَاعَةُ المعاونونَ على أمرٍ من الأمور. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أيُّهُمْ) رُفِعَ على الاستثناءِ، و(لَنَنْزِعَنَّ) يعملُ في موضعِ (مِنْ كُلِّ شِيْعَةٍ)، هذا قولُ يونسَ. وقال الخليلُ: على معنى الذين يقالُ لَهم أيُّهم أشدُّ فَلَنُخرِجَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي نحنُ أعلمُ بالأَوْلى بدخولِ النار وشدَّة العذاب، وأحقُّهم بعظيمِ العقاب. والصِّلِيُّ: هو اللُّزُومُ، من قولِهم صَلِيَ بالنار صِلِيّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ؛ اختلَفُوا في الخطاب الذي في أوَّل هذه الآيةِ، قال بعضُهم: هو راجعٌ إلى الكفار؛ لأنه تقدَّمَه قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بهَا صِلِيّاً)، وقالَ الأكثرون: هذا خطابٌ مبتدأً لجميعِ الخلقِ، ودليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ﴾؛ أي نُنْجِي مِن الواردينَ مَنِ اتَّقَى.

ثُم اخْتَلَفَ هؤلاءِ أيضاً في معنى الْوُرُودِ، قال بعضُهم: هو الدُّخُولُ كما في قولِهِ تعالى ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾[(١)] أي أدْخلَهم النارَ، وقالوا: إلاَّ أنَّها تكونُ على المؤمنينَ بَرْداً وسَلاماً، واستدلُّوا بما روى جابرٌ رضي الله عنه: أنَّهُ أهْوَى بيَدَيْهِ إلَى أذُنَيْهِ وَقَالَ: صُمَّتَا إنْ لَمْ أكُنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:[الْوُرُودُ الدُّخُولُ، لاَ يَبْقَى بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ إلاَّ دَخَلَهَا، فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ بَرْداً وَسَلاَماً، كَمَا كَانَتْ عَلَى إبْرَاهِيْمَ، حَتَّى أنَّ لِلنَّار ضَجِيْجاً بوُرُودِهِمْ][(٢)]. وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثلاَثَةُ أوْلاَدٍ لَمْ يَلِجِ النَّارَ إلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ، ثُمَّ قَرَأ: ﴿وَإنْ مِنْكُمْ إلاَّ وَاردُهَا﴾][(٣)].

ومعنى القَسَمِ: أن أولَ هذه الآيةِ فيها إضمارُ القَسَمِ؛ تقديرُهُ: وَاللهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ وَاردُهَا، ورُويَ عن ابنِ مسعود أنهُ قال: [الصِّرَاطُ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ مِثْلُ حَدِّ السَّيْفِ، تَمُرُّ عَلَيْهِ الطَّائِفَةُ الأُوْلَى كَالْبَرْق، وَالثَّانِيَةُ كَالرِّيْحِ، وَالثَّالِثَةُ كَالْجَوَادِ السَّابق، وَالرَّابعَةُ كَأجْوَدِ الْبَهَائِمِ، ثُمَّ يَمُرُّونَ وَالْمَلاَئِكَةُ يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ؛ اللَّهُمَّ سَلِّمْ][(٤)].

---

(١) هود / ٩٨ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٣٢٩. والحاكم في المستدرك: كتاب الأهوال: باب يرد الناس النار ثم يصدرون عنها: الحديث (٨٧٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأيمان والنذور: باب قوله تعالى ﴿وَأقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِمْ﴾: الحديث (٦٦٥٦). ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب فضل من يموت وله ولد: الحديث (١٥٠/ ٢٦٣٢).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: باب شعار المسلمين على الصراط: الحديث (٣٤٧٥)؛=

وعن أبي هريرة: أَنَّهُ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ فَقَالَ: (يَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ مَيْسَرَةُ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ، هَدَاكَ إِلَى الإِسْلاَمِ. قَالَ: أَجَلْ؛ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَ لَنَا أَنَّا لَوَارِدُونَ النَّارَ، وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّا خَارِجُونَ مِنْهَا).

وقال بعضُهم: الورودُ هو الإشرافُ على النار بلا دخول؛ لأن موضعَ المحاسبةِ يكون قريباً من النار، وقد قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾[1] ولَم يكن موسى دَخَلَ الماءَ، واستدلُّوا بما روي أن النبيَّ ﷺ قالَ: [لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى- وَاحِدٌ شَهِدَ بَدْراً أو الْحُدَيْبِيَةَ][2].

وعن مجاهدٍ أنهُ قالَ: (الْحُمَّى حَظُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ النَّار)[3]. فعلَى هذا مَن حَمَّ مِن المسلمينَ فقد وَرَدَهَا، لأن الْحُمَّى مِن فَيْحِ جهنَّم.

وعن رسول اللهِ ﷺ أَنَّهُ عَادَ مَرِيْضاً مِنْ وَعَكٍ كَانَ بهِ، فَقَالَ لَهُ: [أَبْشِرْ؛ إِنَّ اللهَ يَقُولُ: هِيَ نَارِي أُسَلِّطُهَا عَلَى عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّار][4].

قال الزجَّاجُ: (وَالْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ عَلَى أَنَّهُمْ لاَ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ، لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾[5]) وهذهِ حُجَّةٌ لا معارضَ لَها[6].

=وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ورواه مرفوعاً في الرقم (٣٤٧٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ورواه الترمذي مرفوعاً في السنن: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة مريم: الحديث (٣١٥٩)؛ وقال: هذا حديث حسن.

(١) القصص / ٢٣ .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٣٩٦.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٩٨٠). و((النار)) ضبطت من رواية الطبري لأنها سقطت من أصل المخطوط.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٤٤٠. والترمذي في السنن: كتاب الطب: باب تطييب نفس المريض: الحديث (٢٠٨٨). ولفظه كما أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الطب: الحديث (٣٤٧٠).

(٥) الأنبياء / ١٠١ و ١٠٢.

(٦) قاله الزجاج نقلاً عن أبي إسحق، كما في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٢٧٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ الْحَتْمُ: القطعُ بالأمرِ، والمقضيُّ هو الذي قَضَى بأنه يكونُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ ؛ أي الذينَ اتَّقوا الشركَ وصدَّقوا، ﴿ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي وَنَذرُ المشركينَ فيها جِثِيّاً على الرُّكب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ معناهُ: وإذا تُتْلَى على الكفَّار آياتُ القرْآن الْمُنَزَّلَةِ قالُوا ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ ؛ أي الدِّينين، ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ خيرٌ مَسْكناً وخيرٌ مجلساً في الدُّنيا، فكذلكَ يكون في الآخرةِ.

يعني أنَّ مشركي قريشٍ كانوا يقولون لفقراءِ المؤمنين: أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً؛ نُحْنُ أم أنتم؟ والْمَقَامُ والمسكن والمنْزِلُ والنَّدِيُّ والنادي: مجلسُ القومِ ومجتمعُهم، وكانوا يلبسون أحسنَ الثِّياب، ثُمَّ يقولون مِثْلَ هذا للمؤمنين.

فأجابَهم اللهُ تعالى بقولِه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي وكَمْ أهلكنا قبلَ قُريشٍ مِن الأممِ الخاليةِ هُم أحسنُ أموالاً وأحسنُ منظراً، والأثاثُ: المالُ، جَمْعُ الإبلِ والغنمِ والعبيدِ والمتاعِ، وقال الحسنُ: (الأثَاثُ: اللِّبَاسُ، وَالرِّئيُ: الْمَنْظَرُ).

وقُرِئَ (وَرِياً) بغيرِ همزٍ من الرِّيِّ الذي هو ضدُّ العطشِ، والمرادُ: أن منظَرَهم مُرْتَوٍ من النعمةِ كأنَّ النعيمَ بيِّن فيهم؛ لأن الرِّيَّ يتبعهُ الطَّرَاوَةُ، كما أنَّ العطشَ يتبعهُ الذُّبولُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: مَن كان في العمايةِ عن التوحيدِ، ودِين الله فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ؛ أي لِيَزِدْ في مالهِ وعُمره وولدِهِ، ويقالُ: لَيَدَعُهُ اللهُ في طُغيانه حتى إذا وصلَ الآخرةَ لَم يكن لَه فيها نصيبٌ. وهذا اللفظُ أمْرٌ؛ ومعناهُ الخبرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ ؛ يعني الذين مَدَّهُمُ اللهُ في الضلالةِ. وأخبرَ عن الجماعةِ لأنَّ لفظَ (مَنْ) يصلحُ للجماعةِ.

ثُم ذكرَ ما يوعدون، فقال: (إمَّا الْعَذابَ وَإمَّا السَّاعَةَ) يعني القتلَ والأسرَ والقيامةَ والخلود في النار، ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ ؛ أي أهُمْ أم المؤمنونَ؛ لأن مكانُهم جهنمُ، ومكانَ المؤمنين الجنَّةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ هذا ردٌّ عليهم في قولِهم: أيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً، وأحْسَنُ نَدِيّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ ؛ أي يَزيدُهم هذا بالإيْمان والشَّرائع، ويزيدُهم هُدًى بالأدلَّة والحجَج والطاعاتِ التي تَدْعُو إلى الحسناتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُها، سُميت باقياتٍ؛ لبقاء ثوابها للإنسان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ ؛ أي أنفعُ من مقاماتِ الكفَّار التي يفتخرون بها، ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي وأفضلُ مَرْجِعاً في الآخرةِ، وأفضلُ ما يُرَدُّ على صاحبِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾ أنزلت هذه الآيةُ في العَاص بْن وَائِلٍ، قال خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ: (كَانَ لِي دَيْنٌ عَلَى الْعَاصِ ابْنِ وَائِلٍ، فَحَسِبَ دَيْنَهُ مِنْهُ، فَقَالَ: لاَ أقْضِيْكَ حَتَّى تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ، قال: لاَ وَاللهِ؛ لاَ أكْفُرُ بمُحَمَّدٍ حَيّاً وَلاَ مَيْتاً وَلاَ حِيْنَ أبْعَثُ، قَالَ: فَدَعْ مَالَكَ، فَإذا بُعِثْتُ أعْطِيْتُ مَالاً وَوَلَداً وَأعْطِيْكَ هُنَالِكَ - قالَ ذلكَ مستهزءاً - قَالَ: فَذكَرْتُ ذلِكَ لِرَسُول اللهِ ﷺ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

وقال الحسنُ:(نَزَلَتْ فِي الْوَلِيْدِ بْن الْمُغِيْرَةِ)، ومعنَى: لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً: لَئِنْ كَانَ ما يقولُ مُحَمَّدٌ في الآخرةِ حَقّاً لأُعَطَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً فِي الآخِرَةِ. ومَن قرأ (وَوُلْداً) بالضمِّ؛ فمعناهُ واحدٌ، كالْحُزْنِ والْحَزَن، وَقِيْلَ: إنه جمعُ الولدِ كما يقالُ أسَدٌ وَأسْدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي أعَلِمَ ذلكَ غيباً أمْ عَهِدَ اللهُ إليهِ عهداً بما تَمنَّى؟! وقال ابنُ عبَّاس: (وَمَعْنَاهُ: مَا غَابَ عَنْهُ حَتَّى يَعْلَمَ أفِي الْجَنَّةِ هُوَ أمْ لاَ). وقال الكلبيُّ:(أنَظَرَ مَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ).

---

(١) خرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٠١٢). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٥٣٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس)) وذكره بلفظ قريب منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أم اتَّخَذ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً)، قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ أمْ قَالَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ فَأرْحَمُهُ بهَا)[١]. وقال قتادةُ: (اقَدَّمَ عَمَلاً صَالِحاً يَرْجُوهُ)[٢]، ﴿ كَلَّاۚ ﴾؛ أي ليس الأمرُ على ما قال: أنه يولَّي المالَ والولد. ويجوزُ أن يكون معناهُ: كَلاَّ إنَّهُ لَمْ يَطَّلِعِ الْغَيْبَ، وَلَمْ يتَّخذْ عندَ الرحمن عهداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾؛ أي سَنَأمُرُ الْحَفَظَةَ بإثباتِ ما يقولُ لنجازيَهُ بهِ في الآخرة، ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ﴾؛ أي نزيدهُ عذاباً فوق العذاب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾؛ أي نَرثُهُ المالَ والولدَ بعد إهلاكنا إياهُ، فلا يعودُ بعد ذلكَ إليه، كما لا يعودُ المال إلى مَن خَلْفَهُ بعد موته، ﴿ وَيَأْتِينَا ﴾؛ في الآخرةِ، ﴿ فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾؛ أي وَحِيْداً خالياً من المالِ والوَلَدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾؛ أي واتَّخَذ أهلُ مكة مِن دون اللهِ أصناماً آلِهَةً؛ ليكونوا لَهم أعْوَاناً وشُفعاء في الآخرةِ. والعِزُّ: الامتناعُ من الضمِّ، فَهُمُ اتخذوا هذه الآلهةَ؛ ليصيروا بها إلى العزِّ في زَعْمِهِمْ فلا يصيبُهم سوءٌ، وذلك أنَّهم رَجَوا منها الشفاعةَ والنُّصرةَ والمنعَ من عذاب الله.

قولهُ: ﴿ كَلَّاۚ ﴾؛ أي لا يَمنعُهم منِّي شيءٌ، ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾؛ أي يَجْحَدُ الآلِهَةُ عبادةَ المشركين لَها كما قالوا: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾؛ أي يصيرون أعوَاناً عليهم يكذِّبونَهم يلعنونَهم يتبرَّأون منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾؛ أي ألَم تَعْلَمْ أنَّا خَلَّيْنَا بينَ الشياطين والكفار وسلطانِهم عليهم، فلَمْ نعصم الكفارَ من القبول[٤] منهم، وتسمَّى التخليةُ إرسالاً في سَعَةِ اللغة. قَوْلُهُ تَعَالَى: (تَؤُزُّهُمْ أزّاً) أي

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٣٦؛ قال السيوطي: ((ابن أبي حاتم)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٠١٧٠) بلفظ: ((بعملٍ صالح قدَّمه)).

(٣) القصص / ٦٣.

(٤) في المخطوط: (القبور) وهو تصحيف والصحيح كما أثبتناه.

تُزعِجُهم إلى معصيةِ الله تعالى إزعاجاً، وتغريهم إغراءً. وقال القتيبيُّ: (تُحَرِّكُهُمْ إلَى الْمَعَاصِي). وأصلهُ الحركةُ والغَلَيانُ، ومنهُ الحديث المرويُّ: [وَلِجَوْفِهِ أزِيْزٌ كَأزِيْزِ الْمِرْجَلِ][(1)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي لا تَعْجَلْ بمسألة إهلاكهم، ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي نَعُدُّ أنفاسَهم نَفَساً بعد نَفَسٍ، كما نَعُدُّ أيَّامَهم وآجالَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي اذكُرْ لهم يا مُحَمَّدُ اليومَ الذي نجمعُ فيه مَن اتَّقى اللهَ في الدُّنيا؛ أي اجتنبَ الكبائرَ والفواحش إلى دار الرَّحْمَنِ؛ وهي موضعُ الكرامةِ والثواب. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَفْداً) أي رُكْبَاناً، قال ابنُ عبَّاس: (يُؤْتَوْنَ بنُوقٍ لَمْ تَرَ الْخَلاَئِقُ مِثْلَهَا، عَلَيْهَا رحَالُ الذهَب وَأزِمَّتُهَا الزُّبُرْجُدُ، فَيَرْكَبُونَ عَلَيْهَا حَتَّى يَقْرَبُوا أبْوَابَ الْجَنَّةِ)، وإنَّما وحَّدَ الوفدَ لأنه مصدرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ أي يحثُّهم على السيرِ إلى جهنم، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي عَطَاشَى مشاةً حفاة عُراةً قد تقطَّعت أعناقُهم من العطشِ، والوِرْدُ: الجماعةُ التي تَرِدُ الماءَ، ولا يردُ أحدٌ الماءَ إلاَّ بعدَ العطشِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ ﴾ ؛ أي لا يقدرون على الشفاعةِ، ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي لكن مَن اتَّخذ عند الرحمن عهداً وهم المؤمنون، فإنَّهم يَملكون الشفاعةَ. قال ابنُ عبَّاس: (شَهَادَةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ). و (مَنْ) في موضعِ نصبٍ على الاستثناء المنقطعِ. قال ابنُ عبَّاس: (لاَ يَشْفَعُ إلاَّ مَنْ قَالَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَتَبَرَّأ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إلَيْهِ، وَلاَ يَرْجُو إلاَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ).

وعن ابن مسعودٍ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ ذاتَ يَوْمٍ: [أيَعْجَزُ أحَدُكُمْ أنْ يَتَّخِذ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ عِنْدَ اللهِ عَهْداً ؟!] قَالُوا: كَيْفَ ؟ قَالَ: يقولُ: [اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، إنِّي أعْهَدُ إلَيْكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بأنِّي أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ أنْتَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيْكَ لَكَ، وَأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، وَأنَّكَ إنْ تَكِلْنِي

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الصلاة: الحديث (٩٠٤). والنسائي في السنن: كتاب السهو: باب البكاء في الصلاة: ج ٣ ص١٣ وتقدم تخريجه وإسناده حسن.

إلَى نَفْسِي، تُقَرِّبْنِي مِنَ الشَّرِّ وَتُبَاعِدْنِي مِنَ الْخَيْرِ، وإنِّي لاَ أثِقُ إلاَّ برَحْمَتِكَ، فَاجْعَلْهُ لِي عَهْداً تُوَفِّينَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيْعَادَ. فَإذا قَالَ ذلِكَ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهِ بطَابَعٍ وَوُضِعَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، نَادَى مُنَادٍ: أيْنَ الَّذِيْنَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ](1).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) ﴾ ؛ أي قالَ المشركون: الملائكةُ بناتُ اللهِ، وقالت النَّصارَى: المسيحُ ابنُ اللهِ، وقالتِ اليهودُ: عزيرٌ ابنُ الله. يقالُ لَهم: (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إدّاً) أي مُنكراً عظيماً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ ؛ أي يَتَشَقَّقْنَ من عِظَمِ هذا القول، ﴿ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ﴾ ؛ فتَصَـدَّعُ، ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) ﴾ ؛ أي يسقطُ بعضُها على بعضٍ بشدَّة صوتٍ، بأن سَمَّوا، ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) ﴾ ؛ قرأ أهلُ الحجـاز والكسائي: (يَتَفَطَّـرْنَ) بالتاء مشدَّدةً، وقرأ نافعُ (يَكَادُ) بالياء لتقدُّمِ الفعل. قال المفسرون: اتخذ الرحمـنُ ولـداً، اقشَعَرَّتِ الأرضُ، وغضبت الملائكةُ، واَسْعِرَتْ جـهنمُ، وفَزِعَـتِ السـمواتُ والأرض والجبالُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ أي ما مِن أحدٍ في السَّموات والأرضِ إلاّ سيأتِي الرحمـنَ مُقِـرّاً بالعبوديـة، ويأتيـهِ يـومَ القيامة عَبْداً ذليلاً. يعني أن الخلقَ كلَّهم عبيدهُ، وأن عيسى والعُزَيْرَ مِن جملة العبيدِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) ﴾ ؛ أي لقـد عَلِـمَ عددَهـم وأفعالَهم، ولا يخفَى عليه شيءٌ منهم مـع كثرتِـهم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ ؛ لا أنْصَارَ لَهم ولا أعـوانَ ولا مـالَ ولا ولـد، كـلٌّ امـرِيءٍ مشغولٌ بنفسه لا يهمُّهُ غيرهُ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير: الحديث (٨٩١٨). والحاكم في المستدرك: كتاب تفسـير القـرآن: بـاب تفسير آية ﴿إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾: الحديث (٣٤٧٨)؛ وقال: هذا صحيح الإسـناد ولم يخرجاه. وفي مجمعَ الزوائد: ج ١٠ ص٨٤؛ قال الهيثمي: ((فيـه المسـعودي وهـو ثقـةٌ ولكنـه قـد اختلط وبقية رجاله ثقات)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾؛ أي يُحِبُّهُمْ في الدُّنيا، ويُحَبِّبُهُمْ إلى عبادِهِ المؤمنين من أهلِ السَّموات وأهلِ الأرضين. وعن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [إذا أحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا جِبْرِيْلُ إنِّي قَدْ أحْبَبْتُ فُلاَناً فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيْلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أهْلِ السَّمَوَاتِ: إنَّ اللهَ قَدْ أحَبَّ فُلاَناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي الأَرْضِ. وَإذا أبْغَضَ الْعَبْدَ قَالَ مِثْلَ ذلِكَ. وَمَا أقْبَلَ عَبْدٌ بقَلْبهِ عَلَى اللهِ إلاَّ أقْبَلَ اللهُ بقُلُوب الْمُؤْمِنِيْنَ إلَيْهِ حَتَّى يَرْزُقَهُ اللهُ مَوَدَّتَهُمْ وَمَحَبَّتَهُمْ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾؛ أي يَسَّرْنا قراءةَ القُرْآن على لسانِكَ، ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي بالقُرْآن؛ ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ أي قَوْماً ذوي جَدَلٍ بالباطلِ، واللُّدُّ جَمْعُ الأَلَدِّ: شَدِيْدُ الْخُصُومَةِ، نظيرهُ الأَصَمُّ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾؛ أي كَمْ أهلكنا يا مُحَمَّدُ قبلَ قومِكَ من قرونٍ ماضية، ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾؛ أي هل تَرَى منهم مِن أحدٍ؟ ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾؛ أي صَوتاً.

والإحساسُ مأخوذٌ من الْحِسِّ، يقالُ: هل أحْسَسْتَ فُلاناً؛ أي هل رأيتَهُ. والرِّكْزُ: هو الصوتُ الْخَفِيُّ الذي لا يُفْهَمُ، ومنهُ الرِّكَازُ: وهو الْمُغَيَّبُ في الأرضِ.

قال الحسنُ في معنى الآية: (ذهَبَ الْقَوْمُ فَلاَ يُسْمَعُ لَهُمْ صَوْتٌ). وقال قتادةُ: (مَعْنَاهُ: هَلْ تَرَى مِنْ عَيْنٍ أوْ تَسْمَعُ مِنْ صَوْتٍ).

وعن أُبَيِّ بنِ كعب عن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ مَرْيَمَ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَمَرْيَمَ وَعِيْسَى وَهَارُونَ وَإبْرَاهِيْمَ وَإسْمَاعِيْلَ

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الآداب: باب المحبة من الله: الحديث (٦٠٤٠). ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب إذا أحب الله عبداً: الحديث (١٥٧/ ٢٦٣٧).

(٢) في المخطوط: (نظيره الأصم والأصم) فهو إما سهو من الناسخ، أو أنه أراد أن يقول: (والألَدُّ هو الأصمُّ عن الحقِّ).

وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَإِدْرِيسَ، وَبعَدَدِ مَنْ كَذبَهُمْ، وَبعَدَدِ مَـنْ دَعَـا للهِ وَلَـداً، وَبعَـدَدِ مَـنْ وَحَّدَ اللهَ تَعَالَى](١).

آخر تفسير سورة (**مريم**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٦ ص٢٣٥، وإسناده واهٍ.

سُورَةُ طَـه

سُورَةُ طه مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسَـةُ آلاَفٍ وَمِائَتَـان وَاثْنَـان وَأرْبَعُـونَ حَرْفـاً، وَألْـفٌ وَثَلاَثُمِائَةٍ وَإحْدَى وَأرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَمِائَةٌ وَخَمْسٌ وَثَلاَثُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طه ۝١ ﴾ ؛ قرأ أبو عمرٍو ووَرْشٌ بفتحِ الطَّاء وكسرِ الْهَاء، وقرأ حمزةُ والكسائي وخَلَفٌ بكسرِ الطَّاء والْهَاء، وقـرأ البـاقون بـالتفخيمِ فيـهما. واختلفـوا في معناهُ، فقالَ أكثرُ المفسِّرين: إنَّ معناهُ: يا رَجُلُ؛ يعني النبيَّ ﷺ وهـو قـولُ ابـن عبَّـاس والحسن وعكرمة وابن جُبير والضحَّاك وقتادة ومجـاهد[1]، إلاَّ أن عكرمـةَ قـال: (هُـوَ بلِسَانِ الْحَبَشَةِ)[2]، وقال قتادةُ: (إنَّمَا يَقُولُ هَذِهِ اللُّغَةَ أهْلُ السِّرْيَانِيَّةِ[3]).

وروَى السُّدِّيُّ عن أبي مَلَكٍ معنى قولهِ طه: (يَـا فُـلاَنُ)، قـال الكلـبيُّ: (بلُغَـةِ عَكٍّ: يَا رَجُلُ)[4]، قال ابنُ الأنباريِّ: (وَلُغَةُ قُرَيْشٍ وَافَقَتْ تِلْكَ اللُّغَةَ أيْضـاً فِـي هَـذا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٨٠٧٦-١٨٠٨٢). والسيوطي في الـدر المنثـور: ج ٥ ص٥٥٠.

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٥٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميـد وابـن أبـي حاتم عن عكرمة... وذكره).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٠٨١).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: مج ٩ ج ١٦ ص١٧١؛ قـال: (معنـاه: يـا رجـل؛ لأنـها كلمـة معروفة في عَكٍّ فيما بلغني، وأن معناها فيـهم: يـا رجـل). وفي الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١١ ص١٦٥ نقله القرطبي عن الكلبي قال: (لو قلت في عكٍّ لرجـل يـا رجـل لم يجـب حتـى تقـول: طه).

الْمَعْنَى؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُخَاطِبْ نَبِيَّهُ إلاَّ بلِسَانِ قُرَيْشٍ. قَالَ الشَّاعِرُ[1]:

إنَّ السَّفَاهَةَ طَهَ فِي خَلاَئِقِكُمْ ... لاَ قَدَّسَ اللهُ أرْوَاحَ الْمَلاَعِيْنِ

يريدُ: يا رجلُ، وقال آخرُ:

هَتَفْتُ بطَهَ فِي الْقِتَالِ فَلَمْ يُجِبْ ... فَخِفْتُ عَلَيْهِ أنْ يَكُونَ مُوَائِلاَ[2]

وقُرئ (طَهْ) بتسكين الْهَاء، ولهُ معان؛ أحدُها: أن تكون الْهاءُ بدلاً من همزةِ الطَّاء كقولِهم في: أرَقْتُ هَرَقْتُ. والآخرانِ: أن يكون على تركِ الهمزة طَا يا رجلُ بقدمِكَ الأرضَ، ثم يدخلُ الْهاءُ للوقفِ، فإنه رُويَ: [أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ يَجْتَهدُ فِي صَلاَةِ اللَّيْلِ بمَكَّةَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَكَانَ إذا صَلَّى رَفَعَ رجْلاً وَوَضَعَ أخْرَى، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (طَهَ) أيْ طَأ الأَرْضَ بقَدَمِكَ[3].

وقال بعضُهم: أولُ السُّورة قَسَمٌ؛ أقْسَمَ اللهُ بطولِهِ وهدايته. وقال بعضُهم: الطاءُ من الطَّهارةِ، والْهاءُ من الهدايةِ، كأنهُ تعالى قالَ لنبيِّه ﷺ: يَا طَاهِراً مِنَ الذُّنُوب، وَيَا هَادِياً إلَى عَلاَّمِ الْغُيُوب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي لِتُجْهدَ نفسكَ وتتعبَ، وذلك أنه لَمَّا نزلَ عليه الوحيُ اجتهدَ في العبادةِ، حتى أنه كان يُصلِّي على إحدى رجْلَيْهِ لشدَّة قيامهِ وطولِه، فأمرَهُ اللهُ أن يُخَفِّفَ على نفسهِ، وذكرَ له أنهُ ما أنزلَ عليه القُرْآنَ ليتعبَ ذلك التعبَ، ولَم يُنْزلْهُ، ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ قال مجاهدُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِسَبَب مَا كَانَ يَلْقَى النَّبيُّ ﷺ مِنَ التَّعَب وَالسَّهَرِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ).

---

(١) قاله يزيد بن المهلهل.

(٢) نسبه الطبري في جامع البيان: ج ٩ ص١٧١ لمتمم بن نويرة.

(٣) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٥٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن المنذر وعبد بن حميد عن الربيع بن أنس)). وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٥١. وابن ماجة في السنن: كتاب الصلاة: باب ما جاء في طول القيام: الحديث (١٤١٩).

وقال الحسنُ: (هَذا جوَابٌ لِلْمُشْرِكِيْنَ، وَذلِكَ أنَّ أبَا جَهْلٍ وَالنَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ قَالاَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: وَإنَّكَ لَتَشْقَى، لِمَا رَأواْ مِنْ طُول عِبَادَتِـهِ وَشِـدَّةِ اجْتِـهَادِهِ، فَقَـالَ ﷺ: [بُعِثْتُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ] قَالُوا: بَلْ أنْتَ شَقِيٌّ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (مَا أنْزَلْنَا عَلَيْـكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) وَلَكِنْ لِتَسْعَدَ وَتَنَالَ الْكَرَامَةَ بِهِ في الدُّنيا والآخرةِ).

والشَّقَاءُ في اللغة: احمرارُ ما شُقَّ على النفْسِ من التعب. قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ ؛ نُصِبَ على المصـدر؛ أي نَزَّلْنَـاهُ تَـنْزِيلاً. والعُلَى: جمع العَلْيَاءِ.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى:﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ وقـــد تقـــدَّم تفسـيرهُ. قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى:﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي له ما لهُ في السَّموات وما في الأرضِ، وما بينَـهما مـن الخلـقِ، معناهُ: أنهُ مَالِكُ كلِّ شيءٍ ومُدبرُهُ، و قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا بَيْنَهُمَا) يعني الهواءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) أي وما تحتَ التُّراب. والمفسِّرون يقولـون هـو الترابُ النديُّ الذي تحتَ الأرضِ السُّفلى، وَقِيْلَ: تحتَ الصخرةِ التي عليها الثورُ، ولا يعلمُ ما تحتَ الثَّرى إلاّ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: ما حاجتُكَ إلى الجهرِ، فإن اللهَ لا يحتاجُ إلى جـهرِكَ لِيَسْـمَعَ، فإنـه تعـالَى يَعْلَـمُ السِّـرَ وَأخفَى منهُ. قال ابنُ عبَّاس: (السِّرُّ مَا أسْرَرْتَ بِـهِ فِـي نَفْسِـكَ، وَأخْفَـى مِنْـهُ مَـا لَـمْ تُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَكَ مِمَّا يَكُونُ فِي غَدٍ، عِلْمُ اللهِ فِيْهِمَا سَوَاءٌ)[1] وَالتَّقْدِيْرُ: وَأخفَـى مِنْـهُ، إلاّ أنهُ حُذِفَ للعلمِ بهِ.

وعن سعيدِ بن جُبير قال: (السِّرُّ مَا تُسِرُّهُ فِي نَفْسِكَ، وَأخْفَى مِنْهُ مَـا لَـمْ يَكُـنْ وَهُوَ كَائِنٌ، فَاللهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا خَفِيَ عَنِ ابْنِ آدَمَ مِمَّا هُـوَ فَاعِلُـهُ قَبْـلَ أنْ يَفْعَلَـهُ)[2].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٠٩٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٠٩٥-١٨٠٩٦).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي له الصفاتُ العليا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ هذا استفهامُ تقريرٍ بمعنى الخبرِ، يريدُ: قد أتاكَ حديثُ موسى، ﴿ إِذْ رَأَىٰ نَارًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس:(كَانَ مُوسَى عليه السلام رَجُلاً غَيُوراً لاَ يَصْحَبُ الرُّفْقَةَ؛ لِئَلاَّ يَرَى أحَدٌ امْرَأتَهُ، فَأَخْطَأَ الطَّرِيْقَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، فَرَأى نَاراً مِنْ بَعِيْدٍ). ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴾ ؛ أي قالَ لامرأتهِ: أقيموا مَكَانَكُمْ، ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ ؛ أي رأيتُها وأبصرتُها، ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ ؛ أي بشُعلةٍ، ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي مَن يدلُّني على الطريقِ. قال الفرَّاء: (أرَادَ هَادِياً، فَذكَرَ بلَفْظِ الْمَصْدَرِ)[1]. قال السديُّ: (لأنَّ النَّارَ لاَ تَخْلُو مِنْ أهْلٍ لَهَا وَنَاسٍ عِنْدَهَا).

كانت رؤيتهُ للنار في ليلةِ الجمعة، وكان قد استأذنَ شُعيباً عليه السلام في الرجوعِ إلى والدتهِ فأذِنَ لهُ، فخرجَ بامرأتهِ، فولدت في الطريقِ في ليلةٍ باردة مثلجة، وقد حادَ عن الطريقِ، فقدحَ فلم يرَ نورَ المقدحة شيئاً، فبينما هو في مداولةِ ذلك إذ أبصرَ ناراً عن يسار الطريق، فقال لامرأتهِ: امْكُثُوا - أي أقِيمُوا مكانكم - إنِّي أبصرتُ ناراً، لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بقَبَسٍ، أوْ أجِدُ عَلَى النَّار مَن يدلُّني على الطريقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي فلمَّا أتى النارَ أي شجرة خضراءَ من أسفلها إلى أعلاها كأنَّها نارٌ بيضاءُ تتَّقِدُ، فسمِعَ تسبيحَ الملائكة، ورأى نُوراً عظيماً، فخافَ وتعجَّبَ، وأُلقِيَتْ عليه السكينةُ، ثُم نودي يا موسى، ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ ؛ وإنَّما كرَّرَ الكنايةَ؛ لتوكيدِ الدلالة، وإزالة الشُّبهة، وتحقيقِ المعرفة. قُرِئَ (إنِّي أنْ رَبُّكَ) بفتحِ الهمزة وكسرِها، فمن فتحَ فعلى معنى بأنِّي، ومَن كسرَ فعلى معنى الابتداء.

قال وهبُ:(نودي من الشجرةِ، فقيل: يا موسى، فأجابَ سريعاً لا يدري مَن دعاهُ، فقال: إنِّي أسمعُ صوتَكَ فلا أرى مكانكَ، فأين أنتَ؟ قال: أنا فوقكَ ومعك

---

(١) ينظر: معاني القرآن: ج ٢ ص١٧٥.

وأمامكَ وخلفك وأقربُ إليك من نفسك، فعَلِمَ أن ذلك لا ينبغي إلاّ لربهِ عزَّ وَجَلَّ، فأيقنَ به)(١). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (إنَّمَا أمِرَ بخَلْعِ نَعْلَيْهِ لِيَنَالَ قَدَمَاهُ بَرَكَةَ الْوَادِي الْمُقَدَّس، وَيُبَاشِرَ تُرَابَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ بقَدَمِه، فَيَنَالُهُ بَرَكَتُهَا) وقَوْلُهُ تَعَالَى: (الْمُقَدَّسِ) أي الْمُطَهَّرِ. قال عكرمةُ: (كَانَتْ نَعْلاَهُ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيْتٍ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ المقدَّس: هو المطهَّر، وَقِيْلَ: المباركُ، ولا يستدلُّ بما قالَهُ عكرمةُ على أنَّ جلودَ الميتة لا تَطْهُرُ بالدِّباغ؛ لأنه إنْ كانَ كذلك فهو منسوخٌ بقولهِ ﷺ: [أيَّمَا إهَابٍ دُبغَ طَهُرَ](٣). قَوْلُهُ تَعَالَى: (طُوًى) هو اسم الوادي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي اخترْتُكَ للرسالة؛ لكي تقومَ بأمري، فاستمِعْ لِما يوحَى إليك، فاحفظْهُ حتى تؤدِّيَهُ للناسِ. وقرأ حمزةُ: (وإنَّا اخْتَرْنَاكَ) بالتشديدِ في (إنَّا) على التعظيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ ؛ ولا تعبُدْ غَيري ظاهرُ المعنى، ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي لتَذْكُرَنِي بها بالتسبيحِ والتعظيم كذا قال مجاهدُ والحسن، وَقِيْلَ: لأَنْ أذكُرَكَ بالثناءِ والمدح، وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: إذا نَسِيْتَ الصَّلاَةَ، فَأَقِمْهَا إذا ذكَرْتَهَا)، قال ﷺ: [مَنْ تأَخَّرَ عَنْ صَلاَةٍ أوْ نَسِيَهَا؛ فَلْيُصَلِّهَا إذا ذكَرَهَا، فَإنَّ ذلِكَ وَقْتُهَا] ثُمَّ قَرَأ (وَأقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي)(٤).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٥٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم)).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨١١٢).
(٣) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الحيض: الحديث (١٠٥/ ٣٦٦). وأبو داود في السنن: كتاب اللباس: باب في أهب الميتة: الحديث (٤١٢٣).
(٤) تقدم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أنَّ الْقِيَامَةَ كَائِنَةٌ أكَادُ أخْفِيهَا عَنْ نفْسِي، فَكَيْفَ أظْهرُهَا لِغَيْرِي)، قال الْمُبَرِّدُ: (هَذا عَلَى عَادَةِ مُخَاطَبَةِ الْعَرَب؛ يَقُولُونَ إذا بَالَغُوا فِي كِتْمَانِ السِّرِّ: كَتَمْتُهُ مِنْ نَفْسِي؛ أيْ لَمْ أطْلِعْ عَلَيْهِ أحَداً).

والمعنى: أنَّ اللهَ تعالى بَالَغَ في إخفاءِ السَّاعةِ، فذكَرَهُ بأبلغِ ما تعرفُ العرب. قال قتادةُ: (هِيَ فِي بَعْضِ الْقِرَاءَةِ: أكَادُ أخْفِيْهَا مِنْ نَفْسِي، وَلَعَمْرِي لَقَدْ أخفَاهَا اللهُ عَنِ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبيْنَ وَالأَنْبيَاءِ وَالْمُرْسَلِيْنَ، وَفِي مُصْحَفِ أبَيٍّ وعَبْدِاللهِ: أكَادُ أخْفِيْهَا مِنْ نَفْسِي، فَكَيْفَ يَعْلَمُهَا مَخْلُوقٌ؟).

ومعنى الآية: أكَادُ أخْفِيْهَا عن عبادي؛ كَي لا تأتيَهم إلاّ بَغْتَةً، والفائدةُ في إخفائِها عن العبادِ: التهويلُ والتخويف، وفي ذلك مصلحةٌ لَهم؛ لأنَّهم إذا لَم يعلموا متى قيامُها كانوا على حَذرٍ منها في كلِّ وقتٍ، خائفين من الموتِ، مستعدِّين لذلكَ بالتوبةِ والطاعة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي بسَعْيِهَا، إما الثوابُ وإما العقابُ. وقرأ الحسنُ وابن جبير: (أَكَادُ أخْفِيْهَا) بفتحِ الهمزة؛ أي أظْهِرُهَا وَأبْرزُهَا، يقالُ: خَفَيْتُ الشَّيْءَ إذا أظهرتهُ، وأخفيتهُ إذا سَتَرْتُهُ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ ؛ أي فلا يَصْرِفَنَّكَ عن الإيْمان بالسَّاعة مَن لا يصدِّقُ بها، ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ بالإنكار ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي فتهْلَكَ، وهو خطابٌ لِموسى ، ونَهيٌ لسائرِ المكلَّفين. والصَّدُّ: هو الصَّرْفُ عن الخيرِ، يقالُ: صَدَّهُ عن الخير، وصَدَّهُ عن الإيْمان، ولا يقالُ: صَدَّهُ عن الشَّرِّ، ولكن يقالُ: صَرَفَهُ عن الشرِّ ومَنَعَهُ عنهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي وما التي بيمِينِكَ يا موسى؟ ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا ﴾ أي أعتمدُ عليها إذا أعْيَيْتُ، وإذا

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري: ج ٩ ص١٨٨.

مَشَيْتُ، فلفظُ أوَّل الآية استفهامٌ؛ ومعناه: التقريرُ علــى المخـاطَب، أن الـذي في يـدهِ عصا؛ لكيلا تَهولهُ صارت ثُعباناً.

وَقِيْلَ: كان الغرضُ بهذا السُّؤال إزالةُ الوحشــةِ منـه؛ لأن موسَـى كـان خائفـاً مُستوحشاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ ؛ أي أخْبطُ به الشجرَ؛ ليتنـاثرَ وَرَقُهُ فيأكلهُ غَنَمِي. وقرأ عكرمةُ: (وَأهُسُّ) بالسِّين، يعني أزْجُرُ بها الغنــمَ، وذلـكَ أنَّ العربَ تقولُ: هَسَّ وقَسَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي حوائجُ أخرى، تقولُ: لا إرَبَ لِي في هذا؛ أي لا حاجةَ لِي فيه، واحدُ الْمَآرب مَأْرُبَةٌ بضـمِّ الـراء وكسـرها وفتحها، وإنَّما لَم يقل: أخَرَ؛ لأجلِ رُؤوسِ الآي.

قـال ابـنُ عبَّـاس: (كَـانت مَآربُـهُ أنـه إذا ورد مـاء قصـر عنـه رشـاؤه وصلـه بالْمِحجنِ، ثم أدلَى العصا وكان في أسفلِها عكَّازةٌ يقاتلُ بها السباعَ، وكان يُلقي عليها كسائهُ يستظلُّ تحتَها، ومن مآربهِ أيضاً أنـه كـان اذا أرادَ الاستسـقاءَ مِـن بئرٍ أدلاهـا، فطالَتْ على طولِ البئر، فصارت شُعبتاها كالدَّلو، وكان يظهرُ على شعبَتَيها الشَّمعتين بالليلِ- يعني: يضيءُ لهُ مد البصرِ ويهتدي بها - واذا اشتهَى ثمرة من الثمـار رَكَزَهـا في الأرضِ، فتغصَّنت أغصانُ تلكَ الشجرةِ، وأورقت أورقُها وأثمَرت)[١].

ثم كان من المعلومِ أنَّ موسى لَمْ يُرِدْ بـهذا الجـواب إعـلامَ اللهِ تعـالى؛ لأن اللهَ تعالى أعلمُ بذلكَ منه، ولكن لَمَّا اقتضى السؤالُ جواباً لَمْ يكن بــدٌّ لـه مـن الإجابـةِ، فذكرَ منافعَ العصا إقراراً بالنعمة فيها والتزاماً بما يجبُ عليـه مـن الشُّكر للهِ، وهكـذا سبيلُ أولياءِ الله تعالى في إظهار شُـكر نِعَـمِ اللهِ تعـالى، وفي هـذا جـوابٌ عـن بعـضِ الْمُلْحِدَةِ في باب المسألةِ كانت عن فائدة ما في يده، ولَم يكن عن منافعِـها، فلِـمَ كـانَ الجوابُ عن ما لَم يسأل؟

---

(١) ينظر: الدر المنثور: ج ٥ ص٥٥٥، بمعناه، قال: (أخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنـذر وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه).

وقوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي ألْقِهَا مـن يـدكَ، ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ تشتدُّ رافعـةً رأسَـها، عيناهـا تتوقَّـدان ناراً، تَمشي بسرعةٍ على بطنِها، لَها عُرْفٌ كعُرف الفَرس، فلما عاينَ ذلك موسى ولَّـى مُدبراً ولَم يُعَقِّبْ هارباً منها، فنُودِيَ يا موسى: إرْجِعْ، فرجعَ وهـو شـديدُ الخوفِ و ﴿ قَالَ ﴾ ؛ اللهُ لـه: ﴿ خُذْهَا ﴾ بيمينِـكَ؛ ﴿ وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ عصاً كما كانت.

فلما أمَرَهُ اللهُ بأخذِها أدنَى طَرَفَ ثوبهِ على يده، وكان عليه مَدْرَعَةٌ من صُوفٍ، فلما جعل طَرَفَ المدرعةِ على يدهِ ليتناولَها، قال مَلَكٌ: يا موسى؛ أرأيتَ لو أنَّ الله قد رَعَاكَ ما تحاذرهُ؟ أكانت المدرعةُ تُغني عنكَ شيئاً؟ قال: لاَ؛ ولكنِّي ضعيفٌ ومن ضعفٍ.

فأُمِرَ أن يُدخِلَ يدهُ في فَمِها فكشفَ عن يدهِ، ثُم وضعَها في فم الحيَّة، وإذا يـدهُ في الموضعِ الذي كان يضعُـها فيـه بـين الشُّعبتين اللَّتين في رأس العصـا، وإنَّما أمِرَ بإدخالِ يده في فمِها؛ لأنه إنَّما يُخشى من الحيَّة مِن فمِها، فأرادَ اللهُ أن يُرِيَهُ من الآيـةِ التي لَم يقدر عليها مخلوقٌ، ولئلا يفزعَ منها اذا القَاها عند فرعونَ، فلا يولِّي مُدبراً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ قالَ الفَرَّاءُ: (جَنَاحُ الإنْسَانِ عَضُـدُهُ أيْ مِـنْ غَـيْرِ أصْـلِ إبطِـهِ)(١) والمعنى: أدْخِلْ يدكَ في جيبكَ تَخرج بيضاءَ ذاتَ شُعاعٍ من غيرِ مَرَضٍ ولا بَرَصٍ آيـةً أخرَى نعطيكَها مع العصـا، ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ سِـوَى هَاتَين الآيتين، فكان عَلَيْهِ السَّلاَمُ إذا جَعَلَ يدَهُ في جيبهِ خرجت بيضاءَ يغلبُ شعاعُها نورَ الشمس. قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ لِيَدِهِ نُورٌ سَاطِعٌ يُضِيءُ بـاللَّيْلِ وَالنَّـهَار كَضَـوْءِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَأشَدُّ ضَوْءًا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي جَـاوَزَ الحـدَّ في العصيان، وكَفَرَ وتكبَّرَ.

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص١٧٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ ﴾ أي وَسِّعْ لِي صَدري لأتَمَكَّنَ من تحمُّلِ أثقال الرسالة، والقيام بأدائها ومخاصمةِ الناس فيها، وسَهِّلْ لِي أمري برفعِ المشقَّة ووضع الْمَحَبَّةِ. قوله تعالى: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي وَارْفَعْ العُقْدَةَ من لساني؛ ليفقهوا قَولِي: كَلامِي.

وكان سببُ العُقْدَةِ في لِسانِهِ أنه كان في حُجرة فرعونَ، فأتى يومٌ فأخذ بلحيتِهِ فَنَتَفَ منها شيئاً، وقال فرعونُ لامرأته آسْيَةُ: إنَّ هــذا عَـدُوِّي المطلـوب وَهَـمَّ بقتلـهِ، فقالت له آسْيَةُ: لا تفعل، فإنه طِفْلٌ لا يعقلُ، ولا يفرِّقُ بين الأشياءِ ولا يُميز، وعلامةُ ذلك: أنه لا يُميز بين الدُّرَّةِ والجمرةِ، ثُم جاءت بطِشْتَيْنِ، فجعلت في أحدِهما الجمرَ من النار، وفي الآخرِ الجوهرَ والْحِلِيَّ، ووضعَتْهُما بين يَدَي موسى، فأراد مُوسى أن يأخذ شيئاً من الحليِّ، فأخذ جبريلُ بيدهِ فوضعَها على النار، فأخذ جمرةً ووضعَها في فمهِ حتى أحْرَقَ لسانَهُ، فكانت في لسانهِ رُتَّةٌ، فدفعَ عنهُ أكثرَ الضَّررين بأقلِّهما.

وقد اختلفوا في هذه العُقْدَةِ: هل زَالَتْ بأجمعِها في وقتِ نُبُوَّتِـهِ، أم لاَ ؟ قال بعضُهم – وهو الأصحُّ وإليه ذهبَ الحسنُ–: أنَّ الله استجابَ له، فَحَلَّ العُقدةَ من لسانهِ؛ لأنه تعالى قالَ ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى﴾ فعلى هذا قولُ فرعونَ ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾[1] أي لا يأتِي ببيانٍ يُفْهِمُ، وكان هذا القولُ كذباً منهُ؛ ليصرفَ الوجوهَ عنهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ ﴾؛ الوزيـرُ الـذي يُـؤَازرُ الأميرَ فيحمِلُ عنه بعضَ ما يحملُ، فيكون المعنى: واجعل لِي عَوْناً وظَهْراً من أهلي، وقال الزجَّاج: (اشْتِقَاقُهُ مِنَ الْوِزْر وَهُوَ الْجَبَلُ الَّذِي يُعْتَصَمُ بِهِ لِيَنْجُو مِنَ الْهَلَكَةِ).

ثُم بَيَّنَ الوزيرَ مَن هو، فقالَ: ﴿ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ﴾، قِيْلَ: هرونُ مَفْعُـولُ (اجْعَلْ)، تقديرهُ: اجْعَلْ هرونَ أخِـي وزيـراً لِـي، ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ ﴾؛ أي أقَوِّي به ظَهرِي، والأَزْرُ الظَّهْرُ، لنتعاونَ على الأمرِ الذي أمَرْتَنا بـه، يقـالُ: آزَرْتُ فُلاناً إذا عاونتهُ.

---

(١) الزخرف / ٥٢ . الرُّتَّةُ؛ بالضم: العجمة في الكلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾، أي اجعلهُ شَريكاً لِي في تبليغِ هذه الرسالة. ومن قرأ (أَشْدُدْ) بفتح الألـفِ و(أَشْرِكْهُ) بضمِّ الألف ردَّ الفعلَ إلى موسى الطَّيْلا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾؛ أي كَي نُصلِّي لكَ، وَقِيلَ: كي نُنَزِّهَكَ كثيراً، ونذكرَكَ بالحمدِ والثَّناء كثيراً بما أَوْلَيْتَنَا من نِعْمَتِكَ، ومَنَنْتَ علينا من تحمُّلِ رسالتِكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي عالِماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي أُوتِيتَ ما سألتَ يا موسى، وأوتيتَ مُرادَكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي أنعَمْنا عليكَ كَرَّةً أخرى قبلَ هذه المرَّة.

ثم بَيَّنَ تلك النعمة، فقالَ تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ ﴾؛ أي ألْهَمْنَاهَا حين عَنَتْ بأمرِكَ، وما كان فيه سببُ نَجاتِكَ من القتلِ، ﴿ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ ﴾؛ أي ما يُلْهَمُ، ثم فسَّرَ ذلك الإلْهَامَ فقالَ: ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ وكان السببُ في ذلك أن فرعونَ كان يقتلُ غِلْمَانَ بني إسرائيلَ على ما تقدَّم ذكرهُ، ثُم خَشِيَ أن يَفْنَى نسلُ بني إسرائيلَ، فكان يقتلُ بعد ذلك في سنةٍ ولا يقتلُ في سنةٍ، فوُلِدَ موسى في السَّنة التي يقتلُ فيها الغلمانَ، فنجَّاهُ الله من القتلِ بأن ألْهَمَ أمَّهُ أن جعلته في التابوتِ، وأطْرِحَ التابوت في اليمِّ وهو البحرُ، وأرادَ به النِّيْلَ ومعنى قوله تعالى: (أنِ اقْذِفِيهِ) أي اجعليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ﴾؛ لفظهُ لفظ الأمرِ وهو خبرُ (بتقدير) حتى يلقيه اليَمُّ بالسَّاحل. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾؛ وأرادَ به فرعون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾؛ وذلك أن أمَّ موسى لَمَّا اتخذت لِموسى تابوتاً جعلت فيه قُطْناً مَحْلُوجاً، ووضعت فيه موسَى وألقتْهُ في النِّيلِ، وكان يشرعُ منه نَهر كبيرٌ في دار فرعون، فبينما هو جالسٌ على رأسِ البِرْكَةِ مع امرأتهِ آسْيَةُ، إذا بالتابوتِ يَجِيْءُ بالماء.

فلما رأى ذلك أمَرَ الجواري والغلمان بإخراجهِ فأخرجوهُ، فإذا هـو صـبيٌّ مـن أحسنِ الناس وَجْهاً، فلما رآهُ فرعون أحَبَّهُ بحيثُ لَـم يتمـالك، فذلـك قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي) قال عطية العوفي[١]: (وَجَعَلَ عَلَيهِ مِسْحَةً مِنْ جَمَالٍ فَأَحَبَّهُ كُلُّ مَن رآهُ).

وقال عطاءٌ عن ابنِ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّـي) أيْ لاَ يَلْقَاكَ أحَدٌ إلاَّ أحَبَّكَ مِنْ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ)[٢]، وقـال عكرمـةُ: (أَلْقَيـتُ عَلَيْـكَ مَحَبَّـةً وَمَلاَحَةً وَحُسْـناً)[٣]، فحين أبصـرَتْ آسـية وجهَـهُ قـالت لفرعـون: قُـرَّةُ عَيْـنٍ لِـي ولكَ. وقال أبـو عبيـدةُ: (مَعْنَـاهُ: جَعَلْـتُ لَـكَ مَحَبَّـةً عِنْـدِي وَعِنْـدَ غَـيْرِي، أحَبَّـكَ فِرْعَوْنُ، فَسَلِمْتَ مِنْ شَرِّهِ، وَأحَبَّتْكَ امْرَأتُــهُ فَتَبَنَّتْـكَ). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ أي ولِتُرَبَّى وتغذى بمرأى أراكَ على ما أريدُ بـكَ مـن الرفاهيَـةِ في غذائِكَ. وقال قتادةُ: (مَعْنَاهُ: لِتُغَذى عَلَى مَحَبَّتِي).

وأرادَ في قَوْلِــهِ تَعَــالَى: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾؛ وذلكَ أن موسى جَعَلَ يبكي ويطلـبُ اللَّبَـنَ، فـأمَرَ فرعـونُ حتـى أتـى بالنِّساءِ اللَّواتِي حولَ فرعون ليُرضعْنَ موسى، فلم يَقْبَلْ ثديَ واحدةٍ منــهن، وكـانت أختُ موسى مُتَّبعَةً للتابوتِ ماشيةً خَلْفَهُ.

فلما حُمل التابوتُ إلى فرعونَ، ذهبت هي معهُ، فقالت: هَلْ أدُلُّكُمْ عَلَــى مَـنْ يَكْفُلُهُ؟ أي يرضعهُ ويضمُّه ويحصنهُ ؟ فقالوا: مَن هي ؟ قالت: امرأةٌ قد قُتِـلَ ولدُهـا، وهي تحبُّ أن تجدَ صبيّاً ترضعهُ. فأذِنَ لَها فرعونُ في إحضارها، فـانطلقت وأتَـتْ بـأُمِّ

---

(١) عطيةُ بن سعد بن جُنَادة العوفيّ الجدلي القيسـي الكـوفي، أبـو الحسـن. تـابعي روى عـن بعـض الصحابة. تكلم فيه، وقال مسلم بن الحجاج: (قال أحمـد وذكـر عطيـة العـوفي، فقـال: ضعيـف الحديث، ثم قال: بلغني أن عطية كان يأتي الكلبي ويسأله عن التفسير). ترجم لـه ابـن حجـر في تهذيب التهذيب: ج ٥ ص٥٩٠-٥٩٢: الرقم (٤٧٥٥).

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٦٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم)).

(٣) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٦٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد)).

موسى، فأعطتْهُ الثديَ فأخذهُ موسى، وفَرِحَ به فرعونُ، وجعل لَها الأجرة على الإرضاعِ، وحملتهُ أمُّهُ إلى دارها، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ ؛ أي رَدَدْنَاكَ إليها؛ كي تطيبَ نفسُها، ولا تحزن على ابنِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ ؛ يعني القِبْطِيَّ الذي وَكَزَهُ موسى فقضى عليه، ﴿ فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ ؛ أي غَمِّ القَوَدِ، وخلَّصناكَ مِن أن تُقْتَلَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ ؛ أي أوقعناكَ في مِحْنَةٍ بعدَ محنةٍ، ونحنُ نخلِّصُكَ منها، وذلك أنه حُمِلَ به في السَّنة التي يَذبحُ فرعونُ فيها الأطفالَ، ثم إلقاؤهُ في البحرِ، ومنعُ الرَّضاع إلاّ ثدي أمِّهِ، ثم جَرُّ لِحيَةِ فرعون حتى هَمَّ بقتلهِ، ثم تناوله الجمرةَ، ثم قتلهُ القبطيَّ، ثم خروجهُ إلى مَدْيَنَ خائفاً يَتَرَقَّبُ.

فمعنى: (فَتَنَّاكَ فُتُوناً) أي خلَّصناكَ مِن تلك الْمِحَنِ. وَقِيْلَ: معناه شَدَّدْنَا عليكَ في أمرِ المعاش حتى رَعَيْتَ لشعيب عشرَ سنين. وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: اخْتَبَرْنَاكَ اخْتِبَاراً)[١]، وقال الضحَّاك: (ابْتَلَيْنَاكَ ابْتِلاَءً)، وقال مجاهدُ: (خَلَّصْنَاكَ خَلاَصاً)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ ؛ يعني لَبِثْتَ في أهل مَدْيَنَ حين كنت رَاعياً لشُعيبٍ، مكثتَ عشرَ سنين. وتقديرُ الكلامِ: وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً؛ فخرجتَ إلى أهلِ مَدْيَنَ فلبثْتَ سِنِينَ. وبلادُ أهلِ مَدْيَنَ على ثلاثِ مراحل من مِصْرَ. وقال وهبُ: (لبثتَ في أهلِ مدينَ عند شُعيب ثمانِي وعشرين سنةً، عشرَ سنين التي رعَى فيها لشعيب، وثمانِي عشرة سنةً أقامَ عنده حتى وُلِدَ لهُ، وقتلَ القبطيَّ يوم قتلهِ وهو ابنُ اثْنَتِي عشرةَ سنةً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فلبثتَ سنين في أهلِ مَدين حينَ كنتَ راعياً لشُعيب، ثُم جئتَ على المقدار الذي قَدَّرَهُ اللهُ عليكَ، وكَتَبَهُ فِي اللَّوح الْمَحفُوظِ. قال ابنُ كيسانَ: (جَاءَ عَلَى رَأسِ أرْبَعِيْنَ سَنَةً، وَهُوَ الْقَدْرُ الَّذِي يُوحَى فِيْهِ إلَى الأنْبِيَاءِ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨١٩١).

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٦٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي اخْتَصَصْتُـكَ لوحيـــي ورسالَتِي، والاصطناعُ هو الإخلاصُ بالألطافِ. وقال الزجَّاج معناه: (اخْتَرْتُكَ لإقَامَةِ حُجَّتِي، وَجَعَلْتُكَ بَيْنِي وَبَيْنَ خَلْقِي).

قَوْلُهُ تَعَــالَى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى ﴾ ؛ أي بـاليدِ والعصـا، ﴿ وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي لا تُقَـتِّرَا في تبليـغِ رسـالَتِي إلى فرعــونَ، ولا تضْعُفَـا عنِ ذِكـري، وَقِيْـلَ: لا تُقصِّـرا ولا تُبْطِئَـا. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ ؛ أي قـولاً لـهُ بالشَّـفقة، ولا تقـولاً لـه قولاً عَنِيفاً، فيزدادَ غَيْضاً بغِلَظِ القول. قال السديُّ و عكرمةُ: (كَنِّيَاهُ قُـولاً لَـهُ: يَـا أبَـا الْعَبَّاس) وَقِيْلَ: يا أبَا الوليدِ[1]، ويا أيُّها الملكُ. وَقِيْلَ: يعني بالقول اللَّـينِ: ﴿هَـلْ لَـكَ إلَى أنْ تَزَكَّى. وَأهْدِيَكَ إلَى رَبكَ فَتَخْشَى﴾[2].

وعن السديِّ قال: (الْقَوْلُ اللَّيِّنُ: أنَّ مُوسَى أتَاهُ فَقَالَ لَهُ: تُؤْمِنُ بمَـا جِئْـتُ بـهِ، وَتَعْبُدُ رَبَّ الْعَالَمِيْنَ عَلَى أنَّ لَكَ شَبَابَكَ فَلاَ تَـهْرَمُ، وَأنَّ لَـكَ مُلْكَـكَ لاَ تُـنْزَعُ حَتَّـى تَمُوتَ، وَلاَ تُنْزَعُ عَنْكَ لَذةُ الطَّعَامِ وَالشَّرَاب وَالْجِمَاعِ حَتَّى تَمُوتَ، فَإذا مِتَّ دَخَلْـتَ الْجَنَّةَ. فَأعْجَبَهُ ذلِكَ، وَكَـانَ لاَ يَقْطَـعُ أمْـراً دُونَ هَامَـانَ، وَكَـانَ هَامَـانُ غَائِبـاً، فَقَـالَ فِرْعَونُ: إنَّ لِي ذا أمْرٍ غَائِبٍ، فَاصْبِرْ حَتَّى يَقْدُمَ. فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ يَا هَامَـانُ إنَّ مُوسَى دَعَانِي إلَى أمْرٍ فَأعْجَبَنِي - وَأخْبَرَهُ بالَّذِي دَعَاهُ إلَيْـهِ - وَأرَدْتُ أنْ أقْبَـلَ مِنْـهُ. فَقَالَ هَامَانُ: قَدْ كُنْتُ أرَى أنَّ لَكَ عَقْلاً، بَيْنَمَا أنْتَ رَبٌّ فَتُرِيْدُ أنْ تَكُونَ مَرْبُوباً، وَأنْتَ تُعْبَدُ فَتُرِيْدُ أنْ تَعْبُدَ؟. فَغَلَبَهُ عَلَى رَأيِهِ فَأبَى.

رُويَ أنَّ رَجُلاً قَرَأ فِي مَجْلِسِ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ: (فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً) فَبَكَى يَحْيَى ابْنُ مُعَاذٍ وَقَالَ: (إلَهِي، هَذا رفْقُكَ بمَنْ يَقُولُ أنَا إلَهٌ، فَكَيْـفَ رفْقُـكَ بمَـنْ يَقُـولُ أنْـتَ إلَهِي، إنَّ قَوْلَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ يَهْدِمُ كُفْرَ خَمْسِينَ سَنَةٍ).

---

(١) ينظر: معالم التنزيل: ص٨١٩.

(٢) النازعات / ١٨-١٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي يَتَّعِظُ أو يخشى العاقبةَ، وكلمة (لَعَلَّ) للترجِّي والطمعِ؛ أي اذهبَا على رجائِكُما وطمَعِكُما وأنا عالِمٌ بما يفعلُ، فإن قيلَ: كيفَ قال (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ) وعلمهُ سابقٌ في فرعونَ أنه لا يؤمنُ، ولا يتذكر ولا يخشَى ؟ قِيْلَ: هذا مصروفٌ إلى غيرِ فرعون، تقديرهُ: لِكَي يتذكرُ متذكرٌ ويخشَى خَاشٍ إذا رأى بَرِئ ، والطَافِي بمن خلقتهُ ورزقتُهُ وصحَّحتُ جِسمَهُ وأنعمتُ عليه، ثم ادَّعى الربوبيةَ دوني.

قال بعضُ العارفين في قولهِ تعالى: (فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً): (إذا كَانَ هَذا رفْقُكَ بِمَنْ ينافيكَ، فكيفَ رفقُكَ بمن يصافيكَ؟ هذا رفقُكَ بمن يعاديكَ، فكيفَ رفقُكَ بمن يواليكَ؟ هذا رفقُكَ بمن يسبُّكَ، فكيفَ رفقُكَ بمن يحبُّكَ؟ هذا رفقُكَ بمن يقولُ نداً فكيفَ بمن يقول فرداً ؟ هذا رفقُكَ بمن ضَلَّ، فكيفَ رفقُكَ بمن زلَّ؟ هذا رفقُكَ بمن اقترفَ، فكيفَ رفقُكَ بمن اعترفَ؟ هذا رفقُكَ بمن أصرَّ، فكيف رفقُكَ بمن أقرَّ؟ هذا رفقُكَ بمن استكبرَ، فكيف رفقك بمن استغفرَ ؟).

وعن وهب بن منبه قال: (أوحى اللهُ إلى موسى: انطلِقْ إلى فرعونَ برسالتِي، فمعكَ نَظَرِي وأنتَ جندٌ عظيم من جُنودِي، بعثتُكَ إلى خلقٍ ضعيف قد عزَّته الدنيا حتى كفرَ وأقسَم بعزي لولا اتخاذُ الحجَّة عليه والعذرَ إليه لبطشتُ به بطشةَ جبارٍ يغضبُ لغضبهِ السَّموات والأرض، فإن أذنَ للسَّماء صَعَقَتْهُ، وللأرضِ ابتلعتْهُ، وللجبال دمَّرتهُ، وللبحار أغرقته، ولكنهُ وسعَهُ حِلْمي، فبلِّغْهُ رسالَتِي وقل له فيما بين ذلك قولاً ليناً لا يغرُّ بك فألبسه من لباسِ الدُّنيا، فأجِبْ ربك الذي هو واسعُ المغفرة، أنه قد أمهلَكَ منذُ خمسمائة سنة لَم تُهرمْ ولَم تسقمْ ولَم تفتقِرْ، واعلم أنَّ أفضلَ ما تزينَ به العبادُ الزهدَ في الدنيا، ومن أهانَ ولِيّاً فقد بارَزَنِي بالْمُحاربةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ معناه: قال موسى وهارونُ: رَبَّنَا إنَّنَا نَخَافُ أنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا، قال ابنُ عبَّاس: (يُعَجِّلُ وَالْعُقُوبَةِ)[(١)]، وَقِيْلَ: تغليب أو أن يطغَى بتكبُّرٍ ويستعصِي علينا، ويقالُ: فرَّطَ علينا فلانٌ إذا أعجلَ بمكروهٍ، وفرَّطَ منه أمري بدر وسبق.

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٨٠؛ عزاه السيوطي لابن أبي حاتم. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٧ ص٢٤٢٤.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ ﴾ ؛ أي معَكُمـا بالبصـيرةِ والعون، ﴿ أَسْمَعُ ﴾ ؛ ما يَرُدُّ عليكُمـا، ﴿ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ مـا يصنعـهُ بكمـا، وَقِيْلَ: معناهُ: أسْمَعُ دعاءَكما فأجيبـهُ، وأرى مـا يريـدُ بكمـا فأمنعـهُ، ولسـتُ بغـافلٍ عنكُما، فلا تَهتمَّا، ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ ؛ أرسـلنا إليـكَ، ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ ؛ أي أطلِقْهُم مـن اعتقـالِكَ، ولا تُتْعِبْـهُمْ بالأعمـال الشَّاقة، ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي بعلامةٍ من ربك وهي اليدُ والعصا، وهما أوَّلُ آية، وَقِيْلَ: اليدُ خاصَّة.

وكان فرعونُ قد أتعبَ بنِـي إسـرائيلَ بالأعمـال الشَّـاقة، مثـلَ اللَّـبن والطـين والبناء، وما لا يقدرونَ عليه. فلمَّا قال موسى: قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبكَ، قال: ما هيَ؟ فأدخلَ يدَهُ في جيب قميصه ثُم أخرجَها، فإذا هي بيضاءُ لَها شعاعٌ غلَبَ نورَ الشمسِ، ولَم يُرِهِ العصا إلاّ بعدَ ذلك يوم الزِّينة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ ليـس هـو بتحيَّـةٍ لفرعون ولكن معناهُ: أن مَن اتَّبَعَ الْهُدى سَلِمَ من عذاب الله بدليـلِ أنـه عَقَّبَـهُ بقولـهِ تعـالى: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي إنَّما يُعَذِّبُ اللهُ مَن كذبَ بما جئنا به وأعرضَ عنه، فأمَّا مَن اتَّبَعَهُ فإنه يَسْلَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي مـن إلَـهُكما الـذي أرسلَكُما، ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾ ؛ أي ربُّنـا الـذي خَلَـقَ كُـلَّ شَيْءٍ على الْهَيْأَةِ التي ينتفعُ بها، فأعطاهُ صحَّته وسلامتَهُ وَركَّبَ فيه شهوتَهُ، ثـم هَـدَاهُ لمعيشتهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: الذي صَوَّرَ كُلَّ جنسٍ من الحيـوان علـى صـورةٍ أخـرى، فلـم يجعل خَلْقَ الإنسانِ كخلق البهائمِ، ولا خَلْقَ البهائمِ كخلق الإنسانِ، ولكن خَلَقَ كـلَّ شيء فقَدَّرَهُ تقديراً.

وقال الضحَّاك: (أعطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ؛ يَعْنِي لِلْيَدِ الْبَطْشَ، ولِلرِّجْـلِ الْمَشْـيَ، وَلِلِّسَانِ النُّطْقَ، وَلِلْعَيْنِ النَّظَرَ، وَلِلأُذُنِ السَّمْعَ)[1]. وقال سعيدُ بن جبير: (أعْطَـى كُـلَّ

---

(١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٢٠.

شَيْءٍ شَكْلَهُ، لِلإنْسَان زَوْجَةً، وَلِلْبَعِيرِ نَاقَةً، وَلِلْفَرَسِ رَمَكَةً[١]، وَلِلْحِمَار أَتَاناً، وَلِلثَّـوْر بَقَـرَةً، ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ ؛ أي أَلْـهَمَ وعَـرَّفَ كيـف يـأتِي الذكـرُ الأنثـى في النِّكاحِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ ﴾ ؛ قال: ما حـالُ، ومـا بيانُ الأُممِ الماضية، لَم يُبعثوا ولَم يُجازَوا على أفعالِهم، ومعنى البالُ: الشأنُ والحـالُ. والمعنَى: مَا حَالُهَا، فإنَّها لَم تُقِرَّ بالله، ولكنَّها عبدَتِ الأوثانَ، ويعـنِي بـالقُرُون الأُولى، مِثْلَ قوم نُوحٍ وعاد وثمود، ﴿ قَالَ ﴾ موسى: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ﴾ ؛ وإذا عَلِمَ لا بدَّ أن يُجازي. وَقِيْلَ: معناهُ: عِلْمُ أعمالِها عند ربي في كتاب الله، أراد بـه اللَّوحَ الْمَحفُوظَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ﴾ ؛ أي لا يذهـبُ عليـه شيءٌ، ولا يخطئُ ولا ينسى ما كان من أمرِهم حتى يُجازيهم عليـه، وَقِيْـلَ: لا يغفـلُ ربي ولا يتركُ شيئاً، ولا يغيبُ عنه شيءٌ، وفي هذا دليلٌ أنَّ الله تعالى لَم يكتُبْ أفعـالَ العبادِ لحاجتهِ في معرفتها إلى الكتاب، ولكن لمعرفةِ الملائكة. ويقالُ: كان سؤالُ فرعون عن القرونِ الأُولى: هل بُعِثَ فيهم أنبياءُ كما بُعِثْتَ إلينا، فأحالَها علـى مـا في المعلـومِ من أمرها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ وقرأ أهلُ الكوفةِ (مَهْداً) بغيرِ ألف؛ أي فَرْشاً، والفراشُ: الْمِـهَادُ لغـةٌ فيـه كـالفُرُشِ والفِرَاشِ؛ أي جعلَها مبسوطةً ليمكن القرارُ عليها، ولَم يجعلها حادَّةً كرؤوسِ الجبال.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (وَسَـلَكَ لَكُـمْ فِيـهَا سُبُلاً) أي طُرُقـاً تذهبـون وتجيئُـونَ فيـها وتسلكونَها. قال ابـنُ عبَّـاس: (سَـلَكَ أيْ سَـهَّلَ لَكُـمْ فِيـهَا طُرُقـاً)[٣]. ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ؛ يعـني المطـرَ، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ ﴾ ؛ أي فأخرَجْنا بالمطرِ أصنافاً من نباتٍ مختلف الألوان.

---

(١) الرَّمَكَةُ -بتفحتين-: الأنثى من البراذِين.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٧ ص٢٤٢٥.

(٣) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٢٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَـٰمَكُمْ ﴾ ؛ أي كُلُوا من نباتِ الأرض، وارْعَوا أنعامَكم من عُشْبِها، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي إنَّما ذكَرْتُ لكم لعلامةٍ دالَّة على البعثِ لذوي العقول من الناس، وإنَّما سُميت العقولُ (نُهَى)؛ لأن أصحابَها ينتهون بها عن القبيحِ والمعاصي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ ﴾ ؛ أي من الأرض خلقنا أباكم آدمَ وكلُّكم من ذريَّته، ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ ؛ عند الموتِ والدفن، ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ للبعثِ، وقد جرَى ذكرُ الأرضِ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي أرَيْنا فرعونَ آياتنا السَّبع كلَّها فَكَذبَ وَأبَى، أي قال: ليست هذه مِن الله، وأبَى أن يُسْلِمَ ويقبلَ، ونسبَ موسى إلى السِّحر؛ فـ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ ؛ أي مِصْرَ، ﴿ بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ ؛ أي مِثْلِ ما جِئْتَنا به، ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ ؛ أي مِيْقَاتاً وأجَلاً في موضعٍ معلوم، ﴿ لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ ﴾ ؛ أي لا نجاوزهُ ولا يقع منا خَلْفٌ في حضورهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي مكاناً مُستوياً يُبيِّنُ للناسِ ما بيننا، ويستوي حالُنا من الرِّضى به. وَقِيْلَ: تستوي مسافتهُ على الفريقينِ فتكونُ مسافةُ كلِّ فريقٍ إليه كمسافة الفريق الآخر.

فواعدَهُ موسى يوماً مَعْلُوماً وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ أي يومُ العيدِ الذي لكم. قال سعيدُ بن جبير: (كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ)[2]، قرأ الحسنُ: (يَوْمَ الزِّيْنَةِ) بنصب الميم؛ أي فِي يوم. وقرأ الباقون بالرفعِ على الخبرِ[3].

---

(١) النبأ / ٦ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٨٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس)).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ١١ ص٢١٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي ضُحى ذلك اليومِ، وأراد بالناسِ أهلَ مصر، ومعنى يُحشرون أي يجتمعون إلى العيدِ، وإنَّما جعلَ موسى موعدَهم نهاراً في يومِ اجتماعهم؛ ليكون أبلغَ في الحجَّة، وأبعدَ من الرِّيبة. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأنْ يُحْشَرَ) يحتمل أن يكون في موضعِ رفعٍ على معنى موعدٍ كما حُشِرَ الناسُ وقتَ الضُّحى يوم الزينة، ويحتملُ أن يكون في موضعِ خفضٍ عَطْفاً على الزينةِ، المعنى يومُ الزينةِ، ويومُ حشرِ الناس في وقتِ الضَّحوة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي فأعرضَ فرعونُ عن الحقِّ والطاعة فجمع كَيْدَهُ ومَكْرَهُ، وذلك جمعهُ السَّحرةَ ثُم أتى الموعدَ، والمعنى: (فَجَمَعَ كَيْدَهُ) أي سحرتَهُ، قِيْلَ: كانوا أربعمائةِ ساحر؛ و﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ ﴾ ؛ للسحرة: ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ أي لا تُشركوا مع اللهِ أحداً، ولا تَختَلِقُوا عليه كَذِباً بتكذيبي، ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ ؛ أي فيُهْلِكَكُمْ ويستأصِلَكم بعذاب من عندهِ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي وقد خابَ من اخْتَلَقَ على الله كَذباً. ومعنى قولهِ: (وَيْلَكُمْ) أي ألْزمَكُمُ الوَيْلَ. قرأ أهلُ الكوفة: (فَيُسْحِتَكُمْ) بضمِّ التاء وكسرِ الحاء، يقالُ: سَحَتَهُ اللهُ وأسْحَتَهُ؛ أي أهْلَكَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَنَـٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي فتشاورتِ السحرةُ فيما بينهم من فرعون في أمرِ موسى، وأسرُّوا المناجاةَ، فقالوا: إن غَلَبَنَا موسى اتَّبَعْنَاهُ وآمَنَّا به فهذا نَجْوَاهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ ﴾ ؛ أي قال الملأُ من قومِ فرعون: إنَّ موسى وهارون لَساحران، ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾ ؛ من أرضِ مصرَ، ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي بدِيْنِكُم الأمثلُ، وَقِيْلَ: معناه: ويَذْهَبَا بأهلِ طريقتكم.

واختلفَ القُرَّاء في قولهِ تعالى (إنْ هَذان)، قرأ أبو عمرو (هَذيْنِ) على اللغة المعروفةِ وهي لغةُ أهلِ الحجاز، وقرأ نافعُ وابن عامر وحمزةُ والكسائي (هَذانِ)

بالألفِ[١] وهي لغةُ كنانةَ وبني الحارثِ بن كعب وخَثْعَمَ وزيدٍ وقبائلَ من اليمنِ: يجعلون أَلِفَ الاثنين في الرفعِ والنصب والخفضِ على لفظٍ واحد، يقولون: أتاني الزَّيدان، ورأيتُ الزَّيدان، مَرَرْتُ بالزيدان. قال الفرَّاءُ: (أَنْشَدَنِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، وَمَا رَأَيْتُ أَفْصَحَ مِنْهُ:

فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الأُفْعُوَانِ وَلَوْ يَرَى مَسَاغاً لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا)[٢]

ويقولون: كَسَرْتُ يَدَاهُ وَرَكِبْتُ عُلاَهُ، يعني يديهِ وعليه، قال شاعرُهم[٣]:

تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أُذْنَاه ضَرْبَةً دَعَتْهُ إِلَى هَابِي التُّرَاب عَقِيمُ

أراد بين أُذُنيهِ، فقال آخرُ:

أَيُّ قُلُوصِ رَاكِبٍ تَرَاهَا طَارُوا عَلاَهُنَّ فَطِرْ عَلاَهَا

أي عليهنَّ وعليها، وقال آخرُ:

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَا

وقال بعضُهم (إِنْ) هنا بمعنى: نَعَمْ. رويَ أنَّ أعرابياً سألَ ابن الزُّبير شيئاً فَحَرَّمَهُ، فقال: لَعَنَ اللهُ نَاقَةً حَمَلَتْنِي إِلَيْكَ، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: (إِنْ وَصَاحِبُهَا) يعني نَعَمْ[٤]. وقال الشاعرُ:

بَكَرَ الْعَوَاذِلُ فِي الصَّبَا حِ يَلُمْنَنِي وَأَلُومُهُنَّهْ

وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلاَ كَ وَقَدْ كَبِرْتَ فَقُلْتُ إِنَّهْ

---

(١) ينظر: الحجة للقراءات السبعة لأبي علي الفارسي: ج ٣ ص١٤٢.

(٢) في معاني القرآن: ج ٢ ص١٨٤، والبيت للمتلمس، كما في اللسان. والشجاع: هو الذكر من الحيَّات. وصمم: عض في العظم.

(٣) هوبر الحارثي، كما في لسان العرب.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٨٢١.

أي نعم[١]. وقد ذكرَ أهلُ النحوِ لتصحيح هذه القراءةِ وجُوهاً:

أحدُها: ضَعْفُ عملِ (إنْ) لأنَّها تعملُ بالمشبَّه بالفعلِ وليست بأصلٍ في العمل، ألا ترى أنَّها لَمَّا خُففت لَم تعمل.

والثاني: أنَّها تشبهُ (اللَّذيْنِ) في البناءِ؛ لأن (اللَّذيْنِ) في الرفع والنصب والخفض سواءٌ، ولأنَّ الألفَ في (هَذَان) ليس ألفَ التشبيهِ لوجودها في الوحْدَان، وإنَّما زِيْدَتْ النونُ في التثنيةِ ليكون فرقاً بين الواحدِ والاثنين، كما قالوا (الَّذِيْ) ثُم زادوا نُوناً تدلُّ على الجمعِ، قالوا (الَّذِيْنَ) في رفعِهم ونصبهم.

والثالثُ: (إنْ) ها هُنا مخففة وليست مضمرة إلاّ أنه حُذفت الهاء.

والرابعُ: أنه لَمَّا حُذفت الألِفُ صارت ألفَ التثنية عِوَضاً منها.

والخامسُ: أنَّ (إنْ) بمعنى نَعَمْ[٢].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ﴾ ؛ قرأ أبو عمرو (فَاجْمَعُوا) بوصلِ الألف وفتحِ الميم من الجمعِ، وتصديقهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَجَمَعَ كَيْدَهُ)، وقرأ الباقونَ (فَأَجْمِعُوا) بقطعِ الألف وكسرِ الميم، مأخوذٌ من أجْمَعْتُ الأمرَ إذا عزمتُ عليه وأحكمتهُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (كَيْدَكُمْ) أي مَكْرَكُمْ وسِحرَكم، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ﴾ ؛ مُجتمعين؛ ليكونَ أنظَمَ لأموركم، وأشدَّ لِهيبَتكم. وَقِيْلَ: معناهُ: ثُم ائتوا الْمُصَلَّى. والعربُ تسمِّي الْمُصَلَّى صَفّاً. قال الزجَّاج:(فَعَلَى هَذا مَعْنَاهُ: ثُمَّ ائْتُوا الْمَوْضِعَ الَّذِي تُجْتَمِعُونَ فِيْهِ لِعِيْدِكُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي قد فَازَ بالفلاحِ والبقاء مَن كانت الغَلَبَةُ لهُ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١١ ص٢١٨؛ قال القرطبي: (وعلى هذا يكون جائزاً أن يكون قولُ الله عزَّ وجل: ﴿إنْ هَذان لَسَاحِرَان﴾ بمعنى نَعَمْ، ولا تنصب).

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٣١-٣٢. وجامع البيان للطبري: مج ٩ ج١٦ ص٢٢٦-٢٢٧.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ أي قالتِ السَّحرةُ: يَا مُوسَى إمَّا أنْ تُلْقِيَ عَصَاكَ إلى الأرض، وإمَّا أنْ نَكُونَ أوَّلَ مَــنْ ألْقَـى الْعِصِـيَّ والحبـالَ، ﴿ قَالَ ﴾ لَـهم موسـى: ﴿ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ ؛ فـألْقَوا حبالَـهم وعِصِيَّهم.

روي أنَّهم كانوا سبعينَ ألفَ ساحر، وكان عددُ ما عمِلُوا من الحبـال والعصـيِّ حِمْلَ ثلاثِمائة بعيرٍ، فألْقَوا مــا معـهم، ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي تَمشي وتتحرَّكُ، وكانوا قد احتالُوا فيها بحيلةٍ، فكان كلُّ مَن رآها مِن بعيد يُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّها تتحركُ.

قرأ ابنُ عامر: (تُخَيَّلُ) بالتاء، ردَّهُ إلى الحبال والعِصِيِّ، وقرأ الباقون بالياء، ردُّوهُ إلى الكيدِ والسِّحر[1]، وذلك أنَّهم لَطَّخُوا حبالَهم وعصيَّهم بـالزِّئبق، فلمـا أصابَـهُ حـرُّ الشمسِ ارتعشت واهتَزَّت، فظنَّ موسى أنَّها تقصــده[2]، ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي أحسَّ ووَجَدَ، وقِيْلَ: أضْمَرَ في نفسه خِيْفَةً.

فإن قِيْلَ: لِمَ جازَ أمرُهم بالإلقاءِ وهو كفرٌ ؟ قِيْلَ: يجوزُ أن يكون معناهُ: ألْقُــوا إنْ كنتم مُحِقِّيْنَ كما زعمتُم، ويجوزُ أن يكون أمراً بالإلقاءِ على وجه الاعتبار.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى، قُلْنَـا لاَ تَخَـفْ)، فـإن قِيْـلَ: مـا الذي خَافَهُ موسى؟ قِيْلَ: خافَ أن يلتبسَ علـى النـاسِ أمـرُ السَّـحَرَةِ فيتوهَّمـون أنَّ حبالَهم وعصيهم بمنْزلة عصاهُ. وَقِيْلَ: كان خوفـهُ خـوفَ الطبـعِ لِمَـا رأى مـن كـثرةِ الحيَّات العِظَامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ عليهم بالظَّفَرِ والغلبة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ ؛ يعني العصَـا، ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ﴾ ؛ أي تَلْقَمْ وتَبْلَعْ ما طَرَحُوا من العصيِّ والحبالِ، ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ﴾ ؛ أي أنَّ الذي

---

(١) ينظر: جامع البيان: ج ٩ ص٢٣٢.

(٢) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٢٢.

صنعوهُ كَيْدُ سَاحِرٍ. وقُرئ (كَيْدُ سِحْرٍ) كما قالوا بمعنى حذر، ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي لا يَغْلِبُ حَقَّكَ بباطلهِ. وَقِيْلَ: لا يُسْعَدُ السَّاحرُ حيث كان.

فألقَى موسى عصاهُ فتلقَّفت جميعَ ما صنعوا، ثُم أخذها موسى فرجعت عصا كما كانت، ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ فلما رفعُوا رؤوسَهم حتى رأوا الجنةَ والنار، ورأوا ثوابَ أهلِها، فعندَ ذلك قالوا: (لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البيِّنات) يعني الجنةَ والنار، وما رأوا مِن درجاتِهم.

قال: وكانتِ امرأةُ فرعون تسألُ مَنْ غَلَبَ؟ فقيل لَها: موسى، فقالت: آمنتُ برب موسى وهارون، فأرسلَ إليها فرعونُ، فقال: انظرُوا إلى أعظمِ صخرة تَجدونَها فأتُوها، فإنْ هي رجعت عن قولِها وإلاَّ فألْقُوها عليها، فلما أتُوها رفعت ببصرها إلى السَّماءِ فرأتِ الجنَّةَ فقالت: ﴿رَب ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾[1] فانْتُزِعَتْ روحُها، والصخرةُ على جسدٍ لا روحَ فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ ؛ بموسى، ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ ؛ في الإيْمان. والفرقُ بين (آمَنْتُمْ لَهُ) وآمَنتُم بهِ: أنَّ في (آمَنْتُمْ لَهُ) معنى الاتِّباع لَهُ، وآمنتم به إيْمانٌ بالخبر من اتباع له في ما دعَا اليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ ؛ أي رئيسُكم ومعلِّمُكم، وإنَّما قال فرعونُ هذه المقالةَ قصداً منه إلى صَرْفِ الناس عن اتِّباع موسى؛ لأن السَّحرةَ لَم يتعلَّموا من موسى، وإنَّما كانوا يعلِّمون السحرَ قبل قُدوم موسى وقبل ولادته، ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ، ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ ؛ أي على جُذوع النَّخلِ، أقيمَ حرفُ (في) مقام حرفِ (على)، فكان فرعونُ أوَّلَ من قطعَ اليد والرِّجل من خلافٍ وصَلَبَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي لتعلمنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقَى عذاباً، أنا أمْ ربُّ موسى وهارون.

---

(١) التحريم / ١١ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي قـالتِ السحرةُ لفرعونَ: لن نَختَارَكَ على ما جاءَنا من الحقِّ والبراهين يعني اليدَ والعصا. وقال عكرمةُ: (هُوَ لَمَّا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مِنَ السُّجُودِ رَأَوا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَرَأَوا مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ ؛ أي لن نُؤْثِرَكَ على الله الذي فطَرَنا؛ أي خَلَقَنَا، ويجوزُ أن يكون قولهُ (وَالَّذِي فَطَرَنَا) قَسَماً، ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ ؛ أي إصْنَعْ ما أنتَ صانع، ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي إنَّما تحكمُ علينا في الدُّنيا وهي منقضيةٌ لا محالةَ، وأما الآخرةُ فليسَ لك فيها حظٌّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا ﴾ ؛ أي إشْـرَاكُنا في الجاهليَّة وَ يغفر لنا ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّـاس: (كَـانَ فِرْعَوْنُ يُكْرِهُ النَّاسَ عَلَى تَعَلُّمِ السِّحْرِ حَتَّى لاَ يَنْقَطِعَ عَنْهُمْ)(١). وَقِيلَ: إنه أكْرَهَ هؤلاء السَّحرة على معارضةِ مُوسى.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي هـو خـيرٌ ثواباً إنْ أطِيْـعَ، وأبقَى عقاباً إنْ عُصِي. ويقالُ: ما عنـدَ الله مـن الكرامـةِ والثـواب أفضـلُ وأدوم ممـا تعطينا أنتَ من المال، وهذا جوابٌ عن قوله (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى) وها هنا انتهى قولُ السَّحرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا ﴾ أي مَن يَأْتِ إلى موضع الحساب عَاصِياً، ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ ؛ فيسـتريحَ، ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ حياةً تنفعهُ، قال ابنُ عبَّاس: (الْمُجْرِمُ الْكَافِرُ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ؛ أي قد عَمِلَ الطاعاتِ، ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي الرفيعةُ في الجنَّة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٢٦٧).

ودرجاتُ الجنة بعضُها أعلى من بعض، والعُلَى جمعُ العُلْيَا، قال ﷺ: [إنَّ أهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ هُوَ أسْفَلُ مِنْهُمْ كَأضْوَاءِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ، وَإنَّ أبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾؛ أي مَنْ تَطَهَّرَ من الذنوب بالطاعة بدلاً من تدنُّسِ النفوسِ بالمعصية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي ﴾؛ يعني أسْرِ بهم في أوَّل الليل من أرض مصرَ، يعني بني إسرائيلَ، ﴿ فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا ﴾؛ أي يَابساً، وذلك أنَّ اللهَ تعالى أيْبَسَ لَهم ذلك الطريقَ حتى لَم يكن فيه ماءٌ ولا طين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾؛ أي إنكَ آمنٌ لا تخافُ أن يُدركَكَ فرعونُ، ولا تخشَ الغرقَ من البحرِ.

وقرأ حمزةُ (لاَ تَخَفْ) على النَّهي مجزوماً، (وَلاَ تَخْشَى) بالألفِ، كأنه استأنفَ، وتقديرُهُ: وأنتَ لا تخشى، كقولهِ: ﴿يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ ﴾؛ مَن قرأ (فَأَتْبَعَهُمْ) بالتخفيف فمعناهُ: أَلْحَقَ جُنُودَهُ بهم، والباءُ في (جُنُودِهِ) زائدةٌ، والمعنى: أمَرَهُم أن يتَّبعُوا موسى وقومَهُ، ومن قرأ (فَاتَّبَعَهُمْ) بالتشديدِ، فالمعنى اتَّبَعَهُمْ بنفسهِ ومعهُ الجنود. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ ﴾؛ أي عَلاَهُمْ وسَتَرَهُمْ من البحرِ ما علاهُم وهو الغرقُ.

وذلك أنَّهُ لَمَّا تَراءَى الجمعان، أمرَ اللهُ موسى أن يضربَ بعصاهُ البحرَ، فضربه فانفلقَ الماءُ في عِرْضِ البحرِ حتى صارَ فيه اثنا عشرَ طريقاً، وبَقِيَ الماءُ قائماً بين

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٢٧. والترمذي في الجامع: كتاب المناقب: باب مناقب أبي بكر: الحديث (٢٣٥٨). وابن ماجة في السنن: الحديث (٩٦).

(٢) آل عمران / ١١١ .

الطريقين كالجبلِ، فسَلَكَ موسى، وأخذ كلُّ سِبْطٍ من بــني إسـرائيل طَريقـاً مـن هـذه الطُّرُقَ.

فلما أشرفَ فرعونُ وقومُهُ على البحرِ فرأوهُ مُنْفَلِقاً فيه طُرُقٌ يابسةٌ، أوْهَمَ قومَهُ أنَّ البحرَ إنَّما انفلقَ من هَيْبَتِهِ! فدخلَ فرعونُ خَلْفَ بني إسرائيلَ، فصاحَتِ الملائكةُ في القومِ: أنِ الْحَقُوا الْمَلِكَ حتى إذا دَخَلَ آخرُهم، وهَمَّ أوَّلُهم بالخروجِ أن يخرجَ، أطبقَ اللهُ تعالى البحرَ عليهم فَغَرِقُوا.

وقال وهبُ: (استعارَ بنُو إسرائيلَ حُلِيّاً كثيراً من القِبْطِ، ثُم خرجَ بـهم موسى من أوَّلِ الليلِ، وكانوا سبعينَ ألفاً، فأُخْبِرَ فرعونُ بذلك فركِـبَ في ستمائة ألـفٍ مِـن القِبْطِ يَقُصُّ أثرَ بنِي إسرائيل.

فلما رأى قومُ موسَى رَهَجَ الخيلِ - أي غُبَارَها – قـالوا: إنـا لَمُدَركـون، قـال موسى: كلاَّ، إنَّ معي ربي سيهدينِ، فلما قَرُبوا قالوا: يـا موسـى أيـنَ تمضـي البحـرُ أمامَنا وفرعونُ خلفَنا؟!

فضربَ البحرَ بعصاهُ فانفلقَ وصار فيـه اثنـا عشـرَ طريقـاً يابسـةً، لكـلِّ سِـبْطٍ طريقٌ، وصارَ بين كلِّ طريقين كالطَّوْدِ العظيم من الماءِ، وكانوا يَمُرُّونَ في الطريـق ولا يرَى بعضُهم بعضاً، فاستوحَشُوا وخافوا، فجعلَ اللهُ الأطوادَ شـبَكاتٍ يـرَى بعضُـهم بعضاً، ويسمعُ بعضُهم كلامَ بعضٍ.

فلما أتَى فرعونُ الساحلَ ورأى بني اسرائيل قد عَدَوا البحرَ، جاء جبريلُ علـى رَمَكَةٍ[1] طالبةٍ للذكَرِ، وكان فرعونُ على حصانٍ، فأدخلَ الرَّمَكَةَ في الماء فلم يتمـالكِ حصانُ فرعون أن اقْتَحَمَ على إثْرِها، ودخلَ القِبْطُ عن آخرهـم، فلمـا وَلَجُـوا كلُّـهم أوحى اللهُ تعالى إلى البحرِ: أنْ أغْرِقْهُمْ عن آخرهم، فعلاهم الماءُ فغَرِقُوا).

قال كعبٌ: (فَعَرَفَ السَّامِرِيُّ فَرَسَ جِبْرِيْلَ، فَحَمَلَ مِنْ أثـرِهِ تُرَابـاً، وَألْقَـاهُ فِـي الْعِجْلِ حِيْنَ اتَّخَذُوهُ).

---

(١) الرَّمَكَةُ: بفتحتين، الأنثى من البراذين، وجمعها رِمَاكٌ و رَمَكَات، وأرْمَاك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ ؛ أي أضلَّهُم حين دعاهُم إلى عبادتهِ، (وَمَا هَدَى) أي وما أرْشَدَهم حين أوردَهم مواقعَ الْهَلَكَةِ، وهذا تكذيبٌ له في قولهِ ﴿وَمَا أهْدِيكُمْ إلاَّ سَبيلَ الرَّشَادِ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ ؛ يعني فرعونَ أغْرَقَهُ بمرأى منهم، ﴿ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾ ؛ قرأ حمزةُ: (نَجَّيْتُكُمْ... وَوَعَدْتُكُمْ... وَرَزَقْتُكُمْ)[2] بغيرِ الف.

وذلك أنَّ اللهَ وَعَدَ موسى بعد ما أغرقَ فرعون ليأتِي جانبَ الطُّور الأيْمَنَ فيؤتيهِ التوراةَ فيها بيانُ ما يحتاج إليه. ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ في التِّيْهِ، ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ ؛ أي من حَلاَل ما رزقناكم من الْمَنِّ والسَّلْوَى، واشكروا إنعامِي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ ، أي لا تَبْطَرُوا فيما أنعمتُ عليكم فتتَظَالَمُوا، ولا تُجاوزُوا عن شُكري إلى معاصِيّ، ولا تجحدوا نِعمَتِي فتكونوا طاغين، ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ ، أي فتجبُ عليكم عقوبَتِي. قرأ الأعمشُ والكسائيُّ: (فَيَحُلُّ) أي فينْزلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ ؛ أي فقد تَرَدَّ في النار. وَقِيْلَ: معناهُ: فقد هَلَكَ وسقط في النار. وقرأ الكسائيُّ: (وَمَنْ يَحْلُلْ)[3] بضمِّ اللام، قال الفرَّاءُ: (وَالْكَسْرُ أوْلَى مِنَ الضَّمِّ؛ لأنَّ الضَّمَّ مِنَ الْحُلُول وَهُوَ الْوُقُوعُ، وَيَحْلِلُ بالْكَسْرِ يَجِبُ، وَجَاءَ التَّفْسِيْرُ بالْوُجُوب لاَ بالْوُقُوعِ)[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أي لِمَنْ تَابَ مِنَ الشِّرْكِ، وآمَنَ باللهِ وعَمِلَ صالحاً، ثُم استقامَ على معرفةِ اللهِ وأداءِ فرائضه واجتناب مَحَارمِهِ حتى ماتَ على ذلكَ بتوفيقِ اللهِ.

---

(١) غافر / ٢٩ .

(٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي: ج ٣ ص١٤٩.

(٣) ينظر: الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي: ج ٣ ص١٥٠.

(٤) في معاني القرآن: ج ٢ ص١٨٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ الآيةُ، روي: أنَّ موسى لَمَّا ذهبَ مع السبعينَ الذين اختارَهم إلى الميقاتِ ليأخذ التوراة من رَبهِ، تعجَّلَ إلى الميقاتِ قبل السَّبعين شَوْقاً إلى رَبهِ، وخَلَفَ أولئكَ السبعين وأمَرَهم أن يلحقوهُ ويتبعوه إلى الجبلِ وهو الطُّورُ والميقاتُ، فقال اللهُ تعالى لهُ: (وَمَا أعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى) ﴿ قَالَ ﴾ ؛ أي موسى: يا رب، ﴿ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي ﴾ ؛ أي هُم أولاء يجيئون بعدي، ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي لتزدادَ رضىً عنّي، والرِّضَى من اللهِ إيجابُ الدرجةِ والكرامة لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾ أي ابتَلَينا قومَكَ الذين خلفتَهُم مع هارون وكانوا ستمائة ألفٍ. وقال الزجَّاجُ: (مَعْنَى: فَتَنَّا قَوْمَكَ؛ أيْ ألْقَيْنَاهُمْ فِي فِتْنَةٍ وَمِحْنَةٍ)، وقال ابنُ الأنباريِّ: (صَيَّرْنَاهُمْ مَفْتُونِيْنَ أشْقِيَاءَ بعِبَادَةِ الْعِجْلِ، فَافْتَتَنُوا بالْعِجْلِ غَيْرَ اثْنَي عَشَرَ ألْفاً). قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ بَعْدِكَ) أي مِن بعد انطلاقِكَ إلى الجبلِ، قولهُ (وَأضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) أي دَعَاهُمْ إلى عبادةِ العجل وحَمَلهم عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ ؛ أي رَجَعَ من الميقاتِ إلى السبعين، إلى قومهِ. فلما سَمِعَ صوتَ الفتنةِ رجعَ (غَضْبَانَ أسِفاً) أي حَزيناً شديدَ الحزن جَزعاً مع عصبة و ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ ؛ أي ألَمْ يَعِدْكُمْ إنزالَ التوراةِ لتعملُوا بما فيها فتستحقُّوا الجنةَ والكرامة الدائمة، ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ ﴾ ؛ مدَّةُ مُفارقَتي إياكم، ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ بأن يَنْزلَ بكم بعبادتكم العجلَ، ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ ما وَعَدَ الْمَوْلَى منْ حُسنِ الخلافة بعدي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ ﴾ ؛ أي الذين لَم يعبدوا العجلَ، ﴿ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ ، ونحنُ نَملكُ من أمرنا شيئاً؛ أي لَم نُطِقْ رَدَّ عَبَدَةِ العجلِ مِن ما ارتكبوهُ لكثرَتِهم وقِلَّتِنا؛ لأنَّهم اثنا عشر ألفاً، والذين عَبَدُوا العجلَ خَمسُمائة ألفٍ وثمانية وثمانون ألفاً؛ لأنَّهم كانوا جميعاً ستُّمائة ألف.

وأكثرَ القُرَّاءُ (بِمِلْكِنَا) بالكسرِ أي بأمرنا. ومَن قرأ بفتحِ الميم فهو المصدرُ، ومَن قرأ بضمِّ الميم فمعناه: بسُلطاننا وقُدرتنا؛ أي لَم نقدِرْ على ردِّهم[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ﴾ ؛ أي أثقَالاً وحمالاً من حِلِيِّ آلِ فرعون، والوِزْرُ في اللغة: هو الْحِمْلُ الثقيلُ، وذلك أن موسَى كان أمرَهم أن يستعيرُوا مِن حِلِيِّهم حين أرادوا أن يَسْرُوا، هكذا روي عن ابنِ عباس. وَقِيْلَ: إنهم كانوا استعارُوها؛ ليتزيَّنُوا بها في عِيْدٍ كان لَهم، ثم يردُّوها عليهم عند الخروجِ، وكان ذلك ذنباً منهم، فعلى ذلك يكونُ معناه: حُمِّلْنَا آثاماً مِن حِلِيِّ القوم[(٢)].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَذَفْنَٰهَا ﴾ ؛ أي فقَذفْنَا الحِلِيَّ في النار ليُذابَ، ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ ما معهُ من الحليِّ كما ألقينا، وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قد وقَّتَ لِموسى ثلاثينَ ليلةً ثُم أتمَّها بعشرٍ، فلما مضت الثلاثونَ قال السامريُّ: إنَّما أصابَكم هذا عقوبةٌ لكم بالحليِّ الذي معكم، فاجْمَعُوها حتى يجيءَ موسى فيقضي فيها، فجُمعت لهُ، فصنعَ منها العجلَ في ثلاثةِ أيَّام، ثُم قَذفَ فيه القبضةَ التي[(٣)] اتخذها من أثرِ فرسِ جبريلَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ ؛ أي أخرجَ لَهم من النار صورةَ عِجْلٍ صاغَها من الحليِّ، قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَهُ خُوَارٌ) أي صَوْتٌ كصوتِ العجلِ.

واختلفوا في هذا الْخُوَار؛ قال مجاهدُ: (خُوَارُهُ حَفِيْفُ الرِّيْحِ إذا دَخَلَتْ جَوْفَهُ، وَذلِكَ أنَّهُ كَانَ جَعَلَ فِي جَوْفِ الْعِجْلِ خُرُوقاً إذا دَخَلَتْهَا الرِّيْحُ أوْهَمَ أنَّهُ يَخُورُ). قال الحسنُ وقتادة والسديُّ: (كَانَ السَّامِرِيُّ ألْقَى عَلَيْهِ شَيْئاً مِنْ أثرِ فَرَسِ جِبْرِيْلَ كَمَا قَالَ:

(١) ينظر: جامع البيان: ج ٩ ص٢٤٥.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٨٣٠١).
(٣) في المخطوط: (الذي).

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾(١)، فَانْقَلَبَ الْعِجْلُ حَيَوَاناً يَخُورُ) أي وكان معلوماً في ذلكَ الزمانِ أنَّ مَن أخذ من حافرِ دابة مَلَكٍ، فألقاها على شيءٍ صارَ ذلك الشيءُ حيواناً.

قالوا: وإنَّما عَرَفَ أن راكبَ تلك الدَّابة جبريلُ؛ لأنَّها كانت لا تضعُ حافِرَها على موضعٍ إلاَّ اخْضَرَّ. ويروَى أن هارونَ مَرَّ بالسامريِّ وهو يصنعُ العجلَ، فقالَ لهُ: ما تصنعُ ؟ قال: أصنعُ ما ينفع ولا يضرُّ، ثُم قال لِهارون: ادعُ لِي، فقال: اللَّهُمَّ أعْطِهِ ما يسألُ كما يحبُّ، فسألَ اللهَ أن يجعلَ للعجلِ خُواراً، فكان الخُوارُ يخرج من ذلك الجسدِ الْمُجَسَّدِ كما يخورُ الثور، فأوهَمَهم السامريُّ أنه حَيٌّ فافتتنَ به قومٌ فعبدوه، ولو رجَعُوا إلى عُقولِهم لعرفوا أنه لا يصلحُ أن يكون إلَهاً؛ لأنه مصنوعٌ صنعةَ آدميٍّ مخلوقٍ من حُلِيٍّ مخلوقة(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ﴾ ؛ أي قال لَهم السامريُّ ذلك ووافقهُ قومٌ على ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ ؛ أي فنسِيَ السامريُّ الإسلامَ؛ أي فتَركَهُ، وَقِيْلَ: معناه: قال السامريُّ لِمن وافقَهُ على كُفْرِهِ: إن موسَى أرادَ هذا العجلَ، فترك الطريق الذي كان يصلُ إليه؛ أي أن موسى تركَ إلَهَهُ هنا، وذهبَ يطلبهُ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ ؛ أفلاَ يرى السامريُّ وأصحابهُ (أنَّهُ) يعني العجلَ لا يَرُدُّ إليهم جواباً، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ ؛ جرَّ منفعةٍ ولا دفعَ ضُرٍّ شيءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ ؛ وذلكَ أن السامريَّ لَمَّا دعاهُم إلى عبادةِ العجل وقال لَهم: إنَّ هذا إلَهُنا وإلهُ موسى، وأن موسَى مَعْنِيٌّ في طلبهِ، وهو ههنا.

---

(١) طه / ٩٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٨٣٠٧-١٨٣٠٨).

فقامَ هرونُ فيهم خطيباً، وقالَ: يَا قَوْمِ إنَّمَا فُتِنْتُمْ بعبادةِ العجلِ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ ؛ لا العجلُ، ﴿ فَٱتَّبِعُونِي ﴾ ؛ لِما أدعوكم اليه، ﴿ وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ۝٩٠ ﴾ ؛ لا أمرَ السامريِّ، فَعَصَوْهُ؛ ﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ ﴾ ؛ أي لا نزالُ مقيمين على عبادتهِ، ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝٩١ ﴾ ؛ ومعنى قولهِ تعالى (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ) أي من قبلِ أن يأتِي موسى.

فلما رجعَ موسى؛ ﴿ قَالَ ﴾ لِهارون: ﴿ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ ﴾ ؛ بعبادةِ العجل، ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ ؛ لا زائدةٌ؛ أي ما منعكَ من اتِّباعي واللحوقِ بي بمَن أقامَ على إيْمَانِهِ، ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۝٩٣ ﴾ ؛ بإقامتِكَ بينهم وقد كفروا، ثُم أخذ موسى برأسِ هارون ولِحيَتِه غضباً منهُ عليه فـ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ ؛ ولا بشعرِ راسي، ﴿ إِنِّي خَشِيتُ ﴾ ؛ إن فارقتُهم واتبعتك بمن أقامَ على دِينك أن يتفرَّقُوا أحزاباً، وخشيتُ أن يَقْتُلَ بعضُهم بعضاً و ﴿ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ ﴾ ؛ أي ولَم تحفَظْ، ﴿ قَوْلِي ۝٩٤ ﴾ ؛ وصيَّتِي، ولَم تنتَظِر قُدُومِي وأمري، فلذلك لَم أتَّبعْكَ بمن أقامَ منهم على دِينك.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ هَارُونُ أخَا مُوسَى لأَبِيْـهِ وَأُمِّـهِ، وَإنَّمَا قَالَ: يَا ابْنَ أمِّ ليرفقَهُ ويستعطفه عليه)، وفي قولهِ (يَا ابْنَ أمَّ) قِرَاءَتان، مَن قرأ بفتح الميمِ جعلهُ بمنْزلة اسمٍ واحد يصلُ الثانِي بالأول، مثلُ خمسةَ عشر، ومَن قرأ بالكسرِ فعلى معنى الإضافة، ودلَّتْ كسرةُ الميم على الياءِ التي بعدها.

فإن قِيْلَ: كيف جازَ أن يأخذ موسى بلحيةِ هارون ورأسه مع أن ذلك يقتضِي الاستخفافَ به؟ قِيْلَ: لأن العادةَ في ذلك الوقتِ لَم تكن كهذهِ العادة، بل كان ذلكَ في زمانِهم يجري مجرَى القبضِ على يده، وَقِيْلَ: لأنه أجرَى هرون مُجرى نفسهِ؛ لأنه لَم يكن يتَّهم، كما لا يتهم على نفسهِ، فقد يأخذُ الإنسانُ بلحيةِ نفسهِ إذا غَضِبَ، ويقال: (إنَّ عُمَرَ ﷺ كَانَ إذا غَضِبَ يَفْتِلُ شَارِبَهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أفَعَصَيْتَ أمْرِي) أي فتركتَ وصيَّتِي، قَوْلُـهُ تَعَالَى: (وَلَـمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) يعني: ولَم تحفَظْ وصيَّتِي حين قلتُ لكَ اخلفني في قومي وأصلِحْ.

فلما اعتذرَ هارونُ بهذا العذر أقبلَ موسى على السامريِّ؛ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ أي ما شأنُكَ وما الذي دعاكَ إلى ما صنعتَ ؟ وَقِيْلَ: معناه: ما هذا الْخَطْبُ العظيم الذي دعاكَ إلى ما صنعتَ، والْخَطْبُ هو الجليلُ من الأمرِ.

قال قتادةُ: (كَانَ السَّامِرِيُّ مِنْ عُظَمَاءِ بَنِي إسْرَائِيْلَ، مِنْ قَبيْلَةٍ يُقَالُ لَهَا سَامِرَةٌ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ مَا قَطَعَ الْبَحْرَ مَعَ بَنِي إسْرَائِيْلَ مَرَّ بجَمَاعَةٍ وَهُمْ يَعْكِفُونَ عَلَى أصْنَامٍ لَهُمْ وَمَعَهُ بَنُو إسْرَائِيْلَ، فَقَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، فَاغْتَنَمَهَا السَّامِرِيُّ فَاتَّخَذ الْعِجْلَ)، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ السَّامِرِيُّ مُجيباً لِموسى: ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ ؛ أي رأيتُ ما لَم يَرَوا، بَصُرْتُ به، وعرفتُ ما لَم يعرفوا وفطنتُ ما لَم يفطنوا، قال له موسى: وما الذي بَصُرْتَ به دون بني إسرائيل؟

قال: ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ ؛ من حافرِ فرسِ جبريل، وكان قد ألقي في نفسِي أن أقبضها؛ وما ألقيهِ على شيءٍ إلاّ صارَ له روحٌ ولَحم ودمٌ، فحين رأيتُ قومَكَ طلبوا منكَ أن تجعل لَهم إلَهاً حدَّثتني نفسي بذلكَ، ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي فطرحتُها في العجلِ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي زَيَّنَتْ لِي نفسي من أخذِ القبضة وإبقائها في صورةِ العجل. وَقِيْلَ: معناهُ (وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) أي أطمَعَتني نفسي في أن العجلَ ينقلبُ حيواناً.

وقرأ الحسنُ: (فَقَبَصْتُ قَبْصَةً)[1] بالصاد فيهما، والفرقُ بينهما أن القبضَ بجميع الكفِّ، والقبصَ بأطرافِ الأصابع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ ؛ أي قال موسَى: فَاذهَبْ مِن بيننا، فإن لكَ ما دُمْتَ حيّاً أن تقولَ:(لاَ مِسَاسَ) أي لا أمَسُّ ولا أمَسُّ ولا أخالطُ، وأمرَ موسى أن لا يؤاكلوهُ ولا يُخالطوه ولا يبايعوهُ، فَحَرَّمَ عليهم مخالطةَ السامريِّ زَجْراً لفعلِهِ، وكان هو يقيمُ في البريَّة مع الوحوشِ والسِّباع.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٨٣٣٢).

ويقالُ: إنه ابْتُلِيَ بالوَسْوَاسِ، ويقال: إنَّ موسى هَمَّ بقتلِ السامريِّ فقال اللهُ: لا تقتُلْهُ فإنه سخيٌّ! فكان السامريُّ إذا لَقِيَ أحداً يقولُ: لاَ مِسَاسَ؛ أي لا تَقْرَبْنِي ولا تَمسَّنِي، وذلك عقوبة لهُ ولولدِهِ، عَاقَبَهُ اللهُ بذلك حتى أن بقايَاهم اليومَ يقولون كذلكَ. وذُكِرَ أنه إذا مَسَّ واحدٌ من نَسْلِهِ أحداً من غيرِهم حَمَّ كلاهُما في الوقت. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ ؛ معناهُ: وإن لكَ يا سامريُّ أجَلاً يُكَافِؤُكَ اللهُ فيه على ما فعلتَ وهو يومُ القيامة.

قرأ الحسنُ وابن مسعود: (نُخْلِفَهُ)[1] وابن كثير وابن عامرٍ (تُخْلِفَهُ) بكسرِ اللام؛ أي لن يغيبَ عنه بل يوافقهُ، ولا مذهبَ لك عنه، وقرأ الباقون بفتحِ اللام بمعنى لن يَخْلَفَهُ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ﴾ ؛ أي وانظر إلى العجلِ الذي أقمتَ على عبادتهِ، وزعمتَ أنه إلَهُكَ ومعبودُك، ﴿ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ ؛ أي مُقيماً تعبدهُ، تقولُ العرب ظَلْتُ أفْعَلُ كذا بمعنى ظَلَلْتُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (حَرَّقَهُ بالنَّار، ثُمَّ ذرَّاهُ فِي الْيَمِّ) وهذه القراءة تدلُّ على أن ذلك العجلَ صار حيواناً لَحماً ودماً لأن الذهبَ والفضَّة لا يُمكن إحراقُهما بالنار.

وذُكِرَ في بعضِ التفاسير: أن موسى أخذ العجلَ فذبَحَهُ فسالَ منه دمٌ، لأنَّه كان قد صارَ دماً ولحماً، ثُم أحرقه بالنار ثم ذرَّاهُ في البحرِ[2].

وكان الحسنُ يقرأ (لَنُحْرِقَنَّهُ) بالتخفيف، ومعناه: لَنَذْبَحَنَّهُ ثم لنحرقنه بالنار، لأنه لا يجوزُ إحراقُ الحيوانِ قبل الذبحِ كما روي في الخبر: [لاَ تُعَذِّبُوا أحَداً

---

(١) سقطت من المخطوط: (وابن مسعود: نُخْلِفَهُ). وفي الكشاف: ج ٣ ص٨٣؛ قال الزمخشري: (وعن ابن مسعود: (نَخْلِفَهُ) بالنون، أي لن يخلفه الله). وفي اللباب في علوم الكتاب: ج ١٣ ص٣٧٥؛ قال ابن عادل:(وابن مسعود والحسن بضم نون العظمة وكسر اللام). وقال: (والمعنى: لن يُخْلِفَ اللهُ مَوْعِدَهُ الذي وعَدَكَ).

(٢) ذكره البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص٨٢٦.

بعَذاب اللهِ][1].

وقرأ أبو جعفرٍ وأشهبُ العقيلي: (لَنَحْرُقَنَّـهُ) بنصـب النـون وضـمِّ الـراء؛ أي لَنَبْرُدَنَّهُ بالْمِبْرَدِ، يقال: حرقتُ الشيءَ أحرِقـهُ اذا بَرَدْتـهُ[2]، والْمِحْـرَقُ هـو الْمِـبْرَدُ، وهذه القراءةُ تدلُّ على أن العجلَ كان ذهباً، ولكن كان له خُوار. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (ثُـمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً) أي لَنُذرِّيَهُ في البحرِ تذريةً، يقالُ: نَسَفَ فلانٌ الطعامَ بالْمَنْسَفِ إذا ذرَّاهُ ليطيرَ عنه قشوره وترابه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ أي قـال لَـهم موسى: (إنَّمَا إلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ) أي لا معبودَ للخلق سـواهُ، فـهو الـذي يستحقُّ العبادةَ لا العجـلَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ أي أحاطَ علمهُ بكلِّ شيء، فلا يخفَى عليه شيءٌ من أعمال العباد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ ؛ أي كمـا قصَصْنا عليكَ يا مُحَمَّدُ خبرَ موسى وقومِهُ كذلك نقـصُّ عليـك مِـن أخبـار مَـن قـد مضَى وتقدَّمَ من أخبار الرُّسل وأمَمِهم، ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ ﴾ أي وقد أكرمناكَ بالقُرْآنِ العظيم.

قَوْلُـهُ تَعَـــالَى: ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ أي مَن أعرضَ عن القُرْآن فلم يؤمِنْ به فإنه يَحْمِلُ يوم القيامة إثْماً. والوِزْرُ هـا هنـا: الْحِمْلُ الثقيلُ من الإثـم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ﴾ ؛ أي مُقيمـين في عقوبـةِ ذلك الإثمِ وعذابِهِ، ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ أي سـاء وِزْرُهُـم، يومئذ حملاً.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد والسير: الحديـث (٣٠١٧). والـترمذي في الجـامع: كتاب الحدود: باب ما جاء في المرتد: الحديث (١٤٥٨).

(٢) في مختار الصحاح: (حرق) قـال الـرازي: (و(حَـرَق) الشـيء بـالتخفيف، بَـرَدَهُ وحـكَّ بعضَـهُ ببعض).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ ﴾ ؛ قرأ أبو عمرٍو بنون مفتوحةٍ، وقرأ الباقون بياءٍ مَضمومة غير تسمية الفاعل، والصُّورُ: قَرْنٌ يُنْفَخُ فيه يومئذٍ؛ ليقومَ النَّاسُ من قبورهم مثلَ بُوقِ الرَّحيل وبوقِ النُّزول.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ ، قِيْلَ: معناهُ: قد ازْرَقَّتْ أعيُنهم من شدَّة العطشِ؛ لأن العطشَ إذا اشتدَّ يغيِّرُ سوادَ العينِ إلى الزُّرقة. وَقِيْلَ: معناهُ: عُمْياً، ومعنى الزُّرقَةِ الْخُضْرَةُ في سَوادِ العين كعَيْنَي السَّنُّور، والمعنى في هذا: تشويهُ الْخَلْقِ سوادُ الوُجوهِ، وزُرْقَةُ العيون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي يَتَشَاوَرُونَ فيما بينهم، يقولُ بعضُهم لبعضٍ: ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ أي ما لَبثْتُمْ من النَّفخة الأُولى إلى الثانيةِ إلاّ عشرَ ليال، وذلك أنَّهم يُكَفُّ عنهم العذابُ فيما بين النَّفختين وهو أربعونَ سنةً، فاستَقْصَرُوا مدَّةَ لُبْثِهِمْ لِهولِ ما عاينوا. وَقِيْلَ: معناهُ: يقولون ما لَبثْتُمْ في الدُّنيا إلاَّ عشرَ ليالٍ، وذلك لشدَّة ما يَرَوْنَ من هَوْلِ يوم القيامة يَنْسُونَ ما لَبثوا في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ ؛ أي أعلَمُهم عندَهم، ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ نَسَوا مقدارَ لُبْثِهِمْ لشدَّة وهمِهم، فقالوا هذا القولَ وهو كذبٌ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ ؛ أي يسألُكَ الكفارُ عن حال الجبال يومَ القيامة: أينَ تذهبُ مع عِظَمِهَا. وقال ابنُ عبَّاس: (سَأَلَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيْفٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ، كَيْفَ تَكُونُ الْجِبَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ أي يُصَيِّرُها رَمْلاً تسيلُ سَيلاً، ثُم يرسلُ عليها الرياحَ فتفرِّقُها كتَذْرِيَةِ الطعامِ من القشُور والتراب، فيصيِّرُها كالْهَبَاءِ وكالصُّوف المنفوشِ.

---

(١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٢٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ أي أرْضاً ملساءَ مستويةً لا نَبَاتَ فيها، والصَّفْصَفُ: الأَمْلَسُ الذي لا نباتَ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (الْعِوَجُ: الأَوْدِيَةُ، وَالأَمْتُ: الرَّوَابي)[1]، وقال مجاهدُ: (انْخِفَاضاً وَارْتِفَاعاً)[2]، وقال قتادةُ: (لاَ تَرَى فِيْهَا صَدْعاً وَلاَ أَكَمَةً)[3]، وقال الحسنُ: (الْعِوَجُ: مَا انْخَفَضَ مِنَ الأَرْضِ، وَالأَمْتُ: مَا يَسْتُرُ مِنَ الرَّوَابي)، ويقالُ: مَدَّ حَبْلَهُ حتى ما تركَ فيه أمتاً، وملأ سقَاءه حتى ما ترك فيه أمتاً؛ أي انثناءً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ ؛ أي يومئذٍ يتَّبعون داعِيَ اللهِ الذي يدعوهم إلى موقفِ القيامة وهو اسرافيلُ لا عِوَجَ لدعائهِ، وَقِيْلَ: لا عِوَجَ لَهم عن دعائهِ؛ أي لا يزيغون عنه، بل يَتْبَعُونَهُ سَرَايا لا يُعدِلُون عن الطريقِ يَميناً ولا شِمالاً ولا يَملكون التأخُّرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ ؛ أي ذلَّتِ الأصواتُ لِهَيْبَةِ الرَّحمنِ، وَقِيْلَ: سَكَنَتِ الأصواتُ لهُ، فَوَصَفَ الأصواتَ بالخشوعِ، والمعنى لأهْلِها، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي إلاَّ صَوتاً خَفيّاً يعني صوتَ نقل الأقدامِ إلى الْمَحْشَرِ.

والْهَمْسُ: الصوتُ الخفيُّ كأخفافِ صوت الإبل في المشي. وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى الْهَمْسِ تَحْرِيْكُ الشِّفَاهِ بغَيْرِ مَنْطِقٍ) وهو قولُ مجاهد[4]، والكلامُ الخفيُّ، والمعنى على هذا التفسيرِ: سَكَنَتِ الأصواتُ فلا يَجْهَرُ أحدٌ بكلامٍ إلاّ كالمشيرِ مِن الإشارة بالشَّفَةِ، وتحريكِ الفمِ مِن غيرِ صوتٍ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٣٥٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٣٥٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٣٦٠)

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٣٦٧). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦٠٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ ؛ أي لا تنفعُ لأحدٍ من الناس إلاّ مَن أذِنَ اللهُ أن يُشْفَعَ له فذاك الذي تنفعهُ الشفاعة، وَقِيلَ: لا تنفعُ شفاعةُ أحدٍ إلاّ مَن أذِنَ له الرَّحمنُ في أن يَشْفَعَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا وهم المؤمنونَ، فإنَّ اللهَ لا يرضَى إلاّ قول المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ؛ هذا كنايةٌ راجعة إلى الَّذين يتَّبعون الداعيَ؛ أي يعلمُ ما قدَّمُوا واخلَفُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ الكنايةُ تعودُ إلى ما في قولِه (مَا بَيْنَ أيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) أي هو يعلمُ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ ؛ أي ذلَّتِ الوجوهُ وخضعت واستسلَمَت للحيِّ الذي لا يَموتُ، القائمُ الذي لا نِدَّ لهُ، والعَانِي في اللغة: هو الأسيرُ، ومنهُ قولُهم: أخذتَ الشيءَ عُنْوَةً؛ أي غَلَبَةً بدلَّ المأخوذ منه، قال الشاعرُ:

مَلِيْكٌ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيْمِنٌ   لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ

وقال الحسنُ: (الْقَيُّومُ: الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ حَتَّى يَجْزِيَهَا). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ أي خابَ مِن ثواب الله مَن حَمل شِركاً، ومعنى خابَ أي خَسِرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا ﴾ ؛ في سيِّئاته، ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ بالنُّقصان من حسناتهِ، والْهَضْمُ: النَّقْصُ؛ يقال: هَضَمَنِي فلانٌ حَقِّي؛ أي نَقَصَنِي، وهذا شيءٌ يَهْضِمُ الطعامَ أي ينقصُ نقله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ ؛ أي وهكذا أنزلناهُ قُرْآناً على اللُّغة العربية، ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ ﴾ ؛ أي وكرَّرْنا فيه، ﴿ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ؛ وَقِيلَ: معنى (وَصَرَّفْنَا) أي بَيَّنَّا فِيْهِ مِنَ الْوَعِيْدِ، يعني الوقائعَ في الأممِ الْمُكَذِّبَةِ؛ لكي يَتَّقُوا الشِّركَ بالاتِّعاظ بمن قبْلَهم، ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ أي يُحْدِثُ لَهمُ الْقُرْآنُ اعتباراً فيذكروا به عقابَ الله، وَقِيلَ: معناهُ: أوْ يُحْدِثُ لَهُمْ

ذِكْراً شَرفاً بإيْمانِهم، كما قالَ تَعَالَى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْـرٌ لَـكَ وَلِقَوْمِـكَ﴾(١) أي شَـرَفٌ لـكَ ولقومك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي ارتفعت صفةُ الرَّحمن فـوقَ كلِّ شيءٍ سواهُ، لأنه أقدرُ من كلِّ قادرٍ، وأعلمُ من كلِّ عالِمٍ، وكلُّ قادرٍ وعالِمٍ سـواهُ مُحْتَاجٌ إليه، وهو غَنِيٌّ عنه، قولهُ (الْمَلِكُ الْحَقُّ) أي يَحِقُّ له الْمُلْكُ، وإن كان مَلِـكٌ سواهُ يَملكُ بعضَ الأشياء ويبيد مُلْكَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ ؛ قال الحسنُ: [كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا أنْزلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ عَجَّلَ بقِرَاءَتِه مَخَافَةَ نِسْيَانِهِ، وكَـانَ يَقْرَأ مَعَ الْمَلَكِ مَخَافَةَ أنْ يَذْهَبَ عَنْهُ، فَنُهِيَ عَنْ ذلِكَ] فَقَالَ (وَلاَ تَعْجَـلْ بـالْقُرْآن) أيْ بقِرَاءَتِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ يَفْرَغَ جِبْرِيْلُ مِـنْ تِلاَوَتِـهِ عَلَيْـك)(٢). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ ؛ أي زِدْنِي حِفْظاً لا أنساهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي أمَرْنَـاهُ أن لا يـأكلَ مِن الشَّجرةِ مِن قَبْلِ هؤلاء الذين نَقَضُوا عهدي، وترَكُـوا الإيْمـانَ بـي، وهـمُ الذيـن ذكَرَهم اللهُ في قولِهِ (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)، والمعنى أن هؤلاءِ الذيـنَ صَـرَّفَ لَـهم في القُـرآنِ الوعيدَ إذ ضيَّعُوا عـهدي وخـالَفُوا أمـري، فـإنَّ أبَـاهُم آدمُ عليه السلام عَـهدْنا إليـه أيضـاً، ﴿ فَنَسِيَ ﴾ ؛ وتركَ عهدِي وما أُمِرَ بهِ، ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ أي لَم نَجِدْ له حِفْظاً لِمَا أمَرْنَا به.

وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: وَلَمْ نَجِدْ لَهُ صَبْراً عَمَّـا نُـهِيَ عَنْـهُ، وَلَـمْ نَجِـدْ لَـهُ رَأيـاً مَعْزُوماً عَلَيْهِ)، حيثُ أطاعَ عَدُوَّهُ إبليسَ الذي حَسَدَهُ وأبَى أن يسجُدَ لهُ. قال الحسـنُ: (كَانَ عَقْلُ آدَمَ كَعَقْلِ جَمِيْعِ ذُرِّيَّتِهِ)، قال اللهُ (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً). وجـاءَ في الحديـث: [لَوْ وُزِنَ حِلْمُ بَنِي آدَمَ مُـنْذُ كَـانَ آدَمُ إلَـى أنْ تَقُـومَ السَّـاعَةُ لَرَجَـحَ حِلْـمُ آدَمَ عَلَـى

(١) الزخرف / ٤٤ .

(٢) أخرجـه ابـن أبـي حـاتم في التفسـير: ج ٧ ص٢٤٣٧. وفي الـدر المنثـور: ج ٥ ص٦٠٢؛ قـال السيوطي: ((أخرجه الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه)).

حِلْمِهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ ؛ أي لكَ ولامرأتِكَ، فلا تُميلاَ إليه، ولا تعيلاَ منهُ، ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ ؛ أي فيكونُ ذلك سببَ خروجكما، ﴿ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ ؛ إلى شَدائدِ الدنيا وجُوعِها وعطَشِها وفقْرِها وتعبها في طلب المعاش، وهذا معنى قولهِ: ﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ ؛ أي تتعبُ بالأكلِ من كَدِّ يدِكَ، وما تكسبهُ لنفسك، والمعنى: إنَّ عيشَكَ لا يكونُ إلاّ من كَدِّ يَمينك وعرق جبينك. قال سعيدُ بن جبير: (أهْبَطَ اللهُ إلَى آدَمَ ثَوْرَيْنِ، فَكَانَ يَحْرِثُ عَلَيْهِمَا، وَيَمْسَحُ الْعَرَقَ عَنْ جَبِيْنِهِ)[2] فهو شقاؤُهُ الذي قَالَ اللهُ تَعَالَى، وكان مِن حَقِّهِ أن يقولَ: فَيَشْقَيَا أو تَشْقَى أنتَ وزوجُكَ، لكن غَلَّبَ المذكَّرَ؛ لأن تَعَبَهُ أكثرُ، وَقِيْلَ: لأجلِ رُؤُوسِ الآي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ ﴾ ؛ أي إنَّكَ ما دُمْتَ مُقيماً في الجنَّة على طاعةِ الله فلا تجوعُ فيه ولا تَعْرَى؛ أي لكثرة أثمارها وأثوابها ونعيمِها، ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا ﴾ ؛ أي لا تعطشُ، ﴿ وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ ؛ أي ولا تَبْرُزُ إلى الشَّمسِ؛ لأنه ليس في الجنَّة شَمسٌ، إنَّما هو ظِلٌّ ممدودٌ. وقرئ: (وَإنَّكَ لاَ تَظْمَأُ) بكسرِ الهمزة عطفاً على (إنَّ لَكَ أنْ لاَ تَجُوعَ)، وقرئ بالنصب عطفاً على (أنْ لاَ تَجُوعَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ؛ أي وَسْوَسَ لهُ ليأكلَ من الشجرةِ فـ ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾ ؛ أي على شجرةٍ مَن أكلَ منها خُلِّدَ ولَم يَمُتْ، ﴿ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ؛ وَ يبقى في ملك لا يبلى ولا يفنَى.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور موقوفاً على محمَّد بن كعب: ج ٥ ص٦٠٤؛ وقال: ((أخرجه ابن المنذر)). وذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب موقوفاً على أبي أمامة الباهلي: ج ١٣ ص٤٠٢.

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٦٠٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ ؛ أي أكلَ آدمُ وحوَّاءُ من الشجرة على وجهِ الخطأ في التأويلِ لا تعمُّداً في المعصيةِ إذ الأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ لا يُقيمون المعصيةَ، وهم أشدُّ خوفاً من الله أن يفعلُوا ذلك. لأنَّ بعضَ المفسِّرين قالَ: إن اللهَ تعالى أشارَ بالنَّهي إلى شجرةٍ بعينِها، فقال لهُ: لا تأكُلْ من هذه الشجرةِ، وأرادُوا جنسَ تلك الشجرة، فنَسِيَ آدمُ الاستدلالَ بذلك على الجنسِ، فحملَ النهيَ على العينِ. وهذا كما رُوي عن النبيِّ ﷺ: أنَّهُ أخَذَ الذهَبَ بإحْدَى يَدَيْهِ، وَالْحَرِيْرَ بالأُخْرَى، وَقَالَ: [هَذَانِ حَرَامَانِ عَلَى ذُكُورِ أمَّتِي، حِلٌّ لإنَاثِهِمْ][1] وأرادَ به الجنسَ دون العينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ ؛ أي ظهرت لَهما عوراتُهما، وإنَّما جمع السَّوءَاتِ ولَم يثنِّهما؛ لأن كلَّ شيءٍ من شيءٍ فهو جمعٌ في موضعِ التثنيةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا ﴾ ؛ أي جعلاً يقطعان عليهما، ﴿ مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ ؛ ويجعلانه على سوءاتِهما.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ ﴾ ؛ أي عصاهُ بأكلِ الشجرةِ، ﴿ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ ؛ أي فعَلَ ما لَم يكن لهُ فِعْلُهُ. وَقِيْلَ: ضَلَّ حين طلبَ الْخُلْدَ بأكلِ ما نُهيَ عن أكلهِ. وَقِيْلَ: الغَيُّ الفسادُ؛ أي فَسَدَ عليه عيشهُ، وَقِيْلَ: (فَغَوَى) أي أخطأ، وَقِيْلَ: خابَ في طلبه في أكلِ الشجرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ ﴾ ؛ أي اجتباهُ للرِّسالة، وَقِيْلَ: قرَّبَهُ، ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ ؛ إلى ذِكْرِهِ، وَقِيْلَ: اصطفاهُ فتابَ عليه وهداهُ حين قال ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفُسَنَا﴾[2] الآيةُ.

---

(١) عن عمر بن الخطاب؛ أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٣٦٢٩). في مجمع الزوائد: ج ٥ ص١٤٣؛ قال الهيثمي: ((وفيه عمرو بن جرير وهو متروك)). و عن علي بن أبي طالب؛ أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الصلاة: باب الرخصة في الحرير والذهب للنساء: الحديث (٤٣٢٠).

(٢) الأعراف / ٢٣ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ ؛ قد تقدم تفسيره، قوله تعالى: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ؛ يعني آدمَ وذريَّته وإبليسَ وذريَّته، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ ؛ أرادَ به الكتابَ والرَّسُولَ، ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾ ؛ أي مَنِ اتَّبَعَ الكتابَ والرسول، ﴿ فَلَا يَضِلُّ ﴾ في الدُّنيا، ﴿ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ في الآخرةِ. قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (ضَمِنَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِهِ أنْ لاَ يَضِلَّ وَلاَ يَشْقَى)[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ ؛ أي عن مَوْعِظَتِي، وَقِيْلَ: عن القُرْآنِ فلم يؤمِنْ به ولَم يَتَّبعْهُ، ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ ، الضَّنْكُ: الضِّيقُ والشدةُ والصُّعوبَةُ. قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي أنَّ عَيْشَهُ يَكُونُ مُنَغَّصاً عَلَيْهِ غَيْرَ مُوقِنٍ بالْخَلْفِ وَالْجَزَاءِ)، وقال عبدُالله بنُ مسعودٍ وأبو سعيدٍ الخدريُّ والسديُّ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (مَعِيْشَةً ضَنْكاً) عَذابُ الْقَبْرِ؛ يَضِيقُ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ أضْلاَعُهُ)[(٢)]، وقال الحسنُ: (هُوَ الضَّرِيْعُ وَالزَّقُّومُ فِي النَّار)، قال عكرمةُ: (هُوَ أكْلُ الْحَرَامِ فِي الدُّنْيَا الَّذِي يُؤَدِّيْهِ إلَى النَّار).

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [أتَدْرُونَ مَا الْمَعِيْشَةُ الضَّنْكَةُ؟] قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، قَالَ: [عَذابُ الْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّهُ لَيُسَلَّطُ عَلَيْهِ تَسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّيناً، لِكُلِّ تِنِّينٍ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ، يَنْهَشُونَهُ وَيَلْسَعُونَهُ وَيَخْدِشُونَ لَحْمَهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَوْ أنَّ تِنِّيناً نَفَخَ فِي الأَرْضِ لَمْ تُنْبِتْ شَيْئاً][(٣)]. وقال ابنُ زيد: (الْمَعِيْشَةُ الضَّنْكَى: الزَّقُّومُ وَالْغِسْلِيْنُ وَالضَّرِيْعُ)، وقال الضحَّاكُ: (الْكَسْبُ الْخَبِيْثُ)، وَقِيْلَ: إذا كان العبدُ سَيِّءَ الظنِّ باللهِ ضاقَ عليه عيشهُ وَضَنِكَ. وقال ابنُ جبير: (معنى قوله: (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً) أي سَلَبَهُ الْقَنَاعَةَ حَتَّى لاَ يَشْبَعَ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٤٠٨). وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٧ ص٢٤٣٨.

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٦٠٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق وسعيد بن منصور ومسدد في مسنده وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في عذاب القبر عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً)).

(٣) رواه ابن حبان في الصحيح: الحديث(٣١٢٢). والآجري في الشريعة:ج٣ ص١٢٧٣: الحديث (٨٤٠)، وإسناده حسن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (عَمَى الْبَصَرِ)، وقال مجاهدُ: (أعْمَى عَنِ الْحُجَّةِ؛ أيْ لاَ حُجَّـةَ لَـهُ يَـهْتَدِي إلَيْـهَا)[١]، ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ بعَيْنَــــيَّ، ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ﴾ ؛ تكونُ كمَـا ﴿ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾ ؛ أي فترَكْتَـها وأعرضـتَ عنـها، ﴿ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ ؛ أي تُتْرَكُ في النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ ﴾ ؛ أي كما جَزَيْنَا مَن أعـرضَ عـن القُرْآن، كذلك نَجْزِي مَن أسْـرَفَ علـى نفسـهِ بالمعـاصي، ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ ؛ أي أشدُّ مِن عذاب الدُّنيا وأدومُ، لأن عذابَ الدُّنيا ينقطعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ ؛ مَن قرأ باليـاء فمعناهُ: ألَمْ نُبَيِّنْ، يعني كفَّارَ مكَّةَ كَمْ أهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ، والمعنى: ألَمْ نُبَيِّنْ لَـهم طُرُقَ الاعتبار بكثرة إهلاكِنا القرونَ قبلَهم بتكذيب الرسُل فيعتَبروا ويؤمنُوا. وكـانت قريشُ تتَّجِرُ إلى الشَّام فترَى مساكنَ قومِ لُوطٍ وثمود وعلامـاتِ الإهـلاك. ومَـن قـرأ بالنُّون فمعناهُ: ألَمْ نُبَيِّنْ لأهلِ مكة بَيَاناً يهتدون به فيرتَدِعُوا عن المعاصي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ أي لِذوي العقول.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّـكَ في تأخـيرِ العـذاب عـن هـؤلاءِ الكفَّـار إلى يـومِ القيامة، قولهُ (وَأجَلٌ مُسَمًّى) لكان العذابُ لأَزماً لَهم، واقعاً في الحال. وتقديرُ الآية: وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبكَ وأجَلٌ مُسَمًّى لَكَانَ لاَزماً؛ أي لكانَ العذابُ لاَزمـاً لَـهم في الدُّنيا، كما لَزمَ القرونَ الماضية الكافرةَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ؛ أي فاصـبر يـا مُحَمَّـدُ علـى مـا يقولون من الشَّتم والتكذيب فسيعودُ عليهم وَبَالُ ذلك، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾ ؛ أي صَلِّ صلاةَ الفجرِ، ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ ﴾ ؛ يعني صلاةَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٤٢٦).

العصرِ، ﴿ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾ ؛ يعني المغرِبَ والعشاءَ، وآناءُ اللَّيلِ ساعاتهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ ؛ يعني صلاةَ الظهر، قال قتادةُ: (كَأَنَّهُ ذهَبَ إلَى أنَّهُ آخِرُ النِّصْفِ الأَوَّل مِنَ النَّـهَار طَـرَفٌ، وَأوَّلُ النِّصْـفِ الثَّـانِي طَـرَفٌ). وقـال الحسنُ: ((وَقَبْلَ غُرُوبِهَا): الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ، (وَأطْرَافَ النَّهَار): صَـلاَةُ التَّطَـوُّعِ). قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ ؛ قرأ الكسائيُّ وأبو بكـر بضَـمِّ التـاء؛ أي تُعْطَـى الرِّضَى بالدرجاتِ الرفيعة، يرضاكَ اللهُ ويسمى مَرْضِيّاً، وتصديقهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبهِ مَرْضِيّاً﴾[(١)]. وقرأ الباقونَ (تَرْضَى) بفتـحِ التـاء؛ أي لَعَلَّـكَ تَرْضَـى بـالثَّواب والشَّفاعةِ، ودليلُ ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[(٢)]، والمعنى: أقِمْ هذه الصَّلَواتِ لكي تُعطى من الثواب ما ترضَى[(٣)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي لا تَنْظُرَنَّ بعينِ الرَّغبة إلَى مَا مَتَّعْنَا بهِ رجـالاً منـهم زِيْنَـةَ الحيـاةِ الدُّنيا، ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ ؛ أي لِنَخْتَبرَهُمْ في ما أعطيناهم من الزِّينة. وَقِيْـلَ: لنجعلَـهُ فتنةً لَهم وضَلالاً بأنْ أزيدَ لَهم في النعمةِ، فيزدادوا كُفراً وطغياناً.

قال أبو رافع: (بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: [قُلْ لَهُ: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَنِي إلَيْكَ لِتُسْلِفَهُ كَذا وَكَذا مِنَ الدَّقِيْقِ، أوْ تَبيْعَهُ وَتَصبرَ عَلَيْهِ إلَى هِلاَلِ رَجَبٍ] فَأتَيْتُهُ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا أبيْعُهُ وَلاَ أسْلِفُهُ إلاَّ برَهْنٍ! فَأتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: [وَاللهِ لَوْ بَاعَنِي أوْ أسْلَفَنِي لَقَضَيْتُهُ، وَإنِّي لأَمِيْنٌ فِي الأَرْضِ، إذهَبْ بدِرْعِي إلَيْهِ] ثُمَّ حَزِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى ذلِكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ كانه يعزِّيهِ عَنِ الدُّنْيَا)[(٤)].

---

(١) مريم / ٥٥ .

(٢) الضحى / ٥ .

(٣) ينظر: جامع البيان: ج ٩ ص٢٩١.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٤٥٣-١٨٤٥٤). وابن أبي حاتم في التفسـير: النـص (١٣٥٨٧). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦١٢؛ قـال السـيوطي: ((أخرجـه ابـن أبـي شـيبة وابـن راهويه والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابـن أبـي حـاتم وابـن مردويـه والخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو نعيم في المعرفة)).

وَقِيْلَ: معنى قولهِ تعالى (أزْوَاجاً) أي أصْنَافاً من نِعَـمِ الدُّنيـا وزهرَتِـها. قولـهُ: ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ ؛ أي وَرِزْقُ ربكَ الذي وعدكَ في الجنَّة خَـيْرٌ وَأبْقَى مما رُزِقَ هو.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي وَامُـرْ قَوْمَـكَ الذين على دِيْنِكَ، ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ﴾ ؛ لِخَلْقِنَا ولا لنفسكَ، لَم نَخْلُقْكَ لِحاجتنا إليكَ كحاجة السَّادَةِ إلى عبيدِهم، بل ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ؛ ونرزقُ جميعَ خَلْقِنَا. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ ؛ أي وَالْعَاقِبَةُ الْمَحمودةُ لِمن يَتَّقِـي اللهَ ولا يعصيهِ، وتقديرهُ: والعاقبةُ لأهـلِ التقـوى. [وَكَـانَ النَّـبِيُّ ﷺ إذا دَخَـلَ عَلَيْـهِ بَعْـضُ الضِّيْقِ فِي الرِّزْقِ أمَرَ أهْلَهُ بالصَّلاَةِ، ثُمَّ قَرَأ هَــذِهِ الآيَـةَ (وَامُـرْ أهْلَـكَ بـالصَّلاَةِ) إلى آخِرِها][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ؛ أي قـالَ المشـركون مِن أهلِ مكَّة: هَلاَّ يأتينا مُحَمَّدٌ بآيةٍ من ربه كما أتى بها الأنبياءُ، نحوُ الناقـةِ والعصـا، ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ﴾ ؛ أي بيـانُ مـا في التَّـوراة والإنجيلِ من البشَارَةِ بما وافقَهُما من صِفَةِ النبيِّ ﷺ. وَقِيْلَ: معناهُ: أوَلَـمْ يأتِـهم مـا في الصُّحُفِ الأُوْلَى من أنبياءِ الأُمَمِ الذين أهلكنَاهم لَمَّا سألُوا الآيـاتِ ثُـم كَفَـرُوا بـها، فماذا يُؤَمِّنُهُمْ أن يكون حالُهم في سؤالِهم الآيةَ كَحَالِ أولئكَ. وهذا البيانُ إنَّمـا قُـصَّ عليهم في القُرْآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ ؛ أي لَوْ أنَّـا أهلكنَـاهُم بعـذاب الاسْـتِئْصَال مـن قَبْـلِ إرسال الرُّسل لقالوا: هَلاَّ أرْسَلْتَ إلينا رَسُولاً يُرْشِدُنَا إلى دِيِنِكَ فنتَّبعَ دلائلــكَ، ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ ؛ في الدُّنيا بالقتلِ ونُفْضَـحَ في الآخـرةِ بـالعذاب. والمعنـى: ولـو أنَّـا أهلكنا كُفَّارَ مكَّة بعذابٍ مِن قَبْلِ بعث مُحَمَّدٍ ﷺ ونُزُولِ القُرْآنِ لقـالوا يـومَ القيامـةِ:

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٨٩٠). والبيهقي في شعب الإيمان: الحديث (٩٧٠٥). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٦٧؛ قال الهيثمي: ((ورجاله ثقات)).

ربَّنَا هَلاَّ أرسلتَ إلينـا رسُـولاً يدعُونـا إلى طـاعتِكَ فنتَّبـعَ آيـاتِكَ مـن قَبْـلِ أن يـنْزِلَ العذابُ، ﴿ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ ؛ فِي جهنَّمَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: كلٌّ منَّا ومنكم مُنْتَظِرٌ، فانتظروا نَحن ننتظر بكم ما وعَدَنا اللهُ فيكم من النَّصرِ والفتح، وأنتم تنتظرون بنَا أن نَموتَ فتستريحون منَّا، وذلك أنَّهم كانوا يقولون: نتربَّصُ بمُحَمَّدٍ ريبَ الْمَنُون. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ ؛ فَسَتَعْلَمُونَ بعدَ هذا إذا قامتِ القيامةُ مَن أصحابُ الدِّين المستقيمِ، ومَن اهتدى إلى الرُّشد والصلاحِ نَحنُ أم أنتم!

وعن أُبَيِّ بنِ كعبٍ عن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ طَهَ أعْطِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوَابَ الْمُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَار][1].

آخر تفسير سورة (طه) والحمد لله رب العالمين

(١) ينظر: تفسير الكشاف: ج ٣ ص٩٧، والحديث موضوع.

سُــورَةُ الأَنْبِيَاءِ

عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ

سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أرْبَعَةُ آلاَفٍ وَثَمَانُمِائَةٍ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَأَلْـفٌ وَمِائَـةٌ وَثَمانٍ وَعِشْرِيْنَ كَلِمَةً، وَمَائَةٌ وَاثْنَتَا عَشْرَةَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿اقْـتَرَبَ لِلنَّـاسِ حِسَـابُهُمْ﴾ حَاسَـبَهُ اللهُ حِسَاباً يَسِيْراً، وَصَافَحَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ كُلُّ نَبِيٍّ ذُكِرَ اسْمُهُ فِي الْقُرْآنِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ ؛ أي اقتربَ لأهلِ مكَّـة حسـابُهم، والمعنـى: اقتربَتِ القيامةُ، واقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ، والْحِسَابُ هنا: إظْهَارُ مَا لِلْعَبْـدِ وَمَـا عَلَيْـهِ لِيُجَازَى عَلَى ذلِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾ ؛ أي في غفلةٍ عمَّا يفعـلُ اللهُ بهم ذلكَ اليوم، مُعرضون عن التَّأهُّب له بالإيْمـانِ بمُحَمَّـدٍ ﷺ والقُـرْآن. وَقِيْـلَ: معناهُ: وهم في غَفْلَةٍ عن قُـرْب الحسـاب والموت، معرضـون عـن الفكـرةِ في ذلـك، والتَّأهُّب لهُ، وهذا مِن اللهِ تنبيهٌ وعِظَةٌ؛ لئَلاَّ يغفلُوا عن الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم ﴾ ؛ أي ما يأتيهم من وَحْيٍ، ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ ؛ تَنْزِيْلُهُ، والإحْدَاثُ يعودُ إلى الانزال. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ مُسْتَهْزِئِيْنَ).

---

(١) أخرجه الثعلبي بإسناد واهٍ في الكشف والبيان: ج ٦ ص٢٦٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ منصوبٌ بقولهِ (يَلْعَبُونَ)، ومعناهُ: غَافِلَةً قلوبُهم عما يرادُ بهم، معرضةً عن ذِكْرِ اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ ؛ أي تَنَاجَوا فيما بينهم سِرّاً.

ثم بَيَّنَ مَنْ هم فقال: ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ؛ أي الذين أشْرَكُوا باللهِ، و(الَّذِيْنَ) في موضعِ الرفع بدلٌ من الضمير في (أسَرُّوا) كما في قولهِ تعالى ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾[1]، ويجوزُ أن يكون (الَّذِيْنَ) خُفِضَ نعتاً للناسِ؛ أي اقتربَ للناسِ الذين هذا حالُهم.

ثُم بَيَّنَ النَّجْوَى الذي أسرُّوهُ بقولـه: ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ ؛ أطْلَعَ اللهُ النبيَّ ﷺ أنَّهم قالوا: هَلْ مُحَمَّدٌ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فإذن تتبعون بشر مثلكم، ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ وأنتم تعلمونَ أنه سِحْرٌ. قال السديُّ: (قَالُوا مُتَابَعَةُ مُحَمَّدٍ مُتَابَعَةُ السِّحْرِ)، والمعنى: أتَقْبَلُوا السِّحرَ، وأنتم تعلمون أنهُ سِحْرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّدُ: ربي الذي أعبدهُ وأدعوا إلى عبادتهِ هو اللهُ الذي يعلمُ ما تُسِرُّهُ العبادُ من القولِ في السَّماء والأرضِ، ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ لذلك كلِّه، العَالِمُ بما يجري عليه، ومَن هذه صفتهُ، فهو الذي يَجِبُ أن يُعْبَدَ دون الأصنام. وقرأ أهلُ الكوفةِ: (قَالَ رَبي) على الخبر. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أي السميعُ لأقوالِهم، العليمُ بأفعالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ ؛ أي قالَ الكفارُ: إنَّ ما أتِيَ به مُحَمَّدٌ تَخالِيْطُ رُؤْيَا رآها في الْمَنَامِ، و (بَلْ) ها هنا انتقالٌ إلى خبرٍ آخرَ عنهم.

---

(١) المائدة / ٧١ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بَلِ افْتَرَاهُ) أي قالوا اخْتَلَقَهُ كَذِباً من تلقاءِ نفسه، ثُم قالوا: (بَلْ هُوَ شَاعِرٌ) فجعلوا يَنْقِضُونَ أقوالَهم قولَ متحيِّرٍ لا يُمْكِنُهُ الجزمُ على أمرٍ واحد. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ ﴾ ؛ بالآيات، نحوُ انقلاب البحر، وإحياءِ الموتى، والناقة والعصا.

فقال اللهُ تعالى مُجيباً لَهم: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ ﴾ ؛ أي ما آمَنَتْ قَبْلَ مشركي مكَّة (مِنْ قَرْيَةٍ) يعني أهلَها، والمعنى: ما آمَنَتْ من قريةٍ مُهْلَكَةٍ بالآياتِ الْمُرْسَلَةِ، فكيفَ يُؤْمِنُ هؤلاء؟ والمعنى: أنَّ مَجِيْءَ الآياتِ لو كان سَبَباً للإيْمانِ من غيرِ إرادة الله لكان سَبَباً لإيْمان أولئكَ، فلما بَطَلَ ذلك بَطَلَ هذا .

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ يعني ما أرْسَلْنَا قَبْلَكَ من الرُّسُلِ إلاّ رجَالاً مثلكَ، وهذا جوابٌ لقولِهم (هَلْ هَذا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)، فقال اللهُ تعالى: لَمْ أرْسِلْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ إلاّ رجَالاً من بَنِي آدمَ لا الملائكةَ، ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ ﴾ ؛ وأرادَ بأهلِ الذِّكْرِ علماءَ أهلِ الكتاب؛ لأن اليهودَ النصارى لا ينكرونَ أن الرُّسُلَ كانوا بَشَراً، وإنْ أنكرُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقِيْلَ: أرادَ بالذِّكرِ القُرْآنَ، والمعنى: فاسألوا المؤمنينَ مِن أهلِ القُرْآنِ إن كنتم يا أهلَ مكَّة لا تعلمون. قال عَلِيٌّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ): لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ: (نَحْنُ أهْلُ الذِّكْرِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ ؛ أي وما جعلنا الأنبياءَ ذوي أجسادٍ لا يأكلون الطعامَ، ولا يشربونَ الشراب، ﴿ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ﴾ ؛ لا يَمُوتُونَ، وذلك أنَّهم قالوا: مَا لِهَذا الرَّسُول يَأْكُلُ الطَّعَامَ؟ فأعْلِمُوا أن الرُّسُلَ جميعاً كانوا يأكلون الطعامَ، وأنَّهم يَموتون كسائرِ البشر، وإنَّما وحَّدَ الجسدَ؛ لأنه مصدرٌ كالخلقِ.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٤٧٢).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي ثُم أنْجَزْنَا وعدَ الأنبياءِ في إنْجائنا إيـاهم، وإهلاكِ الكفار المكذّبين بهم، وأرادَ بالمسرفين الكفارَ، لأن الْمُسْرِفَ في اللغة هو الذي يتجاوزُ حَدَّ الحقِّ بما تباعدَ عنه، فالكافرُ أحقُّ بهذه الصفةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَنجَيْنَاهُمْ) أي مِن العذاب (وَمَنْ نَشَاءُ) يعني الذين صَدَّقُوهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ ؛ أي لَقَدْ أنزَلْنَا إلَيْكُمْ كِتَاباً يا معشرَ قُرَيْشٍ، كِتَاباً فيه شَرَفُكُمْ وعِزُّكم أن يَمسكم به يعني القُرْآن، والذِّكْرُ هو الشَّرَفُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (١) أي شَرَفٌ، يقال: فلانٌ مذكورٌ في العُلاَ؛ إذا كان رَفِيْعاً. وقال الحسنُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (ذِكْرُكُمْ) أيْ مَا تَحْتَاجُونَ إلَيْهِ مِنْ أمْرِ دِيْنِكُمْ)(٢)، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ، ما فَضَّلَكُمْ به على غيرِكم، أنْزَلْتُكُمْ حَرَمِي، وبعثتُ فيكم نَبِيّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ أي كم أهلكنا مِن أهلِ قريةٍ كانوا مُشركين، والْقَصْمُ: الْكَسْرُ وَالدَّقُّ، ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي وأحْدَثْنَا مِن بعدِ إهلاكهم قوماً آخرين، فسَكَنُوا دِيَارهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي فلمَّا أحسَّ أهلُ القرية الكافرةِ عذابَنا إذا هم منها يهرُبون سِراعاً هَرَبَ الْمُنْهَزِمِ مِن عدُوِّه. ومعنى قوله (أحَسُّوا) أي رَأوا، وَقِيْلَ: معناهُ: لَمَّا ذاقُوا. والإحْسَاسُ: هُوَ الإدْرَاكُ بحَاسَّةٍ مِنَ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ ﴾ ؛ أي قِيْلَ لَهم: لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إلَى مَا نُعِّمْتُمْ فيه وإلى منازلكم، تقولُ الملائكة ذلكَ استهزاءً بهم وتقريعاً على ما فُرِّطَ منهم بحيثُ يسمعون النداءَ.

---

(١) الزخرف / ٤٤ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٣٦٠٧). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٣١٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ يقال لَهم ذلكَ على طريقِ الْهُزْؤ بهم وهو توبيخٌ في الحقيقةِ، والمعنى: لكي تُسألوا شيئاً من دُنياكم فأنتم أهل برٍّ ونعمةٍ، فـ﴿ قَالُواْ ﴾ عند ذلك: ﴿ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ لأنفسِنا حيث كذبنَا الرُّسلَ، اعترفوا بالذنب حين رأوا العذابَ، فقالوا هذا على سبيلِ النَّدمِ، ولَم ينفعْهم حينئذٍ الندمُ. والوَيْلُ: الوقوعُ في الْهَلَكَةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي فما زالت تلكَ الكلمةُ وهو قولُهم: (يَا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) لَم يزالوا يردِّدُونَها إلى أن ماتُوا وخَمَدُوا فصاروا كالزَّرْعِ الحصيدِ، والحصيدُ: هو الزَّرْعُ الْمَحْصُودُ، والْمَخْمُودُ: وهو الْمَهْمُودُ كَخُمُودِ النَّار إذا أُطْفِيَتْ.

قِيْلَ: نزلت هذه الآيةُ في أهلِ خَضُور[١] وهي قريةٌ من اليَمَن كان أهلُها من العرب، بعثَ اللهُ إليهم نبيّاً يدعوهم إلى اللهِ فكَذبوهُ وقتلوهُ، فسَلَّطَ اللهُ بُختَنَصَّرَ حتى قَتَلَهُمْ وسبَاهُم ونكَّلَ بهم، فلما أثْخَنَ فيهم القتلَ نَدِمُوا وهربوا وانْهزمُوا، فقالت لَهم الملائكةُ على طريقِ الاستهزاء: لا تركُضُوا وارجِعُوا إلى مساكنكم وأموالكم، فَأتْبَعَهُمْ بُختَنَصَّرَ وأخذتْهُمُ السيوفُ، ونادَى مُنَادٍ من السَّماء: يا ثاراتِ الأنبياءِ، فلمَّا رأوا ذلك أقرُّوا بالذنوب حيث لَم ينفعهم، فقالوا: يَا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا ظَالِمِيْنَ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيْداً بالسُّيوف، كما يُحْصَدُ الزرعُ، خَامِدِينَ أي مَيِّتِيْنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي ما خلقنَاهُما عَبَثاً ولا بَاطِلاً بل خلقنَاهُما لأمرٍ؛ أي لأُجَازي أوليائي، وأعذِّبَ أعدائي. وَقِيْلَ: معناهُ: خلقناهما دلالةً على قُدرتِنا ووحدانيَّتنا؛ ليعتَبرُوا بخلقِهما ويتفكَّروا فيهما، فيعلمونَ أن العبادةَ لا تكونُ إلاَّ لخالِقِهما.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ ؛ قال قتادةُ: (اللَّهْوُ بلُغَةِ الْيَمَنِ الْمَرْأةُ)[٢]، وقال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ النِّسَاءَ)، وَقِيْلَ: جاء طاووسُ

---

(١) وتروى: خاضوراء بالألف المدودة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٤٩٥). وابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٣٦١٩).

وعطاء ومجاهدُ إلى الحسنِ فسألوهُ عن هذه الآية، فقالَ: (اللَّهْوُ الْمَـرْأةُ)[1]. وفي رواية الكلبيِّ: (اللَّهْوُ الْوَلَدُ)[2]. وَقِيْلَ: معناهُ: لو أردنا أن نَتَّخِذ شَريكاً أو ولَداً أو امـرأةً لَـم يكن لنتَّخذها مما نسبتُمونا[3] إليه من الذي لا يسـمع ولا يعقـلُ ولا مِـن هـذه النسـاء والولدان، بل كما نَتَّخِذُهُ من جنسٍ أشرفَ من هـذا الجنسِ كما قـالَ تَعَـالَى في آيـةٍ أخرى ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذ وَلَداً لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[4]. وَقِيْلَ: معناهُ: لـو أردنا أن نتخذ ولداً نَلْهُو بـه لاتَّخذنـاهُ عندَنـا لا عندكـم؛ لأن ولـدَ الرجـل وزوجتـهُ يكونان عندَهُ وبحضرتهِ.

نزلت هذه الآيةُ في الَّذين قالوا اتَّخَذ اللهُ ولداً، ولو كان ذلـكَ جـائزاً في صِفَـةِ الله تعالى لَم يتخذ بحيثُ لَم يظهر لكم، ويسترهُ حتى لا تطَّلعوا عليه، تَعَـالَى اللهُ عَمَّـا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوّاً كَبيْراً. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي كُنَّـا مِمَّن يفعلُ ذلك، ولسنا مِمن يفعلهُ، وَقِيْلَ: (إِنْ) هنا بمعنى (مَا) أي مَا كُنَّا فَاعِلِيْنَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ ﴾؛ أرادَ بـالحقِّ القُـرْآنَ، وبالباطلِ الكُفْرَ، وَقِيْلَ: معناهُ: دَعْ ذاكَ الذي قالوا فإنه كذبٌ وباطل، بل نَقْذِفُ بالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ من كذبِـهم، (فَيَدْمَغُـهُ) أي فيُهْلِكُـهُ ويذهِبـهُ، ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ ﴾؛ أي زائلٌ ذاهب، والمعنى: إنَّا نُبْطِلُ كذِبَهم مما تبيَّن من الحقِّ حتى يضمحـلَّ ويذهـبَ، ثـم أوعَدَهم على قولِهم فقال: ﴿ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي لكم العـذابُ مما تصفونَ اللهَ تعالى به من الصَّاحبة والولدِ.

ثُم بيَّـن أن جميـعَ الخلـق عبيـدهُ، فقـالَ: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾؛ عَبيداً وملكـاً، ﴿ وَمَنۡ عِندَهُۥ ﴾؛ يعـني الملائكـةَ، ﴿ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ ﴾؛ قال الزجَّاج: (إنَّ الَّذِيْنَ ذكَرْتُمُوهُمْ بأَنَّهُمْ أوْلاَدُ اللهِ هُمْ عِبَادُهُ وَلاَ يَأْنفُونَ عَنْ عِبادَتِـهِ، وَلاَ يَتَعَظَّمُونَ عَنْهَا)، ﴿ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي ينقطِعون عـن العبـادة مـن الإعيَاءِ والتَّعب، مِن قولِهم: بَعِيْرٌ حَسِيْرٌ اذا أعْيَا وقام.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٤٩٣)

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٣٦١٥) عن عكرمة.

(٣) في المخطوط: رسم مبهم غير واضح، واخترنا أقرب حرف له فأثبتناه.

(٤) الزمر / ٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ ؛ أي يصلُّون للهِ تعالى الليلَ والنهار، ﴿ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي لا يَضْعُفُونَ عن عبادتهِ ولا يَملُّونَ. وَقِيْلَ: معناهُ: يُنَزِّهُونَ اللهَ، وإنَّما يقولون سُبْحَانَ اللهِ لا يَمَلُّونَ. قال الزجَّاج: (مَجْرَى التَّسْبِيْحِ مِنْهُمْ كَمَجْرَى النَّفَسِ مِنَّا، كَمَا لاَ يَشْغَلُنَا عَنِ النَّفَسِ شَيْءٌ فَكَذلِكَ تَسْبِيْحُهُمْ دَائِمٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ استفهامٌ بمعنى الإنكار؛ أي أعَبَدَ أهلُ مكة أصناماً يُحيُونَ الموتى؟! وفيه تقريعٌ لَهم بأنَّهم كاذبون أنَّها آلهةٌ، لأن الإلهَ يُحيي الموتى، وهي لا تُحيي، فكيفَ يستحقُّ العبادةَ؟ قِيْلَ: معنَى الآيةِ: لِمَ تَتَّخِذُون آلهةً مِن الأرضِ، وأصنامُهم كانت من الأرضِ؛ من أيِّ شيء كانت، من خشبٍ أو حجارةٍ أو فضَّة أو ذهب، هم يُنْشِرُونَ، أيُحْيُونَ الْمَوْتَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ ؛ لخَرِبَتَا وهَلَكَ مَن فيهما، وعيَّن صفةَ الآلِهَةِ؛ أي لوكان فيهما آلِهةٌ غيرُ اللهِ؛ أي لو كانَ في السَّماءِ والأرضِ آلِهةٌ غيرُ الله لَمَا قامتِ السَّمواتُ والأرض؛ لأنه لو أرادَ أحدُهما اتِّخاذ جسمٍ في مكان، وأرادَ آخرُ اتِّخاذ جسمٍ آخر في ذلكَ المكانِ لَمْ يَخْلُ: إما أن يُوجَدَ مرادُهُما أو لا يوجدُ مرادُهما، أو يوجدُ مرادُ أحدِهما دونَ الآخرِ.

فالأولُ باطلٌ؛ لأن في ذلك وجودُ جِسمَين في مكان واحد. والثاني باطلٌ؛ لأنَّ في ذلك كونُهما عاجِزَين، والعاجزُ لا يستحقُّ الأُلُوهيَّة، وإن وُجِدَ مرادُ أحدِهما دونَ الآخرِ، فالذي لا يوجدُ مرادهُ يكون عاجِزاً لا يصلحُ أن يكون إلَهاً.

والمعنى: لَوْ كانَ فيهما آلِهةٌ غيرُ الله كما يزعمُ المشركون، هذا قولُ جميعِ النحويِّين؛ قالوا: (إلاَّ) ليسَ ها هنا باستثناءٍ، ولكنهُ مع ما بعده صفةٌ للآلِهة في معنى (غَيْرَ)[١]. قال الزجَّاج[٢]: (فَلِذلِكَ ارْتَفَعَ مَا بَعْدَهَا عَلَى لَفْظِ الَّذِي قَبْلَهَا[٣]، قَالَ

(١) والمعنى: أنه قد يقع الوصف بـ (إلاّ) كما وقع الاستثناء بـ (غير)، والأصل في (إلاّ) الاستثناء، وفي (غير) الصفة. ثم قد يحمل أحدهما على الآخر، فيوصف بـ (إلاّ) ويستثنى بـ (غير).

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٣١٥.

(٣) قال الزمخشري: (واعلم أن (إلاّ) و (غير) يتقارضان) يعني أن كل واحد منهما يستعير من الآخر حكماً هو اختص به؛ وذلك أن (غير) اسم تعمل فيه العوامل، فيجوز أن يقام مقام= الموصوف. =ينظر: شرح المفصل لابن الحاجب:ج١ ص٣٦٩-٣٧٠.

الشاعرُ:

وَكُـــلُّ أخٍ مُفارقُـــهُ أخُـــوهُ[(١)] لَعَمْـــرُو أبيـــكَ إلاَّ الْفَرْقَـــدَانِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي تَنْزِيهاً عمَّا يقولون عليه من الولدِ والشَّريكِ، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ ؛ أي لا يُسألُ عن أفعالـهِ وقضائه في خلقِه من إعزاز وإذلال، وهداية وإضلال، وإسـعاد وإشـقاء؛ لأنـه الـربُّ مالكُ الخلق. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي يقالُ لَهم يومَ القيامـةِ: لِمَ فعلتُمْ كذا؟ لأنَّهم عبيدٌ يجبُ عليهمُ امتثالُ أمرِ مَوْلاَهُمْ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس فَوْقَهُ أحدٌ يقول لهُ لشيءٍ فَعَلَهُ لِمَ فَعَلْتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ ؛ هذا إنكارٌ عليـهم وتوبيـخٌ، ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ ؛ أي حُجَّتَكُمْ بأن رَسُولاً من رُسُلِ الله أنْبَأَ أُمَّتَـهُ بـأن لَـهم إلَهاً غيرَ الله.

قولهُ تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ ؛ معنـاهُ: هـذا الْقُـرْآنُ فيـه ذكرُ مَن معي لِمَا يلزمُهم من الحلالِ والحرام والخطأ والصَّواب. وَقِيْلَ: خَبَرُ مَن معـي على دِينِي بما لَهم من الثواب والعقاب، وذِكْرُ مَنْ قَبْلِـي مِـن الأُمـمِ مَـن نَجَـا منـهم بالإيْمَان، وأهْلِكَ بالشِّركِ. وَقِيْلَ: معناهُ: هذا الْقُرْآنُ الذي هو ذِكْرُ مَن معي، والتـوراةُ والإنجيلَ هُما ذِكْرُ مَن قبلي، هل في جميعِ ذلك غيرُ توحيدِ الله تعالى؟

والمعنى: هذا الْقُرْآنُ وهذه الكُتُبُ التي أُنزلت مِن قبلي، فانظرُوا هـل في واحـدٍ منهم أن اللهَ أمر باتخاذ آلهة سواه[(٢)]؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ عن النظرِ في دلائلِ الله مقصِّرين على جهلِهم وتقليدهم.

=ينظر: شرح المفصل لابن الحاجب:ج١ ص٣٦٩-٣٧٠.

(١) البيت لعمرو بن معدكرب، وقد تقدم. وفي المخطوط ذكر الصدر منـه فقـط، والشـاهد يقتضـي ذكر البيت كاملاً. والمعنى: الفرقدان: نجمان قريبان من القطب لا يفترقـان، يقـول: كـلُّ أخويـن غير الفرقدين لا بد أن يفترقا بسفرٍ أو موت.

(٢) في المخطوط: (هل في واحدٍ منهم أمرُ أنَّ اللهَ يتَّخذُ إلهَ سواهُ) وهي عبارة مربكة، ويبـدو أن فيـه تحريف من الناسخ، واخترنا عبارة القرطبي فهي أقرب لأسلوب المصنف رَحِمَهُ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي ما أرْسَلْنَا مِن قبلك يا مُحَمَّدُ من رسولٍ إلاّ يُوحَى إليه أن يقولَ لقومهِ أنَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ فَاعْبُدُوهُ أي وحِّدُوهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ ؛ أراد به قولَهم إنَّ المسيح ابنُ الله، والملائكةَ بناتُ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: بل هم عبيدٌ أكرمَهم اللهُ بالطاعة واصطفَاهُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ ؛ لا يخرجُون بقولِهم عن حدِّ ما أمرَهم، ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ قَوْلُهُ: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ؛ أي يعلمُ ما قدَّموا وما أخَّرُوا من أعمالِهم، ويقالُ: (مَا بَيْنَ أيْدِيْهِمْ) من الدُّنيا (وَمَا خَلْفَهُمْ) من الآخرةِ، ويقال: يعلمُ ما عمِلُوا وما هم عامِلُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ ؛ أي لا يشفعونَ إلاّ لِمن رَضِيَ اللهُ عنهُ وارتضى عملَهُ، قال ابنُ عبَّاس: (لِمَنْ قَالَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ)[1]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي وهم مِن خشيتِهم منهُ، فأضافَ المصدرَ إلى المفعولِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (مُشْفِقُونَ) أي خَائِفُونَ، لا يأمَنُون مَكْرَهُ، وفي هذا بيانُ أنّ مَن هذه صِفتهُ لا يكون إلَهاً مع اللهِ ولا ولداً لهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ ﴾ أي مَن يقُلْ مِن الملائكة إنِّي إلهٌ من دون اللهِ فذلك يَجْزِيْهِ جهنَّمَ، قال المفسرون: يعني إبليسَ لأنه أمَرَ بطاعةِ نفسهِ، ودعا إلى نفسهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي كما جَزَيْنَاهُ جهنمَ، نَجزي الظالمين الْمُشركينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس وعطاءُ والضحَّاك: (يَعْنِي كَانَتَا شَيْئاً وَاحِداً مُلْتَزِقَتَيْنِ، فَفَصَلَ اللهُ بَيْنَهُمَا بالْهَوَاءِ)[2]، قال كعبُ: (خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَعْضُهَا عَلَى

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٢٥). وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٤٤٩.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٣٢-١٨٥٣٣).

بَعْضٍ، ثُمَّ خَلَقَ رِيْحاً وَسْطَهُما، فَفَتَحُمهَا بِهَا).

وقال مجاهدُ:(كَانَتِ السَّمَوَاتُ طَبَقَةً وَاحِدَةً فَفَتَقَهَا، فَجَعَلَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ، وَكَانَتِ الأَرْضُونَ مُرْتَفِعَةً طَبَقَةً وَاحِدَةً فَفَتَقَهَا اللهُ تَعَالَى، فَجَعَلَهَا سَبْعَ أَرْضِيْنَ)، وقال عكرمةُ: (كَانَتِ السَّمَاءُ رَتْقاً لاَ تُمْطِرُ، وَالأَرْضُ رَتْقاً لاَ تُنْبِتُ، فَفَتَقَ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ، وَالأَرْضَ بالنَّبَاتِ)[١].

وأصلُ الرَّتْقِ السَّدُّ، ومنهُ قيلَ للمرأةِ التي فرجُها ملتحمٌ: رَتْقَاءَ[٢]. وأصلُ الفَتْقِ الفتحُ، وذلك أنَّ السمواتِ والأرضَ كانتا مُستويَتين لا فَتْقَ فيهما لِخروج الزَّرْعِ ونزول الغيث، ففُتِقَتِ السماءُ بالمطر، والأرضُ بالنباتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ؛ أي أحيينا بالمطرِ والنبات كلَّ ما على الأرضِ من حيوانٍ، يعني أنه سببُ كلِّ شيء. وقال بعضُهم: يعني أنَّ كلَّ شيءٍ حيٍّ فهو مخلوقٌ من الماءِ لقوله تعالى ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾[٣].

قال أبو العالية: (يَعْنِي النُّطْفَةَ)[٤]، فعلى هذا لا يتعلقُ هذا بما قَبْلَهُ، وهو احتجاجٌ على المشركينَ بقُدرةِ الله تعالَى، ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠ ﴾ ؛ أي أفلا يصدِّقُون بالإلهِ الذي فَعَلَ ذلك؛ ليعلموا أنهُ الإلهُ دونَ غيرِه. وإنَّما قال (رَتْقاً) ولَم يقل رَتْقَيْنِ؛ لأن الرَّتْقَ مصدرٌ. المعنى: كانتا ذوَي رَتْقٍ فجعلناهما ذوَاتَي فَتْقٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ ؛ أي جعلنا فيها جِبَالاً أوْتَاداً فهي راسيةٌ كي لا تَميد بهم الأرضُ، والْمَيْدُ: الاضطرابُ بالذهاب في الجهات، قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ الأَرْضَ بُسِطَتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، فَكَانَتْ تَمِيْدُ بأَهْلِهَا كَمَا تَمِيْدُ السَّفِيْنَةُ، فَأَرْسَاهَا اللهُ بالْجِبَالِ الثِّقَالِ).

---

(١) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص٢٦.

(٢) الرَّتْقُ: ضدُّ الفتق، قال ابن عرفة: (أيْ كَانَتَا مُصْمَتَتَيْنِ لاَ فُرْجَةَ بَيْنَهُمَا). نقله الهروي في كتاب الغريبين: ج ٣ ص٧١٢.

(٣) النور / ٤٥ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٦٤٣).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي جعلنا في الأرضِ طُرُقاً واسعةً ليـهتدوا إلى مواطنِـهم، والفَـجُّ: الطريـقُ الواسـع بـين الجبلَين. قَوْلُهُ تَعَالَى: (سُبُلاً) تفسيرُ الفِجَاجِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ ؛ أي مَحفوظـاً مـن السُّقوط، وَقِيْلَ: مَحفُوظاً من الشياطين بالنُّجوم، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[1]. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ يعـني المشركينَ يُعرِضُـونَ عـن آياتِـها، يعـني شَمسـها وقمرَهـا ونجومـها، لا يتفكّـرون فيـها فيعلمون أن خالِقَها لا شريكَ له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ؛ أي خلقَهما بعد رَفْعِ السَّماء عن وجهِ الأرض و سخَّرَ ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾ ؛ من الشَّمس والقمـر في مواضِعها التي رُكِّبَتْ فيها، ﴿ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أي يَجْرُونَ بسـرعةٍ كالسَّـابحِ في الماء، وقد قال في مواضعٍ آخر ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾[2] يعني النُّجومَ، قال الضحَّاك: (الْفَلَكُ هُوَ الْمَجْرَى الَّذِي يَجْرِي فِيْهِ الشَّـمْسُ وَالْقَمَـرُ)، ويقـالُ: هـو مـوجٌ كغـرف يَجريان فيهِ. قال القتيبيُّ: (الْفَلَكُ الْقُطْبُ الَّذِي تَدُورُ بِهِ النُّجُـومُ، وَهُـوَ كَوْكَـبٌ خَفِـيٌّ بقُرْبِ الْفَرْقَدَيْنِ، وَبَنَاتِ نَعْشٍ عَلَيْهِ تَدُورُ السَّمَاءُ). وقال الحسنُ: (هُوَ الطَّاحُونَةُ كَهَيْأَةِ فَلْكَةِ الْمِغْزَلِ)[3]، فالفَلَكُ في كلامِ العرب: هو كلُّ شيءٍ دَائِرٌ، وجمعهُ أفْلاَكٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ ؛ رويَ أنّ هـذا نـزَلَ جواباً لقولِ الكفَّار: ننتظرُ بمُحَمَّدٍ ريبَ المنونِ فنستريحُ منه، والمعنى: وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَـرٍ مِنْ قَبْلِكَ البقاءَ الدائـم؛ يعـني أن سَـبِيْلَهُ سـبيلَ مـن مضـى مِـن بـني آدم في المـوت، ﴿ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ يعني مشـركي مكـةَ لَمَّـا قـالوا: نـتربصُ بمُحَمَّدٍ ريبَ المنون، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ ، فقيلَ لَهم: إنْ ماتَ فـأنتم أيضـاً تَموتون؛ لأن كلَّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ.

---

(١) الحجر / ١٧ . (٢) النازعات / ٣ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٥٦).

قالت عائشةُ: (اسْتَأْذنَ أَبو بَكْرٍ ﵁ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ مَاتَ وَاُسْجِيَ عَلَيْهِ الثَّوْبُ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ وَوَضَعَ فَمَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى صَدْغَيْهِ وَقَالَ: وَا نَبِيَّاهُ؛ وَا خَلِيْلاَهُ؛ وَا صَفِيَّاهُ، صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أفَإنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ، كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ؛ أي نَبْلُوكُمْ بالشدَّة والرَّخاء؛ والمرضِ والعافيةِ؛ والفقر والغنَى، كلاهُما ابتلاءٌ من الله، وتشديدٍ في التَّعبُّدِ؛ ليظهرَ شكرُهم فيما يُحبُّون، وصبرُهم فيما يكرهون ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ للجزاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ ؛ روي أنَّ النَّبيَّ ﷺ مَرَّ بأَبي سُفْيَانَ وَأبي جَهْلٍ، فَقَالَ أَبو جَهْلٍ لأبي سُفْيَان: هَذا نَبيُّ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، كَالْمُسْتَهْزِئ، فنَزلت هذه الآيةُ، ومعناها: وَإذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً، يستهزؤن بك[٢].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ ؛ أي يقولُ بعضُهم لبعضٍ: أهذا الذي يُعيبُ آلِهَتكم ويلومَكم على عبادتِها، تقولُ العربُ: فلانٌ يذكرُ الناسَ؛ أي يغتابُهم ويعيبُهم، وفلانٌ يذكرُ اللهَ؛ أي يصفهُ بالعَظَمَةِ ويُثني عليهِ، فيحذفون من الذِّكر ما يُعْقَلُ معناهُ، فيكون معنى قوله: (يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) أي يذكرُ آلِهتَكم بسوءٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي يَجحدون الألوهيَّة ممن هو منعمٌ عليهم، الْمُحيي الْمُميْتُ، وهذا في نِهاية جهلهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ؛ أي خلَقَ اللهُ الإنسانَ من عَجَلٍ مشتَهياً للعجلةِ فيها هواهُ، ولذلك تستعجلُ أهلُ مكة الوعدَ والوعيدَ، يقالُ: فلانٌ خُلِقَ مِن كذا؛ أي أكثرَ ذلك الشيءَ كما يقال: خُلق فلانٌ من اللعب واللَّهو، والإنسانُ اسم جنسٍ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٦٥٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٣٦٥٥٠).

وقال عكرمةُ: (لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيْهِ الرُّوحَ وَصَارَ فِي رَأْسِهِ، أَرَادَ أنْ يَنْهَضَ قَبْلَ أنْ تَبْلُغَ رِجْلَيْهِ فَسَقَطَ، فَقِيْلَ: خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ). وقال السديُّ: (لَمَّا دَخَلَ الرُّوحُ عَيْنَي آدَمَ نَظَرَ إلَى ثِمَار الْجَنَّةِ، فَلَمَّا دَخَلَ الرُّوحُ فِي جَوْفِهِ اشْتَهَى الطَّعَامَ، فَوَثَبَ قَبْلَ أنْ يَبْلُغَ الرُّوحُ رِجْلَيْهِ عَجَلاً إلَى ثِمَار الْجَنَّةِ فَلَمْ يَقْدِرْ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ)(١). وإذا كان خَلْقُ آدمَ من عجلٍ وُجِدَ ذلك في أولادهِ، وأورثَ أولاده العجلةَ حتى استعجلوا في كلِّ شيءٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي ﴾ ؛ يعني القتلَ ببدر، ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ إنه نازلٌ بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي يقولُ المشركونَ متَى هذا الوعدُ الذي تَعِدُنَا، يريدون وعدَهم يومَ القيامة إن كنتَ مِن الصادقين في هذا الوعدِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي لو يعلمون ذلكَ ما استعجلوهُ ولا قالوا متَى هذا الوعدُ. وَقِيْلَ: معناهُ: لو عَلِمُوا ذلكَ لعلموا صِدْقَ مُحَمَّدٍ ﷺ فيما توَعَّدهم به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ ؛ معناهُ: بل تأتيهم الساعةُ فُجْأةً وهم غافلون، ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ ؛ أي تُحَيِّرُهُمْ، يقال: بَهَتَهُ؛ إذا واجَهَهُ بشيءٍ فَحَيَّرَهُ، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ يُمهلون التوبةَ، أو عُذراً، أو صلاحَ عملٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ؛ أي ولقد استهزأتِ الأُمَمُ من قبلك برُسُلهم، كما استهزأ بك قومُكَ، ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ بهم؛ أي فَحَلَّ بهم وبَالَ استهزائِهم، وكان ما أرادوهُ بالداعي عائداً عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلاَّ بأَهْلِهِ﴾(٢)، وَقِيْلَ في الفَرقِ بين الْهُزْؤ وبين السُّخرية: أن في السُّخرية طلبَ الذِّلَّةِ؛ لأن التسخيرَ هو التذليلُ، وأما الْهُزْؤُ فهو استصغارُ القَدْر بضربٍ من القول.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٦٤). (١) فاطر / ٤٣ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ؛ أي قُل مَن يحفَظُكم من بَأسِ الرَّحمن، وعوارضِ الآفات في الليلِ والنهار وعقوبات الدُّنيا والآخرة، ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ لا يلتفتون إلى شيءٍ من الْحُجَجِ والمواعِظ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ ؛ مِن عذابنا، ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ معناه: أنَّ آلِهتَهم لا يقدرون على الدفعِ عن أنفسهم في دَرْءِ ما يَنْزِلُ بهم من كَسْرٍ أو فساد، فكان ينصرُهم ويَمنعُ عنهم ما يَنْزِلُ بهم، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ يعني الكفارَ. قال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: وَلاَ هُمْ مُجَارُونَ مِنْ عَذابنَا) أي لا يُجيرهم منَّا أحدٌ، لأن الْمُجِيْرَ صاحبُ الْجَار، يقال: صَحِبَكَ اللهُ؛ أي حَفِظَكَ اللهُ وأجاركَ. وقال قتادةُ: (مَعْنَاهُ: وَلاَ هُمْ يُصْحَبُونَ مِنَ اللهِ بخَيْرٍ)[1] يقالُ أصْحَبْتُ الرجلَ إذا أعطيتَهُ أماناً يأمنُ به.

وقولهُ: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة متَّعَهم اللهُ بما أنعمَ عليهم، ﴿ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ ؛ فاغْتَرُّوا بذلكَ، والمعنى ما حَملَهُم على الإعراضِ إلاّ الاغترارُ بطول الإمهال.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ ؛ معناهُ: أفلا يُشاهدون أنَّا نفتحُ الأرضَ مِن جوانبها، وننقصُ من الشِّركِ بإهلاك أهلِها، فيزدادُ هو كلَّ يوم تَمكُّناً، وتزدادون ضَعْفاً ونقصاً؟ والمعنى: ألَم يَرَ المشركون الذين يُحاربون النبيَّ ﷺ ويقاتلونهُ أنا ننقصُهم، ونأخذ ما حولَهم من قُراهم وأرضهم؟ أفلا يَرَون أنَّهم هم المنقوصُون والمغلوبون؟

ومعنى قولهِ تعالى: ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي هم الغالبون للنبيِّ ﷺ، بل هو الغالبُ لَهم. وعن ابنِ عبَّاس في معنى نقصِها من أطرافها: (أيْ بذهَاب فُقَهَائِهَا وَخِيَار أهْلِهَا، فَكَيْفَ يَأمَنُ الرُّذالُ ؟).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٧١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّدُ: إنَّما أخوِّفُكم من عذاب الله بالقُرْآن الذي يُوحَى إلَيَّ لا مِن قِبَلِ نفسي، وذلك أنَّ اللهَ أمَرَهُ بإنذارهم، كقولهِ ﴿وَأنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ هذا تَمْثِيْلٌ للكفار بالصُّمِّ الذين لا يسمعونَ النِّداءَ، والمعنى أنَّهم مُعانِدون، فإذا أسْمَعْتُهُمْ لَم يعملُوا بما سمعوهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إذا مَا يُنذرُونَ) أي اذا ما يَخافُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي لو أصابَهم أدنى عذابٍ لأيقَنُوا بالهلاكِ، وقال ابنُ كَيسان: (مَعْنَاهُ: وَلَئِنْ مَسَّهُمْ قَلِيْلٌ مِنْ عَذَاب اللهِ)، وقال ابنُ جُريجٍ: (نَصِيْبٌ مِنْ عَذاب اللهِ)، والمعنى: ولئن مسَّهُم طَرَفٌ من العذاب لأيقنوا بالهلاك، ودَعَوا على أنفُسِهم بالويلِ مع الإقرار أنَّهم ظلَمُوا أنفُسَهم بالشِّركِ، وتكذيب النبيِّ ﷺ. وَالنَّفْحَةُ: هي الدفعةُ اليسيرة الواقعةُ مِن الشيء دون مُعْظَمِهِ، يقالُ: نَفَحَهُ نَفْحَةً بالسَّيْفِ؛ أي ضَرَبَهُ ضربةً خفيفةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي نضعُ الموازينَ ذواتِ القسط لأهلِ يوم القيامة. قال الحسنُ: (هِيَ مِيْزَانٌ لَهُ كِفَّتَانِ وَلِسَانٌ، لاَ يُوزَنُ فِيْهَا غَيْرُ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، يُجَاءُ بالْحَسَنَاتِ فِي أحْسَنِ صُورَةٍ، وَبالسَّيِّئَاتِ فِي أقْبَحِ صُورَةٍ، فَلاَ يُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِ أحَدٍ، وَلاَ يُزَادُ فِي سَيِّئَاتِ أحَدٍ). وقال مجاهدُ:(هَذا مَثَلٌ، وَإنَّمَا أرَادَ بالْمِيْزَانِ الْعَدْلَ)[٢].

ويروى: أنَّ داودَ عليه السلام سألَ رَبَّهُ أن يُرِيَهُ الميزانَ، فلما رآهُ غَشِيَ عليهِ ثُم أفاقَ، فقال: إلَهي مَن الذي يقدرُ أنْ يَملأ كفَّته حسناتٍ؟ فقالَ: يا داودُ إنِّي إذا رضيتُ عن عبدي ملأتُهما بتمرةٍ[٣]. ويقالُ: إنَّما يُوزنُ خاتِمَةَ العملِ، فمَن كان خاتِمةُ عملهِ خيراً، جُوزيَ بخيرٍ، ومَن كان شرّاً جُوزيَ بشَرٍّ.

---

(١) الأنعام / ٥١ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٨١).

(٣) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٣٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ ؛ وإن كان العملُ الذي عَمِلَهُ وزنَ حبَّة من خَرْدَلٍ أتَيْنَا بهَا للجزاءِ، وَقِيْلَ: معناهُ: وإنْ كان الظلامةُ مثقالَ حبَّة من خردلٍ أحضرناها للمجازاة حتى لا يبقى لأحدٍ عند أحدٍ ظلامةٌ.

قرأ أهلُ المدينةِ (مِثْقَالُ) بالرفع على (إنْ كَانَ) بمعنى وَقَعَ لا خبرَ لَها، وقرأ العامةُ بالنصب على معنى وإن كانَ ذلك الشيءُ، ومثلهُ في لقمان[١]. قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ؛ أي مُحْفِظِيْنَ، وَقِيْلَ: حافِظِين؛ لأن مَن حَسَبَ شيئاً عَلِمَهُ وحَفِظَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ؛ أي التوراةُ يُفرِّقُ بها بين الحقِّ والباطلِ؛ والحلال والحرام، ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ ؛ مِن صِفَةِ التوراة مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾[٢]، والمعنى: أنَّهم استضاؤُا بها حتى اهتَدَوا في دِينهم، وقولُهُ تعالى: (وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ) أي موعِظَةً للمتقين الكبائرَ والفواحشَ. وعن ابن عبَّاس: أنهُ كان يقرأ (ضِيَاءً) بحذف الواو، وكان يقولُ: (آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ضِيَاءً)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ ؛ في الدُّنيا غائبين[٤] عن الآخرةِ، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ؛ أي خائفون من أن تلحقَهم الساعةُ، مما يَجري فيها من الْمُحَاسَبَةِ قبلَ إصلاح أعمالِهم.

---

(١) في سورة لقمان / ١٦، قال تعالى: ﴿إنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أوْ فِي السَّمَوَاتِ أوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

(٢) المائدة / ٤٤ .

(٣) أخرجه بن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٦٦٥). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦٣٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم)).

(٤) (أي غائبين؛ لأنهم لم يروا الله تعالى، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربّاً قادراً، يجازي على الأعمال فهم يخشونه في سرائرهم) قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١١ ص٢٩٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ ؛ أي هذا القُرْآنُ الذي أنزلناهُ عليكَ يا مُحَمَّدُ، ذِكْرٌ يَتَبَرَّكُ به قارئهُ فيجزيه الأجرَ العظيم، ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ يا أهلَ مكَّة، وهذا توبيخٌ لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي مِن قبل بُلُوغِهِ، وَقِيْلَ: معناهُ: مِن قَبْلِ مُوسَى وهارون، والمعنى: آتيناهُ هُدَاهُ وهو صغير حين كان في السِّرْب حتى عرفَ الحقَّ من الباطلِ، ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي آتيناه رُشْدَهُ، ﴿ إِذْ ﴾ ، حين، ﴿ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ ﴾ ، في الوقت الذي خرجَ من السرب فرآهم يعكفونَ على الأصنامِ: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي التصاويرُ التي لأجلِها مقيمون عليها، ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ بيَّنُوا بهذا الجواب أنه لا حُجَّةَ لَهم في عبادةِ الأصنام إلاَّ تقليدَهم لآبائهم، فأجابَهم إبراهيم، ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ ﴾ ؛ في عبادةِ الأصنام، ﴿ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ عن الحقِّ ظاهرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ قالوا له أجَادٌّ أنتَ فيما تقولُ ؟ مُحِقٌّ أم لاعبٌ مازحٌ ؟ وذلك لأنَّهم كانوا يستبعدون إنكارَ عبادتِها، ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ ؛ أي بَلْ إلَهُكم مَالِكُ السَّمواتِ والأرضِ الذي خَلَقَهُنَّ ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم ﴾ ؛ ما قلتُ لكم؛ ﴿ مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ ؛ أي لأُبْطِلَنَّها ولأكْسِرَنَّهَا ولأَمْكُرَنَّ بها وقتَ مغيبكم عنها، وذلك لأنَّهم كانوا يعزمونَ على الذهاب إلى عِيدهم، فقال لَهم عند ذلك هذا القولَ. والكَيْدُ في اللغة: هو الإضْرَارُ بالشَّيءِ، قال مجاهدُ وقتادة: (إنَّمَا قَالَ إبْرَاهِيْمَ هَذا الْقَوْلَ فِي نَفْسِهِ مِنْ قَوْمِهِ سِرّاً، وَلَمْ يَسْمَعْ ذلِكَ إلاَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ الَّذِي أفْشَاهُ سِرَّهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ: سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبْرَاهِيْمُ)(١).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٩٢-١٨٥٩٣).

قال الشعبي: (كان لَهم في كلِّ سنةٍ مَجْمَعٌ وَعِيْدٌ، وكانوا إذا رجعوا من عِيدهم دخلوا على الأصنامِ فسجَدُوا لَها، فلما كان ذلك العيدُ قال أبو إبراهيمَ لهُ: يا إبراهيمُ لو خرجتَ معنا إلى عيدنا لأَعْجَبَكَ دينُنا! فخرجَ إبراهيمُ معهم، فلما كان في بعضِ الطريق ألقَى نفسَهُ، وقال: إنِّي سَقِيْمٌ؛ أي اشتَكِي رجْلِي، فربَطُوا رجلَهُ وهو صريع، فلما مضَوا نادى في آخرِهم: وَتَاللهِ لأَكِيْدَنَّ أصْنَامَكُمْ، ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ ﴾.

ثُم رجعَ إبراهيمُ إلى بيتِ أصنامهم، فوجدَ معهم صَنَماً كَبيراً إلى جنبه أصنامٌ أصغَرُ منه، وإذا هم قد جَمعوا طعاماً فوضعوهُ بين يَدَي الأصنام وقالوا: إذا كان وقتُ رجوعِنا رجعنا وقد باركَتِ الآلِهةُ لنا في طعامِنا فأكلنا، فلما نظرَ إبراهيمُ إليهم وإلى ما بين أيدِيهم من الطعام، قال لَهم على طريقِ الاستهزاء بهم: ألاَ تَأكُلُونَ ؟ فلما لَم يُجيبوهُ، قال لَهم: مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بالْيَمِيْنِ، وجعل يكسِرُهم بفأسٍ في يده حتى لَم يبقَ إلاَّ الصنمُ العظيم، فعلَّقَ الفأسَ في عُنُقِهِ ثُم خرجَ). فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾ ؛ فإنه لَم يكسرْهُ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إلاَّ كَبيراً لَهُمْ) فيه إضمارٌ؛ أي لَمَّا ولَّوا مدبرينَ جعلَهُم جُذاذاً. قرأ الكسائيُّ بكسرِ الجيم أي كَسْراً وقطعاً، جمع جَذِيْذٍ وهو الهشيمُ مثل خَفِيْفٍ وخِفَافٍ وكريْمٍ وكِرَامٍ، وقرأ الباقون بضمِّ الجيم؛ أي جعلهم حُطَاماً ورُفَاتاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلاَّ كَبيراً لَهُمْ) فإنه لَم يكسره، ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ ﴾ فيحتجُّ عليهم إبراهيم ويُبرهِنَ لهمْ[٢] على أن أصنامَهم لِمَ لَمْ تقدِرْ على دفعِ الكسرِ عن أنفُسِها ؟ فلِمَ يعبدُوها ؟ وكيف يكونُ إلَهاً مَن لا يقدرُ على دفعِ ما نَزَلَ به؟. وَقِيْلَ: معناهُ: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ؛ أي إلى دِين إبراهيم، وإلى ما يدعوهم إليه بوجوب الْحُجَّةِ عليهم في عبادةِ ما لا يدفعُ الضُّرَّ عن نفسهِ، وينتهوا عن جهلهم وعِظَمِ خطاياهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٩٧).

(٢) في المخطوط: (يدهنهم) وهو غير مناسب. وأثبتنا ما رأيناه مناسباً، والله أعلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ ﴾ ؛[1] فلمَّا رجعُوا مِن عيدهم ورأوا أصنامَهم مكسَّرةً، قَالُوا: مَنْ فَعَلَ هَذا بآلِهَتِنا ؟ ﴿ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ أي فَعَلَ ما لَم يكن لهُ أن يفعلَ، فقال الذي سَمع إبراهيمَ؛ ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ وذلك أن بعضَهم كانوا قد سَمعوهُ يذكرُ أصنامَهم بالعيب ويقولُ: إنَّها ليست بآلِهة.

فقالوا: ينبغي أن يكون ذلك الفتَى هو الذي كسرَها، ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ ﴾ ؛ بذلك الفتَى، ﴿ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ﴾ ؛ أي مَرْأى مِنَ، ﴿ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ لكي يشهدَ الذين عرفوهُ أنه يعيبُ الأصنامَ. وَقِيْلَ: إنه لَمَّا بلغَ النمرودَ وأشرافَ قومه ما فُعِلَ بأصنامِهم وما قالوهُ، في إبراهيمَ أنه هو الذي فعلَ ذلك، قال النمرودُ ومن معه: فَأْتُوا بهِ عَلَى أعْيُنِ النَّاس، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أنه هو الذي فَعَلَ ذلك بهم، وكَرِهُوا أن يأخذوهُ بغيرِ بَيِّنَةٍ. وَقِيْلَ: معناه: لعلَّهم يشهدون ما يُصنَعُ به مِن العقوبةِ؛ أي يحضرون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي فلمَّا أتوا به قالوا: أنتَ فعلتَ هذا الكسرَ بآلِهتنا، ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ ؛ الذي الفأسُ في عُنُقِهِ، ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ حتى يُخبرُوكم، وأراد بهذا تقريرهم بأنَّهم ظالِمون في عبادتِهم ما لا يدفعُ عن نفسه؛ لأن جماعتَهم كانوا يعلمون أن الصنمَ لا يعقلُ ولا ينطق، فأرادَ إبراهيمُ بذلك تَبْكِيْتَ القومِ وتوبيخَهم على عبادةِ مَن لا يعقلُ ولا يفعل، ولذلك قال: فاسألوهم إنْ كانوا يقدرون على النُّطقِ.

قوله تعالى: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ أي فرَجَعُوا إلى أنفسهم بالْمَلاَمَةِ، ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ في سؤالِهِ؛ لأنَّها لو كانت آلِهةً لَم يَصِلْ إلى كسرِها أحدٌ؛ ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ ؛ أي أدركَتْهُم حيرةٌ فنكَّسُوا لأجلِها رؤوسَهُم، وأقرُّوا بما هو حُجَّةٌ عليهم، فقالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ ، يا إبراهيم، ﴿ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ فكسَرْتُهم لذلكَ.

---

(١) في المخطوط: (يا إبراهيم) ويبدو أنه تحريف.

وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: تذكَّروا بقلوبهم، ورجعُوا إلى عقولِهم، فقالوا: ما نراهُ إلاّ كما قالَ إنَّكُمْ أنْتُمُ الظَّالِمُونَ بعبادتِكم آلِهَةً لا تنطقُ ولا تبطشُ، ثُم أدركَتْهم الشقاوةُ، فعادوا إلى قولِهم الأوَّل وضلالِهم القديم، وهو قوله (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ) أي رُدُّوا إلى الكفرِ بعد أن أقرُّوا على أنفسِهم بالظُّلم، فقالوا لإبراهيم: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنْطِقُونَ فلذلِكَ كسرتَهم.

فلما اتَّجهت الْحُجَّةُ عليهم بإقرارهم، وبَّخَهُمْ إبراهيمُ و﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ ؛ ولا يرزقُكم ﴿ وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ إذا لم تعبدوهُ، ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ﴾ ؛ أي تَبّاً لكم، ﴿ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أنَّ هذه الأصنامَ لا تستحقُّ العبادةَ، إذ هي أحجارٌ لا حركةَ لَها ولا بيانَ، أفليس لكم ذهنُ الإنسانيَّةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ ؛ أي لَمَّا ألزمَتْهُم الحجةُ، وعجزوا عن الجواب غَضِبُوا فقالوا: حرِّقوهُ وَانْصُرُوا آلِـهَتَكُمْ بتحريقهِ؛ لأنه يعيبُها ويطعنُ فيها، فإذا حرقتموهُ كان ذلك نصراً منكم إياها. وَقِيْلَ: معناهُ: وانتقموا لآلِهتِكُم وعظِّمُوها، ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ في هذا شيئاً.

فاشتَغَلوا بجمعِ الحطب حتى كان الشيخُ الكبير يأتِي بالحطب تقرُّباً إلى آلِهتهم، وحتى أن المريضَ كان يُوصِي بكذا وكذا من مالهِ فيشتري به حَطَباً فيُلقَى في النار، وحتى أن المرأةَ لتغزلُ فتشتري به حطباً، وتلقيه في النار. قال ابنُ عمر: (إنَّ الَّذِي أشَارَ عَلَيْهِمْ بتَحْرِيْقِ إبْرَاهِيْمَ رَجُلٌ يُسَمَّى (هِيْزَنَ) فَخَسَفَ اللهُ بهِ الأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيْهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[١].

فلما أجمعَ النمرودُ وقومه على إحراق إبراهيمَ حبسوهُ في بيتٍ وبَنَوا بيتاً كالحظيرةِ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾[٢] ثُم جمعوا له أصلابَ الحطب مِن أنواع الخشب، حتى أن المرأةَ كانت إذا مرَّت تقولُ:

---

(١) القول لشعيب الجبئي كما في جامع البيان: النص (١٨٦١٦).

(٢) الصافات / ٩٧ .

إذا عافانِي اللهُ لأجمعنَّ حطباً لإبراهيمَ، وكانت المرأةُ تنذرُ في بعض ما تطلب لئن أصابته لتحطبنَّ في نار إبراهيم التي يحرقُ فيها احتساباً لدينها[1].

قال ابنُ اسحق: (كانوا يجمعون الحطبَ شهراً، فلما أجمعوا الحطبَ شعَلُوا في كلِّ ناحية ناراً، فاشتعلت النارُ واشتدَّت حتى أن الطائرَ كان إذا مرَّ بها احترقَ من شدَّة وَهَجِهَا، ثُم عمَدُوا إلىإبراهيمَ وقيَّدوهُ، ثُم اتخذوا مَنْجَنِيْقاً ووضعوهُ فيه مقيَّداً مغلولاً.

فصاحَتِ السمواتُ والأرض والملائكة صيحةً واحدة: يا ربَّنا إن إبراهيمَ ليس في أرضِكَ أحدٌ يعبدُكَ غيرهُ، أيُحْرَقُ؟! فَأْذنْ لنا في نُصرتهِ، فقال اللهُ: إن استعاذ بشيءٍ منكم أو دعاهُ فلينصره، فقد أذنتُ له في ذلك، وإن لَم يدعُ أحداً غيري فأنا أعلمُ به، فأنا وَلِيُّهُ، فَخَلُّوا بيني وبينَهُ.

فلما أرادوا إلقاءَهُ في النار، أتاهُ خازنُ الماء فقال لهُ: إن أذنتَ أخمدتُ النارَ، فإن خزائنَ المياه والأمطار بيدي ، وأتاهُ خازن الرِّياحِ وقال: إن شئتَ طيَّرتُ النارَ في الهواء، فقال إبراهيمُ: لا حاجةَ لِي إليكم، ثُم رفعَ رأسَهُ إلى السَّماء وقال: اللَّهُمَّ أنتَ الواحدُ في السماء، وأنا الواحدُ في الأرضِ، ليس في الأرضِ أحدٌ يعبدك غيري، حَسْبِي اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ)[2].

وروي: أن إبراهيمَ قال حين أوثقوهُ ليلقوه في النار: لاَ إلَـهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ، لَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الْمُلْكُ، لاَ شَرِيْكَ لَكَ. قال: ثُم رَمَوا به في المنجنيق، فاستقبلَهُ جبريلُ عليه السلام وقال: يا إبراهيمُ ألَكَ حاجةٌ؟ قال: أمَّا إليكَ فلا.

قال جبريل: قال: حَسْبِي من سؤالِي علمهُ بحالِي[3]، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَوْ لَمْ يُتْبعْ بَرْدَهَا

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦١٩) عن السدي.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦١٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٨٦٢٧) مختصراً.

سَلاَماً لَمَاتَ مِنْ بَرْدِهَا، فَلَمْ تَبْقَ يَوْمَئِذٍ نَارٌ فِي الأَرْضِ إلاَّ طُفِئَتْ وَخُمِدَتْ)[١].

قال السديُّ:(وَأخَذتِ الْمَلاَئِكَةُ بِضَبْعَي[٢]إبْرَاهِيْمَ فَأقْعَدُوهُ عَلَى الأَرْضِ، فَإذا عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ[٣] وَوَرْدٌ أحْمَرُ وَنَرْجِسٌ)[٤]. قال كعبُ:(مَا أحْرَقَتِ النَّارُ مِنْ إبْرَاهِيْمَ إلاَّ وِثَاقَهُ)[٥].

قالوا: وكان إبراهيمُ في ذلك الموضعِ سبعةَ أيام، قال إبراهيمُ: ما كنتُ أياماً قط أنعمَ مني من الأيامِ التي كنتُ فيها في النار، ثُم يَصِفُ اللهُ ملكَ الظِّلِّ في صورةِ إبراهيم فأقعدَهُ فيها إلى جنب إبراهيم وهو يؤنسهُ، وبعثَ الله بقميصٍ من حرير الجنَّة، قال: فنظرَ النمرودُ مِن طرحٍ له فأشرفَ على إبراهيم، وما يشكُّ في موتهِ، فرأى إبراهيمَ في روضةٍ ورأى الْمَلَكَ قاعداً إلى جنبهِ والنارُ حواليه، فناداهُ النمرودُ: يا إبراهيمُ كبيراً إلَهُكَ الذي بلغَتْ قدرتهُ إلى أن حالَ بينك وبين ناري حتى لَم تضرك).

قال قتادةُ والزهريُّ: (مَا انْتَفَعَ أحَدٌ مِنْ أهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ بنَار وَلاَ أحْرَقَتْ شَيْئاً إلاَّ وثَاقَ إبْرَاهِيْمَ، وَلَمْ تَبْقَ يَوْمَئِذٍ دَابَّةٌ إلاَّ أطْفَأَتْ عَنْ إبْرَاهِيْمَ النَّارَ إلاَّ الْوَزَغُ، فَلِذلِكَ أمَرَ ﷺ بقَتْلِهِ، وَسَمَّاهُ فَاسِقاً)[٦]. قال شعيبُ الجبائي: (أُلْقِيَ إبْرَاهِيْمُ فِي النَّار وَهُوَ ابْنُ سِتَّ عَشَرَةَ سَنَةً، وَذُبحَ اسْحَقُ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِيْنَ، وَوَلَدَتْهُ سَارَةُ وَهِيَ بنْتُ تِسْعِيْنَ سَنَةً، وَلَمَّا عَلِمَتْ سَارَةُ بمَا أرَادَ اللهُ باسْحَقَ اضْطَرَبَتْ يَوْمَيْنِ، وَمَاتَتِ الْيَوْمَ الثَّالِثَ)[٧].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٣٠) عن أبي العالية. ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١١ ص٣٠٤ عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب.

(٢) الضبع: العضد.

(٣) (عذب) سقطت من المخطوط.

(٤) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص٨٤٠.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٢٠).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٣١).

(٧) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٢٦). وعند الطبري (شعيب الجبيء).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا ﴾ ؛ أي وأرادوا الحيلـةَ في الإضـرار، ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمُ ﴾ ؛ الكفارَ الذين أرادوا إحراقَهُ، ﴿ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ بأن لَـم يَتِمَّ ما عَزَمُوا عليه، وتبيَّن عجزُهم عن نصرهم آلِهتـهم، فخَسِـرَ سـعيُهم. وقـال ابـنُ عبَّاس: (هُوَ أنَّ اللهَ سَـلَّطَ الْبَعُـوضَ عَلَـى النَّمْـرُودِ وَجُنْـدِهِ حَتَّـى أخَـذَتْ لُحُومَـهُمْ وَشَرِبَتْ دِمَاءَهُمْ، وَوَقَفَتْ وَاحِدَةٌ فِي دِمَاغِهِ حَتَّى أهْلَكَتْهُ).

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي نَجَّيْنَا إبراهيمَ من كيدِ النمرود، ونَجَّينَا لوطاً معهُ؛ أي ورفعنا إبراهيمَ مـن الْهَلَكَـةِ إلى الأرضِ المباركة وهي أرضُ الشَّام. وسُميت أرضُ الشامِ مباركـةً؛ لكـثرةِ الأنبيـاء الذين بعثَهم اللهُ فيها. وعن أبي العاليةِ: (أنـهُ ليـس مـاءٌ عـذب إلاّ وهـو يجـري مـن الصخرة التي ببيت المقدس)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ ؛ أي ووهَبْنَـا لإبراهيـمَ وَلَدَهُ اسحقَ وولدَهُ يعقوبَ، سُميَ يعقوبُ (نَافِلَةً) لأنه وَلَدُ وَلَدِهِ، والنافلـةُ في اللغـة: زيَادَةٌ على الأصلِ، ونوافِلُ: الصلاةُ ما تطوَّعَ به المصلِّي. ويقـال: إنَّـهما جميعـاً نافلـةٌ؛ لأنَّهما عطيَّةٌ زائدةٌ على ما تقدَّم من النِّعَم. قال ابنُ عبَّاس وقتادةُ: (سَأَلَ إبْرَاهِيْـمُ رَبَّـهُ وَلَداً وَاحِداً، فَقَـالَ: رَب هَـبْ لِـي مِـنَ الصَّـالِحِيْنَ، فَأعْطَـاهُ اللهُ اسْـحَقَ وَلَـداً وَزَادَهُ يَعْقُوبَ)، قال ابنُ عبَّاس: (نَفَلَهُ يَعْقُوبَ؛ أيْ زَادَهُ إيَّاهُ عَلَى مَـا سَـأَلَ). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ يعني إبراهيمَ وإسحق ويعقـوب، وجعلنـاهم أنبياءَ عاملين بطاعتنا.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي قَادَةً في الخيرِ، ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ ؛ أي يدعونَ الخلقَ إلى أمرنا ودِيننا، ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ؛ أي شـرائعَ النبوَّةِ، وَقِيْلَ: أمَرناهم بفعلِ الخـيرات، ﴿ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي خاضِعين مطيعين. وإنَّما قال (وَإقَامِ الصَّلاَةِ) بغير (هاء)؛ لأن الإضافةَ صارت عِوَضاً عن الهاءِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٣٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ؛ أي وآتَينا لوطاً النبوَّةَ والعلمَ، ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ﴾ ؛ يعني سَدُومَ، كان أهلُها يأتون الذُّكران في أدبارهم، ويتضارطون في مجالسِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّهم كانوا يعملونَ مع ذلك أشياء أُخَرَ من المنكراتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ﴾ ؛ بإنجائِنا إيَّاهُ من القومِ السُّوء وهلاكِهم، ﴿ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي مِن الأنبياءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي واذكُرْ نوحاً إذْ نادَى رَبَّهُ من قَبْلِ إبراهيمَ ولوطٍ يعني دعَا على قومه بالهلاكِ، فقالَ: ﴿رَبِّ لاَ تَذرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾(١)، ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ ومَن معهُ من غَمِّ الغرق وكَرْبِهِ، والكَرْبُ أشدُّ الغَمِّ. ﴿ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ ؛ أي منعناهُم مِن أن يَصِلوا اليه بسوءٍ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ ؛ أي كفاراً، ﴿ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ بالطُّوفَان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾ ؛ أي وأكرَمْنا داودَ وسليمان بالنبوَّة والحكمةِ إذ يحكُمان في الحرثِ، وقال قتادةُ: (زَرْعاً)(٢)، وقال ابنُ مسعود: (كَانَ كَرْماً قَدْ نَبَّتَ عِنَباً)(٣)، قَيَّدَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ) أي وقعت فيه باللَّيلِ ورَعَتْهُ وأفسدتهُ، والنَّفْشُ في اللغة: الرَّعْيُ بالليلِ، يقال: نَفَشَتِ السَّائمةُ بالليلِ، وهَمَلَتْ بالنهار إذا رَعَتْ، والْهَمَلُ الرعيُ بالنهار، وكلاهما الرعيُ بلا راعٍ(٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي لا يخفَى علينا منه شيءٌ، ولا يغيبُ عن علمِنا، وإنَّما قال (لِحُكْمِهِمْ) بلفظ الجمعِ لإضافة الحكم إلى مَن

---

(١) نوح / ٢٦ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٥٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٥٣).

(٤) ذكره الطبري في جامع البيان:مج١٠ ج١٧ ص٧٠. والبغوي في معالم التنزيل:ص٨٤٢.

حَكَمَ وإلى الْمَحكومِ لَهم، وقد يُذكَرُ لفظُ الجمعِ في موضعِ التثنية ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ (١) أي أخوَان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ ؛ أي فَهَّمْنَا القصةَ سليمانَ دون داود، ﴿ وَكُلاًّ ﴾ ؛ منهما؛ ﴿ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ ؛ العلمُ والفصلُ بين الخصومِ.

قال ابنُ مسعودٍ وقتادةُ والزهريُّ: (وَذلِكَ أنَّ رَجُلَيْنِ دَخَلاَ عَلَى دَاوُدَ عليه السلام، أحَدُهُمَا صَاحِبُ حَرْثٍ، وَالآخَرُ صَاحِبُ غَنَم، فَقَالَ صَاحِبُ الزَّرْعِ وَالْكَرْمِ: إنَّ هَذا نَفَشَتْ غَنَمُهُ لَيْلاً فَوَقَعَتْ فِي حَرْثِي، فَلَمْ تُبْقِ مِنْهُ شَيْئاً. فَقَالَ: لَكَ رقَابُ الْغَنَمِ- وَكَانَا فِي الْقِيْمَةِ سَوَاءً- فَأَعْطَاهُ الْغَنَمَ بِالْحَرْثِ وَخَرَجَا.

فَمَرَّا عَلَى سُلَيْمَانَ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ أحَدَ عَشَرَ سَنَةً، فَقَالَ: كَيْفَ قَضَى بَيْنَكُمَا؟ فَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: نِعْمَ مَا قَضَى، وَغَيْرُ هَذا كَانَ أرْفَقَ بِالْكُلِّ، وَلَوْ وُلِّيْتُ أمْرَكُمَا لَقَضَيْتُ بغَيْرِ مَا قَضَى. فَأُخْبرَ دَاوُدُ بذَلِكَ فَدَعَا فَقَالَ: كَيْفَ تَقْضِي بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: أدْفَعُ الْغَنَمَ إلَى صَاحِبِ الْحَرْثِ فَيَكُونُ لَهُ نَسْلُهُمَا وَرسْلُهُمَا وَمَنَافِعُهَا وَسَمْنُهَا وَصُوفُهَا إلَى الْحَوْلِ، وَيَقُومُ أصْحَابُ الْغَنَمِ عَلَى الْكَرْمِ حَتَّى يَعُودَ كَهَيْأَتِهِ يَوْمَ أفْسِدَ، ثُمَّ يَدْفَعُ هَؤُلاَءِ إلَى هَؤُلاَءِ غَنَمَهُمْ، وَيَدْفَعُ هَؤُلاَءِ إلَى هَؤُلاَءِ كَرْمَهُمْ.

فَقَالَ دَاوُدُ عليه السلام: نِعْمَ مَا قَضَيْتَ فِيْهِ، فَالْقَضَاءُ قَضَاؤُكَ. وَحَكَمَ دَاوُدُ بَيْنَهُمْ بذلِكَ، فَقُوِّمَ بَعْدَ ذلِكَ الْكَرْمُ وَمَا أصَابُوهُ مِنَ الْغَنَمِ فَوَجَدُوهُ مِثْلَ ثَمَرِ الْكَرْمِ) (٢)، وهكذا رُوي عن ابنِ عبَّاس (٣).

قال الحسنُ: (كَانَ الْحُكْمُ مَا قَضَى بِهِ سُلَيْمَانُ، وَلَمْ يُعْفِ اللهُ دَاوُدَ فِي حُكْمِهِ) وهذا يدلُّ على أنَّ كلَّ مجتهدٍ يصيبُ، وإلى هذا ذهبَ بعضُ الناسِ فقالوا: إذا نَفَشَتِ الغنمُ ليلاً في الزرعِ فأفسدتهُ، كان على صاحب الغنم ضمانُ ما أفسدته، وإن كان نهاراً

---

(١) النساء / ١١ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٨٦٥٥) عن ابن مسعود مختصراً، والأثر (١٨٦٦٢) عن قتادة والزهري.

(٣) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص٦٧-٦٨.

لَم يضمن شيئاً، واستدلُّوا أيضاً بما رُوي: [أنَّ نَاقَةً كَـانَتْ لِلْـبَرَاءِ بْـنِ عَـازِبٍ دَخَلَـتْ حَائِطَ رَجُلٍ فَأَفْسَدَتْهُ، فَقَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أهْلِ الأَمْوَالِ حِفْظَهَا بالنَّهار، وَعَلَى أهْلِ الْمَوَاشِي حِفْظَهَا باللَّيْلِ][(١)].

وأما أصحابُنا فلا يَرَوْنَ في هـذه المسـألةِ ضَمَانـاً ليـلاً ولا نـهاراً، إذا لَـم يكـن صاحبهُ هو الذي أرسله فيه، ولا حُجَّةَ لَـهم في هـذهِ الآيـة؛ لأنـهُ لا خـلافَ أن مَـن نَفَشَتْ إبلهُ أو غنمهُ في حرثِ رجـلٍ أنـه لا يجـبُ عليـه أن يُسَـلِّمَ الغنـمَ، ولا يسـلمُ أولادَها وألبانَها وأصوافَها إليه، فثبتَ أنَّ الْحُكْمَيْنِ اللذين حَكَمَ بهما داودُ وسـليمان (عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ) مَنْسُوخَانِ بشريعةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [الْعَجْمَاءُ جُبَارٌ][(٢)] وهذا خبرٌ مستعمل مُتَّفَقٌ على استعمالهِ في البهيمة الْمُنْفَلِتَةِ إذا أصابت إنساناً أو مالاً أنه لا ضمـانَ علـى صاحبها إذا لَم يرسلْها هو عليه، وليس في قصَّة البراءِ بن عازب إيجابُ الضمان، ولأنّ الأشياءَ الموجبةَ للضمان لا تختلفُ بالليل والنهار.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ ؛ أي وسـخَّرنا الجبالَ والطيرَ يسبحن مع داودَ؛ أي أن الجبالَ كانت تسيرُ مع داود أين يذهـبُ، ومما يؤيدُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَـا جِبَـالُ أوِّبِـي مَعَـهُ وَالطَّـيْرَ﴾[(٣)]، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ هذه الأشياءَ دلالةً على نبوَّته. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي وعلَّمنا داودَ صَنْعَةَ الدِّرْعِ، وسُمي الدرع لَبُوساً؛ لأنَّها تُلبـس، كما يقالُ للبعير: رَكُوبٌ؛ لأنه يُرْكَبُ، والسلاحُ كله لَبُوسٌ عند العرب دِرعـاً كـان أم جَوْشَناً أو سَيفاً أم رُمحاً، والْجَوْشَنُ هو الدرعُ الصغيرة. قـال قتـادةُ: (أوَّلُ مَـنْ صَنَـعَ الدِّرْعَ دَاوُدُ، وَإنَّمَا كَانَتْ مِنْ صَفَائِحَ، فَهُوَ أوَّلُ مَنْ سَرَدَهَا وَحَلَقَهَا)[(٤)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٤٣٦. وأبو داود في السنن: كتاب البيوع: بـاب المواشـي تفسد زرع القوم: الحديث (٣٥٦٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٤٧٥. والنسائي في السنن: ج ٥ ص٤٤-٤٥.

(٣) سبأ / ١٠ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٦٩). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٦٨٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ ؛ أي ليُحرزكم من شدَّة القتال. قرأ شيبةُ وأبو بكرٍ ويعقوبُ (لِنُحْصِنَكُمْ) بالنون، لقوله (وَعَلَّمْنَاهُ). وقرأ ابنُ عامر وحفص بالتاء، يعني الصَّنْعَةَ. وقرأ الباقون بالياءِ على معنى لِيُحْصِنَكُمُ اللَّبُوسُ[(١)]. وَقِيْلَ: على معنى لِيُحْصِنَكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (مِنْ بَأْسِكُمْ) أي من حربكم، وقيل: من وقع السلاح فِيكُمْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ يا أهلَ مكَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ أي وسخَّرنا لسليمان الريحَ عاصفةً؛ أي شديدَ الْـهُبُوب. قال ابنُ عبَّاس: (إنْ أمَرَ الرِّيْحَ أنْ تَعْصِفَ عَصَفَتْ، وَإذا أرَادَ أنْ تُرْخَى أرْخَتْ). وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُخَاءً حَيْثُ أصَابَ﴾[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (تَجْرِي بأمْرِهِ إلَى الأرْضِ) أي تجري بأمرِ سُليمان من اصْطَخَرَ إلى الأرضِ التي باركَ اللهُ فيها بالماءِ والشَّجر وهي الأرضُ المقدَّسة. روي: أنَّ الريحَ كانت تجري بسليمانَ وأصحابه إلى حيث شاءَ سليمانُ، ثُم يعودُ إلى منْزله بالشَّامِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ بصحَّة التدبيرِ فيه، علِمْنا أن ما يُعطى سليمان من تسخيرِ الريح وغيره يدعوهُ إلى الخضوعِ لربهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ ﴾ ؛ أي وسخَّرنا له مِن الشياطين في البحرِ لاستخراجِ ما شاء من لُؤْلُؤٍ ومَرْجَانٍ وغيرِ ذلك من الجواهر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي ويعملون دون الغواصة من أعمالِ البناء، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ أي مِن أنْ يُفسدوا ما عملوا، ومن أن يَهيجوا على أحدٍ في زمانه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ ؛ أي دَخَلَ الضرُّ في جسدِي، ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ بالعبادِ، فكان هذا تَعْرِيْضاً منهُ بالدعاءِ لله لإزالة ما بهِ من الضُّرِّ، ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ دعاءَهُ، ﴿ فَكَشَفْنَا مَا

(١) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص٧٢. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٥٨-١٥٩.
(٢) ص / ٣٦ .

بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ ؛ وقولهُ تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ مسعود وقتادة والحسنُ: (أحْيَا اللهُ لَهُ أوْلاَدَهُ الَّذِيْنَ هَلَكُوا فِي الدُّنْيَا بأعْيَانِهِمْ وَرَدَدْنَا لَهُ مِثْلَهُمْ).

ويقالُ: أبْدَلَهُ اللهُ بكلِّ شيء ذهبَ عنه ضِعْفَ، وعن ابنِ عبَّاس قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾[١] فقالَ: [يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، رَدَّ اللهُ امْرَأتَهُ وَزَادَ فِي شَبَابهَا حَتَّى وَلَدَتْ لَهُ سِتَّةً وَعِشْرِيْنَ ذكَراً][٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ ؛ أي فَعَلْنَا ذلك بهِ رحمةً من عندنا، ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي وموعظةً للمطيعين.

قال وهبُ بن مَنبه: (كان أيوبُ عليه السلام رجلاً من الرُّوم من ذريَّة اسحق بن إبراهيمَ وكانت أمُّهُ من ولدِ لُوطٍ، وكان اللهُ قد اصطفاهُ وبناه وبسطَ عليه الدُّنيا، وآتاهُ من أصناف المال من البقرِ والإبل والغنم والخيل والْحُمُرِ ما لا يؤتيهِ أحداً، وكان قد أعطاهُ الله أهلاً وولَداً من رجالٍ ونساء، وكان له خمسمائة عبدٍ، لكلِّ عبدٍ امرأةٌ وولد ومال.

وكان أيوبُ عليه السلام بَرّاً تَقِيّاً رحيماً بالمساكين، يُكْرِمُ الأراملَ والأيتام ويَكْفُلُهُمْ، ويُكْرِمُ الضيفَ، وكان شَاكراً لأنْعُمِ اللهِ، مؤدِّياً لحقِّ الله، قد امتنعَ من عدوِّ الله إبليسَ أن يصيبَ منه ما يصيبُ من أهلِ الغِنَى من الفتنةِ والغفلة والشَّهوة والتشاغُلِ عن أمر الله بما هو فيه من الدُّنيا، وكان كثيرَ الذكرِ لله تعالى مجتهداً في العبادةِ، وكان إبليسُ لا يُحْجَبُ عن شيءٍ من السَّموات.

ومن هنا وصلَ إلى آدمَ عليه السلام حين أخرجَهُ من الجنةِ، فلم يزلْ على ذلك يصعدُ في السَّموات حتى رفعَ اللهُ عيسى عليه السلام فحُجِبَ من أربعٍ، وكان يصعدُ في الثلاثِ،

(١) ص / ٤٣ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٨٦٨٦) بإسناد ضعيف. وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦٦٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه وابن عساكر من طريق جويبر بن الضحاك عن ابن عباس وذكره)).

فلمَّا بعثَ الله مُحَمَّداً ﷺ حُجِبَ من الثلاثِ الباقيات، فهو وجنودهُ مَحْجُوبُـونَ مـن جميعِ السموات إلى يوم القيامةِ إلاّ مَن استَرَقَ فأتبعهُ شهابٌ ثاقب.

فلما كان إبليسُ في زمان أيوبَ يصعدُ إلى السَّماء، سَمِعَ تحاديثَ الملائكة بصلاة أيوبَ، وذلك حين ذكَرَهُ اللهُ وأثنى عليهِ، فأدركَهُ الحسدُ بأيوب، فصعـدَ سـريعاً حتـى وَقَفَ مِن السموات موقفاً كان يَقِفُهُ، وقال: إلَـهي؛ عبـدُكَ أيـوبُ قـد أنعمـتَ عليـه فشكركَ، وعَافَيتَهُ فَحَمِدَكَ، ولَم تُجَرِّبْهُ بشدَّة ولا بـلاءٍ، وأنـا لـك زعيـمٌ لَئِـنْ جرَّبتَـهُ بالبلاءِ ليَكْفُرَنَّ بكَ.

فقالَ اللهُ تعالى: انطلق؛ فَقَدْ سَلَّطْتُكَ على مالهِ، فانقضَّ إبليسُ حتى وقعَ علـى الأرضِ وجَمَعَ عفاريتَ الجنِّ وقال لَهم: ماذا عندَكُم من القـوَّة ؟ فـإنِّي قـد سُـلِّطْتُ على مالِ أيُّوبَ، وهي المصيبةُ الكبرى والفتنــةُ الـتي لا تَصْـبرُ عليـها الرجـالُ، فقـال عفريتٌ من الجنِّ: أعطيتُ من القوةِ ما إذا شِئْتُ تَحَوَّلْتُ إعصاراً من النار، وأحرقـتُ كلَّ شيءٍ أتى عليه، فقال لهُ ابليسُ: إذهـب إلَـى الإبـلِ ورُعاتِـها، فذهـب إلى الإبـلِ فوجدَها في المرعى، فلم يشعُرِ الناسُ حتى ثارَ إعصارٌ تنفخُ منه السَّموم، لا يدنو منــهُ أحدٌ إلاّ احترقَ، فلم يزل يُحرِقُها ورعائَها حتى أتى على آخرِها.

فلمَّا فَرَغَ منها تَمَثَّلَ إبليسُ على قعودٍ منها كَرَاعِيْهَا، وانطلقَ إلى أيوبَ فوجــده قائماً يصَلِّي، فقال: يا أيوبُ؛ هل تدري ما صَنَعَ ربُّكَ الـذي اخترتَـهُ وعبدتـه بـإبلِكَ ورُعاتِها ؟ فقال أيوبُ: إنَّها مالهُ أعارَنِيَها وهو أولَى به منِّي إذا شاءَ نَزَعَهُ، وقد وَطِئْتُ نفسي ومالِي على أنَّهما للفناءِ.

فقال إبليسُ: إن رَبَّكَ أرسلَ عليها ناراً فاحترقت هي ورعائُها، فصارت الناسُ مبهوتون يتعجَّبون منهم، ويقولون: لو كان إلَهُ أيوبَ يقدرُ على أن يصنعَ شـيئاً لَمَنَـعَ عن إبلِ وليِّه، وقومٌ منهم يقولون: بل إلَهُ أيوبَ هو الذي فَعَلَ ذلك، أشْمَتَ به عدوَّهُ وتجمع به صَدِيْقَهُ.

فقالَ أيوبُ: الحمدُ لله على ما قَضَى اللهُ وقَدَّرَ، ولو عَلِمَ اللهُ منـك أيُّـها العبـدُ خيراً لَتَقَبَّلَ روحَكَ مع تلك الأرواحِ، فَيَأجُرُنِي اللهُ فيك وتَموتُ شهيداً، ولكنه عَلِـمَ منك شرّاً فَأخَّرَكَ وخلَّصكَ.

فرجعَ إبليسُ إلى أصحابهِ خَاسِئاً ذليلاً، فقال لَهم: ماذا عندَكم من القـوَّة؟ إنِّـي لَم أخْرِجْ قَلْبَهُ، فقال عفريتٌ: عندي من القوَّة ما إذا شئتُ ضجت صوتاً ما سَمعه ذو روحٍ إلاّ خرجت روحهُ، فقال إبليسُ: إذهب إلى الغَنَمِ ورعاتِها، فانطلَقَ إليـهم، فلما تَوَسَّطَ الغنمَ والرُّعاةَ صاح صوتاً فماتوا جميعاً .

ثُم خرجَ إبليسُ متمثِّلاً براعٍ من رعاتِها إلى أيـوبَ فأخـبرَهُ بذلـك، فحمـدَ الله وقال لهُ مِثْلَ ما قال في المرَّة الأولى، فرجعَ إبليسُ إلى أصحابهِ ذليلاً خاسئاً وأمَرَهُمْ إلى أصحاب الحرث والزُّروعِ فأهلكُوهم. وكان أيوبُ عليه السلام كلَّما انتهى إليـه هـلاكُ مـالٍ من ماله حَمَدَ الله وأثنَى عليهِ ورَضِيَ بالقضاءِ، وألزمَ نَفْسَهُ الصبرَ على البلاءِ حتى لَم يبق له مالٌ.

فلما رأى إبليسُ أن مَالَهُ قد فَنِيَ، وأنه لَم يُصِبْ منه حاجتَهُ صَعَـدَ إلى السـماءِ وقالَ: يا رب؛ إن أيوبَ يرى أنـكَ مـا أهلكـتَ مِـن مالـه أخْلَفْتَـهُ عليـهِ، فـهل أنـتَ مُسَلِّطُنِي على أولادهِ ؟ فإنَّها الفتنةُ الْمُضِلَّةُ والمصيبةُ التي لا يقومُ لَها قلوبُ الرجـالِ، ولا يقوَى عليها صبرُهم، فَسَلَّطَهُ اللهُ على ذلكَ.

فانقضَّ إبليسُ حتى جاء إلى أولادِ أيوبَ وهم في قصورهم، فلـم يـزل يُزَلْزِلُـهُ بهم حتى تَدَاعَى من قواعدهِ، ثم جعل يَرْقَبُهُمْ بالخشب والحجارة حتى مَثَّلَ بـهم كـلَّ مُثْلَةٍ، ثُم ذهبَ إبليسُ إلى أيوبَ متمثِّلاً بالمعَلِّم الذي كان يعلِّمُهم الحكمةَ وهو مجـروحٌ يسيلُ دَمُهُ ودماغه، فأخبرَهُ بذلكَ، فقال لهُ: يا أيوبُ؛ لو رأيـتَ بَنِيْـكَ كيـفَ حالُـهم، منكَّسِين على رؤوسهم يسيلُ دماغُهم من أنوفهم، ولو رأيتَ كيف شُـقِقَتْ بطونُـهم، وتناثرت أمعاؤُهم لَتَقَطَّعَ قلبُكَ عليهم، ولَم يزل يردِّدُ هذا القولَ حتى رَقَّ قلبهُ وبكى، فقبضَ قبضةً من التراب ووضعه على رأسهِ، فَاغْتَنَمَ إبليسُ ذلك وصَعَدَ سريعاً بالذي كان مِن جَزَعِ أيوبَ، ثُم لَم يلبث أيوبُ أنْ نَدِمَ على ذلـكَ واسـتغفرَ رَبَّـهُ، فصعـدتِ الملائكةُ بتوبته فسَبَقُوا إبليسَ.

فوقفَ إبليسُ خَازياً ذلِيْلاً، وقال: إلَهي هل أنتَ مُسَـلِّطُنِي علـى جسـدهِ فـإنِّي زعيمٌ لكَ إن سَلَّطْتَنِي عليه لَيَكْفُرَنَّ بكَ، فقال اللهُ تعالى: قـد سَـلَّطْتُكَ علـى جسـدهِ، ولكن ليس لك سلطانٌ على لسانهِ ولا على قلبه، ولَم يُسَلِّطْهُ اللهُ عليه إلاّ لِيُعظِمَ لـه الثوابَ، ويجعله عبرةً للصابرين، وذكرى للعابدين؛ ليقتَدُوا به في الصبرِ.

فانقضَّ إبليسُ سريعاً فوجدَ أيوب سَاجِداً، فأتاهُ من قِبَلِ الأرضِ في وجهه، فنفخَ في مِنْخَرَيْهِ نفخةً اشتعلَ منها جسدهُ، فذهَلَ وخرجَ به من قَرْنِهِ إلى قدمهِ مثل ثآليل[1] ووقعت عليه حَكَّةٌ لا يَملكُها، فَحَكَّ بأظفارٍ حتى سقطت كلُّها، ثم حَكَّهَا بالفخَّار والحجارة، فلم يَزَلْ يَحُكُّهَا حتى نَزَلَ لحمهُ وتقطَّعَ وتغيَّر وَانْتَنَّ، فأخرجَهُ أهلُ القرية، وجعلوه على كِنَاسَةٍ، واعتزله جميعُ الناس إلاّ امرأتُهُ (رَحْمَةُ بنتُ إفرائيم بن يوسفِ بن يعقوب) فإنَّها كانت تتخلَّفُ إليه بما يصلحهُ ويلزمه.

فلما طالَ عليه البلاءُ، وتمادى عليه الضُّرُّ، ورفضه جميعُ الناسِ حتى أهلَ دِيْنِهِ تركوهُ ولَم يتركوا دينَهُ، فأقبلَ على الدُّعاء متضرِّعاً، وقال: إلَهي؛ لأيِّ شيءٍ خلقتني؟ ليتَكَ لَم تخلقني، بل ليتنِي كنتُ حيضةً ألقتني امِّي، فلو كنتَ أمتَّنِي كان أجملَ بي، إلَهي أنا عبدٌ ذليل، إنْ أحسنتَ إلَيَّ فَالْمَنُّ لَكَ، وإن عاقبتَني فبيدكَ عُقوبَتِي، جعلتَني للبلاءِ غَرَضاً وللفتنةِ نَصباً، وقد وقعَ بي بلاءٌ لو سَلَّطْتَهُ على جبلٍ أضعفَ عن حملِهِ، فكيف يحملهُ ضعفي ؟

إلَهي تقطَّعت أصابعِي فإنِّي لا أقدرُ أحمل اللقمةَ بيدي، إلَهي تساقطت لَهَواتِي ولحمُ رأسي، وما يرادُ بي، وسالَ دِماغي من فمي، وتساقط شعرُ عيني، وكأنَّما أحرقَ وجهي، فحدقتايَ متدلِّيتان على وجهي، وورَمَ لسانِي حتى ملأ فمي فما أدخلُ فيه طعامي إلاّ غصَّها، وورَمَتْ شفتَايَ حتى غَطَّتِ العليا أنفي، وغطَّت السُّفلى ذقْنِي، وتقطَّعت أمعائي في بطني. إلَهي ذهَبَتْ قوَّة رجلاي حتى لا أطيقُ حملَها، وذهبَ المالُ حتى صِرْتُ أسألُ اللقمةَ مَن كنتُ أعُولُهُ فيمنُّها عليَّ ويعيِّرُنِي.

إلَهي هَلَكَ أولادي ولَم تُبْقِ منهم واحداً لإعانتي ونفعني، إلَهي قد مَلَّنِي أهلي وعقَّنِي أرحامي وأنكرنِي معارفي، وأعرضَ عني صديقي وهجرنِي أصحابي، وجُحدت حقوقي ونُسيت صَنائعي. أصرخُ فلا أحدَ يصرخني، وأعتذرُ فلا أحد يَعْذُرُنِي، وأدعو فلا أحدَ يجيبُ. إن فضلكَ هو الذي أذلَّني وأعمانِي، وسلطانكَ هو الذي أسقمَني

---

(١) الثآليلُ جمعٌ، واحدها: الثُّؤْلُولُ. ينظر: مختار الصحاح: ص٨١. وفي الكشف والبيان: ج ٦ ص٢٩٠ نقله الثعلبي قال: (ثآليل مثل أليات الغنَم).

وانْحَلَنِي، فلو أن ربي فرغَ الهيبةَ التي في صدري وأطلقَ لسانِي حتى أتكلمَ بما ينبغي للعبدِ أن يُحَاجَّ عن نفسه لرجوتُ أن يصافيني، ولكنه ألقانِي وتعالَى عني، فهو يرانِي ولا أراهُ، ويسمعُني ولا أسمعه لا هو نَظَرَ إلَيَّ فرحمَني ولا هو أدنانِي منه فأتكلمُ بحاجتي، وأنطق ببراءتِي وأخاصمُ عن نفسي.

فلما قال ذلك أيوبُ، نُودِيَ: يا أيوبُ؛ إنِّي لَم أزل منكَ قريباً، فَقُمْ خاصِمْ عن نفسِكَ، وتكلَّم ببراءتك، وشُدَّ إزارك، وقُمْ مقامَ جبَّار لتخاصمني. يا أيوبُ؛ إنكَ أردتَ أن تخاصمني بعيبك، وتحاجني بخطئكَ، أم أردتَ أن تُكاثرَنِي بضعفك، أين أنتَ منِّي يوم خلقتُ السمواتِ والأرض؟ هل علمتَ بأيِّ مقدار قدرتُها، أم كنتَ معي يوم مددتُ أطرافها، أم هل علمتَ ما في زواياها؟

أين أنتَ منِّي يوم سَخَّرْتُ البحارَ وانبعثت الأنهار، أقُدْرَتُكَ حبَسَتِ البحارَ وأمواجَها؟ أم قُدْرَتُكَ محت الأرحامَ حين بلغت مدَّتَها ؟ أين أنتَ يوم نصبتُ شوامخَ الجبال، ويوم صببتُ الماء على التراب؟ أ بحكمتكَ أحصيتَ القطرَ وقسَّمت الأرزاقَ ؟ أم قدرتُكَ تسيِّرُ السحابَ ؟ أم هل خزنت أرواح الأمواتِ خزانة الثلج وجبال البَرد؟ وهل تدري أينَ خِزانة الليل والنهار؟ وأين طريقُ النور، ومن جعل العقول في أجوافِ الرِّجال ؟ أين أنتَ يا أيوبُ يوم خلقتُ التنين رزقه في البحر ومسكنه في السحاب، عيناهُ توقدان ناراً ومنخراهُ يثوران دخاناً، يثور منهما لَهباً كأنه إعصارٌ، النار جوفهُ يحترق ونَفَسُهُ تلتهبُ، كأنَّ صريفَ أسنانهِ أصواتُ الصواعق، وكأنَّ وسطَ عينه لَهيبُ البرق، لا يفزعه شيء، ويهلكُ كلَّ شيء يَمر عليه، هل أنتَ يا أيوبُ آخذه بأحبولَتِكَ، أو واضعُ اللِّجام في شدقه ؟ هل تحصي عمره أو تعرفُ أجله أو تعطيه رزقه ؟ .

فقالَ عند ذلك أيوبُ: قَصُرْتُ عن هذا الأمر، ليتَ الأرضَ تنشقُّ لِي فأذهبُ فيها، اجتمعَ عليَّ البلاءُ الحي، قد جعلتني لكَ كالعدوِّ، وقد كنتَ تُكرِمُني إلهي، هذه كلمةٌ زلَّت على لسانِي فلن أعودَ بشيءٍ تكرههُ مني، قد وضعتُ يدي على فمِي، وعضَضْتُ على لسانِي، والصقتُ خَدِّي بالتراب ودَسَّيْتُ فيه وجهي لِذِلِّي وسكتُّ كما أسكتتني خطيئتي، ربي اغفِرْ لِي ما قُلْتُ فلا أعودُ لِمثله أبداً.

فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يا أيوبُ؛ قد نَفَذَ فيك عِلْمِي، وسبقت رحْمَتِي غضَبِي، إن أخطأتَ فقد غفرتُ لك، ورددتُ عليك مالكَ وأهلَك مثلَهم معهم؛ لتكون لِمن خلفكَ آيةً، وتكونَ عبرةً لأهلِ البلاء وعِبرةً للصابرين، ارْكُضْ برجلِكَ، هَذَا مُغْتَسَلٌ بَاردٌ وَشَرَابٌ فِيْهِ شِفَاؤُكَ فاركُضْ برجلِكَ، فانفجرت لـه عـينٌ فدخلَ فيها فاغتسلَ منها، فأذهبَ الله عنهُ كلَّ ما كان به من البلاءِ.

فأقْبَلَتِ امرأتهُ تَلْتَمِسُهُ في مضجعهِ فلم تَجِدْهُ، فقامت كَالْوَالِهَةِ فوجدته جالساً عند العينِ فلم تعرفْهُ، فقالت لهُ: يا عبدَ اللهِ؛ هل لكَ عِلْمٌ بالرجلِ الْمُبْتَلَى الذي كان ها هنا ؟ فقال: وَهَلْ تعرفينهُ ؟ قالت: نَعَمْ؛ وما لِي لا أعرفهُ ؟ فَتَبَسَّمَ فقال أنه هو، فَعَرَفَتْهُ بمَضْحَكِهِ، فاعتنقتهُ)[1]. قال ابنُ عبَّاس: (فَوَا الَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ؛ مَا فَارَقَتْهُ مِنْ عِنَاقِهِ حَتَّى مَرَّ بهِمَا كُلُّ مَالٍ لَهُمَا وَوَلَدٍ)[2].

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أقَامَ أيُّوبُ فِي بَلاَئِهِ ثَمَان عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيْبُ وَالْبَعِيْدُ][3]، وقال الحسنُ: (مكثَ أيوبُ مطروحاً على كِنَاسَةٍ في مزبلةٍ سبعَ سنين، وكان مع ذلك لا يَفْتُرُ عن ذكرِ الله والثَّناءِ عليه، والصبرِ على بلائه.

فصرخَ إبليسُ صرخةً جَمع فيها جنودَهُ من أقطار الأرض جَزَعاً من صبرِ أيوبَ، فلمَّا اجتمعوا إليه قالُوا له: ما أصابكَ ؟ قال: أعيَانِي هذا العبدُ الذي سألتُ اللهَ أن يُسَلِّطَنِي عليهِ وعلى ماله وولدِهِ، فلم أدَعْ له مالاً ولا وَلداً، فلم يَزْدَدْ إلاّ صَبراً وثناءً على اللهِ، ثُم سُلِّطْتُ على جسدهِ فتركتهُ جيفةً ملقًى على كناسةِ بني إسرائيلَ لا يقربهُ إلاّ امرأتهُ، فاستغثتُ بكم لِتُقَوُّونِي عليه.

---

(١) ينظر: جامع البيان: مج ١٠ ج١٧ ص٨٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٧٤).

(٣) أخرجه ابن حبان في السنن: الحديث (٢٨٩٨). والحاكم في المستدرك: كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء: باب ذكر بلاء أيوب: الحديث (١٤٧١)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص٢٠٨؛ قال الهيثمي: ((رواه أبو يعلى والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح)).

فقالوا له: وأين مَكْرُكَ وأين خداعُكَ الذي أهلكتَ بها من مضَى من الأمـم ؟ قال: بَطَلَ ذلك كله مع أيوبَ، فأشيروا عليَّ. قالوا: أنتَ حين أخرجتَ آدم من الجنَّة من أين أتيتَهُ ؟ قال: مِن قِبَلِ امرأتهِ، قالوا: فشأنُكَ بـأيوبَ مِـن قِبَـلِ امرأتـهِ، فإنـه لا يعصِيها، وليس يقربهُ أحدٌ غيرُها.

قال: أصبتُم، فانطلقَ حتى أتى امرأتَهُ فتمثَّلَ لها في صـورةِ رجُلٍ، فقـال: أيـن بعلُكِ يا أمَةَ اللهِ ؟ قالت: هو ذاكَ يَحُكُّ قروحَهُ والـدودُ يـتردَّدُ في جسـدهِ، فوَسْـوَسَ إليها وذكَّرَها بأيامِ شباب أيوبَ وجماله، وما كانا فيه من النِّعَمِ والحال الطيِّب، وكيـفَ تَقَلَّبَ عليهم الزمانُ حتى صارَ أيوبُ في هذا الضَّرر العظيم، ولَم يزل يذكِّرُها بأيامٍ قد مضت حتى أبكَاهَا، فلما عَلِمَ أنَّها قد جَزِعَتْ وحزنت، أتَاهَا بسَخْلَةٍ وقال لَها: قُولِي لأيوبَ يذبحُ هذه الشاة لِي وهو يبرأ.

قال: فجاءت إلى أيوب وقالت لهُ: إلى متى يُعَذِّبُكَ اللهُ ألاَ يرحمُكَ ؟ أين المـالُ، أين الماشيةُ، أين الولدُ، أين لونُكَ الحسنُ ؟ قد تغير وصارَ كمـا تـرى، أيـن جسـمُكَ الحسنُ؟ قد بَلِيَ وتردَّد فيه الديدانُ، فَاذْبَحْ هذه السخلةَ لِمن أمرَني واسترح.

فقال لها أيوبُ: أتاكِ عدوُّ الله فنفخَ فيك فَاحِشَهُ، ويلـك أرأيـتِ الـذي تبكـينَ عليه من المال والولدِ والصحَّة، مَن أعْطَانِيَهُ ؟ قالت: اللهُ، قال: فَكَمْ مُتِّعْنَا به ؟ قالت: ثمانين سنةً، قال: فَكَم ابتلانا اللهُ ؟ قالت: سبعَ سـنين، قـال: وتلـك مـا عَدَلَـتْ ولا أنصفتْ، ألاَ صبرْتِ حتى تكون في البلاءِ ثمانين سنةً، كما كنا في الرَّخاء ثمانين سنةً، واللهِ لئن شَفَانِي اللهُ لأجلدنَّكِ مائة جلدةٍ، كيف تأمريني أن أذبحَ لغيرِ الله ؟ طعـامُكِ وشرابُكِ عليَّ حرامٌ أن أذوقَ شيئاً مِما تأتيني به بعد إذا قُلْتِ لِي هذا القولَ، فاعتزلِي عنِّي ولا أراكِ، فطرَدَها فذهبَتْ[(١)].

وقال وهبُ: (لَمْ يَأْمُرْهَا إبْلِيسُ بذبحِ السَّخْلَةِ، وَإنَّمَا قَالَ لَهَا: لَوْ أنَّ بَعْلَكِ أكَلَ طَعَاماً، وَلَمْ يُسَمِّ عَلَيْهِ لَعُوفِيَ مِنَ الْبَلاَءِ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٧٥-١٨٦٧٨).

وروي: أن إبليسَ قال لَـها: اسـجُدِي لِـي سـجدةً وأردُّ عليـكِ المـالَ والأولاد وأعافِي زوجَكِ، فأنا الذي صنعتُ بكم ما صنعتُ، فرجعت إليه فأخبرتْهُ بذلك، فقال لَها: أتاكِ عدوُّ الله لِيَفْتِنَكِ عن دِيْنِـكِ، وحلـفَ إنْ عافـاهُ الله ليضربَنَّـها مائـةَ جلـدةٍ، وحرَّم طعامَها وشرابَها وطرَدَها، فلما نظرَ أيوبُ إلى أنه قد طردَ امرأتـه وليـس عنـدهُ طعامٌ ولا شراب ولا صديقٌ خَرَّ ساجداً للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وقال: إلَهي مسَّنِي الضُّرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمين، مِن طمعِ إبليس في سجود امرأتِي له، ودعائه إياها وإيَّاي إلى الكفرِ).

وإنَّما قال (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) حين قصدَت الدُّودةُ إلى قلبِهِ ولسانه، فخَشِيَ أن يَفْـتَرَ عن ذكر الله، وَقِيْلَ: إنَّما قال ذلكَ حين أتاهُ صديقان فقامَا مِن بعيدٍ لا يقـدرون علـى الدُّنُوِّ منهُ من ريحِهِ، فقال أحدُهما لصاحبه: لو عَلِمَ اللهُ في أيُّوبَ خـيراً مـا ابتـلاهُ بمـا ترى، قال: فما سَمِعَ أيوبُ شيئاً كان أشدَّ عليه مـن هـذه الكلمـةِ، فعنـد ذلـك قـالَ: مَسَّنِيَ الضُّرُّ من شَماتة الأعداءِ، يدلُّ عليه ما روي أنه قيل لهُ بعد ما عُوفِيَ، مـا كـان أشدَّ عليك في بَلائِكَ ؟ قال: شَماتةُ الأعداءِ، وأنشَدُوا في معناهُ:

كُـلُّ الْمَصَـائِب قَـدْ تَمُـرُّ عَلَى الْفَتَـى فَتَـهُونُ غَـيْرَ شَـمَاتَةِ الْحُسَّـادِ
كُـلُّ الْمَصَـائِب تَنْقَضِـي أيَّامُـهَا وَشَـمَاتَةُ الْحُسَّـادِ بالْمِرْصَـادِ

قال وهبُ: (فلما طردَ أيوبُ امرأتَه، وبقي وحيداً ليسَ معه مَن يُطْعِمُهُ ويسقيهِ، قال عند ذلكَ: يَا رَب إنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِيْـنَ، فقـال لـهُ اللهُ: إرفَـعْ رأسَكَ؛ فقد استَجَبْتُ لكَ، ارْكُضْ برجلِكَ، فركـضَ برجلـهِ، فنَبَعَـتْ عَيْـنٌ فاغتسـلَ منها، فلم يبقَ مِن دائهِ شيءٌ ظاهرٌ إلاَّ سقطَ عنه، وأذهب اللهُ عنه كلَّ ألَمٍ وسَقَمٍ، وعاد إليه شبابهُ وجماله أحسنَ مما كان وأفضلَ، ثُم ضربَ برجله فنَبَعَتْ عينٌ أخرى، فشَربَ منه، فلم يبقَ في جوفه داءٌ إلاّ خرجَ، فقام صَحيحاً وكُسِيَ حُلَّةً، ثُم الْتَفتَ عـن يَمينـه فرأى جميعَ ما كان له من أهلٍ ومال وولدٍ، وقد صار معهم مثلُـهم، قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: (وَآتَيْنَاهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) .

قال وهب: (كَانَ لَهُ سَبْعُ بَنَاتٍ وَثَلاَثَةُ بَنِيْـنَ)، وقـال ابـنُ يسـار: (سَـبْعَةُ بَنِيْـنَ وَسَبْعُ بَنَاتٍ، فَرَدَّهُمُ اللهُ بأعْيَانِهِمْ، وَأعْطَاهُ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) وهذا قولُ ابنِ مسعود وقتادةُ

وكعب؛ قالوا: (أحْيَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأبْدَلَهُ بكُلِّ شَيْءٍ ذهَبَ عَنْهُ ضِعْفَيْنِ)، قال ابنُ عبَّاس: (رَدَّ اللهُ امْرَأتَهُ فِي شَبَابهَا حَتَّى وَلَدَتْ لَهُ سِتَّةً وَعِشْرِيْنَ وَلَداً ذكَراً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ﴾ ؛ أي واذكُرْ إسْمَاعِيلَ وَإدْريسَ وَذا الْكِفْلِ، واختلفوا في ذكر ذي الْكِفْلِ، قال أبو موسى الأشعريُّ وقتادة ومجاهدُ: (كَانَ ذُو الْكِفْلِ رَجُلاً صَالِحاً تكفَّل لنبيٍّ من الأنبياءِ أنه يصومُ النهار ويقوم الليلَ، وأن لا يغضبَ ويقضي بالحقِّ، فوفَّى بذلك كله، فأثنَى اللهُ عليه وذكَرَهُ مع الأنبياءَ. وذلك أن نبيّاً من بنِي إسرائيل أوحَى اللهُ إليه: أنِّي أريدُ قَبْضَ روحِكَ، فاعْرِضْ مُلْكَكَ على بني إسرائيل، فمَنْ تَكَفَّلَ لكَ أن يصلي بالليلِ لا يَفْتَرَ، ويصومَ النهار ولا يُفْطِرَ، ويقضي بين الناس ولا يغضبَ، فادفع مُلْكَكَ إليه. ففعل ذلكَ، فقامَ شابٌّ فقالَ: أنا أتَكَفَّلُ لكَ بهذا، فتكَفَّلَ ووفَّى به، فشَكَرَهُ اللهُ وأثنى عليهِ، ولذلك سُمي ذا الْكِفْلِ). وقال الحسن: (هُوَ نَبِيٌّ اسْمُهُ ذُو الْكِفْلِ) ومعنى ذُو الكِفْلِ؛ أي ضُوعِفَ ثوابهُ على ثواب غيره مِمن آمَنَ به في زمانهِ[(١)].

وقال مجاهدُ أيضاً: (لَمَّا كَبرَ الْيَسَعُ عليه السلام قالَ: لو أنِّي استخلفتُ رجلاً على الناسِ يعملُ عليهم في حياتِي حتى أنظرَ كيف يعملُ، قالَ: فجمعَ الناسَ وقال: مَن يَتَكَفَّلُ لِي بثلاثةٍ اسْتَخْلَفْتُهُ: يصومُ النهارَ، ويقومُ الليلَ، ويحكمُ بين الناس ولا يغضبُ؟ فقام رجلٌ تُرد به العيون فقال: أنا، فردَّهُ في ذلك اليومِ، ثُم قال كذلكَ في اليوم الثانِي، فقامَ ذلك الرجل فردَّهُ، فقال مثلَ ذلك في اليومِ الثالث، فقامَ ذلك الرجلُ، فاستخلفَهُ فوَفَّى بذلك كله)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي على طاعةِ الله وعن معاصيه، ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ يعني ما أنْعَمَ اللهُ عليهم من النبوَّة، وما صيَّرهم اليه في الجنَّةِ من الثواب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٩٤). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٧٠١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٩٣). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٧٠٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ ؛ يعني يُونُسَ بْنَ مَتَّى أحْبَسَهُ الله في بَطْنِ النُّونِ، وهو الحوتُ، ومعنى الآيةِ: وَاذْكُرْ ذا الحوتِ إذْ ذهَبَ مُغَاضِباً لقومهِ. روي: أنهُ خرجَ مِن بينهم قَبْلَ أن يؤذنَ له في الخروجِ، وكان خروجهُ من بينهم خطيئةً، وإنَّما خرجَ منهم على تركِهم الإيْمانَ به، هكذا رُوي عن ابنِ عبَّاس والضحَّاك.

وَقِيْلَ: كان يونسُ وقومُهُ يسكنون فلسطين فعداهم مَلِكٌ فسبَى منهم خَلْقاً كثيراً، فأوحَى اللهُ إلى أشعيا النبيِّ عليه السلام: إذهَبْ إلى الملكِ حزقيا فقُل له: تَوِّجْهُ نبيّاً قوياً أميناً، فإنِّي ألقِي في قلوب أولئك التخلية حتى يُرسلوا معه بني إسرائيل، فقال الملكُ: مَن ترى يرسلُ؟ وكان في مَملكته خمسةً من الأنبياءِ، فقال لهُ: أرسِلْ يونسَ فإنه قويٌّ أمين، فأتى الملكَ يونسُ فأخبرَهُ أن يخرجَ، فقال يونسُ: هل أمَرَكَ اللهُ بإخراجي؟ قال: لاَ، فقال: فهل سَمَّانِي لكَ؟ قال: لا، قال: فهنا أنبياءٌ غَيري أقوياءُ أمناءُ، فألَحُّوا عليه فخرجَ مُغاضباً للنبيِّ والملكِ ولقومه.

فأتى بحرَ الرُّوم، فإذا سفينةٌ مشحونةٌ فركِبَ مع أصحابها، فلما صارت في لُجَّةِ البحرِ انكفأَتْ حتى كادوا يغرَقون، فقال الملاَّحون: ها هنا عبدٌ آبقٌ عاصٍ، فاقترعُوا، فمَن وقعت عليه القرعةُ ألقيناهُ في البحرِ، لئن يغرقَ واحدٌ منَّا خيرٌ مِن أن تغرقَ السفينةُ بما فيها. فاقترعوا ثلاثاً فوقعت القرعةُ كلُّها على يونسَ، فقال يونسُ: أنا الرجلُ العاصي والعبدُ الآبقُ، وألقَى نفسَهُ في الماءِ. فجاءَ حوتٌ فابتلعه، ثُم جاء حوتٌ آخر أكبرَ منه فابتلعَ الحوتَ أيضاً. فأوحَى الله إلى الحوتِ لا تُؤْذِي منه شعرةً، فإنِّي قد جعلتُ بطنَكَ سِجْنَهُ، ولَم أجعلْهُ رزْقاً لكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ ، بالعقوبةِ، يقال قَدَرَ اللهُ الشيءَ وقَدَّرَهُ؛ أي قَضَاهُ. وَقِيْلَ: معناه: فَظَنَّ أن لن نُضَيِّقَ عليه السجنَ، من قولهِ تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾[1] أي ضُيِّقَ، وقولهِ ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾[2]، وقد

(١) الطلاق / ٧ .
(٢) الروم / ٣٧ .

ضَيَّقَ اللهُ على يونس أشدَّ تضييقٍ. وَقِيْلَ: معناهُ: (فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) ما قَدِرْنَا من كونه في بطنِ الحوت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (هِيَ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ وَظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ)[(١)]، وقال سالِمُ ابن أبي الْجَعْدِ: (كَانَ حُوتاً فِي بَطْنِ حُوتٍ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي الظَّالِمين لنفسِي في خُروجي من قومي قبلَ الإذن. قال الحسنُ: (وَهَذا مِنْ يُونُسَ اعْتِرَافٌ بذنْبهِ، وَتَوْبَتِهِ مِنْ خَطِيْئَتِهِ، تَابَ إلَى رَبهِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ وَرَاجَعَ نَفْسَهُ). قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لاَ يَقُولُهَا مَكْرُوبٌ إلاَّ فَرَّجَ اللهُ عَلَيْهِ، كَلِمَةُ أخِي يُونُسَ: لاَ إلَهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ][(٣)].

وقال وهبُ بن منبه: (إنَّ يونسَ بن متَّى عليه السلام كان عبداً صالحاً، وكان في خُلُقِهِ ضيقٌ، فلمَّا حُملَتْ عليه أثقالُ النبوَّة، تفسَّخَ تحتَها تفسُّخَ الربعِ تحت الحملَ الثقيل فقذفَها بين يديهِ، وخرجَ هارباً منها[(٤)] فلذلكَ أخرجَهُ اللهُ من أوْلِي العَزْمِ قال اللهُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[(٥)] وقال ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[(٦)] اي لا تَلْقَ قَوْلِي كما ألقاهُ)[(٧)]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَظَنَّ أنْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧١٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧١٩). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦٦٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير)).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص١٧٠. والترمذي في الجامع: كتاب الدعوات: الحديث (٣٥٠٥). والحاكم في المستدرك: كتاب الدعاء والتكبير: باب من دعا بدعوة ذي النون: الحديث (١٩٠٥) وصححه. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص١٥٩؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد وأبو يعلى وأحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمَّد بن سعد بن أبي وقاص، وهو ثقة)).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(١٨٧٠٤). والربع: ولد الناقة أول ما يحمل عليه.

(٥) الأحقاف / ٣٥ . (٦) القلم / ٤٨ .

(٧) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٥١-٨٥٢.

لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) أي ظَنَّ أن لـن نَقْضِيَ عليـهِ بما قضَينا مـن العقوبـةِ، ودليلـهُ قـراءة الزهريِّ: (أنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ) مُشدَّداً. وقرأ عبيدُ بن عمير: (يُقَدَّرَ عَلَيْهِ) بالتشديد على الْمَجهُول.

واختلَفُوا في مُدَّةِ لَبْثِهِ في بطنِ الحوت، فقيلَ: أربعونَ يوماً، وَقِيْـلَ: سبعةُ أيَّـام، وَقِيْلَ: ثلاثةُ أيَّام، وأمسكَ اللهُ نَفْسَهُ فلم يقتلْهُ هناكَ. وروى أبو هريرةُ عن رسـول الله ﷺ قال: [لَمَّا أرَادَ اللهُ حَبْسَ يُونُسَ فِي بَطْنِ الْحُـوتِ أوْحَـى اللهُ إلَـى الْحُـوتِ: أنْ خُذْهُ وَلاَ تَخْدِشْ لَهُ لَحماً وَلاَ تَكْسِرْ لَهُ عَظْماً. فَأَخَذَهُ ثُمَّ هَـوَى بـهِ إلَـى مَسْكَنِهِ فِـي الْبَحْرِ، فَلَمَّا انْتَهَى بهِ إلَى أسْفَلِ الْبَحْرِ سَمِعَ يُونُسُ حِسّاً، فَقَالَ فِي نَفْسِـهِ: مَـا هَـذا ؟ فَأَوْحَى اللهُ إلَيْهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: أنَّ هَذا تَسْبيْحُ دَوَاب الْبَحْرِ، قال: فَسَبَّحَ وَهُـوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، فَسَمِعَتِ الْمَلاَئِكَةُ تَسْبيْحَهُ، فَقَـالُوا: رَبَّنَـا إنَّـا سَـمِعْنَا صَوْتـاً ضَعِيْفـاً بأَرْضٍ غَرِيبَةٍ؟ قَالَ: ذلِكَ عَبْدِي يُونُسُ عَصَانِي فَحَبَسْتُهُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، قَالُوا: الْعَبْدُ الصَّالِحُ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ لَهُ إلَيْكَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَـةٍ عَمَـلٌ صَـالِحٌ؟ قَـالَ: نَعَـمْ. فَشَفَعُوا لَهُ، فَأَمَرَ اللهُ الْحُوتَ، فَقَذفَهُ عَلَى السَّاحِلِ وَهُوَ سَقِيْمٌ][(١)].

وعن ابن عبَّاس قالَ: (أتَى جِبْرِيْلُ إلَى يُونُسَ فَقَـالَ: انْطَلِـقْ إلَـى أهْـلِ نِيْنَـوَى فَأنْذِرْهُمْ أنَّ الْعَذابَ قَدْ حَضَرَهُمْ، قَالَ: حَتَّى الْتَمِسَ دَابَّـةً، قَـالَ: الأَمْـرُ أعْجَـلُ مِـنْ ذلِكَ، فَانْطَلَقَ إلَى السَّفِيْنَةِ فَرَكِبَهَا فَأَخْشَبَتِ السَّفِيْنَةُ، فَسَـاهَمُوا فَخَـرَجَ السَّـهْمُ عَلَيْـهِ، فَجَاءَ الْحُوتُ يُبَصْبصُ بذنبهِ فَالْتَقَمَهُ، فَنُودِيَ الْحُوتُ: إنَّا لَمْ نَجْعَلْهُ رزْقـاً لَـكَ، وَإنَّمَـا جَعَلْنَاكَ لَهُ سِجْناً، وَانْطَلَقَ الْحُوتُ مِنْ ذلِكَ الْمَكَانِ حَتَّى مَرَّ بهِ عَلَى الأَيْكَـةِ، ثُـمَّ مَـرَّ عَلَى دِجْلَةَ)[(٢)].

وكانَ ابنُ عبَّاس يقولُ: (كَانَتْ رسَالَةُ يُونُسَ بَعْدَ مَا نَبَذهُ الْحُوتُ، وَدَلِيْـلُ هَـذا أنَّ اللهَ ذكَرَ قِصَّةَ يُونُسَ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ، ثُمَّ عَقَّبَهَا بقَوْلِهِ ﴿وَأرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلْفٍ أوْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيـان: الحديـث (١٨٧٢٣). وفي مجمـع الزوائـد: ج ٧ ص٩٨؛ قـال الهيثمي: ((رواه البزار عن بعض أصحابـه ولم يسـمعه، وفيـه ابـن إسـحق وهـو مدلـس، وبقيـة رجاله رجال الصحيح)).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٣٧٠٩).

يَزِيدُونَ﴾(١)). وقال آخرون: بل كانت قصةُ الحوتِ بعد دعائهِ قومَهُ، وتبليغهِ الرسالةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ ؛ أي أجَبْنَا دعوته ونَجَّيْنَاهُ من تلكَ الظُّلماتِ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ إذا دَعَوْنِي، كما نَجَّينا ذا النُّون. قال رسولُ اللهِ ﷺ: [اسْمُ اللهِ إذا دُعِيَ بِهِ أجَابَ، وَإذا سُئِلَ بِهِ أعْطَي: دَعْوَةُ يُونُسَ بْنِ مَتَّى] قِيْلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ هِيَ لِيُونُسَ خَاصَّةً أمْ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِيْنَ؟ قَالَ: لِيُونُسَ خَاصَّةً، وَلَهُ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ عَامَّةً، ادْعُوا بهَا، ألَمْ تَسْمَعْ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى (وَكَذلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ)](٢).

واختلفَتِ القراءاتُ في قولِهِ (وَكَذلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ)، قرأ ابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ: (نُجِّي الْمُؤْمِنِيْنَ) بنون واحدةٍ وتشديد الجيمِ وتسكين الياءِ. وجميعُ النحويين حَكَمُوا على هذه القراءةِ باللَّفظِ، وقالوا: هي لَحْنٌ، ثُم ذكرَ الفرَّاء لَها وجهاً فقالَ: أضْمَرَ الْمَصْدَرَ فِي (نُجِّي) أي نُجِّيَ النَّجاءُ الْمُؤْمِنِيْنَ(٣)، كَقَوْلِكَ: ضَرَبْتُ الضَّرْبَ زَيْداً عَلَى إضْمَار الْمَصْدَر؛ أي ضُرِبَ الضَّرْبَ زَيْداً، وقال الشاعر(٤):

وَلَوْ وَلَدَتْ قُفَيْرَةُ جَرْوَ كَلْبٍ لَسُبَّ بذِلِكَ الْجَرْو الْكِلاَبَا

ومِمن صوَّبَ هذه القراءةَ أبو عُبيد، وأما أبو حاتم السَّجستانِيُّ فإنه لَحَنَهَا ونسبَ قارئَها إلى الجهلِ وقال: (هَذا لَحْنٌ لاَ يَجُوزُ فِي اللُّغَةِ، وَلاَ يُحْتَجُّ بِمِثْلِ ذلِكَ الْبَيْتِ عَلَى كِتَاب اللهِ، إلاَّ أنْ تَقُولَ: وَكَذلِكَ نُجِّيَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَوْ قَرَأ ذلِكَ لَكَانَ صَوَاباً).

قال أبو علي الفارسيُّ: (هَذا إنَّمَا يَجُوزُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ، فَإنْ قِيْلَ: لِمَ كُتِبَ فِي الْمَصَاحِفِ بِنُونٍ وَاحِدَةٍ؟ قِيْلَ: لأنَّ الثَّانِيَةَ لَمَّا سُكِّنَتْ وَكَانَ السَّاكِنُ غَيْرَ ظَاهِرٍ

(١) الصافات / ١٤٧ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧٢٤). والحاكم في المستدرك: كتاب الدعاء: الحديث (١٩٠٨).

(٣) في معاني القرآن: ج ٢ ص٢١٠؛ قال الفراء: (ضُرِبَ الضَّرْبُ زَيداً، ثُمَّ تُكَنِّي عَنِ الضَّرْبِ فَتَقُولُ: ضُرِبَ زَيداً. وَكَذَلِكَ نُجِّيَ النَّجَاءُ الْمُؤْمِنِينَ).

(٤) قُفَيْرَةُ كجُهَينة: أمُّ الفرزدق. والبيت لجرير يهجو به الفرزدق.

عَلَى اللِّسَان حَذفَهُ، كَمَا فَعَلَ ذلِكَ فِي (ألاَّ) فَحَذفُوا النُّونَ مِنْ (أنْ لاَ) لخفائها إذا كَانَتْ مُدْغَمَةً فِي اللاَّمِ)[١].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ أي وَاذكُرْ دعاءَ زكريَّا إذْ نَادَى رَبَّهُ فقالَ رب لا تترُكْني وحيداً؛ أي ارزُقْنِي ولداً آنَسُ به ويعينني على أمرِ الدِّين والدُّنيا، ويقومُ بأمرِ الدين بعد وفاتِي، وأنتَ وارثُ جميعِ الخلق؛ لأنَّ مردَّهم صَائرُون إليكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ ؛ أي فَأَجَبْنَا له دعاءَه هذا، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ ؛ عَقْرَ امرأتهِ، قال قتادةُ: (كَانَتْ عَقِيماً فَجَعَلْنَاهَا وَلُوداً)[٢]، وَقِيْلَ: كانت سيِّئة الْخُلُقِ فرزَقَها اللهُ حُسن الْخلقِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ؛ أي يُبَادِرُونَ إلى الطاعات مخافةَ أن يَعْرِضَ لَهم ما يَشْغَلُهُمْ عنها، ويعني بذلكَ زكريَّا وامرأتَهُ ويَحيى، وقال بعضُ المفسِّرين: الكنايةُ تعود على الأنبياءِ الذين ذكَرَهم اللهُ في هذه السورةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ ؛ أي طَمَعاً في ثوابنا وخَوْفاً من عقابنا، ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ أي خاضِعين حَذِرينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ ؛ وهي مَرْيَمُ بنتُ عِمْرَانَ، ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ ؛ أي نَفَخَ جبريلُ في جَيْب دِرْعِهَا بأمرِنا، والمعنى: وَاذكُرِ التي حَفَظَتْ فرجَها مما لا يحلُّ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي دلالةً للعالَمين من حيث أنَّها جاءت بالولدِ من غيرِ بَعْلٍ، تكلَّم في المهدِ بما يوجبُ براءةَ شأنِها من العيب، وفي ذلك دليلٌ على مَقْدُورَاتِ الله، وعلى هذا لَم يقل آيَتَينِ؛ لأنَّ شأنَهما في الدلالةِ كان واحداً.

---

(١) في الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٦٠. وينظر: جامع البيان: ج ١ ص١٠٨. وهو من كلام الطبري وليس من نص عبارة أبي علي الفارسي.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧٢٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ والحسن: (مَعْنَاهُ إنَّ هَذا دِيْنَكُمْ دِيْنٌ وَاحِدٌ)[1] والأُمَّةُ الدِّيْنُ، ومنهُ قولُهُ ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾[2] أي على دِيْنٍ. الأصلُ أنه يقالُ للقومِ الذين يجتمعون على دِيْنٍ واحد: أمَّةٌ، فتقوم الأمَّةُ مقامَ الدِّين. وهو نُصِبَ على الحال؛ أي حالَ اجتماعها على الحقِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ أي لا دِيْنَ سِوَى ديني ولا ربَّ غيري.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ معناهُ: كان أمرُهم في الدِّين واحداً، ولكن تفرَّقُوا واختلفوا بما لا يجوزُ؛ وهم اليهودُ والنصارى والْمَجوس. قَوْلُهُ تَعَالَى: (كُلٌّ إلَيْنَا رَاجِعُونَ) أي جميعُ أهلِ هذه الأديان راجعون إلى حُكْمِنَا يومَ القيامةِ، فنجزيَهم بأعمالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾ ؛ أي لا جُحُودَ لعملهِ، بل يتقبَّلُها اللهُ ويُثنِي عليها، والمعنى: لا يَمْنَعُ ثوابَ عملهِ، ولا يَجْحَدُ إحسانَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي نَأْمُرُ الْحَفَظَةَ أن يكتبُوا لذلكَ العاملِ عملَهُ لنجازيَهُ عليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ أي واجبٌ على كلِّ قرية اذا أهْلِكَتْ لا ترجعُ إلى دُنيَاهَا. قال الكلبيُّ: (يَعْنِي بقَوْلِهِ (أهْلَكْنَاهَا) عَذبْنَاهَا أنَّهم لا يرجعونَ إلى الدُّنيا). والمعنى: أنَّ الله تعالى حَكَمَ على مَن أهْلِكَ أن يبقَى في الأرضِ مدفوناً إلى يومِ القيامة، وأن لا يرجعَ إلى الدُّنيا. قرأ حمزةُ والكسائي: (وَحِرْمٌ) بكسرِ الحاء وجزمِ الراء من غير ألِفٍ، وهما لُغتان مثل حِلٌّ وَحِلاَّنٍ[3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧٣٠) عن ابن عباس. والأثر (١٨٧٣١) عن مجاهد.
(٢) الزخرف / ٢٢ .
(٣) ينظر: جامع البيان: مج ١٠ ج١٧ ص١١٣. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٦١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ ﴾ ؛ أي إذا فُتحت جهة يأجوجَ ومأجوج، وفتحُها إخراجُها من السدِّ. قرأ ابنُ عامر ويعقوب: (فُتِّحَتْ) بالتشديدِ على التكثير.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي من كلِّ أكَمَةٍ ورَبْوَةٍ مرتفعةٍ من الأرض يخرجون بإسراع، والْحَدَبُ: الارتفاعُ ومنه الْحَدَبَةُ خروجُ الظَّهرِ، وتبيُّنهُ. والنُّسُولُ: هو الخروجُ بسرعةٍ كَنَسَلاَنِ الذِّئْب يعني مشيه اذا أسرعَ فيها.

والمعنى: أنَّهم مِن كلِّ نَشْزٍ من الأرضِ يُسرعون ويتفرَّقون في الأرض، فلا يُرَى أكمةٌ إلاَّ وفوقَها قومٌ منهم يهبطون منها مُسرعينَ، فلا يَمرُّونَ بماءٍ إلاّ شَرِبُوهُ ولا بشيءٍ إلاّ أفسدوهُ.

قال المفسِّرون: أولادُ آدمَ عشرةُ أجزاءٍ، تسعةٌ يأجوجُ ومأجوجُ، وقد ذكرنا قصَّتَهم في سورةِ الكهف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ ﴾ ؛ قِيْلَ: إن الواوَ ها هنا مُقْحَمَةٌ، والمعنى: حَتَّى إذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ، يكون ذلكَ عندَ اقتراب السَّاعة، وذكَرَ الوعدَ والمراد به الْمَوْعِدَ.

رُوي عن حذيفةَ ﷺ أنَّهُ قالَ: (لَوْ أنَّ رَجُلاً اقْتَنَى فَلُوّاً[1] بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَمْ يَرْكَبْهُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ أي تَشْخَصُ أبصارُهم يومَ القيامة نحو الجهةِ التي يتوقَّعون نزولَ العذاب بهم منها. وَقِيْلَ: خَشَعَتْ أبصارُهم من شدَّة الأهوال ذلكَ اليوم. قال الكلبيُّ: (شَخَصَتْ أبْصَارُهُمْ فَلاَ تُطِيْقُ تَطْرُفُ مِنْ شِدَّةِ الأَهْوَالِ)، فأما الضميرُ في قولهِ (فَإذا هِيَ شَاخِصَةٌ) يعودُ إلى معلومٍ

---

(١) الفَلُوُّ: بتشديد الواو: الْمُهْرُ، والأنثى (فَلُوَّة). وعند الطبري بلفظ: [افْتَلَى فَلُوّاً] أي نتجها.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧٥٨). وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٨٥٤. والسيوطي في الدر المنثور: ج ٥ ص٦٧٨.

قد بَيَّنَهُ وهو قولهُ (أَبْصَارُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا)، كقولِ الشاعر[١]:

لَعَمْــرُ أبيْــهَا لاَ تَقُــولُ ظَعِيْنَــتِي   إلاَّ فَــرَّ عَنِّــي مَــالِكُ بْــنُ أبــي كَعْــب

فكنى عن الظعينة ثم أظهرها[٢] ويكونُ تقديرُ الكلامِ: فإذا الأَبْصَارُ شَاخِصَةٌ أبْصَارُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا. وَقِيْلَ: يكون قوله (هِيَ) عمادٌ مثلُ قوله ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾[٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰوَيۡلَنَا ﴾ ؛ أي قالوا يَا وَيْلَنَا؛ ﴿ قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٍ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ ؛ اليومِ في الدُّنيا، ﴿ بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ لأنفسِنا بالكفرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ معناه: إنَّكم يا أهلَ مكَّة وما تعبدون من الأصنامِ وَقُودُ جهنَّم. والْحَصَبُ في اللغة: هو كُلُّ ما يُرمى بهِ، يقال: حَصَبَهُ بالْحَصَا إذا رماهُ بها، وفي القراءةِ الشاذة: (حَضَبُ جَهَنَّمَ) وهي قراءةُ[٤] ابنِ عبَّاس، والْحَضَبُ: ما يُهَيَّجُ به النارُ، ومنه قيلَ لدِقَاقِ النار حَضَبٌ. وقرأ عليٌّ وعائشةُ: (حَطَبُ جَهَنَّمَ)[٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) أي فيها خالدون، والحكمةُ في إدخالِ الأصنامِ النارَ مع أنَّها لا ذنْبَ لَها في عبادةِ مَن يعبدُها: أن يُقصدَ بإدخالِها تعذيبُ عُبَّادِهَا، فما كان منها حَجَراً أو حديداً يُحمَى فَيَلْتَزِقُ بعُبَّادها، وما كان منها خَشَباً جُعِلَ جَمْرَةً فيعذبون بها، أو يكون في إدخالِ معبُودِهم معهم في النار زيادةَ ذُلٍّ وصَغَارٍ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ ﴾ ؛ استِجْهَالاً لَهم في عبادة الأصنامِ؛ أي لو كان الأصنامُ آلِهَةً كما يزعمُ الكفار ما وَرَدُوهَا؛ أي دخلَ عابدُوها النارَ، ﴿ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ يعني العابدُ والمعبودُ.

---

(١) هو من شواهد الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٢١٢. ومالك بن كعب قاله في حرب كانت بينه وبين رجل من بني ظفر.

(٢) في معاني القرآن: ج ٢ ص٢١٢؛ قال الفراء: (فذكر الظعينة وقد كنى بها في (لعَمْر)).

(٣) الحج / ٤٦ . ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٢١٢.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧٦٨).

(٥) ينظر: جامع البيان: مج ١٠ ج١٧ ص١٢٣-١٢٤؛ ذكره الطبري قال: (وروي عن علي وعائشة أنهما كانا يقرءان ذلك).

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ الزَّفِيْرُ شِدَّةُ النَّفَسِ بهَوْلِ ما يردُ على صاحبهِ، وهم فيها لا يَسْـمَعُونَ شـيئاً، ولا يـرَى أحدٌ منهم أنَّ فِي النار أحداً يُعَذبُ غيرهُ. قال ابنُ مسعودٍ: (يُجْعَلُونَ فِي تَوَابيــتَ مِـنْ نَار، ثُمَّ جُعِلَتْ تِلْكَ التَّوَابيْتُ فِي تَوَابيْتَ أُخْرَى فَلاَ يَسْمَعُونَ شَيْئاً)[١].

وعن رسول الله ﷺ: أنَّهُ أتَى قُرَيْشــاً وَهُــمْ فِـي الْمَسْـجِدِ مُجْتَمِعُـونَ وَحَوْلَـهُمْ ثلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَماً مَصْفُوفَةً، لِكُلِّ قَوْمٍ صَنَمٌ لَهُمْ، فَقَالَ ﷺ: [إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُــدُونَ مِنْ دُون اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أنْتُمْ لَهَا وَاردُونَ] ثُمَّ ذهَبَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ فَشُـقَّ عَلَيْـهِمْ ذلِكَ، فَأَتَاهُمْ عَبْدُاللهِ بْنُ الزِّبَعْرِيِّ فَرَآهُمْ يَتَهَامَسُونَ، فَقَالَ: فِيْــمَ خَوْضُكُـمْ؟! فَـأَخْبَرَهُ الْوَلِيْدُ بْنُ الْمُغِيْرَةِ بمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَـالَ ابْـنُ الزِّبَعْـرِى: أمَـا وَاللهِ لَـوْ وَجَدْتُـهُ لَخَصَمْتُهُ.

فَدَعَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ابْنُ الزبعرى: أنْتَ قُلْتَ أنَّا وَمَا نَعْبُـدُ فِـي النَّـار ؟ قَالَ: خَصَمْتُكَ وَرَب الْكَعْبَةِ، ألَيْسَتِ الْيَهُودُ تَعْبُدُ عُزَيْرا، وَالنَّصَـارَى تَعْبُـدُ الْمَسِيْحَ، وَبَنِي مَلِيْحٍ يَعْبُدُونَ الْمَلاَئِكَةَ ! أفَتَرَى أنَّ هَؤُلاَءِ لاَ يَكُونُونَ فِي النَّار؟ فَبَيَّنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أنَّ اللهَ تَعَالَى أرَادَ بِهِ الأَوْثَانَ. وفي الآية مـا يـدلُّ علـى ذلـكَ؛ لأنَّ قولَـهُ تعـالى (وَمَـا تَعْبُـدُونَ) لا يكـون إلاَّ لِمَـا لا يعقـلُ، إذ لـو أرادَ الملائكـةَ والنـاسَ لقـال (وَمَـنْ تعبدون)[٢]. ثُم أنزلَ اللهُ تعالى:

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ عيسى وعُزَيراً والملائكةَ هـم الذيـن سَبَقَتْ لَـهم مِنَّـا الْحُسْنَى؛ أي وَجَبَتْ لَهم العِدَةُ من اللهِ تعالى بالبُشرى والسعادة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧٧٠). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٧٣٣).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (١٢٧٣٩). وفي مجمع الزوائـد: ج ٧ ص٩٦؛ قـال الهيثمي: ((وفيه عاصم بن بهدلة وقد وثق وضعفه جماعة)).

ويدخلُ في هذه الآية جُملة المؤمنين؛ لما رُوي أنَّ عثمان[1] سَمِعَ عليّاً كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ يقرأ هذه الآيةَ (إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) قال: (أنَا مِنْهُمْ وَأبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ وَسَعِيْدُ وَعَبْدُالرَّحْمَنِ وَأبُو عُبَيْدَةَ)[2]. وقال الجُنيدُ: (سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْعِنَايَةُ فِي الْهِدَايَةِ، فَظَهَرَتِ الْوِلاَيَةُ فِي النِّهَايَةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) مُنَحَّوْنَ عن النار، ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ ؛ أي حِسَّهَا وحركةَ تلهُّبها، والمعنى: لا يسمعون صوتَ النار، ﴿ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ أي فِي مَا اشْتَهَتْ أنْفُسُهُمْ من نعيمِ الجنَّة مقيمون دائمون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ ؛ قال أكثرُ المفسِّرين: يعني إطباقَ جهنَّم على أهلِها، وقال ابنُ عباس: (النَّفْخَةُ الأَخِيْرَةُ). وَقِيْلَ: هو ذبحُ الموتِ بين الفريقين. وَقِيْلَ: هو حين يؤمرُ بأهلِ النار إلى النار، وذلك حين يقالُ ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[3]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ؛ أي بالتَّهنئةِ على باب الجنَّة، فيقولون لَهم: ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ: (السِّجِلُّ هُوَ الصَّحِيْفَةُ تُطْوَى بمَا فِيهَا مِنَ الْكِتَابَةِ) وَاللاَّمُ في قوله (لِلْكُتُبِ): بمعنى (على)، وقال السديُّ: (هُوَ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بالصُّحُفِ، إذا مَاتَ الإنْسَانُ رُفِعَ كِتَابُهُ إلَيْهِ فَطَوَاهُ). وَقِيْلَ: إن السِّجِلَّ كاتبٌ لرسولِ الله ﷺ. ويقالُ: هو الرجلُ بلغة الحبشَة.

---

(١) في الكشف والبيان:ج٦ ص٣١٠؛ قال الثعلبي:(عن ابن عم النعمان بن بشير وكان من سمَّار علي – قال...) وذكره. وفي جامع البيان:: الأثر (١٨٧٧١): (عن محمد بن حاطب وقال: عثمان منهم).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٧٣٦). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦٨١؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم وابن عدي وابن مردويه)).

(٣) يس / ٥٩ .

قرأ أبو جعفر: (تُطْوَى السَّمَاءُ) بالتاء، ورفعَ (السَّمَاءُ) على ما لَم يُسَمَّ فاعلُهُ. وقرأ أهلُ الكوفة: (لِلْكُتُب) على الجمعِ.

والمرادُ بطَيِّ السَّماءِ أنَّ اللهَ تعالى يَطْوِيْهَا، ثُم يفتحُها ثم يُعيدها، ولذلك قال: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ ؛ أي كما بدأناها أوَّلَ مرَّة، نعيدُها إلى الحالةِ الأُولى. ويجوزُ أن يكون معنى قولهِ (كَمَا بَدَأنَا أوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) نعيدُ الخلقَ للبعثِ كما بدأناهُ في النُّطفةِ، ودليلُ هذا القولِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[١].

والطَّيُّ في هذه الآيةِ يحتملُ معنَيين؛ أحدهما: الدَّرْجُ الذي هو ضِدُّ النَّشْر، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[٢]. والثَّانِي: الإخفاءُ والتَّعْمِيَةُ والْمَحْوُ والطَّمسُ؛ لأن اللهَ تعالى يَمحُو رسُومَها ويُكْدِرُ نُجومَها. وَقِيْلَ: معنى قولهِ تعالى (كَمَا بَدَأنَا أوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ): كما بدأناهُم في بطُونِ أمَّهاتِهم حفاةً عُراة غُرْلاً، كذلك نعيدُهم يومَ القيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَآ ﴾ ؛ نُصِبَ على المصدر بمعنى: قد وَعَدْنَاهم هذا وَعْداً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ ما وعَدْنَاكم مِن ذلك، وَقِيْلَ: فاعلينَ الإعادةَ والبعثَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ أي كَتَبْنَا في زَبُور داودَ مِن بعدِ توراةِ مُوسى. وقال ابنُ عبَّاس والضحَّاك: (الذِّكْرُ التَّوْرَاةُ، وَالزَّبُورُ الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ مِنْ بَعْدِ التَّوْرَاةِ)[٣]. وَقِيْلَ: الزبورُ زبورُ داودَ، والذِّكْرُ الفرقانُ، و(بَعْدِ) بمعنى (قَبْل) كقولهِ تعالى ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾[٤] أي أمَامَهُم، وقولهُ ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحَاهَا﴾[٥] أي قَبْلَ ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) يعني أرضَ الجنَّة يرثُها عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ مِن أمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقِيْلَ: جميعُ المؤمنينَ العاملين بطاعة الله.

---

(١) الأعراف / ٢٩ . (٢) الزمر / ٦٧ .
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨٠٤-١٨٨٠٥).
(٤) الكهف / ٧٩ . (٥) النازعات / ٣٠ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦ ﴾ ؛ أي إنَّ في هذا القُرْآن بلاغاً للكفاية، والمعنى: أن من اتبع القرآن وعمل به كان بلاغهُ في الجنَّة، وقولهُ تعالى(لِقَوْمٍ عَابِدِينَ)؛ قال كعبٌ: (هُمْ أمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِيْنَ يُصَلُّونَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْس، وَيَصُومُونَ شَهْرَ رَمَضَانَ)[١]. ورُوي: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ (إنَّ فِي هَذا لَبَلاَغاً لِقَوْمٍ عَابدِينَ)، ثُمَّ قَالَ: [هِيَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فِي الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ][٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ ؛ معناهُ: وَمَا أرْسَلْنَاكَ يا مُحَمَّدُ إلاَّ نِعْمَةً للعالَمين . قال ابنُ زيد: (يَعْنِي لِلْمُؤْمِنِيْنَ خَاصَّةً)، وقال ابنُ عبَّاس: (هُوَ عَامٌّ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ كُتِبَ لَهُ مِنَ الرَّحْمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ عُوفِيَ مِمَّا أصَابَ الأُمَمَ مِنَ الْمَسْخِ وَالْخَسْفِ وَالْغَرَق)[٣]. والمعنى: أنهُ كان إذا أرْسِلَ نبيٌّ من الأنبياءِ؛ فإنْ آمَنَ به قومهُ وإلاَّ عُذِّبُوا، وأرسل النبيُّ ﷺ فكان كلٌّ مَن كفرَ به يؤخَّرُ إلى يومِ القيامة فهو نعمةٌ على الكافرِ إذ عُوفِيَ مما أصابَ الأُممَ من المسخِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: إنَّما يُوحَى إلَيَّ في القُرْآن؛ ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ وهو اللهُ لا شريكَ له؛ ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٨ ﴾ يا أهلَ مكَّة مُسلمونَ مُخلصون لهُ بالعبادة والتوحيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ ؛ أي فإنْ أعرَضُوا عن قبولِ قولِكَ، ﴿ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ ؛ أي أعلمتُكم بالوحي من اللهِ على سواءٍ في الإعلامِ؛ أي لَم أظهرْ بعضَكم على شيءٍ كتمتهُ عن غيرِه. وَقِيْلَ: عَلَى سَوَاءٍ في العلمِ، إنِّي حربٌ لكم لاَ صُلْحَ بيننا، وإنِّي مخالفٌ لدِينكم فتأهَّبوا لِما يُراد بكم؛ إذ ليس العِنَادُ من أخلاقِ الأنبياء صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨١٥).

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٦٨٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه)).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨٢٠). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦٨٧؛ قال السيوطي:(أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني والبيهقي في الدلائل).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ أي مَا أدْري متى توعدون به من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ معناهُ: إن اللهَ يعلمُ ما تُعْلِنُونَ به من القول، ويعلمُ ما تَكْتُمُونَ مِـن سـرِّكم، لا يغيـبُ مِـن عِلْمِـهِ شـيءٌ منكـم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي ومَا أدْري لعلَّ تأخيرَ العـذاب اختبـارٌ لكـم؛ لـيَرَى كيـفَ صُنْعُكُـمْ، ﴿ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ آجالِكُم؛ أي تُمتَّعون إلى انقضاءِ آجالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّـدُ: رب احْكُـمْ بعذاب أهلِ مكَّة الذي هو حقٌّ نازلٌ بهم، والحقُّ: ها هُنا هو العذابُ، كأنه اسـتعجلَ العذابَ لقومه، فعُذِّبُوا يومَ بدر. قال قتادةُ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا شَهدَ قِتَالاً قَـالَ: [رَب احْكُمْ بالْحَقِّ])[1]، قال الكلبيُّ: (فَحَكَمَ عَلَيْهِمْ بالْقَتْلِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَيَوْمَ الأَحْزَاب، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ، وَيَوْمَ الْخَنْدَقِ). والمعنى: أفْصِلْ بَيْنِي وبين المشـركين بمـا يظـهرُ بـه مِـن الحـقِّ للجميع.

وقرأ حفصٌ: (قُلْ رَب احْكُمْ بالْحَقِّ) على الخبر؛ أي قالَ الرسولُ ذلك. وقـرأ الضحَّاك ويعقوب: (قِيْلَ رَب احْكُمْ بالْحَقِّ) بإثبات الياءِ علـى وجـه الخـبر؛ أي هـو أحكَمُ الحاكِمين، وكيفَ يجوزُ أن يسألَهُ أن يَحْكُمَ بالحقِّ، وهو لا يحكمُ إلاّ بهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ أي على كَذِبكُمْ وباطلِكم وقولِكم: ما هَذا إلاَّ بَشَرٌ مثلُكم، وقولكم: اتَّخَذ الرحمنُ ولَـداً. والوَصْفُ بمعنى المكذب كقولهِ تعالى ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾[2]، وقولهِ ﴿وَلَـكمُ الْوَيْـلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[3].

آخر تفسير سورة (**الأنبياء**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨٢٦). وعبدالرزاق في التفسـير: ج ٢ ص٣٩٥. وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦٨٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق وعبـد ابـن حميـد وابـن جريـر وابن المنذر عن قتادة)).
(٢) الأنعام / ١٣٩ .
(٣) الأنبياء / ١٨ .

سُورَةُ الْحَجِّ

سورة الحجِّ مَكِّيَّةٌ إلاّ الآياتِ: قولهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ﴾ إلى آخرِ الآيتين، وقولهُ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ إلى آخرِ الآيتين، وقولهُ تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ إلى آخرِ هذه السُّورة، فهذه الآياتُ مدنيَّات، وكلُّ شيءٍ في القُرْآنِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا﴾ فهو مَدَنِيٌّ، وكلُّ شيء فيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو مَكِّيٌّ وفيه مدنِيٌّ، ولا يوجدُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا﴾ إلاّ مدنيّاً فقط، هكذا رُوي عن ابنِ عبَّاس .

وعددُ آياتِ السُّورَةِ ثمانٍ وتِسْعونَ آيةً، وخمسةُ آلافٍ وخمسةٌ وتسعُونَ حرفاً، ومِائتَانِ وإحدَى وتِسعونَ كلمةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ يَا أهْلَ مَكَّةَ اتَّقُوا رَبَّكُمْ، وَاحْذرُوا عِقَابَهُ إنَّ زَلْزَلَةَ قِيَامِ السَّاعة شيءٌ عظيمٌ) أي هَوْلٌ عظيم، لا يوصفُ لفظهُ، والزَّلْزَلَةُ: شدَّةُ الحركةِ مع الحالِ الهائلة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ ؛ أي يوم تَرَوْنَ تلك الزَّلْزَلَةَ تَذْهَلُ في ذلك اليومِ كلُّ مُرضعةٍ عمَّا أرْضَعَتْ؛ أي تَنْسَى. وَقِيْلَ: تَشْتَغِلُ، وَقِيْلَ: تتركُ، يقالُ: ذهِلْتُ عن كَذا إذا تركتهُ. وَقِيْلَ: معنى الآية: يوم تَرَوْنَ الزلزلةَ تَشْتَغِلُ كلُّ مرضعةٍ عن ولدِها بغيرِ فطام، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ ، وتضعُ الحامل ما فِي بطنِها لغيرِ تَمام. وهذا إنَّما يكون على وجهِ التَّشبيهِ، والمعنى: أنْ لو كانت ثَمَّ مرضعةٌ لذهِلَتْ عن ولدِها، وحاملٌ لوضعَتْ حَملَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ ﴾ ؛ أي من شِدَّةِ الفَزَعِ والخوف من عذاب الله يتحيَّرون كأنَّهم سُكارى، ﴿ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ ﴾ ؛ من الشَّراب، ﴿ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ والمعنى: ترَى النَاسَ كأنَّهم سُكارى من ذهُوْلِ عقولِهم لشدَّة ما يمر بهم فيضطَرِبون اضطرابَ السَّكران، وسُكَارَى جمعُ سَكْرَان. وقرأ أهلُ الكوفة (سُكْري وسُكْرَى) بغيرِ ألف. قال الفرَّاء: (هُوَ وَجْهٌ جَيِّدٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ؛ لأَنَّهُ بمَنْزِلَةِ الْهَلْكَى وَالْجَرْحَى وَالْمَرْضَى)[1].

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لآدَمَ: يَا آدَمُ؛ قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّار. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ؛ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إلَى النَّار، وَوَاحِدٌ إلَى الْجَنَّةِ. فَعِنْدَ ذلِكَ يَشِيْبُ الصَّغِيْرُ، وَتَضَعُ الْحَامِلُ مَا فِي بَطْنِهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بسُكَارَى].

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! أيُّنَا ذلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي يَبْقَى؟ قَالَ: [أبْشِرُوا؛ إنِّي لأَرْجُو أنْ يَكُونَ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ألْفٌ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ] ثُمَّ قَالَ: [إنِّي لأَرْجُو أنْ تَكُونُوا رُبُعَ أهْلِ الْجَنَّةِ] فَكَبَّرْنَا وَحَمَدْنَا، ثُمَّ قَالَ: [إنِّي لأَرْجُو أنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أهْلِ الْجَنَّةِ] فَكَبَّرْنَا وَحَمَدْنَا[2]، ثُمَّ قَالَ: [إنِّي لأَرْجُو أنْ تَكُونُوا ثُلُثَي أهْلِ الْجَنَّةِ، وَأهْلُ الْجَنَّةِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ صَفّاً، ثَمَانُونَ مِنْهَا أمَّتِي][3] ثُمَّ قَالَ ﷺ: [يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أمَّتِي سَبْعُونَ ألْفاً بغَيْرِ حِسَابٍ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ ألْفاً] فَقَالَ عُكَاشَةُ بْنُ مَحِيْصٍ: أدْعُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: [أنْتَ مِنْهُمْ] فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أدْعُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: [سَبَقَكَ بهَا عُكَاشَةُ][4].

---

(١) معاني القرآن: ج ٢ ص٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾: الحديث (٤٧٤١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٤٧. والطبراني في الأوسط: الحديث (٥٤٣). وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٤٠٣؛ قال الهيثمي:((هو في الصحيح باختصار رواه أحمد والبزار والطبراني في الثلاثة ورجالهم رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة وقد وثق)).

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح:كتاب الإيمان: باب موالاة المؤمنين: الحديث (٣٦٧/ ٢١٦ و٣٧١/ ٢١٨ و٣٧٢/ ٢١٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ؛ كَانَ يُكَذِّبُ بالْقُرْآنِ وَيَزْعُمُ أنَّهُ مِنْ أسَاطِيْرِ الأوَّلِيْنَ، وَكَانَ كَثِيْرَ الْجدَلِ، وَيَقُولُ: الْمَلاَئِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَيَزْعُمُ أنَّ اللهَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى إحْيَاءِ الْمَوْتَى). والمعنى: ومِن الناس مَن يُخاصِمُ في دِين الله بغير عِلْمٍ ولا حُجَّةٍ، ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي مُتَمَرِّدٍ على اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ ﴾ ؛ أي كُتِبَ عليهِ الشيطانُ إضلالَ مَن تولاَّه؛ ﴿ وَيَهْدِيهِ ﴾ وهدايتَهُ إياهُ ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: الهاءُ في قولِه (كُتِبَ عَلَيْهِ) راجعةٌ إلى مَن يتَّبع الشيطانَ فيتقبَّلَ منهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾ ؛ معناهُ: يا أهلَ مكة إن كُنتم في شَكٍّ مِنَ البعثِ بعد الموتِ، فتفكَّرُوا في ابتداءِ خَلْقِكُمْ فإنَّ إعادَتَكم ليست بأشدَّ مِن أوَّل خلقِكم، ثم بيَّن ابتداءَ خلقِهم فقالَ: ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ أي خلقنا أباكُم آدمَ، ثُم صوَّرناهُ لَحماً ودَماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ؛ أي ثُم جعلناكم بعد ذلكَ من النُّطفة التي تكون من الذكر والأنثى، ﴿ ثُمَّ ﴾ خلقنا ﴿ مِنْ ﴾ تلكَ النطفةِ ﴿ عَلَقَةٍ ﴾ ؛ وهي قطعةٌ من الدم ﴿ ثُمَّ ﴾ ؛ جعلنا العلقةَ ﴿ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ ؛ وهي القطعةُ من اللَّحم، تسمَّى مُضْغَةً؛ لأنَّها مقدارُ ما يُمضَغُ من اللَّحم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ ؛ أي تامَّة الخلق وغيرِ تامة الخلق، وَقِيْلَ: مصوَّرةٍ وغيرِ مصوَّرةٍ، وهي السَّقْطُ. قال عبدُالله بنُ مسعود: [إذا وَقَعَتِ النُّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ؛ بَعَثَ اللهُ مَلَكاً يَأْخُذُهَا بكَفِّهِ فَيَقُولُ: يَا رَب مُخَلَّقَةٌ أوْ غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ ؟ فَإنْ قَالَ: غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ؛ مَجَّتْهَا الأَرْحَامُ دَماً، وَإنْ قَالَ: مُخَلَّقَةٌ، قَالَ: يَا رَب أذكَرٌ أمْ أنْثَى؟ وَمَا رِزْقُهَا وَمَا أجَلُهَا ؟ وَشَقِيٌّ أمْ سَعِيْدٌ ؟ وَبأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ؟

فَيُقَالُ لَهُ: اذهَبْ إلَى أمِّ الْكِتَاب فَإنَّكَ تَجِدُ ذلِكَ، فَاسْتَنْسِخْ مِنْهُ صِفَةَ هَذِهِ النُّطْفَةِ، فَيَنْطَلِقُ فَيَسْتَنْسِخُهَا. فَتُخْلَقُ فَتَعِيْشُ فِي أجَلِهَا، وَتَأْكُلُ رِزْقَهَا، حَتَّى إذا جَاءَ أجَلُهَا مَاتَتْ، فَتَذْهَبُ إلَى الْمَكَانِ الَّذِي كُتِبَ لَهَا][(١)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٨٨٤٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ ؛ أي لِنُبَيِّـنَ لكـم كمـالَ قُدرَتِنـا وحُكمِنـا في تصريفِنا في الخلقِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ أي ونـتْرُكُ في الأرحامِ ما نشاءُ من الولدِ إلى وقت التَّمامِ ولا نُسقِطُهُ. ورُوي عن عاصم: (وَنُقِـرَّ) بالنصب على العطف، وقراءةُ الباقينَ بالرفع علـى معنـى: ونَحْـنُ نُقِـرُّ. قولـهُ تعـالى: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ ؛ أي ثُم نُخرِجُكم من الأرحامِ طِفْلاً صِغَاراً، وإنَّما لَم يقل أطفَالاً لأنه لَم يُخرِجْهُمْ من أمٍّ واحدة، ولكن يُخرجهم من أمَّهات شتَّى، كأنـهُ قـال: ثُم نخرجُ كلَّ واحدٍ منكم طفلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ﴾ ؛ أي ثُم لِنُعَمِّرَكُمْ لتبلغُوا أشُـدَّكم بمعنـى الكمـال والقـوة، ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ ؛ قبـلَ بلُـوغِ الأشُـدِّ، ﴿ وَمِنكُم مَّن ﴾ ؛ يُعَمَّرُ حتى ﴿ يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ ؛ أي هَوَانِهِ وأخَسِّـهِ وهو الْهَرَمُ والْخَـرَفُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي لكَيْلاَ يَعْقِلَ مِن بعد عقله الأوَّل شيئاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ ؛ هـذه دلالـة أخرى تدلهـم علـى إحياءِ الْمَوْتَى بإحياءِ الأرضِ الميتَةِ، والْهَامِدةُ: هي اليابسةُ الجافَّـةُ، كأنـه قـال: وتَـرَى الأرضَ يابسةً جافَّـةً ذاتَ تُـرابٍ كالنـار إذا اطفئـت ورمـدت، ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ﴾ ؛ أي على الأرضِ، ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ ؛ أي تحرَّكَت بالنبـاتِ، وازدادت وأضعَفت النباتَ، وذلك أن الأرضَ ترتفعُ على النباتِ، فذلك تحريكُها، وهـو معنـى قولهِ (وَرَبَتْ) أي ارتفعَتْ وزَادَتْ وانتفخت للنباتِ، من رَبَا يَرْبُو إذا ازدَادَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي وأخرجـت أكَماً من كلِّ لونٍ حَسَنِ البهجةِ، ومِن كلِّ صنفٍ مؤنق العين، والبـهيجُ الحسـنُ. قَـالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ﴾[1] .

---

(١) النمل / ٦٠

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ؛ أي ذلكَ الذي وصفناهُ من تعريفِ الخلق على هذه الأحوال في إحياء الأرضِ الميتة؛ لتعلَمُوا وتُقِرُّوا بأنَّ اللهَ هو المستحقُّ لصفات التعظيمِ، وهو الإلهُ الواحد الذي يقدرُ على كلِّ شيء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى) أي ويدلُّكم على أنه يُحيي الموتى كما أحيَاكُم ابتداءً، ﴿ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ ، وبأنهُ على كلِّ شيء من الإيجادِ والإعدام قديرٌ، وَ يدلُّكم ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ للحسنات والجزاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ نزلَتْ في النَّضْرِ بن الحارثِ أيضاً، وَقِيْلَ: نزلت في أبي جهلٍ، ومعناهُ: يجادلُ ليُحِقَّ الباطلَ، ويُبطِلَ ما دلَّ عليه الدليلُ بغيرِ معرفةٍ ودليل ولا كتابٍ منير فيه حُجَّةُ ما يقول.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾ ؛ أي لاَوي عُنُقِهِ متكبراً مُعرضاً عن ما يُدْعَى إليه كِبْراً، وهو منصوبٌ على الحال، والمعنى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ متكَبراً شامِخاً بأنفه، ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي عن دِين الله وطاعته.

وقولُهُ تعالى: ﴿ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ ؛ أي عقوبةٌ بالْمَذمَّةِ والقتلِ، ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي عذابَ النار، فقُتِلَ النَّضرُ بن الحارث يومَ بدر أسيراً، ومَن قال: نزلت في أبي جهلٍ فهو قُتِلَ أيضاً يوم بدر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ ؛ مبالغةٌ في إضافة الْخِزْي إليه، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، فإن قِيْلَ: لِمَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: (بظَلاَّمٍ) على صفةِ المبالغة وهو لا يظلمُ مثقالَ ذرَّة ؟ فقيل: تعالى إنه لو فَعَلَ أقلَّ قليلِ الظُّلم، لكان عظيماً منهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَاتُ فِي أُنَاسٍ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ، أصَابَتهُمْ سَنَةٌ شَدِيْدَةٌ فَأجْدَبُوا فِيْهَا، فَمَضَوا بعِيَالِهِمْ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ إلَى الْمَدِيْنَةِ مُهَاجِرِيْنَ، فَكَانُوا إذا أعْطُوا مِنَ

الصَّدَقَةِ، وَأصَابُوا خَيْراً اطْمَأَنُّوا بذلِكَ وَفَرِحُوا بهِ، وَإنْ أصَابَهُمْ وَجَعٌ وآفَةٌ، وَوَلَدَتْ نِسَاؤُهُمُ الْبَنَاتِ، وَتَأَخَّرَتْ عَنْهُمُ الصَّدَقَةُ، قَالُوا: مَا أصَابَنَا مُذْ كُنَّا عَلَى هَذا الدِّيْنِ إلاَّ شَرٌّ، فَيَنْقَلِبُ عَنْ دِيْنِهِ، وَذلِكَ الْفِتْنَةُ)[1].

ومعنى الآيةِ (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ) أي على ضَعْفٍ في العبادةِ، لضَعْفِ القيامِ على الأحْرُفِ لا يدخلُ في الدِّين على ثباتٍ وتَمَكُّنٍ. وَقِيْلَ: معناهُ: على شَكٍّ كأنه قائمٌ على حَرْفِ جدارٍ وطرفِ جَبَلٍ، لا يدخلُ في الدِّين على ثباتٍ ويقينٍ وطُمأنينة، فهو كالمضطرب على شفا جُرْفٍ، ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ﴾؛ رخاءٌ وعافية وسعة، ﴿ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ على عبادةِ الله بذلك الخير، ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾؛ أي مِحْنَةُ تَضْيِيقِ الْعَيْشِ ونحو ذلك، ﴿ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾؛ أي رَجَعَ إلى دينه الأوَّل وهو الشِّرْكُ بالله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ﴾؛ أي خَسِرَ في الدُّنيا العِزَّ والغنيمةَ، وفي الآخرة الجنَّةَ، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي الظاهرُ. قرأ الأعرجُ ويعقوبُ:(انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَاسِراً الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) بالألف (وَالآخِرَةِ) بالخفض، ونَصَبَ (خَاسِرَ) على الحال[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾؛ أي يعبدُ مِن دون الله ما لا يضرُّهُ إن تَركَ عبادتَهُ، ولا ينفعهُ إن عَبَدَهُ، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾؛ عن الحقِّ والرُّشد، ﴿ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾؛ أي يدعُو ما لا نَفْعَ له أصلاً، ومِن عادة العرب أنهم يقولون لشيءٍ لا مَنْفَعَةَ فيه: لَضَرَرُهُ أكثرُ من نفعهِ، كما يقولون لشيء لا يكونُ أصلاً: هذا بعيدٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾؛ أي بئسَ الناصرُ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي بئْسَ الصاحبُ والْمُعاشِرُ، يعني الصنمَ.

واختلفُوا في اللاَّم في قوله (لَمَنْ ضَرُّهُ) :قيل معناهُ التأخير كأنه قالَ: يدعو مَن واللهِ لَضَرُّهُ أقربُ من نفعهِ، وإنَّما قُدمَتِ اللامُ للتأكيد، ونظيرُ هذا قولُهم: عندي لَمَا غيرهُ خيرٌ منه، معناه: عندي ما لَغَيْرُهُ خيرٌ منه. وقيل (لَمَنْ ضَرُّهُ) كلامٌ مبتدأ وخبرهُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨٦٣). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٧٩٧).
(٢) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص١٦٣.

(لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيْرُ)، ويكون المعنى الذي هو الضلالُ البعيد يدعوهُ، فهذا حدٌّ الكلامِ وما بعده كلام مستأنفٌ. وَقِيْلَ: هذه اللامُ صلةٌ؛ أي يدعو مَن ضَرُّهُ أقربُ من نفعهِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ بأوليائه وأهلِ طاعته من الكرامةِ، وبأهلِ معصيته مِن الْهَوَان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ الآيةُ، معناهُ: مَن كان يظنُّ أن لن يَنصرَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ فليطلُبْ سَبَباً يصلُ بـه إلى السـماءَ، ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ ؛ نصرةَ اللهِ لِنَبيِّـهِ مُحَمَّـدٍ ﷺ، ﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ ﴾ ؛ أي يَتَهَيَّأُ له الوصولُ إلى السَّماء بحيلةٍ، فكما لا يُمكنه أن يحتـالَ في الوصولِ إلى السَّماء، كذا لا يُمكنه الحيلةُ في قطعِ نَصْرِ اللهِ تعالى للنبيِّ ﷺ.

وَقِيْلَ: معناهُ: مَن كان يظنُّ أن لن يَنْصُرَ اللهُ النبيَّ ﷺ حتى يظهرَ علـى الدِّيـن، فَلْيَمُتْ غَيْظاً. وَقِيْلَ: إن الْهَاءَ راجعةٌ إلى (مَنْ كَانَ يَظُنُّ) كأنه قال: مَنْ كان يظنُّ أن لن يرزقَهُ اللهُ فليَمْدُدْ بحبلٍ إلى سقف بيتهِ وأضفَى ذلك على حَلْقهِ مُختِنقـاً نفسَـهُ ليذهـب غيظُ نفسهِ.

وهذا مَثَلٌ ضُرِبَ لِهذا الجـاهلِ؛ أي مِثْـلُ هـذا الـذي يظـنُّ أن لـن يرزقَـهُ اللهُ على سبيل السَّخَطِ مثلُ مَن فعلَ هذا الفِعْلَ بنفسهِ، هل كان ذلكَ إلا زائداً في ثلاثـةٍ؟ وهل تذهبُ حقيقة نفسـه غَيْظَـهُ في رزقـهِ؟ وإنَّمـا ذكَـرَ النُّصْـرَةَ بمعنـى الـرِّزق؛ لأن العربَ تقولُ: مَن يَنصُرُنِي نَصَرَهُ اللهُ؛ أي مَن يُعطيني أعطـاهُ الله. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ (مَا) بمعنى المصدر؛ أي هل يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ وحيلتهُ غَيْظَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ ؛ أي وكذلكَ انزلنا القُرْآنَ على مُحَمَّـدٍ ﷺ دلالاتٍ واضحـاتٍ، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى ﴾ ؛ إلَـى النبـوَّة، ﴿ مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: يَهْدِي إلى الدِّين وإلى الثواب.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٦٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ ؛ أي إنَّ الذين آمَنوا بمُحَمَّدٍ والقُرْآن وجميعِ أصناف الكفَّار من اليهودِ، ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ ؛ بين هؤلاءِ الفِرَق الخمس وبين المؤمنين، ﴿ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾ ؛ بأن يُدخِلَ المؤمنين الجنَّة، وتلكَ الفِرَقَ النارَ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي عليمٌ بكلِّ شيء من أعمالِ هؤلاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ؛ أي ألَم تعلم يا مُحَمَّدُ أنَّ اللهَ يسجدُ له أهلُ السَّموات مِن الملائكة، ﴿ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ مِن الجِنِّ والإنسِ من المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ ؛ يَسْجُدُونَ للهِ؛ أي يَخْضَعُونَ؛ لأنَّ سجودَ هذه الأشياءِ خضوعُها وانقيادُها لِخالِقِها فيما يريدُ منها. وقال أبو العاليةِ: (مَا فِي السَّمَاءِ نَجْمٌ وَلاَ شَمْسٌ وَلاَ قَمَرٌ إلاَّ وَهُوَ يَسْجُدُ للهِ حِيْنَ يَغِيْبُ، ثُمَّ لاَ يَنْصَرِفُ حَتَّى يُؤْذَنَ لَهُ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ ﴾ ؛ أي وكثيرٌ من الكفَّار الذين سيُؤمِنُونَ من بَعْدُ، وانقطعَ ذِكْرُ الساجدين ثُم استثناهُ فقالَ: ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ ﴾ ؛ أي مِمَّن لا يُوَحِّدُهُ وأبَى السجودَ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ ﴾ ؛ أي مَن يُهِنِ اللهُ بالشَّقاءِ، فما أحدٌ يُكْرِمُهُ بالسعادةِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ من الإهانةِ والكرامةِ والشَّقاوة والسعادةِ، وهو الْمَالِكُ للعقوبة والمثوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ ﴾ ؛ أرادَ بالخصمين المؤمنينَ والكفارَ، وَقِيْلَ: أهلُ الكتاب وأهل القُرْآن، والمعنى: اختَصَمُوا في دِين ربهم، فقالتِ اليهودُ والنصارى: نحنُ أولَى باللهِ منكم؛ لأَنَّ نبيَّنا قَبلَ نبيِّكم، وكتابَنا قبلَ كتابكم، وقال المسلمونَ: نحنُ أحقُّ باللهِ منكم، آمَنَّا بكتابنا وكتابكُم ونبيِّنا ونبيِّكم، وأنتُم كفرتُم بنَبيِّنا حَسَداً.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨٨٢).

وَقِيْلَ: أرادَ بالخصمينِ الفريقين الذين تَبَارَزُوا يومَ بَدْر. والخصمُ يقع على الواحدِ والجميع، ألا ترى أنه جَعَلَ الكفارَ خصماً، والمؤمنين خَصْماً، ولِهذا قال (اخْتَصَمُوا)؛ لأنَّهما جَمْعَان وليس برَجُلين. وكان أبو ذرٍّ ﷺ يُقْسِمُ أنَّ هذه الآية نَزَلَتْ في ستَّةِ نفَرٍ مِن قُريش تَبَارَزُوا يومَ بدر بثلاثةٍ من المؤمنين وهم: (حَمْزَةُ؛ وَعَلِيٌّ؛ وَعُبَيْدَةُ بْن الْحَارِثِ) وثلاثةٌ مِن المشركين وهُم: (عُتْبَةُ؛ وَشَيْبَةُ؛ وَالْوَلِيْدُ بْنُ عُتْبَةَ)، قال: وقال عليٌّ ﷺ: (إنِّي لأوَّلُ مَنْ يُبْعَثُ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَي اللهِ عَزَّوَجَلَّ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ ؛ أي نُحَاسٌ قد أذِيْبَ في النار فيُجْعَلُ على أبدانِهم بمَنْزِلَةِ الثياب، وليس شيءٌ إذا حُمِيَ أشدُّ حَرّاً من النُّحاس، ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ وهو الماءُ الحارُّ الذي قد انتَهَى حرُّهُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي يُذابُ بالحميمِ الذي يصبُّ مِن فوق رؤوسهم ما في بطونِهم من الشُّحوم حتى يخرجَ من أدبارهم، وتُذابُ به الجلودُ أيضاً، فإن جلودَهم تتساقطُ من حرِّ الحميم. والصَّهْرُ الإذابَةُ، يقالُ: صَهَرْتُ الإلْيَةَ بالنَّار أصهرها؛ أي أذبتُها .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ الْمَقَامِعُ جمعُ مِقْمَعَةٍ؛ وهي مِدَقَّةُ الرَّأس. رُوي أنَّ الملائكةَ يضربون وُجُوهَهُمْ بأعْمِدَةٍ من حديدٍ، فيَهْوُونَ في النَّار سبعينَ خَريفاً. قال مقاتلُ:(تَضْرِبُ الْمَلاَئِكَةُ رَأسَ الْكَافِرِ بالْمَقْمَعَةِ فَيَنْقَبُ رَأسُهُ، ثُمَّ يُصَبُّ فِيْهِ الْحَمِيْمُ الَّذِي انْتَهَى حَرُّهُ، فينفذُ الْجُمْجُمَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إلَى جَوْفِ الْكَافِرِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ مِنَ الأَمْعَاءِ حَتَّى يُحرقَ قَدَمَيْهِ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ ؛ أي كلما رَفَعَتْهُمُ النارُ بلَهَبِهَا فحَاولُوا الخروجَ منها في غَمِّ العذاب أعِيْدُوا في النار بضرب الْمَقَامِعِ، وَقِيْلَ لَهم: ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي الْمُحْرِق مثل الأَلِيْمِ بمعنى الْمُؤْلِمِ. وعن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ في قولِه تعالى (وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ)

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨٨٥). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٨١٦). والأثر رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾: الحديث (٤٧٤٣).

(٢) في تفسير مقاتل: ج ٢ ص٣٨٠.

قال: [لَوْ وُضِعَ مَقْمَعٌ مِنْ حَدِيْدٍ عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الثَّقَلاَنِ مَا رَفَعُوهُ مِنَ الأَرْضِ][(١)].

ثم ذكَرَ اللهُ الخصمَ الآخر فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ في سورةِ الكهف.

قرأ أهلُ المدينة وعاصم: (وَلُؤْلُؤاً) بالنصب على معنى (يُحَلَّوْنَ فِيْهَا لُؤْلُؤاً)، ومَن قرأ بالخفضِ كان المعنى (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ لُؤْلُؤٍ).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المرادِ. قال أبو سعيدٍ الخدريُّ: [مَنْ لَبسَ الْحَرِيْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ، وَإنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَبسَهُ أهْلُ الْجَنَّةِ وَلَمْ يَلْبَسْهُ هُوَ][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ ؛ أي هُدُوا في الدُّنيا إلى القول الطيِّب، وهو قولُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَقِيْلَ: إلى القُرآن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ فاللهُ الحميدُ، والصِّراطُ: طريقُ الجنَّة. والمعنى: أرْشِدُوا إلى الإسلام. ويجوزُ أن يكون (الْحَمِيْدِ) نعتاً للصراطِ كما في قولهِ تعالى ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾[(٣)]. وَقِيْلَ: معنى الآية: وأرْشِدُوا إلى القولِ الطيِّب في الآخرةِ مثلُ قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾[(٤)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين كفرُوا بمُحَمَّدٍ والقُرْآن (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ) عطفُ المضارعِ على المضافِ؛ لأن المرادَ بالمضارعِ الماضي أيضاً. ويجوزُ أن يكون المعنى الذين كَفَرُوا فيما مَضَى وهُمُ الآن يصدُّون عن سبيلِ الله مع كُفْرِهم، والمعنى: يَمْنَعُونَ الناسَ عن طاعةِ الله و عن

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الأهوال: باب أول شافع: الحديث (٨٨٠٩)؛ وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ج ٣ ص٢٣ مرفوعاً. وابن حبان في السنن: الحديث (٥٤٣٧). والحاكم في المستدرك: كتاب اللباس: الحديث (٧٤٨) وصححه.

(٣) الواقعة / ٩٥ . (٤) الزمر / ٧٤ .

الطَّوافِ في ﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ؛ وهم أبو سُفيان وأصحابهُ الذين صَدُّوا النبيَّ ﷺ عامَ الحديبيةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ ؛ معناه: الذي جعلناهُ للناسِ كلِّهم، لَم يخصَّ به بعضَهم دون بعضٍ سِوَى المقيمِ فيه، والذي يأتِي مِن غير أهلهِ، وليس الذين صَدُّوا عنهُ بأحقَّ به مِن غيرِهم.

قِيْلَ: المراد بالمسجدِ الحرام في هذه الآية الْحَرَمُ كلُّهُ، كما في قولهِ تعالى: ﴿إلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[(١)] وكان العهدُ بالحديبيةِ. وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [إنَّ مَكَّةَ لاَ يَحِلُّ بَيْعُ رِبَاعِهَا وَلاَ إجَارَةُ بُيُوتِهَا][(٢)]. وَقِيْلَ: إن المرادَ بالمسجدِ الحرام نَفْسُ المسجدِ سِوَى الْمُعْتَكَفِ فيه. الْمُجَاورُ والبادِيُ الذي يكون مُلازماً لـه في حُرمتِهِ وحقُّ الله عليهما فيه سواءٌ.

قرأ حفصٌ: (سَوَاءً) بالنصب بإيقاعِ الْجَعْلِ عليه، لأن الجعلَ يتعدَّى إلى مفعُولين. وقرأ الباقون بالرفعِ على الابتداءِ، وما بعدهُ خبره. وَقِيْلَ: (سَوَاءٌ) خبرُ مبتدأ متقدِّم تقديرهُ: العَاكِفُ فِيْهِ وَالْبَادِي سَوَاءٌ[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ومَن يُرِدْ فيه إلحاداً بظُلْمٍ، وفي هذا دليلٌ أن المرادَ بالمسجد الحرامِ كلُّ الْحَرَمِ، فإن الذنبَ في الحرمِ أعظمَ منه في غيره، فعلى هذا يكونُ قوله (سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) أي سواءً في النُّزول، فليس أحدُهما أحقُّ بالمنْزِل يكون فيه. وحرَّمُوا بهذه الآية كِرَاءَ دور مكَّة وإجارتها في أيام الموسم.

---

(١) التوبة / ٧ .

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص٣٣؛ قال القرطبي: (كذا رواه أبو حنيفة مرفوعاً ووهم فيه، والصحيح أنه موقوف، وأسند الدارقطني أيضاً عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: وذكره). والحديث أخرجه الدارقطني في السنن: ج ٣ ص ٥٨: الرقم (٢٢٣-٢٢٧).

(٣) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص١٨١.

قال عبدُالله بن أسباط: (كَانَ الْحُجَّاجُ إذا قَدِمُوا مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ أحَدٌ مِنْ أهْلِ مَكَّةَ أحَقَّ بمَنْزِلِهِ مِنْهُمْ)[١]، رُوي: (أنَّهَا كَانَتْ تُدْعَى السَّوَائِبُ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأبي بَكْرٍ وَعُمَرَ، مِنِ احْتَاجَ سَكَنَ، وَمَنِ اسْتَغْنَى أسْكَنَ)[٢].

والإلحادُ هو الشِّرْكُ بالله تعالى، وَقِيْلَ: كلُّ ظالِمٍ فيه فهو ملحدٌ. وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [احْتِكَارُ الطَّعَامِ بمَكَّةَ إلْحَادٌ][٣]. وأمَّا دخولُ الباء في قوله: (بإلْحَادٍ) فعلى معنى: ومَن إرادتهُ فيه بأنْ يُلْحِدَ بظلمٍ. وَقِيْلَ: الإلحادُ دخول مكة بغيرِ إحرامٍ، وأخذُ حَمَامِ مكَّة وأشياء كثيرة لا يجوزُ للمُحْرِمِ أن يفعَلَها. قَوْلُهُ تَعَالَى: (نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ ألِيمٍ) خبرٌ لكل ما تقدَّم من الجملتين من قولهِ تعالى (إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ)، ومِن قولهِ تعالى (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بإلْحَادٍ بظُلْمٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا ﴾ ؛ معناه: واذكرُوا إذ جعَلْنَا البيتَ مثْوىً لإبراهيمَ ومَنْزلاً. قال الحسنُ: (بَوَّأنَاهُ نَزَّلْنَاهُ)، وقال مقاتلُ: (دَلَلْنَاهُ عَلَيْهِ)[٤]، وَقِيلَ: هيَّأنا، نظيرهُ ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]، ﴿وَبَوَّأكُمْ فِي الأَرْضِ﴾[٦]، ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾[٧]، وَقِيْلَ: معنى (بَوَّأنَا) أي بَيَّنَّا له مكانَ البيت.

قال السديُّ: (لَمَّا أمَرَ اللهُ تَعَالَى ببنَاءِ الْبَيْتِ لَمْ يَدْرِ إبْرَاهِيمُ أيْنَ يَبْنِي، فَبَعَثَ اللهُ إلَيْهِ رِيْحاً، فَكَشَفَتْ لَهُ مَا حَوْلَ الْكَعْبَةِ عَنِ الأَسَاسِ الأَوَّلِ الَّذِي كَانَ الْبَيْتُ عَلَيْهِ قَبْلَ أنْ يُرْفَعَ أيَّامَ الطُّوفَانِ)[٨]، وقال الكلبيُّ: (فَبَعَثَ اللهُ إلَيْهِ سَحَابَةً عَلَى قَدْرِ الْبَيْتِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٩٠٥).

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٢٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وابن ماجة عن علقمة بن نضلة)).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٤٨٤ الرقم (١٣٨٦٥). والبيهقي في شعب الإيمان: الحديث (١١٢٢١) كلاهما عن ابن عمر.

(٤) في تفسير مقاتل: ج ٢ ص٣٨١.

(٥) آل عمران / ١٢١. (٦) الأعراف / ٧٤ . (٧) العنكبوت / ٥٨ .

(٨) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨٢٩). وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٤٢٦.

فِيهَا رَأسٌ يَتَكَلَّمُ فَقَامَتْ بِحِيَال الْبَيْتِ، وَقَالَتْ: يَا إبْرَاهِيْمَ إبْنِ عَلَى قَدْري)، قَوْلُهُ تَعَالَى: (أنْ لاَ تُشْرِكْ بي شَيْئاً) أي قلنا له وأوحَينا إليه أن لا تَعْبُدْ معي غيري.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي طَهِّرْ مِن ذبائحِ المشركين، ومما كانوا يطرحونَ حولَهُ من الدَّم والفَرْثِ، وَقِيْلَ: طَهِّرْهُ من عبادةِ الأوثانَ، ومن دخول المشركين فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لِلطَّائِفِينَ) الذين يَطُوفُونَ حَوْلَهُ، وأما القائمونَ الرُّكَّعُ السُّجُودُ فهم الْمُصَلُّونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ ؛ أي وعَهِدْنَا إلى إبراهيمَ أيضاً أن أذِّنْ فِي النَّاسِ بالْحَجِّ يَأْتُوكَ رجَالاً، فقال: يا رب وما يبلغُ صَوْتِي ؟ فقال: عليك الأذانُ وعليَّ البلاغُ، فصَعَدَ أبا قُبَيْسٍ، ونادَى في الناسِ: ألاَ إنَّ ربَّكُمْ قد بَنَى بيتاً، وأمرَكم أن تَحُجُّوهُ فَحُجُّوهُ، فاسمعَ اللهُ نداءه جميعَ مَن في أصلاب الرجال وأرحامِ النِّساء، وما بينَ المشرق والمغرب، والبَرِّ والبحر، فَلَبَّاهُ كلُّ حَجَرٍ ومَدَرٍ، وكلُّ مؤمنٍ ومؤمنة في أصلاب الآباء وأرحام الأمَّهات، قالوا: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، فجعلَ اللهُ التلبيةَ شعاراً للحجِّ، فكلُّ مَن حَجَّ فهو ممن أجابَ إبراهيمَ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ ؛ معناهُ: يأتوكَ مُشَاةً على أرجُلِهم وعلى كلِّ جَمَلٍ مهزولٍ أضْمَرَهُ السفرُ، ورجَالٌ جمع رَاجِلٍ، نحو صاحِبٍ وأصحابٍ. وعن ابنِ عبَّاس أنه قال: (مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيْءٍ فَاتَنِي إلاَّ أنِّي لَمْ أحُجَّ رَاجِلاً)[(١)]، وقد حَجَّ الْحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا خَمساً وعشرين حَجَّةً ماشياً من المدينةِ إلى مكَّةَ، وأن النَّجَائِبَ لتقادُ معه.

وعن رسولِ الله ﷺ أنهُ قال للحُجَّاجِ: [لِلرَّاكِبِ كُلُّ خَطْوَةٍ تَخْطُوهَا رَاحِلَتُهُ سَبْعِيْنَ حَسَنَةً، وَلِلْحَاجِّ الْمَاشِي بكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا سَبْعُمِائَةِ حَسَنَةٍ مِنْ حَسَنَاتِ الْحَرَمِ] قِيْلَ: وَمَا حَسَنَاتُ الْحَرَمِ؟ قَالَ: [الْحَسَنَةُ بِمائَةِ ألْفٍ][(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٩٤٩). وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٤٨٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٢٦٩٦). والحاكم في المستدرك: كتاب المناسك: الحديث (١٧٣٥). وفي مجمع الزوائد: ج ٣ ص٢٠٩؛ قال الهيثمي: ((رواه البزار والطبراني في الأوسط=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي من بُلدانٍ شتَّى، مِن كلِّ طريقٍ بعيد، يقالُ عَميقَة إذا كانت بعيدةَ القرار. وإنَّما قال (يَأْتِيْنَ)؛ لأنه في معنى الجمع، وَقِيْلَ: معناهُ: وعلى نَاقَةٍ ضَامِرَةٍ.

وعن بشْرِ بن مُحَمَّدٍ قال: رأيتُ في الطَّوافِ كَهْلاً قد أجهدتْهُ العبادةُ، واصفَرَّ لونهُ، وبيدهِ عصا وهو يطوفُ معتمداً عليها، فتقدَّمتُ إليه لأسألَهُ، فقال لِي: مِن أين أنتَ؟ فقلتُ: من خُراسان، قال: من أيِّ ناحيةٍ هي ؟ قلتُ: من نواحي المشرق، فقال لِي: فِي كم تقطعونَ هذا الطريقَ؟ قلتُ: شهرين أو ثلاثة، قال: أفلاَ تَحُجُّونَ في كلِّ عام وأنتم جيرانُ البيتِ؟ قلتُ: وأنتم كم بينَكُم وبين هذا البيتِ؟ فقال: مسيرةُ خمس سنين، فقلتُ: والله إن هذا الجهدُ لَبَيِّنٌ، والطاعةُ الجميلة والمحبة الصادقةُ، فضَحِكَ في وجهي وأنشأ يقولُ:

زُرْ مَنْ هَوَيْتَ وَإنْ شَاطتَ بِكَ الدارُ ... وَحَالَ مَنْ زُرْتَهُ حُجُبٌ وَأَسْتَارُ
لاَ يَمْنَعَنَّكَ بُعْداً مِنْ زيَارَتِهِ ... إنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يَهْوَاهُ زَوَّارُ

وقولهُ تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي ليشْهَدوا ما ندبَهم اللهُ إليه مما لَهم فيه نفعُ آخِرَتِهم، ويدخلُ في ذلك منافعُ الدُّنيا من التجارةِ بيعاً ورُخصةً. قال ابنُ جبير: (يَعْنِي بالْمَنَافِعِ التِّجَارَةَ)، وقال مجاهدُ: (هِيَ التِّجَارَةُ وَمَا يُرْضِي اللهَ مِنْ أمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)[1].

وعن عمرَ بنِ عبدِالعزيز أنه كان يقول إذا وَقَفَ بعرفةَ: (اللَّهُمَّ إنَّكَ دَعَوْتَ إلَى حَجِّ بَيْتِكَ، وَذكَرْتَ الْمَنْفَعَةَ عَلَى شُهُودِ مَنَاسِكِكَ، وَقَدْ جِئْتُكَ فَاجْعَلْ مَنْفَعَةَ مَا تَنْفَعُنِي بِهِ أنْ تُؤْتِيَنِي فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَأنْ تقيَني عَذابَ النَّار).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (الأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ الْعَشْرُ، وَالأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ

=والكبير بنحوه وفيه قصة. وله عند البزار إسنادان أحدهما فيه كذاب والآخر فيه إسماعيل بن إبراهيم عن سعيد بن جبير ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات)).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٩٥٦).

أيَّامُ التَّشْرِيْق)، وإنَّما قال لَها معدوداتٍ؛ لأنَّها قليلةٌ، وَقِيْلَ لتلكَ المعلوماتِ الحرصُ على علمِنا بحسابها من أجلِ وَقْفِ الحجِّ في آخرها، وإلى هذا ذهبَ أبو حنيفةَ.

وقال أبو يوسُفَ: (الأيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ أيَّامُ النَّحْرِ وَهِيَ ثلاثَةُ أيَّامٍ، وَالأيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ أيَّامُ التَّشْرِيْقِ وَهِيَ ثلاثَةٌ بَعْدَ الْيَوْمِ الأوَّلِ مِنْ أيَّامِ النَّحْرِ، فَيَكُونُ الْيَوْمُ الأوَّلُ مِنْ أيَّامِ النَّحْرِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ دُونَ الْمَعْدُودَاتِ، وَالْيَوْمُ الآخِرُ مِنْ أيَّامِ التَّشْرِيْقِ مِنَ الْمَعْدُودَاتِ دُونَ الْمَعْلُومَاتِ، وَيَوْمَيْنِ مِنْ وَسَطِهَا مِنَ الْمَعْلُومَاتِ وَالْمَعْدُودَاتِ جَمِيْعاً)، وكان يستدلُّ على هذا القولِ في الأيَّام بهذه الآية، فإنه تعالى قالَ: (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأنْعَامِ)، فاقتضى ظاهرُهُ أن المرادَ التسميةُ على ما ذُبحَ من بَهيمة بالْمُتْعَةِ والقِرَانِ.

وأما على قول أبي حنيفةَ، فالمرادُ بالذِّكْرِ إكثارُ الذِّكرِ في أيامِ العَشْرِ، كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [مَا مِنْ أيَّامِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ أفْضَلَ فِيهِنَّ مِنْ أيَّامِ التَّشْرِيْقِ، فَأكْثِرُوا فِيهَا مِنَ التَّحْمِيْدِ وَالتَّكْبِيْرِ وَالتَّهْلِيْلِ][(١)].

وعلى هذا يكونُ معنى (عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأنْعَامِ) لِمَا رزقتُهم من بَهيمة الأنعام،كما قال ﴿وَلِتُكَبِرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾[(٢)] أي لِما هَدَاكُمْ، وقال محمَّدُ بن كعبٍ: (الْمَعْلُومَاتُ وَالْمَعْدُودَاتُ وَاحِدٌ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأنْعَامِ) يعني الهدايا والضَّحايا من الإبلِ والبقرِ والغنمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (وَذلِكَ أنَّ أهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا إذا ذبَحُوا لَطَّخُوا وَجْهَ الْكَعْبَةِ، وَشَرَّحُوا اللَّحْمَ فَوَضَعُوهُ عَلَى الْحِجَارَةِ حَتَّى تَأكُلَهُ السِّبَاعُ وَالطَّيْرُ، وَقَالُوا: لاَ يَحِلُّ لَنَا أنْ نَأكُلَ شَيْئاً جَعَلْنَاهُ للهِ.

فَلَمَّا جَاءَ الإسْلاَمُ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ كُنَّا نَضَعُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ألاَ نَضَعُهُ الآنَ ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ). (فَكُلُوا مِنْهَا) يعني الأنعامَ التي تَنْحَرون، (وَأطْعِمُوا الْبَائِسَ)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص١٣١ بهذا اللفظ. للحديث الفاظ أخرى عند البخاري والترمذي وأبو داود وابن ماجة والطبراني والبيهقي وغيرهم.

(٢) البقرة / ١٨٥ .

وهو الذي قد أصابَهُ ضررُ الجوعِ، و(الْفَقِيْرَ) الذي لا شيءَ لهُ. وَقِيْلَ: البائسُ الذي بَيَّنَ عليه أثرُ البُؤْسِ بأن يَمُدَّ يده إليكَ. وَقِيْلَ: البائسُ الزَّمِنُ. وإنَّما خَصَّصَ البائسَ الفقيرَ؛ لأنه أحوجُ من غيرِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (التَّفَثُ هُوَ الْمَنَاسِكُ كُلُّهَا)(١)، والمرادُ ها هنا رَمْيُ الجِمَارِ والْحَلْقُ، ويقال: قضاءُ التَّفَثِ إزالةُ الشَّعث، وفي هذا دليلٌ على أن المرادَ بقوله (عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ) دمُ الْمُتْعَةِ والقِرَانِ؛ لأن اللهَ تعالى رَتَّبَ عليه قضاءَ التَّفَثِ والطوافَ بالبيتِ الحرام، لا دمَ تَرَتَّبَ على هذهِ الأفعال إلاّ دمُ المتعة والقِرَان، فذكرَ هذه الآيةَ في جواز الأكل مما يُذْبَحُ. وَقِيْلَ: التَّفَثُ هو الوسخُ والقَذَرُ من طولِ الشَّعر والأظفار، وقضاؤه وإذهابهُ وإزالته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ ؛ يعني نَحْرَ ما نَذرُوا من البُدْنِ، وَقِيْلَ: يعني ما نَذرُوا من أعمال البرِّ في أيام الحجِّ، وربَّما نَذرَ الرجلُ أن يتصدَّقَ إنْ رَزَقَهُ اللهُ لقاءَ الكعبة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ يعني طوافَ الزِّيارةِ بعد التروية، أما يومُ النَّحرِ وما بعده فيسمَّى طوافَ الإفَاضَةِ. والعتيقُ القديْمُ؛ لأنه أولُ بيتٍ وُضِعَ للناسِ. وَقِيْلَ: [أعْتِقَ من أيدِي الْجَبَابرَةِ، فَلاَ يَظْهَرُ عَلَيْهِ جبَّارٌ قَطْ إلاّ أذلَّهُ اللهُ](٢). وعن ابنِ عبَّاس قال: حَجَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا أتَى وَادِيَ عَسَفَانَ قَالَ: [لَقَدْ مَرَّ بهذَا الْوَادِي نُوحٌ وَهُودٌ وَإبْرَاهِيْمُ عَلَى بَكْرَاتٍ حُمْرٍ خَطْمُهُنَّ اللِّيْفُ، يَحُجُّونَ الْبَيْتَ الْعَتِيْقَ](٣).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٩٨٣). وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص١٣٨٩٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٨٩٩٤). عن عبدالله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ... وذكره. وأخرجه الترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣١٧٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب. والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٥١٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٣٢.

قولـهُ: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ أي ذلِكَ الذي أمِرْتُمْ به، ومَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ باجتناب ما حَرَّمَ اللهُ تعظيماً للهِ فهو خيرٌ له في الآخرةِ مِن تَرْكِ استعظامِهِ. وقال بعضُهم: الْحُرُمَاتُ ها هنا البيتُ الحرامُ والبلد الحرامُ والشهر الحرام والمسجدُ الحرام. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ) أي قال: المعظِّم خيرٌ له عند رَبهِ من التَّهَاوُنِ، يعني في الآخرةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ ؛ أي رُخِّصَتْ لكـم بَهيمـة الأنعامِ أن تأكلوها، ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ في كتاب الله مـن الْمَيْتَـةِ والـدمِ وغير ذلك مما بَيَّنَهُ اللهُ في سورة المائدةِ من الْمُنْخَنِقَةِ وَالْمَوْقُـوذةِ وَالْمُتَرَدِّيَـةِ وَالنَّطِيْحَـةِ ومما لَم يُذْكَرِ اسـمُ الله عليـهِ. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: وأحِلَّـتْ لكـم بَهيمـةُ الأنعـامِ في حـال إحرامِكم إلاَّ ما يُتْلَى عليكم من الصَّيدِ، فإنه حرامٌ في حال الإحرامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ ؛ أي فَـاجْتَنِبُوا عبادتَـها وتعظيمَـها وأن تذبَحُـوا لَـها، كمـا يفعـلُ المشـركون، سَـمَّاها رجْسـاً اسْـتِقْذاراً لَـها واستخفافاً لَها، وذلك أنَّ المشركينَ كانوا يَنْحَرُونَ هداياهم، ويَصُبُّـونَ عليـها الدمـاءَ، وكانوا مع هذه النَّجاساتِ يعظِّمونَها.

ويجوز أن يكون سَمَّاها رجْساً للُزُومِ اجتنابها كاجتناب الأنْجَاسِ. وأما حـرفُ (مِنَ) في قولهِ (مِـنَ الأَوْثَـانِ) لتخصيـصِ جنـسٍ مـن الأجنـاس، والمعنـى: فَـاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الذي هو مِن وَثَنٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ يعني قولَ الكذب، ومِن أعظمِ وجُوهِ الكذب الكفرُ بالله، والكذبُ على الله، ويدخلُ في ذلـك شـهادةُ الـزُّور، كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّور بالإشْرَاكِ باللهِ][(١)]، وقال ﷺ: [شَاهِدُ الزُّور لاَ تَزُولُ قَدَمَاهُ مِنْ مَكَانِهَا حَتَّى تَجِبَ لَهُ النَّارُ][(٢)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص١٨٧. والترمذي في الجامع: كتاب الشـهادات: الحديـث (٢٢٩٩). والبيهقي في السنن الكبرى: الحديث (٢٠٩٦٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الأحكام: الحديث (٧١٢٤). والبيـهقي في السـنن الكـبرى: الحديث (٢٠٩٦٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ ؛ أي مُخلصين للهِ مستقيمين على أمرِهِ غيرَ مشركين في تلبيةٍ ولا حَجٍّ، وذلكَ أنّ أهلَ الجاهليةِ كانوا يقولون في تلبيتِهم: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيْكَ لَكَ لَبَّيْك، إلاَّ شَريكاً تَملكهُ يَعْنُونَ الصَّنَمَ. وانتصبَ قولهُ: (حُنَفَاءَ) على الحال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي سَقطَ من السَّماءِ، ﴿ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ ؛ في الْهَواءِ فتُمزِّقُهُ، أو تذهبُ به الريحُ في موضعٍ بعيدٍ؛ أي مُنْحَدَرٍ فيقعُ على رأسهِ فيهلَكُ، أي كما أنَّ الذي سَقَطَ من السماءِ لا يَملك نفعاً ولا دفعَ ضُرٍّ، وكذلك الذي تُهوي به الريحُ في مكان سَحيقٍ، وكذلك المشركُ لا ينتفعُ بشيء مِن أحْمَالِهِ ولا يقدرُ على شيءٍ منها.

قرأ أهلُ المدينة (فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ) بالتشديد أي فَتتخطفُهُ، فأُدْغِمَ أحدُ التَّائين في الأُخرى، والْخَطْفُ: الأخذُ بسرعةٍ. قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ يَخْطِفُ لَحْمَهُ)، ﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ ؛ أي تُسْقِطُهُ، ﴿ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي بعيدٍ. شَبَّهَ حالَ الْمُشْرِكِ بحال هذا الْهَاوي من السَّماء في أنه لا يَمْلِكُ حيلةً حتى يسقطَ فهو هالكٌ لا محالَةَ، إما بإسْلاَب الطَّيرِ، وإما بالسُّقوطِ في المكان السَّحيق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ذلك التباعدُ والهلاكُ لِمَنْ أشْرَكَ بالله، مَن يُعَظِّمُ شعائرَ اللهِ؛ أي مَنَاسِكَ اللهِ. وَقِيْلَ: أراد بالشَّعِيْرة الْبُدْنَ، فمَن عظَّمَها باستمنانِها واستحسانِها، ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ يعني من صَفَاوَةِ القُلُوب. وإنَّما أضافَ التَّقْوَى إلى القلوب؛ لأن حقيقةَ التقوى تُقْوَى القلوب.

قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ أي لكم في بَهيمة الأنعامِ المنافعُ تركبُوها، وتَشربُونَ ألبانَها قبلَ أن تشعروها وتسمُّوها هَدْياً إلى أن تقادُوها، وسموها هدياً، وأما إذا قلدوها وسَمَّوها هَدْياً انقطعت هذه المنافعُ فلا يجوزُ له حينئذٍ شُرْبُ ألبانِها ولا خَزُّ أصوافِها ولا بيعُ أولادِها.

وأما ركوبُها عند الشافعيِّ يجوزُ إذا لَم يُضِرَّ بها، وعندنا لا يجوزُ إلاّ اذا اضطرَّ إليه. وعن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ انه رَأى رَجُلاً يَسُوقُ بَدَنَةً، فَقَالَ لَهُ: [وَيْحَكَ!

ارْكَبْهَا] فَقَالَ لَهُ: إنَّهَا بَدَنَةٌ، فَقَالَ:[وَيْحَكَ! ارْكَبْهَا](١)، وهذا عندنا محمولٌ على أنَّهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إنَّما أباحه لضرورة علمه مِن الرجُل فأذِنَ له في ذلكَ إن لم يجد ظهراً غيرها، يدلُّ على ذلك أنه لا يجوزُ له أنْ يوجِّهَها للركوب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ يعني أنَّ نحرها إلى الْحَرَمِ، وعبَّر عن الحرمِ بالبيت؛ لأن حرمةَ الحرمِ متعلقةٌ بالبيت، كما قالَ تَعَالَى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾(٢)، ومن المعلومِ أنَّهُ لا يُذْبَحُ عند البيتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ ؛ أي لكلِّ أمَّةٍ مُسْلِمَةٍ سَبَقَتْ قبلَكم جعلنا لها عِيْداً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ ؛ عند الذبحِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ولكلِّ أمَّةٍ جعلنا عِبَادَةً في الذبحِ. وَقِيْلَ: معناهُ: جعلنا مُتَعَبَّداً يعبدون اللهَ فيه.

قرأ أهلُ الكوفة (مَنْسِكاً) بكسرِ السِّين؛ أي مَذْبَحاً وهو موضعُ القُرْبَانِ، وقرأ الباقون بفتحِ السِّين على المصدر مثل الْمَدْخَلِ والْمَخْرَجِ؛ أي هِرَاقَةُ الدَّمِ أو ذبحُ القُرُبَاتِ، فمَن فتحَ السين أخذهُ من نَسَكَ يَنْسُكُ مثل دَخَلَ يَدْخُلُ، ويستوي فيه المكان والمصدرُ، ومَن كسرَها أخذهُ من نَسِكَ يَنْسِكُ مثل جَلَسَ يَجْلِسُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ﴾ ؛ أي أخْلِصُوا دِيْنَكم وأعمالكم للهِ تعالى، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي المتواضعين بالجنَّة، واشتقاقُ الْمُخْبِتِيْنَ مِنَ الْخَبْتِ وهو المكانُ المطمئنُّ، وقال مجاهدُ: (يَعْنِي الْمُخْبِتِيْنَ: الْمُطْمَئِنِّيْنَ إلَى اللهِ)، وقال الأخفشُ: (الْخَاشِعِيْنَ)، وَقِيْلَ: الخائفينَ، وَقِيْلَ: هم الذين إذا ظلموا لا ينصرون.

قولهُ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ أي إذا خُوِّفُوا باللهِ خَافُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ ؛ أي وبَشِّرِ الصَّابرينَ عَلَى مَا أصَابَهُمْ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٢٩١. والبخاري في الصحيح: كتاب الحج: الحديث (١٦٨٩). ومسلم في الصحيح: كتاب الحج: الحديث (٣٧٢/ ١٣٢٢).

(٢) المائدة / ٩٥ .

مِن البَلاَيَا والنوائب الشدائد، وَ بَشِّرِ ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ؛ في أوقاتِها، وحُذفت النونُ لطولِ الاسم، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي يتصدَّقون من الواجب وغيرِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ جمع بَدَنَةٍ وهي الناقةُ والبقرة، والبَدَانَةُ الضخامةُ، والمعنى: والإبلَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ من أعْلاَمِ دِيْنِ اللهِ؛ أي جعلناها لكم فيها عبادةٌ لله من سَوْقِهَا إلى البيتِ وتقليدِها وإشعارِها ونَحرِها والإطعامِ منها، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ ؛ يعني النفعَ في الدُّنيا والآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ ؛ أي عند نَحرِها، وصَوَافٌّ جمعُ الصَّافَّةِ وهي القائمةُ على ثلاثِ قوائم قد عُقلت، وكذا السُّنة في الإبلِ، ومعنى الآية: فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ على نَحْرِهَا قِيَاماً معقولة إحدى يدَيها وهي اليُسرى. وعن يحيى بن سالِم قال: (رَأيْتُ ابْنَ عُمَرَ وَهُوَ يَنْحَرُ بَدَنَتَهُ، فَنَحَرَهَا وَهِيَ قَائِمَةٌ مَعْقُولَةٌ إحْدَى يَدَيْهَا)[1] يعني اليسرى.

ورويَ عن ابنِ مسعود كان يقولُ: (صَوَافِّن) بالنون وهي المعقولةُ[2]، مِن قولِهم: صَفَنَ الفرسُ إذا قامَ على ثلاثِ قوائم، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾[3]. وقرأ الحسنُ ومجاهد: (صَوَافِي) بالياء أي صافيةً خالصةً لله تعالى[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ ؛ أي سَقَطَتْ بعدَ النحرِ، فوضعت جنوبُها على الأرضِ وخرجت روحُها، ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ ؛ ولا يجوزُ الأكلُ من البُدْن إلاّ بعد خروجِ الروح، لأن ما بينَ عن الحيِّ فهو ميتٌ. وأصلُ الوُجُوب الوُقُوعُ، ومنه وَجَبَتِ الشمسُ إذا وقعت في الْمَغِيْب، ووجبَ الحائطُ إذا وقعَ، ووجبَ القلبُ إذا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٠٤٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٠٥٨). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٥٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن الأنباري عن قتادة)).

(٣) ص / ٣١ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٠٥٤).

وقعَ فيه الفزعُ، ووجبَ الفِعلُ إذا وجبَ ما يلزمُ به فعله. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَكُلُوا مِنْهَا) أَمْرُنا بإباحةٍ ورُخْصَةٍ مثلُ قولِه: ﴿وَإذا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾(١)، وقولِهِ تعالى ﴿فَإذا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ ؛ اختلَفُوا في معناها، فرُويَ عن ابنِ عبَّاس ومجاهد: (أنَّ الْقَانِعَ هُوَ الَّذِي يَقْنَعُ وَيَرْضَى بمَا عِنْدَهُ وَلاَ يَسْأَلُ، وَالْمُعْتَرَّ الَّذِي يَعْتَرِضُ لَكَ أنْ تُطْعِمَهُ مِنَ اللَّحْمِ)، يقالُ: قَنَعَ قَنَاعَةً إذا رَضِيَ قانع، وعَرَاهُ واعْتَرَاهُ إذا سألَهُ، وكذلك قال عكرمةُ وقتادة: (إنَّ الْقَانِعَ هُوَ الْمُتَعَفِّفُ الْجَالِسُ فِي بَيْتِهِ، وَالْمُعْتَرَّ السَّائِلُ الَّذِي يَعْتَرِيْكَ وَيَسْأَلُكَ)(٣).

قال سعيدُ بن جبير والكلبيُّ: (الْقَانِعُ هُوَ الَّذِي يَسْأَلُ، وَالْمُعْتَرُّ هُوَ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لَكَ ويُرِيكَ نَفْسَهُ وَلاَ يَسْأَلُكَ)(٤)، فعلى هذا يكون القانعُ من القُنُوعِ وهو السُّؤالُ، يقال منه: قَنَعَ الرجلُ يَقْنَعُ إذا ذهبَ يسأل، مثل ذهبَ فهو قانعٌ. قال الشمَّاخُ:

كَمَالُ الْمَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنَى مَفَاقِرَهُ أعَفُّ مِنَ الْقُنُوعِ(٥)

أي من السُّؤال. وقال زيدُ بن أسلمَ: (الْقَانِعُ هُوَ الْمِسْكِيْنُ الَّذِي يَطُوفُ فَيَسْأَلُ، وَالْمُعْتَرُّ الصَّدِيْقُ الزَّائِرُ، وَالْمُعْتَرُّ الَّذِي يَعْتَرِي الْقَوْمَ لِلَحْمِهِمْ وَلَيْسَ بمِسْكِيْنٍ إلاَّ أنَّهُ لَيْسَتْ لَهُ ذبيْحَةٌ، يَأْتِي الْقَوْمَ لأَجْلِ لَحْمِهِمْ)(٦).

وقرأ الحسنُ: (وَالْمُعْتَرِي) بالياء من قولِهم: اعْتَرَاهُ إذا غَشِيَهُ لحاجته. وروى عطاءٌ عن ابن عبَّاس: (أنَّ الْقَانِعَ الَّذِي يَسْأَلُ، وَالْمُعْتَرَّ الَّذِي يَأْتِيْكَ بالسَّلاَمِ، وَيُرِيْكَ

---

(١) المائدة / ٢ . (٢) الجمعة / ١٠ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٠٧٥-١٩٠٧٦).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٠٨٠).

(٥) ذكره الطبري في جامع البيان: النص (١٩٠٨٢). والزجاج في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٤٨. والمفاقر: وجوه الفقر، والقنوع السؤال.

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٠٨٦).

وَجْهَهُ، وَلاَ يَسْأَلُ)، وعن مجاهد: (أنَّ الْقَانِعَ جَارُكَ الْغَنِيُّ، وَالْمُعْتَرَّ الَّذِي يَعْتَرِيْكَ مِنَ النَّاسِ).

فعلى هذا تقتضي الآيةُ: أن المستحبَّ أنْ يتصدَّقَ بالثُّلُث؛ لأن في الآيةِ أمرٌ بالأكلِ وإعطاءِ الغنيِّ وإعطاءِ الفقير السائلِ. وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ في الحرمِ: [الأَضَاحِي كُلُوا وَادَّخِرُوا][1]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، فإذا جَمعت بين الآية والخبرِ جُعِلَ الثلثُ للصدقةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي مِثْلَ ما وَصَفْنَا من نَحرها وقيامها سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ؛ أي ذَلَّلْنَاهَا لكم؛ لتتمكَّنوا من نَحرها على الوجهِ الْمَسْنُونِ؛ لكي تَشْكُرُوا نِعَمَ اللهِ تعالى.

قولهُ تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ قال الكلبيُّ: (كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْحَرُونَ الْبُدْنَ لِلأَصْنَامِ وَيُلَطِّخُونَ الْبَيْتَ بدِمَائِهَا قُرْبَةً إلَى اللهِ فَنَهَى عَنْ ذلِكَ). والمعنى: لن يرفعَ اللهَ لحومُها ولا دماؤها، ولكن يُرفَعُ إلى اللهِ منكمُ الأعمالُ الصالحة والتَّقْوَى، وهو ما أُرِيْدَ به وجهه الكريم.

ويقالُ: إنَّما لا يَتَقَبَّلُ الله اللحومَ والدماء لأنها فعلُ الله، ولكن يتقبلُ التقوى الذي هو فِعْلُ العبدِ، فيوجبُ الثوابَ على ذاك، والمعنى: لن يتقبَّلَ اللهُ اللحومَ والدماء اذا كانت من غيرِ تقوى، وإنَّما يتقبَّلُ منكم التقوَى والطاعةَ في ما أَمَركم به، بالنيَّة والإخلاصِ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ ؛ أي ذلَّلَها لكم، ﴿ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي لِتُعَظِّمُوهُ، ﴿ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ ؛ لِدِيْنِهِ، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ بالجنَّة يعني الموحِّدين المخلصين. ويقالُ: معنى قوله (عَلَى مَا هَدَاكُمْ) يعني ما بَيَّنَ لكم وأرشَدَكم لِمَعَالِمِ دِيْنِهِ ومناسكِ حَجِّهِ.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب الأضاحي: الحديث (٧٦٤٣). وأخرجه البخاري بلفظ: أن رسول الله ﷺ قال: [كُلُوا مِنَ الأَضَاحِي ثلاثاً] في الصحيح: كتاب الأضاحي: الحديث (٥٥٧٤).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ ﴾ ؛ أي إذا ما أمِرْتُـمْ فَعَلْتُمْ به وخالَفْتُم فعلَ الجاهليَّة في نَحْرِهِمْ وإشراكِهم بالله، فإن اللهَ يدفعُ عنكم غائِلَـةَ المشركينَ وأذاهُم وينصركـم عليـهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ ﴾ أي لا يحبُّ كلَّ مُظْهِرٍ للنصيحة مُضْمِرٍ للغشِّ والنِّفاقِ كافر بالله وبنعمتهِ.

قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ الَّذِيْنَ خَانُوا اللهَ بأَنْ جَعَلُوا مَعَهُ شَرِيْكاً وَكَفَـرُوا نِعْمَـهُ)، قال الزجَّاجُ: (مَنْ ذكَرَ غَيْرَ اسْمِ اللهِ وَتَقَرَّبَ إلَى الأَصْنَامِ بذبيْحَتِهِ فَهُوَ خَوَّانٌ كَفُـورٌ)[١]، قرأ أبو عمرٍو وابنُ كثير: (يَدْفَعُ)، وقرأ الباقون: (يُدَافِعُ)، وهو بمعنى واحدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّـاس: (هَـذِهِ أوَّلُ آيَـةٍ نَزَلَـتْ فِـي الإذْنِ بالْقِتَـالِ، أذِنَ اللهُ تَعَـالَى لِلْمُؤْمِنِيْـنَ الْمُـهَاجِرِيْنَ أنْ يُقَاتِلُوا كُفَّارَ مَكَّةَ بسَبَبِ مَا ظُلِمُـوا بـأَنْ أخْرِجُـوا مِـنْ مَكَّـةَ) ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ﴾ ؛ هذا وَعْدٌ لَهم بالنَّصرِ.

وَقِيْلَ: كان مُشركُو مكَّة يؤذُونَ أصحابَ رسولِ الله ﷺ فلا يزالـون مَحْزُونِـينَ من ((بين))[٢] مَشْجُوجٍ ومضروبٍ، ويَشْـكُونَ ذلـك علـى رسـول الله ﷺ فيقـولُ لَـهم: [اصْبرُوا فَإنِّي لَمْ أؤْمَرْ بالْقِتَالِ][٣] حَتَّى هَاجَرُوا، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ بالمدينة.

قرأ نافعُ وأبو عمرٍو وعاصم: (أُذِنَ) بضمِّ الألف وكسرِ الـذال، وقـرأ البـاقون (أَذِنَ) بالفتح؛ أي أذِنَ اللهُ لَهم، وقوله (يُقَاتِلُونَ)، قرأ نافع وابنُ عامر وحفص: بفتـح التاء؛ أي أذِنَ للمؤمنينَ الذين يُقَاتِلُهُمُ المشركونَ، وقرأ الباقون بكسرِها، يعني أذِنَ لَهم في الجهادِ يقاتلون المشركينَ[٤].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾ ؛ أوَّلُ آيةٍ بَدَلٌ من (الَّذِيْنَ يُقَاتِلُونَ) أي أخرَجَهم أهلُ مكة مِن منازِلِـهم بغـيرِ جُرْمٍ منهم.

---

(١) معاني القرآن: ج ٣ ص٣٤٩.
(٢) ((بين)) سقطت من المخطوط.
(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٨٦٩.
(٤) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص٢٢٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلاَّ أنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ) معناه: لَمْ يُخرِجُوهم إلاّ بأن كانوا يُوَحِّدُونَ اللهَ تعالى فأخرَجُوهم لتوحيدِهم، المعنى: لَمْ يُخرجوهم مِن ديارهم إلاّ لقولهم رَبُّنَا اللهُ، فيكون (أنْ) في موضع الخفضِ رداً على الباء في قولِهِ (بغَيْرِ حَقٍّ)، ويجوز أن تكون (أنْ) في موضع نصبٍ على الاستثناء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ ﴾ ؛ أي لولا أنْ يدفعَ اللهُ الناسَ بعضَهم ببعض لَهُدِمَ في زمنِ كلِّ شيء ما بُنِيَ للصلاةِ والعبادة نحو الصَّوامعَ، ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ .

قال مجاهدُ والضحَّاك:(يَعْنِي صَوَامِعَ الرُّهْبَان)(١)، وقال قتادةُ: (الصَّوَامِعُ لِلصَّابئِيْنَ؛ وَهِيَ مُتَعَبَّدَاتُهُمْ، وَالْبيَعُ جَمْعُ بَيْعَةٍ؛ وَهِيَ مُتَعَبَّدُ النَّصَارَى، وَالصَّلَوَاتُ هِيَ كَنَائِسُ الْيَهُودِ، وَكَانَ الْيَهُودُ يُسَمُّونَهَا بالْعَبْرَانِيَّةِ صَلَوَاثَا، وَالْمَسَاجِدُ الَّتِي يُصَلِّي فِيْهَا الْمُسْلِمُونَ)(٢).

والمعنى: لولا كَفُّ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض بالجهادِ، وكَفُّ الظُّلم لحربٍ في كلِّ شريعةٍ، كلٌّ بَنى المكان الذي يُصَلَّى فيه، فكان لولا الدفعُ لَهُدِمَ في زمنِ موسى عليه السلام الكنائسُ، وفي زمنِ عيسى عليه السلام الصَّوامعُ والبيَعُ، وفي زمن مُحَمَّدٍ ﷺ المساجدُ. وعن مجاهد أنه قال: (الْبيَعُ لِلْيَهُودِ يُسَمُّونَهَا صَلَوَات)، وقال أبو العاليةِ: (هِيَ مَسَاجِدُ لِلصَّابئِيْنَ). فعلى هذا يكون المعنى: لَهُدِّمَتْ صوامعُ الصلواتِ. ويقال: أرادَ بالصَّلواتِ الصلوات المعهودة التي للمسلمين، وهَدْمُهَا إبطالُها وإهلاكُ مَن يفعلُها.

والأَوْلَى أنْ يستدلَّ بهذه الآية على أنَّ هذهِ المواضعَ المذكورة التي يجري فيها اسمُ الله تعالى لا يجوزُ أن تُهْدَمَ في شريعةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ على كلِّ مَن كان له ذِمَّةٌ، أو جهاد من الكفَّار، فأما في ديار الحرب فيجوزُ للمسلمين هدمُها إذا فُتحت دارُهم عنوةً، ولَم يُقَرُّوا عليها بالجزيةِ، كما يجوزُ هَدْمُ سائر دورهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩١١١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩١١٤ و١٩١١٦ و١٩١٢٢ و١٩١٢٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَهُدِّمَتْ) الْهَدْمُ هو نَقْضُ البناءِ. قرأ أهلُ الحجاز (لَهُدِمَتْ) بالتخفيف. فإن قِيْلَ: لِمَ قَدَّمَ مُصَلَّيَاتِ الكافرينَ على مساجدِ المؤمنين ؟ قِيلَ: لأنَّها أقدمُ، وَقِيلَ: لقربها من الهدم، وقُرب المساجد من الذِّكْر، كما خُرِّجَ السَّابقُ في قولهِ تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ إلى قولهِ تعالى: ﴿بِالْخَيْرَاتِ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ ؛ أي لَيَنْصُرَنَّ اللهُ تعالى مَنْ يَنْصُرُ دِيْنَهُ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ ؛ أي لَقَوِيٌّ على أخذِ الأعداء، عَزِيْزٌ أي مُمتنعٌ بالنعمةِ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ؛ نعتٌ للذين يُنصرون بدِين الله؛ أي همُ الذين إنْ مكَّنَهم الله في الأرضِ ينصرُهم الله في عدوِّهم حتى يُمَكَّنُوا في البلادِ، لَم يعملوا ما عَمِلَهُ الذين مِن قبلِهم، ولكن أقامُوا الصلاةَ المكتوبة، ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ، وأعطوا الزكاةَ المفروضة، وأمَروا بالحقِّ ونَهوا عن الباطلِ. قال مقاتلُ: (هُمْ أصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ)[2]، وقال الحسنُ:(هُمْ هَذِهِ الأُمَّةُ أهْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ). وقولهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ ؛ بَطَلَ كلُّ مُلْكٍ سوى مُلْكِهِ، فتصيرُ الأمور كلها إليه بلا مُنَازعٍ ولا مُدَّعٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ﴾ ؛ في هذه الآية تَسْلِيَةٌ للنبيِّ ﷺ، والمعنى: إنْ يُكَذِّبُوكَ - قومُكَ- فقد كَذبَتِ الأُمَمُ أنبياءهم من قبلِكَ، وقولُهُ: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ ؛ أي كَذبَهُ فرعونُ، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ ؛ أي أمْهَلْتُهُمْ، وأخَّرْتُ عقوبتَهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ ؛ بالعقوبةِ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ ؛ أي فكيفَ كانَ إنْكَاري عليهم حتى بيدُوا أو خُرِّبَتْ قُراهم، فأبدلتُهم بالنعمةِ نقمةً؛ وبالكثرةِ قلَّةً؛ وبالحياة هلاكاً. قال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ: فَأنْكَرْتُ أبْلَغَ الإنْكَار).

---

(١) فاطر / ٣٢ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ص٢٤٩٨: النص (١٣٩٧٧) عن أبي العالية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ ؛ أي كَمْ مِن قريةٍ أهلكناها بالعذاب بكُفرهم. وقُرِئ أهلكناها، والاختيارُ أهْلَكْتُهَا بالتاء لقوله (فَأَمْلَيْتُ)، قولُهُ: ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ ؛ أي ساقطةٌ على سُقُوفِهَا، وذلك أن السَّقْفَ يقعُ قبلَ الحيطان، ثم تقع الحيطان عليه، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ ؛ أي كم بئر عطلها أربابُها وَكم من ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ عطَّلَهُ أهلهُ. والْمَشِيْدُ هو الْمُجَصَّصُ، والشِّيْدُ الْجُصُّ والنُّورَةُ، ويجوزُ أن يكون معنى الْمَشِيْدِ الرفيعُ، يقال: شَادَ البناءَ وأشَادَهُ إذا أطْلاَهُ بالشِّيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ ؛ أي أفَلَمْ يَسِرْ قومُكَ يا مُحَمَّدُ في أرضِ اليَمَنِ والشَّام؛ لينظروا آثارَ الْمُهْلَكِيْنَ، فيعقلوا بقلوبهم ما نَزَلَ بمن كَذِب من قبلهم، ويسمَعُوا بآذانِهم خَبَرَ الأممِ الْمُكَذِّبَةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَتَكُونَ لَهُمْ) نُصِبَ على جواب الْجَحْدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ﴾ ؛ الهاءُ في قوله (فَإنَّهَا) عمادٌ، وهو إضمارٌ على شريطةِ التفسير، والمعنى: فإنَّ الأبصارَ لا تَعْمَى؛ أي يَرَوْنَ بأبصارهم، ﴿ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ قلوبُهم بذهابها عن إدراكِ الحقِّ بما يؤدِّي إليه الدليلُ.

وفي الآية دليلٌ أنَّ العقلَ في القلب بخلاف ما قالَهُ الفلاسفةُ والأطباء: أن مَحَلَّ العقلِ الرأسُ الدماغ؛ لأن العقلَ لو لَم يكن في القلب لَم يُوصَفِ القلبُ بأن يَعْمَى، كما لا تُوصَفُ بذلك اليدُ والرِّجل، وأما وصفُ القلوب بأنَّها في الصُّدور فعلى وجهِ التأكيد، كما في قولِهِ تعالى ﴿يَقُولُونَ بأفْواهِهِمْ﴾[1]، وقولِهِ تعالى ﴿وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ ؛ أي وَيَسْتَعْجِلُونَكَ يا مُحَمَّدُ بالْعَذاب، كما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾[3]،

---

(١) آل عمران / ١٦٧ . (٢) الأنعام / ٣٨ .

(٣) الشعراء / ١٨٧ .

وقالوا ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾[1]، وَلَنْ يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ في إنزال العذاب بهم في الدُّنيا .قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّهم يستعجلونَ بالعذاب، وإنَّ يوماً من أيَّام عذابهم في الآخرةِ ألفُ سنةٍ، فكيفَ يستعجلونه ؟! قال الفرَّاء في هذه الآية: (وَعِيدٌ لَهُمْ بالْعَذاب فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)[2].

وَقِيْلَ: معناهُ: وإنَّ يوماً عندَ الله والفَ سنةٍ في قدرته لواحدٌ، فليس تأخُّرُ العذاب عنهم إلاَّ تفضُّلاً من اللهِ عليهم. قال الزجَّاجُ: (أعْلَمَ اللهُ أنَّهُ لاَ يَفُوتُهُ شَيْءٌ، وَإنَّ يَوْماً عِنْدَهُ وَألْفَ سَنَةٍ سَوَاءٌ، وَلاَ فَرْقَ بَيْنَ إيْقَاعِ مَا يَسْتَعْجِلُونَهُ مِنَ الْعَذاب فِي تَأْخِيْرِهِ فِي الْقُدْرَةِ، إلاَّ أنَّ اللهَ تَفَضَّلَ بالإمْهَال، فَسَوَاءٌ عِنْدَهُ فِي الإمْهَال يَوْمٌ وَألْفُ سَنَةٍ؛ لأنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ مَتَى شَاءَ أخَذهُمْ)، قال الكوفيُّون وابنُ كثير: (مِمَّا يَعُدُّونَ) بالياء، وقرأ الباقونَ بالتاء[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ اي قُل لَهم يا مُحَمَّد: يا أهلَ مكَّة إنَّما أنا لكم رسولٌ مُخَوِّفٌ بالنار لِمن عصَى اللهَ بلُغةٍ يعرفونَها، ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ ؛ لدينهم، ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ حَسَنٌ في الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ ؛ أي والذينَ أسْرَعُوا في تكذيب آياتِنا، وإبْطَال الدين مُبالِغِين للهِ ظَانِّينَ أن يعودَنا ويفوتَنا بقولِهم أنْ لا جنةَ ولا نار ولا بعثَ ولَا نشور، ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ قال قتادةُ:

---

(١) الأنفال / ٣٢ .

(٢) في معاني القرآن: ج ٢ ص٢٢٩.

(٣) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٢ ص١٧٤.

(ظَنُّوا بجَهْلِهِمْ أنَّهُمْ يُعْجِزُونَ اللهَ فَلاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِمْ، وَهَيْهَاتَ)[١]. وهذا كقولهِ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أنْ يَسْبقُونَا﴾[٢]، ومَن قرأ (مُعْجِزِيْنَ) فمعناهُ: أنَّهم كانوا يُعْجِزُونَ مع مَن اتبعَ النبيَّ ﷺ أي ينسبونهم إلى العجز.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس وابن جُبير والضحَّاكُ: (وذلكَ أنَّ الشيطانَ أتى رسولَ الله ﷺ في صُورةِ جبريلَ وهو قائمٌ يصلِّي عند الكعبةِ يقرأ سورةَ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ حتَّى اذا انتهَى إلَى قولهِ تعالى ﴿أفَرَأيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾[٣] ألقَى الشيطانُ على لسانه (تلكَ الغَرَانِيْقُ العُلى منها الشفاعةُ ترتَجى)، فلما سمعَ المشركون أعجبَهم ذلك، فلما انتهى إلى آخرِ السورة سَجَدَ، وسَجَدَ معه المسلمون والمشركونَ إلاّ الوليدَ بن المغيرة، فإنه لَم يقدر على السُّجود لكِبَرِهِ، فقال: ائتوني بالتُّراب، فأتوهُ بالتراب فوضعَهُ على كَفِّهِ، ثم سجد على كفه، فلما نزلَ جبريلُ على النبيِّ ﷺ ذكرَ له ذلكَ، فقال جبريلُ: ما جئتُكَ بهذه ولا أنزلَهُ اللهُ تعالى، فقالَ: أتاني شيءٌ في مثلِ صورتِكَ فألقاهُ علَيَّ)[٤].

وهذا حَدِيْثٌ أنْكَرَ أهْلُ الْعِلْمِ إجْرَاءَهُ على ظاهرِهِ، وقالوا: كيفَ يجوزُ أن يجعلَ اللهَ للشيطانِ على رسولهِ هذا السلطانَ، أوَ يختارُ لرسالته مَن لا يُمَيِّزُ بين وحي الله ووساوسِ الشَّيطان؟! ومِن المعلوم أن مَن نَسَبَ النبيَّ ﷺ به إلى ما يرجعُ إلى تعظيمِ الأصنام فقد كفَرَ، إلاّ أنه يحتملُ أن يكون الشيطانُ ألقَى في تلاوةِ النبيِّ ﷺ ما لَم يَقُلْهُ، وخُيِّلَ إلى مَن سَمع تلاوتَهُ مِن الذين كانوا بالبُعْدِ منهُ أنه جرَى على لسانهِ، وإنَّما هو من لسانِ الشيطان، وكان ذلك فتنةً للتابعين، وكان النبيُّ ﷺ مَعْصُوماً مِن أن يَجْرِيَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩١٥٣). وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٥٠٠.

(٢) العنكبوت / ٤ .

(٣) النجم / ١٩ و٢٠ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٩١٥٨ و١٩١٥٩ و١٩١٦٠).

على لسانهِ ما لَم يُنَزِّلْهُ اللهُ. وقد يُذْكَرُ التَّمَنِّي ويرادُ به القراءةُ كما قال الشاعر[١]:

تَمَنَّـــى كِتَـــابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِـــهِ وَآخِـــرَهُ لاَقِـــي حِمَـــامَ الْمَقَـــادِرِ

وقال جماعةٌ من المفسِّرين: كان رسولُ الله ﷺ حَريصاً على إيْمان قومهِ، وتَمنَّى في نفسهِ مِن الله أن يأتيه ما يقاربُ بينه وبين قومهِ، فجلسَ ذات مرَّة بهم في مجلسٍ كثيرٌ أهلهُ، وأحبَّ يومئذ أن يأتيه من اللهِ شيءٌ فقرأ عليهم سُورة النَّجْمِ، فلما بَلَغَ ﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ ألقَى الشيطانُ على لسانهِ (تلك الغرانيقُ العلى وأن شفاعتهم ترتجى) فلما سَمعت قريشُ ذلك فرحُوا وقالوا: قد ذكرَ مُحَمَّدٌ آلِهَتنا بأحسنِ الذكر، ومضَى النبيُّ ﷺ في قراءته، فلما خَتَمَ السورةَ سَجَدَ في آخرِها وسجدَ معه المسلمون والمشركون إلاّ الوليدَ بن المغيرةِ وسعيدَ بن العاص فإنَّهما أخذا حفنةً من البطحاءِ ورفَعَاها إلى جبهَتِهما وسجدا عليها؛ لأنَّهما كانا شَيخين كبيرين لَم يستطيعا أن يسجُدَا.

وتفرَّقت قريشُ وقد سرَّهم ما سْمَعُوا[٢] وقالوا: قد عرفنا أن آلِهَتنا تشفعُ لنا، فنَزَلَ جبريلُ على النبيِّ ﷺ فقال لهُ: يا مُحَمَّدُ لقد تَلَوْتَ قومَكَ ما لَم آتِكَ بهِ عن الله عَزَّ وَجَلَّ، فاشتدَّ ذلك على النبيِّ ﷺ وحَزِنَ حُزناً شديداً وخافَ من اللهِ خوفاً كثيراً، فأنزلَ الله هذه الآيَةَ تُطيِّبُ نفسَ مُحَمَّدٍ ﷺ وتخبرَهُ[٣] بأن الأنبياءَ قبله كانوا مثله، ولم يُبعث نبياً إلاّ تَمنَّى أن يؤمنَ قومهُ، ولَم يَتَمَنَّ ذلك نبيٌّ إلاّ ألقى الشيطانُ عليه ما يُرْضِي قومَهُ. فلما نزلت هذه الآيةُ قالت قريشُ: نَدِمَ مُحَمَّدٌ على ما ذكرَهُ من منْزِلة آلِهتنا عندَ الله فغيَّر ذلك وجاءَ بغيره[٤].

(١) البيت لحسان بن ثابت ﷺ يرثي عثمان بن عفان ﷺ وأول ليلة أو أول ليلِهِ، أي قرأ القرآن كله أول الليل. وسيأتي بلفظ آخر قريباً.

(٢) في المخطوط: (فأسمعوا) وهو غير مناسب.

(٣) في المخطوط: (ويخبره).

(٤) روايات من حديث مُحمَّد بن كعب القرظي، أخرجه الطبري في جامع البيان: الرقم (١٩١٥٥-١٩١٥٦).

وقال عطاءُ عن ابنِ عبَّاس: (إنَّ شيطاناً يقالُ له الأبيضَ أتى النبيَّ ﷺ فألقى في قُرْآنِهِ: إنَّها الغرانيقُ العُلى وأن شفاعتها لترجى، ولَم يقُلْها النبيُّ ﷺ، بل سَمعه القومُ من الشيطان، وكلُّ ذلك فتنةٌ من الله تعالى لعبادِهِ المسلمين والمشركين، فالمشركونَ ازدادُوا كُفْراً بذلك، والمسلمونَ اشتدَّ عليهم الأمرُ).

ومعنى الآيةِ: وما أرسلنا من قبلِكَ من رسول وهو الذي يأتيه جبريلُ بالوحي عَياناً وشِفَاهاً، ولا نبيٍّ وهو الذي تكونُ نبوَّتُهُ إلْهَاماً أو مَناماً، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ مرسلٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلاَّ إذا تَمَنَّى) أي أحبَّ شيئاً واشتهاهُ وحدَّثَ نفسه من غيرِ أن يؤمرَ به (أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَتِهِ) أي في قراءتهِ وتِلاوته، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلا أَمَانِيَّ﴾[1] أي قراءةً تُقرأ عليهم. قال الشاعرُ في عثمان رضي الله عنه:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهَا لاَقِى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

وقال الحسنُ: (أَرَادَ بالْغَرَانِيْق الْمَلاَئِكَةَ) يعني أن شفاعتَهم تُرتَجى منهم لا مِن الأصنام. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ) أي يُبْطِلُهُ ويزيله ثم يُحْكِمُ اللهُ آياتهِ فيُثْبتُها، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ؛ بمصالح عبادهِ، ﴿ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ في تدبيرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ؛ أي ليجعلَ ما يُلقي الشيطانُ في قراءتهِ فتنةً للذين في قلوبهم شَكٌّ ونفاقٌ؛ لأنَّهم افْتُتِنُوا بما سَمعوا فازدادوا عُتُوّاً، وظَنُّوا أن مُحَمَّداً ﷺ يقولُ الشيءَ مِن عند نفسهِ فيبطلهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ يعني المشركينَ كذلك ازدادُوا فتنةً وضلالة وتكذيباً، سَمَّاهم قاسيةً قلوبُهم؛ لأنَّها لا تلينُ لتوحيدِ الله، وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة، ﴿ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي مشاقَّةٍ بعيدةٍ عن الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ ؛ معناه: ولِيَعْلَمَ المؤمنون رُجُوعَكَ إلى الصواب، إنَّ ذلك حقٌّ من ربكَ فتخضعَ وتَذِلَّ لهُ قلوبُهم. وَقِيْلَ: معناهُ: وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ التوحيدَ والقُرْآنَ.

---

(١) البقرة / ٧٨

قال السديُّ: (التَّصْدِيْقُ أنَّهُ الْحَقُّ) أي إنَّ نَسْخَ ذلك وإبطالَهُ حقٌّ من اللهِ، ﴿ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾؛ وتصديق النَّسْخِ، ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾؛ أي تَرِقَّ قلوبُهم للقُرْآن فينقادُوا لأحكامه، بخلافِ المشركين الذين قِيْلَ: لهم (وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾؛ فيه بيانُ أن هذا الإيْمَانَ والإخْبَاتَ إنَّما هو بلُطْفِ الله وهدايته إيساهم، والمعنى: وإنَّ اللهَ لَهَادِيْهِمْ إلى دِينٍ يرضاهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾؛ أي في شَكٍّ من القُرْآن، ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾؛ يعني سَاعَةَ موتِهم، ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ﴾؛ يعني يوم بَدْرٍ في قولِ ابن عباس وقتادة ومجاهد[1]، سَمَّاهُ اللهُ العقيمَ الذي لا يأتِي بخير. وَقِيْلَ: يومُ القيامةِ سَمَّاهُ الله عَقِيْماً لأنه لا مِثَالَ له في عِظَمِ أمرِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾؛ أي الْمُلْكُ يومَ القيامةِ للهِ تعالى من غير مُنازعٍ ولا مُدَّعٍ، لا يظهرُ الأمر فيه إلاَّ للهِ تعالى، ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾؛ فيقضي فيه بين المؤمنينَ والكافرين بإدخال المؤمنين الجنَّةَ، وإدخال الكافرين النارَ.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾؛ معناهُ: والذين هَاجَرُوا وأخْرِجُوا من ديارهم وأوطانِهم في طاعةِ الله من مكَّة إلى المدينةِ، ثُم قُتِلُوا أو ماتوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رزقاً حَسَناً وهو نعيمُ الجنة، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ﴾؛ يعني به المنازلَ التي أعدَّها اللهُ لَهم في الجنَّةِ، لَهم فيها ما تشتهي الأنفسُ وتَلَذُّ الأعينُ، خالدين فيها لا يَبْغُونَ

---

(١) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص٢٥٣.

عنها حِوَلاً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾ ؛ أي عَلِيْمٌ بمصالح عباده ونيَّاتِهم، ﴿ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ لا يُعَجِّلُ بعقوبةِ أعدائه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ﴾ ؛ الآيةُ؛ أي ذلك الأمرُ الذي قَصَصْنَا عليكَ، ثُم قال (وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ)، ﴿ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ نزلت هذه الآيةُ في قومٍ من المشركين لَقُوا جماعةً من المسلمين فقَاتَلُوهُمْ في الشَّهرِ الحرام، فنَهَاهُمُ المسلمونَ عن ذلك فَأَبَوا، فلما أَبَوْا قاتَلَهم المسلمون فنُصِرُوا؛ أي ومَن عاقبَ بالقتال بمثل ما عُوقِبَ بهِ؛ أي بالقتال في الشهر الحرام ثُم بُغِيَ على الدافعِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ علَى مَن بَغَى عليه، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ ﴾ ؛ أي متجاوزٌ عن مَن فاتَ ﴿ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ لِمن ماتَ على التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ﴾ ؛ أي ذلك النصرُ بأنه القادرُ على ما يشاء، فمِن قدرتهِ أنه يُولِجُ الليلَ في النهار، ﴿ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي سَمِيْعٌ لِمَنْ دعاهُ بَصِيْرٌ بعبادهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي ذلك الذي نَقَلْتُهُ من نُصْرَةِ المؤمنين بأنَّ اللهَ ذو الحقِّ في فعلهِ وقدرتهِ، ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ ﴾ ؛ المشركونَ؛ ﴿ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ ؛ ليس فيه نفعٌ ولا ضررٌ، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ﴾ ؛ على كلِّ شيء بقدرتهِ، ﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ الذي يَصْغُرُ كلُّ شيء سِواهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ ؛ أي ألَم تَعْلَمْ وتشاهد أنَّ اللهَ أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً؛ يعني المطرَ، فتُصْبِحُ الأرضُ ذاتَ خُضرةٍ بالنبات، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ ؛ بأرزاق عباده واستخراجِ النبات من الأرض، ﴿ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ بما في قلوب العباد وبما يصلحُ لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ عَبْداً ومَلِكاً، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ ؛ عن عبادهِ، ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ إلَى أوليائهِ وأهلِ طاعته، وَقِيْلَ: الْغَنِيُّ عن إيْمانِ الخلق وطاعتهم، الْمَحْمُودُ في أفعالهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي ألَم تَعْلَمْ أنَّ الله ذلَّلَ لكم مَا فِي الأَرْضِ؛ يعني البهائمَ التي تُرْكَبُ، وَ سَخَّرَ لكم ﴿ وَٱلْفُلْكَ ﴾ ؛ أي السُّفُنَ؛ ﴿ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ ؛ أي حَبَسَ عنكم السَّماءَ حتى لا تقعَ عليكم فتهلَكُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلاَّ بإذْنِهِ) أي إلاّ بإرادته، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي مُتَفَضِّلٌ على عبادهِ، مُنْعِمٌ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ ؛ أي أحيَاكُم في أرحامِ أمَّهَاتِكم، ولَم تكونوا شيئاً. وَقِيْلَ: معناهُ: أحياكُم بعدَ أن كنتم نطفةً ميتة، ثُم يُميتُكم بعدَ إنقضاء آجالِكم، ثُم يحييكم بعدَ الموتِ عند البعث للحساب، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ يعني الْمُشْركَ الجحودَ لنِعَمِ الله حتى تَركَ توحيدَهُ بعد ظهور الآيات الداعية إلى الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ ؛ أي لكلِّ أهلِ دِين جعلنا شَريعةً هم عاملون بها، وَقِيْلَ: مَوْضِعاً تعتادُونه لعبادةِ الله، ومَكَاناً تعيشونه وتعملون الخيرَ فيه. وَقِيْلَ: معناهُ: لكلِّ أمَّةٍ جعلنا عِبَراً. وقال قتادةُ: (مَوْضِعُ قُرْبَان يَذْبَحُونَ فِيْهِ)، وَقِيْلَ: الْمَنْسَكُ جميعُ العباداتِ التي أمرَ اللهُ بها، كما قالَ ﷺ يومَ الأضحى: [إنَّ أوَّلَ نُسُكٍ فِي يَوْمِنَا هَذا الصَّلاَةُ ثُمَّ الذبْحُ][١]. وَقِيْلَ: أراد بالمنسكِ في هذه الآية الْمَذْبَحَ الذي يتقرَّبون فيه بذبائحِهم إلى اللهِ تعالى، كما جعلَ مكاناً منحراً للإنسان؛ لأن النُّسُكَ إذا أُطْلِقَ أريد به الذبحُ من جهة القُرْبَةِ، كما قالَ ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أوْ صَدَقَةٍ أوْ نُسُكٍ﴾[٢] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ ؛ معناه: النَّهْيُ عن المنازعةِ بعد ظهور ما يوجبُ نَسْخَ الشرائع المتقدِّمة، كما يقالُ: لا يُخَاصِمُكَ فلانٌ في هذا الأمر. وَقِيْلَ: معناهُ: لا ينازعنَّكَ في أمرِ الذبح، وذلك أن كفارَ قريش خَاصَمُوا رسولَ اللهِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ج٤ ص٢٨٢. والبيهقي في السنن الكبرى:ج ٥ ص٩٨.

(٢) البقرة / ١٩٦ .

ﷺ وأصحابَهُ في أمرِ الذبيحة؛ وقالوا: ما لكم تأكلونَ ما قتلتُم بأيديكم، ولا تـأكلونَ ما قَتَلَهُ اللهُ ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي ادْعُ إلى دينِ ربكَ وطاعته إنَّكَ على هُدًى مسـتقيمٍ، وَقِيْـلَ: علـى دَلاَلَـةٍ وديـنٍ مسـتقيم. ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ ﴾ ؛ على سبيلِ المراءِ والتَّعَنُّـتِ كمـا يفعلـهُ السـفهاء، ﴿ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي إدفَعْهُم بهذا القول، ولا تُجَـادِلْ إلاّ لِتَبْيِيْـنِ الحـقِّ، والمعنى: وإنْ خَاصَمُوكَ في أمرِ الذبيحةِ فَقُلِ اللهُ أعْلَمُ بما تَعْمَلُونَ مِـن التكذيـب فـهو يُجازيكم به، وهذا قَبْـلَ الأمـرِ بالقتـال. وقولـهُ تعـالى: ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي يَقْضِي بينَكم يومَ القيامة، ﴿ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ من الدِّين والذبيحةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي قـد عَلِمْتَ وأيقنتَ ذلك، وهذا استفهامٌ يراد به التقرير، وَقِيْلَ: معناهُ: ألَمْ تعلم يا مُحَمَّـدُ أنَّ الله يعلمُ أعمالَ أهلِ السَّماء والأرضِ وأسـرارَهم ؟ ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ﴾ ؛ يعني ما يَجري في السَّماء والأرض، كلُّ ذلك مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي أنَّ عِلْمَ اللهِ بجميعِ ذلكَ عليه يسيرٌ سهلٌ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ؛ معناهُ: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِه الأصنامَ ما لَم يُنَزِّلْ بـه كِتَابـاً ولا حُجَّـةً، ومـا ليـس لَـهم بـه علـمٌ أنَّـها آلِهـةٌ، ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي ومَـا للمشركين مِن مانعٍ يَمْنَعُ عذاباً عنهم، نزلت هذه الآيةُ في أهلِ مكَّة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ﴾ ؛ أي وإذا يُقْـرَأ عليـهم القُـرْآنُ تَعْـرِفُ في وجوهِـهُمُ الإنكـارَ للقُرْآنِ مـن الكراهـةِ والعُبُـوس، ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ ؛ أي يكادون يَسْطُونَ بالمؤمنين ليَردُّوهم. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: يكـادون يَقعُـونَ بمُحَمَّدٍ ﷺ مِن شدَّة الغيظِ. وَقِيْلَ: يكادون يَسْطُونَ إلى المؤمنينَ أيدِيَهم بالسُّوء. يقـالُ: سَطَا فلانٌ على فلانٍ إذا تناولَهُ بالسَّطْوِ والعنف، وأخذهُ بالشدَّة والإخافةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ أفأُخبرُكُمْ بشَرٌّ عليكم من غَيْظِكم على التالِي لآياتِ الله وهو ﴿ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ يصيرونَ إليها، ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: إنَّ الكفارَ قالوا: واللهِ ما رأينا قَوْماً أقلَّ حَظّاً منكم يا أصحابَ مُحَمَّدٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: قُلْ يا مُحَمَّدُ: أفأخبرُكم بشَرٌّ مِنْ ذلِكُمْ؛ أي بشَرٌّ مما قُلْتُمْ: النارُ مَن دخلَها فحالهُ شرٌّ مِن حالنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾ ؛ معناهُ: يا أهلَ مكَّةَ بُيِّنَ مَثَلُ آلِـهَتِكُمْ فاسْتَمِعُوا لَـهُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ من الأصنامِ، ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ﴾ ؛ أي لن يقدِرُوا أن يخلقوا، ﴿ ذُبَابًا ﴾ ؛ مع صُغْرِهِ وقِلَّتِهِ، ﴿ وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾ ؛ العابدُ والمعبودُ على ذلكَ، وكان لَهم ثلاثمائة وستُّون صَنَماً حولَ الكعبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا يَطْلُونَ أصْنَامَهُمْ بالزَّعْفَرَان وَالْعَسَلِ، فَيَأْتِي الذُّبَابُ فَيَحْمِلُهُ فَلاَ يَقْدِرُونَ أنْ يَسْتَرِدُّوهُ مِنَ الذُّباب)[1]. وقال السديُّ: (كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلأَصْنَام طَعَاماً، فَيَقَعُ عَلَيْهِ الذُّبَابُ فَيَأْكُلُ مِنْهُ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ إنْقَاذهُ مِنْهُ)[2] فـ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ ﴾ ؛ من الأصنامِ، ﴿ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ هو الذباب. وقال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ ضَعُفَ الْعَابدُ وَالْمَعْبُودُ)[3]. وَقِيْلَ: معناهُ: ضَعُفَ الذُّبابُ الطالبُ لِما يأخذهُ من الصَّنمِ، وضَعُفَ المطلوبُ يعني الصَّنَمَ. وَقِيْلَ: ضَعُفَ الطالبُ مِن هذا الصنمِ المتقرِّب إليه، والصنمِ المطلوب منه ذلك.

وَقِيْلَ: إن المشركينَ كانوا خرَجُوا في عيدٍ لَهم بأصنامِهم، وقد زيَّنُوها باليوَاقِيتِ واللآلِئِ وأنواعِ الجواهر، وطيَّبُوها بأنواعِ الطِّيْبِ وغَشَّوها بالْحُلِيِّ والْحُلَلِ، فجاء ذبابٌ فأخذ شَطْبَةً من تلك الزِّينة - أي قِطْعَةً - فطارَ بها في الهواءِ، فأراهم اللهُ تعالى العبرةَ في ضَعْفِهم وضعفِ معبودهم، فلا أحدٌ مما لا يُمكنه الاستنقاذُ من الضعيفِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٥٠٥.
(٢) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٧٥.
(٣) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٧٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ ؛ أي ما عَرَفُوهُ حقَّ معرفتهِ، ولا عظَّمُوهُ حقَّ تعظيمه حيث عَدَلُوا به مَن لا يقدرُ أن يَخْلُقَ ذُباباً، أو يستنقذ مِن ذبابٍ ما ذهبَ به منه، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي قَوِيٌّ على خَلْقِهِ، عَزِيْزٌ في مُلكه، لا يقدرُ أحدٌ على مُغالبَتِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ ؛ معناهُ: اللهُ يختارُ من الملائكة رُسُلاً يعني جِبريل وميكائيلَ وإسرافيل ومَلَكَ الموتِ، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ يعني من النبيِّين. أخبرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنَّ الاختيارَ إليه، ويختارُ من يشاءُ ممن خَلَقَهُ، فيجعلُهم رُسُلَهُ وأنبياءَهُ يبعثُهم إلى خَلْقِهِ، فأطيعوهم واحذرُوا معصيتَهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ ؛ بمقالَتِكم، ﴿ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ بأعمالكم وضمائرِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ؛ أي يَعْلَمُ ما بين أيدِي الملائكةِ ورُسُلِهِ قبْلَ أن يخلقَهم، (وَمَا خَلْفَهُمْ) أي ما يكون بعد فنائهم ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ عواقب الأمور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ ﴾ ؛ أي صَلُّوا، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾ ؛ أي بجميعِ العبادات، ﴿ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ ﴾ ؛ من أنواعِ البرِّ مثلِ صِلَةِ الرَّحم، وبرِّ الوالدين، ومكارمِ الأخلاق، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ روي أنَّهم كانوا في أوَّلِ الإسلام يسجدون بغيرِ رُكوع، حتى نزلت هذه الآيةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ ؛ أي جَاهِدُوا المشركين بحسب الطَّاقة واستفراغِها، ولا تخافُوا في اللهِ لومةَ لائمٍ، وقال بعضُ المفسِّرين: معناهُ: اعبدوا اللهَ حقَّ عبادتِهِ وأطيعوهُ حقَّ طاعته. قال السديُّ: (هُوَ أنْ يُطَاعَ فَلاَ يُعْصَى)[1] وقال مقاتلُ: (نَسَخَتْهَا آيَةُ التَّغَابُنِ ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[2])، وَقِيْلَ: هو مجاهدةُ النَّفسِ والهوَى، وذلك حقُّ الجهاد وهو الجهادُ الأكبر.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٥٠٦.

(٢) الآية / ١٦.

وقال بعضُهم: هو حقُّ الجهاد[1]؛ لِمَا رُوي عن النبيِّ ﷺ قال حين رجعَ من بعضِ غزواته: [رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الأصْغَرِ إلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ][2]. وقال بعضُهم: في حقِّ الجهاد أنه [كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ][3]. وقال الحسنُ: (هُوَ أنْ تُؤَدِّيَ جَمِيعَ مَا أمَرَكَ اللهُ بِهِ، وَتَجْتَنِبَ جَمِيعَ مَا نَهَاكَ اللهُ عَنْهُ، وَتَتْرُكَ رَغْبَةَ الدُّنْيَا). وقال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ: جَاهِدُوا بالسَّيْفِ مَنْ كَفَرَ باللهِ، وَإنْ كَانُوا الآبَاءَ وَالأَبْنَاءَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ ؛ أي اختاركم لدِينه وجهادِ أعدائه، والاجْتِبَاءُ: هو اختيار الشَّيء بما فِيهِ مِنَ الصَّلاَحِ، يقال: الحقُّ يُجْتَبَى، والباطلُ يُتَّقَى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ؛ أي ما جعلَ عليكم في شرائعِ دِينكم من ضِيْقٍ، وذلك أنه ما يتخلَّص منه بالتوبةِ، وما يتخلَّص منه بردِّ المظلمةِ، ويتخلصُ منه بالقصاصِ، وليس في دِينِ الإسلام ما لا سبيلَ إلى الخلاصِ من العقاب به، بل مَن أذنبَ ذنباً جعلَ اللهُ له مَخرجاً منه بالتوبةِ والكفَّارات، ولَم يبقَ في ضِيْقِ ذلك الذنب. وقال مجاهدُ: (يَعْنِي الرُّخَصَ عِنْدَ الضَّرُورَاتِ كَالْقَصْرِ؛ وَالتَّيَمُّمِ؛ وَأكْلِ الْمَيْتَةِ؛ وَالإفْطَارِ عِنْدَ الْمَرَضِ وَالسَّفَرِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ؛ أي إلْزَمُوا واتَّبعُوا مِلَّتَهُ، وَقِيْلَ: معناهُ: وَسَّعَ عليكم في الدِّين كَمِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ، إلاَّ أنه لَمَّا حَذفَ حرفَ الجرِّ نصبَ الْمِلَّةَ، وإنَّما أمَرَ باتِّباع ملَّة إبراهيمَ؛ لأنَّها داخلةٌ في مِلَّةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وإنَّما قال: (أبِيْكُمْ إبْرَاهِيْمَ) وإن لَم يكن جميعُهم من نَسَبهِ؛ لأن حرمةَ إبراهيمَ عليه السلام على المسلمين كحرمةِ الوالدِ على الولد، وحَقَّهُ كحقِّ الوالدِ، كما قال تعالى: ﴿وَأزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[4].

---

(١) في جامع البيان: تفسير الآية: مج ١٠ ج١٧ ص٢٦٨؛ قال الطبري: (وحق الجهاد: هو استفراغ الطاقة فيه).

(٢) ذكره البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص٨٧٦.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الملاحم: باب الأمر والنهي: الحديث (٤٣٤٤). والترمذي في الجامع: أبواب الفتن: الحديث (٢١٧٤).

(٤) الأحزاب / ٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ نزول القُرْآن، ﴿ وَفِي هَٰذَا ﴾ ؛ القُرْآن، كما رُوي أنَّ الله تعالى أوحَى إلى إبراهيمَ: يُبْعَثُ بعدَكَ نبيٌّ فيكون قومُهُ مسلمينَ. وَقِيْلَ: معناهُ: إن إبراهيمَ سَمَّاكم المسلمينَ، كما قال في دعائهِ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي لِيَكونَ مُحَمَّدٌ ﷺ شَهيداً عليكم يومَ القيامة بطاعةِ مَن أطاعَ في تبليغه، وعِصيَانِ مَن عَصَى، ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ أنَّ الرُّسُلَ بلَّغتهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ؛ أي أدُّوهُما كما وَجَبَتَا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أي واعتَصِمُوا بدينِ الله وتَمسَّكوا به. وَقِيْلَ: معناهُ: اتَّقُوا باللهِ وتوكَّلوا عليهِ، ﴿ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ ؛ أي هو ربُّكم وحافِظُكم، ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي فَنِعْمَ الحافظُ لكم، ونِعْمَ الناصرُ.

وعن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَجِّ؛ أُعْطِيَ مِنْ أجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ اعْتَمَرَهَا بعَدَدِ مَنْ حَجَّ وَاعْتَمَرَ فِيْمَا مَضَى وَفِيْمَا يَبْقَى][(٢)].

آخر تفسير سورة (**الحج**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) البقرة / ١٢٨ .

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص١٦٩.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ مكّيةٌ، وَهِيَ أرْبَعَةُ آلاَفٍ وثَمَانُمِائَةٍ وَحَرْفَانِ، وَالْفٌ وثمانُمِائةٍ وَأرْبَعُونَ كَلِمَةً، ومِائَةٌ وثمانِي عَشْرَةَ آيَةً.

وعَنْ رَسُول اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْمُؤْمِنِيْنَ بَشَّرَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ بالرَّوحِ وَالرَّيْحَانِ، وَمَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ عِنْدَ نُزُولِ مَلَكِ الْمَوْتِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾ ؛ أي فازَ ونَجا وسَعِدَ المصدِّقون باللهِ ورسولِهِ، وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ، فِيْهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأتْ؛ وَلاَ أذُنٌ سَمِعَتْ؛ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ - ثَلاَثاً - ثُمَّ قَالَتْ: أنَا حَرَامٌ عَلَى كُلِّ بَخِيْلٍ وَمُرَاءٍ][2]. قرأ طلحةُ بن مُصَرِّف: (قَدْ أُفْلِحَ الْمُؤْمِنُونَ) على الْمَجْهُولِ؛ أي أبْقُوا[3] في الثواب، وحرفُ (قَدْ) في اللُّغة لتزيينِ الكلام وتحسينه، وَقِيْلَ: لتقريب الحالة الماضية الى الحالةِ الآتيةِ، فدلَّ على أن فلاحَهم قد حصلَ وهم عليه في الحالِ، وهو أبلغُ في الصِّفة من تجريدِ ذكرِ الفعل، والفَلاَحُ هو البقاءُ والنجاح.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٢٠١ وإسناده واه.

(٢) رواه الحاكم مختصراً في مستدركه: ج ٣: كتاب التفسير: الحديث (٣٥٣٢). وأخرجه الطبري في جامع البيان بلفظ آخر عن كعب. وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٨٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن عدي والحاكم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس).

(٣) في المخطوط: (اتقوا) وهو غير مناسب، وجرى التصحيح كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١٠٣.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾؛ أي مُتواضِعُـون خائفون، ويقالُ: سَاكِنُونَ بالقلب والجوارح فلا يَلْتَفِتُونَ يميناً ولا شِـمالاً، كمـا رُوي عن النبيِّ ﷺ: أنَّهُ رَأى رَجُلاً يَعبَثُ بلِحْيَتِهِ فِي الصَّلاَةِ، فَقَالَ ﷺ: [وَلَـوْ خَشَـعَ قَلْبُـهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ][(١)]، وعنه ﷺ: [أنَّهُ كَانَ إذا وَقَفَ فِي الصَّـلاَةِ رَفَـعَ بَصَـرَهُ نَحْـوَ السَّمَاءِ، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ جعل نَظَرَهُ إلَى مَوْضِعِ سُجُودِهِ][(٢)]. وحقيقة الخشـوع: هو جَمْعُ الْهِمَّةِ لتدبُّر الأفعال والأذكار.

وعن الحسن أنه قال[(٣)]: (إنَّ الْخَاشِعِيْنَ هُمُ الَّذِيْنَ لاَ يَرْفَعُونَ أيْدِيَهُمْ فِي الصَّلاَةِ إلاَّ فِي التَّكْبِيْرَةِ الأُوْلَى) وقال ابن عبَّاس: (مَعْنَـى قَوْلِـهِ تَعَـالَى: (خَاشِـعُونَ) أيْ أذِلاَّءُ)، وقال مجاهدُ: (الْخُشُوعُ هُوَ غَضُّ الْبَصَرِ وَخَفْضُ الْجَنَاحِ). وكان الرجلُ مـن العلمـاءِ إذا قامَ إلى الصلاةِ يخافُ الرحمنَ أن يُسْنِدَ بصرَهُ إلى شيءٍ، وأن يُحَدِّثَ نفسَهُ بشيءٍ من الدُّنيا. وقال عمرُو بن دينـار: (لَيْـسَ الْخُشُـوعُ الرُّكُـوعُ وَالسُّجُودُ، وَلَكِنَّـهُ السُّكُونُ وَحُسْنُ الْهَيْئَةِ فِي الصَّلاَةِ).

وقال عطاءُ: (هُوَ أنْ لاَ تَعْبَثَ بشَيْءٍ مِنْ جَسَدِكَ فِـي الصَّـلاَةِ)، وعـن أبـي ذرٍّ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: [إذا قَامَ أحَدُكُـمْ إلَـى الصَّـلاَةِ فَـإنَّ الرَّحْمَـةَ تُوَاجِهُـهُ، فَـلاَ يُحَرِّكَنَّ الْحَصَى][(٤)]. وَقِيْلَ: نظرَ الْحَسَنُ إلى رجلٍ يعبثُ ويقول: اللـهم زوِّجـني مِـن

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٨٥؛ قال السيوطي: (أخرجه الحكيم الـترمذي عـن أبـي هريـرة). وفي تخريج الإحياء: ج ١ ص٣٣٩؛ قال العراقي: (رواه الحكيم الترمذي في النوادر من حديـث أبـي هريرة بسند ضعيف، والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب. رواه ابن أبـي شـيبة في المصنـف، وفيه رجل لم يسم).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك: ج ٣: كتاب التفسير: الحديث (٣٥٣٥). وأخرجه الطـبري في جـامع البيان: ج ١٠ ص٤: النص (١٩٢٣١).

(٣) في الأصل المخطوط: (كان) ومقتضى السياق: (قال).

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص١٥٠. والترمذي في السنن: كتاب الصلاة: باب ما جـاء في كراهية مسح الحصى في الصلاة: الحديث (٣٧٩). والنسائي في السنن: كتاب صفة الصلاة: باب النهي عن مسح الحصى: الحديث (١١١٤). وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: بـاب في مسـح الحصى في الصلاة: الحديث (٩٤٥).

الْحُور العِيْنِ، فقال لهُ الحسنُ: (بئْسَ الْخَاطِبُ أنْـتَ، تَخْطُـبُ وَأنْـتَ تَعْبَـثُ). وقـال قتادةُ: (الْخُشُوعُ هُوَ وَضْعُ الْيَمِيْنِ عَلَى الشِّمَالِ فِي الصَّلاَةِ). وقال بعضُهم: (هُوَ جَمْعُ الْهِمَّةِ لَهَا وَالإعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾؛ قـال الحسـنُ: (مَعْنَاهُ: عَنِ الْمَعَاصِي مُعْرِضُونَ)، وقال الزجَّاج: (اللَّغْوُ هُوَ كُلُّ بَـاطِلٍ وَلَـهْوٍ وَلَعِـبٍ وَهَزْلٍ). وقيل: اللَّغْوُ الذي يُعرضون عنه: هو كلُّ ما لا فائدةَ فيه، ومنهُ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَإِذاَ مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾[1] أي شَغَلَهُمُ الْجِدُّ فيما أمرَهم اللهُ به عن كـلِّ بـاطلٍ ولَهوٍ ولعب، وعن كلِّ ما لا فائدةَ فيهِ من قولٍ وفعل. وقال مقاتلُ: اللَّغوُ (هُوَ الشَّـتْمُ وَالأَذَى)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي مؤدُّون، فعبَّرَ عن التأديةِ بالفعلِ لأنه فعلٌ. قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي بِهِ الصَّدَقَةَ الْوَاجِبَـةَ)، وَقِيْـلَ: معنـاهُ: والذينَ هُم للعملِ الصالح فَاعِلُونَ، ويدخلُ في هذا كلُّ فعلٍ يُذْكَرُ به الإنسانُ ويُحمَدُ عليهِ، كما يقالُ: ما أعطَى اللهُ أحداً نعمةً إلاّ أوجبَ عليه فيها زكاةً، فزكاةُ العلمِ نشرهُ وتعليمهُ، وزكاةُ الْجَاهِ إعانةُ الملهوفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي يحفظونَها عن الحرامِ، ويغضُّون البصرَ عما لا يحلُّ لَهم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي يُلامـون في إطـلاق مـا حُــرِّمَ عليهم إلاّ على أزواجِهم وإمَائِهم فإنَّهم لا يُلامون فيـه. قـال مجـاهدُ: (يُفْـرَضُ عَلَـى الرَّجُلِ حِفْظُ فَرْجِهِ إلاَّ مِنَ امْرَأتِهِ وَأمَتِهِ، فَإنَّهُ لاَ يُلاَمُ عَلَى ذلِكَ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي مَن طَلَبَ للوَطْءِ طريقاً سِوَى ما أحلَّ اللهُ من النساءِ الأربـع أو مـا مَلَكـت أيْمانُـهم فأولئكَ همُ الْمُجَاوزُونَ من الحلالِ إلى الحرام، فمَن زنَى فهو عَادٍ.

---

(١) الفرقان / ٧٢ .

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٣٩٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي الذين هُم لِمَا ائْتُمِنُوا عليه فيما بينَهم وبين الله وبينَ الناس حَافِظُونَ حتى يؤدُّوه على وجههِ. والرَّعْيُ: هو القيامُ على إصلاحِ ما يتولاَّهُ، كما قال ﷺ: [كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ][(١)]، وقال اللهُ تعالى ﴿إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلَى أهْلِهَا﴾[(٢)]. وقرأ ابنُ كثير: (لأَمَانَتِهِمْ) بالتَّوحيدِ لأنه مصدرٌ واسمُ جنسٍ فيقعُ على الكثير[(٣)]، والأمانةُ قد تكون بين العبيدِ، كالودائعِ وأشباهِها، وتكون بين الله وعبيدهِ كالصِّيام والاغتسال من الجنابة والصَّلاة، فيجبُ على المؤمنينَ الوفاءُ بجميع حقوق الأمانات. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) يشتملُ على طاعةِ الله تعالى التي يجبُ الوفاء بها، وعلى جميعِ العقود والأيْمَانِ والنُّذور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي يُوَاظِبُونَ على الصَّلواتِ، ويجتهدون في أوقاتِها المداومون فيها بفرائضِها وسُنَنِها وآدابها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفات التي ذكَرَها اللهُ من أوَّل هذه السُّورة إلى هَهُنا هُمُ الْوَارِثُونَ الذين يَرِثُونَ يومَ القيامةِ منازلَ أهلِ النَّار من الْجَنَّةِ التي كانت لَهم لو أطاعُوا اللهَ ورسولَهُ. قال ﷺ: [مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ وَلَهُ مَنْزِلاَنِ، مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّار، فَإنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ][(٤)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ الفِرْدَوْسُ في اللُّغة: هو الْبُسْتَانُ الْجَامِعُ لِمَحَاسِنِ اجْنَاسِ الْكُرُومِ وَغَيْرِهَا. وقال عكرمةُ: (الْفِرْدَوْسُ هُوَ الْجَنَّةُ بلُغَةِ الْحَبَشَةِ).

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط: ج ٧: الحديث (٦٨٧٦. والبخاري في الصحيح: كتاب النكاح: باب (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً): الحديث (٥١٨٨).

(٢) النساء / ٥٨ .

(٣) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٧٧. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٧٨.

(٤) رواه ابن ماجة في السنن: كتاب الزهد: باب صفة الجنة: الحديث (٤٣٤١) بإسناد صحيح.

وفي الحديثِ: أنَّ حَارِثَةَ بْنَ سُرَاقَةَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: يَا رَسُولَ اللهِ إنْ كَانَ ابْنِي مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ لَمْ أبْكِ عَلَيْهِ، وَإنْ كَانَ مِنْ أهْلِ النَّار بَالَغْتُ فِي الْبُكَاءِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: [يَا أمَّ حَارِثَةَ! إنَّ ابْنَكِ قَدْ أصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ][1].

وعن رسول اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: [لَقَدْ أنْزِلَتْ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ] ثُمَّ قرأ (قَدْ أفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) إلى آخر الآيات العشر[2]. وقال مجاهدُ: (مَنْ حَفِظَ الْعَشْرَ مِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنِيْنَ ورثَ الْفِرْدَوْسَ). قال ابنُ عبَّاس: (الْفِرْدَوْسُ خَيْرُ الْجِنَانِ)، وقالَ ﷺ: [إنَّ اللهَ غَرَسَ الْفِرْدَوْسَ بيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي؛ لاَ يَدْخُلُهَا مُدْمِنُ خَمْرٍ وَدَيُّوثٌ] قَالُوا: مَا الدَّيُّوثُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [الَّذِي يَرْضَى الْفَوَاحِشَ لأَهْلِهِ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي خلقنا آدمَ من سُلالة سُلَّتْ مِن طين، والسُّلاَلَةُ: ما سُلَّ مِن الشيءِ؛ أي نُزِعَ واسْتُخْرِجَ منهُ، يقالُ للنُّطفةِ: سُلاَلَةٌ، والولدُ سَلِيْلٌ وسُلاَلَةٌ. قال مجاهدُ: (السُّلاَلَةُ مَنِيُّ بَنِي آدَمَ)[4]، وقال عكرمةُ: (هُوَ الْمَاءُ سُلَّ مِنَ الظَّهْرِ سَلاًّ)، والمرادُ بالانسانِ وَلَدُ آدمَ، وهو اسمُ جِنْسٍ يقعُ على الجميعِ. والمعنى: خَلَقْنَا ابْنَ آدَمَ مِن سُلالةٍ مِن طينٍ؛ أي من صَفْوَةِ ماء آدم الذي هو من طينٍ[5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ ثم خلقنا ولدَ آدمَ من نُطفة في موضعٍ حريز يعني الرَّحِمَ، مَكَنَ فيه الماءُ بأن هُيِّأ لاستقرارهِ فيه إلى بُلوغِ أمره الذي جُعِلَ لهُ. وإنَّما سُمي الْمَنِيُّ سُلاَلَةً؛ لأنه سُلَّ من أصلاب الرجل وتَرائِب النِّساءِ، ثُم يكون قرارهُ في أرحامِ الأُمَّهاتِ.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد: باب من أتاه سهم غرب فقتله: الحديث (٢٨٠٩).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٣٤.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٨٧٨. والديلمي في الفردوس: النص (٦٧٥) عن علي ﷺ. وذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الرقم (١٥١٣٥) وتمامه كما في الرقم (١٥١٣٧)، وعزاه إلى الخرائطي في مساوئ الأخلاق عن عبدالله بن نوفل.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٢٦٣).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٢٦٢) عن ابن عباس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ ؛ أي صَيَّرْنا النطفةَ دَماً منعَقِداً، ثم صيَّرنا الدمَ لَحماً بلا عظمٍ، والْمُضْغَةُ: هي القطعةُ الصغيرة من اللَّحمِ. وقولهُ تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾ ؛ أي حولنا المضغة عظاماً، ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ ؛ أي ثم ألبسنا العظام لحماً؛ ليكون أبهى في النظر وليكون اللحم وقاية للعظم. وقرأ ابن عامر: (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عَظْماً فَكَسَوْنَا الْعَظْمَ لَحْماً)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ ؛ بأنْ جعلنا فيه الرُّوحَ بعد أن لَم يكن، ثُم جعلناه ذكَراً أو أنثى إلى أن أعطيناهُ الفهمَ والتمييز ليأخذ ثَدْيَ أمِّهِ عند الحاجةِ فيرتضعُ ويشتكي إذا تَضَرَّرَ بشيءٍ. وقال مجاهدُ:(مَعْنَى قَوْلِهِ: (ثُمَّ أنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ) يَعْنِي سَوَّيْنَا شَبَابَهُ). وقال قتادةُ: (يَعْنِي أنْبَتْنَا شَعْرَهُ وَأسْنَانَهُ)[2]. وَقِيْلَ: معناهُ: أعطيناهُ العقلَ والقوَّةَ والفهمَ، ورَبَّيْنَاهُ حالاً بعد حالٍ إلى أن بلغَ أن يتقلَّبَ في البلادِ.

وَقِيْلَ: إذا اجتمعَ الماءُ المتخلِّقُ منه الولدُ، فأولُ الحالاتِ أن يزيدَ، ثُم يستحيلُ ذلك الماءُ علقةً، وهو دمٌ غبيطٌ، ثُم يصيرُ مُضغةً، وفي تلك الحالةِ تظهرُ الأعضاءُ النَّفِيْسَةُ كالقلب والدِّماغ والكبدِ، فالقلبُ أول عُضْوٍ مكوَّن ثم الدماغُ ثُم الكبد، ثُم يُنَحَّى بعضُها عن بعضٍ، وتخطَّطُ الأطرافُ، ثُم يصيرُ لَحماً على عِظَامٍ، وعظامُ البَدَنِ مائتان وأربعونَ عَظْماً، فإذا نُفِخَ فيه الروحُ لأربعةَ أشْهُرٍ انقسمَ دمُ الحيضِ ثلاثةَ أقسامٍ: قسمٌ يتغذى به الولدُ، وقسم يَحْتَبِسُ إلى النِّفَاسِ، وقسمٌ يصعدُ إلى الثَّدي.

وإنَّما ينفخُ الرُّوحُ في الجنينِ لأربعةِ أشهُرٍ؛ لأنه يكون نطفةً أربعين يوماً، ثُم يكون علقةً أربعين يوماً، ثُم يصيرُ مضغةً أربعينَ يوماً، ثم ينفخُ فيه الرُّوحُ. ويكون

---

(١) في المخطوط تصحيف: رسمها الناسخ بلفظ: (فخلقنا المضغة عظماً فكسونا المضغة لحماً) وهو غير مناسب، والصحيح ما أثبتناه. وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر: (عَظْماً) بسكون الظاء على التوحيد في الموضعين، يريد الإفراد لا الجمع. ينظر: معالم التنزيل: ص٨٧٩. وتفسير ابن عطية: ص١٣٢٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: ج ١٠ ص١٥: النص (١٩٢٧٢).

الولدُ في بطنِ أمِّهِ معتمداً على رجليه وراحة يدَيه على رُكبتيه وظـهرهُ إلى وجـهِ الأم، ووجههُ إلى ظَهرِها حتى لا تتأذى الأمُّ بنَفسِهِ.

وإنَّما خَلَقَ اللهُ عَيْنَيْهِ في رأسهِ لتكونُ مشرفةً علـى جميـعِ الأعضـاء في الجـهات كلها، كالطَّليعةِ للعسكرِ، وأصلحُ المواضـع للطلائـعِ المكـانُ الْمُشْـرِفُ، وجعلَـهُما في كَهْفَينِ حراسةً لَهما وتوفيراً لضوئِهما، وجعلَ لَهما الْهُدُبَ ليدفعَ ما نظر إليهما.

وخلقَ اللهُ الأنفَ لينحصرَ فيه الهواءُ الْمُسْتَنْشَقُ لترويحِ الرِّئة والدمـاغ. وخلـقَ الفَمَ وعاءً لِجميعِ الكلام، وخلقَ اللِّسان آلةً للنُّطق، ولتقليب الطعام الممضوغِ، والمضغُ يكون في جانِبَي الفمِ حراسةً لأداةِ النُّطــق. وخلـقَ الشَّـفَتين غطـاءً للفـمِ والأسـنان، ويَحْجُبَ اللُّعَابَ، ومُعيناً على الكلامِ، وجَمالاً في الصُّورة، والأسنانُ تُقَطِّعُ؛ والأنيابُ تكسرُ؛ والأضراسُ تطحَنُ. وخصَّ الفكَّ الأسـفلَ بـالتحريكِ؛ لأن تحريـكَ الأخـفِّ أحسنُ، لأن الأعلى يشتملُ على الأعضــاءِ الشَّـريفة فلـم يُخاطرهـا في الحركـةِ؛ لأن الحركةَ تُضْعِفُهَا. وجعلَ ماءَ الأذُن مُرّاً لئلاَّ يقيمَ فيه الْهَوَامُ، فإذا دخلَ الأُذُنَ دابَّــةً لَـم يكن لَها هَمٌّ إلاّ الخروجَ. وجعلَ ماءَ العين مالحاً لئلاَّ يذوبَ، وجعل مــاءَ الفـمِ عَذِبـاً لِيُطيِّبَ طعمَ الطعام.

وخلقَ اللهُ الأصابعَ آلَةً لعملِ الأشياء كالكتابـةِ والصِّناعـة والخياطـة، وجعلَـها على الكفِّ لتحفظَ ما يُجعل فيها، ولَم يَخلقِ الأصابعَ خاليةً من العظامِ لتكون أفعالُها قويَّة، ولَم يجعَلْ عِظَامَها مُجَوَّفَةً لتكون أقوى على القبضِ والحركات. وجعل القلــبَ في وسطِ الصَّدر لأنه أعدلُ الأماكنِ وقد مُيِّلَ قليلاً إلى اليسار ليبعدَ عن الكبد، والرِّئةُ، وغطاءً للقلب ووقايةً له، وهو بيتُ النَّفَسِ ومنْزل الفَـرَحِ. وخلـقَ اللهُ الأمعـاءَ كثـيرة التَّلافِيْفِ ليطولَ سَتْرُ الغذاءِ، فلا يحتاجُ الإنسانُ إلى الغذاء في كـلِّ وقـتٍ، وخلـقَ اللهُ القدم أخْمَصَ ليمسِكَ الماشيَ في الدَّرَجِ.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي الْمُصَوِّرِيْــنَ الْمُحَوِّلِيْنَ من حال إلى حال، ومعنى قولهِ (تَبَارَكَ اللهُ) أي اسـتحقَّ التعظيـمَ والثنـاء، وَقِيْلَ: دَامَ لَم يزل ولا يزالُ. وقولهُ تعالى: (أحْسَنُ الْخَالِقِينَ) لا يقتضي أن يكون معهُ

خالقٌ آخر كما قال ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾(١)، ويقال: (أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ) أي أحسنُ المقدِّرين، فإنَّ الخلقَ هو التقديرُ كما قال تعالى مُخبراً عن عيسى عليه السلام ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ﴾(٢) أي أقدِّرُ لكم من الطِّير.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ شُرَيْحٍ يَكْتُبُ لِرَسُول اللهِ ﷺ، فَأَمْلَى عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةَ، فَلَمَّا بَلَغَ إلَى قَوْلِهِ (آخَرَ) خَطَرَ ببَالِهِ (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)، فَلَمَّا أمْلاَهَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ كَذلِكَ، قَالَ عَبْدُاللهِ: إنَّ مُحَمَّداً نَبِيٌّ يُوحَى إلَيْهِ، وَأنَا نَبِيٌّ يُوحَى إلَيَّ. فَلَحِقَ بمَكَّةَ فَمَاتَ كَافِراً)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي بعدَ الحياة والْخَلْقِ الْحَسَنِ والصُّورة الحسنة مَيِّتُونَ عند انقضاءِ آجَالِكُمْ. قرأ أشهبُ العقيليُّ: (لَمَائِتُونَ) بالألفِ، والْمَيِّتُ وَالْمَائِتُ الذي لَم تفارقه الروحُ وهو سيموتُ، والْمَيْتُ بالتخفيفِ الذي فارقَهُ الروحُ، فلذلكَ لَم يخفَّف كقول ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وَإنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾(٤). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾؛ يعني مِن قُبوركم للجزاء والحساب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾؛ أي سبعَ سَمواتٍ، سُميت طرائقَ؛ لأن كلَّ شيء فوقَ شيء فهو طريقةٌ، يقالُ: طَارَقْتُ نَعْلِي إذا جعلتُ جِلداً فوقَ جلدٍ. ويقالُ: سُميت طرائقُ لأنَّها طُرُقُ الملائكةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي وما كُنَّا عن حِفْظِ السَّموات، وعن إنزالِ المطر على العبادِ وقتَ الحاجةِ غافلينَ، ولو جَازَتِ الغفلةُ لَسَقَطَتِ السَّمواتُ بعضُها على بعضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴾؛ أي أنزلنا المطرَ من السَّماء بقدر الحاجةِ إليه؛ أي بقَدْر ما يكفيهم للمعيشةِ، وَقِيْلَ: بقدر يعلمهُ

---

(١) الفرقان / ٢٤ . (٢) آل عمران / ٤٩ .

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٤٠؛ قال القرطبي: (رواه الكلبي عن ابن عباس).

(٤) الزمر / ٣٠ .

الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ) أي جعلنا سُكْنَاهُ ومستقرُّهُ في الأرض مثل العيون والغُدْرَانِ والرَّكَايَا. وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْجَنَّةِ خَمْسَةَ أَنْهَار: سِيْحُون وَهُوَ نَهْرُ الْهِنْدِ، وَجِيْحُونُ وَهُوَ نَهْرُ بَلَخ، وَدِجْلَةُ وَالْفُرَاتُ وَهُمَا نَهْرَا الْعِرَاق، وَالنِّيْلُ وَهُوَ نَهْرُ مِصْرَ، أَنْزَلَهَا اللهُ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ مِنْ أَسْفَلِ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِهَا عَلَى جَنَاحَي جِبْرِيْلَ. وَذلِكَ قَوْلُهُ (فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ). فَإذا كَانَ عِنْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَرْسَلَ اللهُ جِبْرِيْلَ فَرَفَعَ مِنَ الأَرْضِ الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْحَجَرَ الأَسْوَدَ وَهَذِهِ الأَنْهَارَ الْخَمْسَةَ، فَيَرْفَعُ ذَلِكَ إلَى السَّمَاءِ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ فَإذا رُفِعَتْ هَذِهِ الأَشْيَاءُ فَقَدَ أَهْلُهَا خَيْرَ الدِّيْنِ وَالدُّنْيَا](1).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾ ؛ أي أخرجنا لكم بذلك المطر بساتينَ من نخيلٍ وكرُوم، وإنَّما خصَّها بالذِّكر لأنَّها أشرفُ الثِّمار، وقولهُ تعالى: ﴿ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ ؛ سِوَى النخيلِ والأعناب، ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ بإباحةِ الله لكم تأكلونها صيفاً وشتاءً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ ﴾ ؛ أي وأنبَتْنا بذلكَ المطرِ شجرةً وهي الزيتونةُ تخرجُ من جبلِ سَيْنَاءَ للبركةِ، كأنه قالَ: من جبلِ البركةِ. وقُرِئ (طُور سِيْنَاءَ) بفتح السِّين. واختلفُوا في المرادِ بالطُّور، قال بعضُهم: هذا الجبلُ الذي نادَى موسَى ربَّهُ عندَهُ. يقالُ: إن أصلَ شجرةِ الزيتون من ذلكَ الجبلِ؛ أي أوَّلُ ما غُرِسَتْ فيه. وقال بعضُهم: هو جبلٌ بالشَّام كثيرُ الأشجار والأثمار. وَقِيْلَ عن الزيتونةِ: أولُ شجرةٍ نُبتَتْ في الأرضِ بعد الطُّوفان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ قرأ أكثرُ القرَّاءِ (تَنْبُتُ) بفتح التاءِ وضمِّ الباء؛ أي تنبتُ بثمار الدُّهن يعني الزَّيْتَ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بضمِّ التاءِ وكسر الباء، ومعناهُ معنى الأولِ. والباءُ في قولهِ تعالى (بالدُّهْنِ) للتعدِّي، يقالُ: أَنْبَتَهُ وَنَبَتَ بِهِ، وَنَبَتَ

---

(1) أخرجه الخطيب في تأريخ بغداد: ج ١ ص٧٩-٨٠: باب ذكر نهري بغداد دجلة والفرات وما جعل الله فيهما من المنافع والبركات.

الشَّيْءُ وَأَنْبَتَ بمعنى واحدٍ، قال الشاعرُ:

رَأَيْـتُ ذوي الْحَاجَـاتِ حَـوْلَ بُيُوتِـهِمْ قَطِيْنـاً لَهُـمْ حَتَّـى إذا أَنْبَـتَ الْبَقْـلُ

ويجوزُ أن تكون الباءُ زائـدةً على قراءةِ من ضَمَّ التاءَ، كقولـه ﴿وَلا تُلْقُوا بأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ﴾[١]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ) يعني الإدَامَ، لأن الزيتَ إدامٌ يُصْبَغُ به الخبزُ، يقال: صِبْغٌ وصِبَاغٌ كما يقال: لِبْسٌ ولِبَاسٌ[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ ؛ أي لَعِظَـةً ودلالـةً على وحدانيَّتنا لـو اعتبرتُم واستدلَلْتم، ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ يعني اللَّبنَ، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ ؛ مِنَ الأولادِ والأوتار والأصواف والأشعار والرُّكوب على الإبلِ، ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ يعني لُحومَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي تُحملون على الإبلِ في البَرِّ وعلى السُّفن في البحر، وهذا كقولِه تعالى ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[٣] يقالُ: إن اللهَ تعالى جعلَ للناسِ مركَبين، مركباً لَيِّناً لسيرِ البَرِّ، ومركباً يابساً لسيرِ البحرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ ؛ أي أرسلناهُ إليهم ليدعوَهم إلى عبادَتِنا، ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ عبادةَ غيرِه. ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ ؛ أي الأشرافُ منهم والرؤساءُ قالوا لسُفَائِهم: ﴿ مَا هَٰذَآ ﴾ ؛ الذي يدعوكُم إلى التوحيدِ، ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ؛ أي آدَمِيٌّ مثلُكم، ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي يَتَقَدَّمَ عليكم بدعوَى النُّبوَّةِ ليكونَ له الفضلُ عليكم فتكونوا له تَبعاً، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أن يُرسِلَ إلينا رسولاً مِن عنده، ﴿ لَأَنزَلَ ﴾ ؛ أي لأرسلَ ﴿ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ ؛ مِن عنده، ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ ؛ بمثْلِ هذه الدَّعوةِ، ﴿ فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ ولا أرسَلَ

---

(١) البقرة / ١٩٥ .

(٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٠.

(٣) الاسراء / ٧٠ .

إليهم بشراً، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ ؛ أي قالوا: ما نوحُ إلاَّ رجلٌ به جُنُونٌ، ﴿ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي فانتَظِروا حتى يَموت فنستريحَ منه.

فلما يَئِسَ من إيْمانِهم؛ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي أعِنِّي عليهم بتكذيبهم إيَّايَ وجُحُودِهم نبُوَّتِي، والمعنى: انصُرْنِي عليهم بإهلاكِهم جَزاءً لَهم بتكذيبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ ؛ أي وأرسَلْنا إليه جبريلَ أن يُعَلِّمَهُ صنعةَ الفُلْكِ ليصنَعَها بمرأى مِنَّا، ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ ؛ بنجاتِكَ وإهلاكِهم، ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ ؛ ونبعَ الماءُ من تُنُّور الخسارة. وعن عَلِيٍّ ﷺ: (أنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ (وَفَارَ التَّنُّورُ) أيْ طَلَعَ الْفَجْرُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ ؛ أي احْمِلْ في السَّفينة من كلِّ ذكَرٍ وأنثى، كما رُوي أنَّ اللهَ تعالى حَشَرَ إليه جميعَ الحيواناتِ حتى أخذ مِن كلِّ جنسٍ زوجاً، ويقرأ (مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ) بالتنوين، فعلى هذه القراءةِ يكون الفعلُ واقعاً على زوجَين، وأما على القراءةِ الثانية فالفعلُ واقعٌ على اثنين(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ ؛ معناهُ: واحمِلْ فيها أهلَكَ، ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ ؛ أي إلاَّ من حَقَّ عليه العذابُ ﴿ مِنْهُمْ ﴾ ، لكُفْرِهِ وهو ابنهُ كنعان وامرأتهُ وأهلَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ ؛ أي لا تسألْني نجاةَ الذين ظلَمُوا من أهلِكَ، ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ مع الأجانب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ ؛ أي إذا اعتدَلْتَ في السفينة رَاكباً واستقرَّ بكَ ولِمن معكَ الفلكَ في الماءِ، ﴿ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي أحمدُ اللهَ، ﴿ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾ ؛ أي أنزِلْني من السَّفينة موضِعاً مُباركاً. وقال بعضُهم: أراد به الإنزالَ في السَّفينة وهو

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨١-١٨٢.

الأقربُ؛ لأنه إنَّما أمِرَ بهذا الدُّعاء في حال استوائهِ على السفينة، فاقتضَى أن السفينةَ هي المَنْزِلُ دون مَنْزِلٍ آخرَ.

وقرأ العامةُ (مُنْزَلاً) بضمِّ الميم على المصدر؛ أي إنْزَالاً مُباركاً، وقرأ أبو بكرٍ بفتح الميم وكسر الزَّاي؛ أي مَوْضِعاً مُباركاً[1]، قال مقاتلُ: (يَعْنِي بالْبَرَكَةِ أنَّهُمْ تَوَالَدُوا وَكَثُرُوا)[2].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي أنتَ خيرُ المنْزِلين في الدُّنيا والآخرةِ، وهذا اللفظُ سُنَّةٌ لكلِّ مَن أرادَ أن ينْزِل منْزِلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ﴾؛ معناهُ: أنَّ في أمرِ نوحٍ والسَّفينة وهلاكِ أعداء الله لدلالاتٌ على قُدرةِ الله ووحدانيَّته، ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي ما كُنَّا إلاَّ مُبْتَلِيْنَ بإرسالِ الرُّسُلِ إليهم؛ أي مختَبرين إيَّاهم كيفَ نرى طاعةَ المطيعين ومعصيةَ العاصين.

وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾؛ أي ثُم خلَقْنا من بعدِ هلاك قومِ نوحٍ قوماً آخرين يعنِي: عاداً، ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾؛ يعني هُوداً عليه السلام فإنَّ أولَ نَبيٍّ بعدَ نوحٍ هُودٌ عليه السلام فقال لَهم: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ إلى آخرِ الآية.

قولهُ تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾؛ أي جَحَدُوا البعثَ والنُّشورَ، ﴿ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾؛ أي متَّعنَاهُم في الحياةِ الدُّنيا وأعطيناهم من نَعِيْمِ العَيْشِ ووسَّعنا عليهم ونعَّمناهم؛ أي قال أشرافُ قومِ هُودٍ ورؤساؤُهم الذين جَحَدُوا بالبعثِ والنشور ومتَّعناهم في الحياةِ الدُّنيا: ﴿ مَا هَـٰذَآ ﴾؛ أي ما هو ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾؛ أي آدميٌّ مثلُكم، ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا

(١) نقله الطبري في جامع البيان: مج ١٠ ج ١٨ ص٢٥؛ قال: (وقرأه عاصم) وذكره. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١١٩-١٢٠؛ قال القرطبي: (وقرأ زر بن حبيش وأبو بكر عن عاصم والمفضل) وذكره.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٣٩٥.

تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ؛ أي يأكلُ مِن الطعامِ الذي تأكلونَ منه؛ ويشربُ مِن الذي تشربونَ، فليس هو بأولَى بالرِّسالة منكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ معناهُ: لئِنْ أطعتُم آدمياً بَشَراً مثلَكُم إنَّكم إذا لَمبعوثون، وهذا القولُ منهم دليلٌ على غايَةِ جهلِهم حيث عبَدُوا أصناماً لا تضُرُّ ولا تنفعُ، ولَم يعدُّوا ذلك خُسراناً، والأصنامُ أجسامٌ مثلُهم بل دونَهم.

ثُم عَدُّوا عبادةَ الله وطاعتَهُ هو خُسراناً، قالوا: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ ﴾ ؛ أي وصرتُم، ﴿ تُرَابًا وَعِظَامًا ﴾ ؛ باليةً؛ ﴿ أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي أن تُخرجوا من قبورِكم، ﴿ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ، أي بُعْداً بُعْداً لِمَا تُحاولون من البعثِ بعدَ الموت، وهذه كلمةُ استنكارٍ واستبعاد، ويقرأ (هَيْهَاتَ) سبعَ قراءاتٍ بالنَّصب والكسرِ والرفعِ والتنوين وغير التنوين والسُّكون[1]، فمَن نصبَ جعلَها مثل (أيْنَ وكيْفَ)، وقِيْلَ: لأنَّها أداةٌ مثلُ خمسةَ عشرَ وبَعْلَبَكَّ، ومَن رفعَ جعلَهُ مثلَ(مُنْذُ وَقَطُّ وحَيْثُ)، ومَن كسرَ جعله مثلُ أمس. قال الشاعرُ:

تَذكَّرْتُ أيَّاماً مَضَيْنَ مِنَ الصِّبَا وهَيْهَاتَ هَيْهَاتاً إلَيْكَ رُجُوعُهَا

وقال آخر :

لَقَدْ بَاعَدَتْ أُمُّ الْحَمَارسِ دَارَهَا وَهَيْهَاتَ مِنْ أُمِّ الحمَارسِ هَيْهَاتاً هَيْهَات

ومعنى (هَيْهَاتَ) بَعُدَ الأمرُ جداً حتى امتنعَ، وهو اسمٌ سُمي به الفعلُ، وهو بَعُدَ كما قالوا: صَهْ بمعنى اسْكُتْ، ومَهْ بمعنى لا تَفْعَلْ، وليسَ له اشتقاقٌ وفيه ضميرٌ مرتفعٌ عائد إلى قولِه (مُخْرَجُونَ)، والتقديرُ (هَيْهَاتَ) أي هو الإخراجُ، والمعنى: بَعُدَ إخراجُكم للوعدِ؛ أي الذي توعَدُون. قال أبو عمرو: (إذا وَقَفْتَ فَقُلْ هَيْهَاه بالْهَاءِ) وقال الفرَّاءُ: (كَانَ الْكِسَائِيُّ يَخْتَارُ الْوَقْفَ عَلَيْهَا بالْهَاءِ، وَأنَا أخْتَارُ التَّاءَ لأنَّهَا لَيْسَتْ

---

(١) ذكر ست قراءات ولعله جمع بين أنواع التنوين. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٢٢ نقل القرطبي عن الأنباري أنها عشر لغات. والسبع هي: (هيهاتَ) و(هيهاتِ) و(هيهاتٍ) و(هيهاتاً) و(هيهاتُ) و(هيهاتٌ) و(هيهاتْ).

هَاءَ التَّأْنِيْثِ)[١]. ورُوي أن سيبويه قال: (هِيَ بِمَنْزِلَةِ بَيْضَات)[٢] يَعْنِي فِي التَّأْنِيْثِ، فإذا كَانَ كَذلِكَ كَانَ الْوَقْفُ بالْهَاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ ؛ أي قالوا مَا هِيَ إلاّ حياتُنا الدُّنيا التي نحنُ فيها، ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ ؛ أي يَموت قومٌ ويَحيا قومٌ آخرون، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ بعدَ الموتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ أي قالُوا: مَا هُودٌ إلاّ رَجُلٌ اختلَقَ على اللهِ كَذِباً بأنه رسولٌ إلينا، وأنَّا نُبعَثُ، ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي بمُصدِّقين فيما يقولُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي قال هودُ: رب أعِنِّي عليهم بتكذيبهم إيَّايَ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ اللهُ: ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ ؛ على تكذيبهم أي عمَّا قليلٍ من الزَّمان والوقتِ، يعني عندَ الموتِ وعند نزول العذاب بهم، ﴿ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ على الكُفر والتكذيب، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ﴾ ؛ أي صاحَ بهم جبريلُ صيحةً واحدة فماتُوا عن آخرِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: (بالْحَقِّ) أي باستحقَاقِهم العذابَ بكُفرهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ ؛ أي صيَّرناهم بعدَ الهلاكِ كغُثَاءِ السَّيْلِ، وهو ما يكونُ على وجهِ السَّيْلِ من القَصَب والحطب والحشيشِ والأشجار اليابسة المتبقِّية الباليةِ، إذا جرَى السيلُ رأيتَ ذلك مُخالطاً زَبَدَ السَّيلِ، والمعنى: صيَّرناهم هَلَكاً فَيَبسُوا كما يَبسَ الغُثَاءُ مِن نَبْتِ الأرضِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي بُعْداً من رحمةِ الله للقومِ الكافرين.

---

(١) معاني القرآن: ج ٢ ص٢٣٦.

(٢) في أصل المخطوط تصحيف للكلمة (بيضات). وتم الضبط على ما نقله ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٤ ص٢١٠. وينظر: الكتاب لسيبويه: ج ٣ ص٢٩١-٢٩٢. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٨٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي ثُم خلَقْنا بعدَ هلاكِ قوم هُودٍ أهلَ أعصَارٍ آخرينَ فسَكَنوا ديارَهم إلى أن هلكوا، ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي لا تَموتُ أمةٌ قبل أجلِها ولا يتأخرُ موعدُهم عنه، وقولهُ تعالى: (مِنْ أمَّةٍ) مِن ها هُنا صلةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾؛ أي بعضُها في إثْر بعضٍ مُتَرَادِفِين، ﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً ﴾؛ أي قوماً، ﴿ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾؛ في الْهَلاَكِ والتعذيب، ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾؛ لِمَن بَعْدَهم من الناسِ يتحدَّثون بأمرِهم وشأنِهم ويتمثَّلُ بهم في السرِّ. ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو: (تَتْرًا) بالتنوين، وقرأ الباقونَ بغير تنوينٍ مثل سَكْرَى وشَكْوَى، فمَن نَوَّنَ كان الألفُ فيه كالألفِ في أنتَ زيداً أو عمراً، فإذا وقَفْتَ كان ألِفاً، يعني توقف عليه بالألفِ، ومَن لَم يُنَوِّنْ كتَبَها بالياءِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ ظاهرُ المعنى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا ﴾؛ أي تكبَّرُوا عنِ الإيْمانِ باللهِ وعبادتِه، ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾، أي وكانوا قوماً قاهرينَ للناسِ بالبَغْيِ والتَّطاوُلِ عليهم كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ﴾[2]، وقال مقاتلُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (عَالِيْنَ) أيْ مُتَكَبِرِيْنَ عَنْ تَوْحِيْدِ اللهِ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾؛ أي ليسَ لَهم فضلٌ علينا، ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ يعني بَنِي إسرائيلَ لنا مطيعونَ، ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ بتكذِيبهما. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾؛ يعني التوراةَ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ لكي يهتَدُوا به من الضَّلالة.

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٢.
(٢) القصص / ٤.
(٣) تفسير مقاتل: ج ٢ ص٣٩٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ ؛ أي جعلْنا ولادةَ عيسى من غيرِ أبٍ دلالةً على التوحيدِ والبعثِ، ولَم يقل: آيَتَيْنِ؛ لأن معنى الآيةِ فيهما واحدةٌ. وَقِيْلَ: معنى كلٍّ واحدٍ منهما آيةٌ، كما قال ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾[1] أي آتَتْ كلُّ واحدةٍ أكلَها، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ﴾[2] ولَم يقُلْ أرْجَاسٌ. وَقِيْلَ: معناهُ: جعلنا شأنهما واحداً؛ لأن عيسى وُلِدَ من غيرِ أبٍ، وأمُّهُ ولَدَت من غير مسيسِ ذكَرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي جعلنَاهُما يَأْويَان إلى بُقعة مرتفعة ذاتِ استواءٍ واستقرار، ومكان ظاهر. والرَّبْوَةُ: المكانُ المرتفع من الأرضِ.

واختَلَفُوا في هذه البُقعةِ، قال قتادةُ: (يَعْنِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَهُوَ أرْفَعُ مَوْضِعٍ فِي الأَرْضِ وَأقْرَبُ مَوْضِعٍ إلَى السَّمَاءِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيْلاً)[3]، وقال أبو هريرةَ: (هِيَ رَمْلَةُ بأرْضِ فِلِسْطِيْنَ)[4]، وروى الحسنُ وابنُ المسيَّب: (أنَّهَا دِمَشْقُ). وقولُه تعالى (ذاتِ قَرَارٍ) أي مُستَويةٍ ليستقرَّ عليها ساكِنُوها، وهي مع ذلك ساحةٌ واسعة، والْمَعِيْنُ الماءُ الجاري الطاهرُ الذي تراهُ العيون، يقال عَانَتِ الرُّكبة إذا سَالَتْ بالماءِ.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ ؛ قال الحسنُ ومجاهد والسديُّ والكلبي وقتادةُ ومقاتل:(الْخِطَابُ فِي هَذِهِ الآيَةِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَحْدَهُ، إلاَّ أنَّهُ ذكَرَهُ بلَفْظِ الْجَمَاعَةِ، لِمَا فِي الْخِطَاب مِنْ تَضْمِيْنِ أنَّ الرُّسُلَ جَمِيْعاً أمِرُوا بهَذا الْخِطَاب، وَقِيْلَ لَهُمْ: كُلوُا مِنَ الطَّيِّبَاتِ؛ أيْ مِنَ الْحَلاَلِ، أمَرَهُمُ اللهُ أنْ لاَ يَأْكُلُوا إلاَّ حَلاَلاً).

قال الحسنُ: (أمَا وَاللهِ مَا عَنَى بِهِ أصْفَرَكُمْ وَلاَ أحْمَرَكُمْ وَلاَ حُلْوَكُمْ وَلاَ حَامِضَكُمْ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: انْتَهُوا إلَى الْحَلاَلِ مِنْهُ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاعْمَلُوا صَالِحاً)

---

(١) الكهف / ٣٣ . (٢) المائدة / ٩٠ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٣١١).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٣٠٧)

أي اعمَلُوا ما أمَرَكم به اللهُ وأطيعوه في أمرهِ ونهيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّباً ، وَإنَّ اللهَ أمَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بمَا أمَرَ بهِ الْمُرْسَلِيْنَ، فَقَالَ تَعَالَى (يَا أيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ) وقال ﴿يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[١]، - ثُمَّ ذكَرَ - الرَّجُلُ[٢] يُطِيْلُ السَّفَرَ أشْعَثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَهُ إلَى السَّمَاءِ: يَا رَب يَا رَب! مَطْعَمُهُ حَرَامٌ؛ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ؛ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ؛ وَغُذِّيَ بالْحَرَامِ، فَأنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ؟!][٣]. ويُروى عن عيسَى: كان يأكلُ من غزْل أمِّهِ[٤]، وكان نبيُّنا ﷺ كان يقولُ: [جُعِلَ رزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَنِي][٥] فبيَّن أن رزْقَهُ من الغَنِيْمَةِ وأطيب الطيِّبات الغنيمةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ؛ أي دِينُكم ودينُ مَن قبلَكم دينٌ واحد. وَقِيْلَ: جماعتُكم جماعةٌ واحدة كلُّكم عبادُ اللهِ، ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي فاتَّقُوا عذابي، وافعَلُوا ما أمَرْتُكم به واترَكُوا ما نَهيتُكم عنه.

قرأ الكوفيُّون: (وَإنَّ هَذِهِ أمَّتُكُمْ) بكسرِ الهمزة على الابتداء. وقرأ الباقونَ بفتحِها مع التشديدِ، وخفَّفَ النونَ ابنُ عامر مع فتحِ الهمزة، فمَن فتحَ الهمزة وشدَّدَ

---

(١) البقرة / ١٧٢ .

(٢) الجملة من كلام الراوي، والضمير فيه إلى النبي ﷺ. والرجلُ: بالرفع مبتدأ مذكور على سبيل الحكاية من لفظ سيدنا الرسول مُحَمَّد ﷺ، ويجوز أن ينصب على أنه مفعول (ذكَرَ).

(٣) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الزكاة: باب قبول الصدقة من الكسب الطيب: الحديث (٦٥/ ١٠١٤ و١٠١٥). والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٢٨ و٤٠٠. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: باب ومن سورة البقرة: الحديث (٢٩٨٩).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٣١٩) عن عمرو بن شرحبيل.

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٩٢. وعلقه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد: باب ما قيل في الرماح؛ وقال: (ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ). وفي مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢٦٧؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان، وثقه ابن المديني وأبو حاتم وغيرهما، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات).

النون فمعناه: وبأنَّ هذهِ، وَقِيْلَ: وَاعْلَمُوا إنَّ هذه أمَّتُكم أمةٌ واحـدةٌ، أي مِلَّتُكُمْ ملَّـةٌ واحدة وهي دينُ الإسلام، ومَن خفَّفَ مع الفتحِ جعل (أنْ) صلـةً، وتقديـرُهُ: وهـذهِ أمَّتُكم، وَقِيْلَ: تكون مخففةً من الثقيلةِ كقوله تعالى ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أنِ الْحَمْدُ للهِ﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ ؛ معناه: أنتم أهلُ ملَّةٍ واحـدة فلا تكونوا كالذين تفرَّقُوا واختلفوا فتقطَّعوا أمْرَهُمْ بَيْنَهُم زُبُراً؛ أي فِرَقاً، وَقِيْلَ: معناهُ: كُتُباً مختلفةً ديوانُها، فكَفَرُوا بما سِوَاها كاليهود آمَنُوا بالتوراةِ وكفرُوا بالإنجيلِ والقُرْآن، والنصارَى آمَنُوا بالإنجيل وكفروا بـالقُرْآنِ. وقُـرئ (زُبَـراً) بفتـح البـاء ومعنـاهُ قِطَعـاً وجماعاتٍ، ومنه زُبَرُ الحديدِ قِطَعُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي كلُّ طائفـةٍ بما عندَهم من الاعتقادِ مُعْجَبُونَ، فاترُكْهم في ضَلالتِهم وجهالتهم إلى أن يأتيَهم ما وُعِدُوا به من العذاب. وَقِيْلَ: إلى أن يَموتوا فيظهرُ لَهم الحـقُّ مـن البـاطلِ عنـد الْمُعَايَنَـةِ في القيامةِ. وَقِيْلَ: كلُّ حِزْبٍ من المشـركين واليـهودِ والنصـارى بمـا عندَهـم مـن الدِّيـن رَاضُونَ، يَرَوْنَ أنَّهم على الحـقِّ، ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي في ضَلالتِهم وجهالتِهم وغفلتهم حتى يَرَوْنَ العذابَ بالسَّيف أو بالموتِ، يعـني: كفـارَ مكَّة.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ؛ أي يَظُنُّونَ أنَّ إمدادَنا إياهم بالمال والبنين مسـارعةً منـا لَـهم في الخـيراتِ لكرامتهم علينا ومنْزِلتهم عندنـا، ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ أن ذلـك اسـتدراجٌ لَهم وإملاءٌ إلى حين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي حَذِرُونَ من عذابهِ، والإشْفَاقُ هـو الخـوفُ، يقـالُ: أنـا مُشْـفِقٌ مِـن هـذا الأمـر؛ أي خـائفٌ، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي يصدِّقون بالقُرْآن أنَـه مِـن عنـدِ الله، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ معـهُ غـيرَهُ، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ

---

(١) يونس / ١٠. ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٣-١٨٤.

ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ ؛ أي والذينَ يتصدَّقون بالأموال، ويعملون ما عَمِلُوا من الصَّالحاتِ، وقلوبُهم فَزِعَةٌ خائفةٌ أن لا يُقْبَلَ منهم ذلكَ. قال مجاهدُ: (الْمُؤْمِنُ يُنْفِقُ مَالَهُ وَقَلْبُهُ وَجِلٌ)[1].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قالت: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ)، فَقَالَ: [لاَ يَا ابْنَةَ الصِّدِّيق، الَّذِيْنَ يَصُومُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَخَافُونَ أنْ لاَ تُقْبَلَ مِنْهُمْ، وَيُصَلُّونَ وَيَعْرِفُونَ ألاَّ تُقْبَلَ مِنْهُمْ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَعْرِفُونَ ألاَّ تُقْبَلَ مِنْهُمْ][2]. وقال الحسنُ: (وَالَّذِيْنَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا؛ أيْ يَعْمَلُونَ مَا عَمِلُواْ مِنَ الْبرِّ وَهُمْ يَرَوْنَ أنَّ ذلِكَ لاَ يُنْجِيْهِمْ مِنْ عَذاب اللهِ)[3]، قال الزجَّاجُ: (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠﴾ ؛ أي لأنَّهم يوقنونَ برجوعِهم إلى اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفَةِ هم الذينَ يُسارعون في الأعمالِ الصالحة، ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۝٦١﴾ ؛ أي إليها سَابقُونَ، يكون (لَهَا) بمعنى إليها، كقولهِ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[4] أي إليها. وَقِيْلَ: معناهُ: وَهُمْ لَهَا سَابقُونَ في الجنَّةِ؛ أي مِن أجلِ مُسارعتهم في الخيراتِ سابقونَ في الجنَّة.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ؛ أي إلاَّ طَاقَتَهَا من العملِ، فمَن لَم يستطع أن يصلِّيَ قائماً فيصلِّي قاعداً. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ ؛ أي عندَ ملائكَتِنا المقرَّبين كتابٌ يشهدُ لكم وعليكم، يريدُ به صحائفَ الأعمالِ، وَقِيْلَ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٣٣٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص١٥٩. والترمذي في السنن: كتاب التفسير: باب ومن سورة المؤمنون: الحديث (٣١٧٥). وابن ماجة في السنن: كتاب الزهد: باب التوقي على العمل: الحديث (٤١٩٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٣٣٦).

(٤) الزلزلة / ٥.

يعني اللوحَ الْمَحفوظَ، فيه كلُّ شيءٍ مكتوبٌ، سبقَ في علمِ اللهِ، ﴿ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي يُبَيِّنُ الصدقَ، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي لا يُنْقَصُونَ من ثواب أعمالِهم، ولا يزادُ على سيِّئاتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ ؛ أي قلوبُ أهلِ مكَّة في غفلة وجهالةٍ، ﴿ مِّنْ هَٰذَا ﴾ الذي تقدَّم ذكرهُ من أعمال البرِّ. وَقِيْلَ: في غفلةٍ من القُرْآن، ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ ﴾ ؛ خبيثةٌ لا يرضاها اللهُ مِن المعاصي والخطايا، ﴿ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي من دون أعمالِ المؤمنين، ﴿ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ ويجوزُ أن يكون قولهُ (مِنْ هَذا) إشارةً إلى الكتاب الذي ينطقُ بالحقِّ؛ أي قلوبُهم في غفلةٍ من ذلك الكتاب، وأعمالُهم التي عَمِلُوها مُحْصَاةٌ فيه، ولَهم أعمالٌ مِن دون ما هم عليهِ لا بدَّ أن يعمَلُوها، وهو ما سَبَقَ في علمِ الله أنَّهم يعملونَهُ. والغَمْرَةُ: الغفلةُ التي تُغَطِّي القلبَ وتَغْلِبُ عليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي حتى إذا أخَذْنا أعيانَهم ورؤساءَهم بالقتلِ يومَ بدرٍ وبما يَرَوْنَ من العذاب وقتَ المعاينة، وقال الضحَّاك: (بالْجُوعِ حِيْنَ دَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: [اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ سِنِيْنَ كَسِنِيْنِ يُوسُفَ][1] فَابْتَلاَهُمُ اللهُ بالْقَحْطِ حَتَّى أكَلُوا الْعِظَامَ وَالْجِيَفَ وَالْكِلاَبَ وَالأَوْلاَدَ وَالْقَذرَ)[2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إذا هُمْ يَجْأَرُونَ) أي يَصِيحُونَ ويصرخون بالتوبةِ، وَقِيْلَ: يَجْزَعُونَ ويستغيثونَ. وأصلُ الْجُؤَار رَفْعُ الصَّوْتِ بالتَّضَرُّعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؛ وَعِيداً بهم كالاستهزاءِ مثل قولهِ ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا﴾[3]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي لا

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الدعوات: باب الدعاء على المشركين: الحديث (٦٣٩٣). ومسلم في الصحيح: كتاب المساجد: باب استحباب القنوت: الحديث (٢٩٥/ ٦٧٥).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٨٨٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١٣٥.

(٣) الأنبياء / ١٣.

تُمْنَعُونَ من عذابنا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي تُقْرَأ عليكم في الدُّنيا، يعني الْقُرْآنَ، ﴿ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي تُوَلُّون مُدبرين وتُعرِضون عن الإيْمان به، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ ﴾ ؛ أي مُتعظِّمينَ ببيتِ الله الكعبة. وَقِيْلَ: بحَرَمِ اللهِ أنهُ لا يظهرُ عليكم أحدٌ، فالكنايةُ تعودُ إلى الْحَرَمِ وهو كنايةٌ من غيرِ مذكورٍ، والمعنى: والمستكبرينَ في البيتِ الحرام لأمْنِهم فيهِ مع خوفِ سائرِ الناس في مواضعهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي سُمَّاراً تَهْجُرُونَ القُرْآنَ والنبيَّ ﷺ، والْهَجْرُ: هَجْرُ الحقِّ بالإعراضِ عنه، وقد يقالُ: هَجَرَ المريضُ إذا هَذَا في كلامهِ. والسَّمَرُ: الحديثُ باللَّيلِ، كانوا يتحدَّثون حولَ الكعبة في أوائلِ الليل بالطَّعْنِ في النبيِّ ﷺ وفي الإسلامِ والمسلمين، وإنَّما وحَّدَ (سَامِرا) لأنه في موضعِ المصدر.

قال الحسنُ ومقاتل: (الْمَعْنَى: يَهْجُرُونَ الْقُرْآنَ وَيَرْفُضُونَهُ فَلاَ يَلْتَفِتُونَ إلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ) الآيَةُ). ويجوزُ أن يكون معناهُ مِن الْهَجْرِ؛ وهو الكلامُ القبيح، يقالُ: هَجَرَ هَجْراً؛ إذا قالَ غيرَ الحقِّ، وهو قولُ السديِّ والكلبي وقتادةَ ومجاهدٍ، وكانوا إذا دخَلُوا البيتَ سَبُّوا النبيَّ ﷺ والقُرْآنَ[1]. ويقالُ أيضاً في هذا المعنى: أهْجَرَ هَجْراً؛ إذا أفْحَشَ في مَنْطِقِهِ، ومنهُ قراءةُ نافع: (تُهْجِرُونَ) أي يَفْحُشُونَ في الكلامِ، ويقولونَ الْخَنَا، وذلك أنَّهم كانوا يسبُّون النبيَّ ﷺ[2]، والْهَجْرُ هو الْفُحْشُ مِن الكلامِ، يقال في الْمَثَلِ: (مَنْ كَثُرَ هَجْرُهُ وَجَبَ هَجْرُهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ ؛ أي أفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القُرْآنَ في حُسْنِ لفظهِ ونَظْمِهِ، وكثرةِ فوائده ومعانيهِ، مع سلامتهِ من التناقُضِ والاختلاف، فتعلَّمُوا أنه مِن عند اللهِ، ويقالُ: معناهُ: أفَلَمْ يدَّبَّرُوا القُرْآنَ فيعرِفُوا ما فيهِ من العِبَرِ والدَّلالاتِ على صدقِ النبيِّ ﷺ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٣٨٣) عن مجاهد، و(١٩٣٨٧) عن الحسن وقتادة.

(٢) نقله الطبري في جامع البيان: مج ١٠ ج ١٨ ص٥٣، وذكر الآثار فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أم جاءَهم أمرٌ بَدِيْعٌ لَم يأتِ آباءَهم؛ أي ألَم يعلَمُوا أن الرُّسُلَ قد أرسِلُوا إلى مَن قبلهم ؟ والمعنى: أجاءَهم ما لَم يأتِ آباءهم الأوَّلين فأنكروهُ وأعرضُوا عنه. ويحتملُ أن يكون معناهُ: بل جاءَهم ما لَم يأتِ آباءَهم الأوَّلين فأنكروهُ وتركوا التدبر له[١]. لأن (أمْ) بمعنى: (بَلْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ ﴾ ؛ بالصِّدق والأمانة قبلَ إظهار الدَّعوة؟ ﴿ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ . قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا يَعْرِفُونَ مُحَمَّداً ﷺ صَغِيْراً وَكَبِيْراً صَادِقَ اللِّسَانِ وَفِيَّ الْعَهْدِ) وفي هذا توبيخٌ لَهم بالإعراضِ عنهُ بعدَ ما عرَفُوا صدقَهُ وأمانتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ ؛ أي قالوا: إنَّ مُحَمَّداً مجنونٌ لِيَصُدُّوا الوجوهَ ويصرفُوها عنهُ، وقد كذبوا في ذلكَ، فإن الْمَجْنُونَ يَهْذِي ويقولُ ما لا يفعلُ، ﴿ بَلْ جَآءَهُم ﴾ ؛ النبيُّ ﷺ ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي بالقُرْآنِ الذي لا تَخفى صِحَّتُهُ وحُسْنُهُ على أحدٍ، ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ ، قال مقاتل والسدي: (الْحَقُّ هُوَ اللهُ) والمعنى: لو جعلَ مع نفسهِ شَريكاً كما تحبُّون، ﴿ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ ؛ كقولهِ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[٢]. وَقِيْلَ: معناهُ: لو وُضِعَ الحقُّ علىأهوائِهم لَهلَكَ أهلُ السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّ الحقَّ يدعُو إلى الْمَحَاسِنِ، والْهَوَى يدعُو إلى الْقَبَائِحِ، ولو جُعِلَ الْهَوَى مَتْبُوعاً لبَقِيَتِ الأمورُ على الظُّلم والجهالاتِ، فتُخْلَطُ الأمورُ أقبحَ الاختلاطِ، ولَم يُوثَقْ بالوعدِ والوعيد، فأدَّى ذلك إلى الفسادِ؛ لأن الْهَوَى هو ميلُ النفسِ إلى الْمُشْتَهَى من غيرِ داعي الْهَوَى.

---

(١) سقطت من المخطوط مع تصحيف كلمة (تركوا)، وتمامه ضبط كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١٣٩.

(٢) الأنبياء / ٢٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾ ؛ أي أعطيناهُم القُرآنَ الذي فيه عِزُّهُمْ وشَرَفُهُمْ، وأمِرُوا بالعملِ بما فيه، ﴿ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم ﴾ ؛ القُرْآنَ، ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ وهو نظيرُ قولهِ ﴿وَإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1] وقولهِ ﴿كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[2] والمعنَى: تَوَلَّوا عمَّا جاءَهم به من شَرَفِ الدُّنيا والآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ ؛ معناهُ: أم تسألُهم على تبليغِ الرِّسالة الْجُعْلَ فيتثاقلون لذلك، قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَخَرَاجُ رَبكَ) أي ما وَعَدَ اللهُ لكَ من الأجرِ والثواب في الآخرة، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي أفضلُ الْمُعْطِيْنَ. وأصلُ الْخَرْجِ وَالْخَرَاجِ: الضريبةُ والغلَّة، كخراجِ الأرض.

وقال النضرُ بن شُميل: (سَأَلْتُ أبَا عَمْرو بْنَ الْعَلاَءِ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْخَرْجِ وَالْخَرَاجِ، فَقَالَ: الْخَرَاجُ مَا لَزِمَكَ وَوَجَبَ عَلَيْكَ أدَاؤُهُ، وَالْخَرْجُ مَا تَبَرَّعْتَ بهِ مِنْ غَيْرِ وُجُوبٍ)[3]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي إلى طريقٍ قائم يرضاهُ الله وهو الإسْلاَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ معناهُ: وإنَّ الذينَ لا يصدِّقون بالقيامةِ عن دينِ الحقِّ لَنَاكِبُونَ؛ أي مائلونَ عَادِلُونَ، ومنه النَّكْبَاءُ. وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّهم في الآخرةِ عن صراطِ جهنَّم يسقطونَ يُمْنَةً ويُسْرَةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي ولو رحِمْنَاهُمْ وكشَفْنا ما بهم من الشدَّة التي أصابت أهلَ مكَّة من الْجُوعِ والقحطِ الذي أخذهم سبعَ سنين لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ؛ أي لَتَمَادَوا في ضلالَتِهم يتحيَّرونَ ويتردَّدُونَ. وَقِيْلَ: ولو رحِمنَاهُم في الآخرةِ فردَدْناهُم إلى الدُّنيا لعَادُوا إلى الكُفْرِ كما كانوا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[4].

---

(١) الزخرف / ٤٤ . (٢) الأنبياء / ١٠ .

(٣) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٥٢. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١٤٢ مختصراً.

(٤) الأنعام / ٢٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ ﴾ ؛ **يعني الجوعَ الذي أصابَهم بدعوةِ النبيِّ ﷺ:[اللَّهُمَّ سِنِيْنَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ]**[١] **فَجَاعُوا حتى أكلُوا الوبَر والدمَ**[٢]، ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ **أي فما خضعوا لربهم وما تضرَّعوا ولا انقادُوا في الأمرِ لله وما رَغِبُوا إليه في الدُّعاء، ولو كشفَ عنهم العذابَ لَم يشكُرُوا، والاستكانةُ: طلَبُ السُّكُون، والتَّضرُّعُ: طلبُ كَشْفِ البلاءِ مِن القادر عليهِ.**

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ؛ **قِيْلَ: إنه القتلُ يومَ بدرٍ، وَقِيْلَ: إنه عذابُ الآخرة،** ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ **أي آيسُون يتحيَّرون، والإبْلاَسُ: اليأسُ مع التحيُّر. وَقِيْلَ: لَمَّا أصابَهم من الجوعِ ما أصابَهم، جاءَ أبو سفيانَ إلى النبيِّ ﷺ وقالَ: أنْشِدُكَ اللهَ وَالرَّحِمَ، ألَسْتَ تَزْعُمُ أنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ ؟ قَالَ [بَلَى] قَالَ: فَإنَّكَ قَدْ قَتَلْتَ الآبَاءَ بالسَّيْفِ وَالأَبْنَاءَ بالْجُوعِ، فَأنْزَلَ اللهُ تعالَى هذه الآيةَ**[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ **أي خلقَ لكم السمعَ تسمعون به، والأبصارَ تُبصرون بها، والقلوبَ تعقِلُون بها، فشُكْرُكم فيما أعطيَ**[٤] **إليكم قليلٌ**[٥]**، والأفئدةُ هي القلوبُ. قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ **أي خلَقَكم في الأرضِ،** ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ **أي تُجمعون إلى موضعِ الحساب والجزاءِ.**

---

(١) تقدم.

(٢) في المخطوط: (الوس بالدم) والصحيح كما أثبتناه. وهو يسمى الْعِهْلز. أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٣٩٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج ٣ ص١٥٥: كتاب التفسير: باب كراهة السمر: الحديث (٣٥٣٩). والبيهقي في دلائل النبوة: ج ٤ ص٨١. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٧٣؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه علي بن الحسين بن واقد، وثقه النسائي وغيره، وضعفه أبو حاتم. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٩٣٩٨) بإسناد آخر.

(٤) في المخطوط: (طبع) وهو غير مناسب.

(٥) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٤ ص٢٤٦؛ ذكر ابن عادل قال: (قال أبو مسلم: وليس المراد أنَّ لهم شكراً وإن قلَّ، لكنه كما يقال للكفور والجاحد للنعمة: ما أقلَّ شكرَ فلان).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ ؛ أي يُحيِيكم في أرحام امَّهاتكم، ويُمِيتُكم عندَ انقضاء آجالِكم، ﴿ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ ﴾ ؛ أي لهُ مُلْكُ اختلافِهما ومُرورهما يوماً بعد ليلةٍ، وليلةً بعد يوم، ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أدِلَّةَ اللهِ تعالى تستدلُّون به على وحدانيَّة اللهِ تعالى.

قولهُ: ﴿ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي لَم يَعْقِلُوا أدِلَّتَنا ولَم يستدِلُّوا بها علينا، بل كَذبُوا بالبعثِ كما كذبَ آباؤُهم قبلَهم، والمعنى: كذبت قريشُ بالبعثِ مثلَ ما كذبَ الأولون، ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ ﴾ ؛ أي خُوِّفْنَا بهذا الذي تُخَوِّفُنَا به من قبلِ أن تُخوِّفَنا به، ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ أي ما هذا الذي تُخوِّفُنا به يا مُحَمَّدُ إلاّ أحاديثُ الأوَّلين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل ﴾ ؛ لَهم يا مُحَمَّدُ: ﴿ لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ ؛ من الخلقِ والعجائب، أجِيبُوا ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ خالِقَها. ثُم أجابَ اللهُ عنهم لَمَّا عَلِمَ أنَّهم لا يُجيبون فقال: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ ﴾ لَهم يا مُحَمَّدُ: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ فتستدِلُّون على أنَّ مَن لهُ مُلْكُ السَّموات والأرضِ وما فيهما قادرٌ على البعثِ والنُّشور، فإنَّ مَن مَلَكَ الأرضَ ومَن فيها مَلَكَ إنشاءَها بعدَ هلاكِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ عِقابَهُ على إنكار البعث. ومَن قرأ (سَيَقُولُونَ للهِ) ومعناهُ: كأنه قال: لِمَنِ السَّمواتُ ؟ فقالَ: للهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ ﴾ ؛ أي مَن ذا الذي لهُ خزائنُ كلِّ شيء وهو يُغِيْثُ ويَمنع من السُّوء، ولا يَمنع منه مَن أرادَ به سوءً، أجِيبُوا ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ ﴾ ؛ ملكوتُ كلِّ شيء، ﴿ قُلۡ ﴾ لَهم يا مُحَمَّدُ ﴿ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ أي تُصْرَفُونَ عن الحقِّ إلى ما ليسَ له أصلٌ ولا حقيقةٌ، وقد ألْقِيَ إليكم حقائقَ الأدلة.

والمعنى بقوله: (فَأنَّى تُسْحَرُونَ) أي كيفَ يُخَيَّلُ لكمُ الحقُّ باطلاً، والصحيحُ فاسداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛أي جِئْنَاهُمْ بالحقِّ وبَيَّنَّا لَهم، يعني أتيناهم بالتوحيدِ والقُرْآنِ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ فيما يُضِيفُونَ إلى اللهِ من الولدِ والشَّريك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ ؛ هذا ردٌّ على اليهودِ في قولِهم: عُزيرٌ ابن اللهِ، وعلى النصارى في قولِهم: المسيحُ ابن اللهِ، وعلى مَن قال مِن المشركين: الملائكةُ بنات الله، ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ ، هذا ردٌّ على عَبَدَةِ الأوثان. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ ﴾ ؛ معناهُ: لو كان معهُ آلِهةٌ لانفردَ كلُّ إلهٍ بخلقهِ، لا يرضى أن يُضافَ خلقهُ وإنعامه إلى غيرِه، ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ؛ أي لطلبَ بعضُهم قَهْرَ بعضٍ، فلم يَنْتَظِمْ أمرُهما كما لا ينتظمُ أمر بلدٍ فيه مِلكان قاهران.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي تَنْزِيْهاً للهِ ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ من اتِّخاذِ الولد والشريكِ، ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ ؛ مَن خَفَضَهُ جعلَهُ نَعْتَ اللهِ، ومَن رفعه كان خبرَ مبتدأ محذوفٍ تقديرهُ: هو عَالِمُ، فقراءةُ الخفضِ هي قراءةُ ابنِ كثيرٍ وأبي عمرو، وقراءةُ الباقين بالرفع(١). ومعنى الآيةِ: عَالِمِ ما غابَ عن العبادِ وما عَلِمَهُ العبادُ، ﴿ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: قُلْ يا مُحَمَّدُ رب أرنِي ما يوعدونَ من العذاب والنِّقمة؛ يعني القتلَ ببدر. وَقِيْلَ: معناهُ: قل يا مُحَمَّد: يا ﴿ رَبِّ ﴾ ؛ إنْ أرَيْتَنِي ما يوعدونَ من العذاب، ﴿ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي منهُم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٦. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١٤٧؛ قال القرطبي: (وقرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائي: (عالِمُ) بالرفع على الاستئناف، أي هو (عَالِمُ الْغَيْبِ). الباقون بالجر على الصفة لله. وروى رويس عن يعقوب: (عَالِمَ) إذا وصل خفضاً و(عالِمُ) إذا ابتدأ رفعاً).

لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ ؛ أي نحنُ قادرونَ على تعذيبهم، لكنَّ الإمــهالَ لحكمـةٍ تقتضـي ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ ؛ يعني بالإحسان الإعراضِ والصَّفحِ، والسَّيِّئَةُ: أذى المشركينَ إيَّاهُ، وهذا قبل الأمرِ بالقتـال، والمعنـى: اذكـر لَـهم الْمُقَاتَلَةَ والحجةَ على طريقِ التلطُّفِ والاستدعاءِ إلى الحقِ كما قال تعـالى ﴿فَقُـولاَ لَـهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾(١). قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ؛ أي بمـا يكذِّبـون وبما يقولونهُ من الشِّرك فيجازيهم عليه.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ ؛ أي اعْتَصِمُ بكَ وأمتنعُ بكَ مِن هَمَزَاتِ الشَّياطين، وهمزاتُ الشياطين: دفعُهم النـاسَ إلى المعاصي بالإغواءِ، ويقال: الْهَمْزَةُ هي الْوَسْوَسَةُ الشَّاغِلَةُ عن أمرِ الله تعالى، ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ ؛ عندَ القراءةِ وعنـد الموتِ وعنـد الغَضَـب. وعـن الحسن: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَامَ إلَى الصَّلاَةِ فَهَلَّلَ وَكَبَّرَ ثلاثاً؛ وَقَالَ: [أعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَلَمْزِهِ وَنَفْثِهِ وَنَفْخِهِ] فَسُئِلَ عَنْ هَمْزِهِ؛ فَقَالَ: [هُـوَ أخْـذُ الشَّـيْطَانِ لِلإنْسَانِ حَتَّى يُصْرَعَ وَيَجِنَّ] وَسُئِلَ عَنْ نَفْثِهِ؛ فَقَالَ: [هُوَ الشِّعْرُ] وَسُئِلَ عَنْ نَفْخِـهِ؛ فَقَالَ: [إنَّهُ الْكِبْرُ](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ ؛ أخبرَ اللهُ تعالى أن هؤلاء الكفار الذين يُنكرونَ البعثَ يَسألونَ الرجعةَ إلى الدُّنيا عند معاينـةِ الموت. والمعنى: حتَّى إذا عَايَنَ أحدُهم الموتَ وأعوانه قال: رِّب ارْجِعُونِ إلى الدُّنيا.

وإنَّما قال: (رَب ارْجِعُونِ) بلفظ الجماعةِ لأن اللهَ تعالى يُخبر عن نفسهِ بما يُخبرُ به عن الجماعةِ في قولهِ تعالى ﴿إنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيـتُ﴾(٣) وأمثالـهِ، وكذلـك العـربُ

---

(١) طه / ٤٤ .

(٢) رواه الإمام أحمـد في المسـند: ج ٥ ص٢٥٣. وعبدالـرزاق في المصنـف: ج ٢ ص٨٤: الحديـث (٢٥٨٠).

(٣) ق / ٤٣ .

تُخَاطِبُ الرجلَ الواحد بلفظِ الجماعة كما يقولُ الرجل لآخر: أنتُم تفعلونَ كذا ونحنُ نفعل كذا، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأعْمَلُ طَاعَةَ اللهِ)[2] ﴿ فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ ؛ أي في ما مَضَى مِن عُمري، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآۚ﴾ لا يرجعُ إلى الدُّنيا، ولا يجوزُ أن يكون (لَعَلَّ) في هذه الآية للشَّكِّ؛ لأنه لا معنى لذلكَ مع حرصهِ على الرَّجعة والنجاةِ من الموت والعذاب، وإنَّما المعنى: لِكَي أعملَ صالحاً، و(كَلاَّ) كلمة رَدْعٍ وزَجْرٍ وتنبيهٍ أي لا يكونُ له ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهَا﴾ ؛ أي من مسألةِ الرُّجوع إلى الدُّنيا، ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ ، عند موتهِ ولا فائدةَ في ذلكَ، ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠ ﴾ ؛ أي مِن أمَامِهم حَاجِزٌ وحجابٌ بينهم وبين الرُّجوعِ إلى الدُّنيا، وهم فيه إلى يومِ يبعثون، فالقبرُ حاجزٌ، وكل فصلٍ بين شَيئين بَرْزَخٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي النَّفْخَةَ الأُولَى)[3]. وَقِيلَ: هي النفخةُ الثانية. وقولهُ تعالى: (فَلاَ أنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ)، قال الحسنُ: (وَاللهِ إنَّ أنْسَابَهُمْ لَقَائِمَةٌ بَيْنَهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أخِيهِ، وَأمِّهِ وَأبيهِ﴾[4] وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَنْتَفِعُونَ بأنْسَابهِمْ وَلاَ يَتَعَاطَفُونَ عَلَيْهَا، فَكَأنَّهُمْ لاَ أنْسَابَ لَهُمْ).

وَقِيْلَ: معناهُ: لا تَفَاخُرَ بينهم كما يتفاخَرون في الدُّنيا، ولا يتساءَلون كما تسألُ العربُ في الدُّنيا: مِن أيِّ قَبيلٍ أنتَ ؟ وَقِيْلَ: لا يسألُ بعضُهم بعضاً عن خبرهِ وحاله كما كانوا في الدُّنيا؛ لشُغْلِ كلٍّ واحد منهما بنفسه، ولا يسألُ بعضهم بعضاً أنْ يحملَ شيئاً من ذنوبه.

---

(١) القصص / ٩ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص١١٥؛ قال السيوطي: (أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٤٢٤).

(٤) عبس / ٣٤-٣٥ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ؛ يعني بالطاعاتِ؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ ؛ وَقِيْلَ: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ بكلمةِ التَّوحيدِ، فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ، قال ﷺ: [وَلَوْ وُضِعَتِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَمَا فِيْهِنَّ وَالأَرْضُ فِي كَفَّةٍ، رَجَحَتْ بِجَمِيْعِ ذلِكَ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ؛ يعني بكلمة الشرك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ ؛ ظاهرُ المعنى. قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ؛ قِيْلَ: الفَلْحُ هو الإحراقُ، يقالُ: لَفَحَتْهُ النارُ إذا أحْرَقَتْهُ، وتأثيرُ الفَلْحِ أعظمُ مِن تأثيرِ النَّفْحِ، والنفحُ مذكورٌ في قوله ﴿نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِكَ﴾[2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ ؛ الْكُلُوحُ: تَقَلُّصُ الشَّفَتَيْنِ عنِ الأَسْنَانِ حتى تبدُو الأسنانُ.

قال الحسنُ: (تَغْلُظُ شِفَاهُهُمْ، وَتَرْتَفِعُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا، وَتَنْزِلُ شَفَتُهُ السُّفْلَى، فَتَظْهَرُ الأَسْنَانُ، فَهُوَ أقْبَحُ مَا يَكُونُ). قال ﷺ: [وَتَشْوِيْهِ النَّارُ حَتَّى تُقَلِّصَ شَفَتَهُ الْعُلْيَا فَتَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَى حَتَّى تَبْلُغَ سُرَّتَهُ][3]، قال ابنُ مسعود: (أَلَمْ تَرَ إلَى الرَّأْسِ الْمَسْمُوطِ بالنَّار كَيْفَ بَدَتْ أسْنَانُهُ وَقُلِّصَتْ شَفَتَاهُ)[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ ؛ أي تَجحَدُون، ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ ؛ بكثرةِ معَاصِينا، ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ ؛ في الدُّنيا فلم نَهْتَدِ. قرأ الكوفيُّون غيرُ عاصمٍ:(شَقَاوَتُنَا) بالألف وفتح الشِّين، وهُما بمعنى واحدٍ. الشِّقْوَةُ: هي الْمَضَرَّةُ اللاَّحِقَةُ فِي العَاقِبَةِ،

---

(١) الحديث عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٥ ص٣٦٥: الحديث (٤٧٢٢) وهنا ساقه بمعناه. والترمذي في الجامع: أبواب الإيمان: باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله: الحديث (٢٦٣٨)، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) الأنبياء / ٤٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٨٨. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٢٥٨٧). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: باب بيان عذاب أهل النار: الحديث (٣٥٤٢).

(٤) في الدر المنثور: ج ٦ ص١١٨؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو نعيم في الحلية).

والسَّعَادَةُ: هي المنفعةُ الـتي تكـون في العاقبـةِ. والشَّـقْوَةُ بفتـحِ الشّـين بمنْزلَـةِ الفَعْلَـةِ الواحدةِ، وكسرُ الشّين في هذا دالٌّ على الكثرةِ واللُّزومِ(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ ؛ أي مِن النار إلى الدُّنيا، ﴿ فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التَّكذيب والمعاصِي، ﴿ فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

قولـهُ تعـالى: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ (اخْسَـئُوا) كلمـةُ إهَانَةٍ وَمَذلَّةٍ؛ وهي في الأصلِ لطردِ الكِلاب، تقولُ: خَسَأْتُ الكلبَ إذا طَردْتُهُ؛ فَخَسَأَ أي تباعَدَ. قال الزجَّاجُ: (مَعْنَـاهُ تَبَـاعَدُوا تَبَـاعُدَ سُـخْطٍ، وَابْعُـدُوا بُعْـدَ الْكَلْـب، وَلاَ تُكَلِّمُونِ فِي رَفْعِ الْعَذاب عَنْكُمْ، وَلاَ تَسْأَلُونِ الْخُرُوجَ مِنَ النَّار، فَإنِّي لاَ أدْفَـعُ عَنْكُـمُ الْعَذابَ، وَلاَ أهَوِّنُهُ عَلَيْكُمْ)(٢).

قال عبدُالله بن عَمرو: (أنَّ أهْلَ جَهَنَّمَ يَدْعُونَ مَالِكاً أرْبَعِيْنَ عَاماً فَلاَ يُجِيْبُـهُمْ، ثُمَّ يَقُولُ: إنَّكُمْ مَاكِثُونَ، ثُمَّ يُنَادُونَ رَبَّهُمْ: رَبَّنَا أخْرِجْنَا مِنْهَا فَإنْ عُدْنَا فَإنَّا ظَالِمُونَ. فَلاَ يُجِيْبُهُمْ مِقْدَارَ عُمْرِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ: إخْسَئُوا فِيْهَا وَلاَ تُكَلِّمُون بَعْدَ ذلِكَ، وَيَكُونُ لَهُمْ زَفِيْرٌ كَزَفِيْرِ الْحَمِيْرِ، وَشَهِيْقٌ كَشَهِيْقِ الْبغَال، وَعَوِيٌّ كَعَوِيِّ الْكِلاَب)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ﴾ ؛ أي يقـالُ لـهم: إنـه كـان طـائفةٌ مـن عِبـادي يقولـون: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ وهم الأنبياءُ والمؤمنون، وهذا تعليـلٌ لاسـتحقاقِهم العـذابَ بمـا عامَلُوا الأنبياءَ والمؤمنين باتِّخاذِهم سِخْرِيّاً.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ ؛ أي تَسْخَرُونَ منهم وتَسْتَهْزِئُونَ بهم. قرأ نافعُ وحمزة والكسائيُّ: بضَمِّ السِّين ها هنا وفي ص، وقـرأ البـاقونَ بكسـرِها وهُمـا

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٦-١٨٧.

(٢) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٠؛ قال الزجاج: (مَعْنَى اخْسَـئُوا: تَبَـاعَدُوا تَبَـاعُدَ سُـخْطٍ، يُقَالُ: خَسَأْتُ الْكَلْبَ أخْسَؤُهُ: إذا زَجَرْتُهُ لِيَتَبَاعَدَ).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٥٤٤). وابن أبـي حـاتم في التفسـير: ج ٨ ص٢٥٠٨: الأثر (١٤٠٤٦).

لُغتان،ولَم يختلفوا في الزُّخْرُفِ أنه بالضَّمِّ؛ لأنه بمعنى التَّسخيرِ[١].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ لاشْتِغالِكم بالسُّخرية منهم وبالضَّحكِ، فنَسَـبَ الأنبياءَ إلى عبادِهِ المؤمنينَ، وإن لَـم يفعلوا؛ لِمَا أنَّهم كانوا السببَ فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ ؛ على أذِيَّتِكُمْ واستهزَائِكم، ﴿ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ في الجنَّةِ. قرأ حمزةُ والكسائيُّ (إنَّـهُمْ) بالكسرِ على الاستئنافِ، وقرأ الباقونَ بالفتح على معنى جَزَيْتُهُمْ بالْفَوْزِ[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ أي كـم لبثتم في القبور؟ وقيل المكث في الدنيا، يقول الله تعالى للكفار يوم البعث: كَـمْ لَبِثْـتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ ﴿ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ ﴾ ؛ فيَرَوْنَ أنَّهم لَم يلبَثُـوا إلاَّ يوماً أو بعضَ يومٍ لعِظَمِ ما هُم فيه من العذاب، نَسَوا ذلكَ. ويقالُ: يَلْحَقُهُمْ دَهْشَةٌ وحَيرةٌ فيَنْسَوْنَ ذلـكَ. وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ يعنِـي الملائكـةَ الذين يحفظونَ عليهم آجالَهم. وقرأ ابنُ كثير: (قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ) على فعلِ الأمر، وقولهُ: ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ ﴾ ؛ في جَنْـبِ لُبْثِكُـمْ في العـذاب[٣] ﴿ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا ﴾ ؛ أي أظَنَنْتُـمْ أنَّـا خَلَقْنَـاكُمْ للعَبَـثِ تـأكلونَ وتشـربون وتفعلـونَ مـا تُريـدون وتَموتـون، ﴿ وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ أي فـلا تُحشـرونَ للحسـاب، ولا تُرجعـون إلى موضـعٍ لا تَملِكون فيه لأنفُسِكم ضَرّاً ولا نفعاً ؟

قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أفَحَسِبْتُمْ أنَّمَـا خَلَقْنَـاكُمْ عَبَثـاً كَمَـا خَلَقْنَـا الْبَـهَائِمَ، لاَ ثَوَابَ لَها وَلاَ عِقَابَ عَلَيْهَا لَمَا قَالَ ﴿أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أنْ يُـتْرَكَ سُـدًى﴾[٤] أي يُـهْمَلَ

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٧. (٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٩.

(٣) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٩.

(٤) القيامة / ٣٦.

كَمَا تُهْمَلُ الْبَهَائِمُ؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي هو الْمَلِكُ الْحَقُّ الذي لهُ الملكُ؛ لأنه مَلَكَ غَيْرَهُ، وكلُّ مَن مَلَكَ غَيْرَهُ فملكهُ مستعارٌ له، فإنه لا يَملِكُ إلاّ بتمليكهِ الله إياه، فكأنه لا يعتَدُّ بملكه في ملكِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ سُمي العرشُ كَرِيْماً لكثرةِ خيرهِ بمن حولَهُ، يقالُ: فلانٌ كريمٌ؛ أي كثيرُ الخير.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ ؛ أي مَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إلَهاً آخرَ لَم يَنْزِلْ بعبادتهِ كتابٌ ولا بُعِثَ لَها رسولٌ ولا حُجَّةَ لَهُ عليه، فإنَّما حسابهُ عندَ ربهِ، فهو يجازيهِ بما يستحقُّ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾(١)، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يُسْعَدُ من جَحَدَ وكَذبَ، ولا يأمَنُ ولا ينجُو من عذاب الله الكافرونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ؛ يحتملُ أن يكون أمراً للنبيِّ ﷺ بالاستغفار منهُ، كما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [إنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِيْنَ مَرَّةً](٢)، ويُروى [مِائَةَ مَرَّةٍ](٣).

وعن ابنِ مسعود: أنَّهُ مَرَّ بشَابٍّ مُبْتَلَى، فَقَرَأَ فِي أذُنِهِ (أفَحَسِبْتُمْ أنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً) حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ فَبَرِئَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [وَمَاذا قَرَأتَ فِي أذُنِهِ ؟] فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: [وَالَّذِي بَعَثَنِي بالْحَقِّ نَبيّاً؛ لَوْ أنَّ رَجُلاً مُؤْمِناً قَرَأهَا عَلَى جَبَلٍ لَزَالَ](٤).

آخر تفسير سورة (المؤمنون) والحمد لله رب العالمين

(١) الغاشية / ٢٦ .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٥ ص١٢٤: الحديث (٤٢٣٤). والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٨٢. وابن ماجة في السنن: كتاب الأدب: الحديث (٣٨١٦).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط: ج٣ ص٤٥٦: الحديث (٢٩٧٨). والإمام أحمد في المسند: ج٥ ص٣٩٤. وابن ماجة في السنن:كتاب الأدب: باب الاستغفار: الحديث (٣٨١٥).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٤٠٧٠). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص١٢٢؛ قال السيوطي: (أخرجه الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن السني في عمل اليوم والليلة وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه).

سُورَةُ النُّـــورِ

سُورَةُ النُّور مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسَةُ آلاَفٍ وَسِتُّمِائَةٍ وَثَمَانُونَ حَرْفاً، وَأَلْفٌ وَثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتٌّ عَشْرَةَ كَلِمَةً، وَأَرْبَعٌ وَسِتُّونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا ﴾ ؛ أي هذهِ سورةٌ أنزَلْنَـا جـبريلَ عليه السلام بـها، وقـرأ طلحةُ بن مُصَرِّف (سُورَةً) بالنصب على معنى: أنْزَلْنَا سورةً كما يقالُ: زيـداً ضربتـهُ، ويجوزُ أن يكونَ نصباً على الإغراءِ[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَرَضْنَاهَا) أي أوْحَيْنَا فيها أحْكَاماً وفرائضَ مختلفة عليكُم وعلى مَن بعدَكم إلى يوم القيامةِ، وجَحَدَ من قـرأ بـالتخفيفِ، قولهُ ﴿إنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾[2] أي أحكامَ القُرآن، والتشـديدُ في (فَرَّضْنَاهَـا) لكثرةِ ما فيـها مـن الفرائـضِ[3]. قـال مجـاهدُ: (يَعْنِـي الأَمْـرَ بـالْحَلاَلِ وَالنَّـهْيَ عَـنِ الْحَـرَامِ)[4]. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝١ ﴾ ؛ أي دلاَلاتٍ واضحاتٍ على وحدانيَّتنا وأحكامِنا لكي تتَّعِظُوا فتعملُوا بما فيها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ ﴾ ؛ قـال سِيبَوَيْهِ: (مَعْنَاهُ فِي الْفَرَائِضِ عَلَيْكُمْ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي؛ لأَنَّـهُ لَـوْلاَ ذلِـكَ لِنُصِـبَ بـالأَمْرِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: فَاجْلِدُوا)[5]. والْجَلْدُ في اللُّغة: ضَرْبُ الْجِلْدِ، يقالُ: جَلَدَهُ؛ إذا ضَرَبَ جِلْدَهُ ورأسَهُ، إذا ضَرَبَ رَأسَهُ وَبَطَنَهُ، إذا ضَرَبَ بَطْنَهُ.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٨٨. والكشاف للزمخشري: ج ٣ ص٢٠٣.
(٢) القصص / ٨٥ .
(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٨٨. والكشاف للزمخشري: ج ٣ ص٢٠٣.
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٤٥٦).
(٥) ينظر: الكتاب لسيبويه: ج ١ ص١٤٣-١٤٤، ذكره بمعناه.

ومعنى الآيةِ: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي إذا كانا حُرَّيْنِ بالِغَين عاقلَين بكْرَين غيرِ مُحصنين، فَاضْرِبُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ. فأمَّا إذا كانا مَملُوكَين، فيُحَدُّ كلُّ واحدٍ منهما خمسونَ جلدةً في الزِّنا لقولهِ تعالى في الإماءِ: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾(١) يعني إذا عَقِلْنَ فعليهنَّ نصفُ حدِّ الحرائرِ.

وإذا كان الزَّانِي مُحصِناً فحدُّهُ الرجمُ؛ لأنَّ رسولَ الله ﷺ رَجَمَ مَاعِزَ بنَ مالك الأسلمِيَّ بزنَاهُ، وكان قد أحْصَنَ. وكانَ عمرُ رضي الله عنه يقولُ: (إنِّي لأَخْشَى إنْ طَالَ الزَّمَانُ أنْ يَقُولَ قَائِلٌ: لاَ نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى، فَيَضِلُّواْ بتَرْكِ الْفَرِيْضَةِ أنْزَلَهَا اللهُ، وَقَدْ قَرَأنَا: [الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إذا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ] وَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، وَلَوْلاَ أنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: زَادَ عُمَرُ فِي كِتَابِ اللهِ لَكَتَبْتُ ذلِكَ عَلَى حَاشِيَةِ الْكِتَابِ)(٢). واجتمعتِ الأمةُ على رجمِ الْمُحْصَنَيْنِ إذا زَنَيَا إلاّ الخوارجَ.

وأما الإحصانُ في هذا فهو أن يكونَ حُرّاً بالِغاً عاقلاً مُسلماً قد تزوَّجَ قبلَ ذلك نِكاحاً صحيحاً، ودخلَ بزوجتهِ في وقتٍ كانا جميعاً فيه على صفةِ الإحصانِ، وهذا قولُ أبي حنيفةَ ومحمَّد، فإنَّهما يشرُطانِ هذه الشَّرائطَ السبعةَ في إحصانِ الزَّانِي.

وأما أبو يوسُفَ فلا يجعلُ الإسلامَ من شرائطِ الإحصان، ولا يشترطُ كونُهما على صفةِ الإحصانِ وقتَ الدُّخول في النكاحِ الصحيح، فجعلَ الرجلَ البالغَ العاقلَ المسلمَ مُحْصَناً بالدخولِ بزوجتهِ الأَمَةِ والصبيَّة والكتابيَّة، ويجعلُ الزوجينِ الرَّقيقينِ محصَنَين بالدخولِ في النكاحِ الذي بينَهم إذا أُعْتِقَا بعدَ ذلك، فإن لَم يوجد الدخولُ في ذلك النكاحِ بعد العِتْقِ إلى أن زَنَى واحدٌ منهما، فهُمَا غيرُ محصَنين عندَهُ.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه: أنَّ رَجُلاً مِنَ الأَعْرَابِ جَاءَ إلَى رَسُولِ اللهِ: أنْشُدُكَ اللهَ

---

(١) النساء / ٢٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الحدود: باب رجم الحبلى: الحديث (٦٨٣٠). ومسلم في الصحيح: كتاب الحدود: باب رجم الثيب بالزنى: الحديث (١٥/ ١٦٩١). والإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٩ بإسناد صحيح.

إلاَّ قَضَيْتَ لِي بكِتَاب اللهِ، فَقَالَ الْخَصْمُ الآخَرُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ؛ اقْضِ بَيْنَنَا بكِتَاب اللهِ، فَقَالَ ﷺ: [قُلْ] قَالَ: إنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيْفاً عَلَى هَذا، فَزَنَى بامْرَأتِهِ، وَإنِّي أخْبَرْتُ أنَّ عَلَى ابْنِي الرَّجْمَ، فَافْتَدَيْتُهُ بمائَةِ شَاةٍ وَوَلِيْدَةٍ، فَسَأَلْتُ أهْلَ الْعِلْمِ فَأَخْبَرُونِي أنَّ عَلَى ابْنِي مِائَةَ جَلْدَةٍ وَتَغْرِيْبَ عَام، وَأنَّ عَلَى امْرَأةِ هَذا الرَّجْمَ، فَقَالَ ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بكِتَاب اللهِ، الْوَلِيْدَةُ وَالْغَنَمُ رَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيْبُ عَام، وَاغْدُ يَا أنَسُ إلَى امْرَأةِ هَذا، فَإن اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا] قَالَ: فَغَدَا عَلَيْهَا، فَاعْتَرَفَتْ؛ فَأَمَرَ بهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرُجِمَتْ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لاَ تَأْخُذْكُمْ بهِمَا رَأفَةٌ ورحمةٌ يَمنعُ عن إقامةِ الحدِّ، ويحلُّ بمقدار عددهِ وصفته، فإنه ليس من صفاتِ المؤمنينَ تضييعُ حُدودِ الله، وقولهُ تعالى: (فِي دِينِ اللهِ)، قال ابنُ عبَّاس: (فِي حُكْمِ اللهِ) كقولهِ ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾[٢] أي في حُكْمِهِ، ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ ، ولا تُعطِّلوا الحدودَ. قرأ ابنُ كثيرٍ (رَأَفَةٌ) بفتحِ الهمزة. وإنَّما ذكرَ الضَّربَ بلفظِ الْجَلْدِ لئلاَّ يُبَرِّحَ ولا يبلغَ به اللحمَ.

واختلفَ العلماءُ في قوله (وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بهِمَا رَأفَةٌ) فقال قومٌ: معناهُ: ولا تأخذْكم الرأفةُ بهما فتعطِّلوا الحدودَ ولا تقيموها شفقةً عليهما، وهو قولُ عطاء ومجاهدُ وقتادة وعكرمة وسعيدُ بن جبير والنخعي والشعبيُّ. وقال الزهريُّ وسعيدُ بن المسيَّب والحسنُ: (مَعْنَاهُ: اجْتَهِدُوا فِي الْجَلْدِ وَلاَ تُخَفِّفُوا كَمَا يُخَفَّفُ فِي حَدِّ الشُّرْب، بَلْ يُوجَعُ الزَّانِي ضَرْباً، وَلاَ يُخَفَّفُ رَأفَةً لَهُ، كَأنَّهُ قَالَ: لاَ تَأْخُذْكُمْ بهِمَا فَتُخَفِّفُوا الضَّرْبَ، بَلْ أوْجِعُوهُمَا ضَرْباً)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي لِيَكُنْ إقامةُ الحدِّ عليهما بحضرةِ جماعةٍ من المؤمنين ليستفيضَ الخبرُ بهما، ويُبَلِّغَ الشاهدُ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الشروط: الحديث (٢٧٢٤). ومسلم في الصحيح: كتاب الحدود: الحديث (٢٥/ ١٦٩٧-١٦٩٨).

(٢) يوسف / ٧٦ .

(٣) جامع البيان: الآثار (١٩٤٦٠-١٩٤٦٨).

الغائبَ، فيرتدعُ الناس عن مثلهِ، ويرتدعُ المضروبُ ويستحيي فلا يعودُ إلى مثلِ ذلك. واختلَفُوا في مبلغِ عدد الطائفةِ، فقال الزهريُّ: (أقَلُّهُ ثلاثَةٌ)، وقال ابنُ زيدٍ: (أرْبَعَةٌ بَعْدَ شُهُودِ الزِّنَا)[١]، وقال قتادةُ: (نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ)[٢].

وفي الخبر: [إقَامَةُ حَدٍّ فِي أرْضٍ خَيْرٌ لأَهْلِهَا مِنْ مَطَرِ أرْبَعِيْنَ يَوْماً][٣]. وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قالَ: [يَا مَعْشَرَ النَّاسِ؛ اتَّقُوا الزِّنَا فَإنَّ فِيْهِ سِتَّ خِصَالٍ؛ ثَلاَثٌ فِي الدُّنْيَا وَثَلاَثٌ فِي الآخِرَةِ، فَاللاَّتِي فِي الدُّنْيَا: تُذْهِبُ الْبَهَاءَ، وَتُورِثُ الْفَقْرَ، وَتُنْقِصُ الْعُمْرَ. وَأمَّا اللاَّتِي فِي الآخِرَةِ: فَتُوجِبُ السُّخْطَ؛ وَسُوءَ الْحِسَابِ؛ وَالْخُلُودَ فِي النَّارِ][٤].

وقال ﷺ: [أعْمَالُ أُمَّتِي تُعْرَضُ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ، فَاشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى الزُّنَاةِ][٥]. وعن وهب بن مُنبه قال: (مكتوبٌ في التوراةِ: الزَّانِي لا يَموتُ حتى يفتقرَ، والقوَّادُ لا يَموتُ حتى يعمَى).

فإن قيلَ: لِمَ بدأ اللهُ بذكرِ الزَّانيةِ قبل ذِكر الزَّانِي فقالَ تعالى (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٤٨٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٤٧٩).

(٣) رواه النسائي في السنن: كتاب قطع السارق: باب الترغيب في إقامة الحد: ج ٨ ص٧٦. وابن حبان في الإحسان: كتاب الحدود: الحديث (٤٣٩٧). والطبراني في الكبير: ج ١١ ص٢٦٧: الحديث (١١٩٣٢)، وفي الأوسط بلفظ: [وَحَدٌّ يُقَامُ فِي الأَرْضِ بِحَقِّهِ أزْكَى فِيهَا مِنْ مَطَرِ أرْبَعِينَ عَاماً].

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٤ ص١١١؛ وقال: (غريب من حديث الأعمش، تفرد به مسلمة، وهو ضعيف الحديث) من حديث حذيفة. وأخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٨ ص١٩-٢٠: ترجمة مسلمة بن علي: الرقم (١٧٨/ ١٧٩٩)؛ وقال: (منكر ... متروك الحديث). وبلفظ [إياكم والزنا فإن فيه أربع خصال...] أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٧٠٩٢) عن ابن عباس. وفي مجمع الزوائد: ج٦ ص٢٥٤-٢٥٥؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عمرو بن جميع، وهو متروك).

(٥) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١٦٧. ولم أقف عليه.

وبذكرِ السَّارقِ قبلَ ذِكر السَّارقةِ في آيةِ السَّرقة فقالَ: ﴿وَالسَّارقُ وَالسَّارقَةُ﴾[(١)]؟ قِيلَ: لأنَ الرجُلَ هو الذي يسرقُ غالباً، والمرأةُ هي السببُ في الزّنا غالباً، فأخرجَ الخطابَ في المؤمنين على الأغلب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ، دَخَلُوا الْمَدِيْنَةَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَسَاكِنُ وَلا مَالٌ يَأْكُلُونَ مِنْهُ وَلاَ أهْلٌ يَأْوُونَ إلَيْهِمْ، وَفِي الْمَدِيْنَةِ بَاغِيَاتٌ سَافِحَاتٌ يَكْرِيْنَ أنْفُسَهُمَّ وَيَضْرِبْنَ الرَّايَاتِ عَلَى أبْوَابهِنَّ يَكْتَسِبْنَ بذلِكَ، وَكَانَ أوْلَئِكَ الْمُهَاجِرِيْنَ الْفُقَرَاءَ يَطْلُبُونَ مَعَايشَهُمْ بالنَّهَار وَيَأْوُونَ إلَى الْمَسَاجِدِ باللَّيْلِ، فَقَالُوا: لَوْ تَزَوَّجْنَا مِنْهُنَّ فَعِشْنَا مَعَهُمْ إلَى يَوْمِ يُغْنِيْنَا اللهُ عَنْهُنَّ، وَقَصَدُوا أنْ يَتَزَوَّجُوهُنَّ وَيَنْزِلُوا مَنَازلَهُنَّ، وَيَأْكُلُوا مِنْ كَسْبهِنَّ، فَشَاوَرُوا النَّبِيَّ ﷺ فِي ذلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، فَنُهُوا أنْ يَتَزَوَّجُوهُنَّ عَلَى أنْ يُحِلُّوهُنَّ وَالزّنَا)[(٢)].

والمعنى: لا يرغبُ في نكاحِ الزانيةِ إلاّ زَانٍ مثلُها، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (الْخَبيثَاتُ لِلْخَبيثِينَ) مَيْلُ الخبيثِ إلى الخبيثِ وميلُ الطيِّب إلى الطيب، وقد يقعُ الطيبُ مع الخبيثِ، لكن الأعمَّ والأغلبَ ما ذكرنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾ ؛ أي حُرِّمَ على المؤمنينَ تزويجُ تلك الباغياتِ المعلِنات بالزّنا، وفيه بيانُ أن مَن يتزوجُ بامرأةٍ منهنَّ فهو زَانٍ، فالتحريمُ كان خاصَّة على أولئكَ دون الناسِ.

ومذهبُ سعيدِ بن المسيَّب: أنَّ التحريمَ كان عامّاً عليهم وعلى غيرِهم، ثُم نُسِخَ التحريمُ بقولهِ تعالى ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ﴾[(٣)]، فإن تزوجَ الرجلُ امرأةً وعاينَ منها الفجُورَ لَم يكن ذلك تَحريْماً بينَهما ولا طَلاقاً، ولكنه يُؤْمَرُ بطلاقِها تَنَزُّهاً عنها، ويخافُ عليه الإثمَ في إمساكِها؛ لأن اللهَ تعالى شَرَطَ على المؤمنين نكاحَ الْمُحصَنَاتِ من المؤمنات.

---

(١) المائدة / ٣٨ .

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٩٤٨٩-١٩٤٩١).

(٣) النور/ ٣٢.

من المؤمناتِ.

ورويَ أنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّ امْرَأتِي لاَ تَرُدُّ يَدَ لاَمِسٍ! فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: [طَلِّقْهَا] فَقَالَ: إنِّي أحِبُّهَا، وَأخَافُ إنْ طَلَّقْتُهَا أنْ أصِيْبَهَا حَرَاماً، فَقَالَ لَهُ: [أمْسِكْهَا إذاً][1]. إلاّ أنَّ هذا الحديثَ فيه خلافُ الكتاب؛ لأن اللهَ تعالى أذِنَ في نكاحِ الْمُحصَنَاتِ، ثُم أنزلَ اللهُ في القاذفِ لامرأته آيةَ اللّعان، وسَنَّ رسولُ الله ﷺ التفريقَ بينهما، ولا يجتمعان أبداً، فكيفَ يأمرهُ بالوقفِ على عاهرةٍ لا تَمتنعُ عمَّن أرادَها، والحديثُ الذي ذُكِرَ لَم يصِحَّ عن رسولِ الله ﷺ، ثُم إنْ صَحَّ فتأويلهُ أنَّها امرأةٌ ضعيفةُ الرَّأي في تضييعِ مال زوجِها، فهي لا تَمنعهُ مِن طالبٍ ولا تحفظهُ من سارقٍ، وهذا التأويلُ أشبهُ بالنبيِّ ﷺ وأحرَى لحديثِهِ[2]. ويحتملُ أن يكون قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) إشارةً إلى الزّنا.

وعن عمرِو بن شُعيبٍ عن أبيه عن جدِّه: (أنَّ هَـذِهِ الآيَـةَ نَزَلَـتْ فِـي مَرْثَـدَ

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب النكاح: باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء: الحديث (٢٠٤٩) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. والنسائي في السنن: كتاب النكاح: باب تزويج الزانية: ج ٦ ص٦٧-٦٨؛ وقال: (هذا الحديث ليس بثابت، وعبدالكريم ليس بالقوي، وهارون ابن رئاب أثبت منه وقد أرسل هذا الحديث، وهارون ثقة وحديثه أولى بالصواب من حديث عبدالكريم). قلتُ: فالحديث من طريق هارون أولى. ثم لا أظن أن الحديث في موضوع الزنا، والأرجح موضوع المال والمحافظة عليه، وهو كما قال الإمام الطبراني بعدُ في تأويله، وهو ما ذهب إليه الإمام أحمد وغيره.

(٢) ربما يقال:(لو كان المراد السخاء لقيل: لا تردُّ يدَ مُلتَمِس؛ إذ السائل يقال له: الملتمس، لا لامس. وأما اللمس فهو الجماع أو بعض مقدماته، وأيضاً السخاء مندوب إليه، فلا تكون المرأة معاقَبة لأجله مستحقة للفراق). وهذا الجواب يقبل الدور والجواب عليه؛ لأن التأويل اللغوي محتمل وليس قطعياً، فلا يصلح في الجواب لما فيه من خلاف، لا سيما موضوع النص هو اليد وليس الفرج، ومتعلق اليد السؤال غالباً، وتناول المال. ثم لعمومات الشريعة في الباب يفهم النص على غير ما ذهب إليه البعض والله أعلم.

الْغَنَوِيِّ، كَانَ قَدْ أَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَكَانَ يَحْمِلُ ضَعَفَةَ[1] الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِيْنَةِ، وَمِنَ الْمَدِيْنَةِ إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَتْ لَهُ صَدِيْقَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُقَالُ لَهَا: عِنَاقٌ، فَلَقِيَتْهُ بِمَكَّةَ فَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا فَأَبَى وَقَالَ: إِنَّ الإِسْلاَمَ قَدْ حَالَ دُونَ ذلِكَ، فَقَالَتْ لَهُ: فَانْكَحْنِي، فَقَالَ: حَتَّى أُشَاوِرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَسَعَتْ بِهِ إِلَى الْمُشْرِكِيْنَ، فَهَرَبَ إِلَى الْمَدِيْنَةِ وَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ وَشَاوَرَهُ فِي تَزَوُّجِهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[2]. وبَيَّنَ أن نكاحَ المشركةِ زنا؛ لأنَّها لا تحلُّ له، وقَرَنَ بين الزِّنا والشِّركِ على طريقِ المبالغة في الزَّجرِ عن الزِّنا حين كان القومُ يألَفُون الزنا ألْفاً شديداً.

وكان بحسب ظاهر الآية أن يكونَ للزانِي أن يتزوجَ المشركةَ، وللزَّانيةِ أن تتزوجَ المشركَ، ولا خلافَ أن ذلك غيرُ جائزٍ، وأنَّ نكاحَ المشركاتِ وتزوُّجَ المشركين منسوخٌ بقولِهِ تعالى ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يؤمنَّ﴾، وبقوله ﴿وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يؤمنوا﴾[3].

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ معنى الآية: الزانِي لا يطأُ إلاَّ زانيةً؛ أي لا يزنِي حينَ يزنِي إلاَّ بزانيةٍ مثله، وكذلك الزانيةُ لا يزنِي بها إلاَّ زَانٍ مثلُها، حتى إذا طاوعَ أحدُهما الآخرَ، فهُمَا سواءٌ في استحقاقِ الحدِّ وعقاب الآخرة، فكأنَّ المرادَ بالنكاحِ الوطءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ ؛ أي يرمُونَهم بالزنا، ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ ؛ على صحَّة قَذْفِهم إياهُنَّ بالزنا، ﴿ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ . والْمُحْصَنَاتُ: الحرائرُ الْمُسلِماتُ البالغاتُ العاقلات العفيفاتُ عن فعلِ الزِّنا. وفي ذكرِ عدد الأربعةِ من الشُّهود دليلٌ على أن المرادَ القذفُ بصريحِ الزنا؛ لأن هذا العددَ

---

(١) الضَّعَفَة: الأسارى عند أهل مكة من المسلمين المستضعفين. في رواية أبي داود والترمذي والنسائي.

(٢) رواه أبو داود في السنن: كتاب النكاح: باب في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً﴾: الحديث (٢٠٥١). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣١٧٧). والنسائي في السنن: كتاب النكاح: باب تزوج الزانية: ج ٦ ص٦٦. وإسناده صحيح.

(٣) البقرة / ٢٢١.

لا يُشترط إلاّ في الزّنا، ولا يقبلُ في ذلكَ شهادةُ النساءِ. وفي الآيةِ دليلٌ على أن مَن قَذفَ جماعةً من الْمُحصَنات لَم يُضرب إلاّ حدّاً واحداً، وإذا كان القاذفُ عبداً فحدُّهُ النّصفُ كما بَيَّنّا في حدِّ الزنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ ؛ يعني المحدودين في القذفِ لا تقبلُ شهادتُهم أبداً، ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) ﴾ ؛ أي الخارجونَ عن طاعةِ الله برَمْيِهمْ إياهُنَّ زُوراً وكَذِباً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي نَدِمُوا على قَذْفِهم وعَزَمُوا على تركِ الْمُعَاوَدَةِ ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ ؛ أعمالَهم فيما بينَهم وبين ربهم، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لِمَن تابَ منهم، ﴿ رَّحِيمٌ (٥) ﴾ ؛ لِمَن ماتَ على التوبةِ.

قال ابنُ عبَّاس: (هَـذا الاسْتِثْنَاءُ لاَ يَرْجِعُ إلَى الشَّهَادَةِ، وَإنَّمَا يَرْجِعُ إلَى الْفِسْقِ)[1]. وَقِيْلَ: إنَّ توبتَهُ فيما بينه وبينَ اللهِ مقبولةٌ، وأما شهادتهُ فلا تقبلُ أبداً، وهو قولُ شُريحٍ والحسن وإبراهيمَ[2]، وإلى هذا ذهبَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ.

وذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أن الاستثناءَ راجعٌ إلى الفسقِ وإلى ردِّ الشهادةِ، ويكون معنى قولهِ تعالى (أَبَدًا) ما دامَ على القذفِ ولَم يَتُبْ عنهُ. وأجْمَعُوا جميعاً أنَّ هذا الاستثناءَ لا يرجعُ إلى الْجَلْدِ، وذلك يقتضي أن يكونَ مَقْصُوراً على ما يَلِيْهِ وهو الفسقُ.

وأجْمَعُوا أن المقذوفةَ إذا ماتت ولَم تُطالِبْ بحدِّ القذفِ ولَم يُحَدَّ القاذفُ ثُم تابَ، فإنهُ يجوز قَبولُ شهادتهِ؛ لأن على أصْلِنا أنَّ الحاكمَ إذا أقامَ الحدَّ على القاذفِ

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢ ص١٨٠؛ قال القرطبي: (الاستثناءُ إذا تعقَّب جُملاً معطوفة عاد إلى جميعها عند مالك والشافعي وأصحابهما. وعند أبي حنيفة وجُلّ أصحابه يرجع الاستثناءُ إلى أقرب مذكور؛ ولهذا لا تقبل شهادته، فإن الاستثناء راجع إلى الفسق خاصة لا إلى قبول الشهادة) ثم ذكر سبب الخلاف.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٥٢٤-١٩٥٢٧) عن شريح بأسانيد، و(١٩٥٣٠) عن الحسن بإسنادين، و(١٩٥٣١) عن إبراهيم.

فكذبَهُ وأبطلَ حينئذٍ شهادتَهُ، ولو جُعِلَ بطلانُ الشهادةِ حُكماً معلقاً بتسمية الفسق ولم يجعل حكماً على حالهِ مرتَّباً على الجلدِ لبطُلَتْ فـائدةُ قولـهِ (وَلاَ تَقْبَلُـوا لَـهُمْ شَـهَادَةً أبَداً) من كتاب الله؛ لأن كلَّ فاسقٍ لا تقبلُ شهادتهُ إلاّ بعد توبتهِ عن الفسق.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾﴾؛ الآيةُ، وذلكَ أنَّ اللهَ سُبحانه لَمَّا أنزلَ الآيَةَ التي قبلَ هذه الآيةِ في قذفِ الْمُحصَنات وشَرَطَ فيها الإتيانَ بأربعـةِ شـهداءَ وإلاّ جُلِـدَ ثمـانين جلدةً، قَرَأهَا النبيُّ ﷺ على الْمِنبَرِ.

فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ: يَا رَسُولَ اللهِ! جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، أرَأيْـتَ إنْ رَأى رَجُـلٌ مِنَّا مَعَ امْرَأتِهِ رَجُلاً عَلَى بَطْنِهَا، فَأرَادَ أنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِهِ فَيَجِيءَ بأرْبَعَةِ شُـهَدَاءَ قَضَـى الرَّجُلُ حَاجَتَهُ وَخَرَجَ، وَإنْ هُوَ عَجَّلَ فَقَتَلَهُ قَتَلْتُمُوهُ، وَإنْ تَكَلَّمَ بذلِكَ جَلَدْتُمُـوهُ، وَإنْ سَكَتَ؛ سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ شَدِيْدٍ؟

فَقَـالَ ﷺ: [كَفَـى بالسَّـيْفِ] أرَادَ أنْ يَقُـولَ شَـاهِداً، فَأرْسِـلَ عَلَيْـهِ جِـبْرِيْلُ بالسُّكُوتِ، فَأمْسَكَ لِئَلاَّ يَتَسَارَعَ أحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ إلَى قَتْلِ أزْوَاجِهِمْ[١].

وقال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَتْ: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَـأْتُوا بأرْبَعَـةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)، قَرَأهَا النَّبيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْـبَرِ يَـوْمَ الْجُمُعَـةِ - فَقَـالَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ مَقَالَتَهُ الَّتِي ذكَرْنَاهَا[٢] - وَقَالَ: يَـا رَسُـولَ اللهِ! كَيْـفَ لَنَـا بالشُّـهَدَاءِ

---

(١) أدرج الطبراني رَحِمَهُ اللهُ رواية عبادة بن الصامت ورواية عاصم بن عدي؛ وأصلـها كمـا رواه البغوي في معالم التنزيل: ص٨٩٢. ورواه أبو داود في السنن: كتـاب الحـدود: بـاب في الرجـم: الحديث (٤٤١٧)، وفيه الفضل بن دلهم، ليس بالحافظ كان قصاباً بواسط. وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٢٦٥؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه الفضـل بـن دلهـم وهـو ثقـة، وأنكـر عليـه هـذا الحديث من هذا الطريق فقط، وبقية رجاله ثقات).

(٢) ذكره القرطبي مختصراً في الجامع لأحكام القـرآن: ج ١٢ ص١٨٤. والبغـوي في معـالم التـنزيل: ص٨٩٢. وأصله ذكره مقاتل في التفسـير: ج ٢ ص٤٠٩. وفي جـامع البيـان: الأثـر (١٩٥٤٥) ذكر الطبري بإسناده عن عكرمة قال: (والذي استفتى عاصم بن عدي).

وَنَحْنُ إذا الْتَمَسْنَاهُمْ قَضَى الرَّجُلُ حَاجَتَهُ وَخَرَجَ. وَكَانَ لِعَاصِمٍ هَذا ابْنُ عَمٍّ يُقَالُ لَهُ عُوَيْمِرَ، وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ يُقَالُ لَهَا خَوْلَةُ بِنْتُ قَيْسِي، فَأَتَى عُوَيْمِرُ عَاصِماً فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْتُ شُرَيْكَ بْنَ سَحْمَاءَ عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِي خَوْلَةَ، فَأتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي الْجُمُعَةِ الأُخْرَى، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا أسْرَعَ مَا ابْتُلِيْتُ بالسُّؤَال الَّذِي سَأَلْتُ فِي الْجُمُعَةِ الْمَاضِيَةِ فِي أهْلِ بَيْتِي؟ فَقَالَ ﷺ: [وَمَا ذاكَ ؟] قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أخْبَرَنِي عُوَيْمِرُ أنَّهُ رَأى شُرَيْكَ بْنَ سَحْمَاء عَلَى بَطْنِ امْرَأتهِ خَوْلَةَ.

وَكَانَ عُوَيْمِرُ وَخَوْلَةُ وَشُرَيْكٌ كُلُّهُمْ بَنِي عَمٍّ عَاصِمٍ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهِمْ جَمِيْعاً، وَقَالَ لِعُوَيْمِرِ: [اتَّقِ اللهَ؛ اتَّقِ الله فِي زَوْجَتِكَ وَخَلِيْلَتِكَ وَابْنَةِ عَمِّكَ فَلاَ تُعَذِّبْهَا بالْبُهْتَان] فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أقْسِمُ باللهِ أنِّي رَأيْتُ شُرَيْكاً عَلَى بَطْنِهَا. فَقَالَ ﷺ: [اتَّقِ اللهَ وَأخْبِرِيْنِي بِمَا صَنَعْتِ] فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّ عُوَيْمِراً رَجُلٌ غَيُورٌ، وَإنَّهُ رَآنِي وَشُرَيْكاً نَتَحَدَّثُ، فَحَمَلَتْهُ الْغَيْرَةُ عَلَى مَا قَالَ).

وروى عكرمةُ عن ابنِ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً) قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: وَاللهِ لَوْ أتَيْتُ لُكَاعَ وَقَدْ تَفَخَّذهَا رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ لِي أنْ أقْتُلَهُ وَلاَ أهَيِّجَهُ وَلاَ أخْرِجَهُ حَتَّى آتِيَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، وَلَمْ يَأْتِ بهِمْ حَتَّى فَرَغَ مِنْ حَاجَتِهِ وَيَذْهَبَ! فَإنْ قُلْتُ بِمَا رَأيْتُ ضَرَبْتُمْ ظَهْرِي ثَمَانِيْنَ جَلْدَةً!

فَقَالَ ﷺ: [يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار ألاَ تَسْمَعُونَ إلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ !؟] قَالُوا: لاَ تَلُمْهُ فَإنَّهُ رَجُلٌ غَيُورٌ، مَا تَزَوَّجَ امْرَأةً قَطُّ إلاَّ بكْراً، وَلاَ طَلَّقَ امْرَأةً فَاجْتَرَأ أحَدٌ مِنَّا أنْ يَتَزَوَّجَهَا. فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ! بِأَبِي وَأمِّي أنْتَ، وَاللهِ إنِّي لأَعْرِفُ أنَّهَا مِنَ اللهِ وَأنَّهَا لَحَقٌّ، وَلَكِنَّنِي عَجِبْتُ مِنْ ذلِكَ. فَقَالَ ﷺ: [واللهُ يَأْبَى إلاَّ ذَلِكَ ؟] فَقَالَ: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ.

فَلَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ يَسِيْراً حَتَّى جَاءَ هِلاَلُ بْنُ أمَيَّةَ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ أصْحَابهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنِّي جِئْتُ أهْلِي عِشَاءً فَوَجَدْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأتِي يَزْنِي بهَا، رَأيْتُ بعَيْنِي وَسَمِعْتُ بأُذُنِي. فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أتَى بِهِ، وَثَقُلَ عَلَيْهِ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ هِلاَلُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنِّي لأَرَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِكَ

لِمَا أتَيْتُكَ بِهِ، وَاللهُ يَعْلَمُ أنّي لَصَادِقٌ وَمَا قُلْتُهُ إلاَّ حَقّاً، وإنّي لأَرْجُو أنْ يَجْعَلَ اللهُ لِي فَرَجاً، فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَضْرِبَهُ الْحَدَّ.

وَاجْتَمَعَتِ الأَنْصَارُ وَقَالُوا: ابْتُلِيْنَا بِمَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ إلاَّ أنْ يَجْلِدَ هِلالاً. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذلِكَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيْدُ أنْ يَأمُرَ بضَرْبِهِ، إذْ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَأَمْسَكُوا عَنِ الْكَلاَمِ حِيْنَ عَرَفُوا أنَّ الْوَحْيَ قَدْ نَزَلَ. فَلَمَّا فَرَغَ تَلاَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إلاَّ أنفُسُهُمْ...) إلَى آخِرِ الآيَاتِ، فَقَالَ ﷺ: [أبْشِرْ يَا هِلاَلُ؛ فَإنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ لَكَ فَرَجاً] فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أرْجُو ذلِكَ مِنَ اللهِ.

فَقَالَ ﷺ: [أرْسِلُوا إلَيْهَا] فَجَاءَتْ، فَلَمَّا اجْتَمَعَا عِنْدَ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَتْ: كَذبَ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ هِلاَلُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا قُلْتُ إلاَّ حَقّاً وَإنِّي لَصَادِقٌ، فَقَالَ ﷺ: [اللهُ يَعْلَمُ أنَّ أحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟] فَقَالَ هِلاَلُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا كَذبْتُ. فَقَالَ ﷺ: [لاَعِنُوا بَيْنَهُمَا].

فَقِيْلَ لِهِلاَل: اشْهَدْ باللهِ أرْبَعَ مَرَّاتٍ إنَّكَ لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ، فَقَالَ هِلاَلُ: أشْهَدُ باللهِ إنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ فِيْمَا رَمَيْتُهَا بِهِ، قَالَ ذلِكَ أرْبَعَ مَرَّاتٍ. فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عِنْدَ الْخَامِسَةِ: [اتَّقِ اللهَ يَا هِلاَلُ، فَإنَّ عَذابَ الدُّنْيَا أهْوَنُ مِنْ عَذاب الآخِرَةِ، وَإنَّ عَذابَ اللهِ أشَدُّ مِنْ عَذاب النَّاسِ، وَإنَّ هَذِهِ الْخَامِسَةُ هِيَ الْمُوجِبَةُ الَّتِي تُوجِبُ عَلَيْكُمَا الْعَذابَ]. فَقَالَ هِلاَلُ: وَاللهِ مَا يُعَذّبُنِي اللهُ عَلَيْهَا،كَمَا لَمْ يَجْلِدْنِي عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَشَهِدَ الْخَامِسَةَ أنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِيْنَ فِيْمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزِّنَا.

ثُمَّ قِيْلَ لِلْمَرْأةِ: اشْهَدِي أنْتِ، فَقَالَتْ أرْبَعَ مَرَّاتٍ: أشْهَدُ باللهِ إنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِيْنَ فِيْمَا رَمَانِي بِهِ مِنَ الزِّنَا. فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ الْخَامِسَةِ: [اتَّقِ اللهَ فَإنَّ الْخَامِسَةَ هِيَ الْمُوجِبَةُ، وَإنَّ عَذابَ اللهِ أشَدُّ مِنْ عَذاب النَّاسِ] فَسَكَتَتْ سَاعَةً وَهَمَّتْ بالاعْتِرَافِ، ثُمَّ قَالَتْ: وَاللهِ لاَ أفْضَحُ قَوْمِي، فَشَهِدَتِ الْخَامِسَةَ أنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ فِيْمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزِّنَا. فَفَرَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمَا، وَقَضَى أنَّ الْوَلَدَ لَهَا وَلاَ يُدْعَى لأَبٍ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ كَذا وَكَذا فَهُوَ لِزَوْجِهَا، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ كَذا وَكَذا فَهُوَ لِلَّذِي قِيْلَ فِيْهِ]. فَجَاءَتْ بِهِ غُلاَماً أَحْمَرَ كَأَنَّهُ جَمَلٌ أَوْرَقُ عَلَى الشَّبَهِ الْمَكْرُوهِ، وَكَانَ بَعْدَ ذلِكَ أَمِيْراً عَلَى مِصْرَ لاَ يَدْرِي مَنْ أَبُوهُ[1].

وعلى القول الأول أن القصةَ بين شُريك بن سَحْمَاء وعُويْمِر؛ قَالُوا: أَمَرَ[2] رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمُلاَعَنَةِ، فَقَامَ فَقَالَ: أَشْهَدُ باللهِ أَنَّ خَوْلَةَ بِنْتَ قَيْسٍ زَانِيَةٌ، وَإِنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ فِيْمَا رَمَيْتُهَا بِهِ. فَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ: أَشْهَدُ باللهِ إِنِّي رَأَيْتُ شُرَيْكاً عَلَى بَطْنِهَا، وَإِنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ. وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: أَشْهَدُ باللهِ إِنَّهَا حُبْلَى مِنْ غَيْرِي، وَإِنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ - وَكَانَ عُوَيْمِرُ قَدِ اعْتَزَلَهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ لَمْ يَقْرَبْهَا، فَظَهَرَ بِهَا الْحَمْلُ، فَعَلِمَ أَنَّهُ مِنْ وَطْءِ غَيْرِهِ - ثُمَّ قَالَ فِي الْخَامِسَةِ: أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى عُوَيْمِرَ - يَعْنِي نَفْسَهُ - إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِيْنَ فِيمَا قَالَ.

فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالقُعُودِ[3] وَقَالَ لِزَوْجَتِهِ: [قُومِي] فَقَامَتْ فَقَالَتْ: أَشْهَدُ بِاللهِ مَا أَنَا بِزَانِيَةٍ وَأَنَّ عُوَيْمِراً لَمِنَ الْكَاذِبِيْنَ. ثُمَّ قَالَتْ فِي الثَّانِيَةِ: أَشْهَدُ بِاللهِ أَنَّهُ مَا رَأَى شُرَيْكاً عَلَى بَطْنِي، وَإِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِيْنَ. ثُمَّ قَالَتْ فِي الثَّالِثَةِ: أَشْهَدُ باللهِ أَنِّي حُبْلَى مِنْهُ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِيْنَ. ثُمَّ قَالَتْ فِي الرَّابِعَةِ: أَشْهَدُ باللهِ مَا رَأَى عَلَيَّ فَاحِشَةً قَطُّ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِيْنَ. ثُمَّ قَالَتْ فِي الْخَامِسَةِ: أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَى خَوْلَةَ - تَعْنِي نَفْسَهَا - إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ.

فَفَرَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمَا، وَقَالَ: [لَوْلاَ هَذِهِ الأَيْمَانُ لَكَانَ لِي فِي أَمْرِهَا رَأْيٌ، وَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ]. ثُمَّ قَالَ: [إِنْ جَاءَتْ بِالْوَلَدِ صُهَيْباً أُثَيْبِجَ[4] يَضْرِبُ إِلَى

---

(١) القصة بطولها أخرجها الطبري في جامع البيان: الحديث (١٩٥٣٨-١٩٥٤٠) عن عكرمة. وعن عكرمة عن ابن عباس وفيه قصة هلال بن أمية. والبغوي في معالم التنزيل: ص٨٩٢-٨٩٤.

(٢) في الأصل المخطوط فراغ تركه الناسخ.

(٣) (بالقعود) سقطت من أصل المخطوط.

(٤) الثَّبَجُ: بفتحتين، مَا بَيْنَ الْكَاهِلِ إِلَى الظَّهْرِ، وقيل: ثَبَجُ كُلِّ شَيْءٍ وَسَطُهُ وَ(الأَثْبَجُ): الْعَرِيضُ الثَّبَجِ، وقيل: النَّاتِئُ الثَّبَجِ، وَهُوَ صُغِّرَ في الحديثِ: [إِذا جَاءَتْ بِهِ أُثَيْبِجَ]. ينظر: مختار الصحاح: ص٨٢.

السَّوَادِ، فَهُوَ لِعُوَيْمِرٍ[1]، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَوْرَقَ جَعْدَ جَمَالِياً خَدْلَجَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيْكَ بْنِ سَحْمَاءَ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (فَجَاءَتْ بِأَشْبَهَ خَلْقِ اللهِ بِشُرَيْكِ ابْنِ سَحْمَاءَ).

وعن الضَّحاك عن ابن عبَّاس قَالَ[2]: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) الآيَةُ، قَالَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَوْ وَجَدْتُ عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِي رَجُلاً؛ فَقُلْتُ لَهَا: يَا زَانِيَةُ؛ أتَجْلِدُنِي ثَمَانِيْنَ جَلْدَةً إلاَّ أنْ آتِيَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ؟! وَإنْ مَضَيْتُ لأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ قَضَى الرَّجُلُ حَاجَتَهُ وَمَضَى ؟ فَقَالَ ﷺ: [هَكَذَا أُنْزِلَ يَا عَاصِمُ]، قَالَ: فَخَرَجَ سَامِعاً مُطِيْعاً، فَلَمْ يَصِلْ إِلَى مَنْزِلِهِ حَتَّى اسْتَقْبَلَهُ هِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ يَسْتَرْجِعُهُ، فَقَالَ: مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ: شَرٌّ، وَجَدْتُ شُرَيْكَ بْنَ سَحْمَاءَ عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِي خَوْلَةُ يَزْنِي بِهَا، فَرَجَعَ مَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأخْبَرَهُ بِذلِكَ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا فَجَاءَتْ.

فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: [مَا تَقُولِيْنَ ؟] فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّ شُرَيْكَ بْنَ سَحْمَاءَ كَانَ يَأْتِيْنَا، فَنَزَلَ بِنَا فَرُبَّمَا تَرَكَهُ زَوْجِي عِنْدِي وَخَرَجَ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ مِنْ لَيْلٍ وَلاَ نَهَارٍ، فَلاَ أدْرِي إنَّهُ الآنَ أدْرَكَتْهُ الْغَيْرَةُ؛ أمْ بَخِلَ عَلَيَّ بِالطَّعَامِ؟! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى آيَةَ اللِّعَانِ (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إلاَّ أنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أحَدِهِمْ أرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ. وَالْخَامِسَةُ أنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إنْ كَانَ مِنْ الْكَاذِبِينَ).

فَأَقَامَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ الْعَصْرِ، وَقَالَ: [يَا هِلاَلُ! أنْتَ الشَّاهِدُ أنَّكَ رَأَيْتَهَا تَزْنِي] فَقَالَ: أشْهَدُ بِاللهِ رَأَيْتُهُ عَلَى بَطْنِهَا يَزْنِي بِهَا وَإنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ، مَا قَرُبْتُهَا مُنْذُ أرْبَعَةِ أشْهُرٍ، وَإنَّ حَمْلَهَا هَذا الَّذِي فِي بَطْنِهَا مِنْ شُرَيْكِ بْنِ سَحْمَاءَ، وَإنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ. أشْهَدُ بِاللهِ مَا بَرِئَتْ مِنْهُ وَلاَ بَرِئَ مِنْهَا، وَإنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ... إلَى أنْ قَالَ فِي

(١) في أصل المخطوط: (فهو لشريك بن سحماء) ثم ذكر (فهو لعويمر) عاكساً بين الرامي والذي رميت به، تصحيفاً من الناسخ. والصحيح كما أثبتناه، والله أعلم. ينظر: معالم التنزيل: ص٨٩٤ القصة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٩٥٤٣) مختصراً، و(١٩٥٣٩) عن عكرمة عن ابن عباس مطولاً.

الْخَامِسَةِ: أنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبيْنَ فِيْمَا رَمَاهَا بهِ مِنْ ذلِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ: آمِيْنَ.

فَقَالَ ﷺ: [يَا خَوْلَةُ وَيْحَكِ! إنْ كُنْتِ الْمَمْتِ بذنْبٍ فَأقِرِّي بهِ، فَإنَّ الرَّجْمَ بالْحِجَارَةِ فِي الدُّنْيَا أيْسَرُ عَلَيْكِ مِنْ غَضَبِ اللهِ فِي الآخِرَةِ، وَإنَّ غَضَبَهُ عَذابُهُ] فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ كَذبَ. فَأقَامَهَا مَقَامَهُ، فَقَالَتْ: أشْهَدُ باللهِ مَا أنَا زَانِيَةٌ، وَإنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبيْنَ، مَا رَآهُ عَلَى بَطْنِي. أشْهَدُ باللهِ لَقَدْ بَرِئْتُ مِنَ الزِّنَا وَبَرِئَ شُرَيْكُ بْنُ سَحْمَاءَ مِنِّي، وَإنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبيْنَ. أشْهَدُ باللهِ لَقَدْ قَرُبَنِي مُنْذُ أرْبَعَةِ أشْهُرٍ وَإنَّ مَا فِي بَطْنِي لِهلاَلٍ، وَإنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبيْنَ. وَقَالَتْ فِي الْخَامِسَةِ: أنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ. ثُمَّ فَرَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: [الْمُتَلاَعِنَانِ لاَ يَجْتَمِعَانِ أبَداً][(١)].

قَوْلُهُ: ﴿ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ ؛ أي يدفعُ عنها الحدَّ: ﴿ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ وقرأ حفصٌ: (وَالْخَامِسَةَ) بالنصب، كأنهُ قال: وَشَهدَ الْخَامِسَةَ. وقُرِئ (فَشَهَادَةُ أحَدِهِمْ أرْبَعُ شَهَادَاتٍ) بالرفع في قوله (أرْبَعُ) على أنَّها خبرُ المبتدأ، ويقرأ بالنصب على معنى: فَشَهَادَةُ أحَدِهِمْ أنْ يَشْهَدَ أرْبَعَ شَهَادَاتٍ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ ؛ محذوفُ الجواب؛ تقديرهُ: لَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفَضَحَكُمْ بما تركبونَ من الفواحشِ، ولعجَّلكم بالعقوبةِ من غيرِ إمهالٍ، ولَبَيَّنَ الصادقَ من الكاذب، فيقامُ الحدُّ على الكاذب ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي تَوَّابٌ على من رجعَ عن معاصي الله، حَكِيْمٌ فيما فرضَ من الحدودِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إذا أرَادَ أنْ يَخْرُجَ إلَى سَفَرٍ أقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ.

---

(١) الحديث عن ابن عمر، أخرجه الدارقطني مختصراً في السنن: كتاب النكاح: باب المهر: الحديث (١١٦) بإسناد جيد، والحديث (١١٧) عن علي وعبدالله قال: [مَضَتِ السُّنَّةُ فِي الْمُتَلاَعِنَينِ أنْ لاَ يَجْتَمِعَا أبَداً]. وإسناده موقوف حسن. (٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٨٩.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا وَهِيَ غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِق، فَخَرَجَ فِيْهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ،وَذلِكَ بَعْدَ مَا أُنزلَ الْحِجَابُ كُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي، وَأُحْمَلُ فِيْهِ حَتَّى إِذَا فَصَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ وَرَجَعَ وَدُرْنَا إِلَى الْمَدِيْنَةِ.

فَلَمَّا كَانَ ذاتَ لَيْلَةٍ قُمْتُ حِيْنَ آذنُوا بالرَّحِيْلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذا عِقْدِي قَدِ انْقَطَعَ، وَكَانَ مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ(١)، فَرَجَعْتُ أَلْتَمِسُ عِقْدِي وَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ.

فَأَقْبَلَ الرَّهْطُ(٢) الَّذِيْنَ كَانُوا يَرْحَلُونَ(٣) لِي، فَحَمَلُوا هَوْدَجِي عَلَى بَعِيْرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنِّي فِيْهِ، وَكُنَّ نِسَاءً إِذْ ذاكَ خِفَافاً لَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ(٤) مِنَ الطَّعَامِ، وَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ ثِقْلَ الْهَوْدَجِ حِيْنَ رَفَعُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيْثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بهَا دَاعٍ وَلاَ مُجِيْبٌ، فَتَيَمَّمْتُ(٥) مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيْهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ يَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ.

فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَجْلِسِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ قَدْ عَرَّسَ(٦) مِنْ وَرَاءِ الْجَيْش، فَأَدْلَجَ(٧) فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَى إِلَيَّ فَعَرَفَنِي حِيْنَ رَآنِي، وَقَدْ كَانَ رَآنِي قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ، فَمَا اسْتَيْقَظْتُ إِلاَّ باسْتِرْجَاعِهِ(٨) حِيْنَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، فَوَاللهِ مَا

---

(١) هو عِقْدٌ نحو القلادة. والجزع: خرز يماني. وظفار: قرية باليمن.

(٢) الرهط: جماعة دون العشرة.

(٣) يرحلون: يجعلون الرَّحل على البعير.

(٤) العلقة: القليل، ويقال لها أيضاً: البُلغة.

(٥) تَيمَّمْتُ منزلي: قصدته، لتأمَنَ العثور عليها حين يرجعون.

(٦) عرَّسَ: نزل آخر الليل ليستريح.

(٧) أدلجَ: سارَ في آخر الليل.

(٨) أي حين قال: (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون).

كَلَّمَنِي بكَلِمَةٍ غَيْرِ اسْتِرْجَاعِهِ، فَأَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطَأْتُ عَلَى يَدِهَا وَرَكِبْتُهَا، وَانْطَلَقَ يَقُودُ فِي الرَّاحِلَةِ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا وَقْتَ الظَّهِيْرَةِ. فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي، وَخَاضَ عَبْدُاللهِ بْنُ أَبَيٍّ وَحَسَّانُ بْنُ ثَابتٍ وَمُسْطَحُ بْنُ أثَاثَةَ وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ الأَسْدِيَّةُ فِي ذلِكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ عَبْدُاللهِ بْنُ أَبَيٍّ بْنِ سَلُول.

فَقَدِمْتُ الْمَدِيْنَةَ، فَأَصَابَنِي مَرَضٌ حِيْنَ قَدِمْتُهَا شَهْراً، وَالنَّاسُ يَخُوضُونَ فِي قَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، وَلاَ أَشْعُرُ بشَيْءٍ مِنْ ذلِكَ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَزُورُنِي فِي وَجْهِي لاَ أَرَى مِنْهُ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ إذا مَرِضْتُ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ، إنَّمَا كَانَ يَدْخُلُ فيَقُولُ: [كَيْفَ تِيْكُمْ ؟] فَذلِكَ يُحْزِنُنِي وَلاَ أشْعُرُ بالسِّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقَهْتُ.

فَخَرَجَتْ مَعِي أمُّ مُسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ[1] وَهِيَ مُتَبَرَّزُنَا، وَلاَ نَخْرُجُ إلاَّ مِنْ لَيْلٍ إِلَى لَيْلٍ، وَذلِكَ قَبْلَ أنْ نَتَّخِذ الْكُنُفَ، وَأمْرُنَا أمْرُ الْعَرَب الأَوَّل فِي التَّبَرُّز. فَانْطَلَقْتُ أنَا وَأمُّ مُسْطَحٍ- وَهِيَ عَاتِكَةُ بِنْتُ أبي رُهْم بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأمُّهَا بِنْتُ صَخْر بْن عَامِرٍ خَالَةُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أثَاثَةَ بْن عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب[2]- فَأَقْبَلْنَا حَتَّى فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي الطَّرِيْقِ عَثَرَتْ أمُّ مِسْطَحٍ فِي مُرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٍ! فَقُلْتُ لَهَا: بئْسَ مَا قُلْتِ! أتَسُبِّيْنَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْراً ؟ قَالَتْ: أي هَنَتَاهُ[3]، أي أوَ لَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قُلْتُ: وَمَاذا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بقَوْلِ أهْلِ الإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضاً إِلَى مَرَضِي.

فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي، دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ:[كَيْفَ تِيْكُمْ؟] قُلْتُ: أتَأْذنُ لِي أنْ آتِي أبَوَيَّ؟ وَإنَّمَا قُلْتُ ذلِكَ حِيْنَئِذٍ لأَتَيَقَّنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَجِئْتُ أبَوَيَّ، فَقُلْتُ لأُمِّي: يَا أمَّاهُ! مَاذا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: أيْ بُنَيَّةِ هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأةٌ قَطُّ وَضِيْئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إلاَّ

---

(١) المناصع: مواضع خارج المدينة، كانوا يتبرزون فيها.

(٢) في جامع البيان: عباد بن المطلب.

(٣) هذه اللفظة تختص بالنداء، ويزاد معنى: يا هذه، وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم.

وَأَكْثَرْنَ عَلَيْهَا. قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! وَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذا ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَتْ: فَمَكَثْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ[(١)] لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي.

وَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَعَلِيَّ بْنَ أبي طَالِبٍ حِيْنَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيَ يَسْأَلُهُمَا وَيستَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَتِي وَبالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ لَهُمْ مِنَ الْوُدِّ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هُمْ أهْلُكَ وَمَا نَعْلَمُ إلاَّ خَيْراً. وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ ﷺ فَقَالَ: لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيْرٌ، وَإنْ تَسْأَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ. فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيْرَةَ جَارِيَةَ عَائِشَةَ فَقَالَ: [أيْ بَرِيْرَةُ؛ هَلْ رَأيْتِ مِنْ شَيْءٍ يُرِيبُكِ فِي أمْرِ عَائِشَةَ؟]. فَقَالَتْ: لاَ؛ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيّاً مَا رَأيْتُ عَلَيْهَا أمْراً قَطُّ أَغْمَصْتُهُ عَلَيْهَا أكْثَرَ مِنْ أنَّهَا حَدِيْثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِيْنِ أهْلِهَا، فَتَأتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ.

قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ بن سَلُول وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: [يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِيْنَ؛ مَنْ يَعْذُرُنِي فِي رَجُلٍ بَلَغَنِي أذَاهُ فِي أهْلِي، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ فِي أهْلِي إلاَّ خَيْراً؟] فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الأنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أنَا أعْذُرُكَ مِنْهُ، إنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإنْ كَانَ مِنْ إخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أمْرَكَ.

فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ الْخَزْرَجِيُّ وَكَانَ رَجُلاً صَالِحاً، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ[(٢)] فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ، لاَ تَقْتُلُهُ وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى ذلِكَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْنٍ؛ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْن مُعَاذٍ؛ فَقَالَ لِسَعْدِ بْن عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ؛ لَتَقْتُلُهُ فَإنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِيْنَ. فَثَارَ الْحَيَّان الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْفِظُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا.

---

(١) يَرْقَأُ: ينقطعُ، أي لا ينقطع لي دمعٌ.

(٢) ويروى أيضاً: اجْتَهَلَتْهُ، أي استخفّته وأغضبته وحملته على الجهل.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَكَثْتُ يَوْمِي لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَأَبَوَيَّ يَظُنَّان أنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَان عِنْدِي وَأنَا أبْكِي، اسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأةٌ مِنَ الأنْصَار، فَأذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي. فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إذْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيْلَ لِي مَا قِيْلَ، وَقَدْ لَبِثْتُ شَهْراً لاَ يُوحَى إلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ. قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِيْنَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: [أمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ؛ فَإنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذا وَكَذا، فَإنْ كُنْتِ بَرِيْئَةً فَسَيُبَرِّؤُكِ اللهُ، وَإنْ كُنْتِ قَدْ ألْمَمْتِ بِذنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ ثُمَّ تُوبي إلَيْهِ، فَإنَّ الْعَبْدَ إذا اعْتَرَفَ بالذنْب ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ].

قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ قَلَصَ دَمْعِي[١] حَتَّى مَا أحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لأَبِي: أجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيْمَا قَالَ. فَقَالَ: وَاللهِ لاَ أدْري مَا أقُولُ لِرَسُول اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ لأُمِّي: أجِيْبِي عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا أدْري مَا أقُولُ لِرَسُول اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ: وَأنَا جَارِيَةٌ حَدِيْثَةُ السِّنِّ لاَ أقْرَأُ كَثِيْراً مِنَ الْقُرْآن، وَاللهِ لَقَدْ عَرَفْتُمْ إنَّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ هَذا حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إنِّي بَرِيْئَةٌ وَاللهُ يَعْلَمُ أنِّي بَرِيْئَةٌ لاَ تُصَدِّقُونِي فِي ذلِكَ، وَلَئِن اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأمْرٍ وَاللهُ يَعْلَمُ إنِّي بَرِيْئَةٌ لَتُصَدِّقُونِي، وَاللهِ مَا أجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلاً إلاَّ مَا قَالَ أبُو يُوسُفَ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[٢].

قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِ، وَأنَا وَاللهِ أعْلَمُ حِيْنَئِذٍ أنِّي بَرِيْئَةٌ، وَأنَّ اللهَ مُنَزِّلٌ بِبَرَاءتِي، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا كُنْتُ أظُنُّ أنْ يَنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْياً يُتْلَى، وَلَشَأْنِي كَانَ أحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنْ كُنْتُ أرْجُو أنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَنَامِهِ رُؤْيَا يُبَرِّؤُنِي اللهُ بهَا. قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ مَجْلِسِهِ وَلاَ خَرَجَ أحَدٌ مِنْ أهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى تَغَشَّاهُ الْوَحْيُ وَأخَذهُ مَا كَانَ يَأْخُذهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ[٣] عِنْدَ نُزُول الْوَحْيِ، حَتَّى أنَّهُ لَيَتَحَدَّرَ مِنْهُ مِنَ الْجُمَان[٤] مِنَ الْعَرَق فِي الْيَوْمِ الشَّاتِي. فَلَمَّا سُرِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إذا هُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ

---

(١) قَلَصَ دمعي: ارتفع لاستعظام ما يعيبني من الكلام.

(٢) يوسف / ١٨ .   (٣) البرحاء: الشدَّة.   (٤) الجمان: الدر.

بهَا أنْ قَالَ: [أبْشِري يَا عَائِشَةُ؛ إنَّ اللهَ قَدْ بَرَّأكِ] فَقَالَتْ لِي أمِّي: قُومِي إلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لاَ أقُومُ إلَيْهِ وَلاَ أحْمَدُ إلاَّ اللهَ سُبْحَانَهُ الَّذِي أنْزَلَ بَرَاءَتِي، فَأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) وَهِيَ عَشْرُ آيَاتٍ.

فَلَمَّا أنْزَلَ اللهُ بَرَاءَ تِي قَالَ أبو بَكْرٍ ﷺ - وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ وَفَقْرِهِ -: وَاللهِ لاَ أنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئاً أبَداً بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قولهِ تعالى ﴿ألاَ تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ قَالَ أبو بَكْرٍ: بَلَى؛ وَاللهِ إنِّي أحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي. وَأعَادَ إلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ وَقَالَ: لاَ أنْزِعُهَا مِنْهُ أبَداً[1].

ثُمَّ إنَّ الْخَبَرَ بَلَغَ إلَى صَفْوَانَ؛ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ ! وَاللهِ مَا كَشَفْتُ كَنِفَ أنْثَى. فَقُتِلَ شَهِيْداً فِي سَبِيْلِ اللهِ، وَزَادَ فِي آخِرِهِ: قَالَتْ: وَقَعَدَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ لِحَسَّانِ ابْنِ ثَابتٍ فَضَرَبَهُ بالسَّيْفِ، وَقَالَ حِيْنَ ضَرَبَهُ:

تَلَقَّ ذُبَابَ السَّيْفِ عَنِّي فَإنَّنِي غُلاَمٌ إذا هُوَجِيتُ لَسْتُ بشَاعِرِ
وَلَكِنَّنِي أحْمِي حِمَايَ وَأنْتَقِمُ مِنَ الْبَاهِتِ الرَّامِي الْبُرَاءَ الطَّوَاهِرِ

فَصَاحَ حَسَّانُ وَاسْتَغَاثَ بالنَّاسِ عَلَى صَفْوَانَ، وَجَاءَ حَسَّانُ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْتَغِيْثُ بِهِ عَلَى صَفْوَانَ فِي ضَرْبهِ إيَّاهُ، فَسَألَهُ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يَهَبَ لَهُ ضَرْبَةَ صَفْوَانَ إيَّاهُ، فَوَهَبَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَعَوَّضَهُ عَلَيْهَا حَائِطاً مِنْ نَخْلٍ عَظِيْمٍ وَجَارِيَةً رُومِيَّةً. ثُمَّ بَاعَ حَسَّانُ ذَلِكَ الْحَائِطَ مِنْ مُعَاوِيَةَ فِي ولاَيَتِهِ بمَالٍ عَظِيْمٍ، وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابتٍ فِي بَرَاءَةِ عَائِشَةَ:

حَصَانٌ رزَانٌ مَا تُزَنُّ بريْبَةٍ وَتُصْبحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ
خَلِيَّةُ خَيْرِ النَّاسِ دِيْناً وَمَنْصَباً نَبيِّ الْهُدَى وَالْمَكْرُمَاتِ الْفَوَاضِلِ
عَقِيْلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِب كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهَا غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللهُ خَيْمَهَا[2] وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ شَيْنٌ وَبَاطِلِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٩٥٦٤-١٩٥٦٦).

(٢) الْخِيَمُ – بالكسر-: الشِّيمَةُ والطبيعةُ والْخُلُق والأصلُ.

فَـإِنْ كَـانَ مَـا قَـدْ جَـاءَ عنِّـي قُلْتُـهُ فَـلاَ رَفَعْـتُ سَـوْطِي إلَـيَّ أنَامِلِي
فَكَيْـفَ وَوُدِّي مَـا حُيِيْـتُ وَنُصْرَتِـي لآلِ رَسُـولِ اللهِ زَيْـنِ الْمَحَـافِلِ
لَـهُ رُتَـبٌ عَـالٍ عَلَـى النَّـاسِ فَضْلُـهَا تَقَـاصَرُ عَنْـهَا سَـطْوَةُ الْمُتَطَـاولِ

ثُمَّ أمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالَّذِيْنَ رَمَوا عَائِشَةَ فَجُلِدُوا جَمِيْعاً ثَمَانِيْنَ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) وهم أربعةٌ: حسَّانُ؛ ومُسْطَحُ؛ وعبدُالله بنُ أبَي بن سَلُول؛ وَحَمْنَةُ بنْتُ جَحْشٍ. وَقِيْلَ: الْعُصْبَةُ من الواحدِ إلى الأربعين. والإفْكُ في اللغة: الْكَذِبُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ) خطابٌ للنبيِّ ﷺ ولأبي بكرٍ ولعائشةَ فيما لَحِقَهم من الْحُزْنِ والغمِّ الشديد. والمعنى: لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بل هو خيرٌ لكم؛ لأنكم تُؤْجَرُونَ على ما قيلَ لكم من الأذى، وبما يكتبُ لكم من الثواب في الآخرة على الصَّبر، ولِمَا بَيَّنَ اللهُ من طهارةِ عائشة وبرائتها بآياتٍ تُتْلَى في الْمِحْرَاب إلى يوم القيامة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ ؛ أي لكلِّ امرئٍ من الخائضِين في هذا الأمر جزاءُ ما كسبَ من الإثمِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي والذي تَحَمَّلَ مُعظَمَهُ فبدأ بالخوضِ فيه وهو عبدُالله بن أبَيِّ هو الذي بالغَ في إشاعةِ هذا الحديثِ، وكان أهلُ الحديثِ يجتمعون عندَهُ ويسيقون ذلك بأمرِه، ﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ يصغُرُ في مقابلتِه كلُّ عذابٍ يكون في الدُّنيا.

قرأ حُميد الأعرجُ ويعقوب (كُبْرَهُ) بضم الكافِ، قال أبو عمرو بن العلاء: (هُوَ خَطَأٌ لأَنَّ الْكُبْرَ هُوَ بضَمِّ الكَافِ فِي الْوَلاَءِ وَالسِّنِّ، وَمِنْهُ الْحَدِيْثُ [الْوَلاَءُ الْكُبْرُ])[٢].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٣ ص٩٢: الحديث (١٥). والبخاري في الصحيح: كتاب الشهادات: باب تعديل النساء بعضهن بعضاً: الحديث (٢٦٦١)، وفي المغازي: باب حديث الإفك: الحديث (٤١٤١)، وفي التفسير: الحديث (٤٧٥٠).

(٢) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص١١٥.

وروى ابن أبي مليكة عن عائشةَ قالت في حديثِ الإفك: (ثُمَّ رَكِبْتُ وَأَخَذَ صَفْوَانُ بالزِّمَامِ، فَمَرَرْنَا بِمَلإٍ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ، فَقَامَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِيٍّ بن سَلُول، فَقَالَ: مَنْ هَذا ؟ قَالُوا: عَائِشَةُ، قَالَ: وَاللهِ مَا نَجَتْ مِنْهُ وَلاَ نَجَا مِنْهَا، وَقَالَ: امْرَأَةُ نَبِيِّكُمْ بَائِتْ مَعَ رَجُلٍ حَتَّى أصْبَحَتْ، ثُمَّ جَاءَ يَقُودُهَا. وَشَرَعَ فِي ذِلِكَ حَسَّانُ وَمِسْطَحُ وَحَمْنَةُ، ثُمَّ فَشَا ذلِكَ فِي النَّاسِ)(١). وقولهُ تعالى (لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ) يريدُ في الدُّنيا الجلدَ ثمانين جلدةً، وفي الآخرةِ يُصَيِّرُهُ اللهُ إلى النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ ؛ أي هَلاَّ إذ سَمِعْتُمُوهُ أنَّها العُصبة الكاذبةُ؛ أي هَلاَّ إذ سَمعتُم قذفَ عائشةَ بصفوان، ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ من العُصبةِ الكاذبةِ يعني حَمْنَةَ بنتَ جَحْشٍ وحَسَّانَ ومُسْطَحٍ بأنفُسِهم خَيراً. قال الحسنُ: (بأهْلِ دِيْنِهِمْ لأنَّ الْمُؤْمِنِيْنَ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ). الا ترَى ظنَّ المؤمنونَ الذي هُم كنفسٍ واحدة فيما جرَى عليها من الأمور بأنفسهم خيراً، ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي كَذِبٌ ظاهرٌ بَيِّنٌ.

ورُوي: أن المرادَ بهذه الآيةِ أبو أيُّوب الأنصاريُّ وامرأتهُ أمُّ أيوب، قَالَتْ: أمَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ ؟ قَالَ: بَلْ وَذلِكَ الْكَذِبُ الْبَيِّنُ، أرَأيْتِ يَا أمَّ أيُّوبَ كُنْتِ تَفْعَلِيْنَ ذلِكَ ؟ قَالَتْ: لاَ؛ وَاللهِ مَا كُنْتُ أفْعَلُهُ، قَالَ: فَعَائِشَةُ وَاللهِ خَيْرٌ مِنْكِ، سُبْحَانَ اللهِ! هَذا بُهْتَانٌ عَظِيْمٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ(٢). والمعنى: هلاَّ إذا سَمعتموهُ ظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفسِهم خيراً كما فعلَ أبو أيُّوب وامرأتهُ قالاَ فيها خيراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ ؛ أي هَلاَّ جاءَ العُصبةُ الكاذبةُ على قذفِهم عائشةَ بأربعةِ شُهداءَ يشهدون بأنَّهم عايَنُوا منها ذلكَ، ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أخبرَ اللهُ تعالى أنَّهم كاذبونَ في قذفِها، يعنى: إنَّهم كاذبونَ في الظاهرِ والباطن، وكفَى بهذا براءةً لعائشةَ

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٨٩٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٥٦٧). وابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٤٢٢٥).

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فمَن جوَّزَ صِدْقَ أولئكَ في أمرِ عائشة صارَ كافراً باللهِ لا محالةَ؛ لأنه رَدَّ شهادةَ اللهِ لَها بالبراءةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ معناه: لولاَ مِنَّةُ اللهِ وإنعامه عليكم في الدُّنْيا وَالاخِرَةِ بتأخيرِ العذاب عنكم، وقَبُول التوبةِ لِمَنْ تابَ لَمَسَّكُمْ فيما خُضتُمْ فيه من الإفْكِ عذابٌ عظيم هائلٌ في الدنيا والآخرة لا انقطاعَ له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (وَذلِكَ أنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: بَلَغَنِي كَذا وَكَذا، وَيَتَلَقَّوْنَهُ تَلَقِّياً)، قال الزجَّاج: (يُلْقِيهِ بَعْضُكُمْ إلَى بَعْضٍ)(١)، ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ؛ ولا بيانٌ ولا حجَّة، ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا ﴾ ؛ أي تظنُّون أن ذلك القذفَ سهلٌ لا إثمَ فيه ﴿ وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ في الوِزْر والعقوبةِ. قرأ أبَيٌّ:(إذْ تَتَلَقَّوْنَهُ) بتاءَين، وقرأت عائشةُ (إذْ تَلِقُونَهُ) بكسرِ اللام وتخفيفِ القاف مِن الْوَلْقِ، والوَلَقُ الكَذِبُ، يقالُ: وَلَقَ فلانٌ إذا استمرَّ على الكذب، ووَلَقَ فلانٌ السَّرَّ إذا استمرَّ بهِ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ ؛ معناه: هَلاَّ قُلْتُمْ حينَ سَمعتُم ذلكَ: لا يحلُّ لنا أن نتكلَّمَ بهذا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ؛ أي تَنْزِيهاً للهِ تعالى أن تكون امرأةُ نَبيِّهِ زانيةً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي كَذِبٌ، يقالُ: بَهَتَهُ يَبْهَتُهُ بَهْتاً وبُهْتَاناً؛ إذا أخبرَهُ بالكذب عليه.

وقولهُ تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ ؛ أي يَنْهَاكُمُ اللهُ ويخوِّفُكم ويحرِّمُ عليكم أن تعودُوا لِمثل هذا القذفِ، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ لأن قذفَ الْمُحصَنات لا يكونُ من صفاتِ المؤمنين، وقولهُ تعالى (لِمِثْلِهِ) أي إلَى مِثْلِهِ. قولهُ تعالى: ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ﴾ ؛ أي الأمرَ والنهيَ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ؛ بمقالة الكاذبين في أمرِ عائشةَ، ﴿ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ في ما شَرَّعَ من الأحكامِ.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣١.

(٢) في معاني القرآن وإعرابه:ج٤ ص٣١؛ قال الزجاج:(وقرأت عائشة رحمها الله:﴿إذ تُلِقُونَهُ بألْسِنَتِكُمْ﴾ ومعناه: إذ تسرعونَ بالكذبِ، يقال: وَلَقَ يَلِقُ إذا أسرعَ في الكذبِ وغيره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾؛ فيه بيانٌ على أن العزمَ على الفسق فسقٌ، وأنَّ على الإنسانِ أن يحبَّ للناس ما يحبُّ لنفسهِ، وأن يكونَ في قلبهِ سلامةٌ للمؤمنين، كما يكونُ مأموراً بكفِّ اللسان والجوارحِ. ومعنى الآيةِ: إن الذين يُحِبُّونَ أن يَفْشُو ويظهرَ الزِّنا في الذينَ آمَنوا بأن يَنْسِبُوهُ إليهم ويقذِفُوهم به، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾؛ يعني الجلدَ، ﴿ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾؛ يعني عذابَ النار، يريدُ بذلك المنافقينَ، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ﴾؛ ما خُضْتُمْ فيه من الإفكِ، وما فيه من سَخَطِ اللهِ، ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ ذلكَ، فحَذرَ رسولُ الله ﷺ جميعَ قاذِفِي عائشةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ محذوفُ الجواب تقديرُهُ: (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) لعَجَّلَ لكمُ العذابَ وعاقَبَكم في ما قُلْتُمْ في أمرِ عائشةَ ومحبَّتكم إشاعةَ الفاحشةِ فيها، (وَأنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) فلَمْ يُعاقِبْكم في ذلك. قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ مُسْطَحَ وَحَسَّانَ وَحَمْنَةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾؛ أي لا تَسْلُكُوا طُرُقَ الشَّيطان، ولا تعملُوا بتزْيينه ووَسْوَستِهِ في قذفِ عائشةَ، ﴿ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾؛ أي يأمرُ بعصيان الله وكلِّ ما يكرهُ اللهُ مما لا يُعْرَفُ في شريعةٍ ولا سُنَّةٍ. وَقِيْلَ: الفحشاءُ: القَبيْحُ من القولِ والعمل، والمنكرُ: الفسادُ الذي يُنْكِرُ العقلُ صحَّتَهُ ويزجرُ عنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾؛ أي ما صَلُحَ منكم من أحدٍ أبداً. وَقِيْلَ: معناهُ: ما طَهُرَ منكم أحدٌ يُذْنِبُ ولا صَلُحَ أمرهُ بعد الذي قالَ في عائشةَ ما قالَ، ولا قَبلَ توبةَ أحدٍ منكم، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ ﴾؛ أي يُطَهِّرُ مَن يشاءُ من الإثم بالرحمةِ والمغفرة، فيوفِّقُهُ للتوبةِ، ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾؛ أي سَمِيْعٌ لِمقالَتِكم، ﴿ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾؛ بما في نُفوسِكم من النَّدامةِ والتوبة. وَقِيْلَ: معناهُ: سَمِيْعٌ لِمقالة الخائضِين في أمرِ عائشةَ وصفوان، عَلِيْمٌ ببَراءتِهمَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ ﴾؛ أي لا يَحْلِفُ ذوُو الغِنَى والسَّعَةِ منكم أن يُعطوا

ذوي القُربَى والمساكين والمهاجرينَ من مكَّة إلى المدينةِ. نَزَلَ ذلكَ في أبي بَكْرٍ رضي الله عنه حين بَلَغَهُ مقالةُ مُسْطَحٍ وأصحابه في خَوْضِهِمْ في أمر عائشةَ، حَلَفَ باللهِ لاَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ.

قِيْلَ: إنَّهُ دَعَاهُ وَقَالَ لَهُ: (أغْدُوكَ يَا مِسْطَحُ بِمَالِي وَتُؤْذِيْنِي فِي وَلَدِي؟ وَاللهِ لاَ أنْفِقُ عَلَيْكَ). وكان مِسْطَحُ ابنَ خالةِ أبي بكرٍ رضي الله عنه، وكان مِسْطَحُ مِن المهاجرين البدريِّين. فلمَّا نزلت هذه الآيةُ تَلاَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أبي بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ: (بَلَى؛ أحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، أطِيْعُ رَبي وَأرْغِمُ أنْفِي وَأرُدُّ النَّفَقَةَ عَلَيْهِ)(١).

وقولهُ تعالى (أنْ يُؤْتُوا أوْلِي الْقُرْبَى) معناهُ: أن لا يؤتُوا فحذفَ (لا). قال ابنُ عباس: (قَالَ اللهُ لأَبي بَكْرٍ رضي الله عنه: قَدْ جَعَلْتُ فِيْكَ يَا أبَا بَكْرٍ الْفَضْلَ وَالْمَعْرِفَةَ بِاللهِ وَصِلَةَ الرَّحِمِ، وَجَعَلْتُ عِنْدَكَ السَّعَةَ فَأنْفِقْ عَلَى مِسْطَحٍ، فَلَهُ قَرَابَةٌ وَلَهُ هِجْرَةٌ وَلَهُ مَسْكَنَةٌ). وقولهُ تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ قال مقاتلُ: (قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبي بَكْرٍ: [أمَا تُحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكَ؟] قَالَ: بَلَى، قَالَ: [فَاعْفُ وَاصْفَحْ] قَالَ: قَدْ عَفَوْتُ وَصَفَحْتُ، لاَ أمْنَعُهُ مَعْرُوفِي بَعْدَ الْيَوْمِ أبَداً، وَقَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ﴾؛ معناهُ: إن الذينَ يقذِفُون العفائفَ الغافلاتِ عمَّا قُذِفْنَ بهِ كغَفْلَةِ عائشةَ عن ما قيلَ فيها، ﴿ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾، باللهِ ورسوله، ﴿ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾؛ أي عُذِّبُوا في الدُّنيا بالحدِّ، وفي الآخرةِ بعذاب النار. وسُمِّيت عائشةُ غافلةً؛ لأنَّها قُذِفَتْ بأمرٍ لَم يخطُرْ ببالِها، فأصابَ كلُّ واحدٍ مِن قاذفيها ذاهبةً في الدُّنيا. أمَّا ابنُ أبَيٍّ فقد ماتَ كافراً ونَهى النبيُّ ﷺ عن الصَّلاةِ عليهِ، وأما حَسَّانُ فقد دخلَ على عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بعد ما ذهبَ بصرهُ في آخرِ عمره، وأنشدَها في بيتِها:

حَصَانٌ رزَانٌ مَا تُزَنُّ بريْبَةٍ   وَتَصْبحُ غرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٧٥٠).
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤١٤.

قَالَتْ: إنَّكَ لَسْتَ كَذلِكَ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا، قِيْلَ لِعَائِشَةَ: إنَّ اللهَ وَعَدَهُمْ بعَذابٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؟ فَقَالَتْ: أوَلَيْسَ هَذا عَذابٌ؟ يَعْنِي ذهابَ بصرِه.

واختلفَ المفسِّرون في هذه الآيـة (لُعِنُـوا فِـي الدُّنْيَـا وَالاخِـرَةِ) ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ فقال مقاتلُ: (هَذِهِ الآيَةُ خَاصَّةٌ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ أبَيٍّ الْمُنَافِقِ وَرَمْيِهِ عَائِشَةَ)[١]، وقال ابنُ جبير: (هَذا الْحُكْمُ خَاصَّةٌ فِيْمَنْ قَذفَ عَائِشَةَ، فَمَنْ قَذفَهَا فَهُوَ مِنْ أهْلِ هَذِهِ الآيَةِ)[٢]، وقال الضحَّاك والكلبيُّ: (هَذا فِي عَائِشَةَ وَفِي جَمِيْعِ أزْوَاجِ النَّبيِّ ﷺ خَاصَّةً دُونَ سَائِرِ الْمُؤْمِنِيْنَ)[٣]، قال ابنُ عبَّاس: (هَذِهِ الآيَةُ فِي شَأْنِ أمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِيْنَ خَاصَّةً لَيْسَ فِيْهَا تَوْبَةٌ، وَأمَّا مَنْ قَذفَ امْرَأةً مُؤْمِنَةً مِنْ غَيْرِهِنَّ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُ تَوْبَةً). ثُمَّ قَرَأ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بأرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلى قولـه: ﴿إلاَّ الَّذِيْنَ تَابُوا﴾، قَالَ: (فَجَعَلَ اللهُ لِهَؤُلاَءِ تَوْبَةً، وَلَمْ يَجْعَلْ لأُوْلَئِكَ)[٤].

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [مَنْ أشَاعَ عَلَى رَجُلٍ كَلِمَةً فَاحِشَةً وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ يُرِيْدُ أنْ يَسُبَّهُ بهَا فِي الدُّنْيَا، كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أنْ يَدُسَّهُ بـهَا فِي النَّار. وَأيُّمَا رَجُلٍ جَاءَ فِي شَفَاعَةٍ حَدٌّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى فَعَلَيْهِ لَعنةُ اللهِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ][٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ألْسِنَتُهُمْ بمَا تَكَلَّمُوا بهِ مِنَ الْفِرْيَةِ فِي قَذْفِ عَائِشَةَ) ﴿ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ، قال ابنُ عبَّاس: (تَنْطِقُ بمَا عَمِلَتْ فِي الدُّنْيَا)، وهذه عامَّةٌ في القاذفِين وغيرِهم. قرأ حمزةُ والكسائيُّ: (يَوْمَ يَشْهَدُ) بالياء لتقدُّمِ الفعلِ.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤١٤ بمعناه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٥٨٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٥٨٧).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٥٨٩).

(٥) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ٤ ص١٧٧٣؛ قال العراقي: (رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً على أبي الدرداء، وقال: رواه الطبراني بلفظ آخر من حديثه مرفوعاً). وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٢٠٠-٢٠١؛ قال الهيثمي: (رواه كله الطبراني في الكبير، وإسناد الأول فيه من لم أعرفه، ورجال الثاني ثقات). عن أبي الدرداء بإسنادين، أوله: [أيُّمَا رَجُلٍ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَى يَنْزِعَ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ ؛ أي يُوفِّيهنَّ جزاءَهم الواجبَ على قدر أعمالِهم، ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) ﴾ ؛ أي ويعلمون يومئذٍ أنَّ الله تعالى هو الحقُّ الْمُبْيْنُ، يقضِي بحقٍّ ويأخذُ بحقٍّ ويعطي بحقٍّ.

قال ابنُ عباس: (وَذلِكَ أنَّ عَبْدَاللهِ بْنَ أبَيَّ بْنَ سَلُول كَانَ يَشُكُّ فِي الدِّيْنِ، وَيَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبيْنُ). قرأ مجاهدُ: (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهَمُ الْحَقُّ) برفعِ القاف على أنه نعتاً للهِ، وتصديقهُ قراءةُ أبَيٍّ (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ الْحَقُّ دِيْنَهُمْ)[(١)]. وقولهُ تعالى (الْمُبينُ) أي يُبَيِّنُ لَهم حقيقةَ ما كان بعدَهم في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ ؛ معناه: الكلماتُ الخبيثات للخبيثينَ من الرِّجال؛ أي لا يتكلمُ بالكلماتِ الخبيثات إلاّ الخبيثُ من الرجالِ والنساء. وَقِيْلَ: معناهُ: إن الخبيثَ مِن القولِ لا يليقُ إلاّ بالخبيثِ من الناس، وكلُّ كلامٍ إنَّما يحسنُ في أهلهِ، فيضافُ سَيِّءُ القولِ إلى مَن يليقُ به ذلك، وكذلك الطيِّبُ من القول، وعائشةُ لا يليقُ بها الخبيثاتُ؛ لأنَّها طَيِّبَةٌ فيضافُ إليها طيِّباتُ الكلامِ من الثَّناءِ الحَسنِ وما يليقُ بها.

وقال بعضُهم: معنى الآيةِ: الخبيثاتُ من النساءِ للخبيثِينَ من الرِّجال، والخبيثونَ من الرجالِ للخبيثاتِ من النساء للمشاكَلَةِ التي بينَهما، والطيِّباتُ من النساءِ للطيِّبينَ من الرجالِ، والطيِّبُونَ من الرجالِ للطيِّبات من النساءِ. وفي هذا تَبْرِئَةُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان مِن أطيب الطيِّبين، فلا يكونُ له إلاّ امرأةٌ طيِّبةٌ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص٢١١؛ قال القرطبي: (وقرأ مجاهد برفع (الحق) على أنه نعت لله عَزَّ وَجَلَّ. وقال أبو عبيد: ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع؛ ليكون نعتاً لله عَزَّ وَجَلَّ، وتكون موافق لقراءة أبي، وذلك أن جرير بن حازم قال: رأيت في مصحف أبي (يُوَفِّيهِمُ اللهُ الْحَقُّ دِينَهُمْ). قال النحاس: وهذا الكلام من أبي عبيد غير مرضي؛ لأنه احتجَّ بما هو مخالف للسواد الأعظم. ولا حجة أيضاً فيه؛ لأنه لو صح هذا أنه في مصحف أبي كذا جاز أن تكون القراءة: يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم، يكون (دينهم) بدلاً من (الحق).) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٣٠.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ ﴾ ؛ يعـني أن الطيّبـين والطيبات مُبَرَّؤُنَ مما يقولُ الخبيثونَ، والْمُبَرَّأ هو الْمَنْفِيُّ عن صفةِ الْخُبْثِ، والمـرادُ بـه عائشةُ وصفوان، فذكَرَهما بلفظِ الجماعة كما في قوله تعالى ﴿فَإِنْ كَـانَ لَـهُ إِخْـوَةٌ﴾[(١)] والمراد أخوَان. وقولهُ تعـالى (مُـبَرَّءُونَ) أي مُـنَزَّهُونَ. وقولـهُ تعـالى: ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي لَهم مغفـرةٌ لذنوبـهم وثـوابٌ حَسَـنٌ بإلْحَاقِـهِمْ في الجنَّة من الأذيَّةِ.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: (لَقَدْ أعْطِيْتُ تِسْعاً لَمْ يُعْطَـهُنَّ امْـرَأةٌ: نَـزَلَ جِبْرِيْلُ بصُورَتِي فِي رَاحَتِهِ حِيْنَ أمَرَ النَّبِيَّ ﷺ أنْ يَتَزَوَّجَنِي، وَلَقَدْ تَزَوَّجَنِي بكْـراً وَمَـا تَزَوَّجَ بكْراً غَيْرِي، وَلَقَدْ قُبضَ وَرَأسُهُ فِي حِجْرِي، وَلَقَدْ قُبرَ فِـي بَيْتِـي، وَلَقَـدْ حَفَّـتِ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتِي، وَلَقَدْ كَانَ الْوَحْيُ إذا نَزَلَ عَلَيْهِ تَفَرَّقْنَ عَنْهُ، وَكَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ وَأنَـا مَعَـهُ فِي لِحَافِهِ، وَإنِّي لاَبْنَةُ خَلِيْفَتِهِ وَصَدِيقِهِ، وَلَقَدْ نَزَلَ عُذْرِي مِنَ السَّـمَاءِ، وَلَقَـدْ خُلِقْـتُ طَيِّبَةً لِعَبْدٍ طَيِّبٍ، وَلَقَدْ وُعِدْتُ مَغْفِرَةً وَرِزْقاً كَرِيْماً)[(٢)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ﴾ ؛ في الآيةِ أمرٌ بالتَّحفُّظِ عن الهجومِ عن ما لا يُؤْمَنُ من العوراتِ، وإلى هذا أشارَ النبيُّ ﷺ حيث قالَ للرَّجُلِ الذي قالَ لهُ: أسْـتَأْذِنُ عَلَـى أخَوَاتِي[(٣)]؟ قَالَ: [إنْ لَمْ تَسْتَأْذِنْ رَأيْتَ مِنهَا مَا تَكْرَهُ][(٤)] أيْ ربَّما تدخلُ عليها وهـي منكشفةٌ فترى ما تكرهُ. ومعنـى قولـهِ تعـالى (حَتَّـى تَسْتَأْنِسُـوا) أي حتـى تَسْـتَأْذِنُوا، والاسْتِئْنَاسُ هو الاسْتِعْلاَمُ ليعلمَ مَن في الدار، وذلك يكـون بقَـرْعِ البـاب والتَّنَحْنُـحِ وخَفْقِ النَّعْلِ.

---

(١) النساء / ١١ .

(٢) في مجمع الزوائد: ج ٩ ص٢٤١: كتاب المناقب: باب جامع فيما بقي من فضلها؛ قـال الهيثمـي: (رواه أبو يعلى وفي الصحيح وغيره بعضه، وفي إسناد أبي يعلى من لم أعرفهم). وذكره من وجه آخر قال: (رواه الطبراني ورجال أحد أسانيد الطبراني رجال الصحيح) وفي ص٢٤٢ ذكره مـن وجه آخر ضعيف.

(٣) في المخطوط: (أختي).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٩٦٢٣) من حديث ابن عباس مرسلاً.

وكان أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ وابن عباس والأعمشُ يقرأونها (حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا). وَقِيْلَ: إن في الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ تقديرهُ: حتى تُسَلِّمُوا على أهلِها وتَسْتَأْذِنُوا، وهو أنْ يقولَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ؛ أدْخُلُ؟.

ورُوي أنَّ أعرابياً جَاءَ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فقَالَ: ألِجُ ؟ فقَالَ ﷺ لِخَادِمَةٍ يُقَالُ لَهَا رَوْضَةٌ: [قُومِي إلَى هَذا فعَلِّمِيْهِ، فَإنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يَسْتَأْذِنُ، قُولِي لَهُ: تَقُولُ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ؛ أدْخُلُ؟][(١)].

وعن زينبَ امرأةِ ابن مسعود قالت: (كَانَ عَبْدُاللهِ إذا جَاءَ مِنْ حَاجَةٍ فَانْتَهَى إلَى الْبَاب تَنَحْنَحَ وَبَزَقَ؛ كَرَاهَةَ أنْ يَهْجُمَ عَلَيْنَا وَيَرَى أمْراً يَكْرَهُهُ)[(٢)]. وعن أبي أيُّوب[(٣)] قالَ: (يَتَكَلَّمُ الرَّجُلُ بالتَّكْبِيْرَةِ وَالتَّسْبِيْحَةِ وَالتَّحْمِيْدَةِ، وَيَتَنَحْنَحُ يُؤْذِنُ أهْلَ الْبَيْتِ)[(٤)].

ويُروى أنَّ أبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ ﷺ أتَى إلَى مَنْزِل عُمَرَ ﷺ فقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ؛ هَذا عَبْدُاللهِ بْنُ قَيْسٍ؛ هَلْ أدْخُلُ ؟ فَلَمْ يُؤْذنْ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ؛ هَذا أبُو مُوسَى. فلَمْ يُؤْذنْ لَهُ، فَذهَبَ فَوَجَّهَ عُمَرُ بَعْدَهُ مَنْ يَرُدُّهُ، فَسَألَهُ عَمَّا مَنَعَهُ[(٥)] فقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: [الاسْتِئْذانُ ثَلاَثٌ، فَإنْ أذِنَ لَكَ وَإلاَّ فَارْجِعْ]. فقَالَ عُمَرُ ﷺ: لَتَأْتِيَنِّي بالْبَيِّنَةِ وَإلاَّ عَاقَبْتُكَ! فَانْطَلَقَ أبُو مُوسَى وَأتَى بأُبَيِّ بْن كَعْبٍ وَأبي سَعِيْدٍ الْخُدْرِيِّ فَشَهِدَا بذلِكَ، وَقَالَ لَهُ: إنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ ذلِكَ؛ فَلاَ تَكُونَنَّ عَذاباً عَلَى أصْحَاب مُحَمَّدٍ ﷺ. فقَالَ عُمَرُ: وَمَا فَعَلْتُ؟! إنَّمَا أنَا سَمِعْتُ بشَيْءٍ فَأحْبَبْتُ أنْ أتَثَبَّتَ[(٦)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٩٦١٦). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص١٧٢؛ عزاه السيوطي إلى الطبري وحده.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٦٢٦).

(٣) هو أبو أيوب الأنصاري، الصحابي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الأدب: باب الاستئذان: الحديث (٣٧٠٧)، وإسناده ضعيف؛ فيه أبو سورة، قال فيه البخاري: (منكر الحديث، يروي عن أبي أيوب مناكير لا يتابع عليها).

(٥) في المخطوط فراغ.

(٦) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الاستئذان: باب التسليم والاستئذان: الحديث (٦٢٤٥).=

ورُوي أنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَأَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي ؟ قَالَ: [نَعَمْ] قَـالَ: لَيْـسَ لَهَا خَادِمٌ غَيْرِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا كُلَّمَا دَخَلْتُ؟ قَالَ: [أَتُحِبُّ أنْ تَرَاهَا وَهِيَ عَرْيَانَةٌ ؟] قَالَ: لاَ، قَالَ: [فَاسْتَأْذِنْ][1].

وَعن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنِ اطَّلَعَ فِي بَيْـتِ قَـوْمٍ بغَـيْرِ إذْنِهِم؛ حَلَّ لَهُمْ أنْ يَفْقَأُوا عَيْنَهُ][2]. وعن رسول الله ﷺ أنَّـهُ رَأى رَجُـلاً اطَّلَـعَ فِـي حُجْرَتِهِ وَبِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ مُدْراً يَحُكُّ بِهِ رَاسَهُ، فَقَالَ: [لَوْ عَلِمْتُ أنَّكَ تُرِيْدُ أنْ تَنْظُرَ إلَى عَوْرَةٍ لَفَقَأْتُ بهَذا عَيْنَكَ، إنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذانُ مِنْ أجْلِ النَّظَرِ][3].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي ذلـكَ الاستئذانُ خيرٌ لكم من الدخول بغيرِ إذنٍ لكي تذكرون منه، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا ﴾ ؛ معناهُ: فإن لَم تجدُوا في البيوتِ أحداً من سُكَّانِها فلا تدخلوها، ﴿ حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ ؛ وكذلكَ لو وجدُوا البيـوتَ خاليـةً لَـم يَجُـزْ دخولُها أيضاً إلاَّ بإذنِ صاحبِها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ ؛ أي إذا أمِرْتُمْ بالانصرافِ فانصرفوا وتقوَّسُوا على باب البيت فلعلَّ صاحبَ البيتِ لا يرضـى أن يقعَ بصرُ المستأذنِ على أحدٍ من حَرَمِهِ، وكذلك لو لَم يقُـلْ لكـم صـاحبُ الـدار

=ومسلم في الصحيح:كتاب الآداب: باب الاستئذان: الحديث(٣٣/ ٢١٥٣). وأبو داود في السنن: كتاب الآداب: الحديث (٥١٨٠).

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الاستئذان: باب الاستئذان: ص٩٦٣. والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب النكاح: باب استئذان المملوك والطفل: الحديث (١٣٨٥٣) عن حذيفة موقوفاً، و(١٣٨٥٤) عن عطاء بن يسار مرسلاً.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٦٦. ومسلم في الصحيح: كتاب الأدب: باب تحريم النظر في بيت غيره: الحديث (٤٣/ ٢١٥٨). وأبو داود في السنن: كتاب الآداب: باب الاستئذان: الحديث (٥١٧٢).

(٣) رواه البخاري في الصحيح:كتاب الاستئذان: الحديث (١٢٤١). ومسلم في الصحيح: كتاب الآداب: الحديث (٤٠/ ٢١٥٦).

ارجعوا، ولكن وُجِدَ منهُ ما يدلُّ على ذلك وجبَ الرجـوعُ، لقولـه ﷺ: [الاسْـتِئْذانُ ثلاَثٌ، فإنْ أذِنَ لَكَ وَإلاَّ فَارْجِعْ][1]. ورُوي [الاسْتِئْذانُ ثَلاَثٌ: مَرَّةٌ يَسْتَمِعُونَ، وَمَرَّةٌ يَسْتَصْلِحُونَ، وَمَرَّةٌ يَأْذنُونَ]. وقولهُ تعالى (هُوَ أزْكَى لَكُمْ) أي الرجـوعُ أطـهَرُ وأنفـعُ لدِينكم من الجلوسِ على أبواب النـاس، ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي بما تعملونَ من الدُّخول بإذنٍ وغير إذن عالِمٌ.

فلما نزلَتْ آيةُ الاستئذان؛ قالوا: فكيفَ بالبيوتِ التي بين مكَّة والمدينـة والشَّـام على ظـهر الطَّريـق ليـس فيـها سـاكنٌ؟ فـأنزلَ اللهُ تعـالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ ؛ بغيرِ اسـتئذان. وَقِيْـلَ: أرادَ بذلـك المواضـعَ الـتي لا يختصُّ سكانُها أحداً دون آخر مثل الخاناتِ والرِّباطَاتِ التي تُتَّخَذُ للمسافرينَ يتظلَّلون فيها من الحرِّ والبردِ، ويدخلُ في هذا أخذُ ما جرتِ العادةُ بأخذه مثل النواتِ والْخِرَقِ الملقاةِ في الطريق، ويجوز أن يكون المرادُ بالبيوتِ في هـذه الآيـة بيـتُ التُّجَّـار الـتي في الأسواق.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي منـافعُ مـن اتِّقـاء الحـرِّ والـبرد والاستمتاعِ بها. قال مجاهدُ: (كَانُوا يَصْنَعُونَ فِي طُـرُقِ الْمَدِيْنَـةِ أقْتَاباً[2] وَأمْتِعَـةً فِـي الْبُيُوتِ لَيْسَ فِيْهَا أحَدٌ، وَكَانَتِ الطُّـرُقُ إذ ذاكَ آمِنَـةً، فَـأُحِلَّ لَـهُمْ أنْ يَدْخُلُوهَـا بغَـيْرِ إذْنٍ)[3]. وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ بالْمَتَاعِ هُوَ قَضَاءُ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَـلاَءِ وَالْبَـوْلِ)[4]. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي لا يخفـى عليـه شيءٌ من أعمالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهُمْ يَغُضُّـوا مِنْ أبْصَارِهِمْ عن النظرِ إلى ما لا يحلُّ لَهم. واختلفـوا في قولـهِ تعـالى (مِـنْ أبْصَـارِهِمْ)

---

(١) تقدم.

(٢) الأقتاب جمع قَتَب: الرَّحْلُ الصغير على قدر سنام البعير.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٦٣٢).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٦٣٦).

فقال بعضُهم: هي صِلَةٌ يغضُّوا أبصارَهم. وقال بعضُهم: هي ثابتةٌ في الحكمِ؛ لأن المؤمنين غيرُ مأمورين بغضِّ البصرِ أصلاً وإنَّما أمِرُوا بالغضِّ عمَّا لا يحلُّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ ؛ يعني عن الحرامِ، قال ﷺ: [اضْمَنُوا لِي شَيْئاً مِنْ أنْفُسِكُمْ أضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إذا حَدَّثْتُمْ، وَأوْفُوا إذا وَعَدْتُمْ، وَأدُّوا إذا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أيْدِيَكُمْ][(١)].

وقال ﷺ:[النَّظَرُ إلَى مَحَاسِنِ الْمَرْأةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ، فَمَنْ رَدَّ بَصَرَهُ ابْتِغَاءَ ثَوَابِ اللهِ أبْدَلَهُ اللهُ بذلِكَ مَا يَسُرُّهُ][(٢)]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ ؛ أي أطهرُ وأصلحُ عندَ الله، ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ في الفُروجِ والأبصار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهُنَّ يَكْفُفْنَ أبصارَهن عن ما لا يجوزُ، ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ ، عن الحرامِ. وَقِيْلَ: (يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) أي يَسْتَتِرْنَ حتى لا يرَى فروجهن أحدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ ؛ أي لا يُبدينَ مواضعَ زينتِهنَّ إلاّ ما ظهرَ من موضعِ الزِّينة. والزِّيْنَةُ زينَتَان: ظَاهِرَةٌ وباطنةٌ، فالباطنةُ: الْمَخَانِقُ وَالْمَعَاضِدُ وَالْقِلاَدَةُ وَالْخِلْخَالُ وَالسِّوارُ وَالْقِرْطُ وَالْمَعَاصِمُ. وأما الزينةُ الظاهرةُ: الْكُحْلُ وَالْخَاتَمُ وَالْخِضَابُ، فليس على المرأةِ بحُكْمِ إلاّ هذا[(٣)] بهِ سَتْرُ وجهِها وكفَّيها في الصلاة.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٢٣. والبيهقي في السنن الكبرى: الحديث (١٢٩٦٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير: الحديث (١٠٣٦٢). والحاكم في المستدرك: كتاب الرقاق: الحديث (١٩٤٥). والقضاعي في مسند الشهاب: الحديث (٢٩٢).

(٣) المعنى: أن الزينة الظاهرة هي محل الحكم؛ لأنه لما كان الغالبُ من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك في الصلاة والحج، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعاً إليهما. وذهب المصنف رحمه الله إلى هذا الوجه من التفسير، ومعه الدليل ولم يرجِّح الرأي الثاني مع حسنه أيضاً. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص٢٢٩.

وفي غيرِ الصلاة يجوزُ للأجانب من الرِّجال النظرُ إلى وجهها لغيرِ الشَّهوةِ. فأما النظرُ مع الشهوةِ فلا يجوزُ إلاّ في أربعةِ مواضع: إذا أرادَ أن يتزوَّج امرأةً، أو يشتريَ جاريةً، أو يتحمَّلَ الشهادةَ لَها أو عليها، أو القاضي يقضي لَها أو عليها.

وعن ابنِ مسعودٍ: (أنَّ الزِّيْنَةَ الظَّاهِرَةَ: هِيَ الْجِلْبَابُ وَالْمِلاَءَةِ)[1] يَعْنِي الثِّيَابَ لقولهِ ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾[2] أي ثيابَكم. وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّها قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لاَ يَحِلُّ لامْرَأةٍ تُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ إذا عَرَكَتْ[3] أنْ تُظْهِرَ إلاَّ وَجْهَهَا وَيَدَيْهَا وَإلَى هَا هُنَا وَقَبَضَ عَلَى نِصْفِ الذِّرَاعِ][4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ؛ الْخُمُرُ: جَمْعُ خِمَارٍ؛ وهُوَ مَا تُغَطِّي بهِ المرأةُ رأسَها، والمعنى: وَلْيُلْقِيْنَ مَقَانِعَهُنَّ على جيوبهنَّ وصُدورهن لِيَسْتُرْنَ بذلك شُعورَهن ومُرُوطَهن وأعناقَهن ونحورَهن، كما قال ابنُ عباس: (تُغَطِّي الْمَرْأةُ شَعْرَهَا وَصَدْرَهَا وَتِرَابَهَا وَسَوَالِفَهَا) لأن المرأةَ اذا أسْدَلَتْ خِمارَها انكشفَ ما قدَّامها وما خلفها فوقعَ الاطلاعُ عليها. والجيوبُ: جمعُ جَيْبٍ وهو جيبُ القميصِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ ؛ أرادَ به موضعَ الزينةِ الباطنة التي لا يجوزُ كشفُها في الصَّلاةِ، والمعنى: لا يُظْهِرْنَ موضعَ الزينة التي تكون تحتَ خُمُرِهِنَّ إلاّ لأزواجِهنَّ، ﴿ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ أي أزواجِهنَّ، ﴿ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ ﴾ ؛ في النَّسب أو الرَّضاع، ﴿ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾ ؛ وكلُّ ذِي رحمٍ مَحْرَمٍ منهُنَّ، ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ ؛ يعني نساء أهلِ دِينهنَّ وهُنَّ المسلماتُ، ولا يحلُّ لِمسلمةٍ أن تنكشفَ بين يدَي يهوديَّة أو نصرانيةٍ أو مجوسية أو مشركة. وَقِيْلَ: المرادُ بذلك العفائفُ مِن النساءِ اللائى يكن اشكالاً لهن.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٦٤٤). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص١٧٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر).

(٢) الأعراف / ٣١ . (٣) في أصل المخطوط: (غزلت).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٩٦٥٦). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص١٨٠؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وابن جرير عن قتادة).

ولا ينبغِي للمرأة الصالحةِ أن تنظرَ إلى المرأةِ الفاجرة؛ لأنَّها تَصِفُها عند الرجلِ، ولا تضعَ جلبَابَها ولا خِمارَها عندها، ولا يحلُّ لامرأة مؤمنةٍ أن تنكشفَ أيضاً عند مُشركةٍ أو كتابية إلاّ أن تكون أمَةً لَها، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ؛ ورُوي أنَّ عُمَرَ ﷺ كَتَبَ إلَى أبي عُبَيْدَةَ: (أمَّا بَعْدُ: فَقَدْ بَلَغَنِي أنَّ نِسَاءَكُمْ يَدْخُلْنَ الْحَمَّامَاتِ مَعَهُنَّ نِسَاءُ أهْلِ الْكِتَابِ، فَامْنَعْ مِنْ ذلِكَ). فَلَمَّا أتَى الْكِتَابُ إلَى أبي عُبَيْدَةَ قَامَ فِي ذلِكَ الْمَكَانِ مُبْتَهِلاً وَقَالَ: (اللَّهُمَّ أيّمَا امْرَأةٍ تَدْخُلُ الْحَمَّامَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلاَ سَقَمٍ تُرِيدُ الْبَيَاضَ لِوَجْهِهَا، فَسَوِّدْ وَجْهَهَا يَوْمَ تَبْيَضُّ الْوُجُوهُ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُنَّ) ذهبَ بعضُهم إلى أن المرادَ به العبدَ، فإنه لا بأسَ أن تُظهرَ المرأةُ عند عبدِها ما تُظهرُ عند مَحارمها. وكان سعيدُ بن المسيَّب يقول: (لاَ يَغُرَّنَّكُمْ قَوْلُهُ: (أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُنَّ) فَإنَّهَا نَزَلَتْ فِي الإمَاءِ دُونَ الْعَبيْدِ)، وعن مجاهدٍ مثلُ ذلكَ، كأنَّهما ذهبَا إلى أن المرادَ بقوله: (أوْ نِسَائِهِنَّ) الحرائرَ، والمرادَ بقولهِ (أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُنَّ) الإماءُ والوَلائِدُ والصِّغارُ من الذُّكور المماليكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ ؛ يعني الذين يتبعون النساءَ من الأجر العمَّال الذين لا حاجةَ لَهم في النِّكاح، وإنَّما يخدُمون القومَ لينالوا من طعامِهم، والإرْبَةُ فِعْلَةٌ مِنَ الإرْب وهو الحاجةُ، كالْمِشْيَةِ من الْمَشْيِ. قال البعضُ: (هُمْ قَوْمٌ طُبعُوا عَلَى غَيْرِ شَهْوَةٍ، لاَ يَشْتَهُونَ وَلاَ يَعْرِفُونَ مَا يُشْتَهَى مِنَ النِّسَاءِ وَلاَ يَشْتَهِيهُمُ النِّسَاءُ) يعني: لا يَشْتَهُونَ ولا يُشْتَهَوْنَ. وقال سعيدُ بن جبير: (الْمَعْتُوهُونَ)، وقال عكرمةُ: (هُوَ الْمَجْنُونُ)، وقال الْحَكَمُ بن إبان: (هُمُ الْمَخَانِيْثُ الَّذِيْنَ لاَ إرَبَ لَهُمْ فِي النِّسَاءِ، وَلاَ تَقُومُ لَهُمْ شَهْوَةٌ)[2].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٦٧٣). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص١٨٣؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور والبيهقي في سننه وابن المنذر).

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٦٨٩).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّ مُخَنَّثاً كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ، وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْرِ أوْلِي الإرْبَةِ، فَسَمِعَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ فِي صِفَةِ امْرَأةٍ: أنَّهَا إذا أقْبَلَتْ؛ أقْبَلَتْ بأرْبَعٍ، وإذا أدْبَرَتْ؛ أدْبَرَتْ بثَمَان، فَقَالَ ﷺ: [أوَهَذا الْمُخَنَّثُ يَعْرِفُ هَذا الْكَلاَمَ؟! لاَ أرَاهُ يَدْخُلُ عَلَيْكُنَّ][(١)]. وقال مجاهد وعكرمةُ والشعبيُّ: (هُمُ الَّذِيْنَ لاَ إرَبَ لَهُمْ فِي النِّسَاءِ)[(٢)]، وقال قتادةُ: (هُوَ الَّذِي يَتْبَعُكَ لأَجْلِ أنْ يُصِيْبَ مِنْ طَعَامِكَ، وَلاَ هِمَّةَ لَهُ فِي النِّسَاءِ)[(٣)]. وقال مقاتلُ: (هُوَ الشَّيْخُ الْهَرِمُ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيْعُ غَشَيَانَ النِّسَاءِ وَلاَ يَشْتَهِيْهِنَّ)[(٤)].

وأما الْخِصْيَانُ فهُمْ على وجهين: إن كان خَصِيّاً قد جفَّ ماؤهُ، فهو من غير أوْلِي الإربةِ، وإن كان لَم يجفَّ، فهو من أوْلِي الإربةِ، كما رُوي عن عائشةَ أنَّها قالت: (إنَّ الْخَصْيَاءَ مِثْلَهُ؛ وَإنَّهَا لَمْ تُحِلَّ مَا حَرَّمَ اللهُ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (غَيْرِ أوْلِي الإرْبَةِ)، قرأ ابنُ كثير والفرَّاء بخفضِ (غَيْرِ) على الصفةِ، وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصم بنصب (غَيْرَ) على الاستثناءِ، ويكون (غَيْرَ) بمعنى إلاَّ، وَقِيْلَ: على الحال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ؛ يعني الصغيرَ الذي لا رغبةَ له في النساءِ، ولَم يَبْلُغْ مبلَغاً يطيقُ إتيانَهن، وقد يذكرُ الطِّفلُ بمعنى الجماعةِ، والمرادُ به ها هنا: والجماعةُ من الأطفال. وأما الصبيُّ الذي ظهرت لهُ رغبةٌ في النساءِ، فحكمهُ حكمُ البالغ، لقوله ﷺ في الصِّبيان: [مُرُوهُمْ بالصَّلاَةِ إذا بَلَغُوا سَبْعاً، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا إذا بَلَغُوا عَشْراً، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ][(٥)].

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب المغازي: باب غزوة الطائف: الحديث (٤٣٢٤). ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب منع المخنث من الدخول على النساء: الحديث (٢١٨٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(١٩٦٨٧) عن مجاهد،و(١٩٦٨١) عن الشعبي.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٩٦٧٩-١٩٦٨٢).

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤١٧.

(٥) رواه أبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب متى يؤمر الغلام: الحديث (٤٩٥). والحاكم في المستدرك: كتاب الصلاة: الحديث (٧٣٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (كَانَتِ الْمَرْأةُ تَمُرُّ عَلَى الْمَجْلِسِ وَعَلَيْهَا الْخِلْخَالُ، فَتَضْرِبُ إحْدَى رِجْلَيْهَا بالأُخْرَى لِيَعْلَمَ الْقَوْمُ أنَّ عَلَيْهَا الْخِلْخَالَ، فَنُهِيْنَ عَنْ ذلِكَ لأنَّ ذلِكَ مِمَّا يُحَرِّكُ الشَّهْوَةَ؛ لأنَّ سَمَاعَ صَوْتِ الزِّيْنَةِ بمَنْزِلَةِ إبْدَائِهِ). وفي هذا دليلٌ أن صوتَ المرأةِ عورةٌ؛ لأن صوتَ خِلخَالِها أقلُّ من صوتِها. وأما سِوَى مواضع الزينةِ فلا يحلُّ النظرُ إليه إلاَّ للزَّوجِ خاصَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ أي وتُوبُوا إلى اللهِ جميعاً عمَّا كنتم في الجاهليَّة تعملونَ من الخصال المذمومة، واعمَلُوا بطاعةِ الله فيما أمرَكم به ونَهاكم عنهُ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ وقولُهُ تعالى: (أيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ) قرأ ابنُ عامر بضمِّ (الْهَاءِ) ومنهُ (يَا أيُّهُ السَّاحِرُ) و(أيُّهُ الثَّقَلاَنِ)، وينبغي أن لاَ يُؤْخَذ بقراءتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ ؛ أي تزوَّجُوهم، والأيْمُ اسمُ المرأةِ التي لا زوجَ لَها، والرجلُ الذي لا امرأةَ له، يقال: رجلٌ أيْمٌ وامرأة أيْـمٌ، كما يقالُ: رجل بكْرٌ وامرأة بكْرٌ، وقال الشاعرُ:

فَإنْ تَنْكِحِي أنْكَحْ وَإنْ تَتَأيَّمِي أكُنْ ... مَدَى الدَّهْرِ مَا لَمْ تَنْكَحِي أتَأيَّمِ

ويقالُ[1]: الأيْمُ في النِّساء كالعُزْب في الرِّجال، وجمعُ الأيْمِ الأيَامَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾ ؛ أي وزوِّجُوا عبيدَكم وإمائكم، وهذا أمرُ ترغيبٍ واستحباب. وفائدةُ ذِكر الصالحين: أن المقصودَ من النكاحِ العفافُ، والصالحُ هو الذي يتعفَّفُ. وَقِيْلَ: الصلاحُ ها هنا الإيْمانُ، ثُم رجعَ إلى الأحرار فقالَ: ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ؛ فيه حثٌّ على النكاحِ؛ لئلا يَمتنِعُوا منه بسبب الفقر، فإن اللهَ هو الغنيُّ والْمُغْنِي، إن يكونوا فقراءَ لا سَعَةَ لَهم في التزويجِ (يُغْنِيهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) أي يُوَسِّعُ عليهم عند التزوُّجِ.

---

(١) آمَ الرجل — بالمد — والمرأة وتأيَّما: إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين، والشاهد الشعري اختلف الطبراني في نقله عن سائر المفسرين. ونقله ابن منظور في لسان العرب: ج ١ ص٢٩٠، والمعنى: يقول لمحبوبته: إن تتزوجي أتزوج، وإن لم تتزوجي لم أتزوج.

واختلَفُوا في الآيةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ) الآيةُ؛ فقال بعضُهم: هذا الأمرُ على الْحَتْمِ والإيجاب، أوجبَ اللهُ النكاحَ على مَن استطاعَهُ، وتأوَّلَهُ الباقونَ على أنه أمرُ استحبابٍ ونَدْبٍ، وهو المشهورُ الذي عليه الجمهور.

وَقِيْلَ: يجبُ على المرأةِ والرجلِ أن يتزوَّجَا إذا تاقت أنفسُهما إليه؛ لأن اللهَ تعالى أمَرَ به ورَضِيَهُ وندبَ إليه، وبَلَغَنَا أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: [تَنَاكَحُوا؛ فَإنِّي أبَاهِي بكُمُ الأُمَمَ حَتَّى السِّقْطَ][1]. وقالَ ﷺ: [مَنْ أحَبَّ فِطْرَتِي فَلْيَسْتَنَّ بسُنَّتِي][2] وهو النكاحُ؛ لأنه ينتفعُ بدعاءِ ولده بعدَهُ، ومن لَم تَتُقْ نفسهُ إليه فأحبُّ إلينا أن يتخَلَّى لعبادةِ الله.

وعن أبي نَجِيْحٍ السلميِّ؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ كَانَ لَهُ مَا يَتَزَوَّجُ بهِ وَلَمْ يَتَزَوَّجْ فَلَيْسَ مِنَّا][3]، وقال ﷺ: [مَنْ أدْرَكَ وَلَداً وَعِنْدَهُ مَا يُزَوِّجُهُ فَلَمْ يُزَوِّجْهُ فَأَحْدَثَ إثْماً فَالإثْمُ بَيْنَهُمَا] ، وقال ﷺ: [إذا تَزَوَّجَ أحَدُكُمْ عَجَّ الشَّيْطَانُ][4] تأويلهُ: غَنِمَ ابنُ آدمَ مني ثُلثي دينه. وقال ﷺ: [مِسْكِيْنٌ مِسْكِيْنٌ رَجُلٌ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ، مِسْكِيْنَةٌ مِسْكِيْنَةٌ امْرَأةٌ لَيْسَ لَهَا زَوْجٌ] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَإنْ كَانَتْ غَنِيَّةً مِنَ الْمَالِ؟ قَالَ: [وَإنْ كَانَتْ غَنِيَّةً مِنَ الْمَالِ][5] وَقَالَ: [شِرَارُكُمْ عُزَّابُكُمْ][6].

---

(١) رواه عبدالرزاق في المصنف: الحديث (١٠٣٩٣). وفي تخريج أحاديث الإحياء: ج ٢ ص٩٣٩؛ قال العراقي: (رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث ابن عمر بسند ضعيف). ورواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٥٧٤٢).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى: الحديث (١٣٧٣٥). وعبدالرزاق في المصنف: الحديث (١٠٣٨٩). وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٢٥٣؛ قال الهيثمي: (رواه أبو يعلى ورجاله ثقات إن كان عبيد بن حسن صحابياً، وإلا فهو مرسل).

(٣و٤) لم أجده.

(٤) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الرقم (٤٤٤٤٥). ورواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٤٤٧٢).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٦٥٨٥).

(٦) رواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٤٤٧٣).

وقال ﷺ: [أَرْبَعَةٌ يَلْعَنُهُمُ اللهُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ: رَجُلٌ يَخْصِي نَفْسَهُ عَنِ النِّسَاءِ فَلاَ يَتَزَوَّجُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى ذلِكَ، وَلاَ يَتَسَرَّى خِشْيَةَ أنْ يُولَدَ لَهُ، وَرَجُلٌ تَشَبَّهَ بالنِّسَاءِ، وَامْرَأَةٌ تَشَبَّهَتْ بالرِّجَالِ، وَرَجُلٌ يَتَهَزَّأُ بالْمَسَاكِيْنِ يَقُولُ لَهُمْ: تَعَالَوا حَتَّى أعْطِيَكُمْ، فَإذا جَاءُوا قَالَ لَهُمْ: لَيْسَ مَعِي شَيْءٌ، وَيَقُولُ لِلأَعْمَى: احْذَرِ الْحَجَرَ قِبَلَكَ، وَاحْذَرِ الدَّابَّةَ، وَلَيْسَ قِبَلَهُ شَيْءٌ](١).

وروي أن رَجُلاً يُقَالُ لَهُ عَكَّافُ بْنُ وَادِعَةَ الْهِلاَلِيُّ، جَاءَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ لَهُ: [يَا عَكَّافُ؛ ألَكَ زَوْجَةٌ ؟] قَالَ: لاَ، قال: [وَلاَ جَارِيَةٌ؟] قَالَ: لاَ، قال: [وَأنْتَ صَحِيْحٌ مُوسِرٌ ؟] قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: [تَزَوَّجْ فَإنَّكَ مِنْ إخْوَانِ الشَّيَاطِيْنِ، اصْنَعْ مَا يَصْنَعُ الْمُؤْمِنُونَ، فَإنَّ مِنْ سُنَّتِنَا النِّكَاحُ، شِرَارُكُمْ أعْزَابُكُمْ، وَمَا لِلشَّيْطَانِ سِلاَحٌ أبْلَغُ مِنَ النِّسَاءِ، وَيْحَكَ يَا عَكَّافُ! إنَّهُنَّ صَوَاحِبَاتُ يُوسُفَ وَصَوَاحِبَاتُ دَاوُدَ وَصَوَاحِبَاتُ كُرْسُفُ]. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَنْ كُرْسُفُ ؟ قَالَ: [رَجُلٌ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى سَاحِلٍ مِنْ سَوَاحِلِ الْبَحْرِ ثَلاَثِيْنَ عَاماً، يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ لاَ يَفْتُرُ، فَقُدِّرَ عَلَيْهِ أنْ كَفَرَ وَالْعِيَاذُ باللهِ مِنْ سَبَبِ امْرَأةٍ عَشِقَهَا، وَتَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ رَبِهِ، وَتَدَارَكَهُ اللهُ بَعْدَ ذلِكَ مَا سَلَفَ مِنْهُ. وَيْحَكَ يَا عَكَّافُ! تَزَوَّجْ فَإنَّكَ مِنَ الْمُذنِبِيْنَ] قَالَ: زَوِّجْنِي مَنْ شِئْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَزَوَّجَهُ عَلَى امْرَأةٍ يُقَالُ لَهَا كَرِيْمَةَ بِنْتِ كَلْثُومَ الْحِمْيَرِيِّ(٢).

---

(١) أخرج البيهقي في شعب الإيمان: الحديث (٥٣٨٥) شطراً منه عن أبي هريرة. وأخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٧ ص٤٦٢: الرقم (٧٧/ ١٦٩٨): ترجمة محمَّد بن سلام الخزاعي. وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٢٧٢؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط من طريق محمد بن سلام عن أبيه، قال البخاري: لا يتابع على حديثه هذا).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ج ٦ ص١٧١: الحديث (١٠٣٨٧) بلفظه. والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص١٦٣-١٦٤ عن مكحول عن رجل عن أبي ذر الغفاري. في الإصابة في تميز الصحابة: ج ٤ ص٥٣٥: الترجمة (٥٦٤٠)؛ قال ابن حجر: (رواه الطبري في مسند الشاميين). وفي مسند الشاميين: ج ١ ص٢١٣: الحديث (٣٨١): أخرجه الطبري بلفظه، إلا أنه قال: [زينب بنت كلثوم الحميرية].

وعن عِيَاضِ بن غَنَمَ الأشعريِّ؛ قال: قالَ لِي رسولُ اللهِ ﷺ:[يَا عِيَاضُ؛ لاَ تَزَوَّجَنَّ عَجُوزاً وَلاَ عَاقِراً؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ](١)، وقال رسول الله ﷺ:[تَزَوَّجُوا الأَبْكَارَ؛ فَإِنَّهُنَّ أَعْذَبُ أَفْوَاهاً؛ وَأَنْتَقُ أَرْحَاماً؛ وَأَثْبَتُ مَوَدَّةً؛ وَأَرْضَى بالْيَسِيْرِ، وَإذا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ فَلْيَسْأَلْ عَنْ شَعْرِهَا كَمَا يَسْأَلُ عَنْ وَجْهِهَا، فَإِنَّ الشَّعْرَ أَحَدُ الْجَمَالَيْنِ](٢).

وقال ﷺ: [تَزَوَّجُوا الزُّرْقَ فَإِنَّ فِيهِنَّ يُمْناً](٣) أي سَعَادَةً. وعن عائشةَ قالت: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [أَعْظَمُ نِسَاءِ أُمَّتِي بَرَكَةً أَصْبَحُهُنَّ وَجْهاً وَأَقَلُّهُنَّ مَهْراً](٤)، وقال ﷺ: [أَعْلِنُوا بالنِّكَاحِ وَاضْرِبُوا عَلَيْهِ بالدُّفُوفِ، وَلْيُولِمْ أَحَدُكُمْ وَلَوْ بشَاةٍ](٥).

وعن معاذِ بن جبل قال: حَضَرْتُ مِلاَكَ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَار مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ، فَخَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَمْلَكَ الأَنْصَارِيُّ، ثُمَّ قَالَ لَهُ:[عَلَى الأُلْفَةِ وَالْخَيْرِ وَالطَّيْرِ الْمَيْمُون] فَجَاءَ بسِلاَلٍ فِيْهَا فَاكِهَةٌ وَسُكَّرٌ فَلَمْ يَنْتَهِبُوهُ، فَقَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: [أَلاَ تَنْتَهِبُونَ ؟] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! إنَّكَ نَهَيْتَنَا عَنِ النُّهْبَةِ يَوْمَ كَذا وَكَذا، فَقَالَ: [إنَّمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ نُهْبَةِ الْعَسَاكِرِ وَلَمْ أَنْهَكُمْ عَنْ نُهْبَةِ الْوَلاَئِمِ] ثُمَّ قَالَ: [أَلاَ فَانْتَهِبُوا](٦).

---

(١) رواه الطبراني في الكبير: الحديث (١٠٠٨). والحاكم في المستدرك: كتاب معرفة الصحابة: الحديث (٥٣٢١). وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٢٥٨؛ قال الهيثمي: (فيه معاوية بن يحيى الصوفي، وهو ضعيف).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٧٦٧٣). وابن ماجة في السنن: كتاب النكاح: الحديث (١٨٦١). وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٢٥٩؛ قال الهيثمي: (فيه أبو بلال الأشعري، ضعفه الدارقطني).

(٣) أخرجه الديلمي في الفردوس: الحديث (٢٢٩٢) عن أبي هريرة.

(٤) في مجمع الزوائد: كتاب النكاح: باب اليمن في المرأة: ج ٤ ص٢٥٥؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والبزار، وفيه ابن سخرة، وهو متروك).

(٥) أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب النكاح: باب ما جاء في إعلان النكاح: الحديث (١٠٨٩)، وقال: غريب. وابن ماجة في السنن: كتاب النكاح: الحديث (١٨٩٥).

(٦) رواه الطبراني في الأوسط: الحديث (١١٨). وأبو نعيم في الحلية: ج ٦ ص٩٦. وفي مجمع=

وقال ﷺ: [مَسُّوا بالإمْلاَكِ؛ فَإنَّهُ أفْضَلُ فِي الْيَمِيْنِ وَأعْظَمُ فِي الْبَرَكَةِ][(١)]. وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قالت:(كَانَ عِنْدِي جَارِيَةٌ مِنَ الأنْصَارِ فِي حِجْرِي فَزَوَّجْتُهَا، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَسْمَعْ غِنَاءً، فَقَالَ: [يَا عَائِشَةَ؛ ألاَ تُغَنُّونَ لَهَا، فَإنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الأنْصَارِ يُحِبُّونَ الْغِنَاءَ][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ)، قال ﷺ: [الْتَمِسُوا الرِّزْقَ بالنِّكَاحِ][(٣)]. وشَكَا رَجُلٌ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْفَقْرَ، فَقَالَ: [عَلَيْكَ بالْبَاءَةِ][(٤)]. وقال عمرُ ﷺ: (ابْتَغُوا الْغِنَى فِي النِّكَاحِ، فَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: (إنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ)[(٥)] ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي واسعٌ بخلقهِ عليمٌ بهم.

=الزوائد: ج ٤ ص٢٩٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفي إسناد الأوسط بشر بن إبراهيم، وهو وضاع. وفي إسناد الكبير حازم مولى بني هاشم عن لمازة، ولم أجد من ترجمهما، ولمازة هذا يروي عن ثور بن يزيد، متأخر وليس هو ابن زياد، ذاك يروي عن علي ابن أبي طالب ونحوه، وبقية رجاله ثقات).

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٦٤ عن أبي هريرة ﷺ. والمعنى: أنه يستحب عقد النكاح في المساية، كما يستحب العقد يوم الجمعة. ينظر: المغني لابن قدامة: ج ٧ ص٤٣٥؛ قال بعد أن ذكر الحديث: (لأنه أقرب إلى مقصوده — أي العاقد — وأقل لانتظاره) حال كونه مقبلاً إلى سكينة الليل، واستحباب الجماع صباح الجمعة. وكلمة (مسو بالملاك) هكذا رسمها الناسخ بوضوح.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٢٦٩. والبخاري في الصحيح: كتاب النكاح: الحديث (٥١٦٢). وابن حبان في ترتيب الصحيح: الحديث (٥٨٧٥). والبغوي في مصابيح السنة: الحديث (٢٣٤٥).

(٣) رواه الديلمي في الفردوس: الحديث (٢٨٢). وفي كشف الخفا: الحديث (٥٢٨)؛ قال العجلوني:(رواه الثعلبي في تفسيره، والديلمي بسند فيه لين عن ابن عباس رفعه، ولكن له شاهد أخرجه البزار والدارقطني في العلل، والحاكم وابن مردويه عن عائشة مرفوعاً.

(٤) ذكره الزمخشري في التفسير (الكشاف): ج ٣ ص٢٣١. وأصله أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب النكاح: الحديث (١٠٨١).

(٥) ذكره ابن عطية في التفسير: ص١٣٥٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ ؛ أي ليطلبَ الذين لا يجدونَ نكاحاً العِفَّةَ عن الزنا والحرام، والمعنى: مَن لَم يجد سَعَةً للنكاحِ من مهرٍ ونفقة، ولا يجدُ شيئاً يشتري به أمَةً فَلْيَسْتَعْفِفْ عن الزِّنا حتى يجدَ ما يكفيهِ، كذلك وفي هذا بيانٌ أنه لا عُذْرَ لأحدٍ في السِّفاحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ؛ معناهُ الذين يطلبون الْمُكَاتَبَةَ من عبيدِكم وإمائكم، ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ ؛ رُشداً وصَلاحاً وصِدقاً ووفاءً وأمانةً وقدرة على الْمَكْسَب، وهذا أمرُ استحبابٍ في العبدِ الذي يقدرُ على الاكتساب وترغيبٍ في الكتابةِ. فأما الذي لا يقدرُ على الكسب ولا يرغبُ في الكتابة، فلا يكون في كتابتهِ إلاّ قطعُ حقِّ المولَى عنه من غيرِ نفع يرجعُ إليه. ومعنى الكتابةِ: أن يُكَاتِبَ مملوكَهُ على مالٍ سَلَّمَهُ إليه نُجوماً فيُعْتَقُ بأدائه، وإن كانت الكتابةُ حالَّةً جازت عند أبي حنيفةَ وأصحابهِ، والشافعي لا يُجَوِّزُ إلاّ مُنجَّماً، وأقلُّهُ نَجمان فصاعداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ ؛ اختلَفُوا في معنى ذلكَ، فرُويَ عن علي رضي الله عنه أنهُ قالَ: (يُحَطُّ عَنِ الْمُكَاتَبِ رُبُعُ مَالِ الْكِتَابَةِ)[1]. وعن ابن عباس:(يُحَطُّ عَنْهُ شَيْءٌ)، وعن عبدِالله بن يزيدِ الأنصاريِّ أنه قالَ: (هَذا خِطَابٌ لِلأَئِمَّةِ أنْ يُسَلِّمُوا إلَى الْمُكَاتَبِيْنَ مَا فَرَضَ اللهُ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾[2]) وهذا أقربُ إلى ظاهرِ الآية، لأن الإتْيَانَ في اللغة هو الإعْطَاءُ دونَ الْحَطِّ.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَبْدِاللهِ بنِ أبَيٍّ سَلُولَ، كَانَتْ لَـهُ جَوَارٍ حِسَانٌ: مِسْكَةُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٢١). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص١٩١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي من طريق عبدالرحمن السلمي. وقال: أخرجه عبدالرزاق وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، والديلمي وابن المنذر والبيهقي وابن مردويه من طرق عبدالله بن حبيب عن علي عن النبي ﷺ).

(٢) البقرة / ١٧٧ .

وَأمَيْمَةُ وَمَقَارَةُ، كَانَ يُكْرِهُهنَّ عَلَى الزِّنَا لِيَكْتَسِبْنَ لَهُ بِالْفُجُور، وَكَذلِكَ كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يفْعَلُونَ، فَأتَتِ الْجَوَاري إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَشْكُونَ إلَيْهِ ذلِكَ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

قال مقاتلُ: (نَزَلَتْ فِي سِتٍّ جَوَارٍ لِعَبْدِاللهِ بْنِ أبَيٍّ سلول: مُعاذةُ وَمُسَيْكَةُ وَأمَيْمَةُ وَعَمْرَةُ وَقُتَيْلَةُ وَأرْوَى، فَجَاءَتْهُ إحْدَاهُنَّ ذاتَ يَوْمٍ بدِيْنَار، وَجَاءَتْ أخْرَى ببُرْدَةٍ، فَقَالَ لَهُمَا: ارْجِعَا فَازْنِيَا، وَكَانَ يُؤَجِّرُهُنَّ عَلَى الزِّنَا. فَلَمَّا جَاءَ الإسْلاَمُ قَالَتْ مَعَاذةُ لِمُسَيْكَةَ: إنَّ هَذا الأمْرَ الَّذِي نَحْنُ فِيْهِ قَدْ آنَ لَنَا أنْ نَدعَهُ، فَقَالَ لَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أبي سَلُول: إمْضِيَا فَازْنِيَا. فَقَالَتَا: وَاللهِ مَا نَفْعَلُ ذلِكَ قَدْ جَاءَ اللهُ بالإسْلاَمِ وَحَرَّمَ الزِّنَا. ثُمَّ مَضَيَا إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَشَكَيَا عَلَيْهِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1]. ومعناها: ولا تُكْرِهُوا إمَاءَكم على البغَاءِ؛ أي على الزِّنا، ﴿ لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ ؛ مِن كَسْبِهِنَّ وبيعِ أولادِهن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنْ أرَدْنَ تَحَصُّناً) يعني إذا أرَدْنَ تَحَصُّناً، خرجَ الكلامُ على وجهِ الحال لا على وجه الشَّرطِ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاَقٍ﴾[2]، ويجوزُ أن يكون معناهُ: أن الكلامَ قد تَمَّ عندَ قولهِ (عَلَى الْبغَاءِ) ثُم ابتدأ بالشَّرطِ فقالَ: (إنْ أرَدْنَ تَحَصُّناً) وجوابهُ محذوفٌ؛ تقديرهُ: إنْ أردنَ تحصيناً فقد أصبنَ، ومثلهُ قولهُ ﷺلعائشةَ: [أدْفِنِيني] قالت: إنِّي حَائِضٌ، فَقَالَ ﷺ:[وَإنْ لَمْ يَرِدَّ عَلَيْهِ] وأراد بذلكَ إنْ كنتِ حائضاً فلا بأسَ بذلك[3].

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٨١. وابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٣٩١. والبغوي في معالم التنزيل:ص٩٠٨. وأصل الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٢٦/ ٣٠٢٩) عن جابر بن عبدالله. وذكر الطبري قصة الحديث في جامع البيان: الأثر (١٩٧٤٤ و١٩٧٤٥).

(٢) الاسراء / ٣١ .

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وكأنه معنى حديث الأسود عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي، فَوَجَدَ الْقرَّ، فقال: [يَا عَائِشَةُ أرْخِي عَلَيَّ مِرْطَكِ] قَالَتْ: إنِّي حَائِضٌ، قَالَ: [إنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ]. ينظر: جامع المسانيد: ج ٣٤ ص١٠٨: الحديث (١٧٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٢ ص٤٩-٥٠؛ قال الهيثمي: (رواه أبو يعلى وإسناده حسن).

وقولهُ: ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ ﴾ ؛ أي مَن يُجْبِرْهُنَّ على الزِّنا، ولَم تقدر الْمُكْرَهَةُ على الدفعِ عن نفسها بوجه من الوجوهِ لَم تأثَمْ، وإن صَبرَتْ عنِ الامتناعِ حتى قُتِلَتْ كان أعظمَ لأجرها، وإن قُتِلَتْ دَفعاً عن نفسِها كان لَها ذلك. وقولهُ تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أي غفُورٌ لِمن تابَ منهُنَّ وماتَ على التوبةِ، غَفُورٌ لِمن تابَ عن إكراههنَّ على الزنا، رَحِيْمٌ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ ﴾ ؛ أي أنزَلْنَا إليكم القُرْآنَ آياتٍ ظاهرات واضحات لتعملوا بها. وَقِيْلَ: يعني بذلكَ ما ذُكِرَ في هذه السُّورة من الحلال والحرام. وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ ؛ أي وأنزلَ فيها مَثَلاً؛ أي خَبَراً مِن خَبَرِ الذين مَضَوا من قبلِكم لتعتَبروا، ﴿ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ عن الشِّركِ والفواحشِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ ؛ أي اللهُ هادِي أهلِ السَّموات وأهلِ الأرض بالآياتِ المبيِّنات، لا هاديَ فيهما غيرهُ، فبنُورِهِ الخلقُ يهتدونَ، وبهداهُ من الضَّلالةِ يَنْجُونَ، فلا يهتدي مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسل إلاّ بهداهُ.

وقال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ اللهُ مُنَوِّرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)، وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: اللهُ مُدَبِرُ الأُمُور فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)[1]، وقال الحسنُ وأبو العاليةِ: (اللهُ مُزَيِّنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)، يعني مُزَيِّنُ السَّموات بالشمسِ والقمر والنُّجومِ، ومُزَيِّنُ الأرضِ بالأنبياء والعُلماء والمؤمنينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَثَلُ نُورِهِ الَّذِي أعْطَاهُ الْمُؤْمِنِيْنَ)[2]، وقال السديُّ: (مَثَلُ نُورهِ الَّذِي فِي قَلْب الْمُؤْمِنِ)، وكان أُبَيُّ يقرأ (مَثَلُ نُور الْمُؤْمِنِيْنَ). وَقِيْلَ: كان يقرأ (مَثَلُ نُور مَنْ آمَنَ بِهِ)[3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٥٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٦٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٥٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ؛ الْمِشْكَاةُ في لغة الحبشة: كُوَّةٌ غَيْرُ نَافِذَةٍ، والمصباحُ: هو السِّرَاجُ في القِنْدِيْلِ من الزُّجَاجِ الصَّافِيَةِ. وَقِيْلَ: الْمِشْكَاةُ: عَمُودُ الْقِنْدِيْلِ الذي فيه الفَتِيْلَةُ. وقال مجاهدٌ: (هِيَ الْقِنْدِيْلُ)[1]، قال الزجَّاج: (النُّورُ فِي الزُّجَاجِ، وَضَوءُ النَّار أَبْيَنُ مِنْهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَضَوْؤُهُ يَزِيْدُ فِي الزُّجَاجِ وَيَتَضَاعَفُ حَتَّى يَظْهَرَ مِنْهُ مَا يُقَابِلُهُ مِثْلُهُ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فِيهَا مِصْبَاحٌ) أي سِرَاجٌ، وأصلهُ من الضَّوءِ، ومن ذلك الصُّبْحُ، ورجلٌ صَبِيْحُ الوجهِ إذا كان وَضِيئاً، وفرَّقَ قومٌ بين المصباحِ والسِّراجِ؛ فقالوا: المصباحُ دونَ السِّراجِ، والسراجُ أعظمُ من المصباحِ؛ لأن اللهَ تعالى سَمَّى الشمسَ سِرَاجاً، وقال في غيرِها من الكواكب ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[3].

ثُم وصفَ اللهُ الزجاجةَ التي فيها المصباح؛ فقالَ: ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ ؛ شبَّهَ القنديلَ الذي يكونُ فيه السِّراجُ بالكوكب الدُّرِّيِّ؛ وهو النجمُ الْمُضِيْءُ، ودَرَاري النُّجومِ كبارُها، وقولهُ (دُرِّيٌّ) نسبةٌ إلى أنه كالدُّرِّ في صفائهِ وحُسْنِهِ، كأنَّ الكوكبَ دُرَّةٌ بيضاءُ.

قرأ أبو عمرٍو والكسائيُّ: (دِرِّيْءٌ) بكسرِ الدال مهموزٌ مَمدود؛ وهو فِعِّيْلٌ من الدَّرْءِ بمعنى الدَّفعِ، يقالُ: دَرَءَ يَدْرَأ إذا دَفَعَ، فكأنه تلألُؤٌ يدفعُ أبصارَ الناظرين إليه. ويقالُ: كأنه رَجَمَ به الشياطينَ فدراهُم؛ أي دفَعَهم بسرعةٍ في الانقضاضِ، وذلك أضْوَءُ ما يكونُ.

وقرأ حمزةُ وأبو بكر: مضمومةُ الدال مهموزٌ مَمدود، قال أكثرُ النُّحاة: هو لَحْنٌ؛ لأنه ليسَ في كلامِ العرب، فعيل بضمِّ الفاء وكسر العين، وأنكرَهُ الفرَّاءُ والزجَّاج وأبو العباسِ، وقال: (هَذا غَلَطٌ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ فِي كَلاَمِ الْعَرَبِ شَيْءٌ عَلَى هَذا

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٧٩).

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٣٥.

(٣) الملك / ٥ .

الْوَزْنِ)(١). وقرأ الباقون بضمِّ الدالِ وتشديد الياءِ من غير همـزٍ، فنسـبوهُ إلى الـدُّرِّ في صفائه وبَهائهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ ؛ فيه أربعُ قراءاتٍ، قرأ نافع وابن عامر: بياءٍ مضمومة يعنونَ المصباحَ، وقـرأ حمـزةُ والكسـائي وخلـف: بتـاءٍ مضمومة يعنون الزُّجاجةَ، وقرأ أبو عمرٍو: (تُوَقَّدَ) بالتاء وفتحها وفتح الـواو مشـدَّدة بمعنى الماضِي، وقرأ ابنُ محيصن: بتاءٍ مفتوحة وتشديد القاف مثل قراءةِ أبي عمرٍو إلاّ أنه رفعَ الدالَ بمعنى الفعلِ المستقبل بمعنى: تتوقَّدُ الزجاجةُ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) أي من زَيْتِ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ، فحذفَ المضـافَ؛ وأرادَ بالشَّجرة المباركةِ شجرةَ الزَّيتون، بُوركَ لأهلِـها فيـها، وليـس في الشَّـجرِ شـيءٌ يُورقُ غِصْنُهُ مِن أوَّله إلى آخرهِ مثلُ الزَّيتون والرُّمانِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ ؛ أي ليست تُشْـرِقُ عليـها الشـمسُ فقط من دون أن تغرُبَ عليها، ولا غَرْبيَّةٍ تغربُ عليها فقط من دون أن تُشرقَ عليها، بل هي شرقيةٌ غربية تأخذُ حظَّها من الأمرَيـن جميعـاً، لا يظلُّـها جبـلٌ ولا شـجر ولا كهف، نحو أن تكون على تَلٍّ من الأرضِ تقـعُ عليـها الشـمسُ في جميـعِ النَّـهار، وإذا كانت على هذه الصِّفة كان أنضرَ لَها وأجودَ لزَيتِها وأتَمَّ لنبلتِها وأنضجَ لثمَرِها. وقال الحسنُ: (أرَادَ بهَذا شَجَرَةً فِي الْجَنَّةِ؛ لأنَّ أشْجَارَ الأَرْضِ لاَ تَخْلُو إمَّا أنْ تَكُونَ شَرْقِيَّةً أوْ غَرْبيَّةً)(٣).

وسُمِّيت شجرةُ الزَّيتون مباركةً؛ لأنَّها كثيرةُ البركةِ والمنافع؛ لأن الزيتَ يُسْـرَجُ به وهو إدَامٌ ودِهانٌ، ويُوقَدُ بحطَبها ويدبغُ بها ويُغسَلُ برمادِها الإبْرِيْسَـمُ. وعـن النـبيِّ ﷺ أنه قال: [ائْتَدِمُوا بالزَّيْتِ وَادْهُنُوا بهِ، فَإنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ](٤).

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء:ج ٢ ص٢٥٢. ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج:ج ٤ ص٣٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٩٦. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٠١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٨٧).

(٤) رواه الترمذي في الجامع: أبواب الأطعمـة: الحديـث (١٨٥١). وابـن ماجـة في السـنن: كتـاب الأطعمة: الحديث (٣٣١٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ ؛ أي يكادُ زيتُ هذه الشَّجرةِ ودُهنها يتَلألأُ أو يشرقُ من وراءِ العَصْرِ من صفائهِ وإن لَم تُصِبْهُ نارٌ؛ أي وإن لَم يوقَدْ بها، فكيفَ إذا استُصْبحَ بها.

قال المفسِّرون: هذا مَثلٌ للمؤمنينَ، فالْمِشْكَاةُ والمصباحُ هو الإيْمانُ والقُرْآنُ، والزجاجةُ صَدْرُ المؤمنِ. ومعنى قولهِ تعالى (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) أي يكادُ قلبُ المؤمنِ يعملُ بالْهُدَى وقبلَ أن يأتيهِ العلمُ، فإذا جاءَ العلمُ ازدادَ هدىً على هُدى. وَقِيْلَ: المشكاةُ نفسهُ، والزجاجةُ صدره، والمصباحُ القُرْآنُ والإيْمانُ في قلبهِ توقدُ من شجرةٍ مباركة وهو الإخلاصُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ ؛ يريدُ به نورَ السِّراجِ ونورَ الزُّجاجِ ونورَ الدهن ونورَ الكوكب، فكما أن الزيتَ والزجاجَ والكوكب والسراجَ نورٌ على نورٍ في مشكاةٍ لا يتفرَّقُ بشعاعِ السِّراج فيها، فكذلكَ الإيْمانُ في قلب المؤمن من نورٍ على نور، فإن المعرفةَ نورٌ وعلمَهُ نورٌ، إذا أعْطِيَ شَكَرَ، وإذا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وإذا قَالَ صَدَقَ، وإذا حَكَمَ عَدَلَ، فهو يتقلَّبُ في الأنوار، ومصيرهُ يومَ القيامة إلى النور، كما قال تعالى ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾[(١)].

وَقِيْلَ: هذا مثلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لنبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: الْمِشْكَاةُ صدرهُ، والزجاجةُ قَلْبُهُ، والمصباحُ فيه النبوَّةُ، تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ وهي شجرةُ النبوَّةِ، يكادُ نورُ مُحَمَّدٍ ﷺ يُضِيءُ؛ أي يَبِيْنُ للناسِ ولو لَم يتكلَّم به، كما يكادُ ذلك الزيتُ يضيء ولو لَم تَمْسَسهُ نارٌ.

وقال ابنُ عمرَ في هذه الآيةِ: (الْمِشْكَاةُ: جَوْفُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالزُّجَاجَةُ: قَلْبُهُ، وَالْمِصْبَاحُ: النُّورُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ فِيْهِ، (تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) يَعْنِي بالشَّجَرَةِ إبْرَاهِيْمَ الْخَلِيْلَ عليه السلام، (لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ) أيْ لاَ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ[(٢)]، (نُورٌ عَلَى

(١) الحديد / ١٢ .

(٢) في أصل المخطوط تقديم وتأخير في عبارة النص، وضبطت على أصوله في المعجم الأوسط، وتخريج الهيثمي في مجمع الزوائد.

نُور) يَعْنِي النُّورَ الَّذِي جُعِلَ فِي إِبْرَاهِيْمَ، وَالنُّورَ الَّذِي جُعِلَ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ)[١].

وقال محمَّدُ بنُ كعبٍ:(الْمِشْكَاةُ إِبْرَاهِيمُ، وَالزُّجَاجَةُ إِسْمَاعِيْلُ، وَالْمِصْبَاحُ مُحَمَّدٌ ﷺ. سَمَّاهُ[٢] مِصْبَاحاً كَمَا سَمَّاهُ سِرَاجاً، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾[٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) يَعْنِي إِبْرَاهِيْمَ، سَمَّاهُ مُبَارَكاً؛ لأَنَّ أَكْثَرَ الأَنْبِيَاءِ كَانُوا مِنْ صُلْبِهِ، (لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ) يَعْنِي أنَّ إِبْرَاهِيْمَ عليه السلام لَمْ يَكُنْ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيْفاً مُسْلِماً.

وَإِنَّمَا قَالَ كَذلِكَ لأَنَّ النَّصَارَى يُصَلُّونَ قِبَلَ الْمَشْرِق، وَالْيَهُودَ قِبَلَ الْمَغْرِب، قَوْلُهُ (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) يَعْنِي تَكَادُ مَحَاسِنُ مُحَمَّدٍ ﷺ تَظْهَرُ لِلنَّاسِ قَبْلَ أنْ يُوحَى إِلَيْهِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: (نُورٌ عَلَى نُورٍ) أيْ نُورُ نَبِيٍّ مِنْ نَسْلِ نَبِيٍّ)[٤].

وقال الضحَّاكُ: (يَعْنِي بالْمِشْكَاةِ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ شَبَّهَهُ بِهَا، وَيَعْنِي بالزُّجَاجَةِ عَبْدَاللهِ، وَبالْمِصْبَاحِ النَّبِيَّ ﷺ، كَانَ فِي صُلْبِهِمَا فَوَرِثَ النُّبُوَّةَ مِنَ الشَّجَرَةِ الْمُبَارَكَةِ وَهِيَ إِبْرَاهِيْمُ، تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ، لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ، بَلْ هِيَ مَكَّةُ فِي وَسَطِ الدُّنْيَا)[٥].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص١٩٨؛ قال السيوطي: (أخرجه الطبراني وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر). وأخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٢ ص٥٠٢: الحديث (١٨٦٤)، وقال: (لم يرو عن سالم هذا الحديث إلا الوازع، وتفرَّد به علي). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٨٣: كتاب التفسير: سورة النور؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه الوازع بن نافع، وهو متروك).

(٢) (سمَّاه) ساقط من أصل المخطوط، وأضيفت لضرورة السياق.

(٣) الأحزاب / ٤٦ .

(٤) ذكره البغوي في عالم التنزيل: ص٩١٠.

(٥) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص٢٦٣.

ووصفَ بعضُ الفصحاءِ هذه الشجرةَ فقال: (هِـيَ شَـجَرَةُ الرِّضْـوَان وَشَـجَرَةُ الْهُدَى وَالإِيْمَان، أَصْلُهَا نُبُـوَّةٌ؛ وَفَرْعُـهَا مُـرُوءَةٌ؛ وَأَغْصَانُـهَا تَـنْزِيْلٌ؛ وَوَرَقُـهَا تَـأْوِيْلٌ، وَخَدَمُهَا مِيْكَالَ وَجِبْرِيْلُ).

وَقِيْلَ: إنَّمـا شَـبَّهَ اللهُ قلـبَ المؤمـنِ بالزُّجاجـةِ؛ لأنَّـها في الزجاجـةِ يُـرَى مِـن خارجِها، فكذلكَ ما في القلوب تَبِيْنُ علـى الظـاهرِ في الأقـوال والأعمـال، فكمـا أن الزجاجةَ تنكسرُ بأدنى شيءٍ، فكذلك القلبُ يَفْسَدُ بأدنى آفةٍ تحلُّهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يُوَفِّقُ اللهُ للإسلام، ويدلُّ بأدلتهِ مَنْ يَشَاءُ ليعرفـوا بذلـكَ أمـرَ دِينـهم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ﴾ ؛ أي يضربُ اللهُ الأشباهَ في القُرْآن تقريبـاً للشـيءِ الـذي أرادهُ إلى الأفـهام، وتسهيلاً لسبيلِ الإدراك على الأنام، كمـا شَـبَّهَ المعرفـةَ في قلـب المؤمـن بالمصبـاحِ في الزجاجة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي عليـمٌ بكـلِّ شـيء من مصالح العبادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ ؛ يعني ذلك المصباحَ في بُيوتٍ، قِيْلَ: معناهُ: تُوقَدُ في بيوتٍ وهي المساجدُ، أذِنَ اللهُ في رفعِها؛ أي رَفْعِ بنائها كمـا قـال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ﴾[1]، ويستدلُّ مِن هذه الآيةِ أن لا يـؤذنَ في رفعِ شيء من الأبنية فوقَ الحاجة غيرَ المساجد التي يُصَلِّي فيها المؤمنونَ، ويستضيءُ بنور قناديلها العـابدونَ. وقـال الحسـنُ: (مَعْنَـى قَوْلِـهِ (أذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَـعَ) أيْ تُعَظَّـمَ وَتُصَانَ عَنِ الأَنْجَاسِ وَاللَّغْوِ مِنَ الأَقْوَال وَالأَفْعَال وَعَنِ التَّكَلُّم بالْخَنَا).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ ؛ وفي الحديـثِ عـن النـبيِّ ﷺ: [جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِيْنَكُمْ؛ وَبَيْعَكُمْ وَشِرَاءَكُمْ؛ وَسَـلَّ سُـيُوفِكُمْ وَإقَامَـةَ حُدُودِكُمْ؛ وَجَمِّرُوهَا فِي الْجُمَعِ، وَاجْعَلُوا عَلَى أَبْوَابِهَا الْمَطَاهِرَ][2]. قال ابنُ عبَّاس:

---

(١) البقرة / ١٢٧ .

(٢) رواه ابن ماجة في السنن: كتـاب المسـاجد والجماعـات: بـاب مـا يكـره في المسـاجد: الحديـث (٧٥٠). وقال البوصيري: (إسناده ضعيف؛ فإن الحارث بن نبهان متفق على ضعفه).

(الْمَسَاجِدُ بُيُوتُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الأَرْضِ، وَهِيَ تُضِيءُ لأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تُضِيءُ النُّجُومُ لأَهْلِ الأَرْضِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) أي ويُذْكَرُ في المساجدِ اسمُ الله تعالى وتوحيدُهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ ؛ أي يُصَلِّي للهِ تعالى في تلك البيوتِ الصلاةَ المفروضةَ، ﴿ بِالْغُدُوِّ ﴾ ؛ أي صلاة الغداة، وقولهُ تعالى ﴿ وَالْآصَالِ (٣٦) ﴾ ، يعني العَشِيَّاتِ، والأصيلُ ما بين العصرِ إلى الليلِ، وسُميت الصلاةُ تَسبيحاً لاختصاصها بالتسبيحِ. وقرأ ابنُ عامر: (يُسَبَّحُ) بفتحِ الباء على ما لَم يسمَّ فاعلهُ.

ثُم فسَّرَ مَن يُصلي فقال: ﴿ رِجَالٌ ﴾ ؛ كأنه قالَ: مَن يُسَبِّحُ ؟ فقيلَ: رجَالٌ ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ ؛ أي لا تشغَلُهم تجارةٌ، ولا بَيْعٌ عن طاعةِ الله، وعن إقامةِ الصَّلاة في البيوتِ، وعن إعطاءِ الزكاة.

قال الفرَّاءُ: (التِّجَارَةُ لأَهْلِ الْجَلْب، وَالْبَيْعُ مَا بَاعَهُ الرَّجُلُ عَلَى يَدَيْهِ)[1] وَخَصَّ قَوْمٌ التِّجَارَةَ هُنَا بالشِّرَاءِ لِذِكْرِ الْمَبِيْعِ بَعْدَهَا. والمعنى: لا يَمنعُهم ذلك عن حضور المساجد لإقامةِ الصلاة وإتْمَامِها، وإذا حضرَ وقتُ الزكاةِ لَم يحبسُوها عن وقتِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ ؛ أي يفعلون ذلك خَوْفاً من يومٍ تَرْجِفُ فيه القلوبُ، وتدورُ حُدَقُ العيون حالاً بعد حالٍ من الفَزَعِ والخوفِ رجاءَ أن ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ ؛ في دار الدُّنيا، ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ ؛ بغيرِ استحقاقٍ، ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾ ؛ أي بغيرِ حَصْرٍ ولا نِهايةٍ.

قولهُ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ ؛ معناهُ: أن أعمالَ الكُفَّار قد أُحبطُوا بكفرهم، كسَرابٍ بأرضٍ مُستوية ملساءَ، يظنُّهُ العطشانُ ماءً يرجُو به النجاةَ، حتى إذا جاءَ السرابَ ليشربَ لَم يجدْهُ ماء، بل رأى أرضاً بيضاءَ لا ماء فيها فيَئِسَ وتحيَّرَ، كذلكَ الكافرُ في عملِهِ ييأسُ في الآخرة عن عمله الذي كان يعتقدهُ يبرئ، يتقطَّعُ عنه طمعهُ عند شدَّةِ

---

(١) في معاني القرآن: ج ٢ ص٢٥٣.

حاجته إليه، ثم يجدُ عند ذلك من العقاب كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ ؛ أي عند عملهِ، يعني: قَدِمَ على اللهِ، ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ ؛ أي جَازَاهُ بعملهِ. والسَّرَابُ: هو الشعاعُ الذي يتراءَى للعين وقتَ الهاجرةِ في الفَلَوَاتِ، يُرَى من بعيدٍ كأنه ماءٌ وليس بماء. والبقِيْعَةُ: جمعُ بقَاعٍ، والقِيْعَةُ جمعُ قَاعٍ، نحوُ جَارٍ وجِيرَةٍ، وهو ما انبسطَ من الأرضِ وفيه يكون السَّرابُ.

وَقِيْلَ: معناهُ: أنَّ الكافرَ يحسَبُ أن عملَهُ يُغنِي عنه وينفعهُ، فإذا أتاه الموتُ واحتاجَ إلى عملهِ لَم يجدْهُ شَيْئاً؛ أي لا منفعةَ فيهِ ووَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ بالمرصادِ عندَ ذلك فوفَّاهُ جزاءَ عملهِ، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ ؛ أي سريعٌ حِسَابُهُ كلَمْحِ البصرِ أو أقلَّ؛ لأنه تَعَالَى لا يتكلمُ بآلَةٍ حتى يشغلَهُ سَمعٌ عن سَمعٍ. وسُئِلَ عَلِيٌّ ﷺ: كيفَ يُحَاسِبُهُمْ في حالةٍ واحدة ؟ فَقَالَ: (كَمَا رَزَقَكُمْ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ ؛ هذا تخير في المثلِ، والمعنى: أن مَثَلَ أعمال الكفار أيضاً في الدُّنيا، ومثلَ قلوبهم في حياتِهم الدُّنيا كمثلِ ظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ؛ أي عميقٍ كثير الماء يعلوهُ موجٌ ومن فوق ذلك الموجِ الأعلى سحابٌ.

وهذا حدُّ الكلام، ثُم ابتدأ فقال: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ، أرادَ به ظلمةَ البحرِ وظُلمةَ الموجِ الأدنى وظلمةَ الموجِ الأعلى وظلمةَ السَّحاب وظلمة الليلِ. قال المفسِّرون: أرادَ بالظُّلماتِ أعمالَ الكفار، وبالبحرِ اللُّجِّيِّ قلبَ الكافرِ، وبالموجِ ما يغشَى عليه من الجهلِ والشكِّ والحيرة، وبالسَّحاب الرَّينَ والختمَ والطبعَ على قلبهِ.

قال أُبَيُّ بنُ كعبٍ في هذه الآية: (الْكَافِرُ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسٍ مِنَ الظُّلَمِ: فَكَلاَمُهُ ظُلْمَةٌ؛ وَعَمَلُهُ ظُلْمَةٌ؛ وَمَدْخَلُهُ وَمَخْرَجُهُ ظُلْمَةٌ؛ وَقَلْبُهُ ظُلْمَةٌ؛ وَمَصِيْرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلَى ظُلْمَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾[١])[٢].

---

(١) الحديد / ١٣ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٨٢٢). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٤٦٨٨).

وقولهُ تعالى: ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ ؛ أي إذا أخرجَ يَدَهُ من هذه الظُّلمات لَم يرَها ولَم يُقَاربْ أن يرَاها من شدَّةِ الظلماتِ، فكذلك الكافرُ لا يُبْصِرُ الحقَّ والهدى. وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي مَن لَم يهدهِ اللهُ فما له من إيْمَانٍ، ومَن لَم يجعلِ اللهُ له نوراً في الدُّنيا، فما له من نور.

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [إنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَنِي مِنْ نُورِهِ، وَخَلَقَ أبَا بَكْرٍ مِنْ نُورِي، وَخَلَقَ عُمَرَ وَعَائِشَةَ مِنْ نُورِ أبي بَكْرٍ، وَخَلَقَ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ أمَّتِي مِنْ نُورِ عُمَرَ، وَخَلَقَ الْمُؤْمِنَاتِ مِنْ أمَّتِي مِنْ نُورِ عَائِشَةَ. فَمَنْ لَمْ يُحِبَّنِي وَيُحِبَّ أبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَائِشَةَ؛ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ فَيَنْزِلُ عَلَيْهِ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ؛ معناهُ: ألَمْ تعلَمْ؛ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ ﴾ ؛ أي يُنَزِّهُهُ؛ ﴿ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ مِن العُقَلاءِ وغيرِهم، وكنَّى عن الجميعِ بكلمة (مَنْ) تغليباً للعقلاءِ على غيرِهم. وَقِيْلَ: أرادَ بالآيةِ العقلاءَ، وهذا عمومٌ أرادَ به الخصوصَ في أهلِ الأرض وهم المؤمنونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾ ؛ أي ويسبحُ له الطيرُ باسطاتٍ أجنِحَتِها في الهواءِ، والبَسْطُ في اللغة: الصَّفُّ[(٢)]، والصَّفُّ في اللغة هو البَسْطُ، ويسمَّى القَدِيْدُ صَفِيْفاً لأنه يُبْسَطُ. وخصَّ الطيرَ بالذِّكرِ من جُملةِ الحيوان؛ لأنَّها تكون بين السَّماء والأرضِ، وهي خارجةٌ عن جُملة مَن في السَّمواتِ والأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلٌّ ﴾ ؛ أي كلٌّ مِن هؤلاء، ﴿ قَدْ عَلِمَ ﴾ ؛ اللهُ؛ ﴿ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ . قال المفسِّرون: الصلاةُ لبني آدمَ، والتسبيحُ عامٌّ لِما سواهم من الخلقِ. وفيه وجوهٌ مِن التأويلِ:

---

(١) أخرجه الثعلبي في التفسير: ج ٧ ص١١١، عن أنس، وفي إسناده متهمون. وذكره السيوطي في ذيل اللآلي: ج ١ ص٥٠، فالحديث موضوع.

(٢) (الصف) سقطت من المخطوط.

أحدُها: كلُّ مُصَلٍّ ومُسَبحٍ قد عَلِمَ اللهُ تعالى صلاتَهُ وتسبيحَهُ، والثاني: أن معناهُ: كلُّ مُصَلٍّ ومسبحٍ قد عَلِمَ صلاةَ نفسهِ وتسبيحَ نفسهِ، والثالثُ: قد عَلِمَ كلٌّ منهم تسبيحَ اللهِ وصلاتَهُ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ من الطاعةِ وغيرِها. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لـه تقديرُهما وتدبيرُهما وتصريفُ أحوالِهما، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ﴾ ؛ أي يُنْشِؤُهُ ويَسُوقُهُ سَوْقاً دفيقاً قِطَعاً قِطَعاً، ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ ؛ أي يجمعُ بين قِطَعِ السَّحاب المتفرقةِ، والسَّحَابُ جمعٌ واحدهُ سَحَابَةٌ، والتَّأْلِيفُ ضَمُّ بعضٍ إلى بعضٍ حتى يجعلَهُ قطعةً واحدة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ ؛ أي مُتَراكِماً بعضهُ فوق بعض، ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ ؛ أي ترَى المطرَ يخرجُ من وَسَطِهِ وأثنائهِ، والْخِلاَلُ جمعُ الْخَلَلِ مثل الجبال والجبل. قال الليثُ: (الْوَدْقُ الْمَطَرُ كُلُّهُ، شَدِيْدُهُ وَهَيِّنُهُ، وَخِلاَلُ السَّحَاب مَخَارِجُ الْقَطْرِ مِنْهُ). قرأ ابنُ عبَّاس والضحاك: (مِنْ خِلَلِهِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ ؛ أي من جبلٍ في السَّماء، وتلك الجبالُ من بَرَدٍ. قال ابنُ عبَّاس:(أخْبَرَ اللهُ أنَّ فِي السَّمَاءِ جِبَالاً مِنْ بَرَدٍ)[2] ومفعولُ الإنزالِ محذوفٌ، تقديرهُ: وينزِّلُ اللهُ من جبالٍ بَرَدَ فيها، واستغنَى عن ذكرِ المفعول للدلالة عليه، ومِن الأُولَى لابتداء الغايةِ، لأن ابتداءَ الإنزالِ من السَّماء، والثانية للتبعيضِ؛ لأن ما يُنْزِلُهُ اللهُ بعض تلك الجبالِ التي في السَّماء، والثالثةُ لتبيين الجنسِ؛ لأن جنسَ تلك الجبالِ البَرَدَ، كما تقولُ: خَاتَمٌ مِن حديدٍ.

وكان عمرُ ﷺ يقول: (جِبَالُ السَّمَاءِ أكْثَرُ مِنْ جِبَالِ الأَرْضِ)، ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي فيصيبُ بالبَرَدِ مَن يشاءُ فيهلكهُ ويهلِكُ زَرْعَهُ، ﴿ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ ؛ فلا يضرُّهُ في زرعهِ وثمرهِ.

---

(١) ذكره ابن عطية في التفسير: ص١٣٦٧.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩١٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي يكادُ ضَوْءُ برقِ السَّحاب يذهبُ بالأبصار من شدَّة ضوئهِ وبريقه ولَمَعَانِهِ؛ لأن مَن نَظَرَ إلى البرقِ خِيْفَ عليه ذهابُ البصرِ. قرأ أبو جعفر: (يُذْهِبُ بالأَبْصَار) بضمِّ الياء وكسر الهاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ ﴾ ؛ أي يقلِّبُها في الذهاب والْمَجيءِ والزيادةِ والنُّقصان، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ في ذلك التقلُّب، وفيما ذُكِرَ عِبْرَةً لذوي العقولِ من الناس، يقالُ: فلانٌ صاحِبُ بَصَرٍ؛ أي صاحبُ عَقْلٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ ؛ من النُّطفةِ، من ماءِ الذكرِ والأنثى، والْخَلْقُ من الماءِ أعجبُ؛ لأنه ليس شيءٌ إلاّ وهو أشدُّ طَوْعاً من الماءِ؛ لأنَّ الماءَ لا يُمكِنُ إمساكهُ بيدهِ ولا أن يَبْنِي عليهِ ولا أن يتخذ منهُ شيءٌ. والمعنى: واللهُ خَلَقَ كلَّ حيوانٍ شاهد في الدُّنيا، ولا تدخلُ الجنُّ والملائكةُ في هذا لأنَّا لا نشاهِدُهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ ﴾ ؛ كالحيَّاتِ والْهَوَامِ والحيتان، وإنَّما قال فمنهم (مَنْ) تغليباً للعُقَلاءِ، ولو كان لِمَا لا يعقلُ لقال: فمنهم مَن يَمشي على بطنهِ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ ؛ كالإنسان والطَّير، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ ﴾ ؛ كالبهائمِ والسِّباعِ. والدَّابَّةُ اسمٌ لكلِّ حيوانٍ مِن مُمَيِّزٍ أو غيرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، قرأ الكوفيُّون غير عاصمٍ (وَاللهُ خَالِقُ) على الاسمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ ﴾ ؛ يعني القُرْآنَ هو مُبَيِّنُ الْهُدَى والأحكام، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي يرشدُ مَن يشاءُ إلى دِينِ الإسلامِ الذي هو دِينُ اللهِ وطريقُ رضَاهُ وجنَّتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ ؛ يعني المنافقينَ يقولون صَدَّقْنَا بتوحيدِ الله وبالرَّسول مُحَمَّدٍ ﷺ وأطَعْناهُما فيما حَكَمَا، ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ ؛ أي ثُم تعرضُ طائفةٌ منهم، ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ ﴾ ؛ أي مِن

بعـد قولِهم آمَنَّـا، ﴿ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ ؛ الذيـن أعرَضُـوا عـن حكـمِ الله ورسـوله، ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ معنـاهُ: إذا دُعُوا إلى كتاب الله ورسوله ليحكُمَ بينَـهم الرسـولُ فيمـا اختلفـوا فيـه، ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ عما يُدْعَـوْنَ إليـه، نزلـت هـذه الآيـاتُ في بِشْـرِ المنـافق وخصمهِ اليهوديِّ حين اختصمَا في أرضٍ، فجعلَ اليهوديُّ يجذبـهُ إلى رسـولِ اللهِ ﷺ ليحكُمَ بينَهما، وجعلَ المنافقُ يجذبهُ إلى كعب بن الأشرفِ، يقولُ: إنَّ مُحَمَّـداً يَحِيْـفُ عليه، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِذا دُعُوا إلى الله وَرَسُـولِهِ لِيَحْكُـمَ بَيْنَـهُمْ إذا فَرِيـقٌ مِنْـهُمْ مُعْرِضُونَ)[1] عن الكتاب والسُّنةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: وإن يكن لَهم القضاءُ على غـيرهم يـأتونَ إلى النـبيِّ ﷺ مُسـرعينَ مطيعـينَ مُنقـادين لحكمهِ. والإذْعَانُ: الإقرارُ بالحقِّ مع الانقيادِ له. قال الزجَّاجُ: (الإذْعَانُ: الإسْرَاعُ مَـعَ الطَّاعَةِ)[2].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ لفظـهُ لفـظُ الاسـتفهامِ، ومعنـاهُ التوبيخُ، وذلك أشدُّ ما يكون في الذمِّ كما جاءَ في المبالغةِ في المدحِ:

أَلَسْـتُمْ خَـيْرَ مَـنْ رَكِـبَ الْمَطَايَـا ... وَأَنْـدَى الْعَـالَمِيْنَ بُطُـونَ رَاحِ[3]

يَعْنِي أنتم كذلكَ.

قولُـهُ: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ ﴾ ؛ انتصبَ (قَوْلَ) على خبرِ كانَ، واسمُها (أنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأطَعْنَا).

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩١٤.

(٢) ذكره ابن عادل في اللباب: ج ١٤ ص٤٢٨.

(٣) المطَايَا: جمعُ مَطِيَّةٍ، وهي الدابَّة تَمطُو في مَشيها، أي تُسرِعُ. وأندى: أسْخَى. والرَّاحُ: جمعُ رَاحَـةٍ، وهي الكفُّ. والهمزة في (ألستم) ليست للاستفهام، وإنما هي لتقريرِ هذا الإخبار بثبوتـه، مدحاً لعبدالملك بن مروان.

وذلك أن عَلِيّاً ﷺ بَاعَ مِنْ عُثْمَانَ ﷺ أرْضاً بالْمَدِينَةِ لاَ يَنَالُهَا الْمَاءُ، فَجَاءَ قَوْمُ عُثْمَانَ فَنَدَّمُوا عُثْمَانَ عَلَى مَا صَنَعَ وَقَالُوا لَهُ: لاَ تَذْهَبْ فِي خُصُومَتِكَ مَعَ عَلِيٍّ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُ يَحْكُمُ لَهُ! فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ عُثْمَانُ، وَتَحَاكَمَا إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَضَى لِعَلِيٍّ ﷺ، فَأَبَى قَوْمُ عُثْمَانَ أنْ يَرْضَوا بقَضَائِهِ، فَقَالَ عُثْمَانُ ﷺ: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) أي سَمعنا قولَكَ يا رسولَ اللهِ وأطَعْنا أمرَكَ ورضينا بحُكمِكَ وقضائِكَ، وإنْ كان ذلك فيما يكرهونَهُ ويضرُّ بهم. وقولُه تعالى: ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ يعني الرَّاضِينَ بقضاءِ الله ورسوله.

فلما نزلَتْ هذه الآيةُ أقْبَلَ عثمانُ إلى رسول الله ﷺ فقالَ: (يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَاللهِ لَئِنْ شِئْتَ لأَخْرُجَنَّ مِنْ أرْضِي كُلِّهَا الَّتِي أمْلِكُهَا وَأدْفَعُهَا إلَيْهِ)[1] فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ ﴾ ؛ معناهُ: ومَن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ فيما ساءَهُ وسرَّهُ ويخشَ الله فيما مضَى من ذنوبهِ ويتَّقِ اللهَ فيما بعدُ فلم يَعْصِ اللهَ، ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ، برضَى الله وحسناته.

وقولُه: ﴿ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ ؛ أي حَلَفُوا باللهِ وبالَغُوا في القَسَمِ، ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ ، مِن مالِهم كلِّه لفعَلُوا، ﴿ قُل ﴾ لَهم: ﴿ لَّا تُقْسِمُواْ ﴾ ؛ أي لا تَحْلِفُوا، وتَمَّ الكلامُ ها هنا. ثُم قالَ: ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ ؛ أي هذا القولُ منكم يعني القَسَمَ طاعةٌ حَسَنَةٌ.

وقال بعضُهم: هذه الآيةُ نزلت في المنافقينَ؛ كانوا يَحْلِفُونَ لئِنْ أمَرَهم النبيُّ ﷺ بالخروجِ إلى الجهادِ ليخرجُنَّ، ولَم يكن في نيَّتِهم الخروجُ[2]، فقيلَ لَهم: لا تُقسِمُوا طاعةٌ معروفة مِثْلُ من قَسَمِكُمْ بما لا تصدِّقون، وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ يعني عَلِيْمٌ بما تعملون مِن طاعتكم بالقولِ (و) مخالفتكم بالفعل[3].

---

(١) لم أقف عليه، إلا أن القرطبي ذكر في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص٢٩٣ قصة قريبة من هذا المعنى بين المغيرة بن وائل من بني أمية وعلي ﷺ، وقال: (ذكره الماوردي).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩١٥ بمعناه.

(٣) في المخطوط: (بالقول مخالفتكم بالفعل) من دون (و).

وقولـهُ تعـالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ ؛ ظـاهرُ المعنـى، وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ ؛ أي فـإن أعرَضُـوا عن طاعةِ الله وطاعةِ رسوله فإنَّما على الرسول ما حُمِّلَ مِـن التبليـغ وأداءِ الرسـالة، وعليكم ما حُمِّلْتُـمْ مـن الطاعـةِ، ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي ليس عليهِ إلاَّ أن يُبَلِّغَ ويُبَيِّنَ لكم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ نزلت هذه الآيـةُ في أصحـاب رسول الله ﷺ؛ أقامُوا بمَكَّةَ مدَّةً قبلَ الهجرةِ لا يُمكِنُهم إظهارُ الإسلامِ، ولا أذِنَ لَـهم في القتالِ، وكذلك بعدَما هاجَرُوا إلى المدينةِ وآوَتْهُمُ الأنصارُ، رَمَتْهُمُ العربُ عن قوسٍ واحدة، وكانوا لا يَبيْتُونَ إلاَّ مع السِّلاحِ ولا يُصبحُونَ إلاَّ فيه.

فجاءَ رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أهَكَذا جَالَدتَّنا أبَداً؟ فإنزلَ اللهُ هذه الآيةَ (وَعَدَ اللهُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا مِنْكُـمْ وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُم فِـي الأَرْضِ)[١] أي لَيَبَوِّئَـنَّـهُمْ أرضَ المشـركين مـن العـرب والعَجَـمِ كمـا اسـتخلفَ بـني اسرائيلَ بأرضِ مِصْرَ والشَّـام بعـدَ إهـلاكِ الجبـابرة بـأنْ أورثَـهم أرضَـهم وديـارَهم وجعلهم سُكَّاناً ومُلُوكاً.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ ؛ أي وليُوَسِّعَ لَهم البلادَ حتى يَملكُوها ويُظْهِرَ دِينَهم على جميعِ الأديـانِ، ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ ؛ وقولهُ تعالى: ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ ؛ يجـوزُ أن يكـون في موضعِ نصبٍ على الحالِ؛ أي لأَفْعَلَنَّ ذلك في حالِ عِبادتِهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثـر (١٩٨٣٥) بمعنـاه. وذكـره القرطبي في الجامع لأحكـام القـرآن: ج ١٢ ص٢٩٧. وأخرجـه الواحـدي في أسـباب الـنزول: ص٢٢١ و٢٢٢ مرسـلاً. وأخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٨ ص١٧: الحديث (٧٠٢٥). والحـاكم في المسـتدرك: كتـاب التفسير: الحديث (٣٥٦٤). وفي مجمع الزوائـد: ج ٧ ص٨٣؛ قـال الهيثمـي: (رواه الطـبراني في الأوسط ورجاله ثقات).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾؛ ظاهرُ الْمُرَادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾؛ أي ولا تَحْسَبَنَّ كفارَ مكة يا مُحَمَّدُ فَائِتِيْنَ من عذاب الله أو يفُوتُنَا هَرَباً، فقدرةُ اللهِ تعالى محيطةٌ بهم، ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾؛ أي لِيَسْتَأْذِنْكُمْ في الدُّخول عليكم عبيدُكم وإمائكم والذين لَم يبلغُوا الْحُلُمَ منكم أي مِن أحراركم من الرِّجال والنساءِ، والمعنى: لِيَسْتَأْذِنْكُمْ عبيدُكم وإمائكم والذين لَم يبلغُوا الْحُلُمَ من صغيرِ أولادِكم من الأحرار في الدُّخول عليكم في ثلاثِ أوقاتٍ من الليلِ والنهار يكون الغالبُ فيها كشفُ العوراتِ.

ثُمَّ بَيَّنَ الأوقاتَ الثلاث فقال: ﴿ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾؛ أي وقتَ القيامِ مِن المضاجع والتَّهَيُّؤِ للصَّلاةِ بالطهارةِ، ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ ﴾؛ وهو وقتُ القَيْلُولَةِ، ﴿ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾؛ أرادَ به العشاءَ الأخيرةَ، وهذه الأوقاتُ الثلاثة: ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾؛ لأنَّ الإنسانَ يضعُ ثيابه فيها في العادةِ.

من قرأ (ثَلاَثُ) بالرفع، فمعناه: هذه الأوقاتُ الثلاثة ثلاثُ عوراتٍ لكم. ومَن قرأ (ثَلاَثَ) بالنصب جعلَهُ بدَلاً من قولهِ (ثَلاَثَ مَرَّاتٍ). قال السديُّ: (كَانَ أنَاسٌ مِنَ الصَّحَابَةِ يُعْجِبُهُمْ أنْ يُوَاقِعُوا نِسَاءَهُمْ فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ الثَّلاَثِ لِيَغْتَسِلُوا ثُمَّ يَخْرُجُوا إلَى الصَّلاَةِ، فَأمَرَهُمُ اللهُ أنْ يَأْمُرُوا الْغِلْمَانَ وَالْمَمَالِيْكَ أنْ يَسْتَأْذِنُوا فِي هَذِهِ الثَّلاَثِ سَاعَاتٍ إذا دَخَلُوا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾؛ أي لا جناحَ عليكم ولا عليهم في أنْ لاَ يستأذِنُوا في غيرِ هذه الأوقات.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ؛ أي طوَّافُــونَ عليكم يدخلُونَ ويخرجون ويذهبون ويجيئون ويتردَّدُون في أحوالِهم واشـتغَالِهم بغيرِ إذن، يريدُ أنَّهم خدَمُكُمْ، شيءٌ فلا بأسَ أن يدخلُوا في غيرِ هذه الأوقات بغيرِ إذن. قال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: يَطُوفُ بَعْضُهُمْ وَهُمُ الْمَمَالِيْكُ عَلَى بَعْضٍ وَهُمُ الْمَوَالِي)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ ؛ أي هكـذا يُبَيِّـنُ اللهُ لكـم الـدَّلالاتِ والأحكـامِ في أمـرِ الاسـتئذان، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ؛ بمصـالحِ العبـاد، ﴿ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ فيما حَكَمَ من استئذانِ الْخَدَمِ في هذه الأوقاتِ الثلاثة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ ﴾ ؛ معناهُ: إذا بَلَـغَ الأطفالُ مِن أحراركم وعبيدكم فليسـتأذِنُوا في جميـعِ الأوقـات وفي عمـومِ الأحـوال، ﴿ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ المذكورين مِن قَبْلِهم على مـا بَيَّـنَ اللهُ في كتابهِ، يعني بقوله؛ الأحرارُ الكبارُ الذين أمِـرُوا بالاستئذانِ علـى كـلِّ حـالٍ في قولـه ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ فليس للعبدِ البالغِ أن يدخلَ مَنْزِلَ مـولاهُ ولا للولدِ البالغِ أن يدخلَ على أمِّهِ وعلى ذاتِ محارمه في كلِّ وقتٍ إلاَّ بإذن ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ ﴾ ؛ معناهُ: والقَوَاعِدُ من النِّساءِ اللاتِـي قَعَـدْنَ عـن الحيـضِ مـن الكِـبَرِ وهـنَّ العجائزُ اللاتِي لا يُرِدْنَ النكاحَ لكِبَرهنَّ، فليـس عليـهنَّ حـرجٌ فِـي، ﴿ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ ؛ يعني الْجِلْبَابَ والرِّداءَ والقناعَ الذي فوقَ الخِمَار لأجلِ الثياب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ ، التَّبرُّجُ: أن تُظْهِرَ المرأةُ مَحاسِـنَها مِن وجهها وجَسَدِها، والمعنى من غيرِ أنْ يُرِدْنَ بوضعِ الجلباب أن يُرَى زينَتُـهن. قـال مقاتلُ: (لَيْسَ لَهَا أنْ تَضَعَ الْجِلْبَابَ، تُرِيْدُ بذَلِكَ أنْ تُظْهِرَ قَلاَئِدَهَا وَقِرْطَهَا وَمَا عَلَيْـهَا مِنَ الزِّيْنَةِ)(٢).

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٢٥.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٢٦.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ ؛ معناهُ: وأن يَسْتَعْفِفْنَ فلا يضعْنَ الجلبابَ في الْمِلاَءَةِ والقِنَاعِ فهو خيرٌ لَهنَّ مِن أن يَضَعْنَ، ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ ؛ مقالةَ العبادِ، ﴿ عَلِيمٌ (٦٠) ﴾ ؛ بأعمالِهم. يقالُ: امرأةٌ قَاعِدٌ إذا قَعَدَتْ عن الحيضِ، فإذا قالَ: قَاعِدَةٌ بالهاءِ أراد به جالسةً، والجمعُ فيهما جميعاً قَوَاعِدُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ ؛ وذلك أنَّ المسلمينَ كانوا إذا غَزَوا خَلَّفُوا أزْمانَهم وكانوا يدفعونَ إليهم المفاتيحَ ويقولونَ لَهم قد أبَحْنَا لكم أن تأكُلُوا مِما في بُيُوتِنَا، فكانوا يتحرَّجُون مِن ذلك ويقولونَ: لا ندخلُها وهم في غَيْبٍ امتثالاً لقوله تعالَى ﴿لا تَأْكُلُوا أمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالْبَاطِلِ إلاَّ أنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾[(١)] فنَزلَتْ هذه الآيةُ رُخصَةً لَهم.

ومعناها: نَفْيُ الحرجِ عن الزَّمْنَى في أكْلِهم من بيوتِ أقاربهم أو بيوتِ مَن يدفعُ إليهم المفتاحَ إذا خرجَ للغَزْوِ وخَلَفَهُ بحفظِ ماله؛ لأنَّهم كانوا يتحَرَّجون أن يأكلُوا مما يحفظونَهُ، فأعْلَمَهُمُ اللهُ تعالى أنه لا جُنَاحَ عليهم في ذلك[(٢)].

وذهبَ الحسنُ إلى أن معنى الآيةِ: (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيْضِ حَرَجٌ فِي تَرْكِ الْخُرُوجِ إلَى الْجِهَادِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ ؛ أي لا حرجَ عليكم أن تأكلوا من بيوتكم، أرادَ بهذا بيوتَ أبنائِكم ونسلِهم، وإنَّما أضافَ بيوتَ الأبناءِ إليهم لأنَّهم مِن أنفسهم، كما قال ﷺ: [أنْتَ وَمَالُكَ لأَبيْكَ][(٣)]، ولِهذا قابلَهُ ببيوتِ الآباء، فقالَ: ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ ؛ ولَم يقل بيوتَ أبنائكم، فعُلِمَ أن المرادَ بقوله: (وَلاَ عَلَى أنْفُسِكُمْ أنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ) أي بيوتِ أبنائِكم وأزواجِكم، وبيتُ المرأةِ كبيت الزَّوجِ.

---

(١) النساء / ٢٩ .

(٢) نقله الطبري عن بعض المفسرين في جامع البيان: مج ١٠ ج ١٨ ص٢٢٤.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٠٤. وأبو داود في السنن: كتاب البيوع: الحديث (٣٥٣٠). والبيهقي في السنن الكبرى: الحديث (١٦١٧٧).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ ﴾ ؛ أخرجَ الكلامَ على وفْقِ العادةِ؛ لأن الغالبَ مِن أحوالِ هـؤلاء أن تَطِيْبَ أنفسُهم بذلكَ، فجازَ الأكلُ مِن بيوتِهم بغيرِ إذنٍ لدلالة الحال.

فأمَّا إذا عَلِمَ أن صاحبَ البيت لا تطيبُ نفسهُ بذلكَ، لا يحلُّ له أن يتناولَ شيئاً مِن ذلكَ، ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ ؛ يعني بيوتَ عبيدِكم وإمائكم، وذلك أن السيِّدَ يَملِكُ بيتَ عبدِه، أو الْمَفَاتِحُ معناها الخزائنُ، كقولـهِ تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾[(١)] أي خزائنُ الغيب.

ومعناهُ: المفاتيحُ التي يُفْتَحُ بها الخزائنُ، يعني بذلك الوكلاءَ والأُمَنَاءَ والعبيدَ الذين يَملكون أمرَ الخزائنِ وتكون مفاتِحُها بأيديهم، فليس عليهم في الأكلِ جُنَاحٌ إذا كان أكْلاً يَسِيراً مثل أن يأكُلَ مِن ثَمَرِ حائطٍ يكون قَيِّماً عليه أو يشربَ مِن لبنِ ماشية يكون قَيِّماً عليها. وقال السديُّ: (الرَّجُلُ يُوَلِّي طَعَامَهُ غَيْرَهُ يَقُومُ عَلَيْـهِ، فَلاَ بَأْسَ أنْ يَأْكُلَ مِنْهُ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ ؛ يعني صَدِيْقاً يسرُّهُ أن يأكلَ من طعامِهِ، وإنَّما أطلقَهُ على عادةِ الصحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كما روي في سبب نزُول هذا: أنَّ مَالِكَ بْنَ يَزِيْدٍ وَالْحَارِثَ بْنَ عَمْرٍو كَانَا صَدِيْقَيْنِ، فَخَرَجَ الْحَارِثُ غَازِياً وَخَلَّفَ مَالِكاً فِي أهْلِهِ وَخَزَائِنِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنَ الْغَزْوِ رَأى مَالِكاً مَجْهُوداً، قَالَ: مَا أصَابَكَ ؟ قَالَ: لَمْ يَكُنْ عِنْدِي شَيْءٌ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي أنْ آكُلَ مِنْ مَالِكَ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (أوْ صَدِيقِكُمْ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ سببُ نزول هذه الآيةِ: أن بَنِي كِنَانَةَ -وَهُمْ حَيٌّ مِنَ الْعَرَب - كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَجُوعُ أيَّاماً وَلاَ يَأْكُلُ حَتَّى يَجِدَ ضَيْفاً فَيَأْكُلَ مَعَهُ، وَإذا لَمْ يَجِدْ أحَداً فَلاَ يَأْكُلُ شَيْئاً، وَرُبَّمَا

---

(١) الأنعام / ٥٩ .

(٢و٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩١٩.

كَانَتْ مَعَهُ الإبلُ مُجَفَّلَةً فَلاَ يَشْرَبُ مِنْ أَلْبَانِهَا حَتَّى يَجِدَ مَنْ يُشَارِبُهُ، فأعلمَ اللهُ تعالى أن الرجلَ منهم إذا أكلَ وحدَهُ فلا إثْمَ عليهِ. ومعنى (أشْتَاتاً) متفرِّقين.

ويستدلُّ مِن هذه الآيةِ أن للجماعةِ في السَّفر أن يخلِطُوا طعامَهم فيأكلُوا جميعاً أو يأكلَ واحدٌ منهم مِن زاده ولا حرجَ عليه في ذلك. والغرضُ من هذه الآيات: نفيُ الْحُرْمَةِ عن كلِّ ما تطيبُ به الأنفسُ.

وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنه في سبب نزول هذه الآيات: (أنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿لاَ تَأْكُلُوا أمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالْبَاطِلِ إلاَّ أنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ﴾(١) تَحَرَّجَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ مُؤَاكَلَةِ الْمَرْضَى والزَّمْنَى وَالْعُمْيَان وَالْعُرْجِ، وَقَالُوا: قَدْ نَهَانَا اللهُ عَنْ أكْلِ الْمَال بالْبَاطِلِ، وَالأَعْمَى لاَ يُبْصِرُ مَوْضِعَ الطَّيِّب مِنَ الطَّعَامِ، وَالأَعْرَجُ لاَ يَسْتَطِيْعُ الْمُزَاحَمَةَ، وَالْمَرِيْضُ لاَ يَسْتَوْفِي حَقَّهُ مِنَ الطَّعَامِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ).

والمعنى: ليس عليكُم في مؤاكلةِ الأعمى والأعرجِ والمريض حرجٌ. وقال الضحَّاكُ: (كَانَ الْعُمْيَانُ وَالْعُرْجَانُ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ مُؤَاكَلَةِ الأَصِحَّاءِ؛ لأَنَّ النَّاسَ يَتَقَذَّرُونَهُمْ وَيَكْرَهُونَ مُؤَاكَلَتَهُمْ، وَكَانَ أهْلُ الْمَدِيْنَةِ لاَ يُخَالِطُهُمْ فِي طَعَامِهِمْ أعْمَى وَلاَ أعْرَجُ وَلاَ مَرِيْضٌ تَقَذُّراً، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ؛ أي يُسَلِّمُ بعضُكم على بعضٍ، وإنَّما قال (عَلَى أنْفُسِكُمْ) لأن المؤمنينَ كنفْسٍ واحدةٍ. وَقِيْلَ: هذا في دخُول الرجُلِ بيتَ نفسهِ، والسَّلاَمُ على أهلهِ ومَن في بيتهِ. قال قتادةُ: (إذا دَخَلْتَ بَيْتَكَ فَسَلِّمْ عَلَى أهْلِكَ فَهُمْ أحَقُّ مَنْ سَلَّمْتَ عَلَيْهِ، وَإذا دَخَلْتَ بَيْتاً لَيْسَ فِيْهِ أحَدٌ، فَقُلْ: السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِيْنَ، وَمِنَ السُّنَّةِ إذا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَ نَفْسِهِ أنْ يُسَلِّمَ عَلَى أهْلِهِ، فَإنَّهُ يَزْدَادُ بذلِكَ بَرَكَةً فِي بَيْتِهِ وَأهْلِهِ)(٢).

---

(١) النساء / ٢٩ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٤٩٠٢). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص؟؟؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي).

وقال ﷺ: [إذا دَخَلْتُمْ بُيُوتَكُـمْ فَسَـلِّمُوا عَلَـى أهْلِيكُـمْ، وَإذا طَعِمْتُـمْ طَعَامـاً فَاذكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ، فَإنَّ الشَّيْطَانَ إذا سَلَّمَ أحَدُكُمْ لَمْ يَدْخُلْ بَيْتَـهُ، وَإذا ذكَـرَ اسْـمَ اللهِ عَلَى طَعَامِهِ قَالَ لِجُنْدِهِ مِنَ الشَّيَاطِيْنِ: لاَ مَبِيْتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ، وَإنْ لَمْ يُسَلِّمْ حِيْـنَ يَدْخُلُ بَيْتَهُ وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ عَلَى طَعَامِـهِ، قَـالَ الشَّـيْطَانُ لِجُنْـدِهِ: أدْرَكْتُـمُ الْعَشَـاءَ وَالْمَبْيْتَ][(١)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ تَحِيَّـةً مِّنْ عِنـدِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَـةً طَيِّـبَةً ﴾ ؛ أي افعَلُـوا ذلكَ تَحِيَّةً أمَرَكـم اللهُ بـها، لكـم فيـها البركـةُ والمغفـرة والثـواب، ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ﴾ ؛ أي هكـذا بَيَّـنَ اللهُ لكـم الـدلالاتِ والأحكـامَ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي لكي تَعْقِلُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ ؛ في الآية ثَناءٌ على المؤمنين، وإذا كانُوا مع النبيِّ ﷺ في أمرٍ جـامع؛ أي في أمر طاعةٍ يجتمعون عليه لِحَقِّ الْجُمُعَـةِ وصـلاةِ العيديـن والْجِـهَادِ وأشـباهِ ذلـكَ، ﴿ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ .

قال المفسِّرون: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا صَعَدَ الْمِنْبَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَأرَادَ الرَّجُـلُ أنْ يَخْرُجَ لِطَاعَةٍ أوْ عُذْرٍ؛ لَمْ يَخْرُجْ حَتَّى يَقُومَ بِحِيَالِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ يَرَاهُ، فَيَعْرِفَ أنَّـهُ إنَّمَا قَامَ لِيَسْتَأْذِنَ، فَيَأْذنُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ. قال مجاهدُ: (وَإذا أذِنَ الإمَامُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أنْ يُشِيْرَ بيَدِهِ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ نزلَتْ في عمرَ بنِ الخطاب ﷺ حِيْنَ اسْتَأْذنَ النَّبِيَّ ﷺ فِي الرُّجُوعِ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ إلَـى

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٣٨٣. ومسلم في الصحيح: كتاب الأشربة: الحديث (١٠٣/ ٢٠١٨). وابن ماجة في السنن: كتاب الدعاء: الحديث (٣٨٨٧). وأبو داود في السنن: كتاب الأطعمة: الحديث (٣٧٥٦).

(٢) ذكره الطبري في جامع البيان: مج ١٠ ج ١٨ ص٢٣٣.

الْمَدِينَةِ لِعِلَّةٍ كَانَتْ بِهِ[١]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ ؛ قِيلَ: إنَّ هذا منسوخٌ بقوله تعالى ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أذِنتَ لَهُمْ﴾[٢]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ ؛ أي استغفِرْ لِهؤلاء المستأذِنين إذا استأذنوكَ لعُذرهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ ؛ للنَّاسِ، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ ؛ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ ؛ أي ادْعُوهُ بالْخُضوعِ والتعظيمِ، وقولوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ ويَا نَبِيَّ اللهِ، في لِيْنٍ وتواضعٍ وخَفْضِ صوتٍ، ولا تقولُوا: يا مُحَمَّدُ! ولا يا أبَا القَاسِمِ! كما يدعُو بعضُهم بعضاً باسْمِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ ؛ أرادَ به المنافقين، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَابَهُمْ فِي خُطْبَتِهِ، فَإذا سَمِعُوا ذلِكَ نَظَرُوا يَمِيناً وَشِمَالاً، فَإنْ أبْصَرَهُمْ أحَدٌ لَمْ يَقُومُوا، وَإنْ لَمْ يُبْصِرْهُمْ أحَدٌ قَامُوا فَخَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ يَتَسَلَّلُونَ[٣]. وَالتَّسَلُّلُ الْخُرُوجُ فِي خِفْيَةٍ.

وَاللِّوَاذُ: أن يَسْتُرَ بعضهُ بعضاً ثُم يَمضِي، يقالُ: لاَوَذْتُ بفُلاَنٍ مُلاَوَذةً ولِوَاذاً. قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ أنْ يَلُوذ بغَيْرِهِ فَيَهْرُبَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ ؛ أي لِيَحْذر الذين يُعرِضُونَ عن أمرِ الله ويخالِفُون في أمرِه، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ ؛ أي بَلِيَّةٌ، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي لـه كلُّ ذلك مُلْكاً وقدرةً وإحاطة، ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ ؛ أي يعلمُ ما يُبْدِيهِ كلٌّ منكم وما يُخفِيه، وقولهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ ؛ معناهُ: يعني يَعْلَمُ يومَ يُبعثُونَ متى هو، ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ ؛ فيهِ؛ ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ ؛ أي يجزيَهم بما عملوا في دار الدُّنيا، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ ؛ من أعمالِ العباد وغيرِ ذلك.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٢٧.　(٢) التوبة / ٤٣ .

(٣) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٢٨. ونقله ابن عادل في اللباب: ج ١٤ ص٤٦٣ عن الكلبي.

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النُّـور أعْطِـيَ مِـنَ الأَجْـرِ عَشْـرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ فِيْمَا مَضَى وَفِيْمَا بَقِيَ][1].

آخر تفسير سورة (النور) والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٦٢، وإسناده واهٍ.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

سُورَةُ الْفُرْقَان مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثلاَثُ آلاَفٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَثلاَثَةٌ وثلاَثُون حَرْفاً، وَأَلْفٌ وَثلاَثُمِائَةٍ وَاثْنَتان وَتِسْعُونَ كَلِمَةٍ، وَسَبْعَةٌ وَسَبْعُونَ آيَةٌ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفُرْقَانِ دَخَلَ الْجَنَّةَ بغَيْرِ حِسَابٍ](1).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ ﴾ ؛ أي عَظُمَتْ وكَثُرَتْ بركَاتُ اللهِ. والبَرَكَةُ: هي الخَيرُ الكثيرُ. وَقِيلَ: معنَاهُ: تَبَارَكَ: أي تَعَالَى، قولُهُ: ﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ ؛ أي الذي نَزَّلَ جبريلَ بالفُرْقَان، ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ ، مُحَمَّدٍ ﷺ؛ ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ ؛ أي مُعْلِماً بموضع المخافةِ. والفُرْقَانُ: البيانُ الذي يُفَرِّقُ بهِ بين الحقِّ والباطلِ، ويَزْجُرُ عن القبائحِ، ويدعُو إلى الْمَحاسنِ، ويعني بالعالمِينَ: الْجِنَّ والإنسَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي للهِ خزائنُ السَّموات والأرض والقدرةُ على أهلِها، ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ ؛ كما قال اليهودُ والنصارى والمشركونَ، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ ؛ فيعاونُهُ على مُلكِهِ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾ ؛ أي قَدَّرَ طُولَهُ وعَرْضَهُ ولونَهُ ورزقَهُ وأجَلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ؛ فمعناه: واتخذ كفارُ مكَّةَ مِن دون الله آلِهَةً يعبدونَها؛ هي الأصنامُ لا يقدرونَ أن يخلِقُوا شيئاً وهم يُخلقون، ما مِن شيء يكون منها من ذهبٍ أو فضَّةٍ أو صفر

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٢٨٩.

أو خشبٍ إلاّ واللهُ خالِقُها، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي لا يَملكون الأصنامَ لأنفُسِها دفعَ ضُرٍّ ولا جَرَّ نفعٍ؛ لأنَّها جَمادٌ لا قدرةَ لَها، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾؛ أي لا يَملِكُ أن يَموتَ أحدٌ ولا يحيي أحد، ولا تَملِكُ بعثاً للأمواتِ، فكيفَ يعبدُ هؤلاء مَن لا يقدرُ على أن يفعلَ شيئاً مِن هذا ؟ ويتركونَ عبادةَ ربهم الذي يَملِكُ ذلك كلَّهُ. يقالُ: أنْشَرَ اللهُ الأمواتَ فَنَشَرُوا؛ أي أحيَاهُم فحيُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾؛ أي قال الذينَ كفروا: ما هذا القُرآنُ إلاّ كذبٌ اختلقَهُ مُحمَّدٌ مِن تلقاءِ نفسه وأعَانَهُ عَلَيْهِ قومٌ آخرون مِن أهل الكتاب، يعنونَ (جَبْرا) مولَى لقريشٍ، ويسارَ أبا فُكَيهَةَ مولَى لبنِي الحضرميِّ، وعَدَّاساً مولَى لحويطبَ بنِ عبد العزَّى[١]، كان هؤلاء يقرأونَ التوراةَ قبل أن يُسْلِمُوا، فلما أسلَمُوا رأوا التوراةَ تشبهُ القُرآنَ، وكان النبيُّ ﷺ يَمُرُّ بهم ويتعاهَدُهم، فمِن ذلك قال الكفارُ: وَأعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾؛ أي قال الكفارُ هذه المقالةَ شِرْكاً وكَذِباً، زعَمُوا أن القرْآنَ ليس مِنَ اللهِ، والمعنى: فقد جاءُوا بظُلْمٍ وزوراً فيما قالُوا، فلمَّا سقطَتِ الباءُ أفضَى إليه الفعلُ فنصبَهُ[٣]. والزُّورُ: وضعُ الباطلِ في موضعِ الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي قالَ النَّضرُ بن الحارث وأصحابهُ: هذا القُرْآنُ أحاديثُ الأوَّلين في دَهْرِهم كما كنتُ أحدِّثُكم عن الأعاجمِ، ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾؛ مُحَمَّدٌ أي انسَخَها من عداسٍ وجبرٍ ويسار، ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾، فهي تُقرَأ عليه، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾؛ أي أمَرَ أن يَكْتُبَ له فهي تقرأ عليه غدوةً وعشيَّة ليحفظَها.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٣٠.

(٢) ينظر اختلاف قولهم كما ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١٠ ص١٧٧-١٧٨.

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٤٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: أنْزَلَ القُرْآنَ ﴿ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، لا يخفَى عليه شيءٌ فيهما، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا ﴾ ؛ لِمَن تابَ وآمنَ، ﴿ رَّحِيمًا ۝٦ ﴾ ؛ لِمن ماتَ على التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ ؛ أي قال المشركون على وجهِ الذمِّ والتَّعيير للنبيِّ ﷺ: ما لِهذا الرسول يأكلُ مِما يأكلُ الناس، ويَمشي في الطُّرُق كما نمشي لطلب المعيشة. والمعنى: أنه ليسَ بمَلَكٍ لأن الملائكةَ لا تأكلُ ولا تشرب، والملوك لا يسبقون، ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ ﴾ ؛ يكون معهُ شريكاً في النبوَّة، ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ ؛ ينتفعُ به، ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ ؛ مِن ثمرها، يعني بُستاناً يأكلُ من ثمره، ومعنى قولِهِ تعالى (أوْ يُلْقَى إلَيْهِ كَنْزٌ) أي يَنْزِلُ عليه مالٌ ينفعهُ ولا يحتاجُ إلى طلب المعاش. وقولُهُ تعالى (يَأكُلُ مِنهَا) قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلَفُ بالنُّون؛ أي نأكُلُ من جنَّتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ﴾ أي قالَ المشركون للمؤمنينَ: ما تتَّبعُونَ إلاّ رَجُلاً مَخدُوعاً مغلُوباً على عقلِهِ قد سُحِرَ وأُزيلَ عنه الاستواءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ ﴾ معناهُ: انْظُرْ يا مُحَمَّدُ كيفَ ضربُوا لكَ الأمثالَ، يعني: مَثَّلُوهُ بالمسحور وبالْمُحتاجِ. وَقِيلَ: معناهُ: انظُرْ كيفَ وصَفُوا لكَ الأشياءَ: إنكَ ساحرٌ وكاهن وكذابٌ وشاعر ومجنونٌ، فَضَلُّوا عن الصواب والْهُدَى وأخطاؤا النسبةَ، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ ﴾ ؛ أي فلا يَجِدُونَ طريقاً إلى إلزامِ الحجَّةِ ولا مَخرَجاً لأنفسِهم بإثباتِ العُذْر في تركِ الإيْمَانِ به، وذلك أنَّهم جعَلُوا معذرَتَهم في ذلكَ أشياءَ ليست بعُذر.

أما أكلُ الطَّعامِ فإنه كان في الرُّسُلِ قبلَهُ، فلم يكن ذلك عُذْراً في تركِ الإيْمَانِ به، ولو أنْزَلَ مَلَكاً لكان يحتاجُ إلى أن يَنْزِلَ من السَّماءِ ويتردَّدُ في الأرضِ لتبليغِ

الرسالةِ، كما قالَ تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾[(١)] ولو جُعِلَ الْمَلَكُ شَرِيكاً للنبيِّ ﷺ مُعاوناً له في الإنذار، أدَّى ذلك إلى استِصْغَار كلِّ واحد منهما في أنهُ لا يكون كلٌّ واحد منهما قائماً بنفسهِ في أداءِ الرسالة.

وأما الكَنْزُ فإنه قد وَجَدَ كثيرٌ مِن الفراعنةِ ولَم يوجِبْ ذلك اتباعَهم، وعُدِمَ مع كثير من الأنبياء الذين أقرَّ الخلقُ برسالَتِهم، وكذلكَ الحياةُ؛ ولأن الأنبياءَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ إنَّما يُبعثون لتزهيدِ الناس في الكنُوز والحياة، وترغيبهم في الآخرةِ، فكيف يجوزُ أن يَمنعُوا الناسَ عنه ويشتَغِلوا به هُم ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ مَلَكاً أنْزلَ مِنَ السَّمَاءِ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إنَّ اللهَ يُخَيِّرُكَ بَيْنَ أنْ يُعْطِيَكَ خَزَائِنَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَفَاتِيحَ كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يُعْطَهَا أحَدٌ قَبْلَكَ، وَلَمْ يُعْطَهَا أحَدٌ بَعْدَكَ مِنْ غَيْرِ أنْ يُنْقِصَكَ شَيْئاً مِمَّا ادَّخَرَ لَكَ فِي الآخِرَةِ، وَبَيْنَ أنْ يَجْمَعَهَا لَكَ فِي الآخِرَةِ، فَقَالَ ﷺ: [بَلْ يَجْمَعُهَا لِي فِي الآخِرَةِ])[(٢)].

وَقَالَ ﷺ: [خَيَّرَنِي جِبْرِيْلُ بَيْنَ أنْ أكُونَ نَبِيّاً مَلِكاً وَبَيْنَ أنْ أكُونَ نَبِيّاً عَبْداً، فَاخْتَرْتُ أنْ أكُونَ نَبِيّاً عَبْداً؛ أشْبَعُ يَوْماً وَأجُوعُ يَوْماً، أحْمَدُ اللهَ إذا شَبعْتُ، وَأتَضَرَّعُ إلَيْهِ إذا جِعْتُ][(٣)].

وكان ﷺ يَأْكُلُ عَلَى الأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جَلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ النَّعْلَ، وَيُرَقِّعُ الثَّوْبَ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِي، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَكَانَ قَدْ مَاتَ ذِكْرُ الدُّنْيَا عَنْ نَفْسِهِ، وَيَقُولُ: (وَا عَجَباً كُلَّ الْعَجَب لِلْمُعْتَرِفِ بدَار الْخُلُودِ وَهُوَ يَعْمَلُ لِدَار الْغُرُور).

---

(١) الأنعام / ٩ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٢٣٨؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه) وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٩٣٣).

(٣) في تخريج أحاديث الإحياء: ج ٥ ص٢٠٢٨؛ قال العراقي: (رواه أبو يعلى من حديث عائشة، والطبراني من حديث ابن عباس، وكلا الحديثين ضعيف). وأخرج الترمذي شطراً من الحديث في الجامع: أبواب الزهد: باب ما جاء في الكفاف: الحديث (٢٣٤٧)، وقال: حسن.

ومعنى الآية: تَبَارَكَ وتعالى إنْ شاءَ يجعلُ لكَ خيراً مما قالوهُ في الدُّنيا من جناتٍ وقصُور، وإنْ شاءَ يجعل لكَ قصُوراً في الدُّنيا؛ أي لو شاءَ جعلَ لكَ أفضلَ من الكنْز والبستان الذي ذكَرُوا، ويجعل لكَ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ يعني في الدُّنيا؛ لأنه قد شاءَ أن يعطيَهُ في الآخرةِ.

وقولهُ تعالى: (وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً) مَن قرأ بالجزمِ، كان المعنى إن شاءَ جَعَلَ لكَ الجناتِ ويجعل لك قصُوراً في الدُّنيا، لأنه قد شاءَ، وإنَّما لَم يجعلِ الحكمةَ التي أوجبت لك. قرأ ابنُ كثير وابن عامر وعاصمُ: (وَيَجْعَلُ) بالرفعِ على الاستئناف بمعنى: وسيجعلُ لكَ قصُوراً في الجنَّةِ في الآخرةِ. والقُصُورُ: هي البيوتُ المشيَّدَةُ، سُمِّي القَصْرُ قَصْراً؛ لأنه قُصِرَ ومُنِعَ مِن الوُصول إليه.

وعن ابن عبَّاس أنه قالَ:(لَمَّا عَيَّرَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بالْفَاقَةِ فَقَالُوا: مَا لِهَذا الرَّسُول يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ، وَيَمْشِي فِي الْمَعَاش، تَعِبَ[١] رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ، فَنَزَلَ جِبْرِيْلُ عليه السلام مُعَزِّياً لَهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ رَبُّكَ يُقْرِؤُكَ السَّلاَمَ وَيَقُولُ: ﴿وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ إنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ لِطَلَبِ الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا.

فَبَيْنَمَا جِبْرِيْلُ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَتَحَدَّثَان إذْ أقْبَلَ رضْوَانُ خَازنُ الْجِنَان فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ سِفْطٌ مِنْ نُور يَتَلأْلأُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ رَبُّكَ يُقْرِؤُكَ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ لَكَ: هَذِهِ مَفَاتِيْحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا مَعَ أنَّهُ لاَ يُنْقِصُ حَظُّكَ فِي الآخِرَةِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إلَى جِبْرِيْلَ مُشِيْراً، ثُمَّ قَالَ: [يَا رضْوَانُ؛ لاَ حَاجَةَ لِي فِيْهَا، الْعَفْوُ أحَبُّ إلَيَّ وَأنْ أكُونَ عَبْداً صَابراً شَكُوراً حَامِداً مِنَ السَّمَاءِ] فَرَفَعَ جِبْرِيْلُ رَأسَهُ، فَإذا السَّمَوَاتُ قَدْ فُتِحَتْ أبْوَابُهَا إلَى الْعَرْشِ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ أنْ تُدْلِي أغْصَانَهَا، فَإذا غُرْفَةٌ مِنْ زُبُرْجُدَةٍ خَضْرَاءَ لَهَا سَبْعُونَ ألْفَ بَابٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، فَقَالَ جِبْرِيْلُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ بَصَرَكَ، فَرَفَعَ فَرَأى مَنَازلَ الأَنْبيَاءِ قَدْ فَصَلَ بهَا مِنْ دُونِهِمْ، وَإذا بمُنَادٍ: أرَضِيْتَ يَا مُحَمَّدُ ؟ فَقَالَ ﷺ: [قَدْ رَضِيْتُ])[٢].

---

(١) في أسباب النزول للواحدي: ص٢٢٤: (حزن).

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول: ص٢٢٤-٢٢٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾؛ معناهُ: لا يستطيعونَ سَبيلاً إلى إلزامِ الْحجَّةِ وإثباتِ المعذرةِ، ولكن كَذبُوا بالسَّاعةِ، وأعْتَدْنَا لِمَنْ كذبَ بقيامِ السَّاعة ناراً مُسَعَّرَةً، ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾؛ من مسيرةِ خَمسمائةِ عام، ﴿ سَمِعُواْ لَهَا ﴾؛ للنار غلَيَاناً، ﴿ تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾؛ كتَغَيُّظِ بَنِي آدمَ، وصَوْتاً كالزَّفيرِ عند شدَّةِ التهَابها واضطِرَابها، وإنَّما قال (إذا رَأتْهُم) وهم يرونَها على معنى: كأنَّها تراهُم رؤيةَ الغَضْبَان الذي يَزْفِرُ غَيْظاً. قِيْلَ: إنَّها لَتَزْفِرُ زَفْرَةً لا يبقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ إلاّ خرَّ لوجهِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (يُطْبَقُ عَلَيْهِمْ كَمَا يُطْبَقُ الزَّجُّ فِي الرُّمْحِ، قَالَ ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ؛ إنَّهُمْ يُسْتَكْرَهُونَ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الْوَتَدُ فِي الْحَائِطِ])[1]. والمعنَى: إذا طُرِحُوا في مكانٍ ضَيِّقٍ من النَّار مُقَرَّنِيْنَ؛ أي مَغْلُولِيْنَ قد قُرِّنَتْ أيدِيهم من الجنِّ والإنسِ يقُولُونَ: وَا ثُبُورَاهُ ، وَاهلاكاهُ.

وفي الخبرِ: أنَّهم إذا أُلْقُوا على باب جهنَّمَ، وتضايقَ عليهم كتضايُقِ الزَّجِّ في الرُّمحِ، فيزدَحِمونَ في تلكَ الأبوابِ الضيِّقة، يرفعُهم اللَّهَبُ وتخضِبُهم مقامعُ ملائكةِ العذاب، فعند ذلك يَدْعُونَ بالويلِ والثُّبُور، ويقالُ لَهم: ﴿ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾؛ فإنَّ سببَ الثُّبُور دائمٌ لا ينقطعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾؛ أي قُلْ أذلكَ العذابُ والسَّعيرُ خيرٌ أم جَنَّةُ الْخُلْدِ التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ، وهذا على طريقِ التعجُّب والتبعيدِ لا على طريقِ الاستفهام؛ لأنه ليس في السعيرِ خيرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي كانت الجنَّةُ للمتقينَ جزاءً ومرْجِعاً في الآخرةِ، ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ﴾؛ أي لَهم في جنَّةِ الْخُلْدِ ما يشاؤُون، ﴿ كَانَ ﴾؛ ذلك الْخُلْدُ، ﴿ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾؛ وذلكَ أن المؤمنين سألُوا ربَّهم في الدُّنيا حين قالوا ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٥٠٠٥).

وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾[1] فقالَ اللهُ تعالى:كان إعطاءُ اللهِ للمؤمنين جنَّةَ الْخُلْدِ وَعْداً وَاجِباً، وذلكَ أمِ المسؤولُ واجبٌ، وإن لَم يُسألْ كالدَّين، ونظيرهُ قولُ العرب: أعطيتُك ألْفاً وَعْداً مسؤولاً، يعني أنه واجبٌ لكَ فَسْألْهُ. وَقِيْلَ: معنى الوعدِ المسؤول: أنَّ الملائكةَ تسألُ لَهم ذلكَ، يقولون ﴿رَبَّنَا وَأدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعني كفارَ مكَّةَ وسائرَ المشركين مِمَّن كان يعبدُ غيرَ اللهِ، يعني: الذين يعبدونَ الملائكةَ وعُزَيراً وعيسى والأصنامَ، فيقولُ اللهُ تعالى للكفار: لِماذا[3] عبدتُم غَيري؟ فيقولونَ: لأنَّهم أمَرُونا بعبادَتِهم، ﴿ فَيَقُولُ ﴾ اللهُ تعالى للملائكة ولعيسى ولعُزَير على وجه التَّنكيتِ والتقريع للكفار: ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ حتى عَبَدُوكم وأنتم أمَرْتُموهم بعبادتِكم، ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ وأخطَأوا الطريقَ بهوَى أنفُسِهم؟ ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأمِّي إلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ أي قالُوا تَنْزِيهاً لكَ مِن أن نعبدَ غيرَك، وما ينبغِي لَنا ولعابدنا أن نَتَّخِذ مِن دونِكَ من أولياءَ، فكيفَ جازَ لنا أن نأمُرَهم يعبدونَنا دونكَ، ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ ﴾ ؛ ولكن طَوَّلْتَ أعمارَهم ووسَّعتَ لَهم في الرِّزق وأمهلْتَهم في الكُفر حتى غيَّروا بذلكَ وتركوا التوحيدَ والطاعة، ونَسُوا القُرآنَ، ﴿ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي هَلْكَى فاسِدِي القلوب. والبُوَارُ هو الهلاكُ، والبَائِرُ الفاسدُ، والأرضُ البَائِرُ هي التي عُطِّلَتْ عن الزراعةِ. وَقِيْلَ: معناهُ (وَكَانُوا قَوْماً بُوراً): أي هَالِكين فاسِدين قد غَلَبَ عليهم الشَّقاءُ والْخُذْلاَنُ، ومنه بَوَارُ السِّلعةِ، والإثم إذا كَسَدَ فَسَدَ.

---

(١) آل عمران / ١٩٤ .

(٢) غافر / ٨ .

(٣) في المخطوط: (لِم ذا).

(٤) المائدة / ١١٦ .

قرأ أبو جعفرٍ وابنُ كثيرٍ ويعقوب: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ) بالياء، وقولهُ تعالى (وَمَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أنْ نَتَّخِذ)، قرأ الحسنُ وأبو جعفرٍ (نُتَّخَذ) بضمِّ النون وفتحِ الخاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ ؛ أي كذبَكم المعبودُ بقولِكم: إنَّها آلِهَةٌ شركاءُ اللهِ، ومَن قرأ (بمَا يَقُولُونَ) بالياء؛ فالمعنى: كذبُوهم بقولِهم (سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أنْ نَتَّخِذ مِنْ دُونِكَ مِنْ أوْلِيَاءَ). قال عكرمةُ والضحَّاك والكلبيُّ: (يَأْذنُ اللهُ لِلأَصْنَامِ فِي الْكَلاَمِ وَيُخَاطِبُهَا فَيَقُولُ: أنْتُمْ أضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أمْ أمَرْتُمُوهُمْ بعِبَادَتِهِمْ إيَّاكُمْ ؟ أمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيْلَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أنْ نَتَّخِذ مِنْ دُونِكَ مِنْ أوْلِيَاءَ، وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ؛ أي أطَلْتَ أعْمَارَهُمْ وَوَسَّعْتَ عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ؛ أي تركُوا الْقُرْآنَ فَلَمْ يَعْمَلُوا بمَا فِيْهِ)[1]. وَقِيْلَ: نَسُوا الإِيْمَانَ والتوحيدَ، وكَانُوا قَوْماً بُوراً، فيقول اللهُ للمشركينَ: (فَقَدْ كَذبُوكُمْ بمَا تَقُولُونَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ ؛ أي لا يقدِرُون على صَرْفِ العذاب عن أنفُسِهم ولا على نَصْرِ أنفسهم، ودفعِ العذاب والبلاءِ الذي هم فيه، ولا أن ينتَصِرُوا مِن مَعبُودِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أرادَ بالظُّلْمِ الشركَ، ومَن يُشْرِكْ باللهِ نُذِقْهُ فِي الآخرةِ عَذاباً شَديداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ ؛ أي يأكلونَ كما تأكلُ أنتَ، ويَمشونَ في الأسواق، وهذا احتجاجٌ عليهم في قولِهم ﴿مَالِ هَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ ؛ أي بَليّهِ ابتلاءُ الشريفِ بالوضيعِ، والعربيِّ بالمولَى، فإذا أراد الشريفُ أن يُسْلِمَ ورأى الوضيعَ قد

(١) في المحرر الوجيز: ص١٣٧٨؛ نقله ابن عطية عن جمهور المفسرين. وفي معالم التنزيل: ص٩٢٣ ذكره البغوي عن عكرمة والضحاك والكلبي.

أَسْلَمَ قَبْلَهُ أَبَى وقال: أَسْلِمُ بَعْدَهُ فيكونُ له عليٌّ السابقةُ والفضلُ! فيقيمُ على كُفْرِهِ ويَمتنعُ من الإسلام، فذلكَ افْتِتَانُ بعضِهم ببعضٍ، وهذا قولُ الكلبيِّ.

وَقِيْلَ: الفتنةُ ها هنا هي العداوةُ التي كانت بينَهم في الدِّين، وما كان المؤمنونَ يَلْقَوْنَ من أذى الكفَّار، ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ ؛ أيُّها المؤمنونَ على أذاهُم حتى تَصِلُوا إلى ثواب الصابرين، فإنَّ بعضَهم لبعضٍ فتنةٌ، يقولُ الفقيرُ: لو شاءَ اللهُ أغْنَانِي مثلَ فُلان، ويقولُ السَّقيمُ: لو شاءَ اللهُ أصحَّنِي مِثْلَ فُلان، ويقولُ الأعمَى: لو شاءَ اللهُ أبْصَرَنِي مثلَ فُلان، ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ بالأغنياءِ والفُقَراءِ وغيرِهم، أغنَى مَن أوجبَتِ الحكمةُ غِنَاهُ، وأفْقَرَ مَن أوجبَتِ الحكمةُ فَقْرَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ ؛ أي قالَ الَّذينَ لا يَخافُونَ البعثَ بعدَ الموتِ: هَلاَّ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الملائكةُ رُسُلاً أو نرَى رَبَّنَا فيُخبرَنا بذلك[1]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ أي لقد تَعظَّمُوا في أنفسِهم حيثُ سألُوا مِن الآياتِ ما لَمْ يَسْأَلْهُ أحدٌ قطُّ، ﴿ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ حين قالُوا (أوْ نرَى رَبَّنَا). والعُتُوُّ: مُجَاوَزَةُ الحدِّ في الظُّلمِ، وَقِيْلَ: العُتُوُّ: أشدُّ الكفرِ. والمعنى: وجَاوَزُوا الحدَّ مجاوزةً شديدةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ؛ أعْلَمَ اللهُ تعالى أنَّ الوقتَ الذي يَرَوْنَ فيه الملائكةَ هو يومُ القيامةِ، وأنَّ اللهَ حَرَمَهُمُ البُشْرَى في ذلكَ اليومِ، فقال (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ) يعني يومَ القيامةِ، لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ للمشركينَ؛ أي لا بشَارَةَ لَهم بالجنَّةَ والثواب، ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي يقولُ الملائكةُ: حَرَاماً مُحَرَّماً أنْ يدخلَ الجنَّة إلاَّ مَن قالَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ.

وَقِيْلَ: يقولُ الملائكة للمجرمينَ: (حِجْراً مَحْجُوراً) أي حَرَاماً مُحَرَّماً عليكم البُشْرَى. وَقِيْلَ: حرامٌ عليكم الجنَّةُ. وَقِيْلَ: تقولُ الملائكةُ: حُرِّمَ عليكم سَمَاعُ البُشْرَى حَرَاماً مُحَرَّماً، وكانتِ العربُ إذا أرادَ الرجلُ منهم أن يُحَرِّمَ شيئاً يُطْلَبُ منهُ؛ قال: حِجْراً مَحْجُوراً؛ لِيُعْلِمَ السائلَ بذلك أنهُ لا يريدُ أن يفعلَ. والْحَجْرُ في اللغةِ: هو

---

(١) في المخطوط: (إنك)، وضبطت كما في معالم التنزيل.

الْمَنْعُ، ومنهُ الْحَجْرُ على الصبيِّ، ويجوزُ أن يكون مَحْجُوراً مِن قول الكفَّار للملائكةِ؛ أي قالُوا للملائكةِ بُعْداً بَيْنَنَا وبينَكُم. قال مجاهدُ: (يَعْنِي عَـوْذاً مَعَـاذاً يَسْتَعِيذُونَ مِـنَ الْمَلاَئِكَةِ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ أي عَمَدْنَا إلى أعمَالِهم التي عمَلُوها في الدُّنيا التي كانوا يعتَقِدونها طاعةً، فجعلناهـا في الآخرةِ بمنْزلة الْهَبَاءِ الْمَنْثُور وهو ما يقعُ في الكُوَّةِ مِن شُعاعِ الشَّمسِ، فيقبضُ القابضُ عليه فلا يحصلُ على شيءٍ. وَقِيْلَ: هو الترابُ الذي يصعدُ من حوافرِ الدَّواب، يُـرَى ولكن لا يُقْدَرُ عليهِ. وقال ابنُ شُمَيْلٍ: (الْهَبَاءُ الْمَنْثُورُ الَّذِي تُطَيِّرُهُ الرِّيَاحُ كَأَنَّهُ دُخَانٌ)، فالمعنَى: فجعلناهُ بَاطِلاً لا ثوابَ لهُ؛ لأنَّهم لَم يعملوهُ للهِ، وإنَّما عمِلوهُ للشَّيطان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ أي أصحابُ الجنَّـةِ يومئـذٍ خـيرٌ مُسْـتَقَرّاً مـن هـؤلاءِ المشـركينَ المتكـبرينَ المفتَخِريـن بأعمالِهم، وأحْسَنُ مَوْضِعاً عندَ القَيلُولَةِ مـن منـازل الكفَّـار. قـال ابـنُ مسـعودٍ: (لاَ يَنْتَصِفُ النَّهَارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقبلَ هَؤُلاَءِ فِي الْجَنَّةِ وَهَؤُلاَءِ فِي النَّار)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ ﴾ ؛ قـرأ أبـو عمـرٍو والكوفيُّـون بالتشديدِ فيهما علىمعنى تَتَشَقَّقُ السماءُ عن الغمامِ و(الباء)و(عن) يتعاقَبـان، يقـال: رميتُ بالقَوسِ وعَنِ القوسِ، ومعنى الآيةِ: ويَوْمَ تَصَّـدَّعُ السَّـماءُ لـنُزول الملائكـةِ في الغمامِ بأمرِ اللهِ كما تقدَّمَ ذِكْرُهُ في قولهِ تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلا أنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ﴾[٣] وهو غَمَامٌ أبيضُ رقيقٌ مثل الضُّبَابَةِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي نُزِّلَ أهلُ كـلِّ سَـماءٍ على حِدَةٍ منها إلى الأرضِ لإكرام المؤمنينَ وإهانةِ الكفَّار، وأهوالِ ذلك اليومِ. ويقالُ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: مج ١١ ج ١٩ ص٥. وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٦٧٨ على أنه من قول الملائكة للكفار. وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٢٤٥؛ قال السيوطي: (أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٠٧٩).

(٣) البقرة / ٢١٠.

إن الغمامَ سحابٌ أبيض فوقَ السَّموات السَّبعِ، كما رُوي أنَّ دعوةَ المظلومِ تُرفَعُ فوقَ الغَمامِ، فعلى هذا يكونُ المعنى: ويوم تَشَقَّقُ السمواتُ السَّبعُ ويظهرُ الغَمامُ. قرأ ابنُ كثير: (وَنُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ) بنُونَين ونصب الملائكة.

قولهُ: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ ؛ أي الْمُلْكُ الذي هو الْمُلْكُ حقّاً مُلْكُ الرَّحْمَنِ يومَ القيامة ، ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي عَسُرَ ذلك اليومُ لشدَّتهِ ومشقَّتهِ، ويَهُونُ على المؤمنينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ ؛ نزلت في عُقْبَةَ بْنِ أبي مُعيْطٍ كان إذا أرادَ أن يُؤْمِنَ فقالَ لهُ أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ وكان صَديقاً لهُ: صَبَأْتَ يَا عُقْبَةُ! لَئِنْ آمَنْتَ لَمْ أكَلِّمْكَ أبَداً، فامتنعَ عن الإيْمانِ حتى قُتِلَ يومَ بدرٍ كافراً، وقَتَلَ رسولُ اللهِ ﷺ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ يومَ أُحُدٍ[١].

وَقِيْلَ: إنَّ عُقْبَةَ بنَ أبي مُعيْطٍ كان لا يقْدُمُ من سَفَرٍ إلاَّ صَنَعَ طَعَاماً فَدَعَا عَلَيْهِ أشْرَافَ قَوْمِهِ، وكَانَ يُكْثِرُ مُجَالَسَةَ النَّبيِّ ﷺ فَقَدِمَ ذاتَ يَوْمٍ مِنْ سَفَرٍ، فَصَنَعَ طَعَاماً فَدَعَا عَلَيْهِ النَّاسَ، وَدَعَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا قَرُبَ الطَّعَامُ قَالَ ﷺ: [مَا نَأْكُلُ مِنْ طَعَامِكَ يَا عُقْبَةُ حَتَّى تَشْهَدَ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنِّي رَسُولُ اللهِ] فَقَالَ عُقْبَةُ: أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَأكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. وَكَانَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ غَائِباً، فَلَمَّا أُخْبرَ بإسْلاَمِ عُقْبَةَ وَكَانَ صَدِيْقَهُ، قَالَ لَهُ: أصَبَوْتَ يَا عُقْبَةُ ؟! فَقَالَ: لاَ؛ وَاللهِ مَا صَبَوْتُ وَإنَّ أخَاكَ كَمَا تَعْلَمُ، وَلَكِنِّي صَنَعْتُ طَعَاماً فَأبَى أنْ يَأْكُلَ مِنْ طَعَامِي إلاَّ أنْ أشْهَدَ، فَاسْتَحْيَيْتُ أنْ يَخرُجَ مِنْ بَيْتِي وَلَمْ يَطْعَمْ، فَشَهِدْتُ لَهُ وَلَيْسَ فِي نَفْسِي ذلِكَ، فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ: يَا عُقْبَةُ! مَا أنَا بالَّذِي أرْضَى مِنْكَ أبَداً حَتَّى تَأْتِيَهُ فَتَبْزُقَ فِي وَجْهِهِ! فَفَعَلَ عُقْبَةُ ذلِكَ[٢].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٩٩٠). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٢٥١؛ قال السيوطي:(أخرجه عبدالرزاق في مصنفه وابن جرير عن مقسم مولى ابن عباس).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٩٩١). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٠٩٤).

قال الضحَّاكُ: (لَمَّا بَزَقَ عُقْبَةُ فِي وَجْهِ رَسُول اللهِ ﷺ، عَادَ بُزَاقُهُ فِي وَجْهِهِ وَلَسَعَهُ لَسْعَةً[1] فَأَحْرَقَ خَدَّيْهِ، وَكَانَ أثَرُ ذلِكَ فِيْهِ حَتَّى الْمَوْتِ). وعن عطاءٍ عن ابن عبَّاس قال:(كَانَ أبَيُّ بْنُ خَلَفٍ يُجَالِسُ النَّبِيَّ ﷺ وَيَسْمَعُ كَلاَمَهُ مِنْ غَيْرِ أنْ يُؤْمِنَ بِهِ، فَلَمَّا أرَادَ عُقْبَةُ بْنُ أبي مُعَيْطٍ أنْ يُؤْمِنَ بالنَّبِيِّ ﷺ زَجرَهُ أبَيُّ بْنُ خَلَفٍ، وَكَانَ خَلِيْلاً لَهُ، فَقَالَ لَهُ: وَجْهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ إنْ بَايَعْتَ مُحَمَّداً ﷺ. فَلَمْ يُؤْمِنْ وَاتَّبَعَ رضَى أبَيِّ بْنِ خَلَفٍ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ) يعني عقبةَ بن أبي مُعيطٍ، يعضُّ على يديه تَنَدُّماً وتَحَسُّراً وأسَفاً على ما فَرَّطَ في جنب الله. قال عطاءُ: (يَأْكُلُ يَدَيْهِ حَتَّى يَذْهَبَا إلَى الْمِرْفَقَيْنِ، ثُمَّ يَنْبُتَان، فَلاَ يَزَالُ هَكَذا دَأْبُهُ، كُلَّمَا نَبَتَتْ يَدُهُ أكَلَهَا نَدَامَةً عَلَى مَا فَعَلَ، وَذلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ ﴿ يَقُولُ ﴾ ، على وجه التحسر: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي لَيْتَنِي اتبعتُ الرسولَ وسلكتُ طريقته فإنَّها طريقُ الهدى، ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ يعني أبَيَّ بنَ خلفٍ، ﴿ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ ﴾ ؛ أي لقد صَرَفَنِي عن القُرْآنِ بعد إذ دعانِي مُحَمَّدٌ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ ابتداءُ كلام؛ أي كان الشيطانُ للإنسان كثيرَ الْخُذلان يتبرَّأ منه في الآخرةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ) قراءةُ أبي عمرٍو بفتحِ الياء من (يَا لَيْتَنِيَ اتَّخَذْتُ)، وقُتِلَ عقبةُ يومَ بدرٍ صَبراً كافراً.

وحُكم هذه الآية في كلِّ صاحبَين اجتمعا على معصيةِ الله. وقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [جَلِيْسُ السُّوءِ كَمَثَلِ الْكِيْرِ، إنْ لَمْ يُحْرِقْ ثِيَابَكَ عَلِقَ بِكَ رِيْحُهُ وَدُخَّانُهُ][3]، وانشدَ بعضُهم في ذلكَ:

---

(١) في المخطوط: (وتسعة وتسعين)، وهو تصحيف.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٩٩١).

(٣) رواه البخاري في الصحيح: كتاب البيوع: باب في العطار وبيع المسك: الحديث (٢١٠١).=

تَجَنَّبْ قَرِيْنَ السُّوءِ وَاصْرِمْ حِبَالَهُ وَإِنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيْصاً فَدَارِهِ
وَأحْبِبْ حَبِيْبَ الصِّدْقِ وَاحْذَرْ مِرَاءَهُ تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الْوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ ﴾ ؛ أي ويقولُ الرسولُ مُحَمَّدٌ ﷺ: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ﴾ ، يعني قُريشاً، ﴿ ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ ﴾ ، هَجَرُوا تلاوتَهُ والعملَ به، قالوا فيه غيرَ الحقِّ، وزعَمُوا أنه سِحْرٌ وشِعرٌ، وقالوا هو أساطيرُ الأوَّلين، وتركُوا الإيْمانَ به. قال رسولُ الله ﷺ: [مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ[(١)]، وَعَلَّقَ مُصْحَفاً وَلَمْ يَتَعَاهَدْهُ وَلَمْ يَنْظُرْ فِيْهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقاً بِهِ، يَقُولُ: يَا رَبَّ الْعَالَمِيْنَ؛ عَبْدُكَ هَذا اتَّخَذنِي مَهْجُوراً، اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ][(٢)].

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ ﴾ ؛ أي كما جعلنَا لكَ يا مُحَمَّدُ أعداءً من مشركِي قومِكَ كَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ؛ أي من كفَّار قومِهِ، فلا يَكْبُرَنَّ عليك ذلكَ ولا يشقُّ عليك، فإن الأنبياءَ

=ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب استحباب مجالس الصالحين: الحديث (٢٦٢٨).

(١) هكذا ورد النص في المخطوط: (وعلَّمَهُ) والمعنى لا يستقيم، والأصل المحتمل (ولم يعلِّمه) أو أن (وعلَّمه) أدرج سهواً. ونقله الثعلبي عن المصنف كعادته في النقل منه من غير العزو إليه أو الإشارة إلى مرجعه فيما ينقل. ونقله القرطبي عن الثعلبي كما في الأصول الخطية للجامع لأحكام القرآن، على ما ذكره المحقق، ولكنه أشار إلى حذف (وعلَّمه). وهذا يرجح الظن عندي أن الثعلبي ينقل من تفسير الإمام الطبراني من غير العزو له، فالتزم النص من غير نظر أو تحريف، سيما أن النص حديث، ولم يلتزم بذلك الإمام البيضاوي في ذكر النص، أو أنه بلغه على ما خطه في تفسيره: ج ٢ ص١٤٠، دار الكتب العلمية. وكذا الألوسي في روح المعاني. وفي تحليل النص على ما يبدو لي أن السهو من المصنف سبق قلم، سيما أن الحديث [خَيرُكُمْ مَنْ تعلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ] أو أنه من الناسخ، ولم تتوفر عندي نسخة ثانية للتأكد.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٧-٢٨؛ وقال: (ذكره الثعلبي) عن أنس. والبيضاوي في أنوار التنزيل: ج ٢ ص١٤٠. وفي سنده أبو هدبة، وهو كذاب. في لسان الميزان: ج ١ ص١٢٠: الرقم (٣١٩)؛ قال ابن حجر: (دجال من الدجاجلة، كان لا يعرف بالحديث ولا بكتابته، وإنما كان يلعب ويسخر...).

قبلكَ قد كُذِّبوا، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ ؛ لكَ وللخلقِ وناصراً لك على أعدائِكَ. وانتصبَ قولهُ (هَادِياً) على الحال أو على التمييز.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ ؛ وذلك أن النبيَّ ﷺ لَمَّا تَحدَّاهم بالقُرْآن وأمرَهم أن يأتُوا بسورةٍ من مثلهِ، فعجَزُوا عن ذلكَ ولزِمَتهم الحجةُ فجعلوا يطلبون الحجَّة بالشُّبهةِ، فقالوا: لو كانَ نبيّاً لأُنـزِلَ عليه القُرْآنُ جملةً واحدةً، كما أنزلَتِ التوراةُ والإنجيل والزَّبورُ.

والمعنى: أن الكفارَ قالوا: هَلاَّ أنزلَ عليه القُرْآنُ جملةً واحـدة في وقـتٍ واحـد، كما أنزلت التوراةُ على موسَى؛ والإنجيلُ على عيسَى؛ والزبورَ على داودِ، فبيَّنَ اللهُ أن ذلك ليس بشبهةٍ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ ؛ أي كذلكَ أنزلناهُ إليكَ متفرِّقاً لنقوِّي به قلبَكَ، فتزدادُ به بصيرةً ويسهلُ عليك ضبطهُ وحِفظهُ، فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ ولا يكتبُ، بخلافِ موسى وعيسى. ويقالُ: كأنَّ الله تعالى يعلمُ أن القومَ يسألونَهُ عن أشياء ويؤْذُونه، فأنزَلَ الجوابَ عَقِبَ السُّؤال ليكون أحسنَ موقِعاً وأدعَى إلى الانقيادِ وأبلغَ في إلزام الحجَّة.

وقولهُ تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ ؛ أي فرَّقناهُ تفريقاً، فقال لـو رتـل إذا كان متفرِّقاً غيرَ منظومٍ، وأسنانٌ مرتَّلةٌ: اذا كانت مفلَّجَة، ومنهُ قوله ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[1] أي فرِّق الحروفَ بعضها ببعض. قال ابنُ عبـاس: (مَعْنَـاهُ: وَبَيَّنَّـاهُ تَبْيِيْنـاً)، وقال السديُّ: (فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيْلاً)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ أي لا يأتوكَ بشُبهةٍ للاحتجاجِ بها في إبطالِ أمرِكَ إلاّ جئناكَ بالذي هو الحـقُّ، والـذي هو أحسنُ تفسيراً من مثَلِهم.

والمعنـى: (لاَ يَـأْتُونَكَ) يعـني المشـركين (بِمَثَـلٍ) ضربـوهُ لـكَ في إبطـال أمـرك ومخاصمتِكَ (إلاَّ جِئْنَاكَ) (بـ) الذي هو (الْحَقِّ) لتردَّ به خصومتَهم وتُبطِلَ به كيدَهـم، (وَأحْسَنَ تَفْسِيراً) بما أتوا به من المثلِ. والتفسيرُ: كشفُ المعنى المغطَّى.

---

(١) المزمل / ٤ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥١٣٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ فقاتل كفار مكة، وذلك أنَّهم كانوا قالُوا: إن مُحَمَّداً وأصحابَهُ شرُّ خلق الله، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي منْزلاً ومَصيراً وأضلُّ طريقاً من المؤمنين، وقولهُ تعالى (يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إلَى جَهَنَّمَ) أي يُسْحَبُونَ على وجوهِهم في النار.

وعن أنس: أنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ: [إنَّ الَّذِي أمْشَاهُ عَلَى رجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرٌ عَلَى أنْ يُمْشِيْهِ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]. وعن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلاَثَةِ أصْنَافٍ: صِنْفٌ عَلَى الدَّوَاب، وَصِنْفٌ عَلَى أقْدَامِهِمْ، وَصِنْفٌ عَلَى وُجُوهِهِمْ][1].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي آتينا موسَى التوراةَ وجعلنا معهُ أخاهُ هارونَ مُعِيناً يُعِينهُ على تبليغِ الوحي، والوَزِيْرُ في اللغة: هُوَ الَّذِي يُرْجَعُ إلى رَأيِهِ، وَالْوِزْرُ: ما يُلْتَجأُ إليهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ؛ يعني فرعونَ وقومَهُ فادعُوهم إلى الإيْمَان، فَفَعَلاَ ذلك فلَمْ يُجِيبُوا أمرَهم، ﴿ فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرٗا ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي أهلكنَاهم إهلاكاً بما كان فيهِ عِبْرةٌ لِمن اعتبرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةٗ ﴾ ؛ أي واذكُرْ قومَ نُوحٍ حين كذبُوا نُوحاً ومَن قبلَهُ من الرُّسل فأغرَقناهم بالطُّوفان، وجعلنا إهلاكَهم للناسِ عِظَةً وعبرةً ودلالةً على قُدرَتِنا، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ ؛ أي الكافرينَ، ﴿ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ سِوَى عذابهم في الدُّنيا.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٥٤. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣١٤٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ ﴾ ؛ أي أهلكْنا عاداً وثموداً وأصحابَ الرَّسِّ. قال قتادةُ: (الرَّسُّ بئرٌ باليَمَامَةِ)[١]، قال السديُّ: (بأنْطَاكِيَّةَ وَنَبِيُّهُمْ حَنْظَلَةُ)[٢]، وإنَّما سُمُّوا أصحابَ الرَّسِّ؛ لأنَّهم قتلُوا نبيَّهُمْ ورَسُّوهُ في تلكَ البئرِ، والرَّسُّ واحدٌ. وقال مقاتلُ والسدي:(هُمْ أصْحَابُ الرَّسِّ، وَالرَّسُّ بِئْرٌ، فَقَتَلُوا فِيْهَا حَبِيْبَ النَّجَّار فَنَسَبَهُمْ إلَيْهَا، وَهُمُ الَّذِيْنَ ذكَرَهُمْ فِي سُورَةِ يس)[٣]. وَقِيْلَ: هم أصحابُ الأُخْدُودِ الذين حفروهُ. وقال عكرمةُ:(هُمْ قَوْمٌ رَسُّوا لِنَبِيِّهِمْ)[٤] أي دَسُّوهُ في البئرِ.

رُوي أن رَجُلاً سألَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ ﷺ فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ أخبرْني عن أصحابِ الرَّسِّ، أينَ كانت منازلُهم، وبماذا أهلِكُوا، ومَن نبيُّهم، فإنِّي أجدُ في كتاب الله ذِكْرَهم، ولا أجدُ خَبَرَهم؟ فقال عليٌّ ﷺ: (لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ حَدِيْثٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أحَدٌ قَبْلَكَ، وَلاَ يُحَدِّثُكَ بِهِ أحَدٌ بَعْدِي، وَكَانَ مِنْ قِصَّتِهِمْ أنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً يَعْبُدُونَ شَجَرَةَ صَنَوْبَرٍ، كَانَ غَرَسَهَا يَافِثُ بْنُ نُوحٍ عَلَى شَفِيْرِ عَيْنٍ جَارِيَةٍ، وَإنَّمَا سُمُّوا أصْحَابَ الرَّسِّ؛ لأنَّهُمْ رَسُّوا نَبِيَّهُمْ فِي الأَرْضِ، وَذلِكَ أنَّهُ قِيلَ لِسُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُد، وَكَانُوا إثْنَا عَشَرَ قَرْيَةً عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ الرَّسُّ مِنْ بلاَدِ الْمَشْرِق، وَكَانَ مَلِكُهُمْ يُسَمَّى تُرْكُولُ بْنُ عَامُورَ بْنِ يَاوِيْسَ بْنِ شَارب بْنِ نَمْرُودَ بْنِ كَنْعَانَ، وَكَانَ أعْظَمُ مَدَائِنِهِمْ سِنْدِبَادُ بهَا الْعَيْنُ، وَالصَّنَوبَرَةُ وهِيَ شَجَرَةٌ عَظِيْمَةٌ.

وَكَانُوا قَدْ حَرَّمُوا مَاءَ الْعَيْنِ وَهِيَ غَزِيْرَةُ الْمَاءِ، فَلاَ يَشْرَبُونَ مِنْهَا، وَلاَ يَسْقُونَ أنْعَامَهُمْ، وَمَنْ فَعَلَ ذلِكَ مِنْهُمْ قَتَلُوهُ، وَيَقُولُونَ: هِيَ حَيَاةُ آلِهَتِنَا! فَلاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ أنْ يَنْقُصَ مِنْ حَيَاتِهَا. وَقَدْ جَعَلُوا فِي كُلِّ شَهْرٍ عِيْداً يَجْتَمِعُ إلَيْهِ أهْلُ كُلِّ قَرْيَةٍ، وَيَضْرِبُونَ عَلَى الشَّجَرَةِ ثِيَاباً مِنْ حَرِيْرٍ فِيْهَا مِنْ أنْوَاعِ الصُّوَر، ثُمَّ يَأْتُوا بشِيَاهٍ وَبَقَرٍ فَيَذْبَحُونَهَا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٠١٣).

(٢) في المخطوط: (وبينهم حمطلة) الصحيح كما أثبتناه في معالم التنزيل: ص٩٢٧، قال البغوي: (وقال سعيد بن جبير: كان لهم نبي يقال له: حنظلة بن صفوان، فقتلوه فأهلكهم الله تعالى).

(٣) تفسير مقاتل: ج ٢ ص٤٣٧.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٠١٦).

قُرْبَاناً لِلشَّجَرَةِ، ثُمَّ يُوقِدُونَ النَّارَ وَيَشْوُونَ اللَّحْمَ، فَإِذَا انْقَطَعَ الدُّخَانُ وَالنَّارُ خَرُّوا سُجَّداً لِلشَّجَرَةِ يَبْكُونَ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهَا أَنْ تَرْضَى عَنْهُمْ.

وَكَانَ الشَّيْطَانُ يَجِيْءُ فَيُحَرِّكُ أَغْصَانَهَا وَيَصِيْحُ فِي سَاقِهَا: إِنِّي قَدْ رَضِيْتُ عَنْكُمْ عِبَادِي، فَطِيْبُوا نَفْساً وَقَرُّوا عَيْناً، فَعِنْدَ ذلِكَ يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ مِنَ السُّجُودِ وَيَضْرِبُونَ الدُّفُوفَ وَيَشْرَبُونَ الْخُمُورَ.

فَلَمَّا طَالَ كُفْرُهُمْ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، فَلَبِثَ فِيْهِمْ زَمَاناً طَوِيْلاً يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى، فَلَمَّا رَأَى تَمَادِيْهِمْ فِي الْغَيِّ والضَّلاَلِ قَالَ: يَا رَب إِنَّ عِبَادَكَ أَبَوا وَكَذَبُوا وَعَبَدُوا شَجَرَةً لاَ تَنْفَعُ وَلاَ تَضُرُّ، فَأَيْبِسْ شَجَرَتَهُمْ يَا رَب، فَأَصْبَحُوا وَقَدْ يَبِسَتْ شَجَرَتُهُمْ فَهَالَهُمْ ذلِكَ، وَقَالُوا: إِنَّ هَذا أَيْبَسَ شَجَرَتَكُمْ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ غَضِبَتْ آلِهَتُكُمْ حِيْنَ رَأَتْ هَذا الرَّجُلَ يَعِيبُهَا وَيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهَا، فَحَيَتْ وَغَضِبَتْ لِكَيْ تَغْضَبُوا لِغَضَبِهَا وَتَنْصُرُونَهَا. فَاجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، فَطَرَحُوهُ فِي بِئْرٍ ضَيِّقَةِ الْمَدْخَلِ عَمِيْقَةِ الْقَعْرِ، وَجَعَلُوا عَلَى رَأْسِهَا صَخْرَةً عَظِيْمَةً، وَقَالُوا: إِنَّمَا غَرَضُنَا أَنْ تَرْضَى بِنَا آلِهَتُنَا إِذا رَأَتْ أَنْ قَدْ قَتَلْنَا مَنْ كَانَ يَعِيْبُهَا وَدَفَنَّاهُ بِحُكْمِ كَسْرِهَا، فَتَعُودُ لَهَا نَضَارَتُهَا وَنُورُهَا وَخُضْرَتُهَا كَمَا كَانَتْ.

فَبَقَوا عَامَّةَ يَوْمِهِمْ يَسْمَعُونَ أَنِيْنَ نَبِيِّهِمْ ﵇ وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَب؛ قَدْ تَرَى ضِيْقَ مَكَانِي وَشِدَّةَ كَرْبِي، فَارْحَمْ ضَعْفِي وَقِلَّةَ حِيْلَتِي وَعَجِّلْ قَبْضَ رُوحِي، وَلاَ تُؤَخِّرْ إِجَابَةَ دَعْوَتِي. فَمَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ.

فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا جِبْرِيْلُ؛ إِنَّ عِبَادِي هَؤُلاَءِ غَرَّهُمْ حِلْمِي، وَأَمِنُوا مَكْرِي وَعَبَدُوا غَيْرِي، وَقَتَلُوا رَسُولِي، وَأَنَا الْمُنْتَقِمُ مِمَّنْ عَصَانِي، وَإِنِّي حَلَفْتُ لأَجْعَلَنَّهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالاً. فَأَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ رِيْحاً حَمْرَاءَ عَاصِفاً تَتَوَقَّدُ، فَفَزِعُوا مِنْهَا وَانْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى صَارُوا تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ حَرُّهَا، وَبَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ

سَحَابَةً سَوْدَاءَ فَأَلْقَتْ[١] عَلَيْهِمْ كَالْقُبَّةِ ((الْحَمْرَاءِ)) تَلْهَبُ، فَذابَتْ أَبْدَانُهُمْ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ فِي النَّار، نَعُوذُ باللهِ مِنْ غَضَبِهِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُرُونَا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي وأهلَكْنا قُروناً كثيرةً بين عادٍ إلى أصحاب الرسِّ من لَم نسمِّه لكَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ ؛ أي وكلٌ مِن هؤلاءِ بَيَّنَّا لَهم مِما يحتاجون إليه في أمرِ دِينهم فلم يُجيبوا، ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي وأهلكناهُم بالعذاب إهلاكاً، والتَّبَارُ: هو الْهَلاَكُ، وكلُّ شيء كَسَرْتَهُ فقد تَبرْتَهُ، يقال للمكسَّرِ من الذهب والفضة والزُّجاج: تِبْرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ ﴾ ؛ حين فَرُّوا في آثارهم فيخافُوا ويعتبروا، ﴿ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي كانوا لا يخافونَ البعثَ والنُّشورَ. أخبرَ اللهُ تعالى أن الذي جرَّأهم على التكذيب أنَّهم لا يصدِّقون بالبعثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ ؛ أي واذا رَأوْكَ كفارُ مكَّة أبو جهلٍ وأصحابهُ ما يتَّخِذونَكَ إلاّ هُزُواً؛ أي مَهْزُوءٌ يستهزؤنَ بكَ ويقولون على وجهِ الاستهزاء: ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ إلينا، ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ ؛ أي لقد كادَ يصرفُنا عن عبادةِ آلِهتنا، ﴿ لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ ﴾ ؛ على عبادتِها. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ يومَ القيامةِ، ﴿ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي من أخطأُ طَريقاً عن الْهُدَى والدِّين والحجَّة هم أم المؤمنونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ ؛ أي أرأيتَ مَن عَبَدَ الأصنامَ بهوَى نفسهِ، عَجَّبَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ ﷺ من نِهاية جهلِهم حين عبَدُوا ما دعاهم

---

(١) في المخطوط: (بالغب) لفظ غير مفهوم. وضبطت كما في الكشف والبيان للثعلبي: ج٧ ص١٣٦.

(٢) ذكره الثعلبي بطوله في التفسير، ونسبه إليه ابن عطية مختصراً في المحرر الوجيز: ص١٣٨٣.

إليه الْهَوَى، فقال: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذ إِلَهَهُ هَوَاهُ). قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أَرَأَيْتَ مَنْ تَرَكَ عِبَادَةَ إلَهِهِ وَخَالَقَهُ، ثُمَّ هَوَى حَجَراً يَعْبُدُهُ مَا حَالُهُ عِنْدِي)[١]، قال مقاتلُ: (وَذلِكَ أنَّ الْحُرَيْثَ بْنَ قَيْسٍ السَّهْمِيَّ هَوَى شَيْئاً فَعَبَدَهُ)[٢]، وقال سعيدُ بن جبير: (كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ الْحَجَرَ، فَإذا رَأَوْا أحْسَنَ مِنْهُ أخَذُوهُ وَتَرَكُوا الْحَجَرَ الأَوَّلَ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي كَفِيلاً حافظاً تحفظهُ من اتِّباعِ هواهُ وعبادةِ ما يهوَى، أي لستَ كذلكَ، إنَّما بُعِثْتَ دَاعياً لا حَافِظاً.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ ؛ أي أتَظُنُّ يا مُحَمَّدُ أنَّ أكثرَهم يسمعون سَماع تَدْبيرٍ وتَفكُّرٍ، ويعقلونَ ما يُعَايِنُون من الْحُجَجِ، ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ﴾ ؛ يسمعونَ الصوتَ ولا يعقلون حقيقتَهُ، وهذا مِثْلُ قولهِ ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾[٤] وقولهُ تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي بل هُم أضلُّ من الأنعامِ؛ لأن الأنعامَ إذا زُجِرَتْ انزَجَرَتْ وهم لا يَنْزَجِرُونَ، ولأن الأنعامَ تفهمُ بعضَ ما تسمعُ؛ لأنَّها تُنَادَى على صفةٍ فتقِفُ وتنادى على صفةٍ فتسيرُ.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ ؛ معناه: ألَم تَرَ إلى صُنْعِ ربكَ كيف بَسَطَ الظلَّ من وقتِ غُروب الشَّمسِ إلى وقتِ طُلوعِها من المشرقِ إلى المغرب. وَقِيْلَ: مِن طلوعِ الفجر إلى طلوعِ الشمس، ولو شَاءَ لجعلَ الظلَّ سَاكناً؛ أي دائِماً لا يزولُ على أن لا تطلعَ الشمسُ، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ على الظلِّ بمعنى أنهُ لولاَ الشمسُ لَمَا عُرِفَ الظلُّ؛ لأن الظلَّ يتبعُ الشمسَ في طولهِ وقِصَرِهِ، فإذا ارتفعَتِ الشمسُ في أعلى ارتفاعِها قَصُرَ الظلُّ، وذلك وقتَ صلاةِ الضُّحى إلى أن تبلُغَ الشمسُ في الارتفاعِ مبلَغاً يزولُ عنده

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٢٠٠).

(٢) تفسير مقاتل: ج ٢ ص٤٣٨. وفي الأصل المخطوط تحريف وأسقط شيئاً ورسم الحروف (هوى يعبدهُ) وضبط كما في تفسير مقاتل.

(٣) ذكره ابن عادل في اللباب: ج ١٤ ص٥٤٠.

(٤) البقرة / ١٧١ .

الظلُّ، ولا ينقصُ الظلُّ بعد ذلك، بل يأخذُ في الزيادةِ فيكون الوقتُ وقتَ صلاةِ العصر، فما دامَتِ الشمسُ تنحطُّ يصير الظلُّ طويلاً تحتَ ذلك الانحطاطِ. والظلُّ تابعٌ للشمس التي هي دليلهُ، ويقالُ: معنى الآية: جعلنا الشمسَ مع الظلِّ دليلاً على توحيدِ الله وكمَال قدرتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ إذا طلعَتِ الشمسُ قَبَضَ اللهُ الظلَّ قبضاً يَسيراً خَفِيّاً؛ أي سَلَّطْنَا الشمسَ عليه حتى تَنسَخَهُ شيئاً فشيئاً وتنقصَهُ نقصاً خفِيّاً لا يستدرَكُ بالمشاهدةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ ؛ أي يَسْتُرُ كلَّ شيء تطلبهُ كاللِّباس الذي يسترُ البدنَ، ﴿ وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ ؛ أي راحةً لأبدانِكم، يقالُ: سَبَتَ إذا تمدَّدَ فاستراحَ، ومن ذلك يومُ السَّبتِ؛ لأن اليهودَ كانوا يستَريحون فيه بقطعِ أعمال الدُّنيا، والسُّبَاتُ قطعُ العملِ، ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي تَنْشُرُونَ فيه لِمعاشِكم وحوائجِكم، والنُّشور ها هنا بمعنى التفرُّق والانبساطِ في التصرُّف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ ؛ أي أرسلَ الرِّياحَ ينشرُ بها الغيمَ، ويبسطُ في السَّماء قُدَّامَ المطرِ. وإنَّما قِيْلَ في الرحمةِ: رياحٌ؛ لأنَّها الجمعُ: الجنوبُ والشَّمالُ والصَّبا، وَقِيْلَ في العذاب: رِيْحٌ؛ لأنَّها واحدٌ وهي الدَّبُّورُ وهو عقيمٌ لا يلقح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ وهو الْمَطَرُ، وهو طاهرٌ ومُطَهِّرٌ من الأنجاسِ والأحْداثِ، ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ ؛ أي لِنُحْيي بالمطر بلدةً ليس فيها أشجارٌ ولا أثمارٌ ولا مرعًى، ﴿ وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي نسقِي بذلك الماءَ كثيراً من خلْقِنا من الأنعامِ. والأنَاسِيُّ: جمعُ إنْسِيٍّ مثل كُرْسِي وكَرَاسِي، ويقال: جمعُ إنْسَانٍ، وأصلهُ أناسِيْن، كما يقالُ: بستانٌ وبساتين وسَرْحَانٌ وسراحين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ ؛ أي صرَّفنا المطرَ فقسَّمناهُ بينَهم على ما توجّهُ الحكمةُ لتذكرُوا أنْعُمَ اللهِ فتشكرُوها، ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛أي جُحُوداً به كلَّما أنزلَ المطرَ، يقولون: مُطِرْنَا بنَوْءِ كَذا.

وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ: (مَا عَامٌ بأمْطَرَ مِنْ عَام، وَلَكِنَّ اللهَ يُقَسِّمُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)(١)، قال ﷺ: [مَا سَنَةٌ بأمْطَرَ مِنْ أخْرَى، وَلَكِنْ إذا عَمِلَ قَوْمٌ بالْمَعَاصِي حَوَّلَ اللهُ ذلِكَ إلَى غَيْرِهِمْ، فَإذا عَصَوا جَمِيْعاً صَرَفَ اللهُ ذلِكَ إلَى الْفَيَافِي وَالْبحَار](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي لو شِئنا لبعَثنا في كلِّ قريةٍ نَذيراً ينذِرُهم، ولكن بعثناكَ يا مُحَمَّدُ إلى القُرَى رَسُولاً لعِظَمِ كرامَتِك علينا، وليكون كلُّ الثواب والكرامة لك خاصَّةً، ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ؛ فيما يطلبونَ منكَ أن تعبُدَ آلِهَتَهم، ومداهنتَهم، ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ ؛ أي بالقُرْآن، ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ شَديداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ؛ أي وهو الذي أرسلَ البَحْرَيْنِ في مجارِيهما، يقالُ: مَرَجْتُ الدَّابَّةَ؛ أي أرسَلْتُها في الْمَرْجِ ترعَى.

وأرادَ بقوله (هَذا عَذْبٌ فُرَاتٌ) النيلُ والأنْهارُ العِظَامُ، والفراتُ ما يكون في غايَةِ العذُوبَةِ، وأرادَ بالملحِ الأجَاجِ الذي يكون ماؤُها في غايةِ المرارة، ويقالُ: في غايةِ الحرارةِ، من قولِهم: أجَّجْتَ النارَ إذا وَقَدْتَها، وتأجَّجَتِ النارُ إذا توقَّدَت، ويقالُ: ماءٌ مِلْحٌ، ولا يقال: مالِحٌ إلاّ لِمَا يُلْقَى فيه الملحُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٠٤٦). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٢٤٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٠٤٩) موقوفاً على ابن مسعود ﷺ . وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٥٧؛ وقال: (وروي من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال ...) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي حَاجِزاً يَمنعُ كلَّ واحدٍ منهما من تغيير الآخر، وهو ما بين العَذْب والملحِ من الأرض. ويقال: أصلُ الْمَرْجِ الْخَلْطُ، وَمِنْ ذلِكَ الْمَرْجُ؛ لأنه يكون فيه أخلاطٌ من النباتِ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي أمْرٍ مَرِيجٍ﴾(١) أي مُختَلِطٍ بالملحِ والعَذْب في مرأى العين مختلِطان، وفي قدرةِ الله منفصِلان، لا يغيِّرُ أحدُهما طَعْمَ الآخرِ. (بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً) أي حَاجِزاً من قدرةِ الله تعالى، و(حِجْراً) أي مانعاً يَمنعُ من اختلاطِهما، وفسادِ أحدهما بالآخرِ، ومعنى قولهِ تعالى (وَحِجْراً مَحْجُورا) أي حَراماً مُحَرَّماً أن يُفْسِدَ الملحُ العذبَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ ؛ أي خَلَقَ من النُّطفةِ إنساناً وخَلْقاً كثيراً، فجعلَ مِن هؤلاء البَشَرِ أنسَاباً وأصهاراً، ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ على ما أرادَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ ﴾ ؛ إنْ عَبَدُوهُ، ﴿ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ ؛ إنْ تركُوا عبادتَهُ، وتركُوا عبادةَ اللهِ الذي خلَقَهم ورزَقَهم، ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي وكان الكافرُ عَوْناً للشَّيطان على رَبهِ بالمعاصِي؛ لأنه تابعُ الشيطان ويعاونهُ على معصيةِ الله، لأنَّ عبادتَهم للأصنامِ معلومةٌ للشَّيطان. والظَّهيرُ هو الْمُعِيْنُ. قال المفسِّرون: أرادَ بالكافرِ أبا جَهْلٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي مُبَشِّراً بالجنَّة ونذيراً من النَّار، ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ؛ أي على القُرآن وتبليغِ الوَحي، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ﴾ ؛ أي لكن مَن شَاءَ، ﴿ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ إنفاقَ مالهِ فعلُ ذلكَ، والمعنى: لا أسألُكم لنفسِي أجراً، ولكن لا أمنعُ من إنفاق المال في طلب مرضَاةِ الله وجنَّته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ ؛ أي فَوِّضْ أمورَكَ إليه، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ ؛ أي احْمَدْهُ مُنَزَّهاً عن ما لا يجوزُ في صفاتهِ، وذلك نحو أن يقولَ: الحمدُ للهِ رب العالَمين، والحمدُ للهِ حَمداً يُوافِي نِعَمَهُ ويكافِئُ مزيدَهُ،

---

(١) ق / ٥ .

ويجوز أن يكون: صَلِّ بأمرِهِ هو المحمودُ في توفيقهِ إياكَ، كما يقالُ: افْعَلْ هذا بحمدِ الله، ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ﴾ ؛ فهو أولَى مَن يراقِبُ غيرَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩ ﴾ ؛ أي فاسألْ لسُؤالِكَ إياهُ خَبيراً، والخبيرُ ها هنا هو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ويقالُ: معناهُ: فاسأل الخبيرَ بذلك، يعني: ما ذُكِرَ من خَلْقِ السَّمواتِ والأرض والاستواءِ على العرش. وَقِيْلَ في معناهُ: فاسألْ عالِماً بِمَ تسألهُ عنه، ولا تسألْ غيرَهُ، وإذا سألتَ حاجتَكَ؛ فاسأل عالِماً بما يصلحُكَ، وإنك إذا سألتَهُ أخبرَكَ بالحقِّ في صفاتهِ، وفي كلِّ ما سألتَ عنهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ ؛ أي إذا قِيْلَ لكفَّار مكَّة: ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ ، قالُوا: ما نعرفُ إلاّ رَحْمَانَ اليَمامَةِ؛ يعنونَ مُسَيْلَمَةَ. وقولهُ تعالى: ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ۝٦٠ ﴾ ؛ استفهامُ إنكار؛ أي لا نسجدُ للرَّحمنِ تَباعداً من الإيْمانِ، كما قالَ تعالى في قصَّة نوحٍ: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إلاَّ فِرَاراً﴾[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ ؛ البُرُوجُ: منازلُ الكواكب السَّبعةِ: الشَّمسُ؛ والقمَرُ؛ والمشتَري؛ فالْمِرِّيخُ؛ وزُحَلُ؛ وعُطَارِدُ؛ والزُّهرَةُ، وهي اثنى عشرَ بُرجاً؛ فالْحَمَلُ والعَقْرَبُ بَيْتَا المرِّيخِ، والثَّورُ والميزانُ بيتا الزُّهرةِ، والْجَوزَاءُ والسُّنبلة بيتَا عُطَارِدَ، والْجَدْيُ والدَّلْوُ بيتا زُحَلٍ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا ﴾ ؛ يعني الشَّمسَ، ﴿ وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ ﴾ . وقرأ حمزة (سُرُجاً) أراد الشَّمسَ والكواكبَ معها. والمعنى: وجعلَ في السَّماء شَمساً تضيءُ بالنهار. ويقطعُ كلَّ شهر بُرجاً من البروج الاثني عشرَ، وجعلَ فيها قمراً يضيءُ بالليل، ويقطع كلَّ بُرج في يومٍ وثُلُثٍ.

---

(١) نوح / ٦ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾؛ أي يخلفُ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَهُ، يذهبُ أحدُهما ويجيءُ الآخر، فهو عِظَةٌ لِمَن اتَّعظَ، وأرادَ أن يشكُرَ أنعَامَ اللهِ.

قال أبو عُبيدة: (الْخِلْفَةُ كُلُّ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ: اللَّيْلُ خِلْفَةٌ لِلنَّهار، وَالنَّهَارُ خِلْفَـةٌ لِلَّيْلِ؛ لأَنَّ أحَدَهُمَا يَخْلُفُ الآخَرَ وَيَأْتِي بَعْدَهُ). وقال مجاهدُ: (جَعَلَ النَّهار خِلْفَـةً مِـنَ اللَّيْلِ لِمَنْ نامَ باللَّيْلِ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ خِلْفَةً لِمَنِ اشْتَغَلَ بالنَّهار)[1] فَمَنْ فَاتَهُ الْعَمَلُ باللَّيْلِ قَضَاهُ بالنَّهَار، وَمَنْ فَاتَهُ بِالنَّهَار قَضَاهُ باللَّيْلِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾؛ أي عبـادهُ الذيـن رَضِيَـهم وأثنـى عليهم هم الذين يَمشُونَ على السَّكينةِ والوَقَـار الْـهُوَيْنَا، متواضِعـين مـن مخافـةِ الله، حُلَمَاءَ عُقلاءَ عُلماءَ لا يجهَلُون وإنْ جُهِلَ عليهم، وإن كَلَّمَهم الكفارُ والفُسَّاقُ بالسَّفَهِ والفُحْشِ؛ قالُوا سَدادٌ مِن القول. وَقِيْلَ: يقولون في جـواب السَّـفيهِ: سَـلاَمٌ عَلَيْكُـمْ. وقال قتادةُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَإذا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَـلاَماً)؛ أيْ كَـانُوا لاَ يَجْهَلُونَ عَلَى أهْلِ الْجَهْلِ). وقال مقاتلُ: (قَالُوا سَلاَماً؛ أيْ قَـوْلاً يَسْـلَمُونَ فِيـهِ مِـنَ الإثْمِ)[2].

قال الحسنُ: (هَذِهِ صِفَةُ نَهَارِهِمْ إذا انْتَشَرُوا فِي النَّاس، وَلَيْلُهُمْ خَـيْرُ لَيْـلٍ كَمَـا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾؛ أي يصَلُّون باللَّيلِ طَلَباً للثواب)[3]. وعن ابنِ عبَّاس قَالَ: (مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْعِشَاءِ رَكْعَتَيْنِ أوْ أكْـثَرَ فَقَدْ بَاتَ للهِ سَاجِداً أوْ قَائِماً).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾؛ لاَزماً دَائماً. والغَرَمُ: اللُّزُومُ، يقالُ لصاحب الدَّين:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٠٨٢). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٣٢٨).
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٤١.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠١٠٢). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (٢٧٢٣).

غَرِيْمٌ؛ لأنَّهُ يلازمُ الْمَدْيُونَ، ويقالُ للمَدْيُون: الغَرِيْمُ؛ لأنَّ اللُّزُومَ يثبتُ عليهِ، والْمُغْرَمُ بالنِّساءِ الْمُلاَزِمُ لَهُنَّ. قال الزجَّاجُ: (إنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً، الْغَرَامُ أشَدُّ الْعَذاب)[1].

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ جهنَّم بئسَ موضعِ قَراراً وإقامةً هي. قال الحسنُ: (كُلُّ غَرِيْمٍ يُفَارِقُ غَرِيْمَهُ إلاَّ غَرِيْمَ جَهَنَّمَ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ الإسْرَافُ: هو الإنفاقُ في معاصِي اللهِ تعالى، والْمُقَتِّرُ: مَانِعُ حقِّ اللهِ تعالى، والقَوَامُ: هو الوسطُ بين الإسرافِ والتَّقتيرِ. قرأ أهلُ المدينةِ والشام بضمِّ الياءِ وكسر التاء، وقرأ الكوفيُّون (يُقَتِّرُوا) بفتح التاء وضم الياء، وقرأ الباقون (يَقْتِرُوا) بفتح الياء وكسر التَّاء، وكلُّها لغاتٌ صحيحة. فالإسرافُ: نفقةٌ في معصيةِ الله تعالى وإنْ قَلَّتْ، والإقْتَارُ: منعُ حقِّ الله[3].

وعن الحسنِ أنَّ مَعناهُ: (لَمْ يُنْفِقُوا فِي مَعَاصِي اللهِ، وَلَمْ يُمْسِكُوا عَنْ فَرَائِضِ اللهِ). وَقِيْلَ: معناهُ: لَم يضيِّقُوا في الإنفاق، وكان إنفاقُهم بين الإسرافِ والإقتار، لا إسْرَافاً يدخلُ به في حدِّ التبذيرِ، ولا تضْيِيقاً يضرُّ به في حدِّ المانع لِمَا يجبُ، وهذا هو الْمَحمودُ مِن النفقةِ.

وعن عمرَ ﷺ: (مِنَ الإسْرَافِ أنْ لاَ يَشْتَهِيَ الرَّجُلُ شَيْئاً إلاَّ أكَلَهُ)[4] وقال: (كَفَى بالْمَرْءِ سَرَفاً أنْ يَأْكُلَ كُلَّ مَا يَشْتَهِي)[5]. وقال قتادةُ: (الإسْرَافُ: النَّفَقَةُ فِي الْمَعْصِيَةِ، وَالإقْتَارُ: الإمْسَاكُ عَنْ حَقِّ اللهِ، وَالْقَوَامُ مِنَ الْعَيْشِ: مَا أقَامَكَ وَأغْنَاكَ).

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص٥٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠١٠٤).

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١١٦.

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٣٩٠. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٧٣.

(٥) ويروى حديثاً أيضاً؛ أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الأطعمة: باب من الإسراف أن تأكل كلما اشتهيت: الرقم (٣٣٥٢)، إسناده ضعيف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ رَجُلاً جَاءَ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أيُّ الذنْب أكْبَرُ ؟ قَالَ: [أنْ تَجْعَلَ للهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ] قَالَ: ثُمَّ ايُّ ؟ قَالَ:[أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ] قَالَ: ثُمَّ أيُّ؟ قَالَ: [أنْ تُزْنِي بحَلِيْلَةِ جَارِكَ] فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هذهِ الآيةَ تَصْدِيقاً لذلكَ: (وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلَـهاً آخَرَ)[١] ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ ؛ في الحديثِ [لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئ مُسْلِمٍ إلاَّ بأحَدِ ثَلاَثِ مَعَانٍ: زنًى بَعْدَ إحْصَانٍ، وكُفْرٌ بَعْدَ إيْمَانٍ، وَقَتْلُ نَفْسٍ بغَيْرِ حَقٍّ][٢]. ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي مَن يفعلُ شيئاً مِمَّا تقدَّم ذِكره (يَلْقَ أثاماً) أي يَلْقَ عقوبةَ فعلهِ، ويقالُ: الأثامُ وادٍ في جهنَّم من دمٍ وَقَيْحٍ.

وعن رسول الله ﷺ: [لَوْ أنَّ صَخْرَةً عَسْرَاءَ قُذِفَ بهَا فِي جَهَنَّمَ مَا بَلَغَتْ قَعْرَهَا سَبْعِيْنَ خَرِيْفاً، ثُمَّ يَنْتَهِي إلَى غَيٍّ وَأثَامٍ] قِيْلَ: وَمَا غَيٌّ وَأثَامٌ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [بئْرَان يَسِيْلُ فِيهِمَا صَدِيْدُ أهْلِ النَّار، وَهُمَا اللَّتَان قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾[٣]][٤]. ورُوي أنَّ أثاماً وادٍ في جهنَّم فيه حيَّاتٌ وعقاربُ في فَقَار إحداهنَّ مقدار ستِّين قُلَّةً من السُّمِّ، كلُّ عقرب منهنَّ مثل البغلةِ الموكفة[٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ تفسيرُ الغَيِّ الأثامُ بقولهِ (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذابُ) الآيةُ، ومَن رفعَ (يُضَاعَفْ، وَيَخْلُدْ)

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٤٧٧). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: الحديث (١٤٢/ ٨٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٦١. والترمذي في السنن: أبواب الفتن: الحديث (٢١٥٨). وابن ماجة في السنن: كتاب الحدود: الحديث (٢٥٣٣). والحاكم في المستدرك: كتاب الحدود: الحديث (٨٠٩٣).

(٣) مريم / ٥٩ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث(٢٠١٣٣). وذكره ابن كثير في التفسير: ج ٣ ص١٢٦.

(٥) في الدر المنثور: ج ٦ ص٢٧٦؛ قال السيوطي: (وأخرج ابن المبارك عن شفي الأصبحي قال ...) وذكره.

وهو ابنُ عامر فهو على الاستئنافِ والقطع عما قبله[(١)].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ قال ابن عباس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ بمَكَّةَ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَالُوا: مَا يُغْنِي عَنَّا الإسْلاَمُ وَقَدْ عَدَلْنَـا بـاللهِ وَقَتَلْنَـا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ وَأتَيْنَا الْفَوَاحِشَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ).

ومعناها: إلاّ مَن تَابَ عن الكفرِ والمعصية وآمَنَ باللهِ وعَمِلَ عَمَلاً صالحـاً بعـدَ الإيْمانِ والتوبةِ، فأُولَئِكَ يَمحُو اللهُ سيِّئاتِهم بالتوبةِ ويُثْبتُ لَهم مكانَها حسناتٍ، وهذا هو معنى التَّبديلِ، لا تصيرُ السَّيِّئةُ بعينها حسنةً.

وعن ابنِ عباس أنهُ قال: (قَرَأنَا عَلَى عَهْدِ رَسُـول اللهِ ﷺ (وَالَّذِيـنَ لاَ يَدْعُـونَ مَعَ الله إلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إلاَّ بالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أثَاماً، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذابُ) الآيَةُ ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (إلاَّ مَنْ تَـابَ وَآمَـنَ وَعَمِـلَ عَمَلاً صَالِحاً) الآيَةُ، فَمَا رَأيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَرِحَ بشَيْءٍ مِثْلَ فَرَحِهِ بهَا وَبقَوْلِهِ ﴿إنَّـا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً﴾[(٢)])[(٣)].

قال قتادةُ: (وَمَعْنَاهَا: إلاَّ مَنْ تَابَ مِنْ ذنْبهِ وَآمَنَ بربهِ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فِيْمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبهِ)[(٤)]. وَقَال أيضاً في معنى قوله (فَـأُولَئِكَ يُبَـدِّلُ اللهُ سَـيِّئَاتِهِمْ حَسَـنَاتٍ): (التَّبْدِيْلُ فِي الدُّنْيَا طَاعَتُهُ بَعْدَ عِصْيَانِهِ، وَذِكْرُ اللهِ بَعْدَ نِسْيَانِهِ). وقال الحسنُ: (أبْدَلَـهُمُ اللهُ بالْعَمَلِ إلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ بالشِّرْكِ إخْلاَصاً وَإسْلاَماً، وَبالْفُجُور إحْصَانـاً، وَبقَتْـلِ الْمُؤْمِنِيْنَ قَتْلَ الْمُشْرِكِيْنَ)[(٥)].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٧٦؛ قال القرطبي: (قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسـائي: يضاعفْ، ويَخلُدْ، جزماً) وهو كما قال المصنـف رَحِمَـهُ اللهُ. وقـال القرطـبي: (وقـرأ عـاصم في رواية أبي بكر: يُضَاعَفُ، ويُخَلَدُ بالرفع فيهما على العطف والاستئناف).

(٢) الفتح / ١ .

(٣) في الدر المنثور: ج ٦ ص٢٧٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه).

(٤) في الدر المنثور: ج ٦ ص٢٨٠؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٤٣٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي مَن تاب من الشِّرك وعَمِلَ صالحاً، ولَم يكن من القبيلِ الذين قَتَلُوا وزَنَوا، فإنهُ يتوبُ اللهُ؛ أي يعودُ عليه بعد الموتِ مَتَاباً حَسَناً يفضُلُ علَى غيرِهِ بمن قَتَلَ وزَنَى، فالتوبةُ الأُولى رجوعٌ عن الشِّرك، والثانيةُ رجوعٌ إلى اللهِ للجزاءِ والمكافأة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ ؛ قال أكثرُ المفسِّرين: الزُّورُ ها هنا بمعنى الشِّركِ. قال الزجَّاجُ: (الزُّورُ فِي اللُّغَةِ الْكَذِبُ، وَلاَ كَذِبَ فَوْقَ الشِّرْكِ باللهِ). وقال قتادةُ: (وَلاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ، لاَ يُسَاعِدُونَ أهْلَ الْبَاطِلِ عَلَى بَاطِلِهِمْ)[1]. وقال محمَّدُ بنُ الحنفيَّة: (لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ: اللَّهْوَ وَالْغِنَاءَ وَاللَّعِبَ وَأعْيَادَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ). وقال عليُّ بن أبي طلحةَ: (شَهَادَةُ الزُّورِ). وَكَانَ عُمَرُ ﷺ (يَجْلِدُ شَاهِدَ الزُّورِ أرْبَعِيْنَ جَلْدَةً وَيُسَخِّمُ وَجْهَهُ وَيَطُوفُ بِهِ فِي الأَسْوَاقِ)[2]. وعن عمرَ بن المنكدر أنه قالَ: بَلَغَنِي (أنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أيْنَ الَّذِيْنَ كَانُواْ يُنَزِّهُونَ أنْفُسَهُمْ عَنْ سَمَاعِ اللَّهْوِ وَمَزَامِيْرِ الشَّيْطَانِ؟ أدْخِلُوهُمْ رِيَاضَ الْمِسْكِ. ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ: اسْمِعُوا عَبِيْدِي تَحْمِيْدِي وَثَنَائِي وَتَمْجِيْدِي، وَأعْلِمُوهُمْ أنْ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي إذا مَرُّوا بالقولِ والفعلِ الذي لا فائدةَ منه مرُّوا مُكرِمين صَائنِين أنفسَهم عن الخوضِ في ذلك، آمِرين بالمعروفِ ناهين عن المنكرِ بما قَدِرُوا عليه من قولٍ إذا عَجِزُوا عن الفعلِ، ومِن إظهارِ كرامةٍ وتَعْبيْسِ وجهٍ إذا عَجِزُوا عن القولِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: والذين إذا وُعِظُوا بآياتِ ربهم؛ أي بالقُرآن؛ لَم يعامِلُوا فيها معاملةَ الأصَمِّ الذي لا يسمعُ، والأعمَى الذي لا يُبْصِرُ، ولكنَّهم سَمعوا وبَصروا وانتفعوا بها وخَرُّوا ساجدينَ سامعين باكينَ مبصرين فيما أُمِرُوا به ونُهُوا عنهُ. والْخَرُّ هو السُّقوطُ.

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٤٤٩).
(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٣٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٨٠.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ ؛ الذُّرِّيَّةُ تكونُ واحداً وجَمعاً، فكونُها الواحد: قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿رَب هَـبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[1]، وكونُها للجمعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾[2]. وقولـه تعالى (قُرَّةَ أعْيُنٍ): (يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَـا مِـنْ أزْوَاجِنَـا وَذُرِّيَّاتِنَـا) أرادَ أتقيـاءَ. وقـال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: اجْعَلْهُمْ صَالِحِيْنَ فَنَقَرُّ أعْيُناً بذلِكَ)[3]. وقال الحسنُ: (مَا مِنْ شَيْءٍ أقَرَّ لِعَيْنِ الْمُسْلِمِ مِنْ أنْ يَرَى وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ مُطِيْعِيْنَ للهِ)[4].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي يُقتـدَى بنـا في الخيرِ، والمعنى: اجعلنَا صالِحين نأتَمُّ بمن قَبْلَنَا من المسلمين حتى يأتَمَّ بنـا مَـن بعدَنـا. قال الفرَّاءُ: (إنَّمَا قَالَ (إمَاماً) وَلَمْ يَقُلْ: أئِمَّةً كَمَـا قَـالَ: (إنَّـا رَسُـولُ رَب الْعَـالَمِيْنَ) لِلاثْنَيْن، يَعْنِي: إنَّهُ مِنَ الْوَاحِدِ الَّذِي يُرِيْدُ بِـهِ الْجَمِيْـعَ)[5]. وفي الحديـثِ: [مَـنْ رُزِقَ إيْمَاناً وَحُسْنَ خُلُقٍ فَذاكَ إمَامُ الْمُتَّقِيْنَ][6].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ ؛ أي أهـلُ هذه الخِصَالِ همُ الذين يُجزَوْنَ الْغُرْفَةَ في الجنَّة بصَبْرِهم علـى الطاعـةِ وعـن المعصيـةِ وعلى مَكَارِهِ الزَّمان ومِحَنِ الدُّنيا. والغُرْفَةُ هـي البنـاءُ العـالِي المرتفـعُ، قـال مقـاتلُ: (يَعْنِي غُرَفَ الْجَنَّةِ). وقال مقاتلُ: (هِيَ غُرْفَةٌ مِنَ الزُّبُرْجَدِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي وتتلقَّاهمُ الملائكة في تلك الغُرَفِ بالتحيَّة والسَّلام مِن اللهِ تعالى. قرأ أهلُ الكوفة (يَلْقَوْنَ) بفتـحِ الياءِ والتخفيف. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ أي حَسُنَتْ تلك الغُرَفُ في المستقرِّ والْمُقَامِ.

---

(١) آل عمران / ٣٨ .

(٢) النساء / ٩ .

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٤٣.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠١٦٢). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٤٨٥).

(٥) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٢٧٤.

(٦) لم أقف عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم: ما يصنعُ بكُمْ ربي وهو لا يحتاجُ إليكم لولا دعاؤهُ إيَّاكم إلى الإسلامِ وإلى الطاعةِ لتنتَفِعُوا أنتم بذلكَ. وَقِيْلَ: معناهُ: أيُّ وَزْنٍ وقَدْرٍ لكم عند ربي لولا دعاؤُكم وعبادتُكم إياه. وَقِيْلَ: معناهُ: ما يفعلُ بكم يا أهلَ مكَّة لولا عبادتُكم غيرَ اللهِ، ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ ؛ يا أهلَ مكة، ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ ﴾ ؛ جزاءُ تكذيبهم، ﴿ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي أسِروا وأخِذُوا بالأيدِي. وَقِيْلَ: أراد به يومَ بدر.

واللِّزَامُ بنصب اللام مصدراً أيضاً. والخطابُ بقوله (فَقَدْ كَذبْتُمْ) يا أهلَ مكَّة؛ أي إنَّ الله دعَاكم بالرَّسُول إلى توحيده وعبادتهِ، فقد كَذبْتُمُ الرسولَ، ولَم تُجيبوا دعوتَهُ، فسوفَ يكون تكذيبُكم لِزَاماً يلزمكم فلا تعطونَ التَّوبةَ، فقُتِلُوا يومَ بدر واتَّصَلَ بهم عذابُ الآخرةِ.

آخر تفسير سورة (**الفرقان**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ مَكِّيَّةٌ إلَى قَوْلِهِ ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ﴾ إلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَإِنَّهَا مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسَةُ آلاَفٍ وَخَمْسُمِائَةٍ وَاثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ حَرْفاً، وَأَلْفٌ وَمِائَتَانِ وَسَبْعٌ وَتِسْعُونَ كَلِمَةً، وَمِائَتَانِ وَسَبْعٌ وَعُشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أولُ السورة قَسَمٌ؛ وهو من أسماءِ الله تعالى. قال الْقَرَظِيُّ: (أقْسَمَ اللهُ بطَوْلِهِ وَسَنَائِهِ وَمُلْكِهِ)(1)، قَوْلُهُ تَعَالَى: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبينِ) أي هذه آياتُ الكتابِ المبينِ أنزلَها على رسولِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي لعلَّكَ مُهْلِكٌ نفسَكَ؛ أي قاتلٌ بأنْ لا يكونُوا مؤمنينَ، وكان ﷺ حَريصاً على إيْمانِهم ونَجاتِهم من عذاب الله، وذلكَ أنهُ لَمَّا كذبت قريشٌ النبيَّ ﷺ شُقَّ عليهِ ذلك، وكان يحرصُ على إيْمانِهم، فأنزلَ اللهُ هذه الآيَةَ: لعلَّكَ قاتلٌ نفسَكَ لترْكِهم الإيْمانَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ إعلامٌ مِن الله تعالى أنهُ لو أرادَ أنْ يُنَزِّلَ آيةً تضطَرُّهم إلى الطاعةِ لقَدِرَ على ذلكَ، ولكنهُ لَم يفعلْ؛ لأنه أرادَ منهم إيْمَاناً فيستحقُّون عليه المدحَ والثوابَ، فإذا جاءَ الإلْجَاءُ ذهَبَ الْمَدْحُ وَالثَّوَابُ.

---

(1) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص935. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج 13 ص89. وفي الدر المنثور: ج 6 ص288؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي حاتم عن محمَّد بن كعب قال: الطاء من ذي الطَّول، والسين من القدُّوس، والميم من الرَّحمن).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) أي أذِلاَّءَ مُنقادِين لا يَلْوُونَ أعناقَهم إلى معصيةٍ. قال قتادةُ: (الْمَعْنَى: لَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ آيَةً يُذلُّونَ بِهَا، فَظَلَّتْ جَمَاعَتُهُمْ لَهَا خَاضِعِيْنَ)[(١)]. وَالأَعْنَاقُ: الْجَمَاعَاتُ، يقالُ: جاءَنِي عُنُقٌ من الناسِ[(٢)]؛ أي جماعةٌ، ولو كان المرادُ الأعناقُ التي هي الخارجةُ لقال: خَاضِعَاتٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي ما يأتِي جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ بشيءٍ بعدَ شيءٍ من القُرْآنِ إلاّ كانوا مُعْرِضِيْنَ عن ذلكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ ﴾ ؛ أي بالقُرْآنِ، ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي فسيأتِيهم خبرُ ذلكَ في القيامةِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ معناهُ: أولَمْ يرَ أهلُ مكَّةَ إلى الأرضِ كم أخرَجْنا فيها مِن كلِّ صِنْفٍ حَسَنٍ في الْمَنْظَرِ من النَّباتِ بعد أن كانت مَيْتَةً لا نَبَاتَ فيها. والزَّوْجُ: هو صِنْفٌ واضْرُبُ الْحُسْنِ، (والمعنَى: مِن كلِّ زَوْجٍ نافِعٍ لا يقدرُ على إنباتهِ إلاّ ربُّ العالَمين)[(٣)]، من أسْوَدٍ وأحمرٍ وأصفرٍ وأخضرٍ، وحُلْوٍ وحَامضٍ مما يأكلُ الناسُ والأنعَامُ. (والكريْمُ في اللُّغةِ: هو الْمَحْمُودُ فيما يُحْتَاجُ إلَيهِ)[(١)]، يقالُ: نخلةٌ كَرِيْمَةٌ إذا طابَ حَمْلُهَا أو كثُرَ، وناقةٌ كَرِيْمَةٌ إذا كانت غَزِيْرَةَ اللَّبَنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ ؛ إنَّ في اختلافِ ألوان النباتِ للدلالةَ على وحدانيَّةِ اللهِ وكمال قُدرته، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ في عِلْمِ اللهِ؛ أي قد سَبَقَ في عِلْمِ الله أنَّ أكثرَهم لا يُؤمنون، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي الْمُنْتَقِمُ من أعدائهِ الرَّحِيْمُ بأوليائهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠١٩١). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٥٣٤).
(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص٦٤.
(٣) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص٥٦.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي اُتْلُ على قومِكَ أو اذكُرْ لقومِكَ:(إذ نادَى ربُّكَ موسَى) حين رأى الشجرةَ والنارَ، وقال لَهُ: يا مُوسَى ائْتِ القومَ الظَّالِمين، يعنِي الذين ظَلَمُوا أنفُسَهم بالكفرِ والمعصية، وظَلَمُوا بني إسرائيلَ بأنْ سَامُوهم سوءَ العذاب، ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ .

ثُم أخبرَ عنهم فقال: ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ، عِقابي في مقامِهم على الكُفْرِ وتركِ الإيْمان. ﴿ قَالَ ﴾ مُوسَـى: ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ بالرِّسالةِ ويقولون: لَيْسَتْ مِن عند الله، ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ ؛ بتَكْذِيْبِهِمْ إيَّايَ، ﴿ وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ ؛ للعُقْدَةِ التي فيه، ﴿ فَأَرْسِلْ ﴾ جبريلَ ﴿ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ليكون مَعِي معيناً يُؤَازِرُنِي على إظهار الدَّعوةِ وتبليغ الرِّسالةِ. ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ ﴾ ؛ أي دَعْوَى ذنبٍ؛ يعني الْوَكْزَةَ التي وَكَزَهَا الْقِبْطِيَّ فماتَ منها، ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ بوِشايَتِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ ؛ أي كَلاَّ لا يقتلونكَ لأنِّي لا اُسَلِّطُهُمْ عليكَ، ﴿ فَٱذْهَبَا ﴾ ؛ أنتَ وأخوكَ، ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ ؛ يعني بما أعطاهُما من المعجزةِ، ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ وإنَّما قالَ (مَعَكُمْ) لأنه أجْرَاها مجرَى الجماعةِ، والمعنى: أسْمَعُ ما يقولونَهُ وما يُجِيبُونَكَ به.

وَقِيْلَ: إنَّ معنى قولهِ (كَلاَّ) أي قالَ اللهُ لِمُوسَى: إرْتَدِعْ(١) عَنْ هذا الظَّنِّ وهذا الخوفِ، (فَاذْهَبَا بآيَاتِنَا) أي بدلاَئِلنا (إنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ) أي شَاهِدُونَ بحفْظِكُم ونَصْرِكُمْ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي (رَسُولُ رَب الْعَالَمِيْنَ) إليكَ لَتُؤْمِنَنَّ باللهِ وَتُطْلِقَ بَنِي إسْرَائِيْلَ عن الاستعبادِ، وتُرْسِلَهم معنَا إلى الأرضِ المقدَّسةِ، والرَّسُولُ يُذْكَرُ ويرادُ به الجمعُ، كما تقولُ العرب:

---

(١) في المخطوط: (أنْ تدع) وهو تحريف. وضبط النص كما في معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٦٦.

ضَيْفٌ(١) وَعَدُوٌّ، ومنهُ قولهُ ﴿وَهُـمْ لَكُـمْ عَـدُوٌّ﴾(٢)، وَقِيْـلَ: إنَّمـا قـالَ (رَسُـولُ رَب الْعَالَمِيْنَ) ولَم يقُلْ رَسُولاَ؛ لأنَّهُ أرادَ المصـدرَ؛ أي رسَـالَةَ، وتقديـرهُ: ذوُو رسـالةِ(٣) رَبِّ العالمينَ، كقولِ الشَّاعرِ:

لَقَـدْ كَـذبَ الْوَاشُـونَ مَـا بُحْـتُ عِنْدَهُـمْ بسِـرٍّ وَلاَ أرْسَـلْتُهُمْ برَسُـول(٤)

أي برسالةٍ، وَقِيْلَ: معناهُ: وكلٌّ واحد مِنَّا رسولُ رب العالَمين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي بأنْ أرْسِلْ معنا بَني إسرائيلَ إلى فِلَسْطِيْنَ ولا تَستَعْبدْهُمْ. وكان فرعونُ استعبَدَهم أربعمائة سَنة، وكانُوا في ذلك الوقتِ ستُّمائة ألفٍ وثلاثين ألفاً، فانطلقَ موسَـى وهـارونُ بالرِّسـالةِ إلى مِصْـرَ، فلمَّا بلَغُوا دارَ فرعون لَم يُؤْذنْ لَهم بالدُّخول عليه إلاّ بعدَ مدَّةٍ، فدخلَ البوَّابُ؛ وقـالَ لفرعونَ: هذا إنسانٌ يدَّعِي أنه رسولُ رب العـالَمين، فقـالَ فرعَـونُ: إئْـذنْ لَـهُ لعلَّنـا نضحَكُ منه. فدخَلاَ عليه وأدَّيَا رسالةَ اللهِ تعالى.

فعرَفَ موسى؛ لأنهُ نشأ في بيته، فـ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾؛ أي صبيّـاً صغيراً، ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ وهي ثلاثونَ سَـنة، ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ ﴾؛ يعـني قَتْـلَ قِبْطِـيٍّ، ﴿ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي مِن الْجَاحِدِيْنَ لِنعمَتِي، وحقَّ تربيَتِي، فربَّيناكَ فِينَا ولِيداً، فهذا الـذي كافأتَنـا بـه أن قَتَلْتَ منَّا نَفْساً، وكفرْتَ بنعمَتِنا.

ويروَى أنَّ موسَى لَمَّا انطلقَ إلى مصـر لتبليـغِ الرِّسـالةِ، وكـان هـارونُ يومئـذٍ بمِصْرَ، التقَى كلٌّ واحدٍ منهُما بصاحبهِ، فانطلَقَا كلاهُما إلى فرعونَ، أدَّيَا جميعاً الرسالةَ، وعَرَفَ فرعونُ موسَى، قال لهُ فرعونُ: (أَلَمْ نُربكَ فينـا وَلِيـداً) أي صَغِـيْراً، ومكثـتَ

---

(١) في المخطوط: (صيفٌ) بالمهملة، والمناسب كما أثبتناه.

(٢) الكهف / ٥٠ .

(٣) في المخطوط: (وارسـاله) ولا تـؤدي المعنـى، وضبطنـا النـص كمـا في معـاني القـرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٦٦. والجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٩٣.

(٤) ينظر: لسان العرب: مادة (رسل). والبيت لكثير.

عندنا سِنيناً من عُمُرِكَ، (وَفَعَلْتَ فِعْلَتَكَ) أي قتلتَ القبطيَّ (وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِيْنَ) أي الجاحدينَ لِنعمَتي وتربيتي.

﴿ قَالَ ﴾ موسَى: ﴿ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي فعلتُ تلك الفعلةَ وأنا من الْجَاهِلِينَ، لَم يأتِنِي من اللهِ شيءٌ، ولا يجوزُ أن يكون المرادُ بهذا الإضلال عنِ الْهُدَى؛ لأن ذلك لا يجوزُ أن يكون على الأنبياءِ. وَقِيْلَ: معناهُ: وأنا من الْمُخْطِئِيْنَ، نظيرهُ ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾[1]. وَقِيْلَ: مِن النَّاسِينَ، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ ؛ أي هَرَباً منكم إلى مِدْيَنَ لَمَّا خِفْتُكُمْ على نفسِي أن تقتلُونِي بالذي قتلتهُ، ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ ؛ أي نُبُوَّةً، وَقِيْلَ: فَهْماً وعِلْماً، ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ وإنِّي لأُبَلِّغُكم التوحيدَ والشَّرائعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: هذا إنكارٌ مِن موسى أن يكونَ ما ذكَرَ فرعونُ نعمةً على موسَى، واللفظُ لفظ خبَرٍ[3] وفيه تبكيتٌ للمخاطَب على معنى: إنَّكَ لو كنتَ لَمْ تقتُلْ بنِي إسرائيل كانت أُمِّي مُستَغنِيةً عن قذفِي في اليَمِّ، فكأنَّكَ تَمُنُّ عليَّ بما كان بلاؤُكَ سبباً لهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ فرعونَ لَمَّا قالَ لِمُوسَى: أَلَمْ نُربكَ فِيْنَا وَلِيْداً ؟ قالَ لهُ موسَى: تلكَ نِعْمَةٌ تعدُّها عليَّ لأنَّكَ عَبَّدْتَ بَنِي إسرائيلَ؛ أي استعبَدْتَهم، ولو لَم تعبدْهم لكفَلَنِي أهلِي فلم يُلْقُونِي في اليَمِّ. يقالُ: استعبدتُ فلاناً وأعْبَدْتُهُ وَتَعَبَّدْتُهُ وَعَبَّدْتُهُ؛ أي اتَّخَذْتُهُ عَبداً.

وَقِيْلَ: معنَى الآيةِ: أتَمُنُّ عليَّ بذلكَ وأنتَ استعبدتَ بني إسرائيلَ، فأبطلْتَ نعمتَكَ عليَّ بإسَاءتِكَ إليهم باستعبادِكَ إيَّاهم؟ وبأنْ أخَذْتَ أموالَهم وأنفقتَ على موسى منها؟ وكانت أمِّي هي التي ترَبيني ، فأيُّ نعمةٍ لكَ علَيَّ.

---

(١) يوسف / ٩٥ . (٢) البقرة / ٢٨٢ .

(٣) في المخطوط: (تخيير) وهو غير مناسب، وضبط كما في معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٦٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَنْ عَبَّدْتَ) في موضِعها وجهان؛ أحدُهما: النصبُ بنَزعِ الخافضِ، والثانِي: الرفعُ على البدلِ مِن (نِعْمَتِي)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي قالَ له فرعونُ: وَمَا رَبُّ الْعَالَمِيْنَ ؟ أي قالَ له فرعونُ: أيُّ شَيْءٍ رَبُّ العالَمين الذي تدعُونِي إليهِ، ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ بأنَّ المستحقَّ للربوبيَّةِ مَن يكون هذه صفتهُ، وأنَّ هذه الأشياءَ التي ذكرتُ ليست مِن فِعْلِكم.

فلما قالَ موسى ذلك تَحَيَّرَ فرعونُ ولَم يَرُدَّ جَواباً ينقضُ به هذا القولَ. ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ مقالةَ موسَى؟! وَ﴿ قَالَ ﴾ موسَى: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ بَيَّنَ أنَّ المستحقَّ للربوبيةِ مَن هو ربُّ أهلِ كلِّ عصرٍ وزمان؛ أي الذي خَلَقَ آباءَكم الأوَّلين، وخلَقَكم من آبائِكم.

فلم يَقْدِرْ فرعونُ على جوابهِ، فـ﴿ قَالَ ﴾ فرعونُ لجلسائهِ: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي ما هذا بكلامٍ صحيح إذ يزعمُ أن لَهُ إلَهاً غَيْري.

فلم يَشْتَغِلْ موسَى بالجواب عن ما نَسَبَهُ إليه من الجنون، ولكن اشتغلَ بتأكيدِ الْحُجَّةِ والزِّيادةِ، ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ توحيدَ اللهِ، فإن كنتم ذوي عقولٍ لَمْ يَخْفَ عليكم ما أقولُ.

فلم يُجِبْهُ فرعونُ بشيء ينقضُ حجَّتَه، بل هدَّدَهُ و﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي لأَحْبسَنَّكَ مع مَن حبستهُ في السِّجنِ. ظَنَّ بجهلهِ أن يخافَهُ ويتركَ عبادةَ الله ويتخِذ فرعونَ إلَهاً. وكان سجنُ فرعونَ أشدُّ من القتلِ؛ لأنه كان إذا حَبَسَ الرجلَ طَرَحَهُ في مكان وحدَهُ لا يسمعُ فيه شيئاً، ولا يُبْصِرُ فيه شيئاً، وكان يُهْوَي به في الأرض. و﴿ قَالَ ﴾ موسَى لفرعونَ حين توعَّدَهُ بالسِّجن: ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ يعني لو جِئْتُكَ بأمرٍ ظاهر تعرفُ فيه صِدْقِي وكَذِبَكَ. و﴿ قَالَ ﴾ ؛ فرعونُ على وجهِ التهزئةِ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج٢ ص٢٧٩. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١٢١.

﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾. ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾
أي حَيَّةٌ صفراءُ، ذكَرٌ عظيمٌ أعظمُ ما يكون من الحيَّاتِ، قال فرعونُ: فَهَلْ غَيْرُ هَذِهِ؟!
﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ ﴾ ؛ مِن جيبِهِ، ﴿ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ ﴾ ؛ بياضاً نُورِيّاً لَها شعاعُ الشَّمسِ،
﴿ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

فإنْ قِيلَ: كيف سَمَّى العصا ثُعباناً في هذه الآيةِ، وسَماها جَاناً في آيةٍ أخرَى حيثُ قال ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾(١) والجانُّ الخفيفةُ؟ قُلْنَا: إنَّما سَمَّاها ثُعباناً لعِظَمِ حسِّها، وسَمَّاها جَانّاً لسُرعَةِ مِشْيَتِهِ وحركتِهِ، وفي ذلك ما يدلُّ على عِظَمِ الآيةِ.

فلم يكن لفرعونَ دفعٌ لِمَا شاهدَ إلاَّ أنْ(٢) قَالَ: هَذا ((سِحْرٌ)) سَحَرْتُمُوهُ، فأوهَمَ أصحابَهُ أنه لا صِحَّةَ لهُ، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَكَانَ الْمَلأُ حَوْلَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنْ أشْرَافِ قَوْمِهِ، عَلَيْهِمُ الأَسْوِرَةُ) فَقَالَ لَهُمْ: إنَّ هَذا لَسَاحِرٌ حَاذِقٌ بالسِّحْرِ، ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم ﴾ ؛ يُلقِي الفرقةَ والعداوةَ بينَكم فيُخرِجَكم من بلادكم، ﴿ بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي ماذا تُشِيرُونَ عَلَيَّ في أمرِهِ، ولو تَفكَّرَ هؤلاء الْجُهَّالُ في قولِهِ ذلكَ لعَلِمُوا أنه ليس بإلهٍ لافتقارِهِ إلى رأيِهم، ولكنَّهم لفَرْطِ جهلِهم مَوَّهَ عَلَيْهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي قال له الملأُ: أخِّرْ أمرَهُ وأمرَ أخيهِ لا يُناظِرْهما إلى أن يبعثَ إلى المدائنِ الشُّرَطَ يحشرونَ السَّحرةَ، ليصنعَ السَّحرةُ مثلَ ما صنعَ موسى، ولا يثبتُ له عليكَ حجَّةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي لِميعاد يومِ زِينَتِهِمْ وهو يومُ عيدِهِم، ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ اجتَمِعُوا لتَنْظُرُوا إلى السَّحرةِ، ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ ﴾ ؛ أي نتَّبعُ دِينَهم، ﴿ إِن كَانُواْ هُمُ

(١) القصص / ٣١ .
(٢) في المخطوط: (الآن).

ﭐلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾؛ لِمُوسَى، ويقالُ: أرادُوا بالسَّحرةِ موسى وهارون (إنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِيْنَ) على سِحْرِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا ﴾؛ أي جُعْلاً، ﴿ إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾؛ لِمُوسَى. ﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ ﴾؛ مع ما أعطَيتُكم من الأموالِ، ﴿ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ في المرتبةِ والمنْزلة وللدخولِ عَلَيَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي اطْرَحُوا من أيديكم ما تريدونَ طَرْحَهُ من الحبال والعصيِّ، وهذا أمرُ تهديدٍ لا أمرُ تحقيق، ﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ ﴾؛ أي بِمَنَعَتِهِ، ﴿ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ لِمُوسَى، فامتلأ الوادِي حيَّاتٍ، فهابَهُ ذلكَ، فقيلَ لِمُوسَى: ألقِ عصاكَ، ﴿ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ فألقَاها فصارَتْ حيَّةً عظيمةً تَلْقَفُ ما صَنَعُوا من السِّحرِ، ثُم أخذها موسى فعادت عَصًا كما كانت، ولو لَم يوجد لِمَا تلقفَهُ أثرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ فسجدَتِ السَّحرةُ عندَ ذلك للهِ تعالى لِمَا عَلِمُوا أن ذلك ليس بسِحْرٍ، وإنَّما هو من عندِ الله، و﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ قال لَهم فرعونُ: إيَّايَ تَعْنُونَ؟ قالُوا: ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ ﴾؛ أي صدَّقتُم به قَبْلَ أنْ آمُرَكم بذلك، ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾، وكان فرعونُ أوَّلَ من قطَعَ وصَلَبَ. قال ابنُ عبَّاس: (إنَّهُمْ مِنْ سُرْعَةِ سُجُودِهِمْ للهِ كَأَنَّهُمْ أُلْقُوا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ أي قالَتِ السَّحرةُ: لا يضُرُّنا ما تصنعُ بنا في الدُّنيا في جَنْب ثواب الله في الآخرةِ، إنَّا إذا رجَعْنا إلى ربنا مؤمنينَ لنأخذ حقَّنا من الظالِم، ﴿ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾؛ شِرْكَنا أي يتجاوزُ تأخُّرَنا، ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾؛ أي بأن كُنَّا أوَّلَ المؤمنينَ لِمُوسَى مِن أهلِ الجمع اليومَ، فكانوا سحرةً في أوَّل النهار شُهَدَاءَ في آخرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ ﴾ ؛ أي بِبَنِي إسرائيلَ لَيلاً، ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ، وأخبرْهم أنَّ فرعونَ وقومه يتَّبعونَهم ويُنجِيهم اللهُ من ضرَرِهم، فأسْرَى بهم مُوسى ليلاً إلى البحرِ، ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ يحشرونَ النَّاسَ ويجمعون لَهُ الناس الجيشَ، ثُم قال فرعونُ لقومِهِ: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ يعني مُوسَى وأصحابه، والشِّرْذِمَةُ: الْفِئَةُ الْقَلِيْلَةُ، والشِّرْذِمَةُ في كلام العرب: القليلُ مِن كلِّ شيءٍ من الناسِ والأموالِ.

رُوي أنَّ هؤلاء الذين اشغَلَهم فرعونُ يومئذٍ ستُّمائةِ ألفٍ وسبعون ألفاً، وكان هَامَانُ على مقدِّمةِ فرعونَ ومعه ألْفَا ألفٍ، وفرعونُ في أكثرِ من خَمسة عشرَ ألفِ ألفٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي لفَاعِلُونَ ما يُغِيْظُنَا لإظهارهم خلافَ دِيننا، وأخْذِهم حُبَلَنا وقَتْلِهم أبكارَنا. وذلك أنَّ اللهَ تعالى أوحَى إلى موسى أنِ اجْمَعْ أولادَ بنِي إسرائيلَ كلُّ أهلِ أربعةِ أبياتٍ في بيت، ثُم اذْبَحُوا الأولادَ واضْربُوا بدمائِها على أبوابكم، فإنِّي سَآمُرُ الملائكةَ لا يدخلون بَيتاً على بابهِ دَمٌ، وسَآمُرُهم بقتلِ أبكار آل فرعونَ، ثُم أسْرِ بعِبَادِي، ففعلَ ذلك، فلمَّا أصبَحُوا، قال فرعونُ: هذا عملُ موسَى وقومِهِ، قَتَلُوا أبكارَنا وأخذُوا أموالَنا، فأخذ في طلبهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ قرأ الكوفيُّون وابنُ عامر (حَاذِرُونَ) بالألفِ؛ أي شَاكُونَ في السِّلاحِ، ذوُو أداةٍ وقوَّةٍ وكِرَاعٍ، وبَنُوا اسرائيلَ لا سلاحَ لَهم. وقرأ الباقون (حَذِرُونَ) أي مُسْتَطُونَ خائفونَ شرَّهُم[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ يعني فرعونَ وقومَهُ مِن بساتينَ وعُيونٍ جارية، ﴿ وَكُنُوزٍ ﴾ ؛ أي وخزائنَ مدَّخَرة من الذهب والفضَّةِ، ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي مجالسَ رفيعةٍ من مجالسِ الملوك والرؤساء،

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧١؛ قال الزجاج: (وجاء في التفسير أن معنى ﴿حَاذِرُونَ﴾: مُؤْدُونَ، أي ذَوُو أدَاةٍ، أيْ ذوُو سِلاَحٍ، والسلاحُ أداةُ الحربِ، فالحَاذِرُ المستعِدُّ. والحَذِرُ المتيَقِّظُ). وينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٢١.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ ؛ فعلنا بهم، ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا ﴾ ؛ وأورثنا أرضَهم وديارَهم وأموالهم، ﴿ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الله ردَّ بني إسرائيلَ إلى مِصْرَ بعدما أغرقَ فرعونُ وقومه، وأعطاهم جميعَ ما كان لفرعونَ من الأموالِ والعَقَارِ والمساكنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ يعني قومَ فرعون أدركوا موسى وقومه حينَ أشْرَقَتِ الشمسُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي فلَمَّا توافى الفريقان، وتقابَلا بحيثُ يرى كلُّ فريقٍ صاحبه، وعايَنَ بعضُهم بعضاً، قال أصحابُ موسَى: سَيُدْرِكُنَا قومُ فرعونَ، ولا طاقةَ لنا بهم! ﴿ قَالَ ﴾ لَهم موسى: ﴿ كَلَّآ ﴾ ؛ أي لن يُدْرِكُنَا، ارتَدِعُوا وانزَجِرُوا عن هذه المقالةِ، ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى ﴾ ؛ ناصِري وحَافِظِي، ﴿ سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ إلى طريقِ النَّجاةِ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ ﴾ ؛ فصارَ اثنا عَشَرَ طريقاً، لكلِّ سِبْطٍ طريقٌ، ووقفَ الماءُ لا يجري، وكان بين كلِّ طريقين قطعةٌ من الماءِ، ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ كالجبلِ العظيم، وهذا البحرُ بحرُ القَلْزَمِ، تسلكُ الناسُ فيه من اليمنِ ومكَّة إلى مصرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ يعني قومَ فرعون؛ أي قرَّبناهم إلى الهلاكِ، وقذفْنَاهم في البحرِ، وأدْنَيْنَا بعضَهم من بعضٍ، وجمعنَاهُم فيه بما يسرُّنا لبني إسرائيل من سُلوكِ البحرِ، فكان ذلك سببُ قُرْبهِمْ من البحرِ حين اقتحموهُ. وسُمِّي (الْمُزْدَلِفَةُ) مزدلفةً لاجتماعِ الناس فيها[1]، فلمَّا تكاملَ جنودُ فرعونَ في البحرِ انطبقَ عليهم فغرقُوا جميعاً، ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ مِنَ الغرقِ، ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي فرعونَ وقومه.

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧٢؛ قال الزجَّاجُ: (وقال أبو عبيدة: ﴿أزْلَفْنَا﴾: جَمَعْنَا ﴿ثَمَّ الآخَرِينَ﴾، قال: ومن ذلك سُمِّيت مزدلفةُ جَمْعاً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ ؛ أي إنَّ في ذلك الانفِلاَق الذي صارَ نجاةَ بني اسرائيل، وفي الانطباق الذي كان سببَ غَرَقِ آل فرعونَ لآيةً على توحيدِ اللهِ وصدق نبوَّة موسى، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي لَم يكن قومُ فرعونَ مع وُضُوحِ الأدلةِ علىوحدانيَّة اللهِ مصدقين، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ ؛ أي القاهرُ المنتقم من الكفَّار، ﴿ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ ، بعبادهِ، ولَم يكن آمَنَ مِن أهلِ مصر غيرُ آسْيَةَ بنت مُزاحم، وحِزقيل الْمُؤمِنُ، ومريَمُ بنتُ ناموثيةَ التي دَلَّتْ على عظامِ يُوسُفَ[1]، فلذلكَ قال (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ). وَقِيْلَ: معنى قوله (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) أي العزيزُ في انتقامهِ من أعدائه حين أغرَقَهم، الرَّحِيْمُ بالمؤمنينَ حين أنْجَاهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي إقرَأ يا مُحَمَّدُ على قومِك، ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي فنُقِيمُ عليها عابدينَ، مُقيمين على عبادتِها، قال بعضُ العلماءِ: إنَّمَا (فَنَظَلُّ لَهَا) لأنَّهم كانوا يعبدونَها بالنَّهار دون الليلِ، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي هَلْ يسمعون دُعاءَكم إن دعَوتُموهم أو ينفعُونكم إن دعَوتُموهم، أو يضرُّونكم إن لَم تدعوهم. وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أوْ يَرْزُقُونَكُمْ أوْ يَكْشِفُونَ عَنْكُمُ الضُّرَّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ فنحنُ نَقْتَدِي بهم، ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي قال لَهم إبراهيمُ: أفَرَأيْتُمْ هذا الذي تعبدونَهُ أنتم وآباؤُكم الْمُتَقَدِّمُونَ، ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي فإنَّني أعادِيهم، أتبرَّأ منهم. وقولُهُ تعالى: (إلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ). رُوي أنَّهم كانوا يعبدونَ اللهَ مع الأصنامِ، فتبَرَّأ إبراهيمُ مِن جميعِ ما يعبدونَهُ إلاّ من عبادةِ الله. وإنَّما قال (عَدُوٌّ لِي) على التوحيدِ في موضعِ الجمعِ على معنى: أنَّ كلَّ واحدٍ منهم عَدُوٌّ لِي.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٥٣.

ويقالُ: إنَّ قولَهُ تعالى (عَدُوٌّ) في موضعِ المصدر، كأنَّهُ قالَ ذوُو عداوةٍ، فوقعت الصفةُ موقعَ المصدر، كما يقعُ المصدرُ موقعَ الصفةِ في رَجُلٍ عَدْلٍ، ويجوزُ أن يكونَ قَوْلُهُ تَعَالَى (إلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ) استثناءٌ منقطعٌ، معناهُ: ولَكنَّ رَبَّ العالَمين الذي خَلَقَنِي ليس بعدُوٍّ لِي هو يهدين؛ أي يُرشِدنِي إلى الحقِّ، وذلك أنَّهم كانوا يزعمُونَ أن أصنامَهم هي التي تُهديهم، فقالَ إبراهيمُ ردّاً عليهم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ ؛ إلى الدِّين والرُّشدِ لا ما تعبدون.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ ؛ أي هو رَازقِي، فمِن عنده طَعَامِي فهو الذي يُشبعني إذا جِعْتُ، ويَرْوِيني إذا عطشتُ، ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ ؛ أي يُعافِيني من المرض، وذلك أنَّهم كانوا يقولونَ: المرضُ من الزَّمان، والأغذيةُ والشِّفاء من الأطبَّاءِ والأدويةِ، فأخبَرَ إبراهيمُ أنَّ الذي أمْرَضَ هو الذي يُشفِي وهو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ولَم يقُلْ إبراهيمُ فَأمْرَضْتَنِي؛ لأنه يقالُ مَرِضْتُ، وإنْ كان المرضُ بخَلْقِ الله وقضائِه، ولا يقالُ أمْرَضَنِي اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾﴾ ؛ أي هو الذي يُميتُني في الدُّنيا ثم يُحيِيْنِي في الآخرةِ للبعثِ، ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ ؛ معناهُ: والذي أعلمُ وأرْجُو أن يغفرَ لِي يومَ الحساب. وذكرَهُ بلفظِ الطَّمعِ؛ لأن ذلكَ أقربُ إلى حُسْنِ الأدب. وقال بعضُ المفسِّرين[1]: يَعْنِي الكذباتِ الثلاث، قولُهُ: إنِّي سقيمٌ، وقولُهُ: بَلْ فَعَلَهُ كبيرُهم هذا، وقولُهُ لسارةَ: هي أخْتِي. وزاد الحسنُ والكلبيُّ قولَهُ أيضاً للكواكب: هَذا رَبي.

قال الزجَّاجُ: (إنَّ الأَنْبيَاءَ بَشَرٌ[2] يَجُوزُ أنْ تَقَعَ مِنْهُمُ الْخَطِيئَةُ، إلاَّ أنَّهُمْ لاَ تَكُونُ مِنْهُمُ الْكَبِيْرَةُ؛ لأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ)[3]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ ؛ أي يومَ الجزاء والحساب.

---

(١) هو مجاهد كما في جامع البيان: الأثر (٧٠٢٥٧).

(٢) في المخطوط: إن الأنبياء ليس يجوز أن...) والصحيح كما أثبتناه، (إن الأنبياء بشر يجوز أن...)، وكما هو في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١١٢، وبه يستقيم المعنى.

(٣) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧٢-٧٣؛ قال الزجاج: (ومعنى خطيئتي: أن الأنبياء بشرٌ، وقد يجوز عليهم الخطيئة، إلا أنهم صلوات الله عليهم لا تكون منهم كبيرة؛ لأنهم معصومون).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾ ؛ يريدُ به النبوَّةَ بعد نُبوَّةٍ، وإنَّما أرادَ: زدْنِي عِلْماً إلى علمٍ وفقْهاً إلى فقهٍ، ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي بالنبيِّين مِن قَبْلِي في الدرجة والمنْزلة والثواب. والصلاحُ هو الاستقامةُ على ما أمَرَ اللهُ بهِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أرادَ به الثناءَ الحسَنَ؛ أي اجعَلْ لِي ثناءً حسناً في الدِّين يكونُ بعدي إلى يومِ القيامة. وقد استجابَ اللهُ دعاءَهُ حين أحبَّهُ أهلُ الأديان كلُّهم. وَقِيْلَ: واجعَلْ لِي في ذرِّيتي مَن يقومُ بالحقِّ ويدعو إليه، وهو مُحَمَّدٌ ﷺ ومَنِ اتَّبَعَهُ، فإنَّهم هم الذين أظْهَرُوا شرائعه وفضائلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي أدخِلْنِي الجنَّةَ واجعلني مِن الذين يَرِثُونَ الفردوسَ، ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي مِن المشركين، وإنَّما دَعَا إبراهيمُ لأبيه لِمَوْعِدَةٍ وعَدَها إياهُ، فلما تَبَيَّنَ له أنه عدوٌّ لله تَبرَّأ منهُ، وكان هذا الدعاءُ قَبْلَ أن يَتَبَرَّأَ منهُ. والضَّالُّ هو الذاهبُ عن طريقِ الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي لا تَفْضَحْنِي ولا تُهْتِكْ سَتْرِي يومَ القيامةِ، يوم تبعثُ الخلقَ. وَقِيْلَ: معناهُ: ولا تعذِّبْنِي يومَ تبعثُ الخلائقَ، وإنَّما قال ذلكَ مع علمهِ أنه لا يخزيهِ، إمَّا على طريق التَّعَبُّدِ وإما حَثّاً لغيرهِ على أن يقتدي بهِ في مِثْلِ هذا الدُّعاء.

ثُم فَسَّرَ ذلكَ اليوم؛ فقال: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي لا ينفعُ ذا المالِ مالهُ الذي كان في الدُّنيا، ولا ينفعهُ بَنُوهُ ولا يواسُونَهُ بشيءٍ مِن طاعتِهم، ولا يحملونَ شيئاً من معاصيهِ، وقولهُ تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ يعني من الشِّرْكِ والنفاق، فإنه ينفعهُ سلامةُ قلبهِ. وَقِيْلَ: القلبُ السَّليمُ هو الصحيحُ وهو قلبُ المؤمنِ، وقلبُ الكافرِ المنافقِ مريضٌ.

وقال أهلُ الْمَعَانِي في تفسيرِ هذه الآياتِ أقوالاً غيرُ هذه، فقال بعضُهم: معنى (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِيْنِ) أي الذي خلَقَني في الدُّنيا على فطرتهِ فهو يهدينِ في الآخرة إلى جنَّتِهِ، وقولهُ تعالى (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ) أي يُطعِمُني أيَّ طعامٍ شاءَ، ويسقيني أيَّ شرابٍ شاءَ.

قال مُحمَّدُ بن كثير: (صَحِبْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ بِمَكَّةَ، فَكَانَ يَأْكُلُ مِنَ السَّبْتِ إلَى السَّبْتِ كَفّاً مِنَ الرَّمْلِ)[(١)]. وعن الحجَّاج بن عبدالكريم قالَ:(خَرَجْتُ مِنْ بَلَخَ فِي طَلَبِ إبْرَاهِيمَ بْنَ أدْهَم فَوَجَدْتُهُ بِحِمْصَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَلَبِثْتُ مَعَهُ يَوْمِي ذلِكَ، فَقَالَ: لَعَلَّ نَفْسَكَ تُنَازِعُكَ إلَى شَيْءٍ مِنَ الطَّعَامِ ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَأَخَذ رَمَاداً وتُرَاباً وَخَلَطَهُمَا وَأعْطَانِيهِ فَأكَلْتُهُ، ثُمَّ أقْبَلَ عَلَيَّ وَأنْشَأ يَقُولُ:

اخْلِطِ التُّرَابَ بالرَّمَادِ وَكُلْهُ وَازْجُرِ النَّفْسَ عَنْ مَقَامِ السُّؤَالِ

وقال أبو بكرٍ الورَّاقُ: (مَعْنَى يُطْعِمُنِي بلاَ طَعَامٍ، وَيَسْقِيْنِي بلاَ شَرَابٍ) يُشْبِعُنِي رَبِي وَيَرْوِيْنِي مِنْ غَيْرِ علاقة، كَمَا قَالَ ﷺ: [إنِّي أبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِي وَيَسْقِيْنِي][(٢)]. وقال عليٌّ بن قادم: (كَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبي نُعَيْم لاَ يَأْكُلُ فِي شَهْرٍ إلاَّ مَرَّةً! فَبَلَغَ ذلِكَ الْحَجَّاجَ، فَدَعَاهُ فَأدْخَلَهُ بَيْتاً وَأغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً، ثُمَّ فَتَحَهُ، وَلَمْ يَشُكَّ أنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَوَجَدَهُ قَائِماً يُصَلِّي، فَقَالَ: يَا فَاسِقُ أتُصَلِّي بغَيْرِ وُضُوءٍ؟! فَقَالَ: يَا حَجَّاجُ؛ إنَّمَا يَأْكُلُ الطَّعَامَ مَنْ يُخرِجُ[(٣)] وَيَشْرَبُ، فَأنَا عَلَى الطَّهَارَةِ الَّتِي أدْخَلْتَنِي عَلَيْهَا هَذا الْبَيْتَ)، وقال ذُو النُّونُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (يُطْعِمُنِي وَيَسْقِيْنِ) أيْ يُطْعِمُنِي طَعَامَ الْمَعْرِفَةِ، وَيَسْقِيْنِي شَرَابَ الْمَحَبَّةِ. ثُمَّ أنْشَأ يَقُولُ:

شَرَابُ الْمَحَبَّةِ خَيْرُ شَرَاب وَكُلُّ شَرَابٍ سِوَاهُ سَرَابُ

وقال أبو يزيدِ البُسطَامِيُّ: (إنَّ للهِ شَرَاباً يُقَالُ لَهُ شَرَابَ الْمَحَبَّةِ، إدَّخَرَهُ لأَفَاضِلِ عِبَادِهِ، فَإذا وَصَلُوا اتَّصَلُوا، فَهُمْ فِي مَقْعَدِ صِدْق عِنْدَ مَلِيْكٍ مُقْتَدِرٍ). وقال الْجُنَيْدُ: (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرَاةً إلاَّ مَنْ لَبسَ لِبَاسَ التَّقْوَى، وَجِيَاعاً إلاَّ مَنْ أكَلَ طَعَامَ الْمَعْرِفَةِ، وَعَطَاشَى إلاَّ مَنْ شَرِبَ شَرَابَ الْمَحَبَّةِ). وقولهُ تعالى (وَإذا مَرِضْتُ فَهُوَ

---

(١) ذكره الثعلبي في التفسير:ج٧ ص١٦٧، وهو محمد بن كثير العبدي. ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٦٥٠٤) مات سنة (١٢٣) وثقه البخاري وأحمد وغيره.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصوم: الحديث (١٩٦٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الصوم: الحديث (٥٨/ ١١٠٣).

(٣) في المخطوط ذكر كلمة "يأكل" والصحيح ما أثبتناه لضرورة السياق.

يَشْفِينِ) قال جعفرُ الصَّادِقُ: (إنِّي إذا مَرِضْتُ بالذُّنوب فَهُوَ يَشْفِيْنِي بالتَّوْبَةِ). وقال بسطامُ بن عبدِالله: (إذا أمْرَضَتْنِي مُقَاسَاةُ الْخَلْقِ شَفَانِي بذِكْرِهِ وَالأُنْسِ بِهِ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)، قال أهلُ المعرفةِ: يُمِيتُنِي بالعدل ويُحيِيني بالفضلِ، يُمِيتُني بالمعصيةِ ويُحيِيني بالطاعةِ، يُمِيتُني بالفراقِ ويُحيِيني بالتَّلاقِ، يُمِيتُني بالجهلِ ويُحيِيني بالعقلِ، يُمِيتُني بالخذلانِ ويُحيِيني بالتوفيقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾؛ أي قُرِّبَتْ وأدنيتُ لهم حتى نَظَرُوا إليها، ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾؛ أي أظْهِرَتْ وكُشِفَتْ للضَّالين عن الْهُدَى، ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾؛ للضَّالِّين في ذلكَ اليومِ على وجه التَّوبيخِ: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛أي أينَ آلِهتُكم التي تعبدونَها مِن دون اللهِ؟ هل يدفعونَ العذابَ عنكم، ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ ﴾؛ هل ﴿ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾؛ لأنفُسِهم؛ أي يدفعونَ عن أنفسِهم.

ثُم يُؤْمَرُ بهم فيُلْقَوْنَ في النار، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾؛ وقال الزجَّاجُ: (طُرِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)(٢)، وقال ابنُ قتيبةَ: (أُلْقُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ)، وقال مقاتلُ: (قُذِفُوا فِيْهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ)(٣)، قال السديُّ: (يَعْنِي الآلِهَةَ وَالْمُشْرِكِيْنَ)(٤)، وقال عطاءُ: (هُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَجُنُودُ إبْلِيْسَ أجْمَعُونَ، يَعْنِي ذُرِّيَّةَ إبْلِيْسَ كُلَّهُمْ).

وَقِيْلَ: معنى (كُبْكِبُوا): أجْمِعُوا وهم كُفَّارُ مكَّة، وكفارُ الجنِّ والإنسِ وآلِهتُهم وذريَّةُ إبليسَ حتى صَارُوا كُبَّةً واحدةً وطُرِحُوا في النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾؛ أي في النار مع آلِهتهم ورُؤسائِهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ ﴾؛ وقولهُ

---

(١) كل هذه الآثار عن الزهاد والصالحين نقلها أيضاً الثعلبي في التفسير:ج ٧ ص١٦٧-١٦٨.
(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧٣.
(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٥٦.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٧٤٨).

تعالى: ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ أي تاللهِ ما كُنَّا إلاّ فِي ضلالٍ مُبين حيثُ سوَّيناكُمْ بربِّ العالَمين، فأعْظَمْنَاكُمْ وعَبَدْنَاكم وعَدَلْنَاكم به، يُقِرُّونَ على أنفسِهم بالخطأ، ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ ﴾ ؛ عنِ الْهُدَى، ﴿ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ يعني الشَّياطِين. وَقِيْلَ: أضَلُّونا الذين اقْتَدَيْنَا بهم، ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ يشفعُ لنا مِن الملائكةِ والنبيِّين والمؤمنينَ حين يَشْفَعُونَ لأهلِ التوحيدِ، ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ أي ولا ذِي قرابةٍ يهمُّهُ أمرُنا. والْحَمِيْمُ: القريبُ الذي تَوَدُّهُ ويَوَدُّكَ.

قال ابنُ عبَّاس:(إنَّ الْمُؤْمِنَ يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْمُؤْمِنِ الْمُذْنِبِ وَالصَّدِيْقِ الصَّاحِبِ الَّذِي يَصْدُقُ فِي الْمَوَدَّةِ). وفي الحديثِ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: [إنَّ الرَّجُلَ يَقُولُ فِي الْجَنَّةِ: مَا فَعَلَ صَدِيْقِي فُلاَنٌ؟ وَصَدِيْقُهُ فِي النَّار، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أخْرِجُوا لَهُ صَدِيْقَهُ إلَى الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ مَنْ بَقِيَ: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِيْنَ، وَلاَ صَدِيْقٍ حَمِيْمٍ][(١)].

ثُمَّ قالوا: ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ ؛ أي رَجْعَةً إلى الدُّنيا، ﴿ فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ المصدِّقين بالتوحيدِ ليحِلَّ لنا الشفاعةَ كما حَلَّتْ لأهلِ التوحيدِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً ﴾ ؛ أي فيما أخبرَ من قصَّة إبراهيمَ واختصامِ أهل النَّار، وتَبَرُّؤُ بعضِهم من بعضٍ لَعِبْرَةٌ للعُقلاءِ مِن بعدِهم، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ أي الغالبُ على تعجيلِ الانتقامِ بالإمهالِ إلى أن يُؤمِنوا، والْمُنْعِمُ عليهم بعدَ التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ قال الزجَّاجُ: (دَخَلَتِ التَّاءُ هَا هُنَا، وَ(قَوْمُ) مُذكَّرٌ؛ لأنَّ الْمُرَادَ الْجَمَاعَةُ)[(٢)] أي كذبَتْ جماعةُ قومُ نوحٍ ومَن قبلَهُ من الرُّسلِ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ عذابَ اللهِ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل:ص٩٤٢. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١١٨، وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص١٧٢، عن جابر بن عبدالله.

(٢) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧٣؛ قال الزجاج: معناه: (دخلَت التاءُ، وقومُ نوح مذكَّرون؛ لأن المعنى كذَّبت جماعةُ قومُ نوحٍ).

بتوحيده وطاعتهِ، وكان أخوهُم من النَّسب لا من جهةِ الدِّين، ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾؛ على الرِّسالةِ فيما بَيني وبين ربكم.

وَقِيْلَ: معناهُ: كنتُ أميناً فيكم قبلَ اليوم، فكيفَ تتَّهمُوني اليومَ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾؛ فيما آمُرَكم به، ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾؛ فيما أدعُوكم إليه وأطيعوني فيما آمُركم به من الإيمان والتوحيد. ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾؛ أي على الدُّعاء إلى التَّوحيد، ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾؛ مَا، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾؛ وَقِيْلَ: ما أسألُكم على تبليغِ الوحي والرِّسالةِ مَالاً فيصدُّكم عن القَبول منِّي، وتعتقدون فِيَّ الطمعَ. وقولُهُ تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ﴾؛ أي اتَّقُوا عقابَ اللهِ، وأطِيعُوا أمْري، وتكريرُ (فَاتَّقُوا الله): لأنَّ الأول (اتَّقُوا اللهَ وَأطِيْعُون) لأنِّي رسولُ رب العالَمين أمينٌ، والثاني (اتَّقُوا اللهَ وَأطِيْعُونِ) لأنِّي مَا اسْألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ.

فـ ﴿ قَالُوا ﴾ لـه: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾؛ أي أنُقِرُّ بكَ ونصدِّقُكَ وقد اتَّبعَكَ سَفَلَتُنَا وهم الأرْذلُونَ الأقلُّون، وكان قد آمَنَ بنوحٍ ضُعفاءُ قومهِ وبنُوهُ، وكان أكثرُ مَن اتَّبعَهُ يختصُّون بصناعاتٍ خَسِيسَةٍ مثل الْحُوَكِ والأسَاكِفَةِ، فلذلك قال لهُ أشرافُ قومهِ: (وَاتَّبَعَكَ الأَرْذلُونَ)، ويقرأ: (وَأتْبَاعُكَ الأَرْذلُونَ) وهي قراءةُ يعقوبَ؛ أي أشْيَاعُكَ وأهلُ دِينِكَ[1]. قال الزجَّاج: (وَالصِّنَاعَاتُ لاَ تَضُرُّ فِي بَاب الدِّيَانَاتِ)[2]، وقال عطاءُ: (يَعْنُونَ بالأرْذلُونَ: الْمَسَاكِيْنَ الَّذِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ مَالٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾؛ أي قال نوحُ: ما أعلَمُ أعمالَهم وصنائِعَهم، ولَم أكلَّفْ ذلكَ، وإنَّما كُلِّفْتُ أن أدعُوَهم، ولا أسألُ عمَّا كانوا يعملونَ، ولا أطلبُ عِلْمَ صنائعِهم، وإنَّما العيبُ في المعاصِي لا في خساسَةِ الصِّناعة.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١٢٧.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧٤.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ أي ما حسَابُهم فيما يعملونَ (إلاَّ عَلَى رَبي لَوْ تَشْعُرُونَ) لو تعلمُون ما عاقبتموهم بصنائعِهم. وَقِيْلَ: إنَّهم نَسبُوا قومَهُ الذين آمَنُوا به إلى النِّفاق وإضمار الكُفرِ، فقالَ: (إنْ حِسَابُهُمْ إلاَّ عَلَى رَبي) أي ما جزاؤُهم إلاَّ على رَبي (لَوْ تَشْعُرُونَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ ؛ أي لا أطْرُدُهُمْ مِن عندي مع إظهارهم الإيْمان بسبب فَقْرهم، وطعنِكُم عليهم. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ أي ما أنَا إلاَّ معكم بموضعِ المخافة لتحذرُوها، فمَن قَبلَ قُرْبَتُه، ومَن رَدَّ باعدتهُ، ولَم أكلَّفْ عِلْمَ ما في الضمائرِ.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ ﴾ ؛ أي لَئِنْ لَمْ تنْتَهِ عما تقولُ، ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ الْمَقْتُولِيْنَ بالحجارةِ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ؛ أي فاقضِ بيننا قضاءً يكون بنجَاتِنا وهلاكِ عدُوِّنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾ ؛ في السَّفينةِ المملوءَةِ من النَّاسِ والبهائم والسِّباع والطيرِ، فذلك قوله تعالى: ﴿ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾ ؛ أي الذي قد مُلِئَ مما ذكرنا من جميعِ الحيوان، وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ؛ أي بعد نَجاةِ نُوحٍ ومَن معه أغْرَقْنَا الآخرينَ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ ؛ أي في إغْرَاقِ الكافرينَ ونجَاةِ المؤمنين في السَّفينة لعلامةً تدلُّ على وحدانيَّة اللهِ وكمال قُدرتهِ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم ﴾ ؛ أكثرُ قوم نُوحٍ، ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ ؛ مع قيامِ الْحُجَّةِ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ ؛ أي القادرُ على أخذِ الأعداء، الْمُنْتَقِمُ منهم، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ ، بالأولياءِ، الْمُنْعِمُ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ ؛ التأنيثُ بمعنى القبيلةِ، أُريد بعَادٍ القبيلةُ، والمعنى: كذبَتْ عَادٌ هوداً وجَماعة المرسلينَ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾ ؛ في النَّسب: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ عبادةَ غير الله، ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ أرسلَنِي اللهُ إليكم وائتَمَنَنِي على الرِّسالةِ، ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ؛ على تَبليغ الرِّسالة، ﴿ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا

عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ الرِّيْعُ: هو المكانُ المرتفعُ. قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أتَبْنُونَ بكُلِّ شَرْفٍ)، وقال مقاتلُ والكلبي والضحَّاك: (أتَبْنُونَ بكُلِّ طَرِيْقٍ آيَةً؛ أيْ بُنْيَاناً وَعَلَماً مُتَمَيِّزاً عَنْ سَائِرِ الأَبْنِيَةِ، تَعْبَثُونَ بِمَنْ يَمُرُّ فِي الطَّرِيْقِ).

والمعنى: بكلِّ طريقٍ، بالموضعِ المرتفع بُنياناً لتُشْرِفُوا على المارَّةِ فتَسْخَرُوا منهم، وتعبَثُوا بهم. وَقِيْلَ: معنى قولهِ (تَعْبَثُونَ) أي تَبْنُونَ ما تستغْنُون عنهُ ولا تسكنونَهُ عَبَثاً منكم، يسمَّى بناؤُهم عَبَثاً؛ لأنَّهم كانوا يُسْرِفُونَ في البناءِ، فيَبْنُونَ فوقَ الحاجةِ، ويقصُدون بذلك التفاخرَ والتكاثر، ومن ذلك سُمِّيَ كلُّ لَعِبٍ لا لذةَ فيه عَبَثاً، والذي يكونُ فيه لَذةٌ لَعِباً. وقال الوالبي عن ابنِ عبَّاس: (بكُلِّ رَيْعٍ؛ أيْ بكُلِّ شَرْفٍ)[1]، وقال قتادةُ والضحَّاك:(بكُلِّ طَرِيْقٍ)[2]، وعن مجاهد: (الرِّيْعُ: الثَّنْيَةُ الصَّغِيْرَةُ)[3]، وَقِيْلَ: المنظرةُ، وقال عكرمة: (بكُلِّ وَادٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (هِيَ الأَبْنِيَةُ)، وقال مجاهدُ: (الْمَصَانِعُ قُصُورٌ مُشَيَّدَةٌ)[4]، وَقِيْلَ: هي الْحُصُونُ. وقال عبدُالرزاق: (الْمَصَانِعُ عِنْدَنَا بلُغَةِ الْيَمَنِ: الْقُصُورُ؛ وَاحِدَتُهَا مَصْنَعَةٌ). وقال الكلبيُّ: (هِيَ الْقُصُورُ وَالْحُصُونُ). وَقِيْلَ: هي الْمَبَانِي التي يصنَعُها الناس من البساتينِ وغيرها. وَقِيْلَ: هي مَجَامِعُ الماءِ وهي الْحِيَاضُ، وواحدُ المصانعِ مَصْنَعَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ ؛ أي كأنَّكم تَخْلُدُونَ؛ أي سَتَبْقُونَ في بناءِ المصانع، كأنَّهم يخلُدون فيها فلا يموتُون. و(لَعَلَّ) تأتِي في الكلامِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٢٧٩). والشَّرَفُ: المكانُ الْمُشْرِفُ العالِي. ونقله البغوي في معالم التنزيل أيضاً عن الوالبي.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٢٨٤).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٢٨٢).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٢٩١).

بمعنى (كَأَنَّ) مِن قولهِ ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ أي كـأنَّكَ قاتلٌ نفسَـكَ إن لَـم يُؤْمِنُـوا. وَقِيْلَ: معناهُ: تتَّخِذُونَ ذلك رجاءَ أن تَخلُدوا وأنتم لا تَخلُدون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ ؛ أي إذا بَطَشْتُمْ بمن دُونَكم بَطَشْتُمْ متكبرين ومتجَبرين، ضَرباً بالسَّوط وبالسَّيفِ، تقتلُونَ علـى الغَضَـب. والمعنى: إذا عَاقَبْتُم قَتَلْتُمْ. والبَطْشُ: هو الأخْذُ بالشِّدَّةِ، والْجَبَّارُ: هو العَالِي بـالقُدرةِ، يقالُ: نَخْلَةٌ جَبَّارَةٌ إذا كانت مرتفعةً لا تنالُها الأيدي، وهي صِفَةُ مَدْحِ الله تعـالى؛ لأن هذا المعنَى حقيقةٌ فيهِ، وهو صِفَةُ ذمٍّ لغيرهِ لأنه كَذِبٌ فيهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾ ؛ أي اتَّقُـوا عـذابَ الله بإصرَاركم على مـا انتُـم عليـه، ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ ؛ مِـن النِّعمة والخير، ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾ ؛ فيـه بيـانُ بعضِ النِّعم، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾ ؛ أي إنِّي أعلمُ أنـه سيَنْزِلُ بكـم عـذابٌ عظيـمٌ إنْ لَـم تؤمِنُـوا، يريـدُ بـه العـذابَ الـذي أهلِكُوا بهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ ؛ أي سواءٌ علَينا أوَعَظْتَنَا أم لَم تعِظْنا فلا نتركُ هذه العبادةَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ ؛ أي ما هذا الذي تقولُ يا هودُ إلاَّ كَذِبُ الأوَّلين، وهذا قولُ ابن مسعودٍ ومجاهد(١). والْخُلُقُ والاختِلاَقُ هو الكَذِبُ. ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إفْكاً﴾(٢).

قُرئ (خُلُقُ الأوَّلِيْنَ) بضمِّ الخاء واللام؛ أي عَادَةُ الأوَّلِيْـنَ، والمعنـى: مـا هـذا الذي نَحنُ فيه إلاّ عادةُ الأوَّلين مِن قبلِنا يَعَيْشُونَ ما عاشُوا ثُـم يَموتـون ولا بَعْـثَ ولا حسابَ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ ؛ على ما نفعلُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٣٠٣).
(٢) العنكبوت / ١٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ ؛ بالعذاب في الدُّنيا، ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ ؛ بالرِّيح. وقولهُ تعالى (فَكَذبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ) أي كذبُوا هُوداً بعد وُضُوحِ الْحُجَّةِ فأهْلَكْنَاهُمْ بريْحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ ؛ أي إنَّ في إهلاكِنا إياهم مع شِدَّةِ قوَّتِـهم لآيةً بأضْعَفِ الأشياءِ وهي الريحُ للدلالةِ على وحدانيَّتنا وصدق نبـوَّةِ هُـودٍ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ ؛ باللهِ، فإنه لَم يُؤْمِـنْ منـهم إلاّ قليـلٌ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ ؛ أي قالَ لَهم صَـالِحُ: أتُتْرَكُونَ في الدُّنيا آمِنين من الموتِ والعذاب تأكلُونَ وتشربون وتَمتَّعون ولا تُكلَّفُـونَ. وقولهُ تعالى: ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾ ؛ أي أتَظُنُّونَ أنَّكم تُـترَكُونَ في بسـاتين ومياهٍ ظَاهرة، ﴿ وَزُرُوعٍ ﴾ ، وحرُوثٍ، ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ ؛ أي ثمرها نَضِيْجٌ مُدرَكٌ ناعِمٌ، والنَّضِيْجُ: هو الرَّخـوُ اللَّيِّـنُ اللطيـفُ البـالِغُ، ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ ﴾ ؛ أي تَنْقُبُـونَ في الجبـالِ ﴿ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ ؛ أي أشِـرِيْنَ بَطِرِيْنَ.

وقرأ ابنُ عامر والكوفيُّون: (فَارهِيْنَ) بالألفِ أي حَاذِقِيْنَ بنَحْتِهَا، مـأخوذٌ مِـن قولِهم: فَرِهَ الرجلُ فَرَاهَةً فهو فَارِهٌ، ويقالُ: الفرِهُ وَالْفَارهُ بمعنى واحد. وَقِيْلَ: إنَّ الهـاء من قولهِ (فَرِهِيْنَ) بدلٌ من إلْحَاق الفَرَحِ في كلام العرب: الأَشَرُ والبَطَرُ[١]، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[٢]، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٢٤. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١٢٨.
(٢) القصص / ٧٦ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ ؛ أي أمـرَ رُؤسَـائِكم وكُبَرَائِكم الذين يُفرطُونَ في الشِّرك والمعـاصِي، ﴿ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ قـال مقـاتلُ: (هُـمُ التِّسْـعَةُ الَّذِيْـنَ عَقَـرُوا النَّاقَـةَ، وَهُــمُ الَّذِيْــنَ يُفْسِـدُونَ فِـي الأَرْضِ بالْمَعَاصِي)(١) ﴿ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ ؛ أي ولا يُطيعون اللهَ فيما أمَرَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ ؛ أي قالَ له قومهُ: إنَّما أنتَ مِمَّنْ سُحِرَ مرَّةً بعد مرةٍ، فلا نؤمنُ بكَ. ويقـال: الْمُسَـحَّرُ هو الْمُعَلَّلُ بالطعامِ والشَّراب، والسَّحْرُ مَجرَى الطعامِ، يقال: انتفخَ سِحْرُهُ؛ أي رئتـهُ والمعنى: لستَ بِمَلَكٍ، إنَّما أنتَ بشرٌ مثلُنا لا تَفْضُلُنَا في شيءٍ، لستَ بِمَلَكٍ ولا رسولٍ، ﴿ فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ ؛ إنكَ رسولُ اللهِ إلينا.

قال ابنُ عبَّاس: (سَأَلُوهُ أنْ يُخْرِجَ لَهُمْ نَاقَةً حَمْرَاءَ عَشْرَاءَ مِنْ صَخْـرَةٍ مَلْسَـاءَ، فَتَضَعُ وَنَحْنُ نَنْظُرُ، وَتَرِدُ هَذا الْمَاءَ فَتَشْـرَبُ. فَخَـرَجَ بِـهِمْ إلَـى تِلْـكَ الصَّخْـرَةِ الَّتِـي ذكَرُوهَا، ثُمَّ دَعَا اللهَ تَعَالَى فَتَمَخَّضَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ كَمَا تَتَمَخَّضُ الْمَرْأةُ الْحَامِلُ عِنْدَ الْوِلاَدَةِ، فَخَرَجَتْ مِنْهَا نَاقَةٌ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي سَأَلُوهَا لاَ نَظِيْرَ لَـهَا فِـي النُّـوقِ، وَكَـانَ يَسُدُّ جَنْبَاهَا مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ مِنْ عِظَمِهَا)(٢).

فـ ﴿ قَالَ ﴾ لَـهم صـالِحُ: ﴿ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ ﴾ ؛ أي اجْعَلُـوا الشِّـرْبَ بينـها وبينَكـم مُنَاوبَـةً، لَـها نَوْبَـةٌ يـوم لا تحضُرون معها، ولكُم نوبةٌ يوم لا تحضرُ معكُم. قال قتادة:(فَكَانَ يَوْمُ شِـرْبِهَا تَشْـرَبُ مَاءَهُمْ كُلَّهُ أوَّلَ النَّهَار وَلاَ يَبْقَى لَهُمْ مِنْهُ شَـيْءٌ، وَتَسْـقِيهِمُ اللَّبَـنَ حَتَّـى تَمْـلأَ جَمِيْـعَ آنِيَتِهِمْ، فَإذا كَانَ يَوْمَ شِرْبهم كَانَ الْمَاءُ لَهُمْ وَلِمَوَاشِيهِمْ لاَ تُزَاحِمُــهُمُ النَّاقَـةُ فِيْـهِ)(٣). والشِّرْبُ في اللغة: هو النَّصِيْبُ مِن الماءِ، والشُّرْبُ بضَمِّ الشين المصدرُ، والشَّرْبُ بفتح الشينِ جماعةُ الشَّراب.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٦٠.

(٢) ذكره ابن عادل مختصراً في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٥ ص٦٦.

(٣) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١٣٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ ؛ أي تعقِرُوها ولا تؤذُوها، وذرُوها تأكلُ في أرضِ الله، فإنَّكم إنْ تَمسُّوها بسوءٍ، ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ ، فعقَرُوها واقتَسَمُوا لَحمَهَا، فبلغَ الْفاً وثمانمائةِ منزلٍ، ثُم أصبحُوا نادمينَ على قتْلِها، ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ ؛ في اليومِ الثالث وهو يومُ السَّبت، صاحَ بهم جبريلُ فمَاتُوا أجمعينَ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ ؛ أي في إخراجِ النَّاقة من الصَّخرةِ، وفي إهلاكِهم بعَقْرِهَا علامــةً وعِبْرَةً لِمن بعدهم ولَم يكن أكثرُهم مؤمنين، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ؛ إلى قوله تعالى ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ ، ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ﴾ ؛ معناه: أتنكِحُون الذُّكورَ حَرَاماً في أدبارهم، وتتركون ما أحَلَّ اللهُ لكم من فروجِ نسائكم، ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ ؛ أي مُتَجاوزُونَ الحدَّ في الظُّلم والحرامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ ؛ أي لَئِنْ لَم تَسْكُتْ يا لوطُ عن الإنكار علينا وتَقْبيحْ أفعالِنا لنُخرِجَنَّكَ من أرضِنا.

﴿ قَالَ ﴾ ؛ لوطُ: ﴿ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ ؛ أي لَمِنَ الْمُبْغِضِيْنَ، والقَالِي: هو البَاغِضُ للشَّيءِ التاركُ له غايةَ الكَرَاهَةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ ؛ أي خلِّصنِي وأهلِي من عقوبةِ أعمالِهم الخبيثة حتى لا نراهُم ولا نَرَى أعمالَهم الخبيثةَ، ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ ؛ أي خلَّصنَاهُم من العذاب الذي وقعَ بهم، وقولهُ تعالى (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ) أي نَجَّيناهُ وبناتَهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ ؛ يعني امرأتَهُ فإنَّها كانت مِن الغابرينَ؛ أي مِن الباقينَ في موضعِ العذاب فهلكَتْ معَهم، وكانت تدلُّ المشركينَ على أضيافهِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ ؛ أي أهلكنَاهُم بالْخَسْفِ والحصب، وهو أنَّ اللهَ تعالى خَسَفَ بقُرَاهُمْ، كما رُوي [أنَّ جِبْرِيْلَ رَفَعَـهُمْ ببلاَدِهِـمْ حَتَّى بَلَغَ بهِمْ إلَى السَّمَاءِ، فَقَلَبَهُمْ وَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ ؛ أي أمطَرْنا على ساكنهم ومُسافِريهم حجارةً، ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ ؛ أي فبئْسَ مطرُ الذين أنْذِرُوا فلم يُؤمِنوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ ؛ أي في إهلاكِنا إيَّاهم لدلالةً وعبرةً لِمن بعدَهم، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ ؛ اختلَفُوا في الأَيْكَةِ، قال بعضُهم: هو اسمُ مَدْيَنَ، وقال بعضُهم: الأَيْكَةُ اسمٌ لِمدينةٍ أخرى غيرُ مَدْيَنَ، وكان شعيبُ مبعوثاً إلى كلِّ واحدةٍ من المدينَتين، غير أنَّهُ كان أخَا مَدْيَنَ، ولَم يكن أخَا الأَيْكَةِ، فلذلك لَم يقُلْ في هذه الآيةِ: إذ قَالَ لَهُمْ أخُوهُمْ، وإنَّما قالَ: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: الأَيْكَةُ الغَيْطَةُ ذاتُ الشَّجر الكثيفِ، وجمعُهُ إيَكٌ. وَقِيْلَ: الأَيْكُ: شجرُ الدَّومِ وهو الْمُقْلُ، وكان أكثرُ شجرِهم الدَّوم. وتقرأ: لَيْكَةِ، بغير ألف وتفتح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ ؛ أي أتِمُّوا الكيلَ إذا كِلْتُمْ، ولا تكونُوا مِن الذين يَبْخَسُونَ حقوقَ الناسِ في الكَيْلِ والوَزْن، ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا اللهَ الذي خلقَكم وخلَقَ (الْجِبلَّةَ الأَوَّلِيْنَ) أي وخلَقَ الْخَلْقَ الذين مِن قبلِكُم، والْجِبلَّةُ بكسر الجيم والباء وبضمهما: الْخَلْقُ الْكَثِيْرُ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٥٨٩٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ ؛ أي من الْمُخَوَّفِيْنَ مِثلَنا مِمَّـنْ لَـهُ سِحْرٌ، ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ؛ ومـا أنـتَ إلاّ آدَمِـيٌّ مثلُنـا، ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ ؛ فيما تقولُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي جَانِبـاً مـن السَّـماءِ، ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ ؛ أنَّكَ مبعوثٌ إلينا، وأنَّ هذا العذابَ نـازلٌ بنا، وهذا اذا قرأتَ (كِسْفاً) بإسكانِ السِّين، وأما إذا فتحتَها فـهو جمـعُ الْكِسْـفَةِ وهـي القطعةُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ ؛ أي هـو أعلـمُ بعمَلِكم، وبِما تستحقُّون مِن العذاب، وبوقتِ الاستحقاق، فيُنْزِلُ بكم العذابَ على ما توجِبُ الحكمةُ، ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ ؛ أي كذبُـوا شُـعيباً بعـد ظـهور الْحُجَّـةِ، ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ ؛ انشأَ اللهُ سـحابةً عليـهم حتـى أظلَّتْـهُم في يـومِ حـرٍّ شـديدٍ، فاجتمَعُوا تحتَها مُستَجِيرِينَ بها بما نالَهم من الحرِّ، فأطبقَتْ عليهم وأمطرَتْ عليهم ناراً فأهلكَتْهم.

قال المفسِّرون: وذلكَ أن اللهَ تعالى كان قـد حَبَسَ عليـهم الرِّيـحَ سبعةَ أيَّـامٍ، وسَلَّطَ عليهم الحرَّ حتـى أخـذ بأنفَاسِـهم ولَـم ينفعـهم ظِـلٌّ ولا مـاءٌ، وكـانوا يدخلـون الاسراب ليَبْرَدُوا فيها، فإذا دخَلُوها وجدوها أشَدَّ حَرّاً من الظاهرِ، فدخَلُـوا أجـوافَ السِّرب، فدخَلَ عليهم الحرُّ وأخـذ بأنفاسِـهم، فخرَجُـوا هـاربينَ الى البَرِّيَّـةِ، فبعـثَ اللهُ عليهم سحابةً أظلَّتْهُم من الشَّمسِ فوجدُوا لَها بَـرْداً ونَسِـيماً، فنـادَى بعضُـهم بعضـاً حتى اجتمَعُوا كلُّهم تحتَها، فأمطرَتْ عليهم ناراً فاحـترَقُوا، فكـان مِـن أعظـمِ يـوم في الدُّنيـا، فذلـكَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾ .

والظُّلَّةُ: هي السَّحَابةُ التي أظلَّتْهم. قـال قتـادةُ:(بَعَـثَ اللهُ شُـعَيْباً إلَـى أُمَّتَيْـنِ: أصْحَابُ الأَيْكَةِ وَأهْلُ مِدْيَنَ، فَأَمَّا أصْحَابُ الأَيْكَةِ فَأُهْلِكُوا بالظُّلَّةِ، وَأمَّا أهْـلُ مِدْيَـنَ

فَأُهْلِكُوا بالصَّيْحَةِ، صَاحَ بهِمْ جِبْرِيْلُ فَهَلَكُوا جَمِيْعاً)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾؛ أي وإنَّ القُرْآنَ لإنْـزَالُ ربّ العَالَمِيْنَ، ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾؛ قرأ ابنُ كثير ونافعُ وأبو عمرو وحفص (نَزَلَ) بالتخفيف ورفع الحاء، يَعنُونَ نَزَلَ جبريلُ بالقُرْآن، وقرأ الباقون بالتشديدِ والنَّصب؛ أي نَزَّلَ اللهُ جبريلَ بالقُرْآن وهو أمِيْنٌ[2]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾؛ أي نَزَلَ به فأودعَهُ قلبَكَ كي لا تنساه، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾؛ أي مِنَ الْمُعْلِمِيْنَ بموضعِ الْمَخَافَةِ، ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾؛ أي لِتُنْذِرَ العربَ بلُغَتِهم فيكونُ ذلك أقربَ إلى فَهْمِهم، وأقطعَ لعُذْرهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾؛ يعني أن ذِكْرَ القُرْآنِ مذكورٌ في كُتُبِ الأوَّلين، ولَم يُرِدْ به غيرَ القُرْآن؛ لأنه تعالى خصَّ مُحَمَّداً ﷺ بإنْزَالِ القُرْآنِ عليه، فلو كان مَذكُوراً بعينهِ في الكُتُب لَبَطَلَ التخصيصُ، ولكنَّهُ تعالى ذكَرَ في الكُتُبِ المتقدِّمة أنه سيبعثُ نَبِيّاً في آخرِ الزمان صِفَتُهُ كذا، وسيُنْزِلُ عليه كِتَاباً صفتهُ كذا كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالانْجِيلِ﴾[3]، وهذا معنى قولَهُ ﴿إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى. صُحُفِ إبراهيم وموسى﴾[4] أي مذكورٌ في الصُّحف الأُولى أن الناسَ في الغالب يُؤْثِرُونَ الدُّنيا على الآخرةِ، وأنَّ الآخِرَةَ خَيْرٌ وَأبْقَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾؛ رُوِيَ أن سببَ نُزولِها أنَّ أهلَ مكَّة بَعثوا إلى أهلِ الكتَاب يَسْتَخْبرُونَهُمْ عن مُحَمَّدٍ ﷺ وعن ما يدَّعِي من الرِّسالةِ وصدقوهم في بَعْثِهِ وصفتهِ، فأخبَرَهم أهلُ الكتاب أنَّ ذِكْرَهُ عندَنا وأنه مبعوثٌ فَاتَّبعُوهُ. والمعنى : أوَلَمْ يكن لأهلِ مكَّةَ علامةٌ لنبوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أن يَعْلَمَهُ علماءُ بني إسرائيلَ مثلُ عبدِالله بن سلام وأصحابهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٣٣٦).
(٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٢٥-٢٢٦.
(٣) الأعراف / ١٥٧ . (٤) الأعلى / ١٨-١٩ .

قال الزجَّاجُ فِي قِرَاءَةٍ قَرَأَ (آيَةً) بالنَّصْب، فَقَوْلُهُ (أَنْ يَعْلَمَهُ) اسْمُ كَانَ، و(آيَةً) خَبَرُهُ. ومعناهُ: أوَلَمْ يكُن لَهم عِلْمُ علماءِ بني إسرائيل أنَّ مُحَمَّداً نَبِيٌّ حَقٌّ، ودلالةُ نبوَّتهِ[(١)]. قال عطيةُ:(كَانَ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيْلَ الَّذِيْنَ آمَنُوا خَمْسَةً: عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ؛ وَابْنُ يَامِيْنَ؛ وَثَعْلَبَةُ؛ وَأَسَدُ؛ وَأَسِيْدُ)[(٢)]، وقرأ ابنُ عامر: (أوَلَمْ تَكُنْ) بالتاء (آيَةٌ) رفعاً، قال الفراءُ: (جَعَلَ ﴿آيَةٌ﴾ بَعْدَ الأسْمَ و(أنْ يَعْلَمَهُ) خَبَرُ كَانَ)[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾؛ أي لو نزَّلْنا القُرْآنَ على رُجلٍ أعجمِيٍّ لا يفصحُ، ﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم ﴾؛ بغيرِ لُغة العرب ما آمَنُوا بهِ، وقالوا: مَا نَفْقَهُ هَذا! فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ وفي هذا بيانُ معاندَتِهم. والأعْجَمُ والأعْجَمِيُّ بمعنى واحدٍ؛ وهو الَّذي في لسانهِ عُجْمَةٌ، ومنه العَجْمَاءُ؛ وهي الدَّابةُ. فأما العَجَمِيُّ فهو منسوبٌ إلى العَجَمِ أفصَحَ أو لَم يُفْصِحْ.

وعن ابنِ مسعود: أنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ وَهُوَ رَاكِبٌ نَاقَتَهُ، فَأَشَارَ إلَى نَاقَتِهِ، فَقَالَ: (هَذِهِ مِنَ الأَعْجَمِيْنَ) كأنه ذهبَ إلى أنَّ معنَى الآيةِ: أنه لو أنْزَلْنَا القُرْآنَ على البهائمِ فأنطَقْنَاها بهِ، فقرأتْ عليهم ما آمَنُوا بهِ[(٤)].

ثُم ذكرَ اللهُ سببَ تركِهم الإيْمانَ فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾، قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: سَلَكْنَا الشِّرْكَ وَالتَّكْذِيْبَ فِي

---

(١) بمعناه ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧٨، ولفظه: (إذا قُلْتَ (يَكُنْ) فالاختيار نصب (آيَةً) ويكون (أنْ يَعْلَمَهُ) اسم كان، ويكون آية خبر كان، المعنى...).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٥٩٥٦) عن عطية العوفي.

(٣) في معاني القرآن: ج ٢ ص٢٨٣؛ قال الفراء: (ولو قُلتَ: ﴿أوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾ بالرفع (أنْ يَعْلَمَهُ) تجعل ﴿أنْ﴾ في موضع نصبٍ لجاز ذلك).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٠٣٥٢) بإسنادين عن قول عبدالله بن مطيع، وليس عبدالله بن مسعود، ولعله وهمٌ من الناسخ ورقة (٣٥٤). وعبدالله بن مطيع من رهط عمر بن الخطاب، كان اسم أبيه العاص وسماه رسول الله ﷺ مطيعاً.

قُلُوب الْمُجْرِمِيْنَ إذا قَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدُ ﷺ). قال مقاتلُ: (يَعْنِـي مُشْـرِكِي مَكَّـةَ)[١]، أخبرَ اللهُ تعالى أنه أدخلَ الشِّرْكَ في قلوبهم، فلم يُؤمِنُوا إلاَّ عندَ نزُول العَذاب حتى لَم ينفَعْهُم، وهــو قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ ؛ يعـني عنـد المـوتِ، ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ ؛ بـهِ في الدُّنيـا فيَتَمَنَّوا الرجعةَ والنَّظِرَةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ ؛ فنُؤْمنُ ونصدِّقُ.

فلمَّا أوعَدَهم النبيُّ ﷺ بالعذاب قالوا: فَمَتَى العذابُ؟! تكذِيبـاً لـهُ، فقَـالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ ؛ قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ أفرأيتَ يا مُحَمَّـدُ إنْ أمـهَلْنا كفـارَ مكَّـة سـنين، يريـدُ مُنْـذُ خلَـقَ اللهُ الدُّنيـا إلى أن تنقضِـي، وقِيْــلَ: مــدَّةَ أعمَــارهم، ﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ ؛ من العـذاب، ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ ؛ بهِ في تلك السِّنين.

والمعنى: وإنْ طَالَ تَمتُّعُهم بنعيمِ الدُّنيا، فإذا أتاهُم العذابُ لَم يُغْنِ طُولُ التمتُّعِ عنهم شيئاً، يكون كأنَّهم لَم يكونوا في نَعِيْمٍ قَطْ، وهذه موعظةٌ ما أبْلَغَـهَا ! يُحكـى أنَّ عمرَ بن عبدالعزيز كان إذا قَعَدَ للقضاءِ كلَّ يومٍ ابتدأ بهذه الآيةِ، فَوَعَظَ بها نفسَهُ، ثُـم ذكرَ هذه الأبيات:

تُسَــرُّ بمَــا يَفْنَــى وَتَفْــرَحُ بــالْمُنَى ... كَمَـا اغْـتَرَّ بـاللَّذاتِ فِـي النَّـوْمِ حَـالِمُ
حَيَــاتُكَ يَــا مَغْــرُورُ سَــهْوٌ وَغفْلَــةٌ ... وَلَيْلُـــكَ نَــوْمٌ والــرَّدَى لَــكَ لازمُ

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ ؛ أي مـا أهلَكْنَا من قريةٍ بالعذاب في الدُّنيا إلاَّ لَها رُسُلاً ينذرونَـهم بـالعذاب أنـهُ نـازلٌ بـهم. والمعنـى: إلاَّ لَـهَا مُنـذِرونَ قبـلَ الْـهَلاكِ، ونظـيرهُ ﴿وَمَـا كُنَّـا مُعَذّبِـينَ حَتَّـى نَبْعَــثَ رَسُولاً﴾[٢].

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٦٥.
(٢) الاسراء / ١٥ .

وقولُهُ تعالى: ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾ ؛ أي موعظةً وتذكِيراً، ﴿ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ ؛ فنُعذِّبَ من غيرِ ذنبٍ ونُعاقِبَ من غيرِ تذكيرٍ وإنذار. ويجوزُ أن يكون (ذِكْرَى) في موضعِ نصبٍ على معنًى: إلاَّ لَها مذكِّرُونَ ذِكْرَى، ويجوزُ أن يكونَ في موضعِ نصبٍ رُفع على معنًى: ذلكَ ذِكْرَى؛ أي ذلكَ موعظةٌ لَهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾ ؛ قالَ مقاتلُ: (قَالَتْ قُرَيْشُ: إنَّمَا يَجِيْءُ بالْقُرْآنِ الشَّيَاطِيْنُ، فَتُلْقِيهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) أي بالقُرْآن[1] (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ) أن يَنْزِلُوا بهِ (وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) أي لا يقدِرُون على ذلكَ، ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ ؛ أي أنَّهم عن استماعِ القُرْآنِ لَمَحجُوبونَ؛ لأنَّهم يُرجَمون بالنُّجوم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والمرادُ به غيرُهُ، والمعنى: كلُّ مَن دعَا معَ اللهِ إلَهاً آخرَ كان معَ الْمُعذبين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ ؛ أي رَهْطَكَ الأدنَين وهم بنُو هاشمٍ وبنو المطَّلِب خاصَّة.

فلما نزلَتْ هذه الآيةُ نادَى رسولُ اللهِ ﷺ [يَا آلَ غَالِبٍ؛ يَا آلَ لُؤَيٍّ بْنِ كَعْبٍ؛ يَا آلَ مُرَّةَ؛ يَا آلَ كِلاَبٍ؛ يَا آلَ قُصَيٍّ؛ يَا آلَ عَبْدِ مَنَافٍ] فَأتُوهُ وَقَالُوا: مَا تُرِيْدُ ؟! قَالَ: [أرَأيْتُمْ لَوْ حَدَّثْتُكُمْ أنَّ جَيْشاً ظَلَّكُمْ؛ أكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِنِي ؟] قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ:[فَإنِّي نَذِيْرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذابٍ شَدِيْدٍ، وَإنِّي لاَ أمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إلاَّ أنْ تَقُولُوا: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ].

ثُمَّ قَالَ: [يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؛ اشْتَرُوا أنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ؛ فَإنِّي لاَ أغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ؛ لاَ أغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ لاَ أغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً، يَا صَفِيَّةَ عَمَّةَ مُحَمَّدٍ؛ لاَ أغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً، يَا فَاطِمَةَ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٦٥.

بنْتَ مُحَمَّدٍ؛ لاَ أغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً](١).

وعن ابنِ عبَّاس قال: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ ؛ صَعَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَقَالَ: [يَا صَبَاحَاهُ!] فَاجْتَمَعَتْ إلَيْهِ قُرَيْشٌ؛ فَقَالُوا: مَا لَكَ ؟! قَالَ: [أرَأيْتُمْ إنْ أخْبَرْتُكُمْ أنَّ الْعَدُوَّ مُصْبحُكُمْ أوْ مُمَسِّيكُمْ؛ أمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي؟] قَالُوا: بَلَى، قَالَ: [فَإنِّي نَذِيْرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذابٍ شَدِيْدٍ].

قَالَ أبو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ! ألِهَذا دَعَوْتَنَا جَمِيْعاً؟ فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ﴾ إلى آخرِها)(٢). ومعنى الآية : عَرِّفْ قرابتَكَ يا مُحَمَّدُ أنَّكَ لا تُغنِي عنهم من اللهِ شيئاً إنْ عَصَوْهُ. والفائدةُ في تخصيص الأقربينَ بالإنذار: أنَّهم كانوا أقربَ إليهِ، كما قالَ تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾(٣) وكما أنَّ الأولَى بالإنسانِ في البرِّ والصِّلةِ أن يبدأ بالأقرب فالأقرب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ ؛ أي أكْرِمْ مَنِ اتَّبعَكَ من المؤمنينَ والِنْ لَهم القولَ، وأظْهِرْ لَهم الْمَحبَّةَ والكرامةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ ؛ أي إنْ عصاكَ الأقربونَ مِن عشيرتِكَ؛ فقُلْ: إنِّي بريءٌ مِمَّا تعملونَ من الكُفْرِ وعبادةِ غيرِ اللهِ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ ؛ أي فَوِّضْ أمرَكَ إليه، وثِقْ به فإنه العَزِيْزُ في نعمتهِ، الرَّحِيْمُ بهم حين لَم يُعَجِّلْ لَهم العقوبةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ أي توكَّلْ على العَزِيز؛ أي الغالب القادر على أن يكفيكَ كَيْدَ أعدائِكَ، الرَّحِيْمِ بالمؤمنين خاصَّةً، فكيفَ لا تُفَوِّضُ أمرَكَ إليه وهو الذي يراكَ حين تقومُ إلى الصَّلاةِ،

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الوصايا: الحديث (٢٧٥٣). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: الحديث (٣٥١/ ٢٠٦).

(٢) رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٩٧١). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: الحديث (٣٥٥/ ٢٠٨).

(٣) التوبة / ١٢٣ .

ويرى قِيَامَكَ وركوعَكَ وسجودكَ وتضرُّعَك في المصلِّين مع الجماعةِ. والمعنى: أنه يراكَ إذا صلَّيتَ وحدكَ، ويراكَ إذا صَلَّيْتَ في الجماعةِ رَاكِعاً وسَاجِداً وقائماً، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ ؛ أي السَّمِيْعُ لقولِكَ، الْعَلِيْمُ بما في قَلْبكَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّةَ: هل أخبرُكم على مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِيْنُ ؟ وهو راجعٌ إلى قولـهِ تعالى ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾. ثُم أخبرَ فقالَ: ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ ؛ أي على كلِّ كَذابٍ فَاجِرٍ. قال قتادةُ: (هُمُ الْكَهَنَةُ)[١] مِثْلُ مُسَيْلَمَةَ وَغَيْرِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ الشياطينَ يَسْتَرِقُونَ السَّمعَ من كلامِ الملائكةِ، ثُم يُضِيْفُونَ الكَذِبَ إلى ذلكَ، فيُلْقُونَهُ إلى الكَهَنَةِ، وقولهُ تعالى (وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) يعنِي لأنَّهم يَخْلُطُونَ كَذِباً كثيراً، وهـذا كـان قَبْلَ الوَحْيِ إلى النبيِّ ﷺ، وبعْدَ ذلكَ فمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ له شِهَاباً رَصَداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّـاس: (يُرِيْدُ شِعْرَ الْمُشْرِكِيْنَ)[٢]. وذكرَ مقاتلُ أسْماءَهم فقَالَ: (مِنْهُمْ عَبْـدُاللهِ بْـنُ الزِّبْعَـرى السَّهْمِيُّ، وَأبُو سُفْيَانَ بن الْحَارثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُبَـيْرَةُ بْـنُ وَهَـبٍ الْمَخْزُومِـيُّ، وَشَافِعُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ الْجَمْحِيُّ، وَأبُو عَزَّةَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِاللهِ، كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْـشٍ، وَأمَيَّـةُ ابْنُ الصَّلْتِ الثَّقَفِيُّ، تَكَلَّمُوا بالْكَذِبِ وَالْبَـاطِلِ، وَقَـالُوا: نَحْـنُ نَقُـولُ مِثْـلَ مَـا يَقُـولُ مُحَمَّدٌ! وَاجْتَمَعَ إلَيْهِمْ غُوَاةٌ مِنْ قَوْمِهِمْ يَسْـتَمِعُونَ أشْـعَارَهُمْ، وَيَـرْوُونَ عَنْـهُمْ حَتَّـى يَهْجُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَأصْحَابَهُ)[٣]. فذلكَ قَوْلُهُ تَعَـالَى: (يَتَّبعُـهُمْ الْغَـاوُونَ) يعـني الذيـنَ يَرْوُونَ هِجَاءَ المسلمينَ وسَبَّ الصَّحابةِ.

وقال قتادةُ ومجاهد: (الْغَاوُونَ هُـمُ الشَّـيَاطِيْنُ) كمـا قـال تعـالى حَاكِيـاً عنـهم ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾[٤]. وَقِيْلَ: الغَاوُونَ كُفَّارُ الْجِنِّ وَالإنْـسِ. وفِـي الحديـثِ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٣٩٢). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٦٠٤١).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٤٠٢). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٦٠٤٨).
(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٦٧.
(٤) الصافات / ٣٢ .

[لَئِنْ مُلِئ جَوْفُ أحَدِكُمْ صَدِيْداً حَتَّى يَصِيْر جَارِياً أحَـبُّ إلَـيَّ أنْ يَمْتَلِـئَ شِـعْراً][1] وأراد به الشِّعرَ المذمومَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ ﴾ ؛ أي في كـلِّ فَنٍّ من الكَذِب يتكلَّمُون، وفي كُلِّ لَغْوٍ يخوضُونَ، يَمْدَحُونَ بباطلٍ ويستمِعُون لبـاطلٍ، فـالوَادِي مَثَـلٌ لِفُنُـون الكـلامِ، وهَيَمَانُـهُمْ فيـهِ: قولُـهم علـى الجميـلِ بمـا يقولـــون مِـن لَغْـوٍ وبـاطلٍ وَغُلُــوٌ في مَــدْحٍ أو ذمٍّ. وقولــهُ تعــالى: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ ؛ أي يقولُون فَعَلْنَا وَفَعَلْنَا وَهُمْ كَذَبَةٌ، ويَصِفُون أنفسَهم بما ليـس فيها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ؛ اسـتثناءُ الشُّـعراء المسلمينَ حَسَّانُ بْنُ ثَابتٍ، وعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الذين مَدَحُوا رسولَ اللهِ ﷺ، كَـانَ يَقُـولُ لِحَسَّـان: [أهْجُـهُمْ وَمَعَـكَ رُوحُ الْقُـدُسِ][2]. قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ ؛ يعني أنَّهم كانوا يذكُـرون اللهَ كثيراً في أشْعَارهم، ويناضِلون عــن النـبيِّ ﷺ بألسِنَتهم وأيدِيـهم مـن بَعْـدِ هجائِـهم الكفارَ. والانتصارُ بالشِّعر جائزٌ في الشَّريعة بما يجوزُ ذِكْرُهُ فيها، لِمَا قـالَ تعـالى في آيـةٍ أخرى ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إلا مَنْ ظُلِمَ﴾[3].

ويُروَى: أنَّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا تَقُولُ فِي الشِّـعْرِ، فَقَـالَ:[إنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ؛ لَكَأنَّمَا يَنْضَحُونَـهُمْ بـالنَّبْلِ][4]. وقـال ﷺ: [إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً][5].

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الشعر: الحديث (٩/ ٢٢٥٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٧٢. والترمذي في الجامع: أبواب الآداب: الحديث (٢٨٤٦). وأبو داود في السنن: كتاب الآداب: الحديث (٥٠١٥).

(٣) النساء / ١٤٨ .

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٢٣ بلفظ قريب، وقال: (رواه أحمد بأسانيد، ورجال أحدهما رجال الصحيح).

(٥) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الآداب: الحديث (٦١٤٥).

وقالت عائشةُ: (الشّعْرُ كَلاَمٌ، فَمِنْهُ حَسَنٌ وَمِنْهُ قَبِيحٌ، فَخُذُوا الْحَسَنَ وَدَعُوا الْقَبِيْحَ)[١]. وعن الشعبيِّ قال: (كَانَ أبو بَكْرٍ ﷺ يَقُولُ الشّعْرَ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ الشّعْرَ، وَكَانَ عَلِيٌّ أشْعَرَ الثَّلاثَةِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَذكَرُوا اللهَ كَثِيراً) لَم يَشْغَلْهُمُ الشّعْرُ عن ذِكْرِ اللهِ، ولَم يجعَلُوا الشّعْرَ هَمَّهُمْ، وانتَصَرُوا من بعد ما ظلموا أي انتصروا من المشركين لأنهم بدأوا بالهجاء.

ثُم أوعدَ شعراءَ المشركين فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾؛ أي سَيَعْلَمُ الَّذِيْنَ أشْرَكُوا وَهَجَوُا النَّبِيَّ ﷺ والمؤمنينَ أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ، قال ابنُ عبَّاس: (إلَى جَهَنَّمَ يَخْلُدُونَ فِيْهَا). والمعنى: سيعلَمُون إلى أينَ مصيرُهم وهو نارُ جهنَّمَ، فعلى هذا يكونُ قولُهُ (أيَّ مُنْقَلَبٍ) منصُوباً بدلاً من المصدر، ولا يجوزُ أن يكون منصوباً بقولهِ (سَيَعْلَمُ) لأن (أيَّ) لا يعملُ فيه ما قَبْلَهُ؛ لأنه مِن حروفِ الاستفهامِ، وموضعُ حروف الاستفهامِ صدرُ الكلامِ، فكان انتصابُ قولهِ (أيَّ مُنْقَلَبٍ) على معنى المصدر، أو بقولهِ (يَنْقَلِبُونَ).

وعن أبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الشُّعَرَاءِ، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بنُوحٍ وَكَذبَ بهِ، وَهُودٍ وَشُعَيْبٍ وَصَالِحٍ وَإبْرَاهِيْمَ وَلُوطٍ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَمُوسَى وَعِيْسَى، وَبعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بمُحَمَّدٍ ﷺ][٣].

آخر تفسير سورة (**الشعراء**) والحمد لله رب العالمين

آخر المجلد الرابع

من التفسير الكبير للإمام الطبراني

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥١.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥١.

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص١٥٥، عن أبي بن كعب بإسناد ضعيف. وذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٣٣٤.

فهرس المجلد الرابع

سورة الرعد	
الآيات	الصفحة
١-٤٣	٥
سورة إبراهيم	
الآيات	الصفحة
١-٥٢	٢٥
سورة الحجر	
الآيات	الصفحة
١-٩٩	٤٠
سورة النحل	
الآيات	الصفحة
١-٧١	٥٧
٧٢-١٢٨	٧٥
سورة الإسراء	
الآيات	الصفحة
١-٥٦	٩١
٥٧-١١١	١١٩
سورة الكهف	
الآيات	الصفحة
١-٤٥	١٥٠
٤٦-١١٠	١٧٤
سورة مريم	
الآيات	الصفحة
١-٥٠	١٩٨
٥١-٩٨	٢١٤

الآيات	الصفحة
سورة طه	
الآيات	**الصفحة**
١-٦٩	٢٢٩
٧٠-١٣٥	٢٥٠
سورة الأنبياء	
الآيات	**الصفحة**
١-٧٨	٢٧٣
٧٩-١١٢	٢٩٩
سورة الحج	
الآيات	**الصفحة**
١-٣٦	٣٢٢
٣٧-٧٨	٣٤٣
سورة المؤمنون	
الآيات	**الصفحة**
١-٤٩	٣٦٠
٥٠-١١٨	٣٧٥
سورة النور	
الآيات	**الصفحة**
١-٢٥	٣٩٢
٢٦-٦٤	٤١٧
سورة الفرقان	
الآيات	**الصفحة**
١-٧٧	٤٥٥
سورة الشعراء	
الآيات	**الصفحة**
١-٩٥	٤٨٥
٩٦-٢٢٧	٥٠٠

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإِمَامِ الْحَافِظِ العَلاَّمَةِ أَبِي الْقَاسِمِ
سُلَيمَانِ بْنِ أَحْمَدَ بنِ أيُّوبَ الطَّبَرَانِيِّ
(٢٦٠-٣٦٠) مِنَ الهِجْرَةِ

ضَبَطَهُ عَلَى أَصْلِهِ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وعَلَّقَ عَلَيْهِ
هِشَامُ بْنُ عَبدِالكَرِيمِ البَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

المجلد الخامس

دار الكتاب الثقافي
الأردن-إربد

بسم الله الرحمن الرحيم

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٨/١/٩٢)

٢٢٢

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (٢٦٠-٣٦٠هـ)

التفسير الكبير: تفسير القرآن العظيم/ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)؛ تحقيق هشام عبدالكريم البدراني الموصلي.- إربد: دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٨.

صدر على شكل ستة أجزاء

(...) ص.

ر.أ (٩٢ / ١ / ٢٠٠٨).

الواصفات:/ التفاسير//القرآن//القرآن الكريم/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

ردمك ISBN 978-9957-492-02-1

دار الكتاب

دار الكتاب الثقافي

للطباعة والنشر والتوزيع

الأردن / إربد

شارع إيدون إشارة الإسكان

تلفون

(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٦١٦١٦)

فاكس

(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٥٠٣٤٧)

ص.ب (٦٢٠٣٤٧-٢١١)

Dar- AlKitab

PUBLISHERS

Irbid - Jordan

Tel:

(00962-2-7261616)

Fax:

(00962-2-7250347)

P. O. Box: (211-620347)

E-mail:

Dar_ Alkitab1@hotmail.Com

دار المتنبي

دار المتنبي للنشر والتوزيع

الأردن – إربد – تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)

سُورَةُ النَّمْلِ

سُورَةُ النَّمْلِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أرْبَعَةُ آلافٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَأَلْفٌ وَتِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَثَلاَثٌ وَتِسْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (طس اسْمٌ مِنْ أسْمَاءِ اللهِ، أقْسَمَ بِهِ أنَّ هَذا الْقُرْآنَ الآيَاتُ الَّتِي وُعِدْتُمْ بِهَا)[1] فقال قتادةُ: (هُوَ اسْمٌ مِنْ أسْمَاءِ الْقُرْآنِ)[2]. وَقِيْلَ: هو اسمٌ من أسماء السُّورة. وقولهُ تعالى: ﴿ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ معناهُ: وآياتُ الكتاب المبين بالحلال والحرام.

وقولهُ تعالى: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾؛ يجوزُ أن يكون (هُدًى) في موضعٍ رفعٍ؛ أي هو هُدًى، والمعنى: (هُدًى) أي بيانٌ من الضَّلالةِ لِمن عَمِلَ به، (وَبُشْرَى) بما فيه من الثواب للمصدِّقين به أنهُ من عندِ الله.

ثم عرَّفَهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾ أي زَيَّنَّا لَهم صلاتَهم حتى رأوْها حسنةً، (فَهُمْ يَعْمَهُونَ) أي يتردَّدُون فيها متحيِّرين، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾؛ لأنَّهم خَسِرُوا أنفُسَهم وأهلِيهم وصَارُوا إلى النار.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: ج ١١ ص١٦٠.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٦٠٩٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي إنَّكَ لَتَعِي القُرْآنَ وحياً من عندِ الله تعالى، أنزلَهُ بعلمهِ وحكمته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي واذكُرْ إذ قالَ مُوسَى لامرأتهِ: ﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ ؛ أبْصَرْتُهَا، وكانت امرأتهُ يومئذ ابنة شُعيب ﷺ، فقال لها حين ضَلَّ الطريقَ: أنِّي أبصرتُ ناراً، فامْكُثوا ها هنا، ﴿ سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ ، أي حتَّى آتِيكُم من عندِ النار بخبرِ الماء والطريق، فإن لَم أجِدْ أحداً يُخبرني عن الطريق آتيكم بشعلةِ نار، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ ؛ والشِّهَابُ: خَشَبَةٌ فيها نورٌ ساطعٌ، ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي لكي تُصْطَلُوا من البَرْدِ، وكان ذلك في شدَّةِ الشِّتاء، يقالُ: صَلَى بالنار وَأصْلَى بها إذا استدفأ، والمعنى: أو آتِيكُمْ بالشُّعلةِ المقبسَةِ من النار لكي تذودُوا[1] من البردِ.

والشِّهَابُ: هو النارُ الْمُسْتَطَارُ، ومنه قولهُ ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[2] والقبَسُ والْجَذْوَةُ: كلُّ عودٍ اُشْعِلَ في طرفهِ نارٌ. قرأ أهلُ الكوفة (بشِهَابٍ قَبَسٌ) منوَّن على البدل أو النعتِ للشهاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ ؛ معناهُ: فلما جاءَ موسَى إلى النار التي رَآها نُودِيَ نداءَ الوحي: أنْ بُورِكَ مَنْ فِي طلب النار وهو مُوسَى، ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من الملائكةِ. وهذه تحيَّةٌ مِن الله لِموسى بالبركةِ كما حَيَّا إبراهيمَ بالبركةِ على ألْسِنَةِ الملائكةِ حين دخَلُوا عليه، فقالُوا: رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ اَهْلَ الْبَيْتِ.

وَقِيْلَ: المرادُ بالنار هو النُّورُ، وذلك أن موسَى رأى نُوراً عَظِيماً، ولذلك ذكَرهُ بلفظ النار، ومَن في النار هم الملائكةُ؛ لأن النورَ الذي رآهُ موسى كان فيه ملائكةٌ لَهُمْ زَجَلٌ بالتسبيحِ والتقديس، ومَنْ حَوْلَهَا هو موسَى؛ لأنه كان بالقُرْب منها ولَم يكن فيها. وأهلُ اللغة يقولونَ: بُورِكَ فُلاَنٌ؛ وَبُورِكَ فِيْهِ؛ وَبُورِكَ لَهُ وَعَلَيْهِ، بمَعنى واحدٍ. والمرادُ بالبركةِ ها هنا ما نَالَ مُوسَى من كرامةِ الله له بالنبوَّة.

---

(١) في المخطوط: (تذوقوا)، والصحيح كما أثبتناه، أو (لكي تستدفئوا من البرد).

(٢) الصافات / ١٠ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ ﴾؛ كلمة تَنْزِيْهٍ عمَّا تَظُنُّ الْمُشَبِهَةُ أنَّ اللهَ تعالى كان في تلك النار، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيْراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي أنا الدَّاعِي الذي يدعُوكَ، أنا اللهُ العزيزُ في مُلْكِي، الحكيمُ في أمري وقضائي.

فإن قيلَ: بماذا عَرفَ مُوسَى ؟ قُلْنَا: إنَّما عَرَفَ نبوَّةِ نفسهِ أن ذلكَ النداءَ من اللهِ تعالى حتى جعلَ يدعُو الناسَ إلى نُبُوَّةِ نفسهِ بالمعجزة، وذلك أنهُ رأى شجرةً أخضرَ ما يكونُ من الشَّجرِ في أنضرَ ما يكون، لَها شعاعٌ يرتفعُ إلى السَّماء في الهواءِ، والنارُ تلتَهبُ في أوراقِها والأغصان، فلا النارُ تُحْرِقُ الأوراقَ ولا رطوبةُ الشجرِ والأغصان تُطْفِئُ النارَ، فلما رأى ذلكَ بخلافِ العادة، عَلِمَ أنه لا يكونُ ذلك إلاّ مِن صُنْعِ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَۚ ﴾؛ أي وَقِيْلَ لهُ: أَلْقِ عَصَاكَ من يدِكَ، فألقَاهَا فَاهْتَزَّتْ ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾؛ أي تضطربُ كأنَّها جانٌّ، والْجَانُّ: الحيَّةُ البيضاءُ الخفيفة السريعةُ، السريع شدَّة الاضطراب يقال لها الْمِسَلَّةُ. وإنَّما شبَّهَها بالْجَانِّ في خِفَّةِ حركَتِها وسرعةِ انتشارها عن الأعيُنِ، وشبَّهَها في موضعٍ آخر بالثُّعبان لِعِظَمِهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾؛ أي أعْرَضَ موسى هَارباً من الخوفِ من الحيَّة، ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْۚ ﴾ أي لَم يَرْجِعْ ولَم يَلْتَفِتْ إلى شيءٍ وراءَهُ، يقال: عَقَّبَ فلانٌ إذا رَجَعَ.

فقالَ اللهُ: ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾، مِن ضَرَرِها، ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي لا يخافُ عندي وفي حُكْمِي مَن أرسلتهُ، ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ﴾؛ مِن الْمُرْسَلِيْنَ بارتكاب الصغيرةِ ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ ﴾، ثُمَّ تابَ مِن بعد ذلك، ﴿ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾؛ به، فكان السببُ في هذا الاستثناءِ أنَّ موسى كان مُستَشْعِراً حقَّهُ لِمَا كان منه من قِبَلِ القبطيِّ، فأمَّنَهُ اللهُ بهذا الكلامِ.

والصغائرُ والكبائر من الذُّنوب تُسمَّى ظُلْماً؛ ولذلكَ قال مُوسَى ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾[1]. ويقالُ: إن قولَهُ (إلاَّ مَنْ ظَلَمَ) استثناءٌ منقطع، ومعناهُ: لكِنْ مَن ظَلَمَ، فإنه يَخافُني إلاّ أن يتوبَ ويعملَ صالحاً، فإنِّي أغفرُ له وأرْحَمهُ. والمعنى: إلاّ من ظَلَمَ نفسه بالمعصيةِ (ثُمَّ بَدَّلَ حَسَناً) أي توبةً وندَماً (بَعْدَ سُوء) عملهِ (فَإنِّي غَفُورٌ رَحِيْمٌ) كأنه قالَ: لا يخافُ لديَّ المرسلونَ الأنبياءُ والتَّائبونَ، وقال بعضُهم: (إلاّ) ها هُنا بمعنى (ولا) كأنهُ قال: (لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ فيه بيانُ أنَّ الله تعالى أعطاهُ آيةً أخرى في ذلكَ المكان، ومعنى (تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) أي بيضاءَ لَها شعاعٌ مِن غير برَصٍ[3]، والْجَيْبُ جيبُ القَمِيصِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾؛ أظهَرَها بين الآيتين، والآياتُ التِّسعُ: قَلْبُ العَصَاةِ حَيَّةً، وجَعْلُ يَدِهِ بيضاءَ، وما أصابَ فرعونَ من الْجَدْبِ في بَوادِيهم، ونقصِ الثَّمرات في مزارعهم، وإرسالِ الطُّوفان والجرادِ والقُمَّلِ والضفادعِ والدَّمِ، فهذه الآياتُ التِّسعُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾؛ أي خَارجين عن طاعةِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي فلمَّا جاءَتْ فرعونَ وقومه الآياتُ التسع، ﴿مُبْصِرَةً﴾؛ أي بَيِّنَةً واضحةً، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾؛ كذبُوا بالآياتِ التسع كلِّها ونسَبُوا موسى إلى السِّحرِ، ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي جَحَدُوا بألسِنَتهم وأنكرُوا تلك الآياتِ، وعَلِمُوا بقلوبهم أنَّ تلك الآياتِ ليست من جنسِ أفعال السِّحر، وأنَّها من اللهِ تعالى، أي عَلِمُوا يقيناً أنَّها من عندِ الله لكن جَحَدُوا بها تَجبُّراً وَتَكبُّراً وذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾؛ أي شِركاً وتَكَبُّراً عن أن يؤمِنُوا، ﴿فَٱنظُرْ﴾؛ يا مُحَمَّد، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾؛ في الأرضِ بالمعاصي، كيفَ أهلَكَهم اللهُ بالغَرَقِ في اليَمِّ.

---

(١) القصص / ١٦.

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١٣٧.

(٣) (غير) سقطت من المخطوط.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ ؛ أي أعطيناهما معرفةَ الدِّين وأحكامِ الشَّريعة، وَقِيْلَ: عِلْماً بقضاءِ الطَّير والدَّواب وتسبيح الجبال، فقَابَلاَ تلكَ النعمةِ بالشُّكر، ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا ﴾ ؛ بالنبوَّةِ والكتاب والإلآنة الحديدِ وتسخير الشَّياطين والجنِّ والإنس، ﴿ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ ؛ أي وَرِثَ نُبُوَّتَهُ وعلمَهُ ومُلْكَهُ، وذلك أنهُ كان لداودَ تِسْعَةَ عشرَ إبناً ذكراً، فوَرِثَ سليمانُ مُلْكَهُ ومجلسَهُ ومقامه ونبوَّته مِن بينهم.

وعن أبي هريرةَ قال: (نَزَلَ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ إلَى دَاوُدَ عليه السلام مَخْتُوماً، فِيْهِ عَشْرُ مَسَائِلَ؛ أن اسْأَل ابْنَكَ سُلَيْمَانَ عَنْهُنَّ، فَإنْ أخْرَجَهُنَّ فَهُوَ الْخَلِيْفَةُ مِنْ بَعْدِكَ. قَالَ: فَدَعَا دَاوُدُ[1] سَبْعِيْنَ قِسِّيْساً وَسَبْعِيْنَ حَبْراً، وَأجْلَسَ سُلَيْمَانَ بَيْنَهُمْ، وَقَالَ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ؛ إنَّهُ نَزَلَ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيْهِ عَشْرُ مَسَائِلَ، أرَدْتُ أنْ أسْأَلَكَ عَنْهُنَّ، فَإنْ أنْتَ أخْرَجْتَهُنَّ فَأنْتَ الْخَلِيْفَةُ مِنْ بَعْدِي. فَقَالَ سُلَيْمَانُ: لِتَسْأَلْ نَبِيُّ اللهِ عليه السلام عَمَّا اللهُ يَرَاهُ، وَمَا تَوْفِيْقِي إلاَّ باللهِ.

قَالَ: أخْبِرْنِي يَا نَبِيَّ: مَا أبْعَدُ الأَشْيَاءِ؟ وَمَا أقْرَبُ الأَشْيَاءِ؟ وَمَا آنَسُ الأَشْيَاءِ؟ وَمَا أوْحَشُ الأَشْيَاءِ؟ وَمَا الْقَائِمَانِ؟ وَمَا الْمُخْتَلِفَانِ؟ وَمَا الْمُتَبَاغِضَانِ؟ وَمَا الأَمْرُ الَّذِي إذا رَكِبَهُ الرَّجُلُ حَمَدَ آخِرَهُ؟ وَمَا الأَمْرُ الَّذِي إذَا رَكِبَهُ الرَّجُلُ ذمَّ آخِرَهُ ؟

فَقَالَ سُلَيْمَانُ: أمَّا أقْرَبُ الأَشْيَاءِ فَالآخِرَةُ، وَأمَّا أبْعَدُ الأَشْيَاءِ فَمَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأمَّا آنَسُ الأَشْيَاءِ فَجَسَدٌ فِيْهِ رُوحٌ، وَأمَّا أوْحَشُ الأَشْيَاءِ فَجَسَدٌ لاَ رُوحَ فِيْهِ، وَأمَّا الْقَائِمَانِ فَالسَّمَاءُ وَالأَرْضُ، وَأمَّا الْمُخْتَلِفَانِ فَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَأمَّا الْمُتَبَاغِضَانِ فَالْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ، وَأمَّا الأَمْرُ الَّذِي إذا رَكِبَهُ الرَّجُلُ حَمَدَ آخِرَهُ فَالْحِلْمُ عَلَى الْغَضَبِ، وَأمَّا الأَمْرُ الَّذِي إذا رَكِبَهُ ذمَّ آخِرَهُ فَالْحِدَّةُ عَلَى الْغَضَبِ.

قَالَ: فَفَكَّ الْخَتْمَ فَإذا هِيَ هَذِهِ الْمَسَائِلُ سَوَاءٌ عَلَى مَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. فَقَالَ الْقِسِّيْسُونَ وَالأَحْبَارُ: لَنْ نَرْضَى حَتَّى نَسْأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَإنْ هُوَ أخْرَجَهَا فَهُوَ الْخَلِيْفَةُ

---

(١) في المخطوط: (سليمان) والسياق يقتضي (داود) فأثبتناه.

مِنْ بَعْدِكَ. فَقَالَ سُلَيْمَانُ: سَلُونِي وَمَا تَوْفِيْقِي إلاَّ بِاللهِ، قَالُوا: مَا الشَّيْءُ الَّذِي إذا صَلُحَ صَلُحَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ ؟ وَإذا فَسَدَ فَسَدَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ ؟ قَالَ: هُوَ الْقَلْبُ؛ إذا صَلُحَ صَلُحَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ، وَإذا فَسَدَ فَسَدَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ. قَالُوا: صَدَقْتَ! أنْتَ الْخَلِيْفَةُ مِنْ بَعْدِهِ. وَدَفَعَ إلَيْهِ دَاوُدُ قَضِيْبَ الْمُلْكِ، وَمَاتَ مِنَ الْغَدِ).

وعن محمَّد بن جعفرٍ عن أبيهِ قال: (أعْطِيَ سُلَيْمَانُ مُلْكَ مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فَمَلَكَ سَبْعَمِائَةِ سَنَةٍ وَسِتَّةَ أشْهُرٍ، مَلَكَ أهْلَ الدُّنْيَا كُلَّهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإنْسِ وَالشَّيَاطِيْنِ وَالدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ وَالسِّبَاعِ، وَأعْطِيَ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْطِقَ كُلِّ شَيْءٍ)[1].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ ؛ صَوْتٌ منهُ. قال الفرَّاءُ: (مَنْطِقُ الطَّيْرِ: مَعْنَى كَلاَمِ الطَّيْرِ، جَعَلَهُ كَمَنْطِقِ الرَّجُلِ إذا فُهِمَ)[2]. قال مقاتلُ:(كَانَ سُلَيْمَانُ جَالِساً إذْ مَرَّ بِهِ طَائِرٌ، فَقَالَ لِجُلَسَائِهِ: هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ هَذا الطَّائِرُ؟ قَالُوا:لاَ! قَالَ: إنَّهُ قَالَ لِي: السَّلاَمُ عَلَيْكَ أيُّهَا الْمَلِكُ الْمُسَلَّطُ عَلَى بَنِي إسْرَائِيْلَ. وَمَرَّ سُلَيْمَانُ ذاتَ يَوْمٍ عَلَى بُلْبُلٍ فَوْقَ شَجَرَةٍ يُحَرِّكُ رَاسَهُ وَيُمِيْلُ ذنَبَهُ وَيَصِيْحُ، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: هَلْ تَدْرُونَ مَا يَقُولُ هَذا الْبُلْبُلُ ؟ قَالُوا: اللهُ أعْلَمُ! قَالَ: إنَّهُ يَقُولُ: أكَلْتُ نِصْفَ ثَمَرَةٍ فَعَلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ)[3].

وعن الكلبيِّ قال: (صَاحَ وَرَشَانٌ عِنْدَ سُلَيْمَانَ، فَقَالَ: أتَدْرُونَ مَا يَقُولُ ؟ قَالُوا: لاَ! قَالَ: إنَّهُ يَقُولُ: لِدُو لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ. وَصَاحَتْ فَاخِتَةٌ عِنْدَ سُلَيْمَانَ؛ فَقَالَ: إنَّهَا تَقُولُ: لَيْتَ ذا الْخَلْقِ لَمْ يُخْلَقُوا، وَلَيْتَهُمْ إذا خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذا خُلِقُوا. وَصَاحَ هُدْهُدٌ فَقَالَ: إنَّهُ يَقُولُ: كَمَا تُدِيْنُ تُدَانُ، وَصَاحَ طَاوُوسٌ عِنْدَهُ؛ فَقَالَ: إنَّهُ يَقُولُ: مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ. وَصَاحَ صُرَدٌ عِنْدَهُ؛ فَقَالَ: إنَّهُ يَقُولُ: اسْتَغْفِرُوا اللهَ يَا مُذْنِبِيْنَ. وَصَاحَ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء: الحديث(٤١٩٥). وتعقب الذهبي هذا الخبر فقال: (هذا باطل).

(٢) معاني القرآن: ج ٢ ص٢٨٨. وفي أصل المخطوط: (منطقُ الطيرِ كلاَمُهُ) وضبط النص كما في معاني القرآن للفراء.

(٣) ذكره القرطبي أيضاً عن مقاتل؛ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١٦٥. والبغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٤ عن فرقد السَّبخي.

خِطَّانٌ عِنْدَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: قَدِّمُوا خَيْراً تَجِدُوهُ. وَهَدَرَتْ حَمَامَةٌ؛ فَقَالَ: إِنَّهَا تَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِي الأَعْلَى مِلْءَ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ. وَصَاحَ قُمْرِيٌّ؛ فَقَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِي الْقُدُّوسُ. وَصَاحَ بَازٌ فَقَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِي وَبِحَمْدِهِ. وَالضِّفْدَعُ يَقُولُ: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ. وَالْقَطَاةُ تَقُولُ: مَنْ سَكَتَ سَلِمَ. وَالْحَدَاةُ تَقُولُ: سُبْحَانَ الْمَذْكُور بِكُلِّ لِسَانٍ)[1].

وعن مكحول قال: (صَاحَ دَرَّاجٌ عِنْدَ سُلَيْمَانَ عليه السلام فَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ ؟ قَالُوا: لاَ! قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[2]. وعن الحسَنِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:[إِنَّ الدِّيْكَ يَقُولُ فِي صِيَاحِهِ: اذْكُرُوا اللهَ يَا غَافِلِيْنَ][2]. وعنِ الحسنِ بنِ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: (إِذا صَاحَ النَّسْرُ قَالَ: يَا ابْنَ آدَمَ عِشْ مَا عِشْتَ آخِرُهُ الْمَوْتُ، وَإِذا صَاحَ الْعُقَابُ قَالَ: فِي الْبُعْدِ مِنَ النَّاسِ أنسٌ، وَإِذا صَاحَ الْقَنْبَرُ قَالَ: إِلَهِي الْعَنْ مُبْغِضِي آلَ مُحَمَّدٍ)[3].

ورُوِي أنَّ قَوماً من أهلِ العِرَاقِ مِن أهل الكتاب وَفَدُوا على ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما؛ فقال لهُ: أنتَ ابنُ عمِّ الذي يزعمُ أنه رسولُ اللهِ ﷺ؟ قالَ: (نَعَمْ). قالُوا: يا قومِ قد عرَفْنا الكُتُبَ، وعرَفْنا ما فيها ونحنُ نسألُكَ عن سبعةِ أشياءَ، فإنْ أنتَ أخبرتَنا بها آمَنَّا وصدَّقنا، قالَ: (اسْأَلُونِي تَفقُّهاً وَلاَ تَسْأَلُونِي تَعَنُّتاً). قالوا: أخبرْنا ما يقولُ القَنْبَرُ في صفيرِهِ والزُّرزُورُ والدُّراجُ؟ وما يقولُ الدِّيكُ في صياحهِ؟ والضِّفدعُ في نَقِيْقِهِ؟ والحِمَارُ في نَهِيْقِهِ، والفَرَسُ في صهيلهِ؟

فقَالَ: (أمَّا الْقَنْبَرُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْ مُبْغِضِي مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ. وأمَّا الزُّرْزُورُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أسْأَلُكَ قُوتَ يَوْمٍ بِيَوْمٍ يَا رَزَّاقُ. وَأمَّا الدُّرَاجُ فَيَقُولُ: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى. وأمَّا الدِّيْكُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: اذْكُرُوا اللهَ يَا غَافِلِيْنَ. وَأمَّا الضِّفْدَعُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: سُبْحَانَ الْمَعْبُودِ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ. وَأمَّا الْحِمَارُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٣. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١٦٥-١٦٦، كله من كلام فرقد السبخي.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٤.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص١٦٦.

الْعَنِ الْعَشَّارَ. وَأمَّا الْفَرَسُ فَإنَّـهُ يَقُـولُ ((إذا الْتَقَـى الصَّفَّـان))[(١)]: سُـبُّوحٌ قُـدُّوسٌ رَبُّ الْمَلاَئِكَةِ وَالرُّوحِ). فقَالُوا: يا ابنَ عبَّاس نشهدُ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ مُحَمَّـداً رسـولُ اللهِ، وحَسُنَ إسلامُهم[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ يعني من أمرِ الدُّنيـا والآخـرةِ، وقـال مقاتلُ: (يَعْنِي الْمُلْكَ وَالنُّبُوَّةَ وَتَسْخِيْرَ الرِّيَاحِ وَالْجِنِّ وَالشَّـيَاطِيْنِ)[(٣)]. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي الزيادةُ الظَّاهرة على ما أُعْطِي غيرُنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ ﴾ ؛ أي جُمِعَ له من كلِّ جهةٍ جماعةٌ من الجنِّ والإنس والطَّير. والْحَشْرُ: جمعُ الْخَلْقِ من موضـعٍ إلى موضعٍ، ومنهُ الْمَحْشَرُ لِعَرَصَاتِ يَوْمَ القيامةِ. قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ مُعَسْـكَرُ سُـلَيْمَانَ مِائَةُ فَرْسَخٍ، خَمْسَةٌ وَعُشْرُونَ فَرْسَـخاً لِلإنْـسِ، وَخَمْسَـةٌ وَعُشْـرُونَ فَرْسَـخاً لِلجِـنِّ، وَخَمْسَةٌ وَعُشْرُونَ فَرْسَخاً لِلسِّبَاعِ، وَخَمْسَةٌ وَعُشْرُونَ فَرْسَخاً لِلطَّيْرِ)[(٤)].

ووجهُ تسخيرِ الطَّير له أنَّ اللهَ زادَ في عقُولِها حتى كانت تفهمُ مـا يقـالُ ويـراد منها، وتقبلُ الأدبَ وتخافُ وتحذر، وكان لسليمانَ عليه السلام ألفُ بيتٍ مـن قَوَاريْـرَ علـى الخشب، فيها ثلاثمائة صريحة، وسَبْعُمائة سَرِيَّةٍ، فيأمرُ الرِّيحَ العاصفَ فترفعـه، ويـأمرُ الرَّحا فتسيرُ به، فأوحَى اللهُ وهو يسيرُ بين السَّماء والأرض: أنِّي قَدْ زدْتُ فِي مُلْكِـكَ أنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ أحَدٌ مِنَ الْخَلاَئِقِ إلاَّ جَاءَتْ بِهِ الرِّيْحُ فَأَخْبَرَتْكَ بِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ قال قتادةُ: (كَانَ عَلَى كُلِّ صِنْفٍ مِنْ جُنُودِهِ وَزَعَة تَردُ أوْلاَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ لِيَجْتَمِعُوا وَيَتَلاَحَقُوا)[(٥)] وهو من الوَزْعِ الـذي هو الكَفُّ، يقالُ: وَزَعْتُهُ أزَعُهُ وَزْعاً، والشَّيْبُ وَازِعٌ؛ أي مانعٌ. قال الليـثُ: (وَالْـوَازِعُ

---

(١) ما بين (( )) سقطت من المخطوط.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٤.

(٣) قاله مقاتل بمعناه في التفسير: ج ٢ ص٤٧١-٤٧٢.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التواريخ : باب تسخير سليمان عليه السلام الإنس: الحديث (٤١٩٧) عن مُحمَّد بن كعب وسكت عنه.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٤٥٢). وينظر: المحرر الوجيز: ص١٤١٦.

فِي الْحَرْب الْمُوَكَّلُ بالصُّفُوفِ يَزَعُ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ)[١].

ومعنى الآيةِ: (فَهُمْ يُوزَعُونَ) أي كان يُحْبَسُ أوَّلُهم على آخرِهم ليتلاَحقُوا، وكانوا يجتمعونَ ويتفرَّقون ويقومون في مسيرِهم على مراتِبهم. وَالإِيْزَاعُ هو المنعُ من الذهاب، والوَازعُ هو القيِّمُ بأَمْرِ الْجَيْشِ، ومن ذلكَ قولُ الحسنِ:(لاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ وَزْعَةٍ)[٢] أي مِن سُلْطَانٍ يَكُفُّهُمْ، ويقالُ: لا بدَّ للسُّلطان من وَزْعَةٍ؛ أي مَن يَمْنَعُ الناسَ عنهُ. وأصلُ الوَزْعِ الكَفُّ والْمَنْعُ، ومنهُ الحديثُ: [إنَّ اللهَ لَيَزَعُ بالسُّلْطَانِ أكْثَرَ مِمَّا يَزَعُ بالْقُرْآنِ][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ ﴾ ؛ أي سَارُوا جميعاً حتَّى إذا وصَلُوا إلى وادٍ كثيرِ النَّملِ، قال كعبٌ: (هُوَ وَادٍ بالطَّائِفِ)، وقال قتادةُ ومقاتل: (هُوَ بالشَّامِ)[٤]، ﴿ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ ﴾ ؛ لأصحابها على وَجْهِ التَّحذيرِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ ﴾ ؛ أي منَازلَكم، ﴿ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ ؛ أي لا يَكْسِرَنَّكُمْ سليمانُ وجنودهُ، ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ بذلكَ؛ أي وهم لا يَعْلَمُونَ بحَطْمِكُمْ ووَطْئِكُمْ، فطارَتِ الريحُ بكلامِ النَّملةِ، فأدخلتْهُ في أذُنِ سُليمانَ عليه السلام ليسمَعَها، ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا ﴾ ؛ وكان أكثرُ ضَحِكِ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ التَّبَسُّمُ.

ونُصِبَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (ضَاحِكاً) على الحال، وسببُ ضَحِكِهِ مِن قَولِها التعجُّبُ، وذلك أنَّ الإنسانَ إذا رأى ما لا عَهْدَ له بهِ عَجِبَ وضَحِكَ. قال مقاتلُ: (ثُمَّ حَمَدَ رَبَّهُ حِينَ عَلَّمَهُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَسَمِعَ كَلاَمَ النَّمْلَةِ)[٥] ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ

---

(١) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١٦٧ معلقاً.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٤١٦.

(٣) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن: ج ٣ ص١٤٥٠؛ قال: (رَوَى أشْهَبُ قَالَ: قَالَ مَالِكُ بْنُ أنس: قَالَ عُثْمَانُ: (مَا يَزَعُ النَّاسَ السُّلْطَانُ، أكْثَرَ مِمَّا يَزَعُهُم الْقُرْآنُ). والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١٦٨.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٦١٩٨).

(٥) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٧٢.

نِعْمَتَكَ ﴾ ؛ يقالُ: فلانٌ مُوزَعٌ بكَذا؛ اي مُولَعٌ به، وَقِيْلَ: معناهُ: وَفِّقْنِي انْ اشْكُرَ نِعْمَتَكَ، ﴿ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾ وَ، وَفِّقْنِي، ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ.

فإن قِيْلَ: بماذا عرفَتِ النملةُ سليمانَ، وعلى أيِّ سبيلٍ كانت معرفتُها بهِ؟ قُلْنَا: إنَّها كانت مأمورةً بطاعتهِ، فلا بدَّ أن تعرفَ مَن أمِرَتْ بطاعتهِ، ولا يمنع أنْ تعرفَ الدوابُّ والبهائمُ هذا الضربَ، كما تعرفُ كثيراً من منافعِها ومضارِّها، والنملةُ فيها من الفَهْمِ فوقَ هذا، فإنَّا نشاهدُ صُنْعَهَا في إدخال رزْقِهَا وحفظهِ وتعهُّدهِ، حتى إنَّها تكسرُ ما تجمعهُ من الحبوب نصفَين نصفين لئَلاَّ تَنْبُتَ، إلاَّ اللُّوَيْزَةَ فإنَّها تكسِرُها أربعَ قِطَعٍ؛ لأنَّها إذا كسرَتْها نِصفَين تنبتُ، فالذي هَدَاها إلى هذهِ الأمور هو الذي ألْهَمَهَا معرفةَ سُليمانَ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ ﴾ ؛ أي طَلَبَهَا وبحثَ عنها، والطَّيْرُ اسمٌ جامع للجِنْس، وكانت الطيرُ تَصْحَبُ سليمانَ في سفرهِ، تُظِلُّهُ بأجنِحَتِها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ ؛ أي قال: مَا الْهُدْهُدُ لا أراهُ أعْيُناً؛ أي لَحِظْتُهُ فلم تَرَهُ بين الطيرِ، ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

واختلَفُوا في سببِ تفقُّدهِ عن حال الْهُدْهُدِ. قال ابنُ عبَّاس:(كَانَ الْهُدْهُدُ يَرَى الْمَاءَ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ كَمَا تَرَاهُ مِنَ الزُّجَاجِ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ إذا احْتَاجَ إلَى الْمَاءِ فِي مَسِيْرِهِ، أمَرَ الْهُدْهُدَ حَتَّى يَنْظُرَ إلَى أقْرَب مَوْضِعٍ مِنَ الْمَاءِ، فَاحْتَاجَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ إلَى الْمَاءِ، فَلِذلِكَ تَعَرَّفَ عَنْ حَالِ الْهُدْهُدِ).

قال عكرمةُ[(١)]: قُلْتُ: يَا ابْنَ عَبَّاس؛ كَيْفَ يَرَى الْهُدْهُدُ الْمَاءَ وَإنَّ صَيَّادَنَا يَأْخُذُونَهُ بالْفَخِّ فَلاَ يَرَى الْخَيْطَ وَالشَّبَكَةَ ؟! قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (مَا ألْقَى هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَلَى لِسَانِكَ إلاَّ الشَّيْطَانُ، أمَا تَعْلَمُ أنَّهُ إذا جَاءَ الْقَدَرُ ذهَبَ الْبَصَرُ). وعن سعيدِ بن جُبير: (أنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ تَفَقُّدِ سُلَيْمَانَ الْهُدْهُدَ، فَقَالَ: لأنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ مَسَافَةَ الْمَاءِ. وَأنَّ الصَّبِيَّ يَضَعُ لَهُ الْفَخَّ فَيُغَطِّي عَلَيْهِ بشَيْءٍ مِنَ التُّرَاب فَيَجِيْءُ فَيَقَعُ فِيْهِ، فَقَالَ:

---

(١) في جامع البيان: مج ١١ ج١٩ ص١٧٥: (قال له نافع بن الأزرق).

وَيْحَكَ! أمَا عَلِمْتَ أنَّ الْقَدَرَ يَحُولُ دُونَ الْبَصَرِ). ورُوي أنه قالَ:(إذا نَزَلَ القضاءُ والقَدَرُ ذهَبَ اللُّبُّ وعَمِيَ البصرُ)[1].

وقال وهبُ: (كَانَ سَبَبُ تَفَقُّدِهِ لَهُ لإِخْلاَلِهِ بالنَّوْبَةِ[2]، كَمَا يَتَعَرَّفُ الْوَالِي عَنْ رَعِيَّتِهِ)[3]، ويقالُ: كانتِ الطيرُ تُظِلُّهُ من الشَّمسِ، كانت تقفُ في الهواءِ مصطفَّةً موصولةَ الأجنحةِ ومتقاربةً، فلما أخْلَى الهدهدُ بمكانهِ بَانَ ذلك لوقوعِ الشَّمسِ عليه، فلذلكَ تعرَّفَ عن حالهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ؛ قال المفسِّرون: تَعْذِيْبُهُ إيَّاهُ أن ينتفَ ريشَهُ ثُم يلقيهِ في الشَّمسِ فلا يَمنَعُ مِن نَمْلَةٍ ولا مِن شيءٍ من هَوَامِّ الأرضِ. ويقالُ: هو قصُّ جناحهِ، ويجوزُ أن يُعَاقَبَ بأن لا يجري عليه القلمُ على وجهِ التأديب، كما يؤدِّبُ الأبُ ولده الصغير. وَقِيْلَ: تعذيبهُ أن يَنْتِفَ ريشَهُ ويدعَهُ مُمَعَّطاً[4] في بيتِ النملِ فيلدغوهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: لأَشُدَّنَّ رجلَيْهِ والقيَهُ في الشَّمس، وقِيْلَ: لأَطْلِيَنَّهُ بالقَطْرِ وأجعلَهُ في الشَّمسِ. وَقِيْلَ: لأفرِّقنَّ بينَهُ وبين إلْفِهِ. وَقِيْلَ: لأمنعنَّهُ من خدمَتِي.

قولهُ تعالى: ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ ؛ أي لأقْطَعَنَّ حلْقَهُ، ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي بحجَّةٍ ظاهرة توجبُ عُذْرَهُ في غيبتهِ، وقصَّتُهُ: أنَّ سليمانَ عليه السلام لَمَّا فرغَ من بناءِ بيت المقدسِ عَزَمَ على الخروجِ إلى أرضِ الْحَرَمِ، فتجهَّزَ للسيرِ واستصحبَ مِن الْجِنِّ والإنسِ والشَّياطينِ والطُّيور والوحوشِ ما بلغَ معسكرهُ مِائَةَ فرسخٍ، وأمرَ الرِّيحَ فحملَتْهم، فلما وَافَى الحرمَ أقامَ به ما شاءَ اللهُ أن يُقيمَ، وكان ينحرُ كلَّ يومٍ مدَّةَ إقامتهِ خمسةَ آلافِ ناقة، ويذبحُ خمسةَ آلاف ثورٍ، وعشرون ألفَ شاةٍ، وأقامَ بمكَّةَ حتى قضَى نُسُكَهُ.

---

(١) هذه الروايات أخرجها الطبري في جامع البيان: الأثار (٢٠٤٥٩-٢٠٤٦٠). وابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٤١٧. والبغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٦.

(٢) في المخطوط: (لإجلاله نبوته).

(٣) ذكره الطبري في جامع البيان: مج ١١ ج١٩ ص١٧٦ من غير إسناد.

(٤) في مختار الصحاح: ص٦٢٨: (معط): (رَجُلٌ (أمْعَطُ) بَيِّنُ الْمَعَطِ، وَهُوَ الَّذِي لاَ شَعْرَ فِي جَسَدِهِ، و(امْتَعَطَ) شَعْرُهُ و(تَمَعَّطَ) أي تَسَاقَطَ مِن دَاءٍ وَنَحوِهِ).

ثُم سارَ إلى أرضِ اليمن فوافَى صنعاءَ اليمنِ وقتَ الزَّوال، فأحبَّ النُّزولَ ليُصَلِّي ويتغدَّى، فطلَبُوا الماءَ فلم يجدوهُ، وكان الهدهدُ دليلَهُ على الماءِ، فلما نَزَلَ سليمانُ قال الهدهدُ: إنَّ سليمانَ قد اشتغل بالنُّزول، فارتفعَ الهدهدُ إلى جهةِ السَّماء، فنظرَ يَميناً وشِمالاً فرأى خُضْرَةَ بساتين مَأْربَ في أرضِ بلقيسَ، فمالَ إلى جهةِ الْخُضْرَةِ، فالتقَى بهُدهُدٍ من هدهُدِ سَبَأ، فقال لهُ: مِن أينَ أقبلْتَ وأينَ تريدُ ؟ قال: أقبلتُ من الشَّامِ مع نبيِّ الله سُليمانَ عليه السلام، قال لهُ: ومَن سليمانُ ؟ قال: مَلِكُ الإنسِ والجنِّ والشياطينِ والوحوشِ والطُّيور. ثُم قال له هدهدُ سُليمانَ: وأنتَ مِن أينَ أقبلتَ ؟ قال: مِن هذه البلادِ، قال: ومَن مَلِكُهَا ؟ قال: امرأةٌ يقالُ لها بَلْقِيْسُ؛ مَلَكَتِ اليمنَ كلَّها وتحتَها اثنا عشرَ ألفَ قائدٍ، مع كلِّ قائدٍ مائة ألفِ مقاتل، فهل أنتَ منطلقٌ معي ننظرُ إلى مُلْكِها ؟ قال: أخافُ أن يَفْقِدَنِي سليمانُ في وقتِ الصَّلاة إذا احتاجَ إلى الماءِ، فقال لهُ هدهدُ بلقيس: إنَّ صاحبَكم يسرُّهُ أن تأتيهِ بخبرِ هذه الملكةِ. فانطلقَ معهُ ونظرَ إلى بلقيسَ ومُلكِها، وما رجعَ إلاَّ وقتَ العصرِ.

قال: فلما نزلَ سليمانُ ودخلَ عليه وقتُ الصَّلاة، طلب الهدهدَ لأنه نزلَ غير ماءٍ، فسألَ الإنسَ عن الماءِ فقالُوا: ما نعلمُ هنا ماءً، فسألَ الجنَّ والشياطينَ فلم يعلَمُوا، ففقدَ الهدهد فلم يجدْهُ، فدعا بعفريتِ الطيرِ النِّسْر، فسألَهُ عن الهدهدِ، فقال: ما أدري أينَ ذهبَ، فَغَضِبَ سليمانُ عند ذلك، وقالَ (لأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيْداً أوْ لأَذْبَحَنَّهُ أوْ لَيَأْتِيَنِي بسُلْطَانٍ مُبِيْنٍ) أي بحجَّة.

ثُم دعَا بالعقاب وقال لهُ: عَلَيَّ بالهدهدِ الساعةَ، فرفعَ العقابُ نفسه حتى التزقَ بالهواءِ وارتفعَ حتى نظرَ إلى الدُّنيا كالقَصْعَةِ في يَدَي أحدِكم، ثُم التَفَتَ يَميناً وشِمالاً، فإذا هو بالهدهُدِ مقبلٌ من نحوِ اليَمَنِ، فانقضَّ العقابُ نحوه يريدهُ، فلما رأى الهدهدُ ذلك عَلِمَ أن العُقابَ يقصدهُ بسوءٍ، فناشده اللهَ تعالى، فقال لهُ: بحَقِّ الذي قوَّاكَ وأقدركَ عَلَيَّ إلاَّ رَحِمْتَنِي ولا تتعرض لِي بسوءٍ، فولَّى العقابُ عنه وهو يقولُ له: ثَكِلَتْكَ أمُّكَ! إنَّ نبي اللهِ قد حلفَ لَيُعَذِّبَنَّكَ أو لَيَذْبَحَنَّكَ، ثُم طارَا متوجِّهين نحوَ سُليمانَ.

فلما وصلَ إليه قال له العُقابُ: قد جئتُكَ يا نبيَّ الله، فلما قَرَّبَ إليه الهدهدَ رفع رأسَهُ وأرخَى ذنَبَهُ وجناحيه يَجرُّهُمَا على الأرضِ تَوَاضُعاً لسليمانَ، فلما دَنَا

منهُ، قال لهُ: أيْنَ كُنْتَ؟ لأُعَذِّبَنَّكَ عَذاباً شَديداً، فقال لـه الهدهـدُ: يـا نـبيَّ اللهِ؛ اذكُـرْ وقوفَكَ بين يَدَي اللهِ سُبْحَانَهُ، فلما سَمع ذلك سليمانُ ارتعدت فَرَائِصُهُ فَعَفَا عَنْهُ.

ثُم قالَ له: ما أبْطَأَكَ عنِّي؟ فقال: أحَطْتُ بما لَمْ تُحِطْ بهِ، وذلـكَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ؛ أي لَم يلبَثْ إلاّ يَسيراً حتى جاءَ الهدهـدُ، ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ ؛ أي علمتُ شيئاً من جميعِ جهاته، وَقِيْلَ:معناهُ: اطَّلَعْتُ على ما لَم تَطَّلِعْ عليهِ، وجِئْتُكَ بأمرٍ لَم يُخبرْكَ بـه الجـنُّ والإنـسُ، وبَلَغْـتُ مـا لَـم تَبْلُغْـهُ أنـتَ ولا جميعُ جنودكَ، ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي بخبرِ صـدقٍ ولا شكَّ فيه.

وقُرئ (مِنْ سَبَإٍ) بالتنوين. قال الزجَّاجُ: (مَنْ لَمْ يَصْرِفْهُ فَلأَنَّهُ اسْمُ مَدِيْنَةٍ تُعْرَفُ مِنَ الْيَمَنِ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَنْعَاءَ مَسِيْرَةُ ثَلاَثَةِ أيَّام، وَمَنْ صَرَفَهُ؛ فَلأَنَّهُ اسْمُ الْبَلَدِ، وَيَكُـونُ مُذكَّراً سُمِّيَ بهِ مُذكَّر)[1]. وفِي الحديثِ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُـئِلَ عَـنْ سَـبَإٍ، فَقَـالَ: [كَـانَ رَجُلاً لَهُ عَشْرَةٌ مِنَ الْبَنِيْنِ، تَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَتَشَامَّ أرْبَعَةٌ...][2]. وسنذكرُ أسمـاءَهـم وقصَّتَهم في سورةِ سَبَأ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

قرأ عاصمُ ويعقوب (فَمَكَثَ) بفتح الكافِ، وقراءةُ العامَّة بضمِّ الكاف، وهمـا لُغتان.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ ؛ واسْـمُها بلقيسُ بنـتُ الشَّرْحِ، وَقِيْلَ: شِراحيلُ بن ذي جَدَن[3]، وكان مَلِكاً عظيمَ الشَّـأن، وكـان قـد مَلَـكَ أرضَ اليمنِ كلِّها، وكان يقولُ لِمُلوكِ الآفاقِ: ليس أحـدٌ منكـم كُفْـؤٌ لِـي، وأبـى أن

---

(١) بمعناه؛ قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٨٧.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبـير: ج ٢٢ ص٢٠٢٥: الحديـث (٦٣٩). في مجمـع الزوائـد: ج ٧ ص٩٤؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني علي بـن الحسن؛ لم أعرفه).

(٣) تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ج ١ ص٢٨٩: تاريخ ما قبل الهجرة؛ قال الطبري: (وهـي - فيما يقول أهل الأنساب - يلمقة ابنـة اليشـرح؛ ويقـول بعضـهم: ابنـة أيلـي شـرح، ويقـول بعضهم: ابنة ذي شرخ بن ذي جَدَن بن أيلي شرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بـن سـبأ بـن يشجب بن يعرب بن قحطان).

يتزوج منهم، فزوَّجُوهُ امرأةً من الجنِّ يقالُ لَها: ريحانة بنتُ السكن، فولـدت بَلْقِيْـسَ، ولَم يكن لهُ ولدٌ غيرَها(١).

وعن النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: [كَانَ أحَدُهُمْ يُؤْتَى بَلْقِيْسَ جِنِّيّاً](٢) فَلَمَّا مَـاتَ أبُوهَـا وَلَمْ يُخَلِّفْ أحَداً غَيْرَهَا طَمِعَتْ فِي الْمُلْكِ، فَطَلَبَتْ مِنْ قَوْمِهَا أنْ يُبَايعُوهَـا، فَأَطَاعَـهَا قَوْمٌ وَعَصَاهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، وَاخْتَارُواْ عَلَيْهَا رَجُلاً فَمَلَّكُوهُ عَلَيْهِمْ، فَافْتَرَقُواْ فِرْقَتَيْنِ، كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ اسْتَوْلَتْ بِمُلْكِهَا عَلَى طَرَفٍ مِنْ أرْضِ الْيَمَنِ.

ثُمَّ إنَّ هَذا الْمَلِكَ الَّذِي مَلَّكُوهُ أسَاءَ السِّيْرَةَ فِي أهْلِ مَمْلَكَتِهِ حَتَّى كَانَ يَمُدُّ يَدَهُ إلَى حُرَمِ رَعِيَّتِهِ وَيَفْجُرُ بهنَّ، فَأَرَادَ أصْحَابُهُ أنْ يُخرجُوهُ فَلَمْ يَقْدِرُواْ، فَلَمَّا رَأتْ بَلْقِيْسُ ذلِكَ أدْرَكَتْهَا الْغَيْرَةُ، فَأَرْسَلَتْ إلَيْهِ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَيْهِ، فَأَجَابَهَا إلَى ذلِـكَ، وَقَـالَ: مَـا مَنَعَنِي أنْ أبْدَاكِ بالْخِطْبَةِ إلاَّ الْيَأسُ مِنْكِ، فَقَالَتْ: إنِّي رَاغِبَةٌ إلَيْكَ لأنَّكَ كُفْـؤٌ كَرِيْـمٌ، فَاجْمَعْ رجَالَ قَوْمي فَاخْطِبْنِي إلَيْهِمْ، فَجَمَعَهُمْ فَخَطَبَهَا إلَيْهِمْ فَقَـالُواْ: لاَ نَرَاهَـا تَفْعَـلُ هَذا، قَالَ: إنَّهَا هِيَ الَّتِي ابْتَدَأتْنِي، فَذكَرُوا لَهَا ذلِكَ، فَقَالَتْ: نَعَمْ؛ لأَجْلِ الْوَلَـدِ، وَلَـمْ أزَلْ كُنْتُ كَارِهَةً لِذلِكَ، فَالآنَ قَدْ رَضِيْتُ، فَزَوَّجُوهَا مِنْهُ.

فَلَمَّا زُفَّتْ إلَيْهِ خَرَجَتْ فِي نَاسٍ كَثِيْرٍ مِنْ خَدَمِهَا وَحَشَمِهَا، فَلَمَّا جَاءَتْـهُ سَـقَتْهُ الْخَمْرَ حَتَّى سَكِرَ، ثُمَّ حَزَّتْ رَأسَهُ وَانْصَرَفَتْ مِنَ اللَّيْلِ إلَى مَنْزِلِهَا، فَلَمَّا أصْبَـحَ رَأوا الْمَلِكَ قَتِيْلاً وَرَأسُهُ مَنْصُوباً عَلَى رَأسِ دَارِهَا، فَعَلِمُوا أنَّ تِلْكَ الْمُنَاكَحَةَ كَـانَتْ مَكْـراً وَخَدِيْعَةً مِنْهَا، فَاجْتَمَعُواْ إلَيْهَا وَقَالُواْ لَهَا: أنْتِ أحَقُّ بهَذا الْمُلْكِ مِـنْ غَـيْرِكِ، فَقَـالَتْ: لَوْلاَ الْعَارُ وَالشَّنَارُ مَا قَتَلْتُهُ، وَلَكِنْ عَمَّ فَسَادُهُ وَأخَذتْنِي الْحَمِيَّةُ حَتَّى فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ، فَمَلَّكُوهَا فَأَسَّسَتْ أمْرَهَا(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ قال عطاءُ:(مِنْ زِيْنَةِ الدُّنْيَا مِـنَ الْمَالِ وَالْجُنُودِ)، ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ، أي سريرٌ من ذهَـبٍ طولـهُ ثمـانونَ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٧.

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٣٥١؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ في العظمـة وابـن مردويه وابن عساكر عن أبي هريرة). وفي في العظمة: ص٤٢١: الحديث (١٦/ ١٦٠٨).

(٣) ذكر مثله البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٧-٩٥٨.

ذِرَاعاً وعَرْضُهُ أربعونَ ذِراعاً وارتفاعهُ في السَّماء ثلاثونَ ذِراعاً مضروبٌ بالذهب مُكَلَّلٌ بالدُّرِّ والياقوتِ الأحمرِ والزُّبُرْجُدُ الأخضرُ. قال مجاهدُ: (وَكَانَ تَحْتَهَا اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ قَيْلٍ - وَالْقَيْلُ بلُغَةِ الْيَمَنِ - تَحْتَ يَدَي كُلِّ قَيْلٍ أَلْفُ مُقَاتِلٍ)[١]. وَقِيلَ: كان سريرُها له أربعُ قوائمَ: قائمةٌ من ياقوتٍ أخضر، وقائمةٌ من ياقوتٍ أحمر، وقائمةٌ من زمُرُّد، وقائمةٌ من دُرٍّ، وصفائحُ السرير من ذهبٍ، وعليه سبعةُ أبياتٍ لكلِّ بيتٍ بابٌ مغلَقٌ[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (كَانَ الْقَوْمُ مَجُوساً وَكَانُوا يَتَعَطَّفُونَ[٣] عَلَى وُجُوهِهِمْ مُوَاجِهِيْنَ لِلشَّمْسِ)، وقولهُ تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ؛ أي حَسَّنَ لَهم قبيحَ أعمالِهم، ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ ؛ أي عن الطريقِ، ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ ؛ إلى طريق الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يجوزُ أن يكون ابتداءُ خطابٍ من اللهِ، ويجوزُ أن يكون من قولِ الْهُدْهُدِ أو من قولِ سُليمان.

قرأ الكسائيُّ والأعرجُ ويعقوب وحميدُ وأبو جعفر: (أَلاَ يَسْجُدُوا) بالتخفيف: أَلاَ يا هؤلاءِ اسْجُدُوا، جعلوهُ من أمرِ الله مستأنفاً، وحذفُوا (هَؤُلاَءِ) اكتفاءً بدلالةِ (يَا) عليها، فعلى هذه القراءةِ (اسْجُدُوا) في موضع جزمٍ على الأمرِ والوقفُ عليه (أَلاَ يَا)، ثُم يبتدئُ (اسْجُدُوا)، وفي قراءةِ عبدِالله (هَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ). وقرأ الباقونَ (أَلاَّ يَسْجُدُوا) بالتشديدِ على معنى وزَيَّنَ لَهم الشيطانُ أَلاَّ يَسْجُدُوا[٤].

وقولهُ تعالى: (يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)، الْخَبْأُ: كلُّ ما غابَ عن الإدراك، مصدرٌ وقد وقعَ موقع المفعولِ كالْخَلْقِ بمعنى المخلوقِ والعلمِ بمعنى المعلومِ،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٥٠٢ و٢٠٥٠٣) عن ابن عباس.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٦٢٦١).
(٣) عَطَفَ: مَالَ. وعطَفَ الوسادةَ ثَناها. ومنعطفُ الوادي مُنْعَرَجُهُ وَمُنْحَنَاهُ.
(٤) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٣٤. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١٤١-١٤٢.

وخَبْأُ السَّموات: الأمطارُ، وخبأُ الأرضِ: النباتُ، فعلى هذا تكون (فِي) بمعنى (مِن). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي يعلمُ ما يُخفون في قُلوبهم، وما يُعلِنون بألسنتِهم. وفي قراءةِ الكسائيِّ بالتاء، لأنَّ أولَ الآية خطابٌ على قراءتهِ بتخفيف (ألاَ) يا اسجُدوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أراد بالعرشِ في هذه الآية سريرَ الْمُلْكِ الذي عظَّمَهُ اللهُ ورفعَهُ فوقَ سَموات سبعٍ وجعلَهُ أعظمَ من السَّمواتِ والأرض، ومِن أعظم كلِّ خلقٍ، وجعل الملائكة تَحُفُّ به وترفعُ أعمالَ العباد إليهِ؛ أي هو الذي يستحقُّ العبادةَ لا غيره، وهو ربُّ العرشِ لا ملكةَ سَبَأ؛ لأن عرشَها وإن كان عَظِيماً لا يبلغُ عرشَ الله في العِظَمِ.

فلمَّا فَرَغَ الهدهدُ من كلامه، ﴿ ۞ قَالَ ﴾؛ سليمانُ للهدهدِ: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾؛ فيما أخبَرْتنا به مِن هذه القصَّة، ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ فنعذِّبُك.

ثُم كتبَ سليمانُ كِتاباً خَتَمَهُ بخَاتمٍ ودفعهُ إلى الهدهدِ، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾؛ أي إلى أهل سبأ. وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾؛ أي انصرفْ عنهم، وهذا على التقديْمِ والتأخير، تقديرهُ: ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ؛ لأن التولِّي عنهم بعد الجواب، ومعنى (فَانظُرْ مَاذا يَرْجِعُونَ) أي ماذا يردُّونَ من الجواب. وَقِيْلَ: معناهُ: (ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ) أي انْصَرِفْ عنهم قَليلاً إلى حيث لا يَرَوْنَكَ (فَانْظُرْ مَاذا يَرْجِعُونَ) أي يقولُون ويردون ويحسبون.

وكان كتابُ سُليمانَ ﵇: مِنْ عَبْدِ اللهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ إلَى بَلْقِيْسَ مَلِكَةِ سَبَأ، السَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. أمَّا بَعْدُ: فَلاَ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِيْنَ[1]. وقال ابنُ جريج: (لَمْ يَزِدْ سُلَيْمَانُ عَلَى نَصِّ اللهِ فِي كِتَابِهِ)[2]. فلمَّا كَتَبَ الكتابَ طَبَعَهُ بالْمِسْكِ وخَتَمَهُ بخاتمهِ، وقال للهُدهدِ: اذهَبْ بهِ، فأخذ الكتابَ بمنقارهِ وذهبَ به.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٤٩٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٤٩٦).

فلما أغلقَتِ المرأةُ الأبوابَ دونَها ونامَتْ على سريرِها، ووضعت المفاتيحَ تحت وسادَتِها، فأتى بها الهدهدُ من الكُوَّةِ وهي نائمةٌ مستلقية على قَفَاهَا، فألقى الكتابَ على وجهها ونبَّهَها بمنقارهِ وصوتهِ، فأخذتِ الكتابَ، وكانت كاتبةً قارئةً عربيَّة من تُبَّعِ بنِ سراحيل الْحِمْيَرِيِّ، فقرأتِ الكتابَ وناخرَ الهدهدُ غيرَ بعيدٍ، فدعت بذوي الرَّأيِ من قومِها وهم اثنا عشرَ ألفَ قائدٍ مع كلِّ قائد مائة ألفِ مُقاتلٍ.

وقال قتادةُ: (كَانَ أهْلُ مَشُورَتِهَا ثَلاَثُمِائَةٍ وَثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلاً)(١) فجَاؤُا إليها، و ﴿ قَالَتْ ﴾ لَهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي حَسَنٌ، وَقِيْلَ: شريفٌ، وَقِيْلَ: مَخْتُومٌ، قال ﷺ: [كَرَامَةُ الْكِتَابِ خَتْمُهُ](٢). وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ ﴾ ؛ أي الكتابُ مِن سليمانَ، ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ ؛ المكتوب، ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ ﴾ أي لا تَستَكبِرُوا، ﴿ عَلَىَّ ﴾ ولا ترفَعُوا عليَّ، ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ منقادِين طائعين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ألاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ) بدلٌ من (كِتَابٌ) وموضعهُ على هذا القولِ رفعٌ، ويجوزُ أن يكون نَصباً على معنى بأن لاَ تَعْلُوا عَلَيَّ. وَقِيْلَ: معنى قوله (وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) أي مُؤمِنين باللهِ ورسولهِ مِن الإسلامِ الذي هو دِينُ اللهِ. وَقِيْلَ: مُستَسْلِمين لأمْرِي فيما أدعُوكُم إليه، فإنِّي لا أدعُوكُم إلاّ إلى حقٍّ، فأطيعُوني قبلَ أن أكرِهَكُم على ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾ ؛ أي قالت لأهلِ مشورَتِها: بَيِّنُوا لِي. ما أعملُ في أمري بما هو الصوابُ، وأشِيرُوا عليَّ، فإنِّي ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا ﴾ ؛ من الأمور في ما مَضَى، ﴿ حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ تحضُرونَ فتُشاورُوني، فأشِيرُوا عليَّ في هذا الكتاب، ما أصنعُ فيهِ ؟

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٤٩٥)، بلفظ: (وكان أولو مشورتها ثلاث مائة واثني عشر).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٤ ص٥١٩: الحديث (٣٨٨٤)، وقال: (تفرد به يحيى بن طلحة). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص٩٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمَّد ابن مروان السدي الصغير، وهو متروك). وفي المخطوط بلفظ: (كريم).

﴿ قَالُوا ﴾ ؛ مُجيبينَ لها: ﴿ نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ ﴾ ؛ وعُدَّةٍ في القتال لم يبلُغْنا عدوٌّ قط، وَ نحنُ ﴿ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ؛ في الحرب، ذكَرُوا لها قوَّتَهم وشجاعَتَهم، وهذا تعريضٌ منهم بالقتال إن أمرَتْهُم بذلكَ.

ثُم قالُوا: ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ ؛ أي في القتال وتَرْكِهِ إن أمَرْتِنا بالقتال قاتلناهُ، وإنْ أمَرْتِنا بغيرِ ذلك فعلناهُ، وذلك معنى قولهِ: ﴿ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي ماذا تُشيرينَ علينا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ ؛ أي قالَتْ مُجيبةً لَهم عن التعريضِ بالقتال: إنَّ الملوكَ إذا دخَلُوا قريةً عُنْوَةً عن غفلةٍ وقِتَالٍ افْسَدُوها؛ أي خرَّبُوهَا واهْلَكُوهَا، ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ ؛ أي واهَانُوا أشرَافَها وكُبَراءَها كي يستقيمَ لَهم الأمرُ. وَقِيْلَ: معنى قولِهِ (وَجَعَلُوا أعِزَّةَ أهْلِهَا أذِلَّةً) أي بالقَتْلِ والأسرِ والاستعباد وأخذِ المال، وانتهى الكلامُ ها هنا.

قال اللهُ تصديقاً لَها: ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي كما قالَتْ هُم يفعلُونَ. ومعنى الآية: أنَّها حذرَتْهُمْ مسيرَ سُليمانَ إليهم ودخولَ بلادِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّها لَمَّا تدبَّرَتْ في أمرها قوَّتِ الْمُلاطفةَ بالْهَدايَا، وكانت مِن أولادِ الملوكِ، تعرفُ عادتِهم وحُسْنَ مواقع الهدايا عندَهم، فإنَّ ذلك هو الأولى، وكانت بلقيسُ امرأةً لَبيْبَةً أدِيْبَةً، فقالَت بهذا القول اختِبَاراً لسليمانَ: أمَلِكٌ هو أم نَبِيٌّ؟ فإن كان مَلِكاً قَبلَ الْهَدايا وتَرَكَ الوُصولَ إلى بلدِها، وإنْ كان نَبيّاً لَم يرضَ بالْهَديَّةِ، ولا يُرضِيه إلاّ أن تَتَّبعَهُ، فهيَّأتِ الْهَدايا من الْمِسْكِ والعَنْبَرِ والعُودِ وغيرِ ذلك، وأهدت له خَمسَمِائَةِ عبدٍ وخَمسَمِائَةِ جَاريةٍ، وأهدَتْ له أيضاً صِحَافَ الذهب وخَمسَمائة لَبنَةٍ من ذهبٍ وخَمسَمائة لَبنَةٍ من فِضَّةٍ، وتَاجاً مُكَلَّلاً بالدُّرِّ والياقوتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ ﴾ أي فلما جاءَ رسولُها إلى سُليمانَ بِهَدِيَهِ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لهُ سُليمانُ: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾ وأنا أكثرُ أهلِ الدُّنيا مالاً ولستُ مِمَّن يرغبُ في المالِ، ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ

نَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي إذا أهْدَى بعضُكم إلى بعضٍ فَرِحُوا بذلكَ، وأما أنا فلا أفرحُ لأنَّكم أهلُ مفاخرة ومكاثرةٍ في الدُّنيا.

وفي الخبر: أنَّ سُليمانَ عليه السلام لَمَّا عَلِمَ بالْهَدايَا قَبْلَ أنْ تَصِلَ إليه أمَرَ أنْ يضرِبَ لَبنَاتٍ مِن الذهَب أحسنَ وأجودَ مما كانَ مع رسُولِها، وأمَرَ أن تُلْقَى تلك اللَّبنَاتُ بين قوائمِ الدَّواب حتى تَرُوثَ وتَبُولَ عليها، فلمَّا رأى ذلك الرسولُ استخَفَّ الهديَّةَ التي كانت معهُ، وكانت بلقيسُ قد قالت لرسُولِها: إذا دخلْتَ عليهِ، فَإذا نَظَرَ إليكَ نَظَرَ غَضَبٍ، فَاعْلَمْ أنَّهُ مَلِكٌ فلا يَهُولَنَّكَ منظرهُ، فأنا أعَزُّ منه، وإنْ نَظَرَ إليكَ بوجهٍ طَلِقٍ فإنه نَبِيٌّ مرسلٌ، فتَفَهَّمْ قولَهُ وردَّ الجوابَ. فَانْطَلَقَ الرسولُ بالْهَدايا ومعهُ الْهُدهُدُ مُسرِعَين إلى سليمانَ.

فلمَّا وَصَلَ الرسولُ إلى سليمانَ وجَدَهُ قاعداً في مجلسهِ على سريره، وعلى يَمينه أربعةُ آلاف كرسِيٍّ من ذهبٍ، وعن يساره مثلُ ذلكَ، وقد اصطَفَّتِ الإنسُ صُفوفاً وفراسِخَ، واصطَفَّتِ الجنُّ والشياطينُ والوحوش والسِّباع والْهَوَامُّ والطيرُ كذلك صُفوفاً وفراسخَ، عن يَمينهِ ويسارهِ.

فلما رَأوا الشياطينَ نظَرُوا إلى منظرٍ فَضِيعٍ ففَزِعُوا منهم، فقالت لَهم الشياطينُ: جُوزُوا فَلا بأسَ عليكم، فكانوا يَمرُّونَ على كلِّ كرُوُوسٍ من الجنِّ والإنس والطيرِ والوحوش حتى وقَفُوا بين يدَي سليمانَ، فنظرَ إليهم نَظَراً حَسَناً بوجهٍ طَلِقٍ، وقال: ما ورَاءَكم؟

فأخبَرَهم رئيسُهم بما جَاءُوا به من الْهَدِيَّةِ، وأعطاهُ كِتَاباً من الملكةِ، فنظرَ فيه، ثُم قالَ لرسُولِها: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾؛ أي بعَسَاكِرَ لا طاقةَ لَهم بها، ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ ﴾؛ مِن بلادِهم، ﴿ أَذِلَّةً ﴾؛ مغلولةً أيْدِيهم إلى أعناقِهم، ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي مُهَانُونَ.

فلمَّا أخبَرَها الرسولُ بذلكَ، قالت: قد عرفتُ ما هذا بمَلِكٍ، وما لَنَا به من طاقةٍ ولا ينبغِي لنا مخالفتهُ، فتجهَّزَت للمسيرِ إليه، ثُم عمَدَتْ إلى سريرِها فوضعتْهُ في سبعةِ بيوت مقفلة الأبواب، بيتٌ فوقَ بيتٍ وجعلته في الطَّبقة السابعةِ، وجعلتِ الجيوشَ حولَهُ وخرجَتْ متوجِّهة إلى سليمانَ.

فجاءَ جبريلُ عليه السلام إلى سليمانَ وأخبرَهُ بمجيئها إليه، ﴿قَالَ﴾ سليمانُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾؛ أي سَريرِ مُلكِها، ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي مُؤمنينَ، وَقِيْلَ: صَاغِرين مُستَسْلِمين منقادينَ.

وإنَّما خَصَّ العرشَ بالطلب؛ لأنه أعْجَبَهُ صِفَتُهُ، فأحبَّ أن يُعاتِبَها به، ويختبرَ عقلَها به إذا رأتْهُ، تعرفهُ أم تُنكِرهُ، وأحبَّ أن يُريَها قدرةَ اللهِ في معجزةٍ يأتِي بها في عرشِها، وأحبَّ أن يأخذ عرشَها قَبْلَ أنْ تُسْلِمَ، فلا يحلُّ أخذُ مالِها بعدَ الإسلامِ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَبْلَ أنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ يعرفُ بعَمْرو، والجِنِّيُّ والعفريتُ في كلِّ شيءٍ: الْمُبَالِغُ الْحَاذِقُ، يقالُ: رَجُلٌ عِفْرٌ وعِفْرِيْتٌ وعِفْرِيَةٌ، بمعنى واحدٍ، والجمعُ عَفَاريتُ وَعَفَارَى، وَقِيْلَ: العفريتُ من الجِنِّ الْمَارِدُ القويُّ الغليظ الشديدُ. وَقِيْلَ: اسمُ العفريتِ الدَّاهِيَةُ.

قِيْلَ: إنَّها سارَتْ إلَى سليمانَ في اثني عشرَ ألفَ قِيْلٍ، تحتَ كلِّ قِيْلٍ ألُوفٌ كثيرةٌ، فخرجَ سليمانُ ذات يومٍ وإذا هو يَرَى هَرَجاً قريباً منهُ، فقال: ما هَذا ؟ قالوا: بلقيسُ، قال: قد نزلَتْ منَّا بهذا المكان. قال ابنُ عبَّاس: (وَهُوَ مَكَانٌ بَيْنَ الْحِيْرَةِ وَالْكُوفَةِ بُعَيْدَ فَرْسَخٍ) فأقبلَ حينئذ سليمانُ على جنودهِ، وقال: (أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بعَرْشِهَا قَبْلَ أنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ؟).

واختلفَ أهلُ العلمِ في السَّبب الذي لأجلِهِ أمرَ سليمانُ بإحضار عرشِها، قِيْلَ: أن يَحْرُمَ عليه أخذهُ بإسلامِها. وقال قتادةُ: (إنَّهُ أعْجَبَهُ صِفَتُهُ لَمَّا وَصَفَهُ لَهُ الْهُدْهُدُ، فَأَحَبَّ أنْ يَرَاهُ)(١)، وقال ابنُ زيدٍ: (أرَادَ أنْ يَخْتَبِرَ عَقْلَهَا بتَنْكِيْرِ عَرْشِهَا وَلِيَنْظُرَ هَلْ تَعْرِفُهُ إذا رَأتْهُ أوْ تُنْكِرُهُ)(٢)، وَقِيْلَ: لِيُرِيَها قدرةَ اللهِ وعِلْمَ سُلطانهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾؛ أي من مجلسِ قضَائِكَ، وكان سليمانُ يجلسُ للقضاء من الغَدَاةِ إلى انتصافِ النَّهار، وقال مقاتلُ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٥٢٥). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٦٣٥٩).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٤١٥) عن ابن عباس بمعناه وإسناده ضعيف.

(قَالَ الْعِفْرِيْتُ: أنَا أضَعُ قَدَمِي عِنْدَ مُنْتَهَى بَصَرِي، فَلَيْسَ شَيْءٌ أسْرَعُ مِنِّي)[١] ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي قَويٌّ على حملِهِ، أمينٌ على ما فيهِ مِن الذهب والجواهرِ. فقال سليمانُ: أُريدُ أسرعَ مِن ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ؛ وهو آصِفُ بن بَرَخْيَا كان يعلَمُ الاسمَ الأعظمَ[٢] الذي إذا دُعِيَ به أجابَ، وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين. وقال بعضُهم: هو جبريلُ، وَقِيْلَ: هو مَلَكٌ من الملائكةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ ؛ قال ابنُ جبير:(قَالَ لِسُلَيْمَانَ: انْظُرْ إلَى السَّمَاءِ، فَمَا طَرَفَ حَتَّى جَاءَ بِهِ فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ)[٣]. والمعنى: حتى يعودَ إليك طَرْفُكَ بعد مَدِّهِ إلى السَّماء. وَقِيْلَ: معناهُ: بقدرِ ما تفتحُ عينَيْكَ، وهذا الكلامُ عبارةٌ عن المبالغةِ في السُّرعةِ.

قال مُحمَّدُ بن اسحق: (انْخَرَقَ مَكَانُ عَرْشِهَا حَيْثُ هُوَ، ثُمَّ نَبَعَ بَيْنَ يَدَي سُلَيْمَانَ)[٤] ومثلُ هذا رُويَ عن ابنِ عبَّاس. وقال الكلبيُّ:(خَرَّ آصِفُ سَاجِداً وَدَعَا بالاسْمِ الأَعْظَمِ، فَغَارَ عَرْشُهَا تَحْتَ الأَرْضِ حَتَّى نَبَعَ عِنْدَ كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ)[٥].

قال أهلُ المعانِي: لا يُنْكَرُ من قدرةِ الله ((نقله)) من حيث كانَ، ثُم يوجدهُ حيث كانَ سليمانُ بالأفضلِ، لدعاءِ الذي عندَهُ علمٌ من الكتاب، ويكونُ ذلك كرامةً للوليِّ ومعجزةً للنبيِّ.

واختلَفُوا في ذلكَ الدُّعاءِ الذي دعَا بـه آصِفُ، فقـال مقاتلُ ومجاهد: (يَا ذا الْجَلاَلِ وَالإكْرَامِ)[٦]، وقال الكلبيُّ: (يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ)، وَقِيْلَ: قالَ له سليمانُ: قد رأيتُكَ تُرْجِعُ شفَتَيكَ فَمَا قُلْتَ ؟ قالَ: قلتُ إلَهِي وإلَهَ كلِّ شيء واحدٌ لا إلهَ إلاّ أنتَ

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٧٧.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٣٨١).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٣٨٨) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٣٩٠).
(٥) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٦٢، وأصله كما في الأثر السابق عند ابن أبي حاتم.
(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٥٤٣).

إئْتِ بهِ. وقال بعضُهم: هو يا إلَهَنَا وإلهَ كلِّ شيء، يـا ذا الجـلال والإكـرامِ لا إلـهَ إلاّ أنتَ. وقال الحسنُ: (اسْمُ اللهِ الأعْظَمُ: يَا رَحْمَنُ، وَذلِكَ أنَّـهُ لاَ يُسَـمَّي أحَـدٌ بـهَذيْنِ الاسْمَيْنِ عَلَى الإطْلاَق غَيْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا ﴾ ؛ أي فلمَّا رأى سليمانُ العرشَ مسـتَقِرّاً، ﴿ عِندَهُۥ ﴾ ، ثابتاً بين يديه، ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ ؛ أي هـذا التمكـينُ مـن حصول المراد من حصولُ فَضْلِ اللهِ وعطائهِ، ﴿ لِيَبْلُوَنِيٓ ﴾ ؛ أي ليَختَبرَني ويَمتَحِنَني على هذه النعمةِ، ﴿ ءَأَشْكُرُ ﴾ ؛ أأشكرهُ فيما أعطاني مـن نعمـةٍ، ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ ؛ أي أتركُ شُـكرَها، ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي مَـن شَـكَرَ نعمـةَ ربـهِ فإنَّما منفعةُ شُكْرهِ راجعٌ إلى نفسهِ، يعني ثوابَ شُكرهِ يعودُ إليـه، ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ ؛ أي تَرَكَ شُكْرَ نعمتهِ، ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ ؛ عنهُ وعن شُـكرهِ، ﴿ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ يقبلُ الشُّكْرَ؛ أي ويزيدُ عليه في النعمةِ في الدُّنيا ويثيبُ عليه في العُقبَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ ؛ قال سليمانُ: غيِّرُوا سريرَها وزيدُوا فيه وانقِصُوا منهُ حتى، ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾ ؛ أي فلما جـاءت بلقيـسُ إلى سليمانَ، قِيْلَ: أهكذا سَريرُكِ ؟ فجعلت تعرفُ وتُنكِرُ، وعَجِبَـتْ مـن حضـورهِ عنـد سُليمانَ، و ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ ؛ وقال مقاتلُ: (عَرَفَتْـهُ وَلَكِنَّـهَا شَـبَّهَتْ عَلَيْـهِ كَمَـا شَبَّهُوا عَلَيْهَا، وَلَوْ قِيْلَ لَها: أهَذا عَرْشُكِ؟ لَقَالَتْ: نَعَمْ. فقيلَ لَها: فإنه عرشُكِ، فما أغنَى عنكِ إغلاقُ الأبواب، وكانت قد خلَّفتْهُ وراءَ سـبعةِ أبـوابٍ لَمَّـا خرجـت والمفـاتيحُ معَها، فلم تُقِرَّ ولَم تُنْكِرْ، فعَلِمَ سليمانُ كمالَ عقلِها)[(١)].

وقال عكرمةُ: (كَانَتْ حَكِيْمَةً، قَالَتْ: إنْ قُلْتُ هُوَ هُوَ خَشِيْتُ أنْ أكْـذِبَ، وَإنْ قُلْتُ لاَ خَشِيْتُ أنْ أكْذِبَ)[(٢)] فلَم تقُلْ نعَمْ، ولا قالت لاَ؛ لأنه كـان يشـبهُ سـريرَها، وشكَّتْ في وصولهِ إلى سليمانَ بعد أن وضعتْهُ في أحصَنِ المواضعِ، وشكَّتْ أيضاً لِمَـا أحدثُوا فيه من التغيُّرِ.

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٧٨.
(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٦٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ هذا من قول سُليمانَ الطَّيْلاً وقومَهُ؛ أي قالُوا: وأعطينا العلمَ بها وبمُلكِها وسريرِها من قبلِ مَجيئِها، وهو ما أخبرَ به الهدهدُ من شأنِها وقصَّتِها، وقالوا: وَكُنَّا مُسْلِمِيْنَ بحمدِ الله عَزَّ وَجَلَّ من قبلِ مشاهدةِ المعجزات، وهذا قولُ مجاهدٍ.

وقال بعضُهم: هذا قولُ من بلقيسَ لَمَّا رات عرشَها قالت: وَأُوتِينَا العلمَ بصحَّة نبوَّة سليمانَ الطَّيْلاً من قَبْلِ الآيةِ في العرضِ وكنا مُسْلِمِيْنَ طائعينَ منقادين لأمرِ سُليمانَ الطَّيْلاً قبلَ أن نجيءَ إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي منعَها الإيْمَانَ باللهِ العبادةُ التي كانت عليها من عبادةِ الشَّمسِ. والمعنى: وَصَدَّهَا عَنِ الإيْمانِ والتوحيدِ الذي كانَتْ تعبدُ من دون اللهِ؛ وهو الشمسُ؛ لأنَّها نشأتْ في قومٍ لَم يكونوا يَعْرِفُونَ إلاَّ عبادةَ الشَّمسِ؛ لأنَّها كانت من الْمَجُوسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي إنَّها كانت من قومٍ يعبدونَ الشَّمسَ، فنشأتْ في ما بينِهم. وقال بعضُهم معنى قولهِ: (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ) أيْ صَدَّهَا سليمانُ؛ أي منعَها ذلك، وحالَ بينَهُ وبينَها، فعلى هذا يكون موضعُ (مَا) نصباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ﴾ ؛ وذلك أنَّ بلقيسَ لَمَّا لَم تُسلِمْ بما رأتْ من الآياتِ، أرادَ سليمانُ الطَّيْلاً أن يُرِيَها آيةً أخرَى لتُسْلِمَ، فأمرَ الجنَّ والشياطينَ أن يَبْنُوا لَها صَرْحاً؛ أي قَصْراً من زجاجٍ مُمَلَّسٍ، وأن يُجْرُوا تحتَهُ الماءَ، ويجعلُوا فيه الْمِسْكَ والزُّمُرُّدَ الأملسَ، وشجرةٌ مَرْدَاءُ؛ أي ملساءُ لا وَرَقَ لَها. ففعَلُوا ذلكَ ثُم وضَعُوا لَهُ سريراً في صدر الصَّرحِ فجلسَ عليهِ، وعكفَتْ عليه الطيرُ والجنُّ والإنس.

وَقِيْلَ: إنَّ سليمانَ الطَّيْلاً إنَّما أمَرَ ببناءِ الصَّرحِ؛ لأن الجنَّ كانوا قد أخبَروهُ أن رجلَها رجْلُ حِمَارٍ، وإنَّها شعراءُ الرِّجْلَين؛ لأن أمَّهَا كانت من الجنِّ، فخَافُوا أن يتزَوَّجَها فتُفشِي إليه أسرارُ الجنِّ، فأرادُوا أن يُزهِدُوهُ فيها بهذا الكلامِ، وقالوا لَهُ أيضاً: إنَّ في عقْلِها شيءٌ، فأرادَ أن يختبرَ حقيقةَ قولِهم أنَّ رجْلَها كحافِرِ الحمار،

ولينظُرَ إلى سَاقِها هل به شَعَرٌ كما قالوا (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ) أي القَصْـرَ، وَقِيْـلَ: صَحْنُ القصرِ.

قال الزجَّاجُ: (والصَّرْحُ: الْقَصْرُ والصَّحْنُ، يُقَالُ: هَـذِهِ سَـاحَةُ الـدَّار وصُرْحَـةُ الدار)[1]. والصَّرْحُ في اللغة: هو البَسْطُ المنكشفُ من غير سَقْفٍ، ومنهُ صَـرَّحَ بـالأمرِ إذا أفصحَ به ولَم يُكَنِّ عنهُ، والتصريحُ بخلافِ التَّضميرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَتۡهُ ﴾ ؛ أي فلمَّا رأتْ بلقيسُ الصَّرْحَ على تلك الصِّفَةِ، ﴿ حَسِبَتۡهُ لُجَّةً ﴾ ؛ واللُّجَّةُ مُعْظَـمُ المـاءِ الكثيرِ، ﴿ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ ﴾ ؛ أي رَفَعَتْ ثِيابَها عن ساقيها حتى لا تُبْتَلَّ ثيابُها على ما هو العادةُ من قصدِ الماء. قال ابـنُ عبَّاس: (لَمَّا كَشَفَتْ سَاقَهَا رَأى سُلَيْمَانُ قَدَماً لَطِيْفاً وَسَاقاً حَسَناً خَدْلَجـاً[2]، إلاَّ أنَّـهَا كَثِيْرَةُ شَعْرِ السَّاقَيْنِ). فلَمَّا رأى سليمانُ ذلـكَ صَـرَفَ بصـرَهُ عنـها، وناداهـا: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ ﴾ ، ليس هذا بماءٍ، وإنَّما هو، ﴿ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ ﴾ ؛ أي مُمَلَّسٌ من زُجاجٍ، فلا تخافِي وَاعبُري عليهِ، فلمَّا رأتِ السَّريرَ والصَّرْحَ عَلِمَتْ أنَّ مُلْكَ سليمانَ مِـن اللهِ عَـزَّ وَجَـلَّ، و﴿ قَـالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي ﴾ ؛ بعبـادةِ الشَّـمس، ﴿ وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي أخْلَصْتُ التوحيدَ.

والمعنى: أنَّ بلقيسَ اسْتَدَلَّتْ بما شاهدَتْ على وحدانيَّة اللهِ وصِحَّةِ نُبوَّةِ سُليمانَ بما رَأتْ مِن شِدَّةِ قوَّتهِ وما كان مِن تَرَسُّلِ الطيرِ له، وإحضـار عَرشِـها في أسـرعِ مـدَّة على بُعْدِ المسافةِ، وَبناءِ الصَّرحِ من القَوَارِيْرِ على وجهِ الماء، فلذلـكَ قـالَتْ: (ظَلَمْـتُ نَفْسِي وَاسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَب الْعَالَمِينَ) فتزوَّجَها سليمانُ عليه السلام.

وَقِيْلَ: لَمَّا أرادَ سليمانُ أن يتزوَّجَها كَرِهَ ذلك لِمَا رأى من كَثْرَةِ شَـعْرِ سـاقيها، فسألَ الإنسَ:ما يُذْهِبُ هذا؟ قالُوا: الْمُوسـى، فقـال: إنَّـها تقطـعُ سـاقَيها، فسـألَ الجِنَّ فقالوا: لا ندري، ثُم سألَ الشياطينَ فقال لَهم: كيفَ لِي أن أقلعَ هذا الشَّعْرَ مـن غـير

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٩٣، وقال: (وصحنةُ الدار، وباحةُ الدار، وقاعةُ الدار، هـذا كلُه في معنى الصَّحنِ).

(٢) الْخَدْلَجَةُ من النساء: الريَّـاءُ، الممتلئـة، وقيـل: هـي الضخمـة السـاقين. ينظـر: المحكـم والمحيـط الأعظم: ج ٥ ص٣٢٢: (الخدلجة)

مضَرَّةٍ للجسدِ ؟ فدلُّوه على عَمَلِ النُّورَةِ، وكانت النُّورَةُ والحمَّامَاتُ من يومئذٍ، فاتَّخَذُوا لَها النُّورَةَ والحمَّامَ، وتزَوَّجَها سليمانُ عليه السلام، فلما تزوَّجَها أحبَّها حُبّاً شديداً، وأقرَّها على مُلْكِهَا، وأمَرَ الجنَّ بأَنْ يَبْنُوا لَها بأرضِ اليَمَنِ ثلاثةَ حُصُونٍ لَم يُرَ مِثلُها حُسْناً وارتفاعاً؛ وهي: سَيْلَحِيْنَ وَسُونَ وَغَمْدَانَ، ثُم كان سليمانُ يَزُورُهَا في كلِّ شهرٍ مرَّةً بعد أن رَدَّهَا إلى مُلكِها، ويقيمُ عندَها ثلاثةَ أيَّام، وولدت لَهُ أولاداً في ما ذُكِرَ.

ورُوِيَ أنَّ رَجُلاً جاءَ إلى عبدِالله بن عُتْبَةَ وسألَهُ: هل تَزَوَّجَ سليمانُ بلقيسَ؟ فقالَ:(عَهْدِي بهَا أنْ قَالَتْ: وَأسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَب الْعَالَمِيْنَ)[١] يَعنِي أنهُ لا يَعلَمُ ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ؛ يعني بأن اعْبُدُوا اللهَ وحده، فآمَنَ به فريقٌ وكَفَرَ به فريقٌ، فجعلَ الفريقَان يختَصِمُونَ كما قالَ تعالى في سُورةِ الأعرافِ ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أتَعْلَمُونَ أنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبهِ قَالُوا إنَّا بمَا أرْسِلَ بهِ مُؤْمِنُونَ﴾[٢]. وقولُهُ تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي فإذا هُم مُؤْمِنٌ وكافرٌ، مُصَدِّقٌ ومُكَذِّبٌ، يختصمُونَ في الدِّين، كلُّ فريقٍ منهم يقولُ: الحقُّ معِي.

وقولُهُ تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ ؛ فيه ضميرٌ تقديرهُ: إنَّ المؤمنين أوْعَدُوا الكافرينَ على كُفرهم وتكذِيبهم، فاستعجلَ الكافرون العذابَ، فقال صالِحٌ عليه السلام للكافِرين المكذِّبين: (لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) أي بالعذاب قبلَ الرَّحمةِ، ولا تستعجلونَ الثَّوابَ الموعود على الإيْمان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي هَلاَّ تَستغفِرُونَ اللهَ عن كُفْرِكُمْ وتكذِيبكم، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي فلاَ تعذبون فِي الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ ؛ أي تَشَاءَمْنَا بكَ وبمَن معكَ بما لَحِقَنَا من نُقصَانِ الزَّرعِ والثمار والمياهِ. والتَّطَيُّرُ: هو التَّشَاؤُمُ، وأصلهُ: تَطَيَّرْنَا بكَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٤٤٩).

(٢) الأعراف / ٧٥ .

وبِمَنْ مَعَكَ، وذلكَ أنه قحط المطرِ عنهم وجَاءُوا فقالوا: أصَابَنَا هذا البلاءُ والضرُّ من شُؤمِكَ وشُؤْمِ أصحابكَ.

وإنَّما ذُكِرَ التطيُّرُ بلفظِ التَّشَائُمِ على عادةِ العَرَب في نِسْبَتِهِمُ الشُّؤْمَ إلى ما يَأْتِي من الطَّيرِ ناحيةَ اليَدِ الشُّؤمَى وهي اليُسْرَى، ويُسَمُّونَ الطَّيرَ الذي يأتِي من ناحية اليد اليُسْرَى البَارحُ، وأما الطَّيْرُ الذي يأتِي من ناحيةِ اليد اليُمْنَى فهو السَّانِحُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي قال لَهم صالِحُ عليه السلام رَدّاً عليهم: (طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ) أي الشُّؤْمُ أتَاكُم من عندِ الله بكُفْرِكُمْ، وهذا الذي أصَابَكم من الْجَدْب والخصب عندَ الله مكتوبٌ عليكم، لاَزمٌ لكم في أعنَاقِكم وليسَ ذلك إلَيَّ ولا علمهُ عندِي، وهذا كقولهِ ﴿يَطَّيَّرُوا بمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ألاَ إنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي تُخْسَرُونَ في الدُّنيا باختلافِ الأحوالِ من الخيرِ والشرِّ. وَقِيْلَ: معناهُ: بل أنتُمْ قومٌ تُعذبُونَ بذُنُوبكُمْ. وَقِيْلَ: تُمتَحَنُونَ بإرسَالِي إليكُم لِتُثَابُوا على مُتابَعَتِي، وتُعَاقَبُوا على مُخالَفَتِي. وَقِيْلَ: بمعنى (تُفْتَنُونَ) أي تُعاقَبون كما في قولهِ تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾[1] أي عُقوبَتَكُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: كان في مدينةِ صَالِحِ عليه السلام وهي الْحِجْرُ تسعةُ رَهْطٍ من الفُسَّاقِ من أبناءِ رُؤَسَائِهِمْ وهم غُوَاةِ قَومِ صَالِح يُفسِدُونَ في الأرضِ بالمعاصِي ولا يُصلِحُونَ ولا يُطِيعُونَ اللهَ، ولا[2] يَأتَمِرُونَ بالصَّلاحِ، وأسْمَاؤُهم قُدَارُ بن سَالِفُ؛ ومُصدع؛ وأسلم؛ ودهم؛ وذهيم؛ وذعما؛ ودغيم؛ وقتَّال؛ وضرَّاب[3].

(١) الذاريات / ١٤ .

(٢) (لا) سقطت من المخطوط.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢١٥-٢١٦ بعد ذكر أسمائهم واختلاف الروايات؛ قال القرطبي: (وذلك لا ينضبط برواية، غير أني أذكره على وجه الاجتهاد والتخمين). وفي التفسير الكبير: الأثر (١٦٤٦٦) أخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن عباس قال: [كانت أسَامِيهم: رعمي، ورعيم، وداد، وصواب، ورياب، ومسطع، وقدار بن سالف عاقر الناقة].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ ؛ أي قَالُوا فيما بينَهم: احْلِفُوا باللهِ؛ أي تَحَالَفُوا باللهِ لتَدْخُلُنَّ على صالحٍ وعلى أهلِهِ الذين آمَنُوا معه لَيْلاً فنَقْتُلَهُمْ بَيَاتاً. قرأ يحيى وحمزةُ والأعمش والكسائيُّ وخلف (لَتُبَيِّتَنَّهُ) بالتاءِ و(لَيَقُولَنَّ) بالياء وضمِّ التاء واللاَّمِ على الخطاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ فيما نقولُ، وقرأ عاصمُ برواية أبي بكرٍ (مَهْلَكَ) بفتحِ الميم واللامِ، والْمَهْلَكُ: يجوز أن يكونَ مصدراً بمعنى الإهْلاَكِ، ويجوزُ أن يكون الموضعُ. ورَوَى حفصٌ عن عاصمٍ (مَهْلِكَ) بفتح الميم وكسرِ اللاَّم وهو اسمُ المكانِ على معنى: مَا شَهِدْنَا مَوْضِعَ هَلاكِهِم[1].

قال الزجَّاجُ: (تَحَالَفَ هَؤُلاَءِ التِّسْعَةُ عَلَى انْ يُبَيِّتُوا صَالِحاً وَاهْلَهُ، ثُمَّ يُنْكِرُوا عِنْدَ أوْلِيَائِهِ، وكَانَ هَذا مُنْكَراً عَزَمُوا عَلَيْهِ)[2]، كما قالَ تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي دَبَّرُوا في أمرِ صالحٍ عليه السلام وأهلَهُ من حيث لَم يَشْعُرْ بهم صالح ولاَ أهلُهُ، (ومَكَرْنَا مَكْراً) أي دَبَّرْنَا نحنُ في هلاكِهم مجازاةً لَهم على مَكْرِهم بتعجيلِ عقوبتهم (وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) بما أرَدْنا فيهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ ؛ أي فانظُرْ يا مُحَمَّدُ (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ) أي كيفَ كان آخرُ مَكْرِهم، ﴿ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

قرأ الحسنُ وأهلُ مكَّة والأعمشُ (أنَّا دَمَّرْنَاهُمْ) بفتحِ الهمزة ولذلكَ وَجْهان في أحدِهما: أنْ تكون بدلاً في محلِّ الرفعِ تَبَعاً للعاقبةِ، كأنَّهُ قال: العاقبةُ أنَّا دمَّرْنَاهُمْ. والثانِي: أنَّ موضِعَها نُصِبَ على خبرِ كَانَ، تقديرُهُ: كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ التَّدْمِيْرَ. وقرأ الباقونَ بالكسرِ على الابتداء وهو تفسيرُ ما كان قبلَهُ مثلَ قولِهِ ﴿فَلْيَنْظُرِ الانسَانُ إلَى طَعَامِهِ، أنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً﴾[3].

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٠.

(٢) في معاني القرآن وإعرابه: ج٤ ص٩٤، وحكاه المصنف رحمه الله بتصرف ليس بالنص كما هو.

(٣) عبس/ ٤-٢٥. ينظر: معاني القرآن للفراء: ج٢ ص٢٩٦. وإعراب القرآن للنحاس: ج٣ ص١٤٧-١٤٨.

والتدميرُ: هو الإهلاكُ على وجهٍ عظيم قطيعٍ. واختلَفُوا في كيفيَّةِ هلاكِهم، قال ابنُ عبَّاس: (أرْسَلَ اللهُ الْمَلاَئِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إلَى دَار صَالِحٍ يَحْرُسُونَهَا، وَجَاءَتِ التِّسْعَةُ إلَى دَار صَالِحٍ شَاهِرِيْنَ سُيُوفَهُمْ، فَرَمَتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ بالْحِجَارَةِ مَنْ حَيْثُ كَانُواْ يَرَوْنَ الْحِجَارَةَ وَلاَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ فَقَتَلَتْهُمْ)[1]. وقال مجاهدُ: (نَزَلُوا فِي سَفْحِ جَبَلٍ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً لِيَأْتُوا دَارَ صَالِحٍ، فَخَتَمَ عَلَيْهِمْ الْجَبَلُ فَأَهْلَكَهُمْ وَأهْلَكَ اللهُ قَوْمَهُمْ أجْمَعِيْنَ بصَيْحَةِ جِبْرِيْلَ عليه السلام).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾ ؛ أي خاويةً عن الأهلِ والخيرِ والنِّعمةِ بسبب ظُلمِهم لَم يبقَ فيها منهم دَيَّارٌ، قرأ العامَّة (خَاوِيَةً) بالنصب على الحال، والمعنى: فانْظُرْ إلَى بيوتِهم خاويةً بما ظَلَمُوا؛ أي بظُلْمِهم وشِرْكِهم أهلَكْنَاهُم حتى جعلنَا بيوتَهم خاويةً؛ أي منازلَهم ساقطةً على عُروشِها.

وَقِيْلَ: (خَاوِيَةً) نُصِبَ على القطعِ، تقديرُهُ: فتِلْكَ بُيوتُهم الخاويةَ، فلما قُطِعَ منها الألفُ واللام نُصِبَ، كقولهِ ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾[2]. وقرأ عيسَى بن عمر (خَاوِيَةٌ) بالرفعِ على الخبرِ.

قولُهُ تعالَى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ في إهلاكِنا إيَّاهُم لَدَلاَلَةٌ ظاهرةٌ وعِبرَةٌ لِمن عَلِمَ توحيدَ الله وقدرتَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ؛ أي أنْجَيْنَا الذينَ آمَنُوا بصالِحٍ من العذاب ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ الشِّرْكَ والعقابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ ؛ أي واذكُرْ لُوطاً إذ قال لقومِهِ: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ ؛ يعني اللِّوَاطَةَ، سَمَّاها فاحشةً لعِظَمِ قُبْحِهَا، ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي وأنتم تعلمونَ أنَّها فاحشةٌ. وَقِيْلَ: وأنْتُمْ تُبصِرُونَ بعضَكم بعضاً وكانوا لا يَستَتِرُونَ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٦٤.

(٢) النحل / ٥٢ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي تجهَلونَ العـذابَ الموعـودَ علـى هـذه الفَاحِشَـةِ، وَقِيْـلَ: تجهلونَ القيامةَ وعاقبةَ المعاصي.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي عن أدْبَار الرِّجال يقولون استهزاءً بهم.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي قَدَّرْنا عليها أن تكونَ مِـنَ الغَـابرِيْنَ؛ أي مـن المتخلِّفـين فتـهلَكُ فيمَـن هلـكَ، لا جُرمها مثلَ جُرمِهم لأنَّها كانت راضيةً بأفعَالِهم القبيحةِ فجَرَتْ مجرَاهُـم في العـذاب. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ ﴾ ؛ أي علـى مسـافريهم، أي حجـارةً؛ ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ فبئْسَ المطرَ مطرُ قومٍ أنذرَهم لـوطٌ عليه السلام فلَـمْ يؤمِنُوا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ ﴾ ؛ أي قِيْلَ لِلُوطٍ عليه السلام: قُلِ الْحَمْدُ للهِ على هلاكِ كُفَّار قَومِي. وَقِيْلَ: الخطابُ للنبيِّ ﷺ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ: الحمدُ للهِ على هلاكِ كفَّار الأُمَمِ الخاليـةِ. وَقِيْـلَ: علـى جميـعِ نِعَـمِ اللهِ سُبحانَهُ.

وقولهُ تعالى: (وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَـادِهِ الَّذِيـنَ اصْطَفَـى) قـال يعـني الانبيـاءَ الـذي اختارَهم اللهُ لرسالَتِهِ، وقال ابنُ عبَّاس: (هُمْ أصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ)[1]، وقـال الكلـبيُّ: (هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالَّذِيْنَ اصْطَفَاهُمُ اللهُ لِمَعْرِفَتِهِ وَطَاعَتِهِ)[2]، ومعنى السَّلاَمِ عليهم: أنَّهم سَلِمُوا مِمَّا عُذِّبَ به الكفارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي قُـلْ لأهـلِ مكَّـةَ: أعِبَادَةُ اللهِ أفضلُ أم عبادةُ مَن تُشرِكُونَ به مَن دُونَهُ من الأصنامِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثـر (٢٠٥٣٩). وابـن أبـي حـاتم في التفسـير الكبـير: الأثـر (١٦٤٩٥).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٦٦.

إذا قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ، قَالَ: [اللهُ أَبْقَى وَأَجَلُّ وَأَكْرَمُ مِمَّا تُشْرِكُونَ][1]. قرأ عاصمُ وأهـلُ البصرةِ (أمَّا يُشْرِكُونَ) بالياءِ، وقرأ الباقون بالتَّاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ فيه إضمارٌ كأنه قال: آلِهَتُكم أم مَن الذي خلَقَ السَّمواتِ والأرض بما فيها من العجائب والبدائع، ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ؛ يعني المطر، ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ﴾ ؛ أي بساتين، ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ ؛ أي مَنْظَرٌ حَسَنٌ وأنوارٌ، والحديقةُ: هي البُسْتَانُ التي يُحَاطُ عليه بما فيه مِن النَّخْلِ والشَّجَرِ، فإن لَم يكن عليه حائطٌ فليس بحديقةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ﴾ ؛ هذا نَفْيٌ، يعني ما قَدِرْتُمْ عليهِ، والمعنَى: ما ينبغِي لكم ذلكَ؛ لأنَّكُم لا تقدرونَ عليها، ثُم قال اسْتِفْهَاماً مُنْكِراً عَلَيهم: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي هل معَهُ معبودٌ سِوَاهُ أعَانَهُ على صُنعهِ في خَلْقِ هذه الأشجار. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ يعني كُفَّارَ مكَّةَ قومٌ يَعْدِلُونَ الأصنامَ بخالِقِهم بجَهلِهم. وَقِيْلَ: (يَعْدِلُونَ) أي يُشركُونَ باللهِ غيرَهُ. وَقِيْلَ: يَميلُونَ عن الطريقِ وعن النَّظرِ في الدَّلائلِ المؤدِّية إلى العِلْمِ بوحدانيَّةِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ ؛ أي مستقرَّةً لا تَميلُ بأهلِها، بل جعلَها مَسْكَناً يَسِيرُونَ فيها ويصرفون عليها، فلا هي تضطربُ بهم، ولا هي حَزْنَةٌ غليظةٌ مثلَ رُؤُوسِ الجبال.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾ ؛ أي جَعَلَ وسَطَ الأرضِ أوديةً وعُيوناً من عَذْبٍ ومَالِحٍ، ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ ﴾ ؛ أي جَعَلَ على الأرضِ جِبَالاً ثوابتَ وأوديةً أوتاداً لها، ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ ؛ أي بين المِلْحِ والعَذْبِ مانِعاً بلُطفهِ وقدرتهِ فلا يَختلطُ أحدُهما بالآخر، ولا يبغِي أحدُهما على صاحبِهِ، وقولهُ تعالى: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي مع اللهِ إلهٌ فَعَلَ شيئاً من هذهِ الأشياء، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ توحيدَ ربهم وسلطانه وقدرتهِ.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٨٢. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٢١ من غير إسناد.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ ؛ الْمُضْطَـرُّ: الْمَكْـرُوبُ الْمَجْهُودُ المدفوعُ إلى ضيقٍ من الأمُور من غَرَقٍ أو مرضٍ أو بلاء أو حبـسٍ أو كَـرْبٍ إذا دعاهُ، ﴿ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ ، فيكشِـفُ ضُـرَّهُ ويفـرجُ عنـه فيبعـدهُ مِـن الغَـرَقِ وينجيهِ ويَشفيهِ من المرضِ، ويعافيهِ من البلاء. وقال السديُّ:(الْمُضْطَرُّ الَّذِي لاَ حَوْلَ لَهُ وَلاَ قُوَّةَ)، وقال ذُو النُّون: (هُوَ الَّذِي قَطَعَ الْعَلاَئِقَ عَمَّا دُونَ اللهِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ ﴾ ؛ أي يأتِي بقومٍ بعد قـومٍ، ويخلقُ قَرْناً بعد قَرْنٍ، وكلَّما أهْلَكَ قَرْناً أنشأ آخَرينَ، فيكون كلٌّ خلفـاءً لِمَـنْ قبلَـهم. وقولـهُ تعـالى: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ أي إلَـهٌ سِوَى اللهِ فَعَـلَ ذلـكَ، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي قَليلاً ما تتَّعِظُونَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ معنـاهُ: أمَّـــنْ يُرشِدُكم إلى الطريقِ في ظَلماءِ اللَّيلِ في البرِّ والبحرِ إذا سافرَ، ثُم بمـا خَلَـقَ لكـم مـن القَمَرِ والنُّجُومِ والمسالكِ، وهذا كقولهِ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[2]، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالظُّلُمَـاتِ الشَّـدائِدُ، ﴿ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ ﴾ ؛ أي قُـدَّامَ المطـر، والنَّشْـرُ: جمـعُ نُشُـورٍ؛ وهـي الريـاحُ الـتي تـأتِي بالسَّـحاب، قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي جَلَّ وَعَزَّ أن يكونَ له شريكٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ؛ معناهُ: أمَّنْ يبـدأُ الخلـقَ في الأرحامِ من النُّطفةِ ثُم يُميتُهُ ثُم يعيدهُ للبعثِ والنُّشور، وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ ﴾ ؛ أي يَرزُقُكم من السَّماءِ المطرَ، ومِن الأرضِ النباتَ والـزَّرعَ، وقولهُ تعالى: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ ؛ أي حُجَّتَكُمْ فيما تدَّعونَـهُ مـن إلهِ سِواهُ، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي معَ اللهِ آلِهَةٌ أخرَى تصنعُ شيئاً من هذهِ الأشياءِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيـان: ج ٧ ص٢١٩، ونقلـه القرطـبي في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٣ ص٢٢٣.

(٢) الأنعام / ٩٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: (لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) يعني الملائكةَ، (وَالأَرْضَ) يعني الناسَ، لا يعلمُ أحدٌ منهم شيئاً من الغَيْب من وقتَ نُزول العذاب وقيامِ السَّاعةِ وغير ذلك مما غابَ عن العبادِ، ولا يعلمُ ذلك إلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي ولا يدرونَ متى يُبعثُونَ من القُبُور، والأصلُ في (أَيَّانَ) (أيَّ) و(إنْ) ضُمِّنَا وجُعلا أداةً واحدة، قالت عائشةُ: (مَنْ زَعَمَ أنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَدْ أعْظَمَ الْفِرْيَةَ عَلَى اللهِ تَعَالَى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلاَّ اللهُ)[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ ؛ فيه قِراءَتان، قرأ الحسنُ والأعمش وشَيبة ونافع وعاصمُ وحمزة والكسائي وخَلَفُ (بَلِ ادَّارَكَ) بكسر اللام وتشديد الدال؛ أي تَدَارَكَ وتتابعَ عليهم في الآخرةِ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إذا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً﴾[(٢)]، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ويعقوب ومجاهد (بَلْ أدْرَكَ) مِن الإدراكِ؛ أي تَبعَ ولَحِقَ[(٣)]، كما يقالُ: أدْرَكَهُ عِلْمِي؛ أي بَلَغَهُ ولَحِقَهُ. قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ مَا جَهِلُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَسَقَطَ عِلْمُهُ عَنْهُمْ عَلِمُوهُ فِي الآخِرَةِ)[(٤)].

وقال السديُّ: (اجْتَمَعَ عِلْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَمْ يَشُكُّوا وَلَمْ يَخْتَلِفُوا). وقال مقاتلُ: (بَلْ عَلِمُوا فِي الآخِرَةِ حِيْنَمَا عَايَنُوها مَا شَكُّوا فِيْهِ وَعَمُوا عَنْهُ فِي الدُّنْيَا)[(٥)]. ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ ؛ أي بل هُم اليومَ في الدُّنيا في شَكٍّ من السَّاعةِ، ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ جمع عَمٍ، وهو عَمِيُّ القلب، وَقِيْلَ: معنى (بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ) مُتَحَيِّرُونَ بتَرْكِ التأمُّلِ، يقال: رجلٌ عَمِةٌ وَعَامِةٌ وعَمٍ، إذا كان مُتَحَيِّراً، وقومٌ

---

(١) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب (٧٧): الحديث (٢٨٧/ ١٧٧).

(٢) الأعراف / ٣٨ .

(٣) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٣.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٠١). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٥٤١).

(٥) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٨٢.

عَمُونَ؛ أي مُتَحَيِّرُونَ، ويجوزُ أن يكونَ معنى (ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ) أي لَحِقَ علمُهم ذلكَ بما نُصِبَ لَهم من الأدلَّةِ، بل هم في شكٍّ منها بتركِ التأمُّلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) ﴾ معناهُ: وقال كفَّارُ مكَّةَ: إذا صِرْنَا تُراباً وآباؤُنا أإنَّا لَمُخرَجُونَ من القُبور أحياءً؟

وقولهُ تعالى: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا ﴾ ؛ الذي تُخَوِّفُنَا بهِ من البعثِ والنُّشورِ، ووُعِدَ آباؤنا من قبلُ، فما وَجَدْنَا لذلكَ حقيقةً، وما هذا الذي يعِدُنا مُحَمَّدُ إلاَّ أكاذيبَ الأوَّلين. وَقِيْلَ: معناهُ: لقد وُعِدْنا هذا البعثَ، ﴿ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ قبلِ مُحَمَّدٍ وليس ذلكَ بشيءٍ، ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) ﴾ ؛ أي أحادِيثُهم وأكاذِيبُهم التي كذبُوها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ: (سِيرُوا)؛ أي سَافِرُوا وتَرَدَّدُوا في الأرضِ، ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) ﴾ ؛ آخِرُ أمْرِ المكذِّبين بالرُّسُلِ أهلكَهم اللهُ بأنواعِ العقوباتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي لا تَحْزَنْ على تكذِيبهم إيَّاكَ ولا إهلاكِهم إن لَم يُؤمِنُوا، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كان حَرِيْصاً على إيْمانِهم ونَجاتِهم، ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) ﴾ ؛ أي لاَ يَضِيْقُ صدرُكَ يا مُحَمَّدُ بما يَمكُرونَهُ، وسيُظهِرُكَ اللهُ عليهم، نزلَتْ هذه الآيةُ في المستَهزِئين الذينَ اقتسموا أعقاب مكة، وقد مَضَتْ قصَّتُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) ﴾ ؛ أي يقولُونَ على وجهِ التَّكذيب: (مَتَى هَذا الْوَعْدُ) الذي يعِدُنا بهِ في الدُّنيا والآخرةِ (إنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ) في أنهُ يكون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) ﴾ أي قل يا مُحَمَّدُ: (عَسَى أنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ) أي دَنَا لكم ورَكِبَكُم بعضُ ما تستعجلونَ به من العذاب، لا يجوزُ أن تكونَ (عَسَى) في هذا الموضعِ بمعنى الشَّكِّ، إنَّما هو بمعنى الإيجاب على وجه التَّخويفِ، قال ابنُ عبَّاس: (رَدِفَ لَكُمْ؛ أيْ قَرُبَ

لَكُمْ)[١] وَقِيلَ: حَضَرَ لَكُمْ.

والمعنى: أنَّ الله تعالى أمَرَ نَبيَّهُ ﷺ أن يقولَ للذين يَسْتَعْجِلُونَ بالعذاب: قد دَنَا لكم بعضُ ما تستعجِلُون، فكان بعضُ الذي دَنَا لَهم القتلُ ببَدْر، والقَحْطُ الذي سُلِّطَ عليهم عُقَيْبَ هذه الآيةِ حتى أكَلُوا الْجِيَفَ. والمعنى في (رَدِفَ لَكُمْ) أي رَدِفَكُمْ، فأدخلَ اللاَّمَ فيه كما أدخلَها في قولِهِ تعالى: ﴿لِرَبِهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[٢] و﴿لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[٣]، قال الفرَّاءُ: (اللاَّمُ صِلَةٌ زَائِدَةٌ، كَمَا يَقُولُونَ نَقَدْتُهُ ونَقَدْتُ لَهُ)[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: لَذُو فَضْلٍ عَلَى أهْلِ مَكَّةَ حَتَّى لاَ يُعْجِلَهُمْ بالْعَذاب)[٥] ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ وَقِيلَ: لَذُو فضلٍ عليهم بإمهالِهم والإنعام عليهم، ولكنَّهم لا يشكُرونَ فَضْلَهُ عليهم، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ ؛ أي ما تُخفِي صدورُهم من البُغْضِ والعداوة، ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ بألسِنَتِهم من الكُفْرِ والتكذيب وعدائِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيُجازيهم على ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي وما مِن جُملةٍ غائبة خافيةٍ على أهْلِ السَّماء والأرضِ، إلاّ وهو مكتوبٌ في اللَّوحِ الْمَحفُوظِ بيِّنَ فيه.

قولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ؛ أي بَيَّنَ لِبَنِي إسرائيلَ، ﴿ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ كاختلافِ اليهود والنَّصارَى في المسيحِ وفي غيرهِ من الأنبياءِ، وكاختلافِهم في صِفَةِ النبيِّ ﷺ والْمُبَشِّرِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٠٦).
(٢) الأعراف / ١٥٤ .
(٣) يوسف / ٤٣ .
(٤) في معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٢٩٩-٣٠٠ بلفظ قريب؛ قال: (كما قالَ بعضُ العربِ: نفذتُ لها مائةً، وهو يريد: نفذتُها مائة). ونقل البغوي قول الفراء كما حكاه الطبراني، ينظر: معالم التنزيل:ص٩٦٧. والجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٣٠.
(٥) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٨٥.

بـه في التَّـوراةِ، وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي وإنَّ القُرْآنَ لَهُدًى من الضَّلالةِ ورحمةٌ من العذاب لِمن آمَنَ بهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ﴾ ؛ أي يقضِي بين المؤمنين والكـافرينَ يـومَ القيامــةِ بحكمــةٍ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي الْعَزِيــزُ بالانتقامِ من الكُفَّار، الْعَلِيْمُ بهم وبعقوبَتِهم، ولا يُمكِنُ رَدُّ قضائهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ثِقْ باللهِ يا مُحَمَّدُ، وفَوِّضْ أمْرَكَ إليـهِ، ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي على طريق الإســلام، وهـذا تسـليةٌ للنـبيِّ ﷺ، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ؛ هذا مَثَلٌ للكفَّار، شَبَّهَ اللهُ كفَّارَ مكَّــةَ بالأمواتِ، تقولُ كما لا يَسْمَعُ الميِّتُ النداءَ، كذلك لا يسمعُ الكافرُ النداءَ، ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ قال قتادةُ: (إنَّ الأَصَمَّ لَوْ وَلَّى مُدْبراً وَنَادَيْتَهُ لَمْ يَسْمَعْ، كَذلِكَ الْكَافِرُ لاَ يَسْمَعُ مَـا يُدْعَـى إلَيْـهِ مِـنَ الإيْمَـانِ)[١] ((والمعنـى: أنـهم لفرطِ))[٢] إعراضُهم عن ما يُدْعَــوْنَ إليـه مـن التوحيـدِ كـالْمَيِّتِ الـذي لا سـبيلَ إلى إسْماعهِ، وكالأصَمِّ الذي لا يسمعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ﴾ ؛ أي وما أنتَ بمُرشِدِ من أعماهُ الله عن الْهُدَى وأعْمَى عن قلبهِ الإيْمانَ، وَقِيْلَ: معناهُ: كما لا يُمكِنُ إرشادُ الأعمَى إلى قصدِ الطَّريق بالأمَاراتِ الدالَّةِ على الطريقِ، كذلك لا يُمكِنُ هدايةُ القومِ الذين عُمِيَتْ بصائرُهم عن آياتِ الله، وليس على الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ إلاَّ الدعاءَ إلى اللهِ تعالى.

وقرأ حمزةُ والأعمش: (وَمَـا أنْـتَ تَـهْدِي الْعُمْـيَ) بالتَّـاء ونصـب اليـاء علـى الفعلِ[٣] ها هنا وفي الرُّومِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٥٨١).

(٢) ما بين (( )) غير واضح في المخطوط، وضبطت علىعبارة البغوي في معالم التنزيل.

(٣) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ؛ ما سَمِعَ سَماع إفهامٍ إلاّ مَن يؤمنُ بآياتِنا ويطلبُ الحقَّ بالنظرِ في القُرآن. وقال مقاتلُ: (إلاَّ مَنْ يُصَدِّقُ بالْقُرْآنِ أنَّهُ مِنَ اللهِ)[1] ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي مُخلِصُونَ بتوحيدِ الله، والمعنى ما سَمِعَ دعوتَكَ سَماعَ القَبُولِ إلاّ مَن يطلبُ الحقَّ بالنظرِ في آياتِ الله، فلا بدَّ أن يُسْلِمَ في ظهور الدَّلائلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: وإذا وجبَ القولُ عليهم بالسُّخْطِ والعذاب عند قُرْب السَّاعة (أخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ)، فقال قتادةُ: (إذا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَأوْجَبَ أنْ يُنْزِلَ بهِمْ مَا قَالَ اللهُ وَحَكَمَ بِهِ مِنْ عَذابهِ وَسُخْطِهِ عَلَيْهِمْ)[2] أي على الكُفَّار الذين تخرجُ عليهم الدَّابةُ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: (أخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ) وذلك حين لا يُؤْمَرُ بمعروفٍ ولا ينهَى عن منكرٍ. قال مُخَلَّدُ بنُ الحسين[3]: (لاَ تَخْرُجُ الدَّابَّةُ حَتَّى لاَ يَبْقَى أحَدٌ يُرِيْدُ أنْ يُؤْمِنَ). قالوا: وتخرجُ الدَّابة من صَدْعٍ في الصَّفَا.

ورُوي أنه تخرجُ بين الصَّفَا والْمَرْوَةِ، ولا تُخرِجُ إلاّ رأسَها وعنُقَها، فيبلغُ رأسُها السحابَ فيراها أهلُ المشرق والمغرب فيَسْمَعُونَ كلامَها باللِّسان، فتقولُ لَهم: أيُّها الكُفَّارُ مصيرُكم إلى النار، ثُم تُقبلُ على المؤمنينَ فتقولُ: أيُّها المؤمنونَ مصيرُكم إلى الجنَّةِ، فتُمَيِّزُ عند ذلك أهلَ الجنَّة مِن أهلِ النار.

ويجوزُ أن يكون قولهُ (تُكَلِّمُهُمْ) مِن الكَلْمِ وهو الْجَرَاحَةُ، كما رُوي في قراءةِ ابن عبَّاس (تَكْلِمُهُمْ) بنصب التاء وكسرِ اللام؛ أي تَسِمُهُمْ، تكتبُ على وجهِ الكافرِ: إنَّهُ كَافِرٌ، وعلى جَبينِ المؤمن: إنَّهُ مُؤْمِنٌ.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٨٤.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦١٣-٢٠٦١٤).

(٣) مُخَلَّدُ بن الْحُسَين الأزديُّ المهَلَّبي البصريُّ، ترجم له ابن حجر في التهذيب: الرقم (٦٧٩٨)؛ وقال: (قال العجلي: ثقة رجل صالح، كان من عقلاء الرجال). وقال أبو داود: (كان من أعقل أهل زمانه) مات سنة احدى وتسعين. وله ترجمة في حلية الأولياء: ج ٨ ص٢٦٦.

قال أبو هريرة: (إنَّهَا تَخْرُجُ وَمَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ)(١)، وعن ابنِ عَمرو بن العاص أنه قالَ: (تَكْتُبُ عَلَى وَجْهِ الْكَافِرِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ، فَتَعْتُوا فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَسْوَدَّ وَجْهُهُ، وَتَكْتُبُ عَلَى وَجْهِ الْمُؤْمِنِ نُكْتَةً بَيْضَاءَ، فَتَعْتُوا فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَبْيَضَّ وَجْهُهُ، فَتَعْرِفُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ عِنْدَ ذلِكَ)(٢). وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ ﷺ أنهُ قال: (إذا تَرَكَ النَّاسُ الأَمْرَ بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ كَانَ ذلِكَ الْوَقْتُ وَقْتُ أشْرَاطِ السَّاعَةِ وَخُرُوجِ الدَّابَّةِ)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ ﴾ ؛ قرأ أهلُ الكوفةِ ويعقوب (أنَّ النَّاسَ) بفتحِ الألفِ على وجه الحكايةِ من قول الدَّابة وعلى معنى: أخْرَجْنَا الدَّابَّةَ بأنَّ الناسَ ﴿ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ وقرأ الباقونَ بالكسرِ على الابتداء.

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: [بئْسَ الشِّعْبُ جِيَاد - مرَّتَين أو ثلاثاً -] قَالُوا: وَلِمَ ذلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [تَخْرُجُ مِنْهُ الدَّابَّةُ، فَتَصْرُخُ ثلاَثَ صَرَخَاتٍ يَسْمَعُهَا مِنْ بَيْنِ الْخَافِقَيْنِ](٤).

وقال بعضُهم: كنتُ مع ابنِ عبَّاس بمكَّة، فبينما هو على الصَّفا إذْ قَرَعَ الصَّفا بعصاةٍ وهو مُحْرِمٌ وهو يقولُ: إنَّ الدابةَ تسمعُ قَرْعَ عَصَايَ هذهِ، قال ابنُ عبَّاس: (هِيَ دَابَّةٌ ذاتُ زَغَبٍ وَرِيشٍ، ولَهَا أرْبَعَةُ قَوَائِمَ)(٥).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٩٥ مرفوعاً إلى النبي ﷺ. والترمذي في الجامع: أبواب تفسير القرآن: الحديث (٣١٨٧). وابن ماجة في السنن: كتاب الفتن: الحديث (٤٠٦٦). والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٠٦٢٤).

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٣٧٩؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦١٦) عن عطية العوفي عن ابن عمر. وذكره القرطبي من قول أبي سعيد وابن عمرو في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٣٤.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٧٠. وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٣٨٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه والبيهقي في البعث).

(٥) في الدر المنثور: ج ٦ ص٣٧٨؛ قال السيوطي: أخرجه عبد بن حميد.

وعن أبي هريرةَ قَالَ: [تَخْرُجُ الدَّابَّةُ وَمَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ، فَيَجْلُوا وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بالْعَصَا، وَتَخْطِمُ وَجْهَ الْكَافِرِ بالْخَاتَمِ][1] والْمَخَاطِمُ هي الأُنُوفُ، واحِدُها مَخْطِمٌ بكسر الطَّاء، وعن حذيفةَ قالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [دَابَّةُ الأَرْضِ طُولُهَا سِتُّونَ ذِرَاعاً لاَ يُدْرِكُهَا طَالِبٌ وَلاَ يَفُوتُهَا هَارِبٌ][2].

وعن ابنِ الزبير أنه وَصَفَ الدَّابةَ فقال: (رَأْسُهَا رَأْسُ ثَوْرٍ، وَعَيْنُهَا عَيْنُ خِنْزِيرٍ، وَأُذُنُهَا أُذُنُ فِيلٍ، وَصَدْرُهَا صَدْرُ أَسَدٍ، وَلَوْنُهَا لَوْنُ نَمِرٍ، وَذنَبُهَا ذنَبُ كَبْشٍ، وَقَوَائِمُهَا قَوَائِمُ بَعِيْرٍ، بَيْنَ كُلِّ مِفْصَلَيْنِ مِنْ مَفَاصِلِهَا اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعاً، مَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ)[3].

وقال ﷺ: [تَخْرُجُ الدَّابَّةُ مِنَ الصَّفَا، فَيَبْلُغُ صَدْرُهَا الرُّكْنَ الْيَمَانِيَّ، وَلَمْ يَخْرُجْ ذنَبُهَا بَعْدُ، وَهِيَ دَابَّةٌ ذاتُ قَوَائِمَ وَبَرٍ][4]. وعن ابن عمرَ أنه قال: (تَخْرُجُ الدَّابَّةُ مِنْ صَدْعٍ فِي الصَّفَا، تَجْرِي كَجَرْيِ الْفَرَسِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، وَمَا خَرَجَ ثُلُثُهَا)[5].

وقالَ ﷺ: [بَيْنَمَا عِيسَى عليه السلام يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَمَعَهُ الْمُسْلِمُونَ، إِذْ تَضْطَرِبُ الأَرْضُ تَحْتَهُمْ حَتَّى يَتَحَرَّكَ الْقِنْدِيلُ فِي الْمَسْجِدِ، وَيَنْشَقُّ الصَّفَا مِمَّا يَلِي الْمَسْعَى، فَتَخْرُجُ الدَّابَّةُ، فَأَوَّلُ مَا يَبْدَأُ مِنْهَا رَأْسُهَا، ذاتَ وَبَرٍ وَرَأْسٍ لاَ يُدْرِكُهَا طَالِبٌ وَلاَ يَفُوتُهَا هَارِبٌ، تُسَمِّي النَّاسَ مُؤْمِناً وَكَافِراً، أمَّا الْمُؤْمِنُ فَتَتْرُكُ وَجْهَهُ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، وَتَكْتُبُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: مُؤْمِنٌ، وَأمَّا الْكَافِرُ فَتَكْتُبُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ، وَتَكْتُبُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: كَافِرٌ][6].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٩٥ مرفوعاً إلى النبي ﷺ. والترمذي في الجامع: أبواب تفسير القرآن: الحديث (٣١٨٧). وابن ماجة في السنن: كتاب الفتن: الحديث (٤٠٦٦). والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٠٦٢٤).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٣٥؛ قال القرطبي: (ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة، وحكاه بطوله). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٠٦٢٠) عن حذيفة ابن أسيد.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٦٩.

(٤) في الدر المنثور: ج ٦ ص٣٨٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه والبيهقي في البعث).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦١٨).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٠٦٢٣). والبغوي في معالم التنزيل: ص٩٦٩.

وعن الحسَن: (أنَّ مُوسَى سَأَلَ رَبَّهُ أنْ يُرِيَهُ الدَّابَّةَ، فَخَرَجَتْ ثلاَثَةَ أيَّامٍ وَلَيَالِيْهِنَّ تَذْهَبُ فِي السَّمَاءِ وَلَمْ تَخْرُجْ رِجْلاَهَا، فَنَظَرَ مِنْـهَا مَنْظَـراً فَظِيْعـاً؛ فَقَـالَ: رَب رُدَّهَـا، فَرَدَّهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (تُكَلِّمُهُمْ أنَّ النَّاسَ كَانُوا بآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ) قال مقاتلُ: (تُكَلِّمُـهُمْ بالْعَرَبيَّةِ، فَتَقُولُ: إنَّ النَّاسَ كَانُواْ بآيَاتِنَـا لاَ يُوقِنُـونَ، تُخْـبرُ أنَّ أهْـلَ مَكَّـةَ لَـمْ يُؤْمِنُـواْ بالْقُرْآنِ وَالْبَعْثِ وَالثَّوَاب وَالْعِقَاب)[1].

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ ؛ الْفَوْجُ: الْجَمَاعَةُ من الناس كـالزُّمْرَةِ والجماعـةِ، وإنَّمـا يُحْشَـرُ الرؤسـاءُ والمتبوعِـين، والمعنى: يومَ يُجْمَعُ مِن كلِّ أمَّةٍ جماعةٌ مِن المكذِّبـين بالرسـولِ، وقولـهُ تعـالى:﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي يُحبَسـون، يتَلاحقُـونَ فيُسَـاقُونَ إلى الموقـفِ لإقامـةِ الحجَّـة عليهم. وَقِيْلَ: يحشَرُ أوَّلُهم على آخرِهم ليجتَمِعُـوا ثُـم يُسـاقُوا إلى النـار، وقـال ابـنُ عبَّاس: (يُوزَعُونَ أيْ يُدْفَعُونَ)[2].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا ﴾ ؛ أي حتَّى إذا جَاءُوا إلى موقفِ الحساب، قال اللهُ لَهم:(أكَذبْتُمْ بآيَاتِي) اسـتفهامٌ بمعنـى الإنكار عليهم، والوعيدِ لَهم، قـال ابـنُ عبَّـاس: (مَعْنَـاهُ: أكَذبْتُـمْ أنْبيَـائِي وَجَحَدْتُـمْ فَرَائِضِي وَحُدُودِي) وَلَمْ تُحِيطُوا بهَا عِلْماً؛ أي ولَـم تُخبَرُوا حتـى تَفْقَـهُوا وتسـمَعُوا. وَقِيْلَ: معناهُ: (وَلَمْ تُحِيْطُوا بهَا عِلْماً) أنَّها باطلٌ. والمعنى: أكَذبْتُمْ بآيَاتِي غـيرَ عـالِمين بها ولَم تتفكَّرُوا في صِحَّتها، بل كذبتم بها جَهْلاً بغيرِ عِلْـمٍ. وقولـهُ تعـالى:﴿ أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ حين لَم تبحَثُوا عنها، ولَم تَتَفكَّرُوا فيها، وهذا توبيـخٌ لَـهم وإنْ كان بلفظِ السُّؤال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ ؛ أي وَجَبَ العذابُ عليهم بما أشـرَكُوا، ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ بحُجَّـةٍ عـن أنفُسِـهم، بـل يُخْتَـمُ علـى أفواهِهم. ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ، وَلاَ يُؤْذنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[3].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٨٥. (٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٣٢).
(٣) المرسلات / ٣٥-٣٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ؛ أي مُضِيئاً لطلب المعاشِ، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ فيما ذكَرْنا من اختلافِ اللَّيل والنَّهار لـدلالاتٍ للمؤمنـينَ والكـافرين، ولكنـه خَصَّ المؤمنينَ لأنَّهم همُ الذين ينتفعونَ بالذِّكْرِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّـاس: (يَعْنِـي النَّفْخَـةَ الأُوْلَى؛ وَهِيَ نَفْخَةُ الصَّعْق) ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي مَـاتُوا من شدَّةِ الخوفِ كقولهِ تعـالى ﴿فَصَعِـقَ مَـنْ فِـي السَّـمَاوَاتِ وَمَـنْ فِـي الأَرْضِ﴾[١]، والمعنى: بَلَغَ منهم الفزعُ إلى أنْ يَمُوتُوا.

وقولهُ: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ الشُّهَدَاءَ وَهُمْ أحْيَـاءٌ عِنْدَ رَبهِمْ يُرْزَقُونَ)، وقال الكلبيُّ ومقاتل: (يَعْنِي جِبْرِيْلَ وَمِيْكَائِيْلَ وَإسْـرَافِيْلَ وَمَلَـكَ الْمَوْتِ). وقولهُ تعالى: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي كـلُّ الخلائـقِ يـأتُونَ إلى موضعِ الْجَزَاءِ أذلاَّء صَاغِرِيْنَ.

وأمَّا النفخةُ الثانية فتسَمَّى نفخةُ البَعْثِ، وبينَهما أربعون سَنة. ويقالُ: ينفـخُ في الصُّور ثلاثَ نفخاتٍ؛ الأُولَى: نفخةُ الفَـزَعِ، والثانيـة: نفخـةُ الصَّعْـقِ وهـو المـوتُ، والثالثةُ: نفخةُ الْقِيَامِ لرَب العالَمين .

وعن عبدِالله بنِ عمرَ قال: جَاءَ أعْرَابِيٌّ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ عَنِ الصُّور، فَقَالَ: [هُوَ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيْهِ][٢]. وقالَ مجاهدُ: (هُوَ كَهَيْئَةِ الْبُوق)[٣].

وعن أبـي هريـرةَ قـال: قـالَ رسـولُ اللهِ ﷺ: [لَمَّـا فَـرَغَ اللهُ مِـنَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ، خَلَقَ الصُّورَ، فَأَعْطَاهُ إسْرَافِيْلَ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَى فِيْهِ شَـاخِصٌ يُبْصِـرُ نَحْـوَ الْعَرْشِ، يَنْظُرُ مَتَى يُؤْمَرُ] قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا الصُّورُ ؟ قَـالَ: [هُـوَ قَـرْنٌ]

---

(١) الزمر / ٦٨ .

(٢) رواه الإمـام أحمـد في المسـند: ج ٢ ص١٦٢ . وأبـو داود في السـنن: كتـاب السـنة: الحديـث (٤٧٤٢). والترمذي في الجامع: أبواب صفة القيامة الحديث (٢٤٣٠).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٣٥).

قُلْتُ: كَيْفَ هُوَ ؟ قَالَ: [عَظِيْمٌ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ إنَّ عِظَمَ دَائِرَةٍ فِيهِ كَعِظَمِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ. فَيَنْفُخُ ثَلاَثَ نَفْخَاتٍ؛ النَّفْخَةُ الأُوْلَى نَفْخَةُ الْفَزَعِ، وَالنَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصَّعْقِ، وَالنَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ.

فَيَأْمُرُ اللهُ إسْرَافِيلَ بالنَّفْخَةِ الأُولَى، فَيَقُولُ لَهُ: انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَزَعِ، فَيَفْزَعُ مِنْهَا أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَأَهْلُ الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَيَأْمُرُهُ أنْ يَمُدَّهَا وَيُطِيْلَهَا وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللهُ ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاَءِ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾[1]، وَيُسَيِّرُ اللهُ الْجِبَالَ فَتَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ فَتَكُونُ سَرَاباً، وَتُرَجُّ الأَرْضُ بأَهْلِهَا رَجّاً، فَتَكُونُ كَالسَّفِيْنَةِ الْمُوثَقَةِ فِي الْبَحْرِ، تَضْرِبُهَا الأَمْوَاجُ وَتُلْقِيْهَا الرِّيَاحُ، وَكَالْقِنْدِيْلِ الْمُعَلَّقِ تُرَجُّهُ الرِّيَاحُ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾[2] فَتَمِيْدُ الأَرْضُ بالنَّاسِ عَلَى ظَهْرِهَا، فَتَذْهَلُ الْمَرَاضِعُ؛ وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ؛ وَيَشِيْبُ الأَطْفَالُ، وَتَطِيْرُ الشَّيَاطِيْنُ هَارِبَةً مِنَ الْفَزَعِ، حَتَّى تَأْتِي الأَقْطَارَ فَتَلْقَاهَا الْمَلاَئِكَةُ فَتَضْرِبُ وَجُوهَهَا فَتَرْجِعُ، وَتُوَلِّي النَّاسُ مُدْبِرِيْنَ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[3]. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذلِكَ؛ إذْ تَصَدَّعَتِ الأَرْضُ، وَتَصِيْرُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ، وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَنْشُرُ نُجُومَهَا وَتَكْسِفُ شَمْسَهَا وَقَمَرَهَا. ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ إسْرَافِيْلَ أنْ يَنْفُخَ نَفْخَةَ الصَّعْقِ، فَيُصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ][4].

وَقَوْلُهُ تعالى: (وَكُلٌّ أتَوْهُ دَاخِرِينَ)، قرأ الأعمشُ وحمزة وخلَف (أتُوْهُ) مقصُوراً على الفعل بمعنى جَاءوهُ. وقرأ الباقونَ بالمدِّ وضمِّ التاء[5]، قَوْلُهُ تَعَالَى: (دَاخِرِيْنَ) أيْ صَاغِرِيْنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ ؛ أي تحسَبُها يا مُحَمَّدُ واقفةً مستقرَّةً فكأنَّها وتظنُّها ساكنةً لا تتحركُ في رَأيِ العينِ، وهي

---

(١) ص/ ١٥ .　　(٢) النازعات / ٦-٨ .　　(٣) غافر / ٣٢-٣٣ .

(٤) أخرجه الطبري بطوله في جامع البيان: مج ١١ ص٢٣-٢٤.

(٥) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٦.

تسيرُ في الْهَواءِ سَيراً سَريعاً، وترَى السفينةَ تحسَبُها واقفةً وهي سائرةٌ، وقولـهُ تعالى: (وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) تسيرُ سَير السَّحاب حتى تَقَعَ على الأرضِ فتستوي بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ؛ نُصِبَ على المصدر؛ كأنه قالَ: صَنَعَ اللهُ ذلكَ صُنْعاً على الإتقان والإحْكَامِ. وَقِيْلَ: على الإغْـرَاءِ؛ أي ابْصِرُوا صُنْعَ اللهِ الَّذِي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ؛ أي أحْكَمَ وأبْرَمَ ما خَلَقَ. ومعنى الإتْقَانِ في اللُّغةِ: الإحْكَامُ للأشْيَاءِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ قرأ نافعُ وابن عامر والكوفيُّون بالتاءِ[1]، والباقونَ بالياء، والمعنى: إنَّهُ خَبيْرٌ بما يفعلهُ أعداؤهُ من المعصيةِ والكُفْرِ، وبما يفعلهُ أولياؤه من الطاعَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ ؛ معناهُ: مَن وَافَى عرصاتِ القيامةِ بالحسَناتِ، فلهُ ثوابٌ آجَرُ وأنْفَعُ منها. وَقِيْلَ: معناهُ: مَن جاء بالإيْمان. قال أبو معشَر: (كَانَ إبْرَاهِيْمُ يَحْلِفُ مَا يَنْثَنِي: أنَّ الْحَسَنَةَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ)[2]. وقتادةُ: (الْحَسَنَةُ هِيَ الإخْلاَصُ)[3]. والمعنى: مَن جاءَ بكلمةِ الإخلاص بشَهَادَةِ أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ يومَ القيامةِ؛ أي مَن وافَى يومَ القيامة بالإيْمَان فله خيرٌ منها. قال ابنُ عبَّاس: (فَمِنْهَا يَصِلُ الْخَيْرُ إلَيْهِ)[4] أي لهُ مِن تلك الحسَنةِ خيرٌ يومَ القيامةِ، وهو الثوابُ والأمنُ مِن العذاب. و(خَيْرٌ) ها هنا اسمٌ مِن غير تفضيلٍ؛ لأنه ليسَ خيرٌ مِن لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، ولكنَّهُ منها خيرٌ.

وقال بعضُهم: دخلتُ على علِيِّ بن أبي طالبٍ ﷺ فقالَ لِي: (ألاَ أنبؤُكَ بالْحَسَنَةِ الَّتِي مَنْ جَاءَ بهَا أدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ، وَالسَّيِّئَةِ الَّتِي مَنْ جَاءَ بهَا أدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ، وَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ عَمَلاً ؟) قلتُ: بَلَى، قالَ: (الْحَسَنَةُ حُبُّنَا، وَالسَّيِّئَةُ بُغْضُنَا)[5]. ومعنى (خَيْرٌ مِنْهَا): رضوانُ اللهِ. وَقِيْلَ: الأضعَافُ بعطيَّةِ اللهِ بالواحدة عَشْراً فصاعِداً.

---

(١) في الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٧؛ قال: (وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي: بالتاء) وقال: (فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالياء).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٥١).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٥٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٦٠).

(٥) لم أقف عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ قرأ أهلُ الكوفة (فَزَعٍ) منوناً بنصب الميمِ، وقرأ الباقونَ بالإضافةِ، واختارَهُ أبو عُبيدٍ لأنه أعَمُّ ويكون شاملاً لجميعِ فَزَعِ ذلك اليومِ، وإذا كان منوَّناً كان الفزعُ دونَ فزعٍ.

وقال أبو عليٍّ الفارسي: (إذا نُوِّنَ يَجُوزُ أنْ يَكُونَ الْفَزَعُ وَاحِداً، وَيَجُوزُ أنْ يَعْنِي بِهِ الْكَثْرَةَ لأَنَّهُ مَصْدَرٌ، وَالْمَصَادِرُ تَدُلُّ عَلَى الْكَثْرَةِ وَإنْ كَانَتْ مُفْرَدَةَ الأَلْفَاظِ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إنَّ أنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[1])[2]. قال الكلبيُّ: (إذا أطْبَقَتِ النَّارُ عَلَى أهْلِهَا فَزِعُوا فَزْعَةً لَمْ يُفْزَعُوا مِثْلَهَا أبَداً، وَأهْلُ الْجَنَّةِ آمِنُونَ مِنْ ذلِكَ الْفَزَعِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي من وافى بالشِّرْكِ والكبائرِ (فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ) أي ألْقُوا على وجوهِهم في النار، ويقولُ لَهم خزَنَةُ جهنَّمَ: ﴿ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا من الشِّرك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ للمشركينَ: (إنَّمَا اُمِرْتُ اَنْ أعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ) يعني مكَّة (الَّذِي حَرَّمَهَا) أي الذي حَرَّمَ فيها ما أحلَّ في غيرِها من الاصطيادِ؛ والاختلاءِ؛ والقَتْلِ؛ والسَّبيِ؛ والظُّلم، وأن لا يهاج فيها أحدٌ حتى يخرجَ منها، فلا يصادُ صيدُها ولا يُختَلَى خِلالَها.

وَقِيْلَ: معنى (حَرَّمَهَا) أي عظَّم حُرمَتها، فجعلَ لَها من الأمنِ ما لَم يجعل لغيرِها. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٍ ﴾ ؛ لأنه خَالِقُهُ ومَالِكُهُ. وقرأ ابنُ عبَّاس (الَّتِي[3] حَرَّمَهَا) أشارَ إلى البلدةِ.

---

(١) لقمان / ١٩ .

(٢) قاله في الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٧-٢٤٨.

(٣) (التي) سقطت من المخطوط، وضبطت كما في معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٩٨.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾؛ أي وأمِرْتُ أنْ أكونَ مِن المسلمينَ الْمُخْلِصِيْنَ للهِ بالتَّوحيدِ، ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾؛ عليكُم يا أهلَ مكَّة، يريدُ تلاوةَ الدَّعوةِ إلى الإيْمانِ. وفي الآيةِ تعظيمٌ لأمرِ الإسلامِ وتِلاَوَةِ القُرْآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾؛ أي مَن اهتَدَى فإنَّما منفعةُ اهتدائهِ راجعةٌ إلى نفسهِ، ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾؛ أي ومَن ضَلَّ عن الإيْمان والقُرْآن وأخطأ طريقَ الْهُدَى، ﴿ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾؛ أي مِن الْمُخَوِّفِيْنَ، فليس عَلَيَّ إلاَّ البلاغُ، فإنِّي لَم أؤْمَرْ بالإجْبَار على الْهُدَى، وليسَ عَلَيَّ إلاَّ الإنذارُ، وكان هذا قَبْلَ الأمرِ بالقتالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾؛ أي قُلِ الْحَمْدُ للهِ على نِعَمِهِ، ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾؛ يعني العذابَ في الدُّنيا، والقَتْلَ ببَدْرٍ، ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾؛ حين تُشاهِدُونَها، ثُم أرَاهُم ذلكَ، وضَرَبَتِ الملائكةُ وجوهَهم وأدبارَهم وعجَّلَهم اللهُ إلى النارِ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾؛ من الْمُنْكَرِ والكُفْرِ والفسادِ، وهذا وعيدٌ لَهم بالجزاءِ على أعمالِهم.

وعن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ النَّمْلِ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ كَذَّبَ وَصَدَّقَ بمُوسَى وَهُودٍ وَشُعَيْبٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَإبْرَاهِيْمَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، وَخَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ وَهُوَ يُنَادِي: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ][(١)].

آخر تفسير سورة (**النمل**) والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص١٨٨. وذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٣٧٧، وإسناده واه.

سُورَةُ الْقَصَصِ

سُورَةُ الْقَصَصِ مَكِّيَّةٌ إلاَّ آيَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿إنَّ الَّذِي فَـرَضَ عَلَيْـكَ الْقُـرْآنَ﴾ الآيـةُ، فَإنَّهَا نَزَلَتْ بالْجُحْفَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِيْنَةِ، وَعَدَدُ حُرُوفِ السُّورَةِ خَمْسَةُ آلاَفٍ وَثَمَانُمِائَةِ حَرْفٍ، وَأَلْفٌ وَأرْبَعْمِائَةٍ وَإحْدَى وَأرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانٍ وَثَمَانُونَ آيَةً.

وَعَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَـنْ قَـرَأ سُـورَةَ الْقَصَـصِ لَـمْ يَبْـقَ مَلَـكٌ فِـي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إلاَّ شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ أنَّـهُ كَـانَ صَادِقـاً، كُـلُّ شَـيْءٍ هَـالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ، لَهُ الْحُكْمُ وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي نقرأ عليكَ خَبَرَ موسَى وفِرعَوْنَ بالصِّدقِ بينَهما، ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي تَجَـبَّرَ وتَكَـبَّرَ في أرضِ مِصْرَ ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ ؛ أي فِرَقاً وأصْنَافاً في الخدمةِ والتَّسخيرِ؛ يُكْرِمُ قوماً ويُذِلُّ آخَرين. وقولهُ تعالى: ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ ؛ يعـني بنِـي إسـرائيلَ، ثُـم فَسَّرَ ذلكَ فقال: ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ ؛ يقتلُ الأبناءَ ويتركُ البنـاتِ فلا يقتُلُهنَّ. وَقِيْلَ: معناهُ: يذبحُ أبناءَهم صغاراً ويُبقِي نساءَهم للخِدْمَةِ.

---

(١) أخرجـه الثعلـبي في الكشـف والبيـان: ج ٧ ص٣٢٣. وذكـره الزمخشـري في الكشـاف: ج ٣ ص٤٢٣.

وسببُ ذلك: أنَّ بعضَ الكَهَنَةِ قالوا له: إنَّ مولُوداً يولَدُ في بني إسرائيلَ يكون سَبَباً لذهاب مُلْكِكَ. قال الزجَّاج: (وَالْعَجَبُ مِنْ حُمْقِ فِرْعَوْنَ إنْ كَانَ ذلِكَ الكَاهِنُ عِنْدَهُ صَادِقاً فَمَا يَنْفَعُ القتلُ؟! وَإنْ كَانَ كَاذِباً فَمَا مَعْنَى الْقَتْلِ؟)[1]. وقولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ يعني بالقَتْلِ والعملِ بالمعاصي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي نريدُ أن نُنْعِمَ عَلَىالَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وهم بنو إسرائيلَ، ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ ؛ يُقتَدَى بهم في الخيرِ. قال قتادةُ: (وُلاَةً وَمُلُوكاً) ودليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾[2] ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ لِمُلْكِ فرعونَ، ولِمساكنِ قومه، يَرِثُونَ ديارَهم وأموالَهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي يُمَكِّنُهم ما كان يَملكُ فرعون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي ما كانوا يَخافُونَهُ من هذا المولودِ الذي به يذهبُ مُلْكُهم على يدَيهِ، وذلك أنَّهم أخبرُوا أنَّ هلاكَهم على يدَي رَجُلٍ من بني إسرائيلَ، فكانوا على وَجَلٍ منهم فأرَاهُم اللهُ تعالى (مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) أي ما كانوا يَخَافُونَ من جهَتِهم من ذهابِ مُلكِهم على أيديهم.

وقرأ الأعمشُ وحمزة والكسائيُّ وخلف: (وَيُرِي فِرْعَوْنُ) بالياء وما بعدَهُ رفعاً على أنَّ الفعل لَهم، وقرأ الباقونَ بالنُّون مضمومة وما بعده نصبَ بوقوعِ الفعلِ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ؛ لَم يُرِدْ بالوحي وحيَ الرِّسالة، وإنَّما أراد الإلْهَامَ كما في قولهِ تعالى ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ﴾[3]. ويقالُ: أرَاهَا اللهُ في المنامِ فعرفته بتفسير الرُّؤيا. وقال بعضُهم: أتاها ملائكةٌ خاطَبُوها بهذا الكلامِ. واسمُ أمِّ موسى نُوخَابذُ بنتُ لاَوِي بنِ يعقوبَ.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٩٩.

(٢) المائدة / ٢٠ . (٣) النحل / ٦٨ .

قال وهبُ بن منبه: (لَمَّا حملَتْ أمُّ موسَى بموسَـى كتَمَـتْ أمرَهـا عـن⁽¹⁾ جميـعِ النَّاسِ فلم يطَّلِعْ على حَملِها أحدٌ مِن خلقِ الله تعالى، فلما كانت السَّنَةُ التي ولِدَ فيـها موسَى بَعَثَ فرعون القوابلَ يُفتِّشْنَ النساء، وحَمَلتْ أمُّ موسى ولَم يَنْتَـأْ بطنُـها، ولَـم يتغيَّر لونُها، ولَم يظهر لبَنُها، وكانت القوابلُ لا تتعرضُ لَها، فلما كـانت الليلـةُ الـتي وُلِدَ فيها ولدَتْهُ أمُّهُ ولا رقيبَ عليها ولا قابلةَ، لَم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ إلاّ أختهُ)[2].

ثُم أوحَى اللهُ إليها: أنْ أرْضِعِيْهِ، ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾؛ قال: فكتمَتْهُ ثلاثةَ أشهُرٍ ترضعهُ في حِجرِها لا يبكِي ولا يتحـرك، فلمـا خـافَتْ عليـه عمِلَتْ له تَابُوتاً مطبقاً ومهدت له فيه، ثُم ألقتْهُ في البحرِ ليـلاً كمـا أمرَهـا اللهُ، فلمـا أصبحَ فرعونُ جلسَ في مجلسِهِ على شاطئِ النِّيلِ، فبَصُرَ بالتابوتِ، فقالَ لِمـن حولَـهُ: ائْتُونِي بهذا التابوتِ، فأتَوا به، فلما وُضِعَ بين يديه فتحوهُ، فوجدوا فيه موسَـى، فلمـا نَظَرَ إليه فرعونُ إغتاظَ وقالَ: كيف أخطأَ هذا الغلامَ الذبحُ؟!

وكان لفرعونَ امرأةٌ يقال لَها آسيَةُ مِن خِيَارِ النِّساءِ من بنات الأنبيـاءِ، وكـانت أمّاً للمسلمينَ ترحَمُهم وتتصدَّقُ عليهم، فقالت لفرعونَ وهي قاعدةٌ إلى جَنبـهِ: هـذا الولدُ أكبرُ من ولد سنةٍ وأنتَ إنَّما أمَرتَ أن تذبحَ الوِلْدَانَ بهذه السَّـنةِ، فدَعْـهُ يكـون قُرَّةَ عَيْنٍ لِي ولكَ، لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أنْ يَنْفَعَنَا أوْ نَتَّخِذهُ وَلَداً، فقال فرعونُ لَـها: عسَـى أن ينفعَكِ، فأما أنا فلا أريدُ نفعَهُ.

قال وهبُ: (لو قالَ فرعون كما قالَتِ امرأتهُ: عَسَى أنْ يَنْفَعَنَـا؛ لنفعَـهُ اللهُ بـه، ولكنه أبَى أن يقولَ للشَّقاءِ الذي كتبَهُ الله عليهِ، فتركَهُ فرعونُ ولَم يَقتُلْهُ)[3].

---

(١) في المخطوط: (وكلمتهُ من)، والصحيح كما أثبتناه؛ لأنه تصحيف من الناسخ.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٧٣.

(٣) نقله ابن عطية في المحرر الوجيز: ص٩٧٤ من قول ابن عباس. ونقـل الطـبري هـذا التفسـير في جامع البيان: الحديث (٢٠٦٩٧): عن السدي وقتادة وابـن عبـاس، وقـال: (فقـال رسـول الله: [وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوْ أقَرَّ فِرْعَوْنُ أنْ يَكُونَ لَهُ قُرَّةَ عَيْنٍ كَمَا أقَرَّتْ، لَهَدَاهُ اللهُ بـهِ كَمَـا هَـدَى بـهِ امْرَأتَهُ، وَلَكِنَّ اللهَ حَرَمَهُ ذَلِكَ]).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أن أرضِعِيهِ) أي أرْضِعِيْهِ ما لَم تَخَافِي عليه الطلبَ، فإذا خِفْتِ عليه الطلبَ (فَألقِيهِ فِى اليَم) أي في البحرِ، فقالت: يَا رَب؛ إنِّي أخافُ عليه حِيتَانَ البحرِ، فأُمِرَتْ أن تجعلَهُ في تابوتٍ مُقَيَّر، فذهبت إلى النَّجَّار، فَأَمرَتْهُ أن يصنعَ لَها تابوتاً على قدرهِ، فعرفَ ذلك فذهبَ إلى الْمُوَكَّلِيْنَ بذبحِ بني إسرائيل لِيُخبرَهم بذلك، فلما انتهَى إليهم أعْقِلَ لسانهُ فلم يُطِق الكلامَ، فجعلَ يشيرُ بيدهِ فلم يفهَمُوا، فقال كبيرُهم: اضْرِبُوهُ؛ فضربوهُ وأخرَجوهُ، فلما انتهَى النجَّارُ إلى موضعهِ رَدَّ اللهُ عليه لسانَهُ، فرجعَ إليهم ليخبرَهم فاعتقلَ لسانهُ، فجعلَ يشيرُ إليهم بيدهِ، فلم يَفْهَمُوهُ فضربوهُ، ففعلَ ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ، فعرفَ أنه من عندِ الله تعالى، فَخَرَّ للهِ ساجداً وأسلَمَ، ثُم صَنَعَ التابوتَ وسَلَّمَهُ إلى أمِّ موسى فوضعتْهُ فيه وألْقَتْهُ في النِّيلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ﴾ ؛ أي لاَ تخافِي من الغرقِ والْهلاكِ، ولا تَحزَنِي لفراقهِ، ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ إلى فرعونَ وقومهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا ألْقَتْهُ أمُّهُ فِي الْبَحْرِ أقْبَلَ تَهْوِي بهِ الأَمْوَاجُ حَتَّى اختار مَنْزِلَ فِرْعَوْنَ، فَخَرَجَتْ جَوَاري فِرْعَوْنَ تَسْقِيْنَ الْمَاءَ، فَأَبْصَرَتِ التَّابُوتَ بَيْنَ الشَّجَرِ وَالْمَاءِ فَأَخْرَجَتْهُ وَذهَبَتْ بهِ إلَى امْرَأةِ فِرْعَوْنَ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ).

وقولهُ تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ ؛ هذه (لام) العاقبةِ لأنَّ أحداً لا يلتقطُ الولدَ ليكون له عدُوّاً، ونظيرُ هذا قولُهم: لِدُّوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَاب. وقولهُ تعالى (وَحَزَناً)، قرأ أهلُ الكوفةِ إلاّ عاصماً بضمِّ الحاءِ وجزم الزَّاي وهما لُغتان، مثل السَّقَم والسُّقْمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي متعمِّدين في الإقامةِ على الكُفْر والمعصية، يقالُ: خطأَ فُلانٌ يُخْطِئُ خَطأً إذا تعمَّدَ الذنبَ وأخطأ إذا وَقَعَ منهُ على غيرِ الصَّواب، وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كانُوا آثِمينَ عاصِينَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ ؛ وذلـــك أنَّ فرعون هَمَّ بقَتْلِهِ، فقالت له امرأتهُ: ليس من أولادِ بَنِي إسرائيلَ، وقد أتانَا اللهُ به مــن أرضٍ أخرَى، ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ ، فلاَ تقتُلْهُ أيُّها الملكُ، فـهو قُـرَّةُ عَيْـنٍ لِي ولَكَ، وعسَى أن ينفعَنا في أمورنا، ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أنَّ هلاكَهم على يديهِ، وَقِيْلَ: وهم لا يشعرونَ أنِّي أفعلُ ما أريدُ ولا أفعلُ ما يَهْوُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُرَّةُ عَيْنٍ) مشتقٌّ من القُرُور؛ وهو الماءُ البارِدُ، ومعنى قولِهم: أقَـرَّ اللهُ عَيْنَكَ؛ أي أبردَهُ معكَ؛ لأن دمعةَ السُّرور باردةٌ، ودمعةَ الحزن حارَّةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ ؛ أي أصبـحَ قلـبُ أمِّ موسـى وهي نُوخابدُ بنتُ لاوي بنِ يعقوبَ فَارغاً من كلِّ شيءٍ إلاّ عن هَـمِّ موسَـى وذِكْـرِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ ؛ أي لولاَ أَنْ شَدَدْنَا على قلبها بالصبرِ عن إظهار ذلــكَ، ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي مِن المصدِّقين بما سبقَ من الوعدِ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ ولو أظهرَتْ لكان ذلك سَبَباً لقتلهِ.

والرَّبْطُ على القلب: هو إلْهَامُ الصَّبرِ وتقويتهُ. وَقِيْلَ: معنـاهُ: وأصبَـحَ فُـؤَادُ أمِّ مُوسَى فَارغاً من الصَّبرِ على فِرَاقِ موسَى لولاَ أنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبهَا لأبْدَتْ بهِ. وَقِيْـلَ: فَارغاً من الْحُزْنِ لعِلْمِها بأنه لَم يعرِفْهُ. قرأ فُضَالَةُ بنُ عبيدٍ[1] (وَأصْبَحَ فُؤَادُ أمِّ مُوسَى فَزِعاً) بالزَّاي والعينِ من غير ألِفٍ من الفَزَعِ[2].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ ؛ أي قـالت أمُّ موسَى لأختــهِ - واسْمُها مَرْيَمُ -: ابْتَغِي أثَرَهُ وانظُري أين وقعَ؛ لتَعْلَمِي خبرَهُ وإلى مَن صـارَ، فذهبَـتْ في إثْـرِ التَّـابوتِ، ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ ﴾ ؛ بموسـى، ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ ؛ أي عـن بُعْـدٍ قــد

---

(١) فضالة بن عبيد بن ناقد، أبو محمد الأنصاري، شهدَ أحداً وما بعدها ﷺ، روى عـن النـبي ﷺ وعن عمر، وأبي الدرداء وجماعة من الصحابة. مات سنة ثلاث وخمسين من الهجرة، وقيل، سـنة سبع وستين، والأول أصح. ترجم له ابن حجر في التهذيب: الرقم (٥٥٨٣).

(٢) ذكره الطـبري في جـامع البيـان: مـج ١١ ج ٢٥ ص٤٦؛ قـال: (وقـد ذُكـر ...) وذكـره بلفـظ (فَازعاً). وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٥٥.

أخذوهُ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أنَّها قد جاءَتْ لتعرفَ عن خبرهِ.

وقال ابنُ عبَّاس: (الْجُنُبُ أنْ يَسْمُو بَصَرُ الإنْسَانِ إلَى الشَّيْءِ الْبَعِيْدِ وَهُوَ إلَى جَنْبِهِ لاَ يَشْعُرُ بِهِ)[١] وكانت مُجانبةً لتحديقِ النَّظر إليه كَيلاَ يعلم بما قصدَتْ به. وقال قتادةُ: (كَانَتْ تَنْظُرُ إلَيْهِ كَأنَّهَا لاَ تُرِيْدُهُ)[٢]، وكان يقرأ (عَنْ جَنْبٍ) بفتحِ الجيم وسُكون النُّون. وقرأ النُّعمان بن سالِم[٣]: (عَنْ جَانِبٍ) أي عن ناحيَةٍ (وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) أنَّها أخْتُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ الْمَرَاضِعُ جمعُ مُرْضِعَةٍ، وقولهُ تعالى: (مِنْ قَبْلُ) أي من قبلِ مَجِيء أمِّهِ، ومعنى: (حَرَّمْنَا عَلَيْهِ) أي مَنَعْنَاهُ، وقد يذكرُ التحريم بمعنى المنعِ. قال الشاعرُ:

جَاءَتْ لِسُرْعَتِي فَقُلْتُ لَهَا اصْبِرِي ... إنِّي امْرُؤٌ صَرْعِي عَلَيْكِ حَرَامُ[٤]

أي مُمْتَنِعٌ.

وذلك أنَّ اللهَ تعالى أرادَ أن يَرُدَّهُ إلى أمِّهِ، فَمَنَعَهُ من قَبول ثَدْيِ المراضعِ، فلما تَعَذرَ عليهم رضَاعُهُ؛ ﴿ فَقَالَتْ ﴾ أختهُ: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ﴾ ؛ أي يَضْمَنُونَ لكم القيامَ به ورضَاعَهُ، ﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي يُشفِقُونَ عليه وينصَحُونه، قالوا لَها: مَنْ؟ قالت: أمِّي، قالوا: ولأُمِّكِ لبَنٌ؟ قالت: نَعَمْ؛ لبنُ أخِي هارونَ، وكان هارونُ وُلِدَ في سَنة لا يُقتَلُ فيها صبيٌّ، فقالوا: صَدَقْتِ. فدلَّتْهُم على أمِّ موسى، فدُفِعَ إليها لتُربيَهُ لَهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٧٢٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٧٢٨). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٧٢٦).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٥٧.

(٤) نقله القرطبي بلفظ:

جَالَتْ لِتَصْرَعَنِي فَقُلْتُ اقْصِرِي ... إنِّي امْرُؤٌ صَرْعِي عَلَيْكِ حَرَامُ

يصف حال ناقته، وجالت: اضطربت وقلقت، فهو يقول: ذهبت الناقة بقلقها ونشاطها لتصرعني فلم تقدر على ذلك لحذقي بالركوب ومعرفتي به.

فلما وَجَدَ الصبيُّ ريحَ أمِّهِ قَبلَ ثديَيْها وأتمَّها اللهُ ما وعدَها وهو قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ ﴾ ؛ على فِرَاقِـهِ، ﴿ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ بـرَدِّ ولدِها إليـها، ﴿ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ أنَّ اللهَ وعدَها بردِّ ولدِها إليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ﴾ ؛ قال مجاهدُ: (بَلَـغَ أَشُـدَّهُ؛ أيْ ثَلاثَـاً وثَلاثِيْنَ سَنَةً)، (وَاستَوَى) أي بَلَغَ أربعينَ سَنَةً[1]، وهو قولُ ابنِ عبَّاس وقتادةَ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ﴾ يعني الفِقْهَ والعقلَ والعِلْمَ في دينهِ ودِيـن آبائهِ، قد تعلَّمَ موسَى وحَكَمَ قبلَ أن يُبْعَثَ نبيّاً. وقال ابنُ عبَّـاس: (لَمَّـا بَلَـغَ مُوسَـى أرْبَعِيْنَ سَنَةً آتَاهُ اللهُ النُّبُوَّةَ). وَقِيْلَ: الأَشُدُّ: منتهَى الشَّباب والقُوَّةِ، والاسـتواءُ: إتْمَـامُ الْخَلْقِ واعتدالُ الجسمِ في الطُّول والعِظَمِ، وإنَّما يبلغُ المرء هذا الحدَّ في اثنين وعِشرين سنةً إلَى أربعين سَنَة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ فيهِ بيانُ أنَّ إنشـاءَ العلـمِ والحكمة يجوزُ أن يكون علـى الإحْسَانِ؛ لأنَّـهما يؤَدِّيـان إلى الجنَّـةِ الـتي هـي جـزاءُ الْمُحسنِينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ ﴾ ؛ أي دخلَ مُوسَى مدينةَ فرعون وهي مدينةٌ يقالُ لَها منف، وكانت مِن مِصْرَ على فَرسَـخَيْنِ[3]. وقولـهُ تعـالى: ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا ﴾ ، قال ابنُ عبَّاس: (فِي وَقْتِ الظَّهِيْرَةِ عِنْدَ الْمَقِيْلِ وَقَدْ خَلَتِ الطُّرُقُ)[4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثـر (٢٠٧٤٠). وابـن أبـي حـاتم في التفسـير الكبـير: ج ٩ ص٢٩٥١: الأثر (١٦٧٤٣-١٦٧٤٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيـان: الأثـر (٢٠٧٤٠). وابـن أبـي حـاتم في التفسـير الكبـير: ج ٩ ص٢٩٥١. الأثر (١٦٧٤٣ و١٦٧٤٤).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٥٩، نقله القرطبي عن مقاتل.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٧٤٩).

وَقِيْلَ: دخلَها بين المغرب والعِشَاء، وَقِيْلَ: دخلَها يومَ عيدِهم وكانوا مشغولين عن موضعِ مدينَتِهم باللَّهْوِ واللَّعب، ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ ؛ أي مِن بَنِي إسرائيلَ، ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ ؛ أي من القِبْطِ، وكان القبطيُّ يُسَخِّرُ الإسرائيليَّ ليحمِلَ له حَطَباً إلى مَطبَخِ فرعون، والإسرائيليُّ يَأْبَى ذلكَ، ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ ؛ أي استَنْصَرَهُ الإسرائيليُّ، ﴿ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ ، على القِبْطِيِّ، ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ ﴾ ؛ أي ضَرَبَهُ بجمعِ كفِّهِ في صدرِهِ، ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي قَتَلَهُ فوقعَ القبطيُّ مَيِّتاً. وكلُّ شيءٍ فَرَغْتَ منهُ وأتْمَمْتَهُ فقد قَضَيْتَ عليهِ وقَضَيْتَهُ، والوَكْزُ: الضَّرْبُ بجمعِ الكَفِّ.

وكان مُوسَى ﷺ قد أُوتِيَ بَسْطَةً في الْخَلْقِ وشدَّةَ القوةِ والبطش، وكان مِن نِيَّةِ موسى أنه لا يريدُ قَتْلَهُ ولَم يتعمَّدْ هَلاكَهُ، بل قال له أوَّلاً: خَلِّ سَبِيْلَهُ، فقال: إنَّما أريدهُ ليحمِلَ الحطبَ إلى مطبخِ فرعونَ، (فوكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ) أي قَتَلَهُ وفرَغَ من أمرِهِ، والوَكْزُ واللَّكْزُ والْهَز بمعنى واحدٍ وهو الدَّفْعُ، ويقالُ: وَكَزَهُ بعَصَاهُ.

فَلَمَّا قَتَلَهُ موسَى ﷺ نَدِمَ على قتلِهِ وقالَ: لَمْ أُذِر بهذا، ثُم دفعَهُ في الرَّمْلِ، ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ ؛ لأنِّي كنتُ لا أريدُ قَتْلَهُ، ولكن هَيَّجَ الشيطانُ حَرْبِي حتى ضربتُهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي عَدُوٌّ لبَنِي آدمَ مُضِلٌّ له مُبيْنٌ عداوتُهُ لَهم.

ثُم استغفرَ مُوسَى رَبَّهُ فـ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ ؛ بقَتْلِ القبطيِّ قَبْلَ وُرودِ الأمرِ والإذنِ لِي فيهِ، ﴿ فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي بما أنعمتَ عليَّ بالمغفرةِ والحِلْمِ والعلمِ فلن أكونَ عَوْناً للكافرينَ، وهذا يدلُّ على أنَّ الإسرائيليَّ الذي أعانَهُ موسى كان كَافِراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ ؛ أي أصبحَ مِن عند ذلك اليوم في تلك المدينة التي فَعَلَ فيها ما فعلَ خائفاً على نفسِهِ من فرعون وقومِهِ (يَتَرَقَّبُ) أي ينظرُ عاقبةَ أمرِهِ، والتَّرَقُّبُ: انتظارُ المكروهِ؛ أي ينتظرُ سوءاً ينالُهُ منهم، ﴿ فَإِذَا ﴾ ؛ ذلكَ الإسرائيليُّ، ﴿ ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾ ؛ أي يستغيثُهُ

على رجلٍ آخر من القِبْـطِ، ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي ضَـالٌّ عن طريقِ الحقِّ بَيِّنُ الجِدَال، يقاتلُ مَن يقاومـهُ، وقـد قتلـتُ أمـس في سـبَبكَ رجُـلاً، وتدعونِي اليومَ إلى آخرَ.

ثُم أقبلَ موسى وهمَّ أن يبطُشَ الثانيةَ بالقبطيِّ، ظَـنَّ الإسـرائيليُّ أنـه يريـدُ أن يبطشَ به لقولِهِ (إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِيْنٌ) فقال الإسرائيليُّ: يا موسى أتريـدُ أن تقتُلَـني كمـا قتلتَ نفساً بالأمس؟ ولَم يكن أحدٌ مِن قومِ فرعون عَلِمَ أنَّ موسـى هـو الـذي قَتَـلَ القبطيَّ حتى أفشَى عليه هذا الإسرائيليُّ، وسَمع القبطيُّ ذلك فأتَى فرعـونَ فأخـبرَهُ، وذلك معنى قولِهِ تعـالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ ؛ وكان أيضاً هـذا القبطـيُّ الثـانِي سَـخَّرَ الإسرائيليَّ يحمِلُ عليه حَطباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي ما تريـدُ إلاَّ أن تكون قَتَّالاً في أرضِ مصرَ بـالظُّلم. قـال الزجَّـاجُ: (الْجَبَّـارُ فِـي اللُّغَـةِ: الَّـذِي لاَ يَتَوَاضَعُ لأَمْرِ اللهِ، وَالْقَاتِلُ بغَيْرِ حَقٍّ جَبَّارٌ)(١).

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي مِـن الذيـن يأمُرونَ بالمعروفِ وينْهَوْنَ عن المنكرِ. فلمَّا سَمع القبطـيُّ مقالـةَ الإسـرائيليِّ عَلِـمَ أنَّ موسى هو الذي قَتَلَ القبطيَّ بالأمسِ، ولَم يكن أحـدٌ عَلِـمَ ذلـكَ قَبْـلَ هـذا فـانطلقَ القبطيُّ فأخبرَ فرعون، فأرسلَ فرعونُ إلى أولياءِ المقتول أنِ اقتُلُوا موسَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾ ؛ مِن شـيعة موسـى، ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ؛ أي مِن آخرِها إلى مُوسَى فأخبرَهُ بذلكَ، وقولهُ تعالى: ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ ؛ أي يَمشـي علـى رجلَيْهِ مُسرعاً وهو حزقيل بـن صوريـا مؤمـنٌ مـن آل فرعـون، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لـه: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ ؛ أي أنَّ الْخَوَاصَّ مِن قوم فرعـونَ يتشَاورُونَ في قتلِكَ، ﴿ فَٱخْرُجْ ﴾ ؛ مِن المدينةِ، ﴿ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١٠٣-١٠٤؛ قال الزجاج: (الجبَّارُ في اللغة: المتعظِّمُ الذي لا يتواضعُ لأمر اللهِ، فالقاتلُ مؤمناً جبَّار، وكلُّ قاتلٍ فهو جبَّارٌ، قتَلَ واحداً وجماعةً ظُلماً).

وقال الزجَّاج: (يَأْتمِرُونَ أيْ يَأْمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بقَتْلِكَ)[1]. فَاخْرُجْ إنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِيْنَ في أمري لكَ بالخروجِ، ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا ﴾ ؛ أي خرجَ موسى من المدينةِ، ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ ؛ أي ينظرُ متى يُلْحَقُ فيُؤْخَذُ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ عندَ ذلكَ: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢١) ﴾ ؛ أي مِن فرعونَ وقومِهِ أين يذهب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ ؛ أي لَمَّا سارَ نَحوَ مِدْيَنَ، وكان قد خرجَ بغيرِ زاد ولا حِذاءٍ ولا ركوبةٍ، بل خرجَ هَائِماً على وجهِهِ هارباً من فرعونَ وقومِهِ لا يدري أينَ يذهبُ، فخافَ أن يُخطِئَ الطريقَ. ومَدْيَنُ اسمُ ماءٍ لقوم شُعيب، وبينَهُ وبين مصرَ ثمانيةُ أيَّامٍ، سُمي ذلكَ الماءُ باسم مَدْيَنَ بنِ إبراهيمَ عليه السلام.

فلمَّا لَم يكن لِموسى علمٌ بالطريق خَشِيَ أن يذهبَ يَميناً وشِمالاً فـ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (٢٢) ﴾ ؛ أي يُرشِدَنِي قصدَ الطريقِ إلى مَدْيَنَ، فلمَّا دَعَا موسى بهذا جاءَهُ مَلَكٌ على فَرَسٍ فانطلقَ به إلى مَدْيَنَ. قال المفسِّرون: خرجَ موسَى من مصرَ بلا زادٍ ولا درهَم ولا رُكوبَةٍ إلى مَديَنَ، وبينهما مسيرةُ ثمان ليالٍ، ولَم يكن له طعامٌ إلاّ ورقَ الشَّجرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ ؛ أي بلغَ بئْرَهُمْ التي كانوا يَسْقُونَ منها، قال ابنُ عبَّاس: (وَرَدَ مَاءَهُمْ وَأنَّهُ لَيَرَى خُضْرَةَ الشَّجَرَةِ فِي بَطْنِهِ مِنَ الْـهُزَال)[2]. وقولهُ: ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ ؛ أي وجدَ على ذلك الماءِ جماعةً من الناسِ يَسْقُونَ أغنامَهم مواشِيهم، ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ ؛ أي تَحْبسَانِ غنمَهما عن الماءِ حتى تفرغَ الناسُ ويَخلو لَهما الماءُ، وهما بنْتَا شُعيب.

والذوْدُ في اللغة: الطَّرْدُ والدفعُ والكَفُّ، ومعنى(تَذُودَان) تَدْفَعَانِ وتَكُفَّان الغنمَ مِن أن يَخلطَ بأغنامِ الناس، وحتى يقربَ الماءُ إلى أن يفرغَ القومُ.

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١٠٤.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٧٢٨). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٨٠٩).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ؛ أي قـالَ موسَـى لابنَتَـي شُـعيب: (مَـا خَطْبُكُمَا) أي ما شَأنُكُمَا لا تسقِيَانِ غنمَكُما مع الناسِ؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾ ؛ قرأ الحسنُ وابن عامر وأبو عمرو بفتح الياء وضَمِّ الدال، جعلُـوا الفعـلَ للرِّعَاءِ؛ أي حتى يرجعَ الرِّعَاءُ عنِ الماء، وقرأ الباقون (يُصْدِرُ) بضَمِّ الياءِ وضمِّ الدال؛ أي حتى يُصْدِرُوا مواشيهم من وردِهم، فيخْلُوا لنا الموضعَ فنَسقِي أغنامَنا فَضْـلَ مـا في الحوضِ. والرِّعَاءُ جمعُ رَاعٍ[1].

قال ابنُ اسحقَ: (قَالَتَا: نَحْنُ امْرَأتَانِ لاَ نَسْتَطِيْعُ أنْ نُزَاحِمَ الرِّجَـالَ ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ لا يقدرُ أن يسقِيَ ماشيتَهُ من الكِبَرِ والضَّعْـفِ، وليـس لـه أحدٌ غيرُنا، فلذلك احتَجْنا ونحنُ نساءٌ أن نسقي الغنمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ ؛ فلما سَمِعَ موسَـى قولَـهما رحِمَهُما، فقامَ ليسقِيَ لَهما غنمَهما، فوجدَ بقُربهما بئراً أخـرى علـى رأسِـها صخـرةٌ عظيمة لا يطيقُ رفعَها إلاَّ جماعة من الناسِ، فاقتلَعَها وحدَهُ ثُم أخذ الدَّلْو مـن القـوم، فأدلاَهـا في البـئرِ، ونزعَـها وأفرغَـها في الحـوضِ، ثُـم دعـا بالبَرَكَـةِ فشَـرِبَ الغنـمُ حتى رَوي.

وَقِيْلَ: إنه زَاحَمَ القومَ على بئرهم وسقَى لَهما غنمَـهما، فذلـك قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (فَسَقَى لَهُمَا) أي سقَى لَهما أغنامَهما قبلَ الوقتِ الذي كانا يسقِيَان فيه، ثُم رجعَ من الشَّمسِ إلى ظلِّ شجرةٍ فجلسَ تحتَها من شـدَّةِ الحرِّ، وهـو جـائعٌ، ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي إنِّي لَمُحْتَاجٌ فقيرٌ إلى ما قدَّرتَ لِي مـن الطعامِ، وكان خرجَ من مصر بغيرِ زادٍ وكان لا يأكلُ في الأيـام الثمانيـةِ إلاَّ الحشـيشَ والشَّجرَ إلى أن بلغَ ماء مَدْيَنَ، فلما أدركَهُ الجوعُ الشديد؛ وكان لا يقدرُ علـى شـيءٍ؛ سألَ الله أكلَهُ من الطعامِ.

---

(١) ينظر: الحجـة للقـراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٩-٢٥٠. ومعـاني القـرآن وإعرابـه للزجـاج: ج ٤ ص١٠٥.

قال ابنُ عبَّاس: (سَأَلَ اللهَ فَلْقَ خُبْزٍ أنْ يُقِيْمَ بهِ صُلْبَهُ)[1]، قال سعيدُ بن جبير: (لَقَدْ قَالَ مُوسَى: إنِّي لِمَا أنْزَلْتَ إلَيَّ مِنْ خُبْزٍ فَقِيْرٌ، وَهُوَ أكْرَمُ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، وَلَقَدِ افْتَقَرَ إلَى شِقِّ تَمرةٍ)[1]، وقال مُحمَّدٌ: (مَا سَأَلَ اللهَ إلاَّ الْخُبْزَ). واللامُ في قوله تعالى (إنِّي لِمَا أنزَلْتَ) بمعنى: إلَيَّ، يقالُ: فقراءُ وفقيرٌ إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ ؛ وذلك أنَّ موسى عليه السلام لَمَّا سقى لَهما، رجعَا إلى أبيهما سَريعاً، فقالَ لَهما أبوهُما: مَا أعْجَلَكُمَا ؟ قالتا: وجَدْنا رجُلاً صالحاً رَحِمَنا، فسقَى لنا أغنامَنا، فقالَ لإحداهُما: اذهَبِي فادعِيه لِي، فجاءَتْهُ تَمشي مُستحيةً مشيَ مَن لا يعتادُ الدُّخولَ والخروجَ، واضعةً كفَّها على وجهها، مُعرضَةً من الحياءِ، وكانت التي أرسَلَها أبوها إلى موسَى هي الصُّغرَى منهما، واسْمُها صُورَا، قال عمرُ بن الخطَّاب في قولهِ تعالى: (فَجَاءتهُ إحدَاهُمَا تَمشِي عَلَى استِحيَاء): (وَاضِعَةً ثَوْبَهَا عَلَى وَجْهِهَا؛ أيْ مُسْتَتِرَةً بكُمِّ ذِرَاعِهَا)[2]. قال أهلُ اللُّغة: السَّلْفَعُ: الجريئة التي هي غيرُ مُستحيَةٍ[3].

وقولُه تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ أي ليعطيكَ ذلك، فلما قالت ذلكَ لِموسَى شَقَّ عليه قولُها، وهَمَّ أن لا يتبعَها وكان بينه وبين أبيها مقدارَ ثلاثةِ أميَالٍ، ثُم إنه لَم يجِدْ بُدّاً من اتِّباعِها؛ لأجْلِ الْجُهْدِ والجوعِ الذي حَلَّ به ولأجلِ الخوف الذي خرجَ لأجلِهِ، فانطلقَ معها، وكانت الريحُ تضربُ ثوبَها فنكَّرَتْهُ[4] برَدْفِها فتصفُ له عجيزتَها، وكانت ذات عَجِزٍ، فجعل موسَى يَغُضُّ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٧٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٨٣٤).

(٣) كأنه يوجد سقط من المخطوط، حيث ضرورة سياق كلام المصنف رَحِمَهُ اللهُ تقتضي ذكر أثر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (لَمْ تَكُنْ سَلْفَعاً مِنَ النِّساءِ خَرَّاجَةً وَلاَّجَةً، قَائِلَةً بِيَدِهَا عَلَى وَجْهِهَا: ﴿إنَّ أبي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾). أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٨٣٧). من رواية عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والسَّلْفَعُ من النساء: الجريئة. والصَّخَّابة، البذيئة، الفاحشة القليلة الحياء. والخرَّاجة والولاَّجة: الكثيرة الظرف والاحتيال.

(٤) نَكَّرَهُ فَتَنَكَّرَ: أي غيَّرَهُ فتغيَّرَ إلى مجهول، وهنا غيَّرت الريحُ صفةَ ثوبها إلى صفةِ ردفها مما يظهر شكل ما تحته.

بَصَرَهُ ويُعرِضُ عنها، ثُم قال لَها: (يَا أمَةَ اللهِ كُونِي خَلْفِي، وَانْعَتِي لِيَ الطَّرِيْقَ بقَوْلِكِ، وَدُلِّينِي عَلَيْهَا إنْ أنا أخْطَأتُ، فَإنَّا بَنُوا يَعْقُوبَ لاَ نَسْتَطِيْعُ النَّظَرَ إلَى أعْجَاز النِّسَاءِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي فلمَّا جاءَ مُوسَى إلى شُعيب إذ هو بالعَشَاءِ مُهَيَّأً، فقالَ له شُعيب: مَن أنتَ ؟ قال: أنا رجلٌ من بَنِي إسرائيلَ مِن أهلِ مصر، وحَدَّثَهُ بما كان منهُ من قَتْلِ القبطيِّ وفرارِهِ من فرعون، فقال له شعيبُ: إجلِسْ (لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أي نجوتَ من فرعونَ وقومِهِ، فإنَّهم لا سلطانَ لَهم بأرضِنا، ولَسْنَا مملكتَهُ.

فجلسَ معه موسى عليه السلام فقالَ له شعيبُ: هَاكَ فَتَعَشَّ، فقال: أعوذُ باللهِ، فقال له شعيبُ: ولِمَ ذلك وأنتَ جائعٌ؟ قال: أخافُ أن يكون هذا عِوَضاً لِمَا سقيتُ لكم، وإنَّا أهلُ بيتٍ لا يَبْغِ شيئاً من عَمَلِ الآخرةِ بملْءِ الأرضِ ذهباً، فقال شعيبُ: لاَ وَاللهِ! ولكنَّها عادَتِي وعادةُ آبائي، نُقْرِي الضَّيفَ ونُطعِمُ الطعامَ، فجلسَ مُوسَى عليه السلام يتعشَّى حينئذٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي قالَتْ إحداهُما وهي التي تزوَّجَها موسى: يا أبَتِ اتَّخِذْهُ أجيراً يرعَى لنا غنمَنا، فإنَّ خيرَ منِ استأجرتَ الذي يقوَى على العملِ، ويؤدِّي الأمانةَ.

فقال لَها أبوهَا: وما عِلْمُكِ بقوَّتهِ وأمانتِهِ ؟ فقالت: أمَّا قوَّتُهُ فإنه لَمَّا رأى أغنامَنا محبوسةً عن الماءِ، قال لنا: هل بقُربكُما بئرٌ ؟ قلنا: نَعَمْ؛ لكن عليها صخرةٌ عظيمة لا يرفعُها إلاَّ أربعونَ رجُلاً، قال: انطَلِقا بي إليها، فانطلَقا به إليها، فأخذ الصخرةَ بيدهِ ونحَّاهَا سَهْلاً من غيرِ كُلْفَةٍ. وأمَّا أمانتهُ فإنه قال لِي في بعضِ الطَّرِيق: إمْشِ خلفِي، فإنْ أخطأتُ الطريقَ فارْمِ قِبَلِي بحصاةٍ حتى أنْهَجَ نَهْجاً، فإنَّا قومٌ لا ننظرُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٨٤٢) عن السدي، والاثر (٢٠٨٤٤) عن ابن اسحق.

إلى وراءِ النِّساء. ولهذا المعنى قال عمرُ ﷺ: (لاَ يَصْلُحُ لأُمُـورِ الْمُسْـلِمِيْنَ إلاَّ الْقَـوِيُّ مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ، وَالرَّقِيْقُ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ)(١).

قال فلمَّا ذكرَتِ المرأةُ من حال موسى ازدادَ أبوهَا رغبةً فيـهِ و ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَـٰنِيَ حِجَجٍ ﴾ ؛ أي على أن تَرْعَـى غنَمِـي، ويكـون فيـها أجْـراً إلى ثمـان سِـنين، ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ ؛ فـهو بفَضْـلٍ منـكَ ليـس بواجـبٍ عليـكَ، ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ ؛ في العشرِ، ولا أكلفُكَ إلاَّ العملَ المشروط، والمرادُ بالحِجَجِ السِّنين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ مِمن وافَقَ فِعْلَـهُ. وَقِيْلَ: ستجدُنِي إن شاءَ اللهُ من الوَافِيْنَ بالعهدِ، الْمُحسِنِينَ الصُّحبةَ.

فـ ﴿ قَالَ ﴾ مُوسَى لشـعيب: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ الشـرط ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ ؛ يعني الذي وصفتَ وشَرَطْتَ على ذلك، وما شرطتَ لِي مِـن تزويـج إحداهمـا عَلَـيَّ فلي، والأمر بيننا. وتـم السـلام. ثـم قـال: ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ ﴾ ؛ أيُّ الأجلَـين مـن الثَّمان أو العَشْرِ، ﴿ قَضَيْتُ ﴾ ؛ أي أتْمَمْتَ وفَرَغْتَ، ﴿ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ﴾ ؛ أي لا ظُلْمَ ولا حرجَ ولا كُلفَةَ. قال الفرَّاء: (مَا) صِلَةٌ فِي قَوْلِهِ: (أيَّمَا الأَجَلَيْنِ)(٢).

وقولهُ تعـالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي شـهيدٌ علـى مـا عَقَدَ بعضُنا على بعضٍ. قال ابنُ عبَّاس: (وَاللهُ شَهِيْدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ).

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: أبواب القضـاء: بـاب كيـف ينبغـي للقـاضي أن يكـون: الأثـر (١٥٢٨٨). ولفظه: (لاَ يَنْبَغِي أنْ يَلِيَ هَذَا الأَمْرَ - يعني أمرَ الناس - إلاَّ رَجُلٌ فِيْهِ أرْبَعُ خِصَـالٍ: اللِّينُ فِي غَيْرِ ضَعْفٍ، وَالشِّدَّةُ فِي غَيْرِ عُنْـفٍ، وَالإمْسَـاكُ مِـنْ غَـيْرِ بُخْـلٍ، وَالسَّـمَاحَةُ فِـي غَـيْرِ سَرَفٍ. فَإنْ سَقَطَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فَسَدَتِ الثَّلاَثُ).

(٢) معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٠٥؛ قال: (فجعل (ما) وهي صلة من صلات الجزاء مـع (ايٌّ) وهي في قراءة عبدالله (أيَّ الأجَلَين ما قضيتُ فلا عُدوان علَيَّ) وهذا أكثر في كلام العـرب مـن الأول).

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أيُّ الأَجَلَيْن قَضَى مُوسَى؟ فَقَالَ: [أَوْفَاهُمَا وَأَبْطَئُهُمَا][(1)]. وعن أبي ذرٍّ[(2)] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [وَإذا سُئِلْتَ عَنْ أيِّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ فَقُلْ: خَيْرُهُمَا أوْ أبَرُّهُمَا، وَإنْ سُئِلْتَ أيُّ الْمَرْأتَيْنِ تَزَوَّجَ؟ فَقُلِ الصُّغْرَى مِنْهُمَا وَالَّتِي جَاءَتْ فَقَالَتْ: يَا أبَتِ اسْتَأْجِرْهُ][(3)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي فلَمَّا وفَّى موسى أتَمَّ الأجلَين وهو عشرُ سنين، وسارَ بأهلِهِ نحو مصرَ، قال مقاتلُ: (اسْتَأْذنَ مُوسَى صِهْرَهُ شُعَيْبَ فِي الْعَوْدِ إلَى مِصْرَ لِزِيَارَةِ وَالِدَيْهِ وَأخْتِهِ، فَأَذِنَ لَهُ، فَسَارَ بأَهْلِهِ نَحْوَ مِصْرَ؛ ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ﴾ فَأَبْصَرَ باللَّيْلِ الظَّلِيم عن يسار الطَّريق، أي الجبَلِ، ﴿ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ ﴾ ؛ أي انزلُوا ها هُنا، ﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ ﴾ ؛ أي أبصرتُ، ﴿ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ ؛ أي مِن عند النار بخبرٍ، وأعلمُ لِمَ أوقِدَتْ تلك النارُ. ويقالُ: كان أخطأ الطريقَ فأرادَ أن يَسْألَ عن الطريقِ مَن يَجِدُهُ عندَ النار. وقولهُ تعالى: ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ معناهُ: أو آتِيكُمْ بقطعةٍ من الحطَب في رأسِها شعلةٌ من النار لكي تَدْفَئُوا من البردِ، وكانوا في شدَّةِ الشِّتاء).

وفي قوله (جِذْوَةٍ) ثلاثُ قراءاتٍ: فتحُ الجيمِ وهي قراءةُ عاصم، وضمُّها وهي قراءةُ حمزةَ، وكسرُها وهي قراءة الباقين، وقولُهُ تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي تُدْفِئُونَ بها عن البردِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: في الآثار (٢٠٨٧٣) بألفاظ عديدة؛ منها: [خَيْرُهُمَا وَأوْفَاهُمَا]، و[أتَمُّهُمَا وَأخْيَرُهُمَا] و [أكْثَرُهُمَا وَأطْيَبُهُمَا].

(٢) في المخطوط: (أبي) والصحيح كما أثبتناه من المعجم الصغير.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير: ج ٢ ص٧٩: الحديث (٨١٥)، وفي المعجم الأوسط: الحديث (٥٤٢٦). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص٢٠٣؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الصغير والأوسط والبزار باختصار، وفي إسناد الطبراني عويد بن أبي عمران، ضعفه ابن معين وغيره، ووثقه ابن حبان، وبقية رجال الطبراني رجال ثقات). وأخرجه الخطيب البغدادي من طريق الطبراني في تاريخ بغداد: ج ٢ ص١٢٦، وإسناده حسن كما في مجمع الزوائد: ج ٧ ص٨٨، قاله الهيثمي.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ ﴾ ؛ أي فلمَّا أتَى موسى النارَ نُودِيَ من جانب الوادِي الأيْمَنِ أراد يَمينَ موسَى، وقولـهُ تعالى (فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ) أي الْمُقَدَّسَةِ، وقولـهُ تعـالى: ﴿ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ أي من الشَّجرةِ وهي شجرةُ العُنَّاب في قول ابنِ عبَّاس، وقال مقاتلُ: (هِيَ عَوْسَجَةٌ)[١]، وسُمِّيت البقعةُ مباركةً؛ لأن الله كَلَّمَ مُوسَى فيها وبَعثَهُ نبيّاً. وقولـهُ تعالى: ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ؛ أي نُودِيَ بأنْ ألْقِ عصاكَ من يدِكَ، وموضعُ (أنْ ألْقِ) نصب، ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ ؛ أي فلما رآهَا بعدَ ما ألقاهَا تتحرَّكُ[٢] في غايةِ الاضْطِرَاب كأنَّها جَانٌّ في الْخِفَّةِ مع عِظَمِها، ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ ؛ أي هَارباً، ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ؛ أي ولَم يَلْتَفِتْ إلى ما رآهُ، فقال اللهُ لـه: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ ﴾ ، إليها، ﴿ وَلَا تَخَفْ ﴾ منها؛ ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ من أن ينالَكَ منها مكروهٌ، فأخذها موسى فإذا هي عصًا كما كانت، ويقال سُميت جَانٌّ في هذهِ الآية؛ لأنَّها صارت جَانًا في البقعةِ المباركة، وثُعبَاناً عند فرعونَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ ؛ أي أدْخِلْـهَا في جيبِكَ، ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ ﴾ ؛ لَها شعاعٌ كشُعَاعِ الشَّمس، ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ ؛ أي من غيرِ بَرَص، ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ ؛ أي ضَعْ يدكَ على صدركَ ليسْكُنَ ما بكَ من الفزعِ، فتصيرَ آمِناً مما كنتَ تخافهُ، وهذا لأنَّ من شأنِ الْخَائِفِ أن يرتعدَ ويقلقَ[٣] فيكون ضَمُّ يدهِ إلى نفسهِ في معنى السُّكون.

قال مجاهد: (كُلُّ مَنْ فَزِعَ فَضَمَّ جَنَاحَيْهِ إلَيْهِ ذهَبَ عَنْهُ الْفَزَعُ، وَقَرَأ هَذِهِ الآيَةَ)[٤]. وَجَنَاحُ الإنْسَانِ: عَضُدُهُ، ويقالُ: اليدُ كلُّها جَنَاحٌ. وقال بعضُهم: معنى قولهِ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٩٦. (والعَوْسَجَةُ) باليمن. ومَعدِنٌ للفضة، وشوك. القاموس المحيط: (عوس): والعوسَجُ إذا عظُمَ يقال: الغَرْقَدُ.

(٢) في المخطوط: (سحرت) والمناسب: تتحرك.

(٣) في المخطوط: (وتعلق) والمناسب كما أثبتناه.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٨١.

(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ) أي سَكِّنْ رَوْعَكَ، وضَمُّ الجناحِ هو السُّكون، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾[1] يريدُ الرِّفْقَ، وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] أي ارْفِقْ بهم، والِنْ جناحَكَ بهم. وقال الفرَّاء (أَرَادَ بِالْجَنَاحِ الْعَصَا)[3]. وقولهُ تعالى (مِنْ الرَّهْب) وقُرئ (مِنَ الرَّهَب) أيضاً وهما لُغتان مثل الرُّشْدِ والرَّشَدِ، ويقالُ: إنَّ قوله (مِنَ الرَّهْب) متَّصلٌ بقولهِ (مِنَ الآمِنِيْنَ)[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ ؛ يعني اليدَ والعصا حُجَّتَانِ مِن الله لِمُوسَى على صدقهِ، والمعنى: هما حُجَّتَان من ربكَ أرسلناكَ بهما ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾ ؛ أي أشرافِ قومه، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي خَارِجِين عن طاعةِ الله تعالى[5]، ((وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد النون))[6] وقرأ الباقونَ بالتخفيف. قال الزجَّاج: (التَّشْدِيْدُ تَثْنِيَةُ ذلِكَ، وَالتَّخْفِيْفُ تَثْنِيَةُ ذاكَ)[7].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ ؛ يعني القبطِيَّ الذي قتلَهُ، ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾ ، ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾ ؛ أي أَبْيَنُ مِنِّي كَلاماً وأحسنُ بياناً، وكان في لسانِ موسى عقدةٌ من قِبَلِ الجمرةِ التي تناولَها،

---

(١) الاسراء / ٢٤ .

(٢) الشعراء / ٢١٥.

(٣) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٣٠٦.

(٤) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٥٠.

(٥) أشار الناسخ إلى سقط، ولكنه لم يكتبه في الهامش كعادته، وكما هو واضح من سياق الكلام، وكأنه يريد (وقرأ ابن كثير وابن عمرو (فَذَانِّكَ) مشددة النون).

(٦) ليست في أصل المخطوط، وأضفناها لضرورة سياق الكلام وإتمام الفكرة.

(٧) معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١٠٨. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٨٥؛ قال القرطبي: (شدَّد النون ع و ضاً عن الألف الساقطة في (ذانك) الذي هو تثنية (ذا) المرفوع، وهو رفع بالابتداء، وألف (ذا) محذوفة لدخول ألف التثنية عليها، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين؛ لأنه أصله (فذانك) محذوف الألف الأولى عوضاً من النون الشديدة. وقيل: التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك).

ولذلك قال فرعونُ: وَلاَ يَكَادُ يُبِيْنُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا ﴾ ؛ أي عَوْناً ومُصَدِّقاً لِي، يقالُ: فلانٌ ردْءُ فلانٍ؛ إذا كان ينصرهُ ويشدُّ ظهرَهُ. وقرأ نافعُ (ردا) من غيرِ هَمْزٍ طلباً لِلْخِفَّةِ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ ؛ قرأ عاصمُ وحمزة: (يُصَدِّقُنِي) بضمِّ القاف، وقرأ الباقونَ بالجزمِ على الجواب بالأمر، ومَن رفعَ كان صفةً لنكرةٍ، جواباً للمسالة تقديرهُ: ردْءاً مُصَدِّقاً لِي، والتصديقُ هارون في قولِ الجمع. وقال مقاتلُ: (لِكَي يُصَدِّقَنِي فِرْعَوْنُ)[٢] ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ ؛ أي قالَ اللهُ تَعَالَى لِموسى: سنُعينُكَ ونقوِّيكَ وننصرُكَ بأخيكَ، وشَدُّ العَضُدِ كنايةٌ عن التقويةِ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾ حجَّةً وبيِّنة تدلُّ على النبوَّة، ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ بقتْلٍ ولا سُوءٍ ولا أذى، ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ لِمَن خالَفكما، وقولهُ تعالى: (بآيَاتِنَا) موضعهُ التقديمُ؛ والمعنى: ونجعلُ لكُمَا سُلطَاناً بآياتِنَا؛ أي بما نُعطيكُما من المعجزاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ ؛ يعني المعجزاتِ فلم يقدِرُوا على دفعِ تلك الآياتِ، ﴿ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ ، إلاّ أنْ قالوا هذا سِحْرٌ مُفْتَرَى؛ أي مُخْتَرَعٌ من قِبَلِ نفسِكَ ولَم تُبعَثْ بهِ، ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ ؛ الذي تَدْعُونا إليه، ﴿ فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ ﴾ ؛ أي هو أعلمُ بالحقِّ مِنَّا وبمن يدعُو إلى الضَّلالةِ؛ أي أنَا الذي جِئْتُ بالْهُدَى مِن عندِ الله. وقرأ ابنُ كثير:(قَالَ مُوسَى) بغير واوٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾ ؛ أي هو أعلمُ بمن تكونُ له الجنَّة، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يُسْعَدُ مَن أشْرَكَ باللهِ.

---

(١) الحجة للقراءات السبعة: ج ٣ ص٢٥٤. (٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٩٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ ؛ أي قال فرعونُ لخَواصِّ قومِهِ: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِي) وهـذه إحـدَى كَلِمَتَيْـهِ اللَّتين أخذهُ الله بهما، والأُخرى قولهُ (أنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى).

وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ ﴾ ؛ أي اتَّخِـذْ لِـي آجُـرّاً، ﴿ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا ﴾ ؛ أي قَصْـراً طَويـلاً متَّسِعاً مرتفعـاً، ﴿ لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾ ؛ أي أصعدُ إليه، ظَنَّ بجهلِهِ انه يَتَهَيَّأُ له انْ يبلُغَ بصرحِهِ إلى السَّماءِ، وظَـنَّ أن إلهَ مُوسَى جِسْماً مشاهَداً كما تقولُ الْمُشَبهَةُ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذلِكَ.

قال المفسِّرون: لَمَّا أمرَ فرعونُ وزيرَهُ هامانَ ببناء الصَّرح، جَمَـعَ خمسِـين ألـفَ بَنَّاءٍ سِوَى الاتباعِ والأُجَرَاءِ ممن يطبخُ الآجُرَّ والجِـصَّ، وينحـتُ الخشـبَ والأبـوابَ، ويضربُ المسـاميرَ. قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي في ادِّعاء (إلَهاً غَيْرِي) وأنه رسولهُ، وهذا اعترافٌ مِن فرعونَ بالشَّكِّ لأنه شَاكٌّ لا يـدري مَن في السَّماء، ولو كان إلَهاً لَمْ يجهَلْ ولَم يشُكَّ، والمبطلُ تظهرُ عليه الْمُنَاقَضَةُ.

قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ تعظَّمُـوا عن الإيْمان ولَم ينقَادُوا للحقِّ، وقولهُ تعالى (فِـي الأَرْض) أي في أرض مِصْـرَ (بغَـيْرِ الْحَـقِّ) أي بالبـاطلِ والظُّلـم، ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي يُرَدُّونَ إلينا بالبعثِ للحساب والجزاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ ؛ أي طَرَحْنَـاهُمْ في البحرِ. قال عطاءُ:(يُرِيْـدُ الْبَحْـرَ الْمَالِحَ بَحْـرَ الْقُلْـزُمِ) ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ حين صَارُوا إلى الْهَلاكِ.

قَوْلُهُ تَعـالَى: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي جعلنَـاهم في الدُّنيا أئِمَّةَ ضَلاَلَةٍ وقَادَةً في الكُفْرِ والشِّرك، يقـودُونَ النـاسَ إلى الشِّـركِ، وهـو قَوْلُـهُ تَعَالَى: (يَدْعُـونَ إلى النَّـار) لأن مَـن أطَاعَـهم ضَـلَّ ودخـلَ النـارَ، ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي لا يُدْفَـعُ عنـهم عـذابُ اللهِ، ﴿ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ ؛ يعـني لَعْنَـةَ الملائكـةِ والمؤمنـين، ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ

﴿ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي مِن الْمُشَوَّهِيْنَ في النَّار، سَوَادُ وجُوهِهم وزرقَةُ الأعيُـنِ، فعلىهذا يكونُ المعنى: هُمُ الْمَقْبُوحِيْنَ. وَقِيْلَ: معناهُ: هم مِن الْمُبْعَدِيْنَ الملعونِينَ مـن القَبْحِ، وهو الإبعادُ. قال أبو يَزيدٍ: (يُقَالُ: قَبَّحَ اللهُ فُلاَناً قُبْحاً وَقُبُوحاً؛ أي أبْعَـدَهُ مِـن كُلِّ خَيْرٍ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ ؛ يعني القُرُونَ الأُولَى قومَ نُوحٍ وعادٍ وثَمُودَ وغيرَهم، كـانوا قَبْلَ مُوسَى. وقولهُ تعالى (بَصَائِرَ لِلنَّاسِ) أي أعطَينا موسَى التَّوراةَ من بعدِ ما أهلكنـا الأُمَمَ الماضيةَ عِظَةً وعِبْرَةً للناسِ لِيُبْصِرُوا بها أمرَ دِينِهم؛ أي لِيُبصِرُوا بالتوراةِ ويهتَدُوا بها، وهُو قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهُدًى ﴾ ؛ مِـن الضَّلالـةِ لِمـن عَمِـلَ بـه؛ أي بالكتـاب ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ ؛ لِمن آمَنَ به، ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي يتذكَّرُوا بما فيه من المواعظ والبصائرِ.

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: [مَا أهْلَكَ اللهُ قَوْمـاً وَلاَ قَرْنـاً وَلاَ أمَّةً وَلاَ أهْلَ قَرْيَةٍ بعَذابٍ مِنَ السَّمَاءِ مُنْذُ أنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَـى وَجْـهِ الأَرْضِ غَـيْرَ أهْـلِ الْقَرْيَةِ الَّذِيْنَ مُسِخُوا قِرَدَةً، ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ قَالَ (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِـنْ بَعْدِ مَـا أهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى)][(١)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ ؛ معناهُ: ما كُنْتَ يا مُحَمَّدُ بجانب الوادِي الغربيِّ (إذْ قَضَيْنَـا إلَـى مُوسَـى الأَمْـرَ) أي إذ أوحَيْنَـا الأمـرَ بمـا الزمنـاهُ وقومَـهُ، ﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ تلـكَ الحالةِ، وإنَّما أخبرناكَ بذلك لتكونَ معجزةً لك.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا ﴾ ؛ أي خَلَقْنَـا قَرْنـاً بعـدَ قـرن، ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ ؛ أي طَالَتْ عليهم الْمُهَلُ فنسُوا عهدَ اللهِ، وتركُوا أمرَهُ، وكذبُوا الرُّسُلَ فأهلكناهم قَرْناً بعدَ قرنٍ، وهذا كلامٌ يدلُّ على أنه قد عَهِدَ إلى موسَى

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٥٨٧). وفي مجمـع الزوائـد: ج ٧ ص٨٨؛ قال الهيثمي: (رواه البزار مرفوعاً وموقوفاً... ورجالهما رجال الصحيح).

وقومه عهوداً في مُحَمَّد ﷺ والإيْمَانِ بهِ، فلما تُطَاوَلَ عليهمُ الْعُمُرُ، وخُلِقَتِ القرونُ بعدَ القرونِ، وتركُوا الوفاءَ بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا ﴾ ؛ أي مُقِيماً ﴿ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ ؛ كقِيَامِ مُوسَى وشُعيب فيهم، ﴿ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ ؛ أي تذكِّرُهم بالوعدِ والوعيد. قال مقاتلُ: (وَالْمَعْنَى: لَمْ تَشْهَدْ أهْلَ مَدْيَنَ فَتَقْرَأ عَلَى أهْلِ مَكَّةَ خَبَرَهُمْ كَخَبَرِ مَنْ شَاهَدَهُمْ)[1] ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي أرسلناكَ إلى أهلِ مكَّةَ، وأنزلَ عليك هذهِ الأخبارَ، ولولاَ ذلك لَمَا علِمْتَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ ؛ أي وما كُنْتَ يا مُحَمَّدُ بناحيةِ الْجَبَلِ الذي كَلَّمَ اللهُ عليه مُوسَى إذ نَادَيْنَا موسى: إنِّي أنَا اللهُ، ويَا مُوسَى أقْبلْ وَلاَ تَخَفْ، ﴿ وَلَٰكِن ﴾ ؛ أوحيناها إليكَ وقصَصْنَاها عليكَ، ﴿ رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ؛ لَم يأتِهم رسولٌ يُخَوِّفُ قبلَكَ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي يَتَّعِظُونَ.

ومعنى (رَحْمَةً) أي رَحِمْنَاكَ رحمةً بإرسالِكَ والوَحْيِ إليكَ. وقولُهُ تعالى: (لِتُنذِرَ قَوماً ما أتَاهُم من نذِير) يعنِي أهلَ مكَّة لعلَّهُم يتَّعظُونَ، واسمُ الجبلِ الذي نُودِي عليه موسى جَبَلُ رسمه[2]. قرأ عيسَى بن عمر: (وَلَكِنْ رَحْمَةٌ) بالرفعِ على معنى: ولكن هِيَ رحمةٌ مِن ربكَ إذ أطْلَعَكَ اللهُ عليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: وَلَوْلاَ أنْ يُصِيبَهُمُ الْعَذابُ فِي الدُّنْيَا بمَا قَدَّمَتْ أيْدِيْهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي)[3] يعني كفارَ مكَّةَ، ﴿ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ ؛ أي هلاَّ أرسلتَ إلينا رَسُولاً، ﴿ فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ ﴾ ، يعني القُرْآنَ، ﴿ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٩٩.

(٢) هكذا رسمها الناسخ في المخطوط، ولم أقف على معناه.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٩٩.

والمعنى: لولا أنَّهم يحتَجُّون بتركِ الإرسالِ إليهم لعجَّلْنَاهم بالعقوبةِ بكُفْرِهم. وحقيقةُ كَشْفِ معنى الآية: لَولاَ أنَّهُ إذا أصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ؛ أي عقوبةٌ بما قدَّمَتْ أيْدِيْهِمْ من الكُفْرِ فيقولُوا عندَ نُزولِ العذاب بهم: رَبَّنَا هَلاَّ أرسلتَ إلينا رَسُولاً فنَتَّبِعُ كتابَكَ ورسولكَ، ونكون مِن المؤمنِينَ؛ لعجَّلْنَاهم العقوبةَ. قِيْلَ: معناهُ: لولا إذا أصابَتْهم عقوبةُ الآخرةِ فيقولُوا ربَّنا لولاَ أرسلتَ إلينا رسُولاً في الدُّنيا لَمَا أرسلناكَ. وفي الآية بيانُ أنَّ الله تعالى أرسَلَ النبيَّ ﷺ مبالغةً في الْحُجَّةِ وقطعِ الْمَعْذِرَةِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا ﴾ ؛ أي فلما جاءَ أهلَ مكة الحقُّ مِن عِنْدِنا وهو مُحَمَّدُ والقُرْآنُ، ﴿ قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ ﴾ ؛ أي هلاَّ أعطِيَ مثلَ ما أعطِيَ موسى، يعنونَ هَلاَّ أنْزلَ عليه القُرْآنُ جُمْلَةً كما أنزلَ التوراة على موسى جُملة واحدةً، وهلاَّ أعطَى مُحَمَّداً اليدَ والعصا والمنَّ والسَّلوى وغيرَ ذلك من الآيات.

فاحتجَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ ﴾ ؛ أي فقد كفَرُوا بما أوتِيَ موسَى، كما كفَرُوا بآياتِ مُحَمَّد و ﴿ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا ﴾ ؛ أي تَعَاوَنَا على السِّحرِ والضَّلال، يعنونَ موسى ومُحَمَّداً عليهمُ السَّلاَمُ. وقرأ أهلُ الكوفة (سِحْرَان) بغيرِ ألفِ التَّوْرَاةُ والقُرْآنُ، ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ ﴾ ، مِنَ التَّوراةِ والقُرْآن، ﴿ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

قال اللهُ لِنَبيِّهِ ﷺ: ﴿ قُلۡ ﴾ ؛ لكُفَّار مكَّة: ﴿ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ ﴾ ؛ أي مِن التَّوراةِ والقُرْآن حتى ﴿ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أنَّهما كانا سِحرَان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ ﴾ ؛ أي فإن لَم يأتُوا بمثلِ التَّوراةِ والقُرْآن، ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ ﴾ ؛ وإنَّ ما رَكِبُوهُ من الكُفْرِ لا حُجَّةَ لَهم فيه، وإنَّما آثَرُوا فيه الْهَوَى.

ثُمَّ ذمَّهُم اللهُ فقال: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ أي لا أحدَ أضَلُّ مِمَّن اتَّبعَ هواهُ بغيرِ رَشَادٍ ولا بيان جاءَ من الله، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ ومعنى قولهِ (فَإنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ) أي فإنْ لَم يُجِيبُوكَ إلى ما سألتَهم ولا يجيبون.

قوله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا ﴾ ؛ رسلنا، ﴿ لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ أي وصَّلنا لأهلِ مكَّة ذِكْرَ الأنبياءِ والأُمَم وأقاصيصِ بعضهم لبعض، وأخبرْناهم أنَّا أهلكنا قومَ نوحٍ بكذا وقومَ صالحٍ بكذا لكي يتَّعِظُوا بالقُرآنِ، ويخَافُوا أن يَنْزِلَ بهم مثلَ ما نزلَ بمن قبلَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ ﴾ ؛ أي من قَبْلِ القُرْآن، ﴿ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي بمُحَمَّدٍ ﷺ. قال السديُّ: (يَعْنِي مُسْلِمِي الْيَهُودِ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلام وَأصْحَابُهُ)[1]. وقال مقاتلُ: (يَعْنِي مُسْلِمِي أهْلِ الإنْجِيْلِ، وَهُمُ الَّذِيْنَ قَدِمُوا مَعَ جَعْفَرَ بْنِ أبي طَالِبٍ مِنَ الْحَبَشَةِ)[2].

ثم نعَتَهم اللهُ تعالى فقالَ: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ يعني القُرْآنَ، ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ ﴾ ؛ أي صدَّقنا بالقُرْآن، ﴿ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ ﴾ ؛لا ذِكْرَ النبيِّ ﷺ، وكان مَكتُوباً عندَهم في التَّوراةِ والإنجيلِ فلَمْ يعانِدُوا، وقالوا للقُرْآن: إنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبنَا، ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ ﴾ ؛ قبل القُرْآن، ﴿ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ مُخلِصين للهِ بالتوحيد، مؤمِنين بمُحَمَّدٍ ﷺ أنَّهُ نَبيٌّ.

ثم أثنى اللهُ عليهم خيراً، فقالَ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ ؛ مرَّةً بتمسُّكِهم بدِينهم حتى أدركُوا مُحَمَّداً ﷺ فآمَنُوا به، ومرَّةً بإيْمانِهم به. وقال قتادةُ: (كَمَا صَبَرُواْ عَلَى الْكِتَاب الأَوَّلِ وَالْكِتَاب الثَّانِي)، وَقِيْلَ: مرَّةً لإيْمانِهم بموسَى ومرَّةً لإيْمانِهم بمُحَمَّدٍ ﷺ[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ؛ أي يدفعُون بشهادةِ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ الشِّرْكَ، كذا قال ابنُ عبَّاس، وقال مقاتلُ: (يَدْفَعُونَ مَا يَلْحَقُهُمْ مِنْ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٩٧٩).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥٠٠.

(٣) في الدر المنثور: ج ٦ ص٤٢٨؛ قال السيوطي: (وأخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ [مَنْ أسْلَمَ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ فَلَهُ أجْرُهُ مَرَّتَيْنِ]). وله شاهد من حديث بردة مخرج في الصحيحين: البخاري في الصحيح: الحديث (٩٧ و٣٠١١ و٣٤٤٦). ومسلم في الصحيح: الحديث (٢٤١/ ١٥٤).

أذِيَّـةِ الْكَـافِرِيْنَ وَشَـتْمِهِمْ لَـهُمْ بِـالْعَفْوِ وَالصَّفْـحِ وَالاحْتِمَـالِ). ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ مِن الأموالِ في طاعة الله.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ ؛ أي وإذا خُوطِبُـوا بالسَّفاهَةِ وشتَمَهم المشركونَ رَدُّوا عليهم جَميلاً، وأعْرَضُوا عن الكلامِ الذي لا فائدةَ فيه، ﴿ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا ﴾ أي دِينُنا، ﴿ وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ﴾ أي دِينُكم.

وذلك أنَّهم عَيَّرُوهُمْ بتَرْكِ دِينهم. قال السديُّ: لَمَّـا أسْلَمَ عَبْدُاللهِ بْـنُ سَـلاَمٍ جَعَلَ الْيَهُودُ يَشْتُمُونَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ قال الزجَّاج: (لَمْ يُريدُوا التَّحِيَّةَ، وَالْمَعْنَى أنَّهُمْ قَالُوا: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْمُتَارَكَةُ والتَّسَلُّمُ، وَهَذا قَبْلَ أنْ يُؤْمَرَ الْمُسْلِمُون بالْقِتَال)[1]، فَكَأنَّهُمْ قَالُوا: سَلِمْتُمْ مِنَّا لاَ نُعْـتَرِضَنَّكُمْ بالشَّـتْمِ. ومعنى قولِهِ تعالى (لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) أي لا نريدُ أن نكونَ مِن أهلِ الْجَهْلِ والسَّفَهِ. وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: لاَ نُحِبُّ دِينَكُمُ الَّذِي أنْتُمْ عَلَيْهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ؛ ذهبَ أكثرُ المفسِّرين أنَّ هـذِهِ الآيَة نزلت في أبي طَالِبٍ، وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّـذِي مَـاتَ فِيْـهِ، دَخَـلَ عَلَيْـهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: [يَا عَمِّ؛ قُلْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ أشْهَدُ لَكَ بهَا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ] قَـالَ: لَوْلاَ أنْ يُعَيِّرَنِي نِسَاءُ قُرَيْشٍ وَيَقُلْنَ: إنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ذلِكَ الْجَزَعُ عِنْدَ الْمَوْتِ، لأَقْرَرْتُ بهَا عَيْنَكَ، فأنزلَ اللهُ تعالى(إنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ)[2] هِدايَتَهُ. وَقِيْلَ: إنَّكَ لا تَهدِي من أحبَبْتَهُ.

وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَمِّهِ أبي طَالِبٍ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيْـهِ، وَعِنْدَهُ أبو جَهْلٍ وَعَبْدُاللهِ بْنُ أمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيْرَةِ، فَقَالَ لَهُ: [يَـا عَـمِّ؛ قُـلْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ أحَاجُ لَكَ بهَا عِنْدَ اللهِ] فَقَالَ لَهُ أبُو جَهْلٍ وَعَبْدُاللهِ بْنُ أمَيَّـةَ: أتَرْغَـبُ عَـنْ مِلَّـةِ عَبْـدِ الْمُطَّلِب ؟!

---

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١١٢.

(٢) رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٧٧٢).

فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَهُمَا يُعَاودَانِهِ عَلَى تِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أبو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ بِهِ: أنَا عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِب، وَأبَى أنْ يَقُولَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، فَأنْزَلَ اللهُ فِي أبِي طَالِبٍ، وَقَالَ لِرَسُولِهِ: (إنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ)[1] ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ قال الزجَّاج: (ابْتِدَاءُ نُزُولِهَا بسَبَب أبي طَالِبٍ، وَهِيَ عَامَّةٌ؛ لأنَّهُ لاَ يَهْدِي إلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)[2]. ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ ؛ أي قالت قُريش لِمُحَمَّدٍ ﷺ: إن اتَّبعْنَاكَ على دِينِكَ يتخطَّفُنا العربُ على أنفسِنا أن يخرجُوا من أرضِنا مكَّة إن تركْنا ما يَعبدونَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ أي ذا أمْنٍ يَأْمَنُ فيه الناسُ.

وذلك أن العربَ كانت يُغِيْرُ بعضُهم على بعضٍ، وأهلُ مكَّة آمِنُونَ في الْحَرَمِ مِن القَتْلِ والسَّيفِ والغَارَةِ؛ أي فكيفَ يخافون إذا أسْلَمُوا وهُم في حَرَمٍ آمِنُونَ. ومعنى (أوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً) أي أوَلَمْ نَجْعَلْهُ مكاناً لَهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ ومعنى (يُجْبَى) أي يحملُ إلى الْحَرَمِ (ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رزْقاً). قرأ نافعُ ويعقوب: (تُجْبَى) بالتاء لأجلِ الثَّمرات، وقرأ الباقونَ بالياء لقولهِ (كُلِّ شَيْءٍ رزْقاً) ومعنى (تُجْبَى) أي تُحْمَلُ إلى الحرمِ (ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ) من مِصْرَ والشَّام واليمَنِ والعِرَاق.

وقولهُ تعالى: ﴿ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ ؛ أي رزْقاً مِن عندِنا، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أنَّا فعَلْنا ذلك يعني أهلَ مكَّة، والمعنى: أوَلَمْ يجعل أهلَ مكَّة في أمَانٍ قبلَ الإيْمَان يُجْبَى إلى الحرمِ ثمَراتُ كلِّ شيءٍ نعمةً مِن عندِنا، فكيفَ يخافون زوالَ الأمان، (وَلَكِنَّ أكْثرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) لأنَّهم لا يتدبَّرُون ولا يتفكَّرُون.

ثُم خوَّفَهم بمثلِ عذاب الأمَمِ الخاليةِ، فقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ ؛ أي وكم أهلَكْنا مِن أهلِ قَرْيَةٍ بَطَرَتْهَا معيشتها، والبَطَرُ: الطُّغيانُ

---

(١) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: الحديث (٣٩/ ٢٤).
(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١١٢.

عند النِّعمةِ، وَقِيْلَ: معناهُ: بَطِرَتْ في معيشَتِها. قال عطاءُ: (عَاشُواْ فِي الْبَطْـرَةِ، فَـأَكَلُواْ رِزْقَ اللهِ وَعَبَدُواْ الأَصْنَامَ)[1].

وقوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ؛ أي منازلُهم التي كانوا يسكنُونَها لَم يَسْكُنْهَا أحدٌ إلاّ المسافرونَ ومَارُّوا الطريق ينْزلون ببعضِها يوماً أو ساعةً ثُم يرحَلُون. والمعنى لَمْ تُسْكَنْ مِن بعدِهم إلاَّ سُكوناً قليـلاً، ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي لَم نَجعَلْ لَهم أحداً بعدَ هلاكِهم في منازِلهم، فبقِيَـتْ خَرَاباً غيرَ مسكُونةٍ كقولهِ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾[2].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ ؛ معناهُ: وما كان ربُّكَ يا مُحَمَّدُ مُعَذِّبَ القُرَى الكـافرةُ أهلُـها حتـى يبعثَ في أعظَمِها قريةً رَسُولاً يُنذِرُهم ويقرأ عليهم آيَاتِنا، وخصَّ الأعْظَمَ من القُرى ببعثةِ الرَّسُولِ فيها؛ لأن الرَّسُولَ إنَّما يُبعَثُ إلى الأشرافِ، وأشرافُ القومِ وملوكُهم يسـكنونَ المدائنَ والمواضع التي هي أمُّ ما حولِها.

وقَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي ما نُهلِكُهم إلاَّ بظُلْمِهم وشِركِهم، وَقِيْلَ: المرادُ بـالقُرَى القـرى الـتي حَـوْلَ مكَّـة، والمرادُ بأُمِّها مكَّة سُميت أمُّ القُرْى؛ لأن الأرضَ دُحِيَتْ من تحتِها.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ ؛ تتمتَّعون بـها أيَّـامَ حيـاتِكم ثُـم تنقطِـعُ وتفنـى وتنقَضِـي، ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ ؛ مـن الثَّواب والجنـة، ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ؛ وأدومَ لأهلـهِ وأفضـلَ ممـا أعطيتُـمْ في الدُّنيـا، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أنَّ الباقي أفضلُ من الفَانِي الذاهب. وَقِيْلَ: (أفَلاَ تَعْقِلُـونَ) خـيرَ الأمرَين فتطلبوهُ وشَرَّ الأمرَين فتتركوهُ. قرأ أبو عمرٍو (أفَلاَ يَعْقِلُونَ) بالياء.

وقولـــهُ تعـــالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ استفهامُ يعني التقرب، أي كيفَ يستوِي حالُ مَـن وَعَدْنـاهُ الثـوابَ

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٨٥.
(٢) مريم / ٤٠ .

والجنةَ في الآخرةِ فَهُوَ لاَقِيْهِ، وحالُ من متَّعناهُ بعَرَضِ الدُّنيا، ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ العذابَ.

والمعنى: (أفمَنْ وَعَدْنَاهُ) على إيْمانهِ وطاعته الجنةَ والثوابَ الجزيل (فَهُوَ لاَقِيْهِ) أي مُدركُهُ (كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ) أي كمن هو مُمَتَّعٌ بشيءٍ يَفْنَى ويزول عن قريبٍ (ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرينَ) النارَ. قال قتادةُ: (يَعْنِـي الْمُؤْمِـنَ وَالْكَـافِرَ، فَـالْمُؤْمِنُ سَـمِعَ كِتَابَ اللهِ وَصَدَّقَهُ وَآمَنَ بِمَوعُودِ اللهِ فِيْهِ، وَلَيْسَ كَالْكَافِرِ الَّذِي تَمَتَّعَ بالدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِيْنَ فِي عَذَاب اللهِ)[1]، قال مجاهدُ: (نَزَلَـتْ هَـذِهِ الآيَـةُ فِـي عَلِـيٍّ وَحَمْزَةَ وَأبي جَهْلٍ)[2]، وقال السديُّ: (نَزَلَتْ فِي عَمَّارٍ وَالْوَلِيْدِ بْنِ الْمُغِيْرَةِ)[3].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ ؛ أي يُنـادي اللهُ المشـركينَ يـومَ القيامـةِ، ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيـا أنَّـهم كـانوا شُركَائِي، والمعنَى: واذكُرْ يومَ يُنادَى الكفارُ وهو يومُ القيامةِ فيقـولُ أيْـنَ شُـرَكَائِي في قولِكم، وليس للهِ شريكٌ، ولكن خرجَ هذا الكلامَ على ما كانوا يلفِظُون بهِ، فيقولون: هؤلاءِ شركاءُ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ ؛ أي الذيـن حَقَّـتْ عليـهم كلمـةُ العـذاب أو وَجَـبَ عليـهم العـذابُ وهـم الـرُّؤُوسُ: ﴿ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ ﴾ ؛ يَعْنُـونَ سَـلَفَهُمْ وأتبَاعَـهم، ﴿ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ ؛ أي أضْلَلْنَـاهُمْ كمـا ضَلَلْنَـا، ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ؛ منهم، وَقِيْلَ: تَبَرَّأنا بحمْلِنا إليك من الضَّـلال، ﴿ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ما كانوا يعبدُوننا بإكراهٍ مِن جِهَتِنَا، وَقِيْـلَ: مـا كـانوا يعبدُوننـا بحُجَّة ولا استحقاقٍ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثـر (٢٠٩٨٢). وابـن أبـي حـاتم في التفسـير الكبـير: الأثـر (١٧٠٣٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٩٨٦).

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٨٥.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ ؛ أي يقالُ لَهم: لَستُمْ تُسألُونَ عن الإغواءِ والغِوَايَةِ، ولكن ادعُوا آلِهَتَكُمْ حتى يذُودوا عنكم العذابَ، ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ ؛ أي لَم يُجيبُوهم إلى نصرتهم ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ ؛ أي رَأوا كلُّهم القادةُ والأتباعُ العذابَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ جوابُ (لَوْ) محذوفٌ تقديرهُ: لو أنَّهم كانوا يَهْتَدُونَ في الدُّنيا لَمَا رَأوُا العذابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ ؛ أي فألبسَتْ عليهم الأجوبةُ يومئذٍ، ولَم يَدْرُوا ماذا يقولونَ من الفزَعِ والتَّحيُّر، ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ لا يَسْألُ بعضُهم بعضاً في تلكَ السَّاعة لردِّ الجواب. وَقِيْلَ: لا يسألُ أحدٌ عن حال أحدٍ لانشغال كلٍّ واحدٍ منهم بنفسه. وَقِيْلَ: لا يسألُ أحدٌ أحداً أن يَتْرُكَ طاعةً أو يتحمَّلَ عنهُ معصيةً، ومعنى قولهِ تعالى (فَعَمِيَتْ) أي خَفِيَتْ واشتَبهت عليهمُ الأنباءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ؛ أي مَن تابَ من الشِّركِ وآمَنَ وصدَّقَ بتوحيد اللهِ وبمُحَمَّدٍ ﷺ (وَعَمِلَ صَالِحاً) أي أدَّى الفرائضَ، ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي مِن النَّاجِينَ الفائزينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ الوليدَ بن المغيرةِ كان يقولُ: لَوْلاَ نُزِّلَ هَذا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٌ، يعني نفسَهُ وأبا مسعودٍ الثقفيُّ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيَةَ (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) مَن يُنَبِّؤُ للرسالةِ والنُّبوةِ؛ أي فكما أن الخلقَ إليه يخلقُ ما يشاء، فكذلك الاختيارُ إليهِ في جميع الأمور، فيختارُ مِمَّنْ خَلَقَ ما يشاءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ ؛ ابتداءُ الكلامِ نفيُ الاختيار عن المشركين، وذلك أنَّهم اختَارُوا الوليدَ بن المغيرةِ من مكَّة وأبو عُرْوَةَ بن مسعودٍ من الطَّائف، فقالَ اللهُ (مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ) أي ليسَ لَهم الاختيارُ على اللهِ، ثُم نَزَّهَ اللهُ نَفْسَهُ فقالَ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ ومن قرأ (وَنَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) من غيرِ أنْ يَقِفَ على (وَنَخْتَارُ)، جعلَ (مَا) بمعنى الَّذي، كأنَّه قال:

ونَخْتَارُ الذي لَهم الْخِيَرَةُ فيصنعُ بهم ما صَلُحَ لَهم، وأنشدَ محمودُ الورَّاقُ[(١)]:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ أَرَدْتَ فَإِنَّ اللهَ يَقْضِي وَيُقَدِّرُ
مَتَى مَا يُرِيدُ ذُو الْعَرْشِ أَمْراً بعَبْدِهِ يُصِبْهُ وَمَا لِلْعَبْدِ مَا يَتَخَيَّرُ
فَقَدْ يَهْلَكُ الإنْسَانُ مِنْ حَيْثُ أَمْنُهُ وَيَنْجُو بحَمْدِ اللهِ مِن حَيْثُ يَحْذرُ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ ؛ أي ما تَستُرُ من الكفرِ والعداوة لله ولرسولهِ؛ أي يعلمُ ما تُضْمِرُ قلوبُهم من ذلك، ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ بألسِنَتِهم من الكفرِ والمعاصي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ﴾ ؛ يستحقُّ الحمدَ في الدَّارين، ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ ؛ أي الفَصْلُ بينَ الخلائق؛ حَكَمَ لأهلِ طاعته بالمغفرةِ، ولأهلِ معصيته بالشَّقاءِ والوَيْلِ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي موضع جَزَائِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّة: أخبرُوني إنْ جعلَ اللهُ عليكم الليلَ دائماً أبداً إلى يومِ القيامة، لا نهار معهُ، ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ ؛ أي بنَهارٍ مُضِيءٍ تتصرَّفون فيه وتطلُبون فيه المعيشةَ، ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ سَماع قَبُولٍ وتَفَهُّمٍ فتستدِلُّون بذلك على توحيدِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي قُل: أخبرُوني إنْ جَعَلَ اللهُ عليكم النهارَ دائماً، ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ ، تستَريحُونَ فيه من الحركةِ ومن النَّصَبِ؟ ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أدِلَّةَ اللهِ تعالى.

---

(١) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٠٦ مع بعض اختلاف. ومحمود الوراق هو محمود بن الحسن الوراق الشاعر، أكثر القول من الزهد والأدب. ترجم له الخطيب في تاريخ بغداد: الرقم (٧٠٧٢) ومات في خلافة المعتصم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ ؛ أي ومِن نِعْمَتِهِ عليكم أنْ خَلَقَ لكم الليلَ والنَّهار لتَستَريحوا لَيلاً، ولتَنصَرفوا نَهاراً، والمعنى:(لتَسْكُنُوا فِيْهِ) أي في اللَّيل، ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ؛ أي ولتَلْتَمِسُوا في النهار من فضلِ الله، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ الذي أنْعَمَ عليكم بهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ فقد تقدَّم تفسيرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ ؛ أي وأخرَجْنا من كلِّ أمَّةٍ رسُولَها الذي يشهدُ عليهم بالتبليغِ وما كان منهم، ﴿ فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ ؛ أي فقُلْنَا للمَشهُودِ عليهم:(هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) أي حُجَّتَكُمْ بأنَّ معي شَريكاً، ﴿ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي أنَّ التوحيدَ للهِ، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ ؛ أي زالَ عنهم وبَطَلَ في الآخرةِ، ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا من قولِهم: إنَّ مع اللهِ شريكاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ قال أكثرُ المفسِّرين: كان قارونُ ابنَ عمِّ موسَى من بني إسرائيلَ، وكان مِن العلماءِ بالتَّوراةِ. وقال بعضُهم كان ابنَ خَالَتِهِ. وقولهُ تعالى (فَبَغَى عَلَيْهِمْ) أي بكَثْرَةِ مالِهِ، والمعنى: أنه تَطَاوَلَ على موسَى وقومه وجاوزَ الحدَّ في التَّكبُّرِ عليهم. والبَغْيُ في اللغة: طَلَبُ الْعُلُوِّ بغيرِ حَقٍّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ أي أعطيناهُ من الأموالِ الْمَجموعَةِ ما إنَّ مَفَاتِحَهُ، قال ابنُ عبَّاس: (أَرَادَ بالْمَفَاتِحِ الْخَزَائِنَ، كَانَتْ خَزَائِنُهُ لَتَثْقَلُ بالْجَمَاعَةِ ذوي الْقُوَّةِ إذا حَمَلُوهَا)(١).

قال بعضُهم: هو جمعُ مِفْتَاحٍ؛ وهو ما يُفْتَحُ به البابُ، وهذا قولُ قتادةَ ومجاهد. وَقِيْلَ: مفاتحُ جمع مِفْتَحٍ بكسرِ الميم وهي المفتاحُ، فجمعهُ مفاتيحُ. قال خَيْثَمَةُ: (كَانَتْ مَفَاتِيْحُ قَارُونَ مِنْ جُلُودٍ، كُلُّ مِفْتَاحٍ مِثْلُ الإصْبَعِ، مِفْتَاحُ كُلِّ خِزَانَةٍ عَلَى حِدَةٍ، فَإذا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٠١١).

رَكِبَ حَمَلَ الْمَفَاتِيحَ عَلَى سِتِّيْنَ بَغْلاً)[١]. وقال ابنُ عبَّاس: (كَانَ يَحْمِلُ مَفَاتِيْحَهُ أَرْبَعُونَ رَجُلاً أَقْوَى مَا يَكُونُ مِنَ الرِّجَال)[٢].

ومعنى قولهِ تعالى (لَتَنوءُ بالْعُصْبَةِ) وإنَّما العُصْبَةُ تَنُوءُ بالمفاتيحِ؛ أي يثقُلُ في حَملِها، قِيْلَ: هذا شائعٌ في الكلامِ كما يقالُ: عَرَضَتِ الناقةُ على الحوضِ، وإنَّما يعرضُ الحوض عليها، ولا تعرضُ الناقةُ على الماءِ. والكَنْزُ في اللُّغة: اسمٌ لِلمَالِ الذي يُجْمَعُ بعضهُ على بعضٍ، وإذا أُطْلِقَ أريدَ به ما يُخَبَّأُ تحتَ الأرضِ.

وقال خَيْثَمَةُ: (وَجَدْتُ فِي الإِنْجِيْلِ: أَنَّ مَفَاتِيْحَ خَزَائِنِ قَارُونَ وقرُ سِتِّينَ بَغْلاً غُرّاً مُحَجَّلَةً)[٣]، وَقِيْلَ: إنَّها كانت من جُلودِ الإبلِ، وكانت من حديدٍ، فلما ثَقُلَتْ عليه جُعلَتْ من خَشَبٍ، فلما ثَقُلَتْ عليه جُعلت من جُلودٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ﴾ ؛ قال له قومهُ مِن المؤمنين من بني إسرائيل: لا تَفْرَحْ بالكُنُوز والمال ولا تأْشَرْ[٤] ولا تَبْطَرْ،﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي الأَشِرِيْنَ البَطِرِيْنَ الذين لا يشكُرونَ اللهَ على ما أعطاهم. والفَرَحُ إذا أُطلِقَ أريدَ الْمَرَحُ الذي يخرجُ إلى البَطَرِ، ولذلكَ قالَ: (لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِيْنَ)، وقال ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[٥]، وأما قولهُ ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٦] فهو بهدايَةِ النَّفسِ وهو حسنٌ جميل، قال الشاعرُ:

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إذا الدَّهْرُ سَرَّنِي وَلاَ جَازِعٍ مِنْ صَرْفِهِ الْمُتَقَلِّبِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢١٠٠٦). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: النص (١٧٠٨٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٠١٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢١٠٠٧). والوقر: الحِمْلُ. والأغَرُّ من الخيل والبغال: الذي في جبهته بياض أكبر من الدرهم، وقد وسط جبهتَه. والْمُحَجَّلُ: ما كان البياض منه في موضع الخلاخل والقيود وفوق ذلك.

(٤) أشَرَ: لَجَّ فِي البَطَرِ. والأَشِرُ: الْمَرَحُ المتكبِّرُ. ينظر: الغريبين للهروي: ج ١ ص٧٨.

(٥) هود / ١٠ .

(٦) آل عمران / ١٧٠ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ ؛ أي واطلُبْ فيما أعطاكَ اللهُ من الأموالِ والنِّعمةِ الجنَّةَ، وهو أن يقومَ بشُكْرِ اللهِ فيما أنعمَ اللهُ ويُنْفِقَهُ في رضَا اللهِ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي ولا تَنْسَ لتعمَلَ لآخرتِكَ، وقال الحسنُ: (أنْ يُقَدِّمَ الْفَضْلَ وَأنْ يُمْسِكَ مَا يُغْنِيْهِ)(١).

وقولُهُ: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أي أحْسِنْ إلى الفُقَراءِ والمساكين، كَمَا أحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ. وَقِيْلَ: معناهُ: أطِعِ اللهَ واعبُدْهُ كما أنعمَ عليكَ، ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي ولا تَعْمَلْ في الأرضِ بالمعاصِي ومخالفةِ موسى عليه السلام، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ ، قال عطاءُ: (فَكَفَرَ قَارُونُ لَمَّا رَأى أنَّ الْمَالَ حَصَلَ لَهُ بعِلْمِهِ وَلَمْ يَرَ ذلِكَ مِنْ عَطَاءِ اللهِ). والمعنى: قال قارونُ: إنَّما أعطيتُ هذا المالَ على عِلْمٍ عندي بوجوهِ الاكتساب والتِّجارات لا يعلمُها أحدٌ غيري.

وَقِيْلَ: معناهُ: على عِلْمٍ عندي يعني لفَضْلِ عِلمِي، فكنتُ أهلاً لِمَا أعطِيتهُ، وكان أقرأهم للتوراةِ، والمعنى: فضَّلَنِي اللهُ عليكم بهذا المالِ، لفَضْلِي عليكم بالعلمِ، يعني علمَ الكيمياءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً ﴾ ؛ معناهُ: (أوَلَمْ يَعْلَمْ) هذا المسكينُ الذي قد أعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ وما مَلَكَ من الدُّنيا يعني قارونَ (أنَّ اللهَ قَدْ أهْلَكَ) بالعذاب (مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُون) حين كذبوا رسولَهُ (مَنْ هُوَ أشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً) ﴿ وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ ؛ للمالِ والْخَدَمِ والْحَشَمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: لا يُسْئَلُ الْمُجرمونَ عن ذُنوبهم في الآخرةِ، فإنَّهم يُعرَفُونَ بسِيمَاهُمْ. قال قتادةُ: (إنَّهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ بغَيْرِ حِسَابٍ)(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ٩ ص٢٠١١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٠٣٥). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧١٢٦).

وأما قوله تعالى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١) فإنَّهم يُسئَلُون سُؤالَ تَقْرِيعٍ وتَوْبِيْخٍ، كما قال الحسنُ في معنى هذه الآيةِ (أنَّهُمْ لاَ يُسْئَلُونَ سُؤَالَ الاخْتِيَار لِيَعْلَمَ ذلِكَ مَنْ قَبْلَهُمْ، وَإنَّمَا يُسْئَلُونَ سُؤَالَ التَّوْبِيْخِ وَالْمُنَاقَشَةِ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ ؛ قال السديُّ: (خَرَجَ فِي جَوَارٍ بيْضٍ؛ عَلَى سُرُوجٍ مِنْ ذهَبٍ؛ عَلَى قِطَفِ أرْجُوَان؛ "وَهُنَّ" عَلَى بغَالٍ بيْضٍ عَلَيْهِنَّ ثِيَابٌ حُمْرٌ وَحُلِيٌّ مِن ذهَبٍ)(٣). وقال مقاتلُ: (خَرَجَ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ عَلَيْهَا سَرْجٌ مِنْ ذهَبٍ عَلَيْهِ الأُرْجُوَانُ، وَمَعَهُ أرْبَعَةُ آلاَفِ فَارسٍ عَلَى الْخَيْلِ، عَلَيْهِمْ وَعَلَى دَوَابهِمُ الأَرْجُوَانُ، وَمَعَهُ ألْفُ جَاريَةٍ عَلَى بغَالٍ شُهْبٍ سُرُوجُهُنَّ الذهَبُ؛ وَلِبَاسُهُنَّ أرْجُوَانٌ أحْمَرُ، عَلَيْهِنَّ الْحِلِيُّ وَالْحُلَلَ)(٤).

وقال ابن زَيدٍ:(خَرَجَ فِي سَبْعِيْنَ ألْفاً عَلَيْهِمُ الْمُعَصْفَرَاتُ)(٥). وهذا معنى الْحَسَنِ في ثِيَابٍ صُفْرٍ. قال الزجَّاجُ: (الأُرْجُوَانُ فِي اللُّغَةِ صَبْغٌ أحْمَرُ، فرُوي أنه كان عليهم وعلى خُيولِهم الدِّيباجُ الأحمرُ)(٦)، قال:(وَكَانَ ذلِكَ أوَّلَ يَوْمٍ رُؤيَتِ الْمُعَصْفَرَاتُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ؛ أي قال مُؤمِنُوا أهلِ ذلك الزَّمان لَمَّا رأوا تلكَ الزينةَ والجمالَ، ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ ؛ من المال، ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ ؛ أي ذُو نَصِيبٍ وافرٍ من الدُّنيا، وكان الذين تَمَنَّوا هذه الأُمْنِيَةَ القومُ الذين يرغَبُون في الدُّنيا ويتمَنَّونَها.

---

(١) الحجر / ٩٢ .

(٢) بمعناه ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٨٨.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧١٣٤).

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥٠٦.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٠٤٥). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧١٣٨).

(٦) معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١١٧.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ؛ أي قال العلماءُ العاملونَ الرَّاغبون في الآخرةِ للَّذينَ تَمنَّوا ما أُوتِيَ قارونُ: (وَيْلَكُمْ! ثَوَابُ الله خَيْرٌ) أي ارْتَدِعُوا عن مقالَتِكم؛ فإنَّ ثوابَ اللهِ في الآخرة خيرٌ لِمن آمَنَ وعَمِلَ صالحاً، وقامَ بالفرائضِ خيرٌ مما أعطِي قـارونُ في الدُّنيـا، وخيرٌ مِن الدُّنيا وما فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أي لاَ يؤتَى الأعمالَ الصالحة، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾[١]، وقال الكلبيُّ: (وَلاَ يُعْطَاهَـا فِـي الآخِرَةِ إلاَّ الصَّابرُونَ عَلَى أمْرِ اللهِ)[٢] أي الْجَنَّةَ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثَوَابُ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ أي فخَسَفْنَا بقارونَ وقَصْـرِهِ الذي بَنَاهُ عقوبةً له على كُفرهِ، وذلك أنَّهُ لَمَّا أضافَ النِّعَـمَ الـتي أعطـاهُ اللهُ إياهـا إلى فعلِ نفسه وعملهِ، ولَم يَنْسِبْهَا بتَسهيل اللهِ ذلكَ عليهِ؛ صارَ كافراً بنِعَمِ اللهِ.

وَقِيْلَ في سَبَب خسفهِ: أنه لَمَّا حَسَـدَ موسـى وهـارونَ دعَـا امـرأةً ذاتَ جمـال معروفةً بالفُجُور، وجعلَ لَها ألفَ دِرهَم- وَقِيْلَ: أَلْفَ مِثْقَال- وقالَ لَها: إنِّي أخلِطُكِ بنسائي على أن تَقذِفِي موسَى بنفسكِ غداً إذا حَضَرَ بنُو إسرائيلَ، وتذْكُري أنه راوَدَكِ عن نفسكِ! فأجابَتْ قارونَ إلى ذلك، فلمَّا كان مِن الغَدِ، جَمَعَ قارونُ بَـني إسـرائيلَ، ثُم أتَى مُوسَى فقال لهُ: إنَّ بَـني إسـرائيلَ قَـد اجتمَعُـوا ينظـرونَ خُروجَـهم لتَـأْمُرَهم وتَنْهَاهُمْ.

فخرجَ مُوسَى فقامَ فيهم يَعِظُهُمْ ويأمُرُهم بالمعروفِ وينهاهم عن الْمُنْكَر، قـالَ: يَا بَنِي إسْرَائِيْلَ؛ مَنْ سَرَقَ قَطَعْنَاهُ، وَمَنِ افْتَرَى جَلَدْنَاهُ ثَمَانِيْنَ، وَمَنْ زَنَـى وَلَيْسَـتْ لَـهُ امْرَأةٌ جَلَدْنَاهُ مِائَةً، وَمَنْ زَنَى وَلَهُ امْرَأةٌ رَجَمْنَاهُ حَتَّى يَمُوتَ. قـال قـارونُ: وإنْ كُنْـتَ أنْتَ ؟! قالَ: وإنْ كُنْتُ أنَا. قال: فإنَّ بني إسرائيلَ يَزعُمُونَ أنَّكَ فَجَرْتَ بفُلاَنَةٍ! فقـال مُوسَى: ادْعُوهَا، فَدَعَوْهَا وقـد ألْهَمَـها اللهُ التوبـةَ والتوفيـقَ، فقـالت في نفسِـها: لإنْ أحْدِثَ الْيَوْمَ تَوْبَةً خَيْرٌ مِنْ أنْ يُؤْذَى رَسُولُ اللهِ ﷺ.

---

(١) الفرقان / ٧١ .

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٨٨.

فجَاءوا بها وقد عَقَدُوا مَجلِساً استَحْضَرَ فيه قارونُ الخاصَّ والعامَّ، فقال قارونُ للمرأةِ: ما تَقُولِيْنَ؟ قالت: يَا وَيْلاَهُ! قَدْ عَمِلْتُ كُلَّ فَاحِشَةٍ، وما بَقِيَ إلاَّ أنْ أفْتَرِي على نَبِيِّ اللهِ ﷺ، وأنَا أبْرَأُ إلى اللهِ مِن ذلكَ.

ثُم أخْرَجَتْ خَرِيطَتَين مَمْلُوءَتين دَرَاهِمَ وعليهما خاتَمُ قارونَ، فقالَتْ: يا أيُّها الْمَلأُ؛ إنَّ قارونَ أعطانِي هَاتَين الخريطتَين على أنْ آتِي جماعتَكم فأزْعُمَ أنَّ موسى رَاودَنِي عن نفسِي، ومَعَاذَ اللهِ أنْ افْتَرِيَ على نَبِيِّ الله، وأنا أبْرَأُ إلى اللهِ مِن ذلكَ، وهذهِ دراهِمهُ وعليها خاتَمهُ.

فعَرَفَ بنُو إسرائيلَ خاتَم قارونَ، فَافْتُضِحَ قارونُ بين أولئِكَ القوم، وغَضِبَ مُوسَى عليه السلام فَخَرَّ ساجداً يَبْكِي وهو يقولُ: اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ رسُولَكَ فَاغْضَبْ لِي.

فأوحَى اللهُ إليه أنِّي قد أمَرْتُ الأرضَ تُطِيعُكَ فَمُرْهَا بما شِئْتَ، فقال مُوسَى عليه السلام: يا أرضُ خُذِيْهِ، فأخذتْهُ إلى كَعْبِهِ، ثُم قَالَ: يا أرضُ خُذِيهِ، فأخذتهُ إلى رُكبَتيهِ، فنَاشَدَهُ الرَّحِمَ، فقالَ: يا أرضُ خُذِيهِ، فأخذتْهُ حتى غَيَّبَتْ حِقْوَتَهُ، فتضرَّعَ إلى مُوسَى وناشدَهُ الرَّحِمَ، فلَمْ يسمَعْ تَضرُّعَهُ، فقالَ: يا أرضُ خُذِيهِ، فأخذتْهُ حتى غَيَّبَتْهُ.

فرُوِي أنهُ استغاثَ بموسَى وناشدَهُ سبعينَ مرَّة، فلَمْ يلتفِتْ موسَى إلى ذلكَ، فأوحَى اللهُ إلَى موسى: ما أفَظَّكَ وأغلَظَ قلبَكَ! استغاثَ بكَ قارونُ سبعين مرَّةً فلم ترحَمْهُ ولَم تُغِثْهُ، وعِزَّتِي وجَلالِي لوِ استغاثَ بي لأغثتهُ، ولو دعانِي لوجدَنِي قريباً مُجيباً[1].

واختلَفُوا في أيِّ وقتٍ خُسِفَ بدارِهِ، قال بعضُهم: إنه خُسِفَ به معَهُ، وقال بعضُهم: لَمَّا خُسِفَ بقارونَ قالت بنو إسرائيلَ: إنَّ موسَى أرادَ أن يأخُذ دارَ قارون وأموالَهُ وكنوزَهُ، فدعَا اللهَ موسى فخَسَفَ بدارِهِ وأموالِهِ بعد ما خَسَفَ بقارون بثلاثةِ أيَّام. قال قتادةُ: (وَذُكِرَ لَنَا أنَّ قَارُونَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ هُوَ وَدَارُهُ وَمَالُهُ كُلَّ يَوْمٍ قَامَةً لاَ يَبْلُغُ قَعْرَهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[2].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٤٤١-٤٤٢؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وابن أبي حاتم عن عبدالله بن الحرث).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧١٦٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما كانَ له من جُنْدٍ وجماعةٍ يَمنعونَهُ من عذاب الله، ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي وما كان من الْمُمْتَنِعِيْنَ مِمَّا نزلَ به من الخسفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ ؛ أي أصبحَ الذين تَمَنَّوا منْزلتَهُ ومالَهُ بالأمسِ حين رأوهُ في زينتهِ يندَمُون على ذلك التَّمَنِّي، يقول بعضُهم لبعضٍ بعد ما خُسِفَ به (وَيْ) هذه كلمةُ تَنْبيْهٍ ومعناها: أمَا تَرَوْنَ ؟.

قال مجاهدُ: (وَسَبيْلُهَا سَبيْلُ: أمَا تَعْلَمُ) وَيُحْكَى أنَّ امْرَأةً مِنَ الْعَرَب قَالَ لَهَا زَوْجُهَا: أيْنَ أبُوكِ، قَالَتْ لَهُ: وَيْكَأنَّهُ وَرَاءَ هَذا الْبَيْتِ، يعني أما ترَى أنه وراءَ هذا البيتِ.

وذهبَ بعض النَّحويِّين إلى أنَّ قولَ الرجُل: وَيْكَأنَّهُ، بمنْزلة: وَيْلَكَ إعْلَمْ. وقال الخليلُ ويونسُ: (وَيْ مَفْصُولَةٌ مِنْ كَأنَّ، وَ(وَيْ) كلمةُ تَنَدُّمٍ وَتَنْبِيْهٍ، وَ(كَأنَّ) فِي هَذا الْمَوْضِعِ بمَعْنَى الظَّنِّ وَالْعِلْمِ)[1] كأنَّهُم لَمَّا رأوا الخسفَ تكلَّمُوا على قدر عِلمِهم، وقالوا: كأنَّ اللهُ يبسطُ الرِّزقَ لِمن يشاءُ لا لكرامتهِ عليه، ويضيِّقُ على مَن يشاءُ لا لِهوانهِ عليه.

وقولهُ تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ ؛ أي لَولاَ أن مَنَّ اللهُ علينا بالعافيةِ والرَّحمةِ والإيْمان لَخُسِفَ بنا. وقرأ يعقوبُ وحفص: (لَخَسَفَ) بفتح الخاءِ والسِّين؛ أي لَخَسَفَ اللهُ بنا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ أي أمَا ترَى أنه لا يُسْعَدُ من كَفرَ باللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ ؛ المرادُ بالدَّار الْجَنَّةُ، (نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً) على خَلْقِي (فِي الأَرْضِ) ولَم يتكبَّروا كما تَكبَّرَ قارونُ.

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١٦٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلاَ فَسَاداً) أي ولا دُعاءً إلى عبادةِ غير الله. وَقِيْلَ: ولا فَساداً ولا عمَلاً بالمعاصِي. وَقِيْلَ: هو أخذُ المال بغيرِ الحقِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي العاقبةُ الحميدة لِمَن اتَّقَى عقابَ اللهِ بأداء فرائضهِ واجتناب معاصيهِ. وَقِيْلَ: الذين يَتَّقُونَ الكفرَ والعُلُوَّ والفسادَ.

وعن كعبٍ ﷺ أنه قال: [يُحْشَرُ الْمُتَكَبِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالذرِّ فِي صُوَر الرِّجَال، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَان، يَسْلُكُونَ فِي النَّار وَيُسْقَوْنَ مِنْ طِيْنَةِ الْخَبَال] قِيْلَ: وَمَا طِيْنَةُ الْخَبَال؟ قَالَ: [عُصَارَةُ أهْلِ النَّار][1]. والمرادُ بالتَّكَبُّر: أنْ يكون التكبُّرُ لأمرٍ يرجعُ إلى الدُّنيا، فإمَّا يكون مِن ذلك لإزالةِ المنكَر وإقامةِ حَقٍّ من حقوق الله، فلا يكونُ ذلكَ من التَّكَبُّرِ في شيءٍ، وإنَّما هو تَمَسُّكٌ بالدِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ، ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي ومَن جاءَ بالسَّيِّئَةِ فلا يُزاد في عقوبتهِ أكثرَ مِما يستحقُّهُ. والمعنى: أنَّ الذين أشْرَكُوا يُجْزَوْنَ بما كانوا يعملونَ من الشِّركِ وجزاؤُهم النارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذي فَرَضَ عليك العملَ بالقُرْآنِ لـرَادُّكَ إلى بَلَدِكَ يعني مكَّة، فإنَّ مَعَادَ الرجُلِ بَلَدُهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: (إنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) أي أنْزَلَ عليكَ القُرْآنَ. وقال الزجَّاجُ: (فَرَضَ عَلَيْكَ الْعَمَلَ بمَا يُوجِبُهُ الْقُرْآنُ)[2]. تقديرُ الكلامِ: فَرَضَ عليكَ أحكَامَ القُرْآنِ أو فرائضَ القُرْآنِ (لَرَادُّكَ إلَى مَعَادٍ) يعني مكَّة.

قال مقاتلُ: (خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إلَى الْغَار لَيْلاً، ثُمَّ هَاجَرَ مِنْ وَجْهِهِ ذلِكَ إلَىالْمَدِيْنَةِ، فَسَافَرَ فِي غَيْرِ طَرِيْقٍ مَخَافَةَ الطَّلَب، فَلَمَّا أمِنَ رَجَعَ إلَى الطَّرِيْق، فَنَزَلَ بالْجُحْفَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِيْنَة، وَعَرَفَ الطَّرِيْقَ إلَىمَكَّةَ فَاشْتَاقَ إلَيْهَا، وَذكَرَ مَوْلِدَهُ وَمَوْلِدَ

(١) أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الشهادات: الحديث (٢٤٩٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال: هذا حديث حسن.

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١١٨.

آبَائِهِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ فَقَالَ لَهُ: أَتَشْتَاقُ إِلَى بَلَدِكَ وَمَوْلِدِكَ ؟ قَالَ: [نَعَـمْ] قَـالَ جِـبْرِيْلُ: فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلى مَعَـادٍ) يَعْنِـي إِلَـى مَكَّـةَ ظَاهِراً عَلَيْهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ بالْجُحْفَةِ، فَلَيْسَتْ بِمَكِّيَّةٍ وَلاَ مَدَنِيَّةٍ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٨٥﴾ ﴾ هذا جوابُ كُفار مكَّة لَمَّا قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّكَ في ضلالٍ مُبين! فقال اللهُ تعالى: (رَبـي أعْلَمُ مَنْ جَاءَ بالْهُدَى) يعني النبيَّ ﷺ (وَمَنْ هُوَ فِـي ضَـلاَلٍ مُبيْـنٍ) يعـني المشـركينَ. والمعنى: إنَّ الله قد عَلِمَ أنِّي جئتُ بالْهُدَى وإنَّكم لَفِي ضلالٍ مُبين.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ ﴾ معناهُ: ما كنتَ يا مُحَمَّدُ تَرْجُو أنْ يُوحَى إليكَ القُرْآنُ وأنك تكونُ نَبيّاً تتلُو على أهـلِ مكَّـة قَصَـصَ الأوَّلـين، إلاَّ أنَّ ربَّـكَ رحِمَـكَ وأرادَ بـك الخـيرَ، فـأوحَى إليـك الكتـابَ وأكرمَـكَ بـالنبوَّة نعمـةً منـهُ عليـكَ، ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا ﴾ ؛ أي عَوْنـاً ﴿ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ على دِينهم، وذلك حـين دَعَـوْهُ إلى دِيـن آبائـهِ فذكَّـرَهُ اللهُ النعمةَ، ونَهاهُ عن مُظاهرَتِهم على ما كانوا عليه وأمَرَهُ بالتحذُّر منهم.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ ﴾ ؛ أي لا يَصْرِفَنَّكَ عن العملِ بآيات الله بعـدَ إذْ أنْزِلَـتْ إليـكَ، ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ ﴾ ؛ أي إلى طاعتهِ، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّـاس: (الْخِطَـابُ لِلنَّـبِيِّ ﷺ وَالْمُرَادُ بهِ أهْلُ دِيْنِهِ)[٢] أي لا تُظاهِرُوا الكفَّارَ ولا توافِقُوهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ ﴾ ؛ أي لا تَعْبُـدْ أحَـداً سِـوَى اللهِ ولا تَـدْعُ الْخَلْـقَ إلى أحَـدٍ دون اللهِ، وقولُـهُ تعـالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ ﴾ ؛ لا معبودَ سِواهُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ ؛ أي إلاَّ هو. وانتصبَ قولهُ (وَجْهَهُ) على الاستثناءِ كأنه قالَ: إلاَّ إيَّاهُ، وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ مَا أرِيْدَ بهِ وَجْهَهُ، وَكُلُّ عَمَلٍ لِغَيْرِهِ فَهُوَ هَالِكٌ إلاَّ مَا كَانَ لَهُ).

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥٠٨.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٩١.

وقولهُ تعالى: ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ ؛ أيِ الْفَصْلُ بين الخلائق دونَ غيره، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ فيجزيَكم بأعمالِكم، واللهُ أعلَمُ بالصَّواب وإليه المرجعُ والْمَآبُ.

آخر تفسير سورة (**القصص**) والحمد لله رب العالمين

تم هذا الجزء لمؤلفه الإمام الهمام شيخ الإسلام الشيخ الطبراني الكبير(١).

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله وسلم وشرف وعظم على أشرف الأنبياء والمرسلين وجميع الخلف أجمعين سيدنا ونبينا وحبيبنا وشفيعنا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأهل بيته وجميع المسلمين وسلَّم. إنهاء الواقف على هذا التفسير العظيم الذي قلَّ أن يوجد له نظير بين العالمين؛ حيث إن مؤلفه الفاضل الهمام الإمام شيخ الإسلام الشيخ الطبراني الكبير مشَّاء على طريق الحق القويم في تفسيره هذا للقرآن العظيم، جعله الله خالصاً لوجهه الكريم، ونفع به النفع العظيم بمنه وكرمه إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

وهذا أول الجزء الرابع، آلم. أحسب الناس. سورة العنكبوت.

---

(١) كتب الناسخ أو الواقف على هامش التفسير: الورقة (٣٧٠) من المخطوط:

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

((سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ مَكِّيَّةٌ إلاَّ عَشْرَ آيَاتٍ، مِنْ أوَّلِهَا إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾، قَالَ الشَّعْبِيُّ: (إنَّهَا مَدَنِيَّةٌ). وَهِيَ أرْبَعَةُ آلاَفٍ وَمِائَةٌ وَخَمْسَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَألْفٌ وَإحْدَى وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعٌ وَسِتُّونَ آيَةً))[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾؛ قد تقدَّمَ تفسيرُ (الم). فمَن جعلَ هذه الحروفَ التي في أوائلِ السُّورة قَسَماً، احتملَ أن يكون جوابُ القَسَمِ في قولهِ: (وَلَقَد فَتَنا الذينَ مِن قَبلِهِم)؛ واحتملَ أن يكون (فَلَيَعْلَمَنَّ).

وقولهُ تعالى: (أحَسِبَ النَّاسُ) لفظةُ استخبار، ومعناهُ التوبيخُ والتقرير، كأنه قالَ: أظَنُّوا أن نقنَعَ منهم بأنْ يقولُوا آمَنَّا فقط ولا يُمتَحَنُونَ بالأوامرِ والنَّواهي والتَّكليفِ، ولا يُختَبَرُونَ بما يعلم أنه صِدْقُ إيْمانِهم.

قال الحسنُ ﷺ: (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ أنَّهُ لَمَّا أصِيبَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ أحُدٍ وَكَانَتِ الْكَرَّةُ عَلَيْهِمْ، عَيَّرَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بذلِكَ، فَشُقَّ ذلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). قال السديُّ وقتادة ومجاهدُ: (مَعْنَاهُ: (أحَسِبَ النَّاسُ أنْ يُتْرَكُوا أنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ) فِي أمْوَالِهِمْ وَأنْفُسِهِمْ بالْقَتْلِ وَالتَّعْذِيْب)[2].

---

(١) ما بين (( )) ليس في المخطوط، وأضفناه جرياً على نسق المصنف في افتتاح تفسيره للسور، واقتبسناه من الكشف والبيان للثعلبي واللباب في علوم الكتاب، لمواكبة الامام الثعلبي وابن عادل ومسايرتهما للامام الطبراني في هذا التنسيق من الافتتاح لتفسير السورة.

(٢) اخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٠٧٩) عن قتادة ومجاهد. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧١٣٢) بمعناه.

وقال مقاتلُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي مَهْجَعِ بْنِ عَبْدِاللهِ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب ﷺ وَكَانَ أوَّلَ قَتِيْلٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ يَوْمَ بَدْرٍ، رَمَاهُ عَامِرُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ بسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ مَهْجَعُ، وَهُوَ أوَّلُ مَنْ يُدْعَى إلَى بَابِ الْجَنَّةِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ][1] فَجَزِعَ عَلَيْهِ أبَوَاهُ وَامْرَأتُهُ، فَأنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةَ وَأخْبَرَ أنَّهُ لاَ بُدَّ لَهُمْ مِنَ الْبَلاَءِ وَالْمَشَقَّةِ فِي ذاتِ اللهِ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ فيه تَسْلِيَةٌ للمؤمنين، معناهُ: ولقد امْتَحَنَّا الذين مِن قَبْلِهم، ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الصادقَ بوقوعِ صِدْقِهِ منه بالصَّبرِ على ما يُؤمَرُ به، والكاذبَ بوقُوعِ كَذِبٍ منهُ وَالْجَزَعِ والمخالفةِ في القِتَالِ الذي يُؤمَرُ به، فاللهُ تعالى قد عَلِمَ الصادقَ مِن الكاذب قَبْلَ أن يخلُقَهم، ولكن القصدَ من الآية قصدُ وُقُوعِ العلمِ بما يُجازَى عليه؛ لأنَّ عِلْمَ الشَّهادةِ هو الذي يجبُ به الجزاء، فأما عِلْمُ الغيب قَبْلَ وقُوعهِ فلا يحلُّ به الجزاءُ.

وقال ابنُ عبَّاس ﷺ: (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْهُمْ إبْرَاهِيْمُ الْخَلِيلُ عليه السلام ابْتُلِيَ بالنَّمْرُودِ، وَمِنْهُمْ قَوْمٌ بَعْدَهُ نُشِرُواْ بالْمَنَاشِيْرِ عَلَى دِيْنِ اللهِ فَلَمْ يَرْجِعُواْ عَنْهُ). وقال بعضُهم: يعني بَنِي إسرائيلَ ابْتُلُوا بفرعونَ فكان يسُومُهم سوءَ العذاب.

قولُهُ: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ معناهُ: أظَنُّوا (الَّذِيْنَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) يعني الشِّركَ، قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي الْوَلِيْدَ بْنَ الْمُغِيْرَةِ وَأبَا جَهْلٍ وَالأَسْوَدَ وَالْعَاصَ بْنَ هِشَامٍ وَغَيْرَهُمْ)[3]. (أنْ يَسْبقُونَا) أي أن يَفُوتُونا ويُعجِزُونا (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) أي بئسَ ما حَكَمُوا لأنفُسِهم حين ظَنُّوا ذلك.

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول:ص٢٢٩. والزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٤٢٥. والبغوي في معالم التنزيل: ص٩٩١ كلهم عن مقاتل، وهو في تفسير مقاتل: ج ٢ ص٥١٠. ومهجع بن عبدالله مولى عمر ﷺ؛ كان أول من قتل من المسلمين يومَ بدر.

(٢) نقله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥١٠.

(٣) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥١١.

وَقِيْلَ: إنَّ هذه الآية نزلت في عُتْبَةَ بنِ رَبِيْعَةَ وأخيهِ شَيْبَةَ، وفي الوليدِ بن عُتبةَ وغيرِ الذين بَارَزُوا عَلِيّاً وحمزةَ وعُبيدةَ بن الحارثِ يومَ بَدْرٍ، فقُتِلُوا على أيديهم يومئذٍ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي مَن كان يطمعُ في الثَّواب ويخشَى العقابَ ويخافُ الحسابَ، فَلْيُبَادِرْ إلى طاعةِ الله قبلَ الموتِ، ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ ﴾ ؛ أي فإن أجلَ الموت لآتٍ لِمن يرجُو، ولِمن لا يرجو، وإنَّ ثوابَ العمل الصالح لقريبٌ، ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ لِمقالَةِ الكُفَّار والمؤمنين، ﴿ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ ﴾ ؛ بما يستحقُّه كلُّ واحد منهم. وَقِيْلَ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ: [يَا عَلِيُّ؛ يَا فَاطِمَةَ: إنَّ اللهَ قَدْ أنْزَلَ: مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإنَّ أجَلَ اللهِ لآتٍ، وَإنَّ حَقِيْقَةَ رَجَاءِ لِقَاءِ اللهِ أنْ يَسْتَعِدَّ الإنْسَانُ لأَجَلِ اللهِ إذا كَانَ آتِياً باتِّبَاعِ طَاعَتِهِ وَاجْتِنَاب مَعَاصِيهِ][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾ ؛ أي مَن يعملُ الخيرَ فإنَّما يعملُ لنفسهِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ ؛ أي عن أعمالِهم وعبادتِهم، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ ؛ بالإيْمان والتوبةِ، ومعنى (لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) أي لنبطلنَّها حتى كأنَّها لَم تُعْمَلْ، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧ ﴾ ؛ أي نَجزيهم بأحْسَنِ أعمالِهم وهي الطاعةُ، ولا نَجزيهم بمساوئ أعمالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ ﴾ ؛ نزلت هذه الآيةُ في سعدِ بن أبي وقَّاص، وكان باراً بأمه، فلما أسْلَمَ قَالَتْ لَهُ أمُّهُ حُمْنَةُ بنتُ أبي سُفيانَ بنِ أميَّة: يَا سَعْدُ؛ بَلَغَنِي أنَّكَ قَدْ صَبَأْتَ! فَوَاللهِ لاَ يُظِلُّنِي سَقْفُ بَيْتٍ، وَإنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ ﷺ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥١١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٢٦.
(٢) لم أقف عليه.

فَأَبَى سَعْدٌ عَلَيْهَا، وَبَقِيَتْ هِيَ لاَ تَأْكُلُ وَلاَ تَشْرَبُ وَلاَ تَسْتَظِلُّ بشَيْءٍ، فَمَكَثَتْ يَوْماً وَلَيْلَةً لاَ تَأْكُلُ، فَأَصْبَحَتْ قَدْ جَهدَتْ ثُمَّ مَكَثَتْ يَوْماً وَلَيْلَةً أخْرَى لاَ تَأْكُلُ، وَقَالَتْ: يَا سَعْدَ لَتَدَعَنَّ دِيْنِكَ هَذِهِ أوْ لاَ آكُلَ وَلاَ أشْرَبَ حَتَّى أمُوتَ فَتُعَيَّرُ بي، فَيُقَالُ: يَا قَاتِلَ أمِّهِ! فَقَالَ سَعْدٌ: يَا أمَّاهُ لَوْ كَانَتْ لَكِ مِائَةُ نَفْسٍ فَخَرَجَتْ نَفْساً نَفْساً مَا تَرَكْتُ دِيْنِي هَذَا لِشَيْءٍ، فَإنْ شِئْتِ أنْ تَأْكُلِي، وَإنْ شِئْتِ فَلاَ تَأْكُلِي. فَلَمَّا رَأتْ ذلِكَ أكَلَتْ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ[1].

ومعناها: ووصَّينا الإنسانَ بالبرِّ والإحسانِ إلى وَالِدَيهِ وقُلنا له: وإنْ طَلَبَا منكَ أن تُشْرِكَ بي ما ليسَ لك بهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُمَا، فإنَّ طاعتَهما في الإشْرَاكِ والمعصيةِ "ليس"[2] من باب الحسن، بل هي قبيحةٌ. قال رسولُ اللهِ ﷺ: [لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ][3].

وقولُهُ تعالى: ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ ؛ مُنْقَلَبُكُمْ في الآخرةِ، ﴿ فَأُنَبِّئُكُم ﴾ ؛ فأُخبرُكم، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا من الخيرِ والشرِّ والبرِّ والعُقوق.

واختلفَ النُّحاةُ في نصبِ قولِهِ (حُسْناً)، فقال البصريُّون: بنَزْعِ الخافضِ؛ تقديرُهُ: ووصَّينا الإنسانَ بالْحُسْنِ، كما يقالُ: وَصِّيهِ خَيْراً؛ أي بخَيْرٍ، وقال الكوفِيُّون: ووصَّينا الإنسانَ أن يفعلَ حُسناً، فحذفَهُ لدلالةِ الكلام عليه. وَقِيْلَ: هو مثلُ قولِهِ ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً﴾[4] أي يمسَحُ مَسْحاً. وَقِيْلَ: معناهُ: ألْزَمْنَاهُ حُسناً. وقرأ أبو رجَاءٍ: (حَسَناً) بفتح الحاء والسين، وفي مُصحَفِ أُبَيٍّ: (إحْسَاناً).

---

(١) القصةُ قصةُ سعد بن مالك، أبو إسحق الزهري، وأم سعد بن أبي وقاص (جميلةُ). ولكلا السعدين قصة مع أمه، فيها نزلت هذه الآية كما في أسباب النزول للواحدي: ص٢٢٩-٢٣٠.

(٢) سقطت من المخطوط، والضرورة تقتضي وجودها.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ١٨ ص١٥٣٥: الحديث (٤٣٧). وفي الأوسط: ج ٢ ص٢٠٩: الحديث (١٣٧٤). وفي مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢٢٦؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني باختصار، ورجال أحمد رجال الصحيح).

(٤) ص / ٣٣ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ أي في زُمرَةِ الأنبياءِ والأولياء، وَقِيْلَ: خواصُّ أصحاب مُحَمَّدٍ ﷺ.

قولـهُ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ رُوي أنَّ هذه الآيةَ نزلت في عيَّاش بن أبـي ربيعـةَ، كَانَ أسْلَمَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وكَانَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أمِّهِ وَأخوَيْهِ لأُمِّهِ وَهُمَا أبُو جَهْلٍ وَالْحَارِثِ.

فَخَرَجَ عَيَّاشُ بَعْدَ مَا أعْلَنَ إسْلاَمَهُ هَارباً إلَى الْمَدِيْنَةِ قَبْلَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَلَغَ أمَّهُ الْخَبَرَ فَجَزِعَتْ جَزَعاً شَدِيْداً، وَامْتَنَعَـتْ عَـنِ الطَّعَـامِ وَالشَّـرَاب، فَخَـرَجَ أخَـوَاهُ وَقَوْمَهُ فِي طَلَبِهِ، فَأَخَذُوهُ وَقَيَّدُوهُ، وَحَلَفَتْ أمُّهُ أسْـمَاءُ بِنْـتُ مَخْـرَمِ بْـنِ أبـي جَنْـدَل باللهِ[1]: لاَ أحُلُّكَ مِنْ وثَاقِكَ حَتَّى تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ، ثُمَّ أقْبَلَـتْ تَجْلِـدُهُ بالسِّـيَاطِ وَتُعَذِّبُـهُ حَتَّى كَفَرَ جَزَعاً مِنَ الضَّرْب، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

قال مقاتلُ والكلبيُّ: (لَمَّا هَاجَرَ عَيَّاشُ إلَـى الْمَدِيْنَـةِ خَوْفـاً مِـنْ أمِّـهِ وَأخوَيْـهِ، حَلَفَتْ أمُّهُ أسْمَاءُ بِنْتُ مَخْرَمِ بْنِ أبي جَنْدَلٍ ألاَّ تَأكُلَ وَلاَ تَشْـرَبَ وَلاَ تَغْسِـلَ رَأسَـهَا وَلاَ تَدْخُلَ بَيْتاً حَتَّى يَرْجِعَ إلَيْهَا ابْنُهَا، فَلَمَّا رَأى ابْنَاهَا أبُو جَهْلٍ وَالْحَارثُ ابْنَـا هِشَـامٍ - وَهُمَا أخَوَا عَيَّاشٍ لأُمِّهِ- جَزَعَهَا، فركِبَا فِي طَلَبِهِ حَتَّى أتَيَا الْمَدِيْنَةَ فَلَقِيَاهُ.

فَقَالَ لَهُ أبُو جَهْلٍ: قَدْ عَلِمْتَ أنَّكَ أحَبُّ إلَى أمِّكَ مِنْ جَمِيْعِ أوْلاَدِهَـا، وَكُنْـتَ بَارّاً بهَا، وَقَدْ حَلَفَتْ لاَ تَأكُلُ وَلاَ تَشْرَبُ وَلاَ تَدْخُلُ كِنّاً حَتَّى تَرْجِعَ إلَيْهَا، وَأنْتَ تَزْعُمُ أنَّ فِي دِيْنِكَ برَّ الْوَالِدَيْنِ، فَارْجِعْ إلَيْهَا فَإنَّ رَبَّكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ بالْمَدِيْنَةِ هُـوَ رَبُّـكَ بمَكَّـةَ فَاعْبُدْهُ بهَا. فَلَمْ يَزَالاَ بِهِ حَتَّى أخَذَ عَلَيْهِمَا الْمَوَاثِيْقَ أنْ لاَ يُحَرِّكَانِهِ وَلاَ يَصْرِفَانِـهِ عَـنْ دِيْنِهِ، فَأَعْطَيَاهُ الْمَوَاثِيْقَ فَتبعَهُمَا، فَلَمَّا خَرَجُوا بهِ مِنَ الْمَدِيْنَةِ أخَذَاهُ وَأوْثَقَاهُ وَضَرَبَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ حَتَّى تَبَرَّأ مِنْ دِيْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ جَزَعاً مِنَ الضَّرْب[2].

---

(١) ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ج ١ ص٣٦٤: الرقم (٤٥٢).

(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥١٢. وابن هشام في السيرة النبوية: هجرة عمر وقصة عيـاش

وَكَانَ الْحَارِثُ أَشَدَّهُمَا عَلَيْهِ وَأَسْوَأَهُمَا قَوْلاً فِيهِ، فَحَلَفَ عَيَّاشُ باللهِ لَئِنْ قَدِرَ عَلَيْهِ لَيَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ، فَلَمَّا رَجَعُواْ إِلَى مَكَّةَ مَكَثُوا حِيْناً، ثُمَّ هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى الْمَدِيْنَةِ، فَهَاجَرَ عَيَّاشُ وَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى وَفَّقَ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ فَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِيْنَةِ وَبَايَعَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الإِسْلاَمِ، وَلَمْ يَحْضُرْ عَيَّاشُ، فَلَقِيَهُ عَيَّاشُ يَوْماً بظَهْرِ قِبَاء وَلَمْ يَعْلَمْ بإِسْلاَمِهِ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ يَظُنُّ أَنَّهُ كَافِرٌ، فَقِيْلَ لَهُ: إِنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ، فَنَدِمَ وَاسْتَرْجَعَ وَبَكَى، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بذلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾(1).

ومعنَى الآيةِ: ومِن الناسِ مَن يقولُ آمَنَّا باللهِ، فإذا عُذِّبَ في طاعةِ الله جَعَلَ تعذيبَ الناسِ كتعذيب الله، فأطَاعَ الناسَ خوفاً منهم، كما يطيعُ الله مَن خافَ عذابَهُ.

قولُهُ: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ ؛ أي إذا جاء فَتْحٌ مِن ربك (لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ) وهذه صفةُ المنافقين، يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ ؛ أي بما في قلُوب الْخَلْقِ من الطُّمأنينةِ بالإيْمان والانشراحِ بالكُفر، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ؛ أي لِيَجْزِيَ اللهُ المؤمنين، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ ؛ ولَيُمَيِّزَنَّ المنافقينَ.

قولُهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ ؛ معناهُ: قال كفارُ مكَّة أبو جهلٍ وغيرهُ، لِمَنْ آمَنَ مِن قريشٍ، واتَّبعَ مُحَمَّداً ﷺ: إتَّبعُوا دِينَنَا وَمِلَّةَ آبَائِنَا، ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ ، ونحنُ الكفلاءُ بكُلِّ تَبعَةٍ تصيبُكم من اللهِ في ذلك،

ومن معه: ج ٢ ص١١٨.

(1) النساء / ٩٢. في الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ج ١ ص٣٦٧: ترجمة هشام بن يزيد: الرقم (٤٥٤)؛ قال ابن عبد البر: (هو الحارث بن يزيد القرشي العامري). وفي الإصابة في معرفة الصحابة: ج ١ ص٦٠٧؛ قال ابن حجر: (أسلم يوم فتح مكة، ثم حسن إسلامه، وقال: فلم يزل مجاهداً بالشام حتى ختم الله له بخير). وذكر في ترجمة الحارث بن يزيد بن أنيسة قصة عياش معه وقال: (وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل: الحارث بن يزيد هو الذي قتله عياش بن أبي ربيعة بالبقيع بعد قدومه المدينة، وذلك بعد أحد).

ونحملُ عنكم خطَايَاكم، إنْ كان عليكم فيهِ إثـمٌ ووزرٌ، فنحـنُ نحملـهُ عنكـم[1]. قـال الفرَّاء: (قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلْنَحْمِلْ) لَفْظُـهُ لَفْـظُ الأَمْـرِ، وَمَعْنَـاهُ: الْجَـزَاءُ؛ أَيْ إن اتَّبَعْتُـمْ سَبِيْلَنَا حَمَلْنَا خَطَايَاكُمْ)[2]. قولهُ: ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝١٢﴾؛ فيما ضَمِنوا من حَمل خطاياهم، ولا يحفظُونَ العذابَ عنهم.

قولـهُ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾؛ معنـاهُ: أوْزَاراً مـع أوزَارهم، وذلك أنَّهم يُعاقَبون على كُفرهم وعلى دُعاءِ غيرِهم إلى الكفرِ، وهذا موافقٌ لقولهِ ﷺ: [مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بهَا إلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ، لاَ يَنْقُصُ مِنْ أوْزَارِهِمْ شَيْءٌ][3].

ومعنى الآيةِ: وَلْيَحْمِلُنَّ أوزارَهُم التي حَملُوها، وأوْزَاراً مـع أوزَارهـم لقولِـهم للمؤمنـينَ:(اتَّبعُـوا سـبيلَنا ((وَلْنَحْمِـلْ خَطَايَـاكُمْ) وهـم كـاذبون فيمـا قـالوا لهـم ووعدوهم))[4]، وليَحْمِلُوا أوزَارَهم كاملةً يومَ القيامةِ.

وقولـهُ: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝١٣﴾؛ أرادَ بـه سؤالَ توبيخٍ لا سؤالَ استعلامٍ، يقالُ لَهم: هل كانَ عندَكم من الغيب شـيءٌ ؟ ومِـن أين قُلْتُمْ إنَّكم تحمِلُوا أوزَارَ غيرِكم ؟ .

---

(١) نقله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥١٣. وفي معالم التنزيل: ص٩٩٣؛ قال البغـوي: (قالـه مقـاتل والكلبي... وذكره).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن:ج١٣ ص٣٣٠؛ قال القرطبي: (قال الفراء والزجَّاج: هو أمر في تأويل الشرط والجزاء؛ أي إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم). وقالـه النحـاس في إعـراب القـرآن: ج٣ ص١٦٩. وينظر: معاني القرآن وإعرابه: ج٤ ص١٢٢ واللفظ له.

(٣) أخرجـه الطـبراني في المعجـم الكبـير: ج ٢ ص٣٢٨-٣٣٠: الحديـث (٢٣٧٢-٢٣٧٥) شـطر حديث طويل عن جرير بن عبدالله البجلي من طريقين، وإسناده صحيح. وأخرجه الإمـام أحمـد في المسند: ج ٤ ص٣٥٧ و٣٥٨ و٣٥٩. ومسلم في الصحيح: كتـاب الزكـاة: بـاب الحـث عـل الصدقة: الحديث (٧٠/ ١٠١٧).

(٤) على ما يبدو لي أن العبارة المقدرة ما بين (( )) سقطت من المخطوط، وقابلناهـا علـى مـا في جامع البيان: ج ٢٠ ص١٦٤.

قولــــــــهُ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ ؛ أي مَكَثَ بين أظهرهم يدعُوهم إلى الإيْمَان ألفَ سَنَةٍ إلاّ خَمسين عاماً، فلم يُجِبْهُ إلى الإيمان منهم إلاّ قليلٌ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ، فأهلَكَ اللهُ المكذّبين بالطُّوفانِ وهو الغرقُ (وَهُمُ الظَّالِمُونَ) أي مُشرِكون.

وفي الحديث: [أنَّ نُوحاً عليه السلام أرْسَلَ إلَيْهِمْ بَعْدَ مَا أتَى عَلَيْهِ مِائَتَــان وَخَمْسُونَ سَنَةً، وَعَاشَ بَعْدَ الطُّوفَانِ مِائَتَيْنِ وَخَمْسِيْنَ سَنَةً][1]. وسُمي الغرقُ طُوفَانــاً لأنَّ المـاءَ في ذلك اليومِ طَافَ في جميعِ الأرضِ.

قولهُ: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ ؛ أي أنْجَيْنَا نُوحاً من الغَرَق ومَن كان معهُ من المؤمنين في السَّفينة،﴿ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي جعلنا السَّفينةَ عِبْرَةً لِمن بعدَهم من الناسِ إنْ عَصَوا رسولَهم فعَلْنَا بهم مثلَ ذلك.

قوله: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ ؛ انتصبَ (إبْرَاهِيْمَ) عَطفاً على نُوحٍ، معناهُ: وأرسَلنا إبراهيمَ أيضاً، (إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعبُدُوا اللهَ) أي وَحِّدُوا اللهَ وأطيعوهُ واخشَوهُ،﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي عبادةُ اللهِ خيرٌ لكم من عبادةِ الأوثان، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ ذلكَ.

قوله: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا ﴾ ؛ أي أصْنَاماً تتَّخِذونَها من الحجارةِ والخشب،﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ ؛ أي وتَختَرعُونَ على الله كَذِباً في قولِكم: إنَّها آلِهةٌ. ويجوزُ أن يكون معنى (وَتَخْلُقُونَ) أي تَنْحَتُونَ أصْنَاماً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ أي إنَّ الذين تعبدُونَ من الأصنامِ لا يَقْدِرُونَ أنْ يرزقُوكم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى:﴿ فَٱبْتَغُواْ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٤٥٦؛ قال السيوطي: (وأخرج ابن جرير عن عون عن أبي شداد رضي الله عنه قال: (إن الله أرسل نوحاً عليه السلام إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٠٩٧).

عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي اطْلُبُوا الرِّزقَ مِنِّي، فأنا القادرُ على ذلكَ، (وَاعْبُدُوهُ) أي اعبدُوا مَن يَملِكُ أرزاقَكم، (وَاشْكُرُواْ مَنْ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) في الآخرةِ فيَجزيَكم بأعمالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ ؛ يعني كذبُوا أنبياءَهم كما كذبتُم نبيَّكُم فأهلكَهم اللهُ تعالى، ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي مَا عليهِ إلاّ تبليغُ الرسالةِ عن اللهِ بلُغَةِ الَّذين أرسَلَهم إليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾ ؛ أي أوَلَمْ يعلَمْ ويعتبرْ أهلُ مكَّة كيفَ يُبدِئُ اللهُ الْخَلْقَ في أرحامِ الأُمَّهاتِ مِن النُّطفةِ ثُم مِن العلقةِ ثُم مِن الْمُضْغَةِ إلى تَمامِ الخلق، ثُم يُميتُهُ ثُم يعيدهُ بعدَ الموتِ للبعثِ خَلْقاً جَديداً. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ بَدْأَ الخلقِ وإعادته هَيِّنٌ على اللهِ، فإنه القادرُ على الاختراعِ مِن غير ابتداء على مثالٍ، قادرٌ على الإعادةِ، وكانوا يُقِرُّونَ بأنَّ اللهَ هو الذي خلقَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ ؛ أي سَافِروا في الأرضِ وابحثوا وانظرُوا هل تَجِدُونَ خَالِقاً غيرَ اللهِ، واعتَبروا كيفَ خَلَقَ اللهُ مَن قبلَكم ثُم أهلَكَهم بعدَ ذلك.

وقولُهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ ؛ أي ثُم إنَّ اللهَ يبعثُ الخلقَ ثانيةً يومَ القيامةِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ مِن الإحياءِ والإمَاتَةِ قادرٌ. قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو والحسنُ: (النَّشَاءَةَ) بالمدِّ، وقرأ الباقون: (النَّشْأَةَ) بإسكان الشِّين والقصْرِ وهما لُغتان(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ مَن كان أهْلاً للتعذيب، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ مَن كان أهلاً للرحمةِ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي تُرَدُّونَ في الآخرةِ.

---

(١) في الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٥٧، قال: (فقرأ ابن كثير وابن عمرو ﴿النَّشَاءَةَ﴾ ممدودة في كل القرآن، وقرأ الباقون بالقصر).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي ما أنتم يا أهلَ مكَّة بفَائِتِينَ من عذاب الله هَرباً، ولا في السَّماء، فلا تغتَرُّوا لطُولِ الإمهَالِ.

ولا يجوزُ أن يكون معناهُ: وَلاَ مَنْ فِي السَّمَاءِ بِمُعْجِزِيْنَ؛ أي ما أنتم يا كفارَ مكَّة بفَائِتِي اللهِ في الأرضِ[1] كُنتم أو فِي السَّماء كنتم، أينَما تكونُوا يأتِ بكمُ الله فيجزِيَكم بأعمالِكم السيِّئة ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ ؛ يتولَّى أمرَكم وحِفظَكم، ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ يَمنعُ العذابَ عنكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ ﴾ ؛ أي الذين يَجحَدوا بآياتِ الله والقُرْآنِ والبعثِ بعد الموتِ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِى ﴾ ؛ أي مِن جنَّتِي في الآخرةِ باعتقادِهم أنَّها لا يقعُ بهم، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ ﴾ ؛ أي ما كان جوابُ قومِ إبراهيمَ حيث دعاهُم إلى اللهِ، إلاَّ أن قالوا: اقتلُوهُ أو حرِّقوهُ بالنار، ثُم ((اتفقوا على تحريقه))[2] فقذفوهُ في النار، ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ سَالِماً، وجعلَها عليه بَرْداً وسَلاماً ولَم تحرِقْ منه إلاَّ وثاقه، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ بالله ورسُلهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا ﴾ ؛ أي قال إبراهيمُ: إنَّ ما عبَدتُم مِن دون اللهِ أوثاناً هي مودَّةٌ بينَكم، أو تلك مودَّةٌ بينكم، والمعنى: أي ألْفَتُكُمْ واجتماعُكم على الأصنام ﴿ مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا

---

(١) في معالم التنزيل: ص٩٩٤؛ قال البغوي: (قال قطرب: معناه: ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء لو كنتم فيها، كقول الرجل للرجل: لا يفوتني فلان ههنا ولا بالبصرة ولو كان بها).

(٢) ما بين (( )) ليس في المخطوط، وأضفناهُ لضرورة السياق، ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٣٨.

﴿ لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ ثُم تنقطعُ عن قريبٍ، وتنقلبُ تلك المودَّةُ عداوةً بعد الموتِ، يَتَبَرَّأ بعضُكم من بعضٍ، ويلعنُ العابدُ المعبودَ، لذلك يلعَنُ العابدونَ بعضَهم بعضاً، ويكون مصيرُهم في الآخرةِ النار، وما لكم مِن مانعٍ يَمنعُكم من عذاب الله.

ويجوزُ أن تكون (مَا) في قوله تعالى (إنَّمَا اتَّخَذْتُمْ) بمعنى (الذِي) كأنه قالَ: إنَّ الذي اتَّخذتُموه من دون الله أوثاناً مودَّةُ بينِكم ما دُمتم في الحياةِ الدُّنيا، فيكون (مَوَدَّةُ) رفعاً لأنَّها خبرُ (إنَّ)، وقرأ حمزةُ وحفص (مَوَدَّةَ) بالنصب (بَيْنِكُمْ) بالخفض على الإضافة؛ بوقوعِ الاتِّحادِ عليه، وجعل (إنَّمَا) حَرفاً واحداً، وقرأ الباقون نَصباً مَنوَّناً (بَيْنَكُمْ) بالنصب على أنه مفعولٌ أيضاً، ومعناه: اتَّخذتُم هذه الأوثانَ مَوَدَّةً بينَكم تتوادُّون وتحابُّون على عبادتِها وتتواصَلون عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ ؛ أي صَدَّقَ لوطُ بإبرَاهِيمَ، وهو أوَّلُ مَن صدَّقَ به، ﴿ وَقَالَ ﴾ ؛ إبراهيم: ﴿ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ ؛ أي إلى الموضعِ الذي أمرَنِي رَبي بالهجرةِ إليه، وكان مأْموراً بالهجرةِ من كوثى وهو سوادُ العراقِ إلى الشَّام.

وَقِيْلَ: إن كوثى من سوادِ الكوفة، فهاجرَ إبراهيمُ ومعه لوطُ وهو ابنُ أخيهِ ومعه سَارَةُ. قال مقاتلُ: (هَاجَرَ إبْرَاهِيْمُ وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ وَسَبْعِيْنَ سَنَةً)(١). وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي الْمُنْتَقِمُ مِمَّنْ عَصَاهُ، الْحَكِيْمُ فيما حَكَمَ علينا من الهجرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ ﴾ ؛ أي لإبراهيمَ، ﴿ إِسْحَـٰقَ ﴾ ؛ من امرأتهِ سارَةَ، ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ ؛ ابنُ ابنهِ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الله لَم يَبْعَثْ نبيّاً مِن بعد إبراهيمَ إلاَّ من صُلْبهِ، وقولهُ تعالى (وَالْكِتَابَ) أي وجعلنَا التَّوراةَ والإنجيلَ والقُرْآنَ في وَلَدِهِ.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥١٦.

وقولهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ ؛ أرادَ به الثَّناءَ الحسنَ، وموالاةَ جميعِ الأُمَمِ إيَّاهُ؛ لأن جميعَ أهلِ الأديان يُحبُّونَهُ. وقال السديُّ: (إنَّهُ أري مَكَانَهُ فِي الْجَنَّةِ) ثُمَّ أعْلَمَهُ اللهُ أنَّ لَهُ مَعَ مَا أعْطَاهُ فِي الدُّنْيَا الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لقولهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ ؛ أي إنهُ في الآخرةِ مع آبائه الْمُرسَلين في الجنَّة مثلَ آدمَ ونوحٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلُوطًا﴾ ؛ أي وأرسَلْنا لُوطاً بالنبُوَّة، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ ؛ يعني عملَهم الخبيثَ الذي لَم يكن يَعْمَلُهُ أحدٌ قبلَهم.

وقولهُ تعالى: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ ؛ وذلك أنَّهم كانوا يفعلونَ الفاحشةَ بمَن يَمُرُّ بهم مِن المسافرين، فلما فَعَلُوا ذلك شَاعَ الخبرُ، فتركَ الناسُ المرورَ بهم وانقطعَ السبيلُ.

وقولهُ تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ ؛ النادِي الْمَجْلِسُ وَالْمُتَحَدَّثُ؛ أي تأتُونَ في مجالسِكم الفسقَ، قِيْلَ: إنَّهم كانوا يفعلُ بعضُهم ببعضٍ الفاحشةَ في الْمَجَالِسِ. وَقِيْلَ: إنَّهم كانوا يصَفِّقون بأيديهم ويصَفِّرُونَ بأفواهِهم، وقال القاسمُ بن محمَّدٍ: (هُوَ أنَّهُمْ كَانُوا يَتَضَارَطُونَ فِي مَجَالِسِهِمْ)(١) وَيَضْرِبُونَ بالْعُودِ وَالْمَزَامِيْرِ (وَيَلْعَبُونَ بالْحَمَامِ)(٢). وَقِيْلَ: في معنَى قولهِ تعالى (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنكَرَ) قال مجاهدُ: (كَانَ يُجَامِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فِي الْمَجَالِسِ)(٣).

وسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِي كَانُوا يَأْتُونَهُ قَوْمُ لُوطٍ، فَقَالَ: [كَانُوا يَجْلِسُونَ وَعِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قِصْعَةُ حَصَى، فَإذا مَرَّ بهِمْ عَابرُ سَبيْلٍ خَذفُوهُ، فَأَيُّهُمْ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٢٧٣). ونقله الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١١٢٦) بإسناده عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) من قول مجاهد؛ أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٢٧٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٢٧٤). والطبري في جامع البيان: الآثار (٢١١٣١).

أصَابَهُ كَانَ أوْلَى بهِ](١)، قال ﷺ: [إيَّاكُمْ وَالْخَذْفَ، فَإنَّهُ لاَ يَنْكَأُ الْعَدُوَّ وَلاَ يُصِيْبُ الصَّيْدَ، وَلَكِنْ يَفْقَأُ الْعَيْنَ وَيَكْسِرُ السِّنَّ](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ﴾ ؛ أي فلمَّا أنكرَ لوطُ على قومِهِ ما كانوا يفعلون من القَبَائِحِ قالُوا استهزاءً: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أنَّ العذابَ نازلٌ، فعندَ ذلكَ؛ ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لوطُ عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي انْصُرْنِي بتحقيقِ قَولِي في العذاب على القومِ المفسدين العاصِين.

فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ، وبعثَ جبريل ومعه الملائكةُ لتعذيب قومه وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ ؛ أي بالبُشْرَى بإسحق ومِن وراءِ اسحق يعقوبُ، ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ ؛ يعني سدوم قريةُ لوطٍ، ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ بالشِّركِ والعملِ الخبيثِ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ إبراهيمُ: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ ؛ فكيفَ تُهلِكُونَهم؟! ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ ؛ وأهلَ دِينه وابنَتَيْهِ زَعُورا وزَنْبا، ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ واعِلَةَ، ﴿ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي مِن الباقينَ في الْمُهْلَكِيْنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ ﴾ ؛ أي سَاءَ مَجيئُهم خَوفاً عليهم مِن قومِهِ؛ لأنَّهم جاؤهُ على هيئةِ الغِلْمَان، ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ ؛ أي ضَاقَ عليهم بسَببهم، ﴿ وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ وَ مُنَجُّوا؛ قال المبَرِّدُ: (الْكَافُ فِي

---

(١) أخرجه الطبري من حديث أم هانئ في جامع البيان: الحديث (٢١١٢٧) بأسانيد. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣١٩٠)، وقال: هذا حديث حسن. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٤ ص٣٢٦: الحديث (١٠٠٠-١٠٠٢)، والزيادة [فَأَيُّهُمْ أصَابَهُ كَانَ أوْلَى بهِ] لم أقف عليها إسناداً، وذكرها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٤٢، وقال: (ذكره الثعلبي).

(٢) في مجمع الزوائد: ج ٤ ص٣٠؛ قال الهيثمي: (قلت هو في الصحيح من حديث عبدالله بن مغفل، رواه الطبراني في الكبير، وفيه الحسن بن دينار، وهو ضعيف).

(مُنَجُّوكَ) مَخْفُوضَةٌ وَلَمْ يَجُزْ عَطْفُ الظَّاهِرِ عَلَى الْمُضْمَرِ الْمَخْفُوضِ، فَمَا جُعِلَ الثَّانِي عَلَى الْمَعْنَى، فَصَارَ التَّقْدِيْرُ: وَنُنْجِي أَهْلَكَ، أو مُنْجُونَ أَهْلَكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي عَذاباً بالحجارةِ، وَقِيْلَ: الخسفَ والحصبَ، ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي بسَبَب فِسقِهِم، يروى أنَّ تلكَ القريةِ كانت مشتملةً على سبعمائةِ ألفِ رجُلٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً ﴾ ؛ أي آثارُ منازِلِهم الْخَرِبَةِ وهي تركُ ديارهم منكوسةً عِظَةً وعبرةً، وأظهرَ اللهُ فيها ماء أسوداً نتناً يتأذى الناسُ برائحتهِ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي يتفكَّرُون فيما فَعَلَ اللهُ بهم فلا يفعلونَ مِثْلَ فعلِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ ؛ أي وأرسَلنا إلى أهل مدينَ أخاهم شُعيباً، ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ ؛ أي وَاخشَوا البعثَ الذي فيه جزاءُ الأعمال، ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي لا تَعْثُوا في الأرض بالفسادِ، ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ ؛ بالرِّسالةِ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ ؛ أي الزَّلزَلةُ، ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي مَيِّتِيْنَ باركِينَ على رُكَبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ ﴾ ؛ أي وأهلكنا عاداً وثمُودا، ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ ؛ أي ظَهَرَ لكم يا أهلَ مكَّة مِن منازِلِهم والحجرِ واليمنِ في هلاكِهم حيث تمرُّون بها، ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ ؛ القبيحةَ، ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ؛ أي فصرَفَهم عن طريقِ الحقِّ، ﴿ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي عُقَلاءَ يُمكِنُهم تَمييزُ الحقِّ من الباطلِ، ويقالُ: كانوا مُعجَبين بضَلالِهم يَرَونَ أنَّهم على الحقِّ، ولَم يكونوا كذلكَ، والمعنى: أنَّهم كانوا عندَ أنفسِهم مستَبْصِرين فيما عَمِلُوا من الضَّلالةِ، يحسَبُون أنَّهم على هُدَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي وأهلَكْنا قارونَ وفرعون وهامانَ بعدَ ما جاءَهم

مُوسَى بالمعجزاتِ فتعَظَّمُوا عن الإيْمانِ به، ﴿ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي لَم يكونوا فَائِتين من عذاب الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ ؛ أي كلَّ هؤلاءِ القوم الذين ذكرناهم عاقَبْناهم بذنوبهم، ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ؛ يعني الحجارةَ وهم قومُ لُوطٍ، وَقِيْلَ: الحاصِبُ الرِّيحُ التي تأتِي بالْحَصْبَاءِ، وهي الْحَصَى الصِّغَار، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ ؛ وهم قومُ صالح وشُعيب، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ يعني قارونَ وأصحابَهُ، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ؛ يعني قومَ نوحٍ وفرعونَ، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ؛ بإهلاكِهِ إيَّاهم، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ بالكُفرِ والمعاصِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ يعني الأصنامَ يتَّخذونَها أولياءَ يَرْجُونَ نصرَها ونفعَها، ﴿ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ ، وبيتُها لا يُغنِيها عن الحرِّ والبردِ والمطر، كذلكَ آلِهتُهم لا تَرزُقهم شيئاً، ولا تَملِكُ لَهم ضرّاً ولا نفعاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ أي لاَ بيتَ أضعفَ منهُ مما يتَّخذهُ الهوامُ، ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ إنَّ اتِّخاذهم الأولياءَ سِوَى اللهِ كاتِّخاذِ العنكبوتِ بيتاً في قلَّة النفعِ ما اتَّخذُوهم أولياءَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ﴾ ؛ قرأ أبو عمرو (يَدْعُونَ) بالياء لذِكْرِ الأُمم قبلَها، وقرأ الباقون بالتاء، ومعنى الآيةِ: أنهُ عالِمٌ بما عبدتُموه من دونهِ فهو يُجازيكم على كُفرِكم، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ ﴾ ؛ يعني أمْثالَ القُرْآن، ﴿ نَضْرِبُهَا ﴾ ، نبيِّنُها، ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ . قال مقاتلُ: (يَعْنِي لِكُفَّار مَكَّةَ)[1] ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ ﴾ ؛ الأمثالُ، ﴿ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي العلماءُ.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥٢٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي للحَقِّ واظهرَ الحقَّ خلْقَها، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي لدلالةً على قُدرةِ الله وتوحيدِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ أي إقْرَأ عليهم يا مُحَمَّدُ ما أنْزلَ عليكَ مِن القُرْآنِ، وأقِمِ الصَّلَواتِ الخمسِ في مواقِيتِها بشرائطِها وسُنَنِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ في الصَّلاةِ تكبيراً وتَسْبيحاً وقراءةً ووُقوفاً للعبادةِ على وجهِ الذُّلِّ والخشُوعِ، وكلُّ ذلك يدعُو إلى شَكلِهِ ويصرفُ عن ضدِّهِ وهي الآمرُ والنَّاهي بالقول. والفَحْشَاءُ: ما قَبُحَ من العملِ، والْمُنْكَرُ: ما لا يعرَفُ في شريعةٍ ولا سُنَّةٍ.

قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (فِي الصَّلاَةِ مُنْتَهًى وَمُزْدَجَرٌ عَنْ مَعَاصِي اللهِ)[(١)] (فَمَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْمَعَاصِي لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إلاَّ بُعْداً)[(٢)]، وعن أنسٍ ﷺ قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إلاَّ بُعْداً][(٣)].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ؛ أي ولَذِكْرُ اللهِ إيَّاكم بالتوفيقِ والمغفرةِ والثواب أكْبَرُ من ذِكْرِكم إياهُ بالطاعةِ، وَقِيْلَ: ذِكْرُ اللهِ في المنعِ من الفحشاءِ والمنكرِ أكبرُ مِن الصَّلاة، ويجوزُ أن يكون أكبر في معنى الكِبَرِ في الجزاءِ والثَّواب، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٣٤٣).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٣٤٠). والطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٤٦: الحديث (١١٠٢٥). والقضاعي في المسند: ج ١ ص٣٠٥: الحديث (٥٠٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٢ ص٢٥٨؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير، وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ثقة ولكنه يدلس).
(٣) لم أجده.
(٤) البقرة / ٤٥ .

قالتِ الحكماءُ: ذِكْرُ اللهِ للعبدِ أكبرُ من ذكرِ العبد للهِ؛ لأنَّ ذِكْرَ اللهِ للعبدِ على حدِّ الاستغناءِ، وذِكرُ العبدِ إياه على حدِّ الافتقار، ولأنَّ ذِكْرَ العبدِ بجَرِّ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ، وذِكرُ اللهِ للعبدِ للفَضْلِ والكَرَمِ، ولأنَّ ذكرَ العبدِ مخلوقٌ، وذكرَ اللهِ غيرُ مخلوقٍ.

وقال ﷺ فِي قولهِ تعالى (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ): [أَيْ ذِكْرُ اللهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ، وَالذِّكْرُ أَنْ تَذْكُرَهُ عِنْدَ مَا حَرَّمَ، فَتَدَعُ مَا حَرَّمَ، وَعِنْدَمَا أَحَلَّ فَتَأْخُذُ مَا أَحَلَّ][(١)]. وقال ﷺ: [مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَلْيُكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ][(٢)].

وقال أبو الدَّرداءِ ﷺ: (أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحبها إِلَى مَلِيْكِكُمْ وَأَنْمَّها فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَغْزُوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا رِقَابَهُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الدَّنَانِيْرِ وَالدَّرَاهِمِ ؟) قَالُوا: وَمَا هُوَ ؟! قَالَ: (ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ)[(٣)].

وقال معاذُ بنُ جَبَلٍ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى ؟ قَالَ: [أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطِبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ][(٤)]. وقال ﷺ: [مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا فِي مَجْلِسٍ يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ؛ إِلاَّ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلاَئِكَةُ؛ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ؛ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ][(٥)].

---

(١) لم أجده.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ج ٦ ص٥٩: الحديث (٢٩٤٤٨) عن معاذ بن جبل، وفي ج ٧ ص١٨٠: الحديث (٣٥٠٤٩) أيضاً.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١١٦٧) عن أبي الدرداء.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٠ ص٩٣: الحديث (١٨١)، وص١٠٧: الحديث (٢١٢)، وص١٠٨: الحديث (٢١٣). وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٧٤؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني بأسانيد، وفي بعضها خالد بن يزيد، ضعفه جماعة، ووثقه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله ثقات).

(٥) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين، وهو في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين في الرقم (٨٧٣) بلفظه، وقال العراقي: (رواه مسلم من حديث أبي هريرة) ولفظه عند مسلم: [مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ].

ورُوِيَ أنَّ رجُلاً أعتقَ أربعَ رقابٍ، وآخرَ قالَ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ، ثُم إنَّ الذي لَم يعتِقْ سألَ حبيبَ[1] سـرّاً وفي أصحابه فقـالَ: مـا تقولونَ فيمَن أعتقَ أربعَ رقابٍ وأنا قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْـدُ للهِ؛ وَلاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ، فأيُّهما أفضلُ ؟ فنظَرُوا هُنَيْهَةً وقالوا: ما نعلمُ شيئاً أفضلَ مِن ذكرِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي ما تعملونَ من الخيرِ والشرِّ، لا يخفَى عليه شيءٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ ؛ أي لا تُخاصِمُوا أهلَ الكتاب إلاّ بالطريقةِ التي هي أحسنُ، وهي أن تَعِظُوهم بـالقُرْآنِ على وجهِ النُّصحِ لَهم والاستمالةِ إلى دِين الإسلامِ وتعظيمِ الله تعـالى وطلـب ثوابـه، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾ ؛ أي إلاَّ مَن ظَلَمَ من أهـلِ الكتـاب فمَنَـعَ الجزيـةَ أو نَقَضَ العهدَ، وعادَ حَرْباً لكم، فجادِلُوهم باللِّسـان والسِّنَان، وأغْلِظُـوا عليـهم حتـى يُسلِمُوا، ﴿ وَقُولُوٓاْ ﴾ ؛ لِمـن قَبِـلَ الجزيـةَ منـهم إذا أخـبَرُوكم بشـيءٍ مـن كتُبـهم: ﴿ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ ﴾ ؛ أي آمَنَّـا بـالقُرْآنِ والتـوراةِ والإنجيـلِ والزبـور، ﴿ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي مُخلِصُونَ بالعبادةِ والتوحيد، وهذه صفةُ الْمُجادَلةِ الحسنَةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ ﴾ ؛ أنزلنـا إليـكَ يـا مُحَمَّدُ القُرْآنَ كما أنزَلْنَا إليهم الكُتبَ، ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ ﴾ أي الذين أكْرَمْنَاهم بعلم التَّوراة وهم عبدُاللهِ بـن سـلام وأصحابـهُ يؤمنـونَ بـالقُرْآنِ بدلالةِ التَّوراةِ. وقولهُ: ﴿ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ ﴾ ؛ أرادَ به مـن كُفَّـارِ مكَّـةَ مَن يؤمنُ به، يعني يُسْلِمُ منهم.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي مَـا يجحدُ بمُحَمَّدٍ ﷺ وبالقُرْآن بعدَ المعرفةِ إلاَّ الكافرونَ من اليهودِ، وذلك أنَّهم عَرَفُوا أنَّ مُحَمَّداً نبيٌّ والقُرْآنَ حَقٌّ فجَحَدوا وأنكَرُوا.

---

(١) هكذا أبهم الاسم (حبيب) ولم يعرِّفه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾ ؛ أي ما كُنْتَ يا مُحَمَّدُ تقرأ مِن قبلِ القُرْآن (مِنْ كِتَابٍ) أي ما كُنْتَ قارئاً قبلَ الوحي ولا كَاتِباً، وقولُهُ: ﴿ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ ولا تكتبهُ بيمينِكَ، ولو كُنْتَ تقرأهُ وتكتبُ لوجدَ الْمُبْطِلُونَ طريقاً إلى التَّشكيكِ في أمرِكَ والارتياب في نُبوَّتكَ، ويقولون إنهُ يقرأهُ من الكُتُب الماضيةِ، فلمَّا كان مَعْلُوماً عندَهم أنه عليه السَّلامُ كان لا يقرأ ولا يكتبُ، ثُم أتى بالقُرْآنِ الذي عَجَزُوا عنِ الإتيان بسورةٍ مثله، دلَّهُم ذلك على أنه مِن عند اللهِ، ولأنَّهُ كانت صفتهُ في التَّوراةِ والإنجيل: أمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتبُ، ولو كُنْتَ قارئاً كاتباً لشَكَّ اليهودُ فيكَ، وقالوا: إنَّ الذي نجده في التوراةِ أمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتبُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (يَعْنِي الْقُرْآنَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُور الَّذِيْنَ أوتُوا الْعِلْمَ يَعْنِي الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ حَمَلُوا الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَحَمَلُوهُ بَعْدُ)[١].

وقال مقاتلُ: (بَلْ هُوَ) يَعْنِي مُحَمَّداً ﷺ (آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ) أي ذُو آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي صُدُور أهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ؛ لأنَّهُمْ يَجِدُونَهُ بنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ). ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ، يعني كفار اليهود.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ ؛ أي قالَ كُفَّارُ مكَّة: هَلاَّ أنْزِلَ على مُحَمَّدٍ آيةٌ من ربهِ كما كانت الأنبياءُ تَجيءُ بها إلى قومِهم، أرادوا بها الآياتِ التي كانوا يقتَرِحُونها عليهِ مِن قولِهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾الآية[٢].

قرأ ابنُ كثيرٍ وحمزة والكسائيُّ وخلف: (آيَةٌ) على التوحيدِ، وقرأ الباقونَ بالجمعِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٣٧٥). والطبري في جامع البيان: الأثر (٢١١٩٩).

(٢) الإسراء / ٩٠ .

وقولـهُ تعـالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي في حُكْـمِ اللهِ إنْ شـاءَ أنزلَـها، ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ ﴾ ؛ أي رسـولٌ مُخَـوِّفٌ لكـم بلُغَـةٍ تعرفونَها، وليس إنزالُ الآياتِ بيدهِ.

وقولــهُ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: أوَلَمْ يكن لَهم كفايةً في معرفةِ نبوءَتِكَ أنَّـا أنْزَلْنَـا عليْـكَ القُـرْآنَ الـذي تقـرأهُ عليهم بلُغَتهم مما فيه أخبارُ الأُمم الماضيـةِ مـع عجزهـم عـن الإتيـان بحديـثٍ مثلـهِ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً ﴾ ؛ أي في إنْزَال القُرْآنِ لَرَحْمَةً لِمن آمَنَ بـه وعَمِـلَ بما فيهِ، ﴿ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١ ﴾ ، أي وذكرى وموعظة لهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ ؛ أي قُـل لَـهم يـا مُحَمَّـدُ: كَفَـى اللهُ شَـهيداً بـأنِّي رسـولٌ إليكـم، ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ . وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أي صدَّقُـوا بالأصنـام وجَحَـدوا وحدَانيَّـةَ اللهِ، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٥٢ ﴾ ؛ بالعقوبةِ وفَوْتِ الْمَثُوبَةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ ؛ أي يسـتعجِلُكَ كفـارُ مكَّـة بـالعذاب قبـلَ وقتـهِ استهزاءً وتَكذيبـاً منـهم بذلـك، ﴿ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ ؛ أي لَولاَ أنَّ اللهَ جعلَ لعذابهِ أجَلاً مسمًّى قد سَـمَّاهُ وهـو يـومُ القيامـةِ. وقيل يعنِي مدَّة أعمارِهم؛ لأنَّهم إذا ماتُوا صارُوا إلى العذاب لعَجَّلَ لَـهم العـذابَ في الحالِ، ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ ﴾ ؛ بإتيانهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٤ ﴾ ؛ فيه تَعْجِيْبٌ باستعجَالِهم مع أنَّ جـهنَّمَ محيطـةٌ بـهم في الآخـرةِ، جامعـةٌ لَـهم، ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ؛ فلاَ يبقَى جزءٌ منـهم إلاَّ وهـو مُعَذبٌ في النار جزاءً، ويقالُ لَهم: ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٥ ﴾ .

قرأ الكوفِيُّون ونافع: (وَيَقُولُ) بالياء، يعني الموَكَّلُ بعذابـهم يقـولُ لَـهم ذلـك، وقرأ الباقون بالنُّون؛ لأنه لَمَّا كان بأمرهِ سُبْحَانَهُ جازَ أن يُنسَبَ إليهِ.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾؛ قالَ مقاتلُ: (نَزَلَتْ فِي ضُعَفَاءِ مُسْلِمِي مَكَّةَ، تَقُولُ: إنْ كُنْتُمْ فِي ضِيْقٍ بمَكَّةَ مِنْ إظْهَار الإيْمَان)(١) فَاخْرُجُوا مِنْهَا وَأمِرُوا بالْهجْرَةِ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي لاَ يُمْكِنُهُمْ فِيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَكَذلِكَ يَجِبُ عَلَى كُلِّ بَلَدٍ، مَنْ كَانَ فِي بَلَــدٍ فَعُمِلَ فِيْـهَا بالْمَعَاصِي، وَلاَ يُمْكِنُهُ تَغْيِيرُ ذلِكَ أنْ يُـهَاجِرَ إلَـى حَيْـثُ يَتَـهَيَّأُ لَـهُ أنْ يَعْبُـدَ اللهَ حَـقَّ عِبَادَتِهِ.

ثُم خوَّفَهم بالموتِ لتَهُونَ عليهم الهجرةُ؛ فقالَ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾؛ أي كلُّ أحدٍ مَيِّتٌ أينما كانَ، فلا تُقِيمُـوا بـدار الشِّـرك خوفـاً مـن المـوتِ، ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾، بعدَ الموتِ فيجزيكم بأعمَالِكم. وقال سعيدُ بن جبـير: (مَعْنَـى الآيَةِ: إذا عُمِلَ فِي أرْضٍ بالْمَعَاصِي فَاخْرُجُوا مِنْـهَا، فَـإنَّ أرْضِـي وَاسِـعَةٌ)(٢)، وقـال عطاءُ: (إذا أمِرْتُمْ بالْمَعَاصِي فاهْرُبُوا مِنْهَا، فَـإنَّ أرْضَ اللهِ وَاسِـعَةٌ)(٣)، وقـال مجـاهدُ: (إنَّ أرْضِي وَاسِعَةٌ فَهَاجِرُوا وَجَاهِدُوا)(٤).

وقال الكلبيُّ: (نَزَلَتْ فِـي الْمُسْـتَضْعَفِيْنَ مِـنَ الْمُؤْمِنِيْـنَ الَّذِيْـنَ كَـانُوا بمَكَّـةَ لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى إظْهَار الإيْمَان وَعِبَادَةِ الرَّحْمَن، فَحَثَّهُمْ عَلَى الْهِجْرَةِ إلَى الْمَدِيْنَةِ، فَشَـقَّ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ حَالُنَا إذا انْتَقَلْنَا إلَـى دَار الْغُرْبَـةِ وَلَيْـسَ بـهَا أحَـدٌ يَعْرِفُنَـا فَيُوَاسِيْنَا، وَلاَ نَعْرِفُ وُجُوهَ الاكْتِسَاب فِيْهَا، فَقَطَعَ اللهُ عُذْرَهُمْ بهَذِهِ الآيَاتِ).

ومعناها: إنَّ أرضِـي واسـعةٌ آمِنَـةٌ، وَقِيْـلَ: (وَاسِـعَةٌ) أي رزْقِـي لكـم واسـعٌ، فاخرجُوا من هذه الأرضِ التي أنتم فيها. وعن الحسنِ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ فَرَّ بدِيْنِهِ مِنْ أرْضٍ إلَى أرْضٍ وَإنْ كَانَ شِبْراً مِنَ الأَرْضِ اسْتَوْجَبَ الْجَنَّةَ، وَكَانَ رَفِيْـقَ إبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ](٥).

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥٢٣.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٢٠٥).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٢٠٦).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٢٠٧).
(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٤٤٦، وقد تقدم في النساء، وهو من مراسيل الحسن.

ثُم ذكرَ ثوابَ مَن هاجرَ، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ ﴾ ؛ يعني الْمُهَاجِرِيْنَ، ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (لَنُسْكِنَنَّهُمْ غُرْفَ الدُّرَّةِ وَالزُّبُرْجَدِ وَالْيَاقُوتِ، وَلَنُنْزِلَنَّهُمْ قُصُورَ الْجَنَّةِ)، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: (لَنُثْوِيَنَّهُمْ) يقالُ: ثوَى الرجلُ إذا أقامَ، وأثْوَيْتُهُ إذا أنزلتهُ منْزِلاً يقيمُ فيهِ، والمعنى: والذينَ آمَنُوا لنُنْزِلَنَّهُمْ من الجنَّة غُرَفاً عَوالِي تَجري من تحتَ قصورها وأشجارها الأنهار، ﴿ خَلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ للهِ.

ثُم وصَفَهم فقالَ: ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ ؛ أي على دِينِهم فلم يتركوهُ لشدَّةٍ لَحِقَتهُمْ، ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس:(وَذلِكَ أنَّ الْمُهَاجِرِيْنَ تَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ وَتَرَكُوا دُورَهُمْ وَأمْوَالَهُمْ). وَقِيْلَ: معناهُ: (وَعَلَى رَبهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) في أرزاقِهم وجهادِ أعدائهم ومهمَّات أمورهم.

قال مقاتلُ: (إنَّ أحَدَهُمْ كَانَ يَقُولُ بمَكَّةَ: كَيْفَ أهَاجِرُ إلَى الْمَدِيْنَةِ وَلَيْسَ لِي بهَا مَالٌ وَلاَ مَعِيْشَةٌ)[1]. فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ ؛ أي وَكَمْ من دابَّةٍ في الأرضِ؛ وهي كلُّ حيوان يدبُّ على الأرضِ مما يعقل ومما لا يعقلُ.

والمعنى: كَم مِن نفسِ دابَّةٍ لا تحملُ رزقَها؛ أي لا ترفعُ رزقَها معها ولا تَدَّخِرُ شيئاً لِغَدٍ، ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا ﴾ ؛ حيثُ توجَّهت، ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ ؛ يرزقُكم إن أخرجتُم إلى المدينةِ، وإنْ لَم يكن لكم زادٌ ولا نفقةٌ. قال سفيانُ: (وَلَيْسَ شَيْءٌ مِمَّا يُخَبِئُ وَيَدَّخِرُ إلاَّ الإنْسَانُ وَالْفَأْرُ وَالنَّمْلَةُ وَالْغُرَابُ عَلَى مَا قِيْلَ)[2].

وَقِيْلَ: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِلْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ كَانُوا بمَكَّةَ وَقَدْ آذاهُمُ الْمُشْرِكُونَ: [أخْرُجُوا إلَى الْمَدِيْنَةِ وَهَاجِرُوا، وَلاَ تُجَاوِرُوا الظَّلَمَةَ فِيْهَا] فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ نَخْرُجُ إلَى الْمَدِيْنَةِ وَلَيْسَ لَنَا بهَا عَقَارٌ وَلاَ مَالٌ، فَمَنْ يُطْعِمُنَا

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥٢٤.
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٦٠.

وَيَسْقِيْنَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا الله يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ)[١] يُوماً بيوم؛ أي يرزقُ مَن يحملُ ومَن لا يحملُ، فكم مِن دابَّةٍ لا تجمعُ رزقَها لغدٍ، ولا يقدرُ على حملِ رزقِها لضَعْفِها، اللهُ يرزقها وإيَّاكم، ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي السَّميعُ لأقوالِهم: نَخشَى إنْ فارَقْنا أوطَانَنا العيْلَةَ، الْعَلِيْمُ بما في قُلوبهم ونُفوسِهم، فلا يتركُوا عبادةَ الله بسبب الرِّزق، ولا يهتَمُّوا لأجلِ ذلك.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ يعني لَئِنْ سألتَ مُشركي مكَّة: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ، ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي يُصْرَفُونَ عن عبادةِ الله الذي هذه صفتهُ إلى عبادةِ جَماداتٍ لا تنفعُ ولا تضرُّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴾ ؛ أي يبسطُ الرِّزقَ على قومٍ، ويُضيِّقُ على قومٍ، يفعلُ ذلك عن عِلْمٍ وحكمةٍ، لا عن غَلَطٍ وخطأ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ؛ يعني كفَّارَ مكَّة أيضاً، ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي الحمدُ للهِ على إقرارهم؛ لأن ذلكَ يُلْزِمُهُمُ الْحُجَّةَ، ويوجبُ عليهم التوحيدَ. وَقِيْلَ: معناهُ: الحمدُ للهِ على هذه النِّعَمِ، وعلى ما تَفضَّلَ به جَلَّ ذِكْرُهُ من الإنعَامِ على العبادِ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ بتوحيدِ ربهم مع إقرارهم بأنه خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وأنزلَ المطرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ ﴾ أي باطلٌ وغُرُورٌ وعَبَثٌ تنقضِي عن قريبٍ بسرعةٍ، ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ ؛ يعني الْجَنَّةَ هي الْحَيَوَانُ؛ أي الحياةُ والدَّوامُ والبقاءُ الذي لا نَفَادَ له، والْحَيَوَانُ والحياةُ واحدٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي لو كانوا يَعْلَمُونَ

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٦٠.

الفرقَ بين الحياةِ الدَّائمةِ والحياة الفَانِيَةِ لرَغِبُوا في البـاقِي الدائـمِ عـن الفـانِي الزَّائـلِ، ولكنَّهم لا يعلمونَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ يعني المشركينَ إذا رَكِبُوا في السَّـفينةِ وهَـاجَتِ الريـاحُ واضطربَـتِ الأمـواجُ، وخَـافُوا الغرقَ والهلاكَ، (دَعَوْا اللهَ مُخْلِصِينَ لَـهُ الدِّيـنَ) أي دَعَـوُا اللهَ مُفْرِدِيْـنَ لـه بالدُّعـاءِ، وتَرَكُوا شُركاءَهم وأصنامَهم فلا يدعُونَهم لإنجائِهم، ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ ﴾ ؛ أي فلمَّا خَلَّصَهُمْ من تلك الأهـوال، وأخرجَـهم إلى الـبرِّ؛ ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ ؛ أي عَـادُوا إلى شُـركائِهم لكـي يَكْفُـرُوا بمـا أعطينَـاهُم، ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ﴾ ؛ فِي كُفرهم، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ جزاءَ فِعْلَتِهِمْ. قـال عكرمةُ: (كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إذا رَكِبُوا فِي الْبَحْرِ حَمَلُوا مَعَهُمُ الأَصْنَامَ، فَـإذا اشْـتَدَّتْ بهِمُ الرِّيْحُ ألْقَوا تِلْكَ الأَصْنَامَ فِي الْبَحْرِ، وَصَاحُواْ: يَا اللهَ يَا اللهَ).

وَقِيْلَ: إنَّ (اللام) في قوله (لِيَكْفُرُوا) لامُ الأمـرِ، ومعناهـا: التـهديدُ والوعيـدُ، كقولهِ ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[1] ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْـتَطَعْتَ مِنْـهُمْ بِصَوْتِـكَ﴾[2]، وكذلـك عَقَّبَهُ بقولهِ: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ أي ألَـم يَـرَ كفـارُ مكَّـة (أنَّـا جَعَلْنَـا حَرَمـاً آمِنـاً) يعـني مكَّـة، ويُسْـلَبُ النـاسُ مـن حولِـهم فيقتلـونَ ويُؤسَـرُونَ وتؤخـذُ أموالُـهم، وأهـلُ مكَّــة آمِنُـونَ مـن ذلــك، ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ أي فيقرُّون ويصدِّقون بالباطلِ وهي الأصنامُ بعـد قيـامِ الْحُجَّـةِ، ﴿ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي بمُحَمَّـدٍ والإسـلامِ يَجْحَـدُونَ. والتَّخَطُّفُ: هو تناولُ الشيءِ بسُرعَةٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ أي لا أجـدُ أظْلَـمَ مِمَّـن زعـمَ أنَّ للهِ شـريكاً، ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ﴾ ؛ يعـني

---

(١) فصلت / ٤٠ .

(٢) الإسراء / ٦٤. وفي المخطوط: (واستفززه من استطعت).

مُحَمَّداً والقُرْآن، ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي أمَا لِهذا الكافرِ المكذِّب مأوًى في جهنَّم، وهو استفهامٌ، ومعناهُ: التقريرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ؛ أي الذين جاهَدُوا الكفارَ لابتغاءِ مَرْضَاتِنَا لنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا إلَى الجنَّة؛ أي لنُوَفِّقَنَّهُمْ لإصابةِ الطريقِ المستقيمة. وَقِيْلَ: معناهُ: والذين قَاتَلُوا لأَجْلِنَا أعداءَنا لنَهْدِيَنَّهُمْ سبيلَ الشَّهادةِ والمغفرةِ.

وقال الفُضَيْلُ: (مَعْنَاهُ: وَالَّذِيْنَ جَاهَدُوا فِيْنَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ بالْعَمَلِ بهِ)، وقال أبو سُليمان الدَّارَانِيُّ: (مَعْنَاهُ: الَّذِيْنَ يَعْمَلُونَ بمَا يَعْلَمُونَ يَهْدِيهِمُ اللهُ إلَى مَا لاَ يَعْلَمُونَ). وعنِ ابنِ عبَّاس: (أنَّ مَعْنَاهُ: وَالَّذِيْنَ جَاهَدُوا فِي طَاعَتِنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ ثَوَابنَا).

وَقِيْلَ: معناهُ: والذينَ جاهَدُوا بالصَّبرِ على المصائب والنَّوائب لنهدينهم سُبُلَ الوصُول للمواهب. وَقِيْلَ: والذين جَاهَدُوا بالثَّباتِ علىالإيْمَان لنَهْدِيَنَّهُمْ دُخولَ الجنان. وقال سَهْلُ بن عبدِالله: (وَالَّذِيْنَ جَاهَدُوا فِي إقَامَةِ السُّنَّةِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ دُخُول الْجَنَّةِ). قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي مَنَّ بالنَّصرِ على أعدائِهم، والمعونةِ في دُنياهم والثواب والمغفرة في عُقبَاهم.

وعن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْعَنْكَبُوتِ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُنَافِقِيْنَ][1].

آخر تفسير سورة (**العنكبوت**) والحمد لله وحده

(١) من أحاديث فضائل السور، يذكره أهل التفسير عن أبي أمامة وأبي بن كعب، في إسناده نظر، وعدَّهُ البعض من الموضوعات. ينظر: اللباب في علوم الكتاب:ج ١٥ ص٣٨٠.

سُورَةُ الـرُّومِ

سُورَةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاَثَةُ آلاَفٍ وَخَمْسُمِائَةٍ وَأَرْبَعَةٌ وَثَلاَثُونَ حَرْفاً، وَثَمَانُمِائَةٍ وَتِسْعَ عَشْرَةَ كَلِمَةً، وَسِتُّونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الرُّومِ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، بعَدَدِ كُلِّ مَلَكٍ يسَبحُ للهِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ ﴾ ؛ أي غلَبَتْ فارسُ الرومَ، ففرحَ بذلـك كفـارُ مكَّـة وقـالوا: الذين ليس لَهم كتابٌ غلبوا الذين لهم كتابٌ، وافتَخروا بذلكَ على المسـلمين وقـالوا لَهم: نحنُ أيضاً نغلِبُكم كما غلبَتْ فارسُ الرومَ.

وقصَّة ذلكَ: أن كِسرَى ملكَ فارس أرسلَ شهريار إلى الرُّومِ، فسارَ إليهم بأهلِ فارسَ ليغزُوَهم، فظهرَ على الرومِ فقتلَهم وخرَّبَ مدائنَهم، وكان قيصرُ ملـكُ الـرومِ قد بعثَ بجيشٍ لَمَّا سَمِعَ بقدوم شهريارَ، فالتقيا بأذْرُعَاتٍ وَبُصْرَى وهي أدنَى الشَّام إلى أرضِ العرب والعجمِ، فغلبَت فارسُ الرومَ حتى انـتزعوا بيـتَ المقـدسِ مـن الـرومِ، وكان ذلك موضعُ عبادتِهم.

فبلغ ذلكَ النبيَّ ﷺ وأصحابَهُ بمكَّة فشَقَّ ذلك عليهم، وكان ﷺ يكرهُ أن يظـهرَ الأُمِّيُّونَ من الْمَجُوسِ علىأهلِ الكتاب من الرُّوم، وفَرِحَ بذلك كفارُ مكَّـة وشَـمَتُوا، فلَقُوا أصحابَ النبيِّ ﷺ وقالوا: إنَّكم أهلُ كتابٍ والنصَارَى أهـلُ كتـابٍ، وقـد ظـهرَ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٤٧٣، وهو من مرويات الثعلبي في تفسيره عن أبي أمامـة وأبي بن كعب بإسناد واه ضعيف.

إخوانُنا من أهلِ فارس على إخوانِكم من أهلِ الـرُّومِ، وإنَّكـم إن قاتَلتُمونـا لنظـهرَنَّ عليكم، فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هذه الآياتِ (الم، غُلِبَتْ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بضْعِ سِنِينَ)[١].

فخرجَ أبو بكرٍ ﷺ إلى الكفَّار وقال: (أفَرِحْتُمْ بظُهُور إخْوَانِكُمْ عَلَى إخْوَانِنَـا؟! فَلاَ تَفْرَحُواْ وَلاَ يُقِرُّ اللهُ أعْيُنَكُمْ، فَوَاللهِ لَيَظْهَرَنَّ الرُّومُ عَلَى فَارسَ، أخْبَرَنَا بذلِكَ نَبيُّنَا) فَقَامَ إلَيْهِ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ الْجُمَحِيُّ وَقَالَ لَهُ: كَذبْتَ! فَقَالَ لَهُ أبو بَكْرٍ: أنْـتَ أكْـذَبُ يَـا عَدُوَّ اللهِ) فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ: كَمَا غَلَبَتْ عَبَدَةُ النِّيْرَانِ أهْلَ الْكِتَـابِ، فَكَذلِـكَ نَحْـنُ نَغْلِبُكُمْ) وَاسْتَبْعَدَ الْمُشْركُونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَى فَارسَ لِشِدَّةِ شَوْكَةِ أهْلِ فَارسَ.

فَقَالَ أبو بَكْرٍ لأُبَيِّ بْنِ خلَفٍ: (أنَا أرَاهِنُكَ عَلَـى أنَّ الـرُّومَ تَغْلِـبُ إلَـى ثَـلاَثِ سِنِيْنَ) فَرَاهَنَهُ أُبَيُّ عَلَى خَمْسٍ مِنَ الإبلِ، وَقِيْلَ: عَلَى عَشْرٍ مِنَ الإبلِ، (فَـإنْ ظَـهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارسَ غَرمْتَ، وإنْ ظَهَرَتْ فَارسُ غَرمْتُ أنَا) ثُمَّ جَاءَ أبو بَكْـرٍ إلَـى النَّـبيِّ ﷺ فَأخْبَرَهُ بذلِكَ، فَقَالَ ﷺ: [زدْ فِي الْخَطَـرِ[٢] وَأبْعِـدْ فِـي الأَجَـلِ] فَفَعَـلَ ذلِـكَ، وَجَعَلَ الأَجَلَ تِسْعَ سِنِيْنَ، وَكَانَ ذلِكَ قَبْلَ تَحْرِيْمِ الْقِمَار.

رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ لأَبي بَكْرٍ: [إنَّمَا الْبضْعُ مَا بَيْنَ الثَّـلاَثِ إلَـى التِّسْـعِ]. قَرَأ: [زدْهُ فِي الْخَطَرِ وَمَادَّهُ فِي الأَجَلِ] فَخَـرَجَ أبُـو بَكْـرٍ فَلَقِـيَ أُبَيّـاً فَقَـالَ: لَعَلَّـكَ نَدِمْتَ! فَقَالَ: أزيدُكَ فِي الْخَطَرِ وَأمَادُّكَ فِي الأَجَلِ، فَاجْعَلْهَا مِائَةَ قُلُـوصٍ إلَـى تِسْـعِ سِنِيْنَ، قَالَ: قَدْ أخَافُ فَعَلْتُ.

فَلَمَّا خَشِيَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ أنْ يَخْرُجَ أبو بَكْرٍ مِنْ مَكَّةَ، أتَاهُ فَلَزمَهُ وَقَالَ أُبَـيُّ: إنْ تَخْرُجْ مِنْ مَكَّةَ فَأقِرَّ لِي كَفِيْلاً، فَكَفَلَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُاللهِ بْنُ أبي بَكْـرٍ، فَلَمَّـا أرَادَ أُبَـيُّ بْـنُ خَلَفٍ أنْ يَخْرُجَ إلَى أحُدٍ، أتَاهُ عَبْدُاللهِ بْنُ أبـي بَكْـرٍ فَلَزمَـهُ وَقَـالَ: لاَ وَاللهِ لاَ أدَعُـكَ حَتَّى تُعْطِيَنِي كَفِيْلاً، فَأعْطَاهُ كَفِيْلاً وَمَضَى إلَى أحُدٍ، ثُمَّ رَجَعَ فَمَاتَ بمَكَّةَ مِنْ جِرَاحَتِهِ

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص٢٣١-٢٣٢.
(٢) الخطر: الرِّهانُ والعِوَضُ.

الَّتِي جَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِيْنَ بَارَزَهُ، وَظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَذلِكَ عَلَى رَأسِ تِسْعِ سِنِيْنَ مِنْ مُرَاهَنَتِهِمْ، وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين[1].

وقال أبو سَعيد الخدريُّ ومقاتلُ: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَتَلَتِ الْمُسْلِمُونَ كُفَّارَ مَكَّةَ، وَأتَاهُمُ الْخَبَرُ أنَّ الرُّومَ قَدْ غَلَبَتْ فَارِسَ، فَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بذلِكَ، وَغَلَبَ أبُو بَكْرٍ ﷺ أبَيّاً وَأخَذ مَالَ الْخَطَرِ مِنْ ورَثَتِهِ، وَجَاءَ بِهِ إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: [تَصَدَّقْ بِهِ][2].

ومعنى الآيةِ: (غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أدْنَى الأَرْضِ) يعني الْجَزِيْرَةَ؛ وهي أقربُ أرضِ الرُّوم إلى فارسَ، وقال عكرمةُ: (يَعْنِي أذْرُعَاتٍ وَكُسْكُرُ). وقولُهُ (وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ) يعني الرومَ مِن بعد غَلَبَةِ فارسَ إيَّاهم سيغلبونَ فارس ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ ؛ وهو ما بينَ الثلاثِ إلى العشرِ، فالتقَى الرومُ وفارس في السَّنة السابعة من غَلَبَةِ فارسَ إيَّاهم، فغلبتهم الرومُ، فجاء جبريلُ إلى النبيِّ ﷺ بهزيْمة فارسَ وظهور الرُّوم عليهم، ووافقَ ذلك يومَ بدرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ ؛ أي قبلَ أنْ غُلبت الرومُ ومِن بعدِ ما غُلبت، يعني أنَّ غلبةَ أحدِ الفريقين الآخرَ، أيُّهما كان الغالبُ والمغلوب؛ فإنَّ ذلك كان بأمرِ الله تعالى وإرادته وقضائهِ وقدره.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ يعني بغلب الرومَ فارس، يفرحُ المؤمنون، ﴿ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ الرومَ على فارسَ، ويكون فرحُ المؤمنين يومئذٍ لظهور معجزة النبيِّ ﷺ وإهلاكِ بعضِ الكفَّار بعضاً كما يفرحُ الصَّالحون بقتلِ الظَّالِمين بعضَهم بعضاً.

---

(١) ينظر: جامع البيان: الأثر (٢١٢٢٩ و٢١٢٢٣). وتفسير مقاتل: ج ٣ ص٣-٥.

(٢) حديث أبي سعيد أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٢٣٣). وذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٦ بلفظ: [هَذَا سُحْتٌ، تَصَدَّقْ بِهِ]. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٤٥٨) عن البراء بن عازب ﷺ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي ينصرُ مُحَمداً ﷺ علـى أعدائـه، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي هـو العزيـزُ بالنَّقمـةِ ممـن عصـاهُ، الرَّحِيْـمُ بأوليائهِ وهم المؤمنونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ ﴾ ؛ نصـبَ علـى المصـدر؛ أي وَعْدَ اللهِ ذلِكَ وَعْداً وهو راجعٌ إلى قولهِ (سَيَغْلِبُونَ) أي وعدَ الله ذلـك لا يخلـفُ الله وَعْدَهُ بظهور الـروم علـى فـارسَ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ إنَّ اللهَ لا يخلفُ وعدَهُ؛ لأن أكثرَهم كفَّارٌ.

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ؛ يعـني معايشَـهم ومـا يُصلِحهم[(١)]. قال الحسنُ: (يَعْلَمُونَ مَتَى زَرْعُهُمْ وَمَتَـى حَصَـادُهُمْ، وَيَعْلَمُـونَ وُجُـوهَ الاكْتِسَاب مِنَ التِّجَارَةِ وَالزِّرَاعَةِ وَالْحِرَاثَةِ وَالْغِرَاسَةِ، وَمَا يَحْتَـاجُونَ إلَيْـهِ فِـي الشِّـتَاءِ وَالصَّيْفِ) قال الحسنُ: (بَلَغَ وَاللهِ مِنْ عِلْمِ احَدِهِمْ فِي الدُّنْيَا انَّـهُ يَنْقُـرُ الدَّرَاهِـمَ بيَـدِهِ فَيُخْبرُكَ بوَزْنِهِ وَلاَ يُحْسِنُ يُصَلِّي!)[(٢)].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي هُـم مـع علمِـهم بأمُور الدُّنيا لا يعلمونَ ما طريقةُ الدليلِ من أمرِ الآخرة، وما يكونُ فيـها مِـن البعـثِ والثواب والعقاب، فهم غَافِلُونَ عمَّا هو أوْلَـى بـهم، وعمـا يلزَمُـهم مـن الاسـتعدادِ لذلك.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ ﴾ ، أي في خَلْـقِ اللهِ إيَّـاهم، ﴿ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ ، فتعلَمُون أنَّ الله لَم يخلُق السَّـموات والأرضَ، ﴿ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ ؛ إلاّ بالحقِّ؛ أي إلاّ الحـقَّ، ﴿ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ﴾ ، ومعنـى الآيـة: أوَلَمْ يتفكَّرْ أهلُ مكَّة بقلوبهم فيعلَمُون أنَّ الله مَا خلقَ السَّموات والأرضَ، وما فيهما

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٢٣٩) عن إبراهيم، و(٢١٢٤١) عن عكرمـة. وابـن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٤٦٦).

(٢) ذكره البغوي في معالم التـنـزيل: ص١٠٠٣. وفي الـدر المنثـور: ج ٦ ص٤٨٤؛ قـال السـيوطي: (أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن ﷺ وأوله (ليبلغ من جـذق أحدهـم...). أخرجـه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٤٦٧).

من العجائب والبدائع إلاّ ليُحِقَّ الحقَّ ويُبْطِلَ الباطلَ، ويجزي كلَّ عاملٍ بما عَمِلَ عند انقضاءِ الأجَلِ المسمَّى الذي جعلَهُ اللهُ لانقضاء أمر السَّموات والأرض وهو يومُ القيامةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ ؛ يعني كفَّارَ مكَّةَ، ﴿ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي أوَلَمْ يُسافِروا في الأرض، ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ﴾ ؛ صارَ أمرُ، ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ مِنَ الأُمَمِ السالفةِ حين كذبوا الرُّسلَ إلى الهلاكِ بتكذيبهم فيَعْتَبرُوا. ثُم وصفَ تلك الأممَ فقال: ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ أي حَرَثُوها وقلَبُوها للزراعةِ والغَرس، ﴿ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ ؛ كفارُ مكَّة لأنَّهم كانوا أطولَ عُمراً وأكثرَ عدداً، ﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ، فلم يَبْقَ منهم ولا مِن عمارَتِهم أثرٌ، فكذلكَ يكونُ حال هؤلاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ؛ بإهلاكِهم، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ بالكُفرِ والتكذيب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي ثم صارَ آخرُ أمرِ الذين أسَاءُوا بالكفرِ والمعاصي السُّوء، يعني العذابَ والنار بسبب تكذيبهم واستهزائِهم بآيات اللهِ. قال الفرَّاء والزجَّاج: (السُّوْءَى ضِدُّ الْحُسْنَى وَهِيَ الْجَنَّةُ، وَضِدُّهَا النَّارُ)، وقال ابنُ قتيبة: (السُّوءُ جهَنَّمُ، وَالْحُسْنَى الْجَنَّةُ، وَإنَّمَا سُمِّيَتْ سُوْءَى؛ لأَنَّهَا تَسُوءُ صَاحِبَهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ؛ أي يخلقه من النطفة ثم يحييه بعد ما أماته ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ ثم إلى موضع حسابه وجزائهِ يرجعُون فيجزيهم بأعمالِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي يَيْأسُ الْمُجرِمُونَ من رحمةِ الله، ومِن كلِّ خيرٍ حين عَايَنُوا العذابَ.

وقال الفرَّاء: (يَنْقَطِعُ كَلاَمُهُمْ وَحُجَّتُهُمْ)، وَقِيْلَ: معنى (يُبْلِسُ) أي يُفتَضَحُ، وَقِيْلَ: معناهُ: يندَمُون، وَقِيْلَ: الْمُبْلِسُ الساكتُ المنقطع عن حجَّته الآيسُ مِن أن يهتدِي إليها، قال الشاعر(١):

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْماً مُكْرَسَا قَالَ: نَعَمْ أعْرِفُهُ وَأبْلَسَا

والْمُجرمون هم الْمُشركُونَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ ﴾ ؛ أي لَم يكن للكفار مِمَّنْ أشركُوه في العبادةِ شفعاءَ يَشْفَعُوا لَهم إلى اللهِ، ﴿ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي يَتَبَرَّؤُنَ منها ويتبرَّؤُنَ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي وَاذْكُرْ (يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتفرَّقُونَ) الخلائقُ في طريقِ الجنَّة، وطريقِ النَّار. وَقِيْلَ: معناهُ: يومَ القيامةِ يتفرَّقون بعدَ الحساب إلى الجنَّة والنار فلا يَجتَمِعُونَ أبَداً.

وقال الحسنُ: (إنْ كَانُوا اجْتَمَعُوا فِي الدُّنْيَا لَيَفْتَرِقُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ هَـٰؤُلاَءِ فِي عِلِّيِّيْنَ، وَهَـٰؤُلاَءِ فِي أسْفَلِ سَافِلِيْنَ)(٢)، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي في الجنَّة ينعَّمُون ويُكرَمُونَ بالتحف ويُسَرُّونَ.

والْحَبْرَةُ السُّرُورُ. وَقِيْلَ: الْحَبْرَةُ كلُّ نِعْمَةٍ حسنةٍ، والتَّحبيرُ التحسينُ. وسُمِّيَ العَالِمُ حَبْراً لتَخَلُّقِهِ بأحسَنِ أخلاقِ المؤمنين، ويسمَّى الْمِدَادُ حِبْراً لأنه تُحْسَنُ به الأوراقُ، وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: فَهُمْ فِي رِيَاضِ الجنَّةِ يَتلَذذُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ ، وكذبوا بالبعث بعد الموت، ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي يُحضَرون في العذاب، ويُحبَسُونَ.

---

(١) الشاعر هو العجاج، ومعنى الْمُكْرَس: الذي صار فيه الكرَس، وهو الأبوال والأبعار المكان الذي قد بعرت فيه الإبل وبولت، فركب بعضُهُ بعضاً. وينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٢٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٤٧٥) بأسانيد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى:﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي فَصَلُّوا للهِ، علَى تأويل: فَسبحُوا للهِ، قال ابنُ عبَّاس: (جَمعَتْ هَذِهِ الآيَةُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَمَوَاقِيْتِهَا، فَوَقْتُ الْمَسَاءِ يُصَلَّى فِيْهِ الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ، (وَحِيْـنَ تُصْبحُـونَ): صَـلاَةُ الْفَجْـرِ، (وَعَشِيّاً): الْعَصْرُ، (وَحِيْنَ تُظْهِرُونَ) الظُّهْرُ)(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) أي يحمدُه أهـلُ السَّـموات وأهل الأرضِ، ويصلُّون له ويسجُدون. وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قـالَ: قـالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَالَ: (سُبْحَانَ اللهِ حِيْنَ تُمْسُونَ وَحِيْـنَ تُصْبحُـونَ...) إلى قولـهِ تعالى: (وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ) وآخِـرُ سُـورَةِ الصَّافَّـاتِ دُبُـرَ كُـلِّ صَـلاَةٍ، كَتَـبَ اللهُ مِـنَ الْحَسَنَاتِ عَدَدَ نُجُومِ السَّمَاءِ، وَقَطرِ الْمَطَرِ، وَعَدَدَ وَرَق الشَّجَرِ، وَعَدَدَ نَبَاتِ الأَرْضِ. وَإذا مَاتَ أجْرَى اللهُ لَهُ بكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ فِي قَبْرِهِ](٢).

وقال ﷺ: [مَنْ سَرَّهُ أنْ يَكْتَالَ لَهُ بالْقَفِيْزِ الأَوْفَى فَلْيَقُـلْ: (فَسُـبْحَانَ اللهِ حِيْـنَ تُمْسُونَ وَحِيْنَ تُصْبحُونَ...) إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ، سُبْحَانَ رَبـكَ رَب الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ...) إلَى آخِرِ السُّورَةِ](٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ ؛ أي الإنسـانَ الحـيَّ مـن النُّطفـة الميتةِ﴿ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ ، ويخرجُ النطفةَ وهي ميتـةٌ مـن الإنسان الحـيِّ، ويقـالُ: يخـرجُ الفـرخَ مـن البيضــةِ، والبيضــةَ مــن الفــرخِ﴿ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ ﴾ ، بـإخراجِ الـزُّروعِ منـها، ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ ؛ أي بعـدَ أن كـانت لا تُنبــتُ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ، مِن قبوركم يومَ القيامةِ إلى الْمَحْشَرِ، فـإنَّ بعثَكـم بمنْزلـة ابتـداءِ خَلْقِكم، وهما في قدرةِ الله تستويان. قرأ حمزةُ: (تَخْرُجُونَ) بفتح التَّاءِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٢٦١).

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٢٩٨ بإسناد ضعيف.

(٣)أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٢٩٨، عن أنس، وفي إسناده بشر بن الحسـين، وهـو ساقط).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ ؛ أي من دلائل قُدرتهِ وعلاماتِ توحيده أنْ خلقَ أصلَكم من ترابٍ، يعني آدمَ، ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ثُم إذا أنتم من لَحم ودمٍ تنتشرونَ؛ أي تتفرَّقُون في حوائجِكم، وتنبسطونَ في الأرضِ، ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ ؛ أي من علاماتِ توحيده وقُدرته أنْ خلقَ لكم من جنسِكم نساءً لتطمَئنُّوا إليها، ولَم يجعلهنَّ من الجنِّ، ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ ؛ أي جعلَ بين الزَّوجين مودَّةً ورحمةً، فيما يتراحَمان ويتوادَّان، وما مِن شيءٍ[1] أحبُّ إلى أحدِهما من الآخرِ من غير رَحِمٍ بينهما، حتى أنَّ كثيراً مِن الناس يهجرُ عشيرتَهُ بسبب زوجتهِ، وكذلك مِن النِّساءِ من تُهجرُ عشيرتَها بسبب زوجِها.

والمعنَى: من دلالةِ توحيدِ الله وقدرته أنْ خلقَ من نُطفةِ الرِّجال ذُكوراً وإناثاً؛ ليسكُنَ الذكورُ إلى الإناثِ، والنُّطَفُ عن صفةٍ واحدة، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ في عظمةِ الله وقُدرتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، أي ومِن علاماتِ توحيده خَلْقُ السَّموات والأرضِ بما فيهما من العجائب، ﴿ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ ، أي لُغَاتِكُمْ وأصواتِكم وصُوَرِكم وألوانِكم، لأنَّ الخلقَ بين عربيٍّ وعجميٍّ وأسود وأحمرٍ وأبيض، وهم وَلَدُ رجلٍ واحد وامرأةٍ واحدة ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي للبرِّ والفاجرِ والإنسِ والجنِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ؛ أي ومِن آياته كيفيَّةُ نومِكم، وكيفَ يغلبُ عليكم، وأين يأتِيكم، وكيف يزولُ عنكم فتطلبونَ معيشَتكم، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ ؛ تقديرُ (وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ بالنَّهار) يعني تصرُّفَكم في طلب المعيشة بالنَّهار، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ القُرْآنَ؛ سَماعَ الاستدلالِ، والاعتبار، والتدبُّر.

---

(١) في المخطوط: (شرع) بدل (شيء) وهو تصحيف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ؛ أي خوفاً للمسافرِ من الصَّواعق، وطَمَعاً للمُقيمِ في المطرِ وسقي الزَّرعِ، ﴿ فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ ؛ أي في البَرْق، وإنزال المطر وإحياءِ الأرض بعد قحْطِها، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ ؛ يعني مِن غيرِ عَمَدٍ تحتَهُما، ولا علاقةَ فوقَهما بقدرةِ الله وتسكِينه، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي ثُم إذا دعَاكُم من القُبور عند النفخةِ الثَّانيةِ يدعُو إسرافيلَ بأمرهِ من صخرَةِ بيتِ المقدسِ: أَيَّتُهَا الأجسادُ الباليةُ والعروق المتمزِّقة والشُّعورُ المتمرِّطة، ﴿ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ مِن قبوركم مُهْطِعِيْنَ إلى الدَّاعي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي هم عبيداً ومُلكاً، ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ، أي كلٌّ له مُطيعون في الحياةِ والبقاء والموتِ والبعث، وإنَّ عَصَوْا في العبادةِ فَهُمْ منقادونَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ لا يقْدِرون على الامتناعِ مِن شيءٍ يرادُ بهم من صحَّة ومرضٍ وغِنًى وفقرٍ وحياة وموتٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ؛ أي هو الذي يبدأ الخلقَ مِن النطفةِ ثُم يُميتهُ فيصير تُراباً كما كانَ، ثُم يبعثهُ في الآخرةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي الإعادةُ هَيِّنَةٌ عليهِ، وما شيءٌ عليه بعسيرٍ، وقد يذكرُ لفظ (يَفْعَلُ) بمعنى (فَعِيْلٌ) كقولهِ (اللهُ أكْبَرُ) بمعنى كبيرٍ، وكذلك أهوَنُ عليه أو هيِّنٌ عليه. قال الفرزدقُ[1]:

لَعَمْـرُكَ مَـا أدْري وَإنِّـي لأَوْجَـلُ ... عَلَـى أيِّنَـا تَعْـدُو الْمَنِيَّـةُ أوَّلُ

(١) هكذا في المخطوط، ولعل الوهم من الناسخ، وإلاَّ فالقائل: هو معن بن أوس المزني. كما في ذيل الأمالي لأبي علي القالي: ص٢١٨. وشرح البيت وإعرابه في خزانة الأدب الكبرى للبغدادي: ج ٣ ص٥٠٥-٥٠٦. وينظر: جامع البيان: مج ١١ ج ٢٠ ص٤٤.

يريدُ بقولِهِ: لأَوْجَلُ؛ أي وَجِلٌ، وقالَ أيضاً[1]:

إنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا   بَيْتاً قَوَائِمُهُ أعَزُّ وَأطْوَلُ

أي عزيزةٌ طويلةٌ. وإنَّما قِيْلَ على هذا التأويلِ؛ لأنه لا يجوزُ أن يكون بعضُ الأشياءِ على الله أهْوَنُ من بعضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي له الصِّفةُ العُليا وهي القدرةُ التي لا يجري عليها العجزُ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي القاهرُ لكلِّ شيء، الْحَكِيْمُ في جميعِ أفعاله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ أي وَصَفَ لكم أيُّها المشركونَ مَثَلاً مِن أنفسِكم، وبيَّن لكم ذلك الْمَثَلَ من أنفسِكم، ثُم بَيَّنَهُ فقالَ: ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ ، أي هل لكم من عبيدِكم وإمائكم مِن شركاءٍ فيما رزقنَاكم من الأموالِ؛ أي هل يُشاركونَكم في أموالِكم فتكونوا أنتم مع عبيدِكم سواءً فيما أعطينَاكُم، ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، أي تخافُونَ عبيدَكم أنْ يُقاسِموكم في مالِكم كما تخافونَ نساءكم وأقاربكم أن يورثوكم بعدَكم، أو تخافُوا لائمةَ عبيدِكم إذا لَم تعطُوهم حقَّهم، كما تخافون لأئِمَةَ بعضِكم بعضاً من الأقارب والشُّركاء إذا لَم يؤدُّوا حقَّهم إليهم.

قالوا: لاَ! فقال: أفَتَرْضَوْنَ للهِ تعالى ما لا ترضَونَ لأنفُسِكم، تُشركون عبيدَ الله في مُلكهِ، وقد خلَقَهم، ولا تشركون عبيدَكم فيما رزَقَكم اللهُ وأنتم لَم تخلِقُوهم، وتجعلونَ الْخَوْفَ من عبيدِ الله كالخوفِ من الله إذ تعبدُونَهم كعبادةِ الله تعالى، ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي هكذا يبيِّنُ الآياتِ واحدةً بعد واحدةٍ ليكون ذلك أقربَ إلى الفهمِ وواقع في القلب.

ومعنى (أنْفُسَكُمْ) ها هنا: أمثَالَكُمْ من الأحرار، كقوله ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ﴾[2]. ومعنى الآيةِ: كيفَ رضِيتم أن تكون آلِهتُكم التي تعبدونَها لِي شركاءَ

---

(١) البيت للفرزدق كما في جامع البيان: مج ١١ ج ٢٠ ص٤٥. وينظر: الديوان، طبعة القاهرة: ص٧١٤.

(٢) الحجرات / ١١ .

وأنتُم عبيدي وأنا مَالِكُهم جميعاً، فكما لا يجوزُ استواءُ المملوكِ مع سيِّده، كذلك لا يجوزُ استواءُ المخلوق مع خالقهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ أي ليسَ لَهم في الإشراكِ شبهةٌ من حيث الحجةُ، ولكنَّهم يُشركون باللهِ بناءً على الجهلِ وهوَى النفسِ ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي لا هادِيَ لِمن أضلَّهُ اللهُ، ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي ما لَهم من مَانِعين من عذاب الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ؛ أي فأقِمْ يا مُحَمَّدُ على دِين الإسلامِ، وقوله (حَنِيفاً) أي مائِلاً عن كلِّ دينٍ إلاَّ الإسلامُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي اتَّبعْ دِينَ اللهِ، والفطرةُ: الْمِلَّةُ؛ وهي الإسلامُ والتوحيدُ، ﴿ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي خَلَقَ اللهُ المؤمنين عليها، وقد وَرَدَ في الحديثِ: [كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ] إلى آخرِ الحديثِ(١).

وانتصبَ قولهُ (فِطْرَةَ اللهِ) على الإغراءِ، وَقِيْلَ: على معنى: اتَّبعْ فطرةَ اللهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لا تغييرَ لدِين اللهِ الذي أمرَ الناسَ بالثَّباتِ عليهِ، وهو نفيٌ معناه النهيُ؛ أي لا تُبدِّلُوا دينَ اللهِ الذي هو التوحيدُ بالشِّركِ. وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ يعني التوحيدَ هو الدينُ المستقيم، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ يعني كفَّارَ مكَّة، ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ توحيدَ اللهِ ودِينَ الإسلامِ هو الحقُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ ﴾ ؛ أي أقِيمُوا وجُوهَكم راجعينَ إلى اللهِ في كلِّ ما أمَرَكم به، لا تَخرجُون عن شيءٍ من أوامرهِ، وهذا لأنَّ الخطابَ في أوَّل هذه الآياتِ للنبيِّ ﷺ بقولهِ (فَأَقِمْ وَجْهَكَ)، والمرادُ به أمتَهُ، كما في قولهِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ﴾(٢) فكأنَّهُ قالَ: أقِيمُوا وجُوهَكم مُنِيْبِيْنَ؛ أي رَاجِعين إلى أوامرهِ، وقولهُ تعالى (وَاتَّقُوهُ) أي اتَّقُوا مُخالَفتَهُ، ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١ ص٢٨٤: الحديث (٨٢٦-٨٣٥) بأسانيد وألفاظ.
(٢) الطلاق / ١ .

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ ؛ أي زَايَلُوا دِينَهم الذي أمِرُوا بالثبات عليهِ.

ومَن قرأ (فَرَّقُوا دِيْنَهُمْ) فمعناهُ: صَارُوا فِرَقاً، وذلكَ معنى قولِهِ: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ ، أي صارُوا جماعةً، ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ، أي كلُّ جماعةٍ اختَارَتْ دِيناً مثل اليهودِ والنَّصارى وسائرِ الْمِلَلِ، كلُّ أهلِ دِينٍ يفرحون بما عندَهم من الدِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾ ؛ أي إذا أصابَ الناسَ شدَّةٌ وبَلِيَّةٌ وقحطٌ وغلاءٌ يعني كفَّارَ مكَّة، دَعَوا ربَّهم لدفعِ الشِّدة، ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ ؛ أي رَاجِعين إليه، مُنقَطِعين من الْخَلْق، لا يَلجَأُونَ في شَدائدِهم إلى أوثانِهم، ﴿ثُمَّ إِذَآ﴾ ؛ أذهبَ عنهُم تلكَ الشدَّةَ و﴿أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ ؛ أي أعطَاهم من عندهِ المطرَ، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ؛ أي يَعُودُونَ إلى الشِّركِ ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ ؛ فيبدِّلُوا الشُّكرَ كُفراً، ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ ؛ أي تلَذذُوا في الدُّنيا، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ، مَاذا ينْزِلُ بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ ، أي أمْ أنزلنا على هؤلاءِ حُجَّةً وبرهاناً وكِتَاباً من السَّماء، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ، يشهدُ وينطقُ بأنَّ اللهَ أمَرَهم بما يفعلون. وهنا استفهامُ إنكار؛ أي ليسَ الأمرُ على هذا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾ ؛ أي إذا أذقْناهم نعمةً استبشَرُوا بها، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ ؛ شِدَّةٌ ومِحنَةٌ وبليَّةٌ، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ؛ في الشِّركِ من المعاصي ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ؛ أي إذا هم يَيْأَسُونَ من رحمةِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ؛ أي ويُضيِّق، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ ؛ أي في البَسْطِ والتَّقتيرِ، ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ ؛ دالَّةٍ على التوحيدِ، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ ؛ أي أعْطِ ذا القُربَى في الرَّحِمِ حَقَّهُ من الصِّلةِ والبرِّ، وَ أعْطِ ﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ ؛ الذي يطوفُ على الأبواب حَقَّهُ أيضاً، وهو التَّصَدُّقُ عليهِ، وَ أعطِ ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ ؛ النازل بكَ حَقَّهُ؛ أي ضيافتَهُ، يعني أكْرِم الضَّيْفَ النازلَ بك، ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ ؛ أي الذي ذكرتُ مِن الصِّلةِ والإعطاء والضِّيافة خيرٌ، ﴿ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ ؛ يعني رضَا اللهِ؛ أي إعطاءُ الْحُرِّ أفضلُ من الإمسَاكِ ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) ﴾ ؛ أي الفائزونَ السُّعداءُ الباقون في الجنَّة، ومَن أعطَى أحَداً لا يريدُ به وجهَ اللهِ ذهبَ مالهُ مِن غير أن يحصلَ على شيءٍ، فلذلك قالَ: (يُرِيْدُونَ وَجْهَ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي ما تعاطيتُم مِن عقدِ الرِّبَا رجاءَ أن تزيدُوا أموالَكم فلا يزيدُ في حُكْمِ اللهِ، وعلى الآخذِ أن يَرُدَّهُ على المأخوذِ منهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى:﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا﴾[1].

قرأ ابنُ كثير (أتَيْتُمْ) مقصوراً غيرَ ممدودٍ. وقولهُ تعالى (لِيَرْبُوَا)، قرأ الحسنُ ونافع: (لِتُرْبُو) بتاءٍ مضمومةٍ وجزمِ الواو على الخطاب؛ أي لتُربُو أنتم، وقرأ الباقونَ (لِيَرْبُوَا) بياءٍ مفتوحة ونصب الواو، وجعلوا الفعلَ للرِّبَا[2].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي ما أعطيتُم من صدقةٍ تريدون بها رضَا اللهِ، ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ ؛ الذين يُضَاعَفُ لَهم في العاجلِ والآجلِ، يقالُ: رجلٌ مُضْعِفٌ؛ أي ذُو أضْعَافٍ كما يقالُ: رجلٌ مُقَوِّي ذو قوَّةٍ، وموسِرٌ؛ أي صاحبُ يَسَار.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قولهِ تعالى (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً): (الرِّبَا هَا هُنَا هُوَ هِبَةُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ يُرِيْدُ أنْ يُثَابَ أفْضَلَ مِنْهُ)[3]. وقال السديُّ: (هُوَ الْهَدِيَّةُ يُهْدِيْهَا الرَّجُلُ لأَخِيْهِ يَطْلُبُ الْمُجَازَاةَ[4]، فَإنَّ ذلِكَ لاَ يَرْبُو عِنْدَ اللهِ، وَلاَ يُؤْجَرُ عَلَيْهِ

---

(١) البقرة / ٢٧٦ . (٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٦٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٣٢٠).

(٤) في المخطوط: (المساقاة) والمناسب ما أثبتناه.

صَاحِبُهُ وَلاَ إثْمَ عَلَيْهِ)، وقال الزجَّاجُ: (هُوَ دَفْعُ الإنْسَان الشَّيْءَ لِيُعَوَّضَ مَا هُوَ أكْبَرُ مِنْهُ، وَذلِكَ لَيْسَ بحَرَامٍ وَلَكِنَّهُ لاَ ثَوَابَ فِيْهِ؛ لأنَّ الَّذِي يُهْدِيْهِ يَسْتَدْعِي مَا هُوَ أكْثَرُ مِنْهُ، وَإنَّمَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ هُوَ الْعَطِيَّةُ الَّتِي لاَ يُطْلَبُ بهَا الْمُكَافَأةَ، وَلاَ يُرَادُ بهَا إلاَّ رضَا وَجْهِ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ ؛ أي خلقَكم في بُطون أمَّهَاتكم ثُم أخرَجكم، ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ ؛ بعد انقضاءِ آجَالِكم، ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ ؛ بعدَ الموتِ، ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ أي قُحِطَ المطرُ ونقُصَتِ الغلاَّتُ وذهبَتِ البركةُ في البَرِّ والبحرِ؛ أي أجدبَ الْبَرُّ وانقطعت مادَّةُ البحرِ، ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ أي بشُؤْمِ ذُنوبهم ومعاصيهم، الناسُ كفَّارُ مكَّة، ﴿ لِيُذِيقَهُم ﴾ ؛ اللهُ بالجوعِ في السِّنين السبعِ، يعني ﴿ بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾ ؛ أي جزاؤهُ ليكونَ عقوبةً معجَّلةً، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ من الكُفْرِ إلى الإيْمان، ومن المعصيةِ إلى الطاعة، فيكشفُ الله عنهم الشدَّةَ. وفي هذا تَنْبيهٌ على أنَّ الله تعالى إنَّما يقضي بالْجُدُوبَةِ ونقصِ الثَّمراتِ والنباتِ لُطْفاً منه في رجوعِ الخلقِ عن المعصيةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي قُلْ لأهلِ مكَّة سافِرُوا في الأرض، ﴿ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ﴾ ، أي كيفَ صارَ إجرامُ، ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي انظرُوا إلى ديار عَادٍ وثَمُودَ وقومِ لُوطٍ لِيَدُلَّكُمْ ذلك على أنهُ لاَ ينبغِي لأحدٍ أن يَكْفُرَ باللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ ؛ أي أقِمْ قَصْدَكَ وعملكَ، واجعل جِهَتَكَ اتِّباعَ الدِّين القيِّم وهو الإسلامُ المستقيمُ الذي لا عِوَجَ فيه، واعمَلْ به أنتَ ومَن تَبعَكَ، ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعني يومَ القيامةِ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي يومَ القيامةِ يتفرَّقون بعدَ الحساب إلى الجنَّة والنار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ ؛ أي ضَرَرُ كُفْرِهِ، ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي يَطَأُونَ لأنفسهم منازلَهم في الجنةِ، ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ؛ ثوابَهم، ثُم يزيدَهم ﴿ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ ﴾ ؛ أي يُثِيبَهُمْ أكثرَ مِن أعمالِهم، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يُكرِمُهم ولا يُثِيبهم ولا يرضَى عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ ؛ أي مِن علاماتِ توحيده إرسالُهُ الرياحَ للبشَارةِ بالمطرِ ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ ؛ يعني الغيثَ والخِصْبَ، ﴿ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ ﴾ ؛ أي السفنُ تجري في البحرِ بتلكَ الرِّياحِ، ﴿ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ ؛ أي ولتَسْلُكوا في البحرِ على السُّفن للتجارةِ وطلب الرزقِ بهذه الرياحِ ﴿ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ هذه النِّعَمَ فتوحِّدُونه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي بالدَّلالاتِ الواضحاتِ فكذبُوا بها، ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ ﴾ ؛ أي عذبنا الذين كذبُوهم، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي كان وَاجِباً علينا إنْجاءُ المؤمنين مع الرُّسُلِ من عذاب الأُمَمِ، وفي هذا تبشيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بالظَّفَرِ والنصرِ على مَن كذبَ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ ؛ أي تُزْعِجُهُ مِن حيث هو، وذلك أنَّ اللهَ يُحْدِثُ السَّحابَ عُقيبَ الرياحِ فترفعُهُ الرياحُ في الهواءِ، ﴿ فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا ﴾ أي قِطَعاً بعضُها فوق بعضٍ، ﴿ فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ ﴾ يعني المطرَ، ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ ﴾ ؛ أي مِن وَسَطِهِ إلى قومٍ دونَ قومٍ ﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ ﴾ ؛ بذلك المطرِ، ﴿ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ يفرحُون بالمطرِ، ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم ﴾ ؛ المطرُ ﴿ مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي يائسين من ذلك، كرَّرَهُ للتأكيدِ[1]، والْمُبْلِسُ هو الآيسُ القَانِطُ.

---

(١) أي أعاد قوله: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ تأكيداً. وفي معالم التنزيل:ص١٠٠٩؛ قال البغوي: (وقيل: الأُولى ترجع إلى إنزال المطر، والثانية إلى إنشاء السحاب).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾، الخطابُ للنبيِّ ﷺ وغيرهِ. وآثارُ الرحمةِ هي أنواعُ النَّباتِ الذي ينبتُ من المطرِ من بين أخضرٍ وأحمر وغيرِ ذلك من الألوان.

وقولهُ (كَيْفَ يُحْيِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)، كيف يجعلُ الأرضَ مُخْضَرَّةً بعد يُبْسِهَا، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾، أي الذي فَعَلَ ذلك هو الذي يُحيي الموتى للنُّشور، فإنه كما يعيدُ الشجرَ الذي ظَهَرَ يُبْسُهُ، ويعيدُ فيه الْخُضْرَةَ والنورَ والثمرةَ، كذلك يُحيي الموتى، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠ ﴾؛ من الموتِ والبعثِ قديرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾، ولئِنْ أرسَلْنا ريْحاً حارَّةً أو باردةً فأيبَسَتْ زُروعَهم، ورأوُا الزرعَ مُصْفَرّاً بعد خُضرتهِ، ﴿ لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ۝٥١ ﴾، لصَارُوا بعد اصفرار النَّبتِ يَجْحَدُونَ ما سَلَفَ من النعمةِ، يعني أنَّهم يفرحون عند الخصب، وإذا استبطأوا الخصبَ والرزق جَزِعُوا فكَفَرُوا بالنِّعَمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾؛ يعني الكفارَ لا يُسْمِعُ، والأعمالُ الذي لا يُبصِرون، ولذلك قال: ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ﴾؛ أي لا تقدرُ أن تُجْبِرَهم على الْهُدَى، وإنَّما بُعِثْتَ داعياً ومُبَلِّغاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾؛ أي إلاَّ مَن يُصَدِّقُ بكِتَابنَا، ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٥٣ ﴾؛ أي هم الذين يَسْتَبْدِلُونَ به فهم مُخلِصُونَ مُنقَادُونَ لأمرِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾؛ أي مِن نطفةٍ ضَعيفةٍ في بُطون الأُمَّهَاتِ، ثُم أطْفَالاً لا يَملكون لأنفُسِهم نَفْعاً ولا ضرّاً، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾، ثُم جعلَكم أقوياءَ بما أعطاكم مِن العقلِ والاستطاعة والهدايةِ والتصرُّف في اختلاف المنافعِ ودفع المضارِّ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾؛ قُوَّةِ الشَّباب، ﴿ ضَعْفًا ﴾؛ عند الكبر والهرمِ، ﴿ وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾؛ مِن ضعفٍ وقوة وشَيبةٍ وشَبابٍ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤ ﴾؛ أي العَلِيْمُ بخلقهِ القَادِرُ على تَحويلِهم من حالٍ إلى حال.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ ؛ أي تقومُ السَّاعة، يحلِفُ المشركون ما لَبثُوا في القبور غيرَ ساعةٍ واحدة. وَقِيْلَ: ما لَبثُوا في الدُّنيا غيرَ ساعةٍ يَسْتَقِلُّونَ في جنب أيَّام الآخرةِ، ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي هكذا كانوا يَكْذِبُونَ في الدُّنيا بجهلهم وغفلتِهم كما كذبُوا في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ ؛ أرادَ بالذينَ أوتوا العلمَ: الملائكةَ والأنبياء والمؤمنونَ، يقولون للكفَّار بعدَ ما أقْسَمُوا: لقد لَبثْتُمْ فيما كَتَبَ اللهُ لكم من اللُّبثِ إلى يوم البعث، وَقِيْلَ: في حُكْمِ اللهِ، وَقِيْلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ تقديرهُ: وقال الذين أوتُوا العلمَ في كتاب الله، وهم الذين يعلمونَ كتابَ اللهِ. وقولهُ: ﴿ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ ﴾ ؛ أي يوم الذي كنتم تُنْكِرُونَهُ في الدُّنيا، وتكذِّبون به، ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ وقوعَهُ في الدُّنيا فلا ينفعُكم العلمُ به الآنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ ؛ أي اعتِذارُهم من الذُّنوب إن اعتَذروا، ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يُجَابُونَ إلى ما يطلُبون من الرَّجعةِ إلى الدُّنيا، فإنَّهم يقُولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾[1]. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (لاَ يُقْبَلُ مِنَ الَّذِيْنَ أشْرَكُوا عُذْرٌ وَلاَ عِتَابٌ وَلاَ تَوْبَةٌ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ؛ أي بَيَّنَّا لَهم في القُرْآنِ من كلِّ صِفةٍ، ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ ؛ مثلَ العصَا واليدِ وبكلِّ حُجَّةٍ، ﴿ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي مَا أنتم إلاَّ على الباطلِ يا مُحَمَّدُ وأصحابُكَ!.

---

(١) السجدة / ١٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾؛ أي يَخْتِمُ على قلوب الذين لا يعلمُون توحيدَ اللهِ، فكلُّ مَن لا يعلمُ توحيدَ الله فذلك لأجلِ ما طَبَعَ اللهُ على قلبهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾؛ أي اصْبرْ يا مُحَمَّدُ على تبليغِ الرِّسالة والوحي، وعلى مَا يلحقُكَ من أذيَّـةِ الكفَّار، فإنَّ ما وَعَدَ اللهُ من النَّصرِ وإظهار دِينِ الإسلامِ صدقٌ كائن يأتيكَ في حينهِ. والمعنى: (فَاصْبرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ) بنصرِ دِينِكَ وإظهاركَ على عَدُوِّكَ حقٌّ فلا يَحْمِلَنَّكَ تكذيبُ الكفار الذين لا يَسْتَيْقِنُونَ بأمرِ الله على الحقِّ، وكُنْ حَلِيماً صَبُوراً.

وقولُه: ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾، لا تَعْجَلْ بالدُّعاءِ عليهم فيما يستَعجِلون مِن العذاب لقولِهم: ﴿إئْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ﴾[1]، و﴿مَتَى هَذا الْوَعْدُ﴾[2]، و﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾[3]. ومعنى الآيةِ: (وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّ) رأيَكَ وحِلمَكَ يا مُحَمَّدُ (الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ)؛ بالبعثِ والحساب.

آخر تفسير سورة (**الروم**) والحمد لله رب العالمين

(١) العنكبوت / ٢٩.
(٢) سبأ / ٢٩، وغيرها.
(٣) ص / ١٦.

سُورَةُ لُقْمَان

سُورَةُ لُقْمَان مَكِّيَّةٌ أَلْفَانِ وَمِائَةٌ وَعَشْرَةُ أَحْـرُفٍ، وَخَمْسُـمِائَةٍ وَثَمَـانٌ وَأَرْبَعُـونَ كَلِمَةً، وَأَرْبَعٌ وَثَلاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي هـذه السـورةُ آيـاتُ الكتـابِ الحكيم الذي وعدَكَ اللهُ أن يُنْزلَهُ عليكَ.

وانتصبَ (هُدًى وَرَحْمَةً) على الحال. وقرأ حمزةُ بالرفع على الابتـداء، وَقِيْـلَ: على إضمار هُوَ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (مَعْنَى الآيةِ: هُـدًى مِـنَ الضَّلاَلَـةِ وَرَحْمَةً مِنَ الْعَذَابِ لِلْمُوَحِّدِيْنَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ) وما بعدَ هذا قد تقدَّمَ تفسيرُهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ نزلت هذه الآيةُ وما بعدَها في النَّضر بن الحارثِ(١)، كان اشترَى كُتبـاً فيها أخبارُ الأعاجمِ، ويحدِّثُ بها أهلَ مكَّة، ويتملَّقُ بها في المجالسِ، ويقولُ: إنَّ مُحَمَّداً يحدِّثُكم أحاديثَ عادٍ وثمودَ، وأنا أحدِّثُكم أحاديثَ فارس والروم، وأقرأ عليكم كمـا مُحَمَّدٌ يقرأ عليكم أساطيرَ الأوَّلين، هو يأتِيكم بكتابٍ فيه قصصُ الأممِ الماضيةِ، وأنـا أتيتُ بمثلِهِ! وكانوا يستَمْلِحُون حديثَهُ، وكان إذا سَمِعَ شيئاً من القُرْآنِ يهزأ به ويُعرِضُ

---

(١) قاله البيهقي في شعب الإيمان: باب في حفظ اللسان: فصل في ترك قراءة كتـب الأعـاجم: ج ٤ ص٣٠٥، وذكر الحديث، وفيه عن الكلبي عن أبي صالح، إسناده ضعيف. وذكـره الواحـدي في أسباب النزول: ص٢٣٢.

عنهُ. فذلكَ قولهُ: ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ ﴾ ؛ أي ليصرفَ الناسَ عن دِين الله بلا علمٍ، ومن قرأ (لِيَضِلَّ) بفتحِ الياء، فمعناهُ: ليَتَشَاغَلَ بما يُلهيـهِ، وليصير أمرهُ إلى الضَّلال والباطلِ.

ومعنى قولهِ تعالى (لَهْوَ الْحَدِيثِ) أي باطلُ الحديثِ، هذا قولُ الكلبيِّ ومقاتل، وَقِيْلَ: المرادُ بلَهْوِ الحديثِ الغناءُ، وعن النبيِّ ﷺ أنه قال: [لاَ يَحِلُّ تَعْلِيْـمُ الْمُغَنِّيَاتِ وَلاَ بَيْعُهُنَّ وَلاَ شِرَاؤُهُنَّ، وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّـدٍ بِيَـدِهِ؛ مَا رَفَـعَ رَجُـلٌ قَطُّ عَقِيْرَتَهُ يَتَغَنَّى إلاَّ ارْتَدَفَهُ شَيْطَانَانِ يَضْرِبَانِ بِأَرْجُلِـهِمَا عَلَـى ظَـهْرِهِ وَصَـدْرِهِ حَتَّـى يَسْكُتَ][1]، وهذا قولُ سعيدِ بن جُبير ومجاهد وابنِ مسعودٍ، قالوا: (هُوَ وَاللهِ الْغِنَـاءُ، وَاشْتِرَاءُ الْمُغَنِّيَةِ وَالْمُغَنِّي بِالْمَالِ).

وقـال ﷺ: [مَـنْ مَـلأَ مَسَـامِعَهُ مِـنْ غِنَـاءٍ لَـمْ يُـؤْذَنْ لَـهُ أنْ يَسْـمَعَ أصْـوَاتَ الرُّوحَانِيِّيْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] قِيْلَ: وَمَا الرُّوحَانِيُّونَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [أهْلُ الْجَنَّةِ][2]، وعن إبراهيمَ النخعيِّ أنه قالَ: (الْغِنَاءُ يُنْبتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْب)[3] وقال مكحولُ: (مَن اشْتَرَى جَارِيَةً ضَرَّابَةً لِيُمْسِكَهَا لِغِنَائِهَا وَضَرْبها مُقِيْمـاً عَلَيْـهِ حَتَّـى يَمُـوتَ لَـمْ أُصَـلِّ عَلَيْهِ)[4].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: (بغَـيْرِ عِلْـمٍ) أي أنـه جـاهلٌ فيمـا يفعـلُ، لا يفعلـهُ عـن عِلْـمٍ، (وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً) بالرفعِ عطفاً على (مَنْ يَشْتَرِي)، وبـالنصب عَطفـاً علـى (لِيُضِـلَّ)،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث(٢١٣٥٨) بأسانيد وألفاظ عن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ ... وذكره. وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص١١٩-١٢٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطـبراني بأسـانيد، ورجال أحدها وثقوا وضعفوا). وأخرجه الطـبراني في المعجـم الكبـير: ج ٨ ص١٩٨: الحديـث (٧٨٠٥). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٢٢ قال: (فيه علي بن يزيـد الألهـاني، وهـو ضعيـف). وفي ج ٨ ص٢١٢: الحديث (٧٨٥٥ و٧٨٦٢)، وفيه علي هذا أيضاً.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٥٤؛ قال القرطبي: (أخرجه الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول).

(٣) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٠٥؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي الدنيا عن إبراهيم النخعي).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠١١.

والكتابةُ المذكورة تعودُ إمَّا إلى الآياتِ المذكورةِ في أوَّل السورةِ، وإما الى (سَبيْلِ اللهِ)، والسبيلُ يُؤَنَّثُ لقولهِ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾[١] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ ؛ أي أعرَضَ عن قَبولِها متَعظِّماً عن الإيْمان بها، ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ ؛ أي ثُقْلاً يَمنعهُ عن السَّماعِ، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ وَجِيْعٍ في الدُّنيا قبل أن يَصِلَ إلى الآخرةِ، وهو ما رُوي: (أنَّهُ أخِذَ أسِيْراً يَوْمَ بَدْرٍ فَقُتِلَ صَبْراً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنَى.

وقولهُ تعالَى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ ؛ أي جِبَالاً ثُم أرْسِيَتِ أوتادٌ لَها لِئَلاَّ تَميدَ بأهلِها، ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ ﴾ ؛ أي فرَّقَ الدوابَّ الكثيرةَ في الأرض، ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ؛ يعني المطرَ، ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي مِن كلِّ نوعٍ حسَنٍ.

وقولهُ تعالَى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي هذا الذي ذكرتُ لكم مما تُعاينُونَ خَلْقُ اللهِ، ﴿ فَأَرُونِى ﴾ ؛ أيُّها الكفارُ، ﴿ مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ ؛ أيُّ شيءٍ خَلَقَهُ الذي تعبدونَ مِن دونهِ، فلم تَجِدُوا شَيْئاً يشيرونَ إليهِ من خَلْقِ غيرهِ، ولَم يقدِرُوا علَى جواب هذا الكلامِ، فقِيْلَ: ﴿ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ؛ أي الكافِرون، ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ ؛ يعني العقلَ والعلم والعملَ به، والإصابةَ في الأمور. واتَّفقَ العلماءُ على أن لُقْمَانَ حكيماً[٢]، ولَم يكن نَبيّاً إلاّ عكرمةُ

(١) يوسف / ١٠٨ .

(٢) أخرج الطبري في جامع البيان الآثار عن مجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب في الآثار: (٢١٣٨٥-٢١٣٩٤) بأن لقمان كان حكيماً ولم يكن نبياً.

وحدَهُ فإنه قال: (كَانَ لُقْمَانُ نَبِيّاً)[(١)]، وقال بعضُهم: خُيِّرَ لقمانُ بين النبوَّة والحكمةِ فاختارَ الحكمةَ![(٢)]

وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: [حَقّاً أقُولُهُ: لَمْ يَكُنْ لُقْمَانُ نَبيّاً، وَلَكِنْ عَبْداً صَمْصَامَةً، كَثِيْرَ التَّفكُّرِ، حَسَنَ الْيَقِيْنِ، أحَبَّ اللهَ فَأَحَبَّهُ، فَمَنَّ عَلَيْهِ بالْحِكْمَةِ][(٣)]. ورويَ أنه كان تَتَلْمَذَ لألفِ نبيٍّ عليهم السَّلام.

واختَلفُوا في حِرفتهِ، فقالَ الأكثرُون: كان نَجَّاراً، ويقالُ: كان خيَّاطاً، ويقالُ: كان رَاعياً، ويروى: كان عَبْداً حَبَشِيّاً غليظَ الشَّفتين مشقوقَ الرِّجلين.

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: (مَرَّ رَجُلٌ بلُقْمَانَ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ حَوْلَهُ وَهُوَ يَعِظُهُمْ، فَقَالَ: ألَسْتَ الْعَبْدَ الأسْوَدَ الَّذِي كُنْتَ تَرْعَى الْغَنَمَ؟! قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَمَا بَلَغَ بكَ إلَى مَا أرَى؟ قَالَ: صِدْقُ الْحَدِيْثِ؛ وَأدَاءُ الأمَانَةِ؛ وَتَرْكُ مَا لاَ يَعْنِيْنِي)[(٤)].

وعن أنسٍ: (أنَّ لُقْمَانَ كَانَ عَبْدَ دَاوُدَ عليه السلام وَهُوَ يَسْرِدُ دِرْعاً، فَجَعَلَ لُقْمَانَ يَتَعَجَّبُ مِمَّا يَرَى، وَيُرِيْدُ أنْ يَسْألَهُ فَمَنَعَتْهُ حِكْمَتُهُ مِنَ السُّؤَالِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا، جَعَلَهَا عَلَيْهِ وَقَالَ: نِعْمَ دِرْعُ الْحَرْب هَذَا وَنِعْمَ حَامِلُهُ، فَقَالَ لُقْمَانُ: الصَّمْتُ حِكْمَةٌ وَقَلِيْلٌ فَاعِلُهُ)[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٣٥). والطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٣٩٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٣٣) عن قتادة.

(٣) ذكره الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: الرقم (٥٣٨٤). والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٦٠، وقال: (ذكره ابن عطية). وهو كما قال: في المحرر الوجيز: ص١٤٨٥. وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي مسلم الخولاني كما في الدر المنثور:ج٦ ص٥١٠ عن أبي الدرداء. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٣٧).

(٤) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥١٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، وابن جرير عن عمر بن قيس ﷺ ... وذكره).

(٥) في الدر المنثور: ج٦ ص٥١٣؛ قال السيوطي:(أخرجه العسكري في الأمثال، والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في حفظ اللسان: الحديث (٥٠٢٦).

وقال عكرمةُ: (كَانَ لُقْمَانُ مِنْ أهْوَنِ مَمَالِيْكِ سَيِّدِهِ، فَبَعَثَ مَوْلاَهُ مَعَ عَبيْدٍ لَهُ إلَى بُسْتَانٍ لِمَوْلاَهُمْ يَأْتُونَهُ مِنْ ثَمرِهِ، فَجَاءُوا وَلَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، وَقَدْ أكَلُوا الثَّمَرَةَ، وَأحَالُوا عَلَى لُقْمَانَ بذَلِكَ! فقَالَ لُقْمَانُ لِمَوْلاَهُ: إنَّ ذَا الْوَجْهَيْنِ لاَ يَكُونُ عِنْدَ اللهِ أمِيْناً، فَاسْقِنِي وَإيَّاهُمْ مَاءً حَمِيْماً، فَسَقَاهُمْ فَجَعَلُوا يَتَقَيَّؤُن الْفَاكِهَةَ، وَجَعَلَ لُقْمَانُ يَتَقَيَّأُ مَاءً بَحْتاً، فَعَرَفَ صِدْقَهُ وَكَذِبَهُمْ).

قال: (وَأوَّلُ مَا رُويَ مِنْ حِكْمَتِهِ أنَّهُ جَاءَ مَعَ مَوْلاَهُ فَدَخَلَ الْمَخْدَعَ، فَأطَالَ الْجُلُوسَ فِيْهِ، فَنَادَاهُ لُقْمَانُ: إنَّ طُولَ الْجُلُوسِ عَلَى الْحَاجَةِ يَتَجَمَّعُ مِنْهُ الْكَدَرُ، وَيُورِثُ الْبَاسُورَ، وَتَصْعَدُ الْحَرَارَةُ إلَى الرَّأسِ، فَاجْلُسْ هُوَيْناً وَقُمْ هُوَيْناً، قَالَ: فَخَرَجَ وَكَتَبَ حِكْمَتَهُ عَلَى بَابِ الْحَشِّ[(١)]).

ومعنى الآيـة (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ) عِلْمَ التوحيدِ والمواعظِ والفقهِ والعقلِ والإصابة في القولِ، والْهَمناهُ أن يشكرَ اللهَ على ما أعطاهُ من الحكمةِ.

ومعنى قولهِ: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي قُلنا له: اشْكُرِ اللهَ فيما أعطاكَ من الحكمةِ، ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي مَن يشكرُ نِعَمَ اللهِ فإن منفعةَ شُكرهِ راجعةٌ إلى نفسهِ، ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ ؛ فلم يُوَحِّدْ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ ؛ عن شُكرهِ، ﴿ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ يحمَدهُ الشاكرُ ويثبته على شُكرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ ؛ أي واذْكُرْ: إذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعظُهُ: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أحَداً في العبادةِ، ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ عندَ اللهِ؛ أي ليس مِن الذُّنوب شيءٌ أعظمُ من الشِّرك باللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الحيُّ المميتُ الخالق الرازقُ، فإذا أشركتَ به أحداً غيرَهُ فقد جعلتَ النعمةَ لغير ربها، وذلك من أعظمِ الظُّلمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ ؛ نزل في سَعدِ بن أبي وقَّاص؛ لَمَّا آمَنَ بالنَّبيِّ ﷺ حَلَفَتْ أمُّهُ لاَ تَذُوقُ طَعَاماً وَلاَ شَرَاباً وَلاَ يُظِلُّهَا شَيْءٌ حَتَّى يَرْجِعَ سَعْدُ

---

(١) الْحَشُّ بفتح الحاء وضمها: البستان، وهو أيضاً الْمَخْرَجُ؛ لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البستان. مختار الصحاح: ص١٣٧ (ح ش ش).

إلَى دِيْنِهِ، فَمَضَتْ عَلَى هَذَا أيَّاماً، فَبَلَغَ مِنْ أمْرِهَا إلَى أنْ تَدَاخَلَ بَعْضُ أسْنَانِهَا فِي بَعْضٍ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ سَعْدٌ: (لَوْ كَانَ لَهَا سَبْعُونَ نَفْساً فَخَرَجَتْ مَا ارْتَدَدْتُ عَنِ الإسْلاَمِ) فَفَتَحَ فَاهَا وَصَبَّ فِيْهِ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ[١]. ومعنى (وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ) أي أمرناهُ ببرِّ والدَيه عطفاً عليهما.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ ؛ أي ضَعْفاً على ضعفٍ، ومشقَّةً على مشقةٍ، كلَّما ازدادَ الولدُ في الرَّحمِ كِبر، ازدادت الأمُّ ضَعفاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِصَٰلُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ ؛ أي وفِطَامُهُ في انقضاءِ عامَين، وقدَّرَهُ بعامين بناءً على الأغلب، ولأنَّ الرَّضاع لا يستحقُّ بعد هذه المدَّة. والفِصَالُ هو الفِطَامُ، وهو أن يُفْصَلَ الولدُ عن الأمِّ كي لا يرضع. والمعنى بهذا ذكرُ مشقَّة الوالدةِ بإرضاعِ الولد عامَين. ورُوي عن يعقوب: (وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ) بغير ألفٍ[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ ؛ أي قُلنا له اشكُرْ لِي على خلْقِي إياكَ، وعلىإنعامِي عليكَ، واشكُرْ لوالديكَ على تربيَتهما إياكَ. وقال مقاتلُ: (اشْكُرْ لِي إذْ هَدَيْتُكَ للإسْلاَمِ، وَلِوَالِدَيْكَ بمَا أوْلَيَاكَ مِنَ النِّعَمِ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي مصيرُكَ ومصيرُ والدَيك، وعن سُفيان بن عُيينةَ في قولِهِ: (أن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) قال: (مَنْ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فَقَدْ شَكَرَ اللهَ، وَمَنْ دَعَا لِلْوَالِدَيْنِ فِي إدْبَار الصَّلَوَاتِ فَقَدْ شَكَرَ لِلْوَالِدَيْنِ)[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٤٠٠-٢١٤٠٣). واختلفوا في سعد، هل هو سعد ابن مالك أم سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؟ وفي الدر المنثور: ج٦ ص٥٢١؛ قال السيوطي: (أخرج أبو يعلى والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي قال: إن سعد بن أبي وقاص قال: ...) وذكر الحديث بطوله، وقد تقدم في العنكبوت.

(٢) في المحرر الوجيز: ص١٤٨٦؛ قال ابن عطية: (وقرأ الجمهور (وَفِصَالُهُ) وقرأ الحسن وأبو رجاء والجحدري ويعقوب: (وَفَصْلُهُ)). ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٦٤. واللباب في علوم الكتاب: ج ١٥ ص٤٤٦.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٠.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز: ص١٤٨٦. والجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٦٥. واللباب في علوم الكتاب: ج ١٥ ص٤٤٦.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ ؛ أي اجْهَدَا عليكَ لتُشركَ بي جَهلاً بغيرِ علمٍ فَلاَ تُطِعْـهُمَا، فـإنَّ حقَّـهما وإنْ عَظُمَ فليس بأعظمَ من حقِّي.

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ ؛ قـال ﷺ: [حُسْـنُ الْمُصَاحَبَةِ أنْ تُطْعِمْهُمَا إذا جَاعَا، وَتَكْسُوهُمَا إذا عَرِيَا، وَعَاشِرْهُمَا عِشْرَةً جَمِيْلَةً][(١)]. ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ ؛ أي واتَّبع طريقَ مَن رجعَ إلَيَّ؛ أي مَنْ سَـلَكَ طريـقَ مُحَمَّدٍ ﷺ وأصحابهِ. والمعنى: واتَّبعِ دِينَ من أقبل إلى طَاعَتِي وهو النبيُّ ﷺ.

وقال عطاءُ عن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: (يَعْنِي أبَـا بَكْـرٍ الصِّدِّيْـقَ ﷺ أنَّـهُ حِيْنَ أتَاهُ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَسَعْدُ بْنُ أبي وَقَّاصٍ وَسَعِيْدُ بْنُ زَيْدٍ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فَقَالُوا: يَا أبَا بَكْرٍ آمَنْتَ وَصَدَّقْتَ مُحَمَّداً ؟ قَالَ: نَعَـمْ، فَـأتَوا رَسُـولَ اللهِ ﷺ فَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوا، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ لِسَعْدٍ: (وَاتَّبعْ سَبِيْلَ مَنْ أنَابَ إلَيَّ) يَعْنِي أبَا بَكْرٍ الصِّدِّيْقَ ﷺ)[(٢)].

ويستدلُّ مِن قولهِ تعـالى (وَصَاحِبْـهُمَا فِـي الدُّنْيَـا مَعْرُوفـاً) علـى أنَّ الابـنَ لا يستحقُّ القَوَدَ على أبيهِ، ولا يُحَدُّ الأبُ بقَذفَةِ الابنِ، ولا يحبـسُ الأبُ بدَيـنِ الابـنِ، لأن في إيجاب القَوَدِ والحدِّ والحبسِ له عليه ما يُنافِي مُصَاحبتَهما.

وعن أبي يوسفَ: (أنَّ الْقَاضِي يَأْمُرُ الأبَ بقَضَاءِ دَيْنِ الابْنِ، فَإنْ تَمَـرَّدَ حَبَسَـهُ لاسْتِخْفَافِ أمْرِهِ). وقال محمَّدُ بن الحسنِ: (يُحْبَسُ الأبُ فِي نَفَقَةِ الابْنِ الصَّغِـيْرِ، وَلاَ يُحْبَسُ بالدَّيْنِ الَّذِي لَهُ عَلَيْهِ؛ لأنَّهُ لَوْ لَمْ يُحْبَسْ فِي نَفَقَةِ الصَّغِيْرِ لَتَضَرَّرَ الْوَلَدُ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ ؛ أي مرجِعُكـم ومرجـعُ آبـائِكم، ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ من الخيرِ والشرِّ. وقد تضمَّنـت هـذه

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠١٣. وفي المحرر الوجيز: ص١٤٨٦؛ قال ابن عطية: (وحكى النقاش...) وذكره. وينظر: أسباب النزول للواحدي: ص٢٢٣.

الآيةُ النَّهيَ عن صُحبة الكفَّار والفُسَّاق، والترغيبَ في صُحبةِ الصالِحين لقولـهِ تعـالى (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنَابَ إلَيَّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ ﴾ ؛ وذلك أنَّ ابنَ لُقمان سألَ أباهُ فقال: أرأيـتَ الحبَّة التي تكونُ في قَعْرِ البحار؛ أيعلَمُها اللهُ؟ فاعلَمَهُ أنَّ الله يعلمُ الحبَّة أينما كانت.

وَقِيْلَ: إنَّ ابنَ لُقمان قال لأبيه: يا أبَتِ! إنْ عَمِلْـتُ بالْخَطِيْئَـةِ حيـثُ لا يَرانِـي أحدٌ، كيف يعلَمُها اللهُ؟ فقال لُقمان لابنهِ: (إنَّـها إنْ تَـكُ) يعـني إنَّ المعصيـةَ إن تَـكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خرْدَلٍ فَتَكون في صَخرَةٍ التي تحتَ الأرضين السَّبع أو في السَّـموات أو في الأرضِ يأتِ بها اللهُ للجزاءِ عليها[١].

ومَن قرأ برفعِ (مِثْقَالُ) فتقديرهُ: أن تَقَعَ مثقالُ حبَّة.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي قَـادِرٌ علـى الإتيـانِ بـها، خَبيرٌ بموضِعِها، يُوصِلُها إلى صاحبها حيث كانَ. واللَّطِيْفُ: العالِمُ بكلِّ دقيقٍ وجَليل. ومعنى الآيةِ: أن اللهَ تعالى ضَرَبَ هذا مَثلاً لأعمال العبادِ، يعني أنه يأتِي بأعمالِهم يومَ القيامةِ، وإنْ كان العملُ الصالحُ في الصِّغَر بوزن حَبَّة مِن خردل، فـاللهُ تعـالى يحفظـهُ ولا يخفَى عليه مكانهُ حتى يجازيه عليهِ، ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَـنْ يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ ؛ أي أقِـمِ الصَّلاةَ التي افترضَها اللهُ عليكَ، وأمُـرْ بالطاعـةِ وانْـهَ عـن المعصيـةِ، ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ ﴾ ؛ من الأذيَّةِ في الأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي الصَّبْرُ على ما أصابَكَ في ذات اللهِ مِن الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر مِن عِظَامِ الأمور. وَقِيْلَ: مِن حقِّ الأمور التي أمرَ اللهُ بها.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠١٣.
(٢) الزلزلة / ٧ و٨ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ ؛ قرأ نافعُ وأبو عمرو[1] وحمزةُ والكسائي وخلف (تُصَاعِرْ) بالألفِ، وقرأ الباقونَ (تُصَعِّرْ) بغيرِ ألف. قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: لاَ تَتَكَبَّرْ فَتَحْقِرُكَ النَّاسُ، وَلاَ تُعْرِضْ عَنْهُمْ بوَجْهِكَ إذا كَلَّمُوكَ)، يقالُ: صَعِّرَ خَدُّكَ وَصَاعَرَ، إذا مَالَ وأعرضَ تكبُّراً. والمعنى: لا تَتَعَظَّمْ على خلق الله، ولا تُعرِضْ عنِ الناسِ تكبُّراً عليهم، بل يكونُ الفقيرُ والغنيُّ عندَكَ سواءً، ولا تَعْبَسْ في وجهِ أحدٍ مِن الناسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ ؛ أي ولا تَمْشِ في الأرضِ بالإعجَابِ والبَطَرِ وَازْدِرَاءِ الناسِ، قال الحسنُ: (أنَّى لابْنِ آدَمَ الْكِبَرُ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ مَخْرَجِ الْبَوْلِ مَرَّتَيْنِ ؟!).

وروي: أنَّ الْمُهَلَّبَ بْنَ أبِي صُفْرَةَ مَرَّ عَلَى مُطَّرفِ بْنِ عَبْدِاللهِ[2] وَهُوَ يَتَبَخْتَرُ فِي جُبَّةِ خَزٍّ، فَقَالَ:(هَذِهِ مِشْيَةٌ يَبْغَضُهَا اللهُ وَرَسُولُهُ) فَقَالَ لَهُ الْمُهَلَّبُ: مَا تَعْرِفُنِي ؟! قَالَ: (بَلَى؛ أعْرِفُكَ، أوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرُكَ جِيْفَةٌ قَذِرَةٌ، وَتُحْمَلُ بَيْنَ الْعُذْرَةِ) فَمَضَى الْمُهَلَّبُ وَتَرَكَ مِشْيَتَهُ تِلْكَ.

وروي: أنَّ عَبْدَاللهِ بْنَ مُحَمَّدِ[3] بْنِ وَاسِعٍ خَرَجَ يَوْماً يَتَمَشَّى، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ: (مَنْ هَذَا ؟!) قَالُوا: هَذَا وَلَدُكَ عَبْدُاللهِ، قَالَ: ادْعُوهُ، فَجَاؤُا بهِ إلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ:(يَا

---

(١) في المخطوط: (أبو عمر) والصحيح ما أثبتناه.

(٢) هو مُطَّرفُ بنُ عبدالله بن الشخير. ينظر ترجمته في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ج ٢ ص١٩٨. قال أبو نعيم:(ومنهم المتعبد الشكير، مطرف بن عبدالله بن الشخير، كان لنفسه مذلاً ولذكر الله مجلاً). وقال في ص٢١٠:(أسند مطرف عن غير واحد من الصحابة).

(٣) مُحَمَّد بن واسع، ينظر: حلية الأولياء: ج ٢ ص٣٤٥؛ قال أبو نعيم: (ومنهم العامل الخاشع، والخامل الخاضع، أبو عبدالله مُحَمَّد بن واسع. كان لله عاملاً، وفي نفسه خاملاً) وأسند عن مالك بن دينار قال: (للأمراء قراء، وللأغنياء قراء، وإن مُحَمَّد بن واسع من قراء الرحمن). وفي ص٣٥٤؛ قال: (كان مُحَمَّد بن واسع عالماً واعياً، لا ناقلاً راوياً، وعى فأوعى، قليل الكلام والرواية، طويل الصيام والسعاية، روى عن أنس بن مالك ومطرف والحسن وابن سيرين وسالم وعبدالله بن الصامت وأبي بردة رضي الله تعالى عنهم).

بُنَيَّ! أتَدْرِي بكَمِ اشْتَرَيْتُ أمَّكَ؟ اشْتَرَيْتُهَا بثلاَثِمائَةِ دِرْهَمٍ، وَأبُوكَ لاَ كَثَّرَ اللهُ مِنْ مِثْلِهِ فِي النَّاسِ، أتَمْشِي هَذِهِ الْمِشْيَةَ ؟!)[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ الاخْتِيَالُ: هو التَّبَخْتُرُ في المشي، والفَخُورُ: هو الْمُتَطَاولُ بذِكْرِ المناقب على السَّامعِ والافتخار عليه، وذلك مذمومٌ لأن المستحقَّ على نِعَمِ اللهِ شُكراً لا الْفِخْرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ ؛ أي تَوَاضَعْ[(٢)]ولا تتبختَر، وليكن مشيُكَ قَصْداً لا تبختُراً ولا إسراعاً. قال ﷺ: [سُرْعَةُ الْمَشْيِ تَذْهَبُ بَهَاءَ الْمُؤْمِنِ][(٣)] يقالُ: قَصَدَ فلانٌ في مشيتهِ إذا مشَى مُستوياً، وقال مقاتلُ: (لاَ تَخْتَلْ فِي مِشْيَتِكَ)، وقال عطاءُ: (قَوْلُهُ تَعَالَى (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) أيْ امْشِ بالْوَقَارِ وَالسَّكِيْنَةِ) كقولهِ تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾[(٤)]، والمعنى: اقصِدْ في الْمَشْيِ، لا تعجَلْ ولا تَمشِ بالْهُوَيْنَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ ؛ أي اخفِضْ صوتَكَ ولا ترفعْهُ على وجهِ انتهار النَّاس وإظهار الاستخفافِ بهم، وقال عطاءُ:(مَعْنَاهُ: اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إذَا دَعَوْتَ وَنَاجَيْتَ رَبَّكَ)، وكذلك وصيَّةُ الله تعالى في الإنجيلِ لعِيسَى عليه السلام: مُرْ عِبَادِي يَخْفِضُوا أصْوَاتَهُم إذا دَعَونِي، فإنِّي أسمعُ وأعلَمُ ما في قلوبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي أقبحُ الأصواتِ صوتُ الحميرِ؛ لأن أوَّلَهُ زفيرٌ وآخرهُ شهيقٌ. قال ابن زيدٍ: (لَوْ كَانَ فِي رَفْعِ الصَّوْتِ خَيْراً مَا جَعَلَهُ اللهُ لِلْحَمِيْرِ)[(٥)]، وعن أمِّ سعدٍ قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٢ ص٣٥٠.

(٢) عن مجاهد، أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٤٩). والطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٤٢٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ١٠ ص٢٩٠. ومن طريق أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: ج ١ ص٤٣٥: ترجمة (٤٢٠) محمَّد بن إبراهيم.

(٤) الفرقان / ٦٣ .

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٤٣٣). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٥٤).

اللهَ تَعَالَى يَبْغَضُ ثلاثَةَ أصْوَاتٍ: نَهِيْقُ الْحِمَار، وَنُبَاحُ الْكَلْب، وَالدَّاعِيَةُ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْب]. وقال سُفيان: (صِيَاحُ كُلِّ شَيْءٍ تَسْبيحُهُ اللهَ إلاَّ الْحِمَارُ فَإنَّهُ يَنْهَقُ بلاَ فَائِدَةٍ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي ألَمْ تَرَوا أنَّ اللهَ خَلَقَ وذلَّلَ لِمنافعِكم ولِمصَالحِكم ما في السَّمواتِ من الشَّمسِ والقمر والنجومِ والسَّحاب والمطَرِ، وفي الأرضِ من الأشجار والأنهار والبحار والدَّواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ ؛ أي أتَمَّ عليكم ووسَّعَ لكم نِعَمَهُ (ظَاهِرَةً) من الْخَلْقِ الحسنِ وسلامةِ الأعضاء الظاهرة، (وبَاطِنَةً) من العقلِ والفهمِ والفطنة والمعرفةِ بالله.

وَقِيْلَ: النعمةُ الظاهرة هي الإسلامُ، والباطنةُ ما يخفَى من الذُّنوب ويُستَرُ من العوراتِ[2]. وَقِيْلَ: الظاهرةُ ما يعلمُ الناس من حسنَاتِكَ، والباطنةُ ما لا يعلمون من السيِّئات.

وقال الضحَّاك: (الظَّاهِرَةُ: حُسْنُ الصُّورَةِ وَامْتِدَادُ الْقَامَةِ وَتَسْويَةُ الأَعْضَاءِ، وَالْبَاطِنَةُ الْمَعْرِفَةُ). وَقِيْلَ: الظاهرةُ الإسلامُ وما أفْضَلَ عليكَ من الرِّزق، والباطنةُ ما سَتَرَ من سوءِ عمَلِكَ.

وَقِيْلَ: الظاهرةُ نِعَمُ الدُّنيا، والباطنةُ نِعَمُ العُقبَى[3]. وَقِيْلَ: الظاهرةُ تسويةُ الظواهرِ، والباطنةُ تصفيةُ السرائر. وَقِيْلَ: الظاهرةُ الرِّزْقُ الذي يكتسبُ، والباطنةُ الرزقُ مِن حيث لا تحتسبُ. وَقِيْلَ: الظاهرةُ المدخل للغداءِ، والباطنة المخرجُ للأذَى.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٥٣).

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٢٦؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا)، وقال: (أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق عن الضحاك ﷺ).

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٤٨٨ من قول المحاسبي.

وَقِيْلَ: الظاهرةُ نِعْمَةٌ عليكَ بعد ما خرجتَ من بطنِ أمِّكَ، والباطنةُ نعمةٌ عليكَ وأنتَ في بطنِ أمِّكَ. وَقِيْلَ: الظاهرةُ ألوانُ العطَايَا، والباطنةُ غفرانُ الخطايَا. وَقِيْلَ: الظاهرةُ المالُ والأولاد، والباطنة الْهُدَى والإرشادُ. وَقِيْلَ: الظاهرة التوفيق للعبادات، والباطنةُ الإخلاصُ من الْمُرَاءَاتِ. وَقِيْلَ: الظاهرةُ ما أعطى من النَّعماءِ، والباطنة ما زوى من أنواعِ البلاء. وَقِيْلَ: الظاهرةُ إنزالُ القَطْرِ والأمطار، والباطنةُ إحياءُ الأقطار والأنصار. وَقِيْلَ: الظاهرةُ ذِكْرُ اللسانِ، والباطنةُ ذكر الجِنَان. وَقِيْلَ: الظاهرةُ ضياءُ النَّهار، والباطنةُ ظلمة الليلِ للسُّكون والقرار.

ومَن قرأ (نِعْمَةً) على التوحيدِ فهي واحدةٌ تُبنَى على الجميعِ، كما في قولهِ ﴿وَإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ يعني النَّضْرَ بن الحارثِ يخاصمُ في آياتِ الله وفي صفاتهِ جَهْلاً بغير علم ولا حجَّة، ﴿ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ وقد تقدَّم تفسيرهُ في سُورةِ الحجِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي اعْمَلُوا بما أنزلَ اللهُ، ﴿ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ ، قالوا بل نعملُ بما وجدنا عليه آباءَنا، وقد تقدَّم تفسيرُ ذلك في سُورة البقرةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ فيتَّبعونَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ ؛ أي مَن يُخْلِصُ طاعتَهُ للهِ وهو محسنٌ فيها فيفعَلُها على موجب الشَّريعة فقد أخذَ بالأمر الأوثق، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ﴾ ؛ تَرْجِعُ خواتِمُ ﴿ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ كلِّها، فيجزي كلَّ عاملٍ بما عَمِلَ.

قرأ السُّلَمِيُّ: (وَمَنْ يُسَلِّمْ) بالتَّشديدِ. ومعنى قولهِ تعالى (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) أي اعْتَصَمَ بالطَّرَفِ الأوثقِ الذي لا يخافُ انقطاعَهُ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ

---

(١) ابراهيم / ٣٤.

عَنْهُمَا: (هُوَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ)(١).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ ؛ وذلـك أنَّ النـبيَّ ﷺ كـان يُحْزِنُهُ كفرُهم مخافةَ أن يكون ذلك لتقصيرٍ من جهتهِ، فأمَّنَهُ اللهُ مِن ذلكَ. والمعنى: مَن كَفَرَ فلا تَهْتَمَّ لكُفرِهِ، فإنَّ رجوعَهم إلينا وحِسابُهم علينا، وهـو قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾ ؛ أي نُخـبرُهم بقبَـائحِ أعمالِـهم في الدُّنيـا، ونجزيـهم عليها، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي عليمٌ بمـا في القلـوب مـن خـيرٍ وشـرٍّ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ ؛ أي نُمهلُـهم في الدُّنيـا يَسِـيراً، ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي ثُم نُجَلِّيهِمْ في الآخرةِ إلى عذابٍ شديدٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّـاس رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُمَا: (وَذَلِكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، أتَتْهُ أحْبَارُ الْيَهُودِ فَقَالُوا: بَلَغَنَا أنَّكَ قُلْتَ: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً) أعَنَيْتَنَا أمْ عَنَيْتَ قَوْمَكَ؟ فَقَالَ: [بَلْ عَنَيْتُ الْجَمِيعَ] فَقَالُوا: ألَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ أنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى وَفِيْهَا أنْبَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَـدْ خَلَّفَـهَا(٢) فِيْنَا فَهِيَ مَعَنَا؟ فَقَالَ ﷺ: [التَّوْرَاةُ وَمَا فِيْهَا مِنَ الأَنْبَاءِ قَلِيْلٌ فِي عِلْمِ اللهِ] فَـأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٣).

والمعنى: لو جُعِلَ ما في الدُّنيا من الأشجار أقلاماً يكتبُ بـها، وصارَتِ الجنُّ والإنسُ كُتَّاباً، والبحارَ مِدَاداً يَمدُّها من بعدِها سبعةَ أبْحُرٍ؛ أي سبعةَ أمثالِ بحرِ الدُّنيا،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٤٣٨).

(٢) في المخطوط: (خلقها فيها) وهو غير مناسب.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثـر (٢١٤٤٢). وابـن أبـي حـاتم في التفسـير الكبـير: الأثـر (١٧٥٥٩) مختصراً.

وكتبَ بها كلماتِ اللهِ وحِكَمَهُ، لانكسرَتِ الأقلامُ، وأعيَتِ الإنسُ والجنُّ، وفَنِيَتِ البحارُ قبلَ أن ينقطعَ كلامُ اللهِ وحِكَمُهُ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي عَزيزٌ في سُلطانهِ ذُو حكمةٍ في قولهِ وأفعالهِ.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ معنى (كَلِمَاتُ اللهِ) تعالى في هذه الآيةِ: مَعانِي القُرْآن وفوائدِهِ، وقال بعضُهم: وهي نِعَمُ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ، وإن نِعَمَهُ في الآخرةِ غيرُ متناهيةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (قَالَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: إنَّ اللهَ خَلَقَنَا أطْوَاراً نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً ثُمَّ لَحْماً، فَكَيْفَ يَبْعَثُنَا خَلْقاً جَدِيْداً فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (مَا خَلْقُكُمْ) ((أيها الناسُ على اللهِ سُبحَانَهُ))(١) في القدرة إلاّ كخلقِ نفسٍ واحدةٍ، وبعثِ نفسٍ واحدةٍ؛ (وَلاَ بَعْثُكُمْ) في قدرةِ اللهِ على بعثِ الْخَلْقِ كلِّهم (إلاّ) كقدرتهِ على بعثِ نفسٍ واحدةٍ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ ؛ لِما قالوا من أمرِ الخلقِ والبعثِ، ﴿ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ بهِ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ ؛ أي ألَمْ تَعلَمْ أنَّ اللهَ يزيدُ من ساعاتِ اللَّيلِ في ساعاتِ النهار صَيفاً، ويزيدُ في ساعاتِ النَّهار في ساعاتِ الليل شتاءً، ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ أي ذلَّلهما لِمنافعِ بني آدم يَجريان إلى يومِ القيامة، ثُم يسقُطان، وينقطعُ جَريُهما، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي خَبيرٌ بأعمالِكم في الدُّنيا ويُجازيكم عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أو لِتَعلَموا أنَّ عبادةَ الله حقٌّ، ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ ؛ من عباده، ﴿ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ﴾ ؛ بصفاتهِ، ﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ الذي لا شَيءَ مثلهُ في كِبريائهِ وعَظَمتِهِ.

---

(١) ما بين (( )) سقط من المخطوط.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ ؛ أي ألَمْ تعلَمْ أنَّ السُّفنَ تجري في البحرِ بإنعَامِ اللهِ تعالى، لو لَم يخلُق الرِّياح والماءَ على الهيئةِ التي خلقَها الله عليها لَما جَرَتِ السُّفن على ظهر الماءِ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ ﴾ ؛ أي لدلالات على توحيد الله، ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي كثيرِ الصَّبرِ على الطاعات والْمِحَنِ، شَكُوراً أي كثيرَ الشُّكر على نِعَمِ الله تعالى، قال ﷺ: [إنَّ أحَبَّ الْعِبَادِ إلَى اللهِ مَنْ إذا أعْطِيَ شَكَرَ، وإذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ أي إذَا أصابَهم في البحرِ مَوْجٌ كالجبال في الارتفاعِ دَعَوُا اللهَ مُخلِصِينَ له الدُّعاء، ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ ﴾ ؛ من البحرِ وأهوالهِ، ﴿ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ ؛ أي منهم مَن يثبتُ على ذلكَ، ومنهم مَن يجحَدُ. ثُم قال ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ ؛ أي لاَ ينكِرُ دلائلَ توحيدِنا، ﴿ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ ؛ أي غدَّار، ﴿ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي أكثرَ الكُفرَ بآياتِ الله ونِعَمِهِ. والْخَتْرُ في اللُّغة: أقبحُ الغَدْر. والظُّلَلُ: جمعُ ظُلَّةٍ وهي السَّحابةُ التي ترتفعُ فتغَطِّي ما تحتَها.

وإنَّ هذه الآيَةَ كانت سببَ إسلامِ عِكْرِمَةَ بن أبي جهلٍ، وذلك أنَّهُ لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ، أمَّنَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ إلاَّ أرْبَعَةَ نَفَرٍ، فَإنَّهُ قَالَ: [اقْتُلُوهُمْ، وَلَوْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِيْنَ بأسْتَارِ الْكَعْبَةِ: عِكْرِمَةُ بْنُ أبي جَهْلٍ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ الأخْطَلِ، وَمَقِيْسُ بْنُ صَبَابَةَ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ سَعْدِ بنِ أبي سَرْحٍ][(٢)].

فأمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ فِي الْبَحْرِ، فَأَصَابَهُمْ رِيْحٌ عَاصِفٌ، فَقَالَ أهْلُ السَّفِيْنَةِ: أخْلِصُوا فَإنَّ آلِهَتَكُمْ لَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً هَا هُنَا، فَقَالَ عِكْرِمَةُ: (لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي فِي الْبَحْرِ إلاَّ الإخْلاَصُ مَا يُنَجِيْنِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ) ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ إنَّ لَكَ عَهْداً إنْ أنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أنَا فِيْهِ أنْ آتِيَ مُحَمَّداً حَتَّى أضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ) فَجَاءَ فَأسْلَمَ[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري عن قتادة قال: (كان مطرف يقول...)، ينظر الأثر (٢١٤٤٩). وأبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٢ ص٢٠٠ من قول مطرف بن عبدالله أيضاً.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص٥١-٥٣.
(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠١٥.

قَوْلُـهُ تعَـالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا مخافةَ ربكُم، واخشَوا عذابَ يومٍ لا يُغنِي والدٌ عن ولـدهِ، ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ ؛ لاشتغالِ كلٍّ منهُم لنفسهِ.

وَقِيْلَ: معنى (لاَ يَجزِي وَالِدٌ عَـنْ وَلَـدِهِ) أي لا يَحمِـلُ شـيئاً مـن سـيِّئاتهِ ولا يُعطيهِ شـيئاً مـن طاعتـهِ، ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ؛ في البعـث والجـزاء أي صـدق كائن، ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ فلاَ تغترُّوا بالحياة الدُّنيا ومـا فيـها مـن زينتِـها وزهرتِـها، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ الشَّـيطانُ، فإنـه هـو الغَرُورُ، وهو الذي مَن يشاءُ أن يُغرَّ، وغُرُورُ الشَّـيطانِ تَمْنِيَتُـهُ العبـدَ: فـإنَّ اللهَ تعـالى غَفُورٌ، فَهَوَّنَ عليه رُكوبَ المعاصِي وما يَهواهُ.

ومَن قرأ (الْغُرُورُ) بضمِّ الغَينِ فهي مصدرٌ، ومعناهُ: الأبَاطِيلُ. وعن سـعيدِ بـنِ جُبير: (إنَّ الْغُرُورَ تَمَنِّي الْمَغْفِرَةِ مَعَ الإصْرَار عَلَى الْمَعْصِيَةِ)(١).

قَوْلُهُ تعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ؛ نزلـت هـذهِ الآيَةُ في الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ، أتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إنَّ أرْضَنَا أجْدَبَتْ، فَمَتَى الْغَيْثُ ؟ وَقَدْ تَرَكْتُ امْرَأتِي حُبْلَى، فَمَاذَا تَلِدُ ؟ وَقَدْ عَلِمْتُ بِـأيِّ أرْضٍ وُلِـدْتُ - أيْ عَلِمْـتُ أيْنَ وُلِدْتُ - فَبأيِّ أرْضٍ أمُوتُ، وَقَدْ عَلِمْتُ مَا عَمِلْتُ الْيَوْمَ، فَمَا أعْمَلُ غَداً ؟ وَمَتَى السَّاعَةُ ؟ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

وقال ﷺ: [مَفَاتِيحُ الْغَيْـبِ خَمْسَـةٌ لاَ يَعْلَمُـهُنَّ إلاَّ اللهُ، لاَ يَعْلَـمُ مَتَـى تَقُـومُ السَّاعَةُ إلاَّ اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إلاَّ اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَـا كَسْـبُهُ فِـي غَـدٍ إلاَّ اللهُ، وَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ بأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ إلاَّ اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَنْزِلُ الْغَيْثُ إلاَّ اللهُ](٢).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٤٦٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٤٦٥) عـن مجـاهد مرسـلاً بلفـظ قريـب مـن هـذا. والبخاري في الصحيح: في كتاب التفسير عن ابن عمر رَضِـيَ اللهُ عَنـهُمَا. والإمـام الطـبراني في المعجم الأوسط: ج ٢ ص٥٤٦: الحديث (١٩٣٨) عن ابن عمر بلفظ قريب منه. =

يقالُ: إنَّ هذه الخمسة الأشياءِ التي ذكَرَها اللهُ في هذه الآيةِ هي مفاتيحُ الغَيْب لا يعلمُها إلاَّ اللهُ، استأثرَ اللهُ بهنَّ، فلم يُطْلِعْ عليهنَّ مَلَكاً مُقرَّباً ولا نَبيّاً مُرسَلاً.

ومعنى الآيةِ: (إنَّ اللهَ عندَهُ عِلْمُ) قيامِ (السَّاعَةِ)، فلا يدري أحدٌ سواهُ متى تقومُ، في أيِّ سَنةٍ أو في أيِّ شهرٍ، ليلاً أو نَهاراً. وقولُه (وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ) معناهُ: هو المختصُّ بإنزالِ الغيثِ، وهو العالِمُ بوقتِ إنزالهِ، (وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْضِ) أي لا يعلمُ أحدٌ ما في الأرحامِ أذكرٌ أم أنثى، أحمرٌ أم أسودٌ، وإنَّما يعلمهُ الله عَزَّ وَجَلَّ نطفةً وعلقة ومُضغةً، وذكراً أم أنثى، وشقِيّاً وسَعيداً، ومتى ينفصلُ عن أمِّهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (وَمَا تَدْري نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً) يعنِي: ماذَا تكسبُ من الخيرِ والشرِّ، أي مَا تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً خيراً أو شرّاً، (وَمَا تَدْري نَفْسٌ بأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) أي في بَرٍّ أو بحرٍ أو سَهلٍ أو جبلٍ. قال ابنُ عبَّاس: (هَذِهِ الْخَمْسَةُ لاَ يَعْلَمُهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مُصْطَفَى، فَمَنِ ادَّعَى أنَّهُ يَعْلَمُ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ فَقَدْ كَفَرَ بالْقُرْآنِ لأَنَّهُ خَالَفَهُ)(١).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ أي عَلِيمٌ بخَلقهِ، خَبيرٌ بأعمالِهم وبِما يصيبُهم في مستقبلِ عُمرِهم.

وروي أن يهودياً كان في المدينة يحسب حساب النجوم، فقال اليهوديُّ لابن عباس: إن شئت أنبأتك عن ولدك وعن نفسك، إنك ترجع الى منزلك فتلقى إبناً لك محموماً، ولا يمكث عشرة أيام حتى يموت الولد، وأنت لا تخرج من الدنيا حتى تعمى، فقال ابن عباس: وأنت يا يهودي، قال: لا يحول عليَّ الحول حتى أموت؟ قال: فأين

=ولم أقف على رواية المصنف رَحِمَهُ اللهُ كما ذكرها هنا. وذكر القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٨٣: (الرجل اسمه: الوارث بن عمرو بن حارثة بن محارب)، قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٥.

ولعل في المخطوط تصحيف من الناسخ، ولكن لا أستطيع الجزم؛ لأن الخط واضح برسم اسم البراء بن مالك. لأن البراء ﷺ ليس من البادية، فهو البراء بن مالك بن النضر الأنصاري، أخو أنس بن مالك لأبيه وأمه. مما يرجح ان هناك وهم أو تصحيف. والله أعلم.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٦٦) عن قتادة ﷺ.

موتك يا يهودي؟ قال ما أدري، قال ابن عباس: صدق الله (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) قال فرجع ابن عباس فلقي إبناً له محموماً، فلما بلغ عشراً مات الصبي، ويقال عن اليهودي ((أنه ماتَ قبل الحول))[١]، وما خرج ابن عباس من الدنيا حتى كُفَّ بصره[٢].

آخر تفسير سورة (**لقمان**) والحمد لله رب العالمين

(١) تصحيف في أصل المخطوط: (قبل فقالوا مات)، وضبطت كما في تفسير الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٨٣.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٨٣. ثم قال: (قال الحسين بن علي راوي هذا الحديث: هذا أعجب الأحاديث).

سُورَةُ الْجُــرُزِ

سُورَةُ الْجُرُزِ؛ يَعْنِي السَّجْدَةَ؛ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ حَرْفاً، وثلاثُمِائَةٍ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَثَلاثُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَأَنَّمَا أَحْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ][1]. وَكَانَ ﷺ لاَ يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَهَا وَسُورَةَ تَبَارَكَ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾؛ أي الم هو تنْزيلُ الكتاب، لا شكَّ فيه أنه تَنَزَّلَ من رب العالمين، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾؛ معناهُ: يقول أهلُ مكَّة: اختَلَقَهُ مُحَمَّد من تلقاءِ نفسه، وليس كما يقولون، ﴿ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾؛ أي لتخوِّفَ بالقرآن قوماً؛ ﴿ مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾؛ لم يشاهدوا قبلَكَ في زمانِهم الذي هم فيه رسُولاً مُخوِّفاً؛ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي لكي يهتَدُوا إلى الإيمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾؛ أي في مقدار ستَّة أيام من أيامِ الدنيا، أوَّلُها يوم الأحدِ، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾؛ أي استولَى عليه، وقد تقدَّم في ذلك في سورة الأعرافِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ ﴾؛ أي قريبٍ ينفعُكم، ﴿ وَلَا شَفِيعٍ ﴾؛ يشفعُ لكم، ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي أفلاَ تعتَبرون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي يدبرُ اللهُ أمرَ الدنيا مدَّة أيامها، فيُنْزِلُ القضاءَ والقدرَ من السَّماء إلى الأرضِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٣٢٥. ذكره الزمخشري في الكشاف: ج٣ ص٥٠٢.

يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾؛ قال ابن عباس: مَعْنَاهُ: يَعُودُ إِلَيْهِ الأَمْرُ وَالتَّدْبِيرُ حِينَ يَنْقَطِعُ أَمْرُ الأُمَرَاءِ وَأَحْكَامُ الْحُكَّامِ، وَيَنْفَرِدُ اللهُ تَعَالَى بالأَمْرِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ) يَعْنِي أَنَّ يَوْماً مِنْ أَيَّامِ الآخِرَةِ مِثْلَ أَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَأَرَادَ بِهَذا الْيَوْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقِيْلَ: معناهُ: يقطع المَلَكُ من المسافةِ نازلاً وصاعداً في يومٍ واحد وهو مسيرةُ ألفِ عام مما يعدُّه أهل الدنيا بمسيرهم، وذلك أنَّ بين السماءِ والأرض مسيرةَ خمسمائة عامٍ لبني آدمَ، وصعودهُ من الأرضِ إلى السماء كذلكَ؛ والمَلَكُ يقطعهُ في يومٍ واحد. ولو أرادَ الله من المَلَك الصعودَ والنُّزول بدون مقدارِهِ (اليومَ) لفعلَهُ المَلَك.

وأما قولهُ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(١) فإنْ كان أرادَ مدَّةَ المسافةِ من الأرض إلى سِدْرَةِ(٢) المنتهَى التي فيها مقامُ جبريل، فالمعنى يسيرُ جبريلُ والملائكة الذين معه من أهلِ مقامه مسيرةَ خمسين ألفَ سنةٍ في يوم واحدٍ من أيامِ الدنيا، فيكون معنى قوله تعالى: (إِلَيْهِ) على هذا التأويل؛ أي إلى مكان المَلَك الذي أمرَهُ الله أن يعرجَ إليه، كقول إبراهيمَ ﷺ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِي﴾(٣) أي حيث أمرَني ربي بالذهاب إليه، وهو الشَّام. وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾(٤) أي إلى المدينةِ. ولم يكن اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالمدينةِ ولا بالشام.

وعن أبي هريرةَ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أَتَانِي مَلَكٌ لَمْ يَنْزِلْ إِلَى الأَرْضِ قَبْلَهَا قَطُّ برِسَالَةٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ رَفَعَ رِجْلَهُ فَوَضَعَهَا فَوْقَ السَّمَاءِ وَالأُخْرَى فِي الأَرْضِ لَمْ يَرْفَعْهَا](٥).

---

(١) المعارج / ٤.

(٢) في أصل المخطوط: (مدة) والصحيح: سدرة.

(٣) الصافات / ٩٩.

(٤) النساء / ١٠٠.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٧ ص٣٥٥: الحديث (٦٦٨٥). وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص٨٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه صدقة بن عبدالله التنيسي، والأكثر=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ ؛ أي ذلك الذي صَنَعَ ما ذكرناهُ من خلقِ السموات والأرض، هو عالِمُ ما غابَ عن الخلق وعالِمُ ما خفِيَ، لا يقدرُ عليه سواهُ كما لا يعلم الغيبَ غيرهُ. وقوله تعالى: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ﴾ ؛ أي القادرُ الذي لا يُقاوَم، المنيعُ في مُلكِهِ، المنعِمُ على عبادهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ ؛ قرأ نافع وأهل الكوفة: (خَلَقَهُ) بفتحِ اللام على الفعل؛ أي أحكمَ كلَّ شيء مما خلَقهُ. وقرأ الباقون: (خَلْقَهُ) بسكون اللام؛ أي أحسنَ خلقَ كلِّ شيء، فيكون نصبُ قولِه:(خَلْقَهُ) على البدل. وقال مقاتلُ: ((مَعْنَاهُ: الَّذِي عَلِمَ كَيْفَ يَخْلُقُ الأَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ أنْ يُعَلِّمَهُ أحَدٌ))(١). وقال السديُّ: ((أحْسَنَهُ: لَمْ يُعَلِّمْهُ مِنْ أحَدٍ)).

قِيْلَ: إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا طوَّل رجل البهيمةِ والطير، طوَّل عُنقَهُ لئلا يتعذرَ عليه تناولُ قُوتِه من الأرض، ولو لم يطوِّل عنُقه لما نالَ معيشته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ﴾ ؛ يعني آدمَ عليه السلام كان أول طيناً، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ ﴾ ؛ أي ذرِّيته، ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾ ؛ أي من قليلٍ من الماء ينسَلُّ من صُلب الرجل وترائب المرأة، وهي النطفةُ، ووصفَها بالـ (مُهين) لأنه لا خطرَ له عند الناسِ. وسُميت سُلالةً لأنَّها تُنسَلُّ من الإنسان؛ أي تخرجُ. والمَهِيْنُ هو الضعيفُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ ؛ رجعَ إلى ذكرِ آدم، يعني سوَّى خلقَهُ ونفخَ فيه من روحهِ؛ ثم عادَ إلى ذُريَّته فقال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ ؛ بعد أنْ كنتم نُطَفاً. والأفئدةُ هي القلوبُ، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾ ؛ هذه النِّعَمَ فتوحِّدونَهُ. والمعنى: خلقَ لكم السمعَ فاستمِعُوا إلى الحقِّ، والأبصارَ فأبصِرُوا الحقَّ، والأفئدةَ؛ أي القلوبَ؛ فاعقِلُوا الحقَّ.

=على تضعيفه، وقد وثقه يحيى بن معين ووحيم). ويوجد اضطراب في ترتيب ألفاظ الحديث في أصل المخطوط. وضبط النص على أصله في المعجم.

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٧.

وَقِيْلَ: معنى (ثُمَّ سَوَّاهُ) يعني الماءَ المهينَ جَمَعَهُ وخلقَهُ وصوَّرَهُ ونفخَ فيه من روحهِ؛ أي نفخَ فيه الروحَ الذي يحيا به الناسُ. أضافَ الله ذلك إلى نفسهِ لأنه هو الخالقُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ﴾ ؛ أي قال الكفارُ: إئذا هلَكنا وانقطعت أوصالُنا وذهبت آثارُنا وصِرنا تُراباً، فلم يتبيَّن شيءٌ من خلقِنا، أنُبعَثُ بعد ذلك؟! هذا لا يكونُ أبداً. ومعنى الضَّلالة في اللغة: الغيبوبةُ، يقال: ضلَّ متاعُ فلان وضاعَ، بمعنى واحد.

وقولهُ تعالى: ﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ﴾ ؛ أي ليس كما يقولون أنَّهم لا يُبعثون، بل هم بلقاءِ ربهم كافِرُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ؛ أي يقبضُ أرواحَكم أجمعين ملكُ الموتِ، ﴿ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ ؛ قال مجاهد: ((حُويَتْ لَهُ الأَرْضُ فَجُعِلَتْ لَهُ مِثْلَ طِسْتٍ، يَتَنَاوَلُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ))[1]. وقال الكلبيُّ: ((اسْمُ مَلَكِ الْمَوْتِ عِزْرَائِيلُ، وَلَهُ أرْبَعَةُ أجْنِحَةٍ: جَنَاحٌ مِنْهَا بالْمَشْرِق، وَجَنَاحٌ بالْمَغْرب، وَالْخَلْقُ بَيْنَ رجْلَيْهِ وَرَأسِهِ وَجَسَدِهِ، وَجُعِلَتْ لَهُ الدُّنْيَا مِثْلَ رَاحَةِ الْيَدِ لِصَاحِبِهَا، يَأْخُذُ مِنْهَا مَا أمِرَ بقَبْضِهِ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلاَ عَنَاءٍ، وَلَهُ أعْوَانٌ مِنْ مَلاَئِكَةِ الرَّحْمَةِ وَمِنْ مَلاَئِكَةِ الْعَذَاب))[2].

وعن أنسِ بن مالك قال: [لقِيَ جِبْرِيلُ مَلَكَ الْمَوْتِ بنَهْرِ فَارسَ، فَقَالَ: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ كَيْفَ تَسْتَطِيعُ قَبْضَ الأَنْفُس، هَا هُنَا عَشْرَةُ آلاَفٍ، وَهَا هُنَا كَذا وَكَذا؟ قَالَ عِزْرَائِيلُ[3]: تُزْوَى لِيَ الأَرْضُ حَتَّى كَأَنَّهَا بَيْنَ فَخِذَيَّ فَأَلْتَقِطُهُمْ بيَدَيَّ].

وقالَ ﷺ: [إذا حَانَ أجَلُ الرَّجُلِ، أتَاهُ مَلَكٌ فَقَالَ: أيُّهَا الْعَبْدُ كَمْ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، وَكَمْ رَسُولٌ بَعْدَ رَسُولٍ؟ أنَا الْخَبَرُ لَيْسَ بَعْدِي خَبَرٌ، وَأنَا الرَّسُولُ لَيْسَ بَعْدِي

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٥٠٠).

(٢) ذكر مقاتل بعضه في التفسير: ج ٣ ص٢٨.

(٣) في المخطوط: (جبرائيل) وهو تصحيف.

رَسُولٌ، أَجِبْ رَبَّكَ طَائِعاً أَوْ مَكْرُوهاً. فَإذا قُبِضَتْ رُوحُهُ وَتَصَارَخُوا عَلَيْهِ، قَالَ: عَلَى مَنْ تَصْرخُونَ وَعَلَى مَنْ تَبْكُونَ؟ وَاللهِ مَا ظَلَمْتُ لَكُمْ أَجَلاً وَلاَ أَكَلْتُ لَكُمْ رِزْقاً، بَلْ دَعَاهُ رَبُّهُ، فَلْيَبْكِ الْبَاكِي عَلَى نَفْسِهِ، فَإنَّ لِي فِيكُمْ عَوْدَاتٍ وَعَوْدَاتٍ حَتَّى لاَ أَبْقِي مِنْكُمْ أحَداً][(١)].

وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي تصيرون إليه أحياءً فيجزيَكم بأعمالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ يعني كفارَ مكَّة ناكِسُوا رؤوسهم حياءً وندماً، والمعنى: ولو ترَى يا مُحَمَّدُ إذِ المجرمون مُطرِقوا رؤوسهم من الخزْيِ وشدة الندمِ في يومِ القيامة عند علمِهم بأن الحجَّةَ قد قامت عليهم من كلِّ جهةٍ، وأنَّهم لا مهربَ لهم من العذاب، وذلك هو الغايةُ في الوجَلِ والخجلِ، يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ ؛ أي لكَ الحجَّة علينا لأنا أبصَرْنا رسُلكَ وسمعنا كلامَهم، ﴿ فَٱرْجِعْنَا ﴾ ؛ أي ولكن نسألُكَ أن تُرجِعَنا إلى الدُّنيا حتى، ﴿ نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ بكَ وبكتابك وبرسُلك. وهذه الآية محذوفةُ الجواب؛ أي لو رأيتَ يا مُحَمَّد، لرأيتَ غايةَ ما تعتبرُ به.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٨٣٢) عن أبي جعفر مُحَمَّد بن علي رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا. وفي مجمع الزوائد: ج ٢ ص٣٢٦؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير، وفيه عمر ابن شمر الجعفي والحارث بن خزرج ولم أجد من ترجمهما، وبقية رجاله رجال الصحيح) وأوله: [ونظر إلى ملك الموت]. عن الحارث بن خزرج قال: سمعت رسول الله ﷺ ... وذكره.

وأما الحارث بن خزرج، فهو الحارث بن خزمة بن عدي بن أبي بن غنم بن سالم بن عوف ابن خزرج الأنصاري. من الصحابة المقلّين، قال القرطبي: كان من القواقلة. ترجم سيرته ابن عبد البر في الاستيعاب: ج ١ ص٣٥٢: الرقم (٤١٢). وابن حجر في الإصابة: الرقم (١٤٠١).

وأما عمر بن شمر الجعفي، فهو عمرو بن شمر الجعفي، ترجم سيرته ابن عدي في الكامل: ج ٦ ص٢٢٦: الرقم (٣٢٥/ ١٢٩٢)، وذكر عن حسين الجعفي قال: (أؤذن وكان عمرُو بن شمرٍ يَؤمُّهم، فمكثت ثلاثين سنة أجتهد أن أسبقه إلى المسجد أو أخرج بعده فلم أقدر) وقال: سمعت ابن حماد يقول: قال السعدي: عمرو بن شمر زائغ كذاب. ونقل عن النسائي قال: عمرو بن شمر كوفي متروك الحديث.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ؛ قال الحسنُ: ((أَرَادَ بِهِ مَشِيئَةَ الْقَدَر مِنَ اللهِ تَعَالَى؛ لأَنَّهُ لَمْ يَعْجَزْ عَنْ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهُ لاَ يُجْبِرُ الْعِبَادَ عَلَى ذلِكَ لِكَيْ لاَ يُبْطِلَ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ)). والمعنَى: ولو شِئنا لآتَينا كلَّ نفسٍ رُشدَها وثباتَها، ومثلُ ذلك ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾(١) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ ؛ معناه: ولكن وجب قولي عليهم بالعذاب، ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ بكفرهم وذنوبهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ ؛ معناهُ: يقال لأهلِ النار إذا دخَلوها: ذُوقوا العذابَ بما نسيتُم لقاءَ يومِكم هذا؛ أي بما ترَكتُم الإيمانَ بيومكم هذا. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ ؛ أي ترَكناكم في العذاب وأحلَلناكم محلَّ المنسيِّ، ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ ؛ أي الذي لا ينقطعُ، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ من الكفرِ والتكذيب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ ؛ معناه: إنما يُقِرُّ ويصدِّقُ بدلائلنا، ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ﴾ ؛ أي وُعِظُوا بها، ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ ؛ للهِ مُصَلِّين مع الإمامِ، ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي عظَّموا اللهَ ونزَّهوهُ في صلاتِهم حامِدين لربهم، ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي يُعفِّروا وجوهَهم صاغرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ ؛ أي ترفعُ لأجلِ الصلاة، قال مجاهد: ((هُمُ الَّذِينَ لاَ يَنَامُونَ حَتَّى يُصَلُّوا الْعِشَاءَ الآخِرَةَ)). والمضاجعُ: هي الفُرُشُ التي يضطَجِعون عليها للنومِ، واحدُها مَضْجِعٌ.

وعن أنسٍ ﷺ قال: ((نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعَاشِرَ الأَنْصَار، حَتَّى كُنَّا نُصَلِّي الْمَغْرِبَ فَلاَ نَرْجِعُ حَتَّى نُصَلِّي الْعِشَاءَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ))(٣). ورُوي: أنَّ امرأةً

---

(١) يونس / ٩٩. (٢) الأنعام / ٣٥.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص٢٣٥. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث=

جاءت إلى أنس بن مالك فقالت: إنِّي أنامُ قبلَ العشاءِ، فقال: ((لاَ تَنَامِي؛ فَإِنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ لاَ يَنَامُونَ قَبْلَ الْعِشَاءِ، تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ))(١).

وقال الحسنُ: ((الْمُرَادُ بالآيَةِ قِيَامُ اللَّيْلِ وَالتَّهَجُّدُ))(٢)، وكان يقولُ: ((هُمْ قَوْمٌ أخْفَوا للهِ تَعَالَى عَمَلاً، وَأخْفَى لَهُمْ ثَوَاباً))(٣).

وعن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [عَلَيْكُمْ بقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإنَّهُ دَأبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إلَى اللهِ تَعَالَى، وَمُنْهَاةٌ عَنِ الإثْمِ، وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَطْرَدَةٌ للدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ](٤). وقال الضحَّاك: ((هُوَ أنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ))(٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ؛ أي خَوفاً من عذاب الله وطَمعاً في رحمةِ الله. وانتصبَ (خَوْفاً) و(طَمَعاً) لأنه مفعولٌ له. وقولهُ تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي ومما أعطَيناهم من المالِ يتصدَّقون واجباً وتطوُّعاً.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ؛ أي لا يعلمُ أحدٌ ما أخفَى اللهُ لهم مما تُقَرُّ به أعينُهم وتطيبُ به أنفسهم، ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا من الأعمالِ الصَّالحة.

=(٢١٥٠٥) بأسانيد عديدة. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٨٣٦-١٧٨٣٩).

(١) أخرجه عن أنس كثيرون، في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٤٥-٥٤٦ عزاه السيوطي إلى الفريابي وابن أبي حاتم وابن مردويه ومحمد بن نصر وعبدالرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وعبدالله بن أحمد بن حنبل في وزائد الزهد وابن عدي والبزار والبيهقي.

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٤٨؛ قال السيوطي: (وأخرجه ابن نصر وابن جرير عن الحسن) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٥١٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٧٨٤٢).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٦١٥٤) من طريق سلمان الفارسي. وفي مجمع الزوائد: ج ٢ ص٥١؛ قال الهيثمي: (وفيه عبدالرحمن بن سليمان، وثقه وحيم وابن حبان وابن عدي، وضعفه أبو داود وأبو حاتم). وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٤ ص١٥٩: الحديث (٣٢٧٧) من طريق أبي أمامة الباهلي وإسناده حسن.

(٥) أصل هذا الفهم حديث عثمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ شَهِدَ الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ لَهُ قِيَامُ نِصْفِ لَيْلَةٍ، وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ لَهُ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ]. أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٥٨ و٦٨. وأبو داود في السنن: الحديث (٥٥٥). والترمذي في الجامع: الحديث (٢٢١).

قال ابنُ مسعود: ((إنَّ فِي التَّوْرَاةِ مَكْتُوبٌ: لَقَدْ أعَدَّ اللهُ لِلَّذِينَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أذُنٌ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَمَا لَمْ يَحْمِلْهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَإنَّهُ فِي الْقُرْآنِ: (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).))[1].

قرأ حمزةُ (مَا أخْفِيْ لَهُمْ) بإسكان الياء؛ أي ما أخفِي لهم أنا، وحجَّتهُ (قُرَّةٍ). وقرأ عبدُالله: (نُخْفِي لَهُمْ) بالنون. وقرأ مُحَمَّد بن كعبٍ: (مَا أخْفَى لَهُمْ) بفتح الألف والفاء، يعني أخفَى اللهُ لهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ قال ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ((نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَلِيِّ بْنِ أبي طَالِبٍ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أبي مُعَيْطٍ، جَرَى بَيْنَهُمَا تَنَازُعٌ وَتَسَابٌّ، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: اسْكُتْ فَإنَّكَ صَبِيٌّ وَأنَا وَاللهِ أحَدُّ مِنْكَ لِسَاناً وَأبْسَطُ مِنْكَ فِي الْقَوْلِ، وَأمْلأُ مِنْكَ فِي الْكَتِيبَةِ. فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: اسْكُتْ فَإنَّكَ فَاسِقٌ تَقُولُ الْكَذِبَ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ))[2]. والمرادُ بالمؤمنِ: عليٌّ بن أبي طالبٍ ﷺ، وبالفاسق: الوليدَ بن عُقبة.

وقال الزجاجُ: ((إنَّهُ لَمْ يُرِدْ بالْمُؤْمِنِ مُؤْمِناً، وَلِذلِكَ قَالَ: (لاَ يَسْتَوُونَ) وَلَمْ يَقُلْ: لاَ يَسْتَوِيَانِ)). وقال قتادةُ في معنى الآيةِ: ((وَاللهِ مَا اسْتَوَواْ لاَ فِي الدُّنْيَا وَلاَ عِنْدَ الْمَوْتِ وَلاَ فِي الآخِرَةِ))[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾؛ التي يأوي إليها المؤمنون، وقوله: ﴿ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي مُعدَّة لهم بأعمالِهم.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٩ ص٢١٣: الحديث (٩٠٣٩) عن عبدالله بن مسعود ﷺ. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني عن شيخه عبدالله بن محمَّد ابن سعيد وهو ضعيف). وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٦٠٣)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٥٣٢) عن عطاء مرسلاً. والواحدي في أسباب النزول: ص٢٣٥-٢٣٦. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٨٥٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٨٥٢).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ؛ أي وأما الذين خرَجُوا من طاعةِ الله بكُفرِهم، فمأواهُم النارُ، ﴿ كُلَّمَآ ﴾ ؛ رفعَهم لَهبُ النار إلى أعلاها، فظنُّوا أنَّهم يخرُجون منها فـ، ﴿ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا ﴾ ، ردَّتْهم ملائكةُ العذاب إلى أسفلِها بمقامعَ من حديدٍ، ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا.

وقولـه تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ ؛ قِيْلَ: إن المرادَ بالعذاب الأدنى هو القحطُ والجوع الذي أصابَ أهل مكَّة سبعَ سنين حتى أكلُوا الجيفَ والعظامَ والكلاب. وَقِيْلَ: هو القتلُ يومَ بدرٍ. وَقِيْلَ: العذابُ الأدنى هو مصائبُ الدنيا وأسقامها وبلاؤها. وَقِيْلَ: العذابُ الأدنى هو عذابُ القبر، والعذابُ الأكبر هو عذابُ يومِ القيامة. وقولهُ تعالى: ﴿ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ ؛ يعني بالعذاب الأكبر عذابَ الآخرة، وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي أخبَرناهم ليرجِعُوا عن الكفرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى. قولهُ: ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ يعني الذين قُتلوا ببدرٍ، وعجَّلنا أرواحَهم إلى النار. وأرادَ بالْمُجرمين المشركين. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [ثلاَثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ أجْرَمَ: مَنْ عَقَدَ لِوَاءً فِي غَيْرِ حَقٍّ، أوْ عَقَّ وَالِدَيْهِ، أوْ مَشَى مَعَ ظَالِمٍ لِيَنْصُرَهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (إنَّا مِنْ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ)][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ ؛ أعطيناهُ التوراةَ جُملةً واحدةً، ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ ؛ وعَدَ النبيَّ ﷺ أن سيَلقى موسَى قبلَ أن يموتَ، ثم لَقِيَهُ في السَّماء ليلةَ المعراجِ أو في بيت المقدس حين أسريَ به، والمعنى: فلا تكن في شكٍّ من لقاءِ موسى. قال ابنِ عباس: ((يَعْنِي لَيْلَةَ الإسْرَاءِ))[2]. ويقال: أرادَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٧٨٥٧) عن معاذ بن جبل ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول... وذكره. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٥٥٨) واللفظ لابن أبي حاتم كما في التفسير.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٥٥٩) مطولاً.

به لقاؤهما في الجنَّة. ويقال: أرادَ به لقاءَ الله. ويقال: أرادَ به أن يلقَى مُحَمَّدٌ ﷺ من قومهِ الأذى مثلَ ما لَقِيَ موسى من قومهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي جعَلنا التوراةَ هُدًى لبني إسرائيلَ من الضَّلالة، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ﴾ ؛ أي جعَلنا من بني إسرائيل أئمَّة، ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ ؛ يدُلُّون الناسَ على ديننا فيُقتدَى بهم، فهم أنبياؤهُم ومَن استقامَ منهم على الدِّين. وقوله تعالى: ﴿ لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾ ؛ أي لما صبَرُوا جعلناهم أئمَّة، كأنه قال: إنْ صبَرتُم على طاعتنا وصبرتُم على معصيتنا جعلناكم أئمَّة.

قرأ حمزةُ والكسائي: (لِمَا صَبَرُوا) بكسرِ اللام وتخفيف الميم؛ أي لِصَبْرِهِمْ. ومعنى القراءةِ الأُولى: حين صَبَروا. والمعنى: لَمَّا صبَروا على دينهم وعلى البلاءِ من عدوِّهم بمصر، ﴿ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي ولكونِهم موقنين بآياتِنا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي هو الذي يقضِي بين المؤمنين والكفار يومَ القيامة، ﴿ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ من الدِّين.

ثم خوَّفَ كفارَ مكة فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ ؛ أي أوَلَمْ يتبيَّن لهم آثارُ عذاب الاستئصال فيمَن أهلِكَ قبلَهم من الأُمم الماضية المكذِّبة ما يكون عبرةً لهم، يَمشُونَ في مساكنِ المهلَكين على منازلِهم وقُراهم، مثل آثار عادٍ وثمود وقومِ لوط وغيرهم، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي إنَّ في إهلاكِنا إياهم بالتكذيب، ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ ؛ لدلالاتٍ واضحة لِمَن بعدَهم، ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ سماعَ القبول والطاعةِ. ومن قرأ (أوَلَمْ نَهْدِ) بالنون، فالمعنى بإضافةِ الفعلِ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ ؛ معناه: أوَلَمْ يعلَمُوا أنا نسوقُ المطرَ بالسَّحاب والرياح إلى الأرضِ اليابسة التي لا نباتَ فيها ولا شجرَ، ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِۦ ﴾ ؛ بذلك المطر، ﴿ زَرْعًا ﴾ ؛ رزْقاً، ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ ﴾ ؛ أي تأكلُ أنعامهم من سَاقِها، ﴿ وَأَنفُسُهُمْ ﴾ ؛ وهم يأكلون مِن حبها، ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أفلا يعقِلون.

والأرض الْجُرُزُ: هي التي تأكلُ نباتَـها، يقـال: ناقـة جَـرُوزٌ إذا كـانت أكُـولاً، وسيفٌ جِرَازٌ إذا كان مُستَأصِلاً، ورجلٌ جُرُزٌ إذا كان أكُولاً. قال ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ((هِيَ أَرْضٌ بالْيَمَنِ))[1]. وقال مجاهدُ: ((هِيَ أَبْيَنُ))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ ﴾ ؛ وذلـك أن كفـارَ مكـة كـانوا يُؤذون أصحابَ رسول الله ﷺ، وكان أصحابُ رسـول الله ﷺ يقولـون: يوشِـكُ أن يكون لنا يومٌ نستريحُ فيه من شِركهم، فكان الكفارُ يهزَءون بهم ويقولون: متـى هـذا الفتحُ؛ أي الحكـمُ الـذي بيننـا وبينكـم، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ فيمـا تقولُون[3].

والمعنى: أنَّ كفارَ مكة يقولون: متى هذا الفتحُ؛ أي القضاءُ وهـو يـوم البعـثِ، يقضي فيه اللهُ بين المؤمنين والكافرين.

فقـالَ اللهُ تعـالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ ﴾ ؛ يعـني يـومَ القيامـة ويـومَ القضاءِ والفصل، ﴿ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ ﴾ ؛ لو آمَنُوا يومئـذٍ، ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي ولا هم يُمـهَلون، ولا يؤخَّـرون لمعـذرةٍ أو توبـة، ولا تؤخَّـرُ عنهم عقوبتُهم.

وعن ابنِ عبَّاس في هذه الآيةِ: ((الْمُرَادُ بالْفَتْحِ فَتْحُ مَكَّةَ، وَأنَّ الآيَةَ نَزَلَـتْ فِـي بَنِي خُزَيْمَةَ، كَانُوا هُمُ الَّذِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بأَصْحَاب النَّبِيِّ ﷺ حِينَ كَـانَ أصْحَـابُ النَّـبِيِّ ﷺ يَتَذاكَرُونَ وَهُمْ بمَكَّةَ فَتْحَ مَكَّةَ لَهُمْ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ تَكَلَّمَتْ بَنُو خُزَيْمَةَ بكَلِمَةِ الإسْلاَمِ، فَقَتَلَهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ إسْلاَمَهُمْ)) وَكَـانَ النَّـبِيُّ ﷺ يَقُـولُ: [اللَّهُمَّ إنِّي أبْرَأُ إلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ][4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٥٦٥).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٥٦٦).
(٣) نقله ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٨٦٦) عن قتادة. والطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٥٧١).
(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص١٥٠-١٥١. والبخـاري في الصحيـح: كتـاب المغـازي: باب بعث النبي ﷺ خالد: الحديث (٤٣٣٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي عن جوابهم، ﴿ وَانتَظِرْ ﴾ ، الفريضةَ فيهم، ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ الفرصةَ فيك. قال ابنُ عبَّاس: ((قَوْلُهُ تَعَالَى: (فأعْرِضْ عَنْهُمْ) نَسَخَتْهُ آيَةُ السَّيْفِ))[1]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ) أيْ مُنْتَظِرُونَ لَكَ حَوَادِثَ الأَزْمَانِ مِنْ مَوْتٍ أوْ قَتْلٍ فَيَسْتَرِيحُونَ مِنْكَ.

آخر تفسير سورة (**السجدة**) والحمد لله رب العالمين

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٤٩٨.

سُورَةُ الأحْـزَابِ

سُورَةُ الأَحْزَابِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسَةُ آلاَفٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَأَلْفٌ وَمِائَتَانِ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَثَلاَثٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا وَعَلَّمَهَا أَهْلَهُ وَمَا مَلَكَتْ يَمِيْنُهُ؛ أُعْطِيَ الأَمَانَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ][1] وبهِ التَّوفيقُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (وَذلِكَ أنَّ أبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ؛ وَعِكْرِمَةَ بْنَ أبي جَهْلٍ؛ وَأبَا الأَعْوَر السُّلَمِيّ قَدِمُوا فَنَزَلُوا عَلَى عَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ رَأسِ الْمُنَافِقِيْنَ؛ وَجَدِّ ابْنِ قَيْسٍ؛ وَمُعْتَب ابْنِ قَسْرٍ الْمُنَافِقِيْن.

وَكَانَ يَوْمَئِذٍ مَعَ الْمُشْرِكِيْنَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أبي سَرْحٍ، فَطَلَبُوا النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ كَانُوا طَلَبُوا مِنْهُ الأَمَانَ عَلَى أنْ يُكَلِّمُوهُ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفُضْ ذِكْرَ آلِهَتِنَا اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاتَ، وَقُلْ: إنَّ لَهَا شَفَاعَةً فِي الآخِرَةِ وَمَنْفَعَةً لِمَنْ عَبَدَهَا، وَنَدَعُكَ أنْتَ وَرَبَّكَ! فَشَقَّ ذلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: ائْذنْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ فِي قَتْلِهِمْ، فَقَالَ ﷺ: [إنِّي قَدْ أعْطَيْتُهُمُ الأَمَانَ]. فَأمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عُمَرَ أنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْمَدِيْنَةِ، فَقَالَ لَهُمْ عُمَرُ رضي الله عنه: أخْرُجُوا فِي لَعْنَةِ اللهِ وَغَضَبِهِ، وَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ[2]).

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٨ ص٥ عن أبي بن كعب وإسناده ضعيف. وذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٥٤٨.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص٢٣٦. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١١٤؛=

ومعناهَا: يا أيُّها النبيُّ اتَّقِ اللهَ في نقضِ العهد الـذي بينَـكَ وبـين أهـلِ مكَّـة لا تَنْقِضْهُ قبلَ أجَلِهِ (وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) فيما دعَوكَ إليه، ولا تَمِلْ إليهم، ولا تَرْفِقْ بهم ظَنّاً منكَ أن ذلك أقربُ إلى استِمَالَتِهم إلى الإيْمان، فإن ذلـك يـؤدِّي إلى أن يُظَنَّ بك مقارنة القومِ على كُفرهم، فمعنى قولِهِ (وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِيْنَ وَالْمُنَافِقِيْنَ) يعني أبَا سُفيان وأبا الأعور وعِكرمةَ، والمنافقين عبداللهِ بنِ أبَي وجَدٌ بنِ قَيْسٍ وغيرِهما.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي عَلِيمـاً بأحوَالِهم، حَكِيماً فيما أوجبه عليك في أمرِهم وفيما يخلقهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي اعمَلْ بما أمـرَكَ اللهُ في القُرآن من مُجانَبَةِ الكفَّار والمنافقينَ وتَرْكِ مُوافقَتِـهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ قرأ بالياءِ أبو عمرٍو، وقرأ الباقونَ بالتَّاء أي خَبيرٌ بكَ وبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي فَوِّضْ أمرَكَ إلى اللهِ واعتمِدْ عليـه في مُعاملتِـهم بمـا أمِـرْتَ بـه في شـأنهم، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي حَافِظـاً وناصِراً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أبي مُعَمَّر جَمِيْلِ بْنِ أبِـي رَاشِـدِ الْفِـهْرِيِّ، وَكَانَ رَجُلاً حَافِظاً لَبِيْباً لِمَا يَسْمَعُ، وَكَانَ يَقُولُ: إنَّ فِـي جَوْفِـي لَقَلْبَيْـنِ، أعْقِـلُ بكُـلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أفْضَلَ مِنْ عَقْلِ مُحَمَّدٍ! وَكَانَتْ قُرَيْشُ تُسَـمِّيْهِ ذا الْقَلْبَيْـنِ لِدَهَائِـهِ وَكَـثْرَةِ حِفْظِهِ لِلْحَدِيْثِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الآيَةَ تَكْذِيْباً لَهُمْ، فَأَخْبَرَ أنَّهُ مَا خَلَـقَ لأَحَـدٍ قَلْبَيْنِ.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ وَهُزِمَ الْمُشْرِكُونَ وَفِيْهِمْ أبُو مُعَمَّـرٍ، تَلَقَّـاهُ أبُـو سُـفْيَانَ وَهُـوَ يَعْدُو وَإحْدَى نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ وَالأُخْرَى فِي رجْلِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أبَا مُعَمَّرٍ مَا فَعَلَ النَّاسُ ؟ قَالَ: انْهَزَمُوا. فَقَالَ لَهُ: مَا بَالُ إحْدَى نَعْلَيْكَ فِي يَدِكَ وَالأُخْرَى فِي رجْلِكَ ؟! فَقَالَ:

=قال القرطبي: (وقيل: إنها نزلت فيما قال الواحدي والقُشَيري والثعلبي والمـاوردي وغـيرهم).
وذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٢.

مَا شَعَرْتُ إلاَّ أنَّهُمَا فِي رِجْلِيَّ. فَعَرَفُوا يَوْمَئِذٍ أنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ قَلْبَانِ مَا نَسِيَ نَعْلَهُ فِي يَدِهِ)(١).

وقال الزهريُّ ومقاتلُ: (هُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلْمُظَاهِرِ امْرَأتَهُ وَالْمُتَبَنِّي وَلَدَ غَيْرِهِ، يَقُولُ: فَكَمَا لاَ يَكُونُ لِلرَّجُلِ قَلْبَان، لاَ تَكُونُ امْرَأةُ الْمُظَاهِرِ أمَّهُ حَتَّى لاَ يَكُونَ لَهُ أمَّانِ، وَلاَ يَكُونُ وَلَدٌ ابْنَ رَجُلَيْنِ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ ؛ أي ما جَعَلَ نساءَكم اللاَّئي تقولونَ لَهُن: أنتُنَّ علينا كظُهور أمَّهاتِنا، لَم نجعلَهن كأمَّهاتِكم في الْحُرْمَةِ. وكانت العربُ تُطَلِّقُ نساءَها في الجاهلية بهذا اللفظِ، فلما جاءَ الإسلامُ نُهُوا عنه، وأوجِبَتِ الكفارةُ في سورةِ الْمُجادلَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ ؛ أي ما جعلَ مَن تدَّعُونَهُ ابناً من أبناءِ غيرِكم كأبنائكم الذين مِن أصْلاَبكم في الانتساب والْحُرمَةِ والْحُكْمِ، وكان رسولُ اللهِ ﷺ قَدْ تَبَنَّى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ بَعْدَ أنْ أعْتَقَهُ، فَكَانَ يُقَالُ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا جَاءَ الإسْلاَمُ أمِرَ أنْ تُلْحَقَ الأدْعِيَاءُ بآبَائِهِم، وَكَانَ يَوْمَ تَبَنَّاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبْلَ الْوَحْيِ(٣).

قرأ نافعُ وأبو عمرٍو (وَتَظَّهَّرُونَ) بفتح التاءِ وتشديد الظَّاء والهاءِ من غير ألِف، وقرأ الشَّاميُّ كذلك إلاَّ أنَّه بألف، وقرأ حمزةُ والكسائي مثلَ قراءةِ شامي إلاّ أنه بالتخفيفِ، وقرأ عاصمُ والحسن بضمِّ التاء وتخفيف الظَّاء وبألف وكسرِ الهاء، قال أبو عمرٍو: (وَهَذا مُنْكَرٌ؛ لأنَّ التَّظَاهُرَ مِنَ التَّعَاوُنِ)(٤).

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٤. والواحدي في أسباب النزول: ص٢٣٦-٢٣٧. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٠٢٢. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١١٦.
(٢) ذكره مقاتل بمعناه في التفسير: ج ٣ ص٣٤.
(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص٢٣٧.
(٤) ينظر: الحجة للقراءات السبعة: ج ٣ ص٢٨٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ ؛ أي الذي تقولونَهُ من إضافةِ القَلبَينِ إلى الرجُل الواحدِ، وقولِ الرجُل لامرأتهِ: أنتِ علَيَّ كظهرِ أُمِّي، وقولِ الرجُل لغيرِ ابنه: هذا ابْنِي، قولُهُ: تقولونَ بأفواهِكم من غيرِ أن يكونَ له حقيقةٌ ولا عليه دلالَةٌ ولا حُجَّةٌ، ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ ؛ تعالَى، ﴿ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ ؛ أي يُبَيِّنُ أنَّ الذين يقولونه قولٌ باطل، ﴿ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي يَدُلُّ على طريقِ وإلى الدِّين المستقيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ ؛ أي نَسِّبُوا هؤلاءِ الأدعياء إلى الآباءِ الذين قد وُلِدُوا على فِرَاشِهم وقولوا: زيدُ بنُ حارثةَ، ولا تقولوا: زيدُ بن مُحَمَّدٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي أعْدَلُ في حُكمِ الله من نِسبَتِكم إياهم إلى الذين تبنَّوهُم. وعن ابن عمرَ ﷺ أنه كان يقولُ: (مَا كُنَّا نَدْعُوا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ إلاَّ زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أقْسَطُ عِنْدَ اللهِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ ؛ فهم إخوانُكم في الدِّين؛ أي مَن أسْلَمَ منهم، ﴿ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ ؛ أي وبنُو أعمَامِكم، فقولوا: يا أخِي ويا ابنَ عَمِّي. في الآيةِ إباحةُ إطلاق اسم الأُخُوَّةِ وحظْرُ اطلاق اسم الأبوَّةِ، وفي ذلك دليلٌ على أن مَن قال لعبدهِ: هذا أخِي؛ لَم يُعتَقْ لأنه يحتملُ الأخُوَّة في الدِّين، وإن قال: هذا ابنِي؛ عُتِقَ لأن ذلك ممنوعٌ في غيرِ النَّسب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾ ؛ أي ليس عليكم إثمٌ في نِسبَةِ الرجُل إلى غيرِ أبيه على وجهِ الخطأ. قال قتادةُ: (وَلَوْ دَعَوْتَ رَجُلاً

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٦٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر) وذكره. وأخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٧٨٢). ومسلم في الصحيح: الحديث (٦٢/ ٢٤٢٥). وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٢ ص٢٣٠: الحديث (١٣١٧٠).

لِغَيْرِ أبيْهِ وَأنْـتَ تَحْسَـبُ أنَّـهُ أبُـوهُ لَـمْ يَكُـنْ عَلَيْـكَ بَـأسٌ)[1]، ﴿ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ ﴾ ؛ أي ولكن الإثمُ عليكـم فيمـا تعمَّدونـَهُ مـن ادعائـهم إلى غـيرِ آبائـهم، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ ؛ أي لِمَن تعمَّدَ ثم تابَ، ﴿ رَّحِيمًا ۝٥ ﴾ ؛ به بعـدَ التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) موضع قوله (مَا) خُفِضَ عطفـاً علـى قولهِ (فِيمَا أخْطَأْتُمْ) تقديرهُ: ولكن فيما تعمَّدت قلوبُكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ ؛ أي هو أشْفَقُ وأبَـرُّ وأحقُّ بالمؤمنين مِن بعضهم ببعضٍ، وهو أولَى بكلِّ إنسانٍ منه بنفسهِ. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: إذا حَكَمَ فيهم بشيءٍ نَفَذ حكمهُ فيهم، ووجبَتْ طاعتهُ عليهم.

وقال ابنُ عبَّاس: (إذا دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إلَى شَيْءٍ، وَدَعَتْهُمْ أنْفُسُهُمْ إلَى شَـيْءٍ، كَانَتْ طَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ أوْلَى بهِمْ مِنْ طَاعَةِ أنْفُسِـهِمْ)[2]. وقـال مقـاتلُ: (مَعْنَـاهُ طَاعَتُـهُ النَّبِيِّ ﷺ أوْلَى بهِمْ مِنْ طَاعَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ)[3].

وقالت الحكماء: النبيُّ أولَى بالمؤمنينَ مِن أنفُسِهم لأنفُسِهم، تدعُوهم إلى ما فيـه هلاكُهم، والنبيُّ ﷺ يدعوهم إلى ما فيهِ نَجاتُهم. وقال أبو بكرٍ الورَّاق: (لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَدْعُوهُمْ إلَى الْعَقْلِ، وَأنْفُسُهُمْ تَدْعُوهُمْ إلَى الْهَوَى). وقال بَسَّامُ بنُ عبـدِالله[4]: (لأنَّ أنْفُسَهُمْ تُحْرَسُ مِنْ نَار الدُّنْيَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَحْرِسُهُمْ مِنْ نَار الآخِرَةِ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثـر (٢١٥٩١). وابـن أبـي حـاتم في التفسـير الكبـير: الأثـر (١٧٥٨٢).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٢٣.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٥٠.

(٤) بسام بن عبدالله الصيرفي، أبو الحسن الكوفي. روى عن زيد بن علي بن الحسين وأخيـه أبـي جعفـر الباقر، وجعفر الصادق وعطاء وعكرمة وغـيرهم. وروى عنـه ابـن المبـارك ووكيـع وأبـو نعيـم وغيرهم. ينظر: تهذيب التهذيب: الرقم (٧٠٦): ج ١ ص٤٥٤.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ ؛ أي كأُمَّهَاتِـهم في تَعْظِيـمِ حَقِّـهِنَّ وفي تحريم نكَاحِهن، فلا يَحِلُّ لأحدٍ أن يتزوَّجَ بهنَّ، كما لا يجوزُ التزويجُ بالأُمِّ. ولَـم يُـرِدْ إثباتَ الأُميَّة من جميعِ الوُجُوهِ، ألاَ ترَى أنه لا تحلُّ رؤيَتُهن ولا يَرَيْنَ المؤمنـين بخـلافِ الأُمَّهات، وكذلك لا يخْلُو بهنَّ، ولا يسـافرُ بـهن، ولا يرثُـهن ولا يرثونَـهُ، ولـو كـنَّ كالأُمَّهات من جميعِ الوجوه لكان النبيُّ ﷺ لا يزوِّجُ بناتَهُ مـن أحـدٍ مِـن النـاسِ؛ لأن البناتَ يكُنَّ أخَواتِ المؤمنينَ.

ومِن هذا المعنى ما رُوي: أنَّ امْرَأةً قَالَتْ لِعَائِشَةَ: يَا أمِّ، قَالَتْ: (لَسْتُ لَكِ بـأُمٍّ، إنَّمَا أنَا أمُّ رجَالِكُمْ)[١] فبَانَ بهذا أنَّ معنى الأُمومَـةِ تحريـمَ نكاحِـهن فقـط. ولِـهذا لا يجوزُ أن يقالَ لبنَاتِهن أنَّهن أخواتُ المؤمنينَ.

وفائدةُ تحريمِ نكاح أزواجِ النبيِّ ﷺ على المؤمنين في حياتِهِ وبعد وفاتــهِ تعظيـمُ أمرهِ وتفخيمُ شأنِه، ولذلكَ حَرُمَ على الابنِ نكاحُ امرأةِ أبيهِ.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي وذوُ القرابـةِ بعضُــهم أحــقُّ بمــيراث بعــضٍ في حُكــمِ اللهِ، ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ ؛ إذا لَم يكونوا قرابةً، وذلك أنَّهم كانوا يتوارَثُونَ في ابتـداءِ الإسـلامِ بالهجرةِ والْمُوَآخَاةِ.

قال الكلبيُّ: (آخَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ النَّاسِ، فَكَانَ يُوَآخِي بَيْـنَ الرَّجُلَيْـنِ، وَإذا مَاتَ أحَدُهُمْ وَرِثَهُ الثَّانِي دُونَ عُصْبَتِهِ وَأهْلِهِ، فَمَكَثُوا كَذلِكَ مَا شَـاءَ اللهُ حَتَّـى نَزَلَـتْ الآيَةُ (وَأوْلُو الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلَى ببَعْضٍ فِي كِتَاب اللهِ) مِـنَ الْمُؤْمِنِيْـنَ الَّذِيْـنَ آخَـا رَسُولُ اللهِ بَيْنَهُمْ وَالْمُهَاجِرِيْنَ، فَنَسَـخَتْ هَـذِهِ الآيَـةُ الْمُوَارَثَـةَ بالْمُوَآخَـاةِ وَالْـهِجْرَةِ، وَصَارَتْ لِلأَدْنَى فَالأَدْنَى مِنَ الْقَرَابَاتِ)[٢].

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٦٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن سعد وابن المنذر والبيهقي في سـننه عن عائشة...) وذكره.

(٢) نقله الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٠) بتفصيل عن ابن زيد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ ﴾ ؛ (مَعْرُوفاً) استثناءٌ ليس مِن الأول، ومعناهُ: لكن فِعْلُكم إلى أوليائِكم جائزٌ، يريدُ أن يُوصِي الرجلُ لِمَنْ يتوَلاَّهُ ممن لا يرثهُ بما أحبَّ من ثُلُثِ مالهِ، فيكونُ الموصَى له أولَى بقدر الوصيَّة من القريب الوارث، وقال ابنُ زيدٍ: (مَعْنَاهُ إلاَّ أنْ تُوصُوا لأَوْلِيَاءِكم مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي كانَ الميزانُ للأقرباءِ، والوصيةُ للأصدقاءِ، ونُسِخَ الميراثُ بالهجرةِ وردَّهُ إلى ذوي الأرحامِ مَكتوباً في اللَّوح المحفوظِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ ﴾ ؛ أي واذْكُرْ إذ أخَذْنا مِن النَّبيِّينَ عُهودَهم؛ أي يصدِّقُ بعضُهم بعضاً، ويبَشِّرُ الأولُ بالآخر، ويأخذُ كلٌّ رسول منهم على قولهِ بما أمرَ اللهُ به، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ الواو مقحمةٌ؛ وتقديره: منكَ ومِن نوحٍ، فيكونوا (مِنْكَ) ما بعدَهُ تفسيرُ (النَّبيِّيْنَ).

والفائدةُ في تخصيصِ هؤلاء الأنبياءِ الخمسة بالذِّكر؛ لأنَّهم أهلُ الشرائعِ والكتب، وأوْلُو العَزْمِ من الرُّسُلِ، ولَهم الأُمَمُ والتَّبَعُ. وقَدَّمَ ذِكْرَ النبيِّ ﷺ لأن الخطابَ معه. وجاء في التفسيرِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: [إنِّي خُلِقْتُ قَبْلَ الأَنْبيَاءِ وَبُعِثْتُ بَعْدَهُمْ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي عَهْداً وَثِيقاً بأن يَعبدونِي ولا يُشركون بي شيئاً. وَقِيْلَ: وأخَذْنا منهم عَهْداً شديداً على الوفاءِ بما حُمِّلُوا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ ﴾ ؛ أي لكَي يسألَ الْمُبَلِّغِيْنَ عن تبليغِهم وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَاذا أجِبْتُمْ﴾[3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٠٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦٠٩) عن قتادة مرسلاً. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٧٥٩٤ و١٧٥٩٥) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ وذكره.

(٣) القصص / ٦٥ .

وفائدةُ سؤال الرُّسُلِ وهم صادِقُون؛ لتكذيب الذينَ كفَـرُوا بـهم فيكـون هـذا السؤالُ احْتِجَاجاً علَى الكـاذِبين، وإذا سُـئِلَ الصَّـادِقُونَ، فكيـفَ يُظَـنُّ بالكـاذِبين ؟! وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي أعَـدَّ للَّذيـــن كفَــرُوا بالرُّسُلِ عذاباً شَديداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ يُذكِّرُهـم اللهُ إنْعَامَهُ عليهم في دفعِ الأحزَاب عنهم من غيرِ قتال، وذلك: أنَّ الْكُفَّارَ جَاءُوا بأَجْمَعِهِمْ فِي وَقْعَـةِ الْخَنْـدَق، وَأحَـاطُوا بالْمَدِيْنَـةِ مِـنْ أعْلاَهَـا وَأسْـفَلِهَا، طُلَيحَـةُ بْـنُ خُوَيْلِـدِ الأَسَدِي[١] وَأصْحَابُهُ مِنْ فَوْقِ الْوَادِي، وَكَانَ أبُو الأَعْوَر السُّلَمِيُّ وَأصْحَابُهُ مِنْ أسْفَلِ الْوَادِي، وَكَانَ أبُو سُفْيَانٍ وَأصْحَابُهُ وَيَهُودُ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي مُوَاجَهَةِ الْمُؤْمِنِيْنَ[٢]، فَاشْـتَدَّ الْخَوْفُ بالْمُؤْمِنِيْنَ وَزَاغَتْ أبْصارُهُمْ؛ أيْ مَالَتْ مِنَ الْخَـوْفِ، وَيُقَـالُ: مَـالَتْ أبْصَـارُ الْمُنَافِقِيْنَ خَوْفاً مِنَ النَّظَرِ إلَيْـهِمْ. وكـانَ الكُفَّـارُ خَمْسَـةَ عَشَـرَ ألْفـاً، وبَلَغَـتْ قُلُـوبُ الْمُسْلِمِيْنَ الْحَنَاجِرَ؛ أيْ كَادَتْ تَبْلُغُ الْحُلُوقَ، وَذلِـكَ أنَّ شِـدَّةَ الْخَـوْفِ تَرْفَـعُ الرِّئَـةَ، فترفعُ الرِّئَةُ القلبَ.

كما رُوي: أنَّ الْمُؤْمِنِيْنَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، فَـهَلْ مِنْ شَيْءٍ ؟ فَقَالَ ﷺ: [قُولُوا: اللَّـهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَـا وَآمِـنْ رَوْعَاتِنَـا، يَكْفِيكُـهُمُ اللهُ تَعَالَى][٣] فَأرْسَلَ اللهُ عَلَى الْكُفَّار رِيْحاً بَاردَةً مُنْكَرَةً شَغَلَتْهُمْ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِلحَرْب، وَمَنَعَتْهُمْ مِنَ الثَّبَاتِ عَلَى الْمَكَان، وَقَلَعَتْ خِيَامَهُمْ وَأكْفَأَتْ أوَانِيهِمْ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مِنْهَا فِي سَلاَمَةٍ، وَلَيْس بَيْنَـهُمْ إلاَّ مَسَـافَةُ الْخَنْـدَق، وَكَـانَ ذلِـكَ إحْدَى مُعْجِزَاتِهِ عليه السلام كَمَا قَالَ ﷺ: [نُصِرْتُ بالصَّبَا، وَأهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُور][٤].

---

(١) في المخطوط: (الأزدي). ترجم له ابن عبدالبر في الاستيعاب: ج ٢ ص٣٢٤: الرقم (١٣٠٠).

(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٧. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١٤٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٥٩٩). والطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦١٤). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٥٧٣؛ قال السيوطي: (أخرجـه أحمد وابـن جريـر وابـن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي سعيد...) وذكره.

(٤) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٧٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وابن أبي حـاتم والحـاكم في=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ ، يعني الذين تحَزَّبُوا على رسول الله ﷺ يومَ الخندق، وهم عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وأبو سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وبَنُو قُرَيْظَةَ، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ ، وهي الصَّبَا، أرسِلَتْ عليهم حتى أكفَأَتْ قدورَهم ونزعت فَسَاطِيطَهُمْ[1]، وقوله: ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ ، يعني الملائكةَ؛ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ .

ورُوي: أنَّ شَابّاً مِنْ أهْلِ الْكُوفَةِ قَالَ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: يَا أبَا عَبْدِاللهِ هَلْ رَأيْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ؟ قَالَ: (إيْ وَاللهِ لَقَدْ رَأيْتُهُ) قَالَ: وَاللهِ لَوْ رَأيْنَاهُ لَحَمَلْنَاهُ عَلَى رِقَابِنَا، وَمَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ: (يَا ابْنَ أخِي أفَلاَ أحَدِّثُكَ عَنِّي وَعَنْهُ ؟) قَالَ: بَلَى. قَالَ: (وَاللهِ لَوْ رَأيْتَنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ، وَبنَا مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ مَا لاَ يَعْلَمُهُ إلاَّ اللهُ. قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَصَلَّى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ قَالَ: [ألاَ رَجُلٌ يَأْتِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ رَفِيْقِي فِي الْجَنَّةِ ؟] فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنَّا أحَدٌ مِمَّا بنَا مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَالْجَهْدِ. ثُمَّ صَلَّى مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ قَالَ:[ألاَ رَجُلٌ يَأْتِيْنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ رَفِيْقِي فِي الْجَنَّةِ؟] فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنَّا أحَدٌ مِمَّا بنَا مِنَ الْجَهْدِ وَالْخَوْفِ وَالْجُوعِ. فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أحَدٌ، دَعَانِي فَلَمْ أجِدْ بُدّاً مِنْ إجَابَتِهِ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [اذْهَبْ فَجِئْ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئاً حَتَّى تَرْجِعَ].

قَالَ حُذَيْفَةُ: قُمْتُ وَجَنْبَيَّ يَضْطَرِبَان، فَمَسَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأسِي وَوَجْهِي، ثُمَّ قَالَ: [اللَّهُمَّ احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِيْنِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ]. قَالَ: فَانْطَلَقْتُ أمْشِي حَتَّى أتَيْتُ الْقَوْمَ، وَإذا رِيحُ اللهِ وَجُنُودُهُ يَفْعَلُ بهِمْ مَا يَفْعَلُ، مَا يَسْتَمْسِكُ لَهُمْ بنَاءٌ، وَلاَ تَثْبُتُ لَهُمْ نَارٌ، وَلاَ يَطْمَئِنُّ لَهُمْ قِدْرٌ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذلِكَ، إذْ خَرَجَ أبُو سُفْيَانَ مِنْ رَحْلِهِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؛ مَا أنْتُمْ بدَار مُقَامٍ، لَقَدْ

=الكنى وابن مردويه وأبو الشيخ في العظمة وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس) وذكره. وأخرجه أبو الشيخ في العظمة: الحديث (٦٠/ ٨٦٠).

(١) الفسطاط فيه لغات: فِسْطَاطٌ وَفُسْطَاطٌ وَفُسَّاطٌ وَفَسَّاطٌ وَفِسَّاطٌ وَفُسْتَاطٌ. وهو: بيت من شَعَرٍ، ويطلق ويراد به أيضاً المدينة التي فيها مجتمع الناس، وكل مدينة فسطاط. والمراد هنا الأول. ينظر: كتاب الغريبين: ج٥ ص١٤٤٧. ومختار الصحاح:ص٥٠٣.

هَلَكَتِ الْخُفُّ وَالْحَافِرُ[(١)] وَاخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَهَـذِهِ الرِّيْحُ لاَ يَسْتَمْسِكُ لَنَا مَعَهَا شَيْءٌ، وَلاَ تَثْبُتُ لَنَا نَارٌ وَلاَ تَطْمَئِنُّ قِدْرٌ. ثُمَّ عَجَّلَ فَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ، وَإنَّهَا لَمَعْقُولَةٌ مَا حَلَّ عِقَالَهَا إلاَّ بَعْدَمَا رَكِبَهَا .

فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَوْ رَمَيْتُ عَدُوَّ اللهِ فَكُنْتُ قَدْ صَنَعْتُ شَيْئاً، فَأَوْتَرْتُ قَوْسِي وَأَنَا أُرِيْدُ أنْ أرْمِيَهُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُول اللهِ ﷺ: [وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئاً حَتَّى تَرْجِعَ]. فَحَطَطْتُ الْقَوْسَ ثُمَّ رَجَعْتُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: [مَا الْخَبَرُ ؟] فَأَخْبَرْتُهُ بذلِكَ، فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ أنْيَابُهُ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ. ثُمَّ أدْنَانِي مِنْهُ وَبي مِنَ الْبَرْدِ مَا أجِدُهُ، فَألْقَى عَلَيَّ طَرَفَ ثَوْبهِ، وَألْزَقَ صَدْري ببَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي مَالَتْ عن كلِّ شيء، فلم تَنْظُرْ إلاَّ إلى عدُوِّهـا مُقبـلاً مِـن كـلِّ جـانب، ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ ، وَالْحَنْجَرَةُ جَوْفُ الْحَلْقِ. قال قتادةُ: (شَخَصَتِ الْقُلُوبُ مِنْ مَكَانِهَا، فَلَوْلاَ أنَّهُ ضَاقَ الْحُلْقُومُ عَنْهَا أنْ تَخْرُجَ لَخَرَجَتْ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا) يعني الملائكةَ، بَعَثَ اللهُ ملائكةً على المشركين فقَلَعَتْ أوتادَ الخيلِ وأطْنَابَ الْفَسَاطِيْطِ، وأطفأتِ النيرانَ وجالَتِ الخيلُ بعضُها في بعضٍ، وكثُرَ تكبيرُ الملائكةِ في جوانب عسكَرِهم حتى وقعَ بهم الرعبُ فانْهَزَمُوا من غيرِ قتالٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إذ جَاءوكُم من فَوقِكُم وَمِن أسفَلَ مِنكُم ﴾، أي مِن فوق الوادِي مِن قِبَلِ المشرق عليهم مالكُ بن عوفٍ البَصْرِيّ، وعُيَينَةُ بن حِصْنٍ الفـزَّاري في ألْـفٍ مِنْ غطَفَانَ، (وَمِن أسفَلَ مِنكُم)، يعني مِن قِبَلِ المغرب فيهم أبو سفيانَ في قُريشٍ ومَن تَبعَهُ، وأبو الأعْوَر السُّلمي من قِبَلِ الخندقِ.

---

(١) الْخُفُّ: واحد أخفاف البعير. والحافر حافر الفرس. والمراد هنا الإبل والخيل.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦١٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الجهاد والسير: باب غزوة الأحزاب: الحديث (٩٩/ ١٧٨٨).

وكانَ مِن حديثِ الخندق: أنَّ نَفراً مِنَ الْيَهُودِ مِنْهُمْ حَيِيُّ بْنُ أخْطَبَ وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيْعِ وَهَوْذَةُ بْنِ قَيْسٍ وَأَبو عُمَارَةَ الْوَائِلِيُّ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي النَّضِيْرِ خَرَجُوا حَتَّى قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ فَدَعَوْهُمْ إلَى حَرْب رَسُول اللهِ ﷺ فَأَجَابُوهُمْ فَاجْتَمَعُوا مَعَ قُرَيْشٍ. فَسَارَتْ وَقَائِدُهَا عُيَيْنَةُ بْنُ حُصَيْنٍ الْفَزَّارِيُّ، وَسَارَتْ بَنُو مُرَّةَ وَقَائِدُهَا الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ، وَسَارَتْ بَنُو أشْجَعَ وَقَائِدُهَا مُسْعِرُ بْنُ رَخَيْلَةَ الأَشْجَعِيُّ، وَسَارَتْ قُرَيْشُ وَقَائِدُهَا أَبُو سُفْيَانَ.

فَلَمَّا سَمِعَ بهمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ ضَرَبَ الْخَنْدَقَ عَلَى الْمَدِيْنَةِ، وَكَانَ الَّذِي أشَارَ بالْخَنْدَق عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ سَلْمَانُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّا كُنَّا بفَارسَ إذا حُوصِرْنَا خَنْدَقْنَا. فَحَفَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ حَتَّى أحْكَمُوهُ.

فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ حَفْر الْخَنْدَق، أقْبَلَتْ قُرَيْشُ حَتَّى نَزَلَتْ بمَجْمَعِ الأَسْيَال مِن رُومَة[1]، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ وَهُمْ ثلاثَةُ آلافٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ، فَكَانَ الْخَنْدَقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِيْنَ، وَعَظُمَ عِنْدَ ذلِكَ الْبَلاَءُ وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ، وَأتَاهُمُ الْعَدُوُّ مِنْ فَوْقِهِم وَمِنْ أسْفَلَ مِنْهُمْ، حَتَّى ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ كُلَّ ظَنٍّ، وَظَهَرَ النِّفَاقُ فِي الْمُنَافِقِيْنَ، حَتَّى قَالَ مُعْتَبُ بْنُ بَشِيْرٍ الْمُنَافِقُ: كَانَ مُحَمَّدُ وَعَدَنَا أنْ نأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، فَأحَدُنَا لاَ يَقْدِرُ أنْ يَذْهَبَ إلَى الْغَائِطِ، مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُوراً[2]. فذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ ﴾.

فَأقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَأقَامَ الْكُفَّارُ مَعَهُ بضْعاً وَعِشْرِيْنَ لَيْلَةً قَرِيْباً مِنْ شَهْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْقَوْمِ إلاَّ الرَّمْيَ بالنَّبْلِ وَالْحَصَى وَالْحِصَار[3].

---

(١) اضطربت العبارة في المخطوط: (وأقبلت قريش حتى أقبلت بالمدينة). وضبطت كما في السيرة النبوية: ج ٣ ص٢٣٠.

(٢) اختصر الطبراني قصة الخندق من السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٢٢٤- ٢٣٣. وينظر: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية بن هشام: ج ٣ ص٤١٦-٤٢٥.

(٣) الْحِصَارُ: (حَصَرَهُ) ضيَّقَ عليهِ وأحاطَ بِهِ، وكلُّ مَن امتنعَ عن شيءٍ فقد حَصِرَ عنه، وأحْصَرَهُ حبَسَهُ. ينظر: مختار الصحاح: ص١٣٩: (حصر)

فَلَمَّا اشْتَدَّ الْبَلاَءُ عَلَى النَّاسِ وَاسْتَطَالَ، بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عُيَيْنَةَ بْنِ حُصَيْنٍ وَإِلَى الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ، وَأَعْطَاهُمَا ثُلُثَ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ عَلَى أَنْ يَرْجِعَا بِمَنْ مَعَهُمَا مِنَ الْقَوْمِ، فَجَرَى بَيْنَهُمَا الصُّلْحُ حَتَّى وَقَعَ الْكِتَابُ وَلَمْ تَقَعِ الشَّهَادَةُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَاسْتَشَارَهُمَا فِي ذَلِكَ، فَقَالاَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَهَذَا شَيْءٌ أَمَرَكَ اللهُ بِهِ أَمْ أَمْرٌ تُحِبُّهُ أَنْتَ أَمْ أَمْرٌ تَصْنَعُهُ لَنَا؟ فَإِنْ كَانَ أَمْراً مِنَ اللهِ لَكَ فَلاَ بُدَّ لَنَا مِنَ العَمَلِ بِهِ، وَإِنْ كَانَ أَمْراً تُحِبُّهُ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ، وَإِنْ كَانَ شَيْئاً تَصْنَعُهُ لَنَا فَعَرِّفْنَا بِهِ، فَقَالَ ﷺ: [بَلْ وَاللهِ مَا صَنَعْتُ ذَلِكَ إِلاَّ أَنِّي رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ بِقَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ شَوْكَتَهُمْ].

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ لَقَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلاَءِ الْقَوْمِ عَلَى الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ لاَ نَعْبُدُ اللهَ وَلاَ نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لاَ يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ ثِمَارِنَا تَمْرَةً إِلاَّ قِرَاءً أَوْ شِرَاءً، فَكَيْفَ وَقَدْ أَكْرَمَنَا اللهُ بِالإِسْلاَمِ وَأَعَزَّنَا بِكَ نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا ! مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاللهِ لاَ نُعْطِيهِمْ إِلاَّ السَّيْفَ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فقال ﷺ: [فَأَنْتَ وَذَاكَ]. فَتَنَاوَلَ سَعْدٌ الصَّحِيفَةَ الَّتِي كَتَبُوا فِيهَا صُلْحَهُمْ فَمَحَاهَا(١).

ثُمَّ إِنَّهُمْ تَرَامَوا بِالنَّبْلِ، فَوَقَعَتْ رَمْيَةٌ فِي أَكْحَلِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَطَعَتْهُ، رَمَاهُ ابْنُ الْغُرْفَةِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَمَا زَالَ أَكْحَلُهُ يَسِيلُ دَماً حَتَّى خِيفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ سَعْدٌ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ فَأَبْقِنِي لَهَا، فَإِنَّهُ لاَ شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جِهَادِ قَوْمٍ آذَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَكَذبُوهُ وَأَخْرَجُوهُ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْعَلْهُ لَنَا شَهَادَةً وَلاَ تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ.

ثُمَّ أَتَى نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْغَطَفَانِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ قَدْ أَسْلَمْتُ وَإِنَّ قَوْمِي مِنْ غَطَفَانَ لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلاَمِي، فَمُرْنِي فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَقَالَ عليه السلام: [إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ]. فَخَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: غزوة الخندق: هم الرسول بعقد صلح بينه وبين غطفان ثم عدل: ج ٣ ص٢٣٤.

أتَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ لَهُمْ نَدِيماً فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا بَنِي قُرَيْظَةَ؛ لَقَدْ عَلِمْتُمْ وُدِّي لَكُمْ وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْمَحَبَّةِ. قَالُوا: صَدَقْتَ؛ لَسْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ.

فَقَالَ لَهُمْ: إنَّ قُرَيْشاً وَغَطَفَانَ جَاءُوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ، وَإنَّ قُرَيْشاً وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَهَيْئَتِكُمْ؛ لأنَّ هَذِهِ بَلَدُكُمْ وَبِهَا أمْوَالُكُمْ وَأبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى أنْ تَحَوَّلُوا إلَى غَيْرِكُمْ، وَإنَّ قُرَيْشاً وَغَطَفَانَ أمْوَالُهُمْ وَأوْلاَدُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بَعِيدُونَ، إنْ رَأوْا لَهُمْ هَا هُنَا صَوْلَةً وَغَنِيْمَةً أخَذُوهَا، وَإنْ كَانَ غَيْرَ ذلِكَ لَحِقُوا ببلاَدِهِمْ، وَخَلَّوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ هَذا الرَّجُلِ وَهُوَ رَجُلٌ ببَلَدِكُمْ لاَ طَاقَةَ لَكُمْ بهِ، فَلاَ تُقَاتِلُوهُ حَتَّى تَأْخُذُوا رَهْناً مِنْ أشْرَافِ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ يَكُونُونَ بأيْدِيكُمْ ثِقَةً لَكُمْ عَلَى أنْ يُقَاتِلُوا مَعَكُمْ. فَقَالُوا لَهُ: لَقَدْ أشَرْتَ برَأيٍ وَنَصِيْحَةٍ.

ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أتَى قُرَيْشاً، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؛ قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي إيَّاكُمْ وَفِرَاقِي مُحَمَّداً، وَقَدْ بَلَغَنِي أمْراً رَأيْتُ حَقّاً عَلَيَّ أنْ أبْلِغَكُمُوهُ نُصْحاً لَكُمْ، فَاكْتُمُوا عَلَيَّ. قَالُوا: نَفْعَلُ! قَالَ: اعْلَمُوا أنَّ مَعْشَرَ الْيَهُودِ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيْمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ أرْسَلُوا إلَيْهِ: أنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَى فِعْلِنَا، فَهَلْ يُرْضِيكَ عَنَّا أنْ نَأْخُذ مِنَ الْقَبِيْلَتَيْنِ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رجَالاً مِنْ أشْرَافِهِمْ فَنُعْطِيكَهُمْ فَتَضْرِبُ رقَابَهُمْ، ثُمَّ نَكُونُ مَعَكَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: نَعَمْ. وَأنْتُمْ إذا بَعَثَتِ الْيَهُودُ إلَيْكُمْ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رَهْناً مِنْ رجَالِكُمْ فَلاَ تَدْفَعُوا إلَيْهِمْ رَجُلاً وَاحِداً.

ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أتَى غَطَفَانَ فَقَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ؛ أنْتُمْ أصْلِي وَعَشِيْرَتِي وَأحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ، وَلاَ أرَاكُمْ تَتَّهِمُونِي. قَالُوا: صَدَقْتَ! قَالَ: فَاكْتُمُوا عَلَيَّ، قَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْشٍ وَحَذرَهُمْ مَا حَذرَهُمْ.

فَأرْسَلَ أبُو سُفْيَانَ وَرُؤُوسُ غَطَفَانَ إلَى يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ نَفَراً مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ، فَأتَوْهُمْ وَقَالُوا لَهُمْ: قَدْ هَلَكَ الْخُفُّ وَالْحَافِرُ، فَأعِدُّوا لِلْقِتَال حَتَّى يَفْرَغَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ بَنُو قُرَيْظَةَ: لَسْنَا بالَّذِي نُقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتَّى تُعْطُونَا رَهْناً مِنْ رجَالِكُمْ تَكُونُ ثِقَةً بأيْدِيْنَا، فَإنَّا نَخَافُ أنَّكُمْ إذا اشْتَدَّ عَلَيْكُمُ الْحَرْبُ وَالْقِتَالُ أنْ تَسِيْرُوا إلَى بلاَدِكُمْ وَتَتْرُكُونَا، وَهَذا الرَّجُلُ قَرِيْبٌ مِنْ بلاَدِنَا، وَلاَ طَاقَةَ لَنَا بهِ.

فَرَجَعَتِ الرُّسُلُ بِمَا قَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ، فَقَالَتْ قُرَيْشُ وَغَطَفَانُ: وَاللهِ إنَّ الَّذِي حَدَّثَنَا بِهِ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ لَحَقٌّ. وَأرْسَلُوا إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ: وَاللهِ لاَ نَدْفَعُ إلَيْكُمْ رَجُلاً وَاحِداً مِنْ رِجَالِنَا، وَلَكِنَّكُمْ إنْ كُنْتُمْ تُرِيْدُونَ الْحَرْبَ فَاخْرُجُوا مَعَنَا فَقَاتِلُوا وَنَحْنُ مَعَكُمْ. قَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ: لاَ نُقَاتِلُ إلاَّ إذا أعْطَيْتُمُونا رَهْناً مِنْ رِجَالِكُمْ. فَقَالُوا لَهُمْ: حَدَّثَنَا نُعِيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ بِذلِكَ فَلَمْ نُصَدِّقْهُ، فَقَالُوا لَهُمْ: إنَّ الَّذِي ذكَرَهُ لَكُمْ حَقٌّ. وَخَذلَ اللهُ بَيْنَهُمْ، وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ الرِّيْحَ فِي لَيْلَةٍ شَاتِيَةٍ شَدِيْدَةِ الْبَرْدِ حَتَّى انْصَرَفُوا رَاجِعِيْنَ، وَالْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِيْنَ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونَا)، فأمَّا المنافقونَ فظَنُّوا أنَّ مُحَمَّداً وأصحابَهُ سيُغلبون ويُستأصَلون، وأما المؤمنونَ فأيقَنُوا أنَّ ما وعدَهم اللهُ تعالى حقٌّ، وأنه سيُظْهِرُ دِيْنَهُ على الدِّين كلِّه ولو كَرِهَ المشركونَ. قال الحسنُ في معنى: (وَتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونَا): (يَعْنِي ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ خَيْراً، وَظَنَّ الْمُنَافِقُونَ أنَّ الْكَافِرِيْنَ ظَهَرُوا عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ)[(٢)].

قرأ نافعُ وعاصم وابنُ عامر: (الظُّنُونَا) و(الرَّسُولاَ) و(السَّبِيْلاَ) بإثباتِ الألفِ فيها وَقْفاً ووَصْلاً لأنه من أواخرِ الآي، وقرأ أبو عمرٍو بغير الفِ وقفاً ووَصْلاً، وقرأ الباقون بالألفِ في الوقفِ دون الوصلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي في تلكَ الحالِ اختُبرَ المؤمنونَ بالقتال ليتَبيَّن المخلصُ من المنافق. وَقِيْلَ: معناهُ: امْتُحِنَ المؤمنونَ بالخوفِ الشَّديد الذي عندَهُ يظهرُ المؤمن القويُّ من المؤمنِ الضعيفِ، وذوُوا العزمِ الصحيحِ من غيرِهم. وقوله: ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ أزْعِجُوا وحُرِّكُوا تَحريكاً شديداً، وذلك أن الخائفَ يكون قَلِقاً مُضطرباً لا يستقرُّ على مكانِه.

---

(١) قصة نعيم بن مسعود الغطفاني أخرجها ابن هشام في السيرة النبوية: ج ٣ ص٢٤٠-٢٤٤.

(٢) في جامع البيان: الأثر (٢١٦٢٧). وفي التفسير الكبير لابن أبي حاتم: الأثر(١٧٦٠٨) عن الحسن قال: (ظنوناً مختلفة: ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يُستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ معناهُ: وإذ يقول الذين يستبطنون الكفرَ والذين في قُلوبهم شَكٌّ وضَعْفُ اعتقادٍ: ما وَعَدَنا مُحَمَّدٌ أنَّ فارسَ والرومَ يُفتحان علينا ونحنُ في مكاننا هذا الذي لا يقدرُ أحدٌ أن يَبْرُزَ لحاجتهِ إلاَّ باطلاً. قال قتادةُ: (قَالَ نَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ: يَعِدُنَا مُحَمَّدٌ أنْ نَفْتَحَ قُصُورَ الشَّامِ وَفَارِسَ، وَأحَدُنَا لاَ يَسْتَطِيْعُ أنْ يُجَاوزَ رَحْلَهُ، هَذا وَاللهِ الْغُرُورُ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (هُمْ بَنُو سَالِمٍ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ)(٢)، وقال السديُّ: (عَبدُاللهِ بْنُ أبَيٍّ وَأصْحَابُهُ). (يَا أهْلَ يَثْرِبَ) أي يا أهلَ المدينةِ، قال أبو عُبيدة: (يَثْرِبُ اسْمُ أرْضٍ، ومَدِيْنَةُ الرَّسُولِ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا)(٣). وقَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ مُقَامَ لَكُمْ) أي لاَ مَوْقِفَ لكم في هذا الموضعِ، فارجِعُوا إلى المدينةِ.

وقرأ عاصمُ (لاَ مُقَامَ) بضمِّ الميمِ؛ أي لا إقامةَ لكم ها هُنا؛ لكثرةِ العدُوِّ وغلبةِ الجِرَاب، فارجِعُوا إلى منازلِكم، أمَرُوهم بالهرب من عسكرِ رسُولِ اللهِ ﷺ(٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ ﴾ ؛ معناهُ: ويستأذنُ فريقٌ منهم النبيَّ عليه السلام في الرُّجوعِ إلى منازلِهم بالمدينةِ؛ وهم: بنُو حَارثَةَ وبَنُو سَلَمَةَ، وكانوا يعتَلُّون في الاستئذانِ بقولِهم: ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ ؛ أي بيُوتُنا خاليةٌ من الرِّجالِ نخافُ عليها، وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ بيوتَنا ليست بجديدةٍ. وقال مقاتلُ والحسن: (مَعْنَاهُ: قَالُوا بُيُوتُنَا ضَائِعَةٌ نَخْشَى عَلَيْهَا السُّرَّاقَ)(٥). وقال قتادةُ: (قَالُوا بُيُوتُنَا مِمَّا يَلِي الْعَدُوَّ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٣١).
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٨.
(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٣١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١٤ ص١٤٨.
(٤) قاله الطبري في جامع البيان: مج ١١ ج ٢٠ ص١٦٤.
(٥) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٩.

وَلاَ نأْمَنُ عَلَى أهْلِنَا)[(١)]. فكذبَهم اللهُ تعالى وَأعْلَمَ أنَّ قصدَهم الهربُ، فقالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ مِن القتالِ ونُصرةِ المؤمنينَ.

وقرأ ابنُ عبَّاس وأبو رجاءٍ: (إنَّ بُيُوتُنَا عَورَةٌ) بكسرِ الواو؛ أي قصيرةُ الجدران، فيها خلَلٌ وفُرجَةٌ. قال الزجَّاجُ: (يُقَالُ: عَوِرَ الْمَكَانُ يَعْوَرُ عَوْراً وَعَوْرَةً، وَبُيُوتٌ عَوْرَةٌ وَعَورَةٌ، وَهِيَ مَصْدَرٌ). والعَوْرَةُ في اللغة: ما ذهَبَ عنه السَّتْرُ والحِفظُ، تقولُ العربُ: اعْوَرَّ الفارسُ إذا كان فيه موضعُ خللٍ للضَّرب، وعَوَرَ المكانُ إذا بَدَتْ منه عورةٌ. قال الشاعرُ:

مَتَى تَلْقَهُمْ، لاَ تَلْقَ لِلْبَيْتِ عَوْرَةً ... وَلاَ الضَّيْفَ مَحْرُوماً وَلاَ الْجَارَ مُرْمِلا[(٢)]

يقال: أرْمَلَ القومُ إذا فرغَ زادُهم[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ ؛ أي لو دُخلَتِ المدينةُ على هؤلاءِ المنافقين مِن أطرَافِها، يعني: لو دَخَلَ عليهم هؤلاءِ الأحزابُ من نواحِيها، ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا ﴾ ؛ أي ثم دُعُوا إلى الشِّركِ لأجَابُوها سَريعاً وأعطَوها من أنفُسِهم. والمعنى: لو أنَّ الأحزابَ دخَلُوا المدينةَ، ثم أمَرُوهم بالشِّركِ لأشْرَكُوا.

وقرأ أهلُ المدينةِ (لأَتَوْهَا) بالقصرِ؛ أي لفَعَلُوها بأنفُسِهم، ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي وما يلبَثُون بإجَابتِها إلاَّ قليلاً حتى يَقْبَلُوا. قال قتادةُ: (وَمَا احْتَبَسُواْ عَنِ الإجَابَةِ إلَى الْكُفْرِ إلاَّ قَلِيْلاً)، ويقالُ: ما يتَلَبَّثُونَ بالمدينةِ بعدَ إجابَتِهم إلاَّ يَسِيراً حتى يَهْلَكُوا.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٣).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١٤٨:

مَتَى تَلْقَهُمْ، لاَ تَلْقَ لِلْبَيْتِ مُعْوِراً ... وَلاَ الضَّيْفَ مفجوعاً وَلاَالْجَارَ مُرْمِلاَ

(٣) الْمُرْمِلُ: الذي نَفَدَ زَادُه؛ ومنه حديث أبي هريرة: كنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غُزَاةٍ، فَأَرْمَلْنَا وَانْفَضْنَا. وحديثُ أمِّ معبَدٍ: [وَكَانَ الْقَوْمُ مُرمِلِينَ] أي نفدَ زادُهم. ينظر: تهذيب اللغة للأزهري: ج ١٠ ص١٤٩. ولسان العرب لابن منظور: ج ٥ ص٣٢١. والروض الأنف: ج ٢ ص٣٢٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ﴾ ؛ قِيلَ: إنَّهم بنُو حارثةَ هَمُّوا يومَ أُحُدٍ أن يَفْشَلُوا مع بني سَلَمَةَ، فلمَّا نزلَ فيهم ما نزلَ، عاهَدُوا اللهَ أن لا يعُودُوا لِمثلِها. وقال قتادةُ: (هُمْ قَوْمٌ كَانُوا غَابُوا عَنْ وَقْعَةِ بَدْرٍ، وَرَأَوا مَا أعْطَى اللهُ أهْلَ بَدْرٍ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْفَضِيْلَةِ، فَقَالُوا: لَئِنْ أشْهَدَنَا اللهُ قِتَالاً لَنُقَاتِلَنَّ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَاب لَمْ يَفُوا بذلِكَ الْعَهْدِ)[1].

ومعنى الآيةِ: ولقد كانُوا عاهَدُوا اللهَ من قَبْلِ غَزوةِ الخندق (لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ) أي لا ينهَزِمون ولا يُوَلُّونَ العدوَّ ظُهورَهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي مُطَالَباً مَسْؤُولاً عنه مُحَاسَباً عليهِ، يُسألُونَ عنه في الآخرةِ.

ثُم أخبرَ اللهُ أنَّ الفرارَ لا يزيدُهم في آجالِهم؛ فقالَ: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾ ؛ أي مِن حضَرَ أجَلهُ ماتَ أو قُتِلَ، فكلاهُما مكتوبٌ عليكم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي إنْ فرَرْتُمْ من الموتِ أو القَتْلِ في هذه الوقعةِ لَمْ يُمتَّعُوا إلاَّ قليلاً حتى يلحَقُكم أحدُ الأمرين. والمعنى: لا تُمتَّعُونَ بعدَ الفرار في الدُّنيا إلاَّ مدَّةَ أجَلِكُمْ.

ثُم أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ ما قَدَّرَهُ عليهم وأرادَهُ بهم لا يُدْفَعُ عنهم، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي مَن الذي يُجِيرُكم ويَمنعُكم من اللهِ، ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا ﴾ ؛ أي هَلاكاً وهزيْمةً، ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ ؛ أي خَيراً وهو النصرُ. وهذا كُلُّهُ أمرٌ للنبيِّ ﷺ أن يُخاطِبَهم بهذه الأشياءِ.

ثُم أخبرَ اللهُ أنه لا ينفَعُهم قريبٌ ولا نَاصِرٌ ينصرُهم من اللهِ، فقال تعالَى: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ ؛ قال المفسِّرون: هؤُلاءِ قومٌ مِن المنافقين، كانوا يبطئُون الْمُجَاهِدِيْنَ ويَمْنَعُونَهُمْ عن الجهاد. يقال: عَاقَ يَعُوقُ؛ إذا مَنَعَ، وعَوَّقَ إذا اعتادَ المنعَ، وعَوَّقَهُ إذا صَرَفَهُ عنِ الوجهِ الذي يريدهُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٤٢).

قال قتادةُ: (هُمْ قَوْمٌ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ، كَانُواْ يَقُولُونَ: مَا مُحَمَّدٌ وَأصْحَابُهُ إلاَّ أكَلَةُ رَاسٍ، وَلَوْ كَانُوا لَحْماً لاَلْتَهَمَهُمْ أبو سُفْيَانَ وَحِزْبُهُ، دَعُواْ هَذا الرَّجُلَ فَإنَّهُ هَالِكٌ، فَخَلُّوهُمْ وَتَعَالُواْ إلَيْنَا)[1].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْقَائِلِيْنَ لإخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إلَيْنَا) أي ويعلمُ القائلينَ لإخوانِهم تعالَوْا إلينا ودَعُوا مُحَمَّداً فلا تشهَدُوا معه الحربَ، فإنَّا نخافُ عليكم الهلاكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي لا يحضُرونَ القتالَ في سبيلِ الله إلاَّ قَلِيْلاً؛ أي لا يُقاتِلُونَ إلاَّ رياءً وسُمعةً من غيرِ احتسابٍ، ولو كان ذلك القليلُ للهِ لكانَ كثيراً.

قَوْلُهُ: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي بُخلاءَ عليكُم بأنفُسِهم وأموالِهم، لا ينفقونَ شيئاً منها في سبيلِ الله ونُصرةِ المؤمنين. ثُم أخبر عن جُبْنِهِمْ فقالَ تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ ، من الخوفِ والفَزَعِ كما تدورُ أعيُنُ الذي يحضرهُ الموت فيُغشَى عليهِ، ويذهبُ عقله ويَشخَصُ بصرهُ فلا يطرفُ، كذلك هؤلاءِ تَشْخَصُ أبصارُهم وتُحَارُ أعينُهم لِما يلحَقُهم من الخوفِ، ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ ؛ أي بَسَطُوا ألسِنَتهم وأرسَلُوها، طاغِينَ عليكم. قال الفرَّاء: (مَعْنَاهُ: آذوْكُمْ بالْكَلاَمِ وَعَضُوكُمْ بألْسِنَةٍ سَلِيْطَةٍ ذربَةٍ)[2] يُقَالُ: خَطِيْبٌ مِسْلاَقٌ إذا كَانَ بَلِيْغاً فِي خِطَابهِ[3].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ ؛ أي بُخلاءَ بالغَنيمةِ، يخاصِمُون فيها ويُشَاحُّونَ المؤمنينَ عليها عند القِسْمَةِ، فيقولونَ: أعْطُونا فلَسْتُمْ أحقَّ مِنَّا! وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ ؛ أي هُم وإنْ أظهَرُوا الإيْمانَ ونَافَقُوا فليسوا بمؤمنينَ، ﴿ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ ؛ أي أبْطَلَ جهادَهم وثوابَ أعمالِهم؛ لأنه لَم يكن في إيْمانٍ، ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ الإحباطُ، ﴿ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ قال

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٤٧). ومعنى (ما هم إلا أكَلَةُ رأس) أي قليل، يشبعهم رأس واحد. وهو جمع آكل.

(٢) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٣٣٩.

(٣) ينظر: إعراب القرآن لابن النحاس: ج ٣ ص٢١١.

مقاتلُ: (مَعْنَى الآيَةِ: فَإذا ذهَبَ الْخَوْفُ وَجَاءَ الأَمْنُ وَالْغَنِيْمَةُ، سَلَقُوكُمْ بِألْسِنَةٍ حِدَادٍ؛ أيْ بَسَطُوا ألْسِنَتَهُمْ فِيْكُمْ وَقْتَ قِسْمَةِ الْغَنِيْمَةِ، وَسَيَقُولُونَ: أعْطُونَا فَلَسْتُمْ أحَقَّ بِهَا مِنَّا! فَأمَّا عِنْدَ الْبَأْسِ وَالْقِتَالِ فَأجْبَنُ قَوْمٍ وَأخْذلُهُمْ، وَأمَّا عِنْدَ الْغَنِيْمَةِ فَأشَحُّ قَوْمٍ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾ أي يَظُنُّ المنافقونَ مِن جُبْنِهم وخُبْثِهم أنَّ الأحزابَ لَم يذهَبُوا إلى مكَّة وقد ذهبُوا، ﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ ؛ في المرَّة الثانيةِ؛ أي يرجِعُون إلى القتال، ﴿ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾ ؛ داخلونَ في الباديةِ معَ الأعراب، ﴿ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾ ؛ أي يَتَمَنَّوْنَ لو كانوا في باديةٍ بالبُعْدِ منكُم، يسألونَ عن أخبارِكم يقولونَ: مَا فَعَلَ مُحَمَّدٌ وأصْحَابُهُ؟! فيعرِفُون حالَكم بالاستخبار لا بالمشاهدةِ. والمعنَى بسُؤالِهم: أنه إذا كان الظَّفَرُ لكم شارَكُوكم، وإنْ كان للمشركين شارَكُوهم، كلُّ هذا مِن الْخَوْفِ وَالْجُبْنِ. قرأ يعقوبُ (يَسَّاءَلُونَ) بالتشديد والمدِّ، بمعنى يَتَسَاءَلُونَ؛ أي يَسألُ بعضُهم بعضاً عن أخبارِكم، ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ لو كانَ هؤلاءِ المنافقونَ فيكم ما قَاتَلُوا إلاَّ رَمْياً بالحجارةِ من غيرِ احتسابٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ؛ أي لقد كان لكُم في رسول اللهِ قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ في الصَّبر على القتال والثَّبَاتِ عليه واحتمال الشَّدائد في ذاتِ الله، ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ؛ يرجو ثَوابَ اللهِ، ﴿ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾ ، وثواب الدنيا والآخرةَ، ﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ ، وذلكَ: أنَّ كل من ذادَ أو ذكَرَ اللهَ في لسانهِ ازدَادت رغبتهُ في الاقتداءِ بالنبيِّ ﷺ.

ومعنى الآيةِ: لقد كان لكُم في رسول الله اقتداءٌ لوِ اقتديتُم به، والصبرُ معه في مواطنِ القتال كما فَعَلَ هو يومَ أحُد إذ كُسِرَتْ رباعيَّتهُ وشُجَّ حاجبهُ وقُتِلَ عمُّه، فواسَاكم مع ذلك بنفسِهِ، فهلاَّ فعلتم مثلَ ما فعلَ هو. وقوله تعالى: (لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ) يدلٌ من قوله (لَكُمْ) وهو تخصيصٌ بعد التعميمِ للمؤمنين.

---

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن حيان: ج ٣ ص٤١، بلفظ قريب من هذا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى كان قد وَعَدَهـم في سُورةِ البقـرةِ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِيـنَ خَلَـوْا مِنْ قَبْلِكُـمْ مَسَّـتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾... إلى قولِه﴿أَلا إنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[1] وقولِه تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَـى الدِّيـنِ كُلِّهِ ﴾[2]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي ما زادَهـم ما رأوهُ إلاَّ إيْماناً وتصديقاً بوعدِ الله وتَسليماً لآخرِه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي مِـن جُملة المؤمنينَ رجالٌ وَافُوا ما عاهدُوا اللهَ عليه بالثَّباتِ على الدِّين والعملِ بمُوجبهِ من الصَّبر على القتالِ وغـيرِ ذلـك، ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ ؛ أي مَـن وَفَّـى بنـذرِهِ، ومنهم مَن أقامَ على ذلكَ العهدِ حتى قُتِلَ شَهيداً في سبيلِ الله. قِيْلَ: إنَّ المرادَ به حَمْزَةُ ابن عبدِ المطَّلب وأصحابهُ الذين قُتِلُوا يومَ أحُدٍ.

والنَّحْبُ في اللُّغة: النَّذْرُ، وَقِيْلَ: النَّحْبُ هو النَّفَسُ، ومنه النَّحِيْبُ: وهو التَّنَفُّسُ الشديدُ والنَّشْجُ في البكـاءِ[3]. والمعنـى علـى هـذا القـول:(مِنْـهُمْ مَـنْ قَضَـى نَحْبَـهُ) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ ؛ الموتَ على ذلك العهدِ. وَقِيْلَ: معناهُ: (فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَـى نَحْبَهُ) أي ماتَ أو قُتِلَ في سبيلِ الله فأدركَ ما تَمنَّى، فذلك قضاءُ النَّحْب. وَقِيْلَ: فَرَغَ من عملِهِ، ورجعَ إلى اللهِ. وقالَ الحسنُ: (قَضَى أجَلَهُ عَلَى الْوَفَـاءِ وَالصِّـدْقِ)[4]، قـال ابنُ قُتيبةَ: (قَضَى نَحْبَهُ: قُتِلَ).

وأصلُ النَّحْب: النَّذْرُ، كان قومٌ نذرُوا أنَّهم إنْ لَقُوا العدوَّ قاتلُوا حتى يُقْتَلُوا أو يَفتحَ اللهُ تعالى فَقُتِلُوا. يقال: فلانٌ قَضَـى نَحْبَـهُ، إذا قُتِـلَ. وقـال محمَّـد بـنُ اسـحقَ: (فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ، مَن اسْتُشْهِدَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأحُدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ مَا وَعَدَ اللهُ مِنْ نَصْرٍ أوْ شَهَادَةٍ عَلَى مَا مَضَى عَلَيْهِ أصْحَابُهُ)[5].

---

(١) الآية / ٢١٤ .   (٢) الفتح / ٢٨ .

(٣) النَّشْجُ: صوتٌ معه يردِّدُ الصبي بكاءً في صدرِه، فيحزنُ ببكائهِ مَـن يسـمعهُ. ينظـر: الغريبـين في القرآن والحديث: ج ٦ ص١٨٣٦.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٧١).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٦٧)؛ قال: (حدثني يزيد بن رومان) وذكره. وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٣٤.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّها قالَتْ: طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِاللهِ مِمَّـنْ قَضَـى نَحْبَـهُ، ثَبَتَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى أصِيبَتْ يَـدُهُ، فَقَـالَ ﷺ: [أوْجَـبَ طَلْحَـةُ الْجَنَّـةَ][(١)]. وعن أبي نَجيحٍ: أنَّ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ كَانَ يَوْمَ اُحُدٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَبَلِ، فَجَـاءَ سَهْمٌ مُتَوَجِّهٌ إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاتَّقَاهُ طَلْحَةُ بيَدِهِ فَأصَاب خِنْصَرَهُ.

وعن عائشةَ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [مَنْ سَرَّهُ أنْ يَنْظُرَ إلَى رَجُلٍ يَمْشِي عَلَى الأرْضِ وَقَدْ قَضَى نَحْبَهُ، فَلْيَنْظُرْ إلَى طَلْحَةَ][(٢)]. وقال ﷺ: [مَنْ سَرَّهُ أنْ يَنْظُـرَ إلَـى شَهِيْدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الأرْضِ فَلْيَنْظُرْ إلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِاللهِ][(٣)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي مـا غـيَّرُوا عـهدَ اللهِ الـذي عـاهَدُوه عليــهِ كمــا غَــيَّرَهُ المنــافقونَ. وقَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾؛ أي صِدْقَ المؤمنونَ في عــهدِهم ليجزيَـهم اللهُ بصدقِـهم، ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾؛ بنقضِ العهدِ، ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾؛ قال الســديُّ: (يُمِيْتُـهُمُ اللهُ عَلَـى نِفَاقِهِمْ إنْ شَاءَ فَيُوجِبُ لَهُمُ الْعَـذابَ)[(٤)]. فمعنـى شَـرْطِ المشيئةِ في عـذاب المنـافقين إمَاتَتُهُمْ على النفاق إنْ شاءَ ثُم يعذِّبُهم، ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾؛ فيغفرُ لَهم، ليس أنه يجوزُ أن لا يُعذِّبَــهم إذا مَـاتُوا علـى النِّفـاقِ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا ﴾؛ لِمَـن تـابَ ﴿ رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾؛ بمن ماتَ على التَّوبةِ.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾؛ معنــاهُ: وصَرَفَ اللهُ الكفَّارَ عن المؤمنينَ مُغتاظِين لَم يكن فيهم مَن شَفَا غَيْظَهُ، ولَم ينالوا منهم مَـالاً ولا غنيمـةً، ولَـم يَـرَوا سُـروراً، ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾؛ بـالرِّيحِ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٨٧-٥٨٨؛ قال السيوطي (أخرجه الحاكم). ومـن طريـق الزبـير رضي الله عنه أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الجهاد: باب ما جاء في الدرع: الحديث (١٦٩٢).

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٨٨؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وأبو يعلى وابن المنـذر وأبو نعيم وابن مردويه عن عائشة).

(٣) عن جابر بن عبدالله، أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب المناقب: الحديث (٣٧٣٩)، وقال: هذا حديث غريب.

(٤) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٨٩، ذكره السيوطي من تفسير قتادة، وقال: أخرجه الطبري.

والملائكةِ التي أرسِلَتْ عليهم، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا ﴾ ؛ أي لَم يَــزَلْ قويّاً في مُلكـهِ، ﴿ عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ، في قدرته مَنيعاً بالنِّقمةِ من أعدائه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: وأنزلَ الذين عَاوَنُوا المشركينَ من أهلِ الكتاب وهم بنُو قريظةَ، نقَضُــوا العـهدَ وأعَانُوا الأحزابَ على رسولِ الله ﷺ، فأنزَلَهم اللهُ من حُصونِهم مع شدَّةِ شَــوكَتِهم، وألقَى في قلوبهم الرُّعبَ. وذلك أنَّ بنِي قريظةَ كانوا قد عاهَدُوا رسولَ الله ﷺ أن لاَ ينصرُوا أعداءَهُ عليهِ، فلما رَأوا الأحزابَ وكَثرَتَهم ظنُّــوا أنَّــهم يستأصِلُون المؤمنِينَ، فنقَضُوا العهدَ ولَحقوا بهم.

فَلَمَّا هَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِيْنَ وَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إلَى بَيْتِهِ، أرَادَ أنْ يَنْزِعَ لأمَتَـهُ، فَسَـمِعَ هَسِيْساً، فَنَظَرَ فَإذا جِبْرِيْلُ عليه السلام فِي دِرْعِهِ وَسِلاَحِهِ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيْلُ: أتَنْزِعُ لأمَتَـكَ يَـا رَسُولَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةُ لَمْ يَنْزَعُوا حَتَّى يُقَاتِلُوا بَنِي قُرَيْظَةَ وَيُصَلَّى فِيهِمُ الْعَصْرُ ؟! فَقَالَ ﷺ: [وَكَيْفَ لِي بِقِتَالِهِمْ وَهُمْ فِي حُصُونِهِمْ ؟!] فَقَالَ جِبْرِيْلُ: لأُلْهِمَنَّكَ ذلِكَ، فَوَاللهِ لأدُقَّنَّهُمُ الْيَوْمَ كَمَا يُدَقُّ الْبَيْضُ عَلَى الصَّفَا. فَنَـادَى رَسُـولُ اللهِ ﷺ فِـي الأَصْحَـاب، فَخَرَجُوا إلَى حُصُون بَنِي قُرَيْظَةَ، فَأُلْقِي الرُّعْبُ فِي قُلُوب الْقَوْمِ حَتَّى طَلَبُوا الصُّلْـحَ، وَأبَوا إلاَّ أنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ.

وَكَانَ سَعْدُ قَدْ أصَابَهُ سَهْمٌ فِي أكْحَلِهِ فِي حَرْب الْخَنْدَق، فَسَألَ اللهَ أنْ يُؤَخِّـرَهُ إلَى أنْ يَرَى قُرَّةَ عَيْنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ. فَلَمَّا طَلَبَتْ بَنُو قُرَيْظَـةَ الـنُّزُولَ عَلَى حُكْم سَعْدٍ، رَضِيَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ، فَحُمِـلَ سَـعْدٌ إلَـى النَّـبِيِّ ﷺ وَقَـدِ احْتَبَـسَ أكْحَلُهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: [احْكُمْ فِيْهِمْ]. فَقَالَ: حَكَمْتُ فِيْهِمْ بِـأنْ يُقْتَـلَ مُقَاتِلَتُـهُمْ وَيُسْبَى ذرَارِيَهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ وَأمْوَالُهُمْ. فَقَالَ ﷺ: [حَكَمْتَ فِيْـهِمْ مِثْـلَ مَـا حَكَـمَ اللهُ فِيْهِمْ]. فَلَمَّا قُتِلَتْ مُقَاتِلَتُهُمْ وَسُبِيَتْ نِسَاؤُهُمْ وَذرَارِيَهُمْ، انْفَجَرَ أكْحَـلُ سَـعْدٍ فَمَـاتَ رَحِمَهُ اللهُ[(١)].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦٨٨-٢١٦٩١) مطولاً وفيه قصة.

والصَّيَاصِيُّ: جمعُ صِيصَةٍ، وصِيصَةُ الثَّور قَرْنُهُ، سُمِّي بذلكَ؛ لأنَّ قَرْنَهُ حِصْنُهُ الَّذِي يَتَحَصَّنُ بهِ.

ورُوِي: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا رَجعَ مِنَ اللَّيْلَةِ الَّتِي انْصَرَفَ فِيهَا الأَحْزَابُ، وَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ إلَى الْمَدِينَةِ، وَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ السِّلاَحَ، أتَى جِبْرِيلُ عليه السلام إلَى النَّبِيِّ ﷺ مُعْتَجِراً بعِمَامَةٍ مِنْ استَبْرَقَ عَلَى بَغْلَةٍ عَلَيْهَا قَطِيفَةٌ مِنْ دِيْبَاجٍ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ زَيْنَبَ بنْتِ جَحْشٍ يَغْسِلُ رَأسَهُ وَقَدْ مَشَّطَتْ عِقْصَتَهُ[1]، فقَالَ جِبْرِيلُ: قَدْ وَضَعْتَ السِّلاَحَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: [نَعَمْ] قَالَ: عَفَا اللهُ عَنْكَ يَا رَسُولَ اللهِ! فَوَاللهِ مَا وَضَعَتِ الْمَلاَئِكَةُ السِّلاَحَ مُنْذُ أرْبَعِيْنَ لَيْلَةٍ، إنَّ اللهَ يَأمُرُكَ بالسَّيْرِ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ.

وَكَانَ هَذا فِي وَقْتِ الظُّهْرِ، فَأمَرَ النَّبِيُّ ﷺ مُنَادِياً يُنَادِي: [مَنْ كَانَ سَامِعاً مُطِيْعاً فَلاَ يُصَلِّيَنَّ الْعَصْرَ إلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ]. وَقَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أبي طَالِبٍ برَايَتِهِ إلَيْهِمْ، فَسَارَ إلَيْهِمْ عَلِيٌّ رضي الله عنه حَتَّى إذا دَنَا مِنَ الْحُصُون سَمِعَ مِنْهُمْ مَقَالَةً قَبِيْحَةً فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَجَعَ عَلِيٌّ رضي الله عنه حَتَّى لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ بالطَّرِيْق، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لاَ عَلَيْكَ أنْ تَدْنُو مِنْ هَؤُلاَءِ الْخَبَائِثِ، قَالَ: [أظُنُّكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ أذى ؟] قَالَ: نَعَمْ. فَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوَهُمْ حَتَّى دَنَا مِنْ حُصُونِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: [يَا إخْوَانَ الْقِرَدَةِ أخْزَاكُمُ اللهُ، وَأنْزَلَ فِيْكُمْ نِقْمَتَهُ] قَالُوا: يَا أبَا الْقَاسِمِ! مَا كُنْتَ جَهُولاً[2].

فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَمْساً وَعِشْرِيْنَ لَيْلَةً حَتَّى جَهَدَهُمُ الْحِصَارُ، وَقَذفَ فِي قُلُوبهِمُ الرُّعْبَ. فَلَمَّا أيْقَنُوا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَيْرُ رَاجِعٍ عَنْهُمْ، قَالَ لَهُمْ كَعْبُ بْنُ أسَدٍ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ؛ إنَّهُ قَدْ نَزَلَ بكُمْ مِنَ الأَمْرِ مَا تَرَوْنَ، وَإنِّي سَأعْرِضُ عَلَيْكُمْ ثَلاَثَ خِصَالٍ، فَخُذُوا بأيِّهَا شِئْتُمْ. قَالُوا: وَمَا هِيَ ؟

قَالَ: أمَّا الأُوْلَى فَنُبَايِعُ هَذا الرَّجُلَ وَنُصَدِّقُهُ، فَوَاللهِ لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَأنَّهُ الَّذِي تَجِدُونَهُ فِي كِتَابكُمْ، فَتَأْمَنُوا عَلَى دِمَائِكُمْ وَأمْوَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ. قَالُوا: لاَ نُفَارِقُ دِيْنَنَا أبَداً، وَلاَ نَسْتَبْدِلُ بهِ غَيْرَهُ.

---

(١) العَقِيصَةُ: الضَّفِيرَةُ، وعَقْصُ الشَّعر: ضَفْرُ وليُّهُ على الرأس.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦٨٩).

قَالَ: فَإِنْ أَبَيْتُمْ هَذِهِ عَلَيَّ، فَهَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، ثُمَّ نَخْرُجَ إِلَى مُحَمَّدٍ رِجَالاً مُصَلِّتِينَ بِالسُّيُوفِ، وَلَمْ يَكُنْ وَرَاءَنَا ثِقْلٌ يَهُمُّنَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ. قَالُوا: نَقْتُلُ هَؤُلاَءِ الْمَسَاكِيْن ! فَلاَ خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ.

قَالَ: فَإِنْ أَبَيْتُمْ هَذِهِ، فَاعْلَمُوا أَنَّ هَذِهِ لَيْلَةَ السَّبْتِ، وَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ قَدْ أَمِنُوا فِيْهَا، فَانْزِلُوا لَعَلَّنَا نُصِيبُ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ غِرَّةً. قَالُوا: نُفْسِدُ سَبْتَنَا وَنُحْدِثُ فِيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ أَحْدَثَ فِيْهِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الَّذِينَ أَحْدَثُوا فِيه الأَحْدَاثَ مُسِخُوا، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ مَنْ هُمْ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعَثُوا إِلَى رَسُول اللهِ ﷺ أن ابْعَثْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْن عَوْفٍ، وَكَانُوا حُلَفَاءَ الأَوْس، نَسْتَشِيْرُهُ فِي أَمْرِنَا، فَأَرْسَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ. فَسَأَلُوهُ إِنْ نَنزلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ: أَنَّهُ الذبح. قَالَ أَبو لُبَابَةَ: فَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ، ثُمَّ انْطَلَقَ أَبو لُبَابَةَ عَلَى وَجْهِهِ، وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى ارْتَبَطَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى عَمُودٍ مِنْ أَعْمِدَتِهِ، وَقَالَ: لاَ أَبْرَحُ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ مِمَّا صَنَعْتُ، وَعَاهَدَ اللهَ تَعَالَى أَنْ لاَ يَطَأَ أَرْضَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَبَداً، وَقَالَ: لاَ يَرَانِي اللهُ فِي بَلَدٍ خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيْهِ. فَلَمَّا عَلِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ مَضَى عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يَأْتِهِ قَالَ: [أَمَا إِنَّهُ لَوْ جَاءَنِي لاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَأَمَّا إذا فَعَلَ مَا فَعَلَ، فَمَا أَنَا بِالَّذِي أُطْلِقُهُ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ. ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ تَوْبَتَهُ، فَقَالَ ﷺ: [تُبْتُ عَلَى أَبي لُبَابَةَ] فَثَارَ النَّاسُ إِلَى أَبي لُبَابَةَ لِيُطْلِقُوهُ، فَقَالَ: وَاللهِ لاَ حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُنِي بِيَدِهِ. فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَطْلَقَهُ.

قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ بَنُو قُرَيْظَةَ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُول اللهِ ﷺ، فَتَوَاثَبَتِ الأَوْسُ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّهُمْ مَوَالِيْنَا - أَيْ حُلَفَاؤُنَا - دُونَ الْخَزْرَجِ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِي مَوَالِي الْخَزْرَجِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبْلَ بَنِي قُرَيْظَةَ حَاصَرَ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَسَأَلَهُمْ إِيَّاهُ عَبْدُاللهِ بْنُ أبى سَلُول فَوَهَبَهُمْ لَهُ. فَلَمَّا كَلَّمَهُ الأَوْسُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [يَا مَعْشَرَ الأَوْس؛ أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ أَحَكِّمَ فِيهِمْ رَجُلاً مِنْكُمْ ؟] قَالُوا: بَلَى، قَالَ:[فَذاكَ] إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، وَكَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ قَدْ جَعَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي خَيْمَةِ امْرَأَةٍ مِنَ أَسْلَمَ يُقَالُ لَهَا رُفَيْدَةُ، تُدَاوِي الْجَرْحَى وَتَخْدِمُ الْمَرْضَى.

فَلَمَّا حَكَّمَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، أتَاهُ قَوْمٌ فَاحْتَمَلُوهُ عَلَى حِمَارٍ، وَقَدْ وَطَّأُوا لَهُ وسَادَةً مِنْ أدْمٍ، وكَانَ رَجُلاً جَسِيْماً. ثُمَّ أقْبَلُوا بهِ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا أبَا عَمْرو! أحْسِنْ فِي مَوَالِيْكَ، فَإنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إنَّمَا وَلاَّكَ ذلِكَ لِتُحْسِنَ فِيْهِمْ. فَلَمَّا أكْثَرُوا عَلَيْهِ؛ قَالَ: لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أنْ لاَ تَأْخُذَهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ. فَعَرَفُوا أنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ مَقْتُولُونَ.

فَلَمَّا انْتَهَى سَعْدٌ إلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:[قُومُوا إلَى سَيِّدِكُمْ، فَأنْزِلُوهُ] فَقَامُوا إلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أبَا عَمْرو؛ إنَّ رَسُولَ اللهِ قَدْ وَلاَّكَ مَوَالِيكَ لِتَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ سَعْدٌ: عَلَيْكُمْ عَهْدُ اللهِ وَمِيْثَاقُهُ أنَّ الْحُكْمَ فِيْهِمْ مَا حَكَمْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: أحْكُمُ فِيْهِمْ أنْ يُقْتَلَ الرِّجَالُ وَتُقْسَمَ الأمْوَالُ وَتُسْبَى الذراري وَالنِّسَاءُ. فَقَالَ ﷺ: [لَقَدْ حَكَمْتَ فِيْهِمْ يَا سَعْدُ بحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أرْقِعَةٍ]. ثُمَّ اسْتُنْزِلُوا، فَحَبَسَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي دَار((ابْنَةِ الْحَارثِ))(١) امْرَأةٍ مِنْ بَنِي النَّجَّار، ثُمَّ بَعَثَ إلَيْهِمْ مَنْ يُخْرِجُهُمْ إلَيْهِ إرْسَالاً، وَأمَرَ بضَرْب أعْنَاقِهِمْ.

وَكَانَ فِيْهِمْ يَوْمَئِذٍ عَدُوُّ اللهِ حَيِيُّ بْنُ أخْطَبَ وَكَعْبُ بْنُ أسَدٍ رَأسُ الْقَوْمِ فِي سَبْعِمِائَةٍ. وَقِيْلَ: مِنْ ثَمَانِمِائَةٍ إلَى تِسْعِمِائَةٍ، فَقَالُوا لِكَعْبٍ وَهُوَ يَذْهَبُ بهِمْ إلَى النَّبِيِّ ﷺ أرْسَالاً: يَا كَعْبُ مَا تَرَى مَا يُصْنَعُ بنَا؟ قَالَ: مَا لَكُمْ لاَ تَعْقِلُونَ! ألاَ تَرَوْنَ مَنْ ذهَبَ مِنْكُمْ لاَ يَرْجِعُ، هُوَ وَاللهِ الْقَتْلُ، فَلَمْ يَزَلْ ذلِكَ دَأْبُهُمْ حَتَّى فَرَغَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ أتِيَ بحُيَيِّ بْنِ أخْطَبَ عَدُوِّ اللهِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ لَهُ فَقَّاحِيَّةٌ(٢) وَيَدَاهُ مَغْلُولَتَانِ إلَى عُنُقِهِ بحَبْلٍ، ثُمَّ أجْلِسَ فَضُربَ عُنُقُهُ(٣).

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (كَانَ عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ يَضْربَان أعْنَاقَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ هُنَاكَ)، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَمْ يُقْتَلْ مِنْ نِسَاءِ بَنِي قُرَيْظَةَ إلاَّ امْرَأةٌ وَاحِدَةٌ، كَانَتْ وَاللهِ عِنْدِي تَتَحَدَّثُ مَعِي وَتَضْحَكُ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْتُلُ رجَالَهَا،

---

(١) ما بين (( )) سقطت من المخطوط.

(٢) أي لونها كلون الورد حين يتفتح.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦٩٠-٢١٦٩١).

فَبَيْنَا هِيَ كَذلِكَ إذ هَاتِفٌ يَهْتِفُ باسْمِهَا: أيْنَ فُلاَنَةُ. قَالَتْ: هِيَ أنَا وَاللهِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لَهَا: وَيْلَكِ وَمَا تِلْكَ؟ قَالَتْ: طُلِبْتُ لأُقْتَلَ، قُلْتُ: وَلِمَ ؟ قَالَتْ: حَدَثاً أحْدَثْتُهُ، قَالَتْ: فَانْطُلِقَ بهَا فَضُرِبَ عُنُقُهَا. قَالَتْ عَائِشَةُ: مَا أنْسَى عَجَباً مِنْهَا، طِيْبَ نَفْسٍ وَكَثْرَةَ ضَحِكٍ، وَقَدْ عَلِمَتْ أنَّهَا تُقْتَلُ)[1]. قال الواقديُّ: (وَاسْمُ تِلْكَ الْمَرْأةِ نُبَاتَةُ)[2] امْرَأةُ الْحَكَمِ الْقُرَظِيِّ، وكَانَتْ قَتَلَتْ خَلاَّدَ بْنَ سُوَيْدٍ، رَمَتْ عَلَيْهِ رَحًى فَقَتَلَهُ، فَقَتَلَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بخَلاَّدِ بْنِ سُوَيْدٍ.

وعن الزهريِّ ﷺ قالَ: (كَانَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْظَةَ يُقَالُ لَهُ الزُّبَيْرُ بْنُ بَاطَا وَيُكَنَّى أبا عبدِالرَّحْمَنِ، مَرَّ يَوْماً عَلَى ثَابتِ بْنِ قَيْسِ بْن ثَابتِ بْنِ شَمَّاسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمَ بُعَاثٍ، أخَذَهُ وَجَزَّ نَاصِيَتَهُ ثُمَّ خَلَّى سَبيْلَهُ. فَجَاءَ ثَابتَ بْنَ قَيْسٍ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ فَوَجَدَهُ قَدْ صَارَ شَيْخاً كَبيْراً، فَقَالَ لَهُ ثَابتُ: يَا زُبَيْرُ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ قَالَ: نَعَمْ؛ وَهَلْ يَجْهَلُ مِثْلِي مِثْلَكَ؟ قَالَ: فَإنِّي أُرِيْدُ أنْ أُجَازِيَكَ بمَا لَكَ عِنْدِي مِنَ الْيَدِ، قَالَ: افْعَلْ، فَإنَّ الْكَرِيْمَ يَجزِي الْكَرِيْمَ.

قَالَ ثَابتُ: فَأتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ قَدْ كَانَ لِلزُّبَيْرِ عِنْدِي يَدٌ وَصَنِيْعَةٌ وَلَهُ عَلَيَّ مِنَّةٌ وَقَدْ أحْبَبْتُ أنْ أجْزِيَهُ، فَهَبْ لِي دَمَهُ، فَقَالَ ﷺ:[هُوَ لَكَ] فَأتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا شَيْخُ؛ إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ وَهَبَ لِي دَمَكَ. فَقَالَ: إنِّي شَيْخٌ كَبيْرٌ، فَإنْ ذهَبَ أهْلِي وَأوْلاَدِي فَمَا أصْنَعُ بالْحَيَاةِ ؟ قَالَ ثَابتُ: فَأتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَألْتُهُ أهْلَهُ وَوَلَدَهُ، فَقَالَ: [هُمْ لَكَ] فَقُلْتُ: يَا شَيْخُ؛ قَدْ وَهَبَ لِي رَسُولُ اللهِ امْرَأتَكَ وَأوْلاَدَكَ. فَقَالَ: يَا ثَابتُ؛ كَيْفَ يَكُونُ أهْلُ بَيْتٍ بالْحِجَاز لاَ مَالَ لَهُمْ، فَمَا بَقَاؤُهُمْ عَلَى ذلِكَ ؟ قَالَ: فَأتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَألْتُهُ مَالَهُ، فَقَالَ: [هُوَ لَكَ] فَأعْلَمْتُهُ بذلِكَ.

فَقَالَ لِي: يَا ثَابتُ؛ مَا فَعَلَ الَّذِي وَجْهُهُ مِرْآةٌ مُضِيْئَةٌ كَعْبُ بْنُ أسَدٍ ؟ قُلْتُ: قُتِلَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ سَيِّدُ الْحَاضِرِ وَالْبَادِي حَيِيُّ بْنُ أخْطَبَ؟ قُلْتُ: قُتِلَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦٩٢).

(٢) ذكره الواقدي في كتاب المغازي: غزوة بني قريظة: ج ٢ ص١٨.

مُقَدَّمُنَا إذا شَدَدْنَا وَحَامِيْنَا إذا كَرَرْنَا غَزَالُ بْنُ شَمْوَالَ؟ قُلْتُ: قُتِلَ. قَالَ: فَمَا فُعِلَ بِبَنِي كَعْب بْنِ قُرَيْظَةَ وَبَنِي عَمْرِو بْنِ قُرَيْظَةَ ؟ قُلْتُ: قُتِلُوا كُلُّهُمْ.

قَالَ: فَإنِّي أَسْأَلُكَ يَا ثَابتُ بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الصَّنِيْعَةِ وَالْيَدِ إلاَّ مَا أَلْحَقْتَنِي بِالْقَوْمِ، فَوَاللهِ مَا لِي فِي الْعَيْشِ بَعْدَ هَؤُلاَءِ مِنْ خَيْرٍ، فَمَا أنَا بِصَائِرٍ حَتَّى أَلْقَى الأَحِبَّةَ. فَضَرَبَ ثَابتُ عُنُقَهُ)[1]. فَلَمَّا بَلَغَ أبَا بَكْرٍ الصِّدِّيْقَ ﷺ قَوْلَهُ: أَلْقَى الأَحبَّة، قَالَ: تَلْقَاهُمْ وَاللهِ فِي نَار جَهَنَّمَ خَالِداً فِيْهَا أبَداً[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ ؛ أي أَلْقَى في قلوبهم الخوفَ، ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ؛ يعني الْمقاتِلَةَ، ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ يعني الذراري، ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ ؛ يعني عقَارَهم ونخيلَهم ومنازلَهم وأموالَهم من الذهب والفضَّةِ والْحِلِيِّ والعبيدِ والإماء، ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ﴾ ؛ يعني أرضَ بني النَّضِير، وَقِيْلَ: أرض خيبرَ.

والمعنى: سيفتحُ الله لكم أرضاً لَم تطأُوها الآنَ بأقدَامِكم يعني خيبرَ، ففتحَها اللهُ عليهم بعد بنِي قُريظةَ. وقال الحسنُ: (هِيَ فَارسُ وَالرُّومُ)[3]، وقال قتادةُ: (هِيَ مَكَّةُ)[4]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ الله قادرٌ على إظهار الإسلام بغيرِ القتال، وإنَّما أمرَ المؤمنين بالقتالِ ليعرِضَهم لجزيلِ الثواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: كان بعضُ أزواجِ النبيِّ ﷺ سَألْنَهُ شيئاً من عَرَضِ الدُّنيا وآذينَهُ بزيادةِ النَّفقة، فهَجَرَهُنَّ رسولُ اللهِ ﷺ وآلَى منهنَّ شهراً أنْ لا يقربَهن ولَم يخرج إلى أصحابهِ للصَّلوات.

---

(١) القصة بكاملها ذكرها الواقدي في كتاب المغازي: ج ٢ ص٢٠-٢١.

(٢) ذكره الواقدي في كتاب المغازي: ج ٢ ص٢١، بلفظ: (قال أبو بكر وهو يسمع قوله: ويحكَ يا ابن باطا، إنه ليس إفراغ دَلوٍ، ولكنه عذابٌ أبدي).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٠٠).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٦٥٠).

فقالتِ الصحابةُ: مَا شَأْنُ رَسُول اللهِ ؟ فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: إنْ شِئْتُمْ ذهَبْتُ إلَيْهِ لأُعْلِمَكُمْ مَا شَأْنُهُ ؟ فَذهَبَ إلَى النَّبيِّ ﷺ فَاستَأذنَ فَأذِنَ لَهُ. قَالَ عُمَرُ: فَجَعَلْتُ أقُولُ فِي نفْسِي: أيُّ شَيْءٍ أكَلِّمُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَعَلَّهُ يَنْبَسِطُ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ لَوْ رَأيْتَ فُلاَنَةَ وَهِيَ تَسْألُنِي النَّفَقَةَ فَصَكَكْتُهَا صَكَّةً ؟ فَقَالَ ﷺ:[فَذلِكَ الَّذِي أجْلَسَنِي عَنْكُمْ]. فَأتَى عُمَرُ حَفْصَةَ فَقَالَ لَهَا: لاَ تَسْألِي رَسُولَ اللهِ ﷺ شَيْئاً فَمَا كَانَ مِنْ حَاجَتِهِ لَكَ فَأوْلَى.

ثُمَّ جعَلَ يَتَتَبَّعُ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ يُكَلِّمُهُنَّ، حَتَّى قَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يَغُرُّكَ أنَّكِ امْرَأةٌ حَسْنَاءُ وَإنَّ زَوْجَكِ يُحِبُّكِ، لَتَنْتَهِيَنَّ أوْ لَيُنْزِلَنَّ اللهُ فِيْكُنَّ الْقُرْآن. فَقَالَتْ أمُّ سَلَمَةَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؛ أوَمَا بَقِيَ لَكَ إلاَّ أنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُول اللهِ وَنِسَائِهِ ! فَمَنْ تَسْألَ الْمَرْأةُ إلاَّ زَوْجَهَا؟ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (يَا أيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ) إلى آخرها(١).

وكان يومئذٍ مع رسول الله ﷺ تسعُ نِسوةٍ؛ خمسٌ من قُريش: عائشةُ بنتُ أبي بكر، وحفصةُ بنت عُمر، وأمُّ حبيبةَ بنت أبي سُفيان، وسَوْدَةُ بنتُ زَمْعَةَ، وأمُّ سَلَمَةَ بنت أبي أميَّة، فهؤلاءِ من قريشٍ. وصفيَّة بنتُ حَييٍّ بن أخطب الخيبريَّة، وميمونةُ بنت الحارثِ الهلالية، وزينبُ بنت جحشٍ، وجُوَيْرِيَّةُ بنت الحارثِ الْمُصْطَلِقِيَّةُ(٢).

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِساً مَعَ حَفْصَةَ، فَتَشَاجَرَا فِيمَا بيْنَهُمَا، فَقَالَ لَهَا: هَلْ لَكِ أنْ أجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَكِ رَجُلاً؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: فَأبُوكِ إذاً، فَأرْسَلَ إلَى عُمَرَ ﷺ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا قَالَ: تَكَلَّمِي، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ تَكَلَّمْ وَلاَ تَقُلْ إلاَّ حَقّاً! فَرَفَعَ عُمَرُ يَدَهُ فَوَجَّى وَجْهَهَا ثُمَّ رَفَعَ فَوَجَّى وَجْهَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [كُفَّ].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٧٠٣). ومسلم في الصحيح: كتاب الطلاق: باب أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً: الحديث (٢٩/ ١٤٧٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٠٤) عن الحسن وقتادة.

فَقَالَ عُمَرُ: يَا عَدُوَّةِ اللهِ! أَوَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ إلاَّ حَقّاً، وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَوْلاَ مَجْلِسُهُ مَا رَفَعْتُ يَدِي حَتَّى تَمُوتِي. فَقَامَ ﷺ فَصَعَدَ إلَى غُرْفَةٍ، فَمَكَثَ فِيْهَا شَهْراً لاَ يَقْرَبُ شَيْئاً مِنْ نِسَائِهِ، يَتَغَدَّى وَيَتَعَشَّى فِيْهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا) الآيَةُ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَعَرَضَ ذلِكَ عَلَيْهِنَّ كُلِّهُنَّ، فَلَمْ يَخْتَرْنَ إلاَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَكَانَ آخِرُ مَنْ عَرَضَ عَلَيْهَا حَفْصَةُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنِّي فِي مَكَانِ الْعَائِذَةِ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَاللهِ لاَ أَعُودُ لِشَيْءٍ تَكْرَهُهُ أَبَداً، بَلْ أَخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَرَضِيَ عَنْهَا.

وَقِيْلَ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِ آيَةُ التَّخْيِيْرِ بَدَأَ بِعَائِشَةَ أَحَبُّهُنَّ إلَيْهِ، فَخَيَّرَهَا فَاخْتَارَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، فَرُؤِيَ الْفَرَحُ فِي وَجْهِهِ ﷺ، وَتَابَعَهَا جَمِيْعُ نِسَائِهِ عَلَى ذلِكَ، فَشَكَرَهُنَّ اللهُ وَقَصَرَ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَيْهِنَّ، فَقَالَ (لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ)[(١)].

قِيْلَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [يَا عَائِشَةُ؛ إنِّي ذاكِرٌ لَكِ أمْراً فَلاَ تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي فِيْهِ أَبُوكِ] ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ: : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا) إلَى قَوْلِهِ: (وَإن كُنْتُن تُردنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدارَ الآخِرَةَ)؛ فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: قَدْ عَلِمَ اللهُ أنَّهُ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِنِي بِفِرَاقِكَ، وَهَلْ أَسْتَأْمِرُ فِي هَذا ؟! إنِّي أُرِيْدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ. ثُمَّ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ لاَ تُخْبِرْ أَزْوَاجَكَ أنِّي اخْتَرْتُكَ. ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجُ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا فَعَلَتْ[(٢)].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٩٨٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة والحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) وذكره بمعناه. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٠٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٧٠٦ و٢١٧٠٧) بأسانيد عديدة. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٧٦٥٢-١٧٦٥٥). والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٧٨٥)، وكتاب الطلاق: باب من خيَّر أزواجه: الحديث (٥٢٦٢).

وَقِيْلَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ التَّخْيِيْرِ، دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ وَخَيَّرَهُنَّ، وَقَالَ لِعَائِشَةَ: [أمَّا أنْتِ فَلاَ تُحْدِثِي مِنْ أمْرِكِ شَيْئاً حَتَّى تُشَاوِري أبَوَيْكِ] فَقَالَتْ: أفِيكَ أشَاوِرُهُمَا؟! أنَا أخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، مَا لَنَا وَالدُّنْيَا؟! فَتَبِعَهَا سَائِرُ أزْوَاجِهِ، وَلَمْ تَخْتَرْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ نَفْسَهَا إلاَّ الْمَرْأةُ الْحِمْيَرِيَّةُ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَتَعَالَيْنَ أمَتِّعْكُنَّ) أي أعطيكن مهركُنَّ (وَأسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً) أي أطَلِّقْكُنَّ على وجه السُّنة. وَقِيْلَ: معناهُ: أخرجْكُنَّ من البُيوتِ، لأنه ذكرَ المتعةَ قبل التَّسريح. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ أي ثوابَ اللهِ ورضَى رسولهِ ﴿ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ أي الجنَّةَ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ ﴾ ؛ باختيَار ثواب الله ورضَى رسوله، ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ، في الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (يَعْنِي النُّشُوزَ وَسُوءَ الْخُلُقِ)[(٢)] ﴿ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ ؛ أي يُجعَلُ عذابُ جُرمِها في الآخرةِ كعذاب جُرمَيْن. والمعنى: يزيدُ في عذابها ضِعْفاً، كما زِيدَ في ثوابها ضِعفاً في قولهِ (نُؤْتِهَا أجْرَهَا مَرَّتَيْنِ).

وإنَّما ضُوعِفَ عذابُهن على الفاحشة لأنَّهن يُشَاهِدْنَ من الزَّواجرِ ما يَرْدَعُ عن مواقعةِ الذُّنوب ما لا يشاهدُ غيرُهن، فإذا لَم يَمتَنِعْنَ اسْتَحْقَقْنَ تَضعيفَ العذاب. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي وكان عذابُها على الله هيِّناً.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ)، قرأ ابنُ كثيرٍ وابن عامر (نُضَعِّفُ) بالنون وكسرِ العين مشدَّدة من غير ألِف (العذابَ) بالنصب[(٣)]، وقرأ أبو

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٩٧؛ قال السيوطي: (وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﷺ) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٦٥٧).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٣٩.

(٣) في المخطوط: (العذاب بالنصف) وهو تصحيف، والصحيح ما أثبتناه. ينظر: الحجة للقراءات السبعة: ج ٣ ص٢٨٣.

عمرو (يُضَعَّفُ) بالياءِ وفتحِ العين والتشديد، ورفعِ (الْعَذابُ)، قال أبو عمرو: (وَإنَّمَا قَرَأتُ هَكَذا مُشَدَّداً مِنْ غَيْرِ ألِفٍ لِقَوْلِهِ (ضِعْفَيْنِ)، يُقَالُ: ضَعَّفْتُ الشَّيْءَ إذا جَعَلْتُهُ مِثْلَهُ وَضَاعَفْتُهُ إذا جَعَلْتُهُ أمْثَالَهُ)(١). وقرأ الباقونَ (يُضَاعَفُ) بالألفِ ورفع (الْعَذابُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ أي ومَن يُطِعْ منكن للهِ ورسولِهِ. وَقِيْلَ: ومَن تُقِمْ منكنَّ على طاعةِ الله وطاعة رسوله، ﴿ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ ؛ فيما بينَها وبين ربها، ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ ؛ أي نُعطِيها مكانَ كلِّ حَسَنةٍ عشرين حَسَنَةً، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي حَسَناً؛ يعني الجنَّة. والرِّزقُ الكريمُ: ما سَلِمَ من كلِّ آفةٍ، ولا يكونُ ذلك إلاَّ في الجنَّة.

قرأ يعقوب (تَقْنُتْ) بالتاءِ ومثلهُ رُوي عن ابنِ عامر، وقوله (وَتَعْمَلْ صَالِحاً)، قرأ الأعمشُ وحمزة والكسائي وخلَف (وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُؤْتِهَا) بالياءِ فيهما. وقرأ غيرُهم (وَتَعْمَلْ) بالتاءِ (وَنُؤْتِهَا) بالنُّون. قال الفرَّاء: (وَإنَّمَا قُرِئَ (يَقْنُتْ) بالياءِ لأن (مَنْ) أدَاةٌ تَقُومُ مَقَامَ الاسْمِ، يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْوَاحِدِ وَالاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ وَالْمُؤَنَّثِ وَالْمُذكَّرِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إلَيْكَ﴾(٢) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ﴾(٣)، ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ﴾).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ؛ معناهُ: ليس قَدْرُكُنَّ عندي مثل قَدْرِ غيركن من النِّساء الصالحات، أنْتُنَّ أكرمُ عَلَيَّ، وأنا بكُنَّ أرحمُ وثوابُكن أعظمُ، ﴿ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾ ؛ اللهِ. وشَرَطَ عليهنَّ التقوَى بياناً أنَّ فَضِيلَتَهُنَّ إنَّما تكون بالتَّقوى لا باتِّصالِهن بالنبيِّ ﷺ. وَقِيْلَ: معناهُ: ليست حالَتُكن كحالةِ النِّساء غيركن في الطاعةِ والمعصية والثواب والعقاب إنْ كنتن مُتَّقِيَاتٍ عن المعاصي مُطيعاتٍ لله تعالى.

---

(١) ذكره الطبري في جامع البيان:مج ١١ ج ٢٠ ص١٩١-١٩٢ وضعَّفه. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١٧٥؛ قال القرطبي: (وضعفه الطبري وهو كذلك غير صحيح).

(٢) يونس / ٤٣ .

(٣) يونس / ٤٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾ ؛ أي فلا تُلِنَّ القولَ للرِّجال على وجهٍ يُورثُ ذلك الطمعَ فيكن، فيطمعُ المنافقون في مواقعتِكُن، فقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ ؛ يعني زنًى وفجُورٌ ونفاقٌ. والمرأةُ مَنْدُوبَةٌ إذا خاطبَتِ الأجانبَ إلى الْغِلْظَةِ في المقالةِ؛ لأن ذلك أبعدُ مِن الطَّمعِ من الزِّينة.

وإنَّما قال (لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ) ولَم يقل كواحدةٍ؛ لأن أحَداً عامٌّ يصلحُ للواحدِ والاثنين والجمع والمذكَّر والمؤنث، قال تعالى ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾(١) وقال تعالى ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾(٢) .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي قُلْنَ قَولاً حَسَناً لا يؤدِّي إلى الزينةِ، وَقِيْلَ: معناهُ: وقُلْنَ ما يوجبهُ الدِّين والإسلامُ بغيرِ خضوعٍ فيه، بل بتصريحٍ وبيان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ ؛ أي إلْزَمْنَ بيوتَكُن ولا تخرُجْن إلاّ في ضَرورةٍ.

قرأ نافعُ وعاصم (وَقَرْنَ) بفتح القافِ، وهو مِن قَرَرْتَ في المكانِ أقَرُّ، وكان الأصلُ اقْرِرْنَ فِي بُيوتِكُنَّ، فحُذفت الرَّاء الأُولى التي هي عينُ الفعلِ لأجلِ نَقْلِ التَّضعيفِ، وألْقِيَتْ حركتُها على القافِ كقوله ﴿فظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾(٣) و﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾(٤)، والأصلُ ظَلَلْتَ وظَلَلْتُمْ. وقرأ الباقون (وَقِرْنَ) بكسرِ القافِ مِن الوَقَارِ؛ أي كنَّ أهلَ سَكينةٍ ووَقَار، والأمرُ منه للرَّجُلِ قِرَّ، وللمرأة قِرِّي، ولجماعة النساء قِرْنَ، كما يقالُ من الوعدِ: عِدْنَ، ومن الوَصْلِ: صِلْنَ.

وعن محمَّد بن سِيرين قال: (قِيْلَ لِسَوْدَةِ بنْتِ زَمْعَةَ: ألاَ تَحُجِّيْنَ؛ ألاَ تَعْتَمِرِيْنَ كَمَا يَفْعَلُ أخَوَاتُكِ؟ فَقَالَتْ: قَدْ حَجَجْتُ وَاعْتَمَرْتُ، ثُمَّ أمَرَنِي اللهُ أنْ أقِرَّ فِي بَيْتِي، فَوَاللهِ لاَ أخْرُجُ مِنْهُ حَتَّى أمُوتُ. فَوَاللهِ مَا أخْرِجَتْ مِنْ بَابِ بَيْتِهَا حَتَّى أخْرَجُوا جَنَازَتَهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)(٥).

---

(١) البقرة / ٢٨٥ . (٢) الحاقة / ٤٧ . (٣) الواقعة / ٦٥ . (٤) طه / ٩٧ .

(٥) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٩٩؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن سيرين) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ؛ التَّبرُّجُ: التَّبَخْتُرُ وَإظْهَارُ الزِّيْنَةِ، وما يستدعِي به من شَهوَةِ الرِّجال وإبراز الْمَحاسِنِ للناس. والجاهليةُ الأُولَى: هي ما بينَ عِيسَى عليه السلام ومُحَمَّدٍ ﷺ[1]، كانتِ المرأةُ من أهلِ ذلك الزمان تَتَّخِذُ الدِّرْعَ من اللُّؤلُؤ فتلبسهُ ثُم تَمشِي وسطَ الطريقِ ليس عليها غيرهُ، وتعرضُ نفسَها للرِّجال. وقال بعضُهم: الجاهليةُ الأُولَى ما بين آدمَ ونوحٍ، كان نساؤُهم أقبحَ ما يكون من النِّساءِ، ورجالُهم حِسَانٌ، وكانت المرأةُ تُراودُ الرجُلَ عن نفسهِ. فنهَى اللهُ تعالى هؤلاءِ عن فِعْلِ أهلِ الجاهليَّة وأمَرَهُنَّ بإقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاة وطاعةِ الله ورسولهِ في باقِي الآيةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي إنَّما أمَركُنَّ اللهُ بما أمركُنَّ من الطاعةِ ولُزوم البيوتِ ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ ، يعني رجْسَ الذُّنوب والعُيوب، ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ . وقال ابنُ عبَّاس: (عَمَلَ الشَّيْطَانِ وَمَا لَيْسَ فِيْهِ رضَى). ومعنى الرِّجْسِ: السُّوءُ وما يوجبُ العقوبةَ. والمرادُ بأهلِ البيتِ ها هنا نساءَ النَّبيِّ ﷺ لأنَّهُنَّ في بيتهِ. وَقِيْلَ: أهلُ البيتِ كلُّ مَن اتَّصلَ بالنبيِّ ﷺ من جهة نسب عليٍّ أو نسبٍ على العُمومِ[2]. وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ: (أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجْمَعِيْنَ)[3].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٠٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس) وذكره.

(٢) في المخطوط: (من جهة نسب أو نسب علي العموم).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٧٢٧). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٦٧٧). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩١؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه عطية ابن سعد، وهو ضعيف). وفي تهذيب التهذيب: ترجمة عطية: الرقم (٤٧٥٥)؛ قال ابن حجر: (قال ابن عدي: قد روى عن جماعة من الثقات، ولعطية عن أبي سعيد أحاديث عدة، ومن غير أبي سعيد، وهو مع ضعفه يكتب حديثه، وكان يعدُّ مع شيعة أهل الكوفة). وينظر: الكامل في الضعفاء لابن عدي: ج ٧ ص٨٥: الرقم (٥٦٢/ ١٥٣٠).

وعن أمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيّاً وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، فَجَمَعَهُمْ وَأتَى بقَطِيْفَةٍ خَيْبَرِيَّةٍ فَلَفَّهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ ألْوَى بيَدِهِ إلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: [اللَّهُمَّ هَؤُلاَءِ أهْلِي أذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيْراً] فَقَالَتْ أمُّ سَلَمَةَ: أوَلَسْتُ مِنْ أهْلِكَ ؟ قَالَ: [نَعَمْ][1] فَدَخَلْتُ الْكِسَاءَ بَعْدَمَا دَعَا وَانْقَضَى دُعَاؤُهُ.

وعن عِكْرِمَةَ ﷺ أنهُ قال: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أزْوَاجِ النَّبيِّ ﷺ خَاصَّةً، وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي تَذْهَبُونَ إلَيْهِ)[2]، وكان عكرمةُ يُنادِي بهذا في السُّوق[3]، واحتجَّ بقولِهِ في الخطاب (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ) وكِلاَ الخِطَابَيْنِ لأزواجِ النبيِّ ﷺ، يعني الخطابَ الأول (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)، وهذا الخطابُ الثاني. وإنه ذكَّرَ الخطابَ في قولِهِ (عَنْكُمْ) و(يُطَهِّرَكُمْ) لأنَّ النبيَّ ﷺ كان فيهنَّ فغَلَبَ المذكَّرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ ؛ أي وَاحفَظْنَ ما يُقرَأ عليكُن في بُيوتِكن منَ القُرْآن والمواعظِ. وهذا حَثٌّ لَهن على حِفْظِ القُرْآن والأخبار ومذاكرتِهن بِهما للإحاطةِ بحدودِ الشَّريعةِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي لَطِيفاً بأوليائِه، خَبيراً بجميعِ خَلْقِهِ وبجميعِ مصالِحهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ؛ الآيةُ، قال قتادةُ: (لَمَّا ذَكَرَ اللهُ أزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ دَخَلَ نِسَاءٌ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ عَلَيْهِنَّ؛ فَقُلْنَ: ذُكِرْتُنَّ وَلَمْ نُذْكَرْ! فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٧٣٢-٢١٧٣٩). وفيها قال: [إنَّكِ مِنْ أهْلِي] و[أنا مَعَهُمْ مَكَانَكِ وَأنْتِ عَلَى خَيْرٍ] مرتين. كما أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٦٧٩).

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٠٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن عكرمة) وذكره.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٤٠). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٦٧٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٤٢).

وقال مقاتلُ: (لَمَّا رَجَعَتْ أسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ مِنَ الْحَبْشَةِ مَعَ زَوْجِهَا جَعْفَرِ بْنِ أبِي طَالِبٍ، دَخَلَتْ عَلَى نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَتْ: هَلْ نَزَلَ فِيْنَا شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ ؟ قُلْنَ: لاَ. فَأتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ النِّسَاءَ لَفِي خَيْبَةٍ وَخَسَارَةٍ! قَالَ: [وَمِمَّ ذلِكَ ؟] قَالَتْ: لأنَّهُنَّ لاَ يُذْكَرْنَ بخَيْرٍ كَمَا يُذْكَرُ الرِّجَالُ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(١).

وقال مقاتلُ: (قَالَتْ أمُّ سَلَمَةَ بِنْتُ أبي أمَيَّةَ وَنُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ الأنْصَارِيَّةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا بَالُ رَبنَا يَذْكُرُ الرِّجَالَ وَلاَ يَذْكُرُ النِّسَاءَ فِي شَيْءٍ مِنْ كِتَابهِ، فَعَسَى أنْ لاَ يَكُونَ فِيْهِنَّ خَيْرٌ، وَلاَ للهِ فِيْهِنَّ حَاجَةٌ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٢).

وَقِيْلَ: إنَّ أزواجَ النبيِّ ﷺ قُلْنَ: (يَا رَسُولَ اللهِ! ذكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الرِّجَالَ فِي الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَذْكُرِ النِّسَاءَ بخَيْرٍ، فَمَا فِيْنَا خَيْرٌ نُذْكَرُ بهِ، إنَّا نَخَافُ أنْ لاَ يَتَقَبَّلَ مِنَّا طَاعَةً). فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ(٣).

وَاعْلَمْ: أنَّ الرجالَ والنساء يُجَازَوْنَ بأعمالِهم الصالحة مغفرةً لذنوبهم وأجْراً عظيماً.

ومعنى الآيةِ: (إنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ) يعني الْمُخْلِصِيْنَ بالتَّوحيدِ والمخلِصاتِ (وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) أي المصدِّقِين بالتوحيدِ والْمُصَدِّقَاتِ. والإسلامُ في اللغةِ: هو الانْقِيَادُ وَالاسْتِسْلاَمُ. والإيْمَانُ في اللغة: هو التَّصْدِيْقُ، غيرَ أنَّ معنى الإسلامِ والإيمان في هذه الآية واحدٌ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤١. والواحدي في أسباب النزول: ص٢٤٠. والسيوطي في أسباب النزول: ص١٣٩.

(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج٣ ص٤٦، ولكنه في المطبوع (نسيبة بن كعب) وليس أنيسة كما في المخطوط. والصحيح نُسَيْبَةُ بنتُ كعب الأنصارية، وكما (أخرجه الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذي وحسنه، والطبراني وابن مردويه عن أم عمارة الأنصارية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) ذكره السيوطي في الدر المنثور: ج٦ ص٦٠٨ وعزاه إليهم. وأخرجه الترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٢١١). والطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٥ ص٢٧: الحديث (٥١ و٥٢) وأخرجه الطبراني مرسلاً في الحديث (٥٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٧٤٧) عن ابن عباس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ ؛ أي الْمُطيعِينَ للهِ في أوامرهِ ونواهيه والْمُطِيْعَاتِ. والقَانِتُ: هو الْمُوَاظِبُ على الطاعةِ، والقُنُوتُ: طُولُ القيامِ في الصَّلواتِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ ؛ يعني الصَّادِقِينَ في إيْمانِهم والصَّادِقاتِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾ ؛ الصَّابرُ: هو الذي يَحْبسُ نفسَهُ عن جميعِ ما يجبُ الصَّبْرُ عنهُ، ويصبرُ على جميعِ ما يجبُ الصبر عليهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ﴾ ؛ يعني بالْمُتَصَدِّقِيْنَ الذين يُؤَدُّونَ ما عليهم مِن الصَّدقة المفروضةِ. ويقالُ: أرادَ به جميعَ الصَّدقاتِ. وأما الخاشعُ: فهو الْمُتَوَاضِعُ للهِ تعالى وللناسِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ ؛ يعني الصَّائمين صومَ الفرضِ بنيَّةٍ صادقةٍ، ولكن فِطْرُهُمْ على حَلال. قال ابنُ عبَّاس: (مَنْ صَامَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَثَلاَثَةَ أيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ الْغُرِّ الْبيْضِ، كَانَ مِنْ أهْلِ هَذِهِ الآيَةِ، وَيُؤْتَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بمَائِدَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ، يَأْكُلُونَ مِنْهَا وَالنَّاسُ فِي شِدَّةٍ، وَيُظِلُّهُمُ اللهُ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ وَالنَّاسُ فِي شِدَّةٍ، وَيَنْفَحُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ ريْحُ الْمِسْكِ)(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ ؛ أي عمَّا لا يحلُّ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ ؛ قِيْلَ: أرادَ به الذِّكْرَ في الصَّلواتِ الخمسِ. وَقِيْلَ: أرادَ به الذِّكْرَ باللِّسان والقلب في جميعِ الأحوال. قال ابنُ عبَّاس:(يُرِيْدُ فِي أدْبَار الصَّلَوَاتِ غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَفِي الْمَضَاجِعِ، وَكُلَّمَا اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ، وَكُلَّمَا غَدَا وَرَاحَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذكَرَ اللهَ). وقال مجاهدُ: (لاَ يَكُونُ الرَّجُلُ مِنَ الذاكِرِيْنَ كَثِيْراً حَتَّى يَذْكُرَ اللهَ قَائِماً وَقَاعِداً وَمُضْطَجِعاً)(٢). وعن أبي هريرةَ؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأيْقَظَ امْرَأتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، كُتِبَا

---

(١) في مجمع الزوائد: ج٣ ص١٩٦؛ قال الهيثمي: (رواه البزار ورجاله رجال الصحيح).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤٢. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٧٦٨٥).

مِنَ الذاكِرِيْنَ اللهَ كَثِيْراً وَالذاكِرَاتِ][1]. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ وهو الجنَّةُ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ ﴾ ؛ نزلَتْ هذه الآيـةُ في عبـدِالله بـن جَحْـشٍ وأختـهِ زينـبُ، وكانت أمُّهما أمَيْمَةُ بنتُ عبدِ المطَّلب عمَّةُ النـبيِّ ﷺ، خَطَـبَ النَّـبيُّ ﷺ زَيْنَـبَ بنْـتَ جَحْشٍ لِزَيْدِ ابْنِ حَارِثَةَ مَوْلاَهُ، فكَرِهَ أخُوهَا عَبْدُاللهِ أنْ يُزَوِّجَهَا مِنْ زَيْـدٍ، وكَـانَ زَيْـدٌ عَرَبِيّاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْلاَهُ فِي الإِسْلاَمِ، كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أصَابَهُ مِنْ سَـبْيِ الْجَاهِلِيَّـةِ فَأعْتَقَهُ وَتَبَنَّاهُ.

فَقَالَتْ زَيْنَبُ: لاَ أرْضَاهُ لِنَفْسِي، ثُمَّ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! أنَا أتَـمُّ نِسَـاءِ قُرَيْـشٍ مِنَ ابْنَةِ عَمِّكَ، فَلَمْ أكُنْ لأَفْعَلَ وَلاَ أرْضَاهُ يَا رَسُولَ اللهِ، وَقَالَ أخُوهَا عَبْدُاللهِ كَذلِـكَ أيْضاً، وَكَانَتْ زَيْنَبُ بَيْضَاءَ جَمِيْلَةً، وَكَانَ فِيْهَا حِدَّةٌ، فَقَـالَ ﷺ: [لَقَـدْ رَضِيْتُـهُ لَـكِ] فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ[2].

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) أي مَا ينبغِي لِمؤمِنٍ (وَلاَ مُؤْمِنَةٍ) يعني عبـدَاللهِ بـن جَحـش وأختَهُ زينبُ إذا اختارَ اللهُ تعالى ورسولهُ أمْراً (أنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) بخلافِ ما اختارَ اللهُ ورسولهُ.

قرأ أهلُ الكوفةِ (أنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) بالياءِ للحـائلِ بـين التـأنيثِ والفعـل، وقرأ الباقونَ بالتاء[3]. وقَوْلُهُ تَعَالَى (الْخِيَرَةُ) قراءَةُ العامَّة بفتـحِ اليـاءِ؛ أي الاختيـارُ،

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب قيام الليل: الحديث (١٣٠٩)، وباب الحث على قيام الليـل: الحديـث (١٤٥١). وابـن حبـان في الإحسـان: كتـاب الصـلاة: الحديـث (٢٥٦٩) وإسناده صحيح.

(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٦. وأخرجه الطـبري في جـامع البيـان: الحديـث (٢١٧٤٩-٢١٧٥٣). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٦١٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جريـر وعبـد بـن حميـد وعبدالرزاق وابن مردويه عن ابن عباس) وذكره بألفاظ.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١٨٧؛ قال القرطبي: (قـرأ الكوفيـون: (أنْ يَكُـونَ) باليـاء، وهو اختيار أبو عبيد؛ لأنه قد فرق بين المؤنث وبـين فعلـه. البـاقون بالتـاء؛ لأن اللفـظ مؤنـث، فتأنيث فعله حسن).

وقرأ ابنُ السَّمَيْقعِ (الْخِيْرَةُ) بسُكون الياءِ، وهُما لُغتان. وإنَّما جُمِعَ الضميرُ في قولِهِ (لَهُمُ الْخِيَرَةُ) لأن المرادَ بقولِهِ (لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ) كلَّ مؤمنٍ ومؤمنة في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ أي فيما أمَرتَه، ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي فقد أخطأ خطأ، وذهبَ عن الحقِّ والصواب ذهاباً بَيِّناً.

فلما نزلت الآية قَالَت: قَدْ رَضِيتُ يَا رَسُولَ اللهِ. وَكَذلِكَ رَضِيَ أخُوهَا، فَجَعَلَتْ أمْرَهَا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ، فَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ زَيْدٍ وَسَاقَ إلَيْهِمَا عليه السلام عَشْرَةَ مَثَاقِيْلَ وَسِتِّيْنَ دِرْهَماً؛ وَخِمَاراً وَمِلْحَفَةً وَدِرْعاً وَإزَاراً؛ وَخَمْسِيْنَ مُدّاً مِنْ طَعَامٍ وَثَلاَثِيْنَ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي واذكُرْ يا مُحَمَّدُ قولَكَ (لِلَّذِي أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ) بالإسلام وغيرِه، ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ ؛ بالإعتاق؛ وهو زيدُ ابنُ حارثةَ؛ وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأتِهِ زَيْنَبُ تَشَاجُرٌ، فَجَاءَ زَيْدٌ إلَى النَّبيِّ ﷺ يَشْكُوهَا بمَا كَانَتْ تَسْتَطِيْلُ عَلَيْهِ بشَرَفِهَا.

فَقَالَ ﷺ لِزَيْدٍ عَلَى سَبيْلِ الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ ؛ امْرَأتَكَ ولا تُطلِّقْهَا، ﴿ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ ؛ فيها ولا تَفْعَلْ في أمرها ما تَأثَمُ بهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ ؛ خطابٌ للنبيِّ ﷺ، وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ أضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أنَّهُ إنْ طَلَّقَهَا زَيْدٌ، تَزَوَّجَهَا هُوَ وَضَمَّهَا إلَى نَفْسِهِ صِلَةً لِرَحِمِهَا وَشَفَقَةً عَلَيْهَا، فعاتبَهُ اللهُ على ذلكَ وإخفائه؛ لكي لا يكون ظاهرُ الأنبياء عليهم السلام إلاّ كباطنهم.

وكان النبيُّ ﷺ يعلمُ أنَّهما لا يتَّفِقان لكثرةِ ما كان يجري بينَهما من الخصومةِ، فجعل يُخْفِيْهِ عن زيدٍ، وكان الأَولَى بالنبيِّ ﷺ أن يدعُوهُما إلى الْخُلْعِ فلم يفعَلْ، وقالَ لهُ: (أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) خشيةَ أنه لو خالَعَها ثُم تزوَّجَها النبيُّ عليه السلام أن يطعنَ الناسُ عليهِ فيُقالُ: تزوَّجَ بحليلةِ ابنهِ بعد ما بيَّنَ للناسِ أنَّ حليلةَ الابنِ حرامٌ على الأب، فهذا معنى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ ؛ أي تخافُ لائِمَتَهُمْ أنْ يقولوا:

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤٢.

أمَرَ رَجُلاً بطَلاَق امْرَأتِهِ ثُـمَّ نَكَحَـهَا. قـال ابـنُ عبَّـاس في هـذه الآيـةِ: (أرَادَ بالنَّـاسِ الْيَهُودَ، خَشِيَ أنْ يَقُولَ الْيَهُودُ: تَزَوَّجَ مُحَمَّدٌ امْرَأةَ ابْنِهِ). وقَوْلُهُ تَعَـالَى:﴿ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَـٰهُ ﴾ ؛ أي هو أوْلَى بأنْ تخشاهُ في كلِّ الأحوال.

وعن عليِّ بن الحسن: أنْ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ فَقَالَ: (كَانَ اللهُ تَعَالَى قَـدْ أعْلَـمَ نَبيَّهُ عليه السلام أنَّ زَيْنَبَ سَتَكُونُ مِنْ أزْوَاجِهِ، وَأنَّ زَيْداً سَيُطَلِّقُهَا، فعلـى هـذا يكـون النـبي عليه السلام مُعَاتَباً عَلَى قَوْلِهِ: (أمْسِكْ عَلَيْـكَ زَوْجَـكَ) مَـعَ عِلْمِـهِ بأنَّـهَا سَـتَكُونُ زَوْجَتَـهُ، وَكِتْمَانِهِ مَا أخْبَرَهُ اللهُ بهِ، وَإنَّمَا كَتَمَ النَّبيُّ ﷺ لأنَّهُ اسْتَحْيَا أنْ يَقُولَ لِزَيْدٍ: إنَّ زَوْجَتَـكَ سَتَكُونُ امْرَأتِي)[١].

وَقِيْلَ: إنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ لَمَّا أرَادَ فِرَاقَهَا، جَاءَ إلَـى رَسُـول اللهِ ﷺ، فَقَـالَ: يَـا رَسُولَ اللهِ؛ إنِّي أُرِيْدُ أنْ اُفَارِقَ صَاحِبَتِي، فَقَالَ: [مَا لَكَ؟ أرَابَكَ مِنْهَا شَيْءٌ ؟] قَـالَ: لاَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا رَأيْتُ مِنْهَا إلاَّ خَيْراً، وَلَكِنَّهَا تَتَعَظَّمُ عَلَـيَّ لِشَـرَفِهَا وَتُؤْذِيْنِـي بلِسَانِهَا، فَقَالَ ﷺ: [أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ].

ثُمَّ إنَّ زَيْداً طَلَّقَهَا، فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا قَالَ ﷺ لِزَيْدٍ: [مَا أجِدُ فِي نَفْسِي أحَداً أوْثَقَ مِنْكَ، إذْهَبْ إلَى زَيْنَبَ فَاخْطُبْهَا لِي] قَالَ زَيْدٌ: فَذهَبْتُ فَإذا هِيَ تُخَمِّرُ عَجِيْنَهَا، فَلَمَّا رَأيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي، حَتَّى لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أنْظُرَ إلَيْهَا حِيْـنَ عَلِمْـتُ أنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ ذكَرَهَا، فَوَلَّيْتُهَا ظَهْرِي وَقُلْتُ: يَا زَيْنَبُ أبْشِـرِي؛ إنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَخْطِبُـكِ؛ فَفَرِحَتْ بذلِكَ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ (زَوَّجْنَاكَهَا) فَتَزَوَّجَهَا رَسُـولُ اللهِ ﷺ فَدَخَلَ بـهَا، وَمَـا أوْلَمَ عَلَى امْرَأةٍ مِنْ نِسَائِهِ مَا أوْلَمَ عَلَيْـهَا، أطْعَـمَ النَّـاسَ الْخُبْزَ وَاللَّحْـمَ حَتَّـى امْتَـدَّ النَّهَارُ[٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٧٦٩٥).

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦١٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن سعد وأحمـد والنسـائي وأبـو يعلـى وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أنـس (رض)). وفي الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٤ ص١٩٢؛ قال القرطبي: (معنى هذا الحديث ثابت في الصحيح. وترجم له النسائي: صلاة المـرأة إذا خطبت واستخارت ربها).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ ؛ قضَـاءُ الوَطْـر في اللُّغة: بُلُوغُ مُنْتَهَى مَا فِي النَّفْسِ مِنَ الشَّيْءِ، يقالُ: قَضَى وَطْراً منها؛ إذا بَلَـغَ مـا أرادَ مِن حاجتِهِ فيها، ثم صارَ عبارةً عن الطَّلاق؛ لأنَّ الرجُلَ إنَّما يطلِّقُ امرأتَهُ إذا لَم يبـقَ له فيها حاجةٌ.

وعن أنسٍ ﷺ أنَّهُ قَالَ: (لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ بْنِتِ جَحْشٍ خَطَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (زَوَّجْنَاكَهَا) فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى دَخَـلَ عَلَيْـهَا بغَـيْر إذْن لِقَوْلِهِ تَعَالَى (زَوَّجْنَاكَهَا). وَكَـانَتْ زَيْنَـبُ تُفَـاخِرُ نِسَـاءَ النَّبِيِّ ﷺ وَتَقُـولُ: زَوَّجَكُـنَّ أهْلُوكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)[1].

ومعنَى الآيةِ: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنهَا وَطْراً) وطلَّقها (زَوَّجْنَاكَهَا). وقَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ ؛ أي زوَّجنَاكَ زينبَ لكَيلاَ يُظَنَّ أن امرأةَ المتبَنَّى لا تحـلُّ. والأدْعِيَـاءُ: جمـعُ دَعِـيٍّ؛ وهـو الذي يُدْعَى ابْناً من غيرِ ولادةٍ.

قال الحسنُ: (كَانَتِ الْعَرَبُ تَظُنُّ أنَّ حُرْمَةَ الْمُتَبَنَّى كَحُرْمَةِ الابْنِ، فَبَيَّنَ اللهُ ((أنَّ نساءَ))[2] الأدْعِيَاءِ غَيْرُ مُحرَّمَةٍ عَلَى الْمُتَبَنَّى وَإنْ أصَابُوهُنَّ، وَهُوَ قَوْلُهُ (إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً) بخِلاَفِ ابْنِ الصُّلْب، فَإنَّ امْرَأتَهُ تَحرُمُ بنَفْسِ الْعَقْدِ).

وقَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: وكـان تزويـجُ النبيِّ ﷺ لزينبَ قضاءً كائناً مكتوباً في اللوحِ الْمَحفُوظِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾ أي مَا كان عليه من ضِيْقٍ وإثْمٍ فيما شَرَّعَهُ اللهُ تعالى وأحلَّهُ له كسُـنَّةِ اللهِ، ﴿ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ ، أي سَـائرِ الأنبيـاء الماضِـين في التَّوسِـعَةِ عليـهم في النِّكـاحِ،

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١٩٣؛ قال القرطبي: (وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي ﷺ) وذكره، ثم قال: (أخرجه النسائي عن أنس بن مالك) وذكره. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩١؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني من طرق، رجال بعضها رجال الصحيح). وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤٣.

(٢) ما بين (( )) ليس في الأصل، ويبدو أنه سقط من الأصل؛ لأنه من مقتضى إكمال المعنى.

فقَوْلُهُ: (سُنَّةَ اللهِ) منصوبٌ بنَزعِ الخافضِ، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي قضاءً مَقْضِيّاً، أخبرَ اللهُ تعالى أن أمرَ زينبَ كان من حُكمِ الله وقَدَرِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ ﴾ ؛ موضعُ (الَّذِيْـنَ) الخفضُ؛ لأنه نعتُ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ الذينَ خلَوا من قبلُ، كانوا يبَلِّغُون الرسالةَ، ﴿ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ، ويخشَون اللهَ ولا يخشَونَ أحداً سواهُ، أي لا يخشون مقالةَ الناسِ، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي مُجَازياً لِمن يخشاهُ، وَقِيْلَ: حَفِيظاً لأعمالِ العبادِ، مُجازياً لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا تَزَوَّجَ زَيْنَبَ، قَالَ النَّاسُ: إنَّ مُحَمَّداً تزَوَّجَ امْرَأةَ ابْنِهِ! فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أبَا أحَدٍ مِنْ رجَالِكُمْ)، يعنِي أنَّهُ ليس بأبي زَيْدٍ حتى تحرُمَ عليه زوجتُهُ، ﴿ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ ؛ فعظِّموهُ واقِرُّوا به[1].

قرأ الحسنُ وعاصم (وَخَاتَمَ النَّبِيِّيْنَ) بفتحِ التاء؛ أي آخِرَ النَّبيِّينَ، وقرأ الباقونَ بكسرِ التَّاء على الفاعلِ؛ أي إنه ختَمَ النَّبيينَ بالنبوَّة، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي لَم يَزَلْ عالِماً بكلِّ شيء من أقوالِكم وأفعالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ اختلَفُوا في المرادِ بالذِّكرِ الكثيرِ في هذه الآية. قال الكلبيُّ: (الْمُرَادُ بِهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَهِيَ تَتَضَمَّنُ أذكَاراً كَثِيرَةً، وَأرَادَ بالتَّسْبيْحِ التَّنْزِيْهَ فِي الصَّلاَةِ). وقال مجاهدُ: (هُوَ أنْ لاَ يَنْسَاهُ أبَداً). وقال مقاتلُ: (هُوَ التَّسْبيْحُ وَالتَّحْمِيْدُ وَالتَّهْلِيْلُ وَالتَّكْبيْرُ عَلَى كُلِّ حَال، وَهُوَ أنْ يَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ. وَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ يَتَكَلَّمُ بهِنَّ صَاحِبُ الْجَنَابَةِ وَالْغَائِطِ وَالْحَدَثِ)[2].

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١٩٦.

(٢) قال بعضه مقاتل كما في التفسير: ج ٣ ص٤٩، ونقل عنه ابن أبي حاتم بعضه كما في التفسير الكبير: ج ٩ ص٣١٣٨: الأثر (١٧٧٠٢).

قَالَ ﷺ: [يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بي شِفَاهُهُ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَسَبحُوهُ بُكْرَةً وَأصِيلاً) بالغَدَاةِ والعَشِيِّ، قال الكلبيُّ: (أمَّا بُكْرَةً فَصَلاَةُ الْفَجْرِ، وَأمَّا أصِيْلاً فَصَلاَةُ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرب وَالْعِشَاءِ). وقال بعضُهم: أرادَ بذلك صلاةَ الصُّبح وصلاةَ العصرِ على قول قتادةَ، وصلاةَ المغرب على قول غيرِهِ. وخَصَّ طَرَفَي النهار بالذِّكر؛ لأنه يجتمعُ عندَهُما ملائكةُ اللَّيل والنهار، فيقولون: أتينَاهم وهم يُصَلُّونَ، وتركنَاهُم وهم يُصَلُّونَ. وَقِيْلَ: خُصَّ التسبيحُ بطرَفَي النهار؛ لأن صحيفةَ العبدِ إذا كان في أوَّلِها وآخِرِها ذكرٌ وتسبيحٌ يرجَى أن يُغْفَرَ له ما بين طَرَفَي الصحيفةِ.

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [مَا جَلَسَ قَوْمٌ قَطُّ يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى، إلاَّ نَادَى مُنَادِي السَّمَاءِ: أنْ قُومُوا فَقَدْ غُفِرَتْ لَكُمْ ذُنُوبُكُمْ، وَبُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ][2]. وَقِيْلَ: معنَى قولهِ (اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيْراً) أي باللَّيلِ والنهار، وفي البَرِّ والبحر، والسَّفر والحضر، والغِنَى والفقر، والصِّحة والسَّقم، والسِّر والعلانيةِ، وعلى كلِّ حالٍ. وقال مجاهدُ: (الْكَثِيْرُ هُوَ الَّذِي لاَ يَتَنَاهَى أبَداً)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ ؛ أي يَرْحَمُكُمْ ويغفرُ لكم، وقوله (وَمَلاَئِكَتُهُ) أي يَدْعُونَ لكم. وَقِيْلَ: يأمرُ الملائكةَ بالاستغفار لكم. والصَّلاةُ مِن اللهِ الرحمةُ بالثواب، ومِن المؤمنين الدُّعاءُ، ومِن الملائكةِ الاستغفارُ للمؤمنين.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٧ ص٣٢٦: الحديث (٦٦١٧) عن أبي هريرة (رض)، وقال: (لم يرو هذا الحديث عن محمد بن المهاجر إلا أبو توبة). في تهذيب التهذيب: ج ١٠ ص٥٠٠: ترجمة كريمة بنت الْحَسْحَاس المزنية (٨٩٦٥)؛ قال: (علق البخاري حديثها هذا في كتاب التوحيد، وهو أحد الأحاديث المرفوعة التي لم يوصلها في الجامع)، وقال: (رواه إسماعيل أيضاً عن أم الدرداء عن أبي هريرة، وكلاهما صحيح).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: الحديث (١٥٧٩) عن أنس بن مالك ﷺ. وفي مجمع الزوائد: ج١٠ ص٧٦؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط وفيه ميمون المرئي وثقه جماعة وفيه ضعف وبقية رجال أحمد رجال الصحيح).

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤٥.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ ؛ أي مِن ظُلُمَاتِ المعاصِي والجهلِ ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ؛ العِلْمِ والطاعةِ، وَقِيْلَ: مِن ظُلماتِ الكُفر إلى نور الإيْمان. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي لَم يَزَلْ رَحِيْماً بهم إذ رَضِيَ عنهُم وأمَرَ الملائكةَ بالاستغفار لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ ؛ أي تحيةُ المؤمنينَ مِن الله تعالى (يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ) أنْ يُسَلِّمَ عليهم، يقولُ لَهم الملائكةُ بأمرِ الله: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ؛ مَرْحَباً بعِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أرْضَوْنِي فِي دار الدُّنيا باتِّباعِ أمْرِي. ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾[(1)]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي رزْقاً حَسَناً في الجنَّةِ، وَقِيْلَ: الأجرُ الكريمُ هو الذي يكون عظيمَ القَدْرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ﴾ ؛ على أُمَّتِكَ وعلى جميعِ الأُممِ بتبليغِ الرِّسالةِ، ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ ؛ للخلْقِ بالجنَّة والثواب لِمَن أطاعَ اللهَ وصَدَّقَكَ، ﴿ وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي ومُخَوِّفاً بالنار والعقاب لِمَن عصَى الله تعالى وكَذبَكَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ ؛ أي وأرسلناكَ للناس رَاعِياً للخَلْقِ إلى دِين اللهِ تعالى بأمرهِ، يعني إنَّهُ أمَرَكَ بهذا. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي وأرسلناكَ سِراجاً مُضِيئاً لِمَن تَبعَكَ واهتدَى بكَ، كالسِّراجِ في الظُّلْمَةِ يُستَضَاءُ بهِ.

وإنَّما سُمِّيَ النبيُّ عليه السلام سِراجاً؛ لأنه بُعِثَ والأرضُ في ظُلْمَةِ الشِّرْكِ، فكان حين بُعِثَ كالسِّراجِ في الظُّلمةِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أرادَ بالفَضْلِ الكبيرِ مغفرةَ الله لَهم، وما أعدَّ لَهم في الجنَّةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ ؛ فيما يطلبونهُ منكَ، فقد ذكرنا تفسيرَهُ في أوَّل السُّورة. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ أي اصْبرْ على أذاهُم واحتَمِلْ منهم، ولا تَشْتَغِلْ بمجَازَاتِهم إلى أن تُؤْمَرَ فيهم بأمرٍ، وهذا منسوخٌ بآية

---

(١) الزمر / ٧٣ .

السَّيفِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ؛ أي فَوِّضْ أمُورَكَ إليهِ، فإنه سَيَكْفِيْكَ أمرَهُم إذا تَوَكَّلْتَ عليهِ؛ أي تَوَكَّلْ عليه في كِفَايَةِ شرِّهم وأذاهم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ ؛ إذا وَكَّلْتَ أمْرَكَ إليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ ؛ أي إذا تَزوَّجتُمُوهُنَّ من قَبْلِ أن تُجامِعُوهن، ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ ، تَسْتَوْفُونَها بالعَدَدِ لا بالحيضِ ولا بالشُّهور. والاعْتِدَادُ هو استيفاءُ العَدَدِ، أسقطَ اللهُ العِدَّةَ من الْمُطَلَّقَةِ قَبْلَ الدُّخولِ لبَرَاءَةِ رحِمِها، فلو شاءَتْ تزوَّجت مِن يومِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ ؛ أي أعطُوهُنَّ مُتْعَةَ الطلاقِ، وهذا على سبيلِ الوجُوب فيمَن يدخلُ بها ولَم يُسَمِّ لَها مهراً، وعلى النَّدب في مَن سَمَّى لَها مهراً ثُم طلَّقَها قبلَ الدُّخولِ.

وقال سعيدُ بن المسيَّب: (نُسِخَ حُكْمُ هَذِهِ الآيَةِ بقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾[(١)]). وقال الحسنُ: (الْمُتْعَةُ وَاجِبَةٌ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ وَمُخْتَلَعَةٍ وَمُلْتَعَنَةٍ، وَلَكِنْ لاَ يُجْبَرُ عَلَيْهَا الزَّوْجُ)[(٢)].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَسَرِّحُوهُنَّ) أرادَ له التسريحُ عن المنْزِلِ لا عن النكاحِ؛ لأن حقَّ الحبسِ لا يثبتُ إلاّ بأحدِ الأمرين: إما النكاحُ؛ وإما العدَّةُ، وقد عُدَّ ما جميع في هذا الموضعِ بعددِ الطَّلاق المذكور.

والسَّراحُ الجميلُ: هو الذي لا يكونُ فيه جَفْوَةٌ ولا أذًى ولا منعُ حقٍّ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قولهِ (فَمَتِّعُوهُنَّ): (أيْ أعْطُوهُنَّ الْمُتْعَةَ، قَالَ: وَهَذا إذا لَمْ يَكُنْ سَمَّى لَهَا صَدَاقاً، فَأمَّا إذا فَرَضَ لَهَا صَدَاقاً فَلَهَا نِصْفٌ)[(٣)].

---

(١) الآية ٢٣٧ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٢٦؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد) وذكره بمعناه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٧٦). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٧١٧). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٦٢٥؛ عزاه السيوطي لابن المنذر أيضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي أبَحْنَا لكَ نساءَكَ اللاَّتِي تزوَّجْتَهن بمُهُورٍ مُسَمَّاةٍ، وأعطيتَ مُهورَهُنَّ، وسَمَّى المهرَ أجْراً لأنه يجبُ بَدَلاً عن منافعِ البُضْعِ، كما أنَّ الأجرَ يجبُ بَدَلاً عن منافعِ الدَّار والعبدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ ﴾ ؛ أي وأبَحْنَا لكَ ما ملكَتْ يَمينُكَ؛ يعني الْجَوَاري التي يَملِكُها. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ﴾ ؛ أي مِمَّا أعطاكَ اللهُ من الغنيمةِ مثل جُوَيْرِيَّةَ بنتِ الحارثِ، وصَفِيَّةَ بنتِ حَيِيٍّ بنِ أخْطَبَ. ويدخلُ في هذه اللفظةِ الشِّراءُ والتزوُّجُ، كما رُوي في صَفِيَّةَ [أنَّهُ عليه السلام أعْتَقَهَا ثُمَّ تَزَوَّجَهَا، وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ ﴾ ؛ أرادَ به إباحةَ تزويجِ بناتِ عمِّه وبناتِ عمَّاتهِ من[2] بني عبدِ المطَّلب، ﴿ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ﴾ ، وبناتِ خالهِ وبنات خالاتهِ؛ يعني نساءَ بني زُهرَةَ من بني عبدِ منافٍ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ ﴾ ؛ أي هَاجَرْنَ معكَ من مكَّة إلى المدينةِ، وهذا إنَّما كان قَبْلَ تحليلِ غير الْمُهاجِرَاتِ، ثُم نُسِخَ شرطُ الهجرةِ في التحليلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ ؛ بلا مَهرٍ إن أراد النبيُّ أن يتزوَّجَها، ومَن قرأ (وَهَبَتْ) بالفتحِ، فمعناهُ: أحللناهَا أنْ وهبَت، وهي قراءةُ الحسنِ، فالفتحُ على الماضِي والكسرُ على الاستئنافِ[3]، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا ﴾ ؛ أي إنْ أرادَ النبيُّ أن يتزوَّجها فلَهُ ذلكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٤ ص٥٤: الحديث(١٨٠-١٨٢). والبخاري في الصحيح: كتاب النكاح: باب من جعل عتق الأمة صدقَها: الحديث (٥٠٨٦).

(٢) في المخطوط: (عن).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٠٩؛ قال القرطبي: (وقرأ الحسن البصري وأبي بن كعب والشعبي (أنْ) بفتح الألف، وقرأ الأعمش: (وَامْرَأةٌ مُؤْمِنَةٌ وَهَبَتْ). قال النحاس: (وكسر (إنْ) أجمع للمعاني؛ لأنه قيل: إنهن نساء، وإذا تفح كان على واحدة بعينها؛ لأن الفتح على البدل من المرأة، أو بمعنى (لأنْ). ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢١٩.

﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾ ؛ أي خاصَّةً لكَ، ﴿ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ فليسَ لامرأةٍ أن تَهَبَ نفسَها لرجلٍ بغيرِ شُهودٍ ولا وَلِيٍّ ولا مَهْرٍ إلاّ للنبيِّ ﷺ، وهذا مِن خَصَائِصِهِ في النِّكاحِ، كالتَّخْيِيرِ والعددِ في النِّساء.

ولو تزوَّجَها بلفظِ الهبة وقَبلَها بشهودٍ ومَهْرٍ انعقدَ النكاحُ ولَزِمَ المهرُ، وهذا مذهبُ أبي حنيفةَ. وقال الشافعيُّ ومالكٌ: (لاَ يَنْعَقِدُ النِّكَاحُ بلَفْظِ الْهبَةِ إلاَّ للنَّبيِّ ﷺ خاصَّةً؛ لأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ (إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) وَلَمْ يَقُلْ لَكَ، لأَنَّهُ لَوْ قَالَ: إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَكَ، كَانَ يَجُوزُ أنْ يُتَوَهَّمَ أنَّهُ يَجُوزُ ذلِكَ لِغَيْرِهِ ﷺ كَمَا جَازَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ)، لأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى (خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ).

وحُجَّةُ أبي حنيفةَ وأصحابِهِ: أنَّ إضافةَ الهبةِ إلى المرأةِ دليلاً أنَّ النبيَّ لَم يكن مَخْصُوصاً بالنكاحِ بلفظةِ الهبةِ، وإنَّما كانت خُصوصيَّة في جواز النِّكاحِ بغير بدل، ولو لَم يكن بلفظِ الهبةِ نكاحاً لِمَا قالَ تَعَالَى (إنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أنْ يَسْتَنكِحَهَا)، فلمَّا جعلَ اللهُ الهبةَ جواباً للاسْتِنْكَاحِ، عُلِمَ أنَّ لفظَ الهبة نِكَاحٌ.

وقَوْلُهُ (خَالِصَةً) نعتُ مصدرٍ؛ تقديرهُ: إنْ وَهَبَتْ نفسَها هبةً خالصةً لكَ بغيرِ عِوَضٍ، أحْلَلْنَا لكَ ذلك مِن دونِ المؤمنين، فأمَّا المؤمنونَ إذا قَبلُوا هذه الهبةَ على وجهِ النِّكاحِ لزِمَهم المهرُ.

ويقالُ: إن الخالصَة نعتٌ للمرأةِ؛ أي جعلنَاها خالصةً لكَ فلا تحلُّ لغيركَ مِن بعدِكَ.

وقد اختلَفُوا في هذهِ المرأةِ التي وَهَبَتْ نفسَها للنبيِّ مَن هِيَ ؟ فقال قتادةُ: (هِيَ مَيْمُونَةُ بنْتُ الْحَارثِ)(١). وقال الشافعيُّ: (زَيْنَبُ بنْتُ خُزَيْمَةَ، امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَار، وَكَانَتْ تُسَمَّى أمَّ الْمَسَاكِيْنِ)(٢). وقال الضحَّاكُ ومقاتلُ: (هِيَ أمُّ شُرَيْكِ بْنِ جَابرِ مِنْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الثر (٢١٧٩١) عن قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) ذكره الطبري في جامع البيان: مج ١٣ ج ٢٤ ص٢٩ من غير أن ينسبه إلى أحد.

بَنِي أسَدٍ)[1]. وقال عروةُ بن الزُّبيرِ: (هِيَ خَوْلَةُ بنْتُ حَكِيْمِ بْنِ الأَوْقَصِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾ ، أي قد علِمنا المصلحةَ للمؤمنين في أنْ لا يتزوجُّوا أكثر من الأربع، ولا يتزوجوا بغيرِ مهر ولا وليٍّ ولا شهود. والمعنى: أوجَبنا عليهم أن لا يتزوجوا أكثر من أربع بمهر وولي وشهود. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ ، أي وقد علِمنا ما فَرضنا عليهم فيما ملكت أيمانُهم حتى لا يجوزُ لهم التزويج بالمعتَقة من غيرِ مهر، وحتى لا يباحَ لهم بملك اليمين كما أُبيح للنبيِّ ﷺ، فإنه كان له الصفيُّ من الغنيمة ولم يكن لغيرِهِ. وقيل: معناه وما ملكت أيمانهم ممن يجوز سَبْيُه وحربُه، فأما ما كان له عهدٌ فلا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ ، أي ضَيْقٌ في أمرِ النكاح ومنعٍ من شيء تريدهُ، وهذا فيه تقديمٌ؛ تقديرهُ: خالصةً لك من دون المؤمنين لكيلا يكون عليك حرجٌ، أي أحلَلنا لكَ ما ذكرنا؛ ليرتفعَ عنك الحرجُ والضيق. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ ، أي غفوراً للنبي ﷺ في التزويجِ بغير مهرٍ، ﴿ رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾ ، به في تحليلِ ذلك له. وقيل: غفورٌ لمن يستحقُّ المغفرةَ، رحيمٌ بالعبادِ فيما يتَّصلُ بالدِّين والدنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ ، معناه: تؤخِّرُ مَن تشاءُ من فراشِكَ من نسائك، وتضمُّ إلى فراشِكَ مَن تشاءُ منهن من غير حرجٍ عليك. وهذا من خصائصِ النبيِّ ﷺ تفضيلاً له، أُبيح له أن يجعلَ لِمَن أحبَّ منهن يوماً أو أكثرَ، ويعطِّلُ مَن شاء منهنَّ فلا يأتيها. وكان القَسْمُ واجباً على النبيِّ ﷺ والتسويةُ بينهن، فلما ((نزَلت)) [3] هذه الآيةُ سقطَ الوجوبُ، وصار الاختيار إليه فيهن. قال منصورُ عن أبي رَزين: (وَكَانَ مِمَّنْ آوَى عَائِشَةُ وَأُمُّ سَلَمَةَ وَزَيْنَبُ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٩٥). وقاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٥١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٩٤).

(٣) ما بين (( )) سقط من المخطوط.

وَحَفْصَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ، وَكَانَ يُسَوِّي بَيْنَهُنَّ فِي الْقَسْمِ، وَكَانَ مِمَّنْ أرْجَى سَوْدَةُ وَجُوَيْرِيَّةُ وَصَفِيَّةُ وَأمُّ حَبِيبَةَ وَمَيْمُونَةَ، وَكَانَ يَقْسِمُ لَهُنَّ مَا شَاءَ، وَكَانَ قَدْ أرَادَ أنْ يُفَارِقَهُنَّ، فَقُلْنَ لَهُ: اقْسِمْ لَنَا مَا شِئْتَ مِنْ نَفْسِكَ، وَدَعْنَا عَلَى حَالِنَا)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، معناهُ: إنْ أردتَ أن تُؤوي إليك امرأةً ممن عزَلتهُنَّ من القسمةِ وتضمَّها إليه، فلا عتبَ عليك ولا لَوْم.

وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ ، أي ذلك التخييرُ الذي خيَّرتك في صُحبَتهنَّ أدنى إلى رضاهن إذا كان ذلك مُنَزَّلاً مِن الله عليك، ويرضيهنَّ كلُّهن بما أعطيتهن من تقريبٍ وإرجاء وإيواءٍ. قال قتادةُ: (إذا عَلِمْنَ أنَّ هَذا جَاءَ مِنَ اللهِ لِرُخْصَةٍ، كَانَ أطْيَبَ لأنْفُسِهِنَّ وَأقَلَّ لِحُزْنِهِنَّ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ ، واللهُ يعلَمُ ما في قلوبكم من أمر النساء والميلِ إلى بعضِهنَّ، ويعلمُ ما في قلوبكم من الرِّضا والسُّخط وغيرِ ذلك، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ ، بمصالحِ العباد، ﴿ حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾ ، على جهلِهم ولا يعاقبُهم بكلِّ ذنبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ ، قال قتادةُ: (وَذلِكَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا خَيَّرَ نِسَاءَهُ فَاخْتَرْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ، شَكَرَ اللهُ لَهُنَّ فَقَصَرَهُ اللهُ عَلَيْهِنَّ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ سِوَاهُنَّ)[٣]. وكُن يومئذ تِسعاً: عائشةُ، وحفصةُ، وزينب، وأم سَلَمة، وأمُّ حبيبة، وصفيَّة، وميمونةُ، وجويريَّة، وسَوْدَةُ[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٨٠٢ و٢١٨٠٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٨١٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٨١٥).

(٤) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤٨. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢١٥. وابن عادل في اللباب: ج ١٥ ص٥٧٣.

ومعنى الآية: لا يحلُّ لكَ من النساءِ سوى هؤلاء اللاَّتي اخترنكَ، ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ ، وليس لكَ أن تُطلِّقَ واحدةً منهن وتَزَوَّج بدَلها. وقولهُ: ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ ، يعني ماريَّة القِبطية وغيرها من السَّبايا. وقولهُ تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾ ، أي حفيظاً. وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: [مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى حَلَّتْ لَهُ النِّسَاءُ][(١)].

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ ، نزلت هذه الآيةُ في شأن وليمةِ زينب، قال أنسُ ابن مالكٍ: (لَمَّا بَنَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بزَيْنَبَ بنْتِ جَحْشٍ، أوْلَمَ عَلَيْهَا بتَمْرٍ وَسَويقٍ وَذَبحَ شَاةً، وَبَعَثَت إلَيْهِ أمِّي أمُّ سُلَيم بحَيْسٍ في تُورٍ مِنْ حِجَارَةٍ، فَأمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ أدْعُوَ أصْحَابَهُ إلَى الطَّعَامِ فَدَعَوْتُهُمْ، فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَدْخُلُونَ فَيَأكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ آخَرُونَ فَيَأكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَى الطَّعَامِ وَدَعَا فِيهِ، فَأكَلُوا حَتَّى شَبعُوا وَخَرَجُوا، وَبَقِيَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا.

فَقَالَ ﷺ: [ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ] فَرَفَعُوا وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَبَقِيَ أوْلَئِكَ الْقَوْمُ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ فَأطَالُوا الْمُكْثَ. وَإنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِكَيْ يَخْرُجُوا، فَمَشَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى جَمِيعِ بُيُوتِ أزْوَاجِهِ، ثُمَّ رَجَعَ فَإذا الْقَوْمُ جُلُوسٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي بَيْتِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٨٢٥) بأسانيد عن عائشة وألفاظ. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٤١ و١٨٠ و٢٠١. والترمذي في الجامع: التفسير: باب ومن سورة الأحزاب: الحديث (٣٢١٦)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في السنن: كتاب النكاح: باب ما افترض الله عز وجل على رسوله: ج ٦ ص٥٦. وابن حبان في الإحسان: كتاب التاريخ: باب صفته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واخباره: الحديث (٦٣٦٦)، وقال: (أرادت بذلك إباحةً بعد حظرٍ).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص١٦٣. ومسلم في الصحيح: كتاب النكاح: باب زواج زينب بنت جحش: الحديث (٩٤/ ١٤٢٨). والترمذي في الجامع: التفسير: الحديث (٣٢١٨).

قال أنسٌ: (فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَـةُ الْحِجَـاب جِئْـتُ لأَدْخُـلَ كَمَـا كُنْـتُ، فَقَـالَ ﷺ: [وَرَاءَكَ يَا أنَسُ])[١].

ومعنى الآية: (لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) ﷺ (إلا أنْ يُؤْذنَ لَكُمْ) أي إلا أن يُدعَوا إلى الضيافةِ أو يُؤذن لكم في الدخول، من غير أن يجتنبوا وقـتَ الطعـام فيسـتأذنوا في ذلك الوقت، ثم تقعُدوا انتظاراً لبُلوغ الطعامِ ونُضجهِ.

ومعنى: (غَيْرَ نَاظِرِينَ) أي مُنتظرين نُضجَهُ وإدراكَهُ، يقال: أنَـى يَـأْنِي إنَـاهُ، إذا حانَ وأدركَ، وكانوا يدخلون بَيتَهُ فيجلسون منتظرين إدراكَ الطعام، فنُهوا عن ذلك.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ ، أي فتفرَّقـوا، ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ ، ولا تجلسـوا مُستَأنِسـين لحديـثٍ بعـدَ أن تأكُلوا، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ ﴾ ، إنَّ طُولَ مقامكم بعدُ في منزل النبي ، ﴿ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ ﴾ ، ﷺ، ﴿ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ ، أن يـأمركم بـالخروج، ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ ، عَزَّوَجَلَّ، ﴿ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ ، أي لا يمنعه عن بيان مـا هـو الحـقُّ استحياءً منكم، وإن كان رسولهُ يفعل ذلك.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ ، أي إذا سألتُم أزواجَ النبيِّ ﷺ من متاعِ البيت، فخاطبُوهم من وراء البـاب والسِّـتر، قـال مقاتلُ: (أمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أنْ لاَ يُكَلِّمُوا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ إلاَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)[٢]. وعن أنسٍ ﷺ قال: قالَ عُمر: (يَا رَسُولَ اللهِ إنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْـبَرُّ وَالْفَـاجِرُ، فَلَـوْ أمَـرْتَ أمَّهَاتَ الْمُؤْمِنِينَ بالْحِجَاب، فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَاب)[٣].

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: (كَانَ عُمَـرُ يَقُـولُ: يَـا رَسُـولَ اللهِ احْجِـبْ نِسَاءَكَ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ)[٤]. وعن عامرُ ﷺ قال: (مَرَّ عُمَرُ ﷺ عَلَى

---

(١) في مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩٣؛ قال الهيثمي: (رواه أبو يعلى وفيه سلم العلوي وهو ضعيف).
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٥٢-٥٣.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٨٣٧).
(٤) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الوضوء: باب خروج النساء إلى البراز: الحديث (١٤٦).

نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُنَّ: احْتَجِبْنَ؛ فَإِنَّ لَكُنَّ عَلَى النِّسَاءِ فَضْلاً كَمَا أنَّ لِزَوْجِكُنَّ عَلَى الرِّجَالِ فَضْلاً. فَلَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ يَسِيراً حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: (أمَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الْحِجَابُ، فَقَالَتْ زَيْنَبُ: يَا ابْنَ الْخَطَّاب إنَّكَ لَتَغَارُ عَلَيْنَا وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ فِي بُيُوتِنَا؟!)[١]. وقال أنس: (كُنْتُ أدْخُلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بغَيْر إذْن، فَجِئْتُ يَوْماً لأَدْخُلَ فَقَالَ: [مَكَانَكَ يَا بُنَيَّ، قَدْ حَدَثَ بَعْدُ أنْ لاَ يُدْخَلَ عَلَيْنَا إلاَّ بإذْنٍ][٢].

وعن اسماعيل بن أبي حكيم[٣] في قوله تعالى: (فَإذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ) قال: (هَذا أدَبٌ أدَّبَ اللهُ بِهِ الثُّقَلاَءَ)[٤]. وقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (حسبك من الثقلاء أن الله لم يحتملهم فقال: (فَإذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا)[٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ ، أي سؤالُكم إياهن المتاعَ من وراء حجاب أطهرُ لقلوبكم وقلوبهن من الرِّيبة. وهذا الحكمُ في الحجاب وإن نزلَ في أزواجِ النبي ﷺ، فالمعنى عامٌّ فيه وفي غيره، ونحن مأمورون باتباعهِ والاقتداء به، إلا فيما خصَّه الله به دون أمَّتِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ ، أي ليس لكم أنْ تُؤذوه بالدخول في منزله بغير إذنه، ولا بالحديثِ مع أزواجه ولا بشيءٍ من الأشياء، ولا يحلُّ لكم ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٣١٨٣٣) وإسناده ضعيف، قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٢٤.
(٢) تقدم.
(٣) في المخطوط: (اسماعيل بن حكيم) والصحيح: اسماعيل بن أبي حكيم، وكما في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ١٤ ص٢٢٤.
(٤) اسماعيل بن أبي حكيم القُرَشيُّ، كان عاملاً لعمر بن عبدالعزيز، توفي سنة (١٣٠) من الهجرة، وكان قليل الحديث؛ قال ابن عبدالبر في التمهيد: (كان فاضلاً ثقة، وهو حجة فيما روى عنه جماعة من أهل العلم). ينظر: تهذيب التهذيب: الرقم (٤٧٠).
(٥) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٢٤؛ قال القرطبي: (وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي) وذكره. وعلى ما يبدو أنه تحريف من ناسخ المخطوط.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾، نزلَ في طلحةَ بن عُبيد الله، قال: (يَنهانا مُحَمَّد ﷺ أن ندخُلَ على بناتِ أعمامنا - يعني عائشةَ وهما من بني تَيْم بن مُرَّة - فلأنْ ماتَ رسولُ الله ﷺ وأنا حيٌّ لأتزوجنَّ عائشةَ)(١). فحرَّمَ اللهُ أزواجَ النبي ﷺ على عامَّة الناس، وجعلهنَّ كأُمَّهاتهم في الإكرامِ والتحريم. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾، أي إنَّ الذي قُلتم وتمنَّيتم من تزويجِ أزواجهِ بعد موته كان عندَ الله عظيماً في الوِزْر والعقوبةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ ﴾، أي إنْ تُظهروا قولاً أو تُضمِرُوهُ، فإنَّ الله عالِمٌ بالظواهرِ والبواطنِ والضمائر. وقيل: معناهُ إنْ تُظهروا أشياءَ من أمرهنَّ، يعني طلحةَ، قوله تعالى: (أوْ تُخفُوهُ) أي تسِرُّونهُ في أنفسكم، وذلك أنَّ نفسَهُ حدَّثته بتزويجِ عائشة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾، أي عليمٌ بكل شيءٍ من السرِّ والعلانية.

فلمَّا نزَلت آيةُ الحجاب قال الأباءُ والأبناء والأقاربُ: يا رسولَ الله ونحنُ أيضاً نُكلِّمُهنَّ من وراء حجاب؟ فأنزلَ اللهُ:

قولُهُ تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾، الآية. أي لا حرجَ عليهن في إذنِ آبائهن بالدخول عليهن، ولا في إذن الأبناءِ والإخوان وأبناء الإخوانِ وأبناء الأخوات.

فإن قيلَ: فهلاَّ ذكَر الأعمامَ والأخوال؟ قيل: إنَّ العمَّ والخالَ يجريان مجرَى الوالدين في الرُّؤية، وكان ذِكرُ الأباء يتضمَّن ثباتَ حُكم الأعمام والأخوال. وقيل: إنما لم يذكُر الأعمامَ والأخوال لكي لا يدخلَ أبناؤهما، ولا يطمَعا فيهن.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٥٣. ونسبة هذا القول لـ (طلحة بن عبيد الله) فيه نظر، وكنى ابن عباس رضي الله عنهما ولم يصرح بالاسم بـ (بعض الصحابة)، وفي رواية القشيري أبو نصر عبدالرحمن: (قال رجل من سادات قريش). قال ابن عطية: (لله درُّ ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله)، ينظر: الوجيز: ص١٥٢١. ونقل القرطبي قال: (قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حكى هذا القول عن بعض الفضلاء من الصحابة، وحاشاهم عن مثله! والكذب في نقله، وإنما يليق هذا القول بالمنافقين الجهال). الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٢٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا نِسَآئِهِنَّ ﴾ ، قال ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْـهُمَا: (يَعْنِـي نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، لاَ نِسَاءَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَصِفْنَ لأَزْوَاجِهِنَّ نِسَـاءَ رَسُـول اللهِ ﷺ إنْ رَأيْنَهُنَّ). وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ ، يعني العبيـدَ والإمـاءَ، قيـل: حَمْلُهُ على الإماءِ أوْلَى؛ لأن الْحُرَّ والعبيدَ يختلفان فيما يُباح لهما من النَّظَر، فلا يجـوزُ للبالغين من العبيدِ أن يَنظُروا إلى شيءٍ منهن.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ﴾ ، أي واتَّقـين اللهَ أن يراكُــنَّ غـيرُ هــؤلاء، وقيل: اتَّقِين اللهَ في الإذن لغـير المحـارمِ في الدخـول عليكـن، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، من أعمالَ العباد، ﴿ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾ ، لم يغب عنه شيء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ ، معنـاه: أنَّ اللهَ يترَحَّمُ على النبيِّ ويُثني عليه، وقوله: (وَمَلاَئِكَتَـهُ) أي والملائكـة يدعـونَ لـه بالرَّحمـة، وقوله تعالى: (يُصَلُّونَ) الضميرُ فيه يعودُ على الملائكة دون اسم الله تعالى؛ لأن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُفردُ ذِكرَهُ عن ذِكر غيره إعظاماً كمـا تقـدم في قولـه: ﴿واللهُ وَرَسُـولُهُ أحَـقُّ أنْ يُرْضُوهُ﴾. وقرأ ابن عباس: (وَمَلاَئِكَتُهُ) بالرفع عطفاً على محل قوله تعالى قبل دخـول (إنَّ)، ونظيره قوله تعالى: ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾[1] وقـد مضـى ذلك.

وقيل: معنى قوله: (وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ) أي يُثْنُونَ ويترحَّمون ويَدْعُون له. وقال مقاتلُ: (أمَّا صَلاَةُ اللهِ فَالْمَغْفِرَةُ، وَأمَّا صَلاَةُ الْمَلاَئِكَةِ فَالاسْتِغْفَارُ لَـهُ). وقولـهُ تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ ﴾ ، أي قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّد، تعظِيماً وإجْلاَلاً وتَفضِيلاً.

وعن كعب بن عُجرة قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَــذِهِ الآيَـةُ، قِيـلَ: يَـا رَسُـولَ اللهِ كَيْـفَ الصَّلاَةُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: [قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَـا صَلَّيْـتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ، إنَّكَ حَمِيـدٌ مَجِيـدٌ، وَبَـاركْ عَلَـى مُحَمَّـدٍ وَعَلَـى آلِ

(١) المائدة / ٦٩.

مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ](١).

وعن عبدِالله بن مَسعُود أنه قال: (إذا صَلَّيْتُمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَحْسِنُوا الصَّلاَةَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ لَعَلَّ ذلِكَ يُعْرَضُ عَلَيْهِ. قَالُوا: فَعَلِّمْنَا ذلِكَ. قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، إِمَامِ الْخَيْرِ وَقَائِدِ الْخَيْرِ وَرَسُول الرَّحْمَةِ. اللَّهُمَّ ابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً يَغْبِطُهُ فِيهِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾، يجوزُ أن يكون معناه: واخْضَعُوا لأمرِهِ خُضوعاً، ويجوز أن يكون معناه: الدُّعاء بالسلامِ، يقول: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ. وعن الحسن قال: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَرَفْنَا السَّلاَمَ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ الصَّلاَةُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: [قُولُوا: اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ وَبَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ](٣). والأفضلُ في هذا الباب أن تصلِّي على مُحَمَّد وعلى آلِهِ، فتقولَ: اللَّهُمَّ صلِّ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّد. فإنْ اقتُصِرَ على أحدهما جازَ.

واختلفوا في كيفيَّة وجُوب الصلاةِ على النبي ﷺ، فقال بعضُهم: تجبُ في العُمرِ مرَّة واحدةً بمنزلة الشهادَتين، وإلى هذا ذهبَ الكرخيُّ قالَ: (إذا صَلَّى عَلَيْهِ فِي عُمُرِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَدْ أدَّى فَرْضَهُ، إلاَّ أنَّ الْمُسْتَحَبَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ أنْ يُكْثِرَ مِنَ الصَّلاَةِ عَلَيْهِ فِي مُقَابَلَةِ حَقِّهِ فِي الدِّينِ عَلَيْنَا، كَمَا يَلْزَمُ الْمَرْءَ الدُّعَاءُ لأَبَوَيْهِ الْمُؤْمِنَيْنِ لِيَقْضِيَ بذلِكَ الدُّعَاءِ حَقَّهُمَا عَلَيْهِ).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير بأسانيد: الحديث(٢٦٦-٢٨١): ج١٩ ص١١١-١١٦. والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٧٩٧). ومسلم في الصحيح: كتاب الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ: الحديث (٤٠٦/ ٤٧).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٣٤؛ قال القرطبي: (وروى المسعودي...) وذكره بإسناده. وفي كنز العمال: الحديث (٢١٩٣) عزاه للديلمي عن ابن مسعود. وقال الحافظ ابن حجر: (المعروف أنه رواه موقوف عليه، كذا رواه).

(٣) ذكره الطبري في جامع البيان من غير إسناد: ينظر: الأثر (٢١٨٥٣).

وقال بعضُهم: تجبُ عليه في كلِّ مجلسٍ مرَّة بمنزلة سَجدَةِ التِّلاوة. وقال الطحَّاويُّ: (تَجِبُ الصَّلاَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كُلَّمَا ذُكِرَ) واستدلَّ بما رُوي أنَّ جبريلَ عليه السلام قالَ للنبيِّ ﷺ: [مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَلاَ غَفَرَ اللهُ لَهُ][(١)]. وقال الشافعيُّ رضي الله عنه: (الصَّلاَةُ عَلَيْهِ فَرْضٌ فِي كُلِّ صَلاَةٍ) وهذا قولٌ لم يقُل به أحدٌ غيرهُ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ ، قال المفسِّرون: هم المشركون واليهودُ والنصارى، وصَفُوا اللهَ بالولدِ فقالوا: عُزيرٌ ابن الله، والمسيحُ ابن الله، والملائكةُ بناتُ الله، وكذبوا رسولَهُ وشجُّوا وجهَهُ وكسَرُوا رُباعيته، وقالوا: مجنونٌ، وشاعر، وساحرٌ كذاب. قال ﷺ: [مَا مِنْ أحَدٍ أصْبَرُ عَلَى أذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، جَعَلُوا لَهُ نِدّاً وَجَعَلُوا لَهُ وَلَداً، وَهُوَ مَعَ ذلِكَ يُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ][(٣)] وكذلك قالتِ اليهودُ: يدُ الله مغلولةٌ، وقالوا: إن الله فقيرٌ.

ومعنى: يُؤذون اللهَ، أي يُخالفون أمرَ اللهِ ويعصونه ويصفونَهُ بما هو مُنَزَّهٌ عنه، والله تعالى لا يلحقهُ أذًى. وقوله تعالى: (لَعَنَهُمُ اللهُ) أي باعدَهم اللهُ يعني بالقتلِ والجلاء في الدُّنيا، والعذاب بالنار في الآخرة، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ ، أي ذي هوان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ ، أي يَرمُونهم بما ليس فيهم، قال قتادةُ والحسن: (إيَّاكُمْ وَإيْذاءَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإنَّ اللهَ يَغْضَبُ لَهُ وَيُؤْذِي مَنْ آذاهُ)[(٤)]. وعن عبدالرحمن بن سَمُرة[(٥)] قال:

---

(١) أخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب الرقائق: باب الأدعية: الحديث (٩٠٧).

(٢) أدرج الناسخ كعادته عبارة: (كذا في تفسير عبدالصمد). وقد تقدم ذكره.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٨٦٠) عن قتادة. وذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٨ ص٦٣ عنهما. وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٦٥٧؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم).

(٥) عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه أسلم يوم الفتح، يقال: اسمه عبد كلال، وقيل غير ذلك، فسماهُ=

خرَجَ النبيُّ ﷺ على أصحابهِ فقالَ: [رَأيْتُ اللَّيْلَةَ عَجَباً، رَأيْتُ رجَالاً مُعَلَّقُونَ بألْسِنَتِهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾، أي فقد قَالُوا كَذِباً وجَنَوا على أنفُسهم وزْراً وعقوبةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾، أي قُل لنسائك وبناتِكَ والحرائرِ من النساء يُلقِينَ على رُؤوسهن ووجوههنَّ من جلابيبهن، والجلبابُ: هو المقنعةُ التي تستُرُ بها المرأة ما يَظهَرُ من العنُق والصدر، وهي الملاءةُ التي تشتمل بها المرأةُ.

قال المفسِّرون: يُغطِّين رؤُوسَهن ووجوههن إلا عَيناً واحدة. وظاهرُ الآية يقتضي أنْ يكُنَّ مأمورات بالسَّتر التام عند الخروجِ إلى الطُّرق، فعليهن أن يَستَتِرْنَ إلا بمقدار ما يعرفنَ به الطريق.

وقولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾، معناه: ذلك أقربُ أنْ يعرفن الحرائرَ من الإماءِ فلا يُؤذِي الحرائر؛ لأن الناسَ كانوا يومئذٍ يُمازحون الإماءَ ولا يمازحون الحرائرَ، وكان المنافقون يمازحون الحرائرَ، فإذا قيلَ لهم في ذلك، قالوا: حسبِنا أنَّهن إماءٌ. فأمرَ اللهُ الحرائرَ بهذا النوعِ من السَّتر قطعاً لأعذار المنافقين.

وعن عُمر ﷺ: أنَّهُ كَانَ يَضْرِبُ الإمَاءَ وَيَقُولُ: (اكْشِفْنَ رُؤُوسَكُنَّ وَلاَ تَتَشَبَّهْنَ بالْحَرَائِرِ)[١]. ومرَّت جاريةٌ بعُمر ﷺ متقنِّعة، فعَلاَها بالدرَّة وقال: (يَا لُكَاعُ، أتَتَشَبَّهِينَ بالْحَرَائِرِ، ألْقِي الْقِنَاعَ)[٢].

=النبي ﷺ عبدالرحمن، سكن البصرة، وهو الذي افتتح سجستان وكابل وغيرها، وشهد غزوة مؤتة، توفي سنة خمسين من الهجرة. ينظر: تهذيب التهذيب: الرقم (٣٩٩٥): ج ٥ ص١٠٢.

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٦٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي قُلابة ﷺ) وذكره.

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٦٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة عن أنس ﷺ) وذكره.

ويقالُ في معنى ذلك: (أدْنَى أنْ يُعْرَفْنَ) أي أقربُ إلى أن يُعرفن بالسَّتر والصلاح؛ فييْئَسَ منهن فُسَّاق الرِّجال، فلا يطمَعُون فيهن كطمَعِهم فيمن تتبرَّج وتتكشَّف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾ ، أي لإنْ لم يَنْتَهِ المنافقون عن نِفَاقهم، ﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ، يعني الفُجور وهم الزُّناة وضعفاء الدِّين عن أذى المؤمنين، ﴿ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ، وهم قومٌ كانوا يُوقعون الأخبارَ بما يكرهُ المؤمنون، ويقولون: قد أتَاكُم العدوُّ، ويقولون لسَرَاياهم: أنهم قُتِلوا وهُزموا، يُخيفون المؤمنين بذلك. لئن لم ينتهُوا عن هذه الأفعال القبيحة، ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ ، أي لنسلطنَّكَ عليهم، ونأمرك بقتلِهم حتى تقتُلَهم وتخلو منهم المدينة، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ ، أي في المدينة، والمعنى: لا يُساكِنُونك في المدينة إلا يَسيراً حتى يهلَكُوا، ﴿ مَّلْعُونِينَ ﴾ ، مطرودين مُبعَدين عن الرَّحمة، ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ ﴾ ، أي أينَما وُجدوا وأدركوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَلْعُونِينَ) نصبٌ على الحال، وقيل: على الذمِّ، وتقديرُ النصب على الحالِ: لا يُجاورونك إلا وهم مَلعُونون مطرودون مخذولون.

وقولهُ تعالى: ﴿ أُخِذُوٓا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾ ، أي أخذوا وقُتلوا مرَّة بعد مرَّة؛ لأنه إذا ظهرَ أمرُ المنافقين كانوا بمنزلة الكفَّار، ومن حقِّ الكفار أن يُقتلوا حيث يوجدون. قال قتادة: (أرَادَ الْمُنَافِقُونَ أنْ يُظْهِرُوا مَا فِي قُلُوبهم مِنَ النِّفَاقِ، فَلَمَّا وَعَدَهُمُ اللهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ فَكَتَمُوهُ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ ، أراد بالسُّنة الطريقةَ التي أمرَ اللهُ بلُزومها واتباعها، وقد كانت هذه السُّنة في الأُمم الماضية، لَمَّا آذى المنافقون أنبياءَهم، أمرَ الله أنبياءَهُ بقتالهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٨٧٢).

قال الزجَّاجُ: (سَنَّ اللهُ فِي الَّذِيـنَ يُنَـافِقُونَ الأَنْبِيَـاءَ وَيُرْجِفُـونَ بِـهِمْ أَنْ يُقْتَلُـوا حَيْثُمَا ثُقِفُوا)[1] ولا يبدِّلُ الله سُنَّتَهُ فيهم، وهو قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ ، أي هكذا سُنة الله فيهم إذا أظهَرُوا النفاقَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ ، قال الكلبيُّ: (سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ وَعَنْ قِيَامِهَا) فقال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ، أي قُل لهم يا مُحَمَّد: إنَّما العلمُ بوقتِ قيامها عند اللهِ، لا يُطلِعُ أحـدا عليـها. وقولـهُ تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ ، أيْ أيُّ شيءٍ يُعلمُـكَ أمرَ الساعة ومتى يكون قيامُها، أي أنتَ لا تعرفهُ، ثم قال: (لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا).

ومـا بعـدَ هـذه الآيـة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾ ، ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ ، أي تُقلَّبُ وجوهُ الكفار ظهرَ البطنِ، وقيل: تُقلَّبُ إلى سوادٍ، وقيل: تُقلَّبُ إلى الأقفيةِ.

وقرأ أبو جعفر: (تَقَلَّبُ) بفتح التاء بمعنى تَتَقلَّب. وقرأ عيسى بن عمر: (نُقَلِّبُ) بالنون وكسر اللام (وُجُوهَهُمْ) بالنصب. وقولهُ تعـالى: ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ ﴾ ، في الدُّنيا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾ أي صرفُونا عن الدِّين وعن سَبيلِ الهدى. قرأ الحسنُ وابـن عـامرٍ ويعقوب: (سَادَاتِنَا) بالألفِ وكسر التاء على جمعِ الجمع.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ ، أي عذِّبْـهم مِثْلَـي عذابنا، فيكون ضعفٌ على كُفرهم وضِعفٌ علـى دُعائـهم لنـا إلى الضـلال. وقولـه: ﴿ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ ، قـرأ عـاصم (كَبِـيرًا) بالبـاء؛ أي عظيمـاً، وقـرأ الباقون بالثاء مِن الكثرة، وإنما اختاروا الكثرة لقوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُـونَ﴾[2] وقولـهِ

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١٧٩.

(٢) البقرة / ١٥٩.

تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أجْمَعِينَ﴾[(١)] فهذا يشهدُ للكثرة.

حدثنا مُحَمَّد بن الحسنِ العسقلاني، قال: (سمعتُ مُحَمَّدَ بن السري يقولُ: رأيتُ في المنام كأنّي في مسجدِ عَسقلان، وكأنَّ رجُلاً يُناظِرُني ويقول: (وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبيرًا) وأنا أقولُ: (كَثِيرا). وإذا بالنبيِّ ﷺ فدخلَ علينا المسجدَ، وكان في وسطِ المسجد منارةٌ لها بابٌ، وكان النبيُّ ﷺ يقصدُها.

فقلتُ: هذا النبيُّ ﷺ، فقلتُ: السلامُ عليكَ يا رسولَ الله استَغفِرْ لي. فأمسكَ عنّي، فجِئتهُ عن يمينهِ فقلتُ: يا رسولَ الله استغفِرْ لي، فأعرضَ عني، فقمتُ من تلقاءِ صدره، حدَّثنا سُفيان بن عُيينة عن مُحَمَّد بن المنكدر وعن جابرِ بن عبدالله: [أنَّكَ مَا سُئِلْتَ شَيْئاً قَطْ فَقُلْتَ لاَ] فتبسَّم ﷺ وقال: [اللَّهم اغفِرْ له]. فقلتُ: يا رسولَ الله إني وهذا نتكلَّمُ في قولهِ تعالى: (وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا)، فأنا أقولُ: (كَثِيرا) وهذا يقولُ: (كَبيراً)، قال: فدخلَ النبيُّ ﷺ المنارةَ وهو يقولُ: كَثِيراً، كَثِيراً، بالثاءِ إلى أن غابَ عني صوتهُ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾ ، أي لا تكونُوا في أذى مُحَمَّد ﷺ كبني إسرائيلَ، الذين آذوا موسَى بعيبٍ أضافوهُ إليه، فبرَّأهُ اللهُ مما قالوا عليه، ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ ، أي رفيعَ القدر والمنزلةِ.

واختلفوا في العيب الذي أضافَهُ بنوا إسرائيلَ إلى موسى، قال بعضُهم: كان هارونُ أحبَّ إلى بني إسرائيلَ من موسى لزيادةِ رفقه بهم، فلما ماتَ هارونُ في حالِ غيبتهما عنهم، قالوا: إنَّ موسى قتلَهُ لتخلصَ له النُّبوة، فأحياهُ الله تعالى حتى كذبَهم.

وقال بعضُهم:كان أذاهُم له أنهم رَمَوه بالأُدَرَةِ لكثرةِ حيائه واستتارهِ عن الناس، وكانت بنوا إسرائيلَ يغتَسلون عُراةً ينظرُ بعضهم إلى سَوءَةِ بعضٍ، وكان

---

(١) البقرة / ١٦١.

(٢) ذكر القصة أيضاً بإسناده الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٨ ص٦٥. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٥٠ مختصره.

موسى يغتسلُ وحدَهُ، فقالوا: واللهِ ما يمنعُ موسَى أن يغتسلَ معنا إلا أنه آدَرٌ[(١)].

قال: فذهبَ يغتسلُ مرَّة، فوضعَ ثوبَهُ على حجرٍ، فذهبَ الحجرُ بثوبهِ، فخرجَ موسى من الماءِ في إثْرِ الحجرِ، يقول: ثوبي يا حجرُ، حتى نظَرت بنوا إسرائيل إلى سَوأتِهِ ، فقالوا: واللهِ ما به من بأسٍ. فقامَ الحجرُ بعدما نظروا إليه وأخذ ثوبه، فطَفِقَ بالحجرِ ضَرباً. قال أبو هُريرة: [وَاللهِ إنَّ بالْحَجَرِ نُدَبٌ سِتَّةٌ أَوْ سَبْعَةٌ مِنْ ضَرْبِ مُوسَى][(٢)]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا) أي حَظِيّاً لا يسألهُ شيئاً إلا أعطاهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ، أي اتَّقوا عذابَ الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾ ، قال ابنُ عباس: (صَوَاباً)، وقال الحسنُ: (صَادِقاً) يعني كلمةَ التوحيدِ: لا إلهَ إلاَّ اللهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ ، قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: يَتَقَبَّلْ حَسَنَاتِكُمْ) ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ، بسَدَادِ قَولِكم، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ ، أي فقد نالَ الخيرَ كلَّهُ وظَفِرَ به، والفوزُ العظيم هو الظَّفَرُ بالكرامةِ والرضوان من اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ ، معناه: إنا عرَضنا الأمانةَ التي هي الشرائعُ والفرائض التي يتعلَّقُ بأدائها الثوابُ وبتركها العقاب. قال ابنُ عباس:(عُرضَتِ الأَمَانَةُ عَلَى السَّمَوَاتِ السَّبْعِ الَّتِي زُيِّنَتْ بالنُّجُومِ وَحَمَلَتِ الْعَرْشَ الْعَظِيمَ، فَقِيلَ لَهُنَّ بأَخْذِ الأَمَانَةِ بمَا فِيهَا، قُلْنَ: وَمَا فِيهَا، قِيلَ: إنْ أحْسَنْتُنَّ جُزِيتُنَّ، وَإنْ أسَأْتُنَّ عُوقِبْتُنَّ، قُلْنَ: لاَ. ثُمَّ عُرضَتِ الأَمَانَةُ عَلَى الْجِبَالِ الصُّمِّ الشَّوَامِخِ الصِّلاَب الْبَوَاذِحِ)[(٣)]، ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ . قال

(١) قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: (آدَرَ: هو بهمزة ممدودة ثم دال مهملة مفتوحة ثم راء مخففتين، قال أهل اللغة: هو عظيم الخصيتين). المجلد الثاني: ص٢٧٢.

(٢) أصل هذا القول حديث أبي هريرة كما في الصحيحين، أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الغسل: باب من اغتسل عرياناً وحده: الحديث (٢٧٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الحيض: باب جواز الاغتسال عرياناً: الحديث (٧٥/ ٣٣٩).

(٣) البَذحُ: الشَّقُّ، وفي رجل فُلان بذُوحٌ؛ أي شُقُوق. ينظر: لسان العرب: (بذح): ج ١ ص٣٥٠.

ابنُ جريج:(قَالَتِ السَّمَاءُ: يَا رَب خَلَقْتَنِي وَجَعَلْتَنِـي سَـقْفاً مَحْفُوظـاً، وَأجْرَيـتَ فِـيَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ، لاَ أعْمَلُ فَرِيضَةً وَلاَ أبْتَغِي ثَوَاباً. وَقَـالَتِ الأَرْضُ: يَـا رَب جَعَلْتَنِي بِسَاطاً وَمِهَاداً، وَشَقَقْتَ فِيَّ الأَنْهَارَ، وَأنْبَتَّ فِيَّ الأَشْجَارَ، لاَ أتَحَمَّـلُ فَرِيضَـةً وَلاَ أبْتَغِي ثَوَاباً وَلاَ عِقَاباً)[١].

ومعنى قولهِ: (فَـأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَـهَا) أي مخافـةً وخِشـيَةً لا معصيـةً ولا مخالفـة، والعرضُ كان تَخييراً لا إلزاماً، قولـهُ: (وَأشْـفَقْنَ مِنْـهَا) أي خِفْـنَ مـن الأمانـةِ أن لا توفِّيها، فيلحقهُنَّ العقابُ، فـأَبَوا ذلـك تعظيمـاً لدِيـن الله وخَوفـاً أن لا يقومـوا بـه، وقالوا: نحنُ مسخَّرات لأمركَ لا نريدُ ثواباً ولا عقاباً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾، يعــني: وحَملَها آدمُ عليه السلام قال الله له: يا آدمُ إني عرضـتُ الأمانـةَ علـى السَّـموات والأرض والجبالَ فأَبَين أن يحمِلنَها ولم يُطِقْنَها، فهل أنتَ آخذُها بما فيها؟ قال: يا رب وما فيها؟ قال: إنْ أحسنتَ جُزِيتَ، وإنْ أسأتَ عُوقِبْتَ. فتحمَّلها آدمُ، وقال: حَمَلتُها بين أذُنَــيَّ وعاتِقي.

قال ابنُ عباس: (عَرَضَ اللهُ عَلَى آدَمَ أدَاءَ الصَّلَـوَاتِ الْخَمْـسِ فِـي مَوَاقِيتِـهَا، وَأدَاءَ الزَّكَاةِ عِنْدَ مَحِلِّهَا، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَحِجِّ الْبَيْــتِ، عَلَـى أنَّ لَـهُ الثَّـوَابَ وَعَلَيْـهِ الْعِقَابَ، فَقَالَ: بَيْنَ أذُنَيَّ وَعَاتِقِي)[٢].

وقال مقاتل: (قَالَ اللهُ تَعَالَى لآدَمَ: أتَحْمِلُ هَذِهِ الأَمَانَةَ وَتَرْعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِـهَا؟ فَقَالَ آدَمُ: وَمَا لِي عِنْدَكَ؟ قَالَ: إنْ أحْسَنْتَ وَأطَعْتَ وَرَعَيْـتَ الأَمَانَـةَ، فَلَـكَ الْكَرَامَـةُ وَحُسْنُ الثَّوَاب فِي الْجَنَّةِ، وَإنْ عَصَيْتَ وَأسَأتَ مُعَذِّبُكَ وَمُعَاقِبُكَ. قَالَ: قَدْ رَضِيتُ يَا رَب، وَتَحَمَّلَهَا. فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَـلَّ: قَـدْ حَمَّلْتُكَـهَا. فَذلِـكَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (وَحَمَلَـهَا الإنْسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣١٥٩: الرقم (١٧٨١٣).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان بأسانيد: الرقم (٢١٨٩٥).

قال الكلبيُّ: (ظُلْمُهُ حَيْثُ عَصَى رَبَّهُ وَأخْرجَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَجَهْلُهُ حَيْثُ تَحَمَّلَهَا). وقال مقاتلُ: (ظَلُوماً لِنَفْسِهِ، جَهُولاً بعَاقِبَةِ مَا حُمِّلَ)[١]. وقال مجاهدُ: (لَمَّا خَلَقَ اللهُ السَّموات وَالأَرْضَ وَالْجِبَالَ، عُرِضَتِ الأَمَانَةُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَقْبَلْهَا، فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَرَضَهَا عَلَيْهِ فَقَالَ: قَدْ تَحَمَّلْتُهَا يَا رَب. قال مجاهدُ: فَمَا كَانَ بَيْنَ أنْ تَحَمَّلَهَا وَبَيْنَ أنْ أخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ إلاَّ قَدْرَ مَا بَيْنَ الْعَصْرِ وَالظُّهْرِ)[٢].

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: (إنَّ اللهَ قَالَ لآدَمَ: إنِّي عَرَضْتُ الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَلَمْ يُطِقْنَهَا، فَهَلْ أنْتَ حَامِلُهَا بِمَا فِيهَا؟ قَالَ: يَا رَب وَمَا فِيهَا؟ قَالَ: إنْ حَفِظْتَهَا أجِرْتَ، وَإنْ ضَيَّعْتَهَا عُوقِبْتَ، قَالَ: قَدْ تَحَمَّلْتُهَا. فَمَا بَقِيَ فِي الْجَنَّةِ إلاَّ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ حَتَّى خَرَجَ مِنْهَا)[٣].

وقال زيدُ بن أسلَمْ: (الأَمَانَةُ هِيَ الصَّوْمُ وَالْغُسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ)، وقال بعضُهم: (هِيَ أمَانَاتُ النَّاسِ وَالْوَفَاءُ بالْعُهُودِ، فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُؤمِنٍ أنْ لاَ يَغُشَّ مُسْلِماً فِي شَيْءٍ لاَ قَلِيلٍ وَلاَ كَثِيرٍ).

وقال السديُّ: (هِيَ ائْتِمَانُ آدَمَ ابْنَهُ قَابيلَ عَلَى أهْلِهِ وَوَلَدِهِ، وَذلِكَ أنَّ آدَمَ عليه السلام لَمَّا أرَادَ أنْ يَحُجَّ إلَى مَكَّةَ، قَالَ: يَا سَمَاءُ احْفَظِي أوْلاَدِي بالأَمَانَةِ، فَأَبَتْ. وَقَالَ لِلأَرْضِ كَذلِكَ، فَأَبَتْ. وَقَالَ لِلجِبَال كَذلِكَ، فَأَبَتْ. ثُمَّ قَالَ لابْنِهِ قَابيلَ: أتَحْفَظُهُمْ بالأَمَانَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، تَذْهَبُ وَتَرْجِعُ فَتَجِدُ أهْلَكَ كَمَا يَسُرُّكَ. فَانْطَلَقَ آدَمُ وَرَجَعَ وَقَدْ قَتَلَ قَابيلُ هَابيلَ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا) يَعنِي قَابيلَ حِينَ حَمَلَ أمَانَةَ أبيهِ ثُمَّ لَمْ يَحْفَظْهَا)[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾، أي ليعذبَهم اللهُ بما خَانُوا الأمانةَ وكذبوا الرُّسُلَ، ونقضِ الميثاق

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٥٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣١٦٠: الرقم (١٧٨١٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٨٩٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٩٠٥) مطولاً، والأثر (٢١٩٠٦) مختصراً.

الذي أقَرُّوا به حين أخرِجُوا من ظهرِ آدم. قال الحسنُ: (هَؤُلاَءِ الَّذِينَ خَانُوهَا، وَهُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ، لأنَّهم أدَّوا الأمانةَ، وهي الفرائضُ. وقيل: معنى الآية: إنَّا عرَضنا الأمانةَ لِيَظهَرَ نِفاقُ المنافقِ، وشِرْكُ المشركِ فيعذِّبُهم اللهُ، ويُظهرَ إيمانَ المؤمنين فيتوبَ اللهُ عليهم، أي يعودُ عليهم بالمغفرةِ والرَّحمة إنْ حصلَ منهم تقصيرٌ في بعضِ الطاعات، وكذلك ذكرَ بلفظِ التوبة، فدلَّ على أن المؤمنَ العاصي خارجٌ من العذاب، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ ، للمؤمنين إذا تَابُوا، ﴿ رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ ، بمن ماتَ على التوبةِ.

آخر تفسير سورة (**الأحزاب**) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ سَبَأ

سُورَةُ سَبَأ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ وَاثْنَى عَشَرَ حَرْفاً، وَثَمَانُمِائَةٍ وَثَلاَثُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ سَبَأ لَمْ يَبْقَ نَبِيٌّ وَلاَ رَسُولٌ إلاَّ كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ رَفِيْقاً وَمُصَافِحاً][(1)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ الحمدُ: الوصفُ بالجميلِ على جهةِ التَّعظيمِ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) المعنى: له ما في السموات والأرض مُلكاً وخَلْقاً، ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ ؛ أي يَحمدهُ أهلُ الآخرةِ على دَوَامِ نِعَمِهِ عليهم كما يحمدهُ أهلُ الدُّنيا، ولكنَّ الحمدَ في الدُّنيا تَعَبُّدٌ، وفي الآخرة شُكْرٌ على سبيلِ السُّرور؛ لأنه لا يُكَلَّفُ في الآخرةِ، يقولُ أهلُ الآخرةِ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذا، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ وَالنِّقَمَ فِي الدَّارَيْنِ كُلِّهَا مِنْهُ. قَوْلُهُ: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ ﴾ ؛ أي الْحَكِيْمُ في أفعالهِ، الْخَبِيْرُ بأحوالِ عبادهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ ؛ أي ما يدخلُ في الأرضِ ويَغِيبُ فيها مِن المطرِ والحيواناتِ من الْمَيْتَةِ، ويعلمُ ما يخرجُ منها من أنواعِ النَّباتِ والزُّروعِ وغيرِ ذلك مما لا يعلمهُ إلاَّ هُوَ، وَ يعلمُ ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ مِن الأمطارِ التي هي سببُ أرزاقِ العبادِ، وَ يعلمُ ﴿ وَمَا يَعْرُجُ ﴾ ؛

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٥٧٦. وأخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب.

في السَّماء؛ أي مَن يصعدُ، ﴿ فِيهَا ﴾ ؛ مِن الملائكةِ الْحَفَظَةِ لديوانِ العباد، وما يرتفعُ فيها من الرِّياح والحرِّ والبردِ، ويعلمُ ما يصعدُ فيها من أعمالِ العباد. يقالُ: عَرَجَ يَعْرُجُ؛ إذا صَعَدَ، وعَرَجَ يَعْرجُ إذا صَارَ أعْرَجاً.

وقوْلُهُ تعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي الرَّحِيْمُ بعبادهِ، الغَفُورُ لِمَن استحقَّ المغفرةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ ؛ أي قالَ الكفَّارُ: لا تأتِينَا القيامةُ، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَهم يا مُحَمَّد: ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ؛ على ما أخبرَ اللهُ تعالى، ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾ .

قرأ حمزةُ والكسائيُّ (عَالِمِ الْغَيْب) بخفضِ الميمِ على وزن فِعَالٍ على المبالغةِ، كقولهِ: عَلاَّمِ الْغُيُوب، وقرأ نافعُ وابنُ عامرٍ: (عَالِمُ) برفعِ الميمِ على تقدير: هو عالِمٌ، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمر وعاصمُ (عَالِمِ) بالكسرِ نعتٌ لقولهِ (وَرَبي)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ ؛ أي لا يغيبُ عنه ولا يبعدُ عليه معرفةُ وزنِ ذرَّةٍ، ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ وخصَّ الذرَّةَ بالذِّكر لأنَّها أصغرُ شيءٍ يدخلُ في أوهامِ البَشَر، وهذا مَثَلٌ؛ لأنه سُبْحَانَهُ لا يخفَى عليه ما هو دُونَ الذرةِ، والمعنى: اللهُ يعلمُ كلَّ شيءٍ دَقَّ أو جَلَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ الكتابُ الْمُبِيْنُ في هذه الآيةِ هو اللَّوحُ الْمَحفوظُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ معناهُ: لتَأتِيَنَّكُم الساعةُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ عَلَى أعمالِهم بالمغفرةِ والرِّزقِ الكريم؛ أي الثواب الحسَنِ في الجنَّة.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ ؛ أي سَعَوا فيها بعدَ ظُهورها ووضُوحِها بالتكذيب لَها والجحودِ بها، مقدِّرينَ أنَّهم سيفُوتُونَنا، ويُعاجِزُونَ

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٣ ص٣٥١.

الرسولَ ﷺ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ من عذابٍ مُؤلِم، والرِّجْزُ: أسْوَأ العَذاب.

قرأ ابنُ كثيرٍ (أَلِيْمٌ) بالرفعِ على نعتِ العذاب، وقرأ الباقونَ بالخفضِ على نعتِ الرِّجْزِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أوَّلُ هذه الآيةِ عطفٌ على قولهِ (لِيَجْزِيَ) أي ولكَي يعلمَ الَّذينَ أوتُوا العِلْمَ الَّذِي أنْـزِلَ إلَيْـكَ مِـنْ ربـكَ وهـو القُرْآنُ وآيهِ يهدِي إلى صِراط العزيزِ بالنِّقمةِ لِمَن لا يؤمنُ به، الْحَمِيْدِ لِمَن وحَّدَهُ، أي يهدِي إلى دِينِ اللهِ.

وقوله تعالى (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) يعني مؤمنِي أهلِ الكتاب. وقال قتادةُ: (يَعْنِـي أصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ)[1]. وقولهُ (هُوَ الْحَقُّ) إنَّمـا دَخلـت (هُـوَ) في هـذا الموضـعِ للفصلِ عند البصريِّين، ويُسمَّى ذلك عِمَاداً، ولا يدخـلُ العِمَـادُ إلاّ في المعرفـةِ، قـال الشاعرُ:

لَيْـتَ الشَّـبَابُ هُـوَ الرَّجِيْـعُ عَلَـى الْفَتَـى وَالشَّـيْبُ كَـانَ هُـوَ الْبَـدِئُ الأَوَّلُ[2]

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي قال الكُفَّارُ على وجـهِ التَّعَجُّب والإنكار؛ أي قال بعضُهم لبعضٍ: هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُـلٍ يَعْنُـونَ مُحَمَّـداً ﷺ يَزْعُـمُ أنَّكُمْ تُبْعَثُونَ بَعْدَ أنْ تَكُونُوا عِظَاماً وَرُفَاتاً! وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُنَبِّئُكُمْ إذا مُزِّقْتُمْ كُـلَّ مُمَزَّقٍ إنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) أي يقولُ لكم إذا بَلِيتُمْ وتقطَّعَتْ أجسامُكم واندَرَسَـتْ آثارُكم تعودونَ. وقولُه تعالى (كُلَّ مُمَزَّقٍ) أي إذا تفرَّقتُم في الأرضِ وتفرَّقَـت العظـامُ والجلودُ كلَّ تفريقٍ، (إنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيْدٍ) أي نجدِّدُ خلْقَكم بأنْ تُبعَثُوا.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٩١٩).
(٢) ذكره الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٣٥٢.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ هذا مِن قولِ الكُفَّارِ بعضُهم لبعضٍ؛ قالوا: افْتَرَى مُحَمَّدٌ على اللهِ كَذِباً حين زَعَمَ أنَّا نُبْعَثُ بعدَ المَوتِ! ﴿ أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ ؛ أي جنونٌ، يقولون: زَعَمَ كَذِباً أمْ بهِ جنونٌ.

فردَّ اللهُ عليهم مقالتَهم بقولهِ: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي ليسَ الأمرُ على ما قالوا من افتراءٍ وجنون، كأنه قالَ: لا هذا ولا ذاكَ، ولكنَّ الذين لا يؤمنونَ بالبعثِ في الآخرةِ، والخطأ البعيدِ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ سماءَنا محيطةٌ بهم والأرضَ حاملةٌ لَهم، ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ﴾ ؛ هذهِ، ﴿ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ ﴾ تلكَ، ﴿ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ فما يحذرُونَ هذا فيرتَدِعونَ عنِ التكذيب بآياتِنا.

والمعنى: أنَّ الإنسانَ حيث ما نظرَ رأى السماءَ فوقَهُ، والأرضَ قُدَّامَهُ وخلفَهُ وعن يَمينهِ وعن شِمالهِ، فكأنهُ تعالَى قال: إنَّ أرضِي وسَمائِي محيطةٌ بهم، وأنا القادرُ عليهم، إنْ شِئْتُ خسفْتُ بهم، وإنْ شئتُ أسقِطْ عليهم قطعةً من السماءِ.

قرأ حمزةُ والكسائي وخلَف: (إنْ يَشَأْ) و(يَخْسِفْ) و(يُسْقِطْ) في ثلاثتها بالياءِ لذكرِ الله تعالى قبلَهُ، وقَوْلُهُ تَعَالَى (أفْتَرَى) ألفُ استفهامٍ دخلَتْ على ألفِ الوَصلِ فلذلك سَقطَتْ.

وقولُهُ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ فيما ذُكِرَ من مَنيعهِ وقدرتهِ وفيما تَرونَ من السَّماء والأرضِ لعلامةً تدلُّ على قُدرةِ اللهِ تعالى على البعثِ، وعلى مَن يشاءُ من الخسفِ بهم، لكلِّ عبدٍ أنابَ إلى الله ورجعَ إلى طاعتهِ وتأمَّلَ ما خلقَ. قال الحسنُ: (الْمُنِيْبُ: الرَّاجِعُ إلَى اللهِ تَعَالَى بقَلْبهِ وَقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، فَإذا نَوَى نَوَى للهِ، وَإذا قَالَ قَالَ للهِ، وَإذا عَمِلَ عَمِلَ للهِ)(١).

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٦٤؛ قال القرطبي: (أي تائب رجَّاع إلى الله بقلبه، وخص المنيب بالذكر؛ لأنه المنتفع بالفكرة في حجج الله وآياته).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ ؛ يعني النبوةَ والكتابَ والمُلكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ ؛ أي سَبحِي معهُ إذا سَبَّحَ، فكان داودُ عليه السلام إذا سَبَّحَ سَبَّحَتِ الجبالُ معه حتى يُسمَعَ صوتُ تسبيحِها. وقُرِئَ (أُوبِي مَعَهُ) أي عُودِي في التَّسبيحِ معه كلَّما عادَ فيهِ.

وقال القُتَيْبِيُّ: (أصْلُهُ مِنَ التَّأويْب، وَهُوَ السَّيْرُ باللَّيْلِ كُلِّهِ، كَأَنَّهُ أَرَادَ ادْنِي النَّهَارَ كُلَّهُ بالتَّسْبِيْحِ مَعَهُ). وَقِيْلَ: تسيرُ معه كيفَ شاءَ.

وقوله (وَالطَّيْرَ)، قرأ العامةُ بالنصب، ولـه وجوهٌ؛ أحدُها: بالفعلِ؛ تقديرهُ: وسخَّرنا له الطيرَ، تقول: أطعَمتهُ طَعَاماً ومَاءً أي وسَقيتهُ ماءً. والثاني: بالنِّداءِ، يعني بالعطفِ على موضعِ النداء، لأنَّ موضعَ كلِّ مُنادَى النصبُ. والثالث: بنَزعِ الخافضِ، كأنه قالَ: أوِّبي مَعَهُ الطَّيرَ، كما يقالُ: لـو تركتَ الناقةَ وفصيلَها لرَضَعَها؛ أي مع فصيلِها. وقرأ يعقوبُ (والطَّيْرُ) بالرفعِ عَطفاً على الجبالِ. وَقِيْلَ: على الابتداءِ، قال الشاعرُ:

أَلاَ يَا زَيْدُ وَالضَّحَّاكُ سِيرَا ... فَقَدْ جَاوَزْتُمَا خَمَرَ الطَّرِيقِ

يُروى هذا البيتُ بنصب (الضَّحَّاكَ) ورفعهِ[1].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ ﴾ ؛ أي جعلنا لـه الحديدَ لَيِّناً يضربهُ كيفَ شاءَ من غير نارٍ ولا مِطرَقَةٍ، وكان عندَهُ مثلُ الشَّمعِ والطينِ المسلولِ والعَجِينِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾ ؛ أي قُلنا له اعْمَلْ دُرُوعاً واسعاتٍ تامَّاتٍ يجرُّها لابسُها على الأرضِ، فكان داودُ عليه السلام أوَّلُ مَن عَمِلَ الدُّروعَ، والسَّابغُ: هو الذي يغطِّي كلَّ ما على الرجُلِ حتى يفضُلَ، فكان داودُ يبيعُ كلَّ درعٍ بأربعَةِ آلافٍ، فيأكلُ ويُطعِمُ عيالَهُ ويتصدَّقُ على الفُقَرَاءِ والمساكينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ ؛ أي اجْعَلْ حِلَقَ الدِّرعِ متتابعةً مُتناسقةً بعضُها إلى بعضٍ على مقدارٍ مَعلُومٍ لا يتفاوتُ على وجهٍ، ولا تنفذُ فيه السِّهامُ ولا

---

(١) الْخَمَر: بالتحريكِ: ما يَستُرُكَ من شجرٍ وغيرها. قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٥٥.

السِّنانُ. يقال: سَرَدَ الكلامَ يسردُهُ إذا ذكَرَهُ بالتأليفِ على وجه تحصلُ به الفائدةُ، ومِن هذا يقالُ لصانعِ الدُّروعِ: سَرَّادٌ وَزَرَّادٌ. والسُّرُودُ والزُّرُدُ للوَصْلِ.

وقال بعضُهم: السَّرْدُ سَمْرُكَ طَرَفَي الْحَلَقِ؛ أي لا تَجعَلِ المساميرَ دِقَاقاً فتنغلقَ، ولا غِلاَظاً فتكسرَ الحلقَ، واجعَلْ ذلك على قَدْرِ الحاجةِ. والقولُ الأولُ أقربُ إلى الآيةِ، لأن الدروعَ التي عمِلَها داودُ كانت بغيرِ المساميرِ؛ لأنه كانت معجزةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ ﴾ ؛ أي قالَ اللهُ لآلِ داودَ: اعْمَلُوا صَالِحاً فيما بينَكم وبينَ ربكُم، ﴿ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ من شُكرٍ وطاعةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ ﴾ ؛ أي وسَخَّرْنا لسليمانَ الرِّيحَ كانت تحملُ سَريرَهُ فتذهبُ في الغُدُوِّ مسيرةَ شَهرٍ، وترجِعُ في الرَّواحِ مسيرةَ شَهرٍ.

قال الفرَّاءُ: (نُصِبَ (الرِّيحَ) عَلَى الْمَفْعُولِ؛ أيْ وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيْحَ)[1]. وقرأ عاصمُ (الرِّيْحُ) بالرفعِ على معنى: ولَهُ تسخيرُ الرِّيحِ، والمعنى أنَّ الريحَ كانت تسيرُ في اليومِ مسيرةَ شَهرَينِ للرَّاكبِ الْمُسرعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ ﴾ ؛ أي أذبْنَا له عَينَ النُّحاسِ، فسَالَتْ له ثلاثةَ أيَّامٍ كما يسيلُ الماءُ، وإنَّما انتفعَ الناسُ بما أخرجَ اللهُ لسُليمانَ، وكانَ قبلَ سُليمان لا يذوبُ. والقِطْرُ هو الرَّصَاصُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ ؛ أي وسخَّرنا له من الجنِّ (مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ) مِنَ القُصُور والبُنيانِ، ﴿ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا ﴾ ؛ أي مَن يَمِلْ من الشَّياطين عن أمرِنا الذي أمَرْنَاهُ من الطاعةِ لسُليمانَ، ﴿ نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي مِن عذاب النَّار الموقَدَةِ. وَقِيْلَ: إنَّ اللهَ تعالى وَكَّلَ مَلَكاً بيدِهِ سوطٌ من نارٍ، فمَن زَاغَ منهم مِن طاعةِ سُليمانَ ضَرَبَهُ ضربةً أحرقَتْهُ.

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٥٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ ؛ أي يعملون لسُليمانَ ما يشاءُ (مِنْ مَحَاريبَ) أي مَسَاجِدَ، كان هو والمؤمنونَ يُصَلُّونَ فيها. ويقالُ: أراد بالْمَحَاريب الغُرَفَ والمواضعَ الشريفةَ، يقالُ لأشرفِ موضعٍ في الدار مِحْرَابٌ، والْمِحْرَابُ مُقَدَّمُ كلِّ مسجدٍ ومجلس وبيتٍ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (وَتَمَاثِيلَ) أي تَماثيلَ كلِّ شيءٍ، يعني صُوَراً من نُحاسٍ وزُجاجٍ ورُخامٍ، كانت الجنُّ تعمَلُها، وكانوا يصوِّرُون له الأنبياءَ والملائكةَ في المسجدِ ليَرَاهَا الناسُ فيزدادوا عبادةً، وهذا يدلُّ على أن التصويرَ كان مُباحاً في ذلكَ الزمان، ثُم صارَ حَرَاماً في شَريعةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ كما رُوي في الحديثِ: [إنَّ الْمَلاَئِكَةَ لاَ تَدْخُلُ بَيْتاً فِيْهِ صُورَةٌ][١]. ورُوِيَ: [لَعَنَ اللهُ الْمُصَوِّرِيْنَ بمَا صَوَّرُوا][٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾ ؛ الْجِفَانُ جمع جُفْنَةٍ وهي القَصْعَةُ الكبيرةُ من الصُّفْر. وقَوْلُهُ (كَالْجَوَاب) أي كالحِيَاضِ العِظَامِ، فهي كحِيَاضِ الإبلِ، والْجَوَابُ جمعُ الْجَابيَةِ، وسُمِّيَ الحوضُ جَابيَةً؛ لأنه يَجْبِي الماءَ؛ أي يَجمعهُ، والجِبَايَةُ جمعُ الماءِ. يقالُ: إنه كان يجتمعُ على جَفْنَةٍ واحدةٍ ألفُ رجُلٍ يأكلون بين يديهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ ؛ أي ثابتاتٌ عِظَامٌ من الْحَجَرِ كالجبالِ لا تُرْفَعُ مِن أماكِنِها، ولكن يوقدُ تحتَها حتى ينطَبخَ ما فيها من الأطعمةِ فيأكلُ منها الألُوفُ، وكانت هذه الأعمالُ التي يعملونَها معجزةً لسُليمانَ عليه السلام.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ ؛ أي قُلنا لَهم: اعمَلُوا بطاعةِ اللهِ شُكْراً لَهُ على هذه النِّعَمِ التي مَنَّ بها عليكُم. وَقِيْلَ: انتصبَ قوله (شُكْراً) على المصدريَّة. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي قليلٌ مِن عبادِي مَن يَشْكُرُ لِي؛ لأن الشَّاكِرِينَ وَإنْ كثُرُوا فقَليلٌ في جَنْب مَن لَم يشكُرْ.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب اللباس: باب من كره القعود عند الصور: الحديث (٥٩٥٨). ومسلم في الصحيح: كتاب اللباس: باب تحريم تصوير صورة الحيوان: الحديث (٨٥/ ٢١٠٦). وأبو داود في السنن: كتاب اللباس: باب في الصور: الحديث (٤١٥٥).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٢ ص٩٥: الحديث (٢٩٦، وص٩٦: الحديث (٢٩٨) مختصراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ ؛ وذلك أنَّ سُليمانَ عليه السلام كان يعتادُ طُولَ القيامِ في الصَّلاة، وكان إذا أعْيَا اتَّكَأَ على عَصاهُ، فاتَّكَأَ ذاتَ يومٍ على عصاهُ، فقَبَضَ اللهُ رُوحَهُ، فبَقِيَ على تلكَ الحالةِ سَنَةً، والعَمَلَةُ في أعمَالِهم يعملونَ كما هم ولَم يَجتَرِئ أحدٌ أن يَدْنُو منه هيبةً لَهُ.

وقوله (مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إلاَّ دَابَّةُ الأرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأتَهُ) دابَّةُ الأرضِ هي الأَرْضَةُ التي تأكلُ الخشبَ، وقَوْلُهُ تَعَالَى (مِنسَأتَهُ) أي عصاهُ التي كان يَتَّكِئُ علَيها.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي فلمَّا سَقَطَ سليمانُ لتَآكُلِ الْمِنْسَأةِ، تَبَيَّنَ الجِنُّ للإنس؛ أي ظَهَرُوا أنَّهم لا يعلمونَ الغيبَ، فلو عَلِمُوا ما عَمِلُوا له سَنةً وهو ميِّتٌ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا لَبِثُوا فِي الْعَذاب الْمُهِينِ) أي في العذاب مِن أعمالِهم الشاقَّة التي كانوا يعملونَها في بناءِ بيتِ المقدس وغيرِهِ، فلمَّا عَلِمُوا بموتهِ لسُقوطِ العصَا ترَكُوا الأعمالَ.

ثُم أن الشياطينَ قالوا للأَرْضَةِ: لو كُنْتِ تأكلينَ الطَّعامَ لآتيناكِ بأطيَب الطعامِ، ولو كُنْتِ تشرَبينَ الشرابَ لآتيناكِ بأطيب الشراب، ولَكِنَّا سننقلُ إليكِ الطينَ والماءَ، فهُمْ ينقلونَ إليها ذلك حيث كانَتْ، فما رأيتموهُ من الطِّينِ في جَوفِ الخشب فهو مما ينقلهُ الشياطينُ إليها شُكراً لَها!

وسُميتِ العصا مِنْسَأةً لأنه يَنْسَأُ بها الغنمُ وغيرهُ؛ أي يؤَخِّرُ ويطردُ، يقال: أنْسَأَ اللهُ في أجَلِهِ؛ أي أخَّرَ اللهُ في أجَلِهِ. وأكثرُ القرَّاء يقرأون (مِنْسَأتَهُ) بالهمزةِ، وقرأ أبو عمرٍو ونافع بتركِ الهمزةِ، وهما لُغتَان.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (أنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ) أي ظَهَرَ أمرُهم. وَقِيْلَ: في موضع النصب تقديرهُ: عَلِمَتْ وأيْقَنَتِ الجنُّ (أنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ)، وكان الإنسُ قَبْلَ هذا يظنُّونَ أن الشَّياطينَ يعلمونَ السِّرَّ يكون بين اثنَينِ، فظَهَرَ لَهم يومئذٍ أنَّهم لا يعلمونَ ذلكَ.

قال أهلُ التَّاريخِ: كان عُمْرُ سليمانَ ثلاثاً وخمسينَ سَنةً، ومدَّة مُلكِهِ أربعون سَنةً، ومَلَكَ يومَ مَلَكَ وهو ابنُ ثلاثَ عشرةَ سَنةً، وابتدأ في بناءِ بيتِ المقدسِ لأربعِ سِنين مَضَينَ من مُلكِهِ، وكان عُمْرُ داودَ مائة وأربعون سنة[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ ؛ قال فروةُ بن مُسَيكٍ: أتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ سَبَأ مَا هُوَ ؟ فَقَالَ: [رَجُلٌ مِنَ الْعَرَب أوْلَدَ عَشْرَةَ أوْلاَدٍ، تَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَتَشَامَّ مِنْهُمْ أرْبَعَةٌ. فَأَمَّا الَّذِيْنَ تَيَامَنُوا فَالأَزْدُ وَكِنْدَةُ وَحِمْيَرُ وَمُذْحِجُ وَالأَشْعَرِيُّونَ وَإنْمَارُ وَمِنْهُمْ بَجِيْلَةُ. وَأَمَّا الَّذِيْنَ شَامُوا فَعَامِلَةُ وَغَسَّانُ وَلَخْمٌ وَجُذَامُ][2]. والمرادُ بسَبَأ القبيلةُ الذين هُم مِن أولادِ سَبَأ بنِ يَشْجُبَ بنِ يَعْرُبَ بن قَحطَانَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (فِي مَسْكَنِهِمْ) أنه كانت مساكِنُهم بمَأرِبَ مِن اليَمَنِ (آيَةٌ) أي علامةٌ يدلُّ على قُدرةِ اللهِ وأنَّ الْمُنْعِمَ عليهم هو اللهُ تعالى. ثُم فسَّر تلكَ الآيةِ فقالَ: ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ ؛ أي عَن يَمين وَادِيهم وشِماله قد أحاطَتَا بذلك الوادِي الذي بين مسَاكِنهم.

والمعنى: لقد كان لأهلِ سَبَأ في مواضِعِهم علامةٌ، وهي جَنَّتَان؛ أي بُستَانَان؛ إحدَاهُما عن يَمينِ الطريق، وأخرَى عن يسار الطَّريق، ويقالُ: كان بُستَانين عن يَمين الطريقِ وبُستائين عن شِمالِ الطريق، إلاّ أنَّ البَساتينَ كلَّ واحدٍ مِن الجانبين سُمي جَنَّةً لاتِّصالِ بعضِها ببعضٍ، وكانوا في النِّعمةِ بحيثُ كانتِ المرأةُ تَمشِي في تلك الطريقِ بين البساتينِ وعلى رأسِها الزَّنبيلُ فيمتلئُ من ألوانِ الفاكهةِ مِن غيرِ أن تَمَسَّ شيئاً بيدِها.

---

(١) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٨١.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٨ ص٢٧٢: الحديث (٨٣٤ و٨٣٥ و٨٣٦) وإسناده حسن. وأبو داود في السنن: كتاب الحروف والقراءات: الحديث (٣٩٨٨) مختصراً. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٢٢٢)، وقال: حسن غريب. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٩٨١).

قرأ حمزةُ والنخعيُّ وحفص (فِي مَسْكَنِهِمْ) بفتحِ الكاف على الواحدِ، وقرأ الأعمشُ والكسائي وخلَف: (مَسْكِنَهُمْ) بكسر الكاف على الواحد أيضاً، وقرأ الباقون: (مَسَاكِنِهِمْ) على الجمعِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ ؛ أي قيلَ لَهم: (كُلُوا مِنْ رزْق رَبكُمْ) يعني هذه النِّعَمَ، ﴿ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ﴾ ؛ أي للهِ على نعمةِ هذه، وهذا حدُّ الكلامِ، ثُم ابتدأ فقال: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ ؛ أي هذه بلدةٌ طيبة أو لكُم بلدةٌ طيبة، يعني ليست بسَبْخَةٍ، ولَم يكن يُرَى بعوضةٌ قَطُّ، ولا ذُبابٌ ولا بَرغُوثٌ ولا حيَّةٌ ولا عقربٌ، وأنَّ الرجلَ الغريبَ ليأتِيَها وفي ثوبهِ القملُ والدوابُّ، فحين يرَى بُيوتَهم تَموتُ الدوابُ والقملُ. والمعنى: بلدةٌ طيِّبةُ الهواءِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي غفورُ الخطَايَا، كثيرُ العطايَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ ؛ أي فأعرَضُوا عن الحقِّ وكفَرُوا وكذبُوا أنبياءَهم، ولَم يشكرُوا نِعَمَ اللهِ، وقالوا: لا نعرفُ لله تعالى نِعْمَةً علينا! وقالوا لأنبياءهم: قولُوا لربكم الذي يَزعمُونَ أنه مُنْعِمٌ فليحبسْ عنَّا نِعَمَهُ إنِ استطاعَ!

قال وهبُ: (بَعَثَ اللهُ تَعَالَى إلَى سَبَأ ثَلاَثَةَ عَشَرَ نَبِيّاً، فَدَعَوْهُمْ إلَى اللهِ وَذكَّرُوهُمْ نِعَمَهُ، وَخَوَّفُوهُمْ عِقَابَهُ، فَكَذبُوهُمْ وَقَالُوا: مَا نَعْرِفُ للهِ عَلَيْنَا نِعْمَةً)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ)، قال ابنُ الأعرَابيِّ: (الْعَرِمُ: السَّيْلُ الَّذِي لاَ يُطَاقُ)[3]، وقال مقاتلُ: (الْعَرِمُ وَادِي سَبَأ)[4]. وَقِيْلَ: العَرِمُ: المطرُ الشديدُ الذي يأتِي منه سَيْلٌ لا يطاقُ دَفْعُهُ، وعَرْمَةُ الماءِ ذهَابُهُ في كلِّ مذهبٍ.

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٥٧. ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص١٨٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٩٨٥).

(٣) نقله عنه أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٦٠. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٨٥-٢٨٦.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٦٢.

وَقِيْلَ: العَرِمُ هو الفَأرُ الذي نَقَبَ السدَّ عليهم، وصِفَةُ ذلكَ: أن الماءَ كان يأتِي أرضَ سَبَأ مِنَ الشَّجر وأوديةِ اليَمَنِ، فرَدَمُوا رَدْماً بين جَبلَين وحبَسُوا الماءَ في ذلك الرَّدْمِ، وجعَلُوا لذلكَ الرَّدمِ ثلاثةَ أبوابٍ بعضُها فوق بعضٍ، وكانوا يَسْقُونَ مِن الباب الأعلى، ثُم مِن الباب الثانِي، ثم مِن الباب الأسفَلِ، فلا ينفدُ الماءُ حتى يأتِي ماءُ السَّنة الثانيةِ، فأخصبُوا وكثُرَتْ أموالُهم. فلمَّا كذبُوا الرُّسُلَ بعثَ اللهُ عليهم جِرْذاً نقبَ ذلك الرَّدْمَ، فاندفعَ الماءُ عليهم وعلى جنَّتَيهِم، فدَفَنَ السَّيلُ بُيوتَهم وأغرقَ جنَّتَيهِم وخرَّبَ أراضَيهِم[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ ؛ أي بدَّلنَاهم بالجنَّتَين اللَّتين أهلكنَاهما جنَّتين، ﴿ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ ؛ الأُكُلُ: اسمٌ لِمَا يؤكَلُ. والخَمْطُ: شَجَرُ الأرَاكِ، ويقالُ: الْخَمْطُ كلُّ نَبْتٍ قد أخذ طَعْماً مِن مرارةٍ حتى لا يُمكِنُ أكلُهُ. وَقِيْلَ: هو شجرٌ ذاتُ شَوكٍ.

قرأ أبو عمرٍو ويعقوبُ (أكُلِ خَمْطٍ) بالإضافةِ، وقرأ الباقون (أكُلٍ) بالتَّنوينِ، وهما مُتقاربان في المعنى.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ ؛ الأثْلُ: ما عَظُمَ من شَجَر الطَّرْفَاءِ[٢]، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ والسِّدْرُ إذا كان بَرِّيّاً لا يُنتفَعُ به ولا يصلحُ ورَقُهُ للغُسُول، كما يكونُ ورَقُ السِّدر الذي نَبتَ على الماءِ. ومعنى قَوْلِهِ تَعَالَى (وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) يعني أن الْخَمْطَ والأثْلَ كان أكثرَ في الجنَّتين المبدَّلَتين من السِّدر. قال قتادةُ: (كَانَ شَجَرُ الْقَوْمِ مِنْ خَيْرِ الشَّجَرِ، فَبَدَّلَهُ اللهُ مِنْ شَرِّ الشَّجَرِ بأعْمَالِهِمْ)[٣]، والسِّدْرُ: هو شجرُ النَّبْقِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٩٩٣) عن وهب بن منبه.

(٢) في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٥٩؛ قال الفراء: (وأما الأثل فهو الذي يُعرف، شبيه بالطرفاء، إلا أنه أعظم طولاً).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٠٠٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ ؛ أي جَزَيْنَاهُمْ ذلك التَّبديلِ والتَّخريب بكُفْرِهم بنِعَم اللهِ تعالَى، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ ؛ بمثل هذه العقوبةِ وتعجيلِ سَلْب النِّعمةِ، ﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ ؛ أي الكافِرَ المعَانِدَ، وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ المؤمنَ نُكَفِّرُ عنه ذُنوبَهُ بطاعاتهِ، والكافرُ يُجازَى على كلِّ سوءٍ يعملهُ. وقال الفرَّاءُ: (الْمُؤْمِنُ يُجْزَى وَلاَ يُجَازَى)[1] أيْ يُجْزَى الثَّوَابَ بعَمَلِهِ، وَلاَ يُكَافَؤُ بسَيِّئَاتِهِ.

قرأ أهلُ الكوفةِ: (نُجَازِي) بالنُّون وكسرِ الزَّاي. ونُصِبَ (الكَفُورَ) لقولِهِ (جَزَيْنَاهُمْ) ولَم يقل جُوزُوا، وقرأ الآخرونَ (يُجَازَيُ) بياءٍ مضمومة ورفعِ (الْكَفُورُ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ) مَن قرأ بالنصب فهو اسمُ قبيلةٍ، فلِهَذا لَم ينصرِفْ، ومَن نَوَّنَهُ وخفضَهُ فهو اسمٌ لرَجُلٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي جعَلنا بين أهلِ سَبَأ وبين قُرَى الأرضِ التي بارَكْنا فيها وهي الأرضُ المقدَّسة بارَكنا فيها بالماءِ والشَّجر، يعني قُرَى الشَّامِ ومصر، وقوله (قُرًى ظَاهِرَةً) أي قرى متقاربةً متَّصِلةً، إذا خرجَ الرجلُ من واحدةٍ من القُرَى ظهرَتْ له الأُخرى، فكانوا لا يحتاجُونَ في سَيْرِهم إلى الشَّامِ إلى زادٍ، وكانت المرأةُ تخرجُ ومعَها مِغْزَلُهَا، وعلى رأسِها مِكْتَلُهَا، ثُم تَغْزِلُ ساعةً فلا ترجعُ بيتَها حتى يَمتَلِئ مكْتَلُها من الثِّمار، وكان ما بين الشَّام وأرضِ سبأ على تلكَ الصفةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ ؛ أي جعلنا القُرَى مُواصَلةً بقدر السَّير المتَّصلِ على قدر الْمَقِيْلِ والمبيتِ مِن قريةٍ إلى قريةٍ، أنعَمْنا عليهم في مَسِيرهم كما أنعَمْنا عليهم في مساكنِهم، فقُلنا لَهم: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾ ؛ إنْ شِئْتُم باللَّيالِي وإنْ شِئتُمْ بالأيَّامِ، ﴿ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ ؛ مِن الظُّلمِ والجوعِ والعطشِ وعن جميع ما يُخَافُ في الطريقِ.

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٥٩ بلفظ: (وَأمَّا الْمُؤْمِنُ فَإنَّهُ يُجزَى؛ لأنَّهُ يُزَادُ وَيُتَفَضَّلُ عَلَيْهِ وَلاَ يُجَازَى).

ومعنَى الآيةِ: (وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ) من القريةِ إلى القريةِ مِقْدَاراً واحـداً، نِصْـفَ يَوْمٍ، وقُلنا لَهم: (سِيرُوا فِيهَا) في تِلكَ القُرَى، (لَيَالِيَ وَأياماً)؛ لِيْلاً شِئتُمْ السيرَ أو نَهاراً (ءامِنِينَ) من الجوعِ والعطَشِ والسِّباعِ والتَّعب ومِن كلِّ خوفٍ.

ثم إنَّهم بطَرُوا النعمةَ، وسألُوا أن تكونَ القُرَى والمنازلَ بعضُها أبعدَ من بعضٍ، ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ ؛ أي اجعَـلْ بيننـا وبـين الشَّـامِ فَلَـوَاتٍ وَمَفَـاوزَ لنَركَبَ عليها الرَّواحِلَ ونَتزَوَّدَ الأَزْوَادَ[1]، ذلك أنَّهم قالوا لو كانَتْ ثِمارُنـا أبعـدَ ممـا هي لكان أجدرَ أن نشتَهيَها، فاجعَلْ بين منازلنا وبين مقصَدِنا الْمَفَاوزَ. ويقالُ: كـانت هذه المسألةُ من تُجَّارُهم ليربَحُوا في أموالِهم.

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو (بَعِّدْ) على وجهِ الدُّعاء. وقرأ ابـنُ الحنفيَّـة ويعقـوب (رَبُّنَا) برفعِ الباء (بَاعَدَ) بألفٍ وفتح العينِ والدلالةِ على الخـبر، استبعَدُوا أسفارَهم بَطَراً منهم وأشَراً. وقرأ الباقونَ (رَبَّنَا) بفتح الباء و(بَاعِدْ) بالألفِ وكسرِ العين وجزمِ الدَّال على الدُّعاء. وقد قُرِئَ (بَعُدَ) بضمِّ العين و(بَيْـنُ) بـالرفع؛ أي بَعُـدَ مَـا يتَّصِلُ بسفَرِنا.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ يعـني بـتَرْكِ الشُّكرِ والطاعـةِ، وَقِيْـلَ: بالكُفرِ، ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ ؛ لِمَن بعدَهم يتحدَّثون بأمرهم وشأنِهم، ولَم يبـقَ منهم ولا مِن ديارهم أثرٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ ؛ أي فرَّقناهم في البلادِ المختلفة كلَّ تفريقٍ، وذلك أنَّهم شُرِّدُوا في البلادِ، وصَـارُوا بحيـث يتمثـلُ بـهم العربُ يقولون: تفرَّقَ القومُ أيدِي سَبَأ وأيَادِي سَبَأ.

قال الشعبيُّ: (أمَّا غَسَّانُ فَلَحِقُوا بالشَّامِ، وَأمَّـا الأَنْصَـارُ فَلَحِقُـوا بيـثْرِبَ، وَأمَّـا خُزَاعَةُ فَلَحِقُوا بتُهَامَةَ، وَأمَّا الأَزْدُ فَلَحِقُوا بعُمَانَ)[2] وَكَانَتْ غَسَّانُ مُلُوكَ الشَّامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي فيمـا فُعِـلَ بسَـبأ ﴿ لَأَيَـٰتٍ ﴾ ؛ لَعِبَرٍ ودلالاتٍ ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ ، عنِ معاصي اللهِ، ﴿ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ لأنعُمِهِ.

---

(١) في المخطوط صحف العبارة، فكتب الناسخ: (وتزود الآن واد ذلك).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٠٢٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ قرأ أهلُ الكوفةِ (صَدَّقَ) بالتشديدِ؛ أي ظنَّ فيهم ظَنّاً حيثُ قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(١)] ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[(٢)] فصدَّقَ ظنَّهُ وحقَّقهُ بفعلِهِ ذلك واتِّباعِهم إيَّاه. وقرأ الآخرونَ (صَدَقَ) بالتخفيفِ؛ أي صَدَقَ عليهم في ظَنِّهِ بهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (عَلَيْهِمْ) أي على أهلِ سَبأ، وقال مجاهدُ: عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ إلاَّ مَنْ أطَاعَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ (فَاتَّبَعُوهُ إلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) وهمُ الَّذين قالَ اللهُ تَعَالَى فيهم ﴿إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[(٣)].

وَقِيْلَ: إن إبليسَ لَمَّا وَسْوَسَ إلى آدمَ وعمِلتْ فيه وَسْوَسَتُهُ، طَمِعَ في ذرِّيته؛ فقال: إنَّهُ مع فضلِهِ وعقْلِه، وعَمِلَتْ فيه وسْوَسَتِي؛ فكيفَ لا تعملُ في ذرِّيتهِ ؟ فأخبرَ اللهُ في هذه الآيةِ: أنَّ القومَ اتبعُوهُ فصدَّقُوا ظَنَّهُ، إلاَّ طائفةً مِن المؤمنينَ لَم يتَّبعوهُ في شيءٍ.

وَقِيْلَ: إنَّ ابليسَ لَمَّا سألَ النَّظِرَةَ فأنْظَرَهُ اللهُ تعالى قال: لأَضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلأَمَوِّهَنَّهُمْ[(٤)]، ولَم يكن في وقتِ هذه المقالةِ مُستَيقِناً، وإنَّما قالَ ظَنّاً منهُ، فلما اتَّبَعُوهُ وأطاعوهُ صَدَقَ عليهم ما ظَنَّهُ فيهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ ؛ أي ما كانَ لإبليسَ عليهم من حُجَّةٍ ولا نَفَاذِ أمْرٍ إلاَّ بالتَّزيين والوَسْوَسَةِ. وقَوْلُهُ: ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ ؛ أي ما كان تُسْلِيْطُنَا إياه عليهم إلاَّ لنعلمَ المؤمنينَ من الشاكرين.

والمعنى: ما سَلَّطْنَاهُ عليهم إلاَّ لنعلمَ إيْمانَ المؤمنِ ظاهراً وكُفْرَ الكافرِ ظَاهِراً، وقد يذكرُ العلمُ ويراد به الإظهارُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بكلِّ شيء مِن الإيْمَانِ وشَكٍّ وغيرِ ذلك.

---

(١) ص / ٨٢ . (٢) الأعراف / ١٧ . (٣) الاسراء / ٦٥ .

(٤) ربما (ولأمَرِّنَهُمْ) رسم الكلمة في المخطوط قريب بين الكلمتين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي قُل لكُفَّار مكَّة: ادعُوا الَّذينَ زَعمتُم أنَّهم آلهةٌ مِن دون اللهِ، قال مقاتلُ: (أيِ ادْعُوهُمْ لِيَكْشِفُوا عَنْكُمُ الضَّرَرَ الَّذِي نَزَلَ بكُمْ فِي سِنِيْنِ الْجُوعِ).

وَقِيْلَ: معناهُ: ادْعُوا الذين زَعمتُم أنَّهم آلهةٌ لكم لكي يرزُقوكم ويدفَعُوا عنكم الشدائدَ، ثُم إنَّهم لا يَملكون مِثْقَالَ ذرَّةٍ؛ أي لَم يَخلِقُوا زنَةَ ذرَّة في السَّموات ولا في الأرضِ، فمِن أينَ يستَحقُّون العبادةَ؟!

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ ؛ أي ما لَهم في السَّموات والأرضِ مِنْ شِرْكٍ في خلْقِهما، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي وما اللهُ تعالى منهم من مُعِينٍ فيما خلَقَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ ؛ أي ولا تنفعُ شفاعةُ مَلَكٍ مقرَّبٍ ولا نَبيٍّ ولا أحدٍ حتى يأْذنَ اللهُ له في الشَّفاعةِ. وهذا تكذيبٌ مِن الله لَهم حيثُ قالُوا: هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ.

قرأ أبو عَمرٍو وحمزةُ والكسائي وخلف (أُذِنَ) بضمِّ الألفِ، وقرأ غيرُهم بالفتحِ، فمَن فَتَحَ كان المعنى لِمَن أذِنَ اللهُ له في الشَّفاعةِ، وكذلك مَن قرأ بالضمِّ لأنَّ الآذِنَ هو اللهُ تعالى في القِراءَتين جميعاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ قرأ ابنُ عامرٍ ويعقوب: (فَزَّعَ) بفتحِ الفاءِ والزاي، وقرأ غيرُهما بضمِّ الفاءِ وكسرِ الزاي. والمعنى: حتى إذا كُشِفَ الفزعُ والجزَعُ عن قلوبهم. ومَن قرأ بالفتحِ فالمعنى: حتَّى إذا كَشَفَ اللهُ الفزعَ عن قلوبهم.

واختلَفُوا في هذه الكتابةِ والموصُوفِين بهذه الصِّفةِ، مَن هم؟ ومَن النَّصَب الذي مِن أجلهِ فَزَّعَ عن قلوبهم؟ فقال قومٌ: همُ الملائكةُ. واختلَفُوا في سبب ذلك، فقال بعضُهم: إنَّما فَزَّعَ عن قلوبهم مِن غَشْيَةٍ تصيبُهم عند سَماعِ كلامِ الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال عبدُالله بنُ مسعودٍ: (إذا تَكَلَّمَ اللهُ تَعَالَى بالْوَحْيِ، سَمِعَ أهْلُ السَّمَاءِ صَلْصَلَةً مِثْلَ صَلْصَلَةِ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَان، فَيُصْعَقُونَ لِذلِكَ وَيَخِرُّونَ سُجَّداً، فإذا عَلِمُوا أنَّهُ وَحْيٌ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبهمْ فَتَرِدُّ إليهمْ، فَيُنَادِي أهْلُ السَّمَوَاتِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً: (ماذا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبيرُ)[(١)].

وعن رَسُول اللهِ ﷺ أنهُ قال: [إنَّ اللهَ تَعَالَى إذا تَكَلَّمَ بالْوَحْيِ، سَمِعَ أهْلُ السَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا، فَيُصْعَقُونَ فَلاَ يَزَالُونَ كَذلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيْلُ، فَيَقُولُونَ لَهُ: مَاذا قَالَ رَبُّكَ ؟ قَالَ: يَقُولُ الْحَقَّ][(٢)].

وعن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [إذا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ بأجْنِحَتِهَا خُضُوعاً لِقَوْلِهِ، كَأنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبهِمْ، قَالُوا: مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا: الْحَقَّ][(٣)].

وقال ﷺ: [إذا تَكَلَّمَ اللهُ بالْوَحْيِ، أخَذتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً أوْ رَعْدَةً شَدِيْدَةً خَوْفاً مِنَ اللهِ تَعَالَى، فإذا سَمِعَ ذلِكَ أهْلُ السَّمَوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا سُجَّداً، فَيَكُونُ أوَّلُ مَنْ رَفَعَ رَأسَهُ جِبْرِيْلُ ﷺ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بمَا أرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيْلُ بالْمَلاَئِكَةِ، فَكُلَّمَا مَرَّ بسَمَاءٍ سَألَهُ مَلاَئِكَتُهَا: مَاذا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيْلُ ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيْلُ: قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبيْرُ، فَيَقُولُ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيْلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيْلُ بالْوَحْيِ حَيْثُ أمَرَ اللهُ][(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث(٢٢٠٣٥ و٢٢٠٣٦) بأسانيد عديدة وألفاظ.

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٩٩؛ قال السيوطي: (وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي من وجه آخر عن ابن مسعود...) وذكره.

(٣) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٩٧؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة...) وذكره.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٢٠٤٠).

وقال مقاتلُ والكلبيُّ:(لَمَّا كَانَتِ الْفَتْرَةُ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٌ ﷺ خَمْسُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ عَاماً، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ كَلَّمَ اللهُ تَعَالَى جِبْرِيْلَ بالرِّسَالَةِ إلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَسَمِعَتِ الْمَلاَئِكَةُ الصَّوْتَ بِالْوَحْيِ، فَظَنُّوا أنَّهَا الْقِيَامَةُ قَامَتْ، فَصُعِقُوا مِمَّا سَمِعُوا، فَلَمَّا انْحَدَرَ جِبْرِيْلُ بالرِّسَالَةِ، جَعَلَ أهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ يَسْألُونَهُ عَلَى وَجْهِ التَّعَرُّفِ بَعْدَ مَا انْكَشَفَ الْفَزَعُ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالَ جِبْرِيْلُ وَمَنْ مَعَهُ: قَالَ الْحَقَّ)(١).

وَقِيْلَ: لَمَّا سَمعَتِ الملائكةُ الوحيَ صُعِقُوا فخَرُّوا سُجَّداً ظَانِّينَ أنَّها القيامةُ، فلما نَزَلَ جبريلُ بالوحي انكشَفَ فزَعُهم فرَفَعُوا رُؤوسَهم، وقال بعضُهم لبعضٍ: (مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا الْحَقَّ) يعنِي الوحيَ (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيْرُ) أي الغالبُ القاهر السيِّدُ المطاعُ الكبيرُ العظيم، فلا شيءَ أعظمَ منهُ.

وقرأ الحسنُ (حَتَّى إذا فَرِغَ عَنْ قُلُوبهِمْ) بالعَين المعجمةِ والزَّاي بمعنى فَرَغَتْ قلوبُهم من الفزَعِ، وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ قولَهُ (حَتَّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) راجعٌ إلى المشركينَ، فإنَّهم إذا شاهَدُوا أهوالَ يوم القيامةِ غَشِيَ عليهم، فيُزيلُ اللهُ ذلك عن قلوبهم، ثُم تقولُ لَهم الملائكةُ: مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ في الدُّنيا والآخرةِ ؟ فيقولونَ: الْحَقَّ، فأقَرُّوا حين لا ينفعُهم الإقرارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّد لكُفَّار مكَّة: مَن يرزُقكم من السَّمواتِ المطرَ، ومِن الأرض النباتَ والثمرَ؟ وإنَّما أمرَ بهذا السُّؤال احتِجَاجاً عليهم؛ لأنَّ الذي يرزقُ هو المستحقُّ للعبادةِ لا غيره، وذلك أنه إذا استفهَمَهم عن الرِّزق لَم يُمكِنُهم أن يُبَيِّنُوا رَازقاً غيرَ اللهِ، فيتحيَّرُوا في الجواب فيُؤمَرُ النبيُّ ﷺ بالجواب، فيقولُ لَهم: إنَّ الذي يرزُقكم هو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وتَمَّ الكلامُ.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٦٤. ونقله القرطبي عن الكلبي أيضاً كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٩٧.

ثُم أمَرَ بأنْ يُخبرَهم أنَّهم على الضَّلال بعبادةِ غيرِ الله تعالى بقولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ وهذا على وجهِ الإنصَافِ في الحجَّة لاستمالةِ قُلوبهم، كما يقولُ القائلُ من المسَارعِين: أحَدُنا كاذبٌ؛ وهو يعلمُ أنَّهُ صادقٌ وصاحبهُ كاذبٌ.

والمعنى: مَا نحنُ وأنتم إلاَّ على أمرٍ واحدٍ؛ أحدُ الفريقَين مهتَدٍ والآخرُ ضَالٌّ، فالنبيُّ ﷺ ومَنِ اتَّبعَهُ على الْهُدَى، ومَن خالفَهُ في ضَلالٍ مُبينٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي قُل يا مُحَمَّدُ للكفَّار لا تُؤاخَذُونَ بجُرمِنا، ولا نؤاخَذُ بجُرمِكُم، فانظُرُوا لأنفُسِكم واعلَمُوا أنَّ حِرصَنا على إيْمانِكم لا ينفعُكم، وهذا على وجهِ التَّبرُّؤ منهُم ومِن كُفرِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ ؛ يعني بَعْدَ البَعْثِ في الآخرةِ فِي الْمَحشَرِ، ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي ثُم يقضِي بينَنا ويحكُمَ بيننا بالعدلِ، ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي وهو القاضِي العليم بما يقضِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ ﴾ ؛ أي قُل لَهم أرُونِي الَّذينَ ألْحَقْتُمُوهُمْ بالله تعالَى وجعلتمُوهم شركاءَ اللهِ في العبادةِ؛ هل لَهم قدرةٌ على الْخَلْقِ والأمرِ، وهل يرزُقون ويخلُقون ؟ وقَوْلُهُ تَعَالَى (كلاَّ) كلمةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ؛ أي ارتَدِعُوا عن مقالَتِكم وانْزَجِرُوا؛ فإنَّكم لا تَقدِرُونَ أن تجعلُوا للهِ شُركاءَ، ﴿ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي المنيعُ الغالِبُ لكلِّ شيءٍ[1]، الْحَكِيمُ في تدبيرِهِ لخلقِه، فأنَّى يكونُ له شريكٌ في مُلكِهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: قل أرُونِي الذين ألحقتُموهم باللهِ في العبادة شُركاءَ هل يَرزُقونَ ويَخلُقون ؟ كَلاَّ؛ لا يرزُقون ولا يخلُقون، بل الذي يخلُقُ ويرزقُ هو اللهُ العزيز في مُلكهِ، الحكيمُ في أمرِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ ؛ أي ما أرسلنَاكَ يا مُحَمَّدُ إلاّ للناس كافَّة أي كلَّهم، أحمَرِهم وأسوَدِهم. وَقِيْلَ: معناهُ: إلاَّ

---

(١) في المخطوط: (أي المنيع الغالب الذي لكل شيء) ولا يستقيم المعنى.

مَانِعاً للناسِ من الكُفرِ والضَّلال، والكفُّ على هذا هو المنعُ. وأدخِلَتِ الهاءُ ها هُنا للمبالغةِ كالرِّوايةِ والعلامةِ، (بَشِيراً) بالخيرِ لِمَن أطاعَ اللهَ، (وَنَذِيراً) أي ومُخَوِّفاً بالنار لِمَن كفَرَ باللهِ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ يعني كُفَّارَ مكَّة لا يتدبَّرُون القُرْآنَ، فلو تدبَّرُوا لعَلِمُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ ؛ أي يقولُ الكفَّارُ: مَتَى هَذا الْوَعْدُ الذي تُخوِّفُونا به مِن البعثِ والعذاب، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ فِي مَقالَتِكم، ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي قُل لِبَعثِكُم وعَذابكم ميقاتُ يَوْمٍ لا يؤخَّرُ عن وقتِ الوَعْدِ ولا يُقَدَّمُ وهو يومُ القيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ؛ أي قالَ الكفَّارُ: لن نؤمِنَ بصِدْقِ هذا القُرْآنِ ولا بالَّذي بينَ يديهِ من أمرِ الآخرةِ، والنشأةُ الثانية.

وَقِيْلَ: معنَى (وَلاَ بالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) يعنُونَ التَّوراةَ والإنجيلَ، وذلك: أنَّهُ لَمَّا قالَ مؤمِنُوا أهلِ الكتاب: إنَّ صِفَةَ مُحمَّدٍ ﷺ في كِتَابنا وهو نبيٌّ مبعوثٌ، كَفَرَ أهلُ مكَّةَ بكِتَابهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ ؛ أي ولو ترَى يا مُحَمَّدُ مُشركي مكَّة مَحبُوسُونَ في الْمَحْشَرِ للحِسَاب يومَ القيامةِ، يتجَاوَبونَ فيما بينِهم يردُّ بعضُهم على بعضِ القولَ في الجدال، ويحمِلُ كلُّ واحدٍ منهُم الذنبَ على صاحبهِ، فيقولُ الأتبَاعُ لرُؤسَائِهم: ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ ﴾ ؛ ودعَاؤُكم إيَّانا إلى الكُفر، ﴿ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ كغيرِنا، بل أنتُم منعتُمونا وصدَدتُمونا عنِ الإيْمان.

فأجَابَهم رؤسَاؤُهم على وجهِ الإنكارِ: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ باختياركم الكُفرَ على الإيْمان.

فقالَ الأتباعُ للرُّؤسَاءِ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ﴾ ؛ قَالَ الأخفَشُ: (اللَّيْلُ وَالنَّهارُ لاَ يَمْكُرَان بأحَدٍ، وَلَكِنْ يُمْكَرُ فِيْهِمَا، وَهَذا كَقَوْلِهِ ﴿مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أخْرَجَتْكَ﴾[١] وَهَذا مِنْ سَعَةِ الْعَرَبيَّةِ)[٢].

والمعنى: بل مَكْرُكم بنَا في الليلِ والنهار إذ تأمُرونَنا، وكذلك يقالُ: فلانٌ نهارُ صائمٍ وليلهُ قائمٌ، وقال الشَّاعرُ: (مَا لَيْلُ الْمِطَي بنَائِمِ)[٣]. ومثلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإذا عَزَمَ الأَمْرُ﴾[٤]. وَقِيْلَ: مكرُ اللَّيلِ والنهار بهم طولُ السَّلامةِ فيهما، كقولهِ ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ ؛ أي أضْمَرُوها في أنفسِهم؛ لأن موضعَ النَّدامَةِ القلبُ. وَقِيْلَ: أظهَرُوها فيما بينهم، أقبلَ بعضُهم يَلُومُ بَعْضاً، ويعرضُ بعضُهم بعضاً الندامةَ، وهذا مِن ألفاظِ الأضدَادِ، يقالُ: أسَرَّ إذا كتَمَ، وأسَرَّ إذا أظهَرَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾ ؛ أي غُلَّتْ أيْمَانُهم إلى أعناقِهم، ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ من الشِّركِ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ ﴾ ؛ أي ما أرسَلنَا في أهلِ قريَةٍ مِن رسول إلاَّ قال رؤَساؤُها وأعيَانُها وأولُو النِّعمَةِ فيها: ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ ؛ مِن الإيْمَانِ والتَّوحيدِ، ﴿ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ ﴾ ؛ للرُّسُلِ:

---

(١) مُحَمَّد / ١٣ .

(٢) قاله الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص٤٤٥، تحقيق د. فائز فارس.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣٠٣؛ نقل القرطبي قال: وأنشد جرير:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلاَنَ فِي السُّرَى ... وَنِمْتِ وَمَا نَوْمُ الْمِطَي بنَائِمِ

(٤) مُحَمَّد / ٢١ .

(٥) الحديد / ١٦ .

﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ﴾ ؛ فكما فُضِّلْنَا عليكم في الدُّنيا لن نُعَذبَ بذنوبنا في الآخرةِ! افتخَرَ مُشركُوا مكّةَ على رسول الله والمؤمنينَ بأموالِهم وأولادِهم، وظنُّوا أنَّ اللهَ إنَّما خوَّلَهم المالَ والولدَ كرامةً لَهم عندَهُ، فقالوا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ اللهَ أحسَنَ إلينا بالمالِ والولدِ فلا يعذِّبُنا!

فقَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبيِّهِ ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ؛ يعني أنَّ بَسْطَ الرزقِ وتضييقهِ مِن الله تعالى بفعلهِ إبتلاءً وامتحاناً، ولا يدلُّ البسطُ على رضَا اللهِ تعالى، ولا التضييقُ على سَخَطِهِ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكّة لا يعلمونَ حين ظَنُّوا أنَّ أموالَهم وأولادَهم دليلٌ على كرامةِ اللهِ لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم ﴾ ؛ أي ليست كَثْرَةُ أموالِكم ولا أولادِكم بـ الخصلةِ ﴿ بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ ؛ أي بالتي تُقرِّبُكم إلى الثواب والكرامة قُرْبَةً. وقِيْلَ: معناهُ: بالَّتي تقرِّبُكم عندَنا قُربَى. قال الأخفشُ: (زُلْفَى: اسْمُ الْمَصْدَرِ؛ كَأَنَّهُ أرَادَ: بالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا تَقْرِيباً)[1]. ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ؛ بصرفِ المالِ في وُجوهِ الخيرِ، وبصرفِ الأولاد في طاعةِ الله تعالى. وقِيْلَ: معناهُ: إلاَّ مَن آمَنَ وعَمِلَ صَالحاً فإنَّ إيْمَانَهُ وعملَهُ يقرِّبُه منِّي.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ ؛ أي لَهم الجزاءُ الْمُضَاعَفُ على حسَنَاتِهم بالحسَنةِ الواحدةِ عشراً، ﴿ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ﴾ ؛ الجنَّة، ﴿ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ مِن كلِّ آفَةٍ ومَكروهٍ. والغُرْفَةُ: هي البيوتُ فوقَ الأبنية.

قرأ حمزةُ (وَهُمْ فِي الْغُرْفَةِ) على الواحدةِ، لقوله ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾[2]، وقرأ الباقون (فِي الْغُرُفَاتِ) على الجمعِ، لقوله ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنْ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾[3]، وقرأ

---

(١) قاله الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص٤٩٥؛ وفيه: (تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا ازْلاَفاً). و ج٢ ص٦٦٣. تحقيق د. عبدالأمير محمد أمين الورد.

(٢) الفرقان / ٧٥ .

(٣) العنكبوت / ٥٨ .

يعقوبُ (فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءً) بالنصب مُنَوَّناً (الضِّعْفُ) بالرفع تقديـرهُ: فـأولئكَ لـهم الضعفُ جَزاءً على التقدير والتأخير.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ ؛ أي يَسْـعَوْنَ في دَلائلِ التوحيدِ والنبوَّة مُعَـانِدِيْنَ، يحسَـبُون أنَّـهم يَفُوتُونَنَـا ويُعجِزُوننـا، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي مَحبُوسُونَ.

وقَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ ؛ أي ما أنفقتُم مـن مالٍ في غيرِ إسْرافٍ ولا تَقتِيرٍ فهو يُخلِفُهُ في الدُّنيا بـالعِوَضِ، وفي الآخـرةِ بالحسَـناتِ والدَّرجَاتِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (فَهُوَ يُخْلِفُهُ) لكم أو علَيكـم، يقـالُ: أخلَـفَ اللهُ لَـهُ وعليـهِ؛ إذا أبدلَ اللهُ لَهُ ما ذهبَ عنهُ، وعن رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَـالَ: [مَـنْ فَقِـهَ الْمُـرَادَ فَقِـهَ فِـي مَعِيْشَتِهِ][(١)].

وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: وَمَا أنْفَقْتُمْ فِي الْخَيْرِ وَالْبرِّ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، إمَّا أنْ يُعَجِّلَهُ فِـي الدُّنْيَا، وَإمَّا أنْ يُدَّخَرَ لَهُ فِي الآخِرَةِ)[(٢)]. وعن سعيدِ بن بشَّـار قـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: [مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبحُ الْعِبَادُ فِيْهِ إلاَّ وَمَلَكَـان أحَدُهُمَـا يَقُـولُ: اللَّـهُمَّ أعْـطِ مُنْفِقـاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَـرُ: اللَّـهُمَّ أعْـطِ مُمْسِـكاً تَلَفَـاً][(٣)]. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي وهو خيرُ الْمُخْلِفِيْنَ، وإنَّما خَيْرُ الرَّازقِـينَ لأنـه قَـدْ يُقَـالُ: رزَقَ السُّلطانُ الْجُنْدَ.

---

(١) عن أبي الدرداء؛ أخرجه الإمام أحمد في المسـند: ج ٥ ص١٩٥. وأبـو نعيـم في حليـة الأوليـاء: ج ١ ص٢١١ موقوفاً. وأخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٢ ص٢١١ بلفظ: [مِنْ فِقْهِكَ نَفَقَتُـكَ فِي مَعِيشَتِكَ]. وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٧٤؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد، وفيه أبو بكر بن أبـي مريم، وقد اختلط).

(٢) ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٦ ص٧٧.

(٣) تقدم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ ؛ يعني المشركين، ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ؛ هذا استفهامُ تَوبيخٍ للعَابدين كقوله تعالَى لعيسَى: ﴿أأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إلَـهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾(1). فنَزَّهَتِ الملائكةُ ربَّهُم عن الشِّرك و ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ ؛ تَنْزِيْهاً لكَ مما أضَافُوا إليكَ مِن الشُّركاء، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ ؛ أي ما اتَّخذنَاهم عَابدين، ولا تولَّينَاهم ولسْنَا نريدُ غيرَكَ ولِيّاً، وأنتَ العالِمُ بأمورنا وافتِرَائِهم علينا، كنَّا نُواليكَ ولا نُواليهم، ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ ، أي أطَاعُوا الشَّياطينَ في عِبادَتِهم إيَّانا؛ لأن الشياطينَ كانت دعوتُهم إلى ذلكَ، فكان أكثرُهم بالشَّياطين مؤمنينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ؛ أي يقالُ لَهم: اليومُ لا يَقْدِرُ بعضُكم لبعضٍ جَرَّ نفعٍ ولا دَفْعَ ضُرٍّ، ﴿وَنَقُولُ﴾ ، خَزَنَةُ النار بأمرِ الله، ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ ؛ معناهُ: إذا يُقْرَأُ على أهلِ مكَّة آياتِنا وهي القُرْآنُ واضحات الْحُجَجِ، ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ ؛ يعنون مُحَمَّداً ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ ، وقالُوا: ما هَذا الذي أتانا به إلاّ كذبٌ مُفترَى ؟ يعنُونَ القُرْآنَ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ؛ وهو القُرْآنُ: مَا هَـذا القُرْآنُ ؟ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ ؛ أي ما آتَينا أهلَ مكَّة مِن كُتُبٍ يقرَؤُنَها. والمعنى: مِن أين كذبُوكَ، ولَم يأتِهم كتابٌ ولا نذير بهذا الذي فعلوهُ، وما أرسلنا إليهم قَبْلَكَ يا مُحَمَّد مِن رسولٍ.

---

(1) المائدة / ١١٦ .

ثُـم خوَّفَـهم وأخـبرَ عـن عاقبـةِ مَـن كـذبَ قبلَـهم فقـال: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ يعني أمـم كـافرة، ﴿ وَمَا بَلَغُواْ ﴾ ؛ يعـني أهـلَ مكَّـة، ﴿ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ ؛ أي ما بَلَغَ هؤلاءِ الذين أرسِلْتَ إليهم عُشْرَ ما أوتِيَ الأمـمُ قبلَـهم مـن القـوَّة والعُـدَّة، ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ فَـانْظُرْ كيـفَ كـان إنْكَاري عليهم وتَعذِيبي لَهم، ألَيسُوا مُهلَكِين بالعذاب إذ لَم يُؤمِنُوا به مِعْشَارَ. والعُشْرُ والعَشِيرُ جزءٌ من عشرةٍ. قال ابنُ عبَّاس: (الْمَعْنَى: وَمَا بَلَغَ قَوْمُكَ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَـاهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَكَثْرَةِ الْمَالِ وَطُول الْعُمُرِ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ)[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾ ؛ أي آمُرُكـم وأوصِيكُـم بِخَصْلَةٍ واحدةٍ وهي: ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ ؛ أي تقُومُوا للهِ اثنَين اثنَين وواحداً واحداً، ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ ، فيُناظِرُوا ويذكُرُوا في أمـرِ النـبيِّ ﷺ[2]، هَـل تَرَوْنَ في فعلهِ وقَولهِ ودُعائهِ إلى توحيدِ الله ما يكونُ مِـن كـلامِ الْمَجـانِين وأفعَالِـهم، وهُو كَلامُ عالِمٍ حازمٍ؟ قال مقاتلُ: (وَالْمَعْنَى: أَلاَ يَتَفَكَّرُ مِنْكُـمْ وَاحِـدٌ وَمَـعَ صَاحِبِـهِ يَنْظُرُوا أنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ دَلِيْلٌ عَلَى أنَّ خَالِقَهَا وَاحِدٌ لاَ شَرِيْكَ لَهُ)[3].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ ؛ وذلـكَ أنَّ المشـركينَ قـالُوا: إنَّ مُحَمَّداً ﷺ ساحرٌ مجنونٌ! فقال اللهُ تعالى: (مَا بصَـاحِبِكُمْ مِـنْ جِنَّـةٍ) ومـا صَـاحِبُكم بمجْنون، فعلَى هذا المعنى يكونُ قولهُ (مَا بصَاحِبِكُمْ مِـنْ جِنَّـةٍ) ابتـداءُ كـلامٍ مِـن اللهِ تعالى، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: ثُم تتفكَّرُوا فتعلَمُوا بُطلاَن قولِكم في نِسبَتِهِ إلى الجنون. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم ﴾ ؛ أي ما هُـو إلاَّ رسـولٌ مُخـوِّفٌ، ﴿ بَيْنَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٠٦٨ و٢٢٠٦٩) مختصراً.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣١١؛ قال القرطبي: (لأن الذهـنَ حُجَّـةُ اللهِ علـى العبـادِ وهو العقلُ، فأوفرُهم عقلاً أوفرُهم حظّاً من الله، فإذا كـانوا فُـرَادى كـانت فكـرةً واحـدة، وإذا كانوا اثنان تقابَل الذهنان فتراءَى من العلمِ لهما أضعف على الانفراد، والله أعلم).

(٣) في تفسير مقاتل بن حيان: ج ٣ ص٦٩؛ قال مقاتل: (ألاَ يتفكـرُ الرجـل وحـده، ومـع صاحبـهِ فيعلمُ ويتفكَّرُ في خلقِ السموات والأرض وما بينهما أن عزَّ وجـل خلـقَ هـذه الأشـياءَ وحـده، وأن محمَّداً صادقٌ وما بهِ من جنون).

﴿ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي بينَ يدَي القيامةِ لكي تُخَلِّصُوا أنفُسَكم من عذاب اللهِ بالتَّلافِي والتَّوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: قُل لَهم يا مُحَمَّد: ما سألْتُكم على تبليغِ الرِّسالة أجْراً فتتَّهِمُونِي، وقَوْلُهُ تَعَالَى (فَهُوَ لَكُمْ) هذا الرجلُ يقول لغيرِهِ: ما أعطيتَنِي فخُذْهُ، يريدُ بذلكَ لَم يُعْطِهِ شيئاً، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما ثوابي إلاَّ على اللهِ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ مِن أعمالِ العِبَادِ ﴿ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ القَذْفُ: هو الرَّمْيُ بألْسِنَتِهم والحصَى والكلام، قال الكلبيُّ: (فَمَعْنَى الآيَةِ: قُلْ إنَّهُ يَأْتِي بالْحَقِّ؛ أيْ يَتَكَلَّمُ بالْوَحْيِ وَهُوَ الْقُرْآنُ يُلْقِيهِ إلَى نَبيِّهِ ﷺ). والمعنَى: قُل إنَّ ربي يُنْزِلُ الوحيَ مِن السَّماء فَيَقْذِفُهُ ويُلقيهِ إلى الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، وقَوْلُهُ تَعَالَى (عَلاَّمُ الْغُيُوب) ظاهرُ المعنَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ يعني الإيْمَانَ والقُرْآنَ؛ أي ظَهَرَ الإسلامُ والقُرْآنُ، ﴿ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ذهبَ الباطلُ وزَهِقَ، فلم يَبْقَ له بَقِيَّةٌ يُبدِئُ بها ولا يعيدُ. قال الحسنُ: (الْبَاطِلُ: كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَى اللهِ، فَإنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ سِوَى اللهِ لاَ يُبْدِئُ لأَهْلِهِ خَيْراً فِي الدُّنْيَا، وَلاَ يُعِيْدُ بخَيْرِهِ فِي الآخِرَةِ). فقال قتادةُ: (الْبَاطِلُ إبْلِيْسُ؛ أيْ مَا يَخْلُقُ إبْلِيْسُ أحَداً وَلاَ يَبْعَثُهُ)[(١)].

ويجوزُ أن يكون هذا اسْتِفْهَاماً، كأنَّهُ قالَ: وأيُّ شيءٍ يُبدِئُ الباطلُ ؟ وأيُّ شيء يعيدهُ ؟ وعن ابنِ مسعودٍ قال: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَماً، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بعُودٍ مَعَهُ وَيَقُولُ: [جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً، جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيْدُ][(٢)] أيْ ذهبَ الباطلُ بحيثُ لا يبقَى

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٠٧٦).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٠ ص١٩١: الحديث (١٠٤٢٧)، وص٢٠٠: الحديث (١٠٥٣٥) من طريق أخرى. والإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٣٧٧. والبخاري في الصحيح:=

له بقيَّة، لا إقبالٌ ولا إدبارٌ ولا إبداءٌ ولا إعادة كما قَالَ تَعَالَى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾[1]. ويقالُ: فلانٌ ظهرَتْ عليه الحجَّة، فما يُبدِئُ وما يعيدُ، ومَا يحل وما يَمرُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ﴾ ؛ وذلك أنَّ كفارَ مكَّة قالوا للنبيِّ ﷺ: لقد ضَلَلْتَ حين تركتَ دِين آبائِكَ! فَقَالَ اللهُ تَعَالَى (قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فَإنَّمَا أضِلُّ عَلَى نَفْسِي) أي ضَرَرُ ذلكَ راجعٌ إلى نفسِي، ﴿ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ ﴾ ؛ إلى الحقِّ، ﴿ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ ؛ من القُرْآن والبَيان، ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ ﴾ ؛ لكلِّ ما يقولهُ الْخَلْقُ من حقٍّ وباطلٍ، ﴿ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ مِنِّي، لا تخفَى عليه خافيةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ ﴾ ؛ ولو ترَى يا مُحَمَّدُ الكفَّار، يعنِي عندَ البعثِ، فلا يُمكِنُهم الغَوْثُ ولا الْهَرَبُ مِن ما هو نازلٌ بهم، لرأيتَ ما يُعْتَبَرُ به غايةَ الاعتبار. ومعنى الآيةِ: (وَلَوْ تَرَى إذْ فَزِعُوا) عند البعثِ فلا يَفُوتُونَنِي؛ أي لا يَفُوتُنِي أحدٌ ولا ينجُوا منِّي ظالِمٌ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ يعنِي من القُبُور حيثُ كانوا، فَهُمْ مِن اللهِ قريبٌ لا يبعُدونَ عنه ولا يَفُوتُونَهُ. تعني هذه الآيةِ؛ قال بعضُهم: أرادَ بقولِهِ (إذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ) مما أصابَهم يومَ بدرٍ عند القتال. وقال بعضُهم: أرادَ به يومَ القيامةِ إذ فَزِعُوا مِن مُشاهدَةِ عذاب جهنَّم، وعلِمُوا أنَّهم لا يفُوتُونَ للهَ، وأخِذُوا بالعذاب مِن مكانٍ قريبٍ إلى جهنَّم فقُذِفُوا فيها.

﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ ، عندَ رُؤيَةِ العذاب: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ ، أي آمَنَّا باللهِ تعالَى وبرسُولِه، يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي أين لَهم تَنَاوُلُ ما أرادُوا بُلُوغَهُ مِن مكانٍ بعيد، يعني مِن الآخرةِ وقد تركوهُ في الدُّنيا ؟ يعني أنَّهم قد تَعذَرَ عليهم تناولُ الإيْمانِ كما يتعذرُ على الإنسانِ تناوُلُ النُّجومِ.

=كتاب المظالم: باب هل تكسر الدنان التي فيها خمر: الحديث (٢٤٧٨)، وفي كتاب التفسير: الحديث (٤٧٢٠).

(١) الأنبياء / ١٨ .

والتَّنَاوُشُ هو التَّناوُلُ، نِشْتُهُ أنوشُهُ نَوْشاً، إذا تَنَاوَلَهُ، كأنَّهُ قالَ: وأنَّى لَهُمُ التوبةُ. وَقِيْلَ: ما يتَمَنَّوْنَ. قال ابنُ عبَّاس: (يَتَمَنَّوْنَ الرَّدَّ حِيْنَ لاَ رَدَّ)(١).

قرأ أبو عمرو والأعمشُ وحمزة والكسائيُّ وخلف: (التَّنَاؤُشُ) بالمدِّ والهمزةِ، وهو الإبطاءُ والبُعْدُ؛ أي مِن أينَ لَهم أن يتحرَّكُوا فيما لا حيلةَ لَهم فيهِ. يقالُ: أنَشْتُ الشَّيءَ؛ إذا أخذتهُ مِن بعيدٍ، والنَّيْشُ: الشيءُ البطيءُ. وقرأ الباقونَ بغيرِ همزةٍ من التَّناوُلِ، يقالُ: نِشْتُهُ إذا تناوَلتهُ، وتَنَاوَشَ القومُ في الحرب إذا تدَانَوا وتناوَلَ بعضُهم بعضاً.

واختارَ أبو عُبيد تركَ الهمزِ؛ لأنه قالَ: (مَعْنَاهُ مِنَ التَّنَاوُلِ، فَإذا هُمِزَ كَانَ مَعْنَاهُ الْبُعْدُ فكيف يقول: ﴿أَنَّى لَهُمْ﴾ الْبُعْدُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيْدٍ)(٢). قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) يعني أنَّهم يريدونَ أنْ يتناوَلُوا التوبةَ، وقدْ صَارُوا في الآخرةِ، وإنَّما تُقْبَلُ التوبةُ ((في الدنيا))(٣) وقد ذهبَتِ الدُّنيا فصارت بعيداً مِن الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي كانوا كَافِرينَ بمُحَمَّدٍ ﷺ والقُرْآن في الدُّنيا قبلَ ما عاينُوا مِن العذاب وأهوال(٤) القيامةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي يَنْسِبُونَ مُحَمَّداً ﷺ إلى السِّحرِ والجنونِ والكَهَانَةِ رَجْماً منهم بالغَيْب والقَذفِ. والرَّجْمُ بالغَيْب: أن يَلْفِظَ الإنسانُ شَيئاً لاَ يَتَحَقَّقُ، ومنه سُمِّي الرميُ بالفاحشةِ قَذْفاً.

ومعنى قَوْلِهِ تَعَالَى (بالْغَيْب) أنْ يقذِفُون مُحَمَّداً ﷺ بالظَّنِّ لا باليقين، والغيبُ على هذا الظَّنُّ، وهو ما غَابَ عِلمُه عنهم(٥). وقَوْلُهُ تَعَالَى (مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) يعني

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٠٩٢).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣١٦؛ قال القرطبي: (وأبو عبيد يستبعد هذه القراءة؛ لأن (التَّنَاؤُشَ) بالهمز البُعد، فكيف يكون البعد، وأنى لهم البعد من مكان بعيد) نقله عن النحاس، وهو في إعراب القرآن: ج ٣ ص٢٤٢.

(٣) ما بين (( )) سقط من المخطوط.

(٤) في المخطوط تحريف العبارة، رسم الناسخ: (قبل ما عاينوا من أهل الـ اليوم القيامة).

(٥) في المخطوط تحريف العبارة، رسم الناسخ: (ما غاب عليه عنهم).

بُعْدَهم عن الحقِّ. وقال قتادةُ: (مَعْنَى (وَيَقْذِفُونَ بالْغَيْب) يَقُولُونَ: لاَ بَعْثَ وَلاَ جَنَّةَ وَلاَ نَارَ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ : أي حِيْلَ بين هؤلاءِ الكفَّار وبين الرَّجعةِ إلى الدُّنيا، وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: حِيْلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الإيْمَانِ وَالتَّوْبَةِ)[٢]، ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم ﴾ ؛ أي كما فُعِلَ بنُظَرَائِهم أو أشيَاعِهم، ومَن كان على مِثْلِ حالِهم من الكفَّار، ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ ، أي قَبْلَ هؤلاءِ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ ﴾ ؛ مِن البعثِ ونُزولِ العذاب بهم، ﴿ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ، أي ظاهرِ الشَّكِّ.

وعن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ سَبَأ لَمْ يَبْقَ رَسُولٌ وَلاَ نَبِيٌّ إلاَّ كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَفِيْقاً وَمُصَافِحاً][٣].

آخر تفسير سورة (سبأ) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢١٠٠) وأوله: (أي يرجمون بالظن...).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢١٠٢) بأسانيد، وفيه: (حِيلَ بينهم وبين الإيمان بالله).

(٣) تقدم أول السورة.

سُـورَةُ الْمَلاَئِكَة (فاطـــر)

سُورَةُ الْمَلاَئِكَـة مَكِّيَّـةٌ كُلُّـهَا، وَهِـيَ أَلْـفٌ وَمِائَـةٌ وَثلاَثُـونَ حَرْفـاً، وَسَبْعُمِائَةٍ وَسَبْعُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَأرْبَعُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا دَعَتْهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ ثمَانِيَـةُ أبْوَاب الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أيِّ الأَبْوَاب شِئْتَ][(١)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ أي خالِقُهما، مُبتَدِئاً من غيرِ مثال سبقَ، قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (مَا كُنْتُ أعْرِفُ مَا مَعْنَى فَاطِرِ حَتَّـى اخْتَصَـمَ إلَيَّ أعْرَابيَّانِ فِي بئْرٍ، فَقَالَ أحَدُهُمَا: أنَا فَطَرْتُهَا؛ أيْ بَدَأتُهَا)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ ؛ قال بعضُهـم: أرادَ به الملائكةَ كلَّهم، فإنَّهم كلُّهم رسُلُ اللهِ بعضُهم إلى بعـضٍ وبعضُـهم إلى الإنـس، وقـالَ بعضُـهم: أرادَ بذلك جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ وملَكُ الموتِ والحفَظَةَ، يرسلُهم إلى النبيِّـين وإلى مـا شاءَ من الأُمور.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ ﴾ ؛ صفـةُ الملائكـةِ أي ذوي أجنحـةٍ، ﴿ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ ﴾ ، منهم مَن له جَناحَان، ومنهم مَن له ثلاثةٌ، ومنــهم مـن لـه أربعـةٌ، اختارَهم اللهُ تعالى لرِسالَتِهِ من حيث عَلِمَ أنَّهم لا يُبدِّلون.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٦٠١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣١٧٠: الرقم (١٧٩١٥). وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣١٩. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣؛ قال السـيوطي: (أخرجـه أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابـن المنـذر وابـن أبـي حـاتم والبيـهقي في الإيمـان) وذكـره. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في طلب العلم: الحديث (١٦٨٢).

وقولهُ تعالى: ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يزيدُ في أجنحـةِ الملائكـة مـا يشاءُ، فمِنهُم من له مائةُ ألفِ جَناحٍ، ومنهم من له أكثرُ، وعن ابنِ عبَّـاس رَضِـيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: [رَأى النَّبيُّ ﷺ جِبْرِيلَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ][1].

وعن ابنِ شِهَابٍ قال: (سَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَترَاءَى لَهُ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَـهُ جِبْرِيلُ: إنَّكَ لَنْ تُطِيقَ ذلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ:[إنِّي أحِبُّ أنْ تَفْعَلَ] فَخَـرَجَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ إلَى الْمُصَلَّى فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فِي صُورَتِهِ، فَغَشِيَ عَلَـى النَّـبيِّ ﷺ حِينَ رَآهُ، ثُمَّ أفَاقَ وَجِبْرِيلُ مُسْنِدُهُ[2] إلَيْهِ وَاضِعٌ إحْدَى يَدَيْهِ عَلَـى صَـدْرِهِ وَالأُخْـرَى بَيْنَ كَتِفَيْهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [سُبْحَانَ اللهِ مَا كُنْتُ أرَى شَيْئاً مِنَ الْخَلْقِ هَكَـذا] فَقَـالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: كَيْفَ لَوْ رَأيْتَ إسْرَافِيلَ يَا رَسُـولَ اللهِ؟! لَـهُ اثْنَـا عَشَـرَ جَنَاحـاً، جَنَـاحٌ بالْمَشْرِقِ وَجَنَاحٌ بالْمَغْرِب وَالْعَرْشُ عَلَى كَاهِلِهِ)[3].

وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنه قالَ: (إنَّ للهِ تَعَالَى مَلَكاً يَسَعُ الْبحَارَ كُلَّـهَا فِـي نَقْـرَةِ إبْهَامِهِ)[4]. وَقِيْلَ: معنى قولهِ (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) يعني حُسنَ الصَّـوتِ، كذلـك قال الزهريُّ[5]، وقال قتادةُ: (هِـيَ الْمَلاَحَـةُ فِـي الْعَيْنَيْـنِ وَالشَّـعْرِ الْحَسَـنِ وَالْوَجْـهِ الْحَسَنِ وَالْخَطِّ الْحَسَنِ)[6].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيـح: كتـاب بـدء الخلـق: بـاب (٧): الحديـث (٣٢٣٢)، وفي كتـاب التفسير: الحديث (٤٨٥٦ و٤٨٥٧). ومسلم في الصحيح: كتـاب الإيمـان: بـاب في ذكـر سـدرة المنتهى: الحديث (٢٨٠/ ١٧٤).

(٢) في المخطوط: (مستنده).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد: باب تعظيم ذكر الله: ص٧٤: الحديـث (٢٢١). وذكـره القرطـبي مختصراً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣٣٠.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣١٧٠. وفي الـدر المنثـور: ج ٧ ص٤؛ قـال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابـن أبـي حـاتم والبيـهقي في شـعب الإيمـان عـن الزهري) وذكره. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في الإيمان بالله: الأثر (١١٥).

(٦) ذكره البغوي في معالم التنزيل:ص١٠٦٧. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣٢٠. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: ج ١ ص١٣٥: الأثر (١١٦) مختصراً.

وقولهُ تعالى (وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ) في موضعِ خفضٍ؛ لأنه لا يتصرَّفُ. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾ ؛ أي قادرٌ على ما يزيدُ على الزيادةِ والنُّقصان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ ؛ أي ما يُرسِلِ اللهُ إلى الناسِ من رسُول فلا مانعَ له، وذلك لأن إرسالَ الرسُولِ من اللهِ تعالى رحمةٌ لعبادهِ كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

وَقِيْلَ: أرادَ بالرحمةِ ها هنا المطرَ والرزقَ والعافية وجميعَ النِّعَمِ، ما يفتحِ اللهُ من ذلك فلا مانعَ له، ولا يستطيعُ أحدٌ من الخلقِ حبسَهُ ولا إمساكَهُ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ ؛ أي وما يُمسِكِ اللهُ من ذلك فلا يقدِرُ أحدٌ على إرسالهِ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾ ؛ أي العزيزُ فيما أمسكَ، الحكيمُ فيما أرسلَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة اذكرُوا نعمةَ الله عليكم إذ أسكنَكم الحرَمَ ومنعَكم من الغاراتِ، ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ هذا استفهامٌ، ومعناهُ التوبيخ؛ أي لا خالقَ سواهُ. وقولهُ تعالى: ﴿ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي مِن السَّماءِ بإنزالِ المطرِ ومِن الأرض بإخراجِ النبات، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣ ﴾ ؛ أي فأنَّى تُصرَفون عن الإلهِ الذي هذه صفتهُ إلى معبودٍ لا يقدرُ على شيءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ؛ في هذه الآيةِ تسليةٌ للنبيِّ ﷺ لئلاَّ يجزعَ على تكذيبِ قومه، ويصبرَ كما صبَرَ على تكذيبِ الأُمَمِ الرسلُ، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ﴾ ؛ عواقبُ ﴿ ٱلْأُمُورُ ۝٤ ﴾ ؛ في مجازاةِ المكذِّبين ونُصرةِ المسلمين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ؛ معناهُ إن الذي وعدَهُ اللهُ المجازاةَ والبعثَ بعدَ الموتِ حقٌّ كائن، ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ بزينتِها

---

(١) الأنبياء / ١٧٠.

وزَهرتِها حتى تشتَغِلوا بها عن أمرِ دينكم، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي ولا يستزِلَّكم عن طاعةِ الله الشيطانُ الذي مِن عادته الغرورُ. وقرأ ابنُ سماك العدويّ: (الْغُرُورُ) بضمِّ الغينِ، وهو أباطيلُ الدنيا، وأما (الْغَرُورُ) بفتح الغينِ فيه، الشَّيطانُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ ؛ أي احترَزُوا[1] من كَيدِه، ولا تقبلُوا منه وتطيعوهُ، ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ ﴾ ؛ أي أهلَ طاعتهِ ليكون معه، ﴿ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي ليَسُوقَهم إلى النار، ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ ؛ نَزَلْنَ في أبي جهلٍ ومُشركي مكَّة. وَقِيْلَ: نزلت في أصحاب الأهواءِ والمِلَلِ التي خالَفت الْهُدَى، والمعنى: أفمَن زُيِّنَ له سوءُ عملِه فرآهُ حسناً كمَن هداهُ الله، ويدلُّ على هذا المحذوفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ .

قولهُ: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ ؛ أي لا تَغْتَمَّ، ولا تُهلِكْ نفسَكَ عليهم حَسَرَاتٍ على تركِهم الإسلامَ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ في كُفرِهم فيجازيهم بما هو أولى بهم، قرأ أبو جعفر (فَلاَ تُذْهِبْ) بضم التاء وكسر الهاء، نصب السِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ ؛ معناهُ: اللهُ الذي أرسلَ الرياحَ لإثارةِ السَّحاب، ﴿ فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ ، فأجريناه الى بلد ميت ليس فيه نبات ولا شجر، ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، فأحيَا ((الله))[2] بالمطر الأرضَ بإخراجِ الزَّرعِ والأشجار منها بعدَ يُبسِها وذهابِ النباتِ منها ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ كذلك البعثُ في القيامةِ.

---

(١) في المخطوط: (احترز).

(٢) ما بين (( )) ليس في المخطوط.

وهذا احتجاجٌ على مُنكرِي البعثِ، فإن موتَهم كموتِ الأرض، وذهابَ أثرهم كذهاب أثرِ الأشجار والزُّروعِ، والقادرُ على إخراجِ الأشجار والزروعِ من الأرض قادرٌ على إخراجِ الموتى من الأرضِ.

ومعنى الآية: (وَاللهُ الَّذِي أرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً) أي تُزعِجهُ من حيث هو (فَسُقْنَاهُ إلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ) أي مكانٍ ليس فيه نباتٌ (فَأحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) أي أنبَتنا فيها الزرعَ والكلأَ بعدَ أن لَم يكن، (كَذلِكَ النُّشُورُ) أي الإحياءُ والبعث.

وعن أبي رُزَينٍ العقيليِّ قالَ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحيِي اللهُ الْمَوْتَى؟ [أوَمَا مَرَرْتَ بوَادِي قَوْمِكَ مُمَحَّلاً ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ خَضِراً؟] قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: [فَكَذلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى] وَقَالَ: [كَذلِكَ النُّشُورُ])(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي مَن كان يطلبُ العزَّةَ بعبادةِ الأصنام فليطلُبْها بطاعةِ الله تعالى وطاعةِ رسوله ﷺ، العزيزُ مَن أعزَّهُ اللهُ. وذلك أنَّ الكفارَ كانوا يعبُدونَ الأصنامَ طَمَعاً في العزَّةِ كما قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً﴾(٢). أو قِيْلَ: معناهُ: مَن كان يريدُ أن يعلمَ العزَّةَ لِمَن هي فليعلَمْ أنَّها للهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ ؛ إلى اللهِ تصعدُ كلمةُ التوحيدِ وهو قولهُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، ومعنى(إلَيْهِ يَصْعَدُ) أي يعلمُ ذلك كما يقالُ: ارتفعَ الأمرُ إلى القاضِي والسُّلطان أي عَلِمَهُ. وَقِيْلَ: صعودُ الكَلِمِ الطيِّب أن يُرفَعَ ذلك مَكتُوباً أو مَقبُولاً إلى حيث لا مالِكُ إلاَّ اللهُ؛ أي إلى سَمائهِ يصعدُ الكَلِمُ الطيِّبُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: ذُو الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُرْفَعُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ إلَى اللهِ تَعَالَى بعَرْضِ الْقَوْلِ عَلَى الْفِعْلِ، فَإنْ وَافَقَ الْقَوْلُ الْفِعْلَ قُبلَ، وَإنْ خَالَفَ رُدَّ، لأنَّ الْعَبْدَ إذا وَحَّدَ اللهَ وَأخْلَصَ فِي عَمَلِهِ ارْتَفَعَ الْعَمَلُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص١١ و١٢. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٩٣٦). والطبراني في الكبير: باب ٢: الحديث (٢٨١) ورجاله موثقون.

(٢) مريم / ٨١ .

إِلَى اللهِ تَعَالَى)[1]. قال: (لَيْسَ الإِيْمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلاَ بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ، مَنْ قَالَ حُسْناً وَعَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ رَدَّهُ اللهُ تَعَالَى، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً رَفَعَهُ الْعَمَلُ)[2].

وقرأ أبو عبدالرحمن (الْكَلاَمُ الطَّيِّبُ)[3]. وعن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ في قولهِ (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ): [هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ، إذا قَالَهَا الْعَبْدُ عَرَجَ بهَا مَلَكٌ إِلَى السَّمَاءِ][4].

وَقِيْلَ: الكلامُ الطيب: لا إلهَ إلاَّ اللهُ، والعملُ الصالِحُ: أداءُ فرائضهِ، ومَن لا يؤدِّي فرضَهُ رُدَّ كلامهُ. وجاءَ في الخبرِ: [طَلَبُ الْجَنَّةِ بلاَ عَمَلٍ ذنْبٌ مِنَ الذُّنُوب][5]، وقال النبيُّ ﷺ: [لاَ يَقْبَلُ اللهُ قَوْلاً بلاَ عَمَلٍ][6]، وعلى هذا المعنَى قولُ الشاعرِ:

لاَ تَرْضَ مِنْ رَجُلٍ حَلاَوَةَ قَوْلِهِ ... حَتَّى يُصَدِّقَ[7] مَا يَقُولُ فَعَالُ
فَإذا وَزَنْتَ فَعَالَهُ بمَقَالِهِ ... فَتَوَازَنَا فَإخَاءُ ذاكَ جَمَالُ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المبارك وعبد بن حميد وابن المنذر) وذكره. وأخرجه ابن المبارك في الزهد: باب ما جاء في تخويف عواقب الذنوب: الأثر (٩١): ص٣٠.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص١٠؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد والبيهقي عن الحسن) وذكره.

(٣) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٦٧. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢٤٧.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٩: الحديث (٩١٤٤) عن ابن مسعود. والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٦٤٢).

(٥) في موسوعة الأطراف: ج ٥ ص٤٠٨؛قال البسيوني: (ذكره ابن عراف في تنزيه الشريعة).

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ج ٢ ص٣٣٥ من قول قتادة والحسن بلفظ: (لاَ يُقْبَلُ قَوْلٌ بلاَ عَمَلٍ، فَمَنْ أحْسَنَ الْعَمَلَ قَبِلَ اللهُ قَوْلَهُ). وفي ج ٧ ص٣٢ أخرجه عن سفيان يقول: (لاَ يَسْتَقِيمُ قَوْلٌ إلاَّ بعَمَلٍ، وَلاَ يَستَقِيمُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ إلاَّ بنِيَّةٍ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ إلاَّ بمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ). وذكره القرطبي على أنه حديث في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣٣٠.

(٧) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣٢٩؛ قال القرطبي: (حَتَّى يُزَيِّنَ).

وقال ابنُ المقفَّع: (قَولٌ بلاَ عَمَلٍ كَثَرِيدٍ بلاَ دَسَمٍ، وَسَحَابٍ بلاَ مَطَرٍ، وَقَوْسٍ بلاَ وَتَرٍ)[1]. وَقِيْلَ: معناهُ: والعملُ الصالِحُ يرفعهُ اللهُ؛ أي يَقبَلهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ ﴾ ؛ أي يَفعلُونها على وجهِ المخادَعة كما كان الكفارُ يَمكُرون بالنبيِّ ﷺ في دار النَّدوةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: الذين يُشركون باللهِ وبعملِ السيِّئات لَهم عذابٌ شديد في الآخرةِ. وَقِيْلَ: أرادَ بقولهِ (يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ) يعملُون عمَلاً على وجهِ الرِّياءِ.

كما رُوي أنَّ رجُلاً قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ فِيمَ النَّجَاةُ غَداً ؟ فَقَالَ: [لاَ تُخَادِعِ اللهَ، فَإنَّهُ مَنْ يُخَادِعِ اللهَ يَخْدَعْهُ وَيَخْلَعُهُ مِنَ الإيْمَانِ]. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ فَكَيْفَ يُخَادَعُ اللهُ ؟ فَقَالَ: [أنْ تَعْمَلَ بمَا أمَرَكَ اللهُ، لاَ يُقْبَلُ مَعَ الرِّيَاءِ عَمَلٌ، فَإنَّ الْمُرَائِي يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ بأَرْبَعَةِ أسْمَاءٍ: يَا كَافِرُ؛ يَا فَاجِرُ؛ يَا غَادِرُ؛ يَا خَاسِرُ؛ ضَلَّ عَمَلُكَ][2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠ ﴾ ؛ أي يفسَدُ ويهلَكُ ويكسَرُ ولا يكون شيئاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ ؛ أي خلَقَ أصلَكم وأبَاكم آدمَ من تراب، ﴿ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾ ؛ أي ثم خلقَ نسلَ آدم من نُطفةٍ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ ﴾ ؛ يعني ذُكرَاناً وإناثاً، ﴿ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ ﴾ ؛ أو تَلِدُ لتمامٍ وغيرِ تمام، ﴿ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ ﴾ ؛ أي ما يَطُولُ عمُر أحدٍ، ولا يَنقصُ من عمُر أحدٍ إلاَّ وهو مُثْبَتٌ في اللوحِ المحفوظ، وقوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١ ﴾ ؛ أي كتابةُ الآجالِ والأعمالِ وحِفظُها من غيرِ كتابةٍ على الله هيِّنٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ ﴾ ؛ قِيْلَ: هذه مثلٌ ضربَهُ اللهُ، يقولُ:كما لا يستوي البحرَان أحدُهما عَذْبٌ في غايةِ العذُوبَةِ هنِيءٌ شرابهُ مَرِيءٌ، والآخَرُ مرٌّ زُعَافٌ لا يستطاعُ شرابه، فكذلك لا

---

(١) ذكره عنه أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣٢٩.

(٢) ذكره ابن حجر في المطالب العالية: ج ٣ ص١٨٤: الحديث (٣٢٠٢) وسكت عنه البوصيري.

يستوي المؤمنُ والكافر، والتقيُّ والفاسقُ. والسائغُ: هو السالكُ في الحلْقِ. والأُجَاجُ: شديدُ الْمُلُوحَةِ. وقرأ عيسى (سَيِّغٌ شَرَابُهُ) مثل ميِّتٍ وسيِّد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ ؛ أي ومِن كلِّ البحرَين تأكلُون السمكَ لا يختلفُ طَعْمُ السَّمكِ لاختلاف ماءِ البحرَين، فكذلك قد يولَدُ للكافرِ ولدٌ مسلم مثلَ خالدِ بن الوليد وعكرمةَ بن أبي جهلٍ وغيرِهما.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ؛ قِيْلَ: أرادَ به إخراجَ اللُّؤلُؤِ والمرجان من أحدِهما خاصَّة وهو الملحُ. والمعنى: تَستَخرِجُونَ من الملحِ دون العَذْب. قِيْلَ: إن اللؤلؤَ قطرُ المطرِ يقعُ في جوفِ الصَّدَفِ فيكون منه اللؤلؤُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ ؛ أي ترَى السفُنَ جواري في البحرِ، قال مقاتلُ: (هُوَ أنْ تَرَى سَفِينَتَيْنِ، أحَدُهُمَا مُقْبلَةٌ وَالأُخْرَى مُدْبرَةٌ، وَهَذِهِ تَسْتَقْبلُ تِلْكَ، وَتِلْكَ تَسْتَدْبرُ هَذِهِ، تَجْرِيَانِ بريحٍ وَاحِدَةٍ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ ؛ لتَطلبُوا من رزقهِ التجارةَ، فتحملُ النِّعَمُ فيها من بلدٍ إلى بلدٍ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي فعَلَ ذلك لتعلَمُوا أنَّ هذه النعَمَ من اللهِ، ولكي تشكرونَهُ عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ ؛ أي الذي يفعلُ هذه الأشياءَ هو اللهُ ربُّكم، و؛ ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ ؛ الدائمُ الذي لا يزولُ، ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ ؛ من الأصنامِ، ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ لا يقدِرون على أنْ ينفعُوكم بقدر قِطْمِيرٍ، وهو القشرةُ الدَّقيقة الملتزقَةُ بنواةِ الثَّمرة كاللفَّافَةِ عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ ؛ ولو كانُوا سَامِعين ما أجَابُوكم بإغاثةٍ ولا نُصرةٍ، والمعنى: إنْ تدعُوهم لكشفِ ضُرٍّ لا يَسمَعُوا دعاءَكم لأنَّها

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٧٤.

جمادٌ لا تنفعُ ولا تضرُّ، ﴿ وَلَوْ سَمِعُواْ ﴾ ؛ بأنَّ الله خلَقَ فيهم السمعَ، ﴿ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ ﴾ ؛ أي يتبرَّؤُن منكم ومِن عبادتِكم كما قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾[1] والمعنى بقولِهِ: (يَكْفُرُونَ بشِرْكِكُمْ) أي يتبرَّؤن من عبادتِكم، يقولون: ما كُنتم إيَّانا تعبُدون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ معناهُ: لا يُخبرُكَ بحقائقِ الأمُور وعواقبها إلاَّ اللهُ؛ لأنه عالِمٌ بكلِّ الأشياءِ، لا يخفَى عليه منها شيءٌ، ولا تلحقهُ المضَارُّ والمنافعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ ؛ أي الْمُحتَاجُونَ إليه وإلى نِعَمِهِ ومغفرتهِ حالاً بعد حال، ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ﴾ ؛ عن إيمانِكم وطاعتكم، ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي المحمودُ في أفعالِهِ عند خَلقهِ. وإنَّما أمرَكم بطاعتهِ لتنتَفِعوا بها لا حاجةَ به إليها، ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ ؛ أي إنْ يشأ يهلككم، ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ، ويأتِ بخلقٍ أطوعَ منكم، ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي ليس إهلاكُكم وإتيانهِ بمثلِكم على اللهِ ممتنعٌ.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ﴾ ؛ أي لا تحملُ يومَ القيامةِ حملَ حاملةٍ أخرى؛ أي لا تؤخذُ نفسٌ بذنب غيرها، ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ ﴾ ؛ بالذُّنوب، ﴿ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ ، إلى أن يُحملَ عنها شيءٌ من ذنوبها لا تُحملُ مِن ذنوبها شيءٌ، ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ ﴾ ، ولو كانت المدعوَّةُ ذاتَ قرابةٍ من الداعيةِ لِمَا في ذلك مِن غِلَظِ حملِ الآثام، ولو تحمَّلتهُ لا يُقبَلُ حملها؛ لأن كلَّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ، فلا يؤخَذُ أحدٌ بذنب غيرهِ.

وسُئل الحسنُ بن الفضلِ عن الجمعِ بين هذه الآيةِ وبين قولهِ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أثْقَالَهُمْ وَأثْقَالا مَعَ أثْقَالِهِمْ﴾ فقالَ (قَوْلُهُ (وَلاَ تَزرُ وَازرَةٌ وزْرَ أُخرَى) يَعْنِي طَوْعاً، وَقَوْلُهُ ﴿وَلَيَحمِلُنَّ أثْقَالَهُمْ وَأثْقَالاً مَعَ أثْقَالِهِمْ﴾[2] يَعْنِي كَرْهاً). قال ابنُ عبَّاس: في

---

(١) البقرة / ١٦٦ .

(٢) العنكبوت / ١٣.

قولهِ (وَإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ) قال: (يَقُولُ الأَبُ وَالأُمُّ: يَا بُنَيَّ احْمِلْ عَنِّي، فَيَقُولُ: حَسْبِي مَا عَلَيَّ)(١).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ ؛ يقولُ: إنما ينتفعُ بإنذاركَ ووَعْظِكَ الذين يُطيعون ربَّهم في السرِّ، ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ المفروضةَ، ولأن مَن خَشِيَ اللهَ واجتنبَ المعاصي في السرِّ مِن خشيةِ الله تعالى، اجتنبَها لا محالةَ في العَلانيةِ.

ويقال: إنَّ الخشيةَ في السرِّ، والإقدامَ على الطاعةِ في السرِّ، واجتنابَ المعصيةِ في السرِّ، أعظمُ عندَ الله ثواباً، كما قالَ النبيُّ ﷺ: [مَا تَقَرَّبَ امْرِئٌ بشَيْءٍ أفْضَلَ مِنْ سُجُودٍ خَفِيٍّ فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ](٢). وأما عطفُ الماضِي في قولهِ تعالى (وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ) علىالمستقبَلِ في قولهِ (يَخْشَوْنَ)، ففائدةُ ذلك أنَّ وجوبَ خشيةِ الله لا تختصُّ بزمانٍ دون زمانٍ ولا بمكانٍ دون مكانٍ، ووجوبُ إقامةِ الصَّلاة يختصُّ ببعضِ الأوقاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ ﴾ ؛ أي ومَن تطهَّرَ من دَنَسِ الذُّنوب والشِّركِ ليكون عند ربه زكيّاً، فإن منفعةَ تطَهُّرِهِ راجعةٌ إلى نفسهِ، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي إليه يرجعُ الخلق كلُّهم في الآخرةِ، ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ يعني الْمُشركُ والمؤمنُ، ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ولا الشِّركُ ولا الضَّلالُ كالنور والهدى والإيمان.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ ولا الجنَّةُ ولا النارُ. وقال عطاءُ: (يَعْنِي ظِلَّ اللَّيْلِ وَسَمُومَ النَّهَارِ)، ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ ﴾ ؛ يعني المؤمنين والكافرينَ، وهذه أمثالٌ ضربَها اللهُ تعالى، كما لا تستوِي هذه الأشياءُ، كذلك لا يستوِي الكافرُ والمؤمن.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧٠.

(٢) في تخريج أحاديث الإحياء: ج ١ ص٣٣٤؛ قال العراقي: (أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية أبي بكر بن أبي مريم عن حمزة بن حبيب مرسلاً). وأخرجه ابن المبارك في الزهد: باب العمل والذكر الخفي: الحديث (١٥٤).

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يسمعُ كلامَهُ مَن يشاءُ؛ أي يتَّعِظُ ويهتدِي، قال عطاءُ: (يَعْنِي أوْلِيَاءَهُ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ لِجَنَّتِهِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي كمَا لا تقدرُ تسمعُ مَن في القبور، فكذلكَ لا تقدرُ أن تُسمِعَ الكفارَ، شبَّهَهم بالموتَى لأنَّهم لا ينتفعُون كالموتَى.

وقرأ أبو رُزَين العقيليّ[١] (مَا أنْتَ بمُسْمِعِ مَنْ فِي الْقُبُورِ) بلا تنوينٍ بالإضافة، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي ما أنتَ إلاَّ رسولٌ تُنذِرُهم النارَ وتخوِّفُهم، وليس عليك غيرُ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي ما مِن أمَّة إلاَّ سَلَفَ فيها نبيٌّ، ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ ؛ فلستَ بأوَّل رسول كُذِّبَ، ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ الواضحاتِ، ﴿ وَبِٱلزُّبُرِ ﴾ ؛ وهي الكتُب، وقولهُ تعالى: ﴿ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ يعني التوراةَ. وقِيْلَ: إنَّما كرَّرَ الزبورَ هي الكتُب أيضاً لاختلافِ صفاتِ الكتابِ؛ لأن الزبورَ هو الكتابةُ الثابتةُ كالنَّقرَةِ في الصخرةِ، ثم قالَ (وَبالْكِتَاب الْمُنِير) الموصوف واحدٌ والصفاتُ مختلفةٌ. وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ؛ أي أخذتُهم بالعقوبةِ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي إنكاري عليهم وتعذيبي لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ؛ يعني المطرَ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ ﴾ ؛ وطعمُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي وخلَقنا من الجبال (جُدَدٌ بيضٌ) أي طرُق يكون في الجبال كالعرُوق بيضٌ وسود وحُمْرٌ، واحدها جُدَّة، قال المبرِّد: (جُدَدٌ: طُرُقٌ وَخُطُوطٌ وَنَحْوُ هَذا، وَالْجُدَدُ الْجُدَّةُ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ كَالْمُدَّةِ وَالْمُدَدِ وَالْعُدَّةِ وَالْعُدَدِ، وَأمَّا الْجُدُدُ بضَمَّتَيْنِ فَهِيَ جَمْعُ الْجَدِيدِ مِثْلُ سَرِيرٍ وَسُرُر).

---

(١) ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر: ج ٣ ص٣٩٧: الرقم (٢٢٦٦): لقيط بن عامر العقيلي، وهو وافد بني المنتفق إلى رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى (وَغَرَابِيبُ سُودٌ) يجوز أن يكون الغرَابيبُ هي الجبالُ السُّود، كأنَّه قالَ: ومن الجبالِ غرابيبُ، والغَرَابيبُ الذي لَونهُ كَلَون الغُراب، ولذلك حَسُنَ أن يقال سُودٌ، وقالَ الفرَّاء:(هَذا عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، تَقْدِيرُهُ: وَسُودٌ غَرَابِيبُ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ ؛ كاختلافِ الثِّمار والجبالِ، وتَمَّ الكلامُ على، ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: إنَّمَا يَخَافُونَ مِنْ خَلْقِي مَنْ عَلِمَ جَبَرُوتِي وَعِزَّتِي وَسُلْطَانِي)[٢]، وقال مقاتلُ: (أشَدُّ الناس للهِ خِشْيَةً أعْلَمُهُمْ بهِ)[٣]، وقال مسروقُ: (كَفَى بخَشْيَةِ اللهِ عِلْماً، وَكَفَى بالاغْتِرَار باللهِ جَهْلاً)[٤]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ ؛ أي عزيزٌ قاهر وغالبٌ في مُلكهِ، ﴿ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ لذنوب المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعني القرآنَ في الصَّلاةِ وغيرها، ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ المفروضةَ، ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ؛ أي وأنفقُوا مما أعطَيناهم من الأموال تطوُّعاً سِرّاً فيَسلَمُوا بذلك عن تُهمَةِ الرِّياءِ، وفريضةً جَهْراً فيَسلَمُون بذلك عن تُهمةِ المنعِ، ويقالُ: أرادَ بذلك النفقةَ في الجهادِ، ﴿ يَرْجُونَ ﴾ ؛ بذلك، ﴿ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي لن تَكْسَدَ ولا يَرِدُ عليها الفسادُ والبُطلان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ ؛ ليُعطِيَهم أجرَ أعمالِهم كاملةً، ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ ؛ فوق ما يستحقُّوهُ، قال ابنُ عبَّاس:(يَعْنِي سِوَى

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٣٦٩.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧٠.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٧٦.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧١. وأدرج الناسخ في المتن سهواً عبارة الكشاف: ((وفي الكشَّاف: مَن قرأ (يَخْشَى اللهُ) بالرفعِ ونصبِ (الْعُلَمَاءَ) فَمَعْنَى يَخْشَى اللهَ الْعُلَمَاءُ. قالهُ الزمخشريُّ)).

الثَّوَاب)[١]، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ إنه غفورٌ لذنوبهم، شكورٌ يعامِلُ بالأحسنِ معاملةَ الشاكرِ، قال ابنُ عبَّاس: (غَفَرَ الْعَظِيمَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَشَكَرَ الْيَسِيرَ مِنْ أعْمَالِهِمْ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ؛ أي مُوافِقاً لِمَا قبلَهُ من الكتُب، لأن كتبَ اللهِ تعالى كلُّها دالَّة على توحيدهِ وإن اختلفتْ بالشرائعِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي خبيرٌ بأقوالِهم وأفعالِهم ونيَّاتِهم فيَجزيهم بما يستحقُّون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ؛ قال مقاتلُ:(يَعْنِي الْقُرْآنَ)[٣]، وقوله تعالى(الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) يريد أمَّة مُحمَّدٍ ﷺ.

ثم قسَّمَهم ورتَّبَهم فقالَ تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ ؛ وهو الذي ماتَ على كِبْره ولم يَتُبْ عنها، ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ ؛ وهو الذي لَمْ يُصِبْ كبيرةً، ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ؛ يعني المقرَّبين الذين سبقُوا إلى أعمال، وقال الحسنُ: (الظَّالِمُ: الَّذِي تَرَجَّحَ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، وَالْمُقْتَصِدُ: الَّذِي اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ سَيِّئَاتُهُ، وَالسَّابقُ: مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ).

وعن عُمر بن الخطَّاب ﷺ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [سَابِقُنَا سَابِقٌ][٤] أي إلى الجنَّة أو إلى رحمةِ الله تعالى بالخيراتِ؛ أي بالأعمال الصالحة، ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي بـإرادةِ الله، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إيراثُهم الكتابَ هو الفضلُ الكبير، وسُمي إعطاءُ الكتاب إيْرَاثاً لأنَّهم أعْطُوهُ بغيرِ مسألةٍ ولا اكتساب.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧١.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧١.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٧٧.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧١. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٢٥؛ قال السيوطي: (أخرجه العقيلي وابن لال وابن مردويه والبيهقي).

وعن رسول اللهِ ﷺ أنَّهُمْ قَـالُوا: [السَّـابقُونَ يَدْخُلُـونَ الْجَنَّـةَ بغَـيْر حِسَـابٍ، وَالْمُقْتَصِدُونَ يُحَاسَبُونَ حِسَاباً يَسِيراً ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَالظَّالِمُونَ يُحَاسَبُو مَـا شَـاءَ اللهُ أنْ يُحَاسَبُوا، ثُمَّ يَرْحَمُهُمُ اللهُ تَعَالَى فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، وَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: الْحَمْـدُ للهِ الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ...] إلى آخرِ الآيتَين(١).

وعن الحسنِ أنه قالَ: (السَّابقُ الَّذِي تَرَكَ الدُّنْيَا، وَالْمُقْتَصِدُ الَّذِي أخَذ الْحَلاَلَ، وَالظَّالِمُ الَّذِي لاَ يُبَالِي مِنْ أيْنَ أخَـذ). ويقـالُ: الظـالِمُ صـاحبُ الكبـائرِ، والمقتصـدُ صاحبُ الصَّغائرِ، والسَّابقُ الذي اتقى سيئاته.

فإنْ قِيلَ ما الحكمةُ في تقديمِ الظالِم وتأخيرِ السـابق ؟ قِيْـلَ: الـواوُ لا توجِـبُ الترتيبَ كما قالَ تعالى ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾(٢). وَقِيْلَ: قدَّمَ الظالِمَ لئَلاَّ ييـأسَ من رحمتهِ، وأخَّرَ السابقَ لئَلا يُعجَبَ بنفسهِ. وَقِيْلَ: قدَّمَ الظالِمَ فإذا لَم يكن لـه شـيءٌ يتَّكِلُ عليه إلاَّ رحمةُ الله تعالى، وثنَّى بالمقتصدِ لِحُسنِ ظنِّهِ بربه. وَقِيْلَ: لأنه بين الخوفِ والرَّجاءِ، وأخَّرَ السابقَ لأنه اتَّكَلَ على حسَناتهِ. وَقِيْلَ: لئلا يأمَنَ أحدٌ مَكْـرَهُ، وكلُّـهم في الجنَّة بُحرَمِة كلمةِ الإخلاصِ.

وعن عُقبة بن صَهبان قال: (سَألْتُ عَائِشَـةَ عَـنْ قَوْلِـهِ: (فَمِنْـهُمْ ظَـالِمٌ لِنَفْسِـهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابقٌ بالْخَيْرَاتِ) فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَأمَّـا السَّـابقُ فَمَنْ مَضَى عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَهدَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ بالْجَنَّةِ، وَأمَّا الْمُقْتَصِدُ فَمَنْ تَبعَ أثَرَهُ مِنْ أصْحَابهِ حَتَّى لَحِقَ بـهِ، وَأمَّـا الظَّـالِمُ فَمِثْلِـي وَمِثْلَـكَ)(٣). وقـال سـهلُ بـن عبدِالله: (السَّابقُ الْعَالِمُ، وَالْمُقْتَصِدُ الْمُتَعَلِّمُ، وَالظَّالِمُ الْجَاهِلُ)(٤).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٢١٧٥). وابن أبي حاتم في التفسـير الكبـير: ج ١٠ ص٣١٨٢. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩٧؛ قال الهيثمـي: (رواه أحمـد بأسـانيد رجـال أحدهـا رجال الصحيح... ورواه الطبراني باختصار).

(٢) التغابن / ٢ .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط: ج ٧ : الحديـث (٦٠٩٠). والحـاكم في المستدرك: كتـاب التفسـير: الحديث (٣٦٤٦).

(٤) نقله أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧٢ .

وَقِيْلَ: السابقُ الذي اشتغلَ بمَعادهِ، والمقتصدُ بمعَادهِ ومعاشهِ، والظالِمُ الذي اشتغلَ بمعاشهِ عن معادهِ. وَقِيلَ: الظالِمُ طالِبُ الدُّنيا، والمقتصدُ طالبُ العُقبَى، والسابقُ طالب المولَى. وَقِيْلَ: الظالِمُ الْمُرائي في جميع أفعالهِ، والمقتصدُ المرائي في بعضِ أفعالهِ دون بعضٍ، والسابقُ المخلِصُ في أفعالهِ كلِّها. وَقِيْلَ: الظالِمُ مَن كان ظاهرهُ خيراً من باطنهِ، والمقتصدُ من استوَى ظاهرهُ وباطنه، والسابقُ الذي باطنهُ خيرٌ من ظاهرهِ. وَقِيْلَ: الظالِمُ الذي يجزَعُ عند البلاءِ، والمقتصدُ الذي يصبرُ عند البلاءِ، والسابقُ الذي يتلَذذُ بالبلاءِ!

وَقِيْلَ: الظالِمُ الذي يَعبدُ اللهَ خَوفاً من النار، والمقتصدُ الذي يعبدهُ طَمعاً في الجنَّة، والسابقُ الذي يعبدهُ لا لسببٍ من الأسباب إلاَّ لرحمتهِ الكريم! وَقِيلَ: الظالِمُ الذي يعبدُ اللهَ على الغفلةِ، والمقتصدُ الذي يعبدهُ على الرَّغبةِ، والسابقُ الذي يعبدهُ على الهيبةِ. وَقِيْلَ: الظالِمُ الذي أعطِيَ فمنعَ، والمقتصدُ الذي أعطِيَ فبذلَ، والسابقُ الذي أعطِيَ فشَكرَ.

وَقِيْلَ: الظالِمُ غافلٌ، والمقتصدُ طالبٌ، والسابقُ واصلٌ. وَقِيلَ: الظالِم مَن استغنَى بمالهِ، والمقتصدُ من استغنَى بدينهِ، والسابقُ مَن استغنَى بربه. وَقِيلَ: السابقُ الذي يدخلُ المسجدَ قبلَ الأذان، والمقتصدُ الذي يدخلُ وقتَ الأذان، والظالِمُ الذي يدخلُ وقتَ أقيمَتِ الصلاة! وَقِيْلَ: الظالِمُ الذي يحبُّ نفسَهُ، والمقتصدُ الذي يحب دِينَهُ، والسابقُ الذي يحبُّ ربَّهُ. وَقِيْلَ: الظالِمُ مدعوٌّ، والمقتصد مأذونٌ له، والسابق مقرَّبٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ؛ يعني الأصنافَ الثلاثةَ: الظالِمُ؛ والمقتصدُ؛ والسابقُ. ومعنى الآيةِ: (جَنَّاتُ عَدْنٍ) أي بساتينُ إقامةٍ لا تزولُ، ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ ؛ أي يُلبَسُونَ أقْلُبَةً من ذهبٍ وسِوَارُ القُلْبِ[1]. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ مَن قرأ بالكسرِ فالمعنى مِن ذهبٍ ومن لؤلؤٍ، ومَن قرأ بالنصب فمعناهُ: ويحلَّونَ لُؤلُؤاً.

---

(١) القُلْبُ من السِّوار: ما كان قَلْباً واحد؛ ما كان قَلْداً واحداً، أي ما كان مَفْتُولاً مِن طاقٍ واحدٍ لا مِن طاقين. مختار الصحاح: ص٥٤٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ ؛ أي يقولون بعدَ دُخولِهم الجنَّةَ: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) أي حَزَنَ الموتِ وأهوالَ يوم القيامة، وَقِيْلَ: حَزَنَ المعاشِ وهمومَ الدُّنيا، فإنَّ الدنيا سجنُ المؤمنِ. وقال عكرمةُ: (حَزَنَ الذُّنوب وَالسَّيِّئَاتِ)،

وعن ابنِ عُمر ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [لَيْسَ عَلَى أهْلِ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْشَةٌ فِي قُبُورِهِمْ، وَلاَ فِي مَحْشَرِهِمْ، كَأنِّي بأهْلِ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ وَهُمْ يَنْفُضُونَ التُّرَابَ عَنْ رُؤُوسِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي متجاوزٌ عن الذنوب، يقبَلُ اليسيرَ من العملِ، ويعطِي الجزيلَ من الثواب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ ﴾ ؛ أي دارَ المقامِ وهي الجنةُ، ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ، بتفضُّلهِ لا بالأعمال. وسُمي دارَ المقامةِ لأن مَن دخلَها يخلدُ لا يموت، ويقيمُ فيها لا يحوَّلُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ ؛ أي لا يمسُّنا فيها تعبٌ؛ ﴿ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي مشقَّةٌ وتعبٌ وإعياء وفتورٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ أي الذين كفروا بمُحَمَّدٍ ﷺ والقُرآنِ لَهم في الآخرةِ نارُ جهنم، ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ ﴾ ؛ فلا يُقضى عليهم بموتٍ فيستريحونَ من العذاب، ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ ؛ من عذاب النار طُرفةَ عَينٍ. قرأ الحسنُ: (فَيَمُوتُونَ) بالنُّون ولا يكون حينئذٍ جَواباً للنفيِ، والمعنى: لا يُقضَى عليهم ولا يموتُونَ كقولهِ ﴿وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي هكذا يُجزَى في الآخرةِ كلُّ كفورٍ بنِعَمِ الله تعالى. قرأ العامَّة (نَجْزِي) بالنون ونصب اللام، وقرأ أبو

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط: ج ١٠: الحديث (٩٤٧٤). وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٣٣؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه جماعة لم أعرفهم).

(٢) المرسلات / ٣٦ .

عمرٍو وحده بضم الياءِ وفتح الزاي على ما لَم يسمَّ فاعلهُ ورفعَ اللامَ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ ؛ أي يستَغِيثُونَ في النار وهو افتعالٌ من الصُّراخِ يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا ﴾ ؛ من النار، ﴿ نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ ؛ أي بقَولُ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وقولهُ تعالى: ﴿ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ ؛ أي غيرَ الشِّركِ. فوبَّخهم اللهُ تعالى فقالَ: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ ، معناهُ: أولَمْ نُعمِّركُم مقدارَ ما يتَّعِظُ فيه مَن كان يريدُ أن يتَّعظَ ويؤمِنَ. قال عطاءُ: (يُرِيدُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ سَنَةً)، وقال الحسنُ: (أرْبَعِينَ سَنَةً)، وقال ابنُ عبَّاس: (سِتِّينَ سَنَةً)[(٢)].

قالَ: (هُوَ الْعُمْرُ الَّذِي أعْذرَ اللهُ إلَى ابْنِ آدَمَ، قَالَ النَّبيُّ ﷺ: [مَنْ عَمَّرَهُ اللهُ تَعَالَى سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أعْذرَ اللهُ إلَيْهِ فِي الْعُمُرِ])[(٣)]. وعن أبي هُريرةَ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أعْمَارُ أمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إلَى السَّبْعِين، وَأقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذلِكَ][(٤)]. قَالَ النَّبيُّ ﷺ: [مَنْزِلُ مَنَايَا أمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إلَى السَّبْعِينَ][(٥)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ ؛ قال جمهورُ المفسِّرين: يريدُ النبيَّ ﷺ. ورُوي عن عكرمةَ وسُفيان بن عُيينة: (الْمُرَادُ مِنَ النَّذِيرِ الشَّيْبُ) وَمَعْنَاهُ: أولَمْ نُعَمِّركُم حتى شِبتُم ؟. وعن رسول الله ﷺ أنه قَالَ: [مَنْ أنَافَ سِنُّهُ عَلَى أرْبَعِينَ سَنَةً وَلَمْ تَغْلِبْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَلْيَتَجَهَّزْ إلَى النَّار][(٦)].

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٠٠-٣٠١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٢٠١).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الرقائق: الحديث (٦٤١٩).

(٤) رواه الترمذي في السنن: كتاب الدعوات: الحديث (٣٥٥٠). وابن ماجة في السنن: كتاب الزهد: الحديث (٤٢٣٦). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٦٥١).

(٥) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الحديث (٤٢٦٩٦).

(٦) في جامع البيان: مج ١٢ ج ٢٢ ص١٧١؛ قال الطبري: (وأشبه الأقوال بتأويل الآية، إذا كان الخبر الذي ذكرناه عن رسول الله ﷺ خبراً في إسناده بعض من يجب التثبت في نقله، قول قال ذلك، أربعون سنة؛ لأن في الأربعين يتناهى عقل الانسان وفهمه، وما قبل ذلك وبعده منتقص عن كماله في حال الأربعين).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي فذُوقـوا العذابَ فما للمُشركين من مانعٍ يَمنعُهم من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي عالِمُ سِرِّ أهلِ السمواتِ والأرض، إنه عليمٌ بما في القُلوب من الخيرِ والشرِّ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي جعلَكـم خُلفـاءَ عن مَن كان قبلَكم أُمَّةً بعد أمـةٍ، وقَرنـاً بعـد قـرن، ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي إلاَّ نَقصـاً، ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ﴾ ؛ أي خَبرُوني عن شُركائِكم الذين أشرَكتُموهم مع اللهِ في العبادةِ؛ بأيِّ شـيءٍ أوجَبْتُـهم لَـهم شركاءَ مع اللهِ تعالى؟ بخلقِ خلَقوهُ من الأرضِ؛ أم لَهم نصيـبٌ في خلـقِ السَّـمواتِ؛ أم أعطينَـاهم كِتَاباً فيـه مـا يدَّعونَـهُ فـهُم علـى بيِّنـةٍ منه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾[1]؛ ولكن مـا يَعِـدُ الظـالمون بعضَـهم بعضاً إلاّ خِدَاعاً وأباطيلَ.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ ؛ أي مَنَعهما من الزَّوال والذهاب، ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ ؛ أي ولَو زالَتا عن أماكنِها لَـمْ يُمسِكْهُما أحـدٌ غـيرُ اللهِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي حَليماً عن مقالةِ الكفَّار، غفُوراً لِمَن تابَ منهم، والحكيـمُ هـو القادرُ الذي لا يعجِّلُ بالعقوبةِ، والغفورُ كثيرُ الغُفران.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ ؛ أي حَلَفَ كفارُ مكَّة باللهِ غايةَ أيْمانِـهم قبـلَ أنْ يأتيـهم مُحمَّـداً ﷺ، ﴿ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ ؛ أي رسـولٌ، ﴿ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ ؛ أي ليكونُنَّ أسرعَ إجابةً وأصـوبَ دِينـاً مـن

---

(١) في المخطوط كلمة غير مفهومة: (أي الآولاذاك).

إحدَى الأُمم، اليهودُ والنصارَى والصَّابئين وغيرهم، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ ؛ يعني مُحَمَّداً ﷺ، ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ عن الحقِّ وتباعداً عن الهدى، وقولهُ تعالى: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ منصوبٌ على أنه مفعولٌ لـه (أيْ مَا زَادَهُـمْ إلاَّ نُفُوراً). الاستكبارُ في الأرضِ عُتُوّاً على اللهِ وتكبُّراً عن الإيمان، وَقِيْلَ: على البدلِ مِن قوله (نُفُوراً). وَقِيْلَ: على المصدر.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾ ؛ أي القصدَ أي الإضرارَ بالنبيِّ ﷺ وأصحابهِ من حيث لا يشعُرون. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ ؛ أي لا يحيقُ ضرَرُ المكر السيِّء إلاَّ بفاعلهِ، فقُتِلُوا يومَ بدرٍ، والمكرُ السيِّء هو العمـلُ القبيح، وقولهُ تعالى (وَلاَ يَحِيقُ) أي ولا يحِلُّ ولا ينْزِلُ إلاَّ بأهلهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ؛ أي ما ينظرُ أهـلُ مكَّـة إلاَّ أن ينْزِلَ بهم العذابُ مثلٍ ما نزلَ بمَن قبلَهم من الأُمَمِ السَّالفة المكذِّبة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يقـدرُ أحـدٌ أن يُحوِّلَ العذابَ عنهم إلى غيرِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ معناهُ: أوَلَمْ يُسافِروا في الأرضِ فينظُروا كيفَ صارَ آخرُ أمرِ الَّذين من قبلِهم عند تكذيبِهم الرسُلَ كيف فعلَ اللهُ بهم؟ ﴿ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ ﴾ ؛ مِـن أهـلِ مكَّـة، ﴿ قُوَّةً ﴾ ؛ ومكَّن لَهم ما لم يُمكِّن لهؤلاء. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لن يُعجزَهُ أحدٌ من الخلقِ في السَّموات ولا في الأرض، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي عَليماً بخلقهِ، قادراً عليهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ ؛ أي لو يُؤاخِذُهم بما كسَبوا من المعاصِي ما تـركَ علـى ظَهرِ الأرض من دابَّة، ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ ؛ بفضلهِ، ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ إلى وقتٍ معلـوم، ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ ؛ فـإذا جـاءَ ذلـك الوقـتُ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ يفعلُ به ما يستحقُّونَهُ من ثوابٍ وعقابٍ.

آخر تفسير سورة (**فاطـر**) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ يَس

سُورَةُ يس مَكِيَّةٌ، وَهِيَ ثلاثَةُ آلاَفِ حَرْفٍ، وَسَبْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَثلاثَةٌ وَثمَانُونَ آيَةً. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبٌ، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يس، فَمَنْ قَرَأهَا كَانَ كَمَنْ قَرَأ الْقُرْآنَ عَشْرَ مَرَّاتٍ](1).

وَقَالَ ﷺ: [وَهِيَ تَشْفَعُ لِقَارِئِهَا وَتَسْتَغْفِرُ لِمُسْتَمِعِهَا، يس تُدْعَى الْمُعِمَّةُ] قِيْلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْمُعِمَّةُ ؟ قَالَ: [تَعُمُّ صَاحِبَهَا بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَتُدْعَى الدَّافِعَةُ وَالْقَاضِيَةُ، تَدْفَعُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَتَقْضِي لَهُ كُلَّ حَاجَةٍ، وَمَنْ قَرَأهَا عَدَلَتْ لَهُ عِشْرِينَ حَجَّةً، وَمَنْ قَرَأهَا كَانَ كَمَنْ لَهُ ألْفُ مِثْقَال يُنْفِقُهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ كَتَبَهَا وَشَرِبَهَا دَخَلَ جَوْفَهُ ألْفُ دَوَاءٍ وَألْفُ يَقِينٍ وَألْفُ زُلْفَةٍ وَألْفُ رَحْمَةٍ! وَنُزِعَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَغِلٍّ](2).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ قَرَأ يس يُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللهِ، غَفَرَ اللهُ لَهُ وَأعْطِيَ مِنَ الآخِرَةِ كَأنَّمَا قَرَأ الْقُرْآنَ اثنَى عَشْرَةَ مَرَّةً. وَأيُّمَا مَرِيضٍ قُرِئَ عِنْدَهُ سُورَةَ يس نَزَلَ عَلَيْهِ بِعَدَدِ كُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ أمْلاَكٍ يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفاً، فَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ،

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب فضائل القرآن: الحديث (٢٨٨٧)، وقال: (هذا حديث غريب وفي إسناده هرون أبو محمد، شيخ جهول، وفي الباب عن أبي بكر ولا يصح من قبل إسناده، وإسناده ضعيف).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي من حديث عائشة، الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) من حديث أبي بكر الصديق ﷺ مسنداً). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣٣؛ قال السيوطي: (وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن حسان بن عطية أن رسول الله ﷺ قال...) وذكره. وقال البيهقي: (تفرَّد به محمد بن عبدالرحمن عن سليمان بن رفاع الجندي، وهو منكر). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في تعظيم القرآن: الحديث (٢٤٦٥).

وَيَشْهَدُونَ قَبْضَهُ وَغَسْلَهُ، وَيُشَيِّعُونَ جَنَازَتَهُ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ وَيَشْهَدُوا دَفْنَهُ، وَأَيَّمَا مَرِيضٍ قَرَأَ سُورَةَ يس وَهُوَ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ أَوْ قَرِيبٍ عِنْدَهُ، لَمْ تُقْبَضْ رُوحُهُ حَتَّى يَجِيئَهُ رِضْوَانُ خَازِنُ الْجِنَانِ بِشَرْبَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَبُهَا فَيَمُوتُ وَهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ رَيَّانُ، وَيُبْعَثُ وَهُوَ رَيَّانُ، وَيُحَاسَبُ وَهُوَ رَيَّانُ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَهُوَ رَيَّانُ، وَيَرِدُ[1] إِلَى حَوْضٍ مِنْ حِيَاضِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يسٓ ۝١ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يُريدُ: يَا إنْسَان)[2]، يَعْنِي مُحَمَّداً ﷺ، وقال أبو العاليةِ: (يَا رَجُلُ)، وقال سعيدُ بن جبير: (يَا مُحَمَّدَ ﷺ)[3]، قرأ أبو عمرو وحمزةُ وعاصم بإظهار النُّون[4]، وقرأ عيسَى بن عمر (يس) بالنصب تشبيهاً بأينَ وكيفَ، وقرأ ابن أبي إسحق (يس) بكسر النُّون تشبيهاً بأمسِ وحذامِ وقطَامِ، وقرأ هَارون الأعور بضمِّ النون تشبيهاً بمُنذُ وحيثُ وقطُّ، وقرأ الآخَرون بإخفاءِ النُّون[5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ ﴾ ؛ أي الْمُحْكَمِ من البَاطل، وقِيْلَ: أحكِمَ بالحلال والحرام والأمر والنهي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ ﴾ وذلك أنَّ كفارَ مكَّة قالوا لِمُحَمَّدٍ ﷺ: لَسْتَ مُرْسَلاً، فأقسمَ اللهُ تعالى بالقرآن الحكيم إنَّكَ مُرسَلٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ ﴾ ؛ يعني دينَ الإسلامِ وطريقَ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ الذين مَضَوا قبلَكَ.

---

(١) في المخطوط كلمة: (ويرد) غير واضحة.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤١؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٢٢١ و٢٢٢٢٢). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨٠٢٤).

(٣) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧٥.

(٤) إظهار النون: (يسن)

(٥) ذكر القرطبي أيضاً هذه القراءات مختصرة في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي هـو تـنْزيلُ العزيــز في مُلكهِ، الرحيمِ بخلقهِ، قال مقاتلُ:(مَعْنَاهُ: هَذا الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)(١). وقولُ ابنِ عامر وأهلِ الكوفة(تَنْزِيلَ) بالنصب على المصدر، كأنَّهُ قالَ: ونزَّلَ تَنْزِيلاً.

وقولهُ تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ ؛ مُتَّصلٌ بقولـهِ (إنَّـكَ لَمِـنْ الْمُرْسَلِينَ) لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أنْذِرَ آبَاؤُهُمْ؛ أي لتُنذِرَ قَوماً لم يأتِهم نذيـرٌ قبلَـكَ(٢)؛ لأنَّـهم كانوا في الفَترَةِ وهو معنى قولهِ: ﴿ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي عن حُجَجِ التَّوحيدِ وأدلَّةِ البعثِ، وَقِيْلَ: (فَهُمْ غَافِلُونَ) عن أمرِ الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي لقد حقَّتْ كلمةُ العذاب على أهلِ مكَّة لكثرة كفرهم(٣) فهم لا يُصدِّقون، وهذا إخبارٌ عن علمِ الله فيهم أنَّهم لا يُؤمنون، فقُتِلوا يومَ بدرٍ على الكُفرِ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا ﴾ ؛ أي في أعناقِـهم وأيمانِــهم أغْلاَلاً، ولَم يذكُرِ الأَيمانَ في الآيةِ لأنَّ الكلامَ دليلٌ عليهِ؛ لأن الغُلَّةَ لا يكون في العنُقِ دون اليدِ، ولا في اليدِ دون العنُق، وإنمـا تُغَـلُّ الأيـدي إلَـى الأعنـاق. وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ﴾ ؛ كنايةٌ عن الأيدِي دون الأغلال، وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي رَافِعُوا رؤوسِهم، والْمُقْمَحُ: الرافعُ رأسَهُ الغاضُّ بصرَهُ.

واختلَفُوا فيمَنْ نزلت هذه الآيةُ، فرُوي عن ابن عبَّـاس: (أنَّ الآيَـةَ نَزَلَـتْ فِـي قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّار فِيْهِمْ أبُو جَـهْلٍ، تَوَاطَـؤُا عَلَـى أنْ يَقْتُلُـوا النَّـبيَّ ﷺ إذا رَأوْهُ يُصَلِّـي، وَحَلَفَ أبُو جَهْلٍ أنَّهُ إذا رَآهُ يُصَلِّي لَيَدْمَغَنَّهُ بالْحَجَرِ، فَأتَوْهُ يَوْماً وَهُـوَ يُصَلِّـي، فَجَـاءَهُ أبُو جَهْلٍ وَمَعَهُ الْحَجَرُ، فَرَفَعَ الْحَجَرَ لِيَدْمَغَـنَّ بِـهِ النَّـبِيَّ ﷺ فَيَبسَـتْ يَـدُهُ إلَـى عُنُقِـهِ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٨١.

(٢) في إعراب القرآن: ج ٣ ص٢٥٩؛ قال النحاس: (﴿مَا﴾ لا موضع لها مـن الإعـراب عنـد أكـثر أهل التفسير؛ لأنها نافيـة) ورجـح هـذا الوجـه الزجـاج كمـا في معـاني القـرآن وإعرابـه: ج ٤ ص٢١٠.

(٣) في المخطوط: (لكثرة بكفرهم).

وَالْتَزَقَ الْحَجَرُ إِلَى يَدِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ خَلَّصُوا الْحَجَرَ، فَأَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِ الْحَجَرِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي مُغِيرَةَ: أَنَا أَقْتُلُهُ! وَأَخَذَ الْحَجَرَ وَدَنَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَطَمَسَ اللهُ عَلَى بَصَرِهِ فَلَمْ يَرَ النَّبِيَّ ﷺ وَكَانَ يَسْمَعُ قِرَاءَتَهُ).

فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي جعَلنا من بين أيدِيهم غطاءً وسَدّاً ومِن خلفِهم كذلكَ فأغْشَينا أبصارَهم حتى لم يَرَوا.

قال الفرَّاءُ: (مَعْنَى أغْشَيْنَا: أَلْبَسْنَا أَبْصَارَهُمْ غِشْوَةً أَيْ عَمًى)[١]، وعن ابنِ خُثَيم قالَ: (سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ يَقْرَأُ (فَأَعْشَيْنَاهُمْ) بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ)[٢]، ورُوي ذلك عن ابن عبَّاس أيضاً[٣]، وقال الحسنُ: (هَذا عَلَى طَرِيقِ الْمَثَلِ) وَذلِكَ أنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا حَالَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ مَنْ أرَادُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا كَمَنْ غُلَّتْ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ لاَ يُمْكِنُهُ أنْ يَبْسُطَهَا إِلَى شَيْءٍ، وَهُوَ طَافِحٌ رَأسُهُ لاَ يُبْصِرُ مَوْضِعَ قَدَمِهِ، قَدْ سُدَّ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ فِي الذهَابِ وَالرُّجُوعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي مَن أضَلَّهُ اللهُ هذا الضلالَ لم ينفعْهُ الإنذارُ، ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ ؛ معناهُ: إنما ينفع الإنذارُ مَن اتَّبعَ القرآنَ، ﴿ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ؛ أي وخافَ من اللهِ بحيث لا يراهُ، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ ؛ لذنوبهِ، ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ وثوابٍ حسَنٍ في الجنَّة.

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٧٣.

(٢)ذكره الثعلبي عن عكرمة بإسناد آخر، كما في الكشف والبيان: ج ٨ ص١٢٢. وفي المخطوط: (خضيمة) والصحيح هو ابن خثيم، عبدالله بن خثيم القارئ المكي. ينظر: لسان الميزان: ج ٧ ص٤٩٣: الرقم (٥٧٤٧). وتهذيب التهذيب: ج ٤ ص٣٩٣: الرقم (٣٥٥٦).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان معلقاً، وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٠؛ قال القرطبي: (وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر (فَأَعْشَيْنَاهُمْ) بالعين غير المعجمة من العَشَاء، وهو ضعف بصرها حتى لا تبصر بالليل).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ ؛ أي ما أسلَفُوا من الخيرِ والشرِّ، وقولُه تعالى: ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ ؛ أي خُطَاهُم، فإنَّ كلَّ خُطوَةٍ في الطاعةِ طاعةٌ، وكلَّ خطوةٍ في المعصيةِ معصيةٌ. وَقِيْلَ: معنى (وَآثَارَهُمْ) أي ما استَنَّ به مَن بعدَهم، قال النبيُّ ﷺ: [مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أجْرُهَا وَأجْرُ مَنْ عَمِلَ بهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) ﴾ ؛ أي وكلَّ شيءٍ من الأعمالِ أثبتناهُ في اللوحِ المحفوظِ. وَقِيْلَ: أرادَ بالإمامِ المبين: الصحائفَ التي يكتبُها الملائكةُ، وسُمي الإمامُ مُبيناً لأنه لاَ يَنْدَرِسُ أثرُ مكتوبه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا ﴾ ؛ أي مثل لأهلِ مكَّة مثل، ﴿ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ ؛ يعني إنطاكيَّةَ؛ ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) ﴾ ، رسُل اللهِ تعالى، ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) ﴾ .

وذلك أنَّ عيسى عليه السلام أرسَلَ إلى أهلِ إنطاكيَّةَ رسُولَين من الحواريِّين ليدعُوهم إلى عبادةِ الله تعالى. وإنَّما أُضيفَ الإرسالُ في الآيةِ إلى اللهِ تعالى لأنَّ إرسالَهُ كان بأمرِ الله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) ﴾

والقصَّةُ: أنَّ عيسَى عليه السلام لَمَّا بعثَ الرسولَين إلى أنطاكيَّة وقَرُبَا من المدينةِ، وجَدَا شَيخاً كَبيراً يرعَى غُنَيمَاتٍ له وهو حبيبُ النجَّار فسَلَّما عليه، فقالَ لَهما: مَن

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢ ص٣٣٠: الحديث (٢٣٧٢-٢٣٧٥). والإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٣٥٧ و٣٥٨ و٣٥٩. ومسلم في الصحيح: كتاب الزكاة: باب الحث على الصدقة: الحديث (٦٩/ ١٠١٧).

أنتُما ؟ قالاَ: رسُولاَ عيسَى ﷺ ندعُوكم إلى عبادةِ الله تعالى، قالَ: هل معَكُما آيـةٌ ؟ قالاَ: نَعَمْ؛ نَشفِي المريضَ ونُبرئُ الأكْمَهَ والأبرصَ بإذن الله تعالى. فقالَ الشيخُ: إنَّ لِي إبناً مَريضاً صاحبَ فِرَاشٍ منذُ سِنِينَ، قالاَ: فَانطَلِقْ بنا إليهِ.

فانطلقَ بهما إليه، فمَسَحا ابنَهُ فقامَ من ساعتهِ صَحيحاً بـإذن الله تعـالى. ففشَـا الخبرُ في المدينةِ، وشفَى اللهُ على أيدِيهما كَثـيراً مـن المرضَـى، وآمَـنَ حبيـبُ النجَّـار، وجعلَ يعبدُ اللهَ تعالى في غار جَبَلٍ في أبعدِ أطرافِ المدينة.

فسمعَ الملِكُ بخبرِ هذين الرَّسولَين، وكان يعبدُ الأصنامَ، فدعَا لَهما فأتياهُ، فقالَ لَهما: مَن أنتُما؟ قالاَ: رسولاَ عيسَـى ﷺ ندعُـوكَ إلى عبـادةِ الله تعـالى، قـال: ومـا آيَتُكما؟ فقالاَ: نُبرئُ الأكمَهَ والأبرصَ، فغَضِبَ الملِكُ وأمرَ بهما فحُبسَـا، وجُلِـدَ كـلٌّ واحدٍ منهما مائةَ جلدةٍ.

فلمَّا كُذِّبَ الرسُولاَن، بعثَ عيسى رسُولاً ثالثاً يقالُ له: شَمعون المصفِّي علـى إثرهما لينصُرَهما، فدخلَ شَمعونُ البلدَ متنكِّراً، وجعلَ يعاشِرُ حاشيتَهُ حتى أفشَوا به، فرُفِعَ خبرهُ الى الملِكِ فدعاهُ فأكرمَهُ وأنِسَ بهِ. فقالَ له ذاتَ يومٍ: أيُّها الملِكُ؛ بلَغَنِي أنَّكَ حبستَ رجُلَين في السِّجن وضَربتَهُما حين دعَياكَ الى دينٍ غيرِ دِينـكَ، فـهل كلَّمْتَـهما وسمعتَ قولَهما؟ قالَ: لاَ، قالَ: فإنْ رأى الملِكُ أن يدعوَهُمَـا ويسـمعَ قولهمـا حتـى يطَّلِعَ على ما عندهما.

فدعاهُما الملِكُ، فقالَ لهما شمعونُ: مَن أرسلَكُما ؟ قالاَ: اللهُ الـذي خلـقَ كـلَّ شيءٍ وليس له شريكٌ. فقالَ لهما شمعون: صِفَاهُ وأوجِزَا، فقالاَ: إنه يفعـلُ مـا يشـاءُ ويحكمُ ما يريد، قال شمعونُ: وما آيَتُكما ؟ قالاَ: ما تَتمَنَّاهُ.

فأمرَ الملِكُ حتى جَاؤا بغُلامٍ مطمُوسِ العَينَين، موضعُ العينين كـلٌّ لجِهَـةٍ، فمَـا زالاَ يدعُوَان اللهَ حتى انشقَّ موضعُ البصرِ، ثم أخذاَ بَندُوقَتَيْنِ فوُضِعَتـا في الحدَقَتَـين، فصارَتا مُقْلَتَيْنِ يبصرُ بهما، فعَجِبَ الملِكُ من ذلك.

فقال شمعونُ للملِك: إنْ سألتَ إلَهكَ أن يصنعَ مثل هـذا، فصَنَعَـهُ كـان لـكَ ولآلهتكَ الشرفُ. فقال الملِكُ: ليس لِي عَنْكَ سِرٌّ أسِرُّه إليك: إنَّ إلَهنا الذي نعبـده لا يسمعُ ولا يبصر ولا ينفعُ.

ثم قالَ للمرسُولِين: إنَّ هنا مَيِّتاً ماتَ منذُ سبعةِ أيَّام، فلم أدفِنْهُ وأخَّرتُه حتى يرجعَ أبوهُ، وكان أبوهُ غائباً، فإن قَدِرَ إلَهُكما على إحيائهِ آمنتُ بهِ. قالاَ: إنَّ إلَهنا قادرٌ على كلِّ شيء، ثم جعَلاَ يدعُوان اللهَ علانيةً، وجعلَ شمعون يدعُو ربَّهُ سِرّاً، فقامَ الميِّتُ حيّاً بإذنِ اللهِ تعالى، وقد تغيَّرَ وانتنَّ وهو يقولُ: أيُّها الملِكُ إنِّي متُّ منذ سبعةِ أيَّام، ووجدتُ مُشْرِكاً فأُدخِلْتُ في سبعةِ أوديةٍ من النار، فأنا أحذِّرُكم ما أنتم عليه، فآمِنُوا باللهِ واتَّبعُوا هؤلاءِ الثلاثةَ.

فقال الملِكُ: ومَنِ الثلاثةُ ؟ قالَ: شمعونُ وهذان، وأشارَ الى الرَّسُولَين. فتعجَّبَ الملِكُ من ذلك، وأجمعَ هو وقومهُ على قتلِ الرُّسُلِ. فبلَغَ ذلك حَبيباً النجَّار وهو على باب المدينة الأقصَى[(١)].

وَقِيْلَ: إنَّ الملِكَ قالَ لَهم: إنَّكم توافقتُم على هذا الكلامِ، ثم أمرَ بهم فأُخِذُوا ونُتِفَتْ حَواجِبُهم وشُعورُ أعْيُنِهِمْ، وطِيفَ بهم، فلمَّا سمعَ حبيبُ النجَّار ذلك أقبلَ مِن أبعدِ أطرافِ المدينة يسعَى؛ أي يَعْدُو ليَنصُرَ الرسُلَ ويذكرهم ويدعو إلى طاعةِ المرسَلين، وذلكَ:

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ وقال حبيبُ للرُّسُل: أتريدُونَ أجْراً على ما جئتم بهِ؟ قالوا: لاَ، فقالَ لقومهِ: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي مُصيبُونَ في مقالَتِهم، فقالوا له: صَبَوْتَ إليهم يا حبيبُ ودخلتَ في دِينهم؟ فقال: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ ؛ أي أيُّ شيء لِي إذا لم أعبُدْ خالِقِي، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ، أي إليه تُرجَعُونَ عندَ البعثِ فيجزيكم بكُفرِكم.

ثم إنَّ أهلَ المدينةِ قالوا: ليس الرُّسل بأولى بالنبوَّة منا فيما تقولون، قالوا: ربُّنا يعلمُ إنَّا إليكم لَمُرسَلون وما علينا إلا البلاغُ المبين، أي ليس علينا إلاّ التبليغُ البيِّن.

---

(١) القصة أخرجها البغوي أيضاً كاملة في تفسيره: ص١٠٧٦-١٠٧٧.

فقال القومُ للرسل: إنا تطيَّرنا بكم، أي تشاءمنا منكم، وقد كان حُبس عنهم المطرُ، فقالوا ما أصابنا هذا الشر إلاّ من قبلكم ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي لئن لم تنتهوا من مقالتكم هذه لنقتلَنَّكم رَجْماً وليمَسَّنكم منا عذاب، يعنون القتلَ والضربَ.

فقالت لهم الرسُل: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي شُؤْمُكم معكم وهو كُفركم بالله تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَئِنْ ذُكِّرْتُمْ) معناه لئن وُعِظتم بمواعظ اللهِ تشاءَمتُم بنا بما لا يوجبُ التشاؤمَ ولكن أنتم قومٌ مسرفون، متجاوزون عن الحدِّ في الذنب والمعصية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَجَاءَ مِنْ أقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى) يعني حَبيباً النجَّار (قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ) أي مَن لا يسألكم أموالَكُم على ما جاءَكم به مِن الْهُدَى، فقالُوا له: أتَّبَعْتَهُمْ أنتَ يا حبيبُ؟ قالَ: نعَمْ (وَمَا لِي لاَ أعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ) في الآخرةِ.

ثم أنكرَ عليهم اتخاذ الأصنامِ وعبادتَها، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾، كما اتَّخذتُم، ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾، في جسَدِي أو في معيشَتِي، ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى﴾، لا تنفعُ عنِّي، ﴿شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾، يعني لا شفاعةَ لها، ﴿وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي ولا يُخلِّصُون من ذلك المكروهِ ولا من عذاب الله، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾، إنْ عبدتُ غير الله كنت إذاً في الخاطئين، ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾؛ مقالَتي.

وَقِيْلَ: إنَّ قولَهُ (إنِّي آمَنْتُ بربكُمْ) خطابُ المرسَلِ، قالَ لَهم اسمعُوا كلاَمِي لتشهدوا لِي به في الآخرةِ، فلمَّا قال هَذا وثَبَ عليه قومهُ وثبةَ رجُلٍ واحد فقتلوهُ، قال ابنُ مسعودٍ: (وَوَطَؤُهُ بأرْجُلِهِمْ حَتَّى خَرَجَتْ أمْعَاؤُهُ مِنْ دُبُرِهِ، فَأَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ فَهُوَ حَيٌّ فِيْهَا يُرْزَقُ)[١]، وذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾؛ فلما دخلَها، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾؛

(١) ذكره الثعلبي أيضاً في الكشف والبيان: ج ٨ ص١٢٦ بلفظ: (حتى خرجَ قُصبُهُ – أي أمعاؤهُ – من دبره). والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٩.

ثمنّى أن يعلَمُوا أنّ الله غَفَرَ له ليرغَبُوا في دينِ الرُّسلِ، والمعنى: يا ليتَ قَومِي يعلمون بغُفرانِ ربي لي وإكرامِه إيَّاي بإدخالِه لِي الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ وذلكَ أنّهم لَمَّا قتلوهُ وغضِبَ اللهُ عليهم وعجَّلَ لهم العذابَ، ومعنَى الآية: وما أنزَلنا على قومِ حبيب بإهلاكِهم من جُندٍ من السَّماء يعني الملائكةَ؛ أي لَم تنتَصِرْ منهم بجُندٍ من السَّماء، (وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ) ولا كُنَّا نُنَزِّلُ ذلك بمَن قبلَهم من الأُمَم إذا أهلكنَاهم.

ثم بيَّن اللهُ تعالى كيف كانت عقوبتُهم وعذابُهم فقالَ تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي ميِّتون لا يتحرَّكُ منهم أحدٌ. قال المفسِّرون: أخذ جبريلُ بعضادتي باب المدينةِ وصاحَ بهم صيحةً واحدةً، فتطايرَت قلوبُهم فإذا هم ميِّتون، ولم يُسمَعْ لهم حِسٌّ، كالنار إذا طُفِئَتْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (يَا نَدَامَةَ عَلَيْهِمْ فِي الآخِرَةِ باسْتِهْزَائِهِمْ بالرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا)(١). وَالْحَسْرَةُ: أن يركبَ الإنسانُ مِن شدَّةِ اللَّومِ ما لا نِهايةَ بعدَهُ حتى يبقَى قلبُه حَسِيراً، والعربُ إذا دعَتْ نكرةً موصولةً بشيء آثَرَتِ النصبَ، تقولُ: يا رجلاً كريماً أقبل(٢). ثم بيَّن اللهُ تعالى سببَ الحسرةِ فقالَ: (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ألَمْ يَرَ أهلُ مكَّة كم أهلَكنا قبلَهم من الأُمَمِ الماضيةِ فخَافُوا أن يُعجَّلَ لهم في الدُّنيا مثلُ ما عُجِّلَ لغيرِهم وهم يعلمون أنّهم لا يُعادون إلى الدُّنيا أبداً.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٨٥.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٧٥.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي وما كلٌّ منهم إلاَّ لدينا مُحضَرُونَ في أرضِ الْمَحشَرِ للحساب والجزاء، هذا على قراءةُ مَن قرأ (لَمَّا جَمِيعاً) بالتشديدِ، وهي قراءةُ ابنِ عامر وعاصمٍ وحمزة، وأما على قراءةِ مَن قرأ بالتخفيفِ فإن (مَا) صلةٌ مؤكِّدة، فإن (إنْ) للإثباتِ كأنه قالَ: وإنْ كلٌّ لَجميعٌ لدَينا مُحضَرون[١].

ثم وعظَ اللهُ كفارَ مكَّة ليعتَبروا فقالَ تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا ﴾ ؛ أي وعلامةٌ لَهم تدلُّهم على التوحيدِ والبعث، الأرضُ الْمَيْتَةُ اليابسةُ التي لا نباتَ فيها ولا شجرَ (أحْيَيْنَاهَا) بإخراجِ الأشجار والزُّروعِ، ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ، ما يُقْتَاتُ من الحبوب جمع الحب، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ ﴾ ؛ أي في الأرضِ بساتين، ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي من عُيونِ الماءِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾ ؛ أي من ثمر النخيلِ والأعناب على اختلاف طُعومِها وألوانِها، فيستدِلُّوا بذلك على قُدرةِ الله تعالى. قرأ الأعمشُ (ثُمْرِهِ) بضمِّ الثاء وسُكونِ الميمِ، وقرأ طلحةُ ويحيى وحمزة والكسائي وخلف (ثُمُرِهِ) بضمِّ الثاء والميمِ، وقرأ الباقون بفتحِهما[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ أي وما عملَتْ أيديهم شيئاً مما ذكرناهُ، وإنما هو مِن فعلِنا، ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ نِعَمَ اللهِ، ويجوزُ أن يكون معناهُ: ليأكُلُوا من ثَمَرهِ ومِن ثَمَرِ ما عملَتْ أيديهم، يعني الغرُوسَ والحرْثَ.

قرأ أهلُ الكوفة (وَمَا عَمِلَتْ) بغيرِ هاءٍ، ويجوزُ في (مَا) ثلاثةُ أوجهٍ: النفيُ بمعنى ولَمْ تعمَلْ أيديهم؛ أي وجدُوها معمولةً فلا صُنْعَ لَهم فيها، وهذا قولُ الضَّحاك ومقاتل[٣]. والثاني: أن يكون بمعنَى المصدر؛ أي ومِنْ عَمَلِ أيديهم. والثالث: بمعنى

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٧٥. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢٦٥.

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢٦٦.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٨٦.

(الَّذِي) أي ومِن الذي عمِلت أيديهم من الغَرْسِ والحرثِ. ومَن قرأ (عَمِلَتْهُ) بالهـاءِ، فالهاءُ عائدةٌ على (مَا) التي بمعنى الذي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي سُبحان الذي خلقَ الأصنـافَ كلَّـها مـن أجناسِ الفواكهِ والحبوب، وأصنافِ ما تُنبتُ الأرضُ من الحلو والحـامض والأبيـضِ والأحمر وغيرِ ذلك من الطُّعوم والألوان. وقولهُ تعالى: (وَمِنْ أَنفُسِهِمْ) أي وخلَقَ مـن أنفُسِهم الذُّكرَانَ والإناثَ. وقوله تعالى: (وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ) أي وخلَقَ في الـبرِّ والبحرِ وأجوافِ السَّموات والأرضِ من جميع الأنواعِ والأشياء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي وعلامةٌ لَهم أخرى تدلُّ على قُدرَتِنا، الليلُ المظلم يُنْزَعُ منه النهارُ فإذا هم داخِلون في الظَّلام، وذلك أنَّ الأصلَ هو الظُّلمةُ، والنهارُ داخـلٌ عليـها لأنَّ الله خلـقَ الدُّنيـا مظلمةً، فإذا طلَعتِ الشمسُ صارت الدُّنيا مضيئةً تشـبهُ ضـوءَ النـهارِ باللِّبـاس، فـإذا ذهبَ الضوءُ بغُروب الشمسِ كان ذهابُ ذلك بمنْزلة سَـلْخِ جلـدِ الشَّـاة عـن الشـاةِ، وسلخِ الثوب الرجُل عن الرجلِ، والمعنى: إذا غربَتِ الشمسُ سُلِخَ النهارُ مـن الليـلِ أن كشفَها فأُزيلَ فتظهرُ الظُّلمة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ ؛ معنـاهُ: وآيـةٌ لهـم (الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) أي إلى مُستَقرٍّ لها وهو آخرُ مدَّة الدنيا ثم تجري بعدهـا، ويقالُ: مستقرُّها منازلُها إذا انتهت الى أقصَى منازلها التي لا تجاوزُها في الصيفِ رجَعـت، ويقالُ: سمعت منازلَها مستقرَّها، كما يقالُ في منْزِل الرجلِ: هو مُستَقَرُّهُ، وإن تصَّرَفَ فيه وتحرَّكَ.

وعن أبي ذرٍّ قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِـهِ تَعَـالَى (وَالشَّمْسُ تَجْـري لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) قالَ: [مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ][1]. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الخلق: الحديث (٣١٩٩). ومسـلم في الصحيـح: كتـاب الإيمان: الحديث (١٢٩/٢٥٠).

ﵟٱلۡعَلِيمِ ٣٨ﵞ ؛ أي ذلك الذي سبَقَ ذِكرهُ تقديرُ العزيزِ في مُلكهِ، العليمُ الذي لا يخفَى عليه شيءٌ. وفي قراءةِ ابن عبَّاس: (تَجْرِي لاَ مُسْتَقَرَّ لَهَا) أي لا قرارَ لها فهي جاريةٌ أبداً ما دامت الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﵟوَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَﵞ ؛ قرأ نافعُ وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (وَالْقَمَرُ) بالرفعِ عطفاً على قولهِ (وَالشَّمْسُ تَجْرِي)، وَقِيْلَ: على الابتداءِ، وقرأ الباقون بالنصب على معنى وقدَّرناهُ القمرَ وقدَّرنا منازلَ، كما تقولُ: زيداً ضربتهُ.

والمعنى: قدَّرنا له منازلَ ينْزِلُ في كلِّ ليلة منْزِلَةً، وجملةُ منازل ثمانيةٌ وعشرون، فإذا صارَ إلى آخرِ منْزله وهي ليلةُ ثمانٍ وعشرين، ﵟحَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ﵞ ؛ وهو عذْقُ النخلةِ الذي فيه الشَّماريخُ إذا يَبِسَ، ولأن العُذْقَ إذا مضَت عليه الأيامُ جفَّ وتقوَّسَ ويَبِسَ ودقَّ واصفرَّ وصار شبهَ الأشياءِ بالقمر في أوَّل الشهرِ وآخره، لا يقدرُ على ذلك إلاَّ اللهُ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﵟلَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَﵞ ؛ يعني أنَّ الشمسَ أبطأُ مَسِيراً من القمرِ فلا تدركهُ، وذلك أنَّ الشمسَ تقطعُ منازلَها في سنةٍ، والقمرَ يقطعُ منازلَهُ في شهرٍ، وهما مسخَّران مقهوران على ما ذكرَهُما اللهُ تعالى.

ويقالُ معنى قوله: (لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ) أي لا يدخلُ النَّهارُ على الليلِ قبلَ انقضائهِ، ولا يدخلُ الليلُ على النهار قبلَ انقضائهِ، كلاهُما يَسِيران دائِبَين، ولكلٍّ حدٌّ لا يعدوهُ ولا يقصُر دونَهُ، فإذا جاءَ سُلطان هذا ذهبَ ذلك، فإذا جاءَ سلطانُ ذلك ذهبَ هذا، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﵟوَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚﵞ ؛ أي لا تتأخَّرُ الشمسُ عن مجرَاها، فتسبقُ ظلمةُ الليلِ في وقتِ النَّهار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﵟوَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠ﵞ ؛ أي كلٌّ مِن الشمسِ والقمرِ والنُّجومِ الغَاربَةِ والطَّالعةِ في فَلَكٍ يَسِيرُونَ ويَجْرُونَ بالأنْبسَاطِ. والفلَكُ: هو مواضعُ النجومِ من الهواءِ؛ أي الذي يجرِي فيه، سُمِّي بهذا الاسمِ لأنه يدورُ بالنجومِ، ومنه فُلْكَةُ الْمِغْزَلِ لأنَّها تدورُ بالمغزلِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وآيةٌ لَهم أخرى يعني أهلَ مكَّة تدلُّهم على توحيدِ الله تعالى: أنَّا حَمَلنا ذُرِّيَّتَـهُمْ في السَّفينةِ المملوءةِ، وهي سفينةُ نُوحٍ ، وذريَّتهُ في كلام العـرب: الآبـاءُ والأبناء والأجدادُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي وخلَقنا لهم مثلَ سفينةِ نُوحٍ ما يركبُون فيه على البحرِ، يعـني السُّفنَ الـتي عُملـت بعـدَ سفينةِ نوحٍ على هيأتِها وصُورَتِها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي أنَّ اللهَ سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكَرَ تفضُّلَهُ أنَّهُ يحفظُهم، ولو شاءَ أغرقَهم فلـم يُغنِـهم أحـدٌ ولم يُنقِذْهُـم مـن الغـرق، ومعنـى قولـهِ تعـالى: (فَـلاَ صَرِيـخَ لَـهُمْ) أي فـلا مُغيـثَ لَـهم، ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ من المكروهِ والغرَق.

والصَّريـخُ: بمعنـى الصَّـارخِ لهـم بالاسـتغاثةِ. وَقِيْـلَ: الصَّريـخُ الْمُعِيـنُ علـى الصُّراخِ، كأنه قالَ: فلا مُعينَ لَهم (وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ) أي ولا هم يُخَلَّصُون من الغرقِ، ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ ، إلاّ أنْ تداركَهم رحمةُ اللهِ فتنقذهم إلى حين آجالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ ؛ أي وإذا قِيْلَ لهؤلاءِ الكفار اتَّقُوا ما بين أيدِيكم من أمرِ الآخرة فاعملُوا لها، وما خلفكـم مـن أمـرِ الدُّنيا، فاحذرُوهم ولا تغـترُّوا بـها، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي لتكونُـوا علـى رَجَاءِ الرحمةِ من اللهِ تعالى، وجوابُ (إذا) محذوفٌ تقديرهُ: إذا قيلَ لهم هـذا أعرَضُـوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ من عِبرَةٍ ودلالـةٍ تـدلُّ على صدق النبيِّ ﷺ ﴿ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ ؛ قال مقـاتلُ: (وَذلِـكَ أنَّ الْمُؤْمِنِـينَ قَـالُوا لِكُفَّار قُرَيشٍ: انْفِقُوا عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِين مَا زَعَمْتُمْ مِنْ أمْوَالِكُمْ أنَّهُ للهِ، وَهُوَ مَـا

جَعَلُوهُ مِنَ حُرُوثِهِم وَأنْعَامِـهِمْ للهِ، فَقَالَ الْكُفَّارُ: أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ وَرَزَقَهُ)[١].

قال الحسنُ: (كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ أَهْلَ إِجْبَار، فَقَالُوا: لَمْ يَشَأ اللهُ أَنْ نُطْعِمَهُ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَطْعَمْنَاهُ). ويقال لهم: ظَنُّوا بجهلِهم أنه تعالَى إذا كان قادراً على أن يُطعِمَهم فيُغنِيَهُم عن إنفاق الناس، وهذا القولُ منهم خطأ؛ لأنَّ الله تعالى أغنى بعضَ الخلقِ وأفقرَ بعضَهم لِيَبلِيَ الغنيَّ بالفقيرِ فيما فرضَ له في مالهِ من الزَّكاة، والمؤمنُ لا يَعتَرضُ على المشيئةِ، وإنما يوافقُ الأمرَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ هذا من قول الكفَّار للمؤمنين، يقولون لَهم: إنْ أنتم في اتِّباعِكم مُحَمَّداً ﷺ وتركِ دِيننا إلاَّ في خطأ بيِّنٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي يقولُ كفار مكَّة: متى هذا الوعدُ الذي تُعِدُنا يا مُحَمَّدُ ﷺ من القيامِ إنْ كنتم صادقِين أنتَ وأصحابُكَ أنَّا نُبعَثُ بعدَ الموتِ فأَرُونِي ذلكَ.

يقولُ الله تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي النَّفْخَةَ الَّتِي تَفْجُرُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فِي أمْرِ الدُّنْيَا وَفِي مُصْرِفَاتِهِمْ)، والمعنى: تأخذُهم الصيحةُ وهم يختَصِمون في البيعِ والشِّراء ويتكلَّمون في الأسواقِ والمجالسِ، وهي نفخةُ إسرافيلَ.

قِيْلَ: قرأ ابنُ كثير وورش (يَخَصِّمُونَ) بفتح الخاء وتشديد الصاد، وقرأ نافعُ غير ورشٍ ساكنة الخاء مشدَّدة الصادِ، وقرأ أبو عمرو بالإخفاءِ، وقرأ حمزةُ ساكنةَ الخاء مخفَّفة؛ أي فغلبَ بعضُهم بعضاً بالخِصَامِ، وأجودُ القراءةِ فتحُ الخاءِ مع تشديد الصادِ، ولأن الأصلَ يختَصِمون فأُلقِيَت حركةُ إلفِ المدغَمِ على الساكنِ الذي قبلَهُ وهو الخاءُ، وقرأ الباقون بكسرِ الخاء وتشديدِ الصاد[٢].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٨٨.

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢٦٨. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٠٨.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ ؛ أي فلا يستطيعُ أحدٌ أن يوصِيَ في شيءٍ من أمرِهِ، ﴿ وَلَا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي ولا يلبثُ أحدٌ أن يصيرَ إلى منْزله وأهلهِ؛ لأنَّها تأخذُهم بغتةً فيمُوتون في مكانِهم وفي أسواقِهم.

قال النبيُّ ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَن ثَوْباً جَدِيداً يُرِيدُ أحَدُهُمَا أنْ يَدْفَعَهُ إلَى صَاحِبه فَيَحُولُ قِيَامُ السَّاعَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَسْلِيمِهِ إلَى صَاحِبِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ أهوَى الرَّجُلُ بلُقْمَةٍ لِيَضَعَهَا فِي فِيْهِ فَيَحُولُ قِيَامُ السَّاعَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وُصُولِهَا إلَى فِيْهِ][1].

وقولـهُ تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي ونُفِخَ في الصورِ نفخةَ البعثِ، فإذا هُم من القبورِ الى عرَصَاتِ القيامةِ يخرُجون مُسرعين، والنَّسَلاَنُ مقاربَةُ الخطوِ مع الإسراعِ، ومنه نَسَلاَنُ الذِّئب وهو هَرولَتُهُ وخببه، والأجداثُ هو القبورُ.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: إنَّما يقولُون هذا؛ لأنَّ الله يرفعُ عنهم العذابَ فيما بين النَّفخَتين فيرقُدون، فلما بُعِثُوا في النفخةِ الآخرةِ وعَاينُوا القيامةَ ودعَوا بالويلِ والثُّبور، فقالوا: يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ فيقولُ الملائكة: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ على ألْسِنَةِ الرُّسل أنه يبعثُكم بعد الموتِ في موعدِ البعثِ.

وقال قتادةُ: (أوَّلُ الآيَةِ لِلْكَافِرِينَ وَآخِرُهَا لِلمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ الْكَافِرُ: يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا، وَقَالَ الْمُسْلِمُ: هَذا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)[2]. ويجوزُ أن يكون قولهُ هذا من نعتِ الْمَرْقَدِ، كأنَّهم يقولون: مَن بعثَنا من مرقدِنا هذا الذي كنَّا راقدين فيهِ ؟ فيقالُ لَهم: ما وعدَ الرحمنُ الذي بعثَكم. ويجوزُ أن يكون ما وعدَ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الرقائق: الحديث (٦٥٦٠). ومسلم في الصحيح: كتاب الفتن وأشراط الساعة: الحديث (١٤٠/ ٢٩٥٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٣٤٧).

الرحمنُ على هذا القولِ خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرهُ: حقٌّ ما وعدَ الرحمنُ، وهذا ما وعدَ الرحمنُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ هذا في النفخةِ الثانيةِ؛ أي ما كانت نفخةُ البعثِ إلاّ صيحةً واحدةً لا تُثنَّى، فإذا هم الأوَّلُون والآخرون في عرَصَات القيامةِ مُحضرون، فإهلاكُهم كان صيحةً واحدة، وبعثُ الخلائقِ كلّهم كان صيحةً واحدة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ ؛ أي لا ينقصُ من حسناتِ أحدٍ ولا يُزادُ على سيِّئات أحدٍ، ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ، ولا يُجزَى كلُّ عاملٍ إلاّ ما عَمِلَ من خيرٍ أو شرٍّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إن أصحابَ الجنَّة في الآخرةِ في شُغْلٍ فَاكِهُونَ. قرأ ابنُ كثير ونافعُ وأبو عمرو بجزمِ الغَينِ، وقرأ الباقون (فِي شُغُلٍ) بضمِّ الغينِ، وهما لُغتان مثلُ: السُّحُتِ وَالسُّحْتِ[(١)].

واختلفَ المفسِّرون في شُغلِهم، قال مقاتلُ: (شُغِلُوا بافْتِضَاضِ الْعَذارَى عَنْ أهْلِ النَّار فَلاَ يَذْكُرُونَهُمْ وَلاَ يَهْتَمُّونَ بهِمْ)[(٢)]. وقال الحسنُ: (شُغِلُوا بمَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ النِّعَمِ عَنْ مَا فِيهِ أهْلُ النَّار مِنَ الْعَذاب)[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدريِّ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ أهْلَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا جَامَعُوا نِسَاءَهُمْ عُدْنَ أبْكَاراً][(٤)]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَاكِهُونَ) أي أصحابُ فاكهةٍ، كما يقالُ: شَاحِمٍ لاَحِمٍ[(٥)]؛ أي ذُو شحمٍ ولحمٍ، وعاسِلٍ ذو عَسلٍ، وقرأ أبو جعفر

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢٧١.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٨٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٣٥٣).

(٤) في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٤١٧؛ قال الهيثمي: (رواه البزار والطبراني في الصغير، وفيه معلى ابن عبدالرحمن الواسطي، وهو كذاب).

(٥) في المخطوط تحريف: (شاخ لاخ).

(فَكِهُونَ) بغيرِ ألفٍ، والفَكِهُ: الفرِحُ الضَّحُوكُ، الطيِّبُ النفسِ، ويقالُ: فَاكِهٌ وَفَكِهٌ كحَاذِرٍ وحَذِرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ ﴾ ؛ أي هُم وحَلائِلُهم في ظِلاَلِ أشجار الجنَّة، ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ، على السُّرُر في الحجَال جالسُون بالاتِّكَاءِ جلسة المُلوكِ. والأرائِكُ: هي السُّرُرُ عليها الحجَالُ، وقولهُ تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ ؛ أي لَهم في الجنَّة ألوانُ الفواكهِ، ﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي ولَهم ما يتمنُّون ويسألُون، وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: وَلَهُمْ مَا يُرِيدُونَ)[١]. وَقِيْلَ: معناهُ: مَن ادَّعى شيئاً فهو لهُ يحكمُ الله عَزَّ وَجَلَّ لأنَّهم ما يدَّعون إلاَّ ما يحسنُ.

وقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي لهم سَلامٌ يسمعونَهُ من اللهِ، ويُعلِمُهم بدوامِ الأمنِ والسلامة مع سُبوغِ النعمة والكرامةِ. ويقالُ: تُحَيِّيهم الملائكةُ عن اللهِ تعالى، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾[٢].

وعن جابرِ بن عبدِالله قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [بَيْنَمَا أهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إذا سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ، فَيَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ، فإذا الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أهْلَ الْجَنَّةِ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) فَيَنْظُرُ إلَيْهِمْ وَيَنْظُرُونَ إلَيْهِ، فَلاَ يَلْتَفِتُوا إلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إلَيْهِ حَتَّى يُحْجَبَ عَنْهُمْ، فَيَبْقَى نُورُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ عناهُ: تفرَّقُوا، وقال السديُّ: معناهُ: (كُونُوا عَلَى حِدَةٍ)[٤]، ومقاتلُ: (مَعْنَاهُ: اعْتَزِلُواْ الْيَوْمَ يَعْنِي فِي الآخِرَةِ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٨٩.

(٢) الرعد / ٢٣-٢٤.

(٣) رواه ابن ماجة في السنن: المقدمة: الحديث (١٨٤).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٨٣.

مِنَ الصَّالِحِينَ)[(١)]. وقال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ: تَفَرَّدُوا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)[(٢)]. ومعنى الآيةِ: أنه يقالُ للمُجرمين: تَمَيَّزُوا عنِ المؤمنين، وذلك أنَّ الخلقَ كلَّهم يُحشَرون مختلطِين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾؛ أي ألَمْ آمُرْكُم وأوصِ إليكم، وقال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ: أَلَمْ أَقَدِّمْ لَكُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ، أيْ لاَ تُطِيعُوا الشَّيْطَانَ، وَمَنْ أطَاعَ شَيْئاً فَقَدْ عَبَدَهُ)[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾؛ أي عدوٌّ ظاهرُ العداوةِ، أخرجَ أبوَيكم من الجنَّة، ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ﴾؛ أي أطِيعُونِي ووحِّدونِي، ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾؛ أي طريقٌ مستقيم قائمٌ، يعني دينَ الإسلامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾؛ أي ولقد أضلَّ الشيطانُ منكم أمَماً كثيرةً، وَقِيْلَ: خلْقاً كثيراً.

قرأ عليٌّ رضي الله عنه (جِبْلاً كَثِيراً) بسكون الباءِ مخفَّفاً، وقرأ عاصمُ ونافع وأيوب: (جِبِلاًّ) بكسرِ الجيم والباءِ وتشديد اللامِ. وقرأ يعقوبُ بضمِّ الجيمِ والباء وتشديدِ اللام، وقرأ ابنُ عامرٍ وأبو عمرو: (جُبْلاً) بضمِّ الجيمِ وسكون الباء مخفَّفاً، وقرأ الباقون بضمِّ الجيمِ والباء وتخفيفِ اللام، وكلُّها لغاتٌ، ومعناها الخلقُ والجماعةُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾؛ أي أفلَم تعقِلُوا ما رأيتُم من الأُمَمِ إذ أطَاعُوا إبليسَ وعَصَوا الرَّسُولَ فأهلَكُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾؛ أي يقالُ لهم حين دَنَوا من النار: (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) بها في الدُّنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى:

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٩٠.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٢٠، ولفظه: (انفردوا).

(٣) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٢٠؛ قال الزجاج: (ومعناه: ألم أتقدم إليكم بعهدِ الإيمان وترك عبادة الشيطان).

﴿ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي إلزَمُوها اليومَ بكُفرِكم، وقَاسُوا حرَّها، وقولهُ تعالى (الْيَوْمَ) يعني يومَ القيامةِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم يُنكِرُون الشِّركَ فيقولون: واللهِ ربنا ما كُنَّا مُشركين، فيختِمُ اللهُ على أفواهِهم، ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ وتكلَّمت جوارحُهم فشَهدَتْ عليهم بما عَمِلوا، وقولهُ تعالى: ﴿ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ قال عقبةُ بن عامر: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [أوَّلُ عَظْمٍ يَنْطِقُ مِنَ الإنْسَانِ فَخِذُهُ مِنْ رِجْلِهِ الشِّمَال][(١)]. ورُوي عن النبيِّ ﷺ قالَ: [أوَّلُ مَا تَكَلَّمَ مِنَ الإنْسَانِ فَخِذُهُ وَكَفُّهُ][(٢)].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ ؛ أي ولو نشاءُ ذهَبنا أعيُنَهم وجعلنَاها بحيث لا يبدُو لها شِقّاً ولا جِفْناً، والمعنى: ولو نشاءُ لأعمَيناهُم في أسواقِهم ومجالسِهم بتكذيبهم إيَّاكَ يا مُحَمَّدُ كما فعَلنَا بقومِ لُوطٍ حين رَاوَدُوهُ عن ضَيفِهِ. وقولهُ تعالى: ﴿ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ ؛ فغَلَبُوا السَّبقَ وتبادَرُوا إلى الطريقِ إلى منازلِهم، ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ لو فعَلنا ذلك بهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ ؛ أي في منازلِهم فصيَّرناهم قردةً وخنازيرَ وحجارةً ليس فيها روحٌ، ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يقدِرُون على ذهابٍ ومجيءٍ، والْمَسْخُ في اللغة نِهَايَةُ التبديل.

قولهُ: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾ ؛ أي ومَن نُطوِّلْ عُمرَهُ في الدُّنيا نردهُ إلى الحالةِ الأُولى من الضَّعفِ، قال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ: مَنْ أطَلْنَا عُمْرَهُ نَكَّسْنَا خَلْقَهُ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص١٥١. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣١٩٨. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٥١؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني وإسنادهما جيد).

(٢) رواه الطبراني في كتاب الأوائل: ص٧٩. والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٥١؛ قال الهيثمي: (رجاله ثقات). وفي المخطوط تحريف، قال: [وكَتِفهُ] والصحيح ما أثبتناه.

فَصَارَ بَدَلُ الْقُوَّةِ ضَعْفاً، وَبَدَلُ الشَّبَابِ هَرَماً)[١] ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ؛ أن القادرَ على ردِّ البشرِ من حالة القوَّة والكمالِ؛ أي حالِ الضَّعفِ وزوالِ العقلِ، قادرٌ على إعادةِ الخلقِ بعد الموت.

ومَن قرأ (تَعْقِلُونَ) بالتاءِ فهو على مُخاطَبة الكفار. قرأ عاصمٌ وحمزة والأعمش: (نُنَكِّسْهُ) بالتشديدِ، وقرأ غيرُهم بالتخفيفِ وفتح النونِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ ؛ إن كفارَ مكَّة قالُوا للنبيِّ ﷺ: إنه شاعرٌ، وإنَّ القرآنَ شِعرٌ، فأكذبَهم اللهُ بقولهِ تعالى (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) أي وما يتسهلُ له ذلك، وما كان يتَّزِنُ له بيتُ شِعرٍ جرَى على لسانهِ مُنكِراً.

قال الحكيمُ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَمَثَّلُ بقَوْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ مَرْدَاسَ:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَـ ... ـدِ بَيْنَ الأَقْرَعِ وعُيَيْنَةَ

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ إنَّمَا هُوَ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ، فَقَامَ إلَيْهِ أبُو بَكْرٍ وَقَبَّلَ رَأسَهُ وَقَالَ: صَدَقَ اللهُ ﴿وَما عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[٢].

وعن الحسنِ ﷺ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَمَثَّلُ بِهَذا الْبَيْتِ: [كَفَى بالإسْلاَمِ وَالشَّيْب لِلْمَرْءِ نَاهِياً] فَقَالَ أبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ إنَّمَا قَالَ الشَّاعِرُ (كَفَى الشَّيْبُ وَالإسْلاَمُ لِلْمَرْءِ نَاهِياً)[٣] فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٢١.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٧١؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن سعد عن عبدالرحمن بن أبي الزناد). والبيت للعباس بن مرداس:

فَأَصْبَحَ نَهْبِي وَنَهْبُ الْعُبَـ ... ـيْدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأقْرَعِ

(٣) للشاعر سحيم، وهو عبد حبشي

عُمَيرَةَ وَدِّعْ إنْ تَجَهَّزْتَ غَادِيَا ... كَفَى الشَّيْبُ وَالإسْلاَمُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ أنَّهَا سُئِلَتْ هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَمَثَّلُ بشَيْءٍ مِنَ الشِّعْرِ؟ فَقَالَتْ: كَانَ الشِّعْرُ أبْغَضَ الْحَدِيثِ إلَيْهِ، وَلَمْ يَتَمَثَّلْ بَيْتاً مِنَ الشِّعْرِ إلاَّ بَيْتَ طُرْفَةَ: [سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّد بالأَخْبَارِ]. فَقَالَ أبُو بَكْرٍ: لَيْسَ هَذا هَكَذا يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّمَا هُوَ: وَيَأْتِيكَ بالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ[1]، فَقَالَ: [إنِّي لَسْتُ بشَاعِرٍ وَمَا يَنْبَغِي لِيَ الشِّعْرُ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾؛ أي ما القرآنُ إلاَّ ذكرٌ وموعظة، فيه الفرائضُ والحدود والأحكامُ، ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾؛ قرأ نافعُ وابن عامر بالتاءِ، والخطابُ للنبيِّ ﷺ، وقرأ الباقون بالياءِ، يعني لِيُنذِرَ القرآنُ مَن كان حيّاً، يعني مُؤمِناً حيَّ القلب، لأن الكافرَ كالميِّتِ في أنه لا يتدبَّرُ ولا يتفكَّرُ، ﴿ وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾؛ أي وتجبُ الحجَّةُ بالقرآنِ على الكافرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴾؛ معناهُ: أوَلَم يُشاهِدوا أنَّا خلَقْنا لَهم مما تولَّينا خلقَهُ بإيداعِنا وإنشائنا؟ لم يُشاركنا في خلقِ ذلك شريكٌ ولا مُعِينٌ. وذكرُ الأيدِي هَهُنا يدلُّ على انفرادهِ بما خلقَ، والمعنى أوَلَم يروا أنَّا خلَقْنا لَهم مما عمِلناهُ بقدرَتِنا ؟ لا مما عملتْهُ أيدي مالكِيها أنعاماً وهو الإبلُ والبقر والغنم لها مالِكون وضابطون، قاهرون لها يصرِّفونَها كيف يشاؤُن، واليدُ تُذكَرُ ويرادُ بها القدرةُ وإظهار صُنعهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ ﴾؛ أي لَم يخلُقِ الأنعامَ نافرةً من بني آدمَ ولا يقدِرون على ضَبطِها، بل هي مسخَّرةٌ لهم، والمعنى: وسخَّرناها لهم مع قوَّتِها

---

(١) طرفة بن العبد:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ بالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٣١. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٢٣٨٤). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٠٠. وفي الدر المنثور: ج ١٠ ص٧١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم)، وقال: (أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد).

وضعفِهم، ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ ؛ أي مَركوبُهم، ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ من لحومِها، فقولهُ (فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ) يعني الإبلَ، قال عروةُ: (فِي مُصْحَفِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا (رُكُوبَتُهُمْ))[1] والركُوبُ والركُوبةُ واحدٌ، مثل الحمُول والحمولَةِ، يقالُ: هذه الجِمَالُ ركوبةُ القومِ وركوبتهم، وهذه النُّوقُ حلوبةُ القومِ وحَلوبُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ﴾ ؛ أي مِن أصوافِها وأوبارها وأشعارها ونسلِها ومشارب من ألبانِها، ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ ربَّ هذه النعمةِ فيُوحِّدونَهُ جميعهم وأفرادهم.

فقالَ: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي عَبَدوا من دون الله أصناماً رجاءَ أن يَنصرُونَهم ويشفَعُوا لهم، كما قالُوا: ما نعبدُهم إلاَّ ليُقرِّبُونا إلى اللهِ زُلفَى، فنفَى اللهُ نصرهم بقولهِ: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ ؛ أي لا تقدرُ آلِهتُهم أن تُمنعَهم من العذاب، ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي لهم الأصنامُ كالعبيدِ للأرباب قيامٌ بين أيدِيهم ينتصرون بهم، والأصنامُ لا تقدرُ على نصرهم ولا نصرِ أنفسهم. ويجوزُ أن يكون معناهُ: والمشركون مُحضَرون من الأصنامِ في النار توبيخاً لَهم وتعذيباً للذين كانوا يَعبُدونَهم. وَقِيْلَ: معناهُ: إن المشركين ينصُرون الأصنامَ وهي لاَ تستطيع نصرَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ ؛ أي لا يُحزنُكَ يا مُحَمَّدُ قولَ كفَّار مكَّة في تكذيبهم إياكَ وقولِهم إنكَ شاعرٌ، ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ ؛ في نُفوسِهم من تكذيبهم ومَكرهم وخيانتِهم، ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ لكَ من العداوةِ بألسِنَتهم. والمعنى: إنا نُثَبِّتُكَ ونُجازيهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ يعني أبيَّ بن خلَفِ الجمحيّ خاصمَ النبيَّ ﷺ في إنكار البعث، وأتاهُ بعظمٍ قد بَلِيَ وجعلَ يُفتِّتَهُ ويُذرِّيهِ في الرِّياحِ، ويقولُ في أصحابهِ: أيُحيي اللهُ هذا العظمَ بعد ما رمَّ؟! وبقولِهم: إنَّ مُحَمَّداً يقولُ إذا مِتْنا وصِرْنا تُراباً نُعادُ، وتُنفخُ فينا

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٧٢؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو عبيد وابن المنذر) وذكره.

الروحُ؛ إنَّ هذا الشيءَ عجيبٌ! مَن يقدرُ أن يُحيي العظامَ وهي رميمٌ؟!، فقالَ النبيُّ ﷺ: [يُحيي اللهُ هَذا وَيُميتُكَ وَيُدْخِلُكَ النَّارَ] فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ[1].

والمعنى: أوَلَم يرَ الإنسانُ أنَّا خلقناهُ مع الحياةِ والعقلِ والحواسِّ من نطفةٍ فبلَّغناهُ؛ أي أن صارَ خَصْماً جَدِلاً ظاهرَ الخصومةِ، وهذا تعجيبٌ من جهلهِ وإنكارٌ عليه خصومتَهُ؛ أي لا يتفكَّرُ بدءَ خلقهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ ؛ أي ضربَ المثلَ في إنكار البعث بالعظمِ البالِي يفته بيدهِ، ونسِيَ خَلقَنا إياهُ وبعدَ أن لَم يكن شيئاً حتى صارَ مُخاصِماً فـ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي شيءٌ بالٍ قاسٍ، قدَّرَ اللهَ تعالى بقُدرةِ الخلقِ، فأنكرَ إحياءَ العظم البالِي ما لم يكن ذلك في مقدورِ البشر.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّد: الذي خلقَ من العدمِ إلى الوجودِ قادرٌ على الإعادةِ بعد المماتِ، وهو عليمٌ بالخلقِ بعد أنْ خلَقَهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ في هذه الآيةِ زيادةُ بيانٍ عن عجيب صُنعهِ، ومعنى ذلك الزُّنُودُ التي كانت العربُ يُورُّونَ منها النارَ، كانوا إذا احتَاجُوا إلى النار أخَذُوا غُصناً من شجرِ الْمَرْخِ وغُصناً من شجرِ العَفَار وهو الأدينُ، فضَرَبُوا أحدَهما بالآخرِ فخرجت النارُ، فقيلَ لَهم: إنَّ الذي جمعَ بين الماءِ والنار في الشَّجرِ الأخضرِ قادرٌ على تضادِّهما، لا يطفئُ الماءُ النارَ، ولا تحرقُ النارُ الشجرَ، قادرٌ على أن يبعثَكم ويرُدَّ أرواحَكم إلى أجسادِكم[2]. ويقالُ: ما مِن شجرةٍ إلاَّ وفيها نارٌ غيرَ شجرة العِنَّاب، ولذلك يختارُها

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٢٣٩٦). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٠٣. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٧٤-٧٥؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في البعث عن أبي مالك، وأخرجه عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٦٠؛ قال القرطبي: (ويعني بالآية ما في صفاتِ الْمَرْخِ=

القصَّارون لدقِّ الثياب عليها.

ثُم ذكرَ اللهُ عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ، ما هو أعظمُ خَلقاً من الإنسانِ فقال: ﴿ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ ؛ معناهُ: إن الذي قَدِرَ على خلقِ السَّموات والأرضِ في عِظَمِهما وعجائبِهما يقدرُ على إعادةِ خلقِ البشرِ؛ لأن خلقَ السَّموات والأرضِ وما فيهما أبلغُ في القدرةِ من إحياءِ الموتى، أفَليسَ القادرُ عليهما قادرٌ على الإعادةِ ؟ ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ﴾ ، يخلقُ خلقاً بعد خلقٍ، ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ ، بجميعِ ما خلقَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنما أمرهُ إذا أرادَ شيئاً من البعثِ وغيرِهِ أن يقولَ له: كُنْ بغيرِ واسطةٍ. فإن قِيْلَ: لِمَ لا ينصبُ قوله تعالى (فَيَكُونُ) على جواب الأمر كما يقالُ: آتِني فأُكرِمَكَ، قُلنا: ذاك مستقبلٌ مستحبٌّ، الثاني: بوجوب الأدنى، وهذا كائنٌ مع إرادةِ الله تعالى، فالفعلُ واجبٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ نـزَّهَ اللهُ تعالى أنْ يوصفَ بغيرِ القدرةِ؛ أي تنْزيهاً للَّذي له القدرةُ على كلِّ شيءٍ مِن أن يوصفَ بغيرِ القدرة، (وَمَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) أي مَلِكُ كلِّ شيءٍ، والقدرةُ على كلِّ شيء، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ بعدَ الموتِ فيجزيَكم بأعمالِكم.

آخر تفسير سورة (يس) والحمد لله رب العالمين.

=والعَفَار، وهي زَنادَةُ العربِ، ومنهُ قولهم: في كلِّ شجرةٍ نارٌ واستمجد الْمَرْخُ والعَفَارُ، فالعَفَارُ الزَّنْدُ وهو الأعلى، والْمَرْخُ الزَّنْدَةُ وهي الأسفلُ، ويُؤخذ منهما غُصنان مثل السِّوَاكَين يقطُران ماءً، فيُحَكُّ بعضُهما إلى بعضٍ فتخرجُ منهما النارُ).

سُورَةُ الصَّافَّات

سُورَةُ الصَّافَّاتِ مَكِّيَّةٌ[1]، وَهِيَ ثَلاَثَةُ آلاَفٍ وَثَمَانُمِائَةٍ وَسِتَّةٌ وَعُشْرُونَ حَرْفاً، وَثَمَانُمِائَةٍ وَسِتُّونَ كَلِمَةً، وَمِائَةٌ وَاثْنَانِ وَثَمَانُونَ آيَةً.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ وَالصَّافَّاتِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلِّ جِنِّيٍّ وَشَيْطَانٍ، وَتَبَاعَدَتْ مِنْهُ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ، وَبَرِئَ مِنَ الشِّرْكِ، وَشَهِدَ لَهُ حَافِظَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أنَّهُ كَانَ مُؤْمِناً بِالْمُرْسَلِينَ][2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ ﴾ ؛ يعني صُفوفَ الملائكةِ في السَّماءِ كصُفُوفِ الخلقِ في الدُّنيا للصَّلاةِ، وهذا قَسَمٌ أقسمَ اللهُ تعالى بالملائكةِ التي تَصُفُّ أنفُسَها في السَّماء، قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُ الْمَلاَئِكَةَ صُفُوفاً لاَ يُعْرَفُ كُلُّ مَلَكٍ مِنْهُمْ مِنْ إلَى جَانِبِه، لَمْ يَلْتَفِتْ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)[3]. وَقِيْلَ: أقسمَ اللهُ بصُفُوفِ الملائكةِ تَصُفُّ أجنحتَها في الهواءِ واقفةً فيه حتى يأمُرَ اللهُ بما يريدُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أرادَ به الملائكةَ الذين يَزجُرون السَّحابَ فيسُوقُونَهُ إلى الموضعِ الذي أُمِرُوا به ويُؤَلِّفُونَهُ، وقال قتادةُ: (يَعْنِي زَوَاجِرَ الْقُرْآنِ)[4] وَهُوَ كُلُّ مَا يَنْهَى وَيَزْجُرُ عَنِ الْقَبِيحِ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٦١؛ قرَّرَ القرطبيُّ قال: (مكيَّة في قول الجميع).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٦٦.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٨٦.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٤٠٨). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨١٢٨) عن أنس ﷺ ولفظه: (مَا زَجَرَ اللهُ عنه في القرآن).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ يعني جبريلَ والملائكةَ يَتْلُـونَ كتابَ اللهِ وذكره، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ جوابُ القسمِ، وإنما وقعَ القسَمُ بهذه الملائكةِ؛ لأن في تعظيمِها تعظيماً للهِ، وَقِيْلَ: هذا أقسمَ باللهِ تعالى على تقدير: وربِ الصافَّات، إلاَّ أنه حُذفَ لما يقتضِي من التعظيمِ، وكذلك ﴿وَالذاريَاتِ﴾ ﴿وَالطُّورِ﴾ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ وغيرِ ذلكَ.

وقد تضمَّنت الآيةُ تشريفَ الملائكةِ وتعظيمَ الاصطفافِ في الصَّلاة، وفي الحديثِ: [إنَّهُمْ يَصْطَفُّونَ فِي صَلاَتِهِمْ فِي السَّمَاءِ وَيُسَبحُونَ اللهَ تَعَالَى وَيَذْكُرُونَهُ، وَيَرْفَعُونَ أصْوَاتَهُمْ بقِرَاءَةِ الْقُرْآن فِي الصَّلاَةِ كَمَا يَصْطَفُّ النَّاسُ فِي صَلاَتِهِمْ][1]. قال مقاتلُ: (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُوا: أجَعَلَ الآلِهَةَ إلَهاً وَاحِداً، فَأَقْسَمَ اللهُ بهَؤُلاَءِ أنَّ إلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ ؛ أي خالقهما ومشيّتهما وتدبُّر ما بينهما، ﴿ وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ ﴾ ، مالكُ المشارق، وإنما قالَ هَهُنا: (رَبُّ الْمَشَارِق) لأن للشمسِ ثلاثمائة وستِّين مَشرقاً، تطلعُ كلَّ يومٍ من مشرقٍ، وتغربُ في مغربٍ، فإذا تحوَّلت السَّنةُ عادت إلى المشرق والمغرب، فإنما أرادَ جانبَ المشرق وجانبَ المغرب. وَقِيْلَ: أرادَ به الجنسَ، وَقِيْلَ: أرادَ به مشرقَها ومغربَها في يومٍ واحد. وأما قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾[3] فقيل: إنما أرادَ به مشرقَ الشمسِ ومشرقَ القمرِ. وَقِيْلَ: أرادَ بذلك مشرقَ الشتاءِ والصيفِ ومغربَها. وشروقُ الشمسِ: طلُوعُها، يقال: شَرَقَتْ إذا طَلَعَتْ، وأشرقَت اذا أضاءَتْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي زيَّنا السماءَ التي هي أدنى إليكم مِن سائرِ السَّموات بضوءِ الكواكب ونُورها، قرأ أبو بكر (بزِينَةٍ) بالتنوينِ ونصبَ (الْكَوَاكِبَ) عمل الزِّينة في الكواكب؛ أي بأنْ زيَّنا الكواكبَ

(١) بمعناه: أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الصلاة: الحديث (١١٩/ ٤٣٠).
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٩٤.
(٣) الرحمن / ١٧.

فيها، وقرأ حمزةُ وحفص (بزِينَةٍ) بالتنوينِ وخفضِ (الْكَوَاكِبِ) على البـدلِ؛ أي بزينـةٍ بالكواكب، وقرأ الباقون بالإضافة[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي جعَلَ الكواكـبَ حِفْظاً من كلِّ شيطان متجرِّدٍ للشرِّ، يُقذفون بها إذا استَرَقوا السمعَ، والمـاردُ: الخبيـثُ الْخَالِي من الخيرِ، والْمَارِدُ: هو الْمُتَمَرِّدُ، قال الحسـنُ: (وَهَـذا دَلِيـلٌ أنَّـهُ إنَّمَـا يُرْجَـمُ بالْكَوَاكِبِ بَعْضُ الشَّيَاطِينِ وَهُمُ الْمَرَدَةُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ؛ كأنَّهُ قـالَ: (لاَ يَسْـمَعُونَ) أي لا يسمعُ مَرَدَةُ الشياطين إلى الملائكةِ ولا إلى كلامِهم، قال الكلـبيُّ: (مَعْنَـى الآيَـةِ: لِكَيْلاَ يَسْمَعُوا إلَى الْكَتَبَةِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ). والملأُ الأعلى: همُ الملائكةُ؛ لأنَّهم في السَّماءِ، قرأ أهلُ الكوفةِ (يَسَّمَّعُونَ) بالتشديدِ أي يسمَعُون.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي يُرمَون من كلِّ جانبٍ بالشُّهُب، يعني أنَّ الشياطين يُرمَون بالشُّهب عندَ دُنُوِّهِمْ مـن السَّـماء لاستماعِ كـلامِ الملائكة في تدبُّر أمُور الدُّنيا، يُرمَون بالشُّهب من نواحِي السَّماء وأطرافِها.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي طَـرْداً وإبْعَـاداً، يقال: دَحَرَهُ دَحْراً ودُحُوراً؛ إذا طَرَدَهُ وأبعدَهُ، ولهم مع ذلك في الآخرةِ عذابٌ وَاصِبٌ أي دائمٌ لا ينقطعُ، وَقِيْلَ: معنى الواصِب الموجِع، من الوَصَب وهـو الوجَـعُ، وَقِيْـلَ: الوجَعُ. معنى الآية: أنَّهم يُدحَرُونَ ويُبعَدُون عن تلك المجالسِ الـتي يسـترِقُون السـمعَ (وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ) أي دائمٌ إلى النفخةِ الأُولى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ﴾ ؛ أي إلاَّ مـنِ اختلـسَ الكلمـةَ مـن كـلامِ الملائكـة مُسَـارَقَةً، ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي لَحِقَـهُ وأصابَـهُ نارٌ مضيئة تُحرِقهُ، والثاقبُ: النَّيِّرُ المضيءُ، وهذا قولهُ إلاَّ مَنِ استرقَ السمعَ مُختَلِساً.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج٣ ص٢٧٨؛ قال:(وهي المعروفة من قراءة عاصم). وفي معـالم التنزيل: ص١٠٨٧؛ قال البغوي: (قرأ عاصم، برواية أبي بكر) وذكرها.

والْخَطْفُ: أخذُ الشيءِ بسرعة. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) أي نجمٌ وهَّاجٌ متوقِّد مضيءٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ ؛ قبلَهم من الأُمم الماضيةِ، كانت الأُمم الماضيةُ أشدُّ منهم قوَّةً وآثاراً في الأرض، فأهلكناهم بكُفرِهم وتكذيبهم، فكيف يأمَنُ هؤلاءِ الهلاكَ مع إصرارهم على الكفر وهم أضعفُ مِمَّن قبلَهم.

ثم ذكرَ خلقَ الإنسان فقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي خلَقنا أصلَهم وهو أبو البشر آدمَ من طينٍ لأزبٍ لاصقٍ ثابت، يقالُ: له ضربَةُ لأزبٍ، وضربَةُ لازمٍ، وإذا خلَقَ أصلَهم من طينٍ لازمٍ فكيف لا يُقِرُّونَ بقدرةِ الله تعالى على البَعثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي بل عَجِبتَ يا مُحَمَّد من إنكارهم للبعث مع ظُهور ما وَجَبَ من الحجَّة والأدلة، ويقالُ: بل عَجِبَ من جهلِهم حيث اختارُوا ما تجبُ به النارُ لهم وتركوا ما يجب لهم به الجنَّة، وهم يسخَرون من بعثَتِكَ، ويستهزئون بكلامِكَ بالقرآن.

وقرأ حمزةُ والكسائي وخلَف بضمِّ التاء، وهي قراءةُ ابن مسعود على معنى أنَّهم قد حلُّوا محلَّ مَن تعجَّبَ منهم، وقال الحسنُ بن الفضل: (الْعَجَبُ مِنَ اللهِ عَلَى خِلاَفِ الْعَجَب مِنَ الآدَمِيِّينَ، وَإنَّمَا مَعْنَى الْعَجَب هَهُنَا هُوَ الإنْكَارُ وَالتَّعْظِيمُ، وَقَدْ جَاءَ الْخَبَرُ: [أنَّ اللهَ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّاب لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ](١))(٢).

وَقِيْلَ: إن الجنيدَ سُئِلَ عن هذه الآيةِ فقال: (اللهُ لاَ يَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ، وَلَكِنَّ اللهَ وَافَقَ رَسُولَهُ لَمَّا عَجِبَ رَسُولُهُ فَقَالَ: ﴿وَإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾(٣) أيْ هُوَ كَمَا

---

(١) الصَّبْوَةُ: ميلٌ إلى الهوى.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص١٥١. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٢٧٠؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، وإسناده حسن). وأخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٥ ص٢٤٣؛ وقال: (هذا حديث لا أعلم يرويه غير ابن لهيعة).

(٣) الرعد / ٥.

تَقُولُهُ)(١). قال شُرَيحُ: (إنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ لاَ يُعْلَمُ، وَاللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ)(٢).

وقرأ الباقونَ (بَلْ عَجِبْتَ) بفتحِ التاء على خطاب النبيِّ ﷺ. و(بَلْ) معناه: تركُ الكلامِ الأوَّلِ والآخرِ في كلامٍ آخر، كأنَّهُ قال: دَعْ يا مُحَمَّد ما مضَى عجيبٌ من كفار مكَّة حين أوحيَ إليك القرآنُ ولَم يؤمنوا بهِ.

وقولهُ تعالى (وَيَسْخَرُونَ) لأنَّ سُخريَتَهم بالقرآن تركُ الإيمان به، قال قتادةُ: (عَجِبَ نَبِيُّ اللهِ مِنْ هَذا الْقُرْآنِ حِينَ نَزَلَ عَلَيْهِ، وَظَنَّ أنَّ كُلَّ مَنْ سَمِعَهُ آمَنَ بِهِ، فَلَمَّا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَسَخِرُوا مِنْهُ، عَجِبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذلِكَ، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: عَجِبْتَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ عَلَيْكَ وَتَرْكِهِمُ الإيْمَانَ)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ وإذا وُعِظُوا بالقرآنِ لا يتَّعظون، ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ إذا رأوا معجزةً مثلَ انشقاق القمَرِ وغيره اتَّخذوهُ سُخريَةً، ونسبُوا ما دلَّهم على توحيدِ الله تعالى إلى السِّحر، ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ . وقالوا أيضاً على وجهِ الإنكار: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا ﴾ ؛ صِرْنا؛ ﴿ تُرَابًا وَعِظَامًا ﴾ ؛ باليةً، ﴿ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي أنُبعثُ بعدَ الموتِ، ﴿ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ الذين مضَوا قبلَنا، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَهم يا مُحَمَّد: ﴿ نَعَمْ ﴾ ؛ تُبعثون ﴿ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أنتم وآباؤُكم؛ أي وأنتم أذلاَّءُ صاغِرُون، والدُّخُورُ أشَدُّ الذُّلِّ.

ثم ذكَرَ أنَّ بعثَهم يقعُ بزَجرَةٍ واحدةٍ؛ أي بصَيحَةٍ واحدةٍ، فإذا هم قيامٌ ينظُرون ماذا يُؤمَرون به، وقولهُ تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ؛ أي فإنَّما قضيةُ البعثِ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٨٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٠٦. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٨٢؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق الأعمش).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٤٤٨). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٠٧.

صيحةٌ واحدة من إسرافيلَ، يعني نفخةَ البعثِ، ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ ؛ أي بُعِثَ الذي كذبوا به.

فلما عايَنُوا البعثَ ذكَرُوا قولَ الرسُلِ في الدُّنيا أنَّ البعثَ حقٌّ، فدَعَوا بالويلِ، ﴿وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا﴾ ؛ من العذاب، ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ ؛ أي هذا يومُ الحساب والجزاء نُجازَى فيه بأعمالِنا. فقالت الملائكةُ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ ؛ يومُ القضاءِ، ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ ؛ يُفْصَلُ به بين الْمُسِيءِ والْمُحسِنِ، والْمُحِقِّ والْمُبْطِلِ، وهو اليومُ الذي كنتم به تكذِّبون في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ ؛ أي فيقالُ لِخَزَنَةِ جهنَّم: اجْمَعُوا الذين ظلَمُوا وقُرناءَهم من الشَّياطين الذين قبَضُوا لضَلالَتِهم، ويقالُ: أرادَ بالأزواجِ نُظَراءَهُمْ وأشكالَهم من الأتباعِ. والزَّوجُ في اللغة: النظيرُ، ومن ذلك: زوجَانِ من الْخُفِّ. ويقالُ: أرادَ بالأزواجِ نِساءَهُم، سواءاً أكانت امرأةُ الكافرِ كافرةً أو منافقةً، والمعنى: اجمعوا الذين ظلَمُوا من حيث هم إلى الوقفِ للجزاء والحساب، والمرادُ بالذين ظلَمُوا المشركينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ؛ يعني اجْمَعُوا المشركين وأتباعَهم وأوثانَهم وطواغيتَهم وأصنامهم التي كانوا يعبُدونها من دون اللهِ، قال مقاتلُ: (يَعْنِي إبْلِيسَ وَجُنُودَهُ)[١] فَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَـهُمْ مِنْ دُون اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ ؛ أي سُوقُوهم واذهَبُوا بهم إلى فريقِ الجحيم.

فلما انطُلِقَ بهم إلى جهنَّم أرسلَ مَلَكٌ يقولُ لِخَزَنَةِ جهنَّم: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ؛ أي اسألُهم في موضعِ الحساب، يُسألُوا ويعرفوا أعمالَهم، وهذا سؤالُ توبيخٍ لا سؤالُ استفهامٍ، قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (إنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ عَنْ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٩٧.
(٢) يس~ / ٦٠.

أعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَأقَاوِيلِهِمْ)[١]، وقال مقاتلُ: (تَسْألُهُمْ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ: ألَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ، ألَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)[٢].

ويجوزُ أن يكون هذا السؤالُ ما ذُكِرَ بعدُ، وهو قولُهُ: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي يقالُ لَهم على سبيلِ التوبيخِ: ما لكم لا ينصرُ بعضُكم بعضاً كما كنتم في الدُّنيا.

وذلك أنَّ أبا جهلٍ لَعَنَهُ اللهُ قالَ يومَ بدرٍ: نحنُ جميعٌ منتصر، فقيلَ لهم ذلكَ اليوم: ما لَكم غير متناصِرين، وأنتم زعَمتُم في الدُّنيا أنكم تُناصَرون، فاللهُ تعالى قال: ﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي مُنقَادُون خاضِعون لِمَا يرادُ بهم، والمعنى: هم اليومَ أذِلاَّءُ منقادون، لا حيلةَ لهم، فالعابدُ منهم والمعبودُ لا يحمِلُ عن أحدِهم أحداً ولا يمنعُ أحدٌ عن أحدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي أقبلَ الشياطين والمشركون يسألُ بعضهم بعضاً سؤالَ توبيخٍ، ﴿ قَالُوٓاْ ﴾، فيقولُ المشركون للشياطين: ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ فتُزَيِّنوا لنا الضَّلالةَ، وتَردُّوننا عن الخيرِ، ﴿ قَالُواْ ﴾، فيقولُ لهم الشياطين: ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ إنما كان الكفرُ مِن قِبَلِكم، ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ﴾؛ أي من قُوَّةٍ فنُجبرَكم على الكفرِ، ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي مُتجاوزين ضَالِّين.

وقال الحسنُ فِي مَعْنَى الآيَةِ: (وَأقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ أيْ أقْبَلَ التَّابعُونَ عَلَى الْمَتْبُوعِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَيَقُولُونَ: لَوْلاَ أنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ، فَيَقُولُ لَهُمُ الرُّؤَسَاءُ: مَا أجْبَرْنَاكُمْ عَلَى الْكُفْرِ بَلْ كَفَرْتُمْ بسُوءِ اخْتِيَاركُمْ، فَيَقُولُ لَهُمُ التَّابعُونَ: إنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ؛ أيْ مِنْ أقْوَى الْجِهَاتِ، وَذلِكَ أنَّ جِهَةَ الْيَمِينِ أقْوَى مِنْ جِهَةِ الشِّمَالِ، كَمَا أنَّ الْيَمِينَ أقْوَى مِنَ الشِّمَال)[٣] وتقديرهُ: خدَعتُمونا بأقوَى الوجُوهِ،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٠٨.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٩٧.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٠٩ مختصراً.

واليمينُ هي القوَّة، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بالْيَمِينِ﴾[(١)] أي بالقوَّة.

وقال قتادةُ: (مَعْنَى: إنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ؛ أيْ تَمْنَعُونَنَا عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى)[(٢)] فَيَقُولُ الرُّؤَسَاءُ: لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ فِي الأَصْلِ، إذا لَمْ تَكُونُوا تُرِيدُونَهُ، فَكَيْفَ إجْبَارُكُمْ عَلَيْهِ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سَلْطَنَةِ الإجْبَارِ عَلَى الْكُفْرِ، ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ ؛ أي فوجبَ علينا جَميعاً كلمةُ ربنا بالعذاب والسُّخط، وهي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[(٣)].

وقوله: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ ؛ أي لذائِقُوا العذاب، فالضَّالُّ والْمُضِلُّ في النار، وقولهُ تعالى: ﴿فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ﴾ ؛ أي أضْلَلْنَاكم عن الهدَى ودعوناكم إلى الغِوَايَةِ، ﴿إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ، بأنفسِنا.

يقولُ الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ؛ أي لا ينفعُهم التنازعُ والتخاصمُ، وكِلاَ الفريقين مشتركون في العذاب، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ؛ أي هكذا نُعاقِبُ المشركين.

وقولهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ؛ أي إنَّهم كانوا يستكبرون عن كلمةِ التوحيد، ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا﴾ ؛ أنَترك آلِهتنا وعِبادتَها، ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ ؛ يَعنُونَ النبيَّ ﷺ نَسبوهُ إلى الشِّعرِ والجنون.

فأكذبَهم اللهُ تعالى بقولهِ: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ؛ أي ما هو بقول شاعر وما صَاحِبُكم بمجنون (بَلْ جَاءَ بالْحَقِّ) أي بالقرآن والتوحيدِ، (وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ) الذين كانوا قبلَهُ؛ أي أتَى بما أتَوا بهِ من الإيمان وقول الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ ؛ أي يقالُ لهم: إنَّكم أيها المشرِكون لذائِقُوا العذاب الأليمِ على شِرْكِكُم ونسبَتِكم النبيَّ ﷺ إلى الشِّعر

---

(١) الصافات / ٩٣.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٤٧٤).

(٣) الأعراف / ١٨ .

والجنـون، ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ ﴾ ؛ في الآخــرةِ، ﴿ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا من الشِّرك.

ثُم استثنَى فقال: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي لكــن عبـاد الله الموحِّدين، فإنَّهم لا يُعذبون، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي يُجزَون بالبرِّ ما يستحقُّون، وَقِيْلَ: لَهم رزقُهم فيها بُكرةً وعَشِيّاً.

وَقِيْلَ: الـرزقُ المعلـوم هـو مـا ذكـرَهُ بعـدَ هـذا في قولـهِ تعـالى: ﴿ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ والفَوَاكِـهُ جَمـعُ فَاكِهَـةٍ، وعلـى الثِّمـار كُلِّـها رَطبِـها ويابسِـها، وهم مُكرَمـون بثـواب الله تعالى على السُّـرُر، ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ لا يـرَى بعضُــهم قفَــا بعـــضٍ، ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي بآنِيَةٍ مملوءة من الشَّراب، ولا تُسمَّى الآنيةُ كأسـاً إلاَّ إذا كـان فيها الشرابُ، والْمَعِينُ ههنا الخمرُ، سُمِّيت مَعِيناً لأنَّها تجرِي هناكَ على وجـهِ الأرضِ من العيُونِ كما يجرِي الماءُ فيها في غيرِ الأُخدُودِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (خَمْرُ الْجَنَّـةِ أشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، لَيْسَتْ هِيَ عَلَى لَوْنِ خَمْرِ الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهَا بَيْضَاءُ لِرِقَّتِـهَا وَنُورهَـا وَرَوْنَقِهَا وَصَفَائِهَا)[١]. وقولهُ تعالى (لَذةٍ لِلشَّاربِينَ) أي لذيذةٌ أو ذاتُ لذةٍ، يقالُ شَرب لذ ولذيذٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ ؛ أي ليس في شُربها صُـدَاعٌ ولا وجـعُ بطـنٍ ولا أذًى، ولا تَغتَالُ عقولَهم فتذهبُ بها. ويقالُ للوجَعِ غَوْلٌ لأنه يـؤدِّي إلى الهـلاكِ، وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي ولا هُـم يَسـكَرُونَ، يقـالُ: نُزِفَ الرجلُ فهو مَنْزُوفٌ ونَزيفٌ إذا سَكِرَ، وقال الكلبيُّ: (يَعْنِي لاَ فِيهَا غَوْلٌ أيْ إثْـمٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾[٢])[٣]. وقال ابنُ كَيسَان: (الْغَوْلُ الْمَغْصِرُ).

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٨٩.

(٢) الطور / ٢٣ .

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٨٩.

وقال أهلُ المعانِي: الغَوْلُ فسادٌ يلحَقُ في خفاءٍ، يقالُ: اغتَالَهُ اغْتِيَالاً إذا فَسَدَ عليه أمرٌ فَسَدَ في خِفيَةٍ. وقولهُ تعالى (وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ)، قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف بكسرِ الزاي ههنا، وفي الواقعةِ، ومعناهُ: لاَ ينفَدُ شرابُهم بل هو دائمٌ لَهم أبداً، يقالُ: نَزَفَ الرجلُ إذا نَفَذ شرابهُ، ومَن قرأ بفتحِ الزاي فمعناهُ: لا يَسكَرُونَ منها، يقالُ: نَزَفَ الرجلُ فهو مَنْزُوفٌ ونَزِيفٌ؛ إذا سَكِرَ وزالَ عقلهُ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ أي يُعقَدُ لَهم مجلسُ الشَّراب، ويُسقَوْنَ هذه الكؤوسَ اللَّذيذةَ، وتحضرُهم حُورُ عِينٍ قاصِراتُ الطَّرْفِ، قصرت أطرافُهن على أزواجهنَّ لا يبتغين بهم بَدَلاً، لا ينظُرون إلى غيرِ أزواجهن، والعِينُ جمعُ العين وهُنَّ كبارُ الأعيُن وحِسَانُها، وقال الحسنُ: (اللاَّتِي بَيَاضُ عَيْنِهِنَّ فِي غَايَةْ الْبَيَاضِ، وَسَوَادُهَا فِي غَايَةِ السَّوَادِ).

ومعنى الآيةِ: وعندَهم حَابسَاتُ أعيُنهن الأعين غاضَّات الجفُونِ قصرنَ أعيُنهن عن غيرِ أزواجهن، فلا ينظُرن إلاَّ إلى أزواجهنَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (عِينٌ) أي كبارُ الأعيُن حسانُها، واحدتُها عَيناءُ يقال: رجلٌ أعيَنُ، وامرأةٌ عَيْنَاءُ، ونساءٌ عِيْنٌ. وقولهُ تعالى: (عِينٌ) وامرأةٌ عَيْنَاءُ ونساءٌ عِينٌ.

وقولهُ تعالى (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) أي مستورٌ مَصُونٌ، والبيضُ مُحُّ البيضةِ، قال الحسنُ: (يُشْبِهْنَ بَيْضَ النَّعَامِ يَكِنُّهَا الرِّيشُ مِنَ الرِّيحِ)[2] وهذا مِن تشبيهات العرب في وَصفِ النِّساء بالبيضِ، فشَبَّهَ الأبياض أبدائهن ببياضِ البَيض المكنون، ويقالُ: أراد بالبيضِ المكنون ههنا البياضَ الذي في داخلِ القشرِ الخارج.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ أي يتحدَّثون في الجنةِ عن أمُور الدُّنيا، ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾؛ في جواب ما يسألُ عنه: ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾؛ أي كان لِي صاحبٌ في الدُّنيا يقولُ لِي حين صدَّقتُ وهو منكِرٌ للبعثِ، ﴿ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾؛ بالبعث، ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢٨٤. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣١٥-٣١٦.
(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٠.

تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ ؛ بالية، ﴿ أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي لَمَجزيُّون محاسَبون؟ وهذا استفهامُ إنكار، والدِّينُ: الحسابُ والجزاء، كأنه يقول: إنَّ هذا الأمر ليس بكائن. ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ، قال قائل من أهل الجنة لأصحابه: هل تطَّلِعون على النار وعلى أهلِها فتنظُرون إلى هذا الذي كان قَريناً لِي وتعرِفُون حالَهُ، فاطَّلعَ هو بنفسهِ على النار وأهلِها فرأى قَرينَهُ في وسَطِ الجحيم يُعذبُ بألوان العذاب. قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ فِي الْجَنَّةِ كُوَّةً يُنْظَرُ مِنْهَا إلَى أهْلِ النَّار)[1]، ﴿ فَاطَّلَعَ ﴾ ، هذا المؤمنُ، ﴿ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي في وسطِ النار يُعذب.

فـ ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي أرَدتَ أنْ تُهلِكَني كهلاكِ الْمُتَرَدِّ من الشَّاهق، وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: لَقَدْ كِدْتَ أنْ تُغْوِيَنِي فَأنْزِلَ مَنْزِلَكَ)[2]، والإرْدَاءُ الإهْلاَكُ، ومَن أغوَى إنساناً فقد أهلكَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي ﴾ ؛ أي لولاَ إنعامهُ عليَّ بالإسلامِ، ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ معكَ في النار.

وقال الكلبيُّ: (ثُمَّ يُؤْتَى بالْمَوْتِ فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّار، وَيُنَادِي مُنَادٍ بأهْلِ الْجَنَّةِ: خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَبأهْلِ النَّار: خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ) فيقولُ هذا القائلُ لأصحابهِ على جهة السُّرور: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ في هذه الجنَّة أبداً، ﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ ؛ التي كانت في الدُّنيا، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أبداً. فيقالُ لَهم: لاَ، فيقولون: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ فُزْنَا بالجنَّة ونعيمها، ونَجَونا من النار وجحيمِها. فهذه قصةُ الأخَوَين ذكرَهما اللهُ في سورةِ الكهف بقوله تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي لمثلِ هذا النَّعيمِ الْمُقيمِ، والْمُلكِ العظيمِ فليعملِ العاملون في الدُّنيا، يعني بالنعيمِ ما ذكرَهُ اللهُ من قوله

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٠.
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٩٩.
(٣) الآية / ٣٢.

(أوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ، فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ...) إلى قولِهِ (بَيْضٌ مَكْنُونٌ).

وقولُهُ تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ ؛ معناهُ: أذلكَ الفوزُ الذي سبقَ ذِكرهُ لأهلِ الجنَّة خيرٌ مما يُهَيَّأُ من الإنزالِ أم نُزُلُ أهلِ النار؟ وقولهُ تعالى: (أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) لأهلِ النار في النار، والزَّقُّومُ: هو ما يُكرَهُ تناولهُ، والذي أرادَهُ اللهُ شيء مُرٌّ كريهٌ تناولهُ، وأهل النار يُكرَهون على تناوُلِهِ، فهم يتَّزقُّونَهُ على أشدِّ كراهةٍ، تقولُ: تَزَقَّمْ هذا العظامَ؛ أي تناولْهُ على نَكَدٍ ومشقَّةٍ شديدةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ ؛ رُوي سببُ نزولِ هذه الآيةِ: أنه لَمَّا نزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (أذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) كانوا يقولون لا ندري ما الزقومُ ؟ فكانوا يتذاكَرون هذا الحديثَ إذ جاءَهم عبدُالله بن الزبعرَى السهمي فذكَرُوا له، فقالَ: أكثرَ اللهُ في بيوتِكم منها، إن أهلَ اليمنِ يدعُوا الزُّبدَ والتمرَ الزقُّوم، فقالَ أبو جهلٍ لجاريتهِ: زَقِّمينَا يا جاريةُ، فأتَتْهُ بزُبدٍ وتمرٍ، فقال: تَزَقَّمُوا فإنَّ هذا الذي يُخوِّفُكم به مُحَمَّدٌ، فشاعَ في أهلِ مكَّة أن مُحَمَّداً يُخوِّفُ أصحابَهُ بالزُّبد والتمر، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ (إنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ)[1] أي عَذاباً بالكافرين، والفتنةُ: هي العذابُ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّار يُفْتَنُونَ، ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾[2] أي عذابَكم فأنزلَ الله تعالى ﴿إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الأثِيمِ﴾[3].

ويجوزُ أن يكون معنى الفتنةِ في هذه الْمِحْنَةَ والبليَّةَ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: هذه الشجرةُ افتتنَ بها الظَّلَمةُ، قالوا:كيف يكون في النار شجرةٌ وهي تأكلُها؛ لأن النارَ تأكلُ الشجرَ، فأنزل اللهُ تعالى (إنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ) أي خِبرةً لهم افتتَنوا بها وكذبوا بكونِها[4].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٢٥٣٧). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢١٦.

(٢) الذاريات / ١٣-١٤ . (٣) الدخان / ٤٣-٤٤ .

(٤) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٦ ص٣١٤؛ قال ابن عادل: (أو يكون المراد بالفتنة الامتحان=

وبيَّـنَ اللهُ تعـالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ ﴾؛ أي تنبتُ في قعرِ الجحيم، قال الحسنُ: (أصْلُهَا فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ، وَأصْلُهَا فِي دَرَكَاتِهَا، بالنَّار غُذِّيَتْ وَمِنْهَا خُلِقَتْ بلَهَب النَّار، كَمَا يَنْمُو شَجَرٌ بالْمَاءِ، كُلَّمَا ازْدَادَتِ النَّارُ الْتِهَاباً ازْدَادَتْ تِلْكَ الشَّجَرَةُ نُمُوّاً وَارْتِفَاعاً، وَإنَّ أهْلَ النَّار لَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَلْبَسُونَ النَّارَ، وَيَتَقَلَّبُونَ فِي النَّار، وَإنَّ أهْوَنَ أهْلِ النَّار عَذاباً رَجُلٌ يَكُونُ لَهُ نَعْلاَنِ يَغْلِي مِنْ حَرِّهِمَا دِمَاغُهُ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾؛ أي ثَمَرُها كريهٌ مرٌّ هائلُ المنظرِ كأنه حيَّاتٌ هائلاتُ الرُّؤوسِ تكون في طريقِ اليمَنِ، تسمِّي العربُ تلك الحيَّات رؤوسَ الشَّياطينِ لقُبحِها. وقال بعضُهم: أُريدَ به الشياطينَ المعروفةَ، وقد اعتقدَ الناسُ قُبحَهم وقبحَ رُؤوسِهم، وإن لم يُشاهِدُوهم، ولذلك يشبهون الشيءَ القبيحَ بالشياطين، يقولُ الرجل: رأيتُ فلاناً كأنَّهُ شياطينُ، ورؤوسهُ رأسُ الشيطان، فالشياطينُ موصوفةٌ بالقُبحِ وإنْ كانت لا تُرَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا ﴾؛ أي من ثمرِها، ﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى يُلقِي من أهلِ النار من شدَّة الجوعِ ما يُلجِؤُهم الى أكلِها بما هي عليه من الحرارةِ والمرَارةِ والخشونة، فيبتَلعُونَها على جهدٍ حتى يختَنِقوا بها وتَمتلِيءَ بطونُهم منها، ويكون حالُهم في الأكلِ منها أضرَّ كحالهم في الأكلِ منها أولاً.

وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى يُلقِي عليهم عطشاً بعد ذلك حتى يشربُوا من الحميمِ، وهو الماءُ الحارُّ الذي قد انتهَى حرُّه، والشَّوبُ كما هو خلطُ الشيءِ بما ليس منه، بما هو شرٌّ منه، يقالُ له شَابَهُ الشيءُ إذا خالطَهُ، فشَوبُ الجحيمِ في بطونِهم الزقومُ فيصير شَوباً له.

=والاختبار، فإن هذا الشيء بعيد عن العُرف والعادة، وإذا ورد على سمع المؤمن فوَّض علمَهُ إلى الله، وإذا ورد على الزنديق توسَّل به إلى الطعن في القرآن والنبوَّة).

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾؛ معناه: إن مَرجِعَهم بعد شُرب الجحيم وأكلِ الزقوم الى الجحيم، وذلك أنَّهم يورَدُون الحميمَ من شُربهِ وهو خارجٌ من الجحيمِ كما تُوردُ الإبلُ الماءَ، ثم يُرَدُّونَ إلى الجحيم، فيتجرَّعونَهُ ويُصَبُّ على رُؤوسِهم، ومرَّةً يُردُّون إلى النار الموقَدة، وهذا عذابُهم أبداً. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ اللهَ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، فَلَوْ أنَّ قَطْرَةً قَطَرَتْ مِنَ الزَّقُّومِ مِنَ الأَرْضِ لأَمَرَّتْ عَلَى أهْلِ الدُّنْيَا مَعِيشَتَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ طَعَامُهُ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ غَيْرُهُ](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ ﴾؛ معناهُ: إنَّهم وجَدُوا آباءَهم في الدُّنيا ضالِّين عن الحقِّ والدِّين، فـ، كانوا، ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾؛ أي يَمْضُوا مُسرِعين كأنَّهم يُزعَجون من الإسراعِ الى اتِّباع آبائِهم، يقالُ: هَرَعَ وأهْرَعَ إذا أسرعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾؛ أي ولقد ضلَّ قبلَ هؤلاء المشركين أكثرُ الأوَّلين من الأُمم الخاليةِ، كما ضلَّ قومُكَ، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾؛ أي رُسلاً يُنذِرونَهم العذابَ؛ أي يُخوِّفونَهم بالعذاب على تركِ الإيمان، ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾؛ الذي أنذِرُوا فكذبوا الرسُلَ، كيف أهلكَهم اللهُ تعالى، وقولهُ تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾؛ يعني إلاّ عبادَ الله الموحِّدين الذين لم يكَذِّبوا، فإنَّهم نَجَوا من العذاب ولم يهلَكُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾؛ أي ولقد دعَانا نوحُ على قومهِ بالإهلاكِ حين يَئِسَ من إيمانِهم، وأذِنَ له في الدُّعاء، وقال ﴿أنِّي

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١: الحديث (١١٠٦٨). والترمذي في الجامع: أبواب صفة جهنم: الحديث (٢٥٨٥). وابن ماجة في السنن: كتاب الزهد: الحديث (٤٣٢٥). والإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٣٠٠. وابن حبان في الإحسان: كتاب إخباره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مناقب الصحابة: الحديث (٧٤٧٠).

مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾[(١)]، وقال ﴿رَب لاَ تَذرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[(٢)]، وقوله (فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) أي نِعْمَ الْمُجِيبُونَ فأجَبناهُ وأهلكنا قومَهُ الكافرين، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ ؛ ومَن آمنَ به، ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ ؛ وهو الغرقُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ ؛ وذلك مَن كان معه من المؤمنين في السَّفينة انقرَضُوا من غير عَقِبٍ، وكان نسلُ نوحٍ عليه السلام من أولادهِ الثلاثة: سام وحامُ ويافث، فأما سامُ فأبو العرب وفارسَ والرُّوم، وحامُ أبو الحبَشِ وجميع السُّودان والسِّند والهند والبربَر، ويافثُ أبو التُّرك ويَأجُوجَ ومأجُوجَ وما هنالكَ من باقِي الناس[(٣)]. قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا خَرَجَ نُوحُ عليه السلام مِنَ السَّفِينَةِ مَاتَ مَنْ مَعَهُ مِنَ الرِّجَال وَالنِّسَاءِ إلاَّ وَلَدَهُ الثَّلاثَةُ وَنِسَاءَهُمْ)[(٤)] فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

وقولهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ ؛ أي تركنا على نوحٍ الذِّكرَ الجميلَ في الباقين بعده، وذلك الذكرُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ ؛ أي يُصَلَّى عليه إلى يومِ القيامة، قال الزجَّاجُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ) أيْ وَأبْقَيْنَاهُ ذِكْراً حَسَناً وَثَنَاءً جَمِيلاً فِيمَنْ بَعْدَهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[(٥)] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ؛ أي كما جزَينا نُوحاً وأنعَمْنا عليه، فكذلكَ نجزي الْمُحسِنين في القولِ والعملِ، ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ ؛ وَقِيْلَ: (معناهُ: تَركنا على نوحٍ في الآخِرين أن يُصَلَّى عليه إلى يومِ القيامة)[(٦)]، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

---

(١) القمر / ١٠. (٢) نوح / ٢٦.

(٣) أصله كما في الدر المنثور: ج ٧ ص٩٩ حديث سمرة رضي الله عنه، قال السيوطي:(أخرجه ابن سعد وأحمد والترمذي وحسَّنه، وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه) وحديث أبي هريرة، قال السيوطي: (أخرجه البزار وابن أبي حاتم والخطيب في تالي التلخيص).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٨٩. وابن عادل في اللباب: ج ١٦ ص٣١٩.

(٥) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٢٣٢.

(٦) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٣٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ ﴾؛ معناهُ: وإنَّ مِن أهلِ ملَّةِ نوحٍ عليه السلام والمتمسِّكين بدينهِ لإبراهيم، ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾؛ أي إذْ أقبَلَ إلى طاعةِ ربهِ بقلبٍ سَليمٍ من الكُفرِ والمعاصِي ومن كلِّ عيبٍ. والشِّيعَةُ: هي الجماعةُ التَّابعَةُ لِذي رأيٍ لَهم[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾؛ هذا إنكارٌ من إبراهيمَ على قولهِ، كالرجُل ينظرُ غيرَهُ على قبيحٍ من الأمر، فيقولُ له: ما هذا الذي تفعلُ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾؛ معناهُ: أتَتَّخذُ آلهةً تريدون عبادتَها على وجهِ الكذب. وَقِيْلَ: معناهُ: أتأفِكُونَ إفكاً هو أسوأ الكذبُ، وتعبدون آلهةً سوَى اللهِ، ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾؛ إذا لقيتموهُ وقد عبدتُّم غيرَهُ، أي فما ظنُّكم أنه يصنعُ بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾؛ قال بعضُهم: إنَّما نظرَ إلى النُّجوم نظرَ تدبُّرٍ واعتبار، وليستدلَّ بها على وقتِ الحمَّى كانت تأتيهِ، فلما عرفَ بذلك وقت حماه قال إنِّي سقيمٌ؛ أي جاءَ وقتُ سقَمي ومرَضي.

ويقال: أوهَمهم بهذا القول أن به مرضاً فتركوهُ، وكان يريدُ بهذا القولِ في نفسه: إنِّي سقيمُ القلب بما أرَى من أحوالِكم القبيحة في عبادةِ غيرِ الله، وذلك أنه أرادَ أن يُكايدَهم في أصنامِهم لِيُلزمَهم الحجَّةَ في أنَّها غيرُ معبودةٍ، وكان لَهم عيدٌ يخرجون إليه، فكلَّفوهُ الخروجَ معهم إلى عيدِهم؛ فنظرَ في النُّجوم يُريَهم أنه مستدلٌّ بها على حالهِ، فقالَ: إنِّي سقيمٌ، ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾؛ فتركوهُ وذهبوا إلى عِيدهم.

---

(١) في الكليات: ص٥٢٣؛ قال الكفوي: (كل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيَع، وغالب ما يستعمل في الذم).

وقولـهُ تعــالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ أي مَالَ إلى أصنامِهم مَيلةً في خِفيةٍ سِرّاً لَمَّا أدبَرُوا عنه فوجدَ بين أيدِيهم طَعاماً كـانوا قـد وضعـوهُ قبـلَ خروجِـهم إلى عيدِهـم، وزعَمُـوا بجهلِـهم أن أصنامَهم تباركُ لهم فيه، فإذا رجعُوا من عيدِهم أكلوهُ. قال مقاتلُ: (كَـانَتْ أصْنَامُـهُمْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ صَنَماً مِنْ خَشَبٍ وَحَدِيدٍ وَرَصَاصٍ وَذهَبٍ وَفِضَّةٍ، وَكَـانَ أكْـبَرُهُمْ مِـنْ ذهَبٍ وَعَيْنَاهُ يَاقُوتَتَان، فَلَمَّا رَآهُـمْ إبْرَاهِيـمُ كَذلِـكَ وَبَيْـنَ أيْدِيـهِمُ الطَّعَـامُ، قَـالَ: ألاَ تَأْكُلُونَ مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الأَطْعِمَةِ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ أكْـلٌ وَلاَ جَـوَابٌ قَـالَ لَـهُمْ: ألاَ تَنْطِقُونَ إنْ كُنْتُمْ آلِهَةً)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ أي مَـالَ عليـهم بـالضَّرب بيدِهِ اليُمنَى وبالقوَّة، ويقالُ: برَّ يَمِينَهُ التي كان حلفَ باللهِ لأكِيـدَنَّ أصنـامَكم، فجعـلَ يضربُهم بالفأسِ حتى جعلَهم جُذاذاً، ثم جعـلَ الفـأسَ علـى عـاتقِ كبـيرِ الأصنـام، والرَّوَغَانُ في اللغة: هو الْمَيْلُ على وجهِ الاضطراب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي أقبـلَ المشـركون إليـه بعـدَ رجُوعِهم من عيدِهم يُسرعون في المشيِ، كأنَّهم أخبرُوا بصُنعهِ فقصدوهُ. والزَّفِيفُ: هو الْمَشْيُ السَّريعُ، ومن ذلكَ زَفِيفُ النَّعَامِ وهو خَبَبُهُ الذي يكـون بـين المشـيِ والعَـدْو، ومنه الآزفَةُ لسُرعةِ مجيئها وهو القيامةُ.

وقرأ حمزةُ (يُزِفُّونَ) بضمِّ الياءِ؛ أي يَحمِلُونَ دوابَّهم وظُهورَهم على الإسراعِ في المشي، وذلك أنَّهم أخبرُوا بصُنعِ إبراهِيمَ بآلهتِهم، وأسرَعُوا إليه ليأخذوهُ، فلما انتـهَى إليه؛ ﴿ قَالَ ﴾ لهم محتجّاً عليهم: ﴿ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ بـأيدِيكم مـن الأصنامِ، أي تعبدُون ما تَنحِتُونَهُ من الخشب والحجرِ أمواتـاً لا تنطـقُ ولا تسـمعُ ولا تَنصُر ولا تعقلُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ تَنحِتُـونَ بـأيديكم؛ أي خلَقَكم ومعمُولكم وهو منحوتُهم الذي نَحتوهُ، والمعنـى: خلَقَكـم وعمَلَكـم، وهـذا

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٠٢.

مذهبُ أهلِ السُّنة؛ لأنَّهم يعتقدون أنَّ اللهَ خلَقَهم وعمَلَهم، والقدريَّةُ تُنكِرُ خلقَ الأعمال.

فلمَّا ألزمَهم إبراهيمُ عليه السلام الحجَّةَ، ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ أي قالوا: ابنُوا له حَائِطاً من حجارةٍ طولُهُ في السَّماء ثلاثون ذِرَاعاً، وعرضهُ عشرون ذراعاً، ومَلَؤُوهُ ناراً، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ) وهي النارُ العظيمة، فبَنَوا له ذلك وجَمعُوا فيه الحطبَ، وأرسَلُوا فيه النارَ حتى صارَ جَحيماً، ثم رمَوهُ بالمنجنيق.

فنجَّاهُ اللهُ تعالى، وجعل النارَ عليه بَرْداً وسَلاماً لم يُؤذِهِ منها شيءٌ ولا أحرقَتْ شيئاً من ثيابهِ، وذلك لإخلاصهِ وقوَّةِ دِينهِ وصدق توكُّلهِ ويقينهِ، كما رُوي أنه عليه السلام لما انفصلَ من المنجنيقِ أتاهُ جبريل في الهواءِ، فقالَ هل لكَ من حاجةٍ؟ فقال: وأمَّا إليكَ فلاَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا ﴾ ؛ أي أرَادُوا به شَرّاً، وهو أن يُحرقوهُ بالنار، ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ ، لأن إبراهيمَ علاَهُم بالحجَّة حين سَلَّمَهُ اللهُ تعالى وردَّ كيدَهم عنه، ولم يلبثُوا إلاَّ يَسِيراً حتى أهلكَهم اللهُ تعالى، وجعلَهم في نارٍ أعظمَ وأسفلَ مما ألقوهُ فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ أي قالَ إبراهيمُ: إنِّي ذاهبٌ إلى مرضاتِ ربي سيَهديني لِمَا فيه رُشدِي وصَلاحِي، وأرادَ بهذا الذهابَ إلى الأرض المقدَّسة، وَقِيْلَ: إلى أرضِ الشَّام، قال مقاتلُ: (فَلَمَّا قَدِمَ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ سَأَلَ رَبَّهُ الْوَلَدَ)[1] فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ أي ولَداً صَالحاً.

واستجابَ اللهُ دعاءَهُ بقوله: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ قال الزجَّاجُ: (هَذِهِ الْبشَارَةُ تَدُلُّ عَلَى أنَّهُ مُبَشَّرٌ بابْنِ ذكَرٍ، وَأنَّهُ يَبْقَى حَتَّى يَنْتَهِي فِي السِّنِّ،

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٠٣.

وَيُوصَفُ فِي الْحِلْمِ)، قال الحسنُ: (وَهُوَ إِسْحَاقُ الطَّيْلاً)[١]. وقال الكلبيُّ: (هُوَ إِسْمَاعِيلُ، وَكَانَ أَكْبَرَ مِنْ إِسْحَقَ بِثَلاَثَةَ عَشَرَ سَنَةً).

قولُهُ: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ ﴾ ؛ أي فلمَّا بلغَ ذلك الغلامُ معه حالةَ السَّعي في طاعةِ الله تعالى، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[٢]، وَقِيْلَ: معناهُ: فلما بلغَ أن يمشي معه، وقال مجاهدُ: (لَمَّا شَبَّ حَتَّى بَلَغَ أنْ يَتَصرَّفَ مَعَهُ وَيُعِينَهُ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ ابْنَ ثَلاَثَةَ عَشَرَ سَنَةً)[٣]. وَقِيْلَ: أرادَ بالسَّعي في الوقتِ الذي ينتفعُ الوالدُ بالولدِ في قضاءِ حوائجه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ﴾ ؛ أي رأيتُ في المنامِ رُؤيا تأويلُها أنّي أذبحُكَ، وَقِيْلَ: رأيتُ في المنامِ أنِّي أذبحُكَ، قال مقاتلُ: (رَأى إبْرَاهِيمُ ذلِكَ فِي الْمَنَامِ ثَلاَثَ لَيَالٍ مُتَوَالِيَاتٍ)[٤]، قال ابنُ جبير: (رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ)، وقال قتادةُ: (رُؤَى الأَنْبِيَاءِ حَقٌّ، إذا رَأوا شَيْئاً فَعَلُوهُ)[٥].

وقولهُ تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ؛ أي مِن الرأيِ فيما ألقيتُ إليكَ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: (مَاذا تُري) بضمِّ التاء وكسر الراء، ومعناهُ: ماذا تُشِيرُ وماذا تُريني من صَبركَ أو جَزَعِكَ؟ ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ ؛ به من ذبحِي، ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢) ﴾ ؛ على بَلائهِ، وإنما قالَ له إبراهيمُ هذا القولَ مع كونهِ مأموراً بذبحِهِ؛ لأنه أحبَّ أن يعلمَ صبرَهُ وعزيمَتَهُ على أمرِ الله وطاعته.

---

(١) عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:[الذبيحُ إسْحَقُ]. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٠٧؛ قال السيوطي:(أخرجه الدارقطني في الأفراد والديلمي عن ابن مسعود) وذكره.

(٢) البقرة / ١٢٧ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٦٠٤). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٢١.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٠٤، وفيه قال: (ثلاث ليال متتابعات) بدل (متواليات).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٦٠٨).

وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ إبراهيمَ كان مأموراً بذبحِ ولَدِه، لأن رُؤيَا الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ وَحْيٌ بمنْزلة الوحيِ إليهم في اليقظَةِ، ولذلك قالَ الابنُ: (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) ولَم يقل: افعل ما رأيتَ في المنامِ.

واختلَفُوا في الذبيحِ مَن هو ؟ فذهبَ الأكثرون إلى أنه إسحقُ، وإليه ذهبَ من الصَّحابة عمرُ بن الخطَّاب وعليُّ بن أبي طالبٍ وعبدُالله بن مسعودٍ وعبَّاسُ بن عبدِالمطَّلب، ومِن التابعين كعبُ الأحبار وسعيدُ بن جبير وقتادةُ ومسروق وعكرمة وعطاءُ ومقاتل والزهريُّ والسدي.

وقال آخرُونَ: هو إسماعيلُ، وهو قولُ ابنِ عمر وابنِ عبَّاس وسعيدِ بن المسيَّب والشعبيِّ والحسن ومجاهدِ والكلبيِّ والربيع بن أنسٍ ومحمَّد بن كعب القُرَظِيِّ. ورُوي عن أبي إسحق الزجَّاج أنه قال: (اللهُ أعْلَمُ أيُّهُمَا الذبيحُ)[(١)].

وسياقُ الآيةِ يدلُّ على أنه إسحق؛ لأنه تعالَى قال (فَبَشَّرْنَاهُ بغُلاَمٍ حَلِيمٍ) ولا خلافَ أنه إسحقَ، ثم قالَ: فلما بلغَ معه السعيَ، فعطفَ بقصَّة الذبحِ مع ذكر اسحق، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ القولان، ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: [الَّذِي أَرَادَ إبْرَاهِيمُ ذبْحَهُ هُوَ إسْحَقُ][(٢)].

وعن معاويةَ ﷺ أنه قالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عُدَّ عَلَيَّ مِمَّا أفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ الذبيحَيْنِ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَ مُعَاوِيَةُ وَمَنِ الذبيحَان؟ فَقَالَ: [إنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِب لَمَّا حَفَرَ زَمْزَمَ نَذرَ للهِ تَعَالَى لَئِنْ سَهَّلَ اللهُ أمْرَهُ لَيَذْبَحَنَّ أحَدَ وَلَدِهِ، فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى عَبْدِاللهِ، فَمَنَعَهُ أخْوَالُهُ وَقَالُوا: إفْدِ ابْنَكَ بِمائَةٍ مِنَ الإبِلِ، فَفَدَاهُ بِمائَةٍ مِنَ الإبِلِ، وَالذبيحُ الثَّانِي

---

(١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص١٠٩٤. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ١٥ ص١٠٠.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: ج ٢: الحديث (٣١٧٣). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص٢٠٢؛ قال الهيثمي: (رواه البزار وفيه مبارك بن فضالة وقد ضعفه الجمهور). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٠٧؛ قال السيوطي: (أخرجه الدراقطني في الأفراد والديلمي عن ابن مسعود وأخرجه ابن مردويه عن (بهار) وكانت له صحبة).

إسْمَاعِيلُ][1]، ويدلُّ على صحَّة هـذا قولـهُ ﷺ: [أنَـا ابْـنُ الذبيحَيْـنِ] يريـدُ أبـاهُ الأدنَى عبدَالله بن عبدِالمطَّلب وجدُّهُ إسماعيلُ[2].

وقال محمَّد بن كعـب القُرظـي: (إنَّ الَّـذِي أمَـرَ اللهُ إبْرَاهِيـمَ بذبْحِـهِ مـن بَنِيـهِ إسْمَاعِيلُ، وَإنَّا لَنَجِدُهُ فِي كِتَاب اللهِ تَعَالَى، إنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ حِـينَ فَـرَغَ مِـنْ قِصَّـةِ الْمَذْبُوحِ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بإسْحَقَ نَبيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3])[4].

وقال الأصمعيُّ: (سَأَلْتُ أبَا عَمْرو بْنِ العَلاَءِ عَنِ الذبيحِ هَلْ هُـوَ إسْـمَاعِيلُ أوْ إسْحَقُ ؟ فَقَالَ: يَا أصْمَعِيُّ أيْنَ ذهَبَ مِنْكَ عَقْلُكَ ؟! وَأيْنَ كَانَ إسـحق؟ وَإنَّمَـا كَـانَ إسْمَاعِيلُ بمَكَّةَ وَهُوَ الَّذِي بَنَى الْبَيْتَ مَعَ أبيهِ كَمَا قَالَ ﴿وَإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِـنْ الْبَيْتِ وَإسْمَاعِيلُ﴾[5]، وَالنَّحْرُ بمَكَّةَ لاَ شَكَّ فِيْهِ)[6]. وسُـئل أبـو سـعيدِ الضَّريـر عـن الذبيحِ فأنشدَ:

إنَّ الذبيـــحَ هُدِيـــتَ إسْـــمَاعِيلُ نَطَـــقَ الْكِتَـــابُ بـــذاكَ وَالتَّـــنْزيلُ
شَـــرَفٌ بـــهِ خَـــصَّ الآلَـــهُ نَبيَّـــهُ وَأتَـــى بـــهِ التَّفْسِـــيرُ وَالتَّـــأْويلُ

وأما قصَّةُ الذبحِ فقال السديُّ: (لَمَّا فَارَقَ إبْرَاهِيـمُ قَوْمَـهُ مُـهَاجِراً إلَـى الشَّـامِ هَارباً بدِينِهِ، دَعَا اللهَ تَعَالَى أنْ يَهَبَ لَهُ مِنْ سَارَةَ ابْناً صَالِحاً، فَقَالَ: (رَب هَـبْ لِي مِـنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بغُـلاَمٍ حَلِيـمٍ) وَهُـوَ اسْـحَقُ). قـال السـديُّ: (فَـهُوَ وَاللهِ إسْـحَقُ

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب تواريخ المتقدمـين مـن الأنبيـاء: الحديـث (٤٠٩٠). وفي الـدر المنثور: ج ٧ ص١٠٥؛ قال السـيوطي: (أخرجـه ابـن جريـر والآمـدي في مغازيـه والخلعـي في فوائده، والحاكم وابن مردويه بسند ضعيف).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا: ج ١ ص١٨١؛ قـال: (كـذا في الكشـاف، قـال الزيلعـي وابـن حجر في تخريج أحاديثه: لم نجده بهذا اللفظ، وقال في المقاصد: حديث ابن الذبيحين رواه الحاكم في المناقب). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٢٦٤٥).

(٣) الصافات / ١١٢.

(٤) أخرجـه الطـبري في جـامع البيـان: الأثـر (٢٢٦٤٥). وفي الـدر المنثـور: ج ٧ ص١٠٧؛ قـال السيوطي: (أخرجه ابن إسحق وابن جرير).

(٥) البقرة / ١٢٧ .

(٦) ذكره البغوي في تفسيره: ص١٠٩٣ . والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٨١.

الذبيحُ)[(١)]. وقال محمَّد بن كعبٍ: (هُوَ إِسْمَاعِيلُ)[(٢)].

فلمَّا أمرَ اللهُ إبراهيمَ بذبحِ مَن أمَرَ، قالَ لابنه: يا بُنَيَّ خُذِ الحبلَ والْمُديَةَ وانطلِقْ بنا إلى هذا الشِّعب لنَحتَطِبَ، فلمَّا خلاَ إبراهيمُ بابنهِ في شِعب ثَبِيرٍ قالَ له: (إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى) قالَ: يا أبتِ افعل ما تُؤمَرُ واشدُدْ رِبَاطِي حتى لا أضطربَ، واكفُفْ ثيابَكَ عني حتى لا ينضحَ عليها شيءٌ من دمِي فينقُصَ أجرِي وتراهُ أمِّي فتحزنَ، واستحِدَّ شَفرتَكَ وأسرِعْ حدَّ السكِّين على حلقِي حتى تجسُرَ عليَّ فتذبَحني ليكون أهون عليَّ، فإن الموتَ شديدٌ، وإذا أتيتَ أمِّي فأقرئها منِّي السلامَ، فإن رأيتَ أن تَرُدَّ إليها قميصِي فافعَلْ، فإنه عسَى أن يكون أسْلاً لَها عني.

فقالَ إبراهيمُ: نِعْمَ العونُ أنتَ يا بُنيَّ على أمرِ الله، فأقبَلَ عليه يُقَبلُهُ وقد ربطَهُ وهو يبكِي، والابنُ يبكي حتى استفرغَ الدموعَ تحتَ خدِّهِ، ثم إنه وضعَ السكِّين في حلقهِ فلم تعمل في حلقهِ شيئاً.

قال السديُّ: (ضربَ اللهُ تعالى في حلقهِ صفحةً من نحاسٍ فلم تقطَعِ السِّكينُ شيئاً، فقالَ الابنُ عندَ ذلك: يا أبتِ كبَّني على وجهي فإنَّكَ إذا نظرتَ في وجهي رحِمتَني وأدركَتْكَ الرِّقَّةُ فتحولَ بينكَ وبين اللهِ تعالى، ففعلَ ذلك إبراهيمُ، ثم وضعَ السكِّين على قفاهُ فانقلبت السكينُ.

ونادَى أن يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرُّؤيا هذه ذبيحتُكَ فداءً لابنِكَ فاذبَحها دونَهُ، فنظرَ إبراهيمُ فإذا هو جبريلُ ﷺ ومعه كبشٌ أقرن أملَحٌ، فكبَّرَ جبريلُ ﷺ وكبَّرَ إبراهيمُ وكبَّر ابنهُ، فأخذ إبراهيمُ الكبشَ وأتى به المنحرَ من مِنَى فذبحَهُ، فلما ذبحَ إبراهيمُ الكبشَ رجع إلى إبنهِ فجعلَ يقولُ له: يا بُنيَّ قد وهبَكَ اللهُ لي، ثم رجعَ إلى أمِّه فأخبرَها الخبرَ فجزِعت وقالت: يا إبراهيمُ أردتَ أن تذبحَ ولَدِي ولا تُعلِمني[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٦٠٧).

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص١٠٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن إسحق وابن جرير).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٦٠٧).

وعن أبي هُريرةَ ﷺ قالَ: (لَمَّا رَأى إبْرَاهِيمُ ذبْحَ ابْنِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: وَاللهِ لَئِنْ لَمْ تزلَّ آلَ إبْرَاهِيمَ فِي هَذا الأَمْرِ لاَ بَقِيت استَزِلَّ مُنهُمْ احداً، فَتَمَثَّلَ الشَّيْطَانُ رَجُلاً وَأتَى الْوَلَدَ فَقَالَ لَهُ: هَلْ تَدْري أيْنَ يَذْهَبُ بكَ أبوكَ ؟ قَالَ: نَعَمْ نَحْتَطِبُ لأَهْلِنَا حَطَباً مِنْ هَذا الشِّعْب، قَالَ: وَاللهِ مَا يُرِيدُ إلاَّ أنْ يَذْبَحكَ، قَالَ: وَلِمَ ؟ قَالَ: زَعَمَ أنَّ رَبَّهُ أمَرَهُ بذبْحِكَ، قَالَ: فَلْيَفْعَلْ مَا أمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ، فَسَمْعاً وَطَاعَةً للهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَرَجَعَ الشَّيْطَانُ إلَى أمِّ الْوَلَدِ فَقَالَ لَهَا: أتَدْرينَ أيْنَ ذهَبَ إبْرَاهِيمُ بابْنِكِ ؟ قَالَتْ: نَعَمْ ذهَبَا يَحْتَطِبَان، قَالَ: لاَ وَاللهِ مَا ذهَبَ بِهِ إلاَّ لِيَذْبَحَهُ، قَالَتْ: كَلاَّ هُوَ أرْحَمُ بِهِ وَأشَدُّ حُبّاً لَهُ مِنْ ذلِكَ، قَالَ: إنَّهُ زَعَمَ أنَّ اللهَ أمَرَهُ بذلِكَ، قَالَتْ: فَإنْ كَانَ رَبُّهُ قَدْ أمَرَهُ بذلِكَ فَقَدْ أحْسَنَ فِي امْتِثَالِ أمْرِ رَبهِ.

فَخَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْ عِنْدِهَا حَتَّى أتَى إلى إبْرَاهِيمَ ﷺ فَقَالَ: أيْنَ تُرِيدُ أيُّهَا الشَّيْخُ ؟ قَالَ: أريدُ هَذا الشِّعْبَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: إنِّي وَاللهِ لأَدْري الشَّيْطَانَ قَدْ جَاءَكَ فِي مَنَامِكَ فَأمَرَكَ بذبْحِ ابْنِكَ هَذا، فَعَرَفَهُ إبْرَاهِيمُ وَقَالَ: يَا عَدُوَّ اللهِ لأَمْضِيَنَّ لأَمْرِ رَبي. فَرَجَعَ إبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ بغَيْظِهِ وَلَمْ يُصِبْ مِنْ آل إبْرَاهِيمَ شَيْئاً مِمَّا أرَادَ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ أي فلمَّا انقادَا وخضعا لأمر الله تعالى ورَضِيَا به، وقرأ ابنُ مسعود: (فَلَمَّا سَلَّمَا) أي فَوَّضَا. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) أي صَرَعَهُ وأضجعَهُ وكَبَّهُ على وجههِ للذبحِ، وَقِيْلَ: طرحَهُ علىالأرضِ على أحدِ جَنبَيْهِ كما يُفعَلُ بالكبشِ حين يُذبَحُ، نادته الملائكةُ من الجبلِ بإذن الله: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ ؛ أي وَفَّيْتَ الرُّؤيا حقَّها؛ أي وفَّيتَ بما أُمِرتَ به في المنام، دَعِ ابنكَ وخُذِ الكبشَ الذي ينحدرُ إليكَ من الجبلِ المشرفِ على مسجدِ مِنًى.

وقولهُ تعالى (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) أي نُودِيَ من الجبلِ أن يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرُّؤيا لأنَّ الله تعالى قد عرفَ منهُما الصدقَ حين قصدَ إبراهيمُ الذبحَ بما أمكنَهُ

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء: الحديث (٤٠٩٩). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٢٦٣٠). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٨٢٣٦).

وطاوعَ الابنُ بالتمكينِ من الذبحِ، ففعلَ كلٌّ واحدٍ منهما ما أمكنَهُ وإن لم يحقّقوا الذبحَ، وكان قد رأى في المنامِ معالجةَ الذبحِ ولم يُرَقِ الدمُ، ففعلَ في اليقظةِ ما رأى في المنامِ، فلذلكَ قيل له: (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) وتَمَّ الكلامُ. ثم قال﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾؛ أي هكذا نُجزي كلَّ مُحسِنٍ ممن سلكَ طريقَهما في الانقيادِ لأمر الله، وجميلِ الصبر على ابتلائه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾؛ أي لَهُوَ الاختبارُ البيِّنُ فيما يوجبُ النعمةَ والنقمةَ، وأيُّ اختبارٍ أعظمُ من أن يؤمرَ الشيخُ الكبير بذبحِ الولدِ العزيزِ بيده. وقولهُ تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾، أي بكبشٍ عظيم؛ أي أقَمنَا الذبحَ مقامَهُ وجعلناهُ بَدَلاً عنه.

وعن عطاءِ بن يسار قال: (لَمَّا بَلَغَ إسْمَاعِيلُ سَبْعَ سِنِينَ رَأى إبْرَاهِيمُ عليه السلام أنَّـهُ يَذْبَحُهُ، فَأخَذ بيَدِهِ وَمَضَى به إلَى حَيْثُ أمِرَ حَتَّى انْتَهَى إلَى مَنْحَرِ الْبُدْنِ الْيَوْمَ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إنَّ اللهَ أمَرَنِي بذبْحِكَ، قَالَ إسْمَاعِيلُ: فَأطِعْ رَبَّكَ.

فَفَعَلَ إبْرَاهِيمُ، فَجَعَلَ يَنْحَرُهُ فِي حَلْقِهِ، نَحَرَ فِي فَأسٍ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيْهِ الشَّفْرَةُ، فَشَحَذَهَا مَرَّتَيْنِ أوْ ثَلاَثاً بالْحَجَرِ، وَفِي كُلٍّ لاَ يَسْتَطِيعُ، فَرَفَعَ رَأسَهُ فَإذا هُوَ بكَبْشٍ قَدْ رَعَى فِي الْجَنَّةِ أرْبَعِينَ خَرِيفاً).

قال الحسنُ بن الفضل: (مَا فُدِيَ إلاَّ بتَيْسٍ هَبَطَ عَلَيْهِ مِنْ ثَبيرٍ فَذَبَحَهُ إبْرَاهِيمُ فِدَاءً عَنِ ابْنِهِ)[١]. وَقِيْلَ: كان الفداءُ وَعْلاً من الأَوْعَالِ الجبليَّة.

وأما قولهُ (بذِبْحٍ عَظِيمٍ) قال سعيدُ بن جبير:(حَقٌّ عَلَيْهِ أنْ يَكُونَ عَظِيماً، وَقَدْ رَعَى فِي الْجَنَّةِ أرْبَعِينَ خَرِيفاً)[٢]. وقال مجاهد: (سُمِّيَ لأنَّهُ مُتَقَبَّلٌ)[٣]، وقال الحسنُ ابن الفضل: (لأنَّهُ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى)، وقال أبو بكرٍ الورَّاقُ: (لأنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَنْ نَسْلٍ وَإنَّمَا كَانَ بالتَّكْوِينِ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٢٦٦٤). والبغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٢٦٥٥). والبغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٥.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٢٦٦٥). والبغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨)﴾؛ أي تركنا على إبراهيم في العالَمين أنْ يُقالَ: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)﴾، ويصلَّى عليه إلى يوم القيامةِ، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)﴾، وبقينا عليها حُسناً، ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)﴾؛ مَن جعلَ الذبيحَ إسماعيلَ قال: بشَّرَ اللهُ إبراهيمَ بولدٍ بعدَ هذه القصَّة جزاءً لطاعتهِ، ومَن جعلَ الذبيحَ إسحق قالَ: بُشِّرَ إبراهيمُ بنبوَّةِ إسحق، وأثيبَ إسحقُ بصبرهِ بالنبوَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾؛ أي وباركنا على إبراهيمَ وعلى إسحقَ، وَقِيْلَ: على إسماعيلَ وعلى إسحقَ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾؛ الْمُحسِنُ هو المؤمنُ، والظالِمُ المبينُ هو الكافرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤)﴾؛ أي أنعمنا عليهما بالنبوَّة والرسالةِ وغير ذلك من أنواعِ النعيمِ، والْمَنُّ قطعُ كلِّ أذيَّةٍ، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[1] أي غيرُ مقطوعٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥)﴾؛ أي وخلَّصناهما من الخزي القطيع من استعبادِ فرعون إيَّاهم، ومن ذبحِ الأبناء، وتسخيرِ الرجُلِ في الأمور الشاقَّة، ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾، على فرعونَ وقومهِ، ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦)﴾؛ بعدَ ما كانوا مغلُوبين، ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧)﴾؛ أي أعطيناهُما الكتابَ البيِّنَ وهو التوراةُ، ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨)﴾؛ وهو دينُ الاسلام، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣)﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ عَمُّ الْيَسَعَ، وَهُوَ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَارُونَ بْنِ عِمْرَانَ، وَهَارُونُ هُوَ جَدُّ أبِيهِ)[2]. وقال ابنُ

---

(١) الانشقاق / ٢٥ .

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٥.

إسحق: (إلْيَاسُ هُوَ يُوشُعُ بْنُ نُون)[١].

ويقالُ: إلياس والخضِرُ في الأحياءِ، فإلياسُ صاحب البراري، والخضِرُ صاحبُ الجزائرِ، ويجتمعان في كلِّ سنةٍ مرَّة بعرفات!

وعن أنس ﷺ قال: (غزَونا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنَّا نفحَ الناقةِ إذ نحن بصَوتٍ يقولُ: اللَّهم اجعلني من أمة مُحَمَّد المرحومةِ المغفور لها المثوب عليها المستجاب لها، فقالَ رسولُ الله ﷺ: [يَا أَنسُ انْظُرْ هَذا] فدخلتُ الجبلَ فاذا أنا برجُلٍ أبيضَ الرأسِ واللحيَةِ، عليه ثيابٌ بيض طولهُ أكثرَ من ثلاثمائة ذراعٍ، فلما نظرَ إليَّ قال: أنتَ من أصحاب رسول الله ﷺ ؟ قلتُ: نعم، قال: ارجِعْ إليه فأقرئهُ منِّي السَّلامَ، وقل له: أخوكَ إلياسُ يريدُ لقاءكَ، فجاءَ النبيُّ ﷺ وأنا معه، حتى إذا كُنَّا قريباً منه، تقدَّمَ النبيُّ ﷺ وتأخرتُ، فتحادثا طويلاً، فنَزل عليهما من السَّماء شبه السُّفْرَةِ، فدعَونِي أكلتُ معهما، فإذا فيها كمأةٌ ورمَّان وكرفس، فلما أكلتُ قمت فتنحيتُ، فجاءت سحابةٌ فاحتملَتْهُ وأنا أنظرُ إلى بياضِ ثوبه، فهوَت به قبَل الشَّام)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ عقابَ اللهِ بعبادة غير الله، وقولهُ تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ ؛ أي أتدَّعون بالإلهيَّة بَعْلاً صَنَماً، ﴿ وَتَذَرُونَ ﴾ ، وتتركون عبادةَ، ﴿ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ وكان قومهُ يعبدون صَنَماً لهم من ذهب يقال له بَعْلٌ، وكان طولهُ عشرين ذراعاً، وكان له أربعةُ وجوهٍ، فجعلَ إلياسُ يدعوهم إلى عبادةِ الله وهم في ذلك لا يسمَعون منه شيئاً.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٥.

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة: ج ٥ ص٤٢١؛ قال: (إسناد هذا الحديث ضعيف). وذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ج ١ ص٣٩٤؛ وقال: (فقد كفانا البيهقي أمرَهُ وقال... والعجب أن الحاكم أبا عبدالله أخرجه في مستدركه على الصحيحين، وهذا مما استدرك به على المستدرك، فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه). وفي لسان الميزان: ج ٦ ص٢٩٥؛ قال ابن حجر: (حديث باطل أخرجه الحاكم في مستدركه... فما استحى الحاكم من الله بتصحيح مثل هذا). وقال في تلخيص المستدرك: (هذا حديث موضوع، ما كنت أحسب أن الجهل يبلغ بالحاكم أن يصحح هذا، وهذا ما افتراه يزيد البلوي).

وقولُهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ ؛ أي خالقُكم وخالقُ آبائكم، ومَن قرأ (ربَّكُمْ) بالنصب فعلى صفة (أحْسَنَ الْخَالِقِينَ)[1].

وقولهُ تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ ؛ أي لَمُحضَرون في النار والعذاب بتكذيبهم، ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ أي لكن عبادَ الله المخلَصين مبعَدُون من الموضعِ الذي فيه المشركون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ ، يريدُ إلياسَ ومَن آمنَ معه، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ ؛ قال أبو علي الفارسي: (تَقْدِيرُهُ: اليَاسِيِّينَ)[2] إلاَّ أنَّ اليَائيْنِ لِلنِّسْبَةِ حُذِفتَا، كَمَا حُذِفتَا فِي الأشْعَرِيِّينَ وَالأعْجَمِينَ، وقرأ نافعُ (اليَاسِينَ) أي سلامٌ على أهلِ كلام الله وآل مُحَمَّد ﷺ، فإن يس مِن كلامِ الله تعالى في القرآن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ ؛ أي من جُملة المرسَلين، ﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ ؛ يعني امرأتَهُ المنافقةَ تخلَّفت في موضعِ العذاب في جُملة الباقين، ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ ؛ أي أهلكنَاهم بعذاب الاستئصال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ ؛ هذا خطابٌ لِمُشركي العرب، كانوا يَغْدُونَ على قرياتِ قوم لوطٍ فلم يعتَبروا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾ ؛ أي هربَ من قومهِ إلى السفينةِ المملوءَةِ بالناسِ والدواب، وإنما هربَ لأن الله كان أوعدَهم بالعذاب إنْ لم يؤمِنُوا فلم يؤمنوا، وعلِمَ أنَّ العذابَ نازلٌ بهم، فخرجَ من بينِهم من غيرِ أن يأمرَهُ اللهُ تعالى بالخروجِ، فكان ذلك ديناً منه وكان

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٣٥؛ قال الزجاج: (وقرئت (اللهَ رَبَّكُمْ) على صفة أحسن الخالقين اللهَ، وقرئت (اللهُ رَبُّكُمْ) على الابتداء والخبر).

(٢) الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٢٠.

قصدهُ حين خرجَ منهم للمبالغةِ في تحذيرِهم وإنذارِهم، فكان بذهابهِ كالفارِّ من مولاهُ، فوُصِفَ بالأبَاقِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ ؛ وذلكَ أنه لَمَّا رَكِبَ السفينةَ، وقفَتِ السفينةُ ولم تَسِرْ بأهلِها، فقالَ الملاَّحون: هـهُنا عبدٌ آبقٌ من سيِّدِهِ، وهذا رسمُ السفينة إذا كان فيها عبدٌ آبقٌ لا تجرِي، واقترَعُوا فوقعتِ القُرعَةُ على يونسَ فقال: أنا الآبقُ، ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ ﴾ .

قال سعيدُ بن جبير: (لَمَّا اسْتَهَمُواْ جَاءَ حُوتٌ إلَى السَّفِينَةِ فَاغِراً فَاهُ يَنْتَظِرُ أمْرَ رَبهِ، كَأنَّهُ يَطْلُبُ وَاحِداً مِنْ أهْلِهَا، فَقَالَ يُونُسُ: يَا أهْلَ السَّفِينَةِ أنَا الْمَطْلُوبُ مِنْ بَيْنِكُمْ، فَقَالُوا: أنْتَ أكْرَمُ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ أنْ يَبْتَلِيكَ بمِثْلِ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: اقْتَرِعُوا فَمَنْ خَرَجَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى اسْمِهِ ألْقِيَ إلَى الْحُوتِ، وَكَانَ يَعْلَمُ أنَّ الْقُرْعَةَ تَخْرُجُ عَلَيْهِ، إلاَّ أنَّهُ لَمْ يَبْدَأ بإلْقَاءِ نَفْسِهِ إلَى الْحُوتِ مَخَافَةَ أنْ تَلْحَقَهُ سِمَةُ الْجُنُونِ، فَسَاهَمَ فَوَقَعَ السَّهْمُ عَلَيْهِ فكَانَ مِنَ الْمَسْهُومِينَ).

وَالْمُدْحَضُ في اللغة: هو المغلوبُ في الحجَّة، وأصلهُ من دَحَضَ الرجلُ إذا نزلَ مِن مكانهِ، فلما ألْقِيَ عليه السُّلَّمُ في البحرِ ابتلعَهُ الحوتُ ابتلاعَ اللُّقمَةِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ ؛ أي أتَى بما يستحقُّ عليه اللَّومَ، والْمَلِيمُ: الآتِي بما يُلائِمُ على مثلهِ، وسببُ استحقاقهِ اللَّومَ خروجهُ من بين قومهِ قبل ورُودِ الإذنِ عليه مِن اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ ، أي لولاَ أنه كان قبلَ أن يلتقمَهُ الحوتُ من المصلِّين للهِ تعالى، ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ ؛ لَمَكَثَ في بطنِ الحوتِ إلى يوم البعثِ والنُّشور. قال الحسنُ: (مَا كَانَتْ لَهُ صَلاَةٌ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، وَلَكِنَّهُ قَدَّمَ عَمَلاً صَالِحاً قَبْلَ ذلِكَ)[1].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٧١٧). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٢٩.

ويقالُ: إن المرادَ بالتسبيحِ في هذه الآيةِ قولهُ في الحوتِ: لاَ إلَهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. قال السديُّ: (لَبثَ يُونُسُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ أرْبَعِينَ يَوْماً)[١]، وقال الضحَّاكُ: (عِشْرِينَ يَوْماً)[٢]، وقال عطاءُ: (تِسْعَةَ أيَّامٍ)[٣]، وقال مقاتلُ: (ثلاثَةَ أيَّامٍ)[٤].

وقولهُ تعالى: ﴿ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾؛ أي ألْهَمنَا الحوتَ أن يطرحَهُ على فضاءٍ من الأرض، والعَرَاءُ هو المكانُ الخالِي من الشَّجر والبناءِ، قال مقاتلُ: (مَعْنَى: (فَنَبَذْنَاهُ بالْعَرَاءِ) يَعْنِي وَجْهَ الأَرْضِ وَهُوَ سَقِيمٌ قَدْ بَلِيَ لَحْمُهُ مِثْلَ الصَّبِيِّ الْمَوْلُودِ)، قال ابنُ مسعودٍ: (كَهَيْئَةِ الْفَرْخِ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ رِيشٌ).

وَقِيْلَ: معنى (وَهُوَ سَقِيمٌ) أي وهو مَرِيضٌ، وذلك لما أصابَهُ في بطنِ الحوت من الشدَّةِ والضَّغطَةِ والبُعدِ من الهواءِ والغذاء، حتى ضَعُفَ جسمهُ ورقَّ جلده ولم يبقَ ظُفْرٌ ولا شعرٌ كالولدِ أوَّلَ ما يخرجُ من بطنِ أمِّه.

فلما أُلقِيَ على وجهِ الأرض كان يتأذى بحرِّ الشمس، فأنبتَ اللهُ تعالى عليه شجرةً من يَقْطِينٍ، قال الكلبيُّ: (هِيَ الْقَرْعُ)، وهي شجرةُ الدُّبَّاءِ العربي، وكلُّ شجرةٍ لا تقومُ على ساقٍ وتمتدُّ على وجهِ الأرضِ مثل القَرْعِ والبطِّيخ ونحوها فهو يقطينٌ، واشتقاقهُ من قَطَنَ من المكان إذا أقامَ به، فهذا الشَّجرُ يكون ورقهُ وساقهُ على وجهِ الأرض، فلذلك قِيْلَ: يَقْطِين، ومن خصائصِ شجرةِ القَرْعِ أنَّها لا يقربُها ذبابٌ، قالوا: فكان يستظلُّ بها من الشَّمسِ، وسخَّرَ اللهُ له وَعْلَةً[٥] بُكرَةً وعَشِيّاً تختلفُ إليه، فكان يشربُ من لبَنِها حتى اشتدَّ لحمهُ ونبتَ شعرهُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٧٢٠).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠١.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠١.

(٤) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٢٣ عن مقاتل بن حيان. وكذا البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠١.

(٥) الوَعْلُ: تَيسُ الْجَبَلِ. والأنثى: وَعْلَةٌ. ينظر: القاموس المحيط: (و ع ل)

ثم أرسلَهُ اللهُ بعدَ ذلك وهو قولهُ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ ؛ وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: بَلْ يَزِيدُونَ)، وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: وَيَزِيدُونَ)، وكان الذين أرسِلَ إليهم أهلَ نِينَوَى، كأنَّهُ أرسِلَ قبلَ ما الْتَقَمَهُ الحوتُ إلى قوم، وبعدَ ما نبذهُ الحوتُ إلى قومٍ آخَرين.

قولهُ: ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ ؛ أي فآمَنَ مَن أرسِلَ إليهم يونسُ عليه السلام بما جاءَهم به من عندِ الله تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ ؛ أي إلى حين آجالِهم. واختلَفُوا في الزيادةِ على مائة ألفٍ، قال مقاتلُ: (كَانَتِ الزِّيَادَةُ عِشْرِينَ أَلْفاً)[1]، وقال الحسنُ: (بِضْعاً وَثَلاَثِينَ أَلْفاً)[2]، وقال سعيدُ بن جبير: (سَبْعِينَ أَلْفاً)[3].

وقولهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ ؛ أي سلهُم - يا مُحَمَّدُ- أهلَ مكَّة سؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ(أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)؟ وذلك أنَّ قُريشاً وقبائلَ من العرب منهم خُزاعَةُ وجُهَيْنَةُ وبنو سُليم كانوا يقولُون: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً. وقولهُ تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ ؛ أي حَاضِرُوا خلقِنا إيَّاهم، فكيفَ جعَلوهم إناثاً ولم يشهَدُوا خلقَهم كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ ؛ في إضافةِ الأولادِ إلى اللهِ تعالى حين زعَمُوا أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً، ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ ؛ القراءة المعروفةُ المشهودة بفتحِ الألِفِ على الاستفهامِ الذي فيه التوبيخُ، والمعنى: سَلْهُمْ أصْطَفَى البناتِ، إلاَّ أنه حذفَ ألِفَ الوصلِ وبقيت ألِفُ الاستفهامِ مفتوحةً

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٠٨.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٢.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٧٤٤). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٣١.

(٤) الزخرف / ١٩ .

مقطوعة على حالِها مثل أستَكبرتَ واستغفرتَ[1]، وأذهَبتُم ونحوها. وقرأ نافعُ برواية وَرْشٍ (اصْطَفَى) موصولةً على الخبرِ والحكاية عن قولِ المشركين، تقديرهُ: ليَقولُون ولدَ اللهُ ويقولون اصْطَفَى البناتِ[2].

وقولهُ تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾؛ هذا توبيخٌ لَهم؛ أي كيف ترضُون لله ما لا ترضون لأنفسِكم، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾، أفلاَ تتَّعظُون فتمتَنعون عن مقالتِكم، ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾؛ أم لكم حجَّةٌ بيِّنةٌ على صحَّة دعواكم هذهِ، ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾؛وحجَّتِكم، ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ فيما تدَّعون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾؛ أي جعلَ هؤلاءِ بينَ اللهِ وبينَ الملائكةِ الذين يشاهدونَهم نسَباً، وسُميت الملائكة جِنَّةً في هذا لاستتارهم عن أعيُن الناسِ كاستتار الجنِّ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾؛ أي علِمَت الملائكةُ أنَّ الكفارَ الذين عبَدُوهم لَمُحضَرون في العذاب لدُعائِهم إلى هذا القولِ.

ثم نَزَّهَ اللهُ تعالى نفسَهُ فقالَ: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾؛ أي عمَّا يصِفُونَهُ ويُضِيفُونَهُ إليه، ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾؛ لكنَّ عبادَ اللهِ المخلَصين من الجنِّ والإنسِ لا يُحضَرون هذا العذابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾؛ هذا خطابٌ لأهلِ مكَّة، معناهُ: فإنَّكم أيُّها المشركون وما تعبدونَهُ من دون الله الأصنامُ، ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾؛ أي ما أنتم على ذلك بمُضِلِّين أحَداً، ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾، إلاَّ مَن كان في علمِ الله أنه يَصلَى الجحيمَ، وفي هذا بيانٌ على أنَّهم لا يُفسِدون أحَداً إلاَّ مَن كان في معلومِ الله أنه سيَكفُر، يعني أن قضاءَ اللهِ سبَقَ في قومٍ بالشَّقاوة، فإنَّهم يَصلُونَ النارَ، فهُم الذين يُضِلُّونَ في الدِّينِ ويعبدون الأصنامَ.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٣٣-١٣٤.

(٢) ينظر: إعراب القرآن: ج ٣ ص٢٩٩. والحجة للقراء السبعة: ص٣٢٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ؛ هذا من قولُ جبريلَ عليه السلام للنبيِّ ﷺ يقولُ: ليس منَّا معشرُ الملائكةِ ملَكٌ في السَّمواتِ والأرض إلاَّ له موضعٌ معلوم يَعبُدُ اللهَ فيه، لا يتجاوزُ ما أمِرَ به، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ ؛ أي الْمُصْطَفُّونَ في الصَّلاة كصُفوفِ المؤمنين. وَقِيْلَ: صافُّون حولَ العرشِ ينتظرون الأمرَ والنهيَ من اللهِ تعالى، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ ؛ أي الْمُصَلُّونَ للهِ، المنَزِّهُون له عن السُّوءِ، وعن جميعِ ما لا يَليقُ بصفاتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ ، أي وقد كان كفارُ مكَّة يقولون: ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ ، لو جاءَنا ذِكرٌ كما جاءَ غيرَنا من الأوَّلِين من الكتُب، ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ ؛ لأخلَصْنا العبادةَ لله، فلمَّا جاءَهم الرسولُ والكتاب كما قالُوا وطلبوا؛ ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ ، كفرُوا بذلك، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ ، ماذا ينْزِلُ بهم، وهذا كما قالُوا: لو أنَّا أنزِلَ علينا الكتاب لكُنَّا أهدَى منكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: لقد تقدَّمَ وعدُنا بالنصرِ والظَّفر لعبادِنا المرسَلين، ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ ، يعني بالكلمةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أنَا وَرُسُلِي﴾[1] فهذه الكلمةُ التي قد سبقَت، فاللهُ تعالى لم يفرِضَ على نبيٍّ الجهادَ إلاّ ونصرَهُ وجعلَ العاقبةَ له، قال الحسنُ: (مَا غُلِبَ نَبِيٌّ فِي حَرْبٍ وَلاَ قُتِلَ فِيهِ قَطُّ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ ؛ أي جندُ اللهِ لهم الغلبَةُ بالحجَّة والنصرِ في الدُّنيا، وينتقمُ الله من أعدائهِ في الآخرة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ ؛ أي أعْرِضْ عنهم حتى تنقضيَ المدَّةُ التي أمهلوا فيها، ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ ، في عذاب الآخرة، ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ ؛ ما وُعدوا من

(١) المجادلة / ٢١ .

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٣٩.

العذاب. وَقِيْلَ: معناهُ: أعرِضْ عنهم حتى نأْمُرَكَ بقتالهم، وأبصِرهُم بقلبكَ فسوف يُبصِرُونَ العذابَ بأعيُنهم.

فقالوا للنبيِّ ﷺ: متى ينْزلُ بنا العذابُ الذي تعِدُنا به؟ فقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾؛ أي يطلبون تعجيلَ عذابنا لجهلِهم، ﴿ فَإِذَا نَزَلَ ﴾؛ العذابُ، ﴿ بِسَاحَتِهِمْ ﴾؛ أي بفنَاءِ دارهم وموضعِ منازلهم، ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾؛ أي فبئسَ صباحُ قومٍ أنذرَهم الرسلُ فلم يؤمنوا.

وعن أنسٍ ﷺ قال: لَمَّا أتى النَّبِيُّ ﷺ خَيبَرَ، قالَ: [اللهُ أكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ إنَّا إذا نَزَلْنَا سَاحَةَ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذرينَ][١].

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ ﴾؛ إنما ذكرَهُ ثانياً تأكيداً لوعدِ العذاب، وقولُهُ تعالى: ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾؛ ليس هذا بتكرار؛ لأنَّهما عذابَان، أرادَ بالأول عذابَ الآخرةِ، وبالثاني عذابَ الدُّنيا يومَ بدرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾؛ أي تنْزيهاً لربكَ رب القُدرَةِ والمنَعَة والغلبَةِ عمَّا يقولون من الكذب بالأوثان آلهةً، وأنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾؛ الذين بلَّغُوا عن اللهِ التوحيدَ والشرائعَ. قال النبيُّ ﷺ: [إذا سَلَّمْتُمْ عَلَيَّ فَسَلِّمُوا عَلَى الْمُرْسَلِينَ، فَإنَّمَا أنَا رَسُولٌ مِنَ الْمُرْسَلِينَ][٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾؛ أي الشُّكْرُ للهِ رب الخلائقِ على إهلاكِ الأعداء وإعزاز الأولياء. وَقِيْلَ: معناهُ: والحمدُ للهِ رب العالَمين

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الأذان: الحديث (٦١٠). ومسلم في الصحيح: كتاب النكاح: الحديث (١٢٠/ ١٣٦٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: ج ١٢ ص١٣٩: الحديث (٢٢٨٠٦). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٣٤. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٤٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن سعد وابن مردويه مرسل).

على إهلاكِ المشرِكين ونُصرَةِ الأنبياءِ.

وعن عليٍّ ﷺ أنه قالَ: (مَنْ أحَبَّ أنْ يَكْتَالَ بالْمِكْيَالِ الأَوْفَى مِنَ الأَجْـرِ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلْيَكُنْ آخِرُ كَلاَمِهِ مِنْ مَجْلِسِهِ: سُبْحَانَ رَبكَ رَب الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ...)[1] إلى آخرِ السُّورة.

آخر تفسير سورة (**والصافات**) والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه البغوي في معالم التنزيل بإسناده عن أصبغ بن نباته عن علـي ﷺ، وذكـره. وفي الجـامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٤١؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي من حديـث ﷺ مرفوعـاً). ينظـر: الكشف والبيان للثعلبي: ج ٨ ص١٧٤.

سُورَةُ ص~

سُورَةُ ص~ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاَثَةُ آلاَفٍ وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَسَبْعُمِائَةٍ وَاثْنَانِ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ص~ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ وَزْنَ كُلِّ جَبَلٍ سَخَّرَهُ اللهُ تَعَالَى لِدَاوُدَ حَسَنَاتٍ، وَعُصِمَ مِنْ أنْ يُصِرَّ عَلَى ذنْبٍ صَغِيْرٍ أوْ كَبِيْرٍ][(١)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ ﴾؛ اختلفُوا في قولـهِ (ص) قَالَ: (صَدَقَ اللهُ) وهو قول الضحَّاكُ[(٢)]، وقال عطاءُ: (صَدَقَ مُحَمَّدٌ ﷺ)، وقال محمَّدُ بن كعبٍ القرظي: (هُوَ مِفْتَاحُ اسْمِ اللهِ صَمَدٌ وَصَانِعُ الْمَصْنُوعَاتِ وَصَادِقُ الْوَعْدِ)[(٣)]. وَقِيْلَ: هو من فَواتِحِ السُّوَر. قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ قَسَمٌ أقْسَمَ اللهُ بِهِ)[(٤)]، وقال سعيدُ بن جُبير: (هُوَ بَحْرٌ يُحْيي اللهُ بهِ الْمَوْتَى بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ)[(٥)]. وَقِيْلَ: هو إشارةٌ إلى صُدودِ الكفَّار عنِ القُرْآنِ والْهُدَى.

قال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: أعْرَضَ عَنِ الْهُدَى) كَأَنَّهُ ذهَبَ إلَى أنَّهُ كَانَ فِي الأَصْلِ صَدٌّ؛ أيْ صَدَّ أبُو جَهْلٍ أوْ صَدَّ أهْلُ مَكَّةَ عَنِ الْحَقِّ، فَأبدِلَتِ إحْدَى الدَّالَيْنِ ألِفاً).

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص١٠٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٨١٢).

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٤.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٨١٠).

(٥) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٤٣.

وقرأ عِيسَى بن عُمر: (صَادَ) بفتحِ الدَّال، ومثلُ قاف ونون، لاجتماعِ السَّاكِنَين وحرَّكَها بأخَفِّ الحركَاتِ. ومعناهُ: صَادَ مُحَمَّدٌ قلوبَ الرِّجالِ واستَمالَها حتى آمَنُوا به. وقرأ الحسنُ: (صَادِ) بكسرِ الدَّال من الْمُضَادَّاتِ التي هي مِن المقابلَةِ والمعارضةِ؛ أي عارِضْ عمَلَكَ بالقُرْآن[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) أي ذِي البيَان الْهَادِي إلى الحقِّ. وَقِيْلَ: معناهُ: ذِي الشَّرَفِ، كما في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[٢] والمعنَى: أقْسَمَ اللهُ تعالى بالقُرْآنِ أنَّ مُحَمَّداً صادقٌ، وجوابُ قَسَمٍ محذوف تقديرهُ: والقُرْآنِ ذِي الذِّكرِ ما الأمرُ كما يقولُ الكفَّار[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾؛ يعني: كفَّارَ مكَّة في مَنَعَةٍ وحَمِيَّةٍ وتكبُّرٍ عن الحقِّ، (وَشِقَاق) أي خِلافٍ وعداوةٍ لِمُحَمَّدٍ ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي مِن أمَمٍ بتكذيبهم الرُّسُلَ، ﴿فَنَادَواْ﴾؛ عند وُقوعِ الهلاكِ بهم بالاستغاثة، ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾؛ أي وليسَ الحينُ حينَ نَزْوٍ ولاَ فَرار[٤]، قال وهبُ:(لأتَ باللُّغَةِ السِّرْيَانِيَّةِ: وَلَيْسَ، وذلك أنَّ السِّريانِيَّ إذا أرَادَ أنْ يَقُولَ وَلَيْسَ يَقُولُ: وَلاَتَ)[٥] وقال أئِمَّةُ اللُّغَةِ: (أصْلُهَا (لاَ) زِيْدَتْ فِيْهَا التَّاءُ، كَمَا زِيْدَتْ فِي ثُمَّتَ وَرُبَّتَ). وقال قومٌ: إنَّ التاءَ زِيدَتْ في (حِينَ) كما زِيدَتْ في قولِ الشَّاعرِ:

الْعَاطِفُونَ تَحِينَ مَا مِنْ عَاطِفٍ ... وَالْمُطْعِمُونَ زَمَانَ أيْنَ الْمُطْعِمُ؟[٦]

---

(١) ذكره ابن النحاس في إعراب القرآن: ج ٣ ص٣٠٢.
(٢) الزخرف / ٤٤ .
(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٤٤؛ قال القرطبي: (ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب؛ لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة، بل هم في تكبُّر عن قبول الحق).
(٤) النَّزو: من نَزَا، أي وثب، وبابه عَدَا. والمراد: ضربُ العدْوَ.
(٥) في الدر المنثور: ج ٧ ص١٤٥؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب بن منبه) وذكره.
(٦) البيت لأبي وجزَة السعدي. قاله ابن النحاس في إعراب القرآن: ج ٣ ص٣٠٤. وينظر: اللسان: (ليت): ج ١٢ ص٣٧٣.

والمرادُ بتَحِينَ: حِينَ. فمَن قالَ: إنَّ التاء مع لاَ، فالوقفُ عليه بالتاءِ. ورُوي عن الكسائيِّ (وَلاَه) بالهاءِ في الوقفِ، ومثلهُ روى قنبلُ عن ابنِ كثير. ومَن قالَ: إن التاءَ مع حينَ لاَ، فالوقفُ عليهِ،(ولا) ثُم تبتدئ: تحين مناص[1].

قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ كُفَّارُ مَكَّةَ إذا قَاتَلُوا فَاضْطَرَبُوا فِي الْحَرْب، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنَاصِ؛ أيْ اهْرُبُوا وَخُذُوا حِذْرَكُمْ، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِمُ الْعَذابُ بِبَدْرٍ قَالُوا: مَنَاصِ، عَلَى عَادَتِهِمْ، فَأَجَابَتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ: وَلاَتَ حِيْنَ مَنَاصٍ؛ أيْ لَيْسَ هَذا حِيْنَ مَنْجَى)[2].

وَقِيْلَ: معناُه: (وَلاَتَ حِيْنَ مَنَاصٍ) أي ليسَ هذا حينُ نَزْوٍ ولا حينَ فِرَار، والمناصُ مصدر من النَّوْص، يقالُ: نَاصَهُ يَنُوصُهُ إذا فَاتَهُ، ويكون النَّوْصُ بمعنى التأخُّرِ؛ أي ليس هذا حينَ التأخُّرِ، والنَّوْصُ هو الفَوْتُ والتأخُّر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ ؛ أي وعَجِبَ المشركونَ أنْ جاءَهم نَبِيٌّ منهم يخوِّفُهم من عذاب الله،﴿ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ ﴾ ؛ يعنونَ النبيَّ ﷺ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ ؛ أي قالُوا لفَرْطِ جَهلِهم على وجهِ الإنكار: أجعَلَ مُحَمَّدٌ الآلِهَةَ إلَهاً واحداً ؟﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ ؛ أمَّا هذا الذي يقولُ مُحَمَّدٌ ﷺ من ردِّ الحوائجِ إلى إلَهٍ واحدٍ، إلاَّ شيء مُفْرِطٌ في العَجَب.

والعُجَابُ: ما يكون في غايَةِ العَجَب، يقالُ: رجلٌ طُوَالٌ، وأمْرٌ كُبَارٌ، وسيفٌ قُطَاعٌ، وسَيلٌ حُجَافٌ، ويرادُ بذلك كلٌّ مبالغةٍ.

وذلك أنَّ عُمرَ بنَ الخطَّاب لَمَّا أسلمَ شَقَّ على قُرَيشٍ، فقال الوليدُ بن المغيرةِ للمَلأ مِن قريشٍ وهم الرُّؤساءُ والصَّناديدُ والأشرافُ، وكانوا خَمسةً وعشرين رَجُلاً، منهم الوليدُ بن المغيرة وهو أكبَرُهم سِنّاً، وأبو جهلٍ، وأبَيٌّ بن خلَفٍ، وأبو البحتري بن

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٣٠٤.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٥. وينظر: الدر المنثور: ج ٧ ص١٤٤. والجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٤٦.

هِشَام، وعُتبة وشيبَةُ ابنَا ربيعةَ، والعاصُ بن وائلٍ، والنضِرُ بن الحارثِ، ومَخرَمَـةُ بـن نوفلٍ، وزمعَةُ بن الأسودِ، والأحنفُ بن شُريقٍ، وغيرُهم.

قال لَهم الوليدُ بن المغيرة: امْشُوا إلَـى أبـي طَـالِبٍ وَقُولُـوا لَـهُ: أنْـتَ شَـيْخُنَا وَكَبيرُنَا، وَإنَّا أتَيْنَاكَ لِتَقْضِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ابْنِ أخِيْكَ. فَمَشَوا إلَيْهِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مَرِيضٌ مَرَضَ الْمَوْتِ، فَشَكَوا إلَيْهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ لَـهُ: يَـا ابْـنَ أخِـي مَـا تُرِيـدُ مِـنْ قَوْمِـكَ؟ قَـالَ: [أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً إذا قَالُوهَـا مَلَكُـوا الْعَـرَبَ وَدَانَـتْ لَـهُمُ الْعَجَـمُ] فَقَـالُوا: وَمَا هِيَ ؟! قَالَ: [قُولُوا لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ] فَنَفَرُوا مِنْ ذلِكَ؛ وَقَالُوا: أنَجْعَـلُ آلِهَـةً إلَـهاً وَاحِداً ؟![1]

وَقِيْلَ: إنَّ أبَا طالبٍ لَمَّا دعَا النبيَّ ﷺ قالَ: يا ابنَ أخِي؛ هؤلاءِ قومُكَ يسألونكَ السَّواءَ، فلا تَمِلْ كلَّ المَيلِ عليهم، فقال: [وَمَاذا يَسْألُونَنِي ؟] قال: ترفضُ ذكرَ آلِهتِهم ويدَعُونكَ وإلَهَكَ، فقال النبيُّ ﷺ: [إنِّي أدْعُوهُمْ إلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ] قَالُوا: وما هـي؟ قالَ: [لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ].

فنَفَرُوا من ذلكَ، وقال: (اجْعَلِ الآلهةَ إلهاً واحداً)، فاغتاظوا مِن ذلكَ وخرَجُوا من عندِ أبي طالبٍ يقولُ بعضهم لبعضٍ: أمشُوا واصبروا على آلِهتِكُم[2]. فذلكَ قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾[3]؛ أي انطلقَ مِن مجلسهم وهم يقولون الذي كـانوا فيه عندَ أبي طالب، وهم يقولون: اثبتُـوا علـى عبـادةِ آلِهتِكُـم واصـبروا، ﴿ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ ؛ على دِينكـم، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي هـذا الشيءُ يريده مُحَمَّدٌ ﷺ ولا يتمُّ له ذلكَ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٢٧. والـترمذي في السـنن: كتـاب التفسـير: الحديـث (٣٢٣٢). والنسائي في السنن الكبرى: ج ٥ ص٨٧٦٩.

(٢) ذكـره البغـوي في معـالم التـنزيل: ص١١٠٤. والقرطـبي في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٥ ص١٥٠.

(٣) ذكـره البغـوي في معـالم التـنزيل: ص١١٠٥. والقرطـبي في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٥ ص١٥٠.

قولهُ تعالى: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ؛ أي قالُوا: ما سَمِعْنَا بهذا الذي يقولهُ مُحَمَّدٌ ﷺ من التَّوحيدِ في الملَّةِ الآخرةِ، يعنونَ النَّصرانيةَ؛ لأنَّها آخِرُ الْمِلَلِ، والنصارَى لا تُوَحِّدُ بأنَّهم يقولون: ثالثُ ثلاثةٍ. ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي قالُوا: ما هذا الذي يقولهُ مُحَمَّدٌ ﷺ إلاَّ كذِبٌ اختَلَقَهُ من تلقَاءِ نفسهِ، يعنونَ الذي جاءَ به من التوحيدِ والقُرآن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ ﴾ ؛ أي قالَ المشركون: اخْتُصَّ مُحَمَّدٌ ﷺ بالنُّبوة والكتاب من بيننا، ونحن أكبرُ منه سنّاً وأعظمُ شرَفاً! والمعنى بالذِّكْرِ القرآنُ.

يقول اللهُ تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ ﴾ ؛ أي يقولون ما يعتقدونَهُ إلاّ شاكِّين، ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ الاستئصال، وهذا تَهديدٌ لهم، أي أنَّهم سيذُوقوا العذابَ ثم لا ينتفِعون بزوالِ الشَّكِّ في ذلكَ الوقتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: عندَهم خزائنُ رحْمَة ربكَ؛ أي بأيديهم مفاتيحُ النُّبوة والرِّسالة فيضعونَها حيث شاؤُا. وَقِيْلَ: معناهُ: عندَهم خزائنُ رحمة ربكَ فيمنعونكَ ما مَنَّ الله به عليكَ من الكرامةِ وفضَّلَكَ به من الرِّسالةِ. ومعنى الآيةِ: ليس ذلكَ بأيدِيهم ولكنه بيَدِ العزيزِ في مُلكهِ، الوهَّاب الذي وَهَبَ النبوَّةَ لكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّهم كانوا يَحْسِدُونَ النبيَّ ﷺ على ما خُصَّ به من النبوَّةِ والوَحْيِ، فقالَ اللهُ تعالى: (أمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ) فيُنازعُوا خالِقَهم، ويَنَزِّلُ الوحيَ على من يختارُ، فقال لَهم: (فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَاب) أي فَلْيَصْعَدْ في طَوْقِ السَّموات مِن سماءٍ إلى سماء، فليَمْنَعِ الوحيَ عنكَ إنْ كان لهم مَقْدِرَةٌ على ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أخبرَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ أنه سيُهزَمُ جندُ المشركين ببَدْرٍ، و(جُنْدٌ) خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي هُمْ جُنْدٌ، و(مَا) زائدةٌ، و(هُنَالِكَ) إشارةٌ إلى بدلٍ ومَصَارعُهم بها و(الأَحْزَاب) سائرُ مَن تقدَّمَهم

من الكفَّار الذين تجرَّؤوا على الأنبياءِ عليهم السلام[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ، أي كذبَتْ قبلَ قومِكَ قومُ نوحٍ، ﴿ وَعَادٌ ﴾ ، هوداً، وَكذب، ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) ﴾ ، وموسى عليه السلام، ﴿ وَثَمُودُ ﴾ ، صالحاً، ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ ، لوطاً، ﴿ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ﴾ ؛ شعيباً، كَذبَ هؤلاءِ أنبياءَهم فحلَّ بهم عذابُ الاستئصال، وكذلكَ ﴿ أُولَئِكَ ﴾ ؛ أي أوْلَئِكَ، ﴿ الْأَحْزَابُ (١٣) ﴾ ، والأحزابُ الجماعةُ الكثيرة القويَّة، ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ ، كلُّهم كذبوا الرُّسُلَ رسلهم، ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) ﴾ ، فحَقَّ عليهم عقابي وعذابي، وكذلك يحقُّ على قومِكَ.

وسُمِّيَ فرعونُ ذُو الأوتادِ؛ لأنه كان يَمُدُّ بين الأوتادِ فيُرسِلُ عليهم الحيَّات والعقارب. وَقِيْلَ: إنه كان إذا غَضِبَ على الإنسان وَاتَدَ يَدَيْهِ ورجْلَيْهِ ورأسَهُ على الأرضِ، قال عطيَّة: (ذُو الأوتادِ؛ أي ذُو الجنودِ والْجُمُوعِ الكثيرةِ)[٢] يعني أنَّهم كانوا يُقَوُّنَ أمرَهُ ويشددون مُلكَهُ كما يُقَوِّي الوتدُ الشيءَ. وَقِيْلَ: الأوتادُ الأَبْنِيَةُ الْمَشِيدَةُ، سُمِّيت بذلك لارتفاعِها كما سُميت الجبالُ أوتاداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ ؛ أي ما ينظر أهلُ مكَّة لوقوعِ العذاب بهم إلاَّ صيحةً واحدةً وهي نفخةُ البعثِ، وذلك أنَّ العقوبةَ في قومِ النبيِّ ﷺ مُؤَخَّرَةٌ إلى يومِ البعثِ، وعقوبةُ الأممِ الماضية كانت مُعَجَّلَةً في الدُّنيا ومُؤَجَّلةً في الآخرةِ، ألاَ ترَى أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ عقوبةَ الاستئصالِ في الدُّنيا من الأُممِ الماضيةِ، وقالَ في هذهِ الأُمَّة ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) ﴾ ؛ أي ما لِتِلْكَ الصَّيحةِ مِن رجعةٍ إلى الدُّنيا، والفَوَاقُ بضَمِّ الفاءِ وفتحِها بمعنىً واحدٍ وهو رجوعٌ، ومن ذلكَ قولُهم: أفَاقَ فلانٌ من الْجُنُونِ ومِن المرضِ؛ إذا رَجَعَ إلى الصِّحة. والفُوَاقُ بضَمِّ الفاءِ ما بين

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٩٩. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٣٠٦.
(٢) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٦.
(٣) القمر / ٤٦.

حَلْبَتَي النَّاقَةِ؛ لأن اللَّبن رجوعهُ إلى الضَّرع بينَ الحلبَتين. والمعنى: ما ينظرُ هؤلاء إلاّ صيحةً واحدة ما لَها من رُجوعٍ. وَقِيْلَ: يرَدَّدُ لكَ الصوتُ فيكون له رجوعٌ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾؛ أي قالَهُ المشركون عَجِّلْ لنا صَحِيفَتَنا قبلَ الحساب حتى نَعلَم ما فيها، قال الكلبيُّ: (لَمَّا نَزَلَ فِي الْحَاقَّةِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ و﴿أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ قالُوا على جهةِ الاستِهْزاء: رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا فِي الدُّنْيَا، فقيل: يومُ الحساب أعجِلْ لنا كتابَنا، قالُوا ذلك تَكذِيباً واستهزاءً)[٢].

والقِطُّ: الصَّحِيفَةُ التي أحْصَتْ كلَّ شيءٍ. وَقِيْلَ: القِطُّ: النَّصيبُ، وسُميت كتبُ الجوائزِ قُطُوطاً لأنَّهم كانوا يكتُبون الأنصِبَاءَ من العطَايَا في الصَّحائفِ، يقالُ: أخَذ فلانٌ قِطَّهُ؛ إذا أخذ كتابَهُ الذي كُتِبَ له بجائزتهِ وصِلَتهِ.

وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ (قِطَّنَا) أيْ حَظَّنَا مِنَ الْعَذاب وَالْعُقُوبَةِ)[٣]. قال قتادةُ: (نَصِيبَنَا مِنَ الْعَذَاب)[٤]. قال مجاهدُ: (عُقُوبَتَنَا)[٥]. وقال عطاءُ: (هُوَ يَقُولُهُ النَّضِرُ بْنُ الْحَارِثِ: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أو ائْتِنَا بعَذَابٍ أليمٍ)[٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾؛ اصبْرْ يا مُحَمَّدُ على ما يقولون مِن تكذِيبكَ وعلى قولِهم إنَّكَ ساحرٌ وشاعر ومجنونٌ وكاهن، وانتظِرْ ما وعَدَكَ اللهُ من

---

(١) الفُواق والفَواق: اسمان من الإفاقة. ومعنى الإفاقة الرجوع والسكون كما في إفاقة المريض، إلا أن الفَواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر، والفُواق اسم لذلك الزمان الذي يعود فيه اللبن. والفِيقة بالكسر اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٥٦. واللباب في علوم الكتاب: ج١٦ ص٣٨٧.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٦.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٨٧٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٨٧٧).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٨٧٦).

(٦) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٦. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٤٨؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد).

النصرِ عليهم والانتقامِ منهم، ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾ ؛ أي ذِي القوَّة في العبادةِ وذا النِّعَمِ الكثيرةِ، كيف صَبَرَ على أذى قومهِ، ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي مُطيعٌ للهِ، مُقبلٌ على طاعتهِ. والأَوَّابُ: كثيرُ الأَوْب الى اللهِ تعالى. قال الزجَّاجُ: (كَانَتْ قُوَّةُ دَاوُدَ عَلَى الْعِبَادَةِ أتَمَّ قُوَّةٍ، كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً، وَذلِكَ أشَدُّ الصَّوْمِ، وَكَانَ يُصَلِّي نِصْفَ اللَّيْلِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الجبالَ كَانَتْ تُسَبحُ معَهُ غُدوةً وعشِيَّةً. والإشراقُ طُلُوعُ الشَّمسِ وإضاءَتُها، يقالُ: شَرَقَتْ إذا طلَعَتْ، وأشْرَقَتْ في الآية بصلاة الضُّحى، وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنه: (كُنْتُ أقْرَأ هَذِهِ الآيَةَ لاَ أدْري مَا هِيَ، حَتَّى حَدَّثَتْنِي أمُّ هَانِيءٍ فِي بَيْتِ أبي طَالِبٍ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَدَعَا بوُضُوءٍ، فَتَوَضَّأ ثُمَّ صَلَّى الضُّحَى، وَقَالَ:[يَا أمَّ هَانِيءٍ هَذِهِ صَلاَةُ الإشْرَاقِ])[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي وسخَّرنا له الطَّيرَ مجموعةً إليه تُسبحُ اللهَ معه غُدوةً وعشياً، (كُلٌّ لَهُ أوَّابٌ) أي كلٌّ للهِ تعالى مُسَبحٌ ومطيعٌ يرجع التسبيحَ مع داودَ كلما سبَّحَ. وَقِيْلَ: معناهُ: كلٌّ له رجَّاعٌ إلى طاعتهِ وأمره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ ؛ أي قوَّينا مُلكَهُ وثبَّتناهُ بالهيبَةِ، ويقالُ بالحرَسِ، كان يحرسُ محرابَهُ كلَّ ليلةٍ ثلاثةٌ وثلاثون ألفَ رجُلٍ، كان فيهم أبناءُ الأنبياءِ لم يطمَعْ في مُلكهِ أحدٌ. قرأ الحسنُ: (وَشَدَّدْنَا) بالتشديد. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (الْحِكْمَةُ هِيَ النُّبُوَّةُ وَالْمَعُونَةُ بكُلِّ مَا حَكَمَ). فقال مقاتلُ: (الْحِكْمَةُ الْفَهْمُ وَالْعِلْمُ)[2]. وَقِيْلَ: الحكمةُ كلُّ كلامٍ حسَنٍ يدعُو إلى الهدى وينهَى عن الرَّدَى.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٥: الحديث (٤٢٥٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط وفيه أبو بكر الهذلي، وهو ضعيف).
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١١٥.

وأما (فَصْلَ الْخِطَاب) فهو فصلُ القضَاءِ بين الحقِّ والباطلِ فيما بين الخصُوم، لا يُتَعْتِعُ في قضائهِ[(١)]. وَقِيْلَ: فصلُ الخطاب وهو الحكمُ بالبيِّنة واليمين. وَقِيْلَ: هو قولهُ: أمَّا بعدُ، وهو أوَّل مَن قال: أمَّا بعدُ، ومعناهُ أما بعدَ حمدِ الله فقد بلغتُ كذا وسمعتُ كذا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾؛ اختلَفُوا في خَطِيئَةِ داودَ عليه السلام والذي هو مستفيضٌ بين العوَامِّ ما ذكَرَهُ الكلبيُّ: (أن داودَ عليه السلام كان يُصَلِّي ذاتَ يومٍ في محرابه، والزَّبُورُ منشورٌ بين يدَيهِ، إذ جاءَهُ إبليسُ في صُورةِ حَمامةٍ من ذهَبٍ فيها كلُّ لونٍ حَسَنٍ، فوقفت بين يديهِ فمَدَّ يدَهُ ليأخُذها، فطارَتْ غيرَ بعيدٍ من غيرِ أن توَسِّد من نفسِها، فامتدَّ إليها ليأخُذها فطارت حتى وقعَتْ في الكُوَّة، فذهبَ ليأخُذها فطارَتْ من الكوَّة، فجعلَ داودُ عليه السلام ينظر أين تقعُ، فأبصرَ امرأةً في بُستان تغتسلُ، وإذا هي من أعجَب النِّساء وأحسَنِهنَّ، وأعجبتهُ، فلما حانَتْ منها التفاتةٌ أبصرَتْهُ فأسبَلَتْ شعرَها على جسمِها فغطَّى بدنَها، فزادَهُ ذلك إعجاباً بها. فسألَ دواد عنها وعن زوجِها، فقالوا اسمها تشايعُ بنت شائعٍ وزوجُها أوريَّا بن حنانا وهو غائبٌ في غُزَاةٍ بالبلقاء مع أيُّوب بن صوريا ابنِ أختِ داود، فكتبَ داودُ إلى ابنِ أخته: اذا أتاكَ كِتَابي هذا فابعَثْ أوريا إلى موضعِ كذا وإلى القلعةِ الفلانيَّة، ولا يرجِعُوا حتى يفتَحوها أو يُقتلوا. فلما جاءَ الكتابُ نَدَبَهُ وندبَ الناسَ معه، فأتَوا القلعةَ فلما أتَوْها رمَوهُم بالحجارةِ حتى قَتلُوهم وقُتِلَ أوريا معهم. فلما انقضت عدَّتُها تزوَّجَها داودُ عليه السلام، فهي أمُّ سليمان[(٢)].

---

(١) التَّعْتَعَةُ في الكلام: التردد من حصر أو عيٍّ. والأصل أن فصل الخطاب عبارة عن كون الذي أوتيه يكون قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال، بحيث لا يختلط شيئاً بشيء، وبحيث يفصل كل مقام عما يخالفه. وهذا معنى عام يتناول فصل الخصومات ويتناول الدعوة إلى دين الله الحق.

(٢) ما أورده الطبراني هنا في حقِّ داود عليه الصلاة والسلام من قبيل الإسرائيليات، ولا صحة له. وأورده الطبري على سبيل حكاية اختلاف كما في جامع البيان: الآثار (٢٢٩٣٥-٢٢٩٤٢). وهي ضرب من أوهام القصَّاص وخيالاتهم التي يجل الله عنها المؤمنين فضلاً عن الأنبياء والمرسلين.

فلما دخلَ داودُ عليه السلام بها، فلم يلبَثْ إلاَّ يسيراً حتى بعثَ عليه مَلَكين في صُورةِ آدميَّين، فطلبَا أن يدخُلا عليهِ فوجداهُ في يومِ عبادتهِ، وكان مِن عادتهِ أنَّهُ جَـزَّأَ الدهـرَ يوماً لعبادتهِ؛ ويَوماً لنسائهِ؛ ويوماً للقضاءِ بين النَّاسِ.

فلما جاءَ الملَكان في يومِ عبادته منَعَهُما الحرسُ مـن الدخـول عليـه، فتَسـوَّرُوا المحرابَ؛ أي دخَلُوا عليه مِن فوق المحـراب[1]، ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ ﴾ ، فلـم يشـعُرْ وهو يصلِّـي إلاّ وهُمـا بـين يدَيـه جالِسَين، ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ ﴾ ، ففَـزِعَ منـهما، فقـالا: لا تَخَـفْ يـا داودُ نحــنُ، ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ ؛ أي ولا تَجُرْ، قال السدِّيُّ: (وَلاَ تُسْرِفْ)[2]، وقال المؤرِّج: (وَلاَ تُفرِّطْ).

وقرأ أبو رجَاء (تَشْطُطْ) بفتح التاءِ وضمِّ الطاء الأُولى من الشَّطَطِ، والإشْـطَاطُ مجاوزةُ الحدِّ. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي وَأرْشِـدْنَا إلى الطريقِ المستقيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ ؛ قال أحـدُ الملَكـين: إن هذا أخِي؛ أي على دِيني لهُ تِسْعٌ وتِسعون امرأةً. والنعجةُ: البقرَةُ الوحشـيَّة، والعـربُ تكنِّي عنِ المرأةِ بها، وتشبَهُ النساءَ بالنِّعَاجِ من البقرِ، وإنما يعني بهذا داود؛ لأنه كان لـه تسعٌ وتسعون امرأةً، وهذا من أحسنِ التَّعريضِ، ويُسـمَّى تعريـضُ التفـهيمِ والتنبيـهِ؛ لأنه لم يكن هناك نعاجٌ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ ؛ أي امرأةٌ واحدة، ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ ؛ أي ضُمَّها إلَيَّ واجعلني كبَعْلِها أعُولُها. والمعنـى: طلِّقْـها حتـى أتزوَّجَـها، وقـال ابـنُ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبـير: ج ١٠ ص٣٢٣٨. وقـال ابـن كثـير في التفسـير: ج ٤ ص٣٢:(وقد ذكر المفسرون قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات، ولم يثبت فيـها عـن المعصـوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سـنده؛ لأنـه مـن روايـة يزيـد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان مـن الصـالحين، ولكنـه ضعيـف الحديـث عنـد الأئمـة، فالأولى أن يقتصر في رواية هذه القصة وأن يُرَدَّ علمها إلى الله عَزَّ وجَلَّ).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٩١٤) بلفظ: (ولا تُحِف)

جبير: (مَعْنَى قَوْلِهِ: (أكْفِلْنِيهَا) أيْ تَحَوَّلْ عَنْـهَا)، ﴿ وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي غلبَني، وقال الضحَّاك: (أيْ تَكَلَّمَ وَكَـانَ أفْصَـحَ مِنِّـي، وَإنْ عَـادَانِي كَـانَ أبْطَـشَ مِنِّي)[1]، وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ أعَزُّ مِنِّي وَأقْوَى عَلَى مُخَاطَبَتِي لأنَّهُ كَانَ الْمَلِكَ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾ ؛ أي إنْ كـان الأمرُ كما تقولُ فقد ظلَمَكَ بما كفلَكَ من قولِهِ عن امرأتِكَ ليتزوَّجَها هو. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ؛ معنـاهُ: وإنَّ كثـيراً مـن الشُّـركاء لَيظلِمُ بعضُهم بعضاً، ظنَّ داودُ أنَّهما شَريكان. وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ؛ معناهُ: إلاّ الذين آمَنُوا ﴿ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ؛ فإنَّهم لا يَظلمُونَ أحَداً، ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ ؛ أي هم قليلٌ، يعني الذين لاَ يظلِمُون.

قال السديُّ: (لما قال أحدُهما: إنَّ هذا أخِي له تسعٌ وتسعون نعجةً، قـال داودُ عليه السلام للآخر: ما تقولُ؟ قالَ: نَعَمْ لي تسعٌ وتسعون نعجـةً ولـه نعجـةٌ، وأنـا أريـد أنْ آخُذها وأكَمِّل نعاجِي مائةً، قال داودُ عليه السلام: وهو كارهٌ ؟ قال نعَمْ وهو كارهٌ، قال: إذاً لا ندعُكَ وإنْ رُمْتَ ذلك ضرَبْنا منكَ هذا، وهذا يعني طرفَ الأنفِ، وأصلهُ: الجبهة.

قال: يا داودُ أنتَ أحقُّ أن يُضرب مثلَ هذا، وهذا يعني طرفَ الأنـفِ وأصلـهُ، حيث كان له تسعٌ وتسعون امرأةً ولم يكن لأوريَّا إلاّ امرأةً واحدة، فلم تـزَلْ تُعَرِّضُـهُ للقتلِ حتى قُتل وتزوَّجتَ امرأتَهُ. ثم صعدَا إلى السَّـماء، فعَلِـمَ داودُ عليه السلام أنَّ الله قـد ابتلاهُ وامتحنَهُ، فخَرَّ راكعـاً أي سـاجِداً وأنـابَ، ورجـعَ إلى طاعـةِ الله تعـالى بالتَّوبـةِ والنَّدامَةِ)[2].

ومعنى قولهِ تعالى: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ ؛ أي وعَلِمَ داودُ أنَّا امتحنَّاهُ بمـا قدَّرنا عليه من نظرهِ إلى المرأةِ وافتتانه بها، وهذا قولُ بعضِ المفسِّرين، إلاّ أنَّ هذا قَوْلٌ مَرْدُودٌ، لاَ يُظَنُّ بدَاوُدَ عليه السلام ضَلاَلَـةٌ، فـهو أجَـلُّ قـدرةً وأعظـمُ منْزلَـةً، وكيـف يُظَـنُّ بالأنبياءِ عليهم السَّلام أن يعرِّضَ المسلمينَ للقتـلِ لتحصيـل نسـائهم لأنفُسِـهم، ومَـنْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٩٢٩).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٩.

نَسَبَ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ إِلَى هَذا وَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ مِمَّنْ لاَ يَصْلُحُ لإِيْمَانِهِ بهِمْ، وَلَئِنْ يُخْطِئَ الإِنْسَانُ فِي نَفْيِ الْفَوَاحِشِ عَنْهُمْ خَيْرٌ مِمَّنْ يُخْطِئُ فِي إِضَافَتِهَا إِلَيْهِمْ، وَقَدْ أُمِرْنَا فِي الشَّرِيعَةِ بِحَمْلِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصِّحَّةِ وَالسَّدَادِ مَا أَمْكَنَ.

وعن عبدِالله بن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قالَ: (مَا زَادَ دَاوُدُ عليه السلام عَلَى أَنْ قَالَ لِزَوْجِهَا: تَحَوَّلْ لِي عَنْهَا)[1]. وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: (لَئِنْ سَمِعْتُ أحَداً يَقُولُ إنَّ دَاوُدَ عليه السلام قَارَبَ مِنْ تِلْكَ الْمَرْأَةِ سُوءاً أوْ حَدَّثَ بِحَدِيثِ دَاوُدَ عليه السلام عَلَى مَا يَرْويهِ الْقُصَّاصُ مُعْتَقِداً صِحَّتَهُ جَلَدْتُهُ مِائَةً وَسِتِّينَ جَلْدَةً)[2] يعني مثلَ حدِّ قذفِ سائرِ الناس.

وَقِيْلَ: إنَّ ذنبَ داودَ عليه السلام أنه تَمَنَّى أن تكون له امرأةُ أوريا حَلاَلاً، وحدَّثَ نفسَهُ بذلك، فاتفقَ غزوُ أوريا وتقدمه في الحرب وهلاكهُ، فلما بلغَهُ قتلهُ لم يَجْزَعْ ولم يتوجَّع عليه كما يجزعُ على غيرهِ من جُندهِ إذا هلكَ، ثم تزوَّجَ امرأتَهُ فعاتبَهُ اللهُ على ذلكَ؛ لأن ذنوبَ الأنبياءِ وإن صغُرت فهي عظيمةٌ عند اللهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي خَرَّ سَاجداً، وعبَّر عن السُّجود بالرُّكوع لأن كلَيهما بمعنى الانحنَاءِ، رُوي أنه مكَثَ ساجداً أربعين ليلةً حتى نبتَ العشبُ من دموعهِ على رأسهِ وأكلتِ الأرضُ جبينَهُ، وكان يقولُ: رب زَلَّ داودُ زلَّةً أبعدَ ما بين المشرق والمغرب، سُبحان الْمَلِكِ الأعظمِ الذي يبتَلِي الخلقَ بما يشاءُ، سُبحان خالقِ النُّور، إلَهي تبْكِي الثَّكلَى على ولَدِها إذا فَقَدَتْهُ، وداودُ يبكِي على خطيئتهِ.

إلَهي أنتَ خلقتَنِي وفي سابقِ علمِكَ ما أنا إليه صائرٌ، سُبحان خالقِ النُّور، إلَهي الويلُ لداودَ إذا كُشِفَ الغطاءُ، فيقالُ: هذا داودُ الخاطِئُ، سُبحان خالقِ النُّور، إلَهي بأيِّ عينٍ أنظرُ إليكَ يومَ القيامةِ، وإنما ينظرُ الظالِمون من طرفٍ خفِيٍّ، وبأيِّ قدَمٍ أقُومُ بها يوم تزِلُّ أقدامُ الخاطئين، سُبحان خالقِ النُّور.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٩٢٤). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٤٠. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٦١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس) وذكره.
(٢) ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب: ج ١٦ ص٤٠٢.

إلَهي أنا الذي لا أطِيقُ حرَّ شَمسِكَ فكيف أطيقُ حرَّ نارِكَ؟ سبحانَ خالقِ النُّور، إلَهي قَرُحَ الجبينُ وجمدَتِ العينانِ من مخافةِ الْحَرِيقِ على جسَدِي، سُبحان خالقِ النُّور، إلَهي أنتَ المغيثُ وأنا المستغيثُ، إلَهي أنتَ تعلَمُ سَرِيرَتِي وعَلاَنِيَتِي، فاقْبَلْ معْذِرَتِي، سُبحان خالقِ النُّور، إلَهي برحمتِكَ اغفِرْ لي ذُنوبي ولا تُباعِدْنِي من رحمتِك فإنَّ إليك رَغبَتِي، سُبحان خالقِ النُّور.

إلَهي أعوذُ بنور وجهكَ الكريمِ من ذُنوبي التي أوْبَقَتْنِي، إلَهي أعوذُ بكَ من دعوةٍ لا تُستجاب، وصلاةٍ لا تُقبَلُ، وذنبٍ لا يغفَرُ، سبحانَ خالقِ النُّور، إلَهي فرَرْتُ إليكَ بذنُوبي واعترفتُ بخطِيئَتِي فلا تجعَلنِي من القَانِطِينَ، ولا تُخزنِي يومَ الدِّين، سُبحان خالقِ النُّور، إلَهي قَرُحَ الجبينُ وفَنِيَتِ الدموعُ وتناثرَ الدُّودُ من رُكبَتَيَّ وخطيئتي الزَمْ بي من جِلدِي، سُبحان خالقِ النُّور.

فأتاهُ نداءٌ من السَّماء يا داودُ أجائعٌ أنتَ فتَطْعَمْ ؟ أظمآنٌ أنتَ؟ لتبقَى مظلومٌ أنتَ فتُنصرْ، ولم يُجبْهُ في ذكرِ خطيئته بشيءٍ، فصاحَ صيحةً فنُودِيَ: ارفَعْ رأسَكَ فقد غفَرْتُ لكَ، فلم يرفَعْ رأسَهُ حتى أتَى جبريلُ فرفعَهُ.

قال وهبُ: (لَمَّا نُودِي داودُ عليه السلام يا داود إنِّي قد غفرتُ لكَ، قال: يا رب وكيف أنتَ لا تظلمُ أحداً ؟ قال اذهَبْ إلى قبرِ أوريا فناده وأنا أسمعهُ نداءَك فتحلَّلْ منه، وانطلقَ حتى أتَى قبرَهُ، وناداهُ يا أوريا فقالَ: لبَّيكَ مَن هذا الذي قطعَ عليَّ لذتِي؟ فقال أنا داودُ، فقال ما جاءَ بكَ يا نبيَّ الله ؟ قال: أسألُكَ أن تجعلَني في حِلٍّ مما كان منِّي إليكَ، قال: وما كان منكَ إلَيَّ ؟ قال: عرَّضتُكَ للقتلِ، قال: إنما عرَّضتَني للجنَّة، فأنتَ في حلٍّ.

فأوحَى اللهُ إليه: يا داودُ ألَم تعلَمْ إنَّ حُكمِي عدلٌ، ألاَ أعلمتَهُ أنَّكَ قد تزوَّجتَ امرأتَهُ. قال: فرجعَ فناداهُ، فقال: مَن هذا الذي قطعَ علَيَّ لذتِي ؟ فقالَ: أنا داودُ، قالَ: يا نبيَّ اللهِ أليسَ قد غفرتُ عنكَ ؟ قال: بلَى؛ ولكنْ إنَّما فعلتُ ذلك بكَ لمكانِ امرأتِكَ، وقد تزوَّجتُها فسكتَ فلم يجبْهُ، فدعَا فلم يجبْهُ، ودعاه فلم يجبْهُ، فقامَ عند قبرِهِ وجعلَ الترابَ على رأسهِ. ثم نادَى: الويلُ لداودَ ثم الويلُ الطويلُ لداود إذا نُصبت الموازينُ القِسْطُ يومَ القيامةِ، سُبحان خالقِ النُّور، الويلُ ثم الويلُ لداودَ حين

يؤخَذُ بذنبِهِ، سُبحان خالقِ النُّور، الويلُ لداودَ ثم الويلُ له حين يُسحَبُ على وجههِ مع الخاطِئين إلى النَّار، سُبحان خالقِ النُّور.

فنودِيَ يا داودُ قد غفرتُ لكَ ذنبكَ ورحمتُ بكاءك واستجبتُ دعاءَك وأقَلْتُ عثرتَك، فقال: يا رب تعفُونِي وصاحبي لم تعفُ عنه ؟ قال: يا داودُ أعْطِيهِ يومَ القيامةِ ما لَم ترَ عيناهُ ولم تسمَعْ أذُنَاهُ، وأقولُ له: هذا عِوَضٌ مِن عبدي داودَ، فاستوهبُكَ منه فيهَبُكَ لِي، قال: يا ربِ الآنَ قد عرفتُ أنَّكَ قد غفرتَ لي[1]، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا ﴾ ؛ بعد المغفرة؛ ﴿ لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي لقُربةً ومكانةً ومنزلةً حسَنة.

وعن مالكِ بن دينار في قولهِ تعالى: (وَإِنَّ لَـهُ عِنْدَنَـا لَزُلْفَـى) قال: (يَقُـولُ اللهُ لِدَاوُدَ وَهُوَ قَائِمٌ بِسَاقِ الْعَرْشِ: يَا دَاوُد مَجِّدْنِي بِصَوْتِكَ الرَّخِيمِ، فَيَقُـولُ: كَيْـفَ وَقَـدْ سَلَبْتَنِيهُ فِي الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ: إنِّي أرُدُّهُ عَلَيْكَ، قَالَ: فَرَفَعَ دَاوُدُ صَوْتَهُ بِالزَّبُور فَيَسْتَفْرِغُ نَعِيمَ أهْلِ الْجَنَّةِ وَهُوَ قَوْلُـهُ (وَحُسْـنَ مَـآبٍ) يَعْنِي الْجَنَّةَ الَّتِي هِيَ مَآبُ الأَوْلِيَاءِ وَالأَنْبِيَاءِ)[2].

وعن وهب بن منبه قال: (لَمَّا تابَ اللهُ على داود بكَى على خطيئتهِ ثلاثين سنةً لا ترقَى له دمعةٌ ليلاً ولا نهاراً، وكان أصابَ الذنبَ وهو ابنُ سبعين سنةً، وكان يخرجُ إلى الفَيَافِي فيبكي ويبكِي معهُ الشجر والرمال والطيرُ والوحش، ثم يجيءُ إلى الجبالِ فيرفَعُ صوته بالبكاءِ فتبكي معه الحجارةُ والجبال والدواب، ثم يجيءُ إلى الساحلِ فيبكي وتبكِي معه الحيتانُ ودوابُّ البحرِ وطيرُ الماء.

ثم يرجعُ إلى محرابهِ وقد بسطَ له فيه فُرُشٌ من مسوحٍ حشْوُهَا لِيف، فيجلسُ عليها ويجيءُ الرُّهبان فيجلسون معه فيبكِي ويَنُوحُ، والرهبانُ معه فلا يزالُ يبكي حتى تغرَقُ الفُرُشُ في دموعهِ ويصيرُ داود مثل الفرخ، فيضطربُ ويجيء ابنهُ سليمان عليه السلام

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١١٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٤٠.

فيحملهُ، فلو عُدِلَ بكاءُ داودَ ببُكاءِ أهلِ الدُّنيا لعدلَهُ)[١].

ورُوي أن داودَ ﷺ ما شَرِبَ قطّ بعد المغفرةِ شَراباً إلاّ ونصفهُ ممزوجٌ بدموعهِ، وكان يقولُ: سُبحانكَ إلَهي إذا ذكرتُ خطيئَتي ضاقَتْ علَيَّ الأرضُ برَحْبِهَا، وإذا ذكرتُ رحمتَك ارتدَّت إلَيَّ رُوحي، إلَهي أتيتُ أطبَّاء عبادِكَ فكلُّهم عليك دلُّوني.

وقال رسولُ اللهِ ﷺ: [خَدَتِ الدُّمُوعُ فِي وَجْهِ دَاوُدَ خَدِيدَ الْمَاءِ فِي الأَرْضِ][٢]، وعن ابنِ عُمر ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: [كَانَ النَّاسُ يَعُودُونَهُ وَأنَّهُ يَظُنُّونَ أنَّ بهِ مَرَضٌ وَمَا بِهِ مِنْ مَرَضٍ إلاَّ الْخَوْفُ وَالْحَيَاءُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا رَفَعَ دَاوُدُ ﷺ رَأسَهُ بَعْدَ الْخَطِيئَةِ إلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَاتَ][٣].

وكان داودُ ﷺ اذا ذكَرَ عقابَ الله تخلَّعَت أوصالهُ، وإذا ذكرَ رحمتَهُ تراجَعت. وعن الحسنِ ﷺ أنه قالَ:(كانَ داودُ ﷺ بعد الخطيئةِ لا يجلسُ إلاَّ مع الخاطِئين، ثم يقولُ: تعالَوا إلى داودَ ﷺ الخطَّاء، وكان يُؤتى بخبز الشَّعير في الإناءِ، فلا يزالُ يبكي حتى يمتلئَ بدُموعِ عينَيه، وكان يذرأ عليه الرَّماد ويأكلهُ ويقول: هذا أكلُ الخاطئين)[٤].

وقال الكلبيُّ ﷺ: (سجدَ داودُ أربعين يوماً حتى سقطَت جلدةُ وجههِ ونبتَ العشبُ من دموعه فعَلَى غطاءَ رأسه، وكان لا يقومُ من سجودهِ إلاَّ لصلاةٍ أو قضاءِ حاجة، وكان يقولُ في دعائه ومُناجاتهِ: قد عرفتُ يا رب رحمتَك واسعةً، ولولا رحمتُكَ لفضَحتَني، فمَن الذي ينصرُني إنْ خذلتَني؟ ومَن الذي يغفرُ لي خطِيئَتي إنْ لم تَمحُها عنِّي؟ ومَن الذي يتداركُني برحمتهِ إنْ لم تجاوزْ عنِّي؟

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٨ ص١٩٣-١٩٤. وذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١١١.

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٨ ص١٩٥. وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١١١. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٦٣؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد في الزهد، والحكيم الترمذي عن الأوزاعي).

(٣) لم أجده.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١١٢.

تصدَّعت الخدودُ وانقطَتِ الاشجارُ وارتجَّت البحارُ وفزعت الجبالُ والآكام من عِظَمِ خطيئَتي، لا أطيقُ حملَها إنْ لم تحمِلْها عني، فَنِيَ دمعِي وطالَ حُزني ودقَّ عظمي وبانَ لَحمي، وبقِيَ ذنبي على ظهرِي.

إليكَ أشْكُو فاقَتِي وضَعفِي وإفراطِي في أمري، يا إلهَ إبراهيمَ واسحق ويعقوبَ، تنامُ كلُّ عينٍ وتستريحُ، وقد شَخِصَتْ عينَايَ تنتظُران إلى رحمتِكَ، أدعوكَ يا رب فأسرِعْ إجابَتِي وتقبَّل دُعائي وارحم شَحْطِي[1]، وتجاوَزْ عنِّي برحمتِكَ. فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ وغفرَ له ذنبَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي قال اللهُ له بعدَ المغفرةِ، (يَادَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ) أي نَبيّاً مَلِكاً على بني إسرائيلَ، والخليفةُ هو المدبرُ للأمرِ والمقيمِ. يا داودُ إنَّا صيَّرناكَ خليفةً في الأرضِ تدبرُ أمورَ العبادِ مِن قِبَلِنَا، ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي العدل الذي هو حكمُ اللهِ بين خلقهِ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ ، في الحكم بين النَّاس، ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، أي فيصرِفُكَ الهوَى عن طاعةِ الله، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، أي عن دين الله، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ ﴾ ، في الآخرة، ﴿ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي تركُوا العملَ ليومِ الحساب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ ؛ أي ما خلقنَاهُما وما بينَهما من الخلقِ عبَثاً إلاَّ للأمرِ والنَّهي، وإنَّما خلقنَاهُما للتعبُّدِ ولنجزِي الْمُحسِنَ على إحسانهِ والمسيءَ على إساءَتِه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة الذين ظَنُّوا أنَّهما خُلِقا لغيرِ شيء، وأنَّهُ لا قيامةَ ولا حسابَ، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

(١) الشَّحْطُ والشَّحَطُ: البُعد، وقيل: البعدُ في كلِّ الحالاتِ، يثقَّل ويخفَّف، وشَحَطَ الْمَزَارُ: بَعُدَ، وأشحطتُه: أبعدتُه، وشَواحطُ الأودية: ما تباعَدَ منها، وشَحَطَ فلانٌ في السَّومِ: إذا استامَ بسلعته وتباعَدَ عن الحقِّ وتجاوز القَدْرَ. ينظر: لسان العرب: (شحط): ج ٧ ص٤٥.

قال مقاتلُ: قَالَ كُفَّارُ قُرَيْش: إنَّا نُعْطَى فِي الآخِرَةِ مَا تُعْطَوْنَ فأنزلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1]؛ معناهُ: أنجْعَلُ المؤمنين المطيعِينَ كالْمُفسِدِينَ في الأرض ؟ ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؟ أي أم نجعلُ الذين يتَّقون الكفرَ والكبائرَ كالفجَّار الذين يرتكبون تلكَ الكبائر[2]، لا نُسَوِّي بين الفريقين ولا نُنْزِلُهما منْزِلةً واحدةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾ أي هذا كتابٌ أنزلناهُ إليك مباركٌ فيه بركةٌ لكم، كثيرٌ خيرهُ ونفعه يعني القرآنَ، وقولهُ تعالى: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ؛ أي ليتدبَّرِ الناسُ آياتهِ يعني آياتِ الله، ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي ليتَّعِظْ ذوي العقولِ من الناس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ ؛ أي أعطَينا لداودَ وَلَداً وهو سليمانُ، ثم أثنَى علَى سليمان فقالَ: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي رجَّاعٌ إلى اللهِ، مُقبلٌ على طاعتهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ معناه: إذ عُرِض على سليمان بعدَ العصرِ الخيلُ السَّوابقُ وهي الخيول التي غَنِمَها سليمانُ من أهلِ دمشق وأهل نَصِيبِينَ، كانوا جَمعوا جُموعاً ليقاتلوهُ فهزمَهم وأصابَ منهم ألفَ فَرَسٍ غُرابٍ فعُرِضَتْ، فجعلَ ينظرُ إليها ويتعجَّبُ من حُسنها حتى شغلَتْهُ عن صلاةِ العصرِ وغربَتِ الشمسُ.

فذكرَ الصلاةَ فغَضِبَ وقالَ: رُدُّوا الخيلَ عَلَيَّ، فرُدَّت فجعلَ يضربُ سُوقَها وأعناقَها بالسَّيف حتى عَقَرَ منها تِسعمائة فرَسٍ، وهي التي كانت عُرضت عليه وبقيت مائةٌ لم تُعرض عليه، فكُلُّ ما في أيدِي الناسِ من الخيلِ العِراب فهي من نَسْلِ تلك المائةِ. هذا ذكرَهُ الكلبيُّ[3].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١١٧.

(٢) في المخطوط: (ذلك الكبائر).

(٣) نقله أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١١٣.

وقد اعتُرِضَ على هذا القول فقالُوا: كيف يجوزُ على النبيِّ ﷺ مِـن الأنبيـاءِ أنْ يَغْفَلَ عن الصَّلاةِ المفروضةِ ثم يعمدَ إلى خيلٍ لا ذنبَ لها يعقِرُها؟! ويجـابُ عنـه: أنْ لم يكن ضربُ سُوقِها وأعناقِها إلاَّ وقد أباحَ اللهُ ذلك وأجـزَى بـهِ، وليـس في الآيـةِ مـا يقتضِي أنَّ الصلاةَ كانت مفروضةً عليـهِ في ذلـك الوقـتِ. وقـد يذكـرُ المسـحُ ويـراد الضربُ، يقول العربُ: مسحَ علاوته[١] اذا ضربَها بالسَّيف.

والصَّافِنَاتُ هي الخيلُ التي تقومُ ثلاثاً وتكون القائمةُ الرابعـةُ تَصِـلُ إلى طـرفِ حافرِها بالأرضِ. صَفَنَ الفرَسُ إذا يَصفِنُّ صُفُوناً إذا قـامَ علـى ثـلاثٍ، وقَلَـبَ أحـدَ حوافرِهِ. والجيادُ جمعُ جَوَادٍ، يقال فَرَسٌ جوادٌ اذا ((كان سابقاً))[٢] بالرَّكضِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ ؛ يعـني إنِّـي آثَرْتُ الخيرَ، ينالُ بهذا الخيلَ فشُغِلْتُ به عنِ الذِّكْر، وقد يذكرُ الخيرُ ويراد بـه الخيـلُ، لأن الخيلَ معقودٌ بنواصيها الخيرُ. قال الفرَّاء: (يَعْنِـى آثَـرْتُ حُـبَّ الْخَيْرِ)[٣]. وقـال قطربُ: (أرَادَ حُبّاً عَلَى الْمَصْدَر، ثُمَّ أضَافَ الْحُبَّ إلَى الْخَيْرِ).

وقولهُ تعالى: (عَنْ ذِكْرِ رَبي) يعني صَلاةَ العصرِ. وقولـهُ تعـالى: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ كنايةٌ عن الشَّمسِ، والمعنى حتى استَوت الشـمسُ بمـا يحجبُـها عن الأبصار؛ ولأنَّ قولَهُ تعالى (بالْعَشِيِّ) كنايةٌ عن الشمسِ؛ أي فيه مـا يجـري مجرَى الشمسِ، وجازَ الإضمارُ إذ في الكلامِ ما يدلُّ عليه، قال لَبيدُ:

حَتَّـى إذا أَلْقَـتْ يَـداً فِـي كَـافِرٍ وَأَجَـنَّ عَـوْرَاتِ الثُّغُـور ظَلاَمُـهَا

وقولهُ تعالى: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ قال أبو عُبيد: (مَعْنَى الطَّفْقِ يَقُولُ مِثْلَ مَا زالَ يَفْعَلُ[٤]، وَهُوَ مِثْلُ: ظَـلَّ وَبَـاتَ، وَالْمَعْنَـى

(١) العِلاَوَةُ: بالكسر، ما علَّيْتَ عليه من البعير بعد تمام الوقـر، أو علَّقتَـهُ عليـه كالسُّـقاء والسُّـفود. والجمع (العَلاَوَى) مثل إذوَاةٍ وإدَاوَى. قالَه الرازي في مختار الصحاح.

(٢) ما بين (( )) سقطت من المخطوط، وفي معالم التنزيل: ص١١١٣؛ قـال البغـوي: (والجِيَـادُ: الخيارُ السِّراعُ، وقال ابن عباس: يريد الخيلَ السَّوابق).

(٣) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٤٠٥.

(٤) في المخطوط: (يفعل مثل ما ذاك يفعل). وهو كما اثبته البغوي في معالم التنزيل: ص١١١٣.

طَفِقَ يَمْسَحُ مَسْحاً؛ أيْ يَضْــرِبُ ضَرْبـاً). وقـال الفـرَّاء: (الْمَسْـحُ هَـهُنَا الْقَطْـعُ)[1]. والمعنى: أنه ضرَبَ سُوقَها وأعناقَها؛ لأنَّها كانت سببَ فَوْتِ صلاتهِ، وقال عندَ ذلك: حتى لا تشغَلَني عن عبادةِ ربي مرَّةً أخرى. والسُّوقُ جَمْعُ سَاقٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَنَ ﴾ ؛ اختلَفُوا في سبب فتنــةِ سُـليمان، قـال بعضُهم: سمعَ سليمانُ بمدينةٍ في جزيرةٍ من جزائرِ البحر يقالُ لها صَـدُوقُ، بـها مَلِـكٌ عظيمُ الشَّأنِ، فخرجَ سليمانُ إلى تلك المدينةِ تحملهُ الرِّيح حتى نــزلَ بـها بجنـودهِ مـن الجنِّ والانسِ، فقتَلَ ملِكَها وسبَا ما فيها، وأصابَ فيما أصابَ بنتاً لذلك الملـكِ يقـالُ ((لها)) جَرَادَةٌ، لَمْ يُرَ مثلها حُسناً وجمالاً.

فدعَاها سليمانُ إلى الاسلامِ فأسلَمَت على قلَّة نيَّة منها، ولم يعلَمْ سليمانُ ما في قلبها، فتزوَّجَها وأحبَّها محبةً شديدة لم يُحِبَّ أحداً من نسائهِ، فكانت عنـدَهُ لا يذهـبُ حزنُها ولا يرقَى دمعُها، فشُقَّ ذلك على سليمان، وقال لَها: ويحَـكِ! مـا هـذا الحـزنُ الذي لا يذهبُ؟ قالت: إنِّي أذكرُ أبي أذكرُ مُلكَهُ وما كان فيـه ومـا أصابَـهُ، فيُحزِنُـني ذلك. قال سليمانُ: قد أبدلَكِ اللهُ به مَلِكاً هو أعظمُ مـن مُلكـه، وسُـلطاناً خَـيراً مـن سُلطانهِ، وهَداكِ للإسلامِ، وهو خيرٌ مِن ذلــك كلِّـه. قـالت: هـو كذلـكَ؛ ولكـن إذا ذكرتُ أبي أصابَني ما ترَى من الحزن، فلو أمرتَ الشَّياطين فصوَّرُوا صورتَـهُ في داري التي أنَا فيها أرَاها بُكرةً وعشِيّاً لرجوتُ أنْ يُذهِبَ ذلك حُزني، ويسَلِّي عني بعـضَ مـا أجدُ. فأمرَ سُليمان الجنَّ فمثَّلوا لها صورةَ أبيها في دارها كأنَّه هو، إلاَّ أنه لا روحَ فيـه، فعمَدَت إليه حين صنَعُوهُ فأزَرَتْهُ وقمَّصَتْهُ وعَمَّمَتْهُ وردَته بمثل ثيابهِ التي كان يلبسُها.

وكان إذا خرجَ سُليمان مـن دارهـا تغـدُو عليـه في ولائدِهـا حتـى تسـجدَ لـه ويسجُدنَ هُنَّ له، وكذلكَ كانت تعملُ بالعَشِيِّ وسليمانُ عليه السلام لا يعلمُ شيئاً من ذلك، فكانت على ذلك أربعينَ صباحاً، وبلغَ ذلك آصِفَ بـن برخيـا وكـان صدِّيقـاً، فقـال لسُليمان عليه السلام: إنَّ غيرَ اللهِ يُعبد في دارك منذُ أربعين صَباحاً في هوَى امرأةٍ، قال: فِـي داري؟! قال: في دارِكَ، قال: إنَّا للهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ.

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٤٠٥.

ثم رجعَ سُليمان إلى دارهِ فكَسَرَ ذلك الصنمَ وعاقَبَ تلك المرأةِ وولائدَها، ثم خرجَ إلى فَلاَةٍ من الأرضِ وحدَهُ، فأمَرَ برمادٍ قد رُشَّ، ثم أقبلَ تائباً إلى اللهِ حتى جلسَ على ذلك الرمادِ وتَمَعَّكَ فيه بثيابهِ تذلُّلاً لله عَزَّ وَجَلَّ وتضرُّعاً إليه، يدعُو ويبكي ويستغفرُ مما كان في دارهِ، فلم يزل يومَهُ كذلك حتى أمسَى ثم رجعَ.

وكانت أمُّ ولَدٍ يقالُ لها الأَمِينَةُ، كان إذا دخلَ لقضاءِ حاجته وضعَ خَاتَمَهُ عندَها حتى يتطهَّرَ، وكان لا يَمَسُّ خاتَمهُ وإلاَّ وهو طاهرٌ، وكان مُلكه في خاتَمهِ، فوضعَ يوماً من الأيامِ خاتَمه عندها كما كان يضعهُ، ثم دخلَ موضعَ الحاجةِ فأتاها الشيطانُ صاحبُ البحرِ وكان اسمهُ صَخْراً على صورةِ سُليمان لا تُنكِرُ منه شيئاً، فقال: يا أمِينَةُ هاتِ خاتَمي، فناولَتْهُ إياهُ، فجعلَهُ في يدهِ ثم خرجَ حتى جلسَ على سريرِ سُليمان، وعكفَتْ عليه الطيرُ والجن والإنسُ.

وخرجَ سُليمان فأتَى أمينةَ وقد تغيَّر من حالهِ وهيئته عند كلِّ من رآهُ، فقال: أمينةُ هاتِ خاتَمي، قالت: ومَن أنتَ؟! قال: أنا سُليمان بن داودَ ﷺ، قالت: لستَ سُليمان، وقد جاءَ سليمانُ وأخذ خاتَمه وهو جالسٌ على سريرهِ في مُلكه. فعرفَ سليمان أنَّ الخطيئةَ قد أدركتْهُ، فخرجَ فجعل يقفُ على الدُّور من دُور بني اسرائيلَ، فيقولُ: أنا سليمانُ بن داودَ، فيحثُّون عليه الترابَ ويسُبُّونَهُ ويقولون: انظرُوا إلى هذا المجنونِ يزعمُ أنه سليمان.

فلما رأى سُليمان ذلك عَمَدَ إلى البحرِ، فكان ينقلُ الحيتانَ لأصحاب البحر إلى السُّوق ويعطونَهُ كلَّ يوم سَمكتين، فاذا أمسَى باعَ إحدى سَمكتيهِ بأرغفةٍ وشَوَى الأخرى فأكلَها. فمكثَ كذلك أربعين يَوماً صَباحاً عدَّةَ ما كان عُبِدَ الوثنُ في دارهِ.

فلما مضَى أربعون يوماً طارَ الشيطانُ عن مجلسهِ، ثم مرَّ بالبحرِ فقذفَ الخاتَم فيه، فَبَلَعَتْهُ سمكةٌ فأخذها بعضُ الصيَّادين وكان قد عَمِلَ له سليمانُ، فأعطاهُ سَمكتَين أجرَته، فباعَ سليمانُ إحدَى السَّمَكتين بأرغفةٍ وعَمَدَ إلى السَّمكة الأخرى فشَقَّ جوفَها ليَشويَها، فوجدَ الخاتَم فجعلَهُ في يدهِ، ووقعَ ساجداً وعكفتْ عليه الطيرُ والجن، وأقبلَ عليه الناسُ وعرفَ أنَّ الذي كان دخلَ عليه إنما هو بسبب ما كان أحدثَ في دارهِ، فرجعَ إلى مملكتهِ وأظهرَ التوبةَ من ذنبهِ.

وأمرَ الشياطين فقال: إئتُوني بصخرٍ، فطلبته له الشياطينُ حتى وجدته، فأُتِيَ به فأُدخِلَ في صخرةٍ وسُدَّ عليه بأُخرى ثم أوثقَها بالحديدِ والرَّصاص ثم أمِرَ به فقُذف في البحرِ(1).

وقال بعضُهم: كان سببُ فِتْنَتِهِ قتلهُ الخيلَ وضربهُ سُوقَها وأعناقَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ ؛ أي شَيطاناً اسمهُ صَخْرٌ، وقد ذكرناهُ. ويقالُ: معنى ذلك أنَّ سليمان كان له ولدٌ فاجتمعَتِ الشياطينُ فقالَ بعضُهم لبعضٍ: إنْ عاشَ له ولدٌ لم نَنْفَكَّ ما نحنُ فيه من البلاءِ والخدمة، فسبيلُنا أن نقتلَ الولدَ أو نُخَبِلَهُ، فعلِمَ سليمانُ بذلك فأمرَ الرِّيحَ فحملَتْهُ إلى السَّحاب فأودعَهُ السحابَ خوفاً عليه مِن الشياطين، فعاقبَهُ اللهُ تعالى على تخوُّفهِ من الشياطين، وأماتَ ولدَهُ في السَّحاب فأُلقِيَ ميِّتاً على كُرسيِّهِ فهو الجسدُ الذي أُريدَ بقولهِ (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً) لأن الجسدَ عبارةٌ عما لا يكون رُوحاً. وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ ثم رجعَ بعد أربعين يَوماً إلى مُلكه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ ؛ معناهُ: لَمَّا رجعَ مُلك سليمان إليه قال: رَب اغْفِرْ لِي ذنْبِي وَهَبْ لِي مُلكاً لا أسْلَبُ فيه كما سُلِبْتُ في المرَّة الأُولى، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، ولا يجوزُ أن يكون سؤالهُ الْمُلْكَ برغبتهِ له في الدُّنيا ولا بُخلاً بمثلهِ على مَن بعده، ولكن طلبَ آيةً تدلُّ جميعَ الخلقِ على أنَّ الله تعالى غفَرَ له ذنبَهُ وردَّهُ إلى منْزلَةِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام.

وعن أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ: أنَّهُ صَلَّى صَلاَةً فَقَالَ: [إنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِي لِيُفْسِدَ عَلَيَّ صَلاَتِي، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ فَخَنَقْتُهُ وَلَقَدْ هَمَمْتُ أنْ أوثِقَهُ إلَى سَارِيَةٍ حَتَّى تُصْبحُوا وَتَنْظُرُواْ إلَيْهِ جَمِيعاً، فَذلِكَ قَوْلُ سُلَيْمَانَ عليه السلام (وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لاَحَدٍ مِنْ بَعْدِي)](2).

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٦٧٥) مختصراً. وذكره السيوطي في الدر المنثور: ج ٧ ص١٧٨؛ وقال: (أخرجه الفريابي والحكيم الترمذي والحاكم). وذكره البغوي بطوله في معالم التنزيل: ص١١١٤-١١١٦.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب العمل في الصلاة: باب ما يجوز من العمل في الصلاة:=

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ فاستجَبنا له دعاءَهُ وسخَّرنا له الريحَ تسيرُ بأمرهِ ليِّنةً كيف أرادَ، وذلك أنه كان إذا أرادَ تَسْيِيرَ الريحِ عاصفةً كانت تجري عاصفةً حالةَ حملِ السَّريرِ لكثرةِ مَن عليه من النُّجوم والحشَمِ والأواني والفُرشِ والأطعمةِ والأشربةِ، وكانت في حالـةِ مـا تجـري بالسَّرير وذلكَ أرفقُ بمَنْ يكون على السَّرير، وأبعدُ من الضَّرر.

ومعنى الآية: فسخَّرنا له الريحَ تجـري بـأمرهِ ليِّنـةَ الْـهُبُوب ليست بالعـاصفِ (حَيْثُ أصَابَ) أي حيث أرادَ من النواحِي، وحيث قَصَدَ.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي وســخَّرنا لـــه الشياطينَ يَبْنُونَ له الأبنيةَ الرفيعةَ التي تعجزُ عنها الإنسُ، ويَبْنُونَ له أيضاً ما يشاءُ مـن محاريب وتماثيلٍ، وقولهُ تعالى: (وَغَوَّاصٍ) أي ويغُوصُونَ له في البحرِ فيستخرجون لـهُ اللآَّلِئَ والجواهرَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي وسخَّرنا آخرين مِن الشياطين وهم الْمَرَدَةُ، سُخِّروا له حتى قَرَنَهم في الأصْفَـادِ وهـي السَّلاسِـلُ مـن الحديدِ، فكان سليمانُ يجعل الشياطين مقرَّنين في القيودِ والأغلال، ويعرفُ مَن شاء منهم في الأعمال، فمعنى قوله (مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ) أي مشدُودون في القيُودِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: قلنا لهُ هذا عطاؤُنا لكَ من المالِ والْمُلكِ والجنودِ المسخَّرة لم نُعطـهِ أحـداً قبلَـكَ، ولا نعطيهِ أحداً بعدكَ.

وقوله (فَامْنُنْ أوْ أمْسِكْ) أي إعطاء ما أعطيناكَ مَـن شِـئْتَ وكيـف شـئتَ ومـا شئتَ ولمن شئت، واحبسْ عمَّن شئتَ بغيرِ تقديرٍ، ولم يؤخَذْ عليك حدٌّ محـدودٌ في المنـعِ ولا في الإعطاءِ، ولا حرجَ عليك فيما فعلْـتَ مـن ذلـك، وقـال في معنـى (فَـامْنُنْ أوْ أمْسِكْ) أي أطلِقْ من الشَّياطين الذين أوثقْتَهم[1] أو امسِكْ في الوَثَاقِ مَن شئتَ منهم، وليس عليك في ذلك تَبِعَةٌ ولا جزاءٌ.

=الحديث (١٢١٠)، وفيه: [فَذَعَتُّهُ] بدل [فَخَنَقْتُهُ].

(١) في المخطوط: (الذي أوثقتهم).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ ؛ أي وإنَّ مع ما خُصَّ به في الدُّنيا في الْمُلكِ والبَسْطَةِ والنبوَّة والرسالةِ لِقُربهِ عندنا، ﴿ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ، في الآخرةِ ونَصيباً وافراً من ثَوابنا في الجنَّة، فجُمِعَ له ملكُ الدُّنيا وملكُ الآخرةِ.

وروي أن مدةَ مُلكِ سُليمان قبلَ الفتنةِ عشرين سنةً، ومَلَكَ بعد الفتنةِ عشرين سنةً، ومَلَكَ يوم مَلَكَ وهو ابنُ ثلاثَ عشر سنةً، وماتَ وله ثلاثٌ وخمسون سنةً، ومدَّة مُلكه أربعون سنةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: واذكُرْ يا مُحَمَّد عبْدَنا أيُّوب إذ نادَى ربَّهُ في البلاءِ فقالَ: يا رَب إنِّي أصابَنِي الشيطانُ بنُصْبٍ؛ أي بتَعَبٍ في بدَنِي وعذابٍ في أهلي ومالِي. والنُّصْبُ والنَّصَبُ بمعنى واحدٍ، مثل الرَّشَدِ والرُّشْدِ والْحَزَنِ وَالْحُزْنِ.

قرأ أبو جعفرٍ (بنُصُبٍ) بضمَّتين، وقرأ يعقوبُ (بنَصَبٍ) بفتحِ النون والصاد، وقرأ هُبَيْرَةُ عن حفصٍ وعاصم (بنَصْبٍ) بفتح النونِ وجزم الصاد، وقرأ الباقون بـ (النُّصْب) بضمِّ النونِ وسُكون الصاد، وكلُّ ذلك لغاتٌ فيه[1].

قال قتادة: (مَعْنَى قَوْلِهِ (بِنُصْبٍ وَعَذابٍ) النُّصْبُ الضُّرُّ فِي الْجَسَدِ، وَالْعَـذابُ فِي الْمَالِ)[2]. قال السديُّ: (النُّصْبُ أنْصَبَ الْجَسَدَ، وَالْعَذابُ أهْلَكَ الْمَالَ)[3].

ثُم فرَّجَ اللهُ عنه، واختلفوا في سببِ بَلاء أيُّوب، قال الحسنُ ﵁: (إنَّ ابليسَ قالَ: يا رب هل مِن عبيدك مَن إنْ سلَّطتَنِي عليه يمتنعُ عليَّ؟ قال: نَعَمْ؛ عبدِي أيُّوبُ، فجعلَ يأتيهِ الشيطانُ بوسَاوسِهِ وحبائلهِ فلا يقدرُ منه على شيءٍ. قال: يا رب إنه قدِ امتنعَ عليَّ فسَلِّطْنِي على مالهِ، فجعلَ يأتيهِ فيقولُ: يا أيوبُ هَلَكَ مِن مالِكَ كذا وكذا، فيقولُ أيوب: اللَّهُمَّ أنتَ قد أعْطَيْتَنِيهُ وأنتَ قد أخذتَهُ، اللَّهُمَّ لكَ الحمدُ على ما منَعْتَ، ولكَ الحمدُ على ما أبقيتَ، فمكثَ كذلك حتى هَلَكَ مالهُ كلُّه.

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٢٥-٣٢٦. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٣١٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠١٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠٢٠).

فقال إبليسُ: يا رب إنَّهُ لا يُبالِي بمالهِ فسَلِّطْنِي على جسدهِ، فأنَّكَ لو سلَّطْتَني على جسدهِ لم تجدْهُ شَاكراً، فسلَّطَهُ عليه فنفخَ في أنفهِ فانتفخَ وجههُ وسَرَى ذلك إلى جسدهِ، فوقعَ فيه الديدانُ.

إلاَّ أنَّ هَذا الْقَوْلَ لاَ يَصِحُّ وَلاَ وَجْهَ لقَبُولِهِ، وَلاَ يَجُوزُ أنْ يُسَلِّطَ اللهُ إبْلِيسَ عَلَى نَبِيٍّ مِنْ أنْبيَائِهِ فَيَفْعَلُ بهِ مَا أحَبَّ.

ويقالُ: سببُ ابتلائهِ أنَّ إنسَاناً استغاثَ بهِ في ظُلْمٍ يدرَؤهُ عنه، فصبرَ لوردهِ حتى فاتَهُ فابتُلِيَ. فلَمَّا مكثَ أيوبُ في البلاءِ ما مكثَ، قاربَتِ امرأتهُ الشيطانَ في بعضِ الأمور، قِيْلَ: إنَّ الشيطانَ قال لها: لئِنْ أكلَ أيُّوبُ طَعاماً لم يذْكُرِ اسمَ الله عليه عُوفِيَ. ويقالُ: إنَّها قالت لأيُّوبَ: لو تَقرَّبْتَ إلى الشيطان فذبحتَ له عِنَاقاً، فقالَ: لا واللهِ، ولاَ كَفّاً من تُرابٍ. وحلفَ ليَجْلِدَنَّهَا إنْ عُوفِيَ مائةَ جلدةٍ. وَقِيْلَ: إن إبليسَ قالَ لها: إنْ شَفَيْتُهُ تقولين لِي شفيتَهُ، فأخبرَتْ بذلك أيوبَ فحلفَ.

فلما طالَ البلاءُ على أيُّوب، وبلغَ به غايةَ الجدِّ سألَ الله تعالى أنْ يكشِفَ ضُرَّهُ، فقيلَ لـه: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي اضربْ بها الأرضَ، فركَضَ برجلهِ الأرضَ فنَبَعَتْ عَيْنُ ماءٍ فاغتسلَ منها فذهبَ الداءُ من ظاهرهِ، فضربَ برجلهِ الأرض مرَّةً أخرى فنبعَ ماءٌ وشربَ منه، فذهبَ الداءُ من باطنِ جسده. والرَّكْضُ: هو الدفعُ بالرِّجلِ على جهةِ الإسراعِ، ومنه ركضُ الفرس لاسراعهِ، والْمُغْتَسَلُ موضعُ الاغتسال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ ﴾ ؛ أي أحْيَيْنَا له أهلَهُ وأولادَهُ الذين كانوا بأعيانِهم، ﴿ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ ، ورزقناهُ مثلَهُم في المستقبلِ، ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ ، أي نعمةً مِنَّا عليه، ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ، وعظمةً لأُولِي العقول من النَّاس، وذلكَ ليعلَمَ العاقلُ أنَّ ما يصيبهُ في الدُّنيا من الْمِحَنِ والْمَكَارهِ والمصائب في النَّفسِ والأهلِ والمال، لا يكونُ لِهَوانِ العبدِ على اللهِ كما يظنُّهُ الْجُهَّالُ، وإنَّما هو امتحانٌ من اللهِ لأوليائه كي يُعوِّضَهُمْ بذلك جَزِيلَ ثوابهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ ؛ وذلك أنَّ أيوبَ كان حلفَ في مرضهِ أن يجلدَ امرأتَهُ مائةَ جلدةٍ، وكان ذلك لشيءٍ كَرِهَهُ منها على ما تقدَّم، فجعلَ اللهُ تَحِلَّةَ يَمِينِهِ أن يأخذ حُزمةً واحدةً فيها مائةُ قضيبٍ فيضربُها بهِ. والضِّغْثُ: هو مِلْءُ الكَفِّ من الشجرةِ والحشيشِ والشَّمَاريخِ.

وقولهُ تعالى: (وَلاَ تَحْنَثْ) أي لا تَدَعِ الضَّربَ فتَحْنَثُ، وفي هذا دليلٌ على جواز الاحتيالِ بمثل هذه الحِيلَةِ في اليمين على الضَّرب، فأما في الحدُودِ فلا يجوزُ الاحتيالُ بمثلِ هذا؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بهِمَا رَأفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾[1] وهذا نَهْيٌ عن التخفيفِ عن مَن وجبَ عليه الحدُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي إنَّهُ صَبَرَ على البلاءِ الذي ابتُلي به. فإنْ قِيْلَ: كيف صَبَرَ وهو يقولُ مسَّنِيَ الضُّرُّ ؟ قِيلَ: إنه لم يَشْكُ إلى مخلوقٍ وإنما شَكَا إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حين أَلَحَّ عليه الشيطانُ بالوسوسةِ، وخافَ على نفسهِ أن لا يقومَ بطاعةِ اللهِ تعالى، فدعَا اللهَ بعد أن أذِنَ له في الدُّعاء. والأَوَّابُ: هو الْمُقْبلُ على طاعةِ الله تعالى الرَّاجعُ إليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ معناهُ: اذْكُرْ يا مُحَمَّدُ لقَومِكَ وأمَّتِكَ حديثَ هؤلاء الأنبياءِ؛ ليقتَدُوا بهم في حُسْنِ إقبالِهم؛ فيستَحِقُّوا بذلك جميلَ الثَّناءِ وجزيلَ الثَّواب. وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ صَبْرَ عِبَادِنَا إبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّار، وَصَبْرَ اسْحَقَ عَلَى الذبْحِ، وَصَبْرَ يَعْقُوبَ حِينَ ذهَبَ بَصَرُهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ اسْمَاعِيلَ لأنَّهُ لَمْ يُقْبلْ بشَيْءٍ)[2].

قَوْلُهُ: ﴿ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أولِي القوَّةِ في طاعةِ الله والأبصار في معرفةِ الله. قال قتادةُ: (أعْطُوا قُوَّةً فِي الْعِبَادَةِ، وَبَصَرٍ فِي الدِّينِ)[3]. ويقالُ: إنَّ الأيدِي جمعُ اليَدِ وهي الصَّنيعةُ؛ أي وهم ذُوو الصَّنائعِ الجميلةِ في طاعةِ الله تعالى.

---

(١) النور / ٢ . (٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٢١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠٤٤).

وقرأ الحسنُ: (الأَيْدِ) بغيرِ الياء وهو عبارةٌ عن القوَّة[١]. ويجوزُ أن يكون المرادُ به، فخذفَ الياءِ كما نحذفُ الدَّاعِي والهادِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنا آثرناهُم بخِصلَةٍ خَالِصَةٍ وهي ذكرَى الدار الآخرة. وقال مجاهدُ: (إنَّهُمْ كَانُواْ يُكْثِرُونَ ذِكْرَ الآخِرَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ هَمٌّ غَيْرُهَا)[٢]. وقال السديُّ: (أخْلَصُواْ بذِكْرِ الآخِرَةِ؛ أيْ بِخَوْفِ الآخِرَةِ)[٣] ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ الأصْفِيَاءُ هو إخرَاجُ الصَّفوَةِ مِن كلِّ شيءٍ، فهُم صَفْوَةٌ وغيرُهم كَدَرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ﴾ ؛ أي اذكُرْهُم بصبرِهم وفضلِهم لتسلُكَ طريقَهم، ﴿ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ . والْيَسَعُ نبيٌّ من الأنبياءِ، قال الكلبيُّ: (هُوَ ابْنُ عَمِّ الْيَاسَ). وَأمَّا ذِي الكِفْلِ وهو نبيٌّ أيضاً كَفَلَ مائةَ نَبِيٍّ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ يُطعِمُهم ويَسْقِيهمْ. وَقِيْلَ: إنه كان يعملُ في العبادة عَمَلَ رجُلَين فسُمِّي ذا الكفلِ، والكفلُ الضِّعْفُ كما في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾[٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي هذا القرآنُ عِظَةٌ وشَرَفٌ للناس، وَقِيْلَ: هو ذِكْرٌ في الدُّنيا لهؤلاء الأنبياءِ يُذكَرُون بهِ أبداً، وإنَّ لهم مع ذلك لَحُسْنَ مرجعٍ في الآخرة، فَسَّرَ حُسنَ المرجعِ فقال: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ ؛ أي بسَاتِين إقامةٍ، ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ وانتصبَ على الحال، وذلك أنَّهم اذا انْتَهَوا إليها وجدُوها مُفتَّحَةَ الأبواب لا يُحبَسُونَ على الباب ليُفتَحَ لهم عند الوُرُودِ. ويقال: إنَّ أبوابَها تُفتَحُ من غيرِ فَتْحٍ ولا مفتاحٍ، والْمُفَتَّحَةُ أبلغُ من اللفظِ من الْمَفْتُوحَةِ، والألِفُ واللامُ في قولهِ (الأَبْوَابُ) عِوَضٌ عن الإضافةِ؛ تقديرُهُ: مُفَتَّحَةٌ لَهُمْ أبْوَابُهَا كما في قولهِ تعالى ﴿فَإنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٥].

---

(١) في معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٤٠٦: (أنها قراءة عبدالله).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠٤٧).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠٤٨).
(٤) الحديد / ٢٨ .
(٥) النازعات / ٤١ .

وقولهُ تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ ؛ أي في الجنَّات، ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ ؛ في الجنات، ﴿ بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي يَدْعُون في الجنات بألوان الفاكهة وألوان الشَّراب. والاتِّكَاءُ: هو الاسْتِمْسَاكُ بالسِّنَادِ على هيئةِ جُلوسِ الْمُلُوكِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي وعندَهم حُورٌ في الجنَّةِ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ على أزواجِهنَّ لا يُرِدْنَ غيرَهم بقُلوبهم ولا يَنْظُرْنَ إلى غيرِ أزواجهنَّ. وقوله (أتْرَابٌ) أي مُستَوياتٌ على ميلادٍ امرأة واحدة، مستويات في السِّنِّ والشباب والْحُسنِ، كلُّهن بناتُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرٍو بالياءِ؛ ومعناه: قُل للمتَّقين: هذا ما يُوعَدون به ليومِ الحساب. وقرأ الباقون (يُوعَدُونَ) بالياء؛ أي هذا الذي تقدَّم ذِكرهُ ما يوعَدُ به المتَّقون على لسانِ النبيِّ ﷺ. ومعنى الآية: هذا الذي ذكرناهُ ما توعدونَ به يومَ الحساب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا ﴾ ؛ أي هذا الذي ذكرناهُ رزقنا لهم، ﴿ مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي ما لَهُ مِن انقطاعٍ ولا فَناءٍ. قال ابنُ عبَّاس: (لَيْسَ بشَيْءٍ فِي الْجَنَّةِ نَفَادٌ، مَا أُكِلَ مِنْ ثِمَارِهَا خُلِّفَ مَكَانَهُ مِثْلَهُ، وَمَا أُكِلَ مِنْ حَيْوَانِهَا وَطَيْرِهَا عَادَ حَيّاً مَكَانَهُ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي هذا الثوابُ الذي تقدَّم ذِكرهُ للمتَّقين، ثم ابتدأ الخبرَ عمَّا للطَّاغِينَ فقَالَ: (وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ) أي الذين طَغَوا على اللهِ وكذبُوا الرُّسلَ وجاوزوا الحدَّ في الكفرِ والمعصية (لَشَرَّ مَآبٍ) أي لشَرٍّ مرجعٍ ومصير، ثم أخبرَ بذلك فقال: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ ؛ أي يلزَمُونَها يومَ القيامةِ، ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ يُمهِّدُنَّها لأنفسهم، ﴿ هَذَا ﴾ العذابُ ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي يقالُ لهم في ذلك اليومِ: هذا حميمٌ وغسَّاقٌ فلْيَذُوقُوهُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠٦٢) عن السدي.

والْحَمِيمُ: الماءُ الحارُّ الذي قد انتَهى حَرُّهُ من طِينَةِ الْخَبَال وهي عُصَارَةُ أهْلِ النَّار. والغَسَّاقُ: ما سَالَ من جُلودِ أهلِ النَّار من القَيْحِ والصَّديدِ، مِن قولهم: غَسَقَتْ عينهُ إذا تَصبَّتْ، والغَسَقَانُ الانْصِبَابُ.

قرأ حمزةُ والكسائي وخلف: (وَغَسَّاقٌ) بالتشديد على معنى أنه يُسَالُ من صَديدِ أهلِ النار. وقرأ الباقون بالتخفيف مصدرُ غَسَقَ يَغْسِقُ إذا سَالَ.

قال الكلبيُّ: (الْغَسَّاقُ هُوَ الزَّمْهَرِيرُ الْبَاردُ الَّذِي قَدِ انْتَهَى بَرْدُهُ، يُحْرِقُهُمْ بِبَرْدِهِ كَمَا تُحْرِقُهُمُ النَّارُ). وقال ابنُ زيد: (هُوَ الْمُنْتَنُ بلُغَةِ التُّرْكِ وَالطَّخَارِيَّةِ[1] وَالعَمَالِيق)[2]. وقال الحسنُ: (لاَ أدْرِي مَا الْغَسَّاقُ وَمَا سَمِعْتُ فِيهِ شَيْئاً مِنَ الصَّحَابَةِ إلاَّ أنَّهُ بَعْضُ مَا أعِدَّ لأَهْلِ النَّار، قَوْمٌ أخْفَوا مِنَ الْمَعْصِيَةِ أعْمَالاً فَأخْفَى اللهُ لَهُمْ عِقَاباً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾؛ قرأ الأكثرون (وَآخَرُ) على الوحْدَان؛ أي وعذابٌ آخَرُ من شكلِ العذاب الأوَّل، والشَّكْلُ الْمِثْلُ؛ يعني ضَرْباً من العذاب على مثلِ الحميم والغسَّاق في الكَرَاهَةِ. وقرأ أهلُ البصرة (وَأُخَرُ) على الجمعِ على معنى: وأنواعٌ أُخَرُ مِنْ شَكْلِهِ؛ أي وأصنافٌ من العذاب، وقولُهُ (أزْوَاجٌ) أي ألوانٌ وأنواع وأشباهٌ.

وقولهُ تعالى: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾؛ معناهُ: أنَّ القادةَ والرؤساءَ مِن المشركين إذا دخَلُوا النارَ ثم دخلَ بعدَهم الاتباعُ، قال الملائكةُ من الْخَزَنَةِ للقادةِ: هذا فوجٌ؛ أي قطيعٌ من الناس مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ النارَ، أي داخلون معكم النار، فتقولُ القادة: ﴿ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ ﴾؛ كما صَلَيْنَاهَا، فيقول الاتباعُ للقادةِ: ﴿ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ ﴾؛ أي أنتم بَدَأتُمْ بالكفرِ قبلَنا، ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ﴾؛ جهنَّم للمشركين.

---

(١) لعله يريد أهل طخارستان.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠٧٦) عن عبدالله بن بُريدة.

ثم يقولُ الأتباعُ: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي يقولون ربَّنا مَنْ شَرَّعَ لنا هذا الكُفرَ وسَنَّهُ لنا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً في النار. والاقتحامُ: هو الدخولُ في الشَّيء بشدَّةٍ وصُعوبَةٍ، وذلك أنَّ أهلَ النار يُسَاقُونَ إليها فَوْجاً فَوْجاً، فيقالُ للرُّؤساء: هؤلاءِ الاتباعُ داخلون معكم، فيقولونَ لاَ مَرْحَباً بهِمْ، كيف يدخلُون معنا ونحنُ في هذا الضِّيق[1]؟! فيقولُ لهم الْخَزَنَةُ: إنَّهُمْ صَالُوا النَّار؛ أي دَاخِلُونها كما دخلتُم.

والرَّحْبُ في اللغة هو السَّعَةُ، وكذلك الْمَرْحَبُ، ومعنَى لا مَرْحَباً بهم يعني لا اتَّسعت بهم مساكنُهم ولا كرامةَ لهم، وهذا إخبارٌ أن مَوَدَّتَهُمْ تنقطعُ وتصير عداوةً، فيقول لهم الأتباعُ: (بَلْ أنْتُمْ لاَ مَرْحَباً بكُمْ) أي لا وَسَّعَ الله عليكم، أنتم شَرَعتُم لنا بهذا العذاب، فيقولُ الله تعالى: (فَبئْسَ الْقَرَارُ) أي بئْسَ المكانُ الذي أنتم فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّار) أي قالت الأتباعُ والقادةُ جميعاً: ربَّنا مَنْ سَنَّ لنا هذا الكفرَ قبلَنا فَزِدْهُ عذاباً ضِعْفاً مما علينا من العذاب، يعني حيَّاتٍ وعقاربَ وأفاعي. قال الحسنُ: (مَا مِنْ أحَدٍ مِنْ أهْلِ النَّار إلاَّ وَهُوَ يَعْرِفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَيْطَانَهُ الَّذِي يُضِلُّهُ وَيُوَسْوِسُ إلَيْهِ فِي الدُّنْيَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ يَنْظُرُونَ فِي النَّار، فَلاَ يَرَوْنَ مَنْ كَانَ يُخَالِفُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي دَار الدُّنْيَا يَعْنِي فُقَرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، فَعِنْدَ ذلِكَ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا لَنَا لاَ نَرَى رجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الأَشْرَار؛ أيْ كُنَّا نَعُدُّهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ السَّفَلَةِ، وَنَقُولُ لَهُمْ: أنْتُمْ تَتْرُكُونَ شَهَوَاتِكُمْ تَطْلُبُونَ بذلِكَ النِّعَمَ بَعْدَ الْفَنَاءِ، فَهَذا مَعْنَى (كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَار) وَهُمْ عَمَّارُ وَخَبَّابُ وَصُهَيْبُ وَبلاَلُ وسَلْمَانُ وَسَالِمُ وَأشْبَاهُهُمْ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ).

•

(١) في المخطوط: (ضيق).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي يقولُون قد اتَّخذناهُم سِخْرِيّاً؛ أي مَالَتْ أبصارُنا عنهم فلم نكن نعدُّهم شيئاً، قال الحسنُ: (كُلٌّ ذلِكَ قَدْ فَعَلُوهُ، اتَّخَذُوهُمْ سِخْرِيّاً وَزَاغَتْ عَنْهُمُ أبْصَارُهُمْ مُحَقِّرَةً لَهُمْ).

ومن قرأ (اتَّخَذْنَاهُمْ) بقطع الألف وفتحِها معناهُ الاستفهامُ؛ كأنَّهم يُنكرون ذلك على أنفُسِهم، وهم يقولون في الآخرةِ سخَّرنَاهُم وزَاغَتْ أبصارُهم عنهم لضَعفِهم، فيقولون: ما لنَا لا نراهُم، ولم يدخلُوا معنا في النار، أمْ دخَلُوا معنا ولكن لا نراهُم.

وفي قولهِ (سِخْرِيّاً) قِراءَتان: ضَمُّ السِّين وكسرُها، فمَن ضمَّها فهو من السُّخريَةِ؛ أي استذلُّوهم، ومَن قرأها بالكسرِ فهو من الْهُزْوِ[1].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ ﴾ ؛ أي إنَّ الذي وُصف عنهم لصِدْقٌ كائن واقعٌ، ثم بَيَّنَ ما هو فقال: ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي تخاصُم القادةِ والأتباعِ على ما أخبر به عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّة: إنَّما أنا مُنْذِرٌ لكم أحذِّرُكم عقوبةَ اللهِ، ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي وقُل لهم أيضاً: مَا مِنْ إلَهٍ إلاَّ اللهُ الوَاحِدُ لا شريكَ لهُ، القَهَّارُ لِخَلقهِ الغالبُ عليهم، ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي المنتقمُ ممَّن لا يؤمنُ به، المتجاوزُ عمَّن تابَ وآمنَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لهم هذا القرآن الذي أتيتُكم به عظيمُ الشَّأن والشرفِ، أنتُم عن تدبُّرهِ والعملِ بهِ مُعرضون. وَقِيْلَ: معناهُ أمرُ القيامةِ عظيمٌ؛ ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ ﴾ ؛ عن الاستعدادِ له، ﴿ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

وقَوْلُهُ: ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إن النبأ الذي أتيتُكم به من قصَّة آدمَ وإبليس دليلٌ واضح على نُبُوَّتي؛ لأن ذلك

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٣١٦. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٣٣.

لا يُعلم إلاَّ بوحيٍ من اللهِ تعالى أو بقراءةِ الكُتب، ثم بيَّنهُ من بعدُ بقوله: ﴿إذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أتجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾[1] الآيةُ أي إنِّي ما علمتُ ذلك إلاَّ بوحيٍ من اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ ؛ معناهُ: ما يُوحى إلَيَّ هذا القرآنُ، ﴿ إِلَّآ أَنَّمَآ ﴾ ؛ لأنِّي؛ ﴿ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي ما يُوحى إلَيَّ إلاَّ لأنِّي نبيٌّ ونذيرٌ مُبين، أبَيِّنُ لكم ما تَأتُونَ من الفرائضِ والسُّنن، وما تترُكون من الحرامِ والمعصية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُ هذا.

وقوله: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ؛ أي ما مَنَعَكَ عن السُّجودِ لِمَنْ تولَّيتُ خَلْقَهُ من غيرِ واسطةٍ وسبب، وقوله: ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ، أي رفعتَ نفسَك فوق قدرِكَ، (أم كُنتَ مِنَ العَـالِينَ) الذين عَلَو في مَنْزلَةٍ من السُّجود لمثلهِ.

قال ابليسُ: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ والنارُ شيء مضيءٌ، والطِّينُ شيء مظلمٌ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي قيلَ: من السَّماء، وقِيْلَ: من الجنَّة، وقِيْلَ: من الأرضِ إلى جزائرِ البحار. والرَّجيمُ: هو الْمَرْجُومُ بالْخزْي والفضيحةِ والشُّهب إذا رجعَ إلى السَّماء. ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ المؤجَّلِين إلى وقتِ النَّفخة الأُولى، فلم يُجِبْهُ إلى ما سأل، ولم يُعَرِّفْهُ ذلك الوقت.

---

(١) البقرة / ٣٠ .

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾؛ أي لأَدعُونَّهم إلى الغِوَايَةِ ولأُضِلَّنَّهُمْ، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾، إلاَّ عبادك الذين أخلَصْتَهم وعَصَمْتَهم فلا سبيلَ لي عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾؛ قول مجاهدٍ والأعمش وحمزة وخلف: برَفْعِ الأوَّل ونصب الثاني؛ أي بمعنى فأنَا الْحَقُّ أو فَمِنِّي الحقُّ وأقولُ، وقرأ الباقون بنصبهما.

واختلفَ النُّحاة في وجهِ ذلك، فقيل: نُصِبَ الأولُ على الإغراءِ، والثاني بإيقاعِ القول عليه. وَقِيْلَ: الأولُ قَسَمٌ، والثاني مفعولٌ، تقديرهُ: قالَ فبالْحَقِّ وهو اللهُ، أقسَمَ بنفسهِ ثم حذفَ الخافضَ فنُصِبَ كما يقولُ الله: لأَفْعَلَنَّ، أقْسَمَ اللهُ تعالى ليمْلأَنَّ جهنَّمَ من إبليس وأتباعهِ(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لكفَّار مكَّة: ما أسألُكم على تبليغِ الوحي والقرآنِ من مال تُعْطُونِيَهُ جُعلاً، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾؛ أي لم أتكَلَّفْ دُعاءَكم اليه من تلقاءِ نفسي بل أمرت بذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾؛ أي ما القرآنُ إلاَّ مَوعِظَةٌ للحقِّ أجمعين، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾؛ أنتم يا كفارَ مكَّة، ﴿نَبَأَهُ﴾؛ أي خَبَرَ صدقهِ، ﴿بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾؛ أي بعدَ الموتِ، وَقِيْلَ: يومَ القيامةِ. وقال الحسنُ: (يَا ابْنَ آدَمَ؛ عِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيكَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ)(٢).

آخر تفسير سورة (ص~) والحمدُ لله ربِّ العالمين

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج٣ ص٣١٨. والحجة للقراءات السبعة: ج٣ ص٣٣٦.

(٢) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٢٠.

سُـــورَةُ الزُّمَـــرِ

سُورَةُ الزُّمَرِ مَكِّيَّةٌ إلاَّ قَوْلَهُ[1]: ﴿ياعِبَادِيَ الَّذِينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ...﴾ الآيَةُ، وَهِيَ أرْبَعَةُ آلاَفٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةُ أحْرُفٍ، وَألْفٌ وَاثْنَان وَتِسْـعُونَ كَلِمَـةً، وَخَمْـسٌ وَسَبْعُونَ آيَةً. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الزُّمَرِ لَمْ يَقْطَعِ اللهُ رَجَاءَهُ، وَأعْطَـاهُ ثَوَابَ الْخَائِفِينَ][2].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾ ؛ معناهُ: هذا تنْزيلٌ من اللهِ العزيزِ بالنِّقمة لِمَن لا يؤمنُ، الحكيمُ في أمرهِ وقضائه. ويجـوزُ أن يكـون (تَـنْزيلٌ) مبتدأ وخبرهُ (مِنَ اللهِ) كما يقالُ: نِعَمُ الدُّنيا والدينِ من اللهِ تعالى. قَوْلُهُ تَعَـالَى:﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ ؛ أي أنزَلنا إليكَ هذا القرآنَ بالحقِّ ولم يُنْزلهُ باطلاً، وقولهُ تعالى:﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ ﴾ ؛ أي اعبُدِ اللهَ وحدَهُ لا كمـا يعبدهُ عبدَةُ الأوثان.

وقوله:﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ ؛ أي إنَّ العبـادةَ الخالصـةَ للهِ، وفي هـذا بيانُ أنَّ غيرَ الخالصِ لا يكون للهِ، والإخلاصُ أن يقصُدَ العبدُ بنيَّتِهِ وعملـهِ خالقَـهُ لا يجعلُ ذلك تعرُّضاً للدُّنيا.

---

(١) في المخطوط: (إلى). والصحيح كمـا أثبتنـاه. وفي معـاني القـرآن وإعرابـه: ج ٤ ص٢٥٨؛ قـال الزجاج: (مكية ما خلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة، قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أسْرَفُوا عَلَـى أنْفُسِهِمْ..﴾ إلى تمام ثلاث آيات). وفي الـدر المنثـور: ج ٧ ص٢١٠؛ قـال السـيوطي: (وأخـرج النحاس في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (نزلت بمكة سـورة الزمـر سـوى ثـلاث آيات نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ...﴾ إلى ثلاث آيات).

(٢) ذكره البيضاوي في التفسير:ج ٢ ص١٧٥، وهو من رواية الثعلبي في تفسيره، وفيه نظر.

وَقِيْلَ: معنى (ألاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) أي إن الدينَ الخالصَ من الشِّرك هو للهِ، وما سواهُ من الأديان فليس بدينِ اللهِ الذي أمـرَهُ بـهِ. قـال قتـادةُ: (الدِّيـنُ الْخَـالِصُ شَهَادَةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ)[١].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ يعـني الذيـن يعبُدون الأصنـامَ والملائكـةَ والشَّـمس والقمـرَ والنجـومَ يقولـون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ ؛ أي يقولون ما نعبُدهم إلاَّ ليَشفَعُوا لنا إلى اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي بين أهلِ الأديان يـومَ القيامـةِ، ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ؛ مـن أمـور الديـنِ، كـلٌ يقـولُ: الحـقُّ دِيـني، فـهُم مختلفونَ، وحكمُ الله بينَهم: أن يُعذِّبَ كُلاًّ على قدر اسـتخفافهِ، وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يُرشِدُ لدينـهِ مَـن كـذبَ في زعمهِ أنَّ الآلهةَ تشفعُ له الله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي لو أرادَ أن يتَّخِذ لنفسهِ ولَداً كما زعمَ بعـضُ الكفَّـار أنَّ الملائكـةَ بنـاتُ الله! لَمَـا اقتصـرَ علـى الأدوَن مـن البنـاتِ دون الأعلَـى مـن الذُّكـران، وهـذا كقولـهِ تعـالى ﴿أفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بالْبَنِينَ وَاتَّخَذ مِنْ الْمَلاَئِكَةِ إنَاثاً﴾[٢]، وقالَ تعالى ﴿ألَكُمْ الذكرُ وَلَـهُ الأُنثَى﴾[٣].

وَقِيْلَ: معناهُ: لو أرادَ أن يتَّخذ ولَـداً كمـا قـالتِ النصـارَى في المسيحِ واليـهودُ في العزيرِ لاختارَ خلقاً أفضلَ من عيسَى عليه السلام وعُزير. وقولـهُ تعـالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ ؛ أي تَنْزيهاً له في كلِّ صفةٍ لا تكون من أرفعِ الصِّفَات، وقولهُ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ﴾ ؛

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢١٠؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة). وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣١١٨).

(٢) الاسراء / ٤٠ .

(٣) النجم / ٢١ .

لا شريكَ له و"ليس"[(١)] شيء كمثله، ﴿ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ ؛ الغالبُ على خلقهِ الذي لا يحتاجُ إلى ولدٍ وظَهيرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ﴾ ؛ أي خلقَ السَّموات والأرضَ عبرةً للخلق، وإقامةً للحقِّ لا للعبثِ والباطلِ، يُدِيرُ الليلَ على النهار، ويديرُ النهارَ على الليلِ، وكلٌّ واحدٍ على الآخرِ، ويزيدُ من ساعاتِ أحدِهما في ساعاتِ الآخر.

والتكويرُ: هو إدارةُ الشيءِ على الشيء، ومنه كُورُ العِمَامَةِ، وقد تسمَّى الزيادةُ كُوراً، كما قيلَ في الدُّعَاءِ: (اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بكَ مِنَ الْحَوَرِ بَعْدَ الْكَوَرِ)[(٢)] أي من النُّقصان بعدَ الزيادةِ. وقولُهُ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾ ؛ أي إلى الوقتِ الذي وقَّتَ اللهُ الدنيا إليه وهو انقضاؤُها وفناؤها، وقولُهُ: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾ ؛ أي خالقُ هذه الأشياءِ هو اللهُ الغالب على كلِّ شيء، الغفَّارُ لأوليائهِ وأهلِ طاعتهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ؛ أي خلقَكم من نفسِ آدمَ وحدَها ثم خلقَ منها زوجَها حوَّاء من ضلعٍ من أضلاعهِ القصيرة، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ﴾ ؛ يعني الإنزالَ ههنا الإنشاءَ والخلقَ؛ أي وخلقَ لكم من كلِّ صنفٍ من الإبلِ والبقر والضَّأنِ والمعزِ زوجَين ذكراً وأنثى.

وقولُه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ ، أي خلقكم نُطفةً ثم عَلَقة ثم مُضغَةً إلى أن تخرجوا من البطون، ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ﴾ ؛ يعني

---

(١) (ليس) سقطت من المخطوط، والسياق يقتضيها.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الحج: باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره: الحديث (١٣٤٣/٤٢٦): عن علي الأزدي أن ابن عمر علَّمَهم أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره... الحديث. والترمذي في الجامع الصحيح: الدعوات: باب ما يقول إذا خرج مسافراً: الحديث (٣٤٣٩)، وقال: حديث حسن صحيح من طريق عبدالله بن سرجس.

ظُلمةَ البطنِ وظُلمةَ الرحِم وظلمةَ الْمَشِيمَةِ[١]. وَقِيلَ: ظلمةَ الأصلاب وظلمةَ الأرحامِ وظلمةَ البُطون. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾؛ الدائمُ الذي لا يزولُ، ولا خالقَ غيرهُ، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝﴾؛ بعدَ هذا البيان والبرهان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾؛ أي إنْ تكفُروا يا أهلَ مكَّة بنِعَمِ اللهِ، فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنكم، لم يأمُرْكم بالإيمان من حاجةٍ له إليكم لا لجلبِ منفعةٍ ولا لدفعِ مضرَّةٍ، وإنما آمرُكم به لنفعِكم، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾؛ أي لا يرضَى لأوليائهِ وأهلِ طاعته الكُفرَ. وَقِيْلَ: معناهُ: ولا يرضَى لعبادهِ المخلصِين الذي قالَ ((فيهم))[٢] ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[٣] فألزمَهم شهادةَ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ وحبَّبَها إليهم.

وقال السديُّ: (وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أنْ يَكْفُرُوا)، وهذه طريقةُ مَن قالَ بالتخصيصِ في هذه الآيةِ ومَن أجرَاها على العمومِ فمعناهُ: لا يرضَى الكفرَ لأحدٍ، وكفرُ الكافرِ غيرُ مُرضٍ، وإنْ كان بإرادةٍ، فاللهُ تعالى مقدِّرٌ الكفرَ غيرَ راضٍ به لأنه ((ما)) يَمدحهُ[٤] ولا يُثنِي عليه، قال قتادةُ: (مَا رَضِيَ اللهُ لِعَبْدٍ ضَلاَلَةً وَلاَ أمَرَهُ بهَا وَلاَ دَعَاهُ إلَيْهَا، وَلَكِنْ قَدَّرَهُ عَلَيْهِ)[٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾؛ معناهُ: وإن تَشكُروا ما أنعمَ عليكم من التوحيدِ يَرْضَ ذلك الشكرَ لكم ويُثِبْكم عليه، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي لا تُؤخَذُ نفسٌ وزراً بذنب أخرى، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾؛

---

(١) قاله الطبري في جامع البيان: مج ١٢ ج ٣ ص٢٣٣، وعزاه إلى عكرمة وابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد والضحاك.

(٢) ما بين (( )) ليس في المخطوط.

(٣) الاسراء / ٦٥ .

(٤) (ما) سقطت من المخطوط، والسياق يقتضي ذكرها.

(٥) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢١٣؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد عن قتادة ﷺ قال: (والله...) وذكره).

في الآخرةِ، ﴿ فَيُنَبِّئُكُم ﴾ ، فيَجزِيكـم، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، في الدُّنيـا، ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ ، بعزائمِ القلوب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ ؛ إذا أصابَ الكافرَ شدَّةٌ في عَيشهِ أو بلاءٌ في جسدهِ دعَا ربَّهُ راجعاً إليه بقلبـهِ، قـال عطـاءُ: (يُريـدُ عُتْبَةَ بْنَ رَبيعَةَ)[1]، وقال مقاتلُ: (يَعْنِي أبَا حُذيْفَةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ)[2].

وقولهُ: ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ ؛ أي ثُم إذا أعطاهُ نِعْمَةً منـه؛ أي أغنـاهُ وأنعمَ عليه بالصحَّة، ﴿ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي نَسِيَ الضـرَّ الـذي كـان يدعُـو اللهَ إلى كشـفهِ، ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ ؛ أي رجـعَ إلى عبـادةِ الأوثــانِ، ﴿ لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ؛ أي ليَزلَّ عن دينِ الإسلامِ، ويُضِلَّ النـاسَ، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ يـا مُحَمَّدُ لهذا الكافرِ: ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ﴾ ؛ في الدُّنيا إلى أجَلِكَ، لفظـهُ لفـظ الأمـرِ ومعناهُ التهديدُ والوعيـدُ، ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ في الآخـرةِ فمـا ينفـعُ التمتُّعُ القليلُ من الدنيا.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ معناهُ: هذا خيرٌ أيُّها الكافرُ أم مَن هو قانتٌ؟ وَقِيْلَ: معناهُ: أمَّنْ هو قانتٌ كمَن جعلَ لله أنْـداداً. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: أهـذا الخـيرُ أم مـن هـو قـانتٌ لله؟. والقَانِتُ: هو المواظِبُ على طاعةِ الله تعالى، القائمُ بمـا يجـبُ عليـه لأمـرِ الله. و(آنَـاءَ اللَّيلِ) ساعاتهُ.

وقوله: (سَاجِداً وَقَائماً) نُصِبَ على الحالِ؛ أي تارةً ساجداً وتارةً قائماً، يفعـلُ ذلك حَذِراً من العذاب وطَمعاً في الثواب. وقرأَ نافعُ وابن كثـير: (أَمَـنْ) بـالتخفيفِ؛ لأن ألِفَ الاستفهامِ دخلت على (مَنْ) هو استفهامُ إنكار، والمعنى: أمَنْ هـو قانـتٌ

---

(١) في معالم التنزيل: ص١١٢٢؛ قال البغوي: (نزلت في عتبة بن ربيعة) ونقل قول مقاتل ثـم قـال: (وقيل: عامٌّ في كل كافر).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٢٨؛ قال: (يعني أبا حذيفة بن المغيرة بن عبدالله المخزومي).

كالأوَّل. ورُوي أنَّ قوله: (أمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً) نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ ابْنِ عَفَّان رضي الله عنه[1].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: و﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ أي لا يستوي العالِمُ والجاهلُ، فكذلكَ لا يستوي المطيعُ والعاصي، ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي يتَّعِظُ بمواعظِ الله ذوُو العقولِ من الناسِ.

وقال مقاتلُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَمَّار بْنِ يَاسِرٍ وَأبي حُذيْفَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ. (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ) يَعْنِي عَمَّارَ (وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) يَعْنِي أبَا حُذيْفَةَ).

وعن ابنِ عبَّاس؛ أنَّهُ قالَ: (مَنْ أحَبَّ أنْ يُهَوِّنَ عَلَيْهِ الْمَوْقِفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلْيَرَهُ اللهُ سَاجِداً فِي سَوَادِ اللَّيلِ[2] سَاجِداً أوْ قَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبهِ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ ؛ أي أطِيعوهُ واجْتَنِبُوا معاصيَهُ، وتَمَّ الكلامُ ثم قالَ: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴾ ؛ أي وحِّدُوا اللهَ وأحسِنُوا العملَ، ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ ؛ يعني الجنَّةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ ؛ أي ارحَلُوا من مكَّةَ، وهذا حثٌّ لهم على الهجرةِ من مكَّة إلى حيث يأمَنُونَ، فيه بيانُ أنه لا عذرَ لأحدٍ في تركِ طاعةِ الله تعالى لكونه بأرضٍ لا يتمكَّنُ فيها من ذلكَ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٨٣٧٨) عن يحيى البكاء أنه سمع ابن عمر قرأ الآية، ثم قال: (ذَلِكَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) وفسَّر ابن أبي حاتم قوله: (وإنَّما قال ابنُ عمر ذلك؛ لكثرةِ صلاةِ أمير المؤمنين عُثمانَ بالليل وقراءته).

(٢) كرر الناسخ (ساجداً) والسياق لا يقتضيها.

(٣) بمعناه ذكره الطبري تفسيراً في جامع البيان: مج ١٢ ج ٢٣ ص٢٤٠، ونقله مختصراً بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في الأثر (٢٣١٦٣). وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير مختصراً: الأثر (١٨٣٧٩).

وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: إنما يُوَفَّى الصَّابرُون على دِينهم فلا يترُكونَـهُ بمشـقَّةٍ تَلحقُـهم. وهـذه الآيـةُ نزلَـتْ في جعفرَ بن أبي طالبٍ وأصحابهِ حين لم يترُكوا دينَهم، ولَمَّا اشتدَّ عليهم الأمـرُ صـبَرُوا وهاجَرُوا[1]، والمعنى: يُعطَوْنَ أجرَهم كاملاً على صبرهم على البـلاءِ، وهجـرانِ أهلِـهم وأوطانِهم بغير وزنٍ ولا مقدارٍ، بل يعطَــون نَعيمـاً وثوابـاً لا يـهتدِي إليـه عقـلٌ ولا وصف.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي قُـل يـا مُحَمَّدُ لكفَّـار مكَّـةَ: إنِّـي أمـرت أن أعبُـدَ اللهَ، ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ ، وأمرتُ أن أعبدَهُ على التوحيدِ والإخلاصِ، لا يشــوبُ عبادتَـهُ شركٌ.

قال مقاتلُ: (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ مَا يَحْمِلُكَ عَلَى مَا أتَيْتَنَا بِهِ ؟ ألاَ تَنْظُرُ إلَى مِلَّةِ أبِيكَ وَجَدِّكَ وَسَادَةِ قَوْمِكَ يَعْبُدُونَ اللاَّتَ وَالْعُزَّى فَتَأْخُذ بِـهَا؟ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[2]. أي قُل لَهم إنِّي أمرتُ بالقرآنِ بتوحيــدِ الله تعـالى، وأن آمُـرَ الخلقَ كلهم بذلك، وأمِرتُ أن أكون أوَّلَ من أسلمَ من أهلِ هذا الزَّمان.

وقولــهُ تعــالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ بالرُّجوعِ إلى دين آبائي، ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ بالتوحيدِ لا أشـركُ به شيئاً، ﴿ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ ؛ هذا أمـرُ تـهديدٍ، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ بـأن صَــارُوا إلى النــار، ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ ، يعني الكفارَ هم الذيـن خَسِـرُوا أنفُسَـهم وأهليـهم مـن الأزواجِ والخدَمِ بالتخلية في النار. ويقالُ: خُسْرَانُ الأهلِ أن يخسَرُوا أهلَهم من الحـور العينِ التي أعِدَّت لهم في الجنَّة لو أسلَمُوا.

---

(١) أيضاً ذكره البغوي وبعبارة المصنف في معالم التنزيل: ص١١٢٢.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٢٩ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

وقولهُ تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي أطبَاقٌ من النار تلهبُ عليهم، ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ ؛ أي مِهَادٌ من النار. يريدُ بذلك أنّهم جُعِلُوا بين أطبَاقِ جهنَّم، فأحاطَت بهم النارُ من كلِّ جانبٍ.

وإنما سُمي الذي من تحتَهم ظِلاً لأنه ظُلَلٌ لا يكون أسفلَ منهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ ؛ أي ذلك الذي ذُكر من عذاب الكفَّار تخويفٌ للمؤمنين ليخافوهُ فيتَّقونهُ بالطاعةِ والتوحيدِ. ثم أمرَهم بذلك فقال: ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا عذابي بامتثالِ أوَامِري.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ ؛ يعني اجتنَبُوا كلَّ ما يُعبَدُ من دون اللهِ، ﴿ وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ورجعُوا إلى طاعةِ الله بعزائمِهم وأقوالِهم وأفعالهم، ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ ، بالجنَّة، ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ ؛ وذلك لأنَّ القرآن يشتملُ على ذكرِ المباحات والطَّاعات، والمباحات حسَنةٌ، والطاعات أحسَنُ، واستحقاقُ الثواب يتعلَّقُ بفعلِ الأحسنِ.

ويجوزُ أن يكون معنى الآيةِ: أن العفوَ عن القصاصِ أحسنُ من استيفاءِ القصاص، والصبرُ أحسن من الانتصار، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[(١)]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمُورِ﴾[(٢)]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾[(٣)] فجعلَ الأخذ بأحسنِ الطَّريقَين أعظمُ للصواب.

وَقِيْلَ: معنى (فَيَتَّبعُونَ أحْسَنَهُ) أي أحسنَهُ وكلُّه حسنٌ، قولهُ تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي الذين وصفْنَاهم، ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ ، هم الذين وفَّقَهم اللهُ للصواب، ﴿ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي ذوُو العقولِ.

---

(١) البقرة / ٢٣٧ .
(٢) الشورى / ٤٣ .
(٣) البقرة / ١٨٤ .

وقال عطاءُ عن ابنِ عبَّاس: (أنَّ أبَـا بَكْـرٍ ﷺ آمَـنَ بـالنَّبيِّ ﷺ فَصدَّقَـهُ، فَجَـاءَ عُثْمَانُ ﷺ وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ وَسَعِيدُ، فَسَـأَلُوهُ فَـأَخْبَرَهُمْ بِإِيْمَانِهِ فَآمَنُوا، فَنَزَلَ فِيْهِمْ (فَبَشِّرْ عِبَاد، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ) أيْ يَسْتَمِعُونَهُ مِنْ أبِـي بَكْرٍ (فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ) أَيْ حُسْنَهُ، وَكُلُّهُ حَسَنٌ، أوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأولَئِـكَ هُـمْ ذَوُو الْعُقُول)[1].

وقولهُ تعالى: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ ﴾ ؛ معناهُ: أفمَنْ وجبَتْ عليه كلمةُ العذاب بكُفرهِ كمَـن ليـس كذلـك، ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي سبقَ في علمِ الله أنه من أهلِ النار، أفأنتَ تنقذهُ فتجعلـهُ مؤمنـاً، يعـني لا تقـدِرُ علـى ذلك.

قال عطاءُ: (يُرِيدُ أبَا لَـهَبٍ وَأوْلاَدَهُ وَمَـنْ تَخَلَّـفَ مِـنْ عَشِـيرَةِ النَّبيِّ ﷺ عَـنِ الإيْمَان بهِ)[2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ ﴾ ؛ بالإيمان والطاعـة، ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ ؛ أي لَهم منازلُ في الجنَّة رفيعةً وفوقَـها منـازلُ أرفَـعُ منـها، ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ، وعدَهـم اللهُ تلك الغُرَف والمنازلَ وعْداً لا يُخْلِفهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ؛ يعـني المطـرَ، ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي فأجراهُ في الأرضِ ينـابيعَ وهـو جمـعُ يَنْبُـوعٍ، والينبوعُ: المكانُ الذي يَنْبَعُ منه الماءُ. قال مقاتلُ: معناهُ (فَجَعَلَـهُ عُيُونـاً وَرَكَايَـا[3] فِـي الأَرْضِ)[4] وَذلِكَ أنَّ أصْلَ الْمِيَاهِ الَّتِي فِي الأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ.

---

(١) أيضاً ذكره البغوي مختصراً في معالم التنزيل: ص١١٢٣.

(٢) ذكره البغوي مختصراً في معالم التنزيل: ص١١٢٣. والقرطبي في الجامع لأحكـام القـرآن: ج ١٥ ص٢٤٤.

(٣) الرَّكَايَا: أصلها (الرَّكْوَةُ) وهي شِبْهُ تُورٍ مِنْ أدَمٍ، وفي الصحاح: الرَّكْوَةُ التي للماءِ وجمعُها (رِكَاءٌ) و(رَكَوَات) بفتحِ الكاف. وهي إناءٌ صغيرٌ من جِلدٍ يُشرب فيه الماء. ورَكَا الأرضَ رَكْواً: حفرَها. ورَكَا رَكْواً: حفرَ حَوْضاً مستطيلاً. والرَّكِيَّةُ: البئرُ تحفَرُ، والجمع رَكِيٌّ ورَكَايَا. ينظر: مـادة (ركـا) في لسان العرب.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٣٠.

وقولهُ: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ ؛ أي ثم يُخرجُ بالمطر زَرْعاً من بين أحمرٍ وأصفر وأبيض وأخضر، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ ؛ أي يَيْبَسُ، ﴿ فَتَرَىٰهُ ﴾ ؛ بعدَ الْخُضْرَةِ، ﴿ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ ﴾ ؛ اللهُ، ﴿ حُطَٰمًا ﴾ ؛ أي متكسِّراً متفتِّتاً دِقَاقاً، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي الذي ذكرَ من صُنعِ اللهِ وقدرتهِ لدلالةِ ذوي العقولِ على سُرعة زوالِ الدُّنيا، وعلى قدرةِ اللهِ على البعثِ بعدَ الموت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ ؛ معناهُ: أفمَن وسَّعَ اللهُ صدرَهُ لقَبولِ الإسلام، فهو على بيانٍ وحجَّة من ربه يُبصِرُ به الحقَّ من الباطلِ، كمَن طبعَ اللهُ على قلبهِ فلم يهتَدِ للحقِّ لقَسوَتهِ، قال قتادةُ: (فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبهِ: النُّورُ هُوَ كِتَابُ اللهِ تَعَالَى، فِيْهِ يَأْخُذُ وَبهِ يَنْهَى)[1].

وتقديرُ الآيةِ: أفمَن شرحَ اللهُ صدرَهُ للإسلامِ فهو على نورٍ من ربه، كمَن قَسِيَ قلبهُ.وعن ابنِ مسعود ﷺ أنه قالَ: (تَلاَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هَذَا الانْشِرَاحُ ؟ قَالَ: [إذا دَخَلَ نُورٌ الْقَلْبَ انْشَرَحَ وَانْفَسَحَ] قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَا عَلاَمَةُ ذلِكَ؟ قَالَ: [الإنَابَةُ إلَى دَار الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَار الْغُرُور، وَالتَّأَهُّب لِلْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ الْمَوْتِ][2]. قِيْلَ: إنَّ هذه الآيةَ نزلت في عمَّار بن ياسرٍ[3]، وقال مقاتلُ: (أفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإسْلاَمِ يَعْنِي النَّبيُّ ﷺ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ هم أبو جهلٍ وأصحابهُ من الكفَّار، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ . وَقِيْلَ: إنَّ قولهُ (أفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبهِ) يعني عَلِيّاً وحمزةَ، وقولهُ تعالى (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ) هو أبو لَهَبٍ وأولادهُ[4]. وقولهُ (مِنْ ذِكْرِ اللهِ) أي عن ذكرِ اللهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣١٨٣).

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢١٩؛ قال السيوطي: (اخرجه ابن مردويه عن عبدالله بن مسعود) وذكره.

(٣) نقله القرطبي في مقاتل، كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٤٧.

(٤) ذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٤٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ ؛ يعني القرآنَ، سُمي حَديثاً لأن النبيَّ ﷺ كان يُحَدِّثُ به قومَهُ. وقوله: ﴿ كِتَابًا ﴾ ؛ منصوب على البدل من أحسن الحديث. قولهُ: ﴿ مُتَشَابِهًا ﴾ ؛ أي يُشبهُ بعضه بعضاً في كونهِ حكمةً ومصلحةً، وفي أنه حقٌّ لا تناقُضَ فيهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ ؛ أي مُكَرِّرُ الأنباءِ والقصصِ للإبلاغِ والتأكيدِ، وتُثَنَّى تلاوتهُ في الصَّلاةِ وفي غيرِها فلا يمل من سماعهِ.

وقوله: (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) خَوفاً مما في القرآنِ من الوعيدِ، ومعنى تَقْشَعِرُّ: تأخذُهم قَشْعَرِيرَةٌ وهي تغيُّر يحدثُ في جلدِ الإنسان عند الوجَلِ والخوفِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إذا اقْشَعَرَّ جِلْدُ الْعَبْدِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، تَحَاتَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا يَتَحَاتُّ عَنِ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا][(١)]. وقال الزجَّاجُ: (إذا ذُكِرَتْ آيَاتُ الْعَذاب اقْشَعَرَّتْ جُلُودُ الْخَائِفِينَ)[(٢)]، وقال النبيُّ ﷺ:[إذا اقْشَعَرَّ جِلْدُ الإنْسَانِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّار][(٣)].

وعن عبدِالله بن عُروةَ قَالَ: قُلْتُ لأَسْمَاءَ بِنْتِ أبِي بَكْرٍ ﭬ: كَيْفَ كَانَ أصْحَابُ رَسُول اللهِ ﷺ يَفْعَلُونَ إذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ ؟ قَالَتْ: (كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ تَعَالَى، تَدْمَعُ عُيُونُهُمْ وَتَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُهُمْ) فَقُلْتُ لَهَا: إنَّ نَاساً الْيَوْمَ إذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ خَرُّوا مَغْشِيّاً عَلَيْهِمْ ؟ قَالَتْ: (أعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ)[(٤)].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٢٢؛ قال السيوطي: (أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن العباس بن عبدالمطلب ﭬ) وذكره. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣١٠؛ قال الهيثمي: (رواه البزار، وفيه أم كلثوم بنت العباس، ولم أعرفها، وبقية رجالها ثقات). وأخرجه البغوي بإسناده في معالم التنزيل: ص١١٢٤.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٤٦.

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٥٠، بلفظ: [مَا اقْشَعَرَّ جِلْدُ عَبْدٍ...]. وأخرجه البغوي بإسناده في معالم التنزيل: ص١١٢٥.

(٤) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٢٢؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن=

ورُوي: أنَّ ابْنَ عُمَرَ ﷺ مَرَّ برَجُلٍ مِنْ أهْلِ الْعِرَاق سَاقِطٍ فَقَالَ: (مَا بَالُ هَذا؟) فَقَالُوا: إنَّهُ إذا قُرِئَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَسَمِعَ ذِكْرَ اللهِ سَقَطَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ: (إنَّا لَنَخْشَى اللهَ وَلاَ نَسْقُطُ) وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: (إنَّ الشَّيْطَانَ لَيَدْخُلُ فِي جَوْفِ أحَدِهِمْ! مَا كَانَ هَذا صُنْعَ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ ﷺ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي تسكنُ رعدَةُ أعضائِهم إذا سمعوا آياتِ الرَّحمة، وَقِيْلَ: تلينُ جلودُهم وقلوبُهم؛ أي تطمئنُّ وتسكنُ إلى ذكرِ الله للجنَّة والثواب.

قال قتادةُ: (هَذا نَعْتُ أوْلِيَاءِ اللهِ، وَصَفَهُمُ اللهُ بأنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ إلَى ذِكْرِ اللهِ، وَلَمْ يَنْعَتْهُمْ بذهَاب عُقُولِهِمْ وَالْغِشْيَانِ عَلَيْهِمْ، إنَّمَا ذلِكَ فِي أهْلِ الْبدَعِ وَهُوَ مِنَ الشَّيْطَان)(٢).

وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ ﴾؛ يعني أحسنَ الحديثِ وهو القرآنُ، هُدَى اللهُ يهديهِ، ﴿ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ الْكَافِرَ يُلْقَى فِي النَّار مَغْلُولَ الْيَدِ إلَى الْعُنُق، لاَ يَتَهَيَّأُ لَهُ أنْ يَتَّقِي النَّارَ إلاَّ بوَجْهِهِ)(٣)، فكان معنى الآيةِ: أفمَن يتَّقي بوجهِهِ شدَّةَ العذاب يومَ القيامةِ كمَن يدخلُ الجنةَ ويتلذذُ بنعيمِها.

=مردويه وابن أبي حاتم وابن عساكر ع عروة بن الزبير...) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨٣٨٣).

(١) أخرجه البغوي في معالم التنزيل: ص١١٢٥.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٢١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة...) وذكره.

(٣) في جامع البيان: مج ١٢ ج ٢٣ ص٢٥١: تفسير الآية؛ قال الطبري: (وقال آخرون: هو أن يُنطلق به إلى النَّار مَكتوفاً، ثم يُرمى به فيها، فأوَّلُ ما تمسُّ النارُ وجهَهُ، وهذا قولٌ يُذكَرُ عن ابنِ عباس من وجهٍ كرهتُ أن أذكره لضعفِ إسناده).

قِيْلَ: إنَّ هذه الآيةَ نزلت في أبي جهلٍ، قال الكلبيُّ: (يُنْطَلَقُ بهِ إلَى النَّار مَغْلُولاً، فَإذا دَفعَتْهُ الْخَزَنَةُ فِيْهَا تَتَلَقَّفُهُ النَّارُ بأَوَّل وَجْهِهِ)، وقوله: ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي يقولُ الخزَنة للكفار: ذوقوا العذابَ بما كنتم تكسَبون في الدُّنيا من الكفرِ والمعاصي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾؛ أي كذبَ الذين من قبلِ كفَّار مكَّة رسُلَهم، ﴿ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ يعني وهم آمِنُون في أنفسِهم غافِلون عن العذاب. وفي هذه الآيةِ تحذيرٌ لأهلِ مكَّة لئَلاَّ يسلُكوا طريقةَ مَنْ قَبْلَهُم فينْزِلُ بهم من العذاب ما نزلَ بمَن قبلَهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾؛ أي الهوانَ والعذابَ في الحياةِ الدنيا، ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾؛ مما أصابَهم في الدُّنيا، ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ ولكنَّهم لم يعلَمُوا ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾؛ أي ولقد ضرَبنا لأهلِ مكَّة في هذا القرآنِ من كلِّ مثلٍ لَهم فيه من كلِّ وجهٍ ما يحتاجون إليه، ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ فيؤمِنُوا.

وقولهُ تعالى: ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ قُرْآناً نصَبهُ على الحالِ كما يقالُ: جاءَني زيدٌ رجُلاً صالحاً، وقولهُ تعالى (غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) أي مستقيمٌ وليس مختلِفٌ، وعن ابنِ عبَّاس:(غَيْرَ ذِي عِوَجٍ؛ أيْ غَيْرَ مَخْلُوقٍ)[1]، وَقِيْلَ: غيرَ تضادِّ واختلافٍ، لا يخالِفُ الكتبَ المنَزَّلةَ قبلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾؛ أي وصفَ اللهُ مثلَ آلِهَتِهم التي يعبدونَها من دون الله، يقول اللهُ: الذي يعبدُ آلهةً شتَّى في أخلاقِهم وشراسةً، والذي يعبدُ ربّاً واحداً خالصاً في عبادتهِ إياهُ، والمعنى فيه شركاءُ متشاحُّون، ورجُلاً سَلَماً لرَجُل سلم له من غيرِ منازعٍ، وَقِيْلَ: معناهُ: أنَّ أرباباً كثيرةً فيه

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٢٣؛ قال السيوطي: (أخرجه الآجري في الشريعة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات).

شركاءُ متشاحُّون سيِّئةٌ أخلاقُهم، وكلُّ واحدٍ منهم يستخدمهُ بقدر نصيبهِ، يقالُ: رجلٌ شَكِسٌ وَشَرِسٌ، وضَرِسٌ وضَبِسٌ، إذا كان سَيِّءَ الْخُلُقِ ومُخَالفاً للناسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ ؛ (ورَجُلاً سَالِماً) هذه قراءةُ ابنِ كثيرٍ وأبي عمروٍ ومجاهد والحسن ويعقوب، واختيار أبي عُبيد؛ لأن السالِمَ ((الْخَالِصُ))[١] ضدُّ المشترَكِ، وقرأ الباقون (سَلَماً) من غيرِ ألف بفتحِ اللام وهو ضدُّ المحارب، ولا موضعَ للحرب ههُنا، والمعنى ورَجُلاً ذا سَلَمٍ لرَجُل، من قولِهم: هو لكَ سَلَمٌ؛ أي مسلم لا منازعَ لكَ فيه.

وقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ ؛ أي هل يستوي عندكَ شِرْكٌ فيه مختلفون يملكونهُ جميعاً ورجلٌ خالِصٌ لرجلٍ لا شركةَ فيه لأحدٍ. والمعنى هل يستوي من يعبدُ آلهةً شتَّى مختلفةً، يعني الكافرَ، والذي يعبدُ ربّاً واحداً، يعني المؤمنَ، وهذا استفهامٌ معناهُ الإنكارُ؛ أي لا يستويان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي الشكرُ للهِ دون غيرهِ من المعبودِين، وقولُهُ: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ ما يصيرُون إليه من العقاب، والمرادُ بالأكثرِ الكلُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ إنكَ يا مُحَمَّدُ ميِّتٌ عن قليلٍ وإنَّهم ميِّتون، وَقِيْلَ: معناهُ: إنكَ ستموتُ وإنَّهم سيمُوتون، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ يعني الْمُحِقَّ والْمُبْطِلَ، والظالِمَ والمظلومَ. قولهُ: ﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ، بأن جعلَ له ولَداً وشَريكاً، ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ ؛ وكذبَ بالصدق بالتوحيد والقرآن إذْ جاءَ به مُحَمَّدٌ ﷺ، وقولُهُ تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ لفظَةُ استفهامٍ وهو تقديرٌ وتحقيقٌ؛ أي مثوَاهُم جهنَّمُ.

قولُهُ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ ؛ رسولُ اللهِ ﷺ، ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ ؛ أبو بكرٍ رضي الله عنه كَانَ يُصدِّقهُ في كلِّ ما أخبرَ به، فلذلك سُمي صِدِّيقاً، وقولُهُ تعالى:

---

(١) في المخطوط: (هو) وضبطت كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٥٣.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ يعني أبا بَكرٍ وأصحابَهُ المؤمنين، وقولُهُ تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ يعني لَهم ما يَشاؤُون من الكرامةِ في الجنَّة و ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ في أقوالِهم وأعمالهم. وقولُهُ تعالى: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾ ؛ أي ليُكَفِّرَ اللهُ عنهم أقبحَ أعمالِهم التي عمِلُوها في الدُّنيا بحسناتِهم، ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، قال مقاتلُ: (بالْمَحَاسِنِ مِنْ أعْمَالِهِمْ، وَلاَ يَجْزِيهِمْ بالْمَسَاوِئ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ ؛ وذلك ((أنَّ))[2] المشركين من أهلِ مكَّة قالُوا للنبيِّ ﷺ: إنَّكَ لا تزالُ تشتمُ آلِهَتَنا وتُعيبُها فاتَّقِها أنْ لا تصيبَكَ بشيءٍ فتُخَبلَكَ! فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ. وَقِيْلَ: معناهُ: أليس اللهُ بكافٍ عَبْدَهُ مُحَمَّداً ﷺ يكفيه عداوةَ من يُعاديه.

ومن قرأ (عِبَادَهُ) فالمرادُ بالعبادِ الأنبياءَ، وذلك أنَّ الأُمم قصدَتْهم بالسُّوء، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أمَّةٍ برَسُولِهِمْ﴾[3] فكفاهم اللهُ شرَّ مَن عادَاهم، يعني إنه كافِيكَ كما كفَى هؤلاء الرسُلَ قبلَكَ.

وقوله تعالى: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ ، أي بالذين يَعبُدون من دونهِ هم الأصنامُ. ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم ((مع))[4] عبادتِهم غيرَ اللهِ يُقِرُّونَ أن اللهَ خالقُ هذه الأشياءِ، فجعلَ اللهُ إقرارَهم بذلك حجَّةً عليهم.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٣٣.

(٢) (أنَّ) سقطت من المخطوط.

(٣) غافر / ٥ .

(٤) ((مع)) سقطت من المخطوط.

وبيَّن أنه تعالَى إذا أرادَ بعبدِهِ ضُرّاً لم تقدر الأصنامُ علـى دفعـهِ عنـهُ، وإذا أرادَ بعبدٍ رحمةً لم تقدر الأصنامُ على حبسِها عنه، فكيف يعبدونَها ويتركون عبادةَ اللهِ الذي له هذه الصفاتُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ) أي أمرَ اللهُ النبيَّ ﷺ أن يحتجَّ عليـهم بـأن جميعَ ما تعبُدون من دون اللهِ لا يَملِكون كشفَ ضُرٍّ، قال ابنُ عبَّاس ﷺ: (وَالْمَعْنَـى: أرَادَنِي اللهُ بفَقْرٍ أوْ مَرَضٍ أوْ بَلاَءٍ أوْ شِدَّةٍ، هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ، أوْ أرَادَنِي برَحْمَـةٍ أيْ بخَيْرٍ وَصِحَّةٍ، هَلْ هُنَّ حَابسَاتٌ تِلْكَ الرَّحْمَةَ عَنِّي).

قرأ أبو عمرو ويعقوب (كَاشِفَاتٌ) و(مُمْسِكَاتٌ) بـالتنوينِ؛ لأنَّ اسـمَ الفـاعلِ غيرُ واقعٍ، وما لَمْ يقع منهُ فوجهُها التنوينُ، وقرأ الباقونَ بغير تنوينٍ استخفافاً، وكِـلاَ الوجهين حسنٌ.

وقولهُ تعالى: ﴿ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي يكفينِـي اللهُ تعـالى الـذي بيـدهِ الضـرُّ والرحمةُ، ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي به يَثِقُ الواثِقُون لا بغيرِهِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ ؛ أي علـى نـاحِيَتِكم الـتي اختَرتُموهـا، ﴿ إِنِّي عَـٰمِلٌ ﴾ ؛ علـــى نـــاحِيَتِي وجِـــهَتِي، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ ؛ أي يَفضَحهُ ويُهلِكـهُ في الدُّنيـا، ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ وينْزلُ عليه عذابٌ دائم في الآخـرةِ. ويجـوز أنْ يكـون قولـهُ (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) ابتـداءُ كـلامٍ مـن اللهِ تعـالى، وخـبرهُ (يُخْزِيـهِ وَيَحِـلُّ عَلَيْـهِ عَذابٌ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ يعـني القـرآنَ لتعلَمُوا ما فيـه وتعمَلُـوا بـه، ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي فمنفعـةُ اهتدائـهِ راجعةٌ إلى نفسهِ، ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ، ومـن ضَـلَّ فضَلالـهُ راجـعٌ إليه، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي بحفيظٍ؛ أي تُجبرُهم بالإيمانِ، وهذا كان قبلَ أن يؤمرَ بقتالِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ معناهُ: اللهُ يقبضُ الأرواحَ عند انقضاءِ آجَالِها، ويقبضُ الأرواحَ التي لم تُمتْ في منامِها، ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ ؛ فيحبسُ الأرواحَ التي قَضَى عليها الموتَ ولا يردُّها إلى الأجسادِ، ويَرُدُّ أرواحَ النائمين إليهم عند الاستيقاظِ، ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ أي إلى الأجلِ الذي قدَّرَ اللهُ لهم وهو انقضاءُ الأجَلِ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ ﴾ ؛ إن في رَدِّ الأرواحِ بعد القبضِ لعلاماتٍ، ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ في قُدرةِ الله تعالى، فيستدلُّون بذلك على قُدرتهِ على البعثِ.

قال الزجَّاجُ: (لِكُلِّ إنْسَان نَفْسَان؛ أحَدُهُمَا: نَفْسُ التَّمْييز؛ وَهِيَ الَّتِي تُفَارِقُهُ إذا نَامَ فَلاَ يَعْقِلُ. وَالأُخْرَى: نَفْسُ الْحَيَاةِ؛ إذا زَالَتْ زَالَ مَعَهَا النَّفَسُ، وَالنَّائِمُ يَتَنَفَّسُ)[1]. وعن ابن جُريج عن ابنِ عبَّاس أنه قالَ: (إنَّ النَّفْسَ الَّتِي هِيَ الْعَقْلُ وَالتَّمْييزُ، وَالرُّوحُ هُوَ الشُّعَاعُ الَّذِي بِهِ يَتَحَرَّكُ الإنْسَانُ، فَإذا نَامَ الْعَبْدُ قَبَضَ اللهُ نَفْسَهُ وَلَمْ يَقْبضْ رُوحَهُ، وَإذا مَاتَ قَبَضَ نَفْسَهُ وَرُوحَهُ)[2].

ويقالُ: إن الأشباحَ له نفسٌ وروح وحياةٌ، والبهائمُ لها أرواحٌ، والنباتُ له حياةٌ، فنَمَا النباتُ بحياتهِ، وتحرَّكَ البهائمُ بأرواحِها، وتمييزُ الإنسان بنفسِه، فإذا نامَ غَرَبَ عنه عقلهُ وفَهمهُ وتَمييزُهُ، فإذا انتبهَ عادَ كما كان، وكذلك الميِّتُ إذا بُعِثَ عادَ يبعث كما كانَ.

---

(١) بمعناه في معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٢٦٨، وعلى ما يبدو أن المصنف ساقه بالمعنى، ونقل البغوي معناه في معالم التنزيل: ص١١٢٧-١١٢٨.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٣٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس). وذكره بلفظ قريب. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٣٨٩٧). وبمعناه أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ١ ص١١٦: الحديث (١٢٢). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١٠٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح).

وسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيَنَامُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ: [النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لاَ يَنَامُونَ وَلاَ يَمُوتُونَ][1]. وروي أن في التوراةِ مكتوبٌ: يا بن آدمَ كما تنامُ تموتُ، وكما تستيقظُ تُبعَثُ.

وقوله (فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ) أي يُمسِكُها عن جسدٍ، يعني الروحَ التي توفَّاها فلا تعودُ إلى الجسدِ، وقوله (وَيُرْسِلُ الأُخْرَى) يعني النَّفسَ إلى الجسدِ (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) أي إلى انقضاءِ الأجلِ.

قرأ الأعمشُ وحمزة والكسائي وخلف: (قُضِيَ عَلَيْهَا) بضمِّ القاف وكسر الضاد وفتح الياء، ورفعِ (الْمَوْتُ) على ما لَمْ يُسمَّ فاعلهُ. وقرأ الباقون: (قَضَى) على الفعلِ الماضي، ونصب (الْمَوْتَ عَلَيْهَا)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ) قال المفسِّرون: إن أرواحَ الأحياءِ والأموات تلتقِي في المنامِ فتعارَفُوا ما شاءَ اللهُ، ثم يُمسِكُ اللهُ أرواحَ الأمواتِ فلا يردُّها، وأرسلَ أرواحَ الأحياءِ إلى الأجسادِ إلى وقتِ انقضاء مدَّة حياتِها. وعن رسول اللهِ ﷺ أنه قالَ: [إذا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى جَنْبِهِ الأَيْمَنِ، وَلْيَقُلْ: باسْمِكَ رَبي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبكَ أَرْفَعُهُ، إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ ؛ نزلت في أهلِ مكَّة، زعَمُوا أن الأصنامَ شفعاؤُهم عند اللهِ، فقالَ تعالى مُنكراً عليهم (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً) أي بل اتَّخَذُوا من دون اللهِ آلهـةً يعبدونـها طمَعاً في شفاعتِها، ﴿ قُلْ ﴾ ،

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: الحديث (٩٢٤) عن جابر بن عبدالله، والحديث (٨٨١١) مختصراً. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٤١٥؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح).

(٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٤٢.

(٣) أخرجه الطبراني في الدعاء: الحديث (٣٥٤-٣٥٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الذكر والدعاء: الحديث (٦٤/ ٢٧١٤). والترمذي في الجامع: أبواب الدعوات: الحديث (٣٤٠١)، وقال: حسن.

لَـهم يـا مُحَمَّـد: ﴿ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾، أتَعبدُونَهم وإنْ كانوا لا يقدِرون على شيءٍ من الشفاعةِ ولا يعقِلون الشفاعةَ، فكيف يشفَعُون ؟ وَقِيْلَ: ولا يعقِلون أنَّكم تعبدونَهم.

ثم أخبرَ أنه لا شفاعةَ إلاَّ بإذنهِ، فقال: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي لا يشفعُ أحدٌ إلاَّ بإذنهِ، والمعنى لا يملِكُ[1] أحدٌ الشفاعةَ إلاَّ بتمليكهِ، وهو إبطالٌ لشفاعةِ الأصنامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ ﴾؛ وذلك أنَّ المشركين إذا قيلَ لَهم لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ نفَرُوا من ذلك واستَكبَروا.

والاشْمِئْزَازُ في اللُّغة: النُّفُورُ وَالاسْتِكْبَارُ. قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (اشْمَأَزَّتْ انْقَبَضَتْ عَنِ التَّوْحِيدِ) وقال قتادةُ:(اسْتَكْبَرَتْ)[2]، وقال أبو عُبيدة:(نَفَرَتْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾؛ يعني الأصنامَ التي يعبُدونَها من دون اللهِ، ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ والمعنى إذا قيل لَهم: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، نفَرُوا من ذلك، وإذا ذُكرت أصنامُهم فرِحُوا بذكرِها. فقيل له: ﴿ قُلِ ﴾؛ لَهم يا مُحَمَّد: ﴿ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي خالِقَهما، ﴿ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾؛ أي عالِمُ ما غابَ عن العبادِ، وما علِمَهُ العبادُ، ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾، أي تقضي بين عبادك، ﴿ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ من الدِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ﴾؛ أي لو كان للَّذين ظلَمُوا أنفسَهم بالشِّركِ ما في الأرضِ جميعاً من المال ومثلَهُ معَهُ لفَدَوا به أنفُسَهم لشدَّةِ ما ينْزِلُ بهم من العذاب، ثم لا يُقبَلُ منهم ذلك الفداءُ، وظهرَ لهم من عقاب الله ما لم يكونوا يتوقَّعون في الدُّنيا أنه ينْزِلُ بهم في الآخرةِ.

---

(١) في المخطوط: (يملكون).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٢٣٥).

وذلك أنَّهم لَمَّا كانوا لا يُقِرُّونَ بالبعثِ والنُّشور كانوا لا يتوقَّعون أهـوالَ يـومِ القيامة، بل كانوا ينتظِرُون ثوابَ اللهِ أن لو قامَتِ القيامةُ كما أخبرَ اللهُ عنـهم بقولـه ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾[1] فإذا رأوُا العذابَ فقد، ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ ؛ وظهرَ لهم عقوباتُ ما كسبُوا من المعاصي،﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ، وحلَّ بهم جزاءُ استهزائِهم بالكتاب والرسول.

قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ ؛ أي إذا أصابَهُ مكروهٌ دعَانـا لنكشِفَ عنهُ،﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ ، ثم أعطينَـاهُ نعمـةً منَّـا مـن صحَّـةٍ وعافيةٍ، ويُسْرٍ بعد شـدَّةٍ،﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ﴾ ؛ اللهِ أنَّـني أهـلٌ لذلـك، وقالَ: على علمٍ منِّي فيه بوجُوهِ مُكاسبَة.

وقولهُ:﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ ؛ أي بل النعمةُ والشـدَّة بَلِيَّـةٌ وامتحـانٌ مـن اللهِ للغنيِّ والفقيرِ، للغنيِّ بالشُّكر وللفقيرِ بالصبرِ،﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أنَّها من اللهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى:﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ أي قـد قـالَ تلـك الكلمـةِ قارونُ حين قالَ ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[2]. والمعنى قد قالَـها الذيـن مـن قبـلِ هؤلاء الكفَّـار،﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي مـا أغنـى عنـهم الكفرُ من العذاب شيئاً، والمعنى أنَّهم ظنُّـوا إنما آتينَـاهم لكرامتِـهم علينـا، ولم يكـن كذلك؛ لأنَّـهم وقعُـوا في العـذاب، ولم يُغْـنِ عنـهم مـا كسَـبُوا شـيئاً، وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ ؛ أي جزاؤُها.

ثـم أوعـدَ كفـارَ مكَّـة فقـال:﴿ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ ؛ أي جـزاءُ مـا قـالُوا وعملُـوا،﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ لأن مرجِعَهم اللهُ، فهم لا يُعجِزُونهُ ولا يَفُوتُونهُ فيُجازيهم بأعمالِهم.

---

(١) فصلت / ٥٠.

(٢) القصص / ٧٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ؛ معناهُ: أوَلَم يعلَمُوا أنَّ اللهَ يوسِعُ الرزقَ على مَن يشاءُ ويُضَيِّقُ على مَن يشاءُ، كلٌّ ذلك من عندهِ لا بحَوْلِ الإنسانِ وقوتهِ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ إنَّ في البَسْطِ والتقتيرِ لآياتٍ لقومٍ يُصدِّقون أنَّها من اللهِ تعالَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي وَحْشِي وَأصْحَابهِ الَّذِينَ قَتَلُوا حَمْزَةَ عَمَّ النَّبيِّ ﷺ وَجَمَاعَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أرْسَلُوا إلَى النَّبيِّ ﷺ رَسُولاً يَطْلُبُونَ التَّوْبَةَ، فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنه قَالَ: (بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى وَحْشِي يَدْعُوهُ إلَى الإسْلاَمِ، فَأَرْسَلَ إلَيْهِ: يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ تَدْعُونِي إلَى دِينِكَ وَأنْتَ تَزْعُمُ أنَّهُ مَنْ قَتَلَ أوْ أشْرَكَ أوْ زَنَى يَلْقَ أثَاماً، يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيْهِ مُهَاناً؟! وَأنَا قَدْ فَعَلْتُ ذلِكَ كُلَّهُ، فَهَلْ تَجِدُ لِي فِيْهِ رُخْصَةً ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾[2].

فَقَالَ وَحْشِي: هَذا شَرْطٌ شَدِيدٌ لاَ أقْدِرُ عَلَى هَذا، فَهَلْ غَيْرُ ذلِكَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[3] وَقَالَ وَحْشِي: وَإنِّي فِي شُبْهَةٍ فَلاَ أدْري أيُغْفَرُ لِي أمْ لاَ، فَهَلْ غَيْرُ ذلِكَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ (قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ) فَجَاءَ وَحْشِي فَأَسْلَمَ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: هَذِهِ لَهُ خَاصَّةً أمْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً؟ فَقَالَ: [بَلْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً][4].

معنى الآيةِ: قُل يا عبادِي الذي جاوَزُوا الحدَّ في المعاصِي بالكُفرِ والزِّنا والقتلِ ونحوِها: لا تيأسُوا من رحمةِ اللهِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي الصغائرَ

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨٤٠١). وذكره الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٤٢١. (٢) الفرقان / ٧٠ . (٣) النساء / ٤٨ .

(٤) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٣٥؛ قال السيوطي: (أخرجه الطبري وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان بسند لين عن ابن عباس رضي الله عنهما) وذكره.

والكبائرَ، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ﴾ ؛ لِمَن تابَ وآمَنَ، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ بمَن تابَ على التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ ؛ أي ارجعُوا إلى طاعةِ ربكم بالتوبةِ، ﴿ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ، واستَسلِمُوا له من قبلِ أن يأتيَكم العذابُ ثم لا تُمنَعون مما يرادُ بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ ؛ وهو القرآنُ، ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ وقتَ مجيئهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: بَادِرْ واحذرْ من أنْ تقولَ نفسِي، أو حَذارِ من أن تصيرَ إلى حالةٍ تتحسَّرون فيها على التفريطِ فيما يُنَالُ به ثوابُ اللهِ، قال الفرَّاءُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (فِي جَنْب اللهِ): هُوَ الْقُرْبُ؛ أيْ فِي قُرْب اللهِ وَجِوَارِهِ)[1].

والمعنى: أنْ تقولَ نفسِي: يا حسرتَا على ما فرَّطتُ في طلب جِوَار اللهِ وقُربهِ وهو الجنَّةُ، وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ: عَلَى مَا ضَيَّعْتُ مِنْ ثَوَابٍ). وقولُه تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي وما كنتُ إلاَّ من المستهزِئين بالقرآنِ والمؤمنين في الدُّنيا وبمَن دعَانِي إلى التوحيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي وخَوفاً أنْ تقولَ لو أنَّ اللهَ نَجَّانِي من العذاب لكنتُ من جُملَةِ المتَّقين الشِّركَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ﴾ ، الموحدين، ﴿ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أو تقولَ حين ترَى العذابَ أو لِئَلاَّ تقولَ حين ترَى العذابَ: لو أنَّ لي رجعةً إلى الدُّنيا فأكون من الموحِّدين الْمُحسِنِينَ.

---

(١) نقله عنه أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٧١.

فيُقال لهـذا القـائلِ: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى ﴾ ؛ يعـني القـرآنَ؛ ﴿ فَكَذَّبْتَ بِهَا ﴾ ؛ أي قُلتَ: ليست من عندِ الله، ﴿ وَٱسْتَكْبَرْتَ ﴾ ؛ أي وتكبَّرتَ مـن الإيمـانِ بها، وتعظَّمتَ عن الإقرار بذلك، ﴿ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩ ﴾ ، وصرتَ من الجاحدِين لنِعَمِ اللهِ، فأصابكَ ما أصابكَ بجنايتِكَ على نفسِكَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ ؛ أي وترَى يا مُحَمَّدُ يـومَ القيامـةِ الذيـن كذبُـوا علـى اللهِ في قولِـهم: عُزَيْـرٌ ابـنُ الله، وقولِهم: المسيحُ ابن اللهِ، وقولِهم: الملائكةُ بناتُ الله تعالى، وقولِ عبَدةِ الأصنـامِ: مَـا نعبُدهم إلاَّ ليقرِّبونا إلى اللهِ زُلفَى، ترَى هؤلاءِ تسودُّ وجوهُهم وتزرَقُّ أعينُهم. وقوله: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ ﴾ ؛ تحقيقٌ وتقرير، والْمَثْـوَى: هـو الْمَنْزِلُ، والمتكبرُ: هو المتعَظِّمُ عن الإيمانِ.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ ؛ أي يُخلِّصُـــهم من العذاب بفَوزهم الـذي استحقُّوهُ بأعمالِـهم، قـال المـبرِّدُ: (الْمَفَـازَةُ: مَفْعَلَـةٌ مِـنَ الْفَوْزِ)[1] وَهِـيَ السَّـعَادَةُ وإنْ جُمِـعَ فَحَسَـنٌ كَقَوْلِـهِمْ السَّـعَادَةُ وَالسَّـعَادَاتُ، ويقـرأ (بِمَفَازَاتِهِمْ). وقولهُ: ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾ ؛ أي لا يُصيبُـهم العـذابُ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١ ﴾ ؛ لأنَّهم رَضُوا بالثواب.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ أي جميع مـا في الدُّنيـا والآخـرةِ من شـيءٍ فاللهُ خالقُـهُ، وهو المستـحقُّ للعبـادةِ، قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢ ﴾ ؛ أي الأشياءُ كلُّها موكلةٌ إليه، فهو القائمُ بحفظِها، المدبـرُ لأمُورهـا، الكفيلُ بأرزاقِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لـه خزائـنُ السَّمواتِ والأرض، يفتَحُ الرزقَ على من يشاءُ ويغلقه، قال ابنُ عبَّاس: (الْمَقَالِيدُ الْمَفَـاتِيحُ)[2] وَاحِدُ الْمَقَالِيدِ مِقْلِيدٌ، كَمَا يُقَالُ مِنْدِيلٌ ومَنَادِيلُ، وقال الضحَّـاكُ: (مَقَـالِيدُ السَّـمَوَاتِ

---

(١) ذكره عنه أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص٢٢٣١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٢٧٣).

وَالأَرْضِ خَزَائِنُهَا)[١]. ويجوزُ أن تكون المقاليدُ جمعَ الْمِقْلاَدِ، وهو مِفْعَالٌ من الْمِقْلاَدَةِ؛ أي هو مالكُ الخلقِ وله طاعتُهم وبيدهِ قلوبُهم.

وقولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾؛ معناهُ: والذين كفرُوا بالقرآنِ هم الذين خَسِرُوا حتى صارُوا في النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾؛ وذلك أنَّ المشركين من قُريشٍ قالوا للنبيِّ ﷺ: أتُؤمِنُ ببعضِ آلهتنا ونؤمِنُ بإلَهكَ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ[٢]. والمعنى أتأمُرونني أن أعبدَ غيرَ اللهِ أيُّها الجاهلونَ بالنعمةِ.

قرأ نافعُ (تأمُرُونِي) بنونٍ واحدة خفيفة على التخفيف، وقرأ ابنُ عامرٍ بنُونَين على الأصلِ، وقرأ الباقون بنُونٍ واحدة مشدَّدة على الإدغام.

وقولُه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾؛ أي ليَحبَطَنَّ عمَلُكَ الذي عَملتَهُ قبلَ الشِّركِ، وهذا أدبٌ من اللهِ لنَبيِّهِ ﷺ وتَهديدٌ لغيرِه، لأنَّ الله قد عصمَهُ من الشِّركِ ومُداهَنَتِهِ الكفارَ. قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾؛ أي وَحِّدْ؛ لأن عبادتَهُ لا تصحُّ إلاّ بتوحيدهِ، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾؛ لإنعامهِ عليكَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ أي ما عرَفُوا اللهَ حقَّ معرفتهِ، ولا عظَّموهُ حقَّ تعظيمهِ، إذ عبَدُوا الأوثانَ مِن دونه، وأمَرُوا النبيَّ ﷺ بعبادةِ غيره. ثم أخبرَ عن عظَمتهِ فقالَ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ أي وجميعُ الأرضِ في مَقدُورهِ يومَ القيامةِ كالذي يقبضُ عليه القابضُ في قَبضَتِه، وهذا كما يقالُ: فلانٌ في قبضةِ فلانٍ؛ أي تحتَ أمرهِ وقبضَتِهِ، والقَبْضَةُ في اللغة: ما قَبَضْتَ عليهِ بجمعِ كفِّكَ، أخبرَ اللهُ تعالى عن قُدرتهِ فذكرَ أن الأرضَ كلَّها مع عَظَمتِها وكثافتِها في مَقدُورهِ، كالشَّيء الذي يَقبضُ عليه القابضُ بكفِّه.

---

(١) أخرجه الطبري عن ابن زيد في جامع البيان: الأثر (٢٣٢٧٦).

(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٣٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ ﴾ ؛ ذكرَ اليمينَ للمبالَغةِ في الاقدار، يعني أنَّهُ يَطويها بقُدرتهِ كما يطوي الواحدُ منَّا الشيءَ المقدورَ له طَيُّهُ بيمينهِ، قال الأخفَشُ: (مَعْنَاهُ مَطْوِيَّاتٌ فِي قُدْرَتِهِ نَحْوَ قَوْلِهِ أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ؛ أيْ مَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِ قُدْرَة وَلَيْسَ الْمُلْكُ لِلْيَمِينِ دُونَ الشِّمَالِ)[1]. وقد يُذكَرُ اليمينُ بمعنى القوَّة كما قالَ الشاعرُ[2]:

إذا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بالْيَمِين

ثُم نَزَّهَ نفسَهُ عن شِركهم فقالَ: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ قد ذكَرنا أن النفخةَ نفخَتان في قولِ أكثر المفسِّرين وبينَهما أربعون سَنة، فالنفخةُ الأُولى هي نفخةُ الصَّعقِ.

والصعقُ: هو الموتُ بصيحةٍ شديدة حالَّةٍ هَائلةٍ، ومنها الصواعقُ وهي التي تأتِي بشدَّةِ الرَّعدِ، وعن عبدِالله بن عمر قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الصُّور فَقَالَ: [قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيْهِ فَيُصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ][3] أي يَموتُونَ من الفزَعِ وشدَّةِ الصوتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ يعني الملَكَ الذي ينفخُ في الصُّور، ثم يُميتهُ اللهُ بعدَ ذلك، وقال الحسنُ: (يَعْنِي جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإسْرَافِيلَ وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ وَمَلَكَ الْمَوْتِ)[4]. وعن أبي هُريرة ﷺ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَأَلَ

---

(١) قاله الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص٦٧٤. تحقيق د. عبدالأمير. وج ٢ ص٤٥٧، تحقيق د. فائز فارس.

(٢) قاله الحطيئة، وقيل: الشماخ الذبياني، (؟-٢٢هـ).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص١٦٢ و١٩٢. وأبو داود في السنن: كتاب السنة: باب في ذكر البعث والصور: الحديث (٤٧٤٢). والترمذي في الجامع: أبواب صفة القيامة: باب ما جاء في شأن الصور: الحديث (٢٤٣٠)، وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٢٩٥) عن السدي.

جِبْرِيلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: [مَنِ الَّذِي شَاءَ اللهُ أنْ يَصْعَقَهُمْ؟ قَالَ: هُمُ الشُّهَدَاءُ مُتَقَلِّدُونَ أسْيَافَهُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ][1].

عن أنسٍ بن مالك قال: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: [جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإسْرَافِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ خُذْ نَفْسَ إسْرَافِيلَ، فَيَأْخُذُهَا؛ ثُمَّ يَقُولُ: خُذْ نَفْسَ مِيكَائِيلَ، فَيَأْخُذُهَا، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ مَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُولُ: سُبْحَانَكَ يَا رَب تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ بَقِيَ جِبْرِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مُتْ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ، فَيَمُوتُ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا جِبْرِيلُ مَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُولُ: تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ بَقِيَ وَجْهُكَ الْبَاقِي الدَّائِمُ، وَبَقِيَ جِبْرِيلُ الْمَيِّتُ الْفَانِي، فَيَقُولُ: يَا جِبْرِيلُ مُتْ، فَيَبْقَى سَاجِداً يَخْفِقُ بِجَنَاحَيْهِ فَيَمُوتُ][2].

وقال الضحَّاك: (مَعْنَى قَوْلِهِ: (إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ) هُمْ رُضْوَانُ وَالْحُورُ وَمَالِكُ وَالزَّبَانِيَةُ)، وقالُ قتادة: (اللهُ أعْلَمُ بِثُنْيَاهُ). وَقِيْلَ: هم عقاربُ النار وحيَّاتُها[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ ؛ يعني نفخةَ البعثِ، ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ ماذا يقالُ لهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ ؛ وأضاءَتِ الأرضُ يومئذٍ بعدلِ ربها، فسُمِّيَ العدلُ نُوراً كما سُمِّيَ النبيُّ ﷺ نُوراً وسُمِّي القرآنُ نوراً. ويقالُ: إن نورَ الأرضِ العدلُ، كما أنَّ نورَ الدينِ العلمُ، وقال بعضُهم: يخلقُ اللهُ تعالى يومئذٍ نوراً يُضِيءُ لأهلِ القيامة غيرَ الشمسِ والقمر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ ؛ يعني صحائفَ الأعمالِ، ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (الْمُرَادُ بقَوْلِهِ (وَالشُّهَدَاءِ) هُمُ الَّذِينَ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٤٩؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو يعلى والدارقطني في الافراد وابن المنذر والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في البعث) وذكره.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٥٠؛ قال السيوطي: (أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وأبو نصر السجزي في الإبانة وابن مردويه) وذكره.

(٣) ذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٨٠.

يَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ)[١] وَهُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وقال عطاءُ: (يَعْنِي الْحَفَظَةَ)[٢] وقال السديُّ: (يَعْنِي الَّذِينَ اسْتُشْهِدُوا فِي طَاعَةِ اللهِ)[٣].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي قُضِيَ بين الرُّسلِ والأمم بالعدل، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي لا ينقصُ من حسناتِ أحدٍ ولا يزادُ في سيِّئات أحدٍ. قولهُ: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ ؛ أي أعطيت كلُّ نفسٍ بَرَّةٍ أو فاجرةٍ جزاءَ ما عمِلَتْ من خيرٍ أو شرٍّ، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ وهو أعلمُ بفعلِهم، لا يحتاجُ إلى كاتبٍ ولا شاهدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ ؛ وذلك أنَّهم يُسَاقُونَ إلى جهنَّم فَوْجاً فَوْجاً، الأوَّلُ فالأول، يُسَاقُ كفارُ كلِّ أمة على حِدَةٍ، والزُّمَرُ: جماعاتٌ في تَفْرِقَةٍ بعضُها على إثْرِ بعضٍ، يُسَاقُونَ سَوْقاً عَنِيفاً، يُسحَبُونَ على وُجُوهِهم إلى جهنَّم، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ ؛ عند مجيئِهم، ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ ؛ وهم الزَّبَانِيَةُ: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ ﴾ ، ويخوفونكم، ﴿ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ ، اليوم، ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ ، أتونا بالرسالة، ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ ولكن وجَبتْ كلمةُ العذاب على الكافرين، فيقولُ لَهم الزبانيةُ: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ ادخُلوا أبوابَ جهنَّم السبعة خالِدين فيها.

ومعنى قولهِ (وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَاب عَلَى الْكَافِرِينَ) هو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أجْمَعِينَ﴾[٤]. واختلفَ القُراء في قولِه (فُتِحَتْ) فخفَّفها الكوفيُّون، وشدَّدها الباقون على التكثيرِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٦٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وابن مردويه) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٣١١). وذكره البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص١١٣٣.

(٢) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٣٣.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٣١).

(٤) هود / ١١٩ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ ؛ وذلـك أنَّ المؤمنين يُنطَلَـقُ بـهم إلى الجنَّـة فَوْجـاً فوجـاً بـالتلطُّفِ والإكـرامِ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ ؛ قال الأخفشُ:(هَذِهِ الْوَاوُ زَائِدَةٌ)[1] والْمَعْنَى: فُتِحَتْ أبْوَابُهَا حَتَّى تَكُونَ جَوَاباً لِقَوْلِهِ (حَتَّى إذا جاءُوهَا). وقـال الزجَّـاجُ: (الْقَـوْلُ عِنْـدِي أنَّ الْجَـوَابَ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: حَتَّى إذا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أبْوَابُهَا وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ خَزَنَتُـهَا سَـارُوا إلَـى السَّعَادَةِ وَوَصَلُوا إلَى مَقْصُودِهِمْ)[2].

وَقِيْلَ: هذه الواوُ واوُ الحـال تقديـرهُ: حتـى إذا جاؤُهـا وَقـد فُتحـت أبوابُـها، وأدخل الواو ههنا لبيانِ أنَّها قد كانت مفتَّحةً قبل مجيئِهم، وحذفَـها مـن الآيـة الأُولى لبيانِ أنَّها قد كانت مُغلقةً قبلَ مجيئهم.

ويقالُ: زِيدَتِ الواوُ ههنا لأن أبوابَ الجنَّة ثمانيةٌ وأبوابَ جهنَّم سبعةٌ فزيـدت الواوُ فَرْقاً بينهما. وحُكي عن أبي بكرِ بـن عيَّـاش[3]: (أنَّـهَا تُسَـمَّى وَاو الثَّمَانِيَـةِ)[4] وَذلِكَ أنَّ مِنْ عَادَةِ قُرَيْشٍ أنَّهُمْ يَعُدُّونَ الْعَدَدَ مِـنَ الْوَاحِـدِ إلَـى الثَّمَانِيَـةِ، فَـإذا بَلَغُـوا الثَّمَانِيَةَ زَادُوا فِيهَا الْوَاوَ، فَيَقُولُونَ: خَمْسَةٌ سِتَّةٌ سَبْعَةٌ وَثَمَانِيَةٌ، يَدُلُّ عَلَيْـهِ قَوْلُـهُ تَعَـالَى ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أيَّامٍ﴾[5]، وَقَالَ اللهُ ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾[6] فَلَمَّا بَلَـغَ الثامن[7] ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[8]، وَقَالَ تَعَـالَى

---

(١) قاله الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص٦٧٣، تحقيق د. عبدالأمير. وج٢ ص٤٥٨، تحقيق د. فائز.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٧٤ مع بعض التصرف في العبارة. ونقله كما عند المصنف البغوي في معالم التنزيل: ص١١٣٣

(٣) في المخطوط: (عن أبي بكر بن عبد أوس) والصحيح: (عن أبي بكر بن عيـاش) وهـو الكـوفي الخياط المقرئ، ترجم له ابن حجـر في تـهذيب التـهذيب: الرقـم (٨٢٦٥). وذكـره القرطـبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٨٥.

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٨٢-٣٨٣؛ قال القرطبي: (وحكى القرطبي عن أبي بكـر ابن عياش أن قريشاً...) وذكره. وينظر: ج ١٥ ص٢٨٥.

(٥) الحاقة / ٧ .

(٦) التوبة / ١١٢.

(٧) في المخطوط (الثا) ولم يتمها الناسخ.

(٨) الكهف / ٢٢.

﴿ثيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾[1]. وَقِيْلَ: زيادةُ الواو في صفة الجنَّة علامةٌ لزيادةِ رحمةِ الله تعالى.

قَوْلُــهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ (طِبْتُمْ) أيْ طَابَ لَكُمُ الْمُقَـامُ)[2]، وَقِيْلَ: معناهُ ظَفَرتُم بصالحِ أعمالكم وكنتم طيِّبين في الدنيا. وَقِيْلَ: طابت لكــم الجنَّــة فادخلُوها خالدِين. فلما دخلُوهــا ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ ، أي أنْجَزَنا وعدَهُ، ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ﴾ ، وأنزلنا أرضَ الجنَّــة، ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ ؛ أي نتَّخــذُ فيـها مــن المنــازل مــا نشــاءُ، لقــول الله تعــالى ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي نِعمَ ثوابُ العاملين للهِ في الدُّنيا الجَنَّةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ ؛ أي مُحَدِّقِينَ حولَ العرشِ مُحيطِينَ به، ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ إجْلالاً لعظمتهِ، ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ الخلائق، ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ؛ أي بالعدل وانتصفَ بعضُهم مــن بعـض، ﴿ وَقِيلَ ﴾ ، ويقــالُ لهم بعد الفراغِ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ وذلـك أنَّ اللهَ تعـالى ابتـدأ خلـقَ الأشياءِ بالحمدِ فقالَ: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[3] فلمَّـا بعـثَ الخلـقَ واستقرَّ أهلُ الجنَّة في الجنةِ، وأهلُ النار في النار، ختمَهُ بقولهِ:(الْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِينَ).

آخر تفسير سورة (**الزمـر**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) التحريم / ٥ .
(٢) ذكره عنه أيضاً ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٦ ص٥٥٥.
(٣) الأنعام / ١.

سُورَةُ الْمُؤْمِنِ (غافر)

سُورَةُ الْمُؤْمِنِ مَكِّيَّةٌ(١)، وَهِيَ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَسُتُّونَ حَرْفاً(٢)، وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ حم الْمُؤْمِنُ، لَمْ يَبْقَ رُوحُ نَبِيٍّ وَلاَ صِدِّيقٍ إلاَّ صَلَّوا عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرُوا لَهُ](٣). قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَلْيَقْرَأَ الْحَوَامِيم فِي صَلاَةِ اللَّيْلِ](٤)، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [الْحَوَامِيمُ أَدْبَاجُ الْقُرْآنِ](٥). قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [الْحَوَامِيمُ سَبْعٌ، وَأَبْوَابُ جَهَنَّمَ سَبْعٌ، فَيَجِيءُ كُلُّ حم مِنْهُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى بَابٍ مِنْ هَذِهِ الأَبْوَابِ تَقُولُ: لاَ يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ يَقْرَؤُنِي](٦).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [لِكُلِّ شَيْءٍ ثَمَرَةٌ، وَثَمَرَةُ الْقُرْآنِ الْحَوَامِيمُ، هُنَّ رَوْضَاتٌ حِسَنَاتٌ مُخْصِبَاتٌ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَلْيَقْرَإِ الْحَوَامِيمَ](٧). وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (إِذَا وَقَعْتُ فِي الْحَوَامِيمِ وَقَعْتُ فِي رَوْضَاتٍ أَتَأَنَّقُ فِيهِنَّ)(٨).

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٧٦؛ قال الزجاج: (الحواميم كلها مكية). وتسمى سورة غافر، وسورة الطَّول، وهي سورة المؤمن. قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٨٨.

(٢) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٨ ص٣؛ قال ابن عادل: (اربعة آلاف وتسعمائة وستون حرفاً).

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(٤) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٦٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن الضريس عن إسحق بن عبدالله).

(٥) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٦٩؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو الشيخ، وأبو نعيم والديلمي عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ...) وذكره.

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في تعظيم القرآن: الحديث (٢٤٧٩)، وقال: (هكذا بلغنا بهذا الإسناد المنقطع).

(٧) تقدم.

(٨) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٣٤. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٢٦٨؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو عبيد ومحمد بن نصر وابن المنذر عن ابن مسعود). وذكره.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ ﴾ ؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [حم، اسْمٌ مِنْ أسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى، وَهِيَ مِفْتَاحُ خَزَائِنِ رَبكَ](1)، وقال ابن عباس: [هُوَ اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ](2). وعن عكرمةَ قال: (ألر و حم و ن حُرُوفُ الرَّحْمَنِ مُقَطَّعَةٌ)(3)، وَقِيْلَ: (أقسمَ اللهُ بِحَمَلَةِ ((عَرشهِ)) وَمَلاَئِكَتِهِ لاَ يعذِّبُ أحَداً عَادَ إلَيْهِ يقُولُ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ مُخْلِصاً مِنْ قَلْبِهِ)(4)، وقال عطاء الخراسانيُّ: (الْحَاءُ: افْتِتَاحُ أسْمَاءِ اللهِ: حَلِيمٌ وَحَمِيدٌ وَحَيٌّ وَحَكِيمٌ، وَالْمِيمُ: افْتِتَاحُ أسْمَائِهِ: مَلِكٌ وَمَجِيدٌ وَمَنَّانٌ)(5)، وقال الضحَّاك: (حم قَضَى مَا هُوَ كَائِنٌ)(6).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ ﴾ ؛ أي هذه تنْزيلُ الكتاب من الله العزيزِ العليم بخَلقهِ، وقرأ حم بفتح الميم؛ أي أتْلُ حَمِيمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ ؛ أي غافرِ الذنب لِمَن قالَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وهم أولياؤهُ وأهلُ طاعتهِ، وقابلِ التَّوب من الشِّركِ، شديدِ العقاب لِمَن ماتَ على الشِّركِ.

---

(١) في جامع البيان: الأثر (٢٣٣٢٨) عن ابن مسعود موقوفاً. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٢٧٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن أبي أمامة ﷺ) موقوفاً. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٨٩، وذكره القرطبي كما عند المصنف رحمه الله، وأشار إلى إسناده عن عكرمة، قال النبي ﷺ. فهو مرسل ولم أقف على إسناده.

(٢) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٨٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٣٢٧) عن عكرمة عن ابن عباس.

(٤) ذكره الثعلبي عن محمد بن كعب القرظي، كما في الكشف والبيان: ج ٨ ص٢٦٣. وفي المخطوط: (بحمله) ولعله يريد (بحلمه) وترجح عندي كما أثبتناه.

(٥) عطاء بن أبي مسلم الخراساني، روى عن الصحابة مرسلاً، ولد سنة (٥٠) ومات سنة (١٣٥) من الهجرة. ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٣٧٣٧). ونقل قال: (وقال الطبراني: لم يسمع من أحد من الصحابة إلا من أنس).

(٦) ذكره القرطبي عن الضحاك والكسائي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٨٩.

والتَّوْبُ: جمعُ التَّوبَةِ، ويجوزُ أن يكون مَصدراً مِن تَابَ يَتُوبُ تَوباً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ ؛ أي ذِي الغِنَى عمَّن لا يُوحِّدهُ ولا يقولُ: لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ. وقال الكلبيُّ: (ذُو الْفَضْلِ عَلَى عِبَادِهِ وَالْمَانُّ عَلَيْهِمْ)، وقال مجاهدُ: (ذُو السَّعَةِ وَالْغِنَى).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ؛ أي لا معبودَ للخلقِ سواهُ، ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ ؛ أي مصيرُ مَن آمَنَ، ومصيرُ مَن لم يؤمِنْ، وعن الحسنِ رضي الله عنه: (أنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب رضي الله عنه سَأَلَ عَنْ بَعْضِ إخْوَانِهِ الَّذِينَ كَانُوا بالشَّامِ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ أخِي فُلاَنٌ؟ وَقَالُوا: ذاكَ أخُو الشَّيْطَان يُخَالِطُ أهْلَ الأَشْرَفِيَّةِ وخَالَفَ أصْحَابَهُ. فَقَالَ: إذا خَرَجْتُمْ إلَى الشَّامِ فَآذِنُونِي. فَلَمَّا أرَادُوا الْخُرُوجَ أعْلَمُوهُ، فَكَتَبَ:

مِنْ عَبْدِاللهِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب أمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إلَى فُلاَن بْنِ فُلاَنٍ. بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. سَلاَمٌ عَلَيْكَ؛ فَإنِّي أحْمَدُ إلَيْكَ اللهَ الَّذِي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ.

أمَّا بَعْدُ: فَإنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: (حم تَنْزِيلُ الْكِتَاب مِنْ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذنْب وَقَابلِ التَّوْب شَدِيدِ الْعِقَاب...) إلَى قَوْلِهِ (إلَيْهِ الْمَصِيرُ). وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

فَلَمَّا جَاءَهُ الْكِتَابُ قَالُوا لَهُ: اقْرَأ كِتَابَكَ أيُّهَا الرَّجُلُ، فَلَمَّا قَرَأ (الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) قَالَ: عَلِيمٌ بمَا أصْنَعُ، (غَافِرِ الذنْب) إن اسْتَغْفَرْتُ غَفَرَ لِي، و(قَابلِ التَّوْب) إنْ أنَا تُبْتُ لِيَقْبَلَ تَوْبَتِي، (شَدِيدِ الْعِقَاب) إنْ لَمْ أفْعَلْ عَاقَبَنِي (ذِي الطَّوْلِ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ إلَيْهِ الْمَصِيرُ). ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللهُ وَنَصَحَ عُمَرُ رضي الله عنه، فَأقْبَلَ بطَرِيقَةٍ حَسَنَةٍ إلَى أنْ مَاتَ.

فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ أمْرُهُ، قَالَ: هَكَذا فَاصْنَعُوا؛ إذا رَأيْتُمْ أخَاكُمْ نَزَلَ فَسَدِّدُوهُ وَوَفِّقُوهُ، وَادْعُوا اللهَ لَهُ أنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، وَلاَ تَكُونُوا أعْوَاناً لِلشَّيْطَان عَلَيْهِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ؛ أي ما يُخاصِمُ في آياتِ اللهِ لتكذيبها والطَّعنِ فيها والمراءِ عليها إلاَّ الذين كفروا، ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ

(١) أخرج القصة من وجه آخر ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨٤١٦ و١٨٤١٧). وأورد القصة بألفاظ قريبة القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٩١.

تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾ ﴾؛ بالتِّجارَاتِ وسلامتِهم في تصرُّفاتِهم بعدَ كُفرهم، فإنَّ عاقبةَ أمرِهم العذابُ كعاقبةِ مَن قبلهم من الكفَّار. وَقِيْلَ: معناهُ: فلا يَغْرُرْكَ ذهابُهم ومجيئُهم في الأسفار بالتِّجارات، فإنَّهم لَيسُوا على شيءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾؛ أي قبلَ قَومِكَ، ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾؛ وهم الذين تحزَّبُوا على أنبيائِهم بالتكذيب نحوُ عادٍ وثمود؛ أي كذبُوا رُسلَهم كما كذبك قومُكَ، ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾؛ فيقتلوهُ، ﴿ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾؛ أي وخاصَمُوا الرُّسلَ بالباطل ليُبطِلُوا به الحقَّ الذي جاءَت به الرسلُ، ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾، بعاقبةِ الاستئصال، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾؛ لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾؛ أي مثلَ ما حقَّ على الأُمَمِ المكذِّبة حقَّت كلمةُ ربكَ بالعذاب على الذين كفَرُوا من قومِكَ، ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾، في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ ﴾؛ يعني حَمَلَةَ العرشِ والطائفِين به، وهم الكرُوبيُّونَ وهم سادة الملائكة، ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾؛ بأنه واحدٌ لا شريكَ له، ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، ويقولون: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾؛ أي وسِعَتْ رحمتُكَ كلَّ شيءٍ، ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾؛ عن الشِّركِ والمعصيةِ، ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ ﴾؛ الطريقَ الذي دعوتَهم إليه، ﴿ وَقِهِمْ ﴾، وادفَعْ عنهم، ﴿ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ﴾؛ أي ربَّنا وأدخِلهُم بساتينَ إقامةٍ، ﴿ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾؛ في الكتُب على السِنَةِ الرُسلِ، و أدخِلْ معهم، ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ﴾؛ ونسائِهم وأولادهم، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾؛ في مُلكِكَ وسُلطانِكَ، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ ﴾؛ في أمْرِكَ وقضائِكَ، ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾؛ وادفَعْ عنهم عقوبةَ السَّيئاتِ، ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ ومَن يدفَعْ عنه عقوبةَ السيئاتِ، ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي النجاةُ الوافرة.

وانتصبَ قولهُ (رَحْمَةً وَعِلْماً) على التمييز، قال ابنُ عبَّاس: (حَمَلَةُ الْعَرْشِ مَا بَيْنَ كَعْب أحَدِهِمْ إلَى أسْفَلِ قَدَمِهِ مَسِيرَةُ خَمْسَمِائَةِ عَام، وَمُسْتَقَرُّ أرْجُلِهِمْ فِي الأَرْضِ السَّابعَةِ السُّفْلَى، وَرُؤُوسُهُمْ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَهُمْ خُشُوعٌ لاَ يَرْفَعُونَ أبْصَارَهُمْ، وَهُمْ أشَدُّ خَوْفاً مِنْ أهْلِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ)[١].

وعن الضحَّاك قال: (لَمَّا خَلَقَ اللهُ حَمَلَةَ الْعَرْشِ قَالَ لَهُمْ: احْمِلُوا عَرْشِي، وَلَمْ يُطِيقُوا! فَخَلَقَ مَعَ كُلِّ مَلَكٍ مِنَ الأَعْوَان مِثْلَ جُنُودِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، وَقَالَ لَهُمْ: احْمِلُوا عَرْشِي، فَلَمْ يُطِيقُوا! فَخَلَقَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الأَعْوَان مِثْلَ جُنُودِ سَبْعِ سَمَوَاتِ وَأرْضِينَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، وَمِثْلَ مَنْ فِي الأَرْضِينَ مِنَ الْخَلْقِ، وَقَالَ لَهُم: احْمِلُوا عَرْشِي، فَلَمْ يُطِيقُوا! فَخَلَقَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِثْلَ جُنُودِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ وَجُنُودِ سَبْعِ أرْضِينَ وَعَدَدَ مَا فِي الرَّمْلِ مِنَ الْحَصَى والثَّرَى[٢] وَقَالَ: احْمِلُوا عَرْشِي، فَلَمْ يُطِيقُوا! فَقَالَ: قُولُوا: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ، فَلَمَّا قَالُوهَا حَمَلُوا الْعَرْشَ)، وقال ﷺ: [أذِنَ لِي أنْ أتَحَدَّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ مَا بَيْنَ شَحْمَتَي أذُنِهِ إلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعَمِائَةِ عَام][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾؛ وذلكَ أن الكفارَ لَمَّا دخَلُوا النارَ مَقَتُوا أنفُسَهم، ومقَتَ بعضُهم بعضاً لاشتغالِهم في الدُّنيا بما قادَهم إلى النار، فيُنادِيهم مُنَادٍ: (لَمَقْتُ اللهِ أكْبَرُ) أي مَقْتُ اللهِ إيَّاكم في الدُّنيا (إذْ تُدْعَوْنَ إلَى الإيْمَانِ فَتَكْفُرُونَ) أكبرُ مِن مَقْتِكُم أنفُسَكم اليومَ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٣٥.
(٢) الثَّرى: التُّراب النَّدِي.
(٣) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب السنة: باب في الجهمية: الحديث (٤٧٢٧) عن جابر بن عبدالله. والطبراني في الأوسط: ج ٢ ص٤٢٥: الحديث (١٧٣٠) بلفظ: [مَسِيرَةَ سَبْعِينَ عَاماً]. وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص٨٠؛ قال الهيثمي: (رواه أبو داود، ورواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ ؛ قالَ بعضُهم: معناهُ: كُنَّا نُطَفاً في أصلاب آبائنا أمْوَاتاً فخَلقتَ فينا الحياةَ، ثم أمَتَّنا بعد ذلك عند انتهاءِ آجالِنا ثُم أحيَيْتَنَا للبعثِ، وهذا كقولِهِ تعالى ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[1]. قالوا هكذا لأنَّهم كانوا في الدُّنيا فكذبوا في البعثِ، فاعترَفُوا في النار بما كذبوا بهِ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ ؛ أي بالتَّكذيب.

وقال بعضُهم: أرادَ بالموتِ الأُولى التي تكون عند قبضِ الأرواحِ، وبالموتِ الثانية التي تكون بعدَ الإحياءِ في القبرِ للسُّؤال؛ لأنَّهم أُمِيتُوا في الدُّنيا ثم أُحْيُوا في قبورهم فسُئِلُوا، ثم أُمِيتُوا في قبورهم، ثم أُحْيُوا في الآخرةِ للبعث، فيكون المرادُ بالإحياءِ الأول الإحياءُ في القبر، وبالإحياءِ الثاني الإحياءُ للبعثِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَاعْتَرَفْنَا بذُنُوبنَا) أي بإنعَامِكَ علَينا ونفوذ قضائِكَ فينا وتكذيبنا في الدُّنيا، ﴿ فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن ﴾ ؛ النار، من، ﴿ سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ﴾ ، طريقٍ فنُؤمِنَ بكَ ونرجِعَ إلى طاعتك؟

فيجابُون: ليس إلى خروجٍ مِن سبيلٍ، يقالُ لَهم: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ ﴾ ؛ أي ذلك العذابُ في النار والْمَقْتُ بأنَّكم إذا قيلَ لكم في الدُّنيا: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، أنْكرتُم وكفرتُم وقلتُم أجَعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً، ﴿ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ ﴾ ؛ باللهِ، ﴿ تُؤۡمِنُواْ ﴾ ، صدَّقتُم، ﴿ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ﴾ ؛ في سُلطانه، ﴿ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ في عظَمتهِ لا يُرَدُّ حكمهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ؛ أي دلائلَ توحيدهِ ومصنوعاتهِ التي تدلُّ على قدرته من السَّماء والأرض، والشمسِ والقمر، والنجومِ والسَّحاب وغير ذلك، ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ ﴾ ؛ يعني المطرَ الذي يسببُ الأرزاقَ، ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي ما يتَّعِظُ بهذه المصنوعاتِ. وَقِيْلَ: معناهُ: وما يتَّعِظُ بالقرآن إلاَّ من يرجعُ إلى دلائلِ الله فيتدبَّرها.

---

(١) البقرة / ٢٨ .

ثم أمَرَ المؤمنين بتوحيدِهِ فقال: ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ أي مخلصِين له الطاعةَ موحِّدين، ﴿ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ منكُم ذلكَ.

ثم عظَّمَ تعالى نفسَهُ فقال: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ﴾ ؛ أي رافعُ درجاتِكم، والرفيعُ بمعنى الرافعِ، والمعنى: أنه يرفعُ درجات الأنبياءِ والأولياء في الجنَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: (ذُو الْعَرْشِ) أي خالِقهُ ومالِكهُ، ﴿ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ ﴾ ، أي ينزل الوحي، ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ ؛ أي على مَن يختصُّ بالنبوَّة والرسالةِ، ﴿ لِيُنذِرَ ﴾ ؛ ذلك النبيُّ الموحَى إليه، ﴿ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي يومَ القيامةِ، وسُمي يومَ التَّلاق؛ لأنه يلتقِي فيه أهلُ السموات والأرض، والمؤمنون والكافرونَ والظالمون والمظلُومون، ويلتقِي المرءُ فيه بعملِهِ، وقرأ الحسنُ: (﴿لِتُنْذِرَ﴾ بالتاء ﴿يَا مُحَمَّدُ يَوْمَ التَّلاَقِ﴾ أي لِتُخَوِّفَ فِيْهِ)[1]، وقرأ العامةُ بالياء؛ أي لِيُنذِرَ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ ﴾ ؛ أي يومَ هم خارجون من مواضِعِهم من الأرضِ والبحَار وحواصلِ الطَّير وبطُونِ السِّباعِ، ﴿ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ ﴾ ؛ ولاَ مِن أعمالِهم، ﴿ شَيۡءٞۚ ﴾ ؛ ومحلُّه رُفع بالابتداءِ، و(بَارِزُونَ) خبرهُ.

ويقولُ اللهُ في ذلك اليوم: ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾ ؛ فيقولُ الخلقُ كلُّهم: ﴿ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ وقال الحسنُ: (هُوَ السَّائِلُ وَالْمُجِيبُ؛ لأنَّهُ يَقُولُ ذلِكَ حِينَ لاَ أحَدَ يُجِيبُهُ، فَيُجِيبُ نَفْسَهُ)[2].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [الْحَمْدُ للهِ الَّذي تَصَرَّفَ بالْقُدْرَةِ وَقَهَرَ الْعِبَادَ بالْمَوْتِ، نَظَرَ اللهُ إلَيْهِ، وَمَنْ يَنْظُرْ إلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ كُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي الأَرْضِ][3].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٠٠؛ قال القرطبي: (وقرأ ابن عباس والحسن وابن السميقع: (لِتُنْذِرَ) بالتاء خطاباً للنبي عليه السلام). وينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص٢١.

(٢) ذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٠٠.

(٣) هكذا ورد النص في المخطوط، وفيه اضطراب من حيث بناء الجملة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ؛ أي تُجزَى كلُّ نفسٍ بعمَلِها، الْمُحسِنُ بإحسانهِ، والمسِيءُ بإسَاءَتِهِ، ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؛ من أحدٍ إلى أحدٍ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ يُحاسِبُهم جميعاً في ساعةٍ واحدة، يظنُّ كلُّ واحدٍ أنه المجابُ دون غيرِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ ﴾ ؛ أي حَذِّرهُم يومَ القيامةِ؛ والمعنى: يا مُحَمَّدُ انْذِرْ أهلَ مكَّة يومَ الآزفَةِ، يعني القيامةَ، سُميت القيامةُ آزفَةً مِن الأزَفِ: وهو الأمْرُ إذا قَرُبَ، والقيامةُ آزفَةٌ لِسُرعَةِ مَجيئِهَا. قال الزجَّاجُ: (قِيلَ لَهَا: آزفَةٌ لأنَّهَا قَريبَةٌ وَإن استَبْعَدَهَا النَّاسُ، وَكُلُّ آتٍ فَهُوَ قَرِيبٌ)(١)، ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ ؛ أي تزولُ القلوبُ من مواضعِها من الخوفِ، فتشخَصُ صدورُهم حتى يبلغَ حاجِزَهم في الحلُوقِ، فلا هي تعودُ إلى أماكنِها ولا هي تخرجُ من أفواهِهم فيموتُوا فيستريحوا.

وذلك أنَّ القلبَ بين فَلَقَتَي الرِّئة، فإذا انتفخَتِ الرِّئَةُ عند الفزَعِ رفعَتِ القلبَ حتى يبلُغَ الحنجرةَ، فيلصقُ بالحنجرةِ فلا يقدرُ صاحبه على أن يرُدَّهُ إلى مكانهِ، ولا على أن يلفُظَ به فيستريح. ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾(٢)، وقولهُ تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾(٣) وقولهُ تعالى ﴿وَأفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾(٤) وقولهُ تعالى: ﴿إذا بَلَغَتِ التَّرَاقِي﴾(٥).

وقولهُ تعالى: (كَاظِمِينَ) أي مَغمُومِينَ مكرُوبينَ مُمتَلِئين غَمّاً وخوفاً وحُزناً، يعني أصحابَ القُلوب يتردَّدُ حُزْنُهم وحسراتُهم في أجوافِهم، والكَاظِمُ: هو الممتلِيءُ أسَفاً وغيظاً، والكَظْمُ تردُّدُ الغيظِ والحزنِ والخوف في القلب حتى يضيقَ به، نصبَ (كَاظِمِينَ) على الحال، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي ما لَهم مِن قريبٍ ينفعُهم ولا شفيعٍ يطاعُ الشفيع فيهم فتُقبَلَ شفاعتهُ.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٧٩.
(٢) الاحزاب / ١٠ . (٣) الواقعة / ٨٣ .
(٤) ابراهيم / ٤٣ . (٥) القيامة / ٢٦ .

وقولهُ تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ ﴾ ؛ أي خِيانتها وهي مُسَارَقَةُ النظرِ إلى ما لا يحلُّ، قال ابنُ عبَّاس: (خَائِنَةُ الأَعْيُنِ: هُوَ الرَّجُلُ يَكُونُ جَالِساً مَعَ الْقَوْمِ، فَتَمُرُّ الْمَرْأَةُ فَيُسَارِقُهُمُ النَّظَرَ إلَيْهَا)[١]. وقال قتادةُ: (هِيَ هَمْزُهُ بعَيْنِهِ وَإغْمَاضُهُ فِيمَا لاَ يُحِبُّ اللهُ)[٢]. ويجوزُ أن يكون المرادُ به: يعلَمُ العينَ الخائنةَ؛ أي يُجازي بخائنةِ الأعيُن، فكيف بما فوقَها، كما قالَ في آيةٍ أخرى ﴿إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[٣].

وفي الحديثِ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِعَلِيٍّ ﷺ: [لاَ تُتْبعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإنَّ لَكَ الأُوْلَى وَعَلَيْكَ الثَّانِيَةَ][٤]، يعني بأنَّ الأُولى إذا وقعَ نظرٌ إلى موضعٍ لا يجوزُ له النظرُ إليه لا عن تعمُّد منه، فإنه لا يكون إثماً في ذلك، وإنما يأثَمُ إذا عادَ بالنظرِ ثانيةً. وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي ويعلمُ ما تُضمِرُ الصدورُ عند خائنةِ الأعيُن، ويعلمُ ما تُسِرُّ القلوبُ من المعصيةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ ﴾ ؛ أي يحكمُ بالقسطِ والعدل، لا يمنعُ أحَداً من ثواب عمَلِهِ، ولا يعاقبهُ على ذنبٍ لا يكتسبهُ، بل يجزي بالحسَنةِ والسيئة، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ ﴾ ؛ معناهُ: والذين تدعُونَ من دون الله من الأصنامِ لا ينفعُون مَن أطاعَهم، ولا يضرُّون مَن عصَاهم ولا يُجازون أحداً؛ لأنَّهم لا يعلَمُون ولا يقدِرُون.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٨٢؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم). وذكره القرطبي بلفظه في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٠٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٣٧٧).

(٣) الاسراء / ٣٦ .

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ١ ص٣٨٨: الحديث (٦٧٨) عن علي ﷺ، وأولهُ: [يَا عَلِيُّ، إنَّ لَكَ فِي الْجَنَّةِ كَنْزاً... وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ]. وقال الطبراني: (لا يروى هذا الحديث إلا بهذا الإسناد وتفرد به عن حماد). وأخرجه أبو داود في السنن: كتاب النكاح: باب ما يؤمر به من غض البصر: الحديث(٢١٤٩) من حديث ابن بريدة عن أبيه. والترمذي في الجامع: أبواب الأدب: باب ما جاء في نظر الفجاءة: الحديث (٢٧٧٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب. والحاكم في المستدرك:كتاب النكاح: باب إذا تزوج العبد: الحديث (٢٨٤٢)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم.

قرأ نافعُ (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ) بالتاءِ، وقرأ الباقون بالياء[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾؛ لِمَقالَتِهم، ﴿ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾؛ بهم وأعمالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾؛ الآيةُ ظاهرة المعنى. وقولهُ تعالى: (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ) أي ما كان لهم من عذاب الله من واقٍ يقي العذابَ عنهم.

وقولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ يعني الآياتِ التسع، ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي حجَّة ظاهرةٍ، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي كثيرُ الكذب، وخُصَّ فرعونُ وهامان وقارون بالكذب؛ لأنَّهم كانوا همُ المتبُوعِين، وفي ذكرِ المتبوعين ذكرُ التابعين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾؛ أي استبقُوا النساءَ للخدمةِ، وذلك أنَّ فرعون كان قد أخبرَ أنه يولَدُ مِن بني إسرائيلَ مولودٌ يذهَبُ ملكُهُ على يديهِ، فأمَرَ بقتلِ أبنائهم واستبقاءِ نسائهم، فلمَّا جاءَهم مُوسَى عليه السلام بالحقِّ، امَرَ بإعادةِ ذلك القتلِ عليهم كَيلاَ يبلُغَ الأبناءُ فيُعِينُوهُ عليهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي يذهبُ كَيدُهم باطلاً، ويحيقُ بهم ما كانوا يَكِيدُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؛ وذلك أنَّ قومَ فرعون قالوا له: أرْجِئْهُ وأخاهُ ولا تقتُلهما، فإنَّكَ إنْ قتَلتَهُما قبلَ ظُهور حُجَّتنا عليهما وقعَتْ للناسِ الشُّبهَةُ في أنَّهما كانا على الحقِّ، فقالَ فرعونُ: دَعُونِي أقْتُلْ موسى، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ﴾؛ حتى يدفعَ ذلك القتلَ عنه.

---

(١) في الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٤٦؛ قال أبو علي الفارسي: (اختلفوا في الياء والتاء من قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ فقرأ نافع وابن عامر: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ بالتاء، والقراء الباقون ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء، وكلهم فتح الياء).

ثم بيَّن لأيِّ معنى يقتلهُ فقال: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ ﴾ ؛ يعني يبدِّلَ عبادتكم إيَّايَ، ﴿ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ وأرادَ ظُهورَ الهدَى وتغيُّرَ أحكَامِ فرعون فجعلَ ذلك فساداً.

قرأ الكوفيُّون ويعقوب: (أوْ أنْ يُظْهرَ) بالألفِ، وقرأ نافعُ وأبو عمرو: (وَيُظْهرَ) بضمِّ الياء وكسرِ الهاء، ونصب (الْفَسَادَ)، وقرأ الباقون بفتحِ الياءِ والهاء ورفعِ (الْفَسَادُ)، واختارَ أبو عُبيد قراءةَ نافعٍ وأبو عمرٍو، ولأنَّها أشبهُ بما قبلَها لإسنادِ الفعلِ إلى موسى وعطفهِ على بَدلِه[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ ؛ أي لَمَّا توعَّدَ موسى بالقتلِ، قال موسَى: إنِّي عُذْتُ بربِّي وربكم، ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ، مُتَعَظِّمٍ عن الإيمانِ[2] وعن قَبول الحقِّ لا يصدِّقُ بيومِ القيامة، استعاذ موسَى بالله مِمَّن أرادَ به سُوءً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ ؛ اختلفُوا في هذا المؤمنِ، فقال بعضُهم: كان قِبْطِيّاً من آلِ فرعون، غيرَ إنه كان آمَنَ بموسى وكان يكتمُ إيمانه من فرعون وقومه خَوفاً على نفسهِ.

وقال مقاتلُ والسديُّ: (كَانَ ابْنَ عَمِّ فِرْعَوْنَ)[3]، وَهُوَ الَّذِي حَكَى اللهُ عَنْهُ ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾[4]، وهذا هو الأشيرِ وكان اسمهُ حِزقِيلُ، وَقِيْلَ: حِزْبيلُ[5]. وقال بعضُهم كان إسرَائِيليّاً، وتقديرُ الآية: وقال رجلٌ مُؤمِنٌ يكتمُ=

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٣ ص٧. وإعراب القرآن لابن النحاس: ج ٤ ص٢٣. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٤٩. والجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٠٥.

(٢) في المخطوط: (من الايمان).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٣٨٣)، وقاله مقاتل أيضاً في التفسير: ج ٣ ص١٤٧.

(٤) القصص / ٢٠.

(٥) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٨٤؛ قال السيوطي: (أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (لَمْ يَكُنْ فِي آلِ فِرْعَوْنَ مُؤْمِنٌ غَيْرُهُ، وَغَيْرُ امْرَأةِ فِرْعَوْنَ، وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِ=

إيمانه مِن آلِ فرعون.

وقولهُ تعالى: (أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبي اللهُ) أي لأَنْ يقـولَ رَبـيَ اللهُ، وقـد جاءَكم بالبيِّنات من ربكم بما يدلُّ على صدقـهِ مـن المعجـزات، ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ ﴾ ؛ لا يضرُّكـم ذلـك، ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ ﴾ ؛ أي يُصِبكُمْ كلُّ الذي يَعِدُكم من العذاب إنْ قتلتموهُ وهو صادقٌ.

والمرادُ بالبعضِ الكلَّ في هـذه الآيـةِ، وقـال الليـثُ: (بَعْـضُ هَـهُنَا زَائِـدَةٌ؛ أيْ يُصِبْكُمُ الَّذِي يَعِدُكُمْ)، وقال أهلُ المعاني: هذا على الْمُظَاهَرَةِ في الحِجَـاجِ، كأنـهُ قـالَ لَهم: أقـلُّ مـا يكـون في صِدقـهِ أنْ يُصِبكُـم بعـضُ الـذي يَعِدُكـم وفي بعـض ذلـك هَلاكُكم)[1]، فذكَر البعضَ ليُوجِبَ الكلَّ، ويدلُّ على ذكر البعضِ بمعنى الكـلِّ، قـال لبيد:

تَـرَّاكُ أَمْكِنَـةٍ إذا لَـمْ أَرْضَـهَا ... أَوْ يَعْتَلِـقْ[2] بَعْـضَ النُّفُـوسِ حِمَامُـهَا[3]

أراد كلَّ النُّفُوسِ، ومثلُ قولِ الآخر[4]:

قَـدْ يُـدْرِكُ الْمُتَـأَنِّي بَعْـضَ حَاجَتِـهِ ... وَقَـدْ يَكُـونُ مَـعَ الْمُسْـتَعْجِلِ الزَّلَـلُ

وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي لا يهدِيهِ في الآخرةِ إلى جنَّتهِ وثوابهِ. والمسرِفُ: هو المتجاوزُ عن الحدِّ في المعصيةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ أي قالَ لهـم الرجلُ المؤمِنُ على وجهِ النَّصيحةِ لَهم: (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ) أي غالبينَ مُستَعلِينَ فِـي أرضِ مصـرَ، ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ ﴾ ؛ أي فمَـن يَمنَعُنا مـن عـذاب الله إنْ جـاءَنـا، ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ ؛ أي مـا

=الَّذِي أَنْذَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ)، وقال ابن المنذر: (أخبرْتُ أنَّ اسْمَهُ حِزْقِيل).

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٨١.

(٢) يروى: (يرتبط) بدل (يعتلق) كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٠٧.

(٣) لبيد العامري (؟-٤١هـ)، شاعر مخضرم، أدرك النبي وأسلم.

(٤) هو عمرو بن شُيَيْم، الشهير بـ (القطامي) لقباً. ينظر: معاني القرآن للزجاج: ج ٤ ص٢٨١.

أشِيرُ عليكم إلاَّ ما أراهُ حقّاً من الصواب في أمـرِ مُوسَى، ﴿ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي ما أعَرِّفُكم إلاَّ طريقَ الهدى.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ، معناهُ: وقالَ لَهم الرجلُ المؤمِـنُ: إنِّـي أخـافُ عليكـم في قَتلـهِ وتركِ الإيمان بهِ أنْ ينْزلَ بكُم مـن العـذاب، ﴿ مِثۡلَ دَأۡبِ ﴾ ، مِثلَمـا نـزلَ بـالأُمَمِ الماضيةِ قبلَكُم حين كذبُوا رُسُلَهم، ﴿ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ﴾ . وقولـه تعـالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي لا يُعـاقِبُ أحـداً بـلا جُرم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ يعـني يـومَ القيامةِ يُنَادَى فيه كلُّ أُناسٍ بإمَامِهم، وينادي فيه أهلُ النار أهلَ الجنة، وأهلُ الجنة أهلَ النار، وينادَى فيه بسعادةِ السُّعداءِ وشقاوةِ الأشقياءِ، وأصلهُ: يومَ التَّنَادِي بإثباتِ الياء كما في التَّناجِي والتَّقَاضِي، إلاّ أنَّ الياءَ حُذفت منه كما حُذف مِن قولـهِ تعـالى ﴿يَـوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾[1] وشبهِ ذلك.

وَقِيْلَ: سُمِّي يومُ التَّنادِي؛ لأنَّ الكفَّارَ يُنادُونَ فيه على أنفُسِهم بالويلِ والثُّبُـور، كما قالَ تعالى ﴿لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِـيراً﴾[2]، وَقِيْـلَ في معنـى ذلك: أنه يُنادِي المنادي ألاَ أنَّ فُلان بـن فـلان سَـعِدَ سـعادةً لا شـقاوةَ بعدَهـا أبـداً، ويُنادِي: ألا إنَّ فلان بنَ فلان شَقِيَ شقاوةً لا سعادةَ بعدَها أبداً.

وقرأ الحسنُ: (يَوْمَ التَّنَادِي) بإثباتِ الياء على الأصل[3]. وقرأ ابنُ عبَّاس: (يَوْمَ التَّنَادِّي) بتشديدِ الدال على معنى يوم التنافرِ، وذلك إذا هرَبُوا فنَدُّوا في الأرضِ كمـا يَنِدُّ الإبلُ إذا شرَدَتْ على أصحابها.

قال الضحاك: (إذا سَمِعُوا بزَفِيرِ النَّار نَادَوا هَرَباً، فَلاَ يَأتُوهُ قِطْـراً مِـنَ الأَقْطَـار إلاَّ وَجَدُوا مَلاَئِكَةً صُفُوفاً، فَيَرْجِعُونَ إلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا فِيْهِ، فَذلِكَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى

(١) القمر / ٦.   (٢) الفرقان / ١٤ .

(٣) نقله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٦. والزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٨٢.

(يَوْمَ التَّنَادِ)[١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَار السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَان﴾[٢].

وقولهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ ؛ أي منصَرفين عن موقفِ الحساب إلى النار، ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ ﴾ ؛ أي مَانِعٍ يَمنَعُكم من عذابِهِ، ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي جاءَكم يوسفُ بن يعقوبَ مِن قَبْلِ موسى بالدَّلاَلاتِ ظاهرةً على وحدانيَّة اللهِ تعالى ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ الله الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٣]. وَقِيْلَ: معنى قوله (مِنْ قَبْلُ) أي من قبلِ الْمُؤمِنِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ ﴾ ؛ أي في شَكٍّ من عبادةِ الله وحدَهُ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ ﴾ ، حتى إذا ماتَ، ﴿ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ ﴾ ؛ يأمُرنا وينهَانا، ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ ؛ هكذا يُهلِكُ اللهُ مَن هو متجاوزٌ عن الحدِّ، ﴿ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي شَاكٌّ في توحيدِ الله وصدق أنبيائه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ ﴾ ؛ قال الزجَّاجُ: (هَذا تَفْسِيرُ الْمُسْرِفِ الْمُرْتَاب) على معنى هُم الذين يُجادِلُونَ في آياتِ الله بغيرِ سُلطان بالإبطال والتكذيب والطَّعنِ بغير حُجَّة أتَتْهُم، ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ ﴾ ؛ أي عَظُمَ جدالُهم بُغْضاً وسُخْطاً عندَ الله وعند الذين آمنوا، ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي هكذا يَختمُ اللهُ بالكفر، ﴿ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ﴾ ؛ عن الإيمانِ، ﴿ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ للناسِ على "ما"[٤] يُريد.

---

(١) نقله الفراء عن الضحاك في معاني القرآن: ج ٣ ص٨. وأصله أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٣٩٣).

(٢) الرحمن / ٣٣ . (٣) يوسف / ٣٩ .

(٤) (ما) سقطت من المخطوط.

قال ابنُ عبَّاس: (يَخْتُمُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يَسْمَعُونَ الْهُدَى وَلاَ يَعْقِلُونَ الرَّشَادَ) وقُرِئ (عَلَى كُلِّ قَلْبٍ) بالتنوينِ، وقال الزجاجُ: (الْوَجْهُ الإضَافَةُ لأَنَّ الْمُتَكَبرَ هُوَ الإنْسَانُ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾ ؛ أي قالَ لوزيرِهِ هامان: ابْنِ لِي قَصراً مَنِيفاً مشيَّداً بالآجُرّ[٢]، قالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا﴾[٣] وكانَ هامانُ هو أوَّلَ مَن استعملَ الآجُرَّ لبناءِ الصَّرحِ، ولَكن كُرِهَ بناءُ القبور بالآجُرِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ ؛ الطريقَ للسَّموات، والسَّبَبُ في الحقيقةِ: كُلُّ ما يُوصِلُكَ إلى الشيءِ، ولذلك سُمي الجبلُ سَبَباً. وقال بعضُهم: أسبابُ السَّموات طَبَقَاتُهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾ ؛ ظنَّ فرعون بجهلهِ أنَّ إلهَ موسى مما يرقى إليه، قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ ، أي إني لأظن موسى كَاذِباً فيما يقولُ إنَّ له ربّاً في السَّماء، ولما قالَ موسى: ربُّ السَّمواتِ، فظنَّ فرعون بجهلِهِ واعتقاده الباطل أنه لَمَّا لَم يُرَ في الأرض أنه في السماء، فرَامَ الصعودَ إلى السَّماء لرؤيةِ إله موسى. وقيل: معناهُ: وإني لأظنُّ موسى كَاذباً فيما يقولُ أنَّ له ربّاً غيرِي أرسلَهُ إلينا.

وقرأ الأعرجُ[٤] (فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى) بنصب العين على جواب (لَعَلِّي) بالفاء على معنى إنِّي إذا بلغتُ اطَّلَعتُ، وقرأهُ العامة (فَأَطَّلِعُ) عطفاً على قولِهِ تعالى:

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٨٣.

(٢) الآجُرُّ: الذي يُبْنَى بهِ. وأصله فارسي معرَّبٌ. مختار الصحاح: ص٧.

(٣) القصص / ٣٨.

(٤) هو حميد بن أبي حكيم المروزي الأعرج، من أهل مرو، روى عني يحيى بن يعمر – تابعي روى عن عثمان وعلي وغيرهما من الصحابة – وثقة ابن حبان في (الثقات): ج٣ ص٢٨٥: الرقم (٨٤٢). وترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (١٦٠٠).

﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ ؛ أي كذا حُسِّنَ له قُبْحُ عملِهِ، زَيَّنَ له الشيطانُ جهلَهُ، ومَن قرأ (زَيَّنَ) بفتح الزاي على أنَّ المعاصي يدعُو بعضُها إلى بعضٍ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ ﴾ ؛ أي صدَّ غيرَهُ عن الهدى، ويحتملُ أنه صدَّ عن السبيلِ بنفسه، و(صُدَّ) بضم الصاد أي مُنِعَ عن سبيلِ الحقِّ، ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي في خَسَارٍ وهلاكٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي قال الرجلُ المؤمن من آل فرعون: يا قوم اتَّبعونِي على دِيني أحملكُم على طريقِ السَّداد والهدى، ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ ؛ أي مشقَّةٌ يسيرةٌ تنقطعُ، ﴿ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ فلا تزولُ؛ أي هي المحِلُّ الذي يقعُ فيه الاستقرارُ.

قولهُ: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ ، يعني الشِّرك، ﴿ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ ؛ فلا يُجزى إلاَّ مثلَها في العِظَم، معنى النار، ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ؛ أي طاعةً، ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ؛ مخلصٌ، قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي قَوْلَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ)[1] ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي بما لا يُعرَفُ له مقدارٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي قال لَهم الرجلُ المؤمنُ: يا قومِ مَا لِي أدعُوكم إلى سبب النَّجاةِ، ﴿ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ ﴾ ، وتدعونَني إلى عملِ أهلِ النَّار وهو الشِّركُ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ؛ أي من لا أعرفُ له ربوبيَّته، ﴿ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ﴾ ؛ أي الغالب المنتقِم ممن عصاهُ، ﴿ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ لِمَن تابَ وآمَنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ؛ يعني قوله (لاَ جَرَمَ) أي حَقّاً أنَّ ما تدعونَني إليه من المعبودِين دون الله

(١) نقله القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣١٧.

ليس له دعوةٌ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، قال السديُّ: (مَعْنَاهُ: لاَ يَسْتَجِيبُ لأَحَدٍ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ)(١)، والتقديرُ: ليس له استجابةُ دعوةٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي وإنَّ مَرجِعَنا إليه في الآخرةِ، يفصلُ بين الْمُحِقِّ والْمُبْطِلِ، ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ ؛ أي وإنَّ المتجاوزين عن الحدِّ في الكُفرِ وسَفكِ الدماء بغيرِ الحقِّ، ﴿ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ ؛ أي فستذكُرون هذا الذي أقولُ لكم في الدُّنيا من النَّصيحة إذا نزلَ بكم العذابُ في الآخرةِ، في حين لا ينفعُكم الذِّكرُ عليه، ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي وأتركُ أمرَ نفسي إلى اللهِ فأثِقُ به ولا أشتَغِلُ بكم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي بأوليائهِ وأعدائه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ ؛ وذلك أنَّ فرعون أرادَ أن يَقتُلَهُ فهربَ منهم، فلم يقدِرُوا عليه، ودفعَ اللهُ عنه غائلَةَ مَكرِهم، ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي نزلَ بفرعون وقومه أشَدُّ العذاب، قال الكلبيُّ: (غَرِقُوا فِي الْبَحْرِ وَدَخَلُواْ النَّارَ) والمعنى: وحاقَ بآلِ فرعون سوءُ العذاب، في الدُّنيا الغرقُ، وفي الآخرةِ النارُ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ ؛ ارتفاعُ (النارُ) على البدلِ من (سُوءُ الْعَذَاب).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً) أي صَباحاً ومساءً، يقالُ لَهم: يا آلَ فرعون هذهِ منازلُكم، توبيخاً ونقمةً، قال ابنُ مسعود: (إنَّ أرْوَاحَ آلِ فِرْعَوْنَ فِي أجْوَافِ طَيْرٍ سُودٍ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّار كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ)(٢)، وعن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ:[إنَّ أحَدَكُمْ إذا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إنْ كَانَ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٤١٦) عن السدي، وأسقطه الناسخ هناك، وأثبته ابن كثير في التفسير: ج ٤ ص٨٢: (قال السدي: لا يجيب داعية لا في الدنيا ولا في الآخرة).

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٩١؛ قال السيوطي:(أخرجه عبدالرزاق وابن أبي حاتم عن ابن مسعود ﷺ) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨٤٣٥).

فَمِنْ ((أَهْلِ)) الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّار فَمِنْ ((أَهْلِ)) النَّـار، يُقَـالُ: هَـذا مَقْعَـدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][(١)].

وقولهُ تعـالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ قرأ نافعُ والكوفيُّون بقطعِ الألفِ وكسرِ الخاء؛ أي يقالُ للملائكةِ: أدْخِلُوا آلَ فرعـون أشدَّ العذاب، وهو الدَّرْكُ الأسفلُ من النار، وقرأ الباقون بضَمِّ الخاء ووصـلِ الألـف على الأمرِ لهم بالدخول.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي واذكُـــرْ يـا مُحَمَّـدُ لقومِـكَ: إذ يختصِـمُ أهـلُ النـار في النـار، وبـاقي الآيـة مفسَّـرٌ في ســورةِ إبراهيمَ ؑ.

وقولهُ تعـالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ ؛ أي إنـا نحـنُ وأنتم قد استَوَينا في العــذاب، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي قضَى بهذا علينا وعليكم وحَكَمَ أنْ لا يتحملَ أحدٌ عذابَ أحدٍ.

فلمـا رأوا شـدَّة العـذاب، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ ﴾ ، قـــالوا، ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي يُـهَوِّنْ عنَّـــا العذابَ قدر يوم من أيَّام الدُّنيا، ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ ، فيقول الزبانيـة: ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي بـالدَّلالاتِ الظـاهرةِ علـــى وحدانيَّـــة اللهِ، ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ ، فيقولـون: بلَـى قـد أتَتْنـا الرسُـــل، ﴿ قَالُواْ ﴾ ، فتقـــولُ لَـــهم الزبانيـــةُ: ﴿ فَٱدْعُواْ ﴾ ، أنتم فإنَّ اللهَ تعالى لم يأذنْ لنـا في الدُّنيـا، ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي في ضياعٍ لا ينفعُهم.

قَوْلُـهُ تَعَـــالَى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي إنا لَنُعِينُ الرسُلَ والمؤمنــين علـى أعدائِـهم في الدُّنيـا بالاسـتعلاءِ عليـهم بالحجَّـة

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: باب الميت يعرض عليه مقعـده بـالغداة والعشـي: الحديث (١٣٧٩). ومسلم في الصحيح: كتاب الجنة وصفة نعيمها: الحديث (٦٥/ ٢٨٦٦).

وبالغَلبةِ عليهم في المحارَبـةِ، وَ نُعينُـهم، ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ بـإعلاءِ كلِمَتهم وإظهار منْزلتهم، والمعنى: ويومَ القيامةِ تقومُ الحفَظَـةُ مـن الملائكـةِ يشـهدون للرُّسُلِ بالتبليغ، وعلى الكفَّار بالتكذيب.

وواحدُ الأشهَادِ: شَاهِدٌ، مثل صَاحِبٍ وأصحابٍ، وطائر وأطيَـار، والمرادُ مـن الأشهادِ الأنبياءُ والملائكةُ والمؤمنونَ والجوارحُ والمكـانُ والزمـانُ، يشـهدون بـالحقِّ لأهلِهِ، وعلى المبطلِ بفعلـهِ، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ ؛ أي إن اعتـذرُوا من كُفرهم لم يقبَـلْ منـهم، وإنْ تـابوا لم تنفعْـهم التوبـةُ، ﴿ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ ؛ أي البُعْدُ من الرحمةِ، ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ يعني جهنَّمَ سوءُ المنقَلب.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ؛ مـن الضَّلالـةِ يعـني التوبـةَ، وَقِيْـلَ: معنـاهُ: ولقـد أعطَينـا موسـى الدِّيـنَ المسـتقيمَ، ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ، ونزَّلنا على بنِي إسـرائيلَ التـوراةَ والإنجيـلَ والزَّبُـورَ ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ هُـدًى مـن الضَّلالـة وعِظَـةً لـذوي العقـول، ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ ، يا مُحَمَّدُ على أذى الكفَّـار كمـا صَـبَرَ الرسـلُ قبلَـكَ، ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ، في نُصرَتِكَ وإظـهار دِينِـكَ صـدقٌ كـائن، ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ ؛ يعني الصغائرَ؛ لأن أحداً من البشرِ لا يخلُو من الصغائرِ وإنْ عُصِمَ من الكبائرِ.

وَقِيْلَ: معناهُ: واستغفِرْ لذنُـوب أمَّتِـكَ، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي نَزِّهْـهُ عن كلِّ صفةٍ لا تليقُ به، واحْمَدْهُ على كلِّ نعمةٍ. ويجوزُ أن يكون المـرادُ بالتسـبيحِ في الآيةِ مِن قوله: ﴿ بِٱلْعَشِىِّ ﴾ ؛ الصَّلوات الخمسِ وقـت مـا بعـدَ الـزَّوالِ إلى وقـتِ العشاء الآخرةِ، ومِن قولـه: ﴿ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ صـلاةُ الفجـرِ. والمعنـى: صَلِّ لربكَ شَاكراً لربك بالعشيِّ والإبكار.

قولـه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ ؛ وذلك أن اليهودَ كانوا يجادلون في النبيِّ ﷺ في رفعِ القرآن، وكانوا يقولون له: صَاحِبُنا المسيحُ بن داودَ، يعنون الدجَّالَ يخرجُ في آخرِ الزمان فيبلغُ سلطانَ البرِّ والبحرِ، ويـرُدُّ المُلْكَ إلينا وتسيرُ معه الأنهارُ، وهو آيةٌ من آياتِ الله! ويعظِّمون أمرَ الدجَّال، فـأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ.

ومعناهُ: إنَّ الذين يخاصِمون بغيرِ حجَّةٍ أتَتْهُم، ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما في قُلوبـهم إلاَّ عَظَمَـةٌ عـن قبـولِ الحـقِّ لِحَسَدِهم، ما هم ببَالِغِي تلـك العَظَمـة الـتي في قُلوبـهم لأنَّ الله تعـالى مُذِلُّـهم، فـلا يَصِلُونَ إلى دفعٍ من آياتِ الله.

قال ابنُ عبَّاس:(وَالْمَعْنَى: مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى تَكْذِيبكَ إلاَّ مَا فِي صُدُورهِـمْ مِـنَ الْعَظَمَةِ مَا هُمْ ببَالِغِي مُقْتَضَى ذلِكَ الْكِبْرِ لأَنَّ اللهَ مُذِلُّهُمْ)(١). وقال ابنُ قتيبة: (إنَّ فِي صُدُورهِمْ إلاَّ تَكَبُّرٌ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَطَمَعٌ أنْ يَصِلُوهُ وَمَا هُمْ ببَالِغِي ذلِكَ، فَاسْتَعِذْ بـاللهِ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْكِبْرِ وَمِنْ شَرِّ الْيَهُودِ وَمِنْ شَرِّ الدَّجَّال وَمِنْ كُـلِّ مَـا تَجِـبُ الاسْتِعَاذةُ مِنْهُ)(٢)، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ بهم وبأعمالِهم.

وقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ أي هذا أكبرُ من خلـقِ بغـير عَمَـدٍ وجريـانِ الأفـلاكِ بـالكواكب فيـه أعظـمُ في النفـس وأهْوَلُ في الصدر مـن خلـقِ النـاس، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ الكفـار، ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ حين لا يستدلُّون بذلك على توحيدِ خالِقِهما وقدرتهِ على ما هو أعظمُ من خلقِ الدجَّال، وعلى أنْ يمنعَ المسلمين من غَلَبَتِهِ عليهم.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [إنَّ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّال ثَلاَثُ سِنِينَ، أوَّلُ سَنَةٍ تُمْسِكُ السَّـمَاءُ ثُلُـثَ قَطْرِهَـا وَالأَرْضُ ثُلُـثَ نَبَاتِـهَا، وَالثَّانِيَـةُ تُمْسِـكُ ثُلُثَـي قَطْرِهَـا وَالأَرْضُ ثُلُثَي نَبَاتِهَا، وَفِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ تُمْسِكُ السَّمَاءُ مَـا فِيـهَا وَالأَرْضُ وَمَـا فِيـهَا، وَيَهْلَكُ كُلُّ ذاتِ ظِلْفٍ وَضِرْسٍ](٣).

وعن أبي أمامةَ الباهليِّ قـال: (خَطَبَنَـا رَسُـولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يَـوْمٍ، فَكَـانَ أكْـثَرُ خُطْبَتِهِ أنْ يُحَدِّثَنَا عَنِ الدَّجَّال وَيُحَذِّرَنَا، فَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ: [أيُّهَا النَّاسُ؛ إنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ أعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، إنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْ نَبِيّاً إلاَّ حَذرَ أُمَّتَهُ مِنْهُ، وَأنَا

(١) نقله البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص١١٤٢.

(٢) نقله عنه البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص١١٤٢.

(٣) أخرجه البغوي في معالم التنزيل: ص١١٤٢ بإسناده عن أسماء بنت يزيد الأنصارية.

آخِرُ الأَنْبِيَاءِ وَأَنْتُمْ آخِرُ الأُمَمِ، وَهُوَ خَارِجٌ فِيكُمْ لاَ مَحَالَةَ، فَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِنْ يَخْرُجْ بَعْدِي فَكُلُّ امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللهُ تَعَالَى خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

أَنَّهُ يَخْرُجُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ يَعِيثُ يَمِيناً وَيَعِيثُ شِمَالاً، فَيَا عِبَادَ اللهِ اثْبُتُوا، فَإِنَّهُ يَبْدَأُ فَيَقُولُ: أَنَا نَبِيٌّ وَلاَ نَبِيَّ بَعْدِي! ثُمَّ يُثْنِي وَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ! وَلَنْ تَرَوا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا، وَإِنَّهُ أَعْوَرٌ وَلَيْسَ رَبُّكُمْ بأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنكُمْ فَلْيَتْفُلْ فِي وَجْهِهِ.

وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنَّ مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ، فَمَنِ ابْتُلِيَ بِنَارِهِ فَلْيَقْرَأْ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ وَيَسْتَغِيثُ باللهِ، فَتَكُونُ عَلَيْهِ بَرْداً وَسَلاَماً، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنَّ مَعَهُ شَيَاطِين يَتَمَثَّلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى صُورَةِ إنْسَان، فَيَأْتِي الأَعْرَابِيُّ فَيَقُولُ لَهُ: إذا بَعَثْتُ أَبَاكَ وَأُمَّكَ وَأَهْلَكَ تَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيَاطِينُهُ عَلَى صَوْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ، وَمِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يُسَلَّطَ عَلَى نَفْسٍ فَيَقْتُلُهَا، ثُمَّ يُحْيِيهَا اللهُ بَعْدَ ذلِكَ، فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: انْظُرُوا إلَى عَبْدِي هَذا، فَإِنِّي بَعَثْتُهُ الآنَ وَيَزْعُمُ أَنَّ لَهُ رَبّاً غَيْرِي])[1].

قال مقاتلُ: (إنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يُسَلَّطُ عَلَيْهِ الدَّجَّالُ رَجُلٌ مِنْ جَشْعَم، فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يَبْعَثُهُ اللهُ تَعَالَى، فَيَقُولُ لَهُ الدَّجَّالُ: مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ: اللهُ رَبي وَإنَّكَ الدَّجَّالُ عَدُوُّ اللهِ).

[وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ يَقُولُ لِلأَعْرَابِيِّ: أَرَأَيْتَ إنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبِيكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيَاطِينُهُ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ. وَإِنَّ أَيَّامَهُ أَرْبَعِينَ يَوْماً،

---

(١) الحديث لم أقف عليه عن أبي أمامة الباهلي ﷺ، وهو حديث مشهور بألفاظ عديدة وأسانيد عديدة. وأصله عن أبي هريرة وجابر وأبي سعيد وغيرهم كثير رضي الله عنهم جميعاً. ومن هذه الأسانيد، أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجائز: الحديث (١٣٥٤ و١٣٥٥)، وكتاب الأنبياء: الحديث (٣٣٣٧)، وكتاب الجهاد: الحديث (٣٠٥٥). ومسلم في الصحيح: كتاب الفتن وأشراط الساعة: الحديث (٢٩٣٨/١١٢).

فَيَوْمٌ كَالسَّنَةِ، وَيَوْمٌ دُونَ ذَلِكَ، وَيَوْمٌ كَالشَّهْرِ، وَيَوْمٌ دُونَ ذَلِكَ، وَيَوْمٌ كَالْجُمُعَةِ، وَيَوْمٌ دُونَ ذَلِكَ، وَآخِرُ أَيَّامِهِ كَالشُّرْفَةِ، فَيُصْبِحُ الرَّجُلُ بِبَابِ الْمَدِينَةِ فَلاَ يَبْلُغُ بَابَهَا حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ].

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ كَيْفَ نُصَلِّي فِي تِلْكَ الأَيَّامِ الْقِصَارِ ؟ قَالَ: [تَقْدُرُونَ فِيْهَا كَمَا تَقْدُرُونَ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الطِّوَالِ، فَلاَ يَبْقَى شَيْءٌ مِنَ الأَرْضِ إلاَّ وَطِئَهُ الرَّجُلُ وَغَلَبَ عَلَيْهِ، إلاَّ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ فَإِنَّهُ لاَ يَأْتِيهِمَا، وَيَكُونُ إمَامُ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بِالْمَدِينَةِ رَجُلاً صَالِحاً، فَيُقَالُ لَهُ: صَلِّ الصُّبْحَ، فَإِذَا كَبَّرَ وَدَخَلَ فِي الصَّلاَةِ وَنَزَلَ عِيسَى عليه السلام، فَإِذَا رَآهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَرَفَهُ فَيَتَأَخَّرُ لِيَتَقَدَّمَ عِيسَى، فَيَضَعُ عِيسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ وَيَقُولُ لَهُ: صَلِّ قَائِماً، أُقِيمَتْ لَكَ الصَّلاَةُ.

فَيُصَلِّي عِيسَى وَرَاءَهُ ثُمَّ يَقُولُ: افْتَحُوا الْبَابَ، فَيُفْتَحُ بَابُ الْمَدِينَةِ، وَمَعَ الدَّجَّالِ يَوْمَئِذٍ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ كُلُّهُمْ ذوُو سِلاَحٍ وَسَيْفٍ مُحَلاًّ، فَإِذَا نَظَرَ الدَّجَّالُ إلَى عِيسَى ذَابَ كَمَا ذَابَ الرَّصَاصُ مِنَ النَّارِ وَالْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَيَقُولُ لَهُ عِيسَى: إنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَفُوتَنِي بِهَا، فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ كَذَا الشَّرْقِيِّ وَهُوَ بَابُ قَتِيلَةَ، فَلاَ يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إلاَّ أَنْطَقَ اللهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ، فَلاَ شَجَرٌ وَلاَ حَجَرٌ وَلاَ دَابَّةٌ إلاَّ قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ الْمُسْلِمُ هَذا كَافِرٌ فَاقْتُلْهُ.

وَيَكُونُ عِيسَى عليه السلام حَكَماً عَدْلاً وَإمَاماً مُقْسِطاً، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَتُرْفَعُ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ، وَتُرْفَعُ حُمَةُ[1] كُلِّ دَابَّةٍ حَتَّى يُدْخِلَ الصَّبِيُّ يَدَهُ فَمَ الْحَنَشِ[2] فَلاَ يَضُرُّهُ، وَيَلْقَى الإنْسَانُ الأَسَدَ فَلاَ يَضُرُّهُ، وَيَكُونُ الأَسَدُ فِي الإبِلِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا، وَيَكُونُ الذِّئْبُ فِي الْغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا، وَيَمْلأُ الأَرْضُ إسْلاماً[3]، وَيُسْلَبُ الْكُفَّارُ مُلْكَهُمْ، وَلاَ يَكُونُ الْمُلْكُ إلاَّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَيُبَارَكُ فِي الأَرْزَاقِ حَتَّى أَنَّ

---

(١) حُمَةُ العَقرَبِ: سُمُّها وضرُّها.

(٢) الْحَنَشُ: كلُّ ما يُصاد من الطَّير والهوام، والجمع (الأَحْنَاشُ). والحَنَشُ أيضاً: الحيَّةُ، وقيل: الأفعَى.

(٣) هكذا في المخطوط: (إسْلاَماً).

النَّفَرَ يَجْتَمِعُونَ عَلَى رُمَّانَةٍ وَاحِدَةٍ، وَيَكُونُ الْفَرَسُ بِدِرْهَمَيْنِ][1] وَباللهِ التَّوفِيقُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴾ ؛ أي فكمَا لا يستويَان فكذلك لا يستوي المؤمنُ والكافر في الآخرةِ في الجزاءِ بالعذاب والنَّعيم، وباقِي الآيتَين: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ؛ أدعُونِي ووَحِّدُونِي في الدُّنيا أقبلُ منكم وأستمع دعاءَكم، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ ؛ إنَّ الذين يتعظَّمُون عن طاعَتِي وعن المسألةِ مني، ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي صاغرُون ذليلون، والدَّاخِرُ: هو الذليلُ الصَّاغِرُ، قال حسَّان:

قَتَلْنَا مَنْ وَجَدْنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَجِئْنَا بالأُسَارَى دَاخِرَا

قرأ ابنُ كثير (سَيُدْخَلُونَ) بضمِّ الياءِ وفتح الخاءِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ؛ أي تُبصِرُونَ فيه لطلب المعاش، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ نِعَمَ اللهِ، ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ ومُبتَدِعهُ، لا معبودَ سواهُ، فلا ينبغِي لأحدٍ أنْ يدعوَ مخلوقاً مثلَهُ، ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ وقد تقدَّمَ تفسيرُ ذلك، ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي هكَذا كان لمصرفِ القوم الذين كانُوا بدلائلِ الله يجحَدُون.

---

(١) أخرجه أبو داود مختصراً في السنن: كتاب الملاحم: باب خروج الجدال: الحديث (٤٣٢٢). وابن ماجة في السنن: كتاب الفتن: باب فتنة الدجال: الحديث (٤٠٧٧). وفي الدر المنثور: ج ٢ ص٧٣٩-٧٤٢؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو داود وابن ماجة عن أبي أمامة الباهلي) وذكره.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٢٨؛ قال القرطبي: (وقرأ ابن كثير وابن محيصين ورُوَيس عن يعقوب وعياش عن أبي عمرو وأبو المفضل عن عاصم) وذكرها وقال: (على ما لم يُسَمَّ فاعله).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ ؛ أي مُستقرّاً للأحياءِ والأموات، كما قال ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾(١) ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ ؛ أي وجعلَ السَّماء سَقْفاً مرفوعاً فوقَ كلِّ شيءٍ، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ ؛ أي خلقكم فأحسنَ خلقكُم.

قال ابنُ عبَّاس: (خَلَقَ اللهُ ابْنَ آدَمَ قَائِماً مُعْتَدِلاً يَأْكُلُ بيَدِهِ وَيَتَنَاوَلُ بيَدِهِ، وَكُلُّ مَا خلَقَ اللهُ يَتَنَاوَلُ بفِيهِ)(٢). وقال الزجَّاجُ: (خَلَقَكُمْ أحْسَنَ الْحَيْوَانِ كُلِّهِ)، ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ؛ أي من لَذِيذِ الأطعمَةِ وكريمِ الأغذية.

وقولهُ تعالى: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ ؛ أي الذي فَعَلَ ذلك كلَّهُ هو ربُّكم فاشكروهُ، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي فتعالَى اللهُ دائمُ الوجودِ لم يزَلْ ولا يزالُ ربٌّ كلِّ ذي روحٍ من الجنِّ والإنسِ وغيرِها، ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ بلاَ أوَّلٍ ولا آخرٍ، لم يَزَلْ، كان حَيّاً ولا يزالُ حيّاً، مُنَزَّهٌ عن كلِّ آفاتٍ، وليس أحدٌ غيرهُ من الأحياءِ بهذه الصِّفات، لا مستحقٌّ للإلهيَّة غيره، ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ، فوحِّدوهُ مخلصين له الدِّين؛ أي الطاعةِ، واشكروهُ على معرفةِ التوحيد. قال ابنُ عبَّاس ﷺ: (إذا قَالَ أحَدُكُمْ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ فَيَقُلْ فِي إثْرِهَا: الْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِينَ)(٣).

وقولهُ تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي أمِرتُ أن أستقيمَ على الإسلامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ ؛ أي خلقَ أصلَكم من ترابٍ، ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ ؛ لآبائِكم، ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ ، ثم نقلَكُم إلى العلَقَةِ وهو الدمُ الغليظ، ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ ﴾ ؛ من بطُونِ امَّهاتِكم أطفالاً واحداً واحداً لذلكَ

---

(١) الأعراف / ٢٥ .

(٢) نقله أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٤٤.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٤٤٢).

قوله: ﴿ طِفْلًا ﴾ ؛ وقال ﴿بالأخْسَرِينَ أعْمَالاً﴾[1] لأن الواحدَ يكون أعمال"[2].

وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ ؛ أي بنقلِكم إلى حال اجتماع القوَّة والكمال، ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ﴾ ؛ أي تصيرُوا شُيوخاً بعدَ الأشُدِّ، ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ من قبلِ البُلوغ ومن قبلِ الشَّيخوخة، ﴿ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾ ؛ يريدُ أجلَ الحياةِ إلى الموتِ، ولكلٍّ أجلٍ لحياتهِ ينتهي إليه، ويقالُ: لتبلغُوا أجَلاً مسمًّى؛ أي لتُوَافُوا القيامةَ للجزاءِ والحساب، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ، ولكي يعقِلُوا وحدانيةَ اللهِ تعالى وتَمام قدرتهِ، وتصدقوا بالبعثِ بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ ؛ أي يُحيي الأمواتَ ويميتُ الأحياءَ، ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ ؛ من الإحياءِ والإماتةِ، ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ ﴾ ، يريدهُ، ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ ، ويُحدِثُه.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي يُخاصِمُونَ في القرآن بالردِّ والتكذيب، وهم المشركون، ﴿ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ، كيف يُصرَفُونَ إلى الكَذب بعد وضُوحِ الدلالةِ، ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ ﴾ ؛ الذين كذبوا بالقرآن، ﴿ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ ، من الشَّرائعِ والأحكامِ والتوحيد، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ، عاقبةَ أمرهم، ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ، حين تُجعَلُ الأغلالُ الحديدُ مع السَّلاسلِ في أعناقِهم، يُسحَبُونَ في الحبال على وجُوهِهم، يُلقَوْنَ، ﴿ فِى ٱلْحَمِيمِ ﴾ ، في نارٍ عظيمة، ﴿ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ قال مجاهدُ: (تُوقَدُ بهِمُ النَّارُ فصَارُوا وَقُودَهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ ﴾ ، ثم تقولُ لهم الزَّبَانِيَةُ: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ، أين الآلِهةُ التي كُنتم تعبدونَها، وتَرجُونَ منافعَها، وتدعونَها،

---

(١) الكهف / ١٠٣.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١١؛ قال القرطبي: (أي أطفالاً، فهو اسم جنس، وأيضاً فإن العرب قد تسمي الجمع باسم الواحد).

﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، فيُؤلِمُونَ قلوبَهم بمثلِ هذا التوبيخِ كما يؤلِمُون أبدانَهم بالتعذيب، ﴿ قَالُواْ ﴾ ؛ فيقولُ الكفار: ﴿ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ ، أي ضَلَّتْ آلهتُنا عنَّا؛ أي ضاعَت فلا نرَاهَا، ثم يجحَدُون عبادةَ الأصنامِ فيقولون: ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ ، إنْ لم نكن نعبدُ مِن قبل هذا شيئاً، ويجوزُ أن يكون هذا كالرَّجُل يعملُ عمَلاً لا ينتفعُ به، فيقالُ له: إيش تعملُ ؟ فيقول: لا شيءَ.

وقولُه تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي هكَذا يُهلِكُهم ذلكَ العذابُ الذي نزلَ بكم، ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ بالباطل، ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (يَعْنِي الْبطَرَ وَالْخُيَلاَءَ).

والغِلُّ: هو ما يُجعَلُ في العنُقِ للإذلال والإهانةِ. والطَّوقُ: هو ما يجعلُ للإجلالِ والكرامةِ. وقرأ ابنُ عبَّاس: (وَالسَّلاَسِلَ) بفتح اللام، و(يَسْحَبُونَ) بفتح الياء؛ معناهُ: ويَسحَبُونَ السلاسلَ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ؛ بنصركَ والانتقامِ منهم، ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فإن انتقَمْنا منهم وأنتَ حيٌّ فبُشرَى لكَ، وإن نتوفَّاكَ قبل ((أنْ)) نُريَكَ ذلك فإلَينا مرجِعُ الكلِّ منهم للمُجازاةِ، وسيَصِلُ إليهم موعدُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ ﴾ ؛ أي منهُم من قصَصْنا عليكَ خبرَهم في القرآن، ومنهم مَن لَم نقصُصْ عليكَ خبرَهم، ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ ؛ في الآيةِ إبلاغُ عُذر النبيِّ ﷺ فيما يأْتيهم به من الآياتِ التي كانوا يقترحونَها عليه، وليس علينا حصرُ عددِ الرُّسل، ولكنا نؤمنُ بجُملَتِهم.

---

(١) في إعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص٣١؛ قال: (وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس أنه قرأ ﴿والسلاسلَ﴾ بالنصب ﴿يَسحبون﴾ والتقدير في قراءته: ويَسحبون السلاسلَ).

وقولُهُ تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي إذا جاءَ قضاؤهُ بين أنبيائهِ وأمَمِهم، ﴿ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، لم يُظلَموا إذا عُذِّبوا ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ﴾ ؛ عندَ ذلك، ﴿ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ، المكذِّبون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ اللهُ الذي خلقَ لكم الإبلَ والبقرَ والغنَمَ لتركَبُوا بعضَها وتأكلُوا لحمَ بعضِها، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ ؛ من ألبانِها وأصوافِها وأوْبَارها وأشعارها، ﴿ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ ؛ أي لتبلغُوا عليها في ركوبها حاجةً في قلُوبكم لا تبلغونها إلاّ بها، قال مجاهد: (تَحْمِلُ أثْقَالَكُمْ مِنْ بَلَدٍ إلَى بَلَدٍ، وَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَاتِكُمْ فِي الْبلاَدِ مِمَّا كَانَتْ)، ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أي وعلى ظهُورها في البرِّ وعلى السُّفن في البحرِ تحمَلُون في كسبكم وحجِّكم وتجاراتِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ؛ أي يُريكُم اللهُ دلائلَ قُدرتهِ من الشمسِ والقمر والنُّجوم والليل والنهار والجبالِ والبحار، وتسخُّرُ الأنعامُ لمنافعِ العباد، كلُّها من آيات اللهِ، ﴿ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ، فأيُّ آيةٍ من آياتِ الله تجهَلُون أنَّها ليست من اللهِ تعالى؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ من الأُمَم كيف أهلكَهم اللهُ بتكذيبهم الرسُلَ، ﴿ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ ؛ من أهلِ مكَّة بالعددِ، ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ ؛ في البُلدان، و أظهرَ؛ ﴿ وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ في الأبنيةِ العظيمة، والقصُور الْمَشِيدَةِ، والعيُون المستخرجة، ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ، فلم ينفعْهُم من عذاب الله كثرةُ عَدَدِهم وشدَّةُ قُوَّتِهم وجمعهم الأموال، ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ بالجهلِ الذي عندَهم أنه علمٌ، وقالوا: نحنُ أعلَمُ منهم، لن نُبعَثَ ولن نعذبَ، فمعنى قوله: (فَرِحُوا بمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) أي رَضُوا بما عندَهم من العلمِ وهو في الحقيقةِ جهلٌ وإنْ زعَمُوهُ عِلْماً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا ﴾ ، فلمَّــا رأوا عذابَنــا آمَنُــوا، ﴿ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ ؛ ولا ينفعُ الإيمان عندَ ذلك.

وقولهُ تعـالى: ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ ؛ أي هـذا قَضَـائِي في خَلْقِي أنَّ من كذبَ أنبيائِي وجحَدَ رُبوبَتِي؛ أي سنَّ اللهُ هذه السُّنة في الأمـمِ كلِّـها أنْ لا ينفعَهم الإيمانُ إذا رأوا العذابَ، وسُنة اللهِ هي حكمُ اللهِ الذي مضَــى في عبـادهِ في بعثِ الرُّسل إليهم، ودُعائِهم إلى الحـقّ وتـرك المعاجَلـةِ بالعقوبـة، وأنَّ الإيمـانَ وقـتَ البأسِ لا ينفعُ.

ونُصب قولهُ (سُنَّةَ اللهِ) على التحذيرِ أو على المصدر، وقولهُ تعالى: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي هلكَ عندَ ذلك المكذّبون.

آخر تفسير سورة (**غافــر**) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ السَّجْدَة (فُصِّلَتْ)

سُورَةُ حم السَّجْدَة مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثلاثَةُ آلافٍ وَثلاثُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَسَبْعُمِائَةٍ وَسِتٌّ وَتِسْعُونَ كَلِمَةً[١]، وَأرْبَعٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

قال ﷺ: [مَنْ قَرَأ حم السَّجْدَةُ أعْطِيَ مِنَ الأجْرِ بعَدَدِ كُلِّ حَرْفٍ مِنْهَا عَشْرُ حَسَنَاتٍ][٢] وَاللهُ أعْلَمُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾ ؛ قال (تَنْزِيْلٌ) مبتدأ؛ وخبرهُ[٣]: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ ؛ أي بُيِّنَ حَلاَلُهُ وحرامهُ، ومعنى التَّنْزِيْلِ: الْمُنَزَّلِ كما يذكرُ العلمُ بمعنى المعلومِ، والخلقُ بمعنى الْمَخلُوقِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ ؛ منصوبٌ على الحالِ؛ أي بُيِّنَتْ آياتهُ في حالِ جَمعهِ على مجرَى لُغةِ العرب، ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ ؛ اللِّسانَ العربيَّ، ﴿ بَشِيرًا ﴾ ؛ بالجنَّةِ لِمَن أطاعَ، ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ ؛ بالنار لِمن عصَى اللهَ، ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ ؛ أهلُ مكَّة عنِ الإيْمانِ، ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ ﴾ ؛ سَماعاً ينتفعُونَ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ ؛ أي قالَ كفَّارُ مكَّةَ للنبيِّ ﷺ: قلوبُنا في أغْطِيَةٍ مما تدعُونا إليه مِن القُرْآنِ لا يصلُ إلى قُلوبنا، ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ ؛ أي ثُقْلٌ وصَمَمٌ يَمنعُ مِن استماعِ ما تقرؤهُ.

---

(١) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٧ ص٩٦؛ قال ابن عادل: (وسبعمائة وتسعة وتسعون كلمة).

(٢) ذكره أيضاً الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٢٠١، وهو في تفسير الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي، ولا يصح، والله أعلم.

(٣) هذا مذهب البصريين، نقله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٨٧.

والأَكِنَّةُ: جمعُ كِنَان، مثل عِنَان وأعِنَّةُ. ﴿ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾ ؛ وبيننا وبينَكَ حاجِزٌ وفِرْقَةٌ في الدِّين فلا نوافِقُكَ على ما تقولُ، ﴿ فَٱعۡمَلۡ ﴾ ؛ على أمرِكَ ودِينِكَ، ﴿ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ﴾ ؛ على أمرنا ومذهَبنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلۡ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ ؛ أي كواحدٍ منكُم ولولاَ الوحيُ ما دعوتُكم. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ ؛ لاَ شريكَ لَهُ، ﴿ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ ؛ أي لا تَميلُوا عن سَبيلِهِ وتوجَّهُوا إليه إلى طاعتهِ، ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ ﴾ ؛ مِن الشِّرك ووحِّدُوهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ﴾ ؛ وويلٌ لِمَن لا يقولُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ، ولا يُطَهِّرُونَ أنفُسَهم من الشِّركِ بالتوحيدِ، ﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ ﴾ ، وقال الحسنُ: (لاَ يُقِرُّونَ بالزَّكَاةِ، وَلاَ يَرَوْنَ إيْتَاءَهَا وَلاَ يُؤْمِنُونَ بهَا)[١] ، قال الكلبيُّ: (عَابَهُمُ اللهُ وَقَدْ كَانُوا يَحُجُّونَ وَيَعْتَمِرُونَ)، قال قتادةُ: (الزَّكَاةُ قَنْطَرَةُ الإسْلاَمِ، فَمَنْ قَطَعَهَا نَجَا)[٢] أي فمَن عَبَرَهَا نجَا، ومَن لَم يعبُرْها هَلَكَ.

وفي هذهِ الآية دلالةٌ على أنَّ الكفارَ يُعاقَبون في الآخرةِ على تَرْكِ الشَّرَائِعِ كما يُعاقَبون على تَرْكِ الإيْمَان؛ لأن اللهَ وَعَدَهم على ذلكَ، وقال في جواب أهلِ النار حين يقالُ لَهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨ ﴾ ؛ أي غيرُ مقطوعٍ، مِن قولِهم: مَنَنْتُ الْحَبْلَ إذا قطعتَهُ، وثوابُ المؤمنِ لا ينقطعُ. وَقِيْلَ: لا يُمَنُّ عليهِم بذلكَ؛ لأن الْمِنَّةَ تُكَدِّرُ الصنيعةَ.

---

(١) نقله أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٤٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٤٧٣).

(٣) المدثر / ٤٢ -٤٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ؛ أي (قُلْ إئِنَّكُمْ) يا أهلَ مكَّة (لَتَكْفُرُونَ بالَّذِي خَلَقَ الأرْضَ) في عِظَمِها وقوَّتِها في يوم الأحَدِ ويوم الاثنين، ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾ ؛ من الأصنام؛ أي أضداداً[1]، وقولُهُ تعالى: ﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي ذلكَ الذي هذهِ قدرتهُ رَبُّ كلِّ ذِي رُوحٍ ومَلِكُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ ؛ أي وخَلَقَ فيها جِبالاً ثَوابتَ أوتاداً لَها في يومِ الثّلاثاء، ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ ؛ أي بَارَكَ في الأرضِ بالسَّماء والشجر والنبات والثمار، ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ ؛ أي معايشَها، قدَّرَ اللهُ لكلِّ حيوانٍ ما يكفيهِ بحسبَ الحاجةِ، وجعلَ في كلِّ أرضٍ معيشةً ليست في غيرِها لتعايَشُوا وتَتَّجِرُوا.

وكان تقديرُ الأقواتِ في يومِ الأربعاءِ، فتَمَّ خلقُ الأرضِ بما فيها في أربعةِ أيَّام، ولو أرادَ اللهُ أن يخلُقَها في لحظةٍ واحدة لفَعَلَ وقَدِرَ، ولكنه خلقَها في ستَّة أيامٍ لأنه تعالى حَلِيْمٌ ذُو أناةٍ، أحبَّ أن يُعَلِّمَ الخلقَ الأناةَ في الأمور.

وقال الحسنُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (وَقَدَّرَ فِيْهَا أقْوَاتَهَا) أيْ قَسَّمَ الأَرْضَ أرْزَاقَ الْعِبَادِ وَالْبَهَائِمِ)[2]، وقال الكلبيُّ: (الْخُبْزُ لأَهْلِ قُطْرٍ؛ وَالتَّمْرُ لأَهْلِ قُطْرٍ؛ وَالذرَّةُ لأَهْلِ قُطْرٍ؛ وَالسَّمَكُ لأَهْلِ قُطْرٍ، جَعَلَ اللهُ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ مَا لَمْ يَجْعَلْ فِي الأُخْرَى؛ لِيَعِيْشَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بالتِّجَارَةِ مِنْ مَوْضِعٍ إلَى مَوْضِعٍ)[3].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ رفعَهُ أبو جعفرٍ على الابتداءِ؛ أي هُنَّ سَوَاءٌ، وخفضَهُ الحسنُ ويعقوب نعتُ أربعةِ أيَّام، ونصبَهُ الباقون على معنى: اسْتَوَتْ سَوَاءً للسَّائِلِيْنَ، واستواءً يعني على المصدر كما يقالُ: في أربعةِ أيَّام تَماماً. ومعناهُ: مَن سألَ عنه فهكذا الأمرُ.

---

(١) في المخطوط: (أغلالا).

(٢) نقله أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٤٧ عن مقاتل والحسن.

(٣) نقله أيضاً البغوي عن الكلبي في معالم التنزيل: ص١١٤٧.

وقال السديُّ: (سَوَاءً لاَ زِيَادَةَ وَلاَ نُقْصَانَ جَوَاباً لِمَنْ سَأَلَ فِي كَمْ خُلِقَتِ الأَرْضُ وَالأَقْوَاتُ، فَيُقَالُ: أرْبَعَةِ أيَّام سَوَاءً)(١). و(لِلسَّائِلِيْنَ) ههنا هُم اليهودُ، سألُوا النبيَّ ﷺ عن مدَّة خَلْق السَّموات والأرض، ويجوزُ قولهُ (سَوَاءً لِلسَّائِلِيْنَ) عائداً على تقديرِ الأقواتِ، كأنه قال: لكلِّ مُحتاجٍ إلى القُوتِ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ ؛ قال السديُّ: (كَانَ ذلِكَ الدُّخَانُ مِنْ نَفْسِ الْمَاءِ حِيْنَ تَنَفَّسَ، وَكَانَ بُخَارُهُ يَذْهَبُ فِي الْهَوَاءِ، فَخُلِقَتِ السَّمَاءُ مِنْهُ وَفُتِقَتْ سَبْعاً فِي يَوْمِ الْخَمِيْسِ وَالْجُمُعَةِ)(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ ؛ أي ائْتِيَا ما آمُرُكما وافْعَلاَ، كما يقالُ: ائْتِ ما هو الأحسنُ؛ أي افْعَلْهُ.

قالَ المفسِّرون(٤): إن الله تعالى قال: أما أنتِ يا سماءُ فأطلِعي شَمسَكِ وقمرَكِ ونجومَكِ، وأما أنتِ يا أرضُ فَشَقِّقِي أنْهَارَكِ واخرجِي ثِمارَكِ ونباتَكِ، وقال لَهما: اعْمَلا ما آمُرُكُمَا طَوْعاً وإلاَّ الْجَأْتُكما ذلكَ حتى تفعلاهُ كَرْهاً، فأجَابَتا بالطَّوعِ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي أتينا أمرَكَ. ولَمَّا ركَّبَ اللهُ فيهنَّ العقولَ، وخطابُ مَن يعقل جمعُهن جمع مَن يعقلُ كما قال تعالَى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٥) ولو جمعَهن جمعَ مَن لا يعقلُ لقيلَ: طَائِعَاتٍ.

ويقالُ في معناهُ: أتينا نحنُ مَن فينا طائعينَ، وإنَّما ذكرَ تارة بلفظِ التَّثنيةِ وتارةً بلفظ الجمعِ؛ لأن السَّموات والأرضِ شيئان من حيث الجنسُ بمنْزلة الفئتين

---

(١) نقله أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٤٧ عن قتادة والسدي.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٤٣؛ قال القرطبي: (أو على تقدير: هذه سواء للسائلين. وقال أهل المعاني: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ولغير السائلين، أي خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل، ويعطي مَن سأل ومَن لا يسأل).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٤٩٩).

(٤) نقله الطبري عن ابن عباس في جامع البيان: الأثر (٢٣٤٩٧).

(٥) الأنبياء / ٣٣ .

(والطائعين)، فقيلَ لَهما: ائتِيَا، ثُم السَّموات بنفسِها جماعةٌ، وكذلك الأرضُ، فلذلك قالتَا: (أتَيْنَا طَائِعِيْنَ). وانتصب (طَوْعاً) و (كَرْهاً) على معنى أطِيعَا طاعةً أو تُكرَهَان كَرْهاً.

وبلَغَنا أن بعضَ الأنبياءِ قالَ: يا ربِّ؛ لو أنَّ السَّمواتِ والأرضَ حين قُلْتَ لَهما (ائْتِيَا طَوْعاً أوْ كَرْهاً) عصيَاكَ ما كُنْتَ صانِعاً بهما؟ قال: كنتُ آمُرُ دابَّة من دوابي فتبتلعهُما[1]. قال: فأينَ تلك الدابةُ ؟ قال: في مَرْجٍ من مُروج، قال: وأين ذلكَ الْمَرْجُ ؟ قال: فِي علمٍ من عُلومِي[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ ؛ أي صَنَعَهُنَّ وأحكَمَهن وأتَمَّ خَلْقَهن سَبع سَمواتٍ بعضُها فوق بعضٍ بما فيهنَّ من الشمسِ والقمر والنجوم، ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ، في يوم الخميسِ والجمُعة، فتَمَّ خلقُ السموات[3] والأرض في ستَّة أيامٍ.

لفظُ القَضَاءِ في اللغة بمعنى الإتْمَامِ، ومِن ذلك: انقضاءُ الشَّيء إذا تَمَّ، وقضَى فلانٌ إذا ماتَ؛ لأنه تَمَّ عمرهُ، وقال الشاعرُ[4]:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاودُ أوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ

عَمِلَهما وصَنَعَهُمَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ ؛ قال قتادةُ: (يَعْنِي خَلْقَ شَمْسِهَا وَقَمَرهَا وَنُجُومِهَا، وَخَلَقَ فِي كُلِّ سَمَاءٍ خَلْقَهَا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ وَالْخَلْقِ الَّذِي فِيْهَا مِنَ الْبحَارِ وَجِبَالِ الْبَرِّ وَمَا لاَ يَعْلَمُهُ إلاَّ هُوَ). وَقِيْلَ: أمَرَ في كلِّ سَماءٍ بما أرادَ. وَقِيلَ: أوحَى إلى أهلِ كلِّ سَماءٍ ما يصلحُها به مِن أمرهِ.

---

(١) في المخطوط وضع الناسخ علامة تصحيح، ولم يصحح، وكتب برسم غير واضح (تبتلعهما). وتم ضبط النص من الجامع لأحكام القرآن.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٤٤، نقله القرطبي على أنه حديث، وقال: (ذكره الثعلبي) والمعروف أن الثعلبي ليس من أهل الحديث.

(٣) في المخطوط: (الشمس).

(٤) الشاعر هو: أبو ذؤيب الهذلي. والصَّنَعُ بفتحتين: الحاذق. ومسرودتان: صفة الموصوف محذوف، أي درعان مسرودتان. والبيت من شواهد الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٨٩. وينظر: لسان العرب: ج١ ص١٦: (تبع) وج١١ ص٢٠٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ ؛ أي زَيَّنَا السَّماءَ القُربَى إلى الأرضِ بمصابيحَ وهي النجومُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحِفْظًا ﴾ ؛ أي وحَفِظْنَاهَا بالنُّجوم من استراق الشَّياطين السمعَ حِفْظاً.

وَقِيْلَ: انتصبَ (حِفْظاً) على تقدير: وزيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بمصابيحَ زينةً وحِفظاً، فبعضُ النُّجوم زينةٌ للسَّماء لا يتحرَّكُ، وبعضُها يُهتدَى بها في ظُلماتِ البَرِّ والبحرِ، وبعضُها رجومٌ للشَّياطين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي ذلكَ الذي سَبَقَ ذِكْرُهُ؛ تقديرهُ: الْعَزِيْزُ في مُلكهِ القادرُ القاهرُ الذي لا يلحقهُ عَجزٌ ولا يَعْتَرِيهِ[1] سهوٌ ولا جهل، أحكَمَ ذلك كلَّهُ وأتقنَهُ حتى لا يدخلَهُ الخللُ مدَى الدُّهور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ؛ الآيةُ، وذلكَ أنَّ الْمَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ قَالُوا: قَدِ الْتَبَسَ عَلَيْنَا أمْرُ مُحَمَّدٍ، فَلَو الْتَمَسْتُمْ رَجُلاً عَالِماً بالشِّعْرِ وَالْكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ فَأتَاهُ وَكَلَّمْنَاهُ، وَأتَانَا ببَيَانِ أمْرِهِ. فَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ رَبيْعَةَ: وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ الشِّعْرَ وَالْكَهَانَةَ وَالسِّحْرَ، وَعَلِمْتُ مِنْ ذلِكَ عِلْماً لاَ يَخْفَى عَلَيَّ إنْ كَانَ كَذلِكَ.

فَمَضَى عُتْبَةُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْحَطِيْمِ، فَكَلَّمَهُ وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً إلاَّ قَالَهُ، وَكَانَ عُتْبَةُ مِنْ أحْسَنِ النَّاسِ حَدِيْثاً، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أنْتَ خَيْرٌ أمْ هَاشِم[2]؟ أنْتَ خَيْرٌ أمْ عَبْدُ الْمُطَّلِب؟ أنْتَ خَيْرٌ أمْ عَبْدُ اللهِ؟ فِيْمَ تَشْتُمُ آلِهَتَنَا وَتُضَلِّلُ آبَاءَنَا ؟ فَإنْ كَانَ ذلِكَ طَلَباً لِلرِّئَاسَةِ عَقَدْنَا لَكَ الْويَتَنَا وَكُنْتَ رَأسَنَا مَا بَقِيْتَ، وَإنْ كَانَ لَكَ الْبَاءهُ زَوَّجْنَاكَ عَشْرَ نِسْوَةٍ مِمَّنْ تَخْتَارُ مِنْ بَنَاتِ قُرَيْشٍ، وَإنْ كَانَ بكَ الْمَالُ جَمَعْنَا لَكَ مَا تَسْتَغْنِي بهِ أنْتَ وَعَقِبُكَ مِنْ بَعْدِكَ. وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَاكِتٌ لاَ يَتَكَلَّمُ.

---

(١) في المخطوط: (يعتد به).

(٢) في المخطوط: (هشام).

فَلَمَّا فَرَغَ عُتْبَةُ مِنْ كَلاَمِهِ قَرَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بسْـــمِ اللهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيْـمِ (حم، تَنْزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ...) إلَى قَوْلِهِ (فَـإنْ اَعْرَضُـوا فَقُـلْ أنذرْتُكُـمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وثَمُودَ). فَوَثَبَ عُتْبَةُ فَزَعـاً مَخَافَـةَ أنْ يُصَـبَّ عَلَيْـهِ الْعَـذَابُ الَّذِي خَوَّفَهُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأتَى قَوْمَهُ مَذْعُوراً وَأقْسَمَ لاَ يُكَلِّمُ مُحَمَّداً بَعْدَهَا أبَداً.

فَقَالَ لَهُ أبُو جَهْلٍ: لَعَلَّكَ صَبَوْتَ إلَى مُحَمَّدٍ، وَمَا ذَاكَ إلاَّ مِنْ حَاجَةٍ أصَـابَتْكَ، وَإنْ كَانَ بكَ حَاجَةٌ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أمْوَالِنَا مَا يُغْنِيْكَ عَنْ مُحَمَّدٍ! فَغَضِبَ عُتْبَةُ وَقَـالَ: وَاللهِ لَقَدْ كَانَ أبي مِنْ أكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالاً، وَلَكِنْ أتَيْتُهُ وَقَصَصْتُ عَلَيْـهِ الْقِصَّـةَ فَأجَـابَنِي بشَيْءٍ وَاللهِ مَا هُوَ بشِعْرٍ وَلاَ كَهَانَةٍ وَلاَ سِحْرٍ، وَاللهِ مَا اهْتَدَيْتُ لِجَوَابهِ. فَقَالَ حَرْثُ بْنُ عَلْقَمَةَ: وَاللهِ لَقَدْ أفْسَدَ هَذا الرَّجُلُ دِيْنَنَا وَفَرَّقَ بَيْنَ كَلِمَتِنَـا، وَأيْـمُ اللهِ لَئِـنْ بَقِـيَ هَـذَا الرَّجُلُ وَيُقِيْمُ لَيَكُونَنَّ بَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا، وَسَيَبِيْنُ ذلِكَ لَكُمْ إذا خَـرَجَ مِنْكُمْ إلَى غَيْرِكُمْ، فَذرُوهُ مَا تَرَكَكُمْ[(١)].

ومعنى الآيةِ: فإنْ أعرَضُوا عنِ الإيْمَانِ بكَ ولَمْ يقبَلُوا قولكَ بعد هـذا البيـان، فقُلْ: خوَّفْتُكم عَذاباً مثلَ عذاب قوم هودٍ وقوم صالِح. والصَّاعِقَةُ: هو الهـلاكُ علـى حالةٍ هائلةٍ.

وقولهُ تعالى: (إذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) أي إذا جاءتـهم الرسلُ إلى مَن كان قبلَهُم فعلِمُوا بتواتر الأخبار، ثم إنَّهم الرسلُ أيضاً من خَلَفِ مَـن كان قبلَهم بأن لا يعبدُوا إلاّ اللهَ، ﴿ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً ﴾ ؛ أي لو شـاءَ ربُّنـا أن يـنَزِّل إلينـا رسـولاً لأنـزلَ ملائكـةً مـن جُنـدِه، ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ ما أنتم إلاّ بشرٌ مثلُنا. ويجوز أن يكـونَ معنـى (مِـنْ بَيْـنِ أيْدِيـهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) بأن الرُّسُلَ أتَتْهُمْ من جميعِ جِهاتِهم.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٠٨؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلـى والحاكم وصححه، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل، وابن عساكر عن جـابر ابن عبدالله رضي الله عنهما) وذكره. وأخرجه البغوي في معالم التـنزيل: ص١١٤٨. والنحـاس في إعراب القرآن: ج ٤ ص٣٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ؛ أي تعظَّموا عنِ الإيْمانِ بنبيهم وأعجبَتْهم أجسامهم، ﴿ وَقَالُوا ﴾ ؛ لنبيِّهم: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ؛ بالبَدَنِ فيهلِكَنا، وذلك أنَّ هُوداً عليه السلام خوَّفَهم وهدَّدَهم بالعذاب، فقالوا: نحن نقدرُ على دفعهِ بفضل قوَّتنا، وكانت لَهم أجسامٌ طويلة وخَلْقٌ عظيمٌ، فلما أتَتْهُمُ الريحُ قاموا ليصدُّون عنهم فحملَتْهم إلى عَنَان السَّماء ثُم صرَعتهم على وجوهِهم ثُم ألقت عليهم الرَّملَ حتى غطَّتهم، وكان يُسمَعُ أنينُهم تحتَ التُّراب حتى أهلكَهم اللهُ.

فلمَّا قالوا لنَبيِّهم: (مَنْ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) قَالَ اللهُ تَعَالَى ردّاً عليهم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ؛ لأن الخالقَ للشَّيءِ لا بدَّ أن تكون له مِزْيَةٌ على خلقهِ، ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي يكفرون .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ ؛ أي عَاصِفاً شديدَ الصَّوتِ، مأخوذٌ من الصَّرَّةِ وهي الصيحةُ، وقال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي الْبَارِدَةَ، مَأْخُوذٌ مِنَ الصِّرِّ وَهُوَ الْبَرْدُ). قال الفرَّاءُ: (هِيَ الْبَاردَةُ تُحْرِقُ كَمَا تُحْرِقُ النَّارُ)[1] وَهِيَ رِيْحٌ بَاردَةٌ شَدِيْدَةُ الْهُبُوب، ذاتُ صَوْتٍ تُحْرِقُ كَالنَّار.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ ؛ أي نَكِدَاتٍ مَشْؤُومَاتٍ عليهم، ذاتِ نُحُوسٍ، قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا يَتَشَاءَمُونَ بِتِلْكَ الأَيَّامِ). قرأ ابنُ عامرٍ وأهلُ الكوفة (نَحِسَاتٍ) بكسرِ الحاءِ، وقرأ الباقون بسكونِها، يقالُ: يَوْمُ نَحْسٍ وَنَحِسٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ؛ أي عذابُ الْهَوْنِ والذُّلِّ وهو العذابُ الذي يُخزَونَ به، والْخِزْيُ والفَضِيحَةُ والنَّكَالُ كلُّه بمعنى واحدٍ، ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ، وعذابُ الآخرةِ أبلغُ في الْمَذلَّةِ وأبقَى وأشدُّ، لا يدفعُ عنهم ولا يخفَّفُ عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ ؛ أي وأمَّا ثَمُودُ فَبَيَّنَّا لَهم سبيلَ الْهُدَى ودعَوْناهم ودلَلْناهم على الخيرِ بإرسال الرُّسلِ، فاختارُوا

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص١٣.

الكُفْرَ على الإيْمَان بعد أنْ أرينَاهُم الأدلَّة وأخرجنا لهم ناقةً عَشْرَاءَ من صخرةٍ ملسَاءَ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ ؛ أي ذِي الْهَوَان، ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ، بكُفرِهم وعقْرِهم الناقةَ، ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ؛ بصَالِح، ﴿ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ الشِّركَ والكبائرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ قرأ نافعُ ويعقوب (نَحْشُرُ) بنونٍ مفتوحة وضمِّ الشِّين، ونصب (أعْدَاءَ)، وقرأ الباقونَ (يُحْشَرُ) بالياء المضمومةِ ورفعِ (أعْدَاءُ). ومعنى الآيةِ: وأنذِرْهُم يومَ يُجمَعُ أعداءُ اللهِ ويُساقونَ إلى النار بالعُنفِ، وقولهُ تعالى (فَهُمْ يُوزَعُونَ) أي يُحبَسُ أوَّلُهم على آخرِهم ليتلاحَقُوا ثُم يقذفُون في النار.

وَقَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ ؛ أي حتَّى إذا جَاءُوا النارَ التي لم يقذفوا[1] ثم يقذفون في النار. قولهُ تعالَى: حُشِر أعداءُ الله حُبسُوا عندَها وهم يُعاينُونَها، ويقالُ لَهم: أينَ شُركاؤُكم الذين كنتم تَزعُمون، فيجْحَدُون ويقولونَ: واللهِ ربنا ما كُنا مشركينَ، فعند ذلك يُختَمُ على أفواهِهم وتُستَنْطَقُ جوارحُهم ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ ﴾ ؛ وكلُّ عُضوٍ من أعضائِهم بما ارتكبُوا من الكُفرِ والمعاصِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ فُرُوجَهُمْ، كَنَّى عَنْهَا بالْجُلُودِ)[2]. وَقِيْلَ: الجلودُ الجوارحُ، ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ ﴾ ، فيقولُ الكفَّار لجلودِهم بَعدَما يُردُّ النطقُ إلى ألسِنتهم: ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ ؛ وعمِلتُم على هلاكِنا، ﴿ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ؛ وتمَّ الكلامُ.

ثُم قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي ليسَ إنطاقهُ الجلودَ أبدعَ من خلقهِ إيَّاكم ابتداءً وإعادةً بعد الموتِ، وليس هذا مِن كلامِ الجلود.

---

(١) في المخطوط: (حتى إذا جاءوا النار التي ثم يقذفون في النار).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٢٧) عن الحكم الثقفي، و(٢٣٥٢٨) عن عبيدالله ابن أبي جعفر.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: ما كنتم تَستَتِرُونَ بالمعاصِي عن الناس مخافةً مِن أن تشهدَ عليكم هذه الجوارحُ في الآخرة؛ لأنَّكم ما كنتم تظنُّونَ ذلكَ، ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ ولكن عمِلتُم بالمعاصِي عَمَلَ مَن يظُنُّ أنَّ الله لا يعلمُ بما يعملهُ في السرِّ. قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ الْكُفَّارُ يَقُولُونَ: إنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ مَا فِي أنْفُسِنَا وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَظْهَرُ!).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ﴾ ؛ اي ظنكم أن الله لا يعلم ما تعملون، ﴿ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي أهلكَكُم فصِرتُم من المنبذين بالوِزْر والعقُوبةِ. وَقِيْلَ: معنى (أرْدَاكُمْ) أي طَرَحَكم في النار[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ ؛ أي فإنْ يُمسِكُوا عن الاستغاثةِ ولم ينطقوا بشكوَى فالنارُ مسكنٌ لَهم منتقمةٌ منهم، ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي وإنْ يطلبُوا العُتْبَى وهي الرِّضَا فمَاهُم عن ((أنْ)) يطلبُوا رضَاهُم ويقبلُ عُذْرُهم. يقالُ: أعْتَبَنِي فلانٌ؛ أي أرْضَانِي بعدَ اسْتِخَاطِهِ إيَّايَ، واستَعْتَبْتُهُ طلبتُ منه أن يَعْتَبَ أي يرضَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ ﴾ ؛ معناهُ: سبَّبنا لَهم أعواناً وقُرَناءِ من الشَّياطين حتى أضَلُّوهم وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ من أمرِ الآخرةِ أنْ لا جنَّةَ ولا نارَ ولا بعث ولا حسابَ، ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ؛ من أمر الدُّنيا أن لا يُنفِقُوا في وجوهِ البرِّ، وأن يتلَذذُوا في الدُّنيا ويجمَعُوا الأموالَ، ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ ؛ أي وجبَ عليهم، ﴿ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ كفارَ قريشٍ قالوا لأتْباعِهم: لاَ تَسْمَعُوا هَذا الْقُرْآنَ

---

(١) نقله البغوي عن ابن عباس في معالم التنزيل: ص١١٥٠.

الَّذِي يَقْرَؤُهُ عَلَيْكُمْ مُحَمَّدٌ، فَإذا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأ فَارْفَعُوا أصْوَائكُمْ بالأشْعَار وَالأرَاجِيزِ وَالْغُوا فِيْهِ بالْمِكَاءِ وَالصَّفِيرِ، وقَابلُوهُ بكَلامِ اللَّغْوِ حتى تَغْلِبُوهُ فَيسْكُتَ.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ؛ أي في الدُّنيا بالقتلِ والأسرِ، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ ، ولنُعاقِبَنَّهم في الآخرةِ بعذابٍ أشدَّ مِن عذابهم في الدُّنيا، ﴿ ذَلِكَ ﴾ ؛ العذابُ، ﴿ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ ﴾ . وقولهُ تعالى: ﴿ النَّارُ ﴾ ؛ بدلٌ مِن العذاب؛ أي بدلٌ من قولهِ (جَزَاءُ أعْدَاءِ اللهِ). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ ؛ أي لَهم في النَّار دارُ الإقامةِ، ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) ﴾ ؛ يعني الْقُرْآنَ جَحَدُوا أنه مِن عند اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ ؛ معناهُ: يقولُ الَّذين كفَرُوا في النار: يا رَبَّنا أرنا اللَّذين أضَلَّانا عن الحقِّ. قال بعضُهم: يريدُ به إبليسَ وقابيلَ أوَّلَ مَن أحدثَ المعصيةَ في بني آدمَ، ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ ؛ أي أسْفَلَ منَّا في النار، ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ ؛ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ليكونا أشَدَّ عذاباً منَّا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ ؛ أي إنَّ الذين وحَّدُوا اللهَ، ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ ، على الإيْمَان ولَم يشركُوا. وكان الحسنُ إذا قرأ هذه الآيةَ قال: (اللَّهُمَّ أنْتَ رَبُّنَا فَارْزُقْنَا الاسْتِقَامَةَ)[1].

وقال أبو بكرٍ ﷺ: (يَعْنِي ثُمَّ اسْتَقَامُوا عَلَى أنَّ اللهَ رَبٌّ لَهُمْ)[2]، وقال مجاهدُ: (هُمُ الَّذِيْنَ لَمْ يُشْرِكُوا بهِ شَيْئاً حَتَّى يَلْقَوْهُ)[3]. وقال بعضُهم: يعني الاستقامةَ على أداءِ الفرائضِ ولُزومِ السُّنة. وروي عن عُمر ﷺ: (اسْتَقَامُوا للهِ بطَاعَتِهِ وَلَمْ يَرُوغُوا رَوَغَانَ الثَّعَالِبِ)[4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٥٩).

(٢) بمعناه؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (٢٣٥٥١-٢٣٥٥٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٥٤).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥١. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣٢٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المبارك وسعيد بن منصور وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن=

وقوله: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ؛ يعني قَبْضَ أرواحِهم فتقولُ لَهم: ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي لا تخافُوا ما أنتم وَاقِفُونَ عليه، ولا تحزَنُوا على الدُّنيا وأهلِها، وتقولُ لهم عند خُروجِهم حين يَرَونَ أهوالَ القيامةِ: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ ؛ تولَّيناكم وحفِظْنَا أعمالَكم، ونتولاَّكم في الآخرةِ ونحفَظُكم.

وعن ثابتٍ أنه قالَ: (بَلَغَنَا أنَّ الْمُؤْمِنَ إذا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَظَرَ إلَى حَافِظَيْنَ قَائِمَيْنَ عَلَى رَأسِهِ يَقُولاَنِ لَهُ: لاَ تَخَفِ الْيَوْمَ وَلاَ تَحْزَنْ وَابْشِرْ بالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتَ تُوعَدُ)[1].

وقال عثمانُ ﷺ فِي معنى قولِهِ: (ثُمَّ اسْتَقَامُوا: ثُمَّ أخْلَصُوا الْعَمَلَ للهِ عَزَّوَجَلَّ)[2]. وقال مجاهدُ وعكرمة: (مَعْنَاهُ: ثُمَّ اسْتَقَامُوا عَلَى شَهَادَةِ أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ حَتَّى لَحِقُوا باللهِ)[3].

وقال مقاتلُ: (اسْتَقَامُوا عَلَى الْمَعْرِفَةِ، وَلَمْ يَرْتَدُّوا، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ)[4] فِي ثَلاَثِ مَوَاطِنَ: عِنْدَ الْمَوْتِ، وَفِي الْقَبْرِ، وَفِي وَقْتِ الْبَعْثِ: أنْ لاَ تَخَافُوا عَلَى صَنِيعِكُمْ وَلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مُخَلِّفِيكُمْ)[2].

وقال مجاهدُ: (أنْ لاَ تَخَافُوا عَلَى مَا تُقْدِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أمْرِ الآخِرَةِ، وَلاَ تَحْزَنُوا عَلَى خِلْفَتِكُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ وَلَدٍ وَأهْلٍ، فَإنَّهُ سَيَخْلِفُكُمْ فِي ذلِكَ كُلِّهِ)[2]. وقال السديُّ: (لاَ تَخَافُوا مِنْ ذُنُوبكُمْ فَإنِّي أغْفِرُهَا لَكُمْ).

=المنذر) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٥٩).

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٢٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ثابت أنه قرأ السجدة) وذكره.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٥٧).

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٦٦.

وقال بعضُهم: معنى هذه الآيةِ: أنَّ الذين قالُوا: (رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) بالوفاءِ على ترك الْخَنَى[1] تَتَنَزَّلُ عليهمُ الملائكةُ بالرِّضَى: أن لا تخافُوا من الغِنَى ولا تحزنُوا على الغنَى وأبْشِرُوا بالبَقاءِ مع الذي كنتم توعدونَ من اللقاءِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ألاَّ تَخافُوا فلا خوفٌ على أهلِ الاستقامةِ، ولا تَحزنُوا فإن لكم أنواعَ الكرامةِ وأبشِرُوا بالجنةِ التي هي دارُ السَّلامةِ، لا تخافُوا فعل دِينِ الله إنِ استقمتُم، ولا تحزَنُوا، فبحبلِ اللهِ اعتصَمتُم، وأبْشِرُوا بالجنةِ إن تُبْتُمْ لا تخافوا ما دُمتم ولا تحزنوا فقد نِلتُمْ ما طلبتم، وأبشِرُوا بالجنةِ التي فيها رَغِبْتم، ولا تحزنوا فأنتم أهلُ الإيْمان، ولا تحزنوا وأنتم أهلُ الغفران، وأبشِرُوا بالجنةِ التي هي دارُ الرِّضوان، لا تخافوا وأنتم أهلُ الشَّهادة، ولا تحزَنُوا فأنتم أهلُ السَّعادة، وأبشروا بالجنةِ التي هي دارُ الزِّيادة، لا تخافوا فأنتم أهلُ النَّوال، ولا تحزنوا فأنتم أهلُ الوِصال، وابشروا بالجنة التي هي دارُ الحَلال، لا تخافوا فقد أمنتم الثُّبُورَ، ولا تحزنوا فإنَ لكمُ الحورَ، وأبشروا بالجنة التي هي دار السرور، ولا تخافوا فسعيُكم مشكورٌ، ولا تحزنوا فذنبُكم مغفورٌ، وابشروا بالجنة التي هي دار النور، لا تخافوا فطَالَما كنتم خائفينَ، ولا تحزنوا فقد كنتم عَارفين، وأبشِرُوا بالجنة التي عَجَزَ عنها وصفُ الواصفين، لا تخافُوا فأنتم مِن أهل الإيْمان، ولا تحزنوا فأنتم من أهلِ الحرمَان، وأبشِروا بالجنة التي هي دارُ الأمانِ. لا تخافوا فسَلِمتُم من أهلِ الجحيم، ولا تحزنوا فقد وَصلتُم إلى الرب الرحيم، وأبشِروا بالجنةِ التي هي دارُ النعيمِ، لا تخافُوا فقد زالت عنكم المخافةُ، ولا تحزنوا فقد سَلِمتُم من كلِّ آفةٍ، وابشِرُوا بالجنةِ التي هي دارُ الضيافةِ، لا تخافوا العَزْلَ من الولايةِ، ولا تحزنوا على ما قدَّمتُم من الجنايةِ، وأبشِرُوا بالجنةِ التي هي دار الهداية، لا تخافوا حُلولَ العذاب، ولا تحزنوا من هَولِ الحساب، وأبشِرُوا بالجنة التي هي دارُ الثواب، لا تخافوا فأنتم سَالِمون من العقاب، ولا تحزنوا فأنتم وَاصِلون إلى الثواب، وأبشِرُوا بالجنة فأنَّها نِعْمَ المآب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾ ؛ أي تقولُ لَهم الملائكةُ: نحنُ أولياؤُكم؛ أي نحنُ الْحَفَظَةُ الذي كنا معكُم في الأُولَى، ونحنُ أحبَّاؤُكم أولياؤكم

---

(١) الْخَنَا: الفُحْشُ، وقد (خَنَى) عليه من باب (صَدَى) و(أخْنَى) عليه في مَنْطِقِهِ: أي أفحَشَ. وأخنَى عليه الدهرُ: أتى عليهِ وأهلكَهُ. مختار الصحاح: ص١٩٢.

في الآخرةِ، لا نفارقُكم حتى تدخلُوا الجنـةَ، (وَلَكُـمْ فِيـهَا مَـا تَشْـتَهِي أنفُسُـكُمْ) مـن الكَراماتِ واللَّذاتِ، يعـنِي ولكـم في الآخـرةِ مـا تشـتَهي أنفسُـكم، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي أنْزَلَـهم اللهُ نُـزُلاً، ولا يجـوزُ أن يكونَ قولهُ (نُزُلاً) جمع نَازلَةٍ، ويكون المعنَى: ولَكُمْ ما تَدَّعُونَ من غَفُورٍ رَحِيْمٍ نَازلِينَ. ويجوزُ أن يرادَ به القوتُ الذي يقامُ للنازلِ والضَّيفِ، والمعنى: ثَبَـتَ لَـهم مـا يدَّعـون (نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ) أي كثيرِ المغفرةِ، رَحيمٍ بمن كان على الإيْمانِ والتوبةِ.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (إنَّ الَّذِيْنَ قَالُواْ رَبُّنَـا اللهُ ثُـمَّ اسْتَقَامُوا) قَالَ: [أمَّتِي وَرَب الْكَعْبَةِ][1]، لأنَّ اليهودَ قالوا ربُّنا اللهُ ثُم لَم يَستَقِيمُوا إذ قالُوا: عزير ابن الله! والنصارى قالوا: ربنا الله، ثم لم يستقيموا إذ قـالوا: المسـيحُ ابـنُ اللهِ!

قولهُ تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ؛ قال ابـنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا إلَى شَهَادَةِ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ)، وقـال الحسنُ: (هُوَ الْمُؤْمِنُ أجَابَ اللهُ دَعْوَتَهُ وَدَعْوَةَ النَّاسِ إلَى مَـا أجَـابَ اللهُ فِيْـهِ دَعْوَتَـهُ وَعَمِلَ صَالِحاً فِي إجَابَتِهِ)[2] ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ وقالت عائشـةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُؤَذِّنِيْنَ الَّذِيْنَ يَدْعُونَ إلَى الصَّلاَةِ وَيُصَلُّونَ بَيْنَ الأَذانِ وَالإقَامَةِ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ ؛ ولا تَستَوِي كلمةُ التَّوحيـدِ وكلمةُ الشِّرك، وَقِيْلَ: هُما الطاعةُ والمعصية، ويقالُ: الخِصْلَةُ الحميدةُ والخِصلة السيِّئة. وَقِيْلَ: الْحِلْمُ والجهلُ، والعَفْوُ والإساءةُ.

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٨ ص٢٩٤؛ قال: (روى ثـابت عـن أنـس) وذكـره. ونقلـه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٥٨، ولم أقف عليه.

(٢) نقلهما البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥١. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٦٩).

(٣) نقله البغوي في معـالم التـنزيل: ص١١٥١. وفي الـدر المنثـور: ج ٧ ص٣٢٥؛ قـال السـيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه).

ودخولُ (لاَ) في قولهِ: (وَلاَ السَّيِّئَةُ) زائدةٌ للتأكيدِ وبُعدِ المساواةِ(١)؛ لأن المعنى: لا تستَوِي الحسنةُ والسيئةُ، ومثلهُ قولُ الشاعرِ:

مَـا كَـانَ يَرْضَـى رَسُـولُ اللهِ فِعْلَـهُـمُ وَالطَّيِّبَـانِ أَبُـو بَكْـرٍ وَعُمَـرُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ ؛ أي ادْفَعِ السَّفَاهَةَ والعجَلَةَ بالأَناةِ وبالرِّفقِ، وذلك أنكَ إنْ لقِيتَ بعض مَن يضمرُ في نفسهِ عداوتَكَ فتبدأهُ بالسَّلام أو تبتسِمُ في وجهه لأن ذلكَ يلين لك قلبَهُ، ويسلَمْ لك صدرُهُ فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي إذا فعلتَ ذلك صارَ الذي يُعادِيكَ صَدِيقاً قريباً لك. وتُسمِّي العربُ القريبَ حَمِيماً؛ لأنه يَحمِي لِمَا يهُم صاحبهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ ؛ أي ما يلقَى هذه الخِصلَةَ التي هي دفعُ السَّيِّئة بالحسنةِ إلاَّ الذين صَبَرُوا على كَظْمِ الغَيْظِ واحتمال المكروهِ وصبَرُوا على طاعةِ الله، وصبَروا عن معصيتهِ ، ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ ، أي وما يُعطَاها، ﴿ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ من الخير. وَقِيْلَ: مِن الصبرِ، وَقِيْلَ: الحظُّ العظيمُ الجنَّة، أي ما يُلَقَّاهَا إلاَّ مَن وجبت له الجنَّةُ. وَقِيْلَ: الحظُّ العظيمُ القَدْر، العظيمُ عندَ الله.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ ﴾ ؛ أي وإمَّا يلحقنَّكَ مِن الشيطانِ وَسْوَسَةٌ عند هفوةِ غيرك وعندما يدعُو بكَ إلى معصيةِ الله فتصرفُكَ الوسوسةُ عن الاحتمال، ﴿ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ ﴾ ؛ أي اعْتَصِمْ باللهِ من شرِّ الشَّيطان، امْضِ على حُكمِكَ، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ لِمقالَةِ أعدائِكَ، ﴿ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ بهم وبمُجارَاتِهم.

ثُم ذكرَ اللهُ علاماتِ توحيدهِ ودلائل قُدرتهِ؛ فقال: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ ﴾ ؛ أي ومن آياتهِ الدَّالةِ على رُبُوبيَّتِهِ ووَحدَانِيَّتِهِ الليلُ والنهارُ بما فيهما من المنافعِ والمقاصدِ، والشمسُ والقمرُ بما فيهما من البدائعِ، ﴿ لَا

(١) ينظر: معاني القرآن للأخفش: ج ٢ ص٦٨٤.

تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ ؛ أي لا تَعبدُوا الشمسَ والقمرَ، واعبدُوا اللهَ الـذي خلَقـهُنَّ، ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي إنْ كُنتم تُريدونَ بعبادةِ الشَّمس والقمرِ عبادةَ اللهِ.

وذلك أنَّ قَوماً من الكفَّار يَسجُدونَ لَهما ويزعمونَ أنَّهم يتقرَّبـون بذلـكَ إلى اللهِ تعالى، فقيلَ لَهم: إنْ كنتم تريدون بذلكَ عبادةَ الله تعالى، فالسُّجود لِخالِقِهما أولَى مـن السُّجود لَهما.

فإنْ قِيْلَ: ما معنى قولـهِ (خَلَقَـهُنَّ) والقمـرُ مذكَّـرٌ والشـمسُ مؤنَّثـة، والمذكَّـرُ والمؤنث إذا اجتمَعا غلبَ المذكَّر؟ قُلْنَا: إنَّ قوله (خَلَقَهُنَّ) راجعٌ إلى الآياتِ التي سَـبَقَ ذكرُها في أوَّل هذه الآيةِ من الليل والنهار والشَّـمسِ والقمـر، ويكـون ضمـيرُ مـا لا يعقلُ على لفظ التأنيثِ كما يقالُ: هذه كِبَاشُ دُبِحْنَ ودُبِحَتْ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ؛ أي فإن تَكبَّرُوا عن عبادتِي والسـجودِ لِـي فالملائكـةُ الذيـن عنـدَ ربـكَ بقرب الكرامة والمنْزلة يُصلُّون له بالليلِ والنهار، وينَزِّهُونَهُ عـن كـلِّ مـا لا يليـقُ بـه، ﴿ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي لا يَميلُونَ على عبادتهِ ولا يَفْتُرُونَ.

واختلَفُوا في موضعِ السُّـجود مـن هـذه السُّورةِ؛ فقـال الحسـنُ: (عِنْـدَ قَوْلِـهِ (تَعْبُدُونَ). وهو قولُ الشَّـافعي. وقـال ابـنُ عبَّـاس ومسـروقٌ: (هُـوَ عِنْـدَ قَوْلِـهِ: لاَ يَسْأَمُونَ) وهو قولُ عُلمائِنَا، وهو الأصحُّ لأنه موضِعُ تَمام الكلامِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً ﴾ ؛ مِن آياتهِ الدَّالة علـى وحْدَانِيَّتِهِ وقُدرتهِ أنَّكَ تـرَى الأرضَ مُغـبَرَّةً يابسـةً لا نبـاتَ فيـها، ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ ؛ تحرَّكت للنباتِ وانتفخَتْ وارتفعت لـه حتـى يكـادُ النبـاتُ يظهر، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا ﴾ ؛ بإنزال المطر، ﴿ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾ ؛ في الآخرة، ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ من الإحياءِ والإمَاتةِ.

---

(١) نقله القرطبي الخلاف بتفصيل أكثر في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٦٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ ؛ أي يَمِيلُونَ عن الحقِّ في آياتنا إلى جانب الباطل، قال مقاتلُ: (يَمِيلُونَ عَنِ الإِيْمَانِ بِالْقُرْآنِ[١])[٢]، وقال مجاهدُ: (يُلْحِدُونَ بآيَاتِنَا بالْمُكَاءِ وَاللَّغَطِ)[٣]، ﴿ لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ ﴾ ، بأَشْخَاصِهِمْ وَأفْعَالِهِمْ وَأقْوَالِهِمْ وَعَزَائِمِهِمْ. واللَّحْدُ واللِّحَادُ بمعنى واحدٍ وهو الْمَيْلُ، ومنهُ الْمُلْحِدُ لعدولهِ عن الحقِّ، ومنهُ اللَّحْدُ الذي في القَبرِ لأنه في جانبٍ منهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾ ؛ هو تقديرُ نفي المساواة بين الفريقين. قِيْلَ: المرادُ قولهُ (أفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّار) أبو جهل وجدلُه (خَيْرٌ أمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) حمزة، وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ لفظهُ لفظُ الأمر، ومعناهُ التهديدُ والوعيدُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ ﴾ ؛ أي بالقُرْآن، ﴿ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ ﴾ ؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ محذوفُ الجواب، تقديرُهُ: (إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ) سَيَنْزِلُ بهم مِن العذاب ما هو مذكورٌ في الكتاب العزيز. والعَزِيزُ: هو الكريمُ على اللهِ. وَقِيْلَ: هو الممتنعُ على مَن يريدُ مُعَارَضَتَهُ وتَغْيِيْرَهُ بزيادةٍ ونُقصانٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ ﴾ ؛ أي لا يأتيهِ التكذيبُ من الكتب التي قبلَهُ ولا يجيءُ بعده كتابٌ فيبطلهُ، وقال الزجَّاج: (مَعْنَاهُ: أنَّهُ مَحفُوظٌ مِنْ أنْ يُنْقَصَ مِنْهُ فَيَأْتِيَهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، أوْ يُزَادَ فِيْهِ فَيَأْتِيَهِ الْبَاطِلُ مِنْ خَلْفِهِ)[٤]، فمعنى الباطلِ على هذا الزيادةُ والنقصانُ. وفي عَينِ المعانِي: (الْبَاطِلُ إبْلِيْسُ).

---

(١) في المخطوط: (بالكفران).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٦٨.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٩١).

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ص٢٩٤.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي مُنَزَّلٌ من عالِمٍ بوجوه الحكمةِ، مستحقٌّ للحمدِ على خَلْقِهِ بإنعامهِ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ ؛ فيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ على ما كان يلحقهُ من أذِيَّةِ قومهِ؛ أي قد قيلَ للأنبياءِ قبلَكَ ساحرٌ، وكُذِّبُوا كما كُذِّبْتَ. ويجوز أن يكون معناهُ: ما أقولُ لكَ ولا آمرُكَ بتبليغِ الوحْيِ والرسالةِ إلاّ ما قد قيلَ للرُّسلِ قبلَكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي لذُو مغفرةٍ لِمَن تابَ وآمنَ، وذُو عقابٍ ألِيْمٍ لِمَن ثابَ[1] على الكُفرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُۥٓ ﴾ ؛ أي لو جعلناهُ قُرْآناً بلُغةٍ غيرِ لغةِ العرب لقال العربُ: ولو بُيِّنَتْ آياتهُ بلغةِ العرب حتى نفهمَها عندَكَ بغيرِ مُترجم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ ؛ استفهامٌ على وجهِ الاستبعادِ؛كأنَّهم قالُوا: كتابٌ أعجميٌّ ورسول عربيٌّ، كيف يكونُ هذا؟! فيُنكِرونَهُ أشدَّ الإنكار. يقالُ: رجل أعجميٌّ إذا كان لا يُفْصِحُ سواءٌ كان مِن العرب أو العجمِ، ورجلُ عَجَمِيٌّ إذا كان مَنْسُوباً إلى العجمِ وإنْ كان فَصِيحاً، ورجلٌ أعْرَابيٌّ إذا كان مِن أهل الباديةِ سواءٌ كان من العرب أو لَم يكن، ورجلٌ عَرَبِيٌّ إذا كان مَنْسُوباً إلى العرب وإن كان غيرَ فصيحٍ.

ومعنَى الآيةِ: أنَّهم كانوا يقولُونَ: إنَّ الْمُنَزَّلَ عليه عربيٌّ، والْمُنَزَّلُ أعجميٌّ، فكان ذلك أشدُّ لتكذيبهم، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ يا مُحَمَّد: ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ ؛ يعني القُرْآنَ هُدًى للذين آمَنُوا من الضَّلالةِ وشِفَاءٌ من الأوجاعِ. وقال مقاتلُ: (شِفَاءٌ لِمَا فِي الْقُلُوب بالْبَيَان الَّذِي فِيْهِ)[2].

---

(١) ثابَ: رجعَ، وثابَ الناس: اجتمعوا وجاءوا. والمثابة: الموضع الذي يُثاب إليه مروى بعد أخرى، ومنه سمي المنزل مثابةً، وأراد هنا الإصرار على الكفر.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٦٩.

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ ؛ أي إنَّـهم في تَرْكِ القَبُول بمنْزلَـةِ الصُّـمِّ العُمْـي، وسـيؤدِّيهم تكذيبُـهم إلى العَمَـى، وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ؛ أي عَمُوا عنِ القُرْآنِ وصَمُّوا عنه.

وقال السديُّ: (عَمَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْهُ)[١]. والمعنى: وهو عليهم ذُو عمًى. وانتصبَ قولـهُ (عَمًـى) علـى المصـدر. وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ ؛ أي إنَّهم لا يَسمَعُونَ ويفهمونَ كما أنَّ مَن دعَا مِن مكانٍ بعيد لَـم يسمَعْ ولَم يفهم. والمعنى: أنَّهُ بعيدٌ عندَهم مِن قُلوبهم ما يُتْلَى عليهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ ؛ يعـني التـوراةَ، ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ ؛ قومهُ كما اختلفَ قومُكَ في القُرْآن، وهذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ[٢]؛ أي كما آتيناكَ الكتابَ وكذبَ به قومُكَ وصدَّقَ به بعضُهم كذلك آتينا موسـى الكتـابَ فكـذبَ بـه بعضُ قومِهِ وصدَّقَ به بعضُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ ؛ معناهُ: ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِن ربكَ في تأخيرِ العذاب عن هذه الأمةِ إلى يوم القيامةِ كما قَـالَ تَعَالَى ﴿بَلِ السَّـاعَةُ مَوْعِدُهُـمْ﴾[٣] لعَذبَـهم بعـذاب الاسـتئصالِ. وَقِيْـلَ: أرادَ بسـبقِ الكلمةِ: أنْ لا يعَذِّبَهم وأنتَ فيهم.

والمعنى: ولَوْلاَ كلمةٌ سَبَقَتْ مِن ربكَ في تأخيرِ العذاب عن مُكَذِّبي القُـرْآن إلى أجلٍ مُسمًّى يعني القيامةَ، لقُضِيَ بينَهم بالعذاب الواقـعِ بمَـن كـذبَ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ ، مِن صِدقِكَ وكِتَابكَ، ﴿مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ ؛ أي موقـعٌ لَـهم الرِّيبـة، وَقِيْلَ: إنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ من القُرْآنِ ظاهرِ الشَّكِّ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٦١٣).

(٢) في المخطوط: (وهذا تعدية للنبي ﷺ)، والمناسب ما أثبتناه، والله أعلم.

(٣) القمر / ٤٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ ظاهرُ المرادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ ﴾؛ أي لا يَعْلَمُ متَى وقتُ قيامِها إلاّ اللهُ تعالى، ولا يجابُ فيها بشيءٍ، ويقالُ: اللهُ أعْلَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾؛ قرأ نافعُ وابن عامر (ثمَرَاتٍ) بالجمعِ، وقرأ الباقونَ (ثَمَرَةٍ) على الوحدَان. وقَوْلُهُ تَعَالَى (مِنْ أكْمَامِهَا) الأكْمَامُ جَمْعُ الكُمَّةِ[1]، وهي لِيْفُ النَّخْلِ، وقال ابنُ عبَّاس: (الأَكْمَامُ الكُفُرِّيُّ قَبْلَ أنْ يَنْشَقَّ، فَإذا انْشَقَّ فَلَيْسَ بأكْمَام)[2] ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ ﴾؛ بَيَّنَ اللهُ أنَّ الذي يعلمُ الثِّمارَ في الأكمامِ، والأولادَ في الأرحامِ مع مُشاهدةِ الأكمامِ، والأمَّهاتِ هو اللهُ تعالى لا يَعْلَمُهُ أحدٌ غيرهُ، ومَن لَم يُشاهد شيئاً منها أوْلَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى ﴾؛ فيه وعيدٌ للمشركين؛ أي يقالُ للمشركين يومَ القيامةِ: أيْنَ شُركَائِي في ظَنِّكُمْ وزَعمِكم؟! فيقولون: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ أي أعْلَمْنَاكَ وعرَّفنَاكَ أنَّا كُنا في الدُّنيا جُهلاءَ غيرَ عارفين، ما مِنَّا من شهيدٍ أنَّ لكَ شَريكاً، يَتَبَرَّؤُونَ يومئذٍ مِن أن يكونَ مع اللهِ شريكٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾؛ أي ضَاعَ، ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ ﴾؛ يَعبُدُونَ، ﴿ مِن قَبْلُ ۖ ﴾؛ في الدُّنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ أي أيْقنُوا أنه لا خلاصَ لَهم من النَّار.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ ﴾؛ أي لا يَمَلُّ الإنسانُ مِن الخيرِ، ﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾؛ والمكروهُ والأمراض والأسقامُ والشَّدائدُ،

---

(١) هو كلُّ ظَرْفٍ لماء أو لغيره، والعربُ تدعو القشرةَ الكُفُرَّاةِ كُمّاً، والكُفُرَّاةُ والكُفُرِّيُّ: كَافُورُ الطَّلْعِ. والكافورُ: وعاءُ طلعِ النَّخل، أي قِشرهُ. أخرجه الطبري بإسناده عن السدي كما في جامع البيان: الأثر (٢٣٦٢١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٦٢١) عن السدي. ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٧١ عن ابن عباس.

﴿ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي يصيرُ آيسَ شيءٍ من عَوْدِ النِّعمةِ، وزوالِ المكـروهِ عنه، فيَضْجَرُ على ذلكَ غايةَ الضَّجرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا ﴾ ؛ أي نِعْمَـةً منَّـا، ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ ﴾ ؛ من بعدِ مَكْرُوهٍ مَسَّهُ، ﴿ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾ ؛ أي بفضْلِي وقوَّتِـي وعمـلٍ استَحْقَقْتُهُ، وهذا من اختلافِ الكفَّار. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ ﴾ ؛ هذا يدلُّ على أنَّ هذا الإنسانَ كافرٌ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ ؛ أي لسـتُ على يقينٍ من البعثِ، فإن كان الأمرُ على ذلكَ ورُدِدْتُ إلَى رَبي أنَّ لِـي عنـدَهُ الجنـةَ ويعطيني في الآخرةِ أفضـلَ مـا أعطـانِي في الدُّنيـا. قـالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ وعيدٌ لَهم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ ؛ أي اذا أنْعَمْنَـا على الكافرِ أعرضَ عن الطاعةِ والشُّكر وتبـاعدَ عـن الواجـب كِـبَراً، ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾ ﴾ ، وإذا أصابَهُ مكروهُ الدَّهرِ فإذا هو يَئِسٌ يدعُو اللهَ ليكشِفَ ذلك عنهُ.

والمعنى بقولهِ تعالى (دُعَاءٍ عَرِيضٍ) أي كثيرٍ لا يَمِلُّ من الدُّعاء. وإنَّما لَم يقـل: طَويلٍ؛ لأن ذِكْرَ العريضِ أبلغُ في بابِ الامتدادِ والانبساط، لأن العريـضَ يـدلُّ علـى الطويلِ، ولا يدلُّ الطويلُ على العريضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّـد لأهلِ مكَّة: أرَأيْتُمْ إنْ كان القُرْآنُ مـن عنـدِ اللهِ، ﴿ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ ﴾ ؛ عن الحقِّ والْـهُدَى، ﴿ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ خِـلاَفٍ للحـقِّ بعيـدٍ عنهُ، وهو أنتُمْ، فلا أحدٌ أضَلُّ منكُم.

وَقَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ ؛ أي سـنُريهم دلائلَ التوحيدِ من مَسِيرِ النُّجومِ وجَرَيانِ الشَّمسِ والقمـرِ طُلُوعـاً وغُرُوبـاً علـى مـرِّ الدُّهور، وفي الأرضِ من الجبالِ والأوديةِ والأشجار. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَفِي أنْفُسِهِمْ) من مَخَارجِ الأنفَاسِ ومجَاري الدَّم وموضعِ العَقْلِ والفِكْرِ والفهمِ وآلاتِ الكلامِ.

وَقِيْلَ: معنى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ) أي سَنُريهم ما نفتحُ مِن القُرَى على مُحَمَّد ﷺ في النواحِي والأطرافِ (وَفِي أَنْفُسِهِمْ) فتحُ مكَّةَ[1]. قال الحسنُ: يعني (سَنُرِيْهِمْ ظُهُورَ مُحَمَّدٍ عَلَى الآفَاق وَعَلَى مَكَّةَ حَتَّى يَعْرِفُوا أنَّهُ مُؤَيَّدٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى بَعْدَ أنْ كَانَ وَاحِداً لاَ نَاصِرَ لَهُ)[2]. وذلك معنى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ ؛ أي ما يقولُ لَهم النبيُّ ﷺ هو الحقُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أوَلَمْ يَكْفِ بربكَ شَاهداً أنَّ القُرْآنَ من اللهِ وأنَّ النبيَّ ﷺ صادقٌ وشهيد هو العالِمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: ألا إنَّهم في شكٍّ من البعثِ والثواب والعقاب، ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلْماً؛ إنَّهُ يعلَمُ الغيبَ والشَّهادةَ.

آخر تفسير سورة حم السجدة (**فصلت**)، والحمد لله رب العالمين

---

(١) قاله الطبري في جامع البيان: مج ١٣ ج ٢٥ ص٧. ونقله عن السدي في الأثر (٢٣٦٣٢)، عن المنهال في الأثر (٢٣٦٣١).

(٢) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٤ عن مجاهد والحسن والسدي والكلبي.

سُورَةُ الشُّـــورَى

سُورَةُ الشُّورَى مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاَثَةُ آلاَفٍ وَخَمْسُمِائَةِ حَـرْفٍ وَثَمَـانُونَ حَرْفـاً[1]، وَثَمَانُمِائَةٍ وَسِتُّ وَسِتُّونَ كَلِمَةً، وَثَلاَثٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ حم عسق كَانَ مِمَّنْ تُصَلِّي عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَـةُ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَسْتَرْحِمُونَ لَهُ][2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ ﴾ ؛ (ح) حِلمـهُ و (م) مجـدهُ و (ع) عِلمـهُ و (س) سناؤه و(ق) قُدرَتهُ، أقسمَ اللهُ بها[3]،﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ﴾ ؛ اخباراً بالغيب ويكون قبلَ أن يكون، وَقِيْلَ: الحاءُ من الرَّحمنِ، والميمُ من مَلِكٍ، والعين من عزيزٍ والسين من قدُّوسٍ والقافُ من قاهرٍ، ومعنـى (كَذلِكَ يُوحِي إلَيْكَ) مثل ما أوحَينا إليك بـهذه السُّورة أوحَينـا إلى مَـن قَبلَـكَ مـن الرُّسلِ. وعن ابنِ عبَّاس ﷺ أنه قالَ: (لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ وَقَدْ أوْحِيَ إلَيْهِ بـ حـم عسـق كَمَا أوحِيَ إلَى نَبيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ)[4].

---

(١) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٧ ص١٦١؛ قـال الحنبلـي: (وثلاثـة آلاف وخمسـمائة وثمانيـة وثمانون حرفاً).

(٢) أخرجه أهل التفسير، وهو من مرويات الثعلـبي وابـن مردويـه عـن أبـي في تفسـيرهما. ينظـر: الكشاف للزمخشري: ج ٤ ص٢٢٨. واللباب لابن عادل الحنبلي: ج ١٧ ص٢٢٥.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج١٩ ص٢؛ قال القرطبي:(وروى نافع عن ابـن عبـاس...) وذكـره. وفي معالم التنزيل: ص١١٥٥ ذكره البغوي عن عكرمة عن ابن عباس.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ ظاهرُ المعنى.

وقولهُ تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ ؛ أي تكادُ كلُّ سماءٍ تشقَّقُ فوقَ التي تَلِيها من قولِ المشركين: اتَّخذ اللهُ ولداً، ومِن استعظامِ كُفرِ أهلِ الأرضِ مع عِظَمِ نِعَمِ اللهِ تعالى عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي يُنزِّهُونَ اللهَ عن القول الذي تكادُ السَّموات يتفطَّرن منه، ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ لأوليائهِ وأهلِ طاعته.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ يعني كفارَ مكَّة اتَّخذُوا آلهةً فعبَدُوها من دون الله، وقولهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي اللهُ حفيظٌ على أعمالِهم ليجازيَهم بها، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي لم يوكِّلك حتى تُؤخَذ بهم وتعاقَبَ بمخالفَتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ؛ أي كما أنزَلنا على مَن قبلكَ بلسانِ قَومِهم أنزَلنا عليكَ قُرآناً بلُغَةِ العرب لتُخوِّفَ به أمَّ القُرى وهي مكَّةُ، سُمِّيت أمَّ القرى لأنَّ الأرضَ دُحِيَتْ من تحتِها. وقولهُ تعالى: (وَمَنْ حَوْلَهَا) أي لتُنذِرَ أهلَ أمِّ القُرَى ومَن حولَها مِن البُلدانِ، وَقِيلَ: يعني قُرَى الأرضِ كلِّها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ ﴾ ؛ وهو يومُ القيامةِ، يَجْمَعُ اللهُ فيه الأوَّلين والآخِرين، وأهلَ السمواتِ وأهلَ الأرض، ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ؛ أي لا شكَّ في الجمعِ فيه أنه كائنٌ، ثم بعدَ الجمعِ يتفرَّقون كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي طائفةٌ من أهل الجمع وهم المؤمنون يُساقون إلى الجنَّة يتنعَّمون ويتمتعون، وطائفة يُساقون إلى النار ذات الوقود وهمُ الكفَّارُ فيها يُعذبون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ؛ أي لو شاءَ لجمَعَهم على دينِ الإسلامِ بأنْ يُعرِّفَهم طريقَ الحقِّ بالاضطرار، ولكنَّهُ لم يفعلْهُ، أرادَ أن يعرضهم[1] للثواب والإلجاءُ يَمنَعُ من ذلكَ، ومثلُ قولهِ تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾[2]. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ ؛ أي في دينِ الإسلام، ﴿ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ ، يَمنَعُهم؛ أي والكافِرُون ما لَهم من وليٍّ يدفعُ عنهم العذابَ وَلاَ نَصِيرٍ يَمنَعُهم من ((النار))[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ بلِ اتَّخذ الكفارُ من دون اللهِ أرباباً، ﴿ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَلِيُّكَ يَا مُحَمَّدُ وَوَلِيُّ مَنِ اتَّبَعَكَ)[4] ﴿ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ؛ يَبعثُهم للجزاءِ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ من الإحياءِ والإماتَةِ، ﴿ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: وما اختلفتُم فيه من شيءٍ من الدِّين فرُدُّوا حُكمَهُ إلى كتاب الله، واعتَمدُوا الأدلَّةَ دون التقليدِ والشبه كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾[5].

وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ ؛ الذي ادعُوكم إلى عبادتهِ وهو اللهُ ربي، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ؛ في كِفَايَةِ مهمَّاتِي، ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي أرجعُ في المعادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي هو مُبتَدِعُهما ومدبرُهما، ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ ؛ أي خَلَقَ لكم من مثلِ خَلقِكم

---

(١) في المخطوط: لعله (يعوضهم).
(٢) الانعام / ٣٥ .
(٣) (النار) سقطت من المخطوط.
(٤) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٦.
(٥) النساء / ٥٩ .

نساءً، وَ خلقَ لكم، ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ ؛ ذُكوراً وإناثاً لتَكمَلَ منافعُكم بها، يعني خلقَ الذكرِ والأنثى من الحيوانِ كلِّه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ ؛ أي يَخلقُكم في الرَّحِم ويُكثِرُكم بالتزويجِ، ولولاهُ لم يكنِ الناسُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ؛ في العلمِ والقدرةِ والتدبيرِ، ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ بمقالَةِ العبادِ، ﴿ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ بأعمالِهم، والكافُ في (كَمِثْلِهِ) زائدةٌ مُؤكِّدَةٌ، والمعنى: ليس مثلهُ شيءٌ، إذ لا يجوزُ أن يقالَ: ليس مثلَ مثلِهِ شيءٌ؛ لأن مَن قال ذلكَ فقد أثبتَ المثلَ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذلِكَ عُلُوّاً كَبيراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي له مَفاتِيحُها، قال ابنُ عبَّاس: (يُريدُ مَفَاتِيحَ الرِّزْقِ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)(١). وقال الكلبيُّ: (مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ خَزَائِنُ الْمَطَرِ، وَخَزَائِنُ الأَرْضِ النَّبَاتُ)(١). والمعنى أنه يقدِرُ على فتحِها، يَملِكُ فتحَ السَّماء بالمطرِ، وفتح الأرضِ بالنبات، يدلُّ على هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ؛ أي يُوسِّعهُ على مَن يشاءُ، ويُضَيِّقهُ على مَن يشاءُ؛ لأن مفاتيحَ الرزق بيدهِ، ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ من البَسْطِ والضِّيقِ ما لا يفعلُ ذلك جُزَافاً، ولكن يرزقُ كلَّ أحدٍ على ما تُوجِبهُ الحكمةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾ ؛ أي بَيَّنَ وأوضحَ من الدينِ، ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ ؛ يعني التوحيدَ، ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ؛ من القرآنِ وشَرائعِ الإسلام، ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ ؛ وشرعَ لكم ما وصَّى به إبراهيمَ وموسى وعيسى.

ثم بيَّن ما وصَّى به هؤلاء فقال: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ يعني التوحيدَ، ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ ؛ أي لا تختلِفُوا في التوحيدِ، قال مجاهدُ: (يَعْنِي شَرَعَ لَكُمْ وَلِمَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الأَنْبِيَاءِ دِيْناً وَاحِداً(٢)؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْ نَبيّاً إلاَّ وَصَّاهُ بإقَامَةِ الصَّلاَةِ

---

(١) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٦.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٣٩؛ قال السيوطي: (أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٦٥٧).

وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالإِقْرَار باللهِ تَعَالَى وَالطَّاعَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، فَذَلِكَ دِينُهُ الَّذِي شَرَعَهُ لَهُمْ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ ؛ قَالَ مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: عَظُمَ عَلَى مُشْرِكِي مَكَّةَ مَا دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى وَالإِخْلاَصِ لَهُ وَحْدَهُ وَخَلْعِ الأَنْدَادِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يصطفي من عباده لدينه من يشاء، ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ ﴾ ؛ إلى دينهِ؛ ﴿ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي مَن يُقبلُ إلى طاعتهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: اللهُ يختارُ لرسالتهِ مَن يشاءُ مِمَّن تقتضِي الحكمةُ اختيارَهُ، ويَهدِي إلى جنَّتهِ وثوابهِ مَن يرجعُ إلى طاعتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي ما اختلفَ اليهودُ والنَّصارى إلاَّ من بعدِ ما وَضُحَ لهم أمرُ النبيِّ ﷺ، وذلك أنَّهم كانوا يَعرفُونَهُ كما يعرفون أبناءَهم، فأنكرَ مَن أنكرَ مِن علمائِهم للبَغيِ والعداوةِ على طلب الدُّنيا، خافُوا أن تذهبَ عنهم رئاستَهم ومكانتهم[٣]، وأن يصِيرُوا تابعِين بعد أن كانوا مَتبُوعِين، فترَكُوا اسمَ الإسلامِ، وقولهُ تعالى (بَغْياً بَيْنَهُمْ) أي بَغياً منهم على مُحَمَّدٍ ﷺ.

قولهُ تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي لولاَ حُكم اللهِ بإنظارهم وتأخيرِ العذاب عن هذه الأمة (إلَى أجَلٍ مُسَمَّى) يعني يومَ القيامةِ (لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) أي بين مَن آمنَ ومَن كفرَ بنُزول العذاب بالمكذِّبين في الدُّنيا. وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ ؛ يعني اليهودَ والنصارى أورثُوا التوراةَ من بعدِ أنبيائهم وأسلافِ أحبارهم[٤]، ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ من دينِ الإسلام ظاهرِ الشكِّ.

---

(١) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٦.
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٧٤.
(٣) في المخطوط: (دياستهم ومأكلتهم).
(٤) في المخطوط: (أخبارهم).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ ؛ أي فلذلكَ الذي سبقَ ذِكرهُ، يعني الذي وصَّى به الأنبياءُ من التوحيدِ فادعُ. وَقِيْلَ: معناهُ: فلأجلِ ما وقعَ منهم من الشكِّ فادعُ واستقِمْ على دينِ الإسلام كما أُمِرتَ، ولا تتَّبع أهواءَ أهلِ الكتاب، وذلك أنَّهم دعَوا إلى دينِهم، ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ ؛ أي آمنتُ بكُتب الله كلِّها. وإنما قالَ ذلك لأنَّ الذين تفرَّقوا آمَنُوا ببعضِ الكُتب دون بعض. وقوله تعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ ؛ أي أمرت أن لا أحيفَ عليكم بأكثرَ مما افترضَ اللهُ عليكم في الأحكامِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ ؛ أي إلهُنا وإلَهُكم وإن اختلفَتْ أعمالُنا، وكلٌّ يجازَى بما عَمِلَ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ ؛ لنا جزاءُ أعمالِنا ولكم جزاءُ أعمالِكم، لا يؤاخَذُ أحدٌ بعملِ غيره، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ ؛ أي قد ظهرَ الحقُّ وسقطَ الباطلُ، ومع ذلك الحجَّة لنا عليكم لظهُورها، وقولُه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ ؛ وبينكم في الآخرةِ فيُجازي كُلاًّ بعملهِ، ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ ؛ أي والذين يخاصِمُون في دينِ الله من بعد ظُهور دلائلهِ، وهم اليهودُ والنصارى قالوا:كتابُنا قبلَ كتابكم، ونبيُّنا قبلَ نبيِّكم، فنحن خيرٌ منكم! فهذه خصومَتُهم وإنما قصَدُوا بما قالوا دفعَ ما أتَى به مُحَمَّدٌ ﷺ، وقولهُ تعالى: (مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ) أي من بعدِ ما دخلَ الناسُ في الإسلامِ وأجَابُوا النبيَّ ﷺ إلى ما دعَاهُم إليه، ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي خصومتُهم باطلةٌ حين زعَمُوا أن دينَهم أفضلُ من الإسلام، و قوله (عِنْدَ رَبهِمْ) أي في حُكم ربهم، وإنما قالَ ذلك لأنَّها لم ((تكن))[(١)] باطلةً في زعمِهم، ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ ؛ من اللهِ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾ في الآخرةِ.

(١) ((تكن)) ساقطة من المخطوط.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ ؛ معناهُ: اللهُ الذي أنزلَ القرآن بالحقِّ؛ أي بما ضَمَّنَهُ من الأمرِ والنهي والفرائضِ والأحكام، وكلُّه حقٌّ من اللهِ تعالى. وقولهُ تعالى (وَالْمِيزَانَ) اختلَفُوا في إنزالِ الميزان، قال الحسنُ ومجاهد والضحَّاك: (أرَادَ بهِ الْعَدْلَ)[1] وإنما كنَّى عن العدلِ بالميزان لأنَّ الميزانَ طريقٌ معه العدلُ والمساواة.

وقال بعضُهم: أنزلَ الميزان الذي يوزَنُ به في زمنِ نوحٍ عليه السلام. وقال ابنُ عبَّاس: (أمَرَ اللهُ بالْوَفَاءِ، وَنَهَى عَنِ البَخْسِ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ هذا تخويفٌ للمشركين من قُرب الساعة لينْزَجِرُوا، وقد كان قومٌ من المشركين سألُوا النبيَّ ﷺ عن الساعةِ تكذيباً بها، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ، وإنَّما قال (قَرِيبٌ) ولم يقل قريبةٌ؛ لأن تأنيثَ الساعةِ غيرُ حقيقيٍّ كما في قولهِ تعالى ﴿إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[3] ولأن معنى الساعةِ البعثُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ ؛ والذين يستعجِلون بها قصدَ الإتيان بها استِبعاداً لقِيامِها لأنَّهم لا يؤمنون بها، وهذه طريقةُ الْجُهَلاَءِ في كلِّ شيء يجحَدُونه من حقائقِ الأمُور.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ ؛ أي خائِفُون منها لاَ يَدرُون على ما يُقدِمون عليه لأنَّهم موقنون أنَّهم مبعُوثون مُحاسَبون، ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ ؛ أي الساعةُ لا ريبَ فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ ؛ تدخلُهم الْمِرْيَةُ والشكُّ في القيامةِ، ﴿ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ حين لم يفكِّروا فيعلَمُوا أن الذي خلَقَهم أوَّلاً قادرٌ على بعثِهم.

---

(١) أخرجه الطبري عن مجاهد وقتادة في جامع البيان: الأثر (٢٣٦٧٧ و٢٣٦٧٨).

(٢) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٦.

(٣) الأعراف / ٥٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ ؛ أي بارٌّ رحيم بهم، يعني أهلَ طاعة، وقال مقاتلُ: (لَطِيفٌ بالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، لاَ يُهْلِكُهُمْ جُوعاً)[١]، يدلُّ على هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ ﴾ ؛ وكلُّ مَن رزقَهُ اللهُ من مؤمنٍ وكافر ذي روحٍ ممن يشاء أن يرزقَهُ، ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ﴾ ؛ على ما أرادَ من رزق مَن يرزقهُ، ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ١٩ ﴾ يعني الغالبُ الذي لا يلحقهُ عَجْزٌ فيما أرادَ. واللطيفُ هو الْمُوصِلُ للنفعِ إلى غيرهِ من جهةٍ يدُقُّ استدراكُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ ﴾ ؛ أي مَن كان يريدُ بعملهِ نفعَ الآخرةِ (نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ) أي نُعِينهُ على العبادةِ، ونسَهِّلُ له، وَقِيْلَ: نزدْ له في ثوابهِ الْحَسَنَةَ بعشرِ أمثالها. وَقِيْلَ: نزدْ له في قوَّتهِ ونشاطهِ وخِشيَتهِ في العملِ، كما قالَ تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ؛ أي ومَن كان يريدُ بعملهِ نفعَ الدُّنيا من رزقٍ أو مَحْمَدَةٍ، ﴿ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا ﴾ ؛ ما نشاءُ على ما تقتضيهِ الحكمةُ، ﴿ وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠ ﴾ ؛ مِن ثوابٍ؛ لأنه عَمِلَ لغيرِ الله[٣]، قال السديُّ: (هَذَا الْمُنَافِقُ، وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْطِيهِ سَهْمَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ ؛ يعني كفارَ مكَّة ألَهُمْ آلِهةٌ سَنُّوا من الدين والشريعةِ ما لَم يعلمِ اللهُ به؟ قال ابنُ عبَّاس: (شَرَعُوا لَهُمْ دِيناً غَيْرَ دِينِ الإسْلاَمِ)[٤] ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ ﴾ ؛ أي لولاَ حكمُ الله بأن يَفصِلَ بينهم يومَ القيامةِ لعاجَلَهم بالعقوبةِ، ﴿ وَإِنَّ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٧٦.

(٢) العنكبوت / ٦٩ .

(٣) عن أبي العالية عن أبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: [بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بالنَّصْرِ وَالسَّنَاءِ وَالتَّمْكِينِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ]. أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص١٣٤. وابن حبان في الإحسان: الحديث (٤٠٥) بإسناد حسن.

(٤) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٨.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ ؛ أي وجيعٌ في الآخرةِ ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، الذين يكذبونك خائفين يوم القيامة، ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ ؛ مِن الكفرِ والتكذيب، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ ؛ أي وجزاؤهُ واقعٌ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ ؛ الرَّوضَةُ: هي البستانُ الجامع لأنواعِ الرَّياحين، والجنَّةُ هي البستانُ الجامعُ لأنواعِ الشَّجر، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ؛ مِن النعيمِ في حكمةِ ربهم، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ ؛ أي الْمَنُّ العظيمُ من اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ؛ أي ذلك الذي سبقَ ذِكرهُ من النعيمِ يبشِّرُ اللهُ عبادَهُ المؤمنين المخلِصين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ؛ أي لا أسألُكم على تبليغِ الرسالة؛ أي تعليمِ الشريعةِ أجْراً، وهذا دأبُ كلِّ نبيٍّ مع قومِهِ، وقولهُ تعالى: (إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) أي لاَ أسألُكم عليه أجراً إلاَّ أن تَصِلُوا ما بيني وبينَكم من القرابةِ. قال ابنُ عبَّاس: (لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ بُطُونِ قُرَيْشٍ إلاَّ وَلِرَسُولِ اللهِ ﷺ قَرَابَةٌ فِيْهِمْ)(١).

والمعنى: قُل لا أسألُكم على ما أدعُوكم إليه من الحقِّ إلاَّ أنْ تحفظُوني في قرابَتِي بيني وبينكم. وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لاَ أسْأَلُكُمْ عَلَى مَا أقُولُ أجْراً، ارْقُبُونِي فِي الدُّعَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَلاَ تَعْجَلُوا إلَيَّ وَدَعُونِي وَالنَّاس). وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: إلاَّ أنْ تُوَدُّوا إلَى اللهِ فِيمَا يُقَرِّبُكُمْ إلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ)(٢).

وعن ابن عبَّاس قالَ: (لَمَّا نَزَلَتْ (قُلْ لاَ أسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْمُرُنَا اللهُ بمَوَدَّتِهِمْ ؟ قَالَ: [عَلِيٌّ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٣٦٨٤ و٢٣٦٨٥). والطبراني في المعجم الأوسط: الحديث (٩٦٠٠) بمعناه، و(٧٢٦٠).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٨.

وَفَاطِمَةُ وَوَلَدَهُمَا])(1).

وعن عليٍّ ﷺ قالَ: (قَالَ فِينَا، فِي آل مُحَمَّدٍ، فِي حَم آيَةً لاَ يَحْفَظُ مَوَدَّتَنَا إلاَّ كُلُّ مُؤمِنٍ، ثُمَّ قَرَأ: (قُلْ لاَ أسْألُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى))، وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: لاَ أسْألُكُمْ عَلَى الإيْمَانِ جُعْلاً إلاَّ أنْ تُوَادُّوا أقَارِبي، حَثَّ اللهُ النَّاسَ عَلَى مَوَدَّةِ ذوي قَرَابَتِهِ).

وعلى الأقوال كلِّها قولهُ (إلاَّ الْمَوَدَّةَ) استثناءٌ ليس من الأوَّل، وليس المعنى: أسألُكم المودَّةَ في القُرَبى؛ لأن الأنبياءَ لا يسألُون أجْراً على تبليغِ الرسالة، والمعنى ولكنِّي أذكِّرُكم المودةَ في قرابَتِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ ؛ أي ومَن يكتَسِبْ حسنةً نُجازيه عليها أضْعَافاً، بالواحدةِ عشراً فصاعداً، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لذُنوب الناسِ، ﴿ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ للقليلِ حتى يُضاعفَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ يعني كفَّارَ مكَّة قالوا: اختلَقَ مُحَمَّدٌ كَذِباً حين زعمَ أن القرآنَ من عندِ اللهِ، فَاغْتَمَمْتَ لذلكَ يا مُحَمَّدُ، ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ ؛ أي يَرْبطْ على قلبكَ بالصبرِ على أذاهُم حتى لا يشقَّ عليك قولُهم، ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ ، ويُذهِبُ اللهُ ما يقولون من الباطلِ، ﴿ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ ﴾ ؛ يعني الإسلامَ، ﴿ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ ؛ أي بما أنزَلَ من كتابهِ، وقد فعلَ اللهُ ذلك فأزهقَ باطلَهم وأعلَى كلمةَ الإسلام، ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي بما ((في))(2) قُلوب خَلقهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ مِن خيرٍ وشرٍّ، مَن قرأ بالتاءِ فهو خطابٌ للمشركين وتهديدٌ

---

(1) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٤٨؛ قال السيوطي: (وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال...) وذكره. وفي التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٧٦: النص (١٨٤٧٣)؛ قال ابن أبي حاتم: (بسند ضعيف...) وذكره. وفي مجمع الزوائد: ج ٩ ص١٦٨؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه جماعة ضعفاء، وقد وثقوا).

(2) ((في)) سقطت من المخطوط.

لَهم، ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ؛ أي يُجِيبُهم ما سألوهُ. قال ابنُ عبَّاس: (يُثِيبُهُمْ)، ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ ؛ سِوَى ثواب أعمالهم تفضُّلاً عليهم، وقال أبو صالح: (يُشَفِّعُهُمْ فِي إخْوَانِهِمْ)[1]، ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لو وسَّعَ على عبادهِ لطَغَوا وتطاوَلُوا، وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: لَوْ وَسَّعَ اللهُ لِعِبَادِهِ فَرَزَقَهُمْ مِنْ غَيْرِ كَسْبٍ لَعَصَوا وَبَطَرُوا النِّعْمَةَ وَطَلَبُوا مَا لَيْسَ لَهُمْ أنْ يَطْلُبُوهُ)[2]؛ لأنَّ الَّذِي يُوَسَّعُ عَلَيْهِ يَرْتَفِعُ مِنْ مَنْزِلَةٍ إلَى مَنْزِلَةٍ، وَمِنْ مَرْكَبٍ إلَى مَرْكَبٍ، وَمِنْ مَلْبَسٍ إلَى مَلْبَسٍ، وَيَسْتَطِيلُ بذلِكَ عَلَى النَّاسِ، وَيَسْتَعِينُ برزْقِ اللهِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ ؛ معناهُ: ولكن يوسِّعُ على قومٍ، ويُضَيِّقُ على آخَرين على ما تقتضيهِ الحكمةُ، ﴿ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي أعلَمُ بهم من أنفُسِهم، منهم من يصلحُ له الفقرُ ولو أغناهُ لكان شَرّاً له، ومنهم من يصلحُ له الغِنَى، ولو أفقرَهُ لكان شرّاً له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ ؛ أي يُنَزِّلُ المطرَ من بعدِ ما يَئِسُوا منه، ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾ ؛ بإخراجِ النبات والثِّمار، وَقِيْلَ: معنى (يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ) أي يبسطُ مَطَرَهُ، ﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ ؛ لِمَن أطاعَهُ، وَقِيْلَ: وهو الوليُّ بإنزال المطرِ عَاماً بعدَ عام، ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ المستحقُّ للحمدِ على خَلقهِ بإنعامهِ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ ؛ معناهُ: ومِن دلائلِ توحيدهِ خلقُ السَّموات والأرضِ بما فيهما من الشَّمسِ والقمرِ والنُّجوم والجبال والبحار والأشجار (وَمَا بَثَّ فِيهِمَا) أي وما فرَّقَ فيهما من الملائكةِ والناس وغيرِهم، وَقِيْلَ: معناهُ: وما بثَّ في الأرضِ من دابَّة، وهذا كقولهِ

(١) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٦٠.
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٧٨.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[1] وإنما يخرجُ من أحدِهما، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ ؛ يعني وما أصابكم من المعاصِي في النَّفسِ والمالِ والولدِ أو نكبَةِ حجَرٍ أو عثرَةِ قدَمٍ، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ، يعني المعاصِي، ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ ؛ فلا يعاقِبُ بها لُطفاً بهم.

قال ﷺ: [مَا مِنْ خَدْشَةِ عُودٍ أوْ عَثْرَةِ قَدَمٍ أو اخْتِلاَجِ عِرْقٍ إلاَّ بذنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللهُ تَعَالَى أكْثَرُ][2]. وقال الحسنُ: (مَعْنَى الآيَةِ: وَمَا أصَابَكُمْ مِنْ حَدٍّ فِي سَرِقَةٍ أوْ زنَى فَبمَا كَسَبَتْ أيْدِيكُمْ)[3]. وقال الضحَّاكُ: (مَا حَفِظَ رَجُلٌ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ إلاَّ بذنْبٍ) وَقَرَأ هَذِهِ الآيَةَ وَقَالَ: إنَّ أعْظَمَ الذُّنُوب نِسْيَانُ الْقُرْآن)[4].

وفي مصاحفِ المدينةِ والشَّام (بمَا كَسَبَتْ أيْدِيكُمْ). قال الزجَّاجُ: (وَإثْبَاتُ الْفَاءِ أجْوَدُ لأنَّ الْفَاءَ جَوَابُ الشَّرْطِ)[5]. وَمَنْ حَذفَهَا فَعَلَى أنَّ (مَا) بمعنى (الَّذِي) تقديرهُ: والَّذي أصابَكم وقعَ بما كسَبت أيديكُم) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ يا معشرَ المشركين لا تُعجِزوني في السَّموات حيث كُنتم، ولا تَسبقونِي هَرباً في الأرضِ ولا في السَّماء لو كُنتم فيهما، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٣١﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢﴾ ؛ أي ومِن آياته الدَّالة على توحيدِهِ وقُدرتهِ الجوَاري في البحرِ، وهي السُّفُنُ جمعُ جَاريَةٍ تجرِي في

---

(١) الرحمن / ٢٢.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٥٤؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن البصري) وذكره. وبلفظ آخر قال: (أخرجه أحمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم عن علي بن أبي طالب).

(٣) أخرجه الطبري بمعناه في جامع البيان: الأثر (٢٣٧٢٣).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨٤٨٤).

(٥) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٠٣.

البحرِ، (كَالأَعْلاَمِ) أي كالجِبَالِ الطِّوَالِ، ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ ؛ معناهُ: إن شاءَ اللهُ يُسكِنِ الرِّيحَ التي تَجري بها السُّفنُ فيَبقينَ واقفاتٍ على ظهرِ الماءِ، ويبقَى أهلُها حيَارَى لا يجِدُونَ حِيلةً في الخلاصِ؛ لأن ماءَ البحرِ راكدٌ لا تجري السفينةُ فيه إلاَّ بريحٍ تُجريهِ، فذلك معنَى قولهِ تعالَى: ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾ ؛ يعني السُّفنَ رَوَاكِدَ؛ أي ثوابتَ على ظهرِ البحرِ لا تجري ولا تبرحُ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ ؛ أي لدلالاتٍ على توحيدِ اللهِ تعالى، ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ ؛ على طاعتهِ، ﴿ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ على نِعَمِهِ. وَقِيْلَ: لكلِّ صبَّارٍ في الشدَّة، شَكُورٍ في الرَّخاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ ؛ أي يُهلِكهُنَّ بالريحِ العاصفِ، ويُغرِقهُنَّ، يعني: أهلَهُنَّ (بِمَا كَسَبُوا) أي بما أشركُوا واقترَفُوا من الذنبِ، ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ من ذنوبهم فيُنَجِّيهم من الغرقِ والهلاكِ. والمعنى: (أَوْ يُوبقْهُنَّ) وإنْ يشَأْ يَعْفُ عن كثيرٍ فتَجري السُّفنُ على ما يشاؤونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ يعني أن الكفارَ الذين يكذِّبون بالقرآنِ إذا صَارُوا إلى اللهِ بعدَ البعثِ عَلِمُوا أنْ لا مهربَ لَهم من عذاب الله تعالى.

فمَن قرأ (وَيَعْلَمُ) بالرفعِ فعلى الابتداءِ من غيرِ أن يكون مَعطُوفاً على (وَيَعْفُ) لأنَّ عِلمَ اللهِ تعالى مقطوعٌ به لا يجوزُ تعليقه بمشيئةٍ، ومَن قرأ بالنصب فهو نصب على إضمار (أنْ) معناهُ: ولئِن يَعْلَمَ الذين يُنازعُونَ في آياتِنا بالتكذيب أنه لا مَخْلَصَ لَهم في الآخرةِ مِن عذابهِ، كما لا مَخلَصَ لأهلِ السَّفينة من البحرِ إلاَّ باللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي ما أعطِيتُم من شيءٍ مما في أيدِيكم فهو متاعٌ يتمتَّعُ به إلى حين، ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ؛ من الثواب أفضَلُ وأدوَمُ مما في أيديكم، ثم بيَّن اللهُ لِمَنِ الثوابُ فقالَ: ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ الكلامُ في الكبائرِ والفواحشِ في سُورة النِّساء، قال

مقاتلُ: (الْفَوَاحِشُ مَا يُقَامُ فِيْهَا الْحَدُّ فِي الدُّنْيَا)[١]. وَقِيْلَ: الفواحشُ الزِّنَى وأنواعهُ، وكبائِرُ الإثمِ الشِّرْكُ، كذا قالَ ابنُ عبَّاس. وقرأ حمزةُ (كَبيرَ الإثمِ) على الوحدان وهو يريدُ الجمعَ[٢].

وقولهُ تعالى (وَإذا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) أي يَكْظِمُونَ الغَيْظَ ويَعْفُونَ عمَّن ظلَمَهم، ويطلبون بذلك ثوابَ الله وعفوَهُ. وهذه الآيةُ نزَلت في أبي بكر ﷺ حين أقبلَ رجلٌ من المشركين يَشتِمهُ ويقعُ فيه ولم يَرُدَّ عليه أبو بكرٍ ﷺ.

قولهُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ أي أجَابوهُ إلى ما دعاهم إليه من التوحيدِ والعبادة، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي فعالاً مِن المشورةِ، وهي الأمرُ الذي يُتَشَاوَرُ فيه، يقالُ: صارَ هذا الأمرُ شُورَى بين القومِ إذا تشَاوَرُوا فيه.

والمعنى أنَّهم يتَشاوَرُونَ فيما يبدُو لهم، ولا يَعجَلُونَ في الأمر. وقال الحسنُ: (وَاللهِ مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ إلاَّ هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَى لأَفْضَلِ مَا بحَضْرَتِهِمْ)[٣]. والمعنى: أنَّهم إذا حَدَثَ بهم أمرٌ لا نصٌّ فيه من كتابٍ ولا سُنة ولا إجماعٍ؛ شاوَرَ بعضُهم بعضاً لإظهار الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ، معناهُ: الذين إذا أصابَهم البغيُ والظُّلم والعدوان هم ينتَصِرون مِمَّن ظلَمَهم، قال عطاءُ: (يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أخْرَجَهُمُ الْكُفَّارُ مِنْ مَكَّةَ وَبَغَوا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ مَكَّنَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي الأَرْضِ حَتَّى انْتَصَرُوا مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ)[٤].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٨٠.

(٢) ينظر: جامع البيان: مج ١٣ ج ٢٥ ص٤٧: النص (٢٣٧٣٧) عن السدي، وتعليق الطبري ومتابعته عليه.

(٣) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٥٧؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد والبخاري في الأدب وابن المنذر عن الحسن).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٦٢.

قال ابنُ زيد: (جَعَلَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ صِنْفَيْنِ: صِنْفٌ يَعْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ، فَبَدَأَ بِذِكْرِهِمْ فَقَالَ: (وَإذا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ). وَصِنْفٌ يَنْتَصِرُونَ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ، وَهُمُ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي هَذِهِ الآيَةِ، وَمَنِ انْتَصَرَ فَأَخَذ حَقَّهُ وَلَمْ يُجَاوِزْ فِي ذلِكَ مَا حَدَّ اللهُ فَهُوَ مُطِيعٌ للهِ، وَمَنْ أطَاعَ اللهَ فَهُوَ مَحْمُودٌ).

ثم اعْلَمْ: أن أوَّلَ هذه الآيةِ يقتضي أنَّ الاقتصارَ بأخذِ الواجب من القصاصِ أو نحوه أفضلُ؛ لأن اللهَ تعالى عطفَ هذه الآيةَ على الآيةِ التي ذكرَ فيها الاستجابةَ للهِ تعالى وإقام الصَّلاة.

وتكلَّمُوا في معنى ذلك، قالَ بعضُهم: أرادَ به الانتصارَ مِمَّن فارَقَهم في دِينِهم، فأما مِن المسلمين فالانتصارُ مباحٌ، كما قال ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾[1] والعفوُ أفضل، كما قالَ تعالى ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾[3].

وقال بعضُهم: إذا كان العفوُ يؤدِّي إلى الإخلالِ بشيءٍ من حُقوق الله مثل العفوِ عن الفاسقِ الذي لا يرتدعُ، والعفو عن الباغِي الذي لا يكون مُصِرّاً على قصدِهِ، فالانتصارُ أولى من العفو، وإذا كان العفوُ لا يؤدِّي الى إسقاطِ شيءٍ من حُقوق الله تعالى فالعفوُ أفضَلُ كما قالَ تعالى في آيةِ القصاص ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾[4]. وفي بعضِ التَّفاسير: إنما جُعِلَ الانتصارُ في أوَّل هذه الآياتِ أفضلَ لأنَّهم كانوا يَكرَهُونَ أن يُذلِّلُوا أنفُسَهم فيَجْتَرِئُ عليهم الفُسَّاقُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنه لا تجوزُ الزيادةُ على السَّيئة الأولى، وإنما سُميت الثانيةُ سيئة لأنَّها في مقابَلة الأولى، والأولى سيِّئة لفظاً ومعنىً، والثانيةُ سيئةٌ لفظاً لا معنى، وسُميت بهذا الاسمِ لأن مُجازاةَ السُّوء لا تكون إلاَّ بمثلهِ، قال مقاتلُ: (مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ فِي الْقِصَاصِ فِي الْجِرَاحَاتِ وَالدِّمَاءِ)[5].

---

(١) الشورى / ٤١. (٢) البقرة / ٢٣٧ . (٣) الشورى / ٤٠.
(٤) المائدة / ٤٥ . (٥) بمعناه قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٨٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي مَن عفَى عمَّن ظلمَهُ وأصلحَ بالعفو بينه وبين ظالِمه فأجرهُ على اللهِ تعالى، وقولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ يعنِي مَن يبدأ بالظُّلمَ. وفيه بيانُ أنَّ اللهَ تعالى إنما نَدَبَ المظلومَ إلى العفوِ لا لِمَيلهِ إلى الظالِمِ أو لِحُبهِ إياهُ، ولكن ليُعَرِّضَ المظلومَ لجزيلِ الثَّواب بالعفوِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ ﴾ ؛ أي بعدَ ظُلمِ الظالِم إيَّاهُ، فالمصدرُ ها هنا مضافٌ إلى المفعول، كقولهِ: ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾[١] و﴿سُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾[٢]، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ ؛ يعني الذين يَبدَأونَ بالظُّلم، ﴿ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي يعمَلون بالمعاصِي، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ ؛ يعني من صَبَر ولم ينتَصِرْ وغفرَ، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ الصبرُ والتَّجاوُز، ﴿ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (مِنَ الأُمُور الَّتِي أمَرَ اللهُ بهَا)[٣]، والْمُرَادُ بذلِكَ إذا كَانَ الْجَانِي نادِماً مُقْلِعاً. والْعَزْمُ على الشيءِ هو أن يَعْقِدَ قَلْبَهُ على أنَّهُ سيفعَلهُ، وكلُّها كانت رغبةَ الصابرِ في الثواب أكثرَ كان عزمهُ على التجاوُز أتَمَّ لتَيقُّنهِ بالخلَفِ والثواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي مَن يخذلْهُ الله بعنادهِ وجُحودهِ، ويُضِلَّهُ عن الهدَى، ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ ؛ أي ما لَهُ من أحدٍ يَلِي هِدَايتَهُ بعدَ إضلال الله إيَّاهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: مَن يُهلِكْهُ اللهُ ويُضَيِّعْهُ فما لَهُ من ولِيٍّ يَلِي أمرَهُ ويدفعُ عنه العذابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ؛ أي ترَى المشركين يا مُحَمَّدُ، ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ ؛ في الآخرةِ يسألُون الرجعةَ إلى الدُّنيا، ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

---

(١) فصلت / ٤٩. (٢) ص~/ ٢٥.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٨١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي على النار قبلَ أن يدخلُوها، ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ ؛ أي أذِلاَّءَ من الهوَان، وَقِيْلَ: سَاكِنِين مُتواضِعين، ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ ؛ أي يَنظُرون إلى النار سَارقَةِ[1] الأعيُن نظرَ الخائفِ؛ أي مَن يخافهُ فزَعاً منه. وَقِيْلَ: معنى (خَاشِعِينَ) مُطرقِينَ من الْخَجَلِ والوَجَلِ، والطَّرْفُ هو العينُ.

وعن ابنِ عبَّاس أنه قال: (يَنْظُرُونَ بقُلُوبهِمْ نَظَرَ الأَعْمَى، إذا سَمِعَ حِساً وَقَفَ مُسْتَمِعاً خَائِفاً مِنْهُ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾[2]).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي عرَفَ المؤمنون خُسرانَ الكفَّار في ذلك اليومِ فقالوا: (إنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ) بأن صَارُوا إلى النار، وأهلِيهم في الجنَّة بأَنْ صَارُوا لغَيرِهم. وقولهُ تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي دائمٍ لا ينقطعُ، ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

قولهُ: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم ﴾ ؛ أي أجِيبُوا دَاعِيَ ربكم، يعني مُحَمَّداً ﷺ، ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ لا يقدرُ أحدٌ على دفعهِ وهو يومُ القيامةِ، ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ ؛ تلجَأُون إليه، ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ يُنكِرُ العذابَ ويدفعهُ عنكم، وَقِيْلَ: معناهُ: لا تَقدِرُونَ أن تُنكِرُوا ما توقَفُون عليه مِن ذنوبكم وما ينْزِلُ بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ ﴾ ؛ فإنْ أعرَضُوا عن إجَابَتِكَ يا مُحَمَّدُ فما أرسَلناكَ عليهم حَفيظاً تحفَظُ أعمالَهم وأقوالَهم، ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ ﴾ ؛ عن اللهِ.

---

(١) في المخطوط: (صادقة).

(٢) الاسراء / ٩٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ ؛ أي غِنًى وصحَّةً، ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ ؛ يعني الكافرُ، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ ﴾ ؛ أي قَحْطٌ، ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ من الكُفرِ، ﴿ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ لِمَا تقدَّمَ من نِعَمِ اللهِ عليه ويجحَدُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي له التصرُّفُ فيهما بما يريدُ[1]، ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾ ؛ مثلَ ما وَهَبَ للُوطِ عليه السلام، ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ مثلَ ما وهبَ لإبراهيم عليه السلام لم يكُن له ولدٌ أنثى، ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾ ؛ أي يَجمَعُ لِمَن يشاءُ البنينَ والبناتِ، كما وهبَ لنبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ فإنه كانَ له ثلاثةُ بَنين وأربعُ بناتٍ، ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ ؛ لا يولَدُ له مثلَ يحيَى وعيسَى عليهما السلام، ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ ﴾ ؛ بعواقب الأمُور وَأواخرِها وأوائلِها، وفواتِحها وخواتِمها، وظواهرِها وبواطنِها، ﴿ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ على كلِّ شيءٍ، لا يلحقهُ عَجزٌ ولا يعتريهِ منعٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ ؛ أي ما كان لآدميٍّ أن يُكلِّمَهُ اللهُ مواجهةً بغيرِ حجابٍ، إلاَّ أن يوحِي أن يقذفَ في قلبهِ ويُلهمَ إما في المنامِ أو بالإلهام[2]، كما أخبرَ اللهُ في قصَّة إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾[3].

وقولهُ تعالى: (أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) كما كلَّمَ موسَى عليه السلام، كان يسمعُ كلامَهُ من حيث لا يراهُ، أو يُرسِلَ من الملائكةِ جبريلَ أو غيرَهُ فيُوحِي ذلك الرسولُ إلى الْمُرسَلِ إليه بإذن الله ما يشاءُ الله.

قال الزجَّاجُ:(الْمَعْنَى: أنَّ كَلاَمَ اللهِ لِلْبَشَرِ إمَّا أنْ يَكُونَ بإلْهَامٍ أوْ يُكَلِّمَهُمْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى، أوْ برِسَالَةِ مَلَكٍ إلَيْهِمْ)[4]. فمَن قرأ (أوْ يُرْسِلَ) بنصب

---

(١) قاله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٦٣.

(٢) في المخطوط: (يقذف في قلبه ويلهم إما في المنام أو في الآخرة) والعبارة غير مستقيمة.

(٣) الصافات / ١٠٢ .

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٠٦.

اللام فمعناهُ: أو أنْ يُرسِلَ رسُولاً من الملائكةِ، كما أرسلَ جبريلَ ، وتقديرهُ: وما كان لبشرٍ أن يُكلِّمَهُ اللهُ إلاَّ وَحْياً أن يُوحِي إليه أو يُكلِّمه من وراءِ حجابٍ أو يرسِلَ رسُولاً. ومَن قرأ بالرفعِ أرادَ: وهو يُرسِلُ فهو ابتداءٌ واستئناف، والوقفُ كافٍ على ما قبله.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ ؛ أي هو أعلَى مِن أن يدركَهُ الخلقُ بالأبصار الفانية بلا حجابٍ، الحكيمُ فيما يأمرُ وينهَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ ؛ أي كما أوْحَينَا إلى الرُّسُلِ من قبلِكَ أوحَينا إليك جبريلَ بالقُرآن الذي "فيه"[1] حياةُ القلوب من الجهلِ. ومِن هذا سُمِّي القرآنُ رُوحاً؛ لأنه سببُ حياةِ الدِّين، كما أنَّ الروحَ سببُ حياةِ الجسد. وقال مقاتلُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (رُوحاً) يَعْنِي الْوَحْيَ)[2] وَهُوَ الْقُرْآنُ؛ لأَنَّهُ يُهْتَدَى بِهِ، فَفِيهِ حَيَاةٌ مِنْ مَوْتِ الْكُفْرِ. وقولهُ (مِنْ أمْرِنا)، وَقِيْلَ: إنَّ الروحَ ها هنا جبريلُ.

وقولهُ: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ ؛ أي ما كنتَ تدري قبلَ الوحيِ ما الكتابُ ولا ما الإيمانُ؛ قيل: لأنه كان لا يعرفُ القرآنَ قبلَ الوحي، ولا كان يعرفُ بشرائعِ الإيمان ومعالِمه، وهي كلُّها إيمانٌ، وهذا اختيارُ الإمام محمَّد بن جرير، واحتجَّ بقولهِ ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيْمَانَكُمْ﴾[3] يعني الصَّلاةَ سَمَّاها إيْماناً. وَقِيْلَ: معناهُ: ما كُنتَ تدري ما الإيمانُ قبلَ البلوغِ، يعني حين كان طِفلاً في الْمَهْدِ. وقال الحسينُ بن الفضلِ: (هَذا مِنْ بَاب حَذْفِ الْمُضَافِ؛ مَعْنَاهُ: "أيْ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ"[4] ولا أهْلَ الإيْمَان "أيْ"[5] مَن الَّذِي يُؤْمِنُ وَمَن الَّذي لاَ يُؤْمِنُ)، وَفِي الْجُمْلَةِ لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْكُفْرِ قَطُّ، وَإنَّهُ كَانَ عَلَى فِطْرَةِ الإسْلاَمِ حِينَ وُلِدَ،

---

(١) (فيه) سقطت من المخطوط.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٨٣.

(٣) البقرة / ١٤٣ .

(٤) (أيْ مَا كُنْتَ تَدْري مَا الْكِتَابُ) سقطت من المخطوط، وأجرينا ضبط العبارة من كلام الحسين ابن الفضل، كما نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٥٩.

(٥) (أي) سقطت من المخطوط.

وَكَذلِكَ جَمِيعُ أنْبِيَاءِ اللهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ قَبْلَ الْوَحْيِ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَعْبُدُ اللهَ قَبْلَ الْوَحْيِ عَلَى دِينِ إبْرَاهِيمَ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا ﴾؛ يعني الوحيَ ودليلاً على الإيمان والتوحيد، ﴿ نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾؛ إلى دينِ الحقِّ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾؛ أي لتَدعُو الخلقَ كلَّهم بوَحينا إليك إلى طريقٍ قائمٍ يرضاهُ اللهُ وهو الإسلامُ. وقولهُ تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ خُفِضَ على البدل، وقولهُ تعالى: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣) ﴾؛ أي إليه ترجعُ عواقِبُ الأمُور في الآخرةِ.

آخر تفسير سورة (**الشورى**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الزُّخْـرُفِ

سُورَةُ الزُّخْرُفِ كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ[1]، وَهِيَ ثَلاَثَةُ آلاَفٍ وَأَرْبَعُمِائَـةِ حَـرْفٍ، وَثَمَانُمِائَـةٍ وَثَلاَثٌ وَثَلاَثُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعٌ وَثَمَانُونَ آيَةً[2].

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ الزُّخْرُفَ كَانَ مِمَّنْ يُقَالُ لَهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ: يَا عِبَادِي لاَ خَـوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بغَيْرِ حِسَابٍ][3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أقسمَ اللهُ بالقرآنِ، الْمُبين: الـذي أبَانَ طريقَ الهدى من طريق الضَّلالةِ، وأبانَ مـا يحتـاجُ إليـه مـن الشَّـرائعِ، وجـوابُ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي إنَّـا أنزلنـاهُ علـى لُغـةِ العرب ليكون أبلغَ في الحجَّة وأدعَى إلى القَبول، كي يَعْقِلَهُ العربُ من غيرِ مترجِمٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي إنَّـهُ مذكورٌ مُثْبَتٌ في اللَّوحِ المحفوظِ عندَنا، كما قالَ في آيةٍ أخرى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[4]، وسُمي اللوحُ أمَّ الكتاب؛ لأنه أصلُ كلِّ كتابٍ، وتُسـمَّى الوالـدةُ: أمّاً؛ لأنَّها أصلُ الولدِ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٦١؛ قال القرطبي: (مكيَّةٌ بالإجماع. وقال مقـاتل: إلاَّ قولـه ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾).

(٢) في المخطوط: (وسبع وثمانون آية).

(٣) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب ﷺ، وذكره الزمخشـري أيضـاً في الكشاف: ج ٤ ص٢٦١.

(٤) البروج / ٢١ ، ٢٢ .

وقولهُ تعالى (لَدَيْنَا) يريدُ الذي عندَنـا نُخبرُ عـن فضيلتـهِ ومَنْزلتِه وشـرفهِ أنْ كذبتُم به يا أهلَ مكَّة، فإنه عندَنا شريفٌ رفيع مُحكَمٌ من الباطلِ. ويقالُ: ذُو حِكمَةٍ لا يحتملُ الزيادةَ والنُّقصانَ، والتبديلَ والتغييرَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (يَقُولُ اللهُ لأَهْـلِ مَكَّـةَ: أفَنَتْرُكُ عَنْكُـمُ الْوَحْـيَ صَفْحاً فَلاَ نَأْمُرُكُمْ وَلاَ نَنْهَاكُمْ وَلاَ نُرْسِلُ إلَيْكُمْ رَسُولاً؟ وَهَذا اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ الإنْكَارُ؛ أيْ لاَ نَفْعَلُ ذلِكَ).

ومعنى الآيةِ: أفَنُمسِكُ عن إنزال القرآن ونُهمِلُكم فلا نُعرِّفُكم ما يجبُ عليكـم من أجلِ أنَّكم أسرَفتُم في كُفركم، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: (أنْ كُنتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ)، والمعنى: لإنْ كُنتم، والكسرُ في (إنْ) على أنه جزاءٌ استغنى عن جوابهِ بما تَقدَّمَـهُ، كمـا تقـولُ: أنتَ ظالِمٌ إنْ فعلـتَ كـذا، ومثلـهُ ﴿لاَ يَجْرِمَنَّكُـمْ شَـنَآنُ قَـوْمٍ أنْ صَدُّوكُـمْ﴾ بـالفتحِ والكسر، وقد تقدَّمَ.

ومعنى الآيةِ: أفنَضربُ عنكم تَذكُّرنا إيَّاكم الواجبَ ونترُكُكم بلا أمرٍ ولا نَـهيٍ مُعرضِين عنكم لَئِن أسرَفتُم. والصَّفْحُ في اللغة: هو الإعراضُ، يقالُ: صَفَحَ عن دِينـه أي أعرضَ عنه، ((صَفَحَ))(١) فلانُ عنِّي بوجهِهِ؛ أي أعرَضَ، وهو في صِفات اللهِ بمعنى العَفْوِ، يقالُ: أصْفحَ عـن دينـه؛ أي أعـرضَ عنـه. والإضـرابُ والضَّـربُ في الكـلامِ كلاهُما بمعنى الإعراضِ والعدُولِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ فيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، وبيانُ أنَّ دَابَ كلِّ أمـة مـع رسولِهم التكذيبُ والاستهزاء به، وإنَّ من سُنة اللهِ تعالى إهلاكُ المكذِّبين، فحذِّث أيها الرسولُ قومَك كي لا يَسلِكوا طريقَ من قبلهم فينزلُ بهم من العـذاب مـا نـزلَ بمَـن قبلَهم.

(١) (صفحَ) سقطت من المخطوط.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ ؛ أي أقوى من قومِك، يعني الأوَّلين الذين هَلَكوا بتكذيبهم، ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ وسبقَ فيما أنزلنا إليكَ تشبيهٌ بتكذيبهم، فعاقبةُ هؤلاء أيضاً الإهلاكُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ معناهُ: ولئن سألتَ قومَكَ مَن خلقَ السَّموات والأرضَ، ﴿ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ ، وهذا إخبارٌ عن غايةِ جَهلِهم إذ أقَرُّوا بأنَّ الله خلقَ السموات والأرض، ثم عَبَدُوا معه غيرَهُ وأنكَرُوا قدرته على البعثِ، فهُم يُقرُّون بالله ويُشركون به غيرَهُ، كما قالَ تعالى في آيةٍ أخرى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللهِ إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[1] وتَمَّ الكلامُ والإخبار عنهم.

ثُم ابتدأ قوله عَزَّ وَجَلَّ فقال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ ؛ هذا ابتداءُ كلامٍ من اللهِ تعالى على معنى: نَعَمْ خلَقَهُنَّ العزيزُ العليم الذي جعلَ لكم الأرضَ مِهَاداً يمكنُكم القرارُ عليها، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ ؛ أي طُرقاً، ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ في الطريقِ من بلدٍ إلى بلد، وتهتدون بوحدانيَّة اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ ؛ يعني المطرَ بمقدار معلوم يعلمهُ خازنُ المطرِ ليس كما أنزلَ على قومِ نوح بغير قَدَر حتى أهلكَهم، بل هو بقَدرٍ يكون مَعاشاً لكم ولأنعامِكم، وقولهُ تعالى: ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ ؛ أي فأحيَينا بذلك المطرِ بَلَداً ميتاً بإخراجِ الأشجار والزرعِ، ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ من القبور يومَ النشور للحساب والجزاء .

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ والذي خلقَ الأصنافَ كُلَّها والألوانَ كُلَّها، ويقالُ: الذكورُ والإناث كلّها، وجعل لكم من الفُلكِ والأنعامِ ما تركبون عليها في البَرِّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ ؛ الكنايةُ تعود إلى لفظ (مَا) أي لتستَوُوا على ظُهور ما تركبون، ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ ؛

---

(١) يوسف / ١٠٦ .

يعني النعمةَ بتسخيرِ ذلك المركَب في البَرِّ والبحر، قال مقاتلُ والكلبي: (وَهُوَ أنْ تَقُولَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي رَزَقَنِـي هَـذا وَحَمَلَنِـي عَلَيْـهِ)[١]، ﴿ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾ ؛ المركَبَ وذلَّلَـهُ لنـا، وسـهَّلَ رُكوبَـهُ، ولـولاَ تسـخيرهُ لنـا، ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي مُطِيقِين ضابطين، يريدُ: لا طاقـةَ لنـا بـالإبلَ ولا بـالفلكِ ولا بالبحر، لولاَ أنَّ اللهَ تعالى سخَّرَ لنا ذلك.

قال قتادةُ: (قَدْ عَلَّمَكُمُ اللهُ كَيْفَ تَقُولُونَ إذا رَكِبْتُمْ)[٢]. وعن ابـنِ مسـعودٍ أنَّـهُ قالَ: (إذا رَكِبَ الرَّجُلُ الدَّابَّةَ فَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ، رَدِفَهُ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ لَهُ: تَغَـنَّ، فَـإنْ لَمْ يُحْسِنْ قَالَ لَهُ: تَمَنَّ)[٣].

وعن رسول الله ﷺ: [أنَّهُ كَانَ إذا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجاً فِي سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلاثاً سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإنَّـا إلَـى رَبنَـا لَمُنْقَلِبُـونَ، اللَّـهُمَّ إنَّـا نَسْألُكَ فِي سَفَرِنَا هَذا الْبرَّ وَالتَّقْوَى، وَالْعَمَلَ بمَـا تَرْضَـى، اللَّـهُمَّ هَـوِّنْ عَلَيْنَـا سَـفَرَنَا وَاطْوِعْنَا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَّهُمَّ إنِّي أعُـوذُ بكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَب، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْـلِ وَالْمَـالِ]. وَإذا رَجَـعَ قَالَ: [آيبُونَ تَائِبُونَ لِرَبنَا حَامِدُونَ][٤].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنه كما يَذكرُ نعمـةَ اللهِ عليه في الدُّنيا، فعلَيهِ أنْ يذكُرَ مصيرَهُ إلى الآخرةِ. وينبغِي للعاقلِ إذا ركِبَ دابَّـةً أو سفينةً أن يتذكَّرَ آخرَ مركَبهِ وهي الجنازةُ، وإذا لَبسَ أن يتذكَّرَ آخرَ مَلبَسهِ وهو الكفَنُ،

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٨٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٧٩١).

(٣) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الرقم(٢٤٩٩٥). وعزاه الديلمي عن ابن عبـاس. وفي مجمـع الزوائد: ج ١٠ ص١٣١: كتاب الأذكار: باب ما يقـول إذا ركـب دابتـه؛ قـال الهيثمـي: (رواه الطبراني — عن ابن مسعود — موقوفاً، ورجاله رجال الصحيح).

(٤) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الحج: باب ما يقـول إذا ركـب إلى سـفر حـج وغـيره: الحديـث (١٣٤٢/٤٢٥).

وإذا اغتسلَ أن يتذكَّرَ آخرَ عهدهِ بالغُسلِ، وإذا نامَ أن يذكَّرَ الحالَ التي يوضَعُ فيها على جَنبهِ في اللَّحدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ ؛ أي جَعل الكفارُ للهِ تعالى من عبادهِ جُزءاً؛ لأنَّهم قالوا: الملائكةُ بنات اللهِ، فوصَفُوا عبادَ اللهِ بأنَّهم جزءٌ من اللهِ، وقد تقدَّمَ أن الذين قالوا هذا القولَ حيٌّ من خزاعةَ، ومعنى الجعلُ هـهنا الحكمُ بالشيءِ، والوصفُ والتسمية كما جعلَ فلانٌ زيداً مِن أعلمِ الناس؛ أي وصفَهُ بذلك، ويقالُ: إن الْجُزْءَ في كلامِ العرب عبارةٌ عن الأُنثى كما قال الشاعرُ[(١)]:

إنْ أجْـزَأَتْ حُـرَّةٌ يَوْمـاً فَـلاَ عَجَـبٌ ... قَـدْ تُجْـزِئُ الْحُـرَّةُ الْمِذْكَـارُ أحْيَانَـا

أرادَ بـ (اجْزَأَتْ): ولَدَت أنثى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أرادَ بالإنسانِ الكافرَ، وقولهُ تعالى (لَكَفُورٌ مُبِينٌ) أي لَجَحُودٌ لِنِعَمِ اللهِ، (مُبِينٌ) ظاهرُ الكُفرَانِ.

ثم أنكرَ عليهم هذا فقالَ تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ هذا استفهامُ توبيخٍ وإنكار، يقولوا: أتَّخَذ ربُّكم لنفسهِ البنات وأصفاكم بالبنينِ وأخلَصَكم بهم. والمعنى: كيف اختارَ لنفسهِ أهونَ قِسْمَي الولدِ، واختارَ لكم أعلَى القِسمَين، والحكمةُ لا توجبُ أن يختارَ الحكيمُ الأدونَ لنفسهِ والأعلَى لغيرهِ.

ثم وصَفَ كراهتَهم بالبناتِ، فقالَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ ؛ أي وإذا أخبر أحدُهم بما وصفَ للرحمنِ من إضافةِ البنت إليه صارَ وجههُ مُسْوَدّاً متغيِّراً يُعرَفُ فيه الحزنُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي يتردَّدُ حُزنهُ في جَوفهِ. وقد تقدم تفسيرهُ في سورة النحلِ.

---

(١) نقله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٠٩؛ وقال: (لا أدري البيت قديم أو مصنوع). وفي الكشاف: ج ٤ ص٢٣٤؛ قال الزمخشري: (ومن بدَعِ التفاسير تفسير الجزءِ بالإناث، وادِّعاء أن كلمةَ الجزء في لغةِ العرب هو اسمٌ للإناث، وما هو إلا كذبٌ على العربِ، ووضع مستحدَث منحولٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴾ ؛ زيادةٌ في الإنكار عليهم والْمَذمَّـةِ لَهم، كأنَّهُ قالَ: أوَيَختارُ لنفسهِ مع استغنائهِ عن الخلق كلِّهم (مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ) أي مَن رُبيَ في حِلية الذهب والفضَّة، ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ ، وهو في الكلامِ غيرُ ثابتِ الحجَّة.

قال المبرِّدُ: (تَقْدِيرُ الآيَةِ: أوَتَجْعَلُـونَ لَـهُ مَـنْ يُنَشَّـأُ فِـي الْحِلْيَـةِ، يَعْنِـي الْبِنْـتَ نَبَتَتْ)(١). (وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)؛ أي وهو عندَ الْمُخاصَمَة غـيرُ مُبـينِ الحجَّـة، قال قتادةُ: (قَلَّ مَا تَكَلَّمَتِ امْرَأةٌ بحُجَّتِهَا إلاَّ تَكَلَّمَتْ بحُجَّتِهَا عَلَيْـهَا)(٢) لِضَعْـفِ رَأيـهَا وَنُقْصَانِ عَقْلِهَا(٣).

ويستدَلُّ من هذه الآيــةِ على ثُبـوتِ الـترخُّصِ للنسـاءِ في التزُّين بحِليـة الذهـب والفضَّة، كما قالَ ﷺ وَقَدْ أخَذ الذهَبَ بإحْدَى يَدَيْهِ، وَالْحَرِيرَ بالأُخْرَى وَقَالَ:[هَذانِ مُحَرَّمَانِ عَلَى ذُكُور أُمَّتِي، حِلٌّ لإنَاثِهِمْ](٤).

---

(١) في تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٣ ص١٨٧؛ قال: (يعني ينبت في الزينة، يعني الحلي مع النســاء، يعني البنات).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٨٠٨). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣٧٠؛ قـال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر) وذكره.

(٣) لا يبدو لي المعنى على هذا الإطلاق، فإن حديث [نَاقِصَات عَقْلٍ وَدِيـنٍ] مبيَّـن معنـاه كمـا في نصه، وهو متعلق التوقيف في الطهارة للعبادة والشهادة في الحدود والجراحات، وليس كما ذهب البعض من العلماء.

ثم إن الأمر بالنسبة للمرأة هو كذلك بالنسبة للرجل بالوصف الإنساني، ولـولا الخـبرات المتأتية من ممارسة الحياة وأسباب القوة فيه للمرأة غير ما هي للرجل، ثم ما عيَّن الشرع لها وأناط بها وعرف بحقها. ويمكن أن يكون الأمر على أحوال معينة، وهي أكثر عموماً من تحديد النقـص بالمرأة وحصرها بها فقط.

مثال ذلك ما حكاه المبرِّد قال: (يقال: لا ينبغي لعاقل أن يشاور واحداً من خمسة: القطَّـان، والغزَّال، والمعلِّم، وراعـي الضـأن، ولا الرجـل الكثـير المحادثـة للنسـاء) فالقضيـة ليست علـى عمومها، وهي مختلفة بحسب تنامي الرأي العام في المجتمع حســب الزمـان والمكـان. والله أعلـم. ينظر: الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد: ج ٢ ص١٥٥، دار الفكر العربي.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث(١٠٨٨٩) وإسناده ضعيف، و(١١٣٣٣) كلاهمـا=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ ؛ معناهُ: ووَصَفُوا الملائكةَ الذين هم عبادُ الرحمنِ أنَّهم بناتُ اللهِ، وقرئ (عَبْدُ الرَّحْمَنِ) وكلٌّ صوابٌ، وقد جاءَ القرآنُ بالأمرَين معاً، وذلك قولهُ ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾[1] وقولُهُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾[2]، وفي قولِهِ تعالى (عَبْدُ الرَّحْمَنِ) دلالةٌ على رفعِ المنْزلة والقُربَةِ من الكرامةِ[3].

وقولهُ تعالى: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: أحَضَرُوا عندَ خَلقِهم فعَلمُوا ذلك، والشهادةُ ها هنا من الحضور، ووبَّخَهم اللهُ على ما قالوا ما لَمْ يُشاهِدُوهُ. وقرأ نافعُ: (أشَهِدُوا خَلْقَهُمْ) بهمزة الاستفهامِ وتخفيفِ الهمزةِ الثانيةِ على معنى أحَضَرُوا وعَايَنُوا خَلقَهُم حتى عَلِموا أنَّهم أناثٌ، وهكذا كقوله ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾[4] .

قال ابنُ عبَّاس: (يُريدُ: أحَضَرُوا وَعَايَنُوا خَلْقَهُمْ؟)، قال الكلبيُّ: (لَمَّا قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: [مَا يُدْرِيكُمْ أنَّهُمْ إنَاثٌ ؟] قَالُوا: سَمِعْنَا مِنْ آبَائِنَا وَنَحْنُ نَشْهَدُ أنَّهُمْ لَمْ يَكْذِبُوا أنَّهُمْ إنَاثٌ)[5] فقالَ اللهُ: ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ عنها في الآخرةِ.

=عن ابن عباس إسناده ضعيف. وفي الأوسط: الحديث (٣٦٢٩) عن عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٩٦ و١١٥. وابن ماجة في السنن: كتاب اللباس: باب لبس الحرير: الحديث (٣٥٩٥). وابن حبان في الإحسان: الحديث (٥٤٣٥) عن علي ﷺ، بإسناد حسن إن شاء الله.

(١) الأنبياء / ٢٦.

(٢) الأعراف / ٢٠٦ .

(٣) تفصيل لهذه القراءات، ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص٦٩. والحجة للقراء السبعة: ج٣ ص٣٧٠، والخلاف الحاصل لما روي من حوار بين ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير، كما في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٧١؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه).

(٤) الصافات / ١٥٠ .

(٥) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٨٧. وفي معالم التنزيل: ص١١٦١؛ قال البغوي: (قال الكلبي ومقاتل) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ ﴾ ؛ يعني بني مَلِيح من خُزاعة، كانوا يعبُدون الملائكةَ، (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ) أي ما عبَدُوا الملائكةَ، وإنما عبَدناهم بمشيئةِ الله تعالى. وإنما كانوا يقُولون هذا القولَ إبلاغاً لعُذرهم عند سَفَلَتِهم، يقول اللهُ تعالى: ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ ﴾ ؛ بقولِهم إنَّ الملائكةَ بناتُ الله وإنَّهم كَذبُوا في ذلك، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ما هُم إلا يكذبون فيما قالوا، ولم يتعرَّضْ لقولِهم (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ) بشيءٍ؛ لأن هذا القولَ حقٌّ، وإنْ كان من الكفار، وهذا كقولِهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[1] أي ولو جعلتَ قولَهُ (مَا لَهُمْ بذلِكَ مِنْ عِلْمٍ) ردّاً لقولِهم (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ) كان المعنى: أنَّهم قالوا: إنَّ الله قدَّرَنا على عبادتِهم فلم يُعاقِبْنا لأنه رَضِيَ ذلك، وهذا كذبٌ منهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى وإنْ قدَّرَ كُفرَ الكافرِ لا يرضاهُ، وتقديرُ الكفرِ من الكافرِ لا يكون رضًى من اللهِ له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ ؛ أي هل أعطَيناهم كِتَاباً من قبلِ القرآن بأن يعبُدوا غيرَ اللهِ، ﴿ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي آخِذُونَ بما فيه. ثم أعلمَ اللهُ أنَّهم اتَّبعُوا آباءَهم في الضَّلالةِ فقالَ تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ ؛ أي على سُنَّةٍ وملَّةٍ ودينٍ.

ومَن قرأ (عَلَى إمَّةٍ) بكسر الهمزةِ فمعناهُ: على طريقةٍ؛ أي ليس لَهم حُجَّةٌ إلاَّ هذا القول، ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي ليس لهم حُجَّة إلاَّ تقليدُ آبائِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ ﴾ أي مُلوكُها وأغنياؤُها ورؤساؤها: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ بهم.

فقالَ اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ ﴾ ؛ معناهُ: أتتَّبعون دينَ آبائكم وتكفُرون مِثلَهم، ولو جئتُكم بأرشدِ

(١) النحل / ٣٥.

مما وجدتُّم عليه آباءَكم، فأَبوا أنْ يقبَلُوا ذلك؛ و﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ثُم ذكَرَ ما فعَلَ بالأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ تخويفاً لَهم فقالَ تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ يعني ما صَنَعَ بقومِ نوحٍ وعاد وثمود.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ معناه واذكُر يا مُحَمَّدُ إذ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ وقومهِ حين خرجَ من السِّرب وهو ابنُ سبعَ عشرة سنةً، رأى أباهُ وقومَهُ يعبدون الأصنامَ، فقالَ لَهم: إنِّي بَرَاءٌ مما تعبُدون من دون الله تعالى، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾، إلاَّ مِن الذي خلَقَني فإنه سيحفَظُني ويُرشِدُني لدينهِ وطاعته.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ ﴾؛ أي وجعلَ براءتَهُ عن عبادةِ غير الله وهي كلمةُ التوحيدِ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ باقيةً في عَقِبهِ لكي يرجِعُوا إلى التوحيدِ، ويدعُوا الخلقَ إليه، فلا يزالُ في ولَدهِ مَن يوحِّدُ اللهَ تعالى. ومعنى الآيةِ: وجعلَها كلمةً باقيةً في ذريَّة إبراهيم ونَسلِه، فلا يزالُ في ذُريَّتهِ مَن يعبدُ اللهَ ويوحِّدهُ، ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي لعَلَّ أهلَ مكَّة يتَّبعون هذا الدِّينَ ويرجعون إلى دِينِكَ دينِ إبراهيمَ، إذ كانوا مِن وَلَدهِ. وقال السديُّ: (لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ وَيَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ إلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى)(١).

ثُم ذكَرَ نِعمتَهُ على قريشٍ فقالَ: ﴿ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ ﴾؛ يعني المشركين متَّعْتُهم بأموالِهم وأنفُسِهم وأنواعِ النِّعَم، ولم أُعاجِلْهُم بعقوبةِ كُفرهم، بل أمهلتُهم زيادةً في الْحُجَّةِ وقطعاً للمعذرةِ، ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ ﴾؛ أي القرآنُ، ﴿ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ للحُجَجِ وهو النبيُّ ﷺ بيَّنَ لهم الأحكامَ والدينَ.

وكان من حقِّ الإنعَام أن يُطيعوا الرسولَ بإجابتهِ، فلم يُجيبوه وعَصَوا، وهو قولُهُ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي لما جاءَهم الرسولُ والقرآن، نَسَبوا القرآنَ إلى السِّحر وجحَدُوا بهِ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٦٧.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي قال كفَّارُ مكَّة: هلاَّ نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القَريتين مكَّة والطائف، وعَنَوا بالرَّجُلين إما الوليدَ بنَ المغيرةِ من مكَّة، وإما أبا مسعودٍ الثقفيَّ من الطائفِ[١]، ظَنُّوا بجهلِهم أنَّ استحقاقَ النبوَّة إنما يكون بشَرفِ الدُّنيا مع اعترافِهم بأنَّ النبيَّ ﷺ مِن أرفعِهم نَسباً.

فقالَ اللهُ تعالى ردّاً عليهم وإنكاراً لِمَا قالوا: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ ؛ يعني النبوَّةَ التي هي مِن أعظمِ النِّعَمِ، وذلك أنَّهم اعترَضُوا على اللهِ بقولِهم: لِمَ لَمْ ينْزِل هذا القرآنُ على غيرِ مُحَمَّدٍ، فبَيَّنَ اللهُ تعالى أنه الذي يقسِمُ النبوَّةَ لا غيرهُ.

قال مقاتلُ: (يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أبأَيْدِيهِمْ مَفَاتِيحُ الرِّسَالَةِ فَيَضَعُونَهَا حَيْثُ شَاؤُا). فبيَّن اللهُ تعالى أنه لَمْ يجعَلْ أمرَ معايشِهم مع قلَّةِ خطرِ ذلك إلى رأيهم، بل رفعَ بعضَهم فوقَ بعضٍ في الرِّزق، وتلقاه شذ على ما تُوجبهُ الحكمةُ[٢]، فقال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي قسَمنا الرزقَ في المعيشةِ، وليس لأحدٍ أن يتحكَّمَ في شيءٍ من ذلك، فكيف نجعلُ أمرَ النبوَّة مع عِظَمِ قَدرهِ ورفعةِ شأنه إلى رأيهم، قال قتادةُ في معنى (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ): (تَلْقَى الرَّجُلَ ضَعِيفَ الْحِيلَةِ عَيَّ اللِّسَانِ وَهُوَ مَبْسُوطٌ فِي الرِّزْقِ، وَتَلْقَاهُ شَدِيدَ الْحِيلَةِ بَسِطَ اللِّسَانِ وَهُوَ مُقَتَّرٌ عَلَيْهِ)[٣].

وقولُـهُ تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ ؛ يعني الفضلَ في الغنى والمال ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ ؛ أي ليستخدِمَ بعضُهم بعضاً،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٨٣٧) عن ابن عباس، قال: (يعني الوليد بن المغيرة القرشي، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي).

(٢) المعنى كما جاء في حديث قتادة، قال: (قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فتلقاهُ ضعيف الحيلة، عيَّ اللسان، وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاهُ شديد الحيلة، سليط اللسان، وهو مقتور عليه). أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٨٤٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٨٤٤).

فيُسخِّر الأغنياءُ بأموالهم الفقراءَ لِيلتئِمَ قِوَامُ أمرِ العالَم، وقال قتادةُ: (لِيَمْلِكَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فَيَتَّخِذُونَهُمْ عَبيداً وَمَمَالِيكَ)[١]. والسِّخْرِيُّ بالكسرِ مِن الاستهزاءِ، وبالضَّم من التسخيرِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي وما خصَّكَ اللهُ به من النبوَّةِ خيرٌ لكَ مما يجمَعُون من المالِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ورحمةُ ربكَ يعني الجنَّةَ للمؤمنين خيرٌ مما يجمَعُ الكفَّارُ من الأموالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ولولاَ أن تَميلَ بالناسِ الدُّنيا فيصيرَ الخلقُ كلُّهم كُفَّاراً لأعطى اللهُ الكافرَ في الدُّنيا غايةَ ما يتمنَّى فيها لِهَوانِهَا وقلَّتِها عندَ الله تعالى، ولكنَّهُ لم يفعَلْ ذلك لعلمهِ بأن الغالبَ على الخلقِ حبُّ العاجلةِ.

وقوله (سَقْفاً) من قرأهُ بالوحدان فهو على معنى جعلنا لكلِّ بيتٍ سَقْفاً من فضَّة. ومن قرأ (سُقُفاً) بضمَّتين فهو جمعُ سَقْفٍ، مثلُ رَهْنٍ وَرُهُنٍ[٢]. ومَن قرأهُ (سُقْفاً) بضمِّ السين وجزمِ القاف فعلى تخفيفِ سِقْفٌ مثل رهْنٌ[٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) يعني الدَّرَجَ عليها يرتَفِعون ويَعلُون، واحدُها مَعْرجٌ، ويقالُ مِعْرَاجٌ ومَعَاريجُ وَمَعَارِجُ، مثل مَفَاتِيح ومَفَاتِح في جمعِ مِفتاحٍ، والمعنى: وكذلك جعلنا لَهم معارجَ من فضَّة عليها يصعَدُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي ولبُيوتِهم أبوَاباً من فضَّة وسُرُراً من فضَّة، على سُرُر الفضَّة يجلِسُون ويتَّكِئون، وقولهُ تعالى: ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ ؛ الزُّخرُفُ هو الذهَبُ، كأنَّهُ قال: وجعَلنا أمتِعَتَهم من الذهب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٨٤٨).

(٢) في جامع البيان: مج ١٣ ج ٢٥ ص٨٩؛ قال الطبري: (وعامة قراءة الكوفة ﴿سُقُفاً﴾ بضم السين والقاف، ووجهوها إلى أنها جمع سقيفة أو سقوف. وإذا وجهت إلى أنها جمع سقوف كانت جمع الجمع؛ لأن السقوف جمع سقف، ثم تجمع السقوف سُقُفاً). ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٣ ص٣٢.

(٣) في المخطوط: (زهر). ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٧٥.

هكذا في التفاسيرِ أنَّ المرادَ بالزُّخرُفِ الذهبَ، إلاَّ أنَّهُ في اللغةِ الزُّخرف: كَمَالُ الزِّينةِ[١]، كما قالَ تعالى ﴿حَتَّى إذا أخَذتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾[٢]، ويجوزُ أن يكون قولهُ (وَزُخْرُفاً) عَطفاً على قولهِ (مِنْ فِضَّةٍ) كأنَّهُ قالَ: مِن فضَّةٍ وزُخرُفاً، إلاَّ أنه لَمَّا قالَ حذفَ (مِنْ) جعل نصباً[٣]، وهذا إنما يكون على قول الكوفِيِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ مَن قرأ (لَمَّا) بالتشديدِ فالمعنى: ما كلُّ ذلك إلاَّ متاعُ الحياةِ الدُّنيا، ومَن قرأ بالتخفيفِ فـ (مَا) صلةٌ زائدة، والمعنى: وإنْ كلٌّ لَمَا متاعُ الحياة الدنيا، يُتَمَتَّعُ به إلى حين ثُم يفنَى، وَ ثوابُ ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ الكفرَ والفواحشَ، والذي قرأ (لَمَّا) بالتشديدِ حمزةُ جعلَهُ في معنى إلاَّ، وحُكي عن سيبويهِ: نشَدتُكَ لَمَّا فعلتَ، بمعنى إلاَّ فعلتَ.

وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [لَوْلاَ أنْ يَجْزَعَ عَبْدِي الْمُؤْمِن لَعَصَبْتُ الْكَافِرَ بعِصَابَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَلَصَبَّبْتُ الدُّنْيَا عَلَيْهِ صَبّاً][٤]. قال[٥]: ومصداقُ ذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَوْلاَ أنْ يَكُونَ النَّاسُ أمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ).

---

(١) نقله الزجاج عن زيد بن أسلم، كما في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣١٣.

(٢) يونس / ٢٤ .

(٣) العبارة هكذا رسمت في المخطوط، وفي معاني القرآن: ج ٣ ص٣٢؛ قال الفراء: (وجاء في التفسير: نجعلها لهم من فضة ومن زخرف، فإذا ألقيتَ (من) الزخرف، نصبتَهُ على الفعل توقعه عليه، أي وزخرفاً، تجعل ذلك لهم منه).

(٤) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٧٦؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ...) وذكره. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٨٨؛ قال القرطبي: (وقال كعب: إني أجد في كتب الله المنزلة: (لولا أن يحزن عبدي المؤمن لكلَّلتُ رأس عبدي الكافر بالإكليل لا يتصدع منه عرق بوجع).

(٥) القائل ابن عباس رضي الله عنهما؛ كما في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٧٦؛ قال: (قد أنزل الله شبه ذلك في كتابه).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا ﴾ ؛ أي مَـن يُعرضُ عن ذكرِ الرَّحمـنِ نُسَـببْ لـه شَـيطاناً يُضِلُّـهُ، يجعـلُ ذلـك جـزاؤه، ﴿ فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ لا يفارقهُ في الدُّنيا والآخرةِ، يقالُ: عَشِيَ إلى النار بـاللَّيل إذا تنوَّرَهـا فقَصَدَها، وعَشِيَ عنها إذا أعرضَ عنها قاصداً لغيرِها، ونظيرُ هذا مالَ إليه ومالَ عنهُ، قال الشاعرُ[(١)]:

مَتَــى تَأْتِــهِ تَعْشُــو إلَــى ضَــوْءِ نَــارِهِ تَجِـدْ خَـيْرَ نَـارٍ عِنْدَهَـا خَـيْرُ مَوْقِـدِ

ومَن قرأ (يَعْشَ) بفتح الشينِ وهو من عَشَى يَعشَى إذا لم يُبصِرْ بالليلِ، والمعنى: ومَن يَعْمَ عن ذكرِ الرَّحمنِ.

قال الزجَّاجُ: (مَعْنَى الآيَةِ: وَمَنْ يُعْرِضْ عَنِ الْقُرْآنِ وَمَا فِيْهِ مِـنَ الْحِكْمَـةِ إلَـى أبَاطِيلِ الْمُضِلِّينَ، نُعَاقِبْهُ بشَيْطَانٍ نُقَيِّضُهُ لَهُ حَتَّى يُضِلَّهُ وَيُلاَزِمَهُ قَرِيناً لَـهُ فَـلاَ يَـهْتَدِي، مُجَازَاةً لَهُ حِينَ آثَرَ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)[(٢)].

وقوله تعالى: (فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) أي صاحبٌ يُزَيِّنُ له العَمَى، ويُخَيِّلُ إليه أنَّـهُ علـى الْهُدَى وهو على الضَّلالة، وذلـكَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ؛ معناهُ: وإنَّ الشياطين ليمنعونَهم عن سبيلِ الهدى، ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ ؛ الكفارُ، ﴿ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ ؛ يعـني الكـافرَ إذا جـاءَ يـومَ القيامـةِ ﴿ قَالَ ﴾ ، لقَرينهِ وهو الشيطانُ الذي يُجعَلُ معه في سِلسلةٍ واحـدةٍ: ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ ؛ المشـرقُ والمغـرِبُ إذ كُنَّـا في الدُّنيـا فلـم أرَكَ ولم ترَنِـي، ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ كُنتَ لِي.

وإنما سُمِّيَ المشـرقُ والمغـربُ باسـمِ الواحـد لـلازدواجِ، كمـا يقـالُ للشَّـمسِ والقمر: القَمَرَانِ، وفي تثنيةِ أبي بكرٍ وعمرَ: العُمَرَينِ، قال الشاعرُ[(٣)]:

---

(١) الحطيئة يمدح بُغَيض بن عامر التميمي.

(٢) لم أجده في معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ولعلَّ المصنِّفَ نقلَهُ سَماعاً.

(٣) الفرزدق من قصيدة له يفتخر بآبائه ويـهجو جريـراً. مـن شـواهد الزجـاج في معـاني القـرآن=

أَخَذْنَـــا بِآفَـــاقِ السَّـــمَاءِ عَلَيْكُـــمُ لَنَـــا قَمَرَاهَـــا وَالنُّجُـــومُ الطَّوَالِـــعُ

وقُرِئ: (حَتَّى إذا جَاءَنَا) يعني الكافرَ وشيطانهُ يُبعثـان يـومَ القيامـةِ في سلسـلةٍ واحدة، كما رُوي أنَّ الكافرَ إذا بُعث يومَ القيامةِ مِن قبرهِ أخذ بيدهِ شَيطانهُ فلم يُفارقْهُ حتى يُصَيِّرهُما اللهُ إلى النار، فلذلك حيثُ يقولُ: (يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْـرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِيـنُ)، ويقـولُ اللهُ في ذلـك اليـومِ للكـافرين "و"[1] أنـت أيـها الشـيطان: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ ﴾ ؛ أي إذا أشركتُم في الدُّنيـا، ﴿ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: لا يُخفَّفُ عنهم الإشراكُ شيئاً من العـذاب، لأنَّ لكلِّ واحدٍ منهم الحظَّ الأوفرَ من العذاب، ولا يستأنِسُ بعضُهم ببعضٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ ﴾ ؛ أي أفـأنتَ تُسـمِعُ الكفـارَ الذيـن يتصَـامَمُون عـن الحـقِّ ويتعـامَون عنـهُ، ﴿ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي بَيِّنٍ قد ظهرَتْ ضَلالتهُ.

وقولهُ تعـالى: ﴿ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ ﴾ ؛ أي نُميتُـكَ قبـلَ أن نُريَـكَ النَّقمَـةَ في كفار مكَّـة، ﴿ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ بـالقتلِ بَعـدَكَ، ﴿ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ﴾ ؛ في حياتِكَ ما، ﴿ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ ﴾ ؛ من الذُّلِّ، ﴿ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ . بَيَّـنَ اللهُ تعالى أنه قادرٌ على عقوبتِهم في حالِ حياة النبيِّ ﷺ وبعدَ وفاتهِ.

والأصلُ في (إمَّا): (إنْ مَا) فحُذف الشرطُ (ان وما) صلةٌ ومتى دخلـت (مَـا) في الشرطِ للتوكيدِ دخلت النونُ الثَّقيلةُ المؤكِّدة في الفعلِ المذكور بعدَها.

ومعنى الآية: أنَّ الله تعالى "قال"[2] مُطَيِّباً لقلب نَبيِّهِ ﷺ: إنْ ذهَبْنَا بكَ انتقَمنَـا لكَ مِمَّنْ كَذبَكَ بعدَكَ أو نُرِيَنَّكَ في حياتِكَ ما وعدنـاهم مـن العـذاب، فإنَّـا قـادِرُون عليهم متى شِئْنَا عذبنَاهُم ثم أريَ ذلكَ يومَ بدرٍ.

=وإعرابه: ج ٤ ص٣١٤. وقال: (يريد الشمس والقمر، وكما قالوا: سُنَّة العُمَرَين، يرادُ سُنة أبي بكر وعمر رحمة الله عليهما).

(١) (و) سقطت من المخطوط.

(٢) (قال) ليس في المخطوط، وهو مقتضى السياق.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أي استَمسِكْ بـالقُرآن، ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ ؛ أي القـرآنُ شَـرَفٌ لكَ ولَهم، ﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ عن شُكرِ هذه النِّعمةِ، يعني ما أعطـاهُ الله من الحكمةِ وقومَهُ المؤمنين من الْهُدَى بالقرآن إلى إدراكِ الحقِّ، وقال مجـاهدُ: (الْقَـوْمُ هَا هُنَا الْعَرَبُ، وَالْقُرْآنُ لَهُمْ شَرَفٌ إذْ نَزَلَ بلُغَتِهِمْ)[(١)].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ وذلك أنـه لَمَّـا أُسـريَ بـالنبيِّ ﷺ بعـثَ اللهُ آدمَ وجميـعَ الْمُرسَلِينَ وأذنَ جبريلُ ثم أقامَ، وقالَ: يا مُحَمَّدُ تَقَدَّمْ فصَلِّ بهم، فلمَّا فرغَ من الصَّلاةِ قَالَ جِبْرِيلُ: سَلْ يا مُحَمَّدُ مَنْ أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ، هَلْ أرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ جَوَازَ عِبَـادَةِ غَـيْرِ اللهِ ؟ فَقَالَ ﷺ: [لاَ أسْأَلُ قَدِ اكْتَفَيْتُ][(٢)].

وَقِيْلَ: معناهُ: اسأل أُمَمَ مَن أرسَلنا قبلَكَ، يعني مؤمني أهلِ الكتاب سَلْهُم هـل جاءَتْهم الرُّسُلُ إلاَّ بالتوحيدِ، فلم يشُكَّ ولم يسـأَلْ، (ومعنـى الأمـر بالسُّـؤال لتقريـرِ مُشرِكي قريشٍ أنه لَمْ يأتِ رسولٌ ولا كتابٌ بعبادةِ غيرِ اللهِ تعالى)[(٣)].

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي يَهْزَأونَ ويضحَكُون منها جَهْلاً وغفلةً.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ ؛ يعني مـا نرادفُ عليهم من الطُّوفان والجرَادِ والقُمَّلِ والضفادعِ والدَّم والطَّمْسِ، وكانت كلُّ آيةٍ من هذه الآياتِ أكبرَ مِن التي قبلَها، وهي العذابُ المذكور في قولِهِ تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ لأنَّهم عُذِّبوا بهذه الآياتِ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٦٩.

(٢) في معالم التنزيل: ص١١٦٩؛ قال البغوي:(قال عطاء عن ابن عباس) وذكره، ثـم قـال: (وهـذا قول الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٨٨٨) عن ابن زيد. ونقله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج٤ ص٣١٥.

(٣) نقله البغوي العبارة ولم يعزها إلى الطبراني، ينظر: معالم التنزيل: ص١١٦٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (يَا أَيُّهَا الْعَالِمُ، وَكَانَ السَّاحِرُ فِيهِمْ عَظِيماً يُعَظِّمُونَهُ، وَلَمْ يَكُنْ ((السِّحْرُ)) صِفَةَ ذمٍّ، وَكَانَ عُلَمَاؤُهُمْ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ السَّحَرَةُ، فَكَانُوا يُوَقِّرُونَهُ بهَذا الْقَوْلِ، وَلَمْ يُرِيدُوا شَتْمَهُ)[١].

وقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ ؛ أي سَلْ ربَّكَ بما عَهدَ عِندَكَ فيمن آمنَ بكَ ليكشِفَ العذابَ عنَّا، والمعنى: بما عَهدَ فيمَنْ آمنَ به من كشفِ العذاب عنه، ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ مُؤمنون بكَ.

فدَعَا مُوسَى ربَّهُ فكشفَ عنهم فلم يُؤمِنُوا، فذلكَ قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ العهدَ الذي عَاهَدُوا موسَى، معناهُ: إذا هم يَنقُضُونَ عهُودَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ ﴾ ؛ إلى قولِهِ: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ يعنِي أنهارَ النِّيلِ تجري مِن تَحتِي؛ أي من تحتِ قُصوري وفي بساتينِي، وقال الحسنُ:(بأَمْري)[٢] فعلى هذا معناهُ: من تحتِ أمري، أفلا تُبصِرُونَ عظَمَتِي وشدَّةَ مُلكِي وفضلِي على موسى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ ؛ أي بل أنا خيرٌ من هذا الذي هو ضعيفٌ حقير، يعني موسَى؛ وإنما وصفَهُ بهذا لأنه كان يقومُ بأمر نفسه، ولم يكن أحدٌ يقومُ بأمرِهِ، ومن ذلك المهنَةُ، وقولُهُ تعالى: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي لا يكادُ يُبينُ الكلامَ، يعني أنه كان بلسانهِ لُثْغَةٌ من أثرِ العُقدةِ التي كانت، وكان مع ذلك بَليغاً مُبيناً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ ؛ معناهُ: قالَ فرعونُ: هلاَّ أُلقِيَ على موسى أسورَةٌ من ذهبٍ إن كان رَسُولاً كما يُسَوِّرُ الملوكُ رُسُلَهم تَعظيماً لهم، وكان آلُ فِرعَونَ يلبَسُون الأسَاوِرَ، والأَسْوِرَةُ جمعُ السِّوَار، والأسَاوِرُ جمعُ الأسْوِرَةِ.

---

(١) ينظر نقولات القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٩٧.
(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٧٠.

وقولُـهُ تعـالى: ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي مُتَتابعِين يُعِينُونَهُ على أمرِهِ الذي بُعث له، ويشهَدُون له بصِدقهِ. والمعنى: أنَّ فرعون قالَ: هلاَّ جاءَ معه الملائكةُ متعاونين يَمشُونَ معه فيدُلُّون على صدقهِ بنبوَّتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ ؛ أي استخفَّ فرعونُ عُقُولَ قومهِ القبطِ فوجَدَهم خِفَافَ العقولِ فأطاعوهُ على تكذيب موسى، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي خارجين عن أمْرِنا.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي فلَمَّا أغضبُونا انتقَمنا منهم، وجازَيناهم على معاصِيهم، ﴿ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ . والآسَفُ: الْغَضَبُ في هذه الآيةِ، وأصلهُ في اللغة: الْحُزْنُ، إلاَّ أن الحزنَ لا يجوزُ في صفاتِ الله.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا ﴾ ؛ أي متقدِّمين، وَقِيْلَ: سَلَفاً إلى النار، ﴿ وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ يُتمثَّلُ بهم في الهلاكِ إلى آخر الدَّهرِ.

وقرأ حمزةُ (سُلُفاً) بالضمِّ في السين واللامِ: جمعُ سَلِيفٍ وهو الماضِي مأخوذٌ من سُلُفٍ بضمِّ اللام يَسْلُفُ؛ أي تقدَّمَ فهو سَلِيفٌ. ومَن قرأ (سُلَفاً) بضمِّ السين وفتحِ اللام فهو جمعُ سُلَفَةٍ وهي الفِرقَةُ التي قد مضَتْ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أنْتُمْ...﴾ الآيَةُ، قَرَأهَا النَّبيُّ ﷺ، قَالَ ابْنُ الزِّبَعْرَى: أخَاصٌّ هَذا أمْ عَامٌّ ؟ فقَالَ: [عَامٌّ] فقَالَ ابْنُ الزِّبَعْرَى: فَإنَّ عِيسَى تَعْبُدُهُ النَّصَارَى، فَهُوَ وَالنَّصَارَى فِي النَّار، وَعُزَيْرٌ تَعْبُدُهُ الْيَهُودُ، وَخُزَاعَةُ تَعْبُدُ الْمَلاَئِكَةَ، فَإنْ كَانَ هَؤُلاَءِ فِي النَّار فَآلِهَتُنَا خَيْراً مِنْهُمْ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً))[1].

---

(١) في معالم التنزيل: ص١١٧٠؛ قال البغوي: (قال ابن عباس وأكثر المفسرين: إن الآية نزلت في مجادلة عبدالله بن الزبعرى مع النبي ﷺ في شأن عيسى). وحكاه مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٩٣-١٩٤. والقصة أخرجها ابن هشام في السيرة النبوية: ج ١ ص٣٨٥.

والمعنى: لَمَّا شبَّهوهُ بآلهتهم (إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) يعني قومَهُ الكفارَ كانوا يضُجُّون ضجيجَ المجادَلةِ، حيث خاصَموهُ وقالوا: رضِينَا أن تكون آلهتَنا، وهو قولُهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ ﴾ ؛ أي ليست آلِهتُنا خيراً من عيسَى، فإنْ كان عيسَى في النار بأنه يُعبَدَ من دونِ الله فآلِهتُنا في النار.

قرئ (يَصِدُّونَ) بكسرِ الصاد وضمِّها، قال الفرَّاءُ والزجَّاجُ والأخفش والكسائيُّ: (هُمَا لُغَتَان، مَعْنَاهُمَا: يَضُجُّونَ)[1]. وَقِيْلَ: يَصُدُّونَ: يُعْرِضُونَ. ومَنْ قرأ بكسرِ الصاد فمعناهُ: يضحَكُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ ﴾ ؛ أي ما ذكَروا لكَ وصفَ عيسى إلاَّ ليُجادِلُوكَ به؛ لأنَّهم قد علِمُوا أن المرادَ بحصَبِ جهنَّم ما اتخذوهُ من المواتِ.

ثم ذكرَ أنَّهم أصحابُ خصُومَاتٍ فقالَ: ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ ﴾ ؛ أي جَدِلُونَ بالباطلِ، وعن أبي أمامةَ الباهليِّ أنه قالَ: (مَا ضَلَّ قَوْمٌ إلاَّ أوْتُوا الْجَدَلَ. ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ عيسَى عليه السلام عبدٌ مثلُهم فضَّلَهُ بالنبوَّةِ والرسالةِ، والمعنى: أنعَمْنا عليه بالنبوَّةِ، ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ ﴾ ؛ أي جَعلنا خلقَهُ بغيرِ الأب آية تدلُّهم على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتهِ على ما يريدُ.

ثم خاطبَ كفارَ مكَّة فقالَ تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ ﴾ ؛ أي لو نشاءُ أهلَكنَاكُم وجعلنا بَدَلاً منكم ملائكةً، ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ۝٦٠ ﴾ ؛ كم يكون خَلَفاً منكم.

---

(١) في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٦-٣٧ ذكرهما الفراء وقال: (العرب تقول يَصِدُّ ويَصُدُّ). وفي معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣١٧؛ قال الزجاج: (يقرأ يَصُدُّونَ بضمِّ الصاد والكسرُ أكثر). وقاله الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص٦٩٠.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٣٩٢٨). والطبراني في المعجم الكبير: ج٨ ص٢٧٧: الحديث (٨٠٦٧). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٢٣٥)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجة في السنن: المقدمة: الحديث (٤٨). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٧٢٦)، وقال: صحيح الإسناد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ ؛ يعني نزولَ عيسى من أشراطِ السَّاعَةِ نعلمُ به، ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ ؛ أي لا تَشُكُّنَّ في القيامةِ إنَّها كائنةٌ، ولا تُكَذِّبُوا، وَ؛ قُل لَهم: ﴿ وَٱتَّبِعُونِۚ ﴾ ؛ على التوحيدِ، و ﴿ هَٰذَا ﴾ ؛ الذي أنا عليهِ، ﴿ صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي دينٌ قائم لا عِوَجَ فيهِ، ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ ﴾ ؛ أي لا يَصرِفنَّكُم عن هذا الدينِ، ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي ظاهرُ العداوةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي بالْمُعجِزَاتِ، وقال قتادةُ: (يَعْنِي الإنْجِيلَ)(١)، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ ؛ أي بالإنجيلِ، وَقِيْلَ: بالنبوَّةِ، وَ؛ جئتكم ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ ﴾ ؛ فيما بينكم، قال مجاهدُ: (مِنْ أحْكَامِ التَّوْرَاةِ)(٢).

فإن قِيْلَ: فهلاَّ بَيَّنَ لَهم جميعَ ما اختلَفُوا فيه وقد أرسِلَ إليهم؟ قُلنا: قد اختلفوا فيه؛ قال بعضُهم: إنَّ الذي جاءَ به عيسى في الإنجيلِ إنما هو بعضُ الذي اختلَفُوا فيهِ، وقد بيَّنَ لهم من غيرِ الإنجيلِ ما احتاجُوا إليه.

وقال بعضُهم: معناهُ: لأُبَيِّنَ لكم بعضَ الكتاب الذي تختلفون فيهِ، إذ كانوا مختلفين في بعضِ التَّوراةِ. وقال بعضُهم معناهُ: لأُبيِّنَ لكم أمرَ دينكم لأنَّهم كانوا مُختلفين في أمرِ دينهم ودُنياهم، والمقصودُ من إرسال الرسُلِ بيانُ الدين، فكان ذلك بعضَ ما اختلفوا فيه، وقد يذكَرُ البعضُ أيضاً بمعنى الكلِّ، كما قالَ الشاعرُ(٣):

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وأرادَ بالبعضِ الكلَّ، لأن المستعجلَ أيضاً قد يدركُ البعضَ، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٠٧-١٠٨؛ قال القرطبي: (وقال قتادة: البينات هنا الانجيل). وقاله مقاتل أيضاً في التفسير: ج ٣ ص١٩٥. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٩٤٤) عن قتادة.

(٢) قاله الطبري في جامع البيان: وأورد قول مجاهد في الأثر (٢٣٩٤٦) وقال: (من تبديل التوراة).

(٣) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣١٨؛ قال الزجاج: (واستشهدوا أيضاً بقول القطامي) وذكره.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ ﴾ ؛ يعـني اليـهودَ والنصـارَى، وَقِيْلَ: المرادُ به فِرَقَ النصَارَى على ما تقدَّم ذِكرهُ من الاختلافِ فيما بينـهم في عيسَـى العَلَيْكِلاَ، وقولـه تعـالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ ؛ أي هل ينظُرون إلاَّ القيامةَ أن تأتِيَهم فجأةً على غِرَّةٍ منهم، ((مِنْ)) غـير تـأهُّبٍ ولا استعدادٍ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ وقتَ مجيئها.

فإنْ قِيْلَ: كيف تُسمَّى القيامةُ الساعةَ وهي تشتملُ على خمسين ألـفَ سَـنة؟ قلنـا: إنما سُمِّيت ساعةً لسُرعَةِ مجيئِـها، ولأنَّـها في جنـب مـا وراءَهـا سـاعةٌ، وهـي سـريعةُ الانقضاءِ على المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ يعني الأخِلاَّءَ في يومئذٍ؛ أي يومَ تأتي الساعةُ (بَعْضُهُمْ لِبَعْـضٍ عَـدُوٌّ) يعـني إذا كـانت الْخِلَّةُ على المعصيةِ والكُفر صارت عداوةً يومَ القيامـةِ، (إلاَّ الْمُتَّقِـينَ) يعـني المؤمنـينَ الذين يُخَالِلُ بعضُهم بعضاً على الإيمانِ والتقوَى، فإنَّ خِلَّتَهُمْ لا تصيرُ عداوةً.

وفي الحديثِ: [أنَّ الأَخِلاَّءَ أرْبَعَةٌ: مُؤْمِنَان وَكَـافِرَان، فَـإذا سُـئِلَ الْمُؤْمِـنُ عَـنْ خَلِيلِهِ، قَالَ: مَا عَلِمْتُهُ إلاَّ أمَّاراً بالْمَعْرُوفِ نَهَّاءً عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُسْأَلُ الْمُؤْمِنُ الثَّانِي عَنْ خَلِيلِهِ، فَيَقُولُ مِثْلَ ذلِكَ، وَيُثْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ خَيْراً، فَتَزْدَادُ مُخَالَلَتُهُمَا فِي الآخِرَةِ عَلَى الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا. ثُمَّ يُسْأَلُ أحَدُ الْكَافِرَيْنِ عَنْ خَلِيلِهِ، فَيَقُولُ: بِئْـسَ الأَخُ؛ مَا عَلِمْتُهُ إلاَّ أمَّاراً بالْمُنْكَرِ، نَـهَّاءً عَـنِ الْمَعْـرُوفِ، اللَّـهُمَّ أضْلِلْـهُ كَمَـا أضَلَّنِـي، وَيَقُولُ الآخَرُ مِثْلَ ذلِكَ، وَيُثْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ شَرّاً وَتَنْقَلِبُ مُخَالَلَتُـهُمَا عَدَاوَةً، لأنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي ذاتِ اللهِ تَعَالَى][1].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٠٩؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي ﷺ في هذه الآيـة). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣٨٨؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بـن حميـد عـن قتـادة) وذكـره بمعنـاه ولفظ قريب منه. و ص٣٨٩ قال: (أخرجه عبدالرزاق وعبـد بـن حميـد وحميـد بـن زنجويـه في ترغيبه، وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمـان عـن علـي بـن أبـي طالب ﷺ) وذكره في لفظ قريب منه. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٩٥٢).

قولـه تعـالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي يقالُ للمتَّقـين: يـا عِبَـادِي لا خـوفٌ عليكم من أهوالِ القيامة ومـا بعدَهـا، ولا أنتُـم تَحزَنُـونَ إذا حَـزِنَ النـاسُ، فقولـه: (الَّذِينَ) موضعُ نَصبٍ على النعتِ لِعِبَادِي، لأن عِبَادِي مُنَادَى مضاف.

وقولهُ تعالى: (وَكَانُوا مُسْلِمِينَ) أي خَـاضِعِين مُنقَـادِين، يقـالُ لَـهم: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي لأَنْتُم وحَلائِلِكُم المؤمنـاتِ تُكرَمُـونَ غايةَ الإكرامِ بالتُّحَفِ والهدايا. ويقالُ: معنى: تُحبَرُونَ: تُسَرُّونَ، والْحُبُورُ السُّرُورُ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ ؛ أي يَطُـوفُ عليـهم خَدَمُهم بقِصَاعٍ من ذهبٍ فيها من أنواعِ الأطعمَةِ اللَّذيذةِ الشَّهِيَّةِ، وواحدُ الصِّحَـافِ: صَحْفَةٌ؛ وهي القَصْعَةُ الواسعةُ العريضة، وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ ؛ أي وأكـوابٍ من ذهَبٍ، والأكوابُ جمع الكُوب، وهو إناءٌ مستدير مُدَوَّرُ الرأسِ لا عُروةَ له. وَقِيْـلَ: الأكوابُ هي الأباريقُ التي لا خرَاطِيمَ لها ولا أذُنَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ ؛ أي في الجنَّـة ما تتمنَّى الأنفسُ وتستحسـنهُ الأعيـن، ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ مِن الأعمال الصالحـة، ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ ؛ ألوان الفاكهةِ الكثيرة، ﴿ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ الْمُجرِمِينَ في عذاب جهنَّم دائمون، ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي يُرَفَّهُ عنهم ولا يُـهَوَّنُ عليهم، ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي آيسُونَ مِن الرَّوْحِ والرَّاحَةِ.

والإبْلاَسُ هو: اليأسُ من الخير، والْمُبْلِـسُ هـو السـاكتُ المنقطـعُ لِيَأْسِـهِ مـن الفرح، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ ؛ بهذا العذاب، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ لأنفُسِهم بالكفرِ والمعاصي.

وفي قراءةِ ابنِ مسعود (الظَّالِمُونَ) بالرفعِ على لُغة تَميم يُعمِلُونَ الْمُضْمَرَ قبلَهُ، وأما على القراءةِ التي ليست في المصحَـفِ (فَـهُمْ) زيـادةٌ وفصـلٌ لا موضـعَ لهـا مـن

الإعراب بمنْزلة (مَا) في قوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللهِ لِنْتَ﴾[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّهُ إذا اشتدَّ عليهم العذابُ وقد صيَّرَهم، تَمَنَّوا الموتَ، فنادَوا مَالِكاً خازنَ جهنَّم: يا مالِكُ ادعُ لنا ربَّكَ يقضِي علينا بالموتِ فنستريحَ من العذاب بعد أربعين سنةً، ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ مُقيمون دائمون، وعن ابنُ عبَّاس: (أنَّهُمْ يُنَادُونَ مَالِكاً الْفَ سَنَةٍ فَيُجِيبُهُمْ: إنَّكُمْ مَاكِثُونَ فِي الْعَذاب)[٢]، وقرأ عليٌّ وابنُ مسعودٍ[٣]: (يَا مَالِ) بالترخيمِ[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي لقد أرسَلنا إليكم يا معشرَ قُريش مُحَمَّداً رسولَنا بالحقِّ، ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

---

(١) آل عمران / ١٥٩ . في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٢٠؛ قال الزجاج: (ويجوز: ولكن كانوا هم الظالمون، في غير القرآن — أي فيما يتخاطب به الناس — ولكن لا نقرأ بها لأنها تخالف المصحف). والسبب في القراءة على ما نقله النحاس في إعراب القرآن: ج ٤ ص٨٠؛ قال: (قال أبو جعفر: وعلى هذا يكون (هُمُ) في موضع رفع بالابتداء، و(الظَّالِمُونَ) خبر الابتداء، وخبره خبر كان، كما تقول: كان زيدٌ أبوهُ خارجٌ).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٩٦٨).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح:كتاب بدء الخلق: باب إذا قال أحدكم (آمين): الحديث (٣٢٣٠) عن صفوان بن يعلى عن أبيه قال:[سمعتُ النبي ﷺ يقرأ على المنبر: (وَنَادَوا يَـا مَالِ)] قال سفيان: (من قراءة عبدالله: (ونادَوا يا مال). وفي فتح الباري شرح صحيح البخاري:ج٨ ص٧٣٠؛ قال ابن حجر: (يذكر عن بعض السلف أنه لما سمعها قال:(ما أشغل أهل النار عن اسم الترخيم؟) قال ابن حجر:(وأجيب باحتمال أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وشدة ما هم فيه). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج١٦ ص١١٧؛ قال القرطبي: (قال أبو بكر: لا يعمل على هذا الحديث لأنه مقطوع لا يقبل مثله في الرواية عن رسول الله عليه السلام، وكتاب الله أحق أن يحتاط له وينفى عنه الباطل).

(٤) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٢٠؛ قال الزجاج: (ورُوِيَت: يا مال — بغير الكاف، وبكسر اللام- وهذا يسميه النحويون الترخيم، وهو كثير في الشعر في مالك وعامر، ولكني أكرههما لمخالفتهما المصحف).

وقولهُ تعالى: ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي بل احكَمُوا عند نُفوسِهم أمراً في كيدِ مُحَمَّد ﷺ والْمَكْرِ به، فإنَّا مُحكِمُونَ أمْراً في مُجازَاتِهم شرّاً بشَرٍّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ السِّرُّ ما يعقدهُ الإنسانُ في نفسهِ ويُضمِرَهُ بقلبهِ، والنَّجوَى ما يُحَدِّثُ به غيرَهُ في الخِفْيَةِ، وقولهُ تعالى (بَلَى) أي نسمَعُ سِرَّهم ونَجواهُم، ورسُلُنا هم الْحَفَظَةُ عندَهم، يكتُبونَ عليهم ذلكَ.

ويقالُ: إنَّ هذه الآيةَ نزلت في ثلاثةِ نَفَرٍ من المشركين، وهم صفوانُ بن أميةَ، وربيعةُ بن عمرٍو وأخوهُ حبيبُ بن عمرٍو، وكانوا يَمْكُرُونَ في قتلِ النبيِّ ﷺ، فقالوا: أخبرْنا أنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ لأصحابهِ: إنَّ الله يعلَمُ السرَّ يكون بين الاثنين، أفتَرَوْنَهُ يعلمُ ما نقولُ؟ قال ربيعةُ: أراهُ يعلَمُ بعضَ ما نقولُ ولا يعلَمُ بعضاً، فقال صفوانُ: ولا كلمةً واحدةً، ولو عَلِمَ بعضَهُ لعلمَهُ كُلَّهُ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ المشركين لَمَّا قالوا: لله ولدٌ! ولَم يرجِعُوا عن مَقالَتِهم، أنزلَ اللهُ هذه الآيةَ، والمعنى: قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: (إنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ) في زَعمِكم (فَأَنَا أوَّلُ العَابدِينَ) مَن عبدَ اللهَ وحدَهُ وكذبَكم بما تقولون، هكذا رُوي عن مجاهد[(٢)].

وقال قتادةُ والحسن: (مَعْنَاهُ: مَا كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ، وَأنَا أوَّلُ مَنْ عَبَدَ اللهَ مِنْ أهْلِ هَذا الزَّمَانِ)[(٣)]. وَقِيْلَ: معناهُ: إنْ كان للرَّحمنِ ولدٌ كما تزعمون فأنا أوَّلُ مَن غَضِبَ للرحمنِ، فعلى هذا القولِ العَابدُ من العَبَدِ بمعنى الغَضَب. وقال الفرَّاءُ: (عَبَدَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٣٩٧٧) من غير ذكر الأسماء. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣٩٤؛ عزاه السيوطي للطبري فقط.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٩٨١). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣٩٥؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير).

(٣) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٩٥؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد عن الحسن والقتادة) بلفظ: (فأنا أول من عبَدَ الله من هذه الأمة).

عَلَيْهِ أيْ غَضِبَ عَلَيْهِ). وَقِيْلَ: معناهُ: فأنا أوَّلُ الآنِفِينَ، يقالُ: عَبِدَ يَعْبُدُ؛ إذا أنِفَ وَغَضِبَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؛ نَزَّهَ اللهُ تعالى نفسَهُ مما يقولُ المشركون؛ أي تَنْزِيهاً لخالقِ السَّمواتِ والأرضِ، ﴿ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ يُضِيفُونَ إليه مِن الولدِ.

وقولُه تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أمرٌ بتركِهم على وجه التوبيخِ؛ أي اتْرُكْ يا مُحَمَّدُ كفارَ مكَّة يخوضُوا في أباطيلِهم، ويلعَبُوا في دُنياهم بمقالتِهم حتى يُعاينُوا يومَ القيامةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ ؛ أي هو معبودُ مَن في السَّموات ومَن في الأرضِ، لا معبودَ غيرُهُ ولا إلهَ إلاَّ هُوَ، ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ ؛ في أمرهِ وقضائه، ﴿ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ بخلقهِ وتدبيرِهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ؛ أي تعالَى ودامَ الذي بيدهِ خزائنُ السموات والأرضِ وما بينهما، ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ؛ أي عِلمُ قيامِ الساعة، لا يعلَمُ وقتَها أحدٌ غيرُهُ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ ؛ أي لا يَملِكُ الذين يدْعُونَ من دونهِ الشفاعةَ، ثُم استثْنَى عيسَى والعزيرَ والملائكةَ فقالَ: ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ ؛ أي مَن شَهِدَ أنَّهُ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ بقُلوبهم ما شَهِدُوا به بألسِنَتِهم. والمعنى: إلاَّ مَن شَهِدَ بكلمةِ التوحيد، وعَلِمَ بقَلْبِهِ أنَّها حقٌّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي ولئِنْ سألتَ هؤلاءِ الذين عَبَدُوا غيرَ اللهِ: مَن خلقَهم وخلَقَ معبودَهم؟ ليقولُنَّ: اللهُ خلَقَهم، فمِن أين يُصرَفُونَ عن عبادةِ اللهِ مع معرفتِهم بأنه الخالقُ، والخالقُ أولى بالعبادةِ من المخلوقِ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ من قرأ بنصب اللام؛ فمعناهُ: يعلمُ قيامَ الساعة، ويعلمُ (قِيلَهُ) محمد يا ربِّ؛ لأن معنى (وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) ويعلمُ قيامَ الساعةِ. وقيل: انتصبَ عطفاً على قوله (سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ) كأنه قال: أمْ يحسبون أنا لا نسمعُ سِرَّهم ونجواهم، (وَقِيلَهُ) يا ربِّ في شكوى منهم إلى ربه. قال المبرِّدُ: (الْعَطْفُ عَلَى الْمَنْصُوب حَسَنٌ وَإنْ تَبَاعَدَ الْمَعْطُوفُ عَلَى الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ).

ومَن قرأ (وَقِيلِهِ) بكسرِ اللامِ فهو على معنى: وعندَهُ علمُ الساعةِ وعلمُ قِيلِهِ. والقِيْلُ مصدرٌ كالقول، يقالُ: قلْتُ قَوْلاً وقِيْلاً وقَالاً. ولو قُرئ (وَقِيلُهُ) بالرفعِ على معنى: وقيلُ مُحَمَّدٍ ﷺ، هذا كان جائزاً في الكلامِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ ﴾ ؛ أي أعرِضْ عنهم إلى أن تُؤمَرَ فيهم بشيءٍ، ﴿ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ ﴾ ، قال عطاءُ: (يُريدُ مُدَارَاةً حَتَّى يَنْزِلُ حُكْمِي)، ومعناهُ: الْمُتَارَكَةُ؛ أي سلامُ هِجرَانٍ وتركٍ لا سلامَ تحيَّةٍ، ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ عاقبةَ كُفرِهم، وماذا ينْزِلُ بهم فيَندَمُونَ حين لا ينفعُهم الندمُ.

ومَن قرأ (تَعْلَمُونَ) فعلى الأمرِ للنبيِّ ﷺ بأن يُخاطِبَهم بهذا، قال مقاتلُ: (نَسَخَ السَّيْفُ الإعْرَاضَ وَالسَّلاَمَ)[2].

آخر تفسير سورة (**الزخرف**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٣ ص٣٨. ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٣٢١. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص٨١-٨٢.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٠٠: (فنسخَ السيفُ الإعراضَ والسَّلامَ).

سُورَةُ الدُّخَـــانِ

سُورَةُ الدُّخَّانِ مَكِّيَّــةٌ كُلُّـهَا، وَهِـيَ أَلْـفٌ وَأَرْبَعُمِائَـةٍ وَوَاحِـدٌ وَثَلاَثُـونَ حَرْفـاً، وَثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتٌّ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعٌ وَخَمْسُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا فِـي لَيْلَـةِ الْجُمُعَةِ غُفِرَ لَهُ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ ﴾ ؛ أوَّلُ السـورةِ قَسَـمٌ، وجوابـهُ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: جوابهُ:(إنَّا كُنَّا مُنْذِرينَ) لأنــه ليـس مـن عـادةِ العـرب أن يُقسِمُوا بنفسِ الشيء الذي يُخبرُونَ عنه، فعلَى هذا يكون قولهُ: (إنَّا أنْزَلْنَاهُ) مُعترِضاً بين القسَمِ والجواب، ﴿ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ ﴾ ، والليلةُ المباركَـةُ: هي ليلــةُ القَـدْر، ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ ﴾ ، أنـزلَ اللهُ فيـها القـرآنَ إلى السَّفَرَةِ في السَّماءِ الدُّنيا، فوضعوهُ في بيت العِزَّةِ، ثُم كان جبريلُ يَنْزِلُ بــه علـى النـبيِّ ﷺ شيئاً بعدَ شيءٍ على مقدار الحاجة، هكذا رُوي عن ابنِ عبَّاس، وقد قدمنا ذلكَ في قولهِ تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[2].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٩٨؛ قال السيوطي:(وأخرج الترمذي ومحمد بن نصـر وابـن مردويـه والبيهقي عن أبي هريرة قال...) وذكره. وأخرجه الترمذي في الجـامع: أبـواب فضـائل القـرآن: الحديث (٢٨٨٩) عن أبي هريرة ﷺ، وقال: (هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجـه، وهشـام أبو المقدام يضعَّف، ولم يسمع من الحسن من أبي هريرة). فـالحديث إسـناده ضعيـف. وأخرجـه البيهقي في شعب الإيمان: الحديث (٢٤٧٦) وإسناده ضعيف لما تقدم.

(٢) البقرة / ١٨٥ .

وسُمِّيت هذه الليلةُ مباركةً لأنَّ فيها الرحمةُ ومغفرةُ الذنوب، وفيها يقدِّرُ اللهُ الأشياءَ من أرزاق العباد وآجالِهم وغيرِ ذلك من الأمُور. ويقالُ: إنما سُمِّيت مباركةً لأنه لا يُقدِّرُ فيها شيئاً من الْمَكَارِه، كما قالَ تعالى: ﴿سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[١].

وعن عكرمةَ أنه كان يقولُ: (اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ هِيَ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فِيهَا يُقْضَى كُلُّ أمْرٍ فِيْهِ حِكْمَةٌ، وَفِيهَا يُنْسَخُ لِجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإسْرَافِيلَ وَمَلَكُ الْمَوْتِ جَمِيعَ مَا هُمْ مُوَكَّلُونَ بهِ مِنْ سَنَةٍ إلَى سَنَةٍ)[٢]. وكان ابنُ عبَّاس يقولُ:(إنَّكَ لَتَلْقَى الرَّجُلَ فِي السُّوقِ قَدْ كُتِبَ اسْمُهُ فِي الْمَوْتَى)[٣]. والصحيحُ: أنَّ الليلةَ المباركةَ هي ليلةُ القَدْر، وعليه أكثرُ المفسِّرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ ؛ انتصبَ بـ (يُفْرَقُ) بمنْزلة (يُفْرَقُ) لأن (أمْراً) بمعنى فَرْقاً، وفيه بيانُ أنَّ الذي يُفْرَقُ في هذه الليلةِ لا يكون إلاَّ من عندِ الله تعالى وتدبيرِه، كأنَّهُ قال: بأمرٍ مِن عندِنا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ ﴾ ؛ أي مُرسلِين مُحَمَّداً ﷺ ومَن قَبلَهُ من الأنبياءِ، ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي رَأفَةً منِّي بخَلْقِي ونعمةً عليهم. وانتصبَ على أنه مفعولٌ له على تقدير الرَّحمةِ، وقال الزجَّاجُ: (تَقْدِيرُهُ: إنَّا أنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ لِلرَّحْمَةِ)[٤]. ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ لِمَا يقولهُ الْمُحِقُّ والْمُبْطِلُ، ﴿ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ ﴾ ، بأفعَال العبادِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ ؛ بالخفضِ على البدلِ من قوله (رَحْمَةً مِنْ رَبكَ). وقولهُ تعالى (وَمَا بَيْنَهُمَا) يعني من الهواءِ والخلق. وقولُه تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ

---

(١) القدر / ٥ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٠١؛ قال السيوطي: (وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق محمد بن سوقة عن عكرمة) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٠٠٨) وذكره بمعناه.

(٣) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٠٠؛ قال السيوطي: (وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس...) وذكره.

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٢٢.

ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ الذي دَبَّرَ السمواتِ والأرضَ هو الذي دبَّـرَ بإرسال الرُّسُلِ رحمةً منه، فإنْ كُنتم مُوقِنينَ بتدبيرهِ في السَّمواتِ والأرض، فأيقِنُوا إنَّما هو مثلهُ. واليقينُ: ثَلْجُ الصَّدر بالْعِلْم، ولذلك يقالُ: وجدَ بَـرْدَ اليَقِـين، ولا يجوزُ في صفاتِ الله تعالى: مُوقِنٌ، ويجوزُ: عَلِيمٌ وعَالِمٌ.

وقولُـهُ تعـالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ ﴾ ؛ يعـني الكفـارَ مـن هـذا القـرآن، ﴿ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي يَهْزَأونَ به لأهِينَ عنهُ.

وقولـــه تعـــالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الْمُشْرِكِينَ بَالَغُوا فِـي إيْـذاءِ النَّبيِّ ﷺ ويَئِسَ مِنْ إيْمَانِهِمْ بهِ ودعَا عَلَيْهِمْ فَقَالَ: [اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْـأتَكَ عَلَـى مُضَـرٍ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ][1].

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَـذِهِ الآيَـاتِ، فَأَخَذَتْـهُم السَّـنَةُ حَتَّـى أكَلُـوا الْجِيَـفَ وَالْكِـلاَبَ وَالْعِظَامَ الْمُحَرَّقَةَ مِنَ الْجُوعِ، وَارْتَفَعَ الْقَطْرُ وَأجْدَبَتِ الأَرْضُ، وَكَانُوا إذا نَظَرُوا إلَـى السَّمَاءِ رَأوا دُخَّاناً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لِلظُّلْمَةِ الَّتِي غَشِيَتْ أعْيُنَـهُمْ وأبْصَـارَهُمْ مِـنْ شِدَّةِ الْجُوعِ. ويقال: يَبسَتِ الأرضُ وانقطعَ الغيثُ.

والمعنى: فانتظِرْ يا مُحَمَّدُ يومَ تأتِي السَّماءُ بدُخَان مُبين، فَجَاءَ أبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ جِئْتَ تَأْمُرُنَا بصِلَةِ الرَّحِمِ وَإنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَـادْعُ اللهَ لَـهُمْ، فَقَـالَ ﷺ: [اللَّهُمَّ دَعَوْتُكَ فَأَجَبْتَنِي، وَسَألْتُكَ فَأعْطَيْتَنِي، اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثاً مُغِيْثاً مَرِيّاً مَريعـاً طَبَقـاً عَاجِلاً غَيْرَ آجِلٍ نَافِعاً غَيْرَ ضَارٍّ]، فَمَا بَرِحَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أنْزَلَ اللهُ الْمَطَرَ.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيـح: كتـاب الاستسـقاء: بـاب دعـاء النبي ﷺ: الحديـث (١٠٠٦). ومسـلم في الصحيـح: كتـاب المسـاجد ومواضـع الصـلاة: بـاب اسـتحباب القنـوت في جميـع الصلوات: الحديث (٢٩٤/ ٦٧٥) وللفظ له.

وَجَاءَ النَّاسُ يَشْتَدُّونَ وَقَالُوا: الْغَرَقُ الْغَرَقُ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ فَكَشَفَ اللهُ عَنْهُمُ الشِّدَّةَ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْكُفْرِ(١). فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ ؛ وذلك يومُ بدر، ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

وهذا التأويلُ إنما يستقيمُ على قول ابن مسعودٍ فإنه كان يقولُ: (خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ: الدُّخَّانُ وَالرُّومُ وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ وَانْشِقَاقُ الْقَمَرِ)(٢) وكان يذهبُ إلى أنَّ البطشةَ الكُبرَى هي التي أصابَتْهُم يومَ بدر، وذلك أعظمُ من الجوعِ الذي أصابَهم بمكَّةَ.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بالدُّخان في هذه الآياتِ: الدخَّانُ الذي يُنْزِلهُ اللهُ تعالى عندَ قيامِ الساعة، ثم يغشَاهُم عذابٌ أليم بعدَ ذلك، كما رُوي عن مسروقٍ أنه قالَ: (إذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَزَلَ دُخَّانٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَأَخَذ بأَسْمَاعِ الْكُفَّار وَالْمُنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ حَتَّى تَصِيرَ رُؤُوسُهُمْ كَالرَّأسِ الْحَنِيذِ، وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَنْزِلَةِ الزُّكَامِ)(٣).

فعلى هذا القولِ يكون معنى قولهِ تعالى: (أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى) أي مِن أينَ لَهم الذِّكرَى، أي مِن أين ينفعُهم إيمانُهم (وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ) في الوقتِ الذي كانوا مكلَّفين فيه ثُمَّ أعرَضُوا عن الإيمانِ به (وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ) أي هو معلَّمٌ يعلِّمهُ الجنُّ، ويعترِضُون له. وَقِيْلَ: معناهُ: يعلِّمهُ بشَرٌ مجنونٌ بادِّعائهِ النبوَّةَ. ويكون معنى

---

(١) الحديث بألفاظ عديدة، إلى سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن مسروق، كما في الدار المنثور: ج ٧ ص٤٠٦. وذكر مجيء أبي سفيان أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب صفات المنافقين: باب الدخان: الحديث (٣٩و٤٠/٢٧٩٨).

(٢) في المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ج ١٧-١٨ ص١٤٨-١٤٩؛ قال الإمام النووي: (وفسرها كلها في الكتاب إلا اللزام، والمراد به قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ أي يكون عذابهم لزاماً، قالوا: وهو ما جرى عليهم يوم بدر من الأسر والقتل، وهي البطشة الكبرى).

(٣) بهذا اللفظ لم أقف عليه، ولعله أدرج أحاديث ابن عمر والحسن وحذيفة في حديث ابن مسعود.

قولهِ: (إنَّا كَاشِفُوا الْعَذاب) أي عذابَ الدُّنيا بعد مجيءِ الرسولِ إلى وقت الدُّخان، فمَهَّلَهُم لكي يَتُوبُوا، ولن يَتُوبُوا.

والمرادُ بالبطشةِ الكُبرَى على هذا القولِ يومُ القيامةِ، وأما على القولِ الأوَّلِ فقولهُ: (أنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى) أي التذكُّر والاتِّعاظُ، يقولُ: كيف يتذكَّرُون ويتَّعِظون، وحالُهم أنه قد جاءَهم رسولٌ مُبينٌ ظاهرُ الصِّدقِ والدلالة، (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ) أي أعْرَضُوا ولَمْ يقبَلُوا قولَهُ.

وقولهُ تعالى: (إنَّا كَاشِفُوا الْعَذاب) يعني عذابَ الجوعِ (قَلِيلاً) أي زَمَاناً يَسِيراً، قال مقاتلُ: (يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ إنَّكُمْ عَائِدُونَ فِي كُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبكُمْ) وفيه إعلامٌ أنَّهم لا يتَّعِظُون، وإنه إذا رُفِعَ عنهم العذابُ عادُوا إلى طُغيانِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى) أي واذكُرْ لَهم ذلك اليومَ، يعني يومَ بدرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ ؛ أي كلَّفنا قبلَ أهلِ مكَّة قومَ فرعون مِن الطاعَةِ ما اشتدَّ عليهم، ﴿ وَجَآءَهُمْ ﴾ ؛ موسَى، ﴿ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ، لا خلافَ على اللهِ تعالى.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي بأنْ أدُّوا إلَيَّ بني إسرائيلَ، وهذا قولُ موسَى، يقولُ: أطلِقُوا بني إسرائيلَ من العذاب والتسخير، فإنَّهم أحرارٌ، ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ﴾ ؛ من اللهِ، ﴿ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ على الرسالةِ، لستُ بخائنٍ ولا كذابٍ ولا كاتِمٍ مما أُوحِيَ إلَيَّ، ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لا تتجبَّرُوا عليه بتركِ طاعته، ﴿ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ بحجَّةٍ بيِّنَةٍ ظاهرةٍ تدلُّ على صِدقِي.

فلمَّا قالَ موسى هذه المقالةَ توعَّدُوهُ بالقتلِ بالحجارةِ، فقال: ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ، أي اعتصمتُ بخالقي وخالقكم من أن تقتلوني بالحجارة، ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي وإنْ لَم تصدِّقونِ فاتركوني لا معِي ولا عليَّ، فلا أقلَّ مِن أن تَكُفُّوا شرَّكُم عنِّي.

فأبَوا أن يقبَلُوا منه، ولم يؤمنوا به، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي مُشرِكون، ولم يَدْعُ إلاَّ بعد أنْ أذِنَ له في الدُّعاء عليهم، فدعا عليهم.

قَالَ اللهُ تَعَالَى لَه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ ؛ حتى تَقْطَعَ بهمُ البحرَ، ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ؛ يتبعكم فرعونُ وقومهُ فيكون ذلك سَبباً لغَرقِهم، فسارَ موسَى بمَن معَهُ من بني إسرائيلَ حتى أتَى بهم البحرَ، فضربَهُ بعصاهُ بأمرِ الله تعالى فانفلَقَ ودخلَهُ أصحابهُ.

ثُم عطَفَ موسَى ليضربَ البحرَ بعصاهُ ليَلتئِمَ ويخلطَ الطريقَ التي جعلَها اللهُ لبني إسرائيل حتى لا يعبُرَ فيها فرعونُ وقومه، فقيلَ له: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ ؛ أي سَاكِناً مُنفتِحاً على ما هو عليه حتى يدخلَهُ فرعونُ وجنوده، ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ؛ في حُكمِ اللهِ تعالى.

قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ اتْرُكْهُ رَهْواً؛ أي اتْرُكْهُ طَرِيقاً)(١). والرَّهْوُ: يكون بمعنى الفُرْجَةِ بين الشَّيئين، ونظرَ أعرابيٌّ إلى فَالِجٍ؛ فقالَ: سُبحان اللهِ! رَهْوٌ بين سِنَامَين، فيكونُ المعنى على هذا: واترُكِ البحرَ ذا رَهْوٍ؛ أي ذا فُرجَةٍ، وهي الطريقُ التي أظهرَها اللهُ تعالى في الماءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي كَم ترَكَ فرعونُ وقومه بعدَ الغرق من بسَاتين عامرةٍ بليغةِ الأشجار، وعيون ظَاهرةٍ عَذْبَةٍ فيها زرعٌ ومساكن شريفةٌ حسَنةٌ، ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ ؛ أي وعيشٍ ليِّنٍ، ﴿كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ؛ أي ناعِمينَ متعجِّبين، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ؛ كانت حالُهم. وَقِيْلَ: كذلك أفعَلُ بمَن عصَاني، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ ؛ وأورثنا ما تركوهُ، ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ ؛ وهم بنو إسرائيل، رجَعُوا بعدَ هلاكِ فرعون إلى مصرَ فصارت أموالُ قومِ فرعون ونَعيمُهم لهم من غيرِ كُلفةٍ ولا مشقَّةٍ، كالميراثِ الذي ينقلُ من المورثِ إلى الوارثِ من غير مشقَّةٍ تلحقُ الوارثَ، وهذا من غايةِ إنعامِ الله على بني إسرائيل.

قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ؛ أي ما بَكَتْ على فرعونَ وقومه؛ أي كانوا أهْوَنَ من أن يَبكِي عليهم أحدٌ من أهلِ السَّماء والأرضِ، إنَّهم كانوا في مقامِ الجدي.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٠٥٩).

قال ﷺ: [مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إلاَّ وَلَهُ فِي السَّمَاءِ بَابَان: بَابٌ يَصْعَدُ فِيْهِ عَمَلُهُ، وَبَابٌ يَنْزِلُ فِيْهِ رزْقُهُ، فَإذا مَاتَ بَكَيَـا عَلَيْـهِ، وَكَذلِـكَ مُصَـلاَّهُ الَّـذِي كَـانَ يُصَلِّـي فِيْـهِ مِـنَ الأَرْضِ] فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ)[١]. وعن مجاهدٍ أنـه قالَ: (إذا مَاتَ الْمُؤْمِنُ بَكَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ أرْبَعِينَ يَوْماً صَبَاحاً)[٢]. وعن السديِّ قالَ: (لَمَّا قُتِلَ الْحُسَيْنُ ﷺ بَكَتِ السَّمَاءُ عَلَيْهِ، وَبُكَاؤُهَا حُمْرَةُ أطْرَافِهَا)[٣].

والمعنى على هذا: لَمْ يكن لفرعونَ وقومه موضعُ طاعةٍ في الأرضِ ولا مصاعِدُ طاعاتٍ في السَّماء فتفقِدَهم وتبكِي عليهم، بخلافِ المؤمنين. وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي لَمْ يُنظَروا ولم يُمهَلُوا حين أخذهم العذابُ لتوبةٍ ولا لغيرِها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي خلَّصناهُم مما كان فرعونُ يفعلُ بهم من ذبحِ الأبناءِ واستحياءِ النِّساء واسـتعمالِهم في الأمُـور الشـاقَّة. وقولـه تعـالى: ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا ﴾ ؛ أي متكـبراً؛ ﴿ مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ، من الْمُتَجَاوزينَ عن الحدِّ حتى ادَّعَى الإلهيَّة.

قَوْلُـــهُ تَعَــــالَى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي اختَرنا بني إسرائيلَ بكَثْرَةِ الأنبيـاءِ صَلَـوَاتُ اللهِ عَلَيْـهِمْ فيـهم علـى عـالَمي زمانِـهم، ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ ؛ من فَلْق البحرِ وتظليلِ الغَمامِ وإنزال الْمَــنِّ والسَّـلوَى وغيرِ ذلك، ﴿ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أي نعمةٌ ظاهرة.

قَوْلُـهُ تَعَـــالَى: ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ ؛ راجعٌ إلى ذكرِ كفَّار مكَّة يقولون: مـا الْمَوْتَـةُ نموتُـها في الأُولى ثـم لا نُبعَـثُ بعدَهـا، ومعنى قولـــهِ: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي بمبعُوثِـينَ، وهـذا ذمٌّ لهـم علـى الجهلِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤١١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابـن جريـر وابـن المنـذر والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عبـاس) وذكـره. وأخرجـه الطـبري في جـامع البيـان: الأثـر (٢٤٠٧٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٠٧٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٠٧٢).

وقوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي قالوا فَأحْيي يا محمد آباءَنا الذين ماتوا حتى نسألَهم: أحقٌّ ما تقولُ أم باطلٌ ؟ ورُوي أنَّهم كانوا يقولون: إنْ كان ما تقولهُ فَأْتِ بقُصَيٍّ بن كلابٍ ليُخبرَنا عنكَ، فإنه كان صَدُوقاً فيما بيننا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ خوَّفَهم اللهُ تعالى مثلَ عذاب الأمم الخاليةِ، فقال: (أهُمْ خَيْرٌ أمْ قَوْمُ تُبَّعٍ) أي ليسوا خَيراً منهم، يعني أقوَى وأشدَّ وأكثرَ، والمعنى أهُمْ خيرٌ في القدرةِ والقوَّةِ والمالِ، أمْ قومُ مَلِكِ اليمَنِ (وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ).

وخصَّ مَلِكَ اليمنِ بالذِّكرِ لأنه كان أقربَ إلى زمانِهم. وتُبَّعُ اسمٌ لكلِّ مَن كان من مُلوكِ اليمنِ، كما أنَّ فرعونَ اسمُ ملكِ مصرَ، وقيصرَ اسمُ ملكِ الروم، وكسرَى اسم ملك العجَمِ. وإنما سُمِّي ملكُ اليمنِ بهذا الاسمِ لكثرة تَبَعِهِ.

وجاءَ في التفسيرِ: أنَّ ملكَ اليمنِ الذي كان أقربَ إلى زمانِهم كان مُؤمناً، وكان اسمهُ أسعَدُ بنُ مَلكي كرب، وكان قومهُ كُفَّاراً. ورُوي عن عائشةَ أنَّها قالت: (كَانَ تُبَّعُ رَجُلاً صَالِحاً، ألاَ تَرَى أنَّ اللهَ تَعَالَى ذمَّ قَوْمَهُ وَلَمْ يَذِمَّهُ)[1]. ورُوي: (أنَّهُ وُجِدَ مَكْتُوباً عَلَى قَبْرَينِ بنَاحِيَةِ حِمْيَرَ: هَذانِ قَبْرَا رَضْوَى وَحَصْيَا ابْنَيْ تُبَّعٍ مَاتَا لاَ يُشْرِكَانِ باللهِ شَيْئاً)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي لَمْ نخلِقْهُما عابثين، ﴿ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي للحَقِّ؛ أي للثواب على

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤١٥؛ عزاه للحاكم وقال: وصححه. وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٧٣٣)، وقال: (هذا حديث على شرط الشيخين، ولم يخرجاه).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٤٥؛ قال القرطبي: (وذكر الزجاج وابن أبي الدنيا والزمخشري وغيرهم: أنه حُفر قبرٌ له بصنعاء – ويقال: بناحية حمير – في الاسلام، فوجد فيهما امرأتان صحيحتان، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: (هذا قبر حُبَّى ولميس) ويروى أيضاً: (حُبَّى وتماضر) ويروى أيضاً: (هذا قبر رَضْوَى وقبر حُبَّى ابنتا تُبَّع)...). وذكره الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص٣٢٥. والزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٢٧٢.

الطاعـة والعقـاب علـى المعصيـة، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ ؛ أكـثر المشـركين، ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

وقولهُ تعـالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: إنَّ يومَ الفَصْلِ بين الخلائقِ ميعادُهم أجمعين، يُوافِي يومَ القيامةِ الأوَّلُون والآخِرون.

ثم نَعتَ ذلك اليومَ فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا ﴾ ؛ أي يومَ لا ينفعُ فيه صديقٌ صديقـاً ولا قريـبٌ قريبـاً، ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي ولا يُمنَعُونَ من عذاب الله، ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ﴾ ؛ وهم المؤمنون، فإنـه يَشْـفَعُ بعضُهم لبعض، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [وَإنَّ الرَّجُلَ مِنْ أمَّتِي لَيَشْفَعُ لأَكْـثَرَ مِـنْ رَبِيعَـةَ وَمُضَرَ][(١)] . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ ؛ في انتقامِهِ من أعدائـهِ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ بالمؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ قـد تقدَّمَ تفسيرُ شجرةِ الزقُّوم، والأثِيمُ ذو الإثْمِ وهو أبو جهلٍ، قال أهـلُ اللغـة: الأثِيـمُ كثيرُ الإثم، وعن ابنِ مسعود: (أنَّهُ كَانَ يُلَقِّنُ رَجُلاً: (إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَـامُ الأَثِيـمِ) فَكَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ: طَعَامُ الْيَتِيمِ! فَقَالَ لَهُ: قُـلْ: طَعَـامُ الْفَـاجِرِ)[(٢)]. ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ ؛ دُرْدِيُّ الزيتِ[(٣)] وعكرُ القِطْرَانِ، وهو أسودُ غليظٌ. وَقِيْلَ: الْمُهْلُ كُلُّ مَا يُمْهَلُ في النار من نُحاسٍ أو فضَّةٍ أو غيرِ ذلك حتى يَذُوبَ ويَنْمَاعَ يشتَدُّ حرُّهُ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي في بُطـونِ الكفَّـار، وقـرئَ (يَغْلِي) بالياءِ يعني الطعامَ، واختارَهُ أبو عبيدٍ[(٤)]؛ لأن الْمُهْلَ مذكَّرٌ، وقرئَ بالتـاءِ يعـني

---

(١) أخرجه ابـن سـعد في الطبقـات الكـبرى: ج ٧ ص٦٧: ترجمـة الحـارث بـن أقَيش. وأخرجـه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٣٣٦١). والحـاكم في المستدرك: كتـاب الإيمـان: الحديـث (٢٤٧)، وقال: (الحارث بن أقيش مخرج حديثه في مسانيد الأئمة).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٤٩؛ قال القرطبي: (قال أبو بكر الأنباري: وذكر إسـناده عن ابن مسعود).

(٣) الـ (دُرْدِيُّ) الزيتُ وغيرهُ: ما يبقى في أسفله. ينظر: مختار الصحاح:(درد): ص٢٠٢.

(٤) ذكره النحاس في إعراب القرآن: ج ٤ ص٨٩.

الشَّجرةَ، قال أبو علي الفارسي: (لاَ يَجُوزُ أنْ يُحْمَلَ الْغَلْيُ عَلَى الْمُهْلِ؛ لأَنَّ الْمُهْلَ إنَّمَا ذُكِرَ لِلتَّشْبيهِ بهِ فِي الذوْب، ألاَ تَرَى أنَّ الْمُهْلَ لاَ يَغْلِي فِي الْبُطُون إنَّمَا يَغْلِي مَا شُبهَ بِهِ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ يعني الماءَ الحارَّ إذا اشتدَّ غَليانهُ. وقولهُ تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ يقالُ للزَّبانِيَةِ: (خُذُوهُ) يعني الآثِمَ (فَاعْتِلُوهُ) أي قُودُوهُ بالعُنق دَفعاً وسَحباً إلى وسطِ الجحيم، يقالُ: عَتَلَهُ يَعْتُلُهُ، ويَعْتِلُهُ إذا جَرَّهُ وذهبَ به إلى مكروهٍ، وقال مجاهدُ: (فَادْفَعُوهُ عَلَى وَجْهِهِ إلَى وَسَطِ الْجَحِيم)[٢]. وَقِيْلَ للوسَطِ: سَوَاءٌ لاستواءِ المسافة بينَهما وبين أطرافهِ المحيطة به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ قال مقاتلُ[٣]: (إنَّ خَازِنَ النَّار يَضْرِبُهُ عَلَى رَأسِهِ ((بمَقْمَعَةٍ مِنْ حَدِيدٍ)) فَيَنْقِبُ رَأسَهُ عَنْ دِمَاغِهِ، ثُمَّ يَصُبُّ فِيْهِ مَاءً حَمِيماً قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ، وَيَقُولُ لَهُ): ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

وذلكَ أنَّ أبا جَهلٍ قالَ للنبيِّ ﷺ: بأيِّ شَيْءٍ تُهَدِّدُنِي! فَوَاللهِ مَا تَسْتَطِيعُ أنْتَ وَلاَ رَبُّكَ ((أنْ)) تَفْعَلاَ[٤] بي شَيْئاً، وَإنِّي لَمِنْ أعَزِّ أهْلِ هَذا الْوَادِي وَأكْرَمِهِمْ! فَيَقُولُ لَهُ الْمَلَكُ: ذُق الْعَذابَ أيُّهَا الْمُتَعَزِّزُ الْمُتَكَرِّمُ فِي زَعْمِكَ كَمَا كُنْتَ تَقُولُهُ[٥]. وقرأ الكسائيُّ (أَنَّكَ) بالفتح على تقدير: ذُقْ بأنَّكَ أو لأنَّكَ أنتَ العزيزُ الكريم، أو بهذا القول الذي قلتَهُ في الدُّنيا[٦].

---

(١) ذكره بمعناه أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص٣٨٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤١٠٤) عن مجاهد، والأثر (٢٤١٠٥) عن قتادة، وجمع بين اللفظين الإمام الطبراني في نص واحد.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٠٨.

(٤) (أن) سقطت من المخطوط.

(٥) ذكره الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٤٣-٤٤.

(٦) ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٢٦؛ وقال: (الناس كلهم على كسر (إنك) إلا الكسائي وحده، فإنه قرأ: ذُق أنك أنتَ)

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾؛ أي يقـولُ لَـهم الخازنُ: إنَّ هذا العذابَ الذي كُنتم به تَشُكُّونَ في الدُّنيا أو تُكذِبُونَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢﴾ الأمِينُ هو المقَامُ الذي أمِنُوا فيه الغِيَرَ من الموتِ والحوادث، والْمَقَامُ هو المجلسُ، وقرئَ (مُقَام) بضمِّ الميم، يريدُ موضعَ الإقامةِ، ومعنى القراءَتين واحدٌ.

وقوله: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾؛ السُّنْدُسُ ما لَطُفَ من الدِّيباجِ، والاسْتَبْرَق ما غَلُظَ منه مع دقَّـةِ السِّـلكِ، وهمـا نوعَـان مـن الحريـر. وقولـه تعـالى: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾؛ أي يُقابلُ بعضُهم بعضاً في المجالسِ بالتحيَّة والمحبَّةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾؛ أي كذلكَ حالُـهم في الجنَّة، وقَرَنَّاهُمْ بحُور عِـين، والْحُـوْرُ: الشَّـدِيدَةُ بيَـاضِ العـينِ، الشـديدةُ سَـوَادِها، البيضاءُ البشَرةِ والعين، جمعُ العَيْنَاءِ، واسعةُ العينِ الحسَنةِ، قال مجـاهدُ: (الْحُـورُ: هُـنَّ اللَّوَاتِي يُحَارُ الطَّرْفُ فِيهِنَّ، يَرَى مُخَّ سُوقِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ ثِيَابِهِنَّ، يَرَى النَّاظِرُ وَجْهَهُ فِـي صَدْرِ إحْدَاهُنَّ كَالْمِرْآةِ مِنْ رقَّةِ الْجِلْدِ وَصَفَاءِ اللَّون)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾؛ فيه بيانُ أنَّ بساتينَ الجنَّة تشتملُ على كلِّ الفواكهِ في كلِّ وقتٍ من الأوقاتِ بخلاف بسَاتينِ الدُّنيا، وقولهُ تعالى: (آمِنِينَ) من الانقطاعِ والنُّقصانِ، وآمِنِينَ مما يخافُ من الفواكهِ من التُّخَـمِ والأمراضِ والأسقامِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي لا يَمُوتونَ سِوَى الموتَة الـتي ذاقُوهـا في الدُّنيـا، ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦﴾؛ أي ودفعَ عنهم ربُّهم عذابَ النار مع مـا أعطَـاهُم مـن النعيـمِ المقيـم. وقولـه تعـالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧﴾؛ أي فَعَـلَ اللهُ ذلـك بـالمتَّقين تَفَضُّلاً منه عليهم. وسُمي الثوابُ "فضلاً" لأنَّ اللهَ تعالى لم يكلِّفْـهم لحاجتـهِ، ولكـن ليَصِلُوا إلى ذلك الثواب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤١١١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ ؛ أي أنزَلنا القُرآنَ بلُغَتِكَ ولُغةِ قَومِكَ لِيَسهُلَ عليهم، و ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ يتَّعِظُونَ فيُؤمِنُوا به، ولولا تَيسِيرُ اللهِ حِفظَهُما ما قَدَرَ أحدٌ على حفظهِ لعِظَمِ أمرهِ وجَلالِ قَدرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي انتَظِرْ بالكفَّار ما وعَدنَاهُم من العذاب إنَّهم مُنتَظِرُونَ هلاكَكَ.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الدُّخَانِ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً وَتَصْدِيقاً بهَا، أصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ، وَإنْ قَرَأَهَا فِي سَائِرِ اللَّيَالِي كَانَتْ لَهُ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

آخر تفسير سورة (**الدخان**) والحمد لله رب العالمين.

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٩٨؛ قال السيوطي: (أخرجه الدارمي عن عبدالله بن عيسى: (أخبرت أنه من قرأ...) وذكره.

سُورَةُ الْجَاثِيَـةِ

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفَان وَمِائَةٌ وَوَاحِدٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَثَمَانٌ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَسَبْعٌ وَثَلاَثُونَ آيَةً[١]. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَـهُ، وَسَكَّنَ رَوْعَتَهُ عِنْدَ الْحِسَاب][٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ (حم) مبتدأ وخبرهُ (تَنْزِيلُ)، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ أي لدَلالاَتٍ على الحقِّ تدلُّ بخلقِها على أنَّ لها خالقاً قَديماً لا أوَّلَ له، ويدلُّ تعظِيمُـها وبقاؤها من غيرِ علاقةٍ فوقَها ولا عِمَادٍ تحتَها على قادرٍ لا يُعجِزهُ شيءٌ. وقولـهُ تعـالى (لآيَاتٍ) في موضعِ نصبٍ؛ لأنه اسمُ (إنَّ)، كما يقالُ: إنَّ في الدارِ لزيداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ ﴾ ؛ أي وفي خلقِكم حَـالاً بعد حالٍ من نُطفةٍ إلى أن يصيرَ إنساناً ثم يصيرَ فيه العقلُ ثم الحواسُّ، وما يبُـثُّ مـن دابَّةٍ على وجـهِ الأرض علـى اختـلافِ أجنـاسِ الـدواب ومنافعِـها وصُوَرهـا، ومـا يقصـرُ مـن منافعِـها في ذلـك دلالاتٌ واضحـة علـى وحدانيَّـة اللهِ تعــالى، ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ يطلُبون علمَ اليقينِ، ويوقِنُون أنَّه لاَ إلهَ غيرهُ.

وقرأ حمزةُ (آيَاتٍ) (وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ) بالكسرِ على أنَّهما منصُوبان نَسَـقاً علـى قولِهِ تعالى (إنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) على معنى وإنَّ في خلقِكم آياتٍ، ومَن رفـعَ

---

(١) في المخطوط: (تسع وتسعون آية).

(٢) ذكـره الزمخشـري في الكشـاف: ج٤ ص٢٨٦. وأخرجـه الثعلبي وابـن مردويـه والواحـدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.

فعلى الاستئنافِ بعدَ أنْ، تقولُ العرب: إنَّ لِي عليكم مَالاً وعلى أخِيكَ مالٌ، ينصُبون الثاني ويرفعونَهُ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ؛ أي وفِي ذهابهما ومجيئِهما، وما يحدثُ في كلِّ واحدٍ منهما من الزيادةِ والنُّقصان من غير أنْ يكونا جَميعاً أزيدَ من أربعٍ وعشرين ساعةً، ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ ، وفيما أنزلَ اللهُ من السَّماءِ من المطرِ فأحيَا به الأرضَ بعد يُبسِها، وفِي تقلُّب الرياحِ شمالاً وجَنُوباً وقُبُولاً ودُبُوراً وعَذاباً ورحمةً، ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ الدلالةَ ويتدبَّرونَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي تلكَ التي سبقَ ذِكرُها دلائلُ اللهِ لعبادهِ يتلُوهَا عليكَ جبريلُ بأمرنا بقصصنا عليك بالحقِّ، ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ﴾ ، كتاب، ﴿ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ إنْ لم يُؤمِنُوا بهذا القرآنِ. ومَن قرأ بالتاءِ فعلى تأويلِ: قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: فبأيِّ حديثٍ تؤمنون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ يعني النضرَ بن الحارثِ، كان يروي من أحاديثِ العجَمِ للمشركين فيستَملِحُونَ حديثَهُ، وكان إذا سمعَ آياتِ القرآن استهزأ بها، فجعلَ اللهُ له العذابَ مرَّتين، مرَّةً أليماً ومرَّة مُهِيناً، وقد ذكرنا تفسيرَ الآيةِ في سُورةِ لقمان.

ومعنى الآية: ويلٌ لكلِّ كذابٍ فاجرٍ كثيرِ الإثم، يسمعُ القرآنَ يُقرأ عليهِ ولا يتدبَّرهُ، ولا يَخشعُ لاستماعهِ، بل يُقِيمُ على كُفرهِ مُتَعَظِّماً عن الإيمانِ باللهِ، كأنْ لَمْ يسمَعْ آياتِ اللهِ، فخَوِّفْهُ يا مُحَمَّدُ بعذابٍ وجيعٍ يَخلُصُ وجعهُ إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ ؛ أي إذا سمعَ من آياتِ القرآن شَيئاً اتَّخذها هُزُواً، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ .

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٩٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ أي لَهم من بعدِ موتِهم جهنَّمُ، ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً ﴾ ؛ ولا ينفعُهم ما كسَبُوا من الأموالِ والأولادِ شيئاً، ﴿ وَلَا مَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ أرباباً في دفعِ شيء من عذاب الله، ﴿ وَلَهُمْ ﴾ ؛ في الآخرةِ؛ ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) ﴾ ؛ كلُّ ذلك للنَّضرِ بن الحارث وأمثالهِ.

وقولهُ: ﴿ هَـٰذَا هُدًى ﴾ ؛ أي هذا القرآنُ بيانٌ للحقِّ من الباطلِ في كلِّ ما يحتاجُ إليه من أمرِ الدِّين والدُّنيا، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ اللهِ أي جحَدُوا دلائلَ اللهِ، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١) ﴾ ؛ أي عذابٌ من عذابٍ وجيعٍ يخلصُ وجعهُ إلى قلوبهم، وقرئ (أليمٌ) بالرفعِ على نعت العذاب، وبالكسرِ على نعتِ الرِّجْزِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ ؛ أي هو الذي ذلَّلَ لكم البحرَ بتسهيلِ السبيلِ إلى سُلوكِها باتِّخاذِ السُّفنِ وإصلاحِها، ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ ، وباقي الآيةِ قد تقدَّم تفسيرُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ ؛ من شَمسٍ وقمرٍ ونجوم ومطرٍ وثلجٍ وبَرَدٍ، ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ من دابَّةٍ وشجَرٍ ونباتٍ وثمارٍ وأنْهارٍ، ومعنى سَخَّرَهُ لنا: هو أنَّهُ خلقَها لانتفاعِنا بها على الوجهِ الذي يريدهُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ ؛ أي الكلُّ رحمةٌ منه وبفضلهِ ومَنِّهِ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾ ؛ في صُنعِ الله وإحسانهِ، فيُوَحِّدُونَهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ ؛ نزلت في عُمر ﷺ: شَتَمَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ بِمَكَّةَ، فَهَمَّ أنْ يَبْطُشَ بهِ، فَأَمَرَهُ اللهُ بالْعَفْوِ وَالتَّجَاوُزِ(١). والمعنى: قُل للَّذين آمَنُوا اغْفِرُوا، ولكنه شَبَّهَهُ بالشرطِ والجزاء كقولهِ تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾(٢).

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢١٢.

(٢) إبراهيم / ٣١ .

وقولهُ: (لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ) أي لا يَخَافُونَ عذابَ اللهِ من إيذائِكُم، فتجاوَزُوا عنهم ليُوَفِّيَهُمُ اللهُ عقابَ سيِّئاتِهم بما عمِلُوا. ويجوزُ أن يكون المعنى: تجاوَزُوا عن الذين لا يَرجُونَ ثوابَ اللهِ للمؤمنين، ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ ؛ اللهُ، ﴿ قَوْمًا ﴾ ، المؤمنينَ يومَ الجزاءِ، ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ بما كانُوا يعملون من الخيراتِ.

وَقِيْلَ: إن الآية نزلت في أصحاب النبيِّ ﷺ، كانوا في أذى شديدٍ من أهلِ مكَّة قبلَ أن يُؤمَرُوا بقتالِهم، فأمرَ اللهُ المؤمنين بتركِ مكافأتِهم، ثم نُسخت بقولهِ تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[(١)].

وقالَ الحسَنُ: (لَمْ تُنْسَخْ هَذِهِ الآيَةُ، وَهِيَ عَلَى الاسْتِحْبَاب فِي الْعَفْوِ مَا لَمْ يُؤَدُّوا إلَى الإخْلاَل بحَقِّ اللهِ أوْ إلَى إذْلاَل الدِّين). ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؛ يعني التوراةَ والإنجيل، ﴿ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ ؛ أي الفهمَ في الكتاب وفصْلَ الأمر، وجَعلنا فيهم الأنبياءَ والرُّسلَ، ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ؛ أي من الحلالِ ومِن لذيذِ الأطعمةِ كالْمَنِّ والسَّلْوَى وغيرِهما، ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي على عالَمي زمانِهم بكثرةِ النبيِّين فيهم، وفضَّلَ اللهُ أمَّةَ نبيِّنا محمدٍ ﷺ بكثرةِ العُلماءِ فيهم، والقائمِين بالحقِّ منهم كما قالَ تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أمَّةٍ أخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ ؛ يعني العلمَ بمبعَثِ النبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وما بَيَّنَ لَهم من الأمر، ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ الآيةُ قد تقدَّمَ تفسيرُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ ؛ أي ثُم أكرَمناكَ يا مُحَمَّدُ بعدَ اختلافِهم فجعلناكَ على طريقةٍ مستقرَّةٍ من الدِّين، فاستقِمْ

---

(١) الحج/ ٣٩ . أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٤١٢٠) عن مجاهد، و(٢٤١٢١) عن قتادة.
(٢) آل عمران / ١١٠ .

عليها وادْعُ الخلقَ إليها، ولا تعمَلْ بأهواءِ الذين يخالِفونكَ في أمرِ الدِّين والقِبلة، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ، توحيدَ اللهِ؛ قيل: يعني كفَّارَ قريش.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي لن يدفعُوا عنكَ من عذاب الله شيئاً إن اتَّبعتَ أهواءَهم، ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ ، يعني المشركين أنصارُ بعضِهم بعضاً، ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي ناصرُ المؤمنين المتَّقين الشركَ وهم أمة مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ ؛ أي هذا القرآنُ عِظَاتٌ للناسِ وعبرةٌ وبيان لهم من الضَّلالةِ ونجاةٌ من العذاب، ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أنه من اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ في ثلاثِ نَفرٍ من المشركين؛ وهم عُتبَةُ وشَيبَةُ والوَلِيدُ بنُ عُتبَةَ، بارزُوا علِيّاً وحمزةَ وعبيدةَ بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يومَ بدرٍ، كانوا يقُولون لَهم: لئِنْ كان مُحَمَّدٌ حقاً في الآخرةِ لتَفضَّلَ عليكم في الآخرةِ كما فضَّلْنَا عليكم في الدُّنيا[(١)].

ومعنى الآيةِ: أحَسِبَ الذين (اجْتَرَحُوا) اكتسَبُوا (السَّيِّئَاتِ) المعاصِي (أنْ نَجْعَلَهُمْ) فِي الآخرةِ (كَالَّذِينَ آمَنُوا) بمُحَمَّدٍ ﷺ والقُرآنِ (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) من الصَّلاة والزكاةِ.

وتَمَّ الكلامُ، ثم قالَ: ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ ، ارتفعَ (سَوَاءٌ) على أنه خبرُ مبتدأ مقدَّمٍ، تقديرهُ: محياهُم ومماتُهم سواءٌ، والضميرُ فيهما يعودُ إلى القبيلتين المؤمنين والكافرين، يقولُ المؤمِنُ مؤمنٌ في محياهُ ومؤمنٌ في مماتهِ، والكافرُ كافرٌ في حياتهِ ومماتهِ. والمعنى: إنَّ المؤمن يموتُ على إيمانهِ ويُبعَثُ عليه، والكافرُ يموت على كُفرهِ ويبعَثُ عليه، يريد مَحيَا القبيلتَين ومَماتُهم سواءٌ.

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٦٥.

ومَن قرأ (سَوَاءً) بالنصب جعلَهُ مفعولاً ثانياً، فجعلَهُ على تقديرِ: فجعلَ محيَاهم ومماتِهم سواءً، يعني أحَسِبُوا أنَّ حياتَهم وموتَهم كحياةِ المؤمنين وموتِهم؛ كَلاَّ، وقولُهُ تعالى: ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي بئسَ ما يَقضُونَ حين يرَون أنَّ لهم في الآخرةِ ما للمؤمنين، ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ ؛ وذلك أنَّ أهلَ مكَّة كانوا يعبُدون الحجَرَ والخشبَ، فإذا رأوْا ما هو أحسنُ منه، رَمَوا بالأوَّل وعبَدُوا الثانِي، فهُم يعبدون ما تَهواهُ أنفسُهم، قال قتادةُ: (هُوَ الْكَافِرُ لاَ يَهْوَى مَا شَاءَ إلاَّ رَكِبَهُ، يَبْنُونَ الْعِبَادَةَ عَلَى الْهَوَى لاَ عَلَى الْحُجَّةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ: (أفَرَأيْتَ مَنِ اتَّخَذ إلَهَهُ هَوَاهُ)). قال الحسنُ: (اتَّخَذ إلَهَهُ هَوَاهُ لاَ يَعْرِفُ إلَهَهُ بعقْلِهِ وَإنَّمَا يَعْرِفُهُ بهَوَاهُ).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ ؛ أي خذلَهُ على ما سبقَ في عملِهِ أنه ضَالٌّ قبلَ أن يخلقَهُ، ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ ﴾ ؛ فلم يسمَعِ الهدَى؛ و على ﴿ وَقَلْبِهِۦ ﴾ ؛ فلم يعقل الهدى، ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ ؛ أي ظُلمةً فهو لا يُبصِرُ الهدَى بهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي مَن يَهديهِ مِن بعدِ إضلالِ اللهِ لَهُ، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ فتعرِفُوا قدرتَهُ على ما يشاءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ ؛ أي نموتُ نحنُ ويحيَى آخَرُون مِمَّن يأتُون بعدَنا، وقال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ نُحيي وَنُميتُ، وَالْوَاوُ لِلاجْتِمَاعِ)(١) وَالْقَائِلُونَ بهَذا زَنَادِقَةُ قُرَيْشٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ ؛ أي إلاَّ طُولُ الْعُمُرِ واختلافُ الليلِ والنهار، ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ ؛ أي لَمْ يقولوهُ على علمٍ عَلِمُوهُ، بل قالُوا ضُلاَّلاً شَاكِّين.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٣٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ وكان هذا القولُ من زنادِقَتهم الذين كانُوا يُنكِرُونَ الصانعَ الحكيمَ، ويزعمُون أنَّ الزمانَ ومُضِيَّ الأوقاتِ هو الذي يُحدِثُ هذه الحوادثَ، يَمُوتُ قومٌ ويحيَا قومٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّهم كانوا يتعلَّقون بالْحُجَجِ الباطلةِ، ولو تأمَّلوا لعَلِمُوا أنَّ دلائلَ معجزاتِ النبيِّ ﷺ أوكدُ مما كانوا يطلُبون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ ؛ أي وترَى أهلَ كلِّ دينٍ باركةً على الرُّكَبِ متهيِّئةً للحسابِ والجزاءِ، مُترقِبةً لِمَا يُصنَعُ بها، كما يَنحَنِي بين يدَي الحاكمِ ينتظرُ القضاءَ، ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ ؛ أي إلى صحائفِ أعمَالِها، يقالُ لَهم: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ في دار الدُّنيا من الخيرِ والشرِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ يعني كتابَ الحفظِ يقرَؤُونَهُ فيدلُّهم على ما عَمِلوا، فكأنَّهُ ينطقُ كما يقالُ: نطقَ الكتابُ بتحريمِ الخمرِ، وقولهُ (بالْحَقِّ) أي بالعدل، فيه حسناتُهم وسيِّئاتُهم، وقولهُ تعالى (إنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ) أي نأمرُ الملائكةَ بنَسخِ ما عمِلتُم وتَبيينهِ بياناً شافياً وتثبيتهِ عليكم.

وما بعدَها هذا ظاهرُ المعنى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ؛ لبعثٍ، ﴿ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ ؛ أي القيامةُ كائنةٌ من غيرِ شكٍّ، ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ ؛ أنكرتُموهم وأظهرتُم الشكَّ فقلتم: ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ ومَن قرأ (وَالسَّاعَةَ) بالنصب فهو عطفٌ على (وَعْدَ) ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا؛ أي ظَهَرَ لهم قَبائحُ أعمالهم حين عايَنُوا ذلكَ في كتابهم الذي أحْصَى عليهم كلَّ قليلٍ وكثيرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي نترُكم في النار، ونتركُ مراعائكم وحِفظَكم، ولا نحفظُكم من العذاب كما لم تحفَظُوا حقَّ اللهِ، وتركتُم الإيمانَ والعملَ بلقاءِ هذا اليوم. والنسيانُ ضِدُّ الحفظِ، وقد يكون للتَّركِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا ﴾ ؛ أي ذلك العذابُ عليكم بسبب أنّكم اتَّخذتُم كتابَ اللهِ ورسولَهُ استهزاءً، ﴿ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ؛ حتى قُلتم لا بعثَ ولا حسابَ، ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي لا يُطلَبُ رضاهُم، ولا يقالُون؛ لأنه لا يقبل في ذلك اليوم استقالة[١] وقد انقطعتِ المعايَنةُ فلا يُجابون، ولا يُقبَلُ لَهم في ((ذلك)) اليومِ عُذرٌ ولا توبةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي للهِ الشُّكر على عظيمِ نعمائهِ على الخلائقِ كلِّهم، ﴿ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ ؛ وهو المختصُّ بالكبرياءِ في السَّموات والأرضِ، وله العظَمةُ والجبَروتُ فيهما، ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ ؛ في مُلكهِ وسُلطانهِ، ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ في قضائهِ وأمرهِ[٢] لَهُ وَحْدَهُ فِي أعْلَى مَرَاتِب التَّعْظِيمِ لأنه سبحانَهُ لا يجوزُ عليه صفةُ النقصِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [يَقُولُ اللهُ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدَةً مِنْهَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ][٣].

آخر تفسير سورة (**الجاثية**) والحمد لله رب العالمين.

آخر المجلد الخامس

من التفسير الكبير للإمام الطبراني

---

(١) في المخطوط: (أن ذلك استقالوا).

(٢) أدرج الناسخ عبارة: ((قاله رسول الله ﷺ)) في المتن، وهو غير مناسب.

(٣) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٣٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة ﷺ) وذكره.

فهرس المجلد الخامس

سورة النمل	
الآيات	الصفحة
١-٥٤	٥
٥٥-٩٣	٣٣
سورة القصص	
الآيات	الصفحة
١-٤٤	٤٩
٤٥-٨٨	٦٩
سورة العنكبوت	
الآيات	الصفحة
١-٦٩	٨٨
سورة الروم	
الآيات	الصفحة
١-٦٠	١١٣
سورة لقمان	
الآيات	الصفحة
١-٣٤	١٣١
سورة الجُرُز	
الآيات	الصفحة
١-٣٠	١٤٩
سورة الأحزاب	
الآيات	الصفحة
١-٣٠	١٦١
٣١-٧٣	١٩١

سورة سبأ	
الآيات	الصفحة
١-٥٤	٢٢٤
سورة الملائكة	
الآيات	الصفحة
١-٤٥	٢٥٢
سورة يس	
الآيات	الصفحة
١-٨٣	٢٧١
سورة الصافات	
الآيات	الصفحة
١-٩٠	٢٩٥
٩١-١٨٢	٣١١
سورة ص	
الآيات	الصفحة
١-٨٨	٣٢٩
سورة الزمر	
الآيات	الصفحة
١-٧٥	٣٦١
سورة المؤمن	
الآيات	الصفحة
١-٨٥	٣٩٠
سورة السجدة	
الآيات	الصفحة
١-٥٤	٤١٨
سورة الشورى	
الآيات	الصفحة
١-٥٣	٤٤٠

سورة الزخرف	
الآيات	الصفحة
١-٨٩	٤٦٠
سورة الدخان	
الآيات	الصفحة
١-٥٩	٤٨٥
سورة الجاثية	
الآيات	الصفحة
١-٣٧	٤٩٧

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإِمَامِ الْحَافِظِ الْعَلاَّمَةِ أبي الْقَاسِمِ
سُلَيمَانَ بْنِ أحْمَدَ بنِ أيُّوبَ الطَّبَرَانِيِّ
(٢٦٠-٣٦٠) مِن الهِجْرَةِ

ضَبَطَهُ عَلَى أصْلِهِ وَخرَّجَ أحَادِيثَهُ وعَلَّقَ عَلَيهِ
هِشَامُ بْنُ عَبدِالكَرِيمِ البَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

المجلد السادس

دار الكتاب الثقافي
الأردن- إربد

بسم الله الرحمن الرحيم

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٨/١/٩٢)

٢٢٢
الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (٢٦٠-٣٦٠هـ)
التفسير الكبير: تفسير القرآن العظيم/ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)؛ تحقيق هشام عبدالكريم البدراني الموصلي.- إربد : دار الكتاب الثقافي ، ٢٠٠٨.
صدر على شكل ستة أجزاء
(...) ص.
ر.أ (٩٢ / ١ / ٢٠٠٨).
الواصفات:/ التفاسير//القرآن//القرآن الكريم/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

دار الكتاب الثقافي
للطباعة والنشر والتوزيع
الأردن / إربد
شارع إيدون إشارة الإسكان
تلفون
(٧٢٦١٦١٦ - ٢-٠٠٩٦٢)
فاكس
(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٥٠٣٤٧)
ص.ب (٦٢٠٣٤٧-٢١١)

Dar- AlKitab
PUBLISHERS
Irbid - Jordan
Tel:
(00962-2-7261616)
Fax:
(00962-2-7250347)
P. O. Box: (211-620347)
E-mail:
Dar_ Alkitab1@hotmail.Com

ردمك ISBN 978-9957-492-02-1

دار المتنبي
دار المتنبي للنشر والتوزيع
الأردن – إربد – تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)

سُورَةُ الأَحْقَاف

سُورَةُ الأَحْقَافِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفَان وَخَمْسُمِائَةٍ وَخَمْسَةٌ وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَسِتُّمِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَثَلاَثُونَ آيَةً. [مَنْ قَرَأَهَا أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بِعَدَدِ كُلِّ رَمْلٍ فِي الدُّنْيَا عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمُحِيَ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ] هَكَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ ينتهي إليه وهو يومُ القيامةِ تنتهي إليه السَّمواتُ والأرض، وهذا إشارةٌ إلى فنائِهما وانقضائِهما.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي مُعرِضون عمَّا خُوِّفُوا به من القُرآن، ولا يتدبَّرون ولا يتفكَّرون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ من الملائكةِ والأصنامِ، وتدَّعون أنَّها آلهةٌ، ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي أخبِروني ماذا خلَقُوا من الأرضِ، لأنَّ الخالقَ هو الذي يستحقُّ العبادةَ، ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أمْ لَهم نصيبٌ في خلق السَّموات، فذلك ما أشركتُموهم في عبادةِ الله تعالى، ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ ﴾ ؛ القرآنِ فيه برهانُ ما تدَّعون، ﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ ؛ معناه ائتوني ببقية من علمِ المتقدِّمين، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ .

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج٤ ص٣٠٦. وأخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب ﷺ.

وَقِيْلَ: الأثارَةُ؛ والأَثْرَةُ - بإسكان الثاء - والأَثَرَةُ - بفتحِها - معناها: الرِّوايَـةُ من العُلماءِ، يقالُ: فلانٌ يَأثُرُ الحديثَ عن فلانٍ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إنْ هَذا إلاَّ سِـحْرٌ يُؤْثَرُ﴾(١)، والعلمُ الْمَأْثُورُ هو الْمَرْوِيُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي أبْعَدُ ذهاباً عن الصَّواب ممن يدعُو مِن دون الله مَن لا يستجيبُ دعاءً ولو دعاهُ، (إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) يعني الأصنامَ، ﴿ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ أي عن دُعاءِ مَن دعاها؛ لأنَّها جَمَادٌ لا تسمعُ ولا تُبصِرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ معناهُ: وإذا جُمِعَ الناسُ يومَ القيامة صارتِ الأصنامُ أعداءً لِمَن عبَدَها في الدُّنيا، كما قالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بشِرْكِكُمْ﴾(٢)، وقال: ﴿تَبرَّأنَا إلَيْكَ مَا كَانُوا إيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾(٣).

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ ويقولون: إنَّ مُحَمَّداً أتى به من نفسهِ، وهو قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي لا يَقدِرون أن يرُدُّوا عنِّي عذابَهُ، فكيف أفتري على اللهِ لأجلِكم وأنتُم لا تقدِرُون على دفعِ عِقابهِ عنِّي إن افتريتُ عليهِ شيئاً؟ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ ؛ أي اللهُ أعلَمُ بما تَقولون في القُرآن وتَخوضُونَ فيه من التَّكذيب به والقول فيه إنه سحرٌ وكهانةٌ، ﴿ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ ؛ أي القرآنُ جاءَ من عندِ الله، ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ في تأخيرِ العذاب عنكم حين لَمْ يعجِّلْ عليكم بالعقوبةِ.

قال الزجَّاجُ: (هَذا دُعَاءٌ لَهُمْ؛ أي التَّوْبَةُ، مَعْنَاهُ: أنَّ مَنْ أتَى مِنَ الْكَبَائِرِ بمِثْلِ مَا أتَيْتُمْ بهِ مِنَ الافْتِرَاءِ عَلَى اللهِ ثُمَّ تَابَ، فَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ؛ أيْ غَفُورٌ لَهُ رَحِيمٌ بهِ)(٤).

---

(١) المدثر / ٢٤ . (٢) فاطر / ١٤ .

(٣) القصص / ٦٣ .

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٣٤، والعبارة هنا أتم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ؛ أي ما أنا أوَّلُ رَسُول أرسِلَ إلى الناس، قد بُعِثَ قَبلِي كثيرٌ من الرُّسل. والبديعُ من كلِّ شيء المبتَدِعُ، ﴿ وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡ ﴾ ؛ أيتركُني بمكَّة أو يُخرجُني منها أو يُخرجكم. وَقِيْلَ: معناهُ: لا أدري أموتُ أم أقتَلُ، ولا أدري أيُّها المكذِّبون أترمَون بالحجارةِ من السَّماء أو يُخسَفُ بكم.

وهذا إنَّما هو في الدُّنيا، فأمَّا في الآخرةِ فقد عَلِمَ أنه في الجنَّة، وأنَّ مَن كذبَهُ في النار، ألاَ تراهُ يقول: ﴿ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ ؛ وقد أوحِيَ إليه ما يصيرُ إليه الكافرُ والمؤمنُ في الآخرةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: وما أدري ماذا أؤْمَرُ به في الكفَّار من حربٍ أو سِلمٍ، وما أدري ماذا يفعَلُ اللهُ بهم أيُعَاجِلُهم اللهُ بالعقوبةِ أو يؤخِّرُها عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنْ أتَّبعُ إلاَّ مَا يُوحَى إلَيَّ) أي ما أتَّبعُ إلاَّ القرآنَ ولا أبتَدِعُ من عندي شيئاً، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩ ﴾ ؛ أي أنذِرُكم وأبَيِّنُ لكم الشرائعَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ ﴾ ؛ ثم اختلَفُوا، والمرادُ بشاهدٍ في هذه الآيةِ فقالَ مَن ذهبَ إلى أنَّ هذه السُّورةَ مكِّيةٌ كلُّها: أنَّ المرادَ به يَامِينَ بن يامين، فإنَّ عبدَالله بنَ سلام مِمَّن أسلمَ بالمدينةِ، وهذا شاهدٌ قَدِمَ بمكَّة فآمنَ. وَقِيْلَ: إنَّ المرادَ بالشاهدِ مُوسَى عليه السلام كان مِن بني إسرائيلَ، وكان شهادتهُ للنبيِّ ﷺ في التوراةِ من تصديقِ القُرآنِ، ومثل القرآن هو التوراةُ[1].

وقال ابنُ عبَّاس: (هُوَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ)، رُوي: أنَّهُ قَدِمَ مِنَ الشَّامِ، فأتَى النَّبيَّ عليه السلام لَيْلاً وشَهَدَ أنَّ نَعتَهُ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ فَآمَنَ بهِ، ثم قالَ: أخْبئْنِي فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ أحْضِرِ الْيَهُودَ سَلْهُمْ عَنِّي، فَإنَّهُمْ سَيَذْكُرُونَنِي عِنْدَكَ ويُخْبرُونَكَ بمَكَانِي مِنَ الْعِلْمِ.

فَفَعَلَ ذلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاسْتَخْبَرَ الْيَهُودَ وَقَالَ لَهُمْ: [مَا تَقُولُونَ فِي عَبْدِاللهِ ابْنِ سَلاَمٍ ؟] فَقَالُوا: عَالِمُنَا وَابْنُ عَالِمِنَا، وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، وَبَقِيَّةُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَّا. فَقَالَ ﷺ: [أرَأيْتُمْ إنْ آمَنَ بي تُؤْمِنُوا أنْتُمْ ؟] فَقَالُوا: إنَّهُ لاَ يَفْعَلُ ذلِكَ.

---

(١) بمعناه؛ قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٣٥.

فَكَرَّرَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ مَرَّةً بَعْدَ أخرَى حَتَّى قَالُوا: نَعَمْ، فَخَرَجَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وَقَالَ لَهُمْ: ألَمْ يَأْتِكُمْ فِي التَّوْرَاةِ عَنْ مُوسَى عليه السلام: إذا رَأيْتُمْ مُحَمَّداً ﷺ فَأقْرِئُوهُ مِنِّي السَّلاَمَ وَآمِنُوا بِهِ؟ ثُمَّ جَعَلَ يُوقِفُهُمْ مِنَ التَّوْرَاةِ عَلَى مَوَاضِعَ مِنْهَا فِيْهَا ذِكْرُ النَّبِيِّ ﷺ وَصِفَتُهُ، وَكَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ وَيَجْحَدُونَ، فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّكَ رَسُولُ اللهِ، أرْسَلَكَ بالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ. فَقَالُوا: مَا كُنْتَ أهْلاً لِمَا أثْنَيْنَا عَلَيْكَ، وَلَكِنَّكَ كُنْتَ غَائِباً فَكَرِهْنَا أنْ نَغْتَابَكَ[(١)].

ومعنى الآيةِ: أخبروني ماذا تقُولون إنْ كان القرآنُ من عندِ الله، أنزلَهُ وكفرتُم أيُّها المشركون،(وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ) عبدُالله بن سلامٍ على صدق النبيِّ ﷺ في نبُوَّتهِ (عَلَى مِثْلِهِ) أي عليه أنَّهُ من عندِ الله، والمِثْلُ صلةٌ. وقولهُ تعالى (فَآمَنَ) يعني الشاهدُ واستكبَرتُم أنتم عن الإيمانِ به، وجوابُ (إنْ) محذوفٌ؛ وتقديرهُ: أليسَ قد ظلمهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: تقديرُ الجواب: (قُلْ أرَأيْتُمْ إنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ) أفأمِنُوا عقوبةَ اللهِ، (إنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) يعني المعانِدين بعدَ الوضُوحِ والبيانِ يَحرمُهم اللهُ الهدايةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ ؛ أي قالَ الكفارُ مِن بني أسَدٍ وغطَفان وأشجَعَ لِمَن أسلمَ من جُهينَة ومُزَينَةَ وأسْلمَ وغِفَار: (لَوْ كَانَ هَذا) يعنُونَ القرآنَ (خَيْراً) مما نحنُ عليهِ لَمَا سبقَ رعاةُ الشاةِ ونحن أرفعُ منهم، ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ ﴾ ؛ مع ظُهورهِ ووضُوحهِ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ مع ذلك، ﴿ هَٰذَآ ﴾ ؛ القرآنُ؛ ﴿ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ كذِبٌ متقادِمٌ اتَّبعَهُ مُحَمَّدٌ وأحبَّاؤهُ في عصرهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن: الآثار (٢٤١٧٢-٢٤١٧٦).

يقول اللهُ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ ؛ أي ويشهدُ للقرآن كتابُ موسَى قبلَهُ إمامٌ يُقتدَى ونجاةٌ من العذاب لِمَن آمنَ به، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ وَهَذَا القرآنُ مُصَدِّقٌ لِمَا في التوراةِ. وقولُـهُ تعـالى: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ ؛ أي بلسان عربيٍّ تُعقِلونَهُ. ويجوزُ أن يكون منصوباً على الحال، ويكون (لِسَاناً) توكيداً، كما يقالُ: جاءَنِي زيدٌ رجلاً صالحاً، يريدُ: جاءَنِي زيدٌ صالحاً، وقال الزجَّاجُ: (قَوْلُـهُ تَعَالَى: (إمَاماً) نُصِبَ عَلَى الْحَالِ)[1]؛ تَقْدِيرُهُ: وَتَقَدَّمَهُ كِتَابُ مُوسَى عليه السلام إمَاماً.

وَفِي الْكَلام محذوفٌ تقديرُهُ: إمَاماً ورحمةً فَلَمْ يَهْتَدُوا بهِ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾[2] وذلك أنَّ المشركين لم يهتَدُوا بالتوراةِ فيتركُوا عبادةَ الأصنامِ ويعرِفُوا منه صفةَ النبيِّ ﷺ.

ثم قالَ تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾؛ غيرَ الكُتب التي قبلَهُ (لِسَاناً عَرَبِيّاً) منصوبٌ على الحال؛ أي مصدِّقٌ لما بين يَدَيهِ عَرَبيّاً. ومعنى قولهِ تعالى (كِتَابُ مُوسَى إمَاماً) أي يُقتدَى بهِ؛ يعني التوراةَ، (وَرَحْمَةً) من اللهِ للمؤمنين به؛ قِيْلَ: القرآنُ.

وعن عروة عن أبيه[3] قالَ: (كَانَتْ زنِّيرَةُ[4] امْرَأةً ضَعِيفَةَ الْبَصَرِ، فَلَمَّا أسْلَمَتْ كَانَ الأَشْرَافُ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ يَسْتَهْزِئُونَ بهَا وَيَقُولُونَ: وَاللهِ لَوْ كَانَ مَا جَاءَ بهِ مُحَمَّدٌ خَيْراً مَا سَبَقَتْنَا إلَيْهِ زنِّيرَةُ[5]. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيْهَا وَفِي أمْثَالِهَا (وَإذْ لَمْ يَهْتَدُوا بهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إفْكٌ قَدِيمٌ) أيْ أسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)[6].

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٣٦.
(٢) الأحقاف / ١١ .
(٣) في المخطوط: (عن زياد عن أبيه).
(٤) في المخطوط: (زيرة وزبيرة).
(٥) زنيرة، هي مولاة لأبي بكر، وهي أحد السبعة الذين كانوا يعذّبون في الله، اشتراها أبو بكر وأعتقها، وكانت مولاة لبني عبد الدار، فلما أسلمت عميت، فقال المشركون: أعمتها اللات والعزى لكفرها باللات والعزى، فردَّ الله عليها بصرها. رواه هشام بن عمرة عن أبيه. ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب:ج ٤ ص٤٠٦: الرقم(٣٣٨٨).
(٦) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٨٩؛ قال القرطبي: (قاله عروة بن الزبير).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ ؛ أي أنزلناهُ لِتُخَوِّفَ، ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ، يعني مُشركي مكَّة. ومَن قرأ بالياءِ أسندَ الفعلَ إلى الكتاب[١]. وقولهُ تعالى: ﴿ وَبُشْرَىٰ ﴾ أي وهو بُشْرَى، ﴿ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ الموحِّدين، يعني الكتابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ ؛ في الآيةِ دليلٌ[٢] على أنَّها نزَلت في رجُلٍ بعينهِ؛ لأنَّ الناسَ كلَّهم لا يكون حَملُهم ورضاعُهم ثلاثون شَهراً، ولا يقولون إذا بلَغُوا أربعين سَنةً: (رَب أوْزعْنِي). وجاءَ في التفسيرِ: أنَّها نزَلت في أبي بكرٍ الصدِّيق ﷺ[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا ﴾ ؛ أي على كُلْفَةٍ ومشَقَّةٍ، وأرادَ به الحملَ في البطنِ إذا ثَقُلَ عليها الولدُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ ؛ يريدُ شدَّةَ الطَّلْقِ ومشقَّةَ الوضعِ. قرأ أهلُ الكوفة (إحْسَاناً) وهي قراءةُ ابنِ عبَّاس ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ ؛ أي حَملهُ ستَّةُ أشْهُرٍ ورضاعهُ أربعَةٌ وعشرون شهراً. ورَوى عكرمةُ عن ابنِ عبَّاس ﷺ قال: (إذا حَمَلَتِ الْمَرْأةُ تِسْعَةَ أشْهُرٍ أرْضَعَتْهُ أحَدَ وَعِشْرِينَ شَهْراً). وقال مقاتلُ وعطاء والكلبيُّ: (هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي أبِي بَكْرٍ ﷺ، وَكَانَ حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ هَذا الْقَدْرَ)[٤]، ويدلُّ على صحَّة هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: (حَتَّى إذا بَلَغَ أشُدَّهُ...) ثم إلى آخرِ الآيةِ. وقرأ الحسنُ ويعقوب (وَفَصْلُهُ) بغيرِ ألفٍ.

---

(١) و مَن قرأ بالياء، المعنى: لينذرَ الكتابُ الذين ظلموا، ومن قرأ بالتاء، المعنى: لينذر محمد ﷺ الذين ظلموا.

(٢) في المخطوط: (لها دليل).

(٣) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٤١؛ قال السيوطي: (أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس) وذكره.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٢٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (أشُدَّهُ بضْعٌ وَثَلاَثُونَ سَنَةً) وقال: (ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً). وذلكَ أنه صَحِبَ رسولَ الله ﷺ وهو ابنُ ثمانِي عشرةَ سنةً، والنبيُّ ﷺ ابنُ عشرين سَنة في تجارتهِ إلى الشام، وكان لا يفارقُهُ في أسفارهِ وحضورهِ. فلما ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ ؛ ونُبِّئَ رسولُ الله ﷺ دعا ربَّهُ، ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ ؛ أي ألْهِمْنِي شُكْرَ نِعمتِكَ، ﴿ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ ؛ بالهدايةِ والإيمان حتى لم أُشركْ بكَ شيئاً، ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾ ؛ أبي قُحَافَةَ عثمان بن عُمر وأمِّي أمُّ الخيرِ بنت صخرِ بن عمر، قال عليٌّ رضي الله عنه: (هَذِهِ الآيَةُ نُزَلَتْ فِي أبي بَكْرٍ أسْلَمَ أبَوَاهُ جَمِيعاً، وَلَمْ يَجْتَمِعْ أحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْمُهَاجِرِينَ أبَوَاهُ غَيْرُهُ، وَأوْصَاهُ اللهُ بهِمَا)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ ؛ فأجابَ اللهَ وأعتقَ تسعةً مِن المؤمنين يعذبون في اللهِ ولم يُردْ شيئاً من الخيرِ إلاَّ أعانَهُ اللهُ عليه، واستجابَ اللهُ في ذُريَّتهِ حين قال: ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ﴾ ؛ فلم يبقَ له ولدٌ ولا والدٌ إلاَّ آمَنُوا باللهِ وحدَهُ، قال موسى بنُ عُقبةَ(٢): (لَمْ يُدْرِكْ أرْبَعَةٌ النَّبِيَّ ﷺ هُمْ وَأبْنَاؤُهُمْ إلاَّ هَؤُلاَءِ: أبُو قُحَافَةَ، وَأبُو بَكْرٍ، وَابْنُهُ عَبْدُالرَّحْمَنِ، وَأبُو عَتِيقِ بْنِ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ أبي بَكْرٍ رضي الله عنه)(٣). قال البخاريُّ: (أبُو عَتِيقٍ أدْرَكَ النَّبيَّ ﷺ).

قولهُ (وَأصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي) أي اجعَلْ أولاَدِي كُلَّهم صالِحين، وقولُهُ: ﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي إنِّي أقبَلْتُ إلى كلِّ ما يجبُ وأسلمتُ لكَ بقلبي ولسانِي وإنِّي من المخلِصين، فأسلمَ أبوهُ وأمُّهُ ولم يبقَ له ولدٌ إلاَّ أسلمَ.

---

(١) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٩٤.

(٢) موسى بن عقبة بن أبي عياش الأسدي، مولى آل الزبير، تابعي روى عن جمع من الصحابة، وله كتاب المغازي، قال إبراهيم بن المنذر عن معن بن عيسى: كان مالك يقول: (عليكم بمغازي موسى بن عقبة، فإنه ثقة) وفي رواية أخرى عنه: (عليكم بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة، فإنها أصح المغازي). ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٧٢٧٣).

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٨٦، ولم يعزه إلى أحد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ ؛ أي أهلَ هذه الصِّفةِ الذين يَتقبَّلُ عنهم أحسنَ ما عمِلُوا وهو الطاعاتُ، ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ ؛ التي سبقَت في الجهلِ، وقولهُ تعالى: ﴿ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ﴾ ؛ أي يدخلُون في أصحاب الجنَّة وَعْداً صِدْقاً من اللهِ تعالى، ﴿ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ به في الدُّنيا على ألسِنَةِ الرسُلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ ﴾ ؛ نزلَت في عبدِالرَّحمنِ بن أبي بكر، قالَ لأبيه وأمه قبلَ أن يسلمَ حين كانا يدعُوانهِ إلى الإسلام، ويُخبرانهِ بالبعثِ بعد الموت وهو يأبَى ويُسِيءُ القولَ لهما، فقالَ لهما: (أفٍّ لَكُمَا) أي أفٌّ قذفاً لكما، كما يقالُ عند شمِّ الرائحةِ الكريهة، ﴿ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ﴾ ؛ أي تُخوِّفانِني أن أخرجَ من القبرِ وقد مضَتِ القرونُ مِن قبلِ ولم يخرج أحدٌ منهم من قبرهِ، أين عبدُالله بن جَدعان؟أين فلان وأين فُلان؟! ﴿ وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ ؛ يعني أبَويهِ يدعُوان الله له بالْـهُدَى ويقولان له: ﴿ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ ﴾ ؛ أي صدِّقْ بالبعثِ، ﴿ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ ، بالبعثِ، ﴿ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ فيقولُ لَهما: ما هذا الذي تقُولان إلاَّ أكاذيبُ الأوَّلين[1].

والاستغاثةُ باللهِ دعاؤُكَ اللهَ ليُغيثَكَ على ما نَابَكَ، والجارُّ محذوفٌ؛ تقديرُهُ: يستغيثان باللهِ. وقرأ القُرَّاء والأعمشُ (أنْ أخرُجَ) بفتحِ الألف وضمِّ الراءِ[2].

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا ألَحَّ عَلَيْهِ أبَوَاهُ فِي دُعَائِهِ إلَى الإيْمَان؛ قَالَ لَهُمَا: أحْيُوا لِي عَبْدَاللهِ بْنَ جَدْعَان، فَإنَّهُ كَانَ شَيْخاً صَدُوقاً، وَأحْيُوا لِي عَامِرَ بْنَ كَعْبٍ، وَمَشَايخَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٤١٩١) وإسناده ضعيف، ولم يسمه. والقصة حكاها مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٢٣. والقصة مختلَقَة من مروان بن الحكم على عبدالرحمن بن أبي بكر، فاتهمه مروان بهذا حين طلب من أهل المدينة البيعة ليزيد بن معاوية، فعارضه عبدالرحمن. وكذَّبت عائشة رضي الله عنها مروان في ادعائه وزعمه كما أخرجه البخاري في الصحيح:كتاب التفسير: سورة الأحقاف: الحديث (٤٨٢٧).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٩٧؛ قال القرطبي: (وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش) وذكره.

مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى أسْألَهُمْ عَنْ مَا تَقُولاَن، وَأخْرِجَا لِي بَعْضَ آبَائِي وَأجْدَادِي مِنْ قُبُورهِمْ لأَسْألَهُمْ، فَإنْ صَدَّقُوكُمَا آمَنْتُ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم ﴾ ؛ أي وجبَتْ عليهم كلمةُ العذاب في أمَمٍ قد مضَتْ من قبلِهم، ﴿ مِّنَ ﴾ ؛ كفار، ﴿ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ الإيمانَ. ثم أسلمَ عبدُالرحمنِ وحَسُنَ إسلامهُ، وكان من أفاضلِ المؤمنين.

وذهب الحسنُ إلى أنَّ الآيةَ نزلت في كافرٍ عاقٍّ لوالديهِ مكذِّبٍ للبعثِ(٢)، مات على كُفرهِ، قالَ: (لأنَّ قَوْلَهُ (أوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ) إعْلاَمٌ بأنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) وإلى هذا القولِ ذهبَ الزجَّاجُ(٣).

ويُروى أن معاويةَ كتبَ إلى مروان: (لَتَأْخُذَنَّ عَلَى النَّاسِ الْبَيْعَةَ لِيَزِيدَ) فَكَرِهَ ذلِكَ عَبْدُالرَّحْمَنِ وَقَالَ: (أتَأْخُذُونَ الْبَيْعَةَ لأَبْنَائِكُمْ ؟!) قَالَ مَرْوَانُ: هَذا الَّذِي يَقُولُ اللهُ فِيْهِ ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أفٍّ لَكُمَا﴾ فَلَمَّا بَلَغَ ذلِكَ عَائِشَةُ فَقَالَتْ: (كَذبَ مَرْوَانُ! وَاللهِ مَا هُوَ بِهِ، إنَّمَا أنْزَلَ اللهُ ذلِكَ فِي رَجُلٍ مِنْ بَنِي أمَيَّةَ، وَلَوْ شِئْتُ أنْ أسَمِّيَهُ لَسَمَّيْتُهُ لَكُمْ، وَلَكِنْ أشْهَدُ أنَّ اللهَ لَعَنَ أبَاكَ وَأنْتَ فِي صُلْبِهِ، فَهُوَ فِي قَصَصِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ)(٤).

---

(١) في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٩٥ نقله ابن أبي حاتم عن السدي. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٩٧؛ قال القرطبي: (قال ابن عباس والسدي وأبو العالية ومجاهد) وذكره.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤١٩٢).

(٣) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٣٨؛ قال الزجاج: (فقال بعضهم: إنها نزلت في عبدالرحمن قبل إسلامه، وهذا يبطله قوله تعالى: ﴿أوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ فِي أمَمٍ قَدْ خَلَتْ...﴾ فأعلمَ اللهُ أن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب، وإذا أعلم بذلك فقد أعلم أنهم لا يؤمنون، وعبدالرحمن مؤمن، ومن أفاضل المؤمنين وسَرَوَاتهم. والصحيح أنها نزلت في الكافر العاق).

(٤) القصة لها ألفاظ وإيجاز وتفصيل، في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٤٤؛ قال السيوطي: (أخرج البخاري عن يوسف بن ماهك) وذكر القصة بلفظ: أن عبدالرحمن بعد أن أنكر على مروان، أمر مروان بأخذه، فدخل بيت عائشة فلم يقدر عليه، وجرى الحديث. ينظر: الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٨٢٧). وفي الشرح قال ابن حجر: (لكن نفي عائشة أن تكون نزلت في عبدالرحمن وآل بيته، أصح إسناداً وأولى بالقبول).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ ؛ أي ولكلٍّ الفريقَين من الكافرين والمؤمنين منازلُ مما عمِلُوا، ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي لا يُنقصُ من حسناتِهم ولا يُزَادُ في سيِّئاتِهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ ؛ أي وأنذِرهُم يومَ يُعرَضُ كفَّارُ مكَّة على النار ويقالُ لَهم: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ ؛ أي أذهَبتُم أموالَكم، وَقِيْلَ: قوَّتَكم وشبَابَكم في لذاتِكم في الدُّنيا، لا في طلب رضَى اللهِ، بل في وُجوهٍ مُحرَّمَةٍ، وانتقَصتُم بطيِّباتكم في الدُّنيا، ﴿ وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ ، (فـ) ليس لكم، ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ ، ههنا حسناتٍ، وإنما ﴿ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ؛ أي الْـهَوَانِ الشديدِ باستكباركم في الأرضِ بالباطلِ، وخُروجِكم من أمرِ الله تعالى إلى المعصيةِ.

وعن ابنِ عبَّاس: أنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: (أدْعُ اللهَ أنْ يُوَسِّعَ عَلَى أُمَّتِكَ، فَقَدْ وَسَّعَ اللهُ عَلَىفَارسَ وَالرُّومَ وَهُمْ لاَ يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى) فَقَالَ ﷺ: [أوَفِي شَكٌّ أنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّاب؟! أوْلَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا][(١)].

ورُوِي: أنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ: (دَخَلْتُ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ فِي بَيْتِ حَفْصَةٍ وَإنَّهُ لَمُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِير، وَإنَّ بَعْضَهُ لَعَلَى التُّرَاب، وَتَحْتَ رَاسِهِ وسَادَةٌ مَحْشُوَّةٌ لِيْفاً، فَسَلَّمْتُ ثُمَّ جَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَصَفْوَتُهُ وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَكِسْرَى وَقَيْصَرَ عَلَى سُرُر الذهَب وَفُرُشِ الدِّيبَاجِ وَالْحَرِير، فَقَالَ ﷺ: [يَا عُمَرُ؛ إنَّ أوْلَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ وَهِيَ وَشِيكَةُ الانْقِطَاعِ، وَإنَّا أخِّرَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا])[(٢)].

وعن سالِمِ بن عبدِالله بن عمر كان يقولُ: (وَاللهِ مَا نَعْبَأُ بلَذاتِ الْعَيْشِ بأنْ نَأْمُرَ بصِغَارِ الْمِعْزَى فَتُسْمَطَ لَنَا، وَنَأْمُرَ بلِبَابِ الْحِنْطَةِ فَيُخْبَزُ لَنَا، وَنَأْمُرَ بِالنَّبِيذِ فَيُنْبَذُ لَنَا، حَتَّى إذا صَارَ مِثْلَ عَيْنِ يَعْقُوبَ أكَلْنَا هَذا وَشَرِبْنَا هَذا، وَلَكِنَّا أرَدْنَا أنْ نَسْتَبْقِيَ طَيِّبَاتِنَا

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب المظالم: باب الغرفة والعلية: الحديث (٢٤٦٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الطلاق: باب في الولاء: الحديث (٣٤ و٣٥/ ١٤٧٩).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الأطعمة: باب ذكر معيشة النبي ﷺ: الحديث (٧١٥٤)، وقال: هذا حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

لأنَّا سَمِعْنَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَذْكُرُ قَوْماً فَقَالَ (أذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بهَا)[1].

وعن جابر بن عبدِالله ﷺ قالَ: (رَأى عُمَرُ ﷺ فِي يَدَيَّ لَحْماً مُعَلَّقاً فَقَالَ: مَا هَذا يَا جَابرُ ؟ قَالَ: اشْتَهَيْتُ لَحْماً فَاشْتَرَيْتُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: وَكُلَّمَا اشْتَهَيْتَ يَا جَابرُ اشْتَرَيْتَ؟ أمَا تَخَافُ هَذِهِ الآيَةَ (أذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا)[2].

وعن محمَّد بن مَيسَرة قالَ: قال جابرُ بن عبدِالله: (اشْتَهَى أهْلِي لَحْماً فَشَرَيْتُهُ وَمَرَرْتُ بعُمَرَ، فَقَالَ: مَا هَذا يَا جَابرُ ؟ قُلْتُ: اشْتَهَى أهْلِي اللَّحْمَ فَاشْتَرَيْتُ هَذا اللَّحْمَ بدِرْهَم، فَقَالَ: أوَكُلَّمَا اشْتَهَى أحَدُكُمْ شَيْئاً جَعَلَهُ فِي بَطْنِهِ، أمَا تَخْشَى أنْ تَكُونَ مِنْ أهْلِ هَذِهِ الآيَةِ (أذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا))[3].

وعن عِمَارَةَ بن القَعْقَاعِ عن أبي زرعَةَ قالَ: (دَخَلَ عُتْبَةُ بْنُ فَرْقَدَ عَلَى عُمَرَ ﷺ وَهُوَ يُكَوِّمُ كَعْكاً شَامِيّاً وَيَتَفَوَّقُ لَبَناً حَازِراً[4] فَقَالَ: يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ أمَرْتَ أنْ يُصْنَعَ لَكَ طَعَامٌ ألْيَنُ مِنْ هَذا؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ فَرْقَد؛ أتُرَى أحَداً مِنَ الْعَرَب أقْدَرُ عَلَى ذلِكَ مِنِّي ؟ فَقَالَ: مَا أحَدٌ أقْدَرَ عَلَى ذلِكَ مِنْكَ يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ عُمَرُ: سَمِعْتُ اللهَ تَعَالَى عَيَّرَ أقْوَاماً فَقَالَ (أذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بهَا) وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أنْ أكُونَ أصْلَبَكُمْ طَعَاماً وَأحْسَنَكُمْ ثِيَاباً لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أسْتَبْقِي دُنْيَايَ لآخِرَتِي)[5].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ١ ص٤٩. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٤٤٦ عزاه السيوطي إلى أبي نعيم في الحلية.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٤٥؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان) وفي ص٤٤٦؛ قال: (أخرجه أحمد في الزهد عن الأعمش) وذكره بلفظه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٧٥٠) وفيه القاسم بن عبدالله العمري.

(٤) الحازر: العابس الباسر، والحزاور: الذي انتهى إدراكه. ينظر: لسان العرب: (حزر).

(٥) أخرجه أبو نعيم بأسانيد أخرى وألفاظ عن قول عمر ﷺ، كما في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء:ج١ ص٤٩ عن الحسن وعبدالرحمن بن أبي ليلى وبعض أصحاب عمر ﷺ.

وعن حفص بن أبي العاص قالَ: (كُنْتُ أتغَدَّى مَعَ عُمَرَ ﷺ فَيَجِيءُ بِخُبْزٍ مُتَقَطِّعٍ يَابسٍ غَلِيظٍ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَيَقُولُ لَنَا: كُلُوا، فَجَعَلَ يَعْتَذِرُ فَقَالَ: مَا لَكُمْ لاَ تَأْكُلُونَ ؟ قُلْنَا: لاَ نَأْكُلُهُ وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا نَسْتَطِيعُ لَكِنَّا نَرْجِعُ إِلَى طَعَامٍ الْيَنَ مِنْ طَعَامِكُمْ هَذا.

فَقَالَ: يَا ابْنَ الْعَاصِ أَمَا تَرَى أَنِّي قَادِرٌ أَنْ آمُرَ بدَقِيقٍ أَنْ يُنْخَلَ بِخُرْقَةٍ، وَأَنْ يُخْبَزَ فِي تَنُّورٍ، وَآمُرَ بعَنَاقٍ سَمِينَةٍ فَلْيُسْمَطَ عَنْهَا شَعْرَهَا ثُمَّ تُخرَجُ مَصْلِيَّةً كَأَنَّهَا كَذا وَكَذا، أَمَا تَرَى أَنِّي أَقْدِرُ أَنْ أَعْمَلَ إِلَى صَاعٍ أَوْ صَاعَيْنِ مِنْ زَبِيبٍ فَأَجْعَلَهُ فِي سِقَاءٍ ثُمَّ أَنُشُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ فَيُصْبِحُ كَأَنَّهُ دَمُ غَزَالٍ ؟ قَالَ: قُلْتُ وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَجَادٌّ مَا نَعَتَ الْعَيْشَ؟ قَالَ: أَجَلْ وَاللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، لَوْلاَ أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَنْقُصَ حَسَنَاتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَشَارَكْتُكُمْ فِي الْعَيْشِ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بهَا)[١].

وكان يقولُ: (لاَ تَنْخِلُوا الدَّقِيقَ فَإِنَّهُ كُلُّهُ طَعَامٌ)، وكَانَ عُمَرُ ﷺ يَتَغَدَّى اللَّبَنَ وَالْقَدِيدَ، وعن الزهريِّ ﷺ قالَ:(حَدَّثَنِي عَبْدُاللهِ بْنُ عَبَّاسٍ عَنْ عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَوَجَدَهُ عَلَى حَصِيرٍ مَرْمُولاً[٢] قَدْ أَثَّرَ الشَّرِيطُ فِي جَنْبِهِ مُتَوَسِّداً وسَادَةً مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، قَالَ عُمَرُ ﷺ: فَالْتَفَتُّ فِي الْبَيْتِ فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ شَيْئاً يَرُدُّ الْبَصَرَ إِلاَّ إِهَاباً جُلُوداً مَعْطُوفَةً قَدْ سَطَعَ رِيحُهَا، فَبَكَيْتُ وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ خِيرَةُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَهَذا كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِي الدِّيبَاجِ وَالْحَرِيرِ، فَاسْتَوَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِساً وَقَالَ: [أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟! أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا])[٣].

ورُوِي: أَنَّ عُمَرَ ﷺ قَدِمَ مِنَ الشَّامِ، فَصُنِعَ لَهُ طَعَامٌ طَيِّباً فَقَالَ: هَذا لَنَا! فَمَا لِنُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ لاَ يَشْبَعُونَ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ؟ فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ:

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن:ج١٦ ص٢٠١. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٤٤٧، ذكره السيوطي مختصراً وقال: (أخرجه ابن سعد وعبد بن حميد عن حميد بن هلال).

(٢) الأرمل: الرجل الذي لا امرأة له. وفي المخطوط: (سرير مرمولاً).

(٣) أخرجه ابن حبان في الإحسان: الحديث (٤١٨٨).

لَهُمُ الْجَنَّةُ يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَاغْرُورَقَّتْ عَيْنَا عُمَرَ بالدُّمُوعِ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ كَانَ حَظُّنَا فِي الْخِطَامِ وَهُمْ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ، لَقَدْ بَايَنُونَا بَوْناً بَعِيداً)[1].

ورُوِي: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أهْلِ الصُّفَّةِ، فَرَآهُمْ يُرَقِّعُونَ ثِيَابَهُمْ بِالأدْمِ، مَا يَجِدُونَ لَهَا رِقَاعاً، فَقَالَ: [هَلْ أنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْ قَوْمٍ يَغْدُو أحَدُهُمْ فِي حُلَّةٍ وَيَرُوحُ فِي أخْرَى، وَيَغْدُ عَلَيْهِ بِجَفْنَةٍ وَيُرَاحُ[2] بِأُخْرَى][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ) يعني يومَ القيامةِ تُجزَونَ العذابَ الذي فيه ذُلُّكم وخزيكم، ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ ؛ أي اذكُرْ يا مُحَمَّدُ لقومِكَ أهلِ مكَّة أخَا عادٍ وهو هودٌ عليه السلام، ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ ؛ أي إذْ خَوَّفَ قومَهُ وحذرَهم عذابَ اللهِ إن لم يُؤمِنُوا بالأحقافِ، وهو جمعُ حُقْفٍ وهو المستطيلُ الْمُعْوَجُّ من الرَّملِ، قال عطاءٌ: (رمَالُ بلاَدِ الشِّعرِ)، وقال مقاتلُ: (هِيَ بالْيَمَنِ فِي حَضْرَمَوْتٍ)[4]، وقال ابنُ عبَّاس: (وَادٍ بَيْنَ عُمَانَ وَمَهرة)[5] وَإلَى مَهْرَةَ يُنْسَبُ الْجِمَالُ الْمَهْرِيَّةُ.

وقال قتادةُ: (ذُكِرَ لَنَا أنَّ عَاداً كَانُوا حَيّاً بالْيَمَنِ أهْلَ رَمْلٍ مُشْرِفِينَ عَلَى الْبَحْرِ بأرْضٍ يُقَالُ لَهَا الشِّعر، وَكَانُوا مِنْ قَبيلِ إرَمَ)[6]. وقال ابنُ زيد: (الأحْقَافُ: مَا اسْتَطَالَ مِنَ الرَّمْلِ وَأشْرَفَ كَهَيْئَةِ الْجَبَلِ، وَلَمْ يَبْلُغْ أنْ يَكُونَ جِبَالاً، وَجَمْعُهُ حُقُفٌ، وَالأحْقَافُ جَمْعُ الْجَمْعِ)[7].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤١٩٦).

(٢) في المخطوط: (بِخُصْلَةٍ وَيُرَاحُ).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٤١٩٧) معلقاً. وأخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الزهد: الحديث (٢٤٧٦)، وقال: حسن غريب. وأبو نعيم في الحلية: ج ١ ص٣٤٠: ذكر أهل الصفة.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٢٥.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤١٠٤).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢٠٩) وفيه: (وكانوا أهل رملٍ).

(٧) بمعناه؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢١٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ ؛ أي وقد مضَتِ الرسُلُ من قبلِ هودٍ ومن بعدهِ إلى قومِهم، ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي لَمْ يُبعَثْ رسولاً قبلَ هودٍ ولا بعدَهُ إلاَّ بالأمرِ بعبادة اللهِ وحدَهُ، وهذا كلامٌ اعترض بين إنذار هود وكلامهِ لقومه، ثم عادَ إلى كلامِ هودٍ لقومه بقوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ تقديرُ الكلامِ: إذ أنـذرَ قومَـهُ بالأحقافِ وقال: إنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم، ويحتملُ أن يكون المرادُ بهذا العذاب عذابَ الدُّنيا، ويحتمل عذابَ الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ ؛ أي قالوا: يا هودُ أجِئتَنا لتَصرفَنا عن عبادةِ آلهتنا بالإفكِ، ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ ؛ من العذاب، ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ إنَّ العذابَ نازلٌ بنا، ﴿ قَالَ ﴾ ، لَهم هودٌ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ ﴾ بمجيءِ العذاب ، ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ، يعلمُ متى يأتيكم العذابُ وأنا ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ ؛ إليكم من الوحي والإنذار، والمعنى: إنما أنا مُبَلِّغٌ، والعلمُ بوقتِ العذاب عند اللهِ، ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي أمرَ اللهِ وعقابه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: فلمَّا رأوا العذابَ الذي خوَّفُوا به عارضاً كهيئةِ السَّحاب تستقبلُ أودِيَتَهم التي كانوا إذا رأوا الغيمَ من نواحِيها كانت سَنتهم سَنة خصبٍ، ظنُّوهُ سحابَ خيرٍ، ﴿ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ ؛ أي هذا الذي وعَدتَنا به سحابٌ قد عرضَ في السَّماءِ مُمطِرُنا، فقال لَهم هود: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي ريحُ الدَّبُور جاءت من قِبَلِ المغرب فيها عذابٌ أليم وجيع لكم.

قال المفسِّرون: كان عادٌ قد حُبسَ عنهم المطرُ أيَّاماً، فَسَاقَ اللهُ إليهم سحابةً سوداء فخرَجت عليهم من وادٍ لهم يقالُ لـه: الْمُغِيثُ، فلمَّا رأوهُ مستقبلَ أودِيتهم استكبَروا وقالوا: (هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا) غَيمٌ فيه مطرٌ، فقال هودُ: (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ) ثُم بيَّنَ ما هو؛ فقالَ: (رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ ؛ أي تُهلِكُ كلَّ شيءٍ مرَّت به من الناسِ والدواب والأموالِ، ﴿ فَأَصْبَحُواْ ﴾ ؛ يعني عاداً؛ ﴿ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا

﴿ مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ ؛ قال الزجاج: (معناهُ لا ترَى شيئاً إلاَّ مساكنَهم، والمعنى: لا ترَ أيُّها المخاطَبُ إلاَّ مساكِنَهم، لأنَّ السُّكَّانَ والأنعامَ بادت بالريحِ)[1].

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ هُودٌ وَمَنْ مَعَهُ)، وعن ابنِ عبَّاس قالَ:(لَمَّا رَأوا الْعَارِضَ قَامُوا، فَأَوَّلُ مَا عَرَفُوا أنَّهُ عَذابٌ رَأوا مَا كَانَ خَارجاً مِنْ دِيَارِهِمْ مِنَ الرُّعَاةِ وَالْمَوَاشِي تَطِيرُ بِهِ الرِّيحُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرَأوا الْفَسَاطِيطَ وَ الضَّعَائِنَ تُرْفَعُهَا الرِّيَاحُ كَأنَّهَا جَرَادٌ فَدَخَلُوا بُيُوتَهُمْ وَأغْلَقُوا عَلَى أنْفُسِهِمُ الأَبْوَابَ، فَجَاءَتِ الرِّيحُ فَقَلَعَتْ أبْوَابَهُمْ وَاحْتَمَلَتْهُمْ إلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، ثُمَّ هَرَعَتْهُمْ وَأهَالَتْ الرِّمَالَ، فَكَانُوا تَحْتَ الرَّمْلِ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أيَّامٍ حُسُوماً لَهُمْ أنِينٌ، ثُمَّ أمَرَ اللهُ بَعْدَ ذلِكَ فَاحْتَمَلَتْهُمْ فَرَمَتْ بهِمْ فِي الْبَحْرِ)[2].

وقرأ الأعمشُ وحمزة وعاصم ويعقوب (فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى) بياءٍ مضمومة (إلاَّ مَسَاكِنُهُمْ) بالرفع أي لا ترَى الناسُ إلاَّ مساكنَهم لأنَّهم كانوا تحتَ الرَّملِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي هكذا نَجزي مَن أجرمَ جُرمَهم بمثلِ ما جازَيناهم. وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا رَأى الرِّيحَ فَزِعَ، وَقَالَ: [اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا أرْسِلَتْ بهِ، وَأعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا أرْسِلَتْ بهِ] وَكَانَ يَقُومُ وَيَقْعُدُ وَيَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! فَيَقُولُ: [إنِّي أخَافُ أنْ نَكُونَ مِثْلَ قَوْمِ هُودٍ حَيْثُ قَالُوا: هَذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا][3].

---

(١) بمعناه؛ قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٤٠.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٥٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس). وأخرجه أبو الشيخ في العظمة: ص٢٨١: الرقم (٣٨/ ٨٣٨).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب صلاة الاستسقاء: باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم: الحديث (١٥/ ٩٨٨). والترمذي في الجامع: أبواب الدعوات: الحديث (٣٤٤٩)، وقال: حسن. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٤٤٩؛ قال السيوطي:(أخرجه عبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عائشة رضي الله عنها) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ ؛ الخطابُ لأهلِ مكَّة، والمعنى: ولقد مكَّنا عاداً فيما لم نُمكِّنْكُم فيه من البَسطَةِ في المال والولدِ وزيادة القوَّةِ والقامَةِ وشدَّة الأبدانِ، قال المبرِّدُ: (مَا) فِي قَوْلِهِ (فِيمَا) بمَنْزِلَةِ (الَّذِي) و(إنْ) بمَنْزِلَةِ (ما)[1].

وتقديرهُ: ولقد مكنَّاهم في الذي ما مكنَّاكم فيه، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ ؛ أي قُلوباً يعقلون بها فلم ينفَعهم ذلك من عذاب الله إذ نزلَ بهم بسبب أنَّهم، ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ دلائلِ الله، ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي نزلَ بهم عقابُ استهزائِهم بالرُّسلِ، أخبرَ اللهُ أنَّهم أعرَضُوا عن قبول الْحُجَجِ والتفكُّر فيما يدلُّهم على التوحيدِ ما أعطاهم اللهُ من الحواسِّ التي تدرَكُ بها الأدلَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ ؛ هذه زيادةُ التخويفِ لأهل مكَّة، والمعنى: ولقد أهلَكنا ما حولَكم من أهلِ القُرَى مثلَ عادٍ وقوم تُبَّعٍ باليمنِ وقومِ صالح بالحِجْرِ وقوم لوطٍ على طريقكم بالشَّام، أرادَ بالقُرَى الْمُهلكَةِ باليمنِ والشَّام. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ وبيَّنَّا لكم الآياتِ في كلِّ وجهٍ لكي تُرجِعُونَ من الكفرِ إلى الإيمانِ، وَقِيْلَ: معناهُ: وبيَّنَّا الآياتِ لعلَّ أهلَ القُرَى يرجعون.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ ﴾ ؛ فهلاَّ حين نزلَ بهم العذابُ أعانهم الذين عبَدُوهم من دون الله ليُقرِّبوهم إلى اللهِ في زَعمِهم، وقولهُ تعالى: ﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي بل ما نفعُوهم، وقولهُ تعالى: ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ ؛ أي إنَّ دُعاءَهم آلهتَهم هو إفْكُهم وافتراؤُهم، ﴿ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ، يعني اتِّخاذهم الآلهةَ من دون اللهِ هو كَذِبُهم وافتراؤُهم على اللهِ أنَّها آلهة.

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٤٠؛ قال الزجاج: (..(إنْ) ههنا في معنى (ما) و(إنْ) في النفي مع (ما) التي في معنى (الذي) أحسنُ في اللفظ من (ما)...).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ؛ معناهُ: اذكُر إذ وجَّهنا نفَراً من الجنِّ؛ وذلك أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا آيَسَ مِنْ إسْلاَمِ أهْلِ مَكَّةَ، خَرَجَ إلَى الطَّائِفِ لِيَدْعُوَهُمْ إلَى الإسْلاَمِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الطَّائِفِ رَاجِعاً إلَى مَكَّةَ[(١)] وَوَصَلَ بَطْنَ نَخْلَةَ، قَامَ يَقْرَأ الْقُرْآنَ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ، فَمَرَّ بِهِ نَفَرٌ مِنْ أشْرَافِ جِنٍّ نَصِيبِينَ مِنَ الْيَمَنِ فَاسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا تِسْعَةَ نَفَرٍ)[(٢)]، وقال الكلبيُّ ومقاتل[(٣)]: (كَانُوا سَبْعَةً صُرِفُوا إلَى النَّبيِّ ﷺ لِيَسْتَمِعُوا مِنْهُ وَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ). وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ).

فلمَّا انتهَوا إلى النبيِّ ﷺ قالَ بعضُهم لبعض: اسكُتوا حتى تَستَمِعوا قراءَتهُ، وذلك معنى قولهِ تعالى: ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ ؛ أي فلما فرغ من التلاوةِ قال بعضُهم لبعض: اسكُتوا حتى تَستمعوا قراءته، وإنما قالوا ذلك لأنهم سَمعوا شيئاً لم يسمعوا مثلَهُ، فلما فرغَ من القرآن انصرَفُوا إلى قومِهم مخوِّفين لهم بالقرآن، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ، أي فلما فرغ من التلاوةِ انصرفوا إلى قومهم مُنذرين؛ أي محذِّرين إياهم عذاباً إن لم يُؤمنوا، وهذا قاله[(٤)] سعيدِ بن جُبير وجماعةٍ من أئمَّة الخبرِ.

وقالَ آخَرُون: بل أمِرَ رسولُ الله ﷺ أن يُنذِرَ الجنَّ ويدعُوَهم إلى اللهِ، فقرأ عليهم القرآنَ، فصرفَ اللهُ نفَراً من الجنِّ وجَمَعَهم له، فقال ﷺ لأصحابهِ: [إنِّي أمِرْتُ أنْ أقْرَأ عَلَى الْجِنِّ اللَّيْلَةَ، فَأيُّكُمْ تَبعَنِي] فَأطْرَقُوا، فَقَالَ لَهُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَأطْرَقُوا، فَقَالَ لَهُمْ مَرَّةً ثَالِثَةً، فَاتَّبَعَهُ عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، قَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: (لَمْ يَحْضُرْ مَعَهُ أحَدٌ غَيْرِي، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى إذا كُنَّا بأعْلَى مَكَّةَ دَخَلَ النَّبيُّ ﷺ شِعْباً يُقَالُ لَهُ

(١) في المخطوط: (فلما انصرف إلى مكة راجعاً إلى مكة) وهو غير مناسب تماماً فأثبتناه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢٢٦).

(٣) بمعناه؛ قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٢٨.

(٤) في المخطوط: (وهذه مقولة).

شِعْبُ الْحِجَوْنِ، وَحَطَّ لِي ثُمَّ أمَرَنِي أنْ أجْلِسَ فِيْهِ، وَقَالَ: [لاَ تَخْرُجْ مِنْهُ حَتَّى أدْعُوَ إلَيْكَ].

ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى قَامَ فَافْتَتَحَ الْقُرْآنَ، فَجَعَلْتُ أرَى أمْثَالَ النُّور تَـهْوِي، وَسَمِعْتُ لَفْظاً شَدِيداً حَتَّى خِفْتُ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ، وَغَشِيَتْهُ سَوْدَةٌ كَبِيرَةٌ حَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ حَتَّى مَا سَمِعْتُ صَوْتَهُ، ثُمَّ طَفِقُوا يَتَقَطَّعُونَ أمْثَالَ قِطَعِ السَّحَاب ذاهِبِينَ.

فَفَزِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ الْفَجْرِ، وَقَالَ: [أنِمْتَ؟] قُلْتُ: لاَ وَاللهِ؛ وَلَقَدْ هَمَمْتُ مِرَاراً أنْ أسْتَغِيثَ بالنَّاسِ حَتَّى سَمِعْتُكَ تُفْزِعُهُمْ بعَصَاكَ تَقُولُ: [اجْلِسُوا] فَقَالَ: [لَوْ خَرَجْتَ لَمْ آمَنْ عَلَيْكَ أنْ يَخْتَطِفَكَ بَعْضُهُمْ] ثُمَّ قَالَ: [هَلْ رَأيْتَ ؟] فَقُلْتُ: نَعَمْ؛ رَأيْتُ رجَالاً سُوداً.

قَالَ: [أوْلَئِكَ جِنُّ نَصِيبِينَ، سَألُونِي الْمَتَاعَ فَمَنَعْتُهُمْ بكُلِّ عَظْمٍ حَلِيلٍ وَرَوْثَةٍ وَبَعْرَةٍ] فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقَذِّرُهَا لِلنَّاسِ عَلَيْنَا، فَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يُسْتَنْجَى بالْعَظْمِ وَالرَّوْثِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا يَعْنِي ذلِكَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ: [إنَّهُمْ لاَ يَجِدُونَ عَظْماً إلاَّ يَجِدُونَ عَلَيْهِ لَحْمَةً يَوْمَ أكِلَ، وَلاَ رَوْثَةً إلاَّ وَجَدُوا فِيهَا حَبَّهَا يَوْمَ أكِلَتْ].

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ سَمِعْتُ لَفْظاً كَثِيراً شَدِيداً، قَالَ: [إنَّ الْجِنَّ تَدَارَتْ فِي قَتِيلٍ قُتِلَ بَيْنَهُمْ، فَتَحَاكَمُوا إلَيَّ فَقَضَيْتُ بَيْنَهُمْ]. ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ: [هَلْ مَعَكَ مَاءٌ ؟] فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَعِي نَبِيذُ تَمْرٍ فِي إدَاوةٍ، فَاسْتَدْعَاهُ فَصَبَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ فَتَوَضَّأَ بِهِ وَقَالَ: [تَمْرَةٌ طَيِّبَةٌ وَمَاءٌ طَهُورٌ][(١)].

وعن رسول الله ﷺ قال: [الْجِنُّ عَلَى ثَلاَثَةِ أصْنَافٍ: صِنْفٌ لَهُمْ أجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ بهَا فِي الْهَوَاءِ، وَصِنْفٌ حَيَّاتٌ وَكِلاَبٌ يَحِلُّونَ وَيَظْعَنُونَ][(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢٢٩ و٢٤٢٣٠ و٢٤٢٣١). وذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٢٩-٢٣٠.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٢ ص١٧٧: الحديث (٥٧٣)، وليس فيه (كلاب) ولفظه: [وَصِنْفٌ يَحِلُّونَ وَيَظْعَنُونَ]. وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير:=

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا) أي قالَ بعضُهم لبعضٍ: أنْصِتُوا، فأنصَتُوا واستَمعوا القرآنَ حتى كان يقعُ بعضُهم على بعضٍ من شدَّة رغبتِهم في سماعِ القرآن؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلَمَّا قُضِيَ) أي فلمَّا فرغَ من تلاوةِ القرآن، وقرأ لاحقُ ابن حميد[1] (قَضَى) بفتح القافِ والضاد يعني النبيَّ ﷺ؛ ثُم جعلَ النبيُّ ﷺ أولئكَ النفرَ من الجنِّ رسُلاً إلى قومِهم.

وأسماءُ أولئك النَّفرِ: شاضر وماصر ومنشي وماشي والأحقب[2] وعمرو بن جابر وزوبعة.

وعن ابنِ مسعود ﷺ: (أنْ كَانَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ يَمْشُونَ، وَرُفِعَ لَهُمْ إعْصَارٌ، ثُمَّ جَاءَ إعْصَارٌ أعْظَمَ مِنْهُ، ثُمَّ انْقَشَعَ فَإذا حَيَّةٌ قَتِيلٌ، فَعَمَدَ مِنَّا رَجُلٌ إلَى رِدَائِهِ فَشَقَّهُ وَكَفَّنَ الْحَيَّةَ بِبَعْضِهِ وَدَفَنَهَا! فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ إذا امْرَأتَانِ تَسْألاَنِ: أيُّكُمْ دَفَنَ عَمْرَو بْنَ جَابرٍ ؟! فَقُلْنَا: مَا نَدْري مَنْ عَمْرُو بْنُ جَابرٍ! فَقَالَتَا: إنْ كُنْتُمُ ابْتَغَيْتُمُ الأَجْرَ فَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ، إنَّ فَسَقَةَ الْجِنِّ اقْتَتَلُوا مَعَ مُؤْمِنِيهِمْ، فَقُتِلَ عَمْرُو بْنُ جَابرٍ وَهُوَ الْحَيَّةُ الَّتِي رَأيْتُمْ وَهُوَ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ الَّذِينَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ)[3].

وذكر: أنَّ حيةً دخلت على رجل من التابعين وهي تلهث عطشى فسقاها، ثم إنها ماتت فدفنها، فأتي من الليل فسلَّم عليه وأخبر أن تلك الحية كانت رجُلاً من جنِّ نصيبين اسمه زوبعةُ.

=الحديث(٣٧٥٤)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه). وأخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب التاريخ: باب بدء الخلق: الحديث (٦١٥٦) كلهم عن ثعلبة الخشني. وفي إسناده قال الشيخ شعيب: (إسناده قوي). وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات: ص٣٨٨ بإسناده واللفظ يطابق ما نقله المصنف رحمه الله. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٣٦؛ وقال: (رواه الطبراني ورجاله وثقوا، وفي بعضهم خلاف).

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢١٦؛ قال القرطبي: (وقرأ لاحقُ بن حميد وخبيب بن عبدالله بن الزبير) وذكره.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢١٦؛ قال القرطبي: (ذكر هؤلاء الخمسة ابن دريد، ومنهم عمرو بن جابر ذكره ابن سلام...).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢١٤؛ قال القرطبي: (ذكره ابن أبي الدنيا عن رجل من التابعين سمَّاه).

وبلغنا في فضائل عمر بن عبد العزيز أنه كان يمشي بأرض فلاة، فإذا حية ميتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها، فاذا قائل يقول يا سَرْق اشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول ستموت بأرض فلاة فيكفنك ويدفنك رجل صالح، فقال من أنت رحمك الله ؟ فقال رجل من الجن الذين استمعوا القرآن من رسول الله ﷺ لم يبق منهم إلا أنا وسَرْق[1]، وهذا سرق قد مات.

وقد قَتَلَتْ عائشةُ رضي الله عنها حيةً رأتها في حُجرتها تستمعُ وعائشة تقرأ فأُتِيَتْ في المنام فقيل لها: إنكِ قد قتلْتِ رجُلاً مؤمناً من الجنِّ الذين قَدِموا على رسول الله ﷺ فقالت: لو كان مؤمناً ما دخلَ على حريمِ رسول الله ﷺ، فقيل لها: ما دخلَ عليكِ إلاّ وأنتِ متقنِّعة، وما جاء إلاّ ليستمعَ الذِّكرَ، فأصبحت عائشةُ فزعةً واشترت رقاباً فأعتقَتهم[2].

ويقالُ: الذين جاءُوا ليستَمِعوا القرآنَ كانوا يـهُوداً فأسلَمُوا، ولذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ ؛ يعني مُحَمَّداً ﷺ، ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ فاستجابَ لهم من قومِهم نحو من سبعينَ رجُلاً من الجنِّ، فرجَعُوا إلى رسولِ الله ﷺ فوافَقُوهُ بالبطحاءِ، فقرأ عليهم القرآنَ، فقال بعضُهم: أمَرَهم ونَهاهم.

واختلفَ العلماءُ في مؤمني الجنِّ، فقال بعضُهم: ليس لِمُؤمِني الجنِّ إلاَّ نجا منهم من النار، وتأوَّلوا فيه، قوله: (يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ ألِيمٍ)، وعن الليث أنه (الجنُّ ثوابُهم أن يُجَارُوا من النار، ثم يقالُ لَهم: كونوا تُراباً مثلَ البهائمِ)[3]. وقال آخرون: إذا كان عليهم العقابُ في الإساءة، وجبَ أن يكون لهم

---

(١) نقله القرطبي عن السهيلي كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢١٤.
(٢) نقله القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢١٥.
(٣) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٩٢. ونقله القرطبي عن أبي حنيفة كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢١٧.

الثوابُ في الإحسانِ مثل الإنسِ، وعن الضحَّاك قال: (الْجِنُّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَيَـأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ)[1].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لا يعجِـزُ اللهَ ولا يفوتـهُ، ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ ؛ الذيـن لا يُجيبُـونَ الرسُلَ، ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَـــالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ ؛ أي لم يُضعِـفْ عـن إبداعِـهنَّ، ﴿ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ والمعنى: أليسَ اللهُ بقادر على إحياءِ الموتَى فيما ترَون يا أهلَ مكَّة، فإنَّ خلقَ السموات والأرضِ بما فيهنَّ من العجائب والبدائعِ أعظمُ مـن إعادةِ الحياة في الميِّت بعدَ ما كانت فيه.

قَوْلُـهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ الآيةُ ظاهرة المعنى.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ؛ وهـم خمسـةٌ أُولُوا الكتب والشرائع: مُحَمَّدٌ ﷺ ونــوح وإبراهيـم وموسَـى وعيسـى صَلَـواتُ اللهِ عليهم[2]، وَقِيْلَ: إنَّهم رسلٌ سُلِخُوا من جلودِهم فلم يجزَعُوا.

وَقِيْلَ: أرادَ بأُولِي العزمِ الأنبياءَ كلَّهم، وحرف (مِنْ) علـى هـذا القـول لِتَبيـين الجنسِ كما في قوله ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الأَوْثَانِ﴾[3]، قال ابنُ يزيـد: (كُـلُّ الرُّسُـلِ كَانُوا أُوْلِي عَزْمٍ)[4].

(١) نقله أيضاً البغوي في معالم التـنزيل: ص١١٩٢. والقرطبي في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٦ ص٢١٨.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٥٤؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبـي حـاتم وابـن مردويـه عـن ابـن عباس).

(٣) الحج / ٣٠ .

(٤) ذكره بهذا المعنى أيضاً: البغوي في معالم التنزيل: ص١١٩٣. وأخرجه الطبري في جـامع البيـان: الأثر (٢٤٢٤٢).

وقال بعضُهم:كلُّ الأنبياءِ أولُوا عزمٍ إلاَّ يونسَ عليه السلام، ألاَ ترَى أنَّ نبيَّنا ﷺ نُهي عن أنْ يكون مثلَهُ لِخفَّة وعجلةٍ ظهرت منـهُ حـين ولَّـى مُغَاضِبـاً لقومـهِ، فـابتلاهُ الله بالحوتِ فابتلعَهُ، وَقِيْلَ: أولُوا العزم نُجبَاءُ الرُّسلِ المذكـورون في سُـورةِ الأنعـامِ وهـم ثمانيةُ عشر، قَالَ اللهُ تَعَالَى فيهم ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ﴾(١).

وقال مقاتلُ: (أوْلُوا الْعَزْمِ سِتَّةٌ: نُوحٌ صَبَرَ عَلَى أذى قَوْمِهِ وَكَانُوا يَضْرِبُونَهُ حَتَّى يُغْشَى عَلَيْهِ، وَإبْرَاهِيمُ صَبَرَ عَلَى النَّار، وَإسْحَاقُ صَبَرَ عَلَى الذبْحِ، وَيَعْقُوبُ صَبَرَ عَلَى فَقْدِ وَلَدِهِ وَذهَاب بَصَرِهِ، وَيُوسُفُ صَـبَرَ عَلَـى الْبـئْرِ وَالسِّجْنِ، وأيُّـوبَ صَـبَرَ عَلَـى الضُّرِّ)(٢). قال ابنُ عبَّاس: (الْعَزْمُ: الصَّبْرُ)، وقال القَرَظِيُّ: (الرَّأيُ وَالصَّوَابُ).

وقال الحسنُ: (أوْلُوا الْعَـزْمِ أرْبَعَـةٌ: إبْرَاهِيـمُ وَمُوسَـى وَدَاوُدَ وَعِيسَـى عَلَيْـهِمُ السَّلاَمُ، أمَّا إبْرَاهِيمُ فَعَزْمُهُ أنَّهُ قِيلَ لَهُ: أسْلِمْ، فَقَالَ أسْلَمْتُ لِرَب الْعَالَمِينَ، وَابْتُلِيَ فِي وَلَدِهِ وَمَالِهِ وَنَفْسِهِ، فَوُجِدَ صَادِقاً وَافِياً فِي جَمِيعِ مَا ابْتُلِيَ بـهِ، قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿وَإذْ ابْتَلَى إبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بكَلِمَاتٍ فَأتَمَّهُنَّ﴾(٣)، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّـى﴾(٤)، وَأمَّا مُوسَى فَعَزْمُهُ أنَّ قَوْمَهُ كُلَّمَا قَالُوا لَـهُ: إنَّـا لَمُدْرَكُـونَ، قَـالَ: كَـلاَّ إنَّ مَعِـيَ رَبـي سَيَهْدِينِ. وَأمَّا دَاوُد عليه السلام فَعَزْمُهُ أنَّهُ أخْطَأَ خَطِيئَةً فَبَكَى عَلَيْهَا أرْبَعِينَ سَنَةً. وَأمَّا عِيسَى فَعَزْمُهُ أنْ لَمْ يَضَعْ لَبنَةً عَلَى لَبنَةٍ زُهْداً فِي الدُّنْيَا)(٥).

فكأنَّ اللهَ تعالى قال لنَبيِّه ﷺ: فاصبرْ كما صبرَ أولُوا العزمِ من الرُّسل؛ أي كـن صَادقاً فيما ابتُلِيت به مثلَ صدقِ إبراهيمَ عليه السلام، وكُن واثقـاً بنصـرِ مَـولاَكَ مثـلَ ثقـةِ مُوسَى عليه السلام مُهتَمّاً بما سلفَ من هفوَاتِكَ مثل اهتمامِ داودَ عليه السلام، زاهداً في الدُّنيا مثلَ زُهدِ عيسى عليه السلام، فقالَ الشاعرُ:

---

(١) الآية ٩٠.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٣١. ونقل عنـه القرطـبي في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٦ ص٢٢٠.

(٣) البقرة / ١٢٤ .

(٤) النجم / ٣٧ .

(٥) ذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٢١.

أُوْلُـواْ الْعَـــزْمِ نُــوحٌ وَالْخَلِيــلُ كِلاَهُمَــا مُوسَـــى وَعِيسَـــى وَالنَّـــبيُّ مُحَمَّـــدُ

فلمَّا نزلت هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: [واللهِ لأَصْبِرَنَّ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِـنَ الرُّسُلِ، وَأَجْهَدُ كَمَا جَهدُوا، ولاَ قُوَّةِ إلاَّ بالله][1].

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ ؛ وذلـك أنَّ النـبيَّ ﷺ ضَجِـرَ بعـــضَ الضَّجرِ من كُفرهم، وأحبَّ أن ينْزلَ العذابُ بمَن أبَـى منـهم الإسـلامَ، فـأُمِرَ بالصَّـبرِ وتركِ الاستعجال، ثم أخـبرَ أنَّ العـذابَ منـهم قريـبٌ، فقولـه: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ ؛ من العـذاب في الآخـرة؛ ﴿ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ ؛ أي إذا عايَنُوا العذابَ صارَ طولُ لُبثِهم في الدُّنيا والقبور كأنَّهُ سـاعةٌ، لأنَّ مـا مضَـى كأنَّـه لم يكن وإنْ كان طَويلاً.

وتَمَّ الكلامُ، ثم قال تعالى: ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ ؛ أي هذا القـرآنُ ومـا فيـه مـن البيـان بلاغٌ عن الله إليك، والبلاغُ بمعنى التبليغ بلَّغكم مُحَمَّدٌ ﷺ عن اللهِ عَزَّ وَجَــلَّ. قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يقــعُ العـــذاب إلاَّ بالعاصِين الخارجين عن أمرِ الله تعالى، وَقِيْلَ: معناهُ: ما يهلكُ إلاَّ مشركٌ أو منافقٌ.

آخر تفسير سورة (**الأحقاف**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٥٤؛ قال السيوطي: (أخرجه ابـن أبـي حـاتم والديلمـي عـن عائشـة رضي الله عنها). وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث(١٨٥٨٣).

سُورَةُ مُحَمَّـدٍ ﷺ

سُورَةُ مُحَمَّدٍ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفَان وَثلاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَأرْبَعُونَ حَرْفاً، وَخَمْسُمِائَةٍ وَتِسْعٌ وَثلاثُونَ كَلِمَةً، وَثمَان وَثلاثُونَ آيَةً.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ مُحَمَّدٍ كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ تَعَالَى أنْ يَسْقِيَهُ مِنْ أنْهَار الْجَنَّةِ][(١)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ ﴾ ؛ معناهُ: الذين كفَرُوا بتوحيدِ الله وصَدُّوا الناسَ عن الإسلامِ، يعني كفارَ مكَّة أضلَّ أعمالَهم؛ أي أبطَلَها وأذهبَها فلا أجْرَ لهم فيها وكأنَّها لم تكن، وأرادَ بأعمالِهم إطعامَهم الطعامَ وصِلَتهم الأرحامَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ ؛ أي صدَّقُوا بالقرآن الذي نزلَ على مُحَمَّدٍ، ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي الصدقُ، ﴿ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ ؛ أي غفرَها لهم فلا يُحاسَبون عليها، ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ﴾ ؛ أي حالَهم، قال المبرِّدُ: (الْبَالُ: الْحَالُ). وقال ابنُ عبَّاس: (عَصَمَهُمْ أيَّامَ حَيَاتِهِمْ حَتَّى لَمْ يُمْنَعُوا)[(٢)].

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف:ج ٤ ص٣٢٢. وأخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٩٤ بلفظ: (حتَّى لاَ يَعْصُوا).

وَقِيْلَ: معناهُ: وأظهرَهم على أعدائِهم وقوَّاهم من ضَعفِهم، قال ابنُ عبَّاس ﵁: (الَّذِينَ كَفَرُوا صَدُّوا عَنْ سَبيلِ اللهِ أهْلُ مَكَّةَ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِلأنصَار)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ ؛ أي ذلك الإضلالُ والإصلاحُ باتِّباعِ الذين كفرُوا الشِّركَ، ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ ، واتِّباعُ المؤمنين التوحيدَ والقرآن، فالشِّركُ هو الباطلُ، والتوحيدُ هو الحقُّ والقرآن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ معنى أنَّ مَن كان كَافراً أضلَّ اللهُ عملَهُ، ومَن كان مُؤمناً كفَّرَ اللهُ سيِّئاته وأصلحَ بالَهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ ؛ أي إذا لَقِيتمُوهم في القتال فاضْرِبُوا رقابَهم؛ أي اقتلُوهم، والمعنى: فاضربُوا الرقابَ ضَرباً، وهذا مصدرٌ أُقِيمَ مقامَ الأمرِ، كما في قولهِ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[2]، وَقِيْلَ: انتصبَ قولهُ (فَضَرْبَ) على الإغراءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾ ؛ أي حتى إذا أكثرتُم القتلَ فيهم وغلَبتُموهم وبالَغْتُم في قتلِهم فاستوثقُوهم بالأسرِ، ولا يكون الأسرُ إلاَّ بعد المبالَغةِ في القتلِ، كما قال اللهُ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَكُونَ لَهُ أسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾[3]، والمعنَى حتى إذا قَهرتُموهم وغَلبتُموهم وصَاروا أسَارَى في أيدِيكم فشُدُّوا وثاقَهم كَيلاَ يَهربُوا، يقال: أوْثَقَهُ أيْ إيْثاقاً وَوثاقاً إذا شدَّ أسْرَهُ لِئَلاَّ يُفْلِتَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ ؛ معناهُ: فإما أن تَمنُّوا عليهم بعد أن تأسِرُوهم وتطلقوهم بغيرِ فداءٍ، وإما تُطلِقُوهم يُفْدَوْنَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢٤٥). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٤٥٧؛ قال السيوطي: (أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، وابن مردويه). وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٧٥٥)، قال: (وهذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه).

(٢) البقرة / ٩٢. (٣) الأنفال / ٦٧.

(٤) التوبة / ٥ .

بأسرَاكُم عندَهــم أو بمــالٍ، والمعنـى: فإمَّـا بعـدَ أن تأسِرُوهم إمـا مَنَنْتُـمْ عليـهم مَنّـاً فأطلقتُموهم بغيرِ عِوَضٍ، وإما أنْ تُفْدُوا فِدَاءً.

وعن ابن عبَّاس قال: (هَذِهِ الآيَةُ مَنْسُـوخَةٌ بقَوْلِـهِ ﴿فَـاقْتُلُوا الْمُشْـرِكِينَ حَيْـثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[١]). وَإلَيْهِ ذهَبَ أبو حَنِيفَـةَ وقـالَ: (لاَ يَجُـوزُ الْمَـنُّ عَلَـى الأَسِـيرِ وَلاَ الْفِدَاءُ بالْمَالِ وَلاَ بغَيْرِ الْمَالِ مِنَ الأَسَارَى، وَلاَ يُبَاعُ السَّبْيُ مِنْ أهْلِ الْحَرْب)[٢].

ولم يختلف أهلُ التفسيرِ في أنَّ التوبةَ نزلت بعدَ سُورَةِ مُحَمَّـدٍ ﷺ، ولا خـلافَ بين العلماءِ في جوازِ قتل الأسيرِ وجـواز قِسـمَةِ الأسَـارَى بـين المسـلمِين إذا لم يكـن الأسارَى من العرب، وإنما اختَلَفُوا في جوازِ الْمَنِّ عليهم في مَفَادَاتِهم بالمالِ أو النفس.

قال الشافعيُّ: (يَجُوزُ الْمَنُّ عَلَيْهِمْ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَنَّ عَلَى أبي عَزَّةَ الشَّاعِرِ يَـوْمَ بَدْرٍ عَلَى أنْ لاَ يُقَاتِلَ، فَرَجَعَ إلَى مَكَّةَ ثُمَّ عادَ بَعْدَ ذلِكَ لِلْقِتَال فَأُسِرَ، فَـأَمَرَ النَّـبِيُّ ﷺ بقَتْلِهِ)[٣]. فأجابَ أصحابُنا عن هذا إنَّما مَنَّ عليـه كمـا مَـنَّ العـربُ، وكـان لا يجـوزُ استرقاقهُ، وقال أبو يوسف ومحمَّد: (تَجُوزُ مُفَادَاةُ الأَسِيرِ)[٤].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: (حَتَّـى تَضَـعَ الْحَـرْبُ أوْزَارَهَـا) أي حتـى يضـعَ أهـلُ الحـرب أسلِحتَهم، والأَوْزَارُ في اللغة: الأَثْقَالُ، وَقِيْلَ: المرادُ بـالأوزار هنـا الآثـامُ، وقـال ابـنُ عبَّاس: (مَعْنَـى قَوْلِـهِ (حَتَّـى تَضَـعَ الْحَـرْبُ أوْزَارَهَـا) أيْ حَتَّـى لاَ يَبْقَـى أحَـدٌ مِـنَ

---

(١) ليس هذا الرأيُ على إعمامه، فهو خاصٌ بالعرب، قال التهنوي: (فإنا لا نجيز استرقاق مشـركي العرب، وهم المـرادون بقولـه تعـالى: ﴿فَـإِذَا انسَـلَخَ الأَشْـهُرُ الْحُـرُمُ فَـاقْتُلُوا الْمُشْـرِكِينَ حَيْـثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَـإِنْ تَـابُوا وَأَقَـامُوا الصَّـلاَةَ وَآتَـوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهم الذين ضربَ اللهُ لهم الأجل، أجلهم أربعة أشهر بقوله: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ ثم أمرَ بقتلِهم بعد انسلاخ أربعة أشهر، ولم يرخِّص في المـنِّ عليـهم ولا المفـاداة بهم، ولا في استرقاقهم). ينظر: إعلاء السنن: مج ٧ ج ١٢ ص١١٠-١١١.

(٢) ينظر: كتاب الأم للشافعي: كتاب اختلاف الحديث: ج ٨ ص٤٩٤: باب قتل الأسرى والمفـاداة بهم والمن عليهم.

(٣) في إعلاء السـنن: مـج ٧ ج ١٢ ص١١٤؛ قـال التـهانوي: (وقـال أبـو يوسـف: تجـوز المفـاداة بالأسرى قبل القسمة لا بعدها. وعند محمد تجوز بكل حال).

الْمُشْرِكِينَ). وقال مجاهدُ: (حَتَّى لاَ يَكُونَ دِينٌ إلاَّ الإسْلاَمُ)[١].

وَقِيْلَ: حتى تضعَ حربُكم وقتالُكم أوزارَ المشركين وقبائحَ أعمالِهم بأنْ يُسلِمُوا فلا يبقَى دينٌ غيرُ الإسلام، ولا يُعبَدُ وثنٌ. وقال الفرَّاءُ: (مَعْنَاهُ: حَتَّى لاَ يَبْقَى إلاَّ مُسْلِمٌ أوْ مُسَالِمٌ)[٢].

وَقِيْلَ: معناهُ: حتى تضعَ أهلُ الحرب آلَتَها وعُدَّتَها، وآلَتُهم أسلِحَتُهم فيُمسِكُوا عن الحرب، وحربُ القومِ الْمُحاربُونَ كالرَّكْب والشُّرب، ويقال أيضاً للكِرَاعِ: أوْزَارٌ، قال الشاعرُ وهو الأعشَى:

وَأعْـــدَدْتَ لِلْحَـــرْبِ أوْزَارَهَـــا   رِمَاحـــاً طِـــوَالاً وَخَيْـــلاً ذُكُـــورَا

ومعنى الآية: أثْخِنُوا المشركين بالقتلِ والأسر حتى يظهرَ الإسلامُ على الأديان كلِّها، ويدخلُ فيه أهلُ مكَّة طَوْعاً وكَرْهاً، ويكون الدِّينُ كلُّه للهِ، فلا يحتاجُ إلى قتال ولا إلى جهادٍ، وذلك عند نُزولِ عيسَى عليه السلام من السَّماء فيكسِرُ الصليبَ ويقتلُ الخنْزيرَ، يَلقَى الذئبُ الشاةَ فلا يتعرَّضُ، ولا تكون عداوةٌ بين اثنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي ذلك الذي أمِرْتُم به من الجهاد[٣]، ولو يشاءُ الله لانتقمَ منهم؛ أي من الكفَّار من غيرِ أن يأمُرَكم بقتالِهم، المعنى: ولو يشاءُ اللهُ لانتصرَ من الكفَّار بإهلاكِهم، ويعذِّبُهم بما شاءَ، ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ ؛ ولكن يأمُركم بالحرب ليَبلُوَ بعضَكم بعضاً، قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ صَارَ إلَى الثَّوَاب، وَمَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ صَارَ إلَى الْعَذَاب)، يعني: ولكن ليتعَبَّدَكم بالقتال تَعويضاً للثواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ قرأ العامَّةُ (وَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ) وقرأ أبو عمرو (قُتِلُوا) بضمِّ القاف وكسر التاء مخفَّفاً، وقرأ الحسنُ بضمِّ القاف وكسرِ التاء مشدَّداً، وقرأ عاصم والجَحْدَرِيُّ: (قَتَلُوا)

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢٦٢).

(٢) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٥٧.

(٣) في المخطوط: (الجهات) والصحيح: (الجهاد)؛ لأن سياق النص يقتضيه.

بفتحِ القاف والتاء، والوجهُ قراءة العامَّة لأنَّها تشملُ مَن قاتلَ قُتِلَ أو لَمْ يُقْتَلْ، وقراءة أبي عمرو تخصُّ المقتُولِين، ولأنَّه تعالى قال (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ) قال ابنُ عباس: (سَيَهْدِيهِمْ إلَى أرْشَدِ الأمُور، وَيَعْصِمُهُمْ أيَّامَ حَيَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا)، وهـذا لا يُحسَـنُ في وصفِ المقتُولِين.

ومعنـى الآيـةِ: والذيـن قُتِلُـوا في سـبيلِ الله يـومَ بـدرٍ فلَـنْ يُبطِـلَ اللهُ ثـوابَ أعمالِـهم كمـا أبطَـلَ ثـوابَ أعمـال الكفَّـار؛ و﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ ؛ إلى ثوابـهِ وجنَّتـهِ، ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ ﴾ ؛ في النَّعيم.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ ﴾ ؛ أي بَيَّنـها لهـم حتـى عرَفُوها من غيرِ استدلال، وذلك أنَّهم إذا دخَلُوا الجنـةَ تعرَّفُـوا إلى منازلِـهم. وَقِيْـلَ: معناهُ: طيَّبَها لَهم من العُرْفِ وهي الرائحةُ الطيِّبة، وطعامٌ مُعَرَّفٌ؛ أي مطيَّبٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ ؛ أي إن تَنصرُوا دينَ اللهِ ونبيَّهُ ﷺ ينصرْكُـم بـالتوفيق والكفايـة والإظـهار علـى الأعـداءِ، ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾ ؛ عندَ القتـال بتقويَـةِ قُلوبكـم، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ ؛ أي فمكَرُوهاً لهم وسوءاً، والتَّعْسُ في اللغة: الانحطاطُ والعثُورُ، يقال: تَعَسَ يَتْعَسُ إذا انْكَبَّ وعثَرَ، قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُ: فِي الدُّنْيَا الْعَثْرَةُ، وَفِي الآخِرَةِ التَّرَدِّي فِي النَّار).

وانتصبَ قولهُ (فَتَعْساً لَهُمْ) على الدُّعاء؛ أي أتْعَسَهُمُ اللهُ تَعْسـاً، قـال الفـرَّاءُ: (هُوَ نَصْبٌ عَلَى الْمَصْدَر)، وأصلُ التَّعْسِ في الدوَاب والناسِ، وهو أن يُقـالَ للعـاثرِ: تَعْساً؛ إذا لَمْ يُريدُوا قِيَامَهُ، وضِدُّهُ لَعًّا إذا أرَادُوا قِيامَهُ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ﴾ ؛ أي أبْطَلَها وأحبَطَها لأنَّها كـانت في طاعـةِ الشـيطان. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ ؛ أي ذلـك التَّعْسُ والإضلالُ بأنَّهم كَرِهُوا ما أنزلَ اللهُ علـى نبيِّـه ﷺ وبيَّـن مـن الفرائـضِ مـن الصَّلاة والزكاةِ، ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩ ﴾ ؛ لأنَّها لم تكن في إيمانٍ.

---

(١) ل ع ا: يقال للعاثر: (لَعًّا) لكَ، وهو دعاء له بأن ينتعش. ونقله أيضاً البغوي في معـالم التـنزيل: ص١١٦٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة، ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ من الأُمم المكذِّبة، ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ منازلَهم وأهلكَهم بالعذاب، والتدميرُ: الهلاكُ، ثم يوعِدُ مشركِي مكَّة فقال: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ إنْ لم يُؤمِنُوا؛ أي أمثالُ عقوبَتِهم وأشباهُ عقوباتِ مَن كان قبلَهم.

وقولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ؛ أي ذلك النَّصرُ للمؤمنين والهلاكُ للكافرين بأنَّ الله وليُّ الذين آمَنُوا يلِي أمرَهم ويتولَّى نصرَهم، ﴿ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي ليس لَهم وليٌّ يُعِينُهم ولا ناصرَ يُنْجِيهم من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ ؛ في الدُّنيا، ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ ؛ تأكلُ وتشرَبُ ولا تدري ما في غدٍ، كذلك الكفارُ لا يلتفِتُونَ إلى الآخرة، ﴿ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي منْزِلُهم ومُقامُهم ومصيرُهم.

وأرادَ بالتمتُّعِ التعيُّشَ في الدنيا في الجهلِ، وشبَّهَ أكلَ الكافرِ بأكلِ الأنعام لأنَّهم يأكلُون للشِّبَعِ لا يَهمُّهم ما في غدٍ، والمؤمنُ هِمَّتُهُ مصروفةٌ إلى أمرِ دينه يأكلُ للقيامِ بعبادة اللهِ لا للشِّبع، ويكون قصدهُ من التَّمتُّع إعفافَ نفسه وزوجتِهِ، وابتغاءَ ما كُتِبَ من الولدِ.

وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [مَا مَلأَ ابْنُ آدَمَ وعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ، فَإنْ كَانَ لاَ بُدَّ: فَثُلُثاً لِلطَّعَامِ وَثُلُثاً لِلشَّرَاب وَثُلُثاً لِلنَّفَسِ][(1)]. وقال الحسنُ: (وَهُوَ أنَّكُمْ إذا أشْبَعْتُمْ عَصَيْتُمْ شِئْتُمْ أوْ أبَيْتُمْ).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٠ ص٢٢٤: الحديث (٦٤٤ و٦٤٥) وإسناده صحيح. وأخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب الرقائق: الحديث (٦٧٤)، وكتاب الأطعمة: الحديث (٥٢٣٦) وإسناده صحيح.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ ؛ هذا تحذيرٌ لأهلِ مكَّة بقولِهِ: كم أهلكنا من أهلِ قريةٍ مَن كان أكثرَ عدَداً وأبسطَ مُلكاً ويَداً من أهلِ قريتِكَ؛ يعني مكَّة التي أخرجَتْكَ أهلُها، ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ فلم يكن لَهم ناصرٌ يُنجيهم من عذاب الله، فحَذِّرْ قومَكَ يا مُحَمَّدُ مثلَ حالَتِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ ؛ معناهُ: حالُ مَن كان على نصرهِ من ربهِ ويقين كحال مَن زُيِّنَ له قُبْحُ عملهِ فيعبُدوا الأوثانَ، ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ في عبادتِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ ؛ أي صِفَةُ الجنَّة التي وُعِدَ المتَّقون الشركَ والكبائرَ، ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ ؛ أي مُتغيِّر طَعمُهُ وريحُهُ، يقالُ: آسَنَ الماءُ يَأْسَنُ أُسُوناً وَأَسناً إذا تغيَّرَ، وهو الذي لا يشتهيه مِن نَتَنِهِ فهو آسِنٌ وأسِنٌ، مثلُ حَاذِرٍ وحَذِرٍ. وَقِيلَ: إن الآسِنَ ما يعرَضُ أن يتغيَّر، والأَسِنُ بالقَصْرِ: ما تغيَّرَ في الحال، وقرأ ابنُ كثير (أسِنٍ) بالقصر[(١)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ ؛ أي لم يَحْمَضْ كما تَحْمَضُ وتتغيَّرُ ألبانُ الدُّنيا؛ لأنه لم يخرُجْ من ضُروعِ الأنعامِ، ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ ؛ بخلاف خمرِ الدُّنيا؛ فإنَّها لا تخلُو من المرارةِ، وعن ما يحدثُ فيها من أنواعِ المرضِ ومن العقوبةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ ؛ أي مُصفًّى من الأقذار، من العِكْرِ والكَدَر، بخلافِ عسلِ الدُّنيا الذي يكون من بطون النَّحلِ، فإنه لا يخلُو من الشَّعرِ وغيرِهِ. قال مقاتلُ: (أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْمَذْكُورَةُ تَتَفَجَّرُ مِنَ الْكَوْثَرِ إلَى الْجَنَّةِ)[(٢)]. ويقالُ: إنَّها تتفجرُ من تحتِ شجرة طُوبَى.

---

(١) أسِنٍ: بزنَةِ حَذِرٍ، وهو اسم فاعل من أسِنَ بالكسر يَأْسِنُ، فهو أسِنٌ، كحَذِرَ يَحْذَرُ فهو حَذِرٌ. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٣٦. واللباب في علوم الكتاب: ج ١٧ ص٤٤٢.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٣٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ؛ أي ولَـهم في الجنَّة من جميعِ أنواع الثَّمرَاتِ والفواكهِ مما عَلِموهُ وما لَمْ يعلموهُ، ومما سَمعوهُ وما لَمْ يسمعوهُ، ظاهرُها مثلُ باطنِها، لا يخالِطُها قشرٌ ولا رذالٌ[١] ولا نَوَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ ؛ أي ولَـهم مع ذلك النعيمِ المقيم مغفرةٌ مِن ربهم لذنوبهم، فلا يُذكَرُ شيءٌ من معاريضِهم في الجنَّة؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد ستَرَها عليهم فهي بمنْزلة ما لَمْ يُعمَلْ، ﴿ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي مَن كان في هذا النعيمِ كمَنْ هو خالدٌ في النار (وسُقُوا مَاءً حَميماً) شَديدَ الحرِّ تُستَعرُ عليه جهنَّم منذُ خُلِقت (فَقَطَّعَ أمْعَاءَهُمْ) في الجوفِ من شدَّة الحرِّ، والأمعاءُ: جميعُ ما في البطنِ من الحوايَا، واحدُها مِعَاءٌ، كما قالَ تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾[٢].

وعن رسول اللهِ ﷺ أنه قالَ: [إذا شَرِبَهُ صَاحِبُهُ قَطَّعَ أمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ][٣]. وعن محمَّد بن عبدِالله الكاتب قال: قَدِمْتُ مِنْ مَكَّةَ، فَلَمَّا صِرْتُ إلَى طِيزِنَابَاذ ذكَرْتُ بَيْتَ أبي نُوَّاسٍ[٤]:

بطِيزْنابَاذ كَرْمُ مَا مَرَرْتُ بِهِ ... إلاَّ تَعَجَّبْتُ مِمَّنْ شَرِبَ الْمَاءَ

فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ أسْمَعُهُ وَلاَ أرَاهُ:

فِي الْجَحِيمِ حَمِيمٌ مَا تَجَرَّعَهُ خَلْـ ... ـقٌ إلاَّ مَا بَقِيَ لَهُ بَطْنُ أمْعَاءِ

---

(١) في لسان العرب: ج ٥ ص١٩٩؛ قال ابن منظور: (ورذالَةُ كُلِّ شيء أردَؤُهُ).

(٢) الحج / ٢٠ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٦٥. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٤٢٨٣). والطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٧٤٦٠). والترمذي في الجامع: أبواب صفة جهنم: الحديث (٢٥٨٣)، وقال: (هذا حديث غريب).

(٤) قال أبو نؤاس:

فَتَكَتْنِي طِيزنَابَـ ... ـذُ وَقَدْ كُنْتُ تَقِيَّا

إذْ تَرَكْتُ الْمَاءَ فِيهَا ... وَشَرِبْتُ الْخُسْرُويَّا

أرْضُ كَرْمٍ تَجْلِبُ الدَّ ... هْرَ شَرَاباً سَابرِيَّا

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ ؛ وذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَعَـابَ الْمُنَافِقِينَ فِي خُطْبَتِهِ، فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ قَالُوا لِعَبْدِاللهِ بْنِ مَسْـعُودٍ: مَـاذا قَـالَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْمِنْبَرِ السَّاعَةَ ؟ فَقَدْ سَمِعْنَا قَوْلَهُ وَلَمْ نَفْهَمْهُ، كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ سَمَاعَ تَهَاوُنٍ وَاسْتِخْفَافٍ(١).

والآنِفُ: السَّاعَةُ؛ مِن قولِكَ: استَأْنَفْتُ الشَّيءَ إذا ابتدأتَهُ، والمعنى: ومِن هؤلاءِ الكفَّار مَن يستمعُ إليك: المنافِقُون يستمِعون قولَكَ فلا يَعُونَهُ ولا يفهمونَهُ تَهَاوُناً منهم بذلكَ وتثاقُلاً، فإذا خرَجُوا قالوا للَّذين أوُتُوا العلمَ من الصحابـةِ: مـاذا قـالَ مُحَمَّدٌ الآنَ، وذلك أنَّهم سألُوا ابنَ مسعودٍ وابنَ عبَّاس عمَّا قالَ النبيُّ ﷺ استهزاءً وتَـهاوُناً، وهذا كالرجُلِ يستمعُ إلى غيرِ سماعٍ استخفافاً، ثم يقولُ بعدَ ذلـك لأصحابـهِ: أليـس الذي كانَ يقولُ فلانٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ أي ختَمَ عليها بالكُفرِ فلا يعقِلُون الإيمانَ، والطبعُ هو الْخَتْمُ على القلب بسِمَةٍ تعلَمُها الملائكةُ بأنَّه جاحدٌ لا يفلحُ أبداً، ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ في الكفرِ والنِّفاق.

وقولـهُ تعـــالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي والذين اهتدَوا بالإيمانِ بكَ والاستماعِ الى خُطبَتِكَ زادَهـم اللهُ بصـيرةً في دِينـهم، وألْهَمَهُم تركَ المعاصِي واجتنابَ المحارمِ. ويجـوزُ أن يكـون زادَهـم إعـراضُ المنـافقين هدًى، وأعطَاهم اللهُ ثوابَ تَقوَاهُم في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ ؛ أي مـا ينتظـرُ هؤلاءِ الكفارُ والمنافقون إلاَّ أنْ تأتِيَهم السـاعةُ فجـأةً علـى غِـرَّةٍ منـهم، ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ ؛ أي علاَماتُها، ومِن أشراطِها خروجُ نبيِّنا ﷺ، فإنَّها تأتِيهِمْ بَغْتَةً في آخـرِ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٣٧. ونقل القرطبي أيضاً عن مقـاتل والكلبي كمـا في الجـامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٣٨.

الزمان[١]، قالَ ﷺ: [بُعِثْتُ أنَا وَالسَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ][٢]، ومِن أشراطِها أيضاً بيعُ الْحُكْمِ وقطيعةُ الرَّحم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي مِن أين لَهم التوبةُ ؟ ومِن أين لَهم أن يتذكَّروا أو يتوبُوا إذا جاءَتْهم الساعةُ حين لا ينفعُهم ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ بهِ غيرهُ. والمعنى: إذا جاءَتْهم الساعةُ فاعلم أنَّه لا قاضيَ حينئذٍ إلاَّ اللهُ، ولا مَخرجَ يومئذٍ إلاَّ إليهِ، والنبيُّ ﷺ قد كان عَلِمَ ذلك، ولكن هذا خطابٌ يدخلُ فيه الناسُ.

والمعنى: مَن عَلِمَ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ فليَقُمْ على العلمِ ويَثْبُتْ عليهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ ؛ أي استَعصِمْ مِن مُواقعَةِ ذنبٍ يُوجِبُ الاستغفارَ. ويقالُ: معناهُ: استَغفِرْ لصَغَائرِكَ؛ فإنه لا صغيرةَ مع الإصرار، ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ، واستغفِرْ لذُنوب المؤمنين والمؤمناتِ، وهذا إكرامٌ من اللهِ لهذه الأمة حين أمرَ نبيَّهم أنْ يستغفرَ لهم وهو الشفيعُ الْمُجَابُ فيهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي مُتصرَّفَاتِكم في الدُّنيا من أوَّل ما ينقلِبُون من ظهرٍ إلى بطنٍ إلى أن تَخرُجوا من دُنياكم إلى قُبوركم، ويعلمُ أين مَثْوَاكُمْ في الآخرةِ، قال عكرمةُ: (مَعْنَاهُ: واللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ مِنَ أصْلاَب الآبَاءِ إلَى أرْحَامِ الأُمَّهَاتِ، وَمَثْوَاكُمْ مَقَامَكُمْ فِي الأَرْضِ)[٣]. وقال مقاتلُ: (وَاللهُ يَعْلَمُ مُنْتَشَرَكُمْ بالنَّهَار وَمَأْوَاكُم باللَّيْلِ)[٤]. والمعنى: إنَّهُ عالِمٌ بجميعِ أحوالِكم، لا يخفى عليه شيءٌ منها.

(١) في المخطوط: (فإن بغتة آخر الزمان).

(٢) أخرجه الإمام احمد في المسند: ج ٣ ص٢٢٢ و٢٧٨. والبخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: الحديث (٦٥٠٤). ومسلم في الصحيح: كتاب الفتن: باب قرب الساعة: الحديث (١٣٤/ ٢٩٥١).

(٣) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٩٨.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٣٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ الْمُؤْمِنِينَ سَأَلُوا رَبَّهُمْ أنْ يُنْزِلَ سُورَةً فِيهَا ثَوَابُ الْقِتَالِ فِي سَبيلِ اللهِ). وَقِيْلَ: إنَّ المؤمنين كانُوا يَشتَاقُون إلى تَواتُرِ نزولِ القرآن، وكانوا يَستَوحِشُونَ إذا أبطأَ الوحيُ، وهو قولُهم (لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ) أي هَلاَّ نُزِّلَتْ سورةٌ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ ؛ أي بالأحكامِ التي لا يجري عليها النسخُ، يعني لا يُنسَخُ منها شيءٌ، قال قتادةُ: (كُلُّ سُورَةٍ يُذْكَرُ فِيْهَا الْجِهَادُ فَهِيَ مُحْكَمَةٌ وَهِيَ أشَدُّ السُّوَر عَلَى الْمُنَافِقِينَ)[(١)].

والمعنى: أنَّ المؤمنِين قالُوا: هلاَّ أُنزلَتْ سورةٌ تأمُرنا بالجهادِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (فَإذا أُنزلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ) ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ﴾ ؛ أي إيجابُ القتال، ﴿ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ؛ وهم المنافِقُون، ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ ؛ عندَ ذكرِ القتال كنظَرِ الذي هو في غَشَيَانِ من الموتِ، كراهةً منهم للقتال مخافةَ أن يُقتَلوا في الحرب. قال الزجَّاجُ: مَعْنَاهُ: رَأيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَشْخَصُونَ نَحْوَكَ بأبْصَارِهِمْ، وَيَنْظُرُونَ إلَيْكَ نَظَراً شَدِيداً، شَزراً بتَحْدِيقٍ شَدِيدٍ كَرَاهَةً مِنْهُمْ لِلْجِهَادِ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ كلمةُ وعيدٍ لهم، ومعناهُ: وَلِيَهُم المكروهُ والعقابُ أولَى لهم، وهذا كما قالَ تعالى ﴿أوْلَى لَكَ فَأوْلَى﴾[(٢)]، قال الأصمعيُّ: (مَعْنَى قَوْلِهِ: أوْلَى لَكَ فَأوْلَى؛ أيْ وَلِيَكَ وَقَارَبَكَ مَا تَكْرَهُ)[(٣)].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ ؛ ابتداءٌ وخبرهُ محذوف، تقديرهُ: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمثلُ وأحسنُ، والمعنى على هذا: أنَّ اللهَ تعالى قالَ: لو أطَاعُوا وقالوا قَوْلاً مَعْرُوفاً كان أمثلَ وأحسنَ. ويجوز أنْ يكون هذا متَّصلاً بما قبلَهُ على معنى: فأوْلَى لَهم طاعةٌ لله ولرسولِهِ وقولٌ معروف بالإجابةِ والطاعة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢٩٥).

(٢) القيامة / ٣٤ .

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٤٤؛ قال القرطبي: قال الأصمعي: (معناه قاربَهُ ما يهلكه، أي نزلَ به...).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ ؛ فإذا وُجِدَ الأمرُ ولَزِمَ فرضُ القتال، نَكَلُوا وكذبوا فيما وعَدُوكَ من أنفسهم، ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي لو صدَّقوا اللهَ في إيمانِهم وجِهَادِهم لكان خيراً لَهم من المعصيةِ والكراهة والمخالفةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي فلعَلَّكم إنِ انصَرفتُم من مُحَمَّدٍ ﷺ وعن ما يأمُركم به أنْ تعودُوا إلى مثلِ ما كُنتم عليه من الكفرِ والفسادِ في الأرضِ من وَأدِ البناتِ، ومن قَتْلِ بعضِكم بعضاً كفعلِ الجاهليَّة، وَقِيْلَ: معناهُ: لعلَّكم إنْ تولَّيتم أمرَ هذه الأمة بعدَ النبيِّ ﷺ أنْ تُفسِدُوا في الأرضِ بالقتال، ﴿ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ بالبغْيِ، فيقتلُ قريشٌ بني هاشِمَ، وبنو هاشمٍ قُريشاً.

وذهبَ كثيرٌ من الناسِ إلى أنَّ هؤلاءِ بنُو أميَّة، والمعنى: فلعلَّكم إنْ أعرَضتُم عن الإيمانِ والقرآن، وفارَقتم أحكامَهُ أن تُفسِدُوا في الأرضِ فتَعُودُوا إلى ما كُنتم عليه في الجاهليَّة من الفسادِ وقتلِ بعضكم بعضاً، وتُقطِّعُوا أرْحَامَكُمْ بسَفكِ الدماءِ بعد ما جَمَعكم اللهُ بالاسلامِ والألفة، فتَعُودوا إلى ما كُنتم عليه في جاهلِيَّتكم من القتلِ والبغيِ وقطيعة الرَّحم. وقال المسيَّب بن شُريك[(١)]: (مَعْنَاهُ: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ أمْرَ النَّاسِ أنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بالظُّلْمِ، نَزَلَتْ فِي أمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَفِي بَنِي هَاشِمٍ)[(٢)].

قرأ يعقوبُ وأبو حاتم: (وَتَقْطَعُوا) مُخففاً من القطعِ اعتباراً بقولِهِ ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ﴾[(٣)]، وقولُ الحسن (وَتَقَطَّعُوا) بفتح الحروف المشدَّدة اعتباراً بقوله ﴿فَتَقَطَّعُوا أمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾[(٤)]، وقرأ الكافَّة (وَتُقَطِّعُوا) بضمِّ التاء وتشديدِ الطاء وكسرِها من القطعِ على التكثيرِ لأجل الأرحامِ.

---

(١) المسيَّب بن شُريك، أبو سعيد التميمي الشقري، كوفي الأصل، الغالب على ترك حديثه، توفي سنة (١٨٦) من الهجرة. ترجم له الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: الرقم (٧١٢٣).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٩٨. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١٦ ص٢٤٥.

(٣) البقرة / ٢٧ .

(٤) المؤمنون / ٥٣ .

ثم ذمَّ اللهُ تعالى مَن يريدُ ذلك فقالَ تعـالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ فلاَ يَسمعون الحقَّ ولا يهتَدون للرُّشـدِ، يعـني المنـافقِين الذين يُفسِدون في الأرضِ، ويُقطِّعون أرحامَهم، ونسَبَهم اللهُ تعالى إلى الصَّمَمِ والعمَى لإعراضِهم عن أمر الله تعالى، وأمَّا في مُشاهدَتِهم فإنَّهم لا يكونون صُمّاً ولا عُميانـاً، ومثلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأبْصَاراً وَأفْئِدَةً فَمَا أغْنَى عَنْـهُمْ سَـمْعُهُمْ وَلاَ أبْصَارُهُمْ وَلاَ أفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بآيَاتِ اللهِ﴾[1].

قولـهُ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ؛ فتعرفُـوا مـا يُوعَـدون للمُتمَسِّـكِ بـالقرآن، ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ يعـني الطَّبْـعَ علـى القلـب، وهـذا استعارةٌ لإغلاقِ القلب عن معرفةِ الإسلامِ والقرآن، وكأنَّ على قُلوبـهم أقفـالاً تَمنَعُـهُمْ مِن الاستدلال.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ﴾ ؛ قال قتادةُ: (هُمْ كُفَّارُ أهْلِ الْكِتَاب،كَفَرُوا بمُحَمَّـدٍ ﷺ وَهُـمْ يَعْرِفُونَـهُ وَيَجِدُونَ صِفَتَهُ فِي كِتَابِـهِمْ، وَنَعْتَـهُ مَكْتُوبـاً عِنْدَهُـمْ)[2]. فمعنـاهُ: إنَّ الذيـن رجَعُـوا كفَّاراً من بعدِ ما ظهرَ لهم أمرُ النبيِّ ﷺ بنَعتـهِ وصفتـهِ في كتابـهم، ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي زَيَّنَ لهم القبيحَ، ﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ اللهُ تعـالى؛ أي أمْهَلَـهُم مُوَسِّعاً عليهم ليتَمَادَوا في طُغيانِهم، ولم يُعجِّلْ عليهم بالعقوبةِ.

ويُحْسَنُ الوقوفُ على قول: (سَوَّلَ لَهُمْ) لأنه فِعلُ الشيطان، والإملاءُ فعلُ اللهِ تعالى، وعلى قول الحسنِ: لاَ يُحْسَنُ الْوُقُوفُ؛ لأنَّهُ يُقَالُ فِي تَفْسِيرِهِ: (وَأمْلَى لَهُمْ): مَدَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فِي الْعَمَلِ.

وقرأ أبو عمرٍو (وَأمْلِي لَهُمْ) على ما لَمْ يُسَمَّ فاعلهُ، وهو حسـنٌ للفصـلِ بـين فعلِ الشَّيطان وفعلِ الله تعالى، ونعلمُ يقيناً أنَّهُ لا يُؤَخِّرُ أحدٌ مدَّة أحدٍ ولاَ يُوَسِّعُ فيـها إلاَّ اللهُ تعالى. وقرأ مجاهدُ (وَأمْلِي) بضمِّ الهمزةِ وإسكانِ الياء على معنـى: وأنـا أمْلِـي لَهم.

---

(١) الأحقاف / ٢٦ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٠٨ و٢٤٣٠٩).

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ ؛ معناهُ: ذلكَ الإملاءُ لليهودِ بأنَّهم قالُوا للمُشركين: سَنُطِيعُكُمْ في بعضِ الأمُور؛ أي في التَّعاوُن على عداوةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، قالُوا ذلك فيما بينَهم، فأخبرَ اللهُ تعالى عنهم وأعلمَ أنه يعلَمُ ذلك فقالَ: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ وقرأ بكسر الألفِ على المصدر؛ أي إسْرَارَهُمْ بكسر الألف، والمعنى: وَاللهُ يعلَمُ أسرارَ اليهودِ والمنافقين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ؛ أي كيف يكونُ حالُهم إذا قَبَضت أرواحَهم الملائكةُ، ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾ ، وظُهورَهم بمَقَامِعِ الحديدِ عند قبضِ الأرواح.

ثم ذكرَ سببَ ذلك الضَّرب: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ بما كتَمُوا من التوراةِ، وكفَرُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ، وكَرِهُوا ما فيهِ رضوانُ اللهِ وهو الطاعةُ والإيمانُ (فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)، معنى ما كان من برٍّ وصلةٍ وخير عَمِلوهُ في غيرِ الإيمان بكُفرهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ؛ أظَنَّ المنافقون؛ ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ يعني أنْ لَنْ يَتْلُوا شيئاً يُظْهِرُ فيه حِقدَهم للمسلمين وضَغْنَهُمْ عليهم، فأمرَ اللهُ تعالى بالقتالِ والنَّفقةِ، فبَخِلَ المنافقون بالمالِ فظهرَ نفاقُهم، والضَّغْنُ: هو الحقدُ الذي يُضمِرهُ الإنسانُ بقلبهِ ولا يُظهرهُ لغيرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ ﴾ ؛ أي لعرَّفناكَهُمْ وأعْلَمْنَاكَهُمْ، ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ ؛ أي بالعلامةِ القبيحةِ التي نظهرها عليهم، قال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ: لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا عَلَى الْمُنَافِقِينَ عَلاَمَةً؛ وَهِيَ السِّيمَاءُ؛ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِتِلْكَ الْعَلاَمَةِ)[1].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ ؛ أعلمَ اللهُ النبيَّ ﷺ أنْ يُطلِعَهُ على نفاقِهم في فَحْوَى كلامِهم، فكان لا يتكلَّمُ بعدَ نُزول الآية منافقٌ عندَ النبيِّ ﷺ إلاَّ عُرِفَ بكلامهِ وبما يعتذرون إليه به مِن المعاذيرِ الكاذبة.

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص١٣.

قال المفسِّرون معنى قولهِ (فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) أي في فَحْوَى القول، ومعناهُ: ومَقْصَدِهِ، ويقالُ: فلانٌ لَحَنَ بحُجَّتِهِ ولاَحَنَ في كلامهِ، وفي الحديث: [لَعَلَّ بَعْضَكُمْ الْحَنُ بحُجَّتِهِ](1) أي أذْهَبُ بها في الجهاتِ لقوَّتهِ على تصريفِ الكلام، وإذا قِيلَ: لَحَنَ في كلامهِ أو الْحَنَ؛ فمعناهُ: ذهبَ بالكلامِ إلى خلافِ جهةِ الصَّواب. ولَحَنَ القارئُ إذا تركَ الإعرابَ الصَّوابَ وعدلَ عنه. وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي يعلمُ ظَواهِرَها وبوَاطِنَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾؛ لنُعامِلُكم معاملةَ المختَبر فيما نأمُركم به من الجهادِ حتى نُمَيِّزَ المجاهدينَ منكم من غيرِهم، والصابرين في القتالِ من الذين لا يصبرُون.

وإنما كَنَّى بالعلمِ عن التمييز؛ لأنه يُتَوَصَّلُ بالعلمِ إلى التمييز، فكان اللهُ تعالى عالِماً بكلٍّ منهم قبلَ أنْ خَلَقَهم، ولكن أرادَ بالعلمِ في هذه الآية العلمَ الذي يجبُ به الجزاءُ، وهو علمُ الشهادةِ لا علمُ الغيب.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾؛ أي نَختَبرُ بما نأمرُكم به وننهاكم عنه أخبارَكم وأحوالكم حتى يظهرَ للناسِ، وكان الفضيلُ بن عِيَاضٍ إذا أتى على هذه الآيةِ بَكَى وقالَ: (إنَّكَ إنْ بَلَوْتَ أخْبَارَنَا وَفَضَحْتَنَا وَهَتَكْتَ أسْتَارَنَا)(2).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ يعني بني قُريظةَ والنَّضير، ﴿ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ ﴾؛ في التوراةِ، ﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾؛ بتركِهم الهدَى، إنما يضُرُّون أنفسَهم، ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ فلا يُرِيدُونَ لها في الآخرةِ ثوَاباً.

---

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٣ ص٢٨١: الحديث (٨٠٣) عن أم سلمة، والحديث (٩٠٢) بإسناد صحيح. وأخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الحيل: باب (١٠): الحديث (٦٩٦٧). وله أسانيد عند الطبراني وغيره.

(2) ذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٥٤.

(3) الزمر / ٦٥ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أي أطِيعُوا اللهَ في الفرائضِ وأطِيعُوا الرسولَ في السُّنن، (وَلاَ تُبْطِلُوا أعْمَالَكُمْ) بالشِّركِ والربا، فإن الشركَ يُبطِلُ العملَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1]، والرِّياءُ يُحبطُ العملَ بالمعصيةِ، وَقِيْلَ: بالْعُجْب. وقال عطاءُ: (بالشَّكِّ وَالنِّفَاقِ)، قال الحسنُ: (بالْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ).

ويستدلُّ بظاهرِ هذه الآيةِ: على أنَّ مَنْ شَرَعَ في قُربَةٍ نحوَ الصلاةِ والصومِ والحجِّ، لم يَجزْ له الخروجُ منها قبلَ إتْمَامِها؛ لِمَا فيه من إبطال عَمَلِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ وإنما ذُكِرَ الموتُ على الكفرِ؛ لأن الكفارَ قبلَ الموتِ يُفْرَضُ أن يُؤمِنَ فيُغفَرَ له، وإذا ماتَ على كُفرهِ حَبطَ عملهُ حُبُوطاً لا يلحقهُ التدارُكُ والتَّلافِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ ؛ أي لا تُعطِفُوا عن قتالِ الكفَّار وتدعُوهم إلى الصُّلحِ (وَأنْتُمُ الأعْلَوْنَ) بما وعدَكم اللهُ من النصرِ في الدُّنيا والثواب والكرامةِ في الأخرَى. قال الزجَّاجُ: (مَنَعَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ أنْ يَدْعُوا الْكُفَّارَ إلَى الصُّلْحِ وَأمَرَهُمْ بحَرْبهِمْ حَتَّى يُسْلِمُوا)[2] (وَأنْتُمُ الأعْلَوْنَ) أي الغَالِبُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ ؛ أي بالعَوْن والنُّصرَةِ على عدُوِّكم بثَوَابي حِفظِكم، ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي لن يَنْقِصَكم شيئاً من ثواب أعمالكم، وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّهُ لا يجوزُ للإمامِ أن يدعُوا الكفارَ إلى الصُّلحِ، ولا أنْ يُجيبَهم إلى الصُّلح في حالِ ما تكون الغَلَبَةُ للمسلمين، فإنَّ الواوَ في قولهِ: (وَأنْتُمُ الأعْلَوْنَ) واوُ الحالِ،كما يقالُ: لا تُسَلِّمْ على فُلانٍ وأنتَ راكبٌ؛ أي في حالِ ما كُنتَ راكباً.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص١٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ ؛ أي الدُّنيا بما فيها من زينَتِها باطلٌ وغُرورٌ، تفنَى وتزولُ عن قريبٍ، واللَّعِبُ: العملُ الذي لا تتعلَّقُ به فائدةٌ، واللَّهْوُ: هو الفرحُ الذي لا يبقَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ ؛ أي تُؤمِنوا بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن، وتتَّقُوا الفواحشَ والكبائرَ، يُؤتِكُمْ ثوابَ أعمالكم كافياً وافِياً، ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ كلَّها في الإنفاق في سَبيلِه، بل يأمرُكم بالإيمانِ والطاعة ليُثيبَكم الجنَّةَ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾[١].

وَقِيْلَ: معناهُ: ولا يسألُكم مُحَمَّدٌ ﷺ أموالَكم، وَقِيْلَ: معناهُ: ولا يسألُكم اللهُ ورسولهُ أموالَكم كلَّها، إنما يسألُكم رُبعَ العُشرِ، فطِيبُوا نفْساً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ يُجهِدْكُم في المسألةِ، ويُلِحَّ عليكم ويسألُكم جميعَ أموالِكم، فبَخِلُوا بها ويمنَعُوا الواجبَ.

وقوله (وَيُخْرِجْ أضْغَانَكُمْ) التي تحدثُ في القلوب بسبب البُخلِ، قال قتادةُ: (قَدْ عَلِمَ اللهُ أنَّ فِي مَسْألَةِ الْمَالِ خُرُوجَ الأَضْغَانِ)[٢]. وقوله (أضْغَانَكُمْ) أي بُغضَكم وعداوَتَكم للهِ ولرسوله، ولكن فَرَضَ عليكم يَسِيراً وهو رُبعُ العُشرِ. والإحْفَاءُ في المسألةِ: هو الإلْحَاحُ والتشديدُ. وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: ولا يسألُكم أموالَكم لنفسِهِ، بل يسألُكم ليُؤتِكُمْ أجُورَكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعني ما فَرَضَ عليهم في أموالِهم من الزكاةِ، ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ ؛ بذلك، ﴿ وَمَن يَبْخَلْ ﴾ ؛ بذلكَ، ﴿ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ؛ عاقبةُ بُخلِهِ تعودُ عليه في العقاب، فيصيرُ بُخلهُ على نفسهِ، ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ ﴾ ؛ عن ما عندَكم من الأموالِ وعن أعمالِكم، ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ ، وأنتم مُحتاجُون إلى اللهِ وإلى ما عندهِ من

---

(١) الذاريات / ٥٧ .

(٢) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٠٠. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٥٧.

الجزاءِ والرَّحمةِ والمغفرة، ثم يأمرُكم بالإنفاقِ لحاجتهِ ولا لِجَرِّ منفعةٍ ولا لدفعِ مضَـرَّة، وإنما أمرُكم بذلك لمصالِحكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ ؛ أي وإنْ تُعرضُوا عن طاعةِ الله يَسْتَبْدِلْ قَوماً لا يَعْصُونَ ويفعلون ما يُؤمَرون، وَقِيْـلَ: معنـاهُ: وإنْ تُعرضُـوا عن الإسلام وعمَّا افترَضَ عليكم من حـقٍّ يستبدِلْ قومـاً غـيرَكم أطـوعَ للهِ منكـم، ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ بل يكون أمثلَ منكم وأطـوعَ. قـال الكلـبيُّ: (هُمْ كِنْدَةُ وَالنَّخعُ)، وقال الحسنُ: (هُمُ الْعَجَمُ)، قال عكرمةُ: (هُمْ فَارسُ وَالرُّومُ)[(١)].

وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ؛ فَقِيلَ: يَـا رَسُـولَ اللهِ مَـنْ هَـؤُلاَءِ الَّذِينَ إنْ تَوَلَّيْنَا اسْتُبْدِلُوا ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أمْثَالَنَا ؟ فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ فِي صَـدْرِ سَـلْمَانَ الْفَارسِيِّ - وَقِيلَ: عَلَى فَخِذِهِ - وَقَالَ: [هَذا وَأصْحَابُهُ]. وَقَالَ: [وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لَوْ كَانَ الإيْمَانُ مُعَلَّقاً بالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رجَالٌ مِنْ أبْنَاءِ فَارسَ][(٢)]. قال الكلبيُّ فِي قَوْلِـهِ: (وَإنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ) قَالَ: (لَمْ يَتَوَلَّوْا وَلَمْ يَسْتَبْدِلْ بهِمْ)[(٣)].

آخر تفسير سورة (**محمد**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ذكر البغوي هذه الأقوال الثلاثة للكلبي والحسن وعكرمة في معالم التنزيل: ص١٢٠٠.

(٢) أخرجه بألفاظه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٤٣٣٧) عن أبي هريرة ﷺ. وابن أبي حـاتم في التفسـير الكبـير: الحديـث (١٨٥٩٢ و١٨٥٩٣). والطـبراني في المعجـم الأوسـط: ج ٩ ص٣٨٧: الحديث (٨٨٣٣). وابن حبان في الإحسان: كتاب إخباره ﷺ عن منـاقب الصحابـة: الحديث (٧١٢٣) وإسناده صحيح.

(٣) لم يتولَّ العربُ عن حمل مسؤولية الاسـلام، ولا المسـلمون عـن أداء الأمانـة في إنفـاذ الشـريعة وحتى غياب الخلافة في بدايات القرن الرابع عشر مـن الهجـرة، حيـث تمكـن الكفـار مـن هـدم الخلافة وتعطيل الشريعة بالقوة وليس بالإقناع، ولم يرجع المسلمون عن إيمانهم.

ومن وجه آخر فإن هذا الحديث تشريف لسيدنا سلمان الفارسي وليس تخصيصاً للقوم، قال مجاهد: (مَن شاءَ). ودلالة الآية تفيد تأثيمَ التخلّي عن تحمُّل مسـؤوليةِ رعايـة الدعـوةِ وسياسـة الأمَّة. والله أعلم.

سُورَةُ الْفَتْــح

سُورَةُ الْفَتْحِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفَانِ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةٌ وَثَلاثُونَ حَرْفاً، وَخَمْسُمِائَةٍ وَسِتُّونَ كَلِمَةً، وَتِسْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفَتْحِ كَانَ كَمَنْ بَايَعَ مُحَمَّداً ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾؛ وذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ يُرِيدُ الْعُمْرَةَ، وَتَجَهَّزَ مَعَهُ نَاسٌ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَمَعَهُمُ الْهَدْيُ يَسُوقُونَهَا مَعَ أَنْفُسِهِمْ، فَبَلَغَ ذلِكَ قُرَيْشاً فَاسْتَعَدُّوا لِيَصُدُّوهُ وَأَصْحَابَهُ، فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ، فَزِعَ الْمُشْرِكُونَ بِنُزُولِهِ ﷺ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ لِيَأْتِيَهُمْ بِالْخَبَرِ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ عُرْوَةُ أَبْصَرَ قَوْماً عُمَّاراً لَمْ يَأْتُوا لِلْقِتَالِ، فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ وَأَخْبَرَهُمْ بِذلِكَ وَهُوَ كَارِهٌ لِصَدِّهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْكَعْبَةِ، فَشَتَمُوهُ وَاتَّهَمُوهُ.

ثُمَّ بَعَثُوا رَجُلَيْنِ آخَرَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [ابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وُجُوهِهِمَا وَلَبُّوا] فَلَمَّا رَجَعَ الرَّجُلاَنِ إِلَيْهِمْ قَالاَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ عُرْوَةُ. فَبَعَثُوا سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو أَحَدَ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، قَالَ ﷺ حِينَ أَبْصَرَهُ: [هَذا رَجُلٌ فَاجِرٌ، وَمَا أَرَى إلاَّ قَدْ سَهُلَ أَمْرُكُمْ]. فَلَمَّا أَتَاهُمْ سُهَيْلُ تَذاكَرُوا الْمُهَادَنَةَ وَالْمُوَادَعَةَ.

فَلَمَّا كَانَ فِي وَسَطِ النَّهَارِ، أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْبَيْعَةِ، فَنَادَى مُنَادِيهِ فِي الْعَزْمِ: [الآنَ رُوحُ الْقُدُسِ جِبْرِيلُ عليه السلام نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَرَهُ بِالْبَيْعَةِ]. فَأَتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَدْ جَلَسَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَبَايَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وكَادَتْ[2] تِلْكَ الْبَيْعَةُ فِي صُدُورِ الْمُشْرِكِينَ.

---

(١) ذكره الزمخشري أيضاً في الكشاف: ج ٤ ص٣٣٩.

(٢) (كَادَ) يفعلُ كذا، يكَادُ كَوْداً، أي قاربَهُ ولم يفعَلْ، وكَادَ موضوعٌ لمقارَبَةِ الفعلِ، فُعِلَ أمْ لم يُفعَلْ.

فَلَمَّا أمْسَوا وَهُمْ عَلَى ذلِكَ، رَمَى رَجُلٌ مِـنَ الْمُشْـرِكِينَ بـاللَّيلِ فِـي أصْحَـاب رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ بالْحِجَارَةِ فَرَمَوا أعْـدَاءَ اللهِ حَتَّـى أدْخَلُوهُـمُ الْبُيُـوتَ وَهَزَمُوهُمْ بإذْنِ اللهِ. وَأقْبَلَ أشْرَافُهُمْ إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ هَذا لَمْ يَكُـنْ عَـنْ رضًى مِنَّا وَلاَ مُمَالأَةً، وَإنَّمَا فَعَلَهُ سُفَهَاؤُنَا، وَعَرَضُوا الصُّلْحَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَبلَهُ، وَلَمْ يُعْطِهِمُ الْمُشْرِكُونَ الصُّلْحَ حَتَّى قَهَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي غَيْرِ قِتَالٍ بالرَّمْيِ بالْحِجَارَةِ.

فَاصْطَلَحَ الْفَرِيقَان عَلَى أنْ يَتَوَادَعُوا سِنِينَ، عَلَى أنْ يَرْجِعَ النَّـبِيُّ ﷺ وَأصْحَابُـهُ تِلْكَ السَّنَةَ، فَمَنْ لَحِقَ بالنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَقْبَلْهُ حَتَّـى تَنْقَضِـيَ الْمُـدَّةُ، وَمَـنْ لَحِقَ بالْمُشْرِكِينَ مِنْ أصْحَـاب النَّـبِيِّ ﷺ فَـهُوَ مِنْـهُمْ. عَلَـى أنَّ الْمُسْـلِمِينَ إذا شَـاؤُا اعْتَمَرُوا الْعَامَ الْقَابلَ فِي هَذا الشَّهْرِ الَّذِي صَدَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ فِيْهِ، عَلَى أنْ لاَ يَحْمِلُـوا بأرْضِهِمْ سِلاَحاً.

فَصَالَحَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىذلِكَ، وَكَتَبُـوا كِتَـابَ الْقَضِيَّـةَ[1] بَيْـنَ النَّـبِيِّ ﷺ وَبَيْنَهُمْ، فَوَجَدَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذلِكَ الشَّرْطِ وَجْداً شَدِيداً، فَقَالُوا: يَـا رَسُـولَ اللهِ؛ مَنْ لَحِقَ بنَا مِنْهُمْ لَمْ نَقْبَلْهُ، وَمَنْ لَحِقَ بهِمْ مِنَّا فَهُوَ مِنْهُمْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أمَّا مَنْ لَحِقَ بهِمْ مِنَّا فَأبْعَدَهُمُ اللهُ، وَأمَّا مَنْ أرَادَنَا مِنْهُمْ فَسَـيَجْعَلُ اللهُ لَـهُ مَخْرَجـاً، وَإنْ يَعْلَمِ اللهُ مِنْهُ الصِّدْقَ يُنَجِّيهِ مِنْهُمْ].

فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ كِتَاب الْقَضِيَّةِ، أقْبَلَ جَنْدَلُ بْنُ سُهَيْلٍ وَهُوَ يَرْشِـفُ فِـي قُيُـودِهِ، وَكَانَ أبُوهُ قَدْ أوْثَقَهُ حِينَ خَشِيَ أنْ يَذْهَبَ إلَى رَسُول اللهِ، فَجَاءَ حَتَّى وَقَعَ بَيْنَ ظَهْرَانِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَقَالَ: إنِّي مِنْكُمْ وَإنِّي أعُوذُ باللهِ أنْ تُرْجِعُونِي إلَى الْكُفَّار.

فَأرَادَ رِجَالٌ مِـنَ الْمُسْـلِمِينَ أنْ يَمْنَعُـوهُ، وَنَاشَـدَهُمْ سُـهَيْلُ بْـنُ عَمْـرو الْعَـهْدَ وَالْمِيثَاقَ! فَقَالَ ﷺ:[خَلُّوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ؛ فَسَيُنَجِّيهِ اللهُ مِنْهُمْ]. فَانْطَلَقَ بهِ أبُوهُ، وَكَانَ مَـاءُ الْحُدَيْبيَةِ قَدْ قَلَّ مِنْ كَثْرَةِ مَنْ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ، فَأتِيَ بدَلْـو مِـنَ الْمَـاءِ، فَتَوَضَّـأَ مِنْـهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَمَضْمَضَ ثُمَّ مَجَّـهُ فِـي الدَّلْـو، ثُـمَّ أمَرَهُـمْ أنْ يَجْعَلُـوهُ فِـي الْبـئْرِ، فَامْتَلأَتِ الْبئْرُ مَاءً حَتَّى جَعَلُوا يَغْرِفُونَ مِنْهُ وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى شَفَةِ الْبـئْرِ، وَكَـانَ هَـذَا شَأْنُ الْحُدَيْبيَةِ.

---

(١) هكذا في المخطوط: (كتاب القضية).

ولَبثَ رسولُ الله ﷺ شَهراً وَصَيْفاً فوعَدَهم اللهُ خَيراً أنْ يفتحَها لَهم، فلَمَّا رجعَ النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ نزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً)، والفتحُ الْمُبينُ: ما كان من استعلاءِ المسلمين عليهم حتى غلَبُوهم بالحجارةِ وأدخَلُوهم بيوتَهم، وتيسير الصلحِ أيضاً من الفتحِ المبين وظهور النبيِّ ﷺ على خَيبرَ من الفتحِ.

قال: (وَأنْجَى اللهُ أبَا جَنْدَلَ بْنَ سُهَيْلٍ مِنْ أيْدِيهِمْ، وَخَرَجَ مِنْهُمْ وَاجْتَمَعَ إلَيْهِ قَرِيبٌ مِنْ سَبْعِينَ رَجُلاً كَرِهُوا أنْ يَقْعُدُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَعَلِمُوا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لاَ يَقْبَلُهُمْ حَتَّى تَنْقَضِي الْمُدَّةُ، فَجَعَلُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَأرْسَلَ الْمُشْرِكُونَ إلَى النَّبِيِّ ﷺ يُنَاشِدُونَهُ أنْ يَقْبضَهُمْ إلَيْهِ، وَقَالُوا: أنْتَ فِي حِلٍّ مِمَّن اخْتَارَكَ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ؛ فَإنَّهُمْ إنْ يَكُونُوا مَعَكَ كَانَ أهْوَنَ عَلَيْنَا، فَلَحِقُوا بالنَّبِيِّ ﷺ)[1].

وعن قتادةَ قال: (بُشِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ بفَتْحِ مَكَّةَ). ومعنى قولهِ تعالى (إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً) يعني صُلحَ الحديبيةِ، وكان صُلحاً بغيرِ قتالٍ، قال الفرَّاء: (وَالْفَتْحُ قَدْ يَكُونُ صُلْحاً)[2].

ومعنى الفَتْحِ في اللُّغة: فتحُ الْمُغْلَق، والصُّلح الذي حصلَ مع المشركين بالحديبيةِ كان مَسْدُوداً متعَذّراً حتى فتحَ اللهُ. قال جابرُ: (مَا كُنَّا نَعُدُّ فَتْحَ مَكَّةَ إلاَّ يَوْمَ الْحُدَيْبيَةِ)[3]. وقال الزهريُّ: (لَمْ يَكُنْ فَتْحٌ أعْظَمُ مِنْ صُلْحِ الْحُدَيْبيَةِ، وَذلِكَ أنَّ الْمُشْرِكِينَ اخْتَلَطُوا بالْمُسْلِمِينَ وَسَمِعُوا كَلاَمَهُمْ فَتَمَكَّنَ الإسْلاَمُ فِي قُلُوبهِمْ)[4].

ويجوزُ أن يكون معنى الفتحِ: الإكرامُ بالنبوَّة والإسلامِ والأمرُ بدعوةِ الخلقِ إليهما. وَقِيْلَ: معنى (فَتَحْنَا لَكَ) أي قضَينا لكَ بالنصر، ومنه المفتاحُ وهو القاضِي، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالْحَقِّ﴾[5] أي اقْضِ بيننا.

---

(١) ينظر: كتاب المغازي للواقدي: ج ٢ ص٩٠-١٠٢. والسيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٣٣٢-٣٣٨.

(٢) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٦٤.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٤٧).

(٤) ذكره البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص١٢٠٢.

(٥) الأعراف / ٨٩ .

وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بالآيةِ فتحُ مكَّة بالغَلَبَةِ والقهر؛ لأنَّ الصُّلح لا يسمَّى فتحاً على الإطلاق، قال الشعبيُّ: (بُويعَ النَّـبيُّ ﷺ فِـي ذلِـكَ الْوَقْـتِ بَيْعَـةَ الرُّضْوَان، فَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَى خَيْبَرَ فِي مُنْصَرَفِهِ، وَظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَـارسَ فِـي ذلِـكَ الْوَقْتِ)(١)، والفتحُ في اللغة: هو الفَرَجُ المزيلُ لِلْهَمِّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ؛ قـال ابـنُ الأنباريِّ: (سَأَلْتُ أَبَا عَبَّاسٍ(٢) عَنِ اللاَّمِ فِي قَوْلِهِ: (لِيَغْفِـرَ لَـكَ اللهُ)، فَقَـالَ: هُـوَ لاَمُ كَيْ، مَعْنَاهَا: إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيْناً لِكَيْ يَجْتَمِعَ لَكَ مَعَ الْمَغْفِـرَةِ تَمَـامُ النِّعْمَـةِ فِـي الْفَتْحِ، فَلَمَّا انْضَمَّ إلَى الْمَغْفِرَةِ حادثٌ واقعٌ حَسُنَ مَعْنَى (كي).

وقولهُ تعالى (مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبكَ وَمَا تَأَخَّرَ) المرادُ بـالذنب هـهُنا الصغـائرُ، فأمـا الكبائرُ فالأنبياء معصُومون منها أبداً؛ لأنَّهم الأُمَناء علـى الوحـيِ والرسـالةِ. وعـن أبـي هريرةَ ﷺ قال: (كَانَ النَّبيُّ ﷺ يَقُومُ حَتَّى تَدْمَى قَدَمَاهُ، فَقِيلَ: يَا رَسُـولَ اللهِ؛ أتَصْنَـعُ هَذا وَقَدْ جَاءَكَ مِنَ اللهِ أنْ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبكَ وَمَـا تَـأخَّرَ؟! قَـالَ: [أفَـلاَ أكُونُ عَبْداً شَكُوراً])(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي بالنبوَّة والمغفرةِ، والمعنى ليجتمعَ لكَ مع الفتح تَمامُ النِّعمة بالمغفرةِ والهداية إلى صراطٍ مستقيم وهـو الإسـلامُ. قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي ينصُرَك بالحجَّةِ والسيفِ على عدُوِّك نصراً قوياً لا ذُلَّ معه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٥١).

(٢) أبو العباس: هو أحمد بن يحيى بن ثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، وكان ثقة ديناً صالحـاً، مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالغريب وروايته الشعر القديم، مقدماً عند الشيوخ مـذ هو حدَثٌ. قال أبو بكر بن الأنباري: (سمعـتُ أحمـد بـن يحيـى يقـول: سمعـت مـن عبيـد الله القواريري مائة ألف حديث) توفي سنة (٢٩١) من الهجرة، ترجم له الخطيـب في تـاريخ بغـداد: الرقم (٢٩٩٧).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حليـة الأوليـاء: ج ٧ ص٢٠٥. ولـه طـرق أخـرى عـن المغـيرة بـن شـعبة وعائشة. وأخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٨٣٦).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ قِيْلَ: السَّكينةُ هي ما أسكنَ اللهُ قلوبَهم من التعظُّيم للهِ ولرسولهِ والوَقَار لئَلاَّ تُزعَجَ نفوسُهم لِمَا يَرِدُ عليهم. وقوله تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ ؛ أي ليَزدَادُوا تَصديقاً إلى تصدِيقهم السابقِ. قال الكلبيُّ: (لَمَّا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فَصَدَّقُوا بهَا ازْدَادُوا تَصْدِيقاً إلَى تَصْدِيقِهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي جُمُوعُ أهلِ السَّموات والأرض، يعني الملائكةَ والجنَّ والإنس والشياطين، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ ؛ بمصالِحِ خَلقهِ، ﴿ حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ فيما يأمُرهم به وينهاهُم عنه.

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا نَزَلَ (إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيْناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبكَ وَمَا تَأَخَّرَ) قَالَ الصَّحَابَةُ: هَنِيئاً لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا أعْطَاكَ اللهُ، فَمَا لَنَا ؟ فَأنْزَلَ اللهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي نجاةً عظيمةً من النار وظَفَراً بالجنَّة[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّا فتَحنا لكَ لِيُدخِلَ اللهُ المؤمنين والمؤمناتِ جنَّاتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ ولِيُعَذِّبَ المنافقين من الرِّجال والمنافقاتِ من النساءِ، وهُم أظهَرُوا الإيمانَ باللِّسان وأسَرُّوا الكفرَ من أهلِ المدينة، ﴿ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ ؛ مِن أهلِ مكَّة، ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ ؛ ومعنى ظنُّهم السوءَ: أنَّهم ظَنُّوا أن مُحَمَّداً ﷺ لا يُنصَرُ عليهم وأنَّهم هم الذين ينصرُهم اللهُ على رسولِه، وذلك قبيحٌ لا يجوز في صفةِ الله تعالى. وقولُه: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ ؛ أي العذابُ والهلاكُ، ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ أي وطرَدَهم عن رحمتِهِ، ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص١٩٧. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٢٣٦٣). وابن حبان في الإحسان: كتاب التاريخ: الحديث (٦٤١٠) عن أنس بإسناد صحيح على شرط الشيخين. وأما حديث ابن عباس فقد أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٥٣) مختصراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ ؛ وليس على وجهِ التّكرار؛ لأنَّ الأولَ في إعانةِ المؤمنين، وهذا متَّصلٌ بذكـر المنـافقين في الانتقـامِ منـهم، ومعنـى ذلك: أنَّ في الأول (وَللهِ جُنُودُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) فـاللهُ قـادرٌ علـى أن يُسَـخِّرهم لينتقمَ بهم من أعدائهِ مِن كلِّ ما دبَّ ودرجَ من ذلك حتى الـبرغوث والعقـربَ؛ لأنَّ اللهَ لم يأمُرِ المسلمين بالقتالِ لأجلِ هلاكِ المشـركين، وإنمـا أمَرَهـم بالقتـالِ ليُعوِّضَـهم بذلكَ جزيلَ الثواب الذي لا يُنَالُ إلاَّ بالقتالِ، وههنا متَّصل ذكرُ الانتقامِ من المنافقين.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي لم يَزَلْ مَنِيعاً مسـتغنياً من الكفَّار، حَكِيماً في أمرهِ وقضائه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنـا أرسلناكَ يا مُحَمَّدُ شَاهداً على أمَّتِـكَ بتبليـغِ الرسـالة، وَقِيْـلَ: شـاهدٌ علـى أقوالِـهم وأفعالهم فإنَّها تُعرَضُ عليه، (ومُبَشِّراً) بالجنةِ للمطيعـين، (ونَذِيـراً) أي مُخَوِّفـاً بالنـار لِمَن عصَى اللهَ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ ؛ أي قُرئ بالتاءِ في الأربعةِ على معنى قولِهم: لتُؤمِنَ باللهِ ورسـوله، وقُـرئ باليـاءِ في الأربعـة أيضـاً؛ يعني: مَن آمنَ به وصدَّقَهُ، قَوْلُهُ تَعَـالَى: (وَتُعَـزِّرُوهُ) راجـعٌ إلى النـبيِّ ﷺ؛ أي يُعِينُـوهُ ويَنصرُونَهُ بالسَّيفِ واللسان، وقـرأ محمَّـد بـن السُّـمَيقِعِ: (وَتُعَـزِّزُوهُ) بزائـين، وقولـهُ (وَتُوَقِّرُوهُ) أي وتُعَظِّموهُ وتُبجِّلوهُ، وهذا وقفٌ تامٌّ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ ؛ أي وتسَـبحون اللهَ عَـزَّ وَجَـلَّ، ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي يُصَلُّونَ له بالغَداةِ والعشيِّ، وفي قراءةِ ابن عبَّاس: (وَتُسَـبحُوا اللهَ بُكْرَةً وَأصِيلاً)[1].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ ؛ يعـني بيعـةَ الرِّضـوان بالحديبيـةِ، ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ ، بايَعُوا النبيَّ ﷺ على أنْ لا يفِرُّوا ويقاتِلُوا، بايعَهم النبيُّ

---

(١) نقله الطبري في جامع البيان من غير عزوه إلى ابن عباس: الأثر (٢٤٣٦٠).

ﷺ تحتَ شجرةٍ استظلَّ بها بالحديبيةِ، وكان الذين بايعوهُ نحوَ ألـفِ رجُلٍ وخمسمائة رجل، بايعوهُ على النُّصرَةِ والنُّصحِ والسمعِ والطاعة، وأن لا يفِرُّوا من العدوِّ.

ومعنى الآيةِ: إنَّ الذين يُبايعونكَ يا مُحَمَّدُ بالحديبيةِ على أن لا يفِرُّوا، إنما يُبايعُون في ذاتِ الله، ليس أنتَ المرادُ بذلك، بل المرادُ به القيامُ بعبادةِ الله. وَقِيْلَ: المرادُ بذلك أنَّهم بَاعُوا اللهَ أنفُسَهم بالجنَّة.

وقولهُ تعالى: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ ﴾ ؛ أي نِعمَةُ اللهِ في الهدايةِ فوقَ أيدِيهم في الطاعة، يعني إحسانَ اللهِ إليهم بأن هدَاهُم للإيمان أبلغُ وأتَمُّ من إحسانِهم إليكَ بالنُّصرة والبيعةِ، وقال ابنُ كَيسان[1]: (مَعْنَاهُ: قُوَّةُ اللهِ وَنُصْرَتُهُ فَوْقَ أيْدِيهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ؛ أي اتَّقِ باللهِ وَنُصْرَتِهِ لَكَ لاَ بنُصْرَتِهِمْ، وَإنْ بَايَعُوكَ)، وقال:(مَعْنَاهُ: يَدُ اللهِ فِي الثَّوَاب وَالْوَفَاءِ لَهُمْ فَوْقَ أيْدِيهِمْ في الوفاء، فَإنَّهُمْ لَوْ وَفَّوا بمَا ضَمِنُوا فَاللهُ أوْفَى بمَا ضَمِنَ، وَأقْدَرُ عَلَى ذلِكَ). واليَدُ ههنا هي القُدْرَةُ.

قولُهُ: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ ﴾ ؛ أي مَن نقضَ عقدَ البيعةِ فضررُ نقضهِ عائدٌ عليه، وليس له الجنَّةُ ولا كرامةٌ، ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ ﴾ ؛ مِن البيعة فتمَّ على ذلك واستقامَ، ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ فسيعطيهِ اللهُ في الآخرةِ ثواباً عظيماً في الجنة.

ورُوي أنَّ هؤلاء المبايعين لم ينقُضْ أحدٌ منهم البيعةَ؛ لأنَّهم كانوا مُخلِصين، ولذلك قالَ اللهُ (لَقَدْ رَضِيَ الله عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إذْ يُبَايعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) رضاهُ عنهم دليلٌ على أنَّهم كانوا مُؤمنين على الحقيقةِ، أولياءَ الله أهلَ النُّصرة، والذي لَمْ يدخُلْ معهم في البيعةِ يومئذٍ إلا رجلٌ من المنافقِين يقال له جَدُّ بن قيسٍ، اختبأ يومئذ تحتَ إبطِ بَعيرِهِ ولم يدخُلْ في بيعتِهم، أماتَهُ اللهُ على نفاقهِ[2].

---

(١) ابن كيسان: عبدالرحمن بن كيسان، أبو بكر الأصم، المعتزلي، صاحب المقالات في الأصول، كان من أفصح الناس وأورعهم وأفقههم. قال ابن حجر: (هو من طبقة أبي الهذيل العلاف، وأقدم منه) له تفسير القرآن، أفاد منه الثعلبي في كتابة الكشف. ترجم له ابن حجر في لسان الميزان: ج ٣ ص٤٢٥: الرقم (١٦٨٥).

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية: ج ٣ ص١٣٠. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٩٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ أخبرَ اللهُ النبيَّ ﷺ أنه إذا رجعَ من الحديبيةِ إلى المدينةِ، أتاهُ الأعرابُ الذين يخلِفُون عنه بغيرِ عُذر، ولم يَخرُجوا معه وهم مُزَينَةُ وجُهَيْنَةُ وغطَفَانُ وقومٌ من الدَّيلِ، فيقولون له: شَغَلَتْنَا أموالُنا وأهلُونا عن الخروجِ معك يا محمد، أي شغلَتنا النساءُ والذراري فلم يكن لنا مَن يخلِفُنا فيهم، ﴿ فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ ؛ من التخلُّفِ عنكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ أي يسألُون المغفرةَ بألسِنَتِهم (مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) يعني: لأنَّهم لا يُبَالُونَ اسْتَغْفَرْتَ لَهم أمْ لم تستغفِرْ لَهم.

وقد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ أرَادَ الْمَسِيرَ إلَى مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ، اسْتَنْفَرَ مَنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الأَعْرَاب وَأهْلِ الْبَوَادِي لِيَخْرُجُوا مَعَهُ حَذراً مِنْ قُرَيْشٍ أنْ يُحَاربُوهُ وَيَصْرِفُوهُ عَنِ الْبَيْتِ، وَأحْرَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بالْعُمْرَةِ وَسَاقَ الْهَدْيَ لِيُعْلِمَ النَّاسَ أنَّهُ لاَ يُريدُ حَرْباً، فَتَثَاقَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الأَعْرَاب وَقَالُوا: نَذْهَبُ مَعَهُ إلَى قَوْمٍ قَدْ جَاءُوا يَقْتُلُونَ أصْحَابَهُ فَيُقَاتِلُهُمْ، فَتَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَاعْتَلُّوا بالشُّغْلِ، فأنزلَ اللهُ تعالى (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنْ الأَعْرَاب شَغَلَتْنَا أمْوَالُنَا وَأهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا) الآيةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾ ؛ معناهُ: مَن يمنعُكم من عذاب الله إنْ أقَمتُم على الكفرِ والنفاق، ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: بل كان اللهُ عالِماً بتخلُّفِكم عن القتالِ من غيرِ عُذر.

قرأ حمزةُ والكسائي وخلفٌ (ضُرّاً) بضم الضاد وهو سُوءِ الحال، وقرأ الباقون (ضَرّاً) بفتح الضادِ لأنه قابَلَه بالنفعِ، وأرادَ بالنفعِ الغنيمةَ. وذلك أنَّهم ظَنُّوا أن تَخلُّفَهم عن النبيِّ ﷺ يدفعُ عنهم الضُّرَّ، ويعجِّلُ لهم النفعَ بالسلامةِ في أنفسهم وأموالِهم، فأخبرَهم اللهُ تعالى أنه إنْ أرادَ بهم شيئاً لم يقدِرْ أحدٌ على دفعهِ عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أظهرَ اللهُ نفاقَهم، وبيَّن أنَّ تخلُّفَهم عنه لم يكن بسبب أموالهم وأهلِيهم، ولكن كانوا

يقُولون فيما بينهم: يَسْتَأْصِلُ مُحَمَّداً وأصحابَهُ عدُوُّهم في هذهِ الكرَّة فلا يرجِعون إلى المدينةِ أبداً فنَستريحُ منهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ ؛ أي زَيَّنَ الشيطانُ لكم ذلك الظنَّ في قُلوبكم، ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ ؛ أي ظَنَنتُم نبيَّ اللهِ وأصحابَهُ أنَّهم لن يرجِعُوا من سفَرِهم هذا وأنَّهم سيهلَكُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي هَلْكَى فاسدِي القلُوب لا تُصلُحون لخير، والبَوَارُ الهلاكُ، وما بعدَ هذا، ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾ ، ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ ؛ يعني هؤلاءِ المخلَّفين سيقولون لرَسُول اللهِ ﷺ وأصحابهِ: ﴿ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ ﴾ ، خيبر، ﴿ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ ؛ نخرُجْ معَكم، فأمرَ اللهُ النبيَّ ﷺ أنْ يَمنعَهم من ذلك بعدَ تخلُّفهم من غزوةِ الحديبية.

فلما رجعَ النبيُّ ﷺ من الحديبيةِ وانطلقَ إلى خيبرَ، قال هؤلاءِ المخلَّفون (ذرُونا نتَّبعْكُمْ) قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي أنَّ اللهَ تعالى خصَّ أهلَ الحديبيةِ بمغانمِ خيبرَ، وأمرَ النبيَّ ﷺ أن لا يَأْذنَ للمنافقين أن يُخرجُوهم معهم إلاَّ متطوِّعين ليس لهم من المغانمِ شيءٌ. فأرادَ المنافقون أن يُشاركوا فيها ليُبطِلُوا حكمَ اللهِ تعالى، ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ يعني: أمَرَ اللهُ نَبيَّهُ ﷺ أنْ لا يُسَيِّرَ معه منهم أحداً.

ومعنى قوله (مِنْ قَبْلُ) أي قالَ اللهُ في ذلك بالحديبيةِ قبلَ خيبرَ، وقبلَ خروجنا إليكم: أنَّ غنيمةَ خيبر لِمَن شَهدَ الحديبيةَ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ ؛ أي سيقُولون للنبيِّ ﷺ لم يأمُركم اللهُ بذلك، ولكن تحسُدُونَنا أن نُشاركَكم في الغنيمةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يعلَمُون عن اللهِ ما لهم وعليهم مِن الدين إلاَّ قليلاً منهم، وهو مَن صدَّقَ الرسول ولم يُنافِقْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ ؛ أي قُل لهؤلاء المخلَّفين عن الحديبيةِ: ﴿ سَتُدْعَوْنَ ﴾ ؛ بعدَ موتِ النبي ﷺ ﴿ إِلَىٰ ﴾ ؛ قتـال؛ ﴿ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ؛ أي أهلِ اليمَامَةِ، قال الزهريُّ:(هُمْ أَهْلُ الْيَمَامَةِ بَنُو حَنِيفَةَ أتْبَـاعُ مُسَـيْلَمَةَ، فَأتَاهُ أبُو بَكْرٍ ﷺ)، قال رافعُ بن خَديج: (كُنَّا نَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ وَلاَ نَعْلَمُ مَـنْ هُـمْ حَتَّـى دَعَا أبُو بَكْرٍ ﷺ إلَى قِتَال بَنِي حَنِيفَةَ فَعَلِمْنَا أنَّهُمْ هُمْ)(١).

وقال ابنُ جُريج: (سَيَدْعُوكُمْ عُمَرُ ﷺ إلَى قِتَـال فَـارسَ وَالـرُّومَ) ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ؛ معناهُ: تُقاتِلُوهم أن يكون منهم الإسلام، ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ ﴾ ؛ أبَا بكرٍ وعمر، ﴿ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ ؛ عظيماً في الجنَّة، ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ ؛ عن طاعةِ مُحمَّدٍ ﷺ في المسـيرِ إلى الحديبيـة، ﴿ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ ؛ في الآخـرةِ، ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ شَديداً.

قرأ أُبَيٌّ (أوْ يُسْلِمُوا) بحذفِ النُّون؛ أي حتى يُسلِمُوا، وكقـول امـرئ القيـسِ: (أوْ نَمُوتَ)(٢)، وقرأ الكافَّة بإثباتِ النُّون في محل الرفعِ عطفاً على (تُقَاتِلُونَهُمْ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ ؛ أي ليس على هؤلاءِ إثمٌ في قُعودِهم عن القتالِ لعَجزهـم عنـه، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ عـائدٌ إلى مَـن يلزمـهُ الجـهادُ، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ ؛ عن الجهادِ مع قُدرتهِ عليه، ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ؛ يعني بيعةَ الرُّضوان بالحديبيةِ، وإنما سُميت بيعةُ الرضوان بـهذه الآيـة، وكان سببُ هذه البيعةِ(٣): أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا سَارَ يُرِيدُ مَكَّةَ، فَلَمَّـا بَلَـغَ الْحُدَيْبِيَـةَ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٠٤.

(٢) قال امرؤ القيس:

فَقُلْـتُ لَـهُ لاَ تَبْـكِ عَيْنُـكَ إنَّمَـا ... نُحَـاوِلُ مُلْكـاً أوْ نَمُـوتَ فَنُعْـذَرَا

قال الزجاج: (فالمعنى تقاتلونهم حتى يسلموا، وإلا أن لا يسلموا). ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٢٠. والشاهد من إعراب القرآن للنحاس: ج ٢ ص٥٦.

(٣) ذكره الواقدي في كتاب المغازي: ج ٢ ص٨٩.

وَقَفَتْ نَاقَتُهُ، فَزَجَرَهَا فَلَمْ تَنْزَجِرْ وَبَرَكَتْ، فَقَالَ ﷺ: [مَا هَذا بعَادَةٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابسُ الفِيْلِ].

وَدَعَا عُمَرَ ﷺ لِيُرْسِلَهُ إلَى أهْلِ مَكَّةَ، فَيَأْذنُوا لَهُ بأنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ وَيُحِلَّ مِنْ عُمْرَتِهِ وَيَنْحَرَ هَدْيَهُ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا لِي بهَا حَمِيمٌ وَلَيْسَ بمَكَّةَ مِنْ بَنِي عَدِيُّ بْنُ كَعْبٍ يَمْنَعُنِي، وَإنِّي أخَافُ قُرَيْشَ عَلَى نَفْسِي لأنَّهَا قَدْ عَلِمَتْ عَدَاوَتِي إيَّاهَا، وَلَكِنْ أدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ أعَزُّ بهَا مِنِّي عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ، قَالَ: [صَدَقْتَ]. فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ فَأرْسَلَهُ.

فَجَاءَ الشَّيْطَانُ وَصَاحَ فِي عَسْكَرِ رَسُول اللهِ ﷺ: بأنَّ أهْلَ مَكَّةَ قَتَلُوا عُثْمَانَ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الشَّجَرَةِ فَاسْتَنَدَ إلَيْهَا، وَبَايَعَ النَّاسَ عَلَى قِتَالِ أهْلِ مَكَّةَ.

قَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ مَعْقِلٍ: كُنْتُ قَائِماً عَلَى رَأسِ رَسُول اللهِ ﷺ ذلِكَ الْيَوْمَ، وَبيَدِي غُصْنٌ مِنَ الشَّجَرَةِ أذبُّ بهِ عَنْهُ وَهُوَ يُبَايعُ النَّاسَ، كَانَ أوَّلُ مَنْ بَايَعَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أسَدٍ يُقَالُ لَهُ أبُو سِنَانِ بْنِ وَهَبٍ[(١)].

واختلَفُوا في عددِ أهلِ البيعة، فقال قتادةُ: (كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً)، وقال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا ألْفاً وَخَمْسَمِائَةٍ وَخَمْسَةً وَعِشْرِينَ)[(٢)]، وقال جابرُ: (كَانُوا ألْفاً وَأرْبَعمِائَةٍ)[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ أي فعَلِمَ اللهُ ما في قلوبهم من الصِّدق والوفاءِ والإخلاصِ والعزمِ على القتال، ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ يعني الطُّمَأنِينَةَ والصبرَ والرضا حين بايَعُوا على أن يُقاتِلوا ولا يفِرُّوا، ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي وأعطَاهم فتحَ خيبرَ.

---

(١) اخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٩٥). وذكره الواقدي في المغازي: ج ٢ ص٩١؛ ولكنه قال: (سنان بن أبي سنان بن محصَن) وأبو سنان هو وهب بن محصن، قاله ابن عبدالبر في الاستيعاب: الترجمة (١٠٧٧): ج ٢ ص٢١٨؛ وقال: (واسم أبي سنان وهب بن محصن) وسنان الابن، ورجح أن الأب هو أول من بايع.

(٢) اخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٠١) وأصله عند مسلم في الصحيح.

(٣) اخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٩٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾؛ معناهُ: ومغانِمَ كثيرةً يأخذُونَـها من أموال يهود خيبرَ، وكانت خيبرُ ذات عقـارٍ وأمـوال،﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾؛ أي غالبـاً، ﴿حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾؛ في أمـرهِ، حكَـمَ لهـم بالغنيمـةِ، ولأهـلِ خيـبرَ بالسَّـبي والهزيمةِ.

وعن أنسٍ ﷺ: (وأنَا رَدِيفَ أبي طَلْحَةَ يَوْمَ أتَيْنَا إلَى خَيْـبَرَ، فَصَبَّحَـهُمْ رَسُـولُ اللهِ ﷺ وَقَدْ أخَذُوا مَسَاحِيهِمْ وَفُؤُوسَهُمْ وَغَدَوا عَلَى حُرُوثِهِمْ، فَلَمَّا رَأوْنَـا ألْقَـواْ مـا بأيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [اللهُ أكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إنَّا إذا نَزَلْنَا بسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَـاءَ صَبَاحُ الْمُنْذرينَ])(١).

وعن عبدِاللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أبيهِ قَالَ: (خَرَجْنَـا مَـعَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ إلَـى خَيْـبَرَ، سَرَيْنَا لَيْلاً وَعَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ مَعَنَا وَكَانَ شَاعِراً، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: ألاَ تُسْمِعُنَا يَا عَامِرُ، فَنَزَلَ يَحْدُوا بالْقَوْمِ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

اللَّـهُمَّ لَـوْلاَ أنْـتَ مَـا اهْتَدَيْنَـا ... وَلاَ تَصَدَّقْنَـا وَلاَ صَلَّيْنَـا
هُـمُ الَّذِيـنَ بَغَـواْ عَلَيْنَـا ... وَنَحْـنُ مِـنْ فَضْلِـكَ مَـا اسْـتَغْنَيْنَا
فَـاغْفِرْ بفَضْلِـكَ مَـا أتَيْنَـا ... وَثَبِّـتِ الأَقْـدَامَ إنْ لاَقَيْنَـا
وَألْقِيَـنَّ السَّكِينَـةَ عَلَيْنَـا

قَالَ ﷺ: [مَنْ هَذا؟] قَالُوا: عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ، قَالَ: [قَـدْ غَفَـرَ لَـكَ رَبُّـكَ يَـا عَامِرُ] فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أمْتَعْتَنَا بهِ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ). وإنما قالَ ذلـكَ؛ لأنَّ رسـولَ اللهِ ﷺ ما استغفرَ لرجُلٍ قطُّ إلاَّ استُشهِدَ.

قالَ: (فَلَمَّا قَدِمْنَا خَيْبَرَ وَتَصَافَّ الْقَوْمُ، خَـرَجَ يَـهُودِيٌّ فَخَـرَجَ إلَيْـهِ عَـامِرُ بْـنُ الأَكْوَعِ وَهُوَ يَقُولُ:

قَـدْ عَلِمَـتْ خَيْـبَرُ أنِّـي عَـامِرُ ... شَـاكِي السِّـلاَحِ بَطَـلٌ مُغَـامِرُ

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد: الحديث (٢٩٤٤ و٢٩٤٥) و(٢٩٩١). ومسـلم في الصحيح: كتاب الجهاد: باب غزوة خيبر: الحديث (١٢٠/ ١٣٦٥).

وَاخْتَلَفَا بِضَرْبَتَيْنِ، فَوَقَعَ سَيْفُ الْيَهُودِيِّ فِي تِرْسِ عَامِرٍ، وَوَقَعَ سَيْفُ عَامِرٍ عَلَى رُكْبَةِ نَفْسِهِ وَسَاقِهِ فَمَاتَ مِنْهَا. قَالَ سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ: فَمَرَرْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَهُمْ يَقُولُونَ: بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي فَأَخْبَرْتُهُ بِذلِكَ، فَقَالَ: [كَذَبَ مَنْ قَالَ ذلِكَ، بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ].

ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيّاً ﷺ وَكَانَ حِينَئِذٍ أَرْمَدَ قَدْ عَصَبَ عَيْنَهُ بِشِقِّ بُرْدٍ، قَالَ سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ: فَجِئْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَا لَكَ يَا عَلِيُّ ؟] قَالَ: رَمَدْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [أُدْنُ مِنِّي] فَدَنَا مِنْهُ، فَتَفَلَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرِئَ مِنْ سَاعَتِهِ، وَمَا وُجِعَتْ عَيْنَاهُ بَعْدَ ذلِكَ أَبَداً حَتَّى مَضَى سَبِيلَهُ. ثُمَّ أَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّايَةَ فَهَدَى بِهَا وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ أُرْجُوَانٍ حَمْرَاءُ، فَأَتَى مَدِينَةَ خَيْبَرَ، فَخَرَجَ مَرْحَبُ صَاحِبُ الْحِصْنِ وَعَلَيْهِ مِغْفَرٌ وَحَجَرٌ قَدْ ثَقَبَهُ مِثْلَ الْبَيْضَةِ عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ... شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
أَطْعَنُ أَحْيَاناً وَحِيناً أَضْرِبُ ... إِذا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلْتَهِبُ(١)
كَانَ حِمَايَا مَانِعاً لاَ يَقْرَبُ

فَبَرَزَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ ﷺ، وَقَالَ:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ ... كَلَيْثِ غَابَاتٍ شَدِيدٍ قَسْوَرَهْ
أَكِيلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

فَاخْتَلَفَا بِضَرْبَتَيْنِ، فَبَدَرَهُ عَلِيٌّ ﷺ بِالضَّرْبَةِ فَقَدَّ الْحَجَرَ وَالْمِغْفَرَ وَفَلَقَ رَأْسَهُ فَوَقَعَ مَيِّتاً، وَكَانَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ)(٢).

ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ مَرْحَبَ أَخُوهُ يَاسِرُ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي يَاسِرَهْ ... شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُغَاقِرَهْ

---

(١) في السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٣٤٧: (تَحَرَّبُ) بدل (تلتهب).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الجهاد: الحديث (١٣٢/ ١٨٠٧) عن طريق إياس بن سلمة عن أبيه.

إذا اللُّيُــــوثُ أَقْبَلَــــتْ مُبَــــادِرَهْ إنَّ سِـلاَحِي فِيْــهِ مَــوْتٌ حَــاضِرَهْ

فَخَرَجَ إِلَيْهِ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ:

قَــــدْ عَلِمَــــتْ أَنِّــــي زُبَــــارُ قَــوْمٍ لِقَــوْمٍ غَــيْرُ نَــاكِثٍ فَــرَّار

ابْـنُ حُمَــاةِ الْمَجَـدِ وابْــنُ الأَخْيَــار يَاسِــرُ لاَ يَغْــرُرْكَ جَمْـعُ الْكُفَّــار

فَجَمْعُهُــمْ مِثْــلُ السَّـرَاب جَــار

فَقَالَتْ أُمُّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِالْمُطَّلِب: أَيُقْتَلُ ابْنِي يَـا رَسُـولَ اللهِ ؟ قَـالَ: [ابْنُـكِ يَقْتُلُهُ]. ثُمَّ الْتَقَيَا فَقَتَلَهُ زُبَيْرٌ[(١)].

ثُمَّ لَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَفْتَحُ الْحُصُونَ حِصْناً حِصْناً، وَيَحُوزُ الأَمْوَالَ، فَلَمَّـا أَمْسَى النَّاسُ أَوْقَدَ نِيرَاناً كَثِيراً، فَقَالَ ﷺ: [عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُوقِدُونَ؟] قَالُوا: عَلَى لَحْمِ الْحُمُرِ الإِنْسِيِّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أَهْرِقُوهَا وَاكْسِرُوا الْقُـدُورَ] فَقَـالُوا: نُـهدِيكَ الْقُدُورَ وَنَغْسِلُهَا، فَقَالَ: [هِيَ أَوْ ذَاكَ].

ثُمَّ أُتِيَ رَسُولُ اللهِ بِصَفِيَّةَ بِنْتِ حَيِيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَبِأُخْرَى مَعَهَا، أَتَى بِـهِمَا بِـلاَلٌ ﷺ، فَلَمَّا رَأَتِ الْمَرْأَةُ الَّتِي مَعَ صَفِيَّةَ الْقَتْلَى مِـنَ الْيَـهُودِ صَرَخَـتْ وَصَكَّـتْ وَجْهَـهَا وَحَسَتِ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَقَالَ ﷺ: [إِعْزِلُوا عَنِّـي هَـذِهِ الشَّـيْطَانَةَ] وَأَمَـرَ بِصَفِيَّـةَ فَأُجْلِسَتْ خَلْفَهُ وَأَلْقَى عَلَيْهَا رِدَاءَهُ، فَعَرَفَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَصْفَاهَا لِنَفْسِهِ.

وَكَانَتْ قَدْ رَأَتْ فِي مَنَامٍ وَهِيَ عَرُوسُ كِنَانَةَ بْنَ رَبِيعٍ أَنَّ قَمَراً وَقَعَ فِي حِجْرِهَا، فَقَصَّتْ رُؤْيَاهَا عَلَى زَوْجِهَا فَلَطَمَ وَجْهَهَا لَطْمَةً اخْضَرَّتْ عَيْنَاهَـا مِنْـهَا، وَقَـالَ: إِنَّـكِ تَتَمَنِّينَ مَلِكَ الْحِجَازِ مُحَمَّداً.

فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ خُضْرَةَ عَيْنِهاَ سَأَلَهَا عَنْ ذلِكَ، فَأَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ، فَأُوتِيَ مِـنْ زَوْجِهَا كِنَانَةَ بْنِ الرَّبِيعِ كَانَ عِنْدَهُ كَنْزُ بَنِي النَّضِيرِ، فَسَأَلَهُ إِيَّاهُ فَجَحَدَهُ أَنْ يَكُونَ عَالِمـاً بِمَكَانِهِ. فَجَاءَ يَهُودِيٌّ فَقَالَ: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ كِنَانَةَ يَطُوفُ بِهَذِهِ الْخِرْبَةِ كُـلَّ غَـدَاةٍ، فَقَـالَ النَّبِيُّ ﷺ لِكِنَانَةَ: [أَرَأَيْتَ إِنْ وَجَدْنَاهُ عِنْدَكَ أَأَقْتُلُكَ؟] قَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة: ج ٤ ص٢١٧ مع بعـض الاختـلاف في ألفاظـه. والواقـدي في المغازي من دون ذكر الرجز: ج ٢ ص١٣٠. وابن هشام في السيرة النبوية: ج ٣ ص٣٤٨.

بالْخِرْبَةِ فَحُفِرَتْ، فَأُخْرِجَ مِنْهَا بَعْضُ كَنْزِهِمْ، ثُمَّ سَأَلَهُ مَا بَقِيَ فَأَبَى أنْ يُؤَدِّيَهُ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَضُرِبَ عُنُقُهُ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ ؛ أي وعدَكم اللهُ في المستقبلِ من زمانِ غنائمَ كثيرةً تأخذونها، قال مقاتلُ: (مَنْ قَاتَلَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَنْ بَعْدَهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[٢] ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ ؛ يعني غنيمةَ خيبر، ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ ﴾ ؛ أي مَنَعَ أسَداً وغطفانَ من قتالِكم، وكانوا حُلفاء لأهلِ خيبرَ، وذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَصَدَ خَيْبَرَ وَحَاصَرَ أهْلَهَا، هَمَّتْ قَبَائِلُ مِنْ أسَدٍ وَغَطَفَانَ أنْ يُغِيرُوا عَلَى عِيَالِ الْمُسْلِمِينَ وَذرَارِيهِمْ بالْمَدِينَةِ، فَكَفَّ اللهُ أيْدِيَهُمْ بإلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ[٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أي ولتكون غنيمةُ خيبرَ دلالةً على المؤمنين على صدقِكَ يا مُحَمَّدُ، حيث إنَّ اللهَ تعالى أخبرَ أنَّهم يُصيبونَها في المستقبلِ، ثم وجدَ المخبر على وفق الخبر، وقولُهُ تعالى: ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ويُثبِّتكم على دينِ الإسلامِ، ويُرشِدَكم إلى الأدلَّة في الدينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي وعدَكم فتحَ بلدةٍ أخرى لم يقدِرُوا عليها الآن، ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ ؛ يفتحُها عليكم، قال الفرَّاءُ: (حَفِظَهَا لَكُمْ وَمَنَعَهَا مِنْ غَيْرِكُمْ حَتَّى يَفْتَحَهَا لَكُمْ)[٤].

واختلَفُوا فيها، فقالَ ابنُ عبَّاس وابن أبي ليلى والحسن ومقاتل: (هِيَ فَارسُ وَالرُّومُ) وَكَانَتِ الْعَرَبُ لاَ تَقْدِرُ عَلَى قِتَالِ فَارسَ وَالرُّومَ، وَفَتْحِ مَدَائِنِهَا حَتَّى قَدِرُواْ عَلَيْهَا بالإسْلاَمِ. وقال قتادةُ: (هِيَ مَكَّةُ)[٥]، وقال عكرمةُ: (هِيَ خَيْبَرُ). وقولُهُ تعالى

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية: ج ٣ ص٣٥١. والبيهقي في دلائل النبوة: ج ٤ ص٢٣١-٢٣٢. وذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٠٦-١٢٠٧.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٥١.

(٣) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٥١.

(٤) بمعناه، قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٦٧.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٢١).

(قَدْ أَحَـاطَ الله بِـهَا) أي أحـاطَتْ قدرتـهُ بـها وبأهلِـها، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ ؛ كلِّ شيءٍ من فتحِ القُرَى والنصرِ وغيرِ ذلك قديرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ ؛ يعني أسَداً وغطفـانَ الذين أرَادُوا نَهب ذراري المسلمين فانْهَزَمُوا عنكم لأنَّ الله ينصرُكم عليهم، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ اللهِ خَذلَـهُ اللهُ وَلَمْ يَنْصُرْهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ ؛ أي سُنة اللهِ الـتي قـد خلَتْ من قبلُ في نَصرِ أوليائـهِ وقـهرِ أعدائـه؛ أي هـذه سُنَّتي في أهـلِ طاعـةٍ وأهـلِ معصيـة أنصُـر أوليـائي وأخـذلُ أعدائـي، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ ؛ لحكـمِ الله، ﴿تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ ، تغييراً.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ؛ أوَّلُ هذه الآيةِ يدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى منعَ أيدِي أهلِ مكَّة يومَ الحديبيةِ عن قتالِ المسلمين بالرُّعب، ومنعَ أيدينا عن قتالِهم بالنَّهي.

وَقِيْلَ: إنَّ المؤمنين لم يُنهَوا عن قتالِهم يومئذٍ، ولكن لم يقدِّرْ الله ذلك للمؤمنـين إبقاءً للمؤمنين المستضعَفين الذين كانوا في أيدِي المشركين كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ .

وقولهُ تعالى: (مِنْ بَعْدِ أنْ أظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ)، قال أنـسُ ﷺ: (وَذلِـكَ أنَّ ثَمَـانِينَ رَجُلاً مِنْ أهْلِ مَكَّةَ هَبَطُـوا عَلَـى رَسُول اللهِ مِـنْ جَبَـلِ التَّنْعِيـم عِنْـدَ صَـلاَةِ الْفَجْـرِ مُتَسَلِّحِينَ، يُرِيدُونَ غِرَّةَ[1] النَّبِيِّ ﷺ عَـامَ الْحُدَيْبِيَـةِ، فَـأَخَذهُمْ رَسُـولُ اللهِ وَأعْتَقَـهُمْ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ) (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأيْدِيَكُمْ عَنهُمْ ببَطْنِ مَكَّةَ

(١) الغِرَةُ (بالكسر): الخدعة والغفلـة، أي يريـدون أن يجـدوا غفلـة مـن الاسـتعداد والتـأهب مـن الرسول ﷺ وأصحابه لينالوا منهم.

مِنْ بَعْدِ أنْ أظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ)[(١)].

وقال ابنُ عبَّاس: (بَعَثَتْ قُرَيْشُ أرْبَعِينَ رَجُلاً أوْ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنْهُمْ، وَأمَرُوهُمْ أنْ يَطُوفُوا بعَسْكَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ لِيُصِيبُوا لَهُمْ مِنْ أصْحَابِهِ أحَداً، فَأُخِذُوا فَأُتِيَ بهِمْ رَسُولُ اللهِ، فَعَفَا عَنْهُمْ وَخَلَّى سَبيلَهُمْ، وَقَدْ كَانُوا رَمَوا فِي عَسْكَرِ رَسُولِ اللهِ بالْحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). (هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ)[(٢)] أي هُمُ الذين كفَرُوا بمُحَمَّدٍ والقرآنِ، يعني كفَّارَ مكة، وصَدُّوكم عن المسجدِ الحرام أن تطُوفوا به للعُمرة ويحلوا من عمرتِكم.

وقولهُ تعالى (وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً) أي وصَدُّوا الهديَ مَمْنُوعاً أن يبلغَ مَحِلَّهُ الذي إذا صارَ إليه حلَّ نحرهُ وهو الحرمُ، وكان النبيُّ ﷺ ساقَ في ذلك العام سَبعين بَدْنَةً إلى مكَّة. (مَعْكُوفاً) في اللغة هو الممنوعُ عن الذهاب في جهته بالإقامةِ في مكانه، يقالُ: عَكَفَ على الأمر عكوفاً، واعْتَكَفَ في المسجدِ إذا أقامَ به.

ومعنى الآيةِ: هم الذين كفَرُوا وصدُّوكم عن المسجدِ الحرام، وصدُّوا الهديَ وهي البُدْنُ التي ساقَها رسولُ الله ﷺ وكانت سَبعين بَدْنَةً معكوفاً أي مَحْبُوساً أن يبلُغَ مَحِلَّهُ أي مسجدَهُ، وهذه الآيةُ دلالةٌ على أن مَحِلَّ الهدي الحرمُ، ولو كان محلهُ غيرُ الحرمِ لَمَا كان مَعْكُوفاً عن بلوغِ محلِّه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: ولو تطَأُوا رجالاً مُؤمِنين ونساءً مُؤمِنات مُقيمَات بمكَّة لم تعلَمُوهم فتقتلوهم، ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم ﴾ ، قِبلَهم، ﴿ مَّعَرَّةٌۢ ﴾ ؛ أي عَيْبٌ ومسَبَّة في العرب بأنَّكم قتَلتُم أهلَ دينِكم، ويقالُ: أراد بالْمَعَرَّةِ الغَمَّ والجزعَ. وجوابُ (لَوْلاَ) محذوفٌ تقديرهُ:

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الجهاد: باب الآية: الحديث (١٣٣/ ١٨٠٨). وأبو داود في السنن: كتاب الجهاد: الحديث (٢٦٨٨). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٢٦٤)، وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٤٤٢٤) وفيه إسناد مجهول غير متهم عند محمد بن إسحق.

لولا ذلك لدَخلتُم على أهلِ مكَّة ولوطأتموهم لَيلاً ولضَربتُم رقابَ المشـركين بنَصرنـا إيَّاكم، ولكنَّ اللهَ منعَ من ذلك كراهةَ وطءِ المؤمنين المستضعَفين الذيـن كـانوا بمكَّـة، والمؤمناتِ بالقتلِ لأنَّهم لو دخَلُوا مكَّة لم يتميَّز لهم المؤمنون من الكفَّار، فلم يأمَنوا أن يَقتُلوا المؤمنين.

وَقِيْلَ: المراد بالْمَعَرَّةِ الإثمُ والدِّية والكفَّارَةُ، إلا أن الصحيح[١] ما ذكرنـاهُ مـن قبلُ؛ لأنه لا خلافَ بين العلماءِ أنَّ المسلمين إذا قصَدُوا[٢] حِصْناً من حُصونِ الكفـار وقاتلهم وأصَابُوا من في الحصنِ من أطفالِ الكفَّار ومن أسَارى المسـلمين أنـه لا إثـمَ عليهم ولا ديَّة ولا كفارة، ولقد حاصرَ رسولُ الله ﷺ أهلَ الطائفِ ورمَاهم بالمنجنيقِ مع نَهْيِهِ عن قتلِ النساء والولدان[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ موضعهُ التقديمُ، تقديرهُ: لولا أن تُطَأُوهم بغيرِ علم، ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ اللامُ متعلِّقة بمحذوفٍ دلَّ عليه معنَـى الكلامِ على تقدير: حالَ بينَكم وبينهم (لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَـنْ يَشَـاءُ) يعـني مَـن أسلمَ مِن الكفَّار بعـدَ الصُّلـح، ورحمـةُ الله جنَّتـهُ، قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: لو تَميَّزَ المؤمنون عـن الكفَّـار لعَذبنا الكفارَ عَذاباً أليماً يعني بالقتلِ والسَّبي بأيدِيكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾ قال مقاتلُ: (إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْحُدَيْبِيَةَ وَمَعَهُ الْهَدْيُ، قَالَ كُفَّارُ مَكَّةَ: قَتَلَ مُحَمَّـدٌ أبْنَاءَنَا وَإخْوَانَنَا، ثُمَّ أتَانَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا فِي مَنَازِلِنَا، فَتُحَدِّثُ الْعَرَبُ أنَّـهُمْ دَخَلُـوا عَلَيْنَـا عَلَى رَغْمِ آنَافِنَا، واللاَّتِ وَالعُزَّى لاَ يَدْخُلُ عَلَيْنَا. فَهَذِهِ الْحَمِيَّةُ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّـةِ الَّتِـي دَخَلَتْ قُلُوبَهُمْ)[٤].

---

(١) في المخطوط: (الآن الصحيح).

(٢) في المخطوط: (قصد).

(٣) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص١٢٦.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٥٢-٢٥٣ مع اختلاف في بعض ألفاظه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ حتى لم يدخلوا، ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ؛ وهو كلمةُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، الكلمةُ التي يُتَّقي بها من الشِّرك.

والحميَّةُ في اللغة: هي الأَنَفَةُ التي تَحمِي الإنسان كأنَّ قُلوبَهم حَمِيَّةٌ لِمَعصِيَةِ اللهِ، فأنزلَ اللهُ بدلُ ذلك على قلب نبيِّه ﷺ وعلى قلوب المؤمنين من الطُّمأنينةِ والسُّكون والوقَار والهيبةِ، وألزَمَهم توحيدَ اللهِ والإيمان برسولهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ ؛ أي كانُوا أحَقَّ بكلمةِ التوحيد من كفَّار مكَّة وكانوا أهلَها في علمِ الله تعالى مستحقِّين لها في الدُّنيا، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ من أمرهم، ﴿ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ .

وعن وعثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لاَ يَقُولُهَا عَبْدٌ حَقّاً مِنْ قَلْبهِ إلاَّ حَرَمَهُ عَلَى النَّار]، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: (أنَا أحَدِّثُكَ بهَا، هِيَ كَلِمَةُ الإخْلاَصِ الَّتِي أَلْزَمَهَا اللهُ مُحَمَّداً وَأصْحَابَهُ وَهِيَ كَلِمَةُ التَّقْوَى)[(١)].

وقال عطاءُ الخراساني: (هِيَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ)[(٢)]. وعن عليٍّ رضي الله عنه أنْ سُئِلَ عَنْ كَلِمَةِ التَّقْوَى فَقَالَ: (هِيَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَاللهُ أكْبَرُ)[(٣)]، وهو قولُ ابن عمر[(٤)]. وقال عطاءُ بن رَباح: (هِيَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[(٥)].

وَقِيْلَ:إنَّ الْحَمِيَّةَ التي جعلَها الكفارُ في قلوبهم، هي مَا رُوِيَ: أنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أنْ يَكْتُبَ لَهُمْ بكِتَاب الصُّلْحِ، قَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: [أكْتُبْ: بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: أمَّا الرَّحْمَنُ فَلاَ نَدْري مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: باسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لاَ يَكْتُبُهَا إلاَّ بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٥٣٦؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد عن حمران مولى عثمان).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٥٤).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٤٦) بأسانيد.
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٥٥).
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٥٨).

فَقَالَ ﷺ لِعَلِيٍّ: [اُكْتُبْ: باسْمِكَ اللَّهُمَّ، ثُمَّ اكْتُبْ: هَذا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّـدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ]. فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرو: وَاللهِ لَوْ نَعْلَمُ أنَّكَ رَسُـولُ اللهِ مَـا صَدَدْنَـاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلاَ قَاتَلْنَاكَ، لَكِنِ اكْتُبْ باسْمِكَ وَاسْمِ أبيكَ، فَقَالَ ﷺ: [إنِّي لَرَسُـولُ اللهِ وَلَقَدْ كَذبْتُمُونِي].

وَقَالَ لِعَلِيٍّ ﷺ: [اُمْحُ رَسُولَ اللهِ ﷺ] فَقَالَ عَلِيٌّ: لاَ أمْحُـوكَ يَـا رَسُـولَ اللهِ ﷺ، فَمَحَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: [اُكْتُبْ: هَذا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ سُـهَيْلَ ابْنَ عَمْرو عَلَى وَضْعِ الْحَرْب بَيْنَ النَّاسِ بكَفٍّ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أنَّهُ مَـنْ قَـدِمَ مَكَّةَ مِنْ أصْحَاب مُحَمَّدٍ حَاجّاً أوْ مُعْتَمِراً أوْ يَبْتَغِي مِنْ فَضْلِ اللهِ فَهُوَ آمِنٌ عَلَـى دَمِـهِ وَمَالِهِ. وَمَنْ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ قُرَيْشٍ مُجْتَازاً إلَى مِصْرَ أو الشَّـامِ فَـهُوَ آمِـنٌ عَلَـى دَمِـهِ وَمَالِهِ][(١)].

فهذه الحميَّةُ التي في قلوبهم، يعـني الأنَفَـةَ مـن الاسـتفتاح ببسْـمِ اللهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ، ومِن قولهِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ ﴾ ؛ وذلك أنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ رَأى فِي الْمَنَامِ وَهُوَ بالْمَدِينَةِ قَبْلَ أنْ يَخْرُجَ إلَى الْحُدَيْبيَةِ كَأنَّهُ هُـوَ وَأصْحَابُـهُ حَلَقُوا وَقَصَّرُوا، فَأخْبَرَ بذلِكَ أصْحَابَهُ فَفَرِحُـوا وَحَسِـبوا أنَّـهُمْ دَاخِلُـوا مَكَّـةَ عَامَـهُمْ ذلِكَ، وَقَالُوا: إنَّ رُؤْيَةَ النَّبِيِّ ﷺ حَقٌّ.

فَلَمَّا رَجَعَ وَأصْحَابُهُ مِنَ الْحُدَيْبيَةِ وَلَمْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ، قَـالَ الْمُنَـافِقُونَ: وَاللهِ مَـا حَلَقْنَا وَلاَ قَصَّرْنَا وَلاَ دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ[(٢)]. فأنزلَ اللهُ الآيَةَ وأخبرَ أنه أرَى رسـولَ اللهِ الصِّـدقَ في منامـهِ، وأنَّـهم يدخلونَـهُ فقـالَ اللهُ : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ ؛ يعني العامَ المقبل، ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾ ؛ قال أبو عُبيدة: (إنَّ مَعْنَى: إنْ شَاءَ اللهُ) حَيْثُ أريَ رَسُولَ اللهِ فِي الْمَنَامِ. وقال أبو العبَّاس أحمدُ بن يحيى: (اسْتَثْنَى اللهُ فِيْمَـا يَعْلَـمُ، لِيَسْتَثْنِي الْخَلْقُ فِيْمَا لاَ يَعْلَمُونَ)[(٣)].

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصلح: الحديث (٢٦٩٩).
(٢) أخرجه الطبري بمعناه في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٦٤).
(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٩٠؛ قال القرطبي: (قاله ثعلب) وثعلب هو أبو العبـاس أحمد بن يحيى المعروف بـ (ثعلب).

وَقِيْلَ: معناهُ: بمشيئةِ اللهِ، وقال بعضُهم: هذا اللفظُ حكايةُ الرُّؤيا التي رَآها النبيُّ ﷺ، وذلك أنَّهُ رأى في المنامِ أنَّ ملكاً يُنادي: (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ). وَقِيْلَ: إنما كان ذلك تأديباً للعبادِ لِيَدخُلوا كلمةَ الاستثناءِ فيما يُخبرونَ عنه في المستقبلِ من نفيٍ وإثبات، قوله: ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ ؛ أي آمِنين من العدوِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ ؛ قَريباً أنَّهم يدخُلون مكَّة إلى أنْ يبلُغوا آخرَ النُّسُكِ، ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ ؛ العدوَّ، بخلافِ عامِ الحديبية. فيه دليلٌ أن الحلقَ والتقصيرَ قُرْبَةٌ في الإحرامِ من حيث إن الإحلالَ يقعُ بهما، وفيه دليلٌ أن المحرمَ بالخيار عند التحليلِ من الإحرام إنْ شاءَ حَلَقَ وإنْ شاء قصَّرَ. وفي الحديثِ: [أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا لِلْمُحَلِّقِينَ ثَلاَثاً، وَلِلْمُقَصِّرِينَ مَرَّةً].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ تَخَافُونَ) أي لا تخافُون من المشركين، ﴿ فَعَلِمَ ﴾ ؛ اللهُ ما في تأخيرِ الدُّخول عامَ الحديبيةِ من الخيرِ والصَّلاحِ، ﴿ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ ؛ أنتم، ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي من قبلِ الدُّخول، ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ يعني فتحَ خيبر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ ؛ أي أرسلَ رسولَهُ بالطريقِ المؤدِّي الى الجنَّة ودينِ الإسلام لِيُظهرَ دينَ الإسلامِ على الأديان كُلِّها بالحجَّة والغلَبَة، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ، على نبُوَّتكَ ورسالتكَ إنْ لم يشهَدْ سُهَيلُ وأمثالهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ هذا مبتدأ وخبرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ ؛ أي والَّذين معَهُ من المؤمنين أشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّار، غِلاَظٌ عليهم، والأشِدَّاءُ جمعُ الشَّديدِ، وهو قويٌّ في دينِ الله تعالى، القويُّ على أعداءِ الله، كانوا لا يَميلُونَ إلى الكفَّار لقَرابَةٍ ولا غيرِها، بل أظهَرُوا لهم العداوةَ في الدينِ، وكانوا على الكفَّار كالأسَدِ على فرسهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي مُتوادِدُون فيما بينَهم، مُتعَاطِفُون حتى أنَّهم كانوا بعضَهم لبعضٍ كالوالدِ لولدِه، والعبدِ لسيِّدهِ، وقولهُ تعالى: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا

سُجَّدًا﴾ ؛ أي رَاكعين وساجِدين يُكثرون الصلاةَ للهِ، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ ؛ يعني الجنَّةَ، ورضَى اللهِ تعالى.

قولهُ: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ ؛ أي علامةُ التهَجُّد ظاهرةٌ على وجوهِهم من كثرَةِ السُّجود بالليلِ، والمعنى يتبيَّن في وُجوهِهم أثرُ السَّهَر، قال الضحَّاك: (إذا سَهِرَ أصْبَحَ مُصْفَرّاً)[(١)]، وقال عطيَّةُ: (مَوَاضِعُ السُّجُودِ أشَدُّ بَيَاضاً فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[(٢)]. وقال مجاهدُ: (يَعْنِي الأَثَرُ: الْخُشُوعُ وَالتَّوَاضُعُ وَالسَّمْتُ الْحَسَنُ)[(٣)]. وقال عكرمةُ:(هُوَ التُّرَابُ عَلَى الْجِبَاهِ لأَنَّهُمْ يَسْجُدُونَ عَلَى التُّرَاب لاَ عَلَى الثِّيَاب)[(٤)].

وقال الحسنُ في وصفِهم: (إذا رَأيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ مَرْضَى، وَمَا بالْقَوْمِ مَرَضٌ، وَيَقُولُ: لَعَلَّهُمْ خُولِطُوا فِي عُقُولِهِمْ، وَاللهِ لَقَدْ خَالَطَهُمْ أمْرٌ عَظِيمٌ). يريدُ بذلك ما في قلوبهم من خوفِ الآخرةِ.

وقال بعضُهم: (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُودِ) هو نورٌ يجعلهُ الله في وجوهِهم يومَ القيامةِ، يُعرَفون بتلك العلامةِ أنَّهم سجَدُوا في الدُّنيا كما قالَ اللهُ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[(٥)]، وقال النبيُّ ﷺ: [تُحْشَرُ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَار الْوُضُوءِ][(٦)].

وقال منصورُ: (سَأَلْتُ مُجَاهِدَ عَنْ قَوْلِهِ: (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُودِ) قَالَ: لَيْسَ هُوَ الأَثَرُ الَّذِي يَكُونُ فِي جَبْهَةِ الرَّجُلِ مِثْلَ رُكْبَةِ الْبَعِيرِ، فَقَدْ يَكُونُ ذلِكَ برَجُلٍ هُوَ أقْسَى قَلْباً مِنَ الْحِجَارَةِ، وَلَكِنْ هُوَ نُورٌ فِي وُجُوهِهِمْ مِنَ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢١٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٧٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٨٠).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢١٥.

(٥) آل عمران / ١٠٦ .

(٦) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: باب الحشر: الحديث (٦٥٢٤ و٦٥٢٥). ومسلم في الصحيح: كتاب الجنة وصفة نعيمها: باب فناء الدنيا: الحديث (٥٧/ ٢٨٦٠).

الْخُشُوعِ)[١]. وقال ابن جُريج: (هُوَ الْوَقَارُ)، وقال سَمُرة: (هُوَ الْبَهَاءُ)، وقال سفيانُ:(يُصَلُّونَ بالليْلِ، فَإذا أصْبَحُوا عُرِفَ ذلِكَ فِي وُجُوهِهِمْ؛ بيانهُ قولهُ ﷺ: [مَنْ كَثُرَتْ صَلاَتُهُ بالليْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بالنَّهَار][٢]. ورُوي في بعضِ الأخبار: أنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا نَارُ أنْضِجِي، يَا نَارُ أحْرِقِي وَمَوْضِعَ السُّجُودِ لاَ تقربي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ ؛ أي ذلك الذي ذكرَهُ في القرآن مَن وصفهم هو ما وُصِفوا به في التَّوراةِ، ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ ﴾ ؛ أيضاً، ثم ذكَرَ اللهُ وَصْفَهم في الإنجيل: ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾ ؛ أي سبيلَهُ، وقال ابنُ زيدٍ:(أوْلاَدَهُ). والشَّطْأُ: فِرَاخُ الزَّرعِ، يقالُ: الشَّطْأُ الزَّرْعُ أنْ يُخرِجَ سَبْعاً أو ثمانياً أو عَشْراً، وهذا مثَلٌ ضربَهُ اللهُ لأصحاب النبيِّ ﷺ، يعني أنَّهم يكُونون قَليلاً ثم يَزدَادون ويَكثرون ويَقْوَوْنَ، قال قتادةُ: (مَكْتُوبٌ فِي الإنْجِيلِ: أنَّهُ سَيَخْرُجُ قَوْمٌ يَنْبُتُونَ نَبَاتَ الزَّرْعِ، يَأْمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)[٣].

قرأ العامَّةُ (شِطْأهُ) بإسكانِ الطَّاء، وقرأ بعضُ أهلِ مكَّة والشامِ بفتَحِها، وقرأ يحيى بن وثَّاب (شَطَاْهُ) مثل عصَاهُ، وقرأ الجحدري: (شِطْهُ) بلا همزةٍ، وكلُّها لغاتٌ[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ ؛ أي أعانَهُ الشَّطْأُ وقوَّاهُ وشَدَّهُ، مأخوذٌ من المؤازرةِ وهي المعاوَنَةُ، والأَزْرُ: الظاهرُ، والوزيرُ الْمُعِينُ، وأعانَهُ الزرعُ، الشطُ أنْ يَخرُجَ من الشَّطْأ ثمانٌ وتسع وعشرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ ؛ أي غَلُظَ ذلك الزَّرعُ وتقَوَّى، ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ ؛ أي قامَ على قَصَبهِ وسَاوَى الصِّغَارُ والكبارَ حتى استوَى بعضهُ مع

---

(١) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٨٢) عن منصور عن مجاهد.

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب إقامة الصلاة: باب ما جاء في قيام الليل: الحديث (١٣٣٣). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٩٣؛ قال القرطبي: (وقال ابن العربي: ودسَّهُ قوم في حديث النبي ﷺ على وجه الغلط، وليس فيه عن النبي ﷺ ذكر بحرف).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٥٠٠).

(٤) ذكرها أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٩٥.

بعض، وصارَ الفرعُ مثلَ الأمِّ. والسُّوقُ: جمعُ سَاق، وهو قصبَةُ الزَّرعِ، وساقُ الشَّجرةِ حاملةُ الشَّجرةِ. ويجوزُ أن يكون المرادُ بالسَّاق: الكَعْبُ، وكلَّما ازدادَ الزَّرعُ كَعْباً ازدادَ قوَّةً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ ؛ أي يصيرُ بحالٍ يُعجِبُ الْحُرَّاثَ.

وهذا مثَلٌ ضربَهُ اللهُ تعـالى لِمُحَمَّـدٍ وأصحابـهِ، فـالزَّرْعُ مُحَمَّـدُ ﷺ، والشَّـطْأُ أصحابهُ والمؤمنون حولَهُ، وكانُوا في ضَعْفٍ وقلَّةٍ كما كان أوَّلُ الزرعِ دَقيقـاً ثـم غَلُـظَ وقَوِيَ وتلاحَقَ، وكذلك المؤمنون قَوَّى بعضُهم بعضاً حتى استَغلَظُوا واسـتوَوا علـى أمرِهم، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ؛ أي إنَّما كثَّرَهم وقوَّاهُم ليكونوا غَيظاً للكافرين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ ؛ قال الزجَّاجُ: (مِنْهُمْ) لِلْجِنْسِ وَلَيْسَ يُرِيدُ بَعْضَهُمْ؛ لأَنَّهُمْ كُلُّـهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَالأَجْرُ الْعَظِيمُ هُوَ الْجَنَّةُ)[1].

آخر تفسير سورة (**الفتـح**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٢٤-٢٥؛ قال الزجاج: (فيه قولان: أن تكون ﴿منهم﴾ هـهنا تخليصاً للجنس من غيره كما نقول: أنفق نفقتـك مـن الدراهـم لا مـن الدنانـير، المعنـى اجعـل نفقتك من هذا الجنس، وكما قال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَـانِ﴾ لا يريـد أن بعضـها رجـس وبعضها غير رجس، ولكن المعنى اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان.

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَسِتٌّ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَثَلاثُمِائَةٍ وَثَلاثٌ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانِي عَشْرَةَ آيَةً.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ الْحُجَرَاتِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ عَصَاهُ][(١)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ أي لا تقطعُوا أمراً دونَ اللهِ ورسولهِ، ولا تعجَلُوا بهِ، وقالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في قولهِ (لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللهِ وَرَسُولِهِ): (أيْ تَصُومُوا قَبْلَ أنْ يَصُومَ نَبيُّكُمْ ﷺ)[(٢)] ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ؛ في تَضييعِ حقِّه ومخالفةِ أمرِه، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ ؛ لأقوالِكم، ﴿ عَلِيمٌ ۝١ ﴾ ؛ بأفعالِكم، وقال جابر:(نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللهِ وَرَسُولِهِ) فِي النَّهْيِ عَنِ الذبْحِ يَوْمَ الأَضْحَى قَبْلَ الصَّلاَةِ)[(٣)].

وقالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (نَزَلْنَ فِي النَّهْيِ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الشَّكِّ)، وعن مسروقٍ قالَ:(دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي يَوْمِ الشَّكِّ، فَقَالَتْ لِلْجَارِيَةِ:

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٢٦٩، وهو من رواية الثعلبي وابن مردويه والواحدي من طرق عن أبي بن كعب. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٦٩.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط: ج ٣ ص٣٤٤: الحديث (٢٧٣٤). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٥٤٧ عزاه السيوطي للطبراني في الأوسط وابن مردويه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٥١٦) عن الحسن وقتادة. وأصله عن أنس وجندب والبراء رضي الله عنهم كما عند البخاري في الصحيح: كتاب الأضاحي: الحديث (٥٥٦١ و٥٥٦٢ و٥٥٦٣).

اسْقِيهِ، فَقُلْتُ: إنِّي صَائِمٌ، فَقَالَتْ: قَدْ نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ صَوْمِ هَذا الْيَوْمِ، وَفِيْـهِ نَـزَلَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللهِ وَرَسُولِهِ)(١).

وعن الحسن البصريِّ قال: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الذبْـحِ يَـوْمَ الأَضْحَـى، كَأَنَّـهُ قَالَ: لاَ تَذْبَحُوا قَبْلَ ذَبْحِ النَّبِيِّ ﷺ، وَذلِكَ أنَّ نَاساً مِنَ الْمُسْلِمِينَ ذَبَحُـوا قَبْـلَ صَـلاَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَرَهُمْ أنْ يُعِيدُوا الذبْحَ)(٢).

وعن ابنِ عبَّاس ﷺ قال: (سَبَبُ نُزُول هَذِهِ الآيَةِ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَهْطاً مِنْ أصْحَابِهِ وَهُمْ سَبْعٌ وَعُشْرُونَ رَجُلاً، وَأمَّرَ عَلَيْهِمُ الْمُنْذِرَ بْنَ عَمْرٍو، وَأمَرَهُمْ أنْ يَسِيرُوا إلَى بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، وَأنْ يَمُرُّوا عَلَى بَنِي سُلَيْمٍ، فَبَاتُوا عِنْدَهُمْ، فَلَمَّا كَـانَ عِنْـدَ الرَّحِيلِ، أضَلَّ أرْبَعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعِيراً لَهُمْ، فَاسْتَأْذَنُوا الْمُنْذِرَ أنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْهُ حَتَّـى يَطْلِبُوهُ، فَأَذِنَ لَهُمْ.

وَسَارَ الْمُنْذِرُ بِمَنْ بَقِيَ مَعَهُ، وَكَـانَتْ بَنُـوا سُـلَيْمٍ دَسَّـتْ إلَـى بَنِـي عَـامِرٍ خَـبَرَ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَعَدُّوا لِقِتَالِهِمْ وَاجْتَمَعُوا لَهُمْ، فَسَارَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلَى بِئْرِ مَعُونَةَ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالاً شَدِيداً وَقُتِلَ الْمُنْذِرُ وَأصْحَابُهُ، وَقُتِـلَ أحَـدُ الأَرْبَعَـةِ وَرَجَعَ الثَّلاَثَةُ إلَى الْمَدِينَةِ، فَلَقُوا رَجُلَيْنِ خَـارِجَيْنِ مِـنَ الْمَدِينَـةِ فَقَـالُوا: مِمَّـا أنْتُمَـا؟ فَقَالاَ: مِنْ بَنِي عَامِرٍ، فَقَالُوا: إنَّهُمَا مِنْ عَدُوِّنَا، فَقَتَلُوهُمَا وَأخُذوا سَلْبَهُمَا.

وَجَاءُوا إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذكَرُوا لَهُ الْقِصَّةَ، فَقَالَ لَهُمْ ﷺ: [بِئْسَـمَا فَعَلْتُـمْ، إنَّهُمَا مِنْ أهْلِ مِيثَاقِي مَنْ بَنِي سُلَيْمٍ، وَهَذا الَّذِي مَعَكُمْ مِنْ سَلْبِهِمَا مِنْ كِسْوَتِي].

وَجَاءَ السُّلَيْمِيُّونَ يَطْلُبُونَ الْقَوَدَ، فَقَالَ لَـهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: [إنَّ صَـاحِبَيْكُمْ اعْتَزَمَـا إلَى عَدُوِّنَا، فَلاَ قَوَدَ فِيهِمَا وَلَكِنَّا نُؤَدِّي إلَيْكُمُ الدِّيَةَ] فَأمَرَ عليه السلام أنْ تُقْسَمَ دِيَتَهُمَا عَلَى أهْلِ مِيثَاقِهِ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)(٣).

---

(١) ينظر: الرقم السابق.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٥١٦).

(٣) أخرج مسلم قصته في الصحيح: كتاب الإمارة: باب ثبوت الجنة للشهيد: الحديث (١٤٧/ ٦٧٧) بلفظ مختلف عنه. والقصة أيضاً في السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص١٩٤٠.

والمعنى: لا تُقدِّموا بقولٍ ولا فعلٍ حتى يكون النبيُّ ﷺ هو الذي يأمُركم في ذلك. وَقِيْلَ: إنَّ ناساً كانوا يقولون: لو أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ بكذا ونَهى عن كَذا، فقِيلَ: لا تُقدِّموا بين يدَي اللهِ ورسولهِ، فإنَّ اللهَ أعلمُ بصلاحِ خَلقهِ.

وقرئَ (لاَ تَقَدَّمُوا) بفتحِ التاء والدال، فيجوزُ أن يكون معناهما واحداً، يقالُ: قدَّمتُ في كذا وتَقدَّمتُ فيه، كما يقالُ عَجِلتُ في الأمرِ وتعَجَّلتُ فيه بمعنى واحدٍ، ويجوز أنْ يكون معنى الضمِّ: لا تُقدِّمُوا كلامَكم ولا فعلَكم وما أنتم صانِعون في أمرٍ من الأمُور قبلَ أن يأمُركم اللهُ ورسوله. ومعنى قراءةِ الفتحِ لا تَقَدَّموا بأمرٍ ولا فعلٍ بحضرةِ النبيِّ ﷺ حتى يأمُركم به.

وَقِيْلَ: إنَّها نزلت في قومٍ كانوا يحضُرون مجلسَ النبيِّ ﷺ، فإذا سُئل الرسولُ عن شيءٍ خَاضُوا فيه، وتقدَّمُوا بالفتوَى والقول، فنُهوا عن ذلك وزُجِرُوا عن أنْ يقولَ أحدٌ في شيءٍ من دينِ الله قبلَ أن يقولَ رسولُ الله.

وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: لا تمشُوا بين يدَي رسول الله ﷺ، وكذلك بينَ يدَي العُلماءِ؛ فإنَّهم ورثةُ الأنبياءِ، ودليلُ هذا ما رُوي عن أبي الدَّرداءِ ﷺ قال: رَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أمْشِي أمَامَ أبي بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: [أتَمْشِي أمَامَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلاَ غَرَبَتْ عَلَى أحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ خَيْرٌ مِنْ أبي بَكْرٍ ﷺ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾؛ رُوي: أنَّ رَهْطاً مِنْ بَنِي تَمِيمٍ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، مِنْهُمُ الأقْرَعُ بْنُ حَابسٍ وَعُطَاردُ ابْنُ الْحَاجِب وَالْحَارثُ بْنُ عَمْرٍو وَغَيْرُهُمْ، فَقَامُوا عَلَى بَاب الْمَسْجِدِ، فَنَادَى الأقْرَعُ ابْنُ حَابسٍ: يَا مُحَمَّدُ أتَأذنُ لِي فِي الْكَلاَمِ ؟ فَوَاللهِ إنَّ حَمْدِي لَزَيْنٌ وَذمِّي لَشَيْنٌ، فَقَالَ ﷺ: [كَذبْتَ! ذلِكُمُ اللهُ تَعَالَى].

---

(١) اخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٧١ بإسناده، وفيه مجهول. ووصله الخطيب في تاريخ بغداد: ج ١٢ ص٤٣٣: ترجمة (٦٩٠١). ووصله ابو نعيم من طريق آخر في حلية الأولياء: ج ١٠ ص٣٠١-٣٠٢.

ثُمَّ أذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا، فَقَالَ: [يَا مُحَمَّدُ أتَأْذنُ لِخَطِيبِنَا ؟] فَقَالَ ﷺ: [أدْعُوا إلَيَّ ثَابتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ] فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ ﷺ: [لِيَتَكَلَّمْ صَاحِبُكُمْ] فَتَكَلَّمَ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: [أجِبْ يَا ثَابتَ] فَأَجَابَهُ.

فَقَالَ الأَقْرَعُ: [إئْذنْ لِشَاعِرِنَا يَا مُحَمَّدُ] فَقَالَ ﷺ: [أدْعُوا إلَيَّ الْقَارِعَةَ] يَعْنِي حَسَّانَ، فَلَمَّا جَاءَ حَسَّانُ قَالَ ﷺ: [لِيَتَكَلَّمْ شَاعِرُكُمْ] فَلَمَّا تَكَلَّمَ، قَالَ ﷺ: [أجِبْهُ يَا حَسَّانُ] فَأَجَابَهُ، فَقَالَ عُطَارِدُ لِلأَقْرَعِ: وَاللهِ إنَّ مُحَمَّداً الْمُؤْتَى لَهُ - أيْ أعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ - فَإنَّ خَطِيبَهُ أخْطَبُ مِنْ خَطِيبِنَا، وَشَاعِرُهُ أشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا[١].

وَعَلَتِ الأَصْوَاتُ وَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَكَانَ أشَدَّهُمْ صَوْتاً وَأعْلاَهُمْ ثَابتُ بْنُ قَيْسٍ، وَكَانَ بِهِ صَمَمٌ لاَ يَكَادُ يَسْمَعُ إلاَّ أنْ يُصَاحَ بِهِ فَيُجِيبُ بِمِثْلِهِ. فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ، ونُهوا أن يَرفَعُوا أصواتَهم على صوتِ النبيِّ ﷺ تَعظِيماً له؛ لأن رفعَ الصَّوت على الإنسانِ يُوهِمُ الاستخفافَ به في ظاهرِ الحال.

وعن جابرِ بن عبدِالله[٢] قال: (لَمَّا جَاءَ بَنُو تَمِيمٍ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنَادَوا عَلَى الْبَابِ: أخْرُجْ يَا مُحَمَّدُ؛ فَإنَّ مَدْحَنَا زَيْنٌ وَذمَّنَا شَيْنٌ، قَالَ: فَخَرَجَ إلَيْهِمْ وَقَالَ: [إنَّمَا ذلِكُمْ اللهُ الَّذِي مَدْحُهُ زَيْنٌ وَذمُّهُ شَيْنٌ] قَالُوا: نَحْنُ أنَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، جِئْنَا بشَاعِرِنَا وَخَطِيبِنَا لِشَاعِرِكُمْ وَنُفَاخِرُكَ، فَقَالَ ﷺ: [مَا بالشِّعْرِ بُعِثْتُ وَلاَ بالْفَخَارِ أمِرْتُ، وَلَكِنْ هَاتُوا]. فَقَالَ لِشَابٍّ مِنْ شَبَابهِمْ: قُمْ يَا فُلاَنُ فَاذْكُرْ فَضْلَكَ وَفَضْلَ قَوْمِكَ، فَقَامَ فَقَالَ:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنَا خَيْرَ خَلْقِهِ، وَآتَانَا أمْوَالاً نَفْعَلُ فِيْهَا مَا نَشَاءَ، فَنَحْنُ مِنْ خَيْرِ أهْلِ الأَرْضِ وَأكْثرِهِمْ عُدَّةً وَسِلاَحاً وَمَالاً، فَمَنْ أنْكَرَ عَلَيْنَا قَوْلَنَا فَلْيَأْتِ بقَوْلٍ هُوَ أحْسَنُ مِنْ قَوْلِنَا، وَفِعَالٍ هِيَ خَيْرٌ مِنْ فِعَالِنَا.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص٢٠٦-٢٠٨: قدوم وفد بني تميم ونزول سورة الحجرات. وينظر: ج ٤ ص٢١٢.

(٢) الحديث بطوله في كنز العمال: الغزوات والوفود: الحديث (٣٠٣١٦)، ونسبه إلى الروياني وابن منده.

فَقَالَ ﷺ لثابتِ بن قَيسٍ[١]، وكَانَ خَطِيبَ رَسُول اللهِ ﷺ: [قُمْ] فقَامَ فقَالَ: الْحَمْدُ للهِ أحْمَدُهُ وَاَسْتَعِينُهُ وَأؤْمِنُ بِهِ وَأتَوكَّلُ عَلَيْهِ، وَأشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، دَعَا الْمُهَاجِرِينَ مِنْ بَنِي عَمِّهِ أحْسَنَ النَّاسِ وُجُوهاً فَأعْظَمَهُمْ أخْلاَقاً فَأجَابُوهُ، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنَا أنْصَارَهُ، وَرِدَّ اللهُ لِرَسُولِهِ وَعَزَّ الْمَدِينَةَ. فَنَحْنُ نُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، فَمَنْ قَالَهَا مَنَعَ مِنَّا مَالَهُ وَنَفْسَهُ، وَمَنْ أبَاهَا قَتَلْنَاهُ، وَكَانَ قَتْلُهُ فِي اللهِ عَلَيْنَا هَيِّناً، أقُولُ قَوْلِي وَاَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

فَقَالُوا لِشَابٍّ مِنْهُمْ: قُمْ يَا فُلاَنُ فَقُلْ أبْيَاتاً تَذْكُرُ فِيهَا فَضْلَكَ وَفَضْلَ قَوْمِكَ، فَقَامَ الشَّابُّ[٢] وَقَالَ:

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلاَ حَيٌّ يُعَادِلُنَا ... مِنَّا الرُّؤُوسُ وَفِينَا تَقْسَمُ الرِّبَعُ
وَنُطْعِمُ النَّاسَ عِنْدَ الْقَحْطِ كُلَّهُمُ ... لَحْمَ الشِّوَاءِ اذا لَمْ يُؤنَس الْقَزَعُ
إنَّا أبَيْنَا وَلاَ يَأْبَى لَنَا أحَدٌ ... إنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ

فَقَالَ ﷺ: [أجِبْهُ يَا حَسَّانُ] فَقَالَ:

إنَّ الذوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإخْوَتِهِمْ ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ[٣]
يَرْضَى بِهِم كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ ... تَقْوَى الإلَهِ وكُلَّ الْخَيرِ يَصْطَنِعُ

ثُمَّ قَالَ حَسَّانُ أيْضاً:

نَصَرْنَا رَسُولَ اللهِ وَالدِّينَ عَنْوَةً ... عَلَى رَغْمِ عَاتٍ مِنْ مِعَدٍّ وَحَاضِرِ
بضَرْب كَإيْزَاعِ الْمَخَاضِ مَشَاشُهُ ... وَطَعْنٍ كَأفْوَاهِ اللِّقَاحِ الصَّوَادِرِ

---

(١) في المخطوط: (لقيس بن ثابت). وهو تحريف، والصحيح كما أثبتناه.

(٢) شعر الزبرقان بن بدر في الفخر بقومه، كما في السيرة النبوية: ج ٤ ص٢٠٨. و(القزعُ): السحاب الرقيق. يريد إذا لم تمطرهم السماء، فأجدبت أرضهم. و(وفينا تقسم الرِّبع)، أي إننا رؤساء وسادة، وذلك لأن الرئيس كان ياخذ ربع الغنيمة في الجاهلية.

(٣) الذوائب: السادة، وأصله من ذوائب المرأة، وهي غدائرها التي تعلو رأسها، وأصله كما في المخطوط: (إن الذوائب من فهر هم شرعوا لقومهم سنة للناس). وكأن فيه سقط، وضبطناه كما في السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص٢١٠.

وَسَـلْ أُحُـداً لَمَّـا اسْـتَقَلَّتْ شِـعَابُهُ ... بضَـرْبٍ لَنَـا مِثْـلَ اللُّيُـوثِ الْخَـوَادِرِ
أَلَسْنَا نَخُـوضُ الْخَـوْضَ فِـي حَوْمَـةِ الْوَغَـى ... إذا طَـابَ وِرْدُ الْمَـوْتِ بَيْـنَ الْعَسَـاكِرِ
وَنَضْـرِبُ هَـامَ الدَّارِعِـينَ وَنَنْتَمِـي ... إلَـى حَسَـبٍ مِـنْ جِـذْمِ غَسَّـانَ قَـاهِرِ
فَلَـوْلاَ حَيَـاءُ اللهِ قُلْنَـا تَكَرُّمـاً ... عَلَىالنَّاسِ بِالْخَيفَينِ هَـلْ مِـنْ مُنَـافِرِ
فَأَحْيَاؤُنَـا مِـنْ خَـيْرِ مَـنْ وَطِـئَ الْحَصَـى ... وَأَمْوَاتُنَـا مِـنْ خَـيْرِ أَهْـلِ الْمَقَـابِرِ

فَقَالَ الأَقْرَعُ بْنُ حَابسٍ: وَاللهِ لَقَدْ جِئْتَ لأَمْرٍ مَا حَالَ حَـوْلاً، وَإنِّـي قَـدْ قُلْـتُ شِعْراً فَاسْمَعْهُ، فَقَالَ هَاتِ، فَقَالَ:

أَتَيْنَـاكَ كَيْمَـا يَعْـرِفِ النَّـاسُ فَضْلَنَـا ... إذا خَالَفُونَـا عِنْـدَ ذِكْـرِ الْمَكَـارِمِ
وَإنَّـا رُؤُوسُ النَّـاسِ فِـي كُـلِّ مَعْشَـرٍ ... وَأَنْ لَيْـسَ فِـي أَرْضِ الْحِجَـازِ كَـدَارِمِ
وَإنَّ لَنَـا الْمِرْبَـاعُ فِـي كُـلِّ غَـارَةٍ ... تَكُـونُ بنَجْـدٍ أَوْ بِـأَرْضِ التَّـهَائِمِ

فَقَالَ ﷺ: [أَجِبْهُ يَا حَسَّانُ] فَقَالَ:

بَنُـو دَارمٍ لاَ تَفْخَـرُوا إنَّ فَخْرَكُـمْ ... يَعُـودُ وَبَـالاً عِنْـدَ ذِكْـرِ الْمَكَـارِمِ
هَبِلْتُـمْ عَلَيْنَـا تَفْخَـرُونَ وَأَنْتُـمُ ... لَنَـا خَـوَلٌ مَـا بَيْـنَ ظِـئْرٍ وَخَـادِمِ[1]

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَقَدْ كُنْتَ غَنِيّاً يَا أَخَا بَنِي دَارمٍ أَنْ يُذْكَرَ مِنْكَ مَا قَـدْ ظَنَنْتَ أَنَّ النَّاسَ قَدْ نَسُوْهُ] قَالَ: فَكَانَ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ حَسَّان، ثُـمَّ رَجَعَ حَسَّانُ إلَى شِعْرِهِ، فَقَالَ:

وَأَفْضَـلُ مَـا نِلْتُـمْ مِـنَ الْمَجْـدِ وَالْعُـلاَ ... رِدَافَتُنَـا عِنْـدَ احْتِضَـارِ الْمَوَاسِـمِ[2]
فَـإنْ كُنْتُـمْ جِئْتُـمْ لِحَقْـنِ دِمَـائِكُمْ ... وَأَمْوَالِكُـمْ أَنْ تُقْسَـمُواْ فِـي الْمَقَاسِـمِ
فَـلاَ تَجْعَلُـوا للهِ نِـدّاً وَأَسْـلِمُواْ ... وَلاَ تَفْخَـرُوا عِنْـدَ النَّـبيِّ بِـدَارِمِ
وَإلاَّ وَرَب الْبَيْـتِ مَـالَتْ أَكُفُّنَـا ... عَلَىهَـامِكُمْ بالْمُرْهَفَـاتِ الصَّـوَارِمِ

---

(١) في كنز العمال: (ما بين قنٍّ وخادم).

(٢) في كنز العمال:

وَأَفْضَـلُ مَـا نِلْتُـمْ مِـنَ الْفَضْـلِ وَالْعُـلاَ ... رِدَافَتُنَـا مِـنْ بَعْـدِ ذِكْـرِ الْمَوَاسِـمِ

فَقَامَ الأَقْرَعُ وَقَالَ: إنَّ مُحَمَّداً الْمُؤْتَى لَهُ، وَاللهِ مَا أدري مَا هَـذا الأَمْـرُ؛ تَكَلَّمَ خَطِيبُنَا فَكَانَ خَطِيبُهُمْ أحْسَنَ قَوْلاً، وَتَكَلَّمَ شَاعِرُنَا فَكَانَ شَاعِرُهُمْ أحْسَنَ شِعْراً.

ثُـمَّ دَنَـا مِـنَ النَّـبِيِّ ﷺ فَقَـالَ: أشْـهَدُ أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّـكَ رَسُـولُ اللهِ، فَقَالَ ﷺ: [مَا يَضُرُّكَ مَا كَانَ قَبْلَ هَذا]. ثُمَّ أعْطَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَسَاهُمْ.

وَكَانَ قَدْ تَخَلَّفَ فِي ركَابِهِمْ عَمَرُو بْنُ الأهْتَمِ، وَكَانَ قَيْسُ بْـنُ عَـاصِمٍ يَبْغَضُـهُ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ، فَأعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثْلَ مَا أعْطَى الْقَوْمَ، فَازْدَرَى بِهِ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ (يَا أيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُـوا لاَ تَرْفَعُـوا أصْوَاتَكُـمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ)[١].

وعن أبي هُريرة ﷺ قالَ: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُـوا أصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُـمْ لِبَعْـضٍ أنْ تَحْبَـطَ أعْمَالُكُمْ وَأنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ) قَالَ أبو بَكْرٍ ﷺ: وَاللهِ لاَ أرْفَعُ أبَداً عَلَى صَـوْتِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ)[٢].

وعن ابنِ الزُّبير ﷺ أنه قالَ: (مَا حَـدَّثَ عُمَـرُ ﷺ رَسُـولَ اللهِ ﷺ بَعْـدَ ذلِـكَ فَسَمِعَ كَلاَمَهُ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ مِنْ شِدَّةِ خَفْضِ صَوْتِهِ)[٣].

وكان ثابتُ بن قيسٍ في أذُنيه صَمَمٌ وكـان جَـهُوريَّ الصَّـوتِ، وكـان إذا كلَّـمَ إنساناً جهَرَ بصَوتهِ، فرُبَّما كان يكلِّمُ رسولَ اللهِ ﷺ فيتأذى بصَوتـهِ، فلمَّـا نـزلَ قَوْلُـهُ تَعَالَى: (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أصْوَاتَكُـمْ فَـوْقَ صَـوْتِ النَّـبِيِّ وَلاَ تَجْـهَرُوا لَـهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أنْ تَحْبَطَ أعْمَالُكُمْ) أي لئَلا تحبَطَ أعمالُكم، يعني تَبطُـلَ حسنَاتُكم، جعلَ ثابتٌ يبكِي على قارعةِ الطريق، فمَرَّ به عاصمُ بـن عَـدِيٍّ فقـالَ: مَـا

---

(١) ذكره البغوي مختصراً في معالم التـنزيل: ص١٢٢٠. وأصلـه في السـيرة النبويـة: ج ٤ ص٢١٢-٢١٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: تفسير سورة الحجـرات: الحديـث (٣٧٧٢)، وقـال: هـذا حديـث صحيح الإسناد. وأخرجه في كتاب معرفة الصحابة: الحديث (٤٥٠٦) عن أبي بكر، وقال: هـذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٤ و٦. والبخاري في الصحيح: كتاب التفسـير: الحديـث (٤٨٤٥). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٢٦٦).

يُبْكِيكَ يَا ثَابتُ ؟! فَقَالَ: أخَافُ أنْ تَكُونَ هَذِهِ الآيَـةُ نَزَلَـتْ فِـيَّ، فَأخَـافُ أنْ تُحْبِـطَ عَمَلِي وَأنْ أكُونَ مِنْ أهْلِ النَّار.

فَمَضَى عَاصِمُ إلَى رَسُـول اللهِ فَـأخْبَرَهُ، فَقَـالَ: [اذْهَـبْ وَادْعُـهُ لِـي] فَدَعَـاهُ لِرَسُول اللهِ، فَقَالَ: [مَا يُبْكِيكَ يَا ثَابتُ؟] قَالَ: أنَا صَيِّـتٌ يَـا رَسُـولَ اللهِ؛ وَأخَـافُ أنْ تَكُونَ هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِيَّ، فَقَالَ ﷺ: [أمَا تَرْضَى أنْ تَعِيـشَ حَمِيـداً وَتَمُـوتَ شَـهِيداً وَيُدْخِلَكَ اللهُ الْجَنَّةَ؟] فَقَالَ: رَضِيتُ يَا رَسُـولَ اللهِ؛ لاَ أرْفَـعُ صَوْتِـي بَعْدَهَـا عَلَيْـكَ يَـا رَسُولَ اللهِ[1] . فأنزلَ اللهُ فيه وفي أبي بكرٍ ﷺ وعمر وأمثالِهم:

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ؛ أي أخلصَها واصطفَاها واختبرَها، كما يُمتحَنُ الذهبُ بالنـار فيخرجُ خَالصاً، وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أوْلَئِـكَ الَّذِيـنَ أكْـرَمَ اللهُ قُلُوبَـهُمْ). وَقِيْـلَ: أذهبَ الشهواتِ عنها.

قال الزجَّاجُ: أمَرَ اللهُ بتَبْجِيلِ نَبيِّهِ ﷺ وَأنْ يَغُضُّوا أبْصَـارَهُمْ عِنْدَمَـا يُخَـاطِبُونَ بالسَّكِينَةِ وَالْوَقَار؛ لِئَلاَّ تَحْبَطَ أعْمَالُهُمْ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فلذلك قال: فَلَمَّا كَـانَ يَـوْمُ الْيَمَامَةِ فِي حَرْب مُسَيْلَمَةَ، قَاتَلَ ثَابتُ بْنُ قَيْسٍ وَسَالِمُ مَوْلَى أبي حُذيْفَةَ قِتَالاً شَـدِيداً حَتَّى قُتِلاَ، وَاسْتُشْهِدَ ثَابتُ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ[2].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: (يَغُضُّـونَ أصْوَاتَـهُمْ) الغَـضُّ النَّقْـصُ مِـن كـلِّ شـيءٍ، قَـالَ اللهُ تَعَالَى:﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾[3]، وقولُـهُ تعـالى (امْتَحَـنَ اللهُ قُلُوبَـهُمْ لِلتَّقْـوَى) أي أخلصَـها للتَّقـوى. قَوْلُـهُ تَعَـالَى:﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي فِـي الجنَّة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٥٢٣). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٥٤٩؛ قـال السيوطي: (أخرجه ابن جرير والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٥٢٦).

(٣) لقمان / ١٩.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ وذلك: أنَّ قَوْماً مِنْ بَنِي الْعَنْبَرِ وَهُمْ حَيٌّ مِنْ تَمِيمٍ، بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إلَيْهِمْ سَرِيَّةً، وَأمَّرَ عَلَيْهِمْ عُيَيْنَةُ بْـنُ الْحُصَيْـنِ الْفَـزَّارِيُّ، فَـهَرَبُوا فَسَبَى ذرارِيهِمْ وَنِسَاءَهُمْ وَجَاءَ بهِمْ إلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَ رِجَالُهُمْ لِيُفَادُوا ذرارِيهِمْ، فَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ عِنْدَ الْقَيْلُولَةِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ نَائِمٌ.

فَلَمَّا أبْصَرَهُمُ الْعِيَالُ بَكَوا عَلَيْهِمْ، فَنَهَضُوا وَعَجَّلُوا قَبْلَ أنْ يَخْرُجَ إلَيْـهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَجَعَلُوا يُنَادُونَ: يَا مُحَمَّدُ اخْرُجْ إلَيْنَا، وَكَانَ ﷺ حِينَئِذٍ نَائِماً، فَتَأذى بأَصْوَاتِهِمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوْا فِي أيِّ حُجْرَةٍ هُوَ، فَجَعَلُوا يَطْرقُونَ عَلَى جَمِيعِ حُجُرَاتِهِ، وَكَانَ لِكُلِّ امْرَأةٍ مِنْ نِسَاءِ رَسُول اللهِ ﷺ حُجْرَةٌ وَبَيْتٌ، فَطَافُوا عَلَى جَمِيعِ الْحُجُـرَاتِ وَهُـمْ يُنَـادُونَ: اخْرُجْ عَلَيْنَا[(١)].

وقولهُ تعالى: (أكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) وصفَهم اللهُ بالجهلِ وقلَّة العقلِ وقلَّة الصبرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ ؛ يعني ولـو أنَّـهم صبَرُوا حتى تخرجَ إليهم للصَّلاة لَخلَّى سبيلَهم بغيرِ فداءٍ، فلما نادَوهُ وأيقظُـوهُ أعتَـقَ نصفَ ذراريهم وفادَى نِصفَهم بقوله تعالى (وَلَـوْ أنَّـهُمْ صَـبَرُوا) كُنـتَ تُعتِـقُ كُلَّـهم، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ لِمَن تابَ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ ﴾ ؛ وذلك: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ مُصَدِّقاً إلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَكَانَ بَيْنَـهُ وَبَيْنَـهُمْ أحَنَـةٌ[(٢)]، فَلَمَّا اتَّصَلَ خَبَرُهُ بهِمْ وَسَمِعُوا بهِ اجْتَمَعُوا لِيَتَلَقَّوهُ، فَفَرَّ مِنْهُمْ وَكَرَّ رَاجِعاً إلَى الْمَدِينَةِ، وَقَالَ لِرَسُول اللهِ ﷺ: إنَّهُمْ قَدْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ وَارْتَدُّوا عَنِ الإسْلاَمِ وَقَصَدُوا قَتْلِي.

فَبَعَثَ إلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي جَيْشٍ، وَقَـالَ لَـهُ: [انْـزِلْ بسَـاحَتِهِمْ لَيْلاً، فَإنْ رَأيْتَ مَـا يَـدُلُّ عَلَـى الإسْـلاَمِ مِـنَ الأذانِ لِلصَّـلاَةِ وَالتَّـهَجُّدِ أمْسِـكْ عَـنْ مُحَارَبَتِهِمْ، وَطَالِبْهُمْ بصَدَقَاتِهِمْ].

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢١٩.

(٢) الأَحْنَةُ: الحقدُ في الصَّدر، والجمـع: حِنَـاتٌ، والْمُوَاحَنَـةُ: المعـاداةُ. ينظـر: لسـان العـرب: ج ١ ص٨٣: (أحن).

فَلَمَّا سَارَ إلَيْهِمْ خَالِدُ لَيْلاً سَمِعَ فِيهِمُ الأَذانَ وَالتَّهَجُّدَ، فَكَفَّ عَنْهُمْ إلَى أنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ لاَ عَلَى وَجْهِ قِتَال، وَقَالُوا: قَدِ اسْتَبْطَأْنَا رِسَالَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الصَّدَقَاتِ، فَسَلَّمُوهَا إلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ[1].

وسَمَّى الوليدَ بن عُقبة فَاسقاً، لِكَذِبِهِ الذي وقعَ به. الأغَرُّ أو الفاسقُ: الخارجُ عن طاعةٍ بارتكاب كثيرٍ من الذُّنوب. وَقِيْلَ: الفاسقُ الذي لا يَستَحِي من اللهِ. وَقِيلَ: هو الكذابُ الْمُعلِنُ بالذنب. والنَّبأُ: الخبرُ عمَّا يَعظُمُ شأنهُ فيما يعملُ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ ؛ قد ذكَرنا قِراءَتين فيه في سُورة النساءِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾ ؛ أي لِئَلا تُصيبوا قوماً وهم مُسلمون، ﴿ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ ﴾ معناهُ: إعْلَمُوا أنَّ رسولَ الله لو يُجِيبُكم في كثيرٍ مما سألتموهُ لوقَعتُم في العَنَتِ وهو الإثمُ والمشقَّة. وَقِيْلَ: اتَّقُوا أن تَكذِبُوا رسولَ اللهِ وتقولوا بَاطلاً، فإنَّ اللهَ يخبرهُ فتُفتَضَحُوا، ثم قال: لو يُطِيعُكم الرسولُ في كثيرٍ مما تُخبرونهُ فيه بالباطلِ لَعَنِتُّمْ؛ أي لوقَعتُم في العَنَتِ وهو الإثمُ والهلاكُ.

ثم خاطبَ المؤمنين الذين لا يكذِبُون فقالَ: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ ؛ أي جعلَهُ أحبَّ الأديان إليكم، ﴿ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ ؛ حتى اختَرتُموهُ، ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ﴾ ؛ أي بَغَّضَ إليكم هذه الأشياءَ: الكفرُ ظاهر المعنى، والفُسُوق وَالكَذِبُ والخروجُ عن أمرِ الله، والعصيانُ: جمعُ معاصِي الله.

ثم عادَ إلى الخبرِ عنهم فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي المهتَدُون إلى محاسنِ الأمُور. ثم بيَّنَ أنَّ جميعَ ذلك تفضُّلٌ من اللهِ تعالى فقالَ: ﴿ فَضۡلٗا

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٥٥؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعي) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٣٠٣: الحديث (١٨٦٠٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١٠٨-١١٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات).

﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ ؛ أي تَفضُّلاً مِن اللهِ ورحمةً، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ؛ بما في قلوبهم، ﴿ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ فيهم بعِلمهِ.

قوله: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ ؛ نزلَ ذلك في الأَوْسِ والخزرَجِ بسبب الكلامِ الذي جرَى بين عبدِالله بن أُبَي رأسِ المنافقين وعبدِالله ابن رَوَاحة لَمَّا استَبَّا[1] جاءَ قَوْمُ هَذا فَاقْتَتَلُوا بالنِّعَالِ وَالتَّرَامِي بالْحِجَارَةِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ سَيْفٌ.

وَسَبَبُ اخْتِصَامِهِمَا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَفَ ذاتَ يَوْمٍ عَلَى مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَار وَهُوَ عَلَى حِمَارِهِ، فَبَالَ حِمَارُهُ وَهِيَ أرْضٌ سَبْخَةٌ، فَأَمْسَكَ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ أنْفَهُ وَقَالَ: إلَيْكَ عَنِّي فَوَاللهِ لَقَدْ آذانِي نَتَنُ حِمَارِكَ. فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ: وَاللهِ لَنَتَنُ حِمَارِ رَسُولِ اللهِ أطْيَبُ رِيْحاً مِنْكَ.

فَغَضَّبَ لعَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، وغَضِبَ لابْنِ رَوَاحَةَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَاستَبُّوا وَتَحَامَلَ أصْحَابُ كُلِّ وَاحِدٍ مِعَ أصْحَاب الآخَرِ، فَتَجَادَلُوا بالأَيْدِي وَالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاصْطَلَحُوا وكَفَّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ.

وَأَقْبَلَ بَشِيرُ بْنُ النُّعْمَان الأَنْصَارِيُّ مُشْتَمِلاً عَلَى سَيْفِهِ فَوَجَدَهُمْ قَدِ اصْطَلَحُوا، فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ: أعَلَيَّ تَشْتَمِلُ بالسَّيْفِ يَا بَشِيرُ؟ قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي أحْلِفُ بهِ لَوْ جِئْتُ قَبْلَ أنْ تَصْطَلِحُوا لَضَرَبْتُكَ حَتَّى أقْتُلَكَ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) أي بالدُّعاء إلى حُكمِ اللهِ والرِّضا بما في كتابِ اللهِ لهما وعليهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ ؛ أي طَلبت ما ليس لها ولم ترجِعْ إلى الصُّلح، ﴿ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ حتى ترجعَ عن البغيِ إلى كتاب الله، والصُّلح الذي أمر اللهُ تعالى به.

---

(١) المعنى: سبَّ بعضهم بعضاً.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصلح: الحديث (٢٦٩١). ومسلم في الصحيح: كتاب الجهاد والسير: الحديث (١١٧/١٧٩٩). والطبراني في الأوسط: الحديث (٤٦٦٩).

والبغيُ هو الاستطالَةُ، والعدولُ عن الحقِّ وعمَّا عليه جماعةُ المسلمين. والطائفةُ الباغِيَةُ هي التي تطلبُ ما ليس لها أنْ تَطلُبَهُ، قولُهُ (فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ) أي حتى ترجعَ إلى طاعةِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ﴾ ؛ أي واعدِلُوا في الإصلاحِ بينهما، وفي كلِّ حكمٍ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٩) ﴾ ؛ أي يحبُّ الذين يَعدِلُون في حُكمِهم وأهلِيهم وما تولَّوهُ، الإقْسَاطُ في اللغةِ هو العَدْلُ، يقالُ: أقسَطَ الرجلُ إذا عَدَلَ، وقَسَطَ إذا جَارَ، ومنه قولهُ ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[(١)].

وعن ابنِ عُمر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: [يَا ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ؛ هَلْ تَدْرِي كَيْفَ حُكْمُ اللهِ فِيمَنْ يَفِيءُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ؟] قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، قَالَ: [لاَ يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحِهَا وَلاَ يُقْتَلُ أسِيرُهَا وَلاَ يُطْلَبُ هَارِبُهَا وَلاَ يُقْسَمُ فِيْهَا][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ؛ يعني في الدُّنيا والولايةِ، ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ ؛ يعني بين كلِّ مُسلِمين تَخاصَما و تقائلاَ واختلَفا، قرأ ابنُ سيرين (بَيْنَ أخَوَيْكُمْ) بالجمعِ، وقرأ حسن (بَيْنَ إخْوَانِكُمْ) بالألف والنُّون.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي أطِيعُوا اللهَ ولا تُخالفوا أمرَهُ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) ﴾ . وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: (الْمُسْلِمُ أخُو الْمُسْلِمِ؛ لاَ يَظْلِمُهُ؛ وَلاَ يَعِيبُهُ وَلاَ يَخْذِلُهُ؛ وَلاَ يَتَطَاوَلُ عَلَيْهِ بِالْبُنْيَانِ فَيَسْتُرُ عَنْهُ الرِّيحَ إلاَّ بإذْنِهِ، وَلاَ يُؤْذِيهِ بقِتَارِ[(٣)] قِدْرِهِ إلاَّ أنْ يَغْرِفَ لَهُ مِنْهُ، وَلاَ يَشْتَرِي لِبَيْتِهِ الْفَاكِهَةَ فَيَخْرجُونَ بهَا إلَى أوْلاَدِ جَارِهِ إلاَّ أنْ يُطْعِمُوهُمْ مِنْهَا)[(٤)].

---

(١) الجن / ١٥ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك:كتاب قتال أهل البغي: الحديث(٢٧٠٩). وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٢٤٣؛ قال الهيثمي: (رواه البزار والطبراني في الأوسط وقال: لا يروي عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد. قلتُ: وفيه كوثر بن حكيم وهو ضعيف متروك).

(٣) القِتَارُ: ريحُ القِدْرِ والشُّواء.

(٤) ذكره العجلوني في كشف الخفاء: ج ٢ ص١٨٧؛ وقال: (رواه الثعلبي). وأخرجه الثعلبي في=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ ؛ أي لا يَستَهزِئُ الرجلُ من أخيهِ فيقولُ: إنَّكَ رَدِيءُ المعيشةِ لَئِيمُ الْحَسَبِ وأشباهُ ذلك مما يَنتَقِصهُ به وهو خيرٌ منه عندَ اللهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يُعَيِّرْ قومٌ قوماً لعلَّ المسخُورَ منه أفضلُ عندَ الله تعالى من السَّاخِرين، ﴿ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ ، ولا يُعَيِّرُ نساؤُنا نساءَنا لعلَّ الْمَسخُورَةَ منهنَّ أفضلُ من السَّاخراتِ. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يسخَرْ غَنِيٌّ من فقيرٍ لفقرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ؛ أي لا تُعِيبُوا إخوانَكم الذين هم كأنفُسكم، ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ ؛ أي لا يَدْعُ بعضُكم بعضاً باللَّقَب الذي يكرههُ صاحبهُ؛ لأن عليه أنْ يخاطِبَ أخاهُ بأحَب الأسماءِ إليه.

وقال قتادةُ: (مَعْنَاهُ: لاَ تَقُلْ لأَخِيكَ الْمُسْلِمِ: يَا فَاسِقُ وَيَا مُنَافِقُ، وَلاَ يَقُولُ لِلْيَهُودِيِّ بَعْدَ أنْ آمَنَ: يَا يَهُودِيُّ) وذلك معنى: ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ ؛ قال عطاءُ: (هُوَ كُلُّ شَيْءٍ أغْضَبْتَ بِهِ أخَاكَ كَقَوْلِكَ: يَا كَلْبُ؛ يَا خِنْزِيرُ؛ يَا حِمَارُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ ؛ أي مَن لَمْ يَتُبْ من التَّنابُزِ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ، وقال: (نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ) فِي نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ عَيَّرْنَ أمَّ سَلَمَةَ بالْقِصَرِ). ويقالُ: نزلَت في عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أشَارَتْ بيَدِهَا فِي أمِّ سَلَمَةَ أنَّهَا قَصِيرَةٌ[1].

ورَوى عكرمةُ عن ابنِ عبَّاس: (أنَّ صَفِيَّةَ بنْتَ حَيِيِّ بْنِ أخْطَبَ أتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: إنَّ النِّسَاءَ يُعَيِّرْنَنِي يَا يَهُودِيَّةُ بنْتُ يَهُودِيَّين، فَقَالَ ﷺ: [هَلاَّ قُلْتِ: أبي

=التفسير: ج ٩ ص٧٩. وبلفظ آخر أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب ما يُنهى عن التحاسد والتدابر: الحديث (٦٠٦٤-٦٠٦٥).

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص١٨٩. والترمذي في الجامع: كتاب صفة القيامة: الحديث (٢٥٠٢)، في (صفية) رضي الله عنها وليس أم سلمة. وذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٨١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٣٢٦: أنها أم سلمة رضي الله عنها.

هَرُونُ وَعَمِّي مُوسَى وَأَنَّ زَوْجِي مُحَمَّدٌ])[1] فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ (وَلاَ تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ) أي لا يَغتَبْ بعضُكم بعضاً ولا يطعَنْ بعضُكم على بعضٍ.

وَقِيْلَ: اللَّمْزُ العيبُ في الْمَشْهَرِ، والْهَمْزُ فِي المَغِيبِ، وقال محمَّدُ بن زيدٍ: (اللَّمْزُ يَكُونُ باللِّسَانِ وَالْعَيْنِ وَالإشَارَةِ، وَالْهَمْزُ لاَ يَكُونُ إلاَّ باللِّسَانِ)، قال الشاعر[2]:

إنْ لَقِيتُكَ تُبْدِي لِي مُكَاشَرَةً وَإنْ أغِبْ فَلأَنْتَ الْهَامِزُ اللُّمَزَهْ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ وذلك أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إذا غزَا أوْ سَافَرَ، ضَمَّ الرَّجُلَ الْمُحْتَاجَ إلَى رَجُلَيْنِ مُوسِرَيْنِ يَخْدِمُهُمَا وَيُهَيِّءُ لَهُمَا طَعَامَهُمَا وَشَرَابَهُمَا، وَيُصِيبُ مِنْ طَعَامِهِمَا، فَضَمَّ سَلْمَانَ إلَى رَجُلَيْنِ مِنْ أصْحَابهِ فِي بَعْضِ أسْفَارِهِ، فَتَقَوَّمَ سَلْمَانُ مَعَهُمَا.

فَاتَّفَقَ ذاتَ يَوْمٍ أنَّهُ لَمْ يُعِدَّ لَهُمَا شَيْئاً فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَنَامَ، فَلَمَّا قَدِمَا قَالاَ لَهُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئاً ؟ قَالَ: لاَ، قَالاَ: وَلِمَ ؟ قَالَ: غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ، فَقَالاَ: انْطَلِقْ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَاطْلُبْ لَنَا مِنْهُ طَعَاماً وَإدَاماً- وَقِيلَ: إنَّهُمَا قَالاَ لَهُ: انْطَلِقْ إلَى النَّبيِّ ﷺ وَاسْأَلْهُ لَنَا فَضْلَ إدَامٍ إنْ كَانَ عِنْدَهُ - فَذهَبَ فَسَأَلَ فَقَالَ ﷺ: [إنْطَلِقْ إلَى الْخَازِنِ فَلْيُطْعِمْكَ إنْ كَانَ عِنْدَهُ] وَكَانَ الْخَازِنُ يَوْمَئِذٍ أسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَانْطَلَقَ إلَيْهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ شَيْئاً.

فَرَجَعَ إلَيْهِمَا فَأَخْبَرَهُمَا بذلِكَ، فَقَالاَ: إنَّهُ بَخِيلٌ يَأْمُرُهُ رَسُولُ اللهِ وَيَبْخَلُ هُوَ عَلَيْنَا، فَقَالاَ فِي سَلْمَانَ: لَوْ بَعَثْنَاهُ إلَى بئْرِ سَمِيحَةٍ لَقَالَ: لَيْسَ فِيهَا مَاءٌ! ثُمَّ جَعَلاَ يَتَجَسَّسَانِ هَلْ كَانَ عِنْدَ أسَامَةَ مَا أمَرَ لَهُمَا بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الإدَامِ. فَلَمَّا جَاءَا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ لَهُمَا: [مَا لِي أرَى خُضْرَةَ اللَّحْمِ عَلَى أفْوَاهِكُمَا ؟] قَالاَ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا تَنَاوَلْنَا يَوْمَنَا هَذا لَحْماً ؟ فَقَالَ: [ظَلْتُمَا تَأْكُلاَنِ لَحْمَ سَلْمَانَ وَأسَامَةَ

---

(١) ذكره الثعلب في الكشف والبيان: ج ٩ ص٨١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٣٢٦. والواحدي في أسباب النزول: ص٢٦٤.

(٢) في الكشف والبيان: ج ٩ ص٨١؛ قال الثعلبي: (وقال محمد بن يزيد) وذكره بلفظ:

إذا لَقِيتُكَ عَنْ شَحْطٍ تُكَاشِرُنِي وَإنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتَ الْهَامِزُ اللُّمَزَهْ

] فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ)[١] ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ؛ والظنُّ الذي هو الإثمُ: أن يُعرَضَ بقلبِ الإنسانِ في أخيه ما يوجبُ الريبةَ فيحقّقهُ من غيرِ سببٍ يوجبهُ، كما رُوي في الخبرِ: [إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الْحَدِيثِ][٢].

وقولهُ تعالى (وَلاَ تَجَسَّسُوا) التَّجَسُّسُ: البحثُ عن عيبِ أخيهِ الذي سترَهُ اللهُ عليه. ومعنى الآيةِ: خُذوا ما ظهرَ ودَعُوا ما سترَ اللهُ ولا تتَّبعوا عوراتِ الناس، قال ﷺ: [لاَ تَجَسَّسُوا؛ وَلاَ تَحَاسَدُوا؛ وَلاَ تَبَاغَضُوا؛ وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَاناً][٣].

ورُوي: أنَّ رَجُلاً جَاءَ إلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب رضي الله عنه قَالَ لَهُ: (إنَّ فُلاَناً يُوَاظِبُ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ، فَقَالَ لَهُ: إذا عَلِمْتَهُ يَشْرَبُهَا فَأَعْلِمْنِي. فَأَعْلَمَهُ فَذهَبَ مَعَهُ حَتَّى انْتَهَى إلَى دَارِهِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ: أنْتَ الَّذِي تَشْرَبُ الْخَمْرَ ؟ فَقَالَ: وَأنْتَ تَتَجَسَّسُ عُيُوبَ الْمُسْلِمِينَ؟ فَقَالَ عُمَرُ: تُبْتُ أنْ لاَ أعُودَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَأنَا تُبْتُ لاَ أعُودُ)[٤].

وروى زيدُ بن أسلمَ: (أنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب رضي الله عنه خَرَجَ ذاتَ لَيْلَةٍ وَمَعَهُ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ إذْ شَبَّتْ لَهُمَا نَارٌ، فَأَتَيَا الْبَابَ فَاسْتَأْذنَا فَفُتِحَ لَهُمَا فَدَخَلاَ، فَإذا رَجُلٌ وَامْرَأةٌ تُغَنِّي وَعَلَى يَدِ الرَّجُلِ قَدَحٌ، فَقَالَ عُمَرُ لِلرَّجُلِ: وَأنْتَ بِهَذا يَا فُلاَنُ ؟ فَقَالَ: وَأنْتَ بهَذا يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ عُمَرُ: مَنْ هَذِهِ مَعَكَ ؟ قَالَ: امْرَأتِي، قَالَ: وَفِي الْقَدَحِ ؟ قَالَ: مَاءٌ زُلاَلٌ، فَقَالَ لِلْمَرْأةِ: وَمَا الَّذِي تُغَنِّينَ؟ فَقَالَتْ: أقُولُ:

تَطَاوَلَ هَذا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهْ ... وَأرَّقَنِي أنْ لاَ حَبِيبَ ألاعِبُهْ
فَوَاللهِ لَوْلاَ خِشْيَةُ اللهِ وَالتُّقَى ... لَزَعْزَعَ مِنْ هَذا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٥٧٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي عن سلمان).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: الحديث (٦٠٦٦).

(٣) تقدم في الرقم السابق.

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٣٣٣؛ قال القرطبي: (وقال أبو قلابة) وذكر القصة وأن الرجل أبو محجن الثقفي. والحديث أخرجه عبدالرزاق في المصنف: كتاب اللقطة: باب التجسس: الحديث (١٩٨٤٤).

وَلَكِنَّ الْعَقْلَ وَالْحَيَاءَ يَكُفُّنِي وَأُكْرِمُ بَعْلِي أَنْ تُنَالَ مَوَاكِبُهُ

ثُمَّ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَلاَ تَجَسَّسُوا) قَالَ: صَدَقْتَ، وَانْصَرَفَ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ ؛ أي لا يتناولُ بعضُكم بعضاً بظهرِ الغَيب بما يسوءُ مما هو فيه، فإنْ يتناولْهُ بما ليس فيه فهو بُهْتَانٌ، وسُئل رسولُ اللهِ ﷺ عن الغيبةِ فقال: [أنْ تَذْكُرَ مِنَ الرَّجُلِ مَا يَكْرَهُهُ إذا سَمِعَهُ] فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإنْ كَانَ حَقّاً ؟ فَقَالَ: [وَإنْ كَانَ حَقّاً، وَأمَّا إذا كَانَ بَاطِلاً فَهُوَ الْبُهْتَانُ](٢).

وعن جابرٍ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: [إيَّاكُمْ وَالْغِيبَةَ، فَإنَّ الْغِيبَةَ أشَدُّ مِنَ الزِّنَى] قِيلَ: وَكَيْفَ ذلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [إنَّ الرَّجُلَ يَزْنِي وَيَتُوبُ، فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ، وَإنَّ صَاحِبَ الْغِيبَةِ لاَ يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهُ](٣). وقال ﷺ: [إذا اغْتَابَ أحَدُكُمْ أخَاهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَهُ، فَإنَّ ذلِكَ كَفَّارَةٌ لَهُ](٤).

وعن ابنِ عمر رضي الله عنه قَالَ: (جَاءَ مَاعِزُ إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إنِّي زَنَيْتُ، فَأعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى أقَرَّ أرْبَعَ مَرَّاتٍ، فَأمَرَ برَجْمِهِ، فَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رَجُلَيْنِ يَذْكُرَانِ مَاعِزاً،

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٥٦٧؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد والخرائطي في مكارم الأخلاق عن زرارة بن مصعب بن عبدالرحمن بن عوف عن المسور بن مخرمة عن عبدالرحمن بن عوف) وذكره من غير ذكر الشعر. وأخرجه عبدالرزاق في المصنف: باب التجسس: الحديث (١٨٩٣٩). وأخرجه الثعلبي بكماله في التفسير: ج ٩ ص٨٣.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب تحريم الغيبة: الحديث (٧٠/ ٢٥٨٩). وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في الغيبة: الحديث (٤٨٧٤). والترمذي في الجامع: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في الغيبة: الحديث (١٩٣٤).

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٨٥ عن جابر وأبي سعيد رضي الله عنهما. وأخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٧ ص٣٠٦: الحديث (٦٥٨٦). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص٩٢؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عباد بن كثير الثقفي وهو متروك).

(٤) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات: ج ٣ ص١٨. والسيوطي في اللالئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة: ج ٢ ص١٦٢. والشوكاني في الفوائد: ص٢٣٣. وابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال: ج ٤ ص٢٢٢.

فَقَالَ أحَدُهُمَا: هَذا الَّذِي سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ فَلَمْ تَدَعْهُ نَفْسُهُ حَتَّى رُجِمَ كَرَجْمِ الْكَلْب، فَسَكَتَ عَنْهُمَا حَتَّى مَرَّا عَلَى جِيفَةِ حِمَار، فَقَالَ ﷺ: [إنْزلاَ فَأَصِيبَا أكْلَةً مِنْهُ] فَقَالاَ: يَا رَسُولَ اللهِ أنَأْكُلُ مِنْ هَذِهِ الْجِيْفَةِ ؟! فَقَالَ: [فَمَا أصَبْتُمَا مِنْ لَحْمِ أخِيكُمَا أعْظَمُ عَلَيْكُمَا، أمَا إنَّهُ الآنَ فِي أنْهَار الْجَنَّةِ يَنْغَمِسُ فِيهَا][(١)].

وقال ﷺ: [لَمَّا عُرِجَ بي مَرَرْتُ بقَوْمٍ لَهُمْ أظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَلُحُومَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ: هَؤُلاَءِ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أعْرَاضِهِمْ][(٢)]. وقال رجلٌ لابن سيرين: إنِّي قَدِ اغْتَبْتُكَ فَاجْعَلْنِي فِي حِلٍّ، قَالَ: (إنِّي أكْرَهُ أنْ أحِلَّ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى)[(٣)].

والغِيبَةُ في اللغة: هي ذِكرُ العيب بظهرِ الغيب، وذِكرُ عيب الفاسق المصرِّ على فِسقِهِ بمعنى يرجعُ إلى قبائحِ أفعالهِ على وجه التحقير له فليس بغيبة كما وردَ في الحديثِ: [اذْكُرُوا الْفَاجِرَ عَمَّا فِيْهِ كَيْ يَحْذرَهُ النَّاسُ][(٤)].

وكان الحسنُ يقول في الحجَّاج: (جَاءَنا أخَيْفِشُ وَأعَيْمِشُ، يَخْرُجُ إلَيْنَا ثِيَاباً قَصِيرَةً، وَاللهِ مَا عَرَفَ فِيهَا عَيْنَانِ فِي سَبيلِ اللهِ، يُرَجِّلُ جُمَّتَهُ وَيَخْطُرُ فِي مِشْيَتِهِ، وَيَصْعَدُ الْمِنْبَرَ فَيَهْدِرُ حَتَّى تَفُوتُهُ الصَّلاَةُ، لاَ مِنَ اللهِ يَتَّقِي وَلاَ مِنَ النَّاسِ يَسْتَحِي، فَوْقَهُ اللهُ وَتَحْتَهُ مِائَةُ ألْفٍ أوْ يَزِيدُونَ، لاَ يَقُولُ لَهُ قَائِلٌ: الصَّلاَةُ أيُّهَا الرَّجُلُ) ثم جعلَ الحسنُ يقول: (هَيْهَاتَ وَاللهِ!! حَالَ دُونَ ذلِكَ السَّيْفُ وَالسَّوْطُ)[(٥)].

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الحدود: باب رجم ماعز: الحديث (٤٤٢٨). والدارقطني في السنن: ج ٣ ص١٩٦.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ١ ص٣٢: الحديث (٨). والإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٩٩. وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في الغيبة: الحديث (٤٨٧٨).

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٨٦.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٩ ص٣٥٧-٣٥٨: الحديث (١٠١٠). وفي المعجم الأوسط: ج ٥ ص١٨٩: الحديث (٤٣٦٩). وفي المعجم الصغير: ج ١ ص٣٥٧: الحديث (٥٩٨). وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص١٤٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الثلاثة وإسناد الأوسط والصغير حسن رجاله موثوقون واختلف في بعضهم اختلافاً لا يضر).

(٥) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٣٣٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ ؛ أي كما كرهتُم أكلَ لحمِ الميت طَبعاً فاكرَهُوا غيبةَ الحيِّ عقلاً، فإنَّ العقلَ أحقُّ أن يُتَّبَعَ من الطَّبعِ. ووجهُ تشبيهِ الغيبةِ بأكلِ لحمهِ مَيتاً أنَّ الاغتيابَ ذِكرٌ له بالسُّوءِ من غيرِ أن يُحِسَّ هو بذلكَ، فهو بمَنْزِلة الأكلِ من لحمه وهو ميِّت لا يحسُّ بذلك.

وعن ابنِ عبَّاس أنَّهُ دَخَلَ الْكَعْبَةَ فَقَالَ:(مَا أطْيَبَ رِيحَكِ وَأعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَلَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ حُرْمَتِكِ، إنَّمَا جَعَلَكِ اللهُ حَرَاماً، وَحَرَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَعِرْضَهُ، وَأنْ يُظَنَّ بِهِ السُّوءُ).

وعن الحسن أنه قِيْلَ لهُ: إنَّ أقْوَاماً يَجْلِسُونَ مَجْلِسَكَ وَيَحْفَظُونَ عَلَيْكَ سَقَطَ كَلاَمِكَ ثُمَّ يَغِيبُونَكَ، فَقَالَ: طَمَّعْتُ نَفْسِي فِي جِوَار الرَّحْمَنِ وَطُول الْجِنَانِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النِّيرَانِ وَمُرَافَقَةِ الأَنْبيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، وَلَمْ أطْمِعْ نَفْسِي فِي السَّلاَمَةِ مِنَ النَّاسِ، إنَّهُ لَوْ سَلِمَ مِنَ النَّاسِ أحَدٌ لَسَلِمَ مِنْهُمْ خَالِقُهُمْ، فَإذا لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُمْ خَالِقُهُمْ فَالْمَخْلُوقُ أجْدَرُ أنْ لاَ يَسْلَمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ؛ أي كما كَرِهتُم هذا فاجتَنِبُوا ذِكرَهُ بالسُّوء غائباً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ؛ أي اتَّقوهُ في الغِيبةِ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴾ ؛ على مَن تابَ، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ ؛ نزَلت في نفرٍ من قريشٍ قالوا حِينَ سَمعوا أذانَ بلال: أمَا وجدَ مُحَمَّدٌ مؤذِّناً غيرَ هذا الغُراب؟ والمعنى: يا أيُّها النَّاسُ إنا خلَقنَاكم من آدمَ وحوَّاء، فكلُّكم مُتساوون في النَّسب، لأنَّ كلَّكم يرجعُ إلى أبٍ واحد وأمٍّ واحدةٍ. ومعنى الآيةِ: الزَّجرُ عن التفاخُر بالأنساب، قال ﷺ: [إنَّمَا أنْتُمْ مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَامْرَأةٍ وَاحِدَةٍ، لَيْسَ لأَحَدٍ عَلَى أحَدٍ فَضْلٌ إلاَّ بالتَّقْوَى][(١)].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٣٣٩-٣٤٠؛ قال القرطبي: (وقد أخرج الطبري في كتاب (آداب النفوس) وذكره بمعناه. وعن عقبة بن عامر ﷺ أخرجه الطبري بمعناه أيضاً في الحديث (٢٤٦٠٤).

ثُم ذكرَ أنه إنما فرَّقَ أنسابَ الناسِ ليتعارفُوا لا ليتفاخَروا فقالَ تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ ؛ الشُّعوب جمعُ شَعبٍ بفتح الشِّين؛ وهو الحيُّ العظيمُ مثل رَبيعةَ ومُضَرَ، والقبائلُ دونَها وهو كبَكرٍ من ربيعةَ، وتَميم من مُضر، هذا قولُ جماعةٍ من المفسِّرين.

ورَوى عطاءُ عن ابن عباس أنه قال: (يُرِيدُ بالشُّعُوب الْمَوَالِي، وَبِالْقَبَائِلِ الْعَرَبَ)(١) وإلى هذا ذهبَ قومٌ فقالوا: الشُّعوب من العجَمِ مَن لا يُعرَفُ لهم أصلُ نَسَبٍ كالهندِ والتُّرك، والقبائلُ من العرب. وَقِيْلَ: معناهُ: وجعلَكم متشَعِّبين مفرَّقين نحو العرب وفارسَ والرُّوم والهند وقبائلِ العرب وبيوتات العجَمِ. والشِّعبُ بكسرِ الشين: الطريقُ في الجبلِ، وجمعه شِعَابٌ.

والحاصلُ أنَّ الشعوبَ رُؤوسُ القبائلِ مثلَ رَبيعةَ ومُضر والأوسَ والخزرجَ، والقبائلُ دُونَ الشُّعوب وهم كبكرٍ من ربيعةَ وتَميم من مُضر، ودونَ القبائلِ العَمَائِرُ؛ واحدَتُها عَمَارَةٌ بفتحِ العين، وهم كشَيبان من بكرٍ ودَارمٍ من تَميم، ودونَ العمائرِ البطونُ؛ واحدُها بطنٌ وهو كبَني غالبٍ ولُؤَي من قريشٍ، ودونَ البطُون الأفخاذُ؛ واحدُها فَخذٌ وهم بني هاشمٍ وبني أمية من لُؤي، ثم الفصَائِلُ واحدها فَصِيلَةٌ وعشيرةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لِتَعَارَفُوا) أي ليَعرفَ بعضَكم بعضاً في النَّسَب لا لتُفاخِرُوا فيما بينَكم، كما أنَّ اللهَ تعالى خالَفَ بين خَلقِكم وصُوَرِكم لتَعرفُوا بعضَكم بعضاً، وقرأ الأعمشُ (لِتَعَارَفُوا) وقرأ ابنُ عبَّاس (لِتَعْرِفُوا) بغير ألفٍ.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، (أنَّ أكْرَمَكُمْ) بفتحِ الألف، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ أكرمَكم في الآخرةِ اتقاكُم للهِ في الدُّنيا، وقال ﷺ: [إنَّ اللهَ قَدْ أذْهَبَ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعْظِيمِهَا بالآبَاءِ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ؛ وَآدَمُ مِنَ التُّرَاب؛ أكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ اتْقَاكُمْ، لاَ فَضْلَ لِعَرَبيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إلاَّ بالتَّقْوَى](٢).

---

(١) ذكره عنه أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٣٤٤.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٥٧٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر) وذكره=

وقال ﷺ: [مَنْ سَرَّهُ أنْ يَكُونَ أكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللهَ](١) وقَالَ: [كَرَمُ الرَّجُلِ دِينُهُ وَتَقْوَاهُ، وَفَضْلُهُ عَقْلُهُ، وَحَسَبُهُ خُلُقُهُ](٢).

وقال ﷺ: [إنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إلَى صُوَرِكُمْ وَلاَ إلَى أقْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ وَأعْمَالِكُمْ، وَإنَّمَا أنْتُمْ بَنِي آدَمَ؛ أكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ](٣).

وقال ابنُ عبَّاس: (كَرَمُ الدُّنْيَا الْغِنَى، وَكَرَمُ الآخِرَةِ التَّقْوَى)، وقال الشاعرُ:

مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بِعِزِّ الْغِنَى ... وَالْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقِي
مَنْ عَرَفَ اللهَ فَلَمْ تُغْنِهِ ... مَعْرِفَةُ اللهِ فَذَاكَ الشَّقِي

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾؛ نزَلت في نفرٍ من بني أسَدِ بن خُزَيمة قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فِي سَنَةٍ جَدْبَةٍ، وَأظْهَرُوا شَهَادَةَ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَلَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ فِي السِّرِّ، وَأفْسَدُوا طُرُقَ الْمَدِينَةِ بالعَذرَاتِ وَأغْلَوْا أسْعَارَهَا، وَكَانُوا يَزْعُمُونَ أنَّهُمْ مُخْلِصُونَ فِي إيْمَانِهِمْ، وَلَمْ يَكُونُوا كَذلِكَ، وَكَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَأتِيكَ الْعَرَبُ بأنْفُسِهَا عَلَى ظُهُورِ رَوَاحِلِهَا وَأتَيْنَاكَ بالأَثْقَالِ وَالْعِيَالِ وَالذرَارِي، يَمُنُّونَ عَلَى رَسُولِ اللهِ، وَلَمْ نُقَاتِلْكَ كَمَا تُقَاتِلُكَ بَنُو فُلاَنٍ وَبَنُو فُلاَنٍ، وَيُرِيدُونَ بذلِكَ الصَّدَقَةَ وَيَقُولُونَ: أعْطِنَا. فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ(٤).

=بمعناه. ورواه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٦١. وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: الحديث (٥١١٦). والترمذي في الجامع: كتاب التفسير: باب ومن سورة الحجرات: الحديث (٣٢٧٠)، وقال: هذا حديث غريب.

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب الأدب: باب لا تتكلموا بالحكمة عند الجاهل: الحديث (٧٧٧٩).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب العلم: باب كرم المؤمن: الحديث (٤٣٣-٤٣٤). وابن حبان في الإحسان: كتاب البر والإحسان: الحديث (٤٨٣). وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٢٥١؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط) وسكت عنه. وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٦٦٨٢).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب تحريم ظلم المسلم وخذله: الحديث (٣٤٠٣٣/ ٢٥٦٤).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: ج ١٣ ص١٨٣: الأثر (٢٤٦١٢). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٥٨٣، ونسبه إلى عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة.

والمعنى: أنَّهم قالوا صدَّقنا باللسانِ والقُلوب، قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: لَمْ تُؤْمِنُوا؛ أي لَمْ تُصدِّقوا بقُلوبكم كما صدَّقتم بألسِنَتِكم (وَلَكِنْ قُولُوا) اسْتَسْلَمْنَا وانقَدْنا مخافةَ السَّبي والقتلِ، ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ في السِّر كما أطَعتُم في العَلانية، فتُتوبوا من الكفرِ والنفاق، ﴿ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي لا يَنقِصْكُم من ثواب أعمالكم شيئاً، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لِمَن تابَ، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ بمَن ماتَ على التوبةِ.

ومن قرأ (لاَ يَأْلِتْكُمْ) بالهمزةِ فهو من ألَتَ يَأْلِتُ ألَتاً إذا نقَصَ، ويقال: لاتَ يَلِيتُ لَيْتاً بهذا المعنى، وكِلا القراءَتين بمعنىً واحدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ أي هم الذين أقَرُّوا وصدَّقوا بوحدانيَّةِ اللهِ ونُبوَّة رسولهِ، ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ ؛ أي لَمْ يَشُكُّوا في دينِهم بعدَ الإيمان، ﴿ وَجَـٰهَدُوا۟ ﴾ ؛ العدوَّ، ﴿ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ طاعةً، ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ في الإيمان.

فلمَّا نزلت هذه الآيةُ جاءَ القومُ يحلِفون لرسولِ الله ﷺ إنَّهم يُؤمنون في السرِّ والعلانيةِ، وقد عَلِمَ الله منهم غيرَ ذلك، فأنزلَ اللهُ:

قولَهُ تعالى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: كيف يُعلِّمونَ اللهَ بالدِّين الذي أنتُم عليه، وهو عالِمٌ بكلِّ شيءٍ من كلِّ وجهٍ، وكيف يجوزُ أن يُعَلَّمَ مَن كان بهذه الصِّفة.

وقوله (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أنْ أسْلَمُوا) وذلكَ أنَّ هؤلاءِ المنافقين كانوا يقُولون للنبيِّ ﷺ: قَاتَلَتْكَ العربُ بأسيافِهم ونحنُ جِئناك بالأهلِ والذراري والأثقال، ولم نُقاتِلْكَ كما قاتَلَك بنو فلان، فقال اللهُ تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ؛ ﴿ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ﴾ ؛ فإنَّ إجَابَتَكم إلى الإسلامِ لم تكن إلاَّ لاجابتكم على أنفسِكم لاَ إنَّكم أنعَمتُم على مَن دعاكُم إلى ذلك.

ومِن المعلومِ أنَّ حقَّ الداعِي إلى الهدايةِ أعظمُ من حقِّ المطيعِ بالإجابةِ، فليس للمطالِب أن يُطالِبَ بالحقِّ الذي لَهُ وينسَى الحقَّ الأعظمَ الذي عليهِ، ولذلك قالَ اللهُ:

﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ ﴾ ؛ **وأخرجَكم من الضَّلال،** ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ ﴾ ؛ **في مَقالَتِكم.**

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ ؛ **فيه بيانُ أنه لا ينفعُ المنافقَ عندَ اللهِ كتمانُ الكفرِ؛ لأنــه تعــالَى عالِمٌ به.**

فإن قِيْلَ: كيف تجوزُ الْمِنَّةُ من اللهِ تعالى، والمنَّـةُ مما يُكَـدِّرُ الصنيعـةَ؟ قِيْـلَ: إنَّ الْمِنَّةَ عمَّن يُستغنى عنه تكدِّرُ الصنيعةَ، وأمَّا اللهُ تعالى ليس من أحَـدٍ إلاَّ وهـو محتـاجٌ إليه، فليس في مِنَّتِهِ تكديرٌ للنعمةِ لاستحالةِ أن يُستغنى بغيرِهِ عنه. وقـد يقـالُ: إذا كُفرت النعمةُ حَسُنَتِ الْمِنَّةُ، وباللهِ التوفيقُ.

آخر تفسير سورة (**الحجرات**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ ق~

سُورَةُ ق~ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَثَلاَثُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً، قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا هَوَّنَ اللهُ عَلَيْهِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قٓ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ أَقْسَمَ بِهِ)[2]، وقال القرطبيُّ: (هُوَ افْتِتَاحُ اسْمِهِ: قَدِيرٌ؛ وَقَادِرٌ؛ وَقَاهِرٌ؛ وَقَابِضٌ)[3]، وقال عكرمةُ والضحَّاك وجماعةُ المفسِّرين: (هُوَ اسْمُ جَبَلٍ مُحِيطٍ بالدُّنْيَا مِنْ زُبُرْجُدٍ أَخْضَرِ اخْضَرَّتِ السَّمَاءُ مِنْهُ، وَهُوَ وَرَاءَ الْحِجَابِ الَّذِي فِيهِ تَغِيبُ الشَّمْسُ مِنْ وَرَائِهِ بمَسِيرَةِ سَنَةٍ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ بَلَدٌ إلاَّ وَتَحْتَهَا عِرْقٌ مِنْ عُرُوقِ ذلِكَ الْجَبَلِ، فَإذا أَرَادَ اللهُ أنْ يُزَلْزِلَ تِلْكَ الأَرْضَ حَرَّكَ عِرْقَهُ ذلِكَ فَزَلْزَلَ، وَإذا أَرَادَ اللهُ بأَهْلِ مَدِينَةٍ هَلاَكاً أمَرَهُ فَحَرَّكَ عِرْقَهُ فَخُسِفَ بهِمْ).

قال وهبُ: (إنَّ ذا الْقَرْنَيْنِ أتَى عَلَى جَبَلِ قَاف، فَسَأَلَهُ: هَلْ وَرَاءَكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: وَرَائِي أرْضٌ مَسِيرَةَ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ فِي عَرْضِ خَمْسَمِائَةٍ مِنْ جِبَالِ الثَّلْجِ يَخْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَمِنْ وَرَائِكَ أيْضاً أرْضٌ مِثْلُهَا مِنَ الْبَرَدِ، لَوْلاَ ذلِكَ الثَّلْجُ وَالْبَرَدُ لاحْتَرَقْتَ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ).

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف:ج٤ ص٣٨٤. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٩٢ وإسناده واهٍ ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: ج ١٣ ص١٨٩: الأثر (٢٤٦٢٥).

(٣) ذكره البغوي في التفسير: ص١٢٢٦.

وقال بعضُهم: معنى قوله تعالى (ق~) قُضِيَ الأمرُ ما هو كائنٌ، وقال أبو بكرٍ الورَّاق: (مَعْنَاهُ: قِفْ عِنْدَ أمْرِنَا وَنَهْيِنَا وَلاَ تُعَدِّيهِمَا). وَقِيْلَ: معناهُ: قُلْ يا مُحَمَّدُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ ؛ أي الشَّريفِ الكريمِ على اللهِ. واختلفَ العلماءُ في جواب القسَم، فقال أهلُ الكوفةِ جوابهُ: (بَلْ عَجِبُوا)، وقال الأخفشُ: (جَوَابُهُ مَحْذُوفٌ؛ تَقْدِيرُهُ: وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ لَتُبْعَثُ).

وَقِيْلَ: جوابهُ (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ). وَقِيْلَ: جوابهُ (قَدْ عَلِمْنَا) كما قالَ اللهُ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾[1] إلى أنْ قالَ ﴿قَدْ أفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[2] فذلكَ جوابُ القسَمِ، إلاَّ أن اللامَ حُذفت منه، ويجوزُ أن تُجعل (بَلْ) في جواب القسَمِ موضعَ (لَقَدْ).

وجواباتُ القسَمِ سِتَّةٌ[3]:

١. (إنَّ) شديدةٌ كقوله ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[4] إلى أنْ قالَ ﴿إنَّ رَبَّكَ لَبالْمِرْصَادِ﴾[5].

٢. و (مَا) في النَّفي كقولِه ﴿وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إذا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾[6].

٣. و(لا) أي النافية، واللامُ مفتوحةٌ كقوله ﴿فَوَربكَ لَنَسْألَنَّهُمْ أجْمَعِينَ﴾[7].

٤. و(إنْ) الخفيفةُ كقوله ﴿تَاللهِ إنْ كُنَّا﴾[8].

٥. و(لاَ) كقوله ﴿وَأقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾[9].

٦. و(قَدْ) كقوله ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾[10] إلى أنْ قالَ ﴿قَدْ أفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[11].

٧. و(بَلْ) كقولِهِ ﴿ق~ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا﴾.

---

(١) الشمس / ١ . (٢) الشمس / ٩ .

(٣) الصحيح: سبعة، أي جواباتُ القسم سبعة، وقد ذكرها سبعة، وعلى ما يبدو أنه تصحيف من الناسخ.

(٤) الفجر / ١و٢ . (٥) الفجر / ١٤ .

(٦) الضحى / ١-٣ . (٧) الحجر / ٩٢ .

(٨) الشعراء / ٩٧ . (٩) النحل / ٣٨ .

(١٠) الشمس / ١ . (١١) الشمس / ٩ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾، أي مُخَوِّفٌ يَعرفُون حسَبَهُ ونسَبَهُ وصِدقَهُ وأمانتَهُ، ﴿ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾؛ عَجِبوا لكون مُحَمَّدٍ رسُولاً إليهم، فأنكَرُوا رسالتَهُ وأنكروا البعثَ بعد الموتِ، وهو قولُهُ: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾؛ أي أنُبعَثُ إذا مِتنا ؟ قالوا ذلك متعجِّبين أنَّهم إذا ماتُوا وصارُوا تُراباً كيف يُبعثون بعدَ ذلك؟ وقالوا: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي الردُّ إلى الحياةِ بعيدٌ غيرُ كائنٍ أبداً، استبعَدُوا بجهلِهم أنْ يُبعثوا بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾؛ أي ما تأكلُ الأرضُ من لُحومِهم ودِمائهم وأشعَارهم، والمعنى: لا يَخفَى علينا شيءٌ مما تأخذُ الأرض من أبدانِ الموتَى، فمَن عَلِمَ ذلك فهو قادرٌ على إعادةِ ذلك الخلقِ بعَينهِ إلى الحياةِ.

وقوله: ﴿ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾؛ أرادَ به اللوحَ المحفوظَ، حُفِظَ من الزِّيادة والنُّقصان، عِندَنا كتابٌ حافظٌ لعِدَّتِهم وأسمائِهم، وقد أثبَتنا فيه ما يكون من جميعِ الأشياء المقدَّرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾؛ أي كذبُوا بالقرآن لَمَّا جاءَهم بدلائلِ الله، ﴿ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي مُختَلطٍ مُلتَبسٍ عليهم، لا يَثبُتون على شيءٍ واحد، مرَّةً يشكُّون وأخرى يجحَدُون، ومرَّة يقولون في النبيِّ ﷺ: إنَّه ساحرٌ، ومرَّة يقولون: هو شاعرٌ، ومرَّة يقولون: مُعَلَّمٌ مجنونٌ، وتارةً يقولون للقرآن: هو سِحرٌ يُؤثَرُ، وتارةً يقولون: هو أساطيرُ الأوَّلين، وتارةً يقولون: سِحرٌ مُفتَرى.

وقال الحسنُ: (مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْحَقَّ إلاَّ مَرِجَ أمْرُهُمْ)(١)، وقالَ قتادةُ: (مَنْ تَرَكَ الْحَقَّ مُرِجَ عَلَيْهِ رَأيُهُ، وَالْتَبَسَ عَلَيْهِ دِينُهُ)(٢)، ومن ذلك الْمَرْجُ لاختلاطِ أشجَارها بعضُها من بعضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾؛ ودلَّهم بهذا على قُدرتهِ بعظيمِ خَلقهِ، فقال: أفَلَمْ ينظُروا كيف بَنَيناها وزيَّناها بالكواكب وما لَها من فُتُوقٍ وشُقوقٍ وصُدوعٍ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٢٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: مج ١٣ ج ٢٦ ص١٩٢: الأثر (٢٤٦٣٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ ؛ أي بسَطناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ أي جِبالاً، ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي من كلِّ لونٍ حَسَنٍ منظَرُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي فَعَلنا ذلك الذي ذكرناهُ ليُبصَرَ به ويُتَذكَّرَ به، فهو تذكيرٌ وعِظَةٌ وتنبيهٌ لكلِّ عبدٍ مُنِيبٍ يرجعُ إلى اللهِ ويتفكَّرُ في قُدرتهِ.

قال أبو حاتم: (قَوْلُهُ (تَبْصِرَةً) مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَر) يعني تَبصيراً وتَذكيراً وتَنبيهاً له[1]؛ لأن مَن قَدَرَ على خَلقِ السَّموات والأرضِ والنبات قَدَرَ على بعثِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ ؛ يعني المطرَ، ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾ ؛ أي بساتينَ، ﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ يعني الزرعَ الذي من شأنهِ أن يُحصدَ حَصِيداً، حُصد أم لم يُحصَدْ، وذلك البُرُّ والشعيرُ وسائرُ الحبوب التي تُحصَدُ وتدَّخَرُ وتُقتَاتُ. وإضافةُ الحب إلى الحصيدِ وهما واحدٌ لاختلافِ اللَّفظين، كما يُقال مسجدُ الجامعِ، وربيعُ الأوَّل، وخُفُّ البعيرِ، وحبلُ الوريدِ ونحوُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وأنبَتنا النخلَ طِوَالاً، يقالُ: بَسَقَتِ النَّخلَةُ إذا طَالَتْ. والطَّلعُ النَّضِيدُ: هو الكُفُرِّيُّ ما دامَ في أكمَامِها، فهو مَنضُودٌ بعضهُ فوقَ بعضٍ، وإذا خرجَ من أكمَامِها فليس بنَضيدٍ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ ؛ انتصبَ على وجهَين: أحدِهما: رَزَقنَاهُم هذهِ الأشياءَ، والثاني: أنبَتنَاها للرِّزقِ، فهو منصوبٌ؛ لأنه مفعولٌ لَهُ؛ ولأنه مصدرُ فعلٍ محذوف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ ؛ أي أحيَينا بالمطرِ مَكاناً مَيْتاً لا نباتَ فيه، فكما أحيَينا هذه الأرضَ الْمَيتَة بالماءِ، وأنبَتنا هذه الأقواتَ من الحبوب اليابسةِ، ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي كذلك تَنبُتُونَ بالمطرِ في قُبوركم ثم

---

(١) نقله عنه أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٦.

(٢) علقه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: سورة قٓ: جعله مفتاح الباب. وفي الشرح: ج ٨ ص٧٦٤؛ قال ابن حجر: (هو قول أبي عبيدة بمعناه).

تُخرَجون للبعثِ. والقدرةُ على إعادةِ النَّبات دليلٌ على القدرةِ على إعــادةِ الحيـاة إلى الميْت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾؛ فيـه تسـليةٌ للنبيِّ ﷺ يقــولُ: إنَّ هؤلاءِ الكفار سَلَكوا التكذيبَ طريقةَ مَن قبلِهم من الأُمم المكذِّبة لرُسلِهم، وقد رأيتُم كيف كان إنْكَاري عليهم، وكيف أهلَكناهُم.

والرَّسُّ: برزون اليَمَامَةِ[1]، والنبيُّ هو حَنظَلُ بـن سِـنَان[2]. وأصحـابُ الأيْكَـةِ قومُ شُعيب عليه السلام، والأيكَةُ غَيْطٌ. وأما قومُ تُبَّعٍ فقد تقدَّم أن تُبَّـعَ اسـمُ ملـكٍ حِمـيَر، وقد ذُكر ذلك في قولهِ تعالى ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾[3].

---

(١) في الجامع لأحكـام القـرآن: ج ١٣ ص٣٢؛ قـال القرطـبي: (قـال قتـادة: والـرَّسُّ: قريـة بفَلْـجِ اليمامة). وأصله أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٠١٤) عن قتادة، والأثـر (٢٠٠١٥) عن عكرمة: تفسير الآية ٣٨ من سورة الفرقان.

(٢) هكذا رسمها الناسخ حنظل، وعلى ما يبدو أن الصحيح هو: خالد بن سـنان كمـا ورد في الحديـث الضعيف:[ذاكَ نَبِيُّ أضَاعَهُ قَوْمُـهُ]. قـال السيوطي في الـدر المنثـور: ج٢ ص٧٤٧-٧٤٨: أخرجـه الطبراني والحاكم وصححه من طريق أبي يونس. قال الحاكم في المستدرك: كتاب تواريـخ المتقدمـين من الأنبياء والمرسلين: الحديث (٤١٧٣/ ١٨٣): قد رويـت أخبـار في خـالد بـن سـنان وابنتـه الـتي دخلت على رسول الله ﷺ وقوله: [أنْتِ بِنتُ أخِي؛ نَبِيٌّ ضَيَّعَهُ قَوْمُهُ]. قال الذهـبي في التلخيـص: إن أبا يونس هو حاتم بن أبي صغيرة. ونقل السيوطي عن الذهبي قوله فيه (منكر). ولم أجد إنكار الذهبي على أبي يونس في التلخيص؛ وله ترجمة في تهذيب التهذيب: الترجمة (١٠٤٥) ونقل ابن حجر فيها: قال ابن معين، وأبو حاتم، والنسائي: ثقة، زاد أبو حاتم: صالح الحديث.

وإسناد الحديث ضعيف لضعف المعلى بن مهدي الذي روى الحديث عن أبي عوانـة عـن ابن يونس. والمعلى بن مهدي قال ابن حجر في لسان الميزان: هو بصري، وقال أبـو حـاتم: يـأتي أحياناً بالمناكير: الترجمة(٢٥١) ج ٦ ص٦٥. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: باب ما جاء في خالد ابن سنان: ج ٨ ص٢١٣-٢١٤؛ قال: رواه الطبراني موقوفاً وفيه المعلى بن مـهدي ضعفـه أبـو حاتم؛ قال: يأتي أحياناً بالمناكير. قلت: وهذا منها. ثم قـال: وهـذا الحديـث معـارض للحديـث الصحيح قوله ﷺ: [أنَا أوْلَى النَّاسِ بعِيسَى بن مَرْيَمَ، الأنْبِيَاءُ إخْوَةُ العلات، وَلَيْسَ بَيْنِـي وَبَيْنَـهُ نَبِـيٌّ]. رواه البخـاري في الصحيـح: كتـاب الأنبيـاء: بـاب ٤٨: الحديـث(٣٤٤٢) و(٣٤٤٣). ومسلم في الصحيح: كتاب الفضائل: باب فضائل عيسى: الحديث (١٤٣-١٤٥/ ٢٣٦٥).

(٣) الدخان / ٣٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ ؛ أي كلٌّ مِن هؤلاءِ المذكُورين كذبَ الرُّسل، ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي فوجبَ عليهم عذابهُ، وحقَّ عليهم كلمةُ العذاب.

وسُمي تُبَّعاً لكثرةِ أتباعهِ وكان يعبدُ النارَ فأسلمَ ودعَا قومَهُ إلى الإسلامِ وهم حِمْيَرُ فكذبوهُ، قال حاتمُ الرقَّاشي[1]: كَانَ أسْعَدُ الْحِمْيَرِيُّ مِنَ التَّتَابعَةِ، آمَنَ بالنَّبيِّ ﷺ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ بسَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ، وَقَالَ:

شَهِدْتُ عَلَى أحْمَدَ أنَّهُ		رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَاري النَّسَمْ
فَلَوْ مَدَّ عُمْري إلَى عُمْرِهِ		لَكُنْتُ وَزِيراً لَهُ وَابْنُ عَمْ

قال قتادةُ: (ذمَّ اللهُ قَوْمَ تُبَّعٍ وَلَمْ يَذُمَّهُ، وَكَانَ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ، فَسَارَ بالْجُيُوشِ وَافْتَتَحَ الْبلاَدَ وَقَصَدَ مَكَّةَ لِيَهْدِمَ الْبَيْتَ، فَقِيلَ لَهُ: إنَّ لِهَذا الْبَيْتِ رَبّاً يَحْمِيهِ، فَنَدِمَ وَأحْرَمَ وَدَخَلَ مَكَّةَ وَطَافَ بالْبَيْتِ وَكَسَاهُ، وَهُوَ أوَّلُ مَنْ كَسَا الْبَيْتَ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ ؛ هذا جوابٌ لقولِهم (ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ). والمعنى: أعَجِزْنَا حين خلَقْنَاهم أوَّلاً ولم يكونوا شَيئاً، فكيف عن بعثِهم، وهذا تقريرٌ لهم لأنَّهم اعترَفُوا بأنَّ اللهَ الخالقُ وأنكرُوا البعثَ. ثم ذكَرَ أنَّهم في شَكٍّ من البعثِ، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي بل هُم في شَكٍّ من البعثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ ؛ أي ولقد خلَقنا لبنِي آدمَ ونعلَمُ ما يُحدِّثُ به قلبهُ؛ أي نعلَمُ ما يُخفِي ويُكِنُّ في نفسهِ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ ؛ بالعلمِ بأحوالهِ وبما في ضَميرِه، ﴿ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ وهو عِرْقٌ في باطنِ العُنقِ بين العَلْيا والْحُلقُومِ، وهما وَريدان عن يَمين ثغرَةِ النَّحرِ ويسارِها، يتَّصِلان من نَاحِيَتي الحلقِ والعاتقِ، ينصبَّان أبداً من

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٩٧. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٤٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: تفسير سورة الدخان: الأثر (٢٤٠٨٩).

الإنسان. وقال الحسنُ: (الْوَرِيدُ: الْوَتِينُ؛ وَهُوَ عِرْقٌ مُعَلَّقٌ بِهِ الْقَلْبُ، وَاللهُ تَعَالَى أَقْرَبُ إِلَى الْمَرْءِ مِنْ قَلْبِهِ)[١].

ومعنى الآيةِ: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) أي أعلَمُ به وأقدَرُ عليه مِن بعضهِ، وإنْ كان بعضهُ له حجابٌ فلا يحجِبُنا شيءٌ؛ أي لا يحجبُ عِلمُنا عنه شيءٌ.

ثم ذكرَ أنه مع علمهِ وكَّلَ به مَلَكين يكتُبان ويحفَظان عليه عملهُ إلزاماً للحجَّة، فقالَ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾؛ قال مقاتلُ: (هُمَا مَلَكَان يَتَلَقَّيَان عَمَلَ ابْنِ آدَم وَمَنْطِقِـهِ)[٢] أي يَأخُذان ذلك ويُثبتانه في صحائِفهما، أحدُهما عن يمين يكتبُ الحسَنات، والثاني عن شِمال يكتبُ السيِّئات، فذلك قولهُ (وَعَنِ الشِّمَال قَعِيدٌ) ولم يقل قَعِيدَان؛ لأنه أرادَ عن اليمينِ قعيدٌ وعن الشمالِ قعيدٌ، فاكتفَى من أحدِهما عن الأخرى، كقول الشَّاعر[٣]:

نَحْنُ بِمَا عِندَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

أي نحنُ بما عندَنا رَاضُون. والقعيدُ مثل قاعدٍ كالسَّميع والعليمِ والقدير، وقال أهلُ الكوفةِ: أرَادَ قُعُوداً.

رُوي: [أنَّ اللهَ تَعَالَى وَكَّلَ بالإنْسَان مَلَكَيْنِ باللَّيلِ، وَمَلَكَيْنِ بالنَّهَار يَحْفَظَان عَمَلَهُ، أحَدُهُمَا يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ، وَالثَّانِي يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ، فَإذا تَكَلَّمَ الْعَبْدُ بحَسَنَةٍ كَتَبَهَا الَّذِي عَلَى الْيَمِينِ عَشْراً، وَإذا تَكَلَّمَ بسَيِّئَةٍ قَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ لِلآخَر: أنْظِرْهُ، فَنَظَرَهُ سِتَّ سَاعَاتٍ أوْ سَبْعَ سَاعَاتٍ، فَإنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ لَمْ يَكْتُبْهَا، وَإنْ لَمْ يَتُبْ كَتَبَ عَلَيْهِ سَيِّئَةً وَاحِدَةً] هكذا قال ﷺ[٤].

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٩.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٧٠.

(٣) قيس بن الخطيم الأوسي (؟؟-٢ ق.هـ).

(٤) في الدر المنثور: ج ٧ ص٥٩٥؛ قال السيوطي: (أخرجه الطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة) وذكره. وفي مجمع الزوائد: كتاب التوبة: ج ١٠ ص٢٠٨؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه جعفر بن الزبير وهو كذاب).

وعن أنسٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [وَكَّلَ بعَبْدِهِ مَلَكَيْـنِ يَكْتُبَـان عَلَيْـهِ، فَـإذا مَاتَ الْعَبْدُ قَالاَ: يَا رَب قَدْ قَبَضْتَ عَبْدَكَ؛ اَفَتَأْذنُ لَنَا اَنْ نَصْعَدَ إلَـى السَّـمَاءِ ؟ فَيَقُـولُ اللهُ تَعَالَى: سَمَائِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَلاَئِكَتِـي يُسَبحُونَ، فَيَقُـولاَن: أنُقِيـمُ فِـي أرْضِـكَ ؟ فَيَقُولُ: إنَّ أرْضِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ خَلْقِي يَعْبُدُونَنِي، فَيَقُولاَن: أيْنَ نَذْهَبُ ؟ فَيَقُـولُ: قُومَـا عَلَى قَبْرِ عَبْدِي وَهَلِّلاَنِي وَكَبرَانِي وَاكْتُبَا ذلِكَ لِعَبْدِي إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَعِيدٌ) أي رَصِيدٌ حـافظٌ حـاضر مـلازمٌ لا يـبرحُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ ؛ أي حافظٌ حاضر (عَتِيدٌ) أي مُعْتَدٌّ لَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ﴾ ؛ أي جـاءَت غمَـرَاتُ المـوتِ وأهوالهُ وشدَّتُها التي تَغشَى الإنسانَ وتَغلِبُ على عقلهِ، (بالْحَقِّ) أي بما يصيرُ إليه من أمر الآخرةِ من شَقاوةٍ أو سَعادةٍ تُحَقَّقُ عليه عندَ المـوتِ. ويقـالُ لـه: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ ؛ أي تَميلُ وتَهربُ وتَكرَهُ، قد أيقَنْتَ أنه الآنَ، يقـالُ: حـادَ عـن الشيءِ يَحِيدُ عنهُ حَيْداً؛ إذا مَالَ وزَاغَ ونَكَصَ، وقرأ أبو بكـرِ الصدِّيـق ﷺ (وَجَـاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بالْمَوْتِ)[2].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ ؛ يريـدُ نفخـةَ البعثِ، يكون يومُ القيامةِ وهو يومٌ يتحقَّقُ فيـه الوعيـدُ، وهـو اليـومُ الموعُـود للأوَّلـين والآخِرين يجتَمعون فيه. وَقِيْلَ: معناهُ: ذلك الذي وعدَ اللهُ الكفارَ أنْ يُعذِّبَهم فيه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾ ؛ أي سـائِقٌ يَسُوقُها إلى الْمَحْشَرِ، وشاهدٌ يَشهَدُ عليها بما عَمِلَتْ، قال الكلبيُّ: (السَّائِقُ هُـوَ الَّـذِي يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ، وَالشَّهِيدُ هُوَ الَّذِي يَكْتُبُ الْحَسَـنَاتِ)، والمـرادُ بـالنَّفْسِ هـهُنا نفس

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٥٩٧؛ قال السيوطي: (اخرجه أبو الشيخ في العظمة والبيهقي في شعب الإيمان) وذكره.

(٢) في إعراب القرآن: ج ٤ ص١٥٠؛ قال النحاس: (وصحَّ عـن أبـي بكـر الصديـق ﷺ) وذكـره. وقال: (وكذا عن عبدالله بن مسعود رحمه الله قال: هذه قراءة على التفسير).

الكافر، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ ؛ اليومِ في الدُّنيا، ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ ؛ الذي كان في الدُّنيا يغشَى قلبَكَ وسمعَكَ وبصرَكَ، ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي فأنتَ اليومَ عالِمٌ نافذُ البصر، تُبصِرُ ما كنتَ تُنكِرُ في الدُّنيا. وَقِيْلَ: معناهُ: (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) أي فعِلمُكَ نافذٌ، وهو من البَصِيرَةِ لا بصرَ العينِ، كما يقالُ: فلانٌ بصيرٌ بهذا الأمرِ؛ أي عالِمٌ به. وَقِيْلَ: معناهُ: فبصرُكَ اليوم شاخصٌ لِمَا ترى من الْهَوْلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ يعني الْمَلَكَ الذي يكتبُ عملَهُ السَّيِّءَ في الدُّنيا يقول: هذا الذي كَتَبتهُ من عملهِ مُعَدٌّ محفوظٌ مُحصَى، يعني أن الملَك يقولُ: لديه هذا الذي وكَّلتَني به قد أحضَرتهُ، فيقولُ الله تعالى لقَرينهِ: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ ؛ إطرَحا فيها، ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ ؛ باللهِ وبنعمتهِ، ﴿ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ، مُعرضٍ عن الإيمانِ والقرآنِ إعراضَ المضادِّ لهُ. وهذا خطابُ الواحدِ بلفظ التَّثنيَةِ على عادةِ العرب، يقولون للواحدِ: ارحلاها وآزجراها[1]. وَقِيْلَ: الخطابُ لخازنِ النَّار، ومخاطبَةُ الواحدِ بلفظ الاثنين من فصيحِ كلامِ العرب، ومنه قولُهم للواحدِ في الشِّعر (خَلِيلَيَّ)، قال امرؤُ القيس:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ ... نُقَضِّ لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

وقالَ:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقال الفرَّاءُ والسديُّ وأبو ثروان[2]:

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ ... وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعَا

ومنه قولُ الحجَّاج: (يَا حَرَسِيُّ إضْرِبَا عُنُقَهُ)[3]، قال الزجَّاجُ: (تَثْنِيَةٌ عَلَى

---

(١) في معاني القرآن: ج ٣ ص٧٨؛ قال الفراء: (وسمعتُ بعضهم: ويحك! ارحلاها وازجراها).

(٢) سويد بن كراع، من بني عكل، شاعرٌ فارسٌ (؟؟-١٠٥هـ). وذكره الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٧٨. وذكر القرطبي هذه الشواهد الشعرية أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٦.

(٣) نقله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٣٨.

الْحَقِيقَةِ وَالْخِطَابُ لِلْمُتَلَقِّينَ مَعاً، وَالسَّائِقُ وَالشَّهيدُ جَمِيعاً)، وقرأ الحسنُ: (أَلْقِيَنَ) بنونِ التأكيد كقوله تعالى ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ ؛ أي لا يُنْزِلُ خيراً ولا يُعطي شيئاً من حقِّ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ ؛ أي ظالِمٍ لا يُقِرُّ بتوحيدِ الله، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي شاكٌّ في البعثِ والتوحيد. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ؛ أي شريكاً، ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي إطرحاهُ في النار.

وقولهُ: ﴿ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ ؛ أي شيطانهُ: ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ ؛ أي ما أغويَته، ما أضلَلته؛ أي لم أتوَلَّ ذلك. وَقِيْلَ: معناهُ: قال قرينهُ الذي يشهَدُ عليه من الملائكةِ: (رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) أي ما عجِلتُ عليه في الكتابةِ وما كتبتُ عليه إلاَّ ما قالَ وفعلَ، ﴿ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ ﴾ ؛ خطأ، ﴿ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ من الصَّواب. وإنما يقولُ الملَكُ هذا القولَ بعدَ ما يقولُ الكافرُ: يا رب عليَّ كتبَ ما لَمْ أقُلْ ولم أفعَلْ وما أنظَرَني، ولكن عجَّلَ في الكتابةِ عليَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ ﴾ ؛ أي يقولُ اللهُ تعالى: لا تختصِمُوا عندِي كما تختصِمُوا عند مُلوكِ الدُّنيا، فإنِّي مَلِكٌ لا يُكرَّرُ الكلامُ عندي، ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم ﴾ ؛ على ألسِنَةِ الرسلِ بالوعدِ و؛ ﴿ بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ لا ينفعُكم الاختصامُ بعدَ أن أخبرتُكم على ألسِنَةِ الرُّسل بعذابي في الآخرةِ لِمَن كفرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ ؛ أي لا خُلفَ لوَعدِي ووعيدي، وقد قَضيتُ ما أنَا قاضٍ عليكم من العذاب، لا تبديلَ له. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يُكذَبُ عندي ولا يغيَّرُ القولُ من جُملتهِ؛ لأنِّي أعلمُ الغيبَ وأعلمُ كيف ضَلُّوا وكيف أضْلَلتُموهم، ولا يقدرُ أحدٌ أن يُشقِي أحداً مِمَّن أسعدتُهُ، ولا يُسعِدُ أحدٌ ممن أشقَيتهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي لا أعاقِبُ أحداً من غيرِ جُرمٍ، ولا أخذُل أحداً من غيرِ ذنبٍ، ومَن عَمِلَ سيِّئةً فلا يُجزَى إلاَّ مِثلَها.

---

(١) العلق / ١٥ . وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ قرأ نافعُ (يَقُولُ) بالياءِ على معنى: يقولُ اللهُ. والمعنى: أنذِرْهُمْ يومَ يقولُ لجهنَّم: هَلِ امْتَلأْتِ كما وعَدتُّكِ، فتقولُ: (هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) أي لَمْ يبقَ موضعٌ لم يمتلئ فلا مزيدَ، على هذا قال المفسِّرون: أرَاها اللهُ تصديقَ قوله ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[1] فلمَّا امتَلأتْ قالَ لَها: هلِ امتلأتِ؟ فتقولُ: هل مِن مزيدٍ على هذا الامتلاءِ؟ وهذا استفهامُ إنكارٍ؛ أي قدِ امتلأتُ ولم يبقَ فِيَّ موضعٌ خالٍ. هذا قولُ عطاء ومجاهد. وقال ابنُ عبَّاس في رواية أبي صالحٍ: (أنَّها تَسْتَزِيدُ إلَى مَا فِيهَا)[2] ووجهُ هذا القولِ أنَّ هذا السؤالَ في قوله (هَلِ امْتَلأْتِ) كان قبلَ دُخولِ جميعِ أهلها فيها. ويجوزُ أن يكون المعنى: أنَّها طَلَبت أن تُزَادَ في سِعَتها لتَضايُقِها بأهلِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ ؛ أي قريبٍ، وأدِّيت الجنةُ للمتَّقين الشِّركَ غيرَ بعيدٍ، ينظُرون إليها قبلَ دخُولِها، ويقالُ لَهم عندَ تَقريبِها: ﴿هَٰذَا﴾ ؛ الذي ترَونَهُ، ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ ؛ في الدُّنيا على ألسِنَةِ الرُّسلِ، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ ؛ أي لكلِّ رجَّاعٍ عن معاصِي اللهِ إلى طاعةِ الله، حافظٍ لحدُودِ اللهِ من الخروجِ إلى ما لا يجوزُ.

قال مجاهدُ: (الأَوَّاب الَّذِي يَذْكُرُ اللهَ فَيَسْتَغْفِرُ مِنْهُ)[3]، وقِيْلَ: هو الذي يُذنِبُ ثم يتوبُ، ثم يُذنِبُ ثم يتوبُ. وقِيْلَ: الأوَّابُ المُسَبحُ مِن قوله ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[4]. وقِيْلَ: هو الذاكرُ للهِ، وقال مقاتلُ: (الْمُطِيعُ)[5]. وقِيْلَ: هو الذي لا يقومُ من محلِّه حتى يستغفرَ اللهَ، وقال أبو بكرٍ الورَّاق: (هُوَ الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، لاَ يَهْتَدِي إلَى غَيْرِ اللهِ). وقِيْلَ: هو الذي لا يشتَغِلُ إلاَّ باللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ؛ صفةٌ للأوَّاب الحفيظِ، والمعنى: مَن خافَ اللهَ وخَافَ من عذابِهِ وأطاعَهُ ولم يَعْصِهِ، وعبدَهُ حيث لا يراهُ إلاَّ اللهُ، وهو

(١) الأعراف / ١٨ .
(٢) ذكرها البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٢٩.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٧٤٠).
(٤) سبأ / ١٠ .
(٥) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٧٢.

معنى قولـهِ (بـالْغَيْب) ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ ؛ أي جـاءَ بقَلـبٍ مُخلِـصٍ راجعٍ عن معاصِي الله إلى طاعتهِ، والقلبُ الْمُنِيبُ: هو التَّائِبُ، وموضِعُ (مَنْ خَشِـيَ) الخفضُ على نعتِ الأوَّاب.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ ؛ يعـنِي سـلامة مـن الهمـومِ والعـذاب وأمانٍ من كلِّ مكروه، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ ؛ في الجنَّة لأنه لا مـوتَ فيـها ولا فنـاءَ ولا انقطـاعَ، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ ؛ مـن أنـواعِ النَّعيـم، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ ؛ أي نَزيدُهم من عندِنا ما لم يسألوهُ، ولا خَطَرَ علـى قلـوبٍ، ولا بلغَتهُ أفهامُهم، وقال جابرُ: (الْمَزِيدُ هُوَ النَّظَرُ إلَى وَجْهِ اللهِ الْكَرِيم بلاَ كَيْفٍ)[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ ؛ هذا تخويفٌ لأهلِ مكَّة؛ أي كم أهلَكنا من قـومٍ هُـم أشَـدُّ مِنْـهُمْ بَطْشـاً، ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ ؛ أي سَارُوا وتقلَّبُوا وطافُوا في البلادِ. وأصلهُ مـن النَّقـب وهـو الطريـقُ؛ وكأنَّهم سلَكُوا كلَّ طريقٍ فلم يجِدُوا مَخلَصاً عن أمرِ الله.

قال الزجَّاجُ: (لَمْ يَرَوا مَخلَصاً مِنَ الْمَوْتِ، كَأَنَّهُمْ ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ مَعَ شِـدَّةِ شَوْكَتِهِمْ وَبَطْشِهِمْ، وَفِي هَذا إنْذارٌ لأَهْلِ مَكَّةَ أنَّهُمْ عَلَى مِثْلِ سَبيلِهِمْ لاَ يَجِدُونَ مَفَـرّاً مِنَ الْمَوْتِ، يَمُوتُونَ فَيَصِيرُونَ إلَى عَذاب اللهِ)[2].

قرأ الحسنُ: (فَنَقَبُوا) بالتخفيف، وقرأ السُّلَمي على اللفظِ الأمر علـى التـهديدِ والوعيد؛ أي أقبلُوا في البلادِ وأدبرُوا يا أهلَ مكَّة وتصرَّفُوا منها كلَّ مُتَصرَّفٍ، وسِيرُوا في الأرضِ فـانظروا، ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ ؛ أي إنَّ ما صُنِعَ بهم من هلاكِ القُرى لعِبرَةً وعِظَةً؛ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ ، عقلٌ وحَزْمٌ وبصيرة، ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ ؛ أي استمعَ ما يقالُ لـه علـى جهـة التَّفَـهُّم، يقـولُ العـربُ: ألْـق سَـمْعَكَ؛ أي اسْتَمِعْ مِنِّـي؛ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ ؛ أي شـاهِدُ القلب حاضرهُ غير غافلٍ ولا ساهٍ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٣٠.

(٢) لم أجده في معاني القرآن وإعرابه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ واللُّغوبُ هو التَّعَبُ، وذلك أنَّ اليهودَ لَعَنَهُمُ اللهُ قالُوا: خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّام، أوَّلُها يوم الأحَدِ، وآخرُها يومُ الجمعةِ، فأعيَا واستراحَ يومَ السبتِ! فذلكَ لا يُعمَلُ فيهِ شيئاً. فأكذبَهم اللهُ بقولهِ (وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)، واللُّغُوبُ هو التعبُ، وسُبحانَ اللهِ أن يُوصَفَ بتَعَبٍ أو نصَبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ؛ أي إصبِرْ يا مُحَمَّدُ على ما يقُولون من الأذى والتكذيب، وهذا قبلَ أن يؤمَرَ بالقتال، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي صَلِّ بأمرِ ربكَ واحْمَدْهُ، ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أرادَ بذلك صلاةَ الفجر وصلاةَ العصر. وَقِيْلَ: معناهُ: قبلَ الغروب: الظهرَ والعصرَ، ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ ؛ يعني: صلاةَ المغرب والعشاءِ. وسُمِّيت الصلاةُ تَسبيحاً لِمَا فيها من التسبيحِ: (سُبْحَانَ رَبيَ الْعَظِيمِ، وَسُبْحَانَ رَبيَ الأَعْلَى).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ يعني الرَّكعتين بعدَ المغرب وقبلَ الوترِ. وَقِيْلَ: التسبيحُ في أواخرِ الصَّلاة، يُسَبحُونَ اللهَ ثلاثاً وثلاثين، ويَحمَدُون ثلاثاً وثلاثين، ويُكَبرُونَ ثلاثاً وثلاثين. وعن رسول الله ﷺ: [أنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي آخِرِ صَلاَتِهِ عِنْدَ انْصِرَافِهِ: ﴿سُبْحَانَ رَبكَ رَب الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ...﴾ إلَى آخرِ السُّورة][1].

وعن الشعبيِّ والأوزاعيِّ أنَّهما قالا: (أدْبَارُ السُّجُودِ الرَّكْعَتَان بَعْدَ الْمَغْرِب، وأدْبَارُ النُّجُومِ: الرَّكْعَتَان قَبْلَ الْفَجْرِ)[2]. وقال ابنُ زيدٍ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (أدْبَارَ السُّجُودِ) وَهُوَ النَّوَافِلُ، وَأدْبَارُ الْمَكْتُوبَاتِ)[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٩ ص١٩٥: الحديث (١١٢٢١) عن ابن عباس بلفظ: [كُنَّا نَعْرِفُ انْصِرَافَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بقَوْلِهِ...] وذكره. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص١٠٣؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه محمد بن عبدالله بن عبيد بن عمير، وهو متروك). وذكر في ج ٢ ص١٤٧-١٤٨ عن أبي مثله، وقال: (رواه أبو يعلى ورجاله ثقات). وذكره النووي برواية عن ابن السني في الأذكار: ص٦٩، عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف: ج ٢ ص٢٥٩: الحديث (٨٧٤٧).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٦؛ نقله القرطبي بلفظ: (هو النوافل بعد الصلوات، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة).

قرأ الحسنُ وأبو عمرو ويعقوبُ وعاصم والكسائيُّ وابنُ عامر: (وَأَدْبَارَ) بفتحِ الألف جمعُ الدُّبُرِ. وقرأ الباقون بالكسرِ على المصدر مِن أدْبَرَ يُدْبرُ إدْبَاراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي استمعْ يا مُحَمَّدُ صيحةَ القيامةِ والبعثِ والنَّشر، ويومَ النداءِ هو يومُ صَيحَةِ إسرافيلَ، وهو يومُ النَّفخَةِ الأخيرةِ، يقومُ فيه على صخرةِ بيتِ المقدسِ فينفخُ في الصُّور، والصَّخرةُ أقربُ مكانٍ من الأرضِ إلى السَّماء باثْنَي عشر مِيلاً كذا قال الكلبيُّ.

وفي الحديثِ: [أنَّهُ يُنَادِي: أيَّتُها الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ، وَالْعُـرُوقُ الْمُتَمَزِّقَـةُ، وَالشُّعُورُ الْمُتَفَرِّقَةُ، اخْرُجْنَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ فِيكُنَّ، فَيَخْرُجُونَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ][(1)].

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي بالبعثِ، وَقِيلَ: إنَّها كائنةٌ بالحقِّ، ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي مِن القبور إلى المحشَرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ ؛ أي نُحيي الأمواتَ ونُميتُ الأحياءَ، ﴿ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ للجزاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ ؛ أي تتصَدَّعُ عنهم مُسرعين، والمعنى يوم تشقَّقُ الأرضُ عنهم خارجين سِراعاً يُسرعُونَ إلى الدَّاعي، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ الحشرُ، ﴿ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي هَيِّنٌ وسَهْلٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ مِن تكذيبكَ من أمرِ البعث وغيرِ ذلك، يعني كفَّارَ مكَّة، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ ؛ أي بمُسلَّطٍ قهَّار تُجبرُهُمْ على الإسلامِ، إنما بُعِثتَ مُذكِّراً مُحذِّراً، وذلك قبلَ أن يُؤمَرَ بالقتال، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ ﴾ ؛ أي عِظْ به، ﴿ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ وإنما خَصَّ الخائفِين بالوعظِ؛ لأنَّهم همُ الذين يَنتَفِعُونَ بذلك، والمعنى: ذكِّرْ بالقُرآنِ مَن يخافُ ما وعَدتُ مَن عصَانِي من العذاب.

آخر تفسير سورة (قٓ) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٧٩٠) موقوفاً عن كعب. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٦١١؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن عساكر والواسطي في فضائل بيت المقدس).

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

سُورَةُ الذارِيَاتِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَمِائَتَانِ وَسَبْعَةٌ وَثَمَانُونَ حَرْفاً، وَثَلاَثُمِائَةٍ وَسُتُّونَ كَلِمَةً، وَسُتُّونَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ الذارِيَاتِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ كُلِّ رِيحٍ هَبَّتْ وَجَرَتْ فِي الدُّنْيَا][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ ﴾ ؛ يعني الرِّياحَ تَذرُوا الترابَ، وتَهشِمُ النباتَ؛ أي تُفرِّقهُ، وهي مخفوضةٌ على القسَمِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ يعني السَّحابَ تَحمِلُ ثُقْلاً من ماءِ المطرِ، فتصيرُ كالْمُوقَدَةِ، والوِقْرُ بكسرِ الواو الْحِمْلُ، والوَقْرُ بفتح الواو الثُّقلُ في الأُذن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ يعني السُّفن تجري في الماءِ جَرْياً سَهْلاً مع عِظَمِها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ يعني الملائكةَ يَقسِمُونَ الأُمُورَ بين الخلقِ على ما أُمِرُوا به من الأرزاقِ وغيرِها.

أقسمَ اللهُ بهذه الأشياءِ لِمَا فيها من الدَّلالةِ على صَنعَتِهِ وقُدرتهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ يعني إنَّ الذي تُوعَدون من الثَّواب والعقاب لصَادِقٌ، ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ أي الجزاءَ، ﴿ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ كائنٌ يومَ القيامةِ.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف:ج٤ ص٣٩٧. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٠٩ عن أبي بإسناد ضعيف.

وعن عليٍّ ﷺ أنَّهُ قَالَ ذاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَةٍ: (سَلُونِي فَوَاللهِ لاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ إلاَّ وَسَأُخْبِرُكُمْ بِهِ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ مَا الذاريَاتِ ذرْواً؟ فَقَالَ: الرِّيَاحُ. وَقَالَ: مَا الْحَامِلاَتِ وقْراً؟ قَالَ: السَّحَابُ. قَالَ: مَا الْجَارِيَاتِ يُسْراً؟ قَالَ: السُّفُنُ. قَالَ: مَا الْمُقَسِّمَاتِ أمْراً؟ قَالَ: الْمَلاَئِكَةُ)[١].

وعن الأعرجِ قال: (بَلَغَنَا أنَّ مَسَاكِنَ الرِّيَاحِ تَحْتَ أجْنِحَةِ الْكُرُوبِيِّينَ حَمَلَةِ الْكُرْسِيِّ، فَتَهِيجُ مِنْ ثَمَّ فَتَقَعُ بعَجَلَةِ الشَّمْسِ، ثُمَّ تَهِيجُ مِنْ عَجَلَةِ الشَّمْسِ فَتَقَعُ برُؤُوسِ الجِبَالِ، ثُمَّ تَهِيجُ مِنْ رُؤُوسِ الجِبَالِ فَتَقَعُ فِي البَرِّ، وأمَّا الشِّمَالُ فإنَّهَا تَمُرُّ بجَنَّةِ عَدْنٍ، فَتَأْخُذُ مِنْ عَرْفِ طِيبِهَا، فَتَمُرُّ عَلَى أرْوَاحِ الصِّدِّيقِينَ، ثُمَّ يَكُونُ مَهَبُّهَا مِنْ كُرْسِي بَنَاتِ نَعْشٍ إلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ، وَتَهُبُّ الدَّبُورُ مِن مَغْرِبِ الشَّمْسِ إلى مَطْلَعِ سُهَيْلٍ، وَتَهُبُّ الصَّبَا مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إلى مَغْرِبِ بَنَاتِ نَعْشٍ، لاَ تَدْخُلُ هَذِهِ فِي حَدِّ هَذِهِ، وَلاَ هَذِهِ فِي حَدِّ هَذِهِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾؛ هذا قسَمٌ آخرُ، ومعناهُ: والسَّماءِ ذاتِ الْخَلْقِ الْحَسَنِ المستوي، هذا قولُ عكرمةَ، قالَ: (ألَمْ تَرَ إلَى النَّسَّاجِ إذا نَسَجَ الثَّوْبَ فَأَجَادَ نَسْجَهُ، قِيْلَ: مَا أحْسَنَ حَبْكَهُ!)[٣]، وبهِ قالَ ابنُ عبَّاس وقتادةُ والربيع[٤]. وقال سعيدُ بن جبير: (وَمَعْنَاهُ: ذاتِ الزِّينَةِ)[٥].

وقال مجاهدُ: (وَالسَّمَاءِ ذاتِ الْبُنْيَانِ الْمُتْقَنِ)[٦]. وقال الضحَّاكُ: (ذاتِ الطَّرِيقِ الَّتِي تُرَى فِيهَا كَحُبُكِ الْمَاءِ إذا ضَرَبَتْهُ الرِّيَاحُ، وَحُبُكِ الرَّمْلِ إذا سَفَّتْهُ الرِّيحُ، وَحُبُكِ الشَّعْرِ الْجَعْدِ، وَحُبُكِ الثَّوْبِ الْحَسَنِ النَّسِيجِ)[٧].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٧٨٨)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٣١١.

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٠٩ بلاغاً بإسناده عن عمر الأعرج.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨١٢)

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (٢٤٨١٣-٢٤٨١٥).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨١٠).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨١٧). وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٣٢.

(٧) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨١٨).

والْحُبُوكُ في اللغة: مَا أجِيدَ عَمَلُهُ، وواحدُ الْحُبُكِ حِبَاكٌ، مثلُ مِثَال ومُثُلٍ. ويجوزُ أن يكون واحدةُ حَبيكَةٍ مثلُ طَرِيقَةٍ وَطُرُق[1]. وَقِيْلَ: الْحُبُكُ طَرِيقُ الْملائكةِ، وقال الحسنُ: (حَبَكَهَا زَيَّنَهَا بالنُّجُومِ). وَقِيْلَ: (ذَاتِ الْحُبُكِ) أي ذاتِ الْخَلْقِ الشَّديدِ، قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً﴾[2].

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ ﴾ ؛ هذا جوابُ القَسَمِ الثاني، والمعنى: إنَّكم يا أهلَ مكَّة لَفِي قول مُختَلِفٍ من بين مُصَدِّقٍ بالنبيِّ ﷺ ومُكَذِّبٍ به، ومُتوَقِّفٍ في أمرهِ، وبعضُكم يقولُ في مُحَمَّدٍ: هو شاعرٌ، وبعضكم يقول: مجنونٌ، وفي القرآن يقول بعضُكم: هو سحرٌ، وبعضكم يقول: هو كهَانَةٌ، وبعضكم يقولُ: هو أساطيرُ الأوَّلين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ ﴾ ؛ أي يَنصَرفُ عن الإيمانِ مَن صُرِفَ حتى يُكَذِّبَ بهِ، يعني بذلك مَن حَرَمَهُ اللهُ الإيمان بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ﴾ ؛ أي لُعِنَ الكذابُونَ، وقال ابنُ عبَّاس: (الْمُرْتَابُونَ)[3]، والقَتْلُ إذا أخبرَ به عن اللهِ كان بمعنى اللَّعْنِ؛ لأنَّ مَن لَعَنَهُ اللهُ فهو بمنْزلة المقتول الهالكِ، كما قالَ اللهُ ﴿قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أكْفَرَهُ﴾[4] أي لُعِنَ. والْخَرَّاصُونَ: همُ الكذابُونَ.

قال الفرَّاء: (وَالْمُرَادُ بهِمْ هَهُنَا الَّذِينَ قَالُوا: مُحَمَّدٌ شَاعِرٌ وَكَذابٌ وَمَجْنُونٌ وَسَاحِرٌ)[5]. والْخَارصُ: هو الذي يقطعُ في الأمور والْحُكم بمقدارهِ بالتَّخمِينِ، يعني مِن غير علمٍ، ومنه خَارصُ الذي يقطعُ في مقدارهِ بغيرِ حقيقةٍ.

---

(١) ينظر: لسان العرب: مادة (حبك).
(٢) النبأ / ١٢ .
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨٢٧).
(٤) عبس / ١٧ .
(٥) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٣ ص٨٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛نعْتٌ لهم، والغَمْرَةُ هي الجهلُ، ومنه الغَمْرُ الجهلُ، والسَّاهِي هو الغافلُ عن أمرِ الآخرة. والمعنى: الذين هُم في غفلةٍ وعمًى وجهالةٍ عن أمرِ الآخرة، سَاهُونَ لاَهُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي يسألون متى يكونُ الجزاءُ على وجهِ الإنكار، يقولون: يا مُحَمَّدُ متى يومُ الجزاءِ، تكذيباً منهم واستهزاءً، فأُجِيبُوا بما يَسُوءُهم، فقيل: ﴿ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي يُحرَقون ويُنضَجون ويعذبون بها.

يقالُ: فَتَنْتُ الذهبَ إذا أحرقتُ الغشَّ الذي فيه، والكفارُ غِشٌّ كلُّهم فيُحرَقون، ويقولُ لَهم خَزَنَةُ النار: ﴿ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ ﴾ ؛ أي حَرِيقَكم وعذابَكم، ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا تكذيباً به. وإنَّما لم يقُل: فِتنَتَكم هذهِ؛ لأنَّ الفتنةَ ههُنا بمعنى العذاب، فردَّ الإشارةَ إلى المعنَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ ﴾ أي قَابلين ما أعطَاهُم ربُّهم من كرامةٍ في الجنَّة. وَقِيْلَ: معناهُ: عَامِلين بما أمَرَهم ربُّهم في الدُّنيا، وقولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا في أعمالِهم. وقولُهُ تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي ما ينَامُون، هذا بيانُ إحسانِهم.

والْهُجُوعُ: النَّومُ باللَّيلِ دون النَّهار، و(مَا) زائدةٌ، والمعنى: كانُوا يَهجَعُونَ قليلاً من اللَّيلِ ويُصَلُّونَ أكثرَ اللَّيل. وَقِيْلَ: معناهُ: قَلَّ ليلةً أتت عليهم هَجَعُوها كلَّها، وقال مجاهدُ: (كَانُوا لاَ يَنَامُونَ كُلَّ اللَّيْلِ)[1].

واختارَ قومٌ الوقفَ على قولهِ (كَانُوا قَلِيلاً) على معنى: كَانُوا من الناسِ قَليلاً، وهو قولُ الضحَّاك ومقاتل[2]. ثم ابتدأ فقالَ: (مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) وهذا على نفيِ النومِ عنهم البتَّةَ. وَقِيْلَ: معناهُ: كانوا لا ينَامُون حتى يُصَلُّوا الْعَتْمَةَ، وقال أنسُ بن

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨٦٦).

(٢) ينظر: تفسير مقاتل: ج ٣ ص٢٧٦.

مالكٍ ﷺ: (يُصَلُّونَ مَا بَيْنَ الْمَغْرِب وَالْعِشَاءِ)[١]. وعن جعفرَ بن محمَّد أنه قال: (مَنْ لَمْ يَهْجَعْ مَا بَيْنَ الْمَغْرب وَالْعِشَاءِ فَهُوَ مِنْهُمْ)، عن أبي ذرٍّ[٢] قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ: أيُّ صَلاَةِ اللَّيْلِ أفْضَلُ ؟ قَالَ: [نِصْفُ اللَّيْلِ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ][٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (كَانُوا يَمُدُّونَ الصَّلاَةَ إلَى الْعَصْرِ ثُمَّ يَأْخُذُونَ فِي الاسْتِغْفَار بالأَسْحَار)[٤].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ يعني بذلك الحقِّ الزكاةَ، فليس عليهم مِن سِوَاها، والسائلُ: هو الذي يسألُ الناسَ، والْمَحْرُومُ: هو الذي لا يسألُ، يَحرِمُ نفسَهُ بتركِ سُؤالِه، ويحرمهُ الناسُ بتركِ إعطائِه.

وقال إبراهيمُ: (الْمَحْرُومُ: هُوَ الَّذِي لاَ سَهْمَ لَهُ فِي الْغَنِيمَةِ)[٥]، وقال زيدُ بن أسلَم: (هُوَ الْمُصَابُ ثَمَرُهُ أوْزَرْعُهُ أوْنَسْلُ مَاشِيَتِهِ)[٦]، ويقالُ: هو صاحبُ الحاجةِ بذهاب مالهِ بدليلِ قوله ﴿إنَّا لَمُغْرَمُونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[٧].

عن أبي قُلابة قال: (كَانَ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ الْيَمَامَةِ لَهُ مَالٌ، فَجَاءَ سَيْلٌ فَذهَبَ مَالُهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أصْحَاب النَّبِيِّ ﷺ هَذا الْمَحْرُومُ فَأَقْسَمَ لَهُ)[٨]. وقال قتادةُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨٥٧). ورواه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٧٨٩).

(٢) في المخطوط: (أبي الدرداء) وهو تحريف من الناسخ، والصحيح كما أثبتناه.

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب قيام الليل: باب أي صلاة الليل أفضل: الحديث (١٣٠٨) وإسناده صحيح. واختلفوا في (مهاجر) من رواته. وابن المبارك في الزهد: ص٤٢٨: الحديث (١٢١٧). وابن حبان في الإحسان: كتاب الصلاة: الحديث (٢٥٦٤). والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب الصلاة: الحديث(٤٧٦٨) وإسناده حسن.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (٢٤٨٧١) بلفظ: (نشطوا فمَدُّوا إلى السَّحَر) (ومدوا في الصلاة ونشطوا، حتى كان الاستغفار بسَحر) وهو كذلك في الأثر (٢٤٨٨٣).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٩٠٠).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٩٠٢).

(٧) الواقعة / ٦٦-٦٧.

(٨) في الدر المنثور: ج ٧ ص٦١٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر). وأخرجه الطبراني في جامع البيان: الأثر (٢٤٨٩١).

والزهري: (هُوَ الْمُتَعَفِّفُ الَّذِي لاَ يَسْأَلُ)[١]، وقد ذكرَ النبيُّ ﷺ فقالَ: [لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ لِحَاجَتِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ][٢].

وعن عبدِالله بن عمرَ والشعبيِّ والحسن ومجاهد أنَّهم قالوا: (فِي الْمَالِ حَقٌّ وَاجِبٌ سِوَى الزَّكَاةِ)[٣]، وَهِيَ الْحُقُوقُ الَّتِي تَلْزَمُ عِنْدَمَا يُعْرَضُ مِنَ الأَمْوَالِ مِنَ النَّفَقَةِ عَلَى الْوَالِدَيْنِ إذا كَانَا فَقِيرَيْنِ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ الْمَحْرَمِ، وَمَا يَجِبُ مِنْ إطْعَامِ الْمُضْطَرِّ وَحَمْلِ الْمُنْقَطِعِ وَغَيْرِ ذلِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ آياتُ الأرضِ جِبالُها وأنهارُها واختلافُ نباتِها وبحارِها وأشجارِها، بذلك كلُّه دلائلُ توحيدِ الله لِمَن أيقنَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾؛ معناهُ: وفي أنفسِكم آياتٌ إذ كانت نطفةً ثم علقةً ثم مُضغةً ثم عَظْماً إلى نَفْخِ الروحِ.

وقال عطاءُ: (يَعْنِي اخْتِلاَفَ الأَلْسِنَةِ وَالصُّوَرِ وَالأَلْوَانِ وَالطَّبَائِعِ). وقال ابنُ الزُّبير: (هُوَ أنْ يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ مِنْ مَكَانٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَخْرُجُ بَعْدَ ذلِكَ مِنْ مَكَانَيْنِ، مَكَانِ الْغَائِطِ وَمَكَانِ الْبَوْلِ، حَتَّى أنَّهُ لَوْ شَرِبَ لَبَناً مَحْضاً خَرَجَ مَاءً)[٤]. وقولهُ تعالى (أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) أي أفَلا تنظُرون بقُلوبكم نظرَ مَن كان يرَى الحقَّ بعَينِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾؛ يعني المطرَ الذي هو سببُ النباتِ، والنباتُ هو مما قَسَمَهُ اللهُ تعالى للعبادِ وكَتَبَهُ في السَّماء، أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ أرزاقَ العبادِ حيث لا يأكلهُ السُّوس ولا تنالهُ اللُّصوصُ، فقال تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٤٨٩٧ و٢٤٨٩٥) عن قتادة، و(٢٤٨٩٥ و٢٤٨٩٦).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان مرسلاً: الحديث(٢٤٨٩٦):(عن الزهري أن النبي ﷺ قال...) وذكره.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير:ج ١٠ ص٣٣١١: الأثر(١٨٦٥٣) عن ابن عباس. ونقله السيوطي في الدر المنثور: ج ٧ ص٦١٦؛ وقال: (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد). ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٣٨.
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٩٠٧). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٣١٢.

وعن واصل الأحدب[1] أنَّهُ قرأ هذه الآيةَ فقال: (إنِّي أرَى رِزْقِي فِي السَّمَاءِ وَأنَا أطْلُبُهُ فِي الأَرْضِ، فَدَخَلَ خَرِبَةً فَمَكَثَ فِيهَا لَيَالِيَ لاَ يُصِيبُ شَيْئاً، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الرَّابعِ إذْ هُوَ خُوصِ صُرَّةٍ مِنْ دَوْخَلَّةٍ رُطَب[2]، فَلَمْ يَزَلْ كَذلِكَ حَتَّى مَاتَ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ قال عطاءُ: (مَعْنَاهُ: وَفِي السَّمَاءِ مَا تُوعَدُونَ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ مَكْتُوبٌ)، وقال الكلبيُّ: (وَمَا تُوعَدُونَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ)، وقال مجاهدُ: (الْجَنَّةِ وَالنَّارِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ أقسَمَ اللهُ تعالى بنفسهِ، والذي بَيَّنَهُ مِن أمر الرِّزق وغيره (لَصِدْقٌ) كان نِطقُكم الذي هو الصدقُ من كلمةِ التَّوحيدِ ونحوها حقٌّ قراهُ أهلُ الكوفة (مِثْلُ مَا أنَّكُم) برفعِ (مِثْلُ) على أنَّهُ صفةٌ لقوله (لَحَقٌّ). وقرأ الباقون بالنصب على التركِ على معنى إنه يَحِقُّ حَقّاً (مِثْلَ مَا أنَّكُمْ تَنطِقُونَ)؛ وَقِيْلَ: تقديرهُ: كَمِثْلِ ما أنَّكم تَنطِقُونَ.

وقالَ بعضُ الحكماء: معنى قولهِ: (مِثْلَ مَا أنَّكُمْ تَنطِقُونَ) أي كما أنَّ كلَّ إنسان لا ينطقُ بلسانِ غيرِهِ، كذلك لا يأكلُ إنسانٌ رزقَ غيرِهِ والذي قُدِّرَ له، ولا يأكلُ إلاَّ رزقَ نفسهِ، كما لا يتكلَّمُ إلاَّ بلسانِ نفسه.

قال الحسنُ: (بَلَغَنِي أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [قَاتَلَ اللهُ أقْوَاماً أقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ بنَفْسِهِ فَلَمْ يُصَدِّقُوهُ][4]، وعن أبي سعيدِ الخدريِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَوْ أنَّ أحَدَكُمْ فَرَّ مِنْ رزْقِهِ لَتَبعَهُ كَمَا يَتْبَعُهُ الْمَوْتُ][5]، قال الشاعرُ[6]:

---

(١) في المخطوط: (فاضل بن الحدب) وضبطت الاسم كما في جامع البيان للطبري.
(٢) دَوْخَلَّة: مشددة اللام سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب، وهي كالزنبيل، والقوصرة يترك فيها الرُّطَب. لسان العرب: (دخل): ج ٤ ص٣١٠.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٩١٥).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٤٩١٩). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٣١٢.
(٥) ذكره الديلمي في الفردوس: الحديث (٥٠٩٢). وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١١٦.
(٦) دعبل الخزاعي (١٤٨-٢٤٦هـ).

أسْـعَى لأَطْلُبَـهُ وَالـرِّزْقُ يَطْلُبُنِـي وَالـرِّزْقُ أَكْـثَرُ لِـي مِنِّـي لَـهُ طَلَبَـا

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي قد أتاكَ يا مُحَمَّدُ أضيافُ إبراهيم عليه السلام الذي أكرَمَهم بخِدمَتهِ وقيامهِ بين أيديهم، قال ابنُ عبَّاس ومقاتل: (مَعْنَى الآيَةِ: قَدْ أتَاكَ وَلَمْ يَكُنْ إذْ ذاكَ آتَاكَ إيَّاهُ)[١]، وقولهُ تعـالى (الْمُكْرَمِينَ) يعني عندَ اللهِ.

وذكرَ ابنُ عبَّاس: (أنَّ أضْيَافَ إبْرَاهِيمَ: إسْرَافِيلُ وَجِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ)[٢]. وقال مقاتلُ: (يَعْنِي بقَوْلِهِ (الْمُكْرَمِينَ) أيْ أكْرَمَهُمْ إبْرَاهِيمُ فَأَحْسَنَ عَلَيْهِمُ الْقِيَـامَ، وَكَـانَ لاَ يَقُومُ عَلَى رَأسِ ضَيْفٍ، فَلَمَّا رَأى هَيْئَتَهُمْ حَسَنَةً قَامَ هُوَ وَامْرَأتُهُ سَـارَةُ لِخِدْمَتِـهِمْ)[٣]. وقال الكلبيُّ: (أكْرَمَهُمْ بالْعِجْلِ). قال ﷺ: [مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أوْ لِيَسْكُتْ][٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ ؛ وهم جِبرائِيلُ ومعه مِن الملائكةِ، قال ابـنُ عبَّاس ومقاتلُ: (كَانُوا اثْنَىعَشَرَ مَلَكاً)[٥]، وقال مُحمَّدُ بن كعبٍ: (كَانُوا سَبْعَةً مَا خَـلاَ جِبْرَائِيلَ)، وقال عطاءُ: (كَانُوا ثَلاَثَةً: جِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإسْرَافِيلُ)[٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: سَلَّمُوا عليه سَلاَماً. وَقِيْلَ: قالوا أسْلِمْ سَلاماً؛ كأنَّهم آنسوهُ من الوَجَلِ. فقـال سـلامٌ مِنكُـم؛ أي أمِنتُ بما جاءَني من السَّلام. قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَوْمٌ مُنكَرُونَ) أي إنـه لم يَعرِفْـهم لأنـه ظنَّ أنَّهم من الإنسِ.

---

(١) في التفسير: ج٣ ص٢٧٧؛ قال مقاتل:(يعني قد أتاك يا محمد حديث ضيف إبراهيم).

(٢) قاله مقـاتل في التفسـير: ج ٣ ص٢٧٧. وفي الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٧ ص٤٤؛ قـال القرطبي: (زاد عثمان بن حصين: وروفائيل عليهم السلام).

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٧٧.

(٤) تقدم وهو حديث صحيح.

(٥) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٦٢٤.

(٦) هذه الأقوال أيضاً ذكرها البغوي في معالم التنزيل: ص٦٢٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ ﴾ ؛ أي عَدَلَ ومالَ إلى سارة من حيث لم يَعلَمْ أضيافهُ لأيِّ شيءٍ عدَلَ، ﴿ فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٖ ٢٦ ﴾ ؛ أي كَثِير الشَّحم فوَضَعَهُ بين أيدِيهم، قال قتادةُ: (وَكَانَ عَامَّةَ مَال إبْرَاهِيمَ الْبَقَرُ)[١] ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ ؛ ليَأكلوهُ، فلم يأكُلوا، ﴿ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ ﴾ ؛ من طعامِي، ﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ ﴾ ؛ أي فأضمرَ في نفسهِ خيفةً منهم حيث لم يأكلوا من طعامهِ، ظنَّ أنَّهم يُريدون به سوءً، فلمَّا عَلِموا خوفَهُ، ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ ﴾ ؛ إنَّا رسُلُ ربكَ، ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ ﴾ ؛ حَليمٍ في صِغَرِهِ، عليمٍ في كِبَرِهِ وهو إسحقُ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ ﴾ ؛ أي في ضجَّةٍ وصَيحَةٍ؛ أي أخذتْ تُوَلْوِلُ؛ أي تقولُ: يَا وَيْلَتَا. وَقِيْلَ: الصَّرَّةُ جماعةُ النساءِ، مأخوذٌ من الصَّرَّةِ التي هي مجمَعُ الدراهمِ، ومنه الشَّاةُ الْمُصَرَّاةُ، وقولهُ تعالى: ﴿ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ ﴾ ؛ قال مقاتلُ والكلبي: (جَمَعَتْ أصَابعَهَا فَضَرَبَتْ جَنْبَيْهَا تَعَجُّباً)[٢].

ومعنى الصَّكِّ: الضربُ للشيءِ بالشيءِ العريضِ، والصَّرَّةُ مأخوذٌ من الصَّرِّ وهو الصوتُ، كأنَّها جاءت بشِدَّة الصياحِ فلطَمَتْ وجهَها وهي تقولُ: أألِدُ وأنا عجوزٌ عاقرةٌ، وكانت يومَ البُشرى بنتَ ثمان وتسعين سَنة، وكان إبراهيمُ أكبرَ منها بسَنةٍ.

ومعنى قولهِ تعالى: (وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)؛ تقديرهُ: أتَلِدُ عجوزٌ عقيم، وكانت سَارَةُ لَمْ تَلِدْ قبلَ ذلك، وكان بين البشَارَةِ والولادةِ سنةٌ، فولدَت سارةُ وهي بنتُ تسعٍ وتسعين سَنة، وإبراهيمَ يومئذ ابنُ مائةِ سَنة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ ﴾ ؛ أي كما قُلنا لكِ إنَّكِ ستَلِدِينَ غُلاماً عليماً، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠ ﴾ ؛ الحكيمُ من العَقيمِ بالولد

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٦٢٤.
(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٣٥. ومقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٧٨.

وغيرِ العقيم، العليمُ بمصالحِ العباد. والعقيمُ في النِّساء هي التي لا تأتِي بالولدِ، وفي الرِّياح هي التي لا تأتِي بالمطرِ، ولا يكون فيها الخيرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) ﴾؛ أي قال إبراهيمُ: ما شَأنُكم وفيما أرسِلتُم، ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) ﴾؛ كافرين لنُهلِكَهم بكُفرِهم وعمَلِهم الخبيثِ، أرادُوا بذلك قومَ لوطٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) ﴾؛ أرادَ به الحجارةَ المطبوخةَ كالآجُرِّ، ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) ﴾، والْمُسَوَّمَةِ الْمُعَلَّمَةِ. رُوي: أنَّها كانت مُخَطَّطَةً بسَوَادٍ في حُمرَةٍ، وكان على كلِّ حجرٍ اسمُ مَن جُعِلَ إهلاكهُ. والْمُسْرِفُ هو الخارجُ من الحقِّ، والشِّركُ أسْرَفُ الذنوب وأعظَمُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) ﴾؛ أرادَ به لُوطاً ومَن كان معه آمَن وهُما ابنتاهُ، وهما زَعُورَا و ريثا، أمرَهم اللهُ تعالى بأنْ يخرجُوا بقِطَعٍ من الليل، ومعنى قولهِ تعالى (مَنْ كَانَ فِيهَا) أي في قريةِ لوطٍ، وذلك قولهُ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾[1] أمرَ اللهُ لوطاً بأنْ يخرُجَ هو ومَن معه مِن المؤمنين لئَلاَّ يُصيبَهم العذابُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) ﴾؛ أي غيرَ أهلِ بيتٍ مِن المسلمين، يعني لُوطاً وبنتَيهِ، وصَفَهم اللهُ بالإيمانِ والإسلام جميعاً؛ لأنه مَا مِن مؤمنٍ إلاّ وهو مسلمٌ، والمرادُ بالإسلامِ هَهُنا الإيمانُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً ﴾؛ أي وتركنا في مدينةِ قومِ لوطٍ عليه السلام علامةً، ﴿ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾؛ تدلُّهم على أنَّ اللهَ أهلكَهم فيخَافُون مثلَ عذابهم، فإن اقتلاعَ البُلدان لا يقدرُ عليه أحدٌ إلاَّ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) ﴾؛ أي وفِي خبرِ موسى عليه السلام وقضِيَّتِهِ مع فرعون آيَةٌ أيضاً، وقولهُ تعالى (بسُلْطَانٍ مُبِينٍ) أي بحُجَّةٍ ظاهرةٍ وهي العصَا واليدِ.

---

(١) هود / ٨١ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ ؛ أي أعـرضَ فرعـونُ عـن الإيمـان بـه بجَمعهِ وجُندهِ الذين كان يتقوَّى كالرُّكن الـذي يتقـوَّى بـه البنيـان، ﴿ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ، ونَسَبَ موسى إلى السِّحر والجنون مع ظُهور حُجَّتهِ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ ؛ أي فعاقَبناهُ وجُموعَهُ فطَرحنَاهُم في البحرِ وأغرقنَاهم، ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي وهـو مُسـتَوجِبٌ الْمَلاَمَةَ؛ لأنه أتَى بما يُلامُ عليه حين ادَّعَى الرُّبوبيَّةَ وكذبَ الرُّسلَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي وفي خَبرِ قومِ هودٍ آيةٌ أيضاً، حين أرسَلنا عليهم الدُّبُورَ والعقيمَ التي لا خيرَ لَهم فيـها ولا بركةَ ولا تلقَحُ شَجراً ولا تَحمِلُ مَطراً، إنما هي ريحُ الهلاكِ، وكانت تلـك الريـحُ الـتي أهلِكَتْ بها عادٌ ريحَ الدُّبُور، قال ﷺ: [نُصِرْتُ بالصَّبَا وَأهْلِكَتْ عَادٌ بالدُّبُور][(١)].

وقولهُ تعالى: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ما تتركُ من شيءٍ مرَّت عليه مِن أنفسِهم وأنعامِهم إلاَّ جعلتْهُ كالْحَطِيمِ البَـالِي الْمُنْسَحِقِ. ويقالُ: الرَّمِيمُ: هو الورقُ اليَابسُ المتحَطِّم مثل الْهَشِيمِ الذي يَسِيرُ كالْـهَبَاءِ بأيسَرِ ما تَجري عليه.

قال قتادة: (مَعْنَاهُ: إلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ الشَّجَر)، وقـال أبـو العاليـةِ: (كَـالتُّرَاب الْمُدَقَّق)، وقال ابنُ عبَّاس: (كَالشَّـيْءِ الْـهَالِكِ)[(٢)]، وفي الحديـثِ: [أنَّ تِلْـكَ الرِّيـحَ كَانَتْ تَتْبَعُ مُسَافِرِيهِمْ وَمَا شُدَّ مِنْ مَتَاعِهِمْ فَتَحْمِلُهُ فَتُلْقِيَهُ فِي وَادِي صَنْعَاءَ، وَلَمْ تَضُـرَّ غَرِيباً لَيْسَ مِنْهُمْ][(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الخلق: الحديث (٣٢٠٥). ومسلم في الصحيح: كتاب صلاة الاستسقاء: الحديث(١٧/ ٩٠٠). الصَّبَا: ريحُ الشرق تهبُّ من مطلعِ الشـمس. والدَّبُـورُ: عكسُ الصَّبا تهبُّ مِن الغربِ.

(٢) أخرج هذه الآثار الطبري في جامع البيان: الأثار (٢٤٩٥٣-٢٤٩٥٥).

(٣) في الدر المنثور: ج٧ ص١٤١؛ قال السيوطي:(أخرجه الطبراني عن ابن عباس، وأخرجه سـعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبـو يعلـى عـن أبـي سـعيد، وأخرجـه الدارقطـني في الافراد عن أبي سعيد الخدري، وأخرجه الخطيب عن أبي سعيد الخدري).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي في خبرِ ثمود وإهلاكِهم آيةٌ أيضاً، إذ قِيْلَ لَهم تَمتَّعُوا إنْ أطَعتُم اللهَ إلى آجالِكم، ﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ ، فأعرَضُوا عن قَبول أمرِ الله، فأخذهم العذابُ الْمُحْرِقُ وهم ينظُرون إلى أنفُسِهم وإلى قومِهم يحترقُون في العذاب. وَقِيْلَ: معناهُ: لما عَقَرُوا الناقةَ قالَ لهم صالِحُ: تَمتَّعُوا ثلاثةَ أيامٍ، وهو قولهُ (حَتَّى حِينٍ)، والتَّمَتُّعُ: التَّلَذُّذُ بأسباب اللَّذة من المناظرِ والروائح الطيِّبة وأشباهِ ذلك.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ ؛ يعني بعدَ مُضِيٍّ ثلاثةِ أيَّام. والصَّاعِقَةُ: كلُّ عذابٍ مُهلِكٍ، وقرأ الكسائيُّ (الصَّعْقَةُ) وهي الصوتُ الشَّديد، ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ ذلك عَياناً، ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ ﴾ ؛ ما قَدَروا على النُّهوض من مقامِهم حين غَشِيَهم العذابُ فيَرُدُّوهُ، ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي مَا كانت لهم قوَّةٌ يَمتَنِعُونَ بها مِنَّا، ولا كانوا طَالِبين ناصراً لهم يمنعُهم من عذاب الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ ؛ فيه قراءَتان، قرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائي وخلَف (وَقَوْمِ) بالخفض؛ أي وفِي قومِ نوحٍ وهلاكهم بالطُّوفان آيةٌ أيضاً، وقرأ الباقون بالنَّصب على معنى: وأهلَكنا قومَ نوحٍ من قبلِ عادٍ وثمود. وَقِيْلَ: نُصب على تقدير: وَاذكُرْ قومَ نوحٍ من قبلِ عادٍ وثمود وقومِ فرعون، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي خارجين من طاعةِ الله. وَقِيْلَ: انتصبَ قولهُ (وَقَوْمَ نُوحٍ) على قراءةِ النصب عَطفاً على الهاءِ والميم في قوله (فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ) كأنه قالَ وأغرَقنا فرعونَ وجنودَهُ، وأغرَقنا قومَ نوحٍ من قبلُ[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ ؛ أي بقُدرةٍ وقوَّة، ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ في السَّماء على الأرضِ في كلِّ جهاتٍ، ونحن نقدرُ على أكثرَ من ذلك، ولم يكن هذا جهدُ قوَّتنا، وقال الحسنُ: (وَإنَّا لَمُوسِعُونَ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ فَوْقَهَا وَمَنْ تَحْتَهَا).

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص١٦٥-١٦٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا ﴾ ؛ أي بسَطنَاها على الماءِ، ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ الفارشُون، والْمَاهِدُ في اللغة: هو الْمُوَطِّبُ للشَّيءِ الْمُهَيِّءُ لِمَا يصلحُ الاستقرارُ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ ؛ أي ومِن كلِّ شيءٍ خَلقنا مِن الحيوان ذكراً أو أنثى، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ . وَقِيْلَ: المرادُ بالزَّوجين صِنفَين ولَونَين من حلوٍ وحامض وأبيض لكي يعتَبروا ويتَّعظوا بذلك، ويعلموا أنه ليس مع اللهِ تعالى إلهٌ غيره.

قولهُ تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي اهرُبوا من عقابهِ إلى رَحمتهِ بالإخلاصِ في طاعته وتركِ ما يشغَلُكم عن أوامرهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: فَفِرُّوا إلى الله مِن ذُنوبكم واهربُوا من الكفرِ إلى الإسلامِ، ومِن العصيان إلى الطاعةِ، ﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أُنذِرُكم العقابَ على الكفرِ والمعصيةِ وأُخوِّفُكم عذابَ الله بلُغَةٍ تَعرِفُونها متى تركتم الفرار إلى الله من الله، ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ؛ أي تَصِفُوهُ بالشَّريك والولدِ، ﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ رسولٌ أُخوِّفُكم لِتَمتنِعُوا أنْ تجعَلُوا مع اللهِ إلهاً آخرَ غيرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي كمَا نَسبَكَ قومُكَ إلى السِّحر مرَّةً والجنونِ أخرى، هكذا ما أتَى الذين من قبلِ قَومِكَ من رسولٍ دعَاهُم إلى اللهِ إلاَّ قالوا لذلك الرسُولِ: هو (سَاحِرٌ أوْ مَجْنُونٌ).

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ﴾ ؛ معناهُ: أتَواصَوا بهذا القول فتوافَقُوا عليهِ وأوصَى كلُّ قوم مَن بعدَهم أنْ يقولوا مثلَ هذا لرسُولهم، هذا اللفظُ لَفظُ الاستفهامِ، ومعناهُ: التوبيخُ والإنكار. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة قومٌ طاغُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي أعرِضْ يا مُحَمَّدُ عن هؤلاءِ المشركين، فما أنتَ عندنا بمَلُومٍ، فأنَّكَ قد بلَّغتَ وأنذرتَ، ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي وعِظْ أهلَ مكَّة بالقرآنِ، فإن العِظَةَ

بالقرآن تنفعُ المؤمنين وتزيدُهم صَلاحاً، يعني تنفعُ مَن عَلِمَ اللهُ أنْ يُؤمِنَ منهم. وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: عِظْ بالْقُرْآنِ مَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِكَ، فَإنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾؛ يعني: ما خَلَقتُهم لجرِّ منفعةٍ ولا لدفعِ مضرَّة ولا الاستكثار بهم من قلَّة، وما خلَقتُهم إلاَّ لآمُرَهم بعبادَتِي وأنْهَاهُمْ عن مَعصِيَتِي، ولو أنَّهم خُلِقُوا لعبادةِ ربهم لَمَا عَصَوا ربَّهم طرفةَ عينٍ. وقال ابنُ عبَّاس: (هَذِهِ الآيَةُ خَاصَّةٌ لأَهْلِ طَاعَةِ اللهِ لأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَلَقَدْ ذرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾[٢]).

وقرأ ابنُ عبَّاس: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إلاَّ لِيَعْبُدُون)، وقال عليُّ بن أبي طالبٍ: (مَعْنَى الآيَةِ: مَا خَلَقْتُهُمْ إلاَّ لآمُرَهُمْ لِيَعْبُدُونِي وَأدْعُوَهُمْ إلَى عِبَادَتِي)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾؛ أي لم يكلِّفهُم أن يرزُقوا أنفُسَهم، ولا أحَداً من خلقِي، ولم أكلِّفهُم أن يَرزقُونِي، ولا يُعِينُونِي على عطاءِ الرزقِ لعبادِي.

والمعنى: ما أريدُ منهم أن يَرزُقوا أحَداً من خلقِي، ولا أنْ يرزُقوا أنفُسَهم، وما أريدُ أن يُطعِمُوا أحداً من خَلقِي، ولا أنْ يُطعِمُوا أنفسهم، وإنما أسندَ الإطعامَ إلى نفسهِ؛ لأن الخلقَ عيالُ اللهِ، فمَن أطعمَ عيالَ أحدٍ فقد أطعمَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾؛ معناهُ: إنَّ اللهَ هو الرزَّاقُ جميعَ خَلقهِ، ذو القوَّة والاقتدار على جميعِ ما خلقَ، (الْمَتِينُ) يعني القويُّ. قرأ العامَّة (الْمَتِينُ) بالرفعِ (ذُو) أو هو اللهُ سبحانه[٤]، وقرأ الأعمشُ (الْمَتِينِ)

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٣٦.

(٢) الأعراف / ١٧٩.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٣٦.

(٤) المعنى: أو (ذو) من قوله: ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ أو يكون خبر ابتداء محذوف. قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٥٦.

بالخفضِ على نعتِ القوَّة، وكان مِن حقِّه أن يقولَ: الْمَتِينَةِ، وإنما ذكَرَهُ لأنه ذهبَ به إلى الشيء الْمُبْرَمِ الْمُحْكَمِ(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾ أخبرَ اللهُ تعالى بهذا أن لِمُشركي مكَّة من العذاب مثلَ ما لغيرِهم من الأُمم الكافرةِ. والمعنى: فإنَّ للذين كفرُوا نَصيباً من العذاب مثلَ نصيب أصحابهم الذين هلكُوا نحوُ قومِ نوحٍ وعاد وثمود.

وأصلُ الذنوب الدَّلْوُ المملوءَةُ بالماءِ، قال ابنُ قتيبة: (كَانُوا يَسْقُونَ فَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ ذَنُوبٌ)(٢)، فجعل الذنوبَ مكان الحظِّ والنصيب، قال الشاعرُ:

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبُ ... فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ

وقال آخر(٣):

لَعَمْرُكَ وَالْمَنَايَا طَارِقَاتٌ ... لِكُلِّ بَنِي أبٍ مِنْهَا ذَنُوبُ

وقولهُ تعالى (فَلاَ يَسْتَعْجِلُون) أي لا يستَعجِلُونِي بالعذاب، فإنِّي قد أخَّرتُهم إلى يوم القيامة، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ يعني يومَ القيامةِ.

آخر تفسير سورة (**والذاريات**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) ذكره أيضاً القرطبي عن الفراء في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٥٦-٥٧.

(٢) في غريب الحديث: ج ١ ص٣٨٨؛ قال ابن قتيبة: (الذَّنُوبُ: الدَّلْوُ).

(٣) قائله: أبو ذؤيب.

سُورَةُ الطُّـورِ

سُورَةُ الطُّور مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْـفٌ وَخَمْسُـمِائَةِ حَـرْفٍ، وَثَلاثُمِائَـةٍ وَاثْنَتَـي عَشْـرَةَ كَلِمَةً، وَتِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الطُّور كَانَ حَقّاً عَلَـى اللهِ أَنْ يُؤَمِّنَـهُ مِـنْ عَذابِـهِ وَأَنْ يُنَعِّمَهُ مِنْ جَنَّتِهِ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ ﴾ ؛ الطورُ هو الجبلُ الذي كلَّم اللهُ موسَى وهو بمَدْيَنَ بالأرضِ المقدَّسة، واسمهُ زُبَيْرُ، وكلُّ جبلٍ فهو طورٌ بالسِّريانية، قـال أبـو عُبيـدة: (الطُّـورُ الْجَبَـلُ بالْعَرَبيَّـةِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَـالَى قَـالَ: ﴿وَرَفَعْنَـا فَوْقَــهُمْ الطُّورَ﴾[2]). والكتابُ المسطور: هو اللَّوحُ المحفوظُ المتضَمِّن كلَّ الأمُور.

وقولهُ تعالى: ﴿ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ ﴾ ؛ يعني اللَّوح أيضاً تنشـرهُ الملائكـةُ للدراسةِ وليعلَمُوا ما فيهِ. وَقِيْـلَ: الكتـابُ المسـطورُ: صحـائفُ أعمـال بـني آدمَ يـومَ القيامةِ، فيُعطى كلُّ واحدٍ كتابَهُ بيمينهِ أو بشِمالهِ، ونظيرهُ ﴿وَإذا الصُّحُفُ نُشِـرَتْ﴾[3] وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾[4].

---

(١) هو الحديث في فضائل القرآن سورة سورة، أخرجه الثعلبي بسنده عن أبي بن كعب، وهو إسـناد باطل. ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ج ٩ ص١٢٣.

(٢) النساء / ١٥٤ .

(٣) التكوير / ١٠ .

(٤) الاسراء / ١٣ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ ﴾؛ هو بيتٌ في السَّماء الرابعةِ بحِيَالِ الكعبةِ، معمورٌ لِحُسْنِ الثناءِ وزيارةِ الملائكة، حُرمَتهُ في السَّماء كحُرمَةِ الكعبةِ في الأرضِ، ما بينَهُ وبين الكعبةِ إلى نجومِ الأرض السابعةِ حَرَمٌ يدخلهُ كلَّ يومٍ سَبعون ألفَ ملَك، ثم لا يعُودون إليه أبَداً، لو سقطَ منه حجرٌ لوقعَ على ظهرِ الكعبة. ويقال: البيتُ المعمور هو الكعبةُ، مَعْمُورٌ بزيارةِ الناس إياهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ ﴾؛ يعني السَّماء، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾[1] سَمَّاها سَقْفاً؛ لأنَّها للأرضِ كالسَّقفِ للبيتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ ﴾؛ يعني الموقَدِ الْمَحْمِيّ، بمنْزلة التَّنُّور المسجُور، كأنه قَالَ: والبحرِ المملوءِ بالنَّار الموقَدة، كما رُوي عن عليٍّ ﷺ أنه قَالَ: (هُوَ بَحْرٌ حَارٌّ يُفْتَحُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَهَنَّمَ)، وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قَالَ: [لاَ يَرْكَبُ الْبَحْرَ إلاَّ حَاجٌّ أوْ مُعْتَمِرٌ أوْ مُجَاهِدٌ فِي سَبيلِ اللهِ، فَإنَّ تَحْتَ الْبُحُور نَاراً][2].

وقال قتادةُ: (الْمَسْجُورُ: الْمَمْلُوءُ)، وفي الحديثِ: [أنَّ اللهَ تَعَالَى يَجْعَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْبحَارَ كُلَّهَا نَاراً، فَيَسْجُرُهَا فِي جَهَنَّمَ]. وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ: (الْمَسْجُورُ الْمَحْبُوسُ).

وعن عليٍّ ﷺ أنَّهُ قالَ: (الْبَحْرُ الْمَسْجُورُ بَحْرٌ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ تَحْتَ الْعَرْشِ، عُمْقُهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ إلَى الأَرْضِ السَّابعَةِ وَهُوَ بَحْرٌ غَلِيظٌ، سُمِّيَ الْحَيَوَانُ يُحْيي بهِ اللهُ الْخَلاَئِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ الْبَعْثِ تُمْطَرُ أرْبَعِينَ صَبَاحاً فَيَنْبُتُونَ بهِ فِي قُبُورهِمْ).

أقسمَ اللهُ بهذه الأشياءِ لِمَا فيها من الدَّلالةِ الواضحةِ على وحدَانيَّةِ اللهِ تعالى وعِظَمِ قُدرتهِ على أنَّ تعذيبَ المشركين حقٌّ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي كائنٌ في الآخرةِ واقعٌ بأهلهِ، ﴿ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾؛ يدفعهُ عنهم.

---

(١) الأنبياء / ٣٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الجهاد: باب في ركوب البحر في الغزو: الحديث (٢٤٨٩). ورواه البزار وفي إسناده ليث بن أبي سليم، وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات. قاله الهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢٨٢.

ثُم بيَّن متى يقعُ بهم ذلك العذابُ فقال: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ ﴾ أي تَدُورُ دَوَراناً وتضطربُ وتتحرَّكُ، والْمَوْرُ في اللغـة: الذهـابُ والْمَجِـيءُ والـتَردُّد والدورانُ. قِيْلَ: إنَّها تدورُ كما تدورُ الرَّحَى، ويَمُوجُ بعضُها في بعضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ ﴾ ؛ أي تسيرُ الجبال علـى وجـهِ الأرض كما يسيرُ السَّحابُ في الدُّنيا فيَستَوي بالأرض. وَقِيْلَ: معناهُ: تزولُ الجبالُ عن أمَاكنِـها وتصـيرُ هَبـاءً مَنثـوراً، ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ﴾ ؛ أي فشِـدَّةُ العذاب يومئـذ للمُذنِبـين، ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ ﴾ ؛ يخوضُـون في حديثِ مُحَمَّدٍ بالتَّكذيب والاستهزاءِ، يَلْهُونَ بذكرهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ ﴾ ؛ أي يُدفعـون إلى نار جهنَّم دَفْعاً على وُجوهِهم يَحُفُّونَهُ[1]، قال مقاتلُ:(تُغَلُّ أيْدِيـهِمْ إلَـى أعْنَاقِـهِمْ وَتُجْمَعُ نَوَاصِيهِمْ إلَى أقْدَامِهِمْ، ثُمَّ يُدْفَعُونَ إلَى نَار جَهَنَّمَ دَفْعاً عَلَى وُجُوهِهِمْ، حَتَّـى إذا دَنَوا مِنْهَا قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: ذُوقُوا عَذابَ النَّار الَّتِي كُنْتُمْ بهَا تُكَذِّبُونَ فِي الدُّنْيَا)[2].

وَالدَّعُّ: هو الدفعُ بشِدَّة وعُنفٍ، تدفعُهم الملائكةُ فيُلقُونَهم في النـار علـى وجـه الاستخفافِ، ويقولـون لَـهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ ﴾ . قرأ أبُو رجاء العطاردي: (يَوْمَ يُدْعَوْنَ إلَى نَار جَهَنَّمَ دَعَا) بالتخفيفِ من الدُّعاء.

وتقولُ لهم ملائكةُ العذاب: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ ﴾ ؛ كما كُنتم تَزعُمون في الدُّنيا وتَنسُبون الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ إلى ذلك، ﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ﴾ ، أي قد غَطَّى على أبصاركم، وهذا على وجهِ التَّوبيخ، والمعنى: أتُصدِّقُونَ الآنَ أنَّ عـذابَ الله واقعٌ، ويقالُ لَهم: ﴿ ٱصْلَوْهَا ﴾ ؛ أي اصْلَوا النارَ، الْزَمُوهـا وقَاسُـوا شـدَّتَها، ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ ؛ علـى العـــذاب، ﴿ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ الصـــبرُ والجزَعُ، ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ ﴾ ؛ مِن الكفرِ والتكذيب.

---

(١) حَفُّوا حولَهُ: أي أطافُوا به واستداروا.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٨٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ ؛ أي فَاكِهين؛ أي ذوُوا فَاكِهَةٍ كثيرةٍ، وفكِهين متَعَجِّبين نَاعِمين، ﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي ضَرَّهُ عنهم، يقالُ لَهم: ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي كُلوا أكْلاً هنيئاً، واشرَبُوا شُرباً هَنيئاً، مأمونَ العافيةِ من التُّخمة والسَّقم.

وَقِيْلَ: انتصبَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (هَنِيئاً) لأنه في صفةِ المصدر؛ أي هَنِئتُمْ هَنِيئاً، وهو أنْ يكون خَالصاً من جميعِ الآفاتِ وأسباب التَّنغيصِ.

قال زيدُ بن أرقم: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا أبَا الْقَاسِمِ؛ تَزْعُمُ أنَّ أهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ. فَقَالَ:[وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ؛ إنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُؤْتَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الأَكْلِ وَالشُّرْب وَالْجِمَاعَ] قَالَ الرَّجُلُ: فَإنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ يَكُونُ مِنْهُ الْغَائِطُ؟ فَقَالَ ﷺ: [ذاكَ عَرَقٌ يَفِيضُ مِثْلَ ريحِ الْمِسْكِ، فَإذا كَانَ ذلِكَ ضَمَرَ لَهُ بَطْنُهُ](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ ؛ في ذِكْرِ حالهم معناهُ: جالِسين جلسةَ الْمُلُوكِ على سُررٍ قد صُفَّ بعضُها إلى بعضٍ، وقوبلَ بعضُها ببعضٍ، ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ الْحُورُ: الْبَيْضَاءُ نَقِيَّةُ البياضِ من الْحُسْنِ والكمال، والْعِينِ: الواسعاتِ الأعْيُنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ ؛ يعني أولادَهم الصِّغار والكبار؛ لأن الكبارَ يتبعُون الآباءَ بإيمانِهم منهم، والصغارَ يتبعون الآباءَ بإيمانِ مِن الآباءِ، والولدُ يُحكَمُ له بالإسلام تَبعاً للوالدِ، ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ؛ يُرفَعون إليهم لتَقرَّ بهم أعيُنهم وإنْ كانوا دُونَهم في العملِ تكرُمَةً لآبائهم.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٥ ص١٧٧-١٧٨: الحديث (٥٠٠٤-٥٠٠٨). والإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٣٦٧ و٣٨١. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٢١٦؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح غير ثمامة بن عقبة وهو ثقة).

وعن عليٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَأوْلاَدَهُمْ فِـي الْجَنَّـةِ، وَالْمُشْرِكِينَ وَأوْلاَدَهُمْ فِي النَّار][1]. ورُوي: أنَّ خَدِيجَةَ بنْتَ خُوَيْلِدٍ سَألَتِ النَّـبيَّ ﷺ عَنْ وَلَدَيْنِ مَاتَا لَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: [هُمَا فِي النَّار][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ ؛ أي لَمْ نُنْقِصْ الآباءَ من الثواب حين ألْحَقْنَا بهم ذُرِّيَّتهم.

قرأ أبو عمرٍو (وَأتْبَعْنَاهُمْ) بالألفِ والنُّـون (ذُرِّيَّاتِـهِمْ) بـالألف وكسـرِ اليَـائين لقولهِ (ألْحَقْنَـا) و(مَـا ألَتْنَـا) لئـلا يكـون الكـلامُ علـى نسـقٍ واحـد. وقـرأ البـاقون (وَاتَّبَعَتْهُمْ) بالتاء من غيرِ ألف.

واختلَفُوا في قوله (ذُرِّيَّاتِهِمْ) بالتاءِ فقرأ نافعُ الأولَ (ذُرِّيَّتُهُمْ) بالتاءِ وضمِّها بغيرِ ألفٍ، وقرأ الثانِي (ذُرِّيَّاتِهِمْ) بالألف وكسرِ التاء. وقرأ ابنُ عـامر (ذُرِّيَّاتِـهِمْ) بـالألف فيهما وكسرِ التاء، وقرأ الباقون بغير ألفٍ فيهما وفتحِ الثانية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ ٱمْرِىٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي كلُّ امرئٍ كافرٍ بمـا عَمِلَ من الشِّرك مُرتَهَنٌ في النار، والمؤمنُ لا يكون مُرتَهناً لقولهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إلا أصْحَابَ الْيَمِينِ﴾[3] واستثنى المؤمنين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: نَزيدُهم في كلِّ وقتٍ مِن ألوانِ الفاكهة، ومن كلِّ لَحمٍ مما يشتَهُون من الأنعامِ والطُّيور المطبوخِ والمشويِّ.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك:كتاب التفسير: الحديث(٣٧٩٦). وفي مجمع الزوائد: ج٧ ص١١٤؛ قال الهيثمي: (رواه البزار وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وفيه ضعف). وليس في إسناد الحاكم قيس هذا، وفي إسناده عمرو بن مرة، وثقه ابن معين وغيره.

(٢) في مجمع الزوائد: ج ٧ ص٢١٧: باب ما جاء في الأطفال؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وأبو يعلى ورجالهما ثقات إلا عبدالله بن الحارث وابن بريدة لم يدركا خديجة).

(٣) المدثر / ٣٨-٣٩.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ ؛ أي يتعَـاطَون ويتنـاوَلون فيـها آنيـةً مملوءة من الخمرِ، هذا من يدِ ذاك، وذاكَ مِن يدِ هذا، ولا يكون الكـأسُ في اللغـة إلاَّ إذا كان مَمْلُوءاً، فإذا كان فَارغاً فليس بكأسٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ ؛ أي لا يجري بينَهم كلامُ لغوٍ ولا بـاطلٍ، ولا تخاصُمَ، ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يكون منهم في حال شُربها ما فيه إثْمٌ كمـا يكونُ في خمرِ الدُّنيا، وقال ابنُ قتيبة: (مَعْنَاهُ: لاَ تَذْهَبُ بعُقُولِهِمْ فَيَلْـهُوا وَيَرْفُثُـوا كَمَـا يَكُونُ مِنْ خَمْرِ الدُّنْيَا، وَلاَ يَكُونُ مِنْـهُمْ مَـا يُؤْثِمُـهُمْ)، والمعنـى: أنَّ تلـكَ الكـأسَ لا تجعلُهم آثِمين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ ؛ أي يطـوفُ عليـهم الْخَدَمَـةُ بالفواكـهِ والأشـربةِ وصفـاء ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ ﴾ ؛ في الْحُسْـنِ والبيـاضِ، ﴿ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ مَصُونٌ لا تَمسُّهُ الأيدِي.

قال قتادةُ: (ذُكِرَ لَنَا: أنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ؛ هَذا الْخَادِمُ فَكَيْـفَ الْمَخْـدُومُ؟ فَقَالَ:[وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ؛ إنَّ فَضْلَ الْمَخْدُومِ عَلَى الْخَادِمِ كَفَضْـلِ الْقَمَـرِ لَيْلَـةَ الْبَـدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ])(١). قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْـهَا: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ أدْنَى أهْلِ الْجَنَّةِ مَنْ يُنَادِي الْخَادِمَ مِنْ خَدَمِةِ، فَيُجِيبُهُ الْفُ يَقُولُونَ كُلُّهُمْ: لَبَّيْكَ لَبَّيْـكَ لَبَّيْكَ](٢).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي أقبـلَ بعضُهم على بعضٍ في الزِّيادة يتحدَّثون في الجنَّة، ويتذاكَرُون ما كانوا فيهِ مـن التعب والخوفِ في الدُّنيا، ويتساءَلون عن أحوالِهم التي كانت في الدُّنيا.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: إنَّهم يقولون إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِ أنْ ندخُلَ الجنَّة خائفِين في الدُّنيـا مـن القيامـةِ وأهوالِـها، ومِن النار وعذابها بمعصيةٍ وقعَتْ منَّا أو تقصيرٍ في طاعتنـا، ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥٠٥٤).

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: الحديث (٨٣١).

بالمغفرةِ وقَبُولِ الطاعةِ، ﴿ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي دفعَ عنَّـا عـذابَ سَـمُومِ جـهنَّم، ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ ؛ أي نُوَحِّـدهُ ونعبـدهُ في الدُّنيـا، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي هو اللَّطيفُ بعبادهِ، الرَّحيمُ بهم.

والسَّمُومُ: من أسماءِ جهنَّمَ في قولِ الحسن، وقال الكلبيُّ: (عَذابُ النَّار)، وقال الزجَّاجُ: (هُوَ لَفْحُ جَهَنَّمَ وَحَرُّهَا). ومن قَـرأ (إنَّـهُ هُـوَ) بكسـر الهمـزِ فإنـه اسـتأنفَ الكلامَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي فَعِظْ بالقرآن أهلَ مكَّة، ولا تـترُكْ وَعْظَـهم لِنسبَتِهم إيـاكَ إلى الكهانـةِ والجنُـون، فلستَ بحمدِ الله كما يقولون.

والكاهنُ هو الْمُبْتَدِعُ القولَ الذي يقولُ: معي تابعٌ من الجنِّ، والمعنى فما أنـتَ بنعمةِ ربكَ بإنعامهِ عليكَ بالنبُوَّة بكاهنٍ، وهو الذي يُوهِمُ أنه يعلمُ الغيبَ ويُخـبرُ بما في غدٍ من غيرِ وحيٍ؛ أي لستَ تقولُ ما تقولهُ كهانةً ولا تنطقُ إلاّ بالوحي.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي بل يقولون هو شاعرٌ نَنتَظِرُ به نوائبَ الْمَنُونِ فنستريحُ منه، ورَيْـبُ الْمَنُـون: حـوادثُ الدَّهرِ وصُروفهُ؛ أي ننتظرُ به حَدَثَانَ الموتِ وحدَثَان الدَّهرِ، فيهلَكُ كما هلكَ مَن قبلَهُ من الشُّعراء.

وفي اللغة: مَنَنْتُ الْجَبَلَ؛ أي قَطَعْتهُ ومَنَنْتُ الشيءَ إذا أنقضتـهُ، والمـوتُ يقطـعُ الأجلَ فسُمِّيَ الْمَنُونَ، والدهرُ ينقضُ فسُمي المنونُ، وقد يكون المنونُ بمعنى الْمَنِيَّةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ ﴾ ؛ أي انتظِروا فِـيَّ المـوتَ، ﴿ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي مِن المنتَظِرين عذابَكم، فعُذِّبوا يـومَ بـدرٍ بالسَّـيف. وَقِيْـلَ: معناهُ: قل تَربَّصُوا بيَ الدوائرَ، فإنِّي معكم مِن المتربصين بكُم.

فأهلكَ اللهُ القومَ الذين قالُوا للنبيِّ ﷺ هذا القولَ قبل قَبضهِ عليه السَّلام وكان منهم أبو جهلٍ، وكانوا يعلَمُون أنَّ النبيَّ ﷺ ليس بشـاعرٍ كمـا عَلِمُـوا أنـه ﷺ ليـس بمجنونٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ﴾ ؛ معناهُ: أم تأمُرهم عُقُولُهم بهذا، وذلك أنَّ قريشاً كانوا يُعَدُّونَ في الجاهليَّة أهلَ الأحلام ويُوصَفون بالعقلِ، فأزْرَى اللهُ بحُلُومِهم حيث لم يُثْمِرْ لَهم معرفةُ الحقّ من الباطلِ. وَقِيْلَ لِعَمْرو بْنِ الْعَاصِ: (مَا بَالُ قَوْمِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ بِالْعُقُولِ؟ فَقَالَ: تِلْكَ عُقُولٌ لَمْ يَصْحَبْهَا التَّوْفِيقُ)(١).

وقولُه تعالى: ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي بَلْ هم قومٌ طَاغُونَ حَمَلَهم الطُّغيانُ على تكذيبكَ يا مُحَمَّدُ، وكانوا يزعُمون أنَّ مُحَمَّداً كان لاَ يُوَازيهم في عقُولِهم وأحلاَمِهم، فقيل لَهم على وجهِ التعجُّب: أتأمُرهم أحلامُهم بهذا الذي يفعلونَهُ أم طُغيَانُهم وإفراطُهم في الكفر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ﴾ ؛ معناهُ: يقولون إنَّ مُحَمَّداً اختَلَقَ القرآنَ من تِلقَاءِ نفسهِ، والتَّقَوُّلُ: تكلُّفُ القول، لا يستعمَلُ إلاَّ في الكَذِب، بل ليس كما يقولون، ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ استكباراً. ثم ألزَمَهم الحجَّة فقال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي مثلِ القرآن في نَظْمِهِ وحُسنِ بنائهِ، ﴿ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أن مُحَمَّداً تَقَوَّلَهُ في نفسهِ، فإنَّ اللسانَ لسَانُهم وهم مُستَوُون في السِّربَةِ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أخُلقوا من غيرِ رَبٍّ، وتَكَوَّنُوا من ذاتِ أنفُسِهم ؟ أم همُ الخالِقُون فلا يُسألُون عن أعمالهم؟ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أخُلِقُوا مِنْ غَيْرِ أمٍّ وَأبٍ فَهُمْ كَالْجَمَادِ لاَ يَعْقِلُونَ وَلاَ تَقُومُ للهِ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ، ألَيْسُوا خُلِقُوا مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ). وقال ابنُ كَيسان: (مَعْنَاهُ: أخُلِقُوا عَبَثاً فَيُتْرَكُونَ سُدًى، لاَ يُؤْمَرُونَ وَلاَ يُنْهَوْنَ، أمْ هُمُ الْخَالِقُونَ لأَنْفُسِهِمْ؟ فَلاَ يَجِبُ للهِ عَلَيْهِمْ أمْرٌ)(٣).

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٧٣.

(٢) السِّرْبُ – بالكسر-: النَّفسُ، يقال: فلان آمن في سربه؛ أي في نفسه. مختار الصحاح: ص٢٩٣.

(٣) نقل البغوي هذه الأقوال في معالم التنزيل: ص١٢٤٠. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٧٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ فيكونـوا هـمُ الخـالقون، بل ليـس الأمـرُ علـى هـذا، ﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ بـالحقِّ وهـو توحيـدُ اللهِ وقدرتهُ على البعثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: أبأيدِيهم مفاتيحُ ربكَ بالرِّسالة، فيضَعونـها حيـث شـاءُوا ؟ وَقِيْـلَ: معنـاهُ: أبأيدِيـهم مقدُورات ربكَ. وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: خَزَائِنَ الْمَطَرِ وَالرِّزْقِ)[١].

قوله: (أمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ) أي أمْ هُم المسَلَّطون على الناس، فلا يكونوا بحيـث أمرٍ ولا نَهي يفعَلُون ما شاءُوا. ويقرأ (الْمُصَيْطِرُونَ) بالصادِ، والأَصلُ فيه السِّين، إلاَّ أنَّ كلَّ سين بعدها (طاء)[٢] يجوزُ أن تُقلبَ صاداً. وفي هذه الآيةِ تنبيةٌ علـى عجزِهـم وتلبيسٌ لسوءِ طَرِيقتهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ ؛ أي لَـهم مَصْعَـدٌ ومَرْقَـاةٌ يرتَقُون بها إلى السَّماء يستمعون فيه الوحيَ ويعلَمُون أنَّ ما هم عليـه حـقٌّ، ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم ﴾ ؛ إنْ كان لهم مُستَمِعٌ، ﴿ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ، بحجَّة ظاهرةٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ هـذا إنكـارٌ عليـهم وتسفيةٌ لأحلامِهم، ومبالغةٌ لتجهيلِهم حيث يَصِفون البناتِ إلى اللهِ بقولهم: بناتُ اللهِ، ويُضِيفُونَ البنين إلى أنفُسِهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا ﴾ ؛ معناهُ: أتسألُهم يا مُحَمَّدُ على ما جئتـهم من الدِّين والشـريعة أجْـراً؛ أي جُعْـلاً، ﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي أثقلَهم ذلك الغرْمُ الذي سألتَهم، فمنَعَهم ذلك عن الإسلامِ. والمعنى: أسألتَهم أجـرة تُثقِلُهم وتُجدِهُم وتَمنعهم عن الاستماعِ إلى ذلك.

---

(١) ذكره القرطبي عن ابن عباس كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٧٤.

(٢) في المخطوط: أسقط (الطـاء) وجعلـها (فـلا). وضبـط النـص كمـا في معـاني القـرآن وإعرابـه للزجاج: ج ٥ ص٥٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ قال قتادةُ: (هَذا جَوَابٌ لِقَوْلِهِمْ: نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُون. فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: أَعِنْدَهُمُ الْغَيْبُ حَتَّى عَلِمُوا أنَّ مُحَمَّداً يَمُوتُ قَبْلَهُمْ فَهُمْ يَكْتُبُونَ). وَقِيْلَ: معناهُ: أعِندَهم علمُ الغيب حتى عَلِمُوا أنَّ ما يُخبرُهم به النبيُّ ﷺ من أمرِ القيامة والبعثِ والحساب والثواب والعقاب باطلٌ غيرُ كائنٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي بل يُريدون بكَ كَيداً ومَكْراً ليَهلَكوا بذلك المكر، وهو كَيدُهم بـه في دار النَّـدوةِ، فالذين كفرُوا هم الْمُجَازُونَ على كَيدِهم، ويَحِيقُ ذلك الكيدُ والمكر بـهم، فقُتِلوا يومَ بدرٍ وأسِرُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ ؛ يَمنعُهم مِن مكرِ الله وعذابِهِ ويحفظُهم وينصرهم، ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ به من آلهةٍ، وسُبحانَهُ عن أن يكون له ولدٌ.

و(أمْ) في هذه السُّورة في خمسةَ عشر مَوضعاً، عشرةٌ منها ليست إلاَّ على وجهِ الإنكار، وفي الخمسةِ ما يحتملُ الإنكار ويحتملُ غيرَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ معناهُ: إنَّ هؤلاءِ لا يُؤمنون حتى لو رَأوا قِطَعاً من العذاب سَاقطاً عليهم لطُغيانِهم وعُتُوِّهم، يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ، قد رُكِمَ بعضهُ على بعضٍ، فيُلبسُوا على أنفسِهم بغايةِ جَهلِهم ما يُشاهِدُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ ؛ أي اتركْهُم، ﴿ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ ﴾ ؛ يُعَاينُوا، ﴿ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي يُهلَكون، والصَّعْقُ: الهلاكُ بما يَصْدَعُ القلبَ، وَقِيْلَ: المرادُ بالصَّعق ههنا اليومَ الذي فيه النفخةُ الأُولى. قرأ الأعمشُ وعاصم وابنُ عامرٍ (يُصْعَقُونَ) بضمِّ الياء؛ أي يُهلَكُون من أصعقَهم الله إذا أهلكَهم، ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ وذلك اليومُ لا ينفعُهم كيدهم ولا يَمنَعُهم من العذاب مانعٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ معنـاهُ: إنَّ لهـؤلاء الكفَّار عذاباً دون عذاب الآخرة، يعني القبرَ. وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ لكفَّار مكَّة عذاباً في الدُّنيا قبلَ عذاب الآخرة، يعني القتلَ ببدرٍ، وقال مجاهد: (الْجُوعَ وَالْقَحْطُ)[(١)]، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ ما هو نازلٌ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي اصبرْ لِحُكمِ ربكَ إلى أن يقعَ بهم العذابُ، وَقِيْلَ: اصبرْ على تبليغِ الوَحيِ والرسالةِ إلى أن يَقضِي لكَ ذلك ربُّكَ فيهم، ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ؛ أي فإنَّكَ بحيثُ نراكَ ونحفظُكَ ونرعاكَ، وإنَّهم لا يَصِلُونَ إلى مكرُوهِكَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ يعني تقومُ من النَّومِ، كما رُوي: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إذا انْتَبَهَ قَالَ: [الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أحْيَانَا بَعْدَمَا أمَاتَنَا وَإلَيْهِ النُّشُورُ][(٢)].

وعن الربيعِ بن أنس: (أنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْقِيَامُ فِي الصَّلاَةِ، وَهُوَ مَا يُقَالُ عِنْدَ تَكْبيرَةِ الافْتِتَاحِ [سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلاَ إلَهَ غَيْرُكَ])[(٣)].

وَقِيْلَ: المرادُ بهذه الآية صلاةُ الفجرِ عند القيامِ من النَّوم، ويقالُ: المرادُ منه التسبيحُ عند القيامِ من كل مجلسٍ، كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [كَفَّارَةُ الْمَجَالِسِ كَلِمَاتٌ جَاءَنِي جِبْرِيلُ بهِنَّ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبحَمْدِكَ، أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٠٧٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٩٧ و٤٠٧. والبخاري في الصحيح: كتاب الدعوات: باب ما يقول إذا نام: الحديث (٦٣١٢). وابن حبان في الصحيح: كتاب الزينة والتطيب: الحديث (٥٥٣٢).

(٣) الحديث عن أبي سعيد الخدري ﷺ؛ أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٥٠ و٦٩. وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب من رأى الاستفتاح بسبحانك: الحديث (٧٧٥) ووهنه، وعن عائشة في الرقم (٧٧٦) ووهنه أيضاً. وأخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الصلاة: الحديث (٢٤٢) عن أبي سعيد وضعفه، ونقل عن الإمام أحمد قوله: (لا يصح هذا الحديث)، وفي الرقم (٢٤٣) عن عائشة وضعفه أيضاً.

أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ. فَإِنْ كَانَ مَجْلِسَ ذِكْرٍ، كَانَ كَالطَّابِعِ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ كَانَ مَجْلِسَ لَغْوٍ، كَانَ كَفَّارَةً لِمَا كَانَ قَبْلَهُ][1].

والأقربُ إلى الظاهرِ من هذه التَّأويلاتِ: أنه صلاةُ الفجرِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عَقَّبَهُ بقولِهِ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ ﴾ ؛ والمرادُ به صلاةُ المغربِ والعشاء، وأما، ﴿ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩ ﴾ ؛ فركعَتان قبلَ فريضةِ الفجرِ، كما رُوي عن عليٍّ ﷺ أنَّهُ قَالَ: (إِدْبَارُ السُّجُودِ الرَّكْعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، وَإِدْبَارُ النُّجُومِ الرَّكْعَتَانِ قَبْلَ الْفَجْرِ)[2]. وعن رسولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: [رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا][3].

آخر تفسير سورة (**الطور**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٦٩. والطبراني في الأوسط: الحديث (٧٧ و٦٨٥٠)، وفي الكبير: الحديث (١٥٨٦). والترمذي في الجامع: أبواب الدعوات: الحديث (٣٤٣٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٠٨٦ و٢٥٠٨٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٥٠ و٥١. ومسلم في الصحيح: كتاب صلاة المسافرين: باب استحباب ركعتي الفجر: الحديث (٦٩ و٩٧/ ٧٢٥).

سُورَةُ النَّجْمِ

سُورَةُ النَّجْمِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَخَمْسَةُ أَحْرُفٍ، وَثَلاَثُمِائَةٍ وَسُتُّونَ كَلِمَةً، وَاثْنَانِ وَسِتُّونَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النَّجْمِ، فَلَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بمُحَمَّدٍ ﷺ وكَذبَ بهِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ ﴾؛ اختلَفُوا في القسَمِ الذي في أوَّل هذه السُّورة، وقال بعضُهم - وهو الأظهر-: أنَّ النجمَ اسمُ جنسٍ أُريدَ به النُّجومَ كلَّها إذا هَوَتْ للأُفول.

فائدةُ القسَمِ بها ما فيها من الدلالةِ على وحدانيَّة اللهِ تعالى؛ لأنه لا يَملِكُ طُلوعَها وغروبَها إلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فالقسَمُ قسَمٌ بربها. وجوابُ القسَمِ: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ يعني النبيَّ ﷺ؛ أي ما ضلَّ عن طريقِ الْهُدَى وعن الصَّواب فيما يُؤَدِّيهِ عنِ الله تعالى.

وعن مجاهد: (أنَّهُ أرَادَ بالنَّجمِ الثُّرَيَّا إذا سَقَطَتْ وَغَابَتْ)[2]، والعربُ تُسمِّي الثُّريا نَجماً وإنْ كانت في العددِ نُجوماً، قال أبو بكرٍ الدينوري: (هِيَ سَبْعَةُ أنْجُمٍ، فَسِتَّةٌ ظَاهِرَةٌ، وَوَاحِدٌ مِنْهَا خَفِيٌّ يَمْتَحِنُ النَّاسُ فِيْهِ أبْصَارَهُمْ).

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٤٣١ من غير إسناد. وأصله عند الثعلبي كما في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٣٤. وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب ﷺ، وإسناده لا يصح.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٠٩٠).

وقال الضحَّاك: (مَعْنَاهُ: وَالْقُرْآنُ إذا نَزَلَ ثَلاَثَ آيَاتٍ أَوْ أَرْبَعَ آيَاتٍ وَسُورَةً، كَانَ أَوَّلُ الْقُرْآنِ وَآخِرَهُ ثَلاَثٌ وَعِشْرِينَ سَنَةً، أَقْسَمَ اللهُ بالْقُرْآنِ إذْ نَزَلَ نُجُوماً مُتَفَرِّقَةً عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ).

وذلك: أنَّ كُفَّارَ مكَّة قالوا: إنَّ مُحَمَّداً يقولُ القرآنَ من تَلقاءِ نفسهِ، فأقسمَ اللهُ بالقرآن ونزولهِ نَجْماً بعد نجمٍ، أنَّ مُحَمَّداً لم ينطِقْ إلاَّ عن وحيٍ يُوحَى، وإنه لم ينطِقْ به من هوَى نفسهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ يعني جبريلَ عليه السلام هو شديدُ البُنيَةِ والْخِلقَةِ، ومن قوَّة جبريلَ: أنه أدخلَ جناحَهُ تحت قُريَاتِ قومِ لُوطٍ فقلَعَها من الماءِ الأسوَدِ ورفعَها إلى السَّماء، ثم قلبَها فأقبلَتْ تَهوي من السَّماء إلى الأرض، وكان من شدَّتهِ أيضاً أنه أبصرَ إبليس وهو يكلِّمُ عيسَى عليه السلام على بعضِ أعتاب الأرض المقدَّسةِ، فنفخَهُ بجناحهِ نفخةً ألقاهُ إلى أقصَى جبَلٍ بالهندِ، وكان من شدَّته أيضاً أنه أهلكَ بصَيحَتهِ ثمودَ فأصبَحُوا جاثِمين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي جبريل عليه السلام ذو قوَّةٍ وشدَّةٍ في خَلقهِ. وَقِيْلَ: ذُو مَنظَرٍ حسَنٍ، قال قطرب: (يَقُولُ الْعَرَبُ لِكُلِّ جَزلِ الرَّأيِ حَصِيفِ الْعَقْلِ: ذُو مِرَّةٍ). قال الشاعرُ:

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذا مِرَّةٍ ... عِنْدِي لِكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيزَانُهُ

وكان من جَزَالَةِ رأيه وحصافة عقلهِ إنَّ اللهَ تعالى ائتمنَهُ على تبليغِ وَحيهِ إلى جميعِ رُسلهِ.

وقولهُ تعالى (فَاسْتَوَى) يعني جبريلَ، وَقِيْلَ: المعنى: (ذُو مِرَّةٍ) أي ذُو مُرورٍ في الجوِّ مُنحَدرٍ أو صاعدٍ على السُّرعة. وقولهُ تعالى (فَاسْتَوَى) أي فانتصبَ وَاقعاً على صورةِ الملائكةِ التي خلقَهُ اللهُ عليها، فرآهُ النبيُّ ﷺ مُنتَصباً في السَّماء بعدَ أن كان مُسرِعاً، فاستوَى في أُفقِ المشرقِ في رَأيِ العينِ، كما رُوي في الحديثِ: [أنَّهُ طَبَقَ الأُفُقَ

كُلَّهُ بكَلْكَلِهِ، لَهُ ستُّمِائَةِ جَنَاحٍ فِيهَا أَلْوَانٌ زَاهِرَةٌ، وَتَتَنَافَرُ مِنْهُ الدُّرَرُ][(١)]. وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ﴾؛ يعني جانبَ المشرقِ وهو فوق جانب المغرب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي دنا جبريلُ عليه السلام بعدَ استوائهِ بالأُفق الأعلى، ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾، قال المفسِّرون: وذلك أنَّ جبريلَ كان يأتِي النبيَّ ﷺ في صُورةِ الآدميِّين، فسألَهُ النبيُّ ﷺ أن يُريَهُ نفسَهُ على صورتهِ التي خُلق عليها، فأراهُ نفسَهُ مرَّتين، مرَّةً في الأرضِ ومرةً في السَّماءِ.

فأمَّا في الأرضِ ففِي الأُفق الأعلى، يعني أُفُقَ المشرقِ، وذلك أنَّ مُحَمَّداً ﷺ كان بحِرَاء فطلَعَ له جبريلُ من المشرقِ فسَدَّ الأُفُقَ إلى المغربِ، فخَرَّ النبيُّ ﷺ مَغْشِيّاً عليه، فنزلَ جبريلُ عليه السلام في صُورةِ الآدميِّين وضَمَّهُ إلى نفسهِ، وهو قولهُ (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) أي قَرُبَ بعدَ بُعدهِ وعُلُوِّهِ في الأُفق الأعلى.

والمعنى: نَزَلَ جبريلُ عليه السلام بعدَ استوائهِ، فدَنَا إلى رسول الله ﷺ وتَدَلَّى اليه بأنْ نَكَّسَ رأسَهُ فرآهُ النبيُّ ﷺ مُتَدَلِّياً كما رآهُ مُنتصباً حتى بينَهُ وبينَ النبيِّ ﷺ قدرَ قاب قَوسَين مِن قِسِيِّ العرب أو أدنَى، معناهُ: وأقربُ في رأي العينِ.

قال الزجَّاجُ: (كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِقْدَارَ قَوْسَيْنِ، وَإِنَّمَا خُصَّ الْقَوْسُ فِي الآيَةِ؛ لأَنَّ مِقْدَارَهَا فِي الأَغْلَبِ لاَ يَتَفَاوَتُ بزِيَادَةٍ وَلاَ نُقْصَانٍ). ويقالُ: إنَّ المرادَ بالقوسِ هنا الذراعُ، وسُمي الذراعُ قَوْساً لأنه تُقَاسُ به الأشياءُ، قال ابنُ مسعودٍ: (مَعْنَاهُ: فَكَانَ قَدْرَ ذِرَاعَيْنِ أوْ أدْنَى مِنْ ذِرَاعَيْنِ)[(٢)].

وأما دخول (أوْ) ههُنا في قولهِ: (أوْ أدْنَى) معناهُ: أو أدنَى فيما تقدِّرون أنتم واللهُ تعالى عالِمٌ بمقاديرِ الأشياءِ، ولكنَّهُ يُخاطِبُنا على ما جرَتْ به عادةُ المخاطَبة فيما بيننا.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥١٣٣). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٦٤٤؛ قال السيوطي: (أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي عن ابن مسعود) وذكره.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥١١٥).

ومعنى قولهِ تعالى (قَابَ قَوْسَيْنِ) أي قَدْرَ قَوسَين، يقالُ (قَابَ قَوْسَـين) وَقِيبَ قَوسَين وقَيْدَ قَوسَين، كـلٌّ بمعنـىً واحـد. والتَّدَلِّـي في اللغـة: هـو الامتـدادُ إلى جهـةِ الأسفَلِ، ومنه تَدَلَّى القبرُ، ومنه إدلاءُ الدَّلوِ وهو إرسالُها في البئرِ.

ومن الدليلِ على أنَّ المرادَ بشَدِيدِ الْقِوَى جبريل ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَـوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾(1) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بالأُفُقِ الْمُبِـينِ﴾(2) وهـو مَطلِعُ الشَّمسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي فـأوحَى جـبريلُ إلى عبدِالله مُحَمَّدٍ ﷺ ما أمرَهُ اللهُ أن يُوحِيَهُ إليه، ويجوزُ أن يكون معناهُ: فأوحَى اللهُ إلى عبدهِ ما أوحَى، قال سعيدُ بن جبير: (أوْحَي إلَيْهِ: ﴿أَلَـمْ يَجِـدْكَ يَتِيمًـا فَـآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى...﴾ إلى قولهِ تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(3)). وَقِيْلَ: أوحَى إليـه (أنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الأَنْبِيَاءِ حَتَّى تَدْخُلَهَا، وَعَلَى الأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ)(4).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي ما كَذبَ فـؤادُ مُحَمَّـدٍ ﷺ فيما رآهُ ببَصَرِهِ من صورةِ جبريل ، ومن عجائب السَّموات؛ يَكُ قَبلَ القَلْب ذلك(5)، وأيقنَ أنَّ ما رآهُ حقٌّ، كما هو لم يشُكَّ فيه ولا أنكرَهُ ولم يعتقِدْ عن تَخَيُّلٍ ولا أخبرَ عن توهُّم. وقرأ الحسنُ وأبـو جعفـر وقتـادة وابـن عـامر: (مَـا كَـذَّبَ الْفُـؤَادُ) بالتشديد؛ أي ما كذَّبَ قلبُ مُحَمَّدٍ ما رأى بعَينِهِ تلك الليلةَ، بل صدَّقَهُ وحقَّقه.

وَقِيْلَ: هذا إخبارٌ عن رؤيةِ النبيِّ ﷺ ليلةَ المعراج ربَّهُ! قـال ابـنُ عبَّـاس: (رَأى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ بفُؤَادِهِ وَلَمْ يَرَهُ بعَيْنِهِ، وَيَكُونُ ذلِكَ عَلَى أنَّ اللهَ جَعَلَ بَصَـرَهُ فِـي فُـؤَادِهِ أوْ

---

(1) التكوير / ١٩-٢٠ .

(2) التكوير / ٢٣ .

(3) الانشراح / ٤ .

(4) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٣٩.

(5) هكذا العبارة في المخطوط، وهي مضطربة غير واضحة. وحـاولت أن أقربـها مـن معنـى يفيـده رسم الحرف.

خلَقَ لِفُؤَادِهِ بَصَراً حَتَّى رَأى رَبَّهُ رُؤْيَةً غَيْرَ كَاذِبَةٍ كَمَا يُرَى بالْعَيْنِ)[١]. وقال عكرمة: (إنَّهُ رَأى رَبَّهُ بعَيْنِهِ!) وكان يحلفُ باللهِ لقد رأى مُحَمَّد ربَّهُ.

ومذهبُ ابنِ مسعود وعائشة في هذه الآية: (أنَّهُ رَأى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا). وَالْفُؤَادُ دعاء القلب، فما ارتيابُ الفؤادِ فيما رأى الأصلُ وهو القلبُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ من آياتِ الله، قرأ عليٌّ وابنُ مسعود وابن عبَّاس وعائشة ومسروق والنخعيّ وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب: (أفَتَمْرُونَهُ) بفتح التاءِ من غير ألفٍ على معنى أفَتَجْحَدُونَهُ، تقولُ العربُ: مَرَيْتَ الرَّجُلَ حَقَّهُ إذا جَحَدْتَهُ.

وقرأ سعيدُ بن جبير وطلحة وابن مصرف (أفَتُمْرُونَهُ) بضمِّ التاءِ من غير ألفٍ؛ أي تُشَكِّكُونَهُ. وقرأ الباقون (أفَتُمَارُونَهُ) أي أفَتُجَادِلُونَهُ. وفي الحديث: [لاَ تُمَارُوا فِي الْقُرْآنِ، فَإنَّ الْمِرَاءَ فِيْهِ كُفْرٌ][٢].

وعن الشعبيِّ عن عبدالله بن الحارث قال: (اجْتَمَعَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَكَعْبٌ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أمَّا نَحْنُ بَنُو هَاشِمٍ فَنَقُولُ: إنَّ مُحَمَّداً رَأى رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَرَّتَيْنِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أتَعْجَبُونَ أنْ تَكُونَ الْخُلَّةُ لإبْرَاهِيمَ وَالْكَلاَمُ لِمُوسَى وَالرُّؤْيَةُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ).

وقال الشعبيُّ: (فَأخْبَرَنِي مَسْرُوقُ أنَّهُ قَالَ لِعَائِشَةَ: يَا أمَّاهُ؛ هَلْ رَأى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَطْ؟ قَالَتْ: إنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلاً لَيَقِفُ مِنْهُ شَعْرِي، قَالَ: قُلْتُ: رُوَيْداً فَقَرَأ عَلَيْهَا ﴿وَالنَّجْمِ إذا هَوَى...﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنَى﴾. فَقَالَتْ: أيْنَ يَذْهَبُ بكَ! إنَّمَا رَأى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، مَنْ حَدَّثَكَ أنَّ مُحَمَّداً رَأى رَبَّهُ فَقَدْ كَذبَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾[٣].

---

(١) هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥١٣٠) مطولاً.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٥ ص١٥٢: الحديث (٤٩١٦). وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص١٥٧؛ قال الهيثمي: (رجاله موثوقون).

(٣) الانعام / ١٠٣ .

وفي الرؤية قالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (مَنْ زَعَمَ أنَّ مُحَمَّداً رَأى رَبَّهُ فَقَدْ أعْظَمَ الْفِرْيَةَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ حَدَّثَكَ أنَّهُ يَعْلَمُ الْخَمْسَ مِنَ الْغَيْب فَقَدْ كَذبَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[١]، وَمَنْ حَدَّثَكَ أنَّ مُحَمَّداً كَتَمَ شَيْئاً مِنَ الْوَحْيِ فَقَدْ كَذَبَ)[٢]، قال عبدُالرزاق: (فَذكَرْتُ هَذا الْحَدِيثَ لِمُعَمَّرٍ فَقَالَ: مَا عَائِشَةُ عِنْدَنَا بأَعْلَمَ مِنِ ابْنِ عَبَّاسٍ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾؛ أي رأى مُحَمَّدٌ جبريلَ مرَّة أخرى، فسمَّاها (نَزْلَةً أخْرَى) على الاستعارةِ، وذلك أنَّ جبريلَ رآهُ النبيُّ ﷺ على صُورَتهِ الَّتي خُلق عليها مرَّتين، مرَّةً في الأرض بالأُفق الأعلى، ومرَّةً في السماءِ عند سِدرةِ المنتهى، ولأنه قال (نَزْلَةً أخْرَى) تقديرهُ: ولقد رَآهُ نازلاً نزلةً أخرى.

والسِّدرَةُ: هي شَجَرَةُ النَّبَقِ، وههنا شجرةٌ في السَّماء السابعةِ، قِيْلَ: إنَّها شجرةُ طُوبَى، وقال الكلبيُّ: (هِيَ شَجَرَةٌ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ، نَبْقُهَا مِثْلُ قِلاَلِ هَجَرٍ وَوَرَقُهَا مِثْلُ آذانِ الْفِيلَةِ، يَخْرُجُ مِنْ بَاطِنِهَا نَهْرَان بَاطِنَان وَنَهْرَان ظَاهِرَان.

أمَّا الْبَاطِنَان فَفِي الْجَنَّةِ، وَهُمَا التَّسْنِيمُ وَالسَّلْسَبيلُ – وَقِيْلَ: التَّسْنِيمُ وَالْكَوْثَرُ. وَأمَّا الظَّاهِرَان فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ، وَهِيَ تَحْمِلُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ الْحُلِيَّ وَالْحُلَلَ وَجَمِيعَ الثِّمَار، وَسُمِّيَتِ الْمُنْتَهَى؛ لأنَّهُ يَنْتَهِي إلَيْهَا كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَنَبيٍّ مُرْسَلٍ، لاَ يَعْلَمُ مَا وَرَاءَهَا إلاَّ اللهُ سُبْحَانَهُ).

وقال ابنُ مسعودٍ: (سُمِّيَتِ الْمُنْتَهَى؛ لأنَّهُ يَنْتَهِي إلَيْهَا مَا يُصْعَدُ بهِ مِنَ الأَرْضِ فَيُقْبَضُ فِيهَا، وَإلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بهِ مِنْ فَوْقِهَا، فَيُقْبَضُ فِيهَا)[٤]. وَالْمُنْتَهَى: مَوْضِعُ الانْتِهَاءِ.

---

(١) لقمان / ٣٤.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥١٣٧ و٢٥١٣٨) و(٢٥١٤٤)، وإسناده صحيح.

(٣) تفسير عبدالرزاق: ج ٣ ص٢٥٢: النص (٣٠٣٢).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥١٥٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [لَمَّا أُسْرِيَ بالنَّبِيِّ ﷺ فَانْتَهَى بِهِ إِلَى السِّدْرَةِ، فَإِذا هِيَ شَجَرَةٌ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَار: نَهْرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، ونَهْرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَنَهْرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذةٍ لِلشَّاربينَ، وَنَهْرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى. وَهِيَ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ عَاماً لاَ يَقْطَعُهَا، وَالْوَرَقَةُ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا تُغَطِّي الأُمَّةَ كُلَّهَا][1].

وعن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ؛ قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَذْكُرُ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى قَالَ: [يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ][2]. وقال مقاتلٌ: (هِيَ شَجَرَةٌ لَوْ أنَّ وَرَقَةً مِنْهَا وُضِعَتْ فِي الأَرْضِ أضَاءَتْ لأَهْلِ الأَرْضِ كُلِّهِمْ، تَحْمِلُ الْحُلِيَّ وَالْحُلَلَ وَالثِّمَارَ وَجَمِيعَ الأَلْوَانِ، وَهِيَ طُوبَى الَّتِي ذكَرَهَا اللهُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾؛ معناه: عندَ سدرةِ المنتهى جنةُ المأوَى، وهي جنةٌ يأوي إليها جبريلُ والملائكة، وقال مقاتلُ والكلبي:(جَنَّةٌ تَأْوي إلَيْهَا أرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ)[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي يغشَى السِّدرةَ من النور والبَهاء والْحُسنِ والصَّفاء ما ليس لوصفهِ مُنتهَى. وسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مَا يَغْشَى السِّدْرَةَ فَقَالَ:[يَغْشَاهَا جَرَادٌ مِنْ ذهَبٍ] ورُوِي [فَرَاشٌ مِنْ ذهَبٍ][4]. وعن ابنِ عبَّاس:(أنَّهُ يَغْشَاهَا مَلاَئِكَةٌ أمْثَالُ الْغِرْبَان حَتَّى يَقَعْنَ عَلَى الشَّجَرَةِ). قال رسولُ الله ﷺ: [رَأيْتُ عَلَى كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقِهَا مَلَكاً قَائِماً يُسَبحُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ][5]. وَقِيْلَ: يغشَى من جهةِ الله عَزَّ وَجَلَّ فاستنَارَتْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي ما مالَ بصرُ النبيِّ ﷺ يَميناً ولا شِمالاً ولا طغَى ولا تجاوزَ ما رأى، وهذا وصفُ أدَبهِ في ذلك المقامِ إذ لم يلتفِتْ جَانباً، ولم يُمِلْ بصرَهُ ولم يَمُدَّهُ أمامَهُ إلى حيث ينتهي.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥١٥٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥١٥٨).

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٩٠.

(٤) أخرجهما الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥١٦٩)؛ قال: (عن ابن زيد قال...) وذكره.

(٥) بمعناه ذكره الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥١٧٣) عن أبي هريرة، وفي إسناده شك.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ لقـد رأى تلـكَ الليلةِ من عجائب ربه عجيبةً عظماءَ، وهي جبريلُ على صورتهِ، وقال ابـنُ مسـعود: (رَأى رَفْرَفاً مِنَ الْجَنَّةِ اخْضَرَ قَدْ سَدَّ الأُفُقَ)[1]. وَقِيْلَ: هي الآياتُ العظمى التي رآهَـا تلكَ الليلةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ قرأ مجاهدُ وأبو صالح (اللاَّتَّ) بتشديد التاء، وقالوا: كان رجُلاً يَلُتُّ السَّويقَ للحاجِّ، فلما ماتَ عكَفُوا على قبرهِ يعبدونَهُ. وروَى السديُّ عن أبي صالح: (أنَّهُ كَـانَ رَجُـلاً بالطَّائِفِ يَقُومُ عَلَى آلِهَتِهِمْ وَيَلِتُّ لَهُمُ السَّويقَ بالزَّيْتِ، فَلَمَّا مَـاتَ عَبَـدُوهُ)[2]. وقـال الكلبيُّ: (هُوَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ يُقَالُ لَهُ صِرْمَةُ بْنُ عُمَرَ، كَانَ يَسْلِي السَّمْنَ فَيَضَعُهُ عَلَـى صَخْرَةٍ، فَتَأْتِي الْعَرَبُ فَتَلُتُّ بهِ اسْوِقَتَهُمْ).

وأما العُزَّى فقال مجاهدُ: (شَجَرَةٌ لِغَطَفَـانَ يَعْبُدُونَـهَا) وَهِـيَ الَّتِـي بَعَـثَ إلَيْـهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَقَطَعَهَا، وَجَعَلَ خَالِدُ يَضْرِبُهَا بالْفَأْسِ وَيَقُولُ: يَا عُزَّى كُفْرَانَكِ لاَ سُبْحَانَكِ، إنِّي رَأيْتُ اللهَ قَدْ أهَانَكِ. فَخَرَجَتْ مِنْ تَحْتِـهَا شَـيْطَانَةٌ عَرْيَانَـةٌ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا، دَاعِيَةٌ بوَيْلِهَا، وَاضِعَةٌ يَدَهَا عَلَى رَأسِـهَا، فَقَتَلَـهَا خَـالِدٌ ثُـمَّ رَجَـعَ إلَـى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأخْبَرَهُ بذلِكَ، فَقَالَ: [تِلْكَ الْعُزَّى، وَلَنْ تُعْبَدَ أبَداً][3].

وأما مَنَاة فهو صنمٌ لخزاعة، وقال الضحَّاك: (مَعْنَاهُ: صَنَمٌ لِهُذَيْلَ)، وقـال: (إنَّ مَنَاةَ صَنَمٌ كَـانَتْ لِـهُذَيْلَ وَخُزَاعَـةَ يَعْبُدُونَـهَا مِـنْ دُونِ اللهِ). وقـال بعضُـهم: الـلاَّتُ والعُزَّى ومناةُ أصنامٌ من حجارةٍ كانت في جوفِ الكعبةِ.

والمعنى: أخبرُونا عن الآلهةِ التي تَعبُدونَها من دونِ اللهِ، هل لها قـدرةٌ تُوصَـفُ بها كما يوصَفُ اللهُ بالقدرةِ والعَظَمةِ، وهي أسماءُ أصنامٍ يَعبدونَها، وانتقَوا لها اسمـاً

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥١٧٦).

(٢) أخرجه الطبري في جـامع البيـان: عـن ابـن عبـاس ومجـاهد وأبـي صـالح في الآثـار (٢٥١٨٠ و٢٥٨١ و٢٥١٨٢).

(٣) في مجمع الزوائـد: ج ٨ ص١٧٦؛ قـال الهيثمـي: (رواه الطـبراني وفيـه يحيـى بـن المنـذر وهـو ضعيف).

من أسماءِ الله تعالى، فقالوا: مِن الله اللاَّت، ومِن العزيزِ العزَّى، ومِن المنَّانِ مناةُ بالهاءِ.

وقال الزجَّاجُ: (الْوَقْفُ عَلَيْهَا بالتَّاءِ لاتِّبَاعِ الْمُصْحَفِ)[1]، وكان ابنُ كثيرٍ يقولُ: (وَمَنَأَةِ) بالمدِّ والهمزةِ[2]، والصحيحُ: قراءةُ العامَّة بالقصرِ، و(الثَّالِثَةَ) نعتٌ لِمَنَاة، يعني الثالثةَ للصَّنمين في الذِّكرِ، والأُخرى نعتٌ لها أيضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ هذا إنكارٌ عليهم في أنَّهم كانوا يزعُمون أنَّ هذه الأصنامَ بناتُ الله، فقيل لَهم: كيف جعَلتُم هذه الأشياءَ المؤنَّثة أولادَ اللهِ وأنتم لا تَرضَون لأنفُسِكم الإناثَ وتكرَهونَها؟ وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي قِسمَةٌ جَائِرَةٌ غيرُ عادلةٍ، يقالُ: ضَازَهُ يَضِيزُهُ إذا نقصَهُ حقَّهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ ؛ معناهُ: وما هذهِ اللاَّتُ والعُزَّى ومَناة إلاّ أسماءٌ سَمَّيتُموها أنتم وآباؤُكم الذين مَضَوا قبلَكُم، ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ ؛ وبرهان؛ أي لم يُنْزِلْ كِتَاباً لكم حجَّة بما تقولون أنَّها آلهةٌ، والمعنى: ما أنزَلَ اللهُ بعبادَتِها من سُلطان، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ ؛ في قولِهم: إنَّها آلهةٌ، وقولِهم: هذه بناتُ الله.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ولقد جاءَهم من ربهم الكتابُ والرسولُ والبيانُ أنَّها ليست بآلهةٍ، وأنَّ العبادةَ لا تصلحُ لَها، وإنَّما تصلحُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ. والمعنى: أنَّهم يَعقِلُون ذلك بعدَ أنْ جاءَهم الهدَى، وذلك أبلَغُ في الذمِّ.

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٥٩؛ قال الزجاج: (والأجود في هذا اتباع المصحف والوقف عليها بالتاء).

(٢) قال ابن عادل في اللباب: ج ١٢ ص١٨٠: (فأما قراءة ابن كثير، فاشتقاقها من النَّوءِ، وهو المطر، لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء، ووزنها حينئذ (مَفْعَلَة) فألفها عن واو وهمزتها أصلية وميمها زائدة).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي ما اشتَهى، والمرادُ بالإنسان الكافرُ، وكان الكفَّارُ يعبُدون الأصنامَ، ويزعُمون أنَّها تشفعُ لَـهم عنـد اللهِ، ويتمنَّـون على اللهِ الجنَّة. والمعنى: أيَظُنُّونَ أنَّ لهم ما يتمنَّون من شَـفاعةِ الأصنـامِ، وليـس كمـا يظُنُّون ويتمنون، بل ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ لاَ يُعطِي أحداً شَيئاً بالتمنِّي، وإنما يعطِي بالحكمةِ وعلى سبيلِ الاستحقاق، فيزيدُ مِن فَضلهِ مَن يشاءُ. وَقِيلَ: معنـاهُ (فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى) أنْ لا يملِكَ فيهما أحدٌ شيئاً إلاَّ بإذنهِ، يُعطي مَن يشاءُ ويَحـرمُ مَن يشاءُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ جمعَ الكنايةَ لأن المـرادَ بقولـه (وَكَـمْ مِنْ مَلَكٍ) الكثرةُ، والمعنى: لا تُغني شفاعتُهم أحداً إلاَّ مِـن بعـدِ أنْ يـأذنَ اللهُ لهـم في الشَّفاعةِ، ويرضَى بشفَاعتِهم. ويقالُ: ويرضَى المشفوعُ له، وهذا كقولهِ ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ ﴾ يعني أنَّهم قالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبيراً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ ؛ أي ما لَهم بتلك التَّسميةِ مِن علم ومـا يسـتبقون أنَّـهم إناثٌ، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي لا يقومُ الظنُّ مقامَ الحقِّ، وهذا يدلُّ على أن الظَّانَّ غيرُ عالِم، وأنَّ العبادةَ بالظنِّ لا تدفعُ من عذاب الله شيئاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ ؛ أي أعرِضْ يا مُحَمَّـدُ عمَّـن أعـرضَ عـن القـرآن، ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾ ، أي ولَـمْ يُـرِدْ بعلمـهِ إلاَّ الحياةَ الدُّنيا وزينتَها، وهذا مما نَسَخَتْهُ آيةُ القتال، وقولهُ تعـالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ ؛ أي لم يبلِغوا من العلمِ إلاَّ ظنَّهم أنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وأنَّـها تشـفعُ لَـهم، فاعتمَدُوا ذلك وأعرَضُوا عن القرآنِ.

---

(١) الأنبياء / ٢٨.

وَقِيْلَ: معناهُ: أنَّ غايةَ عِلمِهم أنْ آثَرُوا الدُّنيا على الآخرةِ، وهذا غايـةُ الجـهلِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ؛ أي إنه عالِمٌ بـهم، فـهو يُجازيهم، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي إنه عالِمٌ بالفَريقين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ إخبارٌ عن قُدرتـهِ وسِعَةِ مُلكهِ، ليَجزيَ في الآخرةِ المحسنَ والمسـيءَ، معنـاهُ: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ﴾ ؛ أي أشرَكُوا، ﴿ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ ؛ من الشِّركِ، ﴿ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ﴾ ؛ أي وحَّدُوا ربَّهم، ﴿ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي بالجنَّة.

ثم نعتَهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ ؛ فكبائرُ الإثـمِ وهو كلُّ ذنبٍ خُتِـمَ بالنـار، والفواحـشُ: كـلُّ ذنـبٍ فيـه حَـدٌّ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ ؛ هذا استثناءٌ منقطعٌ ليس الكبائرَ والفواحشَ.

وقال ابنُ عبَّاس:(أشْبَهُ شَيْءٍ باللَّمَمِ مَا قَالَهُ أبو هُرَيْرَةَ عَـنْ رَسُـول اللهِ ﷺ أنَّـهُ قَالَ: [إنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَـى، وَهُـوَ اللهِ يُـدْرِكُ ذلِـكَ لاَ مَحَالَـةَ، فَزِنَى الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَى اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَزِنَى الشَّفَتَيْنِ التَّقْبِيلُ، وَزِنَى الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ، وَزِنَى الرِّجْلَيْنِ الْمَشْيُ، وَالنَّفْسُ تَتَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَـدِّقُ ذلِـكَ كُلَّـهُ أوْ يُكَذِّبُـهُ، فَإنْ تَقَدَّمَ بفَرْجِهِ كَانَ زَانِياً وَإلاَّ فَهُوَ اللَّمَمُ])[1].

وفي هذا دليلٌ أن الأشياءَ إذا وُجدت على التعمُّدِ لم تكن مِن اللَّمَمِ، واللَّمَمُ ما يكون من الفلتات النادرةِ التي لا يملِكُها ابنُ آدمَ من نفسهِ؛ لأنَّ الأُمَّة اجتمعَـتْ علـى أنَّ مُتَعَمِّدَ النظرِ إلى ما لا يحلُّ فاسقٌ.

واللَّمَمُ في اللغة: هو مُقَارَبَةُ الشَّيءِ من غيرِ دُخولٍ فيه، يقالُ: ألَمَّ بالشَّيءِ يَلِـمُّ إلْمَاماً إذا قاربَهُ. وعن هذا يقالُ: صغائرُ الذُّنوب كالنَّظرةِ والقُبلَةِ والغَمـزَةِ، ومـا كـان

---

(١) أخرجه البخـاري في الصحيـح: كتـاب الاسـتئذان: بـاب زنـا الجـوارح دون الفـرج: الحديث (٦٢٤٣). ومسلم في الصحيح: كتاب القدر: باب قدر على ابن آدم حظـه مـن الزنـا: الحديث (٢٠/ ٢٦٥٧) عن أبي هريرة ﷺ. وعن ابن مسعود ﷺ أخرجه الطبري في جامع البيـان: الأثـر (٢٥٢٠٣) وذكر الزيادة فيه.

دُون الزِّنَى، وقال ابنُ عبَّاس: (اللَّمَمُ: النَّظْرَةُ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ وَهُوَ مَغْفُورٌ، فَإنْ أعَادَ النَّظَرَ فَلَيْسَ بلَمَمٍ وَهُوَ الذنْبُ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ ؛ أي إنَّ رحمةَ ربكَ تسَعُ جميعَ الذُّنوب، ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ معناهُ: هو أعلمُ بكم مِن أنفُسِكم إذ خلق آباكُم آدمُ من الترابِ. والجنينُ: ما كنتم صِغَاراً في أرحامِ أمَّهاتِكم عَلِمَ عند ذلك ما يستَحصِلُ منكم، والأَجِنَّةُ: جمعُ جَنِين، والمعنى: عَلِمَ اللهُ مِن كلِّ نفسٍ ما هي صَانِعَةٌ، وإلى ما هي صائرةٌ، ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ؛ بما ليسَ فيها ولا تُبَرِّؤُونَها من العيُوب التي فيها.

وَقِيْلَ: معناهُ: لا تُزكُّوا أنفُسَكم بما عَمِلتم، لا يقولَنَّ رجلٌ: عملتُ كذا، وتصدَّقتُ بكذا؛ ليكون أبلغَ بالخضُوعِ وأبعدَ من الرِّياء. وَقِيْلَ: معناهُ: لا تُبَرِّؤا أنفُسَكم من الآثامِ وتَمدَحُونَها بحُسنِ عملِها، ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ الشِّركَ وآمَنَ وأطاعَ وأخلصَ العملَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ يعني الوليدَ بنَ المغيرةِ، أعرضَ عن التصديقِ بالنبيِّ ﷺ وأعطَى قليلاً من الحقِّ بلسانهِ ثم قطعَ، وكان الوليدُ قد اتَّبعَ النبيَّ ﷺ على دينهِ، فغيَّرهُ بعضُ المشركين فتركَ دينَهُ، فقالَ: إنِّي خشيتُ من عذاب اللهِ، فضمنَ الذي عاينَهُ إنْ هو أعطاهُ شيئاً من مالِهِ ورجعَ إلى شِركهِ، أن يتحمَّلَ عنه العذابَ، ففعلَ. يعني رجعَ إلى الشِّرك وأعطاهُ ذلك الرجلُ بعضَ ما كان ذكرَ له من المال ومنعَهُ تَمامَهُ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ: (أفَرَأيْتَ الَّذِي تَوَلَّى، وَأعْطَى قَلِيلاً)[2] أي أدبرَ عن إيمانهِ وأعطَى صاحبَهُ قَليلاً من المالِ الذي وعدَهُ به (وَأكْدَى) أي بَخِلَ بالباقِي.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٤٨ من كلام الحسين بن الفضل.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٢٢٦-٢٥٢٢٧). وذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٩٨.

قال المفسِّرون: (أَكْدَى) أي قطعَهُ ولم يُتِمَّ عليهِ، وأصله من الكِدْيَةِ، وهو حجَرٌ يظهرُ في البئر ويمنَعُ من الحفر ويُؤسَ من الماءِ، قال الكلبيُّ: (يُقَالُ: أَكْدَى الْحَافِرُ وَأَجْبَلَ؛ إذا بَلَغَ فِي الْحَفْرِ الْكِدْيَةَ وَالْجَبَلَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي يعلَمُ أن صاحبَهُ يتحمَّلُ عنه عذابَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أَلَمْ يُخبَرْ بما كان مَكتوباً في صُحفِ موسَى؛ يعني التوراةَ، وما فِي صُحُفِ إبراهيم (الَّذِي وَفَّى) أي تَمَّمَ وأكملَ ما أُمِرَ بهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: وإبراهيمَ الذي بلَّغَ قومَهُ وأدَّى إليهم ما أُمِرَ به.

وَقِيْلَ: أكملَ ما يجبُ للهِ عليه من الطاعةِ في كلِّ ما أُمر به وامتُحِنَ به كما في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[1]. وَقِيْلَ: معنى ذلك: أنَّهُ كان عَاهدَ أنْ لا يسألَ مَخلوقاً قطُّ خَوْفاً بذلك، حتى قالَ له جبريلُ في الوقتِ الذي أرادَ قومهُ أنْ يُلقوه في النار: هَلْ لَكَ حَاجَةٌ ؟ أجَابَهُ: أمَّا إلَيْكَ فَلاَ. وَقِيْلَ: معناهُ: وفي رُؤياه وقَدِمَ بذبحِ ابنه. وَقِيْلَ: أدَّى الأمانةَ ووفَّى شأنَ المناسكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ هذا بيانٌ لِمَا في صُحفِ موسَى وإبراهيمَ الذي وفَّى، ومعناهُ: لا تَحمِلُ حَامِلَةٌ حملَ أخرى؛ أي لا تُعذبُ نفسٌ بذنب غيرها، هذا إبطالٌ لقولِ مَن ضَمِنَ الوليد أنْ يحملَ عنه الإثمَ، وهذا عامٌّ في كلِّ شريعةٍ.

وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنه أنه قالَ: (كَانُوا قَبْلَ إبْرَاهِيمَ يَأْخُذُونَ الرَّجُلَ بذنْب غَيْرِهِ، وَيَأْخُذُونَ الْوَلِيَّ فِي الْقَتْلِ بابْنِهِ وَأخِيهِ وَأبيهِ وَعَمِّهِ وَخَالِهِ، وَالزَّوْجَ يُقْتَلُ بامْرَأتِهِ، وَالسَّيِّدُ بعَبْدِهِ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ نَهَاهُمْ عَنْ ذلِكَ وَبَلَّغَهُمْ أنْ لاَ تَزِرَ وَازرَةٌ وِزْرَ أخْرَى)[2].

(١) البقرة / ١٢٤ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٢٣٤). وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٤٩. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١١٣.

يقال: وَزَرْتُ الشَّيْءَ آزُرُهُ إذا حَمَلْتَهُ، والأَوْزَارُ: الأحمالُ، ويسمَّى الإثـمُ وزْراً؛ لأن الإثـمَ يُثقِلُ صاحبَهُ، كما قال تعالى ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[1]. ويسمَّى الوزيرُ وزيراً ليَحمِلَ ثقلَ الملكِ في قيامهِ بالتدبُّر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي ليس له إلاَّ جزاءُ ما عَمِلَ من خيرٍ و شرٍّ، وهذا عطفٌ على قولهِ تعالى (ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ) وهو أيضاً مما في صُحف موسَى وإبراهيمَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وإنَّ عملَـهُ سوف يُرى في الأُخرى في ديوانهِ وميزانه، ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ لا يُنقَصُ من ثواب عَمَلهِ شيءٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي مُنتهى العبادِ ومَصيرُهم، وهو مجازيهم بأعمالهم. وَقِيْلَ: منه ابتداءُ الْمِنَّةِ وإليه انتهاءُ الآمال.

وعن أُبَي بن كعبٍ عن النبيِّ ﷺ في قولهِ تعالى (وَأنَّ إِلَى رَبكَ الْمُنْتَـهَى) قـال: [لاَ فِكْرَ فِي الرَّب][2]. والشاهدُ في هذا الحديثِ قولهُ ﷺ: [إذا ذُكِرَ اللهُ فَانْتَهُوا][3].

وعن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أصْحَابهِ وَهُـمْ يَتَفَكَّـرُونَ، فَقَالَ:[فِيمَ أنْتُمْ تَتَفكَّرُونَ؟] قَالُوا: نَتَفكَّرُ الْخَالِقَ، فَقَـالَ: [تَفَكَّـرُوا فِـي الْخَلْـقِ وَلاَ تَتَفكَّرُوا فِي الْخَالِق، فَإنَّهُ لاَ يُحِيطُ بِهِ الفِكْرُ، تَفكَّرُوا فِي أنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَات سَـبْعاً وَالأَرْضَ سَبْعاً ثِخَانَةً؛ كُلُّ أرْضٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ كُلِّ أرْضَيْنِ خَمْسُمِائَةِ عَـامٍ، وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَثِخَانَةُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ

---

(١) الانشراح / ٢و٣.

(٢) في الدر المنثـور: ج ٧ ص٦٦٢؛ قـال السـيوطي: (أخرجـه الدارقطـني في الافـراد والبغـوي في تفسيره عن أُبَي بن كعب) وذكره. وقال: (وأخرجه أبو الشيخ في العظمة عـن سـفيان). وذكـره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٥٠. وأبو الشيخ في العظمة: الأثـر (٦/ ٦ و٩/ ٩): ص١٩ عـن سفيان الثوري.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء: ج ٤ ص٣٩٦، وفيه عبيد الله بـن أبـي حميـد، أجمعـوا على ضعفه.

سَمَائيْن خَمْسُمِائَةٍ، وَفِي السَّمَاءِ السَّابعَةِ بَحرٌ عُمْقُهُ مِثْلُ ذلِكَ كُلِّه، فِيْهِ مَلَكٌ قَائِمٌ لَمْ يُجَاوِز الْمَاءُ كَفَّيْهِ](١).

قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي أضحَكَ مَن شاءَ من خَلقهِ، وأبكَى مَن شاءَ منهم، وقال الكلبيُّ: (أضْحَكَ أهْلَ الْجَنَّةِ فِيْهَا، وَأبْكَى أهْلَ النَّار فِيْهَا). وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ: وَإنَّهُ هُوَ أفْرَحَ وَأحْزَنَ). وقال الضحَّاكُ: (أضْحَكَ الأَرْضَ بالنَّبَاتِ، وَأبْكَى السَّمَاءَ بالْمَطَرِ). وقِيلَ: أضْحَكَ الأَشْجَارَ بالأَثْمَار، وَأبْكَى السَّحَابَ بالأَمْطَار).

وقال ذُو النُّون: (أضْحَكَ قُلُوبَ الْعَارفِينَ بشَمْس مَعْرفَتِهِ، وَأبْكَى قُلُوبَ الْعَاصِينَ بظُلْمَةِ نُكْرَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ). وقال سهلٌ: (أضْحَكَ الْمُطِيعَ بالرَّحْمَةِ، وَأبْكَى الْعَاصِي بالسُّخْطِ). وسُئِلَ ظاهرُ المقدسيُّ: أتَضْحَكُ الْمَلاَئِكَةُ؛ فَقَالَ: (مَا ضَحِكَتْ مِنْ دُون الْعَرْشِ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ جَهَنَّمَ).

وَقِيْلَ لِعُمَرَ ﷺ: هَلْ كَانَ أصْحَابُ رَسُول اللهِ يَضْحَكُونَ ؟ قَالَ: (نَعَمْ، وَالإيْمَانُ وَاللهِ أثْبَتُ فِي قُلُوبهِمْ مِنَ الْجِبَال الرَّوَاسِي)(٢). وقال محمَّد بن علي الترمذي: (مَعْنَى الآيَةِ: هُوَ أضْحَكَ الْمُؤْمِنَ فِي الآخِرَةِ وَأبْكَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَأضْحَكَ الْكَافِرَ فِي الدُّنْيَا وَأبْكَاهُ فِي الآخِرَةِ)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي أماتَ في الدُّنيا وأحيَا في البعث للجزاءِ. وَقِيْلَ: أماتَ الآباءَ وأحيَا الأبناءَ. وَقِيْلَ: أماتَ الكافرَ بالنكدةِ والقطيعةِ، وأحيَا المؤمنَ بالمغفرةِ والوَصلَةِ، قال اللهُ ﴿أوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾(٤).

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وروى الطبراني في الأوسط: ج ٦ ص٦٣١٥ عن ابن عمر: أن النبي ﷺ قال: [تَفَكَّرُوا فِي آلآءِ اللهِ وَلاَ تَفَكَّرُوا فِي اللهِ]. ورواه أبو الشيخ في العظمة: ص١٧.

(٢) ذكر هذه الآثار البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٥٠. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١١٦-١١٧.

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١١٧.

(٤) الانعام / ١٢٢ .

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي خلَقَ الصِّنفين الذكر والأنثى من كلِّ حيوانٍ من نُطفَةٍ إذا تقذفُ في الرَّحِمِ لتقدير الولد، والمعنى: ما يقدَّرُ منه الولـدُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ يعني بالنَّشأةِ الأُخرى الخلقَ الثاني للبعثِ يومَ القيامةِ يُعِيدُهم أحياءً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ قال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ: أغْنَى بالذهَب وَالْفِضَّةِ وَصُنُوفِ الأَمْوَالِ كَالإبلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَـمِ)[١]. وقـال الحسـنُ وقتـادة: (أغْنَى وَأخْدَمَ)[٢].

وقال ابنُ عبَّاس ﷺ: (أغْنَى وَأرْضَى بمَا أعْطَى)[٣]. وَقِيْلَ: معناهُ: أغنَى وأفقرَ، وَقِيْلَ: أغنَى؛ أي أكثرَ، وأقنَى أي أقلَّ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَـنْ يَشَـاءُ وَيَقْدِرُ﴾[٤].

وقال الأخفشُ: (أقْنَى: أفْقرَ وَأجْوَعَ)، وَقِيْلَ: أقْنَى بأربـاحِ الأمـوالِ وفُروعِـها، وأقنَى بأُصُولِها، فالأُولى: مثلُ الذهب والفضَّة، يتصرف بهما ويربـحُ عليـهما، والثانيـةُ: مثلُ الضِّياعِ والأنعامِ، يستبقِي الإنسانُ أصولَها وينتفعُ بما يحصلُ له منها.

قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ وهو كوكبٌ خلفَ الجوزاءِ، كـان يعبدهُ أناسٌ من خُزَاعَةَ، قال اللهُ: أنا ربُّ الشِّعرَى فاعبُدوني، يقـالُ للشِّـعرى: مِـرْزَم الجـوزاء[٥]. وهمـا شِـعرَيَان؛ أحدُهمـا: العَبُـورُ؛ والأُخـرى: الغُمَيصَـاءُ، وأراد هـهنا الشِّعرَى العَبُورُ، أعلمَ اللهُ تعالى أنه ربُّ الشِّعرَى وخالِقُها، وأنه هو المعبـودُ لا معبـودَ سواهُ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٥٠.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٢٥١-٢٥٢٥٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٢٥٥).

(٤) الروم / ٣٧ .

(٥) في المخطوط: (مريم الحـوري) والصحيـح كمـا أثبتنـاه. ينظـر: جـامع البيـان: مـج ١٣ ج ٢٦ ص١٠١: الأثر (٢٥٢٦٠) عن مجاهد، والأثر (٢٥٢٦٢) عن ابن زيد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۠ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وأنه أهلكَ قومَ هودٍ بريحٍ صَرْصَرٍ، وهم أوَّلُ عادٍ كـانوا، وأوَّل عـادِ الأُخـرى فاقتَتلوا فيما بينهم فتَفَانَوا بالقتلِ، وكانت عادٌ الأُخرى من نسلِ عادِ الأُولى.

وقرأ نافعُ وأبو عمرٍو ويعقوبُ: (عَـاداً الأولَـى) مُدغَمـاً، وهمـزَ الـواوَ نـافعُ، وقرئَ بإسكانِ اللام وإثباتِ الهمز وهي الأصلُ في الكلامِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَى) وأهلكَ قومَ صالح بالصَّيحة فمـا أبقَـى منـهم أحداً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ ؛ اي واهلَكنا قومَ نـوحٍ مـن قبـلِ عـادٍ وثمودَ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ مـن غـيرهم، لأنَّ نوحـاً الطَّيْكُلاً لَبثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عَاماً فما آمَنَ منهم إلاَّ أنفسٌ يَسِيرَةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وقُرَى قوم لوطٍ الأربعُ رفَعَـها جـبريلُ إلى السَّـماء الدنيـا فأسـقَطَها إلى الأرضِ. والمعنـى: أهوَاهَـا جـبريلُ إلى الأرضِ بعدَ ما رفعَها، وأتبَعَـهم اللهُ الحجـارةَ، فذلـك قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ يعني الحجارةَ والجـزاءَ والنَّكَـالَ. وسُـميت الْمُؤْتَفِكَـةُ مـن قولِـهم: أفكتُهُ؛ أي قَلَبْتُهُ، والمؤتفكةُ هي الْمُنْقَلِبَةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي فبأيِّ نِعَـمِ ربـكَ أيُّـها الإنسان تَتَشَكَّكُ وترتَابُ، قال ابنُ عبَّاس: (يُريدُ: فَبـأَيِّ نِعَـمِ رَبـكَ الَّتِـي تَـدُلُّ عَلَـى وَحْدَانِيَّتِهِ تُشَكِّكُ وَتُكَذِّبُ يَا وَلِيدُ) يعني الوليدَ بن المغيرةِ.

وذلك أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عدَّدَ ما فعلَهُ مما يـدلُّ علـى وحدانيَّتـهِ قـال (فَبـأَيِّ آلاَءِ رَبكَ تَتَمارَى)، فإنْ قيلَ: ما معنى ذِكْرِ النِّعَمِ ههنا وقد تقدَّمَ ذِكرُ الإهـلاكِ؟ قُلْنَـا: إنَّ النِّعَمَ التي عُدَّتْ قبلَ هذه نِعَمٌ علينا لِمَا نَالَنَا فيها من المزاجِرِ، كيـلاَ يَسْـلِكَ منـا أحـدٌ مَسالِكَها.

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص٩٠٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ يعني مُحَمَّد ﷺ من النُّذُر الأُولَى من الرُّسُلِ قبلَهُ، والمعنى: هذا الرسولُ نَذِيرٌ لكم مَجْرَاهُ في الإنكار مَجْرَى من تَقدَّمَهُ من الأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي دَنَتِ القيامةُ واقتربَتْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي ليس للقيامةِ إذا غَشِيَتِ الخلقَ شدَائِدُها أحدٌ يكشِفُ عنهم، وهذا قولُ عطاءٍ والضَّحاك[١] وقتادةُ وثابت، (كَاشِفَةٌ) على تقدير: ليس لها نفسٌ كاشفةٌ، ويجوزُ قوله (كَاشِفَةٌ) مصدراً كالجاثيةِ والعاقبةِ؛ أي (لَيْسَ لَهَا مِنْ دُون اللهِ كَاشِفَةٌ) أي لا يكشِفُ عنها غيرهُ، ولا يعلَمُ متى هو إلاَّ هو، وهذا كقولهِ ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ﴾[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الخطابُ لِمُشركي قريشٍ، والمعنى: أفَمِنْ هذا القرآن الذي يُتلَى عليكم تَعجَبُونَ من إنزالهِ على مُحَمَّدٍ تكذيباً، وتضحكُون استهزاءً ولا تَبْكُونَ مما فيه من الوعيدِ والزَّواجرِ والتخويفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي لاَهُونَ غافلون عنه، يقال: دَعْ عنكَ سُمُودَكَ؛ أي لَهْوَكَ، قال أُميَّةُ:

أَلاَ أَيُّهَا الإنْسَانُ إنَّكَ سَامِدُ لاَ تَفْنَى وَلاَ أَنْتَ هَالِكُ

والسُّمُودُ: هو الغفلَةُ والسَّهوُ عن الشيءِ، وقال الكلبيُّ: (السَّامِدُ: الجِدُّ[٣] بِلِسَان قُرَيْشٍ، وَبلِسَان الْيَمَنِ: اللاَّهِي)، قال الضحَّاكُ: (سَامِدُونَ: أيْ أشِرُونَ بَطِرُونَ)[٤]، وقال مجاهدُ: (سَامِدُونَ؛ أيْ مُبَرْطِمُونَ)[٥]، والبَرْطَمَةُ: أن يُدلِي الإنسانُ شَفَتَهُ من الغضب، وفي لُغة اليمنِ: أَسْمِدْ لنَا؛ أي أعِنْ لَنَا.

---

(١) في الدر المنثور: ج٧ ص٦٦٦؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر عن الضحاك) وذكره.
(٢) الأعراف / ١٨٧ .
(٣) في المخطوط: (الجدر).
(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٥١.
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٢٨٥).

وعن أبي هريرة قالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (أفَمِنْ هَذا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ، وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ) بكَى أهْلُ الصُّفَّةِ حَتَّى جَرَتْ دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ، فَلَمَّا سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ حَنِينَهُمْ بَكَى مَعَهُمْ فَبَكَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: [لاَ يَلِجُ النَّارَ مَنْ بَكَى مَعَهُمْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ (٦٢) ﴾ ؛ أي اخضَعُوا لـه بالتوحيدِ واعبدوهُ ولا تعبُدوا أحَداً غيرَهُ. ويجوزُ أن يكون السُّجود ههنا كنايةً عن الصَّلاة.

وعن ابنِ عبَّاس قال: (قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُورَةَ النَّجْمِ فَسَجَدَ فِيهَا مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالإنْسُ)[2].

آخر تفسير سورة (**والنجم**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان: ج ١ ص٤٨٩: الحديث (٧٩٨). وفي الدر المنثور: ج٧ ص٦٦٧ عزاه السيوطي إلى البيهقي في شعب الإيمان.

(٢) رواه البخاري في الصحيح: كتاب سجود القرآن: باب سورة النجم: الحديث (١٠٧١)، وفي كتاب التفسير: الحديث (٤٨٦٢). وفي فتح الباري: ج ٨ ص٧٩٠؛ قال ابن حجر: (روى النسائي بإسناد صحيح عن المطلب بن أبي وداعة؛ قال: [قرأ النبي ﷺ بمكة والنجم، فسجد وسجد من عنده، وأبيت أن أسجد] ولم يكن يومئذ أسلم، وقال المطلب: فلا أدع السجود فيها أبداً). وأخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب افتتاح الصلاة: باب السجود في النجم: الحديث (١٠٣٠/ ١) بإسناد صحيح رجاله ثقات.

سُورَةُ الْقَمَرِ

سُورَةُ الْقَمَرِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَأرْبَعْمِائَةٍ وَثلاَثَةٌ وَعُشْرُونَ حَرْفاً، وَثلاَثمِائَةٍ وَاثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْقَمَرِ بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ مِثْلُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ](1).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ ؛ معناه: دنَتِ القيامةُ وحدَثَ عَلَمٌ من أعلامِها، وهو انشقاقُ القمرِ، ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة علامةً تدلُّهم على وحدانيَّة اللهِ ونبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ، ﴿ يُعْرِضُوا۟ ﴾ ؛ أي يَجحَدُوا، ﴿ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ ؛ أي شديدٌ قويٌّ من الْمِرَّةِ وهي القوَّةُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ ؛ أي كذبُوا الرُّسُلَ وثبَتوا على التكذيب وعَمِلُوا بهَوَى أنفُسِهم في عبادةِ الأصنام، ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ ﴾ ؛ بما أخبرَ اللهُ به من الأمُور الماضيةِ والمنتظَرَةِ، ﴿ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ ﴾ ؛ أي ثابتٌ لا تلحقهُ الزيادةُ والنقصان والتغيير والتبديلُ.

وسببُ نزول هذه الآياتِ، هو ما رُوي: أنَّ أهْلَ مَكَّةَ سَألُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ آيَةً وَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حِينَ قَالَ أبُو جَهْلٍ: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى! لَئِنْ أتَيْتَ آيَةً كَمَا أتَتْ بِهِ الرُّسُلُ قَبْلَكَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ، فَقَالَ ﷺ: [وَمَاذا عَلَيْكَ لَوْ حَلَفْتَ باللهِ الْعَظِيمِ؟] فَقَالَ: وَرَب هَذِهِ الْكَعْبَةِ لَئِنْ أتَيْتَ بآيَةٍ كَمَا أتَتْ بِهِ الرُّسُلُ قَبْلَكَ لآمَنَّا بكَ.

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٤٣١. وقال السيوطي في الدر المنثور: ج ٧ ص٦٦٨: (أخرجه ابن الضريس عن إسحق بن عبدالله بن أبي فروة رفعه) وذكره.

وقال ابنُ عبَّاس ﷺ: (اجْتَمَعَ الْمُشْرِكُونَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَـالُوا: إنْ كُنْـتَ صَادِقاً فَشُقَّ لَنَا القَمَرَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ:[إنْ فَعَلْتُ تُؤْمِنُـونَ؟] قَـالُوا: نَعَـمْ، فَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَبَّهُ أنْ يُعْطِيَهُ مَا قَـالُوا، فَانْشَـقَّ الْقَمَـرُ فِرْقَتَيْـنِ، فَقَـالَ ﷺ: [يَـا فُلاَنُ؛ وَيَا فُلاَنُ؛ وَيَا فُلاَنُ: إشْهَدُوا])[1].

وعن ابن مسعودٍ قالَ: (أشَارَ إلَى الْقَمَرِ فَانْفَلَقَ فِلْقَتَيْنِ، فَكَانَتْ إحْدَاهُمَـا فَـوْقَ الْجَبَلِ، وَالأُخْرَى أسْـفَلَ مِـنَ الْجَبَـلِ حَتَّـى رَأى الْجَبَـلَ بَيْـنَ فِلْقَتَـي الْقَمَـرِ، وَقَـالَ: [اشْهَدُوا] فَقَالَ أبُو جَهْلٍ: إنَّ مُحَمَّداً سَحَرَ الْقَمَـرَ! ثُـمَّ قَـالَ أبُـو جَـهْلٍ لأَصْحَابـِهِ: ابْعَثُوا بالرُّسُلِ إلَى الْبلاَدِ فَإنْ عَايَنُوا مِنْ ذلِكَ مَا عَايَنَّا فَهُوَ آيَةٌ، وَإلاَّ فَهُوَ سِحْرٌ. فَبَعَثُوا الرُّسُلَ إلَى جَمِيعِ الْبلاَدِ، فَإذا النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ بانْشِـقَاقِ الْقَمَـرِ، فَلَمَّـا رَجَعُـوا إلَيْـهِمْ وَأخْبَرُوهُمْ بهِ قَالُوا: إنَّ هَذا سَاحِرٌ دَاهِي!)[2]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ يعـني أهلَ مكَّة جاءَهم من أخبار الأُمم المكذِّبة في القرآنِ ما فيه مُنتهَى لهم عمَّا هم فيه مـن الكُفرِ والفُسوقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ ؛ بدلَ من (مَا) والمعنى: جاءَهم حِكمَـةٌ في نِهايَةِ الْحُكْمِ والصَّواب. وَقِيْلَ: المرادُ بالحكمةِ البالغةِ القـرآنُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ ما تُغنِي الرُّسُل صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ عن قـومٍ لا يتَدبَّـرون ولا يتَفكَّرون في الآيةِ والنُّذر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ ﴾ ؛ أي أعـرِضْ عنـهم فليسَ عليكَ إجبارُهم على الدِّين، وإنَّما عليكَ إقامةُ الْحُجَّة وقد بالَغْتَ فيـها، وهـذه الآيـةُ منسوخةٌ بآيةِ القتالِ. وهذا وقفٌ تامٌّ، وقوله تعـالى (يَـوْمَ يَـدْعُ الـدَّاعِ) ابتـداءُ الكـلامِ كلام.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٦٧١؛ قال السيوطي: (أخرجه أبـو نعيـم في الحلية عـن طريـق عطـاء والضحاك عن ابن عباس) وذكره.

(٢) رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب ﴿وانشق القمر﴾: الحديث (٤٨٦٥).

قال مقاتلُ:(أَرَادَ بِالدَّاعِي إِسْرَافِيلَ يَنْفُخُ قَائِماً عَلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ) ﴿ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ ﴾ ؛ أي إلى أمرٍ فَظِيعٍ لَمْ يرَوا مِثلَهُ فينكرونَهُ استِعظَاماً[1]، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ). وقولُه تعالى (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ) منصوبٌ على معنى واذكُرْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ ﴾ ؛ نُصِبَ على الحالِ مِن يخرجُون، وذلك دليلٌ على تقدُّمِ الحالِ على الفعلِ المتصرِّف، وكذلك يقالُ: رَاكباً جاءَ زيدٌ كما يقالُ جاء زيد راكباً، وتقديرُهُ: ويُخرجُون من الأجداثِ خُشَّعاً أبصارُهم.

قرأ أبو عمرٍو ويعقوب وحمزةُ والكسائي وخلف: (خَاشِعاً) بالألفِ، وقرأ الباقون: (خُشَّعاً) على الجمع[2]. قال الفرَّاءُ: (يَجُوزُ فِي أَسْمَاءِ الْفَاعِلِينَ إذا تَقَدَّمَتْ عَلَى الْجَمَاعَةِ التَّوْحِيدُ وَالْجَمْعُ وَالتَّأْنِيثُ، يُقَالُ: مَرَرْتُ بِشَبَابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُمْ، وَحِسَانٍ أَوْجُهُهُمْ، وَحَسَنَةٍ أَوْجُهُهُمْ)[3]. وفي قراءةِ عبدِالله: (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ) أي ذليلةً خاضعةً عند رُؤية العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ ﴾ ؛ أي يَخرُجون عندَ النَّفخةِ من القُبور فَزِعِينَ لا يَهتَدُون إلى شيءٍ، يجولُ بعضُهم إلى بعضٍ مثلَ الجرادِ المنتشرِ. والمعنى: أنَّهم يَخرُجون فَزعين لا جهةَ لأحدٍ منهم فيقصِدُها، والجرادُ لا جهةَ له تكون أبداً مختلفةً بعضها فوقَ بعضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ ﴾ ؛ أي مُنقَلِبينَ إلى صَوتِ إسرافيلَ نَاظِرين مُتحيِّرين مُسرِعين إليه، ﴿ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨ ﴾ ؛ أي صَعْبٌ شديدٌ، قال ابنُ عبَّاس:(عَسِرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ وَسَهْلٌ يَسِيرٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ). والإهْطَاعُ: الإسْرَاعُ.

---

(١) في المخطوط تحريف من الناسخ: (استعظ ماله) وضُبطت كما في معالم التنزيل للبغوي: ص١٢٥٣.

(٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص١١. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص١٩٣.

(٣) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص١٠٥.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ ؛ أي كذبت قبـل قومِكَ قومُ نوحٍ كما كذبَكَ قومُك، ونَسَبُوا نوحاً إلى الجنُون، كمـا نسبَكَ قومُكَ إلى الجنون، ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي فكذبُوا عَبدَنا نُوحاً وقالوا: مجنـونٌ وَزَجَرُوهُ عن دُعَائِهم إياهُم إلى الإيمانِ بالشَّتمِ والوعيدِ، فـ ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَـا نُـوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فدَعَا نـوحُ ربَّهُ أنِّي مغلوبٌ بينَهم ومقهورٌ، فانتَقِمْ لِي مِمَّن كذبَنِي، ومعنى قولـهِ تعـالى (فَـانْتَصِرْ) أي فَانْتَقِمْ منهُم لدِينِكَ، وإنما دعَا عليهم بالهلاكِ بعد ما أذِنَ له في الدُّعاء.

فأجابَ اللهُ دعاءَهُ فقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ أي بماءٍ سَيلٍ مُنْصَبٍّ انْصِبَاباً شَدِيداً لا ينقطعُ، متدفِّقٌ مع كثرةٍ شـديدة، قـال الكلـبيُّ: (إنْصَبَّ أرْبَعِينَ يَوْماً). وقُرئ (فَفَتَّحْنَا) بالتشديدِ على تكثيرِ الفعل، وذكرُ الأبـواب في الآية على معنى أنَّ إجراءَ الماءِ كان بمنْزلة جرَيانهِ كأنَّهُ فُتِحَ عنه باباً كان مانِعاً له.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ ؛ أي شـقَّقنا الأرضَ عُيونـاً، ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ ؛ ماءُ السَّماء وماءُ الأرضِ؛ ﴿ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ في اللَّوح المحفوظِ وهو هلاكُ القومِ، وقرأ الجحدري: (فَالْتَقَى الْمَاءَان).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: وحَملنـا نُوحاً ومَن آمَنَ معه على سفينةٍ ذاتِ ألواحٍ وهي خشَـبَاتُها، (ودُسُـرٍ) يعنِـي المسـاميرَ يُشَدُّ بها الألواحُ واحدها دِسَارٌ، والمعنى على سفينةٍ ذات ألواحٍ ومَسَامِيرَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ ؛ أي تجري بحِفظِنا، ووَحينا وأمرِنا حتى لا يقـعَ فيـها شـيءٌ مـن الماءِ وتتكسَّرُ ولا تغرَقُ، وقوله تعالى: ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي فعَلنـا ذلك مِن إنجائهِ وإغراقِهم ثواباً لِمَن كُفِرَ به وجُحِدَ أمرهُ، وهو نوحُ عليه السلام كفـرَهُ قومـهُ وجَحَدُوا به، وقرأ مجاهدُ (جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ) بفتحِ الكافِ والفاء، يعني كـان الغـرقُ

---

(١) الشعراء / ١١٦.

جَزاءً لِمَن كفرَ باللهِ وكذبَ رسولَهُ[1].

قولهُ تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً ﴾ ؛ يعني تركنا هذه الفعلةَ، ويقالُ: السفينةُ التي يصنَعُها الناسُ على مثال سفينة نُوحٍ عليه السلام علامةٌ للناسِ ليَعتَبروا ويستَدِلُّوا بها على توحيدِ الله، ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ، فهل من مُتَّعظٍ مُعتَبِرٍ متدَبرٍ متفكِّرٍ يعلمُ أنَّ ذلك حقٌّ فيعتبرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فَانظُرْ يا مُحَمَّدُ كيف كان عُقوبَتِي فيمَن أنذرَهم الرسلُ فلم يُؤمنوا، وهذا استفهامٌ ومعناهُ: التعظيمُ لذلكَ العذاب، وهذا تخويفٌ لِمُشركي مكَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ ؛ أي سهَّلنَاهُ للحِفْظِ والقراءةِ والكتابة، وقال سعيدُ بنُ جُبير: (لَيسَ كِتَابٌ مِنْ كُتُبِ اللهِ يُقْرَأُ كُلُّهُ ظَاهِراً إلاَّ الْقُرْآنُ)[2]، وقولهُ تعالى: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي فهَلْ ذاكِرٌ يذكرهُ وقَارِئٌ يقرؤهُ، ومعناه: الحثُّ على قراءةِ القرآن ودَرسهِ وتعلُّمهِ، ولولا تسهيلُ اللهِ علينا ذلك لم يستطِعْ أحدٌ أن يَلْفِظَ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ ؛ أي باردةٍ شَديدَةِ البردِ وشديدةِ الْهُبُوب، ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي يوم مَشْؤُومٍ عليهم، دائمِ الشُّؤم، رُوي: أنه كان يومَ الأربعاءِ الذي في آخرِ الشَّهر لا يدورُ. ويقال: معنى قولهِ (مُسْتَمِرٌّ) استمرَّ بهم العذابُ إلى نار جهنَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي تَقلَعُ الناسَ من الأرضِ من تحتِ أقدامِهم، ثم تَرمِي بهم على رُؤوسِهم فتدقُّ رقابَهم وتقطعُ أعناقَهم، فتُبقِي أجسادَهم كأنَّها أعجازُ نخلٍ مُقَطَّعٍ.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص١٩٥.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٤٥.

ويقالُ في معنى (تَنْزِعُ النَّاسَ) لأنَّهم ضَرِبُـوا بأرجُلِـهم في الأرضِ فغَيَّبوهـا إلى قريبٍ مِن رُكوبهم وقالوا: قُل للرِّيحِ حتى يرفَعنا، فجُعلت الريحُ تدخلُ تحتَ أقدامِهم وترفعُ كلَّ اثنـين وتضـرِبُ بأحَدِهمـا إلى الآخـرِ في الهـواء، ثـم تُلقِيـهما في الـوادِي، والباقون ينظُرون إليهم حتى رفَعتهم كُلَّهم وصيَّرتْهم في الأرضِ (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْـلٍ مُنْقَعِرٍ) أي سَاقِطٍ، ثم رَمَت بالتُّراب عليهم، فكان يُسمَعُ أنِينُهم من تحتِ التُّراب.

يقالُ: قَعَرَ النَّخلةَ إذا قلَعتَها من أصلِها حتى تسـقُطَ، شـبَّهَهم في طُولِـهم حـين صرَعتهم الريحُ وكَبَّتْهُم على وُجوهِهم بالنَّخلة الساقطةِ علـى الأرضِ الـتي ليـس لها رُؤوس، وذلك أنَّ الريح قَلَعَتْ رُؤوسَهم أوَّلاً ثم كبَّتهم على وُجوهِهم .

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ إنما كرَّرَهُ لأنــه ذكـر في كـلِّ فَصـلٍ نوعـاً مـن الإنـذار والتَّعذيب، انعقدَ التذكيرُ شيء شيء منه على التفصيل.

قال ابنُ الأنبَاريِّ: (وَسُئِلَ الْمُبَرِّدُ عَنْ أَلْفِ مَسْأَلَةٍ هَـذِهِ مِـنْ جُمْلَتِـهَا: وَهُـوَ أَنَّ السَّائِلَ قَالَ لَهُ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[1] وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾[2]، وَقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿كَأَنَّـهُمْ أَعْجَـازُ نَخْـلٍ مُنْقَعِـرٍ﴾و ﴿أَعْجَـازُ نَخْـلٍ خَاوِيَةٍ﴾[3]، فَقَالَ: كُلُّ مَا وَرَدَ عَلَيْكَ مِنْ هَذَا الْبَاب فَلَكَ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَى اللَّفْـظِ تَذْكِـيراً، وَلَكَ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَى الْمَعْنَى تَأْنِيثاً)[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي بالإنذار الذي جاءَهــم بـه صالِحُ عليه السلام، ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾ ؛ أي هو آدَميٌّ مِثلُنا وهو واحدٌ فـلا نكون له تَبعاً، ﴿ إِنَّآ إِذًا ﴾ ؛ إنْ فعَلنا ذلك، ﴿ لَّفِى ضَلَٰلٍ ﴾ ؛ وذهابٍ عن الحقِّ، ﴿ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي وشقاءٍ وشدَّةِ عذابٍ مما يُلزِمُنا مـن طاعتـهِ، وقـال عطـاءٌ:

---

(١) يونس / ٢٢ . (٢) الأنبياء / ٨١ .

(٣) الحاقة / ٧ .

(٤) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٦٦. ونقله القرطبي أيضـاً في الجـامع لأحكـام القرآن: ج ١٧ ص١٣٧.

(مَعْنَى قَوْلِهِ (وَسُعُر) أيْ وَجُنُون، مِنْ قَوْلِهِمْ: نَاقَةٌ مَسْعُورَةٌ؛ إذا كَانَ بِهَا جُنُونٌ مِنَ النَّشَاطِ، وَهُوَ مِنْ سُعُرِ النَّار إذا الْتَهَبَتْ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ ؛ أنْكَروا أنْ يكون الوحيُ يأْتِيهِ، فقالوا: كيف خُصَّ مِن بيننا بالنُّبوَّة والوحي، ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ فيما يقولُ، (أشِرٌ) أي بَطِرٌ متكَبرٌ يريدُ أن يتكبَّرَ علينا بالنبوَّةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا ﴾ ؛ حين ينْزِلُ بهم العذابُ، يعني يومَ القيامةِ، ﴿ مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أهُمْ أمْ صَالِحٌ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ ؛ أي إنَّا مُخرجو الناقةِ من الصَّخرة تَشديداً عليهم في التكليفِ، وذلك أنَّهم تَعَنَّتُوا صَالحاً فسألُوا أن يُخرجَ لهم من صخرةٍ حمراءَ عشراءَ، وقوله: ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ ﴾ ؛ أي فانتظِرْهم ما هم صَانِعون، ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ على أذاهُم ولا تَعْجَلْ حتى يَأْتِيَهُمْ امري.

قوله: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي أخبرهُم أنَّ الماءَ مقسومٌ بين الناقةِ ووَلَدِها، وبينهم وبين مَواشِيهم، يومٌ لَهُما ويومٌ لَهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي كلٌّ منهم يحضرُ نَوبَتَهُ، فتحضرُ الناقةُ وولدُها يومَ نَوبَتِهما، ويحضرُ القومُ يومَ نَوبَتِهم. والشِّرْبُ: نصيبٌ من الماءِ، والشُّرْبُ -بضم الشِّين-: فعلُ الشَّارب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ ﴾ ؛ أي نَادوا قُدَارَ بنَ سَالِفٍ عَاقِرَ الناقةِ، ﴿ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّهم لَمَّا مكَثُوا قسمةَ الماء زَماناً، ثم ضاقَ عليهم الأمرُ على مواشِيهم بسبب الناقة، غلبَ عليهم الشَّقاءُ، وتوَاطَأ طائفةٌ منهم على قَتلِها، فنادَوا صاحبَهم الذي كَمَنَ لهما.

وذلك أنه رمَاها رجُلٌ منهم يقالُ له: مصدع بن دَهْرٍ بسَهم فضَرَبَها على سَاقِها، فنادَوا قُدَارَ بن سالف، وقالوا له: دونَكَ الناقةُ قد مرَّتْ بكَ فاضربْها، فتعاطَى قُدارُ عقرَ الناقةِ، فعقَرَها بأنْ ضربَ ساقَها الأُخرى فسَقطَتْ على جَنبِها، وقطَّعُوا

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٣٨؛ ونسبه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

لَحمَها وقسَموهُ، فعاقبَهم اللهُ بصيحةٍ فأهلكَهم وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾؛ قال عطاءُ: (يُرِيدُ صَيْحَةَ جِبْرِيلَ عليه السلام أسْمَعَهُمُ اللهُ إيَّاهَا فَهَلَكُوا، وَصَارُوا كَالْوَرَقِ الْمُتَهَشِّمِ الَّذِي يَجْمَعُهُ صَاحِبُ الْحَضِيرَةِ إذا يَبسَ غَايَةَ الْيُبْسِ، وَتَحَطَّمَ غَايَةَ الانْحِطَامِ)[1].

قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ رَجُلٌ يَجْعَلُ الْغَنَمَةَ حَظِيرَةً بالشَّجَرِ وَالشَّوْكِ لِيَحْرُسَهَا مِنَ السِّبَاعِ، فَمَا سَقَطَ مِنْ وَرَق ذلِكَ الشَّجَرِ وَيَبسَ، وَدَاسَتْهُ الْغَنَمُ وَتَحَطَّمَ وَهُوَ الْهَشِيمُ)[1]. وقال ابنُ زيدٍ: (الْهَشِيمُ هُوَ الشَّجَرُ الْبَالِي الَّذِي تَهَشَّمَ حَتَّى ذرَّتْهُ الرِّيحُ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ شَيْءٍ كَانَ رَطِباً فَيَبسَ فَهُوَ هَشِيمٌ)[1] ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا ﴾؛ أي ريحاً تَرميهم بالْحَصْبَاءِ، والحصباءُ: هي الحجارةُ التي هي دُونَ مِلْءِ الكفِّ، قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُ مَا صُبُّوا بهِ مِنَ السَّمَاءِ مِنَ الْحِجَارَةِ)، وقولُهُ تعالى: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ يعنِي بنْتَيْهِ وزوجتَهُ المؤمنةُ، نَجَّاهم اللهُ من العذاب، ﴿ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ ﴾، بأنْ أمَرَهم بالخروجِ في وقت السَّحَر، وكانت نَجاتُهم نعمةً من اللهِ عليهم، ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ وكذلك يَجزِي اللهُ كُلَّ مَن عرفَ إنعَامَهُ وقابلَهُ بالشُّكرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا ﴾؛ أي خوَّفَهم لوطُ عذابَنا، ﴿ فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ ﴾، فشَكُّوا في الإنذار؛ أي فتدافَعوا بالْحِجَاجِ البَاطِلِ، ويقالُ: جادلوهُ في أمرِ الرِّسالةِ ولم يُصدِّقوهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ ﴾؛ أي طلَبُوا أن يُسَلِّمَ إليهم أضيافَهُ وهم الملائكةُ قَصْداً منهم إلى عمَلِهم الخبيث، فأمرَ اللهُ جبريلَ أن يَصْفِقَ بجناحهِ فأعمَاهُم فبَقوا حَيارَى، ومعنى: ﴿ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ ﴾؛ أي أعمَيْنَاهُمْ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٥٥.

وصيَّرناهم كسائرِ الوجهِ لا يُرَى له شَقٌّ، فكانوا عُمياناً متحيِّرين لا يهتدون إلى الباب، فقيل لَهم: ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ يقال: فلانٌ مَطمُوسُ البصَرِ إذا كان موضعُ عَينَيه أملسَ، لا أثرَ به للعَينِ من الْجَفْنِ والْحَدَقَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ ؛ أي أتاهم العذابُ صَباحاً، يعني أخَذهم عند الصُّبحِ، ﴿ عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾ ، عذابٌ دائِمٌ متَّصِلٌ بعذاب الآخرةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ قد مضَى تفسيرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ المرادَ بالنُّذُر: موسَى عليه السلام وهارون، وأسماءُ الجمعِ يطلَقُ على الاثنين. وَقِيْلَ: أرادَ به الآياتِ التي فيها الإنذارُ، وَقِيْلَ: المواعظُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ ؛ أي فأخذنَاهم بالعذاب، ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ ، غالبٍ في انتقامه، متقدرٍ قادر على إهلاكِهم، والعزيزُ القويُّ الذي لا يلحقهُ ضَعْفٌ ولا عجزٌ، ولا يعتَريهِ منعٌ ولا دفعٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: أكُفَّارُكم يا أهلَ مكَّة أشدُّ وأقوَى من أولَئِكُمْ الذين قصَصنا ذِكرَهم، وهذا استفهامٌ ومعناهُ الإنكارُ؛ أي لَيسُوا أقوَى من قومِ نوح وعادٍ وثمود. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ألَكُم براءةٌ من العذاب في الكُتب لن يُصيبَكم ما أصابَ الأُمم الخاليةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أم يقولون نحنُ جميعٌ واحد ومتَّفِقُون على الانتصار من أعدائنا. ووُحِّدَ المنتصرُ للفظِ الجميع وهو واحدٌ في اللفظِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي سيُهزَمُ الجمعُ كفَّارُ مكة يومَ بدر، ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ مُنهَزِمين. ومعنى الآية: أنَّ كفار مكَّة يقولون: (نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ) أي جماعةٌ لا نُضَامُ[1] ولا نُرَامَ، ولا يصُدُّنا أحدٌ بسوءٍ ولاء، ولا أحدٌ

(١) اي لا نُظلم، والضَّيمُ: الظُّلم. وأنهم لا يزاحمون على ما يريدون. ينظر: لسان العرب: ج ٨ ص١١٢ : (ضيم).

يفرِّقُ جَمعَنا، وكان من حقِّه أن يقولَ: نحنُ جميع منتصرون؛ إلاّ أنه تَبعَ رؤوسَ الآي. وقوله تعالى (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ) قراءةُ الكافَّة بالياءِ على ما لَمْ يُسَمَّ فاعلهُ. وقرأ يعقوبُ بالنون وكسرِ الزاي (الْجَمْعَ) بالنصب.

وإنما وحَّدَ الدُّبر لأجلِ رُؤوسِ الآي، قال مقاتلُ: (ضَرَبَ أَبُو جَهْلٍ فَرَسَهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَتَقَدَّمَ الصَّفَّ، وَقَالَ: نَحْنُ نَنْتَصِرُ الْيَوْمَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، فَهَزَمَهُمُ اللهُ تَعَالَى)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ ما نزَلَ بهم من القتلِ والأسرِ ببدرٍ لم يكن كَافياً في عُقوبَتهم، بلِ القيامةُ موعِدُهم، والقيامةُ أعظَمُ في الدَّهاءِ وأشَدُّ مَرارةً من القتلِ والأسرِ في الدُّنيا، وكلُّ دَاهِيَةٍ فمعناها الأمرُ الشَّديدُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أرادَ بالضَّلال الذهابَ عن الصَّواب في الدُّنيا، وبالسُّعُرِ عذابَ النار في العُقبَى.

وقولهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ ؛ يوم تَجرُّهم الملائكةُ في النار على وُجوهِهم فيقولُ لهم: ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ وسَقَرُ اسمٌ من أسماءِ دَرَكَاتِ جهنَّم.

قال أبو أمَامَةَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:[إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْقَدَرِيَّةِ: ﴿إنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّار عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرْ﴾](٢).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ الْقَدَرِيَّةُ، وَهُمُ الْمُجْرِمُونَ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللهُ ﴿إنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ﴾](٣).

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٠١.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٦٨٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن عدي وابن مردويه وابن عساكر والديلمي بسند ضعيف).

(٣) لم أقف عليه. عن عائشة رضي الله عنها، وله طرق وألفاظ.

وعن هشامِ بن حسَّان قالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: (وَاللهِ لَوْ أنَّ قدرياً صَامَ حَتَّى يَصِيرَ كالْجَبَلِ، ثُمَّ صَلَّى حَتَّى يَصِيرَ كَالْوَتَر، ثُمَّ أخِذ ظُلْماً وَزُوراً حَتَّى ذُبحَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، لَكَبَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى وَجْهِهِ فِي سَقَرٍ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ: ذُقْ مَسَّ سَقَرْ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ معناهُ: كلُّ ما خلقْنا فمَقدورٌ ومكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ قبل وُقوعهِ.

عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدَّرَ الْمَقَادِيرَ وَتَدَبَّرَ التَّقْدِيرَ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ آدَمَ عليه السلام بِألْفَي عَامٍ][٢]. وَقَالَ عليه السلام: [الإيْمَانُ بِالْقَدَر يُذْهِبُ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ][٣]. وانتصبَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (كُلَّ شَيْءٍ) بفِعلٍ مُضمَرٍ؛ كأنه قالَ: إنَّا خلَقنَا كلَّ شيءٍ بقَدَر.

وعن عمر رضي الله عنه قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إذا جَمَعَ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَادَى مُنَادٍ يَسْمَعُهُ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ: أيْنَ خُصَمَاءُ اللهِ؟ فَتَقُومُ الْقَدَرِيَّةُ فَيُقَالُ لَهُمْ: ذُوقُوا مَسَّ سَقَرٍ][٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ معناهُ: وما أمرُنا بقيامِ السَّاعة أو غيرِ ذلك إلاَّ كلمةٌ واحدةٌ لا تُثَنَّى كطَرفِ البصرِ، بل هو أسرَعُ، ومعنى اللَّمْحِ: النَّظرُ بالعجَلةِ.

---

(١) في تفسير الحسن البصري: جمع وتوثيق الدكتور محمد عبدالرحيم: ج ٢ ص٣١٢؛ قال: (رواه هشام بن حسان عن الحسن: كما في زاد المسير لابن الجوزي: ج ٨ ص١٠٢). وكنز العمال: الحديث (٤٨١).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وله أصل من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب القدر. والترمذي في الجامع الصحيح: أبواب القدر: الحديث (٢١٥٦). والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص١٦٩.

(٣) رواه القضاعي في مسند الشهاب: ج ١ ص١٨٧: الحديث (٢٧٧)، وضعفه المحقق حمدي السلفي.

(٤) بمعناه؛ في الدر المنثور: ج ٧ ص٦٨٦؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: ولقــد أهلَكنـا أشـبَاهَكُم ونُظرَاءَكم في الكُفـرِ مـن الأُمـمِ الماضيـة، ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ ﴾ ، هـل مـن مُتَّعِظٍ يتَّعِظُ بهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ ومعنـاهُ: كـلُّ شـيءٍ فعَلوهُ وقالوا مِن خيرٍ أو شرٍّ؛ يعني الأشياءَ؛ مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ قبلَ أنْ يفعلوهُ، ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ ؛ من الذُّنوب والخلـق والأعمـال، ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ مكتوبٌ على فَاعلــهِ قبـلَ أنْ يفعلـوهُ، تكتبـهُ الملائكـةُ في ديـوانٍ ليَجزِيَـهم اللهُ علـى أفعالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين يتَّقُـونَ الشِّركَ والكبائرَ والفواحشَ في بساتين وأنْهَار جاريةٍ من الماءِ والخمرِ واللَّبن والعسـلِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ ؛ اي مجلسٍ حَسَنٍ وموضعِ قرار وأمنٍ من وُقوعِ الحوادثِ، ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي عنـد مَليـكٍ قـادر علـى الثَّـواب والعقاب، قادرٍ لا يعجزهُ شيءٌ وهو الله عَزَّ وَجَلَّ، ومَقْعَدُ الصِّدقِ هو الجنَّةُ، مدحَ اللهُ المكان بالصِّدقِ، ولا يقعدُ فيه إلاَّ أهلُ الصِّدقِ.

وإنما قال (وَنَهَر) مُوَحَّداً لأجـلِ رُؤوسِ الآي كقولـه تعـالى (وَيُوَلُّـونَ الدُّبُـرَ)، وقال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ: فِي فَضَاءٍ وَسِعَةٍ وَنُورٍ وَمِنْهُ النَّهَارُ، وَمِنْ ذِلـكَ نَـهَرْتُ الْفِضَّـةَ إذا وَسَّعْتَهَا)[1]، وقرأ الأعرجُ وطلحة (وَنُهُرٍ) بضمَّتين كأنه جمعُ نَهَارٍ لا ليلٍ[2].

آخر تفسير سورة **(القمـر)** والحمد لله رب العالمين.

---

(١) نقله الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٧٣. والبغوي في معالم التـنزيل: ص١٢٥٧. وأصـل الكلام كما نقله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص١١١ مـن غـير أن ينسبه، ولفظـه: (في ضِيَـاءٍ وسَعَةٍ). وفي أصل المخطوط كما أثبتناه.

(٢) في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٧٤؛ نقله الثعلبي عنهما، وقال: (كأنها جمعُ نهار يعـني لا ليـل لهـم). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٥٠؛ قال القرطبي: (وقرأ أبو مِجلَـز وأبـو نـهيك والأعـرج وطلحة بن مصرِّف وقتادة (نُهُرٍ) بضمتين، كأنهم جمع نهار لا ليل لهم؛ كسَحَابٍ وسُحُبٍ).

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

سُورَةُ الرَّحْمَنِ مَكِّيَّةٌ، فِي قَوْلِ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ الْحَسَنُ: (مَدَنِيَّـةٌ)، وَهِـيَ أَلْفٌ وَسِتُّمِائَةٍ وَسِتٌّ وَثَلاَثُـونَ حَرْفـاً، وَثَلاَثُمِائَـةٌ وَوَاحِـدٌ وَخَمْسُـونَ كَلِمَـةً، وَثَمَـانٍ وَسَبْعُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ رَحِـمَ اللهُ ضَعْفَـهُ، وَكَـانَ مُؤَدِّيـاً شُكْرَ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ ﴾ ؛ هذا جوابٌ لقول كفَّار قُريش حين قالوا: إنَّ مُحَمَّداً يقولُ ما يقول من تِلقاء نفسهِ، ولم يُوحَ إليه شيءٌ، ومنـهم مَـن كان يقولُ: إنما يعلِّمهُ بشَرٌ، فردَّ اللهُ عليهم مقالتَهم وبيَّن أنه هـو الـذي علَّـمَ مُحَمَّـداً القرآنَ على لسانِ جبريلَ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ ؛ قِيْلَ: المـرادُ منه آدمُ عليه السلام علَّمَـهُ اللهُ جميـعَ اللُّغـات وأسمـاءَ كـلِّ شـيءٍ، وكـان آدمُ عليه السلام يتكلَّـمُ سبعَمائة ألف لُغة أفضَلُها العربيةُ.

ويجوز أنْ يكون الإنسانُ اسمُ جنسٍ بمعنى جميعَ النـاس، (عَلَّمَـهُ الْبَيَـانَ) وهـو المنطِقُ والكتابةُ والحِفْظُ والفهمُ والإفهام حتى عرَفَ الإنسانُ ما يقول وما يُقال له.

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج٩ ص١٧٦ بإسناده إلى أبي بن كعب، وإسناده واه.

وَقِيْلَ: معنى البيان: بيانَ الحلال والحرام، وبيان الخير والشرِّ، وما يأتِي وما يذرُ. وقال أبو العاليةِ: (يَعْنِي الكَلاَمَ). الْحَسَنُ[١] (النُّطْقَ وَالتَّمْيِيزَ)[٢]، وَقِيْلَ: الكتابةُ بالقلمِ، وقال السديُّ: (عَلَّمَ كُلَّ قَوْمٍ لِسَانَهُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ بِهِ)[٣].

قولهُ: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾؛ معناهُ: أنَّهما يَجريان على حسابٍ مُستقيمٍ لا يختلفُ، يدُلأن على عددِ الشُّهور والسِّنين والأوقاتِ، فإنَّ الشمسَ تقطعُ الفَلَكَ في ثلاثمائة وخمسةٍ وستِّين يوماً، والقمرَ يقطعُ الفلكَ في ثمانيةٍ وعشرين يوماً، وستِّين في يومين، وفي جَريهما دلالةٌ على التوحيدِ.

وَقِيْلَ: معناهُ: أنَّهما تُحسَبُ بهما الأوقاتُ والآجالُ، ولولا الليلُ والنهار، والشمسُ والقمر لم يدرك أحدٌ كيف يَحسِبُ شيئاً، لو كان الدهرُ كلُّه ليلاً كيف يحسبُ تقديرُ الآية. والشمسُ والقمر يَجريان بحُسبانٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾؛ معناهُ: والنجمُ في السَّماء، والشجرُ في الأرضِ يسجدُان لله تعالى. وَقِيْلَ: معناهُ: النباتُ والشجرُ يسجُدان، فإنَّ النَّجْمَ ما نبتَ على غيرِ ساق، والشجرَ ما نبتَ على ساقٍ في اللغة، كما يقالُ في كلِّ ما طلعَ: إنه نجمٌ، ومن ذلك نَجْمُ القرآن.

ومعنى سُجودِهما؛ أي يُسَبحوهُ ظِلاَلُهما كقولهِ ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ﴾[٤]. وَقِيْلَ: يسجُدان للهِ على الحقيقةِ، إلاّ أنّنا لا نفْقَهُ[٥] على سُجودِهما كقولهِ تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن ابن زيد: الأثر (٢٥٤٣١). وفي الكشف والبيان: ج ٩ ص١٧٧؛ قال الثعلبي: (وقال أبو العالية وابن زيد) وذكره.

(٢) نقله الثعلبي عن أبي العالية وابن زيد في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٧٧.

(٣) ذكره عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٧٧. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٢٥٧.

(٤) النحل / ٤٨.

(٥) في المخطوط العبارة مبهمة ومرسومة بالشكل الآتي: (الا ان لا نقف) ونهاية (ف) أقرب إلى رسم الهاء. وأثبتناه على معنى الآية من قوله تعالى: ﴿ولَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾؛ معناهُ: رفعَ السماءَ فوقَ الأرضِ ليُستَدَلَّ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وكمالِ قُدرتِهِ، وقولُهُ تعالى (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)، قال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: وَأمَرَ بالْعَدْلِ)[٢]، وقال الضحَّاكُ وقتادةُ: (يَعْنِي الْمِيزَانَ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ لِيُتَوَصَّلَ بهِ إلَى الإنْصَافِ وَالانْتِصَافِ، وَلَوْلاَ الْمِيزَانُ لَتَعَذرَ الْوُصُولُ إلَى كَثِيرٍ مِنَ الْحُقُوقِ)[٣].

وقال بعضُهم: أنزلَ اللهُ الميزانَ على هَيئَتِهِ في زمنِ نُوحٍ عليه السلام ولم يكن قبلَ ذلك. وقال بعضُهم: عرَّفَ اللهُ الناسَ ذلك على لسانِ بعضِ الأنبياء، وَقِيْلَ: إلهامٌ الْهَمَهُمْ[٤] كيف يتَّخِذُون الميزانَ ويزنُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾؛ معناهُ: لئلاَّ تَميلُوا وتَضِلُّوا وتُجاوزُوا الحدَّ في الميزان. وَقِيْلَ: معناهُ: لئلا تظلِمُوا وتأخُذوا الأكثرَ وتُعطوا الأقلَّ. وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي سَوُّوا الميزانَ بالعدلِ والإنصافِ، ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾؛ وَقِيْلَ: معناهُ: أقِيمُوا ساقَ الميزانِ بالقسطِ ولا تَخونُوا من وَزْنِيَهِمْ له، ولا تبخَسُوا الوزنَ، وكلُّ شيءٍ نقَصتَهُ فقد أخسَرتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾؛ معناهُ: والأرضَ بسَطَها على الماءِ لجميعِ الخلقِ مِن الجنِّ والإنسان، مكَّنَها للأحياءِ، ويُدفَنُ فيها الموتى، تدلُّ على وحدانيَّةِ اللهِ، وقال الشعبيُّ: (الأَنَامُ: كُلُّ ذِي رُوحٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾؛ أي في الأرضِ ألوانُ الفاكهةِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١﴾؛ أي ذاتُ الأغطيَةِ، وهي أوعيةُ التمرِ، وأكمامُ النَّخلَةِ فإغطاء ثَمرِها يكون في غُلفٍ ما لم يُشَقُّ. ومِن ذلك يقالُ للقُلُنْسُوَةِ: الأَكَمَةُ؛

---

(١) الحج / ١٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٤٥٣).

(٣) ذكره الثعلبي أيضاً في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٧٨.

(٤) في المخطوط: (الها الههم).

لأنَّها تُغطِّي الرأسَ، وقال الحسنُ: (أكْمَامُـهَا لِيفُـهَا)[١]، وقـال ابـنُ زيـدٍ: (أكْمَامُـهَا: طَلْعُهَا قَبْلَ أنْ يَنفَتِقَ)[٢]، والحاصلُ أنَّ كلَّ ما يسترُ شـيئاً فـهو كُـمٌّ وكُمَّـةٌ، ومنـه كُـمُّ القميصِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾؛ يريدُ جميعَ الحبوب مما في الأرضِ من الحنطة والشعيرِ وغيرهما، وقولهُ تعـالى (ذُو الْعَصْـفِ) أي ذُو الـورَق الأخضرِ الذي يصيرُ تِبْناً وتُقْتَـاتُ بـه البـهائمُ، ويسـمَّى ورقُ الـزرعِ عَصْفـاً لِخِفَّتِـهِ، وعصُوفُ الريحِ به مع ثبُوتِ الحب في مكانهِ. وَقِيْلَ: سُمي عَصْفاً لأنَّ الريحَ تذهبُ به في وقتِ حَاجَتِهم إلى تَمْييزِهِمْ الحبَّ من التِّبنِ.

وقوله تعالى: (وَالرَّيْحَانُ) يعني الورقَ في قول الأكـثرين، وقـال الحسـنُ: (هُـوَ رَيْحَانُكُمُ الَّذِي يُشَمُّ)[٣]، وقال مقاتلُ: (الرَّيْحَانُ هُوَ الْوَرَقُ بلُغَةِ حِمْيَرَ)[٤]، كأنه قـالَ: والحبُّ ذو العَصْفِ والورَقِ، وقال سعيدُ بـن جبـير: (الرَّيْحَـانُ: الـزَّرْعُ وَيَكُـونُ فِـي سُنْبَلٍ)[٥].

وأما الْحَبُّ المذكورُ في الآيةِ، فهو ما يُلقَى في الأرضِ من البَذْر، والرَّيحانُ هو ما يُخلَقُ من الحب في سُنْبلٍ رزْقاً للعبادِ، وقد يُذكَـرُ الرَّيحـانُ بمعنـى الـورَق كمـا يقـولُ العربُ: خرَجنا نطلبُ ريحانَ اللهِ؛ أي رزقَهُ. والعَصْفُ: هو التِّبْنُ، والرَّيحانُ هو ثَمَرَتُهُ. وعن ابنِ عبَّاس: (الرَّيْحَانُ هُوَ خُضْرَةُ الزَّرْعِ)[٦].

قرأ العامةُ: (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) كلٌّ بالرفعِ عطفـاً علـى الفاكهـةِ، والمعنى فيها الحبُّ وفيها الرَّيحانُ، ونصبَها كلَّها ابنُ عامرٍ علـى معنـى خلـقَ الإنسـانَ وخلقَ هذه الأشياءَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٤٦٦).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٤٦٨).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٤٨٤).
(٤) قاله في التفسير: ج ٣ ص٣٠٤.
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٤٨٧).
(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٤٨٦).

وقرأ أهلُ الكوفة إلاَّ عاصماً: (وَالرَّيْحَانِ) بالكسر عطفاً على (الْعَصْفِ) كأنه قال: والحبُّ ذو العصفِ وذو الرَّيحان، وهو الرزقُ الذي يخلَقُ في السُّنبل، فالريحانُ رزقُ الناسِ، والعصفُ رزق الدواب، فذكرَ قوتَ الناسِ والأنعام[1].

ثم خاطبَ الجنَّ والإنسَ فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾؛ وإنَّما قالَ الخطابُ للجنِّ والإنس؛ لأن تلك الأيامَ فيما مضَى تشتملُ على الجنِّ والإنس، والمعنى: فبأيِّ نعمةٍ من نِعَمِ ربكُما تُكذِّبان من هذه الأشياءِ المذكورة، فإنَّها كلُّها مما أنعمَ اللهُ بها عليكم، من دلالتهِ إيَّاكم على توحيدهِ، ومن رزقهِ إيَّاكم ما به قِوَامُكم.

وإنما خاطبَ الجنَّ والإنسَ لأنَّهما مُشتَركان في الوعدِ والوعيدِ. وإنما كُرِّرَتْ هذه الآيةُ في هذه السُّورة تقديراً للنِّعمةِ وتأكيداً للتذكيرِ بها على عادةِ العرب في الإبلاغ والاتِّباع.

وقال الحسينُ بن الفضل: (التَّكْرَارُ لِطَرْدِ الْغَفْلَةِ وَتَأْكِيدِ الْحُجَّةِ)[2]. وَقِيْلَ: لَمَّا عدَّدَ اللهُ نعمةً بعد نعمةٍ، كرَّرَ هذا القولَ ترغيباً في الشُّكر، وتحذيراً من الكُفرِ والتكذيب بنِعَمِ اللهِ.

وهذه على وجهِ الحقيقة ليس بتكرار؛ لأنه ذكرَ كلَّ واحدٍ منها عُقيبَ نعمةٍ لم يتقدَّمْ ذِكرُها. وعن جابر بن عبدِالله قالَ: (قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ سُورَةَ الرَّحْمَنِ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: [مَا لِي أرَاكُمْ سُكُوتاً ؟ لَلْجِنُّ كَانُوا أحْسَنَ مِنْكُمْ رَدّاً، مَا قَرَأتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الآيَةَ مِنْ مَرَّةٍ ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلاَّ قَالُوا: لاَ بشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ])[3].

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص١٣-١٤.

(٢) نقله الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٨٠. وذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٦٠.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥٤٩٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما. والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ج ٥ ص٥٩: حديث الترجمة (٢٣٩٦). وفي الدر المنثور: ج٧ ص٦٩٠؛ قال السيوطي: (أخرجه البزار وابن جرير وابن المنذر والدارقطني في الافراد وابن مردويه والخطيب في تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي خلَقَ أصلَ الإنسان وهو آدمُ من طينٍ يابسٍ إذا نُقِرَ صَلَّ؛ أي صَوَّتَ كالفخَّار وهو الْخَـزَفُ الذي طُبخَ بالنار، يُسمَعُ منه الصوتُ إذا نُقِرَ وإذا اصْطَكَّ بعضهُ ببعضٍ. والمعنى: مِـن طينٍ يابسةٍ كالْخَزَفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: وخلَـقَ أصلَ الجنِّ وهو الْجَانُّ أبو الجنِّ من مارجٍ من نار، وهو الصَّافِي مـن لَـهَب النـار، لا دُخَّانَ فيه. وَقِيْلَ: من لَهَب من نارٍ مختلطٍ بسوَادِ النار. وَقِيْـلَ: إنـه لسـانُ النـار الـذي يكون في طرَفِها إذا التَهبت.

وقال مجاهدُ: (هُـوَ مَـا اخْتَلَـطَ بَعْضُـهُ ببَعْـضٍ مِـنَ اللَّـهَب الأَحْمَـر وَالأَصْفَـر وَالأَسْوَدِ الَّذِي يَعْلُو النَّارَ إذا أوْقِدَتْ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِـمْ: مَـرِجَ إذا اخْتَلَـطَ)[1]. وَقِيْـلَ: إنه نارٌ لا دخانَ لها تكون بين السَّماء الدُّنيا وبين حجاب دونَـها فـأديمُ السَّـماء يُـرَى مـن ذلـكَ الحجـاب، ومـن تلـك النـار تكـون الصواعـقُ. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي مَشرِقُ الشَّمسِ في الشِّتاء، ومشرقُها في الصَّيفِ، ومغربُها في الشِّتاء ومغربُها في الصَّيف، ويعـني هـو ربُّ المشرقَين وربُّ المغربَين. وَقِيْلَ: معناهُ: هـو ربُّ مشـرقِ الشـمس والقمـرِ ومغربُـهما. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي أرسلَ البَحرَين العـذبَ والمالِحَ بالإجراءِ في الأرضِ. ومَرَجْتَ الدابَّةَ إذا أرسَلتَها ترعَى، ويجوزُ أن يكون معنى مَرَجَ: خلَطَ، ومنه الْمَرْجُ لاختلاطِ أشجارهِ، وقولهُ تعالى (يَلْتَقِيَان) أي يُلاقِي أحدُهما صاحبَهُ، ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي بينهم حـاجزٌ مـن قُـدرَةِ اللهِ لا يبغِي العذبُ على المالحِ فيكونان عَذْباً، ولا يبغِي المالِحُ عليه فيكونان مالحاً.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٥٠٥).

والمعنى: أنَّ اللهَ ذكرَ عظيمَ قُدرتهِ حيث خَلاَ البحرَ من العذب والمالح يلتقيان، وجعلَ بينَهما حاجزاً من قُدرتهِ وحِكمَتِهِ، لا يبغِي أحدُهما على صاحبـهِ، فـلا الملـحَ يبغِي على العذب فيُفسِدهُ ولا العذبُ على الملح فيخلَـطُ بـهِ. وقيـل معنـى قولـهِ (لاَ يَبْغِيَان) أي لا يَطغِيَان على الناسِ بالغرَق. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ ﴾.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ فيـه بيـانُ نِعَـمِ البحرِ، واللُّؤلؤ معروفٌ وهو الكبارُ مـن جنـسِ اللُّؤلـؤ، والْمَرْجَـانُ: صِغَـارُهُ، وإنمـا يخرُجان من الملحِ دونَ العذب، كاللُّقاحِ للملحِ، إلاّ أنه قالَ (يَخْرُجُ مِنْهُمَا) لأن ذلـك لا يوجَدُ إلاَّ بحيث يكون العذبُ والملحُ جميعاً. وَقِيْـلَ: المرجَـانُ: ضـربٌ مـن الجوهـرِ كالقُضْبَانِ يخرجُ من البحرِ.

وقال ابنُ عبَّاس: (يَخْلِقُ اللهُ اللُّؤْلُـؤَ وَالْمَرْجَـانَ مِـنْ قَطْـرِ الْمَطَـرِ، وذلـك أنَّ السماءَ إذا أمطَرَتْ فتحتِ الأصدافُ أفوَاهها على وجهِ الماء في البحرِ الملح، فما وقـعَ من المطرِ في أفواهِها نزلَ إلى صدرها فانعقدَ لُؤلؤاً)[١].

وقال السديُّ: (الْمَرْجَانُ الْخَرَزُ الأَحْمَرُ). وعـن ابـنِ مسـعودٍ: (أنَّ الْمَرْجَـانَ حَجَرٌ)[٢]. وذكرَ إنْ كانت في جوفهِ صدفةٌ، فأصـابت قطـرةٌ بعـضَ النـواةِ ولم تُصِـبْ بعضَها، فكان حيث أصابَ القطرةُ من النواةِ لؤلؤةٌ وَسَائِرُهُ نَواةٌ.

وسائرُ القرَّاء على أنَّ (يُخرِجُ) بضمِّ الياء وفتحِ الراء[٣]، وهو اختيارُ أبي عُبيدة وأبي حاتم؛ لأنه يُخرَجُ ولا يَخرَجُ بنفسهِ. وقرأ (يَخْرُجُ) بفتحِ الياء وضمِّ الراء؛ لأنه إذا أخرِجَ خرجَ[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٥٤٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٥٤١).

(٣) في الحجة للقراءات السبعة: ج ٤ ص١٥؛ قال أبو علي الفارسي: (روى حسين عن أبـي عمـرو ﴿يُخرِجُ﴾ برفع الياء وكسر الراء، ﴿اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ﴾ نصباً).

(٤) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص١٥.

فإن قِيْلَ: كيف قال (يَخْرُجُ مِنهُمَا) وإنما يخرجُ من أحدِهما وهو الملحُ ؟ قِيْلَ: هذا جائزٌ في كلامِ العرب أن يذكر شَيئان[١] ثم يخصُّ أحدَهما وهو يفعلُ دون الآخر[٢] كقوله تعالى ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾[٣] والرُّسل من الإنسِ دون الجنِّ. قال الكلبيُّ: (وَكَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً﴾[٤] وَإِنَّمَا هُوَ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا). وَقِيْلَ: يخرجُ من ماءِ السَّماء ماءٌ وماء البحر. و﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ نِعَمِ الله تعالى بالسُّفن العظَامِ التي ينتفعُ بها للتِّجاراتِ وغيرها، الْمُنْشَآتُ: المرفوعاتُ الشِّراع، وما لم يُرفَعْ منها شِراعها فلا تكون مُنشَأةً. وَقِيْلَ: المنشآتُ هي اللَّواتي ابتدأ بهنَّ في الجري، والأعلامُ الجبالُ العظام، شبَّهَ السُّفن في البحرِ بالجبال في البرِّ.

وقرأ حمزةُ (الْمُنْشِآتُ) بكسر الشِّين، يعني المبتدئاتُ في السَّير اللاتي انساب جريُهن وسيرُهنَّ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي كلُّ مَن على الأرضِ يَفنَى، وهذه كنايةٌ عن غيرِ مذكور، ومعنى الآية: كلُّ مَن دبَّ ودرجَ على الأرضِ من حيوانٍ فهو هالكٌ، وفي هذا منعٌ من الرُّكون إلى الدُّنيا والاغترار بها. قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ: هَلَكَ أَهْلُ الأَرْضِ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾[٥] فَأَيْقَنَتِ الْمَلاَئِكَةُ بِالْهَلاَكِ)[٦].

---

(١) توهم الناسخ وأسقط(يذكر شيئان) وأدرج فقط(شيئان). ينظر: معالم التنزيل: ص١٢٥٩.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٦٣؛ قال القرطبي: (لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما). وقال: (وقال أبو علي الفارسي: هذا من باب حذف المضاف، أي من أحدهما). وقاله أبو علي في الحجة على القراء السبعة: ج ٤ ص١٥.

(٣) الأنعام / ١٣٠. (٤) نوح / ١٦.

(٥) القصص / ٨٨.

(٦) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٨٣. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٦٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ويبقى ربُّكَ، والوجهُ يُذكَرُ على وجهَين: أحدُهما: بعضُ الشَّيء كوجهِ الإنسانِ، والآخر: يقتضِي الشيءَ العظيمَ في الذِّكر كما يقالُ: هذا وجهُ الرَّأي ووجهُ التَّدبير، ولَمَّا ثبتَ أنَّ اللهَ تعالى ليسَ بجسمٍ، كان المعنى: ويبقَى اللهُ الظاهرُ بأدلَّته كظُهور الإنسانِ بوجهِهِ.

وقولهُ تعالى: (ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ) أي ذُو العَظَمةِ والكبرياءِ واستحقاقِ المدحِ بإحسانهِ وإنعامهِ. والإكرامُ: إكرامهُ أنبياءَهُ وأولياءَهُ، فهو مُكرِمُهم بلُطفِه مع جلالهِ وعظَمتهِ.

وعن معاذ بنِ جبل قال: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ برَجُلٍ يُصَلِّي وَهُوَ يَقُولُ: يَا ذا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ:[قَدِ اسْتُجِيبَ لَكَ](١). وعن أنسٍ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [الِظُّوا بيَا ذا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ](٢). ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لا يستغنِي عنهُ أهلُ السَّماء ولا أهلُ الأرضِ، قال أبو صالح: (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ الرَّحْمَةَ، وَيَسْأَلُهُ مَنْ فِي الأَرْضِ الْمَغْفِرَةَ وَالرِّزْقَ، وَالْكُلُّ يَلْجَأُونَ إلَيْهِ وَيَسْأَلُونَهُ حَوَائِجَهُمْ)(٣).

وقوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: مِن شأنهِ أنه يُحيي ويُميتَ، ويرزُقَ، ويُعِزَّ ويُذِلَّ، ويُشفي مريضاً، ويجيبُ داعياً، ويعطِي سائلاً، ويغفِرُ ذنباً، ويكشِفُ كَرْباً إلى ما لا يُحصَى من أفعالهِ وإحداثهِ في خلقهِ ما شاءَ. وعن أبي الدَّرداءَ عن النبيِّ ﷺ: أنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) قَالَ: [مِنْ شَأْنِهِ أنْ يَغْفِرَ ذنْباً وَيُفَرِّجَ كَرْباً وَيَرْفَعَ قَوْماً وَيَضَعَ آخَرِينَ](٤).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٢١-٣٢٢ شطر حديث طويل.

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح: أبواب الدعوات: الحديث(٣٥٢٥)، وقال: هذا حديث غريب. والإمام أحمد في المسند:ج٤ ص١٧٧ عن ربيعة بن عامر. وإسناده صحيح.

(٣) في الدر المنثور:ج٧ ص٦٩٩؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر) وذكره.

(٤) أخرجه ابن ماجة في السنن: المقدمة: الحديث (٢٠٢) عن أبي الدرداء، وإسناده حسن.=

وقال مجاهدُ: (هُوَ مِنْ شَأْنِهِ أنَّهُ يُجِيبُ دُعَاءَنا، وَيُعْطِي سَائِلَنَا، وَيُشْفِي سَقِيمَنَا، وَيَغْفِرُ ذُنُوبَنَا وَيَتُوبُ عَلَى قَوْمٍ، وَيُشْقِي آخَرِينَ)[١]. وَقِيْلَ: شأنهُ يخرجُ كلَّ يوم وليلة ثلاثة عساكرَ: عسكراً من أصلاب الآباءِ إلى الأرحام، وعسكراً من الأرحامِ إلى الدُّنيا، وعسكراً من الدنيا إلى القبور، ثم يرحَلون جميعاً إلى الله عَزَّ وَجَلَّ[٢].

وحُكي: أنَّ بعضَ الملوكِ سألَ وزيرَهُ عن معنى هذه الآيةِ، فاستمهلَهُ إلى الغدِ، ورجعَ الوزيرُ إلى دارهِ كئيباً لم يعرفْ ما يقولُ، فقالَ له غلامٌ أسودُ من غِلمَانِهِ: يا مولايَ ما أصابَكَ ؟ فزجرَهُ، فقالَ: يا مولاي أخبرْني فلعلَّ اللهَ يُسهِّلُ لك الفرجَ على يديَّ، فأخبرَهُ بذلك، فقالَ: عُدْ إلى الملكِ فقل له: إنَّ لي غُلاماً أسودَ إنْ أذِنْتَ له فسَّرَ لكَ هذه الآيةَ، ففعلَ ذلكَ. فدعَا الملكُ الغلامَ فسألَهُ عن ذلك، فقالَ: أيُّها الملِكُ؛ شأنُ اللهِ تعالى أنه يولِجُ الليلَ في النهار ويولِجُ النهارَ في الليلِ، ويُخرِجُ الحيَّ من الميِّت، ويخرجُ الميتَ من الحيِّ، ويُشفِي مَريضاً ويُسقِمُ سَليماً، ويَبتَلِي معافًى، ويُعافِي مُبتَلِياً، ويذِلُّ عزيزاً ويُعِزُّ ذليلاً. فقال له الملكُ: أحسنتَ يا غلامُ فرَّجتَ عني. ثم أمرَ الوزيرَ فخلعَ ثيابَ الوزراء فكساها الغلامَ، فقال: يا مولاي هذا شأنُ اللهِ تعالى[٣] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾؛ هذا وعيدٌ من اللهِ تعالى للخلق بالمحاسبة، كقولِ القائلِ: لأتفرَّغنَّ لكَ وما به شغلٌ، وهذا قولُ ابنِ عباس والضحَّاك[٤]، وقال الزجاجُ: (مَعْنَاهُ: سَنَقْصِدُ لِحِسَابِكُمْ بَعْدَ التَّرْكِ وَالإمْهَالِ، وَنَأْخُذُ

=والطبراني في الأوسط عنه: ج ٤ ص١٠٩: الحديث (٣١٦٤). وأخرجه في الأوسط: ج ٧ ص٣٢٥: الحديث (٦٦١٥) من طريق منيب بن عبدالله الأزدي. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١١٧؛ قال الهيثمي: (أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط (عن طريق منيب) وفيه من لم أعرفه).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٥٥٠).

(٢) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٨٤.

(٣) ونقل هذه الأقوال أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٨٤-١٨٥.

(٤) في الدر المنثور: ج ٧ ص٧٠١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن جرير والضحاك)، وقال: (أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس).

فِي أَمْرِكُمْ وَنَجْزِيَكُمْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ بَعْدَ طُول الإمْهَال)(١). وهذا على وجهِ التهديدِ على ما جرَتْ به العاداتُ في استعمال هذا اللفظِ، كما يقولُ الرجُل: سأفرُغُ لغُلامِي، يريد سأجعلُ قَصدِي له، ولا يريدُ بذلك الفراغَ من شُغلٍ هو فيه.

قرأ أبَي (سَنَفْرُغُ إلَيْكُمْ). وقرأ الأعمشُ (سَيُفْرَغُ لَكُمْ) بياءٍ مضمومة وفتحِ الرَّاء(٢). وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف بياءٍ مفتوحة وبضمِّ الراء، وقرأ الباقون بنونٍ مفتوحة وضمِّ الراء(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أيُّهَا الثَّقلاَنِ) الثَّقَلان الجنُّ والإنسُ، يدلُّ على ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى بعد ذلك، سُمِّيا ثقلين لأنَّهما ثقَلٌ على الأرضِ أحياءً وأمواتاً، قال الله تعالى ﴿وَأخْرَجَتِ الأَرْضُ أثْقَالَهَا﴾(٤). وقال جعفرُ الصَّادق: (سُمِّيَ الْجِنُّ وَالإنْسُ ثقَلَيْنِ؛ لأنَّهُمَا مُثْقَلاَنِ بالذُّنُوب)(٥). ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣١﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ﴾ ؛ في هذا بيانُ ضَعفِ الخلائقِ عن دفعِ ما يَنْزِلُ بهم من قضاءِ الله وعذابهِ، يقولُ: إنْ قَدَرْتُم على الخروجِ من نواحِي السَّموات والأرض فاخرُجوا هَرباً مما ينْزِلُ بكم في الدُّنيا، لا تقدِرُون أن تخرجُوا إلاّ بسُلطان يعطيكم اللهُ من قوَّةٍ وحُجةٍ، فحيث ما كُنتم شاهَدتُم بسُلطان اللهِ تعالى، وذلك يدلُّكم على وحدانيَّة اللهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: إنِ استطعتُم أن تَهرُبوا من الموتِ بالخروجِ من أقطار السموات والأرض فاهربُوا واخرجوا. والمعنى: أنَّكم حيث ما كنتم أدرَكَكم الموتُ، ولن تستطِيعُوا أن تَهربوا منه.

وَقوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ ؛ أي لا تنفُذون إلاّ بمُلكي، أي حيث ما كنتم وحيث ما توجَّهتم فثَمَّ مُلكِي وقُدرَتِي. وأقطارُ السموات

---

(١) قاله الزجاج بإيجاز في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٧٨.
(٢) قراءة على ما لم يسمَّ فاعلهُ، ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن:ج ١٧ ص١٦٩.
(٣) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٦٩.
(٤) الزلزلة / ٢ .
(٥) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان:ج٩ ص١٨٦. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٢٦٠.

والأرضِ: أطرَافُهما ونواحيهما. وَقِيْلَ في معنى هذه الآيةِ: يأمرُ الله تعالى الملائكةَ يـومَ القيامةِ أن تَحُفَّ بأقطار السموات والأرضِ، ثم يقالُ للجنِّ والإنسِ: إن استطعتُم أن تَنفذُوا من أقطار السَّموات والأرضِ هَرباً مِـن الحسـاب والعقـاب فـاهرُبوا. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ ؛ أي يرسِـلُ علـى مَـن استحقَّ منكما بمعاصيهِ لهبٌ من النار، والشُّوَاظُ: اللهبُ الذي لا دخانَ فيه. وقرأ ابـنُ كثير (شِوَاظٌ) بكسر الشين وهي لغـةُ أهـلِ مكـة، قـال حسـانُ يـهجو أميَّـة بـن أبـي الصَّلت:

هَجَوْتُـكَ فَـاخْتَضَعْتَ لَـهَا بـذُلٍّ بقَافِيَـةٍ تَـأَجَّجُ كَالشُّـوَاظِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَنُحَاسٍ)؛ قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: (وَنُحَـاسٍ) بـالخفض عَطفـاً على النار، وقرأ الباقون بالرفعِ عطفاً على الشُّواظ. واختلَفُـوا في معنـى النُّحـاس[1]، قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ الدُّخَـانُ)[2] وأكـثرُ القـراءةِ فيـه بـالرفعِ عَطفـاً علـى (شُـوَاظٌ)، والمعنى: يرسلُ عليكما شِوَاظٌ، ويرسل نحاسٌ؛ أي يرسِلُ هذا مرَّة وهذا مـرَّةً، ويجـوز أن يُرسَلا معاً من غيرِ أن يمتزجَ أحدُهما بالآخر. وَقِيْلَ: النحاسُ هـو الصُّفْـرُ المـذابُ يُصَبُّ على رُؤوسِهم، وقال مقاتلُ: (هِيَ خَمْسَةُ أنْهَارٍ مِنْ صُفْرٍ مُـذابٍ تَجْـري عَلَـى رُؤُوسِ أهْلِ النَّار)[3]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ ؛ أي فلا تمتَنِعَانِ عـن ما يرادُ بكما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ ؛ وجـهُ إنعـامِ الله تعـالى علَينا في إنزالِ آيات الوعيدِ: أنه تعالى لَمَّا حذرَنا من العذاب بـأبلَغِ أسـباب التحذيـرِ حتى نتَّقِي المعَاصِي خوفاً من عذابهِ، ونرغَبُ في الطاعاتِ طَمعاً في ثوابـهِ، كـان ذلـك نعمةً منه علينا فلذلك قالَ تعالى (فَبأيِّ آلاَءِ رَبكُمَا تُكَذِّبَانِ).

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص٢٠٩. والحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص١٦.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٥٧٥).
(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٠٦.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ معناهُ: إذا انشقَّت وذابَتْ حتى صارَتْ حمراءَ كلَونِ الوردةِ الحمراء أو كالدُّهنِ الأحمر من نار جهنَّم مع عِظَمِ السَّماء وكبرها، فكيف بأبدانِكم الضَّعيفة في ذلك اليوم، وهذا كما رُوي عن عليٍّ ﷺ: أنَّهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْحَدَّادِينَ فَقَالَ: (أمَّا أنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْحَدَّادِينَ أحَقُّ النَّاسِ بالاتِّعَاظِ وَالاعْتِبَارِ، أمَا تَرَوْنَ تَأْثِيرَ هَذِهِ النَّار الضَّعِيفَةِ فِي هَذا الْحَدِيدِ الشَّدِيدِ ؟ فَكَيْفَ تَأْثِيرُ تِلْكَ النَّار الْعَظِيمَةِ فِي هَذِهِ الأَبْدَانِ الضَّعِيفَةِ).

ويقالُ في تشبيهِ السَّماء بالوردةِ: أنَّها تتكوَّنُ في ذلك اليوم، قال الحسنُ: (إنَّ السَّمَاءَ أوَّلَ مَا تَنْشَقُّ تَحْمَرُّ ثُمَّ تَصْفَرُّ ثُمَّ تَخْضَرُّ كَالْفَرَس الْوَرْدِ[١]، تَكُونُ فِي الرَّبيعِ وَرْدَةً إلَى الصُّفْرَةِ[٢]، فَإذا اشْتَدَّتْ كَانَ الشِّتَاءُ كَانَتْ وَرْدَةً حَمْرَاء، فَإذا كَانَ الْخَرِيفُ كَانَتْ وَرْدَةً اغْبَرَ)[٣].

وشبَّهَها بالدهان المختلفة التي تُصَبُّ بعضُها على بعضٍ، والدُّهْنُ والدِّهَانُ واحدٌ، قال قتادةُ: (إنَّ السَّمَاءَ الْيَوْمَ خَضْرَاءُ وَسَتَكُونُ يومَ الْقِيَامَةِ حَمْرَاءَ كَالدِّهَانِ)[٤]. وَقِيْلَ: إنَّ الدهانَ جمعُ الدُّهن، قال عطاءُ:(يَعْنِي عَصِيرَ الذائِبِ)، وقال ابن جُريج: (مَعْنَاهُ: أنَّ السَّمَاءَ تَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ الدُّهْنُ الذائِبُ وَذلِكَ حِينَ يُصِيبُهَا حَرُّ نَار جَهَنَّم). ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

---

(١) الفرَسُ الوَرْدُ: هو بين الكُمَيْتِ والأشْقَر، لونه أحمرّ يضرب إلى الصفرة. أي كانت كلون الفرس الوردة والكميت الورد يتلون، فيكون كما قال. ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٥ ص٨٠. ولسان العرب: ج ١ ص٢٦٧: (ورد).

(٢) كأن في الكلام سقط، بمعنى: (كفَرسِ الورد، أو كالفَرسِ الورديّ يكون في الربيع وردة إلى الصفراء...).

(٣) أصل العبارة كما في معاني القرآن: ج ٣ ص١١٧؛ قال الفراء: (أراد بالوردة: الفَرسُ، الوردة تكون في الربيع وردةً إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردةً حمراء، فإذا كان بعد كانت وردة إلى الغُبْرَةِ، فشبَّهَ تلوُّن السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٥٨٨).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ يُسـأَلُ سُؤالَ استفهام؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُظهرُ على كلِّ مُجرِمٍ علامةً تدلُّ على معصيتـهِ، وعلى كلِّ مُطيعٍ علامةً علـى إطاعتـهِ، لأنَّ اللهَ تعـالى قـال بعـدَ هـذه الآيـة: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ ؛ أي بعَلامَتِهم مـن سَـوادِ الوُجـوهِ وزُرقَـةِ الأعيُـنِ، ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ ، فيُجعَـلُ أقدامُـهم مغلولةً إلى نواصِيهم مِن خَلْفٍ ويلقَونَ في النار كذلك، والناصيةُ: شَعرُ مقدمِ الـرَّأسِ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

ويقـال للمجرمـين عندمـا يُقذفـون في النـار: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ يعـني المشـركين. قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ معناهُ: يطُوفون بين أطباقِ النِّيران وبين ماءٍ حارٍّ قد انتـهَى حـرُّهُ، إذا استغَاثُوا من الحميمِ من النار، جُعِلَ غِيَاثُهم الحميمُ الآخر، وإذا استغَاثُوا مـن الحميـمِ جُعِلَ غِيائُهم النارُ، فيُطاف بهم مرَّة إلى الحميمِ ومرَّةً إلى النار.

يقال: آنَى يَأْنِي أناً فهو آن، إذا انتهَى في النُّضجِ والحرارةِ، قال قتادةُ:(طُبخَ مُنْـذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ)[1]. حدَّثنا المردوية الصانع قال: صلَّى بنا الإمـامُ صـلاةَ الصُّبح، فقـرأ فيـها سُـورةَ الرَّحمـن ومَعَنَـا علـيُّ بـنُ الفُضَيـلِ[2]، فلمـا قـرأ (يُعْـرَفُ الْمُجْرِمُونَ بسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ) خـرَّ مَغشِياً عليـه حتـى فَزِعنَـا مـن الصَّلاة، فقُلنا له بعدَ ذلك: يا عليُّ أمَا سَمِعتَ الإمـامَ يقـولُ (حُـورٌ مَقْصُـورَاتٌ فِـي الْخِيَـامِ) قـالَ: شَـغَلَنِي عنـها (يُعْــرَفُ الْمُجْرِمُــونَ بسِـيمَاهُمْ فَيُؤْخَــذُ بــالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ)[3]. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٦٠٤).

(٢) علي بن الفضيل بن عيـاض، قـال النسـائي: (ثقـة، مـأمون) ترجـم لـه ابـن حجـر في تـهذيب التهذيب: الرقم (٤٩٣٣)، وقال: (قال ابن المبارك: خير الناس يعني في ذلك الوقـت فضيـل بـن عياض، وابنه علي خير منه، وأخباره في الخوف شهيرة، وفضائله كثيرة).

(٣) ذكر القصة أبـو نعيـم في حليـة الأوليـاء وطبقـات الأصفيـاء: ج ٨ ص٢٩٧، ترجمـة علـي بـن الفضيل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ولِمَن خافَ وُقوفَهُ في عرَصَاتِ القيامةِ بين يَدَي اللهِ تعالى، فتَركَ المعصيةَ رهبةً من اللهِ تعالى له جنَّتان بُستَانَان من الياقوتِ الأحمرِ والزمُرُّد الأخضر، تُرابُهما الكافورُ والعنبَرُ، وحصَاهُما المسكُ الأَذفَرُ،كلُّ بستانٍ منهما مسيرةُ مائةِ سنة، في وسطِ كلِّ بستانٍ دارٌ من نور، وقال محمَّد بن علي الترمذي[(١)]: (جَنَّةٌ دَاخِلَ قَصْرِهِ لِخَوْفِهِ، وَجَنَّةٌ خَارِجَ قَصْرِهِ لِتَرْكِهِ)[(٢)]، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

وفي الحديث: [أنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَنْ دَعَتْهُ نَفْسُهُ إلَى الْمَعْصِيَةِ، فَإذا تَمَكَّنَ مِنْهَا وَقَدَرَ عَلَيْهَا وتَذكَّرَ مَا فِي ارْتِكَابهَا مِنَ الْعِقَاب، وَمَا فِي تَرْكِهَا مِنَ الثَّوَاب، فَتَرَكَهَا فَلَهُ جَنَّتَان][(٣)] هذه صِفتُهما: ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي ذواتَا أغصان، واحدُها فَنَنٌ وهو الغصنُ المستقيم طُولاً. وقال الزجَّاجُ: (الأَفْنَانُ: الأَلْوَانُ وَالأَغْصَانُ)[(٤)] أي ذوائي الألوان وأصنافٍ من الفاكهةِ لا يُعدَمُ فيه لونٌ من ألوانِها، واحدُها فَنٌّ، وجمعَ عطاءُ بين القولَين فقالَ: (يُرِيدُ فِي كُلِّ غُصْنٍ فُنُونٌ مِنَ الْفَاكِهَةِ)[(٥)]، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

وفي ذكرِ الأغصان بيانُ كَثرَةِ الأشجار، وبكثرةِ الأشجار تمامُ حالِ البُستان، فإنَّ البستانَ لا يكمُلُ إلاَّ بكثرةِ الأشجار، والأشجارُ لا تحسُن إلاَّ بكثرةِ الأغصان، ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي في البساتين عَينان تجريان، إحداهما: السَّلْسَبيلُ، والأُخرى: التَّسْنِيمُ، تجرِيان في غيرِ شِقٍّ ولا أُخدُودٍ. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ ﴾ .

---

(١) محمد بن علي بن الحسن المؤذن، أبو عبدالله الترمذي المعروف بالحكيم. كان إماماً من أئمة المسلمين، له المصنفات في أصول الدين ومعاني الأحاديث، وله كتاب (نوادر الأصول) ينظر: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: ج ٢١ ص٢٠: الرقم (١٨).

(٢) ذكره الثعلبي عنه في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٨٩: بلفظ: (جنةٌ لخوفهِ ربَّهُ، وجنَّةٌ بتركهِ شهوتَهُ).

(٣) على ما يبدو أن هذا ليس لفظ حديث، وإنما هو معنى المراد يطلبه المصنف رحمه الله. ولم أقف على لفظ أصله.

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٨١.

(٥) ذكره البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص١٢٦٣.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي نوعَان وصِنفَان، حلوٌ وحامضٌ، وأحمرٌ وأصفرٌ، ورَطبٌ ويابسٌ. ويقال: صِنفَان: صنفٌ عَهدُوهُ في الدُّنيا، وصنفٌ لم يَعهَدوهُ ولا خطرَ في قلوبهم، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ ؛ أي جالسِين جلسةَ الملوكِ مُكرَمِين على فُرُشٍ بَطَائِنُها من استبرق، البطَانَةُ: الصَّفحَةُ مما يلِي الأرضَ في البطانةِ، والاستبرقُ: الدِّيبَاجُ المنسوجُ بالذهب.

وإنما ذُكرت البطائنُ من استبرقَ لتعرف أنَّ البطائنَ إذا كانت هكذا، فالظاهرُ لا شكَّ أنَّها أشرفُ منها على ما عليهِ العادةُ، وقال أبو هريرة ﷺ: (هَـذِهِ الْبَطَائِنُ؛ فَمَا ظَنُّكُمْ بالظَّوَاهِرِ)[1]. وقيل لسعيدِ بن جُبير: الْبَطَائِنُ مِنْ اسْتَبْرَقَ فَمَا الظَّوَاهِرُ؟ قَالَ: (هَذا مِمَّا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[2])[3]. وقال ابنُ عبَّاس: (وَصَفَ الْبَطَائِنَ وَتَرَكَ الظَّوَاهِرَ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ فِي الأَرْضِ أَحَدٌ يَعْرِفُ مَا الظَّوَاهِرُ ؟)[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي ثمَرُهما قريبٌ مُتَنَاوَلُهُ، يناوَلُهُ القائمُ والقاعد والمضطجعُ، يأخذهُ كيف ما أرادَ، ويدنُو إلى أفواهِهم حتى يناولونَهُ بالأفواهِ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ ؛ أي في هاتين الجنَّتين وما حولهما من الجنانِ حورٌ غاضَّاتُ الأعيُن، قد قَصَرْنَ أطرَافَهُنَّ على أزواجِهن لا ينظُرنَ إلى غيرِهم ولا يَبغِينَ بهم بدَلاً.

---

(١) نقله أيضاً الثعلبي عن أبي هريرة وابن مسعود في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٩٠. وأخرجه الطبري عن ابن مسعود في جامع البيان: الأثر (٢٥٦٢٩).

(٢) السجدة / ١٧.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٦٣١).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٦٢.

والطَّرْفُ: جَفْنُ العينِ، ويجوز أن يكون معنى (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) أي في الفُرُشِ التي بَطائِنُها من استبرقَ، وقال زيدٌ: (إنَّ الْمَرْأَةَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ تَقُولُ لِزَوْجِهَا: وَعِزَّ رَبِي مَا أرَى فِي الْجَنَّةِ شَيْئاً أحْسَنَ مِنْكَ، فَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنِي زَوْجَكَ وَجَعَلَكَ زَوْجِي)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾؛ أي لم يَفْضُضْهُنَّ، والطَّمْثُ: هو النكاحُ بالتدميةِ، وامرأةٌ طَامِثَةٌ؛ أي حائضٌ، وطَمَثْتَ الجاريةَ إذا افْتَرَعتَها، والمعنى: لم يَغْشَهُنَّ ولا يُجامِعهُنَّ إنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ؛ لأنَّهن خَلقَهُنَّ في الجنَّة، وَقِيْلَ: الطمثُ هو الْمَسُّ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾؛ أي كأنَّهن في صَفاءِ الياقوتِ وبياضِ المرجان، والمرجانُ: هو صغارُ اللُّؤلؤ وهو أشدُّ بَيَاضاً من كبارهِ. وعن عبدِالله بن مسعود عن النبيِّ ﷺ: [أنَّ الْمَرْأةَ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ يُرَى بَيَاضُ مُخِّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حُلَّةً مِنْ حَرِيرٍ](٢)، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾؛ أي ما جزاءُ مَن أحسنَ في الدُّنيا إلاّ أن يُحسَنَ إليه في الآخرةِ، قال ابنُ عباس: (هَلْ جَزَاءُ مَنْ قَالَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَعَمِلَ بمَا جَاءَ بهِ مُحَمَّدٌ ﷺ إلاَّ الْجَنَّةُ)(٣). وعن ابن عمرَ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [هَلْ جَزَاءُ مَنْ أنْعَمْتُ عَلَيْهِ بمَعْرِفَتِي وَتَوْحِيدِي إلاَّ أنْ أسْكِنَهُ جَنَّتِي وَحَضِيرَةَ قُدْسِي برَحْمَتِي](٤). ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٦٣٦).

(٢) رواه الترمذي في الجامع الصحيح: أبواب صفة الجنة: الحديث (٢٥٣٣). وأبو الشيخ في العَظَمة بلفظ قريب منه: ص٢٠٧: الحديث (٧/ ٥٨١).

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٩٤.

(٤) بلفظ قريب رواه البيهقي في شعب الإيمان: ج ١ ص٣٧٢: الحديث (٤٢٧)؛ وقال: (تفرد به إبراهيم بن محمد الكوفي هذا، وهو منكر). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٧١٣-٧١٤؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبدالله، وأخرجه الحكيم الترمذي والبغوي في التفسير والديلمي في الفردوس عن أنس، وأخرجه البخاري في تاريخه عن علي بن أبي طالب).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وله جنَّتان سِوَى الجنَّتين الأُولَيَين، وهما دون الأُوليين. قال بعضُهم: أرادَ بالجنَّتين الأُولَين جنَّتين في العُلُوِّ، وأراد بهذين جنَّتين في السُّفلِ، قال ﷺ: [هُمَا جَنَّتَان مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا مِنْ فِضَّةٍ][1]. وَقِيْلَ: معناهُ: (ومِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَان) أي أقربُ إلى قصرِهِ ومَجَالسِهِ من الجنَّتين الأُوليين، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي خَضرَاوَان تضربُ خُضرَتُهما من الرَّائي إلى السَّواد، وذلك أحسنُ ما يكون في الخُضرةِ أولاهم الأسودُ، يقال: ادْهَامَّ الزرعُ إذا علاهُ السَّواد رَياً. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي فوَّارَتان بالماءِ من الامتلاءِ، تنضخُ على أولياءِ الله بالمِسْكِ والعنبرِ والكافور والخير والبركة، بخلافِ العَينين للأوليين، والنضخُ أكثر من النضح[2]، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي فيهما ألوانُ الفاكهةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَرُمَّانٌ) يستدلُّ لأبي حنيفة أنَّ النخلَ والرُّمان ليسَا من الفاكهةِ؛ لأن الشيءَ لا يعطفُ على نفسهِ، وعند أبي يوسفَ ومحمَّد هما من الفاكهةِ، وإنَّ عَطفَهما على الفاكهةِ لزيادةِ معنى فيهما لا يوجدُ في سائر الفواكهِ، كما في قوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[3]. ورُوي: أنَّ نخيلَ الجنةِ: عُروقُها من فضَّة، وجذوعُها ذهبٍ، وسقفها حُلَلٌ، وثمرُها أحلَى من العسلِ والْيَنُ من الزُّبد، ليس له عجمٌ[4]. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب من دونهما جنتان: الحديث (٤٨٧٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: الحديث (٢٩٦/ ١٨١٠).

(٢) النضحُ بالمهملة: الرشُّ والرسْحُ، وبالمعجمة: فوران الماء.

(٣) البقرة / ٩٨.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٦٧٦) عن سعيد بن جبير، وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ قرأ أبو رَجاء (خَيِّرَاتٌ) بالتشديدِ، وهما لُغتان مثل هَين وهَيِّن ولِين ولَيِّن، وعن أمِّ سلمَةَ قالت: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ أخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِهِ (خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) قَالَ: [خَيِّرَاتُ الأخْلاَقِ حِسَانُ الْوُجُوهِ][(١)]. وَقِيْلَ: خيِّراتٌ فاضلات مختاراتٌ ليس بذربَاتٍ ولا دَفواتٍ ولا بَحِراتٍ ولا مُتسلِّطاتٍ ولا طمَّاحَاتٍ ولا طوَّافات في الطُّرق، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ الحورُ البيضُ الحسانُ البياضِ، والمقصوراتُ هن المحجوباتُ المحبوسات والْمَصُونَاتُ. والخِيَامُ: جمعُ خيمةٍ، وهي خيمةٌ من دُرَّةٍ مجوَّفةٍ فيها أربعةُ آلافِ مِصراعٍ من ذهبٍ، طولُ الخيمةِ في السَّماء ستُّون ميلاً، في كلِّ زاويةٍ منها أهلٌ لا يراهم الآخَرُون. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ يعني أنَّ صِفَتَهُنَّ كصفةِ القاصرات الطَّرفِ. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾.

وقولهُ تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ قال أبو عُبيدة: (الرَّفْرَفُ: الْبُسُطُ)، قاله الضحَّاكُ ومقاتلُ[(٢)] والحسن[(٣)]. وقال الزجَّاجُ: (الرَّفْرَفُ هَهُنَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ)[(٤)]. وَقِيْلَ: الرَّفرفُ الوسائدُ. وأما العبقريُّ: فهو البُسُطُ من الزَّرَابيِّ وغيرها، وكلُّ ما بُولِغَ في وَصفهِ فهو عبقريٌّ، وأصلهُ أنَّ عَبْقَرِيَّ اسمُ بلدٍ كان يُوَشَّى فيها البُسُطُ، وكانت العربُ تعتقدُ أنَّ أفضلَ البُسُطِ ما نُسِجَ بعَبْقَرَ، فأضافَهُ اللهُ تعالى على عادَتِهم. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط: ج٤: الحديث(٣١٦٥). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١١٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه سليمان بن أبي كريمة، ضعفه أبو حاتم وابن عدي).

(٢) قاله في التفسير: ج ٣ ص٣١٠.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٧٢٦).

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٨٣.

قَوْلُهُ تَعَــالَى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي عَظُمَـتِ البركةُ في اسمِ ربكَ، فاطلبُوا البركةَ في كلِّ شيء يُذكَرُ فيه اسمهُ، قـرأ ابـنُ عـامر (ذُو الْجَلاَلِ وَالإكْرَامِ)[1].

آخر تفسير سورة (**الرحمن**) والحمد لله رب العالمين.

(١) قاله أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص١٩.

سُورَةُ الْوَاقِعَـــة

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَتِسْعُمِائَةٍ وَثَلاَثَةُ أَحْرُفٍ، وَثَمَانُمِائَـةٍ وَتِسْـعُونَ كَلِمَةً، وَسِتٌّ وَتِسْعُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ الْوَاقِعَةَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَـافِلِينَ][1]، وَقَـالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ][2]. وعن مسروق قالَ: (مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ نَبَأَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَنَبَأَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَنَبَأَ أَهْـلِ النَّـار، وَنَبَـأَ الدُّنْيَـا وَالآخِـرَةِ، فَلْيَقْرَأْ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ)[3].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّـاس: (مَعْنَـاهُ: إذا قَـامَتِ القِيَامَةُ)[4]، والواقعةُ اسمُ القيامةِ، وَقِيْـلَ: معنـاهُ: إذا نزَلـتِ الصَّيحَـةُ وتلـك النفخـةُ الآخرة.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في الدر المنثور:ج ٨ ص٣؛ قال السيوطي:(أخرجه أبو عبيد في فضائله وابن الضريـس والحـرث بن أبي أسـامة وأبـو يعلـى وابـن مردويـه والبيـهقي في شـعب الإيمـان عـن ابـن مسـعود ﷺ) وقال:(أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما). وفي المطالب العالية بزوائد المسـانيد الثمانية: ج ٣ ص٣٨٣: الحديث (٣٧٦٥): نسبه ابن حجر للحـارث. وقـال البوصـيري: (رواه الحارث عن العباس بن الفضل، وهو ضعيف).

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٩٩. وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٩٥.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٧٤٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي لِمَجِيئِهَا وظُهورها كاذبةٌ ولا ردٌّ ولا خلاف، وقوله (رَافِعَةٌ) أي تخفِضُ ناساً وترفعُ آخرين، قال عطاءُ: (تَخْفِضُ أقْوَاماً كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُرَفَّعِينَ، وَتَرْفَعُ أقْوَاماً كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُتَّضِعِينَ). وَقِيْلَ: تخفضُ قوماً إلى النار، وترفعُ آخرين إلى الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي زُلزلَتِ الأرضُ ورُجِّعَتْ وتحرَّكت حركةً شديدة حتى ينهدمَ كلُّ بناءٍ على وجهِ الأرض. قولهُ: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي فُتِّتْ فَتّاً فصارت كالدَّقيق الْمَبْسُوسِ وهي المبلولُ، والبَسِيسَةُ عند العرب الدقيقُ والسَّويقُ يُلَتُّ ويُتَّخذ زَاداً. قِيْلَ: إنَّ الجبالَ تصيرُ يومئذٍ كالدَّقيق أو السَّويق.

وقوله تعالى: ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي صَارَتْ غُباراً متفرِّقاً كالذي يسفعُ من حوافرِ الدَّواب، ويجولُ في شُعاعِ الشَّمس إذا دخلَ من الكُوَّةِ وهو الهباءُ، فَيَقبضُ القابضُ فلا يحصِّلُ بيدِه، وقرأ النخعيُّ (مُنْبَتّاً) بالتاء أي مُنقَطِعاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وكنتم يومئذٍ أصْنَافاً ثلاثةً، ثم فسَّرَهم فقالَ اللهُ: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ يعني الذين يُعطَون كُتُبَهم بأيمانِهم. وَقِيْلَ: همُ الذين يُسلَكُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ هم أصحابُ الشُّؤْمِ والتكذيب، وَقِيْلَ: هم الذين يُعطَون كُتُبَهم بشِمَالهم، ويُسلَكُ بهم طريقَ الشِّمال إلى النار، ويقالُ لليد اليُسرى الشُّوْمَاءَ، قال الشاعرُ:

الشَّتْمُ وَالشَّرُّ فِي شَوْمَاءِ يَدَيْكَ لَهُمْ ... وَفِي يَمِينِكَ مَاءُ الْمُزْنِ وَالضَّرْب

ومنه الشَّامُ واليمنُ؛ لأن اليمنَ على يمينِ الكعبةِ، والشامُ على شِمَالِها إذا دخلتَ الحِجْرَ تحت الميزاب. وَقِيْلَ: هم الذين كانوا على شِمَالِ آدمَ عندما أخرجَ الذُّريةَ، وقال اللهُ لَهم: (هَؤُلاَءِ فِي النَّار وَلاَ أبَالِي)[1].

---

(١) ذكره القرطبي أيضاً في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠١.

وقوله تعالى: (مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) و(مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) تعجيبٌ لشأن أصحاب الْمَيمَنَةِ في الخيرِ، والترغيبُ في طريقتِهم، كما يقالُ: فقيةٌ أيُّ فقيهٍ، وتعظيمٌ لشَرِّ أصحاب المشأمة والتحذيرُ عن طريقتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ بيانٌ للصِّنفِ الثالثِ، والمعنى: والسَّابقون في الدُّنيا إلى الطاعاتِ، هم السَّابقون في العُقبَى إلى الدرجاتِ. وَقِيْلَ: همُ الذين سَبَقوا إلى توحيدِ الله والإيمانِ برسوله.

وقال ابنُ سِيرين: (هُمُ الَّذِينَ صَلَّوا إلَى الْقِبْلَتَيْنِ، وَشَهِدُوا بَدْراً)[١]، دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾[٢]، وقال ابنُ عبَّاس: (هُمُ السَّابِقُونَ إلَى الْهِجْرَةِ)[٣]، وقال عليٌّ ﷺ: (هُمُ السَّابِقُونَ إلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ)[٤]، وقال ابنُ جبير: (الْمُسَارِعُونَ إلَى التَّوْبَةِ وَإلَى أعْمَالِ الْبرِّ)[٥]، ونظيرهُ ﴿سَابِقُوا إلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٦]، وقال ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[٧].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي همُ المقرَّبون إلى كرامةِ الله تعالى وجزيلِ ثوابهِ في أعلَى الدرجاتِ، ثم أخبرَ أين محِلُّهم فقالَ (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي جماعةٌ من أوائلِ الأُمم مِمَّن صدَّق بالنبيِّين من ولدِ آدم إلى زمان نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي مِن هذه الأُمَّة، وذلك أنَّ الذين عَايَنُوا جميعَ النبيِّين وصدَّقُوا بهم أكثرُ ممن عايَنَ نبيَّنا ﷺ، ألاَ ترَى إلى قولهِ تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[٨] هؤلاءِ سِوَى مَن آمنَ بجميعِ الأنبياء وصدَّقَهم، والثُّلَّةُ في اللغة: هي القِطْعَةُ، الكثرةُ من النَّاسِ، والجماعةُ الذين لا يُحصَى عددُهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٧٧٠).

(٢) التوبة / ١٠٠ .

(٣) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٢.

(٤) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٢.

(٥) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٩٩.

(٦) الحديد / ٢١. (٧) المؤمنون / ٦١. (٨) الصافات / ١٤٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي على سُرُرٍ منسُوجَةٍ بقُضبَانِ الذهب والفضة والجواهرِ، قد أُدخِلَ بعضُها في البعضِ مضاعفةً. قال الأعشَى:

وَمِنْ نَسْجِ دَاوُودَ مَوْضُونَةً ... تُسَاقُ مَعَ الْحَيِّ عِيراً فَعِيرَا

وإنما قالَ (عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ) لأنَّها إذا كانت على هذهِ الصِّفَةِ، كانت أنعمَ وألينَ من السُّرُر التي تُعمَلُ من الخشب، قال الكلبيُّ: (طُولُ كُلِّ سَرِيرٍ ثلاثُمِائَةِ ذِرَاعٍ، فَإذا أرَادَ الْعَبْدُ أنْ يَجْلِسَ عَلَيْهَا تَوَاضَعَتْ، فَإذا جَلَسَ عَلَيْهَا ارْتَفَعَتْ)[1]. وقالَ الضَّحاكُ:(مَوْضُونَةٌ: أيْ مَصْفُوفَةٌ)[2]، يقالُ: آجُرٌّ مَوْضُونٌ إذا صُفَّ بعضهُ على بعضٍ[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي جَالِسين عليها جلسةَ الملوكِ للرَّاحةِ مُتقابلِينَ، يقالُ بعضُهم بعضاً في الزِّيادة: إذا اشتهَى أحدُهم حديثَ صاحبهِ، ألقَى اللهُ في نفسِ الآخرِ مثلَ ذلك، وأمَرَ كلٌّ واحدٍ منهم بسَريره فأُخرِجَ على باب مَنْزلهِ، ثم جلَسَا على سَريرَيهما يتحدَّثان، يسمعُ كلٌّ واحدٍ منهما حديثَ صاحبهِ وإن بَعُدَ عنهُ، وإذا شاؤوا سارَتْ سريرُهم إلى حيث يشَاؤونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي يطوفُ عليهم للخِدمَةِ غِلمَانٌ لا يهرَمُون ولا يتغيَّرون ولا يموتون، خُلِقُوا للخُلودِ وهم دَائِمُون، ويقالُ: معنى (مُخَلَّدُونَ) مقرَّطُون مُسَوَّرونَ من الْخِلْدَةِ وهي الْحُلِيُّ، يقالُ: خَلَّدَ جَارِيَتَهُ إذا أحْلاَها بالْخُلْدِ وهو القُرْطُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ ؛ الأكوابُ جمع كُوبٍ، وهي الكيزانُ العِظَامُ المدوَّرَةِ الرؤوس التي لا آذانَ لها ولا خرطومَ ولا عُرًى، والأباريقُ والأوانِي التي لها عُرًى وخراطيمُ، واحدها إبريقٌ، وهو الذي يَبرقُ من صفائهِ وحُسنهِ وبريقِ لَونهِ.

---

(١) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٣.

(٢) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٣. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٢٦٦.

(٣) نقله الثعلبي عن ابن عباس، ينظر: الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾؛ الكأسُ: الإناءُ الذي فيه الشَّرابُ، والْمَعِينُ: الخمرُ الذي يجري من العُيون الظَّاهرةِ لا في الأُخدُودِ، والمعنى: وكأسٍ من خمرٍ جاريةٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي لا يُصيبُهم من شربها صداعٌ كما يكون في شُرب خمرِ الدُّنيا، ولا تَنْزِفُ عقولُهم، يقال للرَّجُلِ إذا سَكِرَ: نَزَفَ عقلهُ، والنَّزيفُ هو السُّكرَانُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ معناه: ويُؤتَونَ بفاكهةٍ مما يتخيَّرون ليس لها فناءٌ ولا نوَى، ظاهرُها مثلُ باطنِها، وباطِنُها مثلُ ظاهرِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي يُؤتَون بلحمِ طيرٍ مما يتمنَّون، كما رُوي في الحديثِ: [أَنَّهُمْ إذا اشْتَهَوا لَحْمَ الطَّيْرِ وَقَعَ بَيْنَهُمْ مَشْوِيّاً، فَيَتَنَاوَلُونَ مِنْهُ قَدْرَ الْحَاجَةِ، ثُمَّ يَطِيرُ كَمَا كَانَ][1] وهذا لأنَّ الذبحَ لا يكون إلاَّ بإراقةِ الدمِ، وذلك لا يكون في الجنَّة.

وعن أبي سعيدٍ الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ فِي الْجَنَّةِ طَيْراً فِيْهِ تِسعُونَ أَلْفَ ريشَةٍ، يَجِيءُ فَيَقَعُ عَلَى صَحْفَةِ الرَّجُلِ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يَنْتَفِضُ فَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ ريشَةٍ لَوْنُهُ أَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ وَأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ وَأَعْذَبُ مِنَ الشَّهْدِ، لَيْسَ فِيْهِ لَوْنٌ يُشْبِهُ الآخَرَ، ثُمَّ يَطِيرُ فَيَذْهَبُ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ قرأ أبو جعفرٍ وحمزةُ والكسائي (وَحُورٍ) بالخفضِ على معنى ويُنَعَّمُونَ بحُورٍ عينٍ، ويجوزُ أن يكون خَفْضاً على الْمُجَاوَرَةِ؛ لأنه معطوفٌ على قولهِ (وَفَاكِهَةٍ وَلَحْمِ طَيْرٍ).

والْحُورُ: الْبيضُ الْحِسَانُ، والعِينُ: الواسعةُ الأَعيُنِ حِسَانُها، وقرأ النخعيُّ وأشبهَ العقلي (وَحُوراً عِيناً) بالنصب على معنى ويُزَوَّجُونَ حُوراً عِيناً، وبالرفع على معنى: ولهم حورٌ عين.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، والبزار وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبدالله بن مسعود) وقال: (أخرجه ابن أبي شيبة وهناد عن الحسن).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص١١؛ قال السيوطي: (أخرجه هناد عن أبي سعيد الخدري) وذكره.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ صفـاءَ هـذه كصَفاءِ الدُّرِّ حين يخرجُ من صَدَفِهِ قبلَ أن تُصِيبَهُ يدٌ أو هواءٌ أو شمس أو غبارٌ.

وعن أنسٍ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [خُلِقَ الْحُورُ الْعِينُ مِنْ زَعْفَرَانٍ][(١)]. وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: [مَا مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّـةَ إلاَّ وَهُـوَ مُـزَوَّجٌ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً، لَيْسَ مِنْهُنَّ امْرَأةٌ إلاَّ وَلَهَا قُبُلٌ شَهِيٌّ، وَلَهُ ذكَرٌ لاَ يَنْثَنِي][(٢)].

وعن ابنِ مسعودَ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [سَطَعَ نُورٌ فِي الْجَنَّةِ، فَقَـالُوا: مَـا هَذا ؟ قَالُوا: ضَوْءُ ثَغْرِ حُورٍ تَبَسَّمَتْ فِي وَجْهِ زَوْجِهَا][(٣)].

ويُروى: أن الحـورَ إذا مشَـتْ سُـمِعَ تقديـسُ الْخَلاَخِـلِ وتمجيـدُ الأَسَاور في سَاعِدَيها، إن عِقْدَ الياقوت في نَحرِها، في رجلَيها نَعلاَن من ذهبٍ شِراكُهما من اللُّؤلؤ يَصِرَّانِ بالتسبيحِ والتحميدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ هذه الأشـياءَ جزاءٌ لهم على أعمالِهم الصالحةِ التي كانوا يعملونَها في الدُّنيا.

وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يسـمَعون في الجنَّة إلاَّ قولاً يَسلَمُون فيه من اللَّغو والتأثيم، واللَّغوُ: الكلامُ الذي لا فـائدةَ فيـه، التَّأثِيمُ: أن يُؤَثِّمَ بعضُهم بعضاً ولا يتكلَّمون بمـا فيـه إثـمٌ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي ولكن يقولون قِيْلاً ويَسمَعون قِيْلاً سَلاَماً يَسـلَمُون فيـه من اللَّغو والإثمِ. قال عطاء: (يُحَيِّـي بَعْضُـهُمْ بَعْضـاً بالسَّـلاَمِ عَلَـى أحْسَـنِ الآدَاب وَكَرِيمِ الأَخْلاَقِ مَعَ كَمَالِ النَّعِيـمِ، وَيَقُـولُ لَـهُمُ الْمَلاَئِكَـةُ: سَـلَّمَكُمُ اللهُ تَعَـالَى مِـنَ الْمَكَارِهِ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٨٠٩) عن مجاهد موقوفاً. وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: ج ٧ ص١٠٢: الرقم (٣٥٤٠) ترجمة بنان بن سليمان الدقاق بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الزهد: باب صفة الجنة: الحديث (٤٣٣٧) وإسناده ضعيف.

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: ج ٨ ص٢٤٧: الرقم (٤٣٥٤): ترجمة حبيب بـن نصـر. وأبـو نعيم في الحلية: ج ٦ ص٣٧٤.

هذا كله نعتُ السَّابقين، ثم ذكرَ الصنفَ الثاني:

فقال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ وهم عامَّةُ المؤمنين دون النَّبيِّين والصدِّيقين والشُّهداء والصالحين، ما تَدري ما لَهم يا مُحَمَّدُ في الجنَّة من النعيمِ والسُّرور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ السِّدرُ شجرٌ مُثمِرٌ مرتفعُ المنظرِ، طيِّبُ الرائحةِ. والمعنى: في ظِلاَلِ سِدْرٍ قد نُزِعَ شوكهُ وكَثُرَ حَملُهُ، والْخَضْدُ عطفُ العُودِ اللَّيِّنِ، ولذلك قِيْلَ: لا شوكةَ فيهِ، قد خَضَّدَ شوكَهُ؛ أي قطعَ، ومنه الحديثُ: [لاَ يُخضَدُ شَوْكُهَا وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا][1].

وقال مجاهدُ والضحاك ومقاتل: (مَعْنَى قَوْلِهِ (مَخْضُودٍ) أيْ مُوقَرُ حِمْلاً)[2]، ويقالُ: إنَّ السِّدْرَ شجرُ النَّبَقِ إلاَّ أنَّ ثَمَرَةَ تلك الشجرةِ لا تكونُ مثل شجرِ النَّبَقِ في الدُّنيا ولا رائحتُها تشبهُ رائحتَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ الطَّلْحُ شجر المَوْز، وقوله (مَنْضُودٍ) أي بتَرَاكُب الموز على أغصانِها من أوَّلها إلى آخرها، فليس لها شَوكٌ بارزٌ، وقال الحسنُ: (الطَّلْحُ شَجَرٌ لَهُ ظِلٌّ بَاردٌ طَيِّبٌ)، وقرأ علي ﷺ (مَعْضُودٍ)[3] بالعينِ أي تحل بتَراكُب الرُّطب على أغصانِها كما في قوله ﴿لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي لا تنسخهُ الشمسُ، قال الربيع: (يَعْنِي ظِلَّ الْعَرْشِ)، قال عمرُو بن ميمون: (مَسِيرَةُ سَبْعِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)[5]. وعن أبي

---

(١) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٦، وعلى ما يبدو لي أن الحديث ليس هذا لفظه، وأصله: [لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهَا]، أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب جزاء الصيد: باب لا يحل القتال بمكة. ومسلم في الصحيح: كتاب الحج: باب تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها وشجرها.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٨٢٠).

(٣) ذكره الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٨٢٢).

(٤) ق / ١٠ .

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٨٣٥).

هريرة قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا، شَجَرُ الْخُلْدِ، إقْرَأوا إنْ شِئْتُمْ (وَظِلٍّ مَمْدُودٍ)](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي ماءٍ مَصبُوبٍ عليهم من ساقِ العرشِ في أوعِيَتِهم يشربَوهُ على ما يرَونَ من حُسنهِ وصفائهِ وطيبِ رائحتهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: وماءٍ مَصبُوبٍ يجري دائماً في غيرِ أخدُودٍ لا ينقطعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أي وأنواعِ فاكهةٍ كثيرةٍ، لا ينقطعُ عنهم في وقتٍ من الأوقاتِ، بخلافِ فاكهةِ الدُّنيا، ولا تكون مَمنوعةً ببُعدِ مُتناوَلٍ أو شوكةٍ تُؤذِي، بخلافِ ما يكون في الدُّنيا. وَقِيْلَ: لا مقطوعةٍ بالأزمانِ ولا ممنوعةٍ بالأثمان، ولا ينقطعُ ثمرُها إذا جُنِيَت بل يخرجُ مكانَها مثلُها. قال ﷺ: [مَا قُطِعَتْ ثَمَرَةٌ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ إلاَّ أبْدِلَ مَكَانَهَا ضِعْفَيْنِ](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ قال ﷺ: [ارْتِفَاعُهَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، مَوْضُوعَةً بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، إذا أرَادَ الْعَبْدُ أنْ يَجْلِسَ عَلَيْهَا تَوَاضَعَتْ حَتَّى يَجْلِسَ، ثُمَّ تَرْتَفِعُ فِي الْهَوَاءِ](٣). قال عليٌّ رضي الله عنه: (مَرْفُوعَةٌ عَلَى الأَسِرَّةِ)(٤).

وَقِيْلَ: إنه أرادَ بالفُرشِ هَهُنا النساءَ المرتَفِعات القدر في عُقولِهنَّ وحُسنِهنَّ وكمالهن، رُفِعْنَ بالْحُسنِ والجمال والفضلِ على نساءِ الدُّنيا، ودليلُ هذا التأويل قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ وقد تُسمَّى المرأةُ فِرَاشاً ولِبَاساً.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥٨٣٦) بأسانيد، والحديث (٢٥٨٣٧ و٢٥٨٣٨)، وعن أنس الحديث (٢٥٨٣٩). والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾: الحديث (٤٨٨١)، وكتاب بدء الخلق: باب ما جاء في صفة الجنة: الحديث (٣٢٥١).

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٨. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٢٦٨.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥٨٤٥) عن أبي سعيد. والترمذي في الجامع: أبواب صفة ثياب أهل الجنة: الحديث (٢٥٤٠) وإسناده ضعيف.

(٤) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّا أنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً) أي خَلقنَاهُنَّ لأوليائِنا بلا ولادةٍ ولا تربية، بخلافِ نساء الدُّنيا. وَقِيْلَ: المرادُ بهذه الآية نساءَ أهلِ الدُّنيا يُخلَقْنَ خَلْقاً بعدَ خلق، كما رُوي في بعض الأحاديثِ: [أنَّهُنَّ عَجَائِزُكُمْ فِي الدُّنْيَا جُعِلْنَ صَبَايَا، وَيُلْبَسْنَ مِنَ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ أكْثَرَ مِمَّا يُلْبَسُ الْحُورُ الْعِينُ؛ لأنَّهُنَّ عَمِلْنَ فِي الدُّنْيَا، وَالْحُورُ لَمْ يَعْمَلْنَ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٣٨ ﴾ ؛ العُرُبُ: جمعُ عَرُوبٍ، وهي الْمُتَحَبِّبَةُ إلى زوجِها اللاَّعبَةُ معه أُنساً به ومحبَّةً له، قال المبرِّدُ: (هِيَ الْعَاشِقَةُ لِزَوْجِهَا الْحَسَنَةُ التَّبَعُّلِ لَذِيذَةُ الْكَلاَمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أتْرَاباً) أي مُستويات في السنِّ على ميلادٍ واحد، كلُّهن في سنٍّ ثلاثٍ وثلاثين سنةً، سِنُّهُنَّ مثلُ سنِّ أزواجِهن، ومثلُ هذا يكون أبلغُ في اللَّذة. قولهُ (لأَصْحَابِ الْيَمِينِ) أي جميعُ الذي ذكرناهُ لأصحاب اليمين. وَقِيْلَ: معناه: فَأنشَأْناهنَّ إنشاءً لأصحاب اليمين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠ ﴾ أي جماعةٌ من أوائلِ الأمم، وجماعةٌ من أمَّة نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ. ورُوي: أنَّهُ لَمَّا أنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنْ الآخِرِينَ) بَكَى عُمَرُ ﷺ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَنْ يَنْجُو مِنْ قَلِيلٍ؟ فأنزل الله (ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنْ الآخِرِينَ).

وعن رسول الله ﷺ قالَ: [يَا ابْنَ الْخَطَّاب؛ قَدْ أنْزَلَ اللهُ فِيمَا قُلْتَ، فَجَعَلَ ثُلَّةً مِنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةً مِنَ الآخِرِينَ] فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: (رَضِينَا عَنْ رَبنَا وَتَصْدِيقِ نَبِيِّنَا ﷺ؛ مِنْ آدَمَ إلَيْنَا ثُلَّةٌ، وَمِنَّا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُلَّةٌ)[2]. وقال مجاهدُ والضحاك: (الثُّلَّتَان جَمِيعاً

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٦؛ قال السيوطي: (اخرجه الطبراني في الأوسط عن عائشة) وذكره بمعناه. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥٨٥٣) عن أم سلمة بمعناه أيضاً. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١١٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه سلمان بن أبي كريمة، ضعفه أبو حاتم وابن عدي).

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢١١. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٢٦٩-١٢٧٠. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه وابن عساكر من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبدالله) وذكره.

مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ يعني الذين يُعطَون كُتبَهم بشَمائِلِهم، ما تُدري يا مُحَمَّدُ ما لَهم من الهوان في العذاب من حرِّ نار وريحٍ حادَّةٍ تدخلُ في مسامِّهم، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي في حرِّ نار وماءٍ حارٍّ، ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي من دُخَّان شديدِ السَّوادِ لا كَبَردِ ظلِّ الدُّنيا؛ لأنه ظلُّ دُخانِ جهنَّم.

وقال ابنُ زيدٍ: (الْيَحْمُومُ جَبَلٌ فِي جَهَنَّمَ)[٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي لا باردِ الْمُدخَلِ ولا كريمِ المنظرِ. وَقِيْلَ: لا باردِ المنْزِل ولا حسنِ المنظرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ سببِ العقوبةِ، معناهُ: إنَّهم كانوا في الدُّنيا مُنَعَّمِينَ مُتكبرين في تركِ أمرِ الله، وكانوا مُمتَنِعين من الواجب الذي عليهم طَلباً للترَفُّهِ، ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي وكانُوا يُقيمون على الشِّركِ باللهِ. وسُمي الشِّركُ حِنثاً؛ لأنَّهم كانوا يَحلِفُونَ أنَّ اللهَ لا يبعثُ مَن يموتُ، والْحِنثُ: الإثمُ.

وقال الشعبيُّ: (الْحِنثُ الْعَظِيمُ: الْيَمِينُ الْغَمُوسُ)[٣] وهم كانُوا يحلِفون باللهِ أنَّهم لا يُبعثون وكذبُوا في ذلك، ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ بيانُ إنكارهم للبعثِ، وقولُهُ تعالى: ﴿ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ هذا القولُ منهم زيادةُ استبعادٍ واستنكار.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: إنَّ آباءَكم ومَن قبلَهم وأنتم ومَن بعدَكم لَمجمُوعون في قبورهم إلى يومِ القيامة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٨٨٦) عن ابن عباس.

(٢) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢١٣.

(٣) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٧١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢١٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾. وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى يُلقي عليهم الجوعَ حتى يضطَرُّهم إلى أكلِ الزَّقُّومِ، فيأكُلون منه حتى تَمتَلئَ بطونُهم، ثم يُلقِي عليهم العطشَ فيضطرُّهم ذلك إلى شُرب الحميمِ، فيشرَبون شُربَ الإبلِ العِطَاشِ التي يُصيبها داءُ الهيامِ فلا تروَى من الماءِ.

والْهِيمُ: الإبلُ العِطَاشُ التي بها الْهِيَامُ لا تروَى، وواحدُ الْهِيمِ أهْيَمُ، والأُنثى هَيْمَاءُ، ويقالُ: الْهِيمُ هي الرمالُ التي لا يَرويها ماءُ السَّماء، مأخوذٌ من قولِهم: كثيبٌ أهيَمُ، وكثبانٌ هِيمٌ. قرأ نافع وعاصم وحمزةُ (شُرْبَ) بضم الشين، وقرأ الباقون بفتحِها، والمعنى فيها واحدٌ مثل ضَعف وضُعف[1]، ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ أي هذا غِداؤُهم وشرابُهم يومَ الجزاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ ؛ أي نحن خلقناكُم أيُّها الكفارُ ولم تكونوا شيئاً، ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي فهلاَّ تُصدِّقون بالبعثِ اعتباراً بالْخِلْقةِ الأُولى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أخبرُوني يا أهلَ مكَّة ما تقذفونهُ من المنِيِّ وتصبُّونَهُ في أرحامِ النساء، أأنتُم تخلُقونهُ ولداً أم نحنُ نخلُقه ونجعله بَشراً سويّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ ؛ أي كتبناهُ عليكم وسوَّينا به بين أهلِ السَّماء والأرضِ على مقاديرِ آجالهم في مكانٍ معلوم وفي زمانٍ معلومٍ، فمِنكُم مَن يموتُ صغيراً ومَن يموتُ كبيراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ ؛ أي ما نحنُ بمَغلُوبين عاجزين على أن نُبدِّلَ غيرَكم أطوعَ وأخشعَ منكم، وعلى أنه ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي في موضعٍ لا تعلمونهُ وهو النارُ. وَقِيْلَ: في صُوَرٍ لا تعلمونَها من سَوادٍ في الوُجوهِ وزُرقةِ الأعيُن، ولو أردنا أنْ نجعلَ منكم

(١) ذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢١٤؛ قال:(لغتان جيدتان).

القردةَ والخنازيرَ لم نُسبَقْ ولا فَاتنَا ذلك. قرأ ابنُ كثير (نحنُ قَدَرْنا) مخفَّفاً وهما لُغتان[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي قد عَلِمتُم الْخِلقَةَ الأُولى ولم تكونوا شيئاً، فخلقَناكم من نُطفةٍ وعلقة ومُضغةٍ، وهلاَّ تذكَّرُونَ أنِّي قادرٌ على إعادَتِكم كما قَدرتُ على أعدائكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ معناهُ: أخبروني ما تُلقُونَ من البَذر في الأرضِ؛ أأنتم تُنبتُونَهُ وتجعلونَهُ زَرعاً أم نحنُ فَاعِلُونَ ذلك ؟.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ ؛ أي يَابساً مُتَنَكِّساً بعدَ خُضرَتهِ لا حبَّ فيه فأبطلناهُ، ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي فصِرتُم تَعجَبُونَ مما نزلَ بكم في زَرعِكم، ونادمون على ما أنفَقتُم فيه وتحمَّلتُم فيه مِن المشقَّة، وتقولون: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي طقنا[(٢)] غرمٌ عظيمٌ فهذا الزرع، وغَرمُ الْحَبِّ الذي بَذرنَاهُ فذهبَ علينا بغيرِ عِوَضٍ، ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي ممنوعون من الرِّزقِ منه.

وأصلُ ظَلْتُمْ: ظَلَلْتُمْ فحَذفَ اللامَ الأُولى. والتَّفكُّهُ من الأضدادِ، يقالُ: تَفكَّهَ؛ أي تَنَعَّمَ، وتَفكَّهَ؛ تَحزَّنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾ أي من السَّحاب، ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ عليكم منه، ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ ؛ أي مُرّاً شَديداً، مِرَاراً مُحرِقاً للحَلقِ والكبدِ، لا يمكنُ شُربه والانتفاعُ به،

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢١٦؛ قال القرطبي: (وقرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن وابن كثير) وذكره.

(٢) الطاقةُ: الوسعُ والإمكان، بمعنى أنهم قوم غلبَهم اليأسُ وضعفُ الجِدُّ؛ فهم قومٌ غير مجدُودِين، ليس لهم جد. يكثرون القول: إنا معذبون، محرومون. فلا يمكننا تحمل هلاك الزَّرعِ أو قلَّة اثماره، فكيف من سبيل إلى الْحَبِّ. غلبهم العجز والتواكل. والله أعلم.

﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾، فهلاَّ تُنكِرون عُذوبَتهُ. وَقِيْلَ: الأُجَاجُ: شديدُ الملوحةِ مع المرارةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ﴾؛ يعني التي تُظهرُونَها بالزِّنادِ من الأعوادِ، ومعنى: تُورُونَ: تَقدَحُونَ وتستخرجون من زنادِكم، يقالُ: أَوْرَيْتُ النارَ إذا قدحتُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ أي أأنتم أنبتُّم شجرةَ النار أم نحن المُنبتُونَ لها في الأرضِ، وجعلناها خضراءَ وفيها النارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾؛ أي نحن جعَلنا النارَ عِظَةً ليتَّعِظَ بها المؤمنُ. وَقِيْلَ: جعَلناها تذكِرَةً للنار الكُبرَى؛ إذا رآهَا الرَّائِي ذكرَ جهنَّم، فذكرَ اللهَ تعالى فاستجارَ به منها، وتركَ المعصيةَ.

وقوله تعالى (وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ) أي وجعَلناها منفعةً للمُسافِرين الذين ينْزِلون في الأرضِ القَيُّ في المفَاوز، يقالُ: أقوَى الرجلُ إذا نـزلَ بالأرضِ القوى وهي الخاليةُ القَفرَاءُ، ويقال: أرضٌ قَيْءٌ أي القفرى، قال الراجزُ:

قَيٌّ يُنَاصِيهَا بلاَدٌ قَيُّ

والقَيُّ والقَوَى هي الأرضُ القَفْرَى الخاليةُ البعيدةُ من العِمرَانِ، يقالُ: أقْوَتِ الأرضُ مِن سُكَّانِها، قال النابغةُ:

يَا دَارَ مَيَّةَ بالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ أقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأَمَدِ

ومنفعةُ المسافرين بالنار أكثرُ من منفعةِ المقيمين؛ لأنَّهم يُوقِدونَها ليلاً لتَهرُبَ منها السِّباعُ، ويهتَديها الضالُّ من الطريقِ، ويستَضِيئوا بها في ظُلمَةٍ، ويصطلوا بها من البردِ ويطبخون بها ويخبزُوا، وضررُ فَقدِها عليهم أشدُّ. وقد يقالُ للذي فقدَ زادَهُ: الْمُقْوِي من أقْوَتِ الدارُ إذا خلَتْ، ويقالُ للمُقْوِينَ: مُقو لِخُلُوِّهِ من المال والغِنَى، مُقْوٍ لقُوَّتِهِ على ما يريدُ، فعلَى هذا الْمُقْوِي من الأضدادِ، والمعنى: متَاعاً للغَنِيِّ والفقيرِ، وذلك أنه لا غِنَى لأحدٍ عنها.

ولَمَّا ذكرَ اللهُ سبحانَهُ ما يدلُّ على توحيدهِ وما أنعمَ به، فقالَ تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾؛ أي بَرِّئِ اللهَ مما يقولُ الظَّالمون في وصفهِ ونزِّهْهُ عمَّا

لا يليقُ به. وفي الحديثِ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ ﷺ: [اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فأُقسِمُ، وإنما دخلت (لاَ) زائدةً للتوكيدِ، ويجوزُ أن يكون قولهُ: (فَلاَ) رَدّاً لِمَا يقولهُ الكفَّارُ في القرآنِ: أنه سِحرٌ أو شعرٌ أو كهانة، ثم استأنفَ القسَمَ على أنه قرآنٌ كريم في كتابٍ مكنون، ويعني بقوله (بمَوَاقِعِ النُّجُومِ) نجومُ القرآنِ التي كانت تنْزلُ على رسول الله متفرِّقاً قِطَعاً نُجوماً، وَقِيْلَ: يعني مغاربَ النُّجوم ومساقِطَها، وقرأ حمزةُ والكسائي (مَوْقِعَ) على المصدر، والمصدرُ يصلح للواحدِ والجمع.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ قال الزجَّاجُ: (هَذا يَدُلُّ عَلَى أنَّ الْمُرَادَ بمَوَاقِعِ النُّجُومِ نُـزُولَ الْقُرْآن)[2] والضميرُ في (إنَّـهُ) يعودُ على القَسَمِ ودلَّ عليه (أقْسِمُ)، والمعنى: أنَّ القسَمَ بمواقعِ النجومِ عظيمٌ.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ هذا جوابُ القسَم، ومعناهُ: كثيرُ الخيرِ دالٌّ على أنه من عندِ الله لأنَّـهُ لا يأتِي أحدٌ بمثلِهِ ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ هَهُنا هو اللوحُ المحفوظُ مَصُونٌ عن التغيُّرِ والتبديلِ والزيادةِ والنقصان.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ قال بعضُهم: الضميرُ يعود إلى الكتاب الْمَكْنُون، معناهُ: لا يَمَسُّ اللوحَ المحفوظَ إلاّ المطهَّرون من الذُّنوب وهم الملائكةُ. وقال: الضميرُ يعود إلى القرآن، ومعناهُ: الْمُصْحَف لا يَمسُّه إلاّ المطهَّرون من الأحداثِ والجناباتِ والحيضِ، كما رُوي عن النبيِّ ﷺ: [لاَ يَمَسُّ الْقُرْآنَ إلاَّ طَاهِرٌ][3].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٧ ص٢٧٥: الحديث (٨٨٩). وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده: الحديث (٨٦٩)، وإسناده صحيح.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٩٢.

(٣) هو شطر حديث طويل من كتاب النبي ﷺ، رواه عمرو بن حزم، أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن بكتاب فيه الفرائض والسنن والديات. وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص٧٦؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير والصغير ورجاله موثوقون).

وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: لا يعملُ به إلاّ الموَفَّقُون. وَقِيْلَ: لا يجدُ حلاوتَهُ إلاّ المفسِّرون. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يقرَؤُه إلاّ الموحِّدُون المطَهَّرون من الشِّرْكِ، وكان ابنُ عبَّاس (يَنْهَى أنْ يُمَكَّنَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ). وَقِيْلَ: معناهُ: لا يَجِدُ لذتَهُ إلاّ مَن آمَنَ به. وَقِيْلَ: لا يُوفَّقُ للعملِ به إلاّ السُّعداءُ.

فظاهرُ الآيةِ: لا يجوزُ للمُحْدِثِ مَسُّ المصحفِ، وإنْ كان ظاهِرُها نفيٌّ، فمعناهُ: النهيُ؛ أي لا يَمَسُّ المصحفَ إلاّ المطَهَّرون من الأحداثِ، وإلى هذا ذهبَ جمهورُ الفقهاءِ.

وذهبَ حكيمُ وداودُ بن عليٍّ إلى أنه يجوزُ للمُحدِثِ مسُّ المصحَفِ اذا كان مُسلِماً، ولا يجوزُ ذلك للمُشركِ.

والدليلُ على أنه لا يجوزُ للمُحدِثِ مسُّهُ قولُه ﷺ: [لاَ تَمَسَّ الْقُرْآنَ إلاَّ وَأنْتَ طَاهِرٌ][(١)] وعليه إجماعُ الصَّحابة. وسُئِلَ عليٌّ ﷺ: أيَمَسُّ الْمُحْدِثُ الْمُصْحَفَ؟ فَقَالَ: (لاَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أفَبهذا القرآنِ الذي يُقرَأ عليكم يا أهلَ مكَّة أنتم تكفُرون وتُكذِّبون. والْمُدْهِنُ والْمُدَاهِنُ: الكذابُ المنافقُ. وَقِيْلَ: معنى تُدهِنُونَ: تُظهِرُونَ خلافَ ما تُضمِرُونَ، مأخوذٌ من الدُّهنِ ومُدَاهَنَةِ العدوِّ ومُلايَنَتِهِ ومُصانعتِهِ وإظهار مُسالَمَتِهِ خلافَ ما يضمرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ أي وتجعلون شُكرَكم أنَّكم تكذِّبون بنعمةِ اللهِ عليكم، فيقولون: سُقِينَا بنَوءِ كذا. وذلك أنَّهم كانوا يقُولون: مُطِرنَا بنوءِ كذا، لا ينسِبُون السُّقيا إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فقيلَ لهم: وتجعلُون شُكرَ رزقكم التكذيبَ؛ أي تجعلون بدلَ شُكرِكم تكذيبَكم بأنه من عندِ الله الرزَّاق.

وعن أبي سعيدِ الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [لَوْ حَبَسَ اللهُ عَنْ أمَّتِي الْمَطَرَ سَبْعَ سِنِينَ ثُمَّ أنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَاءَ لأَصْبَحَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ:

---

(١) أخرجه الدارقطني في السنن: ج ١ ص٢١.

مُطِرْنَا][1].

ورُوِي: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ فِي سَفَرٍ، فَنَزَلُوا فَأَصَابَهُمُ الْعَطَشُ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَذكَرُوا ذلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: [أرَأيْتُمْ إنْ دَعَوْتُ لَكُمْ إنْ سُقِيتُمْ، فَلَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ: سُقِينَا هَذا الْمَطَرَ بنَوْءِ كَذا ؟] فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا هَذا بِحِينِ الأَنْوَاءِ ! فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَدَعَا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَاجَتِ رِيحٌ ثُمَّ هَاجَتْ سَحَابَةٌ، فَمُطِرُوا حَتَّى سَالَتِ الأَوْدِيَةُ وَمَلأُوا الأَسْقِيَةَ.

فَرَكِبَ ﷺ فَمَرَّ بِرَجُلٍ يَغْرِفُ بقَدَحٍ لَهُ وَهُوَ يَقُولُ: سُقِينَا بنَوْءِ كَذا، وَلَمْ يَقُلْ: هَذا مِنْ رِزْقِ اللهِ تَعَالَى. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ: (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)[2] أي وتجعلُون شُكرَكم للهِ على رزقهِ إيَّاكم أنَّكم تُكذِّبون بنعمَتهِ، وتقولون: سُقينا بنوءِ كذا.

وعن معاويةَ الليثي: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [يُصْبحُ النَّاسُ مُجْدِبِينَ، فَيَأْتِيهُمُ اللهُ برِزْقٍ مِنْ عِنْدِهِ، فَيُصْبحُونَ مُشْرِكِينَ، يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بنَوْءِ كَذا وَكَذا][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ معناه: وهلاَّ إذا بلَغَتِ النَّفسُ الحلقومَ عند الموتِ، ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ ﴾ ، يا أهلَ الميِّتِ، ﴿ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ، مَآلَ الميتِ، وأنتم حولَهُ ترَونَ نفسَهُ تخرجُ ولا تقدِرون على ردِّها، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ ، منكم، ورسُلنا أقربُ إليه، ﴿ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

ويجوزُ أن يكون معناهُ: يعني مَلَكَ الموتِ وأعوانَهُ، والمعنى: ورسُلنا القابضُون روحَهُ أقربُ إليه منكم، ويجوزُ أن يكون معناهُ: ونحنُ أقربُ إليه منكم بالعلمِ والقُدرَةِ، نراهُ من غيرِ مسافةٍ بيننا وبينَهُ، وأنتم لا تنظرونَهُ إلاَّ بمسافةٍ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٧. وابن حبان في الصحيح: كتاب النجوم والأنواء: الحديث (٦١٣٠)، وإسناده صحيح.
(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٨-٢٩؛ قال: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس).
(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣١؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد عن معاوية الليثي) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾؛ أي فهلاً إن كنتم غيرَ مجزيين ومحاسَبين كما تزعُمون ترُدُّون نفسَ هذا الميِّت إلى جسدهِ إذا بلغَتْ تَرَاقِيَهُ إنْ كُنتم صَادِقِين في ظنِّكم أنَّ لكم شَيئاً من القُدرةِ، فعجزُكم عن ردِّ هذه الروحِ إلى الجسدِ دليلٌ على أنَّكم مَقهُورون عاجزون.

والمعنَى: إنْ كان الأمرُ كما يقولون إنَّهُ لا بعثَ ولا حسابَ ولا جزاءَ ولا إلهَ يحاسِبُ ويُجازي، فهلاً تردُّون نفسَ من يعزُّ عليكم إذا بلغتِ الحلقومَ، وإذا لم تقدروا على ذلك فاعلَمُوا أنَّ الأمرَ إلى غيركم وهو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (تَرْجِعُونَهَا) جوابٌ عن قولهِ (فَلَوْلاَ إنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) أُجيب بجوابٍ واحد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾؛ معناهُ: فأما إنْ كان هذا المحتضِرُ الذي بلَغت نفسهُ الحلقومَ من السَّابقين المقرَّبين عندَ اللهِ، فله رَوْحٌ وهو الرَّوحُ والاستراحةُ، وقال مجاهد: (الرَّوْحُ: الْفَرَحُ، وَرَيْحَانٌ يَعْنِي الرِّزْقَ فِي الْجَنَّةِ). قرأ الحسنُ وقتادة ويعقوب: (فَرُوحٌ) بضمِّ الراء، معناهُ: الحياةُ الدائمةُ التي لا موتَ فيها.

ويقالُ: إن الرَّوح بنصب الراء نسيمٌ تستريحُ إليه النفسُ، والرَّيحانُ هو السَّمُومُ[1]، قال أبو العاليةِ: (يُؤْتَى بَعْضٌ مِنْ رَيْحَانِ الْجَنَّةِ فَيَشُمُّهُ قَبْلَ أنْ يُفَارِقَ الدُّنْيَا ثُمَّ تُقْبَضُ رُوحُهُ). وقال أبو بكر الوراق: (الرَّوحُ النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ، وَالرَّيْحَانُ دُخُولُ الْقَرَارِ).

وقال الترمذيُّ: (الرَّوْحُ الرَّاحَةُ فِي الْقَبْرِ، وَالرَّيْحَانُ دُخُولُ الْجَنَّةِ). وقال بسطامُ: (الرَّوْحُ السَّلاَمَةُ، وَالرَّيْحَانُ الْكَرَامَةُ). وقال الشعبيُّ: (الرَّوْحُ مُعَانَقَةُ الأَبْكَارِ، وَالرَّيْحَانُ مُرَافَقَةُ الأَبْرَارِ).

وَقِيْلَ: الرَّوحُ كَشفُ الكروب، والريحانُ غُفران الذنوب. وَقِيْلَ: الرَّوح تخفيفُ الحساب، والريحانُ تضعيفُ الثواب. وَقِيْلَ: الرَّوح عفوٌ بلا عتابٍ، والرَّيحان رزقٌ بلا حسابٍ. وَقِيْلَ: الرَّوح لأرواحِهم، والريحانُ لقلوبهم، وجنةُ النعيمِ لأبدانِهم.

---

(١) ذكره الطبري في جامع البيان: بعد الرقم (٢٦٠٠)، وقال: (فأولى الأقوال) وذكره.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وأما إنْ كان هذا المتوفَّى مـن أصحـاب اليمـين، يعـني مـن عامَّة المؤمنينَ دون السابقين، فسلامٌ لكَ أيُّها الإنسانُ الذي مِن أصحـاب اليمـين مِـن عذاب الله، وسلَّمت عليكَ ملائكةُ اللهِ، وسَلِمْتَ مما تكرهُ لأنَّك من أصحاب اليمين، وترَى في الجنةِ ما يجبُ من السَّلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَسَلاَمٌ لَكَ) رُفع على معنى: لكَ سلامٌ؛ أي سلامةٌ من العـذاب. وَقِيْلَ: معناهُ: فسلامٌ عليكَ من أصحاب اليمين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ ؛ وأمـا إنْ كـان هـذا المتوفَّـى مـن المكذِّبـين بـالبعثِ والرسـالةِ، ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ، مـن الـهُدَى، ﴿ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ ﴾ ، أي فالحقُّ الذي يُعَدُّ له حميمُ جهنَّمَ، ﴿ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ ، أي أدخِلَ ناراً عظيمةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ يعـني مـا ذُكِـرَ مـن قصَّـة الْمحتَضِرين، وجميعُ ما سبقَ ذِكرهُ ليقينٌ حقُّ اليقينِ لا شكٌّ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي نَزِّهِ اللهَ عن السُّـوء، والبـاءُ زائـدةٌ، والاسـمُ بمعنـى الذات والنفسِ، كأنه قِيْلَ: فسبح ربَّكَ العظيمَ.

آخر تفسير سورة (**الواقعة**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْحَدِيـــدِ

سُورَةُ الْحَدِيدِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفَان وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَسِتَّةٌ وسَبْعُون حَرْفاً، وَخَمْسُمِائَةٍ وَأَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعٌ وَعُشْرُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَدِيدِ كُتِبَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ][(١)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ ؛ أي خضعَ وصلَّى للهِ ما في السَّموات من الملائكةِ من الخلْق، ونزَّهوهُ عن السُّوء والأنداد، ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ ؛ في مُلكهِ وسلطانه، ﴿ ٱلۡحَكِيمُ (١) ﴾ ؛ في أمرهِ وقضائهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ ؛ أي له خزائنُ السَّموات والأرض من المطرِ والنبات وغير ذلك، ﴿ يُحۡيِۦ ﴾ ؛ للبعثِ، ﴿ وَيُمِيتُۖ ﴾ ؛ عند انقضاءِ الآجال، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ ؛ من الإحياءِ والإماتةِ، ﴿ قَدِيرٌ (٢) ﴾ أي قادرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ ﴾ ؛ أي هو الأولُ بلا ابتداءٍ، والآخرُ بلا انتهاءٍ، لم يزَلْ قديماً قبلَ كلِّ شيء، وهو الدائمُ بعد فناءِ كلِّ شيء، وهو الظاهرُ الغالبُ على كلِّ شيء، والظاهرُ هو القاهرُ، ومنه قولُهُ ﴿فَأَصْبَحُوا

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٢٧ عن أبي بن كعب بإسناد ضعيف.

ظَاهِرِينَ﴾[1] أي غالبين. ويقالُ: ظهرَ الأميرُ على بلدِ كذا؛ إذا غلبَ عليها، وهو الباطنُ الذي لا يدرَكُ بالحواسِّ ولا يقاسُ بالناس. وَقِيْلَ: معناهُ: هو الظاهرُ بأدلَّتهِ العالِمُ بما بَطُنَ من أمور خلقهِ. وَقِيْلَ: الباطنُ الْمُحْتَجِبُ عن الأبصار، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ من الظاهرِ والباطنِ، ﴿عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾؛ قد تقدَّمَ تفسيرُ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي ما يدخلُ فيها فيُستَرُ، كما يعلمُ، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾؛ فيظهَرُ، وَ يعلمُ، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾، مِن مَلَكٍ ورزق ومطر، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ وما يصعَدُ إليها من الملائكةِ وأعمالِ العباد، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾؛ أي وهو أعلمُ بأقوالِكم وأفعالِكم وعزائِمكم في أيِّ موضعٍ كنتم، فليس يخلُو أحدٌ من علمِ الله وقُدرتهِ أينما كان في الأرضِ أو في السَّماء أو في برٍّ أو في بحر، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾. وما بعدَ هذا: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾. ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي صدِّقوا باللهِ بأنَّهُ خالقُكم وإلهكم، وصدِّقوا برسولهِ أنَّهُ صادقٌ فيما يؤدِّيه إليكم، ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾؛ في الجهادِ وعلى الضُّعفاء، وغيرِ ذلك من سُبل الخيرِ من الأموالِ التي جعلكم اللهُ مُستَخلفين فيها بأن أورثكُموها ممَن كان قبلَكم.

ويقال: إنَّ الأموالَ التي في الدُّنيا لا تخلُو إمَّا أنْ تكون قد صارت إلينا فنحنُ خلفاؤُهم فيها، أو تصيرُ منَّا إلى غيرِنا فهم خلفاءنا فنحفَظُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾؛ أي لهم ثوابٌ عظيم في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾؛ هذا استفهامُ إنكار؛ معناهُ: أيُّ شيءٍ لكم من الثَّواب في الآخرةِ إذا لم تُؤمنوا باللهِ بعدَ قيامِ الحجَّة عليكم على

(١) الصف / ١٥.

وحدانيَّة اللهِ تعالى وتَمام علمهِ وكمال مُلكهِ، وأيُّ عُذر يَمنَعُكم من الإيمان بالله تعالى، ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ ﴾ ؛ في ظهرِ آدمَ بأنَّ اللهَ ربَّكم لا إلهَ إلاّ هو ولا معبودَ سواهُ. وَقِيْلَ: معنى (أخَذ مِيثَاقكُمْ) ركَّبَ فيكم العقولَ وأقامَ الحججَ والدلائل التي تدعُو إلى متابعةِ الرَّسول ﷺ.

قرأ العامَّةُ (أخَذ) بفتحِ الهمزة وفتحِ القاف[١]، وقرأ أبو عمرو بضمِّها على ما لَمْ يسَمَّ فاعلهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ يعني إنْ كُنتم مُصدِّقين كما تزعُمون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ﴾ ؛ معناهُ: هو الذي يُنَزِّلُ على عبدهِ مُحَمَّدٍ ﷺ آياتٍ بيِّناتٍ، يعني القرآنَ، ليُخرجَكم من ظُلماتِ الشِّرك إلى نُور الإيمان، ومِن ظُلماتِ الجهلِ إلى نور العلم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ يعني حين بعثَ الرسولَ ونصبَ الأدلَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ معناهُ: أيُّ شيءٍ لكم في تركِ الإنفاقِ في نُصرةِ الإسلامِ ومُواساةِ الفُقراءِ وأنتم ميِّتون تاركون أموالَكم، واللهُ سبحانه يرزُقكم، ويرِثُ ما في السَّموات والأرضِ، يُميتُ مَن فيهما ويرِثُ مَن عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ ﴾ ؛ معناهُ: لا يستوِي منكم في الفَضلِ مَن أنفقَ مالَهُ وقاتلَ العدوَّ مِن قبلِ فتح مكَّة مع مَن أنفقَ من بعدُ وقاتلَ. قال الكلبيُّ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق ﷺ)[٢] قِيْلَ: هذا أنَّهُ كان أوَّلَ مَن أنفقَ المالَ على رسول الله ﷺ في سبيلِ الله، وأوَّلَ مَن قاتلَ في الإسلامِ. قال ابنُ مسعودٍ: (أوَّلُ مَنْ أظْهَرَ إسْلاَمَهُ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ،

---

(١) فتح القاف من ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾.

(٢) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان:ج٩ ص٢٣٢. والبغوي في معالم التنزيل:ص١٢٧٦.

وَقَدْ شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهُ أنفَقَ مَالَهُ قَبْلَ الْفَتْحِ)[١].

قال العلاءُ بن عمرو: (بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ وَعِنْدَهُ أبو بَكْرٍ ﷺ وَعَلَيْهِ عَبَاءَةٌ، قَدْ خَلَّهَا عَلَى صَدْرِهِ بِخِلاَلٍ[٢] إذْ نَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ: مَا لِي أرَى أبَا بَكْرٍ عَلَيْهِ عَبَاءَةٌ ؟ فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ إنَّهُ أنفَقَ مَالَهُ قَبْلَ الْفَتْحِ عَلَيَّ، قَالَ: فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلاَمَ وَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ رَبُّكَ: أرَاضٍ أنْتَ عَنِّي فِي فَقْرِكَ هَذا أمْ سَاخِطٌ؟ فَقَالَ ﷺ: [يَا أبَا بَكْرٍ؛ هَذا جِبْرِيلُ يُقْرِؤُكَ السَّلاَمَ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَيَقُولُ لَكَ رَبُّكَ: أرَاضٍ أنْتَ عَنِّي فِي فَقْرِكَ هَذا أمْ سَاخِطٌ؟] فَبَكَى أبو بَكْرٍ ﷺ وَقَالَ: أعَلَى رَبِّي أغْضَبُ؟! أنَا عَنْ رَبِّي رَاضٍ)[٣].

وفي هذه الآيةِ دلالةٌ واضحة وحُجَّةٌ بَيِّنَةٌ على فضلِ أبي بكر وتقديمه على سائرِ الصَّحابة، كما رُوي عن عليٍّ ﷺ أنه قالَ: (لاَ أوْتَي بِرَجُلٍ فَضَّلَنِي عَلَى أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ إلاَّ جَلَدْتُهُ حَدَّ الْمُفْتَرِي)[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ ﴾؛ معناهُ: أولئكَ أعظمُ ثواباً وأفضلُ درجةً عند اللهِ من الذين أنفقُوا من بعدِ فتحِ مكَّة وقاتلُوا بعدَهُ، وإنما فضَّلَ اللهُ المنفقِين والمقاتلين من قبلِ الفتحِ؛ لأن الإنفاقَ والقتالَ في ذلك الوقتِ كان أشدَّ على النفسِ، وكانت الحاجةُ اليها أمَسُّ لقلَّة المسلمِين.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٧٦. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١٧ ص٢٤٠.

(٢) الخِلاَلُ: العُودُ الذي يتخلَّلُ به، وما يُخَلُّ بِهِ الثوبُ، فيُربط به طرفَي فُرجتهِ. مختار الصحاح: ص١٨٧.

(٣) أخرجه البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٧٦-١٢٧٧ بسنده (عن العلاء بن عمرو الشيباني ثنا أبو إسحق الفزاري ثنا سفيان بن سعيد عن آدم بن علي عن ابن عمر قال: كنت عند رسول الله ﷺ) وذكره. وفي تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص٣٠٨؛ قال ابن كثير: (هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه والله أعلم).

(٤) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٣٦. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٤٠؛ وقال: (فنال المتقدمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضاً أنفذ).

ثم بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ لِكِلاَ الفريقين الحسنَى وهو الجنـةُ، إلاّ أنَّـهم مُتفـاوتون في الدَّرجَات فقال: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ؛ أي وكِـلاَ الفريقـين وعـدَ اللهُ الجنـةَ، وقرأ ابنُ عامرٍ (وَكُلٌّ) بالرفعِ على الاستئنافِ على لُغة مَن يقولُ: زيدٌ ضرَبتُ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بما يعملهُ كلُّ واحدٍ منكم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ في البقرةِ. قـال أهـلُ العلـمِ: القـرضُ الحسَـنُ أنْ يكون من الحلال؛ لأنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يقبلُ إلاّ طيِّباً، وأنْ يكون من أحسَنِ ما يملكهُ دون أن يقصِدَ الرديءَ لقولهِ تعالى ﴿لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[1]، وأن يتصدَّقَ وهـو لِحُب المال ويرجُـو الحيـاةَ؛ لأنَّ النبـيَّ ﷺ سُـئل عـن أفضـلِ الصَّدقـات فقـالَ: [أنْ تَتَصَدَّقَ وَأنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَأْمَلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ، وَلاَ تُمْهِلْ حَتَّـى إذا بَلَغَـتِ الْحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلاَنٍ كَذا وَلِفُلاَنٍ كَذا، وَأنْ تَضَعَ الصَّدَقَةَ فِي الأَحْوَجِ الأَوْلَـى][2]. وأنْ يكتُمَ الصدقةَ ما أمكنَ لقولهِ ﴿وَإنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَـيْرٌ لَكُـمْ﴾[3]، وإن لا يتبعَ الصدقةَ المنَّ والأذى لقوله تعالى ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بالْمَنِّ وَالأَذى﴾[4]، وأن يقصِدَ بها وجهَ اللهِ ولا يُرائِي بها، وأن يستحقرَ مـا يُعطـي وإنْ كَـثُرَ؛ لأن الدُّنيـا كلها قليلةٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[5] وأن يكون مِن أحب مالـهِ، قَـالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُـوا مِمَّـا تُحِبُّـونَ﴾[6]. وهـذه تسـعةُ أوصـافٍ إذا استكمَلَتها الصدقةُ كانت قَرْضاً حَسناً.

---

(١) البقرة / ٢٦٧ .

(٢) إسناده صحيح، أخرجه الإمام أحمد في المسـند:ج ٢ ص٢٥و٢٣١و٤١٥ و٤٤٧. والبخـاري في الصحيح: كتاب الزكاة: باب فضل صدقـة الصحيـح الشـحيح: الحديـث (١٤١٩)، وفي كتـاب الوصايا: باب الصدقة عند الموت: الحديث (٢٧٤٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الزكـاة: بـاب أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح: الحديث (١٠٣٢).

(٣) البقرة / ٢٧١ .

(٤) البقرة / ٢٦٤ .

(٥) النساء / ٧٧ .

(٦) آل عمران / ٩٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَيُضَاعِفَهُ لَهُ) فيه قراءَتان: مَن قرأ بالرفعِ فعلى العطفِ على (يُقْرِضُ) أو على الاستئنافِ على معنى فهو يضاعفُهُ، ومَن قرأ بنصب الفاء فعلى جواب الاستفهامِ بالفاء[1]، وقولهُ تعالى (وَلَهُ أجْرٌ كَرِيمٌ) الأجرُ الكريم الذي يقعُ به النفعُ العظيم وهو الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ معناهُ: اذكُرْ يومَ تراهُم، ويجوزُ أن يكون انتصابُ اليوم على معنى ولَهم أجرٌ كريم يسعَى نورُهم بين أيدِيهم وبأيمانِهم على الصِّراطِ يومَ القيامةِ، وهو دليلُهم إلى الجنَّة.

وأرادَ بالنور القرآنَ، وَقِيْلَ: نورُ الإيمان والطاعةِ، تظهرُ لهم فيمشون فيه، قال ابنُ مسعودٍ: (يُؤْتَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَى نُورَهُ مِثْلُ الْجَبَلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَى نُورَهُ كَالنَّخْلَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَى نُورَهُ كَالرَّجُلِ الْقَائِمِ، وَأدْنَاهُمْ نُوراً نُورُهُ عَلَى إبْهَامِهِ يُطْفِيءُ مَرَّةً وَيُوقَدُ أخْرَى)[2]. وقال قتادةُ: (الْمُؤْمِنُ يُضِيءُ لَهُ نُورُهُ كَمَا بَيْنَ عَدَنَ وَصَنْعَاءَ وَدُونَ ذلِكَ، حَتَّى أنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِين مَنْ لاَ يُضِيءُ لَهُ نُورُهُ إلاَّ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَبأَيْمَانِهِمْ) قال الضحَّاكُ ومقاتل: (وَبأَيْمَانِهِمْ كُتُبُهُمُ الَّتِي أعْطُوهَا، فَكُتُبُهُمْ بأَيْمَانِهِمْ، وَنُورُهُمْ بَيْنَ أيْدِيهِمْ)[4]. وتقولُ لهم الملائكةُ: ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ يعني أنْهارَ اللَّبَن والخمر والعسلِ والماء، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ؛ لا يَموتون ولا يُخرَجون منها، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ ؛ أي احذرُوا يومَ يقولُ المنافقون للمؤمنين

---

(١) قاله أيضاً الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٩٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٠٢٥). وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٤٤. وصححه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: سورة الحديد: الحديث (٣٨٣٧).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٠٢٤).

(٤) بمعناه قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٢٢. ومن قول الضحاك بمعناه أيضاً، أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٠٢٦).

المخلصِين: انظُرونا نُضِيءُ بنُوركم فنَمضِي معَكم على الصِّراطِ، وذلك أنَّ المنافقين تغشَاهُم ظلمةٌ حتى لا يكادُون ينظرون مواضعَ أقدامِهم، فينادون المؤمنين نَقتَبسْ من نُوركم.

قرأ حمزةُ (أَنْظِرُونَا) بقطع الألف وكسر الظاء؛ أي أمهِلُونَا، وقال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ: انْتَظِرُونَا أيْضاً)، وقال عمرُو بن كلثوم[1]:

أَبَا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيَقِينَا

قال المفسِّرون: إذا كان يومُ القيامةِ، أعطَى اللهُ المؤمنين نُوراً على قدر أعمالهم يَمشُون به على الصِّراطِ، وأعطَى اللهُ المنافِقِين نُوراً كذلكَ خديعةً لَهم فيما بينهم كذلك يَمشون، إذا بعثَ اللهُ ريحاً وظلمةً فانطفأ نورُ المنافِقِين، فعندَ ذلك يقولُ المؤمنون: ربَّنا أتْمِمْ لنا نُورَنا، مَخافةَ أن يُسلَبَ كما سُلِبَ المنافِقُون.

ويقولُ المنافِقُون حينئذٍ للمؤمنين: انْظُرُونَا نَقتَبسْ من نُوركم، فيقولون لَهم: لا سبيلَ لكم إلى الاقتباسِ من نُورنا، فارجِعُوا وراءَكم فاطلُبوا هنالكَ لأنفُسِكم نُوراً، فيرجِعُون في طلب النُّور فلا يجدُون، فيقولُ لَهم الملائكةُ: ارجعوا إلى الموضعِ الذي أخَذنا منه النُّور[2] فاطلُبوا نوراً، فإنَّ المؤمنين حَمَلُوا النورَ من الدُّنيا بإيمانِهم وطاعتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ ؛ معناهُ: فيُميِّزُ بين المؤمنِين والمنافقين بأنْ يُضرَبَ بينهم بجدار كبير يقالُ له السُّورُ، وهو الذي يكونُ عليه أصحابُ الأعرافِ، وهو حاجزٌ بين الجنَّة والنار. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّهُۥ بَابٌۢ ﴾ ؛ أي للسُّور بابٌ، ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ ﴾ ؛ وهي الجنَّة التي فيها المؤمنون، ﴿ وَظَٰهِرُهُۥ ﴾ ؛ أي وخارجُ السُّور، ﴿ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ يعني جهنَّمَ والنارَ.

---

(١) قاله الزجاج ونقل الشعر في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٩٨.

(٢) لم يكن رسمها واضح في المخطوط، وجرى ضبط العبارة من الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٤٦.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ ؛ معنـاهُ: أنَّ المنـافقِين يُنـادون المؤمنين من وراءِ السُّور: ألَمْ نكن معكم في الدُّنيا علـى دينِكـم نناكحكم ونوارثكم ونصلِّي معكم في مساجدِكم، ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ؛ أي أهلَكتُموهـا بالنِّفاقِ والمعاصِي والشَّهوات وكلُّها فتنةٌ، ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ ؛ بمُحَمَّدٍ الموتَ وبـالمؤمنين الدوائرَ، وقُلتم: يوشِكُ أن يموتَ مُحَمَّدٌ فنستريحَ منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ ؛ أي شَكَكتُمْ في توحيدِ الله وفي نُبوَّة مُحَمَّـدٍ ﷺ، ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ ؛ يعني: ما كانوا يتمنَّون من قتلِ مُحَمَّدٍ ﷺ وهلاكِ المسلمين، وغرَّتكـم أيضـاً الأبـاطيلُ وطـولُ الآمـال، ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ ؛ يعـني المـوتَ والبعثَ، ﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي وغرَّكم الشيطانُ بحُكمِ اللهِ وإمهالـهِ عن طاعة اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ ؛ لا يُقبَلُ منكم بَذْلٌ تَفدُونَ بـه أنفُسَكم من العذاب، ﴿ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، ولا من الذيـن يُظـهِرُون الكفـرَ. قرأ ابنُ عامرٍ والحسن ويعقوب: (لاَ تُؤْخَذُ) بالتاء.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ؛ أي أولَـى بكـم وأحـقُّ أن تكون مَسكَناً لكم قد ملَكَت أمرَكم، فهي أولَى بكم من كلِّ شـيءٍ، وأنتـم أولى بـها، ومنه المولَى لأنه أولَى بعبيدهِ مـن غـيرِه، ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ النـارُ، قـال قتادةُ: (مَا زَالُوا عَلَى خُدْعَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى قَذفَهُمُ اللهُ فِي النَّارِ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ ؛ معناهُ: أمَا حانَ للمؤمنين الذين تكلَّموا بكلمةِ الإيمـان إذا سَـمِعُوا القرآنَ أنْ تخشعَ قلوبُهم لذكر الله وتَلِينُ وترقُّ، قال ابنُ مسعود: (مَا كَانَ بَيْنَ إسْلاَمِنَا وَبَيْنَ أنْ عَاتَبَنَا اللهُ بهَذِهِ إلاَّ أرْبَعَ سِنِينَ)[1]. والمعنى: يجبُ أن يُورثَهم الذكـرُ خُشـوعاً ولا يكونوا كمَنْ يَذكُره بالغَفلَةِ، ولا يخشعُ للذِّكر قلبهُ. وقوله (وَمَا نَـزَلَ مِـنَ الْحَـقِّ) يعني القرآنَ، قرأ نافع وعاصم مخفَّفاً.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٨؛ قال السيوطي: (أخرجه مسلم والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود) وذكره. وصححه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٨٣٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ وهم اليهودُ والنصارى، وموضعُ (وَلاَ يَكُونُوا) النصبَ عطفاً على قولهِ تعالى (أَنْ تَخْشَعَ) و(وَلاَ يَكُونُوا)، قال الأخفشُ: (وَإنْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ نَهْياً) وهذه زيادةٌ في وعظِ المؤمنين، معناهُ: ولا يَكُونوا في قَسَاوَةِ القلوب كالذين أعطُوا التوراةَ والإنجيلَ من قبلِ المؤمنين، ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ ﴾ ؛ الزمانُ بينهم وبين أنبيائهم، ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (مَالُوا إلَى الدُّنْيَا وَأعْرَضُوا عَنْ مَوَاعِظِ اللهِ، فَلَمْ تَلِنْ قُلُوبُهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ كَلاَمِ اللهِ تَعَالَى)[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي خارجون عن طاعةِ الله، وإنَّما قالَ (وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ) لأنه كان منهم مَن أسلمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ تنبيهٌ على الاستدلالِ بإحياءِ الأرض بعدَ مَوتِها على البعثِ والنُّشور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ ﴾ ؛ قرأ ابنُ كثير وعاصم بتخفيفِ الصَّاد من التَّصْدِيق، تقديرهُ: إنَّ المؤمنين والمؤمناتِ، وقرأ الباقون تشديدها، يعني الْمُصَّدِّقِينَ من الصَّدَقَةِ، أدغمت التاءُ في الصادِ، ﴿ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالصَّدقة والنفقةِ في سبيله، ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمْ ﴾ ، قرأ ابنُ كثيرٍ وابن عامر (يُضَعَّفُ) بالتشديدِ، وقوله: ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ يعني الجنَّةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ ؛ واحدُهم صِدِّيقٌ وهو الكثيرُ الصِّدق، والصِّدِّيقونَ لَمْ يَشُكُّوا في الرُّسل حين أخبَرُوهم، ولم يُكذِّبُوهم ساعةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ قال بعضُهم: تمامُ الكلام عند قولهِ (الصِّدِّيقُونَ)، ثم ابتدأ فقالَ: (وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِهِمْ) وخبرهُ: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ والشهداءُ علىهذا القولِ يحتملُ أنَّ المرادَ بهم الأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ الذين يَشهَدُون يومَ القيامةِ لِمَن صدَّقَ بالتصديقِ وعلى مَن كذبَ بالتكذيب، ويحتملُ أنَّ المرادَ بهم الذين قُتِلُوا في سبيلِ الله.

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٨٧.

وقال بعضُهم: وقوله (وَالشُّهَدَاءُ) عطفٌ على الصِّدِّيقِينَ، ومعنى: الشُّهداء على سائرِ المؤمنين، ففي الحديثِ: [الْمُؤْمِنُونَ شُهَدَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ][1]. وقالَ ﷺ: [كُلُّ مُؤْمِنٍ شَهِيدٌ][2]. ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ ؛ يعني الحياةُ الدُّنيا كاللَّعب واللَّهوِ في سُرعَةِ فنائِها وانقضائِها، ونظيرُ هذا قولُهُ ﷺ: [الطَّوَافُ بالْبَيْتِ صَلاَةٌ][3] أي كالصَّلاة، ويقالُ: فلانٌ يجري كالبحرِ في السَّخاء، وفلانٌ أسَدٌ؛ أي كالأسدِ في الشَّجاعة.

وقولهُ تعالى (وَزِينَةٌ) أي منظرٌ حسَنٌ، والمعنى: إنما الحياةُ الدُّنيا لعبٌ ولَهوٌ كلعب الصبيان، وزينةٌ كزِينَةِ النِّسوانِ، ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ كتكَاثُرِ الدُّهقان[4].

قال عليُّ بن أبي طالبٍ لعمَّار بن ياسر: (لاَ تَحْزَنْ عَلَى الدُّنْيَا؛ فَإنَّهَا سِتَّةُ أشْيَاءٍ: مَطْعُومٌ؛ وَمَشْرُوبٌ؛ وَمَلْبُوسٌ؛ وَمَشْمُومٌ؛ وَمَرْكُوبٌ؛ وَمَنْكُوحٌ، فَأَكْبَرُ طَعَامِهَا الْعَسَلُ وَهُوَ بُزَاقُ ذُبَابَةٍ، وَأكْبَرُ شَرَابِهَا الْمَاءُ وَفِيهِ يَسْتَوِي جَمِيعُ الْحَيْوَانَاتِ، وَأكْبَرُ مَلْبُوسِهَا الدِّيبَاجُ وَهُوَ نَسْجُ دُودَةٍ، وَأكْبَرُ مَشْمُومِهَا الْمِسْكُ وَهُوَ دَمُ فَأْرَةٍ أوْ ظَبْيَةٍ، وَأكْبَرُ مَرْكُوبِهَا الْفَرَسُ وَعَلَيْهِ يُقْتَلُ الرِّجَالُ، وَأكْبَرُ مَنْكُوحِهَا النِّسَاءُ وَهُوَ مَبَالٌ فِي مَبَالٍ)[5].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص١٨٦. والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب آداب القاضي: باب اعتماد القاضي على تزكية المزكين وجرحهم: الحديث (٢٠٩٧١)، وقال: (رواه البخاري في الصحيح عن سليمان بن حرب ورواه مسلم عن أبي الربيع).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٠٥٨).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٢٩: الحديث (١٠٩٥٥). والترمذي في الجامع: أبواب الحج: باب ما جاء في الكلام في الطواف: الحديث(٩٦٠). والنسائي في السنن: كتاب الحج: باب إباحة الكلام في الطواف: ج ٥ ص٢٢٢، وإسناده صحيح.

(٤) الدُّهقان: بكسر الدال أو ضمها: التاجر، فارسي معرب.

(٥) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٤٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٥٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ ؛ أي مثَلُ الدُّنيا كمثلِ مطَرٍ أعجبَ الزُّرَّاعَ نباتهُ، والكفرُ في اللغةِ هو التَّغطِيَةُ، وسُمِّي الكافرُ كافراً؛ لأنه يُغَطِّي الحقَّ بالباطلِ، والزَّارعُ يُغَطِّي الحبَّ بالأرضِ.

والمعنى: كمَثَلِ غيثٍ أعجبَ الزُّرَّاعَ ما نبتَ من ذلك الغيثِ، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ ؛ أي ثم يَبِينُ فيصير مُصْفَرّاً بعدَ خُضرَتِهِ وريِّه، ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ ؛ أي متَكَسِّراً مفتَّتاً تحتَ أرجُلِ الدواب، كذلك الدُّنيا تزولُ وتفنَى، كما لا يبقَى هذا الزرعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾ ؛ أي عذابٌ شديد للكفَّار والمنافقِين، ومغفرةٌ من اللهِ ورضوانٌ للمؤمنين المطيعِين، وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ هي في سُرعَةِ فَنائِها ونفَادِها مثل متاعِ البيت في سُرعةِ فنائه وفراغهِ وسقوطه وانكسارهِ.

وعن عليٍّ ﷺ أنَّهُ كان يقولُ في صفةِ الدنيا: (أمَّا مَاضِي فحكَم، وأمَّا مَا يُغْنِي فَأَمَانِيٌّ وَغُرُورٌ). وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [الرَّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا تُكْثِرُ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ، وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي سَابقوا إلى ما أُمِرتُم وإلى التَّوبةِ لتنالوا مغفرةً من ربكم جنَّةٍ سِعَتُها كسِعَةِ السَّماء والأرضِ. وَقِيْلَ: المرادُ بالآيةِ السَّبْقُ إلى الجهادِ والجمُعةِ والجماعاتِ وسائر أعمالِ البرِّ، وباقي الآيةِ ظاهرٌ. ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ ؛ معناهُ: ما أصابَ أحداً مصيبةً في الأرضِ من

---

(١) في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٢٨٦؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه أشعث بن نزار ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم). وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: الحديث (٦١١٦) عن أبي هريرة ﷺ.

قحطِ المطر وقلَّة النباتِ ونقص الثّمار، (وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ) من المرضِ والموتِ وفَقدِ الأولادِ، إلاَّ وهو مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظِ من قبل أن نخلُقَ الأرضَ. ويقالُ: من قبلِ أن نخلُقَ النَّفسَ، ويقالُ: من قبلِ أن نقدِّرَ تلك المصيباتِ في اللَّوح المحفوظِ؛ لأن خلقَ ذلك وتقديرَهُ على الله هيِّنٌ. والْبَرَأ في اللغة هو الْخَلْقُ، والبَارئُ: الخالقُ، والبَرِيَّةُ: الخليقةُ. قوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ يعني إثباتُ ذلك كله مع كَثرتِهِ على الله هيِّنٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾؛ بالصبرِ عند المصائب، والشُّكرِ عند النِّعَمِ، لأنَّ العاقلَ إذا عَلِمَ الذي فاتَهُ كان مكتوباً عليه، دعاهُ ذلك إلى تركِ الْجَزَعِ، وكانت نفسهُ أسكنَ وقلبهُ أطيبَ، وإذا عَلِمَ أنَّ الذي أتاهُ من الدنيا كان مَكتوباً له قبلَ أن يصيرَ إليه، وأنه لا يبقَى عليه، دعاهُ ذلك إلى تركِ النظرِ.

قرأ أبو عمرو (أَتَاكُمْ) بالقصرِ؛ أي جاءَكُم، واختارَهُ أبو عُبيد لقوله (فَاتَكُمْ) ولم يقل: أفَاتَكُمْ، وقرأ الباقون (آتَاكُمْ) بالمدِّ؛ أي أعطَاكُم، واختارَهُ أبو حاتم، وكان الحسَنُ يقولُ لصاحب المال: (فِي مَالِهِ مُصِيبَتَانِ لَمْ يَسْمَعِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ بِمِثْلِهَا: يُسْلَبُ عَنْ كُلِّهِ وَيُسْأَلُ عَنْ كُلِّهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ فيه ذمٌّ للفرحِ الذي يختالُ ويبطرُ بالمالِ والولدِ والولايةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾؛ يعني الذين يمتَنِعون عن أداءِ الحقوق الواجبة في المالِ، ويمنَعُون الناسَ عن أداءِ تلك الحقوق، وهذا نعتُ المختال الفخور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي مَن يعرِضْ عن الإيمانِ وعن أداءِ الحقوق، فإنَّ اللهَ هو الغنيُّ عنه وعن إيمانهِ، وهو المحمودُ في أفعالِهِ، قرأ نافعُ وابن عامر (فَإِنَّ اللهَ الْغَنِيُّ)، وقرأ الباقون (هُوَ الْغَنِيُّ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ؛ أي بالآياتِ والْحُجَـجِ، ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ ؛ الذي يتضمَّنُ الأحكامَ، وقولهُ تعالى:﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ يعني العدلَ؛ أي أمَرَ بالعدل، وَقِيْلَ: يعني الذي يُوزَنُ به؛ أي أمَرَنـا بـالميزان،﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ ؛ أي ليَتَعامَلُون بينهم بالعدل والنُّصفَةِ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ ؛ قـال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَعَهُ الإبْرَةُ وَالْمِطْرَقَـةُ وَالْكَلْبَتَيْـنِ)[١]. وَقِيْـلَ: المـرادُ بإنزال الحديد أنه خلقَهُ اللهُ في الجبال والمعادن. وقوله تعالى (فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) أي قـوَّةٌ شديدةٌ، لا يُلَيِّنهُ إلاَّ النارُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَنَافِعُ لِلنَّـاسِ) يعـني الفـؤوسَ والسـكاكينَ والإبرةَ وآلةَ الحرب وآلة الدفعِ يعني السِّلاحَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ ؛ أي وليعلَـمَ اللهُ مَن ينصرُ دِينَهُ وينصرُ رسلَهُ بهذه الأسلحةِ، واللهُ سبحانه لم يزَلْ عَالِماً بمَن ينصرُ ومَن لا ينصرُ؛ لأن عِلْمَ اللهِ لا يكون حَادِثاً، لأنَّ المرادَ بهذا العلمِ الإظهارُ والتمييز. وقوله تعالى (بالْغَيْب) معناهُ: ولَمْ يَرَ اللهَ ولا أحكامَ الآخرة.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ فيـه بيـانُ أنـه تعـالَى لم يـأمُرْ بالجهادِ عن ضَعْفٍ وعجزٍ، إنما أمَرَ به ليُثِيبَنا عليه. وما بعدَ هـذا: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ، ظاهرُ المعنى.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا ﴾ ؛ أي أتبَعْنَا الرُّسل علـى إثْرِ نوحٍ وإبراهيمَ ومَن كان من الرُّسل مـن أولادِهمـا،﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ ؛ أي أتبَعنا به وأعطيناهُ الإنجيـلَ دُفعـةً واحـدةً،﴿ وَجَعَلْنَا فِي

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٦١؛ قال القرطبي: (قال الثعلبي: قال ابـن عبـاس: (نـزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلـة الحداديـن: السِّنْدَانُ، وَالْكَلْبَتَـان، وَالْمِيْقَعَـةُ، وَالْمِطْرَقَةُ، وَالإبْرَةُ) وحكاه القشيري وقال: والميقعة: ما يحدد بـه). وذكـره الثعلـبي في الكشـف والبيان: ج ٩ ص٢٤٦.

قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ ؛ الحواريّين وأتباعَـهم، ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ ؛ يعـني المـودَّة، كانوا مُتوَادِّين بعضهم لبعضٍ كما وصفَ اللهُ تعـالى أصحـابَ مُحَمَّـدٍ ﷺ بقولـه تعـالى ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ ؛ ليس بعطفٍ على مـا قبلَـهُ، وانتصابـهُ بفعلٍ مُضمَرٍ يدلُّ عليه ما بعدَهُ، كأنه قالَ: وابتدَعُوا رهبانيةً؛ أي جاءُوا بــها مـن قِبَـلِ أنفسِـهم، وهــو قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: ما فرَضنَاها عليهم تلك الرهبانيَّة، بل هي غلُوُّهم في العبادةِ مــن حمـلِ المشَـاقِّ على أنفُسِهم، وهي الامتناعُ من المطعمِ والمشرب والملبَسِ والنِّكاحِ والتعبُّدِ في الجبـالِ، ما فرَضنَا عليهم ذلك إلاّ أنَّهم طلَبُوا بها رضوانَ اللهِ. وَقِيْلَ: معناها: ما فرَضنا عليهم إلاَّ اتباعَ ما أمرَ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ ؛ أي قصَّرُوا فيما ألزَمُوه أنفُسَـهم ولم يحفَظُوها حقَّ الحفظِ، ويقالُ: إنه لَمَّا لم يُؤمِنوا بالنبيِّ ﷺ حين بُعـث كـانوا تـاركين لطاعةِ الله تعالى غيرَ مُراعين لها فضيَّعوها وكفَرُوا بديــنِ عيسـى بـن مريـم، وتـهَوَّدوا وتنَصَّروا وتركوا الترهيب.

قَوْلُهُ تَعَــالَى: ﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ ؛ وهـم الذيـن أقـامُوا على دينِ عيسى حتى أدركُوا مُحَمَّداً ﷺ فآمَنُوا به فأعطيناهم ثوابَهم، قال ﷺ: [مَنْ آمَنَ بـي وَصَدَّقَنِـي وَاتَّبَعَنِـي فَقَـدْ رَعَاهَـا حَـقَّ رعَايَتِـهَا، وَمَـنْ لَـمْ يَتَّبعْنِـي فَـأُولَئِكَ هُــمُ الْهَالِكُونَ][٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: وكثـيرٌ منـهم خالَفُوا دينَ عيسى فقالوا هو ابنُ اللهِ أو نحواً من هذا القول.

---

(١) الفتح / ٢٩ .

(٢) إسناده حسن، في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٤-٦٥؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحـاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان وابن عساكر من طـرق عبـدالله بـن مسـعود) وذكره مطولاً. وفي مجمع الزوائد: ج١ ص١٦٣؛ قال الهيثمي: (رواه الطـبراني بإسـنادين رجـال أحدهما رجال الصحيح غير بكير بن معروف وثقه أحمد وغيره، وفيه ضعف).

والرهبانيَّةُ في اللغة: خَصْلَةٌ يظهرُ فيها معنى الرَّهْبَنَةِ، وذلك إمَّا في لبسهِ أو انفرادهِ عن الجماعة للعبادةِ، قال رسولُ الله ﷺ: [لاَ تُشَدِّدُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ فَيُشَدِّدُ اللهُ عَلَيْكُمْ، فَإنَّ قَوْماً شَدَّدُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ، ﴿رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾][(١)].

وعن عروةَ قال: (دَخَلَتِ امْرَأةُ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ بَاذةُ الْهَيْئَةِ، فَسَألَتْهَا: مَا شَأْنُكِ؟ فَقَالَتْ: زَوْجِي يَقُومُ اللَّيْلَ وَيَصُومُ النَّهَارَ، فَذكَرَتْ عَائِشَةُ ذلِكَ لِرَسُول اللهِ ﷺ، فَلَقِيَ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ، فَقَالَ لَهُ: [يَا عُثْمَانَ إنَّ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْنَا، فَمَا لَكَ فِيَّ أسْوَةٌ، فَوَاللهِ إنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَاحْفَظُكُمْ لِحُدُودِهِ][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ أي يا أيُّها الذين آمَنُوا بموسَى وعيسى اتَّقُوا الله وآمِنُوا برسولهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ ؛ أي يُؤْتِكُمْ نَصِيبَين من ثوابهِ وكرامته، نَصيباً لإيمانكم به اليومَ ونصيباً لإيمانكم المتقدِّم بالأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ ؛ على الصِّراط، كما قال تعالى ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أيْدِيهِمْ﴾[(٣)] فهذا علامةُ المؤمنين في القيامةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ويجعَلْ لكم نُوراً بالإيمان في الدُّنيا، يعني الهدَى والبيناتِ تهتدون به إلى طاعةِ الله، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ ؛ لمن ماتَ على التوبةِ، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي ليعلَمَ أهلُ الكتاب الذين لم يُؤمِنوا بمُحَمَّدٍ ﷺ وحسَدُوا المؤمنين منهم أن لا

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٦؛ قال السيوطي: (اخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن جبير عن أبيه عن جده) وذكره، وقال: (اخرجه أبو يعلى عن أنس) وذكره.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: كتاب النكاح: باب وجوب النكاح وفضله: الحديث (١٠٣٧٥). والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٢٢٦، وإسناده صحيح. وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٣٠٢: كتاب النكاح: باب حق المرأة على الزوج؛ قال الهيثمي: (رواه أبو يعلى والطبراني بأسانيد وبعض أسانيد الطبراني رجالها ثقات).

(٣) التحريم / ٨ .

يَصرِفوا النبوَّةَ عمَّن تفضَّلَ اللهُ بها عليه إلى غيرِهِ، وأنَّ التوفيقَ بتقديرِ الله يُعطي النبوَّةَ مَن يشاءُ ممن كان أهلاً لها، صَالحاً للقيامِ بها. وَقِيْلَ: ليعلمَ الذين لَم يؤمنوا بمُحَمَّدٍ ﷺ أنَّهم لا أجـرَ لهـم ولا نصيـبَ لهـم في فضـلِ الله، ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ؛ فـآتى المؤمنـين منـهم أجرَيــن، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ ؛ يتفضَّلُ على مَن يشاءُ من عبادِهِ المؤمنين، و(لاَ) في قوله (لِئَلاَّ) زائدةُ المعنى، لأن يعلمَ مثل قولهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ﴾[1].

آخر تفسير سورة (**الحديد**) والحمد لله رب العالمين.

(١) ص/ ٧٥.

سُورَةُ الْمُجَادَلَـةِ

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَتِسْعُمِائَةٍ وَاثْنَانِ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَأَرْبَعُمِائَـةٍ وَثَلاَثٌ وَسَبْعُونَ كَلِمَةً، وَاثْنَتَانِ وَعُشْرُونَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُجَادَلَةِ كُتِبَ مِنْ حِزْبِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ ؛ هذه الآياتُ نزلَت في خَوْلَةَ بنتِ ثعلبـةَ، وهـي امرأةٌ من الخزرجِ من بني عمرو بن عـوفٍ، وفي زوجِـها أوسَ ابـن الصَّـامت، وكَـانَ أوْسُ بْنُ الصَّامِتِ وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ أخوَيْن، وكَانَتْ خَوْلَةُ حَسَـنَةَ الْجِسْـمِ، فرَآهَـا زَوْجُهَا سَاجِدَةً فِي صَلاَتِهَا، فَنَظَرَ إلَى عَجْزِهَا، فَلَمَّا فرغَتْ مِنْ صَلاَتِهَا رَاوَدَهَا فَأَبَتْ، فَغَضِبَ عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهَا: أنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أمِّي، وَنَدِمَ بَعْدَ ذلِكَ عَلَـى مَـا قَـالَ، وَكَـانَ الظِّهَارُ طَلاَقاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

فَمَضَتْ خَوْلَةُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَوَجَدَتْ عَائِشَةَ تَغْسِلُ رَأسَ رَسُول اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ زَوجِي أوْسُ بْنُ الصَّامِتِ تَزَوَّجَنِي وَأنَا شَابَّةٌ غَنِيَّةٌ ذَاتُ مَـالٍ وَأهْلٍ، حَتَّى إذا أكَلَ مَالِي وَأفْنَى شَبَابي وَتَفرَّقَ أهْلِي وَكَبُرَ سِنِّي ظَاهَرَ مِنِّي، وَقَدْ نَـدِمَ عَلَى ذلِكَ، فَهَلْ شَيْءٌ يَـا رَسُـولَ اللهِ يَجْمَعُنِـي وَإيَّـاهُ؟ فَقَـالَ ﷺ: [مَـا أرَاكِ إلاَّ قَـدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ] فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ وَالَّذِي أنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مَا ذكَرَ طَلاَقـاً، وَإنَّـهُ أبُو وَلَدِي وَأحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ، فَقَالَ ﷺ: [حَرُمْتِ عَلَيْهِ]. فَقَالَتْ: أشْكُوا اللهَ تَعَالَى.

---

(١) ذكره ابن حجر في تخريج الكشاف: ج ٤ ص٤٩٧ وعزاه إلى الثعلبي وابـن مردويـه والواحـدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٥٢.

ثُمَّ جَعَلَتْ تُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: [حَرُمْتِ عَلَيْهِ] فَقَالَتْ: أشْكُوا إلَى اللهِ فَاقَتِي وَشِدَّةَ حَالِي. فَنَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ، فَلَمَّا قَضَى الْوَحْيُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [ادْعِي زَوْجَكِ] فَتَلاَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ: (قَد سَمِعَ اللهُ قَولَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوجِهَا وَتَشتَكِى إلَى اللهِ وَاللهُ يَسمَعُ تَحاوُرَكُما إن اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)[1].

وروي: أنَّ خَوْلَةَ لَمَّا أتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ أوْساً تَزَوَّجَنِي وَأنَا شَابَّةٌ مَرْغُوبٌ فِيَّ، فَلَمَّا خَلاَ سِنِّي وَرَقَّ عَظْمِي وَنَثَرْتُ ذا بَطْنِي جَعَلَنِي عَلَيْهِ كَأُمِّهِ، ثُمَّ نَدِمَ عَلَى قَوْلِهِ، وَلِي مِنْهُ صِبْيَةٌ صِغَارٌ؛ إنْ ضَمَمْتَهُمْ إلَيْهِ ضَاعُوا، وَإنْ ضَمَمْتَهُمْ إلَيَّ جَاعُوا، فَقَالَ ﷺ: [مَا عِنْدِي فِي أمْرِكِ شَيْءٌ] فَقَالَتْ: زَوْجِي وَابْنُ عَمِّي وَأبُو أوْلاَدِي وَأحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ، وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ لاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَخْدِمَ نَفْسَهُ، فَقَالَ ﷺ: [مَا أرَاكِ إلاَّ قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ].

فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ لاَ تَقُلْ ذلِكَ؛ إنَّهُ مَا ذكَرَ طَلاَقاً وَإنَّمَا قَالَ كَلِمَةً، فَقَالَ ﷺ: [مَا أُمِرْتُ فِي شَأنِكِ بشَيْءٍ، وَإنْ نَزَلَ فِي شَأنِكِ شَيْءٌ بَيَّنْتُهُ لَكِ] فَهَتَفَتْ وَبَكَتْ وَجَعَلَتْ تُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَتْ: اللَّهُمَّ إنِّي أشْكُو إلَيْكَ شِدَّةَ وَجْدِي وَمَا يَشُقُّ عَلَيَّ مِنْ فِرَاقِهِ، وَرَفَعَتْ يَدَهَا إلَى السَّمَاءِ تَدْعُو وَتَتَضَرَّعُ.

فَبَيْنَمَا هِيَ كَذلِكَ، إذْ تَغَشَّى رَسُولَ اللهِ ﷺ الْوَحْيُ، فَلَمَّا سَرَى عَنْهُ قَالَ: [يَا خَوْلَةُ قَدْ أنْزَلَ اللهُ فِيكِ وَفِي زَوْجِكِ الْقُرْآنَ][2] ثُمَّ تَلاَ (قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إلَى الله وَالله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إنَّ الله سَمِيعٌ).

معناهُ: قد سمعَ اللهُ قولَ المرأةِ التي تُسائِلُكَ وتخاصمُكَ في أمر زوجِها، وترفعُ إلى الله ما بها من المكروهِ، واللهُ يسمَعُ تحاوُرَكما ومراجعتكما، إنَّ الله سميعٌ لمقالتِكما عليم بأمرِها وأمرِ زوجها. والتَّحَاوُرُ: تَرَاجُعُ الكلامِ.

---

(١) ذكر البخاري شطراً منه معلقاً في الصحيح: كتاب التوحيد: الحديث (٧٣٨٥). وأخرج بعضه ابن ماجة في السنن: كتاب السنة: الحديث (١٨٨)، وكتاب الطلاق: الحديث (٢٠٦٣). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٨٤٣). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦١٠٨-٢٦١٢٠) بأسانيد عديدة وألفاظ. والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٤٦، وإسناده صحيح. وبطوله ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٥٣.

(٢) ينظر ما قبله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) وهو أنَّ النبيَّ ﷺ كلَّما قالَ لها [قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ] قالت: واللهِ ما ذكرَ طَلاقاً، فكان هذا جِدَالاً، وقولهُ تعالى (وَتَشْتَكِي إلَى اللهِ) وهو قولُها: أشكُوا إلى اللهِ فاقَتِي ووحدَتِي وإنَّ لي صبياناً صِغاراً إذا ضممتهم إليه ضاعُوا، واذ ضممتهم إلَيَّ جاعُوا.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ ﴾ ؛ أي ليس هُنَّ بأُمَّهاتِهم، وما هُنَّ كأُمَّهاتِهم في الْحُرمَةِ، وقرأ عاصمُ (مَا هُنَّ أمَّهَاتُهُمْ) بالرفعِ، كما يقالُ: ما زيدٌ عالِمٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ ﴾ ؛ معناهُ: وإنَّ المظاهرين ليقولون، ﴿ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ ﴾ ؛ أي قَبيحاً من حيث يُشبهُوا المرأةَ التي هي في غايةِ الإباحةِ بما هو في غايةِ الْحُرمَةِ وهو ظهرُ الأُمِّ، والمنكرُ الذي هو الذي لا يُعرَفُ في الشَّرعِ، والزُّورُ الكذبُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٢ ﴾ ؛ أي لكثيرُ العفوِ عن ذُنوب عبادهِ، كثيرُ الغفران والسَّترِ عليهم، عفَا عنهم وغفرَ لهم بإيجاب الكفَّارة عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ﴾ ؛ اختلف المفسِّرون في معنى العودِ المذكور في الآية(١)، فذهبَ أصحابُ الظَّواهرِ إلى أنَّ المرادَ به إعادةُ كلمةِ الظِّهار، وهذا قولٌ مخالف لقول أهلِ العلم، وقد أوجبَ النبيُّ ﷺ الكفارةَ على أوسٍ حين ظاهرَ من امرأتهِ، ولم يسألْ أكرَّرَ الظهارَ أم لا ؟.

وذهبَ مالكُ إلى أن العَوْدَ هو العزمُ على الوطءِ، قال: (وإذا عَزَمَ عَلَى وَطْئِهَا بَعْدَ الظِّهَار فَعَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ، سَوَاءٌ أمْسَكَهَا أوْ أبَانَهَا أوْ عَاشَتْ أوْ مَاتَتْ). وقال الشافعيُّ: (الْعَوْدُ هَا هُنَا هُوَ الإمْسَاكُ عَلَى النِّكَاحِ، إذا أمْسَكَهَا عُقَيْبَ الظِّهَار وَلَمْ يُطَلِّقْهَا، فَعَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ وَلاَ تَسْقُطُ عَنْهُ تِلْكَ الْكَفَّارَةُ وَإنْ أبَانَهَا بَعْدَ ذلِكَ.

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٨٠؛ ذكر القرطبي قال: (وهذا حرف مشكل اختلف الناس فيه على سبعة أقوال) وذكرها.

وذهبَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ إلى أنَّ معنى العَوْدِ هو أن يعودَ المقولُ فيه فيستبيحُ ما حرَّمَهُ بالظهار، وقد يُذكَرُ المصدرُ ويراد به المقولُ كما قال ﷺ:[الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْب يَعُودُ فِي قَيْئِهِ][(١)] وإنَّما هو عائدٌ في الموهوب. ويقالُ: اللهُمَّ أنتَ رجَاؤُنا؛ أي مَرجُوُّنا، وقال تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[(٢)] أي الْمُوقَنُ بهِ، والعَوْدُ في الشَّيءِ هو فعلُ ما يناقضُ ذلك الشيءَ، وحروفُ الصِّفات يقومُ بعضها مقامَ بعضٍ كما في قولهِ تعالى ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[(٣)]، فيكون المعنى: ثُمَّ يعُودون فيما قَالُوا.

والإمساكُ على النِّكاح عُقيبَ الظِّهار لا يكون عَوْداً على وجهِ التَّراخي ولا يناقضُ لفظَ الظِّهار، فإنَّ الظهارَ لا يوجِبُ تحريمَ العقدِ حتى يكون إمساكُها على النكاحِ عَوْداً، ثم على مذهب أبي حنيفةَ: إذا قصدَ أن يستبيحَها ثم أبانَها سقطَتِ الكفارةُ عنه.

وفي قولهِ تعالى (مِنْ قَبْلِ أنْ يَتَمَاسَّا) دليلٌ على أنَّ هذه الكفارةَ إنَّما شُرعَتْ لدفعِ الْحُرمَةِ في المستقبلِ، وفيه دليلُ تحريمِ التَّقبيلِ واللَّمسِ قبلَ التكفيرِ؛ لأنَّ قولَهُ تعالى (مِنْ قَبْلِ أنْ يَتَمَاسَّا) يتناولُ جميعَ ضُروب الْمَسِيسِ.

وفي قولهِ تعالى (مِنْ نِسَائِهِمْ) دليلٌ على أنَّ الظِّهارَ لا يكون في الإماءِ إلاَّ إذا كُنَّ زوجاتٍ؛ لأنَّ إطلاقَ لفظِ النساء ينصرفُ إلى الحرائرِ كما في قولهِ تعالى ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾[(٤)]. وفي قولهِ تعالى (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) دليلٌ على جواز إعتاقِ الرَّقبة الكافِرة في الظِّهار؛ لأن ذِكرَ الرَّقبة مطلقٌ في الآيةِ، بخلافِ كفَّارة القتلِ.

والأصلُ في الظِّهار أنه إذا ذكرَ في المرأةِ ما يجمَعُها مثلُ الجسدِ والبدن والرأسِ والرَّقبة ونحوها، والظهرِ والبطن والفرجِ والفخذ وشبَّهَها بمحارمهِ كان مُظَاهِراً. وإنْ

---

(١) إسناده صحيح، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٠ ص٢٩٠: الحديث (٢٠٦٩٢ و١٠٦٩٣). والإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٨٠ و٣٤٢. والبخاري في الصحيح: كتاب الهبة: باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته: الحديث (٢٦٢١).

(٢) الحجر / ٩٩ .

(٣) طه / ٧١ .

(٤) النور / ٣١ .

قال: أنتِ علَيَّ كَيَدِ أمِّي أو رجلِها، أو قال: يدُكِ علَيَّ أو شَعرُكِ عليَّ كظهرِ أمي كان بَاطلاً.

وقال مالكُ: (يَصِحُّ الظِّهَارُ بالتَّشْبيهِ بالأَجْنَبيَّةِ). وقال الشعبيُّ: (لاَ يَصِحُّ الظِّهَارُ إلاَّ بالأُمِّ)، وقال الشافعيُّ: (إذا قَالَ: يَدُكِ، أوْ قَالَ: أنْتِ عَلَيَّ كَيَدِ أمِّي، فَـهُوَ ظِـهَارٌ). ﴿ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ ﴾ ؛ أي فمَن لم يجِدْ مِن المظاهرين الرقبةَ ولا قِيمَتها، فعليه أنْ يصُومَ شَهرَين متتابعين قبلَ الْمَسِيس. وهذا يقتضِي أنه إذا أفطرَ فيهما لِمَرَضٍ أو غيرِهِ كان عليه استقبالُ الصَّوم أيضاً، وكذا إذا قدرَ على الرقبةِ في خلال الصَّوم فلم يُعتِقها حتى عجزَ عنها كان عليه الاستقبالُ أيضاً في قول أبي حنيفةَ ومحمَّد، سواءٌ كان المسيسُ بالليلِ أو بالنهار. وقال أبو يوسف: (إذا مَسَّهَا بالَّيْلِ عَامِداً أوْ بالنَّهَار نَاسِياً لَمْ يَسْتَقْبلْ).

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ﴾ ؛ إذا عجزَ عن الصَّومِ لكِبَرٍ أو مرضٍ فكفَّارتهُ أن يُطعِمَ ستِّين مِسكيناً، وإنْ مسَّها المظاهرُ بعدَ ما أطعمَ بعضَ الطعامِ لم يستقبلِ الإطعامَ؛ لأنه ليس في ذكرِ الإطعامِ في هذه الآيةِ مِن قَبْلِ أن يتماسَّا، إلاَّ أنَّا إنما أمَرناهُ بالإطعامِ قبلَ المسيسِ؛ لأنَّا لو لم نأمُرْهُ بذلكِ لم يُؤمَنْ أن يَمسَّها فقَدِرَ على العتقِ قبل الإطعامِ أو يقدرَ على الصَّوم قبلَ الإطعامِ فيحصلُ أو الصومُ بعدَ المسيسِ، وذلك خلافُ ما أوجبَهُ اللهُ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ ﴾ ؛ أي ذلك الذي أمركم اللهُ به لتَستَديْمُوا الإيمانَ باللهِ ورسولهِ، وتُصدِّقوا أنَّ اللهَ أمرَ بذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ ﴾ ؛ أي التي شرَّعَها اللهُ تعالى في الظِّهار أحكامُ اللهِ وفرائضُهُ، ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ ، وللجاحِدين لحدودِ الله عذابُ جهنم.

فلمَّا نزَلت هذه الآيةُ قَالَ النَّبيُّ ﷺ لأَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ: [هَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تُعْتِقَ رَقَبَةً؟] قَالَ: فَإنِّي قَلِيلُ الْمَال، قَالَ: [فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ؟] قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إنِّي إذا لَمْ آكُلْ فِي الْيَوْمِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ كَلَّ بَصَرِي وَخَشِيتُ أنْ تَعْشُو عَيْنِي، قَالَ: [فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مِسْكِيناً ؟] قَالَ: لاَ وَاللهِ إلاَّ أنْ تُعِينَنِي يَا رَسُولَ

اللهِ، فَقَالَ ﷺ:[إنِّي مُعِينُكَ بِخَمْسَةَ عَشَرَ صَاعاً وَادْعُو لَكَ بالْبَرَكَةِ] فَأَعَانَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ[1].

ورُوي: أنَّ خَوْلَةَ لَمَّا ظَاهَرَ مِنهَا أوْسُ بْنُ الصَّامِتِ، خَرَجَ فَجَلَسَ فِي قَوْمِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إلَيْهَا فَرَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَقَالَتْ: كَلاًّ؛ وَالَّذِي نَفْسُ خَوْلَةَ بِيَدِهِ لاَ تَصِلُ إلَيَّ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ فِيَّ وَفِيكَ. ثُمَّ مَضَتْ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَكَتْ عَلَيْهِ قِصَّتَهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ.

فَقَالَ ﷺ: [مُرِيهِ أنْ يُعْتِقَ رَقَبَةً] فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا عِنْدَهُ ذلِكَ، قَالَ: [مُرِيهِ فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابعَيْنِ] قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ إنَّهُ شَيْخٌ كَبيرٌ مَا بِهِ مِنْ صَوْمٍ، قَالَ: [مُرِيهِ فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِيناً] قَالَتْ: وَاللهِ مَا يَجِدُ مَا يُطْعِمُ، قَالَ: [إنَّا سَنُعِينُهُ بعِرْقٍ مِنْ تَمْرٍ] - وهو مكتل سبع وثلاثين صاعاً — قَالَتْ: أنَا أعِينُهُ يَا رَسُولَ اللهِ بعِرْقٍ آخَرَ[2].

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ معناهُ: إنَّ الذين يخالِفُون اللهَ ورسولَهُ في الدِّين، ويصيرُون في حدٍّ غير الحدِّ الذي فيه أولياءُ اللهِ، أذِلُّوا وأخْزُوا بالعذاب كما أذِلَّ الذين أشركُوا من قَبلِ أهلِ مكَّة، مِن الذين خالَفُوا الأنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهم.

والْكَبْتُ في اللغة: الكَبُّ، ومنه كَبَتَ اللهُ عدُوَّكَ. وَقِيلَ: معناهُ: كُبِدُوا أي ضُرِبُوا على أكبَادِهم، فقُلبت الدالُ تاءً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ ؛ أي فرائضَ معروفةٍ، ﴿ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي ولِمَن لم يعمَلْ بها ولم يصدِّقْ بها عذابٌ مُهينٌ. ثم بيَّن ذلك العذابَ فقالَ تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ﴾ ؛ ويَجزِيهم عليه، وقولهُ تعالى: ﴿ أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ مما يجبُ لهم وعليهم، ﴿ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ عالِمٌ.

---

(١) أخرجه الدارقطني في السنن: كتاب النكاح: باب المهد: ج ٣ ص٣١٦: الحديث (٢٥٩) عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٨٥.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ اللهَ يعلمُ بكلِّ ما في السَّمواتِ وكلِّ ما في الأرضِ مما ظهرَ للعبادِ، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أكْبَرَ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[١].

وقولهُ تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ) يعني الْمُسَّار؛ ما تُناجِي به صاحبَكَ من شيءٍ إلاّ هو رابعُهم بالعلم، يعني نجوَاهم معلومةٌ عندَهُ كما تكون معلومةً عند الرابعِ الذي هم معهم، ﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ ، ولا أقلَّ من ثلاثةٍ ولا أكثرَ من الخمسةِ إلاَّ وهو عالِمٌ بهم وقادرٌ عليهم في أيِّ موضعٍ كانوا، ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ؛ عند الجزاءِ والحساب، ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ وهذه الآيةُ نزلت في اليهودِ والمنافقين لَمَّا أعيَاهُم الإسلامُ وظهورهُ وجعلوا يتنَاجَون فيما بينهم فيُوهِمون المؤمنين أنَّهم يتناجَون فيما يسُوءُهم.

وكانوا إذا خَرجت سريَّةٌ من سَرايا رسول الله ﷺ، فرَأى هؤلاءِ رجَالاً مِمَّن خرجَ لهم في السريَّة صديقٌ أو قريب تنَاجَوا فيما بينهم ليَظُنَّ الرجلُ أنه حدثَ بصاحبِهِ حادثٌ فيحزنُ عليه لذلك. فلمَّا كَثُرَ ذلك وطالَ شَكَوا ذلك إلى رسول ﷺ فنهَاهُم عن المناجاةِ دون المسلمين، فلم ينتَهُوا وعادُوا إلى مُناجَاتِهم، فأنزلَ اللهُ:

قولُهُ تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ ؛ معناهُ: ألَمْ ترَ إلى هؤلاءِ الذين نَهاهُم اللهُ عن مُنَاجَاةِ بعضهم بعضاً دون المؤمنين في الآيةِ التي قبلَ هذه، ثم عَادُوا إليها مُغَايَظَةً لأصحاب رسول الله ﷺ، ويتشَاوَرُون فيما بينهم بالكَذِب والاعتداءِ، ويُوصِي بعضُهم بعضاً بمخالفةِ النبيِّ ﷺ، ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ ﴾ ؛ يا مُحمَّدُ، ﴿ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ﴾ ؛ أي سلَّمُوا عليك بما لم يسلِّمْ به اللهُ عليكَ.

---

(١) يونس / ٦١.

وَذلِكَ أنَّ الْيَهُودَ دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ! وَكَانَتْ عَائِشَةُ مِنْ وَرَاءِ سَتْرٍ فَلَعَنَتْهُمْ، فَقَالَ ﷺ: [مَهْلاً يَا عَائِشَةُ] فَقَالَتْ: أمَا سَمِعْتَ مَا قَالُوا ؟ قَالَ: [أوَمَا سَمِعْتِ كَيْفَ أجَبْتُهُمْ ؟] ثُمَّ قَالَ: [إذا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أحَدٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ فَقُولُوا: عَلَيْكَ مَا قُلْتَ]. والسَّامُ هو الموتُ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّهم كانوا يقُولون فِي أنفُسِهم: ألاَ ينَزِّلُ اللهُ العذابَ بنا بما نقولُ لنَبيِّهِ إنْ كان نَبيّاً كما يزعمُ، فلو كان مُحَمَّدٌ نَبيّاً لعَذبَنا اللهُ بما نقولُ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ﴾ ؛ أي كَافِيهم جهنمُ عذاباً لَهم يلزَمُونها ويُقَاسُونَ حرَّها، ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي فبئْسَ الْمَرْجِعُ يرجعون إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ ؛ معناهُ: يا أيُّها الذين آمَنُوا إذا تجالَسْتُم للسرِّ فيما بينكم، فلا تُجالِسُوا وتخالفوا بالمعصيةِ والظُّلم ومخالفةِ الرسول، ولا تكونوا كاليهودِ والمنافقين، ﴿ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ؛ أي بفِعْلِ ما أُمِرتُم به، وتركِ ما نُهيتم عنه، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ، واتَّقُوا عذابَ الله الذي إليه تُرجَعون في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: إنما النَّجوَى الذي يفعلهُ اليهود والمنافقون من عملِ الشَّيطان ووَسَاوسِهِ ليُحزِنَ به الشيطانُ الذين آمَنوا وأخلَصُوا، وليس تناجِيهم يضرُّ المؤمنين شيئاً إلاَّ بعلمِ الله وقضائهِ، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ ويستَعِيذُوا به من الشَّيطانِ. ويقرأ (لِيُحْزِنَ) بضمِّ الياء وهما لُغتان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْرِمُ أهْلَ بَدْرٍ مِنَ

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ج ١٠ ص٣٩٢: كتاب الجامع: باب السلام على أهل الشرك: الحديث (١٩٤٦٠). والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٣٧ و٥٨. والبخاري في الصحيح: كتاب استتابة المرتدين: الحديث (٦٩٢٧).

الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار، فَجَاءَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَمِنْهُمْ ثَابتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاس وَقَدْ سَبَقُوا فِي الْمَجْلِسِ، فَقَامُوا حِيَالَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ. ثُمَّ سَلَّمُوا عَلَى الْقَوْمِ بَعْدَ ذلِكَ، فَرَدُّوا عَلَيْهِمْ.

فَقَامُوا عَلَى أَرْجُلِهِمْ يَنْتَظِرُونَ أَنْ يُوَسَّعَ لَهُمْ، فَعَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَا لَحِقَهُمْ مِنْ ضَرَرِ الْقِيَامِ، فَشُقَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ:[قُمْ يَا فُلاَنُ وَأَنْتَ يَا فُلاَنُ] فَأَقَامَ مِنَ الْمَجْلِسِ بقَدْر النَّفَرِ الَّذِينَ قَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ.

فَشُقَّ ذلِكَ عَلَى مَنْ أُقِيمَ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ الْكَرَاهِيَةَ فِي وُجُوهِهِمْ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: أَلَسْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ صَاحِبَكُمْ يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ؟ فَوَاللهِ مَا عَدَلَ عَلَى هَؤُلاَءِ إنَّ قَوْماً أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ، وَأَحَبُّوا الْقُرْبَ مِنْ نَبِيِّهِمْ فَأَقَامَهُمْ وَأَجْلَسَ غَيْرَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

قولهُ تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ) أي أوسِعُوا في المجلسِ (فَافْسَحُوا) أي أوْسِعُوا على مَن حضرَ مجلسَ رسولِ الله ﷺ وأحبَّ سماعَ كلامهِ؛ لتَشتَرِكُوا في سماعِ الدِّين منه، وهذا أمرٌ لَهم بالتأديب كي لا يؤذِي أحدٌ جليسَهُ بفعلِ الزِّحام، ولئلاً يكون غرضُهم إلاَّ التواضعُ للهِ تعالى وللدِّين، وذلك أنَّهم كانوا قد جلَسُوا مُتضايقين حولَ النبيِّ ﷺ، فأُمِروا أن يتنحَّوا عنه في الجلوسِ ويتوسَّعوا المجلسَ غيرَهم معهم. قَوْلُهُ تَعَالَى:(يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ) أي يُوسِّع مجالِسَكم في الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ ؛ معناهُ: وإذا قِيْلَ: انْهَضُوا إلى صلاةٍ أو أمرٍ بمعروف ونُودِيَ للصَّلاة فانْهَضوا. وَقِيْلَ: معناهُ: وإذا قيلَ لكم اخرجُوا إلى الجهادِ فاخرُجوا يرفعِ الله درجاتِكم في الجنَّة، ويرفعِ اللهُ الذين أُوتوا العلمَ درجاتٍ فوقَ درجاتِ الذين أكرمُوا بالإيمانِ بغير علم.

وفي الحديثِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: [إنَّ الْعَالِمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ وَالطَّيْرُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الَّذِي لَيْسَ بعَالِمٍ سَبْعُونَ دَرَجَةً،

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٣٣.

اللهُ أعْلَمُ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ][(١)]. وقال ﷺ: [فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابدِ كَفَضْلِي عَلَى سَائِرِ أمَّتِي][(٢)]، وقال ﷺ: [يُؤتَى بالْعَالِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْعَابدِ، فَيُقَالُ لِلْعَابدِ: أدْخُلِ الْجَنَّةَ، وَيُحْبَسُ الْفَقِيهُ فَيَقُولُ: فَبِمَ حَبَسْتُمُونِي؟! فَيُقَالُ لَهُ: اشْفَعْ].

قرأ أهلُ المدينة والشام وعاصم (انْشُزُوا فَانْشُزُوا) بضمِّ الشين، وقرأ الآخرون بكسرِها، وهما لُغتان، ومعناهما: إذا قيلَ لكم: تحرَّكُوا وقُومُوا وارتفعوا وتوسَّعوا لإخوانِكم فافعَلُوا. وَقِيْلَ: معناهُ: إذا قيل لكم انْهَضُوا إلى الصَّلاة والذِّكر وعملِ الخير، فانشُزوا ولا تقصِّروا.

وقولهُ تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ ؛ يعني يَرفَعُهم بطاعةِ رسول الله ﷺ وقيامِهم من مجالسِهم وتوسعِهم لإخوانِهم، ﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ منهم بفضلِ عَمَلِهم، قال ﷺ: [مَنْ جَاءَتْ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَنْبيَاءِ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ][(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الأغنياءَ كانوا يَسْتَخْلُونَ بالنبيِّ ﷺ فيُشاورُونَهُ بما يريدون ويُلِحُّونَ عليه بالحاجاتِ والمسائل، ويشغَلُون بذلك أوقاتَهُ التي كانت مستغرقةً بالعبادةِ والإبلاغِ إلى الأمة، وكان الفقراءُ لا يتمكَّنون من النبيِّ ﷺ كتمكُّنِ الأغنياءِ منه.

---

(١) معنى الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص١٩٦. وأبو داود في السنن: كتاب العلم: الحديث (٣٦٤١)، وإسناده ضعيف، وله شواهد يتقوى بها. وفي موارد الضمآن: الحديث (٨٠)؛ قال ابن حبان: (حسن).

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح: أبواب العلم: باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة: الحديث (٢٦٨٥) عن أبي أمامة الباهلي، وقال: حسن صحيح. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٨ ص٢٣٣: الحديث (٧٩١١)، وإسناده صحيح. وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص١٢٤-١٢٥؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير وفيه القاسم أبو عبدالرحمن وثقه البخاري وضعفه أحمد).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله: ص١١٥: الحديث (٥٣٧) وفيه علي بن زيد الجدعاني.

فأمرَ اللهُ الناسَ بتقديمِ الصَّدقةِ على نجوَاهُم مع النبيِّ ﷺ إعْظَاماً له وتوقيراً لمقامِ مُناجاتهِ، ونفعاً للفُقراءِ بتلك الصَّدقة، وبيَّن أنَّ ذلك خيرٌ لهم من الكفِّ عن الصدقةِ وأصلحُ لقُلوبهم وقلوب الفقراء، ورخَّصَ مَن لم يجد ما يتصدَّقُ به أن يُكلِّمَ النبيَّ ﷺ بما شاءَ من غيرِ صدقةٍ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

فلمَّا عَلِمَ اللهُ ضيقَ صدر كثيرٍ منهم من ذلك الوجوب نَسَخَ اللهُ ذلك الحكمَ بقوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ﴾؛ معناهُ: أبَخِلتُمْ يا أهلَ الميسرةِ، وثَقُلَ عليكم تقديمُ الصَّدقةِ بين نجوَاكم مع النبيِّ ﷺ، ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ وخفَّفَ اللهُ عنكم بإسقاطِ تلك الصَّدقة، ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي دَاوِمُوا عليها، يعني الصَّلاةَ المفروضةَ، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ المفروضةَ، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ في الفرائضِ، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾؛ في السُّنن، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ من الخيرِ والشرِّ.

وعن عليٍّ ﷺ قال: (إنَّ فِي كِتَاب اللهِ آيَةً مَا عَمِلَ بهَا أحَدٌ قَبْلِي، وَلاَ يَعْمَلُ بهَا أحَدٌ بَعْدِي وَهِيَ آيَةُ النَّجْوَى، كَانَ لِي مِثْقَالٌ فَبعْتُهُ بعَشْرَةِ دَرَاهِمَ، فَكُلَّمَا أرَدْتُ أنْ أنَاجِيَ رَسُولَ اللهِ قَدَّمْتُ دِرْهَماً، فَقَدَّمْتُ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ بَيْنَ يَدَي نَجْوَايَ، ثُمَّ نُسِخَتْ)(١). قال مجاهدُ: (نُهُوا عَنْ مُنَاجَاةِ النَّبيِّ ﷺ حَتَّى يَتَصَدَّقُوا، فَلَمْ يُنَاجِهِ إلاَّ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ، قَدَّمَ دِينَاراً فَتَصَدَّقَ بهِ، فَنَزَلَتِ الرُّخْصَةُ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾؛ نزَلت هذه الآيةُ في قومٍ من المنافقين كانوا يتولَّون اليهودَ وينقلُون أسرارَ المسلمين إليهم مُغَايَظَةً لَهم، ولم يكونوا من المؤمنين ولا من اليهودِ، وكانوا يَحلِفُون للمؤمنين بأنَّا مُؤمِنون مصدِّقون، وهم يعلمون أنَّهم كَاذِبون في حلفِهِم، قَالَ اللهُ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: سورة المجادلة: الحديث (٣٨٤٦)، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين) وليس فيه علي بن علقمة الأنماري.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦١٦٩) بأسانيد.

تَعَالَى: (مَا هُـمْ مِنْكُـمْ وَلاَ مِنْـهُمْ) أي وَلا مـن اليـهودِ، ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أنَّهم كَذبَةٌ.

وقال السديُّ ومقاتلُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَبْـدِاللهِ بْـنِ نَبْتَـلٍ الْمُنَـافِقِ، كَـانَ يُجَالِسُ النَّبِيَّ ﷺ يَرْفَعُ حَدِيثَهُ إلَى الْيَهُودِ، فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ إذْ قَالَ: [يَدْخُلُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ قَلْبُهُ قَلْبُ جَبَّار، وَيَنْظُرُ بعَيْنَي الشَّيْطَانِ] فَدَخَلَ عَبْـدُاللهِ بْـنُ نَبْتَـل، وَكَانَ أزْرَقاً.

فَقَالَ ﷺ:[عَلاَمَ سَبَبْتَنِي أنْتَ وَأصْحَابُكَ؟] فَحَلَفَ باللهِ مَا فَعَلَ، فَقَالَ لَهُ النَّـبِيُّ ﷺ: [وَقَدْ فَعَلْتَ] فَانْطَلَقَ فَجَاءَ بأَصْحَابهِ فَحَلَفُـوا بـاللهِ مَـا سَبُّوهُ، فَـأنْزَلَ اللهُ هَـذِهِ الآيَةَ): (ألَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ تَوَلَّـوْا قَوْمـاً غَضِـبَ اللهُ عَلَيْـهِمْ مَـا هُـمْ مِنْكُـمْ وَلاَ مِنْـهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِب وَهُـمْ يَعْلَمُـونَ)[1] ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ ﴾ ؛ أي هَيَّـأ لهم عَذاباً شَديداً في قُبورهم، ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا مـن مُوَالاةِ اليهودِ وكتمان الكُفرِ والحلف الكاذب مع العلمِ به.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ ؛ أي اتَّخذوا أيمانَهم الكاذبةَ تِرْساً مـن القتلِ وجعلُوها عُدَّة ليدفعُوا عـن أنفسـهم التهمـةَ، وقـرأ الحسـنُ (إيْمَانَـهُمْ) بكسرِ الألف، وقولهُ تعالى: ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي صرَفُوا الناسَ عـن ذكـرِ الله وطاعتهِ بإلقاء الشُّبهة عليهم في السرِّ. وَقِيْلَ: فصَدُّوا المؤمنـين عـن جـهادِهم بـالقتلِ، ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ يُهينُهم في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ ﴾ ؛ أي لـن يدفعَ عنهم كثرةُ أموالهم ولا كثرةُ أولادِهـم مـن عـذاب الله شـيئاً، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٣٤ مختصراً. وأخرجه الحاكم في المسـتدرك: كتـاب التفسـير: الحديث (٣٨٤٧) من غير ذكر الاسم، وقال: (حديث صحيح على شرط مسلم). والطـبراني في المعجم الكبير: الحديث (١٢٣٠٧). وفي مجمـع الزوائـد: ج ٧ ص١٢٢؛ قـال الهيثمـي: (رجالـه رجال الصحيح). والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦١٨٠ و٢٦١٨٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ ؛ انتصبَ على الظَّرفيةِ من قوله (أولَئِكَ أصْحَابُ النَّار) ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ ﴾ ؛ أي يحلِفُون للهِ يومئذ أنَّهم كانوا مُخلِصين في الدُّنيا، ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ ﴾ ؛ يومئذٍ؛ ﴿ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ ؛ على صوابٍ، ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ عندَ اللهِ في حلفهم.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أيْنَ خُصَمَاءُ اللهِ، فَيَقُومُ الْقَدَرِيَّةُ مُسْوَدَّةٌ وُجُوهُهُمْ مُزْرَقَّةٌ أعْيُنُهُمْ، مَائِلَةٌ أشْدَاقُهُمْ يَسِيلُ لُعَابُهُمْ، يَقُولُونَ: وَاللهِ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِكَ شَمْساً وَلاَ قَمَراً وَلاَ صَنَماً وَلاَ وَثَناً وَلاَ اتَّخَذْنَا مِنْ دُونِكَ إلَهاً].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (صَدَقُواْ وَاللهِ؛ أتَاهُمُ الشِّرْكُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ) ثُمَّ تلاَ ابنُ عبَّاس هذه الآيةَ (وَيَحْسَبُونَ أنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ألاَ إنَّهُمْ هُمْ الْكَاذِبُونَ) هُمْ وَاللهِ الْقَدَرِيُّونَ، هُمْ وَاللهِ الْقَدَرِيُّونَ)[1].

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ؛ أي غلبَ عليهم واستولَى عليهم وحَولَهم، ﴿ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي شغلَهم عن ذكر الله وعن طاعته حتى ترَكُوهُ وصاروا إلى الْخُسرَان، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ ؛ أي جُنْدُهُ، ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ ؛ أي يُخالِفُون اللهَ ورسولَهُ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي في الْمَغْلُوبينَ المقهورين، ومِن جُملة مَن يلحقُهم الذلُّ في الدُّنيا والآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ ؛ أي كتبَ ذلك في اللوحِ المحفوظ، وقال الحسنُ: (مَا أمِرَ نَبِيٌّ بِحَرْبٍ فَغُلِبَ قَطُّ، وَإنَّ الرُّسُلَ عَلَى نَوْعَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ بُعِثَ بالْحَرْب، وَمِنْهُمْ مَنْ بُعِثَ بغَيْرِ حَرْبٍ، فَهُوَ غَالِبٌ بالْحُجَّةِ)[2]، وقال تعالى:

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٨٣٧ وعزاه للثعلبي. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١٧ ص٣٠٥. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان:ج ٩ ص٢٦٣.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٨٩، وعزاه للزجاج.

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[(١)]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي مَانِعٌ حِزْبَهُ من أنْ يَذِلَّ، عَزِيزٌ غالبٌ لِمَن نازعَ أولياءَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ ؛ نزَلت هذه الآيةُ في حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ، وذلك أنَّهُ كتبَ إلى أهلِ مكَّةَ: أنَّ مُحَمَّداً يُريدُ أنْ يَغْزُوكُمْ فَاسْتَعِدُّوا لَهُ، فأعلمَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ ﷺ بذلكَ. فَقَالَ ﷺ: [مَا دَعَاكَ يَا حَاطِبُ إلَى مَا فَعَلْتَ؟] فَقَالَ: أحْبَبْتُ أنْ أتقَرَّبَ إلَى أهْلِ مَكَّةَ لِمَكَانِ عِيَالِي فِيْهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى عِيَالِي ذابٌّ هُنَالِكَ. فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ[(٢)].

ومعناها: لا تجدُ قوماً يصدِّقون بوحدانيَّة اللهِ تعالى وبالبعثِ بعد الموت يُناصِحُون ويطلبُون مَوَدَّةَ مَن خالفَ اللهَ ورسولَهُ في الدِّين، ولو كانوا أقاربَهم في النَّسب، فإن البراءةَ واجبةٌ من الْمُحَادِّينَ للهِ. وسنذكرُ هذه القصَّة أولَ سورةِ الممتحنة إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

أخبرَ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ: أنَّ إيمانَ المؤمنين يَفسُد بمودَّةِ الكفَّار، وإنَّ مَن كان مُؤمناً لا يُوالِي مَن كفرَ، وإنْ كان أباهُ أو ابنَهُ أو أخاهُ أو أحداً من عَشيرتهِ. وعن عبدِالله بن مسعودٍ في هذه الآية أنَّهُ قالَ: (قَتَلَ أبُو عُبَيْدَةُ أبَاهُ يَوْمَ أحُدٍ)[(٣)]، فمعنى قولهِ (وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ).

وقوله (أوْ أبْنَاءَهُمْ) يعني أبَا بكرٍ ﷺ دعَا ابْنَهُ يَوْماً إلَى الْبرَازِ وَقَالَ: (دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ أكِرُّ عَلَيْهِ) فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: [مَتِّعْنَا بنَفْسِكَ يَا أبَا بَكْرٍ، أمَا تَعْلَمُ أنَّكَ عِنْدِي بمَنْزِلَةِ سَمْعِي وَبَصَرِي][(٤)].

---

(١) الصافات / ١٧٣ .

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٣٦.

(٣) في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٦٤؛ قال الثعلبي: (وروى مقاتل بن حيان عن مُرَّة الهمذاني عن عبدالله بن مسعود في هذه الآية).

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص٢٧٨. وعزاه ابن حجر في تخريج الكشاف:ج٤ ص٤٩٧ إلى الثعلبي في تفسيره. وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن:ج ١٧ ص٣٠٧-٣٠٨. وعزاه الثعلبي إلى مقاتل بن حيان كما في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٦٤.

وقوله تعالى: (أَوْ إِخْوَانَهُمْ) يعني مصعبَ بن عُمير قتلَ أخاهُ عبيدَ بن عُمير بأُحُد. وقولهُ تعالى (أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) يعني عمرَ ﷺ قتلَ خالدَ العاصي بن هشامِ بن المغيرة يومَ بدر، وكذلك عليٌّ ﷺ قتلَ شَيبَةَ بن ربيعةَ، وكذلك حمزةُ ﷺ قتلَ عُتبة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ ؛ يعني الذين لا يُوادُّون من حَادَّ اللهَ ورسولَهُ أثبتَ اللهُ في قلوبهم حُبَّ الإيمان كأنَّهُ مكتوبٌ في قلوبهم (وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) أي قوَّاهم بنور الإيمانِ حتى اهتَدَوا للحقِّ وعَمِلُوا به. وَقِيْلَ: المرادُ بالرُّوحِ جبريل ﷺ يُعِينُهم في كثيرٍ من المواطنِ. وَقِيْلَ: معناهُ: وأيَّدهم بنصرٍ منه في الدُّنيا على عدُوِّهم؛ لأنَّهم عَادَوا عشيرتَهم الكفار وقاتلوهم، غضباً لله ولدينهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى. وقولهُ تعالى: ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ ؛ بإخلاصِهم في التوحيدِ والطاعة، ورَضُوا عنه بما أعدَّ لهم من الثَّواب والكرامةِ في الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي يا أهلَ هذه القصَّة جندُ اللهِ وأولياؤهُ، ألاَ إنَّ جُنْدَ اللهِ همُ الفائزون بالبقاءِ الدائم والنعيمِ الْمُقيمِ.

آخر تفسير سورة (المجادلة) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الْحَشْرِ

سُورَةُ الْحَشْرِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَسَبْعُمِائَةٍ وَثَلاَثَةَ عَشَرَ حَرْفاً، وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَخَمْسُ كَلِمَاتٍ، وَأَرْبَعٌ وَعُشْرُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَشْرِ لَمْ يَبْقَ جَنَّةٌ وَلاَ نَارٌ وَلاَ كُرْسِيٌّ وَلاَ حِجَابٌ وَلاَ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَلاَ الأَرْضُونَ السَّبْعُ وَالْهَوَامُّ وَالرِّيحُ وَالطَّيْرُ وَالدَّوَابُّ وَالْجِبَالُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْمَلاَئِكَةُ، إلاَّ صَلَّوا عَلَيْهِ، فَإنْ مَاتَ مِنْ يَوْمِهِ أوْ لَيْلَتِهِ مَاتَ شَهِيداً، وَمَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَشْرِ ثُمَّ مَاتَ مِنْ يَوْمِهِ أوْ لَيْلَتِهِ غَفَرَ اللهُ لَهُ كُلَّ خَطِيئَةٍ عَمِلَهَا][(1)]. وباللهِ التوفيقُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ ﴾؛ قال المفسِّرون: نزَلت هذه الآيةُ والسُّورة بأسرِها في بني النَّضير واليهودِ، وعاهدوهُ أن لا يكُونوا معَهُ ولا عليهِ، لا يُقاتِلون معه ولا يقاتلونَهُ، فكانوا على ذلكَ حتى كانت وقعةُ أحُدٍ، فأصابَتِ المسلمين يومئذٍ نَكْبَةٌ، فنقَضُوا العهدَ، ورَكِبَ كعبُ ابن الأشرَفِ في أربَعين راكباً إلى مكَّة، فأتَوا قُريشاً فطلَبُوا إلى أبي سُفيان وأصحابهِ فحالَفُوهم وعاقَدُوهم بين الكعبةِ والأستار على حرب النبيِّ ﷺ، وأنَّ كلمَتَهم واحدةٌ.

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج٩ ص٢٦٦. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١؛ قال القرطبي: (أخرجه الثعلبي في تفسيره، وإسناده ضعيف).

ثم رجعَ كعبُ بن الأشرف وأصحابهُ إلى المدينةِ. فنزل جبريلُ عليه السلام على النبيِّ ﷺ وأخبرَهُ بأمرهم وقال له: [إنَّ اللهَ يَأمُرُكَ بقَتْلِ كَعْب بْنِ الأَشْرَفِ] فَجمَعَ النَّبيُّ ﷺ أصْحَابَهُ وَأخْبَرَهُمْ بمَا صَنَعَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ وَقَالَ لَهُمْ:[إنَّ اللهَ أمَرَنِي بقَتْلِهِ، فَانْتَدِبُوا إلَى ذلِكَ].

فَانْتَدَبَ رَهْطٌ مِنْهُمْ وَفِيْهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ مَسلَمَةَ، وَكَانَ أخَا كَعْبٍ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَحَلِيفَهُ، فَانْطَلَقُوا فِي أوَّلِ اللَّيْلِ إلَى دَار كَعْبٍ، فَنَادَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَاسْتَنْزَلَهُ مِنْ دَارِهِ، وَأوْهَمَهُ أنَّهُ يُكَلِّمُهُ فِي حَاجَةٍ، فَلَمَّا نَزَلَ أخَذَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ بنَاصِيَتِهِ وَكَبَّرَ، فَخَرَجَ أصْحَابُهُ وَكَانُوا مِنْ وَرَاءِ الْحَائِطِ، فَضَرَبُوهُ حَتَّى بَرُدَ مَكَانُهُ، فَصَاحَتِ امْرَأتُهُ وَتَصَايَحَتِ الْيَهُودُ، فَخَرَجُوا إلَيْهِمْ وَقَدْ رَجَعَ الْمُسْلِمُونَ.

فَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأخْبَرُوهُ بذلِكَ، فَلَمَّا أصْبَحَ النَّبيُّ ﷺ خَرَجَ إلَيْهِمْ غَازِياً، فَتَحَصَّنُوا فِي دُورهِمْ فَوَجَدَهُمْ فِي قَرْيَةٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهَا (زَهْوَةُ) وَهُمْ يَنُوحُونَ عَلَى كَعْبٍ وَكَانَ سَيِّدَهُمْ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ؛ بَاغِيَةٌ عَلَى إثْرِ نَاعِيَةٍ، وَبَاكِيَةٌ عَلَى إثْرِ بَاكِيَةٍ ؟ قَالَ: [نَعَمْ] قَالُوا: ذرْنَا نَبْكِي شَجْواً عَلَى كَعْبٍ.

وَقَدْ كَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبي سَلُول الْمُنَافِقُ وَأصْحَابُهُ أمَرَ إلَى الْيَهُودِ سِرّاً بِأنْ لاَ تَخْرُجُوا مِنَ الْحِصْنِ، وَقَاتِلُوا مُحَمَّداً وَأصْحَابَهُ، فَإنْ قَاتَلُوكُمْ فَنَحْنُ مَعَكُمْ وَلاَ نَخْذُلُكُمْ وَلَنَنْصُرَنَّكُمْ، وَلَئِنْ أخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ. فَدَرَبُوا عَلَى الأَزِقَّةِ وَحَصَّنُوهَا، فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إحْدَى وَعِشْرِينَ لَيْلَةً.

فَلَمَّا عَجَزُوا عَنْ مُقَاوَمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَآيَسُوا مِنْ نَصْرِ الْمُنَافِقِينَ لَهُمْ طَلَبُوا الصُّلْحَ، فَأَبَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إلاَّ أنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَدِينَتِهِمْ عَلَى مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، فَقَبلُوا ذلِكَ، فَصَالَحَهُمْ عَلَى الْجَلاَءِ، وَعَلَى أنْ يَحْمِلَ كُلُّ أهْلِ ثَلاَثَةِ أبْيَاتٍ مِنْ مَتَاعِهِمْ عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ مَا شَاءَ، وَلِنَبيِّ اللهِ مَا بَقِيَ، وَيَخْرُجُوا إلَى الشَّامِ، فَفَعَلُوا ذلِكَ وَخَرَجُوا إلَى الشَّامِ إلَى أذْرُعَاتٍ وَأرِيحَا وَالْحِيرَةَ وَخَيْبَرَ.

فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب)(١) يعني بني النَّضير من ديارهم التي كانت بيَثْربَ وحصونِهم. قال ابنُ اسحق : (كَانَ إجْلاَءُ بَنِي النَّضِيرِ عِنْدَ مَرْجِعِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أُحُدٍ، وكَانَ فَتْحُ قُرَيْظَةَ عِنْدَ مَرْجِعِهِ مِنَ الأَحْزَاب، وَبَيْنَهُمَا سَنَتَان).

قولُهُ (لأَوَّل الْحَشْر) معناهُ: هو الذي أخرجَ هؤلاءِ اليهود من منازلهم وحصونِهم لأوَّل جَمعٍ أجْلُوا من جزيرةِ العرب وهي أرضُ الحجاز حُشِرُوا إلى الشام، وذلكَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لَهم يومئذٍ: [اخْرُجُوا] قَالُوا إلَى أيْنَ ؟ قَالَ: [إلَى الْمَحْشَرِ] فَخَرَجُوا إلَى أذْرُعَاتٍ وَأرِيْحَا مِنَ الشَّامِ(٢).

وأمَّا ثاني الحشرُ فهو أن يُحشَرَ الخلائقُ يومَ القيامةِ إلى أرض الشَّام أيضاً. ويقالُ: إنما قالَ (لأَوَّل الْحَشْر) لأنَّ الحشرَ أربعةٌ: حشرُ بني النَّضير أوَّلاً، ثم حشرُ خَيبر، ثم أهلُ نَجران، ثم حشرُ جميعِ أهلِ الكتاب من جزيرةِ العرب في خلافة عُمر ﷺ على ما رُوي: أنَّهُ أجْلاَهُمْ مِنْهَا، وَقَالَ: (عَهِدَ إلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ لاَ يَجْتَمِعَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَب دِينَان)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ ؛ أي ما ظَننتُم أيُّها المؤمنون أن يخرجَ بنُو النضير من منازلهم لشدَّة تَمكُّنِهم وقوَّتِهم بالأموالِ والمَنَعَةِ، وذلك أنَّهم كانوا أهلَ حصُونٍ وعقارٍ ونخيل كثيرة وسلاح.

قولُهُ: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ وظَنَّ بنو النضير أنَّ حُصونَهم تَمنَعُهم من اللهِ؛ أي من أمرِ الله فيهم، ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ ؛ أي فأتَاهم أمرُ اللهِ من حيث لم يظُنُّوا أن ينْزِل بهم ما نزلَ من قتلِ كعب ابن الأشرف وقَتلِهم وإجلائِهم ونصرِ رسول اللهِ ﷺ من حيث لم يتوهَّمَ القومُ،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦١٩٥).

(٢) في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٤٣؛ قال الهيثمي: (رواه البزار وفيه أبو سعد البقال والغالب عليه الضعف).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: تسمية النفر الداريين: ج ٣ ص٣٧١.

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ ؛ بقتلِ سيِّدِهم كعبَ بن الأشرف، وكان ذلك أعظمُ شيءٍ عليهم إذ أتاهم ما لم يظنُّوه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم لَمَّا أيقَنُوا بالجلاءِ حَسَدُوا المسلمين أن يَسكُنوا منازلَهم، فجعلوا يُخرِبونَها من داخلٍ، والمسلمون يُخرِّبونَها من خارجٍ. وَقِيْلَ: إنَّهم كانوا يَهدِمُونَها من داخلٍ بأيديهم ليَرمُوا المسلمين بأحجَارها، ويَهدِمُها المؤمنون ليتمَكَّنوا من قتالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ ﴾ ؛ معناه: فَلْيَعتَبِرْ بما أصابَ بني النضير كلُّ مَن له بصرٌ بأمرِ الله، ولينظر إلى عاقبةِ الكُفرِ والغدرِ[1] والطَّعنِ في النبُوَّة، وليحذرْ كلُّ قومٍ من الكفَّار مثلَ صنيعِ بني النضير. والمعنى: تدبَّرُوا وانظروا فيما صنع، نزلَ بهم يا أهلَ البيتِ والعقلِ والبصائرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ)، قرأ العامَّة بالتخفيفِ من الإخْرَابِ؛ أي يَهدِمُونَها، وقرأ الحسنُ وأبو عمرٍو (يُخَرِّبُونَ) بالتشديد من التَّخريب، قال أبو عمرٍو: وإنَّما اخترتُ التشديدَ؛ لأنَّ الإخرابَ تركُ الشيءِ خَراباً بغيرِ ساكنٍ، وبنو النضيرِ لم يترُكوا منازلَهم فيرتَحِلُوا عنها، ولكنَّهم خرَّبُوهَا بالنقضِ والهدمِ.

وقال بعضُهم: التخريبُ والإخرابُ بمعنى، قال الزهريُّ: (وَذلِكَ أنَّهُمْ لَمَّا أيْقَنُوا بالْخُرُوجِ كَانُوا يَهْدِمُونَ أعْمِدَةَ بُيُوتِهِمْ وَيَنْتَزِعُونَ الْخَشَبَ وَالآلاَتِ وَيَنْقُضُونَ السُّقُوفَ وَيَنْقُبُونَ الْجِدَارَاتِ وَيَقْتَلِعُونَ الْخَشَبَ حَتَّى الأَوْتَادَ لِئَلاَّ يَسْكُنَهَا الْمُسْلِمُونَ حَسَداً وَبَغْضَاءً، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُخَرِّبُونَ مَا بَقِيَ مِنْ بنَائِهِمْ)[2].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ معناهُ: لولا أنْ قضَى اللهُ عليهم في اللَّوح المحفوظِ بالانتقال والخروجِ من أوطانِهم إلى الشَّام وخيبرَ لعَذبَهم في الدُّنيا بالقتلِ والسَّبي كما فعلَ ببني قُريظة، ﴿ وَلَهُمْ ﴾ ؛ مع ما أصابَهم في الدُّنيا، ﴿ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ﴾ ؛ ولكنْ عَلِمَ اللهُ أن الجلاءَ أصلحُ.

---

(١) في المخطوط: (والقدر) وهو غير مناسب.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٤.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ أي ذلـك الجـلاءُ والعذابُ بأنَّهم خالَفُوا أولياءَ اللهِ وأخذُوا في شِقٍّ غيرِ شِقِّ أولياءِ الله ورسولِه، ﴿ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ ﴾ ، ومَن يُخالفِ اللهَ ورسولَهُ في الدِّين ففعَلَ فِعْلَ هؤلاءِ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ له في الدُّنيا والآخرةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا نَزلَ ببَنِي النَّضِيرِ وَتَحَصَّنُوا فِي حُصُونِهِمْ، أَمَرَ بقَطْعِ نَخِيلِهِمْ وَإِحْرَاقِهَا، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إلاَّ بالصَّلاَحِ، وَلَيْسَ فِي هَذا إلاَّ إفْسَادُ الْمَعِيشَةِ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إنَّكَ تُرِيدُ الصَّلاَحَ، أفَمِنَ الصَّلاَحِ قَطْعُ النَّخِيلِ وَالأَشْجَار؟ وَهَلْ وَجَدْتَ فِيمَا زَعَمْتَ أنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ.

فَشَقَّ ذلِكَ عَلَى النَّبيِّ ﷺ وَوَجَدَ الْمُسْلِمُونَ فِي أنْفُسِهِمْ مِنْ ذلِكَ مَشَقَّةً، وَكَانَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يُمْعِنُونَ فِي قَطْعِ النَّخْلِ، وَبَعْضُهُمْ يَنْهَى عَنْ ذلِكَ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ تَصْدِيْقاً لِلَّذِينَ نَهَوا عَنْ قَطْعِ النَّخِيلِ وَتَحْلِيْلاً لِمَنْ قَطَعَهُ، وَبَرَاءَةً لَهُمْ مِنَ الإِثْمِ وَتَصْوِيْباً لِلْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ تَعَالَى (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أصُولِهَا فَبِإذْنِ الله) بيَّن أنَّ ما قُطِعَ منها قُطِعَ بإذنِ الله، وما تُرِكَ منها بإذنِ الله[1].

واللِّينَةُ هي النَّخلَةُ، قال ابنُ عبَّاس وقتادةُ: (اللِّينَةُ هِيَ كُلُّ نَخْلَةٍ مَا لَمْ تَكُنْ عَجْوَةً)، وَقِيْلَ: اللِّينَةُ: مَا خَلاَ العجوةَ والبرني وجمعه لِيَانٌ، ورُوي: [أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَقْطَعُ نَخِيلَهُمْ إلاَّ الْعَجْوَةَ][2] قال عكرمةُ: (وَالنَّخْلُ كُلُّهُ لِيَانٌ مَا خَلاَ الْعَجْوَةَ)[3]، وقال سفيانُ: (اللِّينَةُ هِيَ كِرَامُ النَّخْلِ)[4]. وقال مقاتلُ: (هُوَ ضَرْبٌ مِنَ النَّخْلِ ثَمَرُهَا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٢١٩-٢٦٢٢٢).

(٢) أخرجه مقاتل في التفسير: ج٣ ص٣٣٩ بسنده عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. والعَجْوَةُ ضربٌ من أجودِ التُّمور بالمدينة، ونخلتُها تسمى (لِيْنَةٌ). مختار الصحاح: ص٤١٦.

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٩٨؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة) وذكره.

(٤) ذكره الثعلبي أيضاً في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٧١.

شَدِيدُ الصُّفْرَةِ يَغِيبُ فِيْهِ الضِّرْسُ عِنْدَ أكْلِهِ، وَكَانَ مِنْ أجْوَدِ تَمْرِهِمْ وَأعْجَبِهِ إلَيْهِمْ)[1]، والعربُ تُسمِّي النخلَ كُله لِيَانٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾ ؛ معنـاهُ: وليُـهينَ اللهُ ويُـذِلَّ اليهودَ ويُخْزِيَهُمْ بأن يُرِيَهم أموالَهم يتحكَّمُ فيها المؤمنون كيف أحَبُّـوا لأنَّـهم نقَضُـوا العهدَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ ؛ معناهُ: ومـا ردَّ اللهُ علـى رسـولهِ مـن غنـائمِ بـني النضـيرِ، فمِمَّـا لم تُوجِفُوا عليه أنتم خيلاً ولا ركَاباً ولكن مَشَيْتُم إليه مَشْياً؛ لأن ذلـك كـان قَريبـاً مـن المدينةِ؛ أي لم يحصُلْ ذلك بقتَالِكم، فلا شـيءَ لكـم مِـن ذلـك، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ ﴾ ؛ إنما كان ذلك بتسليطِ الله تعالى نَبيَّهُ ﷺ، واللهُ يُمكِّنُ رُسُلَهُ صلواتُ الله عليهم من أعدائهِ بغيرِ قتالٍ، واللهُ علـى كلِّ شيءٍ من النَّصرِ والغنيمةِ قادرٌ.

والضميرُ في قوله (أوْجَفْتُمْ عَلَيْـهِ) أي علـى مـا أفـاءَ اللهُ، والإيجـافُ الإسـراعُ والإزعاجُ للسَّير، يقالُ: أوجفَ السَّيرَ، وأوْجَفْتُهُ أنَا، والوَجِيفُ: نوعٌ من السَّـيرِ فـوق التَّقريب، ويقال: وَجَفَ الفرسُ والبعير يَجِفُ وَجْفاً إذا أسرعَ السَّيرَ، وأوْجَفَهُ صاحبهُ إذا حملَهُ على السَّير السريعِ.

ومعنى الآية: (وَمَا أفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ) من مـالِ بـني النَّضـيرِ (فَمَـا أوْجَفْتُـمْ عَلَيْهِ) أي فما وضَعتُم عليه من خيلٍ ولا إبل ولم تنَالُوا فيه مشقَّةً ولم تلْقَوا حَرباً وإنمـا مَشَيْتُم إليه مَشْياً، إلاَّ النبيِّ ﷺ فإنه رَكِبَ جَملاً فافتَتَحها النـبيُّ ﷺ وأجْلاَهُـم وأخـذ أموالَهم.

فسألَ المسلمون النبيَّ ﷺ في القِسْمَةِ في تلـك الأمـوالِ، فـأنزلَ اللهُ تعـالى هـذه الآيةَ، فجعلَ أموالَ بني النضير خاصَّة لرسول الله ﷺ يضعُـها حيـث يشـاء، فقسَـمَها رسولُ الله ﷺ بين المهاجرين ولم يُعْطِ الأنصارَ منها شيئاً، إلاَّ ثلاثةَ نفرٍ كانت لهـم حاجـةٌ،

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٣٨.

وهم: أبو دُجَانَةَ؛ وسَهلُ بن حنيف؛ والحارثُ بن الصِّمَّةِ[(١)].

وعن عمرَ ﷺ: (أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُنْفِقُ عَلَى أهْلِهِ مِنْ مَالِ بَنِي النَّضِيرِ نَفَقَةَ سَنَةٍ، وَمَا بَقِيَ جَعَلَهُ فِي الْكِرَاعِ وَالسِّلاَحِ عُدَّةً فِي سَبيلِ اللهِ؛ لأنَّهُ مِمَّا أفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَلَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ بخَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ، فَكَانَ خَالِصاً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ)[(٢)].

وأرادَ بهذا ما كان يحصلُ من غُلَّةِ أراضِيهم في كلِّ سنةٍ. وفي هذه الآيةِ دلالةٌ على أنَّ كلَّ مالٍ من أموالِ أهلِ الشِّرك لم يغلِبْ عليه المسلمون عَنوَةً وإنما أخِذ صُلحاً أنْ يُوضَعَ في بيتِ مالِ المسلمين ويُصرَفَ إلى الوجُوهِ التي تُصرَفُ فيها الجزيةُ والْخَراجُ؛ لأن ذلك بمنْزلَة أموالِ بني النضير.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ؛ اختلفَ أهلُ اللغةِ في الفَيْءِ ما هُوَ ؟ فقالَ بعضُهم: هو مما مَلَّكَهُ اللهُ المسلمين من أموالِ المشركين بغيرِ قتالٍ أو بقتالٍ، فالغنيمةُ فَيْءٌ والخراجُ فَيْءٌ.

قال بعضُهم: الْغَنِيمَةُ اسمٌ لِمَا أخذهُ المسلمون من الكفَّار عُنوةً وقهراً، والفَيْءُ ما صالَحُوا عليهِ، فبيَّن اللهُ تعالى في هذه الآيةِ حُكمَ الفيءِ، فقالَ تعالى (مَا أفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أهْلِ الْقُرَى) أي من غنائمِ قُرَى المدينةِ في قريظةَ وبني النضير وفدَكٍ، فإنَّ ذلك خاصَّة للنبيِّ ﷺ دون الغانِمين، وكان أمرُ النبيِّ ﷺ في ذلك جائزاً، فكان النبيُّ ﷺ يصرفُها بأمرِ الله تعالى إلى قرائب نفسه وفُقراءِ قَرابَتهِ ويتامَى الناسِ عامَّة والمساكين عامَّة، يعني المحتاجِين وأبناءِ السَّبيل والفُقَراء المهاجرين.

واختلفَ العلماءُ في حُكمِ هذه الآيةِ، فقالَ بعضُهم: أرادَ بقولِهِ (مَا أفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أهْلِ الْقُرَى) الغنائمَ التي يأخذُها المسلمون من أموالِ الكفَّار عُنوةً

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٢٤٢).

(٢) هو شطر حديث طويل في الدر المنثور: ج ٨ ص١٠١-١٠٢؛ قال السيوطي:(أخرجه أبو عبيد في كتاب الأموال وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو عوانة وابن حبان وابن مردويه عن مالك بن أنس بن الحدثان، قال: بعث عمر بن الخطاب) وذكره.

وغَلَبةً، وكانت في بدءِ الإسـلام لعامـة الغـانِمين المسـلمين دون الغـانِمين الْمُوجِفين عليها، ثم نَسَخَ اللهُ ذلك بقولهِ تعالى في سورة الأنفال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾(١) والآيةُ التي قبلَ هذه الآية في بيانِ حُكم أموال بني النضير خاصَّة، وهذه الآيةُ في بيان حُكمِ جلب الأموال التي أصيبت بغـيرِ قتـالٍ ولم يوجَـفْ عليها بالخيلِ والجمالِ.

وقال آخَرُون: هما واحدٌ، والثانيةُ بيان قسمِ المالِ الذي ذكر اللهُ تعـالى في هـذه الآيةِ الأُولى، والغنائمُ كانت في بدءِ الإسلام لرسول الله ﷺ يصنَعُ بها ما يشـاءُ، كمـا قال تعالى ﴿قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾(٢) ثم نُسِخَ ذلك بقوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ﴾ الآيةُ، فجَعَلَ أربعةَ أخماسِها للغانِمين يُقسَمُ بينهم، وأما الْخُمْسُ الباقي فيقسمهُ على خمسةِ أسهُمٍ: سهمٌ لرسولِ الله ﷺ، وسهمٌ لذوي القُربَى، وسـهمٌ لليتَامَى، وسهمٌ للمساكين، وسهمٌ لبني السَّبيلِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ ؛ معناه: كَي لا يكون الفَيءُ مُتدَاولاً بين الأغنياءِ منكم، والفرقُ بين الدُّولَةِ والدَّوْلَةِ بفتحِ الدال عبـارةٌ عـن المدَّة من الاستيلاءِ والغَلبَةِ، والدُّولَةُ اسمٌ للشيءِ المتـداوَل، والمعنـى: كـي لا يتداولـهُ الأغنياءُ منكم، يكون لِهذا مرَّة ولِهذا مرة، كما يُعمَلُ في الجاهليَّـة، وكـانوا إذا أخَـذُوا غنيمةً أخذ الرئيسُ رُبعَها وهو الرِّبَاعُ، والأغنيـاءُ والرُّؤسـاء، وقـال مقـاتل: (كَـيْ لاَ يَغْلِبَ الأَغْنِيَاءُ الْفُقَرَاءَ فَيَقْسِمُونَهُ بَيْنَهُمْ).

ثُم قـالَ: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ ﴾ ؛ مـن الفَـيءِ والغنيمـةِ، ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ ؛ فهو حلالٌ لكم، ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ ؛ أي عن أخذهِ، ﴿ فَانتَهُوا ﴾ ؛ وهذا نازلٌ في أمرِ الفيءِ، ثم هو عامٌّ في كلِّ ما أمَرَ اللهُ به النبيَّ ﷺ ونَهى عنه، قال الحسنُ في قولـهِ: (وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا):(يَعْنِي مَا نَـهَاكُمْ عَنْـهُ مِـنَ الْغَلُـول)(٣). وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ؛ معناهُ: اتَّقوا عـذابَ اللهِ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ ، إذا عـاقبَ فعقوبتهُ شديدةٌ.

---

(١) الآية ٤١ .   (٢) الأنفال / ١ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٢٣٥).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ ؛ معناه: كَي لا يكون دُولَةً بين الأغنياءِ، ولكن يكون للفُقراء المهاجرين الذين أُخرجُوا من ديارهم، يعني أنَّ كفارَ مكَّةَ أخرَجُوهم، ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي رزْقاً يأتيهم، ﴿ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ ؛ رضَى ربهم حين خرَجُوا إلى دار الهجرة ينصرون الله ورسوله، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ في إيمانِهم.

والمعنى بقوله (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ) بيانُ المحتاجِين المذكورين في الآيةِ التي قبلَ هذه الآيةِ، كأنَّهُ قال: هؤلاءِ الفقراء المحتاجِين ما تقدَّمَ ذِكرهُ من الفَيءِ، وكانوا نحواً من مائةِ رجُلٍ، وكانوا شَهدُوا بَدراً أجمعين، ولذلك أثنَى اللهُ عليهم بقولهِ (يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ الله وَرِضْوَاناً) أي يطلُبون بتلك الهجرةِ ثوابَ الله ورضوانَهُ، وينصُرون بالسَّيف والجهادِ أولياءَ اللهِ وأولياءَ رسُولهِ، (أولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) في الإيمان وطلب الثَّواب.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: ((وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ) مُبْتَدَأ، وَخَبَرُهُ (يُحِبُّونَ)). وَهَذا ثناءٌ على الأنصار، وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا أعْطَى الْمُهَاجِرِينَ مَا قَسَمَ لَهُمْ مِنْ فَيْءِ بَنِي النَّضِيرِ لَمْ يَأْمَنْ عَلَى غَيْرِهِمْ أنْ يَحْسِدَهُمْ إذْ لَمْ يَقْسِمْ لَهُمْ.

فَقَالَ لِلأَنْصَار: [إنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُمْ لَهُمْ مِنْ دُوركُمْ وَأمْوَالِكُمْ، وَقَسَمْتُ لَكُمْ مَا قَسَمْتُ لَهُمْ، وَإمَّا أنْ يَكُونَ لَهُمُ الْقَسْمُ وَلَكُمْ دِيَاركُمْ وَأمْوَالُكُمْ] فَقَالُوا: لاَ؛ بَلْ نَقْسِمُ لَهُمْ مِنْ دِيَارنَا وَأمْوَالِنَا وَلاَ نُشَاركُهُمْ فِي قَسْمِهِمْ. فَأثْنَى اللهُ تعالَى عليهم بهذه الآيةِ(١).

والمعنى: لَزِمُوا دارَ الهجرةِ ولَزِمُوا الإيمانَ من قبلِ هجرةِ المهاجرين ووَطَنُوا منازلَ أنفُسِهم، فهم يحبُّون مَن هاجرَ إليهم من مكَّة من أصحاب النبيِّ ﷺ، ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ ؛ ضِيقاً وحسَداً، ﴿ مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ ؛ مما أعطِيَ المهاجرين من الغنائم.

---

(١) في فتح الباري شرح صحيح البخاري: كتاب المغازي: شرح الحديث (٤٠٢٩): ج ٧ ص٤٢٢؛ قال ابن حجر:(وروى الحاكم في الإكليل من حديث أم العلاء قال النبي ﷺ للأنصار لَمَّا فتح النضير: [إن أحببتم...] وذكره.

ومعنى الآيةِ: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ) يعني المدينةَ، وهي دارُ الهجرةِ، وتبوَّأها الأنصارُ قبلَ المهاجرين. وتقديرُ الآية: والَّذين تبوَّءوا الدارَ مِن قبلِهم والإيمانَ؛ لأن الأنصارَ لم يُؤمِنوا قبلَ المهاجرين، وعطفُ (الإيْمَانَ) على (الدَّارَ) في الظاهرِ لا في المعنى؛ لأنَّ الإيمان ليس بمكانِ تَبَوُّءٍ. والتقديرُ: وآثَرُوا الإيمانَ واعتقَدُوا الإيمانَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾؛ معناهُ: ويُؤثِرُون المهاجرين على أنفُسِهم بأموالِهم ومنازلِهم، ولو كان بهم فقرٌ وحاجة إلى الدار والنَّفقةِ، بيَّن اللهُ أن إيثارَهم لم يكن عن غِنًى عن المالِ ولكن عن حاجةٍ، فكان ذلك أعظمَ لأجرِهم.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: (جَاءَ رَجُلٌ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: إنِّي جَائِعٌ فَأطْعِمْنِي؟ فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إلَى أحَدِ أزْوَاجِهِ: [هَلْ عِنْدَكُنَّ شَيْءٌ؟] فَكُلُّهُنَّ قُلْنَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بالْحَقِّ مَا عِنْدَنَا إلاَّ الْمَاءُ، فَقَالَ ﷺ:[مَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يُطْعِمُكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ] ثُمَّ قَالَ: [مَنْ يُضِيفُ هَذا هَذِهِ اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ؟].

فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: أنَا يَا رَسُولَ اللهِ، - قالَ في صحيحِ مُسلم: هُوَ أبُو طَلْحَةَ، وَقِيْلَ: أبُو أيُّوبٍ، والضَّيْفُ أبُو هريرةَ[1]- فَمَضَى بِهِ إلَى مَنْزِلِهِ، فَقَالَ لأهْلِهِ: هَذا ضَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأكْرِمِيهِ وَلاَ تَدَّخِرِي عَنْهُ شَيْئاً، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إلاَّ قُوتُ الصِّبْيَةِ، قَالَ: قُومِي فَعَلِّلِيهِمْ عَنْ قُوتِهِمْ حَتَّى يَنَامُوا، ثُمَّ أسْرِجِي وَأحْضِرِي الطَّعَامَ، فَإذا قَامَ الضَّيْفُ لِيَأكُلَ قُومِي كَأنَّكِ تُصْلِحِينَ السِّرَاجَ فَأطْفِئِيهِ، وَتَعَالَي نَمْضُغْ ألْسِنَتَنَا لِضَيْفِ رسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَشْبَعَ.

فَقَامَتْ إلَى الصِّبْيَةِ فَعَلَّلَتْهُمْ حَتَّى نَامُوا وَلَمْ يَطْعَمُوا شَيْئاً، ثُمَّ قَامَتْ فَأسْرَجَتْ، فَلَمَّا أخَذَ الضَّيْفُ لِيَأكُلَ قَامَتْ كَأنَّهَا تُصْلِحُ السِّرَاجَ فَأطْفَأتْهُ، وَجَعَلاَ يَمْضُغَانِ ألْسِنَتَهُمَا، فظَنَّ الضَّيْفُ أنَّهُمَا يَأكُلاَنِ مَعَهُ، فَأكَلَ الضَّيْفُ حَتَّى شَبِعَ، وَبَاتَا طَوِيَّيْنِ. فَلَمَّا أصْبَحَا غَدَوا إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا نَظَرَ إلَيْهِمَا تَبَسَّمَ ثُمَّ قَالَ: [لَقَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ فُلاَنٍ وَفُلاَنَةٍ هَذِهِ اللَّيْلَةَ فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ وَلَوْ

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الأشربة: باب اكرام الضيف: الحديث (١٧٣/ ٢٠٥٤).

كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[(١)])[(٢)].

وقال أنسٌ ﷺ: (أهْدِيَ لِبَعْضِ الصَّحَابَةِ رَأسَ شَاةٍ مَشْوِيَّةٍ وَكَانَ مَجْهُوداً، فَقَالَ: لَعَلَّ جَاري أحْوَجُ إلَيْهِ مِنِّي، فَبَعَثَ بِهِ إلَيْهِ، ثُمَّ إنَّ جَارَهُ قَالَ مِثْلَ ذلِكَ، فَوَجَّهَ بِهِ إلَى جَارٍ لَهُ، فَتَدَاولَهُ تِسْعَةُ أنْفُسٍ حَتَّى رَجَعَ إلَى الأوَّلِ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾)[(٣)].

ويُحكى عن أبي الحسنِ الأنطاكيِّ: أنه اجتمعَ عندَهُ نَيِّفٌ وثلاثون رجُلاً بقريةٍ من قُرى الريِّ ومعَهم أرغفةٌ قليلةٌ لم تُشبعْ جوعَتَهم، فكسَّروا الرّغفانَ وأطفأوا السِّراجَ وجلَسُوا ليأكلُوا، فلمَّا رفعَ فإذا الطعامُ بحالهِ لم يأكُلْ منه أحدٌ إيْثاراً لصاحبهِ على نفسهِ[(٤)].

ويُحكى عن حذيفةَ العدويِّ قال: (انْطَلَقْتُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ أطْلُبُ ابْنَ عَمٍّ لِي وَمَعِي شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ، فَإذا أنَا بِهِ فَقُلْتُ: أسْقِيكَ ؟ فَأشَارَ: أيْ نَعَمْ، فَإذا رَجُلٌ يَقُولُ: آهٍ، فَأشَارَ ابْنُ عَمِّي أنْ انْطَلِقَ بِهِ إلَيْهِ، فَإذا هُوَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ، فَقُلْتُ: أسْقِيكَ ؟ فَسَمِعَ آخَرَ يَقُولُ: آهٍ، فَأشَارَ هِشَامُ: أن انْطَلِقْ بِهِ إلَيْهِ، فَإذا هُوَ قَدْ مَاتَ، ثُمَّ رَجَعْتُ إلَى هِشَامٍ فَإذا هُوَ قَدْ مَاتَ، ثُمَّ رَجَعْتُ إلَى ابْنِ عَمِّي فَإذا هُوَ قَدْ مَاتَ)[(٥)].

ويحكى عن أبي يزيدِ البسطاميِّ قال: (مَا غَلَبَنِي إلاَّ شَابٌّ مِنْ أهْلِ بَلَخٍ قَدِمَ عَلَيْنَا حَاجّاً، فَقَالَ لِي: يَا أبَا يَزِيدِ مَا حَدُّ الزُّهْدِ عِنْدَكُمْ ؟ قُلْتُ: إذا وَجَدْنَا أكَلْنَا، وَإذا فَقَدْنَا صَبَرْنَا. قَالَ: هَكَذا عِنْدَنَا كِلاَبُ بَلَخٍ! فَقُلْتُ: مَا حَدُّ الزُّهْدِ عِنْدَكُمْ؟ قَالَ: إذا فَقَدْنَا صَبَرْنَا، وَإذا وَجَدْنَا آثَرْنَا). وسُئل ذو النونُ عن الزُّهد فقالَ: (ثَلاَثٌ: تَفْرِيقُ الْمَجْمُوعِ، وَتَرْكُ الْمَفْقُودِ، وَالإيْثَارُ عِنْدَ الْقُوتِ).

---

(١) الحشر / ٩ .

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الأشربة: باب اكرام الضيف: الحديث (١٧٣/ ٢٠٥٤).

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٠٧؛ قال السيوطي: (أخرجه الحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر) وذكره. وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٨٥٢)، وقال: حديث صحيح الإسناد.

(٤) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٩.

(٥) نقله الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٧٩.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي مَن يدفَعُ عنه غائلةَ نفسهِ وحرصَ النفس حتى تطيبَ نفسهُ بذلـك، فـأُولئك هـمُ النَّاجُونَ السُّعداء، الباقون في الآخرةِ. والشُّحُّ في الآخرة: منعُ النَّفعِ، وأمَّا في الدُّنيا فهو منعُ الواجب، وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ قالَ: [بَرِئَ مِنَ الشُّحِّ مَـنْ أدَّى زَكَـاةَ مَالِـهِ، وَأقْرَى الضَّيْفَ، وَأعْطَى فِي النَّائِبَةِ][1]. وقال سعيدُ بن جبير: (شُحُّ النَّفْسِ هُـوَ أخْـذُ الْحَرَامِ وَمَنْعُ الزَّكَاةِ).

وَجَاءَ رَجُلٌ إلَى عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: لَقَدْ خِفْتُ أنْ لاَ تُصِيبَنِي هَـذِهِ الآيَـةُ (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وَاللهِ مَا أقْدِرُ أعْطِي شَـيْئاً أطِيـقُ مَنْعَـهُ، فَقَالَ عَبْدُاللهِ: (إنَّمَا ذلِكَ الْبُخْلُ وَبئْسَ الشَّـيْءُ الْبُخْـلُ، وَلَكِـنَّ الشُّـحَّ أنْ تَـأْخُذ مَـالَ أخِيكَ بغَيْرِ حَقِّهِ)[2].

وعن أبي هريرةَ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:[لاَ يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإيْمَانُ فِي قَلْب رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ مُسْلِمٍ قَطُّ][3].

واختلفَ العلماءُ في الشُّحِّ والبُخْـلِ، فقـال بعضُـهم: همـا واحـدٌ، وهـو منـعُ الفَضْلِ. وقال بعضُهم: بينهما فَرْقٌ، والبخلُ أنْ يبخلَ الرجلُ بما في يـدهِ، والشـحُّ أن يبخلَ بما في أيدِي الناسِ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٤ ص١٨٩: الحديث (٤٠٩٦) عن خالد بن زيد الأنصاري. وفي الإصابة في معرفة الصحابة: ج ٢ ص٢٣٦: الرقم (٢١٦٨) قال ابن حجر: (روى أبو يعلى الطبراني) وذكره. وقال:(إسناده حسن لكن ذكره البخاري وابن حبان في التابعين). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في الجود والسخاء: الحديث(١٠٨٤٢) عن أنس بن مالك. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٢٤٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٢٤٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٤٢. والنسائي في السنن: كتاب الجهاد: باب فضل من عمل في سبيل الله على قدره: ج ٦ ص١٣-١٤. والحاكم في المستدرك: كتاب الجهاد: باب أي المؤمنين أكمل ايماناً: الحديث(٢٤٤١) وذكر له شاهداً وقال:(صحيح على شرط مسلم). وأخرجه ابن حبان في الصحيح:كتاب الزكاة: الحديث (٣٢٥١).

وعن جابرِ بن عبدِالله قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [اتَّقُوا الشُّحَّ، فَإنَّ الشُّحَّ أهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ أنْ سَفكُوا الدِّمَاءَ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ](١).

وعن أبي الْهَيَّاجِ الأسديِّ قال:(كُنْتُ أطُوفُ بالْبَيْتِ، فَرَأيْتُ رَجُلاً يَقُولُ: اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي، لاَ يَزِيدُ عَلَى ذلِكَ، فَقُلْتُ لَهُ فِي ذلِكَ، فَقَالَ: إذا وُقِيتُ شُحَّ نَفْسِي لَمْ أسْرِقْ وَلَمْ أزْنِ، وَإذا الرَّجُلُ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ)(٢).

ويُحكى أنَّ كسرَى قال لأصحابهِ ذاتَ يوم: أيُّ شيءٍ أضرُّ بابنِ آدمَ ؟ قالوا: الْفَقْرُ، فقال كسرى: والشُّحُّ أضرُّ من الفقرِ؛ لأن الفقيرَ إذا وجدَ شَبعَ، وإن الشحيحَ لا يشبعُ أبداً(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ ؛ يعني التَّابعين وهمُ الذين جاءُوا بعدَ المهاجرين والأنصار إلى يومِ القيامة، قال ابنُ عمر: (هَـؤُلاَءِ هُـمُ التَّابعِينَ بالإحْسَانِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ). قال ابنُ أبي ليلى: (النَّاسُ عَلَى ثَلاَثَةِ مَنَازِلَ: الْفُقَرَاءُ، وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإيْمَانَ، وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاجْهَدْ أنْ لاَ تَكُونَ خَارجاً مِنْ هَذِهِ الْمَنَازِل)(٤).

ثم ذكرَ اللهُ تعالى أنَّ هؤلاء التابعين يدعُون لأنفُسِهم وللسَّلَفِ الذين سبَقُوهم، فقالَ تعالى (يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بالإيمَان) ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) ﴾ ؛ أي لاَ تجعَلْ في قُلوبنا غِشّاً وحسَداً وبُغْضاً وحِقْداً للمؤمنين، فكلُّ مَن لم يترحَّمْ على جميعِ الصَّحابة وكان في قلبهِ غِلٌّ لَهم على أحدٍ منهم كان خَارجاً من أقسامِ المؤمنين؛ لأنَّ اللهَ رتَّبَ المؤمنين على ثلاثِ مراتب: المهاجرين، والأنصار، والتابعين إلى يومِ القيامة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٣٢٣. ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب تحريم الظلم: الحديث (٥٦/ ٢٥٧٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٢٤٨).

(٣) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٨١. وأيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٣٠.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٢٥٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾ ؛ يعني عبدَالله بنَ أبيٍّ وأصحابَهُ، ومعنى (نَافَقُوا) أي أظهَرُوا خلافَ ما أضمَرُوا، ﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ؛ وهم بنُو قريظةَ وبنو النضِير، سَمَّاهم إخوانَهم لأنَّهم كفارٌ مثلَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ ؛ أي لئن أخرجتُم من دياركم؛ أي لغربة ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ ؛ أي لا نُساكِنُ مُحمَّداً، ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ ؛ ولا نطيعهُ على قتالِكم، ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ ؛ فإنْ قاتلَكم مُحَمَّدٌ وأصحابهُ، لنُعاونَنَّكم عليه حتى تكون أيدِينا يَداً واحدةً في المقاتَلة حتى نغلِبَهم، وعَدُوهُمْ أنَّهم ينصرونهم، فكذبَهم اللهُ في ذلك بقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ في مُقاتَلتِهم، وقد بانَ كذِبُهم في ما نزلَ ببني النَّضيرِ من الجلاءِ وفيما أصابَ بني قريظةَ من القتلِ.

ثم ذكرَ اللهُ أنَّهم يُخلِفُونَهم ما وَعَدُوهم من الخروجِ والنصر، فقال تعالى: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ ؛ فكان الأمرُ على ما ذكرَ اللهُ تعالى؛ لأنَّهم أخرجُوا من ديارهم فلم يَخرُجْ معهم المنافقون، وقُوتِلُوا فلم يَنصُرونهم أظهرَ اللهُ كَذِبَهم وأبانَ صِدْقَ ما قَالَ اللهُ تَعَالَى.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ولئن قُدِّرَ وجودُ نصرِهم؛ لأن ما نفاهُ الله لا يجوزُ وجودُه، قال الزجَّاجيُّ: (مَعْنَاهُ: لَوْ قَصَدُوا نَصْرَ الْيَهُودِ لَوَلَّوا الأَدْبَارَ مَهْزُومِينَ). (ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ) يَعْنِي بَنِي النَّضيرِ لا يُصِيرون مَنصُورين إذا انْهزَمَ ناصِرُوهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: لأنتم يا معشرَ المسلمين أهْيَبُ في قُلوب المنافقين واليهودِ من عذاب الله، وخوفُهم منكم أشدُّ من خوفِهم اللهَ لعِلمِهم بكم وصفاتِكم، وجَهلِهم باللهِ وعظَمَتِه، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ الخوفُ الذي بهم منكم دونَ اللهِ، ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ لاَ يعرِفُون اللهَ تعالى، ولو عَرفوهُ لعَلِمُوا أنَّ عقوبةَ اللهِ أعظمُ مما عساهُ يقع بهم من فعلِ المؤمنين.

وفي هذه الآيةِ بيانُ أنَّهُ لا ينبغِي لأحدٍ أنْ يكون خَوفهُ من الناسِ أزيَدُ من خوفهِ من اللهِ تعالى، وإنَّ من زادَ خوفهُ من أحدٍ من الناسِ على خوفهِ من اللهِ فليس بفَقِيهٍ، إنما الفقيهُ من يخشَى اللهَ كما في آيةٍ أخرى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١)، والفقهُ: الْعِلْمُ بمفهومِ الكلامِ في إدراكِ ظَاهرهِ بمضمونهِ، والناسُ يتفاضَلون في الإدراكِ لاختلافِهم في جَوْدَةِ القريحةِ وسُرعَةِ الفطنةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ ومعناهُ: لا يُقاتِلُونَكم بنو قُريظةَ إلاَّ في حُصُونٍ موثَّقةٍ أو من خَلفِ جِدَار، لِمَا قذفَ اللهُ في قلوبهم الرُّعبَ، ولا يُقاتونَكم مبارزةً.

قرأ ابنُ عبَّاس ومجاهدُ وابن كثير وأبو عمرو (أَوْ مِنْ وَرَاءِ جِدَار) بالألفِ على الواحد. ويَروي بعضُ أهلِ مكَّة (جَدْر) بفتحِ الجيم وجزمِ الدال وهي لغةٌ في الجدار، وقرأ يحيى بن وثَّاب (جُدْر) بضم الجيم وجزمِ الدال، وقرأ الباقون بضَمِّهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ ؛ يعني بُغْضُهم وعداوةُ بعضِهم لبعضٍ شديدٌ، وبينهم مخالفةٌ وعداوة عظيمةٌ، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ ؛ أي تحسَبُهم متَّفقين على أمرٍ واحد بنِيَّات مجتمعةٍ إذا قاتلُوا المؤمنين، ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ ؛ أي متفرِّقةٌ لا يتعاوَنون لمعاداةِ بعضهم بعضاً، وإنْ أظهَرُوا الموافقةَ، والمعنى: أنَّهم مختَلِفُون لا تستوي قلوبُهم ولا نيَّاتُهم لأنَّ اللهَ خذلَهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾ ؛ الاختلافُ، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ ؛ ما فيه الحظُّ لهم ولا يعقِلُون الرُّشدَ من الغيِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ ؛ معناهُ: مَثَلُ هؤلاءِ اليهود كمَثَلِ الذين مِن قَبلِهم وهم كفارُ مكَّة، يعني: مثلُهم في ما ينْزِلُ من العقوبةِ كمَثَلِ مُشركي مكَّة، وقوله تعالى (قَرِيباً ذاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ) يعني القتلَ والأسرَ ببدر، وكان ذلك قبلَ غزوةِ بني النَّضير بستَّة أشهُرٍ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ ؛ في الآخرةِ.

---

(١) فاطر / ٢٨ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ ؛ أي مثَلُ الكافرين في غُرورهم لبني النضير وخِلاّنِهم، كمثَلِ الشَّيطان في غُرورِهِ لابنِ آدمَ إذ دعاهُ إلى الكُفرِ بما زَيَّنَهُ له من المعاصِي، فلمَّا كَفَرَ الآدميُّ تَبَرَّأَ الشيطانُ منه ومن دينهِ في الآخرة.

ويقال: إنَّ المرادَ بهذه الآيةِ إنسانٌ بعَينهِ يقالُ له بَرصِيصَا، عَبَدَ اللهَ تعالى في صَومعَةٍ له سَبعين سنةً، وكان من بني إسرائيلَ، فعالَجهُ إبليس فلم يقدِرْ عليه، فجمعَ ذاتَ يومٍ مَرَدَةَ الشياطين وقال لَهم: ألاَ أحدٌ منكم يكفِيني أمرَ برصيصا؟ فقال له الأبيضُ: أنا أكفِيكَهُ، وكان من شدَّة تمرُّد هذا الأبيضِ أنه اعترضَ النبيَّ ﷺ ليُوَسوِسَ إليه، فدفعَهُ جبريلُ دفعةً هيِّنة فوقعَ في أقصى أرضِ الهند .

فقالَ الأبيضُ لإبليسَ: أنا أزَيِّنُ له، فتزيَّنَ بزينةِ الرُّهبان ومضَى حتى أتى صومعةَ برصيصا، فأقبلَ على العبادةِ في أصلِ الصَّومعة فانفتلَ برصيصا فاذا هو يراهُ قائم يصلِّي في هيئةٍ حسَنةٍ من هيئة الرُّهبان، فأقبلَ إليه وقالَ: يا هذا ما حاجَتُكَ؟ فقال: أحبُّ أن أكون معكَ فأتعلَّمَ منكَ وأقتبسَ عِلمَكَ، فتدعُو لي وأدعُو لكَ، فقال برصيصا: إنِّي لفِي شُغلٍ عنكَ، فإن كُنتَ مُؤمِناً فسيجعلُ الله لكَ نصيباً مما أدعوهُ للمؤمنين والمؤمناتِ.

ثم أقبلَ على صلاتهِ وتركَ الأبيضَ، وقامَ الأبيضُ يصَلِّي فلم يلتَفِتْ برصيصا إلاَّ بعد أربعين يَوماً، فلمَّا التفتَ بعد الأربعين رآهُ قائماً يصلِّي، فلما رأى برصيصا شدَّةَ اجتهادِهِ وكثرةَ ابتهالِهِ وتضرُّعه أقبلَ إليهِ، وقالَ: اطلُبْ حاجتَكَ، قال: حاجَتي أن تأذنَ لي فارتفعَ إليك فأكونَ في صَومَعَتِكَ، فأذِنَ له فارتفعَ اليهِ.

فأقامَ في صَومعتهِ حَوْلاً كاملاً يتعبَّدُ، لا يفطرُ إلاّ في كلِّ أربعين يَوماً يوماً، ولا ينفتِلُ إلاّ في كلِّ أربعين يوماً يَوماً، فلما رآهُ بَرصِيصا ورأى شدَّةَ اجتهادِهِ أعجبَهُ شأنُه، وتقاصَرت عندهُ عبادةُ نفسهِ.

فلمَّا حالَ الحولُ قالَ الأبيضُ لبَرصِيصَا: إنِّي منطلقٌ إلى صاحبٍ لِي غيرك أشدُّ اجتهاداً منكَ، وإنه قد كان بلَغَني عنكَ من العبادةِ والاجتهاد غيرَ الذي أرَى منكَ،

فدخلَ على برصِيصا من كلامهِ ذلك أمرٌ عظيم وكَرِهَ مفارقتَهُ لِمَا رأى من شدَّة اجتهادهِ في العبادةِ.

فلمَّا ودَّعَهُ قالَ له الأبيضُ: إنَّ عندي دَعَواتٍ أعلِّمُكَها تدعو بها، فهي خيرٌ لكَ مما أنتَ فيه، يَشفَى بها السقيمُ، ويُعافَى بها الْمُبتَلى والمجنون، فقال بَرصِيصا: إنِّي أكرهُ هذه المَنزلَةَ، وإنَّ لي في نفسي شُغلاً، وإنِّي أخافُ إنْ عَلِمَ الناسُ بذلك شغَلوني عن العبادةِ. فلَم يزَلْ به الأبيضُ حتى علَّمَهُ.

وانطلقَ الأبيضُ حتى أتى إبليسَ وقالَ له: قد واللهِ أهلكتُ الرجلَ. ثم انطلقَ الأبيضُ إلى رجلٍ فخنقَهُ، ثم جاءَ إلى أهلهِ في صُورَةِ طبيبٍ فقالَ لَهم: إنَّ بصاحبكم جُنوناً، فقالُوا له: عَالِجْهُ لنا ودَاوِه، فقالَ: إنِّي لا أقوَى على جِنِّيَّتِهِ! ولكن أرشِدُكم إلى مَن يدعُو له فيُعافَى، قالوا: دُلَّنَا. قال: انطلِقُوا إلى بَرصِيصا، فإن عندَهُ الاسمُ الأعظم الذي إذا دعَا اللهَ به أجابَ، فمَضَوا بصاحبهم إليه، فدعَا له بتلك الكلماتِ التي علَّمَهُ إياها، الأبيض فذهبَ عنه الشيطانُ.

ثم انطلقَ الأبيضُ إلى صبيَّة من بناتِ الملوك ولها ثلاثةُ إخوةٍ، وكان لهم عمٌّ هو ملكُ بني إسرائيلَ، فخنَقَها ثم جاءَ إليهم في صُورَةِ طبيبٍ، فعالَجها وداوَاها، فلم يذهَبْ عنها، فقالَ لَهم: إنَّ الذي عَرَضَ لها ماردٌ لا يُطَاقُ، ولكنِّي أرشِدُكم إلى رجُلٍ يدعُو لها بدَعَواتٍ فتُعافَى، قالوا: مَن هو ؟ قالَ: بَرصِيصا. قالوا: وكيفَ يُجِيبُنا ذلك إلى هذا الأمر ؟ وكيف يَقبَلُها منَّا ؟ قال: ابْنُوا لَها صومعةً إلى جنب صَومَعتِهِ وتكون لَزِيقاً بصومعتِهِ، وقولوا لَهُ: هذه أمانةٌ عندَكَ فاحتسِبْ فيها.

قالَ: فانطلَقُوا بها إليه فلم يقبَلْها، فبَنَوا لها صومعةً كما ذكرَ لهم الأبيضُ وترَكُوها فيها، وقالوا لبَرصِيصا: هذه أختنا وقد عرضَ لها عدوٌّ من أعداءِ اللهِ، فهي أمانةٌ عندَكَ فاحتسِبْ فيها، ثم انصرَفُوا. فلما أنفتَلَ برصيصا عن صلاتهِ عَايَنها فرأى جَمالاً رَائِقاً وحُسْناً فائقاً فسَقَطَ في يديهِ، ودخلَ عليه أمرٌ عظيم، فجاءَها الأبيضُ فخنَقها، فلما رأى بَرصِيصا ذلك انفتلَ من صلاتهِ ودعا بتلكَ الدَّعوات، فذهبَ عنها الشَّيطانُ، ثم جاءَ الأبيضُ إلى برصيصا، قال: وأينَ تَجِدُ مثلَ هذه ؟ واقِعْها وأنتَ تتوبُ بعدَ ذلك، ولم يزَلْ به حتى واقعَها، فأقَامت معَهُ وهو يُواقِعُها حتى حَملَت وظهرَ حَملُها.

فقالَ له الأبيضُ: وَيْحَكَ! إنَّكَ قد افتُضِحتَ، فهل لكَ أنْ تَقتُلَها وتتوبَ؟ فإنْ سألُوكَ عنها فقل: جاءَ شَيطانُها فذهبَ بها ولم أطِقْ، ففعلَ ذلك فقتَلَها ثم ذهبَ بها الى ناحيةٍ من الجبلِ ودفَنَها، فجاءَ الشيطانُ لَيلاً وهو يدفِنُها فجذبَ طرفَ إزارها حتى صارَ خارجاً من التُّراب، ثم رجعَ بَرصِيصا إلى صومعتهِ وأقبلَ على صلاتهِ.

فجاءَ إخوَتُها يتعَاهَدُونَهُ وكانوا في سائرِ الأيَّام يأتُون بَرصِيصا ويتعَاهَدُون أختَهم ويُوصُوه بها، فأتَوهُ في هذه المرَّة كعادتِهم فلم يجِدُوها، فقالوا: أين ذهَبَتْ أختنا؟ فقال بَرصِيصا: جاءَ شيطانُها فذهبَ بها ولم أطِقْهُ، فصَدَّقوهُ وانصرفوا عنه وهم مَكرُوبُونَ.

فجاءَهم الأبيضُ في صورةِ إنسان وأخبرَهم بالخبرِ وقال لَهم: هي مدفونةٌ في موضعِ كذا، وأنَّ برصيصا قد فعلَ بها كذا وكذا ثم قتَلَها ودفَنَها، وإنَّ طرفَ إزارها خارجاً من التُّراب. فانطَلَقوا فوجَدُوها كما قالَ فجمَعُوا لبرصيصا علماؤُهم وعساكِرُهم وجاءُوا بالفُؤوسِ والمسَاحِي فهدَمُوا صومعتَهُ وأنزلوهُ وكتَّفوهُ، وانطلَقُوا به إلى الْمَلِكِ مَغْلُولاً، فسألَهُ عن ذلك فأقرَّ على نفسهِ فصلبَهُ الملكُ على خشبةٍ.

فجاءَ إبليسُ إلى الأبيضِ فقالَ له: أيُّ شيءٍ صنعتَ في برصيصا، الآنَ يُقتَلُ ويكون قَتلهُ كفَّارةً لِمَا كان منهُ، وما يُغنِي عنكَ ما صنعتَ فيه؟! فقال الأبيضُ: أنا أكفيكَ فيه، فأتاهُ وهو مصلوبٌ، فقالَ له: يا برصيصا أتعرفُني ؟ قالَ: لا، قال: أنا صاحبُكَ الذي علَّمتُكَ الدعوات، أما اتَّقيتَ اللهَ في أمانةٍ وُضِعَتْ عندكَ، خُنتَ أهلَها وأنتَ أعبَدُ بني إسرائيلَ، ما استَحيَيتَ من اللهِ، أما رَاقَبتَهُ في دِينك، فلم يَزَلْ يُعَيِّرهُ ويُوَبخهُ.

ثم قالَ له: وما كفاكَ ما صنعتَ حتى أقرَرْتَ على نفسِكَ، فَضَحْتَ أشياخَكَ، فإن مِتَّ في هذه الحالةِ لم تُفلِحُ أبداً. قال: فكيفَ أصنعُ؟ قال: تُطِيعُني في خَصلَةٍ حتى أنَجِّيكَ مما أنتَ فيه، وآخُذ بأعيُنِهم وأخرجك من مكانِكَ، قالَ: وما هيَ؟ قال: تسجدُ لي سجدةً واحدة، قال: كيفَ أسجدُ لكَ وأنا مصلوبٌ علىهذه الحالةِ ؟ قال: أكتَفِي منكَ بالإيماءِ، فأوْمَأ بالسُّجودِ فكفرَ بذلك، فقال: يا برصيصا هذا الذي أردتُ منكَ أنْ صارَتْ عاقبتُكَ إلَيَّ أنْ كفرتَ بربكَ، إنِّي بريءٌ منكَ، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ ؛ ثم ذهبَ عنه وتركَهُ فقُتِلَ.

فضربَ اللهُ هذا مَثلاً لبني قريظةَ والنضيرِ والمنافقين من أهلِ المدينة، وذلـك أنَّ اللهَ تعالى أمرَ نَبيَّهُ ﷺ أن يُجْلِي بني النضيرِ فدسَّ إليهم المنافقون أن لا يُجيبُوا مُحَمَّداً إلى ما دعَاكُم ولا تَخرُجوا من دياركم، فإن قاتَلُوكم كنَّا معَكم، وإنْ أخرَجَكم خرَجنا معكـم، فأطَاعُوهم فدَرَبوا على حُصونِهم وتحصَّنوا في دورهم، فجاءَ رسولُ الله ﷺ فحارَبَـهم فناصَبوهُ الحربَ يرجُونَ نُصرةَ المنافقين، فخذلُوهم وتبرَّؤا منهم كما تبرَّأ الشيطانُ مـن برصيصا وخذلَهُ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ ﴾ ؛ معنـاهُ: فكـان عاقبـةُ الشَّـيطان والـذي كفـرَ أنَّـهما في النـار مُقيمِـين دائمـين، ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي وذلكَ عاقبةُ الكافرين، فَلْيَحْذر امرؤٌ أن يقعَ في مثلِ ما وقعَ فيه هذا الكافرُ، وقال مقاتلُ: (مَعْنَى الآيَةِ: فَكَانَ عَاقِبَةُ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَـهُودِ أنْ صَـارُوا إلَى النَّار وَذلِكَ جَزَاؤُهُمْ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ؛ معناهُ: واتَّقُـوا اللهَ بـأداءِ فرائضهِ واجتناب مَعاصيـه، ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ؛ أي ليـوم القيامـةِ عَملاً صَالِحاً يُنجِيها أم عَملاً سَيِّئاً يُوبقُها، قال الحسـنُ: (مَـا زَالَ اللهُ يُقَـرِّبُ السَّـاعَةَ حَتَّى جَعَلَهَا كَغَدٍ)[3]. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي ترَكُوا حقَّ اللهِ وأمرَهُ حتى صارَ كالْمَنْسِـيِّ عندَهـم، ﴿ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ ﴾ ؛ أي فخذلَـهم حتـى لم يَعْمَلُـوا للهِ طاعةً، ويُقدِّموا خيراً لأنفسهم، قال ابنُ عبَّاس: (يُريدُ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ) وباقِي الآيتَين، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ، ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ:

---

(١) أخرجه الطبري متفرقاً في جامع البيان: الأثر (٢٦٢٦٦-٢٦٢٦٩).

(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٤٣.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٢٧١) عن قتادة.

لو جُعِلَ في الجبلِ تمييزٌ وعقلٌ مِثلَكم، وعَلِمَ من القرآنِ كما تعلَمُون أنتم لرأيتَهُ يخشَعُ ويتصدَّعُ خَوفاً من عذاب الله، وكبرهُ وصلابتهُ فأنتم مع ضَعفِكم وصِغَرِكم أولَى بالخشُوعِ والعملِ على مقتضَى الدِّين في تمييزِ الحقِّ من الباطلِ.

وَقِيْلَ: معناهُ: لو شَعَرَ الجبلُ مع صَلابتهِ وشدَّتهِ بالقرآنِ لخشَعَ تعظيماً للقرآنِ ولصَدَعَ من خشيةِ الله، فالإنسانُ أحقُّ بهذا منه، وهذا وصفٌ للكافرِ بالقسوةِ حين لم يَلِنْ قلبهُ بمواعظِ القرآن الذي لو أنزلَ على جبلٍ لخشعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾؛ قِيْلَ: إنَّ هذه الآياتِ مردودةٌ إلى أوَّلِ السُّورة، والمعنى: هو الذي أخرجَ الذين كفَرُوا وهو اللهُ الذي تَحِقُّ له العبادةُ، ولا يشركهُ في ذلك غيرهُ، وهو العالِمُ بكلِّ شيءٍ مما غابَ عن العبادِ ومما علموهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ القُدُّوسُ: هو الظاهرُ عن كلِّ عيبٍ، المنَزَّهُ عن كلِّ ما لا يليقُ به. والسَّلاَمُ: هو الذي سَلِمَ من كلِّ نقصٍ وعيب، وَقِيْلَ: هو الذي سَلِمَ العبادُ من ظُلمهِ.

والْمُؤْمِنُ: هو الذي أمِنَ أولياؤهُ عذابَهُ. والْمُهَيْمِنُ: هو الشهيدُ على عبادهِ بأعمالهم، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(١) أي شَاهِداً عليه، ويقالُ: هَيْمَنَ يُهَيْمِنُ فهو مُهَيْمِنٌ، إذا كان رَقِيباً على الشيءِ.

والْعَزِيزُ: الممتنعُ الذي لا يغلِبهُ شيءٌ ولا يُمنَعُ من مُرادهِ. والْجَبَّارُ: هو العظيمُ، وجَبَرُوتُ اللهِ عَظَمَتهُ، ويجوزُ أن يكون فَعَّالاً من جَبَرَ إذا أغنَى الفقيرَ وأصلحَ الكسيرَ. ويجوزُ أن يكون من جَبَرَهُ على كذا اذا أكرهَهُ على ما أرادَ. قال السديُّ ومقاتل:(هُوَ الَّذِي يَقْهَرُ النَّاسَ وَيُجْبِرُهُمْ عَلَى مَا يَشَاءُ)(٢). والْمُتَكَبِّرُ: هو المستحقُّ لصفاتِ التعظيمِ وهو من الكِبْرِيَاءِ، وإنما تُذمُّ صفةُ المتكبرِ في الناسِ لأنه يُنْزِلُ نفسَهُ مَنْزِلَةً لا يستحقُّها.

---

(١) المائدة / ٤٨ .   (٢) نقله عن السدي أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٨٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ ؛ الْخَالِقُ: هو الْمُنْشِئُ للأعيان. والبَارِئُ: الْمُقَدِّرُ والْمُسَوِّي لها، والبَرِيَّةُ: الْخَلْقُ، وبَرَيْتُ القلمَ إذا سوَّيتهُ. والْمُصَوِّرُ: النَّاقِشُ كيف يشاءُ، يعني الْمُمَثِّلُ للمخلوقاتِ بالعلاماتِ المميِّزة والهيئاتِ المتفرِّقة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ ، والأسماءُ الْحُسنَى هي الصفاتُ العُلَى.

وعن أنسٍ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَشْرِ، غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبهِ وَمَا تَأخَّرَ][(١)].

وقال ﷺ: [وَمَنْ قَرَأَ حِينَ يُصْبحُ الثَّلاَثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ الْحَشْرِ وَكَّلَ اللهُ بهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِي، فَإنْ مَاتَ مِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيداً، وَمَنْ قَرَأَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ][(٢)].

وعن أبي هُريرة ﷺ قال: (سَأَلْتُ حَبيبي رَسُولَ اللهِ ﷺ عَن اسْمِ اللهِ الأَعْظَمِ، فَقَالَ: [عَلَيْكَ بآخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ، فَأَكْثِرْ قِرَاءَتَهَا] فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ، فَأَعَادَ عَلَيَّ، فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ، فَأَعَادَ عَلَيَّ)[(٣)].

آخر تفسير سورة (**الحشر**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ضعيف، أخرجه الثعلبي من رواية يزيد بن أبان عن أنس، ينظر: تخريج أحاديث الكشاف: ج ٤ ص٢١٠. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٨٩.

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٨٩. والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٦. والدارمي في السنن: كتاب فضائل القرآن: الحديث (٣٤٢٥). والترمذي في الجامع: الحديث (٢٩٢٢)، وقال: (هذا حديث غريب). والطبراني في الجامع الكبير: ج ٢٠ ص١٨٨: الحديث (٥٣٧). وفي إسناده ضعف.

(٣) ذكره الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: ج ٤ ص٥١٠، وقال: (أخرجه الثعلبي من رواية علي بن زريق عن هشام بن سعد عن يزيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة). وينظر: تفسير الثعلبي (الكشف والبيان): ج ٩ ص٢٨٩.

سُورَةُ الْمُمْتَحَنَة

سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ وَعَشْرَةُ أَحْرُفٍ، وَثَلاثُمِائَةٍ وَثَمَان وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَثَلاثَ عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ شُفَعَاءَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيةُ في حاطِب بن أبي بَلْتَعَةَ، وَذلِكَ أنَّ سَارَةَ مَوْلاَةَ أبي عَمْرو صَيْفِي بْن هِشَام أتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ بَدْر بسَنَتَيْن، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَجَهَّزُ لِفَتْح مَكَّةَ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: [أمُسْلِمَةً جِئْتِ؟] قَالَتْ: لاَ، قَالَ: [أمُهَاجِرَةً جِئْتِ؟] قَالَتْ: لاَ، قَالَ: [فَمَا حَاجَتُكِ؟][2] قَالَتْ: كُنْتُمُ الأَهْلَ وَالْعَشِيرَةَ وَالْمَوَالِي، وَقَدْ ذهَبَتْ أمْوَالِي وَاحْتَجْتُ حَاجَةً شَدِيدَةً، فَقَدِمْتُ عَلَيْكُمْ لِتُعْطُونِي وَتَكْسُونِي وَتَحْمِلُونِي، قَالَ: [وَأيْنَ أنْتِ مِنْ شَبَاب أهْلِ مَكَّةَ ؟] وَكَانَتْ مُغَنِّيَةً وَنَائِحَةً، قَالَتْ: مَا طُلِبَ مِنِّي شَيْءٌ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْر، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِب فَكَسَوْهَا وَأعْطَوْهَا نَفَقَةً[3].

فَأَتَاهَا حَاطِبُ بْنُ أبي بَلْتَعَةَ الأَزْدِيُّ حَلِيفُ بَنِي أسَدٍ، فَكَتَبَ إِلَى أهْلِ مَكَّةَ وَأعْطَاهَا عَشْرَةَ دَنَانِيرَ عَلَى أنْ تُوصِلَ الْكِتَابَ إِلَى أهْلِ مَكَّةَ، وَكَتَبَ فِي الْكِتَاب: مِنْ

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٩٠.

(٢) في تفسير الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٩١، والجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٥١: [فَمَا جَاءَ بكِ].

(٣) أخرجه مختصراً الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٢٩٣). وفي الدر المنثور: ج ٨ ص١٢٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن أنس ﷺ) وذكره. واللفظ لمقاتل ذكره في التفسير: ج ٣ ص٣٤٨.

حَاطِب بْن أبي بَلْتَعَةَ إلَى أهْلِ مَكَّةَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ يُريدُ أنْ يَغْزُوَكُمْ، فَخُذُوا حِذْرَكُمْ. مَعَ أشْيَاءَ كَتَبَ بهَا يَتَنَصَّحُ لَهُمْ فِيهَا، فَمَضَتْ سَارَةُ بالْكِتَاب.

فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَأخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بمَا فَعَلَ حَاطِبُ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ وَرَاءَهَا عَلِيَّ بْنَ أبي طَالِبٍ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ وَالْمِقْدَادَ، فَخَرَجُوا يُعَادِي بهِمْ خَيْلُهُمْ، فَطَلَبُوا مِنْهَا الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدِي كِتَابٌ، وَحَلَفَتْ عَلَى ذلِكَ، فَفَتَّشُوا مَتَاعَهَا فَلَمْ يَجِدُوهُ، وَقَالَتْ: إنَّكُمْ لاَ تُصَدِّقُونِي حَتَّى تُفَتِّشُوا ثِيَابي، وَاصْرِفُوا وُجُوهَكُمْ عَنِّي فَصَرَفُوهَا، فَطَرَحَتْ ثِيَابَهَا فَفَتَّشُوهَا فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئاً، فَتَرَكُوهَا وَهَمُّوا بالرُّجُوعِ.

فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ: إنِّي أشْهَدُ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكْذِبْنَا، وَإنَّهَا هِيَ الْكَاذِبَةُ فِيمَا تَقُولُ، فَسَلَّ سَيْفَهُ وَقَالَ: أخْرِجِي الْكِتَابَ وَإلاَّ وَاللهِ لأَضْربَنَّ عُنُقَكِ وَأقْسَمَ عَلَى ذلِكَ، فَلَمَّا رَأتِ الْحَدَّ أخْرَجَتْهُ مِنْ ظَفَائِرِ رَأسِهَا، فَأخَذُوهُ وَخَلَّوا سَبيلَهَا وَرَجَعُوا بالْكِتَاب إلَى رَسُول اللهِ ﷺ.

فَأرْسَلَ إلَى حَاطِبٍ فَأتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: [يَا حَاطِبُ هَلْ تَعْرِفُ هَذا الْكِتَابَ ؟] قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: [مَا حَمَلَكَ عَلَى ذلِكَ ؟] قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا كَفَرْتُ مُنْذُ أسْلَمْتُ، وَلاَ غَشَشْتُكَ مُنْذُ صَحِبْتُكَ، وَلاَ أحْبَبْتُهُمْ مُنْذُ فَارَقْتُهُمْ، فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ، إنِّي كُنْتُ امْرءاً مُلْصَقاً فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أكُنْ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ أحَدٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إلاَّ وَلَهُ بمَكَّةَ مَنْ يَمْنَعُ عَشِيرَتَهُ، وَأنَا غَرِيبٌ فِيهِمْ، وَكَانَ أهْلِي بَيْنَ أظْهُرِهِمْ، فَخَشِيتُ عَلَى أهْلِي فَأرَدْتُ أنْ أتَّخِذ عِنْدَهُمْ يَداً، فَوَاللهِ مَا فَعَلْتُ ذلِكَ شَكّاً فِي دِينِي وَلاَ رِضَى بالْكُفْر بَعْدَ الإسْلاَمِ، وَلاَ ارْتَبْتُ فِي اللهِ مُنْذُ أسْلَمْتُ، وَقَدْ عَلِمْتُ أنَّ اللهَ تَعَالَى نَزَّلَ عَلَيْهِمْ بَأسَهُ، وَإنَّ كِتَابي لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئاً.

فَصَدَّقَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعَذرَهُ وَقَالَ: [إنَّهُ قَدْ صَدَقَ]. فَقَامَ عُمَرُ رضي الله عنه وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أضْرِبْ عُنُقَ هَذا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْراً، وَمَا يُدْريكَ أنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لأَهْلِ بَدْر: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفِرَ لَكُمْ][(1)].

---

(١) الحديث صحيح أصوله في صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير: باب الجاسوس: الحديث (٣٠٠٧). وأخرج ألفاظه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٢٩٢ و٢٦٢٩٣).

ورُوي: أنَّ عَبْداً لِحَاطِبٍ جَاءَ يَشْتَكِي مِنْ حَاطِبٍ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبُ النَّارَ، فَقَالَ: [كَذبْتَ! لاَ يَدْخُلُهَا أبَداً لأنَّهُ شَهِدَ بَدْراً وَالْحُدَيْبِيَةَ][(١)].

ثُم أنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ يعرِّفُ بها النبيَّ ﷺ أن حاطباً مؤمنٌ، فقال (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أوْلِيَاءَ) معناهُ: لا تتَّخِذُوا الكافرين أحبَّاءَ في العونِ والنُّصرةِ، ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم ﴾ ؛ أخبارَ النبيِّ ﷺ وسرَّهُ، ﴿ بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ ؛ التي بينَكم وبينهم وتُخبرونَهم بما يخبرُ به الرجلُ أهلَ مودَّتهِ، ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ جحَدُوا بما جاءَكم من الحقِّ يعني القرآنَ، ومع ذلك، ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ ؛ أي يُخرِجون الرسولَ من مكَّة ويخرجُونكم أيضاً من دياركم لأجلِ إيمانِكم بربكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ﴾ ؛ هذا شرطٌ، وجوابهُ متقدِّمٌ عليه وهو قولهُ (لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أوْلِيَاءَ). تقديرهُ: إنْ كُنتم خرَجتُم جِهَاداً مُجاهدِين في طاعتي وسُنَّتي ومتَّبعين مَرضَاتِي، فلا تتَّخذونَهم أولياءَ، وقولهُ تعالى: (جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي) منصُوبان لأنَّهما مفعولٌ لَهما.

وقوله تعالى: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ ؛ أي تُخفون مَودَّتهم، ﴿ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ ، وأنا أعلمُ بما تُضمِرُون في صُدوركم، وما تُظهرون بألسِنَتِكُم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ﴾ ؛ يعني الإسرارَ وإلقاءَ المودَّة إليهم، ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي فقد أخطأ طريقَ الهدى، والمعنى: ومَن يفعل منكم يا معشرَ المؤمنين ما فعلَ حاطبُ، فقد أخطأ طريقَ الحقِّ والهدى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً ﴾ ؛ معناهُ: إنْ يُصادِفُوكم ويَظفَرُوكم في حالٍ لا يخافونكم عليها يُظهِرُوا عداوتَكم، ﴿ وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٢٨؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر) وذكره.

﴿ أَيْدِيَهُمْ ﴾ ؛ بالقتلِ والضَّرب، ﴿ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ؛ بالشَّتمِ والطعنِ، ﴿ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ ويحبُّون أن تكفُروا باللهِ بعد إيمانِكم كما أنَّهم كافرون، والمعنى: لا ينفعُكم التقرُّب إليهم بنقلِ أخبار النبيِّ ﷺ إليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ﴾ ؛ أي تُوادُّوهم بسبب الأرحامِ والأولاد، فإنَّ الأرحامَ والأولادَ لا ينفعُوكم، فلا تعصُوا اللهَ ولا تخونُوا رسولَهُ لأجلِهم، ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ ؛ فيُدخِلُ أهلَ طاعةِ اللهِ الجنةَ، ويدخل أهلَ الكفرِ النارَ، ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ؛ من الخيرِ والشرِّ، ﴿ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾.

قرأ عاصمُ ويعقوب (يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) بفتحِ الياء وكسر الصاد مخفَّفاً[١]، وقرأ ابنُ عامر والأعرج (يُفَصِّلُ) بضمِّ الياء وفتحِ الصاد مشدَّداً، وقرأ طلحةُ والنخعي(نُفَصِّلُ) بالنون وبضمَّة وكسرِ الصاد مشدَّداً، وقرأ الباقون (يُفْصَلُ) بضم الياء وفتح الصاد مخفَّفاً[٢].

ثُم ضربَ اللهُ لهم إبراهيمَ مَثلاً حين تبرَّأ من قومهِ فقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ ؛ أي قد كانت لكم قدوةٌ حسَنةٌ في إبراهيمَ خليلِ اللهِ والذين معَهُ من المؤمنين، ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ ﴾ ؛ لأقاربهم من الكفَّار: ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ ﴾ ؛ ومن دِينكم، ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ من الأصنام، ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ ، تبرَّأنا منكم، ﴿ وَبَدَا ﴾ ؛ وظهرَ، ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ ﴾ ؛ بالفعلِ، ﴿ وَٱلْبَغْضَآءُ ﴾ ؛ بالقول، ﴿ أَبَدًا ﴾ ؛ إلى الأبدِ، ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ ؛ تُقِرُّوا وتُصدِّقوا بوحدانيَّة اللهِ تعالى، فهلاَّ تأسَّيتَ يا حاطبُ بإبراهيمَ في إظهارِهِ مُعاداةَ الكفَّار، وقطعِ الموالاةِ بينكم وبينهم كما فعلَهُ إبراهيم ومَن معه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ ؛ أي قد كانت لكم أسوةٌ حسَنةٌ في إبراهيمَ وأمُورهِ، إلاَّ في قولهِ لأبيهِ لأستغفرن لك، ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ

---

(١) في المخطوط: (مشدداً) وهو خطأ من الناسخ.

(٢) ينظر: الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٩٣. والجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٥٥.

ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ؛ إنْ عَصَيتَهُ، نُهُوا أن يتأسَّوا بإبراهيمَ في هذا خاصَّة فيستغفِرُوا للمشركين.

والمعنى: قد كانت لكم أسوةٌ حَسنةٌ في صُنعِ إبراهيمَ إلاَّ في استغفارهِ لأبيهِ وهو مشركٌ. ثم بيَّن اللهُ عُذرَهُ إبراهيمَ في سورةِ التَّوبة في استغفارهِ لأبيه فقالَ تعالى ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبْرَاهِيمَ لاِبيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيَّاهُ﴾(١) وكان هذا قبلَ إخبار الله تعالى أنْ لا يغفرَ أنْ يُشرَكَ به. وقولُ إبراهيم: (وَمَا أمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ) معناهُ: لا أقدرُ على دفعِ شيءٍ من عذاب الله عنكَ إنْ لم تُؤمِنْ.

وكان من دعاءِ إبراهيمَ وأصحابهِ: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا ﴾ ؛ أي وَثِقْنا، ﴿ وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا ﴾ ؛ أي فوَّضنَا أمورَنا وإليك رجَعنا بالتَّوبةِ والطاعةِ، ﴿ وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي لا تُظهِرِ الكفَّارَ علينا فيظُنُّوا أنَّهم على الحقِّ وأنَّا على الباطلِ فيُفتَنوا بها، هكذا قال قتادةُ. وعن ابنِ عبَّاس أنَّهُ قالَ: (مَعْنَاهُ: لاَ تُسَلِّطْهُمْ فَيَفْتِنُونَا)(٢). وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: لاَ تُعَذِّبْنَا بأيْدِيهِمْ وَلاَ بعَذابٍ مِنْ عِنْدِكَ فَيَقُولُوا: لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ عَلَى الْحَقِّ مَا أصَابَهُمْ هَذا)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ ﴾ ؛ معناهُ: لقد كان لكم في إبراهيمَ والَّذين معَهُ قدوةٌ صالحة فيما يرجِعُ إلى رجاءِ ثواب الله وحُسنِ الْمُنْقَلَب في اليومِ الآخرِ.

وهذا يقتضي وجوبَ الاقتداء بهم في أفعالِهم، وأما الأُولى فنُهوا الاقتداءَ بهم في باب العداوة للهِ في أمر الدين. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ) بدلٌ من قولهِ (لَكُمْ فِيْهِمْ) وهذا كقولهِ تعالى ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ

---

(١) التوبة / ١١٤ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٣٠٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٣٠٠).

سَبيلاً﴾[1]. ومعنى (يَرْجُو اللهَ) أي يخافُ اللهَ ويخافُ الآخرةَ، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ ﴾ ؛ أي مَن يُعرِضُ عن الإيمانِ ويُوالِي الكفارَ فإنَّ اللهَ هو الغنيُّ عن خلقهِ، الحميدُ إلى أوليائهِ وأهلِ طاعته.

قال مقاتلُ: (فَلَمَّا أمَرَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ بِعَدَاوَةِ الْكُفَّار أظْهَرُوا لَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَرَاءَةَ امْتِثَالاً لأَمْرِ اللهِ تَعَالى)[2] فأنزلَ اللهُ: ﴿ ۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم ﴾ ؛ أي كونوا على رجاءٍ وطمعٍ في أن يجعلَ اللهُ بينكم وبين الذين عادَيتم من المشركين، ﴿ مَّوَدَّةً ﴾ ، يعني من كفار مكَّة.

ففعلَ اللهُ ذلكَ بأن أسلمَ كثيرٌ منهم بعدَ الفتحِ، منهم أبو سُفيان بن حربٍ؛ وأبو سُفيان بن الحارث؛ والحارثُ بنُ هشام؛ وسُهيل بن عمرو؛ وحَكَمُ بن حِزام، وكانوا مِن رُؤساء الكفَّار والمعادِين لأهلِ الإسلامِ، فصارُوا لهم أولياءَ وإخوَاناً، فخَالَطُوهم وناكَحُوهم، وتزوَّجَ رسولُ الله ﷺ أمَّ حبيبةَ بنتِ أبي سُفيان بن حرب، فَلانَ لهم أبو سفيان، فهذه المودَّةُ التي جعلَها اللهُ تعالى بينَهم، ﴿ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ ؛ على أن يجعلَ بينكم المودَّة، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ ؛ بهم بعد ما تَابُوا وأسلَمُوا.

قولُه: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ يعني أهلَ العهدِ الذين عاهَدُوا المؤمنين على تركِ القتالِ والْمُظَاهَرَةِ، وهم خُزاعة، ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ ، والمعنى: لاَ ينهاكُم اللهُ عن برِّ الذين لَم يُقاتِلُوكم، وهذا يدلُّ على جواز البرِّ بأهلِ الذمَّة وإنْ كانت الموالاةُ منقطعةً.

ولذلك جوَّزَ أبو حَنيفة ومحمَّد صرفَ صدقةِ الفطرِ والكفَّارات والنُّذور الْمُطْلَقَةِ إليهم، وأجْمَعُوا على جواز صرفِ صدقةِ التطوُّع إليهم، وأجْمَعُوا على أنه لا يجوزُ صرفُ الزَّكَوَاتِ إليهم لقولِه ﷺ: [أُمِرْتُ أنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أغْنِيَائِكُمْ وَأرُدَّهَا عَلَى فُقَرَائِكُمْ][3].

---

(١) آل عمران / ٩٧ . (٢) قاله في التفسير: ج ٣ ص٣٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الزكاة: باب وجوب الزكاة: الحديث (١٣٩٥). ومسلم في الصحيح: كتاب الايمان: باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الاسلام: الحديث (٢٩/ ١٢). وأبو داود في السنن: كتاب الزكاة: باب في زكاة السائمة: الحديث (١٥٨٤).

وقولهُ تعالى: (أنْ تَبَرُّوهُمْ) في موضعِ خفضٍ بدلَ من (الَّذِينَ) كأنَّهُ قالَ عن أنْ تبَرُّوا الذين لم يُقاتِلوكم، وقوله تعالى: ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ ؛ القِسْطُ إليهم أن نُعطِيَهم قِسْطاً من أموالِنا على جهةِ البرِّ، ويقالُ: أقسطتُ إلى الرجُلِ اذا عامَلتهُ بالعدلِ، قال الزجَّاج: (مَعْنَاهُ: وَتَعْدِلُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ ؛ يعني الْمُحَاربينَ من الكفَّار، نَهى اللهُ أن يُتَصَدَّقَ عليهم، ونَهى عن مُوالاتِهم ومُكاتَباتِهم. والْمُظَاهَرَةُ: الْمُعَاوَنَةُ للظُّهور بها على العدوِّ بالغَلبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ وذلك أنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا صَالَحَ قُرَيْشاً يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى أنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ مَنْ جَاءَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا هَاجَرَ إلَيْهِ النِّسَاءُ أبَى اللهُ أنْ يَرْجِعْنَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَأمَرَ بامْتِحَانِهِنَّ، وقوله تعالى (فَامْتَحِنُوهُنَّ) وذلك أنْ تُستَحلَفَ المهاجِرةُ ما هاجَرتْ لِحَدَثٍ أحدثَتْهُ، ولا خرَجَتْ عِشْقاً لرجُلٍ من المسلمين ولا خرجَتْ إلاَّ رغبةً في الإسلامِ.

قال ابنُ عبَّاس: (صَالَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كُفَّارَ مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى أنَّ مَنْ أتَاهُ مِنْ مَكَّةَ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ أتَى مَكَّةَ مِنْ أصْحَابِهِ فَهُوَ لَهُمْ، وَلَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ، وَكَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ بذلِكَ كِتَاباً لَهُمْ وَخَتَمَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا خَتَمَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ جَاءَتْهُ سَبيعَةُ بنْتُ الْحَارِثِ الأَسْلَمِيَّةُ مُسْلِمَةً.

فَجَاءَ زَوْجُهَا إلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ كَافِرٌ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ رُدَّهَا عَلَيَّ، فَإنَّكَ شَرَطْتَ لَنَا ذلِكَ عَلَيْكَ، وَهَذِهِ طِينَةُ كِتَابنَا لَمْ تَجِفَّ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (يَاأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ) ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ ؛ فَاسْتَحْلَفَهَا رَسُولُ اللهِ

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص١٢٥.

ﷺ [باللهِ مَا أخْرَجَـكِ إلَيْنَـا إلاَّ الْحِرْصُ عَلَـى الإيْمَـان وَالرَّغْبَـةُ فِيْـهِ وَالْمَحَبَّـةُ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلإِسْلاَمِ] فَحَلَفَتْ باللهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ مَا خَرَجْتُ إلاَّ لِذلِـكَ، فَأمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يُعْطَى زَوْجُهَا مَهْرَهَا الَّذِي أنْفِقَ عَلَيْهَا، فَأعْطَوْهُ مَهْرَهَا) وذلك معنى قولِهِ: ﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ﴾[(1)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (اللهُ أعْلَمُ بإيمَانِـهِنَّ) أي هـذا الامتحـانُ لكـم، واللهُ عـالِمٌ بـهنَّ، وليـس عليكـم إلاَّ علـمُ الظـاهرِ، واللهُ أعلَـمُ بإيمانِـهنَّ قبـلَ الامتحـان وبعـدَهُ، فـإن علمتُموهنَّ في الظاهرِ بالامتحان أنَّهن مؤمناتٍ فلا تردُّوهن إلى أزواجهنَّ الكفَّار بمكة، لا المؤمناتُ حِلٌّ للكفار ولا الكفارُ يحِلُّون للمؤمناتِ. وقوله تعالى (وَآتُوهُمْ مَا أنفَقُوا) أي أعطُوا أزواجَ المهاجراتِ من الكفَّار ما أنفقُوا عليهنَّ من المهرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ ؛ أي لا جُناحَ عليكم أنْ تتزوَّجُوهن إذا أعطيتُموهنَّ مُهورَهن ولو كـان لَـهنَّ أزواجٌ كفَّـار في دار الكفرِ؛ لأن الإسلامَ قد فرَّقَ بينها وبـين الكـافرِ، وهـذا كلُّـه دليـلٌ أنَّ الْحُـرَّةَ إذا هاجَرت إلينا مُسلمةً أو ذميَّة وقعتِ الفرقةُ بينهما بنفسِ الْمُهَاجَرَةِ، كمـا هـو مذهـبُ أصحابنا.

وهـذا قـال أبـو حنيفـةَ: (إنَّ الْمُـهَاجِرَةَ لاَ عِـدَّةَ عَلَيْـهَا؛ لأَنَّ اللهَ تَعَـالَى أبَـاحَ لِلْمُسْلِمِينَ التَّزَوُّجَ بالْمُهَاجِرَاتِ مِنْ غَيْرِ أنْ يَشْرُطَ انْقِضَاءَ الْعِدَّةِ، وَلَوْ كَـانَتِ الزَّوْجِيَّـةُ بَاقِيَةً بَعْدَ الْمُهَاجَرَةِ لَمَا أمَرَ اللهُ برَدِّ مُهُورِهِنَّ عَلَـى أزْوَاجِـهِنَّ. وَعَلَـى هَـذا إذا خَـرَجَ الزَّوْجُ إلَيْنَا مُسْلِماً أوْ ذِمِّيّاً وَقَعَتِ الْفِرْقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأتِهِ، وَأمَّا إذا دَخَلَ الْحَرْبِيُّ إلَيْنَـا بأمَانٍ، أوْ دَخَلَ الْمُسْلِمُ دَارَ الْحَرْب بأمَانٍ، أوْ أسْلَمَ الزَّوْجَانِ فِي دَارِ الْحَرْب ثُمَّ خَرَجَ أحَدُهُمَا إلَيْنَا لَمْ يَبْطُلْ نِكَاحُهُمَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ المـرأةَ الْمُسـلِمَةَ إذا كَفرت والعياذُ باللهِ زالت العصمةُ بينها وبين زوجِها وانقطعَ النكاحُ بينهما. والكَوَافِرُ: جمعُ كَافِرَةٍ، نَهى اللهُ المؤمنين عن المقامِ على نكاحِ المشركات.

---

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول: ص٢٨٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ ؛ معناهُ: واطلبُوا من أهلِ مكَّة مهورَ النِّساء اللاتِي يخرُجنَ منكم إليهم مرتدَّاتٍ، وليسأل الكفَّارُ منكم ما أنفقُوا على نسائِهم اللواتِي خرَجنَ إليكم مُهاجرات، ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ؛ بمصالِحكم، ﴿ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ فيما حكمَ بينكم وبينهم.

قال الزهريُّ: (فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ أقَرَّ الْمُسْلِمُونَ بحُكْمِ اللهِ، فَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَأَبَوْا أنْ يُقِرُّوا)[١] فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ ذهبَتِ امرأةٌ من نسائِكم إلى الكفَّار فعاقَبتم أي فَضَحْتُمْ.

قال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ: فَكَانَتِ الْعُقْبَى لَكُمْ، أي كانت الغَلبةُ لكم حتى غَنِمتُم)[٢]، فاعطُوا أزواجَ الذين ذهبت نساؤُهم مثلَ ما أنفقُوا من المهور، قبلَ أن تُقسَمَ الغنائمُ، ثم اقسموا الغنائمَ كما أمرَ اللهُ. وقولُه تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي اتَّقوهُ في مخالفةِ ما أمَرَكم به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ ؛ وذلك أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ، جَلَسَ عِنْدَ الصَّفَا وَإلَى جَنْبِهِ عُمَرُ ﷺ وَالنِّسَاءُ يَأْتِينَ يُبَايعْنَهُ ﷺ وَفِيهِنَّ هِنْدُ بنْتُ عُتْبَةَ مُتَنَكِّرَةً مَعَ النِّسَاءِ خَوْفاً أنْ يَعْرِفَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أنْزلَ هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ ﷺ: [أبَايِعُكُنَّ عَلَى أنْ لاَ تُشْرِكْنَ باللهِ شَيْئاً] فَقَالَتْ هِنْدٌ: أشْرَكْنَا وَعَبَدْنَا الآلِهَةَ فَمَا أغْنَتْ عَنَّا شَيْئاً.

فَقَالَ ﷺ: [وَلاَ تَسْرِقْنَ] فَقَالَتْ هِنْدٌ: إنَّ أبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ مُمْسِكٌ، وَإنِّي أصِيبُ مِنْ مَالِهِ لِغِنَاهُ، وَلاَ أدْري أيَحِلُّ لِي أمْ لاَ؟ فَقَالَ أبُو سُفْيَان: مَا أصَبْتِ مِنْ شَيْءٍ فِيمَا مَضَى أوْ قَدْ بَقِيَ فَهُوَ لَكِ حَلاَلٌ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعَرَفَهَا وَقَالَ: [إنَّكِ لَهِنْدُ بنْتُ عُتْبَةَ؟] قَالَتْ: فَاعْفُ عَمَّا سَلَفَ يَا نَبِيَّ اللهِ عَفَا اللهُ عَنْكَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٣٣٨).

(٢) قال الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص١٢٧.

فَقَالَ: [وَلاَ تَزْنِينَ] قَالَتْ: وَهَلْ تَزْنِي الْحُـرَّةُ ؟ فَضَحِـكَ عُمَـرُ ﷺ وَقَـالَ: لاَ لَعَمْرِي مَا تَزْنِي الْحُرَّةُ، فَقَالَ: [وَلاَ تَقْتُلْنَ اَوْلاَدَكُـنَّ] فَقَـالَتْ هِنْـدُ: رَبَّيْنَـاهُمْ صِغَـاراً وَقَتَلْتُمُوهُمْ كِبَاراً، وَكَانَ ابْنُهَا حَنْظَلَةُ بْنُ أبي سُفْيَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَـدْرٍ، فَضَحِـكَ عُمَـرُ ﷺ حَتَّى اسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ، وَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ(١).

ومعنى الآية: (وَلاَ يَقْتُلْنَ اَوْلاَدَهُنَّ) أي لا يدفِنَّ بناتِهنَّ أحياءً كما كان العـربُ يفعلونَهُ، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ ؛ أي لا تُلحِقُ بزوجِها وَلداً ليس منه، وذلك أنَّ المرأةَ كانت تلتقطُ لَقيطـاً فتضعـهُ بـين يدَيـها ورجلَيها وتقولُ لزوجِها: ولدتُ هذا الولدَ، فذاكَ البهتانُ والافتراءُ. ويقالُ: أرادَ بـين الأيدِي أن يوضَعَ بين يدَيها ولدُ غيرِها وبين أيدِيهنَّ أن يأتِين بولدِ حرام، وهذا كنايـةٌ عن الفرجِ، فلما قالَ عليه السلام، قَالَتْ هِنْدٌ: وَاللهِ إنَّ الْبُهْتَانَ لَقَبِيـحٌ وَمَـا تَأْمُرُنَـا إلاَّ بالرُّشْدِ وَمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ ؛ أي وجميعُ ما تأمرُهنَّ وتنهاهُنَّ من النَّوحِ وشقِّ الجيوب وخَمْشِ الوُجـوهِ ورنَّـةِ الشـيطان وغـير ذلـك مـن أصـواتِ المعصية ومن صوتِ اللَّعب واللهوِ والمزاميرِ وغيرِ ذلك. والمعروفُ: كلُّ ما كان طاعةً، والمنكرُ: كلُّ ما كان معصيةً، فلما قالَ ﷺ: [وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ] قَالَتْ هِنْـدُ: وَمَا جَلَسْنَا مَجْلِسَنَا هَذَا وَفِي اَنْفُسِنَا اَنْ نَعْصِيَكَ فِي شَـيْءٍ، فَـأقَرَّتِ النِّسْـوَةُ بِمَـا أخَـذَ عَلَيْهِنَّ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إذا بايعنَكَ على هذهِ الشُّروط فبايعهُن، فقال ﷺ: [قَدْ بَايَعْتُكُنَّ] كلاماً كلَّمَهن به من غيرِ أن مسَّتْ يدهُ يدَ امرأةٍ، وكان على يدِ عُمر ﷺ ثوبٌ يصافحُ به النساءَ.

قال القَرَظيُّ: (وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) قَالَ: الْمَعْرُوفُ الَّذِي لاَ مَعْصِيَةَ فِيْهِ)(٢). وقال الربيعُ: (كُلُّ مَا يُوَافِقُ طَاعَةَ اللهِ فَهُوَ مَعْـرُوفٌ)(٣). قـال

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٣٥٨).

(٢) ونقله عنه أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٩٨.

(٣) نقله عنه أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٩٨.

مجاهدُ: (غَيْرُ الْمَعْرُوفِ هُوَ خَلْوُ الْمَرْأةِ بالرَّجُلِ).

وعن سعيدِ بن المسيَّب: (أنَّ مَعْنَاهُ: وَلاَ يَحْلِقْنَ وَلاَ يَخرِقْنَ ثَوْباً وَلاَ يَنْتِفْنَ شَعْراً وَلاَ يَخْمِشْنَ وَجْهاً وَلاَ يُحَدِّثْنَ الرَّجُلَ إلاَّ ذا رَحِمٍ مَحْرَمٍ، وَلاَ تَخْلُو الْمَرْأةُ برَجُلٍ غَيْرِ ذِي رَحِمٍ مَحْرَمٍ وَلاَ تُسَافِرُ مَعَ غَيْرِ ذِي رَحِمٍ). وقال ابنُ عبَّاس: (وَلاَ يَخُنَّ)[(١)].

وعن مصعب بن نوحٍ قال: (أدْرَكْتُ عَجُوزاً مِمَّنْ بَايَعْنَ النَّبيَّ ﷺ فَحَدَّثَتْنِي عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) فَقَالَتْ: النَّوْحُ)[(٢)]. وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [النَّوَائِحُ يُجْعَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَفَّيْنِ وَتَنْبَحُ كَمَا تَنْبَحُ الْكِلاَبُ][(٣)].

وعن أنسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [تَخْرُجُ النَّائِحَةُ مِنْ قَبْرِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُعْثاً غُبْراً، عَلَيْهَا جِلْبَابٌ مِنْ لَعْنَةٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ، وَاضِعَةٌ يَدَهَا عَلَى رَأسِهَا تَقُولُ: وَاوَيْلاَهُ، وَمَلَكٌ يَقُولُ: آمِينَ، ثُمَّ يَكُونُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ حَظُّهَا النَّارُ][(٤)]. وقال ﷺ: [أرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَاب، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَاب، وَالاسْتِسْقَاءُ بالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ][(٥)]. وقال: [النَّائِحَةُ إذا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا بعَامٍ جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ][(٦)].

---

(١) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٩٨.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٤١؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد وعبد بن حميد وابن سعد وابن مردويه بسند جيد عن مصعب بن نوح) وذكره.

(٣) في مجمع الزوائد: ج ٣ ص١٤؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط وفيه سليمان بن داود اليماني وهو ضعيف).

(٤) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الموت وأحوال تقع بعده: باب ذم النياحة: الحديث (٤٢٤٥٤)، وقال: (أخرجه ابن النجار عن مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد عن أنس، قال في الميزان: مسلمة يجهل هو وشيخه، وقال الأزدي: ضعيف).

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص٢٨٥: الحديث (٣٤٢٥). والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٤٣، وإسناده صحيح.

(٦) في مجمع الزوائد: ج ٣ ص١٤؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن زمر، وهو ضعيف).

وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: [لَعَنَ اللهُ النَّائِحَةَ وَالْمُسْتَمِعَةَ وَالْحَالِقَةَ وَالسَّالِقَةَ وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُوْشُومَةَ][(1)]. وعن عمرَ رضي الله عنه: (أنَّهُ سَمِعَ نائِحَةً فَضَرَبَهَا حَتَّى وَقَعَ خِمَارُهَا عَنْ رَاسِهَا، فَقِيلَ: يَا اَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إنَّهَا قَدْ وَقَعَ خِمَارُهَا، قَالَ: إنَّهَا لاَ حُرْمَةَ لَهَا)[(2)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ ختمَ اللهُ هذه السُّورةَ بمثلِ كما افتتحَها به، حيث نَهَى المؤمنين عن تولِّي أعداءِ الله، وأرادَ بالقومِ الذين غَضِبَ اللهُ عليهم اليهودَ، والمعنى: يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تتوَلَّوا اليهودَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ ؛ لأنَّهم كانوا يعرِفُون النبيَّ ﷺ كما يعرفون أبناءَهم، وكانوا لا يُؤمنون به، فآيَسُوا من أن يكون لَهم في الآخرةِ خيرٌ. وَقِيْلَ: إنَّهم كانوا يزعُمون أنه لا يكون في الآخرةِ أكلٌ ولا شربٌ ولا نعمةٌ، والمرادُ بذلك اليهودُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: كما يَئِسَ المشركون الذين لا يُؤمنون بالبعثِ من رُجوعِ أصحاب القبور ومِن أن يُبعَثوا. وَقِيْلَ: معناهُ: كما يَئِسَ الكفارُ إذا ماتوا وصارُوا في القبور من أنْ يكون لَهم في الآخرةِ حظٌّ، ويَئِسُوا من أنْ يكون لهم في الآخرةِ نصيبٌ.

آخر تفسير سورة (**الممتحنة**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) في مجمع الزوائد: ج ٣ ص١٤؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير وفيه الحسن بن عطية، ضعيف). وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الجنائز: باب ما ورد من التغليظ في النياحة: الحديث (٧٢١٥٨) وليس فيه الحسن بن عطية، واللفظ له.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ج ٣ ص٥٥٧: الحديث (٦٦٨٢).

سُــورَةُ الصَّــفِّ

سُورَةُ الصَّفِّ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ تِسْعُمِائَةِ حَرْفٍ، وَمِائَتَانِ وَإحْـدَى وَعُشْـرُونَ كَلِمَـةً، وَأرْبَعُ عَشْرَةَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الصَّفِّ كَانَ عِيسَى مُصَلِّياً عَلَيْهِ مُسْتَغْفِراً لَهُ مَا دَامَ فِي الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ رَفِيقُهُ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ ﴾ قال مقاتلُ: (وَذلِكَ أنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا قَبْلَ أنْ يُؤْمَرُوا بالْقِتَال: لَوْ نَعْلَمُ أحَبَّ الأَعْمَال إلَى اللهِ تَعَالَى لَعَمِلْنَا وَبَذلْنَا فِيـهِ أمْوَالَنَـا وَأنْفُسَـنَا، فَدَلَّـهُمُ اللهُ عَلَـى أحَـب الأَعْمَـال إلَيْهِ)[2] فَقَالَ: (إنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبيلِهِ صَفًّا كَأَنَّــهُمْ بُنيَـانٌ مَرْصُـوصٌ) فَابْتُلُوا يَوْمَ أحُدٍ بمَا أصَابَهُمْ، فَتَوَلَّوا عَنِ النَّبيِّ ﷺ حَتَّى شُجَّ وَجْهُهُ وَكُسِـرَتْ رُبَاعِيَّتـهُ، فَذمَّهُمُ اللهُ عَلَى ذلِكَ فَقَالَ (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُــونَ) ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ ؛ أي عَظُمَ ذلك في الْمَقْتِ والبُغضِ عندَ اللهِ؛ أي أنَّ اللهَ يبغضهُ بُغضاً شَديداً أن تَعِدُونِي من أنفُسِكم شيئاً ثم لم تُوَفُّوا به.

وموضع (أنْ تَقُولُوا) رُفِعَ، وانتصبَ قوله (مَقْتاً) على التمييزِ.

---

(١) من حديث أبي بن كعب في فضائل القرآن سورة سـورة، تقـدم مـراراً أنـه لا يصـح. وأخرجـه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٠١.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٥٥.

وذكرَ الكلبيُّ: (أنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَقُولُونَ قَبْلَ فَرْضِ الْجِهَادِ: لَوْ عَلِمْنَا أيَّ الأَعْمَالِ أحَبُّ إلَى اللهِ لَفَعَلْنَاهُ، فَدَلَّهُمُ اللهُ عَلَى ذلِكَ بقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿هَلْ أدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنَجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ ألِيمٍ﴾، وَلَمْ يُبَيِّنْ مَا هِيَ، فَمَكَثُوا عَلَى ذلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ قَالُوا: يَا لَيْتَنَا نَعْلَمُ مَا هِيَ فَنُسَارِعُ إلَيْهَا، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ﴾ إلَى آخِرِ الآيَاتِ)[١].

وقال قتادةُ: (كَانَ الرَّجُلُ إذا خَرَجَ إلَى الْجِهَادِ ثُمَّ رَجَعَ قَالَ: قُلْتُ وَفَعَلْتُ، وَلَمْ يَكُنْ فَعَلَ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ).)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ ؛ يُحِبُّ الذين يصُفُّون أنفسهم عند القتال صَفّاً ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي مُلتَزِقٌ بعضهُ إلى بعضٍ، أعلمَ اللهُ أنه يحبُّ مَن تثَبَّتَ في القتال ويلزمَ مكانَهُ كثُبوتِ البناءِ المرصوصِ الذي قد أحكِمَ وأتقِنَ، ليس فيه فرجةٌ ولا خَلل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ ؛ في هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ فيما لَقِيَ من أذى الكفار والمنافقين، وقد مرَّ تفسيرُ أذاهُم موسَى في سورةِ الأحزاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ؛ أي بإيذائِهم أمَالَها عن الحقِّ وخذلَها ومنعَها الهدى مجازاةً لهم بإيذائهم، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ إلى ثوابهِ وجنَّتهِ.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: واذكُرْ يا مُحَمَّدُ لقومِكَ قصَّةَ عيسى وعاقبةَ مَن آمنَ معه، وعاقبةَ من كفرَ.

---

(١) نقله عنه أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٠٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٣٨١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مُصَدِّقاً) نُصب على الحال؛ أي في حالِ تصديقي بالتَّوراةِ التي أُوتِيها موسَى عليه السلام مِن قبلي، وفي حالِ تبشيري برسولٍ من بعدي يأتِي اسمهُ أحْمَدُ.

وذلك أنَّ الْحَوَارِيِّينَ قَالُوا لِعِيسَى عليه السلام: يَا رُوحَ اللهِ هَلْ مِنْ بَعْدِنَا مِنْ أمَّةٍ ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ أُمَّةُ أحْمَدَ. قَالُوا: يَا رُوحَ اللهِ وَمَا أُمَّةُ أحْمَدَ ؟ قَالَ: حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ أبْرَارٌ أتْقِيَاءُ؛ كَأَنَّهُمْ مِنَ الْفِقْهِ أنْبِيَاءُ، يَرْضَوْنَ مِنَ اللهِ بالْيَسِيرِ مِنَ الرِّزْقِ، وَيَرْضَى اللهُ مِنْهُمْ بالْيَسِيرِ مِنَ الْعَمَلِ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بـ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ.

وفي تسميةِ نبيِّنا عليه السلام أحمدَ قولان: أحدُهما: أنَّ الأنبياء كانوا حَمَّادِينَ للهِ تعالى، ونبيُّنا ﷺ أحمدُ؛ أي أكثرُ حَمْداً للهِ منهم، فيكون معنى أحمدَ المبالغةَ في الفاعلِ.

والثاني: الأنبياءُ كلهم مَحمُودُونَ، ونبيُّنا عليه السلام أكثرُ مناقباً للفضائلِ، فيكون معناهُ مبالغةً من المفعولِ، يعني إنه يُحْمَدُ بما فيه من الأخلاقِ والمحاسنِ أكثرَ مما يُحمَدُ غيرهُ.

قال ﷺ: [إنَّ لِي أسْمَاءً: أنَا أحْمَدُ؛ وَأنَا مُحَمَّدٌ؛ وَأنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بيَ الْكُفْرَ، وَأنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدِي نَبِيٌّ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وأيُّ ظُلمٍ مِن الكفرة ممن افترَى على اللهِ الكذبَ بأنْ جعلَ للهِ شَريكاً أو وَلداً وهو يُدعَى إلى دينِ الإسلام، واللهُ يرشده إلى دينهِ، ومَن كان في سابقِ علمه أنه يموتُ على الكفرِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي هو الَّذي أرسلَ مُحَمَّداً ﷺ بالقرآنِ والدُّعاء إلى

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (١٥٢٠-١٥٣٠). وعبدالرزاق في المصنف: ج ١٠ ص٤٤٦: الحديث (١٩٦٥٧). والإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٨٠ و٨٤. والبخاري في الصحيح:كتاب المناقب: باب ما جاء في أسماء النبي ﷺ: الحديث (٣٥٣٢)، وفي كتاب التفسير: سورة الصف: الحديث (٤٨٩٦).

دينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ على جميعِ الأديانِ، وإنْ كَرِهَ المشركون ذلكَ، فلا تقومُ السَّاعة حتى لا يبقَى أهلُ دينٍ إلاّ دخَلُوا في الإسلامِ وأدَّوا الجزيةَ إلى المسلمين.

وقولهُ تعالى قبلَ هذه الآية (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأفْوَاهِهِمْ) يريدون ليَغلِبُوا دينَ اللهِ مع ظهورهِ وقوَّته بتكذيبهم بألسنتهم، كمَن أرادَ إطفاءَ نُور الشمسِ بأخفِّ الأشياءِ وهو الريحُ التي يُخرجُها من فيهِ (وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ) أي هداهُ ومظهرُ دينهِ، وغالبُ أعدائهِ وناصرُ أوليائهِ على عدوهم من الكفار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي هل أدلُّكم على طاعةٍ تخلِّصُكم من عذابٍ مُؤلِم. وإنما سُمِّيت الطاعةُ تجارةً لأنه يربحُ عليها الجنةَ والثوابَ كما يربحُ على تجارةِ الدُّنيا زيادةَ المال.

وقوله تعالى: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾؛ تفسيرٌ للتجارةِ المذكورة، وإنَّما قدَّم ذكرَ الإيمان في هذه الآيةِ لأنه رأسُ الطاعاتِ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾؛ أي وتُجاهدون العدوَّ في طاعةِ الله بنفقَتِكُمْ وخُروجِكم من أنفسكم، وقد تكون الطاعاتُ بالمالِ دونَ النفسِ بأن يجهِّزَ غَازياً بمالهِ، وقد تكون بالنفسِ دون المالِ بأن يجاهدَ بنفسهِ بمالِ غيرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾؛ أي التجارةُ التي دلَلتُكم عليها خيرٌ من التجارةِ في الأموال، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾؛ ثوابَ الله، لأن تلك التجارةِ تؤدِّي الى ربحٍ لا يزولُ ولا يَبيدُ بخلافِ التجارة في الأموالِ في أمُور الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾؛ إنما جزَمَ (يَغْفِرْ) على المعنى، تقديرهُ: إنْ فعلتُم ذلك يغفِرْ لكم، وقال الزجَّاجُ: (هُوَ جَوَابُ تُؤْمِنُونَ وَتُجَاهِدُونَ؛ لأنَّ مَعْنَاهُ الأَمْرُ، كَأنَّهُ قَالَ: آمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُوا يَغْفِرْ لَكُمْ)[1].

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص١٣١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً ﴾ ؛ المساكن الطيِّبةُ هي المنازلُ التي طيَّبها اللهُ بالْمِسْكِ والرياحين، ﴿ فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ ؛ أي في بساتين إقامةٍ، يقالُ: عَدَنَ بالمكان إذا أقامَ به. وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي ذلك الذي ذكرتُ لكم هو التجارةُ العظيمة، والنعيمُ المقيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ ؛ أي ذلكم خِصلةٌ أخرى في العاجلةِ تحبُّونها مع ثواب الآخرةِ، وهي الغنيمةُ والفتحُ، ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ على أعدائكم، ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ ؛ أي عاجلٌ يعني فتحَ مكَّة، وَقِيْلَ: فتحُ عامَّة البلادِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي بشِّرهم بهائين النِّعمَتين: نعمةَ العاجلِ ونعمةَ الآجلِ، ومعناهُ: بشِّر المؤمنين يا مُحَمَّدُ بالنصرِ في الدُّنيا والجنَّة في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي كُونوا أنصارَ دينِ الله على أعدائهِ بالسَّيف ودومُوا على ذلكَ، كما نصرَ الحواريُّون عيسى عليه السلام.

وقرئ (أنْصَارَ اللهِ) من غير تنوينٍ. والأنصارُ: جمعُ ناصِرٍ، كصاحبٍ وأصحابٍ، والحواريُّون: خُلَصاءُ الأنبياءِ الذين نُقُّوا من كلِّ عيبٍ، ومنه الدَّقيقُ الحواريُّ وهو الْمُنَقَّى.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي معَ اللهِ كما في قوله تعالى ﴿وَلا تَأْكُلُوا أمْوَالَهُمْ إلَى أمْوَالِكُمْ﴾[1].

وقولهُ تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ؛ أي صدَّقت جماعةٌ منهم بعيسى، ﴿ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ ؛ وذلك أنه لَمَّا رُفِعَ عيسى عليه السلام تفرَّقَ قومهُ ثلاثَ فرقٍ:

فرقةٌ قالوا كان اللهَ فارتفعَ، وفرقةٌ قالوا كان ابنَ اللهِ فرفعَهُ اللهُ، وفرقةٌ قالوا: كان عبدَ اللهِ ورسولَهُ فرفعَهُ الله إليه وهم المؤمنون. فاتَّبعَ كلَّ فريق منهم طائفةٌ من الناس، فاقتَتَلوا فظهرَ الفرقتان الكافرتان على المؤمنين حتى بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ فظهرت الفرقةُ المؤمنة على الكافرةِ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ

---

(١) النساء / ٢ .

﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾؛ أي غالبين، والمعنى: فاصبحت حُجَّةُ مَن آمنَ بعيسى ظاهرةً بتصديقِ مُحَمَّدٍ ﷺ أنَّ عيسى عبدُ اللهِ وكلمتهُ وروحهُ والتأييد.

وعن الحسنِ قال: (سَأَلْتُ عِمْرَانَ بْنَ الْحُصَيْنِ وَأَبَا هُرَيْرَةَ عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ)، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: سَأَلْتُ عَنْ ذلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: [قَصْرٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ فِي الْجَنَّةِ، فِي ذلِكَ الْقَصْرِ سَبْعُونَ دَاراً مِنْ يَاقُوتٍ أَحْمَرَ، فِي كُلِّ دَارٍ سَبْعُونَ بَيْتاً مِنْ زُمُرُّدٍ أَخْضَر، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ سَرِيراً وَسَبْعُون فِرَاشاً، عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ امْرَأَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ مَائِدَةً، عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ سَبْعُونَ لَوْناً مِنْ طَعَامٍ، يُعْطِي اللهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَأْتِي عَلَى ذلِكَ كُلِّهِ][(١)].

آخر تفسير سورة (**الصف**) والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٠٤. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٨٨؛ قال القرطبي: (خرَّج أبو الحسين الآجري عن الحسن، قال) وذكره. وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات: ج ٣ ص٢٥٢. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٤٢٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه جسر بن فرقد، وهو ضعيف).

سُورَةُ الْجُمُعَة

سُورَةُ الْجُمُعَةِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعُمِائَةٍ وَعُشْرُونَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَإِحْدَى عَشَرَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ ذهَبَ إلَى الْجُمُعَةِ، وَبعَدَدِ مَنْ لَمْ يَذْهَبْ إلَيْهَا مِنْ أمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ][(1)] وَباللهِ التَّوْفِيقُ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، ﴿ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾ ؛ القُدُّوسُ: المستحقُّ للتعظيمِ لتنْزيهِ صفاتهِ عن كلِّ نقصٍ، ويقالُ: معناهُ: كثيرُ البركةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ ﴾ ؛ الأُمِّيُّونَ هم العربُ كلُّهم، مَن كتبَ منهم ومن لَمْ يكتُبْ؛ لأنَّهم لم يكونوا من أهلِ الكتاب. وأوَّلُ ما ظهرتِ الكتابةُ في العرب ظهرت في أهلِ الطائف، تعلَّمُوا من الحيرةِ، وتعلَّمَ أهلُ الحيرةِ من أهل الأنبار.

وقولهُ تعالى (رَسُولاً مِنهُمْ) يعني مُحَمَّداً ﷺ نَسَبهُ مثلُ نَسَبهم وجنسهُ مثل جنسهم، ﴿ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ؛ يعني القرآنَ، ﴿ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾ ؛ أي يُطهِّرُهم من الدَّنسِ والكفر، فيجعلهم أزْكِيَاءَ بما يأمُرهم به من التوحيدِ ويدعوهم إليه من طاعةٍ، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ ؛ أي القرآنَ والعلمَ، ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ ؛ أي وقد كانوا قبلَ مجيئهِ إليهم بالقرآنِ لفي ضلالٍ مبين، يعبُدون الأصنامَ ويَسْتَقْسِمُونَ بالأَزْلاَمِ.

---

(١) أخرجه الثعلبي في التفسير عن أبي بن كعب؛ ينظر: الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٠٥ بتفاوت في اللفظ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ﴾ ؛ معناهُ: وبعثَهُ في آخَرِين منهم يعني الأعاجمَ، والنبيُّ ﷺ مبعوثٌ إلى كلِّ مَن شاهدَهُ من العرب والعجم وإلى كلِّ مَن يأتي منهم بعدَ ذلك.

وقوله تعالى (مِنْهُمْ) لأنَّهم إذا أسلَمُوا صاروا منهم، والمسلمون كلُّهم يدٌ واحدة وأمَّةٌ واحـدةٌ وإن اختلـفَ أجناسُـهم. وقولـه تعـالى (لَمَّـا يَلْحَقُـوا بـهِمْ) في الفَضْـلِ والسَّابقةِ؛ لأن التَّابعين لا يُدركون شأنَ الصحابةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ يعني الإسلامَ والهدايةَ إلى دينهِ، وَقِيْلَ: النبوَّةُ والكتابَ والإسلامَ يُعطيهِ اللهُ قُريشاً ممن يراهُ أهلاً لـه بـه، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤ ﴾ ؛ على مَن اختصَّهُ بالنبوَّةِ والإسلامِ، وَقِيْـلَ: ذو الْمَـنِّ العظيمِ على خلقهِ ببعثِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ ؛ معنـاهُ: مَثَـلُ اليهودِ الذين أمِرُوا بما في التَّوراةِ، ويُظهروا صفةَ مُحَمَّدٍ ونعتَهُ فيها، ثم لَمْ يفعلُـوا مـا أمروا به ولم يُؤمِنُـوا بـالنبيِّ ﷺ، ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ ؛ أي يَحمِـلُ كُتُباً من العلمِ عِظَاماً لا يدري ما عليه وما حَمَلَ.

والأَسْفَارُ: جمعُ سِفْرٍ، وهو الكتابُ الكبير، شَبَّهَ اليهودَ إذ لم ينتفِعُوا بما في التَّوراةِ وهي دالَّةٌ على الإيمانِ بالحمار يحملُ كُتُبَ العلـمِ، ولا يـدري مـا فيـه، وليـس حَمْـلُ التوراةِ من الحملِ على الظَّهر، وإنما هو من الْحَمَالَةِ وهو الضَّمانُ والكفالـةُ والقبـول كما في قوله تعالى ﴿فَأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا﴾[1] أي يَقْبَلْنَهَا. فاليهودُ ضَمِنُوا العملَ بها ثـم لم يفعَلُوا بما ضَمِنُوا وجَحَدُوا بعضَ ما حَمَلوا، فلذلك قِيْلَ: (ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعـني اليـهودَ كذبُـوا بـالقرآن وبـالتَّوراة حـين لم يُؤمِنـوا بمُحَمَّـدٍ ﷺ، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ ﴾ ؛ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بتكذيبهم الأنبياءَ.

(١) الأحزاب / ٧٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ هذا جوابٌ لليهودِ في قولهم (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) وَقَالَ اللهُ تَعَالَى لنَبيِّهِ: قل لَهم: إن ادَّعيتُم أنَّكم أحبَّاءُ اللهِ وأهلُ ولايتهِ وأنَّ الجنةَ في الآخرةِ لكم من دونِ الناسِ، فاسأَلُوا اللهَ الموتَ إنْ كُنتم صَادِقين في مقَالَتِكم، قولوا: اللَّهُمَّ أمِتْنَا كي تصلوا إلى نعيمِ الآخرة وتستَرِيحوا من تعب الدُّنيا، وسيُمِيتُكم اللهُ إنْ قُلتم ذلكَ.

كما رُوي في الحديثِ: أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: [قُولُوا: اللَّهُمَّ أمِتْنَا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لَيْسَ أحَدٌ مِنْكُمْ يَقُولُ ذلِكَ إلاَّ غَصَّ بريقِهِ فَمَاتَ مَكَانَهُ] فَكَرِهُوا ذلِكَ وَأبَوا أنْ يَقُولُوا[1]، وَعَرَفُوا أنَّهُ سَيَكُونُ ذلِكَ إنْ قَالُوا. فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ أي لا يتمنَّون ذلك بما قدَّمُوا من التكذيب بمُحَمَّدٍ ﷺ، والتحريفِ لصِفَتِه في التَّوراةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ إخبارٌ عن معلومِ اللهِ فيهم، حذرَهم اللهُ بقولِهِ: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ ؛ أي قل يا مُحَمَّدُ لليهودِ: إنَّ الموتَ الذي تفِرُّون منه لأنْ تَلْقَوْهُ فإنه نازلٌ بكم لا محالةَ عند انقضاءِ آجالكم، ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ من خيرٍ أو شرٍّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ ؛ يعني النداءَ إذا جلسَ الإمامُ على المنبرِ يومَ الجمُعة؛ لأنه لم يكُن على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ نداءٌ سواهُ، كان إذا جلسَ على المنبرِ أذنَ بلالٌ على باب المسجدِ، وكذا كان على عهدِ أبي بكرٍ وعمرَ.

---

(١) هو معنى حديث روي عن النبي ﷺ أنه قال: [لَوْ أنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوا الْمَوْتَ لَمَاتُوا وَرَأوا مَقَامَهُمْ مِنَ النَّارِ]. أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٤٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما. والطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩٦) من تفسير سورة البقرة. وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٣١٤؛ قال الهيثمي: (قلتُ: هو في الصحيح بغير سياقه، ورواه البزار ورجاله رجال الصحيح).

والنداءُ المشروع لهذهِ الصَّلاة الأذانُ الثانِي الذي يقولهُ المؤذِّنُ عند صعودِ الإمام المنبرَ، كما رُوي عن السَّائب بن يزيدٍ أنه قال (مَا كَانَ لِرَسُول اللهِ ﷺ إلاَّ مُؤَذِّنٌ وَاحِدٌ يُؤَذِّنُ إذا قَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ يُقِيمُ إذا نَزَلَ، ثُمَّ أَبو بَكْرٍ كَذلِكَ، ثُمَّ عُمَرَ كَذلِكَ، فَلَمَّا كَانَ فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ ﷺ وَكَثُرَ النَّاسُ زَادَ نِدَاءً غَيْرَهُ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ) يعني الذهابَ والمشيَ إلى الصَّلاةِ، والسَّعيُ: هو إجابةُ النِّداءِ في هذه الآيةِ، والمبادرةُ إلى الجمعةِ، وفي قراءةِ ابن مسعودٍ ﷺ (فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ) وكان يقولُ: (لَوْ أُمِرْتُ بالسَّعْيِ لَسَعَيْتُ حَتَّى سَقَطَ رِدَائِي)[٢]. وَقِيْلَ: السَّعيُ هنا هو العملُ إذا نُودِيَ للصَّلاة فاعمَلُوا على المعنَى إلى ذكرِ الله من التفرُّغِ له والاشتغالِ بالطَّهارة والغُسلِ والتوجُّه إليه بالقصدِ والنيَّة.

واختلفَ مشائخُنا: هل يجبُ على الإنسانِ الإسراعُ والعَدْوُ إذا خافَ فوتَ الجمُعة أم لاَ ؟ قال بعضُهم: يلزمهُ ذلك بظاهرِ النصِّ، بخلاف السَّعيِ إلى سائرِ الجماعات لا يؤمرُ به وإنْ خافَ الفوتَ. وقال بعضُهم: لا يلزمهُ ذلك، وليس السَّعيُ إلاَّ العملُ كما قال تعالى ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإنسَانِ إلاَّ مَا سَعَى﴾[٣]. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إذا أَتَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَلاَ تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَاقْضُوا][٤]، وهذا عامٌّ في جميعِ الصَّلوات.

قال بعضُهم: فاسعَوا إلى ذكرِ الله، يعني الصَّلاةَ مع الإمامِ، وذلك هو المرادُ بذكرِ الله. وقال بعضُهم: هي الخطبةُ لأنَّها تلِي النداءَ، عن أبي بكرٍ ﷺ قالَ: قَالَ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٥٨-١٥٩؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن السائب بن يزيد) وذكره.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٤٣٥).

(٣) النجم / ٣٩ .

(٤) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: الحديث (٣٤٠٤). والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٧٠ و٣١٨ و٤٢٧. ومسلم في الصحيح: كتاب المساجد: باب استحباب اتيان الصلاة بوقار: الحديث (١٥١-١٥٤/ ١٠٢).

رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ خَرَجَتْ ذُنُوبُهُ وَخَطَايَاهُ، فَإذا رَاحَ كَتَبَ اللهُ لَهُ بكُلِّ قَدَمٍ عَمَلَ عِشْرِينَ سَنَةً، فَإذا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ أُجِيزَ بعَمَلِ مِائَتَي سَنَةٍ](١).

وعن أبي ذرٍّ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَحْسَنَ غُسْلَهُ، وَلَبسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابهِ، وَمَسَّ مِنْ طِيب بَيْتِهِ أوْ دُهْنِهُ، ثُمَّ لَمْ يُفَرِّقْ مَا بَيْنَ اثْنَيْنِ، غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَى وَزيَادَةَ ثلاثَةِ أيَّام بَعْدَهَا](٢).

وعن أنسٍ ﷺ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي جُمُعَةٍ مِنَ الْجُمَعِ: [يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، إنَّ هَذَا يَوْماً جَعَلَهُ اللهُ عِيداً لِلْمُسْلِمِينَ فَاغْتَسِلُوا فِيْهِ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طِيبٌ فَلاَ يَضُرُّهُ أنْ يَمَسَّ مِنْهُ، وَعَلَيْكُمْ بالسِّوَاكِ](٣).

وعن رسول الله ﷺ قالَ: [لَيْلَةَ أسْرِيَ بي رَأيْتُ تَحْتَ الْعَرْشِ سَبْعِينَ مَدِينَةً، كُلُّ مَدِينَةٍ مِثْلَ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ سَبْعِينَ مَرَّةً مَمْلُوءَةً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، يُسَبحُونَ اللهَ وَيُقَدِّسُونَهُ، وَيَقُولُونَ فِي تَسْبيحِهِمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِمَنْ شَهِدَ الْجُمُعَةَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِمَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ](٤).

وقال ﷺ: [إنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَتَهَا أرْبَعٌ وَعُشْرُونَ سَاعَةً، للهِ تَعَالَى فِي كُلِّ سَاعَةٍ سِتُّمِائَةِ ألْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّار](٥).

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣١٤، وأضاف قال: (عن أبي بكر الصديق وعمران بن حصين).

(٢) أخرجه ابن حبان في الصحيح: كتاب الصلاة: باب صلاة الجمعة: الحديث (٢٧٨٠) بإسناد صحيح. وبمعناه أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجمعة: باب الدهن للجمعة: الحديث (٨٨٣) عن سلمان الفارسي.

(٣) في كنز العمال: الحديث (٢١٠٥٥) عزاه المتقي الهندي إلى مالك والشافعي مرسلاً.

(٤) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣١٥ عن أنس. وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١١٩.

(٥) عن أنس، ذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الحديث (٢١٠٣٤ و٢١٠٨٠ و٢١٠٨١).

وقال ﷺ: [لَعَلَّ أحَدَكُمْ يَتَّخِذُ الضَّيْعَةَ عَلَى رَأسِ مِيْلٍ أوْ مِيلَيْنِ وَثَلاَثَةٍ، تَـأْتِي عَلَيْهِ الْجُمُعَةُ فَلاَ يَشْهَدُهَا، ثُمَّ تَأْتِي الْجُمُعَةُ فَلاَ يَشْهَدُهَا، ثُمَّ تَأْتِي عَلَيْـهِ الْجُمُعَـةُ فَـلاَ يَشْهَدُهَا، فَيُطْبَعُ عَلَى قَلْبِهِ][1].

وقال ﷺ فِي الْجُمُعَةِ: [مَنْ تَركَهَا اسْتِخْفَافاً بِهَا أوْ جُحُوداً لَهَا، فَلاَ جَمَـعَ اللهُ شَمْلَهُ وَلاَ بَارَكَ لَهُ فِي أمْرِهِ، ألاَ فَلاَ صَلاَةَ لَهُ، ألاَ فَلاَ زَكَاةَ لَهُ، ألاَ فَـلاَ صِيَـامَ لَـهُ، ألاَ فَلاَ حَجَّ لَهُ، إلاَّ أنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، فَإنْ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَذرُوا الْبَيْعَ) قال الحسنُ: (إذا أذنَ الْمُؤَذِّنُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لَمْ يَحِـلَّ الشِّرَاءُ وَلاَ الْبَيْعُ، فَمَنْ بَاعَ تِلْكَ السَّاعَةِ فَقَدْ خَالَفَ الأَمْـرَ، وَبَيْعُـهُ مُنْعَقِـدٌ) لأنـه نَـهيُ تنْزيهٍ لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ وهذا على الترغيب في ترك البيـع، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ ما هو خيرٌ لكم وأصلحُ.

قرأ العامَّةُ (مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ) بضمَّتين، وقرأ الأعمشُ بجزم الميمِ وهمـا لُغتـان، قال الفرَّاء: (وَفِيهَا لُغَةٌ ثَالِثَةٌ: جُمَعَةٌ بفَتْـحِ الْمِيْـمِ كَمَـا يُقَـالُ: رَجُـلٌ ضُحَكَـةٌ وَهُمَـزَةٌ وَلُمَزَةٌ، وَهِيَ لُغَةُ بَنِي عَقِيلٍ)[3].

وإنَّما سُمِّي هذا اليومُ جُمعةً لما رُوي عن سَـلمان قـال: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: [سُمِّيَتِ الْجُمُعَةُ جُمُعَةً لأَنَّ آدَمَ جُمِعَ فِيهَا خَلْقُهُ][4]. وَقِيْلَ: إنَّ الله تعالى فَرَغَ فيه من خلقِ المخلوقات. وَقِيْلَ: تجتمعُ الجماعاتُ فيها. وَقِيْلَ: لاجتماعِ الناسِ فيـها للصَّـلاة. وَقِيْلَ: أوَّلُ من سَمَّاها جُمعةً كعبُ بن لؤَيٍّ، وكان يقالُ ليومِ الْجُمعة: العُرُوبَةُ. وَقِيْلَ: أوَّل مَن سَمَّاها جُمُعَةً الأنصارُ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ أي إذا فَرغتُـم من الصَّلاة فانتَشِرُوا في الأرضِ، هذا أمرُ إباحةٍ، قال ابنُ عبَّاس: (إنْ شِـئْتَ فَـاخْرُجْ،

---

(١) في صحيح مسلم: كتاب الجمعة: باب التغليـظ في تـرك الجمعـة: الحديـث (٤٠/ ٨٦٥) بمعنـاه. وعند ابن ماجة في السنن: كتاب إقامة الصلاة: الحديث (١١٢٦) بإسناد صحيح بمعناه أيضاً.

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب إقامة الصلاة: باب في فرض الجمعة: الحديث (١٠٨١).

(٣) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص١٥٦.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٤٣٩، بإسناد صحيح.

وَإنْ شِئْتَ فَصَلِّ إلَى الْعَصْرِ، وَإنْ شِئْتَ فَاقْعُدْ). وكذلك قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ إباحةٌ لطلب الرِّزقِ والتجارة والبيعِ بعدَ المنعِ.

وعن ابنِ عبَّاس قال: (لَمْ تُؤْمَرُوا فِي هَذِهِ الآيَةِ بطَلَب شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَكِـنْ عِيَادَةُ مَرِيضٍ وَحُضُورُ جَنَازَةٍ وَزِيَارَةُ أخٍ فِي اللهِ تَعَالَى)[١]. وقال الحسـنُ: ((وَابْتَغُـوا مِنْ فَضْلِ اللهِ) يَعْنِي طَلَبَ الْعِلْمِ)[٢]. والقولُ الأوَّلُ أظهرُ.

واختلفَ العلماءُ في موضعِ وجُوب الْجُمعةِ، وعلى مَن تجبُ، وكم يشتَرطُ لـه الجماعةُ؟ فقال أبو حنيفةَ: (لاَ تَجِبُ الْجُمُعَةُ إلاَّ فِـي مِصْـرٍ جَـامِعٍ لِقَوْلِـهِ ﷺ: [لاَ جُمْعَةَ وَلاَ تَشْرِيقَ إلاَّ فِي مِصْرٍ جَامِعٍ][٣] وَلاَ تَصِحُّ فِي الْقُرَى، وَلاَ تَجِبُ عَلَى السَّوَادِ وَلَوْ قَرُبَتْ مِنَ الْمِصْرِ، إلاَّ إذا كَانَتْ مُتَّصِلَةً بِهِ)[٤].

وقال الشافعيُّ: (تَجِبُ الْجُمُعَةُ عَلَى أهْلِ السَّوَادِ إذا سَمِعُوا النِّدَاءَ مِنَ الْمِصْرِ، وَوَقْتُ اعْتِبَار سَمَاعِ الأذَانِ أنْ يَكُونَ الْمُؤَذِّنُ صَيِّتاً، وَالأَصْوَاتُ هَادِئَةً وَالرِّيحُ سَاكِنَةً).

وقال ابنُ عمرٍو وأبو هريرة وأنس: (تَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ عَلَى عَشْرَةِ أمْيَـالٍ مِنَ الْمِصْرِ)[٥]. وقال سعيدُ بن المسيَّب: (تَجِبُ عَلَى مَـنْ كَـانَ دُونَ الْمَبِيـتِ). وقـال الزهريُّ: (عَلَى سِتَّةِ أمْيَالٍ)، وقال ربيعةُ: (أرْبَعَةُ أمْيَالٍ)، وقال مالكُ: (ثَلاَثَةُ أمْيَالٍ).

وعندَ الشافعيِّ: (تَجِبُ الْجُمُعَةُ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ اجْتَمَعَ فِيهَا أرْبَعُونَ رَجُلاً أحْـرَاراً بَالِغِينَ، لاَ يَظْعَنُونَ عَنْهَا شِتَاءً وَلاَ صَيْفاً إلاَّ ظَعْنَ حَاجَةٍ، فَإذا كَانَ كَذلِكَ وَجَبَ عَلَيْهِمْ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٣١٤.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٣١٤.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل: ج ١ ص٤٦٩ عن علي ﷺ. والبيهقي في السنن الكـبرى: كتـاب الجمعة: الأثر (٥٧١٣) موقوفاً على علي ﷺ. وفي المحلى: ج ٥ ص٥٢؛ قـال ابـن حـزم: (وقـد صح عن علي ﷺ) وذكره.

(٤) نقله ابن حزم في المحلى: ج ٥ ص٥٣.

(٥) حديث عبدالله بن عمرو؛ أخرجه البيهقي في السنن الكـبرى: كتـاب الجمعـة: الأثـر (٥٦٩٣)، وقال: (على ميلين من الطائف). وعن أبي هريرة في الأثر (٥٦٩٤): (على رأس ستة أميال) من المدينة.

إقَامَةُ الْجُمُعَةِ. وَإنْ كَانَ أقَلَّ مِنْ ذلِكَ، وَكَانَ بقُرْبهَا مَوْضِعٌ تُقَامُ فِيْهِ الْجُمُعَةُ، فَعَلَيْهِمُ الْحُضُورُ فِيْهِ لِلْجُمُعَةِ إذا كَانُوا بحَيْثُ يَسْمَعُونَ النِّدَاءَ). وقال مالكُ: (إذا كَانَتِ الْقَرْيَةُ فِيهَا سُوقٌ وَمَسْجِدٌ وَجَبَ عَلَيهِمْ إقَامَةُ الْجُمُعَةِ).

وأما أهلُ الوجوب، فتجبُ الجمُعة على كلِّ مسلمٍ إلاَّ على أربعة: عبدٌ؛ أو مريض؛ أو مسافرٌ؛ أو امرأةٌ، فمَنِ استغنَى عنها بلهوٍ أو تجارةٍ استغنَى اللهُ عنه، واللهُ غنيٌّ حميد.

وأما العددُ الذين تنعقد بهم الجمعةُ، فقال الحسنُ: (تَنْعَقِدُ باثْنَيْنِ)، وقال أبو يوسف والليثُ بن سعد: (بثَلاَثَةٍ)، وقال أبو حنيفةَ ومحمَّد وسفيان: (بأرْبَعَةٍ)، وقال ربيعةُ: (باثْنَي عَشَرَ)، وقال الشافعيُّ: (لاَ تَنْعَقِدُ إلاَّ بأرْبَعِينَ).

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ ؛ قال الحسنُ: (أصَابَ أهْلَ الْمَدِينَةِ جُوعٌ وَغَلاَءُ سِعْرٍ، فَقَدِمَ دَحِيَّةُ بْنُ خَلِيفَةَ الْكَلْبيُّ مِنَ الشَّامِ بتِجَارَةٍ، وَكَانَ يَقْدُمُ الْمَدِينَةَ بكُلِّ مَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ دَقِيقٍ وَبُرٍّ وَغَيْرِهِ، فَيَنْزِلُ فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ وَيَضْربُ الطَّبْلَ لِيُعْلِمَ النَّاسَ بقُدُومِهِ، فَيَخْرُجُونَ إلَيْهِ لِيَبْتَاعُوا مِنْهُ.

فَقَدِمَ ذاتَ يَوْمِ جُمُعَةٍ - وَكَانَ قَبْلَ إسْلاَمِهِ - وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَضَرَبَ الطَّبْلَ فَخَرَجَ النَّاسُ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَلَمْ يَبْقَ إلاَّ ثَمَانِيَةُ رَهْطٍ ثَبَتُوا مَعَ النَّبيِّ ﷺ - وَقِيلَ: بَقِيَ اثْنَى عَشَرَ رَجُلاً وَامْرَأةٌ - فَقَالَ ﷺ: [لَوْ لَحِقَ آخِرُهُمْ أوَّلَهُمْ لاَلْتَهَبَ الْوَادِي عَلَيْهِمْ نَاراً] فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

وقولهُ تعالى (انفضُّوا إلَيْهَا) أي تفرَّقوا بالخروجِ إليها (وَتَرَكُوكَ قَائِماً) على المنبر تخطبُ. وفي هذا دليلٌ على وجوب استماعِ الْخُطبَةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عاتبَهم على تركِ الاستماعِ، ولو لم يكن فَرضاً لم يُعاتَبوا على ذلك.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٤٤٨-٢٦٤٥٤) بأسانيد عن السدي عن أبي مالك وجابر بن عبدالله، ومعمر عن الحسن وابن زيد وعن مجاهد وقتادة.

ويستدلُّ من هذه الآيةِ على أنَّ من السُّنة أن يَخطُبَ الإمامُ قَائماً. والكنايةُ في قولهِ تعالى (إِلَيْهَا) راجعةٌ إلى التِّجارةِ دونَ اللَّهوِ، وإنما خُصَّت التجارةُ بـرَدِّ الضميرِ إليها؛ لأنَّها كانت أهمَّ إليهم لأنَّ السَّنة كانت سَنَةَ مجاعةٍ وغلاء سعرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ﴾ ؛ معناهُ: ما عندَ اللهِ من ثواب الصَّلاة والثباتِ مع النبيِّ ﷺ خيرٌ من اللَّهو ومن التجارةِ، ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي ليس يَفوتُهم من أرزاقِهم لتخلُّفهم عن الْمِيرَةِ شيءٌ، ولا بتَركِهم البيعَ في وقتِ الصَّلاة.

آخر تفسير سورة (**الجمعة**) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

سُورَةُ (الْمُنَافِقُونَ) مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعُمِائَةٍ وَسِتَّةٌ وَأرْبَعُونَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَإحْدَى عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْمُنَافِقِينَ بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ ؛ معناهُ: إذا جاءَك يا مُحَمَّدُ منافِقُوا أهلِ المدينةِ عبدُالله بنُ أبَي وأصحابهُ، ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ ، قالُوا: نُقسِمُ إنَّكَ لرسولُ اللهِ، وعلى ذلكَ ضَميرُنا واعتقادُنا، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ ، من غيرِ شهادة المنافقين وحلفِهم، ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) ﴾ ؛ أي واللهُ يخبر أنَّ المنافقين لكَاذِبون فيما يعتقدونهُ بقُلوبهم وما يقُولون بألسِنَتِهم، فهُم كاذِبون في إخبارهم عمَّا في ضَمائرِهم، فأمَّا شَهادتُهم بألسِنتهم أنه رسولُ الله فقد كانت صِدْقاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ ؛ أي سُتْرَةً يدفعون بها عن أنفُسِهم السَّبي والقتلِ والجزية كمَن أعدَّ على نفسهِ جُنَّةً لدفعِ الجراح. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ؛ أي مَنَعُوا الناسَ عن طاعةِ الله وامتَنعوا عنها، ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2) ﴾ ؛ في نفاقِهم من الكذب والخيانة.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ أنَّ قولَ الرجُلِ: أشْهَدُ، يمينٌ؛ لأنَّ القومَ قالوا (نَشْهَدُ) فجعلَهُ اللهُ يَميناً في هذهِ الآية، وعلى هذا أقسِمُ وأعزِمُ وأحلِفُ، كلُّها أيمانٌ عند أبي حنيفةَ وصَاحِبَيْهِ، والثوريِّ والأوزاعي.

---

(1) من أحاديث فضائل القرآن، إسناده عن أبي بن كعب، وهو موضوع. أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣١٩.

وقال مالكُ: (إنْ أرَادَ بهِ الْيَمِينَ فَهُوَ يَمِينٌ)، وقال الشافعيُّ: (أقْسِمُ لَيْسَ بيَمِين، وَأقْسِمُ بـالله يَمِينٌ). وفي قـراءةِ الحسـن (اتَّخَـذُوا إيْمَانـهُمْ) بكسـر الألـف، أي إنَّـا مُؤمِنون، اتَّخذوهُ تُقْيَةً عن القتلِ.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي ذلك الحكمُ بنفَاقِهم، ويقالُ: ذلك الصدُّ بأنَّهم كانوا مُؤمنـين في العَلانِيَةِ بحضرةِ النبيِّ ﷺ، فإذا عادُوا إلى قَومِهم ثبَتُوا على الكفرِ في السرِّ، فـأورثَ ذلك طَبْعاً على قُلوبهم فهُم لا يفقَهُون الإيمانَ والقرآنَ، ولا يَعُونَ ما يُوعَظُون به.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ ؛ أي في صحَّة أجسامِهم وحُسنِ مَنظَرهم؛ لأنَّهم يكونون علـى صُـورةٍ حَسَـنة، وكـان عبدُالله بن أبَي رجُلاً فَصِيحاً لَسِناً، وكـانوا إذا قـالُوا شَـيئاً أصغَـى النـبيُّ ﷺ لِحُسـنِ كلامِهم، ولهذا أدخلت اللامُ في (تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ)، ويجوزُ أن يكون معناه: إلى قولِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ ؛ فيـه بيـانٌ في تـركِ التفـهُّم والاستبصار بمنْزلة الْخُشُب الْمُسَنَّدَةِ إلى الجدار، لا ينتفعُ إلاَّ بالنظرِ إليها، والْخُشُبُ لا أرواحَ فيها ولا تعقلُ ولا تفهمُ، وكذلك المنافقون لا يَسـمعون الإيمـانَ ولا يعقلونـهُ. و(الْمُسَنَّدَةُ) الْمُمَالَةُ إلى الجدار، ويُقرأ (خُشُبٌ، وَخُشْبٌ) بجزم الشِّين، ومنها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي يظُنُّون مِن الْجُبنِ والخـوفِ أنَّ كلَّ مَن خـاطبَ النـبيَّ ﷺ فإنما يُخاطِبـهُ في أمرهـم وكشـفِ نفاقـهم. ويقـالُ: لا يسمعون صَوتاً إلاَّ ظَنُّوا أنْ قد أتوا (فإذا نـادَى مُنـادٍ في العسـكر، وانفلَتَـتْ دابَّـة، أو أنشِدَتْ ضالَّـةٌ، ظنُّـوا أنَّـهم يُـرَادُون ممـا في قلوبـهم مـن الرُّعـب)[1] أنْ يكشـفَ اللهُ أسرارَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ ﴾ ؛ ابتداءُ كلام، والمعنى: هُمْ على الحقيقةِ العـدوُّ الأدنى إليكَ، ﴿ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ ولا تأمَنْـهُمْ وإنْ أظـهَرُوا أنَّـهم معـكَ، ولا تُطلِعْهُمْ على سرِّكَ كأنَّهم عيونٌ لأعدائِكَ من الكفَّار.

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٦٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي لعَنَـهم اللهُ وأخزاهـم وأحَلَّهم محلَّ مَن يقاتلهُ عدُوّاً قاهراً لـه، (أنَّى يُؤْفَكُـونَ) أي يُصرَفُـون مـن الحـقِّ إلى الباطلِ.

قولـه تعـالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي إذا قيـلَ لهـؤلاء المنـافقين بعـدَ مـا افتُضِحُوا: هَلُمُّوا إلى رسول الله يستغفِرْ لكم ذُنوبَكم، عطَفُـوا رُؤوسَـهم اسـتهزاءً بـه ورغبةً عن الاستغفار، ورأيتَهم يصدُّون عن الاستغفار وعن طلب المغفرةِ.

ومعنى (يَصُدُّونَ) أي يَمتَنِعُونَ، ويَمنَعُـونَ غـيرَهم عـن طلـب المغفـرةِ، وهـم مُستكبرون عن استغفار رسول الله لَهم وعن قبول الحقِّ. وذلك: أنَّ عَبْدَاللهِ بْـنَ أُبَـيٍّ لَمَّا رَجعَ مِنْ أحُدٍ بكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مَقَتَهُ الْمُسْلِمُونَ وَعَنَّفُوهُ، فَقَالَ لَهُ بَنُـوا أبيـهِ: إئْـتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى يَسْتَغْفِرَ لَكَ، قَالَ: لاَ أذْهَبُ إلَيْهِ وَلاَ أُريدُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لِـي. ومـن قرأ (لَوَوْا) بالتخفيفِ فهو من لَوَى يَلْوِي إذا صَرَفَ الشيءَ وقلبه.

وقولُـهُ تعـالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾؛ أي سـواءٌ عليـهم الاسـتغفارُ وتركـهُ، ﴿ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾؛ لإبطانِهم الكفرَ. وهذا في قوم مَخصُوصِينَ عَلِمَ اللهُ أنَّـهم لا يُؤمنـون فلـم يسـتغفِرْ لهـم النـبيُّ ﷺ، ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ ﴾.

وذلك: أنَّ أصْحَابَ رَسُول اللهِ ﷺ كَـانُوا نُـزُولاً عَلَـى الْمَـاءِ فِـي غَـزْوَةِ بَنِـي الْمُصْطَلِق، إذْ وَقَعَ بَيْنَ غُلاَمٍ لِعُمَرَ ﷺ مِنْ بَنِي غِفَارٍ يُقَالُ لَهُ: جَهْجَاهُ بْنُ سَعِيدٍ يَقُـودُ لِعُمَرَ فَرَسَهُ وَبَيْنَ غُلاَمٍ لِعَبْدِاللهِ بْنِ أبي سَلُول يُقَالُ لَهُ: سِنَانُ الْجُهَنِيُّ، فَـأقْبَلَ جَـهْجَاهُ يَقُودُ فَرَسَ عُمَرَ فَازْدَحَمَ هُوَ وَسِـنَان عَلَـى الْمَـاءِ فَـاقْتَتَلاَ، فَصَـرَخَ سِـنَانٌ: يَـا مَعْشَـرَ الأنْصَار، وَصَرَخَ الْغِفَاريُّ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ. فَاشْتَبَكَ النَّاسُ وَعَلَتِ الأَصْوَاتُ.

فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبَيٍّ: مَا أدْخَلْنَا هَؤُلاَءِ الْقَوْم فِي دِيَارِنَا إلاَّ لِيَرْكَبُوا أعْنَاقَنَا، وَاللهِ مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُهُمْ إلاَّ كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ! أمَا وَاللهِ لَئِـنْ رَجَعْنَـا إلَـى

الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذلَّ، يَعْنِي الأَعَزَّ نَفْسَهُ وَالأَذلَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ! ثُمَّ أقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَ: هَذا مَا فَعَلْتُمُوهُ لِنَفْسِكُمْ أحْلَلْتُمُوهُمْ بلادَكُمْ، قَاسَمْتُمُوهُمْ أمْوَالَكُمْ، أمَا وَاللهِ لَوْ أمْسَكْتُمْ طَعَامَكُمْ وَمَنَعْتُمْ أصْحَابَ هَذا الرَّجُلِ الطَّعَامَ لَتَفرَّقُوا عَنْهُ وَرَجَعُوا إلَى عَشَائِرِهِمْ، وَتَحَوَّلُوا عَنْ بلادِهِمْ، فَلاَ تُنْفِقُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَنْفَضُّوا؛ أيْ يَتَفرَّقُوا مِنْ حَوْلِ مُحَمَّدٍ.

فَسَمِعَ زَيْدُ بْنُ أرْقَمَ كَلاَمَهُ، فَقَالَ: وَاللهِ أنْتَ الذلِيلُ الْبَغِيضُ، الْقَلِيلُ الْمَبْغُوضُ فِي قَوْمِكَ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ فِي عَزِّ الرَّحْمَنِ[1] وَعِزَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. ثُمَّ ذهَبَ زَيْدٌ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأخْبَرَهُ بذلِكَ وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ: دَعْنِي أضْرِبْ عُنُقَهُ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ إذْ تَرْعَدُ لَهُ آنُفٌ كَثِيرٍ بِيَثْرِبَ. فَقَالَ عُمَرُ: فَإنْ كَرِهْتَ يَا رَسُولَ اللهِ أنْ يَقْتُلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَمُرْ سَعِدَ بْنَ مُعَاذٍ أوْ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ أوْ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ فَلْيَقْتُلُوهُ.

فَقَالَ ﷺ: [فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إذا تَحَدَّثَ النَّاسُ أنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أصْحَابَهُ؟ لاَ وَلَكِنِ أذّنْ بالرَّحِيلِ] وَذلِكَ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يُرْتَحلُ فِيْهَا، فَارْتَحلَ النَّاسُ، فَأرْسَلَ النَّبيُّ ﷺ إلَى عَبْدِاللهِ بْنِ أبَيٍّ فَأتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: [أنْتَ صَاحِبُ هَذا الْكَلاَمِ الَّذِي بَلَغَنِي؟] فَقَالَ: وَالَّذِي أنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مَا قُلْتُ شَيْئاً مِنْ ذلِكَ، وَإنَّ زَيْداً لَكَاذِبٌ.

وَكَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبَيٍّ فِي قَوْمِهِ شَرِيفاً عَظِيماً، فَقَالَ مَنْ حَضَرَ مِنَ الأنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللهِ شَيْخُنَا وَكَبِيرُنَا عَبْدُاللهِ بْنُ أبَيٍّ، لاَ تُصَدِّقْ عَلَيْهِ كَلاَمَ صَبِيٍّ مِنْ غِلْمَانِ الأنْصَارِ، عَسَى أنْ يَكُونَ هَذا الصَّبِيُّ وَهِمَ فِي حَدِيثِهِ وَلَمْ يَحْفَظْ مَا قَالَ، فَعَذرَهُ النَّبِيُّ ﷺ. وَفَشَتِ الْمَلاَمَةُ مِنَ الأنْصَارِ لِزَيْدٍ وَكَذبُوهُ، فَقَالَ لَهُ عَمُّهُ: مَا أرَدْتَ يَا وَلَد إلاَّ أنْ كَذبَكَ رَسُولُ اللهِ وَالنَّاسُ وَمَقَتُوكَ. وَكَانَ زَيْدٌ يُسَايرُ النَّبِيَّ ﷺ فَاسْتَحَى بَعْدَ ذلِكَ أنْ يَدْنُو مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَبَلَغَ وَلَدَ عَبْدِاللهِ بْنِ أبَيٍّ مَا كَانَ مِنْ أمْرِ أبيهِ، فَأتَى إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ بَلَغَنِي أنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِاللهِ بْنِ أبَيٍّ لِمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإنْ كُنْتَ فَاعِلاً فَمُرْنِي

(١) في المخطوط:(في عرش الرحمن) وضبط كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٢٧.

فَأنَا أحْمِلُ إلَيْكَ دُأبَتَهُ، وَإنِّي أخْشَى أنْ تَأمُرَ بهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلاَ تَدَعُنِي نَفْسِي أنْ أنْظُرَ إلَى قَاتِلِهِ يَمْشِي بَيْنَ النَّاس، فَأخَافُ أنْ أقْتُلَهُ فَأقْتُلَ مُؤْمِناً بكَافِرٍ فَأدْخُلَ النَّارَ، فَقَالَ ﷺ: [بَلْ تَرْفُقُ بهِ وَتُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا][1].

وَكَذلِكَ جَاءَ أسَيْدُ بْنُ حُضَيرٍ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَقَدْ كُنْتَ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يُمْشَى فِيهَا[2]، فَقَالَ لَهُ: [أوَمَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكَ؟ زَعَمَ أنَّهُ إنْ رَجَعَ إلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذلَّ] فَقَالَ أسَيْدُ: بَلْ أنْتَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ تُخْرِجُهُ إنْ شِئْتَ، هُوَ وَاللهِ الذلِيلُ وَأنْتَ الْعَزِيزُ، فَوَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ لَقَدْ جَاءَ اللهُ بكَ، وَإنَّ قَوْمَهُ لَيَنْظُمُونَ لَهُ الْخَرَزَ لِيُتَوِّجُوهُ، فَهُوَ يَرَى أنَّكَ سَلَبْتَهُ مُلْكَهُ[3].

ثم سارَ رسولُ الله ﷺ حتى وافَى المدينةَ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ (هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُول اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا) الآية إلى قوله: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ ﴾ ؛ فَأخَذ رَسُولُ اللهِ ﷺ بأُذُن زَيْدٍ فَقَالَ: [يَا زَيْدُ إنَّ اللهَ صَدَّقَكَ].

وَكَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبَيٍّ بقُرْب الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا أرَادَ أنْ يَدْخُلَهَا جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُاللهِ حَتَّى أنَاخَ عَلَى مَجَامِعِ طُرُق الْمَدِينَةِ وَمَنَعَ أبَاهُ أنْ يَدْخُلَهَا، فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ ؟ قَالَ: وَيْلَكَ! وَاللهِ لاَ تَدْخُلُهَا أبَداً إلاَّ أنْ يَأذنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلِتَعْلَمَنَّ الْيَوْمَ مَنِ الأعَزُّ وَمَنِ الأذَلُّ.

فَشَكَا عَبْدُاللهِ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ مَا مَنَعَ ابْنُهُ، فَأرْسَلَ إلَيْهِ النَّبيُّ ﷺ: [أنْ دَعْهُ يَدْخُلُ] فَقَالَ: أمَّا إذا جَاءَ أمْرُ رَسُول اللهِ ﷺ فَنَعَمْ. فَلَبثَ بَعْدَ أنْ دَخَلَ أيَّاماً قَلاَئِلَ ثُمَّ مَرِضَ وَمَاتَ.

---

(١) أخرجه هذه الروايات الطبري في جامع البيان: (٢٦٤٦٣-٢٦٤٨٢). وذكره ابن هشام في السيرة النبوية: غزوة بني المصطلق: ج ٣ ص٣٠٢-٣٠٤.

(٢) في السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٣٠٤؛ قال: (يا نبيَّ الله، واللهِ لقد رُحْتَ في ساعة مُنكَرةٍ، ما كُنت تروحُ في مِثلها؛ فقال له رسول الله ﷺ...).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٣٠٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أي هو الرزَّاقُ لهؤلاءِ المهاجرين لاَ هُوَ؛ لأنَّ خزائنَ السَّموات والأرضِ المطرَ والنباتَ، وهما للهِ فلا يقدرُ أحدٌ أن يُعطِي شيئاً إلاَّ بإذنهِ ولا يمنعهُ شيئاً وبمشيئتهِ (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ) إنما أمرهُ إذا أرادَ شيئاً أنْ يقول له كُنْ فيكونُ.

وقال الجنيدُ: (خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ الْغَيْبُ، وَخَزَائِنُ الأَرْضِ الْقُلُوبُ، وَهُوَ عَلاَّمُ الْغُيُوب مُقَلِّبُ الْقُلُوب). وقال رجلٌ لحاتم الأصَمّ: (من أين تأكل؟ فقال: ﴿وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ) يعني مِن هذه الغَزوَةِ وهي غزوةُ بني الْمُصْطَلِقِ حيٌّ من هُذيلٍ، (لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذلَّ) قد ذكرنا قائلَ هذه المقالة وهو عبدُالله بن أُبَي.

قِيْلَ: إنَّ إبنَهُ عبدُالله قَالَ لَهُ: أنْتَ وَاللهِ الأَذلُّ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ الأَعَزُّ[2]. وكان عبدُالله بن أُبَي يعني بالأعزِّ نفسَهُ، فردَّ اللهُ عليه فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ فعزَّةُ الله تعالى بقَهرهِ لخلقهِ، ولرَسُولهِ بإظهار دينهِ على الأديان كلِّها، وعزَّةُ المؤمنين نصرهُ إيَّاهم على أعدائِهم فهم ظَاهِرُونَ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾؛ ولو عَلِمُوا ما قالوا هذه المقالةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي لا تَشغَلكُم أموالُكم ولا أولادكم ذكرَ عنالله، يعني الصَّلاةَ المفروضةَ، والمعنى: لا تشغَلكُم كثرةُ أموالكم وحفظُها وتنميتها، ولا تربيةُ الأولادِ وإصلاحُ حالهم عن طاعةِ الله وعن الصَّلاة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي ومَن ينشغِلْ بالمالِ والأولاد عن طاعةِ الله فأُولئك هم الْمَغْبُونُونَ لذهاب الدُّنيا والآخرة عنهم، وهلاكِ أنفُسهم التي هي رأسُ مالهم.

(١) ذكرهما القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٢٨.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٧٧-١٧٨؛ قال السيوطي: (أخرجه الطبري عن أسامة بن زيد ﷺ) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ ؛ معناهُ: وانفِقُوا الأموالَ في الزَّكاة والجهادِ وغيرهما من الحقوق الواجبة من قبلِ أن يأتِيَ أحدَكم الموتُ فيعلم أنه ميِّت، ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ ﴾ ، في الدُّنيا؛ أي يتمَنَّى القليلَ من التأخيرِ ليتصَدَّق به ويكون من الصَّالِحين بالتلافِي والتوبةِ واستئناف العملِ الصالح، ولا ينفعهُ تَمَنِّيهِ عند ذلك، والمعنى: إنه يستزيدُ في أجَلهِ حتى يتصدَّقَ ويُزَكِّي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ معناه وأحجُّ، عن ابن عبَّاس. وقوله: (وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) على قراءةِ مَن جزمَ عطفَهُ على موضعِ (فَأَصَّدَّقَ) لأنه على معنى إنْ أخرَجتَنِي أصَّدَّقْ وأكُنْ، ولولا الفاءُ لكان فأصَّدَّقْ مجزومٌ، ومن قرأ (وَأَكُونُ) فهو عطفٌ على لفظ (فَأَصَّدَّقَ). وانتصبَ قوله تعالى (فَأَصَّدَّقَ) لأنه جوابُ التَّمنِّي، فالفاءُ وأصله: فَأَتَصَدَّقَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ ؛ أي لا يُؤخِّرها عن الموتِ إذا جاء وقتُ إهلاكها، ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ من الخيرِ والشرِّ، وبمن أخَّرَ في أجله أنه يتوبُ أو لا يتوبُ.

آخر تفسير سورة (المنافقون) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

سُورَةُ التَّغَابُنِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْـفٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَمِائَتَـانِ وَوَاحِـدٌ وَأَرْبَعُـونَ كَلِمَةً، وَثَمَانِي عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ التَّغَـابُنِ رَفَـعَ اللهُ عَنْـهُ مَوْتَ الْفُجَاءَةِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ قـد تقـدَّمَ تفسـيرُهُ. وقوله: ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ ؛ أي له الْمُلْكُ الدائمُ الذي لا يزولُ، وله الحمـدُ في السَّـمواتِ والأرض، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ مـن أمـور الدُّنيـا والآخـرةِ، ﴿ قَدِيرٌ ۝١ ﴾ . قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ ؛ أي صوَّرَكم في أرحامِ الأُمَّهات، فجعلَ صُورَكم أحسنَ من صُـور سـائر الحيوانـات، ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ ﴾ ؛ في الآخرةِ، وباقي الآيتـين، ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤ ﴾ ، ظاهرُ المعنى.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾ ؛ أي ألَمْ يأتِكُم خبرُ الذين كفرُوا من قبلِكـم مـن الأُمـم الخاليـةِ كيف أذاقَهم اللهُ عقوبةَ تكذيبهم في الدُّنيا ولَهم في الآخرةِ عذابٌ. جميعُ، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ العـذاب، ﴿ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي بـالمعجـزات، ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ ، فقالوا آدَمِيٌّ مِثْلُنـا يَدعُونـا إلى خـلافِ ديـنِ آبائنـا، ﴿ فَكَفَرُواْ ﴾ ؛

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٢٥.

بالكتُب والرُّسل وأعرَضُوا عن القبول منهم، ﴿ وَتَوَلَّوا وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ﴾ ؛ عن إيمانِهم وطاعتهم، ﴿ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ ﴾ ؛ عن أفعالِ العباد، ﴿ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ في إنعامهِ عليهم.

ومعنى قولهِ (وَبَالَ أمْرِهِمْ) أصلُ الْوَبَالِ مِنَ الثُّقْلِ، يقالُ: أمرٌ وَبيلٌ؛ أي ثقيلٌ، يسمى جزاءُ المعصية وَبَالاً لِثِقَلِهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن لَّن يُبْعَثُوا ﴾ ؛ أي قال كفارُ مكَّة قولاً بالظنِّ غير يقينِ أنَّهم لا يُبعَثون بعد الموتِ، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَهم يا مُحمَّدُ: ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ ؛ بعدَ الموتِ، ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ ؛ في الدُّنيا ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ ؛ الجزاءُ والبعثُ، ﴿ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي سهلٌ هيِّن، ﴿ فَـَٔامِنُوا ﴾ ؛ يا أهلَ مكَّة، ﴿ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ مُحمَّدٍ ﷺ، ﴿ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ ؛ يعني القرآنَ، ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾ ؛ يعني يومَ القيامةِ يُجمَعُ فيه الأوَّلون والآخِرون، ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ ؛ يَغْبنُ فيه أهلُ الحقِّ أهلَ الباطلِ، وأهلُ الإيمانِ أهلَ الكفرِ، فلا غُبْنَ أبْيَنُ منه، هؤلاءِ يدخُلون الجنةَ وهؤلاء يدخُلون النارَ. والغُبْنُ: فَوْتُ الحظِّ والمرادِ.

وعن رسول الله ﷺ قال: [مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلاَّ وَقَدْ رَأى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار لَوْ أسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْراً. وَمَا مِنْ عَبْدٍ كَافِرٍ يَدْخُلُ النَّارَ إلاَّ وَقَدْ رَأى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أحْسَنَ لِيَزْدَادَ حَسْرَةً][1].

فالْمَغْبُونُ من غُبنَ أهلَهُ ومنازلَهُ من الجنَّةِ، ويظهرُ يومئذ غُبْنُ كلِّ كافرٍ بتركِ الإيمان، وغُبْنُ كلِّ كافرٍ بتقصيرهِ في الأحسن وتضييعهِ الأيام. ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَآ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾ .

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولعله من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ في العبد إذا وضع في قبره. أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: الحديث (١٣٣٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما أصابَ أحداً في البدنِ والأهلِ والمالِ إلاّ بعلمِ اللهِ وقضائه، ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أي مَن يصدِّقْ بأنَّ المصيبةَ من اللهِ، ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ ، للرِّضا والصبرِ، ويقالُ: يُوَفِّقْهُ للاسترجاعِ.

وقرأ السُّلميُّ: (يُهْدَ قَلْبُهُ) عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وقرأ طلحةُ بن مصرِّف بالهمزِ والرفعِ في قوله (يَـهْدَئ قَلْبُـهُ) علـى معنـى يُسْكِنُ قلبَـهُ. ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
(١١) وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ
(١٢) ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الرجُلَ كـان لا يستطيعُ أن يـهاجرَ مـع أزواجـهِ وأولاده، وكان إذا أرادَ أن يُهاجر بنفسهِ تعلَّقت به امرأتهُ وأولاده وقالوا لـه: إلى مَـن تدَعُنا ؟ نُنشِدُكَ اللهَ أن تجلِسَ وتدعَ الهجرةَ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ بالمدينةِ، ينـهَاهُم عـن ذلك ويحذِّرُهم طاعةَ الأزواجِ والأولادِ في معصية الله، وذلك قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (إنَّ مِـنْ أزْوَاجِكُمْ وَأوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ).

ودخول (مِنْ) هنا يدلُّ على أنه ليس جميعُ الأزواجِ والأولاد عدُوّاً، وإنما منـهم من يحبُّ هلاكَكُم ليرثَ مالَكم، وأيُّ عدُوٍّ أعدَى ممن يحبُّ موتَكَ لمنفعةِ نفسه، ومنهم من يحملُوكم على أنْ تَعصُوا اللهَ بأخذِ غيرِ الواجـب، ويمنعُ الواجبَ لمنفعـةٍ ترجعُ إليهم، ومعنى قولهِ تعالى (فَاحْذَرُوهُمْ) أي فاحذرُوا أن تُطيعُوهم وتدَعُوا الهجرةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) ﴾ وذلك أنَّ الرجُلَ كان إذا أرادَ الجهادَ والهجرة عرضَ على امرأتهِ وقَرائِبه إذا أبَوا عليـه أقسَمَ أنْ لا يُنفِقَ عليهم، فإذا عادَ كفَّ عـن النفقـةِ ليَمِينـهِ، فقيـل لَـهم: (وَإنْ تَعْفُـوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا) أي وإنْ تَعفُوا عنـهم بتُجـاوزُوا عـن صَدِّهـم إيـاكم، وتَغفِـرُوا ذُنوبَهم بعدَ ما رجَعتُم وبعدَ ما اجتَمَعتُم في دار الهجرة، ولم تُكـافِؤُوهم عـن سـوءِ مـا فَعلوهُ، (فَإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يغفرُ لَكم كذلكَ كثيراً من ذُنوبكم.

وَقِيْلَ: معنى الآية: إنَّ الرجل من هؤلاءِ إذا رأى الناسَ قد سـبَقوهُ إلى الهجـرةِ وتفقَّهوا في الدِّين همَّ أن يُعاقِبَ زوجتَهُ وأولادَهُ الذين يُبطِئونَهُ عن الهجرةِ، وإنْ لَحِقُوا

به في الهجرةِ لم يُنفِقْ عليهم، فأنزلَ اللهُ تعالى (وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ؛ أي بلاءٌ وشُغْلٌ عن الآخرةِ، والإنسانُ بسبب المال والولدِ يقعُ في العظائمِ ويتناولُ الحرامَ إلاَّ مَن عصمَهُ اللهُ، ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ إنْ لم يشغَلْهُ مالهُ وولدهُ عن طاعةِ اللهِ.

وعن بُرَيدَةَ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ فَجَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَعَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثِرَانِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْمِنْبَرِ، فَحَمَلَهُمَا فَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: [صَدَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (إنَّمَا أمْوَالُكُمْ وَأوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ) نَظَرْتُ إلَى هَذيْنِ الصَّبيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثرَانِ، فَلَمْ أصْبرْ عَنْهُمَا حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا] ثُمَّ أخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا اللهَ جُهدَكم وقَدِّروا سَعيَكم باجتناب محارمهِ وأداء فرائضهِ وجميع طاعاته، ﴿ وَٱسْمَعُواْ ﴾ ؛ ما تُؤمَرون به، ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ ؛ أمرَ رسولهِ، ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ ؛ مِن أموالِكم في طاعةِ اللهِ يكن ذلك، ﴿ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ لأنَّ نفعَ الآخرةِ أعظمُ، ويقالُ: الخيرُ ها هنا المالُ، كأنَّهُ قال: أنفِقُوا مَالاً من أموالِكم، وهذه الآية نسَخَتْ قولَهُ تعالى ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[2].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي من يدفَعْ عنه بُخْلَ نفسهِ فأولئك هم الْمُزَكُّونَ لطلبتهم. والشُّحُّ الذي في اللغة: منعُ الواجب، ومن الشُّحِّ أن يعمدَ الرجلُ إلى مالِ غيره فيأكلهُ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ج ٦ ص٣٨٢: الحديث (٣٥٧٩). والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٥٤. وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب قطع الخطبة للأمر يحدث: الحديث (١١٠٩). وابن ماجة في السنن: كتاب اللباس: باب لبس الأحمر: الحديث (٣٦٠٠). وابن حبان في الإحسان: كتاب الفرائض: باب ذوي الأرحام: الحديث (٦٠٣٨). وقال الشيخ شعيب: (إسناده حسن: مؤمل بن إهاب: روى له أبو داود والنسائي وهو حسن الحديث وقد توبع عليه: ومن فوقه من رجال الصحيح).

(٢) آل عمران / ١٠٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ تُعطوا في الصَّدقة مالاً عن حُسبَةٍ صادقةٍ من قُلوبكم، يَقْبَلْهُ منكم ويُضاعِفْهُ لكم ويغفِرْ لكم ذُنوبَكم، ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ ﴾ ؛ يقبَلُ اليسيرَ ويُعطِي الجزيلَ من الثواب، ﴿ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ لا يعجِّلُ بالعقوبةِ على من بَخِلَ بالصَّدقة، واستحقَّ العقوبةَ على ذنوبهِ، ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ ؛ أي يعلمُ ما تُكِنُّهُ صدورُكم مما لا تعلمهُ الْحَفَظَةُ، ويعلمُ كلَّ ما ظهرَ مما سقطَ من ورقةٍ، وما قَطَرَ من قطرِ المطرِ، وهو، ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ ؛ في مُلكه وسلطانه، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ في أمرِهِ وقضائه.

تم تفسير سورة (**التغابن**) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الطَّلاَقِ

سُورَةُ الطَّلاَق مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَسِتُّونَ حَرْفاً، وَمِائَتَان وَتِسْعٌ وَأرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَاثْنَتا عَشَرَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الطَّلاَقِ مَاتَ فِي سُنَّةِ رَسُول اللهِ ﷺ].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والمؤمنون داخِلُون فيهِ؛ لأن خطابَ الرئيسِ خطابٌ للأتباعِ، خُصوصاً إذا كانوا مأمُورين بالاقتداءِ به، والمعنى: يا أيُّها النبيُّ إذا أردتَ أنتَ وأمَّتُكَ الطلاقَ، فطلِّقوا النساءَ لعِدَّتِهنَّ، وهذا كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾[1] أي أرَدتُم القيامَ.

والطلاقُ للعدَّةِ هو أن يطلِّقَها في طُهرٍ لم يَمسَّها فيه، لما رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ حِينَ سُئِلَ عَنِ الطَّلاَقِ: [طَلِّقْهَا طَاهِراً مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ، أوْ حَامِلاً قَدِ اسْتَبَانَ حَمْلُهَا][2]. ويقالُ في معنى الطَّلاق للعدَّة: أن يُفرِّقَ الطلاقَ الثلاثَ على أطْهَار العدَّةِ، فيطلِّقُها في كلِّ طُهرٍ لم يمسَّها فيه تطليقةً.

والطلاق السُّني: أن يُطلِّقَها في طُهرٍ لم يُجامِعها فيه، فقد رُوي:(أنَّ عَبْدَاللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا طَلَّقَ امْرَأتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يُرَاجِعْهَا ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ وَتَحِيضَ عِنْدَهُ حَيْضَةً أخْرَى، ثُمَّ تَطْهُرَ مِنْ حَيْضَتِهَا، فَإذا أرَادَ أنْ

---

(١) المائدة / ٦ .

(٢) عن ابن مسعود قال: (من أراد أن يطلِّق للسُّنة كما أمره الله فليطلقها طاهراً في غير جماع). عزاه السيوطي في الدر المنثور: ج ٨ ص١٩٠ إلى عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني والبيهقي وابن مردويه. وعن ابن عباس أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٥١٢).

يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا حِينَ تَطْهُرُ قَبْلَ أنْ يُجَامِعْهَا)[١] فتلكَ العدَّةُ التي أمرَ اللهُ أن تطلَّقَ لها النساءُ.

والطلاقُ البْدِعيُّ: أن يقعَ في حال الحيض، أو في طُهرٍ قد جامَعها فيه، وهو واقعٌ وصاحبهُ آثِمٌ، وروي: أنَّ ابْنَ عُمَرَ طَلَّقَ امْرَأتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَذكَرَ عُمَرُ ذلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: [مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، فَإذا طَهُرَتْ فَلْيُطَلِّقْهَا إنْ شَاءَ] قُلْتُ: وَيَحْتَسِبُ لَهَا؟ قَالَ: [فَمَهْ؟][٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ ؛ إنما أمرَ بإحصاءِ العدَّة لتوزيعِ الطَّلاق على الأطهار، والمعنى بذلكَ: أحصُوا عدَّةَ المطلَّقات لِمَا تُريدون من رجعةٍ أو تسريح، فإذا حاضَتِ المعتدَّةُ حيضةً وطَهُرت، فأرادَ الزوجُ أن يطلِّقَها ثانيةً قبلَ أن تحيضَ، فإذا حاضَتْ وطَهُرت طلَّقها أخرى إنْ شاءَ، فتَبينُ الثلاثُ وقد بقي من عدَّتِها حيضةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ ؛ أي اتَّقوهُ في النِّساء إذا طلَّقتمُوهن واحدةً أو اثنتين أو ثلاثاً، ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ ﴾ ؛ التي طلَّقتُموهن فيها، وهي بيوتُ أزواجِهن، والمعنى: اتَّقُوا اللهَ فلا تَعْصُوهُ فيما أمَرَكم به، فلا يجوزُ للزوجِ أن يُخرجَ المطلَّقة المعتدَّة من مَسْكَنِهِ الذي كان يُساكنها فيه قبلَ الطَّلاق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ ؛ أي ولا يَخرُجْنَ من قِبَلِ أنفسِهن حتى تنقضي عدَّتُهن، ولهذا لا يباحُ لها السفرُ في العدَّة، ولا يباحُ لها التزوُّج وإنْ أذِنَ لها الزوجُ. وأما المنكُوحة فيجوزُ لها الخروج من المنْزِل بإذنِ الزوج.

قوله تعالى (إلاَّ أنْ يَأْتِينَ بفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) أي لا يَخرُجن إلاَّ أن يكون خروجُهن معصيةً، وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: إلاَّ أنْ يَزْنِينَ فَيَظْهَرُ ذلِكَ الزِّنَا عَلَيْهَا بشَهَادَةِ أرْبَعَةٍ مِنَ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٨٩؛ قال السيوطي: (أخرجه مالك والشافعي وعبدالرزاق في المصنف وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٥٢٧).

(٢) ينظر ما قبله. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٥٢٧) الاسناد الثالث.

الشُّهُودِ، فَيَخْرُجْنَ لإقَامَةِ الْحُدُودِ). وقال ابنُ عباس: (إلاَّ أنْ يُطِلْنَ بألْسِنَتِهِنَّ عَلَى أهْلِ الْمَنْزِل بإيْذائِهِنَّ)[1]. كما رُوي: أنَّ فَاطِمَةَ بنْتَ قَيْسٍ، طَلَّقَهَا زَوْجُهَا أبُو عَمْرو ابْنِ حَفْصِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وَكَانَتْ تَسْتَطِيلُ عَلَى حَمَاتِهَا بلِسَانِهَا، فَنَقَلَهَا النَّبيُّ ﷺ إلَى بَيْتِ ابْنِ امِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَ ضَرِيراً تَعْتَدُّ فِيهِ).

وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [تَزَوَّجُوا وَلاَ تُطَلِّقُوا، فَإنَّ الطَّلاَقَ يَهْتَزُّ مِنْهُ الْعَرْشُ!!][2]، وَقَالَ عليه السلام: [أيَّمَا امْرَأةٍ سَألَتْ زَوْجَهَا الطَّلاَقَ مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ!!][3]. وقالَ ﷺ: [لاَ تُطَلِّقُوا النِّسَاءَ إلاَّ مِنْ ريبَةٍ، فَإنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لاَ يُحِبُّ الذوَّاقِينَ وَالذوَّاقَاتِ!][4]، وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ: قال ﷺ: [مَا حَلَفَ بالطَّلاَقِ وَلاَ اسْتَحْلَفَ بهِ إلاَّ مُنَافِقٌ][5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي هذه أحكامُ اللهِ وفرائضهُ في الطَّلاق في السُّنة والعدَّة، فلا تُجاوزوها إلى ما نُهي عنهُ، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ بالمخالفةِ، ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ ؛ أي فقد أضرَّ نفسَهُ، ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي طلِّقُوهن كما أمِرتم، لا تدري أيُّها المخاطَب لعلَّ اللهَ يُحدِثُ بعدَ ذلك أمراً، فيوقِعُ في قلب الزَّوج المحبَّةَ، فيندَمُ في طلاقِها ويريدُ رجعَتها فلا يقدرُ على ذلك، ولا ينفعهُ الندم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٥٤٢).

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: ج ١٢ ص١٨٧. وابن عدي في الكامل: ج ٦ ص١٩٦ وفيه عمرو بن جميع ليس بثقة ولا مأمون.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٧٧. والترمذي في الجامع: أبواب الطلاق: باب ما جاء في المختلعات: الحديث (١١٨٧)، وقال: حسن. وله طريق أخرى بإسناد ضعيف أخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٤ ص٣١، فيه الربيع بن بدر وهو ضعيف.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٨: الحديث (٧٨٤٢) وإسناده صحيح ليس فيه (عمران القطان) مع وثاقته. وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٣٣٥؛ قال الهيثمي: (رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط، وأحد أسانيد البزار فيه عمران القطان وثقه أحمد وابن حبان، وضعفه يحيى بن سعيد وغيره. وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٤٩.

(٥) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٤٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ معناهُ: إذا قَارَبْنَ انقضاءَ عدَّتِهن فراجِعُوهن بحُسْنِ الصُّحبة قبلَ أن يَغتسِلْنَ من الحيضةِ الثالثة، أو يترُكوا مراجعتَهن بإيفاءِ المهر ونفقة العدَّة حتى تنقضِي عدَّتُهن، ولا يجوزُ أن يكون المرادُ بهذه الآية حقيقةُ بلوغِ الأجلِ لأنه لا رجعةَ بعد بلُوغِ الأجلِ الذي هو انقضاءُ العدَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ ؛ أي أشهدُوا على الطَّلقة والرجعةِ ذوَى عدلٍ منكم من المسلمين، وهذا أمرُ استحبابٍ احتياطاً من التجاحُدِ، كي لا يجحدَ الزوجُ الطلاقَ، ولا تجحدُ المرأةُ بعد مُضِيِّ العدَّة الرجعةَ. ثم قال للشُّهود: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ ؛ أي ذلك الذي ذُكِرَ لكم من الأمر والنهي والطَّلاق والرجعةِ وإقامةِ الشَّهادة، يوعَظُ به مَن كان يؤمنُ باللهِ، ويصدِّقُ بالبعثِ بعدَ الموتِ؛ لأنَّهم هُمُ الذين ينتفعون بالوعظِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي ومن يتَّقِ اللهَ بامتثالِ أوامره واجتناب نواهيه يجعَلْ له مَخرجاً من المعصيةِ إلى الطاعةِ، ويقالُ: من الحرامِ والشُّبهات إلى الحلال. وَقِيْلَ: يجعَلْ له مَخرجاً من شُبهات الدنيا ومن غمرات الموت، ومن شدائدِ يوم القيامة، ﴿ وَيَرْزُقْهُ ﴾ ؛ في الآخرةِ من نعيم الجنَّة، ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ؛ ويقالُ: يرزقه في الدنيا من حيث لا يأمَلُ، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [مَنْ أكْثَرَ مِنَ الاسْتِغْفَار جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ ؛ أي من يُفَوِّضْ أمورَهُ إلى اللهِ عالِماً واثقاً بحُسن تقديرِهِ وتدبيره فهو كَافِيه، لا يحتاجُ إلى غيرِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ ؛ أي مُنَفِّذٌ أمرهِ ممضي إرادتهِ، لا يُمنَعُ عمَّا يريدُ، ﴿ قَدْ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٠ ص٢٨٢: الحديث (١٠٦٦٥) بلفظ: [مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ]. وفي المعجم الأوسط: الحديث (٦٢٨٧). والحاكم في المستدرك: كتاب التوبة والإنابة:: الحديث (٧٧٥١) وصححه. وقال الذهبي: الحكم فيه جهالة.

جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ من أحكامه مِقداراً وأجَلاً معلوماً فلا عذر للعبد في تقصيرٍ يقعُ منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ ؛ وذلك أنَّهُ لَمَّا أنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عِدَّةَ الْمُطَلَّقَاتِ وَالْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، قَالَ أبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ نَاساً يَقُولُونَ: قَدْ بَقِيَ مِنَ النِّسَاءِ مَا لَمْ يُذْكَرْ فِيْهِ شَيْءٌ ؟ قَالَ: [وَمَنْ هُمْ ؟] قَالَ: الصِّغَارُ وَالْكِبَارُ وَذوَاتُ الْحَمْلِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ[1]: (وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ) لكبرهِنَّ (إنِ ارْتَبْتُمْ) أي إن شككتُم في عدَّتِهن، (فعدَّتُهن) إذا طُلِّقنَ بعدَ الدُّخول (ثلاثَةُ أشْهرٍ).

وقولهُ تعالى: (وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ) معناهُ: واللاَّئي في حال الصِّغَر هنَّ بمنْزلة الكبيرةِ التي قد يَئِست، عدَّتُهن ثلاثةُ أشهر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ؛ معناهُ: وذواتُ الأحمال عدَّتُهن تنقضِي بوضعِ ما في بُطونهن من الحملِ، مطلقةً كانت الحاملُ أو مُتوفًّى عنها زوجُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي من يَخْشَ اللهَ ويَمتَثِلْ أوامرَهُ ويجتنِبْ نواهيَهُ يُيَسِّرْ عليه أمرَهُ ويُوفِّقه للعبادةِ، ويسهِّلُ عليه أمرَ الدنيا والآخرة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي ذلك الحكمُ الذي قد سبقَ حكمُ اللهِ في الطَّلاق والعدَّة والرجعةِ أنزَلَهُ إليكم، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ بطاعتهِ وترك معصيتهِ، ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾ ، أي يَسْتُرْ ذُنوبَهُ عنه ويدفعُ عنه عقابَها ويُعطيه على ذلك ثواباً حَسناً في الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ أي أسكِنُوا المطلَّقات حيث سَكنتُم من البيوتِ التي تَجِدُونَ أن تُسكِنُوهنَّ فيها على قدر سِعَتِكُمْ وطاقتِكم، فإنْ كان مُوسِراً أوسعَ عليها في المسكنِ والنفقة، وإنْ كان فقيراً فعلى قدر ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ ﴾ ؛ أي لا تُضَارُّوهنَّ في المسكنِ ولا في أمرِ النفقة،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٥٨٢).

﴿ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ ؛ يعني أعطوهُنَّ في المسكنِ ما يكفيهنَّ لجلوسهن وطهارتِهن، ومن النفقةِ ما يكون كَفَافاً لهن بالمعروفِ، وهذا عامٌّ في الْمَبْتُوتَةِ والرجعيَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ؛ يعني تجبُ نفقة الحاملِ إلى أن تضعَ، سواءً طالت مدَّة الحملِ أم قصُرت، لأن عدَّتها تنقضِي بوضعهِ، فلها النفقةُ إلى أن تضعَ حَملها. ولا نفقةَ للمتوفَّى عنها زوجُها لأنَّ قولَهُ تعالى (أَسْكِنُوهُنَّ) وقولَهُ تعالى (فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ) خطابٌ للأزواجِ وقد زالَ عنهم الخطابُ بالموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ ؛ يعني بعدَ وضعِ الحملِ إذا أرضعنَ لكم أولادَكم فأعطُوهنَّ أجرةَ الرَّضاعِ، وهذا دليلٌ بأن الأُمَّ أولى بإرضاعِ الولدِ بأجرة المثلِ، وأولى بالحضانةِ من كلِّ أحدٍ، وفيه دليلٌ أنَّ الأُجرة لا تُستحَقُّ بالعقدِ، وإنما تستحَقُّ بالفراغِ من العملِ؛ لأنَّ الله تعالى أوجبَها بعدَ الرضاعِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ ؛ أمرَ الرجلَ و المرأة أن يأتَمروا في الولدِ بالمعروفِ، وهو أن يُنفق الرجلُ بنفقةِ الرَّضاع من غيرِ تَقتيرٍ ولا إسرَافٍ، أو تقومَ المرأةُ على ولدها في إرضاعهِ وتتعهَّدهُ من غير تقصيرٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وإن تضايَقتم وتمانعتم فأبَتِ الأُم أنْ تُرضِعَ الولدَ، أو طَلبت على ذلك أكثرَ من أجرة المثلِ، وأبَى الأبُ أن يعطِيَها ما طَلبت، فلْيَطْلُب الأبُ للولدِ مرضعةً غيرَ الأُم، إلاَّ أنه يجب أن يكون في بيتِ الأُم لأَنَّ الأُمَّ أحقُّ بإمساكِ الولد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ؛ أي لِيُنفق غَنِيٌّ على نسائهِ وأولادهِ على قدر غناهُ، ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ معناهُ: ومن ضُيِّقَ عليه رزقهُ فليُنفِقْ مما أعطاهُ الله من المالِ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ ؛ من الرِّزقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ ؛ فيه تسليةٌ للصحابةِ، فإن أكثرَهم كانوا فُقراء، فوعَدَهم اللهُ اليُسْرَ بعدَ العُسْر، ففتحَ اللهُ عليهم بعدَ ذلك وجعلَ يُسراً بعد عُسرٍ. ويستدلُّ من هذه الآيةِ على أنَّ الواصِي يأمرُ المرأةَ أن تَستَدِينَ

على زوجِها المعسرِ مقدارَ ما تستحقُّ عليه من النفقةِ، لأن الْمُعسِرَ يُرجَى له اليُسْرُ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ ؛ أي وكم من أهلِ بَلدَةٍ عَتَوا عن أمرِ ربهم ورُسلهِ؛ أي جاوَزُوا الحدَّ في المعصيةِ، ﴿ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾ ؛ فجازَيناهم في الآخرةِ جَزاءً شديداً على كلِّ صغيرةٍ وكبيرة، ﴿ وَعَذَّبْنَٰهَا ﴾ ، وعذبنَاهُم في الدنيا، ﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي عَذاباً خارجاً عن العادةِ لم يَعهَدُوا مثلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ ؛ أي فذاقُوا جزاءَ كُفرهم، ﴿ وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي هلاكَ النُّفوس وهي رأسُ أموالهم، ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ؛ يعني الذي نزلَ بهم في الدُّنيا، ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ؛ أي يا أولِي العقُول لا تَسِيرُوا بسَيرهم فينْزِلُ بكم ما نزلَ بهم.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا ﴾ (الذين آمَنُوا) نعتُ أولِي الألباب، وقولهُ تعالى (قَدْ أنزَلَ الله إلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً) أي أنزلَ إليكم كِتَاباً آتاهُ رسُولاً ليؤدِّيَهُ إليكم. وَقِيْلَ: معناهُ: قد أنزلَ الله إليكم قُرآناً وأرسلَ رَسُولاً، ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ ؛ يعني الرسولَ، ﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ ﴾ . وقولهُ تعالى: ﴿ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾ يعني الجنَّةَ التي لا ينقطعُ نَعيمُها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ ؛ أي سبعَ أرضِين أيضاً، وليس في القرآن آية تدلُّ على أن الأرضِين سبعٌ غيرُ هذهِ. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ ؛ أي تنْزِلُ الملائكةُ بالتدبيرِ من اللهِ تعالى، ومن سماءٍ إلى سماءٍ، ومن السَّماء الى الأرضِ بحياةِ بعضٍ وموت بعض، وغِنَى بعضٍ وفَقْر بعض، وسلامةِ هذا وهلاكِ هذا، ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ فلا يخفَى عليه شيءٌ.

آخر تفسير سورة (الطـلاق) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

سُورَةُ التَّحْرِيمِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَسُتُّونَ حَرْفاً، وَمِائَتَان وَأرْبَعُون كَلِمَةً، وَاثْنَتا عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطَاهُ اللهُ تَوْبَةً نَصُوحاً][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَسَّمَ الأَيَّامَ بَيْنَ نِسَائِهِ وكَانَ لَهُ تِسعُ نِسْوَةٍ، وكَانَ لِكُلِّ امْرَأةٍ مِنْهُنَّ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، ثُمَّ إنَّ حَفْصَةَ زَارتْ أبَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ ذلِكَ الْيَوْمُ لِعَائِشَةَ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ ذلِكَ الْيَوْمَ بَيْتَ حَفْصَةَ فَوَجَدَ فِيْهِ جَارِيَتَهُ مَارِيَّةَ فَأَخْلاَ بهَا، فَلَمَّا رَجَعَتْ حَفْصَةُ إلَى مَنْزِلِهَا، وَقَفَتْ حَفْصَةُ عَلَى ذلِكَ الْبَابِ فَلَمْ تَدْخُلْ حَتَّى خَرَجَتْ مَارِيَّةُ، ثُمَّ دَخَلَتْ فَقَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إنِّي قَدْ رَأيْتُ مَنْ كَانَ مَعَكَ فِي الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَأى النَّبِيُّ ﷺ الْغَيْرَةَ وَالْكَآبَةَ فِي وَجْهِهَا قَالَ: [اكْتُمِي عَلَيَّ، وَلاَ تُخْبري عَائِشَةَ بذلِكَ] ثُمَّ قَالَ: [هِيَ عَلَيَّ حَرَامٌ] يَعْنِي مَارِيَّةَ، فَأَخْبَرَتْ حَفْصَةُ عَائِشَةَ وَكَانَتَا مُتَصَافِيَتَيْنِ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَأخْبَرَ النَّبِيَّ بذلِكَ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ حَفْصَةَ وَقَالَ لَهَا: [مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى ذلِكَ؟] قَالَتْ: وَمَنِ الَّذِي أخْبَرَكَ؟ قَالَ:[أخْبَرَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ].

فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حَفْصَةَ فَطَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً وَاعْتَزَلَ نِسَاءَهُ كُلَّهُنَّ، فَمَكَثَ سَبْعاً وَعِشْرِينَ لَيْلَةً يَنْتَظِرُ مَا يَنْزِلُ فِيهِنَّ، فَأَنْزَلَ اللهُ هذهِ الآياتِ. ومعناها: يا أيُّها النبيُّ لِمَ تحرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لكَ، ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ ، طالباً رضَى أزواجِكَ،

---

(١) تقدم وسيأتي، وهو حديثٌ موضوع باطل. أخرجه الثعلبي أيضاً في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٤٣.

﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ ؛ لِمَا كان منكَ من التحريم، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ ؛ بكَ حيث رخَّصَ لك الخروجَ منه بالكفَّارة، فأعتقَ رسولُ الله ﷺ رقبةً وعادَ إلى ماريَّة(1).

ورُوي: أنَّ حَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا اسْتَأْذَنَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي زِيَارَةِ أبيهَا فِي يَوْمِهَا، فَأَذِنَ لَهَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَيْتِهَا، فَمَضَتْ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إلَى جَارِيَتِهِ مَارِيَّةَ الْقِبْطِيَّةَ فَأَدْخَلَهَا فِي حِضْنِهِ، وَكَانَ ذلِكَ فِي يَوْمِ حَفْصَةَ، فَلَمَّا رَجَعَتْ حَفْصَةُ وَجَدَتْ بَابَ بَيْتِهَا مُغْلَقاً، فَجَلَسَتْ عَلَى الْبَاب حَتَّى خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَوَجْهُهُ يَقْطُرُ عَرَقاً وَحَفْصَةُ تَبْكِي، فَقَالَ لَهَا: [مَا يُبْكِيكِ ؟] قَالَتْ: إنَّمَا أذِنْتَ لِي بالزِّيَارَةِ مِنْ أجْلِ هَذا؛ أدْخَلْتَ أمَتَكَ بَيْتِي وَوَقَعْتَ عَلَيْهَا فِي يَوْمِي وَعَلَى فِرَاشِي؟ مَا رَأيْتَ لِي حُرْمَةً وَحَقّاً، مَا قَطُّ صَنَعْتَ هَذا بامْرَأةٍ مِنْ نِسَائِكَ ؟ فَقَالَ ﷺ: [هِيَ جَارِيَتِي فَلاَ أحَلَّهَا اللهُ، اسْكُتِي هِيَ عَلَيَّ حَرَامٌ، الْتَمِسُ بذلِكَ رضَاكِ، وَلاَ تُخْبري بذلِكَ امْرَأةً مِنْهُنَّ، وَهَذِهِ أمَانَةٌ عِنْدَكِ](2).

ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَامَتْ حَفْصَةُ عَلَى الْجِدَار الَّذِي كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ لَهَا: ألاَ أبَشِّرُكِ يَا عَائِشَةُ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ حَرَّمَ جَاريَتَهُ مَارِيَّةَ، وَقَدْ أرَاحَنَا اللهُ مِنْهَا. وَكَانَتْ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ مُتَصَافِيَتَيْنِ مُتَظَاهِرَتَيْنِ عَلَى سَائِرِ أزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَأَخْبَرَهُ بذلِكَ، فَغَضِبَ عَلَى حَفْصَةَ وَقَالَ: [مَا حَمَلَكِ عَلَى ذلِكَ]، ثُمَّ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إذا دَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ بنْتِ جَحْشٍ شَربَ عِنْدَهَا شَرَابَ عَسَلٍ تُصْلِحُهُ لَهُ، وَكَانَ يَطُولُ مُكْثُهُ عِنْدَهَا، فَاجْتَمَعَتْ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ عَلَى أنْ يَقُولاَ لَهُ: إنَّا نَجِدُ مَعَكَ رَائِحَةَ الْمَغَافِيرِ - وَهُوَ صَمْغٌ مُتَغَيِّرُ الرَّائِحَةِ يَقَعُ عَلَى الطَّرَفِ يَأْكُلُهُ النَّحْلُ - فَلَمَّا صَارَ إلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا قَالَتْ لَهُ: إنِّي أشُمُّ مَعَكَ رَائِحَةَ الْمَغَافِيرِ، فَحَرَّمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفْسِهِ شُرْبَ الْعَسَلِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ

---

(1) ذكره أهل التفسير بروايات عديدة وألفاظ كثيرة، عزاها السيوطي في الدر المنثور: ج ٨ ص٢١٤-٢١٦ إلى ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وعبد بن حميد.

(2) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٦٥٦) عن ابن زيد.

الآيَاتِ[(١)]. والقولُ الأول أظهرُ، ولا يمتنعُ أنَّ الأمرَين قد كانا، وأنَّ هذا نزلَ فيهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ ﴾ ؛ أي وجبَت لكم كفَّارةُ أيمانِكم، ﴿ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ ﴾ ؛ أي مُتولِّ أموركم وهو أولى أن يُؤثِروا مَرضَاتَهُ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ؛ بما فيه صلاحُ خَلقِهِ، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ في تدبيرِ أمرِه. وإنَّما سُميت الكفَّارَةُ تَحِلَّةً؛ لأنَّها تجبُ عند انحلال اليمين، قال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: قَدْ بَيَّنَ اللهُ لَكُمْ كَفَّارَةَ أيْمَانِكُمْ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَأمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أنْ يُكَفِّرَ عَنْ يَمِينِهِ، وَيُرَاجِعَ جَارِيَتَهُ مَارِيَّةَ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ ؛ يعني إسرارَهُ إلى حفصةَ، فلمَّا أخبرت عائشةَ به أطلَعَ اللهُ نَبيَّهُ ﷺ على ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَمَا رَأى الْكَآبَةَ فِي وَجْهِهَا وَالْغَيْرَةَ أسَرَّ إلَيْهَا شَيْئَيْنِ: تَحْرِيمُ الْجَارِيَةِ، وَقَالَ: [أخْبِرُكِ يَا حَفْصَةَ أنَّ أبَاكِ وَأبَا بَكْرٍ سَيَمْلِكَانِ أمَّتِي بَعْدِي] فلمَّا أظهرَهُ اللهُ عليه أخبرَ حفصةَ بما قالت لعائشةَ من تحريمِ الجاريةِ، وأعرضَ عن ذكرِ خلافة أبي بكرٍ وعمرَ[(٣)].

وقرأ الحسنُ البصري والكسائي وقتادة (عَرَفَ بَعْضَهُ) بالتخفيفِ أي غَضِبَ على حفصةَ مِن ذلك وجَازَاها فطلَّقَها، من قولِ القائل لِمَن أساءَ إليه: لأَعْرِفَنَّ لكَ ما فعلتَ؛ أي لأُجازينَّكَ عليه، فجَازَاها رسولُ اللهِ ﷺ بأنْ طلَّقَها، فلما عَلِمَ عمرُ رضي الله عنه بذلك قالَ: لَوْ كَانَ فِي آلِ الْخَطَّابِ خَيْرٌ لَمَا طَلَّقَكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢١٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن سعد وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها) وذكره.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٧٦.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٢ ص٩٢: الحديث (١٢٦٤٠). والدارقطني في السنن: ج ٤ ص١٥٣-١٥٤: الوصايا: الحديث: (١٥). وفي مجمع الزوائد: كتاب الخلافة: باب الخلفاء الأربعة: ج ٥ ص١٧٨؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه إسماعيل بن عمرو البجلي وهو ضعيف وقد وثقه ابن حبان، والضحاك لم يسمع من ابن عباس، وبقية رجاله ثقات).

وَنَزَلَ جِبْرِيلُ إلَى النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ لَهُ: رَاجِعْهَا فَإنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ، وَهِيَ إحْدَى نِسَائِكَ فِي الْجَنَّةِ، فَرَاجَعَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. قال مقاتلُ: (لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَفْصَةَ، وَإنَّمَا هَمَّ بِهِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَقَالَ لَهُ: لاَ تُطَلِّقْهَا فَإنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ وَهِيَ مِنْ نِسَائِكَ فِي الْجَنَّةِ، فَلَمْ يُطَلِّقْهَا)[١]، وكان سفيانُ الثوريُّ يقول: (مَا اسْتَقْصَى كَرِيمٌ قَطُّ، وَمَا زَالَ التَّغَافُلُ مَنْ فِعْلِ الْكِرَامِ، عَرَّفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَفْصَةَ بَعْضَ مَا فَعَلَتْ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ ﴾ ؛ أي لَمَّا أخبرَ حفصةَ بما أظهرَهُ اللهُ عليه، ﴿ قَالَتْ ﴾ ؛ لَهُ: ﴿ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ﴾ ؛ أي من أخبرَكَ أنِّي أفشيتُ سِرَّكَ؟ ﴿ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ تَتُوبَا إلى اللهِ من إظهار الغَيرَةِ وإيذاءِ النبيِّ ﷺ والتعاوُن عليه، ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ؛ أي مَالَتْ إلى الإثْمِ وعدَلَتْ عن الحقِّ، وهو أنَّهما أحبَّتا ما كَرِهَ رسولُ الله ﷺ، ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أي تعَاوَنا عليه بالإيذاءِ وإظهار الغَيرَةِ عليه من الجاريةِ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ ﴾ ؛ يتولَّى حِفْظَهُ ونصرَهُ ودفعَ الأذيَّةِ عنهُ، ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أبو بكرٍ وعُمرُ يتولَّيانهِ وينصُرانهِ على مَن عاداهُ، ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أعوانهُ وأنصارهُ.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال:(حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب ﷺ قَالَ: لَمَّا اعْتَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ نِسَاءَهُ، دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَأنَا أرَى فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا شَقَّ عَلَيْكَ مِنْ أمْرِ النِّسَاءِ ؟ فَإنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإنَّ اللهَ مَعَكَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، وَأنَا وَأبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ، وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ وَأحْمَدُ اللهَ بكَلاَمٍ، إلاَّ رَجَوْتُ أنْ يَكُونَ اللهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أقُولُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (وَإنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ).)[٢].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٧٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٦٧٧). ومسلم في الصحيح: كتاب الطلاق: باب في الإيلاء: الحديث (٣٠/ ١٤٧٩).

وعن ابن عبَّاس قالَ: (سَأَلْتُ عُمَرَ ﷺ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَنِ الْمَرْأَتَانِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَ: عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ)[١].

ثُمَّ أخذ عُمَرُ ﷺ يَسُوقُ الْحَدِيثَ قَالَ: (كُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَوْماً نَغْلِبُ نِسَاءَنَا، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَجَدْنَا قَوْماً تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَتَعَلَّمْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ، قَالَ: فَغَضِبْتُ عَلَى امْرَأَتِي فَإِذا هِيَ تُرَاجِعُنِي، فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي، فَقَالَتْ: وَمَا يُنْكَرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ ؟ فَوَاللهِ إنَّ أَزْوَاجَ رَسُول اللهِ ﷺ لَيُرَاجِعْنَهُ وَتَهْجُرُهُ إحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إلَى اللَّيْلِ. قَالَ: فَانْطَلَقْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ: أَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَتَهْجُرُهُ إحْدَاكُنَّ الْيَوْمَ إلَى اللَّيْلِ ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قُلْتُ: أَفَتَأْمَنُ إحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللهُ لِغَضَبِ رَسُولِهِ فَإِذا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ؟! لاَ تُرَاجِعِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وَسَلِينِي مَا بَدَا لَكِ، وَلاَ يَغُرَّكِ إنْ كَانَتْ جَارَتُكِ هِيَ أَوْسَمُ وَأَحَبُّ إلَى رَسُولِ اللهِ مِنْكِ) يَعْنِي عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[٢].

قرأ أهلُ الكوفة (تَظَاهَرَا عَلَيْهِ) بالتخفيفِ، وقرأ الباقون بالتشديدِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ ؛ هذا إيعادٌ وتخويفٌ لِحَفصةَ وعائشةَ وسائرِ أزواجِ النبيِّ ﷺ، وعدَ النبيَّ ﷺ بخيرٍ منهُنَّ إنْ أحوجنَهُ إلى مفارقتِهن، و(عَسَى) من اللهِ واجبةٌ، ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ ﴾ ؛ نعتٌ للأزواجِ اللاتِي كان يبدِّلُهُ لو طلَّقَ نساءَهُ، ومعنى (مُسْلِمَاتٍ) أي خاضعاتٍ للهِ بالطاعة، مسلماتٍ لأمرِ الله وقضائه، أي مصدِّقاتٍ مؤمناتٍ بتوحيدِ الله بالألسُنِ والقلوب، ﴿ قَٰنِتَٰتٍ ﴾ ؛ أي طائعاتٍ لله والنبيِّ ﷺ، ﴿ تَٰٓئِبَٰتٍ ﴾ ؛ أي راجعاتٍ إلى ما يحبُّه اللهُ، ﴿ عَٰبِدَٰتٍ ﴾ ؛ للهِ متذلِّلاتٍ لله ولرسولِه، ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ ؛ أي صائماتٍ، ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥ ﴾ ؛ ظاهرُ المرادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ ؛ أي يا أيُّها الذين آمَنُوا ادفعُوا عن أنفسِكم وأهلِيكم ناراً، ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ ،

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٩١٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٦٧٥).

حطَبُها الناسُ والحجارةُ، يعني حجارةَ الكبريتِ، والمعنى: اعمَلُوا بطاعةِ الله وانتَهُوا عن معصيتِهِ، وعلِّموا أولادَكم وأهليكم الاجتنابَ عما تجبُ لهم به النارُ. وعن عمرَ ﷺ: أنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ نَقِي أنْفُسَنَا، فَكَيْفَ لَنَا بأَهْلِنَا ؟ قَالَ: [تَنْهَوْهُمْ عَمَّا نَهَاهُمُ اللهُ عَنْهُ، وَتَأْمُرُوهُمْ بمَا أمَرَكُمُ اللهُ بهِ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ ؛ أي على النارِ ملائكةٌ غِلاَظُ الأخلاقِ شِدَادٌ أقوياءُ الأخذِ والعقوبةِ، يدفعُ الواحدُ منهم في الدفعةِ الواحدة سبعين ألفاً في جهنَّمَ، لم يخلُق الله فيهم شيئاً مِن الرحمةِ، ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ ؛ من تعذيبِ أهلِها، ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ من ذلك، جعلَ اللهُ سُرورَهم في تعذيب المعذبين كما جعلَ سُرورَ المؤمنين في الجنَّة. وجاء في الخبرِ: [أنَّ الْمَلَكَ مِنْهُمْ يَكْسِرُ عِظَامَ الْمُعَذب، فَيَقُولُ لَهُ: ألاَ تَرْحَمُنِي ؟ فَيَقُولُ لَهُ: كَيْفَ أرْحَمُكَ وَأرْحَمُ الرَّاحِمِينَ لَمْ يَرْحَمْكَ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؛ أي لا تعتَذِرُوا اليومَ فيما قدَّمتُم لأنفسِكم، إنه لا تُقبَلُ منكم الأعذارُ، ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا، ولا تُظلَمون بزيادةٍ على ما تستحقُّون من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (التَّوْبَةُ النَّصُوحُ: هِيَ النَّدَمُ بالْقَلْب، وَالاسْتِغْفَارُ باللِّسَان، وَالإقْلاَعُ بالْبَدَن، وَالإضْمَارُ عَلَى أنْ لاَ يَعُودَ)[(٢)]. وعن معاذِ بن جبلٍ قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا التَّوْبَةُ النَّصُوحُ ؟ قَالَ: [أنْ يَتُوبَ التَّائِبُ ثُمَّ لاَ يَرْجِعُ فِي ذلِكَ، كَمَا لاَ يَعُودُ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ][(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٦٩٣) عن علي موقوفاً، و(٢٦٦٩٤) عن ابن عباس، و(٢٦٦٩٥) عن مجاهد، و(٢٦٦٩٦) عن قتادة.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٩٨ نقله القرطبي عن الكلبي.

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٢٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال معاذ بن جبل) وذكره.

قال ابنُ مسعودٍ: (التَّوْبَةُ النَّصُوحُ أنْ تُكَفِّرَ كُلَّ سَيِّئَةٍ)[١]، وقال أبو ذرٍّ: (النَّصُوحُ: الصَّادِقَةُ) أي يتُوبوا توبةً صادقةً، يقالُ: نصحتُه أي صدَّقتُه. وَقِيْلَ: النَّصُوحُ المستقيمةُ الْمُتْقَنَةُ التي لا يلحقُها النقصُ والإبطالُ. وقال الفُضيل: (التَّوْبَةُ النَّصُوحُ: أنْ يَكُونَ الذنبُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ، وَلاَ يَزَالُ كَأنَّهُ يَنْظُرُ إلَيْهِ)[٢]، وقال أبو بكرٍ الورَّاقُ: (هُوَ أنْ تَضِيقَ الأَرْضُ عَلَيْكَ بمَا رَحُبَتْ، وَتَضِيقَ عَلَيْكَ نَفْسُكَ كَتَوْبَةِ الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا)[٣]. وقال الدقَّاقُ: (هِيَ رَدُّ الْمَظَالِمِ، وَاسْتِحْلاَلُ الْخُصُومِ، وَإدْمَانُ الطَّاعَاتِ)[٤].

وقال ذو النُّون: (عَلاَمَتُهَا ثَلاَثَةُ أشْيَاءٍ: قِلَّةُ الْكَلاَمِ، وَقِلَّةُ الطَّعَامِ، وَقِلَّةُ الْمَنَامِ)، وقال بعضُهم: هي أن يكون لصاحبها دمعٌ مسفوح وقلبٌ من المعاصِي جموحٌ، فإذا كان كذلك فهي توبةٌ نصوحٌ.

وقال فتحُ الْمَوْصِلِيُّ[٥]: (عَلاَمَتُهَا ثَلاَثَةٌ: مُخَالَفَةُ الْهَوَى، وَكَثْرَةُ الْبُكَاءِ، وَمُكَابَدَةُ الْجُوعِ وَالظَّمَا). وقال شقيقُ البَلْخِيُّ[٦]:(هِيَ أنْ يُكْثِرَ صَاحِبُهَا لِنَفْسِهِ الْمَلاَمَةَ، وَلاَ يُقْلِعُ مِنَ النَّدَامَةِ). وقال الجنيدُ: (هِيَ أنْ يَنْسَى مَا سِوَى اللهِ، وَلاَ يَذْكُرُ إلاَّ اللهَ)[٧].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ ؛ هذا وعدٌ من اللهِ لأنَّ (عَسَى) من الله واجبةٌ، والصَّلواتُ الخمسُ كفَّاراتٌ لما بينهنَّ ما اجْتُنِبَتِ الكبائرُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ ﴾ ؛

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك:كتاب التفسير: الحديث (٣٨٨٤) وقال: حديث صحيح.
(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٩٨.
(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٩٨.
(٤) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٩٨.
(٥) فتح بن سعيد الموصلي، (وكان فتح رجلاً من العرب شريفاً زاهداً). ترجم له أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٨ ص٢٩٤.
(٦) شقيق بن إبراهيم البلخي، أحد الزهاد من المشرق، ترجم له أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٨ ص٥٨.
(٧) نقل هذه الأقوال أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٩٨-١٩٩.

أي يُكرمُ اللهُ تعالى المؤمنينِ بهذه الكرامةِ في يوم لا يسوءُ اللهُ النبيَّ ولا يُخجِلُهُ وَ لا يسوء ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ ؛ والمعنى: لا يُدخِلُهم اللهُ النارَ.

وقوله: ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ ليدلهم في الجنَّة، ﴿ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ ؛ يعني نورَ كتابهم الذي يُعطونهُ بها، ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ ؛ أي يقولون ذلك بعدَ ما ذهبَ نورُ المنافقِين، والمعنى: أتْمِمْ لنا نورَنا على الصِّراطِ إلى أن ندخلَ الجنة، ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَآ ﴾ ؛ ما سَلَفَ من ذُنوبنا، ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ من إتْمَامِ النور والمغفرة، فيجيبُ الله دعاءَهم ويفعلُ ذلك لهم، فيكون الصِّراطُ على المؤمنين كما بين صنعاءَ والمدينة، يمشِي عليه بعضُهم مثلَ البرق، وبعضُهم مثلَ الريحِ، وبعضهم كعَدْوِ الفرسِ، وبعضهم يمشِي وبعضهم يزحفُ، ويكون على الكافرين كحدٍّ السيف مذهبه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ ؛ أي جاهِدِ الكفارَ بالسَّيف، والمنافقين باللِّسان بالزَّجر والوعظِ حتى يُسلِمُوا، وسَمَّاهما جِهَاداً لاشتراكِها في بذل الجهد، ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي على الفَريقين بالفعلِ والقول، ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾ ، وبيِّنْ أنَّ مصيرَهم في الآخرةِ إلى النار.

وقال الحسنُ: (كَانُوا أكْثَرَ مَنْ كَانَ يُصِيبُ الْحُدُودَ فِي ذلِكَ الزَّمَان الْمُنَافِقُونَ، فَأَمَرَ اللهُ أنْ يُغْلِظَ عَلَيْهِمْ فِي إقَامَةِ الْحَدِّ)[1]. وعن ابنِ مسعود قال: (إذا لَمْ تَقْدِرُوا أنْ تُنْكِرُوا عَلَى الْفَاجِرِ - فـ - بوُجُوهٍ مُكْفَهِرَّةٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ ؛ أي فخَالفتَاهما في الدِّين، قال ابنُ عباس: (مَا بَغَتِ امْرَأةُ نَبيٍّ قَطُّ، فَأَمَّا خِيَانَةُ امْرَأةِ نُوحٍ، فَإنَّهَا قَالَتْ لِقَوْمِهِ: إنَّهُ مَجْنُونٌ فَلاَ تُصَدِّقُوهُ، وَأمَّا خِيَانَةُ امْرَأةِ لُوطٍ فَإنَّهَا كَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهُ عَلَى أضْيَافِهِ، كَانَ إذا نَزَلَ بلُوطٍ ضَيْفٌ باللَّيْلِ أوْقَدَتِ النَّارَ، وَإذا نَزَلَ بالنَّهَار أدْخَنَتْ لِيَعْلَمَ قَوْمُهُ أنَّهُ قَدْ

---

(١) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٠١.

نَزَلَ بِهِ ضَيْفٌ)[١]. وقال الكلبيُّ: (أَسَرَّتَا النِّفَاقَ، وَأَظْهَرَتَا الإِيْمَانَ) ولأنَّ الخيانةَ في الفراشِ لا يجوزُ أن تكون مُرادةً في هذه الآيةِ؛ لأنَّها عيبٌ يرجعُ إلى الزوجِ فينفِرُ الناسُ عنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي لم يَدفعَا عنهما عذابَ اللهِ، أعلَمَ اللهُ تعالى أنَّ أحداً لا يُجزي عن أحدٍ شيئاً، وأنَّ الإنسان لا ينجُو إلاّ بعملِه، وقطعَ اللهُ بهذه الآيةِ طمعَ مَن رَكِبَ المعصيةَ، ورجَا أن ينفعَهُ صلاحُ غيرِه، وأخبرَ اللهُ تعالى أن معصيةَ غيرِه لا تضرُّه إذا كان مُطيعاً وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ ؛ وهي آسيَةُ بنتُ مزاحم،كانت قد آمَنت بموسَى عليه السلام، فلمَّا عَلِمَ فرعون بإسلامِها وتَّدَ لها أربعةَ أوتادٍ في يدَيها ورجلَيها، ومدَّها للعذاب وشدَّها على الأرضِ بالأوتادِ، وألقَى على صدرها صخرةً عظيمةً وألقاها في الشمسِ.

فكانت الملائكةُ تُظِلُّها بأجنحتِها وأبصَرتِ الجنَّة وهي كذلكَ فقالَتْ: (رَب ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ)، فاستجابَ اللهُ دعاءَها وألحقَها بالشُّهداء، ولم تجِدْ ألَماً من عذاب فرعون لأنَّها قالت: ﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي الكافرين أهلِ دين فرعون. وليس في هذه الآيةِ أنَّ فرعون قتلَها، وقد اختُلِفَ في ذلك، والأقربُ أنه أجابَ اللهُ دعاءَها فنجَّاها من فرعون وقومِه.

وفي قولهِ تعَالَى في الآيةِ الأُولى (وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) تخويفٌ لحفصة وعائشة، كأنه قالَ لعائشةَ وحفصة لا تَكُونا بمنْزِلة امرأةِ نوحٍ ولوط في المعصيةِ، وكُونا بمنْزِلة امرأةِ فرعون ومريمَ.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٨٨٦)، وقال: صحيح الإسناد. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٧٠٩-٢٦٧١١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ ؛ عطفَ مريمَ على امرأةِ فرعون، وإحصانُ الفَرْجِ إعفافُهُ وحِفظُهُ عن الحـرامِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَنَفَخْنَـا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ ؛ أي في جيب دِرعِها، وذلك أنَّ جبريلَ عليه السلام مدَّ جيبَ درعِـها بإصبعهِ، ثم نفخَ في جيبها فحمَلت، وبالكنايةِ عن غير مذكور.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا ﴾ ؛ والشـرائعِ الـتي شـرَعَها اللهُ في كُتبه المنَزَّلة، وقرأ عيسى الجحدري والحسن (بكَلِمَةِ رَبهَا) على التوحيدِ يعنُونَ عيسَـى عليه السلام. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكُتُبِهِۦ ﴾ ؛ أي وصدَّقـت بكُتـب الله تعـالى وهـو التـوراةُ والإنجيل والفرقانُ وصُحف ابراهيم وموسى وداودَ، وقرأ أبو عمرٍو ويعقوب (وَكُتُبهِ) بالجمعِ، وتفسيرهُ ما ذكرناه، وقرأ الباقون (وَكِتَابهِ) على الواحدِ، والمرادُ به الإنجيل.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي مـن الْمُطِيعِـينَ للهِ، وقـال عطاءُ: (مِنَ الْمُصَلِّينَ، كَانَتْ تُصَلِّي بَيْنَ الْمَغْرب وَالْعِشَاءِ) تقديرهُ: وكانت من القَـوْمِ القَانِتِين، ولم يقُل منَ القانتاتِ؛ لأنَّ متعبَّدَها كان في المسجدِ مع العُبَّادِ.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [كَمُلَ مِنَ الرِّجَال كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمَلْ مِـنَ النِّسَـاءِ إلاَّ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَآسْيَةُ امْرَأةُ فِرْعَوْنَ، وَإنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى سَائِرِ النِّسَاءِ كَفَضْـلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ][(١)]. وقال ﷺ: [سَيِّدَاتُ نِسَاءِ أهْلِ الْجَنَّةِ أرْبَعٌ: مَرْيَمُ وَآسْيَةُ وَخَدِيجَةُ وَفَاطِمَةُ][(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيـح: كتـاب الأطعمـة: بـاب الـثريد: الحديـث (٥٤١٨). ومسـلم في الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل خديجة: الحديث (٧٠/ ٢٤٣١).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٣٢٨: الحديث (١٢١٧٩). وفي مجمع الزوائـد: ج ٩ ص٢٢٣؛ قال الهيثمي: (فيه محمد بن الحسن بن زبالة، وهـو مـتروك، وليـس في إسـناده ذاك) وأخرجه أيضاً في الرقـم (١١٩٢٨). وفي مجمـع الزوائـد: ج ٩ ص٢٢٣ قـال الهيثمـي: (رجالـه رجال الصحيح، ولفظه: [أفْضَلُ نِسَاءِ أهْلِ الْجَنَّـةِ]). والحـاكم في المسـتدرك: كتـاب التفسـير: الحديث (٣٨٨٩)، وقال: صحيح الإسناد.

وعن معاذِ بن جبلٍ قال: (دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى خَدِيجَةَ وَهِيَ تَجُودُ بنَفْسِهَا فَقَالَ: [أتَكْرَهِينَ مَا نَزَلَ بكِ يَا خَدِيجَةُ وَقَدْ جَعَلَ اللهُ فِي الْكَرْهِ خَيْراً كَثِيراً، فَإذا قَدِمْتِ عَلَى ضَرَّاتِكِ فَأقْرئيهنَّ مِنِّي السَّلاَمَ] قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ هُنَّ ؟ قَالَ: [مَرْيَمُ بنْتُ عِمْرَانَ، وَآسْيَةُ بنْتُ مُزَاحِمٍ، وكَلِيمَةُ بنْتُ عِمْرَانَ اُخْتِ مُوسَى]، فَقَالَتْ: بالرِّفَاهِ وَالْبَنِينِ)[1].

آخر تفسير سورة (**التحريم**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٥٢، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٠٤. وفي مجمع الزوائد: باب ما جاء من الفضل لمريم: ج ٩ ص٢١٨؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني منقطع الإسناد، وفيه محمد بن الحسن بن زبالة، وهو ضعيف).

سُورَةُ الْمُلْك

سُورَةُ الْمُلْكِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلفٌ وَثلاثُمِائَةِ حَرْفٍ، وَثلاثُمِائَةٍ وَثلاثُونَ كَلِمَةً، وَثلاثُونَ آيَةً. قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُلْكِ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ] وَقَالَ: [إنَّهَا تُجَادِلُ عَنْ صَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ]. وقال ﷺ: [وَدِدْتُ أنَّ (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ][(1)].

وعن ابن مسعود أنّه قالَ: (إذا وُضِعَ الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ، فَيُقَالُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، فَإِنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْمُلْكِ. ثُمَّ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَيَقُولُ لِسَانُهُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، فَإِنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْمُلْكِ، ثُمَّ هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ عَذَابِ اللهِ][(2)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ ؛ أي تعالَى باستحقاق التعظيم الذي بيده إعطاءُ الْمُلْكِ وأخذهُ، يؤتِي الْمُلْكَ مَن يشاءُ فيُعِزُّهُ وينْزَعُهُ ممن يشاءُ فَيُذِلُّهُ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ ؛ من الإعزاز والإذلال.

(١)في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج٧ ص١٣٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه إبراهيم بن الحكم ابن أبان وهو ضعيف). وأخرجه الحاكم في المستدرك: ذكر فضائل السور: الحديث (٢١٢٠)، وقال: (هذا إسناد عند اليمانيين صحيح) وليس في السند إبراهيم بن الحكم، وإنما هو الحكم بن أبان. وضعفه الذهبي بـ (حفص بن عمر العدني).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٣٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن الضريس والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود) وذكره.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ ؛ معنـاهُ: الـذي قـدَّرَ الإماتــةَ والإحياءَ، ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ؛ فيما بين الإحياءِ والإماتةِ، ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ؛ اللاَّمُ في لِيَبلُوَكم متعلِّــقٌ بخلـقِ الحيـاة دون خلـقِ المـوت، لأنَّ الابتـلاءَ في الحيـاةِ، ومعنـى (لِيَبْلُوَكُمْ) أي ليُعامِلَكم معاملةَ المختبرِ[١]، فيُجازيَكم على ما ظـهرَ منكـم لا علـى مـا يعلمُ منكم، ومعنى (أَيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً) أي أحسنُ عَقْلاً وأورَعُ عن محـارمِ الله، قـال ﷺ: [أتَمُّكُمْ عَقْلاً أشَدُّكُمْ خَوْفاً للهِ، وَأحْسَنُكُمْ نَظَراً فِيْمَا أمَرَ اللهُ بهِ وَنَهَى عَنْهُ][٢].

وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَأتْرَكُ لَهَا) وارتفعَ (أيُّكُمْ) على الابتداءِ لأنه بتأويلِ ألف الاستفهامِ ولا يعملُ فيها ما قبلَها، تقديرهُ: ليَبلُوَكم أنتم أحسنُ عملاً أم غيركم. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ ؛ أي العزيـزُ بالنقمةِ لِمَن لا يؤمِنُ، الغفورُ لِمَن تابَ وآمَنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ ؛ أي مُطْبَقَةً بعضُـها علـى بعضٍ مثل القُبَّةِ، ﴿ مَّا تَرَىٰ ﴾ ؛ أيُّها الرَّائي، ﴿ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ ، في مخلوقاتِ الرَّحمنِ من تَفاوُتٍ؛ أي لا ترَى بعضَها حِكمَةً وبعضَها عَبثاً، ولا تـرَى في السَّماء اضطِرَاباً وتبايُناً في الخِلقَةِ، وقال مقاتلُ: (مَا تَرَى يَا ابْنَ آدَمَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ مِنْ عَيْبٍ)[٣].

وقال قتادةُ: (مَا تَرَى فِيـهَا خَلَـلاً وَلاَ اخْتِلاَفـاً)[٤]، ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ﴾ ؛ أي كرِّرِ النظرَ، هل ترَى في السَّماء من شُـقوقٍ أو صُـدوعٍ أو خُروقٍ، ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ ؛ أي إنْ لم تستَدرِكْ بالمرَّة الأُولى، فـرُدَّ البصـرَ مرَّة أخرى مُســتقصياً، وردِّدِ البصـر مـرَّة أخـرى بعـدَ مـرَّة، ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ

---

(١) في المخطوط: (المتحيز).

(٢) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ١ ص٢٤١؛ قال العراقي: (من رواية محمد بـن وهـب بإسناده عن أبي هريرة رفعه قال: (قال في الميزان: هو حديث باطل منكر آفته محمـد بـن وهـب، وقال الدارقطني: هو حديث غير محفوظ)).

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٨١.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٧٢٣).

خَاسِئًا ﴾ ؛ صَاغِراً بمنْزلة الخاسِئ وهو الذليلُ، ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي كَلِيلٌ منقطعٌ قد أعيَى بمنْزلة الحسيرِ الذي طلبَ شيئاً فلم يجِدْهُ كما يحسِرُ البعيرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ ؛ السَّماءُ الدُّنيا هي الأدنَى إلينا، وهي التي يرَاها الناسُ، والمصابيحُ: النجومُ، واحدها مِصْبَاحٌ، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تضيءُ كما يضيء الْمِصْبَاحُ، ومِن ذلك الصُّبْحُ والصَّبَاحُ وهو السِّراجُ، والنجومُ لثلاث خصال: زينة، وعلامات يُهتدَى بها[1] ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي ورُجُومٌ لِمَن يسترقُ السمعَ من الشياطين، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ مع ما جعَلنا لهم في الدُّنيا من الرَّمي بالشُّهب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا ﴾ ؛ أي صَوْتاً قطيعاً كصوتِ الحِمَار، وهو آخرُ ما يَنهَقُ بنَفَسٍ شديدٍ، وهو أقبحُ الأصواتِ، وإذا اشتدَّ لَهَبُ النار سُمِعَ لها صوتٌ شديدٌ كأنَّها تطلبُ الوقودَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي تَغلِي بهم كغَلْيِ الْمِرْجَلِ. وقال مجاهدُ: (تفُورُ بهِمْ، كَمَا يَفُورُ الْمَاءُ الْكَثِيرُ بالْحَب الْقَلِيلِ)، والفَوْرُ ارتفاعُ الشيءِ بالغَلَيانِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ ؛ أي تكادُ تَنشَقُّ وتَتَقَطَّعُ من تغيُّظِها على أهلها لتأخُذهم، والمعنى: تكادُ النار يَنْفَرِقُ بعضُها من بعضٍ غَضَباً على الكفار، وانتقاماً لله عَزَّ وَجَلَّ منهم، ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ ؛ من الكفار؛ أي جماعةٌ، ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ ؛ أي النارُ، ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي رسولٌ مُنذِرٌ، وهذا التوبيخُ زيادةٌ لَهم في العذاب، ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا ﴾ ، له، ﴿ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ ؛ مِمَّا تقولُ، وقلنا للرَّسُولِ: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ

---

(١) في جامع البيان: الأثر (٢٦٧٣١) عن قتادة قال: (إن الله جلَّ ثناؤهُ إنما خلقَ هذه النجوم لثلاث خصال) وذكره ثم قال: (فمن يتأول منها غير ذلك، فقد قال برأيه، وأخطأ خطه، وأضاع نصيبه، وتكلَّف ما لا علم له به).

كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي خطأ عظيم. وَقِيْلَ: إن قولَهُ (إنْ أنْتُمْ إلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ) من قولِ الزَّبانِيَةِ للكُفَّار؛ أي ما كُنتم في الدُّنيا إلاَّ في ضلال كبير.

وقالَ أهلُ النار مُعترفين بجهلِهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ ؛ أي لو كُنَّا نسمعُ الهدى من الرُّسُلِ سَمَاعَ مَن يتفكَّرُ ويعقلُ منهم عقلَ مَن يُمَيِّزُ، ﴿ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ ﴾ ؛ أي أقَرُّوا بذلك، ﴿ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي أسْحَقَهُمُ اللهُ سُحْقاً؛ أي باعدَهم من رحمتهِ، والسُّحْقُ: البُعْدُ، والمعنى: فبُعداً لأصحاب النار من رحمة الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين يعمَلون لربهم ويتَّقون معصيتَهُ في سرِّهم، ويخافونَهُ ولم يَرَوهُ، لهم مغفرةٌ لذنوبهم وثوابٌ عظيم في الجنَّة، والْخِشْيَةُ في الغيب أدلُّ على الإخلاصِ وأبعَدُ من النِّفاق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ وهذا تحذيرٌ للكفَّار عن الإقدامِ على المعاصي، يقول: إنْ أخفَيتُم كلامَكم في أمرِ مُحَمَّدٍ ﷺ أو جهَرتُم به، فإنه عليمٌ بما في القلوب من الخير والشرِّ.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا يَنَالُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيُخْبِرُهُ جِبْرِيلُ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أسِرُّوا قَوْلَكُمْ كَيْلاَ يَسْمَعَ بِهِ إلَهُ مُحَمَّدٍ) قال اللهُ هذه الآية: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ؛ هذه الأشياءَ ما في الضَّمير. وَقِيْلَ: معناهُ: ألا يعلمُ الله مخلوقاتهِ، وَقِيْلَ: ألا يعلمُ سرَّ العبدِ من خلقه، ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي لَطُفَ عِلْمُهُ بالأشياءِ حتى لا تخفَى عليه غوامضُ الأمور، الخبيرُ بمصالِح عبادهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ ؛ أي سَهْلَةً تنصرفون فيها فلا تضطربُ بكم ولا تمتنعُ عليكم، يقال: دابة ذَلُولٌ إذا كانت سهلةَ الرُّكوب، والذلولُ لا تمتنعُ على صاحبها فيما يريدُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ ؛ أي في أطرافِها، وَقِيْلَ: في جِبَالها وآكامِها وجوانبها ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ ؛ أي وكُلوا من نباتِها الذي جعلَهُ اللهُ رزقاً لكم في الأرض ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي وإلى اللهِ المرجِعُ في الآخرةِ للحساب والجزاءِ، والنُّشُورُ هو البعثُ من القبور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ ؛ معناهُ: أأمِنتُم يا أهلَ مكَّة مَن في السَّماء سُلطانه وقدرتهُ ومُلكه أن يُغَيِّبَكم في الأرض جَزاءً على قُبحِ أفعالِكم. وَقِيلَ: معناهُ: أأمنتم عقوبةَ مَن في السَّماء وعذابَ مَن في السَّماء. وَقِيلَ: معناهُ: مَن جرَتْ عادتهُ أن يُنْزِلَ نِقمَتَهُ مِن السَّماء على مَن يكفرُ به ويعصيَهُ.

وَقِيلَ: أأمنتم مَن في السَّماء، وهو الْمَلَكُ الموكَّل بالعذاب، يعني جبريلَ أنْ يخسِفَ بكمُ الأرضَ بأمرِ الله تعالى، ﴿ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي تضطربُ وتتحرَّكُ، والمعنى: أنَّ اللهَ تعالى يحرِّكُ الأرضَ عند الخسفِ بهم حتى تضطربَ، وتتحركَ فتَعلُو بهم وهم يُخسَفُون فيها، والأرضُ تَمُورُ فوقَهم فتقلِبُهم الى أسفل. والْمَوْرُ: التردُّدُ في الذهاب والمجيءِ؛ لأنه إذا خُسِفَ بقومٍ دارت الأرضُ فتدورُ بهم كما يدورُ الماء بمَن يُغرقهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ﴾ ؛ كما أرسلَ على قومِ لُوطٍ، والحاصِبُ: الرِّيحُ التي تَرمِي بالحصباءِ لا دافعَ لها ﴿ فَسَتَعۡلَمُونَ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي إنذاري إذا عايَنتم العذابَ، ﴿ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ولقد كذب الذين مِن قبْلِ أهل مكة من كفَّار الأُمم الماضيةِ، فكيف كان الإنكارُ عليهم بالعذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ ﴾ ؛ معناهُ: أوَلَمْ يَروا إلى الطيرِ صافَّاتٍ فوقَ رُؤوسِهم بانبساطِ أجنحتها تارةً وقابضاتِها أخرى، معناهُ: صافَّات أجنحتَها، ﴿ وَيَقۡبِضۡنَۚ ﴾ ؛ أجنحتَها بعد البسطِ، وهذا معنى الطَّير؛ وهو بَسْطُ الجناحِ وقبضهُ بعدَ البسطِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ ﴾ ؛ أي ما يُمسِكهُنَّ ويحفظُهُنَّ في الهوَاء في الحالَين؛ في حالِ البسطِ والقبضِ إلاّ الرحمنُ. وهذا أكبرُ آيةٍ دالَّة على قدرةِ الله تعالى إذ أمسكَها في الهواءِ على ثُقلِها وضخم أبدانِها، فمَن قَدِرَ على إمساكِ الطيرِ في الهواء قَدِرَ على إرسال الحاصب من السَّماء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ، كما يقالُ: فلان بصيرٌ بالنَّحوِ وبالقرآنِ؛ أي عالِمٌ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ ﴾ ؛ فيه تنبيهٌ على أنه إنْ أرادَ اللهُ تعذيبَهم ليس لَهم مَنعةٌ، ولا أحدٌ يصرفُ عنهم العذابَ، ولفظُ الْجُنْدِ مُوحَّدٌ، وهذا استفهامُ إنكارٍ؛ أي لا جُندَ لكم ينصرُكم ويمنعكم من عذاب الله. قال ابنُ عبَّاسٍ: (مَعْنَى يَنصُرُكُمْ: يَمْنَعُكُمْ مِنِّي إنْ أرَدْتُ عَذابَكُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي في غرورٍ من الشَّيطان، يغرُّهم بأنَّ العذابَ لا ينزلُ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ ﴾ ؛ معناه: هل يَقدِرُ أحدٌ مِن مَعبُودِكم أنْ يُوصِلَ إليكم أرزاقَكم إنْ حَبَسَ اللهُ عنكم المطرَ والنباتَ، ﴿ بَل لَّجُّواْ ﴾ ؛ بل لَجَّ الكافرون ﴿ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي في مُجاوَزَةِ الحدِّ في الطُّغيان والتباعُدِ عن سماعِ الحقِّ وقَبولِهِ، وليسوا يعتَبرون ولا يتفكَّرون، لَجُّوا في طُغيانِهم وتَمادِيهم وتباعُدهم عن الإيمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أفمَنْ يَمشِي ناكِساً رأسَهُ على وجهِهِ لا يرَى ما يَصدِمهُ أو يَهجِمُ عليه من حُفرةٍ، أو بئرٍ في طريقِهِ، فلا ينظرُ يَميناً ولا شِمالاً، يمشي مشيَ العُميان؛ وهو مَثَلُ الكافرِ يقولُ: أهُدِيَ صَوْبَ طريقاً أمِ المؤمنُ الذي يَمشي مُستَوياً على طريقٍ مستقيم، يعني الإسلامَ.

وإنما شبَّهَ الكافرَ بالْمُكِب على وجهِهِ؛ لأنه ضالٌّ أعمَى القلب عن الهدى، وقال قتادةُ: (هَذا فِي الآخِرَةِ) معناه: أفمَن يَمشي مُكِبّاً على النار يومَ القيامة أهْدَى أم مَن يمشي على طريق الجنة ؟ كما قالَ تعالى في الكفَّار ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: هو الذي خلقَكم وخلقَ لكم السمعَ فاستمعوا إلى الحقِّ، والأبصارَ فأبصِرُوا بها الحقَّ، والأفئدةَ فاعلَمُوا بها الحقَّ، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ، نِعَمَ اللهِ عليكم.

---

(١) الاسراء / ٩٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي هو الذي خلقَكم صِغاراً وربَّاكم إلى أن صيَّركم كِباراً، ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾ ؛ أي تُجمَعون في الآخرةِ فيجزيَكم بأعمالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ ؛ أي هذا الحشرُ الذي تَعِدُنا به، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) ﴾ ؛ أنْ يكون ذلك، ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ ﴾ بوقت الحشرِ، ﴿ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) ﴾ ؛ أي مُخَوِّفٌ لكم بلُغةٍ تعرفونَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ معناهُ: فلمَّا رأوا العذابَ قريباً تبيَّن السُّوءُ في وُجوهِهم وسَاءَهم ذلك. وَقِيْلَ: أحرقَتْ وجوهُ الذين كفَرُوا، فاسودَّتْ وعلَتها الكآبةُ والقَتْرَةُ. وَقِيْلَ: معنى (سِيئَتْ) قَبُحَتْ وجوهُهم بالسَّوادِ، ﴿ وَقِيلَ ﴾ ؛ لَهم: ﴿ هَٰذَا ﴾ ؛ العذابُ، ﴿ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ ﴾ ؛ من أجلِه، ﴿ تَدَّعُونَ (٢٧) ﴾ ؛ الأباطيلَ والأكاذيبَ أنَّكم إذا مِتُّمْ، وكنتم تُراباً وعظاماً أنَّكم لا تُبعثون. وقرأ الضحَّاك وقتادةُ ويعقوب (تَدْعُونَ) مخفَّفاً؛ أي تَدْعُونَ اللهَ أنْ يأتِيَكم به، من الدُّعاء وهو قولهم ﴿اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) ﴾ ؛ وذلك أنَّ الكفارَ متمنُّون موتَ رسول الله ﷺ وموتَ أصحابهِ، فقيلَ لَهم: أرأيتُم إنْ أصبتُم مُنَاكُمْ فينا بالهلاكِ، فمَن يُجِيرُكم من العذاب الذي لا بدَّ نازلٌ بكم، أتظنُّون أنَّ الأصنامَ أو غيرها تُجيرُكم ؟ فإذا عَلمتُم أنْ لا مجيرَ لكم فهلاَّ تمسَّكتُم بما يُخلِّصُكم من العذاب وهو الإيمانُ باللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ ؛ أي هو الرَّحمنُ الذي نعبدهُ، ونفوِّضُ أمُورَنا إليه، ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٩) ﴾ ؛ نحن أم أنتم.

---

(١) الأنفال/ ٣٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ ؛ أي غَـائِراً في الأرضِ لا تنالهُ الأيدِي والدِّلاءُ، ﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ ظاهرٍ يظهرُ مـن العيـونِ إلاّ اللهُ الذي به تُشركون، فإذا لم تَقدِرُوا أنتم ولا آلِهتُكم على أن تَجعَلُوا المـاءَ الغـائرَ في الأرضِ ظَاهراً، فكيف تَقدِرُون على أن تَدفَعُوا عـذابَ اللهِ عـن أنفسـكم إذا نـزلَ بكم ؟ وكيفَ يقدِرُ على ذلك مَن اتَّخذتُموهُ إلهاً من دونِ الله.

ويُحكى أنَّ متَّهماً في دينهِ سَمِعَ رجُلاً يقرأ (قُلْ أرَأيْتُمْ إنْ أصْبَحَ مَـاؤُكُمْ غَـوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بمَاءٍ مَعِينٍ) فقالَ: الماءُ مع الفأسِ والْمِعْوَلِ، فنامَ مـن ليلتـهِ تلـك فـأصبحَ وقد ذهبَ ماءُ عَينَيهِ وبقي أعمَى إلى أن ماتَ، والعياذُ باللهِ من الْخُذلاَنِ.

آخر تفسير سورة (**الملك**) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ ن (القَلَمِ)

سُورَةُ نُون مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَمِائَتَان وَسِتَّةٌ وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَثَلاثُمِائَةِ كَلِمَةٍ، وَاثْنَتان وَخَمْسُونَ آيَةً. قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطَاهُ اللهُ ثَوَابَ الَّذِينَ حَسُنَتْ أخْلاَقُهُمْ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (يعني بقوله (ن) الحوتُ الذي على الأرضِ واسمه لوثيا، وذلك أنَّهُ لَمَّا خلقَ اللهُ الأرضَ وفتَقها، بعثَ اللهُ مَلَكاً من تحتِ العرش فهبط إلى الأرضِ حتى دخلَ تحت الأرضِين السَّبع، فوضعَها على عاتقهِ وإحدَى يديهِ بالمشرقِ والأُخرى بالمغرب، فلم يكن لقَدَميهِ قرارٌ، فأهبطَ اللهُ من الفردوسِ ثوْراً له أربعون ألفَ قَرنٍ وأربعون قائمةً، وجعلَ قرارَ قدمِ الْمَلَكِ على سنامهِ، فلم تستقرَّ قَدماهُ، فخلقَ الله قوَّةً خضراءَ غِلَظُها مسيرةُ خمسمائة سنةٍ، فوضعَها بين سنامِ الثور وآذانه فاستقرَّتْ عليها قدماهُ، وقرون ذلك الثورِ خارجةٌ من أقطار الأرض ومنخاراهُ في البحرِ، فهو يتنفَّسُ كلَّ يومٍ نَفَساً، فاذا تنفَّسَ مدَّ البحرَ، وإذا ردَّ نفسَهُ جَزَرَ، فلم يكن لقوائمِ الثور موضعُ قرارٍ، فخلقَ الله صخرةً خضراءَ كغِلَظِ سبعِ سموات وسبعِ أرضين، فاستقرَّت قوائمُ الثور عليها، وهي الصخرةُ التي قالَ لقمانُ لابنهِ ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾، فلم يكن للصَّخرةِ مستَقرٌّ، فخلقَ الله نُوناً، وهو الحوتُ العظيم فجعلَ الصخرةَ على ظهرهِ وسائرَ جسدهِ خالٍ، والحوتُ على البحرِ، والبحرُ على متنِ الرِّيح، والريحُ على القدرة).

(١) رواه الثعلبي عن أبي بن كعب بسند واهٍ.

وقال بعضُهم: هو اسمُ السُّورة. وَقِيْلَ: هو آخرُ حروفِ الرَّحمن وهي روايةُ عكرمةَ عن ابنِ عبَّاس قالَ: (الـر و حـم و ن حُرُوفُ الرَّحْمَنِ)(١). وقال قتادةُ والضحَّاكُ: (النُّونُ هِيَ الدَّوَاةُ)(٢)، وقال بعضُهم: هو لوحٌ من نور. وقال عطاءُ: (هُوَ افْتِتَاحُ اسْمِ اللهِ تَعَالَى: نُورٌ، وَنَاصِرٌ). واختلفوا القراءةَ فيه، فقرأ بعضُهم بإظهار النون، وقرأ بعضُهم بإخفائها، وقرأ ابنُ عبَّاس بالكسرِ على إضمار حروف القَسَمِ، وقرأ عيسَى بن عمر بالفتحِ على إضمار فعل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) قال المفسِّرون: هو القلمُ الذي كتبَ به اللوحَ المحفوظ، قال ابنُ عبَّاس: (أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقِيلَ لَهُ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ قَلَمٌ مِنْ نُورٍ طُولُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ). وَقِيلَ: لَمَّا خلقَ اللهُ القلمَ، نظرَ إليه فانشقَّ نِصفَين ثم قالَ لَهُ: إجْرِ، قالَ يا رب بمَا أجري ؟ قال: بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامة، فجرَى على اللوحِ المحفوظ بذلك.

وعن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [أَوَّلُ شَيْءٍ خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ خَلَقَ النُّونَ وَهِيَ الدَّوَاةُ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلٍ وَرِزْقٍ وَأَجَلٍ، فَكَتَبَ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ مِنْ ذلِكَ](٣).

قوله (وَمَا يَسْطُرُونَ) يعني وما تكتبُ الملائكةُ الْحَفَظَةُ من أعمال بني آدمَ، وجوابُ القسَمِ (مَا أنتَ بنِعْمَةِ ربكَ بمَجْنُونِ) وهو جوابٌ لقولِهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(٤)، فأقسمَ اللهُ تعالى بالنُّون والقلم وبأعمال بني آدمَ فقال: ﴿ مَآ أَنتَ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ؛ ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ ﴾ ؛ أي ما أنت بإنعامهِ عليكَ بالنبوَّةِ والإيمانِ بمجنونٍ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٧٦٧).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وعبد الرزاق). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٧٦٩).

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤١؛ قال السيوطي: (أخرجه الحكيم الترمذي عن أبي هريرة) وذكره.

(٤) الحجر / ٦.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا ﴾ ؛ معنـاهُ: وإنَّ لـكَ أجـراً بصَـبرِكَ علـى افترائِهم عليـكَ ونسبَتِهم إيـاكَ إلى الجنُـونِ، ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ ﴾ ؛ أي غـيرَ مَنقُوصٍ ولا مقطوعٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ ؛ أي على دِينٍ عظيمٍ لم أخلِقْ ديناً أحبّ إلَيَّ، ولا أرضَى عندي منهُ، يعني الإسلامَ، ورُوي عن عكرمـةَ عـن ابنِ عبَّاس: (يَعْنِي الْقُرْآنَ) والمرادُ آدابُ القرآنِ كما أمرَ اللهُ به نبيَّهُ ﷺ.

وسُئِلَتْ عَائِشَـةُ رَضِـيَ اللهُ عَنْـهَا عَـنْ خُلُقِـهِ، فَقَـالَتْ لِلسَّـائِلِ: (إقْـرَأ الْعَشْـرَ الَّتِي فِي أوَّلِ سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَرَأهَا، فَقَالَتْ: تِلْكَ خُلُقُهُ). وَقِيْلَ: لَمَّا سُئِلَتْ عَائِشَـةُ عَنْ خُلُقِهِ، قَالَتْ: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ، يَسْخَطُ لِسُخْطِهِ، وَيَرْضَى لِرِضَاهُ)[(1)].

ويقال: إنَّ جبريلَ ﷺ لَمَّا جاءَ إلى النبيِّ ﷺ بقوله ﴿خُذِ الْعَفْـوَ وَأْمُـرْ بـالْعُرْفِ وَأعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[(2)] قالَ: [أتَيْتُكَ يَا مُحَمَّدُ بِمَكَـارِمِ الأَخْـلاَقِ: أنْ تَصِـلَ مَـنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ]. وعن أبي هريـرةَ ﷺ قـال: قَـالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ، أدَّبَنِي رَبي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي][(3)].

ويقال: إنَّهُ ﷺ احتملَ للهِ في البلاءِ إلى أنْ قالَ حين شُجَّ في وجهِهِ: [اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإنَّـهُمْ لاَ يَعْلَمُـونَ] فـأنزلَ اللهُ تعـالى (وَإنَّـكَ لَعَلَـى خُلُـقٍ عَظِيـمٍ). قـال الجنيد:(سَمَّى خُلُقَهُ عَظِيماً لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَـهُ هَـمٌّ سِوَى اللهِ تَعَـالَى). وَقِيْـلَ: إنـه ﷺ عاشَرَهم بخُلقِهِ وزايَلهم بقلبِهِ، كان ظاهرهُ مع الْخَلقِ وباطنهُ مع الحـقِّ! وَقِيْـلَ: سَـمَّى خلقَهُ عظيماً لاحتمالِ مكارمِ الأخلاق فيه.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابـن المنـذر وابـن مردويـه والبيـهقي في الدلائل عن أبي الدرداء قال: سألت عائشة) وذكره.

(٢) الأعراف / ١٩٩.

(٣) رواه الإمام مالك بلاغاً في الموطأ: كتاب حسن الخلق: ج ٢ ص٩٠٤. والإمام أحمـد في المسـند: ج ٢ ص٣٩٨. والحاكم في المستدرك: دلائل النبوة: الحديث (٤٢٧٨) وقال: صحيح على شرط مسلم.

وقالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (إنَّ الرَّجُلَ لَيُدْركُ بخُلُقِهِ دَرَجَةَ قَائِمِ اللَّيْلِ وَصَائِمِ النَّهَار)(١)، وقالَ ﷺ:[مَا مِنْ شَيْءٍ أثْقَلُ فِي الْمِيزَان مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ](٢). وقال ﷺ: [إنَّ أحَبَّكُمْ إلَى اللهِ تَعَالَى أحَاسِنُكُمْ أخْلاَقاً، الْمُوَطَّئُونَ أكْنَافاً، الَّذِينَ يُؤْلَفُونَ وَيَألَفُونَ. وَأبْغَضُكُمْ إلَى اللهِ تَعَالَى الْمَشَّاءونَ بالنَّمِيمَةِ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الإخْوَان، الْمُلْتَمِسُونَ لِلْعَثَرَاتِ](٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي ستَعلَمُ ويَعلَمُونَ، يعني أهلُ مكَّة، وهذا وعيدٌ لأهلِ مكَّة بالعذاب ببَدْر، يعني: ستَرَى ويرَى أهلُ مكَّة إذا نزلَ بهم العذابُ ببَدْر، ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ الباءُ زائدةٌ، والمعنى: أيُّكم المجنونُ الذي فَتَرَ بالجنون أأنتَ أم هم ؟ يعني أنَّهم يعلَمُون عندَ العذاب أنَّ الجنونَ كان لَهم حين عبَدُوا الأصنامَ، وترَكُوا دِينَكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ ربَّكَ يا مُحَمَّدُ أعلَمُ بمَن سبقَ له الشَّقاءُ في علمِهِ، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي أعلمُ بمَن سبَقت له السَّعادةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ بالكتُب والرُّسُل، وهم رُؤوسُ الكفَّار الذين كانوا يَدعونَهُ إلى دِين آبائهِ. وقولُه تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: تَمنَّى الكفارُ يا مُحَمَّدُ أن تُضايعَهم فيُضَايعُونَكَ، وتُلاَيِنَهُم فيُلاينُونَكَ، مأخوذٌ من الدُّهن.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٩٤ و١٣٣. وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في حسن الخلق: الحديث (٤٧٩٨) وإسناده حسن.

(٢) الحديث عن أبي الدرداء؛ أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في حسن الخلق: الحديث (٤٧٩٩). والترمذي في الجامع: أبواب البر والصلة: باب ما جاء في حسن الخلق: الحديث (٢٠٠٢)، وقال: حسن صحيح، و(٢٠٠٣) وقال: غريب.

(٣) الحديث عن أبي ثعلبة الخشني؛ أخرجه ابن حبان في صحيحه: كتاب البر والإحسان: باب حسن الخلق: الحديث (٤٨٢) بإسناد حسن. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٠ ص١٩٠: الحديث (١٠٤٢٤) عن ابن مسعود ﷺ. وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص٢١؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح).

وقال مجاهد: (مَعْنَاهُ: إظْهَارُ الْقَوْلِ باللِّسَانِ بخِلاَفِ مَـا فِـي الْقَلْـب، كَأَنَّـهُ شَبَّهَ التَّلْيينَ فِي الْقَوْلِ بتَلْيينِ الدُّهْنِ). وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: وَدُّوا لَوْ تَرْكَنُ إلَيْهِمْ وَتَتْرُكُ مَـا أنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ فَيُمَالِؤُكَ)[١]. وقال الضحَّاكُ: (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُ فَيَكْفُرُونَ)[٢]. وقـال زيدُ بن أسلمَ: (وَدُّوا لَوْ تُنَافِقُ وَتُرَائِي فَيُنَافِقُونَ). قال ابنُ قتيبةَ: (كَانُوا أرَادُوهُ أنْ يَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ مُدَّةً وَيَعْبُدُونَ اللهَ مُدَّةً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ هذا تحذيرٌ للنـبيِّ ﷺ عن الرُّكون. والْحَلاَّفُ: كثيرُ الحلف بالبـاطلِ، والْمَـهِينُ: قيـلَ: مـن الْمَهَانَـةِ؛ وهـي الحقارةُ والضَعفُ في الرَّأي والتميزِ، قِيْلَ: إنَّ المرادَ به الوليـدُ بـن المغـيرةِ المخزومـي، وكان قد عرضَ على النبيِّ ﷺ ليَرجِعَ عـن دينـهِ، وسُـمِّي مَـهيناً لاسـتخارتهِ الحلـفَ والكذبَ على الصِّدق، ثم كانت الآيةُ عامَّةً في كلِّ مَن كان في طريقتهِ. وَقِيْلَ: المرادُ به الأسودُ بن عبدِ يَغُوث، وَقِيْلَ: الأخنسُ بن شريق.

وقوله تعـالى: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ الهمَّـازُ: الْمُغتَـابُ الطعَّـانُ للناسِ، مَشَّاءٍ بنَمِيمٍ: أي يَمشِي بالنَّميمةِ بـين النـاس؛ ليُفسِـدَ بينـهم. وَقِيْـلَ: الهمَّـازُ: الوقَّاعُ في الناسِ، العائِبُ لهم بما ليس فيهم، ويُسمَّى النَّمَّـامُ: القتَّـاتُ، قـال ﷺ: [لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ ؛ أي كثير المنعِ للخير، وكان الوليدُ بن المغيرة بهذه الصِّفة يمنعُ الناسَ من اتِّبـاع النـبيِّ ﷺ، وكـان يمنـعُ أهلَـهُ وولـدَهُ والحميَّـة عـن الإسلام، يقالُ: المنَّاعُ للخيرِ البخيلُ الذي هو كثيرُ المنعِ للحقوق الواجبةِ في المال.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٧٩٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٧٩٤) عن الضحاك، و(٢٦٧٩٣) عـن ابـن عبـاس، و(٢٦٧٩٥) عن سفيان.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص١٦٨: الحديث (٣٠٢١). والإمام أحمـد في المسـند: ج ٥ ص٣٨٢ و٣٨٩ و٤٠٢. والبخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب ما يكره من النميمـة: الحديث (٦٠٥٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان غلظ تحريـم النميمـة: الحديـث (١٠٥/١٦٩).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ المعتدِي: هو الغَشُومُ الظلُومُ على عبادِ الله، والأثيمُ: الكذابُ الذي هو كثيرُ الإثم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ العُتُلُّ: شديدُ الخصومةِ بالباطلِ. وَقِيْلَ: الشديدُ الحلفِ، أكُولٌ شَرُوبٌ رحيبُ البطنِ سَرِيحٌ صحيحُ الْجَسمِ على بطنِهِ، ويُجِيعُ عبدَهُ ويمنعُ رَفْدَهُ، ومأخوذٌ من العَتْلِ وهو الشدَّةُ في السَّحب. وقِيلَ: شديدُ الْخُلْقِ وأحسَنُ الْخَلقِ. وَقِيْلَ: هو الجافِي القاسِي اللئيمُ العَسِرُ الضَّجِرُ. وقال الكلبيُّ: (هُوَ الشَّدِيدُ فِي كُفْرِهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ) أي مع ما وصفناهُ به زَنِيمٌ، وَقِيْلَ: معناه عُتُلٌّ مع ذلك زَنيم، والزَّنِيمُ: الْمُلصَقُ في القومِ وليس منهم، والزَّنِيمُ هو الدَّعِيُّ، قال الشاعر[(١)]:

زَنِيمٌ لَيْسَ يَعْرِفُ مَنْ أبُوهُ   بَغِيُّ الأُمِّ ذُو حَسَبٍ لَئِيمِ

وعن ابنِ عبَّاس في قوله تعالى (زَنِيم) قالَ: (يُعْرَفُ بالشَّرِّ كَمَا تُعْرَفُ الشَّاةُ بزَنْمَتِهَا)[(٢)]. وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ (زَنِيم) أيْ هُوَ مَعَ كُفْرِهِ دَعِيٌّ فِي قُرَيْشٍ لَيْسَ مِنْهُمْ)[(٣)]. قِيْلَ: إنما ادعاهُ أبوه إلاَّ بعدَ ثماني عشرةَ سنةً.

وقال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: (الزَّنِيمُ الَّذِي لاَ أصْلَ لَهُ). قال ابنُ قتيبةَ: (لاَ نَعْلَمُ أنَّ اللهَ وَصَفَ أحَداً كَمَا ذكَرَهُ، وَلاَ بَلَغَ مِنْ ذِكْرِ عُيُوبِهِ كَمَا بَلَغَ عُيُوبَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ؛ لأنَّهُ وَصَفَهُ بالْحَلْفِ وَالْمَهَانَةِ وَالْعَيْبِ لِلنَّاسِ وَالْمَشْيِ بالنَّمَائِمِ وَالْبُخْلِ وَالظُّلْمِ وَالإثْمِ وَالْجَفَا وَالدَّعْوَةِ، فَألْحَقَ بِهِ عَاراً لاَ يُفَارِقُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ).

وفي الحديث عن النبي ﷺ: [لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ جَوَّاظٌ وَلاَ جَعْظَرِيٌّ وَلاَ الْعُتُلُّ الزَّنِيمُ] وَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْجَوَّاظُ ؟ قَالَ: [الَّذِي جَمَعَ وَمَنَعَ تَدْعُوهُ لَظًى نَزَّاعَةً

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٣٤. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤٧؛ نسبه السيوطي إلى ابن الأنباري وقال: (أخرجه في الوقف والابتداء).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤٨؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس) وذكره. وفي جامع البيان أسنده الطبري في الرقم (٢٦٨٢٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٨٢٣).

لِلشَّوَى] قِيلَ: وَمَا الْجَعْظَرِيُّ ؟ قَالَ: [الْفَظُّ الْغَلِيظُ] قِيلَ: وَمَا الْعُتُلُّ الزَّنِيـمُ ؟ قَـالَ: [الشَّدِيدُ الْخَلْقِ الرَّحِيبُ الْبَطْنِ، ظَلُومٌ لِلنَّاسِ][(١)].

قال ﷺ: [تَبْكِي السَّمَاءُ مِنْ رَجُلٍ أصَحَّ اللهُ جِسْـمَهُ وَأرْحَـبَ جَوْفَـهُ وَأعْطَـاهُ الدُّنْيَا، فَكَانَ لِلنَّاسِ ظَلُوماً، فَذلِكَ الْعُتُلُّ الزَّنِيـمُ] قَـالَ: [وَتَبْكِـي السَّمَاءُ مِـنَ الشَّيْخِ الزَّانِي مَا تَكَادُ الأَرْضُ تُقِلُّهُ][(٢)]. وعن أبـي هريـرةَ ﷺ قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: [لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَدُ الزِّنَا وَلاَ وَلَدُهُ وَلاَ وَلَدُ وَلَدِهِ، وَأنَّ أوْلاَدَ الزُّنَاةِ يُحْشَـرُونَ فِـي يَـوْمِ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ][(٣)].

وقال ﷺ: [لاَ تَزَالُ أمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَفْشُ فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَى، فَإنْ فَشَا فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا فَيُوشَكُ أنْ يَعُمَّـهُمُ اللهُ بِعِقَـابٍ][(٤)]، وقـال عكرمـةُ: (إذا كَـثُرَ أوْلاَدُ الزِّنَـا قَـلَّ الْمَطَرُ)[(٥)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾؛ معناهُ: لا تُطِعْـهُ لأنـه كان ذا مالٍ وبنين؛ أي لا تُطِعْهُ لِمَالِهِ وبَنِيهِ، وكان مالهُ نحواً من سبعةِ آلاف مثقالٍ مـن

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤٧؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن شهر بن حوشب، قال: حدثني عبدالرحمن بـن غنـم أن رسـول الله ﷺ قال...) وذكره. وأخرجه الإمام أحمد في المسـند:ج٤ ص٢٢٧ بنحـوه. وفي مجمـع الزوائـد: ج ٧ ص١٢٨؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب وثقه جماعة وفيه ضعف. وعبدالرحمـن ابن غنم ليس له صحبة على الصحيح).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤٨؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وابن جرير وابن المنـذر عـن زياد بن أسلم قال: قال رسـول الله ﷺ...) وذكـره. وأوقفـه الطـبري في جـامع البيـان: الأثـر (٢٦٨١٨) على زيد بن أسلم.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج١ ص٤٧٤: الحديث (٨٦٣) بلفظ: [ولا شيء من نسـله إلى سـبعة آباء]. وفي مجمع الزوائد:ج٦ ص٢٥٧؛ قال الهيثمي: (وفيه الحسين بن إدريس وهو ضعيف). وفي كنز العمال: الحديث(١٣٠٩٥) ساقه المتقي بلفظه وعزاه لابن النجار.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٤ ص١٩: الحديث (٥٥). والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٣٣٣. وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٢٥٧؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني وفيه محمـد بـن عبدالرحمن بن لبيبة، وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، ومحمد بن إسحق) وقد صـرح بالسـماع، فالحديث صحيح أو حسن.

(٥) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٣٥.

فضَّة، وكان له بنون عَشرَةٌ، وكان يقولُ لَهم: مَن أسلَمَ منكم فـلا يدخلَـنَّ داري، ولا أنفعهُ بشيءٍ أبداً. قرأ ابنُ عامر ويعقوب (أنْ كَانَ ذا مَال) بالمدِّ، وقـرأ حمـزةُ وعـاصم (أأنْ) كان بهمزَتين. وقرأ غيرُهم على الخبر حين قرأ بالاستفهام، فمعناهُ: ألأَن كان ذا مال وبنينٍ تطيعهُ، ويجوز أن يكون رَاجعاً الى ما بعدَهُ، والمعنى: لأجلِ أنْ كـان ذا مـالٍ وبنين.

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا ﴾ ؛ وهـي القـرآنُ أبَـى أن يقبَلـها و؛ ﴿ قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي ما كَتَبَهُ الأوَّلون مـن أحاديثـهم قـد درسه مُحَمَّدٌ وأصحابهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي سَنَسِمُهُ بالسَّوادِ على الأنفِ، وذلك أنه يَسْوَدُّ وجههُ قبلَ دخولِ النار، والمعنى: سنُعْلِمهُ بعلامةٍ يَعرِفُهُ بها جميعُ أهلِ القيامة، ويقال: سَنَسِمُهُ بسِيمَاءَ لا تفارقهُ آخرَ الدهر؛ أي نُلحِقُ به عَاراً يبقى ذلك عليه أبـداً، كمـا تُعـرَفُ الشـاةُ بسِـيمَتِها، والخرطـومُ: الأنـفُ، وقـال الضحَّاك: (سَنَكْوِيهِ عَلَى وَجْهِهِ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّا امتَحنَّا أهلَ مكة بـالجوعِ والقحـط والقتـلِ والسَّبي والهزيمةِ يومَ بدر،كما امتحنَّا أهلَ البُستان، وأراد به بُستاناً كان باليمنِ يعرَفُ بالقيروان دون صَنعاء بفرسخَين، كان يطئُوه أهلُ الطريقِ، قد غرسَهُ قومٌ بعدَ عيسى عليه السلام وهـم قوم بخلاء، وَقِيْلَ: من بني إسرائيلَ، وكانوا مُسلمين باليمنِ، ورثُـوا هـذا البسـتانَ مـن أبيهم وفيه زرعٌ ونخيل، وكان أبوهم يجعلُ مما فيه حظّاً للمسلمين عند الحصادِ والصِّرامِ.

فلمَّا ماتَ أبوهم ورثوهُ وكانوا ثلاثةً، قالوا: إنَّ المالَ قليلٌ والعيـالَ كثـيرٌ، فـلا يسَعُنا أن نفعلَ ما كان يفعلُ أبونا، وإنما كان أبونـا يفعـلُ ذلـك لأن المـالَ كـان كثيراً والعيالَ قليلاً، فعزَمُوا على حِرمان المساكين، فتحالَفُوا بينهم يوماً ليَغـدُوا غـدوةً قبـل خروجِ الناس ليَقطَعُوا نخلَهم إذا أصبَحُوا بسَرقَةٍ من الليـلِ مـن غـير أن يشـعُرَ بـهم المساكينُ، ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي ولا يقُولـون إنْ شـاءَ اللهُ، وذلـك قَوْلُـهُ تَعَالَى: (إذْ أقْسَمُوا لَيَصرِمُنَّهَا) أي ليقطعُنَّ ثمرَها (مُصبحِينَ) أي عنـدَ طُلـوعِ الفجـرِ

قبلَ أن يخرُجَ المساكينُ إليه (وَلاَ يَسْتَثْنُونَ) أي ولم يقولوا إنْ شاءَ اللهُ[1].

ورُوي أنَّ أبَاهم كان يأخذُ من هذا البستان قُوتَ سَنَةٍ لنفسهِ، وكان يتصدَّقُ بما بَقِيَ على المساكين. وَقِيْلَ: إنه كان يتركُ لَهم ما خرجَ من السِّباط الذي كان يسقطُ تحتَ النَّخلة إذا صُرمت، فقالَ بنوهُ بعدَ موتهِ: نحن جماعةٌ وإنْ فعَلنا ما كان يفعلهُ أبونا ضاقَ عَيشُنا، فحلَفوا ليَصرِمُنَّها مُصبحين لئلاً يصِلَ إلى المساكين منها شيءٌ، وَلاَ يَسْتَثْنُونَ.

وإنما شبَّهَ اختبارَ أهلَ مكَّة باختبار أهلِ البستان؛ لأن أبَا جهلٍ كان قالَ يومَ بدرٍ قبل التقاءِ الفئتين: وَاللهِ لَنَأْخُذهُمْ اخْذاً، وَلَمْ يَسْتَثْنِ، فقالَ ﷺ حِينَ بَلَغَهُ الْخَبَرُ: [اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ سِنِينَ كَسِنِينِ يُوسُفَ]، وكان هذا الدعاءُ قبلَ وقوعِ الهزيمة على الكفَّار، فابتلاهُم اللهُ بالجوعِ والقحط سبعَ سنين حتى أكَلُوا العظامَ المحرَّقة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم لَمَّا تخافتوا تلك الليلةَ على أن يَصرمُوها، سلَّطَ اللهُ على جنَّتِهم[2] بالليلِ ناراً فأحرقتْهُ وهم نائمون. ولا يكون الطَّائفُ إلاّ بالليلِ، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي كاللَّيل المظلمِ سوداءَ محترقةً. والصَّرِيْمَان: الليلُ والنهارُ، ولا يَصرمُ أحدُهما من الآخرِ، وَقِيْلَ: سُمي الليلُ صَرِيماً؛ لأنه يقطعُ بظُلمَتهِ عن التصرُّف في الأمور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي أصبَحُوا عند طُلوعِ الفجرِ يُنادِي بعضُهم بعضاً: أن اغدُوا إلى بستانِكم وزُروعِكم إنْ كُنتم قَاطِعين للثِّمار والأعناب والزُّروعِ قبلَ أن يعلم المساكينُ بنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي فتنَادَوا مُصبحين، وخَرَجُوا مُسرعين يتخَافَتُون؛ أي يُسِرُّون الكلامَ فيما بينهم ويتشَاوَرُون فيما بينهم ﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ، يزاحمهم على الثمرةِ أن لا

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٣٩، حكاه عن الكلبي في تفسيره.
(٢) في المخطوط: (جناتهم) والمناسب (جنتهم).

يقطَعنَّها أحدٌ من المحتاجين، والمعنى: أنَّهم كانوا يتشاوَرون يقولُ بعضهم لبعضٍ: (لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ)، والتَّخَافُتُ: هو إخفاءُ الحركةِ، والْخُفُوتُ: السُّكوت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي غدَوا على قصدِ منع الفقراء قادِرين في زَعمِهم على إحراز ما في جنَّتهم من الثمار دون الفقراءِ، وهم لا يعلَمُون أنَّها قدِ احترَقَتْ ليلاً وهم نائمون. وَقِيْلَ: إن الْحَرْدَ هو المنعُ والغضبُ والحنقُ على المساكين، وَقِيْلَ: الحردُ هو الْجِدُّ، وَقِيْلَ: الغِلْظُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ فلمَّا رأوا جنَّتَهم عند الصباحِ سوداءَ محترقةً قالوا: إنا قد ضلَلْنا الطريقَ وليست هذه جنَّتُنا، فلما أمعَنُوا النظرَ عرَفُوها، فعلموا أنَّها عقوبةٌ، فقالوا: (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) أي حُرِمنا ثمرَ جنَّتنا لِمَنعِنَا المساكين، وما أخطَأْنا الطريقَ إليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي قال أعدَلُهم وأفضَلُهم، وَقِيْلَ: أوسطُ الثلاثةِ سِنّاً، قال لَهم: ألَمْ أقُلْ لكم هلاَّ تستثْنُونَ في حَلفِكم وقد كان قالَ لَهم ذلك عندَ قسَمِهم.

وإنما أقيم لفظُ التَّسبيحِ مقامَ الاستثناءِ؛ لأنَّ في الاستثناءِ تعظيمَ اللهِ، والإقرارَ بأنَّ أحداً لا يقدِرُ أن يفعلَ فِعلَهُ إلاَّ بمشيئةِ الله تعالى. ويقالُ: كان استثناءُ القومِ في ذلك الزمان التسبيحُ. ويجوزُ أن يكون معنى التسبيحِ ها هُنا: هلاَّ تُنَزِّهُونَ اللهَ وتستغفرونَهُ من سُوءِ نيَّاتِكم؟ ﴿ قَالُوا ﴾ ؛ عندما رأوا مِن قدرةِ الله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾ ؛ أي تنْزيهاً لربنا وتعظيماً واستغفاراً له، ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ لأنفسنا بما عَزَمنا عليه من الذهاب بحقوق الفُقراءِ ومَنعِنا لهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي أقبَلُوا يلومُ بعضهم بعضاً بما كان منهم من منعِ المساكين، يقولُ كلُّ واحدٍ منهم لصاحبِهِ: هذا مِن عملِكَ، وأنتَ الذي بدَأْتَ بذلكَ، ثم ﴿ قَالُوا ﴾ ؛ بأجْمَعِهم: ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ حين لم نَصْنَعْ ما صنعَ أبونا من قبلُ. والطَّاغِي: المتجاوزُ عن الحدِّ.

ثم رجَعُوا إلى اللهِ تعالى ورَجَـوا منه العُقبَى، وسألوهُ أن يُبدِلَهم خيراً منها فقالوا: ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي نرغبُ إليه ونرجُو منه الْخَلَفَ في الدُّنيا، والثوابَ في الآخرة. قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ ؛ أي هذا العذابُ في الدنيا لِمَن منعَ حقَّ اللهِ ولِمَن كفرَ بنعمةِ الله، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ ؛ وأشدُّ على كفَّار مكة، ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أن الذي يخوِّفُهم اللهُ به حقٌّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ عتبةَ بن ربيعةَ كان يقولُ: إنْ كان ما يقولهُ مُحَمَّدٌ حقّاً في النعيمِ في الآخرة لنكوننَّ أفضلَ منهم في الآخرةِ، فضَّلنا عليهم في الدُّنيا. فأنزلَ اللهُ هذه الآيات لبيانِ أنَّ جناتِ النعيمِ في الآخرة خاصَّةٌ للَّذين يتَّقون الشِّركَ والفواحشَ.

وقوله تعالى: (أفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ) هذا استفهامٌ معناهُ الإنكار والتوبيخُ. وقوله تعالى: (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) إنكارٌ عليهم أيضاً لَمَّا حكَمُوا بالسويةِ بين أهلِ الثواب وأهل العقاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي ألَكُم يا أهلَ مكَّة كتابٌ من اللهِ، فيه تقرَأون بأنَّ لكم في الدُّنيا والآخرة ما تختارُون لأنفسكم. والمعنى: ألَكُم فيه كتابٌ تقرأون أنَّ لكم في ذلك الكتاب ما تختَارون.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ألَكُم علينا عهودٌ وثيقةٌ إلى يومِ القيامة، بأن لكم ما تقضون لأنفسكم أن لكم من الخير والكرامة[1]، وإنما كُسرت (إنَّ) في هاتين الآيتَين لدخولِ اللام في خَبرِها.

ثُم قال تعالى لنبيِّهِ ﷺ: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي سَلهُم يا مُحَمَّدُ أيُّهم كفيلٌ لهم بأنَّ لهم في الآخرةِ ما للمسلمين، والزَّعِيمُ هو الكفيلُ الضَّامِنُ.

---

(١) أدرج الناسخ كلمات في الأصل المخطوط، ثم علَّم عليها بالحذف.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾؛ معنـاهُ: أَلَهُم فيما يقولون شُهداء وأعوان عليهِ؟ فليَـأْتُوا بشُـركائهم يشـهدون لَـهم بذلـك إنْ كانوا صَادِقين في مَقالتِهم، وأرادَ بالشُّركاء الأصنامَ التي أشرَكوها باللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ معناهُ: يومَ يُكشَفُ عن الأمُور الشدائدِ وهو يومُ القيامةِ، وهـذا مما كَـثُرَ اسـتعمالهُ في كلامِ العرب على معنى يومٍ يشتدُّ الأمرُ كما يشتدُّ ما يحتـاجُ إلى أن يكشـفَ فيـه عـن ساقٍ، ومِن ذلك قولُهم: قَامَتِ الحربُ على ساقٍ، وكَشَفَتْ عـن سـاقٍ، وإن لم يكـن للحرب ساقٌ.

وانتصبَ قوله (يَوْمَ يُكْشَفُ) على الظَّرفِ لقوله (فَلْيَـأْتُوا بشُـرَكَائِهِمْ) في ذلـك اليومِ لتَنفعَهم أو تشفعَ لهم، وعن عكرمةَ قالَ: (سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى (يَـوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) فَقَالَ: إذا خَفِيَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ فَـابْتَغُوهُ فِـي الشِّعْرِ، فَإنَّـهُ دِيوَانُ الْعَرَب، أمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

وَالْخَيْـلُ تَعْـدُو عِنْـدَ وَقْـتِ الإشْـرَاقِ وَقَـامَتِ الْحَـرْبُ بنَـا عَلَـى سَـاقٍ)[1]

أي يومُ القيامة يومُ كَرْبٍ وشدَّة، وقال ابنُ قتيبة: (أَصْلُ هَذا أنَّ الرَّجُلَ إذا وَقَعَ فِي أمْرٍ عَظِيمٍ يَحْتَاجُ إلَى الْجِدِّ فِيْهِ يُشَمِّرُ عَنْ سَاقَيْهِ) فاستُعيرَ الكشـفُ عـن السـاقِ في موضعِ الشدَّة، وقال دريدُ بن الصمَّة يرثِي أخاهُ:

كَشَـمْسِ الإزَارِ خَـارِجٌ نِصْـفُ سَـاقِهِ صَبُـورٌ عَلَـى الْجَـلاَ طَـلاَّعُ أنْجُـدِ

يقالُ للأمرِ إذا اشتدَّ وتفاقمَ وتراكبَ غمُّهُ وكشفَ عن ساقهِ يومَ يشـتدُّ الأمـرُ، كما يشتدُّ ما يحتاجُ إليه إلى أنْ يكشفَ عن ساقٍ.

---

(١) في الـدر المنثور: ج ٨ ص٢٥٤؛ قـال السـيوطي: (أخرجـه عبـد بـن حميـد وابـن المنـذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عـن طريـق عكرمـة عـن ابـن عباس) وذكره. وأخرجه ابن أبي حـاتم في التفسـير: الأثـر (١٨٩٥٣). والحـاكم في المسـتدرك: كتاب التفسير: الرقم (٣٨٩٨)، وقال هذا حديث صحيح الإسناد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيُدْعَوْنَ إلَى السُّجُودِ فَـلاَ يَسْتَطِيعُونَ) قال المفسِّرون: يسجدُ الخلقُ كلُّهم سجدةً واحدةً، ويبقى الكفَّارُ والمنافقون يريدُون أن يسجُدوا فلا يستطيعون، كما رُوي: أن أصلاَبَهم يومئذٍ تصيرُ عَظْماً واحداً مثلَ صَيَاصِيِّ البقر، يعني قُرونَها. ويقالُ: يأمرُ الله أهلَ القيامةِ بالسُّجود، فمَن كان يسجدُ له في الدُّنيا قَدَرَ على السُّجود في الآخرةِ، ومَن لا فلاَ، فيكون ذلك أمارَةَ تمييز المؤمن من الكافر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ ﴾ ؛ أي ذليلةً، وذلك إذا عاينوا النارَ، وأيقَنُوا بالعذاب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ ﴾ ؛ أي تَغشَاهُم ذِلَّةُ الندامةِ والحسرةِ، وتعلُوهم كآبةٌ وحزنٌ وسوادُ الوجهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ﴾ ؛ يعني وقد كَانُوا يُدعَون بالأذانِ في الدُّنيا، ويُؤمَرون بالصلاةِ المكتوبَة، ﴿ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي مُعَافُون ليس في أصلابهم مثل سَفَافِيدِ الحديدِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ ﴾ ؛ أي خَلِّ بيني وبينَ مَن يكذِّبُ بهذا القرآن، لا تشغَلْ قلبَكَ به، كِلْهُ فأنا أكفيكَ أمرَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي كلما جدَّدُوا معصيتَهُ جدَّدنَا لهم نعمةً وأنسيناهُم شُكرَها ثم أخَذناهم بغتةً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ.

وقولـه تعالى: ﴿ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي أتسألُهم أجراً يا مُحَمَّدُ على ما تَدعُوهم إليه من الإيمان جُعْلاً فهُم مِن الغَرمِ الذي يَلزَمُهم بإجابتِكَ مُثقَلُونَ فيمتنعون عن الإجابةِ بسَبَبِه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي أعِندَهم الوحيُ بأنَّكَ على الباطلِ وهم على الحقِّ، فيكتُبون ذلك الوحيَ ويخاصمونَكَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ ﴾ ؛ أي اصبرْ يا مُحَمَّدُ على تبليغِ الوحيِ والرسالة، ولا تكُنْ في الضَّجَرِ والعجَلةِ كصاحب الحوتِ يونُسَ

عليه السلام، والمعنى: لا تَضْجَرْ فيما يلحقُكَ من الأذيَّة من جهلهم(١) كما ضَجِرَ صاحبُ الحوتِ، فخرجَ من بين ظَهرَانِيهم قبلَ أن يأذنَ اللهُ له حتى الْتَقَمَهُ الحوتُ، ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، فنادَى وهو في بطنِ الحوتِ: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨﴾؛ أي مَمْلُوءٌ غمّاً، ﴿لَوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ بقبُولِ توبتهِ، ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩﴾؛ أي لأُلقِيَ من بطنِ الحوت على وجهِ الأرض، وَقِيْلَ: معناه: لنُبذ بالضَّجَر وهو مَلُومٌ مذمومٌ، ولكنْ قَبِلَ اللهُ توبتَهُ، فنُبذ وهو غيرُ مَذْمُومٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾؛ أي اختارَ يونُسَ لنُبوَّتهِ وللإسلامِ، فجعلَهُ من الصَّالحين بقَبُولِ تَوبَتهِ، فردَّ إليه الوعيَ وشَفَّعَهُ في قومهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ اختلَفُوا في ذلكَ، قال بعضُهم: كان عادةِ العرب أنَّهم إذا حَسَدُوا إنساناً تجوَّعُوا ثلاثةَ أيَّام، ثم خرَجُوا عليه فقالوا لَهُ: ما أحْسَنَكَ؛ ما أجْمَلَكَ؛ مَا كذا وكذا ليُصيبوهُ بأعيُنهم، فتوَاطَؤا على أنْ يفعلوا ذلك بالنبيِّ ﷺ، فدفعَ اللهُ عنه كيدَهم وشرَّهم. وَقِيْلَ: إن العينَ كان في بني إسرائيل أشدَّ، حتى أنَّ الناقةَ السمينة والبقرةَ السَّمينة كانت تَمُرُّ بأحدِهم، فيُعَايِنُوها ثم يقولُ: يا جاريةُ خُذِي الزَّنبيلَ والدرهمَ واذهَبِي ائْتِنَا بلحمٍ مِن هذه، فما يبرحُ أن تُنحَرَ من سَاعَتِها.

قال الكلبيُّ: (كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَب يَمْكُثُ لاَ يَأْكُلُ يَوْمَيْن أوْ ثَلاَثَة، ثُمَّ يَرْفَعُ جَانِبَ خِبَائِهِ فَتَمُرُّ بِهِ الإبلُ، فَيَقُولُ فِيهَا مَا يُعْجِبُهُ، فَمَا تَذْهَبُ إلاَّ قَرِيباً حَتَّى تَسْقُطَ لِوَقْتِهَا، فَسَأَلَ الْكُفَّارُ هَذا الرَّجُلَ أنْ يُصِيبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بعَيْنِهِ وَيَفْعَلَ بِهِ مِثْلَ ذلِكَ، فَأَجَابَهُمْ إلَى ذلِكَ(٢)، فَعَصَمَ اللهُ تَعَالَى نَبيَّهُ وَحَفِظَهُ عَنْهُمْ، وَأنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ).

---

(١) في الأصل المخطوط: (جهنم) وهو غير مناسب.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٥٥؛ قال القرطبي: (فلما مر النبي ﷺ أنشدَ:

قَدْ كَانَ قَوْمُكَ يَحْسَبُونَكَ سَيِّداً ... وإخَالُ أنَّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ)

ورُوي أنَّ الكفارَ كانوا يَقصِدُون رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يُصيبوهُ بالعين، وكانوا ينظُرون إليه نظرَ أشدّ يَداً بالعين، وقال الزجَّاجُ: (مَعْنَى الآيَةِ: أنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا مِنْ شِدَّةِ بُغْضِهِمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يَنْظُرُونَ إلَيْهِ نَظَرَ الْبَغْضَاءِ)[1]، والمعنى: تكادُ الكفَّارُ بنظرِهم إليكَ أنْ يصرَعُوكَ.

وقرأ نافعُ (لِيَزْلِقُونَكَ) بفتحِ الياء، يقالُ: زَلَقَ هو وَزَلَقْتُهُ، مثلُ حَزَنْتُهُ وحَزَنَ هُوَ، وقرأ الباقون (لِيُزْلِقُونَكَ) من أزْلَقَهُ من موضعهِ إذا نَحَّاهُ، وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قَالَ: [الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ][2] وقال: [إنَّ الْعَيْنَ لَتُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وَالْجَمَلَ الْقِدْرَ][3]. وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: وإن يكادُ الذين كفرُوا من شدَّة إبغاضِهم وعداوتِهم لكَ يُسقِطُونكَ ويَصرِفُونكَ عمَّا أنتَ عليه من تبليغِ الرِّسالةِ ويُزيلونكَ عن المقامِ الذي أقامكَ اللهُ فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي لما أعيَتهم الحيلةُ عن صرفِ الناس عنكَ نسبُوكَ إلى الجنونِ مع علمِهم بخلاف ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ) يعني القرآنَ، وذلك أنَّهم كانوا يكرَهُون القرآنَ أشدَّ الكراهةِ، فيُحِدُّونَ النظرَ إلى النبيِّ ﷺ حين يتلوهُ بالبغضاءِ، وكانوا يَنسِبُونَهُ إلى الجنون إذا سَمعوهُ يقرأ القرآنَ، فقال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي ما القرآنُ الذي يقرؤهُ عليهم إلاَّ عِظَةٌ للخلائقِ كلِّهم.

آخر تفسير سورة (**نون – القلم**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) في إعراب القرآن: ج ٥ ص١٢؛ قال الزجاج: (إنما كانوا ينظرون إلى النبي ﷺ نظر الإبغاض والنفور. فالمعنى على هذا أنهم لحدَّة نظرهم إليه يكادون يزيلونه من مكانه).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص١٧: الحديث (١٠٩٠٥) ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب الطب والمرضى والرقى: الحديث (٢١٨٨). والترمذي في الجامع: الطب: باب ما جاء في العين: الحديث (٢٠٦٢). وعبدالرزاق في المصنف: الحديث (١٩٧٧٠).

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٦٢؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو نعيم في الحلية عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: ...) وذكره.

سُورَةُ الْحَاقَّــة

سُـورَةُ الْحَاقَّـةِ مَكِّيَّـةٌ، وَهِـيَ أَلْـفٌ وَأَرْبَعُـةٌ وَثَمَـانُونَ حَرْفـاً، وَمِائَتَـان وَسِـتٌّ وَخَمْسُونَ كَلِمَةً، وَاثْنَتان وَخَمْسُـونَ آيَـةً. قَـالَ ﷺ: [مَـنْ قَرَأَهَـا حَاسَـبَهُ اللهُ حِسَـاباً يَسِيراً][1]. وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ ﴾ ؛ اسمٌ من أسماءِ القيامة، سُمِّيت بـه حَاقَّةً لأنَّها حَقَّتْ فلا كاذبةَ لها، ولأنَّ فيها حَوَّاق الأمُور وحقَائِقَها، وفيها يَحِقُّ الجزاءُ على الأعمال؛ أي يجبُ، يقالُ: حقَّ عليهِ الشيءُ إذا وجبَ، قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿وَلَكِـنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذاب عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2]، ولا يكون في القيامةِ إلاَّ حقائقُ الأمور.

وقولـهُ تعـالى: (مَـا الْحَاقَّـةُ) استفهامٌ بمعنـى التفخيـمِ لشـأنِها، كمـا يقـالُ: زيـدٌ مـا هـو؟ علـى التعظيـمِ لشـأنهِ، ثـم زادَ في التَّـهويلِ فقـال: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ ﴾ ؛ أي كأنَّكَ لستَ تعلمُها إذا لم تُعاينْها، ولم تَرَ ما فيها من الأهوالِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ ﴾ ؛ أي بطُغيانِـهم وكُفرِهم، هذا قولُ ابنِ عبَّاس ومجاهد، كذبُـوا بالقيامـةِ فأهلكَـهم اللهُ، والقارعـةُ مـن أسماءِ القيامة، سُمِّيت بذلك لأنَّها تقرعُ القلوبَ بالأهوالِ والمخافة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ ﴾ ؛ أي بطُغيانِـهم وكُفرِهم، هذا قول ابنِ عبَّاس ومجاهد، وقال آخَرُون: يعنِي أهلِكُوا بالصَّيحة الطاغيةِ، وهي التي جاوزتِ الحدَّ والمقدارَ.

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٥ عن أبي بن كعب بإسناد واه.

(٢) الزمر / ٧١ .

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي بريحٍ بـاردة شَـدِيدَةِ الـبردِ جِـدّاً بالغـة مُنتَـهاها في الشـدَّة. والصَّرْصَـرُ: شـدَّةُ الـبردِ، والصَّرْصَرُ: ما يتكرر فيه البردُ الشديد، كما يقال: صَلَّ اللجامُ إذا صوَّتَ، فإذا تكــرَّرَ صوتهُ قِيْلَ: صَلْصَلَ، والعَاتِيَةُ من قولِهم: عتَا النبتُ إذا بلغَ مُنتهاه في الجفــافِ، ومـن ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِـبَرِ عِتِيّـاً﴾(١)، وَقِيْـلَ: معنـى عَاتِيَـةٍ عَتَـتْ عـن خزائنِها فلم يكن لهم عليها سبيلٌ، ولم يعرِفُوا كم خرجَ منها.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ ؛ أي أرسَلَها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّام حُسوماً؛ أي مُتَتَابعَةً لا ينقطعُ أوَّلُــهُ عـن آخـرِهِ، كمـا يتـابعُ الإنسـانُ الكـيَّ علـى المقطـوعِ الجسـم دمـهُ؛ أي يقطعـهُ. وفي الحديــثِ: [إنَّ هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِي أصَابَتْهُمْ كَانَتْ قِطْعَةً مِنْ زَمْهَرِيرَ عَلَى قَدْرِ مَا يَخْرُجُ مِـنْ حَلَقَـةِ الْخَاتَمِ](٢). قال وهبُ: (هَذِهِ الأَيَّامُ الَّتِي أرْسِلَتِ الرِّيحُ عَلَى عَادٍ هِـيَ أيَّـامُ الْعَجُـوز ذاتُ بَرْدٍ وَرِيَاحٍ شَدِيدَةٍ، وَانْقَطَعَ الْعَذابُ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ). وَقِيْلَ: سُميت أيامُ العَجْزِ؛ لأنَّها في عَجزِ الشِّتاء، ولها أسَامِي مشهورة تُعرف في كتبِ اللغة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ﴾ ؛ معناهُ: فترى أيُّها الرَّائِي القــومَ في تلك الأيام والليالي صَرْعَى؛ أي ســاقطِين بعضُــهم علـى بعـضٍ مَوتـى، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي كأنَّهم أصُول نخلٍ ساقطةٍ باليـةٍ قـد نُخِـرَتْ وتَـآكَلَتْ وفسَدت. والصَّرْعَى جمعُ صَرِيعٍ، نحوُ قتيلٍ وقَتْلَى. قَوْلُــهُ تَعَـالَى: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي هل ترَى لهم من نَفْسٍ باقيةٍ قائمة، والمعنى: لم يبق منهم أحدٌ إلاَّ أهلَكَتْهُ الريحُ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ ؛ قـرأ أبــو عمــرٍو والحســنُ والكسائيُّ ويعقوب بكسرِ (قِبَلَهُ) بكسرِ القاف وفتحِ الباء، ومعناهُ: وجَاءوا فرعونَ

---

(١) مريم / ٨ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٦٤؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو الشيخ في العظمة عن ابـن عبـاس) وذكره بمعناه. ولم أقف عليه بلفظه.

ومَن يليهِ من جنوده وأتباعهِ وجموعه، وقرأ الباقون بفتحِ القاف وإسكانِ الباء، ومعناهُ: ومَن تقدَّمَهُ من القرون الخالية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ يعني قومَ لوطٍ انقلَبت قرياتُهم بأهلِها حين خُسِفَ بهم جاءُوا بالخطءِ العظيمِ وهو الشركُ باللهِ تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ يعني لُوطاً عليه السلام وموسى عليه السلام، والمعنى: فعَصَوا رسُلَ ربهم، إلاَّ أنه وحَّدَ الرسولَ؛ لأنه قد يكون مصدرٌ وأقيم مقامَ لفظِ الجماعة، وقولهُ تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي زائدةً ناميةً تزيدُ على الأخذاتِ التي كانت فيمَن قبلَهم، ومنه الرَّبْوَةُ للمكانِ المرتفع، ومنه الرِّبَا لِمَا فيه من الزيادةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: لَمَّا جاوزَ الماءُ القدرَ وارتفع حدَّ أيامِ الطُّوفان في زمنِ نوح عليه السلام حتى عَلاَ الماءُ على كلِّ شيء وارتفعَ، حَمَلنا آباءَكم وأنتم في أصلابهم في السَّفينة الجاريةِ التي تَجري على الماءِ. وسَمَّى ارتفاعَ الماءِ في ذلك اليومِ طُغياناً لخروجهِ في ذلك اليوم عن طاعةِ خُزَّانهِ. ويقالُ: لا ينْزِلُ قطرٌ من السَّماء إلاَّ وعِلْمُ الملائكةِ محيطٌ بها إلاَّ في ذلك اليوم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ ؛ أي لنجعلَ تلك الأخذةَ وتلك السفينةَ بما كان من إغراق قوم نوحٍ وإنجائهِ والمؤمنين معه عِظَةً يتَّعِظُ بها الخلقُ، فلا تفعَلُوا ما كان القومُ يفعلونَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي تسمَعُها وتحفَظُها أذنٌ حافظةٌ لِمَا جاءَ من عندِ الله.

قال قتادةُ: (أُذُنٌ سَمِعَتْ وَعَقَلَتْ مَا سَمِعَتْ)[(١)]، وقال الفرَّاءُ: (لِتَحْفَظَهَا كُلُّ أذُن) فيكون عِظَةً لِمَن يأتي بعدُ، قالَ رسولُ الله ﷺ: [سَأَلْتُ اللهَ تَعَالَى أنْ يَجْعَلَهَا أذُنَكَ يَا عَلِيُّ] قال عليٌّ: فَمَا سَمِعتُ شَيْئاً فَنَسِيتُهُ بَعْدَ ذلِكَ[(٢)]. وفي تفسير النقَّاش[(٣)]:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٩٥٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٩٥٤ و٢٦٩٥٥). وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٨٩٦١).

(٣) وهو محمد بن الحسن بن محمد، أبو بكر النقَّاش (٢٦٦-٣٥١هـ) عالم بالقراءات والتفسير،=

[أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ نَزَلَتْ (وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) أخَذ بـأُذُنِ عَلِـيٍّ ﷺ وَقَـالَ: هِـيَ هَذِهِ][1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ قـال عطـاءُ: (يُرِيدُ النَّفْخَةَ الأُولَى)، وقال الكلبيُّ ومقاتل: (النَّفْخَةُ الثَّانِيَـةُ)[2]. والنـافِخُ إسـرافيلُ، وأكثر المفسِّرين على أنَّها النفخةُ الأُولى التي تكون للموتِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي تُحمِلُـها الملائكةُ الموكَّلون بها فيَضرِبُونَ الأرضَ بالجبال والجبالَ بالأرضِ دفعةً واحدة، فتصـيرُ الجبال هَباءً مُنْبَثّاً، قال الحسنُ: (تَصِيرُ غَبَرَةً نَفَسَ وُجُوهِ الْكُفَّار). والـدَّكُّ: هُـوَ الْكَسْـرُ وَالدَّقُّ، والمعنى: فَدُقَّتا وكُسِرَتا كسرةً واحدة لا يثني[3]، وَقِيْلَ: الدَّكُّ البَسْطُ بأن يوصَلَ بعضُها إلى بعضٍ حتى تَنْدَكَّ، ومنه الدُّكَّانُ، والنْدَكَّ سَنَامُ البعيرِ إذا انغرسَ في ظهرِهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي قـامَتِ القيامـةُ، ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ ؛ مـن هَيبَـةِ الرَّحمـنِ، ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي ضعيفـةٌ جـداً لا تستقلُّ يومئـذ لانتقـاضِ بُنيتـها. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ﴾ ؛ أي على أطرافِها ونواحيها، واحِدُها أرْجَا مقصورةٌ وتثنيتهُ رَجَوَانِ.

قال الضحَّاك: (إذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، أمَرَ اللهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَـا فَتَشَـقَّقَتْ، وَتَكُـونُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى جَوَانِبِـهَا حَتَّـى يَـأْمُرَهُمُ اللهُ تَعَـالَى، فَيَـنْزِلُونَ إلَـى الأَرْضِ فَيُحِيطُـونَ بالأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾[4])[5]. والْمَلَـكُ لفظهُ لفظ الواحدِ وأن المرادَ به اسمُ الجنسِ.

=أصله من الموصل. ولد ببغداد ونشأ بها، وسمـع بالشـام ومصـر والجزيـرة والموصـل والجبـال وخراسان. له (شفاء الصدور المهذب في تفسير القرآن) و(الإشارة في غريب القـرآن)و(الموضـح في معاني القرآن). ينظر: معجم المفسرين:ج ٢ ص٥١٣.

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٦٤؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٩٣.

(٣) في الأصل المخطوط: رسم الناسخ الكلمة من غير نقط.

(٤) الفجر / ٢٢ .

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٩٥٨) مطولاً.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (ثَمَانِيَةُ صُفُوفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ لاَ يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إلاَّ اللهُ تَعَالَى)[(١)]. قـالَ رسـولُ اللهِ ﷺ: [الْيَوْمَ تَحْمِلُهُ أرْبَعَةٌ، فَإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أيَّدَهُمُ اللهُ بأَرْبَعَـةٍ أخْـرَى فَكَـانُوا ثَمَانِيَةً][(٢)]. ومعنى الآيةِ: ويحملُ عرشَ ربكَ يومَ القيامةِ فوق الأربعةِ الذين هُم علـى الأرجاءِ ثمانية. وقال بعضُهم: ثمانيةٌ من الملائكةِ على صُورةِ الأوعَالِ مِـنْ أظلافـهم إلى رُكَبهم كما بين السَّماء والأرضِ[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ ؛ أي تُعرَضون للحسـاب، ﴿ لَا تَخْفَىٰ ﴾ ؛ علـى اللهِ، ﴿ مِنكُمْ ﴾ ؛ نفسٌ؛ ﴿ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ ولا يخفَـى عليـه مـن أعمالِكم شيءٌ. قرأ الكوفيُّون غيرَ عاصمٍ (لاَ يَخْفَـى) بالياءِ، وقـرأ البـاقون بالتـاءِ. وَقِيْلَ: معنى قولهِ تعالى (لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) أي لا تخفَى سريرةٌ خافيةٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ وهم أهلُ الثَّواب، يُعطَون كتابَهم بأيمانِـهم فيقـولُ كـلُّ واحـدٍ منـهم للنـاسِ سُـروراً بكتابهِ: تعالَوا اقرَأوا ما في كتَابيَهْ مِن الثـواب والكرامـةِ، وهـذا كـلامُ مَـن بلـغَ غايـةَ السرور.

ومعنى(هَاؤُمُ اقْرَءُوا) أي هاتُوا أصحـابي اقـرَأوا كتابيـه، قـال ابـن السِّـكيت: (يُقَالُ: هَاءَ يَا رَجُلُ، وَهَاؤُمَا يَا رَجُلاَنِ، وَهَاؤُم يَـا رجَـالٌ) والأصـلُ هَـاكُم فحُذِفَـتِ الكافُ، وأبدلت منها همزةُ، وألقيت حركةُ الكافِ عليها.

وعن زيدِ بن ثابت قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أوَّلُ مَنْ يُعْطَى كِتَابَـهُ مِـنْ هَـذِهِ الأُمَّةِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب، وَلَهُ شُعَاعٌ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ] فَقِيلَ لَهُ: فَأَيْنَ أبُو بَكْرٍ ؟ فَقَـالَ: [هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! زَفَّتْهُ الْمَلاَئِكَةُ إلَى الْجَنَّةِ][(٤)]. وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْـها قَـالَتْ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٩٦٩) عن ابـن عبـاس بأسـانيد، والأثـر (٢٦٩٧٠) عن الضحاك.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٩٧٢) عن ابن إسحق بلاغاً.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٦٧؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي في تفسيره).

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٢٦٩؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي. وقـد ذكرنـاه مرفوعـاً= من =حديث زيد بن ثابت بلفظه ومعناه في كتاب التذكرة). وأخرجـه الخطيـب في تـاريخ بغـداد

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [يَا عَائِشَةُ كُلُّ النَّاسِ يُحَاسَبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلاَّ أَبَا بَكْرٍ، فَهُوَ فِـي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ مَرْضِيَّةٍ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنِّـي علمـتُ وأيقنتُ في الدنيا أنِّي أحاسَبُ في الآخرةِ، وكنتُ أستعدُّ لذلـك، وسُـمي اليقـينُ ظَنّـاً؛ لأنه علمُ الغيب لا علمُ شهادة[2]، ففيه طرفٌ من الظـنِّ ولذلـك قـال ﷺ: [لَيْـسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي في حالةٍ من العيـشِ مَرْضِيَّةٍ برِضَاها بأن لَقِيَ الثوابَ[4] وأمِنَ من العقاب، ومعنـى (رَاضِيَـةٍ) أي مرضيَّـة، كقولِهِ: ماء دافقٌ.

وقولُـهُ تعـالى: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ، المنازل الرفيعةُ البناءِ. وقولهُ تعالى: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي ثِمارُها دانيةٌ مِمَّن يتناولُها، وهو جمع قِطْـفٍ وهو ما يُقْطَفُ من الثمار، والمعنى: ثِمارُها قريبةٌ ينالُها القائمُ والقاعد والمضطجـعُ، لا يَمنَعهم من تناوُلها شوكٌ ولا بُعْدٌ.

=حديث زيد بن ثابت بلفظه ومعناه في كتاب التذكرة). وأخرجه الخطيب في تـاريخ بغـداد عنـد ترجمة عمر بن إبراهيم: الرقم (٥٩٠٥): ج ١١ ص٢٠٢، وعمـر هـذا ضعيـف، قـال الخطيـب: (غـير ثقـة، يـروي المناكـير عـن الأثبـات). وفي الفوائـد المجموعـة: ص٣٣٦؛ قـال الشـوكاني: (موضوع).

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٣٠. وفي كنز العمال: (٣٢٦٣٥) عزاه المتقـي إلى الخطيب في المتفق والمفترق عن عائشة. وأبي نعيم في الرقم (٣٢٦٣٦).

(٢) هكذا في المخطوط: عرَّف (الغيب) ونكَّر (شهادة).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: الحديث (٢٥ و٦٩٨٢) عـن ابـن عبـاس و(٦٩٣٩) عـن أنس. والإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٧١. وفي مجمـع الزوائـد: ج١ ص١٥٣؛ قـال الهيثمـي: (رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح وصححه ابـن حبـان. وعن أنس رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات).

(٤) في المخطوط: (بأن تلقى بالثواب). والمعنى لا يستقيم.

ويقالُ لهم: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا ﴾ ؛ أي كُلوا واشربوا في الجنَّة، ﴿ بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ بما قدَّمتم في الأيامِ الماضية من الأعمال الصالحة، ويعني بالأيامِ الماضيةِ أيامَ الدُّنيا. والهناءُ: ما لا يكونُ فيه أذى من بولٍ ولا غائط، ولا يعقبهُ دارٌ ولا موتٌ.

وكان ابنُ عبَّاس يقولُ: (بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ: الصَّوْمُ فِي الأَيَّامِ الْحَارَّةِ). كما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [إنَّ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ بَاباً يُدْعَى الرَّيَّانُ، مَنْ دَخَلَهُ لاَ يَظْمَأُ أَبَداً، يَدْخُلُهُ الصَّائِمُونَ، ثُمَّ يُغْلَقُ عَلَيْهِمْ فَلاَ يَدْخُلُ مَعَهُمْ غَيْرُهُمْ][1].

ويقالُ: إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يقولُ يومَ القيامةِ: يا أوليائِي ما نظرتُ إليكم في الدُّنيا، قد قَلُصَتْ شفاهُكم من العطشِ، وغارَتْ أعيُنكم وخَمَصت بطونُكم، فكونوا اليومَ في نعيمِكم، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ ؛ قال ابنُ السائب: (تُلْوَى يَدُهُ الْيُسْرَى خَلْفَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَهُ). وَقِيْلَ: يُنْزع من صدرِهِ إلى خلفِ ظهرِه، ﴿ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: (نَزَلَتِ الآيَةُ الأُوْلَى قَوْلُهُ تَعَالَى (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) فِي أبِي سَلَمَةَ ابْنِ عَبْدِ الأَسَدِ زَوْجِ أُمِّ سَلَمَةَ، وَكَانَ مُسْلِماً يُعْطِيهِ الْمَلَكُ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ صَحِيفَةً مَنْشُورَةً يَقْرَأُ سَيِّئَاتِهِ فِي بَاطِنِهِ، وَيَقْرَأُ النَّاسُ حَسَنَاتِهِ فِي ظَاهِرِهِ، فَإذا بَلَغَ آخِرَ الْكِتَاب وَجَدَ أنْ قَدْ غُفِرَ لَهُ، فَيَقُولُ: (هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ) ثُمَّ صَارَتْ عَامَّةً لِلْمُسْلِمِينَ).

قال الكلبيُّ: وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ الثَّانِيَةُ فِي أخِي أبِي سَلَمَةَ، وَهُوَ الأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ الأَسَدِ، وَكَانَ كَافِراً يُعْطِيهِ الْمَلَكُ الَّذي يَكْتُبُ أعْمَالَهُ كِتَاباً مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، فَيَجِدُ حَسَنَاتِهِ غَيْرَ مَقْبُولَةٍ، وَسَيِّئَاتِهِ غَيْرَ مَغْفُورَةٍ، فَيَسْوَدُّ وَجْهُهُ وَيَقُولُ: (يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٦ ص١٣٤: الحديث (٥٧٥٤). والبخاري في الصحيح: كتاب الصوم: باب الريان للصائمين: الحديث (١٨٩٦). والترمذي في الجامع: كتاب الصوم: باب ما جاء في فضل الصوم: الحديث (٧٦٥).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٧٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر عن يوسف بن يعقوب الحنفي قال: ...) وذكره.

كِتَابِيَهْ) وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ كَافِرٍ، يَتَمَنَّى الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ أنَّهُ لَمْ يُعْطَ كِتَابَهُ وَلَمْ يَعْلَمْ مَا حِسَابُهُ تَحَسُّراً عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْقَبَائِحِ.

والهاءُ في (كِتَابِيَهْ) و (حِسَابِيَهْ) هاءُ الوقفِ والاستراحة، ولهذا يوقَفُ عليها كما في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا أدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَالَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: يا ليتَ الْمَوْتَةَ الأُولى كانت ماضيةً على الدوام، قال الحسنُ: (يَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ حِينَئِذٍ وَيُحِبُّونَهُ، وَكَانَ مِنْ أكْرَهِ الأَشْيَاءِ إلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا). ويقال: إن الهاءَ في قولهِ (يَا لَيْتَهَا) كنايةٌ عن الصَّيحةِ التي أخرَجتْهُ من القبرِ، يقولُ: يا لَيْتَهَا قَضَتْ عليَّ فاستريحَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ يعني لَمْ ينفعْنِي كثرةُ مالِي الذي جمعتهُ في الدنيا لأوقاتِ الشدائدِ والكُرَبِ لا يُمكنني أن أفتدِي بشيءٍ منه، ولم أعمَلْ منه شيئاً لِهذا اليومِ، بل فرَّقتهُ فيما لا يحلُّ وخلَّفتهُ للوارثِ ولم يدفَعْ عنِّي من عذاب الله شيئاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي ضَلَّتْ عني حجَّتي حين شَهدَتْ عليَّ جوارحي بالشِّرك وبجميعِ ما عملتُ في الدنيا. وَقِيْلَ: معنى السُّلطان العزُّ والأمر والنهيُ بَطَلَ منه كلُّ ذلك، وضالاً أسيراً لا يقدرُ على دفعِ العذاب عن نفسهِ.

يقولُ الله: ﴿ خُذُوهُ ﴾ ؛ أي يقولُ الله تعالى للزَّبانيةِ الموكَّلين بتعذيبهِ: خُذُوهُ؛ ﴿ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ فيَثِبُونَ عليه فيأخُذونه ويجعلون الغُلَّ في عُنقه.

يُروى: [أنَّهُ يَثِبُ عَلَيْهِ مِنْ جَهَنَّمَ ألْفُ مَلَكٍ مِنَ الزَّبَانِيَةِ، فَيَأْخُذُونَهُ فَيَنْقَطِعُ فِي أيْدِيهِمْ، فَلاَ يُرَى مِنْهُ فِي أيْدِيهِمْ إلاَّ الوَدَكُ[2] ثُمَّ يُعَادُ خَلْقاً جَدِيداً، فَيَجْعَلُونَ الْغُلَّ فِي عُنُقِهِ، وَيَجْمَعُونَ أطْرَافَهُ إلَى الْغُلِّ الَّذِي يَجْعَلُونَهُ فِي عُنُقِهِ، ثُمَّ يَقْذِفُونَهُ فِي الْجَحِيمِ حَتَّى يَتَوَقَّدَ فِي النَّارِ][3] فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي أدخِلوهُ وألزِموهُ الجحيمَ.

---

(١) القارعة / ١٠. (٢) الوَدَك: دَسَمُ اللحمِ. مختار الصحاح: (ودك): ص٧١٥.

(٣) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٣١ من غير إسناد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ السِّلسلةُ: حلقةٌ منتَظَمةٌ ذرعُها سبعون ذراعاً، الذِّراعُ سَبعون بَاعاً، كلُّ باعٍ أبعدُ ما بين الكوفةِ ومكَّة، قال الحسنُ: (اللهُ أعْلَمُ بأيِّ ذِرَاعٍ هُوَ). قال ابنُ أبي نُجيح: (بَلَغَنِـي أنَّ جَمِيعَ أهْلِ النَّار فِي تِلْكَ السِّلْسِلَةِ).

وقولهُ تعالى (فَاسْلُكُوهُ) أي أدخِلُوها في دبُرهِ، وأخرِجُوها من فيـهِ، والقُـوا مـا فضَلَ منها في عُنقهِ. يقالُ: سلكتُ الخيطَ في الإبرةِ إذا أدخلتهُ فيـها، وتقـولُ العـربُ: أدخلتُ الخاتمَ في إصبَعي، والقُلنسوةَ في راسِي، ومعلومٌ أنَّ الإصبعَ هي التي تدخلُ في الخاتمِ، ولكنَّهم أجَازُوا ذلك؛ لأنَّ معناهُ لا يُشكِلُ.

وفائدةُ السِّلسلة: أنَّ النارَ إذا رمَت بأهلِها الى أعلاَها جذبَتهُم الزبانيةُ بالسَّلاسلِ إلى أسفلها، قال ابنُ عبَّاس: (لَوْ وُضِعَتْ حَلَقَةٌ مِـنْ تِلْـكَ السِّلْسِـلَةِ عَلَـى ذرْوَةِ جَبَـلٍ لَذابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ، وَلَوْ جُمِعَ صَدِيدُ الدُّنْيَا كُلُّهُ لَمَا وَزَنَ حَلَقَـةً وَاحِـدَةً مِـنْ حَلَقِ تِلْكَ السِّلْسِلَةِ). قال الكلبيُّ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (فَاسْلُكُوهُ) أيِ اسْـلُكُوا السِّلْسِـلَةَ فِيْـهِ كَمَا يُسْلَكُ الْخَيْطُ فِي اللُّؤْلُؤِ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يصـدِّقُ بتوحيدِ الله وعظَمتهِ، وفيه بيانُ أنَّ هذا النوعَ من العذاب لا يكون إلاَّ للكفَّار، وقولـهُ تعالى: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ وهذا راجـعٌ إلى منع الحقـوقِ الواجبة في الشَّرع، مثلُ الزكاةِ ونحوِها، وفيه دليـلٌ أنَّ الكـافرَ يؤاخَـذُ بالشَّـرعيات في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي ليس لَهُ في الآخرةِ قريبٌ ينفعهُ ويحميه، ﴿ وَلَا طَعَامٌ ﴾ ؛ يشبعهُ، ﴿ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ وهـو ماءٌ يَسِيلُ من أجسامِ أهلِ النَّار من الصديدِ والقيح والدَّمِ، وكلُّ جُرْحٍ غَسـلتَهُ فخـرجَ منه شيءٌ فهو غِسْلِينٌ، قال ابنُ عبَّاس: (لَوْ أنَّ قَطْرَةً مِنَ الْغِسْلِينِ وَقَعَتْ فِـي الأَرْضِ أفْسَدَتْ عَلَى النَّاسِ مَعَايِشَهُمْ).

قوله تعالى: ﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يأكلهُ إلاَّ من يُخطئُ وخَطَؤُهم الشركُ، وعن عكرمةَ قال: (قَرَأنَا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ (لاَ يَأكُلُـهُ إلاَّ الْخَـاطِئُونَ)

فَقَالَ: مَهْ كُلُّنَا نُخْطِئُ). والخطأُ في الآيةِ ضدُّ الصَّواب لا ضدُّ العمدِ. والذي ذكرَهُ اللهُ في قوله ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ﴾[1] لا يخالفُ ما في هذه الآياتِ، ولأن النارَ دركَاتٌ، فمنهم مَن طعامهُ الغِسْلِين، ومنهم من طعامهُ الضَّرِيعُ، ومنهم من طعامهُ الزَّقُّومُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أقسِمُ بما تُشاهِدون مِمَّا في السَّماء والأرض، وبما لا تُشاهِدُون مما وراءَ السَّماء والأرضِ، ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ ﴾ ، إنَّ هذا القرآنَ لقولُ جبريلَ عليه السلام يرويهِ إلى مُحَمَّدٍ ﷺ.

والقرآنُ قولٌ أقسَمَ اللهُ بجميعِ ما خلَقَ إعظاماً للقَسَمِ، وذكرَ في أوَّل الآيةِ (لاَ) وذلك لأنه قد يُزَادُ في القسَمِ كما يقالُ: لاَ واللهِ لا أفعَلُ كذا، ويجوزُ أن تكون (لاَ) هاهنا صلةٌ في الكلامِ مولَّدَةٌ، وهو قولُ البصريِّين. ويجوزُ أن تكون لرَدِّ مقالةِ الكفَّار عليهم، وهو قولُ الفرَّاء، والمعنى: ليس كما يقولُ المشركون أقسِمُ بما تُبصِرون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي القرآنُ من عندِ الله، وأرادَ بالقليلِ نفيَ إيمانِهم أصلاً، ﴿ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ والكاهنُ: هو الْمُنَجِّمُ، وَقِيْلَ: هو الذي يُوهِمُ معرفةَ الأمور بما يزعمُ أنَّ له خَدَماً من الجنِّ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ولكنَّهُ تنْزِيلٌ من خالقِ الخلْقِ أجمعينَ على مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: لو اخترعَ علينا مُحَمَّدٌ ﷺ بعضَ هذا القرآن، وتكلَّفَ القولَ من تلقاءِ نفسهِ ما لم نَقُلْهُ، لأَخذنا منه بقُوَّتنا وقُدرتنا عليه ثم أهلَكناهُ. واليمينُ تُذكَرُ ويرادُ بها القوةُ، قال الشاعر[2]:

---

(١) الغاشية / ٦ .

(٢) البيت من قول الشماخ. وعرابة: اسم رجل من الأنصار من الأوس، وهو عرابة بن أوس بن قيضي الأوسي الحارثي الأنصاري، من سادات المدينة الأجواد المشهورين، أدرك حياة النبي ﷺ وأسلم صغيراً، وتوفي بالمدينة وعمره نحو ستين سنة.

إذا مَــا رَأيَــةٌ رُفِعَــتْ لِمَجْــدٍ تَلَقَّاهَــا عَرَابَــةُ بـــالْيَمِين

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ وهو عِرْقٌ يجري في الظَّهر حتى يتَّصِلَ بالقلب، إذا انقطعَ ماتَ صاحبهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي ليس منكم أحدٌ يَحْجِزُنَا عنه بأنْ يكون حَائِلاً بينه وبين عذابنا. والمعنى: لو تكلَّفَ ذلك لعَاقَبناهُ، ثم لم تَقدِرُوا أنتم على دفعِ عُقوبتنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ يعني القرآنَ عِظَةٌ لِمَن اتَّقى عقابَ اللهِ، ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ بالقرآن، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ، في الآخرةِ يندَمُون على تركِ الإيمَان بـه، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي أصدَقُ يقين أنه من اللهِ تعالى لِمَن تدبَّرَ وانصفَ، ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي سبحِ اللهَ العظيمَ ونزِّههُ عمَّا لا يليقُ بهِ.

آخر تفسير سورة (**الحاقة**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

سُورَةُ الْمَعَارِجِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَمِائَةٌ ووَاحدٌ وَسُتُّونَ حَرْفاً، وَمِائَتَـان وَسِـتَّ عَشْرَةَ كَلِمَةً، وَأَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطَـاهُ اللهُ ثَـوَابَ الَّذِيـنَ هُـمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ ﴾ ؛ نزلت في النَّضِرِ بن الحـارثِ حـين قالَ ﴿اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّـمَاءِ أَوْ ائْتِنَـا بعَذابٍ أَلِيمٍ﴾[2] والمعنى دعَا دعاءً على نفسهِ بعذابٍ، وذلك العذابُ واقعٌ لا محالـةَ لا بدَّ منه، ذلكَ العذابُ عندَ وُقوعهِ، ﴿ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ ﴾[3]؛ يدفعـهُ عنهم، فقُتِلَ النَّضِرُ يومَ بدرٍ صبراً وهو من الكـافرين، ولم يُقتَـلْ يومئـذٍ مـن الأُسـارى غيرهُ وغيرُ عُقبَةَ بن أبي مُعيطٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ ﴾ ؛ أي وُقـوعُ ذلـك العذاب من اللهِ ذي الفواضِلِ والنِّعَم، وسُمِّيت معارجُ؛ لأنَّـها علـى مراتـبَ. وَقِيْـلَ: معناهُ: ذِي معالِي الدَّرجاتِ التي يُعطيها أولياءَهُ في الجنَّـة. وقـال الكلـبيُّ: (مَعْنَـاهُ: ذِي السَّمَوَاتِ) سَمَّاها معارجَ؛ لأنَّ الملائكةَ تعرجُ فيها. وقال ابن زيدٍ: (مَعْنَى الآيَـةِ عَلَـى

---

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان:ج١٠ ص٤٣ بإسناده عن أبي ﷺ، وإسناده واه جداً.

(٢) الأنفال / ٣٢ .

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٧٧؛ قال السيوطي: (أخرجه الفريابي وعبد بن حميـد والنسـائي وابـن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابـن عبـاس) وذكـره. أخرجـه ابـن أبـي حـاتم في التفسير: ج ١٠ ص٣٣٧٣: الحديث (١٨٩٨٣). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسـير: الحديـث (٣٩٠٨)، وقال: هذا حديث صحيح.

قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ (سَالَ) بغَيْرِ هَمْزَةٍ؛ أيْ سَالَ وَادٍ مِنْ أوْدِيَةِ جَهَنَّمَ بعَذابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ ﴾ ؛ أي تصعدُ الملائكة والرُّوحُ يعني جبريلَ عليه السلام ﴿ إِلَيْهِ ﴾ ؛ أي إلى الموضعِ الذي لا يجري لأحدٍ سواهُ فيه حكمٌ. وقولهُ تعالى: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ قال عكرمةُ وقتادة:(يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ). وعن أبي سعيدٍ قالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا أطْوَلَ هَذا الْيَوْمَ- يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ- ! فَقَالَ ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ إنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا](٢).

وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: تعرجُ الملائكةُ والروح إليه في يومٍ يكون مقدارهُ خمسين ألفَ سَنة لعُروجِ غيرِهم، وذلك أنَّ مِن أسفلِ الأرضين السَّبع إلى فوقِ السموات السَّبع خمسين ألفَ سنةٍ، هكذا رُوي عن مجاهدٍ. وأما قولهُ ﴿يُدَبرُ الأمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلَى الأرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ ألْفَ سَنَةٍ﴾(٣) هو ما بين سَماء الدُّنيا إلى الأرضِ في الصُّعود خمسمائةِ سَنة، وفي النُّزول خمسمائةِ سَنة كذلكَ، فذلكَ قولهُ ﴿ألْفَ سَنَةٍ﴾ لغيرِ الملائكة.

وقال يَمانُ: (يَعْنِي: الْقِيَامَةَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ خَمْسُونَ مَوْطِناً، كُلُّ مَوْطِنٍ ألْفُ سَنَةٍ). وفيه تقديمٌ وتأخير؛ كأنَّه قالَ: ليس له دافعٌ في يومٍ كان مقدارهُ خمسين ألفَ سنةٍ، تعرجُ الملائكة والروحُ إليه. وَقِيْلَ: معنى الآية: لو جعلَ اللهُ محاسبةَ الخلائق إلى أحدٍ غيرِه لم يفرَغْ منهُ في خمسين ألف سَنة، وهو يفرغُ منه في ساعةٍ واحدة؛ لأنه سريعُ الحساب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٠٢).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٨٠؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن حبان والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه...) وذكره. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٧٥. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٧٠٣٥) وفيه تصحيف في اسم أبي سعيد. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٣٧ قال الهيثمي: (رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه).

(٣) السجدة / ٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي اصبرْ يا مُحَمَّدُ على تبليغِ الوحي والرسالةِ وعلى ما يلحقُكَ من الأذيَّة من الكفار، والصَّبرُ الجميلُ هو الذي لا جَزَعَ فيهِ ولا شكوَى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي يرَونَ العذابَ بعيداً غيرَ كائنٍ، كما يخبرُ الرجلُ عن شيءٍ فيقولُ: هذا بعيدٌ؛ أي هذا مما لا يكونُ، وَ نحنُ، ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي صَحيحاً كائناً؛ لأنَّ كلَّ ما هو كائنٌ قريبٌ.

ثم أخبرَ متى يقعُ العذابُ فقالَ تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ ﴾ أي كالصُّفر الْمُذاب، وَقِيْلَ: كَدُرْدِيِّ الزيتِ[1]، وقال الحسنُ: (مِثْلِ الْفِضَّةِ إذا أُذِيبَتْ)، ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي كالصُّوفِ الأحمرِ، وهو أضعفُ الصُّوفِ، ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي لا يسألُ قريباً عن قرابتِهِ لاشتغالِ كلٍّ بنفسهِ من شدَّة الأهوال.

وقرأ البزيُّ عن ابنِ كثير (وَلاَ يُسْأَلُ حَمِيمٌ) بضمِّ الياء أي لا يقالُ لحميم: أينَ حَمِيمُكَ؟ قال الفرَّاءُ: (وَلَسْتُ أشْتَهِي ذلِكَ؛ ضَمَّ اليَّاءِ؛ لأنَّهُ مُخَالِفُ لِجَمَاعَةِ الْقُرَّاءِ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ ؛ أي يعرفُ الأقاربُ أقاربَهم ساعةً من النهار في ذلك اليومِ، ثم لا تعارُفَ بعد تلكَ الساعةِ، فيُبَصَّرُ الرجلُ حَمِيمَهُ بعدَ ذلك فلا يُكلِّمهُ. والمعنى: يعرِفُ الحميمُ حميمَهُ حتى يعرفَهُ، ومع ذلك لا يسألهُ عن شأنهِ لشُغلهِ بنفسهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي يتمنَّى الكافرُ أن يَفدِي نفسَهُ من عذاب الله بأولادِه وزوجتهِ وأخيه. وقولهُ تعالى: ﴿ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي

---

(١) الدَّرْءُ: الدفعُ، وهو ما يستر الزيت من الزبد، أو يخالطه، وهو (الكَعَرُ) بفتحتين، فيقال: دُرْدِيُّ الزيتِ وغيرِهِ ما يَبْقَى في أسفلِهِ، وهو آخرهُ وخاثِرهُ. مختار الصحاح (عكر): ص٤٤٨. و(درد) ص٢٠٢.

(٢) قاله في معاني القرآن: ج ٣ ص١٨٤.

وعشيرتهِ الأقربين التي تضُمه ويأوي إليها، وتنصرهُ في المكارهِ والشدائد، ويوَدُّ أيضاً أن يفتَدِي، ﴿ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ ذلك الفداءُ من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ ﴾ ؛ لا يُنجيه؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهَا ﴾ ؛ وهي من أسماءِ النَّار، سُميت بهذا الاسمِ من قولهِ: ﴿ لَظَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي توقَدُ، واللَّظى هو اللَّهَبُ الخالصُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ صفةُ النار؛ أي كثيرةُ النَّزعِ للأعضاءِ والأطرافِ.

والشَّوَى: جمعُ الشَّوَاةِ؛ وهو الطَّرْفُ، وسُمِّيت جِلدَةُ الرأسِ أيضاً بهذا الاسمِ. وفي الحديثِ: [إنَّ النَّارَ تَنْزِعُ قَحْفَ رَاسِهِ فَتَأْكُلُ الدِّمَاغَ كُلَّهُ، ثُمَّ يَعُودُ كَمَا كَانَ، فَتَعُودُ لأَكْلِهِ، فَذلِكَ دَأْبُهَا أبَداً][(١)]. وَقِيْلَ: ارتفعَ قوله (نَزَّاعَةٌ) على إضمار: هي نزاعةٌ للشَّوى؛ تنزِعُ اليدَين والرِّجلَين وسائرِ الأطراف، فلا تتركُ لَحماً ولا جِلداً إلاَّ أحرقتْهُ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي تدعُو النارُ من أعرضَ عن الإيمان وتولَّى عن التوحيدِ وأدبرَ عن الحقِّ، فتقولُ: إلَيَّ يا مشركُ؛ إلَيَّ يا منافقُ؛ إلَيَّ... إلَيَّ، فإنَّ مستقرَّكَ فِيَّ، وَ تدعُو أيضاً من ﴿ وَجَمَعَ ﴾ ، المالَ في الدنيا، ﴿ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ ، أي فجعله في الأوعيةِ، لم يصِلْ بهِ[(٣)] رَحِماً ولا أدَّى فريضةً ولا أنفقَهُ في طاعةِ الله تعالى.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) قرأ عاصم: (نزّاعةً) بالنصب، وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم في رواية أبي بكر عنه والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي (نزّاعةٌ) بالرفع. قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٨٧؛ وقال: (فمن رفعَ فله خمسة أوجه: أحدها: أن تجعل (لظى) خبر (إنَّ) وترفعُ (نزاعةٌ) بإضمار هي؛ فمن هذا الوجه يحسَنُ الوقف على (لظى). والوجه الثاني: أن تكون (لظى) و(نزاعةٌ) خبران لـ (إنَّ). كما تقول: إنَّه خُلُق مخاصمٌ. والوجه الثالث: أن تكون (نزاعةٌ) بدلاً من (لظى) و(لظى) خبر (إنَّ). والوجه الرابع: أن تكون (لظى) بدلاً من اسم (إنَّ) و(نزاعةٌ) خبر (إنَّ). والوجه الخامس: أن يكون الضمير في (إنَّها) للقصة، و(لظى) مبتدأ و(نزاعةٌ) خبر الابتداء، والجملة خبر (إنَّ). والمعنى أن القصة والخبر (لظى نزاعةٌ للشوى).).

(٣) في أصل المخطوط: (منه) وعلى ما يبدو أن المناسب (به) فأثبتناه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي ضَجُوراً شَحِيحاً شديدَ الحرصِ مع قلَّة الصبر، وتفسيرُ الْهُلُوعِ مع ما ذكرَهُ اللهُ تعالى، ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ ، يعنِي إذا أصابَهُ الفقرُ والشدَّةُ جَزِعَ فلم يصبرْ ولم يحتسِبْ، وإذا أصابَهُ ما يُسَرُّ به من المالِ والسِّعة منعَ خلقَ اللهِ منه ولم يشكُرْ.

وعن ابنِ عبَّاس أنَّه قال: (الْهَلُوعُ الَّذِي يَرْضَى عِنْدَ الْمَوْجُودِ، وَيَسْخَطُ عِنْدَ الْمَفْقُودِ). وَقِيْلَ: هو الذي يكون نَسَّاءً عندَ النِّعَمِ، دعَّاءً عندَ الْمِحَنِ، وهذا كلُّه إخبارٌ عما خُلِقَ الإنسانُ عليه من جهةِ الطَّبعِ، ثم نَهاهُ عن الجزعِ والمنعِ، يستحقُّ بذلك جزيلَ الثواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ يعني: فإنَّهم يَغلِبُونَ فرطَ الهلعِ لثِقَتِهِمْ بربهم، وثقتِهم بمقدوراتِه، والمعنى: إلاَّ المصلِّين الصلواتِ الخمس، ويدُومُونَ عليها ولا يدَعُونَها ليلاً ولا نهاراً. وعن عِمران بن الْحُصَين: أنَّ معناهُ: (هُمُ الَّذِينَ لاَ يَلْتَفِتُونَ فِي صَلاَتِهِمْ يَمِيناً وَلاَ شِمَالاً)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ يعني الزكاةَ المفروضةَ؛ لأن ما لا يكون مَفرُوضاً لا يكون مَعْلُوماً، وقولُهُ تعالى: ﴿ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ السائلُ: الطَّوَّافُ الذي يسألُ الناسَ، والْمَحْرُومُ: الذي يُحرَمُ وجوهَ الاكتساب، لا يَسألُ ولا يُعطَى. وعن ابنِ عبَّاس قال: (هُوَ الَّذِي لاَ تَسْتَقِيمُ لَهُ تِجَارَةٌ)(٢). وَقِيْلَ: هو الذي يُسهَمُ له في الغنيمةِ.

وسُئل رسولُ اللهِ ﷺ عن المحروم فقالَ: [هُوَ الَّذِي تُحَمِّلَ نَخْلُ النَّاس، وَلاَ يُحْمَلُ نَخْلُهُ، وَيَزْكُو زَرْعُ النَّاسِ، وَلاَ يَزْكُو زَرْعَهُ، وَتَلْبَنُ شَاءُ النَّاسِ وَلاَ تَلْبَنُ شَاهُهُ]. ووجهُ استثناءِ المصلِّين والمنفقِين: أنَّ المصلِّين لا يفعَلُون ما يفعلهُ الْهَلُوعُ؛ لأنَّهم يؤدُّون حقَّ اللهِ، فإنَّ مُداومتَهم على طاعةِ الله تَمنعُهم عن أفعالِ الكفَّار.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٠٧٤) من حديث عقبة بن عامر الجهني.
(٢) في جامع البيان: الأثر (٢٧٠٩٤) عن عكرمة قال: (السَّائِلُ الَّذِي يَسْأَلُكَ، وَالْمَحْرُومُ الَّذِي لاَ يُنْمَى لَهُ مَالٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ (٢٧) ﴾ ؛ أي خائِفون حَذِرون، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ (٢٨) ﴾ أي لا يُؤْمَنُ وقوعهُ بمَن يستحقُّه.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ ﴾ ؛ أي لا يُرسِلُونها إلاَّ على أزواجِهم الأربعِ أو جَوارِيهِمْ، ﴿ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ (٣٠) ﴾ ، أي فإنَّهم لا يُلاَمُونَ على تركِ حفظِ فُروجِهم عن هؤلاءِ، ﴿ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ ، أي فمَن اعتدَى وضَلَّ في استباحةِ الوطءِ طريقاً غيرَ هذين الطَّريقين، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ (٣١) ﴾ ؛ يتعدَّون الحلالَ إلى الحرامَ.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ (٣٢) ﴾ ؛ معناهُ: والذين هُم لأَماناتِهم التي ائتُمِنوا عليها في أمرِ الدين، والذين للعَهْدِ الذي بُعِثَ به الأنبياءُ إلى الخلقِ رَاعُونَ، وكلُّ محافظٍ على شيءٍ فهو راعٍ له، والإمامُ رَاعٍ لرعيَّتهِ. ويَدْخُلُ في هذه الآيةِ أماناتُ الناسِ فيما بينهم وعهودُهم وعقودهم بينهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ (٣٣) ﴾ ؛ أي الذين يقُومون بأدَائِها على وَجهها، ولا يكتُمونها وإنْ كانت على أنفسهم، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ (٣٤) ﴾ ؛ أي يُراعون مواقيتَها وشروطَها وحدودَها.

والفائدةُ في إعادةِ ذكرِ الصَّلاة؛ لتعظيمِ أمرِها وتفخيمِ شأنِها. وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ (٣٥) ﴾ ؛ معناهُ: الذين استجمَعُوا هذه الخصَالَ في جنَّاتٍ في الآخرةِ مُكرَمِين بالتُّحَفِ والهدايَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ (٣٦) ﴾ ؛ هذه الآيةُ في المستَهزئين؛ وهم خمسةٌ سَمَّيناهم من قبلُ، كانوا قد جلَسُوا حولَ النبيِّ ﷺ يستَهزِئُونَ بالقرآنِ ويكذِّبون به، فقَالَ اللهُ تَعَالَى: ما لَهم ينظُرون إليك، ويجلِسُون عندكَ وهم لا ينتَفعون بما يسمَعون، والْمُهْطِعُ: الْمُقْبلُ على الشَّيءِ ببصرهِ لا يُزيله، وكانوا ينظرون إلى النبيِّ ﷺ نظرةَ العداوةِ غيظاً وحِنْقاً. وَقِيْلَ: معنى مُهْطِعِينَ: مُدِيْمِينَ النظرَ متطلِّعين نحوكَ، وهو نُصِبَ على الحالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي عن يمين النبيِّ ﷺ وشِمالِهِ حِلَقاً حِلَقاً، وجماعةً جماعةً، وعصبةً عصبةً، والعِزِينُ: جماعةٌ في تَفْرِقَةٍ، واحدتُها عِزَةٌ، ونظيرُها ثُبَةٌ وثِبِينَ.

وكان هؤلاءِ الكفَّار يقولون: إنْ كان أصحابُ مُحَمَّدٍ يدخُلون الجنةَ، فإنَّا ندخُلها قبلَهم، فقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ﴾ ، لا يكون ذلك، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي مِن المقاذيرِ والأنجاسِ والنُّطَفِ والعَلَق، فأيُّ شيءٍ لَهم يدخُلون به الجنَّة، ومِن حُكمِنا في بني آدمَ أن لاَ يدخُلَ أحدٌ منهم الجنَّة إلاّ بالإيمان والعمل الصالحِ، فماذا يُطمِعُهم في ذلك وهم كفَّار؟ وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ الناسَ كلَّهم من أصلٍ واحد، وإنما يتفَاضَلُون بالإيمانِ والطاعة.

قرأ الحسنُ وطلحة (يَدْخُلَ) بفتح الياء وضمِّ الخاء، ومعنى: إنَّا خلَقناهم مما يعلَمُون، يعني لا يستوجبُ أحدٌ الجنَّةَ بكونه شَريفاً، فإنَّ مادةَ الخلقِ واحدةٌ، بل يَستوجِبُونَها بالطاعةِ. قال قتادةُ في هذه الآيةِ: (إنَّمَا خُلِقْتَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ قَذرٍ فَاتَّقِ اللهَ)[1]. قال بعضُهم: أنَّى لابنِ آدمَ الكِبَرُ؛ وقد خرجَ من مخرجِ البول مرَّتين، ثم مِن بطنِ أمِّه متَلَوِّثاً بالدَّمِ متلطِّخاً ببولهِ وخَرائهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ ؛ معناهُ: فَأُقْسِمُ بربِ مشارقِ الشَّمسِ ومغاربها في الشِّتاء والصيفِ، يعني مَشْرِقَ كلِّ يومٍ في السَّنة ومَغربَهُ، ﴿ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ ؛ أي على أن نُهلِكَهم، ونأتِي بخلقٍ أطْوَعَ للهِ منهم، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي بمغلُوبين بالفَوْتِ ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾ ؛ أي اترُكْهُمْ يا مُحَمَّدُ يَخوضُوا في بَاطِلهم ويلعَبُوا في كُفرهم، ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ ﴾ ؛ يُعاينُوا، ﴿ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ فيه وهو يومُ القيامةِ، فأنتقِمُ منهم بأعمالِهم، وهذا لفظهُ لفظُ الأمرِ، ومعناهُ: الوعدُ. وَقِيْلَ: إنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ بآيةِ القتالِ.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧١١٠).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ ؛ بيانُ اليومِ الذي يُوعَدون، وهو يومُ خروجِهم من القبور سِرَاعاً نحوَ الدَّاعي، وذلك حين يسمَعُون الصيحةَ الآخِرةَ، ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي إلى عَلَمٍ منصوبٍ لَهم يُسرِعون ويستبقون إلى موضعِ الحساب.

والأَجْدَاثُ: جمعُ الْجَدَثِ وهو القبرُ، وكذلك الْجَدَفُ، والسِّرَاعُ: جمعُ سَرِيعٍ، والسَّرَائِعُ بمعنى الْمُسْرِعِ، كالأليم بمعنى الْمُؤْلِم. والإيفاضُ: الإسراعُ، يقال: وَفَضَ يُوفِضُ؛ وَأَوْفَضَ يُوفِضُ؛ إذا أسرعَ في عَدْوِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ ؛ أي يخرُجون من القُبور ذليلةً أبصَارُهم تَعْلُوهم مذلَّةٌ وسوادُ الوجوهِ، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ فيه العذابَ على ألْسِنَةِ الرُّسلِ، فلم يُصدِّقُوهم.

وقرأ زيدُ بن ثابت وأبو الرجاءِ وأبو العاليةِ والحسن وابن عامر (إلَى نُصُبٍ) بضمَّتين ومعناهُ: الأصنامُ التي كانوا ينصِبونها ويعبُدونها ويَذبَحُون تَقرُّباً إليها[(١)].

آخر تفسير سورة (**المعــارج**) والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧١٢١) عن ابن زيد، والأثر (٢٧١٢٢) عن الحسن، والأثر (٢٧١١٤) عن أبي العالية.

سُورَةُ نُـــوحٍ

سُورَةُ نُوحٍ عليه السلام مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعُمِائَةٍ وَسَبْعَةٌ وَعُشْرُونَ حَرْفاً، وَمِائَتَانِ وَأَرْبَعٌ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانِ وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تُدْرِكُهُمْ دَعْوَةُ نُوحٍ عليه السلام][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ ؛ أي خوِّفهم من السُّخطِ والعذاب إنْ لم يُؤمِنوا باللهِ، ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ ؛ وهو الغرقُ بالطُّوفان، فأتاهم، ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي رسولٌ مُخَوِّفٌ بلُغةٍ تعرفونها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ ؛ أي أرسلتُ إليكم لتعبدُوا اللهَ وتوَحِّدوهُ وتأتَمِروا بجميعِ ما آمرُكم بهِ، وتتَّقُوا سُخطَهُ وعذابَهُ، ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ فيما أبيِّنهُ لكم عن اللهِ تعالى، ﴿ يَغْفِرْ لَكُم ﴾ ؛ جوابُ الأمرِ؛ أي افعَلُوا ما أمَرتُكم به يغفِرْ لكُم، ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ؛ ويزيلُ عقابَهُ عنكم.

ودخول (مِنْ) في الآيةِ لتخصيصِ الذُّنوب من سائرِ الأشياءِ، لا لتبعيضِ الذُّنوب كما في قولهِ تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[2]. ويقالُ: معناهُ: نَغفِرْ لكم من الذُّنوب ما لا تَبعَةَ لأحدٍ فيه ولا مظلمةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ أي يؤخِّرْكُم بلا عذابٍ إلى منتهَى آجالِكم، فلا يصيبُكم غرقٌ ولا شيءٌ من عذاب الاستئصالِ إنْ آمَنتُم. قَوْلُهُ

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان:ج ١٠ ص٤٣ عن أبي بن كعب بإسناد واه ضعيف.

(٢) الحج / ٣٠.

تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ ؛ معناهُ: آمِنُوا قبلَ الموتِ تسلَمُوا من العقوباتِ والشَّدائدِ، فإنَّ أجلَ الموتِ إذا جاءَ لا يمكِنُكم الإيمانُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي لو كُنتم تصدِّقُون ما أقولُ لكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ يعني لَمَّا آيَسَ نوحُ من إيمان قومه قال: رب إنِّي دعوتُ قَومِي إلى التوحيدِ والطاعةِ لَيلاً سِرّاً ونهاراً علانيةً، ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾ ، فلم يزدَادُوا عندَ دُعائِي إيَّاهم إلاَّ تَباعُداً عن الإيمان بالجهلِ الغالب عليهم، ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ ؛ إلى طاعتِكَ والإيمان بكَ، ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ ؛ لئَلاَّ يسمَعُوا صَوتِي، ﴿ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ ؛ أي غطُّوا بها وُجوهَهم؛ لئَلاَّ يرَونِي، ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ ؛ على كُفرهم، ﴿ وَٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ ؛ عن قبولِ الحقِّ والإيمان بكَ، ﴿ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي مُعلِناً لهم بالدُّعاء وعلاَ صَوتِي، ﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ ﴾ ؛ أي كرَّرتُ الدُّعاءَ مُعلِناً و، ﴿ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾ ، وسلَكتُ معهم في الدَّعوةِ كُلَّ مَسلَكٍ ومذهبٍ، وتلطَّفتُ لهم كُلَّ تلطُّفٍ، ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ للذُّنوب يَجمَعُ لكم من الحظِّ الوافر في الآخرةِ، الخصيب في الدُّنيا والغِنَى، ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم ﴾ ؛ بالمطر، ﴿ مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ كثيرَ الدُّرُور، كلَّما احتَجتُم إليه، ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾ ؛ في الدُّنيا بساتين، ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ تجري على وجهِ الأرض لمنَافِعكم.

وذلك أنَّ اللهَ تعالى كان قد حبسَ المطرَ حتى لم يُبقِ لهم دابَّةً ولا نباتاً أخضرَ، وأعقمَ أرحامَ النِّساء وأصلابَ الرِّجال حتى لم يكن لَهم ولدٌ في مدة سَبع سنين، فوعدَهم نوحُ عليه السلام بردِّ ذلك كلِّه عليهم إنْ آمَنُوا.

والسُّنة في الاستسقاءِ تقديمُ القُرَب والطاعاتِ، والاستكثارُ من الاستغفار كما رُوي عن عمرَ رضي الله عنه: (أنَّهُ خَرَجَ لِلاسْتِسْقَاءِ، فَجَعَلَ يَسْتَكْثِرُ مِنَ الاسْتِغْفَار، فَقِيلَ لَهُ: مَا سَمِعْنَاكَ اسْتَسْقَيْتَ وَمَا رَدَّدْتَ عَنِ الاسْتِغْفَار ؟ فَقَالَ: لَقَدِ اسْتَسْقَيْتُ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ

الَّتِي يَسْتَنْزِلُ بهَا الْقَطْرُ، ثُمَّ قَرَأَ: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً))(١).

وكان بكرُ بن عبدِالله يقولُ: (إنَّ أكْثَرَ النَّاسِ ذُنوباً أقَلُّهُمْ اسْتِغْفَاراً، وَأكْثَرُهُمْ اسْتِغْفَاراً أقَلُّهُمْ ذُنُوباً). وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّهَا قَالَتْ: (طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَاراً كَثِيراً)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي مَا لكم لا تخافُونَ للهِ عظَمةً، وتفعَلُون ما أمَرَكم به تعظيماً له، وترجُون منه بذلك الثوابَ، والمعنى: ما لَكم لا تعلَمُون حقَّ عظَمتهِ فتوَحِّدوهُ وتطيعوهُ، وقد جعلَ لكم في أنفُسكم آيةً تدلُّ على توحيدهِ من خَلقهِ إيَّاكم، فقال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾؛ يعني نطفةً ثم علقةً ثم مُضغةً ثم صَبيّاً ثم شَابّاً ثم شَيخاً، وقلَّبَكم في ذلك حالاً بعدَ حال، قال ابنُ الأنباريِّ: (الطَّوْرُ: الْحَالُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي مُطبَقَةً بعضُها فوقَ بعضٍ، ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَجْهُهُ فِي السَّمَاءِ وَقَفَاهُ فِي الأَرْضِ)(٣)، فالقمرُ وإنْ كان في السَّماء الدُّنيا، فإنَّما يلِي السَّمواتِ منه يُضِيءُ لهم، وما يلِي الأرضَ منه يضيءُ لأهلِ الأرض.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي سِرَاجاً للعالَم يُبصِرُون بها منافعَ دُنياهم، كما أنَّ المصباحَ سراجُ الإنسانِ في البيت الْمُظلِمِ، قال

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧١٣٢).

(٢) في كنز العمال: الحديث (٢٠٨٨)؛ قال المتقي الهندي: (أخرجه ابن ماجة عن عبدالله بن بُسر، وعن عائشة أخرجه أحمد في الزهد موقوفاً). وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ١٠ ص٣٩٥ عن عائشة مرفوعاً. والخطيب في تاريخ بغداد: ج ٩ ص١١٢: الترجمة (٤٧١٧). وأخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الأدب: باب الاستغفار: الحديث (٣٨١٨) عن عبدالله بن بسر بإسناد صحيح.

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٩٢؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه عن ابن عباس). وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩١٠)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

عبدُالله بن عمرَ: (وَجْهُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إلَى السَّمَوَاتِ، وَقَفَاهُمَا إلَى الأَرْضِ، يُضِيئَانِ فِي السَّمَاءِ، كَمَا يُضِيئَانِ فِي الأَرْضِ)[١].

وقيل لعبدِالله بن عمرَ: مَا بَالُ الشَّمْسِ تَعْلُونَا أَيَّاماً وَتَبْرُدُ أَيَّاماً ؟ قَالَ: (إنَّهَا فِي الصَّيْفِ فِي السَّمَاءِ الرَّابعَةِ، وَفِي الشِّتَاءِ فِي السَّمَاءِ السَّابعَةِ، وَلَوْ كَانَتْ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا لَمَا قَامَ لَهَا شَيْءٌ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ يعني مبتدأ خلق آدمَ، فهو خُلِقَ من الأرضِ والناسُ أولادهُ، ونباتهُ في هذا الموضعِ أبلغُ من إنباتهِ، كأنه قالَ: أنبتُّكم فنبتُّم نَباتاً، والنباتُ ما يخرجُ حالاً بعد حال. وقولُهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا ﴾ ؛ أي في الأرضِ بعدَ الموتِ، يعني يُقبَرون فيها، ﴿ وَيُخۡرِجُكُمۡ ﴾ ؛ منها، ﴿ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ عند النفخةِ الأخيرةِ للبعث.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي فرَشَها وبسَطَها لكم كهَيئَةِ البساطِ، تستقرُّون عليها وتنصَرفون فيها، جعلَها الله لكم كذلك؛ ﴿ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ طُرقاً بيِّنةً واسعةً، قال ابنُ عبَّاس: (أرَادَ بالْفِجَاجِ الطُّرُقَ الْمُخْتَلِفَةَ)[٣] والفَجُّ: الطريقُ بين الجبَلين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي ﴾ ؛ أي لم يُجيبوا دعوَتِي، ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي واتَّبعُوا السفهاءَ والفقراء والرؤساءَ والكُبراءَ الذين لم تَزدهُم كثرةُ الأموالِ والأولاد إلاّ ضَلالاً في الدينِ وعقوبةً في الآخرةِ. والمعنى: أنَّ نوحاً عليه السلام قالَ: يا رب إنَّهم عصَوني فيما أمرتُهم به ودعوتُهم إليه، واتَّبعوا رُؤسَاءَهم وكُبراءَهم، بسبب الكثرة والثروةِ، وكانوا يصرفون سفلَتَهم عن دينِ الإسلامِ. وَالْوُلْدُ وَالْوَلَدُ مِثْلُ الْقُرْبُ وَالْقَرَبُ وَالْعُجْمُ وَالْعَجَمُ[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧١٤٨).

(٢) ذكره ابن عطية في التفسير: ج ٣ ص١٩٠٣.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧١٥١).

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٣٠٦؛ قال القرطبي: (وقرأ أهل المدينة والشام وعاصم:=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي مَكْراً عَظيماً، والكَبيرُ والكُبَّارُ بمعنىً واحدٍ، ومَكرُهم الكبيرُ إعظامُ القُربَةِ على الله تعالى، وتوصيةُ بعضِهم بقولهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ ؛ أي لا تدَعُوا عبادةَ أصنامِكم. وَقِيْلَ: مكرُهم الكبيرُ: أنَّهم جرَّءُوا سفلتَهم على قتلِ نوح الطَّيْلاً، قرأ ابنُ مُحَيْصِن وعيسى (كُبَارا) بالتخفيف[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾، أي لا تدَعُنَّ عبادةَ أصنامكم، ولا تدَعُنَّ عبادةَ وُدّاً ولا سُوَاعاً ويغوثَ ويعوقَ ونَسْراً، هذه خمسةُ أصنامٍ لَهم كانوا يَعبُدونَها ويقدِّمونَها على غيرِها.

فلما جاءَ الغرقُ اندفنَتْ تلك الأصنامُ، وكانت مدفونةً إلى أن أخرجَها الشيطانُ لِمُشرِكي العرب، فوقعَ كلُّ صنمٍ منها في أيدِي قومٍ، فاتَّخذت قُضَاعَةُ وُدّاً يعبدونَها بدَومَةِ الْجَنْدَل، ثم توارَثُوها إلى أن جاءَ الإسلامُ، وهي عندَهم. وكان سُوَاعُ لِهُذَيلٍ، وكان يغوثُ لِبَنِي غُطَيفٍ من مراد، وكان يعوقُ لكَهْلاَنَ، ونَسْرٌ لخثعم[2]، وأما اللاَّتُ لثَقِيفَ، والعُزَّى لسُلَيم وغطَفَانَ وجَشم وسَعدٍ ونَضرِ بن بكرٍ. ومناةُ لقديد، وأسافُ ونائلةُ وهُبَلُ لأهلِ مكَّة، فكان أسَافُ حيالَ الحجرِ الأسود، ونائلةُ حيالَ الرُّكن اليمانِيِّ، وهُبَلُ في جوفِ الكعبة، ثمانيةَ عشرَ ذِراعاً. قال الواقديُّ: (كَانَ وُدٌّ عَلَى صُورَةِ فَرَسٍ، وَنَسْرُ عَلَى صُورَةِ نَسْرٍ مِنَ الطَّيْرِ). قرأ نافعُ (وُدّاً) بضمِّ الواو، وقرأ الباقون بفتحِها وهما لُغتان.

=(وَوَلَدُهُ) بفتح الواو، والباقون (وُلْدَهُ) بضم الواو وسكون اللام، وهي لغة فيا لولد) والمراد: أن إفراده وجمعه بلفظ واحد. فهذا قصده والله أعلم.

(١) في المخطوط: (ابن حصين). وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٣٠٧؛ قال القرطبي: (وقرأ ابن مُحَيْصِن وحُميد ومجاهد (كُبارا) بالتخفيف).

(٢) في المخطوط: (لجيعم).

(٣) ابراهيم / ٣٦ .

(٤) هود / ٣٦ .

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ؛ أي أضَلَّ الأصنامُ كثيراً يعني ضَلُّوا بسببها لقوله تعالى ﴿رَب إنَّهُنَّ أضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾[1]، والمعنى: قد ضَلَّ كثيرٌ من الناسِ بهذه الأصنام، وإنما أضافَ الضَّلال إلى الأصنام؛ لأنَّها كانت سببَ ضَلالَتِهم. وقولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ ؛ هذا دعاءٌ عليهم بعذابٍ، أعلمَهُ اللهُ أنَّهم لا يُؤمنون وهو قوله تعالى ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾[2]، والمعنى: لا تُزدهُم إلاَّ خُسراناً وهلاكاً، وإنما لم يُصْرَفْ (وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ) لأنَّهما ضارَعَا الأفعالَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ ؛ أي من أجلِ خطَاياهم أغرقُوا في الدُّنيا فأُدخلوا بذلك الغرقِ ناراً، وفي هذا دليلٌ على عذاب القبرِ، لأنَّ حرفَ الفاءِ للتعقيب، فاقتضَى أنَّهم نُقِلُوا عقيبَ الغرقِ إلى النار، والكافرُ إنَّما يدخلُ نارَ جهنَّمَ يومَ القيامةِ، وخطايَاهم في هذهِ الآيةِ الكفرُ. و(ما) ها هنا صِلَةٌ، والمعنى: مِن خطايَاهم؛ أي من أجلِها وسببها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ ؛ أي فلم يجدُوا لأنفُسهم من دونِ الله أحداً فيَنْصُرَهُمْ ولا يمنعَهم من عذاب اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ ؛ روَى قتادةُ أنه قالَ: (مَا دَعَا نُوحُ بهَذِهِ الآيَةِ إلاَّ بَعْدَ أنْ نَزَلَ عَلَيْهِ أنَّهُ ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾). والدَّيَّارُ: متَّخِذُ الدار وسَاكنُها، فعَمَّ اللهُ جميعَ أهلِ الأرضِ بالهلاك بدُعائهِ، غيرَ عِلْجٍ[3] فإنه غير عِلْجٍ[4] إلى زمانِ موسَى عليه السلام؛ لأنه لم يتَّخِذْ دَيراً ولا سكنَ الدارَ، ويقالُ: ما بالدار دَيَّارٌ؛ أي أحدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ ؛ أي إنَّكَ إن تَترُكهم على وجهِ الأرض ولا تُهلِكهم يُضِلُّوا عبادَكَ عن دينِك، ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا﴾ ؛ أي خَارجاً عن طاعتِك، ﴿كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ ؛ لنِعَمِك، أخبرَ اللهُ تعالى نُوحاً عليه السلام أنَّهم لا يلِدُونَ مُؤمِناً أبداً.

---

(١) عِلْج: العِلْجُ بوزن العِجْل: الواحد من الكفار العَجَم. مختار الصحاح: ص٤٤٩.
(٢) (غير علج) هكذا في المخطوط بوضوح، وعلى ما يبدو أن هناك سقط أو تحريف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ ؛ يعني أبــاهُ لاَمِكُ بْـنُ متوشـلخ، وأمَّهُ شَمْخَاءُ بنت أنوشَ، وكانَا مُؤمِنَين، ولذلك استغفرَ لهما، وقولهُ تعـالى: ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا ﴾ ؛ أرادَ ببيتهِ هنا السَّفينةَ، وَقِيْلَ: مسجدَهُ، وَقِيْلَ: دارَهُ.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ؛ عــامٌّ في كـلِّ مَـن آمَـنَ وصـدَّقَ الرُّسـل. وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ والتَّبَـارُ: الهــلاكُ والدَّمَارُ، ولذلك سُمي المكسورُ مُتَبَّراً، وقد جَمَعَ نوحٌ بين دعوَتين، دعوةٌ على الكفار، ودعوةٌ للمؤمنين، فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ على الكفَّــار فأهلكَـهم، ونرجُـو أن يسـتجيبَ دعاءَهُ في المؤمنين.

آخر تفسير سورة (نــوح) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْجِـــنِّ

سُورَةُ الْجِنِّ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَمَانُمِائَةٍ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَمِائَتَان وَخَمْـسٌ وَثَمَـانُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانٌ وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطِيَ بعَـدَدِ كُـلِّ جِنِّـيٍّ وَشَـيْطَانٍ صَدَّقَ بمُحَمَّدٍ ﷺ وَكَذبَ بِهِ عَتِقَ رَقَبَةٍ][(1)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ ﴾ ؛ وذلك أنَّ السماءَ لم تكن تُحرَسُ فيما بين عيسَى ومُحَمَّـدٍ صَلَـوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا، فلمَّا بعثَ اللهُ مُحَمَّداً نبيَّنا حُرست السماءُ ورُميتِ الشياطين بالشُّـهب، فلم يبقَ صنمٌ إلاّ خرَّ لوجههِ.

فقال إبليسُ للجنِّ: لقد حدثَ في الأرضِ حَدَثٌ لم يحـدُثْ مثلَـهُ، ولا يكـون هذا إلاَّ عند خروجِ نبيٍّ، ففرَّقَ جُندَهُ في الطلب وأمرَهم أن يضربوا مشـارقَ الأرضِ ومغاربَها، وبعثَ تسعةَ نفرٍ من أشرافِ جنٍّ نصيبين إلى أرضِ تُهامة، وكـان رئيسُـهم يسمَّى عمرواً، فلما انتهوا إلى بطنِ نخلةَ وجَدُوا النبيَّ ﷺ قَائماً يُصلِّي بأصحابهِ صلاةَ الفجرِ.

فلمَّا سمِعُوا القرآنَ رقَّت له قلوبُهم، ودنَا بعضُهم من بعضٍ حُبّاً للقرآنِ حتى كَادُوا يتساقَطون على النبيِّ ﷺ وهو لا يعلم، وقالُوا: هذا الذي حالَ بينَنا وبينَ خبر السَّماء، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإذْ صَرَفْنَا إلَيْكَ نَفراً مِنَ الْجِنِّ يَسْـتَمِعُونَ الْقُـرْآنَ﴾[(2)]

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٤٩، وإسناده ضعيف، بل واهٍ.
(٢) الأحقاف / ٢٩.

فآمَنُوا بالنبيِّ ﷺ ورجَعُوا إلى قومِهم مُنذرين، ولم يأتُوا إبليسَ[(١)].

وقالوا لقَومِهم: (إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً) أي بَليغاً ذا عَجَبٍ يُعجَبُ من بلاغتِهِ وحُسنِ نَظمِهِ، ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ ؛ أي يَدعُو إلى الصَّواب من التوحيدِ والإيمان، ﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ ؛ وصدَّقنا به أنَّهُ مِن عندِ الله، ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ مِن بعدِ هذا اليومَ، كما أشركَ إبليسُ.

فاستجابَ لهم جماعةٌ من الجنِّ فجَاءوا بهم إلى النبيِّ ﷺ، فأقرَأَهُم القرآنَ فآمَنُوا به، وقالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ الأَرْضَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجْلٌ لَيْسَ لَنَا فِيهِ شَيْءٌ، فَقَالَ ﷺ: [لَكُمُ الرَّوْثُ وَكُلُّ أَرْضٍ سَبْخَةٍ تَنْزلُونَ بِهَا تَكُونُ مُكَلَّبَةً لَكُمْ، وَلَكُمُ الْعَظْمُ، وَكُلُّ عَظْمٍ مَرَرْتُمْ عَلَيْهِ تَجِدُونَ عَلَيْهِ اللَّحْمَ حَيْثُ يَكُونُ][(٢)].

ثُم يُكرَهُ أن يُستَنجَى بالعظمِ والرَّوثِ. ثم انصرَفتِ الجنُّ عنه، فأوحَى اللهُ إليه بهذه الآياتِ لبيان أنَّ الجنَّ لَمَّا ظهرَ لهم الحقُّ اتبعوهُ، فالإنسُ أولى بذلك لأنَّهم ولدُ آدمَ، فكان المخالفُ منهم ألْوَمَ.

ومعنى الآيةِ: قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّة: أُوحِيَ إلَيَّ أنه استمعَ إلى القرآنِ طائفةٌ من الجنِّ، فلمَّا رجَعُوا إلى قومِهم قالُوا: يا قومَنا (إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِنَا أحَداً) بعدَ هذا اليومِ؛ أي لا نتَّبعُ إبليسَ في الشِّركِ، ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ هذا من قولِ الجنِّ لقَومِهم، معطوفٌ على قولِهِ (إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً) وإنَّهُ تعالَى جَدُّ ربنا وعظَمتهُ عن أنْ يتَّخِذ صاحبةً أو ولداً، وهذا كما يقالُ: فلانٌ أعظمُ وأجَلُّ مِن أن يفعلَ كذا وكذا،

---

(١) أصله من حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج١٢ ص٤١-٤٢: الحديث(١٢٤٤٩). والطبري في جامع البيان: الحديث(٢٧١٦٧). ومخرج في الصحيحين أيضاً عند البخاري في الصحيح: كتاب الأذان: باب الجهر بقراءة صلاة الفجر: الحديث (٧٧٣)، وفي تفسير سورة الجن: الحديث (٤٩٢١).

(٢) جزء من حديث طويل، عن ابن مسعود في القراءة على الجن، أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الصلاة: باب الجهر بالقراءة في الصبح: الحديث (١٥٠/ ٤٥٠). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: باب تفسير سورة الأحقاف: الحديث (٣٢٥٨) وقال: حديث حسن صحيح.

فالْجَدُّ: الْعَظَمَةُ، وقال الحسنُ: (مَعْنَى الْجَدِّ فِي هَذِهِ الآيَةِ الْغِنَى)[١] ومنهُ قولهم في الدُّعاء:[وَلاَ يَنْفَعُ ذا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ] أي لا يَنْفعُ ذا الغِنَى منكَ غناهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾ ؛ والمرادُ بالسَّفيه في هذه الآيةِ إبليسَ، وَقِيْلَ: مَن كان لا يؤمنُ من الجنِّ، وسَفَهُهُ أنْ جعلَ للهِ صاحبةً وولداً. والشَّطَطُ: السَّرَفُ في الخروجِ عن الحقِّ، وسُمي القولُ البعيدُ مِن قولهم: شَطَطَتِ الدَّارُ إذا بَعُدَتْ. وَقِيْلَ: الشَّطَطُ: الكذبُ والجورُ، وهو وصفهُ بالشريكِ والولدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ أي قالتِ الجنُّ: إنا ظَنَنَّا أنَّ الإنسَ والجنَّ كانوا لا يكذِبُون على اللهِ بأنَّ له شريكاً وصاحبةً وولداً حتى سَمعنا القرآنَ وتبيَّنا الحقَّ منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ أهلَ الجاهليةِ كانوا إذا نزَلُوا بوادٍ، أو بأرضٍ فأمْسَوا هنالكَ، قالوا: نعوذُ بسيِّد هذا الوادِي من سُفهاء قومهِ، أرادُوا بذلك سيِّدَ الجنِّ، فيبيتُون في جوارٍ منهم يحفظونهم حتى يُصبحوا، وقالتِ الجنُّ: قد سُدْنا الجنَّ والإنسَ حتى بلغ سؤدَدُنا الإنسَ فزادَهم تعوُّذِ الإنسِ لَهم رهَقاً؛ أي كِبْراً وعظَمةً في نُفوسِهم وسَفَهاً وطُغياناً وظُلماً.

وعن كَرْدَمِ بن أبي السَّائب الأنصاري[٢] قال: (خَرَجْتُ مَعَ أَبي إلَى الْمَدِينَةِ وَآوَانَا الْمَبيت إلَى رَاعِي غَنَمٍ، فَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ جَاءَنَا ذِئْبٌ فَأَخَذَ حَمَلاً مِنَ الْغَنَمِ، فَوَثَبَ الرَّاعِي فَنَادَى: يَا عَامِرَ الْوَادِي جَارُكَ! فَنَادَى مُنَادِياً لاَ نَرَاهُ: يَا سَرْحَانَ أرْسِلْهُ. فَأتَى الْحَمَلُ يَشْتَدُّ حَتَّى دَخَلَ بَيْنَ الْغَنَمِ لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧١٧٧).

(٢) في المخطوط: (كرم بن السائب)، والصحيح كما أثبتناه. ترجم له ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة: الرقم(٧٣٩٤). وابن عبدالبر في الاستيعاب: الرقم(٢٢٠٨) وذكره (كردم بن أبي السنابل الأنصاري). واختلفوا باسمه وصحبته، والغالب أنه ممن لحق بالصحبة صغيراً، وتابع الصحابة وأخذ عنهم، والله أعلم.

رَسُولِهِ بِمَكَّةَ (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً))[1]. قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي زَادُوهُمْ بِهَذا التَّعَوُّذِ طُغْيَاناً حَتَّى قَالُوا: سُدْنَا الإِنْسَ وَالْجِنَّ). والرَّهَقُ في كلامِ العرب: الإثمُ وغَشَيَانُ الْمَحارِمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾؛ معناهُ: أنَّ كفارَ الجنِّ ظَنُّوا كما ظَنَنتم يا أهلَ مكَّة، أنْ لَن يبعثَ اللهُ رسولاً، ويقال: أنْ لَنْ يبعثَ اللهُ أحداً من قبرِه بعدَ الموتِ. والمعنى: أنَّهم كانوا لا يُؤمنون بالبعثِ، كما أنَّكم أيُّها المشركون لا تُؤمنون.

قالتِ الجنُّ: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾؛ هذا إخبارٌ ((عن))[2] قولِ الجنِّ الذين سَمعوا القرآنَ وآمَنُوا بهِ ورجَعُوا إلى قومِهم مُنذرين. والمعنى: إنَّا صعَدْنا السَّماءَ وأتَيناها للطَّلب كما كُنَّا نسمعُ إلى الملائكةِ من قبلُ، فوجَدْناها مُلِئَتْ حَفَظَةً أقوياءَ من الملائكةِ، ونِيرَاناً مُضيئةً يَرمُون بها إلينا ويَزجُرونا عن الاستماعِ. والْحَرَسُ: جمعُ الْحَارسِ وهو الحافظُ. والشُّهُبُ: جمعُ الشِّهاب، وهو الشعاعُ الذي يحدُث من النجمِ ويستنيرُ في الهواءِ، تُسميه العامَّة: الكوكبُ المنقضُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾؛ رُوي عن ابنِ عبَّاس أنه قالَ: (لَمْ تَكُنْ قَبِيلَةٌ مِنَ الْجِنِّ إلاَّ وَلَهَا مِنَ السَّمَاءِ مَقَاعِدُ لِلسَّمْعِ، فَكَانَ إذا نَزَلَ الْوَحْيُ سَمِعَتِ الْمَلاَئِكَةُ صَوْتاً كَصَوْتِ الْحَدِيدَةِ أُلْقِيَتْ عَلَى الصَّفَا، فَإذا سَمِعَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ خَرُّوا لَهَا سُجَّداً، ثُمَّ تَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ فَإنْ كَانَ مِمَّا يَكُونُ فِي السَّمَاءِ قَالُوا: الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، وَإذا كَانَ مِمَّا يَكُونُ فِي الأَرْضِ مِنْ غَيْبٍ أوْ مَوْتٍ تَكَلَّمُوا بهِ، فَتَسْمَعُهُ الشَّيَاطِينُ فَيَنْزِلُونَ بهِ عَلَى أوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإنْسِ. فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ زُجِرُوا بالنُّجُوم) فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٩٨؛ قال السيوطي: (وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي في الضعفاء والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن عساكر عن كردم بن أبي السائب ﷺ...) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٩٠٠٢).

(٢) (عن) سقطت من المخطوط.

ﭐلۡـَٔانَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي مَن يحاولُ الاستماعَ الآنَ يجِدْ لـه كَوكبـاً قـد أرصِدَ له يَرميهِ بنارهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّهم قالوا: لا ندري أنَّا رُمِينـا بالشُّـهب أنَّ اللهَ تعـالى أرادَ إنزالَ العذابِ بالناس لمعاصِيـهم، أو أرادَ بعـثَ الرسـولِ ﷺ، وذلـك أنَّ السـماءَ لم تُحرَسْ قطُّ إلاَّ لنُبوَّةٍ، أو لعُقوبَةٍ عاجلةٍ عامَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ ﴾ ؛ أي منَّا الْمُطِيعونَ له في أمرهِ ونَهيهِ، ومنَّا أهلُ المعاصي، ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي كنا أهلَ مُلـكٍ شتَّى مؤمنين وكافرين. وَقِيْلَ: كنَّا جماعاتٍ متفرِّقين وأصنافاً مختلفةً. والقِدَّةُ: القطعـةُ من الشَّيءِ، يقـالُ: صـارَ القـومُ قِـدَداً إذا تفرَّقـت حالاتُـهم، قـال الحسـنُ: (الْجِـنُّ أمْثالُكُمْ، مِنهُمْ مُرْجِئَةٌ وَقَدَرِيَّة وَرَافِضِيَّةٌ وَشِيعَةٌ)[(١)].

وقال الأخفشُ: (مَعْنَى قَوْلِهِمْ (كُنَّـا طَرَائِـقَ) أيْ ضُرُوبـاً). وقـال أبـو عُبيـد: (أصْنَافاً)، وقال المؤرج[(٢)]: (أجْنَاساً). وقال ابـنُ كَيسـان: (شِـيَعاً وَفِرَقـاً لِكُـلِّ فِرْقَـةٍ هَوًى). وقال ابنُ المسيَّب: (كُنَّا مُسْلِمِينَ وَيَـهُوداً وَنَصَـارَى). ويقـال: فـلانٌ طريقـةُ قومهِ؛ أي سيِّدٌ مُطَاعٌ فيهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ أي إنَّـا عَلِمنـا أنْ لن نُعجِزَ اللهَ في الأرضِ إذا أرادَ بنا أمْـراً، ﴿ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي إنَّـهُ يُدركُنا حيث كُنَّا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ ﴾ ؛ أي لما سَـمِعنا القرآنَ آمنَّا به؛ وصدَّقنا أنه مـن عنـدِ الله، ﴿ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا ﴾ ؛ أي لا يخافُ نُقصَاناً من ثواب عملـهِ، ﴿ وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي ولا ظُلمـاً ولا مَكرُوهاً يخشاهُ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٥ ذكره القرطبي وعزاه عن السدي.

(٢) في المخطوط: (المؤرخ) والصحيح (المؤرج) وسيأتي ذكره.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ ؛ أي ومنَّـا الجـائِرُونَ الظَّالمون، قال ابنُ عبَّاس: (الْقَاسِطُونَ هُـمُ الَّذِيـنَ جَعَلُـوا للهِ نِـدّاً)، فالقاسِـطُ: هـو العادِلُ عنِ الحقِّ، والْمُقْسِطُ: هو الْمُعْدِلُ إلَى الحقِّ، ونظيرُهُ: تَرِبَ الرجلُ إذا افتقـرَ، وأتْرَبَ إذا استغنَى، فالأولُ هو الذي ذهبَ مالهُ حتى قعدَ على التُّراب، والثانِي كثُرَ مالهُ حتى صارَ كالتُّراب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ ؛ معناهُ: فمَن أخـلصَ بـالتوحيدِ، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي العادِلُون عـن طريقةِ الإسلام، فأُولئك بمنْزلةِ الْحَطَب في النار تشتعلُ النارُ في أبدانِهم، إلى هُنا كلامُ الجنِّ وانقطعَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أوحَى إلى أنه لو استقامَ أهلُ مكَّة على طريقةِ الهدى، لوسَّعنا عليهم أرزاقَهم بـالمطرِ والنباتِ والماء. والغَدَقُ: الكثيرُ، قال مقاتلُ: (معناهُ: لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً كَثِيراً مِنَ السَّمَاءِ بَعْدَ مَا رُفِعَ عَنْهُمُ الْمَطَرُ سَبْعَ سِنِينَ) ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَـوْ أنَّ أهْـلَ الْقُـرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[1]، وقولهُ تعـالى: ﴿لأَكَلُـوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أرْجُلِهِمْ﴾[2]، ويقالُ: مكانٌ غَدِقٌ بكسر الـدالِ إذا كـان كثـيرَ النَّدَا، وعيشٌ غَدِقٌ أي واسعٌ، والغَدَقُ بفتحِ الدال مصدرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ ؛ أي لنتعبَّدَهم بالشُّكر، وذهبَ الكلبيُّ إلى أنَّ معنى الآية لَو استَقَامُوا على طريقةِ الكُفرِ والضَّلال فكانُوا كُفَّاراً كُلُّـهم لأعطَينـاهم ماءً كَثِيراً ووسَّعنا عليهم وأرغَدنا عَيشهم لنَفْتِنَهُمْ فيهِ عقوبـةً لهـم واسـتدراجاً حتـى يُفتَنوا بهذا فنعذِّبَهم، قال عمرُ ﷺ:(أيْنَ مَا كَانَ الْمَالُ كَـانَتِ الْفِتْنَـةُ)[3] ودليـلُ هـذا

(١) الأعراف / ٦٠.

(٢) المائدة / ٦٦.

(٣) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٥٣. والقرطبي في الجامع لأحكـام القـرآن: ج ١٩ ص١٨. وتمامه: (أينما كان المالُ كان المالُ، وأينما كان المال كانت الفتنةُ).

التأويلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1]. والقولُ الأوَّلُ أولى؛ لأنَّ الطريقةَ معرَّفَةٌ بالألفِ واللاَّم، ولا تُذكَرَ الاستقامةُ إلاَّ على الحقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾؛ يعني مَن يُعرِضْ عن القرآن نُدخِلهُ عَذاباً شاقّاً ذا صَعَدٍ؛ أي ذا مشقَّةٍ، والصَّعَدُ: الشَّاقُّ الشديدُ، ومنه قولُهم: تنفَّسَ الصُّعَداءَ، وفي الحديثِ:[صَخْرَةٌ مَلْسَاءُ فِي جَهَنَّمَ يُكَلَّفُ الْكَافِرُ صُعُودَهَا، يُجْذَبُ مِنْ لِقَامِهِ بالسَّلاَسِلِ، وَيُضْرَبُ مِنْ خَلْفِهِ بالْمَقَامِعِ، فَإذا انْتَهَى إلَى أعْلاَهَا وَلاَ يَبْلُغُهُ فِي أرْبَعِينَ سَنَةٍ، فَإذا بَلَغَ أعْلاَهَا أحْدِرَ إلَى أسْفَلِهَا، فَكَانَ دَأْبُهُ هَذا أبَداً][2]. ويقالُ: سلكتُ الشَّيءَ أو أسلَكْتُهُ بمعنى واحدٍ وهو الإدخالُ. قرأ كوفِي ويعقوب (يَسْلُكْهُ) بالياءِ، وقرأ مسلمُ بن جُندب (نُسْلِكْهُ) بنون مضمومةٍ وكسرِ اللام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾؛ يعني هذهِ المساجدَ الْمَعْلُوقَةَ لم تُبْنَ إلاَّ لذكرِ اللهِ، فلا تدْعُو مع اللهِ فيها أحَداً غيرَ اللهِ كما تدعُو النَّصارى في بيَعِهم، وكما دعَا المشركون في كَعبَةِ ربهم، وعن الحسنِ قالَ: (مِنَ السُّنَّةِ أنَّهُ إذا دَخَلَ الْمَسْجِدَ أنْ يَقُولَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ لاَ أدْعُو مَعَ اللهِ أحَداً). وَقِيْلَ: إنَّ المساجدَ ما يسجدُ الإنسانُ عليهِ من جَبهَتِهِ ويدَيه وصُدور قدمَيهِ، فلا تضعُوا هذه الآرابَ[3] في التراب لغير خالقِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾؛ معناهُ: وأنَّهُ لَمَّا قامَ النبيُّ ﷺ يدعُو اللهَ ويقرأ القرآنَ في الصَّلاة ببَطنِ نخلةٍ بين مكَّة والطائف إذ أتَى تسعةٌ من الجنِّ، ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾،أي كادُوا يَسقُطون عليه رغبةً في القرآنِ وتعجُّباً منه وحُبّاً لاستماعِه.

---

(١) الأنعام / ٤٤.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٠؛ قال القرطبي: (وقال عكرمة) ثم ساقه عن الكلبي وقال: (يكلف الوليد بن المغيرة أن يصعد...).

(٣) في المخطوط: (الآداب) والمناسب الآراب، وهي (الأعضاء) كما في قول طلق بن حبيب. ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٠.

ومعنى (لِبَداً) كاد يركبُ بعضُهم بَعضاً في الازدحامِ، وقرأ (لُبَداً) وهي قراءةُ مجاهد، فهي بمعنى الكثيرِ من قوله ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً﴾[1]، وقال الحسنُ وقتادة: (لَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَلَبَّدَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ، فَأَبَى اللهُ إلاَّ أنْ يَنْصُرَهُ وَيُظْهِرَهُ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُ)[2].

ويقالُ: لَمَّا قامَ ﷺ في عبادتهِ بمكَّة، كادَ مُشركو مكَّة بشدَّة كَيدِهم له أن يكُونوا عليه مُتَكاتِفِينَ بعضهم فوقَ بعضٍ ليُزيلوهُ بذلك عن دعوتهِ إلى اللهِ.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي قال النبيُّ ﷺ لأهلِ مكَّة حيث قالوا له: إنَّكَ جئتَ بأمرٍ عظيم فارجِعْ عنهُ، فقال: (إنَّمَا أدْعُوا رَبي) أي أعبُدهُ وأدعُوا الخلقَ إليهِ (وَلاَ أشْرِكُ بهِ أحَداً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي قُل لأهلِ مكَّة: لا أملكُ تغييرَ نِعَمِ اللهِ عليكم، ولا أجبرُكم على العبادةِ، ولا يَملِكُ ضُرَّكم ورُشْدَكم إلاَّ اللهُ، ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ ؛ وإنَّما أنا عبدٌ خاضع، إنْ غَضِبَ فلا مُجِيرَ لي ولا ناصرَ، ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي مُدْخَلاً في الأرضِ، ولا مَلجأً ألْجَأُ إليه، ولا حَوْزاً أقبلُ إليهِ. واشتقاقُ الْمُلْتَحَدِ من اللَّحْدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ ؛ أي لا يُنجِيني من عذاب الله إلاَّ أن أبلِّغَ عن اللهِ ما أرسلتُ به، وبذلك أرجُو النجاةَ، ونيلَ الكرامةِ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ومَن يعصِ اللهَ ورسولَهُ من الأُمم بعدَ البلاغِ فلم يُؤمِنْ، فإنَّ له نارَ جهنَّم. جوابُ الشرط بالفاءِ ولذلك لا يجوزُ بالكسرِ (خَالِدِينَ فِيهَا) نُصِبَ على الحالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ ؛ ابتداءُ كلامٍ، والعربُ تَبتَدِئُ بـ (حتى) والمعنى: إذا رأى الكفارُ الذين يستَطِيلُونَ على النبيِّ ﷺ العذابَ إمَّا في الدُّنيا

---

(١) البلد / ٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٣٥) عن قتادة.

أو في الآخرةِ، ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ ؛ عندَ ذلك، ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ أي مَن أضعفُ مَانِعاً وأقلُّ جُنداً، اهُمْ أمِ المؤمنون ؟

فلمَّا سَمعوا هذا قال النَّضيرُ بنُ الحارثِ: متَى هذا الوعدُ الذي تَعِدُنا بهِ؟ فأنزلَ اللهُ: ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ ؛ من العذاب؛ أي ما أدري أقريبٌ هذا العذابُ، ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي غايةً وبُعداً، قال عطاءُ: (يَعْنِي أنَّهُ لاَ يَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلاَّ اللهُ تَعَالَى وَحْدَهُ) وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي لا يُطلِعُ على غَيبهِ أحَداً من خلقهِ، ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ ؛ فإنه إذا أرادَ إطْلاعَهُ بالوحي على ما يشاءُ على الغيب، ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ، أي جعلَ مِن بين يدَي الرسولِ ومِن خلفه حَفَظَةً من الملائكةِ ليُحِيطُوا به، ويَحفَظُونَهُ، ويحفظُوا الوحيَ مِن أن تَستَرِقَهُ الشياطينُ، فتُلقِيَهُ إلى الكهنَةِ.

وذلك أنَّ الله تعالى كان إذا أنْزلَ جبريلَ بالوحيِ على النبيِّ ﷺ، أرسلَ ملائكةً يُحيطون به وبالنبيِّ ﷺ حتى يفرغَ من وجههِ، كَيْلاَ يَقرُبَ منه شيطانٌ ولا جانٌّ يَذهبون به إلى كهَنتِهم حتى يكون النبيُّ ﷺ أوَّلَ مَن تكلَّمَ به؛ ليكون ذلك دَليلاً على نُبوَّتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي ليَعلَمَ مُحَمَّدٌ ﷺ أنَّ الملائكةَ قد أبلَغُوا رسالاتِ ربهم، وأنَّ الرسالةَ لَمْ تصِلْ إلى غيرهِ. وَقِيْلَ: ليعلمَ الجنُّ والإنس أنَّهم قد أبلِغُوا. وفي قراءةِ ابنِ عبَّاس (لِيُعْلَمَ) بضم الياء. وهذه الآيةُ تدلُّ على أنهُ يَعلَمُ بالنجومِ ما يكون من حياةٍ أو مَوتٍ أو غيرِ ذلك، فهو كافرٌ بالقرآنِ وبما فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ ؛ أي أحاطَ عِلمهُ بما عندَهم، يعني أحاطَ علمُ اللهِ بما عندَ الرُّسل فلم يَخْفَ عليه شيءٌ، ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ أي عَلِمَ عددَ الأشياءِ وأوقاتَها كلَّها مع كثرتِها على تفاصيلِها، لم يَفُتْهُ علمُ شيءٍ حتى مثاقيلَ الذرِّ والخردل.

آخر تفسير سورة (**الجـن**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ

سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ مَكِّيَّةٌ إلَى قَوْلِهِ ﴿إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أنَّـكَ تَقُـومُ أدْنَـى...﴾ إلَـى آخِرِ السُّورَةِ، فَإنَّ ذلِكَ نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ، وَعَدَدُ حُرُوفِ هَذِهِ السُّورَةِ ثَمَانُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةٌ وَثَلاَثُـونَ حَرْفاً، وَمِائَتَانِ وَخَمْسٌ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَسَبْعٌ وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ:[مَنْ قَرَأهَا رُفِعَ الْعُسْرُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ نُـودِيَ في حـال كَونـه مُلتَفِفـاً بثيابهِ في بعضِ اللَّيل، وأُمِرَ بالقيامِ بالصَّلاة وهُجرَان النوم، والمعنَى: يا أيُّـها الْمُتَلَفِّـفُ بثيابهِ، يقالُ: تَزَمَّلَ وتَدَثَّرَ بثوبهِ إذا تغطَّى بهِ، وزَمَّلَ غيرَهُ إذا غطَّاهُ.

قال أبو عبيدِالله الجدَلِي[2]: (سَألْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَـالَى (يَا أيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) مَا كَانَ تَزَمُّلُهُ ؟ قَالَتْ: فِي مُرْطٍ كَانَ طُولُهُ أرْبَعَةَ عَشَرَ ذِرَاعاً، نِصْفُـهُ عَلَيَّ وَأنَا نَائِمَةٌ، وَنِصْفُهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي. فَسَـألْتُهَا مِـمَّ كَـانَ؟ قَـالَتْ: وَاللهِ مَا كَانَ خَزّاً وَلاَ قَزّاً ولاَ[3] صُوفاً، كَانَ سَـدَاهُ[4] شَـعْراً وَلُحْمَتُـهُ وَبَـراً)[5]. قـال السديُّ: (مَعْنَاهُ: يَا أيُّهَا النَّائِمُ قُمْ فَصَلِّ). قالتِ الحكماءُ: إنَّما خُوطِبَ بالمزَّملِ والمدَّثرِ

---

(١) رواه الثعلبي عن أبي بن كعب، بإسناد واه.

(٢) هكذا رسمها الناسخ، فهي في المخطوط (الجدلي)، ولعله تصحيف لـ (النخعي).

(٣) في المخطوط: (إلا صوفاً)

(٤) سُداهُ وسَداهُ، قال أبو بكر الرازي: (السُّدى بـالضم: الْمُـهْمَلُ، يقـال: إبـل سـدى أي مهملـة، وبعضهم سَدًى بالفتح. وأسْدَاها أهْمَلَها). مختار الصحاح: ص٢٩٣.

(٥) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٣٢؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي).

في أوَّلِ الأمرِ لأنه لم يكُن بلغَ شيئاً من الرسالةِ، ثم خُوطِبَ بعدَ ذلك: يا أيها النبيُّ، يا أيُّها الرَسولُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ ﴾؛ أي قُمْ للصَّلاةِ؛ أي صَلِّ أكثرَ الليلِ أو قُمْ نصفَ الليلِ أو انقُصْ من النِّصفِ قليلاً، أو انقُصْ من النصفِ، ﴿ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ ﴾، خيَّرَهُ اللهُ تعالى في قيامِ الليلِ في هذه السَّاعات.

قال المفسِّرون: معنى قولهِ (نِصْفَهُ أو انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً) أي انقُصْ مِن النصفِ إلى الثُّلث أو زدْ على النِّصف إلى الثُّلثَين، جعل له سِعَةً في قيامِ الليل وخيَّرَهُ في هذه السَّاعات، قال الحسنُ: ((فَرَضَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَى أصْحَابهِ وَهُمْ بمَكَّةَ أنْ يَقُومُوا بثُلُثِ اللَّيْلِ وَمَا زَادَ)).

سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: ((أمَا تَقْرَأونَ هَذِهِ السُّورَةَ (يَا أيُّهَا الْمُزَّمِّلُ)؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَتْ: فَإنَّ اللهَ فَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ، وَأمْسَكَ اللهُ خَاتِمَةَ السُّورَةِ اثْنَى عَشَرَ شَهْراً، ثُمَّ تَرَكَ التَّخْفِيفَ فِي آخِرِ السُّورَةِ بَعْدَ أنْ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَأصْحَابُهُ حَوْلاً، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعاً بَعْدَ ذلِكَ))[١].

وَكَانَ قِيَامُهُ فَرْضاً قَبْلَ أن فَرَضَ ((اللهُ)) الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، ولا خلافَ بين المسلمين في أنَّ قيامَ الليلِ مندوبٌ إليه مرغَّبٌ فيه، قال ﷺ: [أحَبُّ الصَّلاَةِ إلَى اللهِ تَعَالَى صَلاَةُ دَاوُدَ عليه السلام، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ. وَأحَبُّ الصِّيَامِ إلَى اللهِ تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً][٢].

---

(١) في الدر المنثور: ج٨ ص٣١٢؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي ومحمد ابن نصر في كتاب الصلاة والبيهقي في سننه عن سعد بن هشام) وذكره.

(٢) الحديث مطولاً ومختصراً أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التهجد: باب من نام عند السحر: الحديث (١١٣١)، وأحاديث الأنبياء: الحديث (٣٤٢٠). ومسلم في الصحيح: كتاب الصيام: الحديث (١٨١/ ١١٥٩) و(١٨٩/ ١١٥٩). وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة، وهو عند الإمام أحمد وعبدالرزاق.

ورُوي: (أنَّ هَذِهِ الآيَاتِ لَمَّا نَزَلَتْ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنَ الصَّحَابَةِ لاَ يَدْرِي مَتَى ثُلُثُ اللَّيْلِ وَمَتَى النِّصْفُ وَمَتَى الثُّلُثَان، فَكَانَ يَقُومُ حَتَّى يُصْبحَ مَخَافَةَ أنْ لاَ يَحْفَظَ الْقَدْرَ الْوَاجِبَ، حَتَّى شَقَّ عَلَيْهِمْ ذلِكَ وَانْتَفَخَتْ أقْدَامُهُمْ وَتَغَيَّرَتْ أَلْوَانُهُمْ، فَرَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَخَفَّفَ عَنْهُمْ، وَنُسِخَ بقَوْلِهِ (عَلِمَ أنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى)، وكَانَ بَيْنَ أوَّلِ السُّورَةِ وَآخِرِهَا سَنَةٌ)[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾ ؛ أي بَيِّنْهُ بياناً واقرَأْهُ قراءةً بَيِّنَةً. والتَّرتيلُ: ترتيبُ الحروفِ على حقِّها في تلاوتِها بتَبيُّنٍ وتثَبُّتٍ من غيرِ عجلَةٍ، وكذلك التَّرَسُّلُ. والمعنى: تفَهَّم معانيَهُ، وطالِبْ نفسكَ بالقيامِ بأحكامهِ. وأما الْحَدْرُ فهو الإسراعُ في القراءةِ، وعن ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: [كَانَتْ قِرَاءَةُ رَسُول اللهِ ﷺ تَرْتِيلاً] أي تَرَسُّلاً[2]. وقال أبو حمزةَ: ((قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ: إنِّي رَجُلٌ فِي قِرَاءَتِي وَكَلاَمِي عَجَلَةٌ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَئِنْ أقْرَأ الْبَقَرَةَ وَأرَتِّلْهَا أحَبُّ إلَيَّ مِنْ أنْ أقْرَأ الْقُرْآنَ كُلَّهُ هَذْرَمَةً)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ ؛ ليس على ثِقَلِ الحفظِ، ولكن قال الحسنُ: ((إنَّهُمْ لَيَهُذُّونَ هَذَاوُهُ، وَلَكِنَّ الْعَمَلَ بِهِ ثَقِيلٌ))[3]. وقال قتادةُ: ((ثَقِيلٌ وَاللهِ فَرَائِضُهُ وَحُدُودُهُ))[4]، وقال مقاتلُ: ((ثَقِيلٌ لِمَا فِيْهِ مِنَ الأَمْرِ وَالْحُدُودِ))[5]. وقال أبو العاليةَ: ((ثَقِيلٌ بالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ، فَلاَ يَقْدِرُ أحَدٌ أنْ يُؤَدِّي جَمِيعَ أوَامِرِهِ إلاَّ بتَكَلُّفٍ يَثْقِلُ)).

---

(١) في الدر المنثور: ج٨ ص٣١٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومحمد بن نصر والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس) وذكره.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: بأسانيد (٢٧٢٦٨-٢٧٢٧٠) عن الحسن ومجاهد.

(٣) رواه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٧٤) بمعناه. والهذُّ: سرعة القراءة. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٣١٤؛ قال السيوطي: (وأخرج العسكري في المواعظ عن علي ﷺ: أن رسولَ اللهِ ﷺ سُئل عن قول الله تعالى ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ قال: [بَيِّنْهُ تَبْييناً، وَلاَ تَنْثُرْهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَلاَ تَهُذَّهُ هَذَّ الشِّعْرِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلاَ يَكُنْ هَمُّ أحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ].

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٧٥).

(٥) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٠٩.

ويقالُ: معناهُ: كَلاماً مُحْكَماً ليس بسَفْسَافٍ كما يقالُ: هذا كلامٌ له وَزْنٌ. وَقِيْلَ: إنما سُمي ثقيلاً لثِقَلِهِ في الميزان مع خفَّته على اللسان، وعن الحسنِ في قولهِ تعالى (إنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) قال: ((الْعَمَلُ))، وَقِيْلَ: ثقيلٌ لا يحملهُ إلاَّ القلبُ المؤيَّدُ بالتوفيقِ ونفسٌ مؤمنة بتوحيدهِ.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا قالت: [لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَنْفَصِمُ عَنْهُ، وَإنَّ جَبِينَهُ لَيَنْفصُ عَرَقاً][1]. وقالت عائشةُ أيضاً: [إنْ كَانَ لَيُوحَى إلَيْهِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَتَضْرِبُ بِجِرَانِهَا][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا ﴾ ؛ معناه: إنَّ القيامَ في ساعاتِ الليل أثقلُ وأشدُّ على القائمِ من القيامِ بالنَّهار؛ لأن الليلَ إنما خُلِقَ للرَّاحة والسُّكون، ففِعْلُ الطاعةِ فيه أشدُّ من فعلِها بالنهار، وقال ابنُ مسعودٍ: ((إنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ قِيَامُ اللَّيْلِ)). وقالت عائشةُ: ((النَّاشِئَةُ الْقِيَامُ بَعْدَ النَّوْمِ))، وعن ابنِ الأعرابيِّ: ((إذا نِمْتَ مِنْ أوَّلِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قُمْتَ فَتِلْكَ النَّاشِئَةُ)) ومنه ناشئةُ اللَّيل.

وَقِيْلَ: ناشئةُ الليل ساعاتُها كلُّها، وكلُّ ساعةٍ منه فهي ناشئةٌ، سُميت بذلك؛ لأنَّها تُنشِئ، ومنه نشأتِ السَّحابةُ إذا بَدَتْ، وجمعُها ناشِئَاتٌ، وعن حاتمِ بن أبي صغيرة قال: ((سَأَلْتُ ابْنَ أبِي مُلَيْكَةَ عَنْ نَاشِئَةِ اللَّيْلِ فَقَالَ: عَلَى اللَّبِيبِ سَقَطْتَ، سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَزَعَمَ أنَّ اللَّيْلَ كُلَّهُ نَاشِئَةٌ، وَسَأَلْتُ الزُّبَيْرَ عَنْهَا فَأَخْبَرَنِي مِثْلَ ذلِكَ))[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الوحي: الحديث (٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص١١٨. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٣١٦؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر والحاكم وصححه عن عائشة) وذكره. وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩١٩)؛ وقال: حديث صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٧٩).

وقال ابنُ جبير: ((أيُّ سَاعَةٍ قَامَ مِنَ اللَّيْلَ فَقَدْ نَشَأَ))[١]، وقال قتادةُ: ((مَا كَانَ بَعْدَ الْعِشَاءِ فَهُوَ نَاشِئَةٌ))[٢]. وقال عبيدُ بن عمير لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ((رَجُلٌ قَامَ مِنْ أوَّلِ اللَّيْلِ أيُقَالُ لَهُ نَاشِئَةٌ؟ قَالَتْ: لاَ؛ إنَّمَا النَّاشِئَةُ الْقِيَامُ بَعْدَ النَّوْمِ)). وقال ابنُ كَيسان: ((هِيَ الْقِيَامُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ)). وعن ابنِ عبَّاس قال: ((إذا نَشَأتَ قَائِماً فَهُوَ نَاشِئَةٌ))[٣]، وعن مجاهدٍ أنه قَالَ: ((إذا قَامَ الإنْسَانُ اللَّيْلَ كُلَّهُ فَصَلَّى فَهُوَ نَاشِئَةٌ، وَمَا كَانَ بَعْدَ الْعِشَاءِ الأخِيرَةِ فَهُوَ نَاشِئَةٌ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (هِيَ أشَدُّ وَطْئاً وَأقْوَمُ قِيلاً) اي أثقلُ على المصلِّي من ساعاتِ النَّهار، من قول العرب: اشتدَّت على القومِ وَطْأةُ السُّلطان؛ إذا ثَقُلَ عليهم ما يلزَمُهم، ومنه قَولهُ ﷺ: [اللَّهُمْ اشْدُدْ وَطْأتَكَ عَلَى مُضَرَ][٤].

وقرأ أبو عمرو وابنُ عامر (وطئاً) بكسر الواو والمدِّ على معنى الْمُوَاطَأةِ والموافقةِ، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ﴾[٥]، قال ابنُ عبَّاس: ((يُوَاطِئُ السَّمْعُ الْقَلْبَ))، والمعنى: أنَّ صلاةَ ناشئة الليلِ يُواطِئُ السمعُ والقلبُ فيها أكثرَ مما يُواطِئ في ساعاتِ النَّهار؛ لأن الليلَ أفرغُ للانقطاعِ عن كُثْرِ ما يشغلُ بالنهار. ويقال: وَاطَأتَ فُلاناً على كذا مُواطَأةً ووَطْأةً؛ إذا وافقتَهُ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾؛ أي أبْيَنُ قَوْلاً بالقرآن، وَقِيْلَ: أسترُ استقامةً وأطرَبُ قراءةً، وعبادةُ الليلِ أشدُّ نَشاطاً وألَذُّ إخلاصاً وأكثرُ بركةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ ﴾؛ أي إنَّ لكَ في النهار تصرُّفاً وإقبَالاً وإدبَاراً في حوائجِكَ وأشغَالِكَ، وسِعَةً لتصرُّفكَ وقضاءِ حوائجِكَ، والمعنى: إنَّ لكَ في النَّهار فَراغاً للنَّومِ والتصرُّفِ في الحوائجِ، فصَلِّ من الليلِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٨٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٩٠).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٨٦).

(٤) تقدم.

(٥) التوبة / ٣٧ .

والسَّبْحُ: التقلُّبُ، ومنه السَّابحُ في الماءِ لتقلُّبه بيديهِ ورجلَيهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ لكَ في النهار تصرُّفاً واشتغالاً في حوائجِكَ حيث لا تتفرَّغُ لصَلاةِ النَّفلِ، فخُذْ حظَّكَ من قيامِ الليل، وكان شُغْلُ النبيِّ ﷺ بالنَّهار ما كان عليهِ من تبليغِ الوحي والرِّسالةِ وتعليمِ الناس الفرائضَ والسُّننَ، وقيامهِ بأدائِها وأمور معاشهِ ومعاش عيالهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: واذكرِ اسمَ ربكَ بالتوحيدِ والتعظيمِ. ويجوزُ أنْ يكون المرادُ به الذِّكرَ المشروعَ لافتتاحِ الصَّلاة، ويجوز أنْ يكون المرادُ به كثرةَ ذكرِ الله في الصَّلاة وخارجَ الصلاةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) أي انقَطِعْ إلى اللهِ في العبادة، وتأميلِ الخير منه دون غيرهِ. ومِن هذا سُمِّيت فاطمةُ الْبَتُولَ؛ لأنَّها انقطَعت إلى اللهِ تعالى في العبادةِ، والبَتْلُ في اللغة: القطعُ وتَميُّزُ الشيءِ من الشيءِ، ومنه صَدَقَةٌ بَتْلَةٌ؛ أي مُنقَطِعَةٌ من مالِ صاحبها، وطَلْقَةٌ بَتْلَةٌ: قاطعةٌ للزَّوجةِ.

وإنما قال (تَبْتِيلاً) ولم يقل تَبَتُّلاً على معنى تَبَتَّلْ لنفسِكَ إليه تَبْتِيلاً. وقال ابنُ عبَّاس: ((مَعْنَى (وَتَبَتَّلْ إلَيْهِ تَبْتِيلاً) أيْ أخلِصْ إلَيْهِ إخلاَصاً))[1]. وقال الحسنُ: ((اجْتَهِدِ اجْتِهَاداً)). وقال شقيقُ: ((تَوَكَّلْ عَلَيْهِ تَوَكُّلاً)). وقال زيدُ بن أسلمَ: ((التَّبَتُّلُ: رَفْضُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَالْتِمَاسُ مَا عِنْدَ اللهِ))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ قرأ أهلُ الحجاز وأبو عمرٍو ونافع وحفص (رَبُّ الْمَشْرِق) بالرفعِ على معنى: هُوَ ربُّ المشرق، وقرأ الباقون بالخفضِ على معنى نعتُ الربِ في قوله (اسْمُ رَبِكَ). وَقِيْلَ: على البدلِ منهُ، ويجوزُ أن تكون قراءةُ الرفعِ على الابتداءِ، وخبرهُ (لاَ إلَـهَ إلاَّ هُوَ). وقوله تعالى: ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي اتَّخِذهُ حَافِظاً لكَ، وكَفيلاً فيما وَعدَكَ من النصرِ والثواب لكَ ولأُمَّتِكَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٣٨).

(٢) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٦٣.

قوله: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ؛ يعني: واصبرْ يا مُحَمَّدُ على ما يقولهُ الكفَّار والمنافِقون من التكذيب،﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي لا جَزَعَ فيهِ؛ أي اصْطَبِرْ اقتَصِرْ على إظهار الوحي من غيرِ خُصومةٍ، وهذا قبلَ الأمرِ بالقتال.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ ﴾ ؛ أي كِلْ أمرَهم إلَيَّ ولا تَهتَمَّ بهم، فإنِّي أكفِيكَهُمْ. يقالُ: ذرْنِي وزَيْداً؛ أي دَعْنِي وَزيداً؛ أي لا تَهْتَمَّ بهِ فإنِّي أكَافِيهِ. وقولهُ تعالى (أولِي النَّعْمَةِ) أي ذوُوا النعمةِ ذوُو الغِنَى وكثرةِ المال.

قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ((لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ إلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ لَمْ يَكُنْ إلاَّ يَسِيراً حَتَّى وَقَعَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ))[1]. والنَّعمَةُ بفتحِ النون التَّنَعُّمُ، والنِّعمَةُ بالكسرِ المالُ والغِنَى، والنُّعْمَاءُ: قُرَّةُ العينِ بضمِّ النون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ عندنا في الآخرةِ لَهم قُيوداً وأغلالاً، واحِدُها نَكْلٌ؛ وهو القَيْدُ من الحديدِ لا يُحَلُّ. وقوله تعالى ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ أي لا يَسُوغُ في الحلقِ، يعني الزَّقُّومَ. وقال عكرمةُ:((شَوْكٌ يَأْخُذُ بالْحَلْقِ، لاَ يَدْخُلُ وَلاَ يَخْرُجُ))[2]، وقال الزجاجُ:((يَعْنِي الضَّرِيعَ))[3]. وَقِيلَ: طعامٌ يأخذُ بحُلُوقِهم لِخُشُونَتِهِ وحرارتِهِ، لا ينْزِلُ فيها بل تضيقُ أنفاسُهم عنها فيختَنِقُونَ بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾ ؛ أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ هذا العذابَ المذكورَ يكون في يومٍ ترجفُ الأرضُ والجبال؛ أي تُزَلْزَلُ وتُحَرَّكُ، وهو يومُ القيامةِ. والرَّاجِفَةُ: من أسماءِ القيامة. وقَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي رَمْلاً سَائلاً، يقالُ: ترابٌ مَهِيلٌ ومَهْيُولٌ؛ أي

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣١٨؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن عائشة) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٧٣١٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٣٢٢) عن عكرمة عن ابن عباس وذكره.

(٣) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص١٨٨ : (طعامهم الضريع).

مَصْبُوبٌ ومُرسَلٌ. والكَثِيبُ: القطعةُ العظيمةُ من الرَّملِ إذا حُرِّكَ أسفَلُها انْهَالَ أعلاهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي بعَثْنا إليكم مُحَمَّداً يا أهلَ مكَّة رَسُولاً شَاهِداً علَيكُم بالتبليغِ، وشَهيدٌ عليكم بأعمَالِكم يومَ القيامةِ، ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ يعني مُوسَى عليه السلام، ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ ؛ أي مُوسَى ولَمْ يُجِبْهُ إلى ما دعاهُ ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ أي عاقَبنا فرعونَ عقوبةً عظيمةً، يعني الغرقَ الوَبيلَ الثَّقِيلَ جِدّاً، ومنه الوَبَالُ لِثقلِهِ، ويقالُ للمطرِ العظيمِ: الوَابلُ، وطعامٌ وَبيلٌ؛ أي ثقيلٌ وَاخِمٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا ﴾ ؛ أي بأيِّ شيءٍ تتحصَّنُون من عذابِ يومِ القيامة إنْ كفرتُم في الدُّنيا ولم تُؤمِنُوا برَسُولِكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فكيف تتَّقُونَ إنْ كفرتُم عذابَ يومٍ يجعلُ الولدانَ شِيْباً؛ أي تشيبُ الصِّغَارُ في ذلكَ اليومِ، وذلك حين يسمَعُون النداءَ: [يَا آدَمُ ابْعَثْ بَعْثَكَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ إلَى النَّار، مِنْ كُلِّ ألْفٍ وَاحِدٌ إلَى الْجَنَّةِ وَالْبَاقِي إلَى النَّار، فَعِنْدَ ذلِكَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ] فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أيُّنَا ذلِكَ الْوَاحِدُ ؟ فَقَالَ:[إنِّي أرْجُو أنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أهْلِ الْجَنَّةِ] فكَبَّرُوا وَحَمَّدُوا، فَقَالَ: [إنِّي أرْجُو أنْ تَكُونُوا نِصْفَ أهْلِ الْجَنَّةِ] فكَبَّرُوا وَحَمَّدُوا، فَقَالَ: [مَا أنْتُمْ فِي النَّاسِ إلاَّ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ ؛ أي السَّماءُ مُنْشَقَّةٌ بذلك اليوم، وذكرَ السَّماء؛ لأن معناها السَّقفُ كما في قولِهِ ﴿سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾[2]. وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي كان وعدُ اللهِ مِن البعثِ وأهوالِ يوم القيامة كَائناً لا شكَّ فيه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٧٣٣٣) عن ابن عباس مختصراً. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٣٣١ عزاه إلى ابن المنذر عن ابن مسعود.

(٢) الأنبياء / ٣٢.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٌۖ ﴾ ؛ أي إنَّ هـذه السُّـورة عِظَـةٌ للنـاسِ، وَقِيْلَ: معناهُ: إن آياتِ القُرآنِ مَوعِظَةٌ، ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾ أي طَريقاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ ربَّكَ يا مُحَمَّدُ يعلمُ إنَّكَ تقومُ أقَلَّ من ثُلُثَي الليل في بعضِ اللَّيالي، وأقلَّ من نصفِ اللَّـيلِ في بعضِ اللَّيالي، وأقلَّ من الثُّلث في بعضِها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ﴾ ؛ يعني: الْمُؤمِنون كانوا يقُومون معَهُ.

قرأ الكوفيُّون وابنُ كثير (وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ) بـالنصب فيـهما علـى معنـى: ويقـومُ نصفَهُ وثُلثَهُ. وقال الحسنُ: ((لَمْ يَقُمِ النَّبِيُّ ﷺ قَطُّ أقَلَّ مِنْ ثُلُثَـي اللَّيْـلِ، وَإنَّمَـا قَـالَ: (أدْنَى) فِي الطَّائِفَةِ الَّذِينَ مَعَهُ)) ولفظةُ (أدْنَى) تُعقَلُ منها القلَّة، لا يقالُ: عنـدِي دونَ العشرةِ إلاَّ والنُّقصان منها قليلٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ ﴾ ؛ أي يعلَمُ مقاديرَهما وساعاتِهما على الحقيقةِ، ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ ﴾ ؛ أي عَلِمَ أنَّكـم لم تعلَمُـوا حقيقـةَ قدرهمـا، يعني أنَّكم ما تعرفُون مقاديرَ اللَّيل والنهار، ولذا لم تعلَمُوا حقيقةَ المقدار الذي أمَرَكـم بالقيامِ فيه لم تُطِيقوهُ إلاَّ بمشقَّة، ﴿ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ ﴾ ؛ أي فتجاوزَ عنكـم قيـامَ الليـلِ بالتخفيفِ عنكم، ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ ؛ في صلاةِ اللَّيل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ ﴾ ؛ لا يقدِرون على قيـامِ اللَّيـل بقراءةِ السُّوَر الطِّوال، ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي وآخَرُون يُسافِرُونَ لطَلب رزق الله فلا يُطيقـون ذلـكَ، ﴿ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ ؛ أي وعَلِمَ أنَّ فيكم مَـن يجاهدُ في سبيلِ الله، يعني يقاتلُ أعداءَ اللهِ لا يُطيقون قيامَ الليلِ، ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ ﴾ ؛ أي مِن القُرآن في الصَّلاة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ أي وأقِيمُوا الصَّلَوات الخمس بشَرائطِها وما يجبُ من حقِّ الله فيها، فنُسِخَ قيامُ الليلِ بالصَّلَوات الخمسِ على المؤمنين، وثَبَـتَ على النبيِّ ﷺ خاصَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ؛ يعني المفروضةَ، ﴿ وَأَقۡرِضُواْ

﴿ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ ﴾ ؛ من الصَّدقة سِوَى الزكاةِ من صِلَةِ الرَّحم، وقِرَى الضيفِ، وصدقةِ التطوُّع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما تفعلُوا من صدقةٍ فريضة أو تطوُّع أو عملٍ صالح تجِدُوا ثوابَهُ عند اللهِ، ﴿ هُوَ خَيْرًا ﴾ ؛ لكم، ﴿ وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ ﴾ ؛ مِن الذي تُؤخِّرونَهُ إلى الوصيَّة عند الموتِ.

وإنما انتصبَ (خَيْراً) لأنه المفعولُ الثاني، وأدخل (هو) فصل[1]، ويسَمِّيه الكوفيُّون العمادَ، ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَۖ ﴾ ؛ لِمَا مضَى من الذُّنوب والتقصيرِ في الطاعة، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لِمَن استغفرَ، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ لِمَن ماتَ على التوبةِ.

وقد تضمَّنت هذه الآيةُ معان: أحدُها: أنه نَسَخَ بها فريضةَ قيامِ الليل. الثانِي: أنَّها تدلُّ على لُزوم فرضِ القراءةِ في الصَّلاة؛ لأن القراءةَ لا تلزَمُ في عينِ الصَّلاة. والثالث: دلالةُ جواز الصَّلاة بقليلِ القراءةِ. والرابعُ: أنَّ تركَ قراءةِ الفاتحةِ في الصَّلاة لا تمنعُ جوازَها إذا قرأ فيها غيرَها.

فإنْ قِيْلَ: هذه الآيةُ نزَلت في قيامِ الليل وذلك منسوخٌ، فكيف تستدِلُّون بها على هذه الأحكام؟ قُلنا: المرادُ بقولهِ تعالى (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ) أمرٌ بالقراءةِ بعدَ ذكرِ النَّسخِ، ثم نسخُ فرضِ الصلاةِ لا يوجبُ نسخَ شَرائطِها وسائرِ أحكامها.

فإن قِيْلَ: المرادُ بقولهِ (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ) في صلاةِ التطوُّع. قُلنا: إذا ثبتَ وجوبُ ذلك وحكمُه في التطوُّع فالفرضُ مثلهُ؛ لأن أحداً لا يفرِّقُ بينهما في هذهِ الأحكامِ، وصلاةُ التطوُّع وإنْ لم تكن فَرضاً لكن إذا شَرَعَ فيها يلزمهُ إقامتُها بجميعِ أركانِها كما لَزِمَهُ إقامتُها بجميعِ شَرائطِها من الطَّهارةِ وسَترِ العورةِ ونحوِ ذلك.

آخر تفسير سورة (**المزمل**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) في المخطوط: (فضلاً) والصحيح كما أثبتناه، ومعناه: نصب (خيراً) و(أعظمَ) على المفعول الثاني لـ (تجدوهُ) و(هو) فصل عند البصريين، وعماد في قول الكوفيين، لا محل له من الإعراب و(أجراً) تمييز. نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٦٦. وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٥٩.

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

سُورَةُ الْمُدَّثِّر مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَعَشْرَةُ أحْـرُفٍ، وَمِائَتَـان وَخَمْـسٌ وَخَمْسُـونَ كَلِمَةً، وَسِتٌّ وَخَمْسُونَ آيَةً. قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطِيَ مِـنَ الأَجْـرِ عَشْـرَ حَسَـنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بمُحَمَّدٍ وَكَذبَ بِهِ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: ((ذلِـكَ أنَّ النَّـبيَّ ﷺ كَانَ يَسِيرُ إلَى جَبَلِ حِرَاءَ، إذْ سَمِعَ مُنَادِياً يُنَادِي مِنْ فَوْق رَأسِهِ يَقُولُ: يَـا مُحَمَّـدُ، فَنَظَرَ مِنْ خَلْفِهِ يَمِيناً وَشِمَالاً فَلَمْ يَرَ شَيْئاً، فَمَضَى عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ نُودِيَ الثَّانِيَةَ، فَنَظَـرَ كَذلِكَ فَلَمْ يَرَ شَيْئاً فَفَزِعَ، فَمَضَى عَلَى وَجْهِهِ، فَنُودِيَ الثَّالِثَـةَ فَنَظَـرَ إلَـى خَلْفِـهِ يَمِينـاً وَشِمَالاً، ثُمَّ نَظَرَ إلَى السَّمَاءِ فَنَظَرَ مِثْلَ السَّرِيرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ عَلَيْهِ جِبْرِيل مِثْـل النُّور المتوقِّد يتلألأُ، فَفَزِعَ فَوَقَعَ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ، ثُمَّ أفَاقَ فَقَامَ يَمْشِي وَرَجْلاَهُ تَصْطَكَّان.

فَرَجَعَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَصَبَّ عَلَيْهِ مَاءً بَارداً، فَقَالَ: [دَثِّرُونِي دَثِّرُونِي] فَدَثَّرُوهُ بقَطِيفَةٍ حَتَّى اسْتَدْفَأ[2]؛ فَلَمَّا أفَاقَ، قَالَ: [لَقَدْ أشْـفَقْتُ عَلَـى نَفْسِـي] فَقَـالَتْ خَدِيجَةُ: أبْشِرْ فَلاَ يُخْزِيكَ اللهُ أبَداً؛ إنَّكَ لَتَصْدُقُ الْحَدِيـثَ، وَتَصِـلُ الرَّحِـمَ، وَتَحْمِـلُ الْكَلَّ، وَتُقَوِّي الضَّعِيفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

فَأتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ مُدَثَّرٌ بِثِيَابِهِ عَلَى فِرَاشِهِ لَيْلاً، فَقَالَ: يَا أيُّهَا الْمُدَّثِّـرُ بِثِيَابـهِ مُضْطَجِعاً عَلَى فِرَاشِــهِ قُـمْ فَـأنْذِرْ كُفَّـارَ مَكَّـةَ الْعَـذابَ أنْ يُوَحِّـدُوا رَبَّـكَ، وَادْعُـهُمْ

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٦٧ وإسناده واهٍ.

(٢) في المخطوط: (اشتد فألم) وهو تصحيف، والصحيح كما أثبتناه، وهو كما في تفسير مقاتل: ج ٣ ص٤١٣.

إلَى الصَّلاَةِ وَالتَّوْحِيدِ))[1]. والدِّثارُ: ما تَدَثَّرْتَ به من الثَّوب الخارجِ. والشِّعَارُ: الثَّوبُ الذي يَلِي الجسدَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾؛ أي صِفْـهُ بـالتَّعظيمِ، وعَظِّمْـهُ ممـا يقولهُ عبَدَةُ الأوثان، ويقالُ: أرادَ به التكبيرَ لافتتاحِ الصَّـلاة. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾ أي طهِّرْ ثيابَكَ من النَّجاسة لإقامـةِ الصَّـلاة. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: طـهِّرْ نفسَكَ وخُلُقَكَ عمَّا لا يجمل بكَ. وَقِيْلَ: معناهُ: وقلبَكَ فطَهِّرْ، وقد يعبَّرُ بالثوب عـن القلب. وَقِيْلَ: معناهُ: وعمَلَك فأصلِحْهُ، قال السديُّ: (يُقَالُ لِلرَّجُـلِ إذا كَـانَ صَالِحـاً أنَّهُ طَاهِرُ الثِّيَاب، وإذا كَانَ فَاجراً أنه خبيثُ الثياب).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ ﴾؛ أي والإثـمَ فاتركْـهُ ولا تقربـه. وَقِيْلَ: معناهُ: والأصنامَ فتباعَدْ عنـها، والرُّجْـزُ في اللغـة: العـذابُ، والمعنـى في هـذا: فاهجُرْ مـا يُؤذيـكَ إلى عـذاب الله. قـرأ الحسـنُ وعكرمـة ومجـاهد وشـيبة ويعقـوب (وَالرُّجْزَ) بضمِّ الراء ومثلهُ رُوي عن عاصمٍ، وقرأ الباقون بكسرِها، وهما لُغتان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ ﴾؛ معناه: لا تُعْطِ شيئاً من مـالِكَ لتأخُذ أكثرَ منه، والمعنى: لا تُعْطِ مالَكَ مُصانعةً لتُعطى أكثرَ منه في الدُّنيا، أعطِ لربكَ. أدَّبَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ بأشرفِ الآداب. وَقِيْلَ: معناه: لا تَمْنُنْ بالنبوَّةِ على النـاسِ تسـتكثِرُ عملَكَ. وَقِيْلَ: معناهُ: لا تُعْطِ شيئاً وتعطِي أكثر من ذلك، وهذا للنبيِّ ﷺ خاصَّة لأنـه كان في أعلَى مكارمِ الأخلاق، كما حَرُمَتْ عليه الصدقةُ، وأمَّا غيرهُ فليس عليه إثْمٌ في أنْ يُهدِي هديَّةً يتوقَّعُ بها الكثيرَ منها. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ ﴾؛ على طاعتِهِ وفرائضه، والمعنى: لأجل ثواب ربكَ. وَقِيْلَ: معنـاهُ: فاصـبرْ علـى الأذى والتكذيب. وَقِيْلَ: فاصبرْ على البلوَى والامتحان، فإنَّ اللهَ يمتحنُ أحبَّاءَهُ وأصفياءَهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ ﴾؛ أي فإذا نُفِخَ في الصُّور النفخـةَ الثانية، ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ ﴾؛ يعني يومَ النفخِ في الصُّور يـومٌ عسـير،

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤١٣. وأخرجـه البخـاري في الصحيـح: كتـاب بـدء الوحـي: الحديث (٣). وفي التفسير: الحديث (٤٩٥٦). ومسلم في الصحيـح: كتـاب الإيمـان: بـاب بـدء الوحي: الحديث (١٦٠/ ٢٥٣).

﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، منه الأمرُ على الكفَّار، وقوله: ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ بدلٌ من يوم عسير؛ أي لا يكون هَيِّناً عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ يعني الوليدَ بن المغيرةِ المخزومي خلَقتهُ في بطنِ أمِّه وَحيداً فريداً لا مالَ له ولا ولدَ[1]؛ أي كِلْ إلَيَّ أمرَ مَن خلقتهُ فَريداً بلا مالٍ ولا ولدٍ، ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ ﴾ ، ثم أعطيتهُ بعد ذلك، ﴿ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي كثيراً يُمَدُّ بالنَّماء كالزرعِ والضَّرع والتجارةِ، قال عطاءُ: (مَا بَيْنَ مَكَّةَ إلَى الطَّائِفِ مِنَ الإبلِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَعَبيدٍ وَجَوَارٍ). وَقِيْلَ: معنى قولِهِ (مَالاً مَمْدُوداً) يأتِي شَيْئاً بعدَ شيءٍ غيرُ منقطعٍ.

وقد اختلَفُوا في مبلغِ ماله، قال مجاهدُ و سعيد بن جبير: ((مِائَةُ أَلْفِ مِثْقَالٍ))، وقال سفيانُ الثوري: ((أَلْفُ أَلْفُ مِثْقَالٍ))، وقال مقاتلُ: ((كَانَ لَهُ بُسْتَانٌ فِي الطَّائِفِ لاَ تَنْقَطِعُ ثِمَارُهَا شِتَاءً وَلاَ صَيْفاً))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي حُضوراً معه بمكَّة لا يغِيبون عنه، قال سعيدُ بن جبير: ((كَانُوا ثَلاَثَةَ عَشَرَ وَلَداً))، وقال مجاهدُ: ((كَانُوا عَشَرَةً كُلُّهُمْ ذُكُورٌ، مِنْهُمُ الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ؛ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ؛ وَعُمَارَةُ وَهَاشِمُ بْنُ الْوَلِيدِ؛ وَالْعَاصِي وَقَيْسُ بْنُ الْوَلِيدِ؛ وَعَبْدُ شَمْسِ بْنِ الْوَلِيدِ. فَأَسْلَمَ مِنْهُمْ ثَلاَثَةٌ خَالِدُ وَهَاشِمُ وَعُمَارَةُ)). وقالوا: فما زالَ الوليدُ بعد نزولِ هذه الآية في نُقصان من مالهِ وولده حتى هلكَ[3].

وانتصبَ قوله (وَحِيداً) على الحالِ. ويجوزُ أن يكون صفةَ المخلوق على معنى خلقتهُ وحده، ويجوز أنْ يكون من صفةِ الخالقِ على معنى خلقتهُ وَحدِي لم يُشرِكني في خلقهِ أحدٌ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٤١٨) عن قتادة.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤١٦.

(٣) نقله الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٧٢. وفي تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٣ ص٤١٦ ذكر ثمانية منهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي بسَطتُ لـه في العيشِ وطولِ العمر بَسطاً، ﴿ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ثم يطمعُ أن أزيدَ لـه في المال والولد، وقد كفرَ بي وبرسولِي، ﴿ كَلَّآۖ ﴾ ، لا أزيدهُ، فلم يزَل الوليدُ بعد هذا في نُقصانٍ من المال والحال حتى صار يسألُ الناسَ وماتَ فقيراً. وقوله تعـالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنه كان لكِتابنا ورَسُولنا مُعانِداً، والعنيدُ: الذاهبُ عن الشيءِ على طريقِ العدَاوة، والْجَمَلُ العنـودُ: هـو الـذي يَمُـرُّ علـى جـانبٍ مـن القطار.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي سـأُكلِّفهُ في النـار ارتقـاءَ الصَّعود، وهو جبلٌ من صخرةٍ ملساءَ في النَّار، يُكلَّفُ الكافرُ أن يرتَقِيَهُ حتـى إذا بلـغَ أعلاهُ في أربعين عَاماً، كُلَّما وضعَ يده عليه ذابَتْ، وإذا رفَعها عادَتْ. وعن أبي سعيدٍ الخدري قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [الصَّعُودُ جَبَلٌ مِنْ نَار، يُصْعَدُ فِيْهِ سَبْعِينَ خَرِيفاً ثُمَّ يَهْوِي كَذلِكَ مِنْهُ أبَداً، كُلَّمَا وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْـهَا ذابَـتْ وَإذا رَفَعَـهَا عَـادَتْ، وَإذا وَضَـعَ رِجْلَهُ ذابَتْ وَإذا رَفَعَهَا عَادَتْ، وَكُلَّمَا بَلَغَ أعْلَى ذلِكَ الْجَبَلِ انْحَدَرَ إلَـى أسْـفَلِهِ، ثُـمَّ يُكَلَّفُ أيْضاً أنْ يَصْعَدَ، فَذلِكَ دَأبُهُ أبَداً يُجْذبُ مِنْ أمَامِهِ بسَلاَسِلِ الْحَدِيدِ، وَيُضْـرَبُ مِنْ خَلْفِهِ بمَقَامِعِ الْحَدِيدِ مَسَافَةَ كُلِّ صُعُودٍ أرْبَعُونَ سَنَةً][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنه فكَّرَ في أمرِ النبيِّ ﷺ في احتيالِهِ للباطلِ، وقدَّرَ القولَ فيه، وَقِيْلَ: معناهُ: تفكر مـاذا تقـولُ في القـرآن ؟ وقـدَّرَ القولَ في نفسهِ، وذلك أنه لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿حم، تَنْزِيلُ الْكِتَـاب مِـنَ اللهِ الْعَزِيـزِ الْعَلِيم، غَافِرِ الذنْب وَقَـابلِ التَّـوْب شَـدِيدِ الْعِقَـاب ذِي الطَّـوْل لاَ إلَـهَ إلاَّ هُـوَ إلَيْـهِ الْمَصِيرُ﴾[(٢)] قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ قَرِيباً مِنْهُ يَسْتَمِعُ قِرَاءَتَهُ، فَلَمَّا نَظَـرَ النَّبيُّ ﷺ اسْتِمَاعَهُ إلَى قِرَاءَتِهِ عَادَ إلَى قِرَاءَةِ الآيَةِ، فَانْطَلَقَ الْوَلِيدُ حَتَّـى أتَـى مَجْلِـسَ قَوْمِهِ بَنِي مَخْزُومَ وَقَالَ: وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّـدٍ الآنَ كَلاَمـاً مَـا هُـوَ مِـنْ كَـلاَمِ الإنْسِ وَلاَ مِنْ كَلاَمِ الْجِنِّ، إنَّ لَهُ لَحَـلاَوَةً وَلَطَـلاَوَةً، وَإنَّ أعْـلاَهُ لَمُثْمِـرٌ وَإنَّ أسْـفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإنَّهُ يَعْلُو وَلاَ يُعْلَى.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٧٤٣٤) مختصراً.

(٢) غافر ، ١-٣ .

ثُمَّ انْصَرَفَ إلَى مَنْزِلِهِ، فَقَالَتْ قُرَيْشُ: صَبَأَ وَاللهِ الْوَلِيـدُ، وَاللهِ لَتَصبَـأَنَّ قُرَيْـشٌ كُلُّهَا، وَكَانَ يُقَالُ لِلْوَلِيدِ رَيْحَانَةُ قُرَيْشٍ، فَقَالَ أبو جَهْلٍ: أنَا أكْفِيكُمُوهُ، ثُمَّ انْطَلَقَ فَقَعَدَ إلَى جَنْبِهِ حَزِيناً، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: مَا لِي أرَاكَ حَزِيناً يَا ابْنَ اخِي؟ قَالَ: وَمَا لِي لاَ أحْزَنُ وَهَذِهِ قُرَيْشُ يَجْمَعُونَ لَكَ نَفَقَةً يُعِينُونَكَ عَلَى كِبَرِ سِنِّكَ، يَزْعُمُـونَ أنَّـكَ زَيَّنْـتَ كَـلاَمَ مُحَمَّدٍ وَتَدْخُلُ إلَيْهِ وَإلَى ابْنِ أبي قُحَافَةَ لِتَنَالَ مِنْ فَضْلِ طَعَامِهِمْ. فَغَضِبَ الْوَلِيدُ وَقَـالَ: ألَمْ تَعْلَمْ قُرَيْشٌ أنِّي مِنْ أكْثَرِهِمْ مَالاً وَوَلَداً؟ وَهَلْ يَشْبَعُ مُحَمَّدٌ وَأصْحَابُهُ مِنَ الطَّعَـامِ حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ فَضْلٌ ؟

ثُمَّ قَامَ مَعَ أبي جَهْلٍ حَتَّى أتَى مَجْلِسَ قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إنَّ الْمَوْسِـمَ قَـدْ دَنَـا، وَقَدْ فَشَا أمْرُ هَذا الرَّجُلِ فِي النَّاسِ، فَمَا أنْتُمْ قَائِلُونَ لِمَنْ سَألَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ إنَّهُ مَجْنُونٌ؛ قَالَ: إذاً يُخَاطِبُونَهُ فَيَعْلَمُونَ أنَّهُ غَيْرُ مَجْنُون. فَقَالُوا: نَقُولُ إنَّـهُ شَـاعِرٌ؛ قَـالَ: الْعَرَبُ يَعْلَمُونَ الشِّعْرَ وَيَعْلَمُونَ أنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ غَيْرُ الشِّعْرِ. فَقَالُوا: نَقُولُ إنَّهُ كَـاهِنٌ؛ فَقَالَ: إنَّ الْكَاهِنَ يُصِيبُ وَيُخْطِئُ وَلاَ يَقُولُ فِي كِهَانَتِهِ: إنْ شَاءَ اللهُ، وَهَذا يَقُـولُ فِـي كَلاَمِهِ: إنْ شَاءَ اللهُ، وَقَوْلُهُ لاَ يُشْبِهُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَدْ صَبَأَ الْوَلِيـدُ، فَإنْ صَبَأَ فَلَمْ يَبْقَ وَاحِدٌ مِنْ قُرَيْشٍ إلاَّ صَبَأَ.

فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ تَقُولُ أنْتَ يَا أبَا الْمُغِيرَةَ فِي مُحَمَّدٍ، فَتَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَقَالَ: مَا هُوَ إلاَّ سَاحِرٌ مَا رَأيْتُمُوهُ يُفَـرِّقُ بَيْـنَ الرَّجُـلِ وَأهْلِـهِ وَوَلَـدِهِ وَمَوَالِيـهِ بِسِحْرِهِ، ألاَ تَرَوْنَ أنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، فَإنَّ الْمَرْأةَ تَكُونُ مَعَنَا وَيَكُـونُ زَوْجُـهَا مَعَهُ! فَتَفَرَّقُوا عَلَى هَذا الْقَوْلِ.

ومعنى الآيَة: أنه فكَّرَ لِمُحَمَّدٍ بتُهْمَةٍ يتعلَّقُ بـها في تكذيبـهِ، وقـدَّرَ لينظُـرَ فيمـا قدَّرهُ أستُقِيمَ له أنْ يقولَهُ أم لا؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي لُعِنَ وعُذِّبَ على أيِّ حالٍ قدَّرَ من الكلامِ، كما يقالُ: لأعرِفَنَّهُ كيفَ صَنَـعَ إلَـيَّ علـى أيِّ حالةٍ كانت منهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ثُـمَّ لُعِـنَ وعُوقِـبَ بعقـابٍ آخر، كيف ذهبَ إلى هذا التقديرِ، ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: نظرَ إلى أصحـاب

النبيِّ ﷺ نظرَ العداوةِ بكراهةٍ شديدة ليتَّخذ طَعناً فيهم. وَقِيْلَ: ثـم نظـرَ في طلـب مـا يدفعُ به القرآنَ ويرده.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛أي ثُـمَّ كَلَـحَ في وجـوهِ أصحابـهِ[1] وقبضَ جَبهتَهُ، والبُسُورُ أشدُّ من العُبُوسِ، والمعنى: ثـم كَلَـحَ بوجهـهِ ونظـرَ بكراهـةٍ شديدة.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي ثُـمَّ أعـرضَ عـن قَبـولِ القرآن واتِّباع الرسول وتَعَظَّمَ من الإيمان، ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي قالَ ما هذا القرآنُ إلاَّ سحر يُروَى عن السَّحَرةِ؛ أي يَأْثُرُهُ مُحَمَّدٌ عن غيرِه، وذلك أنه كَرِهَ أن يقولَ إنَّ مُحَمَّداً ساحرٌ، فيَغْضَبُ بنو هاشمٍ، فقالَ: إنما السِّحرُ في الأعاجمِ، وهذا إنما يَأْثُرُ السحرَ عن غيرِهِ، وكان يقولُ في القرآن: ما هو سحرٌ ولا كهانـة ولكنَّـهُ سِحرٌ يُؤثَرُ عن قولِ البشرِ؛ أي يُحكَى بينهم. ومعنى قولِهِ تعـالى: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ يعني أنه كلامُ الإنسِ وليس من عند اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي سأُدخِلهُ وألزمهُ في الآخرةِ سَقَرَ بما فعلَ، واستكبرَ عن قبول الحقِّ، وسَقَرَ اسمٌ من أسماءِ النـار، وهـي مَعرفَـةٌ مُؤنَّثـة، فلذلك لَمْ تَنصَرِفْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ تعظيمٌ لأمرهـا، وإنما سُميت بهذا الاسمِ لشدَّة إيلامِها من قولِهم: سَقَرَتْهُ الشـمسُ إذا آلَمَـتْ دِمَاغَـهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي لا تُبقِي لَحماً ولا تذرُ عَظماً، وعن مجاهدٍ: ((لاَ تُبْقِي مَنْ فِيهَا حَيّاً وَلاَ تَذرُهُ مَيْتاً))[2].

وقولـهُ تعـالى: ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي مُغـيِّرَةٌ للجلـدِ حتـى تجعلـه أسْوَدَ، يقالُ: لوَّحَتْهُ الشمسُ، وَلاَحَهُ السَّقَمُ والْحُزْنُ إذا غيَّرهُ. قِيْلَ: إنَّها تغـيِّرُ الجلـدَ حتى تدعَهُ أسودَ سَواداً من الليلِ.

---

(١) هنا أدرج الناسخ سهوا عبارة: (رضي الله عنهم) وهو لا يليق؛ لأنهم أصحابه من الكفار وهـو كافر أيضاً، والكلام بحق الوليد بن المغيرة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٤٤٥).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي تسعة عشرَ من الزَّبانيةِ الموكَّلين بتعذيب أهلها، جاءَ في الحديث: [إنَّ أعْيُنَهُمْ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، وَأنْيَابَهُمْ كَصَيَاصِيِّ الْبَقَرِ، يَخْرُجُ لَهَبُ النَّار مِنْ أفْوَاهِهِمْ، مَا بَيْنَ مَنْكِبَي أحَدِهِمْ مَسِيرَةُ سَنَةٍ، يَسَعُ كَفُّ أحَدِهِمْ مِثْلَ رَبيعَةَ وَمُضَرَ، نُزعَتِ الرَّحْمَةُ مِنْ قُلُوبهِمْ، يُسَرُّونَ بتَعْذِيب أهْلِ النَّار، يَدْفَعُ أحَدُهُمْ سَبْعِينَ ألْفاً فَيَرْمِيهُمْ حَيْثُ أرَادَ مِنْ جَهَنَّمَ](١). وقال ﷺ: [لأَحَدِهِمْ مِثْلُ قُوَّةِ الثَّقَلَيْنِ]. وقال عمرُو بن دينار: ((يَدْفَعُ أحَدُهُمْ بالدَّفْعَةِ الْوَاحِدَةِ فِي جَهَنَّمَ مِثْلَ رَبيعَةَ وَمُضَرَ)).

قال ابنُ عبَّاس والضحاك: ((لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ أبُو جَهْلٍ: أمَا لِمُحَمَّدٍ مِنَ الأَعْوَان إلاَّ تِسْعَةَ عَشَرَ يُخَوِّفُكُمْ بهِمْ وَأنْتُمُ الدَّهْمُ - يَعْنِي الْعَدَدَ الْكَثِيرَ - فَتَعْجَزُ كُلُّ مِائَةِ رَجُلٍ مِنْكُمْ أنْ تَبْطِشَ بوَاحِدٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَخْرُجُونَ مِنَ النَّار؟!))(٢).

ورُوي: أنَّ أبَا جَهْلٍ قَالَ لِقُرَيْشٍ: ثَكِلَتْكُمْ أمَّهَاتُكُمْ! أنْتُمُ الدَّهْمُ الشُّجْعَانُ فَتَعْجَزُ كُلُّ عَشْرَةٍ مِنْكُمْ أنْ يَبْطُشُوا بخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي جُمَحٍ يُقَالُ لَهُ كَلَدَةُ بْنُ أسَدٍ: أنَا أكْفِيكُمْ يَا أهْلَ مَكَّةَ سَبْعَةَ عَشَرَ؛ أحْمِلُ عَشْرَةً مِنْهُمْ عَلَى ظَهْري، وَسَبْعَةً عَلَى صَدْري، فَاكْفُونِي أنْتُمُ اثْنَيْن!

ورُوي: أنَّهُ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَأنَا أمْشِي بَيْنَ أيْدِيكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ فَأدْفَعُ عَشْرَةً بمَنْكِبي الأَيْمِنِ، وَتِسْعَةً بمَنْكِبي الأَيْسَر فِي النَّار، فَنَمْضِي نَدْخُلُ الْجَنَّةَ! فَأنْزَلَ اللهُ تعالى قولَهُ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ﴾ ؛ أي ما جعَلنا خُزَّانَها إلاَّ ملائكةً، ومن المعلومِ أنَّ الْمَلَكَ الواحدَ إذا كان كافياً لقبضِ أرواحِهم، كان تسعةَ عشرَ مَلكاً أكفَى، ألاَ ترى أنَّ مَلَكاً واحداً وهو ملَكُ الموتِ يقبضُ أرواحَ الخلق كلِّهم ؟ فكيف يعجزُ تسعةَ عشرَ مَلكاً عن تعذيب الناس؟!

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ أي ما جعَلنا عدَدَهم في القلَّة إلاَّ محنةً لكفَّار مكة لِجَهلِهم بالملائكةِ وتوهُّمهم أنَّهم كالبشرِ، والمعنى:

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٣٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٧٤٥٦) بإسناد ضعيف.

وما جعَلنا عدَّة هؤلاءِ الملائكة مع قِلَّتهم في العددِ إلاَّ ضلالةً للَّذين كفرُوا حتى قـالوا ما قالوهُ من التكذيب، وقالَ كَلَدَةُ بن أسدٍ: أنا أكفيكُم سبعةَ عشر فَاكفُوني أنتمُ اثنين.

وقولهُ تعالى: ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ؛ أي ليعلمَ اليهودُ والنصـارَى بذلك صحَّة نبوَّةِ النبيِّ ﷺ حين يَجِدُونَ ما أتى به مُوافقاً لِمَا في التَّوراةِ والإنجيل، فإنَّ عددَ هؤلاءِ الْخَزَنَةِ في كُتبهم تسعةَ عشرَ، فيعلمون إنَّ ما أتى به مُحَمَّدٌ ﷺ موافقٌ لِمَا عندَهم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ ؛ أي ولكـي يـزدادَ المؤمنـون تَصدِيقاً على تَصدِيقهم لتصديقِ أهلِ الكتاب لذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ أي؛ ولئَـلاَّ يَشُـكَّ الذين أُوتوا الكتابَ في أمرِ القرآن، ولا يشكَّ المؤمنون بالتدبُّر والتفكُّر فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ؛ أي شَكٌّ ونفاقٌ، والمرادُ بـهم المنافقون، ﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة؛ أيْ أيُّ شيءٍ أرادَ الله بذكرِ عدَدِ خزنَةِ جهنَّم صفةً من قلَّة الملائكة، يعني: أنَّهم لا يصدِّقون بهذا العـددِ، والْمَثَلُ يكون الحديثُ نفسه؛ أي أن يقولون ما هذا الحديثُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ ؛ أي كمـا أضَلَّ مَن أنكرَ عدد الْخَزَنَةِ، وهدَى من صدَّقَ بذلك، يُضِلُّ مَن يشاءُ، والمعنى يَخْـذُلُ اللهُ مَن كان أهْلاً للخُذلان، ويوفِّقُ مَن كان أهلاً للـهُدى، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ يعني الملائكةَ الذين خلَقهم لتعذيب أهل النار، لا يعلمُ عددَهم إلاَّ اللهُ.

والمعنى أنَّ التسعةَ عشر هم خَزَنَةُ النار من الأعوان، والجنودُ من الملائكةِ مـا لا يعلمُ عددَهم إلاَّ اللهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: وما يعلمُ جُمُوعَ ربكَ يا مُحَمَّدُ مـن الملائكـةِ مـن عددِهم، ومقاديرِ قوهم إلاَّ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) ﴾ ؛ يعـني سَقَرَ؛ للصِّفـات التي ذكرَها ما هي إلاَّ عِظَةٌ للخلقِ وإنذارٌ لهـم بـأنَّ نـارَ الدُّنيـا تُذكِّرُهـم نـارَ الآخـرةِ فيجتنبوا ما يؤدِّيهم إليها.

وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) ﴾؛ هذا قسَمٌ على عِظَمِ نار سقرَ، معناه: حَقّاً والقمرِ؛ والليلِ إذا جاءَ بعدَ النهار؛ والصُّبحِ إذا أضاءَ، إنَّ سَقَرَ لإحدَى العظائمِ التي هي دركَاتُ النار. والعربُ تؤكِّدُ القسَمَ بلفظِ كَلاًّ كما تؤكِّدهُ بـ (حَقّاً). ويقالُ: معناهُ: وربِّ القمرِ. قرأ نافعُ وحمزة وخلف ويعقوب وحفص:(إذ أدْبَرَ)[1] على لفظ الإدبار؛ أي اذا انقضَى وذهبَ، ويقالُ: كلاهما لُغتان: دَبَرَ النهارُ وأدبرَ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) ﴾؛ أي سَقَرَ لإحدَى الكُبَرِ، قال مقاتلُ والكلبي: ((أرَادَ بالْكُبَرِ دَرَكَاتُ جَهَنَّمَ؛ وَهِيَ سَبْعَةٌ: جَهَنَّمُ؛ وَلَظَى؛ وَالْحُطَمَةُ؛ وَالسَّعِيرُ؛ وَسَقَرَ؛ وَالْجَحِيمُ؛ وَالْهَاوِيَةُ))[3].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) ﴾؛ قال الزجَّاجُ: ((هُوَ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ (قُمْ) فِي أوَّلِ السُّورَةِ؛ أي قُمْ نَذيراً للبشرِ))[4] وهكذا رُوي عن عطاءٍ عن ابنِ عبَّاس، وَقِيْلَ: (نَذِيراً) نُصِبَ على الحالِ؛ يعني أنَّها لكبيرةٌ في حالِ الإنذار، وذكرَ النذيرَ بلفظِ التذكيرِ فإن معنى النار العذابُ، يعني أن النارَ نذيراً للبشرِ، قال الحسنُ: ((وَاللهِ مَا أنْذرَ اللهُ بشَيْءٍ أدْهَى مِنْهَا))[5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾؛ بدلٌ من قولهِ (لِلْبَشَرِ)، والمعنى أنَّها نذيرٌ لِمَن شاءَ أن يتقدَّمَ في العبادةِ والإيمانِ والخيرِ فينجُوا منهما، أو يتأخَّرَ عن الإيمانِ والطاعة فيقعُ فيهما، والمعنى: أنَّ الإنذارَ قد حصلَ لكلِّ أحدٍ ممن آمَن أو كفرَ، قال الحسنُ: ((هَذا وَعِيدٌ لَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ

---

(١) في المخطوط: (إذا أدبر) وهو تصحيف.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٨٤؛ قال القرطبي: (وقرأ نافع وحمزة وحفص (إذ أدْبَرَ) الباقون (إذا) بألف و(دبر) بغير ألف وهما لغتان بمعنى، يقال: دَبَرَ وأدْبَرَ، وكذلك قَبَلَ اللَّيلُ وأقْبَلَ).

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤١٩.

(٤) نقله الزجاج من قول الكسائي في إعراب القرآن: ج ٥ ص٤٩.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٤٨١).

فَلْيَكْفُرْ﴾[1])).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي كلُّ نفس مأخوذةٌ بعملِها مرهونةٌ به، وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ((مُرْتَهَنَةٌ فِي جَهَنَّمَ))[2] ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ ؛ وهم المؤمنون الَّذين يُعطَون كُتبَهم بأيمانِهم، فإنَّ اللهَ تعالى أعتقَ[3] رقابَهم من الرَّهنِ وأدخلَهم الجنَّةَ.

ويقالُ: هم الأطفالُ الذين لا ذُنوبَ لهم فإنَّهم غيرُ مُرتَهنين. وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ أطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ أيْنَ هُمْ؟ قَالَ: [فِي الْجَنَّةِ] وَسَأَلْتُهُ عَنْ أطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: [إنْ شِئْتِ أسْمَعْتُكَ تَضَاغِيهِمْ[4] فِي النَّارِ][5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: في بساتين يتساءَلون عن أهلِ النار، يقولون لَهم: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أيُّ شيءٍ أدخلَكم النارَ وحبسَكم فيها ؟

فيقولون لَهم: ﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ في دار الدُّنيا؛ ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ في اللهِ؛ ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ وكنا نخوضُ مع أهلِ الباطلِ في الباطل والتكذيب، ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي بيومِ الحساب؛ ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ فشاهدناهُ. ويجوز أن يكون اليقينُ ها هنا الموتَ الذي يعرِفُ المرءُ عنده أمرَ الآخرةِ.

---

(١) الكهف / ٢٩ .

(٢) ذكره الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٤٨٦) بلفظ: (مأخوذة بعملها).

(٣) في المخطوط:(افتَكَ) والصحيح (أعتق) وهو المناسب. والفتك: القتل على غرَّة، بفتح الفاء وضمها وكسرها. والفاتك: الجريء. ينظر: مختار الصحاح: (فتك) ص٤٩٠.

(٤) (ضغو) أي البكاء، وفي الحديث [وَصِبْيَتِي يَتَضَاغُونَ حَوْلِي]. أخرجه البخاري، ومعناه: يتباكون باكين. قاله الهروي في كتاب الغريبين: ج ٤ ص١١٣٢.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٢٠٨.

يقولُ اللهُ تعـالَى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي ما تنفعُهم شفاعةُ الملائكةِ والنبيِّين كما ينفعُ الموحِّدين، قال الحسنُ: ((فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ مَلَكٍ وَلاَ شَهِيدٍ وَلاَ مُؤْمِنٍ، يَشْفَعُ يَوْمَئِذٍ النَّبِيُّونَ؛ ثُمَّ الصِّدِّيقُونَ؛ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ، وَيَبْقَى قَوْمٌ فِي جَهَنَّمَ فَيَقُولُ لَهُمْ:(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَـكُ نُطْعِـمُ الْمِسْكِينَ..) إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى(فَمَا تَنْفَعُـهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ))، قال ابنُ مسعودٍ: ((فَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَبْقُونَ فِي جَهَنَّمَ))[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ما لأهلِ مكَّة عن القرآنِ الذي يقرأ عليهم مُعرضِينَ؛ أيْ أيُّ شيءٍ لكفَّار مكَّة في الآخرةِ إذا أعرَضُوا عن القرآنِ، ولم يُؤمِنوا به مع هذه الدَّلالة.

ثم شبَّههم بالْحُمُرِ الوحشيَّة في إعراضِهم عمَّا يُقرَأ عليهم فقال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ قرأ نافعُ وابن عامر بفتح الفاءِ؛ أي مُنَفَّرَةٌ مذعورةٌ، وقرأ الآخرون بكسرِ الفاء؛ أي نافرةٌ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ يعني فرَّت من الأسدِ، قال ابنُ عباس: ((الْحُمُرُ الْوَحْشِيَّةُ إذا عَايَنَتِ الأَسَدَ هَرَبَتْ مِنْهُ)) كذلك هؤلاءِ المشركون إذا سَمعوا النبيَّ ﷺ يقرأ القرآنَ هربُوا منه، وقال الضحَّاك ومقاتلُ: ((الْقَسْوَرَةُ: الرُّمَاةُ الَّذِينَ يَرْصُدُونَهَا، لاَ وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ))[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: إن كفَّار مكة قالوا للنبيِّ ﷺ: لتصيحَ قريشٌ عند رأسِ كلِّ رجلٍ هذا كتابٌ منشور من اللهِ يأتيكَ رسولهُ يؤمر فيه باتِّباعِكَ.

والصُّحف جمعُ صحيفةٍ، و(مُنَشَّرَةً) معناهُ: مَنشُورةً، وَقِيْلَ: معناهُ: بل يريدون بإفراطِ جهلهم أنْ يُعطَى كلُّ واحد منهم كِتَاباً من السَّماء مفتوحاً: هذا كتابٌ من فلانٍ إلى فلان بأنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللهِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٣٧؛ قال السيوطي: (اخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود) وذكره بمعناه.
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٢٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: كلاَّ لا يُؤتون الصُّحف ولا يكون لَهم ذلك، بل هم لا يَخافون الآخرةَ حين لم يُؤمنوا بها، ولو خَافوا ذلك لما اقترَحُوا الآياتِ بعد قيام الدَّلالة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي حَقّاً إنَّ القرآن عِظَةٌ من اللهِ تعالى، ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي اتَّعظَ به، ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، وما يتَّعظون إلاّ أن يشاءَ اللهُ ذلك لهم، وَقِيْلَ: لهم المشيئة. وَقِيْلَ: إلاَّ أنْ يشاءَ اللهُ لهم الْهُدَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ؛ أي هو أهلٌ أن يُتَّقَى فلا يُعصَى، ولا يُجعَلَ معه إلهٌ آخر، ﴿ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ يَغفِرُ لِمَن اتَّقى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أنا أهلٌ أنْ أتَّقى فلا يُجعلَ معي إلهٌ، فمَن اتَّقى أن يجعلَ معي إلهاً فإنِّي أهلٌ أن أغفرَ له، وقال قتادة: ((هُوَ أهْلٌ أنْ تَتَّقِي مَحَارِمَهُ، وَأهْلٌ أنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ))[1].

آخر تفسير سورة (المدثــر) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٥٢١) بإسنادين.

سُورَةُ الْقِيامَةِ

سُورَةُ الْقِيَامَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سِتُّمِائَةٍ وَاثْنَان وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَتُسعُونَ كَلِمَةً، وَأرْبَعُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْقِيَامَةِ شَهدْتُ أنَا وَجِبْرِيل لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ أنَّـهُ كَانَ مُؤْمِناً بيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَاءَ وَجْهُهُ مُسفِرٌ عَلَى وُجُوهِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ ﴾ ؛ معناهُ: أقسِمُ بيوم القيامةِ، و(لاَ) صلـةٌ. وقال الفرَّاء: ((لاَ) رَدٌّ عَلَى الَّذِينَ أنْكَرُوا الْبَعْثَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ))[2] ويدلُّ على معنـى إثباتِ القَسمِ، قراءةُ الحسنِ والأعرج بغيرِ ألفٍ، وتقديرهُ على هذه القـراءة: لأُقْسِـمَنَّ فحُذفت النون.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ ؛ يعـني بجميـعِ أنفُــسِ الخلائق؛ لأنه ليس من نَفْسٍ بارَّةٍ ولا فاجرةٍ إلاَّ وهي تلومُ نفسَـها، قـال ﷺ: [لَيْـسَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أحَدٌ إلاَّ وَيَلُومُ نَفْسَهُ، إنْ كَانَ مُحْسِناً قَالَ: يَا لَيْتَنِي ازْدَدْتُ، وَإنْ كَانَ مُسِيئاً

(١) رواه الثعلبي عن أبي بن كعب بإسناد واه.

(٢) في معاني القرآن: ج ٣ ص٢٠٧؛ قال الفراء: (جاء القـرآن بـالرد علـى الذيـن أنكـروا البعـث، والجنة، والنار، فجاء الإقسام بالرد عليهم في كثير من الكلام المبتدأ منه، وغير المبتدأ منه؛ كقولك في الكلام: لا والله لا أفعل ذاك، جعلوا (لا) وإن رأيتها مبتدأة رداً لكلام قد مضى، فلو ألقيـت (لا) مما ينوى به الجواب لم يكن بين اليمين التي تكون جوابـاً، واليمـين الـتي تسـتأنف فـرق. ألا ترى أنك تقول مبتدئاً: والله إن الرسول لَحَقٌّ، فـإذا قلـت: لا والله إن الرسـول لَحَـقٌّ، فكـأنك أكذبت قوماً أنكروه، فهذه جهة (لا) مع الإقسام وجميـع الأيمـان في كـل موضـع تـرى فيـه (لا) مبتدأ بها).

قَالَ: يَا لَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ][1]. ومعنى: ﴿بالنفس اللَّوَّامَةِ﴾: الملومة، وَقِيْلَ: إنَّما سُميت النفسُ لَوَّامَةً؛ لأنَّها كثيرةُ اللَّومِ لا صبرَ لها على مِحَنِ الدُّنيا وشدائدِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ ﴾؛ يعني الكافرَ بالبعثِ؛ يقولُ: أيَظُنُّ الكافرُ أنْ لن نجمعَ عظامَهُ بعد التفرُّق، ولن نبعثَهُ في الآخرةِ، ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ ﴾؛ بلى بجمعِها قادرين على تسويةِ بَنَانِهِ، قال ابنُ عبَّاس: ((الْمُرَادُ بِهِ أبُو جَهْلٍ، يَقُولُ اللهُ لَهُ: أتَحْسَبُ أنْ لَنْ نَبْعَثَكَ)) (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)؛ على ما كانَتْ وإنْ قلَّ عِظَامُها وصَغُرت فَنردُّها، ونؤَلِّفُ بينها حتى نُسَوِّيَ البَنَانَ، ومَن قدرَ على جمعِ صغار العظام كان على جمعِ كِبارها أقدرَ.

وَقِيْلَ: معناهُ: قادرين على أنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ وأناملَهُ، ونجعلَ أصابعَ يديه ورجليهِ شيئاً واحداً كخُفِّ البعيرِ أو ككَفِّ الخنْزيرِ وكحافرِ الحميرِ، فلا يمكنهُ أن يفعلَ بها شيئاً، ولكن مَنَنَّا عليه ففرَّقنا أصابعَهُ حتى يأخُذ بها ما شاءَ، ويقبضَ إذا شاءَ ويبسطَ إذا شاءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ ﴾؛ أي بل يريدُ الكافر أن يكذِّبَ بما قُدَّامَهُ من البعثِ، ويقدِّمَ الذنبَ ويؤخِّرَ التوبةَ ويكفُرَ أبداً ما عاشَ، قال ابنُ الأنباريِّ: ((مَعْنَاهُ: مُدَّةَ عُمُرِهِ وَلَيْسَ فِي نِيَّتِهِ أنْ يَتُوبَ)). والمعنى: ما يجهلُ ابن آدم أنَّ ربَّهُ قادرٌ على جمعِ عِظَامِهِ بعدَ الموتِ، ولكنَّهُ يريدُ أن يَفجُرَ أمَامَهُ؛ أي بمعنى قُدَّاماً قُدَّاماً[2] في معاصِي الله، رَاكباً رأسَهُ لا يُقلِعُ ولا يتوبُ حتى يأتيَهُ الموتُ على أشرِّ أحوالِهِ وأسْوَءِ أعمالِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ ﴾؛ أي يسألُ متى يومُ القيامةِ تَكذيباً به، ويقالُ في معنى (لِيَفْجُرَ أمَامَهُ) أن يعزمَ على الفُجور في مستقبلِ عُمره في

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وبمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٥٣٠) عن عكرمة، و(٢٧٥٣١) عن سعيد بن جبير. وعلى ما يبدو أنه من تفسير الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٢٠٨، قاله بمعناه.

(٢) هكذا في المخطوط كرر (قُدَّاماً).

أوقاتٍ لعلَّهُ لا يعيشُ فيها، ولا يبلغُ إليها، وأصلُ الفُجُور: الميلُ عن القصدِ، يقال للكافرِ: فاجرٌ، وللمكذِّب بالحقِّ: فاجرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ ﴾؛ معناهُ: إذا حارَ البصرُ وفَزِعَ، وذلك عند رُؤية جهنَّم، وهذا جوابٌ لقولهِ تعالى (أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) فيقول الله تعالى: (إذا بَرِقَ البَصَرُ) قرأ نافع بفتحِ الراء من البَرِيق[1]، أي يشخَصُ البصرُ إلى ما يتوقَّع من أهوال يوم القيامة، كنظرِ الْمُحتَضِرِ عند نظرهِ إلى الملائكةِ. قوله: ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ ﴾، أي وذهبَ ضوءُ القمرِ، والْخُسُوفُ ذهابُ الضَّوءِ، ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي جُمعا في ذهابِ نُورهما كالثَّورَين القرينَين، يعني كُوِّرَا يومَ القيامةِ. وَقِيْلَ: إنَّهما يُرمى بهما في النار، خُلِقا من النار ثم يَعودان فيها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾؛ معناهُ: يقولُ الكافر المكذِّبُ بيومِ القيامة: أين المفَرُّ وأين المهرَبُ من الأهوال.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي حَقّاً لا موضعَ يَلجُ إليه ولا حِصْنَ ولا حِرْزَ. والوَزَرُ في اللغة: كلُّ ما تحصَّنْتَ بهِ، والتجأتَ إليهِ، ومنه الوَزِيرُ؛ لأنَّ الناسَ يلتجِئون إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي الْمُنتَهَى والمرجِعُ والمصيرُ. وَقِيْلَ: المستقَرُّ موضعُ الحساب. وَقِيْلَ: يعني أنَّ مُستقرَّ المؤمنين الجنَّة، ومستقرَّ الكافرين النارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي بما قدَّمَ من طاعةِ الله، وما أخَّر من طاعةِ الله فلم يعمَلْ به، وَقِيْلَ: معناهُ: يُنَبَّؤُ الإنسانُ بأوَّل عملهِ وآخرهِ. وَقِيْلَ: بما قدَّم من أموالهِ، وما خلَّفَ للورثةِ. وَقِيْلَ: بما عَمِلَ في أوَّل عُمره، وما عَمِلَ في آخرِ عُمره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾؛ يعني أنَّ جَوارحَهُ تشهدُ عليه بما عَمِلَ، فهو شاهدٌ على نفسهِ بشَهادة جوارحهِ، والمعنى: على الإنسانِ

---

(١) ينظر: جامع البيان: مج ١٤ ج٢٩ ص٢٢٢.

رُقَبَاءُ يَشهَدُون عليه بعملهِ وإنْ أرخَى سُتُورَهُ وأغلقَ أبوابَهُ، يعني بالرُّقباء سَمْعَهُ وبصرَهُ وذكرَهُ ويديهِ ورجليهِ وجميع جوارحه. ودخولُ الهاء في بصيرةٍ لأن المرادَ بالإنسانِ ها هنا الجوارحُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ ؛ أي ولو اعتذرَ وجادلَ عن نفسهِ لم ينفعْهُ ذلك، وإن اعتذرَ فعليه مَن يُكذِّبُ عُذرَهُ. وَقِيْلَ: المعاذيرُ جمع الْمِعْذار وهو السِّترُ، معناه: وإن أَسْبَلَ السِّترَ؛ ليَختفي بما عَمِلَ، فإنَّ نفسَهُ شاهدةٌ عليه.

وقولهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ ؛ خطابٌ للنبيِّ ﷺ يقول: لا تحرِّكْ بالقرآن لسَانَكَ، ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ ؛ بقراءتهِ قبلَ أن يفرُغَ جبريلُ من قراءتهِ عليك، وذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إذا نَزَلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ لَمْ يَفْرُغْ جِبْرِيلُ مِنْ آخِرِهِ حَتَّى تَلاَهُ النَّبِيُّ ﷺ مَخَافَةَ أنْ يَنْفَلِتَ مِنْهُ، فَأَعْلَمَهُ اللهُ بقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ ؛ أي إنَّ علينا حفظَهُ في قلبكَ، وتأليفَهُ على ما يأمرهُ الله به، وأعلَمهُ بأنه لا يُنسِيه إيَّاهُ، كما قال تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾[1] فلم ينسَ النبيُّ ﷺ شيئاً حتى ماتَ.

وعن ابنِ عبَّاس في معنى هذه الآيةِ قال: ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شَدَّةً، كَانَ إذا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ يُحَرِّكُ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ قَبْلَ فَرَاغِ جِبْرِيلَ مِنْ قِرَاءَةِ الْوَحْيِ مَخَافَةَ أنْ لاَ يَحْفَظَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ الآيَةَ: (لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ))[2]. ومثلُهُ قوله ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْضَى إلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[3]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ) في صَدركَ (وَقُرْآنَهُ) أي إنَّ جبريل يَقرؤه عليكَ حتى تَحفظَهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ ؛ أي فإذا قراهُ جبريلُ بأمرِنا وفرغَ منه، فاقرَاْهُ أنتَ إذا فرغَ جبريلُ من قراءتهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: فإذا جمعناهُ،

---

(١) الأعلى / ٦ .

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: باب ما جاء في القرآن: ج ١ ص٢٠٢-٢٠٣. والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٢٥٧. والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٩٢٧) و٤٩٢٩ و٥٠٤٤). والطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٣٦٢: الحديث (١٢٢٩٧).

(٣) طه / ١١٤ .

والْقيناهُ فاتَّبع ما فيه من الحلالِ والحرامِ والأمر والنـهي. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي بيانُ ما أشكَلَ عليك من معانيهِ، وبيانُ مُجمَلاتهِ مثـلَ أركـانِ الصَّلاة وشُروطِها ونِصَاب الزكاة ومقاديرها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: كـلاًّ لا يُؤمِـنُ أبـو جهلٍ وأصحابهُ بالقرآن وببيانه بـل يحبُّـون العاجلـةَ، يعـني كفَّـارَ مكَّـة يحبُّـون الدنيـا ويعمَلون لهـا، ﴿ وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ ويـذرُون العمـلَ للآخـرةِ، فيُؤثِـرُون الدُّنيا عليها، وقرأ نافعُ والكوفيون (تُحِبُّونَ) و(تَذرُونَ) بالتاء؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّــدُ: (بَلْ تُحبُّون العاجلةَ وَتَذرُونَ الآخِرَةَ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: وجـوهٌ يـومَ القيامـةِ نَاعِمَةٌ غضَّة حسَنة مضيئةٌ مُســفِرَةٌ مشـرقةٌ بنعيـمِ الجنَّـة، وهـي وجـوهُ المؤمنـين كمـا قـال تعـالى ﴿تَعْـرِفُ فِـي وُجُوهِـهِمْ نَضْـرَةَ النَّعِيـمِ﴾(٢) وقولـــهُ تعـــالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: ((تَنْظُرُ إلَى اللهِ تَعَالَى يَوْمَئِـذٍ لاَ تُحْجَـبُ عَنْـهُ))، قال مقاتلُ: ((تَنْظُرُ إلَى ربها مُعَايَنَةً))(٣).

قال ﷺ: [إذا دَخَلَ أهْلُ الْجَنَّةِ يَقُولُ تَعَالَى: أتُرِيدُونَ شَيْئاً أزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُـونَ: ألَمْ تُنَضِّرْ وُجُوهَنَا؟ ألَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ؟ ألَمْ تُنْجِنَا مِنَ النَّار؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَـابُ، فَمَا أعْطُوا شَيْئاً أحَبَّ إلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهِم، يَنْظُرُونَ إلَى اللهِ تَعَالَى فِـي الْجَنَّـةِ بـلاَ كَيْفٍ وَلاَ تَحْدِيدٍ، كَمَا عَرَفَتْهُ الْقُلُوبُ بلاَ كَيْفٍ وَلاَ تَشْبِيهٍ](٤).

---

(١) وفرَّق بعض أهل التفسير بين القراءة بالتاء والقراءة بالياء، فمن خالف القراءة المشــهورة، وقـرأ بالياء فردّاً على قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإنْسَانُ﴾ وهو بمعنى النـاس، نظـيره قولـه تعـالى: ﴿إنَّ هَـؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾. ومن قرأ بالتاء فعلى أنـه واجهـهم بـالتقريع؛ لأن ذلك أبلغ في المقصود. ينظر: الكشف والبيان: ج ١٠ ص٨٧. والجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٩ ص١٠٧.

(٢) المطففين / ٢٤ .

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٢٣.

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٥٣؛ بمعناه، قال السيوطي: (أخرجه ابن عساكر عن أبي موسى).

وعن عبدِالله بن عمرَ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ أدْنَى أهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً أنْ يَنْظُرَ فِي مُلْكِهِ ألْفَ سَنَةٍ يَرَى أقْصَاهُ كَمَا يَرَى أدْنَاهُ، وَيَنْظُرَ فِي سُرُرِهِ وَأزْوَاجِهِ وَخَدَمِهِ، وَإنَّ أفْضَلَهُمْ مَنْزِلَةً مَنْ يَنْظُرُ إلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلَّ يَوْمٍ نَظْرَتَيْنِ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي كَالِحَةٌ عابسَةٌ كاشرة مُسودَّةٌ، وهي وجوهُ الكفَّار، ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي تَستَيقِنُ أن يُفعلَ بها داهيةٌ من العذاب، والفَاقِرَةُ: الداهيةُ العظيمة والأمرُ الشديد الذي يَكسِرُ فِقَارَ الظَّهرِ، قال ابنُ زيدٍ: ((هِيَ دُخُولُ النَّارِ))[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ هذا ذكرُ حال من يَحضرهُ الموتُ ليَرتَدِعَ الناسُ عمَّا يؤدِّيهم إلى العذاب، والمعنى: إذا بلَغَتِ الرُّوحُ التُّرْقُوَةَ، ويقولُ مَن يحضرُ الميِّتَ من أهلهِ: هل مِن رَاقٍ يُرَقِّيهِ وطبيبٍ يُداويهِ، يطلُبون الأطباءَ؛ ليَكشِفُوا عنه إما بالرُّقَى، أو بالعلاجِ. وقال بعضُهم: هذا من قول الملائكة؛ لأنَّ النَّفْسَ عندما تُقبض يحضرُها سبعةٌ أملاكٍ من ملائكةِ الرَّحمة، وسبعةُ أملاكٍ من ملائكةِ العذاب أعوانٌ لِمَلَكِ الموتِ، ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ أيُّهم يَرْقَى بروحهِ.

والتَّرَاقِي: جمعُ تُرْقُوَةٍ؛ وهي عظمٌ وصلٍ بين ثغرَةِ النَّحرِ والعَاتِقِ، وهما تُرقوتَان عن يمينِ ثغرَةِ النَّحرِ وعن شِمالها كالْحَوْضَين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي تَيَقَّنَ عند ذلك المريضُ الذي بلَغت روحهُ تَرَاقِيَهُ أنه الفراقُ من الدُّنيا، ومفارقةُ المال والأهل والولدِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي اجتمعَتْ عليه الشدائدُ والتقى عليه أمرُ

---

(١) أدرج الناسخ هنا عبارة (رواه الحاكم في صحيحهِ) والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩٣٥)، وقال: (هذا حديث مفسر في الرد على المبتدعة، وإن لم يخرجاه وثوير بن أبي فاختة فلم ينقم عليه غير التشيع). وضعفه الذهبي. وترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٩٠٣)

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٦٤٢).

الدنيا والآخرةِ، وهو في شدَّة كرب الموت وهَوْلِ المطلعِ وآخر شـدائدِ الدُّنيـا مـع أوَّل شدةِ الآخرة.

وقال الضحَّاك: ((النَّاسُ يُجَهِّزُونَ بَدَنَهُ، وَالْمَلاَئِكَةُ يُجَهِّزُونَ رُوحَهُ))[1]. وقـال الحسنُ: ((مَعْنَاهُ: وَالْتَفَّتْ سَاقَاهُ فِي الْكَفَنِ يُلَفُّ أحَدُهُمَا إلَى الآخَرِ))[2]. وقال قتـادةُ: ((مَاتَتْ سَاقَاهُ فَلَمْ تَحْمِلاَهُ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمَا جَـوَّالاً))[3]. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي إليه المرجعُ والمنتهَى في الآخرةِ إلى حيث يأمرُ اللهُ، إمـا إلى عِلِّيِّينَ وإمَّا إلى سِجِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ ﴾؛ يعني أبَا جهلٍ يقولُ اللهُ فيـه: لَـمْ يصـدِّقْ بـالقرآن، ولم يُصَـلِّ للهِ، ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي كـذبَ بالقرآن وتولَّى عن الإيمانِ بـه، ويدخـلُ في هـذا كـلُّ كـافرٍ مثلـه، ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ أي رجعَ إلى أهلهِ يتبَختَرُ في المشـي ويختـالُ فيـه، وأصلـهُ: يَتَمَطَّطُ أي يتمَدَّدُ، والْمَطُّ هو الْمَدُّ، وتَمَطَّى الإنسانُ إذا قامَ من منامهِ يَمْتَدُّ، والْمَطِـيُّ هو الظهرُ، وتَمَطَّى إذا مَدَّ مَطَاهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ هــذا وعيدٌ عَلى وعيدٍ من الله لأبي جهلٍ، وهذه كلمةٌ موضوعــة للتـهديدِ والوعيـد، والمعنـى كأنَّهُ يقولُ لأبي جهلٍ: الويلُ لكَ يومَ تَموتُ، والويلُ لكَ يومَ تُبعَثُ، والويلُ لكَ يومَ تدخلُ النارَ. وَقِيْلَ: المعنى أوْلاَكَ المكروهُ يا أبَا جهلٍ وقَرُبَ منك ما تكرهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾؛ معنـاهُ: أيَظُـنُّ الكافرُ أن يُترَكَ مُهمَلاً لا يؤمَرُ ولا يُنهَى ولا يُوعَظُ ولا يُتلَـى ولا يحاسَـبُ بعملـهِ في الآخرة. والسُّدَى: الْمُهْمَلُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٦٥٦).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٦٣؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد عن الحسن) وذكره.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٦٦٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ألَمْ يَكُ هذا الإنسانُ في ابتداءِ خَلقهِ نُطفَةً من مَنِيٍّ تُصَبُّ في الرَّحم، قُرئ (تُمْنَى) يعني النطفةَ، ورُوي (يُمْنَى) بمعنى المنِيِّ. قولُه: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ ؛ ثم صارَ دَماً مُنعقداً بعدَ النُّطفة، ﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ ، فخلَقَهُ وسوَّاهُ باليدينِ والرِّجلين والعينينِ والأُذنين إلى أن بلَّغَهُ هذا الحدَّ الذي شاهد، وخلَقَ منه الروح.

قولُهُ: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي خلَقَ من هذه النطفة أولاداً ذُكوراً وإناثاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أليس الَّذي خلقَ الإنسانَ مِن المنِيِّ، ونقَلَهُ من تلك الأحوالِ إلى هذه الحالةِ قادرٌ على أن يُحييَ الموتَى. والمعنى: مَن قَدَرَ على الابتداءِ، كان على البعثِ أقدرَ بعدَ الموتِ، دلَّهم اللهُ تعالى على البعثِ بابتداء الخلقِ.

وعن رسولِ الله ﷺ أنَّهُ كَانَ إذا خَتَمَ هَذِهِ السُّورَةَ قَالَ: [سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبَلَى][1]. وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: ((إذا قَرَأ أحَدُكُمْ (ألَيْسَ ذلِكَ بقَادِرٍ عَلَى أنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَلَى))[2].

آخر تفسير سورة (**القيامة**) والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٧٦٨٨) عن قتادة موقوفاً. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٣٦٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٦٤ نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.

سُورَةُ الدَّهْـــرِ

سُورَةُ الدَّهْرِ مَكِّيَّةٌ، إلاَّ قَولُهُ (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ...) إلى آخِرِ السُّورَةِ، فَإنَّهَا نَزلَتْ فِي الْمَدِينَةِ، وَهِيَ أَلْفٌ وَأرْبَعُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَمِائَتَان وَأرْبَعُونَ كَلِمَــةً، وَإحْـدَى وَثَلاثُونَ آيَةً، قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا كَانَ جَزَاؤُهُ عَلَى اللهِ جَنَّةً وَحَرِيراً][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ ؛ أي قد أتى على آدمَ أربعون سَنة التي مرَّت به وهو بصورةِ الإنسانِ قبلَ أن يُنفخ فيــه الـروح، ﴿ لَمْ يَكُن ﴾ ؛ يُذكَـرُ اسمهُ، ولا يَدري ما يُراد به، كـانَ ﴿ شَيْـًٔا ﴾ ؛ ولم يكـن، ﴿ مَّذْكُورًا ۝١ ﴾ ؛ لأنه كان تُراباً وطِيناً إلى أنْ نُفخ فيه الروحُ. ومعنى الآيةِ: قد أتى على آدمَ أربعُون سَنة مُلقًى بين مكَّة والطائفِ قبلَ أن يُنفخ فيه الروحُ لم يكـن شَـيئاً مذكـوراً، لا يَذكَـرُ ولا يعرفُ[2] ولا يدري ما اسمهُ ولا ما يُراد به.

يُروي: ((أنَّ عُمَرَ رضي الله عنه سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأ (هَلْ أتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) فَقَالَ عُمَرُ: لَيْتَهَا تَمَّتْ))[3] أي لَيْتَهُ بَقِيَ على مَـا كـانَ لا يلـدُ. وقرأ رجلٌ عند ابنِ مسعود (لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) فقال: ((لَيْتَ ذلِكَ لَمْ يَكُــنْ))[4]. ولفظُ (هَلْ) بمعنى (قد)؛ لأنه لا يجوزُ على اللهِ أن يستفهِمَ؛ لأنه لَمْ يزَلْ عالِماً بالأشياءِ كلِّها، ولا يزالُ عالِماً.

---

(١) هو الحديث عن أبي، رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٩٣ بإسناد واه.

(٢) في المخطوط: (إلا يعرف ويذكر) وهو غير مناسب.

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٦٦؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المبارك وأبو عبيد في فضائلـه وعبـد ابن حميد وابن المنذر).

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٦٦؛ قال السيوطي: (وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنـذر عن ابن مسعود) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ ؛ يعني نسل آدم خلقه الله من نطفة أمشاج؛ أي أخلاطٍ واحدُها مَشِيجٌ، وهو شيئان مَخلُوطَان، يعني اختلاطَ نُطفة الرَّجلِ بنطفةِ المرأة، أحدُهما أبيضُ والآخر أصفرُ، فما كان من عصبٍ وعظمٍ وقوَّة فمِن نُطفة الرجل، وما كان من لحمٍ ودم وشَعرٍ فمن نُطفة المرأة. وتَمَّ الكلامُ، ثُم قالَ: ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: جَعلناهُ سميعاً بصيراً لنَبتَليهِ.

والأمشاجُ الاختلاطُ، يقالُ: مَشَجْتُ هذا بهذا؛ أي خَلَطتُه به فهو مَمْشُوجٌ؛ أي مَخلوطٌ، وقال ابنُ عبَّاس والحسن وعكرمةُ ومجاهد: ((يَعْنِي مَاءَ الرَّجُلِ وَمَاءَ الْمَرْأةِ يَخْتَلِطَانِ فِي الرَّحِمِ، فَيَكُونُ مِنْهُمَا جَمِيعاً الْوَلَدُ، فَمَاءُ الرَّجُلِ أبْيَضٌ غَلِيظٌ يَجْرِي مِنَ الصُّلْبِ، وَمَاءُ الْمَرْأةِ أصْفَرُ رَقِيقٌ يَجْرِي مِنَ التَّرَائِب، ثُمَّ يَخْتَلِطَانِ فَأيُّهُمَا عَلاَ مَاؤُهُ مَاءَ صَاحِبِهِ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ)). ويقالُ: جعلَ اللهُ في النُّطفة أخْلاَطاً من الطبائعِ التي تكونُ في الإنسانِ من الحرارةِ والبُرودة واليُبوسَةِ والرطوبة، وقال الحسنُ: ((نَعَمْ وَاللهِ خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ نُطْفَةٍ مُشِجَتْ بدَمِ الْحَيْضِ، فَإذا حَلَّتِ النُّطْفَةُ ارْتَفَعَ الْحَيْضُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ ؛ أي بيَّنَّا له طريقَ الهدى وطريقَ الضَّلالة، فمَكنَّاهُ من الكُفرِ والشُّكر، ثُمَّ إنه يكون بعدَ الابتلاءِ: ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي إما موحِّداً طائعاً، وإما مُشركاً كافراً، والمعنى: إمَّا أنْ يختارَ طريقَ الإسلامِ، وإمَّا أنْ يختارَ طريقَ الكُفرِ. ومعنى (نَبْتَلِيهِ) أي نتَّعَبَّدهُ فيَظهَرُ ما عَلِمْنَا منه، ولا يقعُ الابتلاءُ إلاَّ بعد تَمام الخِلْقَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ ، بيَّن اللهُ بهذا ما أعدَّ في الآخرةِ للكافرين وما أعدَّ للمؤمنين، والمعنَى: إنَّا هيَّأنا في جهنَّم لكلِّ كافرٍ سِلْسِلَةَ في النار طولُها سَبعون ذراعاً، يُسْلَكُ فيها وقُرَنَاؤُهُ من الشَّياطين، وقولهُ تعالى (وَأغْلاَلاً) أي أغْلاَلاً من حديدٍ تُغَلُّ بها أيدِيهم إلى أعناقِهم من ورائِهم. وقوله (وَسَعِيراً) أي وناراً مُوقَدَةً يُعذبون بها.

قرأ نافعُ وعاصم والأعمش والكسائي وأيوب (سَلاَسِلاً) بالتنوين[1]، وكذلك ﴿قَوَارِيراً﴾، وفيه وجهان: أحدُهما: أنَّ من العرب من يَصرفُ جمعَ ما لا ينصرفُ. والثاني: أنَّ هذا الجمعَ أشبَهَ الآحادَ؛ لأنَّهم قالوا صَوَاحِبَاتُ يوسُفَ في جمعِ صَوَاحِبَ، وكذلك مَوَالِيَاتُ في جمعِ مَوَالِي، فإذا كان صواحبُ في معنى الواحدِ، فكذلك سَلاَسِلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ ﴾ يعني بالأبرار الْمُطِيعِينَ للهِ الصَّادقين في إيمانِهم في الدُّنيا. وَقِيْلَ: هم الذين يَبُرُّونَ الآباءَ والأُمَّهات من المؤمنين. وَقِيْلَ: هم الذين لا يُؤذُونَ الذرَّ[2] ولا يرضَون بالشرِّ. وقولُهُ تعالى (مِنْ كَأسٍ) أي من خَمْرٍ، وقولهُ تعالى (كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً) أي كان مِزَاجُ الخمرِ التي كانت في الكَأسِ كَافُوراً.

قال بعضُهم: أرادَ بذلك ما يُشَمُّ من ريحِها من جهةِ طَعمِها، كما رُوي عن مجاهدٍ أنه قالَ ((يُمْزَجُ شَرَابُهُمْ بالْكَافُور وَرِيحِ الْمِسْكِ وَطَعْمِ الزَّنْجَبيلِ، لَيْسَ كَكَافُور الدُّنْيَا وَلاَ كَمِسْكِهَا وَزَنْجَبيلِهَا، وَلَكِنْ وَصَفَ اللهُ مَا عِنْدَهُ بمَا عِنْدَنَا لِتَهْتَدِيَ لَهُ الْقُلُوبُ)). ويقالُ: يغيِّرُ اللهُ طعمَ الكافور إلى نِهاية ما يُشتهى، فيجتمعُ طِيبُ الرائحةِ مع لذةِ الطَّعمِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ عَيْنًا ﴾ ؛ منصوبٌ على البدلِ من (كَافُوراً)، ويقالُ في معنى (يَشْرَبُونَ... عَيْناً) أي مِن عينٍ فوَّارَةٍ في أرضِ الجنة، وقولهُ تعالى: ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون معناهُ: يشربُها، يقالُ: شَربْتُ بماءِ كذا؛ أي شَربْتُهُ، ويجوز أنْ يكون معناهُ: يشربُ بالجنَّة أو بالأرضِ التي بها العينُ، كما يقالُ: شَربنا كَذا شَراباً صَافياً.

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١٩ ص١٢٣، وقال:(وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر) وذكره. وينظر أيضاً: الكشف والبيان: ج ١٠ ص٩٥.

(٢) الذرُّ: جمع ذرَّةٍ، وهي أصغرُ النملِ. وحكاه القرطبي من كلام الحسن رحمه الله. في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٢٥.

قوله (عِبَادُ اللهِ) أي أولياؤه، يفجِّرون تلكَ العينَ، ويسُوقونَها إلى حيث شَاءُوا لِمَن دون هم من أهلِ الجنَّة، بخلافِ عُيون الدُّنيا وأنْهارها. والتفجيرُ: تَشْقِيقُ الأرضِ بجَرْيِ الماءِ. وَقِيْلَ: معنى (يُفَجِّرُونَهَا) أي يقُودون تلك العينَ حيث شاءوا من منازلهم ودُورهم وحيث شاءوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ ﴾ ؛ يعني الأبرارَ هذه صفاتُهم في الدُّنيا، كانوا يُوفُونَ بطاعةِ الله من الصلاةِ والحجِّ، ومعنى (النَّذْر) في اللغة: الإيجابُ، ومعنى الوفاءُ بالنذر إتمامُ العهدِ والوفاءُ به وإقامة فُروضِ الله تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ويخافون من نقضِ العهدِ عذابَ يومٍ كان شرُّه مُمْتَدّاً فَاشِياً. يقالُ: استطارَ الخيرُ إذا فشَا وظهرَ. وعن قتادةَ قال: ((اسْتَطَارُوا للهِ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى مُلِئَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ مِنْهُ))[1] نَحْوَ انْشِقَاق السَّمَاءِ، وَانْتِثَار الْكَوَاكِب، وَنَسْفِ الْجِبَال، وَخُسُوفِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَفَزَعِ الْمَلاَئِكَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ ؛ أي على حُب الطعامِ وقلَّتهِ على أشدِّ ما يكونون محتاجين إليه، ويُؤْثِرُونَ على أنفُسِهم ولو كان بهم خَصَاصَةٌ. ويقالُ: على حب الله لطلب مَرضَاتِه، وقوله تعالى: ﴿ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ فالمسكينُ هو الذي يسألُ، وَقِيْلَ: هو المتعفِّفُ الذي لا يسألُ. واليتيمُ: الذي لا أبَ له من يَتَامَى المسلمين. والأسيرُ: الكافرُ المأسورُ في أيدِي المؤمنين.

قال قتادةُ: ((كَانَ أسِيرُهُمْ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَوَاللهِ لأَخُوكَ الْمُسْلِمُ أعْظَمُ حُرْمَةً وَحَقّاً عَلَيْكَ))[2]. ويقالُ: الأسيرُ العَبْدُ، ويستدلُّ مِن هذه الآيةِ على أنَّ في إطعامِ أهلِ الجوع ثواباً جَزيلاً من اللهِ تعالى، وعن رسول الله ﷺ أنه قَالَ: [مَا مِنْ مُسْلِمٍ أطْعَمَ مُسْلِماً عَلَى جُوعٍ إلاَّ أطْعَمَهُ اللهُ مِنْ ثِمَار الْجَنَّةِ، وَمَنْ سَقَى مُسْلِماً عَلَى ظَمَأ سَقَاهُ اللهُ مِنَ الرَّحِيقِ].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٧٢٣). وعزاه السيوطي إلى عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة. في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٦٩.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٧٢٦ و٢٧٧٢٧).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ قال مجاهدُ: ((أمَا وَاللهِ نَعَمْ؛ لَمْ يَتَكَلَّمُوا بذلِكَ وَلَكِنْ عَلِمَ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ خَيْراً))(١). والمعنى: أنَّهم يقولون في أنفسِهم وفيما بينهم وبين ربهم: إنما نُطعِمُكم لطلب ثوابه. وقولهُ (لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً) أي لا نريدُ منكم مكافأةً ولا مَحْمَدَةً.

وقوله (شُكُوراً) مصدرٌ مثل القُعُودِ والخروجِ. وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ مَن أطعمَ غيرَهُ للمكافأةِ أو لكي يمدحَهُ ويَشكُرَهُ لا يستحقُّ بذلك الثواب، وإنما يستحقُّهُ إذا فعلَهُ خَالِصاً للهِ لا يُريدُ شَيْئاً مِنَ الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنا نَصنَعُ ما نصنَعُ خَوفاً من عذاب ربنا وطَمَعاً في رحمتهِ، اليَوْمُ العَبُوسُ: هو الذي تعبُس فيه الوجوهُ مِن هَولِهِ فلا تنبسطُ، والقَمْطَرِيرُ: الشديدُ الغليظُ العَصِبُ، يقالُ: يوم قَمْطَرِيرٌ وَطِرٌ إذا كان عظيمَ الشَّرِّ طويلَ البلاءِ.

وعن ابنِ عبَّاس قال:((الْعَبُوسُ: الضَّيِّقُ، وَالْقَمْطَرِيرُ: الطَّوِيلُ))(٢). وقال مجاهدُ: ((الْقَمْطَرِيرُ: الَّذِي يُقَلِّصُ الْوَجْهَ وَيَقْبِضُ الْجَبْهَةَ، وَمَا بَيْنَ الأَعْيُنِ مِنْ شِدَّتِهِ))(٣). قال ابنُ عبَّاس: ((يَعْبسُ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ حَتَّى يَسِيلَ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ عَرَقٌ مِثْلُ الْقِطْرَانِ سَحّاً))(٤)، قال الحسنُ: ((سُبْحَانَ اللهِ! مَا أَشَدَّ اسْمَهُ وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ اسْمِهِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ ﴾ ؛ أي دفعَ اللهُ عنهم شرَّ ذلك اليومِ، ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي حُسناً في الوجوهِ وسُروراً في القلوب لا انقطاعَ لـه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٧٠؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الشعب عن مجاهد) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٧٣٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٧٤٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٧٤٢).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٧٣٦).

جَزاهم بما صبَروا في الدُّنيا على طاعةِ الله، وعلى ما أصابَهم من الشَّدائدِ في ذاتِ الله جنَّةً يَسكنُونَها وحَريراً يلبسونَهُ في الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ ؛ نُصِبَ على الحالِ فيها؛ أي في الجنَّة ((متكئين)) على الأرائكِ؛ أي على السُّرُر في الْحِجَال، ولا تكون أريكةً إذا اجتَمعا، قال مقاتلُ: ((الأَرَائِكُ: السُّرُرُ فِي الْحِجَالِ مِنَ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، مَوْضُونَةٌ بِقُضْبَانِ الدُّرِّ وَالذهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَلْوَانِ الْجَوَاهِرِ. وَالْحِجَالُ: شِبْهُ الْقِبَابِ فَوْقَ السُّرُرِ))[1]، ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ لا يصيبُهم في الجنَّة شمسٌ ولا زمهريرٌ؛ أي لا يُصيبهم حرُّ الشمسِ ولا بردُ الزَّمهريرِ، البردُ الشديدُ الذي يحرقُ ببرودَتهِ إحراقَ النار.

ورُوي أنَّ هذه الآيات نزَلت في عليٍّ وفاطمةَ وجاريةٍ لهما يقالُ لها فضَّة[2]، قال ابنُ عبَّاس: ((مَرِضَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، فَعَادَهُمَا جَدُّهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ أبو بَكْرٍ عُمَرُ، فَقَالُوا لِعَلِيٍّ: [لَوْ نَذرْتَ عَلَى وَلَدَيْكَ نَذْراً ؟] فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: إنْ بَرِئَ وَلَدَايَ مِمَّا بِهِمَا صُمْتُ ثَلاَثَةَ أيَّامٍ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ كَذلِكَ، وَقَالَتْ جَارِيَتُهُمَا كَذلِكَ، فَوَهَبَ اللهُ لَهُمَا الْعَافِيَةَ.

فَانْطَلَقَ عَلِيٌّ ﷺ إلَى سَمْعُونَ الْيَهُودِيِّ فَاسْتَقْرَضَ مِنْهُ ثَلاَثَةَ أصْعٍ مِنْ شَعِيرٍ، فَطَحَنَتِ الْجَارِيَةُ صَاعاً، وَخَبَزَتْ مِنْهُ خَمْسَةَ أقْرَاصٍ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قُرْصٌ، وَصَلَّى عَلِيٌّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْمَغْرِبَ ثُمَّ أتَى الْمَنْزِلَ، فَوُضِعَ الطَّعَامُ بَيْنَ يَدَيْهِ، إذْ أتَاهُمْ مِسْكِينٌ فَوَقَفَ بالْبَاب وَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، مِسْكِينٌ مِنْ مَسَاكِينِ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٢٩.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٣٠؛ قال القرطبي: (ذكرَ النقاشُ والثعلبي والقشيري وغير واحد من المفسرين في قصَّة علي وفاطمة وجاريتهما حديثاً لا يصحُّ ولا يثبتُ، رواه ليث عن مجاهد عن ابن عباس) وذكره. قلتُ: لا يخفى ما فيها، فهي ظاهرةُ الاختلاق، وفيها أشعارٌ للمسكين واليتيم يخاطبون بيتَ النبوة، وأشعارٌ لفاطمة عليها السلام تخاطبُ كل واحد منهم، وهي أقربُ إلى الأدب المسرحيِّ المعاصر، ومما لا شكَّ فيه أن فاطمة وعلي رضي الله عنهما أرفعُ مما ذكر في هذا الشعر والبلاغة، بل لا يقاس؛ لسفسافِ ألفاظ ما ذُكر وسُخف معناه.

الْمُسْلِمِينَ، أَطْعِمُونِي أَطْعَمَكُمُ اللهُ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ، فَسَمِعَهُ عَلِيٌّ ﷺ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

فَـــاطِمَ ذاتَ الْمَجْـــدِ وَالْيَقِـــينْ يَـا بِنْـتَ خَـيْرِ النَّـاس أَجْمَعِـــينْ
أَمَــا تَرَيْــنَ الْبَـــائِسَ الْمِسْـــكِينْ قَـدْ قَـامَ بِالْبَـاب لَــهُ حَنِـــينْ
يَشْـــكُو إِلَـــى اللهِ وَيَسْـــتَكِينْ يَشْـــكُو إِلَيْنَـــا جَـــائِعٌ حَزِيـــنْ
كُـــلُّ امْـــرِئٍ بِكَسْـــبِهِ رَهِـــينْ وَفَـــاعِلُ الْخِـــيْرَاتِ يَسْـــتَبِينْ
مَوْعِـــدُهُ فِـــي جَنَّـــةٍ عِلِّـــينْ حَرَّمَـــهَا اللهُ عَلَـــى الضَّنِـــينْ
وَلِلْبَخِيـــلِ مَوْقِـــفٌ مُـــهِينْ تَـهْوِي بِـهِ النَّـارُ إِلَـى سِـجِّينْ
شَرَابُــهُ الْحَمِيــمُ وَالْغِسْلِيــنْ

فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ :

أَمْـرُكَ يَـا ابْـنَ عَـمٍّ سَـمْعٌ وطَاعَـهْ مَـا بِـي مِـنْ لُـوْمٍ وَلاَ وَضَاعَـهْ
غَذَيْـتُ فِـي الْخُـبْزِ لَـهُ صِنَاعَـهْ أُطْعِمُـهُ وَلاَ أُبَـالِي السَّـاعَهْ
أَرْجُـو إِذا أَطْعَمْـتُ ذا الْمَجَاعَـهْ أَنْ أَلْحَـقَ الأَخْيَـارَ وَالْجَمَاعَـهْ
وَأَدْخُـلَ الْجَنَّـةَ وَلِـي شَفَاعَـهْ

فَأَعْطَوْهُ طَعَامَهُمْ وَلَمْ يَذُوقُوا لَيْلَتَهُمْ إِلاَّ الْمَاءَ. فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّـانِي أَصْبَحُـوا صِيَاماً، فَطَحَنَتِ الْجَارِيَةُ الصَّاعَ الثَّانِي، وَخَبَزَتْ مِنْهُ خَمْسَةَ أَقْرَاصٍ، فَصَلَّى عَلِيٌّ مَـعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أَتَى الْمَنْزِلَ فَوُضِعَ الطَّعَامُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَإِذا بِيَتِيمٍ قَـدْ وَقَـفَ عَلَـى الْبَـاب، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، أَنـا يَتِيـمٌ مِـنْ أَوْلاَدِ الْمُـهَاجِرِينَ، اسْتُشْـهِدَ وَالِدِي يَوْمَ الْعَقَبَةِ، أَطْعِمُونِي أَطْعَمَكُمُ اللهُ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ، فَسَـمِعَهُ عَلِـيٌّ ﷺ فَأَنْشَـأَ يَقُولُ:

فَـــاطِمَ بِنْـــتَ السَّـــيِّدِ الْكَرِيـــمِ بِنْـتُ نَـبِيٍّ لَيْـسَ بِـاللَّئِيمِ[1]
قَـــدْ جَاءَنَـــا اللهُ بِـــذِي الْيَتِيـــمِ مَـنْ يَرْحَـمِ الْيَـوْمَ يَكُـنْ رَحِيـمِ

(١) في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٠٠، والجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٣٢: (بنت نبيٍّ ليس بالزَّنيمْ).

مَوْعِدُهُ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ قَدْ حُرِّمَ الْخُلْدُ عَلَى اللَّئِيمِ
يُسَاقُ فِي الْعُقْبَى إِلَى الْجَحِيمِ

فأنشأَتْ فاطمةُ تقولُ:

إِنِّي سَأُعْطِيهِ وَلاَ أُبَالِي وَأُوْثِرُ اللهَ عَلَى عِيَالِي
أَمْسَوا جِيَاعاً وَهُمْ أَشْبَالِي أَصْغَرُهُمْ يُقْتَلُ فِي الْقِتَال
بِكَرْبَلاَ يُقْتَلُ باغْتِيَال لِلْقَاتِلِ الْوَيْلُ مَعَ الْوَبَال
تَهْوِي بِهِ النَّارُ إِلَى سِفَال مُقَيَّدَ الْيَدَيْنِ بالأَغْلاَل
كَبُولَةٌ زَادَتْ عَلَى الأَكْبَال

فَأَعْطَوْهُ الطَّعَامَ وَبَاتُوا عَلَى الْمَاءِ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ، طَحَنَتِ الْجَارِيَةُ الصَّاعَ الثَّالِثَ وَصَنَعَتْهُ خَمْسَةَ أَقْرَاصٍ، فَصَلَّى عَلِيٌّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أَتَى الْمَنْزِلَ فَوُضِعَ الطَّعَامُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَإِذا بأَسِيرٍ قَدْ وَقَفَ بِالْبَاب، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، تَأْسِرُونَنَا وَتَشُدُّونَنَا وَلاَ تُطْعِمُونَنَا! أَطْعِمُونِي فَإِنِّي أَسِيرٌ أَطْعَمَكُمْ اللهُ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ!! فَسَمِعَهُ عَلِيٌّ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

فَاطِمَ يَا بِنْتَ النَّبِيِّ أَحْمَدْ بِنْتَ نَبِيٍّ سَيِّدٍ مُؤَيَّدْ
هَذا أَسِيرٌ لِلنَّبِيِّ الْمُهْتَدْ مُكَبَّلٌ فِي غُلِّهِ مُقَيَّدْ
مَنْ يُطْعِمِ الْيَوْمَ يَجِدْهُ فِي غَدْ عِنْدَ الْعَلِيِّ الْوَاحِدِ الْمُوَحَّدْ
فَأَطْعِمِ مِنْ غَيْرِ مَنٍّ أَنْكَدْ حَتَّى تُجَازَى بِالنَّعِيمِ السَّرْمَدْ

فَأَنْشَأَتْ فَاطِمَةُ تَقُولُ:

لَمْ يَبْقَ مِمَّا جِئْتَ غَيْرُ صَاعِ قَدَّمْتُهُ بِالْكَفِّ وَالذِّرَاعِ
أَطْعَمْتُهُ للهِ فِي الْجِيَاعِ وَمَا عَلَى رَأْسِي مِنْ قِنَاعِ

فَأَعْطَوْهُ طَعَامَهُمْ وَبَاتُوا لَمْ يَذُوقُوا إِلاَّ الْمَاءَ. فَلَمَّا أَصْبَحُوا الْيَوْمَ الرَّابِعَ، أَخَذَ عَلِيٌّ ﷺ الْحَسَنَ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، وَالْحُسَيْنَ بِيَدِهِ الْيُسْرَى، وَمَضَى بِهِمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُمَا يَرْتَعِشَانِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، فَلَمَّا رَآهُمَا قَالَ: [مَاذا أَرَى بِكُمْ ؟ انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى فَاطِمَةَ] فَانْطَلَقُوا إِلَيْهَا فَوَجَدُوهَا فِي مِحْرَابِهَا وَهِيَ قَدْ لَصِقَ بَطْنُهَا بِظَهْرِهَا

وَغَارَتْ عَيْنَاهَا مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، فَقَالَ ﷺ: [وَاغَوْثَاهُ يَا اللهُ، أَهْلُ بَيْتِ مُحَمَّدٍ يَمُوتُونَ جُوعاً ؟].

فَهَبَطَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ خُذْ مَا أَعْطِيتَ، هَنَّاكَ اللهُ فِي أَهْلِ بَيْتِكَ، فَقَالَ: [وَمَا آخُذُ ؟] فَقَالَ: (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا. عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا. يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا...) إِلَى قَوْلِهِ: (وَكَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً).))[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ ؛ نعتٌ للجنَّة[2]؛ أي وجزَاهم بما صبَروا جنَّةً دانيةً ظِلالُها؛ أي قريبٌ ظلالُ أشجارها عليهم، دَانَتْ دَانِيَةً؛ لأن الظِّلالَ جمعٌ. وفي قراءةِ عبدِالله (وَدَانِياً عَلَيْهِمْ).

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٣٤؛ قال القرطبي: (قال الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول: فهذا حديثٌ مزوّقٌ مزيَّفٌ، قد تطرف فيه صاحبه حتى تشبَّه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يَعَضُّ شفتيه تلهفاً أن لا يكون بهذه الصفة، ولا يُعلَم أن صاحب هذا الفعل مذمومٌ؛ وقد قال الله تعالى في تنزيله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ وهو الفضلُ الذي يفضَلُ عن نفسك وعيالك، وجرت الأخبار عن رسول الله ﷺ متواترةً بأن [خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى]. [وَابْدَأ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ]. وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم. وقال رسول الله ﷺ:[كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ]. فيحسب عاقلٌ أن علياً جَهِلَ هذا الأمرَ حتى أجهد صبياناً صغاراً من أبناء خمس أو ستٍّ على جوع ثلاثة أيام ولياليهنَّ؟ حتى تضوروا من الجوع، وغارت العيون منهم؛ لخلاء أجوافهم، حتى أبكى رسولَ الله ﷺ ما بهم من الجهد. هَبْ أنه آثر على نفسه هذا السائل، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك؟! وهَبْ أن أهله سمحت بذلك لعلي، فهل جاز له أن يحمِلَ أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن؟! ما يُرَوِّجُ مثلَ هذا إلا على حمقى جهَّال؛ أبى الله لقلوب مُتَنَبِّهَةٍ أن تظُنَّ بعلي مثل هذا. وليت شعري مَنْ حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن علي وفاطمة، وإجابةَ كل واحد منهما صاحبه، حتى أداه إلى هؤلاء الرواة؟! فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى. بلغني أن قوماً يخلَّدون في السجون فيبقون بلا حيلة، فيكتبون أحاديث في السمر وأشباهه، ومثل هذه الأحاديث مُفْتَعَلَةٌ، فإذا صارت إلى الجهَابذَةِ رموا بها وزيَّفوها، وما من شيء إلا له آفة ومكيدة، وآفة الدين وكيدهُ أكثر).

(٢) في المخطوط: (نعتُ الجنة) وتقديره: (انتصبت نعتاً للجنة).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي وسُـخِّرت وقُرِّبَـت ثمارُها تسخيراً، لا يمنعُهم عنها شَـوكٌ ولا بُعْـدٌ، ينالُـها القـائم والقـاعدُ والمضطجـع يتناوَلونها كما شاءُوا، فإذا كان الرجلُ قائماً تطاوَلَت له الشجرةُ على قدر قيامه، وإنْ كان قاعداً ومتَّكئاً أو مُضطجعاً انخضَعت لـه علـى قـدر ذلـك. ومثلـهُ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾[١].

قال مجاهدُ: ((أرْضُ الْجَنَّةِ مِنْ فِضَّةٍ، وَتُرَابُهَا مِنْ مِسْكٍ، وَأُصُولُ شَـجَرِهَا مِـنْ ذهَبٍ، وَوَرَقُهَا لُؤْلُؤٌ وَزُبُرْجَدٌ، وَالتَّمْرُ تَحْتَ ذلِكَ، فَمَنْ أكَلَ قَائِماً لَمْ يُؤْذِهِ، وَمَنْ أكَلَ قَاعِداً لَمْ يُؤْذِهِ، وَمَنْ أكَلَ مُضْطَجِعاً لَمْ يُؤْذِهِ))[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾ ، أي بـأقداح مـن فضَّـة، ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ ، أي كِيزَانٌ لا عُـرَى لهـا ولا خراطيـم، ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي كانت تلك الأكوابُ من فضَّة، وهي في صَفاءِ القوارير، يُرَى مـن خارجـها مـا في داخلها من الأشربة، قال ابنُ عبَّاس: ((لَوْ أخَذْتَ مِنْ فِضَّةِ أهْلِ الدُّنْيَا فَضَرَبْتَهَا حَتَّـى صَارَتْ مِثْلَ جَنَاحِ الذُّبَاب لَمْ يُبْصِرْ مَا فِيهَا مَنْ رَآهَا، وَلَكِنَّ قَوَارِيرَ الْجَنَّةِ فِـي بَيَـاضِ الْفِضَّةِ وَفِي صَفَاءِ الْقَوَارِيرِ)).

قال الكلبيُّ:((إنَّ اللهَ جَعَلَ قَوَارِيرَ كُلِّ قَوْمٍ مِنْ تُرَاب أرْضِهِمْ، وَإنَّ أرْضَ الْجَنَّةِ مِنْ فِضَّةٍ، فَجَعَلَ مِنْ تِلْكَ الْفِضَّةِ قَوَارِيرَ يَشْـرَبُونَ فِيْـهَا)). وفي قولـهِ تعـالى (قَوَارِيـرَ) قراءَتان، من لم ينوِّنْهما فهو لا يصرفُ، ومن صرفَهما فعلى اتِّباع رُؤوس الآي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي قدَّرها الملائكـة قبلَ مجيئِهم لها تقديراً، فجاءَت على ما قدَّروا، كما رُوي:((أنَّ الْمُؤْمِـنَ لاَ يُحَـدِّثُ نَفْسَـهُ بشَيْءٍ مِنْ شَرَاب الْجَنَّةِ إلاَّ أتَاهُ الْمَلَكُ بالشَّرَاب الَّذِي اشْتَهَى فِـي قَـدَحٍ مِـنْ فِضَّـةٍ - عَلَى صِفَةِ الْفِضَّةِ الَّتِي ذكَرْنَا - عَلَى مِقْدَار رَيِّ الشَّارب وَشَهْوَتِهِ مِـنْ غَـيْرِ زيَـادَةٍ وَلاَ نُقْصَانٍ حَتَّى يَسْتَوْفِي الْكَمَالَ مِنْ غَيْرِ أنْ يَتَكَلَّمَ بهِ)).

---

(١) الحاقة / ٢٣.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٧٤؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وسعيد بن منصـور وابـن المنذر والبيهقي عن مجاهد) وذكره.

والَلذُّ الشَّراب ما لا يكون فيه فضْلٌ ولا عجزٌ عن الرَّي، ويقالُ في معنـاه: إنَّـها تكون على قدر كفِّ الخدم، وريِّ المخدومِ ولم يثقُل حملها على أحدٍ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾؛ أي يُسقون في الجنَّة بآنيةٍ مملوءة من الخمرِ كان مزاجُها زَنجبيلاً لا يشبهُ زنجبيلَ الدُّنيا، لكـن سَـمَّاهُ اللهُ باسمهِ ليُعرَفَ؛ لأن العربَ تستطيبُ رائحةَ الزنجبيلِ في الدُّنيا، وأمَّا هـذا الزنجبيـلُ المذكور في الآيةِ فهو زنجبيلُ الجنَّة يشوِّقُ ويُطربُ من غيرِ حرقٍ ولدغٍ، وإنما قالَ ذلك؛ لأنَّ العربَ كانت تضربُ المثلَ بالخمرِ الممزوجة بالزنجبيلِ، قال الشاعرُ[١]:

كَـأَنَّ الْقُرُنْفُـلَ وَالزَّنْجَبيـ ـلَ بَاتَـا بفِيـهَا وَأرْيـاً مَشُـورَا

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾؛ معنـاهُ تُمـزَجُ الخمـرُ بالزَّنجبيلِ، والزنجبيلُ من عينٍ في الجنَّة تُسمَّى تلك العينُ سَلسَبيلاً، والمعنى: مِـن عـينٍ فيها تسمَّى سَلْسَبيلاً، قال مقاتلُ: ((السَّلْسَبيلُ عَيْنٌ مِنَ الْخَمْرِ تَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ الْعَـرْشِ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ إلَى أهْلِ الْجِنَانِ))[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾؛ أي يطوفُ عليهم بالخدمةِ وُصَفاءُ خُلقوا للخلودِ، ولا يتغيَّرون عن سنِّهم وشـبابهم. وَقِيْـلَ: معنـى (مُخَلَّـدُونَ) مُسـوَّرُونَ مُقرَّطُـونَ، يقـال لجماعـةِ الحُلِيِّ الْخُلْـدُ، ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾؛ يـا مُحَمَّـدُ، ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾؛ لصفائِهم وحُسن ألوانِهم، ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾؛ أي كاللُّؤلؤِ المنثور، فإن على البساطِ كان أحسنَ منه مَنظُوماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾؛ إذا نظَـرتَ إلى الجنَّـة، ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾؛ لا يوصفُ، ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾؛ أي ومُلكاً عَظيمـاً لا يلحقـهُ الـزوالُ والعـزل، فقال مقاتلُ: ((الْمُلْكُ الْكَبيرُ اسْـتِئْذَانُ الْمَلاَئِكَـةِ، لاَ يَدْخُـلُ رَسُـولُ رَب الْعِـزَّةِ مِـنَ الْمَلاَئِكَةِ عَلَيْهِمْ إلاَّ بإذْنِهِمْ، وَلاَ يُدْخَلُ إلاَّ بالْهَدَايَا مِنَ اللهِ تَعَـالَى، وَالسَّـلاَمِ مِـنَ اللهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾))[٣].

---

(١) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن من شعر الأعشى. والأرَى: العسلُ.
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٢٩.
(٣) يس / ٥٨ .

فَإذا انْتَهَى الْمَلَكُ إلَى الْبَاب قَالَ لِلْحَاجِب الَّذِي عَلَى الْبَاب: ائْذنْ لِي بالدُّخُول، فَيَقُولُ الْحَاجِبُ: لاَ أسْتَطِيعُ أنْ آذنَ لَكَ عَلَى وَلِيِّ اللهِ، وَلَكِنْ أخْبرُ الَّذِي يَلِينِي، فَيَخْبرُ الَّذِي يَلِيهِ فَيَقُولُ الثَّانِي كَذلِكَ، فَلاَ يَزَالُ هَكَذا حَتَّى يَأْتِيَهُ الْخَبَرُ فِي سَبْعِينَ بَاباً، فَذلِكَ هُوَ الْمُلْكُ الْكَبِيرُ، فَإذا دَخَلَ عَلَيْهِ الْمَلَكُ قَالَ لَهُ: إنَّ اللهَ يُقْرِؤُكَ السَّلاَمَ، فَيَضَعُ الْهَدِيَّةَ بَيْنَ يَدَيْهِ ((فيها)) مَا لاَ عَيْنٌ رَأتْ، وَلاَ أذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَرٍ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ الْمَلَكُ: إنَّ اللهَ عَنْكَ رَاضٍ، فَهَذا الْقَوْلُ عِنْدَهُ أكْبَرُ مِنَ السَّلاَمِ وَالْهَدِيَّةِ وَالنَّعِيمِ الَّذِي هُوَ فِيهِ)) فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أكْبَرُ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ ؛ قرأ قتادةُ ومحمَّد وابنُ سيرين ونافع وحمزة والأعمشُ وأيوب (عَالِيْهُمْ) بإسكان الياء، وهي في موضعِ رفعٍ بالابتداء، والمعنى: الذي يَعلُوهم من الثياب، ويقالُ: الذي يعلُوهم على حِجَالِهم، وقرأ الباقون (عَالِيَهُمْ) بنصب الياء على الظَّرف؛ أي فوقَهم، ويجوزُ أنْ يكون نَصباً على الحال؛ أي يطوفُ على الأبرار ولدَانٌ مخلَّدون في هذه الحالةِ؛ أي في حالِ علُوِّ ثياب السُّندسِ عليهم.

وقولهُ تعالى (خُضْرٌ) قرأ ابنُ كثير (خُضْرٍ) بالخفضِ على نعتِ السُّندس و(إسْتَبْرَقٌ) بالرَّفع على نعتِ الثياب، وقرأ أبو عمرٍو وابنُ عامرٍ (خُضْرٌ) بالرفعِ على نعت الثياب، و(إسْتَبْرَقٍ) بالخفض على معنى ثيابٍ من سندسٍ ومن استبرق. وقرأ نافعُ وأيوب (خُضْرٌ وَإسْتَبْرَقٌ) كلاهما بالرَّفع عَطفاً للإستبرقِ على قوله(خُضْرٌ)، وقرأ الأعمشُ وحمزة والكسائي وخلَف كلاهما بالخفض.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ ؛ أي حُلِيُّ أهلِ الجنَّة أساورُ من فضَّة، وفي آيةٍ أخرى ﴿يُحلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أسَاورَ مِنْ ذهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾[2] فاقتضت ((دلالة)) الآيتَين أنَّ كُلاًّ منهم يُحلَّى ثلاثة أسورَةٍ: سِوارٌ من ذهبٍ وسوارٌ من فضَّة وسوار من لؤلؤٍ. قال بعضُهم: الضميرُ في قولهِ تعالى (وَحُلُّوا) راجعٌ إلى الـ (ولْدَانُ).

---

(١) التوبة / ٧٢ .

(٢) فاطر / ٣٣ .

وقولهُ تعالى: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي شراباً من خمرٍ ليس بنَجسٍ، كما كانت خمرُ الدنيا نجسةً. وَقِيْلَ: شرابٌ من خمرٍ لا يخالطهُ شيء من الفسادِ والقبائحِ ولا ينقلبُ إلى التغيُّر، بل هو من عينٍ على باب الجنَّة، مَن شَرِبَ منها نزَعَ اللهُ مِنْ قلبهِ الغِلَّ والحسدَ والغشَّ، قال أبو العاليةِ: ((مَعْنَاهُ: أنَّهُ لاَ يَصِيرُ بَوْلاً نَجِساً، وَلَكِنَّهُ يَصِيرُ رَشَحاً فِي أبْدَانِهِمْ كَرِيحِ الْمِسْكِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً ﴾ ؛ أي يقالُ لهم هذا الثوابُ والكرامة كان لكم جزاءً لأعمالِكم في الدُّنيا، ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي وكان عملُكم في الدنيا مَقبولاً، هذا معنى الشُّكر؛ لأنه لا يكون لأحدٍ على الله مِنَّةٌ يستحقُّ بها عليه الشُّكرَ، ولكِنَّ شكرَهُ لعبادهِ قَبولُ طاعاتِهم ومغفرةُ ذُنوبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي إنا نحنُ نزَّلنا عليكَ القرآن يا مُحَمَّد متفرِّقاً آيةً وآيتين وثلاثَ آياتٍ وسورة، وفصَّلناهُ في الإنزال ولم يُنْزِلْهُ جملةً واحدة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي اصبرْ على قضائهِ، على تبليغِ الرسالة، ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي لا تُطِعْ من مُشركي مكَّة آثِماً؛ أي كذاباً فَاجِراً ولا كفُوراً؛ أي كَافِراً بنِعَمِ اللهِ.

ويعني بقولهِ (آثِماً): عُتبةَ بن ربيعةَ، ويعني بالكفور: الوليدَ بن المغيرة. وَقِيْلَ: الآثِمُ الوليدُ، والكفورُ عتبةُ بن ربيعةَ، كانَا قالاَ للنبيِّ ﷺ: ارْجِعْ عَنْ هَذا الأَمْرِ وَنَحْنُ نُرْضِيكَ بالْمَال وَالتَّزْويجِ، وكان عتبةُ قالَ للنبيِّ ﷺ: إنْ كُنْتَ صَنَعْتَ هَذا مِنْ أجْلِ النِّسَاءِ! فَلَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أنَّ بَنَاتِي مِنْ أجْمَلِهَا بَنَاتٍ، فَأنَا أزَوِّجُكَ بنْتِي وَأسُوقُهَا إلَيْكَ بغَيْر مَهْرٍ، فَارْجِعْ عَنْ هَذا الأَمْر. وكان الوليدُ قال للنبيِّ ﷺ: إنْ كُنْتَ صَنَعْتَ هَذا يَا مُحَمَّدُ مِنْ أجْلِ الْمَال! فَلَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشُ بأنِّي مِنْ أكْثَرِهِمْ مِنَ الْمَال، فَأنَا أعْطِيكَ مِنَ الْمَال حَتَّى تَرْضَى، فَارْجِعْ عَنْ هَذا الأَمْرِ. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أوْ كَفُوراً)[1].

---

(١) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان:ج ١٠ ص١٠٦، وذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٤٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥)﴾؛ أي صَلِّ للهِ تعالى صَلاةَ الفجرِ وصلاةَ الظُّهر والعصر، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾؛ أي فصَلِّ له المغربَ والعشاءَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)﴾؛ أي صَلِّ له في الليلِ الطويل، يعني: التطوُّعَ بعدَ المكتوبةِ، وكان على النبيِّ ﷺ أنْ يَقُومَ كلَّ الليلِ، ثم نُسخ بقولهِ ﴿قُمِ اللَّيْلَ إلاَّ قَلِيلاً﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾؛ يعني كفارَ مكَّة يُحبُّونَ الدارَ العاجلةَ وهي الدُّنيا، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧)﴾؛ أي يتركُون العملَ للآخرةِ، وسُمِّي يومُ القيامةِ يَوماً ثقيلاً؛ لشدَّة أهوالهِ، وقد يُذكر الوَرَاءُ بمعنى قُدَّام، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾؛ أي نحن خلَقنا أهلَ مكَّة وجميعَ الناسِ، وقوَّينا خلقَهم بعد أن خُلقوا من ضَعْفٍ. وَقِيْلَ: شدَدْنا مفاصِلَهم؛ لئلا يسترخِي منها شيءٌ؛ أي شدَدْنا بعضَها إلى بعضٍ بالعُروق والعصَب. وَقِيْلَ: يعني موضعَ البول والغائط، شدَدْناهما بحيث إذا خرجَ الأذى منهما يَنقبضَا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨)﴾؛ أي وإذا شِئنا أهلَكناهم، وأتَينا بأشباهِهم فجعلناهم بَدلاً منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي إنَّ هذه السورةَ موعظةٌ من اللهِ، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩)﴾؛ أي طَريقاً بالعملِ الصالح. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾؛ أي ما يَشاءُون اتخاذ السَّبيل إلاَّ بمشيئةِ الله ذلك لكم، وقوله تعالى (إنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) أي عَليماً قبلَ خَلقِكم بمَن يتَّخذ سَبيلاً ومَن لا يتَّخذ، حَكيماً فيما أمَرَكم به.

واختلَفُوا في تفسيرِ هذه الآية، والصحيحُ: أنَّ معناها: وما تشَاءُون إلاَّ أنْ يشاءَ اللهُ لكم أن تشاءوا، ودليلُ ذلك أنه لَمَّا نزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ

---

(١) المزمل / ٢.

(٢) الكهف / ٧٩ .

يَسْتَقِيمَ﴾[1] قَالُوا: قَدْ جُعِلَتِ الْمَشِيئَةُ لَنَا وَلاَ نَشَاءُ، فَشُقَّ ذلِكَ عَلَى النَّبيِّ ﷺ فَنَزَلَ (وَمَا تَشَاءُونَ إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللهُ).

ومن نفَى المشيئةَ قال: إنَّ هؤلاء مخصُوصون لا يشاءُون إلاّ أنْ يشاءَ اللهُ أن يُكرِهَهم عليه، قال الحسنُ: ((مَا شَاءَتِ الْعَرَبُ أنْ يَبْعَثَ اللهُ مُحَمَّداً رَسُولاً، فَشَاءَ اللهُ ذلِكَ وَبَعَثَهُ عَلَى كُرْهٍ مِنْهُمْ)). وعن النَّضر بن شُميل أنه قال: ((لاَ تَمْضِي مَشِيئَةٌ إلاَّ بمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى، وَلاَ تَمْضِي مَشِيئَةٌ مِنَ الْعَبْدِ إلاَّ بعِلْمِ اللهِ، فَمَنْ عَلِمَ اللهُ مِنْهُ خَيْراً شَاءَ الإيْمَانَ، وَمَنْ شَاءَ الإيْمَانَ شَاءَ اللهُ لَهُ أنْ يُوَفِّقَهُ، وَمَنْ شَاءَ الْكُفْرَ شَاءَ اللهُ أنْ يَخْذُلَهُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ ؛ أي يُكرمُ مَن يشاءُ بدينِ الإسلام بتوفيقهِ مَن كان أهلاً لذلك، وقولُهُ تعالى: ﴿ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ نَصَبَ (الظالِمين) على المجاورة؛ ولأنَّ ما قبله منصوب، والمعنى: ويعذبُ الظالمين، أعدَّ لهم عَذاباً اليماً، ويعني بالظَّالمين مشركي مكَّة.

آخر تفسير سورة (**الدهــر**) والحمد لله رب العالمين

(١) التكوير / ٢٨ .

سُورَةُ وَالْمُرْسَلاَتِ

سُورَةُ وَالْمُرْسَلاَتِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَمَانُمِائَةٍ وَسِتَّةَ عَشَرَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَإِحْدَى وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ وَالْمُرْسَلاَتِ، كُتِبَ أنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴿١﴾ ﴾ ؛ يعني الرياحَ أرسِلَت متتابعةً كعُرفِ الفرَس؛ أي وربِ المرسَلاتِ عُرفاً، وقال مقاتلُ: ((مَعْنَاهُ: وَالْمَلاَئِكَةُ الَّتِي أرْسِلَتْ بالْمَعْرُوفِ مِنْ أمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ))[2]. وقولهُ تعالى: ﴿ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ يعني الريحَ الشديدةَ الهبُوب، فإذا وقعت الريحُ الشديدة في البحرِ صارت قاصفةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ يعني الرياحَ التي تنشرُ السَّحابَ للمطرِ نَشْراً، وهي اللَّيِّنَةُ التي يُرسِلُها اللهُ نَشْراً بين يدَي رحمتهِ، وَقِيْلَ: العاصفاتُ الملائكة تعصِفُ بأرواحِ الناس؛ أي تذهبُ بها، وَقِيْلَ: الناشراتُ الملائكة أيضاً؛ لأنَّها تنشرُ الصحائفَ بأمرِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ يعني الملائكةَ تنْزلُ بالوحي للفَرق بين الحلال والحرام، والحقِّ والباطلِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ يعني الملائكةَ تُلْقِي كُتُبَ اللهِ إلى أنبيائهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴿٦﴾ ﴾ ؛

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف، ورواه الثعلبي عن أبي ﷺ بإسناد ضعيف، كما في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٠٨ .

(٢) بنحوه قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٣٥. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٩٠٨٧). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩٤١) عن أبي هريرة، وقال: حديث صحيح. وفي الدر المنثور عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم والحاكم، وإسناده صحيح.

معناهُ عُذْراً من اللهِ، وإنذاراً لِخَلقهِ، والإعذارُ قَطْعُ المعذِرةِ، والإنذارُ الإعـلامُ بموضـعِ المخَافَةِ لتبقَى، ولهذا بعثَ الرُّسُلَ وأنزلَ الكُتبَ.

والمعنى بهذه الآياتِ: أنَّ كفارَ مكَّة لَمَّا أنكَرُوا البعثَ أقسمَ اللهُ تعـالى بمـا بيَّـن من قدرتهِ وتدبيرهِ الملائكةِ والسَّحابِ والرياحِ أنَّ قيامَ الساعةِ كـائنٌ فقـال: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ أمرَ الساعةِ والبعثِ لكائنٌ لا محالةَ.

ثم ذكرَ متى يقعُ فقال: قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي مُحِيَ نورُهـا وسُـلِبَ ضَـوْءُهـا وتسـاقطَت، كمـا قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿وَإِذا الْكَوَاكِـبُ انتَثَرَتْ﴾[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي شُـقَّت مـن هيبـةِ الرَّحمن، وانفطَرت بعد أن كانت سَقفاً محفوظاً، فأوَّل حالِها الوهيُ ثم الانشقاق، قـال الله تعالى ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[2] ثم الانفتـاحُ، قـال اللهُ ﴿وَفُتِحَـتْ السَّمَاءُ﴾[3] ثم الانفراجَ حتى يتلاشَى فتصير كأنَّها لم تكن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي قُلِعَتْ من أماكنِها بسـرعةٍ. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي بيَّـن مواقيتـها للفصـلِ والقضـاء بينهم وبين الأُمم. وَقِيْلَ: جُمعت لوقتِها، وإنما قُلبـت الـواوُ همـزةً علـى قـراءةِ غـير الواو؛ لأن كلَّ واوٍ انضمَّت وكانت ضمَّتُها لازمةً جازَ إبدالهـا همـزةً؛ ولأنَّ العـربَ تعاقِبُ بين الواو والهمـزة كقولهـم: أكَّـدتُ ووكَّـدت، وأرَّخـتُ الكتـابَ وورَّخـتُ، ووسادة وإسادةً.

قرأ أبو عمرٍو (وُقِّتَتْ) بالواو والتشديد على الأصلِ، وقرأ أبو جعفر (وُقِتَـتْ) بالواو والتخفيف، وقرأ عيسى[4] وخالد بن الياس[5] (أُقِتَتْ) بالألفِ، وقـرأ البـاقون بالألفِ والتشديد.

---

(١) الانفطار / ٢ . (٢) الحاقة / ١٦ . (٣) النبأ / ١٩ .

(٤) عيسى بن عمر الثقفي البصري: نحوي، مقرئ، من أهل البصـرة. وهـو شـيخ الخليـل وسـيبويه وابن العلاء، أول من هذَّب النحو ورتبه، وعلى طريقتـه مشـى سـيبويه وأشـباهه. متوفـى سـنة (١٤٩هـ-٧٦٦م). ينظر: معجم المفسرين: ج ١ ص٤٠٨.

(٥) في المخطوط: (خالد بن النبا) وهو تحريف. في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٩ ص١٥٨؛ قـال القرطبي: (خالد بن إلياس) وذكر القراءة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: لأيِّ يـومٍ أخِّـرت هذه الأشياءُ من الطَّمس والنَّسـفِ وغيرهمـا. ثـم بيَّـن متـى ذلـك فقـالَ: ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي أخِّرت ليومِ الفصل بين الخلائق، وهو يوم القيامـةِ، سُمِّي بهذا الاسم لأنه يُفْصَلُ فيه بين الْمُحِقِّ والْمُبْطِلِ، وبين الظَالِم والمظلومِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ فيه تعظيمٌ لأمرِ ذلـك اليوم؛ أي لم تكن تعلمُ يا مُحَمَّـد مـا يـوم الفَصْلِ، ومـا أعـدَّ اللهُ فيـه لأوليائـهِ مـن الثواب، ولأعدائهِ مـن العقـاب حتـى أتـاكَ خـبرُ ذلـك، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ الويلُ: وادٍ في جهنَّم للمكذِّبين بالوعيد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ألَـمْ نُـهلِكْ قـومَ نـوحٍ بـالعذاب في الدُّنيـا حـين كذبـوا نوحـاً؛ ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي ثـم ألحقنا بهم قومَ هودٍ ومَن بعدَهم، ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ من أمَّتكَ يا مُحَمَّدُ، يعني كفارَ مكَّة ممن سَلَكَ طريقَهم.

قرأ الأعرج ثم (نُتبعْهُمُ الآخِرينَ) بالإسكان عطفاً على (نُهْلِكِ)، وقـرأ الكافَّـة (نُتْبِعُهُمْ) بـالرفعِ علـى معنـى ثُـم نحـنُ نُتبعُـهم، وفي قـراءةِ ابـن مسـعود (سَـنُتْبِعُهُمُ الآخَرِينَ)، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ تنبيهٌ علـى القـدرةِ علـى الإعادةِ، والتحذيرُ من التكبُّرِ؛ لأنَّ الذي يقدِرُ على أن يَخلُقَ من الماءِ الحقيرِ بَشَراً على هذه الصِّفـةِ، قـادرٌ علـى إعـادةِ الخلـق بعـد المـوتِ، والمـرادُ بالماء الْمَهينِ النطفـةَ. وقولـهُ تعــالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي في الرَّحِـم، ﴿ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ يعني مدَّة الحملِ على اختـلاف مُـدَدِ حمـلِ الحيوانـات، لا يعلـمُ مقدارَ ذلك ولا الحملَ إلاَّ اللهُ تعالى.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ قرأ السلمي وقتادة ونافع وأيوب بالتشديدِ من التقديرِ يعني نُطَفاً وعَلَقاً ومُضَغاً وعظاماً وذكـراً وأنثـى وقصـيراً

وطويلاً، وقرأ الباقون مخففاً، ومعناهما ((في التخفيفِ والتشديد واحد))(١) ويجوز أنْ يكون من القدرةِ، وقولهُ تعالى (فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ)، معناه: على هذا فنعم القادرون على الخلق، وعلى الأول فنِعْمَ القادرون لهذه المخلوقاتِ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ ﴾؛ معناهُ: يُكفِتُهم أحياءً على ظَهرها في دورهم ومنازلهم، ويُكفِتُهم أمواتاً في بُطونها؛ أي يجوزُ ((أن يكون عَني أنها تكفت أذاهم))(٢) في ظهرها للأحياءِ وبطنِها للأموات. وعن مجاهدٍ: ((مَعْنَاهُ: تُكَفِّتُ الْمَيْتَ فَلاَ يُرَى مِنْهُ شَيْءٌ، وَتُكَفِّتُ الْحَيَّ فِي بَيْتِهِ فَلاَ يُرَى مِنْ عَمَلِهِ شَيْءٌ، وَفِي كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْ هَذينِ مِنَ النِّعْمَةِ مَا لاَ يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ))(٣).

والْكَفْتُ في اللُّغة الضمُّ، وسُمِّي الوعاءُ كِفَاتاً بكسرِ الكاف لأنه يضمُّ الشيءَ، وفي هذه الآيةِ دليلٌ على وجوب مُوَارَاةِ الميِّت ودفنهِ ودفنِ شعره وسائرِ ما يُزَايلهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ ﴾؛ أي جبالاً ثوابتَ، والشامخاتُ الطِّوالُ العالِيَاتُ المرتفعات جُعلت أوْتاداً للأرض فسَكَنَتْ بها، وكانت تَمُورُ كالسَّفينة لا تستقرُّ على الماءِ إلاَّ بمرْسَاةٍ تثقلها، ﴿ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي عَذْباً حُلواً غيرَ ملحٍ ولا أُجٍّ(٤) ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ بنِعَمِ اللهِ التاركين لشُكرِها.

---

(١) ما بين (( )) ليس في المخطوط، ويلزمه السياق لإتمام المعنى، وعلى ما يبدو أنه سقط من أصل المخطوط أو سقط معناه، وضبط كما في تفسير الثعلبي: الكشف والبيان: ج ١٠ ص١١٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ١٩ ص١٦٠.

(٢) في المخطوط عبارة في رسمها إرباك، (أي يجوز في ظهرها...) وضبطت كما في جامع البيان: مج ١٤ ج٢٩ ص٢٩٣ من قول الإمام الطبري: (وجائز أن يكون عُني...) وذكر بمعنى قريب منه.

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٨٤؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر ومجاهد...) وذكره.

(٤) مَاءٌ أُجَاجٌ: أي مِلْحٌ مُرٌّ، وقد أجَّ الماءُ يَؤُجُّ (أجُوجاً) بالضم. مختار الصحاح: ص٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ معناهُ: ويقال لهم يومَ القيامة، تقولُ لهم الْخَزَنَةُ: انطلقوا إلى العذاب الذي كُنتم به تكذِّبون في الدُّنيا أنه لا يكون، ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي انطلِقُوا إلى دُخان من جهنَّم قد سطعَ، ثم افترقَ ثلاثَ فِرَق، وهو قولهُ (ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ) شُعْبَةٌ فوقَهم، وشعبةٌ عن يمينِهم، وشعبةٌ عن شمالهم. وذلك أنه يخرجُ لسانٌ من نار فيحيطُ بهم فيُحبَسون إلى أنْ يُسَاقوا إلى النار أفوَاجاً أفواجاً، قال إبراهيمُ النخعيُّ: ((هَذا الظِّلُّ مَقِيلُ الْكُفَّار قَبْلَ الْحِسَاب))، والمعنى: انطلِقُوا إلى ظلٍّ ذي ثلاثِ شُعب فكونوا فيه إلى أن يفرغَ من الحساب.

ثم وصفَ اللهُ ذلك الظلَّ فقال: ﴿ لَّا ظَلِيلٍ ﴾؛ أي لا يُظِلُّ من الحرِّ، ﴿ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ ﴾؛ أي ولا يردُّ عنكم لَهب جهنَّم؛ أي إنَّهم إذا استظَلُّوا بذلك الظلِّ لم يدفَعْ عنهم من حرِّ النار شيئاً، فأما المؤمنون فيُقبلُونَ في الجنةِ كما قال تعالى ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ معناهُ: أنَّ النَّارَ تقذفُ بشرَرٍ متفرِّق متطايرٍ كالقَصْرِ وهو البناءُ العظيم كالحِصْن. وَقِيلَ: مثلَ قُصور الأعراب على المياهِ، يعني الخيام، قال مقاتلُ: ((شَرَرُ النَّار فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ مِنَ الْكَثْرَةِ عَدَدَ النُّجُومِ وَوَرَقِ الأَشْجَار، لاَ يَقَعُ شَيْءٌ مِنْهَا إلاَّ عَلَى أكْتَافِ الرِّجَال)). والشَّرَرُ ما يتطايرُ من النار وينتشرُ في الجهاتِ متفرِّقاً.

قرأ عليٌّ وابنُ عباس (كَالْقَصَرِ) بفتحِ الصاد[2]، أرادَ كأعناق النَّخلِ، وَقِيلَ: كأعناق الدواب، والقَصَرُ العنقُ وجمعه قُصُرٌ وقُصُرَات. وقرأ سعيدُ بن جبير (كَالْقِصَرِ) بكسر القاف وفتحِ الصاد وهي لغةٌ فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ ،يعني أنَّ لونَ الشَّرر يشبهُ لون الْجِمَالاَتِ الصُّفر، وجِمَالاتٌ جمعُ جِمَال، قراءةُ حمزة والكسائي وحفص وخلف: (جِمَالَةٌ) بكسرِ الجيم من غيرِ ألف على جمع جَمَلٍ مثل حَجَرٍ وحجارةٍ. وقرأ يعقوبُ

(١) الفرقان / ٢٤ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٨٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(جُمَالَـةٌ) بضـم الجيـم مـن غـير ألـف، أرادَ الأشـياءَ العظيمـةَ المجموعـة. وقـرأ ابـنُ عباس (جُمَالاَتٌ) بضمِّ الجيم جمع جُمَـالاَتٍ وهـي الشـيءُ الْمُجْمَـلُ، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤)﴾.

وقولهُ (صُفْرٌ) معناه سُودٌ، قال الفرَّاء: ((الصُّفْرُ سَوْدَاءُ الإبلِ، لاَ يُرَى أَسْوَدٌ مِنَ الإبلِ إلاَّ وَهُوَ مُشَرَّبٌ صُفْرَةً))[1] لذلك سَمَّت العربُ سودَ الإبـل صُفـراً، والأصفـرُ الأسودُ، قال الأعشَى:

تِلْـكَ خَيْلِـي وَتِلْـكَ مِنْـهُ رَكَـائِبُ   هُـنَّ صُفْـرٌ أَوْلاَدُهَـا كَـالزَّبيب[2]

أي هُنَّ سُودٌ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ (٣٥)﴾؛ قـال المفسِّرون: إنَّ في يـومِ القيامةِ مواقفَ، ففِي بعضها يَختَصِمُون ويتكلَّمون، وفي بعضِها يُختَـمُ علـى أفواهِـهم فلا يتكلَّمون.

وعن قتادةَ قال: ((جَاءَ رَجُلٌ إلَى عِكْرِمَةَ فَقَالَ: أرَأيْتَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى (هَذا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ)، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾؟ فَقَالَ: إنَّـهَا مَوَاقِفُ، فَأَمَّا مَوْقِفٌ مِنْهَا فَيَتَكَلَّمُوا وَيَخْتَصِمُـوا، ثُـمَّ خَتَـمَ عَلَـى أفْوَاهِـهِمْ فَتَكَلَّمَـتْ أيْدِيهِمْ وَأرْجُلُهُمْ، فَحِينَئِذٍ لاَ يَنْطِقُونَ)) وهذا الوقتُ المذكور في الآيةِ من المواطنِ الـتي لا يتكلَّمون فيها.

وقولـهُ: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾؛ قـال مقـاتلُ:((لاَ[3] يَنْطِقُـونَ أرْبَعِينَ سَنَةً وَلاَ يُؤْذَنُ لَـهُمْ فَيَعْتَـذِرُونَ)) وإنما رَفـعَ (فَيَعْتَـذِرُونَ) لأنـه عُطـف علـى (يُؤْذَنُ)، ولو قالَ فَيَعتَذِرُوا على النصب لكان حَسناً كقولهِ تعـالى ﴿لاَ يُقْضَـى عَلَيْـهِمْ فَيَمُوتُوا﴾[4] ولو كان لَهم عذرٌ لم يُمنَعوا من الاعتذار، قال الجنيدُ: ((أوَ أيّ عُذْرٍ لِمَنْ

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٢٢٥.

(٢) في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١١١، والجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٦٤:

تِلْـكَ خَيْلِـي مِنْـهُ وَتِلْـكَ ركَـابي   هُـنَّ صُفْـرٌ أَوْلاَدُهَـا كَـالزَّبيب

(٣) في المخطوط: (لأنْ).   (٤) فاطر / ٣٦ .

كَفَرَ بآيَاتِ رَبهِ، وَأعْرَضَ عَنْ مُنْعِمِهِ))[(١)]، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾؛ أي هذا يومُ الفصلِ بين أهلِ الجنَّة والنار، جَمَعنَاكم مكذِّبي هذه الأمة والأوَّلين الذين كذبوا أنبياءَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ أي يقالُ لَهم ذلك على وجهِ التقريعِ: إنْ كان لكم حيلةٌ في دفعِ العذاب، فاحتالُوا لأنفسكم. وَقِيْلَ: معناهُ: إنْ كان لكم كيدٌ تَكِيدُونَ به أوليائِي، كما كنتم تكيدونَهم في الدُّنيا فكيدُوهم، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ ﴾؛ أي في ظِلال الأشجار وقصور الدُّرِّ وعيون جاريةٍ تجري بالماءِ والخمر واللَّبن والعسل، ﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ يقال لَهم: ﴿ كُلُوا ﴾؛ من ثِمار الجنَّة، ﴿ وَاشْرَبُوا ﴾؛ من شرابها، ﴿ هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي سَليماً من الآفاتِ بما كنتم تعمَلون الطاعاتِ في الدُّنيا، ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي هكذا نجزِي الْمُحسِنين على إحسانِهم.

ثم يقالُ لكفار مكَّة: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾؛ في الدُّنيا إلى منتهَى آجالكم، ﴿ إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ أي مُشرِكون باللهِ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ أي إذا أمِروا بالصَّلوات الخمس لا يُصلُّون، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ أي لِمَن كذب بالركوعِ، ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ أي إنْ لم يؤمنوا بهذا القرآنِ مع ظُهوره ووضوحه، فبأيِّ كتابٍ يصدِّقون، ولا كتابَ بعدَهُ.

آخر تفسير سورة (**المرسلات**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٦٦ ذكره القرطبي بلفظ: (أيُّ عذر لمن أعرضَ من مُنعِمهِ وجحده وكفر أياديه ونعمَهُ؟).

سُورَةُ النَّبَأ

سُورَةُ النَّبَأ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعُمِائَةٍ وَسَبْعُون حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَسَبْعُونَ كَلِمَةً، وَأرْبَعُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا سَقَاهُ اللهُ مِنْ بَرْدِ الشَّرَاب يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾؛ قال المفسِّرون: لما بُعِثَ النبيُّ ﷺ وأخبرَهم بتوحيدِ الله والبعثِ بعد الموت، وتلاَ عليهم القرآنَ، جعلوا يتساءَلون بينهم ويقولون: ما نرَى الذي جاءَ به مُحَمَّدٌ ﷺ، وما الذي أتى به، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ.

ومعناها: عن أيِّ شيء يتحدَّثون فيما بينهم، وهذا لفظهُ لفظُ الاستفهامِ، والمعنى تفخيمُ القصة. وأصله عَنْ مَا فأُدغمت النون في الميم وحُذفت الألف؛ لأن العربَ إذا وضَعت (عن ما) في موضعِ الاستفهام حذفت نونَها فرقاً بينهما وبين أنْ تكون اسماً مثلَ قولهِ ﴿فِيمَ أنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾[2]، و(عَلاَمَ تفعلُ)، بخلافِ قولِهم: سألتُ فلاناً عمَّا فعلَ، لا يجوزُ فيه حذفُ الألفِ؛ لأن معناها الَّذي، وكذلك إذا كانت (مَا) للصلةِ كقوله تعالى ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾[3].

قولهُ تعالى (عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ) أي الخبرِ الشَّريف، وهو القرآنُ، فإنه خبرٌ عظيم الشَّأن؛ لأنه يُنبئ عن التوحيدِ وتصديق الرسول، والخبرُ عمَّا يجوز وما لا يجوزُ، وعن البعثِ والنشور. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ ﴾ يعني أنَّهم اختلَفُوا في القرآنِ، فجعلَهُ بعضُهم سِحراً وبعضهم كهانةً وبعضهم شِعراً، وبعضهم أساطيرَ الأوَّلين.

---

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١١٣ عن أبي بن كعب بإسناد ضعيف.

(٢) النازعات / ٤٣ .　　(٣) المؤمنون / ٤٠ .

ثم أوعدَ اللهُ مَن كذب بالقرآنِ فقال تعالى: ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾ ؛ أي ليس الأمر على ما قالوا، سيعلمون عاقبة تكذيبهم حتى تنكشف الأمور، (ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) وعيدٌ على إثْر وعيدٍ. وَقِيْلَ: معنى(كَلاَّ) ارتَدِعوا وانزَجِرُوا، فليس الأمرُ على ما تظنُّون، وسيعلَمُ[1] الكفارُ عاقبةَ أمرِهم،﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾ ؛ أمرَ القيامةِ وأهوالها، وما لَهم من أنواعِ العذابِ في النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾ ؛ نَبَّهَ سبحانهُ على عظيمِ قُدرته، ولطيفِ حِكمَتِهِ؛ ليعرفوا توحيدَهُ. والْمِهَادُ: الوطاءُ؛ للتصرُّف عليه من غير كُلفَةٍ، فالأرضُ مِهَادٌ يسيرون في مناكبها ويسكُنون في مساكنها، والْمِهَادُ والْمَهْدُ بمعنىً واحدٍ، والْمِهَادُ: الفراشُ، والجبالُ أوتادٌ للأرضِ؛ لأنَّ الأرضَ كانت تنكفئُ بأهلِها على وجهِ الماء، فأرسَاها اللهُ بالجبالِ الثوابتِ حتى لا تَميدَ بأهلها، وكان أبو قُبيس أوَّلَ جبلٍ وُضِعَ على الأرضِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ ﴾ ؛ أي ذُكراناً وإناثاً، ويقالُ: ألوَاناً وأصنافاً، وكلُّكم ترجعون إلى أبٍ واحد،﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ ﴾ ؛ أي راحةً لأبدانِكم، فكلُّ مَن تَعِبَ من الخلقِ إذا نامَ استراحَ، والسُّباتُ مأخوذٌ من السَّبت وهو القطعُ، والسُّبات قطعُ العملِ، والسُّبات ها هنا أن ينقطعَ عن الحركةِ، والروحُ في بدنهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ ﴾ ؛ سَابغاً بظُلمتهِ وسوادهِ لكلِّ شيءٍ، ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ ﴾ ؛ أي ذا ضياءٍ لطَلَب المعاشِ بالحراثةِ والتجارة ونحوهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ ﴾ ؛ أي رَفعنا فوقَ رُؤوسِكم سبعَ سمواتٍ غِلاظاً شديدَةَ الإتقان، قائمةً بإذن اللهِ لا تنهارُ ولا تتغيَّرُ من طولِ الزَّمان، غِلَظُ كلِّ سماءٍ خمسمائةِ عامٍ،﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ ﴾ ؛

---

(١) في المخطوط: (سيعلمون الكفار) وهو غير مناسب، فتكون (سيعلم الكفار) أو (سيعلمون - الكفار - عاقبة...).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: (صحيح الإسناد ولم يخرجاه) وفيه طلحة بن عمرو، واه، كما نبه عليه الذهبي في تلخيصه.

أي وقَّاداً مُتَلألئاً مُشتَعلاً بالنور العظيم، تنضجُ الأشياءَ بحرِّها، وتضيءُ للناسِ بنُورها، والوَهَجُ مجمعُ النور والحرارة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ ﴾؛ قال مجاهدُ ومقاتل وقتادة والكلبي: ((الْمُعْصِرَاتُ الرِّيَاحُ؛ لأنَّهَا تَعْصِرُ السَّحَابَ حَتَّى تُخرِجَ مِنْهُ الْمَطَرَ))[1]. قال الأزهريُّ:((هِيَ الرِّيَاحُ ذوَاتُ الأَعَاصِيرِ))، و(مِنَ) معناها الباء كأنه قالَ: بالمعصراتِ[2]؛ ولأن الرياحَ[3] تستدِرُّ المطرَ، وقال أبو العاليةِ والربيعُ والضحاك: ((الْمُعْصِرَاتُ السَّحَابُ الَّتِي يَنْجَلِبُ مِنْهَا الْمَطَرُ، كَالْمَرْأةِ الْمَعْصُورَةِ وَهِيَ الَّتِي دَنَا حَيْضُهَا))، قال الشاعر[4]:

جَارِيَةٌ بِإبرقين دَارُهَا ... قَدْ أعْصَرَتْ أوْ قَدْ دَنَا إعْصَارُهَا
يَسْقُطُ مِنْ غُلْمَتِهَا إزَارُهَا ... تَمْشِي الْهُوَيْنَا سَاقِطاً خِمَارُهَا

وقال يزيدُ بن أسلمَ: ((الْمُعْصِرَاتُ: السَّمَوَاتُ))، وقال ابنُ كَيسان: ((الْمُغَيِّبَاتُ)).

والماءُ الثَّجَّاجُ: هو السَّيَّالُ الصَّبَّابُ، والثَّجُّ: الصَّبُّ، كما رُوي في الحديثِ: [أفْضَلُ الْحَجِّ الْعَجُّ وَالثَّجُّ][5] أرادَ بالعَجِّ: رفعُ الصوتِ بالتَّلبيةِ، وَالثَّجِّ: إراقةُ الدَّم. وقال مجاهدُ: ((ثَجَّاجاً أيْ مِدْرَاراً)) وقال قتادةُ: ((مُتَتَابعاً يَتْلُو بَعْضَهُ بَعْضُهُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي لنُخرجَ بالمطرِ حبّاً يأكلونهُ ونَباتاً ترعاهُ أنعامُكم، ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي بساتين ملتفَّة الأشجار، واحدها لِفٌّ بالكسرِ، وجمعهُ لُفٌّ بالضمِّ، وجمعُ الجمعِ ألْفَافٌ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٩٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وابن الأنباري عن قتادة). وقاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٤٠.

(٢) في جامع البيان: الأثر (٢٧٩٠١) أخرجه الطبري بإسناده عن عكرمة: (أنه كان يقرأ ﴿وأنزلنا بالمعصرات﴾ يعني الرياح).

(٣) في المخطوط: (الريح) والمناسب: (الرياح).

(٤) منظور بن مرثد الأسدي. وعند القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٧٣:

جَارِيَةٌ بِسَفَوانَ دَارُهَا ... تَمْشِي الْهُوَيْنَى سَاقِطاً خِمَارُهَا

(٥) في مجمع الزوائد: ج ٣ ص٢٢٤؛ قال الهيثمي: (رواه أبو يعلى وفيه رجل ضعيف) وله شاهد أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الحج: الحديث (٨٢٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ ﴾؛ معناهُ: إنَّ يومَ الفصلِ بين الخلائقِ وهو يومُ القيامةِ كان مِيقَاتاً للأوَّلين والآخِرين أن يجتمعوا فيه، ومِيقَاتاً لِمَا وعدَ اللهُ من الثواب والعقاب.

ثم بَيَّنَ متى يكونُ ذلك فقالَ تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ يعني نفخةَ البعثِ فيأتي كلُّ أناسٍ بإمامِهم فَوجاً بعد فوجٍ، وزُمَراً بعد زُمَرٍ من كلِّ مكانٍ للحِسَاب. والصُّورُ: قَرْنٌ يَنفُخُ فيه إسرافيلُ.

وعن معاذِ بن جبلٍ قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أرَأيْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّور فَتَأتُونَ أفْوَاجاً)؟ قَالَ: [يَا مُعَاذُ سَألْتَ عَنْ عَظِيمٍ مِنَ الأَمْرِ] ثُمَّ بَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: [يَا مُعَاذُ يُحْشَرُ النَّاسُ عَشْرَةَ أصْنَافٍ مِنْ أُمَّتِي أشْتَاتاً قَدْ بَدَّلَ اللهُ صُوَرَهُمْ وَغَيَّرَهُمْ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِير، وَبَعْضُهُمْ مُنَكَّسُونَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَأرْجُلُهُمْ فَوْقَ وُجُوهِهِمْ يُسْحَبُونَ، وَبَعْضُهُمْ عُمْيٌ يَتَرَدَّدُونَ، وَبَعْضُهُمْ صُمٌّ بُكْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ، وَبَعْضُهُمْ يَمْضُغُونَ ألْسِنَتَهُمْ وَهِيَ مُدَلاَّةٌ عَلَى صُدُورِهِمْ، يَسِيلُ الْقَيْحُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ لُعَاباً يَتَقَذرُهُمْ أهْلُ الْجَمْعِ، وَبَعْضُهُمْ مُقَطَّعَةٌ أيْدِيهِمْ وَأرْجُلُهُمْ، وَبَعْضُهُمْ مُصَلَّبُونَ عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَارٍ، وَبَعْضُهُمْ أشَدُّ نَتْناً مِنَ الْجِيَفِ، وَبَعْضُهُمْ يَلْبَسُونَ جِبَاباً مِنْ قَطِرَانٍ لاَزِقَةٍ بِجُلُودِهِمْ.

فَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ النَّمَّامُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ الأَكَّالُونَ السُّحْتَ، وَالَّذِينَ هُمْ مُنَكَّسُونَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ أكَلَةُ الرِّبَا، وَالْعُمْيَانُ الْجَائِرُونَ فِي الْحُكْمِ، وَالصُّمُّ الْبُكْمُ هُمُ الَّذِينَ يُعْجَبُونَ بأعْمَالِهِمْ، وَالَّذِينَ يَمْضُغُونَ ألْسِنَتَهُمْ الْعُلَمَاءُ الوُعَّاظُ الَّذِينَ خَالَفَ قَوْلُهُمْ أعْمَالَهُمْ، وَالْمُقَطَّعَةُ أيْدِيهِمْ وَأرْجُلُهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْجِيرَانَ، وَالْمُصَلَّبُونَ عَلَى جُذُوعِ النَّار السُّعَاةُ إلَى السُّلْطَانِ، وَالَّذِينَ هُمْ أشَدُّ نَتْناً مِنَ الْجِيَفِ هُمُ الَّذِينَ يَتَنَعَّمُونَ باللَّذاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَمَنَعُوا حَقَّ اللهِ مِنْ أمْوَالِهِمْ، وَالَّذِينَ يَلْبَسُونَ الْجِبَابَ هُمْ أهْلُ الْكِبْرِ وَالْفُجُور وَالْخُيَلاَءِ][1].

(١) في تخريج أحاديث الكشاف: ج ٤ ص٦٨٨؛ قال الحافظ: (أخرجه الثعلبي وابن مردويه). وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٣٩٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن البراء بن عازب، أن معاذاً ابن جبل) وذكره. وإسناده ضعيف. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١ ص١١٥.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي فُتحت لنزول الملائكة، فكانت ذاتَ أبوابٍ، قرأ أهلُ الكوفة (وَفُتِحَتِ) بالتخفيف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي سُيِّرت على وجهِ الأرضِ فصارَت كالتُّراب المنبَثِّ، إذا رآهُ الناظر يحسَبهُ سَراباً بعد شدَّتِها وصَلابَتِها. والسرابُ: الغبارُ المنبَثُّ في الهواءِ يحسَبهُ العطشانُ عندَ وقوعِ الشمسِ أنه ماءٌ وليس بماءٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي طَريقاً ومَمَرّاً للعبادِ، ولا سبيلَ إلى الجنَّة حتى تقطعَ النارَ، وقال مقاتلُ: ((إنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مَحْبساً))[١] معدَّةً ﴿ لِّلطَّٰغِينَ ﴾ ؛ أي للكافرين، ﴿ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي مَرجِعاً يرجعون إليه، وفي الحديثِ: [أنَّهَا أعْرَفُ بأَصْحَابهَا مِنَ الْوَالِدَةِ بوَلَدِهَا].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ قرأ حمزةُ (لَبِثِينَ فِيهَا أحْقَاباً)، وقرأ الباقون (لاَبثِينَ) وهما بمعنىً واحد؛ أي مَاكِثِينَ فيها مُقيمين بها[٢].

واختلفَ العلماءُ في معنى الْحُقُبُ، فرُوي عن عبدِالله بن عِمرَ: ((أنَّ الْحُقُبَ الْوَاحِدَ أرْبَعُونَ سَنَةً، كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا ألْـفُ سَنَةٍ))، فهذا هو الْحُقُبُ الواحدُ، وهي أحقابٌ لا يعلمُ عددَها إلاَّ اللهُ. وعن عليٍّ ﷺ: ((أنَّ الْحُقُبَ الْوَاحِدَ ثَمَانُونَ سَنَةً، كُلُّ سَنَةٍ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً، كُلُّ شَهْرٍ ثَلاَثُونَ يَوْماً، كُلُّ يَوْمٍ ألْفُ سَنَةٍ))[٣].

وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [وَاللهِ مَا يَخْرُجُ مِنَ النَّار مَنْ دَخَلَهَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَكُونُوا فِيهَا أحْقَاباً، وَالْحُقُبُ بضْعٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً، وَالسَّنَةُ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ يَوْماً، كُلُّ يَوْمٍ ألْفُ سَنَةٍ][٤].

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١١٥. ونقله القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن:ج ١٩ ص١٧٧.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٧٨؛ قال القرطبي: (وقرأ حمزة والكسائي (لَبِثِينَ) بغير ألف، وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيدة، وهما لغتان).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٩٣٥).

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٩٥؛ قال السيوطي: (أخرجه البزار وابن مردويه والديلمي عن ابن عمر عن النبي ﷺ). وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٩٥؛ قال الهيثمي: (رواه البزار وفيه سليمان ابن مسلم الخشاب، وهو ضعيف جداً).

وعن الحسن: ((إنَّ اللهَ لَمْ يَذْكُرْ شَيْئاً إلاَّ وَجَعَلَ لَهَا مُدَّةً يَنْتَهِي إلَيْهَا، وَلَمْ يَجْعَلْ لأَهْلِ النَّار مُدَّةً، بَلْ قَالَ: (لاَبِثِينَ فِيهَا أحْقَاباً)، فَوَاللهِ مَا هِيَ إلاَّ إذا مَضَى حُقُبٌ دَخَلَ آخَرُ، ثُمَّ آخَرُ إلَى أبَدِ الآبدِينَ))[1]. فليس للأحقاب عدَّةٌ إلاَّ الخلودُ في النار، ولكنْ قد ذُكرَ أنَّ الْحُقُبَ الواحدَ سبعون ألفَ سَنةٍ، كلُّ يومٍ منها ألفُ سَنة مما تعُدُّون.

وقال مقاتلُ: ((الْحُقُبُ الْوَاحِدُ سَبْعَةَ عَشَرَ ألْفَ سَنَةٍ))[2]، وَقَالَ: ((هَذِهِ الآيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إلاَّ عَذاباً) يَعْنِي أنَّ الْعَدَدَ قَدِ انْقَطَعَ، وَأنَّ الْخُلُودَ قَدْ حَصَلَ))، وعن عبدِالله بن مسعود قالَ: ((لَوْ عَلِمَ أهْلُ النَّار أنَّهُمْ يَلْبَثُونَ فِي النَّار عَدَدَ حَصَى الدُّنْيَا لَفَرِحُوا، وَلَوْ عَلِمَ أهْلُ الْجَنَّةِ أنَّهُمْ يَلْبَثُونَ فِي الْجَنَّةِ عَدَدَ حَصَى الدُّنْيَا لَحَزِنُوا))[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي لا يذُوقون في تلكَ الأحقاب نَوماً ولا شَراباً من الماءِ. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يذوقون في جهنَّم من شدَّةِ حرِّها بَرداً ينفعُهم من حرِّها، ولا شَراباً ينفعُهم من عطشِها.

وَقِيْلَ: معناهُ: لا يذُوقون في جهنَّم بردَ ريحٍ ولا ظلاًّ ولا شَراباً بارداً، ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ، أي إلاَّ ماءً حارّاً في غايةِ الحرارة، و(غَسَّاقاً) وهو ما يغسِقُ أي يسيلُ من صَديدِ أهلِ النَّار، وكلُّ ذلك يزيدُ في العطشِ.

وقال شهرُ بنُ حَوشَبَ: ((الْغَسَّاقُ وَادٍ فِي النَّار، فِيْهِ ثَلاَثُمِائَةٍ وَثَلاَثُونَ شِعْباً، فِي كُلِّ شِعْبٍ ثَلاَثُمِائَةٍ وَثَلاَثُونَ بَيْتاً، فِي كُلِّ بَيْتٍ أرْبَعُ زَوَايَا، فِي كُلِّ زَاويَةٍ ثُعْبَانٌ كَأَعْظَمِ مَا خَلَقَ اللهُ، فِي رَأسِ كُلِّ ثُعْبَانٍ سُمٌّ قَاتِلٌ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَهُ إلاَّ اللهُ تَعَالَى)).

وعن أبي معاذٍ النَّحَويِّ قال فِي قولهِ تعالى: (لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً: ((أنَّ الْبَرْدَ النَّوْمُ))، ومثلهُ قَال الكسائيُّ وأبو عبيدة، والعربُ تقول: مَنَعَ الْبَرْدُ الْبَرْدَ؛

---

(١) أخرجه الطبري بمعناه في جامع البيان: الأثر (٢٧٩٣٨).
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٤٢.
(٣) في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٩٦؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه الحكم بن ظهير، وهو مجمعٌ على ضعفه).

أي أذهبَ البردُ النومَ، ولأنَّ العطشَان لينامُ فيبَرَدُ غليلُه، فلذلك سُمي النومُ بَرداً، قال الشاعرُ[1]:

وإنْ شِـــئْتُ حَرَّمْـــتُ النِّسَـــاءَ سِـــوَاكُمُ وَإنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَـــمْ نُقَاحـــاً وَلاَ بَـــرْدَا

أي نوماً[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ انتصبَ على المصدرِ؛ أي جُوزُوا على وفقِ أعمالهم جَزاءً. وَقِيْلَ: تقديره: جزَينَاهم جَزاءً، وقولــهُ تعــالى (وفَاقــاً) أي وُفِّقــوا أعمالَهم وفاقاً كما يقولُ: قاتِل قِتَالاً، والمعنى: جُوزُوا بحســب أعمــالهم، قــال مقــاتلُ: ((وَافَقَ الْعَذابُ الذنْبَ، فَلاَ ذنْبَ أعْظَمُ مِنَ الشِّرْكِ، وَلاَ عَذابَ أعْظَمُ مِنَ النَّار))[3].

وقولهُ تعــالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي إنَّــهم كــانوا لا يَخَافون أنْ يُحاسَبوا، والمعنى: أنَّــهم كــانوا لا يُؤمنــون بــالبعثِ ولا بأنَّــهم يُحاسَــبون، ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي وكذبــوا بمُحَمَّـــدٍ ﷺ والقــرآن تكذيبـــاً، و(فِعَّالٌ) من مصادر التَّفعيلِ، قال الفرَّاءُ: (هِيَ لُغَةٌ فَصِيحَــةٌ يَمَانِيَّــةٌ)[4]، يقــال حَرَّقْــتُ القميصَ حِرَّاقاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي وكلُّ شيء مِـــن الأعمال بيَّنَّاهُ في اللوحِ المحفوظ، كقولهِ تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إمَامٍ مُبِـينٍ﴾[5]. قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي يقــالُ لَـــهم: ذُوقُـــوا العذابَ في النار، فلن نزيدَكم إلاَّ ألوانَ العذاب لَوْناً بعدَ لونٍ، وكلُّ عذابٍ يــأتِي بعــدَ الوقتِ، فهو زائدٌ على الأوَّلِ.

---

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة (٢٣-٩٣هـ)، وللحارث المخزومي، (؟؟-٨٠هـ). شاعر غزل، ووالي يزيد بن معاوية على مكة، خلال قيام عبدالله بن الزبير ﷺ استتر خائفاً، فعزله يزيد. بقــي بمكــة حتى مات.

(٢) النقاح: الماء البارد الصافي، وقيل: الماءُ العذبُ. ينظر: لســان العــرب: (بــرد). والصحــاح: ج ٢ ص١٥: (برد).

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٤٢.

(٤) في معاني القرآن: ج ٣ ص٢٢٩؛ قال الفراء: (هي لغة يمانية فصيحة).

(٥) يس / ١٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ الْمُتَّقِي هو المؤمنُ المطيعُ لله، الكافُّ عن جميعِ معاصيه. والْمَفَازُ: موضعُ الفَوْزِ وهو الجنَّة، والمعنى: أنَّ للمتَّقين فَوْزاً ونجاةً من النار. وقوله تعالى ﴿ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ ﴾ ، تفسيرٌ لذلكَ الفوز. والحدائقُ: جمعُ الحديقةِ، وكلُّ ما أُحِيطَ به الحائطُ من الأشجار فهو حديقةٌ وهو البستان الجامعُ. والأعنابُ: أنواعُ العنَب في البستان، والمعنى: (إنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً) يعني أشجارَ الجنَّةِ وثِمارَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ الكَوَاعِبُ: جمع الكَاعِب، وهي الجاريةُ النَّاهِدُ الْمُفَلَّكَةُ الثدي، وهي التي خرجَ ثديُها بأحسنِ الخروج، ولم يُفطَم بعدُ. والأترابُ: اللِّدَاتُ[(١)] المستوياتُ في السنِّ[(٢)]، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: مثلَ أزواجهنَّ في السنِّ والصورة والقدِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ الكأسُ: الإناءُ الذي فيه الشَّراب، والدِّهَاقُ: الْمَلآنُ المتابع، والمعنى: وكأساً ممتلئةً.

وقولهُ تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يسمَعون في مجالسِهم في الجنَّة كَلاماً لا فائدةَ فيه، ولا يكذِّبُ بعضهم بعضاً، والمعنى: لا يسمَعون في الجنَّة إذا شَربوا الخمرَ بَاطلاً من الكلام، ولا يكذِّبُ بعضهم بعضاً، قال ابنُ عبَّاس: ((ذلِكَ أنَّ أهْلَ الدُّنْيَا إذا شَرِبُوا تَكَلَّمُوا بالْبَاطِلِ، وَأهْلُ الْجَنَّةِ إذا شَرِبُوا لَمْ يَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا شَيْئاً يَكْرَهُهُ اللهُ)). وقرأ الكسائيُّ: (وَلاَ كِذاباً) بالتخفيفِ؛ أي لا يكذِبُ بعضُهم بعضاً، والكِذابُ مصدرُ الْمُكَاذبَةِ، وهو حسنُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي جزَاهم اللهُ بهذه الأشياءِ من ربكَ وأعطاهُم عطاءً حِسَاباً، وقال ابنُ قتيبةَ: ((عَطَاءً كَافِياً))، يقال: أحسَبْتُ فُلاناً؛ أي أكثرتُ له وأعطيتهُ ما يَكفيهِ، قال الزجَّاج: ((فِي ذلِكَ الْجَزَاءِ كُلُّ مَا يَشْتَهُونَ، وَمِنْ ذِلكَ: حَسْبِي كَذا؛ أيْ كَفَانِي))[(٣)]. والمعنى: جَزاءً من ربكَ عطاءً كَثيراً كافياً وَافياً.

---

(١) في المخطوط: (اللذات) وهو غير مناسب.

(٢) في جامع البيان: الأثر (٢٧٩٧٣)؛ قال الطبري: (قال ابن زيد: الأتراب: اللِّدات. وقال: مستويات، فُلانة تِربَةُ فلانة). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٠٠؛ قال القرطبي: (على ميلاد واحد في الاستواء).

(٣) بمعناه؛ قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٢١٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ ﴾ ؛ قرأ نافعُ وأبو عمرو وابنُ كثير: (رَبُّ السَّمَوَاتِ) برفع الباءِ، و(الرَّحْمَنُ) بالرفع أيضاً على معنى: هو ربُّ السَّموات والأرض وما بينَهما وهو الرحمنُ، وإن شئتَ قُلتَ: (رَبُّ) مبتدأ و(الرَّحْمَنُ) خبرهُ.

وقرأ ابنُ عامر[1] ويعقوب كلاهُما بالخفضِ على البدل من (رَبِّكَ). وقرأ حمزة والكسائي وخلف (رَبِّ) بالخفض، و(الرَّحْمَنُ) رفعاً، قال أبو عُبيدة: ((وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ أعْدَلُهَا[2] عِنْدِي؛ لأنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى (رَبِّ) قَرِيبٌ مِنْ (رَبِّكَ) فَيَكُونُ نَعْتاً لَهُ. وَارْتَفَعَ (الرَّحْمَنُ) لِبُعْدِهِ عَنْهُ، فَيَكُونُ مُبْتَدَأ وَمَا بَعْدَهُ خَبَرُهُ))[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: ((لاَ تَقْدِرُ الْخَلْقُ أنْ يُكَلِّمُوا الرَّبَّ إلاَّ بإذْنِهِ)). وقال الكلبيُّ:((مَعْنَاهُ: لاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ بإذْنِهِ)). وَقِيْلَ: لا يتجرَّأ أحدٌ أنْ يتكلَّمَ في عَرصَاتِ القِيامةِ إلاَّ بإذنهِ. ثُم وصفَ ذلك اليومَ فقال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ ﴾ ؛ قِيْلَ: معناهُ: في يومٍ يقومُ الرُّوح.

واختلَفُوا في الرُّوح، قال الشعبيُّ والضحاك: ((هُوَ جِبْرِيلُ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ الرُّوحَ الأَمِينَ)). وقال ابنُ عبَّاس: ((هُوَ مَلَكٌ مِنْ أعْظَمِ الْمَلاَئِكَةِ خَلْقاً)). وقال ابنُ مسعودٍ: ((هُوَ مَلَكٌ عَظِيمٌ أعْظَمُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْجِبَالِ، وَأعْظَمُ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، وَهُوَ يُسَبحُ فِي السَّمَاءِ الرَّابعَةِ كُلَّ يَوْمٍ اثْنَي عَشَرَ ألْفَ تَسْبيحَةٍ، يَخْلُقُ اللهُ مِنْ كُلِّ تَسْبيحَةٍ مَلَكاً))[4].

وقال مجاهدُ وقتادة: ((الرُّوحُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَلَى صُورَةِ بَنِي آدَمَ وَلَيْسُوا مِنْهُمْ، يَقُومُونَ صَفّاً، وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً، هَؤُلاَءِ جُنْدٌ، وَهُمْ جُنْدٌ)). وعن ابن عبَّاس: ((أنَّهُ مَلَكٌ لَمْ يَخْلُقِ اللهُ فِي الْمَلاَئِكَةِ أعْظَمَ مِنْهُ))[5]، فإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَامَ وَحْدَهُ صَفّاً،

---

(١) في المخطوط كرر (عامر) والصواب: (عاصم).

(٢) في المخطوط: (أعدلها) وهو غير مناسب، ونقله عنه ما أثبتناه، وكما في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١١٩، والجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٨٦.

(٣) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١١٩. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٨٦.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٩٩٤).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٩٩٥).

وَقَامَتِ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ صَفّاً، فَيَكُونُ عِظَمُ خَلْقِهِ مِثْلَ صُفُوفِهِمْ. وَقِيلَ: هم خلقٌ غيرُ الإنسِ والجنِّ يرَون الملائكةَ، والملائكةُ لا يرونهم، كما أنَّ الملائكةَ يرونَنا ونحنُ لا نراهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ ؛ معناهُ: الخلقُ كلُّهم المؤمنون لا يتكلَّمون إلاَّ مَن أذِنَ اللهُ له الكلامَ، ولا يأذنُ إلاَّ لِمَن إذا قالَ، ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ . وَقِيْلَ: معناهُ: إلاَّ من أذِنَ له الرحمنُ وَقَالَ فِي الدُّنيا قولاً صَوَاباً عَدلاً، وهو كلمةُ التوحيدِ؛ يعني: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي ذلك اليومُ وُصِفَ هو الحقُّ، ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي رَجْعاً حَسناً؛ أي مَن شاءَ رجَعَ إلى اللهِ بطاعته.

ثم خوَّفَ الكفارَ فقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ ؛ أي خوَّفناكم من عذابٍ قريب كائن، يعني عذابَ الآخرةِ، وكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ، والخطابُ لأهلِ مكَّة. ثم بيَّن متى يكون ذلكَ العذابُ، فقالَ تعالى: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي يومَ يرَى الرجلُ فيه جزاءَ عملهِ في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ، وخَصَّ اليدَين؛ لأنَّ أكثرَ العملِ يكون بهما.

وأمَّا الكافرُ فيقول: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي لَيتَني لم أبعَثْ، ولَيتَني بقيتُ تُراباً بعدَ الموتِ، وقال مقاتلُ: ((إنَّ اللهَ يَجْمَعُ الدَّوَابَّ وَالطُّيُورَ وَالْوُحُوشَ يَوْماً، وَيَقْضِي بَيْنَ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، ثُمَّ يَقْضِي لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، فَإذا فَرَغَ مِنْ ذلِكَ، قَالَ: مَنْ رَبُّكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أنَا خَلَقْتُكُمْ وَسَخَّرْتُكُمْ لِبَنِي آدَمَ، وَكُنْتُمْ لِي مُطِيعِينَ أيَّامَ حَيَاتِكُمْ، فَارْجِعُوا لِلَّذِي خَلَقْتُكُمْ مِنْهُ. فَيَصِيرُونَ تُرَاباً، فَعِنْدَ ذلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: (يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً).))[١]. قال أبو هُريرة: ((فَيَقُولُ التُّرَابُ لِلْكَافِرِ: لاَ حُبّاً وَلاَ كَرَامَةَ لَكَ أنْ تَكُونَ مِثْلِي))[٢].

آخر تفسير سورة (**النبأ**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) بنحوه قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٤٤.

(٢) بنحوه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٠١٧).

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعُمِائَةٍ وَثَلاَثَةٌ وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ كَلِمَةً، وَسِتٌّ وَأَرْبَعُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا هَوَّنَ اللهُ عَلَيْهِ نَزْعَ رُوحِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ حِسَابُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلاَّ كَقَدْرِ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ ﴾؛ أقسَمَ اللهُ بالملائكةِ إعْظَاماً لَهم، وللهِ أنْ يُقسِمَ بغيرِه، وليس للعبادِ أنْ يُقسِمُوا إلاَّ به. ويجوزُ أن يكونَ القسَمُ ها هُنا بربِ الملائكةِ، كأنَّهُ قالَ: ورَب النازعاتِ. والنَّازعَاتُ: الملائكةُ الذين ينْزِعون أرواحَ الكفَّار بالشدَّة من أجسادِهم، من تحتِ كلِّ شعرةٍ، ومن تحت الأظفَار وأصولِ القدَمين، ثم يردونَها في جسدِها حتى إذا كادت تخرجُ ردُّوها في بدنهِ.

قال مقاتلُ: ((يَعْنِي مَلَكَ الْمَوْتِ وَأعْوَانُهُ)). قال سعيدُ بن جبير: ((يَنْزِعُونَ أرْوَاحَهُمْ فَيُفَرِّقُونَهَا ثُمَّ يُقذِفُونَ بهَا فِي النَّار))[2]. وقال السديُّ: ((هِيَ النَّفْسُ الَّتِي تَغْرَقُ فِي الصُّدُور))[3]. وَقِيْلَ: يرَى الكافرُ نفسه وقتَ النَّزع كأنَّها تغرقُ. وَقِيْلَ: معناهُ: تنْزِعُ الملائكةُ أرواحَ الكفار عن أجسادِهم كما يَغرَقُ النَّازعُ في القوسِ فيبلغُ بها غايةَ الْمَدِّ، والْمَغْرِقُ اسمُ مصدرٍ أقيم مقامَ الإغراق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ ﴾؛ هم الملائكةُ يَنشِطُونَ روحَ الكافرِ من قدَميه إلى حَلقهِ نَشْطاً كما ينشط الصوفُ من سُفُودِ الحديدِ. قِيلَ: إنَّهم

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٦٨٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٠٢٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٠٣٠).

ينشِطُون أرواحَ الكفَّار نَشْطاً عَظيماً ويجذِبونَـها جَذباً شَـديداً بكَـرَبٍ ومشـقَّةٍ وغَـمٍّ، كنشط السُّفود الكثيرِ الشَّعر من الصوف المتلبد، فيشتدُّ عليهم خروجُ أرواحِهم، يقالُ: نَشَطْتُ يدَ البعيرِ إذا نَطَقْتُهُ بالحبلِ، وأنشَطتهُ إذا حلَلتُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ ﴾؛ هم الملائكةُ الموكَّلون بقبـضِ أرواحِ المؤمنين، يُسلونَها سَلاًّ رَفيقاً، ثم يدَعونَها تستريحُ رُويـداً كالسَّـائحِ بالشـيءِ في الماءِ يرفِقُ به، وقال مجاهدُ: ((هُـمُ الْمَلاَئِكَـةُ يَـنْزِلُونَ مِـنَ السَّـمَاءِ مُسْـرِعِينَ كَـالْفَرَسِ الْجَوَادِ السَّابحِ لِسُرعَتِهِ))[١]. وقال الكلبيُّ: ((يَقْبضُونَ أرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ كَـالَّذِي يَسبَحُ فِي الْمَاءِ، فَأَحْيَاناً يَنْغَمِسُ وَأحْيَاناً يَرْتَفِعُ، يَسِلُّونَهَا سَلاًّ رَفِيقاً))[٢]. وقال قتادةُ: ((هِـيَ النُّجُومُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٣])). وقال عطاءُ: ((هِيَ السُّفُنُ))[٤].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ ﴾؛ هـم الملائكـةُ سَبقت بنِـي آدمَ بالخيرِ والعمل الصالحِ والإيمان والتَّصديق. وَقِيْلَ: يستَبِقُون بأرواحِ المؤمنين إلى الجنَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾ ﴾؛ يعني جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ وملَـكَ الموتِ، يدبرون أمرَ اللهِ في أهلِ الأرض، فجبريلُ للوَحيِ والتَّنْزيلِ، وميكـائيلُ للقَطْـرِ والنبات، وإسرافيلُ للصُّور، وملَكُ المـوتِ لقبـضِ الأرواح، وجـوابُ هـذه الأقسـامِ محذوفٌ، تقديرهُ: لَتُبْعَثُنَّ للجزاءِ والحساب ولَتُحَاسَبُنَّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ ﴾؛ يعـني النفخَـةَ الأُولى الـتي يَمُوتُ فيها جميعُ الخلقِ، والرَّجفَةُ صيحـةٌ عظيمـةٌ فيـها تـردُّد واضطـرابٌ، ﴿ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ ﴾؛ يعني النفخةَ الثانيةَ ردَفَتِ النفخةَ الأُولى، وبينَهما أربعـون سَـنة، وسُميت الثانيةُ رَادِفَةً تَشبهاً بالرَّادِفِ من الرَّاكب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٠٣٧).

(٢) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٢٣. والقرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القـرآن: ج ١٩ ص١٩٣.

(٣) الأنبياء / ٣٣ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٠٣٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي مُضطربة قَلِقَةٌ لِمَا عايَنت من أهوالِ يوم القيامة. قِيْلَ: أرادَ بها قلوبَ الكفَّار. والوَجِيفُ: اضطرابُ القلب، وقال مجاهدُ: ((مَعْنَى وَاجِفَةٌ: وَجِلَةٌ))، وقال السديُّ: ((زَائِلَةٌ عَنْ أمَاكِنِهَا)). وَقِيْلَ: غيرُ هادئةٍ ولا ساكنة، وقال أبو عمرو: ((مُرْتَكِضَةٌ))[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي أبصارُ أصحابها ذليلةٌ خاضِعة، وذلك أنَّ المضطربَ الخائفَ لا بدَّ أن يكون نظرهُ نظرَ الذليلِ الخاضعِ؛ لترقُّب ما ينْزِلُ من الأمرِ. ويقالُ: ذليلةٌ عند معايَنة النار، كقوله ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾[2].

قال عطاءُ: ((يُرِيدُ أبْصَارَ مَنْ مَاتَ كَافِراً)) يدلُّ عليه أنه ذكرَ مُنكري البعثِ، فقالَ: ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: تقولُ الكفَّار وهم في الدُّنيا: أنُرَدُّ إلى أوَّلِ حالِنا وابتداءِ أمرنا فنصيرُ أحياءً؟ كما كنَّا، يقال: رجعَ فلانٌ في حافرتِهِ، أي رجع من حيث جاءَ. والحافرة عند العرب اسمٌ لأول الشيءِ، وابتداءُ الأمر. والمعنى أنهم كانوا يستبعِدُون البعثَ، ويقولون: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أنُرَدُّ إلى الحياةِ الأولى، وتُعَادُ فينا الروحُ بعد أن نصيرَ عِظَاماً نَخِرَةً؛ أي بَالِيَةً، ومنه قولُهم: رجعَ فلانٌ في حَافِرَتِهِ؛ إذا رجعَ في الطريقِ الذي جاءَ فيه.

وقال بعضُهم: الْحَافِرَةُ الأرضُ التي تُحفَرُ فيها قبورُهم، والحافرةُ بمعنى المحفورةِ كما في ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ وما وافقَ معناهُ، ومعناه: أئِنَّا لَمَردُودُونَ إلى الأرضِ فنُبعَثُ خَلقاً جديداً، ونَمشي على أقدامِنا، وقال ابنُ زيد:((الْحَافِرَةُ: النَّارُ))، وَقِيْلَ: معناهُ: أنُرَدُّ أحياءً في قُبورنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أئِذا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً) قرأ أهلُ الكوفة (نَاخِرَةً) بالألفِ، وهي قراءةُ عمرَ رضي الله عنه[3] وابنِ عبَّاس وابنِ مسعود وابنِ الزُّبير. وقرأ الباقون (نَخِرَةً) بغيرِ

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٩٦، وأبو عمرو هو المؤرِّجُ، وليس المؤرِّخُ، والله أعلم. والمعنى مرتكضة، مضطربة، غير ساكنة.

(٢) الشورى / ٤٥ .

(٣) في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٢٥؛ قال الثعلبي: (وهي قراءة عمر بن الخطاب وابنه وابن عباس...). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٩٧؛ قال (وقرأ أبو عمرو وابنه عبدالله) وأظنه وهم أو تصحيف من النسَّاخ.

ألفِ، والنَّخِرَةُ: البَالِيَةُ، والنَّاخِرَةُ: الْمُجَوَّفَةُ، يقالُ: نَخَرَ العظمُ يَنْخِرُ فهو نَاخِرٌ وَنَخِـراً إذا بَلِيَ وتفتَّتَ، وقال الأخفشُ: ((هُمَا لُغَتَان؛ أيُّهُمَا قَرَأتَ فَحَسَنٌ)). والمعنـى: أنَّـهم أنكَرُوا البعثَ، فقالوا: أنُرَدُّ أحياءً إذا مِتنا وبَلِيَتْ عِظامُنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾؛ كانوا يقُولون على جهـةِ التَّكذيب: إنْ كان الأمرُ على ما يقولُ مُحَمَّد، فتلكَ الرجعةُ خاسرةٌ. والْخَاسِرَةُ: ذاتُ الْخُسْرَانِ؛ أي إنْ رُدِدْنَا بعدَ الموتِ لنَخْسَرَنَّ بما يُصيبنا بعدَ الموتِ.

ثُم أعلمَ اللهُ سـهولةَ البعـثِ عليـه فقـالَ تعـالى رَدّاً عليـهم: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾؛ يعني النفخةَ الأخيرةَ صيحـةٌ واحـدة يسـمعونَها وهـم في بُطـون الأرضِ أمواتٌ، ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي فإذا هـم أحيـاءٌ علـى وجـهِ الأرض. والسَّاهِرَةُ: وجهُ الأرضِ وظَهرُها، فإنَّما هي نفخةٌ واحـدة وصيحـةٌ واحـدة هائلة (فَإذا هُمْ بالسَّاهِرَةِ) أي فإذا هُم علـى ظـهرِ الأرضِ بعـد أنْ كـانوا في جَوفِـها. والعربُ تسمِّي وجهَ الأرضِ ساهرةً؛ لأن فيها نومَ الْجُفُونِ وسَهَرَهم. يقال: إنَّ المرادَ بالسَّاهرة أرضُ بيتِ المقدس. ويقال: أرادَ به أرضَ الآخرةِ. وَقِيْلَ: الساهرةُ: جهنَّم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي هـلَ جـاءَك- يـا مُحَمَّدُ- حديثُ موسى، ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ ﴾؛ أي هل بلغَكَ قصَّـةُ موسـى وخـبرُهُ، وهذا استفهامٌ بمعنى التقرير، كما يقولُ الرَّجلُ لغيرِهِ: هل بلغَكَ حديثُ فُـلان، وهـو يعلمُ أنَّهُ بلَغَهُ ذلك، ولكنْ يريدُ بهذا الكلامِ التحقيقَ.

ويجوزُ أن يُراد بهذا الابتداءِ الإخبارُ، كأنه قالَ: لَمْ يكن عنـدَكَ - يـا مُحَمَّـدُ - ولا عندَ قومِكَ ما أعلمَكَ اللهُ به من حديـثِ موسـى إذ أسمعَـهُ اللهُ نـداءَهُ، ﴿ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي بالوادي الْمُطَهَّرِ الـذي كلَّمَـهُ اللهُ عليـه، واسـمُ ذلـك الوادي (طُوًى). وهذا يقرأ بالتنوينِ وغيرِهِ، فمَن نوَّنَهُ وصرَفه؛ فلأنَّهُ مذكَّرٌ سُـمِّي بـه مذكرٌ، ومَن لم يُصرفْهُ جعلَ له اسمَ البُقعَةِ التي هي مشتملةٌ على ذلك الوادي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي ناداهُ ربُّه فقالَ لـه: يا مُوسَى اذهَبْ إلى فرعونَ إنه عَلاَ وتكَبَّر وكفرَ وتجاوزَ عـن الحـدِّ في المعصيـةِ، ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي تتطَـهَّر عـن الشِّـركِ وتشـهدَ أنْ لا إلـه إلاَّ اللهُ،

وتعملَ عَمَلَ الأزكياءِ، وَ؛ هل لكَ رغبةٌ في أنْ، ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ؛ أي إلى معرفةِ ربكَ وعبادتهِ وتوحيده ومعرفةِ صفاته، ﴿فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ ؛ عقابَهُ إنْ لم تُطِعْهُ.

ثُمَّ بيَّن اللهُ لموسى أن يمضي[1] ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ ؛ حتى أراه الآية الكبرى، يعني العصَا إذ كانت أكبرَ آيةٍ، وقال بعضُهم: اليدُ البيضاءُ التي أخرجَها، لَهَا شُعاعٌ كالشَّمسِ، ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ ؛ أي فكذبَ فرعونُ بأنَّها من اللهِ، وعصَى موسى فلم يُطِعْهُ، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ ؛ أي أدبرَ عن الإيمان، وأعرضَ عنه بعملِ الفساد في الأرضِ، ويقال: أدبرَ: أسرعَ هارباً من الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَحَشَرَ﴾ ؛ أي فجمعَ قومَهُ وجُنودَهُ، ﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ ؛ لَمَّا اجتمَعُوا، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ ؛ أي لا ربَّ فَوقِي، وَقِيْلَ: إنه جمعَ قومَهُ بالشُّوطِ يستنصرُ بهم على إبطالِ أمر مُوسَى ودفعِ ضرَرِ الحيَّة، فنادَى فيهم: أعِيدُوا أصنامَكم التي كُنتم تعبدونَها، وأنا ربُّ أصنامِكم الأعلَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ ؛ معناهُ: لَمَّا بلغَ في استكثارهِ وكُفرهِ إلى حدٍّ لا ينفعُ فيه الوعظُ، حينئذٍ أخذهُ اللهُ بعقوبةٍ صارَ بها نَكالاً في الدُّنيا والآخرة، و﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[2]، ولو تفكَّرَ هؤلاءِ الجهَّالُ لعَلموا أنه لو كان إلَهاً لم يحتَجْ إليهم لدفعِ ضرَرِ الحيَّة التي يخافُها.

وَقِيْلَ: معنى (فَأَخَذَهُ الله نَكَالَ الآخِرَةِ) يعني كلمَتي فرعون حين قالَ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[3] وقوله (أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى) وكان بينَهما أربَعون سَنة[4]. قال مجاهدُ: ((هَذا مَعْنَى الآخِرَةِ وَالأُولَى، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الآخِيرَةُ، وَقَوْلُهُ تعالى ﴿مَا

---

(١) في المخطوط: (ثم بين الله أن موسى يعتصر). وترجح ما أثبتناه قياساً علىعبارة الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٢٧. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٠٢.

(٢) غافر / ٤٦. (٣) القصص / ٣٨.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٠٤). وعزاه السيوطي إلى الشعبي في الدر المنثور: ج ٨ ص٤١٠.

عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِي﴾ هِيَ الْكَلِمَةُ الأُوْلَى))[1] وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين.

وقال الحسنُ: (مَعْنَى: نَكَالَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، الأُوْلَى: غَرَقُهُ فِي الدُّنْيَا، وَعَذابُهُ فِي الآخِرَةِ بالنَّار)). وعن ابنِ عبَّاس قالَ: ((قَالَ مُوسَى: يَا رَب أمْهَلْتَ فِرْعَوْنَ أرْبَعَمِائَةَ سَنَةٍ وَهُوَ يَقُولُ: أنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى، وَيُكَذِّبُ بآيَاتِكَ وَرُسُلِكَ، فَأَوْحَى اللهُ إلَيْهِ أنَّهُ كَانَ حَسَنَ الْخُلُقِ سَهْلَ الْحِجَاب، فَأَحْبَبْتُ أنْ أكَافِئَهُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ ؛ أي إن في الذي فعلَ فرعونُ من العقوبةِ حين كذبَ عِظَةً لِمَن يخشَى عذابَ الله. والعبرةُ: هي الدَّلالةُ المؤدِّية إلى الحقِّ.

ثم خاطبَ مُنكري البعثِ فقالَ تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ﴾ ؛ الخطابُ لأهلِ مكَّة، يقولُ أانْتُمْ أشَدُّ خَلْقاً، معناهُ: أخلقُكم بعدَ الموتِ أشدُّ عندكم أمِ السَّماءُ في تقديركم؟ وهُما في قُدرةِ الله واحدٌ، وهذا كقولهِ ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[2]. وقولهُ تعالى: ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ ؛ أي بناها مع عظَمِها، فكيف لا يقدرُ على إعادتِكُم مع صِغَرِ أجسامِكم؟!

وقولهُ تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ ؛ أي رفعَ سَقْفَ السَّماء فوقَ كلِّ شيء بلا عَمَدٍ تحتَها، ولا عُلاَّقةٍ فوقَها، فسوَّاها من الفُطور والعُيوب. وَقِيْلَ: فسَوَّاها بلا سُقوفٍ ولا فُطور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ ؛ أي أظْلَمَ ليلَها وأظهرَ نهارها: والغَطْشُ: الظُّلْمَةُ وأصنافُ اللَّيل والنهار إلى السماءِ؛ لأن الليلَ إنما يكون بغُروب الشمسِ، والشمسُ منسوبةٌ إلى السَّماء، فإذا غرَبت الشمسُ كان مبدأ الظَّلام من جانب السَّماء، وذلك[3] الضياءُ يظهر قبلَ طُلوعِ الشمسِ من جانب السَّماء.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٠٠).

(٢) غافر / ٥٧.

(٣) في المخطوط: (ولذلك).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي سطَّحَها بعد خَلق السَّماء، مأخوذٌ من الدَّحْوِ وهو البَسْطُ(١)، وذلك أنَّ الله خلقَ الأرضَ قبلَ السَّماء مجموعةً، ثم خلقَ السَّماء وشَمسَها وقمرَها وليلَها ونهارها، ثم دَحَا الأرضَ بعد ذلك ((فهو)) أدَلُّ على القدرةِ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أرادَ بالماءِ ماءَ الآبار والعيون التي تخرجُ من الأرض، وبالْمَرْعَى النباتَ مما يأكلُ الناس والأنعام وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي أثبتَها وثقَّلَ بها الأرضَ، فَعَلَ ذلك، ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ ، أي منفعةً لكم ولدوابكم لا لمنفعةِ نفسه، فإنه منَزَّهٌ عن المضَارِّ والمنافع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ يعني النفخةَ الثانية التي فيها البعثُ، والطامَّةُ: الحادثةُ التي تَطُمُّ على ما سِوَاها؛ أي تَعلُو فوقَهُ، والقيامةُ تَطُمُّ على كلِّ شيءٍ فسُميت الطامَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي ما عَمِلَ في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ، ويقرأ كتابَهُ، ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي أظْهِرَتْ لجميعِ الخلائقِ حتى يراها أهلُ الموقفِ كلُّهم، والطامَّة عندَ العرب الدَّاهيَةُ التي لا تُستطَاعُ. وَقِيْلَ: إن الطامَّة الكُبرى حين يُسَاقُ أهلُ النار إلى النار، وأهلُ الجنةِ الى الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ معناه: فأمَّا من جاوزَ الحدَّ في معصيةِ الله، واختارَ ما في الدُّنيا من زهرتِها وزينتِها على الإيمان بالله وطاعتِه، فإن الجحيمَ هي المأوَى؛ أي مأواهُ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ للحساب واجتنبَ المعاصي، ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ

---

(١) في المخطوط: (النبط) وهو غير مناسب؛ لأن معنى دحا الأرضَ أي بسَطَها.

(٢) أي أدلُّ على القدرة من القول الآخر، حيث (أن الله تعالى خَلَق أولاً دخان السماء، ثم خلق الأرض، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسوَّاها، ثم دحا الأرض بعد ذلك). واختلاف بين أهل التفسير؛ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص٢٥٤-٢٥٦ وج ١٩ ص٢٠٥.

ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي المحارمِ التي يشتَهيها، قال مقاتلُ: ((هُوَ الرَّجُلُ يَهُمُّ بالْمَعْصِيَـةِ، فَيَذْكُرُ مَقَامَهُ لِلْحِسَاب فَيَتْرُكُهَا))[1] ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي متـى قيامُـها ووقوعها، يعني يومَ القيامةِ يسألونهُ عن تلك لتكذيبهم بها، وقولهُ تعالى: ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي في أيِّ شيءٍ أنتَ من ذكرِ القيامة ووقتِها، ولم يُعرِّفْـكَ اللهُ ذلك، والمعنى: لستَ في شيءٍ من علمِها؛ أي لا تعلمُها، وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ معناه: إنما أنتَ مُخوِّفُ مَـن يخافُ قيامَها؛ أي إنما ينتفعُ بإنذاركَ مَن يخافُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ ؛ أي كأنَّــهم يـومَ يـرَون القيامـةَ، ﴿ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ ﴾ ؛ في الدُّنيـا، ﴿ إِلَّا ﴾ ؛ قــدرَ، ﴿ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ مـن العَشِيَّاتِ وقدرَ ضُحى العشيَّة، وذلك أنَّـهم إذا اسـتقبَلهم أمـرُ الآخـرةِ ذهـبَ عنـهم الكفرُ في مقدار مُكثِهم في الدُّنيا، ومقدار مُكثِهم في قبورهم لِعِظَـمِ مـا اسـتقبَلهم مـن الشدائدِ، والمعنى: إن الذي أنكروهُ سيَرَونَهُ حتى كأنَّـهم لم يلبَثـوا في الدُّنيـا إلاَّ سـاعةً مضَتْ كأنَّها لم تكن. والضُّحى وقتُ ارتفاعِ النهار ، والعَشِيُّ: ما بعدَ الزوالِ.

آخر تفسير سورة (**النازعـات**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) بمعناه قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٤٩.

سُورَةُ عَبَسَ

سُورَةُ عَبَسَ مَكِّيَّةٌ، وَهِـيَ خَمْسُـمِائَةٍ وَثَلاَثُـونَ حَرْفـاً، وَمِائَـةٌ وَثَلاَثُـونَ كَلِمَـةً، وَاثْنَتَانِ وَأَرْبَعُــونَ آيَـةً. قَـال ﷺ: [مَـنْ قَرَأَهَـا جَـاءَ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَوَجْهُـهُ ضَـاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾؛ وذلكَ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ عِنْدَهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ، وَأبُو جَهْلٍ، وَعُتْبَةُ بْنُ رَبيعَةَ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ وَغَيْرُهُم مِنْ أشْرَافِ قُرَيْشٍ، وَقَدْ أقْبَلَ إلَيْهِمْ يَدْعُوهُمْ إلَى الإيْمَانِ، وَيَقْرَأ عَلَيْهِمُ الْقُـرْآنَ رَجَـاءَ أنْ يُؤْمِنُوا فَيُؤْمِنُ بإيْمَانِهِمْ بَشَرٌ كَثِيرٌ.

فَجَاءَ عَبْدُاللهِ بْنُ أمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ الأعْمَى الْمَذْكُورُ، فَجَعَلَ يَسْألُ النَّـبِيَّ ﷺ عَـنْ آيَاتٍ أنْزِلَتْ، وَيَقُولُ: أقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللهِ، وَعَلِّمْنِي مِمَّـا عَلَّمَـكَ اللهُ، وَهُـوَ لاَ يَعْلَـمُ شُغْلَ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ ولاَ يَدْرِي أنَّهُ مَشْغُولٌ بالإقْبَالِ عَلَى غَـيْرِهِ، فَـأعْرَضَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ وَقَطَبَ وَجْهَهُ وَعَبَسَ، وَأقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِيـنَ يُكَلِّمُـهُمْ. فـأنزلَ اللهُ تعـالى هـذه الآياتِ[2].

والمعنى: عبسَ مُحَمَّدٌ، وأعرضَ بوجههِ لأنْ جاءَهُ الأعمَى، و(أنْ) في موضـع نصبٍ؛ لأنه مفعولٌ له. والتَّولِّي عن الشيءِ: هو الإعراضُ عنه، فإنه صرفَ وجهَهُ عن أنْ يَليه.

---

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٣٠ بإسناده عن أبي ﷺ، موضوع.

(٢) أخرجه ابن أبـي حـاتم في التفسـير: الحديـث (١٩١٢٥). والطـبري في جـامع البيـان: الحديـث (٢٨١٤٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ما يُعلِمُكَ يا مُحَمَّدُ لعلَّ ابنَ أم مكتومٍ يزَّكَّى بالعملِ الصالحِ بجوابكَ عن سُؤالِه، ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ ويتَّعِظُ فتنفعَهُ ذِكرَاكَ. وَقِيْلَ: معنى (يَزَّكَّى): يتطهَّرُ من الذنوب بالعملِ الصالح، أو يذكَّرُ فيتَّعِظَ بما يعلمهُ من مواعظِ القرآن. قرأ عاصم (فَتَنْفَعَهُ) بالنصب على جواب (لَعَلَّ) بالفاءِ، وقرأ الباقون بالرفعِ عَطفاً على (يَزَّكَّى أوْ يَذكَّرُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ يعني أشرافَ قُريش، قال بعضُهم: معناهُ: أما مَنِ استغنَى بمالِه، وقيل: استغنَى عنْ وعظِكَ، أي جعل نفسه غنياً عنك، وقال ابن عباس: (مَعْنَاهُ: اسْتَغْنَى عنِ اللهِ وعنِ الإيمان)، ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ ﴾ لِوَعْظِهِ؛ أي تُعرِضُ له وتُقبلُ عليه بوجهِكَ وتَميلُ اليهِ وتُصغِي إلى كلامهِ. يقالُ: فلانٌ تصَدَّى لفُلانٍ؛ أي يتعرَّضُ له ليَراهُ. قرأ نافعُ وابن كثير وأبو جعفرٍ (تَصَّدَّى) بالتشديدِ على معنى تتصَدَّى، وقرأ الباقون بالتخفيفِ على الحذفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي وما عليكَ ألاَّ يُؤمِنَ ولا يهتدِيَ، فإنه ليس عليكَ إلاَّ البلاغُ، ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ لعملِ الخيرِ وهو ابنُ أمِّ مكتومٍ جاءَكَ يُسرِعُ في المشيِ إليكَ يلتمِسُ منك الدِّينَ، ﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ عذابَ اللهِ، وَقِيْلَ: يخشَى العثورَ في مِشيَته، ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي تتشاغَلُ فتُعرِضُ بوجهكَ عنه، يقال: الْهَيْتَ على الشَّيء إلْهَاءً إذا تشاغلتَ عنه، وليس من لَهَا يَلهُو، ومِن هذا قولُهم: اذا استأثَرَ اللهُ بشيءٍ فَالْهَ عنهُ؛ أي اتركْهُ واعرِضْ عنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ ﴾ ؛ أي حاشَا أن تَعودَ إلى مثلِ ذلك، لا تعُدْ إليه ولا تفعَلْ مثلَهُ، والمعنى: أنَّ (كَلاَّ) ها هنا كلمةُ رَدْعٍ وزَجرٍ، أو كَلاَّ لا تفعَلْ بعدَها مِثلَها. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ هذه الآياتِ التي أنزلَها اللهُ عليكَ موعظةٌ يتَّعِظُ بها عبادُ الله تعالى، ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي مَن شاءَ ألْهَمَهُ وفهَّمَهُ القرآنَ حتى يذكُرَهُ ويتَّعِظَ به.

وهذا كلُّه تأديبٌ للنبيِّ ﷺ، وتبين أنَّ المحافظةَ على الإقبالِ على المؤمنين أولى من الحرصِ على مَن هو كافرٌ رجاءَ أن يترُكَ. فَلَمَّا أنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَاتُ أكْرَمَ رَسُولُ

اللهِ ﷺ ابْنَ أمِّ مَكْتُومٍ وَالْطَفَهُ وَاسْتَخْلَفَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ مَرَّتَيْنِ فِي غَزْوَتَيْنِ غَزَاهُمَا لِيُصَلِّيَ بالنَّاسِ، وكَانَ ﷺ إذا رَآهُ يَقُولُ: [مَرْحَباً بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيْهِ رَبِي، هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ ؟][1].

ولا يمتنعُ أن يكون إعراضُ النبيِّ ﷺ عن ابنِ أم مكتوم لأنه كان يريدُ أن يعلِّمَ الناسَ طريقةَ حفظِ الأدب في تعلُّمِ العلمِ. وقولهُ تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ) أي فمَن شاءَ ذكرَ ما أنزل من الآياتِ، ويقالُ: من شاءَ اللهُ له أنْ يتَّعِظَ اتَّعَظَ.

ثم أخبرَ اللهُ تعالى بجَلالَةِ القرآن في اللَّوحِ المحفوظِ عندَهُ فقالَ تعالى: ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي في كُتُبٍ مُعَظَّمَةٍ بما تضمَّنت من الحكمةِ، ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ ؛ القَدْرِ في السَّموات، ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي منزَّهة من الدَّنسِ ومن التناقُضِ والاختلافِ كما قال تعالى في آيةٍ أخرى ﴿لاَ يأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾[2]. والصُّحُفُ: جمعُ الصَّحيفةِ. وَقِيْلَ: يعني بقولهِ (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ) اللوحَ المحفوظَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَرْفُوعَةٍ) يعني في السَّماء السابعةِ وقولهُ تعالى: (مُطَهَّرَةٍ) أي لا يَمَسُّها إلاّ المطهرون، وهم الملائكة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ يعني الكَتَبَةَ من الملائكةِ، واحِدُهم سَافِرٌ مثلُ كاتبٍ وكَتَبَةٍ، وقال الفرَّاءُ: ((السَّفَرَةُ هَا هُنَا الْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ هُمْ رُسُلُ اللهِ بالْوَحْيِ إلَى انْبيَائِهِ، وَمِنْهُ السَّفَارَةُ وَهُوَ السَّعْيُ بَيْنَ الْقَوْمِ))[3]. ثم أثنى اللهُ عليهم فقالَ تعالى: ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي كرامٍ على ربهم مُطيعين له، والكريمُ الذي مِن شأنه أنْ يأتِيَ بالخير، والبَرَرَةُ: جمعُ بَارٍّ، وهم الفاعلِين للبرِّ المطيعين للهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي لُعِنَ الكافرُ ما أكفرَهُ باللهِ وبنعمتهِ مع كَثرةِ إحسانهِ إليه، قال مقاتلُ: ((نَزَلَتْ فِي عُتْبَةَ بْنِ أبي لَهَبٍ، والمرادُ به

---

(١) عزاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢١٣؛ قال: (قال الثوري ...) وذكره.
(٢) فصلت / ٤٢ .
(٣) ينظر: معاني القرآن: ج ٣ ص٢٣٦.

كلَّ كافرٍ))[(١)]. قولهُ (مَا أَكْفَرَهُ) تعجيبٌ بمعنى التوبيخ، يقالُ: أيُّ شيءٍ حَملَهُ على الكفرِ مع وضُوحِ الدلائلِ على وحدانيَّة اللهِ، فتعجَّبُوا من كُفرهِ. وأما اللهُ تعالى فلا يجوزُ أن يتعجَّبَ من شيءٍ لكونه عالِماً لم يزَلْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ ﴾؛ معنى الآيةِ: ما أشدَّ كُفرَهُ باللهِ، اعجَبُوا أنتم من كُفرهِ.

ثم بيَّن مِن أمرهِ ما كان ينبغي معه أن يُعلمَ أنَّ اللهَ خالقُهُ، فقال تعالى: ﴿ مِن أى شَىء خَلَقَهُ ﴾، لفظُ استفهامٍ، ومعناهُ: التقريرُ، ثم فسَّرَ ذلك فقالَ تعالى: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾؛ أي من مَاءٍ مَهين حقيرٍ خلَقَهُ فصوَّرَهُ في رحمِ أمِّه على الاستواءِ باليدَين والرِّجلَين وسائرِ الأعضاء، ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ﴾؛ على ما يشاءُ من خلقهِ طَويلاً أو قصيراً؛ ذميماً أو حسَناً؛ ذكراً أو أنثى؛ شقيّاً أو سعيداً، وغيرِ ذلك من الأوصافِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ قال السديُّ ومقاتل: ((أخْرَجَهُ مِنَ الرَّحِمِ وَهَدَاهُ إلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَطْنِ أمِّهِ))[(٢)]. قال مجاهدُ: ((ثُمَّ يَسَّرَ لَهُ سَبيلَ الدِّين، وَمَكَّنَهُ مِنْ سُلُوكِهِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي أماتَهُ عند انقضاءِ أجَلهِ، وجعلَ له قَبراً يُوارَى فيه، أمرَ عبادَهُ أن يُوارُوه، ولم يجعلْهُ مِمَّن يُلقَى على الأرضِ كما تُلقَى البهائمُ، ثم أكرَمَهُ اللهُ بذلك، يقالُ: أقبَرْتُ فُلاناً إذا جعلتَ له قَبراً يُدفَنُ فيه، وقَبرتُهُ إذا دفنتَهُ، والقابرُ الدافنُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي إذا شاءَ بعثَهُ، وأحياهُ بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي حَقّاً لم يقضِ ما أمرَهُ اللهُ به، ولَمْ يُؤَدِّ حقَّهُ مع كمال نعمةِ الله عليه. ثم ذكرَ رزقَهُ ليعتَبر، فقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي ليتأمَّلِ الكافرُ في طعامهِ كيف خلقَهُ

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٥٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٦٣) عن السدي. وقاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٥٣.

اللهِ، وقدَّره سَبباً لحياتهِ، ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ قرأ أهلُ الكوفة ويعقوب (أنَّا) بالفتحِ على نيَّة تكريرِ الخافضِ، تقديرهُ: ولينظرْ إلى أنَّا صَبَبنا المطرَ من السَّماء صَبّاً، وقرأ الباقون بالكسرِ على الابتداء، والمطَرُ ينْزِلُ من السَّماء إلى السَّحاب صَبّاً، ثم ينْزلُ من السَّحاب إلى الأرضِ قطرةً قطرةً، ليكونَ أقربَ إلى النفعِ وأبعدَ من الضَّرر.

وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ أي صدَّعنا الأرضَ بالنَّباتِ، ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ يعني الحبوبَ كلَّها يُتغذى بها، ﴿ وَعِنَبًا ﴾ ؛ أي كَرْماً، ﴿ وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ للدواب، ﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ ؛ هو الذي يُعصرُ منه الزيتُ، وقال الحسنُ: ((الْقَضْبُ: الْعَلَفُ))[1]، ﴿ وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ جمعُ نَخلةٍ، ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ الحدائقُ: جمعُ الحديقةِ، وهو البستانُ الذي أحْدِقَ بالحيطان، والغُلْبُ: الشَّجَرُ العظامُ الغِلاَظُ، وَقِيْلَ: الغُلْبُ الملتفَّةُ بالأشجار بعضُها في بعضٍ، يقالُ: شجرةٌ غَلْبَاءُ إذا كانت عظيمةً غليظةً، ورجلٌ غَلْبٌ إذا كان غليظَ العُنقِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ يعني ألوانَ الفواكهِ، والأَبُّ: هو الْمَرْعَى والكلأُ الذي لم يزرعْهُ الناسُ مما يأكله الأنعامُ. وسُئل ابنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن الأب فقال: ((أيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي وَأيُّ أرْضٍ تُقِلُّنِي إذا قُلْتُ فِي كِتَاب اللهِ مَا لاَ أعْلَمُ))[3].

وعن أنسٍ ﷺ أنَّ عمرَ قرأ هذه الآيةَ فقال: ((عَرَفْنَا الْفَاكِهَةَ فَمَا الأَبُّ؟)) ثُمَّ قَالَ: ((هَذا لَعَمْرُو اللهِ التَّكَلُّفُ، وَمَا عَلَيْكَ يَا ابْنَ أمِّ عُمَرَ أنْ تَدْري مَا الأَبُّ)) ثُمَّ قَالُوا: اتَّبعوا ما بُيِّنَ لكم من هذا الكتاب وما لم يُبَيَّنْ فدَعوهُ[4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٧٤).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٢٢؛ قال القرطبي: (قال الكلبي: وكلُّ شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة، وما لم يُحَط عليه فليس بحديقة).

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٢١؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق ﷺ ...) وذكره.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٨٧) بأسانيد. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٤٢١؛=

وقال الحسنُ: ((الأَبُّ هُوَ الْحَشِيشُ وَمَا تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ))(١). وقال قتادةُ: ((أَمَّا الْفَاكِهَةُ فَلَكُمْ، وَأَمَّا الأَبُّ فَلأَنْعَامِكُمْ))(٢). وعن ابنِ عبَّاس قال: ((هُوَ مَا أَنْبَتَتِ الأَرْضُ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ))(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي خلقنا هذه الأشياءَ مَتاعاً لكم ولدوابكم لسدِّ خِلَّتِكُمْ وتتميم حاجتكم، وعن مجاهدٍ ﷺ في قولهِ تعالى (فَلْيَنْظُرِ الإنسَانُ إلَى طَعَامِهِ): ((يَعْنِي إلَى مَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ))(٤).

وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ لرجُل:[مَا طَعَامُكُمْ ؟] قَالَ: الْحَبُّ وَاللَّبَنُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [ثُمَّ يَصِيرُ إلَى مَاذا؟] قَالَ: إلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ، قَالَ: [فَإنَّ اللهَ ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنَ ابْنِ آدَمَ تَمْثِيلاً لِلدُّنْيَا](٥).

وقال أبو قُلابة: ((مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: يَا ابْنَ آدَمَ انْظُرْ إلَى مَا بَخِلْتَ بهِ إلَى مَا صَارَ)). وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ((أنَّ مَعْنَاهُ: فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إلَى أوَّلِ طَعَامِهِ ثُمَّ عَاقِبَتَهُ فَلْيَعْتَبِرْ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ يعني صَيْحَةَ القيامةِ تصُخُّ الأسماعَ التي تصمُّها لشدَّة الصَّيحةِ، والصاخَّةُ من أسماءِ القيامة، ثم بيَّن في أيِّ وقت تجيءُ فقال: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾

=قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والخطيب والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وصححه عن أنس أن عمر قرأ على المنبر) وذكره.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٩٦ و٢٨٢٠٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٩٥). وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٤٤٢ بهذا اللفظ؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر عن السدي).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٨٩).

(٤) في الدر المنثور: ج٨ ص٤٢٠؛ قال السيوطي:(أخرجه ابن المنذر عن عبدالله بن الزبير).

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٨ ص٢٩٩: الحديث (٨١٣٨). والإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٤٥٣. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٢٨٨؛ قال الهيثمي: (رجال الطبراني رجال الصحيح غير علي بن زيد بن جدعان وقد وثق).

لا يلتفتُ أحدٌ إلى أحدٍ منهم لعِظَمِ ما هم فيه، ومخافَةَ إن سألَهُ أحدٌ منهم يحملُ عنه شيئاً من عقابهِ ويُوَاشيهِ[١] بشيءٍ من ثوابه. وَقِيْلَ: يفرُّ منهم حَذراً من مطالبتِهم إياهُ بما بينهم من التَّبعاتِ والمظالِم. وَقِيْلَ: لعلمهِ بأنَّهم لا ينفعونَهُ.

وعن الحسنِ قال: ((أوَّلُ مَنْ يَفِرُّ مِنْ أبيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إبْرَاهِيمُ، وَيَفِرُّ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ أمِّهِ، وَيَفِرُّ لُوطٌ عليه السلام مِنْ زَوْجَتِهِ، وَنُوحٌ مِنْ إبْنِهِ كَنْعَانَ، وَهَابيلُ مِنْ أخِيهِ قَابيلَ))[٢] وَهَذا فِي أوْلِي الثَّوَاب مِنْ أهْلِ الْعِقَاب، وَفِي أهْلِ الْعِقَاب فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَأمَّا أهْلُ الثَّوَاب فِيمَا بَيْنَهُمْ فَلَيْسُوا كَذلِكَ، وَلَكِنْ يَسْألُونَ رَبَّهُمْ إلْحَاقَ ذُرِّيَّتِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي شأنٌ يَشغَلهُ عن الأقرباءِ ويصرفُه عنهم، عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فَكَيْفَ بالْعَوْرَاتِ ؟! فَقَالَ: [لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ][٣].

عن سودةَ أمِّ المؤمنين قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً] قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَاسَوْأتَاهُ يَنْظُرُ بَعْضُنَا إلَى بَعْضٍ ؟! قَالَ:[شُغِلَ النَّاسُ عَنْ ذلِكَ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي مضيئةٌ مُشرقة حسَنة فَرحة مُعجَبة، مسرورةٌ بما أكرمَها اللهُ تعالى به، وهي وجوهُ أهلِ الثواب، ﴿ ضَاحِكَةٌ ﴾ ؛ بالسُّرور، ﴿ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي فَرِحَةٌ بما تنالُ من اللهِ من الكرامةِ، ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي غُبار من البلاءِ وسوادٌ وكآبَةٌ، ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي يعلُوها ويغشاها كسُوفٌ وسوادٌ عند معايَنة النار، والقَتَرَةُ: سوادٌ كالدُّخان الأسودِ. ثم بيَّن مَن أهلُ هذه الوُجوهِ، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي الكفَرةُ باللهِ الكذبة على اللهِ، جمعُ كَاذِبٍ فَاجِرٍ.

آخر تفسير سورة (**عبس**) والحمد لله رب العالمين

(١) وشَى بهِ إلى السلطان وشايةً أي سَعى. مختار الصحاح: (وشى).
(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٢٥، وفيه اختلاف.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٢٠٣) وإسناده صحيح.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

سُورَةُ التَّكْوِيرِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسُمِائَةٍ وَثَلاَثَةٌ وَثَلاثُونَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَسَبْعٌ وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعَاذَهُ اللهُ أنْ يَفْضَحَهُ حِينَ تُنْشَرُ صَحِيفَتُهُ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي لُفَّتْ كما تُلَفُّ العمامةُ، يقال: كوَّرتُ العمامةَ على رأسِي أكُورُهَا وكَوَّرْتُهَا تَكْويراً إذا لففتُها، وقال الكلبيُّ ومقاتل: ((كُوِّرَتْ أيْ ذهَبَ ضَوءُهَا))[2]. وقال مجاهدُ: ((اضْمَحَلَّتْ))[3]. وقال المفسِّرون: تُجمَعُ الشمسُ بعضُها إلى بعض، ثم تُلَفُّ فيُرمَى بها في النار، ويقالُ: نعوذُ باللهِ من الْحَوْرِ بعدَ الكَوْرِ؛ أي من التشتُّتِ بعدَ الألفةِ، ومِن النُّقصان بعد الزِّيادةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي تساقَطت وتناثرَت، يقالُ: انكدرَ الطائرُ من الهواءِ إذا انقَضَّ، قال الكلبيُّ وعطاء:((تُمْطِرُ السَّمَاءُ يَوْمَئِذٍ نُجُوماً، فَلاَ يَبْقَى نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ إلاَّ وَقَعَ عَلَى الأَرْضِ)). وذلك أنَّ النجومَ كالقناديلِ معلَّقةٌ بسَلاسل من نورٍ بأيدي ملائكةٍ من نور، فإذا ماتَ الملائكةُ تساقَطت تلك السَّلاسل من أيدِيهم فتنكَدِرُ النجومُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي تسيرُ على وجهِ الأرض كما يسيرُ السَّحاب، فتصيرُ هَباءً مُنبَثّاً.

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٣٦، وإسناده ضعيف.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٥٥.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٢١٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ العِشَارُ: هي النُّوقُ الحواملُ إذا أتَتْ عليها عشرةُ أشهُرٍ وبقيَ شَهران، فهي أحسَنُ ما يكون في الإبلِ وأعزُّها على أهلِها، وليس يعطِلُها أهلُها إلاَّ في حالةِ الشدَّة العظيمةِ، واحدُها عِشْراً وليس في القيمةِ عِشَارٌ، ولكنْ هذا على وجهِ التَّمثيل حتى لو كان الرجلُ يومئذ عَشَّاراً لعطَّلها واشتغلَ بنفسهِ، ونظيرهُ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾(١)، ومعنى (عُطِّلَتْ) أي تُرِكَتْ هَملاً بلا راعٍ لِمَا جاءَهم من أهوالِ يوم القيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ الوحوشُ: جمعُ الوَحْشِ، وهو ما يأوي إلى الفَلَوَاتِ، وينفرُ عن الناسِ، وقولهُ تعالى(حُشِرَتْ) أي جُمعت حتى يَقْتَصَّ بعضُها من بعضٍ، وقال ابنُ عبَّاس: ((حَشْرُ الْبَهَائِمِ مَوْتُهَا))(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ قرأ أبو عمرو وابنُ كثير مخفَّفاً، وقرأ الباقون بالتشديد، ومعناه واحدٌ؛ أي وإذا البحارُ مُلِئَتْ وفُجِّرَ بعضُها في بعضٍ، ثم صُيِّرت بَحراً واحداً. وقال بعضُهم: أحمِيَتْ من قولهم: سَجَرْتُ التَّنورَ إذا أحميْتَهُ.

والمراد بالبحار على هذا القول بحَارٌ في جهنَّم تُملأ من الحميمِ لتعذيب أهلِ النار. وفي الحديثِ: [أنَّ اللهَ تَعَالَى يُفْنِي مَاءَ هَذِهِ الْبحَار](٣). كما رُوي أن البحارَ كلها تسيلُ حتى تبلغَ إلى الثور الذي على قَرنه الأرضون، فإذا بلغَته فتحَ فاهُ فابتلعَها كلَّها، فإذا وقعت المياهُ كلها في جوفهِ يَبست، فلا يُرى منها قطرةٌ بعدَ ذاك!

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي رُدَّت الأرواحُ إلى أجسادِها، فقُرنت كلُّ روحٍ إلى جسدِها، وسُئل عمر رضي الله عنه عن ذلكَ فقالَ: ((مَعْنَاهُ:

---

(١) الحج / ٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٢٣٣).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٢٤٦) عن قتادة قال: (ذهب ماؤها فلم يبق فيها قطرة).

يُقْرَنُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ مَعَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، وَيُقْرَنُ الرَّجُلُ السُّوءُ مَعَ الرَّجُلِ السُّوءِ فِي النَّار، فَذلِكَ تَزْوِيجُ النَّفْس))(١) ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾(٢) وقُرَناءَهُمْ.

وقال عطاءُ: زُوِّجَتْ نُفوسُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحُور الْعِين، وَقُرِنَتْ نُفُوسُ الْكُفَّار بالشَّيَاطِينِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾؛ قال الفرَّاءُ: ((سُئِلَتِ الْمَوْءُودَةُ فَقِيلَ لَهَا: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾)) ومعنى سُؤالها توبيخُ قاتِلها، لا يقولُ: قَتلتُ بغيرِ ذنبٍ. والموءودَةُ: المقتولَةُ بثِقَلِ التُّراب الذي يطرحُ عليها، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾(٤) أي لا يثقُل حفظُ عليه السَّموات والأرض، وكانت العربُ تَئِدُ البناتِ من أولادها حيَّةً؛ كَيلا يُخطَبْنَ إليهم، ومخافةَ الإملاقِ كما قالَ تعالى ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاَقٍ﴾(٥).

قال المفسِّرون: هي الْمَوْءودَةُ المقتولَةُ المدفونَةُ حيَّةً، سُميت بذلك لما يطرحُ عليها من التُّراب فيَؤُودهَا؛ أي يُثقِلُها حتى تموتَ، قالوا: وكان الرجلُ من العرب إذا وُلِدت له بنتٌ، فإذا أرادَ أنْ يستبقيها ألبسَها جُبَّة من صُوفٍ ترعَى له الإبلَ والغنمَ، وإذا أرادَ أن يقتُلَها تركَها حتى إذا صارت سُداسيَّةً ثم يقولُ لأمِّها: طَيِّبيهَا وزَيِّنيها حتى أذهبَ بها إلى بيتِ أقَاربها، وقد حفرَ لها بئراً في الصَّحراء، فإذا بلغَ البئرَ قال لها: انظُري إلى هذا البئرِ فيدفعُها من خلفِها في البئرِ، ثم يُهِيلُ عليها الترابَ حتى يُسوِّيَها بالأرضِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٢٥٢) موقوفاً عن عمر ﷺ. وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٩١٦١). وفي أصل المخطوط: سقط منه (مع الرجل الصالح) و(مع الرجل السُّوء). وضبطناه كما في جامع البيان.

(٢) الصافات / ٢٢.

(٣) النساء / ٣٨.

(٤) البقرة / ٢٥٥.

(٥) الإسراء / ٣١.

قال قتادةُ: ((كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمُ ابْنَتَهُ وَيَغْذُو كَلْبَهُ))[١]. ويجوز أنْ يكون معنى سُئِلَتْ: طَلَبَتْ من قاتِلها لِمَ قتلَها كما تقولُ: سألتُ حقِّي من فلانٍ إذا أخذتُهُ وطلبتَ حقَّكَ منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أرادَ به ديوانَ الحسناتِ والسيِّئات، وذلك أنَّهُ إذا ماتَ ابنُ آدمَ طُويت صَحيفتهُ على مقدار عمله، فإذا كان يومُ القيامةِ نُشِرَتْ وأعطِيَ كلُّ واحدٍ منهم صحيفتَهُ على مراتبهم، فينبغي لكلِّ عاقلٍ أن يذكُرَ حالةَ الطَّيِّ في آخرِ عُمره، وحالةَ النشرِ يومَ القيامةِ، ويجتهدُ أن يَملِي صحيفتَهُ في حياتهِ من الطَّاعاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي نُزعت عن أماكنِها فطُويَتْ كما يُكشَطُ الغطاءُ عن الشَّيءِ، وقال الزجَّاجُ: ((قُلِعَتْ كَمَا يُقْلَعُ السَّقْفُ))، ومعنى الكَشْطِ رفعُ الشيءِ عن شيءٍ قد غطَّاهُ، كما يُكشَطُ الجلدُ عن الشَّاةِ. وفي قراءةِ ابن مسعودٍ (قُشِطَتْ) بالقافِ، والمعنى واحدٌ[٢]. ويقالُ: معنى الكشطِ أن ينْزَعَ عنها ما فيها من الشَّمسِ والقمرِ والنجومِ، يقال كَشَطْتُ الحرفَ عن البياضِ إذا قَلَعْتُهُ ومَحوتُه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي أُوقِدَتْ للكافرين والمنافقين، قرأ نافعُ بالتشديدِ؛ أي أُوقِدَتْ مرَّةً بعد مرَّةٍ، وزيدَ في وقُودِها وشدَّة لَهبها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي أُدْنِيَتْ من المتَّقين وقُرِّبت لهم، ودنَا دخولُهم إياها، كما قالَ في آيةٍ أخرى ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣] ومن ذلك الْمُزْدَلِفَةُ لِقُربها من عرفات.

وقولهُ تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾؛ جوابهُ هذه الأشياء، يقولُ: إذا كانت هذه الأشياءُ التي تكون في القيامةِ عَلمت ذلك الوقت كلُّ نفسٍ ما أحضَرتْهُ من خيرٍ أو شرٍّ تُجزَى بهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٢٦٣).

(٢) نقله الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٢٦٨).

(٣) ق ~/ ٣١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ﴾؛ معناه أقسِمُ بربِ الْخُنَّس، و(لاَ) في هذا الموضعِ مؤكِّدَةٌ زائدةٌ، وقوله تعالى: ﴿ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي الجاريةُ في الأفلاكِ، وتَخْنُسُ في مَجراها؛ أي ترجعُ إلى مَطالعِها في سَيرها، ثم تستَتِرُ عند غُروبها، فتغيبُ في المواضعِ التي تغيبُ فيها كما تُكنِسُ الظِّبَاءُ بأن تستترَ في كناسِها.

والْخَنسُ: هو التأخُّر، ومنه الْخَنسُ في الأنفِ تَأخُّرهُ في الوجهِ، يقال: رجلٌ أخْنَسُ والمرأة خَنْسَاءٌ، وسُمي الأَخْنَسُ بن شَريف بهذا الاسم لتأخُّره عن يومِ بدر عن أصحابهِ. ومنه الْخَنَّاسُ وهو الشيطانُ؛ لأنه يغيبُ عن أعيُنِ الناسِ. والْخُنَّسُ: جمعُ خَانِسٍ، وهي النجومُ الخمسة: زُحَلُ والمشتري والمرِّيخُ والزُّهرة وعطاردُ، تجري في الأفلاكِ وتَخْنُسُ في مجرَاها؛ أي ترجعُ إلى مجرَاها في سيرها.

ورُوي: أنَّ رَجُلاً مِنْ خَثْعَمَ جَاءَ إلَى عَلِيٍّ ﷺ فَقَالَ: يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا الْخُنَّسُ ؟ قَالَ: ((ألَسْتَ رَجُلاً عَرَبِيّاً ؟!)) قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ أكْرَهُ أنْ أفَسِّرَ الْقُرْآنَ عَلَى غَيْرِ مَا أنْزلَ؟، فَقَالَ: ((الْخُنَّسُ هِيَ النُّجُومُ الْخَمْسَةُ: الزُّهْرَةُ وَالْمُشْتَرِي وَبَهْرَامُ[1] وَعَطَاردُ وَزُحَلُ)).

فَقَالَ: مَا الْكُنَّسُ ؟ قَالَ: ((مُسْتَقَرُّهُنَّ إذا انْقَبَضْنَ، وَهُنَّ الْجَوَاري تَخْنُسُ خُنُوسَ الْقَمَرِ، يَرْجِعْنَ وَرَاءَهُنَّ وَلاَ يَقْدُمْنَ كَمَا يَقْدُمُ النُّجُومُ، وَلَيْسَ مِنْ نَجْمٍ غَيْرُهُنَّ إلاَّ يَطْلُعُ، ثُمَّ يَجْرِي حَتَّى يَقْطَعَ الْمَجَرَّةَ))[2]. وَقِيْلَ: معنى خُنُوسِها أنّها تستترُ بالنَّهار فتخفَى، وتنكسُ في وقت غُروبها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي إذا أقبلَ بظَلامهِ، وَقِيْلَ: إذا أدبرَ بظَلامهِ. والعَسُّ: طلبُ الشَّيء بالليلِ، ومنه العَسَسُ، ويقالُ: عَسْعَسَ الليلُ إذا أقبلَ، وعَسْعَسَ إذا أدبرَ، وهو مِن الأضدادِ، إلاَّ أنَّ ما بعدَ هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ المرادَ بهِ أدبرَ، وهو قوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي إذا امتدَّ

---

(١) بهرام: هو المريخ.

(٢) لم أقف عليه بنصه، وبمعناه نقل القرطبي في الآثار (٢٨٢٧٢و٢٨٢٧٣) عن علي ﷺ.

ضَوؤهُ حتى يصيرَ نَهاراً بيِّناً، ومنه تنفُّسَ الصُّعَدَاءَ، ومنه امتدادُ نَفَسِ الخوفِ بالخروج من الأنفِ والفمِ.

ثم ذكرَ جوابَ القسَمِ فقال:

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ﴾؛ يعني القرآنَ أتى به جبريلُ عليه السلام من عندِ الله وهو رسولٌ كريمٌ، فقرأهُ على رسول الله ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ يعني جبريلَ عليه السلام ذي قوَّة فيما كُلِّفَ وأُمِرَ به، ومن قوَّته أنه قَلَبَ قُرى قومِ لوطٍ وهي أربعُ مدائنَ، في كلِّ مدينةٍ أربعمائة ألف مُقاتل سِوَى الذراري، فحمَلَهم من الأرضِ السُّفلى بقوادِمِ جناحهِ، ورفعَها إلى السَّماء حتى سَمِعَ أهلُ السَّماء أصواتَ الدَّجاجِ ونباحَ الكلاب، ثم قلبَها بأمرِ الله فهَوَتْ بهم، كلُّ هذا من غيرِ كُلفةٍ لَحِقَتْهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) عند خالقِ العرش ومالكِه، وَحَيْثُهُ رفيعُ القدر، يقالُ: فلانٌ مَكِينٌ عند الأمين؛ أي ذُو قدرٍ ومَنْزلَةٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي مُطاعٍ في السَّموات، يطيعهُ أهلُ السَّموات بأمرِ الله تعالى، يقالُ: فرضَ طاعتَهُ على أهلِ السَّماء كما فرضَ طاعةَ النبيِّ ﷺ في الأرضِ على أهلِ الأرض. وقوله (أمِينٍ) أي فيما يؤدِّي عن اللهِ إلى أنبيائهِ عليهم السَّلامُ، حَقِيقٌ بالأمانةِ فيه، لم يَخُنْ ولم يَخُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ يعني محمداً ﷺ والخطابُ لأهلِ مكَّة، وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ مُحَمَّداً مَجنونٌ، فأقسمَ اللهُ تعالى أنَّ القرآنَ نزلَ به جبريلُ، وأنَّ مُحَمَّداً ليس بمجنونٍ كما قالوهُ، وفي هذا بيانُ غايةِ جهلِ قريش حيث نسَبُوا أعقلَ خلقِ الله إلى الجنونِ. والمجنونُ في اللغة: هو المغطَّى على عقلهِ لآفةٍ نزَلت بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي ولقد رأى مُحَمَّدٌ جبريلَ بالأُفق الأعلَى وهو مَطلعُ الشَّمسِ الذي يجيءُ منه النهار، وقد تقدَّم في سورةِ النَّجم: أنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام كَانَ يَأْتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي صُورَةِ دَحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، وَأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا إلاَّ مَرَّتَيْنِ.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ: [إنِّي أُحِبُّ أَنْ أَرَاكَ فِي صُورَتِكَ الَّتِي تَكُونُ عَلَيْهَا فِي السَّمَاءِ] قَالَ: لَنْ تَقْوَى عَلَى ذلِكَ، قَالَ: [بَلَى] قَالَ: أَيْنَ تَشَاءُ أَتَخَيَّلُ لَكَ، قَالَ: [بالأَبْطَحِ] قَالَ: لَنْ يَسَعَنِي، قَالَ: [بمِنَى] قالَ: لاَ يَسَعُنِي، قَالَ: [بعَرَفَاتٍ] قَالَ: فَهَبَطَ جِبْرِيلُ بعَرَفَات بخَشْخَشَةٍ وكَلْكَلَةٍ[(١)] قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِق وَالْمَغْرِب، وَرَأْسُهُ فِي السَّمَاءِ وَرِجْلاَهُ فِي الأَرْضِ، فَخَرَّ النَّبِيُّ ﷺ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ، فَتَحَوَّلَ جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ دَحْيَةَ وَضَمَّهُ إلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ لاَ تَخَفْ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَ إسْرَافِيلَ وَرَأْسُهُ تَحْتَ الْعَرْشِ وَرِجْلاَهُ فِي التُّخُومِ السَّابعَةِ وَالْعَرْشُ عَلَى كَاهِلِهِ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ قال بعضهم: أرادَ به جبريلَ ليس بمُتَّهَمٍ على تبليغِ الوحي والرسالة ولا تخيُّل، بل هو صادقٌ موثوق به. وقال بعضُهم: أرادَ به النبيَّ ﷺ، والمرادُ بقوله (عَلَى الْغَيْب) أي على الوحي، وقرأ الحسنُ والأعمش وعاصم وحمزة ونافعُ وابن عامر (بضَنِينٍ) بالضادِ، وكذلك هو في مُصحَفِ أُبَيٍّ بن كعبٍ، ومعناهُ: وما هو على الغيب ببَخِيلٍ، لا يبخَلُ عليكم، بل يُعلِّمُكم وتُخبرُكم به، تقول العربُ: ضَنِنْتُ بالشَّي بكسرِ النونِ فأنا به ضَنِينٌ؛ أي بخيلٌ، قال الشاعرُ[(٣)]:

أجُودُ بمَضْنُونِ التِّلاَدِ وَإنَّنِي ... بسِرِّكَ عَمَّنْ سَألَنِي لَضَنِينُ

وقرأ الباقون بالظَّاء، وهي قراءةُ ابن مسعود وعروة بن الزُّبير وعمرَ بن عبدالعزيز، ومعناهُ: (بمُتَّهَمٍ)، والْمَظَنَّةُ التُّهمَةُ[(٤)].

---

(١) في المخطوط: (كبكبة).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٤١؛ قال: (وحكى الثعلبي عن ابن عباس). وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٤٢. ومقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٥٧.

(٣) قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي(ت٢ق.هـ). وعند القرطبي في الجامع لأحكام القرآن:
أجُودُ بمَكْنُونِ الْحَدِيثِ وَإنَّنِي ... بسِرِّكَ عَمَّنْ سَألَنِي لَضَنِينُ

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٣٢٠) عن ابن عباس، و(٢٨٣٢١) عن ابن جبير، و(٢٨٣٢٢) عن إبراهيم، و(٢٨٣٢٣) عن الضحاك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ هذا ردٌّ على الكفَّار، فإنَّهم كانوا يزعُمون أنَّ النبيَّ ﷺ يأتيه شيطانٌ اسمه الرَّئِيُ يتزَيَّا له فيُلقيه على لسانهِ. والرَّجِيمُ: اللعينُ الْمَرْجُومُ بالشُّهب. أو المعنى: وما القرآنُ بقول شيطان رجيم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ خطابٌ لكفَّار مكة يقولُ: أيَّ طريقٍ تسلُكون أبْيَن من هذا الطريقِ الذي بُيِّنَ لكم، ويقولُ: أين تذهَبُون بقُلوبكم عن معرفةِ ما بيَّن اللهُ لكم من صحَّة نبوَّة النبي ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي ما القرآنُ إلاَّ عِظَةٌ بليغةٌ لجميعِ الخلق. وقوله تعالى: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي يتمسَّكَ بطريقةِ الإيمان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أعلمَ اللهُ أنَّ المشيئةَ والتوفيقَ والخذلان إليه تعالى، ولأنَّهم لا يعلَمُون شيئاً من الخيرِ والشرِّ إلاَّ بمشيئةِ الله.

وقد اختلَفُوا في تفسيرِ هذه الآية على قولَين، قال بعضُهم: هذا القرآنُ ذِكْرٌ لِمَن شاءَ اللهُ له أن يستقيمَ، وما تشاءون أن تستَقيموا إلاَّ أن يشاءَ اللهُ ذلك لكم. وقال بعضُهم: هذا ذِكرٌ عامٌّ للعالَمين، فمَن شاءَ أن يستقيمَ استقامَ.

آخر تفسير سورة (**التكوير**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الانْفِطَارِ

سُورَةُ الانْفِطَار مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثلاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ حَرْفاً، وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطَاهُ اللهُ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ كُلِّ قَطْرَةِ مَاءٍ حَسَنَةٍ، وَأصْلَحَ لَهُ شَأنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي انشقَّت وانقضَتْ. والانفطارُ والانصداعُ والانشقاق بمعنىً واحد. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي تساقَطت على وجهِ الأرض، ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي فُتِحَ بعضُها في بعضٍ، ورُفِعَ الحاجزُ بين العَذْبِ والملحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي مُحِيَتْ فانتَثرت وكشَفت عن الأمواتِ واستُخرِجَ ما فيها من الموتى، ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ ﴾ ؛ من عملٍ، ﴿ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي عندَ ذلك تعلمُ النَّفس ما قدَّمت وأخَّرت، هذا جوابُ الشَّرطِ، ويقالُ: ما قدَّمت من الطاعةِ والمعصية، وما أخَّرت من الحسَنة والسيِّئة. ويقالُ: ما قدَّمت وأسلَفت من الخطايَا، وسوَّفَت من التوبةِ. وَقِيْلَ: ما قدَّمت ((مِن)) الصدقات وأخَّرت مِن التَّركات.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ الخطابُ في هذه الآيةِ للكفَّار، والمرادُ بالإنسانِ كلدَةَ بنَ أسَيدٍ[2]، ويقالُ: الخطابُ للكفَّار

---

(١) تقدم وسيأتي من حديث أبي في فضائل السور، وإسناده ضعيف.

(٢) في تفسير مقاتل: ج ٣ ص٤٥٨؛ قال: (نزلت في أبي الأشد، اسمه أسيد بن كلَدَة،، وكان أعور شديد البطش، فقال: لئن أخذت بحلقة من باب الجنة ليدخلها بشرٌ كثير، ثم قتل يوم فتح مكة، يعني غرَّهُ الشيطان). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٤٥؛ قال القرطبي: (أبو الأشد بن=

والعاصين، يقال له يومئذٍ: بِمَ اغترَرْتَ وتشاغَلت عن طاعةِ الله وطلب مَرضاتهِ وهو الكريْمُ الصَّفُوحُ عن العبادِ، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ ﴾ ؛ خلقَكَ في بطنِ أمِّك باليدينِ والرِّجلَين وسائرِ الأعضاء لم يخلُقها متفاوتةً، ولو كان خلقُ إحدى رجليك أطولَ من الأُخرى لم تكمُلْ منفعتُكَ.

وعن رسول الله ﷺ: أنَّهُ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ فَقَالَ: (يَا أيُّهَا الإنْسَانُ مَا غَرَّكَ بربكَ الْكَرِيْمِ)؟ فَقَالَ: [جَهْلُهُ يَا رَبِّ][(1)]. وقال قتادةُ: ((غَرَّ الإنْسَانَ عَدُوُّهُ الْمُسَلَّطُ عَلَيْهِ))[(2)]. قيل للفُضَيلِ بن عِيَاضٍ: لَوْ أقَامَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: (مَا غَرَّكَ بربكَ الْكَرِيمِ) مَا كُنْتَ تَقُولُ ؟ فَقَالَ: ((أقُولُ: غَرَّنِي سُتُورُكَ الْمُرْخَاةُ))[(3)]. وقال مقاتلُ: ((غَرَّهُ عَفْوُ اللهِ حِينَ لَمْ يُعَجِّلْ عَلَيْهِ بِالْعُقُوبَةِ))[(4)]. وقال السديُّ: ((غَرَّهُ رِفْقُ اللهِ بِهِ))[(5)]، وقال يحيَى بنُ معاذٍ: ((لَوْ أقَامَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: مَا غَرَّكَ بِي؟ لَقُلْتُ: غَرَّنِي بكَ رِفْقُكَ بي[(6)] سَالِفاً وَآنِفاً)).

قال أهلُ الإشارة: إنَّما قالَ (بربكَ الْكَرِيمِ) دون سائرِ صِفاته، كأنَّهُ لَقَّنَهُ الإجابةَ حتَّى يقولَ: غَرَّنِي كَرَمُ الْكَرِيمِ. وعن ابنِ مسعودٍ قال: ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ سَيُقَالُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: (مَا غَرَّكَ بربكَ الْكَرِيمِ)؟ يَا ابْنَ آدَمَ مَاذا عَمِلْتَ؟ فِيمَا عَلِمْتَ؟ مَاذا أجَبْتَ الْمُرْسَلِينَ؟))[(7)]. وقال أبو بكرٍ الورَّاق: ((لَوْ قَالَ لِي: (مَا غَرَّكَ بربكَ

=كَلَدَة الْجُمْحِيُّ).

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٣٩؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي حاتم وابن المنذر عن عمر ﷺ) موقوفاً. وقال: (أخرجه عبد بن حميد عن صالح بن مسمار) مرسلاً.

(٢) قاله الطبري في جامع البيان، وأسنده بمعناه عن قتادة في الأثر (٢٨٣٣٧).

(٣) أخرجه أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٤٦. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٤٥.

(٤) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٤٦.

(٥) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٣٨٨؛ قال: (عن السدي).

(٦) في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٤٦؛ نقله الثعلبي بلفظ: (برُّكَ بي).

(٧) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٤٧. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٣٨٨. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٤٦.

الْكَرِيمِ)؟ لَقُلْتُ: غرَّنِي كَرَمُ الْكَرِيمِ))(١).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾؛ قـرأ أهلُ الكوفـة بتخفيـفِ الـدال؛ أي صرَفَك إلى أيِّ صُـورةٍ شـاءَ مـن الْحُسـنِ والقُبـحِ والطـولِ والقِصَـرِ، وقـرأ البـاقون بالتشديدِ؛ أي قوَّمَ خَلْقَكَ، معتدلُ الخلق معتدلُ القامةِ في أحسنِ صُورةٍ، كما في قولـهِ تعالى ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(٢). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾ أي في شَبَهِ أبٍ أو أمٍّ أو خالٍ أو عمٍّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ ﴾؛ (كَـلاَّ) كلمـةُ رَدْعٍ، ومعناها لاَ تَغْتَرَّ بغيرِ الله تعالى فتترُكَ عبادةَ اللهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: حَقّاً إنَّكم لا تَسـتَقِيمُونَ على ما توجبهُ نِعمَتِي عليكم، بل تكذِّبون بالإسلامِ مع هذه النِّعم. ويقالُ: أراد بالدِّين هٰهنا يومَ الحساب والجزاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ ﴾؛ ابتداءُ إخبارٍ من اللهِ، معناهُ: وإنَّ عليكم رُقباءَ يحفَظون أعمالَكم وأفعالَكم وهم الملائكـةُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ ﴾؛ أي كِراماً على اللهِ كاتبِين يكتُبون أقوالَكم وأفعالَكم، قال رسـولُ اللهِ ﷺ: [مَا مِنْ أحَدٍ يَأْوِي إلَى مَضْجَعِهِ إلاَّ شَكَتْ أعْضَاؤُهُ إلَى اللهِ تَعَالَى مِمَّا يَجْنِي عَلَيْهَا الإنْسَانُ]، وإنما قالَ كِراماً على اللهِ ليكون أدعَى إلى احترامِهم وإلى الامتناعِ عن فعلِ ما يُؤْذيهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ ﴾؛ في الظاهرِ دون البـاطنِ، يعـني يعلَمون ما تفعلون دون ما تعتقِدون، قال ابـنُ مسـعود: ((يَكْتُبُـونَ كُـلَّ شَـيْءٍ حَتَّـى الأَنِينَ)) ونظيرهُ قولهُ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾(٣).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ ﴾؛ أرادَ بالأبرار الصَّادقين في إيمانِهم، وأراد بالفُجَّار الكفارَ. وَقِيْـلَ: أرادَ بـالأبرار عُمَّـال الإحسانِ من المؤمنين، وبالفُجَّار عُمال الإساءةِ من الفُسَّاق.

---

(١) ينظر: المصدر السابق. (٢) التين / ٤.

(٣) القمر / ٥٣ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي يدخلونها يومَ الحساب والجزاءِ، ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾؛ إلى أن يقضيَ اللهُ بإخراجِ مَن كان فيها من أهلِ التوحيد، وأمَّا الكفارُ فلا يغيبُون عنها أبداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي ما أعلَمَك يا مُحَمَّدُ ما فِي ذلك اليوم من الشَّدائد على الكفار، ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ ﴾، ثم ما أعلَمَك ما فيهِ من النَّعيم للأبرار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾؛ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو برفعِ الميم نعتاً لقولهِ تعالى (يَوْمُ الدِّين) أو بدلاً منه، وقرأ الباقون بالنصب على الظرفِ؛ أي في يومٍ، ومعناهُ: لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ؛ أي لا يملكُ آخرُ لآخرٍ نفعاً ولا ضَرّاً؛ لأنَّ الأمرَ يومئذ للهِ، ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾؛ دون غيرهِ.

آخر تفسير سورة (**الانفطار**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعُمِائَةٍ وَثَلاَثُونَ حَرْفاً[1]. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُنْزِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ فِي مُهَاجَرِهِ إلَى الْمَدِينَةِ. وَقِيْلَ: كُلُّهَا مَدَنِيَّةٌ إلاَّ ثَمَانِي آيَاتٍ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إنَّ الَّذِينَ أجْرَمُوا...﴾ إلَى آخِرِ السُّورَةِ[2]. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا أسْقَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ][3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾ ؛ يعني الذين يُنقِصُونَ الناسَ، ويَبخَسُونَ حقوقَهم في الكَيْلِ والوزن. والويلُ: الشدَّةُ في العذاب، وهي كلمةٌ تُستَعْمَلُ لكلِّ مَن وقعَ في الْهَلَكَةِ. وههنا رُفع بالابتداءِ وخبرهُ (لِّلْمُطَفِّفِينَ). والتَّطْفِيفُ: التَّنقيصُ في الكيلِ والوزن، والطَّفيفُ: الشيء القليلُ، وإناءٌ طَفْآنٌ إذا لم يكن مَلآن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ ﴾ ، يعني إذا اكتَالوا من الناسِ و(على) و (من) يتعاقَبان. والمعنى: إذا أخَذُوا من الناسِ حُقوقَهم أخذوهُ على الوفاءِ، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾ ؛ وإذا كَالُوا للناسَ أو وزَنوا لهم يُنقِصُون في الكيلِ والوزنِ.

والإخْسَارُ والْخَسَارُ بمعنىً واحد. واطلاقُ لفظ المطلَقِ لا يتناولُ إلاَّ مَن يتفاحشُ منه التطفيفُ، بحيث لو وقعَ ذلك المقدارُ في التفاوُتِ بين الكيلَين العَدلَين

---

(١) هكذا في المخطوط، وهو على غير عادته، وكما نقله الثعلبي في الكشف والبيان:ج١٠ ص١٤٩؛ قال: (ومائة وستون كلمة، وست وثلاثون آية).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٥٥٠ عزاه القرطبي إلى مقاتل؛ قال: (هي أول سورة نزلت بالمدينة).

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٤٩، وإسناده واهٍ.

لزادَ عليه، وأما الإيفاءُ بين الناس فإنَّهم يجتَهدون في استيفاء حقوقِهم أن يكـون ذلـك أميلَ إلى الرُّجْحان، كما رُوي: [أنَّ النبيَّ ﷺ قَضَى دَيْنَهُ فَأَرْجَحَ] فَقِيلَ لَهُ فِي ذلِـكَ فَقَالَ: [إنَّا كَذلِكَ نَزِنُ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ ﴾؛ معناهُ ألاَ يستيقنُ أولئكَ أنَّهم مبعُوثون، وفيه بيانُ أنَّ التطفيفَ ليس يفعلهُ مَن يعلمُ أنه مبعوثٌ للحساب ليومٍ عظيم وهو يومُ القيامةِ، كأنه قالَ: لو علِمُوا أنَّهم مبعُوثون مـا نقَصُوا في الكيلِ والوزن، وكان الحسنُ يقول: ((نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الْمُوَحِّدِينَ، وَمَـا آمَنَ بيَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ طَفَّفَ فِي الْمِيزَانِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾؛ فيه بيانُ صفةِ ذلك اليوم، قال الكلبيُّ: ((يَقُومُونَ مِقْدَارَ ثَلاَثمِائَةِ سَنَةٍ لاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَـذِرُوا))[(٢)]. وعـن رسول الله ﷺ قالَ: [يَقُومُ النَّاسُ لِرَب الْعَالَمِينَ حَتَّى أنَّ أحَدَهُمْ لَيَغِيبُ فِـي رَشْـحِهِ إلَىأنْصَافِ أذُنَيْهِ، وَحَتَّى يَقُولَ الْكَافِرُ: رَب أرحْنِي وَلَوْ إلَى النَّار][(٣)].

وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قالَ: [خَمْسٌ بخَمْسٍ] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا خَمْسٌ بخَمْسٍ؟ قَالَ: [مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَمَا حَكَمُوا بغَيْرِ مَـا أنْزَلَ اللهُ إلاَّ فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ، وَمَا ظَهَرَتِ فِيهِم الْفَاحِشَـةُ إلاَّ فَشَـا فِيـهِمُ الْمَـوْتُ، وَلاَ طَفَّفُوا الْكَيلَ إلاَّ مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأخِذُوا بالسِّنِينِ، وَلاَ مَنَعُوا الزَّكَاةَ إلاَّ حَبَسَ اللهُ عَنْـهُمُ الْقَطْرَ][(٤)].

---

(١) عن جابر بن عبدالله؛ قال: قال رسول الله ﷺ [إذَا وَزَنْتُمْ فَأرْجِحُوا]. أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب التجارات: باب الرجحان في الوزن: الحديث (٢٢٢٢).

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٣٥٥) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لبشير الغفاري: [كَيْفَ أنْتَ صَانِعٌ فِي يَوْمٍ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ مِقْدَارَ ثَلاَثَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ أيَّامِ الدُّنْيَا]. وفي الأثر (٢٨٣٥٨) عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٣٥٢) عن ابن عمر بأسانيد.والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٩٣٨).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٣٨: الحديـث (١٠٩٩٢). وفي مجمـع الزوائـد: =

وعن مالكِ بن دينار قالَ: ((دَخَلْتُ عَلَى جَارٍ لِي، وَقَدْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: جَبَلَيْنِ مِنْ نَار جَبَلَيْنِ مِنْ نَار، قُلْتُ: مَا تَقُولُ ؟! قَالَ: يَا أَبَا يَحْيَى كَانَ لِي مِكْيَالاَن أكِيلُ بأَحَدِهِمَا وَأَكْتَالُ بالآخَر، قَالَ: فَقُمْتُ فَجَعَلْتُ أضْربُ أحَدَهُمَا بالآخَر، فَقَالَ: يَا أَبَا يَحْيَى كُلَّمَا ضَرَبْتَ أحَدَهُمَا بالآخَرِ ازْدَادَ عَلَيَّ عِظَماً، قَالَ: فَمَاتَ فِي مَرَضِهِ ذلِكَ))(١).

وقال عكرمةُ: ((اشْهَدُوا عَلَى كُلِّ كَيَّالٍ وَوَزَّان أنَّهُ فِي النَّار))، قِيلَ: إنَّ ابْنَكَ كَيَّالٌ أوْ وَزَّانٌ، قَالَ: ((اشْهَدُوا أنَّهُ فِي النَّار)). وكان ابنُ عمرَ يَمُرُّ بالْبَائِعِ فَيَقُولُ لَهُ: ((اتَّقِ اللهَ وَأوْفِ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بالْقِسْطِ؛ فَإنَّ الْمُطَفِّفِينَ يُوقَفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى أنَّ الْعَرَقَ لَيُلْجِمُهُمْ إلَى أنْصَافِ آذانِهِمْ))(٢). ومرَّ عَلِيٌّ ﷺ عَلَى رَجُلٍ يَزِنُ الزَّعْفَرَانَ فَقَالَ:((أقِمِ الْوَزْنَ بالْقِسْطِ، ثُمَّ أرْجِحْ بَعْدَ ذلِكَ مَا شِئْتَ))(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي ليس الأمرُ على ما يظُنون أنَّهم لا يُبعثون ليوم عظيم، وَقِيْلَ: إن (كَلاَّ) هاهنا كلمةُ ردعٍ وزَجرٍ؛ أي ارتَدِعوا عن التطفيفِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّ كِتَابَ الفُجَّار لَفِي سِجِّين) يعني الكتابَ الذي يُكتَبُ فيه أعمالُهم، قال ابنُ عبَّاس: ((السِّجِّينُ صَخْرَةٌ سَوْدَاءُ تَحْتَ الأَرْضِ السَّابعَةِ، وَهِيَ الَّتِي عَلَيْهَا الأَرْضُونَ، مَكْتُوبٌ فِيهَا عَمَلُ الْفُجَّار)). عن رسولِ الله ﷺ أنَّهُ قالَ: [سِجِّينُ جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ مَفْتُوحٌ، وَالْفَلَقُ جُبٌّ فِي النَّار مُغَطًّى](٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ تعجُّبٌ للنبيِّ ﷺ يقولُ: ليس ذلك مما تعلَمهُ أنتَ ولا قومُكَ؛ لأنَّكم لم تعاينوهُ، ثم فسَّرهُ فقال: ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي مُثْبَتٌ عليهم في تلك الصَّخرة كالرَّقمِ في الثوب لا يُنسَى ولا

=ج ٣ ص٦٥؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير وفيه إسحق بن عبدالله المروزي لينه الحاكم وبقية رجاله موثوقون وفيهم كلام).

(١) ذكر القرطبي القصة أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٥٣.

(٢) نقله الثعلبي عن نافع عن ابن عمر، كما في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٥١.

(٣) هذه الآثار ذكرها الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٥٠-١٥١. والقرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٥٣.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٣٧١) عن أبي هريرة.

يُمحَا حتى يُجَازُونَ به، ومعنى الرَّقمِ على هذا القولِ هو الطَّبعُ في الحجَرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾؛ يعني الوليدَ بن المغيرةِ، ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا ﴾، كان إذا قُرئَ عليه القرآنُ، ﴿ قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أحاديثُهم وأباطيلهم التي سطَّرُوها في الكُتب، وهذه الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ كافرٍ يقول مثلَ مقالتهِ، والمعتدِي هو المتجاوزُ عن الحدِّ في المعصيةِ، والأثيمُ كثيرُ الإثمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي حَاشَا أن يكون القرآنُ أساطيرَ الأوَّلين، بل غلبَ على قُلوبهم ما كانوا يكسِبُون من الكُفرِ والمعصيةِ، يقالُ: رَانَتِ الخمرُ على عقلهِ إذا سَكِرَ فغلبَتْ على عقلهِ، ويقالُ في معنى الرَّيْنِ: إنَّه كثرةُ الذُّنوب كالصَّدى يغشَى على القلب، وقال الحسنُ: ((هُوَ الذنْبُ عَلَى الذنْب حَتَّى يَمُوتَ الْقَلْبُ))(١). وقال مجاهدُ:((هُوَ الطَّبْعُ))(٢).

وفي الحديثِ عن رسول اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: [الْمُؤْمِنُ إذا اَخْطَأَ خَطِيئَةً كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ مِنْهَا، وَإنْ لَمْ يَتُبْ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فِي الرَّيْنِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِي كِتَابهِ (بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)](٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي حقّاً إنَّهم عن رحمةِ ربهم وكرامتهِ لَممنُوعون؛ ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي أنَّهم مع كونِهم مَمنوعون عن الجنَّةِ ونعيمها، يدخُلون الجحيمَ غيرَ خارجين منها أبداً، ﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾؛ لهم على وجهِ التَّقريع على طريقِ الذمِّ، ﴿ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ في الدُّنيا. وَقِيْلَ: معناه محجُوبون عن رؤيةِ اللهِ تعالى.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٣٨١) بإسنادين.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٣٨٣) مطولاً وبأسانيد، وفي الأثر (٢٨٣٨٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٣٨٠) عن أبي هريرة ﷺ بأسانيد. والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٩٧. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٣٣٤)، وقال: حديث حسن صحيح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي حَقّاً إنَّ عملَ الأبرار وهم الصَّادقون في إيمانِهم لمكتوبٌ في أعلىَ الأمكِنة فوقَ السَّماء السابعة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ تعجيبٌ للنبيِّ ﷺ بأنَّ ذلك غيرُ معلومٍ وسيعرفهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ تفسيرٌ للكتابِ الذي في علِّيين إعظاماً لذلكَ الكتاب وتشريفاً، وفي إعظامِ كتاب المرءِ إعظاماً له.

وقال قتادةُ: ((عِلِّيُّونَ قَائِمَةٌ بالْعَرْشِ الْيُمْنَى))(١)، وقال مقاتلُ: ((سَاقُ الْعَرْشِ إلَيْهِ تُرْفَعُ أرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ))(٢). وَقِيْلَ: إنَّ العلِّيِّين جمعُ العِلِّيَّةِ، وهي المرتبةُ العاليةُ مَحْفُوفَةٌ بالجلالةِ. وقال بعضُهم: معناهُ: عُلُوٌّ في عُلُوٌّ مضاعفٍ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي يحضرهُ السَّبعة أملاكِ الذين ذكرناهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي في نعيمٍ دائمٍ وهو نعيمُ الجنَّة، ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي على السُّرُر من الدُّرِّ والياقوتِ في القِبَاب المضروبةِ ينظُرون إلى نعيم الجنَّة. وَقِيْلَ: إلى أعدائِهم كيف يُعذبون. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي بريقُ النعيم ونورهُ ونظارتهُ وبَهجته وحُسنه، ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ ؛ أي خمرٌ صافية خالصة من الغشِّ بيضاءُ مختومة بالمسكِ، قال قتادةُ: ((تُمْزَجُ لَهُمْ بالْكَافُور، وَتُخْتَمُ لَهُمْ بالْمِسْكِ))(٣). وَقِيْلَ: معناهُ: آخِرُ طعمهِ مِسكٌ.

وقرأ علقمةُ: (خَاتَمَهُ مِسْكٌ) أي آخرهُ، ويقال معناهُ: أنَّهم إذا شَربوا من ذلك الشَّراب الختمَ ذلك بطعمِ المسكِ ورائحته. ويقال: معنى المختومِ ههنا أنَّ ذلك الشرابَ في الآخرةِ هو مختومٌ بالمسكِ بدلَ الطِّين الذي يُختم بمثلهِ الشَّراب في الدُّنيا، فهو مختومٌ بالمسكِ يومَ خَلقهِ الله تعالى لا ينفَكُّ حتى يَدْخُلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، فينفكُّ ذلك لَهم تعظيماً لشرابهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٣٩٨).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٦٤.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٤١٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي في مثلِ هذا النعيمِ فليَرغب الرَّاغِبون وليجتهد المجتهدون، لا في النعيمِ الذي هو مكدَّرٌ لسُرعَةِ الفناءِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ومِزَاجُ الرَّحيقِ من عَينٍ تنْزلُ عليهم من ساقِ العرشِ، سُميت بذلك؛ لأنَّها تُسنَمُ عليهم، فتَنصَبُّ انصِباباً من فوقِهم في منازلهم، ومنهُ سَنَامُ البعيرِ لعُلوِّه من بدنهِ، وذلك الشَّراب إذا كان أعلاً كان أطيبَ وأهنأ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَيْنًا ﴾ ؛ منصوبٌ على الحال؛ أي في الحالِ التي تكون عَيناً لا ماءً رَاكداً. وَقِيْلَ: انتصبَ على تقديرِ يُسقَون عَيناً أو مِن عينٍ. وَقِيْلَ: على إضمار أعنِي عَيناً.

وقوله تعالى: ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ يشربُ بها أفاضلُ أهلِ الجنَّة صَرفاً بغيرِ مزاجٍ، ويشربُها سائرُ أهلِ الجنَّة بالمزاجِ، وَقِيْلَ: إنَّ الباءَ في قولهِ (بهَا) زائدةٌ كما في قوله ﴿تَنْبُتُ بالدُّهْنِ﴾[1]. وَقِيْلَ: إنَّ التسنيمَ عينٌ تجري في الهواءِ في أواني أهلِ الجنة على مقدار مائها، فإذا امتلأتْ أمسكَ الماءُ حتى لا يقعَ منه قطرةٌ على الأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين أشركوا وهم أبو جهلٍ، والوليدُ بن المغيرةِ، والعاصي بن وائلٍ وأصحابهُ من مُشركي مكَّة كانوا يضحَكون من ضَعَفَةِ أصحاب النبيِّ ﷺ، وهم بلالٌ وصُهيب وعمَّار وسَلمان، كانوا يستَهزئون بهم ويعيِّرونهم على الإسلام، ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ ﴾ ؛ أي مرَّ بهم أحدٌ من أصحاب رسول اللهِ ﷺ وهم جلوسٌ، ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ بالطَّرْفِ طَعناً عليهم.

وكانوا يقُولون: انظُروا إلى هؤلاءِ الذين ترَكُوا شهوتِهم في الدُّنيا يطلُبون بذلك نعيمَ الآخرةِ بزَعمِهم، ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ، وكانوا إذا رجَعُوا إلى أهلِهم يرجِعُوا فاكِهين؛ أي ناعِمين فرِحين مُعجَبين بما هم فيه لا يُبالون

---

(١) المؤمنون / ٢٠.

بما فعَلوا بالمؤمنين، ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾، ويقولون إنَّهم ضالُّون باتِّباعِهم مُحَمَّداً ﷺ.

يقولُ الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ أي ما أرسِلَ الكفارُ ليحفَظُوا على المؤمنين أفعالَهم، فما لَهم وإيَّاهم؟ بل أرسَل المؤمنين ليحفَظُوا على الكفار أفعالَهم، فيشهَدُوا عليهم يومَ القيامةِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ معناهُ: يومَ القيامةِ الذين صدَّقوا بتوحيدِ الله، ونُبوَّة رسولِهِ يضحَكون من الكفَّار قَصاصاً وشَماتةً بهم كما ضَحِكَ الكفارُ منهم في الدُّنيا، ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي على السُّرر في الحِجَالِ جَالسون ينظُرون إلى أهلِ النار كيف يُعذبون.

وذلك أنَّهُ يُفْتَحُ بَيْنَهم وبين الكفَّار بابٌ إلى الجنَّة، فإذا نظرَ الكفَّارُ إلى ذلك الباب أقبَلوا نَحوَهُ يُسحَبون في النار، فإذا انتَهوا إلى الباب سُدَّ عنهم، فعند ذلك يضحكُ المؤمنون وهُم على الأرائِك في الدَّرجات، يقول يُطلعهم اللهُ على أهلِ النار الذين كانوا يسخَرون منهم في الدُّنيا، فيرونَهم في النار يَدُورون فيها وإنَّ جَماجِمَهم لتَغلي من حرِّ النار، فيقول المؤمنون: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي هل جُوزُوا على صنِيعهم واستهزائهم بنا، ويجوزُ أن يكون قَوْلُهُ تَعَالَى: (هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ) من قولِ الله؛ ومعناهُ: التحقيقُ، ومعنى ثُوِّبَ جُوزيَ.

آخر تفسير سورة (**المطففين**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ انْشَقَّتْ (الانْشِقَاق)

سُورَةُ الانْشِقَاق مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أرْبَعْمِائَةٍ وَثلاثُونَ حَرْفـاً، وَمِائَـةٌ وَتِسْـعُ كَلِمَـاتٍ، وَخَمْسٌ وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿إذا السَّمَاءُ انشَـقَّتْ﴾ أعَـاذَهُ اللهُ أنْ يُعْطِيَهُ كِتَابَهُ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ][(1)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ ﴾ ؛ وذلـكَ أنَّ أبَـا سَـلَمَةَ بْـنَ عَبْـدِ الأَسَـدِ الْمَخْزُومِيَّ وكَانَ مُسْلِماً، جَادَلَ أخَاهُ الأَسْوَدَ بْـنَ عَبْـدِ الأَسَـدِ فِـي الإسْـلاَمِ، وكَـانَ الأَسْوَدُ كَافِراً، فَأَخْبَرَهُ أبُو سَلَمَةَ بالْبَعْثِ، فَقَالَ لَهُ الأَسْوَدُ: وَيْحَكَ! أتَرَى أنِّي مُصَـدِّقٌ أئِذا كُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أنُبْعَثُ ؟ فَأَيْنَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ يَوْمَئِذٍ؟ وَمَا حَالُ النَّاسِ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ[(2)].

ومعنَاها: واذكُرْ إذا السَّماءُ انشقَّت لـنُزول الملائكـة وهَيبَـةِ الرَّحمـنِ، ﴿ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي سَمِعَتْ وأطَاعت لأَمرِ ربها بالانشـقاقِ، وحُـقَّ لهـا أن تُطيعَ ربَّها. يقالُ: أذِنْتُ للشَّيء إذا سمعتُ، وَأذِنْتُهُ إذا سَمِعتهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي بُسِـطَتْ بسْـطَ الأديـمِ العُكَاظِيِّ، فجُعِلَتْ كالصَّحيفة الملساءَ، لا يبقَى جبلٌ ولا بناءٌ ولا شَجرٌ إلاّ دخلت فيها، ﴿ وَأَلۡقَتۡ ﴾ ؛ الأرضُ، ﴿ مَا فِيهَا ﴾ ؛ من الأمواتِ، ﴿ وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ عن ذلك كما كانت من قبلُ، ﴿ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي سَمِعت وانقـادَتْ لأمرِ ربها، وحُقَّ لها أن تَسْمَعَ وتُطيعَ.

---

(١) رواه الثعلبي عن أبي ﷺ بإسناد ضعيف.

(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٦٤. وابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٩٦١.

وجوابُ (إذا) في هذه السُّورة محذوفٌ؛ تقديرهُ: رأى الإنسانُ عندَ ذلك ما قـدَّمَ من خيرٍ أو شرٍّ، وَقِيْلَ: جوابهُ: فَمُلاَقِيهِ، والمعنى: إذا كان يـومُ القيامـةِ لَقِـيَ الإنسـان كَدْحَهُ وهو عملهُ. وَقِيْلَ: جوابهُ: (يَا أَيُّـهَا الإنسَـانُ إنَّـكَ كَـادِحٌ إلَـى رَبِـكَ كَدْحـاً)؛ تقديرهُ: إذا السَّماء انشقَّت لَقِيَ كلُّ كادحٍ ما عَمِلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾، اختلَفُوا في الخطاب لِمَن هو، فروَى عبدُالله بن عِمرانَ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ثُـمَّ قَالَ: [أنَا ذلِكَ الإنْسَانُ، أنَا أوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ، فَـأَجْلِسُ جَالِسـاً فِي قَبْرِي، ثُمَّ يُفْتَحُ لِي بَابٌ إلَى السَّمَاءِ بحِيَال رَاسِي حَتَّى أنْظُرَ إلَى عَـرْشِ رَبـي، ثُـمَّ يُفْتَحُ لِي بَابٌ إلَى الأَرْضِ السُّفْلَى حَتَّى أنْظُرَ إلَى الثَّوْر وَالثَّرَى، ثُمَّ يُفْتَحُ لِي بَابٌ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أنْظُرَ إلَى الْجَنَّةِ وَإلَى مَنَازل أصْحَابي، وَأنَّ الأَرْضَ تَتَحَرَّكُ تَحْتِـي فَـأَقُولُ لَهَا: مَا لَكِ أيَّتُهَا الأَرْضُ ؟ فَتَقُولُ: إنَّ رَبي أمَرَني أنْ ألْقِيَ مَا فِي جَوْفِي وَأنْ أتَخَلَّـى، فَأكُونَ كَمَا كُنْتُ إذْ لاَ شَيْءَ فِيَّ][(١)].

والمعنَى على هذا القول: إنَّكَ عاملٌ لربِـكَ عَمـلاً فمُلاقـي ربَّـكَ ترجـعُ إليـه فيُجازيَك. وقال بعضُهم: الخطَابُ للمكذِّب بالبعثِ، وهو أُبَيُّ بـن خَلَـف الجمحـيُّ، والمعنى: إنَّكَ عاملٌ عَملاً في كُفرك، فترَدُّ إلى ربكَ في الآخرةِ، فتلقَى جزاءَ عمَلِكَ.

والظاهرُ: أنَّ الخطابَ لجميعِ الناس. والكَدْحُ في اللُّغة هو السَّـعيُ الـدَّؤُوب في العملِ في الدنيا والآخرة، قال الشاعرُ[(٢)]:

فَمَـا الدَّهْـرُ إلاَّ تَارَتَـان فَمِنْـهُمَا أمُوتُ وَأُخْرَى أبْتَغِـي الْعَيْـشَ أكْـدَحُ

والمعنى: أيُّها الإنسانُ ستَرى جزاءَ ما عمِلتَ من خيرٍ أو شرٍّ، فانظُرِ اليومَ مـاذا تعملُ وفيمَ تُتعِبُ نفسكَ، فلا تعمَلْ إلاَّ لله حتى تستريحَ من الكَدْحِ.

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٥٦ عزاه السيوطي إلى أبي القاسم الختلي في الديباج عـن ابـن عمـر، وذكره مختصراً.

(٢) ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٢٣٥، وهو تَميـم بـن أُبـي بـن مقبـل (٧٠ ق.هـ-٣٧هـ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ أي مَنْ أعطِيَ ديوانَ عمَلهِ بيمينهِ، فسوفَ يُحاسَب حِساباً هيِّناً. والحسابُ الهيِّنُ: هو أنْ يَعرفَ جزاءَ عملِهِ، وما لَهُ من الثواب، وما يُحَطُّ عنه من الوزْر، وخرج ما عليه من المظالِم، ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾، أي فينقلبُ إلى أهله من الحور العين وأقربائه من المؤمنين، ﴿ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾؛ بهم، وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُحَاسَبُ الْمُؤْمِنُ؟ قَالَ: [يَا عَائِشَةُ مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ] قَالَت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ (فَأَمَّا مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَباً يَسِيرا)، قَالَ: [يَا عَائِشَةُ لَيْسَ ذلِكَ الْحِسَابُ، إنَّمَا ذلِكَ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ ﴾؛ يعني الكافرَ تكون يَمِينهُ مَغلُولةً إلى عُنقهِ، وتُلوَى يدهُ اليُسرَى من ورائهِ، فيُدفَعُ إليه كتابهُ من ورائهِ، فإذا رأى إلى ما فيهِ من سيِّئاته، ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ ﴾ دعَا بالويلِ والثُّبور على نفسهِ: وَاوَيْلاَهُ؛ وَاثُبُوراَهُ. والثُّبُورُ: الْهَلاَكُ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي يدخُل ناراً موقدةً، قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعُ وابنُ عامرٍ والكسائيُّ (وَيُصَلَّى) بضمِّ الياء وتشديدِ اللام على وجهِ الْمُبالَغة؛ أي يَكثرُ عذابُه في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي كان مَسرُوراً في أهلهِ في الدنيا بمعاصي اللهِ، وكان لا يحزنهُ خوفُ القيامةِ، وكان يمنعهُ السُّرور في أهلهِ عن إقامةِ فرائضِ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ ﴾؛ معناه: إنه ظنَّ في الدُّنيا أنْ لا يرجعَ إلى اللهِ في الآخرةِ، فلذلك كان يركبُ المآثِمَ، والمعنى: أنه ظنَّ أنْ لن يرجِعَ إلى اللهِ تعالى.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلَىٰٓ ﴾؛ أي ليس كما ظنَّ، بل يحور إلينا ويُبعَثُ؛ أي بَلَى ليَرجِعَنَّ إلى ربه بعد البعثِ، ﴿ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي عالِماً به قبلَ أن يخلقَهُ بأنَّ مرجِعَهُ ومَصيرَهُ إليه. والْحَوْرُ في اللغة: هو الرجوعُ.

---

(١) أخرجه الطبري باسانيد في جامع البيان: الحديث (٢٨٤٥٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي أقسِمُ بربِ الشَّفَق، و(لا) هاهنا زائدةٌ. والشَّفَقُ عند أكثرِ أهلِ العلمِ: الْحُمْرَةُ التي تُرى بعدَ سُقوط الشَّمس، وعند أبي حنيفةَ هو البياضُ. والشَّفَقُ في الأصلِ هو الرِّقَّةُ، ومنه شَفِيقٌ إذا كان رَقِيقاً، ومنه الشَّفَقَةُ لرقَّةِ القلب، فإذا كان هكذا فالبياضُ منه أولى من الْحُمرَةِ؛ لأنَّ البياضَ أرَقُّ من الْحُمرةِ، والحمرةُ أكثفُ من البياضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: والليلِ وما جَمَعَ وردَّ إلى مأمَنِهِ ومَبيتِهِ مَن كان مُنتشراً في النهار، يقال: طعامٌ مَوْسُوقٌ؛ أي مجموعٌ في الغَرائرِ، والوَسْقُ مِنَ الطعام: ستُّون صَاعاً، قال عكرمةُ: ((مَعْنَاهُ: وَاللَّيْلِ وَمَا جَمَعَ فِيْهِ مِنْ دَوَابهِ وَعَقَاربِهِ وَحَيَّاتِهِ وَظُلْمَتِهِ)). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي إذا اجتمعَ ضَوءهُ، وتكاملَ واستدارَ في الليالِي البيْضِ، يقالُ: اتَّسَقَتِ الأمُورُ إذا تكامَلت واستَوت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ جوابُ القَسَم، وهو خطابٌ لكلِّ الناسِ[1] اذا قُرئت بضمِّ الباءِ على الجمعِ، والمعنى: أيُّها الناسُ لـتَركَبُنَّ يومَ القيامة حالاً بعد حالٍ، وشدَّةً بعد شدةٍ، تقولُ العربُ: وقعَ في بناتِ طَبَقٍ، تريدُ الدَّواهِي العظامِ.

ويقالُ: أرادَ بالآيةِ تغيُّرَ الأحوالِ مِن حالِ النُّطفَةِ إلى حالِ العَلَقَةِ، ومِن العلقةِ الى الْمُضغَةِ، ومِن الْمُضْغَةِ إلى الصِّغَرِ، ومِن الصِّغَرِ إلى الشَّباب، ومِن الشَّباب إلى الكُهُولَةِ، ومِن الكُهولَةِ إلى الكِبَر، ومِن الكِبَر إلى الموتِ، ومن الموتِ الى البعثِ، ومن البعثِ الى الحساب، ومن الحساب الى الصِّراط، ومن الصِّراط الى موضعِ الجزاء، إمَّا إلى الجنَّة أو إلى النار.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزة والكسائي (لَتَرْكَبَنَّ) بفتحِ الباءِ، وهي قراءةُ عمرَ بن الخطَّاب وابن مسعود وابنِ عبَّاس قال: ((يَعْنِي: يَا مُحَمَّدُ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ؛ أيْ سَمَاءً بَعْدَ سَمَاءٍ، وَدَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ، وَرُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةٍ)).

---

(١) في المخطوط: (لكل الناس لجميع الناس).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ما لِـهؤلاء المشـركين لا يُؤمنون بهذا القرآن، وبما جاءَ به مُحَمَّدٌ ﷺ من عندِ الله بعد ظُهور الْحُجَجِ والأدلَّـة، ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي يُصلُّون للهِ، ولا يخضَعون ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ، وهذا بيانُ وجـوب سَـجدَةِ التِّلاوة؛ لأنـه ذمَّهم على تَركِها عند السَّماع. وظاهرُ الآيةِ يقتضي وجوبَ السَّجدةِ عند سماعِ سـائر القُرآن، خصَّصنا ما عدَا مواضعِ السُّجود بالإجماعِ، فاستعملنَا في مواضعِ السُّـجود، إذ لو لم يفعل ذلك لألغَينا حُكمَ الآية رَأساً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛أي بمـا يُضمِـرُون في قُلوبهم، والإيْعَاءُ: جعلُ الشَّيءِ في الوِعاء، والقلوبُ أوْعِيَةٌ لِمَا يحصلُ فيها من معرفـةٍ أو جهالة أو عزيمةٍ أو خيرٍ أو شرٍّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي أخْبرهُم بعذابٍ وَجيـعٍ، مكان البشَارَةِ للمؤمنين بـالنَّعيم المقيـم،﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي لكن المؤمنين المطيعِين لَهم ثوابٌ لا يُكَدَّرُ عليهم بـالْمَنِّ، ويقالُ: (غيرُ مَمنُونٍ) أي لا يُنقَصُ على مرِّ الدُّهور، ويقالُ: غيرُ مقطوعٍ ولا منقوصٍ.

آخر تفسير سورة (**الانشقاق**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْبُـــرُوجِ

سُورَةُ الْبُرُوجِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَرْبَعُمِائَـةٍ وَثَمَانِيَـةٌ وَخَمْسُـونَ حَرْفـاً، وَمِائَـةٌ وَتِسْـعُ كَلِمَاتٍ وَاثْنَتان وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ الْبُرُوجَ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بعَـدَدِ كُـلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ وَكُلِّ يَوْمِ عَرَفَةٍ يَكُونُ فِي دَارِ الدُّنْيَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ ﴾ ؛ أي ذاتَ النُّجوم. وَقِيْلَ: ذاتِ القُصـور على ما رُوي [إنَّ فِي السَّمَاءِ قُصُوراً يَسْكُنُهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْـقِ اللهِ][2]. والأَظـهرُ: أن البروجَ ها هنا منازلُ الكواكب السَّبعة، سُميت بُروجاً لارتفاعِها وسِـعَتِها، وهـي اثنَـا عشرَ من الْحَمَلِ إلى الحوتِ، تسيرُ الشَّمسُ في كلِّ بـرجٍ ثلاثِـين يَومـاً وبعـضَ يـومٍ، ويسيرُ القمرُ في كلِّ برجٍ يومَين وثُلثَ يوم، فذلك ثمانيةٌ وعشرون يَوماً ثم يسـتترُ في لَيلتين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ ﴾ ؛ هـو يـومُ القيامـةِ، وُعِـدَ أهـلُ السَّموات والأرضِ أن يصِيروا إلى ذلك اليومِ لفصلِ القضاء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ ﴾ ؛ قِيْلَ: إن الشاهدَ النبيُّ ﷺ كما قال تعالى ﴿وَجِئْنَا بكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾[3]، والمشهودَ يومُ القيامةِ كما قال تعالى ﴿وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[4].

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري عن ابن عبـاس في جـامع البيـان: الأثـر (٢٨٥١٥)، وعـن الضحـاك في الأثـر (٢٨٥١٦).

(٣) النساء / ٤١.

(٤) هود / ١٠٣.

وَقِيْلَ: الشاهدُ جميع الأنبياءِ كما قال تعالى﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّـةٍ شَـهِيداً﴾(١) والمشهودُ جميعُ الأُمَم. ويقال: الشاهدُ يوم الجمُعة، والمشهودُ يومُ عرفةَ كمـا قـال ﷺ: [خَيْرُ الأَيَّـامُ يَـوْمُ الْجُمُعَـةِ وَهُـوَ الشَّـاهِدُ، وَالْمَشْـهُودُ يَـوْمُ عَرَفَـةَ، وَالْمَوْعُـودُ يَـوْمُ الْقِيَامَةِ](٢). ويقالُ: الشاهدُ يوم النَّحر، والمشهودُ يوم الجمُعةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ﴾؛ هذا جوابُ القسَم، تقديرهُ: لقد قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ، والمعنى: قتلَتهُم النارُ. والأُخْدُودُ: شَقٌّ يُشَـقُّ في الأرضِ، جمعُها أخَادِيدُ. ويجوز أنْ يكون معنى (قُتِلَ): لُعِنَ على الدُّعاء عليهم.

وقصَّة ذلك ما رُوي: أنَّ رَجُلاً مِنَ النَّصَارَى كَانَ آجَّرَ نَفْسَهُ مِنْ يَهُودِيٍّ لِيَعْمَـلَ لَهُ عَمَلاً، فَرَأتِ ابْنَةُ الْمُسْتَأْجِرِ النُّورَ فِي الْبَيْتِ لِقِرَاءَةِ الأَجِيرِ الإنْجِيلَ، فَذكَرَتْ ذلِـكَ لأَبيهَا فَرَمَقَهُ حَتَّى رَآهُ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذلِكَ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى أخْبَرَهُ أنَّهُ عَلَى دِينِ عِيسَى، وَكَانَ ذلِكَ قَبْلَ مَبْعَثِ نَبيِّنَا ﷺ، فَتَابَعَهُ هُوَ وَسَـبْعَةٌ وَثَمَـانُونَ إنْسَـاناً مِـنْ بَيْـنِ رَجُلٍ وَامْرَأةٍ.

فَأَخْبَرَ مَلِكَ الْيَهُودِ وَاسْمُهُ يُوسُفُ بْـنُ ذِي نُـوَّاسٍ الْحِمْـيَرِيُّ، فَخَـدَّ لَـهُمْ فِـي الأَرْضِ وَأوْقَدَ فِيْهِ النَّـارَ، وَطَـرَحَ فِيـهِ النِّفْـطَ وَالْقَصَـبَ وَالْقَطِـرَانَ، وَعَرَضَـهُمْ عَلَـى الْيَهُودِيَّةِ، فَمَنْ أبَى مِنْهُمْ أنْ يَتَهَوَّدَ دَفَعَهُ فِي النَّار، وَمَنْ رَجَعَ عَـنْ دِيـنِ عِيسَـى تَرَكَـهُ. وَكَانَ فِي آخِرِهُمْ امْرَأةٌ مَعَهَا صَبيٌّ رَضِيعٌ، فَلَمَّا رَأتِ النَّارَ صَدَّتْ، فَقَالَ لَهَا الصَّبيُّ: يَـا أمَّاهُ قِفِي فَمَا هِيَ إلاَّ غُمَيْضَةٌ، فَصَبَرَتْ فَأُلْقِيَتْ فِي النَّار، وَارْتَفَعَتِ النَّارُ أرْبَعِينَ ذِرَاعاً، فَأَحْرَقَتِ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَ الأُخْدُودِ.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا يَطْرَحُونَهُمْ فِي النَّار، فَمَنْ أبَى مِنْـهُمْ ضَرَبُـوهُ بالسِّيَاطِ حَتَّى أَلْقَوْهُمْ جَمِيعاً فِي النَّار، فَأَدْخَلَ اللهُ أرْوَاحَهُمُ الْجَنَّةَ قَبْلَ أنْ تَصِلَ أجْسَامُهُمْ إلَى النَّار).

---

(١) النحل / ٣٥.

(٢) أخرجه الطبري بألفاظ عديدة في جامع البيـان: الحديث (٢٨٥٢١) عـن أبـي هريـرة بألفـاظ، والحديث (٢٨٥٢٦) عن علي ﷺ موقوفاً. وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسـط: ج٢ ص٥٣: الحديث (١٠٩١). وذكره ابن أبي حاتم في التفسير: الرقم (١٩٢٠٤).

وعن وهب بن منبه: (أن رجُلاً كان على دينِ عيسى، فوقعَ في نجرانَ فدعاهُم فأجابوهُ، فسارَ إليه ذو نُوَاسٍ اليهوديّ بجُنودِهِ من حِمْيَرَ، وخيَّرهم بين النار واليهوديَّة، فخدَّ لهم الأخَادِيدَ وحرَّقَ اثنى عشرَ ألفاً). وقال الكلبيُّ: (كَانَ أصْحَابُ الأُخْدُودِ سَبْعِينَ ألْفاً).

ورُوي: أن اليهودَ لَمَّا ألقوا مَن كان على دينِ عيسى، كان معهم امرأةٌ معَها ثلاثةُ أولادٍ أحدُهم رضيعٌ، فقالَ لها المَلِكُ: ارجعِي عن دينكِ وإلاَّ ألقيتُكِ وأولادَكِ في النار، فأَبَتْ. فأخذ ابنَها الأكبرَ فألقاهُ في النار، ثم قالَ لها: ارجعِي عن دينكِ، فأبتْ.

فأخذ ابنَها الثانِي فألقاهُ في النار، ثم قالَ لها: ارجعِي عن دينكِ، وأخذ الطفلَ منها ليُلقيَهُ في النار، فهمَّتْ بالرُّجوعِ عن دينِها، فقال لها الطفلُ: يا أماهُ لا ترجعِي عن الإسلامِ واصبري فإنَّكِ على الحقِّ، فأُلقِيَ الطفلُ وأمُّه في النار، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُتِلَ أصْحَابُ الأُخْدُودِ) الأخدودُ: هي الْحُفَرُ المشقوقةُ في الأرضِ مستطيلةٌ وجمعها أخَادِيدُ، يقال: خَدَدْتُ في الأرضِ؛ أي شققتُ فيها حفرةً طويلةً، وعن عطيَّة قال: (خَرَجَتْ عُنُقٌ مِنَ النَّار فَأَحْرَقَتِ الْكُفَّارَ عَنْ آخِرِهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي ذاتِ الحطَب والنفطِ. قِيْلَ: أرادَ بالوقُودِ أبدانَ الناسِ، وقولهُ تعالى: ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ ﴾؛ جمعُ قاعدٍ مثل شَاهِدٍ وشُهودٍ، وكان الكفارُ قُعوداً على شَفِيرِ الأُخدودِ على الكراسِي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي وهم على ما يفعلُهُ الْجَلاَوِزَةُ الذين كانوا يُلقون المؤمنين في النار شهودٌ؛ أي حضورٌ يرَون ذلك منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾؛ فيه بيانُ ما لأجلهِ قصَدُوا إحراقَ المؤمنين، ومعناهُ: وما طَعَنُوا وما أنكرُوا عليهم شيئاً إلاَّ إيمانَهم باللهِ المنيعِ بالنِّقمة مِمَّن عصاهُ، المستحقُّ للحمدِ على كلِّ حال، والمعنى: ما عَلِمُوا منهم عَيباً وما وجَدُوا لهم جُرماً ولا رأوا منهم سُوءاً إلاَّ من أجلِ أن يُؤمِنوا باللهِ العزيزِ الحميدِ، ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، الذي له القدرةُ على أهلِ السَّموات والأرضِ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي عالِمٌ بجزاءِ كلِّ عاملٍ بما عَمِلَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ؛ أي إنَّ الذين أحرَقُوا وعذبوا المؤمنين، ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ ؛ من ذلك، ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ الذي أصابَهم في الدُّنيا، يقال: فَتَنْتُ الشيءَ إذا أحرقتُهُ، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّار يُفْتَنُونَ﴾[1]. وَقِيلَ: أرادَ بالفتنةِ الامتحانَ، وهو قولُهم للمؤمنين: إنْ رجَعتُم عن الإيمانِ وإلاَّ قذفناكم في النار، وهذا هو الإكراهُ، وهو من أعظمِ الفتن في باب الدِّين.

وفي الآية تنبيهٌ على أنَّ هؤلاءِ الكفَّارَ لو تابُوا بعدَ الكفرِ والقتلِ لقُبلَتْ توبتُهم، وفيه دليلٌ أيضاً على أنَّ الأَولى بالْمُكْرَهِ على الكفرِ أنْ يصبرَ على ما خُوِّفَ به، وإنْ أظهرَ كلمةَ الكُفرِ كالرُّخصة له في ذلك، ولو صبرَ حتى قُتل كان أعظمَ لأجرِهِ، لأنه تعالى أثنَى على الذين قُتلوا في الأخدودِ، وبيَّن أن لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنْهارُ. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ ابتداءُ كلامٍ من الله، ويقال إنَّهُ جوابُ القسَمِ المذكور في أوَّل السُّورة، ويقال: جوابُ القسَمِ محذوفٌ؛ تقديرهُ: والسَّماءِ ذات البُروجِ لتُبعَثُنَّ يومَ القيامةِ ولتُجزَونَ على أعمالِكم. والبطشُ في اللغة: هو الأخذُ بالعُنفِ على سبيلِ القدرة والقوَّة، وفيه تخويفٌ لكلِّ مَن أقامَ على الكفرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي يخلقُ الخلقَ أوَّلاً من النُّطفة ويعيدُهم بعد الموتِ خَلقاً جديداً، ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي هو كثيرُ التَّجاوُزِ والسَّتر على عبادِهِ، كثيرُ الْمَحبَّةِ للمؤمنين بإحسانهِ عليهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي ذُو التَّشريفِ. والمجيدُ في اللغة: هو العظيمُ الكريم لِمَا يكونُ فيه مِنَ الخيرِ، قرأ حمزةُ والكسائي وخلَف (الْمَجِيدِ) بالخفضِ نعتاً للعرشِ، وقرأ غيرُهم بالرفعِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي يفعلُ ما يشاء لا يدفعهُ دافعٌ، ولا يمنعهُ مانعٌ.

---

(١) الذاريات / ١٣ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي هل بلغَكَ - يا مُحَمَّدُ - حديثُ الجمُوعِ من الكفَّار كيف فعَلُوا؟ وكيف فعلَ اللهُ بهم؟ وهذا استفهامٌ بمعنى التقريرِ. ثم بيَّن أُولئِكَ الجنودَ فقالَ تعالى: ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ وإنما خصَّ فرعون وثمود بالذِّكر وهم بعضُ الجنودِ؛ لاختصاصهم بكثرةِ العدَدِ والعُدَد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: بل هؤلاءِ المشركون في تكذيبٍ بكَ وبما أُنزلَ إليك عن ما أوجبَ الاعتبارَ بفرعون وثمود، كأنه تعالى يقولُ: قد ذكَرنا أمثالَ مَن قَبلكم مِنَ المكذِّبين وما حلَّ بهم من النِّقمة؛ ليعتبِرُوا ويرتدعوا، فلم يفعَلُوا بل هم في تكذيبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي وعِلمُ الله محيطٌ بهم، وقدرتهُ مشتملةٌ عليهم، ﴿ بَلْ ﴾ ؛ هذا الذي أتى به مُحَمَّدٌ، ﴿ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ أي شريفٌ كريم ليس كما يزعُمون أنه سحرٌ وشعرٌ وكهانةٌ أو أساطيرُ الأوَّلين، ولكنَّه؛ ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ عندَ الله وهو أمُّ الكتاب.

قرأ نافعُ (مَحْفُوظٌ)[1] بضمِّ الظاء، نعتُ القرآن، وقرأ الباقون بالخفضِ على نعت اللَّوح، فمَن جعلَ قولَهُ تعالى (مَحْفُوظٌ) للقرآن فمعناهُ محفوظٌ من الزِّيادة والنُّقصان والتبديلِ والتغيُّر؛ لأنه معجِزٌ لا يقدرُ أحدٌ أن يزيدَ فيه، وعن ابنِ عبَّاس أنه قال:((إنَّ فِي صَدْرِ اللَّوْحِ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَدِينُهُ الإسْلاَمُ، وَمُحَمَّدٌ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَمَنْ آمَنَ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصَدَّقَ وَعَبَدَهُ وَاتَّبَعَ رَسُولَهُ، أدْخَلَهُ الْجَنَّةَ)).

قال: ((وَاللَّوْحُ مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، طُولُهَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَعَرْضُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، حَافَّتَاهُ الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ، وَدَفَّتَاهُ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ، قَلَمُهُ نُورٌ وَكَلاَمُهُ نُورٌ مَعْقُودٌ بِالْعَرْشِ، وَأَصْلُهُ فِي حِجْرِ مَلَكٍ مَحْفُوظٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ))[2]، وبالله التوفيقُ.

آخر تفسير سورة (**البروج**) والحمد لله رب العالمين

(١) نقله الطبري في جامع البيان: النص (٢٨٥٦٩).

(٢) أخرجه أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٧٥. ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٩٨.

سُورَةُ الطَّارِق

سُورَةُ الطَّارق مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائتَان وَتِسْعَةٌ وَثلاثُونَ حَرْفاً، وَإحْدَى وَسُتُّونَ كَلِمَةً، وَسَبْعَ عَشَرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ كُلِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ][(1)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ ﴾ ؛ أوَّلُ السُّورة قَسَمٌ، وجوابُهُ (إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ). والطارقُ كلُّ ما يأتِي لَيلاً، يعني بذلك النَّجمَ يظهرُ لَيلاً ويخفى نهاراً، وكلُّما جاءَ ليلاً فهو طارقٌ، ومنه حديثُ جابر:[نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَطْرُقَ الْمُسَافِرُ أهْلَهُ لَيْلاً، وَقَالَ: حَتَّى تَسْتَحِدَّ الْمَعِيبَةُ وَتَمْتَشِطَ الشَّعْثَةُ][(2)]. وقالت هندُ[(3)]:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقْ نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقْ

تريدُ: إنَّ النَّجمَ[(4)] أتَانا يومَ أحُد في شَرَفهِ وعلُوِّه . وقال ابنُ الرُّومي:

يَا رَاقِدَ اللَّيلِ مَسْرُوراً بَأوَّلِهِ إنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أسْحَارَا

---

(١) تقدم عزوه تكراراً وإسناده ضعيف.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير: الحديث (٦٧٨). والبخاري في الصحيح: كتاب النكاح: باب لا يطرق أهله ليلاً: الحديث (٥٢٤٣). ومسلم في الصحيح: كتاب الإمارة: باب كراهية الطروق ليلاً: الحديث (١٨٣/ ٧١٥).

(٣) اختلفوا في إسناده إلى هند بنت عتبة، أو هند بنت بياضة بن رباح أو رياح بن طارق الأيادي، أو هند بنت الفند الزماني. وقالت هند هذا الرجز يومَ أحد تحض على الحرب. والرجز بأكمله في لسان العرب: مادة (طرق).

(٤) أدرج الناسخ (رجل) وهو غير مناسب، والصحيح: (النجم)، كما نقله الثعلبي في التفسير. وفي الصحاح: ج ٤ ص٢٦٨: (طرق) قال الجوهري: (أي إنَّ أبانا في الشرف كالنجم المضيء)، (والطارق: النجم الذي يقال له: كوكب الصبح).

لاَ تَفْرَحَنَّ بلَيْلٍ طَابَ أوَّلُهُ فَرُبَّ آخِرِ لَيْلٍ أجَّجَ النَّارَا[(١)]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ تعجيبٌ للنبيِّ ﷺ من شأنهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ تفسيرٌ للطارق، والثاقبُ: وهو النَّيِّرُ المضيءُ من النجومِ كلِّها، وعن ابنِ عبَّاس: (ثُقُوبُهُ تُوقِدُهُ بنَارِهِ كَأَنَّهُ ثَقَبَ مَكَاناً فَظَهَرَ). ويقالُ: ثقَبَ النارَ فتثقَّبَتْ اذا أضأتُها فأضاءَتْ، أثقِبْ نارَكَ، أي أضِئْهَا[(٢)]، ويقالُ معناه: الثاقِبُ العالِي الشديد العلُوِّ، وعن عليٍّ ﷺ أنه قالَ في هذه الآيَة: (زُحَلُ يَطْرُقُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ باللَّيْلِ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَيَخْتَفِي عِنْدَ الصُّبْحِ)[(٣)]. وقال مجاهدُ: ((الثَّاقِبُ: الْمُتَوَهِّجُ))[(٤)]. وقال عطاءُ: ((الثَّاقِبُ هُوَ الَّذِي تُرْمَى بِهِ الشَّيَاطِينُ فَتُحْرِقُهُمْ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ (مَا) هنا صلةٌ كما قال تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ﴾[(٥)] أي فبرَحْمَةٍ من اللهِ، والمعنى: إنْ كلُّ نفسٍ لعَلَيها حافظٌ من الملائكةِ يحفَظُها ويحفظُ عليها عملَها وأجلَها، حتى إذا انتهَى إلى المقاديرِ كُفَّ عن الحفظِ.

وقرأ الحسنُ وابن عامرٍ وعاصم وحمزةُ بالتَّشديد، يعنُون ما كلُّ نفسٍ إلاَّ عليها حافظٌ، وهي لغةُ هُذيل، يقولون: نَشدتُكَ اللهَ لَمَّا قُلتَ، يعنون إلاَّ قُلتَ، قال ابنُ عبَّاس: ((هُمُ الْحَفَظَةُ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ))[(٦)]. قال الكلبيُّ: ((مَعْنَاهُ حَافِظٌ مِنَ اللهِ يَحْفَظُ قَولَهَا وَفِعْلَهَا)).

---

(١) في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٧٨؛ قال الثعلبي: (وأنشدنا أبو القاسم المفسر، قال أنشدني أبو الحسن محمد بن الحسن قال: أنشدني أبو عبدالله محمد بن الرومي قال...) وذكر الشعر. وفي هذا النقل نظر.

(٢) في المخطوط: (ثقبت لسانها) وهو غير مناسب، وضبط حرفه كما في جامع البيان: الأثر (٢٨٥٨١).

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٣.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٥٧٩).

(٥) آل عمران / ١٥٩.

(٦) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٧٤؛ عزاه السيوطي إلى ابن جرير الطبري. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٥٨٤) بإسناد ضعيف.

وعن أبي أمامة قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [وُكِّلَ بالْمُؤْمِنِ مِائَةٌ وَسُتُّونَ مَلَكاً يَذُبُّونَ عَنْهُ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، مِنْ ذلِكَ الْبَصَرُ سَبْعَةُ أمْلاَكٍ يَذُبُّونَ عَنْهُ كَمَا يَذُبُّ الرَّجُلُ الذُّبَابَ عَنْ قَصْعَةِ الْعَسَلِ، وَلَوْ وُكِّلَ الْعَبْدُ إلَى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ لاخْتَطَفَتْهُ الشَّيَاطِينُ][(1)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي مِن أيِّ شيءٍ خلقَهُ اللهُ في رحِم أمِّه، ثم بيَّن ذلك فقالَ: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي مدفُوق مَصبُوبٍ مُهرَاق في رحم المرأة، يقال: سِرٌّ كاتمٌ؛ أي مكتومٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ يعني مـاءَ الرجُلِ ومـاءَ المرأةِ؛ لأن الولدَ مخلوقٌ منهما، فماءُ الرجُلِ من صُلبهِ، وماءُ المرأة من تَرائبها.

والترائبُ: جمعُ التَّريبَةِ وهو موضعُ القلادةِ من الصَّدر، وهي أربعةُ أضلاعٍ مِن يُمنَةِ الصدر، وأربعةُ أضلاعٍ من يُسرَةِ الصَّدر، وسُئل عكرمةُ عن الترائب فقالَ: ((هَذِهِ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ))[(2)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي إنَّه على إحياءِ الإنسان بعدَ الموتِ والبلَى لقادرٌ، وعن مجاهدٍ أنَّ معناه((إنَّهُ عَلَى رَدِّ ذلِكَ الْمَاءِ إلَى الإحْلِيلِ كَمَا كَانَ لَقَادِرٌ))[(3)] كأنهُ يقولُ: إنَّهُ على ردِّ الإنسان من الكِبَرِ إلى الشَّباب، ومن الشَّباب إلى الصِّبا، ومن الصِّبا إلى النُّطفة، ومن النُّطفة إلى الإحليلِ، ومن الإحليلِ إلى الصُّلب قادرٌ، فكيف لا يقدرُ على إحيائهِ بعدَ الموتِ.

ثم أخبرَ متى يكون البعثُ، فقالَ تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي استعدُّوا ليومٍ تظهرُ فيه سرائرُ الضمائرِ التي لم يطَّلع عليها أحدٌ من البشر، وَقِيْلَ: أراد بالسَّرائر الأعمالَ التي أسَرَّها العبادُ فلم يُظهِرُوها، يُظهِرُها اللهُ تعالى يومَ القيامةِ.

---

(١) في مجمع الزوائد: كتاب القدر: باب دفع ما لم يقدر عليه العبد: ج ٧ ص٢٠٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٥٨٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٠٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾؛ أي فما للإنسان يومئذٍ من قوَّةٍ يَدفعُ بها عذابَ اللهِ عن نفسهِ، ولا ناصرٍ ينصرهُ ويُعِينهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ١٤﴾؛ أقسَمَ اللهُ بالسَّماء الراجعةِ في كلِّ عامٍ بالمطرِ بعدَ المطرِ على قدر الحاجة، حاجةِ العباد إليه، وبالأرضِ الصَّادعة عن النباتِ الذي هو قوتُ الخلائقِ، إنَّ القرآنَ حقٌّ يفصلُ به بين الحقِّ والباطلِ، وليس هو باللَّعب.

والمعنى: (وَالسَّمَاءِ ذاتِ الرَّجْعِ) بالغيب وأرزاق العباد كلَّ عامٍ، لولا ذلك لَهلَكُوا أو هلَكت مواشيهم، (وَالأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ)؛ أي تتصدَّعُ عن النباتِ والأشجار والأنهار، نظيرهُ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً﴾[1] إلى آخرهِ. قوله: (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)؛ أي إنَّ القرآنَ حقٌّ وجِدٌّ يفصلُ بين الحقِّ والباطلِ، (وَمَا هُوَ بالْهَزْلِ) أي وما هو باللَّعِب والباطلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦﴾؛ يعني كفارَ مكَّة يريدون الإيقاعَ بالنبيِّ ﷺ من حيث لا يشعرُ، وذلك أنَّهم تواطَئُوا على قتلِ النبيِّ ﷺ، فأعلمَ اللهُ نبيَّهُ أنه يجازيهم جزاءَ كيدِهم، فذلك معنى قولهِ تعالى (وَأَكِيدُ كَيْداً). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ١٧﴾؛ أي أجِّلهُم وأنظِرهُم، ولا تَعجَلْ في طلب هلاكهم، فإنَّ الذي وعدتُكَ فيهم غيرُ بعيدٍ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أمْهِلْهُمْ رُوَيْداً) أي أجِّلْهُم أجَلاً قليلاً، فقَتَلهم اللهُ تعالى يومَ بدر، و(رُوَيداً) كلامٌ مبنيٌّ على التصغيرِ، ويقال: أرْوَدْيَةَ، وقد يوضعُ (رُوَيْدَ) موضعَ الأمرِ، يقالُ: رُوَيْدَ زَيداً؛ أي أروِدْ زَيداً أو أصلهُ من رَادَتِ الرِّيحُ تَرُودُ رَوَدَاناً؛ إذا تحرَّكت حركةً خفيفة، ويجوزُ أن يكون (رُوَيْداً) منصوبٌ على المصدر، كأنه قالَ: أرْوِدْهُم رُوَيداً. وباللهِ التوفيقُ.

آخر تفسير سورة (**والطارق**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) عبس / ٢٦-٢٧.

سُورَةُ الأَعْلَى

سُورَةُ الأَعْلَى مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَتَـان وَوَاحِـدٌ وَسَـبْعُونَ حَرْفـاً، وَاثْنَتـان وَسَـبْعُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعَ عَشَرَةَ آيَةً. قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطَاهُ اللهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ كُلِّ حَرْفٍ أنْزَلَهُ اللهُ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ][(١)].

وَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: ((كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ (سَبح اسْمَ رَبـكَ الأَعْلَى) وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ رَبيَ الأَعْلَى مِيكَائِيلُ)). قَالَ النَّبِـيُّ ﷺ: [يَـا جِـبْرِيلُ أخْبِرْنِي عَنْ ثَوَاب مَنْ قَرَأَهَا فِي صَلاَةٍ أوْ فِي غَيْرِ صَلاَةٍ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَا مِنْ مُؤْمِـنٍ يَقُولُهَا فِي سُجُودٍ أوْ فِـي غَـيْرِ سُـجُودٍ إلاَّ كَـانَتْ لَـهُ فِـي مِيزَانِـهِ أثْقَـلَ مِـنَ الْعَـرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَجِبَالِ الدُّنْيَا، وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: صَدَقَ عَبْدِي أنَا الأَعْلَى فَـوْقَ كُـلِّ شَـيْءٍ وَلَيْسَ فَوْقِيَ شَيْءٌ، إشْهَدُوا يَا مَلاَئِكَتِي أنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، وَأدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ جَنَّتِـي. فَإذا مَاتَ زَارَهُ مِيكَائِيلُ كُلَّ يَوْمٍ، فَإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ حَمَلَهُ عَلَى جَنَاحِهِ فَيُوقِفُـهُ بَيْـنَ يَدَي اللهِ تَعَالَى، فَيَقُولُ: يَا رَب شَفِّعْنِي فِيْهِ، فَيَقُولُ: قَـدْ شَـفَّعْتُكَ فِيْـهِ، اذْهَـبْ بـهِ إلى الْجَنَّةِ][(٢)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ﴾؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ؛ والأُمَّـةُ داخلـون معَهُ في هذا الخطاب، والمعنى: صَلِّ لربكَ ونَزِّهْهُ عن كلِّ ما لا يليقُ به مـن الصِّفـاتِ، وقُل: سُبحانَ ربيَ الأعلَى. وقد يُذكـر الاسـمُ ويـراد بـه تعظيـمُ المسـمَّى، كمـا قـال

---

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٨٢ عن أبي بإسناد ضعيف.

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٨٢. ونقله القرطبي في الجامع لأحكـام القـرآن: ج ٢٠ ص١٣.

الشاعر[(١)]:

إلَـى الْحَـوْلِ ثُـمَّ اسْـمُ السَّـلامِ عَلَيْكُمَـا وَمَـنْ يَبْـكِ حَـوْلاً كَـامِلاً فَقَـدِ اعْتَـذَرْ

وقال قومٌ: معناهُ: نَزِّهْ ربَّكَ الأعلَى عمَّا يقولُ فيه الملحِدُون ويصفهُ به المشركون، وجعَلُوا الاسمَ صفةً. ويجوز أنْ يكون معناهُ: نَزِّهِ اللهَ عن إجرائهِ على غيرِه، وكان عليٌّ وابنُ عبَّاس وابنُ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إذا قَرَأَ أحَدُهُمْ بهَذِهِ السُّورَةِ قَالَ: ((سُبْحَانَ رَبيَ الأَعْلَى))[(٢)]، والأعلَى من صفاتِ الله بمعنى العَليِّ مثل الأكبرِ بمعنى الكبير، وليس هذا من علُوِّ المكان وإنما معناهُ القاهرُ القادرُ، فلا شيءَ أقدرُ منه.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي خلقَ الإنسانَ وكلُّ ذي روحٍ، فسوَّى خلقَهُ باليدَين والرِّجلين والعينَين والأُذنين وسائرِ الأعضاء، وعدَّلَ الخلقَ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي قدَّرَ الذي خلقَهُ حَسَناً وذميماً، وقدَّرَ عليه السعادةَ والشقاوةَ، فهدَى كلَّ مكلَّف من الضَّلال إلى الهدى، ومن الباطلِ إلى الصواب، ومن الغَيِّ إلى الرَّشاد. وَقِيْلَ: هدَى الإنسان لسبيلِ الخيرِ والشرِّ، وبصَّرَهُ السبيلَ إمَّا شاكراً، وإما كفوراً.

وَقِيْلَ: ألْهَمَ كلَّ حيوانٍ ما يحتاجُ إليه في أمرِ معيشته، وعرَّفَهُ كيف يأتِي الذكرُ الأنثى، وجعلَ الهدايةَ في قلبِ الطفل حتى طلبَ ثديَ أمِّه، وميَّزه من غيرِه، وهدَى الفرخَ لطلب الرزق، وهدى الأنعامَ لمراتعِها. وَقِيْلَ: معنى قولهِ (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) أي قدَّرَ مدَّة الجنين في الرحمِ تسعةَ أشهر، أو أقلَّ، أو أكثرَ، فهدى للخروجِ من الرَّحِم. وَقِيْلَ: قدَّرَ الأرزاقَ وهداهم لطلبها. وَقِيْلَ: الذنوبَ على عبادهِ وهَدَاهُم للتوبة. وَقِيْلَ: قدَّرَ الخلقَ على صُوَرِهم، وعلى ما جرَى لهم من الأرزاقِ، فهَدَاهُم إلى مَعرفةِ توحيدهِ. قرأ الكسائيُّ والسلمي (قَدَرَ فَهَدَى) مخفَّفاً.

---

(١) لبيد العامري (ت ٤١ هـ) من قصيده له يخاطب بها ابنتيه، مطلعها:

تَمَنَّـى ابْنَتَـايَ أنْ يَعِيـشَ أبُوهُمَـا وَهَـلْ أنَـا إلاَّ مِـنْ رَبيعَـةَ أوْ مُضَـرْ

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٣٣) عن ابن عمر، و(٢٨٦٣٤) عن علي، و(٢٨٦٣٥) عن ابن عباس رضي الله عنهم جميعاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي أنبتَ الكلأ الأخضر بالمطرِ للبهائم، ثم، ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فجعل النبتَ بعد الْخُضرَةِ هَشيماً يابساً بَالياً كالغُثاء الذي يقذفهُ السَّيل على جنَبات الوادِي، وقولهُ تعالى: (أحْوَى) أي أسودَ، وقد يدخلُ النبت الأحوَى لحاجةِ البهائم إليه، وقد يكون حَطباً للناسِ، وهذا كلُّه إخبارٌ عن قدرةِ الله تعالى وإنعامِه على العبادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي سيُقرِؤكَ جبريلُ القرآنَ بأمرنا فلا تنساهُ، فلم ينسَ النبيُّ ﷺ حَرفاً من القرآنِ بعد نُزول هذه الآيةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي إلاَّ ما شاءَ الله أنْ تنساهُ، وهو ما نُسِخَتْ تلاوتهُ، فنأمُرك ألاَّ تقرأهُ حتى تنساهُ على وجهِ الأيام، وهذا نسيانُ النَّسخ دون التضييعِ.

وَقِيْلَ: إلاَّ ما شاء اللهُ أن تنساهُ[1] ثم تذكره بعد ذلكَ. وَقِيْلَ: إنما ذكرَ الاستثناءَ لتحسين النَّظْمِ علىعادةِ العرب، تذكرُ الاستثناءَ عُقيب الكلامِ وهو كقوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا إلا مَا شَاءَ اللهُ﴾[2] ربُّك، معلومٌ أنَّ اللهَ تعالى لم يشأْ إخراجَ أهلِ الجنة من الجنَّة ولا إخراجَ أهلِ النار من النار، ولكن المرادَ به ما ذكرناهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي يعلمُ ما يقرؤهُ العباد من القرآنِ، وما يذكرونهُ من الذّكر في سرٍّ أو جهرٍ. وَقِيْلَ: يعلمُ العلانيةَ من القولِ والعمل، ويعلمُ السرَّ وما يحدِّثُ الإنسان نفسَهُ بعده، ويعلمُ إعلانَ الصَّدقة وإخفاءَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي نيَسِّرُكَ لعملِ الجنَّة، ونوفِّقُكَ للشَّريعة السهلةِ وهي الحنيفيَّة السَّمحةُ، ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي عِظْ بالله إنْ نفعَتِ المواعظُ، وليس على وجه الشَّرط، فإنَّ الموعظةَ تنفعُ لا محالةَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي سيتَّعظُ بالقرآن مَن يخشَى عذاب اللهِ، ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي يتجنبُ التذكُّر والعظَةَ ويتباعَدُ عنها الأشقى في علمِ الله فلا يتذكرُ ثواباً.

---

(١) كتب الناسخ: (تنساه دفعةً) ثم شطب (دفعة).

(٢) الأنعام / ١٢٨ .

وروي أن المرادَ بقوله (سَيَذكَّرُ مَنْ يَخْشَى): عبدُالله بن أمِّ مكتوم[1]، ويدخلُ فيه كلُّ مؤمنٍ، والمرادَ بالأشقَى الذي يتجنَّبُ الموعظةَ الوليدُ بن المغيرةِ، ويدخلُ فيه كلُّ كافرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ وهي السُّفلى من أطباقِ النار، وَقِيْلَ: سُمِّيَتْ نارُ جهنَّم النارَ الكبرى؛ لأنَّها أعظمُ من هذه النار،كما رُوي في التفسيرِ: أنَّ نارَ الدُّنيا جزءٌ من سَبعين جزءٍ من نار جهنَّم، ولقد غُمِسَت في البحرِ مرَّتين حتى لانَتْ، ولولا ذلك ما انتفعَ بها أحدٌ. وروي: أن نارَ الدُّنيا تستجيرُ أن يَردَّها اللهُ إلى نارِ جهنَّم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يموتُ مَوتاً فيستريحُ من عذابها، ولا يحيَا حياةً يجدُ فيها روحَ الحياةِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي صارَ إلى البقاءِ الدَّائم والنعيمِ المقيم مَن تزكَّى بالإسلامِ والتَّوبة من الذنوب، والمعنى: قد أفلحَ من تطهَّرَ من الشِّرك وقالَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وكان عمَلهُ زَاكياً صالحاً، وأدَّى زكاةَ مالهِ، ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي وافتتحَ الصَّلاة بذكرِ اسم الله، وصلَّى الصلواتِ المفروضات، وكان ابنُ مسعودٍ يقولُ: ((رَحِمَ اللهُ امْرِءاً تَصَدَّقَ ثُمَّ صَلَّى، ثُمَّ يَقْرَأ هَذِهِ الآيَةَ))[2].

وَقِيْلَ: معناهُ: قد أفلحَ من أدَّى زكاةَ الفطرِ ثم صلَّى صلاةَ العيدِ، ويستدلُّ بهذه الآية على جواز افتتاحِ الصَّلاة بغيرِ التَّكبيرِ؛ لأنه تعالَى ذكرَ الصَّلاة عُقيب اسمهِ، إذِ الفاءُ للتَّعقيب من غيرِ تراخٍ، فلا فصلَ في الآيةِ بين التكبيرِ وبين سائرِ الأركان.

---

(١) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢٠.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٨٦؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير عن أبي الأحوص ﷺ) منقطعاً في رواية، ووصله في رواية أخرى عن ابن مسعود ﷺ. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٩٢٤١). ومن رواية أبي الأحوص عند الطبري في جامع البيان: النص(٢٨٦٥٢).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ قـرأ العامَّـة بالتـاء، كذلك قراءةُ ابنِ كعبٍ: (بَلْ أنْتُمْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)[1]، والخطـابُ للكفـار؛ كأنـه قال: بل أنتم أيُّها الكفارُ تختارون الدُّنيا على الآخرةِ، وقرأ أبو عمرو (يُؤْثِرُونَ) باليـاء يعني الأشقياء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي ثـوابُ الآخـرةِ خيرٌ من الدنيا وما فيها وأدومُ. وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ أنـه قـال: [مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ ((إلاَّ))[2] كَرَجُلٍ أدْخَلَ إصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بمَ يَرْجِعُ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أرادَ به قولَهُ تعالى (قَدْ أفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذكَرَ اسْمَ رَبهِ فَصَلَّـى) كمـا هـو في القـرآن، ويقـال: مذكـورٌ في الصُّحف الأُولى: أنَّ الناسَ يُؤْثِرون الحياةَ الدُّنيـا، وأن الآخـرةَ خـيرٌ وأبقـى، أرادَ بـه السُّورة كلَّها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ ، قال قتادةُ: ((تَتَابَعَتْ كُتُبُ اللهِ تَعَالَى أنَّ الآخِرَةَ خَيْرٌ وَأبْقَى))[4]. ويقال: إن في صُحف إبراهيمَ: ((ينبغِي للعاقل أنْ يكون حَافظاً للسانهِ عارفاً بزمانه مُقبلاً على شأنه))[5].

وقال أبُو ذرٍّ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَم الأنْبيَاءُ ؟ فَقَالَ: [مِائَةُ ألْفِ نَـبيٍّ، وَأرْبَعَـةٌ وَعُشْرُونَ ألْفَ نَبيٍّ] قُلْتُ: كَمِ الْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ: [ثلاَثُمِائَةٍ وَثَلاَثَةَ عَشَرَ] .

---

(١) ذكر الطبري القراءتين في جامع البيان: النص (٢٨٦٥٨).

(٢) (إلاَّ) سقطت من المخطوط.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج٢٠: الحديث(٧١٣-٧٢٢). وفي الأوسـط:ج ٥: الحديـث (٤١٩٢). والإمام أحمد في المسند:ج ٤ ص٢٢٨ و٢٢٩ و٢٣٠. وإسناده صحيح.

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٨٨؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وابن جرير وابن المنـذر عـن قتادة ﷺ...) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الرقم (١٩٢٤٦). والطـبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٦٢).

(٥) هو جـزء مـن حديـث طويـل عـن أبـي ذر ﷺ يسـأل رسـول الله ﷺ؛ أخرجـه ابـن حبـان في الصحيح: الرقم (٣٦١)، قال الشيخ شعيب: إسناد ضعيف جداً.

قُلْتُ: أَكَانَ آدَمُ نَبِيّاً ؟ قَالَ: [نَعَمْ كَلِمَةُ اللهِ، وَخَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ. يَا أَبَا ذرٍّ أَرْبَعَةٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنَ الْعَرَب: هُودُ وَصَالِحُ وَشُعَيْبُ وَنَبِيِّكُ] قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَمْ أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ ؟ قَالَ: [مِائَةٌ وَأَرْبَعَةُ كُتُبٍ، مِنْهَا عَلَى آدَمَ عَشْرُ صَحَائِفَ، وَعَلَى شِيتٍ خَمْسُونَ صَحِيفَةً، وَعَلَى أَخْنُوخَ وَهُوَ إِدْرِيسُ ثَلاَثُونَ صَحِيفَةً، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ، وعَلَى إِبْرَاهِيمَ عَشْرُ صَحَائِفَ، وَالتَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ وَالْفُرْقَانُ][(١)].

آخر تفسير سورة (**الأعلى**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) ينظر ما قبله، إسناده ضعيف جداً.

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاثُمِائَةٍ وإِحْدَى وَثَمَانُونَ حَرْفاً، وَاثْنَتَان وَتُسْعُونَ كَلِمَةً، وَسِتٌّ وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا حَاسَبَهُ اللهُ حِسَاباً يَسِيراً][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ ﴾؛ أي قد أتاكَ حديثُ الغاشيةِ، يعني القيامةَ تغشَى كلَّ شيءٍ بالأهوال؛ لأنَّها داهيةٌ تغشَى جميعَ الناس، وقال سعيدُ بن جبير: ((أَرَادَ بالْغَاشِيَةِ نَارَ جَهَنَّمَ تَعُمُّ أهْلَهَا مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِب، وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ ﴾، أي وجوهٌ يومَ القيامة خاشعةٌ ذليلة، وهي وجوهُ الكفَرةِ والمنافقين في الآخرةِ، ﴿ عَامِلَةٞ ﴾، أي تُجَرُّ في النار على وجُوهها، ﴿ نَّاصِبَةٞ ۝٣ ﴾؛ أي في تعَبٍ وعناء ومشقَّة وبلاءٍ من مُقاساتِ العذاب، قال الحسنُ: ((لَمْ تَخْشَعْ للهِ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ تَعْمَلْ لَهُ، فَأَخْشَعَهَا فِي الآخِرَةِ وَأعْمَلَهَا وَأنْصَبَهَا بمُعَالَجَةِ الأَغْلاَلِ وَالسَّلاَسِلِ))[3]. وقال قتادةُ: ((تَكَبَّرَتْ فِي الدُّنْيَا عَنْ طَاعَةِ اللهِ، فَأَعْمَلَهَا وَأنْصَبَهَا فِي النَّار))[4]. وقال الضحَّاك: ((يُكَلَّفُونَ ارْتِقَاءَ جَبَلٍ مِنْ حَدِيدٍ فِي النَّار)).

---

(١) رواه الثعلبي في تفسيره عن أبي بن كعب بإسناد واه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٦٧) مختصراً.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٧١) بمعناه.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٧٢).

والنَّصَبُ: الدَّأبُ فِي العملِ، وقال عكرمةُ والسديُّ: ((عَامِلَةٌ فِي الدُّنْيَا بِمَعَاصِي اللهِ، نَاصِبَةٌ فِي النَّار يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[1]. وقال سعيدُ بن جبير: ((هُمُ الرُّهْبَانُ أصْحَابُ الصَّوَامِعِ الَّذِينَ يَتْعَبُونَ وَيَنْصَبُونَ فِي الْعِبَادَةِ، ثُمَّ لاَ يَخْلصُونَ فِي الآخِرَةِ مِنْ ذلِكَ عَلَى شَيْءٍ لِوُقُوعِ ذلِكَ عَلَى غَيْرِ مُوَافَقَةِ الْعِلْمِ)). ويقالُ: همُ الخوارجُ. ويقال: المرادُ به كلُّ مَن عمِلَ عَملاً، وخلَطَ بعملِهِ ما يُبطِلُهُ من ربَا أو شركٍ أو عُجب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ ﴾؛ أي تلزَمُ ناراً قد انتهى حرُّها، قال ابنُ مسعود: ((يَخُوضُ فِي النَّار كَمَا تَخُوضُ الإبلُ فِي الْوَحْلِ)).

قرأ العامَّة (تَصْلَى) بفتحِ التاء، وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر بضمِّها اعتباراً بقوله: ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي من عَين متناهيةٍ في الحرِّ، قال الحسنُ: ((قَدِ انْتَهَى طَبْخُهَا مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ إلَى تِلْكَ السَّاعَةِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ ﴾؛ قال مجاهدُ وعكرمة وقتادة: ((وَهُوَ نَبْتٌ ذُو شَوْكٍ لاَطِئٍ بالأَرْضِ، تُسَمِّيهِ قُرَيْشٌ الشِّبْرقُ حين يكون رطباً، فَإذا يَبسَ فَهُوَ الضَّرِيعُ))[2] يَصِيرُ عِنْدَ الْيُبْسِ كَأَظْفَار الْهِرَّةِ سُمّاً، لاَ تَقْرَبُهُ دَابَّةٌ وَإنَّمَا تَأْكُلُهُ الإبلُ فِي الرَّبِيعِ مِنْ فَوْقِهِ[3]. وقال ابنُ زيدٍ: ((أمَّا فِي الدُّنْيَا فَإنَّ الضَّرِيعَ الشَّوْكُ الْيَابسُ، وَأمَّا فِي الآخِرَةِ فَهُوَ شَوْكٌ فِي النَّار))[4].

وقال الكلبيُّ: ((الضَّرِيعُ لاَ تَقْرَبُهُ دَابَّةٌ، إذا يَبسَ لاَ يَرْعَاهُ شَيْءٌ)). وقال عطاءٌ: ((هُوَ شَيْءٌ يَطْرَحُهُ الْبَحْرُ الْمَالِحُ تُسَمِّيهِ أهْلُ الْيَمَنِ الضَّرِيعُ)). وعن رسولِ الله ﷺ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٩١؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة). وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٩٢٥٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٨٤) عن مجاهد، و(٢٨٦٨٣) عن عكرمة، و(٢٨٦٨٥) عن قتادة.

(٣) هكذا رسمها الناسخ، وهي أقرب إلى (فَرَقِهِ)، ويكون المعنى: أي من خوف الجوع أو من شدة الجوع. والله أعلم.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٩٨٦٩٠).

قال: [الضَّرِيعُ شَيْءٌ يَكُونُ فِي النَّار يُشْبهُ الشَّوْكَ أمَرّ مِنَ الصَّبرِ، وَأنْتَنُ مِنَ الْجِيفَةِ، وَأشَدُّ حَرّاً مِنَ النَّار، سَمَّاهُ اللهُ ضَرِيعاً](1).

وقِيْلَ: إنَّ اللهَ يرسلُ على أهلِ النار الجوعَ حتى يعدلُ ما بهم من العذاب، فيستَغيثون من الجوعِ فيُغاثون بالضَّريع، ثم يستَغيثون فيُغاثون بطعامٍ ذِي غُصَّةٍ، فيذكُرون أنَّهم كانوا يسلِكُون الغصصَ في الدُّنيا بالماءِ، فيُسقَون فيَعطشون ألفَ سنةٍ، ثم يُسقَون من عينٍ آنية لا شربة هنيَّة ولا مريَّة، فكلَّما أدنوهُ من وجُوهِهم سلخَ جلودَ وجُوههم وسوَّدَها، فإذا وصلَ إلى بطونِهم قطَّعَها، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أمْعَاءَهُمْ﴾(2).

فلمَّا نزَلت هذه الآيةُ قال المشركون: إنَّ إبلَنا لتسمَنُ على الضَّريع، فأنزلَ اللهُ قولَهُ تعالى: ﴿ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ﴿٧﴾ ﴾؛ وكَذبوا، فإن الإبلَ لا ترعاهُ إلاّ ما دامَ رَطْباً، وأما إذا يبسَ فلا تقربهُ دابَّةٌ، ورَطِبُه يُسمَّى شَبْرَقاً لا ضَريعاً، والمعنى: لا يُسمَنُ مَن أكلَهُ ولا يسدُّ جوعةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ﴿٨﴾ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ﴿٩﴾ ﴾؛ هذه صفةُ وجوهِ أهل الجنَّة يقول: وجوهُهم يومئذٍ نَضِرَةٌ حسَنَةٌ جميلةٌ، آثارُ النِّعمة عليها ظاهرةٌ، وهي لعمَلها راضيةٌ بما أدَّاها إليه من الثواب والكرامة، ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي مُرتفعة في القدْر والشَّرف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي لا يسمَعُ أصحابُ تلك الوجوهِ كلمةً ذات لَغَوٍ ولا حِلفاً كَاذباً ولا كَلاماً باطلاً، وذلك لأنَّ سماعَ ما لا فائدةَ فيه يثقلُ على العُقَلاء، ولا يتكلَّمُ أهلُ الجنَّة إلاّ بالحكمةِ وحمدِ الله تعالى على ما رَزَقَهم من النَّعيم المقيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي فيها لكلِّ إنسان في قصرهِ عينٌ جارية من كلِّ شرابٍ يشتهيهِ، يجري إلى حيث يشاءُ على حسب إرادته ومحبَّتهِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج٨ ص٤٩٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه بسند واه عن ابن عباس).
(٢) محمد / ١٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ في الهواءِ رفيعةُ القدر بعضُها فوقَ بعضٍ، من الذهب والفضَّة وغير ذلك من الجواهر العظيمة، عليها مِن الفُرُش والحجال. قال ﷺ: [لَوْ أُلْقِيَ مِنْ أَعْلاَهَا فِرَاشٌ لَهَوَى إلَى قَرَارِهَا مِائَةَ خَرِيفٍ][١] والحكمةُ في ذلك الارتفاعِ أنْ يرى المؤمنُ بجلوسهِ عليها جميعَ ما خوَّلَهُ اللهُ من الْمُلْكِ والنعمةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ الأكوابُ: جمع كُوبٍ، وهو الكوزُ الذي لا عُرَى له ولا خراطيمَ، موضوعةٌ على حافَّة العينِ الجارية مُعدَّةٌ لأشربَتِهم وهو من اللُّؤلؤ الرطب على ما وردَ في الحديثِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ هي جمعُ نُمْرَقَةٍ، وهي الوِسَادَةُ المنسوجةُ من قُضْبَانِ الذهَبِ المكلَّلة بالدُّرِّ والياقوتِ، قد صُفَّ بعضُها إلى بعضٍ للراحة[٢] ورفع المنْزِلِ، قال الشاعرُ:

كُهُولٌ وَشُبَّانٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَنَمَارِقِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ الزَّرَابيُّ هي الطَّنَافسُ العجيبةُ، واحدتُها زَرِبيَةٌ، وهي البُسُطُ العريضةُ، والمبثوثةُ الكثيرة المبسوطة المفرَّقة في المجالسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ فيه تنبيهٌ على قُدرة اللهِ تعالى، يقول: أفَلاَ يَرونَ إلَى الإبلِ مع عِظَمها وشدَّتِها كيف تبرُك إذا أُريدَ ركوبُها فتُحمَلُ عليها وتُركَبُ، ثم تقومُ فيقودها الصغيرُ وينَخِّيها ويَحمِلُ عليها الحِمْلَ الثقيلَ وهي باركةٌ، فتنهَضُ بثقلهِ دابةٌ بحملِها ((وليس ذلك في شيء من الحيوان)) إلا البعير[٣].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في المخطوط: (للرحة).

(٣) ما بين (( )) سقط من المخطوط، وضبط كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٣٥، ولأن سياق عبارته كما هو عند المصنف رحمه الله.

وَقِيْلَ في وجه اتصالِ هذه الآية بما قبلَها: أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا وصفَ للمشركين سُرُرَ أهلِ الجنة مع علُوِّها وارتفاعِها، وأنَّها تنحطُّ لصاحبِها إذا أرادَ صُعودَها ثم ترتفعُ، استبعَدُوا ذلك، فذكرَ الله ما يزيلُ استبعادَهم وكانوا أربابَ إبلٍ، فأرَاهم دلائلَ توحيدِهِ فيما في أيديهم.

وتكلَّمَت الحكماءُ في وجه تخصيصِ الإبل من بين سائرِ الحيوانات، فقال مقاتلُ:((لأنَّهُمْ لَمْ يَرَوا بَهيمَةً قَطُّ أعْظَمَ مِنْهَا، وَلَمْ يُشَاهِدُوا الْفِيلَ ((إلاَّ)) الشَّاذ مِنْهُمْ))[1]. وقال الحسنُ: ((لأنَّهَا تَأْكُلُ النَّوَى، وَتُخْرِجُ اللَّبَنَ)). وَقِيْلَ: لأنَّها مع عِظَمِها تلينُ للحملِ الثقيل وتنقادُ للقائدِ الضعيف يذهبُ بها كيفَ شاءَ.

وحكى الأُستاذ أبو القاسمِ بن حبيبٍ: أنه رأى في بعض التفاسيرِ: أنَّ فأرةً أخذت بزِمام ناقةٍ، فجعلتِ الفارةُ تجرُّ الناقةَ وهي تتبَعُها حتى دخلت الجحرَ، فجَرَّت الزمامَ فبَركت، فجرَّته فقرَّبت فمَها من جحرِ الفارةِ، فسبحان الذي قدَّرها وسخَّرها وذلَّلَها[2].

وقال أبو عمرٍ[3]: ((الإبلُ هِيَ السَّحَابُ، وَهِيَ الْيَقُ بما بَعْدُ مِنْ ذِكْرِ السَّمَاءِ وَالْجِبَال)) إلاَّ أنَّ هَذَا غَيْرُ مَعْرُوفٍ فِي اللُّغَةِ، وإنما يقولون للسَّحاب: الإبِلٌ بتشديدِ اللام[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ ﴾ ؛ في الهواءِ فوق كلِّ شيء لا تنالُها الأيدي، بلا عمادٍ تحتها ولا علاَّقة فوقَها، ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ ﴾ ؛ فجعلها مرساةً مثبَّتة لا تزلزَلُ، وفجَّر في أعلاها العُيونَ لمنافعِ الناس، ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ ﴾ ؛ أي بُسطت على وجهِ الماء. فالذي فعلَ هذه الأشياءَ قادرٌ على أن يخلُقَ نعيمَ الجنة بالصفاتِ التي ذكرَها.

---

(١) ذكره مقاتل بمعناه في التفسير: ج ٣ ص٤٧٩.
(٢) نقله بنصه الثعلبي في التفسير: ج ١٠ ص١٨٩.
(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٣٥؛ قال القرطبي: (قد ذكر الأصمعيُّ أبو سعيد عبدالملك ابن قُرَيْب، قال أبو عمرو...) وذكره.
(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٣٥؛ نقل القرطبي تفصيل ذلك عن الماوردي.

قال أنسُ بن مالك: ((صَلَّيْتُ خَلْفَ عَلِيِّ بْنِ أبي طَالِبٍ، فَقَرَأ: (أفَلاَ يَنْظُرُونَ إلَى الإبلِ كَيْفَ خَلَقْتُ، وَإلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رَفَعْتُ وَ.... نَصَبْتُ، و... سَطَحْتُ) برَفْعِ التَّاءِ))[١]، وقرأ الحسنُ بالتشديدِ[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي عِظْهُم يا مُحَمَّدُ بالقرآنِ، إنما أنتَ واعظٌ مبلِّغٌ ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي بمسلَّطٍ تُجبرهم على الإيمان، وتمنَعُهم عن الكفرِ، وهذا كان من قبلِ آية القتلِ فنُسخ بها، وتَسَيطَرَ الرجلُ إذا تَسلَّطَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي لكن مَن أعرضَ عن الإيمانِ وثبَتَ على كُفرهِ فكِلْهُ إلى الله تعالى لستَ له بمذكِّر؛ لأنه لا يقبلُ منكَ، وسيعذِّبهُ الله في الآخرةِ بأعظمِ النيران، وإنما قالَ ذلك لأنَّ من المعذبين مَن هو أشدُّ عذاباً من غيرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي طِبْ نفساً يا مُحَمَّدُ وإنْ عاندُوا وجحَدُوا، فإنَّ إلينا مرجعَهم؛ أي إلينا مرجعُهم وجزاؤُهم، والإيَابُ: الرُّجُوعُ والمعادُ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾؛ وإخراجَ ما لهم وعليهم حتى يظهرَ مقدارُ ما يستحقُّون من العذاب.

آخر تفسير سورة (**الغاشية**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٩٠.

(٢) والمعنى بتشديد الطاء وإسكان التاء: (سَطَّحْتُ).

سُورَةُ الْفَجْرِ

سُورَةُ الْفَجْرِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَتِسْعٌ وَثَلاَثُونَ كَلِمَةً، وَثَلاَثُونَ آيَةً. قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا كَانَتْ لَهُ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي اللَّيَالِي الْعَشْرِ غَفَرَ اللهُ لَهُ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ ﴾ ؛ أقسَمَ اللهُ بِرَب الفجرِ، والفجرُ: هو الصُّبْحُ الذي يطلعُ في آخرِ الليلِ، وهو دلالةٌ على نِعَمِ اللهِ تعالى وعلى توحيدِهِ، وفي ذكرِهِ حثٌّ على الشُّكر، وترغيبٌ في إقامةِ صلاةِ الفجرِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) هنَّ عشرُ ذي الحجَّة، شرَّفها اللهُ تعالى، لتَسارُعِ الناس فيها إلى الخيراتِ والطاعات. وعن ابنِ عبَّاس: ((يَعْنِي الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ))[2]. وَقِيلَ: العشرُ الأوَّل من الْمُحَرَّمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ ﴾ ؛ الشَّفْعُ: هو يومُ النَّحرِ، يُشْفَعُ بما قبلَهُ من الأيامِ من الشَّهْرِ. والوَتْرُ: يومُ عرفةَ أوترَ بما قبلَهُ من أيَّام الشهرِ. وعن الحسنِ وقتادة: ((أنَّ هَذا قَسَمٌ بالْخَلْقِ كُلِّهِمْ، فَإنَّهُمْ شَفْعٌ وَوَتْرٌ)). وقال مقاتلُ: ((الشَّفْعُ آدَمُ وَحَوَّاءُ، وَالْوَتْرُ هُوَ اللهُ تَعَالَى))[3]. وقال مجاهدُ ومسروق: ((هُوَ الْخَلْقُ كُلُّهُ))[4]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[5] الكفرُ والإيمانُ؛ والشَّقاوة والسعادةُ؛

---

(١) رواه الثعلبي عن أبي بإسناد ضعيف.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٣٩.

(٣) في التفسير: ج ١٣ ص٤٨١.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٧٣٧).

(٥) الذاريات / ٤٩ .

والسعادةُ؛ والهدَى والضَّـلالُ؛ والليـلُ والنـهار؛ والسـماءُ والأرض؛ والـبَرُّ والبحـرُ؛ والشَّمسُ والقمرُ؛ والجنُّ والإنس. والوَتْرُ هو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الواحدُ الأحد الفردُ.

وَقِيْلَ: الشفعُ: صلاةُ الفجرِ، والوَترُ: صلاةُ المغـرب. وَقِيـلَ: الشـفعُ: درجـاتُ الجنَّات؛ لأنَّها ثمان، والوَترُ: دركاتُ النار؛ لأنَّها سبعٌ، كأنه أقسمَ بالجنَّة والنار. وَقِيْلَ: الشفعُ: صفاتُ المخلُوقِين من العزِّ والذُّل؛ والقدرةِ والعجزِ؛ والقوَّة والضعفِ؛ والعلمِ والجهل؛ والبصر والعمَى، والوَتْرُ: انفرادُ صفات الله تعالى؛ عِـزٌّ بـلا ذلٍّ؛ وقـدرةٌ بـلا عجزٍ؛ وقوَّة بلا ضعفٍ؛ وعلمٌ بلا جهل؛ وحياة بلا موتٍ.

قرأ الأعمشُ وحمزة والكسائي وخلـف (وَالْوِتْـرُ) بكسـرِ الـواو، واختـارَهُ أبـو عُبيد[١]؛ لأنه أكثرُ في الكلامِ وأنشأ، ومنه وترُ الصلاةِ، ولم يسمع شـيء مـن الكـلام، الوَترُ بالفتح، وقرأ الباقون بالفتحِ وهي لغةُ أهلِ الحجاز.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ ﴾ ؛ قسَمٌ بربِ الليلِ إذا يسرِ بمُضِيِّـه وانقضائهِ إلى طُلوع الفجرِ. ويقالُ: إنه أقسمَ بليلةِ المزدلفة اذ أسريَ فيها، وعلـى هـذا قالَ بعضُهم: إن المرادَ بالفجرِ يومُ عرفةَ.

ووجهُ حذف الياءِ من (يَسْـرِ) أنَّـها رأسُ آيـةٍ، ورؤوسُ الآي كـالفواصلِ مـن العشر. قرأ نافعُ وأبو عمرو بالياءِ في الوصل، وقرأ ابنُ عامر وعـاصم بحذفِـها وَصـلاً ووقفاً، وقرأ ابنُ كثير ويعقوب بالياء في الحالتين[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥ ﴾ ؛ لفظـهُ لفـظُ استفهامٍ بمعنى التَّقرير، يقولُ: بعدَ هذا الذي عُقِلَ قَسَمٌ، والحِجْرُ: هو العقلُ، وجوابُ القَسَمِ (إنَّ رَبَّكَ لَبالْمِرْصَادِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ ﴾ ؛ ألم تعلم كيفَ صنعَ ربُّكَ بعادٍ وكيف أهلكـهم، ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ﴾ ، وأمـا إرَمَ فـهو صفـةٌ

---

(١) نقله النحاس في إعراب القرآن: ج ٥ ص١٣٥.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٥ ص٣٤٥. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٥ ص١٣٦.

لعادٍ، وهي عَادَان: عادٌ الأُولى وهي إرَمَ، وعادٌ الآخرة. ولم يُصْـرَفْ إرَمَ؛ لأنَّـها اسـمٌ للقبيلةِ، وكان إرمَ أبا عادين[١] فنُسبوا إلى أبيهم[٢]. وَقِيْلَ: إن إرمَ كانت قبيلةً من عـادٍ وكان فيهم الملكُ، ﴿ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ذاتِ الْعِمَادِ) أي القامَات الطِّوال والقوَى الشدائد، يقـال رجـلٌ مَعْمَدٌ ورجل عَمدَانٌ إذا كان طَويلاً قوياً، قال ابنُ عباس:((كَانَتْ قَامَةُ الرَّجُـلِ مِنْـهُمْ أَرْبَعُمِائَةِ ذِرَاعٍ، لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهُمْ فِي زَمَانِهِمْ قُوَّةً وَخَلْقاً))[٣]. ويقـال: إنـه اسـمُ مدينـةِ ذات العماد والذهب والفضَّة، بناها شدَّادُ بن عـاد. والقـولُ الأول أقـربُ إلى ظـاهرِ الآية؛ لأنَّ الغرضَ بهذه الآية زجرُ الكفَّار، وكان اللهُ بيَّن بإهلاكِـهم مـع قوَّتِـهم أنـه على إهلاك هؤلاء الكفار أقدرُ.

وقصَّة مدينة إرم ذات العماد ما روَى وهبُ بن منبه عن عبدِالله بن قُلابة: أنــه خرجَ في طلب إبلٍ له شرَدت. فبينما هو في صحَارى عــدَن، إذ وقـع علـى مدينـةٍ في تلك الفَلَوات، عليها حصنٌ وحولَ الحصنِ قصورٌ كثيرة وأعلامٌ طِوَال.

فلما دنَا منها ظنَّ أن فيها أحداً يسألهُ عن إبله، فلم يرَ خارجاً ولا داخلاً، فنَزل عن دابَّته وعقلَها، وسلَّ سيفَهُ ودخلَ من باب الحصنِ، فلما خلــفَ الحصـنَ وراءه إذ هو ببابَين عظيمين وخشبُهما من أطيب عود، والبابــان مرصَّعـان باليـاقوتِ الأبيـض والأحمر، ففتحَ أحدهما فإذا هو بمدينةٍ فيها قصورٌ، كلُّ قصر تحته أعمــدَةٌ مـن زبرجـد وياقوتٍ، وفوق كلِّ قصر منها غُرَف، وفوقَ الغـرف غـرفٌ مبنيَّة بـالذهبِ والفضـة واللؤلؤِ والياقوت، ومصاريعُ تلك الغرف من أطيب عود مرصَّعة باليـاقوتِ الأبيـض والأحمر، والغرفُ مفروشةٌ كلُّها باللؤلؤ والمسكِ والزعفران.

---

(١) في المخطوط: (عادان).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٤٥؛ قـال القرطـبي: (وقـال مَعْمَـرٌ: إرم: إليـه مجمـع عـادٍ وثمود، وكان يقال: عادُ إرَامَ، وعادُ ثمود).

(٣) في أحكام القرآن: ج ٤ ص١٩٣٠؛ قال ابن العربي: (وهو باطل؛ لأن في الصحيح أن الله خلـق آدم طوله ستون ذراعاً في الهواء، فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن). وينظر: البدايـة والنهايـة لابـن كثير: باب خلق آدم: ج ١ ص٨٧، ط دار إحياء التراث العربي.

ثم نظرَ في الأزقَّة فإذا في كلِّ زُقاق شجرٌ مثمر، وتحتَ الأشجار أنهار مطَّردة ماؤُها في مجاري من فضَّة. فقال الرجلُ: هذه هي الجنَّة التي وصفَها اللهُ تعالى في كتابهِ، فحملَ معه من لُؤلؤِها ومِسكِها وزعفرانِها، ورجعَ إلى اليمنِ وأعلمَ الناس بأمرهِ.

فبلغَ معاويةَ فأحضرَهُ وسألَ كعبَ الأحبار: هل في الدُّنيا مدينةٌ من ذهب وفضَّة؟ قال: نعم، قال: أخبرني مَن بنَاها ؟ قال: بناها شدَّادُ بن عاد، واسمُ المدينةِ إرَمُ ذاتُ العمادِ، وهي التي لم يُخلَقْ مثلُها في البلادِ. قال معاويةُ: فحدِّثني بحديثِها.

قال: يا معاويةُ إنَّ رجُلاً من عادٍ الأُولى كان له إبنان: شدَّاد وشديدُ، كان قد قهرَ البلاد وأخذها عُنوةً، وليس هو من قومِ هود، وإنما عادٌ هو من ذريَّته، فأقامَ شدَّادُ وشديد ما شاءَ الله أن يُقيما، ثم ماتَ شديد وبقي شدَّاد، فملَكَ وحده وتدانَتْ له ملوكُ الأرضِ، وكان وَلِعاً بقراءة الكُتب.

فلمَّا مرَّ فيها بذكرِ الجنَّة، دعَتْهُ نفسهُ إلى بناءِ مثلها عُتُـوّاً على اللهِ تعالى، فأمرَ ببناءِ هذه المدينة المذكورةِ، فأمَّر على صَنَعَتِها مائة أميرٍ، مع كل أميرٍ ألفٌ من الأعوانِ، وكتبَ إلى كلِّ ملكٍ في الدنيا أن يجمعَ له ما في بلادهِ من الجواهرِ، وكانت تحت يدهِ مائتانِ وستُّون ملِكاً.

قال معاويةُ: كم أقامَ في مدَّة بنائِها ؟ قال: أقَامُوا ثلاثمِائةِ سَنةٍ في بنائِها وعمارتِها. قال: فكم كان عمرُ شدَّاد ؟ قال: سبعُمائة سَنة، وإنما سَمَّاها اللهُ ذاتُ العمادِ؛ لأجل الأعمِدة التي تحتَها من الزبرجد والياقوتِ.

قال كعبٌ: فلما فرَغُوا من بنائها أعلَمُوا شدَّاداً بذلك فقال لَهم: انطَلِقوا واجعلوا فيها حِصناً واجعلوا حولَهُ ألفَ قصرٍ، عند كلِّ قصرٍ ألفَ علَمٍ حتى أجعلَ في كلِّ قصر وَزيراً من وُزرائي. فرجَعُوا فعملوا تلك القصور والأعلام والحصُون، ثم أتوهُ فأخبروهُ بفراغِ ذلك، فأمرَ الوُزَراء أن يتهيَّأُوا بالنقلةِ إليها، وأمرَ جُندَهُ ونساءَهُ وخدَمهُ أن يتجهَّزوا، فأقَامُوا في جهازهم عشرَ سنين.

ثم سارَ الملكُ بجيشٍ لا يُحصِي عدَدهم إلاّ اللهُ، فلما صارَ إليها، ليسكُنَها وبلغَ إلى أن صارَ بينه وبينها مسيرةَ يومٍ وليلة، بعثَ الله عليهم جَميعاً هو وجنودهُ ووزراؤه

صيحةً عظيمة من السَّماء فهلَكُوا ولم يبقَ منهم أحدٌ، ولم يدخل شـدَّاد ولا أحـدٌ مـن قومهِ تلك المدينةَ، ولم يقدر أحدٌ علىدخولِها إلى يـومِ القيامـة، وسـيدخلُها رجـلٌ مـن المسلمين في زمانِكَ ولا يبلغُها أحدٌ غيره أبداً.

قال معاويةُ: فهل تقدرُ أن تصِفَهُ يا أبا إسـحق ؟ قـال: نعـم؛ هـو رجـلٌ أحمـر قصير، على حاجبهِ خالٌ وعلى عُنقه خالٌ، يخرج في طلب إبـلٍ لـه فيقـعُ علـى تلـك المدينةِ، فيدخُلها ويحمل شيئاً مما فيها، وكان الرجلُ حينئذ مختفيـاً عنـد معاويـةَ، فقـام ليذهبَ، فالتفتَ كعبٌ التفاتةً فرآهُ، فقال: هو هذا يا أميرَ المؤمنين. فقـال لـه معاويـةُ: لقد فضَّلَكَ الله يا كعبُ على غيرِكَ من العُلماء. فقال: يا أميرَ المؤمنـين مـا خلـقَ الله شيئاً في الدُّنيا إلاَّ وقد فسَّرَهُ في التَّوراة لعَبدهِ موسى عليه السلام[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ ﴾؛ معناهُ: ألَـم تـرَ كيف فعلَ ربُّكَ بأصحاب ذاتِ العِمَادِ، (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بالْوَادِ) وهم قومُ صالح، كانوا يقطَعون الصخرَ، وينحِتُون من الجبال بُيوتاً آمِنين بقُرب المدينةِ التي كانوا نازلين فيها، ومعنى قوله (بالْوَادِ) القُرى. قال أهلُ التفسير: أوَّلُ مَن جـابَ الصَّخـرَ؛ أي قَطَعَ الصُّخورَ، ونحتَ الجبال والرُّخام ثمودُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾؛ عَطفاً على ثمود. واختلَفُوا في معنى (ذِي الأَوْتَادِ) قال بعضُهم: معناهُ: ذو الجنودِ والْجُمـوعِ. وقـال بعضُـهم: ذو الْمُلكِ الثابتِ، وجنودهُ الذين كانوا يشـدُّون أمـرَهُ، سُموا أوتـاداً؛ لأنَّ قِوامَـهُ بـهم. ويقالُ: معناه: أنه كان إذا غَضِبَ على أحدٍ مدَّهُ على الأرض، ووتَّدَ على رجليـهِ ويديـه ورأسهِ على الأرضِ بأربعة أوتادٍ حتى يموتَ مُمَدّاً[2]كما فعلَ بأمرِ امرأته آسِيَّةَ[3].

---

(١) لا أظن إلا أن هذه القصة مختلقة من نسج خيال القُصَّاص وأوهام خيالاتـهم، بـل ربمـا لتنفـث فكرة القدرية الغيبية في أذهان عامة المسلمين، وكنتُ أرجو أن يترفَّع أهلُ التفسير عن ذكـر مثـل هذه الإسرائيليات التي أفسدت أذهان عامة المسلمين وأضعفت الفهم للاسلام في عقولهم.

(٢) في المخطوط: (مدبا).

(٣) أخرج الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٧٨٣): (عن أبـي رافـع قـال: أوتـدَ فرعـون لامرأتـه أربعة أوتادٍ، ثم جعلَ على ظهرِها رحاً عظيمة حتى ماتت).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾؛ الذين أفرَطُوا في الظُّلم والفسادِ والكفر والقتلِ بغير حقٍّ، ﴿ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي صبَّ عليهم لَوناً من العذاب. وَقِيْلَ: وجعَ عذابٍ. وَقِيْلَ: هذا على الاستعارةِ؛ لأن السَّوطَ عند العرب غايةُ العذاب، يقال سَاطَهُ يَسُوطُهُ سَوْطاً؛ إذا خلطَهُ، والسَّوطُ مما يَخلطُ الدمَ واللحمَ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي بحيث يرَى ويسمع، وقال مقاتلُ: ((يَجْعَلُ رُصَداً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَرْصُدُ النَّاسَ عَلَى الصِّرَاطِ مَعَهُمُ الْكَلاَلِيبُ)). وقال الضحاكُ: ((بمَرْصَدٍ لأَهْلِ الظُّلْمِ وَالْمَعْصِيَةِ))[(٢)]. وقال عطاءُ: ((مَعْنَاهُ: إنَّ رَبَّكَ لاَ يَفُوتُهُ أحَدٌ، وَإنَّهُ لاَ مَحِيصَ عَنْهُ، وَهُوَ عَالِمٌ بهِمْ وَإلَيْهِ الْمَصِيرُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ﴾؛ معناهُ: فأمَّا الإنسانُ الذي لا يعرف نعمةً عليه عند سَعَةِ الرزق وتضييقه، ﴿ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾؛ فيقولُ عند السَّعة: ربي أكرمَني بالمال والسَّعة، ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾؛ ويقولُ عند ضيق الرِّزق عليه إذا كان رزقهُ على مقدار البُلغةِ: ربي أهانَنِي بالفقرِ، وضيق المعيشةِ، وأذلَّني بذلك، ولم يَشكُرِ الله على ما أعطاهُ من سَلامة الجوارحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي حاشَا أن يكون إكرامُ الله لعبادِهِ مَقصوراً على توسعةِ النِّعَمِ عليه، وأن تكون إهانةُ اللهِ لعباده مقصورةً على تضييقِ الرزق عليهم، بل يوسِّعُ الله تعالى النِّعَمَ على من يشاءُ على ما تقتضيه الحكمةُ. قالَ الحسنُ: ((أكْذبَهُمْ جَمِيعاً؛ يَقُولُ: مَا بالْغِنَى أكْرَمْتُ، وَلاَ بالْفَقْرِ أهَنْتُ)).

---

(١) يريد أن الجَلدَ بالسياط يخلط الدم واللحم في بدن المعذَّب؛ حين يُضرب؛ يقولون: ضرب فلان بالسِّياط، وهو ما تسبب في ظهور الازرقاق في الجلد بعد حين بسبب اختلاط الدم باللحم تحت الجلد: جامع البيان: التأويل في الأثر (٢٨٧٨٧) وما بعده.

(٢) أخرجه بمعناه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٧٩٠).

وقوله (كَـلاَّ بَـل لاَ تُكْرِمُـونَ الْيَتِيـمَ) معنـاهُ: لا يعرفـون حـقَّ اليتيـمِ بالعطيَّـة والصدقة، ولا يحفَظُون مالَهُ عليه، وفي هذا بيانٌ أنَّ إهانةَ الله إنما تكون بالمعصيةِ لا بما توهَّمَ الكافرُ. وروي أنَّ هذه الآيات نزَلت في أميَّة بن خلَف، كان في حجرهِ يتيمٌ كـان لا يحسنُ إليه ولا يعرفُ حقَّهُ.

ومعنى (كَلاَّ) ردٌّ عليه؛ أي لم أبتليهِ بالغنى لكرامتهِ علَيَّ، ولم أبتليهِ بالفقرِ لهوانهِ علَيَّ، والفقرُ والغنَى من تقديري وقضائي، فلا أكْرِمُ[1] من أكرمتهُ بـالغنَى، ولا أهـينُ من أهَنتهُ بالفقرِ، ولكني أكرمُ مَن أكرمتهُ بطاعتِي، وأهين مَـن أهنتـهُ بمعصيتِـي. قِيْـلَ: معناهُ: أهَنتُ مَن أهنتُ من أجلِ أنه لم يكرمِ اليتيمَ، قال ﷺ: [أنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ][2]. وقال: [كَافِلُ الْيَتِيمِ كَالصَّائِمِ لاَ يُفْطِرُ، وَكَالْقَائِمِ لاَ يَفْـتُرُ][3]، وَ [مَـنْ مَسَحَ عَلَى رَأسِ يَتِيمٍ تَعَطُّفاً عَلَيْهِ، كَتَبَ اللهُ لَـهُ بكُـلِّ شَـعْرَةٍ مَـرَّتْ عَلَيْـهَا يَـدُهُ عَشْـرُ حَسَنَاتٍ][4]. وقال عيسَى عليه السلام: ((الْفَقْرُ مَشَقَّةٌ فِي الدُّنْيَا مَسَـرَّةٌ فِـي الآخِـرَةِ، وَالْغِنَـى مَسَرَّةٌ فِي الدُّنْيَا مَشَقَّةٌ فِي الآخِرَةِ)).

قرأ ابنُ عامرٍ (فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) بتشديدِ الدال، وهما لُغتان، وكـان أبـو عمـرو يقول: ((قَدِرَ بمَعْنَى قَتَّرَ، وَقَدَّرَ هُوَ أنْ يُعْطِيَهُ مَا يَكْفِيهِ))[5] .

---

(١) في المخطوط: (فلا أكره) وهو غير مناسب. وأثبتناه كما في تفسير الثعلبي: ج ١٠ ص٢٠١.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٦ ص١٧٣: الحديث (٥٩٠٥). والإمام أحمـد في المسند: ج ٥ ص٣٣٣. والبخاري في الصحيح: كتـاب الطـلاق: بـاب اللعـان: الحديـث (٥٣٠٤)، وفي كتاب الأدب: باب فضل من يعول يتيماً: الحديث (٦٠٠٥).

(٣) في مجمع الزوائد: باب ما جاء في الأيتام: ج ٨ ص١٦٠؛ قال الهيثمي: (عن عائشـة... رواه أبـو يعلى والطبراني في الأوسط، وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات). وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٤٧٧٩).

(٤) في مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٦٠؛ قال الهيثمي: (عن أبي أمامة... رواه أحمد والطبراني وفيه علي ابـن يزيـد الألهـاني وهـو ضعيـف). وأخرجـه الإمـام أحمـد في المسـند: ج ٥ ص٢٥٠و٢٥٦. والطبراني في الكبير: ج ٨ ص٢٠٢: الحديث (٧٨٢١).

(٥) في المخطوط: (وكان أبن عمر يقول...) والصحيح كما أثبتناه؛ قال الطـبري: (وذكـر عـن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول...) وذكره. ينظر: جامع البيان: مج ١٥ ج ٣٠ ص٢٢٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي لا يحثُّون الناسَ على الصَّدقةِ على المساكين، قال عمرانُ بن الْحُصَين: [مَا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيباً إلاَّ وَحَثَّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَنَهَى عَنِ الْمَسْأَلَةِ][١].

واختلفَ القرَّاءُ في هذه الآيةِ، فقرأ أبو عمرو[٢] (يُكرِمُونَ) وما بعده بالياءِ كلها، وقرأ الباقون بالتاءِ، وقرأ أهلُ الكوفة (تَحَاضُّونَ) بالألفِ وفتح التاء؛ أي يَحُضُّ بعضُهم على ذلكَ والتَّحَاضُّ: الحثُّ، وروي عن الكسائي (تُحَاضُّونَ) بضم التاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي تأكُلون الميراثَ أكلاً شَديداً؛ أي تلمُّون بجميعهِ من قولهم: لَمَمْتَ ما على الْخِوَان؛ إذا أكلتَهُ أجمعَ، قال الحسنُ:(هُوَ أنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ نَصِيبَ نَفْسِهِ وَنَصِيبَ صَاحِبِهِ مِنَ الْمِيرَاثِ))[٣]، ويقال: أرادَ أكلَ ميراثِ اليتيمِ بغير حقٍّ؛ لأنه هو الذي سبقَ ذِكرُهُ، ويقال: المرادُ أن يصرفَ ما ورثَهُ من نصيب نفسه إلى الباطلِ.

وفائدةُ تخصيصِ الميراث التَّنبيهُ به على حُكمِ غيرِه؛ لأنه إذا منعَ عن الأكلِ[٤] أحلَّ أموالَهُ بالباطلِ، ففي أكلِ غير ذلك أولى، ويقال معنى (أكْلاً لَمّاً) أي يأكلُ نصيبَهُ ونصيبَ غيرِه، قال بكرُ بن عبدالله: ((اللَّمُّ: الاعْتِدَاءُ فِي الْمِيرَاثِ، يَأْكُلُ مِيرَاثَهُ وَمِيرَاثَ غَيْرِهِ))[٥].

وقال ابنُ زيد: ((اللَّمُّ: الَّذِي يَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ يَجِدْهُ وَلاَ يَسْأَلُ عَنْهُ أحَلاَلٌ هُوَ أمْ حَرَامٌ؟ وَيَأْكُلُ الَّذِي لَهُ وَلِغَيْرِهِ، وَذلِكَ أنَّهُمْ كَانُوا لاَ يُوَرِّثُونَ النِّسَاءَ وَلاَ الصِّبْيَانَ))[٦].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٨ ص٣٧٨: الحديث (٧٧٦٥)؛ عن الحسن قال: قال سمرة بن جندب، وقال الطبراني: (ولم يرو هذا الحديث عن يزيد بن إبراهيم إلا بهز بن أسد، تفرد به الرَّبالي).

(٢) في المخطوط: (ابن عمر).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٨٠١).

(٤) في المخطوط: (الكل).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٨٠٧).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٨٠٥). وابن أبي حاتم في التفسير: الرقم (١٩٢٧٩).

وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [مَنْ قَطَعَ مِيرَاثاً فَرَضَهُ اللهُ، قَطَعَ اللهُ مِيرَاثَهُ مِنَ الْجَنَّةِ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ ؛ أي حُبّاً كثيراً شَديداً، لا تنفقونهُ في سبيلِ الله، تحرصون عليه في الدُّنيا، وتعدِلون عن أمرِ الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) ﴾ ؛ معناهُ: كَلاَّ مَا هكذا ينبغي أنْ يكون الأمرُ، فلا تفعَلُوا ذلك، وانزَجِروا عنه وارتَدِعوا، و(كَلاَّ) كلمةُ رَدْعٍ وزجرٍ، ثم أوعدَهم فقال تعالى (إذا دُكَّتِ الأَرْضُ) أي ستَذكُرون وتندمون إذا زُلزلتِ الأرض، قصرت بعضها ببعضٍ حتى استَوت الأرضُ، وصارت كالصَّخرة الملساءِ، وتكسَّرَ كلُّ شيءٍ على ظهرِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) ﴾ ؛ أي وجاء أمرُ ربكَ بالمجازاةِ والمحاسَبة، والملائكةُ صُفوف صَفّاً بعدَ صفٍّ عند حساب الناس، يشاهدون ما يجري عليهم، ويقالُ: إن الملائكةَ يصُفون صَفّاً واحداً حولَ الجنِّ والإنس يُحيطون بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ ؛ جاء في التفسير: أنَّها تُقاد يومَ القيامة بسبعين ألفَ زمام، على كلِّ زمامٍ سبعين ألفَ ملَك، لها تغيُّظٌ وزفيرٌ، ويُكشَفُ عنها غطاؤُها حتى يراها العبادُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ ﴾ ؛ أي يتحسَّرُ ويندمُ على ما فاتَهُ لَمَّا رأى النارَ والعذاب، ﴿ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) ﴾ ؛ أي ومِن أين لـه في ذلك الوقتِ توبةٌ تنفعهُ، أو عِظَةٌ تُنجيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) ﴾ ؛ أي يا لَيتَني عملتُ في حياتي الفانية لحياتي الباقية، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ

---

(١) لم اقف عليه.

(٢) النازعات / ٣٦ .

أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ قراءة العامَّة بكسرِ الذال، و(يُوثِقُ) بكسر الثاءِ، معناهُ: لا يعذِّبُ كعذاب الله أحدٌ، ولا يوثِقُ كوثاقه أحدٌ.

وقرأ الكسائي ويعقوب بفتح الذال والثاء، ومعناه: لا يعذبُ عذابُ الكفار الذي لم يقدِّموا لحياتِهم أحدٌ، ولا يوثَقُ مثل وثاقهِ أحدٌ. قِيْلَ: إن هذا الإنسانَ المعذَّبَ أميةُ بنُ خلَفٍ الْجُمَحِيُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ﴾، المرادُ بها نفسُ المؤمنِ، يقولُ لها الملائكةُ عند قَبضِها، وإذا أعطيت كتابَها بيمينِها التي أيقنَت بأنَّ اللهَ ربُّها، وعَرفت توحيدَها خالقها فاطمأنَّت بالإيمانِ وعمِلت للآخرةِ، وصدَّقت بثواب الله، ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾؛ ارجعِي إلى ما أعدَّ اللهُ لكِ من نعيمِ الجنة، راضيةً عن اللهِ بالثواب، مرضيَّةً عنده بالإيمانِ والعمل الصالحِ، فادخُلي في جُملَةِ عبادي الصالِحين، وادخُلي جنَّتي التي أعِدَّت لكِ.

وقال مجاهدُ: ((مَعْنَاهُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُنِيبَةُ الَّتِي أيْقَنَتْ أنَّ اللهَ خَالِقُهَا، الْمُطْمَئِنَّةُ إلَى مَا وَعَدَ اللهُ، الْمُصَدِّقَةُ بِمَا قَالَ، الرَّاضِيَةُ بقَضَاءِ اللهِ الَّذِي قَدْ عَلِمَتْ بأَنَّ مَا أصَابَهَا لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهَا، وَمَا أخْطَأَهَا لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهَا))(١). وَقِيْلَ: معناهُ: المطمئنَّةُ بذكرِ الله المتوكِّلة على اللهِ، الواثقةُ بما ضَمِنَ لها من الرِّزق.

وعن عبدِالله بنِ عمرِو بنِ العاصِ قال: [إذا تُوُفِّيَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ أرْسَلَ اللهُ مَلَكَيْنِ مَعَهُمَا تُحْفَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لِنَفسِهِ: أيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، أخْرُجِي إلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٌّ عَنْكِ رَاضٍ. فَتَخْرُجُ كَأَطْيَب ريحِ الْمِسْكِ. فَتُشَيِّعُهَا الْمَلاَئِكَةِ فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: قَدْ جَاءَ مِنَ الأَرْضِ روحٌ طَيِّبَةٌ، فَلاَ تَمُرُّ بِبَابٍ إلاَّ فُتِحَ لَهَا، وَلاَ بمَلَكٍ إلاَّ صَلَّى عَلَيْهَا، وَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ: رَبَّنَا هَذا عَبْدُكَ فُلاَنٌ، كَانَ يَعْبُدُكَ وَلاَ يُشْرِكُ بكَ شَيْئاً. فَيَقُولُ اللهُ: يَا مِيكَائِيلَ اذْهَبْ بهَذِهِ النَّفْسِ، فَاجْعَلْهَا مَعَ أنْفُسِ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى أسْأَلَكَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (٢٨٨٣٣).

ثُمَّ يَأْمُرُ بِأَنْ يُوَسَّعَ عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ سَبْعِينَ ذِرَاعاً عَرْضُهُ، وَسَبْعِينَ ذِرَاعاً طُولُهُ، وَيُجْعَلُ لَهُ فِيْهِ نُوراً كَالشَّمْسِ، وَكَانَ كَالْعَرُوسِ يَنَامُ فَلاَ يُوقِظُهُ إلاَّ أحَبُّ أهْلِهِ إلَيْهِ، فَيَقُومُ مِنْ نَوْمِهِ كَأَنَّهُ لَمْ يَشْبَعْ مِنْهُ][1].

وعن جعفرَ عن سعيدٍ قال: قَرَأَ رَجُلٌ عِنْدَ رَسُول اللهِ (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إلَى رَبكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: مَا أحْسَنَ هَذا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ: [يَا أبَا بَكْرٍ إنَّ الْمَلَكَ سَيَقُولُهُ لَكَ][2].

آخر تفسير سورة (**الفجر**) والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٠٣-٢٠٤ مع اختلاف في بعض ألفاظه. وذكره القرطبي مختصراً في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٥٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٨٣٥). ونسبه السيوطي في الدر المنثور: ج ٨ ص٥١٣ إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن سعيد ابن جبير. وذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الحديث (٣٥٥٩١) عن أبي بكر ﷺ وفيه: [سيقولها لك عند الموت].

سُورَةُ الْبَلَـدِ

سُورَةُ الْبَلَـدِ مَكِّيَّـةٌ، وَهِـيَ ثَلاثُمِائَـةٍ وَعُشْـرُونَ حَرْفـاً، وَاثْنَتَـانِ وَثَمَـانُونَ كَلِمَـةً، وَعِشْرُونَ آيَةً. قَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: [مَـنْ قَرَأَهَـا أعْطَـاهُ اللهُ الأَمْـنَ مِـنْ غَضَبِـهِ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ ﴾ ؛ يعني مكَّة، أقسَـمَ اللهُ بـها إعْظَامـاً لهـا، وحرف (لاَ) زائدةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ ﴾ ؛ أي وأنتَ -يا مُحَمَّدُ- حِلٌّ بمكَّة، يعني: وأنتَ مقيمٌ فيها، وقيل: أنتَ حَلالٌ فيها، تصنعُ ما تريدُ مـن القتلِ والأسرِ، يعني: وأنتَ حلالٌ لكَ أن تتصرَّفَ فيها، وذلك أنَّ اللهَ تعالى أحلَّ لنبيِّه ﷺ مكَّة يومَ الفتحِ حتى قاتلَ، وقتَـلَ ابـن خَطَـلٍ[2] وهـو متعلِّـقٌ بأسـتار الكعبَـة، ومِقْيَسُ بن صُبَابَة[3] وغيرَهُما[4].

---

(١) رواه الثعلبي عن أبي بإسناد ضعيف، وقد تقدم وسيأتي.

(٢) في المخطوط:(ابن حنظل)، والصحيح هو عبدالله بن خطل، كان معلقاً بأستار الكعبة، فقتله أبو برزة الأسلمي بأمر رسول الله ﷺ. أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٨٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٥١٧؛ قال السيوطي: (أخرجـه ابـن مردويـه عن أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: [فِيَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ]). وفي السيرة النبوية لابـن هشـام: ج ٤ ص٥٣؛ قال: قتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو بزرة الأسلمي.

(٣) ذكره مقاتل في التفسـير: ج ٣ ص٤٨٥. ويقـال: مقيـس بـن حُبَابـة أو خبابـة. قتلـه نُمَيلَـةُ بـن عبدالله، رجل من قومه. ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص٥٢-٥٣.

(٤) وغيرهما، كالحويرث بن نُقَيذِ بنِ وهبٍ، وهو الذي آذى ابنتي رسول الله ﷺ فاطمة وأم كلثوم، قتله علي بن أبي طالب. ينظر: السيرة النبوية: ج ٤ ص٥٢-٥٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ ﴾؛ فهذا قسَمٌ بآدمَ وذريَّته، وجواب القسَمِ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي في شدَّةٍ من حين يَنفُخ فيه الروحَ إلى أن يصلَ إلى الآخرةِ، ليعلم أنَّ الدُّنيا دارُ كَدٍّ ومشقَّة، والجنةُ دار الراحةِ والنعمة. والمكابدَةُ في اللغة: هو أن يُكَابدَ الإنسان أمرَ المعاشِ والمعاد، قال الحسنُ: ((تُكَادُ مَصَائِبُ الدُّنْيَا، وَشَدَائِدُ الآخِرَةِ، لاَ تَلْقَى ابْنَ آدَمَ إلاَّ يُكَابدُ أمْرَ الدُّنْيَا فِي مَشَقَّةٍ))(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ ﴾؛ كنايةٌ عن الإنسان، وقد جاءَ في التفسير: أنه نزلَ في أبي الأشَدِّ بن كَلَدَةَ الْجُمَحِيِّ، كان قويّاً شَديداً يضعُ الأديمَ العُكاظيَّ فيقفُ عليه ويقولُ: من أزالَني عنه فلَهُ كذا وكذا، فيجتمعُ عليه عشرةُ أقوياءٍ ويجرُّون الأديمَ، فكان ينقطعُ الأديمُ ولا تزولُ قدمَاهُ عن مكانِهما.

والمعنى: يظنُّ هذا الكافرُ بشدَّتهِ وقوَّته أنْ لن يقدرَ عليه أحدٌ؛ أي على أخذهِ وعقوبته أحدٌ، وأنْ لَنْ يُبعثَ(٢)، واللهُ قادرٌ عليه، فيقالُ: إنه لَمَّا نزلَ ذلك حُصِرَ بطنهُ وانحصرَ بولهُ فكان يتمرَّغُ في التراب ويقولُ: قتَلَنِي ربُّ مُحَمَّدٍ(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ ﴾؛ يعني هذا الكافرَ المذكورَ يقولُ: أهلكتُ مَالاً كثيراً في عداوةِ مُحَمَّدٍ وأصحابهِ فلم ينفَعني ذلك. واللُّبَدُ: كلُّ ما لُبِدَ بعضهُ على بعضٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ ﴾؛ معناه: أيظنُّ أنه لم يُحْصِ عليه ما أنفقَ، وأنه لا يُسأل عنه مِن أين اكتسبَهُ، وفيمَ أنفقَهُ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ ﴾؛ ذكرَ الله مِنَّتَهُ عليه فقال: ألَمْ نجعل له عينَين يبصرُ بهما، ولِسَاناً يتكلَّمُ به، وشفتَين يستعينُ بهما على الكلامِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٨٧٢ و٢٨٨٧٣).

(٢) في المخطوط: (وألَّن يبعث).

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٩٧٩. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٦٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي وبيَّنا لـه وعرَّفناهُ الخير والشرَّ، ليسلكَ طريقَ الخيرِ، ويجتنبَ طريقَ الشرِّ، وعن رسول الله ﷺ: أنَّهُ قَرَأَ (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) وَقَالَ: [أيُّهَا النَّاسُ إنَّهُمَا نَجْدَان: نَجْدُ الْخَيْرِ، وَنَجْدُ الشَّرِّ][1].

وَقِيْلَ: معنى (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ): أَلْهَمنَاهُ مصَّ الثَّديين، والثديَان همـا النَّجدان، وهذا قولُ سعيدِ بن المسيَّب والضحاك، وروايةٌ عن ابنِ عبَّاس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ ﴾؛ معناهُ: فلا جادَ بمالهِ بإنفاقه في طاعةِ الله، وهلاَّ دخلَ في عملِ البرِّ، وأنفقَ مالَهُ في فكِّ الرِّقاب وإطعامِ الجياعِ ليجاوزَ العقبةَ، فيكون خَيراً له من إنفاقهِ في عداوة مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقال مجاهدُ والضحَّاك والكلبيُّ: ((يَعْنِي بالْعَقَبَةِ الصِّرَاطَ، يُضْرَبُ عَلَى جَهَنَّمَ كَحَدِّ السَّيْفِ مَسِيرَةَ ثلاثَةِ آلاَفِ سَنَةٍ سَهْلاً وَصُعُوداً وَهُبُوطاً، بِجَنْبَيْهِ كَلاَلِيبُ وَخَطَاطِيفُ كَأنَّهَا شَوْكُ السَّعْدَانِ، فَنَاجٍ سَالِمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمُكَرْدَسٌ فِي النَّار مَنْكُوسٌ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ كَالْفَارِس، وَمِنْهُمْ كَالرَّجُلِ يَعْدُو، وَمِنْهُمْ كَالرَّجُلِ يَمْشِي، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزحَفُ وَمِنْهُمُ الزَّالِقُ. وَاقْتِحَامُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِ كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إلَى الْعِشَاءِ)).

وقال قتادةُ: ((هَذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى، يُقَالُ: إنَّ الْمُعْتِقَ وَالْمُطْعِمَ يُقَاحِمُ نَفْسَهُ وَشَيْطَانَهُ مِثْلَ مَنْ يَتَكَلَّفُ صُعُودَهُ))، قال ابنُ زيدٍ: ((مَعْنَى الآيَةِ: فَهَلاَّ سَلَكْتَ الطَّرِيقَ الَّذِي فِيهَا النَّجَاةُ))[2].

ثُمَّ بيَّن مـا هـي، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ ﴾؛ تعظيمُ لشأنِ العقبةِ، تقولُ: ما أعلمَكَ يا مُحَمَّدُ بأيِّ شيء تجاوزُ عقبةَ الصِّراط، قـال سُفيان

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٢٢؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن ﷺ ...) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: النصوص (٢٨٨٩٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٩٠٩).

بن عُيَينة: ((كُلُّ شَيْءٍ قَالَ اللهُ فِيْهِ: (وَمَا أَدْرَاكَ) فَإِنَّهُ أَخْبَرَ بِهِ، وَمَا قَالَ فِيْهِ: (وَمَا يُدْرِيكَ) فَإِنَّهُ لَمْ يُخْبِرْهُ))[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ من قرأ بضمِّ الكافِ فمعناهُ: اقتِحامُها فكُّ رقبَة من رقٍّ أو شر أو ظُلمِ ظالِم أو من سُلطان جائرٍ. والاقتحامُ: الدُّخول في الشَّيء على الشدَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ منكَ، ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ لاصِقاً بالتُّراب من الجهدِ والفاقة، ويقالُ: إن الْمَتْرَبَةَ شدَّةُ الحاجةِ إذا افتقرَ. ومَن قرأ (فَكَّ) بالنصب (أَوْ أَطْعِمْ) فمعناهُ: أفلاَ فكَّ الرقبةَ وهلاَّ أطعَمَ في يومٍ ذي مَسغبَة.

وعن البراءِ بن عازبٍ قال: جَاءَ أعْرَابيٌّ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي عَمَلاً يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: [لَئِنْ كُنْتَ أقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ: فُكَّ الرَّقَبَةَ وَأعْتِقِ النَّسْمَةَ] قَالَ: أوَلَيْسَا سَوَاءً يَا رَسُولَ اللهِ ؟! قَالَ: [عِتْقُ النَّسْمَةِ أنْ تَنْفَرِدَ بعِتْقِهَا، وَفَكُّهَا أنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا، فَإنْ لَمْ تُطِقْ ذلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إلاَّ مِنْ خَيْرٍ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ أفعالَ القُرْب إنما تنفعهُ إذا كان معَ ذلك من الذين آمَنُوا. وحرفُ (ثُمَّ) ههنا للتَّرادُف في الإخبار، لا للترادُفِ في الحالِّ، كأنه قالَ: وكان مُؤمناً قبلَ ذلك مِن الذين يتواصَون بالصبرِ. ويجوزُ أن يكون معناهُ: فعَلَ ذلك ثُمَّ ثبتَ على الإيمانِ إلى أنْ يلقَى اللهَ تعالى.

---

(١) ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب: ج ٢٠ ص٣٤٨.

(٢) في مجمع الزوائد: كتاب العتق: باب العتق والإعانة: ج ٤ ص٢٤٠؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد ورجاله ثقات). وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٢ ص٢٧٨ عن أبي موسى الأشعري: الحديث (١٤٩٠) بإسناد ضعيف.

وقولهُ تعالى: (وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ) أي وصَّى بعضُهم بعضاً بالصبرِ على طاعـةِ الله، والصبرِ عن معاصيه، (وَتَوَاصَوْا بالْمَرْحَمَةِ) أي وأوصَى بعضُهم بعضاً بالتَّراحُم على الناسِ واليتَامَى والمساكين والضعيفِ والمظلوم، وفي الحديث: [مَنْ لَمْ يَرْحَـمِ النَّـاسَ لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ][1].

وقولهُ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ ﴾ معناهُ: أولئكَ الذين اجتمَعت فيهم هذه الخصالُ هم أصحابُ اليُمْنِ والبركةِ، وهم الذين يُعطَـون كُتبَـهم بأيمانِـهم، ويؤخذُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ ﴾ ؛ أي هـم أصحابُ الشُّؤم على أنفُسِهم، وهم الذين يُعطَون كُتبَهم بشمائلِهم، ويؤخذُ بهم ذاتَ الشِّمال ((إلى)) النـار. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠ ﴾ ؛ أي مُطبَقَـة أبوابُها عليهم مسدودةٌ، من قولِكَ: أوصدتُ البابَ وأوصدْتهُ إذا أطبقتَهُ، ومَنه سُـمِّيَ البابُ الوصيدَ.

قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْبَلَدِ أعْطَاهُ اللهُ الأَمَانَ مِنْ غَضَبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][2].

آخر تفسير سورة (**البلد**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٤ ص٤٣٧: الحديث (٣٧٣٣) عن ابن مسعود، وقـال: تفرد به إسماعيل بن عياش.

(٢) تقدم في بدء السورة.

سُورَةُ الشَّمْسِ

سُورَةُ الشَّمْس مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَتَان وَسَبْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ حَرْفاً، وَأَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسَ عَشْرَةَ آيَةً. قالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ عَلَى كُلِّ مَنْ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ ﴾ ؛ أقسمَ اللهُ سبحانه بالشمسِ ونحوها مما ذكرَهُ من أوَّلِ السُّورة لما فيها من دلائلِ وحدانيَّة اللهِ تعالى فقالَ (وَالشَّمْس وَضُحَاهَا) أرادَ بالضُّحى ارتفاعَها، قال مجاهدُ: ((مَعْنَاهُ: وَالشَّمْسِ وَضَوْئِهَا))[2] ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ ﴾ ؛ أي إذا تَبعَ الشَّمسَ وطلعَ بعد غُروبها، وذلك في أوَّلِ ليلةِ الهلال إذا سقَطت الشمسُ ريءَ[3] الهلالُ، وكذلك في نصفِ الشَّهر إذا غرَبت الشمسُ يتبعُها القمرُ في الطلوعِ من المشرقِ، وأخذ موضعَها وصار خلفَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ ﴾ ؛ أي إذا بيَّن الشمسَ، وذلك أن الشمسَ إنما تضيءُ وتتبيَّن إذا انبسطَ النهارُ، وأما في حال طلُوعِها فهي تطلعُ لا نورَ لها، ثم يضحِّيها اللهُ تعالى. ويجوز أن يكون معناهُ: إذا جلاَّ ظُلمةَ الليلِ أو جلاَّ الدُّنيا، فيكون هذا كنايةً عن غيرِ مذكور، وقولُه: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ ﴾ ؛ أي إذا يغشَى الشمسَ فيذهبُ بنورها، وتُظلِمُ الدنيا عند غروبها.

---

(١) رواه الثعلبي عن أبي بإسناد ضعيف. ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٢٠ ص٣٦٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٩٤٠).

(٣) ريء: أصلهُ (رئي) قدمت الياء على الهمزة، أو رُؤِيَ الهلالُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ ﴾ ؛ أي والسَّماء وما بناهَا؛ وهو تأليفُها الذي نشاهدهُ في سعَتِها، وارتفاعِ سَمكِها، وقرارها بغير عمَدٍ. و(مَا) مع الفعلِ بتأويل المصدر، ويجوز أن يكون معناهُ: والسماءِ والذي بنَاها كما يقال: سبحانَ من سبَّحتُ له وسبحانَ من سبَّحَ الرعدُ بحمدهِ[1].

والمعنى(والسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا)أي ومَن خلقَها، وهو اللهُ تعالى كما قال تعالى ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾[2] ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾[3] وعلى هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ ﴾ ؛ معناه على القولِ الأول: والأرضِ وطَحوِها وهو بسطُها على وجهِ الماء، وعلى القولِ الثاني والأرضِ ومَن طحَاها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ ؛ معناه على القولِ الأوَّل: والأنفسِ كلِّها وتسويتُها باليدينِ والرجلين والعينينِ والأذنين وغيرِ ذلك من الحواسِّ، وما ألْهَمَها اللهُ من طريقِ فجُورها لتترُكَهُ، وطريقَ تقواها لتلزمَهُ، فعَرفَتْ ذلك بأدلَّة اللهِ، وعلى القولِ الثاني: ونفسٍ ومَن سوَّاها، فبيَّن لها ما تأتِي، وما تبقي، وخذلَها للفجور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾ ؛ جوابُ القسَمِ، يقولُ: قد فازَ ونَجا من طهَّرَ نفسَهُ بالإيمانِ والطاعةِ فصار زاكياً طَاهراً بنعيمِ الجنة، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ ؛ أي وقَد خَسِرَ من دسَّ نفسَهُ؛ أي أهملَها في الكفرِ والمعاصي.

ويقال: معناهُ: قد أفلحَ من زكَّى اللهُ نفسَهُ؛ أي أصلحَها اللهُ وطهَّرَها من الذنوب ووفَّقَها للتقوَى، وقد خابَ وخسِرَ مَن دسَّاها، دسَّا اللهُ نفسَهُ أي شهَرَها وأخذلَها وأخملها وأخفَى محملها حتى عمِلت بالفجور وركَبتِ المعاصي. وَقِيْلَ: معنى (دَسَّاهَا) أغوَاها وأضلَّها وأثَّمَها وأفجرَها. وقال ابنُ عبَّاس: ((أهْلَكَهَا)).

---

(١) هو معنى قول الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٢٥٣؛ قال: (وقيل: معنى (ما) ههنا معنى (مَنْ).) وأصله قاله الطبري في جامع البيان: ج ٣٠ ص٢٦٣.

(٢) النساء / ٣ .

(٣) النساء / ٢٢ .

والأصلُ في جواب القسَمِ أن يقالَ: (لَقَد أفلحَ) باللامِ، وإنما حُذفت؛ لأن الكلامَ إذا طالَ صار طولهُ عِوَضاً من اللامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي كذبت قومُ صالح الرسُل بطغيانِهم، والطَّغْوَى مصدرٌ كالفتوَى والدَّعوَى، والمعنى: كذبت ثمودُ بطغيانِها وعُدوانِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي حين قامَ أشقَاها لعقر الناقةِ، وصار هو السببَ لهلاكِ الكلِّ. قِيْلَ: إنه كان أشقَاهُم رجلٌ يقال له مُصدِّع، وهو الذي ابتدأ عقرَها، وقال الكلبيُّ: ((كَانَا اثْنَيْنِ مُصدِّع وقُدَار)). والمعنى إذِ انبعثَ أشقَاها، وإنما ذكرَها بلفظ التأنيثِ؛ لأنَّ الهاء راجعةٌ إلى القبيلةِ، وَقِيْلَ: المرادُ بقولهِ (أشْقَاهَا) قِدَارُ بنُ سالف، وكان رجُلاً أشقرَ أزرقَ قصيراً ملتزقَ الخلقِ، واسم أمه قديدةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي قالَ لهم صالحُ ﷺ: احذرُوا ناقةَ اللهِ التي هي الآيةُ الدالَّة على توحيدهِ أن تُصيبُوها بمكروهٍ فتُؤخَذُوا بذلك، واحذرُوا سُقيَاها؛ أي شُربَها ونوبَتها؛ أي لا تُزاحموها في يومِها. هذا نُصْبٌ كما يقال: الأسَدَ الأسَدَ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ ؛ أي فكذبوا صَالحاً فيما قالَ لهم: إنَّكم إنْ أصَبتُموها بسوءٍ أخذكم عذابُ يوم عظيم، فعقَروها وقتَلوها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي فأطبقَ عليهم بالصَّيحة، وأرجفَ بهم الأرضَ، ودمَّر عليهم، يقالُ: دَمْدَمْتَ على الميْت إذا أطبقتَ عليه القبرَ.

---

(١) أي (ناقةَ) منصوبٌ على التحذير، كقولك: الحِذارَ الحِذارَ، الصبيَّ الصبيَّ، الأسدَ الأسدَ، أي احذروا ناقةَ الله.

قال ابنُ الأنباريِّ: ((أصْلُ الدَّمْدَمَةِ: الْغَضَبُ))[١] والمعنى: غَضِبَ عليهم ربُّهم فسوَّى عليهم العقوبةَ، فلم ينفَلِتْ منهم صغيرٌ ولا كبير. ويجوزُ أن يكون معناهُ: فسوَّاها؛ أي سوَّى الأرضَ عليهم حتى لم يُرَ لهم أثرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي ولا يخافُ اللهُ عاقبةَ إهلاكِهم. وَقِيْلَ: إنَّ قولَهُ تعالى (وَلاَ يَخَافُ) راجعٌ إلى رسولِهم صالِحُ عليه السلام، كان لا يخافُ عند التدميرِ من عاقبةِ أمرهم. وَقِيْلَ: هو راجعٌ إلى قولهِ تعالى (إذِ انْبَعَثَ أشْقَاهَا) كأنه قالَ: قامَ لعقرِها وهو كالآمِنِ من نُزولِ الهلاكِ به وبقومهِ جَهلاً منهُ.

آخر تفسير سورة (**الشمس**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) قاله ابن الأنباري في الزاهر: ج ١ ص٢٨٩، تحقيق د. حاتم صالح الضامن- العراق.

سُورَةُ اللَّيْلِ

سُورَةُ اللَّيْلِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاثُمِائَةٍ وَعَشْرَةُ أحْرُفٍ، وَإحْدَى وَسَبْعُونَ كَلِمَةً، وَإحْدَى وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا أعْطَاهُ اللهُ حَتَّى يَرْضَى، وَعَافَاهُ مِنَ الْعُسْرِ، وَيَسَّرَ لَهُ الْيُسْرَ].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ ﴾؛ أقسَمَ اللهُ بالليلِ إذا يغشَى الأُفُقَ، ويعمُّ الأشياءَ كلَّها بالظلام، ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾؛ أي أضاءَ، وأنارَ، وذهبَ بظُلمةِ الليلِ، ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ ﴾؛ وأقسَمَ بخلقةِ الذكرِ والأُنثى لإبقاءِ النَّسلِ، وَقِيْلَ: معناهُ: ومَن خلقَ الذكر والأُنثى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾؛ أقسَمَ اللهُ بهذه الأشياءِ لِمَا فيها من دلائلِ وحدانيَّة الله على أنَّ أعمالَ العبادِ في الدُّنيا مختلفةٌ، منهم مَن يريدُ الدنيا فيجعلُ سَعيَهُ لها، ويعملُ في هلاكِ رَقبته، ومنهم مَن يريدُ الآخرة ويجعلُ سعيَهُ لها، ويعملُ في فِكَاكِ رقبتهِ، وشتَّان ما بين العمَلين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ ﴾؛ بيَّن اللهُ اختلافَ سَعيهم بقولهِ: فأمَّا مَن أعطَى الحقوقَ من مالهِ، واتَّقى المعاصيَ واجتنبَ المحارمَ، ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ ﴾؛ أي أيقنَ بالخلفِ في الدُّنيا، والثواب في الآخرة، وَقِيْلَ: معناهُ: وصدَّقَ بالجنةِ، ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ ﴾؛ فسنوفِّقهُ للعودِ إلى الطاعةِ مرَّة بعد أخرى لتسهل[1] عليه طريقَ الجنة. وعن أبي الدَّرداءِ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: [مَا مِنْ يَوْمٍ غَرَبَتْ شَمْسُهُ إلاَّ وَمَلَكَانِ يُنَادِيَانِ: اللَّهُمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَأعْطِ مُمْسِكاً

---

(١) في المخطوط: (تسهل).

تَلَفاً][1]. وقال الضحَّاك: ((مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَصَدَّقَ بالْحُسْنَى) بـ: لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ))[2]. وَقِيْلَ: إنَّ هذه الآيَةَ نزلت في أبي بكرٍ ﷺ[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي بَخِلَ بمالهِ، ومنعَ ما يلزمهُ من حقوقِ الله، واستغنَى عن ربه، ولم يرغَبْ في ثوابهِ، فعمِلَ عملَ مَن يستغني عن اللهِ، ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ وكذب بثواب المصدِّقين في الجنةِ، وكذبَ بالتوحيدِ والنبوَّة، ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي يخذلُه بمعاصيهِ ومصيرهُ النار، والمرادُ به أبو جهلٍ، ويدخلُ فيه كلُّ مَن عمِلَ مثلَ عملهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي ما ينفعُ هذا الكافرَ الذي بَخِلَ بماله كثرةُ مالهِ بعد موتهِ إذا هوَى وسقطَ في هوى النار، لم يؤدِّ منهُ فريضةً، ولا وَصَلَ منه رَحِماً. وقال مجاهدُ: ((مَعْنَى (إذا تَرَدَّى): إذا مَاتَ))[4]، وقال قتادةُ: ((إذا هَوَى فِي جَهَنَّمَ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي أنْ نبيِّنَ طريقَ الهدى من طريقِ الضَّلالة، وأن نبيِّن الحقَّ من الباطلِ، وقال الفرَّاء: ((مَعْنَاهُ: مَنْ سَلَكَ الْهُدَى فَعَلَى اللهِ سَبيلُهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبيلِ﴾[5]))[6] ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وإنَّ لنا للآخرةِ، فنُعطي منها ما شِئنا على ما توجبهُ الحكمة لِمَن كان أهلاً لذلك، وإن لنا للأولى وهي الدُّنيا، فنُعطي منها مَن نشاءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي خوَّفتُكم يا أهلَ مكة إنْ لم تؤمنوا بالقرآن ناراً تتوقَّدُ وتتوهَّجُ. ولا يجوز أن يكون هذا بمعنى الماضِي؛ لأنه لو كان مَاضياً لقيلَ: تلظَّتْ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٠١٠).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠٠٦).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠١١).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠٢٧).
(٥) النحل / ٩ .
(٦) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٢٧١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾، أي لا يدخُلها ولا يلزمُها إلاَّ الأشقَى في علمِ الله تعالى، ﴿ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾؛ وهو الكافرُ الذي كذبَ بتوحيدِ الله تعالى والقرآن، وأعرضَ عنِ الإيمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي سيُباعَدُ عنها التقيُّ، ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي لم يفعَلْ مجازاةً لبرٍّ أسدِيَ إليه ولا لمثابةِ الدُّنيا، ولكن أعطى ما أعطَى لطلب ثواب الله ورضاهُ، ولسوفَ يُعطيهِ اللهُ في الآخرة من الثواب حتى يرضَى.

قِيْلَ: إنَّ قولَهُ (وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى) إلى آخرِ السُّورة نزلت في أبي بكرٍ ﷺ، حدَّثنا هشامُ بنُ عروة عن أبيهِ: ((أنَّ أبَا بَكْرٍ ﷺ أعْتَقَ سَبْعَةً، كُلُّهُمْ كَانُوا يُعَذبُونَ فِي اللهِ تَعَالَى، وَهُمْ: بلاَلُ؛ وَعَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ شَهدَ بَدْراً وَأحُداً وَقُتِلَ يَوْمَ بئْرِ مَعُونَةَ شَهيداً. وأمُّ عُمَيس وَزَنِيرَةَ، فَأُصِيبَ بَصَرُهَا حِينَ أعْتَقَهَا، فَقَالَتْ قُرَيْشُ: مَا أذْهَبَ بَصَرَهَا إلاَّ اللاَّتُ وَالْعُزَّى! فَقَالَتْ:كَذبُوا وَثَبَّتَها اللهُ، فَرَدَّ اللهُ بَصَرَهَا. وَأعْتَقَ النَّهْدِيَّةَ وَابْنَتَهَا، وَكَانَتَا لاِمْرَأةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّار، وَمَرَّ بجَاريَةِ بَنِي مُؤَمَّلٍ حَيّ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَكَانَتْ مُسْلِمَةً، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب يُعَذبُهَا لِتَرْكِ الإسْلاَمِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْركٌ، فَاشْتَرَاهَا أبُو بَكْرٍ فَأعْتَقَهَا.

فَأمَّا بلاَلٌ فَكَانَ لِبَعْضِ بَنِي جَمْحٍ مُوَلَّداً مِنْ مُوَلَّدِيهِمْ وَهُوَ بلاَلُ بْنُ رَبَاح، وَكَانَ اسْمُ أمِّهِ حَمَامَةً، وَكَانَ صَادِقَ الإسْلاَمِ طَاهِرَ الْقَلْب، وَكَانَ أمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ الْجَمْحِيُّ يُخْرِجُهُ إذا حَمِيَتِ الظَّهِيرَةُ فَيَطْرَحُهُ عَلَى ظَهْرِهِ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ، ثُمَّ يَأمُرُ بالصَّخْرَةِ الْعَظِيمَةِ، فَتُوضَعُ عَلَى صَدْرِهِ، وَيُقَالُ لَهُ: لاَ تَزَالُ هَكَذا حَتَّى تَمُوتَ أوْ تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ وَتَعْبُدَ اللاَّتَ وَالْعُزَّى، فَيَقُولُ وَهُوَ فِي ذلِكَ الْبَلاَءِ: أحَدٌ أحَدٌ.

فَمَرَّ بهِ أبُو بَكْرٍ يَوْماً وَهُمْ يَصْنَعُونَ بهِ ذلِكَ، فَقَالَ لأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ: (ألاَ تَتَّقِي اللهَ فِي هَذا الْمِسْكِينِ؟ حَتَّى مَتَى؟) فَقَالَ: أنْتَ أفْسَدْتَهُ فَأنْقِذْهُ مِمَّا تَرَى. فَقَالَ أبُو بَكْرٍ:(عِنْدِي غُلاَمٌ أسْوَدُ أجْلَدَ مِنْهُ، وَأقْوَى عَلَى دِينِكَ أعْطِيكَهُ بهِ). قَالَ: قَدْ قَبلْتُ، قَالَ: (هُوَ لَكَ). فَأعْطَاهُ أبُو بَكْرٍ غُلاَمَهُ ذلِكَ وَأخَذ بلاَلاً فَأعْتَقَهُ. فَقَالُوا: لَوْ أبَيْتَ أنْ تَشْتَرِيَهُ إلاَّ بأُوقِيَّةٍ لَمَا مَنَعْنَاكَ. فَقَالَ أبُو بَكْرٍ: (وَلَوْ أبَيْتُمْ إلاَّ بمائَةِ أوْقِيَّةٍ لأَخَذْتُهُ).

وَأمَّا النَّهْدِيَّةُ وَابْنَتُهَا فَكَانَتَا لامْرَأةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّار، مَرَّ بِـهِمَا أبـو بَكْـرٍ وَهُمَـا يَطْحَنَان، وَسَيِّدَتُهُمَا تَقُولُ: وَاللهِ لاَ أعْتِقُكُمَا أبداً، فَقَالَ لَهَا أبو بَكْرٍ: (يَا أمَّ فُـلاَنٍ خَـلِّ عَنْهُمَا)، فَقَالَتْ: بَلْ أنْتَ خَلِّ عَنْهُمَا، أنْتَ أفْسَدْتَهُمَا، فَقَالَ: (بِكَمْ هُمَا؟) قَالَتْ: بِكَذَا وكَذَا، قَالَ:(أخَذْتُهُمَا بذلِكَ وَهُمَا حُرَّتَان للهِ تَعَالَى) ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: (قُومَـا وَارْبَعَـا لَـهَا طَحِينَهَا)، قَالَتَا: ألاَ نَفْرَغُ مِنْ طَحِينِهَا وَنَرُدُّهُ إلَيهَا ؟ قَالَ: (ذلِكَ إلَيْكُمَا إنْ شِئْتُمَا).

فَقَالَ أبو قُحَافَةَ لأَبي بَكْرٍ: (يَا بُنَيَّ إنِّي أرَاكَ تُعْتِقُ رقَاباً ضِعَافاً، فَلَوْ أنَّكَ أعْتَقْتَ رجَالاً جِلاَداً يَمْنَعُونَكَ وَيُقَوِّمُونَ دُونَكَ؟) فَقَالَ أبو بَكْرٍ: (يَا أبَهْ إنِّي إنَّمَا أريدُ اللهَ)، فَنَزَلَ فِيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأمَّا مَن أعطَى وَاتَّقى، وَصَدَّقَ بالْحُسْنَى..) إلَى قَوْلِـهِ: (وَمَـا لأحَـدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى) إلَى آخِرِ السُّورَةِ))[١].

وعن سعيدِ بن المسيَّب قال: ((بَلَغَنِي أنَّ أمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ الْجُمَحِيَّ قَالَ لأَبي بَكْرٍ حِينَ طَلَبَ مِنْهُ أنْ يُعْطِيَهُ بلاَلاً قَالَ لَـهُ: لاَ أبيعُـهُ مِنْـكَ إلاَّ بغُلاَمِـكَ مِنْطَـاس، وَكَـانَ مُشْرِكاً، فَرَاوَدَهُ أبو بَكْرٍ عَلَى الإسْلاَمِ فَأبَى، وَكَانَ لِمِنْطَاسَ عَشْرَةُ آلاَفِ دِينَاراً وَمَوَاشٍ وَجَوَارٍ.

فَرَاوَدَهُ أبو بَكْرٍ عَلَى الإسْلاَمِ، وَيَكُونُ مَالُهُ لَهُ فَأبَى، فَأبْغَضَهُ أبو بَكْرٍ، فَلَمَّا قَـالَ لَهُ أمَيَّةُ ذلِكَ بَاعَهُ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: مَا فَعَلَ أبو بَكْرٍ ذلِـكَ لِبـلاَلٍ إلاَّ لِيَـدٍ كَـانَتْ لِبلاَلَ عِنْدَهُ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَمَا لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْـزَى))﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾؛ بثواب الله في العُقبى عِوَضاً عمَّا فعـلَ في الدُّنيا[٢].

آخر تفسير سورة (**الليـل**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ١٠ ص٣٤٤١ مختصراً. وأخرج بعضه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩٩٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٢٠. وحكاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٨٩.

سُورَةُ الضُّحَى

سُورَةُ الضُّحَى مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَاثْنَان وَتُسْعُونَ حَرْفاً، وَأرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَإحْدَى عَشَرَة آيَةً. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا كَانَ فِيمَنْ يَرْضَاهُ اللهُ لِمُحَمَّدٍ أنْ يَشْفَعَ، وَيُكْتَبُ لَهُ بعَدَدِ كُلِّ يَتِيمٍ وَسَائِلٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ][(١)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

قال ابنُ عبَّاس وقتادةُ: ((لَمَّا سَألَتِ الْيَهُودُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الرُّوحِ، وَعَنْ ذِي الْقَرْنَين، وَأصْحَاب الْكَهْفِ، قَالَ لَهُمْ: [سَأُخْبِرُكُمْ غَداً] وَلَمْ يَقُلْ: إنْ شَاءَ اللهُ، فَاحْتَبَسَ الْوَحْيُ عَنْهُ وَأبْطَأَ عَنْهُ جِبْرِيلُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لِتَرْكِهِ الاسْتِثْنَاءَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُنَافِقُونَ: إنَّ مُحَمَّداً وَدَّعَهُ رَبُّهُ وَقَلاَهُ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ تَكْذِيباً لَهُمْ، وَأقْسَمَ ببَيَاضِ النَّهَار وَسَوَادِ اللَّيْلِ أنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُوَدِّعْهُ وَلَمْ يَقِلْهُ)).

وفيه إضمارٌ تقديرهُ: وربِ الضُّحى وهو النهار كلُّه، وقال بعضُهم: ساعةُ ارتفاعِ الشَّمس على ما هو المعهودُ من الكلامِ. وقولهُ تعالى (وَاللَّيْلِ إذا سَجَى) أي إذا أظلمَ، واشتدَّ ظلامهُ حتى يسترَ الأشياءَ كلَّها بالظلامِ، ومنه قولُهم: فلانٌ يُسْجَى بثوبهِ؛ أي مُغطًّى، ومنه قولُهم: سَجَى قبرَ المرأةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: إذا سكَنت الأشياءُ فيه، ومن ذلك: بحرٌ سَاجٍ؛ أي ساكنٌ، ويقالُ: بلدٌ ساجِية إذا كان أهلُها في سكونٍ، وكذلك طريقٌ ساجٍ؛ أي آمنٌ، قال الشاعرُ:

أنَا ابْنُ عَمٍّ اللَّيْلِ وَابْنُ خَالِهِ ... إذا سَجَى دَخَلْتُ فِي سِرْبَالِهِ

(١) عن أبي بن كعب، أخرجه الثعلبي وغيره بإسناد واهٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) أي ما تركَكَ منذُ اختارَكَ، ولا بغضَكَ منذ أحبَّكَ، وهذا جوابُ القسَم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي لثوابُ الآخرةِ مما أعدَّهُ اللهُ لكَ فيها من الكرامةِ والمقامِ المحمود خيرٌ لكَ من الدُّنيا التي هي مشوبةٌ بالأحزانِ والزَّوال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: سيُعطيكَ خالقُكَ في الآخرةِ من الشَّفاعة، وثواب الطاعةِ حتى ترضَى. ويجوزُ أن يكون هذا وعْداً له مِن الله بالنُّصرة والتمكينِ وكثرةِ المؤمنين.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: ((رضَى مُحَمَّدٌ أنْ لاَ يَدْخُلَ أحَدٌ مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ النَّارَ))[١]. وَقِيْلَ: الشفاعةُ في جميعِ المؤمنين، وعن عليٍّ ﷺ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أشْفَعُ لأُمَّتِي حَتَّى يُنَادِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ: أرَضِيتَ يَا مُحَمَّدُ ؟ فَأقُولُ: رَضِيتُ][٢].

وعن جعفرَ بن مُحَمَّدٍ قال: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى فَاطِمَةَ وَهِيَ تُطْحَنُ بيَدِهَا وَتُرْضِعُ وَلَدَهَا، فَلَمَّا أبْصَرَهَا كَذلِكَ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ: [يَا بنْتَاهُ تَعَجَّلِي[٣] فَتَجَرَّعِي مَرَارَةَ الدُّنْيَا بحَلاَوَةِ الآخِرَةِ، فَقَدْ أنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)][٤]. وعن ابنِ عبَّاس قالَ: ((يُعْطِيهِ اللهُ فِي الْجَنَّةِ ألْفَ قَصْرٍ مِنَ اللُّؤْلُؤِ تُرَابُهُ الْمِسْكُ، فِي كُلِّ قَصْرٍ مِنْ كُلِّ مَا يُشْتَهَى عَلَى أحْسَنِ الصِّفَاتِ))[٥].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٠٥٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٣ ص١٧٩ بسند ضعيف.

(٣) في المخطوط: (تعجني) ويبدو أنه تصحيف من الناسخ؛ وأثبتنا الصحيح من الدر المنثور.

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٣٠؛ قال السيوطي: (أخرجه العسكري في المواعظ وابن مردويه وابن لال وابن النجار عن جابر) وذكره.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٠٥١). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩٩٨)، وقال: صحيح الإسناد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ ﴾ ؛ عـدَّدَ عليـه نِعَمَـهُ الموصولةَ إليه من صِغَرِهِ إلى كِبَره، والمعنى: أَلَمْ يَجِدْكَ يَتيماً عن أبيكَ فضمَّكَ إلى أبـي طالبٍ، وربَّاكَ في حِجرهِ، وفضَّلَكَ على أولادهِ، وقد كان أبوهُ ماتَ وهو في بطنِ أمِّـه، وماتت أمُّه وهو ابنُ سَنتين، وماتَ جدُّه وهو ابنُ ثماني سنين.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾ أي ضَالاً عن علمِ النبـوَّة، وأحكامِ الشَّريعة غافلاً عنها، فهداكَ إليها، دليلهُ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَإِنْ كُنـتَ مِـنْ قَبْلِـهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[1]، وقولهُ تعالى ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾[2]. ولا يجوزُ أن يقـالَ في معناهُ: إنه ﷺ كانَ على دينِ قَومهِ، فهداهُ الله؛ لأنه تعالى لا يختارُ للرِّسالةِ مَن كفرَ.

وَقِيْلَ: معناهُ: أنَّ النبي ﷺ كان ضَلَّ في صِغَره عن قومهِ في شِعاب مكَّة، فوجدَهُ أبو لَهب فردَّهُ على جدِّهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: وجـدَكَ ضَائعـاً بـين قـومٍ ضـوَالٌ لا يعرِفـون حُرمَتك، فهدَاهُم اللهُ تعالى إلى معرفةِ قَدرِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾ أي ووجدَكَ فَقيراً فأغناكَ بمال خديجةَ والغنائمِ، وذلك أنَّها كانت تبذلُ مالَـها للنبـيِّ ﷺ. والعَيْلَـةُ في اللغـة: الفقـرُ، يقالُ: عالَ الرجلُ إذا كثُرَ عيالهُ وافتقرَ، قال الشاعر[3]:

وَمَـا يَـدْرِي الْفَقِـيرُ مَتَـى غِنَـاهُ ... وَمَـا يَـدْرِي الْغَنِـيُّ مَتَـى يَعِيـلُ

وحذفَ الكاف من قولهِ تعالى (فَآوَى، فَـأَغْنَى، فَـهَدَى) لمشـاكَلة رؤوس الآي؛ ولأن المعنى معروفٌ، قال مقاتلُ: ((وَكُلُّ فَصْلٍ مِنْ هَذِهِ الْفُصُول قِـرَاءَةُ جِـبرِيلَ ﷺ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: [بَلَى يَا رَب] ثُمَّ قَالَ: [يَمُنُّ عَلَيَّ رَبي وَهُوَ أهْـلُ الْمَـنِّ، يَمُنُّ عَلَيَّ رَبي وَهُوَ أهْلُ الْمَنِّ]))[4].

---

(١) يوسف / ٣ .
(٢) الشورى / ٥٢ .
(٣) أحيحة بن الجلاح الأوسي، شاعر جاهلي (ت ١٢٩ ق.هـ).
(٤) أخرجه مقاتل بن سليمان في التفسير: ج ٣ ص٤٩٥ بغير إسناد. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٥٤٤؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه والديلمي عن ابن عباس).

وعنه ﷺ قَالَ: [سَأَلْتُ رَبي مَسْأَلَةً وَدِدْتُ أنِّي لَمْ أسْأَلْهَا قَطُّ، قُلْتُ: يَا رَب اتَّخَذْتَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيماً، وَسَخَّرْتَ لِدَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبحْنَ، وَأعْطَيْتَ سُلَيْمَانَ كَذا وَكَذا.

فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ألَمْ أجِدْكَ يَتِيماً فَآوَيْتُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب، قَالَ: ألَمْ أجِدْكَ ضَالاً فَهَدَيْتُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب، قَالَ: ألَمْ أجِدْكَ عَائِلاً فَأغْنَيْتُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب، قَالَ: ألَمْ أشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب، قَالَ: ألَمْ أرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ فَلاَ أذْكَرُ إلاَّ وَتُذْكَرُ مَعِي ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب، قَالَ: ألَمْ أوْتِكَ مَا لَمْ أوْتِ نَبيّاً قَبْلَكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب، قَالَ: ألَمْ أتَّخِذْكَ حَبيباً كَمَا اتَّخَذْتُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾؛ وهذا حثٌّ للنبيِّ ﷺ على محاسنِ الأخلاقِ ليقتَديَ به الناسُ، ويجِدُّوا في سُلوكِ طريقتهِ. ومعنى قهرِ اليتيم: أنْ يقهرَهُ على مالِهِ، وأن يظلمَهُ بقولٍ أو فعلٍ. وفي قراءةِ ابن مسعودٍ (فَلاَ تَكْهَرْ) بالكافِ[2]، ومعناه: الزجرُ والاتعاظُ. وتخصيصُ اليتيمِ لأنه لا ناصرَ له غيرُ اللهِ. وفي الحديث: [اتَّقُوا ظُلْمَ مَنْ لاَ نَاصِرَ لَهُ غَيْرُ اللهِ][3].

وعن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [مَنْ ضَمَّ يَتِيماً فَكَانَ فِي مُؤْنَتِهِ وَنَفَقَتِهِ كَانَ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّار يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَسَحَ برَأسِ يَتِيمٍ كَانَ لَهُ بكُلِّ شَعْرَةٍ حَسَنَةٌ][4]. وقال ﷺ:

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٢٥٩: الحديث (١٢٢٨٩). وفي المعجم الأوسط: ج ٤ ص٣٩٠: الحديث(٣٦٦٤). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص٢٥٤؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط). وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩٩)، وقال: حديث صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠٥٨).

(٣) هو معنى حديث أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: [دَعْوَةُ الْمَظْلُوم تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أبْوَابُ السَّمَوَاتِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي لأنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ]. صحيح ابن حبان: الحديث (٨٧٤) بإسناد حسن.

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٤ ص٢٢١: عن أنس ﷺ. ضعيف جداً، فيه سليمان بن عمرو، كذاب.

[إنَّ الْيَتِيمَ إذا بَكَى اهتَزَّ لِبُكَائِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، فَيَقُولُ اللهُ: يَا مَلاَئِكَتِي مَنْ أبْكَى هَذا الْيَتِيمَ الَّذِي غَيَّبْتُ أبَاهُ فِي التُّرَابِ؟ فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ: رَبَّنَا أعْلَمُ، فَيَقُولُ: يَا مَلاَئِكَتِي أشْهِدُكُمْ أنَّ كُلَّ مَنْ أسْكَتَهُ وَأرْضَاهُ أنْ أرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1]. قَالَ: ((فَكَانَ عُمَرُ إذا رَأى يَتِيماً مَسَحَ عَلَى رَاسِهِ وَأعْطَاهُ شَيْئاً)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾؛ وهو الزجرُ بالصِّياح في الوجهِ، وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [إذا سَألَ السَّائِلُ فَلاَ تَقْطَعُوا عَلَيْهِ مَسْألَتَهُ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا، ثُمَّ رُدُّوا عَلَيْهِ بوَقَارٍ وَلِينٍ أوْ ببَذْلٍ يَسِيرٍ أوْ بردٍّ جَمِيلٍ، فَإنَّهُ قَدْ يَأْتِيكُمْ مَنْ لَيْسَ بإنْسٍ وَلاَ جَانٍّ، يَنْظُرُونَ كَيْفَ صُنْعُكُمْ فِيمَا خَوَّلَكُمُ اللهُ][2]. وسُئِل رسولُ الله ﷺ متى يُباح أن يُردَّ الفقيرُ ؟ فقالَ: [إذا رَدَدْتَهُ ثَلاَثاً تَلَطُّفاً فَلاَ يَذْهَبْ، فَلاَ بَأْسَ أنْ تَزْبُرَهُ][3].

وكان الحسنُ يقول: ((أرَادَ بالسَّائِلِ فِي هَذِهِ الآيَةِ سَائِلَ الْعِلْمِ لاَ تَرُدُّهُ خَائِباً)). وقال يحيى بنُ آدم في هذه الآيةِ قال: ((إذا جَاءَكَ طَالِبُ الْعِلْمِ فَلاَ تَنْهَرْهُ)). وعن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لاَ يَمْنَعَنَّ أحَدُكُمُ السَّائِلَ أنْ يُعْطِيَهُ إذا سَألَ، وَإنْ رَأى فِي يَدَيْهِ قُلْبَينِ مِنْ ذهَبٍ][4]. وعن إبراهيمَ بن أدهم قَالَ: ((نِعْمَ الْقَوْمُ السُّؤَّالُ، يَحْمِلُونَ زَادَنَا إلَى الآخِرَةِ، يَجِيءُ السَّائِلُ إلَى بَابِ أحَدِكُمْ فَيَقُولُ: هَلْ تُوَجِّهُونَ إلَى أهْلِيكُمْ شَيْئاً)).

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٠١. وأخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٣ ص١٤٢، وفيه حسين بن أبي جعفر، منكر الحديث، ضعيف.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٠١.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٥: الحديث (٤٨٣٠) عن أبي هريرة ﷺ. وفي مجمع الزوائد: ج ٣ ص٩٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط وفيه ضرار بن صرد، وهو ضعيف، وقال أبو حاتم: صدوق يكتب حديثه ولا يحتج به).

(٤) في مجمع الزوائد: ج ٣ ص١٠١-١٠٢؛ قال الهيثمي: (رواه البزار وفيه الحسن بن علي الهاشمي النوفلي، وهو ضعيف، وقال ابن عدي: هو أقرب إلى الضعف منه إلى الصدق). وأسنده ابن عدي في الكامل: ترجمة الحسن: الرقم (٨٣/ ٤٥٢): ج ٣ ص١٦٤، وهو كما نقل الهيثمي. والقُلب -بالضم والسكون-: السوار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي حدِّثِ الناسَ بما أنعمَ اللهُ عليك من النبوَّة والإسلامِ، وذلك أنَّ مِن شُكرِ النِّعَمِ التحدُّث تعظيماً للمنعمِ. ويقال: إن الشُّكرَ على مراتب، فالمرتبةُ الأُولى: أن تعلمَ أنَّ النعمةَ من اللهِ، والثانية: أن تؤدِّي عليها حقوقَ اللهِ، والثالثةُ: أن تعترفَ بذلك وتُخبرَ الناسَ بها، والرابعة: الاستظهارُ بها على معصيةِ الله.

وفي الحديثِ: [إذا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ][1]، وقال ﷺ: [مَنْ أُعْطِيَ خَيْراً فَلَمْ يُرَ عَلَيْهِ، سُمِّيَ بَغِيضَ اللهِ مُعَادِياً لِنِعْمَةِ اللهِ][2]. قالَ ﷺ: [مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يُشْكِرِ الْكَثِيرَ، ومَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، وَالتَّحَدُّثُ بالنِّعْمَةِ شُكْرٌ][3].

آخر تفسير سورة (**الضحى**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) في مجمع الزوائد: ج ٥ ص١٣٢؛ قال الهيثمي: (عن عمران بن حصين... رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات).

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٣١ عن بكر عن عبدالله المزني. والحديث مرسل.

(٣) عن النعمان بن بشير. في مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢١٣؛ قال الهيثمي: (رواه عبدالله بن أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات). وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٧٨ و٣٧٥.

سُورَةُ أَلَمْ نَشْرَحْ

سُورَةُ أَلَمْ نَشْرَحْ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَثَلاَثَةُ أَحْرُفٍ، وَتِسْعٌ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانِ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا فَكَأَنَّمَا جَاءَنِي وَأَنَا مُغْتَمٌّ فَفَرَّجَ عَنِّي][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾؛ وذلك أنَّ النبي ﷺ شُقَّ بطنهُ من عند صدرِهِ إلى أسفلِ بَطنهِ فاستُخرِجَ منه قَلْبُهُ فغُسِلَ في طشتٍ من ذهب بماءِ زَمزَمَ، ثم مُلِئَ إيماناً وحكمةً وأُعيدَ مكانهُ، قال: وهذا معنى شرحِ الصَّدر. ويقالُ: إنَّ شرحَ الصَّدر، وترحيبهُ وتليينهُ؛ لاحتمال الأذى والصبرِ على المكارهِ، والطمأنينةُ بالإيمان وشرائعهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: أَلَمْ نُلَيِّنْ لكَ قلبكَ ونوسِّعْهُ بالإيمانِ والنبوَّة والعلم والحكمةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ﴾؛ أي حطَطْنا عنك ذنبكَ، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[2] وقولهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي أثقلَ ظهرك، ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ أي شرَّفناكَ وعظَّمنا قدرَكَ بما أوجبناهُ على خلقِنا من التصديقِ بنبوَّتكَ. وَقِيْلَ: معناهُ: قَرَنَّا ذِكرَكَ بذِكرِنا، فلا يُذكر اللهُ إلاّ وتُذكَرُ معه في كلمةِ الشَّهادة والأذانِ والخطبة وغيرِ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾؛ معناهُ إنَّ مع الشدَّة التي أنتَ فيها من جهادِ ((هؤلاء)) المشركين رجاءَ أن يُظفِرَكَ اللهُ عليهم حتى ينقادُوا للحقِّ طَوعاً وكَرهاً[3]، (إنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً) لتأكيد الوعدِ وتعظيم

---

(١) ضعيف، أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب. (٢) الفتح / ٢ .

(٣) في المخطوط: حرف الناسخ العبارة ورسم: (إنَّ مع الشدة التي أنت فيها من جهاد المشركين=

الرَّخاء. وَقِيْلَ: معناهُ: فإن مع العُسرِ يُسراً في الدُّنيا، إنَّ مَع العُسرِ يُسراً في الآخرةِ.

وَقِيْلَ: إنَّ هذه الآية تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وأصحابهِ فيما كانوا فيه من الشدَّة والفقر، يقولُ: إنَّ مع الشدَّة رخاءً وسَعةً. وروي أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا نزَلت هذه الآيةُ قالَ لأصحابهِ: [أبْشِرُوا فَقَدْ آتَاكُمُ اللهُ الْيُسْرَ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ][1].

وإنما قالَ ذلك؛ لأنَّ العسرَ مَعرفةٌ، و(يُسراً) نَكرةٌ، والمعرفةُ إذا أُعيدت كان الثانِي هو الأولُ، والنَّكرة إذا أُعيدت كان الثانِي غيرُ الأوَّل، واليُسر الأوَّل هو اليُسر في الدنيا يعقبُ العسرَ، واليسرُ الثانِي هو اليسرُ في الآخرةِ بالثواب، يقولُ الرجل لصاحبهِ: إذا اكتسبتَ دِرهماً فأنفِقْ دِرهماً، يريدُ بالثاني غيرَ الأول، فإذا فقالَ: إذا اكتسبتَ دِرهماً فأنفِقِ الدرهمَ، فالثانِي هو الأولُ.

وعن ابنِ مسعود قال: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ الْعُسْرُ فِي جُحْرٍ لَطَلَبَهُ الْيُسْرُ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْهِ، إنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي إذا فرغتَ من أمُور الدُّنيا فانصَبْ لِمَا أمرت به من الإبلاغِ والعبادة. وعن الحسنِ أنه قال: ((فَإذا فَرَغْتَ مِنَ الْجِهَادِ فَانْصَبْ لِلْعِبَادَةِ)) أي اتْعَبْ لَها. وعن عِمرانَ بنِ الحصين أنه قال: ((إذا فَرَغْتَ مِنَ الصَّلاَةِ فَاتْعَبْ لِلدُّعَاءِ، وَسَلْهُ حَاجَتَكَ، وَارْغَبْ إلَيْهِ))[3]. وقوله (فَانْصَبْ) من النَّصَب والدُّؤْب في العملِ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي ارفَعْ حوائجَك إلى ربكَ، ولاَ ترفَعها إلى أحدٍ من خَلقِه.

آخر تفسير سورة (**الشرح**) والحمد لله رب العالمين

=وخا بأن يظهرك الله عليهم حتى ينقادوا الخلق) وضبط النص كما في جامع البيان: ج ٣٠ ص٢٩٧ كلام الإمام الطبري: تفسير الآية

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٠٦٩) عن الحسن مرسلاً بأسانيد، و(٢٩٠٧٠) عن قتادة مرسلاً. والحاكم في المستدرك:كتاب التفسير: الحديث(٤٠٠٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠٧١).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠٧٣) عن ابن عباس.

سُورَةُ وَالتِّينِ

سُورَةُ وَالتِّينِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَأَرْبَعٌ وَثَلاَثُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانِي آيَاتٍ[1].

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ التِّينِ أعْطَاهُ اللهُ خَصْلَتَيْنِ: الْعَافِيَةُ وَالْيَقِينُ مَا دَامَ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَأعْطَاهُ اللهُ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ مَنْ قَرَأهَا صِيَامَ يَوْمٍ][2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ ﴾؛ هذا قسَمٌ برب التينِ والزيتون، وجوابهُ (لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ). وسُئل ابن عباسٍ عن التينِ والزيتون فقالَ: ((هُوَ تِينُكُمْ هَذا)).

وفي تخصيصِ التِّينِ من بين سائرِ الفواكه أنه ثمَرُ شجرةٍ مثل الخبيص على مقدار اللُّقمة، ظاهرهُ مثلُ باطنهِ، وباطنهُ مثل ظاهرهِ، لا يخالطهُ قِشْرٌ، ولا نوَى على صفةِ ثمار الجنَّة. والزيتونُ ثمرُ شجرةٍ يُعصَرُ منها الزيتُ بما فيه من الطِّيب، وإصلاحِ الغذاء في أكثرِ الأطعمة مع الاصطباحِ به والادِّهان به. وعن قتادةَ قال: ((التِّينُ هُوَ دِمَشْقُ، وَالزَّيْتُونُ هُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ))[3]، وقال القتيبيُّ: ((هُمَا جَبَلاَنِ بالشَّامِ، يُقَالُ لَهُمَا طُورُ تِيْنَا وَطُورُ زَيْنَا؛ لأنَّهُمَا يُنْبتَانِهِمَا)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ ﴾؛ هو الجبلُ بمَديَنَ الذي كلَّم اللهُ تعالى بها موسى عليه السلام، وسِينِينَ وسيناءَ من أسماءِ ذلك الجبل، وعن السديِّ أنه قال: ((مَعْنَى سِينِينَ الشَّجَرُ)).

---

(١) في تفسير سورة الانشراح قال: (ثمان آيات) وهنا قال: (ثماني آيات) والاستعمالان جائزان. فأثبتناه كما في المخطوط.

(٢) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠٨٨).

ويقال: معناهُ: المباركُ. وعن عكرمةَ: ((أنَّ مَعْنَاهُ الْجَبَلُ فِي الشِّتَاءِ؛ لأنَّهُ كَثِيرُ النَّبَاتِ وَالأَشْجَارِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾ ؛ يعني مكَّة؛ لأنَّ أهلَها في أمنٍ من الغارةِ، وكانوا إذا سافَرُوا لم يُتعرَّض لَهم لحرمَةِ الحرَمِ، والصيدُ في الحرمِ آمنٌ، ومَن قتلَ قتيلاً، ثم لجأ إلى الحرمِ لم يقتَصَّ منه في الحرمِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾ ؛ أي في أحسنِ صُورةٍ واعتدال على أحسنِ صورة وهيئةٍ، وعلى كمالٍ في العقلِ والفهم، وذلك أنَّ الله خلقَ كلَّ شيء منكبّاً على وجههِ إلاّ الإنسانَ. وَقِيْلَ: خلَقنا الإنسان مديدَ القامةِ يتناولُ ما يأكلهُ بيدهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾ ؛ أي رددناهُ إلى أرذل العمُرِ، وإلى حالِ الهرَمِ وفَقْدِ العقلِ بعد الشَّباب والقوَّة. وقال بعضُهم: معناهُ: رددناهُ إلى أسفلِ دركاتِ النار في أقبحِ صُورةٍ.

ثم استثنَى المؤمنين المطيعينَ، فإنَّهم لا يُرَدُّونَ إلى أسفلِ سَافِلِين، ويجوز أنْ يكون هذا استثناءً منقطعاً بمعنى لكن، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ؛ أي الطاعاتِ فيما بينهم وبين ربهم، ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ ﴾ ؛ أي ثوابٌ غير مقطوعٍ؛ أي لا ينقطعُ ثوابُهم بموتِهم.

وفي الحديث: [إنَّ الْمُؤْمِنَ إذا عَمِلَ فِي حَالِ شَبَابِهِ وَقُوَّتِهِ، ثُمَّ مَرِضَ أوْ هَرِمَ، كَتَبَ اللهُ لَهُ حَسَنَاتِهِ،كَمَا كَانَ يَعْمَلُ فِي حَالِ شَبَابِهِ وَقُوَّتِهِ، لاَ يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ](١).

وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قالَ: [إذا مَاتَ الْمُؤْمِنُ فَدُفِنَ فِي قَبْرِهِ قَالَ مَلَكَان: يَا رَب قَدْ مَاتَ عَبْدُكَ فُلاَنٌ، فَأْذنْ لَنَا أنْ نَصْعَدَ إلَى السَّمَاءِ فَنُسَبحَكَ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: سَمَائِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَلاَئِكَتِي يُسَبحُونَنِي، فَيَقُولُونَ: يَا رَب فَأَيْنَ تَأْمُرُنَا ؟ فَيَقُولُ: قُومَا

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٥٨ و٥٥٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن أبي موسى الأشعري). وقال: (وأخرجه البخاري أيضاً) في الصحيح: كتاب الجهاد: الحديث (٢٩٩٦).

عَلَى قَبْرِ عَبْدِي فَسَبحَانِي وكَبرَانِي وَاحْمَدَانِي وَهَلِّلاَنِي، وَاكْتُبَا ثَوَابَ ذلِكَ لِعَبْدِي حَتَّى أبْعَثَهُ مِنْ قَبْرِهِ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي ما يحمِلُكَ على التكذيب أيُّها الكافرُ بعدَ هذا البيانِ من الله تعالى بمجازاةِ الله في الآخرة. وَقِيْلَ: معناهُ: ما يكذِّبُكَ أيُّها الإنسانُ بعدَ الصُّورة الحسَنة والشباب، ثم الهرمِ والموت والحساب، أفلا تعتبرُ بحالِكَ لتعلمَ أنَّ الذي خلقَكَ قادرٌ على أنْ يبعثَكَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي أليسَ اللهُ بأفضلِ الفاضِلين وأعدل العادلين، وكان ﷺ إذا قرأ هذه السُّورةَ قَالَ: [بَلَى يَا رَب أنْتَ أحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأنَا عَلَى ذلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ][2].

آخر تفسير سورة (**التين**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١١٦ مختصراً وبلفظ قريب منه.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب مقدار الركوع والسجود: الحديث (٨٨٧). والترمذي في الجامع الصحيح: أبواب التفسير: الحديث (٣٣٤٧)، وقال: (هذا حديث إنما يروى بهذا الإسناد عن هذا الأعرابي، عن أبي هريرة ولا يسمى). أي يروى عن إسماعيل بن أمية قال: سمعت رجلاً بدوياً أعرابياً، يقول: سمعت أبا هريرة يرويه يقول. والحديث أخرجه الطبري في جامع البيان: الرقم (٢٩١٤٨) عن قتادة مرسلاً، و(٢٩١٤٩) عن ابن عباس.

سُورَةُ الْعَلَــقِ

سُورَةُ الْعَلَقِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَتَان وَثَمَانُونَ حَرْفاً، وَاثْنَتان وَتُسْعُونَ كَلِمَةً، وَتِسْـعَ عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَمَنْ قَرَأَ الْمُفَصَّلَ كُلَّهُ](١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾؛ قالت عائشـةُ رَضِـيَ اللهُ عَنْـهَا: ((أوَّلُ مَا بُدِئَ به رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّـوْمِ، كَـانَ لاَ يَـرَى رُؤْيَا إلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثُمَّ حُببَ إلَيْهِ الْخَلاَءُ، وكَانَ يَخْلُو بغَار حِرَاءَ فَيَتَعَبَّـدُ فِيْهِ حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَار حِرَاءَ.

فَجَاءَهُ جِبْريلُ فَقَالَ لَهُ: اقْرَأ، فَقَالَ: [مَا أنَا بقَارِئٍ] قَالَ: [فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّـى أخَذ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أرسَلَنِي، فَقَالَ لِي: اقْرَأ، فَقُلْتُ: مَا أنَـا بقَـارِئٍ، فَـأخَذَنِي فَغَطَّنِـي الثَّانِيَةَ كَذلِكَ ثُمَّ أرْسَـلَنِي، فَقَـالَ لِـي: اقْـرَأ، فَقُلْـتُ: مَـا أنَـا بقَـارِئٍ، فَغَطَّنِـي الثَّالِثَـةَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فَقَالَ لِي: [اقرَأ باسمِ ربكَ الذِي خَلَقَ (١) خَلَـقَ الإنسَــانَ مِـن عَلَـقٍ]. فَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يرْجِفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: [زَمِّلُونِـي زَمِّلُونِـي]، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَأَخْبَرَ خَدِيجَةَ بالْخَبَرِ وَقَالَ: [خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي].

فَانْطَلَقَتْ بهِ خَدِيجَةُ إلَى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّهَا، وَكَانَ امْـرءاً تَنَصَّـرَ فِـي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ مِنَ الإنْجِيلِ بالْعَبْرَانِيَّةِ، وَكَانَ شَيْخاً كَبِـيراً قَـدْ ضَعُـفَ بَصَـرُهُ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلَ: يَا ابْنَ أخِي مَاذا رَأيْتَ ؟ فَأَخْبَرَهُ بمَا رَأى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذا هُوَ النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُوسَى، فَيَا

---

(١) تقدم وسيأتي، وهو حديث ضعيف أو موضوع.

لَيْتَنِي أَكُونُ حَيّاً حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فقال ﷺ: [أَوَمُخْرِجِيَّ هُـمْ ؟!][(١)] قَـالَ: لَـمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْـتَ بِـهِ إلاَّ عُـودِيَ وَأُوذِيَ، وَإنْ يُدْرِكْنِـي يَوْمُـكَ أَنْصُـرْكَ نَصْـراً مُؤَزَّراً. ثُمَّ إنَّ وَرَقَةَ لَمْ يُدْرِكْ وَقْتَ الدَّعْوَةِ أنْ تُوُفِّي))[(٢)].

واختلَفُوا في الباءِ في قوله (باسْمِ رَبكَ) قال بعضُهم: هي زائدةٌ؛ وتقديرُهُ: اقْـرَأْ اسمَ ربكَ، كما يقالُ: قرأتُ بسُورةِ كذا. وقال بعضُهم: افتح القراءةَ بسمِ الله. وَقِيْـلَ: معناهُ: اقرأ القرآنَ بعَونِ اللهِ وتوفيقه. وقولهُ تعالى (الَّـذِي خَلَـقَ) أي خلقَـكَ. وَقِيْـلَ: خلَقَ الأشياءَ كلَّها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾، قال بعضُهم: أرادَ بــه آدمَ، خلقَهُ من طينٍ يعلَقُ باليدِ. وقال بعضُهم: الإنســانُ هـذا اسـم جنسٍ، والعلَـقُ جمعُ العلقَةِ، وهي الدمُ الخاثر المنعقدُ الذي يضرِبُ إلى السوادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي اقـرأ القـرآنَ في صَلاتِـكَ وتبليغِكَ إلى الناسِ وربُّكَ الأعظمُ الذي يعطِي من النِّعَمِ ما لا يقدرُ على مثلهِ غــيرهُ. ويجوزُ أنْ يكون الإكرامُ ههنا أنه تعالى يُعِينهُ على حفظِ القرآن وتبليغــهِ، ويُثِيبــهُ علـى ذلك جزيلَ الثواب. وَقِيْلَ: الأكـرمُ الحليـمُ علـى جـهلِ العبـاد، فـلا يعجِّـلُ عليـهم بالعقوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي الذي علَّـمَ الملائكـةَ مـا في اللوحِ المحفوظ، وأضيفَ إلى القلمِ؛ لأنَّه هو الذي كَتَبَ ما في اللــوحِ. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: الذي علَّمَ الناسَ علمَ الكتابةَ بالقلمِ، وهو نعمةٌ عظيمة، ولولاَ القلمُ لضاعتِ الحقوقُ ودُرسَت العلومُ واختلَّتْ أمُورُ المعايشِ.

---

(١) سقطت من المخطوط.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الوحي: باب (٣): الحديث (٣). والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩١٥٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي علَّمَ آدمَ الأسماء كلَّها. وَقِيْلَ: علَّمَ جميعَ الناسِ بالقلمِ من أمر دينهم ما لم يعلَمُوا من قبل. وَقِيْلَ: الإنسانُ ههنا مُحَمَّدٌ ﷺ، بيانُهُ ﴿وعلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي حقّاً إن الإنسانَ الذي خلقَهُ اللهُ من علَقٍ وتَمَّمَ نعمتَهُ عليه ليَطغَى بأنعُمِ اللهِ، ويتكبَّرُ على توحيدِهِ، ومعنى (لَيَطْغَى) لَيتجَاوَزَ حدَّهُ، فيستكبر على ربهِ، ﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾، أنْ رأى نفسَهُ مُستغنياً بكثرةِ ماله. رُوي: أنَّ هذه الآيةَ نزَلت في أبي جهلٍ[2]، وكان ﷺ يقولُ: [أعُوذ بكَ مِنْ فَقْرٍ يُنْسِي، وَمِنْ غِنًى يُطْغِي][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾؛ فيه تخويفٌ بالرَّجعة إلى الآخرةِ للحساب؛ أي إنَّ إلى ربكَ المرجعَ في الآخرةِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ﴾؛ نزَلت في أبي جهلٍ نَهى النبيَّ ﷺ عن الصَّلاة حين فُرضت عليهِ، وكان يؤذيهِ، ويعبَثُ به حتى يشغله عن الصَّلاة، وكان يهدِّدُ النبيَّ ﷺ وكان يقولُ: إذا رأيتُ مُحَمَّداً يصلِّي توطَّأْتُ عُنقَهُ، وهذه الآيةُ متروكة الجواب، معناهُ: أرأيتَ يا مُحَمَّدُ الذي ينهَى عن الصَّلاةِ لاَ تراهُ يُفْلِحُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾؛ معناهُ: أرأيتَ أيُّها الناهِي إنْ كان المنهيُّ عن الصلاةِ على الهدى، ﴿ أَوْ أَمَرَ ﴾، الخلقَ، ﴿ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ ﴾، أكُنتَ تنهاهُ وتعاديه على ذلك. وَقِيْلَ: معناهُ: أرأيتَ - يا مُحَمَّدُ - إنْ كان الناهِي على الهدى، أو أمرَ بالتقوى، أليسَ كان خَيراً له.

---

(١) النساء / ١١٣.

(٢) ذكره الطبري في جامع البيان، وأسنده عن مجاهد وقتادة وابن عباس في الآثار (٢٩١٦٠-٢٩١٦٣).

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٤٤٦.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: أخـبرني يـا مُحَمَّدُ إن كذبَ أبو جهلٍ بالقرآن، وتولَّى عن الإيمان؛ أي أعرضَ عنـه،﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ ، ألَمْ يعلم أبو جهلٍ أنَّ الله يرى صُنْعَهُ.

وقولهُ تعـالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ قسَـمٌ مـن اللهِ تعالى: لئِنْ لم يمتنِعْ أبو جهلٍ عن مقالتهِ وصُنعهِ لنأخُذنَّ بمقـدَمِ شـعرِ راسـه، ولنـأمُرَنَّ بجذبهِ إلى النار، والسَّفْعُ في اللغة: هو الجذبُ الشديد، والعربُ لا تأنَفُ من شيءٍ أنفَها من ذكرِ النَّاصية. وَقِيْلَ: معنى السَّـفْعِ الإحـراقُ، واللَّفْـحُ نظـيرهُ، والمعنـى: لنُحرقَـن موضعَ ناصيتهِ، وقال الحسنُ: ((مَعْنَاهُ: لَنَجْمَعَـنَّ نَاصِيَتَـهُ وَقَدَمَيْـهِ)) كمـا قـال تعـالى ﴿فَيُؤْخَذُ بالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ إبدالُ الاقـدام النكـرةِ مـن المعرفة، والمراد بالناصيةِ هاهنا صاحبَ الناصيةِ كاذبٌ خاطئ، يـأكلُ رزقَ الله، ويعبـدُ غيرَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّاس: ((لَمَّا قَالَ أبو جَهْلٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ألَمْ أنْهكَ عَنِ الصَّلاَةِ، انْتَهَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَاغْلَـظَ لَهُ وَتَهَدَّدَهُ، فَقَالَ أبو جَهْلٍ: أتُـهَدِّدُنِي وَأنَـا أكْـبَرُ أهْـلِ الْـوَادِي، وَاللهِ لأَمْـلأَنَّ عَلَيْـكَ الْوَادِي خَيْلاً جُرْداً وَرِجَالاً مُرْداً))(٢)، فأنزلَ اللهُ تعالى (فَلْيَدْعُ نَادِيَه، سَـنَدْعُ الزَّبَانِيَـةَ) أي فليدعُ قومَهُ وعشائرَهُ ليعاونوهُ، سندْعُ الزبانيةَ ليأخذوهُ.

والنَّادي في اللغة: المجلسُ، والمراد بالمجلسِ هاهنـا أهـلُ المجلـسِ. والزبانيـةُ: هـم الملائكةُ الموكَّلون بتعذيب أهل النار، واحدُهم زَبْنٌ، والزَّبْنُ الدفعُ، يقالُ: زَبَنْتِ الناقـةَ الحالبَة إذا ركضَتْهُ برجلِها، قال ﷺ: [لَوْ نَادَى نَادِيَهُ لأَخَذتْهُ الزَّبَانِيَةُ عيَاناً](٣).

---

(١) الرحمن / ٤١ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩١٦٦).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩١٦٨ و٢٩١٦٩).

وقولهُ تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (١٩) ﴾ ؛ هذا قسَمٌ من اللهِ، ويجوزُ أن يكون معناهُ: ليسَ كما يقولُ أبو جهلٍ، لا تُطِعْهُ فيما يأمُركَ به من تركِ الصَّلاة، وصلِّ لله واقترِبْ إلى رحمتهِ بالسُّجود على رغمِ مَن ينهاكَ عنه.

رُوي[1]: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يُصلي بعدَ هذه السُّورة، فأتاهُ أبو جهلٍ ليُؤذيَهُ على عادتهِ، فوجدَهُ يقرأ هذه السُّورة، فخافَ وانصرفَ. فقيل له: أخِفْتَهُ؟! وما الذي منعَكَ أن تفعلَ به ما هَمَمتَ به؟قال: وجدتُ عنده حارساً يحرسهُ، وسَمعتهُ يهدِّدُني بالزَّبانية، أما الحارسُ فهو فحلٌ أهوَى إلَيَّ أرادَ أن يأكُلَني، واللهِ ما أدري ما زَبانِيَتهُ فهربتُ[2].

آخر تفسير سورة (**العلق**) والحمد لله رب العالمين

(١) في المخطوط: (فرُوي).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩١٦٧).

سُورَةُ (الْقَــدْرِ)

سُورَةُ الْقَدْرِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَاثْنَا عَشَرَ حَرْفاً، وَثَلاثُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسُ آيَــاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا فَكَأَنَّمَا صَامَ رَمَضَانَ، وَأَحْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ](١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّا أنزلنـا القـرآنَ في ليلـة القدر، والهاءُ في قوله (أنْزَلْنَاهُ) كنايةٌ عن المضمَـر المذكـور في السُّـورة الـتي قبـلَ هـذه السُّورة، وهو القرآنُ، فإنه تقدَّمَ في أوَّلها ﴿اقْرَأْ﴾؛ أي اقـرأ القـرآنَ. ويجـوزُ أن يكـون معناهُ: إنَّا أنزلنا جبريلَ بهذا القرآنِ في ليلةِ القدر في شهرِ رمَضان.

وذلك أنَّ القرآنَ أنزلَ جُملةً واحدةً إلى السَّماء الدُّنيا إلى الكَتَبَةِ، ثم أنــزل بعـدَ ذلك نُجوماً في عشرين سَنَة - وَقِيْلَ: ثلاثٍ وعشرين -. وسُـميت هـذه الليلـةُ ليلـةَ القدر؛ لأنَّها ليلة الحكمِ والقضاء، يقدِّرُ الله فيها كلَّ شيءٍ يكون في السَّـنة إلى السَّـنة، ومعنى تقديرِهِ: أنْ يأمُرَ الملائكةَ أنْ يكتبوهُ ويقرأوه.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ تعجُّــبٌ وتعظيــمٌ لحرمَتها؛ أي ما أعلمكَ يا مُحَمَّدُ ما شرفُ هــذه الليلـةِ لـولا أنَّ اللهَ أعلمَـكَ بذلـك، ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي العملُ فيها خيرٌ مــن العمـلِ في ألفِ شهر، وعلى هذا قالُوا: إنَّ مَنْ صلَّى فيها رَكعتين كان له ثوابُ من صلَّـى ليـالي ألفَ شهرٍ ركعَتين، بل ثوابُ هاتين الركعتين أكثرُ من ثواب تلك الصلاةِ كلِّها.

وسببُ نزول هذه السورة: أنَّ رسولَ الله ﷺ ذكرَ يوماً لأصحابـهِ: [أنَّ أرْبَعَـةً مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ وَهُمْ: أيُّوبُ وزَكَرِيَّا وحِزْقِيلُ ويُوشَعُ بْنُ نُونٍ عَبَدُوا اللهَ ثَمَـانِينَ سَـنَةً

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٤٧.

لَمْ يَعْصُوهُ فِيهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ]، فتعجَّبَ أصحابُ النبيِّ ﷺ من ذلك، فأتَى جبريلُ فقالَ له: عجِبَتْ أمَّتُكَ من عبادةِ هؤلاء النَّفر ثمانين سَنة لم يعصُوا اللهَ فيها طرفةَ عينٍ، فقد أنزلَ الله عليكَ خيراً منه، ثم قرأ (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...) إلى آخرِها، وقالَ: هذا أفضلُ مما عجِبتَ منه أنتَ وأمَّتك، فسُرَّتِ الصحابةُ بذلك(١).

ورُوي: أنَّ النبيَّ ﷺ ذكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَمَلَ السِّلاَحَ عَلَى عَاتقِهِ في سبيلِ الله ألفَ شهرٍ، فعجبَ المسلمون من ذلك عَجباً شَديداً، وتَمنَّى النبيُّ ﷺ أنْ يكون مثلُهُ في أمَّته، فأعطاهُ الله ليلةَ القدر(٢).

واختلَفُوا في وقتِها؛ فقال بعضُهم: كانتْ على عهدِ رسول الله ﷺ ثم رُفعت، والصحيحُ: أنَّها لم تُرفع وأنَّها إلى يوم القيامة، لِمَا رُوي عنِ النبيِّ ﷺ قِيلَ لَهُ: هَلْ رُفِعَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ فَقَالَ: [بَلْ هِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ](٣). عن عبدِالله بن حسن قالَ: قلتُ لأبي هريرةَ ﷺ: زعَمُوا أنَّ ليلةَ القدر قد رُفعت، قالَ: ((كَذَبَ مَنْ قَالَ)) قُلْتُ: أهيَ كلَّ شهرِ رمضان؟ قال: ((نَعَمْ))(٤).

وقال بعضُهم: هي في ليالِي السَّنة كلِّها، وأنَّ مَن علَّقَ طلاقَ امرأتِهِ أو عتقَ عبدِهِ بليلة القدر لم يقع شيءٌ من ذلك إلى مُضي سَنة من يومِ حلفِهِ. والجمهورُ من العلماءِ: أنَّها في شهرِ رمضان في كلِّ عامٍ. وسُئل الحسنُ عن ليلةِ القدر فقالَ ((وَاللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ؛ إِنَّهَا فِي كُلِّ رَمَضَانَ))(٥).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ٢٠ ص٣٤٥٢: الحديث (١٩٤٢٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٢٠ ص٣٤٥٢: الأثر (١٩٤٢٥). وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٥٦٨؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن مجاهد).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في الصيام: في فضل ليلة القدر: الأثر(٣٦٧١) عن أبي ذر ﷺ.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩١٨٧) من حديث ابن عمر ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩١٨٦).

واختلَفُوا في أيِّ ليلةٍ هي، فقال أبو رَزين العُقَيلي: ((هِــيَ أَوَّلُ لَيْلَـةٍ فِـي شَـهْرِ رَمَضَانَ))[١]، وقالَ الحسنُ: ((هِيَ لَيْلَةُ سَبْعَ عَشْرَةَ، وَهِيَ اللَّيْلَـةُ الَّتِـي كَـانَتْ صَبِيحَـةَ وَقْعَةِ بَدْرٍ)).

والصحيحُ: أنّها في العشرِ الأواخرِ من رَمضان، وقال أبو سعيدٍ الخدري: ((هِيَ لَيْلَةُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ))[٢]، وعن أُبَيِّ بــن كعــبٍ قــالَ عــن رســولِ الله ﷺ أنّــهُ قــالَ: [تَحَرَّوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ مِنْ كُلِّ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ][٣].

ورُوي أن عمرَ قال لابنِ عبَّاس: ((أخبِرْنِي برَأيِكَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. فقالَ: إنَّ اللهَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ، السَّمَوَاتُ سَبْعٌ؛ وَالأَرْضُونَ سَبْعٌ؛ وَالطَّوَافُ سَبْعٌ؛ وَالرَّمْـيُ لِلْجِمَـارِ سَبْعٌ، فَلاَ أرَاهَا إلاَّ فِي سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ)).

قال: ((وَعَدَدُ حُرُوفِ سُورَةِ الْقَدْرِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى (سَلاَمٌ) هِيَ سَبْعٌ وَعُشْرُونَ، فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ))، وأرادَ بالحرفِ الكلمةَ، فقالَ له عمـرُ: ((وَافَـقَ رَأْيِي رَأْيَكَ. ثم ضربَ على منكبهِ فقالَ: مَا أَنْتَ بِأَقَلِّ الْقَوْمِ عِلْماً))[٤].

وعن ابنِ عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قال رسولُ الله ﷺ في ليلــةِ القــدرِ: [مَـنْ كَانَ مُتَحَرِّياً فَلْيَتَحَرَّهَا فِي لَيْلَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ][٥]. وعن أُبَي بن كعــبٍ قــالَ: سمعــتُ

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٣٥.

(٢) لم يذكر الشاهد على قوله وأضمـره، وهـو ضمـن حديـث أبـي سـعيد ﷺ، أخرجـه مسـلم في الصحيح: كتاب الصيام: باب فضل ليلة القدر: الحديث (٢١٣/ ١١٦٧).

(٣) أخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب الصوم: باب الاعتكــاف في المسـاجد: الحديـث (٣٦٩٠) بإسناد صحيح.

(٤) بمعنى هذا النص في الدر المنثـور: ج ٨ ص٥٧٦-٥٧٨؛ قـال السـيوطي: (أخرجـه عبدالـرزاق وابن راهويه ومحمد بن نصر والطبراني والبيهقي من طريـق عكرمـة عـن ابـن عبـاس)، وقـال: (وأخرجه ابن سعد وعبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﷺ) وقال: (أخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس).

(٥) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٧٨؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد عـن ابـن عمـر رضـي الله عنهما) وذكره.

رسولَ الله ﷺ بأُذُنَيَّ وإلاَّ فصُمَّتَا: [أنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ سَبْعٌ وَعِشْرِينَ](١).

وقال أبو بكرٍ الورَّاق: ((إنَّهُ قَسَّمَ كَلِمَات هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى عَدَدِ لَيَالِي رَمَضَانَ، فَلَمَّا بَلَغَ إلَى السَّابعَةَ وَالْعِشْرِينَ أشَارَ إلَيْهَا فَقَالَ: هِيَ))(٢). وقال بعضُهم: هي ليلةُ إحْدَى وعشرين.

وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ السَّابعِ وَالْعِشْرِينَ أو التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ، وَأنَّ الْمَلاَئِكَةَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ بعَدَدِ الْحَصَى](٣). وعن رسول الله ﷺ: [فِي اللَّيْلَةِ مِنْ عَلامَتِهَا أنَّهَا لَيْلَةٌ سَمِحَةٌ لاَ حَارَّةٌ وَلاَ بَاردَةٌ، تَطْلُعُ الشَّمْسُ صَبيحَتَهَا لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ](٤).

وقال بعضُهم: إنَّ من علامتِها أنَّ ماءَ البحرِ فيها يكون عَذباً سَلِساً!

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبيِّ ﷺ إذا أدْرَكْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فَمَا أقُولُ؟ قَالَ: [قُولِي: اللَّهُمَّ إنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي](٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ ؛ أي تَنْزِلُ ملائكةُ السَّموات السبعِ إلى السَّماء الدُّنيا وجبريلُ معهم، ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أمَرَهم اللهُ به في تلك الليلةِ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في الإحسان: الحديث (٣٦٩١) بإسناد حسن.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٠٥.

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٧٩؛ قال السيوطي: (أخرجه الطيالسي وأحمد وابن مردويه عن أبي هريرة).

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٨١؛ قال السيوطي: (أخرجه الطيالسي ومحمد بن نصر والبيهقي وضعفه عن ابن عباس).

(٥) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٨٣؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة ومحمد بن نصر) وذكره. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص١٧١ و١٨٣. والترمذي في الجامع: أبواب الدعوات: الحديث (٣٥١٣)، وقال: حديث حسن صحيح.

وقد يقامُ حرفٌ من مقامِ الباء، كما في قولهِ تعالى ﴿يَحْفَظُونَـهُ مِـنْ أَمْـرِ اللهِ﴾[(١)] معناهُ: أي بأمرِ الله، فكذلكَ معنى (مِنْ كُلِّ أمْرٍ) أي بكُلِّ أمرٍ قدَّرَهُ اللهُ تعالى في تلـك الليلةِ إلى مثلِها من السَّنة القابلة. ويقالُ: إنَّ الملائكةَ ينْزِلون إلى الدُّنيا في تلك الليلـة، ويسَلِّمون على المؤمنينِ على كلِّ قائمٍ وراكعٍ وساجدٍ إلى طُلوع الفجرِ.

قرأ طلحةُ بن مُصرِّف (تُنْزَلُ الْمَلاَئِكَةُ) مخفَّفاً[(٢)]. والمرادُ بالرُّوح جبريلُ في قـول أكثر المفسِّرين، وقال مقاتلُ: ((الرُّوحُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، لاَ تَرَاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ إلاَّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، يَنْزِلُونَ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ)). وَقِيْلَ: هو ملَكٌ عظيمٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ ﴾ ؛ تمامُ الكلامِ عند قولهِ تعالى (مِنْ كُلِّ أمْرٍ)، ثم ابتدأ فقالَ: (سَلاَمٌ هِيَ) أي ليلةُ القدر، سلامةٌ هيَ؛ أي خيرٌ كلُّها ليس فيها شرٌّ، قـال الضحَّاك: ((لاَ يُقَدِّرُ اللهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إلاَّ السَّلاَمَةَ، فَأَمَّا اللَّيَالِي غَيْرَهَا فَيَقْضِي فِيـهِنَّ الْبَلاَءَ وَالسَّلاَمَةَ)). قال مجاهدُ: ((هِيَ سَالِمَةٌ لاَ يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ أنْ يَعْمَلَ فِيـهَا شَـرّاً ولاَ أذًى)). وقال الشعبيُّ: ((هُوَ تَسْلِيمُ الْمَلاَئِكَةِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ عَلَىأهْـلِ الْمَسَـاجِدِ مِـنْ حِينَ تَغِيبُ الشَّمْسُ إلَى أنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ)).

وفي قراءةِ ابنِ عبَّاس (مِنْ كُلِّ أمْرٍ سَلاَمٌ) معنـاهُ: مِـن كـلِّ ملَـك سـلامٌ علـى المؤمنِين في هذه الليلة، وَقِيْلَ: على هذه القراءة أيضاً أن (مِنْ) بمعنى (على)؛ تقديـرهُ: على كلِّ امرئ من المسلمين سلامٌ من الملائكةِ، ونظيرهُ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَنَصَرْنَـاهُ مِـنَ الْقَوْمِ﴾[(٣)] أي على القومِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾ ؛ أي إلى مطلعِ الفجر، و(حتَّى) حرفُ غايةٍ، قرأ الأعمشُ والكسـائي وخلـف (مَطْلِـع) بكسـرِ الـلام، وقـرأ البـاقون بفتحها وهو الاختيارُ؛ لأن المطلَع بفتحِ اللام بمعنى الطُّلـوع، يقـالُ: طلَعـت الشـمسُ

---

(١) الرعد / ١١ .

(٢) في الجامع لأحكام القـرآن: ج ٢٠ ص١٣٤؛ قـال القرطـبي: (وقـرأ طلحـة بـن مُصَـرِّف وابـن السميقع، بضم التاء على الفعل المجهول).

(٣) الأنبياء / ٧٧ . .

طُلوعاً ومَطْلَعاً، وأما المطلِعُ بكسر اللام، فإنه موضعُ الطُّلوع، ولاَ معنى للاسمِ ها هنا.

والحكمةُ في إخفاءِ ليلة القدر على العبادِ: أنَّهم لو عَرفوها لقصدُوها بالعبادةِ، وأهملوا في سائرِ الليالِي، وإذا لم يعرِفوها بعينها عبَدُوا اللهَ في جميع ليالِي شهرِ رمضانَ رجاءَ أن يُدركوها.

آخر تفسير سورة (**القدر**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ لَمْ يَكُـــنِ

سُورَةُ (لَمْ يَكُنِ) مَكِّيَّةٌ، وَقِيلَ: مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ ثلاثُمِائَــةٍ وَسَبْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفـاً، وَأرْبَعٌ وَتِسْعُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانِ آيَاتٍ.

قَالَ ﷺ: [لَوْ يَعْلَمِ النَّاسُ مَا فِي (لَمْ يَكُنِ) لَعَطَّلُوا الأَهْلَ وَالْمَالَ وَتَعَلَّمُوهَــا، لاَ يَقْرَأهَا مُنَافِقٌ أبَــداً، وَإنَّ الْمَلاَئِكَـةَ الْمُقَرَّبُـونَ لَيَقْرَأوهَـا مُنْـذُ خَلَـقَ اللهُ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ لاَ يَفْتُرُونَ عَنْ قِرَاءَتِهَا. وَمَا مِنْ عَبْدٍ يَقْرَأهَـا فِـي لَيْـلٍ إلاَّ بَعَـثَ اللهُ مَلاَئِكَـةً يَحْفَظُونَهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيَدْعُونَ لَهُ بالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَإنْ قَرَأهَا نَهَاراً أعْطِـيَ مِـنَ الثَّوَابِ مِثْلَ مَا أضَاءَ عَلَيْهِ النَّهَارُ وَأظْلَمَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ][1]. وقــال ﷺ: [مَـنْ قَـرَأ (لَـمْ يَكُنِ) كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مَيِّتاً وَمُقْبِلاً].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ؛ وهــم اليــهودُ والنصـــارى، ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ ؛ وهم عَبدةُ الأوثـانِ، ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ ؛ أي مُنتَـهين عـن كُفرهـم وشِركهم، وَقِيلَ: لم يكونوا زائلين، ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ ﴾ ؛ الواضحةُ، وهـي مُحَمَّدٌ ﷺ أتَاهُمْ بالقرآنِ، فبيَّن ضلالتَهم وجهالتَهم ثم دعاهُم.

ثـم فسَّـرَ البيِّنـة فقـالَ: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ ﴾ ؛ مـن الباطلِ والتناقُض، ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي مستقيمةٌ عادلة، ومعنى قولهِ تعالى (رَسُولٌ مِنَ اللهِ) يعني مُحَمَّداً ﷺ (يَتْلُوا صُحُفــاً مُطَـهَّرَةً) أي يقـرأ عليـهم مـا

---

(١) في أحكام القـرآن: ج ٤ ص١٩٦٩؛ قـال ابـن العربـي: (وهـذا حديـث بـاطل، وإنمـا الحديـث الصحيح ما روي عن أنس: أن النبي ﷺ قال لأُبيٍّ بن كعبٍ: [إنَّ اللهَ قَدْ أمَرَنِـي أنْ أقْـرَأ عَلَيْـكَ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾] قَالَ: وَسَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: [نَعَمْ]، فَبَكَى).

تضمَّنَتْهُ الصُّحفُ المطهَّرَةُ من المكتوب، سُمِّيت مطهَّرةً؛ لأنَّها مطهَّرةٌ من الباطلِ والتناقض، ولا يَمسُّها إلاّ المطهَّرون من الأنجاسِ وهم الملائكةُ، وأرادَ بها الصُّحفَ التي في أيدِيهم كما قال ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[1]، في تلك الصُّحف (كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) أي مستقيمةٌ في جهة الصَّواب، لا تؤدِّي إلى اعوجاجٍ، ولا تدلُّ إلاّ على الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ ﴾؛ فيه تقريعٌ لليهودِ والنصارَى، فإنَّهم ما اختلَفُوا في أمر النبيِّ ﷺ إلاَّ من بعدِ ما جاءَهم النبيُّ ﷺ بالقرآنِ والمعجزات، ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾؛ أي ما أمر هؤلاءِ الذين سبقَ ذِكرُهم من اليهودِ والمشركين في جميعِ كُتبِ اللهِ إلاّ أنْ يعبُدوا اللهَ، ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾؛ في دينِهم؛ ﴿ حُنَفَآءَ ﴾؛ مائِلين عن كلِّ دينٍ سِوَى الإسلام؛ وَ أنْ؛ ﴿ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾؛ بحقوقِها في مواقيتِها، وَ أنْ؛ ﴿ وَيُؤْتُوا۟ ﴾؛ يُعطوا؛ ﴿ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾؛ المفروضةَ، ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ﴾؛ اللهِ ﴿ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي المستقيمةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي شرُّ خليقةٍ، ومنه بَرَئَ اللهُ، والبرْئَةُ بالهمزِ هم الخليقةُ، ومنه بَرَأَ اللهُ الخلقَ، ومنه البارئ بمعنى الخالقُ. ومن قرأ بغير الهمزِ كأنه تركَ الهمزَ على وجهِ التخفيف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي خيرُ الخليقةِ، ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾؛ أي بساتين إقامةٍ، ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾؛ الأربعةُ، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾؛ بإيمانِهم، ﴿ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ﴾؛ بالثَّواب الذي أكرمَهم اللهُ به، ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾؛ بامتثالِ أوامره، واجتناب معاصيه.

آخر تفسير سورة (**البينة**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) عبس / ١٥-١٦ .

سُورَةُ الزَّلْزَلَــةِ

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَأرْبَعُونَ حَرْفاً، وَخَمْسٌ وَثلاثُونَ كَلِمَـةً، وَثَمَان آيَاتٍ.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا أرْبَعَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنْ قَرَأ الْقُرْآنَ كُلَّـهُ][1]. وَقَـالَ: [(إذا زُلْزِلَتْ) تَعْدُلُ نِصْفَ الْقُرْآن، وَ(قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ) تَعْدُلُ ثُلُثَ الْقُـرْآن، وَ(قُـلْ يَـا أيُّـهَا الْكَافِرُونَ) تَعْدُلُ رُبُعَ الْقُرْآنِ][2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ ﴾ ؛ وذلـكَ أنَّ رسـولَ الله ﷺ سُـئل عن قيامِ السَّاعة متى يكونُ، فأُنزلت هذه السُّورة لبيان أشـراطِها وصفاتِـها. والزَّلْزَلَـةُ هي الحركةُ الشديدةُ، ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إذا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً﴾[3]، وذلـك أنَّ الأرضَ تحركُ يومئذ حركةً شديدةً حتى يتقطَّعَ جميعُ ما فيها من بنـاءٍ وجبَـل وشـجَرٍ، حتى يدخلَ فيها كلُّ ما على وجهها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ ﴾ ؛ أي لفَظَـتِ الأرضُ عنـد ذلـك مـا فيـها مـن الأمـواتِ والأمـوال، قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿وَألْقَـتْ مَـا فِيــهَا

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: ج ٤ ص٧٨٥؛ وقال: (أخرجه الثعلـبي مـن حديـث بإسناد أهل البيت).

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح: كتاب فضائل القرآن: الحديـث (٢٨٩٣)، وقـال: حديـث غريب.

(٣) الواقعة / ٤ .

وَتَخَلَّتْ﴾[١]. وفائدةُ إلقاءِ الكُنوز وإظهارها أنْ تتحسَّرَ عليها نفوسُ الذين كنَزوها، وأنْ يُعذَّبُوا بها، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾؛ الإنسانُ هاهنا اسمُ جنسٍ أُريد به الذين يخرُجون من جوفِها، يقولُ كلٌّ منهم ما للأرضِ وما حالُها؟ ولأيِّ شيء زلْزَالُها؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾؛ أي يومئذٍ تخبرُ الأرض بما عُمِلَ على ظهرِها من خيرٍ، أو شرٍّ عبرةً للمتفكِّر فيها، تقولُ في المؤمن: صلَّى عَلَيَّ وحجَّ وصامَ، فيفرحُ المؤمنُ، وتقولُ في الكافر: أشركَ عليَّ وسرقَ وزنا وشربَ الخمرَ، فيحزنُ، وذلك الإخبارُ بأنَّ الله ألهمَها وأنطقَها، كما أنطقَ اللهُ الجوارحَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾؛ أي أذِنَ لها وأمَرَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾؛ أي يصدُرون من قبورهم متفرِّقين إلى أرضِ المحشر فِرَقاً فرقاً أهلُ كلِّ دينٍ على حِدَةٍ، فيُسار بهم إلى موضعِ الحساب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾؛ من كتُبهم التي تسجِّلُ[٣] أعمالَهم فيها. وَقِيْلَ: يرجِعون من موضعِ الحساب متفرِّقين ليُرَوا جزاءَ أعمالهم، فريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السَّعير.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾؛ اختلَفُوا في مثقال الذرَّة، قال بعضُهم: هو ما يقعُ في الكون من شعاع الشمس من الهباء[٤]، وقال بعضُهم: هي النملةُ الحمراء الصغيرة[٥]، وذلك أنَّ قوماً كانوا لا يرَون أنَّهم يُؤجَرون على قليلٍ من الخير، ولا يُعاقَبون على قليلٍ من الشرِّ، فأنزلَ اللهُ هذه، وحثَّهم على كلِّ خيرٍ قلَّ أو كثُرَ،

---

(١) الانشقاق / ٤ .

(٢) التوبة / ٣٥ .

(٣) في المخطوط: (يستحب).

(٤) الهبوبة: الريحُ تثير الغَبَرَةَ.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٢٣٠) من تفسير ابن عباس وابن سنان وابن وهب ويزيد بن هارون.

وحذرَهم من كلِّ شرٍّ قلَّ أو كثُر، كما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قـالَ: [اتَّقُـوا النَّـارَ وَلَـوْ بشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ][1].

آخر تفسير سورة (**الزلزلــة**) والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الطـبراني في المعجـم الكبـير: ج ١٧ ص٧٨: الحديـث (١٩١-١٩٥) بإسـناد صحيـح. وأحمد في المسند: ج ٤ ص٢٥٦ وغيرها. والبخاري في الصحيح: كتاب الزكاة: باب اتقــوا النـار ولو بشق تمرة: الحديث (١٤١٧).

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ مَكِّيَّةٌ، وَقِيلَ: مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَثَلاثَةٌ وَسِتُّونَ حَرْفاً، وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَإحْدَى عَشَرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ بَاتَ بِالْمُزْدَلِفَةِ وَشَهِدَ جَمْعاً][1]، واللهُ الْمُوَفِّقُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ ﴾ ؛ أقسمَ اللهُ تعالى بالخيولِ العادياتِ في سَبيلهِ إكراماً للغُزاة، وللهِ أن يُقسِمَ بما شاءَ من خلقهِ، وليس لنا أن نُقسِمَ إلاّ بهِ. والضَّبْحُ حَمْحَمَةُ الخيلِ، وما يُسمع من أصواتِ أنفَاسِها إذا عَدَتْ[2].

وعن عليٍّ ﷺ: ((أنَّ الْمُرَادَ بالْعَادِيَاتِ الذاهِبَةَ إلَى الْعَدُوِّ، يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ مُعَدّاً يَوْمَئِذٍ إلاَّ فَرَسٌ وَاحِدٌ رَكِبَهَا الْمِقْدَادُ))[3]. وانتصبَ قولُهُ (ضَبْحاً) على المصدر تقديرهُ: والعادياتِ تَضْبَحُ ضَبحاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي فالْمُظْهِرَاتِ بسَنابكها النارَ بوطئِها بنعالها للحجارةِ، وبضربها الحصَى بعضَها ببعضٍ كنارِ القادحِ، والقَدْحُ والإِيْرَاءُ بمعنى واحدٍ، وتقديرهُ: فالقادحاتِ قَدحاً.

---

(١) رواه الثعلبي والواحدي في الوسيط وابن مردويه. عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف: ج ٤ ص٢٦٧ إليهما وهو حديث موضوع، وتقدم الكلام فيه وسيأتي.

(٢) في جامع البيان: الأثر (٢٩٢٤٧) أسند الطبري عن علي ﷺ قال: (الضَّبْحُ مِنَ الْخَيْلِ: الْحَمْحَمَةُ، وَمِنَ الإبِلِ النَّفَسُ).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٥٥ ذكر القرطبي: (قال الشعبي: تمارى علي وابن عباس).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ يعني الخيلَ تُغِيرُ عند الصُّبح في سبيلِ الله، أضافَ الإغارةَ إليها وأرادَ بذلك ركَّابَها، وذلك أنَّهم كانوا يَسِيرُون إلى العدوِّ ليلاً ويأتوهم صُبحاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي هجَمت بالمكان الذي انتهت إليه غُباراً. وإنما لم يذكر المكان؛ لأن في الكلامِ دَليلاً عليه، وذلك أن إثارةَ الغُبار لا يكون إلاّ بمكانٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي دخَلن في ذلك المكانِ في وسطِ جمعِ المشركين للإغارةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ ؛ هذا جوابُ القسَمِ هاهنا، والإنسانُ عبارةٌ عن جنسِ الناسِ، وَقِيْلَ: المرادُ به الكافرُ، والكَنُودُ هو الكافرُ، الذي [يَمْنَعُ رِفْدَهُ، وَيَأْكُلُ وَحْدَهُ، وَيَجْلِدُ عَبْدَهُ][1] وهكذا قال النبيُّ ﷺ، وقال الكلبيُّ: ((الْكَنُودُ بلِسَانِ مِعَدٍّ: العاصِ))، وبلسان مضر وربيعة وقضاعة: الكفورُ، وبلسان بني مالك: البخيلُ. وقال الحسن: ((يَعُدُّ الْمَصَائِبَ، وَيَنْسَى النِّعَمَ))[2] وقال عطاءُ: ((الْكَنُودُ الَّذِي لاَ خَيْرَ فِيْهِ)). والأرضُ الكَنُود الذي لا تُنبتُ ثانياً، وَقِيْلَ: هو الحقود الحسود.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ اللهَ على صُنع هذا الكنودِ وكُفرانهِ لنِعَمِهِ لشهيدٌ يُحصِي عليه أعمالَهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ الإنسانَ على نفسهِ لشهيدٌ، يشهدُ بذلك حالهُ في بُخلهِ، وإعراضهِ عما يجبُ عليه، فالهاء على هذا القولِ راجعةٌ للإنسان.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٢٨٦) عن أبي أمامة. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٦٠٣؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد والبخاري في الأدب والحكيم الترمذي وابن مردويه).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٢٨٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ الضميرُ عائدٌ على الإنسان، معناهُ: إنَّ الإنسانَ في حقِّه، ويقالُ في معناه: وإنَّه لِحُبه المالَ لبخيلٌ، ويقالُ: رجل شديدٌ إذا كان بَخيلاً.

قال ابنُ زيد: ((سُمِّيَ الْمَالُ خَيْراً وَعَسَى أنْ يَكُونَ خَبيثاً وَحَرَاماً، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَعُدُّونَهُ خَيْراً، وَسَمَّى الْمَالَ خَيْراً، وَسَمَّى الْجِهَادَ سُوءً، فقال ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾[1]))[2] أي فقالَ وليس هو عندَ الله سوءً ولكن يسمُّونه سوءً. ومعنى الآيةِ شأنهُ من أجلِ حب المال الشديد بخيلٌ، ويقال للبخيلِ: شديدٌ ومتشدِّدٌ، قال طَرفة:

أرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ[3] الرِّجَالَ وَيَصْطَفِي ... عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

والفاحشُ البخيل، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾[4] أي بالبُخلِ.

وقولُه تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أفلا يعلمُ هذا الإنسانُ إذا بُعث الموتى من قبورهم، ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ ﴾ ، أي وأظهرَ ما في صُدورهم من الخيرِ والشرِّ والسَّخاء والبُخل، ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ يعلمُ ما أسرُّوه وما أعلنوهُ، ويجازيهم على أعمالهم.

ولولا دخولُ اللام في جواب (إنَّ) لجاءت مفتوحةً لوقوعِ العلم عليها، ولكنْ لما دخَلت اللامُ كُسرت (إنَّ) على عادةِ العرب، كما في قولهِ تعالى ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾[5].

---

(١) آل عمران / ١٧٤ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٢٩١). وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٦٢ بلفظه.

(٣) يقالُ: اعتَامَهُ وَاعْتَمَاهُ؛ أي اختارَهُ.

(٤) البقرة / ٢٦٨ .

(٥) المنافقون / ١ .

ويحكى: أنَّ الحجاجَ غلطَ في قراءةِ هذه السُّورة فقالَ (أنَّ رَبَّهُمْ) بالفتحِ، واستدركَ الغلطَ من جهةِ العربية وحذفَ اللام فقالَ: (خَبيرٌ) فالتفتَ الحسن إلى أصحابهِ وقالَ: ((ألاَ تَنْظُرُونَ إلَى عَدُوِّ اللهِ يُغَيِّرُ كِتَابَ اللهِ لِيُقَوِّمَ لِسَانَهُ!))[1].

آخر تفسير سورة (**العاديات**) والحمد لله رب العالمين

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٦٣؛ قال القرطبي: (وقرأ أبو السَّمَّال (أنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبيرٌ). وفي اللباب في علوم الكتاب: ج ٢٠ ص٤٦٨؛ قال ابن عادل الحنبلي: (ويحكى عن الحجاج أنه لما فتح همزة (أن) استدرك على نفسه، وتعمد سقوط اللام، وهذا إن صحَّ كفرٌ، ولا يقال: إنه قراءة ثابتة، كما نقل عن أبي السمال فلا يكفر. لأنه لو قرأها كذلك ناقلاً لها لم يمنع منه، ولكنه أسقط اللام عمداً إصلاحاً للسانه، واجتمعت الأمة على أن من زاد حرفاً، أو نقص حرفاً من القرآن عمداً فهو كافر). وقال: (قال شهاب الدين: ولا يحفظ عن الحجاج إلا هذا الأثر السوء، والناس ينقلونه عنه كذلك، وهو أقل من أن ينقل عنه).

سُورَةُ الْقَارِعَــةِ

سُورَةُ الْقَارعَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَاثْنَان وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَسِتٌّ وَثَلاَثُونَ كَلِمَــةً، وَإِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا ثَقَّلَ اللهُ مَوَازِينَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ ﴾ ؛ القارعةُ من أسماءِ القيامة، سُميت بذلك؛ لأنَّها تقرعُ القلوبَ بالأهوالِ والأفزاعِ. والمعنى: ستأتيكَ القارعةُ، ويقال: إنَّ القارعــةَ هي الصيحةُ العظيمة، وقولُه تعالى: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾ ، تفخيمٌ لأمرِ القيامــة، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾ ، تقديرهُ: القارعةُ ما هي؟ وأيُّ شيء هي؟ وما أعلَمَك ما هي لو لَمْ أعلِمْكَ؟ وهذا كما يقالُ: وأيُّ فقيهٍ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ ﴾ ؛ معناهُ: يوم يَمُوجُ الناسُ بعضُهم في بعضٍ حين يُخرَجون من قبورهم، كالجرادِ الكثير المتفرِّق الذي يدخلُ بعضهُ في بعضٍ، ويركبُ بعضهُ بعضاً يعني الغوغاءَ، وهي صغارُ الجرادِ، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾[2] وسُمي الجرادُ فَرَاشاً؛ لأنه يتفرشُ حين يتفرَّقُ، ويقالُ: الفراشُ ما يطير حولَ السِّراجِ من البَقِّ ونحوهِ، وإنما شبَّهَ الناسَ يومئذ بالفراشِ؛ لأنَّهم يذهَبون في ذلك اليومِ على وُجوهِهم لا يدرون من أينَ يجيئون، ولا أين يذهَبون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ ﴾ ؛ معناهُ: تصيرُ في ذلك اليومِ بعدَ القوَّة والشدة كالصُّوف، والمنفوشُ: المندوفُ، وذلك أوهَى ما يكون من الصُّوف.

---

(١) هو بعض الحديث في فضائل السور عن أبي، بإسناد واه.

(٢) القمر / ٧ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ يعـني بالطَّاعــات والحسناتِ، ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي ذاتِ رضىً يرضَاهـا اللهُ، وَقِيْلَ: معنى (رَاضِيَةٍ) أي مَرْضِيَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي خفَّت من الأعمالِ الصالحة فمسكَنهُ ومأواهُ الهاويةُ، يأوِي إليها، كما يأوي الولــدُ إلى أمه. وَقِيلَ: يَهوِي على أمِّ رأسهِ في النار دَركَةً من دركاتِ النار.

واختلَفُوا في كيفيَّة وزن الأعمال، فقال بعضُهم: تـوزَنُ صحـائفُ الحسَـنات في كفَّة، وصحائفُ السيِّئات في كَفَّة. وقال بعضُهم: يخلقُ الله من الحسَـناتِ نـوراً يكـون علامةً للحسناتِ، فتوضعُ في كفَّة الحسناتِ، ويخلقُ من السيِّئات ظُلمةً تكــون علامـةً للسيِّئات، فتوضعُ في كفَّة السيِّئات.

واختلَفُوا فيمَنْ يزنُ الميزانَ، قـال بعضُـهم: يتـولاَّهُ ملَـكٌ مـن الملائكـةِ موكَّـلٌ بالموازين. وقال بعضُهم: يتولاَّهُ جـبريلُ فيَقِـفُ بـين الكفَّتـين ويـزنُ الأعمـالَ، فمَـن رجَحت حسناتهُ على سيِّئاته نادَى بصوتٍ يسمعهُ أهل الموقفِ: الآنَ فلانُ بـنُ فـلان، سَعِدَ سعادةً لا شقاءَ بعدَها أبداً، ومَــن رجَحـتْ سـيِّئاتهُ علـى حسـناتهِ نـادَى الملَـكُ بصوتٍ يسمعهُ أهل الموقفِ: الآنَ فلانُ بنُ فلان، شَقِيَ شقاوةً لا سعادةَ بعدَها أبداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي ما أعلَمَك- يا مُحَمَّدُ- مـا الهاويـةُ لـو لَـمْ أعلِمْـكَ؟ وهـذه الهـاءُ تسـمى هـاء السَّـكْتِ. وقَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ تفسـيرٌ للهاويـةِ؛ ومعنـاهُ: نـارٌ قـد تنـاهَتْ حرارَتُــها منتهاها.

ويُروى: ((أنَّ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ كَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ هَذِهِ السُّورَةَ قَطَعَتْهُ الْعَبْرَةُ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ، فَفَارَقَ الدُّنْيَا وَمَا خَتَمَهَا)).

آخر تفسير سورة (**القارعـــة**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

سُورَةُ التَّكَاثُرِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَعُشْرُونَ حَرْفاً، وَثَمَانِ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانِي آيَاتٍ[1]. قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا لَمْ يُحَاسِبْهُ اللهُ بالنَّعِيمِ الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَأُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَمَنْ قَرَأَ أَلْفَ آيَةٍ][2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي شغَلَتْكم المباهاةُ والمفاخرَةُ بكثرةِ المال والعدد عن طاعةِ ربكم حتى مِتُّمْ ودُفِنتُم في المقابرِ قبلَ أنْ تَتوبُوا، ويقالُ لِمَن ماتَ: زارَ حُفرتَهُ، وتوَسَّدَ لَحْدَهُ. هذا خطابٌ لِمَن حرصَ على الدُّنيا وجَمَعَ أموالها وهو يريدُ التكاثرَ والتفاخر بها.

وَقِيْلَ: إنَّ هذه السُّورةَ نزَلت في حَيَّيْنِ من قُريش؛ أحدُهما: بنو عبدِ مَناف، والآخرُ: بنو سَهْم، فعَدُّوا أيُّهم أكثرَ، فكثُرهم بنو عبدِ مناف، فقال بنو سهم: إنما أهلَكَنا البغيُ في الجاهليَّة، فعُدُّوا أمواتنا وأمواتكم وأحياءَنا وأحياءَكم، فتعادُّوا فكثُرهم بنو سهمٍ، فأنزلَ اللهُ هذه السورة تهديداً لهم. والمعنى: شغَلَكم التفاخرُ بالأنساب والمناقب عن توحيدِ الله حتى عدَدتُم الموتَى في المقابرِ.

ثم زادَ في وعيدهم فقالَ: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي حقّاً سوفَ تعلمون ماذا تَلقَون من العذاب عند الموت وفي القبرِ، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ، أي ثُم حقاً سوف تعلَمُون ماذا تَلقَون في الآخرةِ من عذابها، ولا

---

(١) (وثماني آيات) سقطت من المخطوط.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٧٨٦ وإسناده ضعيف.

بدَّ أن يكون المرادُ بهذا الثاني غير المرادِ الأول، وكيف يكون هذا تِكرَاراً، وقـد دخـلَ بينهما حرفُ (ثُمَّ) التي هي للتراخِي.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ ﴾ ؛ قـال بعضُـهم: جوابُ هذا محذوفٌ؛ أي حقّاً لو علِمتُم ماذا يـنْزِلُ بكـم في الآخـرةِ علـمَ اليقـينِ لَمَـا تفاخَرتُم في الدُّنيا، وما ألْهاكُم التكاثرُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ﴾ ؛ أي لـتَرَوُنَّ الجحيـمَ في الموقفِ إن متُّـم علـى هـذا، ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾ ، مُعاينـةً، إذا دخلتُموها، وتشاهدون في الآخرةِ كـلَّ مـا شـككتُم فيـه في الدُّنيـا، ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ ؛ ثم لتُسألُنَّ يومَ القيامةِ عن اشتغالِكم بنعيمِ الدُّنيـا حتى ترَكتُم ما لَزِمَكم من الفرائضِ.

واختلَفُوا في هذا السُّؤال، قال بعضُهم: هـو سـؤالُ توبيـخٍ وتقريـع للكفَّـار في النار، يقالُ للكافرِ وهو في النار: أين ذهبَ تفاخُركَ ومُلكُكَ ومملكتُكَ وعدَدُكَ، ويؤيِّدُ هذا ما رُوي: أنَّ أبَا بَكْرٍ ﷺ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أكْلَةٍ أكَلَـهَا مَـعَ رَسُـول اللهِ ﷺ فِـي بَيْتِ أبِي الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ الأَنْصَاريِّ مِنْ لَحْمٍ وَخُـبْزِ شَعِيرٍ وَمَـاءٍ عَـذْبٍ وَبُسْـرٍ قَـدْ ذنَّبَ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ أتَخَافُ عَلَيْنَا أنْ يَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي نُسْأَلُ عَنْهُ ؟ فَقَالَ ﷺ: [إنَّ ذلِكَ لِلْكُفَّار، ثُمَّ ثَلاَثٌ لاَ يَسْألُ اللهُ الْعَبْدَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا يُـوَاري بـهِ عَوْرَتَهُ، وَمَا يُقِيمُ بهِ صُلْبَهُ، وَمَا يُكِنُّهُ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ. وَهُوَ مَسْؤُولٌ بَعْدَ ذلِكَ عَنْ كُـلِّ نِعْمَةٍ][(١)].

وقالَ ﷺ: [مَا أنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْـدٍ مِـنْ نِعْمَـةٍ صَغِـيرَةٍ أوْ كَبِـيرَةٍ فَقَـالَ عَلَيْـهَا: الْحَمْدُ للهِ، إلاَّ أعْطِيَ خَيْراً مِمَّا أخَذ][(٢)].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٧٧؛ قال القرطبي: (ذكره القشـيري أبـو نصـر). وبمعنـاه أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٣٢٨) عن أبي هريـرة ﷺ، و(٢٩٣٢٩) عـن أبـي عسيب.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجـم الكبـير: ج ٨ ص١٩٣: الحديـث (٧٧٩٤) عـن أبـي أمامـة ﷺ.=

وعن أنسٍ قالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: مَنْ يَسْتَطِيعُ أنْ يُؤَدِّيَ شُكْرَ مَا أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ: [مَنْ عَلِمَ أنَّ تِلْكَ النِّعْمَةَ مِنْ قِبَلِ اللهِ فَقَدْ أدَّى شُكْرَهَا][1].

وسُئل ابنُ مسعودٍ عن النعيمِ المذكور في هذه الآيةِ فقال: ((الأَمْنُ وَالصِّحَّةُ))، وسُئل عليٌّ ﷺ عَنْ ذلكَ فقال: ((خُبْزُ الشَّعِيرِ، وَالْمَاءُ الْقِرَاحُ)). ويقالُ: إنَّه باردُ الشَّراب، وظلُّ المساكنِ، وشبَعُ البطونِ. ويقالُ: يُسْألُ عن الماء البـاردِ في شدَّة الحرِّ، وعن الماءِ الحارِّ في شدَّة البردِ.

وهذا كلُّه محمولٌ على ما إذا تشاغلَ بشيءٍ من هذه المباحات، فتركَ بها واجباً عليه، وأمَّا إذا لم يكن ذلك، فإنه لا يُسأل عنها ولا يُحاسَبُ عليها .

وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [النَّعِيمُ الْمَاءُ الْبَارِدُ وَالرُّطَبُ][2]. وقال عبدُالله ابنُ عمرَ:((هُوَ الْمَاءُ الْبَارِدُ فِي الصَّيْفِ)). وفي الخبرِ المأثور: [أنَّ أوَّلَ مَا يَسْأَلُ اللهُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أنْ يَقُولَ لَهُ:[ألَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ؟ ألَمْ أرْوِكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ ؟][3].

=والحاكم في المستدرك: كتاب الدعاء: باب الدعاء بعد أكل الطعام: الحديث (١٩١٤). وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٩٥؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه سويد بن عبدالعزيز، وهو متروك). أما الحاكم فقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه). وفي إسناد الحاكم عن جابر عبدالرحمن بن مقيس، قال أبو زرعة: (عبدالرحمن بن مقيس كذاب). والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٢ ص٢١١: الرقم (١٣٧٩) بلفظه. وابن ماجة في السنن: كتاب الأدب: باب فضل الحامدين: الحديث (٣٨٠٥) بمعناه بإسناد حسن، حيث اختلف في (شبيب ابن بشر).

(١) لم أقف عليه.

(٢) هو معنى حديث أخرجه الطبري في جامع البيان عن جابر: الرقم (٢٩٣٢٦)، و عن أبي هريرة الرقم (٢٩٣٢٧ و٢٩٣٢٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٣٣٢) عن أبي هريرة ﷺ.

وقال ﷺ: [إذا شَرِبَ أحَدُكُمُ الْمَاءَ، فَلْيَشْرَبْ أبْرَدَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ] قِيلَ: وَلِمَ ؟ قَالَ: [لأنَّهُ أطْفَأُ لِلْمَرْءِ، وَأنْفَعُ لِلعِلَّةِ، وَأبْعَثُ لِلشُّكْرِ](١). وقالَ أبو حاتم: ((الْمَاءُ الْبَارِدُ يَسْتَخْرِجُ الْحَمْدَ مِنْ وَسَطِ الْقَلْبِ))(٢).

وقال رجلٌ للحسنِ: إنَّ لَنَا جَاراً لاَ يَأْكُلُ الْفَالُوذجَ وَيَقُولُ: مَا أقُومُ بشُكْرِهِ، فَقَالَ: ((مَا أجْهَلَ جَارَكُمْ هَذا! إنَّ نِعْمَةَ اللهِ بالْمَاءِ الْبَارِدِ أكْثَرُ مِنْ نِعْمَةٍ تَجْتَمِعُ عَلَيْهَا الْحَلْوَاءُ))(٣).

عن أبي هريرةَ عن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ أكَلَ خُبْزَ الْبُرِّ وَشَرِبَ الْمَاءَ الْبَارِدَ وَكَانَ لَهُ ظِلٌّ، فَذاكَ النَّعِيمُ الَّذِي يُسْأَلُ عَنْهُ](٤).

وعن ابنِ عبَّاس قالَ: ((لَمَّا نَزَلَتْ (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) قَالَتِ الصَّحَابَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَأيُّ نَعِيمٍ نَحْنُ فِيهِ، وَإنَّمَا نَأْكُلُ فِي أنْصَافِ بُطُونِنَا الشَّعِيرَ؟! فَأَوْحَى اللهُ إلَيْهِ: [أنْ قُلْ لَهُمْ: ألَيْسَ تَحِدُونَ النِّعَالَ وَتَشْرَبُونَ الْمَاءَ الْبَارِدَ ؟ فَهَذا مِنَ النَّعِيمِ])).

وعن أنسٍ قال: جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ عَلَيَّ مِنَ النِّعْمَةِ شَيْءٌ؟ قَالَ: [نَعَمْ؛ التَّنَعُّلُ، وَالظِّلُّ، وَالْمَاءُ الْبَارِدُ](٥).

وَقِيلَ: يسألُ اللهُ العبادَ يومَ القيامةِ عن خمسٍ: شبَعِ البطونِ، وبارِدِ الشَّرابِ، ولذةِ النومِ، وظلِّ المساكنِ، واعتدالِ الخلْقِ. وعن إبراهيمَ النخعيِّ: ((مَنْ أكَلَ فَسَمَّى، وَفَرَغَ فَحَمَدَ اللهَ تَعَالَى، لَمْ يُسْأَلْ عَنْ نَعِيمِ ذلِكَ الطَّعَامِ)).

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٧٨، وعزاه لـه الصالحي في سبل الهدى: ج ١٢ ص١٠٤؛ ولفظه: [أطْيَبُ لِلْمَعِدَةِ...].

(٢) عزاه الثعلبي أيضاً إلى أبي حاتم، قال: عن أبي العباس الأزهري يقول... وذكره). ينظر: الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٧٨.

(٣) تقدم.

(٤) في كنز العمال: الحديث (٤٧١٥)، عزاه المتقي إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي. وينظر: مسند الإمام أحمد: ج ٥ ص٣٩. وبمعناه عن ابن عباس عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى الخطيب وابن عساكر والبزار.

(٥) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦١٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن أنس ...) وذكره.

وقال ابنُ عبَّاس: ((النَّعِيمُ صِحَّةُ الأَبْـدَان وَالاسْـتِمَاعُ وَالإِبْصَـارُ، وَيَسْـأَلُ اللهُ العِبَادَ فِيمَا اسْتَمَعُوهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُـلُّ أُوْلَئِـكَ كَـانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[1]))[2].

وَقِيْلَ: إنَّ من نعمةِ الله على عباده الأكلُ والشراب، وتسهيلُ خروجِ الأخبَثين، قال بكرُ بن عبدِالله: ((يَا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ! يَأْكُلُ مُتَلَذِّذاً وَيَخْرُجُ ذلِكَ سَهْلاً)).

آخر تفسير سورة (**التكاثــر**) والحمد لله رب العالمين

(١) الإسراء / ٣٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٣٢٢).

سُورَةُ الْعَصْرِ

سُورَةُ الْعَصْرِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَمَانِيَةٌ وَسِتُّونَ حَرْفاً، وَأَرْبَعَ عَشَرَةَ كَلِمَةً، وَثَلاَثُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ : [مَنْ قَرَأَهَا خَتَمَ اللهُ لَهُ بِالصَّبْرِ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَقِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: والدَّهرِ، أقسَمَ اللهُ بالدهرِ في تردُّدهِ وتقلُّبهِ لِمَا فيه من الدَّلالة على وحدانيَّة اللهِ، ويجوز أنْ يكون المرادُ به: وربِّ العصرِ، وقال بعضُهم: المرادُ بالعصرِ العشِي، وفائدةُ ذكرهِ: ما فيه من الدَّلالة على توحيدِ الله من إقبالِ اللَّيل، وإدبار النهار، وذهاب سُلطان الشمسِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ هذا جوابُ القسَم، والإنسانُ ها هنا جنسٌ أرادَ به جميعَ الناس، ولذلك استثنى منهم المؤمنِين المطيعين. وَقِيْلَ: المرادُ بالإنسان هاهنا الكافرُ يخسرهِ نفسَهُ ومالَهُ وأهلَهُ ومنْزلَهُ وخدَمَهُ في الجنَّة، ويرثهُ المؤمن.

ويقال: معنى الْخُسْرِ هاهنا نقصانُ العُمرِ، كلُّ إنسانٍ رأسُ ماله «العمر»، والمؤمنُ وإنْ كان ينقصُ من عُمره الذي هو رأسُ ماله، فإنه يربحُ عليه بالطاعةِ فلا يعدُّ ذلك خُسراناً؛ لأنه لا يتوصَّلُ إلى الربحِ إلاَّ بإخراجِ رأسِ المال من يده، فمعنى الخسران لا يتحقَّقُ إلاَّ في الكافرِ.

وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [مَن اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ، وَإنْ كَانَ يَوْمُهُ خَيْراً مِنْ أمْسِهِ فَهُوَ مَغْبُوطٌ، وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ شَرّاً مِنْ أمْسِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ، وَمَنْ لَمْ

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٨٣.

يَكُنْ فِي الزِّيَادَةِ فَهُوَ فِي النُّقْصَانِ، وَمَنْ كَانَ فِي النُّقْصَانِ فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْحَيَاةِ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾؛ فهؤلاء همُ الذين يتمسَّكون بما يؤدِّيهم إلى الفوز بالثواب، والنجاةِ من العقاب، فإنَّهم لا يُقصِرون على طاعةِ أنفسهم بل يحثُّون غيرَهم على الطاعةِ لِيُقْتَدَى بهم وليَكُونوا سَبباً في طاعةِ غيرهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتَوَاصَوْا بالحقِّ) أي أوصَى بعضُهم بعضاً باتِّباع القرآنِ، وطاعة اللهِ، (وَتَوَاصَوا بالصَّبرِ) على الشَّدائد في ذاتِ اللهِ.

وعن أُبَيٍّ بن كعبٍ قال: قَرَأتُ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ (وَالْعَصْرِ) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا تَفْسِيرُهَا؟ فَقَالَ: [أقْسَمَ رَبُّكَ بآخِرِ النَّهَار (إنَّ الإنْسَانَ) وَهُوَ أبُو جَهْلٍ (لَفِي خُسْرٍ)، (إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا) يَعْنِي أبَا بَكْرٍ الصِّدِّيق (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يَعْنِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب،(وَتَوَاصَوا بالْحَقِّ) يَعْنِي عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ، (وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ) يَعْنِي عَلِيَّ بْنَ أبي طَالِبٍ] رضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أجْمَعِينَ[(٢)].

آخر تفسير سورة (**العصـر**) والحمد لله رب العالمين

(١) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ٥ ص٢٣٦٢: الحديث (١٧٦٥)؛ قال العراقي: (لا أعلمُ هذا إلا في منامٍ لعبد العزيزِ بن أبي رواد، قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ في النومِ، فقلتُ: يا رسولَ الله أوصني، فقالَ ذلك). وعلّقه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب عن علي ﵁ في الرقم (٥٩١٠).

(٢) أخرجه الثعلبي في التفسير: ج ١٠ ص٢٨٤، وحكاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٨٠.

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

سُورَةُ الْهُمَزَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَثَلاثُونَ حَرْفاً، وَثَلاثُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَنِ اسْتَهْزَأ بمُحَمَّدٍ ﷺ وَأصْحَابهِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾ ؛ قال ابْنُ عبَّاس: ((نَزَلَتْ فِي الأَخْنَسِ ابْنِ شُرَيْقٍ، كَانَ يَهْمِزُ النَّاسَ وَيَلْمِزُهُمْ مُقْبلِينَ وَمُدْبرِينَ))[2]. وقال مقاتلُ: ((نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ))[3]. وحرف (كُلّ) يقتضي أنَّ هذا الوعيدَ لكلِّ كافرٍ يغتابُ الناسَ ويَعيبُهم. والويلُ كلمةٌ تقولها العربُ في كلِّ مَن وقعَ في هلكةٍ، ويقالُ: إنه وادٍ في جهنَّم مملوءٌ من القيحِ والصَّديد مما يسيلُ من أهلِ النار.

والْهُمَزَةُ: الطاعنُ على غيرهِ بغير حقٍّ بالسَّفهِ والجهلِ، واللُّمَزَةُ: الْمُغتَابُ الْمِعيَابُ، وعن أبي العاليةِ قال: ((الْهُمَزَةُ: الَّذِي يَلْمِزُ مِنْ خَلْفٍ، وَاللُّمَزُ: هُوَ الْعَيْبُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ﴾[4] أي لا يعيبَنَّ بعضُكم على بعضٍ)). وقال ابنُ عبَّاس: ((الْهُمَزَةُ اللُّمَزَةُ: هُمُ الْمَشَّاءُونَ بالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ))[5].

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٨٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٣٥٩) وأبهم الاسم: قال رضي الله عنه: (مُشْرِكٌ يَلْمِزُ النَّاسَ وَيَهْمِزُهُمْ). وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٨٣ صريحاً.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٣ ص٥١٧.

(٤) الحجرات / ١١.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٣٤٩).

وَقِيْلَ: الْهُمَزَةُ: الذي يأكلُ لحومَ الناسِ ويغتابُهم، واللُّمَزة: الطعَّان عليهم. وَقِيْلَ: اللُّمَزة: الذي يُكرمُ الناسَ بلسانهِ ويهمِزُهم بعينهِ، وقال ابنُ كَيسان: ((الْهُمَزَةُ: الَّذِي يُؤْذِي جَلِيسَهُ بِسُوءِ اللَّفْظِ، وَاللُّمَزَةُ: الَّذِي يَكْسِرُ عَيْنَهُ عَلَى جَلِيسِهِ، وَيُشِيرُ بِرَأْسِهِ، وَيُومِئُ بِعَيْنَيْهِ، وَيَرْمِزُ بِحَاجِبِهِ))[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ ﴾ ؛ قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عامر ونافع وعاصم (جَمَعَ) بتخفيفِ الميم، وقرأ غيرُهم بالتشديدِ، ومعنى الآية: الذي جمعَ مالاً كثيراً من الحرامِ وعدَّدَهُ لنوائبِ دهرهِ. وَقِيْلَ: عدَّهُ وأحصاهُ وأحرَزَهُ، وقرأ الحسنُ (وَعَدَدَهُ) بالتخفيفِ؛ أي جَمَعهُ وعدده؛ أي وخدَمهُ واتباعهُ، تقول العربُ: جمَعتُ الشيءَ إذا كان متفرِّقاً، وجَمَّعتُ الشيء بالتشديدِ اذا أكثرتُ الجمعَ منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ ﴾ ؛ معناهُ: يحسبُ هذا الكافر الطاعنُ اللعَّانُ أنَّ كثرةَ مالهِ تُخلِدُهُ وتُبقيه؟ أي يعملُ عمَلَ من يظنُّ أن ماله يُبقيهِ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا ﴾ ؛ أي حاشَا أن يخلُدَ أحدٌ في الدنيا. ويجوزُ أن يكون معناه: حقّاً؛ ﴿ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ ﴾ ؛ أي ليُطرَحنَّ فيها، وقرأ الحسنُ (لَيُنْبَذَان) أي ليطرحَانِّ هو ومالهُ. والْحُطَمَةُ: اسمُ دركَةٍ من دركاتِ النار، سُميت بذلك؛ لأنَّها كثيرةُ الحطْمِ للكفار، وأصلُ الْحَطْمِ الكسرُ، يقالُ: رجلٌ حَطَمَةٌ إذا كان كثيرَ الأكلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ ﴾ ؛ تفخيمٌ لشأنِها، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ﴾ ؛ أي لا تخمَدُ أبداً، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ ﴾ ؛ أي تُشرِفُ على القلوبِ، تأكلُ كلَّ شيءٍ من الجلودِ واللُّحوم والعظامِ والعُروقِ حتى يبلغَ إحراقُها إلى القلوبِ.

---

(١) ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب: ج ٢٠ ص٤٨٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾؛ أي إنَّ الحطَمةَ عليهم؛ أي على الكفار مُطبَقَةُ الأبوابِ مغلقةٌ لا تدخلُ فيها رَوْحٌ، ولا يخرج منها غمُّها[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾؛ قرأ أهلُ الكوفة (عُمُدٍ) بضمَّتين، وقرأ غيرُهم بالنصبِ، واختارَهُ أبو عبيد لقوله تعالى ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[2]، والعَمَدُ والعُمُدُ جمعُ عَمُودٍ، قال الفرَّاء: ((هُوَ جَمْعُ عِمَادٍ، وَهُوَ الاسْطِوَانَةُ))[3]، والمعنى: تُمَدُّ أيديهم وأرجلُهم إلى عَمَدٍ ممدودةٍ في النار، وتُجعَلُ في أعناقهم السلاسلُ؛ ليكونَ ذلك زيادةً في تعذيبهم.

آخر تفسير سورة (**الهمــزة**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٨٦؛ قال القرطبي: (وتُشَدُّ تلك الأطباقُ بالأوتاد، حتى يرجعَ عليهم غمُّها وحرُّها، فلا يدخل عليهم رَوْحٌ).

(٢) لقمان / ١٠.

(٣) في معاني القرآن: ج ٣ ص٢٩١؛ قال الفرَّاء: (والعُمُدُ، والعَمَد جَمعَان صَحِيحَان للعَمُود، مثل: الأديم، والأَدُمِ، والأَدَمِ، والإهابُ والأُهُبُ، والأَهَبُ ويقال: إنَّها عُمُدٌ من نار).

سُورَةُ الْفِيـــلِ

سُورَةُ الْفِيلِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سِتَّةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَثَلاَثٌ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْفِيلِ عَافَاهُ اللهُ أيَّامَ حَيَاتِهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْقَذْفِ وَالْمَسْخِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾؛ وذلك أنَّ فئةً من قريشٍ خرَجُوا تُجَّاراً إلى أرضِ النجاشيِّ، فسَارُوا حتى دَنَوا من ساحلِ البحرِ، ثم نزَلوا بحضرةِ بيتٍ، وكان ذلك البيتُ مُصلَّى للنجاشيِّ وقومهِ من النَّصارى، فأجَّجُوا ناراً استعمَلُوها لبعضِ ما احتاجوا إليه، ثم رحَلُوا ولم يُطفِئوا تلك النار، وكان ذلك في يومٍ عاصف، فهاجَتِ الريحُ فاحترقَ البيتُ الذي كان مُصلَّى للنجاشيِّ، وكانوا يعظِّمون ذلك البيتَ كتعظيمِ العرب الكعبةَ، فقَصدُوا بذلك السبب مكَّة عازمين على تحريقِ بيتِ الله تعالى، ويستبيحُوا أهلَ مكَّة.

فبعثَ النجاشيُّ أبرهةَ، فخرج أبرهةُ في سائرِ الحبشة، وخرجَ معه بالفيلِ، فسَمعتْ بذلك العربُ، فأعظَموهُ ورأوا جهادَهُ حقّاً عليهم حين سَمعوا أنه يريدُ هدمَ الكعبةِ، فخرجَ إليه ملِك من مُلوك حِميَرَ يقالُ له ذو نَفَرْ، فدعَا قومَهُ ومن أجابَهُ من العرب إلى حرب أبرهةَ وجهادهِ، فأجابَهُ من أجابَهُ فقاتلَهُ، فهُزِمَ ذو نفَرٍ وأصحابهُ، وأخِذ ذُو نفر أسيراً، فلما أرادَ أبرهةُ أن يقتلَهُ قال له ذو نفر: لا تَقتُلني فإنِّي عسَى أن يكون بقائِي معكَ خيراً لكَ من قتلِي، فتركَهُ من القتلِ وحبسَهُ معه في وثاقٍ، وكان أبرهةُ رجُلاً حَليماً.

---

(١) وهو شطر من حديث ضعيف. أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان:ج ١٠ ص٢٨٨.

ثم مضَى أبرهةُ علىوجههِ للذي يريدُ، حتى إذا كان بأرضِ خَثْعَـمَ عـرضَ لـه نُفيل بن حبيبٍ الخثعميُّ فقاتلَهُ فهزمَهُ أبرهةُ، وأخِذ نُفيل أسـيراً وأُتِـيَ بـه إلى أبرهـةَ، فلما هَمَّ بقتلهِ قال له: لا تقتُلنِي فإنِّي دليلُكَ في أرضِ العرب، فخَلَّى سـبيلَهُ، وخـرجَ معه يدُلُّهُ. حتى إذا مرَّ بالطائفِ خرجَ إليه مسعودُ الثقفيُّ في رجالٍ من ثقيـفٍ، فقـالوا له: أيُّها الملكُ؛ إنما نحن عبيدُكَ سامِعون لك مطيعون، ليس لنا عندَكَ خـلافٌ، وليـس بينَنا هذا الذي تريدُ هدمَهُ - يعنون اللاَّتَ - إنما تريدُ البيتَ الذي بمكَّة، ونحنُ نبعـث معكَ مَنْ يدلُّكَ عليه، فتجاوزَ عنهم، واللاتُ بيتٌ لَهم بالطائفِ كانوا يعظِّمونـه نحـو تعظيمِهم الكعبةَ.

قال ابنُ اسحق: فبَعَثُوا معه أبَا رغالٍ يَدلُّه على الطريقِ إلى مكَّة، فخـرجَ أبرهَـةُ ومعه أبو رغَالَ، فهنالِكَ رجَمتِ العربُ قَبْرَهُ، فهو القبرُ الذي يُرجم بالْمَغْمَسِ، فلمـا نزلَ أبرهةُ بالمغمسِ بعثَ رجلاً من الحبشةِ يقال له: الأسودُ بن مقصودٍ، على خيلٍ له حتى انتهى إلى مكَّةَ، فسَاقَ إليه أموالَ أهلِ يَمامة من قريشٍ وغـيرِهم، وأصـابَ فيـها مِائتي بعيرٍ لعبدِ المطَّلب بن هاشمٍ، وهو يومئذٍ كبـيرُ قريـش وسـيِّدُها، فـهَمَّت قريـشُ وكِنانَةُ وهُذيل ومَن كان بذلك الحرمِ أن يُقاتِلُوه، ثم عرَفُوا أنه لا طاقةَ لهم بـه فـترَكُوا ذلك.

وبعثَ أبرهةُ حناطةَ الْحِمْيَري إلى مكَّـة وقـال لـه: سَـلْ عـن سـيِّد هـذا البلـدِ وشريفِهِم، وقل له: إنِّي لم آتِ لحربكم، إنما جئتُ لهدمِ هــذا البيـتِ، فـإن لم تعرُضـوا دونَهُ بحربٍ فلا حاجةَ لي بدمائِكم، فإنْ هو لم يُرِدْ حَربي فَأتِنِي به. فلمَّـا دخـلَ حناطـةُ مكَّة سألَ عن سيِّد قريشٍ وشريفِها، فقيل له: عبدُ المطَّلب بن هاشمٍ، فجاءَهُ فقـال لـه ما أمَرهُ أبرهةُ، فقال له عبدُ المطَّلب: ما لنا به من طاقةٍ ولا نريدُ حربَهُ، ولكن هذا بيتُ الله وبيتُ خَليلهِ إبراهيمَ، فإن لم يمنعْهُ منه فهو بيتهُ وحَرمــهُ، وإنْ لم يَحُـلْ بينـه وبينـهُ، فَوالله ما عندَنا دفعٌ عنه.

فقالَ له حناطةُ: انطلِقْ معي إليه، فإنه قد أمَرنِي أن آتيَهُ بكَ. فانطلقَ معــه عبـدُ المطلب حتى أتى المعسكرَ، فسألَ عن ذي نفرٍ وكان له صَديقاً حتى دخلَ عليه وهو في مجلسهِ، فقال: يا ذا نفر، هل عندَكَ من غِنًى فيما نزلَ بنا، فقالَ: وما غِنَى رجـلٍ أسيرٍ

بيد ملكٍ ينتظرُ أن يقتلَهُ غُدُوّاً أو عشِيّاً، ما عندي من غِنًى في شيءٍ إلاّ أنَّ أنيساً سائسَ الفيلِ صديقٌ لي، فسأُرسِلُ إليه وأُوصيه بكَ، وأُعَظِّمُ عليه حقَّكَ، وأسألُهُ أن يستأذن لكَ الملكَ، ويكلِّمُه بما يُدنِيكَ إليه، ويشفعُ لكَ عندَهُ بخيرٍ إنْ قَدِرَ على ذلك. فقالَ: افْعَلْ.

فبعثَ ذُو نَفْرٍ إلى أنيس فقالَ له: إنَّ عبدَ المطلب سيدُ قريشٍ وصاحبُ عِيرِ مكَّة، يطعمُ الناسَ بالسهلِ، والوحشَ في رؤوسِ الجبال، وقد أخذ له الملكُ مِائتي بعيرٍ، فاستأذِنْ له عليهِ واشفع لهُ عنده بما استطعتَ. فكَلَّمَ أنَيس أبرهةَ فقال: أيُّها الملكُ هذا سيِّدُ قُريشٍ ببَابكَ يستأذنُ عليكَ، وهو رجلٌ يُطعِمُ الناسَ بالسهلِ، والوحشَ في رؤوسِ الجبال، فأْذنْ له حتى يدخُلَ عليكَ فيكلِّمَكَ في حاجتهِ.

فأَذِنَ له أبرهةُ، وكان عبدُ المطلب من أوسَمِ الناسِ وأجملِهم، فلما رآهُ أبرهة أجَلَّهُ وأكرمَهُ عن أن يُجلِسَهُ تحتَهُ، وكرِهَ أن تراهُ الحبشةُ يجلسُ معه على سرير مُلكهِ، فنَزلَ أبرهةُ عن سريرِهِ، فجلسَ على بساطه وأجلسَهُ معه إلى جنبِهِ، ثم قالَ لترجُمانهِ: قلْ له اذكُرْ حاجتَكَ، فقالَ له: حاجَتِي أن يرُدَّ عليَّ المِلكُ مِائتي بعيرٍ أخذها. فلمَّا قال له ذلكَ، قال له أبرهةُ: لقد كنتَ أعجَبْتَني حين رأيتُكَ، ثم قد زهدتُ فيكَ حين كلَّمتَني في مائتي بعيرٍ أخذتُهَا لكَ، وتتركُ شيئاً هو دِينُكَ ودينُ آبائك قد جئتُ لهدمهِ فلم تكلِّمنِي فيه.

قال له عبدُ المطلب: إنّي أنا ربُّ الإبلِ، وإنَّ للبيتِ ربّاً سيمنعَكَهُ. قال: ما كان ليمتنعَ منّي، قال: أنتَ وذاكَ. فردَّ أبرهةُ على عبدِ المطَّلب إبلَهُ، فأخذها ورجعَ إلى قومهِ، فأمَرَهم بالخروجِ من مكَّة والتحرُّز في شَعَفِ الجبالِ والشِّعاب خَوفاً من معرَّةِ الجيشِ إذا دخلَ.

ثم قامَ عبدُ المطلب فأخذ بحلَقةِ باب الكعبة، وقامَ معه نفرٌ من قريشٍ يدعُونَ اللهَ ويستنصرونَهُ على أبرهةَ وجُندِهِ، فقال عبدُ المطلِّب وهو آخذٌ بحلقةِ باب الكعبة:

لاَهُـــــمَّ[1] إنَّ الْعَبْــــــدَ يَمْـــــــــ نَــعُ رَحْلَـــهُ فَـــامْنَعْ حِلاَلَـــكْ[2]
لاَ يَغْلِبَـــــــــــنَّ صَلِيبُـــــــــــــهُمْ وَمِحَالُـــــهُمْ غُـــــدْواً مِحَـــــالَكْ[3]
عَمَـــدُوا حِمَـــاكَ بجَهْلِـــهِمْ جَـــهْلاً وَمَـــــا رَقَبُـــــواْ جَلاَلَـــــكْ
إنْ كُنْـــــتَ تَاركَـــــهُمْ وكَعْبَـــــــ تَنَــا فَـــأْمُرْ مَـــا بَـــدَا لَـــكْ

ثم أرسلَ عبدُ المطلب حلقةَ الباب، وانطلقَ هو ومَن معه من قريشٍ إلى شـعَفِ الجبال، فتحرَّزوا فيها ينتظرون ما أبرهةَ فاعلٌ بمكَّة إذا دخلَها، فلما أصبحَ أبرهـةُ تـهيَّأ لدخولِ مكَّة، وهيَّأ فِيلَهُ وعبَّأ جيشَهُ، وكان اسمُ الفيل مَحْمُوداً، وأبرهـةُ مُجمِعٌ لهـدمِ البيت.

فلما وجَّهوا الفيلَ إلى مكَّة أقبلَ نُفيل بن حبيب حتى قامَ إلى جنب الفيـل، ثـم أخذ بأُذنهِ فقال: ابركْ مَحْمُوداً أو ارجِعْ رَاشِـداً مـن حيـث أتيـتَ، فـإنَّك في بلـدِ الله الحرامِ. ثم أرسلَ أذُنه، فبَركَ الفيلُ وخرجَ نُفيل يشتدُّ حتى صعدَ الجبلَ، فضَربُوا الفيلَ ليقومَ فأبَى، فضربوهُ في رأسهِ بالطَّبَرْزِينِ وهو الكُلاَّب ليقومَ فأبَى، فأدخَلُوا محاجنَ لهم في مِرَاقِهِ[4] فبَزَغُوهُ[5] بها ليقومَ فأبَى، فوجَّهوهُ رَاجعاً فقامَ يُهَرولُ، ووجَّهوهُ نحوَ الشَّام فغَطَّ مثلَ ذلك، ووجَّهوهُ إلى المشرق ففعلَ مثل ذلك، ووجَّهوهُ نحو مكَّة فبَرَكَ، فجَعَلَ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً من البحرِ أمثالَ الْخَطَاطِيفِ، مـع كـلِّ طـائرٍ منهم ثلاثةُ أحجارٍ يحملُها، حَجَراً في منقارهِ وحجَـرَانِ في رجليـهِ أمثـالُ الحمَّـص، لا تصيبُ أحداً منهم إلاَّ هلَكَ، وليس كلُّهم أصابَتْ.

---

(١) (لاَهُمَّ): أصلها اللهم. والعرب تحذف الألف واللام منها وتكتفي بما بقي، كما تقول: لاه أبـو؛ أي لله أبوك. وكما قالوا: أجنك تفعل كذا وكذا؛ أي من أجل أنك تفعل كذا وكذا.
(٢) الحِلال بالكسر جمع حِلَّة؛ وهي جماعة البيوت. والمراد هنا القول الحلول في المكان.
(٣) المِحال: القوة والشدة. وغَدْواً: غداً، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، ولم يسـتعمل تامـاً إلا في الشعر.
(٤) مراقه: أسفل بطنه. والمحاجن: جمع مِحجَن وهي عصا مِعوَجَّة.
(٥) بزَغُوهُ: أدمَوهُ، ومنه المِبزَغ، وهو المِشْرَطُ للحجَّام ونحوه.

وخرَجُوا هاربين يبتَدرون الطريقَ الذي جاءوا منها، ويسألُون عن نُفيل بن حبيبٍ ليدُلَّهم على الطريقِ إلى اليمنِ، فقال نُفيل حين رأى ما أنزلَ اللهُ بهم من نِقمَتِهِ:

أيْنَ الْمَفَرُّ وَالإلَهُ الطَّالِبْ وَالأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبْ

وكان أبرهةُ أشرَمَ من ضربةٍ ضربَهُ إياها إريَاطُ بحربةٍ على جَبهتِهِ، فشَرَمَتْ حاجبَهُ وعينه وأنفَهُ وشفتَيْهِ، فكان يُسمى الأشرمُ من حينئذٍ.

قال ابنُ اسحق: فجعل عسكر أبرهة يتساقَطون من الحجارةِ بكلِّ طريق، ويهلَكُون على كلِّ منهلٍ، وأُصيب أبرهةُ في جسدهِ وخرَجُوا به معهم تسقطُ أناملُهُ أنمُلَةً أنملَةً، كلَّما سقَطت أنملة منها تبِعَتها مِدَّةٌ تَمُثُّ[1] قَيحاً ودماً[2]، حتى قَدِموا به صنعاءَ وهو مثلُ فرخِ الطائر، فما ماتَ حتى انصدعَ صدرهُ عن قلبهِ[3].

فلمَّا بعثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ كان مما يعدُّ الله على قريشٍ من النِّعم عليهم وفضلهِ ما رَدَّ عنهم من أمرِ الحبشة لبقاءِ أمرهم، فقالَ تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ...) إلى آخرِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ ﴾؛ معناهُ: ألم يجعل مكرَهم في بُطلان حيث لم ينتَفعوا به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ ﴾؛ من البحر؛ ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي كثيرةٍ يتبَعُ بعضُها بعضاً، وَقِيْلَ: أقاطيعٌ كالإبلِ الْمُؤَبَّلَةِ، والأبابيلُ: جماعةٌ في تفرقةٍ، زمرةٌ لا واحدَ لها عند أبي عُبيدة والفرَّاء، ويقالُ: واحدُها أبُولٌ كما يقال عَجُولٌ وعجاجيلُ، ويجوز أنْ يكون واحدُها إبيلٌ، كما يقالُ: إكْلِيلٌ وأكَالِيلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي بحجارةٍ من طين مَطبُوخٍ خالصةٍ، كما يُطبَخُ الآجُر. وَقِيْلَ: السجِّيلُ الشديدُ، كأنه قالَ: من شديدِ

(١) تمث: ترشح.

(٢) في المخطوط: (مدة ثم قيح ودم). والصحيح كما أثبتناه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٩٤٠٥) وفيه بعض اختلاف في اللفظ والشعر.

عذابه، وعن أبي صالحٍ قال: ((رَأيْتُ فِي بَيْتِ أمِّ هَانِئٍ بنْتِ أبي طَالِبٍ نَحْواً مِنْ قَفِيزٍ مِنْ تِلْكَ الْحِجَارَةِ سُودٍ مُخَطَّطَةٍ بِخُطُـوطٍ حُمْـرٍ عَلَى قَـدْرِ بَعْـرِ الْغَنَـمِ، كَأنَّـهَا جـَزْعُ ظفاري[1]))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي جعلَهم كـوَرَقِ الزَّرعِ الذي وقعَ فيه الدُّود فخرقَهُ، وكان ابنُ عبَّاس يقولُ فِي صفـةِ الطَّـيرِ الأبـابيلِ: ((لَهَا خَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الطَّيْرِ، وَأكُفٌّ كَكَفِّ الْكِلاَبِ، وَكَانَ إذا وَقَـعَ الْحَجَـرُ عَلَـى رَأسِ الإنْسَانِ مِنْهُمْ خَرَجَ مِنْ دُبُرِهِ))[3].

واختلَفُـوا في تـاريخِ عـامِ الفيـلِ، فقـال الكلـبيُّ: ((كَـانَ قَبْـلَ مَوْلِـدِ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ بثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً)). ورُوي: أنَّهُ كان في العامِ الذي وُلِـد فيـه رسـولُ اللهِ ﷺ، وعلى هذا أكثرُ العلماء، وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: ((رَأيْتُ قَائِدَ الْفِيْـلِ وَسَائِسَهُ بمَكَّةَ أعْمَيَيْنِ مُقْعَدَيْنِ يَسْتَطْعِمَانِ))[4].

آخر تفسير سورة (الفيل) والحمد لله رب العالمين

(١) جَزَعَ الوادي: قطعَهُ عَرْضاً، وبابه قطع. والجـزعُ منعطف الـوادي. والْجَـزْعُ خَـرَزٌ معـروف في سوادِهِ بياضٌ كالعروق. ونسبته إلى ظفاري هي مدينة في أقصى اليمن. ينظر: فتح البـاري شـرح صحيح البخاري: ج ٨ ص٥٨٦.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٣١-٦٣٢؛ قال السيوطي: (أخرجـه ابـن مردويـه عـن ابـن عبـاس وأخرجه ابن المنذر عن أبي الكنود وأخرجه أبو نعيم عن أم كرز الخزاعية) وذكره بمعنـاه عنـهم والفاظ قريبة.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (٢٩٣٨٤).

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٣٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن إسحق في السـيرة والواقـدي وابـن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن عائشة وذكره).

سُورَةُ قُرَيْشٍ

سُورَةُ قُرَيْشٍ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثلاثةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَسَبْعَ عَشَرَة كَلِمَةً، وَأَرْبَعُ آياتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ طَافَ بالْكَعْبَةِ وَاعْتَكَفَ بهَا].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ ؛ اختلفُوا في هذه اللامِ المذكورة، قال بعضُهم: هي لام كَي أي "متعلق بـ" ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾[1] أو لِيُؤلِفَ قُرَيشاً[2].

ثم فسَّرَ الإيلافَ فقال تعالى: ﴿ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ ﴾ ؛ أي ليؤلِفَهم رحلةَ الشِّتاء ورحلةَ الصيفِ. وإنما قال ذلكَ لأنَّهم لَمَّا خافوا من أبرهةَ، فتفرَّقوا في البلادِ، فمَنَّ الله عليهم فقهَرَ عدُوَّهم.

وكانت مكَّة بلداً لم يكن فيها زرعٌ ولا شجَر؛ ولا رطبٌ، وكان معاشُ أهلها ما يُنقَلُ إليها، فأهلكَ اللهُ عدُوَّهم ليأتَلِفُوا؛ لأن تأليفَ رحلةِ الشتاء والصيفِ في التجارة، ولولا تجارتُهم في هاتَين الرِّحلتين لاضطَرُّوا إلى الخروجِ والتفرُّق في البوادِي، فأرادَ اللهُ أن يكثُروا بمكَّة إلى أن يبعثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ منهم نبيّاً إليهم وإلى غيرِهم.

---

(١) الفيل / ٥.

(٢) في جامع البيان: مج ١٥ ج ٣٠ ص٣٩٥: تفسير الآية؛ قال الطبري: (وأما القول الذي قاله من حكينا قوله، أنه من صلة قوله ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ فإن ذلك لو كان كذلك ... قلنا في ذلك قال أهل التأويل).

وكان بعضُهم يعدُّ السُّورَتين سورةً واحدة، وقال سُفيان بن عيينـة: ((كَـانَ لَنَـا إمَامٌ لاَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا وَيَقْرَأهُمَا مَعاً))[١]. وقال عمرُو بن مَيمون:((صَلَّيْتُ خَلْفَ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّاب ﷺ صَلاَةَ الْمَغْرب، فَقَرَأ فِي الرَّكْعَةِ الأُوْلَى ﴿وَالتِّين﴾، وَفِي الثَّانِيَةِ ﴿أَلَـمْ تَرَ كَيْفَ﴾ وَ ﴿لإيْلاَفِ قُرَيْشٍ﴾))[٢]. والمعنى: أنَّ هلاكَ أصحاب الفيل كان سَبباً لبقـاءِ إيلافِ قُريش، ونظامِ حالهم.

وقريشٌ هم ولَدُ النَّضرِ بن كِنَانَةَ، فمن ولَدَهُ النَّضِرُ فـهو قُرَشـيٌّ، ومـن لم يَلِـدْهُ فليس بقرَشِيٍّ. وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [إنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِـي كِنَانَـةَ، وَاصْطَفَـى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشاً، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمَ][٣]. وسُمُّوا قُريشاً من التَّقْرِيشِ؛ وهو التكسُّبُ والتقلب والجمعُ والطلب، وكانوا قَوماً تُجَّاراً على المال.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: (إيلاَفِـهِمْ رِحْلَـةَ الشِّـتَاءِ وَالصَّيْـفِ) بـدلٌ مـن الإيـلافِ الأوَّل. واختلَفُوا في انتصاب (رِحْلَةَ)، فقيل: انتصبَ على المصدر؛ أي ارتِحالُهم رحلـةً، وإنْ شئتَ نصَبْتَهُ بوقوعِ (إيْلاَفِهِمْ) عليه، وإنْ شئتَ على الظَّرفِ.

واختلَفُوا في تفسيرِ رحلة الشتاء والصيف، فرُوي عن ابنِ عبَّاس قال: ((كَـانُوا يَشْتُونَ بِمَكَّةَ، فَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى أنْ يُقِيمُـوا بـالْحَرَمِ، وَيَعْبُـدُوا رَبَّ هَـذَا الْبَيْـتِ))[٤]. وَقِيْلَ: كانت لهـم في السَّـنة[٥] رحلَتـان: إحدَاهُمـا في الشِّـتاء إلى اليمـنِ لأنَّـها أدفأُ، والأُخرى في الصَّيف إلى الشَّام، وكان الحرَمُ جَدْباً لا زرعَ فيـه ولا ضـرعَ ولا شـجرَ، وإنما كان قريشٌ يعيشُونَ بتجارتِـهم ورحلَتِـهم، وكـان لا يتعـرضُ لهـم أحـدٌ بسـوءٍ،

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢٠٠.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢٠٠.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٢ ص٥٥: الحديث (١٦١) من طـرق عـن الأوزاعـي، وإسناده صحيح. ومسلم في الصحيح: كتاب الفضائل: بـاب فضـل نسـب النـبي ﷺ: الحديـث (٢٢٧٦/١).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٤٢٢) مطولاً، والأثر (٢٩٤٣٣).

(٥) في المخطوط: (في الشتاء) لا يستقيم المعنى.

وكانت الناسُ تقول: سُكَّان حرمِ الله، فلولا الرِّحلتان لم يكن لأحدٍ بمكة مقامٌ، ولـولا الأمنُ بجوار البيت لم يقدِرُوا على التصرُّف.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾؛ الَّذي[1] سبَّبَ أرزاقَهُم وأمنَهُم مِن خوفِ العدوِّ ومِن خوفِ الطريقِ. ويقالُ: أرادَ بالإطعامِ: أنَّ أهلَ مكة كانوا أصابَتهم سُنون كسِنِيِّ يوسُف بدعاءِ النبيِّ ﷺ عليهم حتى أكَلُوا الجيفَ والعظامَ المحرَّقة، فأزالَ اللهُ عنهم الجوعَ وأمَّنَهم بعد ارتفاعِ ذلك من الْجُذام الذي يُبتلى به ذلك الوقت أهلُ البلدِ التي وراءَ مكَّة. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يتعرض لهم[2] أحدٌ في الجاهليَّة.

آخر تفسير سورة (قريش) والحمد لله رب العالمين

(١) في المخطوط: (أي) وهو غير مناسب.

(٢) في المخطوط: (لا يعرض أحد) لا يستقيم المعنى.

سُورَةُ الْمَاعُــونَ

سُورَةُ (الْمَاعُونَ) مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَخَمْسَةٌ وَعُشْرُونَ حَرْفاً، وَخَمْسٌ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَسَبْعُ آيَاتٍ. قَـالَ ﷺ: [مَـنْ قَرَأَهَـا أعْطَـاهُ اللهُ مِـنَ الأَجْـرِ ثَـوَابَ الْمُصَلِّـينَ الْخَاشِعِينَ].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ قال مقاتلُ والكلبي: ((نَزَلَتْ فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ))[1]، معناهُ: أرأيتَ أعَلِمْتَ يا مُحَمَّدُ الـذي كـذبَ بـالبعثِ والحساب والجزاء.

وكان العاصُ بن وائلٍ أوَّلَ من أنكرَ إظهارَ البعثِ، وكان في حُجرهِ يتيمٌ ظلَمَـهُ ومنعَهُ حقَّهُ وأكلَ مِيراثَهُ، وكان لا يُطْعِمُ المسـكينَ بنفسـهِ، ولا يـأمرُ غـيرَهُ بالإطعـام. وهذه السُّورة فيها تَهديدٌ له ولكلِّ مَن يعملُ عمَلهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَدُعُّ الْيَتِيـمَ) الـدَّعُّ: هو الدفعُ على وجههِ العنيف[2].

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أرادَ بذلك المنافقين الذين يَســهُونَ في صلاتِـهم عـن ذكـر الله من حيـث لا يقصُـدون عبادتَـهُ والتقرُّبَ إليـه، ولذلـك قـالَ تعـالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ إذا رآهُم المخلِصـون صَلُّـوا معَـهم ريـاءً، وإذا لَم يروهـم لم يُصلُّوا. وفي هذا بيانُ أنه ليس المرادَ في الآيةِ سهوُ نسيانٍ.

---

(١) تفسـير مقـاتل بـن سـليمان: ج ٣ ص٥٢٧. ونقلـه القرطـبي في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ٢٠ ص٢١٠.

(٢) في جامع البيان: ج ٣٠ ص٤٠٠؛ قال الطبري: (هو الـذي يدفـعُ اليتيـمَ عـن حقّـه، ويظلمـه). وفي الكشف والبيان:ج ١٠ ص٣٠٤؛ قال الثعلبي: (الدعُّ: الدفعُ في جَفوَةٍ).

وعن الحسن أنه قالَ: ((يَسْـهُونَ عَـنْ مِيقَاتِـهَا حَتَّـى تَفُـوتَ))، وقـال مجـاهدُ: ((يَسْهُونَ عَنْهَا، وَيَلْهُونَ وَلاَ يُفَكِّرُونَ فِيْهَا))، وعن أنسٍ قال: ((الْحَمْدُ للهِ الَّـذِي لَـمْ يَجْعَلِ السَّهْوَ هَا هُنَا فِي صَلاَتِهِمْ، وَإِنَّمَا جَعَلَ السَّهْوَ عَنْ صَلاَتِهِمْ)). وعن عطاءِ بـن دينار أنه قالَ: ((الْحَمْدُ للهِ الَّذِي قَالَ: (عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ) وَلَمْ يَقُلْ: فِي صَلاتِـهم ساهون))[٣]. وَقِيْلَ: السَّاهي عنها هو الذي إذا صَلاَّها؛ صَلاَّها رياءً، وإذا فاتَتْهُ لم يندَمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾ ؛ رُوي عن ابن مسعود وابنِ عبَّاس ((مَا يَبْذُلُهُ الْجِيرَانُ بَعْضُـهُمْ لِبَعْـضٍ مِثْـلَ الْفَـأْسِ وَالْمِسْـحَاةِ وَالْقِـدْرِ وَالدَّلْـوِ وَأشْبَاهِ ذلِكَ))[٤]. وَقِيْلَ: الماعونُ: ما لا يحلُّ منعهُ مثل الماءِ والملح والنار.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الَّذِي لاَ يَحِلُّ مَنْعُهُ ؟ قَالَ: [الْمَاءُ وَالنَّارُ وَالْمِلْحُ] قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ هَذا الْمَاءُ فَمَا بَـالُ النَّـار وَالْمِلْـحِ؟ قَالَ: [يَا حُمَيْرَاءُ مَنْ أعْطَى نَاراً فَكَأنَّمَا تَصَدَّقَ بجَمِيعِ مَا طُبخَ بذلِكَ النَّار، وَمَنْ أعْطَى مِلْحاً فَكَأنَّمَا تَصَدَّقَ بجَمِيعِ مَا طُيِّبَ بذلِكَ الْمِلْحِ، وَمَنْ سَقَى شُرْبَةً مِـنَ الْمَـاءِ حَيْـثُ يُوجَدُ الْمَاءُ فَكَأنَّمَا أعْتَقَ سِتِّينَ رَقَبَةً، وَمَنْ سَقَى شَرْبَةً حَيْـثُ لاَ يُوْجَـدُ الْمَـاءُ فَكَأنَّمَـا أحْيَا نَفْساً][٥].

وعن عليٍّ ﷺ: ((أنَّ الْمَاعُونَ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ))[٦].

آخر تفسير سورة (الماعون) والحمد لله رب العالمين

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢١٢.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان عن ابن عمر عن ابن مسعود في الآثار (٢٩٤٧٥)، وعن ابن مسعود بأسانيد: الآثار(٢٩٤٨٥-٢٩٤٨٦)، وعن ابن عبـاس في الأثـر (٢٩٤٨٨). وفي الـدر المنثور: ج ٨ ص٦٤٣؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عـن ابن مسعود).

(٥) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢١٥؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي في تفسـيره، وأخرجـه ابـن ماجة في سننه. وفي إسناده لـين). وهو في سنن ابن ماجة: كتاب الرهون: باب المسـلمون شـركاء في ثلاث: الحديث (٢٤٧٤). وهو إسناد ضعيف؛ لضعف علي بن زيد بن جدعان.

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٤٩٥)، بلفظ: (منعُ الزكاةِ والفـأس والدَّلـو والقِـدر). وفي الآثار (٢٩٤٧١) بأسانيد عديدة بلفظه أو مختصراً. وعنه أخذ مجاهد وقتـادة وسـعيد ابـن جبـير وابن الحنفية وابن زيد.

سُورَةُ الكَوْثَــرَ

سُورَةُ (الْكَوْثَرَ) مَكِّيَّةٌ، وَقِيلَ: مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ حَرْفاً، وَعَشْرُ كَلِمَاتٍ، وَثَلاَثُ آيَاتٍ.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا سَقَاهُ اللهُ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، وَأُوتِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ كُلِّ قُرْآنٍ قَرَأَ بِهِ الْعِبَادُ فِي كُلِّ يَوْمِ عِيدٍ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ، والكوثـرُ في اللغة: الخيرُ الكثير، وهو فَوْعَلٌ[2] من الكَثْرَةِ كنَوْفَلٍ من النَّفلِ. واختلفوا في الكوثر في هذه السُّورة؛ قال ابنُ مسعودٍ: ((أُريدَ بِهِ الْقُرْآنَ))[3]، وقال الحَسَنُ: ((النُّبُـوَّةُ ورفْعَـةُ الذِّكْرِ وَالنَّصْرُ عَلَى الأَعْدَاءِ))[4].

وعن أنسٍ وأبي سعيدٍ الخدري أنَّ النبي ﷺ قالَ: [رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِـي نَـهْراً فِي الْجَنَّةِ، حَافَّتَاهُ اللُّؤْلُؤُ-وَقِيْلَ: مِنَ الزُّبُرْجَدِ، وَقِيْلَ:مِنَ الذهَبِ- وَمَجْرَاهُ عَلَى الـدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، وَطِينُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ الأَذْفَرِ، وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِـنَ الْعَسَلِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَداً].

---

(١) أخرجه الثعلبي في التفسير: ج ١٠ ص٣٠٧.

(٢) في المخطوط: (هو فواعل) ، والصحيح أن وزن (كوثـر): (فَوْعَـلٌ) وليـس (فواعـل)، أي مـن الكثرة، وصف مبالغة في المفرط المكثر، مثل النوفل مـن النفـل، والجوهـر مـن الجـهر، والعـرب تسمي كل شيء كثيراً في العدد، والقدر، والخطر: كوثراً. ينظر: اللباب في علوم الكتـاب: ج ٢٠ ص٥٢٠.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٥١٧) عن عكرمة.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٥٢١) عن عكرمة بألفاظ وأسانيد عديدة.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنّها قالت: ((الْكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، مَنْ أدْخَلَ إصْبَعَيْهِ فِي أذُنَيْهِ سَمِعَ خَرِيرَ ذَلِكَ النَّهْرِ))(١).

والكوثرُ يصبُّ في حوضِ رسول الله ﷺ، وصفةُ الحوضِ: حصاؤُه الياقوتُ الأحمر، والزبرجدُ الأخضرُ، والدرُّ والمرجان، وَحَمْأتُهُ المسكُ الأذفر، وترابه الكافورُ، ماؤهُ أشدُّ بَياضاً من اللبنِ وأحلى من العسلِ، وأبردُ من الثلجِ، يَخرجُ من أصلِ سِدرَةِ المنتهى، عرضهُ وطوله ما بين المشرقِ والمغرب، وحولهُ من الآنيةِ والأباريق عددَ نجومِ السَّماء، لا يشربُ منه أحدٌ فيظمأ بعدَهُ أبداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي فاشكُرِ اللهَ على هذه النعمةِ العظيمة بالصَّلاة والنحر، قال ابنُ عبَّاس: ((إنَّهُ أرَادَ بذَلِكَ صَلاَةَ الْعِيْدِ، ثُمَّ نَحْرَ الْبُدْنِ يَوْمَ الأَضْحَى)). وَقِيْلَ: أرادَ بذلك صلاةَ الفجرِ في يوم النحرِ. وَقِيْلَ: أرادَ بذلك جميعَ الصَّلوات المكتوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي مُبغِضُكَ هو الأبترُ الذي لا عَقِبَ له ولا خيرَ له في الدُّنيا والآخرة، ونزلَ ذلك في العاصِ بن وائل السَّهمي، كان يكلِّمُ النبيَّ ﷺ على باب المسجد الحرام بعد موتِ عبدِالله بن رسولِ الله ﷺ.

فلما انطلقَ النبيُّ ﷺ قيل للعاص: مَن هذا الذي كُنتَ معه قَائماً تُكلِّمهُ؟ قال: هذا الأبترُ محمد. يريدُ أنه ليس له ابنٌ يَخلُفُه ويقوم مقامَهُ، فأنزلَ اللهُ هذه السُّورة إكراماً للنبيِّ ﷺ وجواباً للخبيثِ، يقول: سَنُميتُهُ عن أهلِهِ وماله فلا يُذكَرُ بخيرٍ أبداً، وأما أنتَ يا مُحَمَّدُ فقد جَعَلْتُ ذِكرَك مع ذكرِي فلا ينقطعُ ذِكرُكَ أبداً، والشَّانِئُ من الشَّنَئَانِ وهو البُغْضُ.

آخر تفسير سورة (**الكوثر**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٥٠٩ و٢٩٥١٠). وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٦٥٠؛ عزاه السيوطي إلى هناد وابن جرير عن عائشة رضي الله عنها.

سُورَةُ (الْكَافِرُونَ)

سُورَةُ (الْكَافِرُونَ) مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أرْبَعَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَسِتٌّ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَسِتُّ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا فَكَأنَّمَا قَرَأَ رُبُعَ الْقُرْآن، وَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ مَرَدَةُ الشَّيَاطِين، وَبَرِئَ مِنَ الشِّرْكِ، وَيُعَافَى مِنَ الْفَزَعِ الأكْبَر][1]، وَقَالَ ﷺ: [مُرُوا صِبْيَانَكُمْ فَلْيَقْرَؤُهَا عِنْدَ الْمَنَام فَلاَ يَعْرِضُ لَهُمْ شَيْءٌ][2]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ((لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ سُورَةٌ أشَدُّ لِغَيْظِ إبْلِيسَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ؛ لأنَّهَا تَوْحِيدٌ وَبَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ))[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾؛ نزلت في رهطٍ من المشركين من قريشٍ، منهم الحارثُ بن قيسٍ السهميٌّ؛ والعاصُ بن وائل؛ والوليدُ بن المغيرة؛ والأسودُ بن عبدِ يَغُوث؛ والأسودُ بن عبدِ المطَّلب؛ وأمية بن خلَف، قالوا: يا مُحَمَّدُ هَلُمَّ فاتَّبعْ دِينَنا، ونتَّبعْ دِينَك ونُشركك في أمرنا كلِّه، تعبدُ آلهتنا سَنة، ونعبدُ إلَهكَ سَنة، فقال: [مَعَاذ اللهِ أنْ أشْرِكَ بهِ غَيْرَهُ] قالُوا: فاسْتَلِمْ بعضَ آلِهَتنا نُصدِّقْكَ ونعبدْ إلَهك[4].

---

(١) إسناده ضعيف؛ أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح: أبواب فضائل القرآن: باب (١٠): الحديث (٢٩٨٥)، وقال: حسن. وفيه سلمة بن مروان، وهو ضعيف.

(٢) ذكره أيضاً الثعلبي في التفسير: ج ١٠ ص٣١٥.

(٣) ذكره الثعلبي في التفسير:ج ١٠ ص٣١٥. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢٢٥.

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢٢٥؛ قال القرطبي: (ذكره ابن إسحق وغيره). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٥٦٤)، والحديث (٢٩٥٦٣) عن ابن عباس.

فأنزلَ اللهُ تعالى هذه السُّورة (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) أي قُل لَهم: يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ توحيدَ اللهِ، ليست في حالَتي هذه بعَابدٍ ما تَعبُدون من الأصنامِ، ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ ؛ أي ولا أنتم عابدون إلَهي بجهلِكم الإخلاصَ في عبادةِ الله، ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ ﴾ ؛ فيما استقبلُ، ﴿ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ ؛ من الأصنامِ، ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ ﴾ ؛ فيما تستقبلون، ﴿ مَآ أَعْبُدُ ﴾ ، إلَهي الذي أعبدهُ.

وفي هذه القصَّة أنزَلَ اللهُ تعالى ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[(١)]، فلمَّا نزَلت هذه السورةُ غَدَا رسولُ الله ﷺ إلى المسجدِ الحرام وفيه ملأٌ من قريشٍ، فقامَ على رُؤوسِهم، ثم قرأها عليهم، فأيَسُوا منه عندَ ذلك وآذوهُ وآذوا أصحابَهُ.

وأما تكرارُ الكلامِ فمعناهُ: لا أعبدُ ما تَعبُدون في الحال، ولا أنتُم عابدُون ما أعبدُ في الحال، ولا أنتُم عابدُون ما أعبدُ في الحال، ولا أنا عابدٌ ما عبَدتُم في الاستقبال، ولا أنتُم عابدُون ما أعبدُ في الاستقبال. وهذا خطابٌ لِمَن سبقَ في علمِ الله تعالى أنَّهم لا يُؤمنون.

وقال بعضُهم: نزلَ القرآنُ بلغة العرب، ومن مذهب العرب التكرارُ في الكلامِ على وجه التأكيدِ حَتماً للإطْمَاعِ، كما أنَّ من مذهب الاختصار إرادةُ التخفيفِ والإيجاز، ومثلُ هذا كثيرٌ في الكلامِ والأشعار، كما رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ صعدَ المنبرَ فقال: [إنَّ بَنِي مَخْزُومٍ اسْتَأْذَنُونِي فِي أَنْ يُنْكِحُوا عَلِيّاً فَتَيَاتِهِمْ، فَلاَ آذنُ، فَلاَ آذنُ، إنَّ فَاطِمَةَ بضْعَةٌ مِنِّي، يَسُوءُنِي مَا يَسُوءُهَا، وَيَسُرُّنِي مَا يَسُرُّهَا][(٢)].

---

(١) الزمر / ٦٤.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب القسم والنشوز: باب ذب الرجل الرجل عن ابنته في الغيرة والإنصاف: الحديث (١٥١٦٦). وأوله: [إنَّ بَنِي الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِي] وفيه [فَلاَ آذَنُ، ثُمَّ لاَ آذَنُ، ثُمَّ لاَ آذَنُ] وإسناده صحيح. ومن طريق أبي الوليد أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصلاة: باب الشقاق: الحديث (٥٢٧٨) مختصراً.

وكذلك قالَ الشاعرُ:

يَـا عَلْقَمَـهْ يَـا عَلْقَمَـهْ يَـا عَلْقَمَـهْ خَـيْرَ تَمِيـمٍ كُلِّـهَا وَأَكْرَمُـهْ

وقالَ:

أخَـيْرُكُمْ نِعْمَـةً كَـائنَتْ لَكُـمْ كَـمْ وَكَـمْ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ قرأ نافعُ (وَلِيَ) بالتحريكِ، ومعناه: لكم جزاؤُكم على عبادةِ الأوثان، ولِي جزائِي على عبادةِ الرَّحمن.

وَقِيْلَ: إن هذه الآية منسوخةٌ بآيةِ السَّيف.

آخر تفسير سورة (**الكافـرون**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ النَّصْـــر

سُورَةُ النَّصْرِ مَدَنِيَّةٌ(١)، وَهِيَ سَبْعَةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَتِسْعَ عَشْرَةَ كَلِمَةً، وَثَـلاَثُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا فَكَأَنَّمَا شَهِدَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَتْحَ مَكَّةَ](٢).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: ((نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ فِي الْحُدَيْبِيَةِ))، ومعناهُ: إذا جاءَ نصرُ الله على الأعداءِ من قُريشٍ وغيرِهم، وجاءَ فتحُ مكَّة، ﴿ وَرَأَيْتَ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ، ﴿ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ الإسلامِ، ﴿ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ جماعاتٍ جَماعاتٍ بعدَ أن كانوا في ابتداءِ الإسلام واحداً واحداً واثنين اثنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي صَلِّ له مع شُكرِك إياهُ على إنعامه عليكَ، ﴿ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ ؛ لذنبكَ وللمؤمنين والمؤمناتِ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي مُتجاوزاً عن المستغفرين. فلمَّا نزلت هذه السُّورة جعلَ رسولُ الله ﷺ يُكثِرُ التسبيحَ، وعاشَ رسولُ الله ﷺ بعدَ هذه السُّورة سنتينَ(٣)، وكان كثيراً

---

(١) قال المفسرون: سورة النصر مدنيَّة بالإجماع، نزلت بمنى في حجَّة الوداعِ، وتُسمى سورة التَّوديع. وقال مقاتلُ: (نَزَلَتْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ). ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٣ ص٥٣٠. والجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢٢٩. واللباب في علوم الكتاب: ج ٢٠ ص٥٣٧.

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٣١٨.

(٣) في المخطوط: (سنتين) من غير نقط وغير واضحة. وضبطت كما في جامع البيان: الأثر (٢٩٥٨٢): عن قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: (السُّورَةُ عَلَمٌ، وَحَدَّ حَدَّهُ اللهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ، وَنَعَى لَهُ نَفْسَهُ. أي إنَّكَ لَنْ تَعِيشَ بَعْدَهَا إلاَّ قَلِيلاً). قال قتادةُ: (واللهِ ما عاشَ بعد ذلك إلا قليلاً، سنتَينِ، ثم تُوفِّيَ ﷺ).

ما يقولُ: [سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ] فقِيلَ له في ذلــكَ، فقالَ ﷺ: [قَدْ جُعِلَتْ لِي عَلاَمَةٌ فِي أُمَّتِي، إذا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا][1].

وكان الحسنُ يقول: ((اختُمُوا أَعْمَالَكُمْ بخَيْرٍ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَرُبَ أَجَلُهُ أُمِـرَ بكَثْرَةِ التَّسْبِيحِ وَالاسْتِغْفَار)).

آخر تفسير سورة (النصر) والحمد لله رب العالمين

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: سورة (١١٠): باب (١و٢): الحديث (٤٩٦٧ و٤٩٦٨) عن عائشة رضي الله عنها. ومسلم في الصحيح: كتاب صلاة المسافرين: الحديث (٢١٧و٢١٨/ ٤٨٤) واللفظ له. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٥٦٩).

سُورَةُ تَبَّتْ (الْمَسَدِ)

سُورَةُ الْمَسَدِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسُ آيَاتٍ.
قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا رَجَوْتُ أنْ لاَ يَجْمَعَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أبي لَهَبٍ فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾؛ روي عن ابنِ عبَّاس أنه قال: (("لَمَّا"[2] نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ﴾[3] صَعَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الصَّفَا وَنَادَى: [يَا صَبَاحَاهْ] فَاجْتَمَعَتْ إلَيْهِ قُرَيْشٌ فَقَالَ ﷺ: [يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِب، يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ، لَوْ أخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلاً بِسَفْحِ الْجَبَلِ قَدْ أظَلَّتْكُمْ أكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِنِي؟] قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: [فَإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذابٍ شَدِيدٍ] فَقَالَ أبُو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ! ألِهَذا دَعَوْتَنَا؟ فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ).))[4].

والتَّبَاتُ: الْخُسرَانُ الذي يؤدِّي إلى الهلاكِ، والمعنى: خَسِرَتْ يداهُ من كلِّ خيرٍ. وأضافَهُ[5] إلى اليَدَين؛ لأنَّ العملَ أكثرُ ما يجري على اليدَين.

ومعنى قولهِ (وَتَبَّ) أي وخَسِرَ هو بنفسهِ خُسراناً لا يفلِحُ بعدَهُ أبداً، واختلفُوا في المعنى الذي ذكرَهُ اللهُ بالكُنيَةِ، قال بعضُهم: إنما ذكرَهُ بها؛ لأنه كان اسمهُ عبدُ

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٣٢٣.

(٢) (لَمَّا) سقطت من المخطوط، وهي من مقتضى السياق.

(٣) الشعراء / ٢١٤.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٥٨٨) بأسانيد. والبخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: باب ذكر شرار الموتى: الحديث (١٣٩٤)، وتفسير سورة الشعراء: الحديث (٤٧٧٠)، وتفسير سورة تبت: الحديث (٤٩٧٢ و٤٩٧٣).

(٥) في المخطوط: (وأضافَ).

العُزَّى فلذلك ذُكِرَ بالكُنيَةِ. وقال بعضُهم كان مشهوراً بهذه الكُنيَة. وقال بعضهم: كانت وَجنَتاهُ حمراوَين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾؛ أي لا تنفعهُ كثرة مالهِ في الآخرة ولا ينفعهُ ما أعَدَّ من الكَيدِ والحِيَلِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ما أغنَى عنه مالهُ وولده، سُمِّي الولدُ كَسْباً؛ لأن ولدَ الرجُل من كسبهِ، قال ﷺ: [إنَّ أفْضَلَ مَا أكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبهِ، وَإنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبهِ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي سيدخلُ أبو لَهب ناراً لا يسكنُ لَهبُها ولا يطفأُ جَمرُها، قرأ أبو رجاء (سَيُصَلَّى) بالتشديد وضمِّ الياء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ ﴾؛ اسمها أمُّ جَميل بنتُ حرب، أختُ أبي سفيان، يُصْلِيها اللهُ معه، وكانت عَوراء، وقولهُ تعالى (حَمَّالَةَ الْحَطَب) أي نقَّالَةَ للكذب، قال ابنُ عباس: ((إنَّهَا كَانَتْ تَمْشِي بالنَّمِيمَةِ))[(٢)]، تقولُ العرب: فلانٌ يَحْطِبُ على فلان؛ أي ينمُّ عليه.

وقال الضحَّاك: ((كَانَتْ تَأْتِي بالشَّوْكِ وَالْفَضَلاَتِ، فَتَطْرَحُهَا باللَّيْلِ فِي طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ وَأصْحَابهِ لِتَعْقِرُهُمْ، وَكَانَتْ تُعَيِّرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بالْفَقْرِ، فَعَيَّرَهَا اللهُ تَعَالَى بالاحْتِطَاب))[(٣)].

وهو ما تحمله من الشوكِ. قراءةُ العامَّة (حَمَّالَةُ) بالرفع، على أنه خبر لمبتدأ، ويجوز أن يكون نعتاً وخبرُ المبتدأ (فِي جِيدِهَا)، ومن نصبَ (حَمَّالَةَ) فعلى الذمِّ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٥ ص٢٤٥: الحديث (٤٤٨٣ و٤٤٨٤) عن عائشة بإسناد صحيح. وعبدالرزاق في المصنف: الحديث (١٦٦٤٣). وأبو داود في السنن: كتاب البيوع: باب في الرجل يأكل من مال عمله: الحديث (٣٥٢٨). والبخاري في التاريخ الكبير: ج ١ ص٤٠٧: الترجمة (١٣٠١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (٢٩٥٩٨) من قول عكرمة ومجاهد وابن أبي نجيح وقتادة.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٥٩٦).

والشتم، كقوله تعالى ﴿مَلْعُونِينَ﴾[(١)] والمعنى: أعنِي حَمَّالَةَ الحطب، وفي قراءةِ عبـدِ الله (وَمَرِيَّتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَب)[(٢)]، وقراءة أبي قلابة[(٣)] (وَامْرَأتُهُ حَامِلَةَ الْحَطَبِ) علـى وزن فاعلة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ ؛ أي في عنُقها حبـلٌ في الآخرةِ له ثقلُ الحديدِ، وحرارةُ النار، وخشُونَةِ اللِّيف، وقال ابنُ عبَّاس: ((مَعْنَاهُ: فِـي عُنُقِهَا سِلْسِلَةٌ ذرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً مِنْ حَدِيـدٍ، لَـوْ وُضِعَـتْ مِنْـهَا حَلَقَـةٌ عَلَـى جَبَـلٍ لَذابَ، كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ، تَدْخُلُ فِي فِيْهَا، وَتَخْرُجُ مِنْ دُبُرهَا، وَيُلْوَى سَائِرُ بَاقِيـهَا فِي عُنُقِهَا، وَذلِكَ لأَنَّهَا كَانَتْ لَهَا قِلاَدَةٌ فَـاخِرَةٌ وَكَـانَتْ تَقُـولُ: لأُنْفِقَنَّـهَا فِـي عَـدَاوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ))[(٤)].

ويقال: إنَّها اختنَقت في الدُّنيا بحبلٍ من ليفٍ خنَقَها اللهُ به فأهلَكـها، ويجعـلُ في الآخرةِ في عنُقها جبلٌ من نار تُساق به إلى النار.

والْمَسَدُ في اللغة: الْفَتْلُ، والممسُود: المفتولُ. وَقِيْلَ: المسَدُ: الحديدةُ الـتي تـدورُ عليها البكَرَةُ تجعلُ في عنقِها سلسلةً، وتُجعَلُ السلسلةُ في تلك الحديدةِ، فهي تُجتَـذبُ بها في النار وتختلفُ بها في النار،كما تختلفُ بالدَّلوِ في البئرِ على البكَـرةِ، يُشْـهرُها الله بهذه العلامةِ في جهنَّم، تُرفَعُ مرَّة، وتُخفَضُ أخرى مع سائرِ أنواع العقوباتِ.

آخر تفسير سورة (المسـد) والحمد لله رب العالمين

---

(١) الأحزاب / ٦١.

(٢) قرأ عبدالله بن عباس رضي الله عنهما (وَمَرِيَّتُهُ حَمَّالَـةَ الْحَطَـبِ) علـى التصغـير، وعنـه أيضـاً (وَمَرِيئَتُهُ). إلا أنه أقر الهمزة تارة، وأبدلها بالياء وأدغم فيها أخرى.

(٣) في المخطوط: (وقراءة أبـي قلابـة (وامرأتـه حمالـة الحطـب علـى وقـراءة أبـي قلابـة) مكـررة، والصحيح في حال إثبات قراءة، تكون العبارة:(وقراءة عياض: (وامرأته حمالةٌ للحطب، بالتنوين وجر المفعول بلام زائدة تقوية للعمل كقوله تعالى:﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج / ٦]) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٢٠ ص٥٥٥. وعلى ما يبدو أن خطأ عند الناسخ، فكرر قراءة أبـي قلابـة، وهذا هو الراجح والله أعلم. ورقة (٥٢٨).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦٠٥) مختصراً.

سُورَةُ الإخْــلاَصِ

سُورَةُ الإخْلاَصِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سَـبْعَةٌ وَأرْبَعُـونَ حَرْفـاً، وَخَمْـسَ عَشْـرَةَ كَلِمَـةً، وَأرْبَعُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الإخْلاَصِ فَكَأنَّمَا قَرَأ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَيُعْطَى مِنَ الْحَسَنَاتِ بعَدَدِ مَنْ آمَنَ باللهِ، وبعَدَدِ مَنْ أشْرَكَ بهِ][(١)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً إلَى الْغَزْو، وَأمَّرَ عَلَيْـهِمْ رَجُـلاً يُقَالُ لَهُ كُلْثُومُ، وَكَانَ إذا صَلَّى بهِمْ قَرَأ الْفَاتِحَةَ وَسُورَةً، ثُمَّ سُـورَةَ الإخْـلاَصِ، فَلَمَّـا رَجَعُوا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ أخْبَرُوهُ بذلِكَ، فَقَالَ لَهُ: [مَا حَمَلَكَ عَلَـى مَـا فَعَلْـتَ ؟] فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إنِّي أحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ، فَقَالَ لَهُ: [حُبُّكَ إيَّاهَا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ][(٢)].

وعَنْ أنَسٍ ﷺ قَالَ: غزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ غَـزْوَةَ تَبُـوكٍ، فَلَمَّـا أنْ قَدِمَـهَا طَلَعَـتِ الشَّمْسُ بأحْسَنِ طُلُوعٍ بضِيَاءٍ وَشُعَاعٍ وَنُور لَمْ تَكُنْ طَلَعَتْ بمِثْلِهِ فِيْمَا مَضَى، فَتَعَجَّـبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذلِكَ، فَأتَاهُ جِبْرِيلُ بالْوَحْيِ، فَسَألَهُ عَنْ ذلِكَ فَقَالَ: إنَّهُ مَاتَ الْيَوْمَ مُعَاوِيَةُ اللَّيْثِيُّ بالْمَدِينَةِ، وَإنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ سَبْعِينَ الْـفَ مَلَـكٍ يُصَلُّـونَ عَلَيْـهِ، قَـالَ: [فَبـمَ ذلِكَ ؟] قَالَ: بكَثْرَةِ تِلاَوَةِ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ﴾ قَائِماً وَقَاعِداً وَفِي مَمْشَاهُ، فَهَلْ لَكَ يَـا رَسُولَ اللهِ أنْ أقْبضَ لَكَ الأرْضَ فَتُصَلِّيَ عَلَيْهِ ؟ قَالَ: [نَعَمْ] فَصَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ رَجَـعَ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: [اسْتَكْثِرُوا مِنْهَا؛ فإنَّهَا نِسْبَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَنْ قَرَأهَا خَمْسِـينَ مَـرَّةً رَفَـعَ اللهُ لَهُ بهَا خَمْسِينَ ألْفَ دَرَجَةٍ، وَحَطَّ عَنْهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَيِّئَةٍ، وَكَتَبَ لَهُ خَمْسِينَ ألْفَ

---

(١) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ٥ ص٢٣٦٣: الحديث (٣٧٦٧)؛ قال العراقـي: (رواه أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسـلم مـن حديث أبي الدرداء نحوه).

(٢) علقه البخاري في الصحيح: كتاب الأذان: باب الجمع بين السورتين في الركعة: عن قتـادة. وفي الشرح قال ابن حجر: (رواه ابن منده في كتاب التوحيد من طريق أبي صالح عـن ابـن عبـاس، وأشار إلى أنه غير حديث عائشة الذي أخرجه البخاري في كتاب التوحيد من صحيحه.

حَسَنَةٍ، وَمَنْ زَادَ زَادَهُ اللهُ][(١)].

وَقَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا إحْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً بَنَى اللهُ لَهُ قَصْراً فِي الْجَنَّةِ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ بَيْضَاءَ عَلَى عَمُودٍ مِنْ يَاقُوتٍ أحْمَرَ، فِيهِ اثْنَتَا عَشْرَةَ ألْفِ ألْفِ غُرْفَةٍ، وَمَنْ قَرَأهَا خَمْسِينَ مَرَّةً بَنَى اللهُ لَهُ مَنَازِلَ مِنْ نُورٍ، وَأجَازَهُ عَلَى الصِّرَاطِ، وَمَنْ قَرَأهَا مِائَةَ مَرَّةٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَ سِتِّينَ سَنَةً][(٢)].

وَقَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا تَنَاثَرَ الْخَيْرُ عَلَى رَأسِهِ مِنْ عَنَانِ السَّمَاءِ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُ الرَّحْمَةُ، وَنَظَرَ اللهُ إلَيْهِ وَجَعَلَهُ فِي كِلاَيَتِهِ[(٣)] وَحِرْزِهِ وَأعْطَاهُ مَا سَألَ][(٤)]. وَفَضَائِلُهَا أكْثَرُ مِنْ أنْ تُحْصَى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾؛ اختلفَ المفسِّرون في سبب نُزول هذه السُّورة فروي عن ابن عبَّاس: ((أنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبيِّ ﷺ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي تَدْعُونَا إلَيْهِ)). وعن مقاتلٍ: ((أنَّ عَامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ الْعَامِرِيَّ قَالَ لِلنَّبيِّ ﷺ: إنْعَتْ لَنَا رَبَّكَ مِنْ ذهَبٍ هُوَ أمْ مِنْ فِضَّةٍ أمْ مِنْ نُحَاسٍ أمْ مِنْ حَدِيدٍ أمْ مِنْ صُفْرٍ، فَإنَّ آلِهَتَنَا مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ؟! قَالَ: بَيِّنْ لَنَا أيَأكُلُ وَيَشْرَبُ؟! وَكَيْفَ هُوَ؟ فَشَقَّ عَلَى النَّبيِّ ﷺ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ))[(٥)].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٧٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن سعد وابن الضريس والبيهقي في الدلائل والشعب) وذكره.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٧٥؛ قال السيوطي: (أخرجه الحافظ أبو محمد الحسن بن أحمد السمرقندي في فضائل ﴿قل هو الله أحد﴾ عن عبدالله بن أبي فروة).

(٣) التَّكَلُّلُ: الإحاطةُ، لأن الإكليل يُجعل كالحلقة ويوضع هنالك أعلى الرأس. لسان العرب (كلل): ج ١٢ ص١٤٦.

(٤) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٣٣٢.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٣ ص٤٣٥ مطولاً.

وعن سعيدِ بن جُبير: ((أنَّ الْيَهُودَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إنَّكَ أخْبَرْتَنَا أنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاءَ مِنْ دُخَان وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَار وَخَلَقَ آدَمَ مِنْ طِين، فَأخْبِرْنَا عَنْ رَبِكَ مِمَّ خَلْقُهُ ؟!))[1]. ورُوي أنَّهم قالوا: إنَّ هَذا الْخَلْقَ خَلْقُ اللهِ فَمَنْ خَلَقَهُ ؟ فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى جَعَلَ لَحْمَهُ يَرْبُو عَلَيْهِ وَحَتَّى هَمَّ أنْ يُبَاسِطَهُمْ، فَأوْحَى إلَيْهِ جِبْرِيلُ: أنِ اسْكُنْ، وَأنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ هَذِهِ السُّورَةَ.

وقال ابنُ[2] كَيسَانُ: ((قَالَتِ الْيَهُودُ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ، فَإنَّهُ قَدْ نَزَلَ نَعْتُهُ فِي التَّوْرَاةِ، فَمَا طُولُهُ وَمَا عَرْضُهُ؟ فَارْتَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَوَضَعَ إصْبَعَيْهِ فِي أذُنَيْهِ وَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَجَعَلَ أبُو بَكْرٍ ﷺ يَمْسَحُ الدُّمُوعَ عَنْ وَجْنَتَيْهِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ جَوَاباً لَهُمْ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوّاً كَبِيراً)).

والمعنَى: قُل لهم يا مُحَمَّدُ: الذي سألتُم عن تَبيين نسَبهِ هو اللهُ، وهذا الاسمُ معروفٌ عند جميعِ أهل الأديانِ والمللِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[3]. والأحَدُ والواحدُ في اللغةِ بمعنى واحد، وقال ثعلبُ: ((وَاحِدٌ وَأحَدٌ وَفَرْدٌ سَوَاءٌ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾ ؛ معناهُ: هو اللهُ الذي يصمَدُ إليه في الحوائجِ وإليه المفزَعُ في الشدائدِ، تقول العربُ: صَمَدْتُ إلى فلانٍ أصْمُدُ صَمْداً بسكونِ الميم إذا قصدتهُ، والمَصْمُودُ: المقصودُ.

وعن ابنِ عبَّاس:(أنَّ الصَّمَدَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدَدِه، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ، وَالْجَبَّارُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي جَبَرُوتِهِ، وَالْغَنِيُّ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي غِنَاهُ، وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ، فَهُوَ اللهُ الَّذِي لَهُ هَذِهِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦١٧).
(٢) في المخطوط: سقط (ابن).
(٣) الزخرف / ٨٧.

الصِّفَاتِ كُلَّهَا لاَ تَنْبَغِي إلاَّ لَهُ))[١].

وقال قتادةُ: ((الصَّمَدُ: الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِهِ))[٢]، وَقِيلَ: هو الدائمُ، وقال السديُّ: ((الصَّمَدُ الْمَقْصُودُ إلَيْهِ فِي الرَّغَائِبِ، الْمُسْتَعَانُ بِهِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ))، والعربُ تسمي السيِّدَ الصمدَ، قال الشاعرُ:

أَلاَ بَكَّرَ النَّاعِي بخَيْرِ بَنِي أَسَدْ بعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

وعن أُبَيِّ بن كعبٍ قال: ((الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ؛ لأَنَّهُ لاَ شَيْءَ يَلِدُ إلاَّ سَيُورَثُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ إلاَّ سَيَمُوتُ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ لاَ يُورَثُ وَلاَ يَمُوتُ))[٣].

وكتبَ أهلُ البصرةِ إلى الحسنِ بن عليٍّ يسألوهُ عن معنى الصَّمَدِ، فَكَتَبَ إليهم: ((بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: أمَّا بَعْدُ؛ فَلاَ تَخُوضُوا فِي الْقُرْآنِ بغَيْرِ عِلْمٍ، فَإنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ قَدْ فَسَّرَ الصَّمَدَ فَقَالَ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾)).

وعن محمَّد بن الحنفية قال: ((الصَّمَدُ الغَنِيُّ عَنْ غَيْرِهِ))، وعن زيدِ بن عليٍّ قال: ((الصَّمَدُ الَّذِي أمْرُهُ إذا أرَادَ شَيْئاً أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي لَمْ يلِدْ أحَداً فيَرِثُ مُلكَهُ، ولم يُولَدْ عن أحدٍ فيَرِثُ عنه المُلْكَ، والحاصلُ من هذا يرجعُ إلى نفي الحدثِ والحاجةِ عن الله تعالى؛ لأنه لو كان مَولوداً لكان مُحدَثاً، ولو كان له ولدٌ لكان مُحتاجاً، لأن أحداً لا يَستَولِدُ إلاَّ لحاجتهِ إلى الولد والاستمتاع، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن هذه الصِّفَات كما قال تعالى ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦٣٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦٣٦).

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٦٩؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد والبخاري في التاريخ والترمذي وابن جرير وابن خزيمة وابن أبي حاتم في السُّنة والبغوي في معجمه وابن المنذر في العظمة والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء عن أبي بن كعب ﷺ).

(٣) الأنعام / ١٠١ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ تقديـرهُ: ولم يكـن أحدٌ كُفُؤاً له؛ أي ليس كمثلهِ شيءٌ، و((في)) قوله تعالى (كُفُواً) ثلاثُ قراءاتٍ، قرأ حمزةُ ويعقوب وخلَف ساكنةُ الفاءِ مهموزةٌ، ومثلـه مـرويٌّ عـن أبـي عمـرٍو ونـافع، وقـرأ حفصُ عن عاصم كُفُواً مثقلة غيرُ مهموزةٍ، وقرأ الباقون كُفُؤاً مهموزة مضموم الفـاء، والكفؤُ والكفاء والكفَى واحدٌ، وهو المثلُ والنظير، تعالَى اللهُ عن المثلِ والنظير.

آخر تفسير سورة (**الإخلاص**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْفَلَــقِ

سُورَةُ الْفَلَقِ مَكِّيَّــةٌ، وَهِـيَ أَرْبَعَـةٌ وَسَـبْعُونَ حَرْفـاً، وَثَـلاَثٌ وَعُشْـرُونَ كَلِمَـةً، وَخَمْسُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ الْكُتُبَ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ تَعَالَى كُلَّهَا][1].

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [أَلاَ أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [قُلْ أَعُوذُ بِــرَبِّ الْفَلَـقِ، وَ قُـلْ أَعُـوذُ بِرَبِّ النَّاسِ][2].

وَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [لَنْ تُقْرَأَ سُورَةٌ أَحَبُّ إلَـى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِــنْ قُـلْ أَعُـوذُ بِـرَبِّ الْفَلَـقِ، فَـإنِ اسْـتَطَعْتَ أَنْ لاَ تَدَعَـهَا فِـي صَـلاَةٍ فَافْعَلْ][3].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾؛ قال الكلـبيُّ: ((هَذِهِ السُّورَةُ وَالَّتِي بَعْدَهَا أُنْزِلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حِينَ سُحِرَ، فَأَمِرَ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يَتَعَوَّذَ بِهِمَا، وَذلِكَ أنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ: لَبِيدُ بْــنُ أعْصَـمَ، سَـحَرَ النَّـبِيَّ ﷺ وَاشْـتَدَّ شَكْوَاهُ حَتَّى تُخُوِّفَ عَلَيْهِ.

---

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بـن كعـب. ينظـر: اللبـاب في علـوم الكتاب: ج ٢٠ ص٥٧٤-٥٧٥.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٧ ص٢٩٢: الحديث (٩٤٣).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٧ ص٢٩٤: الحديث (٩٥١).

فَبَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ إذْ أتَاهُ مَلَكَان؛ أحَدُهُمَا عِنْدَ رَأسِهِ وَالآخَرُ عِنْدَ رجْلَيْهِ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأسِهِ لِلثَّانِي: أيُّ شَيْءٍ بِهِ؟ قَالَ: سِحْرٌ، قَالَ: مَنْ فَعَلَ بهِ؟ قَالَ: لَبيدُ بْنُ أعْصَمَ الْيَهُودِيُّ، قَالَ: فَأيْنَ جَعَلَهُ؟ قَالَ: فِي بئْرِ لِبَنِي زُرَيْق، وَجَعَلَهُ فِي صَخْرَةٍ فِي كُوبَةٍ، قَالَ: فَمَا دَوَاؤُهُ ؟ قَالَ: نَبْعَثُ إلَى تِلْكَ الْبئْرِ فَيَنْزَحُ مَاؤُهَا، ثُمَّ تُقْلَعُ الصَّخْرَةُ فَتُسْتَخْرَجُ الْكُوبَةُ مِنْ تَحْتِهَا فِيهَا إحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً. وَإنَّمَا قَالَ ذلِكَ؛ لِكَي يُفْهِمَ النَّبِيَّ ﷺ، فَانْتَبَهَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ فَهِمَ مَا قَالاَ.

فَأرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرِ فِي نَفَرٍ مِنْ أصْحَابهِ إلَى تِلْكَ الْبئْرِ، فَانْتَهَى إلَيْهَا عَمَّارُ، وَقَدْ تَغَيَّرَ مَاؤُهَا كَهَيْئَةِ الْحِنَّاءِ مِنْ ذلِكَ السِّحْرِ، فَنَزَحُوا ذلِكَ الْمَاءَ حَتَّى بَدَتِ الصَّخْرَةُ فَإذا تَحْتَهَا كُوبَةٌ، فَأخَذُوهَا وَإذا فِي الْكُوبَةِ وَتَرٌ فِيهِ إحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً، فَجَاءَ بهَا إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأحْرِقَتْ وَأنْزِلَتِ الْمُعَوِّذتَان إحْدَى عَشْرَةَ آيَةً فَحَلَّتْ كُلُّ آيَةٍ عُقْدَةً، وَأمِرَ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يَتَعَوَّذ بهِمَا، وَكَانَ ﷺ يُعَوِّذُ بهِمَا الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، فَكَانَ لَبيدُ بَعْدَ ذلِكَ يَأتِي النَّبِيَّ ﷺ فَمَا رَأى فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ شَيْئاً مِنْ ذلِكَ قَطُّ وَلاَ ذاكَرَهُ إيَّاهُ.

وفي بعض الروايات: أنَّ بَنَات لَبيدِ بْنِ أعْصَمَ اللَّوَاتِي سَحَرْنَ النَّبِيَّ ﷺ، فَذهَبَ بذلِكَ لَبيدُ فَجَعَلَهُ فِي وعَاءِ الطَّلْعِ - أعْنِي كُوزَي النَّخْلِ - وَجَعَلَهُ فِي بئْرٍ تَحْتَ صَخْرَةٍ، فَلَمَّا أطْلَعَ اللهُ نَبيَّهُ عَلَى ذلِكَ بَعَثَ أبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ حَتَّى أخْرَجَاهُ. وَقِيلَ: بَعَثَ عَلِيّاً فِي اسْتِخْرَاجِهِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ[(١)].

والفَلَقُ على قول الكلبيِّ وقتادة : ((الصُّبْحُ عِنْدَ بَيَانِهِ وَظُهُورِهِ))، وعن ابنِ عبَّاس: ((أنَّ الْفَلَقَ الْخَلْقُ يَخْرُجُونَ مِنْ أصْلاَب آبَائِهِمْ وَأرْحَامِ أمَّهَاتِهِمْ كَمَا يَنْفَلِقُ الْحَبُّ مِنَ النَّبَاتِ)). وهذا القول أعمُّ من الأولِ وأقربُ إلى تعظيمِ الله تعالى، لأن

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجزية والموادعة: باب هل يعفى عن الذمي إذا سحر: الحديث (٣١٧٥)، وأطرافه في (٥٧٦٣ و٥٧٦٥ و٦٠٦٣ و٦٣٩١). ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب السحر: الحديث (٢١٨٩) مختصراً.

الفلَقَ كلمةٌ جامعة من لطائفِ القرآن، واللهُ تعالى فالِقُ الإصباحِ وفـالقُ الحب والنـوَى، وفالقُ البحرِ لموسى.

ومعنى السُّورة: قُل يا مُحَمَّدِ: امتَنِعُ واعتَصِمُ واستَعِذُ بربٌ الفلـقِ مـن شرٌ كل ذي شرٌ من الجنّ والإنـسِ والسـباع والحيَّـات والعقـارب وغيرهـا، وعـن كعـب الأحبار أنه قالَ: ((الْفَلَقُ بَيْتٌ فِي النَّـار لَـوْ فُتِـحَ بَابُـهُ صَـاحَ جَمِيـعُ أَهْـلِ النَّـار مِـنْ شِدَّتِهِ))[1]. قال السديُّ: ((الْفَلَقُ بِئْرٌ فِي جَهَنَّمَ))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ الغَاسِقُ: هو الليـلُ إذا اشتدَّت ظُلمَتهُ، ووقُوبُ الليلِ دخولهُ في الظَّلام، هكذا عن قتادةُ، وأصل الغَسَـقِ: الجريانُ بالضَّرر من قولهم: غَسَقَتِ القَرْحَةُ إذا جرَى صَدِيدُها، والغَاسِقُ صديـدُ أهـلِ النار، والغاسِقُ كلُّ هاجمٍ بالضَّرر كائناً ما كان، وسُمِّي الليلُ غَاسِقاً؛ لأنـه تخـرجُ فيـه السِّباعُ من آجَامِها، والهوامُّ من مكانِها.

وإنما أضيفُ الشرُّ إلى الليلِ؛ لأن الإنسانَ يحذرُ في أوقاتِ الليل من الشرِّ مـا لا يحذرُ مثلَهُ بالنهار، كأنه قالَ تعالى: ومن شرِّ ما في الغاسقِ، كما يقالُ: أعـوذُ بـالله مـن هذا البلدِ إذ كَثُرَ فيه الظُّلم والفسادُ.

وعن عليٍّ ﷺ أنه قال: ((الْغَاسِقُ هُوَ الظَّالِمُ، وَوُقُوبُهُ دُخُولُـهُ عَلَـى الظُّلْـمِ)). ويقالُ: الغاسقُ سقوطُ الثُّريا؛ لأن الطوَاعِين والأسقامَ تكـثرُ عنـد سـقوطِها، وترتفـعُ عند طلوعِها.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: أَرَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقَمَرَ فَقَالَ: [تَعَوَّذِي باللهِ مِنْ شَرِّ هَذا الْغَاسِقِ إذا وَقَبَ] أيْ إذا كَسَفَ وَاسْوَدَّ[3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦٤٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦٤٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٦٦٦). والترمذي في الجامع الصحيح: أبواب التفسير: الحديث (٣٣٦٦) بإسناد صحيح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي من شرِّ السَّواحِرِ ينفُثْنَ؛ أي يسحَرْنَ في عُقَدِ السحر، وهن الجماعات السواحر، وذلك أنَّهن إذا أردنَ الإضرارَ بإنسانٍ نفَثْنَ عليه ورقَّيْنَهُ بكلامٍ فيه كفرٌ وشركٌ وتعظيمُ الكواكب من الأدويةِ الضارَّة والسُّموم القاتلةِ بالاحتيال، ثم يزعُمن إذا ظهر الضُّر عليه أنَّ ذلك من رُقَاهِنَّ.

وإذا أردنَ نفعَ إنسان نَفَثْنَ عليه، واحتَلنَ أنْ يَسقِينَهُ شيئاً من الأدويةِ النافعة، ثم إذا اتَّفقَ للعليلِ خفَّةُ الوجعِ أوهَمْنَ أنَّهن اللَّواتي نفعنَهُ من النفعِ والرقى. والنَّفثُ هو أن يُلقِي الإنسانُ بعضَ ريقه على منَ يعوِّذُه، يقالُ: نَفَثَ يَنْفُثُ، وتَفَلَ يَتْفُلُ بمعنى واحدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إن الحاسدَ يستعظمُ نعمةَ صاحبهِ ويريدُ زوالَها، فيحملهُ ذلك على الظُّلم والبغي والاحتيالِ بكلِّ ما يقدرُ عليه لإزالةِ تلك النعمةِ عنه. والحسَدُ في اللغة بمعنى زَوَالِ النِّعمةِ عن صاحبها لِمَا يدخلُ على النفسِ من المشقَّة بها.

ويقالُ: معناهُ: التلهُّف على جودِ الله تعالى، وهذا هو الحسدُ المذموم، وأما إذا تَمنَى لنفسهِ نعمةً من اللهِ تعالى مثلَ نعمةِ صاحبهِ من غيرِ أنْ يتمنَّى زوالَها عنه، فذلك يكونُ غِبْطَةً، ولا يكون حَسَداً.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بهذه الآيةِ: استعاذةٌ من شرِّ عينِ الحاسد، واستدلَّ على ذلك بما رُوي: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أَمَرَ عَائِشَةَ أنْ تَسْتَرْقِي مِنَ الْعَيْنِ(١)، وَيُسْتَحَبُّ لِلْعَائِنِ عِنْدَ إعْجَابهِ بمَا يَرَاهُ أنْ يَقُولَ: مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ، كما رُوى أنسٍ عن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [مَنْ رَأى شَيْئاً يُعْجِبُهُ فَقَالَ: اللهُ اللهُ! مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ، لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ](٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الطب: باب رقية العين: الحديث (٥٧٣٨). ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب استحباب الرقية من العين: الحديث (٥٦/ ٢١٩٥).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: الرقم (٥٦٩٦ و٥٦٩٧) عن أنس بن مالك. وفي=

وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [الْعَيْنُ حَقٌّ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبقُ الْقَـدَرَ لَسَـبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإذا اسْتَغْسَلْتُمْ فَاغْسِلُوا][(١)].

وإنما خُتمت السورةُ بالحسدِ؛ ليُعلَمَ أنه أخَسُّ من الأشياءِ التي قبلَهُ، وهو أخسُّ الطبائعِ.

آخر تفسير سورة (**الفلـق**) والحمد لله رب العالمين

=فيض القدير شرح الجامع الصغير: ج ٦ ص١٣٠: الحديث (٨٦٨٤)؛ قال المناوي: (هـو لفـظ رواية الديلمي والبزار، قال الهيثمي: وفيه أبو بكر الهذلي، ضعيف جداً). وأخرجه ابـن عـدي في الكامل في ضعفاء الرجال: ج ٤ ص٣٤٦ في ترجمة أبو بكر الهذلي: الرقم (٤٦/ ٧٧٨).

(١) أخرجه الطبري في جـامع البيـان: الحديـث (٢٩٦٧٥). والطـبراني في المعجـم الكبـير: ج ١١ ص١٧: الحديث (١٠٩٠٥). ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: بـاب الطـب والمرضـى والرقى: الحديث (٤٢/ ٢١٨٨).

سُورَةُ النَّاسِ

سُورَةُ النَّاسِ مَدَنِيَّةٌ(١)، وَهِيَ سَبْعَةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَسِتُّ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [قَالَ لِي جِبْرِيلُ: الاَ اخْبِرُكَ بِأفْضَلَ مَا يُتَعَوَّذُ بِهِ ؟ قُلْتُ: مَا هُوَ ؟ قَالَ: الْمُعَوِّذَتَانِ فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا](٢).

وَقَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْفَلَقِ وَسُورَةَ النَّاسِ أعْطَاهُ اللهُ مِنَ الأَجْرِ كَأنَّمَا قَرَأ جَمِيعَ الْكُتُبِ الَّتِي أنْزَلَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى الأَنْبِيَاءِ وَمُحَمَّدٍ ﷺ](٣).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ: امتَنِعُ واعتصِمُ بخالقِ الخلْقِ المقتدر عليهم، المالكِ لنفعِهم وضرِّهم وحياتِهم وموتِهم، المستحقِّ للعبادةِ الذي إليه مفزَعُهم وملجأُهم، من شرِّ الشيطانِ ذي الوَسْوَاسِ المستقر المختفِي عن أعيُنِ الناسِ، ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ ﴾، الذي يَصِلُ بوسوستهِ إلى صُدور الناسِ، كما جاء في الحديث: [إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، فَتَعَوَّذُوا باللهِ مِنْهُ](٤).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٩٣؛ قال السيوطي: (أخرج ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير ﷺ قال: أنزل بالمدينة ﴿قلْ أعُوذُ برَبِّ النَّاسِ﴾) وغالبُ قول المفسرين أنها مكيَّة.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وأصله أخرجه أصحاب السنن عن عقبة بن عامر وغيره من الصحابة.

(٣) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب، وهي واهنة، والحديث المرفوع في ذلك موضوع. ينظر: الكشاف: ج ٤ ص٨١٧.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٣٣٧. والبخاري في الصحيح: كتاب بدء الخلق: باب=

قال قتادةُ: ((إنَّ الْخَنَّاسَ لَهُ خُرْطُومٌ كَخُرْطُومِ الْكَلْبِ فِي صُورَةِ الإنْسَانِ، جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، إذا غَفِلَ الْعَبْدُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَسْوَسَ، وَإذا ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ))(١). ورُوي: أن عيسَى عليه السلام دعَا ربَّهُ أن يُرِيَهُ موضعَ الشيطان من ابنِ آدم، فجلَى له فإذا رأسهُ رأسُ الحيَّة واضعٌ رأسه على ثمرةِ القلب، فإذا ذكرَ العبدُ ربَّهُ خَنَسَ، وإن لم يذكُرْ ربَّهُ وضعَ رأسَهُ على ثمرةِ قلبه وحَدَّثَهُ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾؛ قِيْلَ: ذلك عائدٌ على الوسواس، كأنه قالَ: شرِّ الوسواسِ الذي هو من الجِنَّةِ، والوسواسِ الذي هو من الناس. ويقالُ: معناه: من شرِّ كلِّ ماردٍ من الجنِّ والإنس. وَقِيْلَ: إنَّ قولَهُ تعالى (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) عائدٌ على لفظ الناسِ المذكور في قولهِ تعالى (فِي صُدُور النَّاسِ)؛ لأن اسمَ الناسِ يصلحُ للإنس والجنِّ، كما قال تعالى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾(٣) فجعلَهم رجالاً، والشيطانُ يوسوس في صدور الجنِّ، كما يوسوسُ في صدور الإنس، ودليلُ هذا قولهُ تعالى في أوَّل السورةِ (قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) أرادَ به ربَّ الإنس والجنِّ جَميعاً.

وباللهِ التوفيقُ.

آخر تفسير سورة (الناس)

وبحمد الله تعالى وفضله ومنِّهِ تمَّ ضبط هذا التفسير على أصله الموسوم (التفسير الكبير– تفسير القرآن العظيم) للعالم الإمام الحافظ أبي القاسم أحمد بن سليمان الطبراني رحمه الله.

=صفة إبليس: الحديث (٢٣٨١). ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجته أن يقول: هذه فلانة؛ ليدفع ظن السوء به: الحديث (٢٤/ ٢١٧٥)، وله قصة عن صفية بنت حُيَيٍّ أم المؤمنين.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦٨١) مختصراً، واللفظ لابن عباس رضي الله عنهما في الأثر (٢٩٦٧٨).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٩٤؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي الدنيا وابن المنذر عن عروة بن رويم).

(٣) الجن / ٦.

تَمَّ الْجُزْءُ الْمُبَارَكُ بِمَعُونَةِ اللهِ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، وَالْحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَسُلْطَانِ الصِّدِّيقِينَ وَإِمَامِ الْمُقَرَّبِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ آمِينَ.

وكان الفراغُ من تعليقِ هذا الجزء العظيمِ قدرهُ، الشريفِ مجدهُ، يومَ الثُّلاثاء المباركِ على يدِ أقلِّ العباد وأحقرِهم، خُوَيدِمُ نعالِ الفقراء الطفيلي فيما بينهم ....(١) الشافعي، قُبَيلَ العصرِ بافتتاحِ شهر رجبَ الفردِ، سَنة أربعةٍ وستِّين وتسعمائة، ومستنسخهُ الشيخ الفاضلُ قاضي القُضاة وشيخُ الإسلامِ العالِم العلاَّمة البحرُ، أدامَ الله تعالى نعمةَ مولانا المذكور ولا زالَ عَلَمُ عِلمهِ مرفوعاً أبداً، وبناءُ مجدهِ مُنتَصباً بحفظٍ من العِدَى، ولا زالت أقلامهُ لأفعالِ الشكِّ جازمةً، ووفُور السَّعدِ عن أعدائهِ متعديَّةً، ولآرائهِ لازمةً، لا زالَ بابُ مولانا للخيرِ والصِّلة، وحالُ محارمهِ متَّصلة لا منفصلة، بِمَنِّهِ وكرمهِ إنه على ما يشاءُ قديرٌ وبالاجابة جديرٌ آمِين.

---

(١) رسم الحرف غير واضح؛ لكثرة السواد عليه. وأسقط الناسخ رحمه الله اسمه من الذكر.

فهرس المجلد السادس

سورة الأحقاف	
الآيات	الصفحة
١-٣٥	٥
سورة محمد	
الآيات	الصفحة
١-٣٨	٢٨
سورة الفتح	
الآيات	الصفحة
١-٢٩	٤٦
سورة الحجرات	
الآيات	الصفحة
١-١٨	٧٠
سورة ق	
الآيات	الصفحة
١-٤٥	٩٢
سورة الذاريات	
الآيات	الصفحة
١-٦٠	١٠٦
سورة الطور	
الآيات	الصفحة
١-٤٩	١٢١
سورة النجم	
الآيات	الصفحة
١-٦٢	١٤٣

سورة القمر	
الآيات	الصفحة
١-٥٥	١٥٢
سورة الرحمن	
الآيات	الصفحة
١-٧٨	١٦٤
سورة الواقعة	
الآيات	الصفحة
١-٩٦	١٨٤
سورة الحديد	
الآيات	الصفحة
١-٢٩	٢٠٢
سورة المجادلة	
الآيات	الصفحة
١-٢٢	٢٢٨
سورة الحشر	
الآيات	الصفحة
١-٢٤	٢٣٣
سورة الممتحنة	
الآيات	الصفحة
١-١٣	٢٥٤
سورة الصف	
الآيات	الصفحة
١-١٤	٢٦٦
سورة الجمعة	
الآيات	الصفحة
١-١١	٢٧٢

سورة المنافقون	
الآيات	الصفحة
١-١١	٢٨١
سورة التغابن	
الآيات	الصفحة
١-١٨	٢٨٨
سورة الطلاق	
الآيات	الصفحة
١-١٢	٢٩٣
سورة التحريم	
الآيات	الصفحة
١-١٢	٣٠٠
سورة الملك	
الآيات	الصفحة
١-٣٠	٣١١
سورة القلم	
الآيات	الصفحة
١-٥٢	٣١٩
سورة الحاقة	
الآيات	الصفحة
١-٥٢	٣٣٤
سورة المعارج	
الآيات	الصفحة
١-٤٤	٣٤٥
سورة نوح	
الآيات	الصفحة
١-٢٨	٣٥٣

سورة الجن	
الآيات	الصفحة
١-٢٨	٣٦٠
سورة المزمل	
الآيات	الصفحة
١-٢٠	٣٦٩
سورة المدثر	
الآيات	الصفحة
١-٥٦	٣٧٩
سورة القيامة	
الآيات	الصفحة
١-٤٠	٣٩١
سورة الانسان	
الآيات	الصفحة
١-٣١	٣٩٩
سورة المرسلات	
الآيات	الصفحة
١-٥٠	٤١٤
سورة النبأ	
الآيات	الصفحة
١-٤٠	٤٢٠
سورة النازعات	
الآيات	الصفحة
١-٤٦	٤٣١
سورة عبس	
الآيات	الصفحة
١-٤٢	٤٣٩

سورة التكوير	
الآيات	الصفحة
١-٢٩	٤٤٦
سورة الانفطار	
الآيات	الصفحة
١-١٩	٤٥٤
سورة المطففين	
الآيات	الصفحة
١-٣٦	٤٥٨
سورة الانشقاق	
الآيات	الصفحة
١-٢٥	٤٦٥
سورة البروج	
الآيات	الصفحة
١-٢٢	٤٧٠
سورة الطارق	
الآيات	الصفحة
١-١٧	٤٧٥
سورة الأعلى	
الآيات	الصفحة
١-١٩	٤٧٩
سورة الغاشية	
الآيات	الصفحة
١-٢٦	٤٨٥
سورة الفجر	
الآيات	الصفحة
١-٣٠	٤٩١

سورة البلد	
الآيات	الصفحة
١-٢٠	٥٠٢
سورة الشمس	
الآيات	الصفحة
١-١٥	٥٠٧
سورة الليل	
الآيات	الصفحة
١-٢١	٥١١
سورة الضحى	
الآيات	الصفحة
١-١١	٥١٥
سورة الانشراح	
الآيات	الصفحة
١-٨	٥٢١
سورة التين	
الآيات	الصفحة
١-٨	٥٢٣
سورة العلق	
الآيات	الصفحة
١-١٩	٥٢٦
سورة القدر	
الآيات	الصفحة
١-٥	٥٣١
سورة البينة	
الآيات	الصفحة
١-٨	٥٣٧

سورة الزلزلة	
الآيات	**الصفحة**
١-٨	٥٣٩
سورة العاديات	
الآيات	**الصفحة**
١-١١	٥٤٢
سورة القارعة	
الآيات	**الصفحة**
١-١١	٥٤٦
سورة التكاثر	
الآيات	**الصفحة**
١-٨	٥٤٨
سورة العصر	
الآيات	**الصفحة**
١-٣	٥٥٣
سورة الهمزة	
الآيات	**الصفحة**
١-٩	٥٥٥
سورة الفيل	
الآيات	**الصفحة**
١-٥	٥٥٨
سورة قريش	
الآيات	**الصفحة**
١-٤	٥٦٤
سورة الماعون	
الآيات	**الصفحة**
١-٧	٥٦٧

سورة الكوثر	
الآيات	الصفحة
١-٣	٥٦٩
سورة الكافرون	
الآيات	الصفحة
١-٦	٥٧١
سورة النصر	
الآيات	الصفحة
١-٣	٥٧٤
سورة المسد	
الآيات	الصفحة
١-٥	٥٧٦
سورة الإخلاص	
الآيات	الصفحة
١-٤	٥٧٩
سورة الفلق	
الآيات	الصفحة
١-٥	٥٨٤
سورة الناس	
الآيات	الصفحة
١-٦	٥٨٩